صلاح الأمة

في

علو الهمة

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم | الشيخ عائض القرني

الشيخ محمد عبد المقصود | الشيخ أبو إسحاق الحويني

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

□ فهرس المجلد الأول □

الموضوع	الصفحة
مقدِّمة بقلم فضيلة الشيخ محمد صفوت نور الدين	أ
مقدِّمة بقلم فضيلة الشيخ محمد إسماعيل المقدّم	و
مقدِّمة بقلم فضيلة الشيخ عائض القرني	ح
مقدِّمة بقلم الدكتور / محمد عبد المقصود	ي
مقدِّمة بقلم فضيلة الشيخ أبي إسحاق الحويني	م
مقدمة	٣
أنا البحر في أحشائه الدر كامن	٩
الهمّة لغةً	١١
﴿ والسابقون السابقون أولئك المقرّبون ﴾	١٣
للإنسان قوتان : همة تُرقّيه ، وعلم يُبَصره ويهديه	١٦
درجات الهمّة	٢٠
التحف من كلام السلف في الحثّ على الهمّة	٢٢-٤٢
المستقبل كل المستقبل للإسلام ﴿وإنَّ جندَنا لَهم الغالبون﴾	٤٢-٤٤
طِرْ بهمتك .. ما ارتفع صوت الحادي لرفقة أولي صَمَم	٤٤
الفصل الأول : علوّ الهمة في الكتاب والسنة	٤٥-١٠١
علوّ الهمة في القرآن	٤٧
علو الهمة في السنة	٨٦
أ - أحاديث الأعمال التي توجب محبّة الله للعبد	٩١
ب - من يُعطون أجورَهم مرتيْن	٩١
جـ - الأعمال التي تُوجب صلاة الله وملائكته على فاعلها	٩٢
د - الأعمال التي يضحك الله من عبده إذا فعلها	٩٢

هـ - ومنها الأعمال التي يجري أجرها لصاحبها بعد موته ٩٢
و - الأعمال التي شهد لها رسول الله ﷺ بالخيرية وتفاضُل الناس فيها ٩٣
ز - أعمال تقرّب من رسول الله ﷺ في الجنة ٩٦
ح - أعمال مَن فعلها حُرّمتْ عليه النار ٩٦
ط - أعمال تظلّ العبد في ظلّ الله يوم لا ظِلّ إلّا ظلّه ٩٧
ى - الحرص على أعمالٍ عظيم أجرها ٩٩
ك - أعمالٌ مَن فعلها بُني له بيتٌ في الجنة ١٠٠
الفصل الثاني : علوّ الهمة في الإخلاص ١٠٣-١٣٧
حفظ القلب من الخيانة والحقد بالإخلاص ١٠٧
خفظُ الأُمة ونصرها بإخلاص رجالها ١٠٧
الإخلاص في الصلاة : أمثلة وحكايات عطرة من حياة سلفنا ١١٠
صدَقة السِّر ١١٣
لزين العابدين القَدحُ المعلَّى ١١٣
وابن المبارك على طريق زين العابدين ١١٤
الصوم ١١٤
داود بن أبي هند : يصوم أربعين سنة لا تعلم به زوجه ١١٥
وعمرو الملائي : يصوم عشرين سنة لا يدري به أحد ١١٥
والكرخي وابن أدهم : أستاذان تربّيا على الإخلاص ١١٥
الذكر وقراءة القرآن ١١٦
الربيع بن خثيم : يغطي المصحف بثوبه ١١٦
وإمام أهل السنة : يختم القرآن مرات ولا يشعر به جلساؤه ١١٦
البكاء ١١٧

البكاء على عشرة أجزاء: تسعة لغير الله ، وواحد لله ١١٧
أحياك الله كما أحييتني ... يقولها **الثوري** للفضيل ١١٧
سيد شباب أهل البصرة السختياني : إمام في الإخلاص ١١٧
وابن سيرين يضحك بالنهار ويبكي عامَّة الليل ١١٧
في زماننا يسكن الشيطان في أعيننا ويُبكينا ١١٨
الرجل يبكي في فراشه حتى تبتلّ مخدّته، وزوجه معه ولا تعرف ١١٨
يا بكَّاء ، شرّ أيامكم يوم نُسبتم إلى البكاء ١١٩
بالبكاء والخشية سرًّا فضُل **ابن المبارك** على أقرانه ١٢٠
شيخ الإسلام الطوسي يبكي ويغلق بابه ، ما تعلم زوجه حتى يحاكي صبيُّها أباه ١٢٠
الإخلاص في الدعاء ١٢٠
الله بيننا وبين ابن المنكدر ، أخرج عنا الرجل الصالح ١٢١
الإخلاص في العلم ١٢١
الشافعيّ يتمنّى أن يتعلم الناس علمه ، ولا يُنسب إليه حرْف منه ١٢١
السلف طلبوا العلم لله فنبلوا ١٢١
الماوردي وحكايته العجيبة في إخلاصه في مصنفاته ١٢٢
الإخلاص في الزهد ١٢٢
السختياني يعلّمك هذا الباب ١٢٢
والرباني هارون بن رئاب ١٢٣
الإخلاص في الجهاد ١٢٣
« **لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل** » ١٢٣
والبراء لو أقسم على الله لأبرَّه ١٢٣
العلاء بن الحضرمي: يخوض البحر بجيش المسلمين، فما ابتلّ لهم سرْج ١٢٤
وابن المبارك : يقول لصاحبه – لمّا كشف سرَّه – : وأنت ممن يُشنّع علينا ١٢٥

قضاء حوائج المسلمين ١٢٥
ثكلتك أمُّك ياطلحة ! أعوراتُ عمر تُتَّبع ؟! ١٢٥
أصحاب السرائر والخوف من الشهرة ١٢٦
إبراهيم بن أدهم: يحرس البستان ولا يعرف صاحب البستان اسمه، ولا يأكل من البستان شيئًا ١٢٦
إبراهيم النخعي: إن زمانًا أكون فيه فقيه الكوفة لزمانُ سوء ١٢٦
محمد بن يوسف الأصبهاني، عروس العباد: لا يشتري خبزه من خباز واحد حتى لا يُحابُوه ١٢٨
ابن محيريز: لا يشتري ممّن يعرفه ، ويقول: لسنا نشتري بديننا ١٢٨
والإمام الثوري: يخاف أن يكون الله ضيعّ الأُمَّة بالحاجة إلى الثوري !! ١٢٩
البصري: يقول لطاووس: إنْ كانت نفسك تعجبك فقُمْ ١٣٠
وابن أدهم: ينصح بشر بن الحارث الحافي ١٣٠
بشر بن الحارث:القائل: الأَوْلى بأمثالنا الكتمان ١٣٠
وابن عيينة يعرف الداء: افتضحوا فاصطلحوا ١٣٢
هضْم الصالحين لأنفسهم ١٣٢
علو همتهم في الإخلاص بالتجافي عن مجالس الحكام والسلاطين ١٣٥
الطائي: يخاف على الداخل على السلاطين العجْب ١٣٥
محمد بن واسع ومالك بن دينار: إنما مالك حمار ١٣٥
إنما يعبد الله مثلُ محمد بن واسع !! ١٣٥
خاتمة: موقفان لجبلَيْن من شيوخ الإسلام وعلو همتهما في الإخلاص ١٣٦
الثوري: وكرامة جليلة ثابتة ١٣٦
أبو عثمان الحيري: بمثل إخلاصه يُعظِّم مشايخُ الوقت !! ١٣٧
الفصل الثالث : علوُّ الهمة في طلب العلم ونشره ١٣٩-٦٢٠
علو الهمة في طلب العلم ونشره ١٤١

فضل العلم وشرفه، وعموم الحاجة إليه، وتوقُّف كمال العبد عليه ١٤٤
لا يُنال العلم إلّا بهجْر اللذات وتطليق الراحة ١٥٨
صفحات نورانية في علو الهمة في طلب العلم ونشره ١٥٩
رحلة **كليم الله موسى** وفتاه لطلب العلم على يد الخضر ١٥٩
حرص **الفاروق عُمر** على تحصيل العلم ١٦١
معاذ بن جبل مقدام العلماء لا يتمنى البقاء إلا لمزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حلق العلم ١٦٢
صاحب السواك والنعلين: عبد الله بن مسعود: لو يعلم أحدًا أعلم بكتاب الله منه تبلغه الإبل لَركِبَ إليه ١٦٥
أبو ذرّ الغفاري: وعلوّ همّته في طلب العلم وتبليغه ١٦٦-١٦٨
حكيم الأمّة أبو الدرداء: لو أُنسيتُ آية لم أجد أحدًا يذكّرنيها إلّا رجلًا ببَرْك الغماد، رحلتُ إليه ١٦٨
أمير المؤمنين في الحديث أبو هريرة : أحرص الأمة على سماع الحديث ١٦٨
حَبْر الأمة وتُرجمان القرآن ابن عباس : يَقيل على باب معلّمه، وتسفي عليه الريح ١٧٠-١٧٢
من رحَلَ من الصحابة في طلب حديث واحد ١٧٣
جابر بن عبد الله الأنصاري ورحلته إلى عبد الله بن أُنيس ١٧٣
أبو أيوب الأنصاري ورحلته إلى عُقبة بن عامر بمصر ١٧٣
سيد التابعين سعيد بن المسيّب: يسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد ١٧٤
عروة بن الزبير: وعلو همته في طلب الحديث ١٧٤
سعيد بن جُبير: يرحل في تفسير آية من الكوفة إلى المدينة ١٧٥
أبو عثمان النهدي: يحجّ ليلقى أبا هريرة ويسأله عن حديث ١٧٦
الضحَّاك بن مُزاحم: يُعلّم في مكتبه ثلاثة آلاف صبيٍّ القرآن ... ١٧٦

ابن عباس يضع الكبل في رجل عِكرمة ليتعلم القرآن والسنن ١٧٧
عطاء بن أبي رباح: أعلم الناس بالمناسك، كان المسجد فراشه عشرين سنة !! ١٧٧
عبد الله بن فيروز: ورحلته إلى ابن عمرو من فلسطين إلى الطائف، من أجل حديث واحد ١٧٨
علو همة الشعبي في طلب العلم: نفي الاعتماد، والسير في البلاد وصبر كصبر الحمار، وبكور كبكور الغراب ١٧٩
علقمة، والأسود بن يزيد النخعي: يرحلان من الكوفة إلى ابن عمر بالمدينة من أجل حديث واحد ١٨١
مسروق بن الأجدع يرحل في حرْف ١٨١
أبو العالية: وعلو همته في سماع الحديث ١٨٢
الحسن البصري ورحلته إلى كعب بن عجرة ١٨٢
مغيرة الضبي: يذاكر إخوانه الفقه إلى الفَجْر ١٨٢
القاضي التابعي ابن شُبْرمة: يذاكر إخوانه إلى الفجر ١٨٢
الإمام مكحول: يطوف الأرض في طلب العلم ١٨٣
الإمام الزهري ١٨٣
يحفظ القرآن كلّه في ثمانين ليلة !! ١٨٤
يلازم ابن المسيب ثماني سنين ١٨٤
يذاكر الحديث إلى الفجر ١٨٤
يوقظ جاريته من النوم، ويقول لها: حدثني فلان بكذا ١٨٥
أبو قلابة الجرمي: يمكث بالمدينة ثلاثًا لطلب حديث من رجل ١٨٨
أبو معشر الكوفي: يرحل ثلاثمائة وخمسين كيلو مترًا من أجل حديث واحد ١٨٨
شعبة بن الحجّاج: يبيع طَسْت أمه ويُفلس في طلب الحديث ١٨٨

شعبة أمير المؤمنين في الحديث: ثيابه كلون التراب لانشغاله بالحديث ١٨٨
شعبة أمَّةٌ وحده في الحديث: يبيع جزوع بيته طلبًا للحديث ١٨٩
قصته مع حديث فيه شهر ورحلته الطويلة: دمّر على هذا الحديث ١٩٠
لو صحّ لي هذا الحديث، كان أحبَّ إليَّ من الدنيا كلّها ١٩٠
سفيان الثوري: يجوع في طلب الحديث ولا يجد ما يأكله ثلاثة أيام ١٩٠
شيوخ سفيان ستمائة ، والرواة عنه ألف ١٩٢
الثوري يملي كتاب الديّات من حفظه ١٩٣
الإمام أبو حنيفة: يصحب حماد بن أبي سليمان ثماني عشرة سنة ١٩٣-١٩٤
إمام دار الهجرة: مالك بن أنس: باع سقف بيته طلبًا للعلم ١٩٤-١٩٧
شيخ الإسلام المقري: يُقرىء الناس سبعين سنة !! ١٩٧
ابن فروخ القيرواني: تسقط عليه جَرّة من دار أبي حنيفة، فيرضونه بثلاثمائة حديث بدلًا من الأرش ١٩٧-١٩٨
ابن القاسم وعلو همته العجيبة في طلب العلم ١٩٨
يتوسّد عَتَبة مالك سبع عشرة سنة، ويترك زوجه وهي حامل، فيرحل إليه ابنه بعد سبع عشر سنة حتى يراه ؟!! ١٩٨
حافظ دمشق هشام بن عمار: يُضرب سبعَ عشرة درّة، لسماع سبعة عشر حديثًا من مالك ١٩٩
فقيه المالكية ابن سحنون: تطعمه جاريته الطعام وهو لا يدري؛ لانهماكه بالمذاكرة ٢٠٠
قتادة: يشغله تحصيل العلم، حتى يسأل خادمه عن نعْله وهو في رجْله ٢٠١
القاضي شريك: يضرب اللَّبِن ويبيعه طلبًا للعلم ٢٠١
إمام العربية الخليل بن أحمد: يجوع في طلب العلم ولا يقدر على فِلْسَين ٢٠٢
علي بن عاصم مُسنِد العراق: يعطيه أبوه مائة ألف درهم، ويقول له: اذهب، فلا أرى لك وجهًا إلّا بمائة ألف حديث ٢٠٣

حكايته مع منصور وحصين بن عبد الرحمن ٢٠٣

هُشيم: وعلو همته في طلب الحديث ٢٠٤

شيخ الإسلام ابن المبارك: يحمل عن أربعة آلاف شيخ ٢٠٤

إسماعيل بن عيّاش: يقطع صلاة التهجد لكتابة الحديث الذي يذكره في صلاته ٢٠٦

إمام النحو والحديث النضر بن شميل: يُرقّع ثيابه ولا يجد كيلجة باقلي ، لانشغاله بالعلم ٢٠٧

تمنّي المأمون مجلس أصحاب الخِلقانِ والمحابر ٢٠٩

الواقدي صاحب المغازي: يحمل كتبه على عشرين ومائة وقْر ٢١٠

زياد البكّائي : يبيع داره ويخرج يدور مع ابن إسحاق ليسمع منه كتاب المغازي ٢١٠

الحافظ العكلي: يجول في طلب الحديث ويجوع، ويحدث تلامذته والباب بينهم وبينه حاجزٌ ... لم يكن له ثوب يخرج فيه ٢١١

فرسان هذا الدين رجال الأسانيد ومنهم العكلي ٢١٢

الشاذكوني: يعود إلى الكوفة من البصرة من أجل حديث واحد ٢١٢

الحافظ صالح جزرة: يقدم خراسان من أجل حديث واحد ٢١٣

شيخ الإسلام أبو نعيم الفضل بن دكين : يرفس يحيى بن معين فيقول يحيى: لَرَفْسته أحبُّ إليّ من سفرتي ٢١٤

أبو نعيم لا يجد ما يأكله هو وأهل بيته لانشغاله بالعلم ٢١٥

القاضي أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة ٢١٦

يموت ابنه فيترك جهازه ودفنه لأهله، ويحضر درس أبي حنيفة !! ٢١٧

محمد بن الحسن الشيباني ٢١٧

لا ينام إلّا القليل ويقول: نامت عيون المسلمين تعويلًا علينا، فإذا نمنا ففيه تضييع للدين ٢١٨

الشيباني ينفق ثلاثين ألف درهم على طلب العلم ٢١٨
هشام بن عبيد الله الفقيه الحنفي: يلقى ألفا وسبعمائة شيخ، وينفق في طلب العلم سبعمائة ألف درهم ٢١٩
الحافظ عفّان بن مسلم: يسمع بالغداة ويعرض بالعشي ٢١٩
أسد بن الفرات وقصته مع محمد بن الحسن ٢٢٠-٢٢١
شيخ الإسلام قتيبة بن سعيد: يكتب مائة ألف حديث عن خمسة أناسي ٢٢١-٢٢٣
ناصر السنة الإمام الشافعي وعلو همته في طلب العلم ٢٢٣
يكتب الحديث في الأكتاف والعظام، ويكتب في ظهور الأوراق التي يستوهبها من الديوان ٢٢٣
يكتب عن محمد بن الحسن وقْر بعير، ويضع إلى جنب كل مسألة حديثًا ردًّا عليه ٢٢٤
يحفظ الموطأ قبل أن يحتلم ٢٢٥
يحفظ أنساب النساء ٢٢٦
إسحاق بن راهويه يتزوّج امرأة؛ لأن عندها كتب الشافعي ٢٢٧
طلبُ الشافعي للعلم طلبُ المرأة المضلّة ولدها وليس لها غيره، ويحرص عليه حرص الجموع المنوع على بلوغ لذّاته في المال ٢٢٨
لا يصلح طلب العلم إلا لمفلس ٢٢٩
الشافعي للربيع: لو أستطيع أن أطعمك العلم لَأطعمتُكه ٢٢٩
قبيصة السوائي: أي شيء لم يكن عنده من الحديث ٢٣٠
قصته مع ابن ملك الجبل ٢٣٠
يحيى بن معين أمير المؤمنين في الحديث ٢٣١
ينفق على الحديث ألف ألف درهم حتى لم يبق له نعل يلبسه ٢٣١
قول أحمد فيه: كل حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث ٢٣١

يكتب بيده ألف ألف حديث ٢٣٢

يكتب الحديث الواحد نيفًا وخمسين مرة ٢٣٣

لو كان عندي فرس ورمح لغزوت سويدًا في هذا الحديث ٢٣٣

الحميدي شيخ البخاري: يجالس ابن عيينة تسْعَ عشرةَ سنة ٢٣٤

شيخ الإسلام خلف بن هشام : ينفق على باب من النحو ثمانين ألف درهم ، حتى حذقه ٢٣٥

الحافظ البيكندي: ينفق في طلب العلم أربعين ألفًا، وينفق في نشره أربعين ألفًا، ويحضر مجلسه من الجن أكثر من الإنس، ياللعجب ٢٣٦

الإمام وكيع بن الجراح: أعلى الناس همة في طلب العلم ٢٣٦

وكيع يذاكر بشر بن السري من العشاء إلى الصبح ٢٣٧

الإمام عبد الرحمن بن مهدي وعلو همّته في طلب الحديث ٢٣٨

يُقال له: يُغفَر لك ذنب، أو تحفظ حديثًا ؟ قال: أحفظ حديثًا !! ٢٣٩

الإمام الأسد: يحيى بن سعيد القطّان وعلو همته ٢٤٠

قال عنه الثوري لابن مهدي : قلتُ لك : جئني بإنسان أذاكره ، جئتني بشيطان. يعني بهَرَهُ حفْظُه ٢٤٠

شيخ الإسلام يزيد بن هارون ٢٤١

ألِمثلي يُقال هذا ؟ وأنا كنتُ أعلم الناس بهذا في دار الدنيا ؟ ٢٤٢

معلم الخير إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ٢٤٣

مع المحبرة إلى المقبرة ٢٤٤

قد طلع الكوكب ٢٤٥

طاف الدنيا مرتين حتى جمع المسند ٢٤٦

ينوي السماع من عبد الرزاق بصنعاء فيلقاه بالحج، فلا يسمع منه إلَّا باليمن حتى لا يغير نيّته ٢٤٦

أكرىٰ نفسه من بعض الجمالين إلى صنعاء حتى يسمع من عبد

الرزاق، ما ضرّهم ما أصابهم ٢٤٧
إن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد ، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك أنا بالكلام ٢٤٩
لم يتزوج إلّا بعد الأربعين شغلًا بالعلم ٢٤٩
يجوع في طلب الحديث ثلاثة أيام حتى سها في الصلاة ٢٥١
سيد الحفاظ إسحاق بن راهويه وعلو همته ٢٥١
لكأني أنظر إلى مائة ألف حديث في كتبي، وثلاثين ألفًا أسردها ٢٥٢
يملي التفسير عن ظهر قلبه، فيا للعجب !! ٢٥٢
يحفظ أربعة آلاف حديث مزورة ٢٥٣
الإمام أبو عُبيد: القاسم بن سلام ٢٥٣
يصنّف كتاب « الأموال » في أربعين سنة ٢٥٤
يصنّف الكتب ثُلُثَ الليل ٢٥٥
لن تضيع الدنيا ما حَيي هذا ... أبو عبيد أستاذ ٢٥٦
أمير المؤمنين في الحديث عليّ بن المديني فيلسوف العلل وطبيبها، ولسان أهل الحديث وخطيبهم ٢٥٧
لله درّها من أم ... أم علي بن المديني ٢٥٨
يحجّ حَجَّة وليس له همة إلّا أن يسمع ٢٥٨
الإمام الذهلي « الزهري » مع كتبه والسراج وقت القيلولة في الصيف !! لله ما أعلى همته !! ٢٥٩
ينفق على العلم مائة وخمسين ألفًا ٢٦٠
قول الدارقطني: مَن أحبَّ أن ينظر ويعرف قصور علْمه عن علْم السلف، فلينظرْ في « علل حديث الزهري » لمحمد بن يحيى ٢٦٠
الإمام عبد الملك بنِ حبيب : يسأل تلميذه : أَوَ قد انسلخ الليل ؟ ٢٦١
الحافظ إسحاق بن منصور الكوسج : وعلو همته ، وحكايته العجيبة

في حرصه على العلم، وإعجاب ابن حنبل به ٢٦١
يعقوب بن شيبة: هذه همّة أهل البدع، فكيف بأهل السنة ؟! ٢٦٢
راوية الإسلام بندار: يُطعم الناس الرطب، ويحدثهم وهو ابن ثمان عشرة سنة ٢٦٣
الزبير بن بكّار ٢٦٤
تقول زوجه عن كتبه: والله هذه الكتب أشدّ عليّ من ثلاث ضرائر ٢٦٤
أمير المؤمنين في الحديث: البخاري ٢٦٤
مسلم بن الحجّاج يأتي البخاري ويقبّل يده، ويقول: دعني حتى أقبّل رجليْك يا أستاذ الأستاذِين، وسيّد المحدثين، وطبيب الحديث في علله ٢٦٥
يصنف التاريخ الكبير وهو ابن ثمان عشرة ٢٦٦
يصنف جميع كتبه ثلاث مرات ٢٦٧
يقوم في الليل من نومه خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة يوقد السِّراج، ويخرج أحاديث تذكَّرها في نومه ! ٢٦٨
يجتمع في مجلس درسه أكثر من عشرين ألفًا ٢٦٩
التُّجَّار في تجاراتهم وأنت مع النبي ﷺ وأصحابه ٢٦٩
يتناول الحشيش شُغلًا بطلب العلم وفقرًا ٢٦٩
لو قيل لي : تمنَّ ؛ لَمَا قمتُ حتى أروي عشرة آلاف حديث في الصلاة خاصة ٢٧٠
العجَبُ من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقاه عليه علماء بغداد ٢٧١
يكتب عن ألف شيخ عن كل واحد منهم أكثر من عشرة آلاف ٢٧٣
يصنِّف كتاب الاعتصام في ليلة ٢٧٣
المزني تلميذ الشافعي ٢٧٤
كانت البِكْر بمصر يكون في جهازها نسخة من مختصر المزني ٢٧٤
مختصر المزني يؤلفه المزني في عشرين سنة ٢٧٥
المزني لو ناظر الشيطان لقطعه ٢٧٥

بكّار بن قتيبة قاضي مصر: يحدّث أصحاب الحديث من طاقة السجن ٢٧٦
الأثرم وحفظه العجيب: الذي قال فيه ابن معين: كان أحد أبوَي الأثرم جِنِّيًّا ٢٧٦
يكتب ستمائة ورقة من كتاب الصلاة ما ليس في كتب أبي بكر بن أبي شيبة ٢٧٧
الجرجاني: يكتب في الليلة تسعين ورقة ٢٧٧
سيد الحفاظ أبو زرعة الرازي ٢٧٧
كل حديث لا يعرفه أبو زرعة فليس له أصل ٢٧٨
يحفظ مائة ألف حديث ، وفي القراءات عشرة آلاف حديث ٢٧٩
علو همته في الرحلة في طلب الحديث ٢٨٠
مع الإسناد والحديث حتى خروج الروح ٢٨١
شيخ الحفّاظ أبو حاتم الرازي ٢٨٢
يأكل ويقرأ، ويمشي ويقرأ، ويدخل الخلاء ويقرأ الرقّام عليه ٢٨٢
مَن يغرب عنه حديثًا صحيحًا لم يسمع به ، فله عليه درهم يتصدّق به، فلا يجيبه أحد ٢٨٣
علو همته ومشيه وجوعه في طلب الحديث !! ٢٨٣
الحافظ ابن أبي حاتم الرازي ٢٨٥
تمْكُث عنده سمكةٌ اشتهاها ثلاثة أيام، فتغيّرت رائحتها، فأكلها نيّئة ، لم يكن عنده وقت لطهيها ٢٨٦
شيخ الإسلام إبراهيم الحربي ٢٨٦
ما فقدوه في مجلس علم خمسين سنة ٢٨٧
يُفني ثلاثين من عمره برغيفين، وثلاثين سنة برغيف، وبعد ذلك

نصف رغيف، حتى قبضه الله إليه ٢٨٨
يقول: ما تروَّحتُ ولا رُوِّحتُ قطُّ ٢٨٩
الهيثم بن جميل: يفلس في طلب الحديث مرتين ٢٩٠-٢٩١
الحافظ محمد بن سنجر: كان إسحاق الكوسج يكتب له الحديث ويتزوّج في كل بلد، ومحمد بن سنجر يؤدّي عنه المَهْر ٢٩١
ابن رستم أبو جعفر المديني ٢٩١
الحافظ حجّاج بن الشاعر: يقيم مائة يوم بباب شبابة، طعامه كل يوم رغيف يغمسه في دِجلة ٢٩٢
الحافظ يعقوب الفسوي: يرحل في طلب الحديث ثلاثين سنة، ويعمى، ثم يعود إليه بصره ، وقصتّه تُعلي الهمم ٢٩٣
ابن الضريس صاحب فضائل القرآن: يصيح ويلطم لمّا فاته السماع من أبي بكر الإسماعيلي بموته ٢٩٤
ابن أبي عاصم النبيل وعلو همته في طلب الحديث ٢٩٥
يخرج من الكوفة إلى مكة، فيأكل أكلة بالكوفة والثانية بمكة ٢٩٥
ورعٌ يورث العلم ٢٩٥
الدارمي عالي الهمة: يُبيّن لنا المفلس في الحديث ٢٩٦
أبو قلابة عبد الملك الرقاشي، محدِّث البصرة: يحدث مِن حِفْظه بستّين ألف حديث ٢٩٧
أبو بكر المروذي: أول أصحاب أحمد بن حنبل وأورعهم ٢٩٨
أبو داود صاحب السنن: من فرسان الحديث ٢٩٩
أبو بكر بن أبي رواد: يعيش على ثلاثين مُدِّ باقلًا حتى يكتب ثلاثين ألف حديث، وهو على باب أبي سعيد الأشجّ بالكوفة ٣٠١
ابن أبي الخناجر مُسنِد طرابلس: المُلْكُ ملكه ٣٠٢
الإمام الترمذي صاحب الجامع وعلو همته ٣٠٢

شيخ الإسلام بقي بن مَخْلد، « **المكنسة** » ٣٠٣
لم يؤلّف في الإسلام مثل تفسيره، ومسنده عجيب غريب ٣٠٤
يأتي إلى الإمام أحمد في زِيّ السُّؤَّال « الشحاذين » لطلب الحديث، فللّـه ما أعلى همته وأروعها وأجلها !! ٣٠٥-٣٠٧
يرحل أربعة وثلاثين عامًا من الأندلس ماشيًا لطلب الحديث، تمضي عليه الأيام ليس له عيش إلا ورق الكرنب المْرمي ٣٠٧-٣٠٨
داود الظاهري: يكتب ثمانية عشر ألف ورقة ويعيش على الهندباء وعصارة فيها نخالة ٣٠٨
حكايته مع أبي يعقوب الشريطي الزاهد ٣١٠
الإمام موسى بن إسحاق: يسمع من أبي كُريب ثلاثمائة ألف حديث، ويُقرىء الناس القرآن وله ثماني عشرة سنة ٣١١
ثعلب إمام النحو : يسمع من القواريري مائة ألف حديث ٣١١
الفريابي الحافظ: كان في مجلسه خمسة عشر ألف محبرة، وثلاثون ألف نفس، والمستملون ثلاثمائة وست عشرة نفسًا ٣١٢
شيخ الشافعية أبـو جعفر الترمذي، محمد بن أحمد: يصبر على طلب العلم، وهمته عالية ٣١٣
الإمام النسائي وعلو كعبه وهمته في العلم ٣١٣
حكايته مع الحارث بن مسكين ٣١٤
الإمام مسلم بن الحجّاج: أيُّ رجل يكون هذا ؟! ٣١٥
يكتب صحيحه في خمس عشرة سنة، وينتقيه من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة ٣١٥
الطحاوي: علو همته في طلب العلم ٣١٦
ملازمته للفقيه الحنفي ابن أبي عمران مدة عشرين سنة ٣١٦
مؤلفات الطحاوي ٣٢٠

الناس عيال على الطحاوي في مشكل الآثار ٣٢١

الحافظ ابن عدي : طاف البلاد ، وهجر الوساد ، وواصل السهاد طلبًا للعلم ٣٢١

زاد شيوخه على ألف شيخ ٣٢٢

الإمام أبو بكر بن الأنباري: ذرّيّته وأولاده ثلاثون مؤلَّفًا ٣٢٢

أوراق مؤلفاته أكثر من خمسين ألف ورقة، فللّه دَرُّه ! ٣٢٢

يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهدة في القرآن ٣٢٣

حفِظَ ما لا يحفظ أحدٌ قبله ولا بعده ٣٢٣

حكايته مع الجارية التي اشتراها، وكيف أن العلم في قلبه أحلى من الرطب والجواري ٣٢٤

الإمام الحافظ الحسن بن سفيان النسوي ٣٢٤

ارتحاله إلى الآفاق، وتجشُّمه المشاقّ طلبًا للعلم ٣٢٥

محمد بن نصر المروزي: وعلو همته في طلبه العلم، عجب عجاب !! ٣٢٦

ابن نصر أعلم الأُمَّة باختلاف العلماء على الإطلاق ٣٢٧

الإمام محمد بن جرير الطبري: يمكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة ٣٢٨

إنّا لله ، ماتت الهمم !! ٣٣٠

إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة: يحفظ الفقهيات من حديثه كحفظ القارىء السورة ٣٣٤

ابن خزيمة يستخرج النكت من حديث رسول الله ﷺ بالمنقاش ٣٣٦

محمد بن هارون الروياني ٣٣٦

« إنَّ المحاميد جياع » قصة في علو الهمة، تُكتب بماء الذهب ٣٣٦

الباغندي: يسرد الحديث من حفظه، ويهذُّه مثل تلاوة القرآن حتى تسقط عمامته ٣٣٧

يرى الرسول في المنام، فيسأله مسألة في الجرح والتعديل، ويصلي فيقول: حدثنا وأخبرنا ٣٣٨
الإمام محمد بن إسحاق محدث خراسان ٣٣٨
صاحب الحديث لا يصبر ٣٣٨
أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن القصري له أربعون سنة ما جفَّ له قلم من كثرة ما ينسخ بالليل والنهار ٣٣٩
أبو بكر محمد بن جعفر بن رميس القصري:ينفق ثلاثة آلاف دينار على الحديث ٣٣٩
محمد بن إبراهيم بن عبدوس القيرواني:ثلاثون سنة يصلِّي الصبح بوضوء العَتمة دراسة وعبادة ٣٣٩
أبو زكريا يحيى بن عامر: من كبار أصحاب سحنون ٣٣٩
ينفق في طلب العلم ستة آلاف دينار ٣٤٠
الإمام الكبير عبدان بن محمد: يبيع ضيعته ويخرج إلى مصر طلبًا لكتب الشافعي ٣٤٠
الحافظ الفضل بن محمد بن محمد الشعراني ٣٤٠
تفرّد برواية كتب لم يروها أحد بعده ، وارتحل إلى مدن الدنيا كلها طلبًا للحديث إلّا الأندلس ٣٤١
الحافظ الإمام الأرغياني: يمشي وفي كُمِّه مائة جزء، في كل جزء ألف حديث ٣٤١
أبو بكر محمد بن عبد الرحيم الأصبهاني: ينفق على ختْم القرآن- ثمانين مرة – ثمانين ألف درهم ٣٤٢
الحافظ العقيلي: من أحفظ الناس ٣٤٢
الأصمُّ الإمام أبو العباس السناني المعقلي :حدّث في الإسلام ستًّا وسبعين سنة، فما أصبره !! ٣٤٣

يخرج لِيؤذّن، فيقول بصوت عالٍ: أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي ٣٤٣
الإمام أبو الحسن علي بن إبراهيم القزويني: حين رحل كان يحفظ
مائة ألف حديث ٣٤٤
الختلي: يحفظ خمسين ألف حديث ٣٤٤
ابن زياد النيسابوري: أحفظُ الناس للفقهيات ٣٤٥
أقام أربعين سنة لم ينم الليل، وبعد زواجه يقول: أيش أقول لمن زوّجني ٣٤٥
الكجّي: يحضر مجلسه نيّف وأربعون ألف محبرة سوى النظارة ٣٤٦
ويزيد بن هارون يحضر مجلسه سبعون ألفًا ٣٤٦
محمد بن رافع النيسابوري: سمع ما لا يوصف كثرةً وجمع وصنّف ٣٤٧
ربما خرج إلى تلامذته في الشتاء وقد لبس لحافه ٣٤٧
ابن الأخرم ٣٤٧
يأتيه السلمي للقراءة عليه سَحَرًا ، فيجد ثلاثين قارئًا قد سبقوه،
فلم تدركه النوبة إلى العصر ٣٤٨
محدّث الشام خيثمة الأطرابلسي ٣٤٨
اكتب حمار بن حمار ... ما ضرهم ما أصابهم ٣٤٨
ابن الكوفي: ينفق خمسين ألف دينار على طلب العلم واستنساخ الكتب ٣٤٩
العسّال: يحفظ في تفسير القرآن خمسين ألف حديث !! ٣٤٩
الطبراني: ارتحل في طلب العلم ستة عشر عامًا ٣٥٠
وأقام ينشر العلم ستين سنة ٣٥٠
سئل عن كثرة حديثه فقال: كنتُ أنام علىْ البواري ثلاثين سنة ٣٥١
المعجم الأوسط روح الطبراني ٣٥١
لذّة العلم لا تعدلها لذة «اسمع مني حتى يعلو إسنادك» ٣٥١
المزكّي: وعلو همته في طلب الحديث والإملاء ٣٥٢
غندر الإمام الحافظ: كتب ما لا يُوصف كثرة ٣٥٢

الإمام الرحَّال ابن حرارة ٣٥٢
روى من حفظه ثلاثين ألف حديث بقزوين والري ٣٥٣
الإمام أبو الشيخ الإمام عبد الله بن محمد بن جعفر: يُصنِّف ستين سنة ٣٥٣
الماسرجسي: مسنده الكبير في نحو وقْر بعير في نحو مائة وخمسين مجلدًا، لم يُصنَّف في الإسلام مسند أكبر منه ٣٥٤
الحافظ ابن المقرىء أبو بكر محمد بن إبراهيم الأصبهاني: يمشي من أجل نسخة مفضل سبعين مرحلة، ولو عُرضت على خباز برغيف لم يقبلها ٣٥٤
الشيخ الإمام القدوة ابن خفيف ٣٥٤
ما كان يشغله شيء إلَّا كتابة العلم .. « ويخبّىء محبرته في جيبه » ٣٥٥
قصته العجيبة عندما اتهموه بالسرقة ، وخوفه من قطع يمينه التي يكتب بها الحديث ٣٥٥-٣٥٦
الحافظ المجود ابن المظفر البغدادي ٣٥٦
عنده عن الباغندي مائة ألف حديث ٣٥٧
الشيخ الصدوق ابن شاهين صاحب التفسير الكبير: يصنف ثلاثمائة مصنف، لله درُّه ٣٥٧
الحافظ ابن حبان ٣٥٧
يكتب صحيحه عن أكثر من ألفي شيخ، كذا فلْتكنْ الهممُ ٣٥٨
الحافظ جعفر بن درستويه الفسوي : يأخذ مكانه في مجلس ابن المديني وقت العصر اليوم لمجلس غدٍ مخافة ألا يلحق من الغد موضعًا يسمع فيه ٣٥٨
شيخ القرّاء أبو الحسن الداراني: يلبس أهل داريا السلاح لأهل دمشق، حتى لا يأخذوه ثم يرضوا بعد ذلك ٣٥٩
الحافظ أبو نصر السجزي ٣٥٩

تعرض عليه امرأة ألف دينار لتتزوّجه وتخدمه ، فيقول : ما أوثر على
طلب العلم شيئًا ٣٦٠
أبو جندل القرطبي وأبو عليٍّ القالي : قصة تكتب بماء الذهب ،
« لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرَا » ٣٦٠-٣٦١
الحافظ الجوزقي : ينفق في طلب الحديث مائة ألف درهم ١٦١
الإمام الدارقطني : أروع الأمثلة في علو الهمة في الحديث ٣٦١
علو همةٍ أعطر من الزهر ، وأضوأ من الشمس .. أعلى من الكلمات ٣٦١-٣٦٣
الإمام أحمد بن منصور بن ثابت : غفر لي بكثرة صلاتي على رسول الله ﷺ ٣٦٤
الحافظ ابن بُكير : أيُّهما أحبُّ إليك ٣٦٤
عالم المغرب ابن أبي زيد « مالك الصغير » ٣٦٤
الإمام الحافظ ابن منده : ٣٦٥
أوسع الحفّاظ رحلة ، رحل وعمره عشرون ، ورجع وعمره خمس
وستون ؛ وأخذ عن ألف وسبعمائة شيخ ٣٦٦
من وصف من الحفّاظ بالإكثار من الشيوخ ٣٦٨
كلام نفيس في علو الهمة بالرحلة في طلب الحديث ٣٦٩
العلوي : ذو الهمة العالية ٣٧١
الحاكم النيسابوري : يسمع من نحو ألْفي شيخ ٣٧١
وبلغت تصانيفه قريبًا من خمسمائة جزء ٣٧٢
حكايته الجميلة مع أبي الفضل الهمذاني وقوله له لمّا عجز عن حفظ
الأسانيد : « اعرفْ نفسَك » ٣٧٢-٣٧٣
ابن الباقلاني: يكتب كل يوم خمسًا وثلاثين ورقةً ويتهجّد بأربعين ركعة ٣٧٣
أبو حامد الإسفراييني : لو رآه الشافعي لفرِح به ٣٧٤
يطالع درسه على زيْت الحرَس ، ويفتي وهو ابن سبع عشرة سنة ٣٧٥
الإمام أبو الطيب الصعلوكي ٣٧٥

إلا أنه الغني، لا يُسأل إلا ويُجيب ٣٧٦
الحافظ أبو عبد الرحمن السلمي: حدّث أكثر من أربعين سنة قراءة وإملاء، وتآليفه ألف جزء ٣٧٦
ابن مردويه صاحب التفسير والتاريخ ٣٧٧
من فرسان الحديث إملاءً وحفْظًا ٣٧٧
الحافظ العبدويي أبو حازم : يكتب بخطّه عشرة آلاف جزء ، كل ألف عن واحد من شيوخه ٣٧٧
الإمام أبو بكر القفّال: ترك صناعة الأقفال،وطلب العلم بعد الثلاثين ويصير إمام الدنيا في الفقه،فما أعلى وأعجب همته ! ٣٧٨
الحافظ أبو بكر الإسفراييني: يحفظ من حديث مالك وشعبة ومسعر والثوري أكثر من عشرين ألف حديث ٣٧٩
أبو نعيم الأصفهاني: أولى الناس بلقب الحافظ ٣٧٩
البرقاني: يقول لصالح: ادعُ الله أن ينزع شهوة الحديث من قلبي؛ فإنَّ حبّه قد غلب عليّ، فليس لي اهتمام إلا به ٣٨٠
الحيري ٣٨١
يقرأ الخطيب عليه صحيح البخاري في ثلاثة مجالس، فلله ما أعلى همتهما ٣٨٢
عبد الله بن حمود الزبيدي: وقصته مع أبي علي القالي، وقوله له: إلى كم تتبعني ؟ ٣٨٢
ابن المكوي : حكاية عن انشغاله بالعلم تكتب بدمع العين ، « ما لي راحة ولا لذة في غير النظر والقراءة » ٣٨٣
شيخ الإسلام محمد بن محمد الطوسي:يفتي سبعين سنة، ويُجزِّئ الليل للتصنيف والقرآن والنوم ٣٨٣
السمّان الحافظ: سمع من نحو أربعة آلاف شيخ، وقال: «مَن لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام » ٣٨٤

الإمام أبو منصور محمد بن الحسين الأيوبي: يُعلق دروسه ويطالعها في القمر ، لضيق يده عن تحصيل دهن السراج ٣٨٥
الوخشي: لله درّه ما أعلى همته ! ٣٨٥
يبقى الأيام بلا كل، فيقعد بقرب خبّاز ليشمَّ رائحة الخبز ويتقوَّى بها ٣٨٦
القاضي أبو علي الهاشمي محمد بن أحمد الحنبلي: صبره على طلب العلم ٣٨٦
الحافظ الحرمي: لا يصبر على الخلّ إلا دوده ... لا يصبر على الحديث إلا أهله ٣٨٧
القاضي عبد الوهاب بن نصر المالكي ٣٨٧
لا إله إلا الله إذا عشنا متنا ٣٨٨
البغوي: مُحيي السنة وعلو همته ٣٨٩
من كتبه ٣٩٠
أبو الغنائم محمد بن علي الدجاجي ٣٩١
« تفضحني مع أصحاب الحديث ؟! الموت أهون من ذلك » ٣٩١-٣٩٢
البريلي وعبد الحق بن محمد بن هارون السهمي الثقلي : « من أراد أن يكون فقيهًا من ليلةٍ فعليه بكتاب البريلي » ٣٩٢
ابن حزم ٣٩٢
ما أعلى همته، يبدأ في تعلُّم الفقه وهو ابن ست وعشرين، فما يموت حتى يكتب المحلّى الذي يحتاج إليه المجتهد المطلق ٢٩٤
مناي من الدنيا علوم أبثها ٣٩٥
أبو مروان الطبني: هذي المفاخر لا قعبان من لبنٍ ٣٩٦
شيخ الشافعية الإمام أبو إسحاق الشيرازي ٣٩٦
أمير المؤمنين في الفقه، سمّاه الرسول ﷺ بالشيخ منامًا ٣٩٧

المقرىء أبو القاسم الهذلي : ما رحل أحد في القراءات رحلته ، يرحل من أقصى المغرب إلى بلاد الترك ٣٩٩
الإمام الخياط : يُقرىء سبعين ألفًا من العميان القرآن ، إنّ ذا لعجيب !! ٤٠٠
الرواسي أبو الفتيان ٤٠٠
دارَ الدنيا لطلب الحديث، وسمع ثلاثة آلاف وستمائة شيخ، وسقطت أصابعه في الرحلة من البرد ٤٠١
صارت الغربة له وطنًا، كأن رحلته للبيْن رحلته إلى الأوطان ٤٠٢
كلام طيِّب للرامهرمزي ٤٠٣
الغزالي : حجة الإسلام ... بحر مُغرق ٤٠٣
أين مثله في علومه وفضائله ... قصته مع العيّارين ٤٠٤-٤٠٥
الحافظ محمد بن طاهر المقدسي: ما ركب دابة قطُّ في طلب الحديث ٤٠٥-٤٠٦
يبول الدم في طلب الحديث مرتين.. ما أعظم حرصكم ياأهل الحديث ٤٠٦-٤٠٧
الإمام الفقيه ابن فُطيمة: قطعتْ إصبعه، فكان يترك الورق تحت رجليه، ويمسك القلم بكفَّيْه .. لمثل هذه الهمة تبكي العين ٤٠٨
أبو الوقت: ما أشدَّ صبره على القراءة ٤٠٩
الحافظ أبو مروان الباجي: يرحل في البحر لسماع الحديث ٤٠٩
الحافظ أبو الوليد الباجي: آجر نفسه ببغداد لحراسة درب ، فكان يستعين بضوئه على مطالعته ٤١٠
إمام الحرمين الجويني: « ما رأيتُ عاشقًا للعلم مثل إمام الحرمين » ٤١٠-٤١١
الحافظ الحميدي: عالي الهمة في طلب العلم ونشره، ينسخ في الحر، ويجلس في إناء ماء يتبرّد به.. ما أعجب حكايته! ٤١٢
الخطيب التبريزي ٤١٢
عَرَقُ التبريزي دلِيل على علو همته ٤١٣
قاضي المارستان أبو بكر محمد بن عبد الباقي البزار : يتعلم وهو في سجن الروم ، والقيد في عنقه ورجليه ويديه ٤١٣

المفسّر أبو المظفر ابن السمعاني : يقع في الأسر فيخلّصه علمه ، بعد أن كان يرعى جِمال الأعراب .. شدّ ما قاسى ٤١٤
الحافظ اليونارتي والباغباني : كادت مرارة الباغباني تنشقّ حسرة لفوت سماعه من ابن خلف !! ٤١٥
الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني ٤١٥
قصص في علو همته منارة سامية ... سِيروا مع الهمم العالية ٤١٥-٤٢٠
الإمام أبو سعد السمعاني: دوّخ الدنيا في طلب العلم وهو مشتاق ٤٢٠
عدد شيوخه سبعة آلاف شيخ وهذا ما لم يبلغه أحد ٤٢١
رحلاته الثلاث : مُدّتها عشرون سنة ٤٢٢
أيّ شوق للعلم كان في قلب هذا الحافظ !! ٤٢٤
الحافظ محمد بن عبد الواحد الأصبهاني ٤٢٥
يكتب في أصبهان عن أكثر من ألف ، والذين في الرحلة أكثر من ألف أخرى ٤٢٥
الإمام السلفي : إمام الدنيا في علو الهمة ٤٢٥
«لي ستون سنة ما رأيتُ منارة الإسكندرية إلا من هذه الطاقة!!» ٤٢٧
لا أعلم أحدًا في الدنيا حدّث نيّفًا وثمانين سنة سواه ٤٢٨
قصيدة للسلفي ٤٣٠
أبو العلاء الهمذاني ٤٣٨
ينفق جميع ما ورثه طلبًا للعلم، نصف نهاره للحديث ونصفه للقرآن والعلم ٤٣٩
الفقيه الشافعي أبو الحسن علي بن أحمد بن محمويه ٤٤٠
قوم إذا غسلوا ثياب جَمالهم ... لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل ٤٤٠
الإمام الزبيدي اليمني ٤٤٠
لا يجد شيئًا ؛ فيَلُوك نواة يتعلّل بها ٤٤١

الفيروز آبادي: لا ينام حتى يحفظ مائتي سطرٍ ٤٤١
الإمام أبو الفتح ابن برهان: ضرب المثل باسمه في المواظبة على العلم ٤٤٢
ابن الخشاب: لا يخلو كمُّه من كتب العلم، ويبيع داره لشراء الكتب ٤٤٢-٤٤٣
الإمام القدوة ابن الخاضبة: ينسخ صحيح مسلم في سنة سبع مرات ٤٤٣
أبو عبد الله بن عبد الله بن ظفر ٤٤٣
لله كم قاسىٰ هو وأهله في طلب العلم.. بنتُ شيخ تُباع !! ٤٤٤
الكمال الأنباري ٤٤٤
علو همته في التصنيف: له مائة وستون مصنَّفًا ٤٤٥
الإمام الشاطبي: شيخ القراء ناظم الشاطبية ٤٤٥
الإمام الجزولي: إمام النحاة الذي لا يُجارى ٤٤٦
الفقيه المالكي أبو محمد عبد العزيز القروي: ارفقْ بنفسك واغسل كساءك ٤٤٧
الإمام أبي علي الفارسي الحسن بن أحمد الفسوي: « وفقد الكتاب كفقْد الصواب» ٤٤٧
أبو الحسن القالي ٤٤٧
أما الخيام فإنّها كخيامهم ... وأرى نساءَ الحيّ غير نسائها ٤٤٨
الشيخ الحداد المهدوي ٤٤٨
كيف بعتَ الكتب وهي أعزّ شيء لديك ٤٤٩
الإمام ابن هشام النحوي المصري: « ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله » ٤٤٩
الإمام يونس بن حبيب البصري: لم تكن له همة إلا طلب العلم ومحادثة الرجال .. يختلف إليه معمر بن المثنّى أربعين سنة ٤٤٩-٤٥٠
الإمام معمر بن المثنى: ترَك من المؤلفات نحو مائتي كتاب ٤٥٠
أبو زيد الأنصاري النحوي : سيّد النحاة ومعلّمهم خمسين سنة ؛ رحمة الله على العلماء عُلاة الهمم ٤٥٠

الحافظ المؤرخ ابن النجار: مشيخته ثلاثة آلاف شيخ، ورحلته سبع وعشرون سنة ٤٥١
مؤلَّفاته ٤٥١
المسند ابن عبد الدائم المقدسي: يكتب في اليوم تسع كراريس ٤٥٢
كتب بيده ألفي مجلدة، وروى الحديث ستين سنة ٤٥٣
أبو الريحان البيروني: يدرّس وهو يجود بنفسه ٤٥٣-٤٥٤
الهمة العالية لها صَعْداء مطلعها طويل ٤٥٤
شيخ الإسلام أبو الفرج ابن الجوزي: سيرته كلها علو همة يكتب بيده ألفي مجلدة ، ويتوب على يديه مائة ألف .. له همة في العلم ما إنْ مثلها ٤٥٤-٤٥٧
الإمام ابن قدامة: همةٌ عليَّة ونفس زكيَّة، صاحب المغني الذي يشفي ويغني ٤٥٧
العماد المقدسي: جوهرة عصره: له أعلى همة في التدريس والصبر على التعليم ٤٦٠-٤٦١
الإمام ابن عبد البر: ابن عبد البر هو ابن عبد البر، يَؤلِّف التمهيد في أكثر من ثلاثين سنة، وما في فقه الحديث كتاب مثله ٤٦١-٤٦٢
الإمام البيهقي: ما من فقيه شافعي إلا وللشافعي عليه مِنّة إلا البيهقي؛ فإن له المنّة على الشافعي لتصانيفه في نصرة مذهبه ٤٦٢-٤٦٥
الإمام الحافظ ابن المنذر : أعلم الناس بالإجماع ، والقدوة في هذا الفن ٤٦٥-٤٦٦
الإمام ابن عساكر: لم يتخذ غير العلم والعمل صاحبَين، وهما منتهى أربه، همة حافظ تدمي القلوب، وتُبكي العيون .. يوقف أنفاسه على العلم والتعليم أربعين سنة ٤٦٦-٤٧٢
الإمام السرخسي: يملي المبسوط على تلامذته من حفظه وهو محبوس في الجبِّ !! ٤٧٢

الإمام عبد الغني المقدسي: علو همة في العلم والاتباع والعمل، والأمر بالمعروف ٤٧٢
تصانيفه: لو لم يكن له إلا « الكمال » لبلّغه في علو الهمة مرتبة الكمال ٤٧٣
حفظه: يحفظ مائة ألف حديث وأكثر ٤٧٤
إفادته وتدريسه: «لا تضيعوا هذا العلم الذي تعبنا عليه » ٤٧٥
آل المقدسي حتى في منامهم لا شغل لهم إلا بالعلم والحديث ٤٧٦
أبو عمرو بن الصلاح صاحب « مقدمة ابن الصلاح » : أستاذ الدنيا في علم الحديث ٤٧٨-٤٧٩
الإمام المنذري: وليُّ الله والمحدث عن رسول الله ﷺ ٤٧٩
لا ينام الليل لانشغاله بالعلم ٤٨١
الضياء المقدسي: صاحب المختارة الحافظ الجبل ٤٨١
شيخ الإسلام ابن دقيق العيد ٤٨٣
وكان من العلوم بحيث يُقضى له من كل علم بالجميع ٤٨٣
شيخ الإسلام النووي: الأنموذج المثالي لعلو الهمة في طلب العلم والتعليم ٤٨٥
مراتب النووي التي تُشدّ لأجلها إليه آباطُ الإبل من أقطار الأرض ٤٩١
الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية: الأفق العالي الذي تنقطع أعناق العلماء، نظرًا إلى علو همته ومرتبته ٤٩٢
مؤلفاته ومصنفاته، بل دُرَرُه وجواهره ٤٩٧
فتاويه ونصوصه وأجوبته على المسائل ٤٩٧
تآليفه في العقيدة والأصول هي العمدة في فهم عقيدة أهل السنة ٤٩٩
قصيدة في رثاء شيخ الإسلام ابن تيمية .. وأَوْلَى بنا أن نرثيه بدم القلوب ٥٠٣

شيخ الحفاظ جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المزي ٥٠٥
«تحفة الأشراف» عمل هائل تعجز عنه العصبة، و «تهذيب الكمال» لم يُصنّف مثله ٥٠٧-٥٠٨
الحافظ شرف الدين الدمياطي : أستاذ الأستاذين في معرفة الأنساب ٥١٢
شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية: نسيج وحده في الرغبة الصادقة في الطلب، والتفاني في سبيل العلم، وامتزاج ذلك بلحمه ودمه ٥١٣
الإمام الحافظ الذهبي ٥٢٠
إمام الوجود حفظًا، وذهب العصر معنًى ولفظًا ٥٢١
مؤلفات الذهبي تدل على علو همته ٥٢٥
رثاء الذهبي ٥٣٥
الحافظ البرزالي ٥٣٦
معجم شيوخه فيه ثلاثة آلاف شيخ ٥٣٦
الحافظ ابن عبد الهادي: علو همته في التصنيف: له سبعون مصنفًا، يبلغ بعضها مائة مجلد ٥٣٨
الحافظ ابن كثير: لو لم يكن إلا تفسيره، لكفاه علو همة في تحصيل العلم ونشره ٥٣٩
شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن مفلح صاحب «الفروع» ٥٤١
«ما أنت ابن مفلح، بل أنت مفلح» وكتاب «الفروع» مكنسة الذهب ٥٤٢
الحافظ العراقي أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين ٥٤٣
أعلم الناس بصناعة الحديث، وعلى يده عاد الإملاء ٥٤٦-٥٤٩
أستاذ الأستاذين الإمام ابن حجر: الناس عيال عليه في الحديث ، وعلو همته في طلب العلم والتدريس والإملاء ٥٤٩
لطيفة ٥٥٧

الحافظ الهيثمي صاحب «مجمع الزوائد» ٥٥٨
ملازمته للعراقي وتأدبه معه ٥٥٩
الكاساني صاحب «بدائع الصنائع» العلامة الحنفي ٥٦١
شرح لشيخه تحفته، وتزوج ابنته ٥٦١
العلّامة المرداوي صاحب كتاب «الإنصاف» الحنبلي ٥٦١
الإنصاف من كتب الإسلام، يدلّ على علو همة مصنفه ٥٦٢
أبو القاسم العبدوسي حافظ المغرب ٥٦٢
يقرأ صحيح البخاري في نهار يوم واحد ٥٦٣
ابن سيده صاحب كتاب «المخصص» في اللغة: لم يمنعه العمى من أن يخرج «المخصص» في سبعة عشر جزءًا، في كل جزء قرابة ثلاثمائة صفحة ٥٦٤
الإمام الشوكاني صاحب «نيْل الأوطار»: دروسه في اليوم والليلة ثلاثة عشر درسًا ٥٦٤
الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: وعلو همته في طلب العلم؛ لذا شبَّهه الألباني بشيخ الإسلام ابن تيمية،مصنفاته بعد إقامته بالمدينة ٥٧٨
ولي شغل بأبكار عذارىٰ ... كأن وجوهها ضوءُ الصباح ٥٧٨
محدّث العصر فضيلة الشيخ أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني ٥٨٣
كلمات القواميس لا تفي الشيخ قدره ... وقصة طلبه للعلم نبراس.. وعلو همته في وقف أنفاسه على العلم تُبكي العيون، لله درُّه ٥٨٥
مجالسه العلمية ٥٨٨
مؤلفاته .. التي جدّد بها السنة ٥٩٢
فما عسى أن يقول الشِّعر في رجلٍ.. يدعوهُ حتى عداهُ ناصر الدين ٥٩٥
فضيلة الشيخ أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن باز ٥٩٥
استحضاره لأحاديث الكتب الستة ٥٩٦
لطيفة ٦٠٠

فصل: دناءة الهمة في التزهيد في العلم، أو طلب الفلسفة وعلم الكلام ٦٠٢
ومن دناءة الهمة : التَّعالُم ٦١٢
ومن دناءة الهمة : تتبُّع رخص الفقهاء ٦١٥
خاتمة ٦١٨
الفهرس ٦٢١

* * *

□ فهرس المجلد الثاني □

الموضـــوع — الصفحة

الفصل الأول : علو الهمة في الدعوة إلى الله .... ٣ - ١٤١
فضل الدعوة إلى الله ٥
الداعية مجاهد مهاجر ١٤
صلاة الله تعالى ومن في السموات والأرض على معلِّم الناس الخير ١٥
استمرار ثواب الداعي بعد موته ١٥
للداعي مثل أجور من تبعه ١٦
دعاء النبي ﷺ لمبلِّغ كلامه إلى غيره ١٦
الثواب الجزيل لمن اهتدى على يديه شخص ١٦
نماذج من علو الهمة في الدعوة إلى الله عز وجل ١٧
نوح عليه السلام ١٧
كفاح نبيل طويل ١٨
إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ٢٢
يوسف عليه السلام ٢٣
حرص مؤمن ياسين على إيمان قومه ٢٤
موسى عليه السلام ٢٥
علو همَّة نبينا ﷺ في الدعوة إلى الله ٢٧
أ - صعوده ﷺ على الصفا للدعوة إلى الله ٢٨
ب - قيامه بالدعوة في الطريق ٢٩
جـ - قيامه بالدعوة في سوق ذي المجاز ٣٠
د - ذهابه للدعوة إلى منازل الناس بمنى ٣٠

هـ - رجاؤه ﷺ الهداية لأجيال من آذوه أشد الأذى ٣١
و - ذهابه ﷺ إلى الطائف ماشيًا دعوةً إلى الله ٣٢
ز - دعوته ﷺ إلى الله في السفر ٣٤
ح - انطلاقه ﷺ لدعوة رأس المنافقين ٣٥
ط - مجيئه ﷺ للدعوة إلى بيت كبير اليهود ٣٦
ي - دعوته وعيادته للمرضى ٣٦
ك - دعوته لمُحبِّيه ٣٧
ل - دعوته ﷺ لمن كانوا يبغضونه ٣٧
م - دعوته ﷺ لمن جاء يريد قتله ٣٨
ن - إرساله ﷺ الرسائل إلى الملوك والأمراء ٣٨
س - دعوته عند القبر ٣٩
ع - قيامه بالدعوة ﷺ وهو في مرض الموت ٤٠
ف - قيامه ﷺ بالدعوة وهو يُغرغر بنفسه ٤٠
الصِّدِّيق رضي الله عنه ٤١
بلال بن رباح رضي الله عنه ٤٤
فاروق الإسلام عمر رضي الله عنه ٤٤
ابن مسعود أول من جهر بالقرآن بعد النبي ﷺ ٤٥
علو همَّة عليٍّ في الدعوة إلى الله ٤٥
عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ٤٦
مصعب بن عمير رضي الله عنه ٤٦
عروة بن مسعود سيد ثقيف رضي الله عنه ٥٠
ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه ٥١
عمير بن وهب الجمحي رضي الله عنه ٥٢
عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه ٥٤

أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ٥٥
عمرو بن العاص رضي الله عنه ٥٦
خالد بن الوليد رضي الله عنه ٥٧
علو همَّة المتطوعين في نشر الإسلام ٥٨
دخول التتار في الإسلام ٥٩
علو الهمَّة في تأسيس المساجد لنشر الدعوة ٦٢
بعث المعلمين والقُراء للدعوة في البلاد المفتوحة ٦٤
علو همَّة المسلمين في الدعوة إلى الله في أشدّ الأحوال وأصعبها ٦٦
لإسلامي « قصيدة » ٦٦
تحمُّس الصِّدِّيق للدعوة رغم فقْده لحبيبه ﷺ ٦٧
إصرار الصِّدِّيق على قتال مانعي الزكاة ٦٨
ندب الفاروق المسلمين لقتال أهل فارس ٦٩
تحمس المسلمين للدعوة في زمن زوال خلافتهم ٦٩
دعوة إلى الله في السجون ٧٠
علو همة المسلمات في الدعوة إلى الله ٧١
اهتمام أُمّ شريك بالدعوة ٧١
حرص أُم سليم على إسلام ابنها ومن تقدَّم لخطبتها ٧٢
أم حكيم بنت الحارث وحرصها على إسلام زوجها عكرمة ٧٣
قصيدة ٧٧
لا بدّ من الدعوة إلى الله على كل المستويات ٧٨
ابن الجوزي الداعية الكبير ٨٣
دع بيتك وراء ظهرك ٨٣
الداعية رحَّالة ٨٥
وصف لعالي الهمَّة من الدعاة ٨٦

التجرُّد الكامل للدعوة ٨٧
الداعي عالي الهمة رَجُل عامَّة ٨٧
إمام أهل السنة : أحمد بن حنبل ٨٨
الإمام الأوزاعي ٩٠
أبو إسحاق الفزاري ٩٠
خالد بن عبد الله الواسطي ٩١
الإمام الزهري ٩١
الانخلاع عن الفردية والتعاون على البر والتقوى ٩٢
الداعي عالي الهمة من يقول : ها أنا ذا ٩٣
الداعي عالي الهمة يرفع للغير راية ٩٧
الدعوة لدين الله بيعة قديمة مع الله ٩٩
الداعية عالي الهمة ليس من أصحاب العقول المستريحة ١٠٠
ليس على الداعية غير البلاغ ١٠٢
﴿ واجعلنا للمتقين إمامًا ﴾ ١٠٢
الداعي عالي الهمة لا تشغله الدعوة عن عبادته ١٠٢
الرَّبَّانِيَّة على نهج السلف علوُّ همَّةٍ ١٠٣
عالي الهمة من الدعاة ليس هدفه التجميع القطيعي ١٠٨
التوحيد منطلق الدعوة إلى الله وغايتها ١٠٩
الدعوة إلى الله شرفٌ في الغاية طهارةٌ في الوسيلة ١١١
لا تحُكّ رأسك إلّا بأَثَر ١١٣
علو الهمة في دعوة غير المسلمين للإسلام ١١٤
رجُل يسلم على يديه أربعة آلاف من الأجانب ١١٤
الشيخ رحمت الله بن خليل الرحمن وجهوده في مقاومة التنصير ١٢٤
الداعية أحمد ديدات ١٣١

وعلى الطريق سار غازي وأخواه ١٣٨
الفصل الثاني : علو الهمَّة في الاتِّباع ومُجانبة الابتداع ١٤٣-٣١٦
فضل الاتباع ١٤٥
الصِّدِّيق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه ١٦٣
الفاروق عمر رضي الله عنه ١٦٤
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ١٦٧
سيِّد القُرّاء أُبيّ بن كعب رضي الله عنه ١٦٧
حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه ١٦٨
الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ١٦٨
عبد الله بن عباس ترجمان القرآن رضي الله عنه ١٧١
حكيم الأُمَّة أبو الدرداء رضي الله عنه ١٧٢
أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ١٧٢
عبد الله بن مغفل رضي الله عنه ١٧٣
عمران بن حصين رضي الله عنه ١٧٣
أُمّ المؤمنين الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشة رضي الله عنها ١٧٣
الإمام القدوة عبد الله بن عمر رضي الله عنه ١٧٤
سهل بن حنيف رضي الله عنه ١٧٦
محمد بن سيرين ١٧٦
أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ١٧٦
الإمام الحسن البصري سيِّد أهل زمانه ١٨٠
الإمام الجَبَل سليمان بن طرخان التيمي ١٨٠
إمام دار الهجرة مالك بن أنس ١٨١
الإمام الرباني ابن أبي ذئب ١٨٥
إمام أهل الشام الأوزاعي ١٨٥

الإمام الرشيد أبو إسماعيل حمَّاد بن زيد ١٨٧
الإمام الرَّبّاني سفيان بن سعيد الثوري ١٨٨
شيخ الإسلام أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك ١٩١
السّختياني أيوب بن كيسان ١٩٣
ناصر السُّنَّة الإمام المطّلبي الشافعي ١٩٥
شيخ المحدِّثين يزيد بن هارون ٢٠١
معلِّم الخير وإمام أهل السُّنَّة الإمام أحمد بن حنبل ٢٠٣
ومن علو همَّته في الاتّباع تعظيم أهل السنة والنقل ٢٠٧
إعراضه عن أهل البدع ٢١٠
الإمام الرَّبّاني أبو الحسن محمد بن أسلم الطوسي ٢١١
سيِّد الحُفّاظ أبو زرعة الرازي ٢١٦
أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري ٢٢٢
الإمام بقيّ بن مخلد ٢٢٣
الإمام القدوة البربهاري ٢٢٥
شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٣٣
محاربته للبدع والعقائد المخالفة للكتاب والسُّنَّة ٢٣٦
قصيدة في الثناء على ابن تيمية ٢٤٨
حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح الإمام ابن قيم الجوزية ٢٥١
وجوب إذعان المسلم وتواضعه للدليل ٢٥٦
مدى تأثُّره بابن تيمية ٢٥٨
الفرق بين أهل السُّنَّة وغيرهم ، من نونية ابن القيم ٢٦٥
كلمات طيِّبة في الدعوة إلى السُّنَّة ٢٧٤
كلمات في الاتّباع وذمّ البدع ٢٨٠
ذمّ الابتداع ٢٨٨

نماذج من علو هممهم في اجتناب البدع وذم أهلها والتحذير منها ٢٩٨
وأخيرًا ... يا قومنا أجيبوا داعي الله ٣١٣
الفصل الثالث : علو الهمة في الصلاة ٣١٧-٤٤٤
فائدة هامة : اجتهادهم في العبادة ليس بدعة ولا ضلالة من وجوه ٣٢١
الاجتهاد في العبادة جائز بعشرة شروط ٣٢٣
من علو الهمة التَّسوُّك وإسباغ الوضوء ومُشابهة وضوء النبي ﷺ ٣٢٧
من علو الهمة المحافظة على الصلاة أوَّل وقتها ٣٢٨
من علو الهمة المشي إلى المساجد متوضئًا ٣٢٩
من علو الهمة الحرص على صلاة الجماعة والتكبيرة الأولى ٣٣١
عالي الهمة معلَّق القلب في المسجد، يكون في ظِلّ الله تعالى يوم القيامة ٣٣٢
من علو الهمة الحرص على الصلاة الوسطى في جماعة ٣٣٣
ومن علو الهمة المحافظة على صلاة العشاء والصبح في جماعة ٣٣٣
عالي الهمة أول من يغدو إلى المسجد للفجر يرافقه مَلَك ٣٣٤
كتابة صلاة الفجر مع جماعةٍ في صلاة الأبرار ٣٣٥
ومُصلِّي الفجر في جماعة في ذمَّة الله ٣٣٥
مصلي الفجر في جماعةٍ له أجْر حجَّة وعُمرةٍ إذا قعد يذكر الله ٣٣٥
من علو الهمة انتظار الصلاة ٣٣٦
ومن علو الهمة الصلاة في الصفوف المقدَّمة ٣٣٦
ومن علو الهمة الصلاة في ميامن الصفوف ٣٣٨
ومن علو الهمة صلة الصفوف ولِين المناكب ٣٣٨
ومن علو الهمة غُسل الجمعة والتبكير إليها ٣٣٨
ومن علو الهمة الحرص على السنن الرواتب ٣٣٩
ومن علو الهمة الخشوع في الصلاة ٣٤٠
من علو الهمة في الصلاة مراعاة المعاني الباطنة التي تتمّ بها حياة الصلاة ٣٤١

صلاة عالي الهمة وحضور قلبه عند كل ركنٍ وشرط: ٣٤٣
عند سماع الأذان ٣٤٤
الطهارة ٣٤٤
ستر العورة ٣٤٤
استقبال القبلة ٣٤٥
الاعتدال قائمًا ٣٤٥
النِّيَّة ٣٤٦
التكبير ٣٤٧
دعاء الاستفتاح ٣٤٧
قراءة الفاتحة ٣٤٨
تدبُّر الزاهد في السّراري النابذ للجواري أبي الحسن بن أبي الحواري ٣٤٩
دوام القيام ٣٥٠
الركوع والسجود ٣٥٠
التشهد ٣٥١
علو همة سيد العابدين ﷺ ٣٥٣
علو همة رسولنا ﷺ وحرصه على صلاة الجماعة ٣٥٥
قيامه ﷺ بأداء صلاة الجماعة مع شدَّة المعركة ٣٥٦
علو همته ﷺ في الخروج إلى صلاة الجماعة مع شدَّة مرضه ٣٥٧
علو همة السلف وعنايتهم بصلاة الجماعة ٣٦٠
مواقف تدلّ على علو هممهم وعنايتهم بصلاة الجماعة ٣٦٠
أ - اختيار مكان بعيد من المسجد كي يكثر ثوابه ٣٦٠
ب - المُسارعة إلى صلاة الجماعة ٣٦١
جـ - المُداومة على حضور الجماعة ٣٦٢
د - حضور صلاة الفجر ليلة الزواج ٣٦٢

هـ - تَرْك العلاج حرصًا على جماعة العشاء والفجر ٣٦٢
و - حضور المرضى صلاة الجماعة ٣٦٢
ز - الذهاب إلى المسجد في أصعب الظروف ٣٦٣
ح - الحرص على الموت في حالة انتظار الجماعة ٣٦٣
ط - الذهاب إلى مسجد آخر عند فوات جماعة في مسجد ٣٦٤
ي - حَثُّ الابن على مُلازمة المسجد ٣٦٤
ك - مُساءلة الابن عن حضور صلاة الجماعة ٣٦٤
ل - تأديبه على التَّأَخُّر عن صلاة الجماعة ٣٦٥
م - الدعوة إلى المحافظة على صلاة الفجر والعشاء في الجماعة في المرض الأخير ٣٦٥
ن - اهتمام وليّ الأمر بصلاة الجماعة ٣٦٥
السيد المتعبِّد بلال بن أبي رباح رضي الله عنه ٣٦٧
عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ٣٦٨
أبو سفيان بن الحارث رضي الله عنه ٣٦٩
عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه ٣٦٩
تميم الداري رضي الله عنه ٣٧٠
أبو رفاعة العدوي رضي الله عنه ٣٧٠
عبد الله بن الزبير بن العوام حمام المسجد رضي الله عنه ٣٧١
سهيل بن عمرو خطيب قريش رضي الله عنه ٣٧٢
سيِّد العُبّاد أُوَيْس القرني ٣٧٢
سيِّد التابعين سعيد بن المسيّب: ما فاتته صلاة الجماعة أربعين سنة ٣٧٣
مسروق بن عبد الرحمن: إذا فرغ من صلاته يزحف كما يزحف البعير ٣٧٥
أبو مسلم الخولاني: يضرب رجله بالسوط إذا كلَّتْ عن الصلاة ٣٧٦
عامر بن عبد قيس: يصلي من طلوع الشمس إلى صلاة العصر حتى تنتفخ ساقاه ٣٧٧

الربيع بن خثيم: إذا سجد تجيء العصافير فتقع عليه ٣٧٨
مرة الطيب: أثر السجود في جبهته وكفَّيْه وركبتيْه وقدميْه ٣٨٠
الإمام أبو عبد الله عمرو بن ميمون: إذا ضعف عن القيام أمسك بوتدٍ في الحائط ٣٨١
الإمام أبو عثمان النهدي: يصلي ما بين المغرب والعشاء ٣٨١
العلاء بن زياد: يصلي حتى يسقط ٣٨١
سعيد بن جبير: يقرأ القرآن في ركعة ٣٨٢
عمير بن هانئ: يصلي كلَّ يومٍ ألف ركعة ٣٨٢
عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: يطوِّل الصلاة ولا يعجل عنها لأحدٍ ٣٨٢
زاذان أبو عمر الكِنْدِي: يصلي كأنه جذع ٣٨٣
علي بن الحسين: يقع حريق في بيته وهو يصلي فيُلهى عنه، وإذا توضَّأ اصفرَّ، وإذا قام إلى الصلاة أخذتْه رعدةٌ ٣٨٣
أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي: يُسمَّى راهب قريش لصلاته ٣٨٤
أبو جعفر الباقر: يصلي خمسين ركعة بالمكتوبة ٣٨٤
عروة بن الزبير: تُقطع رجله فيقوم الليل بسُبْع القرآن ٣٨٥
الإمام عبد الله بن مُحيريز: كان أهل الشام يفخرون بعبادته على أهل المدينة ٣٨٥
الأسود بن يزيد النَّخَعي: يصلي في اليوم والليلة سبعمائة ركعة ٣٨٦
أبو عبد الله مسلم بن يسار: يضرب بصلاته المثل ويقول: وما يدريكم أين قلبي ٣٨٦
أبو عبد الله وهب بن منبِّه: يصلي الصبح بوضوء العشاء عشرين سنة ٣٨٨
طلق بن حبيب: لا يركع حتى يبلغ العنكبوت ٣٨٩
عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد النَّخَعي: اعتلَّت رجله، فصلَّى على قدمٍ حتى أصبح ٣٩٠
عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية: اجتهد في العبادة حتى صار كالشَّنّ البالي ٣٩١

بلال بن سعد: كان من العبادة على شيءٍ لم يُسمع به في أُمَّة محمد ﷺ ٣٩٢
الإمام سليمان بن مهران الأعمش: لم تَفُتْه التكبيرة الأولى سبعين سنة ٣٩٣
الإمام إبراهيم بن يزيد التيمي: «إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه» ٣٩٣
شيخ الحرم عطاء بن أبي رباح: كان المسجد فراشه عشرين سنة ٣٩٣
الإمام عامر بن عبد الله بن الزبير: يموت وهو يصلي ٣٩٣
أبو محمد ثابت البناني: اللهم إن كنت أعطيتَ أحدًا الصلاة في قبره فأعطينيها ٣٩٤
ربيعة بن يزيد: ما أذَّن المؤذن لصلاةٍ منذ أربعين سنة إلَّا وهو في المسجد ٣٩٦
الإمام السَّجّاد علي بن عبد الله بن عباس: يسجد ألف سجدة ٣٩٧
الإمام عاصم بن أبي النَّجود: إذا رأى مسجدًا يدخل فيصلي ٣٩٧
صفوان بن سليم الزهري: يصلي في الشتاء على السطح وفي الصيف في البيت ٣٩٧
أبو إسحاق السبيعي عمرو الهمداني: يقرأ وهو قائم بالبقرة وآل عمران ٣٩٩
أبو غياث منصور بن المعتمر: لو رأيته وهو يصلي لقلت: يموت الساعة ٣٩٩
أبو المغيرة منصور بن زاذان: يقرأ القرآن كله في صلاة الضحى ٤٠١
أبو عبد الله كرز بن وبرة: يصلي حتى تَرِم قدماه ٤٠١
أبو عبد الله محمد بن واسع: يصلي الليل أجمعه ٤٠٣
أبو المعتمر سليمان بن طرخان التيمي: يصلي عامَّة دهره: يصلي الصبح بوضوء العشاء ٤٠٤
كهمس بن الحسن: قُومي يا مأوى كلِّ سوء ٤٠٥
أبو عبد الله سفيان الثوري: اعلف الحمار ثم كُدَّه ٤٠٦
شيخ الإسلام وعالم أهل الشام عمرو بن عبد الرحمن عمرو الأوزاعي: «تقول امرأةٌ لزوجِهِ: تركتِ الصبيان حتى بالوا في مُصلى الشيخ؟ فتقول: هذه دموع الشيخ، لا بول الصبيان» ٤٠٩
شيخ العراق أبو سلمة مسعر بن كدام: جبهته كركبةِ العنز من السجود ٤١١
أمير المؤمنين في الحديث شعبة بن الحجاج: جفَّ جلده على ظهره من العبادة ٤١١

شيخ الإسلام القدوة حمَّاد بن سلمة: مات في الصلاة ٤١٢
شيخ الإسلام وبقيةُ الأعلام أبو بكر بن عياش: لم يُفرش له فراش منذ خمسين سنة ٤١٣
الإمام القدوة مفتي دمشق سعيد بن عبد العزيز التنوخي : كان يُسمع وقع دموعه على الحصير وهو يصلي ٤١٤
المحدِّث الرباني أبو محمد الأزدي السُّلَيْمي بشر بن منصور : ما فاتته التكبيرة الأُولى قطُّ ٤١٤
أبو عبد الله جرير بن عبد الحميد: كان له رسن إذا أعيا تعلَّق به ٤١٥
وكيع بن الجرَّاح: لا يبقى في داره أحد لا يصلي بالليل ٤١٥
عبد الرحمن بن مهدي : يقوم على باب ابنته وزوجها صبيحة بنائهما، ويقول: لا أبرح حتى يخرجا إلى الصلاة ٤١٦
يزيد بن هارون: «وأنام من الليل شيئًا ؟! إذن لا أنام الله عيني» ٤١٧
يعقوب بن إسحاق الحضرمي: سُرق رداؤه عن كتفه وهو يصلي ولا يشعر ٤١٧
أبو خالد هدبة بن خالد القيسي: يسبِّح في الركوع والسجود نيِّفًا وثلاثين تسبيحة ٤١٨
أبو يوسف القاضي يعقوب: ورده في اليوم مائتا ركعة ٤١٨
أبو عبد الله أحمد بن حنبل: يصلي كلَّ يومٍ وليلة ثلاثمائة ركعة ٤١٨
هنّاد بن السري بن مصعب: هذه عبادته منذ سبعين سنة ٤١٩
أبو عبد الرحمن حاتم الأصمّ: تكلَّم فأنت تُحسن تصلي ٤١٩
الإمام المُزَنيّ: إذا فاتته صلاة الجماعة، صلَّى تلك الصلاة خمسًا وعشرين مرة ٤٢٠
أبو عبد الله محمد بن عبدوس: صلَّى الصبح بوضوء العشاء أربع عشرة سنة ٤٢٠
أمير المؤمنين في الحديث البخاري: يلسعه الزّنبور وهو يصلي سبع عشرة مرةً، ولا يُشغل به ٤٢١

أبو زرعة الرازي: يصلي في محراب مسجده عشرين سنة، ولا يشعر أن في المحراب كتابة ٤٢١
بقيّ بن مخلد: يختم القرآن كلَّ ليلةٍ في ثلاث عشرة ركعة ٤٢٢
الجُنيد البغدادي: وِرْدُه كلَّ يومٍ ثلاثمائة ركعة ٤٢٣
محمد بن نصر المروزي: يسيل الدم على وجهه وهو يصلي ولا يلتفت ٤٢٤
أبو الحسين النُّوري: يعاقب نفسه بالصلاة حتى تتورَّم قدماه ٤٢٤
أبو بكر النيسابوري: أربعين سنة لم يَنَم الليل ٤٢٥
أبو العباس محمد بن يعقوب الأصمّ: يؤذِّن سبعين سنة ٤٢٥
أبو الشيخ الأصبهاني: ما دخل عليه تلميذُه إلَّا وجده يصلي ٤٢٦
أبو بكر أحمد الغسَّاني: يقوم الليل كلَّه ويصلي من الظهر إلى العصر ٤٢٦
أبو عبد الله محمد الشيرازي: يقرأ القرآن في ركعةٍ ٤٢٦
أبو أحمد، الحسين بن علي النيسابوري: ما ترك صلاة الليل بسُبْع القرآن كلَّ ليلةٍ منذ ثلاثين سنة ٤٢٦
أبو بكر بن الباقلَّاني: وِرْده كلَّ ليلةٍ عشرون ترويحة ٤٢٧
أبو الفضل محمد الصرام: يقرأ القرآن في ركعتين ٤٢٧
أبو العباس أحمد بن أبي غالب ابن الطلاية: أفنى عمره في الصلاة والقيام ٤٢٧
جعفر بن الحسن الدرزيجاني: يختم في ركعةٍ ٤٢٨
عبد الغني المقدسي: كلّ أوقاته وضوء وصلاة ٤٢٨
أبو عمر محمد بن قدامة المقدسي: يتلو كلَّ ليلة سُبعًا في الصلاة ٤٣٠
فتح الموصلي: يصلي شكرًا لله لمَّا عرج أربعمائة ركعة في يوم وليلة ٤٣٠
أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي: «قيل لأُمِّه في تأويل رؤيا لها: تلدين ولدًا يُكثِر الصلاة» ٤٣٠
من علو الهمة في الصلاة حرص الرجل على قيام الليل ٤٣١
قيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٤٣٦
قيام ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه ٤٣٦

قيام أبي هريرة رضي الله عنه ٤٣٧
قيام تميم الداري رضي الله عنه ٤٣٧
قيام عبَّاد بن بشر رضي الله عنه ٤٣٧
قيام أبي ريحانة رضي الله عنه ٤٣٨
قيام أبي الصهباء صلة بن أشيم ٤٣٩
قيام عمرو بن عُتبة ٤٤٠
قيام همّام بن الحارث النَّخَعي ٤٤٠
قيام أبي عبد الرحمن السلمي ٤٤١
قيام عبد العزيز بن سلمان ٤٤١
قيام علي بن بكّار ٤٤١
قيام أُم المؤمنين حفصة رضي الله عنها ٤٤٢
قيام حفصة بنت سيرين ٤٤٢
قيام أُمّ الدرداء الصغرى ٤٤٢
قيام عجردة العمية رحمها الله ٤٤٢
قيام حبيبة العدوية ٤٤٣
قيام عفيرة العابدة ٤٤٣
الفصل الرابع : علو الهمَّة في الصِّيام ٤٤٥-٥٠٠
فضل الصوم ٤٤٧
سادات الصائمين ٤٥١
صوم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٤٥١
صوم ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه ٤٥١
صوم أبي طلحة رضي الله عنه ٤٥٢
صوم عائشة رضي الله عنها ٤٥٣
صوم أُمّ المؤمنين حفصة رضي الله عنها ٤٥٤
صوم أبي الدرداء رضي الله عنه ٤٥٥

صيام عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ٤٥٦
صوم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ٤٥٨
صوم أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ٤٥٩
صوم عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ٤٦٠
صوم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ٤٦١
صوم حمزة الأسلمي رضي الله عنه ٤٦٢
صوم أبي مسلم الخولاني ٤٦٢
صيام عامر بن عبد قيس ٤٦٣
صوم الأسود بن يزيد النَّخعي ٤٦٤
صيام مسروق بن عبد الرحمن ٤٦٥
صيام العلاء بن زياد ٤٦٦
صيام سعيد بن المسيّب ٤٦٩
صيام أبي بكر بن عبد الرحمن ٤٦٩
صوم عروة بن الزبير ٤٦٩
صوم سليمان بن يسار ٤٧١
صوم عطاء بن يسار ٤٧١
صوم إبراهيم النَّخعي ٤٧١
صوم الحسن البصري ٤٧١
دعوه لا تلوموه دعوه ٤٧٢
صوم ابن سيرين ٤٧٣
صوم عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد النَّخعي ٤٧٤
صوم عبد الرحمن بن أبي نُعْم البَجَلي ٤٧٤
صوم عراك بن مالك الغفاري ٤٧٥
صوم منصور بن المعتمر ٤٧٥
صيام سليمان بن طرخان ٤٧٦

صوم الزُّهْري ٤٧٦
صوم ابن جُريج ٤٧٧
صوم عبد الله بن عون ٤٧٧
صيام داود بن أبي هند ٤٧٨
صوم ابن أبي ذئب ٤٧٩
صوم شعبة الخير ٤٨٠
صوم غُنْدَر ٤٨١
صوم معروف الكرخي ٤٨١
صوم أحمد بن حرب ٤٨٢
صوم أحمد بن حنبل ٤٨٣
صوم إبراهيم بن هانىء ٤٨٦
صوم أحمد بن سليمان النَّجَّاد ٤٨٧
صوم بقيّ بن مَخْلَد ٤٨٨
صوم المَنْبِجي ٤٨٩
صوم ابن زياد النيسابوري ٤٨٩
صوم القَطَّان ٤٩٠
صوم ابن بطَّة ٤٩٠
صوم ابن جُمَيْع ٤٩٠
صوم السَّكَن بن جُميع ٤٩١
صوم الصُّوري ٤٩١
صوم الدُّونيّ ٤٩١
صوم العماد المَقْدِسِيّ ٤٩٢
صوم ثابت البُنَاني ٤٩٢
صوم سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهري ٤٩٣
صوم وكيع بن الجرَّاح ٤٩٤

صوم أبي بكر بن عيَّاش ٤٩٥
صوم جعفر بن الحسن الدَّرْزيجاني المقرىء ٤٩٦
صوم رحلة العابدة مولاة معاوية ٤٩٦
صوم ميمونة بنت الأقرع ٤٩٧
صوم أبي حنيفة ٤٩٧
صيام الملك العادل نور الدين محمود زِنْكِي ٤٩٧
صوم الإمام البيهقي ٤٩٩
صوم السيدة المكرمة الصالحة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن السيد سبط النبي ﷺ ٤٩٩
الفصل الخامس : عُلُوُّ الهمَّة في الصدقة والجود والإيثار ٥٠١-٦٥٣
فضل الصدقة والجود والإيثار ٥٠٣
الجواد كريم على الله وعلى الناس ٥١٠
الأشعريون من رسول الله ﷺ وهو منهم ٥١٢
أبو الضِّيفان خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ٥١٧
أكرم الناس يوسف عليه السلام ٥١٨
جود رسول الله ﷺ ٥٢٠
أبو بكر الصديق ٥٢٤
ومن الأجواد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٥٢٦
عثمان رضي الله عنه ٥٢٧
عبد الرحمن بن عوف ٥٢٨
الزبير بن العوام ٥٢٩
طلحة الفيَّاض بن عبيد الله رضي الله عنه ٥٢٩
أبو المساكين جعفر بن أبي طالب ٥٣١
ومن الأجواد عبد الله بن عباس ٥٣٢
عبد الله بن عمر ٥٣٣

سيد الخزرج سعد بن عبادة رضي الله عنه ٥٣٥
قيس بن سعد بن عبادة ٥٣٦
الحسن بن علي رضي الله عنهما ٥٣٩
الحسين بن علي رضي الله عنهما ٥٤٠
حكيم بن حزام رضي الله عنه ٥٤١
من أجواد أهل الإسلام ٥٤١
عبيد الله بن عباس رضي الله عنهما ٥٤٢
عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما ٥٤٢
جود أعرابي ٥٤٩
ضرار بن القعقاع رضي الله عنه ٥٤٩
عَدِيّ بن حاتم ٥٥٠
جود سعيد بن العاص ٥٥٠
عبد الله بن عامر القرشي ٥٥٤
معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ٥٥٦
ومن الأجواد عبيد الله بن أبي بكرة ٥٥٦
جود عرابة الأوسي ٥٥٩
أُوَيْس القرني ٥٦٠
زين العابدين علي بن الحسين ٥٦١
أبو جعفر الباقر ٥٦٢
موسى الكاظم ٥٦٢
أبو عبد الله مكحول ٥٦٢
الحكم بن المطّلب بن عبد الله المخزومي ٥٦٣
خيثمة بن عبد الرحمن بن أبي سبرة ٥٦٣
أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ٥٦٤
عمرو بن عتبة ٥٦٤

محمد بن سيرين ٥٦٥
الحسن البصري ٥٦٥
طلحة الجود طلحة بن عبد الله بن عوف ٥٦٥
الطَّلحات المعروفون بالكرم ٥٦٦
طلحة الطلحات : طلحة بن عبد الله الخزاعي ٥٦٦
خارجة بن زيد بن ثابت ٥٦٧
زيد بن وهب الجُهَني ٥٦٨
عبد الرحمن بن خالد بن يزيد ٥٦٨
إبراهيم بن محمد بن طلحة ٥٦٩
أمير المؤمنين المهدي ٥٧٠
الإمام إبراهيم بن محمد ٥٧٠
محمد بن عباد ٥٧١
عمارة بن حمزة الهاشمي ٥٧١
عبد الرحمن الكندي ٥٧١
مسروق بن الأجدع ٥٧٢
عامر بن عبد الله بن الزبير ٥٧٢
محمد بن كعب القرظي ٥٧٢
بكر بن عبد الله المُزَنى ٥٧٣
حبيب العجمي ٥٧٣
عبد الله بن أبي ربيعة ٥٧٣
محمد بن شهاب الزُّهْري ٥٧٣
الليث بن سعد إمام مصر ٥٧٤
محمد بن عمر الواقدي ٥٧٨
الإمام الشافعي ٥٧٩
مَعْن بن زائدة أبو الوليد الشيباني ٥٨١

يزيد بن المهلّب ٥٨٦
الإمام المبارك عبد الله بن المبارك ٥٨٧
خالد بن عبد الله القسري ٥٨٩
إسماعيل بن عيَّاش ٥٩٠
يعقوب بن شيبة الحافظ صاحب المسند المعلّل ٥٩١
كَرَمُ عبدٍ ٥٩١
الإمام المحدِّث دَعْلَج بن أحمد بن دعلج ٥٩٣
لؤلؤ العادلي الحاجب ٥٩٤
عبد القادر الجيلاني ٥٩٥
شيخ الإسلام ابن تيمية ٥٩٥
عكرمة الفيَّاض الربعي ، جابر عَثَرات الكِرَام ٥٩٦
كرم رجل مع قاتل أبيه ٦٠٠
عبد الحميد بن سعد أمير مصر ٦٠١
أبو مَرْثَد ٦٠٢
سعيد بن خالد ٦٠٢
الأشعث بن قيس ٦٠٢
حماد بن أبي سليمان ٦٠٣
شعبة بن الحجاج ٦٠٣
كَهْمَس العابد ٦٠٤
الشيخ عبد العزيز بن باز ٦٠٤
صور من الإنفاق في سبيل الله ٦٠٥
أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه ٦٠٥
الربيع بن خُثَيْم ٦٠٥
إبراهيم التيمي ٦٠٦
أبو حفص النيسابوري ٦٠٦

عبد الغني المقدسيّ ٦٠٦
حمَّاد بن أبي سليمان ٦٠٧
أبو جعفر القارىء ٦٠٧
جعفر الصادق بن محمد بن علي ٦٠٧
أبو الدحداح رضي الله عنه ٦٠٨
زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه ٦٠٨
سجع على قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا ممَّا تحبون﴾ ٦١٠
كلمات عَطِرة في الجود والكرم ٦١٢
يتسخَّى ميتًا ٦٢٤
مراتب الجود ٦٢٦
ابن القيم : المراتب ثلاثة ٦٢٦
والجود عشر مراتب ٦٢٦
أحدها : الجود بالنفس ٦٢٦
الثانية : الجود بالرياسة ٦٢٧
الثالثة : الجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه ٦٢٧
علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٦٢٧
الحسن بن علي ٦٢٨
الرابعة : الجود بالعلم وبذله ٦٢٩
الخامسة : الجود بالنفع بالجاه ٦٣١
السادسة : الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه ٦٣١
السابعة : الجود بالعِرْض ٦٣١
الثامنة : الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء ٦٣٢
التاسعة : الجود بالخُلق والبشر والبَسطة ٦٣٢
العاشرة : الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم ٦٣٣
الإيثار ٦٣٤

وهو على درجات ثلاث ٦٣٤
الدرجة الأولى : أن تُؤثر الخلْق على نفسك ٦٣٤
الدرجة الثانية : إيثار رضا الله على رضا غيره ٦٣٦
الدرجة الثالثة : إيثار إيثار الله ٦٤٠
صور من الإيثار ٦٤٢
علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٦٤٢
سعد بن الربيع رضي الله عنه ٦٤٣
إبراهيم بن يزيد التيمي ٦٤٣
بقيّ بن مَخْلَد ٦٤٤
الخطيب البغدادي وأبو بكر ابن زهراء ٦٤٤
عبد الغني المقدسي ٦٤٤
داود الطائي ٦٤٥
بنفسي أنتم شهداء اليرموك ٦٤٥
الربيع بن خُثيم رحمه الله ٦٤٦
بشر بن الحارث الحافي ٦٤٦
الجريري أبو محمد ٦٤٦
أبو الحسين النُّوري ٦٤٧
نافع بن جُبير ٦٤٧
يحيى بن معاذ الرازي ٦٤٨
الحكم بن المطلب بن حَنْطَب ٦٤٨
السخاء نوعان ٦٥١
الفصل السادس : علو الهمَّة في الحجّ والعُمرة ٦٥٧-٦٦٥
عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ٦٥٧
الحسن بن علي سبط رسول الله ﷺ ٦٥٧
أنس بن مالك رضي الله عنه ٦٥٧
عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه ٦٥٧

مطرِّف بن الشِّخِّير وبكر بن عبد الله المُزَني ٦٥٨
الأسود بن يزيد النَّخعي ٦٥٨
عمرو بن ميمون الأَوْدي ٦٥٨
أبو عثمان النهدي ٦٥٨
سعيد بن المسيّب ٦٥٨
سعيد بن جبير ٦٥٩
زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنه ٦٥٩
مسلم بن يسار ٦٥٩
نافع بن جبير ٦٥٩
طاووس ٦٦٠
عطاء بن أبي رباح ٦٦٠
أيوب السّختياني ٦٦٠
الأوزاعي ٦٦٠
سفيان بن عُيينة ٦٦١
عيسى بن يونس ٦٦١
عبد الله بن وهب إمام أهل مصر ٦٦١
عبد الرحمن بن مهدي ٦٦١
هارون الرشيد أمير المؤمنين رحمه الله ٦٦٢
محمد بن طارق ٦٦٢
الخلدي : جعفر بن محمد بن نُصير ٦٦٣
الحافظ ابن المقرىء : محمد بن إبراهيم الأصبهاني ٦٦٣
الخطيب البغدادي ٦٦٣
الفقيه هيَّاج بن عُبيد إمام الحرم ٦٦٣
ابن قيم الجوزية ٦٦٤
الحافظ البرزالي صاحب التاريخ ٦٦٤
الفهرس ٦٦٧

□ فهرس المجلد الثالث □

الموضــوع — الصفحة

الفصل الأول : علوّ الهمَّة في الذِّكر وتلاوة القرآن ٣-٨٥
فضل الذِّكر في القرآن ٩
أحاديث تشحذ الهمم وتُعليها في تلاوة القرآن والمداومة على الذكر ١٢
في كم يُقرأ القرآن ١٩
آداب التلاوة: من علو الهمَّة في التلاوة مُراعاة آدابها ٢٧
الآداب الظاهرة ٢٧
الآداب الباطنة ٢٧
الأول: فهم أصل الكلام ٢٨
الثاني: التعظيم للمتكلِّم ٢٨
الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس ٢٩
الرابع: التَّدبُّر ٣٠
الخامس: التَّفهُّم ٣١
السادس: التَّخلِّي عن موانع الفهم ٣١
السابع: التخصيص ٣٢
الثامن: التَّأثُّر ٣٢
التاسع: التَّرقِّي ودرجاته ٣٤
العاشر: التَّبرؤ ٣٥
رسول الله ﷺ سيِّد الذاكرين ٣٧
أُبيّ بن كعب سيِّد القُرَّاء: أوَ سمّاني لك الله ؟! ٣٨
ذو النُّورين عثمان بن عفان : يختم القرآن في ركعة ٣٩

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أوَّل من جهر بالقرآن بمكة ٤١
معاذ بن جبل: مقدام العلماء، وأعْلَم الأُمَّة بالحلال والحرام ٤٣
أبو الدرداء رضي الله عنه: صاحب المائة ألف تسبيحة في اليوم!! ٤٤
تميم الداري رضي الله عنه: يختم القرآن في ركعة ٤٤
أبو هريرة رضي الله عنه : يسبِّح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة بقدْر دِيَته!! ٤٥
أبو مسلم الخولاني: من كَثْرة ذِكْره يقول له رجل: أمجنون أنت ؟! ٤٥
الأسود بن يزيد النخعي: يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين ٤٥
الإمام سليم بن عتر: يختم القرآن كل ليلة ثلاث مرات ٤٥
أبو العالية رفيع بن مهران: كنا عبيدًا مملوكين، وكنا نختم في كل ليلة ٤٦
سعيد بن جبير رضي الله عنه: يختم القرآن في كل ليلتين ٤٦
عروة بن الزبير: يقرأ ربع القرآن كل يوم، فما تركه في الليلة التي قُطعت فيها رِجْلُه ٤٦
عبد الله بن مُحيريز: يختم في كلِّ جمعةٍ ٤٦
أبو عبد الرحمن السلمي عبد الله بن حبيب مقرىء الكوفة ٤٧
نافع بن عبد الرحمن أبو رويم المقرىء المدني: يشمّ من فمه دائمًا رائحة المسك ٤٨
قدوة المفسِّرين قتادة: يختم في سبع، وفي رمضان في ثلاثٍ، وفي العشر كل ليلة ٤٨
قاضي المدينة سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن: يحتبي فما يحلّ حبوته حتى يختم القرآن ٤٩
الإمام الرَّبّاني منصور بن زاذان: المتيسّر له تلاوة القرآن !! ٤٩
الإمام الحجَّة حسّان بن عطية: يذكر الله من العصر حتى تغيب الشمس ٤٩
الإمام حمزة بن حبيب الزيات: نظرتُ في المصحف حتى خشيت

أن يذهب بصري ٥٠

أبو جعفر القارئ: عند موته وجدوا بياضًا غُرَّةً بين عينيه، وعند غسله وجدوا ما بين نحره إلى قلبه مثْل ورقة المصحف ٥٠

شيخ الإسلام أبو بكر بن عياش: يختم القرآن عند زاوية في بيته أربعًا وعشرين ألف مرة ٥١

يحيى بن وثاب: أَقْرَأُ مَنْ بال على تراب ، كان إذا قرأ لم تحسّ في المسجد حركة ، واشتهى الأعمش تقبيل رأسه ٥٢

أبو إسحاق السَّبيعي: يقرأ في كلِّ ثلاثٍ ٥٣

الزاهد القدوة كرز بن وَبَرَة: يسأل ربّه ختْم القرآن في اليوم والليلة ثلاث مرات ٥٣

ثابت البُناني: مفتاح من مفاتيح الخير، يقرأ القرآن في يوم وليلة ٥٣

أبو حنيفة النعمان: يختم في كل يوم وليلة، وفي رمضان كل يوم مرتين ٥٣

واصل بن عبد الرحمن البصري: يختم في كل ليلة ٥٤

وكيع بن الجرَّاح: يختم القرآن كل ليلة ٥٤

مسعر بن كدام: لا ينام حتى يقرأ نصف القرآن ٥٤

الحسن بن صالح بن حي الثوري: حكايته وأخيه وأمه، وختْمه القرآن كلَّ ليلة ٥٥

الإمام عبد الله بن إدريس الأودي: نسيج وحده، يُخبر عند موته بختمه القرآن في بيته أربعة آلاف ختمة ٥٥

عبد الرحمن بن القاسم، إمام مصر وصاحب الإمام مالك: يختم كل يوم وليلة ختمتين ٥٥

أمير المؤمنين في الحديث الإمام يحيى بن سعيد القطان: يختم كل ليلة ٥٥

إمام الدنيا وناصر السنة الشافعي: يختم القرآن كل يوم ختمةً ، وفي رمضان ستين ختمة ٥٦

هم الرجال وعيب أن يُقال لمن ... لم يتصف بمعاني وصفهم رجلُ ٥٦
إمام أهل السنة أحمد بن حنبل: يقرأ في كل يوم سُبعًا ٥٧
أبو العباس بن عطاء: له في كل يوم ختمة، وفي شهر رمضان كل يوم وليلة ثلاث ختمات ٥٧
بشر بن الحارث الحافي : وِرْدُه ثلث القرآن ٥٨
عبد الرحمن بن مهدي: ورده كلَّ ليلةٍ نصفُ القرآن ٥٨
الجُنيد : لو بقيتُ ألفَ سنةٍ ما نقصت من أعمال البرِّ ذرَّة ٥٩
عطاء بن السائب: يختم كل ليلة ٦٠
عُمير بن هانىء: يسبِّح كل يوم مائة ألف تسبيحة ٦٠
بكر بن سهل المقرىء: له القَدَح المعلى في ختم القرآن ٦٠
أبو قبيصة الإمام الضبِّي: يختم في يومٍ أربع ختماتٍ ٦٠
الكتَّاني القدوة: يختم في الطواف اثنتي عشرة ألف ختمة ٦١
أبو سهل القطَّان: صار القرآن كأنَّه بين عينيْه ٦١
شيخ نيسابور أحمد بن حرب: يسبِّح والحجّام يُحفي شاربه ٦١
أبو شجاع ابن المقرون البغدادي: تصدَّر للإقراء والتلقين ستين سنة ٦٢
أبو العلاء الهمذاني: يُقرىء القرآن نصف نهاره، ونصفه الآخر للحديث ٦٢
الإمام الشهيد أبو بكر ابن النابلسي: سُمِع من جسده القرآن بعد موته ٦٣-٦٤
أبو بشر ابن حَسْنُويه النيسابوري: يختم القرآن كل ليلة ٦٤
الدَّرْزيجاني الحنبلي: ختم القرآن في ركعةٍ مرّاتٍ كثيرة جدًّا ٦٤
أبو الحسن الباهلي تلميذ الأشعري: كان من شدَّة اشتغاله بالقرآن مثْل مجنون ٦٤
الحافظ ابن عساكر: يختم كلَّ جمعة، وفي رمضان كلَّ يوم ٦٥
الإمام عبد الرحمن بن الخرقي الشافعي: يختم كل يوم، وكرامة طيِّبة له ٦٥
شيخ الإسلام أبو عمر المقدسي: يتلو كل ليلة سُبُعًا في الصلاة، وفي النهار سبعًا بين الصلاتين ٦٥

أحمد بن رضوان بن محمد: يختم ختمتين قبل أن يطلع الفجر ٦٥-٦٦
شيخ الإسلام ابن تيمية: هذه غدوتي .. ولو لم أتغدَّ الغداء سقطتْ قوّتي ٦٦
أنا جنَّتي وبستاني في صدري؛ إن معي كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ٦٧
مساكين أهل الدنيا ، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أجمل ما فيها ٦٨
عالي الهمة يضع نصب عينيه أن العطاء والفضل الذي رتّب على الذكْر، لم يرتَّب على غيره من الأعمال ٧٣
الذكر نوعان ٧٦
من علو الهمة في الذكْر ٨١
﴿فاذكروني أذكركم﴾ لو عرفت قدرها لمُتّ شوقًا إليه ٨٣
ماهان العابد: مات فبقي شهرًا بعد موته ويده على عقد التسبيح مضمومة ٨٤
خالد بن معدان: له كل يوم أربعون ألف تسبيحة ، فيشير بإصبعه للتسبيح على مغسله ٨٥
الفصل الثاني: علوّ الهمّة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنْكر ٨٧-٢٨٩
فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الكتاب والسنة ٨٩
الإمام القدوة أبو الوليد عبادة بن الصامت الخزرجي رضي الله عنه ١٠١
أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: يقول لابن عمر: لا أدخل لكم بيتًا ولا آكُل لكم طعامًا ١٠٢
أبو هريرة رضي الله عنه ١٠٣
أبو ذر رضي الله عنه ١٠٣
صحابي يقتل مَنْ سبَّتِ النبي ﷺ ١٠٤
ابن عباس رضي الله عنهما: يُفحم الخوارج ١٠٤
أبو بكرة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ : أخشى أن أُدرك

زمانًا لا أستطيع أن آمُر بمعروفٍ ١٠٧
عامر بن عبد قيس راهب العرب: لا أرى ذمة الله تُخفر وأنا حيّ ١٠٧
أُوَيْس القرني: إن قيام المؤمن لله بالحق، لم يترك له صديقًا ١٠٧
عبد الله بن مُحيريز بن جنادة: ما ينبغي أن يعدل خوفك من الله بأحدٍ من خلْقه ١٠٨
أبو مسلم الخولاني ومعاوية: السلام عليك أيها الأجير ١٠٨
سيد التابعين سعيد بن المسيّب: لا تملئوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار عليهم ١٠٩
جهْبِذ العلماء الشهيد سعيد بن جبير: اللهم لا تسلِّطه على أحدٍ من بعدي ١١١
الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو: شيخ الإسلام ، وعالم الشام رحمه الله، مواقف خالدة ١١٤
الأوزاعي والمنصور: خُذ لنفسك الأمان من ربك ١١٧
الثوري إمام الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يبول الدم إذا رأى المنكر ولم يتكلم ١٢٠
مالك بن أنس: وصدعه عند السلطان بالحق ١٣٣
مالك والرشيد: «احذرْ بطانة السوء وأهل الردى» ١٣٤
الإمام ابن أبي ذئب محمد بن عبد الرحمن: «من أُرائي ؟! فوالله لَلناس عندي أهونُ من هذا» ١٣٦
إنك لا تعدل في الرعية ١٣٧
محمد بن أوس والرشيد: «الحمد لله الذي جعل في رعية أنا عليها مثلَه» ١٣٨
الليث بن سعد وهارون الرشيد: «ومن رأس العين يأتي الكدَر » ١٣٩
العُمَري ، وما العُمَري ؟! يكلّم الرشيد حتى يبكي ويُغشَى عليه ١٤٠
العمري والرشيد: « فكيف بمن أسرف في مال المسلمين » ١٤٢

« لا يخدعنَّك المدّاحون الزّور » ١٤٢
كرْز بن وبرة: يخرج للأمر بالمعروف ، فيضربونه حتى يغشى عليه ١٤٣
أبو حازم الأعرج سلمة بن دينار: يقول لسليمان بن عبد الملك:
اعرض نفسك على كتاب الله ١٤٤
كيف لنا أن نصلح ما فسد ١٤٥
حلالها حساب ١٤٧
الإفريقي والسفاح: الوالي بمنزلة السوق يُجلب إليه ما ينفق فيه ١٤٧
الحكم بن عمرو الغفاري ووالي العراق زياد بن أبيه: كتاب الله
قبل كتاب أمير المؤمنين ١٤٨
أحد الرعية وعبد الملك بن مروان: «والحاكم عليك عادل» ١٤٨
أحد الرعية وسليمان بن عبد الملك: «اذكر يوم الأذان» ١٤٩
اعرابي وسليمان بن عبد الملك: «وأنت مسئول عما اجترحوا» ١٥٠
سيد أهل اليمن وإمامهم طاووس ١٥٠
أتعلم من أبغض الخلق إلى الله ١٥٠
طاووس وهشام بن عبد الملك: «ما الذي حملك على ما صنعت» ١٥١
عمر بن عبد العزيز ١٥٢
لا تُحي ذكرى الحجَّاج ١٥٢
فكيف سلطانه عند غضبه ١٥٣
زياد العبدي وعمر بن عبد العزيز: «ما أحد من أمة محمد إلا وهو
خصْم لك» ١٥٤
أبو قلابة: «إذا كان الله معك فمن تخاف، وإذا كان عليك فمن
ترجو ؟» ١٥٤
عطاء بن أبي رباح وهشام: «إنك خُلقت وحدك، وتموت وحدك،
وتحشر وحدك ، وتحاسب وحدك» ١٥٥

أعرابي وهشام: «هذا جزاء من يطفّف في الكيل، فما ظنك بمن أخذه كله؟!» ١٥٦
سالم بن عبد الله بن عمر: «ما أعظم ما ابتُليت به يا عمر» ١٥٦
سالم وهشام بن عبد الملك: إني ما سألت الدنيا مَن يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها ؟! ١٥٨
الحسن البصري: «رحم الله الحسن، لا يزال يوقظنا من الرقدة، وينبّهنا من الغفلة » ١٥٨
والإمام العادل يا أمير المؤمنين ١٥٩
إن استقمت استقاموا ١٦١
الحسن والحجاج: «أما أهل السموات فقد مقتوك، وأما أهل الأرض فقد لعنوك» ١٦١
الحسن وابن هبيرة: «إن تك مع الله في طاعته، كفاك يزيد» ١٦٢
الحسن والنضر بن عمرو: «إيّاك والأماني التي ترجحت فيها فتهلك» ١٦٣
خالد بن صفوان وعمر بن عبد العزيز: «إن أقوامًا غرّهم ستر الله» ١٦٥
أحد الرعية وعمر بن عبد العزيز: «ويحك ، اردُدْ عليّ كلامك» ١٦٦
يعلى بن مخلّد والحجّاج: «الحمد لله الذي أراح الأمة بموتك، وأعطاها مناها بخِزْيك» ١٦٦
يحيى بن يعمر والحجاج ١٦٧
رجل من اليمن والحجاج: أما علمتَ أن الله ربي ؟! ١٦٧
عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وأبوه: «ما أنت قائل لربك غدًا إذا سألك ؟» ١٦٨
الخازن وعمر: «إن كان لك عمر شهر، فخذ مشاهرة شهر» ١٦٩
غلام هاشمي وعمر بن عبد العزيز: «لو كان الأمر بالسن، لكان في الأمة من هو أحق منك» ١٦٩

محمد بن واسع وبلال بن أبي بردة: «لا تظلم ولا تحتاج إلى دُعائي» ١٧٠
مالك بن دينار وبلال بن أبي بردة: ما أدري أيُّهما أكرم على الله ؟ ١٧٠
مالك بن دينار والمهلب: «أعرفك حقَّ المعرفة» ١٧١
حطيط الزيات والحجّاج: «أنت خطيئة من خطاياه» ١٧٢
أحد الزهاد وخليفة: «كيف لا تغلب عليك رأفتك» ١٧٢
صالح المري والمهدي: «أحسِنْ الحمل، فقد أحسنتُ إليك الأداء» ١٧٣
صالح بن عبد الجليل والمهدي: «أنت أعلم بموضع النجاة» ١٧٣
حماد بن سلمة ومحمد بن سليمان: «أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدًا» ١٧٥
بهلول المجنون والرشيد: «لا يُعطيك وينساني» ١٧٦
«هذه قصورهم وهذه قبورهم» ١٧٧
ابن السماك والرشيد: «لو مُنعتْ عنك هذه الشربة ؟» ١٧٧
لا يكن أحدٌ أطوع لله منك ١٧٨
هذا ذلّ الصفة فكيف بذلّ المعاينة ؟ ١٧٩
شقيق البلخي والرشيد: «إن لم تفعل في ملكك بدين الله فأنت زعيم أهل النار» ١٨٠
عمرو بن عبيد والمنصور: «أظهر الحقّ يتبعك أهله» ١٨٠
«ليتقربن إليك بالعدل من لا نية له فيه» ١٨١
الفضيل بن عياض: «يا ابن الربيع تقتله أنت وأصحابك، وأرفق به أنا»؟ ١٨٢
هذا كتاب الله بين الدَّفتيْن ١٨٥
عبد الله الخراساني وهارون الرشيد: انظرْ إلى جبار الأرض كيف يتضرع إلى جبار السماء ١٨٦
هارون الرشيد ورجل: «إن كل يوم يمضي من نعمتك ينقص من محنتي» ١٨٦
أسلم مولى عمر وجعفر بن أبي سليمان: «من أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه» ١٨٦

الأمين بن هارون الرشيد: «إن يغفر الله له، فبها» ١٨٦
شيخ الإسلام أبو نعيم الفضل بن دُكين: «عنقي أهون من زرّي هذا» ١٨٧
الإمام الحافظ أبو عثمان، عفان بن مسلم: «لَمْ أسود وجهك ولا وجوه أصحابك» ١٨٨
عبد الله بن مرزوق والمهدي: «مَن جعلك بهذا البيت أحق ممن أتاه من البُعد» ١٩٠
بشر بن الحارث الحافي: «إن الله عز وجل ناظر إليك وإلى ما تعمل» ١٩١
الإمام أحمد بن حنبل: جبل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٩١
مواقف الربانيِّين تحيي الأمة «قد مات في حديدهم أقوام» ١٩٣
الإمام البويطي: «لأموتن في حديدي هذا» ١٩٤
الإمام نعيم بن حماد: يُدفن في قيوده ويقول: «إني مخاصم» ١٩٥
الإمام الخزاعي: قال رأسه حين قُتل: لا إله إلا الله ١٩٥
شيخ شامي يلقم كبير المعتزلة حجرًا ١٩٦
ابن الجوزي والمستضيء بالله: «أنا أقدم خوفي عليك من خوفي منك» ١٩٩
الغزالي والسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي: «في كل زمان تقتدي الرعية بالسلطان» ٢٠٠
البخاري وأمير بخارى: «إني لا أذل العلم» ٢٠١
النوري: ولّاني الحسبة الذي ولّاك الإمامة ٢٠٢
شيخ الإسلام المحدث بُنان الحمال: كنت أتفكر في سؤر السباع ولعابها ٢٠٣
شيخ الإسلام ابن الحطيئة: «أتشرب في مجلس الحديث في آنية الفضة ؟! لا والله» ٢٠٣
شيخ الإسلام الهروي الأنصاري: عُرض على السيف خمس مرات ليسكت عمن خالفه فلا يسكت ٢٠٤

الحافظ الأثري عبد الغني المقدسي: «قال عنه الملك العادل: لما دخل عليّ، خُيل إليّ أنه سَبُع» ٢٠٧
العماد المقدسي جوهرة عصره: يضربه الفُسَّاق حتى يُغشى عليه» ٢١٠
أسد الشام اليونيني: يقول للملك المعظم: لا تكن نحسًا مثل أبيك ٢١٠
البربهاري شيخ الحنابلة: كانت له مجاهدات ومقامات في الدين ٢١١
سلطان العلماء وبائع الملوك والأمراء: آية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢١١
أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر للملك الأشرف موسى بن الملك العادل ٢١٢
إنكاره على ملك دمشق التنازل عن ديار المسلمين، وعقْد الصلح مع الفرنجة ٢١٣
«والله يامسكين، ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلًا أن أقبِّل يده. يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ» ٢١٥
قال ملوك الفرنج عن ابن عبد السلام: «لو كان هذا قسيسنا لغسلْنا رجليْه وشربنا مرقته» ٢١٦
عالمٌ تهابه الملوك والمبتدعة ٢١٦
ابن عبد السلام ونجم الدين أيوب: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وجدْنا آباءَنا على أمَّةٍ﴾ ٢١٨
أمراء للبيع ٢١٩
أمره بالمعروف أيّام قطز ٢٢٢
ابن دقيق العيد: يُقبّل السلطانُ يدَه فيقول له: هذا خيرٌ لك، هذا ينفعك ٢٢٢
الإمام النووي وبيبرس: لا يضرني التهديد ولا أكبر منه ٢٢٣
بين الإمام النووي وابن النجار: «ياظالم نفسه، من طلب رضا الله تردُّه ترهاتك ؟! » ٢٣٧

شيخ الإسلام ابن تيمية: آية من آيات الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٤٥
حديث ابن تيمية مع قازان: أبوك وجدُك كانا كافرين، وما عَمِلا الذي عَمِلتَ ٢٤٦
ابن تيمية والأحمدية الرفاعية ٢٥١
ابن تيمية يُخزي دجاجلة البطائحية ٢٥٢
نهي الشيخ لهم عن التعبُّد بما لم يشرعه الله ٢٥٤
التقرُّب إلى الله بفعل المباح والمكروه والحرام ٢٥٥
العهود التي تؤخذ على الناس مخالفة للكتاب والسنة ٢٥٥
نفاقٌ ومداهنةٌ ٢٥٦
شيخ الإسلام يطلب شيخهم للمناظرة ٢٥٧
رفضهم للحِجَاج وإظهارهم الدَّجل والتهريج ٢٥٧
بين البطائحية والأمير ٢٥٨
نصح شيخ الإسلام لهم ٢٥٨
الأمير يُصرّ على كشْف باطلهم ٢٥٩
شيخ الإسلام يستنصر ربَّه، ويعزم على دخول النار لكشف زور الرفاعية ٢٥٩
استثارتهم للناس وجمعهم الأعوان والأنصار ٢٦٠
سبب انتشارهم في ديار الإسلام ٢٦٠
أنصار الباطل ٢٦٠
كذبهم على الشيخ، وفضح الشيخ لهم وكشف باطلهم ٢٦١
الشيخ مستعدٌّ لدخول النار لكشف باطلهم ٢٦٢
حِيلة دخول النار ٢٦٢
الأمير يصرُّ على البيان ٢٦٣
ردُّ الشيخ عليهم في بدعة لُبْس أطواق الحديد ٢٦٥

لا يجوز الخروج على الشريعة بحال ٢٦٦
الباطن والظاهر محكوم بالكتاب والسنة ٢٦٦
ادّعاء الخوارق ٢٦٦
الخوارق ليست دليل الصلاح والتقى ٢٦٧
وقع الحقُّ وبطل ما كانوا يعملون ٢٦٨
استخدام القوة إنْ لم تنفع الحجّة ٢٦٨
لا يُقرُّ أحد على إظهار المنكر في ديار الإسلام ٢٦٩
ذمّ المبتدعة ٢٦٩
البدعة شرٌّ من الزنا والمعاصي ٢٧٠
ابن تيمية والملك الناصر محمد بن قلاوون: «إن ملْكك ومُلك المغلّ لا يساوي عندي فِلسيْن» ٢٧٢
الطرطوشي وأمير مصر: «افتح الباب وسهّل الحجاب» ٢٧٦
الشيخ شمس الدين والسلطان بايزيد: «إنك تارك للصلاة مع الجماعة» ٢٧٧
الشيخ عبد الحميد الجزائري والمندوب السامي: «خير لك ألا تتعرض للأمة في دينها» ٢٧٧
أبو غياث الزاهد والأمير: «إنك إنْ ولّيتَني عزلتَني، وإذا ولّاني ربي لم يعزلني أحد» ٢٧٨
الشاطبي والأمير موسك: «قلْ للأمير نصيحة» ٢٧٩
أحد علماء الأزهر والخديوي إسماعيل: «منك يا إسماعيل، لا منا» ٢٧٩
الشيخ العدوي أمام السلطان: «ذكَر دينه، ونسي دنياه» ٢٨١
الشيخ العدوي أمام المحكمة: «لم يعد جديرًا بأنْ يحكمنا» ٢٨٢
أحد علماء الأزهر والسلطان: «من يمدُّ رجلَه لا يمد يده» ٢٨٣
صاحب الظلال أسكنه الله ظلال الجنة ٢٨٣

قافلة النور تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر فتبتلى ٢٨٤
فأما من ضُرب من كبار العلماء ٢٨٤
إلى الله نشكو أهل الممالك من أهل ملتنا ٢٨٥
أبو النصر وعامل للخليفة: «كتاب الله قبل كتاب الخليفة» ٢٨٨
أبو سعيد الضبعي ومحمد بن سليمان: ﴿لِمَ تقولون ما لا تَفْعلون﴾ ٢٨٩
الفصل الثالث : علو الهمة في الجهاد ٢٩١-٥٠٤
فضل الجهاد في الكتاب والسنة ٢٩٣
شعر ٣٠٧
أعلى الناس همّةً في الجهاد رسولنا ﷺ ٣٠٩
أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ثاني اثنين، وثبات قلبه عند الردة ٣١١
الفاروق: الذي تفرُّ شياطين الإنس والجن منه ٣١٢
أبو محمد طلحة بن عبيد الله: «لو قلتَ باسم الله لرفعتك الملائكة» ٣١٤
الزبير بن العوام: حواري الرسول ﷺ ٣١٧
الإمام الضرعام أسد الله أبو عمارة حمزة بن عبد المطلب ٣٢٤
ولكن الإسلام ودياره لا بواكي له ولها ٣٢٨
وهذي صرخات طفلة من البوسنة ٣٢٨
يا سيدي فلأعترف ... «قصيدة» ٣٣٠
البطل الكرّار البراء بن مالك: لا تستعملوا البراء على جيش فإنه مهلكة ٣٣٦
علَم المجاهدين جعفر بن أبي طالب: ذو الجناحين، السيد الشهيد رضي الله عنه ٣٣٨
عبد الله بن رواحة بن ثعلبة: الأمير السعيد الشهيد ٣٣٩
أبو دجانة الأنصاري سماك بن خرشة: لا يقوم الدهر في الكبول ٣٤٢
مجزأة بن ثور السدوسي: يقتل مائة مبارزة في فتح «تستر» ٣٤٣
ثابت بن قيس خطيب الأنصار: يقاتل بكفّيه يوم اليمامة ٣٤٣

نعيم بن مالك: لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده، لَأدخلنَّها ٣٤٦
عبد الله بن عمرو بن حرام: الصحابي الذي كلمه الله كفاحًا. قال: «إني معرضٌ نفسي للقتل» ٣٤٦
سعد بن الربيع رضي الله عنه: «لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم، ومنكم عين تطرف» ٣٤٧
المقداد بن عمرو فارس بدر: اذهبْ أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ٣٤٨
أبو طلحة الأنصاري: «لصوتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من ألف رجل» ٣٩٤
عمرو بن الجموح: «اللهمَّ لا تردني .. والله لأقحزن عليها في الجنة» ٣٥١
ابن أم مكتوم: ادفعوا إلي اللواء، فإني أعمى لا أفر ٣٥٢
الطيب المطيب عمار بن ياسر: أمن الجنة تفرون ؟! ٣٥٣
عكرمة بن أبي جهل: «من يبايع على الموت ؟» ٣٥٤
أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو: ما سعيد يوم اليرموك إلا مثل الأسد ٣٥٥
حكيم الأمة أبو الدرداء: يرد من على الجبل من فرسان قريش وحده ٣٥٨
أبو أيوب الأنصاري: شوْق عارم إلى الجهاد لا يحدّه حدّ ٣٥٨
أبو أيوب الأنصاري السيد الخزرجي النجّاريّ البدري ٣٥٨
أبو الغادية: الصحابي الذي قتل بسهم واحد ثلاثمائة رومي في وقت واحد ٣٥٩
الصحابي الجليل سلمة بن الأكوع ٣٥٩
خذها وأنا ابن الأكوع والیوم يوم الرضّعْ ٣٦٢
نامي إلى يوم النشور ويوم يُؤذن بالقيام ٣٦٥
فارس رسول الله ﷺ أبو قتادة: «خير فرساننا أبو قتادة» ٣٦٦
البطل عكّاشة بن محصن: يقتل فارسَين بطعنةٍ واحدة ٣٦٨

لله ما أعظم شوقهم للشهادة والجنة ٣٦٨
عُمير بن الحمام: «إنها لحياة طويلة.. إنْ حييتُ حتى آكل تمراتي هذه» ٣٦٨
حرام بن ملحان: فزتُ وربِّ الكعبة ٣٦٩
حنظلة غِسِّيل الملائكة ٣٦٩
أنس بن النضر: «الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد» ٣٧٠
سيد الأنصار سعد بن معاذ: «إنا لصبُر في الحرب، صدق عند اللقاء» ٣٧٠
«والله لانعطيهم إلا السيف» ٣٧١
الأنصار أكثر الناس شهيدًا ٣٧٢
سعد بن خيثمة: «لو كان غير الجنة آثرتُك به» ٣٧٣
أبو عقيل عبد الرحمن بن ثعلبة: أنا من الأنصار، وأنا أجيبه ولو حبوًا ٣٧٣
أبو يحيى صهيب الرومي الرابح بيْعه: «ثم أصير بعدُ إلى السيف فتعلمون أني رجل» ٣٧٦
عبد الله بن أنيس: قاتل خالد بن سفيان الهذلي ٣٧٧
أبو سنان وهب الأسدي: أول من بايع تحت الشجرة ٣٧٨
أمير المؤمنين، وفارس الخلفاء عبد الله بن الزبير: لا ينازع في الشجاعة ٣٧٩
قتْل عبد الله بن الزبير لملك إفريقيةَ «جُرْجير» ٣٧٩
بُسْر بن أرطاة القرشي: رب فتح قد فتحه الله على يديه ٣٨٣
عبد الله بن الزبير بن المطلب: يقتل عشرة من الروم ثم يُقتَل وقائم السيف في يده ٣٨٥
واثلة بن الأسقع: يلقي الرعب في كتيبة من الروم قبل فتح دمشق ٣٨٥
جُليبيب رضي الله عنه: «هذا مني وأنا منه» ٣٨٦
قائد مجاهدي العيص أبو بصير: «ويل أمِّه مسعر حرب لو كان له أحد» ٣٨٧
كعب بن مالك: يخَوّف دوْسًا ببيت شعر، فتسلم ٣٩٠

يهودُ ولا عليّ لهم ٣٩٢
البطل، بل حيدرة الأبطال عليّ بن أبي طالب ٣٩٢
قتْل عليّ لعمرو بن عبد وُدّ فارس قريش في يوم الأحزاب ٣٩٣
عليٌّ صاحب الراية يوم خيبر، الذي يفتح الله عليه ٣٩٦
الحُباب بن المنذر بن الجموح: حامل اللواء أمام حصن «الصعب» بخيبر ٣٩٩
محمد بن مسلمة الأنصاري: قاتل طاغية اليهود كعب بن الأشرف ٤٠١
قتل عبد الله بن عتيق الأنصاري للملك خيبر أبي رافع سلام بن أبي الحقيق ٤٠٤
معاذ بن جبل: مقدام العلماء الفارس البطل رضي الله عنه ٤٠٦
الأزد، وما أدراك ما لأزد ؟! ودوْس، وما أدراك ما دوْس ؟ ٤٠٨
جندب بن عمرو بن حممة: يا معشر الأزد، إنه لا يمنع الراية إلَّا الأبطال ٤١٠
أبو هريرة رضي الله عنه: يا مبرور ، يا مبرور ٤١٠
قباث بن أشيم: قائد الميسرة في اليرموك ٤١١
الأشتر النخعي: مالك، وما مالك؟ وهل موجود مثل ذلك؟! ٤١١
عمرو بن سعيد بن العاص: شهيد «فحل» وبطلها ٤١٢
قيْس بن هبيرة: قائد ميمنة الفرسان في فحل، وبطل من اليرموك .. ٤١٣
أين تدعون الجنة وتأتون قرحًا والحِجْر ؟ ٤١٣
في اليرموك ٤١٥
ميسرة بن مسروق العبسي: الشيخ البطل ٤١٧
أبو سفيان بن حرب وابنه يزيد: «يانصر الله اقتربْ» ٤١٧
القادسية، وما أدراك ما القادسية ؟ ٤٢٠
جوائز من عمر لأُسْد القادسية ٤٢١
طليحة بن خويلد الأسدي: من يُضْرب بشجاعته المثل ٤٢٢
لم أرَ ولم أسمعْ بمثل هذا: قصة تكتب بماء الذهب ٤٢٦

من فرسان العرب في الإسلام ٤٢٧
فارس اليمن أبو ثور عمرو بن معد يكرب ٤٢٧
بطل القادسية: ومن يستطيع أن يصنع كما تصنع ؟! ٤٢٩
أبطال من القادسية وكلمات للحياة ٤٣١
أبطال من القادسية يقاتلون الفيلة ٤٣٥
القعقاع وعاصم ابنا عمرو للفيل الأبيض، وحمّال بن مالك والربّيل بن عمرو للفيل الأجرب ٤٣٦
هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص: المرقال الأسد قاتل الأسود ٤٣٨
في اليرموك ٤٤٠
في القادسية ٤٤١
قتل أسد كسرى في مظلم ساباط ٤٤٢
جلولاء ٤٤٣
أبو محجن بن حبيب الثقفي: الصَّبْرُ صَبْرُ البلقاء، والطعن طعن أبي محجن ٤٤٦
ضرار بن الخطاب القرشي: فاتح ماسبذان بإيران ٤٤٨
نعيم بن مقرن المزني: فاتح همذان والريّ ٤٥١
في همذان ٤٥١
في واج روذ ٤٥٢
فتح الري ٤٥٤
البراء بن عازب الأوسي الأنصاري: فاتح قزوين ٤٥٥
ذو النور عبد الرحمن بن ربيعة: غازي الترك الذي تمنعه الملائكة من الموت ٤٥٧
سلمان بن ربيعة الباهلي: سلمان الخيل : ٤٥٨
الحارث بن قموم البهزي: بطل بني سليم في القادسية ٤٥٩

يعفور بن حسان الزهري: من أبطال القادسية ٤٦٠
غالب بن عبد الله الأسدي: يأسر هرمز ملك الباب ٤٦٠
علباء بن جحش العجلي: يقاتل بعد خروج أمعائه ، قصة لا تُنْسَى ٤٦٠
هلال بن علفة التيمي: قاتل رستم ٤٦١
قتل الفرس وذلّهم ونزول رايتهم «در فش كابيان» إلى الأبد ٤٦٢
ضرار بن الخطاب القرشي: المسقط راية الفرس للأبد ٤٦٣
سقَط ملْكُ بني ساسان على يد الأُسُود الموحِّدين ٤٦٤
«لا صلح أبدًا حتى نأكل عسل إفريزين بأترج كوثى» ٤٦٥
أبو نباتة نائل بن جعشم: قاتل قائد الجيش في «كوثى ، وشهريار»:
لا يقتلك إلا عبد ٤٦٧
النعمان بن مقرن المزني: قائد فتح الفتوح ٤٦٩
في نهاوند ٤٧٠
الجراح بن عبد الله الحكمي: مقدّم الجيوش، وفارس الكتائب ٤٧٧
الأمير الكبير رأس الشجعان والأبطال أبو محمد عبد الله البطال:
«خذه يابطال»، قصة أغرب من الخيال ٤٧٨
فارس المغرب ابن فتحون: «اشرب وإلا ابن فتحون رأيت في الماء» ٤٨٢
ابن الجزري: شجاعته، وقصة مبارزته لفارس الروم ٤٨٤
شيخ الإسلام بقي بن مخلد: يشهد سبعين غزوة ٤٨٥
المنبجي: وعلو همته في الغزو ٤٨٦
الإمام الزاهد شقيق البلخي: يرى نفسه في يوم القتال مثله في الليلة
التي زفَّتْ فيها امرأته ٤٨٦
فارس الإسلام الإمام السرماري: وما السرماري ؟! ٤٨٧
قال عنه البخاري تلميذه: «ما بلغنا أنه كان في الإسلام ولا في
الجاهلية مثله » ٤٨٧

أخبار السرماري تسرُّ القلب: يقتل بسيفه ألف تركي ٤٨٨
الإمام الحافظ الغازي محمد بن علي القصَّاب: سُمّي بالقصاب لكثرة ما قتل ٤٨٩
الأمير عبد الوهاب بن بخت: هَلُمُّوا إلى الجنة، ويْحكم، أفرارًا من الجنة ؟! ٤٩٠
محمد بن عبد الله بن حوذان: قال له رسول ملك الترْك: تحوّل إلينا، فنرفض صنمنا ونعبدك ٤٩٠
النضر بن راشد العبدي: لو أعولتْ عليّ كل أنثى، لعصيتها شوقًا إلى الحور العين ٤٩١
لكنّ الذي أكرمهم بالشهادة يعرفهم ٤٩١
حسن أولوبادلي: أول مسلم وطيء أرضَ القسطنطينية ٤٩٢
الشيخ سعيد ملّا الكردي: يا جنرال، سوف نصفّي حسابنا يوم الحساب الأخير ٤٩٣
الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي ٤٩٥
إن الذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مرفوض ٤٩٦
وبعدُ ٤٩٦
ملكنا هذه الدنيا القرونا ٤٩٧
رفيق صلاح الدين هل لك عودة فإن جيوش الروم تنهى وتأمر ٤٩٩
لنا الفَجْر الآتي ٥٠٢
الفصل الرابع : علو همة القادة ٥٠٥-٦٦٣
قصيدة ٥٠٧
أبو عبيدة بن الجراح: أمين هذه الأمة، وفاتح بلاد الشام ٥٠٩
رابين يتساءل: إن كان عرفات يهوديًّا ؟ ٥١٨
في موقف العشق يا قدس ٥١٨

الأمير أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص: خال رسول الله ﷺ بطل
القادسية وقائدها ٥٢٦
فتح البيت الأبيض ٥٣٤
عبور لا مثيل له في التاريخ ٥٣٤
يوم الجراثيم ٥٣٦
ما تقاتلون إلا الجن ٥٣٧
الفاتح العظيم ٥٣٨
خالد بن الوليد القرشي المخزومي: سيف الله تعالى وفارس الإسلام ٥٤٠
في مؤتة: خطة انسحاب تفوق الخيال وتدلُّ على عبقرية حربية ٥٤١
في فتح مكة: إذْ فرّ صفوان وفرّ عكرمة ٥٤٥
خالد يقتل العزَّى ويهدمها: يا عُزّ كفرانك لا سبحانك ٥٤٦
هدم خالد لوُدّ: لله درُّ خالد محطِّم الأوثان ٥٤٨
أسرُه لأكيدر، صاحب دومة الجندل ٥٤٨
خالد وحروب الردّة: ما قام أحد مقام خالد في القضاء على المرتدين ٥٤٩
مع طُليحة في بزاخة ٥٤٩
في اليمامة مع مسيلمة الكذّاب ٥٥٠
هازم الفرس في أرض العراق ٥٥١
«كاظمة» ميدان المعركة الأولى مع الفرس ٥٥١
وإنه لذكرلك ولقومك: سابور ذو الأكتاف يقتل خمسين ألف عربي
بنزْع أكتافهم، فلمَّا جاء الإسلام كان ماذا ؟ ٥٥٣
معركة الأُبُلَّة وفرار الفرس من اسم خالد ٥٥٤
الخريبة: «إني أرى هيئة قوم ألقى الله في قلوبهم الرعب» ٥٥٥
الجولة الثالثة: معركة المذار وقتل قوّاد الفرس الثلاثة ٥٥٥
الولجة أو (واترلوا الفرس): علو همة في التخطيط يستفيد منها القادة ٥٥٦

معركة «أُلَّيْس» أو نهر الدم، الجولة الرابعة بين خالد والفرس ٥٥٨
اللهم إنّ لك عليّ إن منحتَنا أكتافهم، ألا أستبقي منهم أحدًا حتى
أُجري نهرهم بدمائهم ٥٦٠
أعجزت النساء أن ينشّئن مثل خالد ٥٦٠
يوم أمغيشيا : نَصرَ الله خالدًا بالرعب ٥٦١
معركة المقر، واستسلام الحيرة ٥٦١
وليُّ الله خالد يشرب السمَّ فلا يضرّه ٥٦٢
أهل السواد يصالحون خالدًا على الجزية ٥٦٣
إعجاز عسكري: فتح خالد ثلثي العراق خلال أربعين يومًا ٥٦٣
معركة الأنبار وفقْءُ ألف عين من الكفار ٥٦٣
خالد يختطف القائد العام للنصارى من قلب صفّه في معركة عيْن
التمر ، أول حادثة من نوعها في التاريخ ٥٦٤
خالد صاحب المفاجآت، ومعاركه الليلية ٥٦٦
معركة المصيخ ٥٦٦
الثني والزميل ٥٦٧
خالد هازم الروم والفرس ونصارى العرب في معركة الفِراض ٥٦٨
خالد قمة في الطاعة والانضباط العسكري ٥٦٩
حرب المفاجآت ٥٧٠
وفي واقعنا المعاصر: تحطمت الطائرات عند الفجر ٥٧١
في الطريق إلى الشام: قطع البرية السماوية في خمس ليال ٥٧١
خالد لها، والله لأُنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ٥٧٤
فتح تدْمُر ٥٧٤
فتح القريتين وحوارين ٥٧٥
مرج راهط ٥٧٦

فتح بصرى: جزية بصرى أول جزية بالشام في عهد الصديق .. ٥٧٦
أجنادين يوم من أيام خالد ٥٧٨
مرج الصفر ٥٨١
وفاة الصديق رضي الله عنه وعزْل عمر لخالد من قيادة الجيش ٥٨٢
خالد في معركة فحْل بَيْسان: حديث ومَثَل لمن حضره ٥٨٢
قتل خالد للبطريق الرومي «توذرا» ٥٨٤
فتح دمشق: «خالد لا ينام ولا يُنيم» تسلق الأسوار بسلالم من الحبال ٥٨٤
اليرموك .. خالد يشرب من دم الروم ٥٨٧
البطل يُؤمِّر نفسه ٥٨٨
«إنا قوم نشرب الدماء، وإنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك» ٥٨٩
يا خالد، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا فأعطاكه ؟! ٥٩٢
قنسرين وكلمات خالد الخالدة : «لو كنتم في السحاب لحملَنا الله إليكم أو أنزلكم إلينا » ٥٩٥
خالد المطيع لقائده ٥٩٦
خالد القائد ٥٩٧
خالد يحتبس أدراعه وأعْتَدَهُ في سبيل الله ٥٩٨
يا خالد ٦١٦
الصحابي المغوار، المثنَّى بن حارثة ٦١٦
في حروب الردة ٦١٦
«من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟!» ٦١٧
في الفتح ٦١٧
مع خالد ٦١٩
المثنَّى القائد العام : «الصديق أعطى القوس باريها» ٦١٩

□ فهرس المجلد الرابع □

الموضــوع | الصفحة

تابع : علو همة القادة
السيد الولي العلاء بن الحضرمي الصحابي ، فاتح « البحرين » ... ٣
الصحابي الزاهد عُتبة بن غزوان ، فاتح جنوب العراق ... ٩
القائد الفاتح ... ١٠
قِتالٌ آخر مقدار جَزْرِ جزور ... ١٢
عاصم بن عمرو التميمي ، فاتح « سجستان » ، وقائد كتيبة الأهوال ١٤
في القادسية ... ١٦
في فتح المدائن ... ١٩
في البصرة وفارس ... ٢١
عاصم الفاتح ... ٢١
الأحنف بن قيّس التميمي ، فاتح قاشان وخراسان ... ٢٢
الفاتح ... ٢٣
استعادة فتح خراسان ... ٢٦
عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، الصحابي ، فاتح إفريقية (تونس) ٢٨
غزوه للنوبة ... ٣٠
في قبرص ... ٣٠
في غزوة ذات الصواري ... ٣٠
القائد الصالح مُجَابُ الدعوة : عُقبة بن نافع ... ٣٢
١ - في مصر وليبيا ... ٣٢
٢ - من ليبيا إلى القيروان ... ٣٢

بناء عقبة للقيروان ، وما كان فيها من الكرامات ٣٥
من القيروان إلى المحيط ٣٧
البطل شهيدًا في « تهوذة » على يد البربر ٤٠
موسى بن نصير فاتح المغرب الأقصى والأندلس ٤٢
فتح طنجة ٤٣
جهاده في البحر ٤٤
فتح الأندلس ٤٤
فتح شمال الأندلس ٤٦
وفي واقعنا ٥٣
فاتح الأندلس : طارق بن زياد ٥٤
ونحن يا طارق ٥٧
يا مدريد « شعر » ٥٨
قتيبة بن مسلم الباهليُّ ، فاتح خوارزم وبُخارى وسمرقند ٥٩
الفتوح ٦١
غزو « بيْكَنْد » ٦٢
فتح بُخارىٰ ٦٧
غزو « شومان » و « كس » و « نسف » ٧٤
صُلْح قتيبة مع ملك خوارزم شاه ٧٦
يوم سمرقند سنة ثلاث وتسعين هجرية ٧٧
غزو « الشاش » و « فرغانة » ٨٤
نهاية فتوح قتيبة : فتح « كاشغر » ، وغزو الصين ٨٥
الأمير الضرغام قائد الجيوش ، الجرادة الصفراء أبو سعيد مَسْلمة ابن عبد الملك ٩٠
صلاح الدين سيد المجاهدين ، وبطل حِطِّين ، ومحرر القدس من أيدي الصليبيين ٩٣

حطين مجزرة الصليبيين ٩٥
فتْح بيت المقدس ١٠٣
فتوحات بعد فتْح القدس ١٠٧
شغفُه بالجهاد ١١٠
بيروت .. في اليمِّ ماتتْ .. « شعر » ١١٢
صبره واحتسابه في الجهاد ١١٣
فأين صلاح ؟! « واقدساه » .. ولا صلاح لها !! ١١٦
المدن والحصون التي فتحها صلاح الدين من ديار الفرنج ١١٦
فهل دريتَ الآن ؟! ١١٨
حسام الدين لؤلؤ العادلي : الأسد الضرغام ١٢٠
السلطان محمد بن مراد الفاتح : فاتح القسطنطينية ١٢٤
هذي الديار .. « شعر » ١٣٢
حروبه وفتوحاته ١٣٤
القبو الزجاجيُّ .. « شعر » ١٣٨
الفصل الأول : علّو الهمة في حفظِ الوقت ١٤٩-١٨٦
الغيرة القاتلة على الوقت عند العابد ١٥٤
جميع المصالح تنشأ من الوقت ١٥٦
الناكصون على أعقابهم وإضاعة الوقت ١٥٧
واعجبًا من مُضيِّع لحظة !! ١٦٣
إيَّاك وقُطَّاع الطريق إلى الآخرة ١٦٣
الخلْطة مضيعة للوقت ، مُفسدة للقلب ١٦٤
تعوُّذ ابن الجوزي من صحبة البَطَّالين ١٦٥
العجَبُ العُجَاب عند عُبيد بن يعيش !! ١٦٧
ابن جرير الطبري آية من الآيات في حفظ الوقت ١٦٧

ابن عقيل وابن الجوزي غاية الغايات في حفظ الوقت ١٦٩
شيخ الإسلام ابن تيمية ١٧٢
الفخر الرازي ١٧٣
الحافظ الأثري عبد الغني المقدسي ١٧٣
ابن سُكينة واختصار السلام ١٧٤
شيخ الإسلام مجْد الدين : أبو البركات ابن تيمية ١٧٤
المنذري يبلغ النهاية في حفظ وقته ١٧٥
النووي ١٧٥
ابن النفيس ونفاسة وقته ١٧٦
الإمام ، الشمس ؛ الأصبهاني : إمام في حفظ الوقت ١٧٦
ابن عساكر حافظ الدنيا ١٧٧
لفتة الكبد ١٧٩
لا عمل إلَّا في الشباب ١٨٠
شبابٌ سبهْلل ١٨١
الفصل الثاني : علو الهمة في الخوف والرجاء ١٨٧-٢٤٤
الخوف والرجاء جَنَاحان ١٨٩
والخوف على درجات وأنواع ١٩١
الدرجة الأولى : الخوف من العقوبة ١٩١
الدرجة الثانية : خوف المكر ١٩١
وأغلب المخاوف خوف الخاتمة ١٩١
وأعلى الأقسام وأدلّها على كمال المعرفة خوف السابقة ١٩٢
الخوف من عذابه وأَخْذه ١٩٢
الخوف منه ١٩٢
سيِّد الخائفين : رسول الله ﷺ ١٩٢

خليل الرحمٰن : إبراهيم عليه السلام ١٩٣
آدم وداود عليهما السلام ١٩٣
جبريل وميكائيل عليهما السلام ١٩٤
عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٩٤
أبو عبيدة بن الجرَّاح ١٩٤
ابن عباس رضي الله عنهما ١٩٤
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ١٩٤
عبد الله بن عمرو بن العاص ١٩٤
شدَّاد بن أوس ١٩٤
الربيع بن خُثيم ١٩٦
ربيع بن خراش ١٩٦
ربعي بن خراش ١٩٦
غزوان الرقَّاشي ١٩٦
الحسن البصري ، سيِّد البكَّائين ١٩٧
طاووس ١٩٨
سفيان الثوري ١٩٨
مسْعر بن كدام ٢٠٠
مالك بن مغول ٢٠٠
مطرِّف بن عبد الله الشِّخِّير ٢٠٠
يزيد بن مرثد ٢٠١
مالك بن دينار ٢٠١
عطاء السليمي ، رحمه الله ٢٠٢
هشام الدستوائي ٢٠٣
عبد الله بن المبارك ٢٠٤

الفُضَيل بن عياض ٢٠٥
علي بن الفضيل : قتيل القرآن ٢٠٦
الموت من خشية الله ٢٠٨
زرارة بن أوفى ٢٠٨
أبو جهث ٢٠٩
العمى من كثرة البكاء ٢٠٩
العلاء بن زياد ٢١٠
علي بن بكّار ٢١٠
والترمذي ٢١٠
الغشيُ من كثرة البكاء ٢١٠
عبد الله بن وهب إمام أهل مصر ٢١٠
الشافعي ٢١١
وسيم البلخي ٢١١
سعيد بن عبد العزيز ٢١١
عمر بن عبد العزيز ٢١٢
الأوزاعي ٢١٣
الحسن بن صالح بن حي ٢١٣
منصور بن المعتمر ٢١٤
الجوْني ٢١٤
إمام أهل السنة : أحمد بن حنبل ٢١٤
محمد بن كعب القرظي ٢١٥
الضحّاك بن مُزاحم ٢١٥
محمد بن المنكَدِر ٢١٥
هارون بن رئاب ٢١٦

يحيى بن أبي كثير ٢١٦
يزيد بن هارون ٢١٦
حمَّاد بن عبد ربِّه ٢١٦
حسان بن أبي سنان ٢١٦
زياد بن جرير ٢١٧
سهل بن علي المروزي ٢١٧
عبد العزيز بن سليمان ٢١٧
عُتبة الغلام ٢١٨
عبد العزيز بن أبي رواد ٢١٨
السري السقطي ٢١٨
يحيى بن معاذ ٢١٩
الجُنَيْد ٢١٩
عمرو بن قيس المُلائي ٢٢٠
داود الطائي ٢٢١
فتحٌ الموصلي : يتقرَّب إلى الله بطول خوفه وحزنه ٢٢١
عابد ٢٢٢
محمد بن واسع زيْنُ القرَّاء ٢٢٢
بشر بن منصور ٢٢٣
يحيٰ البَكَّاء ٢٢٣
صالح المرِّي ٢٢٣
عابد ٢٢٤
قصة ابن السَّمَّاك مع عابد ٢٢٤
منصور بن عمار الواعظ ، وعابد من واسط ٢٢٦
الرجاء ٢٢٨

الرجاء على درجات ٢٣٠
الدرجة الأولى ٢٣٠
الدرجة الثانية ٢٣١
الدرجة الثالثة ٢٣١
الفصل الثالث : علو الهمة في الزهد ٢٤٥-٣١٩
الدنيا عدوَّة لله عزَّ وجل ٢٤٧
الزهد على ثلاثة أوجه ٢٤٧
الأول : تَرْك الحرام ٢٤٧
الثاني : ترك الفضول من الحلال ٢٤٨
الثالث : ترك ما يشغل عن الله ٢٤٨
متعلّق الزهد ستةُ أشياء ٢٤٨
درجات الزهد : الدرجة الأولى : الزهد في الشبهة ٢٥١
الدرجة الثانية : الزهد في الفضول ٢٥١
الدرجة الثالثة : الزهد في الزهد ٢٥٢
يتفاوت الزهد على درجات ثلاث ٢٥٤
الدرجة الأولى ، وهي السفلى منها : أن يزهد في الدنيا ٢٥٤
الدرجة الثانية : الذي يترك الدنيا طوعًا لاستحقارهِ إيَّاها ٢٥٤
الدرجة الثالثة ، وهي العليا : أن يزهد طوْعًا ٢٥٤
انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه على ثلاث درجات ٢٥٤
الدرجة السفلى : أن يكون المرغوب فيه هو النجاة من النار ٢٥٤
الدرجة الثانية : أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه ٢٥٥
الدرجة العليا : ألَّا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه ٢٥٥
سيد الزاهدين : رسول الله ﷺ ٢٥٥
موسى عليه السلام ٢٥٨

عيسى ابن مريم عليه السلام ٢٥٩
يحيى بن زكريا عليهما السلام ٢٦٠
سليمان بن داود عليهما السلام ٢٦١
المتقشِّف المحزون : عثمان بن مظعون رضي الله عنه ٢٦١
العابد الزهيد ، والقانت الوحيد : أبو ذرّ الغفاري رضي الله عنه ٢٦٢
مُصعب بن عُمير رضي الله عنه ٢٦٣
سلمان الفارسي رضي الله عنه ٢٦٤
عثمان بن عفان رضي الله عنه ٢٦٥
أهل الصُّفَّة ٢٦٥
أبو هريرة رضي الله عنه ٢٦٦
عمر بن سعد .. نسيجُ وَحْدِه ٢٦٦
سعيد بن عامر الجمحي رضي الله عنه ٢٦٩
سعد بن أبي وقَّاص ٢٧١
عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ٢٧٢
عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ٢٧٣
عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ٢٧٣
فُضالة بن عبيد والي مصر ٢٧٤
عمرو بن الأسود العنسي ٢٧٤
سويد بن غفلة بن عوْسَجة ، الإمام القدوة ٢٧٤
أويس القرني : سيد التابعين ، وشيخ الزُّهاد والعابدين ٢٧٤
أبو مسلم الخولاني : « سيد التابعين وزاهدُ العصر » ٢٧٧
صفوان بن مُحَيْريز ٢٧٨
أبو حازم ٢٧٩
راهب العرب : عامر بن عبد قيس ٢٧٩

مسروق بن الأجدع ٢٨١
الحسن البصري : الفقيه الزاهد ، المتشمِّر العابد ٢٨٢
إبراهيم التيمي ٢٨٥
بلال بن سعد ٢٨٥
عمر بن عبد العزيز ٢٨٦
صِلَة بن أشْيَم العدوي ٢٨٧
محمد بن واسع ٢٨٧
يزيد بن مرْثد : القدوة ، الزاهد في الرئاسة ٢٨٨
إبراهيم بن أدهم : القدوة ، الإمام العارف ، سيِّد الزُّهَّاد ٢٨٨
بشر بن الحارث الحافي ٢٩٢
سفيان الثوري ٢٩٣
أبو معاوية الأسود ٢٩٥
معروف الكَرْخي ٢٩٥
الإمام الزاهد شيخ خراسان : شقيق البلخي ٢٩٦
حاتم الأصمُّ ٢٩٨
الخليل بن أحمد الفراهيدي ٣٠٠
الإمام الولي : أبو داود عمر بن سعد الحفري ٣٠٠
الإمام أحمد بن حنبل ٣٠١
محمد بن أسلم الطوسي ٣٠٧
أبو سهل الصعلوكي : شيخ الشافعية ٣٠٩
الإمام القدوة العارف ابن خفيف ٣٠٩
الشيخ الإمام القدوة ، العابد الزاهد : أبو العباس أحمد الرفاعي ٣٠٩
يوسف بن أسباط ٣٠٩
القاسم بن مخيمر ٣١٠

هكذا يكون الزهد ٣١٠
الزهد في الدنيا ثلاثة أشياء ٣١٢
الزاهد على ثلاثة وجوه ٣١٣
داود الطائي ٣١٤
أحمد بن حنبل ٣١٤
طاووس ٣١٤
زهدهم في الطعام ٣١٥
الحسن ٣١٥
السري ٣١٦
الزهري ٣١٦
يحيى بن معاذ الرازي ٣١٦
الفصل الرابع : علو الهمَّة في الوَرَع ٣٢١-٣٧٨
علو الهمَّة في الورع ٣٢٣
وهو على ثلاثة درجات ٣٢٧
الدرجة الأولى : تجنُّب صون القبائح ٣٢٧
فوائد تجنُّب القبائح ٣٢٨
أحدها : صوْن النفس ٣٢٨
أما توفير الحسنات فمن وجهين ٣٢٨
أحدهما : توفير زمانه على اكتساب الحسنات ٣٢٨
الثاني : توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها ٣٢٨
وأما صيانة الإيمان ٣٢٨
الدرجة الثانية : حفظ الحدود عند ما لا بأس به ٣٢٩
الدرجة الثالثة : التورُّع عن كلِّ داعية تدعو إلى شتات الوقت ٣٣٠
فائدة ٣٣١

درجات الوَرَع عن الحرام عند الغزالي ٣٣٢
الأولى : ورع العدول ٣٣٢
الثانية : ورع الصالحين ٣٣٢
الثالثة : ورع المتقين ٣٣٢
الدرجة الرابعة : ورع الصِّدِّيقين ٣٣٤
عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٣٣٥
عبادة بن الصامت رضي الله عنه ٣٣٦
أبو بكرة الثقفي رضي الله عنه ٣٣٦
عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ٣٣٦
المِسْوَر بن مَخْرمة ٣٣٧
عمرو بن عتبة بن فرقد ٣٣٧
عبيدة السلماني ٣٣٨
أبو وائل : شقيق بن سلمة ٣٣٨
سعيد بن جُبير ٣٣٨
محمد بن سيرين ٣٣٨
الحسن البصري ٣٤٠
طاووس ٣٤٠
عمر بن عبد العزيز ٣٤١
يونس بن عبيد ٣٤٢
كهمس ٣٤٢
عطاء بن محمد الحرَّاني ٣٤٢
أيوب بن النجار ٣٤٢
أبو السوار ٣٤٣
إبراهيم بن أدهم ٣٤٣

سفيان الثوري ٣٤٤
عثمان بن زائدة ٣٤٤
من سادات الوَرِعين ٣٤٥
يوسف بن أسباط ٣٤٥
محمد بن إدريس ٣٤٦
وهيب بن الورد ٣٤٦
أبو يوسف الغسولي ٣٤٨
داود بن يحيى بن يمان ٣٤٩
حمَّاد بن أبي حنيفة ٣٤٩
حمزة بن حبيب الزيَّات شيخ القرَّاء ٣٤٩
يزيد بن زريع ٣٥٠
عبد الله بن المبارك ٣٥٠
علي بن الفضيل بن عياض ٣٥١
أبو بكر بن عيَّاش ٣٥٢
منصور ٣٥٢
أبو جميل ٣٥٢
زاذان ٣٥٢
مجمع التيمي ٣٥٣
عمرو بن قيس ٣٥٣
حسان بن أبي سنان ٣٥٣
شعيب بن حرب ٣٥٣
ابن عون ٣٥٤
محمد بن واسع ٣٥٤
أيوب بن راشد ٣٥٥

أبو داود الحفري ٣٥٥
زكريا بن عدي بن زريق ٣٥٦
شيخ أهل الورع : بشر بن الحارث الحافي ٣٥٦
أبو عبد الله الطوسي التروغندي ٣٥٩
داود الطائي ٣٥٩
عيسى بن يونس ٣٥٩
أبو العباس الخطاب ٣٦٠
الضحَّاك صاحب بشر ٣٦٠
عبد الرحمن بن مهدي ٣٦٠
بشر بن منصور السليمي ٣٦٠
شميط ٣٦١
وكيع ٣٦١
ورع إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ٣٦١
تورُّعه عن الفتيا ٣٦٨
خلَف بن هشام ٣٦٨
البربهاري ٣٦٨
عقدة والد الحافظ ابن عقدة ٣٦٨
أبو الحسن الداوودي ٣٦٩
أبو إسحاق الشيرازي شيخ الشافعية ٣٧٠
المحدِّث الزاهد عطاء بن أبي سعد الهروي ٣٧٠
نور الدين بن زنكي ٣٧١
الحافظ ابن عساكر ٣٧١
الورَع في النظر ٣٧٢
الورَع في السمع ٣٧٣

الورَع في الشمِّ ٣٧٤
الورَع في البطن ٣٧٥
الورَع في المسعى ٣٧٦
الورَع في الفرج ٣٧٧
الورع في اللسان ٣٧٧
الفصل الخامس : علو الهمَّة في الصبر ٣٧٩-٤٢٠
فضل الصبر والصابرين ٣٨١
أنواع الصبر ٣٨٣
الصبر على ثلاثة أنواع ٣٨٣
صبر بالله ٣٨٤
صبر لله ٣٨٥
صبر مع الله ٣٨٥
مراتب الصبر ٣٨٦
إحداها : مرتبة الكمال ٣٨٦
الثانية : أن لا يكون فيه لا هذا ولا هذا ٣٨٦
الثالثة : مرتبة من فيه صبر بالله ٣٨٦
الرابعة : من فيه صبر لله ٣٨٦
الصبر على البلاء ٣٨٧
المرأة السوداء التي كانت تصرع ٣٨٨
الأحنف بن قيس ٣٨٩
عروة بن الزبير ٣٨٩
مطرّف بن عبد الله ٣٩٠
الإمام أحمد بن حنبل ٣٩٠
الإمام إبراهيم الحربي : وصبره على الجوع والفقر ٣٩٠

أبو قلابة الإمام صاحب ابن عباس : وصبره الجميل ٣٩٠
صبر امرأة تفضل ملايين الرجال ٣٩٤
صبر زوجها يفوق الخيال ٣٩٥
إبراهيم بن أدهم أستاذ الشيوخ : وصبره العجيب ٣٩٥
قول الهروي في درجات الصبر ٣٩٦
الدرجة الثالثة ٣٩٦
ثلاثة أشياء تبعث المتلبس بها على الصبر في البلاء ٣٩٦
أحدها : ملاحظة حسن الجزاء ٣٩٧
الثاني : انتظار روح الفرَج ٣٩٧
الثالث : تهوين البلية بأمرين ٣٩٧
أحدهما : أن يعدَّ نعم الله عليه وأياديه عنده ٣٩٧
الثاني : تذكُّر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه ٣٩٧
الصبر عن المعصية ٣٩٨
الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم ٣٩٩
يوسف الصِّدِّيق المحسن ما وقع منه همٌّ بالمعصية ألبتة ٤٠٠
للصبر عند المعصية سببان وفائدتان ٤٠١
أما السببان ٤٠٢
أما الفائدتان ٤٠٢
تقوية باعث الدين والهمَّة في الصبر عن المعصية ، ويكون ذلك بأمور ٤٠٣
أحدها : إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعصىٰ وهو يرىٰ ويسمع ٤٠٣
الثاني : مشهد محبَّته سبحانه ٤٠٣
الثالث : مشهد القهر والظفر ٤٠٣
الرابع : أن يُعوّد باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوى ٤٠٣

الخامس : أن يعلم العبد بأنَّ فيه جاذِبَيْن متضادَّين ٤٠٣
الصبر على الطاعة وهو الصبر الأعلى ٤٠٤
صبر خليل الرحمٰن ٤٠٤
صبر نوح عليه السلام ٤٠٥
صبر إسماعيل عليه السلام ٤٠٥
سيد المؤذِّنين ، المشهود له بالجنة على التعيين : بلال بن رباح ٤٠٦
الإمام الكبير الشهيد : أحمد بن نصر الخزاعي ٤٠٧
إمام أهل السنة يعطي المجهود من نفسه في المحنة ٤٠٨
وما زال الناس يُبتَلون في الله تعالى ويصبرون ٤١٣
يُبتَلَى الرجل خيرٌ له أم يُمَكَّن ؟ ٤١٤
هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل ٤١٦
واعجبًا ! يُلام ذو حِسٍّ على عشْق يوسف ٤١٧
﴿ إنَّا إلى ربِّنا منقلبون ﴾ ٤١٨
ومن علو الهمة : المصابرة والمرابطة ٤١٩
صبر الكرام لا صبر اللئام ٤٢٠
الفصل السادس : علو الهمة في التوكُّل على الله ٤٢١-٤٨٥
أمر الله ورسوله المؤمنين بالتوكُّل عليه ٤٢٣
التوكُّل من أصعب منازل العامَّة عليهم ٤٢٤
الله تبارك وتعالى يوكِّل العبد ، والعبد يوكِّل الرب ٤٢٤
معنى التوكُّل ٤٢٥
التوكُّل ثلاث درجات ٤٢٧
التوكُّل على الله حقّ التوكُّل ٤٢٨
التوكُّل حالة مركَّبة من مجموعة أمور لا تتمُّ حقيقةُ التوكل إلا بها
فأول ذلك : معرفة بالربّ وصفاته ٤٢٩

الدرجة الثانية : إثبات في الأسباب والمسببات ٤٣٠
الدرجة الثالثة : رسوخ القلب في مقام توحيد التوكُّل ٤٣٢
الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله واستناده إليه ٤٣٢
الدرجة الخامسة : حسن الظَّنِّ بالله عزَّ وجل ٤٣٣
الدرجة السادسة : استسلام القلب له ٤٣٣
الدرجة السابعة : التفويض ٤٣٣
الدرجة الثامنة : الرضا وهي ثمرة التوكُّل ٤٣٤
اشتباه المحمود الكامل من التوكُّل المذموم الناقص ٤٣٥
توكُّل العاجز،القاصر الهمَّة،المغبون في توكُّله ٤٣٧
درجات التوكُّل ٤٣٨
الدرجة الأولى : التوكُّل مع الطلب ٤٣٨
الدرجة الثانية : التوكُّل مع إسقاط الطلب ٤٣٩
قبيح بالعبد المريد أن يتعرض لسؤال العبيد ٤٤٠
وغض العين عن التسبب اجتهادًا في تصحيح التوكُّل ٤٤١
الدرجة الثالثة : التوكُّل مع معرفة التوكل ٤٤٣
عِلَل التوكُّل ٤٤٥
أعلى التوكُّل توكل الأنبياء وورثتهم في فتح بصائر القلوب ٤٤٦
أفضل التوكُّل وأوسعه وأنفعه ٤٤٦
توكُّل الخليلَيْن إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام ٤٤٦
إبراهيم الخليل الأُنموذج المثالي للمتوكلين ٤٤٧
منارة التوكُّل ٤٤٧
توكُّل نبينا ﷺ درسٌ عظيم من أُحد ٤٤٨
الرسول ﷺ يعلِّم أصحابه الدرس الثاني بعد أُحد ٤٤٨
التوكُّل أبهى صورة للعقيدة ٤٤٩

أنبياء الله قمم عالية في التوكُّل ٤٥٠
مشهد باهر في علو الهمة في التوكُّل لنبي الله هود ﷺ ٤٥٢
خطيب الأنبياء شُعيب ﷺ قمَّة سامية ٤٥٣
أم إسماعيل وعلو توكُّلها : إذن لا يضيِّعنا ٤٥٤
همم الصحابة في التوكُّل أعلى الهمم ٤٥٥
عكاشة بن محصن المتوكّل حقًّا ٤٥٥
« ما أبقيتَ لأهلك يا أبا بكر ؟ » ٤٥٧
عمر بن الخطاب يوضِّح الطريق ٤٥٨
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ٤٥٨
عبد الله بن سلام وسلمان ٤٥٨
أبو حازم سلَمة بن دينار ٤٥٩
عامر بن عبد قيس ٤٥٩
أبو الصهباء صلة بن أشيم ٤٥٩
الحسن البصري ٤٦٠
سفيان الثوري ٤٦٠
إبراهيم بن أدهم ٤٦١
الفضيل بن عياض ٤٦١
طلق بن حبيب ٤٦١
معروف الكرْخي ٤٦٢
بشر بن الحارث ٤٦٢
يحيى بن معاذ الرازي ٤٦٢
أحمد بن حنبل رحمه الله ٤٦٢
سليمان الخوَّاص ٤٦٢
جوامع الغِنَى في التوكُّل ٤٦٣

أبو يعقوب النهرجوري ٤٦٤
شقيق البلخي ٤٦٤
المتوكِّل على الله قد وَجَدَ الاستروا ح ٤٦٤
حاتم الأصمُّ : رزقي لا يأكله غيري ٤٦٥
الجنيد رحمه الله ٤٦٥
أبو عثمان الحِيري ٤٦٥
البوشنجي ٤٦٦
الكتَّاني ٤٦٦
أسود بن سالم ٤٦٦
ابن الفرغاني أبو بكر الواسطي ٤٦٦
أبو علي الروذباري ومرقاة التوكُّل ٤٦٧
عبد الله بن إدريس بن يزيد ٤٦٧
النهرجوري ٤٦٧
شميط بن عجلان ٤٦٧
إبراهيم بن شيبان ٤٦٧
السريّ ٤٦٨
سهل بن عبد الله التستري ٤٦٨
بعض أهل العلم ٤٦٩
حكيم ٤٧٠
زهير البابي ٤٧١
التوكُّل أوسع وأعلى من التفويض ٤٧٤
الثقة بالله تعالى ٤٧٧
علو الهمَّة في التسليم ٤٧٩
هو نوعان : **الأول** : تسليم المؤمنين العارفين ٤٧٩

التسليم للحكم الكوني ٤٧٩
إيَّاك وعلَّة التسليم ٤٨٠
أول التسليم ٤٨٠
الشبهات والشهوات سبب الانقطاع ٤٨٢
تمام التسليم ٤٨٢
أكمل التسليم : تسليم الخليل وولده إسماعيل صلى الله عليهما وسلم ٤٨٣
تسليم العلم إلى الحال ٤٨٤
أعلى التسليم : تسليم ما دون الحقِّ إلى الحقِّ ٤٨٤
الفصل السابع : علو الهمَّة في الرضا ٤٨٧-٥٢٩
الرضا ثمرة من ثمار المحبَّة ٤٨٩
الرضا ذروة سنام أعمال القلوب ٤٩٠
الرضا بإلاهيَّته ٤٩١
الرضا بربوبيته ٤٩١
الرضا بنبيه رسولًا ٤٩١
ومن أعظم أسباب حصول الرضا ٤٩٣
الهمَّة العالية شيمتُها الرضا ٤٩٤
الرضا خروج عن الحظوظ ، ووقوف صادق مع مراد الله ٤٩٧
أرفع الرضا : الرضا بالله ربًّا ، وهو أعلى من الرضا عن الله ٤٩٧
هذا النوع من الرضا يصحُّ بثلاثة أشياء ٤٩٩
أحدها : أن يكون الله عز وجل أحبَّ شيء إلى العبد ٤٩٩
وبالرضا نطَق التنزيل ٥٠٣
الرضا بالله والرضا عن الله والرضا بقضاء الله ٥٠٤
الرضا عن الله يصحُّ بثلاثة شروط ٥٠٧
الأول : استواء النعمة والبليَّة عند العبد ٥٠٧

الثاني : سقوط الخصومة عن الخلق ٥٠٧
الثالث : الخلاص من المسألة للخلْق والإلحاح ٥٠٧
تذكرة لِعُلاة الهمة ٥٠٨
مراتب الرضا عن الله والرحمة عند المصائب ٥٠٨
الرضا مقامٌ رفيع يليق بعالي الهمة ٥٠٩
يا عالي الهمة ليس لأعمال القلوب نهاية ٥١٤
أهل الرضا وعلو همتهم ٥١٥
الخليل إبراهيم عليه السلام ٥١٥
سعد بن أبي وقَّاص ٥١٥
عمران بن حصين ٥١٥
أبو الدرداء رضي الله عنه ٥١٦
عمر بن عبد العزيز ٥١٧
أبو العالية ٥١٨
أبو معاوية الأسود ٥١٨
الربيع بن خُثيم ٥١٨
سويد بن مثعبة ٥١٩
أم الأسود بن يزيد ٥١٩
محمد الباقر ٥١٩
الحسن البصري ٥١٩
سفيان ٥٢٠
الفضيل بن عياض ٥٢٠
وهيب بن الورد ٥٢٠
عبد الله بن المبارك ٥٢١
مالك بن دينار ومحمد بن واسع ٥٢١

بشير الطبري ٥٢٢
يبكي مع استشهاد ابنه ٥٢٢
أبو عبد الله البراثي ٥٢٢
أبو عبد الله النباجي ٥٢٣
ميمون بن مهران ٥٢٣
عبد العزيز بن أبي رِواد ٥٢٣
أعرابيٌّ ٥٢٣
شقيق البلخي ٥٢٤
يونس بن عبيد ٥٢٤
غيْلان بن جرير ٥٢٤
الربيع بن أنس ٥٢٤
أبو سليمان الداراني ٥٢٤
وهب بن منبه ٥٢٥
فتح الموصلي ٥٢٦
لوم المقادير لومٌ لمقدِّرها ، وهو منافٍ للعبودية ٥٢٧
احذر أن تكون معاملتك مدخولة ٥٢٧
لله درُّك يا سفيان ٥٢٨
سُسْنا كيف شئْت يا إلهي .. « شعر » ٥٢٨
الفصل الثامن : علو الهمة في محاسبة النفس والمجاهدة والمعاتبة ٥٣١-٦١٠
درجات المرابطة ٥٣٣
المقام الأول من المرابطة : المشارطة ٥٣٤
المرابطة الثانية : المراقبة ٥٣٦
المرابطة الثالثة : محاسبة النفس ٥٣٦
طريق محاسبة النفس ٥٣٧

محاسبة النفس نوعان ٥٣٨

النوع الأول ٥٣٨

النوع الثاني ٥٣٨

يا عالي الهمَّة ، هذه أركان المحاسبة ٥٣٩

أحدها : أن تقايس بين نعمة الله وجنايتك ٥٣٩

هذه المقايسة تشقُّ على من ليس له ثلاثة أشياء ٥٤٠

الأول : نـور الحكمة الذي نوَّر الله به قلوب أتباع الرسل ٥٤٠

الثاني : سوء الظن بالنفس ٥٤٠

الثالث : تمييز النعمة من الفتنة ٥٤٠

الركن الثاني من أركان المحاسبة ٥٤١

الركن الثالث ٥٤٢

صفحات عَطِرة في أقوال السلف عن المحاسبة وعلو همتهم فيها ٥٤٤

عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٥٤٤

أبو الدرداء رضي الله عنه ٥٤٤

الأحنف بن قيس ٥٤٤

الحسن البصري ٥٤٥

قتادة رحمه الله ٥٤٦

ميمون بن مهران ٥٤٧

مالك بن دينار ٥٤٧

إبراهيم التيمي ٥٤٧

الحجَّاج الثقفي ٥٤٨

حكمةٌ من آل داود ٥٤٩

الأسود بن كلثوم ٥٤٩

رجل من الصالحين يقول لنفسه : لَأُعرضنَّك على الله ٥٥٠

ابن رواحة وشدَّة محاسبته لنفسه ٥٥١
عابدة لا ترى قدميها أهلًا للطواف حول الكعبة ٥٥١
عطاء السُّلَيْمي ٥٥٢
ضيْغم بن مالك ٥٥٢
وهب بن منبه ٥٥٣
عمر بن عبد العزيز ٥٥٣
عامر بن عبد قيس ٥٥٤
مسروق بن عبد الرحمن ٥٥٥
يزيد الرقَّاشي ٥٥٥
عابد يحتسب غفلته في نفسه وتقصيره في حظِّه ٥٥٦
زياد بن أبي زياد يخاصم نفسه ٥٥٧
توبة بن الصمَّة يحاسب نفسه ، فيُغشَى عليه ويموت ٥٥٧
إزراؤهم على أنفسهم ٥٥٩
المرابطة الرابعة : معاقبة النفس على تقصيرها ٥٦١
حسَّان بن أبي سنان ٥٦١
رياح القيسي ٥٦١
عابد يحلف ألا ينام على فراش أبدًا ٥٦٢
داود الطائي : سجَن نفسَه قبل أن يُسجن ٥٦٣
مجمع ٥٦٣
المرابطة الخامسة : مجاهدة النفس ٥٦٥
المرابطة السادسة : توبيخ النفس ومعاتبتها ٥٦٨
ويْحكِ يا نفس !! ٥٦٩
ما يمنعك الاستقامة ؟ ٥٧٢
الكفر الخفيّ والحمقُ الجليّ ٥٧٣

فاتَّعِظِي يا نفس بهذه الموعظة ٥٧٩

لمَّا أهبط آدم من الجنة إلى الأرض ٥٨٠

عبيد الله البجلي : كثير البكاء ٥٨١

منصور بن عمَّار ٥٨١

ويحي ، بأي شيء لم أعصِ ربي ٥٨٢

ويحي ، كيف أفر من الموت ؟ ٥٨٢

ويح لنا من أغرانا ٥٨٤

معاتبة أخرى أعطر من أريج الزهور ٥٨٥

من كَرُمَتْ نفسه عليه ، لم يكن للدنيا عنده قـدْرٌ ٥٩٧

من آداب الجهاد ٥٩٩

أيَّتها النفس ، أقلعي عن الجُنَاح وتوبي .. « شعر » ٦٠٠

كان الفُضَيل ميتًا بالذنوب ٦٠١

إبراهيم بن أدهم ٦٠٢

كيف غلبتَ نفسك ؟ ٦٠٣

كيف قدرتَ على هواك ؟ ٦٠٣

الهوى مطمورة ضيِّقة في حبس وَعِرِ ٦٠٣

إخواني ، ذودوا هممكم عن مرعَى المنَى ٦٠٥

أخي ، اتركِ الهوى محمودًا قبل أن يتركَك مذمومًا ٦٠٨

أنا العبد .. « شعر » ٦٠٩

الفصل التاسع : علو الهمة في تحرِّي الحقِّ والثَّبات عليه ٦١١

زيد بن عمرو بن نفيل الذي يُبعث أمةً وحَده ٦١٣

« ما لي أرى قومكَ قد شنَفوا لك » ؟ ٦١٥

إلى الله أُهدي مدْحتي وثنائيا .. « شعر » ٦١٦

أربٌّ واحد أم ألفُ ربٍّ .. « شعر » ٦١٨

سلمان : ابن الإسلام ، سابق الفُرْس ٦١٩

أبو ذرّ ثالثُ الربَّانيِّين على الطريق ٦٣١
أمُّ كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط : أول من هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبي ﷺ ٦٣٤
آسية زوج فرعون : مثالٌ عالٍ وغالٍ لكلِّ جيلٍ في الثبات على الحق ٦٣٤
ذو النورَيْن عثمان بن عفان رضي الله عنه : قمَّة شامخة في الثبات على الحق حتى القتْل ٦٣٦
ابن المسيِّب سيد التابعين : يصدع بالحق ويُضرب ويطاف به في الطرقات ٦٣٦
محمد بن أسلم الطوسي : أمْرُه سَماوي ٦٣٦
إمام أهل السنة أحمد بن حنبل : أعزَّ الله به الإسلام يومَ الفتنة ٦٣٧
أبو نعيم الفضل بن دُكين شيخ الإمام أحمد : جبل شامخ ٦٣٧
نُعيم بن حمَّاد : أوصى أن يُدفَنَ في قيوده وقال : إني مخاصِم ٦٣٨
شيخ الإسلام الأنصاري : طود أشمُّ في السنة ٦٣٨
الفهرس ٦٣٩



□ فهرس المجلد الخامس □

الموضوع | الصفحة

الفصل الأول : علو الهمة في الاستقامة ٣-٢٤
الاستقامة على مَحْض التوحيد ٦
الاستقامة على الأمر والنهي ٧
الاستقامة هي الإخلاص ٧
الاستقامة على المحبَّة ٧
درجات الاستقامة ٨
الدرجة الأولى : الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد ٨
الدرجة الثانية : استقامة الأحوال ١٠
الدرجة الثالثة : استقامة بترْك رؤية الاستقامة ١٢
أبو سفيان بن الحارث : لم يتنطف بخطيئة منذ أسلم حتى مات ١٣
الربيع بن خثيم : أنموذج مثالي في الاستقامة ١٣
وهب بن منبه : لم يسبَّ شيئًا فيه الروح أربعين سنة ١٤
عبد الله بن عون : عالم البصرة القدوة الإمام ١٥
يونس بن عبيد : ما حضر حقٌّ لله إلا وهو متهيئ له ١٦
الورِع التقي وهيب بن الورد المكي : لا يجد طعْمَ العبادة مَن همَّ بمعصيته ١٦
بشرُ بن الحارث الحافي : ما عُرف له غيبةٌ لمسلم ١٧
داود الطائي : هذه خُطىً لا أدري كيف تُكتب ١٨
وكيع بن الجراح ١٨

الإمام يحيى بن سعيد القطَّان : يدعو لألْفِ إنسان كلَّ يوم ١٩
عبد الرحمن بن مهدي : ما ترك حديث رجل إلا دعا الله له ١٩
إمام الدنيا أحمد بن حنبل : لا تلْقاه يومًا إلا وهو زائد عليه بالأمس ١٩
ناصر السنة الشافعي : ما حلف بالله صادقا ولا كاذبًا ٢٠
شيخ الإسلام الذهلي ٢٠
أبو حفص النيسابوري : يزن أحواله كلَّ وقت بالكتاب والسنة ٢٠
أمير المؤمنين في الحديث البخاري : لا يكون له خَصْم في الآخرة ٢٠
أبو الحسين الحجَّاجي : جبلٌ في الاستقامة ٢١
الحافظ ابن عساكر : يحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة ٢١
الحافظ ابن أبي حاتم : لا يُعرف له ذنب ٢٢
الإمام أبو الطيب الطبري : ما عصى الله بجارحة قطُّ ٢٢
ركن الإسلام أبو محمد الجويني : لو كان في بني إسرائيل ، لنقل إلينا شمائله ٢٣
الإمام ابن دقيق العيد : « ما تكلَّمتُ كلمة، ولا فعلت فعلًا إلا وأعددتُ له جوابًا بين يدي الله عز وجل » ٢٣
ابن الصلاح : هو الصلاح ذاته ٢٤
العماد المقدسي : ما عصى الله معصية ٢٤
ابن تيمية : يقول : « إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كلَّ وقت » ٢٤
الفصل الثاني : علوُّ الهمة في الصدق ٢٥-٦١
الصادق يتقلّب في اليوم أربعين مرَّة ٣١
الصدق مفتاح الصدِّيقية ٣٣
أعلى مراتب الصدق : الصديقية ، وأعلى مراتب الصدّيقية لأبي بكر رضي الله عنه ٣٥
صديق الأنصار سعد بن معاذ : قمة سامقة في علو الهمة في الصدق ٣٦
درجات الصدق ٣٧

الدرجة الأولى : صدق القصد ٣٧
الدرجة الثانية : أن لا يتمنَّى الحياة إلا للحق ٣٩
الدرجة الثالثة : الصدق في معرفة الصدق ٤١
معاني الصدق وعلو الهمة فيها ٤٢
الصدق الأول : الصدق في القول ٤٢
عمر بن عبد العزيز : ما كذب مذْ علم أن الكذب يَشين صاحبه ٤٣
إياس بن معاوية : ما يسرُّه أنه كذب كذبة فغفرها الله له وأعطي عليها
عشرة آلاف درهم ٤٣
ولهذا الصدق كمالات ٤٣
الولي الرباني ربعيّ بن خراش : بلغ الغاية في الصدق فنجَّى الله ولديه
بصدقه ٤٤
الربيع بن حراش : العبد الصالح الذي يكلَّم بعد الموت ٤٥
الجيلاني : يتوب على يديه وهو طفل قطَّاع الطريق بصدْقه ٤٥
الصدق الثاني : الصدق في النية والإرادة ٤٦
الصدق الثالث : الصدق في العزم ٤٦
الصدق الرابع : الصدق في الوفاء بالعزم ٤٧
الصدق الخامس : الصدق في الأعمال ٤٨
الصدق السادس : الصدق في مقامات الدين ٤٨
ومنها : أ - الصدق في المحاسبة والمجاهدة والتوبة ٤٨
توبة رجل من بني إسرائيل قتل مائة نفس ٤٩
أما التوبة وعلوُّ الهمة فيها ٤٩
ماعِز والغامدية ٥٠
توبة كعْب بن مالك : مثَلٌ للتوبة النصوح ٥١
توبة أبي محمد حبيب العجمي ٥٦
توبة الفضيل بن عياض ٥٧

توبة بشر بن الحارث الحافي ٥٧
ب - الصدق في التوكل ٥٨
جـ - الصدق في الخوف ٥٩
د - الصدق في الرضا ٥٩
هـ - الصدق في الاستقامة ٥٩
أمَّا في عصرنا ٦٠
وفي عصرنا ٦٠
الفصل الثالث : علو الهمَّة في اليقين ٦٣-١٠٢
اليقين هل هو كسْبّي ، أو موهبيّ ؟ ٦٩
اليقين أوله المكاشفة ، ثم المعاينة ثم المشاهدة ٦٩
اليقين على ثلاثة أوجه : يقين خبر ، ويقين دلالة ، ويقين مشاهدة ٦٩
اليقين والحضور ٧٠
أعلام اليقين ٧١
درجات اليقين ٧٢
الدرجة الأولى : علم اليقين ٧٢
قبول ما ظهر من الحق ، وقبول ما غاب للحق ٧٢
الوقوف على ما قام بالحق سبحانه ٧٣
الدرجة الثانية : عيْن اليقين ٧٣
الدرجة الثالثة : حق اليقين ٧٤
الغنى هو اليقين ٧٦
أمثلة عطرة على علو الهمة في اليقين ٧٧
نوح عليه السلام ٧٧
هود عليه السلام ٧٨
خليل الرحمن إبراهيم : أنموذج عطر وعال لليقين بالله ٧٨
كليم الله موسى ﷺ ٨٠

رسول الله ﷺ : القمّة في علو الهمّة ٨٠
سحرة فرعون ويقينهم العالي الغالي ٨٢
ابن مسعود رضي الله عنه ٨٥
ابن مظعون رضي الله عنه ٨٦
وللأنصار يقين أغرب من الخيال وأطيب من المسْك ٨٦
الصدِّيق الأكبر : ويقينه الكبير يوم موت رسول الله ﷺ ٨٩
ومِن قبلُ قالها ثابت بن الدحداحة وأنس بن النضر رضي الله عنهما ٩٠
اليقين السامق لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ٩١
اليقين الغالي لابن تيمية ذي القدر العالي ٩٤
ومِسْك الختام ٩٥
صيحة عمير بن الحمام : منارة من منارات اليقين بالله ٩٥
حَيْوة بن شريح ٩٦
محمد بن إسماعيل البخاري ٩٦
علي بن طاهر : الإمام الأوحد ، والثقة الحافظ ٩٦
الزاهد المجاهد أبو عبد الله مردنيش ٩٧
شيخ الإسلام عبد القادر الجيلاني ٩٧
شيخ الإسلام أبو عثمان الحيري ٩٧
شعر في اليقين ٩٨-١٠٢
الفصل الرابع : علو الهمّة في الدعاء ١٠٣-١٤١
مِن علو الهمة في الدعاء : محافظة الرجل على آدابه ١٠٧
افتتاح الدعاء بذكر الله وختمه بالصلاة على رسول الله ﷺ ١٠٨
الجزْم به واليقين بالإجابة وصدق الرجاء فيه ١٠٨
الإلحاح في الدعاء وتكريره ثلاثًا ١٠٩
تعظيم المسألة ١١٠
الدعاء باسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ١١١

الدعاء بالأدعية الواردة في القرآن الكريم ١١٢
عالي الهمة يحرص على هذا الدعاء الذي علَّمه الله لنبيِّه محمد ﷺ ١١٣
وعالي الهمة يحرص على دعاء يعلِّمه **النبي** ﷺ **للصدِّيق الأكبر** ١١٤
علو همة **الكليم موسى عليه السلام** في سؤاله ودعائه النبوة لأخيه هارون
عليه السلام ١١٨
نماذج من دعاء علاة الهمم ١١٩
العلاء الحضرمي رضي الله عنه : يدعو ربه فيسير بجيش المسلمين
بأكمله على صفحة الماء ١١٩
شأني أن الله بعث لي حماري ١١٩
البراء بن مالك ، **مجاب الدعوة** : يسأل ربه النصر للمسلمين ،
ولنفسه الشهادة ١١٩
دعاء النعمان بن مقرن بالشهادة ١٢٠
لله درُّ عبد الله بن جحش : ما أعلى همته !! ١٢٠
عظم دعاء الفاروق رضي الله عنه ١٢١
من دعاء **عبد الله بن عمر رضي الله عنهما** ١٢١-١٢٢
ومن دعاء **ابن مسعود رضي الله عنه** ١٢٢
ومن دعاء **ابن عباس رضي الله عنهما** ١٢٣
عامر بن عبد قيس : يسأل ربه أن ينزع شهْوة النساء من قلبه ١٢٣
الربيع بن خثيم : يدعو بدعاء يُدمي القلوب ١٢٣
وابن المسيِّب : **يسأل ربه السلامة** ١٢٣
ومن دعاء المذنبين ١٢٣
ومن دعاء **سعيد بن جبير** ١٢٤
ومطرِّف بن عبد الله يسأل ربه الرضا ١٢٤
ومحمد بن واسع : يدعو ربه ١٢٤
وبكر بن عبد الله : لا يَدَع هذا الدعاء ١٢٤

الجرّاح مقدِّم الجيوش : يدعو الله له ولإخوانه بالشهادة ، فنالوها جميعًا ١٢٥
أبو معاوية الأسود : والعجَب العُجاب في دعائه ١٢٥
أبو بكر بن عيّاش : ودعاؤه الجميل ١٢٦
زيْن العابدين : ودعاء من بيت النبوة ١٢٦
الولي النباجي : مجاب الدعوة ١٢٦
طلْق بن حبيب ودعاؤه العجيب ١٢٧
أيوب السختياني : يدعو الله مرافقة نبيه ﷺ ١٢٧
عطاء السليمي ١٢٧
موسى الكاظم : الإمام القدوة السيد ١٢٨
عُتبة الغلام : يدعو ربه أن يحشره من حواصل الطيور ، واستجاب الله له ١٢٨
عون بن عبد الله بن عتبة : عالي الهمة في الدعاء ١٢٨
وراد العجلي : ودعاؤه في السحر ١٢٩
شعوانة : وعلو همتها في الدعاء ١٢٩
الواعظ البرّ عمر بن ذر ١٣٠
عبد الله بن المبارك : يدعو الله للحسن بن عيسى أن يسلم ، فاستجاب الله له ١٣٠
يحيى بن معاذ الواعظ ١٣١
الواعظ الزاهد « شيْذَلَهْ » ١٣٢
الإمام العماد المقدسي ، مجاب الدعوة ١٣٢
الزاهد القدوة الدميري الديريني ودعاؤه الجميل ١٣٣
شيخ الديار المصرية ؛ أبو الفيض ذو النون المصري : أنموذج عَطِر لعلو الهمة في الدعاء والمناجاة ١٣٣
مناجاة لذي النون تكتب بأحرف من نور ١٣٨

الفصل الخامس : علو الهمة في الإرادة ١٤٣-١٥٣
دفاع ابن القيم عن الجنيد ١٤٧
علم السلوك مبني على الإرادة ١٥٠
لا بد للسالك من ثلاثة أشياء ١٥٠
درجات الإرادة ١٥٠
الدرجة الأولى : ذهاب عن العادات بصحة العلم ، مع صدق القصد ١٥٠
الدرجة الثانية : تقطُّعٌ بصحبة الحال ، وترويح الأنس ، والسيْر بين القبْض والبسْط ١٥١
الفصل السادس : علوُّ الهِمَّة في الرعاية ١٥٥-١٦٠
الدرجة الأولى : رعاية الأعمال ١٥٨
الدرجة الثانية : رعاية الأحوال ١٥٩
الدرجة الثالثة : رعاية الأوقات ١٦٠
الفصل السابع : علوُّ الهِمَّة في التعظيم ١٦١-١٧٤
درجات التعظيم ١٦٣
الأولى : تعظيم الأمر والنهي ١٦٣
الدرجة الثانية : تعظيم الحكم الكوني القدَري ١٦٩
الدرجة الثالثة : أعظم التعظيم ؛ تعظيم الحق سبحانه ١٧٠
ومن علو الهمة في التعظيم : تعظيم حرمات الله ١٧١
ومن تعظيم الحرمات : تعظيم حرمة نصوص الأسماء والصفات ١٧٢
الدرجة الثانية عند الهروي : إجراء الخبر على ظاهره ١٧٣
الدرجة الثالثة عند الهروي : صيانة الانبساط أن تشوبه جُرأة ١٧٤
الفصل الثامن : علوُّ الهمة في الغَيْرة ١٧٥-١٩٨
أنواع الغيْرة ١٧٨
الغيرة من صفات الله عز وجل ١٧٩
ومن غيرة الله على عبده ١٨١

غيرة الله على توحيده وكلامه ١٨١
نوعٌ لطيف من غيرة الرب سبحانه وتعالى ١٨٢
الغيرة على دقيق العلم أن يُذكَر لمن لا يفهمه ١٨٣
كلام حسَن ١٨٤
سُنَّة الله مع أوليائه أن يغار على قلوبهم إذا ساكنت غيره ١٨٤
لطيفة ١٨٥
غيرة العبد على حرمته وحرمات المسلمين ١٨٥
غيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٨٦
غيرة الزبير بن العوَّام رضي الله عنه ١٨٩
غيرة معاذ بن جبل رضي الله عنه ١٩٠
غيرة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ١٩٠
وفي واقعنا : « طول السهاد وقرْب الوساد » ١٩٠
نفيسة هامَّة ١٩١
درجات الغيرة عند الهروي ١٩٢
الدرجة الأولى : غيرة العابد على ضائع يستردُّ ضياعه ١٩٢
الدرجة الثانية : غيرة المريد على وقت فات ١٩٣
الدرجة الثالثة : غيرة العارف على عيْن غطّاها غَيْنٌ ١٩٣
الغيرة على الله أعظم الجهل وأبطل الباطل ١٩٤
الفصل التاسع : علو الهمة في الرغبة ١٩٩-٢٠٥
درجات الرغبة ٢٠١
الدرجة الأولى : رغبة أهل الخير تتولَّد من العلم ٢٠١
الرخص نوعان : الرخصة المستقرة المعلومة من الشرع نصًّا ٢٠٢
النوع الثاني : رُخَصُ التأويلات ، واختلاف المذاهب ٢٠٣
الدرجة الثانية : رغبة أرباب الحال ٢٠٤
الدرجة الثالثة : رغبة الشهود ٢٠٤

الفصل العاشر : علوُّ الهمة في التهذيب والتصفية ٢٠٧-٢١٥
درجات التهذيب والتصفية ٢٠٩
الدرجة الأولى : تهذيب الخدمة ٢٠٩
شوائب العبودية : النوع الأول:مخالطة الجهالة ٢٠٩
النوع الثاني : شوْب العادة ٢١٠
النوع الثالث : وقوف الهمة عند الخدمة ٢١٠
الدرجة الثانية : تهذيب الحال ٢١١
لا يخضع لرسم ٢١٣
ولا يلتفت إلى حظ ٢١٣
الدرجة الثالثة : تهذيب القصد ٢١٣
الفصل الحادي عشر : علو الهِمَّة في التحلِّي بحسْن الخلُق ٢١٧-٢٧٢
تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل ٢٢١
وقفات مع قوله تعالى : ﴿ وإنك لعلىٰ خلق عظيم ﴾ ٢٢٢
أصالة العنصر الأخلاقي في الإسلام ٢٢٤
أحاديث عطرة في الحثِّ على حُسْن الخلق ٢٢٨
أمهات محاسن الخلق ، وأركان حسن الخلق عند ابن القيم : الصبر والعفة والشجاعة والعدل ٢٣٥
أركان حسْن الخلق عند الهروي ثلاثة : ١ - العلم . ٢ - الجود . ٣ - الصبر ٢٣٩
أمهات محاسن الأخلاق عند الغزالي أربعة : استواء:١ - قوة العلم ٢ - قوة الغضب . ٣ - قوة الشهوة . ٤ - قوة العدل ٢٤١
كمال الاعتدال في هذه الأربعة لرسول الله ﷺ ٢٤٣
الخلق يمكن اكتسابه ٢٤٤
نفائس ولطائف من كنوز البر والمعرفة من طبيب القلوب ابن القيم ٢٤٦
درجات حسن الخلق ومراتبه ٢٥٠

١ - تحسين الخُلق مع الخَلق ٢٥٠
٢ - تحسين الخُلق مع الحق عز وجل ٢٥٠
٣ - تصفية الخُلق ٢٥٠
الدرجة الأولى : أن تعرف مقام الخَلْق ٢٥٠
مشاهد العبد فيما يصيبه من أذى الخَلْق ٢٥١
المشهد الأول : مشهد « القدر » ٢٥١
المشهد الثاني : مشهد « الصبر » ٢٥٢
المشهد الثالث : مشهد « العفو والصفح والحلم » ٢٥٤
الأحنف بن قيس : سيد أهل المشرق ، ومَن يُضرَب به المَثَل في الحلم ٢٥٤
قيس بن عاصم المنقري : وحلمه العجيب الذي يتعلّمه الأحنف ٢٥٥
المشهد الرابع : مشهد « الرضا » ٢٥٧
المشهد الخامس : مشهد « الإحسان » ٢٥٧
الربيع بن خُثيم : يدعو لسارقه ٢٥٩
المشهد السادس : مشهد « السلامة وبرد القلب » ٢٥٩
المشهد السابع : مشهد « الأمن » ٢٦٠
المشهد الثامن : مشهد « الجهاد » ٢٦٠
المشهد التاسع : مشهد « النعمة » ٢٦١
المشهد العاشر : مشهد « الأُسوة » ٢٦٢
المشهد الحادي عشر : مشهد « التوحيد » ٢٦٣
الدرجة الثانية : تحسين الخلُق مع الحق ٢٦٣
الدرجة الثالثة : التخلق بتصفية الخُلُق ٢٦٥
كن مع الحق بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس ٢٦٦
نفائس وأمثلة عطِرة مِن حسْن خُلُق سلفنا ٢٦٦
الإمام ابن منده وحسْن خلقه : « من كتب عني حديثًا فأنا له عبد» ٢٦٦
الإمام أبو إسحاق الشيرازي وحسن خلقه ٢٦٧

إبراهيم بن أدهم : أستاذ الأستاذين في حسْن الخلقِ ٢٦٧
أبو عثمان الحيري : يعلِّمنا حسن الخلق : «من استحق النار فصولح على الرماد ، لم يجزْ له أن يغضب » ٢٦٨
« من أين تعلَّمت الحِلْم ؟ » ٢٦٨
« إن كان ولا بد ، فارموني بالصَّغَار » ٢٦٩
« يا هذه ، وجدتِ اسمي الذي أَضلَّه أهلُ البصرة » ٢٦٩
« لأتعلَّم الحِلْمَ عليه » ٢٦٩
علامة حسن الخلق ٢٦٩
ونمضي مع قافلة النور وركْب السادة ٢٧٠
لطيفة ٢٧٠
الحلم على خمسة أقسام ٢٧٠
محمد بن واسع : يُحسن إلى شاةٍ صَحِبتْه ٢٧١
ومِسْك الختام: عُلبة بن زيد الأنصاري الأوسي: صاحب الخلق التمام ٢٧٢
الفصل الثاني عشر: علو الهمة في الفتوة «مكارم الأخلاق » ٢٧٣-٣٠٢
المروءة والفتوة ٢٧٥
المنازل ثلاثة : التخلّق وحسن الخلق ، ثم الفتوة ، ثم المروءة ٢٧٥
كمال هذا الخلق ٢٧٧
فتوة يوسف عليه السلام مع إخوته ٢٧٨
كمال الفتوَّة في بيت النبوَّة ٢٧٨
فتوّة رجل مع امرأته « سبقت الفتيان » ٢٧٩
« مثلك يخدم الفتيان » ٢٧٩
نكتة الفتوة : أن لا تشهد لك فضلًا ، ولا ترى لك حقًّا ٢٨٠
درجات الفتوة ٢٨٠
الدرجة الأولى : ترْك الخصومة ، والتغافل عن الزلّة ، ونسيان الأذيّة ٢٨٠
فتوّة التغافل أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية ٢٨١

نسيان الأذيّة ٢٨١
الدرجة الثانية: « أن تقرّب من يقصيك، وتكرم مَن يؤذيك، وتعتذر إلى مَنْ يجني عليك » ٢٨٢
ابن تيمية من سادات الفتيان : « وددت أني لأصحابي ، مثله لأعدائه وخصومه » ٢٨٢
الدرجة الثالثة : أن لا تتعلّق في السير بدليل ٢٨٣
ومن الفتوة العفو مع الإحسان ، وهاكَ أمثلة ٢٨٨
صفية بنت حُيي أم المؤمنين رضي الله عنها ٢٨٨
عبد الله بن عون ٢٨٩
أحمد بن حنبل إمام أهل السنة : كلّ من ذكرني في حِلٍّ إلّا مبتدعًا ٢٨٩
صور من علو الهمة في المواساة ، وهي روح الفتوة ٢٨٩
أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه ٢٩٠
حكيم بن حزام رضي الله عنه : يدفع خمسمائة ألف في ديْن الزبير ٢٩٠
سعيد بن العاص رحمه الله : مرحبًا بمن جاء يحمل أزوادنا للآخرة ٢٩٠
زيد بن أسلم رحمه الله ٢٩٠
بقيّ بن مخْلد رحمه الله : يمشي مع ضعيف في مظلمة إلى « إشبيلية » ٢٩١
القاضي الخيَّاط : يخيط بالليل للأيتام والضعفاء ٢٩١
ابن أبي ذهْل : يموِّن خمسة آلاف بيت ٢٩١
الإمام أحمد الرفاعي : يجمع الحطب للأرامل ، ويملأ لهم بالجرَّة ٢٩١
ومن الفتوَّة التذمُّم للصاحب والأخ ٢٩٢
عمرو بن قيس الملائي يَخلُف منصور بن المعتمر في النفقة على أهله بعد موته ٢٩٤
عبد الله بن عون والحسن البصري : لله درُّهما ٢٩٥
مواقف أعطر من المسْك ، وأغرب من الخيال ٢٩٦
ولبيت النبوة القدح المعلّى في ذلك ٢٩٧
وعند عيسى التمَّار وفتح الموصلي أطيبُ الطِّيب ٢٩٧
أهكذا يؤاخي الأكابر ؟! ٢٩٧

فداء الأخ بالنفس ٢٩٨
ومن الفتوة : التذمُّم للجار ٢٩٨
لله درك أبا حمزة السكري ٢٩٩
والمكافأة بالصنائع من الفتوة ٢٩٩
ونختم هذا الفصل بأريج من بستان إبراهيم بن أدهم ٣٠١
الفصل الثالث عشر : علو الهمة في المروءة ٣٠٣-٣٦٣
قالوا عن المروءة ٣٠٧
العقل والمروءة ٣١١
من أولئك الذين ينقادون للمروءة ؟ ٣١٢
دواعي طلب المروءة : علوُّ الهمَّة وشرف النفْس ٣١٢
لا قيمة للشرف مع الخمول ٣١٤
عالي الهمة يعْلم حقوق المروءة ويرعاها ٣١٥
حقوق المروءة وشروطها ٣١٥
شروط المروءة في النفس ٣١٦
(١) العفة ٣١٦
(٢) النزاهة ٣١٦
(٣) الصيانة ٣١٧
شروط المروءة في الغير ثلاثة ٣١٩
(٤) المؤازرة وهي نوعان ٣١٩
أ - الإسعاف بالجاه ٣١٩
ب - الإسعاف في النوائب ٣٢٠
(٥) المياسَرة ٣٢١
نوعان ٣٢١
أ - العفو عن الهفوات ٣٢١
أخي ٣٢٣

ب - المسامحة في الحقوق وأنواعها ٣٢٦
(٦) الإفضال وهو نوعان ٣٢٧
أ - إفضال الاصطناع ٣٢٧
ب - إفضال الاستكفاف ٣٢٨
عالي الهمَّة بعيدٌ كلَّ البعد عن خوارم المروءة ٣٢٩
خوارم المروءة ٣٢٩
١ - اتِّباع الهَوَىٰ ٣٢٩
٢ - أخْذ العوض عن إطعام وسقيا الأسير ٣٣٠
٣ - أخذ العِوَض على تعليمِ القرآن والتحديثِ من غير حاجة ٣٣٠
٤ - أخْذ نِثار العرس بفضل قوة ٣٣٠
٥ - إخراج الريح بصوتٍ وهو يقدر على خلافه ٣٣٠
٦ - إخراج اليدين من تحت الجُبَّة بين الناس لغير حاجة ٣٣٠
٧ - إدامة تأخير الصلاة ٣٣١
٨ - إدامة ترك تسبيحات الصلاة ٣٣١
٩ - الادِّهان عند العطَّار ٣٣١
١٠ - استخدام الضيْف ٣٣١
١١ - الاستخفاف بالناس والتشهير بهم وخاصة العلماء والدعاة ٣٣١
١٢ - الاستمناء أو جَلْد عميرة ٣٣٢
١٣ - اعتياد البول قائمًا بلا ضرورة ، أو في الماء ٣٣٣
١٤ - الإعلان بالفسْق ٣٣٣
١٥ - إفساد المال ٣٣٣
١٦ - إكثار المضايقة في اليسير الذي لا يُستقصىٰ فيه ٣٣٣
١٧ - الأكل في الطريق والأسواق ٣٣٣
١٨ - الأكل من غير ما يليه ٣٣٤
١٩ - الألعاب ٣٣٤

٢٠ - المداومة على إنشاد الشعْر والتكسُّب به ٣٣٥
٢١ - البول على قارعة الطريق المسلوكة ٣٣٥
٢٢ - التجشُّؤ بصوت مزعج، ما وجد إلى خلافه سبيلًا ٣٣٥
٢٣ - تحديث الناس بجماع الزوجة ٣٣٦
٢٤ - التحية العسكرية ٣٣٦
٢٥ - ترك الزاني يزني وتمكينه من ذلك ٣٣٦
٢٦ - ترك الوتر ٣٣٦
٢٧ - التصريح بأقوال الخنا في الملأ من غير حاجة ٣٣٦
٢٨ - تعاطي الإنسان ما يُحسنه، ودعواه معرفة ما لا يعرفه ٣٣٧
٢٩ - تقبيل الرجل زوجه عند الناس ٣٣٧
٣٠ - تكتيف اليديْن على الدُّبُر ٣٣٨
٣١ - تكرر حضور وليمة غير، بلا طلب ولا ضرورة ٣٣٨
٣٢ - التوسُّع في المأكل والمشرب والرفاهية ٣٣٨
٣٣ - الجشع عند الأكل، سواء كان وحده أو بين الناس ٣٣٩
٣٤ - جعْل النفْس مسخرة، بحيث يُضحك به في كلامه أو في لباسه ٣٣٩
٣٥ - الجلوس على الطرقات ٣٤٠
٣٦ - الحِرْص ٣٤٠
٣٧ - الحسَد ٣٤٠
٣٨ - حلْق اللِّحية ٣٤١
٣٩ - حمْل الفلوس في الكُمِّ ٣٤١
٤٠ - حمْل المتاع بُخْلًا بأجرة حمَّال يحمله له ٣٤١
٤١ - الخروج عن مستوى الجلوس بلا عذر ٣٤١
٤٢ - خِضاب اللحية السوداء ٣٤١
٤٣ - دخول الحمام بغير مِئزر ٣٤٢
٤٤ - ذكر الأهل بالسَّخَف من غير حاجة ٣٤٢

٤٥ - الربْح على الإخوان ٣٤٢
٤٦ - الرطانة بالأعجمية من غير حاجة ٣٤٢
٤٧ - الرقص والغناء والصفق بالأَكُفِّ ٣٤٣
٤٨ - الزنا ٣٤٤
٤٩ - سرعة المشي بانزعاج واضطراب ٣٤٤
٥٠ - سؤال الناس ٣٤٤
٥١ - سوء العشرة مع الأهل أو الجيران أو المعاملين ٣٤٦
٥٢ - شتم الناس أو الدوابِّ ٣٤٦
٥٣ - شرب الدخان والجلوس على القهاوي ٣٤٧
٥٤ - الشرب من سقاية سوق بلا غلبة جوع وعطش ٣٤٧
٥٥ - صحبة الأراذل ٣٤٨
٥٦ - عدم الإفضال بالماء والطعام ٣٤٨
٥٧ - القهقهة ٣٤٨
٥٨ - كثرة الالتفات في الطريق ٣٤٨
٥٩ - كشْف العورة إذا خلا من غير حاجة ٣٤٩
٦٠ - كشْف ما جرت العادة بتغطيته كصدره ، وظهره وبطْنه ٣٤٩
٦١ - الكلام مما يُعتذَر منه ٣٤٩
٦٢ - اللعب بالأرجوحة للكبار ٣٤٩
٦٣ - اللعب بالحمام ٣٥٠
٦٤- اللعب بالسِّيجة، والطاب، والنرد، والدمينو، و «الكوتشينة» ٣٥٠
٦٥ - اللعب بالشطرنج ٣٥٠
٦٦ - المتزيي بزيٍّ يُسخر منه ٣٥٠
٦٧ - المُجون ٣٥١
٦٨ - محاسبة الابن في النفقة في الحج ونحوه ، والتقتير في باب الخير ٣٥١
٦٩ - مخاطبة المرأة بحضرة الناس بالخطاب الفاحش ٣٥١

٧٠ - المخاطرة بالنفْس ، كالملاكمة من حيث الاحتراف والممارسة ٣٥١
٧١ - مخالطة تارك الصلاة ومرتكب باقي الكبائر ٣٥١
٧٢ - المداومة على ترك السنن الراتبة ومستحبَّات الصلاة ٣٥١
٧٣ - مدّ الرِّجليْن في مجمع الناس من غير ضرورة وعذْر ٣٥١
٧٤ - المزاح مع السفهاء واللِّئام ٣٥٢
٧٥ - مشارطة أجْر الحجَّام ٣٥٢
٧٦ - المشي عُريانًا ٣٥٢
٧٧ - المشي في السوق بالسراويل وحده ٣٥٢
٧٨ - مصارعة الثيران وصراع الديكة ٣٥٢
٧٩ - مصارعة النساء ٣٥٣
٨٠ - المُماكسة في البيع والشراء ٣٥٣
٨١ - منع العارية والماعون ٣٥٣
٨٢ - مَن يصفع غيره أو من يمكنه من قفاه فيصفعه ٣٥٣
٨٣ - المنازعة على قارعة الطريق ٣٥٣
٨٤ - المناهدة مع الابن في السفر ٣٥٤
٨٥ - نتفُ اللحية عبَثًا ، ونتف الإبط والأنف عند الناس ٣٥٤
٨٦ - نظر الرجل في بيت الحائك ٣٥٤
٨٧ - النظر في مرآة الحجَّام ٣٥٤
٨٨ - النفخ في الطعام والشراب ٣٥٤
٨٩ - النوْم بين جالسَيْن ٣٥٤
٩٠ - النوم بعد الفجر ٣٥٥
٩١ - المشي أمام الناس مكشوف الرأس ٣٥٥
لطيفة ٣٥٦
اكتمال وجوه المروءة في الأنبياء عليهم السلام ٣٥٧
ممَّا يُعين على المروءة: الزوجة الصالحة، ومجالسة أهل المروءات ٣٥٧

درجات المروءة ٣٥٨
الدرجة الأولى : مروءة الرجل مع نفسه ٣٥٨
الدرجة الثانية : المروءة مع الخلق ٣٥٨
الدرجة الثالثة : المروءة مع الحق سبحانه ٣٥٩
جنَّة المروءات في أفعال العبّاد والسادات ٣٥٩
الأحنف بن قيس : لو عاب الناس الماء لم أشربه ٣٥٩
مورّق العجلي : يُعطي إخوانه الصُّرر ٣٦٠
عمر بن عبد العزيز : لا يستخدم جليسه ٣٦٠
الخليل بن أحمد: لله درُّه ٣٦٠
عبد الله بن المبارك : يُنفق على إخوانه في الحجِّ نفقةً تامة ٣٦٠
الشافعي ٣٦٠
أحمد بن مهدي : ومروءته التي لا تصوِّرها في علوها كلُّ الكلمات ٣٦٠
محمد بن جرير الطبري : يقبل هدية إخوانه ويكافئهم أضعافها ٣٦٢
وأخيرًا ٣٦٢
الفصل الرابع عشر : علو الهمة في الصمت وحفظ اللسان ٣٦٥-٤٠٣
أطايب الكلام تورث سُكنى أعالي الجنان ، وهي مِن رضوان الله ٣٦٨
ومن علوِّ الهمة : طول الصمت إلا عن خير ٣٦٩
أقسام الكلام ٣٧٢
الصمت يُتعلم : وهاكَ أمثلة من حياة الطَّيِّبين ٣٧٢
مورِّق العجلي : تعلمت الصمت في عشر سنين ٣٧٢
إبراهيم بن أدهم : يُطيل السكوت ٣٧٣
الربيع بن خثيم : لا يتكلَّم بكلام الدنيا عشرين سنة ٣٧٤
إبراهيم التيمي : لا يخوض في شيء من أمر الدنيا ٣٧٤
عبد الملك بن أبجر : يُتعلم منه توقِّيه للكلام ٣٧٥
عبد الله بن عون : ما يتكلَّم بكلمة كَتَبها عليه الكرام الكاتبون ثنتي

عشرة سنة ٣٧٧
كفُّ اللسان عن حصائده وآفاته من أفضل الجهاد ٣٧٨
عالي الهمة مطهِّر لسانه عن حصاده وآفاته ٣٧٩
عالي الهمة لا يتكلم فيما لا يعنيه ٣٧٩
عالي الهمة لا يخوض في فضول الكلام ٣٨١
عالي الهمة لا يخوض في الباطل ٣٨٣
عالي الهمة أبعد الناس عن المِراء والجدال ٣٨٤
عالي الهمة لا يُخاصِم ٣٨٦
عالي الهمة أبعد الناس عن التقعُّر في الكلام ٣٨٦
عالي الهمة ليس بالفاحش ٣٨٧
عالي الهمة أبعد الخلق عن السبِّ واللَّعن ٣٩٠
عالي الهمة ينذُر منه المزاح ٣٩٧
عالي الهمة متطهِّر تمامًا عن بقية حصائد الألسن ٣٩٩
الفصل الخامس عشر : علو الهمَّة في الإخبات ٤٠٥-٤١٢
درجات الإخبات ٤٠٥
الدرجة الأولى : أن تستغرق العصمة الشهوة ، وتستدرك الإرادة الغفلة ، ويستهوي الطلب السلوة ٤٠٨
الدرجة الثانية : أن لا ينقض إرادته سبب ، ولا يُوحش قلبه عارض ، ولا يقطع عليه الطريق فتنة ٤٠٩
الدرجة الثالثة : أن يستوي عنده المدح والذمُّ ، وتدوم لائمته لنفسه ، ويعمى عن نقصان الخلق عن درجته ٤١٠
الفصل السادس عشر : علو الهمة في التواضع ٤١٣-٤٥٤
التواضع علامة حبِّ الله للعبد ٤١٧
أحاديث عطرة في التواضع ٤١٨
درجات التواضع ٤٢٠

الدرجة الأولى : التواضع للدين فلا يعارض بمعقول منقولًا ، ولا يتهم للدين دليلًا ، ولا يرى إلى الخلاف سبيلًا ٤٢٠
الدرجة الثانية : أن ترضى بما رضي الحق به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا ، وأن لا تردَّ على عدوِّك حقًّا ، وأن تقبل من المعتذر معاذيره ٤٢٣
الدرجة الثالثة : أن تتَّضع للحق ، فتنزل عن رأيك وعوائدك في الخدمة ٤٢٤
علو همّة سيد ولد آدم ﷺ في التواضع ٤٢٦
تواضعه مع ربه عز وجل ٤٢٦
تواضعه ﷺ مع الناس ٤٢٧
تواضعه مع أهله وبيته ٤٣٠
تواضع موسى عليه السلام ٤٣٣
تواضع الصديق رضي الله عنه ٤٣٣
تواضع الفاروق رضي الله عنه ٤٣٣
تواضع ذي النورين عثمان رضي الله عنه ٤٣٦
تواضع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٤٣٦
تواضع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ٤٣٦
تواضع أبي هريرة رضي الله عنه ٤٣٧
تواضع الحسن بن علي رضي الله عنه ٤٣٧
تواضع سلمان الفارسي رضي الله عنه ٤٣٧
تواضع عبد الله بن سلام رضي الله عنه ٤٣٨
تواضع عمّار بن ياسر رضي الله عنه ٤٣٩
تواضع حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ٤٣٩
تواضع التابعين ومن بعدهم ٤٣٩
طاووس ٤٣٩
ذو الكلاع : يحمل اللحم بعد أن كان يسجد له مائة ألف ٤٤٠
الربيع بن خثيم : يحمل عرقة إلى بيت عمته ٤٤٠

أم الدرداء : تجلس مع المساكين ٤٤٠
محمد بن واسع : يجلس مع المساكين ٤٤٠
عمر بن عبد العزيز : يُوصي ابنه بقوله: «رحم الله امرأً عرف قدر نفسه» ٤٤٠
سعيد بن عبد العزيز : يسقي الماء في مجلس مكحول ٤٤١
تواضع إمام أهل السنة أحمد بن حنبل : نحن قوم مساكين ٤٤٢
بهذا صار مالك مالكًا ٤٤٤
تواضع أحمد الرفاعي : أنا أحق بالدُّون ٤٤٥
من مظاهر التواضع وصفات المتواضعين ٤٤٥
كراهيتهم مشي الناس خلفهم ٤٤٥
زيارتهم لغيرهم ٤٤٥
لا يستنكفون من جلوس غيرهم إلى جوارهم ٤٤٦
عدم أنفتهم من حمل أمتعتهم الخاصَّة ٤٤٦
جلوسهم إلى المساكين ٤٤٦
معرفة قدْر النفس ٤٤٦
ومن التواضع : أن يتواضع المرء مع أقرانه ٤٤٧
التواضع مع مَن هو دونك ٤٤٧
ومن التواضع أن لا يتوق مجالسة المرضى كبْرًا منه ٤٤٨
أقوال عطرة في التواضع ٤٤٩
رأس التواضع ٤٥٠
المتواضع في شرفه يُكتب من خالص الله عز وجل ٤٥٠
الفصل السابع عشر : علو الهمة في الشكر ٤٥٥-٤٩٨
الله عز وجل هو الشكور على الحقيقة ٤٥٩
فضل الشكر ٤٦١
قواعد الشكر وأركانه ٤٦٤

١ - معرفة النعم ٤٦٤
٢ - قبولها ٤٦٥
٣ - الثناء بها على المنعم ٤٦٥
الشكر علْم وحال وعمَلٌ ٤٦٥
الكمال في الشكر أن تشهد النعمة والمنعم ٤٦٧
شُكر الخاصة وشُكر العامة ٤٦٧
الفرق بين الحمد والشكر ٤٦٨
الشكر على الشكر أتمُّ من الشكر ٤٦٨
الاعتراف بالعجْز عن الشكر : شكرٌ ٤٦٩
درجات الشكر ٤٧٠
الدرجة الأولى : الشكر على المحَابِّ ٤٧٠
الدرجة الثانية : الشكر في المكاره ٤٧١
الدرجة الثالثة : أن لا يشهد العبد إلا المنعم ٤٧٢
تقسيم ابن القيم أصحابها إلى ثلاثة أقسام ٤٧٢
علو همة نوح عليه السلام ٤٧٦
إبراهيم الخليل عليه السلام : الشاكر لأنعم ربه ٤٧٦
موسى عليه السلام : من سادات الشاكرين ٤٧٧
داود عليه السلام ٤٧٧
سليمان بن داود عليه السلام ٤٧٨
سيد الشاكرين : رسول الله ﷺ ٤٧٩
الصديق : يسأل تمام النعمة ٤٨١
عثمان ذو النورين النبيل ٤٨١
علي بن أبي طالب ٤٨١
النجاشي : وتواضعه شكرًا لربه ٤٨٢
عمر بن عبد العزيز ٤٨٢

علي زين العابدين رضي الله عنه ٤٨٢
الحسن البصري سيد عبَّاد البصرة ٤٨٣
أنت عندي أفقه من الحسن ، فالزمْ ما أنت عليه ٤٨٥
بكر بن عبد الله المُزَني ٤٨٥
الحمَّال فيها أفقه من بكر « المزني » ٤٨٥
يونس بن عبيد : أرى عندك مئين الألوف ، وأنت تشكو الحاجة ؟! ٤٨٦
فضيل بن عياض وابن عُيينة : يتذاكران النعم إلى الصباح ٤٨٦
أبو حازم وفطنته وعلمه وشكره ٤٨٦
لله درُّ محمد بن واسع .. ما أفقهه وما أعظم شكره ٤٨٨
جلساء الرحمن : أهل الشكر ٤٨٨
أقلُّ نعمة لا تهتدي لشكرها العقول ٤٨٨
الشكر أن لا تعصي الله بِنعَمِه ٤٨٩
شكر الله على أعظم النعم : توحيده ٤٨٩
تمام النعمة أن تضع رِجْلًا في الجنة ٤٩٠
شكر الله على البعد عن المعصية ٤٩٠
ومن دقيق النعم التي تستحق الشكر ٤٩١
ربك المحسن قديمًا وحديثًا إليك ، فأحرى أن تُدئب نفسك في أداء شكره ٤٩١
لله على أهل النار مِنّة ٤٩٢
من نعم الله السابغة أن يزويَ الدنيا عنك ٤٩٢
نعمتان لا أدري أيتهما أفضل ٤٩٣
عالي الهمة يجدّ في شكر الشكور ولا يفتر ٤٩٣
من منازل الشكر ٤٩٤
علو همَّة الجنّ في الشكر ٤٩٥
من جميل الصبر وجليل الشكر ٤٩٧

محارب بن دثار قاضي الكوفة : عالي الهمة في الشكر ٤٩٨
الفصل الثامن عشر : علو الهمة في المراقبة ٤٩٩-٥٢٥
المراقبة تعبُّد بأسمائه الحسنى ٥٠٤
الرقيب ٥٠٤
العليم ٥٠٦
الشهيد ٥٠٧
السميع البصير ٥٠٧
المحصي ٥٠٨
درجات المراقبة عند الغزالي ٥٠٩
الدرجة الأولى : مراقبة المقرَّبين من الصدِّيقين ٥٠٩
الدرجة الثانية : مراقبة الورِعين من أصحاب اليمين ٥١٢
ابن عمر : سيد من سادات المراقبين لله ٥١٢
قول الغزالي في الفرق بين الدرجتين الأولى والثانية ٥١٣
مراقبة الورعين : مراقبة قبل العمل ، ومراقبة في العمل ٥١٣
أمَّا قبل العمل ٥١٣
عند الشروع في العمل ٥١٤
درجات أخرى للمراقبة عند شيخ الإسلام الهروي وابن القيم ٥١٦
الدرجة الأولى : مراقبة الحق تعالى في السير إليه على الدوام ٥١٦
الدرجة الثانية : مراقبة لمراقبة الله لك .. «مراقبة نظر الحق» بالإعراض
عن الاعتراض ٥١٨
الاعتراض ثلاثة أنواع ٥١٨
النوع الأول : اعتراض على أسمائه وصفاته بالشبه الباطلة ٥١٨
النوع الثاني : الاعتراض على شرعه وأمره ٥١٩
النوع الثالث : الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره ٥٢٠
الدرجة الثالثة : «مراقبة الأزل» أي «شهود معنى الأزل» ٥٢١
درجة عالية رفيعة شريفة من المراقبة ٥٢٢

أخي ٥٢٣
مراقبة مخلوق لمخلوق، فكيف مراقبة العبد لسيِّده ؟ ٥٢٣
المراقبة توصِّلك إلى القرْب ٥٢٤
الفصل التاسع عشر: علو الهمة في الحياء ٥٢٧-٥٦٨
الله تعالى حيّ يحبُّ الحياء ٥٣٢
أقسام الحياء عشرة أوجه ٥٣٣
١ - حياء الجناية ٥٣٤
الفضيل بن عياض ٥٣٤
الأسود بن يزيد ٥٣٤
إمام أهل السنة ٥٣٥
٢ - حياء التقصير ٥٣٥
٣ - حياء الإجلال ٥٣٥
٤ - حياء الكرم ٥٣٨
٥ - حياء الحشمة ٥٣٨
٦ - حياء الاستحقار واستصغار النفس ٥٣٨
٧ - حياء المحبة ٥٣٩
٨ - حياء العبودية ٥٣٩
٩ - حياء الشرف والعِزَّة ٥٣٩
١٠ - حياء المرء من نفسه ٥٤٠
درجات الحياء ٥٤٠
الدرجة الأولى : حياء يتولَّد من علْم العبد بنظر الحقِّ إليه، فيجذبه إلى تحمُّل هذه المجاهدة ٥٤٠
الدرجة الثانية : حياء يتولَّد من النظر في علْم القرب، تحقُّق القلب بالمعيَّة الخاصَّة ٥٤١
الدرجة الثالثة: حياء يتولد من انجذاب الروح والقلب، شهود الحضرة ٥٤٣

عالي الهمة من استحيا من الله، ومن الملائكة، ومن نفسه، ومن الناس ٥٤٤
الاستحياء من الله عز وجل ٥٤٤
الاستحياء من الملائكة ٥٤٧
الاستحياء من النفس ٥٤٨
الاستحياء من الناس ٥٤٩
نهاية الحياء وكماله أن لا تستحي من الحق ٥٥١
أبو أيوب الأنصاري وفهمه السليم لكمال الحياء ٥٥٢
أمثلة عطرة في علو الهمة في الحياء ٥٥٣
حياء كليم الله موسى عليه السلام ٥٥٣
حياء رسول الله ﷺ ٥٥٣
أما حياؤه من ربِّه ٥٥٤
حياء الصحابة رضي الله عنهم ٥٥٥
حياء عثمان ذي النورين رضي الله عنه ٥٥٥
الصديق رضي الله عنه ٥٥٦
الفاروق رضي الله عنه ٥٥٦
أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ٥٥٦
محمد بن الفضل رحمه الله ٥٥٧
عامر بن عبد قيس رحمه الله ٥٥٧
أبو مسلم الخولاني رحمه الله ٥٥٧
محمد بن سيرين رحمه الله : «ليتَ عقلي في اليقظة كعقل ابن سيرين في المنام» ٥٥٨
مقدِّم الجيوش الجرَّاح : «تركتُ الذنوب حياءً أربعين سنة ثم أدركني الورع» ٥٥٨
عمرو بن عتبة بن فرقد: مثل رائع في علو الهمَّة في الحياء ٥٥٨
ابنة الرجل الصالح الذي استضاف موسى عليه السلام ٥٥٩

حياء أمِّ أبيها فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ ٥٥٩
حياء الصديقة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما ٥٦١
فاطمة بنت عتبة رضي الله عنها ٥٦١
أقوال عطرة في الحياء ٥٦٢
استح من الله في خلواتك ، ولا تكن الجرأة على محارم الله في الخلوة صفتك ٥٦٧
الفصل العشرون : علو الهمة في التبتُّل ٥٦٩-٥٧٨
درجات التبتُّل ٥٧٢
الدرجة الأولى : تجريد الانقطاع عن الحظوظ واللحوظ إلى العالم ٥٧٢
الدرجة الثانية : تجريد الانقطاع عن التعريج على النفس ٥٧٤
الدرجة الثالثة : تجريد الانقطاع إلى السَّبْق ٥٧٥
الدرجة الرابعة : الانقطاع عن مراده من ربِّه ، والفناء عنه إلى مراد ربه منه ٥٧٦
كلام نفيس لابن القيم : كمال العبودية بإعطاء الجمع والفرْق حقَّهما في « إياك نعبد» و «إياك نستعين» ٥٧٦
أخي ٥٧٨
الفصل الحادي والعشرون : علو الهمة في الخشوع ٥٧٩-٦١٨
الخشوع أول علم يرفع من بين هذه الأمة ٥٨٢
وللخاشعين البشرى من ربهم ٥٨٣
الخشوع طريق إلى أعالي الفردوس ٥٨٣
الخشوع ثباتٌ على منهج الله ٥٨٤
القلب الخاشع بعيد عن الشيطان ٥٨٤
آية الخشوع سبب في توبة وخشوع الجبليْن : عبد الله بن المبارك والفضيل بن عياض ٥٨٦
الخشوع ينتظم جوارح العبد جميعًا ٥٨٧

عالي الهمة في الخشوع من اجتمعت فيه هذه الصفات ٥٨٧
١ - الخوف من الله ٥٨٧
٢ - البكاء من خشية الله ٥٨٨
٣ - الصبر ٥٨٨
٤ - إقام الصلاة ٥٨٨
٥ - إيتاء الزكاة ٥٨٨
٦ - اليقين بلقاء الله ٥٨٨
٧ - تعظيم شعائر الله ٥٨٨
الخشوع في الصلاة ٥٨٩
الخشوع واجب في الصلاة، وهو أرجح الأقوال ٥٩٠
عالي الهمة في خشوعه في صلاته يظهر ذلك منه في أفعالها ٥٩٢
١ - وضع «اليمين» على «الشمال» في حال القيام ٥٩٢
٢ - إقبال المصلي عالي الهمة على الله عز وجل وعدم التفاته ٥٩٣
الناس في الصلاة على مراتب خمسة ٥٩٦
٣ - الركوع ٥٩٧
٤ - السجود ٥٩٨
٥ - وصف الله بصفات الكمال ٥٩٨
عالي الهمة في صلاته يذكر الموت فيها ٥٩٨
سادات الخاشعين في صلواتهم ٥٩٩
يا مصيبتاه على ترك الخشوع ٥٩٩
الخشوع عند سماع القرآن والعلم ٦٠٠
الخشوع في الدعاء ٦٠١
عالي الهمة من استوفى درجات الخشوع ٦٠٢
١ - وجل القلب ٦٠٢
٢ - قشعريرة الجلد ٦٠٣

٣ - البكاء ٦٠٣
٤ - لين القلب والجلْد جميعًا ٦٠٣
٥ - السكينة ٦٠٣
٦ - الإخبات ٦٠٨
٧ - الطمأنينة ٦٠٨
درجات الخشوع عند الهروي ٦٠٨
الدرجة الأولى: التذلُّل للأمر، والاستسلام للحكم، والاتضاع لنظر الحقِّ ٦٠٩
الدرجة الثانية : ترقب آفات النفس والعمل ، ورؤية فضْل كل ذي فضل عليك ٦١٠
الدرجة الثالثة : حفظ الحرمة عند المكاشفة ، وتصفية الوقت من مراءاة الخلق ، وتجريد رؤية الفضل ٦١٠
وصف الحسن البصري للخاشعين ٦١٣
علو خشوع النجاشي وأصحابه : يقودهم إلى الإحسان وأعالي الجِنان ٦١٤
كلمات للحياة لفقيد الإسلام سيد قطب ، طيّب الله ثراه ، وأعلى في الجنة مثواه ٦١٧
الفصل الثاني والعشرون : علو الهمة في الأدب ٦١٩-٦٧٥
لمكانة الأدب ، تجد كتب التراجم مشحونة به والنصّ عليه ٦٢٢
أنواع الأدب ٦٢٥
١ - الأدب مع الله ٦٢٥
الأنبياء أكمل الناس أدبًا مع الله ٦٢٦
أدب آدم عليه السلام ٦٢٧
أدب الخليل عليه السلام ٦٢٧
أدب أيوب عليه السلام ٦٢٧
أدب يوسف عليه السلام ٦٢٧

أدب الخضر عليه السلام ٦٢٨
أدب موسى عليه السلام ٦٢٨
أدب عيسى عليه السلام ٦٢٨
سيد البشر ﷺ أكمل الأنبياء أدبًا ٦٣٠
عائشة المكِّية تعظُ القاسم بن سلام ، وتوصيه بالأدب ٦٣٢
أدب السري السقطي ٦٣٣
أدب مؤمني الجن ٦٣٣
«الأدب» هو الدين كله ٦٣٤
ومن الأدب ٦٣٤
ومن الأدب مع الله ٦٣٤
ومن الأدب مع الله في الوقوف بين يديه في الصلاة ٦٣٥
الأدب مع الرسول ﷺ ٦٣٦
ومن الأدب مع الرسول ﷺ ٦٣٧
ومن الأدب معه ٦٣٨
أدب الصدّيق رضي الله عنه ٦٣٨
أدب عمر رضي الله عنه ٦٣٩
أدب أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ٦٣٩
أدب أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ٦٣٩
أدب طلحة الخير : طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ٦٤٠
أدب صدّيق الأنصار سعد بن معاذ رضي الله عنه ٦٤١
أدب خطيب الأنصار ثابت بن قيس رضي الله عنه ٦٤٢
الأدب مع الخلق ٦٤٤
علو الهمة في الأدب مع الوالدين ٦٤٥
نبي الله إسماعيل الأنموذج العالي لبرّ الوالدين ٦٤٥
حارثة بن النعمان رضي الله عنه : مثل سامق للبرِّ ٦٤٥

أبو هريرة لم يحجَّ حتى ماتت أمُّه ؛ لصُحبتها ٦٤٦
أويس القرني : يشهد له النبي ﷺ ببرِّه لأمه وأدبه معها ٦٤٨
أبو حنيفة النعمان : مَثَل يُحتذىٰ في الأدب مع الأم ٦٤٨
ابن عون : وأدبه النبيل مع أمه ٦٥٠
إني لها بعيرها المذلَّل ٦٥٠
صورة طيبة من الأدب والبر ٦٥٠
كَهْمَس الدَّعَّاء : وأدبه العالي ٦٥١
محمد بن سيرين : لا يكلِّم أمَّه إلَّا وهو يتضرَّع ٦٥٢
زين العابدين : بلغ من أدبه مع أمِّه أنه كان لا يأكل معها في صحفة لماذا ؟ ٦٥٣
طلْق بن حبيب : لا يمشي فوق ظهْر بيتٍ أمُّه تحته ٦٥٣
ابن القاسم : لله دره ٦٥٣
حيْوة بن شريح : يترك الدرس لعلَف الدجاج ٦٥٣
الهذيل وأمه حفصة بنت سيرين ٦٥٤
محمد بن المنكدر : يضع خدَّه على الأرض لتطأه أمه بقدمها ٦٥٤
منصور بن المعتمر ٦٥٥
بندار ٦٥٥
مسعر بن كدام : في أدبه إمام ٦٥٥
ذرّ بن عمر بن ذر : ما ارتقى سقفًا كان والده تحته ٦٥٥
عامر بن عبد الله بن الزبير : يمكث عامًا بعد موت أبيه لا يدعو إلا بالمغفرة له ٦٥٦
عروة بن الزبير وبره ٦٥٦
وأبو يوسف على الطريق ٦٥٦
الأبّـار ٦٥٦
الحافظ ابن عساكر وبرُّه بأمه ٦٥٧

أمثلة عطرة في علو الهمة في الأدب ٦٥٧
أدب الفاروق رضي الله عنه ٦٥٧
أدب معاذ بن جبل رضي الله عنه ٦٥٧
أدب علي رضي الله عنه ٦٥٧
أدب ابن عباس رضي الله عنه ٦٥٧
أدب عمران بن حُصين رضي الله عنه ٦٥٧
أدب عدي بن حاتم رضي الله عنه ٦٥٩
أدب ابن عمر رضي الله عنه ٦٥٩
أدب زر بن حبيش ٦٥٩
أدب أبي العالية ٦٥٩
أدب سعيد بن المسيب ٦٥٩
أدب علي بن الحسين ٦٦٠
أدب الحسن البصري ٦٦٠
أدب عطاء بن أبي رباح ٦٦٠
أدب عمر بن عبد العزيز ٦٦٠
أدب أبي وائل ٦٦٠
أدب قتادة ٦٦١
أدب مالك بن أنس إمام دار الهجرة ٦٦١
أدب الإمام المبارك عبد الله بن المبارك ٦٦١
أدب سفيان بن عيينة شيخ الحجاز ٦٦٢
أدب الأوزاعي ٦٦٣
أدب سفيان الثوري مع الأوزاعي وإبراهيم بن أدهم ٦٦٣
أدب إبراهيم بن أدهم وعطفه على الأصاغر ٦٦٤
أدب الشافعي ٦٦٥
أدب وكيع بن الجرَّاح ٦٦٥

أدب الإمام الكبير يحيى بن يحيى بن كثير ٦٦٥

أدب الربيع بن سليمان مع شيخه الشافعي ٦٦٦

أدب إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ٦٦٦

أدب يحيى بن سعيد القطان ٦٧٠

أدب مسلم بن الحجَّاج مع شيخه البخاري ٦٧٠

أدب أبي عمر محمد بن يوسف القاضي مع إبراهيم الحربي ٦٧٠

أدب العلماء مع شيخ الإسلام البوشنجي ٦٧٠

أدب الحافظ السِّلفي ٦٧١

أدب أسد الشام الشيخ : عبد الله اليونيني ٦٧١

أدب أبي علي الدقَّاق ٦٧١

أدب أبي بكر الكتَّاني ٦٧١

أدب أبي عبد الله بن خفيف ٦٧٢

درجات الأدب ٦٧٢

الدرجة الأولى : منع الخوف أن يتعدَّى إلى اليأس ، وحبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن ، وضبط السرور أن يضاهئ الجرأة ٦٧٢

الدرجة الثانية : الخروج من الخوف إلى ميدان القبْض ، والصعود من الرجاء إلى ميدان البسْط ، ثم الترقِّي من السرور إلى ميدان المشاهدة ٦٧٤

الدرجة الثالثة : معرفة الأدب ، ثم الفناء عن التأدُّب بتأديب الحق ٦٧٥

الفصل الثالث والعشرون : علو الهمة في طلب الجنَّة ٦٧٧-٦٩٦

الآخرة ثقيلة في ميزان الله ٦٧٩

ألا إن السباق إلى هناك ٦٨٠

إنها الجنة ٦٨٠

إنها الجنة التي اشتاق إليها الصالحون من هذه الأمة ٦٨١

عمير بن الحمام رضي الله عنه ٦٨١

عمرو بن الجموح رضي الله عنه ٦٨١

جعفر الطيَّار رضي الله عنه ٦٨١
إنها الجنة ٦٨٢
إنها الجنة ٦٨٣
أنس بن النضر وشوقُه إليها ٦٨٣
حرام بن ملحان وشوقه إلى الجنة ٦٨٨
شوق عامر بن فهيرة للجنة ٦٨٨
شوق سعد بن خيثمة بن الحارث رضي الله عنه للجنة ٦٨٩
عبد الله بن غالب : روحوا بنا إلى الجنَّة ٦٩٠
كثير بن مرة : أمطرينا جواري مزيَّنات ٦٩٠
أبو سليمان الداراني : من شوقه للجنة يرى الحُور العين منامًا ٦٩٠
شوق عطاء السليمي للجنة ٦٩٠
شوق عبد الواحد بن زيد للحور العين ٦٩١
عمر بن عبد العزيز : تاقت نفسه إلى الجنة فزَهِد ٦٩٢
مالك بن دينار : يُغشى عليه من ذكْر الجنة ٦٩٢
موْت رجل شوقًا للحور العين ٦٩٢
يحيى بن معاذ : إنما أبكي على حاجتي إن فاتت ٦٩٣
إنها الجنة فيها جوار الرحمن وأنبيائه ٦٩٥
طلب آسية رَضي الله عنها للجنة ٦٩٥
عبد الله بن أبي زكريا وشوقه إلى أهل الجنة ٦٩٥
خالد بن معدان ٦٩٥
الفصل الرابع والعشرون : علو الهمة في حبِّ الله والشوق إليه ٦٩٧-٧٥٩
الأسباب الجالبة للمحبة المقوِّية لها : ثلاثة عشر سببًا ٧٠٣-٧٠٨
السري السقطي من سادات المحبين الصادقين ٧٠٨
درجات المحبة : **الدرجة الأولى** : محبة تقطع الوساوس ، وتلذّ الخدمة ، وتسلِّي عن المصائب ٧٠٩

الدرجة الثانية : تبعث على إيثار الحق على غيره تظهر من مطالعة الصفات ٧١١
العبودية مرتبة عظيمة من مراتب المحبة ٧١٣
مرتبة الخلة أعلى مقامات المحبة وهي للخليلَيْن محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلَّم ٧١٤
أطيب الحياة أن تكون مُحبًا لله محبوبًا ٧١٦
أبو بكر الصديق : يسبق الأمة بحبِّه لله ٧٢٠
ابن عمر : يسأل الله حبَّه ٧٢٠
حكيم بن حزام : سيِّد شعاره الحبُّ ٧٢١
العباس رضي الله عنه : يوصي ابنه حبر القرآن بحبِّ الله ٧٢١
سيروا إلى ربكم سيرًا جميلًا ٧٢١
النفس المطمئنة هي المحبَّة لربِّها عند الحسن البصري ٧٢٣
همم الأبرار متصلة بمحبة الرحمن ٧٢٣
طوبى لقلوب ملأتها محبة الله ٧٢٣
ضيغم بن مالك : المُحبّ الخائف ٧٢٣
دواء المحبِّين في الجبال لم ينبت «شعوانة» ٧٢٤
فتح الموصلي : من سادات المحبِّين ٧٢٤
عتبة الغلام : القائل: تُراك مولاي تعذِّب محبيك وأنت الحي الكريم ٧٢٤
يحيى بن معاذ الرازي : المحبُّ .. لله درُّه ما أحلاه وأحلى كلامه ... ٧٢٦
سمنون بن حمزة الخواص المحب ٧٢٨
لا تخدعنَّ فللحبيب دلائل ٧٣١
علامات المحبّ عالي الهمَّة ٧٣١
العمل على المحبة لا يدخله الفتور ٧٣٤
من علامات المحب عالي الهمة : حب لقاء الحبيب في دار السلام ٧٣٦
ومن علامات المحب: أن يكون مُؤثرًا ما أحب الله تعالى على ما يحبه

في ظاهره وباطنه ٧٣٨
ومنها أن يكون مُولعًا بذكر الله ، لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه ٧٣٩
بعيني من تلذّذ بكلامي ٧٣٩
ومن علامات المحبّ عالي الهمة : أن يكون أُنسه بالخلوة ومناجاته لله ومواظبته على التهجُّد ٧٤٠
ومن علامات المحب أن يتنعَّم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها ٧٤٢
ومن علامات المحب أن يكون في حبِّه خائفًا متضائلًا تحت الهيبة والتعظيم ٧٤٣
ومن علامات المحبّ عالي الهمة : كتمان الحبّ واجتناب الدعوى ٧٤٣
الجُنَيْد : تاج العارفين وسيد المحبين في عصره ٧٤٥
الشوق إلى الله عز وجل ٧٤٧
الشوق في الكتاب والسنة ٧٤٧
نوعا الشوق ٧٤٧
الشوق إلى اللقاء (الشوق إلى الجنة) ٧٤٩
وشوق في حال اللقاء ٧٤٩
مراتب الشوق ودرجاته الثلاث ٧٤٩
أخي ٧٥١
أبو الدرداء : المشتاق إلى ربه ٧٥٣
عبد الله بن زكريا : يتمنَّى الموت شوقًا إلى ربه ٧٥٤
أبو عبد ربِّ الزاهد ٧٥٤
أبو عبد الله النباجي ٧٥٤
الفتح بن شخروف : طال شوقي إليك فعجّل قدومي عليك ٧٥٥
فتح الموصلي : المشتاق الصادق ٧٥٥
عثمان بن صخر العتكي ٧٥٦
إبراهيم بن أدهم : يرى ربه منامًا ٧٥٦

علي بن سهل المدائني : أنت العليم أن الشوق قد برّح بي ٧٥٧
الحارث بن عمير : مشتاق إلى لقاء سيده ٧٥٨
أخي ٧٥٨
الفصل الخامس والعشرون : فقه مراتب الأعمال ، وبدعة القشْر واللُّباب ٧٦١-٧٨٠
فقه مراتب الأعمال : فقه علاة الهمم وخاصَّة العلماء ٧٦٣
القرآن الكريم ومراتب الأعمال ٧٦٤
السنة النبوية ومراتب الأعمال ٧٦٥
علم أصول الفقه يضع القواعد ٧٦٧
فقه مراتب الأعمال : خاصة العلماء بهذا الدين ٧٦٨
غياب حسِّ الأولويات ونتائجه ٧٦٩
١ - ضياع الأجر ٧٦٩
٢ - سوء فهم الشريعة ٧٧٠
٣ - غياب حسِّ الأولويات في الدعوة ٧٧١
بدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب ٧٧٢
تركيا ولا « عاطف إسكلفي » لها ٧٧٧
الشريعة كلها لُباب ٧٧٩
النخالة في المبتدعين لا في سلف الأمة الطيِّبين ٧٨٠
الفهرس ٧٨١

* * *

□ فهرس المجلد السادس □

الموضوع | الصفحة

الفصل الأول : علو همَّة الرسول ﷺ ٣-١٩
رأى الناس رأيَ العيْن علوّ همَّته التي لا تدانيها همَّة ٧
رسول الله ﷺ أعلى الناس همَّة في جميع مقامات الدين ١١
رسول الله ﷺ أحسن الناس عطفًا وودًّا ١١
الرسول ﷺ قدوة للرجل المهذَّب في كل زمان ومكان ١٤
رسول الله ﷺ في التاريخ ١٥
عظمة العظمات عند رسولنا ﷺ ١٦
الفصل الثاني : علوّ همَّة الخلفاء والملوك ٢١-٣٣٩
الصِّدِّيق : «ثاني اثنيْن» رضي الله عنه ٢٨
الصديق أعزَّ الله به الدين يوم الردّة ٣٤
همَّة أغرب من الخيال ، تُقرِّب الصعْب وتحقِّق المحال ٣٦
خليفة رسول الله ﷺ الهاضم لنفسه ٣٦
حالب الشياه للعجائز ، والعاجِن بيديْه خبْز الأيتام ٣٧
لقد أتعبتَ من بعدك ٣٧
سبقت - والله - سبقًا بعيدًا ٣٨
أبي وما أُبيَّه !! أبي - والله - لا يُعطَوْه الأبدَ ٤١
أمير المؤمنين **الفاروق عمر** رضي الله عنه ٤٣
علوّ همَّته في تفقُّده لرعيته ٤٨
«ثكلتك أمُّك يا طلحة ؟ أعَثَراتُ عمر تُتَبَّع » ؟! ٤٨
ماذا تقول لربِّك غدًا ؟ ٤٨
علوُّ همَّة تحيِّر العقول وتبهر الأفئدة ٤٩

يا أمير المؤمنين ، بشِّرْ صاحبك ٥٣
عام الرَّمادة .. وعمر الذي أوْحَدتْ به أُمُّه ٥٥
علو همته في مُلاحظته لعمَّاله وولاته ٥٦
ذو النورين عثمان : أمير البَرَرَة وقتيل الفجَرة ٥٩
عثمان الزاهد الأوَّاب الرحيم ٦٠
الفتوح في عهد عثمان كماء منهمِر ٦٣
عثمان رضي الله عنه يجمع المسلمين على مصحف واحد ٦٣
إن أرادك المنافقون على خلْع قميصك ، فلا تخلعه حتى تلقاني ٦٤
أمير المؤمنين **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه ٦٧
علو همَّة عليّ - رضي الله عنه - في حرْبه للمتأوِّلين والمارقين من الخوارج ٧٠
الحسن بن علي السيد الذي أصلح الله به بين طائفتين ٧١
أمير المؤمنين ملك الإسلام **معاوية بن أبي سفيان**: أعدل الملوك وأحلمهم، خال المؤمنين وكاتب وحي رب العالمين ٧٢
الوليد بن عبد الملك : فُتحت الفتوحات العظيمة في عهده كأيام عمر ابن الخطاب ٧٦
أنا أحبُّ أن أُجَنَّ في الله ٧٨
سليمان بن عبد الملك : افتتح خلافته بإحياء الصلاة لمواقيتها ، وختمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز ٨٠
هارون الرشيد : الخليفة المفترى عليه ، سلوا عنه «نقفور» كلب الروم ٨١
الرشيد يحبُّ العلماء ويعظِّم حرمات الدين ويُبغض الجدال ٨٢
هارون الرشيد البكَّاء ٨٤
الرشيد يقضي على البرامكة وأتباعهم الزنادقة ٨٨
هارون يفتدي أسرى المسلمين ولا يُبقي منهم أسيرًا واحدًا ٨٨
فتح حصْن الصفصاف عنوة سنة ١٨١ هـ ٨٩

هارون لنقفور : «الجواب ما تراه دون ما تسمع»، ويَفتح «هرقلة» ٨٩
الخليفة **المعتصم** : فاتح عمّورية ٩٤
المتوكِّل : ونصْرُه للسنة ٩٥
الخليفة **المهتدي بأمر الله** : من أحسن الخلفاء ورعا وعبادة ٩٧
الخليفة **المعتضد** : قاتل الأسد ١٠٠
الخليفة **المتقي لله**: كان كاسمه ١٠٢
القادر بالله : المتهجِّد العالم ١٠٢
السلطان الملك الكبير **يمين الدولة**: فاتح الهند ١٠٢
أبو القاسم محمود بن سبكتكين : صاحب خراسان والهند ١٠٣
سنة ٤١٨ هـ كسَر «سومنات» صنم الهند الأكبر ١٠٥
الذهبي يُثني على ابن سبكتكين ١٠٨
القائم بأمر الله : يستغيث بالله ، فيردّ الله عليه ملْكَه ١١٩
المقتدي بأمر الله: يأمر بنفْي المغنّيات والخواطئ ١١٩
السلطان الكبير **ألب أرسلان**: قائد جيش الأكفان: « يبيع إمبراطور الروم بكلب !!» ١٢٠
ملوك السلاجقة يجدّدون هيْبة الخلافة، ويلاحقون الباطنية في معاقلهم .. ١٢٧
المقتفي لأمر الله ١٢٩
الملك **عماد الدين الأتابك زنكي** والد «نور الدين محمود زنكي»: فتح «الرُّها» سنة ٥٣٩ هـ ١٢٩
ليث الإسلام ، صاحب الشام، الملك العادل: **أبو القاسم نور الدين محمود بن زنكي** ١٣٣
نور الدين محمود زنكي هو وصلاح الدين يمثِّلان التجديد الجهادي في عصرهما ١٣٩
فتوحات نور الدين ١٤٤
شدَّة بأسه وثبات جأْشه وإخلاصه في الدعاء ١٤٥

وفي سنة ٥٥٨ هـ ١٤٦
نصر «نور الدين» العظيم في وقعة «حارم» سنة ٥٥٩ هـ ١٤٧
وفي سنة ٥٦١ هـ فتح حصن المنيطرة ١٥١
توحيد مصر والشام سنة ٥٦٤ هـ ١٥١
صفحات من نور لنور الدين، « إني لأستحي من الله أن يراني متبسِّمًا والمسلمون محاصرون بالفرنج » ١٥٣
صفحات من علو الهمّة لابن زنكي ، أطيب من الورد، وأحلى من الشهد ١٥٣
منشوره لمَّا أبطَل ضريبة الأتبان على أهل دمشق سنة ٥٩٦ هـ ١٥٥
« عدله بعد موته » !! ١٦٩
وفي عصرنا يا نور الدين ..... شعر ١٧٥
«انظروا كتاب الزاهد إلى الملك ، وكتاب الملك إلى الزاهد !!» ١٧٨
وفي عصرنا يا نور الدين ١٨٦
صلاح الدين الأيوبي : سلطان يحمل جبلًا في فكره ١٨٩
بعض أعمال صلاح الدين ١٨٩
١ - إرجاع مصر إلى السُّنة ١٨٩
٢ - توحيد بلاد الشام ومصر ١٨٩
وأما الصلاة ١٩١
وأما الزكاة ١٩١
وكرمه ١٩٧
عبد الرحمن الداخل «صقر قريش» ١٩٩
هشام بن عبد الرحمن الداخل: شبيه عمر بن عبد العزيز في سيرته ٢٠٢
عبد الرحمن بن الحكم: وحكمه للأندلس (٢٠٦-٢٣٨ هـ) ٢٠٣
محمد بن عبد الرحمن بن الحكم : صاحب موقعة «سليط» ٢٠٤
محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ونصره على تحالف النصارى في وادي

سُليط ٢٠٥
عز الإسلام بالأندلس ٢٠٦
عبد الرحمن الناصر ٢٠٦
الناصر يؤدِّب مَلِكَي «ليون» و «نافار» في غزوة «موبش» ٢٠٧
«بنبلونة» عاصمة نافار ٢٠٧
المستنصر، الحكم بن عبد الرحمن الناصر : على درب أبيه ٢٠٨
لله درُّ المستنصر ٢٠٩
الحاجب المنصور : يجمع غُبار معاركه ليكون في حَنوطه ٢١٠
الجهاد الرائع للحاجب المنصور ٢١٢
«لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى فنقعد هاهنا إلى وقت الغزاة، فإذا غزونا عدنا» ٢١٥
غزو مملكة «ليون» سنة ٣٧٣ هـ ٢١٦
استعادة برشلونة إلى حكم المسلمين ٢١٦
غزوة البياض، وأسْر مَلِك ليون ٢١٧
غزو المنصور لـ«شنت ياقب» أعظم مدن النصارى سنة ٣٨٧ هـ ٢١٧
لله درُّ الحاجب المنصور: «الملك لا ينام إذا نامت الرعية» ٢١٩
«لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه، ما سُمِع منك ما يُكره سماعه ولا استقرَّ بك قرار» ٢٢٠
أمير المرابطين **يوسف بن تاشفين**: بطل موقعة الزلّاقة ٢٢١
«إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا» ٢٢٦
أبو الحسن علي بن يوسف: ينتصر على القشتاليِّين ويسقط حصْن أقليش في يده ٢٢٧
عبد المؤمن بن علي: مؤسِّس دولة الموحِّدين، وغلّاب الدول ٢٢٧
مِلِك لم يدعْ مشركًا في بلاده؛ لا يهوديًّا ولا نصرانيًّا ٢٢٨

علماء مجاهدون ٢٢٩
«بمثل هذا تُمدح الخلفاء» ٢٣٠
علو همَّة عبد المؤمن، جعلته خَليقًا بالمُلك ٢٣١
عبد المؤمن يجهِّز لعبور الأندلس للجهاد ثانية ، فيموت ٢٣١
لكل جَواد كَبْوة ٢٣٢
السلطان الكبير **أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن**: يحفظ صحيح البخاري، ويدوِّخ النصارى في معاركه ٢٣٢
ملك يُملي أحاديث الجهاد على جنده ويُخفي لَوْحه، وجنده يكتبونها في ألواحهم ٢٣٣
السلطان **المنصور أبو يوسف: يعقوب بن يوسف** ٢٣٤
«الأرك» وقائدها يعقوب بن يوسف: «لم يُسمع في بلاد الأندلس بكسْرة مثلها»؛ «تضاهي الزلاقة أو تزيد» ٢٣٧
«اغفروا لي فإن هذا موضع غفران » ٢٤٠
السلطـان قطز : بطل عين جالوت، وصاحب الصيْحة المشهورة : «واإسلاماه» ٢٤١
الملك الكامل: يقول للتتار: «ما لكم عندي إلا السيف»، ويبصق في وجه هولاكو ٢٤٤
الملك المُحسن: محدِّث زاهد ٢٤٥
الظاهر بيبرس: قاهر الصليبيين ٢٤٦
المسيح أصبح- فيما يظهر- مسرورًا لما حلَّ بالمسيحيين من ذلة وهوان ٢٤٧
بيبرس يُهاجم قليقية «أرمينية» ويقتل ويأسر ابني ملكها ٢٤٨
تدمير أنطاكية، وما من جندي من المسلمين إلَّا كان له أسير مملوك من أهلها ٢٤٩
«جيشك ليس في كثرة العدد، يُضارع أسرى الإفرنج في القاهرة» .. ٢٥٠
حصْن الأكراد- قلعة الحصن- يُسقطها بيبرس بعد صمودها أمام

صلاح الدين ٢٥٠
بيبرس يغزو بلاد الأناضول، ويسحق الحامية المغولية هناك ٢٥١
الملك المنصور، سيف الدين قلاوون: يهزم المغول، ويهدم طرابلس ٢٥١
قلاوون يحرِّر اللّاذقية وطرابلس ٢٥٣
الملك الأشرف خليل: يفتح عكًّا، ثم يدمِّرها سنة ٦٩٠ هـ ٢٥٣
تحرير بقية بلاد الشام: ثمن الفتاة في سوق الرقيق درهم واحد ٢٥٤
فتح قلعة الروم، ١١ رجب سنة ٦٩١ هـ ٢٥٥
قبرص .. قبرص .. قبرص ٢٥٧
الملك الناصر محمد بن قلاوون: «له في موقعة شقحب اليد البيضاء من الثبات» وبها انتهى أمْر التتار إلى الأبد ٢٥٨
دولة المماليك ٢٦١
ملوك الإسلام في الهند .. أبطال المَلاحم ٢٦١
شهاب الدين الغوري : يُعلي الأذان في دلهي ٢٦٢
بهلول لودي ٢٦٢
مظفَّر الحليم الكجراتي: مثل عظيم للملوك ٢٦٢
دولة المغول المسلمة في الهند (٩٣٢ هـ - ١٢٧٤ هـ) «العهد الذهبي للمسلمين في الهند» ٢٦٥
ظهير الدين «**محمد بابر**»: مؤسِّس الدولة المغولية المسلمة في الهند ٢٦٥
الملك العظيم المرشد: **أورنك زيب عالمكير:** «لا نظير له في علو الهمة وقوة الإرادة في ملوك العالم» ٢٦٥
الحاكم العبقري: **شيرشاه السوري:** فريدٌ في العصور والأمصار ٢٦٧
السلطان **فتح علي خان:** «**سلطان تيبو**»؛ يقول في قتاله للإنجليز: «يوم من حياة الأسد، خير من مائة سنة من حياة ابن آوَى» ٢٦٨
جهاد السلطان «**سراج الدين بهادر شاه**» للإنجليز، ونفيه إلى رانجون ٢٧٠
صدِّيق حسن خان: العالم الأثري ملك «بهوبال» ٢٧٠

ومن تركيا خلفاء وملوك، غيّروا وجه التاريخ ٢٧٣
السلطان المجاهد **مراد بن أورخان**: يعدم ابنه «ساوجي» لما تحالف مع الكافرين ٢٧٣
هزيمة الصليبيين في «مارتيزا » ودفعهم جزية سنوية ٢٧٤
في سنة ٧٩١هـ ١٣٨٩م؛ يفتح الله على السلطان مراد جميع الأراضي البلغارية ويؤدب لازار ملك الصِّرب وأمراء البوسنة والهِرْسك، في معركة «قوصوه» ٢٧٤
يا دعاة القومية العربية المهلْهَلَة ، هؤلاء هم العثمانيون ٢٧٥
بايزيد الصاعقة؛ «يلدرم» ٢٧٧
السلطان مراد الثاني- والد السلطان محمد الفاتِح: يحكم وعمره ثماني عشرة سنة ٢٧٧
السلطان الغازي **سليمان القانوني**: فاتح بلغراد ورودس ، وفاتح بلاد المجر ٢٧٩
فتْح بلغراد في ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧ هـ، ٢٩ أغسطس سنة ١٥٢١م ٢٧٩
ويضرب حصارًا بربع مليون جندي حول فيينّا عاصمة النمسا، ودفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون ٢٨٠
فتح جزيرة رودس، وطرد فرسان «الأسبتارية» منها في صفر سنة ٩٢٩هـ ٢٨١
تطور القدرة البحرية في عهده، على يد أمير البحر خير الدين بربروس، واتخاذه من «نيس» بفرنسا قاعدة له ٢٨١
ومن الفلبين السلطان «لابو لابو»: حاكم جزيرة «ماكتان» بالفلبين: يقتل «ماجلّان» بيده؛ جزاء غطرسته ٢٨٤
ملك المغرب «مولاي عبد الملك»؛ يقود جيشه وهو محمول على محفّة في معركة «وادي المخازن» سنة ٩٨٦هـ ٢٨٥
ومسك الختام: **عمر بن عبد العزيز**: أمير المؤمنين حقًّا .. أشجُّ بني أمية .. الأنموذج المثالي في علو همة الخلفاء في العدل وردِّ الناس إلى

السُّنة والأمر الأول ٢٨٦
زهْد عمر في التمتُّع ٢٨٩
بشارة أحمد بن حنبل لمن ينشر محاسن عمر ٢٩٠
تخيُّره لجلسائه ٢٩١
سابِق البربري يُنشد عمرَ الشعر، فيبكي حتى يُغشىٰ عليه ٢٩١
نفْس عمر توَّاقة إلى العُلا ٢٩٢
علو همَّته في العدل ٢٩٣
كتابه إلى أهل الموسم ٢٩٤
إرساله المرشدين ليفقهوا الناس في البادية ٢٩٥
الأكباد الجائعة أولى بالصدقات من البيت الحرام ٢٩٦
رِفْق عمر بالحيوان ٢٩٦
وعن وَرَعه ٢٩٦
علو همته في ملاحظته لعماله، ومكاتبته إيَّاهم في القيام بالعدل ٢٩٦
ردُّه لمظالم بني أميَّة ٣٠١
يا حكَّام عصرنا، هكذا ربَّى عمرُ ولَدَه ٣٠٢
«لأسْكِرَنَّ تلك السواقي حتى أُجريَه مجراهُ الأول» ٣٠٨
لباس عمر بن عبد العزيز ٣١١
طعامُه ٣١٢
كرمُه وورَعُه ٣١٣
حلمه وصفحه ٣١٨
تعبُّده واجتهاده ٣١٩
كلمات للحياة ٣٢٥
وانظرْ إلى العجَب العُجاب ٣٣٣
وفي الشورىٰ .. كان نسيجَ وحدِه ٣٣٤
وموقفه من مال الأمة عجيبٌ ثم عجيبٌ ٣٣٥

وعند الموت موقف له جلال ٣٣٦
والعجب كل العجب أن يَبكيَه أعداؤه ٣٣٨
الفصل الثالث : علو همَّة الوزراء ٣٣٧-٤٠٣
نبيُّ الله هارون عليه السلام ٣٤٤
أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: وزيرا رسول الله ﷺ ٣٤٥
عمر بن عبد العزيز : وزير صدْق لسليمان بن عبد الملك ٣٤٧
رجاء بن حَيْوة : الإمام القدوة، والوزير العادل ؛ له في عنُق المسلمين منَّة بمشورته في تولية عمر بن عبد العزيز ٣٤٨
أَثَر رجاء في استخلاف عمر، ونُصْحه لدينه وللمسلمين في ذلك ٣٥٠
ذو الوزارتين صاعد بن مخلد ٣٥٣
الوزير العادل مجاب الدعوة: **أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجرَّاح** ٣٥٤
الوزير الإمام الحافظ: **ابن حنْزابة** ٣٥٥
عميد الجيوش؛ **أبو علي الحسين بن أبي جعفر:** يقيم السُّنن ٣٥٧
أمير الجيوش **الوزير السُّني وسط العبيديِّين** ٣٥٨
فخر الملك، **الوزير أبو غالب محمد بن علي الصيرفي:** من محاسن الدهر في الإحسان على العلماء ٣٥٨
الوزير العادل، **ظهير الدين أبو شجاع محمد بن الحسين الروذراوي:** يكنس المسجد النبوي، ويفرش الحصر، ويُشعل المصابيح ٣٥٩
وله في عدله حكايات في إنصاف الضعيف من الأمير ٣٥٩
الوزير الكبير نظام المُلْك: العالم العادل ٣٦١
علو همَّته في حفظ الدولة ٣٦٩
كانت سوق العلم في أيام النِّظام قائمة ٣٧٠
ترجمة تُكتب بماء الذهب ٣٧٠
الوزير الإمام الأثري العالم العادل: **عون أبو المظفر بن هبيرة الحنبلي**

يحيى بن محمد: من رأى ربَّه منامًا ٣٧٢
ما وجبت عليه زكاة قطُّ ٣٧٧
حِلْمه وصفحه ٣٧٧
ابن هبيرة: يستحثُّ نور الدين محمود زنكي على انتزاع مصر من الفاطميِّين ٣٧٩
ورَعُه ٣٨٢
تواضعه ٣٨٣
علوّ همَّته في الصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٨٤
قبَسٌ من علوِّ همَّته في الفهم والعلم للكتاب والسُّنة ٣٨٥
وزير عادل: الحبْس عنده غير مشروع إلَّا في مواضع ٣٩٠
باتباعه الشديد للسنة؛ يرى ربَّه منامًا ٣٩٢
وزير العراق **عضد الدين** ٣٩٦
وزير الموْصل: **جمال الدين أبو جعفر محمد بن على الأصفهاني** الجواد الممدح وحكايته العجيبة ٣٩٦
الوزير الفاضل؛ **محيي الدين أبو علي عبد الرحيم بن علي البيْساني** وزير صلاح الدين ٣٩٩
الفصل الرابع: علو همة القضاة ٤٠٥-٤٤٠
علي بن أبي طالب: أقضى هذه الأمة ٤١٢
عمر بن الخطاب: رضي الله عنه ٤١٣
شرَيْح القاضي: يحكم على أمير المؤمنين فيُسلم اليهودي ٤١٣
الإمام مسروق بن عبد الرحمن ٤١٤
شريك بن عبد الله: قاضي الكوفة ٤١٥
الواقدي: مات وليس له كفَن ٤١٧
القاضي الأبيوردي ٤١٨
مفخرة القضاة: **سليْم بن عتْر**: ما ختم أحد القرآن في ليلة أكثر ممَّا ختم ٤١٨

قاضي المدينة، الإمام: **سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف** ... ٤١٨
قاضي المدينة ومفتيها: **يحيى بن سعيد بن قيّس** ... ٤٢٠
قاضي القضاة: **بكّار بن قتيبة** ... ٤٢٠
القاضي الإمام: **أبو بكر بن الباقلاني** ... ٤٢١
القاضي الإمام، الأمير القائد؛ **أسد بن الفرات**: فاتح جزيرتي قوصرة وصقلية، ومصنِّف كتاب «الأسدية» ... ٤٢٢
القاضي: **نصر بن ظريف اليحصبي** ... ٤٢٦
قاضي قرطبة المصعب بن عمران : وردّه الضيْعة على الأيتام ... ٤٢٧
القاضي: **غوث بن سليمان** ... ٤٢٨
القاضي: **أبو عبيد بن حربويه** ... ٤٢٨
قاضي المرِّية بالأندلس : **أبو عبد الله محمد بن يحيى بن البراء** ... ٤٢٦
الإمام الشهيد قاضي برقة: **محمد بن الحُبُلِّي** ... ٤٣٠
قاضي الجماعة بمراكش: **أبو عبد الله بن علي بن مروان** وحكايته مع المنصور ملك الموحِّدين ... ٤٣٠
القاضي **المنذر بن سعيد البلوطي**: لله درُّه ... ٤٣١
القاضي الحافظ **ابن أبي عاصم** ... ٤٣٤
القاضي الخيَّاط: **أبو عبد الله محمد بن علي المروزي** ... ٤٣٥
القاضي **أحمد بن بقيّ بن مخلد** ... ٤٣٦
قاضي القيروان: **محمد بن أبي المنظور الأنصاري** ... ٤٣٦
قاضي القضاة شيخ الشافعية: **الحموي** ... ٤٣٧
القاضي الحافظ: **أبو أحمد العسّال** ... ٤٣٩
الإمام القاضي: **أبو سعيد السِّيرافي** ... ٤٣٩
العزّ بن عبد السلام: بائع الملوك والأمراء ... ٤٣٩
القاضي جُمَيع بن حاضر الباجي : يحكم بطرد المسلمين من سمرقند ؛ واقعة صحيحة أشبه بالأساطير وأطيب من الشهد ... ٤٤٠

الفصل الخامس: علو همّة المجدِّدين ٤٤١-٤٨٤
شيخ الإسلام **محمد بن عبد الوهاب** ٤٤٥
وفي هذا بلاغ، والله يفعل ما يشاء ٤٥٢
الشيخ **حسن البنا** رحمه الله: مثال جميل لعلو الهمَّة ٤٥٥
وقفة أخيرة مع الشيخ حسن البنا ٤٦٦
شيخ المحدِّثين، مجدد العصر، محدث ديار الشام: فضيلة الشيخ **محمد ناصر الدين الألباني** ٤٦٧
ثناء الشيخ **محمد إبراهيم شقرة** على شيخه الألباني ٤٦٩
كلمة للشيخ **مقبل بن هادي الوادعي** ٤٧٢
إلى شانئي الشيخ غير المنصِفين ٤٧٢
سنن أحياها الألباني ٤٧٣
الألباني ودعوته ٤٧٤
الشيخ الألباني رائد التصفية والتربية، الطريق الرشيد لبناء الكيان الإسلامي ٤٧٤
التصفية ٤٧٥
التربية ٤٧٦
سبب تأليف فهرس المكتبة الظاهرية والقصة العجيبة للورقة الضائعة ٤٨١
الفصل الخامس: علو همة الأدباء والشعراء ٤٨٥-٥٥٧
أشعر وأصدق بيتٍ: بيت لبيد ٤٩١
شاعر رسول الله ﷺ، المؤيد بروح القدس، **حسان بن ثابت** رضي الله عنه ٤٩١
كعب بن مالك : يهدِّد دوْسًا ببيت شعر فتُسلم ٤٩٧
عبد الله بن رواحة: رضي الله عنه ٤٩٨
الصرصري : مادِح الرسول ﷺ: يُشبَّه في عصره بحسان بن ثابت ٤٩٩
يوسف بن فضل الله السكاكيني الحراني: الواعظ الزاهد ٥٠٠

ابن قيم الجوزية: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، شاعر أهل السنة وطبيب القلوب ٥٠١
الأديب الكبير والوزير الصالح: **القاضي الفاضل** ٥٠٣
محمد إقبال: الشاعر الذي أقام دولة الباكستان بشعره قبل أن تقوم حقيقة واقعة ٥٠٦
عمر بهاء الدين الأميري ..لله درُّه ٥١١
سيد قطب أديب الإسلام، وكتابه «الظلال»: فتْح من فتوح الإسلام، كما قال **الندوي** ٥١٥
هاشم الرفاعي: لله درُّه ٥١٦
شاعر آخر وهذه قصيدته ٥١٨
قم يا أخي ٥١٨
محمد منلا غزيِّل : وشظايا الإيمان ٥١٩
عبد الحكيم عابدين: و «نشيد الكتائب» ٥٢٠
وجمال فوزي: «حسان الدعوة» ٥٢٠
قصيدة «الفتح المبين» لشاعر آخر ٥٢٢
قصيدة «أشعلتها من دمي» ٥٢٣
وقصيدة «لن أستكين» ٥٢٤
وقصيدة «عقيدة المؤمن» ٥٢٥
وقصيدة «انشرْ ضياءك» ٥٢٦
وقصيدة «الله أكبر» ٥٢٦
القرضاوي ونونيته : ما أحيلاها وأخلاها ٥٢٧
مصطفى صادق الرافعي: عملاق تحت راية القرآن ٥٣٠
وللرافعي قصيدة: « ربنا إيّاك ندعو» ٥٣٣
يوسف العظم: شاعر القدس ٥٣٤
عبد الرحمن العشماوي: شموخ في زمن الانكسار ٥٣٥

حسن الأمراني: صاحب المشكاة ٥٣٧
عدنان النحوي: صاحب الملاحم لله درُّه ٥٤٢
بطولة طفل فلسطيني تُحيِّيها البطولات ويصوغها النحوي شعرًا ٥٤٢
عائض القرني: أطيب الطيب، وشذا الورود في جزيرة العرب ٥٤٤
وللشيشان نشيد الأسود ... شعر ٥٤٦
محمود مفلح ينادي: «إنها الصحوة .. إنها الصحوة» ٥٤٧
وقصيدةٌ أشدُّ وقعًا من اللهب ٥٥٠
قصيدة: شاعر الإسلام؛للدكتور **عبد القدوس أبو صالح السوري** ٥٥٤
ونختم بالقاضي .. وما أدراك ما القاضي ؟! ٥٥٦
الفصل السابع : علو همة الشيوخ ٥٥٩-٥٨٥
أبو أيوب الأنصاري: يُقاتل لفتح القسطنطينية وهو شيخ ٥٦٢
عبد الله بن حرام: من كلَّمه الله كفاحًا ٥٦٣
موسى بن نصير: فاتح الأندلس وهو شيخ ٥٦٤
أبو عثمان النهدي: الإمام الحجة ، شيخ الوقت ٥٦٥
شيخ الإسلام : **أبو رجاء العطاردي** ٥٦٦
ثابت البناني: العابد الرباني ٥٦٦
أبو إسحاق السبيعي: الحافظ شيخ الكوفة ٥٦٧
عطاء بن أبي رباح: مفتي الحرم ٥٦٨
سحنون: سيد أهل المغرب ٥٦٨
ابن أبي حاتم الرازي: الإمام الحافظ، شيخ الإسلام ٥٦٨
الحسين بن الفضل ٥٦٨
الحسن بن سفيان: الإمام الحافظ: يحفظ الأسانيد وهو ابن تسعين سنة ٥٦٩
الإمام الحافظ شيخ خراسان: **أبو الحسين محمد بن محمد الحجَّاجي** ٥٦٩
شيخ الحنابلة **ابن عقيل**: وهو في عُشر الثمانين يجد من الحرص على العلم أشدَّ مما يجده وهو ابن عشرين ٥٧٠

ابن الجوزي: يقرأ العَشر وهو ابن ثمانين سنة ٥٧٠
الحافظ السلفي ٥٧٠
الإمام القدوة **سُوَيْد بن غفلة** ٥٧١
الحسن بن عرفة، أبو عليّ العبدي ٥٧١
عليّ بن خشرم: الحافظ الصدوق ٥٧٢
أبو القاسم البغوي ٥٧٢
حكيم بن حزام: همّة سبَّاقة في الإسلام ٥٧٢
الحافظ الطبراني ٥٧٣
شيخ الإسلام القاضي **أبو الطيِّب الطبري**: ما عصى الله بجارحةٍ قطُّ ٥٧٤
الشيخ **عبد العزيز بن باز والشيخ الألباني** ٥٧٤
عمر المختار: شهيد الإسلام وأسد الصحراء ٥٧٥
الشيخ أحمد ياسين: شيخ المقاومة في فلسطين ٥٨٢
عجوز بني إسرائيل: تشترط على **نبي الله موسى** أن تكون معه في الجنة ٥٨٤
الفهرس ٥٨٧



ثالثًا : فهرس موضوعات المجلد السابع

الموضوع | الصفحة

الفصل الأول : علو همَّة الشباب ٣-٤٨
لا وألف لا للشباب الذي يجعل الشباب موقف بلادة ٩
الشباب المخنث ، شباب كرة القدم ٩
أسامة بن زيد : الحِبُّ بنُ الحِبِّ رضي الله عنهما يقود الجيش وبه شيوخ الصحابة ولم تتجاوز سِنُّه العشرين ١٠
علي بن أبي طالب : مثال لعلو الهمة، وقتْله لصناديد قريش وهو شاب ١٣
الحسن والحسين: سيدا شباب أهل الجنة ١٤
معاذ بن جبل: مقدام العلماء ١٥
مصعب بن عمير: الفاتح الأول للمدينة، والداعية الشهيد ١٦
مصعب بن عمير جبل الرحمة ومعراج الطُّهْر «شعر» ١٨
زيدُ بن ثابت جامع القرآن رضي الله عنه ٢٣
زُهرة بن الحَويَّة التميمي: فاتح ما بين القادسية والمدائن رضي الله عنه ٢٥
زهرة قائد الميسرة في القادسية ٢٦
زهرة قاتل الجالينوس أحد ملوك الفرس ٢٦
الفاتح ٢٧
محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند والهند، وعمره سبعة عشر عامًا ٣٠
عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز: ذو التسعة عشرة عامًا، العابد الربَّاني ٣٤
حِلْمُه وكَظْمُه للغيظ ٣٦
هوانُ نفسه عليه في ذات الله، ورضاه بما يناله من الأذى في الله عز وجل ٤٠

السيد الربَّاني: علي بن الفضيل بن عياض ٤١
فتى الفتيان، سيِّدُ العُبَّاد والرهبان: **السختياني أيوب بن كيسان** ٤٢
الشافعي: ناصر السُّنَّة وهو شابٌّ ٤٣
البخاري: يكتب «التاريخ الكبير» وهو ابن ثمانية عشر سنة، المثال العالي الغالي لعلو همَّة الشباب ٤٣
ابن تيمية: يُسلم على يديه يهودي وهو صبي، فكيف كان في شبابه ؟! ٤٥
والتاريخ مليءٌ بمَن أفنوا شبابهم في طاعة الله ٤٥
محمد الفاتح: يفتح القسطنطينية ولمَّا يكمل الثالثة والعشرين ٤٥
مصطفى كامل الزعيم المصري: يتحدَّى الاحتلال الإنجليزي ٤٥
الفصل الثاني: علو همَّة الصِّبيان ٤٩-١١٧
١ - **يحيى بن زكريا عليهما السلام**: آتاه الله الحكم صبيًّا ٥١
٢ - **غلام الراهب** ٥٢
٣ - **علي بن أبي طالب**: أول من أسلم ٥٤
٤ - ترجمان القرآن وحبْر الأمة: **عبد الله بن عباس** ٥٦
٥ - **الزبير بن العوام**: أول من سلَّ سيفه في سبيل الله وهو ابن اثنتي عشرة سنة ٥٨
٦ - **سعد بن أبي وقَّاص**، خال رسول الله ﷺ ٥٩
٧ - **عمير بن أبي وقاص رضي الله عنه «عمير بن مالك الزهري»** ٦١
٨،٩،١٠ - **معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن الحارث «معاذ ابن عفراء» ومعوذ بن الحارث**: قَتَلَة فرعون هذه الأمة أبي جهل ٦١
١١ - **عبد الله بن الزبير**: «عائذ بيت الله وفارس الخلفاء» ٦٣
١٢- **الحسين بن علي**: سِبْطُ رسول الله ﷺ، وريحانتُه من الدنيا رضي الله عنه ٦٥
١٣ - **زين العابدين علي بن الحسين رحمه الله .. لله درُّه**: ما أشد صبره وهو يرى اثنين وسبعين نفسًا من أهل بيته وشيعته قتلى ٦٦

١٤ - **عبد الله بن جعفر الطيَّار** رضي الله عنه ٦٧
١٥ - **عمر بن عبد العزيز**: أشجّ بني أمية ونجيبها رحمه الله ٦٨
١٦ - **الأشدق بن سعيد بن العاص** ٦٨
١٧ - **محمد بن المنكدر**: تعبَّد وهو غلام ٦٨
١٨ - **سفيان الثوري**: يُنَوَّه بذكْره في صغره ٦٩
١٩ - **سفيان بن عيينة** بارك الله له في صباه ٦٩
٢٠ - **الإمام مالك بن أنس**: إمام دار الهجرة .. لله درُّه، من صغره يطلب العلم !! ٧٠
٢١ - **ناصر السنة الإمام الشافعي**: آية في الحفظ من صغره ٧١
٢٢ - **إمام أهل السنة أحمد بن حنبل**: يحيي الليل وهو صبي، ويذهب لطلب الحديث قبل الفجر ٧٥
٢٣ - أدب الصبية من أبناء الخلفاء: ٧٦
٢٤ - **المأمون بن الرشيد** ٧٧
٢٥ - **الراضي محمد بن جعفر** ٧٨
٢٦ - **مخلد بن يزيد بن المهلب** ٧٩
٢٧ - **الحسن وسليمان ولدا وهب بن سعيد** ٧٩
٢٨ - صبيٌّ بين يدي المأمون ٨٠
٢٩ - **أبو محمد بن اللبان** ٨٠
٣٠ - **الزعفراني** : شيخ الفقهاء والمحدِّثين ٨٠
٣١ - **الحافظ عبد الرحمن بن بشر النيسابوري**: يسمع الحديث قبل أن يحتلم ٨١
٣٢ - **بندار محمد بن بشار** ٨١
٣٣ - **البخاري**: إمام الدنيا، وأستاذ الأستاذين؛ يردُّ على الحفَّاظ وهو صبيٌّ في الكُتَّاب ٨٣
٣٤ - **الحافظ أحمد بن الفرات الرازي**: طَلَب العلم في الصغر، وعُدَّ

من الحفاظ وهو شاب أمرد ٨٣
٣٥ - **أبو الفوارس السندي**: سمع الحديث وله عشر سنين ٨٤
٣٦ - **الحافظ محمد بن عوف الحمُّصي**: اطلبوا العلم صغارًا؛ تعملوا به كبارا ٨٤
٣٧ - **الحافظ أبو بكر الأثرم** تلميذ الإمام أحمد ٨٤
٣٨ - **الإمام أبو زرعة الرازي**: ارتحل في طلب العلم وهو ابن تسع سنوات ٨٥
٣٩ - **الإمام الحافظ ابن أبي حاتم الرازي** ٨٥
٤٠ - **أبو زرعة الدمشقي محدِّث الشام** ٨٦
٤١ - **الدَّبري راوية عبد الرزاق** ٨٦
٤٢ - **الإمام محمد بن جرير الطبري**: صلّى بالناس وهو ابن ثماني سنين ٨٦
٤٣ - **الخليفة العباسي أبو العباس المعتضد بالله** ٨٧
٤٤ - **ابن الروَّاس**، مُسند دمشق: يسمع الحديث وهو ابن إحدى عشرة سنة ٨٧
٤٥ - **الجنيد**: يتكلم في مقامات الإيمان وهو صبي !! ٨٧
٤٦ - **معروف الكرخي**: يُسلم والداه على يديه وهو صبي !! ٨٨
٤٧ - **شيخ الإسلام أبو عبد الله بن الجلاء**: يقول لوالديه وهو طفل: أحبُّ أن تهباني لله .. فلله درُّه ودرُّ أمِّه ودرُّ أبيه ٨٩
٤٨ - **سهل بن عبد الله التستري**: شيخ عصره .. أنموذج عال لعلو همَّة الصبيان ٩٠
٤٩ - **الرامهرمزي**: صاحب كتاب «المحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي» ٩١
٥٠ - **الذهلي، أبو الطاهر محمد بن أحمد**: سمع وهو ابن تسع سنين ٩١
٥١ - **الحسن بن رشيق** ٩٢
٥٢ - **شيخ الإسلام الحافظ الإسماعيلي**: كتب الحديث وهو ابن ست سنين ٩٢

٥٣ - مسنِد خراسان : **أبو عمرو بن حمدان** ٩٢
٥٤ - **ابن شاذان البزّار**، الشيخ الإمام: سمع وهو ابن خمس سنين ٩٣
٥٥ - **عَلَم الجهابذة الدارقطني**: يمر إلى البغوي وهو صبي بيده رغيف ٩٣
٥٦ - **أبو بكر الكسائي**: الشيخ النحوي البارع ٩٤
٥٧ - **القدوة الرباني أبو الفتح يوسف بن عمر القواس**: يتبرَّك به الدارقطني وهو صبي ٩٤
٥٨ - **إسماعيل الحاجبي**: سمع وهو صغير يُحمل على العاتق ٩٤
٥٩ - **ابن بطة**: الإمام القدوة صاحب « الإبانة الكبرى » ٩٥
٦٠ - **العبقسي، مُسنِد الحجاز**: يسمع وهو ابن عشر سنين ٩٥
٦١ - **أبو عمر الهاشمي** ٩٥
٦٢ - **السُّتيتي** ٩٦
٦٣ - **ابن شاذان** ٩٦
٦٤ - **السَّري السَّقطي**: خال الجنيد وأستاذه، وحاله العجيب في صباه ٩٧
٦٥ - **الحارث المحاسبي**: أستاذ في الورع وهو صبي ٩٧
٦٦ - **الخطيب البغدادي**: يسمع وهو ابن إحدى عشرة سنة ٩٩
٦٧ - **أبو الوقت عبد الأول الهروي**: الإمام الزاهد، ورحلته مع والده وهو صبي ٩٩
٦٨ - **الكِنْدي** : حفظ القرآن وقرأه بالروايات العشر وله عشرة أعوام، وهذا شيءٌ ما تهيَّأ لأحدٍ قبله ١٠٠
٦٩ - **أبو يزيد البسطامي**: يقوم الليل وهو صبي ١٠١
٧٠ - **داود بن نصير الطائي** وشغله العجيب بالجنة وهو صبي !! ١٠٢
٧١ - **أبو السريّ منصور بن عمّار**: يقول لأمّه عند الولادة - وهو صبي - أتستعينين في حالٍ بمخلوق، وأكون أنا رسولك في ذلك ؟! ١٠٢
٧٢ - **أبو الحسين النوري** ١٠٣
٧٣ - **مجد الدين بن تيمية**: أيش يحفظ النُّنَيْن ؟! ١٠٤

٧٤ - **أحمد بن الفرات**: يكتب الحديث وهو ابن اثنتي عشرة سنة ١٠٥
٧٥ - **الإمام النووي**: يكرهه الصبيان على اللعب معهم، ويبكي لأنه يريد أن يقرأ القرآن !! ١٠٥
٧٦ - **شيخ الإسلام ابن تيمية**: يُسْلم على يديه يهودي وهو صبي يذهب إلى الكُتَّاب !! ١٠٦
٧٧ - **السلطان محمد بن مراد الفاتح**: يُسَلِّمه والده سلطنة المسلمين ولم يكمل بعد الرابعة عشرة من عمره، وقبلها يتولى إمارة «أماسيا» ولم يكد يتخطَّى العاشرة ١٠٨
٧٨ - صبي عابد، وقصته العجيبة ١٠٩
ذكر المُصطفيات من بُنيَّات صغار، تكلّمن بكلام العابدات الكبار ١١١
٧٩ - بُنَيّة بائعة اللبن ١١١
٨٠ - صبيَّة وحمَّاد بن سلمة ١١١
٨١- **بنت المعافى بن عمران**: تُعطي بشر بن الحارث درسًا في الإخلاص ١١٢
٨٢ - **بنت يحيى بن معاذ وعلو همَّتها** ١١٢
٨٣ - **وبنت حاتم الأصم**: على الطريق أستاذة ١١٢
٨٤ - **بُنيّات جماعة** ١١٣
٨٥ - **الصِّبية الأبابيل أطفال الحجارة: أطفال فلسطين، قصيدة «شموخ في زمن الانكسار» للعشماوي، يصف فيها شموخ طفل فلسطيني، حين نام الكبار واستنوق الجمل** ١١٤
الفصل الثالث: علو همة الموالي ١١٩-١٥١
بلال رضي الله عنه: ممّن يدعون ربَّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ١٢٢
وأيّ همَّة أعلى من همَّة **عمار الذي تشتاق إليه الجنة ؟!** ١٢٤
المقداد بن الأسود: البطل، فارس بدر رضي الله عنه ١٢٤
صهيب الرومي: الرابح بيعه، مولى عبد الله بن جدعان ١٢٥
سالم مولى أبي حذيفة: الذي حمد رسول الله ﷺ ربَّه أن جعل في أمته مِثْلَه ١٢٦

عامر بن فهيرة: المرفوع جسده .. استطاب الهُلك فيما يخطب من الملك ١٢٨
خبَّاب بن الأرت ١٢٨
سفينة: مولى رسول الله ﷺ، وقصته العجيبة مع الأسد ١٢٩
زيد بن أسلم العدوي، المولى العمري العدوي: أستاذ مدرسة التفسير بالمدينة بعد أبي بن كعب ١٣٠
نافع مولى ابن عمر: يعلم أهل مصر السنن ١٣١
الإمام مجاهد بن جبر: شيخ القرَّاء والمفسرين ١٣١
سليمان بن يسار: عالم المدينة ومفتيها، وأحد فقهائها السبعة ١٣٢
الإمام سعيد بن جُبير: قتله الحجَّاج، وما في الأرض رجل إلَّا وهو محتاجٌ إلى علمه ١٣٢
عكرمة مولى ابن عباس: الحافظ المفسِّر ١٣٤
عالم اليمن وسيدها: **الفقيه طاووس بن كيسان** ١٣٥
شيخ الإسلام عطاء بن أبي رباح: مولاهم القرشي، مفتي الحرم ١٣٦
الضحَّاك بن مزاحم الهلالي ١٣٧
مكحول سيد أهل الشام وإمامهم ١٣٨
ميمون بن مهران : عالم الجزيرة ومفتيها، الإمام الحجَّة ١٣٨
الإمام الحجَّة مفتي الديار المصرية: **يزيد بن أبي حبيب، قال عنه الليث** ابن سعد : يزيد بن أبي حبيب سيدنا وعالمنا ١٣٩
الإمام المقرئُ المفسِّر: **أبو العالية الرياحي** ١٣٩
الحسن البصري: شيخ أهل البصرة وسيدهم ١٤٠
حبيب بن أبي ثابت: فقيه الكوفة، الإمام الحافظ ١٤٣
الإمام القدوة الحُجة يونس بن عبيد: أكثر الناس استغفارًا ١٤٤
طارق بن زياد: فاتح الأندلس ١٤٥
زياد مولى ابن عياش، ووعظه لعمر بن عبد العزيز ١٤٥

سالم مولى محمد بن كعب القرظي، ووعظه لعمر بن عبد العزيز ... ١٤٦
مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز: هو الذي دفعه إلى الزهد في الدنيا ١٤٦
«بدعة» المحبّة، وتوبة مولاها على يدها ١٤٧
الفصل الرابع: **علو همَّة النساء** ١٥٣-١٨٤
مريم البتول رضي الله عنها: رمزٌ للتجرُّد لله تعالى ١٥٧
فاطمة أم أبيها عليها السلام: البضعة النبوية والجهة المصطفوية ١٥٨
أختاه ١٦١
الصدِّيقة بنت الصدِّيق: حبيبة رسول الله ﷺ ١٦١
أم المؤمنين زينب بنت جحش، وعلوّ همَّتها في الصدقة ١٦٤
أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها ١٦٦
أسماء بنت الصدِّيق ذات النطاقين رضي الله عنها ١٦٦
جهاد القانتات الصابرات: ١٦٧
سمية بنت خباط: أول شهيدة في الإسلام ١٦٧
أم شريك غُزيّة بنت جابر بن حكيم: بصبرها أسلم مَن عذَّبوها ١٦٧
أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط: مثَلٌ سامق لعلو الهمَّة في طلب الحق ١٦٨
أم حواري الرسول ﷺ وعمته «صفية»: أول امرأة قتلت رَجلًا من المشركين ١٦٨
أم عمارة نسيبة بنت كعب: مقامها في أُحد خيرٌ من الرجال ١٦٩
أسماء بنت يزيد بن السَّكن: تقتل تسعة من الروم يوم اليرموك ١٧١
الرميصاء بنت ملحان أمُّ سُلَيم: امرأة من أهل الجنة مثلٌ كريم في الصبر والدعوة ١٧١
أمّا صبرها الجليل وإيمانها الشامخ: فيبدو في هذه الحادثة ١٧٣
الخنساء التي صاغها الإسلام ١٧٤
خولة بنت الأزور: من ذوات الخدور، لكن ليس كمثلها النسور ١٧٤
وما أعلى همّة الصالحات في طلب العلم والعمل به: ١٧٦

حفصة بنت سيرين: تمكث ثلاثين سنة لا تخرج من مصلَّاها إلا لقضاء حاجة ١٧٦
عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة: بحرٌ لا ينزف ١٧٧
وابنة سعيد بن المسيب: تعلَّم زوجها علم سعيد بن المسيِّب ١٧٧
أم سفيان الثوري تعوله بمغزلها ١٧٧
وأم الدرداء الصغرى: مَثَل عظيم للفقيهة العابدة ١٧٧
وبنت الإمام مالك: تحفظ «الموطأ» ١٧٨
وجارية الإمام مالك ١٧٨
والدة الفقيه الواعظ المفسِّر زين الدين علي بن إبراهيم ١٧٨
أم عليّ بن المديني .. لله درُّها ١٧٩
فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح: تستحضر أكثر «المغني» ١٧٩
أعجوبة النساء، الأميرة المفسِّرة للقرآن: **زيب النساء**، بنت الملك أورنك زيب عالمكير ١٨٠
العابدات : ١٨١
وهذه عاتكة المخزومية: «ما ينبغي للمُخوَّف بالنار أن تجفَّ له دمعة» ١٨٢
وعفيرة العابدة: «وكيف ينام من لا ينام عنه حافظاه ليلًا ولا نهارًا؟!» ١٨٢
وفاطمة النيسابورية: «الصادق المقرَّب يدعو ربَّه دعاء الغريق» ١٨٢
وعائشة بنت سعيد الحيري: «افرحي بالله عز وجل» ١٨٢
مُليكة بنت المنكدر: «دعوني أُبادرُ طَيَّ صحيفتي» ١٨٢
لبابة العابدة: « إذا تعبتُ من لقاء الخلق آنسني بذكره» ١٨٢
مخّة أخت بشر بن الحارث الحافي: تسأل الإمام أحمد سؤالًا ما سُئِل عنه من قبل ١٨٢
ماجدة القرشية: كفى المؤمنين والمؤمنات طول اهتمامهم بالمعاد شغلا!! ١٨٣
السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد: «كيف أرفق بنفسي وقُدَّامي عقبات لا يقطعها إلَّا أهل الفوز» !! ١٨٣

وعصمت الدين خاتون: فاتني وِرْدي البارحة؛ فلم أُصلِّ من الليل شيئًا ١٨٣
وهذه أخت رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري .. لله درُّها ١٨٣
حتى الجواري .. أين رجال زماننا منهم ؟! ١٨٤
أخي ١٨٤
الفصل الخامس: معشر الأيقاظ النيام، هذه همَّة الكافرين ١٨٥-١٩١
«**إزابيل**» صاحبة القميص العتيق ١٨٧
«**جولدا مائير**» الرجل الوحيد في دولة إسرائيل !! ١٨٨
«**أوساهير**» الياباني.. أنموذجٌ لعلو همَّة الكافرين في الدنيا؛ نقل قوة أوربا
إلى اليابان، ونقل اليابان إلى الغرب !! ١٨٩
الفصل السادس: علو همَّة الحيوانات ١٩٣-٢٠٦
النمل وبُعْد همّته ١٩٧
المبدِّلون وتابعوهم أخسُّ همَّة من القرود ١٩٧
من لم يعرف لِمَ خُلق؛ أشدُّ بلادةً من البقر ١٩٨
ومن لم يعرف الطريق إلى منزله، أبلدُ من حمار ١٩٨
ومن لم يوقِّر العلماء؛ فالحيتان أشرف منه ١٩٨
ومن لم يعلم كلام الأنبياء وصدقهم؛ فهو أخسُّ من الذئاب ١٩٩
من لم يوحِّد ربَّه ويبصر نور الوحي؛ فالهدهد أرفع مكانة منه ٢٠٠
فكيف لو رأى الهدهدُ غاندي وقومَه وعَبَدة الفئران ؟! ٢٠٠
الحيوان أعلى همَّةً وأعظم قدرًا من أغبياء بني آدم ٢٠١
الخُنفساء وعلو الهمَّة في الصبر ٢٠٢
الغراب والبكور ٢٠٢
أبو أيوب - (الجمل) - وصبره ٢٠٢
الديك وحسْن إيثاره ٢٠٢
من لا يدعو عند الفجر، فالخيل أكرم منه ٢٠٣
الأُسدُ لا تقع على الجِيَف ولا تأكل البايت !! ٢٠٣

والذئب أعلى همَّة من الجيفة بالليل، النؤوم ٢٠٣
ومن لا يغيث الملهوف، فالعصفور أشرف منه ٢٠٤
من لم يكن عصاميًّا فليستح من الحمام ٢٠٤
في الحيوانات أخيارٌ وأشرار؛ فالْتقِط خيرَ الخلال وخَلِّ خسيسَها ٢٠٤
أخي: كن كالنسور على الذرا ٢٠٥
الفصل السابع: دناءة الهمة ٢٠٧-٢٨١
دناءة الهمة ٢٠٩
انتصارات الساسة ٢١٣
ولدناءة الهمة أسباب، منها: ٢١٥
الأول: حبُّ الدنيا وكراهية الموت ٢١٥
الثاني: التمنِّي ٢٢١
الثالث: التسويف ٢٢٣
رابعًا: إهدار الوقت في كثرة الزيارة للأقارب والأصحاب، بدون هدف شرعي صحيح وفائدة معتبرة ٢٢٣
خامسًا: كثرة التمتُّع بالمباح، والترف الزائد، والترفُّل في النعيم ٢٢٤
سادسًا: كثرة الخلطة، وصحبة البَطَّالين الذين سفلت همَّتهم ٢٢٥
سابعًا: العجز والكسل ٢٢٧
ثامنًا: الغفلة ٢٢٨
تاسعًا: الفتور ٢٣٠
العاشر: الفناء في ملاحظة حقوق الأهل والأولاد ٢٣٥
الحادي عشر: اتباع الهوى ٢٣٧
حفلات الشكولاتة لرجالٍ تحيض !! ٢٣٩
الثاني عشر: العشق ٢٤١
الثالث عشر: التعلّق بغير الله ٢٤٧
الرابع عشر: تعلُّق الهمَّة بالأكل ٢٤٧

الخامس عشر: همَّة لا تتعدَّى اللباس والمظهر ٢٤٩
السادس عشر: تعلُّق الهمَّة بالمال والجاه ٢٥٠
السابع عشر: حبُّ الراحة وكثرة النوم ٢٥٣
الثامن عشر: الانحراف عن عقيدة أهل السنة والجماعة ٢٥٤
وللسحر مملكة ونفوذ !! ٢٥٨
التاسع عشر: التأثُّر بالصوفية ٢٥٩
العشرون: اضطهاد العاملين للإسلام، والشعور بالإحباط في النفوس التي لا تفقه حقيقة البلاء ٢٥٩
الحادي والعشرون: التقليد الأعمى، والتبعيَّة المطلقة للغرب، والتمسُّح بأعتابه ٢٦٢
ألف مُبْكية ومُبْكية ٢٦٢
زفاف أسطوري لقطة يتكلَّف ١٢٠ ألف دولار !! ٢٦٥
الكلاب أغلى وأرفع من الإنسان !! ٢٦٥
ممات الكلاب أيضًا فايف ستارز Fivestars ٢٦٧
ولا تزال بقلبي ألف مبكية ٢٦٧
زواج كلاب الأثرياء دنيئي الهمم ٢٦٨
يا ابنة الإسلام، احذريهم ٢٦٩
الثاني والعشرون: الرياء وعدم تجرُّد النيَّة ٢٧٠
علل العزائم ٢٧١
الثالث والعشرون: كذب العزيمة وتردُّدها ٢٧١
الرابع والعشرون: ضعْف العقل ٢٧١
الخامس والعشرون: ضعْف البصيرة ٢٧٢
في الأسماء والصفات ٢٧٢
في الأمر والنهي ٢٧٢
في الوعد والوعيد ٢٧٢

السادس والعشرون: طول الأمل ٢٧٣
السابع والعشرون: الابتعاد عن الأجواء الإيمانية فترة طويلة ٢٧٣
الثامن والعشرون: الابتعاد عن القدوة الصالحة ٢٧٤
التاسع والعشرون: هجْر القرآن وتَرْك تَدبُّره ٢٧٤
الثلاثون: ضعْف الإيمان وأُلفة المعاصي ٢٧٥
السبب الأخير: ضعْف الغيْرة، وضعف تعظيم الحرمات ٢٧٥
أنا يا صحابُ مشاعرٌ موتورةٌ ٢٧٦
دنيءُ الهمَّة حُجُبُه كثيفة ٢٧٧
الحجب عشرة، فاحْذرها ٢٧٧
حياةُ مَن سفلت هممهم وتدنَّتْ ٢٨٠
أخي ٢٨٠
أخي ٢٨١
الفصل الثامن: كيف تعلو الهمم ؟؟ ٢٨٣-٣٦٧
كيف تعلو الهمم ؟؟ ٢٨٥
الأول: الإخلاص ٢٨٥
الثاني: الصدق ٢٨٥
الثالث: البصيرة ٢٨٥
البصيرة في الأسماء والصفات ٢٨٦
المرتبة الثانية: البصيرة في الأمر والنهي ٢٨٦
المرتبة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد ٢٨٦
الرابع: العلم ٢٨٧
الخامس: اليقظة ٢٨٨
درجات اليقظة ٢٨٨
أخي ٢٨٩
السادس: خروجه عن المألوفات والعادات ٢٨٩

السابع: التفكُّر ٢٩٠
الثامن: الاجتهاد في حصْر الذهن، وتركيز الفكر في معالي الأمور
ويحفل التاريخ الإسلامي بأمثلة عطرة ٢٩٢
الإمام مسلم وسبب موته ٢٩٣
ومن قبله شيخه البخاري ٢٩٣
وأبو العباس الأصم ٢٩٤
وشيخ بيت النبوة زين العابدين ٢٩٥
التاسع: القصد وصدْق الإرادة ٢٩٥
العاشر: العزْم على الكمالات ٢٩٥
الحادي عشر: الغيْرة ٢٩٦
الثاني عشر: الدعاء ٢٩٨
الثالث عشر: التنافس والتنازع بين الشخص وهمَّته ٢٩٩
الرابع عشر: الحرص على الوقت ٣٠٢
شمس الأئمة السرخسي في الجُبّ ٣٠٢
الخامس عشر: اعتراف المرء بقصور همَّته ٣٠٣
السادس عشر: مجاهدة النفس ٣٠٣
أخي ٣٠٤
أخي: لو طلعت شمس العزيمة في نهار اليقظة ٣٠٤
السابع عشر: قِصر الأمل، وكثرة ذِكْر الموت ٣٠٥
الثامن عشر: الزهد في الدنيا ٣٠٦
التاسع عشر: معرفة قيمة النفس ٣١٢
العشرون: الابتعاد عن كلّ ما شأنه الهبوط بالهمَّة ٣١٣
الحادي والعشرون: مراجعة جدول الأعمال اليومي، والعزلة قليلا،
ومراعاة الأولويَّات الأهم فالمهم ٣١٥
العزلة قليلا، تجمع على الإنسان أمره وهمَّته ٣١٥

الثاني والعشرون: كمال العقل ٣١٥
أما حديث العاقل والحديث عنه ٣١٧
الثالث والعشرون: التحوُّل عن البيئة المثبِّطة ٣١٨
أخي، الفرار الفرار من بيئة الكسل والركود ٣٢٠
الرابع والعشرون: مصاحبة صاحب الهمَّة العالية ٣٢٠
أخي، قد سمعت أخبار المتقين فَسِرْ في سِرْبِهِم ٣٢٠
أخي، اصحب أهل المعاني ودَعْ أرباب الدعاوي؛ فالواو والراء والدال لا تشمُّ منها رائحة الورد ٣٢١
أخي، زاحم التائبين، وادخل في حزب البكَّائين ٣٢٤
الخامس والعشرون: قراءة تراجم وسير سَلَف الأمَّة ٣٣٠
السادس والعشرون: الصبر والمثابرة ٣٣٤
السابع والعشرون: الخلوة ٣٣٧
الثامن والعشرون: واقع المسلمين المُرُّ يصنع الرجال ويُعلي الهِمَمَ ٣٣٧
متي يُفيق النائمون ؟! ٣٣٩
التاسع والعشرون: سَبْرُ فقه الابتلاء والدعوة ٣٤٤
الثلاثون: كوْن الداعية على عقيدة أهل السنة والجماعة وفهْمه لمعنى التوكُّل ٣٤٨
الحادي والثلاثون: وصايا الربَّانيِّين ونصائحهم ٣٥٠
كلمات التثبيت وشحْذ الهِمَم، قالها الربَّانيُّون لأحمد بن حنبل في المحنة ٣٥٧
الثاني والثلاثون: ذكْرُ الجنة والنار دَوامًا وجعْلُهما نُصْب العين ٣٦٢
الثالث والثلاثون: وهو الأخير والأجَلُّ والأعظمُ والخطير، الذي ليس له نظير؛ جعْلُ الهمِّ همًّا واحدًا وجعْله في الله تعالى ٣٦٤
الخاتمة ٣٦٩
الفهارس ٣٧٧
فهرس الأحاديث ٣٧٩
فهرس المصادر والمراجع ٤٤٩
فهرس الموضوعات ٤٧٧

□ إهــــــداء □

• إلى رجال السلف الشاهقين .. أعظم ثُلَّةٍ ظهرتْ في دنيا العقيدة والإيمان .. الذين استطالتْ رؤوسُهم إلى السماء فلامستْها ، واقتربت السماءُ من رؤوسهم فتوَّجتْها .. إليهم في سُموِّهِمْ وعُلُوِّهِم وتفانيهم وصمودِهم ويقينهم الناهض فوق منصَّة الأستاذية ، يُلقي على البشرية كلِّها أبلغ الدروس ، ويُلقِّنُها العظمة الباهرة التي تبدو من فرطِ إعجازها كأنها الأساطير .

• إلى كتائب الحقِّ من جيلنا الواعد .. القابضة على الجمر .. التي ستطوي العالم بإيمانها ، زاحمةً جوَّ السماء برايتها وهِمَمِها السامية وشمائلها الغالية .

• إلى من ظنَّ أنَّ دوحة الإسلام ذبَلتْ وجفَّ رحيقُها .

لا تُهيِّئْ كفني يا عاذلي ..... فأنا لي مع الفجرِ مواثيقٌ وعَهْدُ

• إلى زهرتيَّ : سُميَّة وفاطمة .. جعلَكُما الله من القانتات العابدات الذاكرات ، وجعل لكما في صدور المؤمنين وُدًّا ، ولم يجعل الحياة عليكما نكدًا .



◻ شُكْر وتقدير ◻

إلى مَنْ أُحِبُّهم كلَّ الحُبِّ .

وأنـا رضيــعُ هواهـمُ والطفلُ يُؤلِمُهُ الفطامْ

● إلى **أبي** ... رحمه الله .. فكم كان كريمًا ذا مروءةٍ نقيَّ الصدر . أحسبُه كذلك ، والله حسيبُه .

وإذا عدلتَ به رجالًا لم تجدْ فيضَ الفراتِ كراشحِ الأوشالِ

فاللهمَّ اجعلْ هذا الكتاب في ميزان حسناته .

● إلى الوالدِ المفضالِ الرباني بقيَّة السلف الذي مَنْ رآه ذكر الله **سيِّدِنا الشيخ محمد صفوت نور الدين** .

● إلى الجبل .. المتواضع .. الذي تعجز الملوك أنْ تؤدِّب أولادها أدبَه لنفسه ، الـذي عرَّفنا طريقَ سلفنا .. إلى سميِّ البخـاري . **أبي الفـرج محمد إسماعيل المقدَّم** .

● إلى شيخي السامق الغالي .. الذي شرَّفتنا الأيام برؤيته والقُرْب منه .. فهِبْنـاه . أسألُ الله أنْ يجعلَ لك أوفرَ نصيبٍ من سميِّـك أبي إسحـاق الفزاري . **أبي إسحاق الحويني** . الذي نشُمُّ منه عِطْرَ أهلِ الحديث .

● إلى شقيق الرُّوح .. التقيِّ .. النقيِّ .. الطاهرِ العلم .. الذي له من نضارة أهلِ الحديث أوفر نصيبٍ الشيخ **حسن أبي الأشبال** .

● إلى الشيخ الحبيب العابد الخفيِّ الذي يعيش في غير عصْره **أبي ذرٍّ القلموني** .

● إلى فقيه القـاهرة .. المتواضع الربَّـاني .. **فضيلة الشيـخ الدكتور محمد عبد المقصود** .. الذي أُحِبُّه مِلءَ شِغاف قلبي .

● إلى الرجال الذين تعبوا في إخراج هذا الكتاب صَفًّا ومراجعـةً وتصحيحًا وتنقيحًا . بارك الله فيكم ، وأعلى بين الصالحين درجتكم ، وعند الله وحده جزاؤكم .

□ تقـدِيـم □

بقلم فضيلة الشيخ

محمد صفوت نور الدين ، الرئيس العام لجماعة أنصار السنة بمصر

بسـم الله الرحمـٰن الرحيـم

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه على المنهج الصواب إلى يوم الدين ، وبعد :

ففي حديث النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم : « أصدقُ الأسماء : حارث وهمام » ؛ ذلك لأنَّ لكلّ نفس في كل حال (همًّا) ، ولكن من الأنفس ما يكون همُّها دنيئًا يرشدها إلى كل مرذول ، ويعينها على الباطل ، ويصرفها عن الهداية والصواب ، ومن أمثلة ذلك قوم لوط وفرعون . ومن الأنفس ما يكون همُّها عاليًا ، تطلب من الأمور معاليها ، وتجتنب أراذلها ، فتقصد إلى المقامات السامية والدرجات الرفيعة ، تزكو بأعمالها ، وترتفع بأوقاتها ، ورائد هذه الطائفة همُ الأنبياء والمرسلون ومن سار سيرهم واهتدى بهديهم ، وحاديها في سيرها الجنةُ وذكرُها ، والقرب من ربِّهم والأنس إليه يوم لقائه .

وهذا الدكتور سيد حُسين العفانيّ – جزاه الله خير الجزاء – بما عهد له من قلم سيَّال ، وباع واسع في الكتابة والتسطير ، وكتابته تأخذ بالمسلم قلبًا وقالبًا إلى طريق الإيمان ، قد انبرى قلمُه ليكتب عن الهمة وعلوِّها ، **فحملت جعبتُه الطيب يوم حمْلها ، فإذا بها يوم وضْعها تضع توائم سبعًا** جميلات حسناوات ، وفي الوزن ثقيلات ، وفي العبارة رشيقات ، تسعَدُ إذا

حملتَ إحداها ، وتسقيك عذبًا إذا قبَّلْتَ شفتيها ، توائم خمس في مجلدات ذاخرة وافرة ، لو شاء صيَّرها عَشْرًا ؛ لأنَّ كلَّ واحدة منها تزن اثنتين أو تزيد ، توائم خمس لا تغنيك واحدة عن أختها ، بل تحثُّك عليها ، وتدلُّك على ما بعدها ، وتدفعك إلى البقية دفعًا .

هذا ، وقلبي محبٌّ لأصحاب الهمم العالية ، ومنهم المصنِّف - إن شاء الله تعالى - ولا نزكّي على الله أحدًا ، ويعجز قلمي وتحتار عبارتي في وصفه ، وهو يُجيد الوصف ، ويعجز قلمي عن تقديم كتابه وهو جيِّد العرْض جميل السَّرد ، لكنني مع ضعف همَّتي - أسأل الله أن يقوِّيَها في الخير وأن يجنِّبها الزَّلَل والشر - أَشرُف بتقديم كلماتٍ للقارىء بين يدي الكتاب المبارك بفضل الله ومَنِّه وكرمه ، حيث إن الهمة العالية والقصد إليها درجة تَنافَس فيها المتنافسون . فأهل علوِّ الهمة مطلبُهم الجنة ؛ ﴿ **كلَّا إنَّ كتابَ الأبرارِ لَفي عِلِّيِّين وما أدراك ما عِلِّيّون كتابٌ مرقومٌ يشهدُهُ المقرَّبونَ إنَّ الأبرارَ لَفي نعيمٍ علىٰ الأرائكِ ينظرونَ تعرِفُ في وُجُوههمْ نضْرَةَ النعيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رحيقٍ مختومٍ ختامُهُ مِسْكٌ وفي ذلكَ فليتنافسِ المتنافسونَ** ﴾ [المطفّفين : ١٨ - ٢٦] .

الهمة العالية درجة شخَص إليها العبَّاد والزهَّاد والمجاهدون والعلماء والحكماء ، وإليها شمَّر السابقون من الأنبياء وأصحابهم ومَن سار على منهجهم ، وفيها أنفق المنفقون ومن وافقهم ، فهي قُوت قلوب السالكين ، وغِذاء أرواح العارفين ، وقرَّة عيون المؤمنين الموحِّدين .

الهمة العالية هي الحياة التي مَن حُرمها فهو مِن جملة الأموات ، والنور الساطع الذي يسترشد به الغرباء في بحارِ ظلمات الدنيا ، وهي الشفاء الذي مَن فُقِده فقَدْ أصابتْه جميعُ الأسقام ، وبها تكون اللذة التي مَن لم يظْفر بها فعيشُه كلُّه هموم وآلام .

الهمة العالية رُوح الأعمال والأحوال ، متى خلَتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه ، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا بالِغيها إلا بشقِّ الأنْفُس ، وترفعهم إلى منازلَ في الجنة لم يكونوا بدونها واصليها ، ولا بالتجافي عنها مُدْركيها .

الهمة العالية عند المؤمنين رُوح تنبع من قوله تعالى : ﴿ **إنْ يكنْ منكمْ عشرونَ صابِرونَ يغلبوا مائتينِ وإنْ يكنْ منكمْ مائةٌ يغلبوا ألفًا مِنَ الذينَ كفرُوا بأنَّهُمْ قومٌ لا يفقَهُون** ﴾ [الأنفال : ٦٥] .

الهمة العالية عند المؤمنين تُستَمدُّ من قوله تعالى : ﴿ **كمْ مِن فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ واللهُ مع الصابرين** ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ذلك بأنهم يؤمنون بالله القائل: ﴿ **إنْ تنصروا اللهَ ينصرْكُمْ ويثبتْ أقدامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٧].

ومن الهمة العالية عند المؤمنين حالَ الضعف يكون التخفيف ، فيكون قوله تعالى لهم : ﴿ **الآنَ خفَّفَ اللهُ عنكمْ وعِلمَ أنَّ فيكمْ ضعْفًا فإنْ يكنْ منكمْ مائة صابرةٌ يغلبُوا مائتين وإنْ يكنْ منكمْ ألفٌ يغلبُوا ألفيْن بإذنِ اللهِ واللهُ معَ الصابرين** ﴾ [الأنفال : ٦٦] .

الهمة العالية تُستمدُّ من ربِّ العالمين الذي قال للملائكة يومَ بدر : ﴿ **إني معكمْ فثبِّتوا الذينَ آمنُوا سأُلقي في قلوبِ الذينَ كفرُوا الرعبَ** ﴾ [الأنفال : ١٢] . تُستمد من ربّ العالمين الذي أنزل في كتابه ﴿ **إلَّا تنصرُوه فقدْ نصرَه اللهُ إذ أخرجَهُ الذينَ كفرُوا ثاني اثنينِ إذْ هُما في الغارِ إذْ يقولُ لصاحبِهِ لا تحزنْ إنّ اللهَ معنا** ﴾ [التوبة : ٤٠]. تُستمدُّ من ربّ العالمين حيثُ علَّمهم أن يقولوا : ﴿ **ربَّنا أفرِغْ علينَا صبْرًا وثبِّتْ أقدامَنا وانصرْنا على القومِ الكافرين** ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

أصحاب الهمة العالية يعلمون أن الله الرافع الخافض ، القابض الباسط ، المعطي المانع ، يرفع من يشاء ؛ ﴿ **ونريدُ أنْ نَمُنَّ على الذينَ استُضْعفوا في الأرضِ ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثينَ ونمكِّن لهمْ في الأرضِ ونريَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهمْ ما كانُوا يحذرون** ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] . والله يقول : ﴿ **إنَّ الأرضَ للهِ يُورثُها مَن يشاءُ مِن عبادِه والعاقبةُ للمتقين** ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

الهمة العالية تجعل أصحابها في حماية ربِّهم ؛ لقولِه : ﴿ **إلّا عبادَك منهمُ المخلَصِين** ﴾ [الحجر : ٤٠] . كتاب الله يخبر أصحاب الهمم العالية ويُخبر مَن دونهم حتَّى يلحقُوا بهم ﴿ **وعَدَ اللهُ الذينَ آمنُوا منكُمْ وعملُوا الصالحاتِ ليستخلِفنَّهمْ في الأرضِ كما استخْلفَ الذينَ مِن قبلِهمْ ويمكِّننَّ لهمْ دينَهُمُ الذي ارتضىٰ لهمْ ولَيبدِّلَنَّهمْ من بعدِ خوفِهِمْ أمنًا يعبدونني لا يُشركون بي شيئًا ومَن كَفَر بعدَ ذلِكَ فأولئكَ همُ الفاسقونَ وأقيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ وأطيعوا الرسولَ لعلّكُمْ تُرحمون لا تحسبَنَّ الذينَ كفرُوا معجِزينَ في الأرضِ ومأْواهُم النارُ وَلَبِئسَ المَصِير** ﴾ [النور : ٥٥ - ٥٧] .

يقول صاحب « المدارج » : (الهِمَّة) فِعْلة من الهمِّ ، وهو مبدأُ الإرادة ، ولكنْ خصُّوها بنهاية الإرادة ، فالهمُّ مبدؤها والهمَّة نهايتها . (ثم يقول) : إنَّ همَّة العبد إذا تعلَّقتْ بالحقّ تعالى طَلَبًا صادقًا خالصًا محْضًا فتلكَ هي الهمة العالية ، ولا يلتفت عنها إلى ما سوى أحكامها ، وصاحب هذه الهمة سريعٌ وصولُه وظفره بمقصوده ، ما لم تعُقْه العوائق ، وتقطعه العلائق . وأول نبضات الهمة : تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني ، وتحملُه على الرغبة في الباقي ، وتُصفِّيه من كوادر التواني .

ويقول أيضًا : الهمَّامُ يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي ، فهو في سفر دائم بالقلب إلى الله ليحصل له ويفوز به ؛ فإنه طالب لربّه تعالى طلبًا

تامًّا بكلّ معنًى واعتبار ؛ في عمله وعباداته ومناجاته ، ونومه ويقظته ، وحركته وسكونه ، وعزلته وخُلطته ، وسائر أحواله . فقد انصبغ قلبه بالتوجُّه إلى الأعمال ، ولا يقف عند عِوض ولا درجة ؛ فإن ذلك نُزُول من همته ، ومطلبُه أعلى من ذلك ، فإن صاحب هذه الهمة قد قصَر هِمَّتَه على المطلب الأعلى الذي لا شيءِ أعلى منه ، والأعواضُ والدرجاتُ دونه ، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كلّ عِوَض ودرجة عالية . انتهى .

وإنني إذْ أسطر هذه الكلمات إنما أريد أن أعيش بين سطور هذا الكتاب وقتًا طويلًا ، نُحسِنُ الصحبة مع أصحاب الهمم العالية في مختلف مراحل أعمارهم ، وكافة وظائفهم ومهامِّهم ، بين القُضاة والحكَّام والعلماء والمجاهدين ؛ فإنَّ حسن الصحبة تُورث المحبة ، والنبي ﷺ يقول : « المرءُ مع مَن أحبَّ » . . فهيًّا أيُّها القارىء الكريم نتعرف على القوم لِنُحِبَّهم ، لعلّ الله أنْ يُنزلنا منازلهم ، وأن يبلِّغنا درجاتهم وإنْ قصُرتْ بنا الأعمال وضعفتْ الهمم عن بلوغ ما بلغوه ، وإحراز ما أدرَكوه وجمعوه ، وحتى لا تضيع الهمة بل تنمو وتزكو بصحبتهم في الكتاب القيّم الثمين (صلاح الأمة في علوّ الأمة) .

والله َأسأل أنْ ينفع به كاتبه وقارئه ، والمرشد إليه ، والله الهادي إلى الصواب ، وهو من وراء القصد ، وهو حسبي ونعْمَ الوكيل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

كتبه فقير عفو ربّه :

محمد صفوت نور الدين

الأول من رمضان سنة ١٤١٦هـ

مقدمة بقلم فضيلة الشيخ محمد بن إسماعيل

□ بسم الله الرحمٰن الرحيم □

الحمد لله الذي قسَّم خلقه إلى تقيٍّ أوَّاب ، همَّتُه طلب الخيرات والاكتساب ، وبغيتُه الزلْفى إلى الله والاقتراب ، ﴿ **أولئكَ الذينَ هداهُمُ اللهُ وأولئكَ همْ أولوا الألباب** ﴾ ، وفاجرٍ كذَّاب ، همَّتُه مصروفةٌ إلى اللَّهو والطعام والشراب ، يعمِّر جسمه وقلبُه خراب يَبَاب ، فكيف إذا كُشف الحجاب ، وحقَّ عليه قولُ ربِّ الأرباب : ﴿**ورأوا العذابَ وتقطعتْ بهمُ الأسباب**﴾.

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الوهَّاب ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، ﴿ **نعمَ العبدُ إنَّهُ أوَّاب** ﴾ صلى الله وسلم وبارك عليه ، وعلى الآل والأصحاب . أمَّا بعد :

فإن « كِبَر الهمة » معنى خليق بالإحياء والتجديد ، حَرِيٌّ بأن تتضافر الأقلام في الحثّ عليه ، جدير بأن تتواردَ الألسنة على الإغراء به والسعي إليه ؛ إذْ إنّ « علوَّ الهمة » هو الدواء الأمثل لما حلَّ بنا - أفرادًا وجماعات ، شعوبًا وحكومات - من واقع أليم ، وبلاء عظيم ، وخطب جسيم ، إلا مَن رحِمَ ربي .

وإذا كان آخر هذه الأمة لا يصلح إلّا بما صلح به أوّلها ، فإنَّ أعظم ما أصلح سلفنا الأبرار جمعُهم القوَّتين اللَّتين هما كالجناح للطائر ؛ أعني القوة العلمية « البصيرة » ، والقوة العملية « الإرادة أو الهمة » التي هي نشدان الكمال الممكن في العلم والعمل ، واستصغار ما دون النهاية من معالي الأمور .

وفي « العلم » و « الهمة » مَخرج لأمتنا من تِيهِ الضعف والوهَن ، ونجاة من صحراء العجز والكسل ، وفيهما إنقاذ لشبابنا - عُدَّةِ الحاضر ، وأمل

المستقبل - من وَهْدة الفتور ، ووحْل الضياع الذي يُراد لهم أن يغرقوا فيه ، كي يسهل افتراسُهم دون مقاومة تُذكَر ، فرُبَّ نائمٍ أيقظتْه الهمة العالية من رقْدته ، ورُبَّ فاجر رُزق بها الوَلاية ، وبلغ منازل الأبرار .

إن أقوى البواعث على ارتفاع الهمة مصاحَبَةُ المجتهدين في العلم والعمل ، للانتفاع بلحْظهم ولفْظهم ، ثم سماع أحوال السلف ومَن تبعهم بإحسان من الخلف ، ومطالعة أخبارهم وسِيَرِهم التي تشحذ الخاطر ، وتحرّك العزيمة نحو المعالي .

وهذا عيْنُ المقصود من جمْع مادة هذا المجموع الحافل الذي عُني مؤلِّفه بجمْع مادَّته مما طالتْه يدُه ، وبلغتْه طاقته من تراجم وسير ومراجع ؛ جمعًا يَشي بهمّة عالية ، وجهدٍ جهيدٍ بذله ، فكان ثمرته هذا المجموع المبارَك الذي بدا - رغم الاستطراد في بعض المواضع - كأنه قرْص من أقراص أبكار النحل ، جَنَتْهُ من طرائف الأزهار العطرية ، ومجَّتْ فيه عسلَها المشتار من طوائف الثمار الشهية .

فالله سبحانه وتعالى يتقبَّله بأحسن القبول ، وينفع به مَن وصلِ إليه ، ومثُلَ بين يديه ، ويجعله حُجَّة له لا حُجَّة عليه ، ويثيب جامِعَه الأجر الجزيل ، والذكر الجميل ، ويجعله دوْمًا مفتاح خير ، مغلاق شرٍّ ، إنه سميع مجيب . وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

وكتب :

محمد أحمد إسماعيل المقدّم

الإسكندرية ليلة السبت ٢١ رمضان ١٤١٦ هـ الموافق ١٩٩٦/٢/١٠ م.

☐ مقدمة لفضيلة الشيخ عائض بن عبد الله القرني ☐

الحمدُ لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله ومن والاه .

وبعد :

فقد اطَّلعتُ على رياضٍ خضراء في هذا الكتاب الفذِّ في بابه ، المُتفرِّدِ في موضوعه ، وقد أتحفَنا مؤلِّفه بكنوز غالية من تراثنا المجيد ؛ فمَرَّةً يتلو علينا من الذِّكر الحكيم ، ومرَّةً يُفيض علينا من معين السُّنَّة الثَّرِّ ، وحينًا يقُصُّ علينا أحسنَ القَصَصِ من تاريخنا الشائق ، وأحيانًا يُشنِّف أسماعنا بما لذَّ وَطاب من الشِّعر العربي الأصيل .

والمؤلِّف - حفظه الله - يستنهضُ هِمَمَنا ، ويُحرِّك عزائمنا ، ويحدو ركابنا ، ويصيح في نائمينا : « حيّ على الفلاح » .

يا له من كتاب للجيل الواعد الذي تَخُفُّ به الشهوات ، وتستخفُّه الأماني ، وتتلاعب به الأهواء ، فيأتي هذا الكتاب كالنذير العُرْيان ؛ يهتف في الجموع : تقدَّموا ، وفي الغافلين : تنبَّهُوا ، وفي الكُسالى : ثابِرُوا .

ومَنْ يُطالعْ هذا السِّفْرَ المُبارَك يعلمْ أنَّ كلَّ الصَّيْد في جوف الفِرا .

وقد عرفْنا مؤلِّفَ هذا الكتاب من قبلُ عبْر كُتُبِه الشائقة الموثَّقة ، ومنها « رهبان الليل » وغيره ؛ فوجدناه جيَّاشَ الخاطر ، مشبوبَ العاطفة ، عارم الهمَّة ، قويَّ الإرادة ، عذْبَ الحديث .

وإنني مُتفائل كلَّ التفاؤل بمستقبلٍ لهذا الكتاب ، وقبول له في الناس ، وترحيبٍ حَارٍّ به في أوساط الباحثين عن الحقيقة ، المُتلمِّسين للطريق ، السائلين عن الهداية ، القابضين على جَمْر الصبر في زَمنِ الفتنة .

أخي سيّد :

أمتعَ الله بحيَاتك ، وأنْسَأَ في أَثَرِك ، وبارَكَ في عُمرك ، ورفعَ درجتك ؛ فقد أتحفتَ أحبابَك ، وأثلجتَ صدورَ أصحابك ، بما كتبتَ وجمعتَ وأبدعتَ ودبَّجْتَ :

جُزيتَ خيرًا على فضْلٍ أتيتَ به لكم بمعروفكم في الصالحات يَدُ
فاعذرْ حسودَك فيما قد خُصِصتَ به إنَّ العُلا حَسَنٌ في مِثْلِها الحَسَدُ

عائض القرني
الرياض
٢٨/ ١١/ ١٤١٦هـ

* * *

□ مُقدِّمة بقلم فضيلة الشيخ الدكتور / محمد عبد المقصود العفيفي □

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، مَنْ يهده الله فلا مُضلَّ له ، ومَنْ يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ **يأيُّها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون** ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ **يأيُّها الناس اتقوا ربَّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا** ﴾ [النساء : ١] .

﴿ **يأيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولًا سديدًا يُصلحْ لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومَنْ يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٧٠ - ٧١] .

أما بعد :

قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله : « لا يصلح آخر هذه الأُمَّة إلا بما صلح به أولها » .

فكيف ربَّى النبي ﷺ أصحابه ؟!

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : حدَّثنا رسول الله ﷺ ، فقال : « إنَّ الأمانة نزلتْ في جَذْر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعَلِموا من القرآن ، وعَلِموا من السُّنة ، ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه ، فيظلُّ أثرُها مثلَ الوكْت(١)، ثم ينام النومة فتُقبض الأمانة من قلبه ، فيظلُّ أثرُها مثلَ المَجْل(٢)،

---

(١) هو الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه .

(٢) أن يكون بين الجلد واللحم ماءٌ من أثر العمل .

كجمْرٍ دحْرجتَه على رجْلك فنَفِط[1] ، فتراه منتبرًا[2] ، وليس فيه شيء ، فيُصبح الناس يتبايعون ، لا يكاد أحد يُؤدّي الأمانة ، حتى يُقال : إن في بني فلان رجلًا أمينًا ، حتى يُقال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ! وما في قلبه حبَّةُ خردل من إيمان »[3].

فلمَّا جاء العلم على قلوب قد رُبِّيت على الإيمان أثمر أعمالًا .. وهذه الأعمال هي التي نتحدَّث عنها إلى اليوم ، فقد قال ﷺ : « ألا وإن في الجسد مُضغةً إذا صلحت صلح الجسدُ كُلُّه ، وإذا فسدت فسد الجسدُ كُلُّه » . فكان السلف من الصحابة ومَنْ بعدهم ذوي هِمَمٍ عالية في شتَّى جوانب الدين ، أخذوه بِقوَّة .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا صنَّفَه رجُلٌ ذو هِمَّةٍ عالية .. ومن الأمثلة على عُلُوّ همّته : أنه لما صنَّف كتابه العظيم « رهبان الليل » نصحه الشيخُ الفاضلُ بقيَّةُ السلف محمد بن إسماعيل بالإسراع في مُصنَّف آخر « فرسان النهار » فنشط بالفعل ، ومع جمْعه لـ « فرسان النهار »[4] قدَّم إلى المكتبة الإسلامية هذا السِّفر العظيم ، ولا شكَّ أن هذا السِّفر وهذه الموسوعة إثراءٌ للمكتبة الإسلامية .

وهذه المقدِّمة تزيدني شرفًا ولا تزيد الكتابَ ولا مُصنِّفَه شيئًا وما كنت لِأجرؤ على أن أُقدِّم لهذا الكتاب أو لِكُتُب هذا الرجل لولا إصرار المؤلِّف ، فإنه يُحسنُ بي الظنَّ ، وليسَ لي إلا أن أقول كما قال الصدِّيق:« اللهمَّ اجعلني

---

(١) أي قرح عملًا .

(٢) مرتفعًا .

(٣) رواه الشيخان ، وأحمد ، والترمذي ، وابن ماجه .

(٤) سيصدر قريبًا إن شاء الله .

خيرًا ممَّا يظنُّون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تُؤاخذني بما يقولون » .

فجزاه الله خيرًا ، ونسأله عزَّ وجلَّ أن يجعلَ هذا الكتاب في ميزان حسناته ، وأن ينفع المسلمين به .

وكتبه

محمد عبد المقصود العفيفي



□ مقدمة بقلم فضيلة الشيخ أبي إسحاق الحويني □

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله تعالى نحمدُه ، ونستعين به ونستغفرُهُ ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله تعالى فلا مُضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهدُ أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ .

أمَّا بعدُ ، فإن أصدق الحديث كتابُ الله تعالى ، وأحسن الهَدْي هديُ محمدٍ ﷺ ، وشرّ الأمور محدثاتُها ، وكلّ محدثةٍ بدعةٌ ، وكل بدعةٍ ضلالةٌ ، وكل ضلالة في النار .

فنحن في أمسِّ الحاجة إلى موضوع هذا الكتاب، لا سيّما في زماننا هذا ، وقد أُوتينا من الضعف والهوان أضعاف ما أُوتي أسلافنا من الجدّ والقوة ، لقد ملكوا الدنيا ، ودانت لهم الممالك ، وأرغموا أنف كلِّ كافرٍ في سنواتٍ لا تُعدُّ شيئًا في أعمار الأمم ، وإنما حصَّلوا ذلك بصدْق الانتماء ، والهمَّة العالية .

وهذا الكتاب الحافل قيَّده يراعُ صاحبنا الكريم - الصادق الودّ - الشيخ سيد بن حسين العفّاني ، جزاه الله خيرًا ، وأجاد تقسيمه وترتيبه ، وأجهد نفسه في تهذيبه وتقريبه ، حتى صار طويل الذيل ، فلا تفتر همَّتك في مطالعته فتميل عنه كلَّ الميل ، فقد احتوى على نفائس من سِيَر السلف الصالحين ، تقرُّ بها أعينُ السالكين ، فصار بمنزلة الحادي ، يفتقر إليه كلُّ حاضرٍ وبادي .

ولست أتكلّم في مقدّمتي هذه عن « علوّ الهمّة » فقد أطال صاحبُنا

وأطاب ، لكنني سأتكلّم عن موضوعٍ آخر ، له مساسٌ عكسيّ بموضوع الكتاب ، ألا وهو دناءةُ الهمة ، وما يستتبعها من بلادة الفهم ، وضحالة العلم ، وغباء الذِّهن ، ورسوخ الجهل ، ويُضاف إلى كلِّ ذلك الإعجاب به !! وذلك من باب : « وبضدّها تتميّز الأشياء » ، وسيعلمُ القارئ بعد مطالعة هذه المقدمة قدْر أسلافنا وعلو همّتهم في مقابلة دناءة هِمَمِ المتأخرين .

ومن دلائل نبوّته ﷺ ، أنه أخبرنا أنه سيأتي زمانٌ يتكلَّمُ فيه الرُّوَيْبِضة ، ولما سُئل ﷺ : ما الرُّويبضة ؟ قال : « الرَّجُل التَّافِه يتكلَّم في أمر العامَّة » .

أمَّا هذا « الرُّويبضة » فإنه اسمُ عَلَم لكثيرٍ من الذين سُمح لهم أن يتكلّموا في دين الله - كتابًا وسُنَّةً - بجهلٍ ومكرٍ ودهاءٍ .

وأحد هذا « الجنس » بيطريٌّ جاهل ، ومن الطريف أنه تخصَّص في « السموم » ونال فيها شهادة الدكتوراه ، وكلّ كتبه التي كتبها تشهد بكفاءته في هذا التخصُّص . كبر الرجل وترعرع في « زمان الغربة الثانية » ، وفي غيبة « هيئة كبار العلماء » بدأ يكتب !!

فهل تدرون - أيها القُرّاء - ما مؤلَّفات الرجل ؟

الكتاب الأوَّل : سمَّاه « تذكير الأصحاب بتحريم النِّقاب » ، ذهب فيه إلى أن المرأة المتبرّجة التي تمشي في « المصيف » على شاطئ البحر « بالمايوه » أفضل عند الله من المنتقبة العفيفة التي سترت نفسها ، وحُجَّته في ذلك أن المتبرجة عاصيةٌ ، تعلم أنها عاصية ؛ فهذه يُرجى لها التوبة ، أمَّا المنتقبة فإنها عاصيةٌ تظنّ أنها فاضلة ، فلذلك ستبقى على ضلالتها وعمايتها ، لأنها تظنّ أن هذا الضلال هو الهدى ! وقد ردَّ عليه كثيرون ، وأتوا على بنيانه من القواعد ، وأمْثَلُ هذه الردود ، ردُّ صاحبنا الشيخ أبي الفرج محمد ابن إسماعيل ، حفظه الله تعالى .

الكتاب الثاني : هو كتاب « شفاء الصَّدْر في نَفي عذاب القبر » !! فخالف أهل السُّنّة والجماعة ، وردَّ صريح القرآن ومتواتِر السنة في هذا الأمر .

ثم ثالثة الأثافي : أنه أصدر الجزء الأوَّل من كتابٍ سمّاه « تبصير الأُمّة بحقيقة السُّنّة » ينفي فيه السنة - إلَّا من حيث الجملة - وذكر في مطلع كتابه أن علماء المسلمين جميعًا ، لا يستثني منهم واحدًا ، قد غشُّوا المسلمين ، ولم يقوموا بواجب النُّصح ، فلم يتوقَّف واحدٌ منهم لمعرفة حقيقة السُّنّة النبوية ، وأنهم قدَّسوا الصحابة والتابعين ، مع أنهم غيرُ معصومين من الخطأ ، وانفصل على أن السنة لم تحفظ ، ولا تثبت إلَّا من حيثُ الجملة . ثم يقول : إن ما ارتكبه علماء المسلمين جميعًا - لا يستثني منهم واحدًا - جعل الحمْل عليه ثقيلًا ، فابتعثه الله عز وجلَّ إلينا في القرن الخامس عشر ليصحِّح لنا ما أخطأ فيه جميعُ العلماء ، وقد ارتدى الرجل مُسُوح أهل العلم ، وطالعَ بعض كُتُبٍ في « الأصول » ، فكأن الكلمة أعجبته ، فصار يكرِّرها كثيرًا في كتبه ليُرهب بها العوام ، ممن قلَّ حظُّهم من التفقُّه في دين الله عز وجلَّ ، وكبر معه الأمر حتى صدق أنه « أُصُولي » ، فاضطرّه ذلك إلى مساورة جبال الحفظ والفهم ، وظنَّ أنه « رجُل » ! فهو رجلٌ وهم رجالٌ ، فذكَّرني صنيعُهُ بما حدث للشاعر « ثابت بن جابر » المعروف بـ « تأبَّطَ شرًّا » ، فقد ذكر أبو الفرج في « كتاب الأغاني » (٢١١/١٨) أن « تأبَّط شرًّا » لقي ذات مرَّةٍ رجلًا من « ثقيف » يقال له : « أبو وهب » ، وكان رجلًا أهوج ، وعليه حُلَّةٌ جيِّدةٌ ، فقال أبو وهبٍ لتأبَّط شرًّا : بم تغلبُ الرجالَ يا ثابت ، وأنت كما أرى دميمٌ وضئيلٌ ؟! قال : باسمي !! إنما أقولُ ساعة ألقى الرجلَ : أنا تأبَّط شرًّا ، فينخلعُ قلبُهُ ، حتى أنال منه ما أردتُ !! فقال له الثقفيُّ : أبهذا فقط ؟! قال : قطُّ . قال : فهل لك أن تبيعني اسمك ؟! قال : نعم ، فبم تبتاعُه ؟ قال : بهذه الحُلّة وبكُنْيتي ! قال له :

افعل . ففعلا . وقال تأبَّط شرًّا : لك اسمي ولي اسمُك ، وأخذ حُلَّته وأعطاه طِمْرَيْه ثم انصرف ، فقال تأبَّط شرًّا يخاطبُ زوجة الثقفيِّ :

ألا هل أتى الحسناءَ أنَّ حليلَها تأبَّطَ شرًّا واكتنيتُ أبا وَهْبِ
فَهَبْهُ تسمَّى اسمي وسمَّاني اسمه فأين له صبري على مُعظمِ الخطْبِ
وأين له بأسٌ كبأسي وسَوْرَتي وأين له في كلِّ فادِحةٍ قلبي

فظنَّ « البيطريُّ » أنه بمجرد تَزَيِّيهِ بزيِّ العلماء ، وتكلُّمه ببعض عباراتهم ، أنه منهم ، فأربى بذلك على الثقفيّ !

ولأنه يعلم أن كثيرًا من الناس يقف مبهورًا أمام كثرة المناصب والشهادات ، دأَبَ على كتابة « نياشينه » في كتبه ، فيذكُر تخرُّجه في كلية « الطب البيطري » ، ثم ترقِّيه من رتبة « المعيد » إلى « الدكتوراه » ، إلى تعيينه « بقرار وزاري » - ويضعها بين قوسين كأنه « قرار سماوي » - عضوًا باللجنة الفُلانيّة ، ثم دراسته في كلية الآداب ثم حصوله على دكتوراه في «الفلفسة»- هكذا كتبتُها عمدًا- ثم حصوله على إجازة في القراءات ... إلخ . فلقد ظن الرجل أنه بهذه « الشهادات » قادرٌ على محو علماءِ الأُمَّة بجرَّة قلم ، وقد علم القاصي والداني أن هذه الشهادات لا تُعطي صاحبها علمًا ، فضلًا عن الأدب ، إنما تفتح له الباب حسْبُ ، وأما الرجُل فإنه يقبع تحت خط الفقر في العلم والأدب معًا ، وقد ذكَّرتْني « نياشينُهُ » صاحبَ القطّ ، فهل تعرفُهُ ؟

فقد حكَوْا أن رجُلًا كان يحملُ قطًّا ، فقابله رجلٌ فقال له : ما هذا القطُّ ؟ وقابله ثانٍ فقال له : ما هذا الهرُّ ؟ وقابله ثالثٌ فقال له : ما هذا السِّنَّوْر ؟ وقابله رابعٌ فقال : ما هذا السَّبُع ؟ وقابله خامس فقال : ما هذا الخيطل ؟ وقابله سادسٌ فقال : ما هذا الهِزَبْر ؟ فقال الرجل : كلّ هذه الأسماء ؟! لا بدّ أن ثَمَنَهُ كبيرٌ ! فذهب إلى السوق وهو يُمنِّي نفسه

بالغِنى ، فوقف يعرضه للبيع فكان ثمنه درهمًا واحدًا ، فرماه على الأرض وقال : قاتلك الله ! ما أكثر أسماءك وأقلَّ غناءَك !!

تصدَّر للتدريسِ كلُّ مُهوَّسٍ   بليدٍ تسمَّى بالفقيه المُدرِّسِ
فحُقّ لأهلِ العلمِ أن يتمثَّلوا   ببيت قديمٍ شاع في كلِّ مجلسِ
لقد هزلتْ حتى بدا من هُزَالها   كُلاها وحتى سامها كلُّ مُفلِسِ

أكثر « البيطريُّ » من ذكْر « المنهجيَّة » و « الحياد العلمي » ، وكرَّر كثيرًا قوله : « أيُّها القارئ المحايد » فهل تدري أيها القارئ ما معنى « الحياد » ؟ إنه تَرْك الانتماء إلى السلف ، فهم عنده ناسٌ « مجرَّد ناس » لا فضْل لهم ؛ لأنهم يزعمون أن الانتماء داعيةُ « الانحياز » ، وأنك إذا أحببْتَهم ، وانتميتَ إليهم ، فلن ترى عيوبَهم ، ولا أخطاءهم ، ومن أثر ذلك أنك ستحاول إيجاد مخارج لكلامهم المُنافي « للعقل السَّوِيّ » !!

وهذا « الحياد العلمي » هو الذي جعل « طه حسين » ينظر إلى « القرآن المجيد » على أنه كتاب أدبي ، وينبغي أن نعرضه للنقد بهذا الاعتبار ، لأنك لو اعتبرته من عند الله فلا بد أن تُذعن له ، وإذا مرَّ بك ما لم تَسْتَسِغْه ، فلا مناصَ من أن تتَّهم نَفْسك ، لأنه لا يتَّهِم ربَّه إلَّا كافر !!

فلقد تطاولَ « البيطريُّ » على أبي هريرة الصحابيّ الجليل ، حافِظِ الصحابة ، وأحد المجتهدين في الفقه ، فعامَلَهُ على أساس أنه « رجُل » ، مجرَّد رجل .

فقد قال (ص٣٩٨) : « فقد كان أبو هريرة (رضي الله عنه)[1] يُكثر من رواية الحديث عن رسول الله ﷺ ويسْرُدُه سردًا ككلام الناس ،

(١) هكذا وضعها بين قوسين ، وقد عهدنا منه في كتابه أنه كثيرًا ما يعني عكسَ ما يكتب . قاتله الله .

ويُكثر من رواياته العديدة في المجلس الواحد ، فضلًا عن كونه (رحمه الله) كان غير ضابطٍ لنقل الرواية ، مما جعل السيدة عائشة رضي الله عنها تُنكر ذلك عليه ... وكذلك أوهامه وظنونه التي وضعت المفاسد العظيمة في الدين (بحُسن نيَّةٍ منه رحمه الله) مما يجعلنا نفكِّر ألف مرَّةٍ قبل أن نُسلِّم لأية روايةٍ في الحديث ، مهما كانت صحيحةً لأي راوٍ من الرواة على وجه العموم ، ولروايات أبي هريرة رضي الله عنه - مهما كانت موثَّقةً - على وجه الخصوص » .

ثم أورد كلمةً لعائشة رضي الله عنها ، علَّقتْ بها على حديثٍ حدَّث به أبو هريرة رضي الله عنه ، قالت فيها : « أساء أبو هريرة سمْعًا فأساء إجابة » . فعلَّق « البيطريُّ » قائلًا : « وقد كان هذا يكفي أن يكُفَّ أبو هريرة - رضي الله عنه - عن رواية الحديث كليَّةً بعد ذلك ، أو ألا يُؤخذ عنه الحديث بالمرة ، لعدم ضبطه رحمه الله للرواية ، لا أن يكون أكثر الرواة حديثًا على الإطلاق ، فإن هذا من أعجب العجب » . وصرَّح بمثل هذا الكلام الهابط كثيرًا في كتابه .

فإذا كان « البيطريّ » يتكلَّم هكذا عن الصحابة ، فكيف عن آحاد العلماء ؟

وأنا لن أدعك تفكِّر أو « تتخيَّل » طريقته في الكلام عن العلماء ، فقد ذكر حديثًا رواه الإمام البخاريّ رحمه الله في « صحيحه » ثم علَّق عليه قائلًا (ص٥٠٤) : « ولا بدَّ أن نتنبَّه هنا إلى أن البخاري رحمه الله ، كان فيما يبدو طيِّبًا - « البيطريُّ » يعني : مغفلًا - وأمينًا فيما ينقل ، ولكنَّه رحمه الله لم تكن له درايةٌ كبيرة بدراسة الحديث !! إذ لو كانت له - رحمه الله - دراسة للحديث ، وللمتن خصوصًا ، لما أثبتَ هذه الرواية في « صحيحه » ، ولكن يبدو أن الرجل (الفاضل) كان على الفطرة

(والتِّلقائيَّة) لدرجة أن تبلُغ به السذاجة أن يروي مثْل هذا الحديث المنافي لأبسط المبادىء و (الممكنات) العقلية في جميع العصور ، وتلك هي المأساة الكبرى في أُمَّتنا ، وهي أَخْذ أحكام الدين تَبَعًا لشهرة الرجال ، وصحة السند ، ولتذهب المبادىء العقلية إلى الجحيم ، مهما كانت هي مناط التكليف وأساس الإسلام » .. ثم قال (ص٥٠٥) : « كما أننا لا ننسى هنا - أيضًا - أن نُعيد ما سبق أن قرَّرْناه من قبل ، من أن الصحابي الفاضل أبا هريرة رضي الله عنه ، لم يكن من أهل العلم أو المعرفة ، ولا من أهل الدراية برواية الحديث أو بإثبات الأحكام ، وإن كان أمينًا فيما يُعهد إليه به ، وقد كان هذا كفيلًا بأن يمنعه - رضي الله عنه - من رواية هذه الكثرة من روايات الحديث ، لأنه رحمه الله استخفَّ بالأمر ، ومضى به على غير وجهه الصحيح ، ولم يلتزم منهاج النبي ﷺ ، بحسن نيَّةٍ ولا شك !! فقام علينا - لذلك وغيره - عبءُ الدراسة المستفيضة لهذه الآلاف المؤلَّفة من رواياته في الحديث ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ » . اهـ .

قُلْتُ : انتهى كلام « البيطريِّ » . وذِكْره للآية الكريمة ، في آخر كلامه ، ذكَّرني بقصةٍ عجيبةٍ ؛ فقد حكَوْا أن امرأةً قُتل زوجها ، فذهبت إلى قاتلٍ محترفٍ ، يستعين به الناس في قتْل من يريدون مُقابل أجرٍ يدفعونه ، فجاءت المرأة إليه ، وسألته أن يقتُل فلانًا - قاتل زوجها - فقال لها : كم تدفعين ؟ فبكت المرأةُ ، وأخبرتْه أنها فقيرة وتُنفق على أيتام ، فرقَّ قلبُ القاتل وقال : سأقتله لوجه الله ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ !! فانظر إلى هذا الوَرَع الكاذب ، واحمد الله الذي عافاك .

ربَّما ساء ظنُّك - أيها القارىء - لأنني لم أُقدِّم نموذجًا من فهْم الرجل للنصوص حتى الآن ، يُنادي عليه بالجهل الذي وصفْتُهُ به في مطلع كلامي . فأقول : حنانيْك بل هَدَادَيْك ، فكلّ سطرٍ في كتابه يحتاج إلى ردٍّ ، ولأنني

أُقدِّمُ لكتابٍ ، ومن شأن المقدِّمات أن لا تطول ، فسأذكر مثالين فقط ، ثم أُلَخِّص لك كلامه حتى أُريك كيف يُعالج « النصوص » .

أمّا المثال الأول :

فذكر « البيطريُّ » في كتابه (ص : ٥٠٣ - ٥٠٤) أن البخاريَّ روى عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « قال سليمان ابن داود عليهما السلامُ : لأطُوفنَّ الليلة على مائة امرأةٍ - أو تسعٍ وتسعين امرأة - كلهنّ يأتي بفارسٍ يُجاهد في سبيل الله . فقال له صاحبُه : إن شاء الله . فلم يقُل : إن شاء الله . فلم يحمل منهن إلَّا امرأةٌ واحدةٌ ، جاءت بشقِّ رجُلٍ . والذي نفسُ محمدٍ بيده ، لو قال : إن شاء الله ، لجاهدوا في سبيل الله عز وجلَّ فرسانًا أجمعين ... » .

فعلَّق « البيطريُّ » قائلًا : « ونحن نترك للقارئ أن يقدِّر بمقتضى العقل السَّوِيّ ، الذي لا يختلف على حُكمه إنسانٌ واحد في الكون !! مدى صحَّة هذه المقولة الواردة في هذا الحديث الصحيح « للأسف » ! وهي : « لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأة - أو تسعٍ وتسعين - كلهنّ يأتي بفارسٍ » حيث تصوِّر لنا ما يأتي :

١ - أن ليلة واحدةً يمكن أن تتَّسع لمُجامعةِ مائة امرأةٍ - أو تسعٍ وتسعين - وهذا هامّ ، فلْيُنْتَبَه إليه !!

٢ - أن نبيًّا من أنبياء الله تعالى ، يمكن أن يُعلن هذا القول على الناس ، بهذا الأسلوب غير المهذَّب ، وهم أكملُ الناس خُلُقًا ، وأوفرهم أدبًا ، حتى يُراجعه صاحبه في ذلك ، كما دلَّتْ عليه ألفاظ الحديث .

٣ - أن نبيًّا من أنبياء الله تعالى ، يعرف أن النساء يلدن الذكور والإناث ، ثم يشترط على الله تعالى أن يكون كلّ ما تضع هذه النساء ذكورًا ، بأسلوب يحكم على الله سبحانه بما يقول » .

ثم ذكر « البيطريُّ » الكلام السابق ، والذي نقلتُه في شأن الإمام البخاريّ رحمه الله .

والحقُّ يقال ، أن الرجُل تعامَلَ مع هذا النَّصّ « بغباءٍ شديد » ، فهذا « العِنِّين » يقيس قدرات نبيٍّ من أنبياء الله بقدراته ، ويلفت الأنظار إلى هذا الاعتراض الذي أورده ، برغم ضحالته وتفاهته ، فأي نكارةٍ أن يكون في مقدور نبيٍّ أن يجامع مائة امرأة في ليلةٍ واحدةٍ ، إذا كان مؤيَّدًا من قِبَل الله تعالى ، ومُعانًا على ذلك ، ولا زال العجز عن إتيان النساء معرَّةً عند بني آدم ، والقدرة على ذلك من تمام الرجولة وكمال الفحولة ، وللأنبياء عليهم السلام تمام الكمالات ، فلا يُنكر على من أمكنه الله تعالى من رقاب الجنّ والطير ، أن يكون له هذا الشيء اليسير الذي هو موجودٌ الآن عند بعض بني آدم . هذا **أوَّلًا** .

ثانيًا : أنه زعم أن كلمة « لأطوفنَّ » غير مهذَّبة ، ونقول : كيف وهي من ألطف الكنايات ، في الدلالة على هذا الفعل ، وهي مثْل قوله تعالى : ﴿**فلمَّا تغشَّاها حَملتْ حَمْلًا خفيفًا**﴾. [الأعراف : ١٨٩]. لكنَّ الرجل مصابٌ في ذوقه وفهمه ، حتى يرى أن مِثْل هده الكناية اللطيفة غيرُ مهذبة . ثم أين في الحديث أن سليمان عليه السلام جَمَعَ الناس ، وأخبرهم أنه سيأتي نساءه الآن ؟! ليس في الحديث إلَّا أنه قال ذلك ، فإمّا قاله بصوت عالٍ كأنَّهُ يُحدِّث نفسه ، فسمعه صاحبُه ، أو أنه فاتَحَ صاحبه في ذلك ، وعلى الوجهين فليس فيه ما يشين قائله ، فلو قال قائل : إنني ما تزوَّجتُ إلَّا ليرزقني الله برجالٍ يتفقَّهون في دين الله عز وجلَّ ، وينشرون السُّنَّة بين الخلْق . أفيعيبه ذلك ؟ وهل ترى أيها القارئ – صاحب العقل السَّويّ حقًّا – أن في هذا الكلام اشتراطًا على الله عز وجلَّ ، من قريبٍ أو من بعيدٍ ؟! لقد قال سليمان عليه السلام هذه المقالة على سبيل الرجاء والتَّمنّي ،

ولو سلَّمنا أنه اشترط ذلك على الله ، فإن الأنبياء عليهم السلام لا يفعلون إلا شيئًا مأذونًا لهم فيه ، وقد ثبت عن النبي ﷺ ثبوت الجبل الأشمّ أنه قال : « إن من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأَبَرَّهُ » . فالأنبياء أَوْلى بذلك .

ثالثًا : أن صاحب سليمان كان مَلَكًا ، كما ثبت ذلك في «الصحيح»، وهذا يُكذِّبُ دعوى « البيطري » أن سليمان عليه السلام قال ذلك لأحدٍ . والله أعلم .

ومجالُ القول واسعٌ جدًّا ، سأستوفيه في الرَّدِّ إن شاء الله تعالى .

أمّا المثال الثاني :

فإنه أعجبُ وأطمُّ من سابقه ، ولم أَرَ قلَّةَ توفيقٍ وسدادٍ صاحبت أحدًا ، مثلما صاحبتْ هذا « البيطريَّ » .

فقال المسكين تحت عنوان : « أحاديث تخالف مقتضيات العقل السوي » (ص٤٩٧ - وما بعدها) : « من مرويّات الحديث ما رواه البخاري ومسلم - رضي الله عنهما - عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « جاء مَلَك الموت إلى موسى بن عمران فقال له : أجب ربك . قال : فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها . قال : فرجع الملك إلى الله فقال : إنك أرسلتني إلى عبدٍ لك لا يريد الموت ، وقد فقأ عيني . فردَّ الله عليه عينَهُ وقال : ارجع فقُلْ له : يضع يده على متن ثورٍ ، فله بكلِّ ما غطَّتْ به يدُهُ ، بكل شعرةٍ سَنَةٌ . قال : أي ربِّ ، ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت . قال : فالآن . فسأل الله أن يُدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجرٍ » . قال: قال رسول الله ﷺ : « فلو كنت ثَمَّ ، لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » .

علَّق « البيطريُّ » على الحديث قائلًا : ونحن نلفت نظر القارئ- لا

أكثر - إلى النقاط التالية :

١ - أن الرسول ﷺ - بمقتضى هذه الرواية - يحدِّث أصحابه الأفاضل (رضي الله عنهم) بهذه القصة ليعلمهم ما فيها من الأحكام الشرعية !! فيا ترى ما هذه الأحكام ؟

٢ - أن موسى عليه السلام يأتيه ملك الموت ، ويبيّن له أنه جاء من عند الله تعالى ، ومع ذلك يعتدي عليه ! وهو يُذكر لنا ، لنعلم مدى استهانة نبيّ رسولٍ (من أُولي العزم) بأمرٍ إلهي يأتيه مع مَلَكٍ قد تنزّل من قِبل الله تعالى بهذا الأمر !!

٣ - أن المَلَك ضعيف البنية ، لدرجة أن لطمةً من يد موسى (عليه السلام) تفقأ عينه !

٤ - أن موعد الموت قابلٌ للتأجيل تَبَعًا لظروف كلِّ حالة ، وليس كما قال الله سبحانه : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون** ﴾ [النحل : ٦١] .

٥ - أن المَلَك الموكَّل بالأمر الإلهي يرجع إلى الله تعالى ، دون تنفيذ الأمر المكلَّف به ، تَبَعًا لقدرات الإنسان (المرسَل إليه) فالاعتداء كلَّما كان قويًّا على الملائكة ، كلّما حقَّق أعظم النتائج ، حتى في تأجيل الموت نفسه !

٦ - أن موسى (عليه السلام) ؛ استطاع أن يردَّ الإرادة الإلهية بَردِّ مَلَك الموت (وضرْبه وتأديبه) فليست القاعدة عند الملائكة هي كما قال تعالى : ﴿ **وما نتنزَّل إلا بأمر ربِّك** ﴾ [مريم : ٦٤] وإنما هي مسألة غير منضبطة . والمهمّ أن تظهر قوة موسى (عليه السلام) - في الرواية - ولا يهمّ بعد ذلك الإساءة إلى القدرة الإلهية ، والتدبير الإلهي ؟! وبالتالي يصبح قولُه تعالى : ﴿ **حتى إذا جاء أحدكم الموت توفَّته رسلنا وهم لا يفرِّطون** ﴾ . [الأنعام : ٦١] . بلا معنى ! وتصبح الملائكة مفرِّطين في الأمر الإلهي !! لأن

قدرتهم أقلّ من قدرة الإنسان !!

٧ - أن موسى (عليه السلام) لم يستوعب الموقف ، إذ فهم أن ردَّه لمَلَك الموت سيُنهي المسألة تمامًا ، بحيث لن يقدر مَلَكٌ آخر أن ينزل إليه مرَّةً ثانية !وتصوَّر أنه بذلك يهرب من الموت !!

٨ - أن موسى (عليه السلام) يكره لقاء الله تعالى إلى هذا الحدّ الذي يَضرب فيه ملكَ الموت ، فيفقأ عينه ، لمجرَّد أنه قال له : (أجِب ربك) !!

٩ - أن موسى (عليه السلام) رجُلٌ طائش ، لا يعرف كيف يضبط نفسه ، فهو عندما لا يريد الموت ، لا يلجأ إلى الدعاء والتَّضرُّع مَثَلًا (بفرْض حدوث ذلك منه) بل يَستعمل يده مباشرةً ، حتى في مواجهة الملائكة ، مما يجعلنا نتوقَّع منه (عليه السلام) أكثر من ذلك - بمقتضى هذه الرواية - يومَ القيامة عند الحساب ، بحيث يمكن أن نشهد عرضًا عظيمًا ، وصراعًا رائعًا ، ربَّما يصرع فيه موسى (عليه السلام) مَلَكَيْن أو أكثر ، فيطرحهم أرضًا بلكماته القوية ، والخلائق تشهد ذلك في موقف الحساب !

١٠ - أن ملك الموت رجع مخاطبًا الله تعالى بأسلوب التنبيه بقوله : (إنك أرسلتني إلى عبدٍ لك لا يريد الموت) !! كأنه يريد أن ينبِّه الله (تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا) إلى أن الإرسال في هذه المرَّة لم يكن على نحوٍ حكيم ! إذ إن العبد المرسل إليه كان لا يريد الموت ، فكيف حدث هذا من الله سبحانه ؟؟ هكذا ، أيها القارئ؟؟ ولك- الآن- أن تُقرِّر ما تشاء؟؟!

لكنَّنا نتساءل : تُرى مَن الذي دَسَّ علينا كلّ هذه الروايات الإجرامية ، حتى يهدم فينا العقيدة الصحيحة ، ويوقع بيننا وبين ربِّنا سبحانه ، فيحول

بيننا وبين رضاه جل شأنه ، فتشقى أمتنا - بذلك - إلى يوم الدين ؟؟!
تُرى مَنْ فعل هذا ؟؟ حسبنا الله ونعم الوكيل !!

قُلْتُ : فهذا كلامُه كلُّه ، نقلتُه مع طوله وإملاله ؛ لتعلم أيّها القارئ هل قائله ممن أنعم الله عليهم « بالعقل السَّوِيّ » أم أنه مخبولٌ ؟!

ويحضرني الآن ما ذكره أهلُ الأدب أن خالد بن صفوان - الخطيبَ البليغَ - كان في الحمَّام يومًا ، فرآه رجلٌ وابنُهُ ، فأراد الرجل أن يُري خالدًا ما عنده من الفصاحة والبيان ، فخاطب ابنَهُ قائلًا : يا بُنَيَّ ، ابدأ بيداك ورجلاك !! ثم التفت إلى خالد كالمتباهي وقال : يا أبا صفوان ، هذا كلامٌ قد ذهب أهلـه !! فقال له خالد : هذا كلام لم يخلق اللهُ له أهلًا قطُّ !!

و « البيطريُّ » تابعٌ لبعض المارقين في ترديد هذه الاعتراضات ، لكنَّه أضاف إليها من سوء أدبه وركاكة أسلوبه .

وقد أجاب أهل العلم عن هذا الحديث بجوابين :

الأول : ما ذكره الإمامُ العَلَمُ ابنُ حبان البُستي في « صحيحه » فقد قال (٦٢٢٣) : « ذكْر خبرٍ شَنَّع به على منتحلي سنن المصطفى ﷺ مَنْ حُرِم التوفيق لإدراك معناه » ، ثم روى الحديث وعقَّب قائلًا : « إنَّ الله جلَّ وعلا بعث رسولَ الله ﷺ مُعَلِّمًا لخلقِه ، فأنزله مَوْضِعَ الإبانةِ عن مراده ، فبلَّغَ ﷺ رسالَته ، وبيَّن عَنْ آياته بألفاظٍ مُجْمَلَةٍ ومفسَّرة ، عَقَلَها عنه أصحابُه أو بعضُهم ، وهذا الخَبَرُ مِنَ الأخبار الَّتي يُدْرِكُ معناه مَنْ لَمْ يُحْرَمِ التَّوفيقَ لإصابة الحقِّ .

وذاك أنَّ الله جلَّ وعلا أرسَلَ ملَكَ المَوْتِ إلى موسى رسالةَ ابتلاءٍ واختبارٍ ، وأمَرَهُ أن يقولَ له : أَجِبْ رَبَّكَ ، أمْرَ اختبارٍ وابتلاءٍ ، لا أمرًا يُرِيدُ الله جلَّ وعلا إمضـاءَه ، كما أمر خليلَه - صلى الله على نبينا وعليه - بذبح ابنِهِ أمْرَ اختبارٍ وابتلاءٍ ، دُونَ الأمر الذي أراد الله جلَّ وعلَا إمضاءَه ،

فلمَّا عزم على ذبْح ابنه ، وتَلَّهُ للجبينِ ، فداه بالذِّبْحِ العظيمِ .
وقد بعثَ الله جلَّ وعلا الملائِكَةَ إلى رُسُله في صُوَرٍ لا يعرفُونَهَا ، كدُخول الملائكة على رسوله إبراهيمَ ولم يعرِفْهم ، حتَّى أوجسَ منهم خيفَةً ، وكمجيءِ جبريلَ إلى رسول الله ﷺ وسؤاله إيَّاه عن الإيمانِ والإسلامِ ، فلم يعرفْهُ المصطفى ﷺ حتَّى ولَّى .
فكان مجيءُ مَلَكِ الموت إلى موسى على غيرِ الصُّورَةِ الَّتي كان يعرفْه موسى عليه السَّلامُ عليها ، وكان موسى غيورًا ، فرأى في داره رَجُلًا لم يعرِفْهُ ، فشال يَدَهُ فَلَطَمَهُ ، فَأَتَتْ لَطْمَتُهُ على فَقْءِ عينِه الَّتي في الصُّورة الَّتي يَتَصَوَّرُ بها ، لا الصُّورة الَّتي خَلَقَه الله عليها ، ولمَّا كان المصرَّح عَنْ نبيِّنا ﷺ في خبرِ ابن عبَّاس ، حيث قال : « أمَّني جبريلُ عِنْدَ البيتِ مرَّتين » ، فذكر الخَبَرَ . وقال في آخره : « هذا وَقْتُكَ وَوَقْتُ الأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ » : كان في هذا الخبرِ البيانُ الواضحُ ، أنَّ بعضَ شرائِعِنا قد تَتَّفِقُ ببعض شرائعِ مَنْ قبلنا مِنَ الأمَمِ .
ولمَّا كانَ مِنْ شريعَتنا أن مَنْ فَقأَ عَيْنَ الدَّاخل دارَه بغيرِ إذنه ، أوِ النَّاظرِ إلى بيته بغيرِ أمرِه مِنْ غير جُنَاحٍ على فاعِلِهِ ، ولا حَرَجٍ على مُرْتَكِبِه ؛ للأخبار الجَمَّةِ الوارِدَة فيه الَّتي أمليناها في غيرِ موضعٍ مِنْ كُتُبنا – كان جائزًا اتِّفاق هذه الشَّريعة بشريعة موسى ، بإسقاط الحَرَجِ عمَّن فقأَ عَيْنَ الدَّاخلِ داره بغير إذنه ، فكان استعمالُ موسى هذا الفعلَ مباحًا له ، ولا حرجَ عليه في فِعْلِه .
فلمَّا رَجعَ مَلَكُ الموتِ إلى ربِّه ، وأخبره بما كان مِنْ موسى فيه ، أمَرَهُ ثانيًا بأمرٍ آخرَ ، أمْرَ اختبارٍ وابتلاءٍ كما ذكرنا قبلُ ، إذ قال الله له : قل له : إن شئتَ ، فضع يَدَكَ على متن ثورٍ ، فلك بكلِّ ما غطَّتْ يدُك بكلِّ شعرةٍ سَنَة ، فلمَّا عَلِمَ موسى كَلِيمُ الله – صلَّى الله على نبيِّنا وعليه – أنَّه مَلَكُ الموت ، وأنَّه جاءَه بالرِّسالة مِنْ عندِ الله ، طابتْ نَفْسُه بالموت ،

ولم يَسْتَمْهِل ، وقال : فالآنَ .

فلو كانتِ المرَّةُ الأُولى عَرَفَه موسى أنَّه مَلَكُ الموت ، لَاسْتَعْمَلَ ما استعمَل في المَرَّة الأُخْرى عند تيقُّنه وعِلْمه به ، ضِدَّ قَوْلِ مَنْ زعم أنَّ أصحابَ الحديثِ حَمَّالةُ الحَطَب ، ورُعَاةُ اللَّيل ، يَجْمَعُون ما لا يَنْتَفِعُون به ، ويَرْوُونَ ما لا يُؤجَرون عليه ، ويقولون بما يُبطلُه الإِسلامُ ، جهلًا منه لمعاني الأخبار ، وتَرْكَ التَّفَقُّهِ في الآثار ، معتمدًا منه على رأيه المنكوسِ ، وقياسِهِ المعكوسِ » .

قُلْتُ : ونَقَلَ الحافظ في « الفتح » (٦/٤٤٢) عن ابن خزيمة نحوه .

وهذا البيان من هذا الحافظ الجليل - ابن حبان رحمه الله - يأتي على اعتراضِ « البيطريِّ » من القواعد ، وقد تعرِضُ شبهةٌ لآحاد الأذكياء فاتتْ على المعترض ، وهي في قوله : « أجب ربك » ، فقد يقول قائل : إن هذه الكلمة كانت كفيلةً بأن يعرف موسى عليه السلام أنه مرسَلٌ من عند الله .

فقد أجاب ابن حبان (١٤/ ١١٧) قائلًا : « هذه اللَّفظة (أجِبْ ربَّكَ) قَد توهِمُ مَنْ لم يتبحَّر في العلمِ ، أنَّ التَّأويلَ الَّذي قلناه للخبر مَدْخُولٌ ، وذلك في قولِ مَلَكِ الموت لموسى : (أَجِبْ رَبَّك) بيانُ أنَّه عرفه ، وليس كذلك ، لأنَّ موسى عليه السَّلامُ لمَّا شال يدَهُ ولَطَمَهُ ، قال له : (أجب ربَّك) ، تَوَهَّمَ موسى أنَّه يتعوَّذ بهذه اللَّفظة ، دُون أن يكونَ رسولَ الله إليه ، فكان قولُه : (أجب ربَّك) الكشفَ عن قصْدِ البداية في نفس الابتلاء والاختبار الذي أُريد منه » . انتهى .

ثم قوله لموسى عليه السلام : « أجب ربّك » ، معناه : سلِّم لي نَفْسَك لأنتزعَ روحك ، فهذا هو القتْلُ ، ودفْع الصائل واجبٌ حتى لو أدَّى إلى قتْله كما قرَّره العلماء ، وقد قال النبيُّ ﷺ : « من قُتل دون أهْلِهِ وماله فهو شهيد » .

الجوابُ الثاني : أنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « إنه لم يُقبض نبيٌّ قطُّ حتى يرى مقعده من الجنة ثم يُخيَّر » . قالت عائشة : فلما نزل به ، ورأسُهُ على فخذي غُشي عليه ، ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ، ثم قال : « اللهم الرفيق الأعلى ». فقلت : إذن لا يختارُنا .... الحديث .

أخرجه البخاريُّ (٨/ ١٣٦، ١٥٠، ٢٥٥، ١١/ ١٤٩، ٣٥٧)، ومسلم (٢٤٤٤/٨٦)، وأحمد (٦/٢٩٦)، وابنُ ماجة (١٦٢٠) ، وحماد بن إسحاق في « تركة النبي ﷺ » (ص٥٢) وابن عبد البر في « التمهيد » (٢٤/٢٦٨ - ٢٦٩). من طريقين عن عروة عن عائشة .

وفي رواية لسعد بن إبراهيم عن عروة : « ما من نبيٍّ يمرض إلَّا خُيِّر بين الدنيا والآخرة ... » .

قُلْتُ : فهذا الحديث صريحٌ في أن كلَّ نبيٍّ كان يخيِّره الله عز وجل بين الحياة والموت ، وقد خُيِّر نبيُّنا ﷺ ، فروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : خطب رسول الله ﷺ الناس وقال : « إن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبدُ ما عند الله ! » قال : فبكى أبو بكرٍ ، فعجبْنا لبكائه أن يُخبر رسولُ الله ﷺ عن عبدٍ خُيِّر ، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر ، وكان أبو بكر أعلمنا .

فلما جاء مَلَكُ الموت موسى عليه السلام في صورةٍ لا يعرفها ، يقول له : أجب ربّك . ثم هو لم يخيَّر ، وكانت آيةً لهم ، فَعَلَ ما فعَل .

فأيُّ نكارةٍ - يا عباد الله - في هذا الحديث الرائع ، بعد هذا البيان المختصر لمعناهُ ؟! ولكن الأمر كما قيل :

ومن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ   يجد مُرًّا به الماءَ الزُّلالَا

ونعودُ لنُذَكِّر « البيطريَّ » أن حاله لن يكون أحسن حالًا من أسلافه ،

كمحمود أبي ريَّة والسيد صالح أبي بكر ، ومِنْ قبلهم غُلاة الرَّوافض ، فقد ذهبوا إلى مزبلة التاريخ ، وبقيتِ السُّنَّةُ النبوية شامخةً ، يُقرِّبها الأساطينُ دانية القطافِ إلى جماهير المسلمين .

وقد أطلق بعض الأذكياء على مثل «البيطريّ» وأشياعه لقب «المجددينات» فقال له سامعُه : ما هذا الجمعُ الغريب ؟ ما هو بجمع مذكرٍ سالم ، ولا هو جمعُ مؤنث سالم ، فقال له : هذا جمع « مخنَّثٍ » سالم ، فأقسم له سامعُه أن اللُّغة العربية في أشد الحاجة إلى هذا الجمع ، خصوصًا في هذه الأيام .

فهي والله فوضى ولا عُمَر لها ، وقد أعطاني الكتابَ بعضُ أفاضل إخواني وطلب مني أن أرُدّ ، والتمس مني ذلك ، وطَلَبَ إبطال ما هنالك ، فلمَّا انفصلتُ بتُّ ليلتي متفكِّرًا ، فقرع خاطري ما قاله أبو سفيان يوم أُحُد : أفيكم محمدٌ ؟ أفيكم أبو بكرٍ ؟ أفيكم عمرُ ؟ فقال النبي ﷺ : « لا تُجيبوه » . تهاوُنًا به ، وتحقيرًا لشأنه . فلمَّا قال : اعْلُ هُبَل . فقال لهم رسول الله ﷺ : « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : وما نقول ؟·قال : « قولوا : الله أعْلَى وأجَلُّ ». فقال أبو سفيان : لنا العُزّى ولا عُزى لكم . فقال لهم : « قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم » . فعلمتُ أن النبي ﷺ أمرهم أن يجيبوه إعلاءً لجناب التوحيد ، وإظهارًا لعزة من عَبَدَهُ المسلمون ، فحينئذٍ جرَّدتُ أسِنَّة العزائم والرَّدّ ، واستعنتُ على ردّ أباطيله بالواحد الفرد ، وليت مصنِّف هذا الهَذَيان ، تنكَّب عن ميدان الفرسان ، ليَسْلَم من أسنّة ألسنتهم عِرْضُه ، وينطوي من بساطِ المشاجرة طولُه وعَرْضُه ، ولم يسمع ما يضيق به صدرُه ، ولم يَنْهَتِك بين أفاضل الأُمَّة سترُه ، وإن قد أبى إلا المُهارشة والمُناقشة ، والمُواحشة والمُفاحشة ، فليصبر على جزِّ الغلاصم وقطع الحلاقم ، ونَكْز الأراقم ، ونهش الضّراغم ، والبلاء المتراكم المتلاطم ،

ومتون الصوارم . فوالذي نفسي بيده ، ما بارز أهلَ الحقِّ قطُّ قرنٌ ، إلَّا كسروا قرنَهُ ، فَقَرعَ مِنْ نَدَمٍ سِنَّه ، ولا ناجزهم خصمٌ إلَّا بشَّروه بسوء منقلبه ، وسدُّوا عليه طريق مذهبه لمهربه ، ولا فاصَحَهُم أحدٌ - ولو كان مثل خطباء إياد - إلَّا فصحوه وفضحوه ، ولا كافحهم مقاتِلٌ - ولو كان من بقيَّة قوم عاد - إلَّا كبّوه على وجهه وبطحوه ، هذا فِعْلُهم مع الكُماة الذين وردوا المنايا تبرُّعًا ، وشربوا كئوسها تطوُّعًا ، وسعوْا إلى الموت الزُّؤام سعيًا ، وحسبوا طَعْم الحمام أرْيا ، والكفاة الذين استحقروا الأقران فلم يَهُلْهُم أمرٌ مَخُوف ، وجالوا في ميادين المناضلة واخترقوا الصفوف ، وتجالدوا لدى المجادلة بقواطع السيوف .

وقد عزمت على كتابة ردٍّ عليه ، تَزْهَق منه رُوحُه وتُستلب من بين جنبيْه ، وسمَّيْتُه « الجهد الوفير ، في الرَّدّ على (البيطريّ) نافِخ الكِير » ، فأنا أكتبه على فتراتٍ متباعدةٍ ، وأسجِّل فيه كلَّ شاردةٍ وواردة ، وأرجو إن تمَّ الكتاب أن يكون مستأصِلًا لشأفته ، قاضيًا على غثاثته وسخافته ، ماحقًا لتخليطه وخرافته .

ولله درُّ من قال :

بليتُ به جَهُولًا جاهليًّا ... ثقيلَ الرُّوح مذمومًا بغيضًا
ولم يكُ أكثرَ الطُّلابِ علمًا ... ولكنْ كان أسرعَهُم نُهُوضًا

والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلَّا على الظالمين ، والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون .

والحمد لله أوّلًا وآخرًا ، ظاهرًا وباطنًا .

وكتبه

أبو إسحاق الحويني الأثري

عفا الله عنه

العاشر من رمضان سنة ١٤١٦هـ

صَلاحُ الأُمَّة

في

عُلوّ الهِمَّة

تأليف

الدكتور سيّد بن حسين العفاني

قدّم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدّم

الشيخ عائض القرني

الشيخ محمد عبد المقصود

الشيخ أبو إسحاق الحويني

المجلّد الأوّل

مؤسسة الرسالة

صلاح الأمة

في

علو الهمة

١

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م



مؤسسة الرسالة - بيروت - وطى المصيطبة - مبنى عبد الله سليت
تلفاكس: ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ٦٠٣٢٤٣ - ص. ب: ١١٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

Al-Resalah
PUBLISHING HOUSE
BEIRUT / LEBANON - TELEFAX : 815112 -319039 - 603243 - P. O. BOX : 117460
E-mail: Resalah@Cyberia.net.lb : البريد الإلكتروني

المقدّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾ .

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولًا سديدًا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا ﴾ .

أما بعـد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم أما بعد :

في أيام عطرة ليست من الدنيا ، بل هي أقرب نسبةً إلى الآخرة ، وفي أطيب الأماكن ؛ في روضة رسول الله ﷺ ، التي قال فيها : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ، وإن منبري على ترعة من ترع

الجنة »[١]، تهبُّ نسمات الرحمة ، ويرقُّ القلب .

هنا منبر رسول الله ﷺ الذي قال فيه : « قوائم منبري رواتب في الجنة»[٢]. هنا صعد النبي ﷺ منبره الحبيب، وأحدق به المهاجرون والأنصار، وربَّاهم وأدَّبهم وشوَّقهم إلى الآخرة .

أرنو إلى المنبر الميمون مُذّكرا ... وكل من في رحاب البيت قد هدروا
وأجتني الروضة الفيحاء عن كثب ... يشوقني تُربُها الغالي وأصطبرُ

هنا أُسطّر مقدمة لـ « صلاح الأمة في علو الهمة » وأذكر همة سيد المرسلين الذي قالت فيه أم المؤمنين رضي الله عنها : وأيكم يُطيق ما كان يُطيق رسول الله ﷺ .

ونسرد جوانب من عُلُوِّ همَّة الجيل القرآني الفريد، الذين تربَّوا على عين رسول الله ﷺ في هذا المسجد، وفي هذه الروضة، فكانوا سادة الدنيا وملوك الآخرة.

كنا جبالا في الجبال وربما ... سرنا على موج البحار بحارا

وأذكر همة المرسلين ، وعُلُوَّ الهمة في الكتاب والسنة ، وتأتي بقية فصول الكتاب ؛ فصل عن دناءة الهمة ، وعُلوِّ الهمة في طلب العلم ، والدعوة

---

(١) صحيح : روى الشطر الأول منه أحمد والبخاريُّ ومسلمٌ والنسائيُ عن عبد الله ابن زيد المازني ، والترمذي عن أبي هريرة ، وروى الشطر الأخير منه أحمد عن أبي هريرة .

(٢) صحيح : رواه أحمد والنسائيُ وابن حبان عن أم سلمة ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك عن أبي واقد ، ورواه ابن سعد وأبو نعيم في الحلية عن أم سلمة ، وقال الهيثمي : فيه عند الطبراني يحيى بن عبد الحميد الحمَّاني ، وهو ضعيف ، وصحَّحه الحاكم والسيوطي، والألباني في صحيح الجامع رقم (٤٢٨٨)، والسلسلة رقم (٢٠٥٠) وعدَّ السيوطي هذا من خصائصه .
ورواتب : يعني مستقرة .

إلى الله ، وعُلُوِّ الهمة في الصلاة والصوم ، والزكاة ، والحج ، والجهاد ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونذكر عُلُوّ همة الصبيان، والنساء ، والشيوخ ، والملوك ، والوزراء .

فاللهم ضعْ لهذا الكتاب القبولَ في الأرض، وافتحْ لي به بابَ مغفرتك، وسهِّرْني عما نامت عنه أعين الغافلين ، وارزقني اتِّباعَ نبيك ﷺ ، والشوقَ إليك ، ولذةَ النظر إلى وجهك الكريم .

وصلَّى الله على النبي محمد ، وعلى آله وصحبه .

وكتب

سيد بن حسين العفاني

الخميس ١٥ ذو القعدة ١٤١٤ هـ

روضة المسجد النبوي بالمدينة المنورة

أنا البحرُ في أحشائِهِ الدُّرُّ كامنٌ

فهل ساءلوا الغوّاصَ عن صدفاتي

بســـم اللَّهَ الرحمن الرحيـــم

قال أهل اللغـة : الهِمَّة : فِعلة من الهَمّ ، وهو مبدأ الإرادة ، ولكن خصُّوها بنهاية الإرادة ، والهمُّ مبدؤها ، والهِمّة نهايتها .

وفي المصباح : الهمّة ؛ بالكسر : العزم ، وقد تُطلق على العزم القوي ، فيقال: له هِمّة عالية[1] .

وفي لسان العرب :

* شمِّر فإنك ماضي الهَمِّ شِمِّير *

الهَمّة والهِمَّة : ما همَّ به من أمر ليفعله . وتقول: إنه لصغير الهِمَّة ، وإنه لبعيد الهِمَّة والهَمَّة بالفتح .

والهمام : الملك العظيم الهِمَّة .

قال ابن سيدَه: الهمام اسم من أسماء الملك؛ لعِظَم همَّته ، وقيل : لأنه إذا همَّ بأمر أمضاه ، لا يُردُّ عنه ؛ بل ينفذ كما أراد ، وقيل : الهمام : السيد الشجاع السخي ، ولا يكون ذلك في النساء . والهمام : الأسد على التشبيه .

والهِمّ بالكسر: الشيخ البالي .

قال الشاعر :

* وما أنا بالهِمِّ الكبير ولا الطفل *

وفي الحديث : أنه أُتي برجل هِمٍّ .

وفي حديث عمر رضي اللَّه عنه : كان يأمر جيوشه ألا يقتلوا هِمًّا ولا امرأة .

وقالوا : هَمَّه السّقم هَمًّا ؛ إذا أذابه وأذهب لحمه[2] .

هَمّك ما أهمَّك .

---

(١) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٣٤٩/٥ .

(٢) لسان العرب لابن منظور ٤٧٠٣/٦ .

﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾

« كمال الإنسان بهِمَّة تُرقِّيه ، وعلمٍ يُبصِّره ويهديه »

ابن قيم الجوزية

☐ ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ ☐

قال تعالى : ﴿**والسابقون السابقون أولئك المقربون**﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

من صفا صُفِّي له ، ومن كَدَّر كُدِّر عليه .

السابقون في الدنيا إلى الخيرات ، سبقوا في الآخرة إلى الجنات ، فإن السبْق هناك على قدر السبْق هنا .

قُربت قلوبهم من بساط المعرفة ، وإلى الحق في دار الدنيا ، فقال الله عنهم : ﴿ **أولئك المقربون** ﴾ ، النعيم الأكبر والأسنى نعيم القُرْب ، وجنات النعيم لا تساوي ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصيب .

اليوم جنان العرفان ، وغدًا جنان الرضوان .

يقول قائلهم : إنه تمرُّ بالقلب أوقات يرقص فيها القلب طربًا ، وأقول : إن كان أهل الجنة في مثل هذا العيش؛ إنهم لفي عيش طيِّب .

لا ينفكون عن أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ، فهم أبدًا في الجنة ، ولا إخراج لهم منها ، أبدًا لهم القربى والزلفى ، لا حجاب لهم عنها .

السابقون السابقون ، إنهم هم هم وكفى ، فهو مقام لا يزيده الوصف شيئًا .

السابقون بصدْق القدم وعُلُوِّ الهمم ... أولئك المقربون ... ولله ما أحلى لفظ القرآن ! فكم الفرق بين (المقربون) و (المتقربون) ... سيقت إليهم الجنة ، وزُفّت إليهم لكرامتهم على ربهم .

مَنْ وقعت عليه غبرة في طريقهم ، لم تقع عليه قترة فراقهم .

مَنْ خطا خطوة إليهم؛ وجد حظوة لديهم .

من رفع إليهم يدا؛ أجزلوا له رغدا .

من التجأ إلى سُدَّة كرمه؛ آواه في ظل نعمه .

من شكا فيهم غليلا ؛ مهَّدوا له في دار فضلهم مقيلا .

يقول شيخ الإسلام ابن القيم :

« للإنسان قوتان : قوة علمية نظرية ، وقوة عملية إرادية ، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيْه العلمية والإرادية .

واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، ومعرفة الطريق التي توصِّل إليه ، ومعرفة آفاتها ، ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها، فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها .

واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد ، والقيام بها إخلاصًا ، وصدقًا ، ونصحًا ، وإحسانًا ، ومتابعةً ، وشهودًا لمنَّته عليه ، وتقصيره هو في أداء حقه ، فهو مستحيِي من مواجهته بتلك الخدمة ؛ لعلمه أنها دون ما يستحقُّه عليه ، ودون دون ذلك ، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته ، فهو مُضطرٌّ إلى أن يهديه الصراط المستقيم ، الذي هدى إليه أولياءه وخاصَّته ، وأن يُجنِّبه الخروج عن ذلك الصراط؛ إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية، فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور»[(١)].

فعهْد الله الكريم ، وصراطُه المستقيم ، ونبؤه العظيم « لا يُوصل إليه أبدًا إلا من باب العلم والإرادة ، فالإرادة باب الوصول إليه ، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتْحُه عليه ، وكمال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين : « همَّة تُرقِّيه ، وعلم يُبصِّره ويهديه » ، فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من إحداهما ؛ إما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها ، أو يكون عالمًا بها ولا تنهض همَّتُه إليها ، فلا يزال في حضيض طبْعه محبوسًا ، وقلبُه

(١) الفوائد لابن القيم صـ ٢٨-٢٩ مكتبة الجامعة .

عن كماله الذي خُلق له مصدودًا منكوسًا ، قد أسام نفسه مع الأنعام راعيًا مع الهمل ، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة ، واستلان فراش العجز والكسل ، لا كمن رُفع له علمٌ فشمَّرَ إليه ، وبورك له في تفرُّدِه في طريق طلَبِه ؛ فلزمه واستقام عليه ، قد أبت غلبات شوقه إلاَّ الهجرة إلى الله ورسوله ، ومقتت نفسه الرفقاء ، إلا ابن سبيل يُرافقه في سبيله .

ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها ، وشرفُ العلم تابعًا لشرف معلومه ؛ كانت نهاية سعادة العبد – الذي لا سعادة له بدونها ، ولا حياة له إلا بها – أن تكون إرادته مُتعلِّقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت ، وعزمات هِمَّته مسافرة إلى حضرة الحي الذي لا يموت ، ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى والحظ الأوفى ؛ إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه ، الذي بعثه لذلك داعيًا ، وأقامه على هذا الطريق هاديًا ، وجعله واسطة بينه وبين الأنام ، وداعيًا لهم بإذنه إلى دار السلام ، وأبى أن يفتح لأحد منهم إلا على يديه ، أو يقبل من أحد منهم سعيًا إلا أن يكون مبتدئًا منه ومنتهيًا إليه ، فالطرق كلها إلا طريقه ﷺ مسدودة ، والقلوب بأسرها إلا قلوب أتباعه المنقادة إليه عن الله محبوسة مصدودة ، فحُقَّ على مَنْ كان في سعادة نفسه ساعيًا ، وكان قلبُه حيًّا عن الله واعيًا – أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله ، وأن يُصيِّرهما أخبيته التي إليها مفزعه في حياته وطاء له »[1].

قلبي يُحدِّثني ألَّا يليق به ... رضًا بجهل ذليل اللُّب يرضيهِ
قد ثار ثائر نفسٍ عزَّ مطلبُها ... وطارَ طائر لُبٍّ في مراقيهِ
كالنسر لا حاجبَ للشمس يحرقُهُ ... ولا الصواعَقُ والأرواحُ تُثنيهِ
ليس الطموحُ إلى «العلياء» من سَفَهٍ ... لا السُّموُّ إلى حقٍّ بمكروهِ
إن لم أنلْ منه ما أروي الغليلَ به ... قد يحمدُ المرءُ ماءً ليس يرويهِ

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم ص٤٦ –٤٧ دار الكتب العلمية .

والقانعون بما قد دان عيْشُهمُ موت فإن هدوءَ القلب يُرديهِ
ياقلبُ يهنيك نبضٌ كُلُّهُ حَرَقٌ إلى الغرائب مما عزَّ ساميهِ(١)

أخي، ائت الديار البكر، وارتَد كل يوم منزل فضْلٍ لم يُعرف لأحد في عصرك، وائت في التنافس بجديد، كأنك طليعة جيش، حتى يصدق فيك قول القائل:

عجبًا بأنك سالم من وحشة في غاية مازلتَ فيها مُفردا

يقول ابن القيم :

« سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – يقول : في بعض الآثار الآلهية يقول الله تعالى : « إني لا أنظر إلى كلام الحكيم ، وإنما أنظر إلى هِمَّته » . قال : والعامة تقول : قيمة كل امرىء ما يُحسن . والخاصة تقول : قيمة كل امرىء ما يطلب ؛ يريد أن قيمة الرجل هِمَّتُه ومطلبُه »(٢) .

فهنالك هِمَّة تدور حول الأنتان والحُشِّ: ذكر الله حسب صاحبها وموته، وذكر الناس فاكهته وقوته ، يُنادى إلى الله عز وجل والدار الآخرة من مكان قريب فلا يُجيب النداء ، الدنيا تصمُّه عما سوى الباطل وتُعميه(٣) .

فاستأنس بغيبته ما أمكنك ، فإنه لا يُوحشك إلا حضورُه عندك ، فإذا ابتُليت به فأعطِهِ ظاهرك ، وتَرَحَّل عنه بقلبك ، وفارقْه بسرِّك ، ولا تشغلْ نفسك إلا بما هو أولى بك .

واعلم أن الحسرة كل الحسرة : الاشتغالُ بمن لا يجرُّ عليك الاشتغالُ به إلا فوتَ نصيبك وحظِّك من الله عز وجل ، وانقطاعك عنه ، وضياعَ وقتك عليك ، وضعْفَ عزيمتك وتفرُّقَ همِّك ، وإياك وقاطعَ الطريق ولو كان من كان، فانجُ بقلبك، وضنَّ بيومك وليلتك، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول

---

(١) عبد الرحمن شكري .
(٢) مدارج السالكين ٣/٣ .
(٣) إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية .

المنزلة فتؤخذ[١]، ولا تُدرك أحبابًا أنى لك بلحاقهم .

وهِمَّةٌ أخرى : ارتبطت بمن فوق العرش جل وعلا إرادةً وطلبًا ، وشوقًا ومحبةً ، وإخباتًا وإنابةً ، لا مُستراحَ لها إلا تحت شجرة طوبى ، ولا قرارَ لها إلا في يوم المزيد ، كلما طال عليها الطريق تلمَّحت المقصد ، وكلما أمرّت الحياة حلى تذكَّرت ﴿ **هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾ .

كان الأعرابي يأتي إلى رسول الله يسأله حفنةً من شعير قائلًا: يا محمد، أعطني من مال الله ، فإنه ليس مالك ولا مال أبيك .. ما يطلب إلَّا ما يذهب إلَّا إلى الحش .. هذه هِمَّةٌ .. وهِمَّة ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه هِمَّة فوق الشمس .

عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل»، فقلتُ: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أو غير ذلك؟» قلتُ: هو ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»[٢].

حدِّثْ عن القوم فالألفاظ ساجدة ... خلف المحاريب والأوزان تبتهلُ

قال شيخ الإسلام الهروي الأنصاري :

«الهِمَّة: ما يملك الانبعاث للمقصود صِرفًا، لا يتمالك صاحبها ولا يلتفت عنها».

قال ابن قيم الجوزية :

« قوله : « يملك الانبعاث للمقصود » ؛ أي يستولي عليه كاستيلاء المالك على المملوك .

والمراد : أن همة العبد إذا تعلَّقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محْضًا ، فتلك هي الهمة العالية ، التي « لا يتمالك صاحبها » ؛ أي لا يقدر على المُهلة ، ولا يتمالك صبره ؛ لغلبة سلطانه عليه ، وشدة إلزامها إياه بطلب

---

(١) الوابل الصيب لابن قيم الجوزية .

(٢) رواه مسلم في صحيحه . كتاب الصلاة باب فضل السجود والحث عليه .

المقصود، «ولا يلتفت عنها» إلى ما سوى أحكامها. وصاحب هذه الهمة سريعٌ وصولُهُ وظَفَرُهُ بمطلوبه، ما لم تعقْه العوائق، وتقطعْه العلائق، والله أعلم»[1].

قال الهروي : وهي على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : هِمَّة تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني ، وتحمله على الرغبة في الباقي ، وتُصفِّيه من كَدَر التواني .

يقول ابن القيم :

الفاني: الدنيا وما عليها، أي يزهد القلب فيها وفي أهلها، وسمَّى الرغبة فيها «وحشة» ؛ لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها، وقلوب الزاهدين فيها.

أما الراغبون فيها : فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم ، إذ فاتها ما خُلقت له ، فهي في وحشة لفواته .

وأما الزاهدون فيها: فإنهم يرونها موحشة لهم؛ لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم، ولا شيء أوحش عند القلب مما يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه.

وأيضًا : فالزاهدون فيها : إنما ينظرون إليها بالبصائر ، والراغبون ينظرون إليها بالأبصار ، فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب ، كما قيل :

وإذا أفاق القلب واندمَلَ الهوى ... رأت القلوبُ ولم ترَ الأبصارُ

وكذلك هذه الهمة تحمله على الرغبة في الباقي لذاته ، وهو الحق سبحانه ، والباقي بإبقائه وهو الدار الآخرة .

« وتصفِّيه من كدر التواني » ؛ أي تُخلِّصه وتُمَحِّصه من أوساخ الفتور والتواني ، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط ، والله أعلم .

قال :

والدرجة الثانية : هِمَّةٌ تُورث أَنَفَةً من المبالاة بالعلل ، والنزول على العمل ، والثقة بالأمل .

---

(١) مدارج السالكين ٣/٣ - ٤ .

قال ابن القيم : « العلل » هاهنا هي علل الأعمال من رؤيتها ، أو رؤية ثمرتها وإرادتها ونحو ذلك ، فإنها عندهم علل .

فصاحب هذه الهمة يأنف على هِمَّته وقلبه من أن يُبالي بالعلل ، فإن همته فوق ذلك ، فمبالاته بها ، وفكرته فيها ، نزول من الهمة ، وعدم هذه المبالاة ، إما لأن العلل لم تحصل له ؛ لأن عُلُوَّ هِمَّته حال بينه وبينها ، فلا يُبالي بما لم يحصل له ، وإما لأن هِمَّته وسعَتْ مطلوبه ، وعُلُوَّه يأتي على تلك العلل ويستأصلها ، فإنه إذا علَّق هِمَّته بما هو أعلى منها ؛ تضمَّنتها الهِمَّة العالية ، فاندرج حكمُها في حكم الهمة العالية . وهذا موضع غريب عزيز جدًا ، ومـا أدري أقصده الشيخ أو لا ؟

وأما أَنَفَته من النزول على العمل : فكلام يحتاج إلى تقييد وتبيين ، وهو أن العالي الهمة مطلبُه فوق مطلب العُمَّال والعُبَّاد ، وأعلى منه ، فهو يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي إلى مجرد العمل والعبادة ، دون السفر بالقلب إلى الله ، ليحصل له ويفوز به ، فإنه طالبٌ لربه تعالى طلبًا تامًّا بكل معنى واعتبار في عمله، وعبادته ومناجاته، ونومه ويقظته، وحركته وسكونه، وعُزْلته وخُلطته، وسائر أحواله، فقد انصبغ قلبه بالتوجُّه إلى الله تعالى أيّما صبغة.

وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة ، فهم لا يقنعون بمجرد رسوم الأعمال ، ولا بالاقتصار على الطلب حال العلم فقط .

قال :

الدرجة الثالثة: هِمَّةٌ تتصاعد عن الأحوال والمعاملات، وتزري بالأعواض والدرجات ، وتنحو عن النعوت نحو الذات .

أي هذه الهمة أعلى من أن يتعلَّق صاحبها بالأحوال التي هي آثار الأعمال والواردات ، أو يتعلَّق بالمعاملات ، وليس المراد تعطيلها ، بل القيام بها مع عدم الالتفات إليها والتعلُّق بها .

ووجه صعود هذه الهمة عن هذا : ما ذكره من قوله : « وتُزري

بالأعواض والدرجات، وتنحو عن النعوت نحو الذات»؛ أي صاحبها لا يقف عند عِوَضٍ ولا درجة ، فإن ذلك نزول من هِمَّته ، ومطلبُه أعلى من ذلك ، فإن صاحب هذه الهمة قد قصر هِمَّته على المطلب الأعلى ، الذي لا شيء أعلى منه ، والأعواض والدرجات دونه ، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عِوَضٍ ودرجة عالية .

وأما نحوها « نحو الذات » فيريد به : أن صاحبها لا يقتصر على شهود الأفعال والأسماء والصفات ؛ بل الذات الجامعة لمتفرقات الأسماء والصفات والأفعال ، والله أعلم[1] .

أخي ، إنما خُلقنا لنحيا مع الخالق ، في دار غرسَ غراسها الرحمنُ بيده ، ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ ، فما اشترى إلا سلعةً هذَّبها الإيمان ، فخرجت من طبعها إلى بلد ؛ سُكَّانُه التائبون العابدون .

سلِّم المبيع قبل أن يتلف في يدك ، فلا يقبله المشتري ، قد علم المشتري بعيب السلعة قبل أن يشتريها فسلمها ، ولك الأمان من الرد .

قدْرُ السلعة يُعرف بقدر مشتريها ، والثمن المبذول فيها ، والمنادي عليها ، فإذا كان المشتري عظيمًا ،والثمن خطيرًا، والمنادي جليلًا؛ كانت السلعة نفيسةً.

يابائعًا نفسه بيع الهوان لو اسـ ـترجعتَ ذا البيع قبل الفوت لم تخبِ
وبائعًا طيبَ عيشٍ ما له خطرٌ بطيفِ عيشٍ من الآلام منتهبِ
غبنت والله غبنًا فاحشًا ولدى يوم التغابن تلقى غاية الحَرَبِ[2]
وواردًا صفْو عيشٍ ما له كدرٌ أمامك الوردُ حقًّا ليس بالكذبِ
وحاطبَ الليل في الظلماء منتصبًا لكل داهية تدني من العطبِ
ترجو الشفاءَ بأحداق بها مرضٌ فهل سمعتَ ببُرءٍ جاء من عطبِ

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٣ / ٤ - ٦ .
(٢) الحرب : الهلاك .

ومُفنيًا نفْسَهُ في إثر أقبحهم ... وصفًا للطخِ جمالٍ فيه مُستلبِ
وواهبًا نفْسَهُ في مثل ذا سفهًا ... لو كنتَ تعرف قدر النفس لم تهبِ
شاب الصِّبا والتصابي بعد لم يشب ... وضاع وقتُك بين اللهو واللعبِ
وشمسُ عمرك قد حان الغروبُ لها ... والفيء في الأفق الشرقي لم يغبِ
وفاز بالوصل مَنْ قد جدَّ وانقشعت ... عن أُفْقِهِ ظلماتُ الليل والسُّحبِ
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ... ورسْلُ ربك قد وافتك في الطلب
ما في الديار وقد سارت ركائبُ مَنْ ... تهواه للصبِّ من شكرٍ ومن أَرَبِ
ما في الخيام أخو وجْدٍ يُريحك إنْ ... بثثتَه بعضَ شأنِ الحبِ فاغتربِ
وسرْ في غمرات الليل مهتديًا ... بنفحة الطيب لا بالعود والحطبِ
وعادِ كل أخي جُبنٍ ومَعجزة ... وحارب النفسَ لا تلقيك في الحربِ
وخذْ لنفسك نورًا تستضيء به ... يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتَبِ[1]

يا مختار القدر ... يامن هو من أرباب الخبرة ، اعرف قدْر قدرِك ، إنما خلقت الأكوان كلها لك ...

ياوعاء البدائع ... يامن غُذِّي بلبان البر ، وقُلِّب بأيدي الأيادي، يازرعًا تهمي عليه سُحُبُ الألطاف ، كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة ، وصورة وأنت المعنى، وصَدَفٌ وأنت الدُّرُّ، مخ وأنت الزبد، مكتوب اختيار مولاك لك، واضح الخط، غير أن استخراجك ضعيف، ويحك.. لو عرفت قدْر نفسك ما أهنتها.. ياجوهرة بمضيعة، كم من ملك في السموات يُسبِّح ما لهم رتبة ﴿**تتجافى**﴾، لا يعرف طعم طعام ، وما لهم مقام « ولخلوف » ، سبحان من اختارك على الكل ، وجادل عنك الملائكة قبل وجودك ﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ .

صوّب إلى الرحيل ﴿**ياليت قومي يعلمون**﴾،تلمَّح القوم الوجود، ففهموا المقصود، فأجمعوا الرحيل قبل الرحيل، وشمَّروا للسير في سواء السبيل.

(١) الفوائد ١٠١ - ١٠٢ .

أخي ، إن هَمَمْتَ فبادرْ ، وإن عزمتَ فثابرْ ، واعلم أنه لا يُدرك المفاخر ، من رضي بالصف الآخر .

بليت الهمم العالية بعشق الفضائل، شجرُ المكاره يُثمر المكارم، متى لاحت الفريسة قذفت الغابة السبع، إذا استقام للجواد الشوط، لم يحوج راكبه إلى السوط.

إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة، ثم ردفه قمر العزيمة؛ أشرقت الأرض بنور ربها.

ياطالبًا للدَّعَة أخطأتَ الطريق ، علة الراحة التعب ، إن لم تكن أسدًا في العزم ولا غزالًا في السبق ؛ فلا تتثعلب .

شَمِّر عن سوق الدأب ، في سوق الأدب ، أين عزائم الرجال ؟ أين صرائم الأبطال ؟ تدَّعي وتتوانى ، هذا محال .

أشتاقكم ويحولُ العزمُ دونكمُ فأدّعي بُعْدَكم عني وأعتذرُ
وأشتكي خطرًا بيني وبينكمُ وآيةُ الشوقِ أن يستصغرَ الخطرُ

أخي ، من احتشم ركوب الأهوال بقي عن إدراك الآمال.الخواصُّ في كل وقت يقلُّ عددُهم، ولكن يجلُّ قدْرُهم، حتى إن ماتوا فهم أحياء، فكم من أناس موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأناس أحياء تموت القلوب برؤيتهم.

ولو أنّ فوقي تربةً ودعوتني لأجبتُ صوتك والعظام رفاتُ

يقول ابن القيم :

وتفنى عظامُ الصبِّ بعد مماته وأشواقُهُ وقْفٌ عليه مُحرَّمُ

وعلى الطرف الآخر :

يابؤس من يموت وتبقى ذنوبه من بعده .

من عرف قدْرَ مطلوبه سهُل عليه بذل مجهوده .

إذا شام الفتى برقَ المعاني فأهونُ فائتٍ طِيبُ الرقادِ

لله دَرُّ القائل :

إن لم تكن للحق أنت فمن يكون والناس في محراب لذات الدنايا عاكفون

قال العلّامة ابن رجب الحنبلي في كتابه لطائف المعارف :

« لما سمع القوم قول اللَّه عز وجل: ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾ ، وقوله : ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض**﴾ ؛ فهموا أن المراد من ذلك أن يجتهد كل واحدٍ منهم أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة ، والمُسارعَ إلى بلوغ هذه الدرجة العالية ، فكان أحدهم إذا رأى مَنْ يعمل عمًلا يعجز عنه؛ خشي أن يكون صاحب ذلك العمل هو السابق له ، فيحزن لفوات سبْقه ، فكان تنافُسُهم في درجات الآخرة واستباقهم إليها ، ثم جاء من بعدهم قومٌ ، فعكسوا الأمر ، فصار تنافُسُهم في الدنيا الدنيئة وحظوظها الفانية » .

قال الحسن : إذا رأيتَ الرجل ينافسك في الدنيا فنافسْه في الآخرة .

وقال رحمه اللَّه: من نافسك في دينك فنافسْه ، ومَنْ نافسك في دنياك فألقها في نحره .

وقال وهيب بن الورد: إن استطعتَ ألا يسبقك إلى الله أحدٌ فافعل .

وقال بعض السلف : لو أن رجًلا سمع برجل أطوع لله منه ، فانصدع قلبه فمات ؛ لم يكن ذلك بعجب .

وقال أحدهم: لو أن رجًلا سمع برجل أطوع منه لله؛ كان ينبغي أن يُحزنه ذلك .

قال عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه: أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نتصدَّق ، ووافق ذلك مني مالًا ، فقلتُ: اليوم أسبقُ أبا بكر إن سبقته . قال : فجئتُ بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أبقيتَ ؟ » ، فقلتُ : مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال: « يا أبا بكر ، ما أبقيت لأهلك؟ » قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله . قلتُ : لا أسبقه إلى شيء أبدًا[1].

---

(١) صحيح : رواه أبو داود والترمذي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

لله دَرُّكَ من صِدِّيق !!

وهذا الذي يسبق العلماء برتوة ؛ معاذ بن جبل ، يقول : أنام أول الليل ، وأقوم آخره ، فأحتسب نومتي ، وأحتسب قومتي[١] .

وهذا عبد الله بن مسعود ، يقول عنه شقيق بن عبد الله : مرض عبد الله ابن مسعود فعُدناه ، فجعل يبكي ، فعُوتب ، فقال : إني لا أبكي لأجل المرض ، لأني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « المرض كفَّارة » ، وإنما أبكي أنه أصابني على حال فترة ، ولم يُصبني في حال اجتهاد ، إنه يُكتب للعبد من الأجر إذا مرض ما كان يُكتب له قبل أن يمرض فمنعه منه المرض[٢].

وهذا عمر رضي اللَّه عنه يقول: إني لأُكره نفسي على الجماع؛ رجاءَ أن يُخرج اللَّه نسمة تذكره .

وهذا الفضيل بن عياض يقول: أدركت أقوامًا يستحيون من اللَّه في سواد الليل من طول الهجعة ، إنما هو على الجنب ، فإذا تحرَّك قال: ليس هذا لك ، قومي خذي حظّك من الآخرة .

وكان ابن سيرين يدخل السوق نصف النهار ، فيُكبِّر اللَّهَ ويُسبِّحه ويذكره ، ويقول : إنها ساعةُ غفلة للناس .

وهذا الأسود بن الأسود لا يأكل الخبز إلا بنية ، كان يأكل فإذا ثقُل عن الصلاة خفَّف بها ، فإذا خفَّف ضعُف فأكل ليقوى ، فكان أكلُه له وتركُه لها . وخف أي نشط وتلذذ بها .

وهذا محمد بن المنكدر يقول: بتّ أغمز رِجْلَ أمي ، وبات أخي عمر يُصلِّي ، وما أودُّ أن ليلتي بليلته .

وقال رجل لمالك بن دينار: رأيتُ فيما يرى النائم مناديًا ينادي :

---

(١) تاريخ بغداد ٣٧٥/٢ .

(٢) جامع الأصول لابن الأثير ٨٥٦/٩- الأولى دار الفكر .

الرحيل الرحيل ، فما رأيت أحدًا يرتحل إلا محمد بن واسع ، فصاح مالك وغشي عليه .. ﴿ **والسابقون السابقون أولئك المقربون** ﴾ .

قيل لبعض المجتهدين في الطاعات: لِمَ تُعذّب هذا الجسد ؟ قال: كرامَتهُ أريد .

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

صاحب الهمة العلية ، والنفس الشريفة التوّاقة ، لا يرضى بالأشياء الدنيئة الفانية وإنما هِمَّته المسابقة إلى الدرجات الباقية .

قال عمر بن عبد العزيز : إن لي نفسًا توّاقة ، ما نالت شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه ، وإنها لما نالت هذه المنزلة – يعني الخلافة – وليس في الدنيا منزلة أعلى منها ، تاقت إلى ما هو أعلى منها – يعني الآخرة .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم .

وجاءت مولاة لعمر بن عبد العزيز ، فقصَّت أنها رأت في المنام كأن الصراط قد نُصب على جهنم ، وهي تزفر على أهلها ، وذكرت أنها رأت رجالًا مرُّوا على الصراط فأخذتهم النار ، قالت : ورأيتُك يا أمير المؤمنين وقد جيء بك ، فوقع مغشيًّا عليه ، وبقي زمانًا يضطرب ، وهي تصيح في أذنه : رأيتك والله قد نجوت[(١)] .

أخي، لما علم الصالحون قِصَرَ العمر، وحثَّهم حادي ﴿**وسارعوا**﴾؛ طووْا مراحل الليل مع النهار انتهابًا للأوقات . أصغِ سمعك لنداء ربك ﴿ **ففروا إلى الله**﴾، وبادرْ طيَّ صحيفتك، واحسرْ عن رأسك قناع الغافلين، وانتبهْ من رقدة الموتى، وشمِّرْ للسباق غدًا، فإن الدنيا ميدان المتسابقين، واعلم أنما خُلقنا لنحيا مع الخالق، ونافسْ في الفردوس، فإن الرحمن جلَّ جلاله قد غرس غراسه بيده.

ياإخوتاه ، سيروا إلى ربكم سيرًا جميلًا .

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي صـ ٢٦٠ ، ٢٦١ طبع دار الفتح .

أيا صاحِ هذا الركبُ قد سار مسرعًا ونحن قعود ما الذي أنت صانعُ
أترضى بأن تبقى المُخلَّفَ بعدهم صريعَ الأماني والغرام ينــازعُ
على نفسه فليبكِ مَنْ كان باكيًا أيذهب وقتٌ وهو باللهو ضائعُ

كن بقلبك بل بكلّك مع القوم الذين قال عنهم شيخنا ابن القيم « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » :

« رفع لهم علم الجنة فشمَّروا إليه ، ووضح لهم صراطها المستقيم فاستقاموا عليه ، ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر في أبد لا يزول ولا ينفد ، بصبابة عيش إنما هو كأضغاث أحلام ، أو كطيف زار في المنام ، مشوب بالنغص ، ممزوج بالغصص ، إنْ أضحك قليًلا أبكى كثيرًا ، وإنْ سرَّ يومًا أحزن شهورًا ، آلامه تزيد على لذاته ، وأحزانه أضعاف أضعاف مسرّاته ، أوله مخاوف ، وآخره متالف .

فيا عجبًا من سفيه في صورة حليم ، ومعتوه في مسلاخ عاقل ، آثر الحظ الفاني الخسيس على الحظ الباقي النفيس ، وباع جنة عرضُها الأرض والسموات ، بسجن ضيِّق بين أرباب العاهات والبليَّات ، ومساكن طيبةً في جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار ، بأعطان ضيِّقة آخرها الخراب والبوار ، وأبكارًا عُرُبًا أترابًا كأنهن الياقوت والمرجان ، بقذِرَاتٍ دَنِساتٍ سيئاتِ الأخلاق مُسافحات أو متخذات أخدان ، وحورًا مقصوراتٍ في الخيام ، بخبيثات مسيّبات بين الأنام ، وأنهارًا من خمر لذة للشاربين ، بشراب بخس مُذهبٍ للعقل ، مُفسدٍ للدنيا والدين ، ولذةَ النظرِ إلى وجه العزيز الرحيم ، بالتمتُّع برؤية الوجه القبيح الدميم ، وسماعَ الخطاب من الرحمن ، بسماع المعازف والغناء والألحان ، والجلوسَ على منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد في يوم المزيد ، بالجلوس في الطرقات مع كل شيطان مريد .

فلو توهَّم المتخلف عن هذه الرفقة ما أعدَّ الله لهم من الإنعام ، وادَّخر

لهم من الفضل والإكرام ، وما أخفى لهم من قُرَّة أعين لم يقع على مثلها بصرٌ ، ولا سمعتْهُ أُذُنٌ ، ولا خَطَرَ على قلب بشر - لعلم أي بضاعة أضاع ، وأنه لا خير له في حياته ، وهو معدود من سقط المتاع .

فياعجبًا لها ، كيف نام طالبها وكيف لم يسمح بمهرها خاطبُها ، وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها ، وكيف قرَّ للمشتاق القرارُ دون معانقة أبكارها ، وكيف قرّت دونها أعينُ المشتاقين ، وكيف صبرت عنها أنفسُ الموقنين ، وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين ، وبأي شيء تعوّضت عنها نفوس المعرضين ؟!! »[١] .

لقد حرّك الداعي إلى الله وإلى دار السلام: النفوسَ الأبية ، والهممَ العاليةَ ، وأسمع منادي الإيمان مَنْ كانت له أُذُنٌ واعية ، وأسمع الله مَنْ كان حيًّا فهزّه السماع إلى منازل الأبرار، وحدا به في طريق سيره، فما حطّت به رحاله إلا بدار القرار.

فحيَّهلا إن كنتَ ذا هِمَّة فقد ... حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا
وقُلْ لمنادي حبِّهم ورضاهمُ ... إذا ما دعا لَبَّيْك ألفًا كواملا
ولا تنظرِ الأطلالَ من دونهم فإنْ ... نظرتَ إلى الأطلال عُدْنَ حوائلا
فلا تنتظرْ بالسير رفقةَ قاعدٍ ... ودعْهُ فإنَّ الشوقَ يكفيك حاملا
وخذْ منهم زادًا إليهم وسرْ على ... طريق الهدى والحب تصبح واصلا
وأحي بذكراهم سراك إذا دنت ... ركابُك فالذكرى تُعيدك عاملا
وإما تخافنَّ الكلال فقل لها ... أمامك وردُ الوصل فابغِ المناهلا
وخذْ قبسًا من نورهم ثم سرْ به ... فنورُهم يهديك ليس المشاعلا[٢]

لا تضعْ عصا السير عن عاتقك حتى تبدوَ لك أعلامُ دارِك وخيامها ،

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن قيم الجوزية صـ ٦ - ٧ .
(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية .

وواصلِ السيرَ ليلَ نهارَ ، فعند الصباحِ يحمدُ القومُ السرى .

كيف لا يتسارع في يومه وغده ، سير مَنْ قطع به أمسُهُ مرحلةً نحو غايته ، ومن أيقن أنه يتبع رسولًا من أولي العزم ﷺ ، فكيف لا يستمد منه عزمه[١] .

النية الصالحة ، والهِمَّة العليَّة : نفسٌ تضيء ، وهمّة تتوقَّد .

وبَعْدُ ، ياداعية الإسلام :

إن مَنْ جَدّ وجد ، وليس من سهر كمن رقد .

هذا دبيب الليالي يُسارق نفسك ساعاتها ، وإنَّ سِلَعَ المعالي غاليات الثمن ، وإنما ثمنُها اتِّباع مدارس السلف ، فانظر لنفسك واغتنم وقتك ، فإن الثواء قليل ، والرحيل قريب ، والطريق مخوف ، والاغترار غالب ، والخطر عظيم ، والناقد بصير[٢] .

لو قال لك البطّالون من الكسالى: «لو تفرَّغت لنا»؛ فاقرعْ أسماعهم بصوت عمر بن عبد العزيز : وأين الفراغ ؟ ذهب الفراغ ، فلا فراغ إلَّا عند الله ، لا مُستراح للعابد إلا تحت شجرة طوبى .

كن ممن قال فيهم البنا رحمه الله :

قد سهرت عيونهم والناس نيام، وشُغلت نفوسهم والخليُّون هُجَّع[٣] .

من هشيم فيك أذكِ اللهبا من تراب فيك أطلع شهبا
من لهيب القلب عِلمُ الكامِل مقصْد الإسلام تركُ الآفل
صدَّ إبراهيم عما يأفل فحوته كالجنان الشعل[٤]

---

(١) الرقائق صـ ٤١ .
(٢) الرقائق صـ ١٣٧ .
(٣) إلى أي شيء ندعو الناس . للبنا ، المجموعة صـ ٢٩١ .
(٤) الأسرار والرموز .

قيل لبعض العباد : ارفقِ بنفسك . قال : الرفقَ أطلبُ ، أو : من الرفق أتيت[(١)] .

لما عرف الصالحون قدْرَ الحياة؛ أماتوا فيها الهوى فعاشوا، انتهبوا بأُكُفِّ الجدِّ، ما قد نثرته أيدي البطَّالين، ثم تخايلوا القيامة، فاحتقروا الأعمال، فماتت قلوبهم بالمخافة، فاشتاقت إليهم الجوامد، فالجذعُ يحنُّ إلى الرسول ﷺ، و « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : علي وعمَّار وسلمان »[(٢)] ، أنفوا من مزاحمة الخلق في أسواق الهوى ، وقوي شوقهم فلم يحتملوا حصْرَ الديار ، فخرجوا إلى فضاء العز في صحراء التقوى ، وضربوا مخيم الجدِّ في ساحة المجد .

ليكن نشيدك : لا لا يا قيود الأرض .
أأقنع بروضة على مزبلة والملك يدعوني إلى فردوسه الأعلى ؟!
أأرضى بخرابات البلى عن الفردوس الأعلى ، يالها صفقة غبن ؟!
أأقنع بخسائس الحشائش والرياض مُعشبةٌ بين يديَّ ؟!
لا يحصل خطير إلا بخطر ، فالدُّرُّ في عقر اليم .
مَنْ لم تبكِ الدنيا عليه ، لم تضحك الآخرة إليه .

لو قُرب الدُّرُّ على جلابه ... ما لججّ الغائصُ في طِلَابهِ
ولو أقام لزما أصدافه ... لم تكن التيجانُ في حسابهِ
ما لؤلؤُ البحرِ ولا مرجانُه ... إلا وراءَ الهولِ من عُبابهِ
من يعشقِ العليا يلق عندها ... ما لقي المُحبُّ من أحبابهِ[(٣)]

---

(١) اللطف في الوعظ لابن الجوزي صـ ١٥ .

(٢) حَسَنٌ: رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أنس، وحسَّنه الترمذي والألباني في صحيح الجامع رقم (١٥٩٤)، لكنه قال في المشكاة حديث (٦٢٢٥): وإسناده ضعيف، وإنْ حسَّنه الترمذي، فإنَّ فيه عنعنة البصري، وفيه أبو ربيعة الإيادي.

(٣) اللطف في الوعظ لابن الجوزي صـ ٥١١ .

وقتُ العارفِ جَدٌّ كُلُّه ؛ لعلمه بشرف الزمان ، لا وجه للراحة ، لما عاينت أبصار البصائر يوسف العواقب ؛ قطعت أيدي الهوى بسكين الشوق ، فإذا حان حين الحين؛ فرح سائر الليل بقطع المنزل، وصاحت ألسنة الجد بالعاذلين ﴿ فذلكن الذي لُمْتُنَّني فيه ﴾ .

قلوب أبتْ أن تعرف الصبر عنه « ما بأحشائهم عشقت فأسلو أثمان المعالي غالية ، فكيف يستامها مفلس ؟ » .

وكيف يُنال المجدُ والجسمُ وادعٌ   وكيف يُحازُ الحمدُ والوفرُ وافرُ

كلما تعاظمت الهِمَمُ ، تصاغرت الجُثَثُ .

ولستَ ترى الأجسامَ وهي ضئيلةٌ   نواحلَ إلا والنفوسُ كبـارُ[1]

العوامُّ يحملون المشاقَّ بنفوسهم وجسومهم، والخواصُّ بقلوبهم وهمومهم، وقالوا : « والقلب يحمل ما لا يحملُ البدن » ، وقالوا :

وإنْ تروني أعاديها فلا عجبٌ   على النفوس جنايات من الهممِ

عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود، أنه كان رقيق الساقين ، فجعلت الريح تُلقيه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله ﷺ : « مِمَّ تضحكون ؟ » . قالوا : يانبي الله ، مِن رِقَّة ساقَيْه . قال : « والذي نفسي بيده ، لهُما أثقلُ في الميزان من أُحدٍ » . قال ابن كثير: تفرَّد به أحمد ، وإسناده جيِّد قوي[2] .

مفاوز الدنيا تُقطعُ بالأجسام ، ومفاوز الآخرة تُقطع بالهِمَم والقلوب ، والتذلُّل لعلَّام الغيوب ، وأبواب الملوك لا تقرع بالأظافير ، بل بوجيب القلوب .

عالي الهمة لسان حاله :

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهم   جعلتُ اشتغالي فيك يا منتهى شُغلي

لسان حاله يقول :

---

(١) اللطف في الوعظ صـ ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢/٢٩ .

قلبُهُ تحت سماءٍ لا يقرّْ   هو فوق الزهرِ ما إنْ يستقرّْ
طائر ينقرُ نجمَ الحُبُكْ   طائرًا فيما وراء الفلك[١]

«الكيِّسُ يقطعُ من المسافة بصحة العزيمة، وعُلُوِّ الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية مع العمل القليل ؛ أضعافَ أضعافَ ما يقطعه الفارغ من ذلك ، مع التعب الكثير والسفر الشاقّ ، فإن العزيمة والمحبة تُذهِبُ المشقةَ ، وتُطيِّب السيرَ ، والتقدم والسبق إلى الله ، إنما هو بالهِمَمِ وصِدْقِ الرغبة والعزيمة ، فيتقدم صاحب الهمة – مع سكونه – صاحب العمل الكثير بمراحل[٢] .

مَنْ لي بمثل سيرك المُدلَّل   تمشي رويدًا وتجي في الأوّل

أخي ، استجلب نور القلب بدوام الجد ، إنه استعلاء ، ثمنُهُ التعبُ ، ليكن شعارك الصبر ، وراحتك التعب .

إن الداعية المسلم لايملك نفسه حتى يسوغ له أن يمنح نفسه إجازة ، وإنما هو « وقفٌ لله تعالى » .

اعلم يا أخي « أن الراحة للرجال غفلة » كما يقول الفاروق رضي الله عنه ، وأتعبُ الناسِ من جلَّت مطالبه .

قال شعبة : لا تقعدوا فراغًا ، فإن الموت يطلبكم .

سأل سائل ابن الجوزي : أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي ؟ فقال له : عند نفسك من الغفلة ما يكفيها .

يقول ابن القيم: لابد من سِنَةِ الغفلة ورقاد الغفلة، ولكن كن خفيف النوم.

وانتبه من رقدة الغفـ   ـلة فالعمر قليـلْ
واطّرح سوف وحتى   فهما داء دخيـلْ

---

(١) الأسرار والرموز لإقبال .

(٢) الفوائد صـ ١٤٠ .

فاخلع الراحة ياأخي ، وليكن شعارك قولَ مُعلِّمِ الخير أحمد بن حنبل لابنه : يا بُنيَّ ، لقد أعطيتُ المجهود من نفسي .

رحمك الله يا إمام ... نفسٌ لهوها التعب .

استمع إليه حين يُسأل : متى يجد العبد طعم الراحة ؟ فيقول : عند أول قدم تضعها في الجنة .

الطالب الصادق كلما ناله همٌّ أو حزن جعله في أفراح الآخرة و «من لمح فجر الأجر هان عليه ظلام التكليف » ، كما يقول ابن الجوزي ، ولعمر الله ما هو بظلام ، ولكنها لغة اضطر إليها ؛ ليعقل مرادَهُ الراقدون[1] .

سأل رجل بلالًا مولى أبي بكر رضي الله عنه ، فقال له : مَنْ سَبَق ؟ قال : سبق المقرَّبون ، قال : إنما أسألك عن الخيل ؟ قال : وأنا أجيبك عن الخير[2] .

أخي ، هل أنت عالي الهمة .. أم تشتاق أن تكون من عُلاة الهمة .. إذن فتعالَ ، واعرفْ صفة قلوبهم ، وحاكِهم .

فقلبُ عالي الهمة : قلبٌ لا يعرف القيود والقضبان .. لا تأسره الأرض كلها وما عليها .

وقلبُ عالي الهمة : لا يُصاد بالطُّعم ، فهو مُتطلِّعٌ يَقِظٌ ، لا يعرف الغفلة ، ولا يحتال عليه كاذبٌ ، ولا يصيده شيطانٌ .

وقلبُ عالي الهمة : دائمُ الثأر من الشيطان .

يقول ابن القيم :

فإن كان قلبُه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة الجدِّ ؛ جدَّ في أخْذ الثأر وغاظ عدُوَّه كلَّ الغيظ وأضناه ، كما جاء عن بعض السلف : إن

---

(١) الرقائق ٤٩ - ٦٢ .

(٢) البيان والتبيين جـ٢ / ٢٨٢ للجاحظ - دار الفكر .

المؤمن لينفي شيطانه كما ينفي أحدكم بعيره في سفره[١] .

وقلبُ عالي الهمة : لا يعرف التثاؤب ، ولا الراحة ، ولا السكونَ ، ولا الترف ، « إن عبادَ الله ليسوا بالمُنعَّمين » .

وكذا كان قلب الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، فقد كان يصوم حتى يعود كالخلال[٢] ، فقيل له : لو أجممت[٣] نفسك ؟ فقال : هيهات ، إنما يسبق من الخيل المضمرة[٤] .

لا ينهض القلبُ إلا حين يدفعه — عزمُ الرجال إذا ما استيقظت فيهِ
والحَبُّ يخترقُ الغبراءَ مُندفعًا — إلى السماء إذا هبَّت تُناديهِ
والقيدُ يألفه الأمواتُ ما لبثوا — أما الحياة فيبليها وتبليهِ

نعم ، أبا القاسم الشابي :

إذا ما طمحت إلى غاية — ركبتُ المنى ونسيتُ الحذرْ
ولم أتجنَّبْ وعورَ الشِّعاب — ولا كُبَّةَ اللهب المستعرْ
ومن لا يُحبُّ صعودَ الجبالِ — يعشْ أبدَ الدهرِ بين الحُفَرْ
وقالت لي الأرضُ لما سألتُ — يا أم هل تكرهين البشرْ ؟
أباركُ في الناس أهلَ الطموح — ومَنْ يستلذُّ ركوبَ الخطرْ
وألعنُ من لا يُماشي الزمانَ — ويقنعُ بالعيشِ عيش الحجَرْ
هو الكونُ حيٌّ، يُحبُّ الحياةَ — ويحتقرُ الميْتَ مهما كبُرْ
فلا الأفقُ يحضنُ ميْتَ الطيورِ — ولا النحلُ يلثمُ ميْتَ الزهرْ

---

(١) « نفا بعيره هزله ، ونفا ثوبه خلعه ، ونفا سيفه سلَّه » مختار الصحاح ٦٦٥ .
(٢) العود الذي يُخلِّل به الأسنان .
(٣) أي تركتها تستريح . من كتاب صفة الصفوة لابن الجوزي ١/٥٦٠ .
(٤) من كتاب الوقت عمار أو دمار لجاسم محمد بدر المطوع- بتصرف جـ٢/٢٦-٣١.

هذا هو الشعر ، وإلا فلا .

كن كالصقور على الذُّرا تصغي لوسوسة القمـرْ
لا كالغراب يُطارد الـ ـجيفَ الحقيرة في الحُفر

نعم .

إذا أنتَ غمَّت عليك السماءُ وضَلَّتْ حواسُّك عن صُبْحها
فعشْ دودةً في ظلام القبور تغوصُ وتسبحُ في قيحها

يا مُخنَّثَ العزم ، أقلُّ ما في الرقعة البيذق ، فلما نهض تفرزنَ[1] .

أخي ، إنما تفاوتَ القومُ بالهِمَم لا بالصُّوَر .

أخي ، الدنيا مضمار سباق ، وقد انعقد الغبار ، وخفي السابق ، والناس في المضمار بين فارس وراجل ، وأصحاب حُمُرٍ معقرة .

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أتحتك فـــرسٌ أم حمارُ[2]

رأى بعض الحكماء برذونًا[3] يُسقى عليه، فقال: لو هملج[4] هذا لرُكب.

طِرْ بجناح الجدِّ مِنْ وكْر الكسل ، تابعًا آثارَ الأحباب تصل .

تَلَفتُّ حتى لم يبنْ من ديارهم جنابٌ ولا من نارهنَّ وقودُ
وإنَّ التفاتَ القلبِ من بعد طرْفهِ طوالَ الليـالي نحوهـم ليَزِيدُ
ولو قال لي الغادون ما أنت مُشْتَهٍ غداة جزعنا الرمل قلتُ أعودُ

---

(١) الفوائد لابن القيم صـ ٦٠ . البيدق أو البيذق « فارسي مُعرَّب » من العساكر : تفرزن البيدق ، صار فرزانًا من الفرزان ، وهو الملك في لعبة الشطرنج ، والمعنى أن الإنسان إذا جدَّ واجتهد ؛ فاز وساد .

(٢) الفوائد صـ ٦٦ .

(٣) البرذون : دابة دون الخيل وأقدر من الحمير « البغل » .

(٤) هملج : مشى مشية سهلة في سرعة .

أأصبر والوعساء بيني وبينهم وأعلام خبتْ إنني لجليـدُ

يا هذا .. الجد جناح النجاة ، والكسل كمزن ، مَنْ كدَّ كدَّ العبيد ؛ تنعَّم تنعُّم الأحرار ، ومَنِ امتطى راحلة الشوق ، لم يشُقَّ عليه بُعْدُ السفر .

على قدْر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدرِ الكرام المكارمُ

يا هذا .. ركائب الرحيل قد أُنيخت بالجناب ولم تتحرَّج ، وناقد البايع قائم على الباب ، ونقدك بهرج ، كيف يلحق السابقين كسلانُ أعرجُ !! استوطأت مهاد الكسل ، وإبر النحل دون العسل .

إخواني ، إلى متى سُكر عن المقصود ؟ ألا صَحْوُ ساعة !

إنْ دنت هِمَّتُك فخفْ من عقوبته ، وإنْ عَلَتْ قليلًا فارغب في معاملته ، وإن تناهتْ فتعلَّقْ بمحبته .

إن قصُرت هِمَّتُك فآثرتْ قطْعَ الشوك صحبك حمارٌ ، وإنْ رضيت سياسة الدواب رافقك بغلٌ ، وإن سددت بعض الثغور أُعطيتَ فرسًا ، فإن كنتَ تُحسن السباق ؛ كان عربيًّا ، فإنْ عزمتَ على الحج ركبتَ جملًا ، وإن شمخت هِمَّتُك إلى المَلِك ، فالفيل مركب الملوك .

رأيتُ عليَّات الأمور منوطة بمستودعات في بطون الأساودِ

ليس كل الخيل للسباق ، ولا كل الطيور تحمل الكتب .

أخي ، من طلب الأنْفَسَ هجر الألذَّ ، مَن اهتمَّ بالجوهر نسي العرض .

في حُبِّكم يهون ما قد ألقى ما يحصل بالنعيم من لا يشقى

ما وصل القوم إلى المنزل إلا بعد طول السرى ، ما نالوا حلاوة الراحة إلا بعد مرارة التعب ، فأين أنت من هذا ؟!

يا من إذا أصبح طلب المعاش بالشهوات ، وإذا أمسى انقلب إلى فراش الغفلات ، أين أنت من أقوام نصبوا الآخرة نُصْبَ أعينهم فنصبوا ، فوفر النصب نصيبهم ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار** ﴾ .

قال بعض السلف : لقيت رجلًا في برية ، فقلت : من أين ؟ فقال : من عند قوم ﴿ **لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيْعٌ عن ذكر الله** ﴾ ، فقلت : وإلى أين ؟ فقال : إلى قوم ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ .

بنفسي من غداة نأيتُ عنهم ... تركتُ القلب عندهمُ رهينا
أمالَكَ أيها القلبُ اعتبارٌ ... بما فعل الهوى بالعاشقينا

ملئوا مراكب القلوب متاعًا لا ينفق إلا على الملك ، فلما هبَّت رياح الدُّجى دفعت المراكب .

إذا الصَّبا سحبت أذيالها سَحَرًا ... على العقيق وقرّت في ربى إضَمِ
وحرَّشت بين بانِ الجزعِ ظالمةً ... وشيحةً وجرت في الضالِّ والسَّلم
تنفَّس الوجدُ وارتاح المشوقُ وعا ... ش بالروح بعد الأخذِ بالكظم

ياسوق الأكل ، أين أرباب الصيام ؟! يا فُرُشَ النوم ، أين حُـرَّاسُ الظلام ؟! درست والله المعالم ، ووقعت الخيام ، قفْ بنا على الأطلال نخصُّها بالسلام .

أين سكانُك لا أين هم ... أحجازًا سلكوها أم شـآمَا
قد وقفنا بعدهم في ربْعهم ... فهبناه استلامًا والتزامًا
أترى أي طريق سلكوا ؟ أترى أي شِعبٍ أخذوا ؟
حمامة الواديين ما الخبرُ ؟ ... أعرّسوا بالفرات أم عبروا

إخوتاه .. انتبهوا من رقدات الأغمار ، وانتهبوا لحظات الأعمار ، وقاطعوا الكسل فقد قطع الأعذار ، واسمعوا زواجر الزمن ، فما داجي الدجى وقد بهر النهار ، وخذوا بالحزم فقد شفى تلف من رضي بشفا جُرُفٍ هارٍ .

لله دَرُّ العارفين بزمانهم ، إذْ باعوا ما شانهم بإصلاح شأنهم ، ما أقلّ ما تعبوا ، وما أيسر ما نصبوا ، وما زالوا حتى نالوا ما طلبوا ، شمَّروا عن سوق الجدِّ في سوق العزائم ، ورأوا مطلوبهم دون غيره ضربة لازم ، وجادوا

مُخلصين فربحوا إذ خسر حاتم ، وأصبحوا في منزل النجاة وأنت نايم ، متى تسلك طريقهم يا ذا المآثم ؟!متى تندب الذنوب نَدْب المآتم ؟! يا رجالًا ما بانت رجوليتهم إلا بالعمائم ، يا إخوان الأمل ، قد بقي القليل ، وتفنى المواسم ، أين أنت من القوم ؟! ما قاعد كقائم .

صحب الله راكبين إلى العز طريقًا من المخافة وعـرا
شربوا الموتَ في الكريهة حُلْوا خوفَ أن يشربوا من الضيم مرّا

شمَّر المتقون عن سوق الجد في سوق المعاملة ، كلما رأوا مراكب الحياة تخطف في بحر العمر ؛ شغلهم هولُ ما هم فيه عن التنزُّه في عجائب البحر ، فما كان إلا قليل حتى قدموا من السفر ، فاعتنقتهم الراحة في طريق التلقِّي ، فدخلوا بلد الوصل ، وقد حازوا ربح الدهرِ .

زمُّوا المطايا فدمعُ العين منطلقٌ والقلبُ عانٍ وراء الخوف مأسورُ
فغلَّسوا من زرود وجه يومهمُ وحطّهم لظلال البانِ تهجيرُ
وضمَّنوا الليلَ سلعا إذ رأوه وقد غنَّتْ على فنقٍ سلع العصافير

أملُهم أقصرُ من فتر ، منازلهم أقفرُ من قبر ، نومُهم أعزُّ من الوفاء ، السهر عندهم أحلى من رقدة الفجر ، أخبارهم أرقُّ من نسيم السَّحَر ، آماقهم بالدموع دامية ، والهموم على الجوانح جوانح ، لأنفسهم أنفاسٌ من مثلها يهيج البهيجُ ، روض رياضتهم مطلول الخمايل ، يُحَدِّث ريًّا ريِّه عنهم ، فالرايحة رائجة بالخير ، خذْ حديث القوم جملة واقنع بالعنوان ؛ كواكبُ هِمَمِهم في بروج عزائمهم سيَّارة ، ليس فيها زُحَل . ناموا في الدجى على مهاد القلق ، فلمّا جنَّ الليل جنَّ الحذر ، فاستيقظت عينٌ ما تهنَّت بطعم الرقاد .

كفى سائقًا بالشوق بين الأضالعْ لهيبُ اشتياقٍ ثم فيضُ مدامعْ

كلهم قد بات بليل النابغة ؛ التائب يقول : أنا المُقرُّ على نفسي بالخيانة ! أنا الشاهد عليها بالجناية !

اعفُ عني وأقلْني عثرتي   يا عتادي لمُلمَّاتِ الزمنْ
لا تُعاقبني فقد عاقبني   ندمٌ أقلق روحي في البدنْ

والمتعبِّدُ يبكي على الفتور بكاء الثكلى بين القبور ، ويندب زمان الوصال ، ويتأسَّف على تغير الحال .

قد كان لي مشربٌ يصفو برؤيتكم   فكدَّرته يدُ الأيام حين صفا

والخائف ينادي : ليت شعري ، ما الذي أسقطني من عينك ، أَقلتَ : هذا فراقُ بيني وبينك ؟!

آهٍ لأمراض نفوسٍ قد يئس طبيبُها، ولأصوات مواعظَ قد أخرس مُجيبُها.

الحزمُ مطيَّة النُّجْح ، والطمعُ مركبُ التلف ، والتواني أبو الفقر ، والبطالةُ أُمُّ الخسران ، والتفريطُ أخو الندم ، والكسلُ ابنُ عمِّ الحسرة .

أخي ، ما يحصل بردُ العيش إلا بحرِّ التعب ، ما العزُّ إلا تحت ثوب الكدِّ ، على قدر الاجتهاد تعلو الرُّتب .

هذا جمعٌ جمعتُه لكل مسلم ؛ صادقِ الإيمان ، نقيِّ العقيدة ، ذي همَّة ، ينظر إلى واقع الأمة وسقوطها في المستنقع الآسن .

وقائلة لِمَ غيرّتك الهمومُ   وأمرُك مُمتثلٌ في الأممْ
فقلتُ ذريني عَلَى غَصَّتي   فإن الهمومَ بقدر الهمَمْ

هذا الوحل ... وهذا الواقع المرير الذي يُبكي قلوب الرجال ، وآهٍ من بكاء الرجال ... فما ظنُّك ببكاء النساء ... وبكاء المقدسات .

أيا فلسطين .. من يُهديك أفئدةً   ومن يُعيدُ لك البيتَ الذي خربا
شرِّدتِ فوق رصيفِ الدمع باحثةً   عن الحنان ولكن ما وجدتِ أبا
تلفَّتـي تجدينـا في مباذلنـا   من يعبدُ الجنسَ أو من يعبدُ الذهبا
يا شامُ إن جراحي لا ضفافَ لها   فمسِّحي عن جبيني الحزنَ والتَّعبا
أتيتُ من رحم الأحزانِ يا وطني   أقبِّلُ الأرضَ والأمجادَ والشُّهُبَا

أنـــا قبيلـــةُ آلامٍ بكاملهـــا ... ومن دموعِي سقيتُ البحرَ والسُّحُبَا
ياشامُ أين هما عينا معاوية ... وأين من زاحموا بالمنكبِ الشُّهُبَا
وقبرَ خالد في حمصٍ نُلامسُهُ ... فيرجفُ القبرُ من زوَّاره غضبا
يارُبَّ حيٍّ ترابُ القبر مسكنُهُ ... ورُبَّ ميْتٍ على أقدامِهِ انتصبا
يا ابن الوليد ألا سيفٌ نؤجِّرُهُ ... فكلُّ أسيافِنا قد أصبحت خشبا
أدمت سياطُ حزيران ظهورَهمُ ... فأدمنوها وباسوا كفَّ مَنْ ضربا
وطالعوا كتب التاريخ واقتنعوا ... متى البنادقُ كانت تسكنُ الكُتُبا
يا مَنْ يُعاتب مذبوحًا على دمه ... ونزف شريانه ما أسهل العتبا
من جرّب الكيّ لا ينسى مواجعَه ... ومن رأى السُّمَّ لا يسقى كمن شربا
حبل الفجيعة ملتفٌ على عنقي ... من ذا يُعاتب مشنوقًا إذا اضطربا

والأحزان والمصائب تشحذ الهمم ، وتصنع الرجال .

يا أمتي عارٌ تـردَّد أننـا ... أبناءُ مَنْ سادوا الأنامَ وكانوا
والقدسُ غارقةٌ يُمزِّقها الأسى ... ويُعيد رجْعَ أنِينها الجولان
حتّامَ ينخرُ في عزائمنا الهوى ... وتُذيبنا الآهاتُ والأحـزانُ

نعم ... إن لم تحفزْنا المصائب ... وتُعْـلِ هممَنا الآلامُ والأحزانُ ... فما الذي يُعلينا ... ياله من دين لو أن له رجالًا .

ورحتُ من سفرٍ مضنٍ إلى سفرٍ ... أضنى لأنّ طريق الراحةِ التعبُ
لكن أنا راحلٌ في غير ما سفرٍ ... رحلي دمي وطريقي الجمرُ والحطبُ
إذا امتطيتُ ركابًا للنوى فأنا ... في داخلي أمتطي ناري وأغتربُ
قبري ومأساة ميلادي على كتفي ... وحوليَ العدمُ المنفوخُ والصخبُ
لكن موت المجيد الفذِّ يبدؤهُ ... ولادة من صباها تُرضَعُ الحِقَبُ
حبيبُ ما زال في عينيك أسئلةٌ ... تبدو وتنسى حكاياها فتنتـقبُ
ولا تزال بحلقي ألفُ مُبكيـةٍ ... من رهبةِ البوح تستحي وتضطربُ

سحائبُ الغزوِ تشوينا وتحجُبُنا ... يومًا ستحبَل من إرعادنا السُّحُبُ
ألا ترى يا أبا تمام بارقنـا ... إن السماء تُرجَّى حين تحتجبُ[1]

فإلى الرجـال وللرجـال كتبتُ ، وجمعتُ جمعي للرجوع بالأمة إلى إسلامها ... لزيادة بذل ، وترقيق قلب القلب .

أنت فذٌّ وكلامي شُعَـلٌ ... غُلَّ شدوي مُضرِمٌ فيك حريقا
ليس في قلبي إلا أن أرى ... قطرةً فيك غدت بحرًا عميقَا
لا عرَى الروحَ هدوءٌ ولتكن ... بحياة الكدِّ والكدح خليقا

لتكن كلّك للإسلام .. دينك لحمك .. دينك عِرضك .. دينك دمك.

سِرْ في الزمان وحدِّثْ أننا نفرٌ ... شُمُّ العرانين يومَ الهولِ نفتقدُ
عُدنا إلى الله في أعماقنا قبسٌ ... من السموات لا يغتالُه الأبدُ
جئنا نُعيدُ إلى الإسلام عزَّتَهُ ... وفوق شُمِّ الرواسي تُنصبُ العُمُدُ

أخي ، إن المستقبل كل المستقبل للإسلام .

قال ﷺ : « إن الله زوى[2] لي الأرض ، فرأيتُ مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ مُلْكُها ما زُوي لي منها »[3] .

وقال ﷺ : « ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهارُ ، ولا يترك الله بيتَ مدرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله هذا الدين بعزِّ عزيز ، أو بِذُلِّ ذليل ؛ عِزًّا يُعِزُّ الله به الإسلام ، وذُلًّا يُذلُّ به الكفر »[4] .

وعن أبي قبيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسُئل:أيّ

---

(١) البَرَدُّوني : من قصيدة (أبو تمام وعروبة اليوم) .
(٢) أي جمع وضمَّ .
(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد ، من حديث ثوبان .
(٤) صحيح : رواه ابن حبان وأبو عروبة في « المنتقى من الطبقات » وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم (٣) .

المدينتين تُفتح أولًا ؛ القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حِلَقٌ ، قال : فأخرج منه كتابًا ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سُئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولًا ؛ أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مدينة هرقل تُفتح أوَّلًا » ؛ يعني قسطنطينية[1] .

لا تهيئ كفني يا عاذلي فأنا لي مع الفجر مواثيق وعهدُ

وقال ﷺ : « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون مُلكًا عاضًّا ، فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون مُلكًا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت »[2] .

أحلامُنا لم نزل في الطين نغرسُها إنْ يرحلِ العمرُ ما للحلمِ ترحيلُ
لن يقتلوا الشمس مهما غاب موعدُها إنْ مزَّقوا الشمس لن تخبو القناديلُ
ما زلت في العين نورًا لا يُفارقُنا فالكلُّ يمضي ويبقى وحي جبريلُ

(١) صحيح : رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة في المصنف وأبو عمرو الداني في « السنن الواردة في الفتن » وعبد الغني المقدسي في كتاب « العلم »، وقال : حديث حسن الإسناد ، والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم (٤) .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، والطيالسي ، والعراقي في « محجة القرب إلى محبة العرب » وقال : صحيح . ورواه البزار والطبراني ببعضه في الأوسط وقال الهيثمي : ورجاله ثقات . وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٥) .

فمتى ستُنبتُ ياغدي بين الثرى زهرًا وعُشبا
وبأي جزءٍ في سماء الكون سوف تصيرُ سُحبا
وبأي أرضٍ سوف تشرق ياغدي فجرًا وحبًّا
وبأي نهرٍ في بلادِ الله تسري بالرحيق وتملأُ الأرجاء خصْبا
رغم انشطارِ مسارنا في كل نبضٍ في الجوانح لم أزل أخفيك قلبًا
رغم ابتعاد مكاننـا مازلت في العين الحزينة ياغدي تزدادُ قُرْبى

هذا في الدنيا ... فما ظنُّك بآمال القرْب من الله والخلود في جنته .

وأخيرًا :

ما ارتفع صوت الحادي يومًا ما لرفقة أولي صَمَم ، ولا ارتفع الفلك الأعلى لغير أهل الشموخ .

طِرْ بهمتك :

أهمّ بشيء والليالي كأنها تطاردُني عن كونها وأُطاردُ
فريدٌ عن الخِلّان في كل بلدةٍ إذا عظُم المطلوبُ قلَّ المساعدُ

اللهم ما أعطيتنا مما نُحبُّ فاجعلْه قوةً لنا فيما تُحبُّ ، اللهم وما زويت عنا مما نُحبُّ فاجعله فراغًا لنا فيما تُحبُّ .

إلهي ، أدِلْنا من نفوسنا التي هي أقرب أعدائنا ، وأعظمهم نكايةً فينا ، تُلاعب خوادع آمالنا ببضائع أعمارنا ، فصرنا مفاليس ، أغارت علينا خيولُ الهوى ، فاستأسرنا بأسرنا ، فيا ملاذ الخائفين ، ياملاذ العارفين خذْ بيد مَنْ قد زلَّت قدمُ فطنتِهِ ، في مزْلَقِ فتنتِهِ ، أقمْ من قعد به سوءُ عمله ، ويامالك الملك ، أنقذْ حبيسنا ، وخلِّصْ أسيرنا ، وسَيِّرْ أوبتنا من بلاد غربتنا ، نسألك لذة العيش بعد الموت ، وحُسْنَ النظر إلى وجهك الكريم ، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين .

الفَصْلُ الأَوَّل

عُلُوُّ الهِمَّة في الكتابِ والسُّنَّةِ

﴿ يا يحيىٰ خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًّا ﴾

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ □

قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **فاستمسك بالذي أُوحي إليك إنك على صراط مستقيم** ﴾ [الزخرف : ٤٣] .

وقال تعالى له : ﴿ **ولربك فاصبر** ﴾ [المدثر :٧] .

وقال تعالى : ﴿ **وأمرْ أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقًا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى** ﴾ [طه : ١٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميًّا** ﴾ [مريم : ٦٥] .

قال البقاعي في نظم الدرر (١٢ / ٢٣٢) :

« اعبده بالمراقبة الدائمة على ما ينبغي له من مثلك ، واصبر صبرًا عظيمًا بغاية جهدك على ما ينبغي الاصطبار عليه كذلك لأجل عبادته ، فإنها لا تكون إلا عن مجاهدة شديدة » .

وقال تعالى : ﴿ **يأيها المزمل قم الليل إلا قليلًا نصفه أو انقص منه قليلًا أو زدْ عليه ورتِّل القرآن ترتيلًا إنا سنُلقي عليك قولًا ثقيلًا إن ناشئة الليل هي أشدُّ وطئًا وأقومُ قيلًا إن لك في النهار سبحًا طويلًا** ﴾ .

إنها دعوة السماء ، وكلام الكبير المتعال .. قم .. قم للأمر العظيم الذي ينتظرك والعبء الثقيل المُهيَّأ لك .. قم للجهد والنصب ، والكدِّ والتعب ، قم فقد مضى وقت النوم والراحة .. قم فتهيَّأ لهذا الأمر واستعدَّ .

وإنها لكلمة عظيمة رهيبة ، تنتزعه ﷺ من دفء الفراش في البيت الهادىء ؛ لتدفع به في الخضمِّ بين الزعازع والأنواء ، وبين الشدِّ والجذب ، في ضمائر الناس ، وفي واقع الحياة سواء .

قيل لرسول الله ﷺ : ﴿ قم ﴾ ، فقام وظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين عامًا ! لم يسترحْ ، ولم يسكنْ ، ولم يعش لنفسه ولا لأهله ، قام وظلَّ قائمًا على دعوة الله ، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ، ولا ينوء به ؛ عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوُّراتها ، المُثقَّل بأثقال الأرض وجواذبها ، المُكبَّل بأوهاق الشهوات وأغلالها ، وقام على دعوة الله ، وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة ؛ في شظفٍ من العيش ، والدنيا مقبلة عليه ، وفي جهد وكدٍّ ، والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة ، وفي نَصَبٍ دائم لا ينقطع ... وفي صبر جميل على هذا كله .

إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا ، ولكنه يعيش صغيرًا ويموت صغيرًا ، فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير ... فما له والنوم ؟ وما له والراحة ؟ ما له والفراش الدافئ ، والعيش الهادئ والمتاع المريح ؟! ولقد عرف رسولنا ﷺ حقيقة الأمر وقدَّره ، فقال لخديجة رضي الله عنها : « مضى عهد النوم ياخديجة » . أجل ! مضى عهد النوم ، وما عاد منذ اليوم إلا السَّهر والتعب والجهاد الطويل الشاق .

قال تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزمًا ﴾ [طه : ١١٥] .

قال ابن جرير الطبري :

« ﴿ **ولم نجد له عزمًا** ﴾ . اختلف أهل التأويل في معنى العزم ها هنا، فقال بعضهم : معناه : الصبر .

قال قتادة : ﴿ **ولم نجد له عزمًا** ﴾ : صبرًا .

وقال آخرون : بل معناه : الحفظ ، قالوا : ومعناه : ولم نجد له حفظًا لما عهدنا إليه .

عن عطية قال : حفظًا لما أمرته .

وقال ابن عباس : لم نجد له حفظًا .

وقال ابن زيد : العزم : المحافظة على ما أمره الله تبارك وتعالى بحفظه والتمسُّك به .

عن ابن عباس قال : لم نجعل له عزمًا .

قال أبو جعفر : وأصل العزم : اعتقاد القلب على الشيء يُقال منه : عزم فلان على كذا : إذا اعتقد عليه ونواه ، ومن اعتقاد القلب : حفظ الشيء ، ومنه : الصبر على الشيء ؛ لأنه لا يجزع جازعٌ من خور قلبه وضعفه، فإذا كان كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بيَّنه الله تبارك وتعالى، فيكون تأويله : ولم نجد له عزمَ قلبٍ على الوفاء لله بعهده ، ولا على حفْظ ما عهد إليه »(١) .

اعلم أن التحرُّرَ من رغائب النفس وشهواتها يحفظ للروح حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد ، فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها ، فعالي الهِمَّة مَنْ يقول لقيود الأرض : لا ...لا ياقيود الأرض .

* * *

قال تعالى: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار﴾ [ص : ٤٥ - ٤٦] .

قال ابن جرير الطبري :

(١) تفسير الطبري ٨/٢٢١ - ٢٢٢ .

« قوله: ﴿**أولي الأيدي والأبصار**﴾، ويعني بالأيدي: القوة، يقول: أهل القوّة على عبادة الله وطاعته ، ويعني بالأبصار: أنهم أهل أبصار القلوب ؛ يعني به : أولي العقول الحق .

قال ابن عباس : ﴿ **أولي الأيدي والأبصار** ﴾ أولى القوة والعبادة، ﴿ **والأبصار** ﴾؛ يقول : الفقه في الدين .

وعنه : فُضِّلوا بالقوة والعبادة .

وقال منصور : ﴿ **أولي الأيدي** ﴾ : القوة .

وقال مجاهد : ﴿ **أولي الأيدي** ﴾ : القوة في أمر الله ، وقال : القوة في طاعة الله .

وقال قتادة : أُعطوا قوةً في العبادة ، وبصرًا في الدين .

وقد يمكن أن يكون عَنى بقوله ﴿ **أولي الأيدي** ﴾: أولي الأيدي عند الله بالأعمال الصالحة ، فجعل الله أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا أيديًا لهم عند الله ؛ تمثيلًا لها باليد، تكون عند الرجل الآخر »[(١)] .

قال ابن كثير :

«يعني بذلك: العمل الصالح والعلم النافع، والقوة في العبادة والبصيرة النافذة »[(٢)] .

قال ابن جرير في تفسيره (١٠ / ١٧١ - ١٧٢) :

« ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ ؛ أي أنهم كانوا يذكِّرون الناس الدار الآخرة ، ويدعونهم إلى طاعة الله والعمل للدار الآخرة .

قال قتادة : بهذه أخلصهم الله ، كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله .

وقال مجاهد : بذكْر الآخرة ، فليس لهم همٌّ غيرها .

---

(١) تفسير الطبري ١٠/١٧٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٧/٦٦ .

وقال ابن جرير : ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة** ﴾: هي ذكرى الدار الآخرة ، فعملوا لها في الدنيا ؛ لأن ذلك من طاعة الله ، والعمل للدار الآخرة » .

قال ابن كثير (٧ / ٦٧) :

« قال مجاهد : جعلناهم يعملون للآخرة ، ليس لهم همٌّ غيرها ، وكذا قال السدي : ذكرُهم للآخرة ، وعملُهم لها .

وقال مالك بن دينار : نزع الله من قلوبهم حُبَّ الدنيا وذكْرها ، وأخلصهم بحب الآخرة وذكْرها ، وكذا قال عطاء الخراساني .

وقال سعيد بن جبير : يعني بالدار الجنة ؟ يقول : أخلصناها لهم بذكرهم لها » .

« أخلصهم الله بصفة خاصة ؛ ليذكروا الدار الآخرة ، ويتجردوا من كل شيء سواها ، فهذه ميّزتهم ورفعتْهم وهذه جعلتهم عند الله مُختارين أخيارًا »[1] .

* * *

قال تعالى : ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلًا لكل شيء فخذْها بقوة وأمرْ قومَك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين ﴾

[الأعراف : ١٤٥] .

الأمر الإلهي الجليل لموسى عليه السلام أن يأخذ الألواح بقوة وعزم . إنه كذلك يوحي بالمنهج الواجب في أخْذ كل أمة لكل عقيدة تأتيها .

إن العقيدة أمْر هائل عند الله سبحانه ، وأمْر هائل في حساب هذا

(١) الظلال ٥ / ٣٠٢٢ .

الكون ، وقدر الله الذي يصرفه .

وأمرٌ له هذه الخطورة عند الله ، وفي حساب الكون ، وفي طبيعة الحياة ، وفي تاريخ الإنسان - يجب أن يُؤخذ بقوة ، وأن تكون له جدِّيَّته في النفس ، وصراحتُه وحسمُه .

ولا ينبغي أن يُؤخذ في رخاوة ، ولا في تميُّع ، ولا في ترخُّصٍ ؛ ذلك أنه أمْر هائلٌ في ذاته ، فضلًا على أن تكاليفه باهظة ، لا يصبر عليها مَنْ طبيعتُه الرخاوةُ والتميُّع والترخُّصُ، أو من يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر، ويهرب من العقيدة وتكاليفها ، ويسير مع القطيع ؛ لأن السير مع القطيع لا يُكلِّفه شيئًا . وليس معنى هذا - بطبيعة الحال - هو التشدُّد والتعنُّت والتعقيد والتقبُّض، فهذا ليس من طبيعة دين الله، ولكنّ معناه الجدّ والهِمَّة، والحسم والصراحة، وهي صفات ومشاعر أخرى غير مشاعر التشدُّد والتعنُّت والتعقيد والتقبُّض »[1] .

لقد تحمَّل موسى تكاليف العقيدة ، وقام بأمر الدعوة كأكمل ما يكون القيام ، وعانى من أمة القبط ، وصلف فرعون وغروره وتكبُّره ... وتحمَّل ما تحمَّل من بني إسرائيل ... وهيَّأ نفسه ، وأخذها بأشدِّ ما تؤخذ به النفوس من العبادة ؛ تهيؤًا للقاء الله .

قال تعالى : ﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمَّ ميقاتُ ربِّه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾ [الأعراف : ١٤٢] .

قال ابن كثير :

« قال المفسرون : فصامها موسى عليه السلام ، فلما تمّ الميقات استاك بلحاء شجر ، فأمره الله بأن يُكمل بعشر أربعين ، ولما تمَّ الميقات عزم موسى

(١) الظلال ٣/١٣٧٠ بتصرف .

على الذهاب إلى الطور؛ شوقًا للقاء الله والوقوف بين يديه، وقد ذاق حلاوته، فانظر إلى عُلُوِّ همَّته . قال تعالى : ﴿ **وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على أثري وعجلتُ إليك رب لترضى** ﴾ [طه: ٨٣- ٨٤] » .

* * *

قال تعالى : ﴿ اصبرْ على ما يقولون واذكرْ عبدنا داود ذا الأيد إنه أوَّاب ﴾ [ص : ١٧] .

قال ابن جرير الطبري (١٠ / ١٣٦) :

« يعني بقوله : ﴿ **ذا الأيد** ﴾ : ذا القوة والبطش الشديد في ذات الله ، والصبر على طاعته .

قال مجاهد : ذا القوة في طاعة الله .

وقال قتادة : أُعطي قوة في العبادة ، وفقهًا في الإسلام .

وقال السدي : ذا القوة في طاعة الله . وكذا قال ابن زيد : ذا القوة في عبادة الله .

وقد قال رسول الله ﷺ : « كان داودُ أعبدَ البشر »(١) .

وقال ﷺ : « أحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داود ؛ كان يصوم يومًا ويُفطر يومًا ، وأَحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود ؛ كان ينامُ نصف الليل ، ويقوم ثُلُثَهُ ، وينام سُدسَه »(٢) .

* * *

(١) حسن : رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي الدرداء ، ورواه البخاري في التاريخ عن أبي الدرداء ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٣٢٩ .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه .

وقال تعالى : ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين﴾ [الأنبياء : ٨٩ - ٩٠] .

* * *

قال تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكمَ صبيًّا ﴾ [مريم : ١٢].

« ورث يحيى أباه زكريا ، ونودي ليحمل العبء ، وينهض بالأمانة في قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولايتراجع عن تكاليف الوراثة .

آتاه الله الحكمة صبيًّا، فكان فذًّا في زاده، كما كان فذًّا في اسمه وميلاده فالحكمة تأتي متأخرة ، ولكن يحيى قد زُوِّد بها صبيًّا »(١) .

* * *

وقال تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : ٦٣] .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [البقرة : ٩٣] .

* * *

---

(١) الظلال ٤ / ٢٣٠٤ .

وقال تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة وظنُّوا أنه واقعٌ بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ [الأعراف : ١٧١].

« لابدَّ من أخْذ عهْد الله بقوة وجدٍّ ، واستجماع نفس وتصميم .. لابدّ من تذكُّر ما فيه ، واستشعار حقيقته ، والتكيُّف بهذه الحقيقة ؛ كي لا يكون الأمر كله مُجرَّد حماسة وحميَّة وقوة . فعهدُ الله منهجُ حياة ، منهجٌ يستقر في القلب تصوُّرًا وشعورًا ، ويستقر في الحياة وضعًا ونظامًا ، ويستقر في السلوك أدبًا وخُلُقًا ، وينتهي إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير .

ولكن هيهات ! لقد أدركت إسرائيل نحيزتها ، وغلبت عليها جِبِلَّتها » .

* * *

وقال تعالى : ﴿ ولكلٍّ وجهة هو مولِّيها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأتِ بكم الله جميعًا إن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : ١٤٨] .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مُصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومُهيمنًا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ [المائدة : ٤٨] .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضُها السموات والأرض أُعدَّت للمتقين ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

هذا ندبٌ وأمرٌ من الله في فعْل الخيرات ، والمسارعة في نيل القُرُبات فمنِ المُشمِّر عالي الهِمَّة في الطاعات ... بانوا وكأنهم ما كانوا ..

* * *

قال تعالى : ﴿ وأنّ إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم : ٤٢] .

قال ابن قيم الجوزية :

« مُتضمنٌ لكنز عظيم ، وهو أن كل مراد إن لم يُرد لأجله ويتصل به ؛ فهو مُضمحلٌّ منقطع ، فإنه ليس إليه المنتهى ، وليس المنتهى إلا الذي انتهت إليه الأمور كلها ، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلْمه ، فهو غاية كل مطلوب ، وكل محبوب لا يُحبُّ لأجله فمحبَّتُه عناءٌ وعذابٌ ، وكلُّ عمل لا يُراد لأجله فهو ضائع وباطل ، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقيٌّ محجوبٌ عن سعادته وفلاحه ، فاجتمع ما يُراد منه كله في قوله : **﴿ وإنْ من شيءٍ إلا عندنا خزائنه ﴾** [الحجر : ٢١] ، واجتمع ما يُراد له في قوله : **﴿ وأنَّ إلى ربك المنتهى ﴾**، فليس وراءه سبحانه غاية تُطلب ، وليس دونه غاية إليها المنتهى وتحت هذا سِرٌّ عظيم من أسرار التوحيد ، وهو أن القلب لا يستقر ، ولا يطمئن ، ولا يسكن ، إلا بالوصول إليه ، وكل ما سواه مما يُحَبُّ ويُراد فمرادٌ لغيره .

وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى .

ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين . فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره ؛

بطُل عليه ذلك، وزال عنه، وفارقه أحوج ما يكون إليه. ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه؛ ظَفر بنعيمه ولذَّته وبهجته وسعادته أبد الآباد »[١].

« إن في القلب شعثًا: لا يلمُّه إلا الإقبالُ على الله.

وفيه وحشةٌ: لا يُزيلها إلا الأُنسُ به في خلوته.

وفيه حُزْنٌ: لا يُذهبه إلا السرورُ بمعرفته، وصدق معاملته.

وفيه قلق: لا يُسكنه إلا الاجتماعُ عليه، والفرارُ منه إليه.

وفيه نيرانُ حسراتٍ: لا يُطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه طلبٌ شديدٌ: لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه.

وفيه فاقةٌ: لا يسدها إلا محبته ودوام ذكْره والإخلاص له، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقة منه أبدًا.

وفيه مرضٌ: لا يشفيه إلا لقاء مولاه في يوم المزيد ».

* * *

قال تعالى: ﴿ ففرُّوا إلى الله إني لكم منه نذيرٌ مُبين ﴾ [الذاريات: ٥٠].

مَنْ صحَّ فِراره إلى الله صحَّ قرارُه مع الله.

« والتعبير بلفظ الفرار عجيبٌ حقًّا، وهو يوحي بالأثقال والقيود والأغلال والأوهاق التي تشدُّ النفس البشرية إلى هذه الأرض، وتثقلها عن الانطلاق، وتحاصرها وتأسرها وتدعها في عقال، وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود. ومن ثَمَّ يجيء

---

(١) الفوائد لابن القيم (١٩٦ - ١٩٧).

الهتاف قويًّا للانطلاق والتملُّص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود»(١).

ومن اللفتات الجميلة : أن الله حين ذكر الدنيا قال : ﴿ **فامشوا في مناكبها** ﴾، وحين ذكر الذكْر فيها قال : ﴿ **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾، وحين تكلَّم عن الجنة قال : ﴿ **وسارعوا** ﴾، و ﴿ **سابقوا** ﴾، وحين تكلَّم عن العليِّ قال : ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾، ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقي السمع وهو شهيد** ﴾ .

* * *

قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

قال ابن كثير (٦ / ٣٠٣) :

« يعني الرسولَ – صلوات الله وسلامه عليه – وأصحابَه وأتباعَه إلى يوم الدين . ﴿ **لنهدينهم سُبُلَنا** ﴾ : أي لنبصرنَّهم سُبُلنا ؛ أي طرقنا في الدنيا والآخرة .

قال أحمد بن أبي الحواري : حدَّثنا عباس الهمداني أبو أحمد – من أهل عكًّا – في قول الله : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ ؛ قال : الذين يعملون بما لا يعلمون ، يهديهم لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبي الحواري : فحدَّثتُ به أبا سليمان الداراني فأعجبه ، وقال : ليس ينبغي لمن أُلهم شيئًا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما في نفسه » .

---

(١) الظلال ٦ / ٣٣٨٦ .

وقال البقاعي في نظم الدرر (١٤ / ٤٨١ - ٤٨٢) :

« ﴿ والذين جاهدوا ﴾ ؛ أي أوقعوا الجهاد بغاية جهدهم على ما دلَّ عليه بالمفاعلة. ﴿فينا﴾: أي بسبب حقِّنا ومراقبتنا؛ خاصة بلزوم الطاعات، من جهاد الكفار وغيرهم، من كل ما ينبغي الجهاد فيه، بالقول والفعل، في الشدة والرخاء، ومخالفة الهوى عند هجوم الفتن وشدائد المحن، مُستحضرين لعظمتنا . ﴿ لنهدينهم ﴾ بما نجعل لهم من النور الذي لا يضلُّ مَنْ صَحِبَه ، هداية تليق بعظمتنا . ﴿ سُبُلَنَا ﴾ التي لا سُبُل غيرها ، علمًا وعملًا ونكون معهم بلُطفنا ومعونتنا. ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ بالنصر والمعونة في دنياهم، والثواب والمغفرة في عقباهم .

قال المحاسبي : مَنْ صحَّح باطنه بالمراقبة ؛ زيَّن الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة » .

وقال الشيخ سيد قطب في الظلال (٥ / ٢٧٥٢) :

« الذين جاهدوا في الله ليصلوا إليه ، ويتصلوا به . الذين احتملوا في الطريق إليه ما احتملوا ، فلم ينكصوا ولم ييأسوا . الذين صبروا على فتنة النفس ، وعلى فتنة الناس . الذين حملوا أعباءهم ، وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب .. أولئك لن يتركهم الله وحدهم، ولن يُضيع إيمانهم ، ولن ينسى جهادهم . إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم ، وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم، وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم، وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيُجازيهم خير الجزاء » .

« من رفع إليهم خطوة نال منهم حظوة ، ومن ترك فيهم شهوة وجد منهم صفوةً .

الذين زيَّنوا ظواهرهم بالمجاهدات حَسُنت سرائرهم بالمشاهدات .

الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلوا إلى سرائرهم اللطائف .

الذين قاسوا فيهم التعب من حيث الصلوات جازاهم بالطرب من

حيث المواصلات .

ويقال : الجهاد فيه أولًا بترك المُحرَّمات ، ثم بترك الشُّبُهات ، ثم بترك الفضلات ، ثم بقطع العلاقات ، والتنقِّي من الشواغل في جميع الأوقات »[1] .

* * *

وقال تعالى: ﴿نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعوَ من دونه إلهًا لقد قلنا إذًا شططًا﴾ [الكهف : ١٣- ١٤] .

إنهم فتية أشدَّاء في أجسامهم ، أشدَّاء في إيمانهم ، أشدَّاء في استنكار ما عليه قومهم ، ربط الله على قلوبهم ، فإذا هي ثابتة راسخةٌ ، مُطمئنة إلى الحق الذي عرفت ، مُعتزّةٌ بالإيمان الذي اختارت . ﴿ **إذ قاموا** ﴾ والقيام حركة تدل على العزم والثبات . التفت هؤلاء الفتية إلى ما عليه قومهم فاستنكروه ، وفرُّوا بدينهم ، واختاروا الكهف على زينة الحياة .

﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشرْ لكم ربُّكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقًا ﴾ .

« وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة ، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم ، ويهجرون ديارهم ، ويُفارقون أهلهم ، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة. هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيّق الخشن المُظلم؛ هؤلاء يستروحون رحمة الله ، ويحسُّون هذه الرحمة ظليلةً فسيحةً مُمتدةً ، ولفظة ﴿**ينشر** ﴾ تُلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح ، فإذا الكهف

(١) لطائف الإشارات ٥/٨٨ ، ١٠٦ .

فضاء فسيح رحيب وسيع ، تنتشر فيه الرحمة ، وتتسع خيوطها ، وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء ، إن الحدود الضيقة لتنزاح ، وإن الجدران الصلدة لترقّ ، وإن الوحشة الموغلة لتشفّ ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق .

إنه الإيمان !!

وما قيمة الظواهر ؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارفَ عليها الناس في حياتهم الأرضية ؟ إن هنالك عالمًا آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان المأنوس بالرحمن ، عالمًا تُظلِّله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان »(١) .

لا تُسمع قصة الأحباب أعلى وأجلَّ مما تُسمع من الأحباب ، قال عزَّ من قائل : ﴿ **نحن نقص عليك** ﴾، وأنشدوا :

وحدَّثتني يا سعد عنها فزدتني ... حنينًا فزدني من حنينك ياسعدُ

﴿ **إنهم فتية آمنوا بربهم** ﴾ .

يُقال : إنهم فتية ؛ لأنهم آمنوا على الوهلة بربهم ، آمنوا من غير مهلة ، لما أتتهم دواعي الوصلة .

ويقال : فتية ؛ لأنهم قاموا لله ، وما استقروا حتى وصلوا إلى الله .

﴿ **وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض..** ﴾ .

لاطفهم بإحضارهم ، ثم كاشفهم في أسرارهم ، بما زاد من أنوارهم ، فلقّاهم أوَّلًا التبيين ، ثم رقَّاهم عن ذلك باليقين .

﴿ **وربطنا على قلوبهم** ﴾ بزيادة اليقين حتى مَتَعَ نهارُ معارفهم ، واستضاءت شموسهم ، ولم يبق للتردُّد مجال في خواطرهم ، وتمَّت سكينة

---

(١) الظلال .

قلوبهم .

أفناهم عن الأغيار ، وأغناهم عن التفكُّر بما أولاهم من نور التبصُّر ، فلم تسنح فيها هواجس التخمين ، ولا وساوس الشياطين .

﴿ **إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض** ﴾ .

قاموا لله بالله ، ومَنْ قام بالله فُقِدَ عما سوى الله .

ويُقال : مَنْ قام لله لم يقعد حتى يصل إلى الله .

ويُقال : قعدت عنهم الشهوات فصحّ قيامُهم بالله .

﴿ **وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشرْ لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقًا** ﴾ .

العزلة عن غير الله توجب الصلة بالله ، بل لا تحصل الوصلة بالله إلا بعد العزلة عن غير الله .

ويُقال : لما اعتزلوا ما عُبد من دون الله ؛ آواهم الحق إلى كنف رعايته ، ومهَّد لهم مثوى في كهف عنايته .

ويُقال : من تبرَّأ من اختياره في احتياله ، وصدق رجوعه إلى الله في أحواله ، ولم يستعن بغير الله من أشكاله وأمثاله ؛ آواه إلى كنف أفضاله ، وكفاه جميع أشغاله ، وهيَّأ له محلًّا يتفيَّؤ فيه في برد ظلاله بكمال إقباله .

يأخي ، انظر إلى ما في القصة ﴿ **وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد** ﴾، ﴿ **سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم** ﴾ .

كلب خطا مع أحبائه خطواتٍ ، فإلى يوم القيامة يُتلى ﴿ **وكلبهم باسط** ... ﴾ الآية، فهل ترى أن مسلمًا يصحب أحبابه من وقت شبابه إلى وقت مشيبته يردُّه يوم القيامة خائبًا ؟!

ويُقال : كلب بسط يده على وصيد الأولياء ، فإلى يوم القيامة يُقال : ﴿ **وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد** ﴾، فهل إذا رفعها مسلم إلى الله خمسين سنة ، تُرى يردُّها خائبة ؟ هذا بكرمه لا يكون .

ويُقال : لما صحبهم الكلب ؛ لم تضرَّه نجاسة صفته ، ولا خساسة قيمته .

أخي ، إن كنت مع الأبرار وفي جوارهم ؛ حَمَلُوكَ إلى ديارهم . كن في نواحيهم ؛ يصوِّت بك صوت حاديهم .

* * *

قال تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ [فاطر : ٣٢] .

قال ابن كثير :

« **﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾** : وهو الفاعل للواجبات والمُستحَبَّات ، التارك للمُحرَّمات والمكروهات .

فإذا تقرَّر هذا ، فإن الآية عامَّة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة ، فالعلماء أغبطُ الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، « وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يوِّرثوا دينارًا ولا درهمًا ، وإنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر » .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : **﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا ﴾** قال : هم أمة محمد ﷺ ؛ ورّثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالُمهم يُغفر له ، ومقتصدُهم يُحَاسبُ حسابًا يسيرًا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وقال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة

بشفاعة محمد ﷺ .

قالت عائشة رضي الله عنها : أما السابق بالخيرات : فقد مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد : فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه : فمثلي ومثلكم . قال : فجعلت نفسها معنا .

قال ابن كثير: وهذا منها رضي الله عنها، من باب الهضم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

قال كعب الأحبار: تماسّت مناكبهم ورَبِّ كعب، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم .

وقال محمد بن الحنفية : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفورٌ له ، والمقتصد في الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله »[١] .

الظالم من غلبت زلّاته ، والمقتصد من استوت حالاته ، والسابق من ازدادت حسناته .

« هذه كلمات جديرة بأن توحي لهذه الأمة بكرامتها على الله ، كما توحي إليها بضخامة التَّبِعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة، وهي تَبِعة ضخمة ذات تكاليف، فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب ؟! »[٢] .

* * *

(١) تفسير ابن كثير ٦/٥٣٢- ٥٣٥ ، انظر تفسير الطبري ٢٢/٩٠ .
(٢) الظلال ٥/٢٩٤٤ .

قال تعالى : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ [الواقعة : ١٠] .

قال الحسن وقتادة : ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ : أي من كل أمة .

وقال ابن سيرين : الذين صلّوا للقبلتين .

وقال مجاهد : هم الأنبياء عليهم السلام .

وقال عثمان بن أبي سودة : أَوَّلُهُم رواحًا إلى المسجد ، وأوّلُهم خروجًا في سبيل الله .

قال ابن كثير :

« وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا ، كما قال تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ . فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير ؛ كان من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تُدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أولئك المقربون في جنات النعيم**﴾»[1] .

قال ابن كثير :

« وقد اختلفوا في المراد بقوله: ﴿**ثُلَّةٌ من الأولين وقليلٌ من الآخرين**﴾، فقيل : المراد بالأولين : الأمم الماضية ، وبالآخرين : هذه الأمة . هذا رواية عن مجاهد والحسن البصري ؛ رواها عنهما ابن أبي حاتم ، وهو اختيار ابن جرير .

وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظرٌ ، بل هو قول ضعيف ؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنصِّ القرآن ، فيبعُدُ أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يُقابل مجموع الأمم بهذه الأمة . والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم .

فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله :

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/٤٩٠ - ٤٩١ .

﴿**ثلة من الأولين**﴾: أي من صدر هذه الأمة، ﴿**وقليل من الآخرين**﴾: أي من هذه الأمة .

قال الحسن : ﴿ **ثلة من الأولين** ﴾ : ثُلَّةٌ ممن مضى من هذه الأمة .

وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية : ﴿ **ثلة من الأولين وقليل من الآخرين** ﴾ كانوا يقولون - أو يرجون أن يكونوا - كلهم من هذه الأمة .

فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ، ولا شكَّ أن أوَّل كل أمة خيرٌ من آخرها ، فيُحتمل أن يعُمَّ الأمر جميع الأمم ؛ كل أمة بحسبها .

ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه ، أن رسول الله ﷺ قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ... »[(١)] .

أما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمَّار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر : لا يُدرى أوَّله خيرٌ أم آخره»[(٢)]. فهذا الحديث - بعد الحكم بصحة إسناده - محمولٌ على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى مَنْ بعدهم ؛ كذلك هو محتاج إلى القائمين به في آخرها ، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم . وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني ، ولكن العمدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه آكدُ ، فإنه لولاه ما

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي وابن ماجه ، وأحمد ، وابن حبان ، وأبو يعلى ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في السنن .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد عن عمار ، وأحمد والترمذي عن أنس ، والطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وعن ابن عمرو ، ورواه الطيالسي ، وابن حبان ، وأبو نعيم في الحلية .

نبت في الأرض ، ولا تعلّق أساسُه فيها . والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلةً، لشرف دينها، وعِظَمِ نبيِّها ﷺ »(١) .

أخي ، إن كنتَ عالي الهمة ستحلُّ قريبًا من أحبابك ، وتكون يومًا مع أشكالك .

* * *

قال تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين فرَوْحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيم ﴾

[الواقعة : ٨٨ ، ٨٩] .

الألفاظ ذاتها تقطر رِقَّةً ونداوة ... وتُلقي ظلال الراحة الطيبة ، والنعيم اللِّين ، والأنس الكريم .

قال ابن كثير عن المقربين في تفسيره لهذه الآيات :

«هم الذين فعلوا الواجبات والمُستَحبَّات، وتركوا المُحرَّمات والمكروهات وبعض المباحات، فلهم رَوْحٌ وريحان، وتُبشِّرهم الملائكة بذلك عند الموت. والروح والريحان معناهما : أي رحمة ورزق وفرح وسرور » .

قال القشيري في لطائف الإشارات (٦ / ٩٦) :

« يُقال : الرَّوْحُ لقلوبهم ، والريحانُ لنفوسهم ، والجنة لأبدانهم .

ويُقال : رَوْح في الدنيا ، وريحانٌ في الجنة ، وجنةُ نعيمٍ في الآخرة .

ويُقال : رَوْحٌ وريحانٌ مُعجَّلان ، وجنةُ نعيم مؤجَّلة .

ويُقال : رَوْحُ نسيم القُرْب ، وريحانُ كمالِ البسطِ، وجنةُ نعيم في محلِّ المُناجاة .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٣/٧ .

ويُقال : رَوْحُ رؤية الله ، وريحانُ سماعِ كلامه بلا واسطة ، وجنةُ نعيم أن يدوم هذا ولا ينقطع في الجنة » .

* * *

قال تعالى : ﴿ واصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمرُهُ فُرُطًا ﴾. [الكهف : ٢٨]

الله غايتهم ، يتوجَّهون إليه بالغداة والعشي ، لا يتحوَّلون عنه ، ولا يبغون إلا رضاه ، وما يبتغونه أجلُّ وأعلى من كل ما يبتغيه طُلَّاب الحياة .

اصبرْ نفسك مع هؤلاء ، صاحبْهم وجالسْهم وعلِّمْهم ، ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تقوم الدعوات .

فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع ، ومن يعتنقونها ليُحقِّقوا بها الأطماع ، وليتَّجِروا بها في سوق الدعوات ، تُشترى منهم وتُباع ؛ إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله وحده خالصةً له ، لا تبتغي جاهًا ولا متاعًا ولا انتفاعًا ، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه .

يُريدون وجهه ، وداوموا دعاءهم ربَّهم بالغداة والعشي ، ونظروا إلى الله بقلوبهم ، فأمر رسوله ﷺ بألَّا يرفع بصره عنهم ، ولا يُقلع عنهم نظره .

لا تقطع اليوم عنهم نظرك ، فإنا لا نمنع غدًا نظرهم عنَّا .

آويناهم في الدنيا بعظمائنا ، وفي عقباهم بكرائمنا .

منهم عمّـار بن ياسـر ، الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « مُلِئ إيمانًا إلى مُشاشه »(١) .

---

(١) إسناده صحيح : رواه البزار من حديث عائشة ، وقال الحافظ في الفتح ٧ / ٩٢ : وإسناده صحيح .

إن زينة الحياة الدنيا لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالي الذي يتطلع إليه مَنْ يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه .

أما الهامات المتشامخة التي لا تُخفِّف من غلوائها ، ولا تُطامن من كبريائها ، فهي وأقوال أصحابها سفهٌ ضائع ، لا يستحق إلا الإغفال ؛ جزاءَ ما غفلوا عن ذكر الله .

هذا دين رفيع .. لا يُعرض عنه إلا مطموسٌ ، ولا يعيبُه إلا منكوسٌ ، ولا يغفلُ عنه ويُحاربُه إلا موكوسٌ .

* * *

قال تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمنٌ فأولئك كان سعيُهم مشكورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] .

الذي يُريد الآخرة لابدَّ أن يسعى لها سعيها ، فيؤديَ تكاليفها ، وينهض بتَبِعاتها ، ويُقيم سعْيه لها على الإيمان ، وليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل . والسعي للآخرة يمدُّ بالبصر إلى آفاقٍ أعلى ، فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية ، ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه ، فلا يكون عبدًا لهذا المتاع .

وإذا كان الذي يُريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذمومًا مدحورًا ، فالذي يُريد الآخرة ويسعى لها سعيها ؛ ينتهي إليها مشكورًا ، يتلَّقى التكريم من الملأ الأعلى، جزاءَ السعي الكريم لهدفٍ كريم، وجزاء التطلُّع إلى الأفق البعيد الوضيء .

إن الحياة للأرض حياةٌ تليقُ بالديدان والزواحف والحشرات والهوامّ

والوحوش والأنعام ، فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، الذي خلقه فسوَّاه ، وأودع روحه ذلك السِّر الذي ينزع به إلى السماء ، وإنْ استقرَّت على الأرض قدماه . إنها رفرفة الروح إلى آفاق لائقة بكمال الإنسان ، أما الذين يقفون عند الحياة الدنيا ؛ بما فيها من نقصٍ وهبوطٍ ، ويرضونها ويستغرقون فيها ، فلا يُنكرون فيها نقصًا ، ولايُدركون أنها لا تصلح أن تَكون نهاية البشر ، فإنها تهبط بهم ثم تهبط ؛ لأنهم لا يرفعون رؤوسهم إلى قمة ، ولا يتطلَّعون بأبصارهم إلى أفق ، إنما يخفضون رؤوسهم وأبصارهم دائمًا إلى هذه الأرض وما عليها .

* * *

قال تعالى : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] .

« من شاء التفاوت الحق ، ومن شاء التفاضُل الضخم ، فهو هناك في الآخرة . هنالك في الرقعة الفسيحة ، والآماد المتطاولة التي لا حدود لها... وفي ذلك فليتنافس المُتنافسون، لا في متاع الدنيا القليل الهزيل»(١).

* * *

(١) الظلال ٤ / ٢٢١٨ - ٢٢١٩ .

قال تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يُسقون من رحيقٍ مختوم ختامُه مسكٌ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين : ٢٢ - ٢٦] .

« **﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾** اليوم وغدا ؛ اليوم في رَوْح العرفان ، وراحة الطاعة والإحسان ، ونعمة الرضا ، وأُنس القربة ، وبسْط الوصلة وغدًا في الجنة وما وُعدوا به من الزلفة والقربة »(٢) .

قال ابن كثير عن مآل الأبرار السابقين :

« وفي مثل هذه الحال فليتفاخر المتفاخرون ، ليستبق إليه المُتسابقون ، كقوله تعالى : **﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾** » .

وقال البقاعي في نظم الدرر (٢١ / ٣٢٩ - ٣٣٠) :

« وفي ذلك الأمر العظيم البعيد المتناول - وهو العيش والنعيم والشراب الذي هذا وصفُه - فليرغبْ غاية الرغبة بجميع الجهد والاختيار المتنافسون ، الذين من شأنهم المنافسة ؛ لأنه نفيسٌ جدًّا ، والنفيس هو الذي تحرص عليه نفوس الناس وتتغالى فيه ، والمنافسة في مثل هذا بكثرة الأعمال الصالحات والنيَّات الخالصة » .

الأبرار المُقربون من علَتْ بهم هِمَمُم وأعمالهم، وحظَوْا بجوار الملك.. كتابهم في عِلِّيِّين ، يشهده المُقربون من الملائكة ، وهذا يُلقي ظلًّا كريمًا طاهرًا رفيعًا على كتابهم ، فهو موضع مشاهدة المُقربين من الملائكة ، ومُتعتُهم بما فيه من كرائم الأفعال والصفات ، وهذا ظِلٌّ كريم شفيف ، يُذكر بقصد التكريم .

تفيض نضرة الأبرار على وجوههم وملامحهم ، وشرابهم مُصفى ، ختامُه مسك . وإنما يكون التنافس في ذلك النعيم ، وفي ذلك التكريم ..

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٥ / ٢٧٠ .
(٢) الظلال بتصرف ٦ / ٣٨٥٩ - ٣٨٦٠ .

فهو مطلب يستحقُّ المنافسة ، وهو أفق يستحق السباق ، وهو غاية تستحق الغلاب . والذين يتنافسون على شيء من أشياء الأرض ، مهما كبُر وجلَّ وارتفع وعظُم ، إنما يتنافسون في حقير قليل ، فانٍ قريب . والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، ولكن الآخرة ثقيلة في ميزاته . فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة . ومن عجب أن التنافس في أمرْ الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعًا، بينما التنلفس في أمر الدنيا ينحطُّ بها جميعًا. والسعي لنعيم الآخرة يُصلح الأرض ويعمرها ويُطهِّرُها للجميع، والسعي لعَرَض الدنيا يدع الأرض مُستنقعًا وبيئًا ، تأكل فيه الديدان بعضها البعض ، أو ينتهش فيه الهوامُّ والحشرات جلود الأبرار الطيبين ، وياله من مستنقع آسن !!

إنّ عمر المرء في هذه العاجلة محدودٌ، وعمره في الآجلة لا نهاية له، وإنّ متاع هذه الأرض في ذاته محدود، ومتاع الجنة لا تحُدُّه تصوُّراتُ البشر، وإنّ مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف، ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود! فأين مجال من مجال؟! وأين غاية من غاية؟! إلا إن السباق إلى هناك»[1]؛ السباق إلى القرب، وتعليق القلب بالله، وجولان الهمم في الملكوت .

* * *

وقال تعالى : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصافات : ٦١] .

لمثل هـذا النعيم الذي لا يُدركه فوتٌ ، ولا يُخشى عليه من نفـاد ،

---

(١) الظلال بتصرف ٦ / ٣٨٥٩ - ٣٨٦٠ .

ولا يعقبُه موتٌ ، ولا يتهدَّدُه العذابُ ؛ لمثل هذا فليعمل العاملون ، فهذا هو الذي يستحق الاحتفال ، وما عداه - مما يُنفق فيه الناس أعمارهم على الأرض - زهيدٌ زهيدٌ ، حين يُقاس إلى هذا الخلود والنعيم الآمن الدائم الراضي ، والتكريم الذي ما فوقه تكريم .

السباق السباق قولًا وفعلًا　　حَذِّرِ النفسَ حسرة المسبوقِ

❊ ❊ ❊

إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة .. قيام الليل .

إن تلقِّي القرآن والنور لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

إنَّ الاصطبار للعبادة ، وقيام الليل والناس نيام ، والانقطاع عن غبشِ الحياة اليومية وسفسافها ، والاتصال بالله ، وتلقِّي وحي الله ونوره ، والأُنس بالخلوة ؛ إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل ، والعبء الباهظ ، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول ، وينتظر مَنْ يدعو بهذه الدعوة في كل جيل، ويُنير القلب في الطريق الشاقِّ الطويل ، ويعصمه من وسوسة الشيطان ، ومن التيه في الظلمات الحافّة بهذا الطريق المُنير .

إنّ مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش بعد كدِّ النهار أشدُّ وطئًا ، وأجهد للبدن ، ولكنه إعلانٌ لسيطرة الروح ، واستجابة لدعوة الله ، ومن ثَمَّ فإنها أقوم قيلًا ؛ لأن للذِّكْر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة فيها شفافيتها .. وإنها لتسكب في القلب أنسًا وراحة وشفافية ونورًا .

❊ ❊ ❊

قال تعالى : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتَّل إليه تبتيلًا ﴾ [المزمل : ٨] .

قال ابن كثير :

« أي أكثر من ذكْره ، وانقطع إليه ، وتفرَّغْ لعبادته إذا فرغت من أشغالك .

وقال ابن عباس : أي أخلص له العبادة . وقال ابن جرير : يقال للعابد : مُتبتِّل »[١] .

«والتبتُّل هو الانقطاع الكُلِّي عما عدا الله، والاتجاه الكُلِّي إليه بالعبادة والذكر والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر ، والحضور مع الله بكامل الحسِّ والمشاعر »[٢] .

* * *

وقال تعالى: ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ [الانشراح: ٧-٨].

قال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل .

وقال ابن عباس : إذا فرغتَ من الصلاة فانصب في الدعاء .

وقال مجاهد : إذا فرغت من أمْر دنياك فانصب في عمل آخرتك .

وقال علي بن أبي طلحة: إذا صحَّ بدنك فاجعل صحتك نصبًا في العبادة.

قال ابن كثير: إذا فرغتَ من أمور الدنيا وأشغالها وقطعتَ علائقها؛ فانصب إلى العبادة، وقمْ إليها نشيطًا فارغ البال، وأخلص لربك النيَّة والرغبة.

إذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض فتوجَّهْ بقلبك كله إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكدَّ وتجهد .. العبادة والتجرُّد والتطلُّع والتوجُّه ، ﴿ **وإلى ربك فارغب** ﴾ إلى ربك وحده خاليًا من كل شيء ، حتى من أمْر الناس الذين تشتغل بدعوتهم .. إنه لا بدَّ من الزاد للطريق .. وهذا الزاد ... هذا هو الطريق .

* * *

(١) تفسير ابن كثير .

(٢) زاد المسير ٩ / ١٦٦ - ١٦٧ .

قال تعالى : ﴿ والذين يُمسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجْر المصلحين ﴾ [الأعراف : ١٧١] .

« إن الصيغة اللفظية ﴿ **يُمسِّكون** ﴾ تصوِّر مدلولًا يكاد يُحسّ ويُرى ، إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجدّ وصرامة .. الصورة التي يُحبُّ الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه .. في غيرتعنُّت ولا تنطُّع ولا تزمُّت .. فالجدُّ والقوة والصرامة شيء ، والتعنُّت والتنطُّع والتزمُّت شيء آخر .. إن الجدَّ والقوة والصرامة لا تُنافي اليُسْر ، ولكنها تُنافي التميُّع ! ولا تُنافي سعة الأفق ، ولكنها تنافي الاستهتار .

والتمسُّك بالكتاب في جدٍّ وقوة وصرامة ، وإقامة الصلاة – أي شعائر العبادة – هما طرفا المنهج الربَّاني لصلاح الحياة .. والتمسُّك بالكتاب في هذه العبارة مقرونًا إلى الشعائر يعني مدلولًا مُعيَّنا .. إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة ، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس .. فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس ، ولا تصلح بسواه.. والإشارة إلى الإصلاح في الآية: ﴿**إنا لا نُضيع أجْر المصلحين**﴾»[1] .

قال القشيري في لطائف الإشارات (١ / ٥٨٣ – ٥٨٤) :

﴿ **يُمسِّكون بالكتاب** ﴾ إيمانًا ، ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ إحسانًا ، فبالإيمان وجدوا الأمان ، وبالإحسان وجدوا الرضوان ؛ فالأمان مُعجَّل ، والرضوان مُؤجَّل . ويُقال ﴿ **يُمسكون بالكتاب** ﴾ سبب النجاة ، وإقامة الصلاة تُحقِّق المناجاة ؛ فالنجاة في المآل ، والمناجاة في الحال .

ويُقال : أفرد الصلاة ها هنا بالذكر عن جملة العبادات ؛ ليُعْلَم أنها أفضل العبادات بعد معرفة الذات والصفات .

مَنْ أمَّل سبب إنعامهم ؛ لم تَخْسِر له صفقة ، ولم تخفق له في الرجاء رفقة . مَنْ نقل إلى بابه قَدَمَه ؛ لم يَعْدم في الآجل نعمَه . ومَنْ رفع إلى

(١) الظلال ٣ / ١٣٨٨ .

ساحات جوده هِمَمَه ؛ نال في الحال كرمَه . ومَنْ توصَّل إليه بجوده ؛ نال في الدارين شرفَه . ومن اكتفى بجوده ، كان الله عنه خلفه .

* * *

قال تعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا عينًا يشربُ بها عبادُ الله يفجِّرونها تفجيرًا يُوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شرُّه مُستطيرًا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيُكم مشكورًا ﴾ [الإنسان : ٥ - ٢٢] .

قال ابن القيم :

« أخبر سبحانه عن العين التي يشرب بها المُقربون صرفًا ؛ لأن شراب الأبرار يُمزج منها؛لأن أولئك أخلصوا الأعمال كلها لله فأخلص شرابهم ، وهؤلاء مزجوا فمزج شرابهم .

إنه سبحانه أخبر عن مزج شراب المقربين بالكافور وبرده ، في مقابلة ما وصفهم به من حرارة الخوف ، والإيثار ، والصبر ، والوفاء بجميع الواجبات التي نبَّه على وفائهم بأضعفها ، وهو ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر على الوفاء بأعلاها ، وهو ما أوجبه الله عليهم ، ولهذا قال : ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا** ﴾ ، فإن في الصبر من الخشونة وحبْس النفس عن شهواتها ما اقتضى أن يكون في جزائهم من سعة الجنة ، ونعومة الحرير ، ما يُقابل ذلك الحبس والخشونة ، وجمع لهم بين النضرة والسرور ، وهذا جمال ظواهرهم ، وهذا حال بواطنهم ، كما جملوا في الدنيا ظواهرهم بشرائع الإسلام ، وبواطنهم بحقائق الإيمان ، ونظيره قوله في آخر السورة : ﴿ **عاليهم ثيابُ سُنْدُس خضرٌ وإستبرقٌ وحُلُّوا أساورَ من فضة** ﴾ فهذه زينة الظاهر ، ثم قال : ﴿ **وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا** ﴾ فهذه زينة الباطن المُطهَّر لهم من

كل أذى ونقص »[١] .

يقول ابن القيم :

صفَّى المُقرب سعيه فصفا له ذاك الشرابُ فتلك تصفيتانِ
لكنَّ أصحابَ اليمين فأهلُ مزْ ج بالمُباح وليس بالعصيانِ
مُزجَ الشرابُ لهم كما مزجوا همُ الْـ أعمال ذاك المزج بالميزانِ

قال ابن جرير الطبري :

« الأبرار الذين برّوا بطاعتهم ربهم وأداء فرائضه واجتناب معاصيه .

قال قتادة: ﴿**يوفون بالنذر**﴾ : كانوا ينذرون طاعة الله من الصلاة والزكاة والحجّ والعمرة وما افترض عليهم ، فسمَّاهم الله بذلك الأبرار .

قال قتادة: ﴿**وجزاهم بما صبروا جنةً وحريرًا**﴾: جزاهم بما صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصيته ومحارمه ؛ جنة وحريرًا .

وقال قتادة : ﴿ **ويُسقون فيها كأسًا كان مزاجُها زنجبيلًا عينًا فيها تُسمَّى سلسبيلًا**﴾: رقيقة يشربها المقربون صرفًا، وتُمزج لسائر أهل الجنة.

﴿ **إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا** ﴾ :

يقول الله تعالى ذكره : يُقال لهؤلاء الأبرار حينئذ : إن هذا الذي أعطيناكم من الكرامة ؛ كان لكم ثوابًا على ما كنتم تعملون في الدنيا من الطاعات .

﴿ **وكان سعيُكم مشكورًا** ﴾ : كان عملكم فيها مشكورًا ، حمدكم عليها ربُّكم ، ورضيه لكم ، فأثابكم بما أثابكم به من الكرامة عليه .

قال قتادة : غفر لهم الذنب ، وشكر لهم الحسن »[٢] .

يُسمِّيهم الله في الآية الأولى ﴿ **الأبرار** ﴾ ، ويُسمِّيهم في الثانية ﴿ **عباد الله** ﴾ .. إيناسًا وتكريمًا ، وإعلانًا للفضل تارة ، وللقُرْب من الله

---

(١) حادي الأرواح لابن القيم صـ ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) تفسير الطبري ١٢ / ٢٠٦ - ٢٢٤ .

تارة ، في معرض النعيم والتكريم .

﴿ **يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرًا** ... ﴾ إلى آخر الآيات :

صورة وضيئة شفَّافة لقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة ، مع رحمة ندية بعباده الضِّعاف ، وإيثار على النفس ، وتحرُّج وخشية لله ، ورغبة في رضاه ، وإشفاق من عذابه ، تبعثه التقوى والجد في تصوّر الواجب الثقيل.﴿ **يوفون بالنذر** ﴾ فيفعلون ما اعتزموا من الطاعات ، وما التزموا من الواجبات ، فهم يأخذون الأمر جدًّا خالصًا ، لا يُحاولون التفلُّت من تَبِعاته ، ولا التفصِّي من أعبائه ، ولا التخلِّي عنه بعد التزامه ، وهذا معنى أنهم يوفون بالنذر ، فهو أعمُّ من المعنى العُرفي المُتبادر من كلمة « النذر » .

ويُقابل هذا عطاءٌ كريمٌ من مُعطٍ كريم ، ثم يتلقون عليه الودَّ والتكريمَ ، ﴿ **إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورًا** ﴾ .

يتلقَّون هذا النطق من الملأ الأعلى ، وهو يعدل هذه المناعم كلها ، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها .

يقول القشيري :

« الأبرار : هم الذين سمت هِمَّتُهم عن المُستحقرات ، وظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة ، فاتقوا عن مساكنة الدنيا ، يوفون بالعهد القديم الذي بينهم وبين الله على وجه مخصوص » .

* * *

وهناك آيات تدعو إلى عُلُوِّ الهمة ؛ بذكر الأجر العظيم أو الكبير أو الكريم لأصحابها ، فعِظَمُ الجزاء والأجر يدعو إلى التنافس والحرص على هذه الأعمال :

قال تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيِّب وما كان الله لِيُطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبي من رُسُلِهِ من يشاء فآمنوا بالله ورُسُلِهِ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجْر عظيم ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

قال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ [المائدة : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لَنُبوِّئَنَّهم من الجنة غُرَفًا تجري من تحتها الأنهار نعم أجر العاملين ﴾ [العنكبوت : ٥٨] .

وقال تعالى: ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجْر كبير ﴾ [فاطر : ٧] .

وقال تعالى: ﴿إنما تُنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشِّرْه بمغفرة وأجرٍ كريم ﴾ [يس : ١١] .

وقال عن المتقين : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوَّأ من الجنة حيث نشاء فنِعْمَ أجْر العاملين ﴾ [الزمر : ٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ إلاّ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرًا عظيمًا ﴾ [النساء : ١٤٦] .

وقال تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيمًا ﴾ [النساء : ١٦٢] .

وقال تعالى: ﴿ويُبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا ﴾ [الإسراء : ٩] .

وقال تعالى: ﴿ويُبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ﴾ [الكهف : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا** ﴾ [الفتح : ١٠] .

وقال تعالى عن الصحابة: ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا** ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يُكفِّر عنه سيئاته ويُعظِم له أجرًا** ﴾ [الطلاق : ٥] .

ومرة أخرى يدعوهم إلى عُلُوِّ الهمة ببيان أن الجزاء هو الفوز العظيم :

قال تعالى: ﴿**ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا**﴾[الأحزاب: ٧١].

وقال تعالى : ﴿ **تلك حدود الله ومن يُطع الله ورسوله يُدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم** ﴾ [النساء : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [التوبة : ٧٢] .

وقال تعالى : ﴿ **ألَا إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [يونس : ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيُدخلهم ربُّهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين** ﴾ [الجاثية : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير** ﴾ [البروج : ١١] .

* * *

ومرة أخرى يُشير إلى تفاوت الدرجات عند الله ، ويحفز أهل الهِمم العالية إلى الدرجات العُلى .

أنت القتيلُ بكُلِّ مَنْ أحببتَـه   فاخترْ لنفسك في الهوى من تصطفي

قال تعالى : ﴿ **أفمن اتَّبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله والله بصيرٌ بما يعملون** ﴾ [آل عمران : ١٦٣] .

وقال تعالى: ﴿**وتلك حُجَّتُنَا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ من نشاء إن ربك حكيم عليم**﴾ [الأنعام : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن يأته مُؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجاتُ العُلى** ﴾ [طه : ٧٥] .

وقال تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير** ﴾ [المجادلة : ١١] .

* * *

قال تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضُها كعرض السماء والأرض أُعدَّت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [الحديد : ٢١] .

هذه دعوة من الكبير المتعال إلى ميدان السباق الحقيقي .. للغاية التي تستحق السباق ؛ الغاية التي تنتهي إليها مصائرهم .. إنها دوامٌ يستحق الاهتمام ، فلا بُدَّ من تعلُّق النفوس بها ورفعة الهِمَم إليها .

وليس السباق إلى الدنيا .. إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبُّوا عن الطوق ، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال

والصغار ، إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض ، إلى جنة عرضُها كعرض السماء والأرض .

لابُدَّ لصاحب العقيدة أن يتعامل مع هذا الوجود الكبير ، ولا يحصر نفسه ونظره وتصوُّرَه واهتمامه ومشاعره في عالم الأرض الضيِّق الصغير .. لابُدَّ له من هذا ليؤدي دوره اللائق بصاحب العقيدة . هذا الدور الشاق الذي يصطدم بحقارات الناس وأطماعهم ، كما يصطدم بضلال القلوب والتواء النفوس .. ويُعاني من مقاومة الباطل وتشبُّثه بموضعه من الأرض ، ما لا يصبر عليه إلا من يتعامل مع وجود أكبر من هذه الحياة ، وأوسع من هذه الأرض ، وأبقى من ذلك الفناء .

إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لا تمثل الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في ضمير صاحب العقيدة ، وما تبلغ من تمثيل تلك الحقيقة إلا بقدر ما يبلغ حجم الأرض بالقياس إلى حجم الكون، وما يبلغ عمر الأرض بالقياس إلى الأزل والأبد . والفارق هائل هائل ، لا تبلغ مقاييس الأرض كلها أن تحدِّده ، ولا حتى أن تُشير إليه .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « لموضعُ سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها »،ومن ثَمَّ يبقى صاحب العقيدة في أفق الحقيقة الكبيرة مُستعليًا على واقع الأرض الصغير ، مهما تضخَّم هذا الواقع وامتد واستطال يبقى يتعامل مع تلك الحقيقة الكبيرة الطليقة من قيود هذا الواقع الصغير .. ويتعامل مع الوجود الكبير الذي يتمثَّله في الأزل والأبد .. وفي ملك الآخرة الواسع العريض .. وفي القيم الإيمانية الثابتة التي لا تهتزُّ لخلل يقع في موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة .. وتلك وظيفة الإيمان في حياة أصحاب العقائد ، المختارين لتعديل قيم الحياة وموازينها ، لا للتعامل بها والخضوع لمقتضياتها .

روى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « للجنة أقربُ إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » . أخرجه البخاري .

فمن علم أن الجنة تُزيَّن فوقه وتُنجَّد ، فكيف لا يطير شوقًا إليها ؟!

خَوْدٌ تُزفُّ إلى ضرير مُقعدٍ   يا محنة الحسناءِ بالعُميانِ

* * *

وقال تعالى : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يُشركون والذين يُؤتون ما آتوا وقلوبهم وجِلَة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يُسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾

[المؤمنون : ٥٧ - ٦١] .

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يارسول الله ، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة : هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله ؟ قال : « لا يابنت الصديق ، ولكنه الذي يصلِّي ويصوم ويتصدَّق ، وهو يخاف الله عز وجل »(١) ، فجعلهم من السابقين .

« إن قلب المؤمن يستشعر ويحسُّ آلاء الله في كل نفس وكل نبضة .. ومن ثمَّ يستصغر كل عباداته ، ويستقلُّ كلَّ طاعاته ، إلى جانب آلاء الله ونعمائه .. كذلك هو يستشعر بكل ذرَّة فيه جلال الله وعظمته ، ومن ثمَّ يشعر بالهيبة والوجل ، ويُشفق أن يلقى الله وهو مُقصِّر في حقِّه ، لم يُوفِّه حقَّه عبادةً وطاعةً ، ولم يُقارب أياديه عليه معرفةً وشكرًا . وهؤلاء هم الذين يُسارعون في الخيرات ، وهم الذين يسبقون لها ، فينالونها في الطليعة ، بهذه

(١) صحيح : رواه أحمد والترمذي .

اليقظة ، وبهذا التطلُّع ، وبهذا العمل ، وبهذه الطاعة ، لا أولئك الذين يعيشون في غمرة ، ويحسبون - لغفلتهم - أنهم مقصودون بالنعمة ، مُرادون بالخير ، كالصيد الغافل يُستدرج إلى مصرعه بالطُّعم المغري ، ومثل هؤلاء في الناس كثير ، يغمرهم الرخاء ، وتشغلهم النعمة ، ويُطغيهم الغنى ، ويُلهيهم الغرور ، حتى يُلاقوا المصير .

تلك اليقظة التي يفرضها الإسلام على قلب المؤمن، والتي يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره في القلب .. ليست أمرًا فوق الطاقة ، وليست تكليفًا فوق الاستطاعة، إنما هي الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به ، ومراقبته في السر والعلن ، وهي في حدود الطاقة الإنسانية حين يُشرق فيها ذلك النور الوضيء »[1] .

* * *

قال تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمُه يُسبِّح له فيها بالغُدُوِّ والآصال رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلبُ فيه القلوبُ والأبصارُ ليجزيَهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدَهم من فضله والله يرزقُ من يشاءُ بغير حساب﴾ [النور: ٣٦- ٣٨].

قال ابن جرير :

يُصلِّي له في هذه البيوت بالغدوات والعشيات رجالٌ .

وعن سالم بن عبد الله أنه نظر إلى قوم من السوق ، قاموا وتركوا بياعاتهم إلى الصلاة فقال : هؤلاء الذين ذكر الله .

وقال ابن عباس : لا يشغلهم ذلك عن الصلاة المكتوبة ، ولا يشغلهم

---

(١) الظلال ٤ / ٢٤٧٢ - ٢٤٧٣ .

ذلك أيضًا عن إقام الصلاة بحدودها في أوقاتها .

﴿ **وإيتاء الزكاة** ﴾ ، قال ابن جرير : إخلاص الطاعة لله .

عن ابن عباس، قوله: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾، ﴿**وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وأوصاني بالصلاة والزكاة** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدًا** ﴾ ، وقوله :﴿ **وحنانًا من لدنا وزكاة** ﴾ ، ونحو هذا في القرآن . قال : يعني بالزكاة : طاعة الله والإخلاص .

قال ابن جرير : «إنهم لم تُلههم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأطاعوا ربهم مخافة عذابه يوم القيامة ؛ كي يُثيبهم الله يوم القيامة بأحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا ، ويزيدهم على ثوابه إياهم على أحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا من فضله ، فيُفضل عليهم من عنده بما أحبَّ من كرامته لهم »[(١)] .

قلوب تتصل بالله، تتطلَّع إليه وتذكره وتخشاه، وتتجرَّد له وتُؤثره على كل مغريات الحياة . قلوب وضيئة طاهرة ، مُسبِّحة واجفة ، مُصلِّية واهبة .

جدُّوا في انطلاقهم إلى خلَّاقهم ، وراضوا أنفسهم بتحسين أخلاقهم ، فإذا بهم قد أذابهم كربُ اشتياقهم ، أتدري ما حبسك عن لحاقهم ؟! حبُّ الدرهم والدينار .. أما هم ، فانظر إلى مدحهم إلى أين انتهى وصار ﴿ **يخافون يومًا تتقلب فيه القلوبُ والأبصارُ ...** ﴾ ، فما ظنك برزق أرواحهم وأشباحهم ... أفضال وفنون نوال .

* * *

(١) تفسير الطبري ٩ / ١٤٧ - ١٤٨ .

وهذه أحاديث نبوية كريمة في عُلُوِّ الهِمَّة ؛ فعَضَّ عليها بالنواجذ :

عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله تعالى يُحِبُّ معاليَ الأمور وأشرافها ، ويكره سَفسافها »[١] .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ الله يُحِبُّ معاليَ الأخلاق ، ويكره سفسافها »[٢] .

وعن كُليب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يُحِبُّ من العامل إذا عمل أن يُحسن»[٣]. فما ظنُّك بالعمل للآخرة، وهو العمل كل العمل .

وقال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس : الصحة والفراغ »[٤] .

وقال ﷺ : « بادروا بالأعمال الصالحة ، فستكون فتنٌ كقطع الليل المُظلم ، يُصبح الرجلُ مؤمنًا ويُمسي كافرًا ، ويُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا ، يبيعُ دينه بعَرَضٍ من الدنيا »[٥] .

وقال ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير، ورواه ابن عدي ، وأبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية عن سهل ، وابن عساكر وابن النجار عن سعد ، وصححه الألباني .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٨٩ ، ١٨٩٠) .

(٣) حسن : رواه البيهقي في شعب الإيمان ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٩١) .

(٤) رواه البخاري عن ابن عباس .

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة .

شيء فلا تقل : لو أني فعلتُ كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل »[١] .

وفي الحديث القدسي : « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفِّيكم إياها » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كان الإيمانُ عند الثُّريَّا ؛ لتناوله رجال من فارس »[٢] .

ولفظ مسلم : « لو كان الإيمان عند الثُّريَّا ؛ لذهب به رجل من أبناء فارس حتى يتناوله » .

وعن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس شيء خيرًا من ألف مثله إلا الإنسان »[٣] . رجل بألف ، وألف بخفّ .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عند الله خزائن الخير والشر ، مفاتيحها الرجال ، فطوبى لمن جعله الله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر ، وويلٌ لمن جعله الله مفتاحًا للشر مغلاقًا للخير »[٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « لكل قرن سابق »[٥] .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والضياء في المختارة ، وتمّام ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٣٩٤)، والصحيحة رقم (٢١٨٣) .

(٤) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والضياء عن سهل ، ورواه ابن ماجه ، وابن أبي عاصم في السنة ، والخرائطي ، والطيالسي ، وأبو يعلى في مسنده ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤١٠٨) .

(٥) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٢٠٠١) .

وقال ﷺ : « لكل قرن من أمتي سابقون »(١) .

وعن عتبة بن عبد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أنَّ رجلًا يُجَرُّ على وجهه من يوم وُلد إلى يوم يموت هرما في مرضاة الله ، لحقره يوم القيامة »(٢) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كما لا يُجتنى من الشوك العنبُ ، كذلك لا يَنزلُ الفجارُ منازلَ الأبرار ، وهما طريقان ، فأيهما أخذتم أدركتم إلَيه »(٣) .

قال يزيد بن مرثد رحمه الله: كما لا يُجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينزل الفجارُ منازلَ الأبرار ، فاسلكوا أيَّ طريق شئتم ، فأي طريق سلكتم وردتم على أهله .

وقال ﷺ : « إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر ، وإنّ من الناس ناسًا مفاتيح للشر مغاليق للخير ، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه »(٤) .

وانظر إلى عُلُوِّ هِمَّة عمر :

قال رسول الله ﷺ : « إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فرُّوا من عمر »(٥) .

---

(١) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥١٧٢) .

(٢) حسن : رواه أحمد ، والبخاري في التاريخ ، والطبراني في الكبير ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٢٤٩) ، والصحيحة رقم (٤٤٧) .

(٣) صحيح: رواه ابن عساكر وأبو نعيم، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٥٧٦).

(٤) حسن : رواه ابن ماجه عن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٢٢٣) ، والصحيحة رقم (١٣٣٢) .

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن عائشة ، وكذا رواه النسائي وابن شاهين ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٤٩٦) .

وعن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ايه ياابن الخطاب ! والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان قطُّ سالكًا فجًّا ، إلا سلك فجًّا غير فجِّك » رواه الشيخان .

وانظر إلى عُلُوِّ هِمَّة الصدِّيق في تحصيل العمل لزيادة إيمانه :

روى أحمد بإسناده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : لو وُزِن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم(١) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ جعل الهموم همًّا واحدًا - همَّ المعاد - كفاه الله سائر همومه ، ومَنْ تشعَّبت به الهموم من أحوال الدنيا ؛ لم يُبال الله في أي أوديتها هلك »(٢) .

وقال ﷺ : « مَنْ جعل الهمَّ همًّا واحدًا ؛ كفاه الله سائر همومه » .

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانت الآخرة همَّه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومَنْ كانت الدنيا همَّه، جعل الله فقره بين عينيه وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»(٣).

أخي ، من صفا صُفِّي له ، ومن كدر كُدِّر عليه ، ومن أحسن في ليله كوفىء في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كوفىء في ليله ، وإنما يُكال للعبد كما كال ، فمن طلب المنزلة العليا من الجنة فعليه بعُلُوِّ الهمَّة .

(١) صحيح : رواه أحمد في الإيمان وفي فضائل الصحابة ، وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة ، والصابوني في عقيدة السلف ، والإبانة لابن بطة ، وقال السخاوي : رواه إسحاق بن راهويه والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن عمر ، وهو عند ابن المبارك في الزهد ، ومعاذ بن مثنى في زيادات مسند مسدّد .

(٢) حسن : رواه ابن ماجه عن ابن مسعود ، ورواه أبو نعيم في الحلية ، والحاكم في المستدرك عن ابن عمر ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦١٨٩) .

(٣) صحيح : رواه الترمذي عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٥١٠) ، والصحيحة رقم (٩٤٩، ٩٥٠) .

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أراد أن يعلم ما له عند الله ، فلينظر ما لله عنده »[(١)] .

وقال ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إنّ سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة »[(٢)] .

وروى البخاري ومسلم وأحمد عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف في الجنة ، كما تراءون الكواكب في السماء » .

وروى البخاري ومسلم وأحمد عن أبي سعيد ، والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تراءون الكوكب الدُّرِّيّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ؛ لتفاضلِ ما بينهم » .

وقال ﷺ: «إن أهلَ الدرجات العُلى يراهم مَنْ هو أسفل منهم، كما ترون الكوكب الطالع في أُفق السماء، وإن أبا بكرٍ وعمرَ منهم وأنْعِما»[(٣)].

ومن علتْ به هِمَّتُه تتبَّع الأحاديث التي فيها نصٌّ على عِظم أجرها ، وتمسَّك بها ، وحرص على هذه الأعمال ، طلبًا لعظيم الأجر ، ومنها :

---

(١) حسن : رواه الدارقطني في الأفراد عن أنس ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وسمرة ، وحسَّنه في صحيح الجامع رقم (٦٠٠٦) ، والصحيحة رقم (٢٣١٠) .

(٢) صحيح : رواه عبد بن حميد والعقيلي في الضعفاء ، وأبو نعيم ، والقضاعي ، والحاكم في المستدرك عن أُبي ، وصحَّحه الحاكم ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم (٢٣٣٥) ، وصحيح الجامع رقم (٦٢٢٢) .

(٣) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة ، وابن عساكر عن ابن عمرو وعن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٣١) .

(أ) أحاديث الأعمال التي توجب محبة الله للعبد :

فليس الشأن أن تُحِبَّ ، إنما الشأن أن تُحَبَّ ، شأنٌ عظيمٌ أن تُحِبَّ مولاك ، وأعظم منه أن يُحِبَّكَ الله عز وجل .. فيحرص الإنسان على الأعمال التي تجلب محبة الله لعبده ، وهذا عنوان عُلُوِّ همة العبد .

ومنها : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يُحِبُّ الرفق في الأمر كله »(١).

ومنها : قوله ﷺ : « إن الله يُحبُّ العبدَ التَّقيَّ الغنيَّ الخفيَّ »(٢) .

ومنها : قوله ﷺ : « ثلاثة يُحبُّهم الله ، وثلاثة يشنؤهم الله : الرجل يلقى العدو في فئة فينصب لهم نحره ، حتى يُقتَلَ أو يفتح لأصحابه ؛ والقوم يسافرون فيطول سراهم ، حتى يُحبُّوا أن يمسُّوا الأرض فينزلون ؛ فيتنحَّى أحدُهم فيُصلِّي حتى يوقظهم لرحيلهم ، والرجل يكون له الجار ، يُؤذيه جاره ، فيصبر على أذاه ، حتى يُفرِّق بينهما موتٌ أو ظعنٌ ، والذين يشنؤهم الله : التاجر الحلَّاف ، والفقير المختال ، والبخيل المنَّان »(٣) .

(ب) من يُعطون أجورهم مرتين :

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يُؤتَوْن أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب ؛ آمن بنبيه ، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدّقه ؛ فله أجران ، وعبد مملوك ، أدَّى حقَّ الله وحقَّ سيِّده ؛ فله أجران ، ورجل كانت له أمة ، فغذَّاها فأحسن غذاءها ، ثم أدَّبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوَّجها ؛ فله أجران »(٤) .

---

(١) رواه البخاري عن عائشة .

(٢) رواه أحمد ومسلم عن سعد بن أبي وقاص .

(٣) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وابن المبارك وابن أبي شيبة وابن نصر والطحاوي عن أبي ذر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع .

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(ج) الأعمال التي توجب صلاة الله وملائكته على فاعلها :

ومن تمسَّك بهذه الأعمال علتْ هِمَّتُه ؛ كطلب العلم ، والصلاة في الصفِّ الأول أو الصفوف المقدمة ، ووصل الصفوف ، والسحور .

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله وملائكته يُصلُّون على المُتسحِّرين»(١).

(د) الأعمال التي يضحك الله من عبده إذا فعلها ويستبشر بها أو يعجب منها :

وهي أعمال رفيعة تدل على عُلُوِّ هِمَّة صاحبها .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يضحك الله إلى رجلين ، يقتل أحدهما الآخر ، يدخلان الجنة ، يقاتل هذا في سبيل الله فيُقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيُسلم، فيقاتل في سبيل الله فيُستشهد». رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يعجب ربك من راعي غنم، في رأس شظية بجبل، يُؤذِّن للصلاة ويُصلِّي ، فيقول الله عز وجل : انظروا إلى عبدي هذا يُؤذِّن ويُقيم الصلاة ، يخاف مني ، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة »(٢) .

(هـ) ومنها الأعمال التي يجري أجرها لصاحبها بعد موته :

والحرص عليها دليل عُلُوِّ الهِمَّة :

---

(١) حسن : رواه ابن حبان والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٤٤) ، والصحيحة رقم (١٦٥٤) .

(٢) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والنسائي ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨١٠٢) .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبعٌ يُجرى للعبد أجرُهُنَّ وهو في قبره بعد موته : مَنْ عَلَّم علمًا ، أو أجرى نهرًا ، أو حفر بئرًا ، أو غرس نخلًا ، أو بنى مسجدًا ، أو ورَّث مصحفًا ، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته »(١) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت : من مات مُرابطًا في سبيل الله ، ومن علَّم علمًا أُجري له عمله ما عمل به ، ومن تصدَّق بصدقة فأجرها يجري له ما وُجدت ، ورجل ترك ولدًا صالحًا فهو يدعو له »(٢) .

(و) الأعمال التي شهد لها رسول الله ﷺ بالخيرية وتفاضل الناس فيها :

مثل أن يقول ﷺ : « خيركم ... » ، أو « خير الأعمال ... » .

فمن تمسَّك بها علتْ هِمَّتُه :

عن ابن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خياركم أحاسنكم أخلاقًا ، الموطّؤون أكنافًا ، وشرارُكم الثرثارون ، المتفيهقون ، المُتشدِّقون »(٣) .

وقال ﷺ : « خياركم ألينكم مناكب في الصلاة »(٤) .

---

(١) حسن : رواه البزار وسمويه ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٦٠٢) .
(٢) صحيح : رواه أحمد والطبراني في الكبير ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨٧٧) .
(٣) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٦٠) ، والصحيحة (٧٩١) .
(٤) صحيح : رواه أبو داود والبيهقي في سننه ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٦٤)، وصحيح أبي داود (٢٦٧٦) والمشكاة (١٠٩٩) .

وقال ﷺ : « خياركم خياركم لنسائهم »[(١)] .

وقال ﷺ : « خياركم خيركم لأهله »[(٢)] .

وقال ﷺ : « خياركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه »[(٣)] .

وقال ﷺ : « خير العمل أن تُفارق الدنيا ولسانك رطبٌ من ذكْر الله »[(٤)] .

وقال ﷺ : « خير المسلمين من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده » . رواه مسلم عن ابن عمرو .

وقال ﷺ : « خير الناس أنفعهم للناس »[(٥)] .

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الناس ذو القلب المحموم واللسان الصادق » . قيل : ما القلب المحموم ؟ قال : « هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد » . قيل : فمن على أثره ؟ قال : « الذي يشنأ الدنيا ، ويُحبُّ الآخرة » . قيل : فمن على أثره ؟

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجه عن ابن عمرو ، وكذا رواه أحمد ، والترمذي وابن حبان عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٦٥) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن أبي كبشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٦٦) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه عن سعد ، والدارمي أيضًا عن سعد ، وأحمد وابن أبي شيبة عن علي ، وابن أبي شيبة عن عثمان .

(٤) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن بُسر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٨٢) ، والصحيحة (١٨٣٦) .

(٥) صحيح : رواه القضاعي ، والطبراني في الكبير ، والدارقطني ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن عساكر عن جابر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٨٩) .

قال : « مُؤمن في خُلُق حسن »[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « خير دينكم الورع »[٢] .

وقال ﷺ : « خيركم إسلامًا أحاسنكم أخلاقًا إذا فقهوا »[٣] .

وقال ﷺ : « خيركم من أطعم الطعام وردَّ السلام »[٤] .

وقال ﷺ : « خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه » . رواه البخاري عن عثمان ، والترمذي عن علي ، وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عثمان .

وقال رسول الله ﷺ : « خيركم من يُرجى خيرُه ، ويُؤمن شرُّه ، وشرُّكم من لا يُرجى خيرُه ، ولا يُؤمن شرُّه »[٥] .

وقال ﷺ : « إن خيار عباد الله المَوَفُّون المُطيَّبون »[٦] .

---

(١) صحيح : رواه الحكيم ، والطبراني في الكبير ، وأبو نعيم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، وشطره الأول عند ابن ماجه عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٩١) .

(٢) صحيح: رواه أبو الشيخ في الثواب عن سعد، والحاكم والديلمي والبزار، والطبراني في الأوسط عن حذيفة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٠٨).

(٣) صحيح : رواه البخاري في الأدب وأحمد عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣١٢) .

(٤) حسن : رواه أبو يعلى في مسنده ، والحاكم عن صهيب ، ورواه أحمد وأبو الشيخ ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣١٨) .

(٥) صحيح : رواه أبو يعلى عن أنس ، وأحمد والترمذي عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٢٠) ، والمشكاة (٩٤٩٣) .

(٦) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية عن أبي حميد الساعدي، وأحمد عن عائشة، ورواه الطبراني في الصغير، وأبو الشيخ، والعقيلي، والمخلدي، وأبو حميد، والبزار عن عائشة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٦٢).

وقال ﷺ : « أفضل الأعمال أن تُدخل على أخيك المؤمن سرورًا ، أو تقضي عنه دَيْنًا ، أو تُطعمه خبزًا »[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « أحبُّ الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها ثم برُّ الوالدين ، ثم الجهادُ في سبيل الله » . رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي .

وقال رسول الله ﷺ : « أفضل المؤمنين إسلامًا من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وأفضل المؤمنين إيمانًا أحسنهُم خُلُقًا ، وأفضلُ المُهاجرين مَنْ هجر ما نهى الله تعالى عنه ، وأفضلُ الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل »[٢] .

(ز) ومن عُلُوِّ الهِمَّة حرصُ الرجل على أعمال تُقرِّبُه من رسول الله ﷺ في الجنة :

وهذه غاية شمّر إليها مَنْ فقه عن رسول الله أمْرَه ، ومَنْ أحبَّ جوار الله ورسوله ، وكان من السبّاقين :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كافل اليتيم له أو لغيره ، أنا وهو كهاتين في الجنة » . رواه مسلم وأحمد .

وروى مسلم والترمذي والحاكم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى يُدركا؛ دخلتُ أنا وهو الجنة كهاتين».

(ح) أعمال من فعلها حُرِّمت عليه النار :

وقد يسر الله لي جمعَها في كتاب « البحار الزاخرة في أسباب المغفرة » ، مثل

---

(١) حسن: رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة، وابن عدي عن ابن عمر، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٩٦).

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمرو ، ورواه ابن نصر ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٢٩) ، والصحيحة رقم (١٤٩١) .

قوله ﷺ: «مَنْ كان سهلًا هيِّنًا ليِّنًا حرَّمه الله على النار»[١].

(ط) ومن عُلُوِّ الهمة الواردة في السنة حرصُ الرجل على أعمال تُظلُّه في ظلِّ الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّهُ :

ومنها : عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « سبعة يُظلُّهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلّه : إمام عادل ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبُهُ مُعلَّقٌ بالمسجد إذا خرج منه يعود إليه ، ورجلان تحابَّا في الله ، فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شمالُه ما تُنفق يمينُه » . رواه أحمد والبخاري ومسلم ، ومالك والنسائي والترمذي وابن حبان ومالك ، والبيهقي في السنن الكبرى ، وابن المبارك والدارقطني في « غرائب مالك » ، وأبو نعيم في فضل العادلين .

ومنهم غير هؤلاء السبعة :

عن أبي اليَسَر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مَنْ أنظر مُعسرًا أو وضع عنه، أظلَّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّهُ»[٢].

---

(١) صحيح: رواه الحاكم في المستدرك، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة، ورواه الطبراني في الأوسط، والعقيلي في الضعفاء، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٤٨٤).

(٢) صحيح: أخرجه عبد بن حميد، والطبراني في المعجم الكبير، والبغوي في شرح السنة، والبيهقي في «الأربعون الصغرى»، والخطيب في تلخيص المتشابه، والدارمي في السنن، والقضاعي في مسند الشهاب، وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، وصحَّحه ابن حجر. انظر تمهيد الفرش في الظلال الموجبة لظلِّ العرش، ومعه بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال للسيوطي صـ ٤٩ تحقيق: مشهور حسن سليمان – مكتبة المنار بالأردن .

وأخرجه الطبراني في الكبير بلفظ : « إن أول الناس يستظل في ظل الله يوم القيامة ؛ لرجلٌ أنظر مُعسرًا ، أو تصدَّق عليه » . وإسناده حسن .

وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أعان مجاهدًا في سبيل الله ، أو غارمًا في عُسرته ، أو مُكاتبًا في رقبته ؛ أظلَّه الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه »(١) .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أظلَّ رأس غازٍ ؛ أظلَّه الله يوم القيامة »(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبعة في ظل العرش ، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه : رجل ذكر الله ، ففاضت عيناه ، ورجل قلبُهُ مُعلَّقٌ بالمساجد من شدَّة حُبّه إياها ، ورجل يُحِبُّ عبدًا لا يُحبُّه إلا لله ، وإمام مُقسطٌ في رعيَّته ، ورجل يُعطي الصدقة بيمينه يكاد يُخفيها عن شماله ، ورجل عرضت عليه امرأة نفسها ، ذات منصب وجمال ، فتركها لجلال الله ، ورجل كان في سريَّةٍ مع قوم ، فلقوا العدو فانكشفوا ، فحمى آثارهم ، حتى نجوا ، ونجا أو استُشهد »(٣) .

قال ابن حجر :

وزدْ سبعة إظلالَ غازٍ وعونَه ... وإنظارَ ذي عُسْرٍ وتخفيف حملِهِ
وحامي غزاةٍ حين ولّوا وعونَ ذي ... غرامة حق معْ مكاتبِ أهلِهِ

---

(١) صحيح : أخرجه عبد بن حميد ، وصحَّحه ابن حجر .

(٢) صحيح : رواه في المسند ، والخطيب في « موضح أوهام الجمع والتفريق » ، وابن عدي ، والبوصيري في « الزوائد » ، والعلائي في « جامع التحصيل » ، وصحَّحه ابن حجر ، وصحَّحه الضياء عن عمر مرفوعًا .

(٣) أخرجته أم الفضل بيبي الهرثمية في جزئها ، وأبو نعيم في فضل العادلين ، وقال ابن حجر : هذا حديث حسن .

وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة على كثبان المسك ، لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة : رجل أَمَّ قومًا وهم له راضون ، ورجل كان يُؤذِّن في كل يوم وليلة ، وعبد أدَّى حقَّ الله وحقَّ مواليه »[١] .

(ي) ومن عُلُوِّ الهِمَّة الوارد في السنة الحرصُ على أعمال عظيم أجرها ؛ كذكْر السوق ، وعيادة المرضى ، والتسبيح ، وغيره :

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمدُ ، يُحيي ويُميت ، وهو حيٌّ لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ؛ كتب الله له ألفَ ألفِ حسنة ، ومحا عنه ألف ألفَ سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة ، وبنى له بيتًا في الجنة »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا عاد الرجل أخاه المسلم ؛ مشى في خرافة الجنة حتى يجلس ، فإذا جلس غمرته الرحمة ، فإن كان غدْوةً صلَّى عليه سبعون ألف ملك حتى يُمسي ، وإن كان عشيًّا صلَّى عليه سبعون ألف ملك حتى يُصبح »[٣] .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي ، والطبراني في الصغير والأوسط ، وأحمد في مسنده ، والديلمي في الفردوس . وقال المنذري : إسناده لا بأس به . وقال العراقي : أخرجه الترمذي وحسَّنه .

(٢) حسن : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٢٣١) .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والبيهقي في سننه عن علي ، وكذا رواه أبو داود والحاكم ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٨٢) .

(ك) الحرص على أعمال نصَّ الرسول ﷺ أن العبد إذا فعلها بُني له بيت في الجنة ، أو كان ضامنًا على الله ، أو كان أولى الناس بالله ، أو كان من أهل الله :

قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بالله، من بدأهم بالسلام»(١).

قال ﷺ : « خمسٌ مَنْ فعل واحدةً منهن كان ضامنًا على الله : مَنْ عاد مريضًا ، أو خرج غازيًا ، أو دخل على إمامه يُريد تعزيره وتوقيره ، أو قعد في بيته ؛ فسلِمَ الناسُ منه ، وسلِمَ من الناس »(٢) .

وقال ﷺ : « ثلاثة في ضمان الله عز وجل : رجل خرج إلى مسجد من مساجد الله عزَّ وجلَّ ، ورجل خرج غازيًا في سبيل الله تعالى ، ورجل خرج حاجًّا »(٣) .

وقال رسول الله ﷺ : « من بنى لله مسجدًا ؛ بنى الله له بيتًا في الجنة »(٤) .

وعليك أخي بهذه الهدية علَّك تكون من أهلها :

قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنةَ من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب،

---

(١) صحيح رواه أبو داود عن أبي أمامة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠١١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد والطبراني في الكبير عن معاذ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٥٣) .

(٣) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٠٥١) .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجه عن علي ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦١٢٨) .

هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيَّرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكَّلون»[(١)] .

هذه أحاديث طيِّبة في عُلُوِّ الهمة ، فاحرص على أداء أعمالهم جيِّدًا ، وضعْها نُصْبَ عينيك ، فهي أحاديث الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ ، أعلى الناس هِمَّة .. ويكفيك من عُلُوِّ هِمَّته : تفرُّدُه وسؤاله أعلى درجات الجنة .

قال ﷺ : « إن الوسيلة درجة عند الله ، ليس فوقها درجة ، فسَلُوا الله أن يؤتينيها على الخلق يوم القيامة »[(٢)] .

* * *

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس ، وأحمد ومسلم عن عمران بن حصين ، ومسلم عن أبي هريرة .

(٢) حسن : رواه ابن مردويه عن أبي سعيد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٨٨) ، وفضل الصلاة (٤٩) .

الفَصْلُ الثَّانِي

علو الهمـة في الإخلاص

□ علو الهمة في الإخلاص □

من وجد الله فماذا فقد !! ومن فقد الله فماذا وجد !!

متى صحّ منك الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ وكلُّ الذي فوق التراب ترابُ

إذا اطَّلع الخبير على الضمير فلم يجد في الضمير غير الخبير ، جعل فيه سراجًا مُنيرًا .

قال عبد الله بن عروة بن الزبير : أشكو إلى الله عيبي ما لا أترك ، ونعتي ما لا آتي ، إنما نبكي بالدين للدنيا[١] .

ويرحم الله الفضيل بن عياض: أدركنا الناس وهم يُراءون بما يعملون، فصاروا الآن يُراءون بما لا يعملون .

ياإخوتاه ، قولوا لمن لم يكن صادقًا : لا تتعنَّى .

قال يحيى بن أبي كثير : تعلَّموا النية ، فإنها أبلغ من العمل[٢] .

قال الفضيل : من لم يكن في عمله أكيس من ساحر ؛ وقع في الرياء .

لله دَرُّهُمْ ، كم راعوا هذه الكلمة في أقوالهم وحركاتهم وسكناتهم وبكائهم !

قال نعيم بن حمَّاد : ضربُ السياط أهونُ علينا من النية الصالحة .

ياإخوتاه ، أعربنا في القول ، ولحنَّا في العمل ، وإخلاصُنا يحتاج إلى إخلاص .

كان طبيب القلوب الفضيل بن عياض يقول : إذا كان يَسأُل الصادقين عن صدقهم، مثل إسماعيل وعيسى عليهما الصلاة والسلام؛ فكيف بالكذَّابين

(١) الزهد والرقائق صـ ٦٤ .

(٢) الحلية ٣ / ٧٠ .

من أمثالنا .

وكان رحمه الله إذا قرأ ﴿ **ونبلو أخباركم** ﴾ يقول : اللهم إنك إن بَلَوْتَ أخبارَنا ؛ فضحْتنا وهتكْت أستارنا ، وأنت أرحمُ الراحمين .

لله ما أحلى هذا الكلام !!

كان كلامهم دواءً للخطَّائين . قال مالك : أما رأيتموهم ؟ ثم يرجع إلى نفسه ، فيقول : بلى ! والله لقد رأيناهم : الحسن ، وسعيد بن جبير ، وأشباههم ، الرجل منهم يُحيي الله بكلامه الفئام من الناس .

ويرحم الله إبراهيم بن أدهم إذ يقول : كان العلماء إذا علموا عملوا ، فإن عملوا شُغِلوا ، فإن شُغِلوا فُقدوا ، فإن فُقِدوا طُلبوا ، فإن طُلبوا هربوا .

سُئل الإمام أحمد بن حنبل عن الصِّدق والإخلاص ؟ فقال : بهذا ارتفع القوم .

نعم ياإخوتاه ، بضاعة الآخرة لا يرتفع فيها إلا مُخلِصٌ صادقٌ !

ياإخوتاه ، الإخلاص مِسْكُ القلب ، وماءُ حياتِهِ ، ومدارُ الفلاح كلهِ عليه .

قال تعالى : ﴿ **وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مُخلصين له الدين حنفاء ويُقيموا الصلاة ويُؤتوا الزكاة وذلك دينُ القيمة** ﴾ [البينة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ **قل إن صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين** ﴾ [الأنعام : ١٦٢، ١٦٣] .

وقال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مُخلصًا له الدين ألا لله الدين الخالص ...** ﴾ [الزمر : ٢، ٣] .

قال أبو عثمان المغربي : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .

قال سهل بن عبد الله التستري : نظر الأكياس في تفسير الإخلاص ،

فلم يجدوا غير هذا : أن تكون حركتُه وسكونُه في سرِّه وعلانيته لله تعالى ، لا يُمازجه شيء ؛ لا نفس ، ولا هوى ، ولا دنيا .

قال ابن عباس : إنما يُحفظ الرجلُ على قدْر نيَّته .

فحفظ القلب من الخيانة والحقد ؛ إنما هو بالإخلاص :

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع : « نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها ، فرُبَّ حامل فقهٍ ليس بفقيه ، ثلاثٌ لا يُغَلُّ[١] عليهن قلبُ امرئ مؤمن : إخلاص العمل لله ، والمُناصحة لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعاءهم يُحيط من ورائهم »[٢] .

وتحفظ الأمة وتنصر بإخلاص رجالها :

قال رسول الله ﷺ : « إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها ؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم »[٣] .

وعن أُبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « بَشِّرْ هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عَمَل الآخرة للدنيا ؛ لم يكن له في الآخرة من نصيب »[٤] .

---

(١) هو من الإغلال : الخيانة في كل شيء ، يروى « يَغِلُّ » بفتح الياء من الغِل وهو الحقد والشحناء ؛ أي لا يدخله حقد يُزيله عن الحق ، وروي « يُغَل » بالتخفيف، و «عليهن» في موضع الحال، تقديره: لا يغل كائنًا عليهن قلب مؤمن.

(٢) رواه البزار ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب : إسناده حسن ، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١ / ٥ : صحيح .

(٣) صحيح : رواه النسائي وغيره ، وهو في البخاري وغيره دون ذكْر الإخلاص ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب ١ / ٦ .

(٤) صحيح : رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/١٥-١٦.

وعند البيهقي : « بشِّرْ هذه الأمة بالتيسير والسناء والرفعة بالدين والتمكين في البلاد والنصر ، فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا ؛ فليس له في الآخرة من نصيب » .

فالنجاة : أن لا يُمازج العمل ما يشوبُه من شوائب إرادات النفس ؛ إما طلبُ التزيُّن في قلوب الخلق ، وإما طلبُ مدحهم ، والهرب من ذمِّهم ، أو طلبُ تعظيمهم ، أو طلبُ أموالهم ، أو خدمتهم ، أو محبَّتهم ، وقضائهم حوائجه ، أو غير ذلك من العلل والشوائب ، التي عقدُ مُتفرِّقاتها هو : إرادة ما سوى الله بعمله ، كائنًا ما كان .

قيل لحمدون بن أحمد : ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ قال : لأنهم تكلَّموا لعزِّ الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعزِّ النفوس ، وطلب الدنيا ، ورضا الخلق[1] .

فاعقل درجتك ، ولا تزهو عند الخلق ، وجوهرُك جوهر الفضائح ، وسيماك سيما الأبرار، وعُدَّ نفسك مع أنفُس الكذّابين، وروحك مع أرواح الهلكى ، وبدنك مع أبدان المُذنبين .

وأقبلْ على تعلُّم الإخلاص ، فوالله إنّ علْمَه خيرُ العلم ، وفقْهَه الفقهُ كُلُّ الفقهِ .

قالت رُقيَّة العابدة : تفقَّهوا في مذاهب الإخلاص ، ولا تفقَّهوا فيما يؤدِّيكم إلى ركوب القلاص .

ولا نجاة ولا فقْه إلا مع سير السلف الصالحين ... فقد كان الشيوخُ في قديم الزمان أصحاب قدَمٍ .. والطلابُ أصحابَ أَلَمٍ ، فذهب القدمُ والألمُ ، اليوم لا غُصَّـة ولا قصَّة .. وإن التربية بالقدوة خيرُ وسائل التربية .

والحكايات عن سلفنا جُندٌ من جنود الله تعالى، يُثبِّتُ الله بها قلوبَ أوليائه.

---

(١) صفة الصفوة ٤ / ١٢٢ .

قال الإمام أبو حنيفة : الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إليَّ من كثير من الفقه ؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم .

قال تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ [يوسف: ١١١].

وقال تعالى لنبيه : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ... ﴾ [الأنعام : ٩] .

قال مالك بن دينار : الحكايات تحفُّ الجنة .

وقال الجنيد : الحكايات جندٌ من جنود الله عز وجل ، يُقوِّي بها إيمان المريدين ، فقيل له : هل لهذا من شاهد ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **وكُلًّا نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نُثبِّت به فؤادك** ﴾ .

«وخير وسيلة لإشعال العزائم، وإثارة الروح الوثَّابة، وقدْح المواهب، وإذكاء الهِمَم ، وتقويم الأخلاق ، والتسامي إلى معالي الأمور ، والترفُّع عن سَفْسَافها ، والائتساء بالأسلاف الأجلّاء – هو قراءة سِيَر النُّبغاء الصُّلحاء ، والتملِّي من اجتلاء مناقب الصالحين الربَّانيين ، والاقتراب من العلماء النُّبهاء العاملين المُجدِّين . فذلك خير مهماز لرفع الهِمَم ، وشدِّ العزائم ، وسُمُوِّ المقاصد ، وإنارة القلوب ، واحتلال ذُرَى المجد الرفيع ، واغتنام الباقيات الصالحات ، وإخلاص النيَّات »[1] .

وهذه نقطة من بحار السلف ... وعجائبهم ... فارعها قلبَك ، وإن كانت غريبة في عالمنا ... وأي شيء عندهم لا يكون اليوم غريبًا ، ولسان حالهم يقول :

تركنا البحارَ الزاخراتِ وراءنا ... فمن أين يدري الناسُ أنَّا توجَّهنا

(١) «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» لأبي غدة صـ ١٧- ١٨، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب .

الإخلاص في الصلاة :

فهذا الربيع بن خثيم تلميذ عبد الله بن مسعود الذي قال فيه عبد الله بن مسعود : ياأبا يزيد ، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك ، وما رأيتُك إلا ذكرتُ المُخبتين ، وكان إذا دخل على عبد الله بن مسعود لم يكن عليه إذنٌ لأحد ، حتى يفرغ كل واحد من صاحبه(١) .

ما رُئي الربيع مُتطوِّعًا في مسجد قومه قطُّ إلا مرة واحدة .

وعامر بن عبد قيس : ما رُئي مُتطوِّعًا في المسجد قط(٢) .

قال أبو تميم بن مالك : كان منصور بن المعتمر إذا صلى الغداة ؛ أظهر النشاط لأصحابه ، فيُحدِّثهم ويُكثر إليهم ، ولعله إنما بات قائمًا على أطرافه ، كل ذلك ليُخفي عليهم العمل(٣) .

وهذا السليم الأسلم المذكور بالسواد الأعظم ، الطوسي محمد بن أسلم ، قال خادمه أبو عبد الله : صحبتُ محمد بن أسلم نيِّفًا وعشرين سنة لم أره يُصلي حيث أراه من التطوع إلا يوم الجمعة ، ولا يُسبِّح ولا يقرأ حيث أراه ، ولم يكن أحد أعلمَ بسرِّه وعلانيته مني ، وسمعتُه يحلف كذا كذا مّرة أن لو قدرتُ أن أتطوع حيث لا يراني ملكاي لفعلتُ ، ولكن لا أستطيع ذلك ؛ خوفًا من الرياء(٤) .

وهذا شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك نورُ مروٍ وجمالُها ، ونجمُها وهلالُها ، يقول عنه محمد بن أعين – وكان صاحبه في أسفاره ، وكان كريمًا

---

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٠٦ .

(٢) الزهد لابن حنبل صـ ٢٢٣ .

(٣) صفة الصفوة ٣ / ١١٤ .

(٤) صفة الصفوة ٤ / ١٢٦ ، الحلية ٩ / ٢٤٣ .

عليه -: كان ذات ليلة ونحن في غزاة الروم ، ذهب ليضع رأسه ليُريني أنه ينام ، فقلتُ : أنا برمحي في يدي قبضت عليه ، ووضعتُ رأسي على الرمح كأني أنام كذلك ، قال : فظنَّ إني قد نمتُ ، فقام فأخذ في صلاته ، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر وأنا أرمُقُه ، فلمّا طلع الفجر أيقظني وظنّ أني نائم ، وقال : يامحمد ، فقلتُ : إني لم أنم . قال : فلما سمعها مني ما رأيتُه بعد ذلك يُكلِّمني ولا ينبسط إليَّ في شيء من غزاته كلها ، كأنه لم يُعجبْه ذلك مني ، لما فطنتُ له من العمل ، فلم أزل أعرفها فيه حتى مات ، ولم أر رجلًا أسرَّ بالخير منه[1] .

وقال علي بن الحسن بن شقيق : لم أر أحدًا من الناس أقرأ من ابن المبارك ولا أحسن قراءةً ، ولا أكثر صلاةً منه ، كان يُصلِّي الليل كله في السفر وغيره ، وإنما ترك النوم في المحمل ؛ لأنه كان يُصلِّي ، وكان الناس لا يدرون .

وهذا سيِّدُ الفتيان ، وفتى العُبَّاد والرُّهبان : السختياني ؛ أيوب بن كيسان ، يقوم الليل كلهُ ، فيُخفي ذلك ، فإذا كان عند الصبح رفع صوته ، كأنه قام تلك الساعة[2] .

ولكن كيف يُخفي الليلُ بدرًا ساطعًا ؟!

أسائل عمن لا أريدُ وإنما ... أريدكُمُ من بينهم بسؤالي
فيعثر ما بين الكلام ورجعهِ ... لساني بكم حتى ينمَّ بحالي
وأطوي على ما تعلمون جوانحي ... وأُظهرُ للعذّال أني سالي

رحمك الله ياسيِّد الفقهاء ؛ لسان حالك يقول :

أُكلِّفُ القلبَ أن يهوى وأُلزمُه ... صبرًا وذلك جمعٌ بين أضدادِ

---

(١) الجرح والتعديل ١ / ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٢) حلية الأولياء ٣ / ٨ .

وأكتمُ الركبَ أوطاري وأسألُهُ حاجاتِ نفسي لقد أتعبتُ زوَّادي
هل مدلجٌ عنده من مبكرٍ خبر وكيف يعلمُ حالَ الرائح الغادي

وكان ابن أبي ليلى إذا دخل داخل وهو يُصلي اضطجع على فراشه .

أفدي ظباءَ فلاةٍ ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبْغَ الحواجيبِ[1]

وهذا زيْنُ القراء محمد بن واسع ، يقول عنه أبو الطَّيب موسى بن بشّار : صحبتُ محمد بن واسع من مكة إلى البصرة ، فكان يُصلِّي الليل أجمع في المحمل جالسًا يومىء برأسه إيماءً ، وكان يأمر الحادي يكون خلفه ، ويرفع صوته حتى لا يفطن له، وكان ربما عرَّس من الليل فينزل فيُصلِّي، فإذا أصبح أيقظ أصحابه رَجُلًا رَجُلًا، فيجيء إليه فيقول: الصلاة الصلاة[2].

وهذا نجيب بني أمية عمر بن عبد العزيز :

كانت له درَّاعةٌ من شَعْرٍ ، وغُلٌّ ، وكان له بيتٌ في جوف بيت ، يُصلِّي فيه ، لا يدخل فيه أحدٌ ، فإذا كان في آخر الليل فتح ذلك السفط ، ولبس تلك الدرَّاعة ، ووضع الغلَّ في عُنقه ، فلا يزال يُناجي ربه ويبكي ، حتى يطلع الفجر[3] .

قال أبو إسحاق كعب الأحبار صاحب الكتب والأسفار : من تعبَّد لله ليلة حيث لا يراه أحد يعرفه ، خرج من ذنوبه كما يخرج من ليلته[4] .

وأبو سلمة مسعر بن كدام ، يقول عنه ابنه محمد : كان أبي لا ينام حتى يقرأ نصف القرآن ، فإذا فرغ من وِرْده لفَّ رداءه ، ثم هجع عليه هجعة خفيفة ، ثم يثِبُ كما يثِبُ الرجلُ الذي فُقد منه شيء فهو يطلبه ، وإنما هو

(١) المدهش لابن الجوزي صـ ٤١٥ .
(٢) حلية الأولياء ٢ / ٣٤٦ .
(٣) حلية الأولياء ٥ / ٢٩١ .
(٤) حلية الأولياء ٥ / ٣٨٣ .

السواك والطهور ، ثم يستقبل المحراب فكذلك إلى الفجر ، وكان يجتهد على إخفاء ذلك جدًّا[١] .

وحسان بن أبي سنان ، تقول عنه زوجه : كان يجيء فيدخل في فراشي ، ثم يُخادعني كما تخادع المرأة صبيَّها ، فإذا علم أني نمتُ سلَّ نفسه فخرج، ثم يقوم فيُصلِّي، قالت: فقلتُ له: ياأبا عبد الله، كم تُعذِّب نفسك، ارفق بنفسك ، فقال : اسكتي ، ويحك ، فيوشك أن أرقد رقدةً لا أقوم منها زمانًا[٢] .

صدقة السِّر :

ولله ما أحلى قول نبينا ﷺ في السبعة الذين يُظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه : « ورجلٌ تصدَّق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شمالُه ما تُنفقُ يمينُه » .

ولبيت النبوة القدّحُ المعلَّى في ذلك :

فهذا زيْنُ العابدين علي بن الحسين رحمه الله يقول عنه أبو حمزة الثمالي : كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل ، فيتصدَّق به ، ويقول : إن صدقة السرِّ تطفيء غضب الرب عزَّ وجلَّ .

وعن شيبة بن نعامة : كان علي بن الحسين يُبَخَّل ، فلما مات وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة .

قال جرير : إنه حين مات وجدوا بظهره آثارًا مما كان يحمل بالليل الجِرَب إلى المساكين .

وقال عمرو بن ثابت : لمّا مات علي بن الحسين فغسَّلوه ؛ جعلوا ينظرون إلى آثار سواد بظهره ، فقالوا : ما هذا ؟ فقيل : كان يحمل جِرَبَ

---

(١) حلية الأولياء ٧ / ٢١٦ .
(٢) حلية الأولياء ٣ / ١١٧ .

الدقيق ليلًا على ظهْره ،يُعطيه فقراء أهل المدينة .

وعن محمد بن إسحاق : كان ناس من أهل المدينة يعيشون ، لايدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يُؤتَون به في الليل .

وعن ابن عائشة قال : قال أبي : سَمعتُ أهل المدينة يقولون : ما فقدنا صدقة السرّ حتى مات علي بن الحسين(١) .

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَهُ ... والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحرمُ
يكادُ يمسكه عرفانُ راحتِهِ ... عند الحطِيم إذا ما جاء يستلمُ
إذا رأته قريشٌ قال قائلُها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرمُ

وشيخ الإسلام عبد الله بن المبارك ، يقول عنه محمد بن عيسى : كان ابن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس ، وكان ينزل الرَّقة في خانٍ ، فكان شابٌّ يختلف إليه ، ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث ، فقدم عبد الله مرّة فلم يره ، فخرج في النفير مُستعجلًا ، فلما رجع سأل عن الشابِّ ، فقال : محبوس على عشرة آلاف درهم ، فاستدلّ على الغريم ، ووزن له عشرة آلاف، وحلَّفه ألا يُخبر أحدًا ما عاش، فأخرج الرجل، وسرى ابن المبارك، فلحقه الفتى على مرحلتين من الرّقة ، فقال لي : يافتى ، أين كنت ، لم أرك ؟ قال: ياأبا عبد الرحمن، كنت محبوسًا بدَيْن. قال: وكيف خلصت ؟ قال : جاء رجل فقضى دَيْني ولم أدر ، قال : فاحمد الله . ولم يعلم الرجل إلا بعد موت عبد الله(٢) .

الصــوم :

وإذا ذُكر الصومُ وإخفاؤه ، فاذكر داود بن أبي هند .

---

(١) حلية الأولياء ٣ / ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) تاريخ بغداد ١٠ / ١٥٩ .

صام داود بنُ أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله ولا أحد ، وكان خزَّازًا ، يحمل معه غداءه من عندهم ، فيتصدَّق به في الطريق ، ويرجع عشيًّا فيُفطر معهم[(١)] ، فيظنُّ أهلُ السوق أنه قد أكل في البيت ، ويظنُّ أهله أنه قد أكل في السوق .

ومستخبرٍ عن سرِّ حُبِّي رددتُهُ   فأصبح في حُبِّي بغير يقينِ
يقولون خبِّرنا فأنت حبيبُه   وما أنا إن خبَّرتهم بأمينِ

وعمرو بن قيس الملائي : أقام عشرين سنة صائمًا ؛ ما يعلم به أهلُه ، يأخذ غداءه ويغدو إلى الحانوت، فيتصدق بغدائه، ويصوم، وأهله لا يدرون. وكان إذا حضرته الرقّة ، يُحوِّل وجهَه إلى الحائط ، ويقول لجلسائه : ما أشدّ الزكام[(٢)] .

وعن المسيح عيسى ابن مريم قال : إذا كان صومُ يوم أحدكم ، فليدهنْ أو ليمسحْ شفتيه من دهنه ، حتى ينظر إليه الناظر ، فلا يرى أنه صائم ، وإذا صلَّى أحدكم في بيته فليُخف عليه ستره ، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق[(٣)] .

وعَلَمُ الزهاد أبو محفوظ معروف الكرخي : سُئل : كيف تصوم ؟ فغالط السائل وقال : صوم نبينا ﷺ كان كذا وكذا ، وصوم داود كذا وكذا ، فألحَّ عليه ، فقال : أُصبح دهري صائمًا ، فمن دعاني أكلتُ ، ولم أقل إني صائم[(٤)] .

قال إبراهيم بن أدهم : لا تسأل أخاك عن صيامه ، فإن قال : أنا

(١) صفة الصفوة ٣ / ٣٠٠ .
(٢) صفة الصفوة ٣ / ١٢٤ .
(٣) الزهد لهنَّاد بن السري ، ورجاله ثقات .
(٤) تاريخ بغداد ١٣ / ٢٥٢ ، وسير أعلام النبلاء ٩ / ٣٤١ .

صائم فرحتْ نفسُه بذلك، وإنْ قال: أنا غير صائم حزنت نفسه، وكلاهما من علامات الرياء، وفي ذلك فضيحة للمسئول واطِّلاع على عوراته من السائل.

الذِّكْر وقراءة القرآن :

قالت سُرِّية الربيع بن خثيم : كان عملُ الربيع كلُّه سرّا ، إن كان ليجيء الرجل ، وقد نشر المصحف ؛ فيُغطِّيه بثوبه[1] .

قال ابن الجوزي : كان إبراهيم النخعي إذا قرأ في المصحف فدخل داخل غطَّاه[2] .

وإمام أهل السنة أحمد بن حنبل ، يقول عنه تلميذه أبو بكر المروزي : كنتُ مع أبي عبد الله نحوًا من أربعة أشهر بالعسكر ، وكان لايدع قيام الليل وقراءات النهار ، فما علمت بختمة ختمها ، وكان يُسرُّ بذلك .

قال رجل خراساني للإمام : الحمد لله الذي رأيتُك ، فقال له : اقعدْ ، أي شيء ذا ؟ ومن أنا ؟

رحمك الله ياإمام، والله لأنت أولى الناس بقولك: القلانس من السماء تنزل على رؤوس قوم يقولون برؤسهم هكذا وهكذا . والمعنى أنهم لا يُريدون الرئاسة ، وهي تقع عليهم .

قال الإمام أحمد : أشتهي ما لا يكون ... أشتهي مكانًا لا يكون فيه أحد من الناس .

كان شيخ الإسلام إذا أصبح النهار يخرج إلى الصحراء، ويقول مُتمثِّلًا:

وأخرج مِنْ بين البيوت لعلَّني ... أُحدّث عنك القلبَ بالسر خاليا

---

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٠٧ .

(٢) المدهش صـ ٤١٥ .

البكـــاء :

قال الثوري : البكاء عشرة أجزاء ؛ تسعة لغير الله ، وواحد لله ، فإذا جاء الذي لله في السنة مرة فهو كثير(١) .

لشدّ ما حاسبوا أنفسهم ودّققوا ... حتى الدموع ياأمير المؤمنين في الحديث !!.

قال سفيان: إذا استكمل العبد الفجور ملك عينيه، يبكي بهما متى يشاء.

هذا العالم العابد ، الإمام المُدقِّق ، سفيان الثوري ، له مع الفضيل بن عياض– طبيب القلوب– وقفة يحكيها لنا الأصبهاني في حلية الأولياء (٧/٦٤): التَقَى سفيان الثوري وفضيل بن عياض فتذاكرا ، فبكيا ، فقال سفيان : إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظمَ مجلسٍ جلسناه بركةً . قال فضيل : ترجو، لكني أخاف أن يكون أعظمَ مجلسٍ جلسناه علينا شؤمًا، أليس نظرتَ إلى أحسن ما عندك ، فتزيَّنتَ به لي ، وتزيَّنت لك به ، فعبدتَني وعبدتك . قال فبكى سفيان حتى علا نحيبه ، ثم قال : أحياك الله كما أحييتني .

وهذا أيوب السختياني : كان في ثوبه بعضُ الطول لستر الحال ، وكان إذا وعظ فرقَّ ؛ فَرَقَ من الرياء ، فيمسح وجهه ويقول : ما أشدّ الزُّكام !!

أحبس دمعي فيند شاردًا كأنني أضبطُ عبدًا آبقَا
ومن محاشاة الرقيب خلتُني يوم الرحيل في الهوى منافقا(٢)

قال ابن الجوزي : كان ابن سيرين يتحدَّث بالنهار ويضحك ، فإذا جاء الليل فكأنه قتل أهل القرية .

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا الليل هزَّتني إليك المضاجِعُ
أُقضِّي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهمّ بالليل جامع

---

(١) الحلية ٧ / ١١ .
(٢) المدهش ٤١٤ .

كان خوفهم من الرياء يُوجب مدافعة النهار ، فإذا خلوْا بالحبيب لم يصبر الشوق .

أحنُّ بأطرافِ النهارِ صبابــةً وفي الليل يدعوني الهوى فـأُجيبُ
وأيامُنا تفنـى وشوقي زائــدٌ كأنَّ زمانَ الشوق ليس يغيبُ[١]

قال الحسن البصري : إن كان الرجل ليجلسُ المجلس ، فتجيئه عبرته فيردّها ، فإذا خشى أن تسبقه قام[٢] .

قال عبد الكريم بن رشيد: كنت في حلقة الحسن، فجعل رجل يبكي وارتفع صوته ، فقال الحسن : إن الشيطان ليُبكي هذا الآن[٣] .

وعن عيسى بن زاذان قال : يأتي على الناس زمان ؛ يسكن الشيطان في أعين الناس ، فمن شاء أن يبكي بكى[٤] .

عن عاصم قال : كان أبو وائل إذا صلَّى في بيته ينشُجُ نشيجًا ، ولو جُعلت له الدنيا على أن يفعله وأحدٌ يراه ما فعله[٥] .

يقول زيْنُ القرّاء محمد بن واسع : لقد أدركتُ رجالًا ، كان الرجل يكون رأسُه مع رأس امرأته على وسادة واحدة ، قد بلَّ ما تحت خدِّه من دموعه، لا تشعر به امرأته، ولقد أدركتُ رجالًا، يقوم أحدهم في الصف، فتسيل دموعُه على خدِّه ، ولا يشعر به الذي إلى جنبه[٦] .

والله إنها لأغرب من الخيال ... !!

---

(١) المدهش .
(٢) الزهد لأحمد بن حنبل صـ ٢٦٢ .
(٣) الزهد لأحمد صـ ٢٧٣ .
(٤) الزهد لأحمد صـ ٢٧٥ .
(٥) الزهد لأحمد صـ ٣٥٨ .
(٦) حلية الأولياء ٢ / ٣٤٧ .

حالت لفقدكمُ أيامُنا فغدتْ ... سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا
مَنْ مُبلِغُ الملبسينا عنا بانتزاحهم ... حزنا مع الدهر لا يبلى ويُبلينا
أن الزمانَ الذي قد كان يُضحكُنا ... أُنْسًا بقربهمُ قد عاد يُبكينا
ليُسقَ عهدُكمُ عهدُ السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينَا

قال محمد بن واسع : إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به(١) .

قال حمّاد بن زيد : دخلنا على محمد بن واسع في مرضه نعوده . قال : فجاء يحيى البكَّاء يستأذن عليه ، فقالوا : ياأبا عبد الله ، هذا أخوك أبو سلمة على الباب . قال : منْ أبو سلمة ؟ قالوا : يحيى . قال : منْ يحيى ؟ قالوا : يحيى البكَّاء . قال حمَّاد : وقد علم أنه يحيى البكَّاء ؟! فقال : إن شرّ أيامكم يومٌ نسبتم فيه إلى البكاء(٢) .

قال سفيان بن عُيينة : أصابتني ذات يوم رِقَّةٌ فبكيتُ ، فقلتُ في نفسي: لو كان بعض أصحابنا لرقَّ معي، ثم غفوتُ، فأتاني آتٍ في منامي، فرفسني ، وقال : ياسفيان ، خذْ أجرك ممّنْ أحببتَ أن يراك .

عن القاسم بن محمد قال : كنا نسافر مع ابن المبارك ، فكثيرًا ما كان يخطر ببالي ، فأقول في نفسي : بأي شيء فضُل هذا الرجل علينا ، حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة ، إن كان يُصلّي إنا لنُصلّي ، وإنْ كان يصوم إنا لنصوم ، وإن كان يغزو فإنا لنغزو ، وإن كان يحجّ إنا لنحجّ ؟! قال : فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشَّى في بيت، إذ طُفِيء السِّراج، فقام بعضنا فأخذ السِّراج، وخرج يستصبح، فمكث هنيهة، ثم جاء بالسراج، فنظرتُ إلى وجه ابن المبارك ، ولحيته قد ابتلّت من الدموع ، فقلتُ في

---

(١) حلية الأولياء ٢ / ٣٤٧ .
(٢) حلية الأولياء ٢ / ٣٤٧ .

نفسي : بهذه الخشية فضُل هذا الرجل علينا ، ولعلّه حين فُقد السراج فصار إلى ظُلْمةٍ ذكر القيامة[(١)] .

وهذا شيخ الإسلام محمد بن أسلم الطوسي ، يقول عنه خادمه أبو عبد الله : كان محمد يدخل بيتًا ويُغلق بابه ، ويُدخل معه كوزًا من ماء ، فلم أدر ما يصنع ، حتى سمعتُ ابنًا صغيرًا له يبكي بكاءه ، فنهتْه أُمُّه ، فقلتُ لها : ما هذا البكاء ؟ فقالت : إن أبا الحسن يدخل هذا البيت ، فيقرأ القرآن ويبكي ، فيسمعه الصبي فيحكيه ، فكان إذا أراد أن يخرج غسل وجهه ؛ فلا يُرى عليه أثرُ البكاء . وكان يصل قومًا ويُعطيهم ويكسوهم ، فيبعث إليهم ، ويقول للرسول : انظر أن لا يعلموا مَنْ بعثه إليهم ، فيأتيهم هو بالليل ، فيذهب به إليهم ، ويُخفي نفسه ، فربما بليتْ ثيابُهم ، ونفد ما عندهم ، ولا يدرون مَنِ الذي أعطاهم[(٢)] .

لله دَرُّك ياأبا الحسن !!

لما مات الطوسي قالوا لأحمد بن نصر : ياأبا عبد الله ، صلَّى عليه ألفَ ألفٍ من الناس ، وقال بعضهم : ألف ألفٍ ومائة ألفٍ من الناس ؛ يقول صالحهم وطالحهم : لم نعرف لهذا الرجل نظيرًا ، فقال أحمد بن نصر : ياقوم ، أصلِحوا سرائركم بينكم وبين الله ، ألا ترون رجلًا دخل بيته بطوس ، فأصلح سرَّه بينه وبين الناس ، ثم نقله الله إلينا ، فأصلح الله على يديه ألف ألفٍ ومائة ألفٍ من الناس[(٣)] .

الدعـاء :

قال ابن المنكدر : إني لَلَيلة حذاء هذا المنبر جوف الليل أدعو ، إذا

---

(١) صفة الصفوة ٤ / ١٢١ .

(٢) حلية الأولياء ٩ / ٢٤٣ .

(٣) حلية الأولياء ٩ / ٢٤٠ - ٢٤١ .

إنسانٌ عند أُسطوانة ، مقنّعٌ رأسَه ، فأسمعه يقول : أيْ رب ، إن القحط قد اشتدَّ على عبادك ، وإني مُقسِمٌ عليك يارب إلا سقيتَهم ! قال : فما كان إلا ساعة ، إذا بسحابة قد أقبلت ، ثم أرسلها الله سبحانه ، وكان عزيزًا على ابن المنكدر أن يخفى عليه أحدٌ من أهل الخير ، فقال : هذا بالمدينة ولا أعرفه ؟! فلما سلَّم الإمام تقنَّع وانصرف ، فاتَّبعه ، ولم يجلس للقاصّ ، حتى أتى دار أنس ، فدخل موضعًا ، وأخرج مفتاحًا ففتح ثم دخل . قال : ورجعتُ ، فلما سبَّحت أتيتُه ، فإذا أنا أسمع نجرًا في بيته ، فسلمتُ ، ثم قلتُ : أدخل ؟ قال : ادخل ، فإذا هو ينجر أقداحًا يعملها ! فقلت : كيف أصبحتَ أصلحك الله ؟ قال : فاستشهدها وأعظمَها مني ، فلما رأيتُ ذلك ، قلتُ : إني سمعتُ إقسامك البارحة على الله عز وجل . ياأخي ، هل لك في نفقة تغنيك عن هذا ، وتُفرِّغُك لما تُريد من الآخرة ؟ فقال : لا ! ولكن غير ذلك لا تذكرْني لأحد ، ولا تذكرْ هذا عند أحد حتى أموت ، ولا تأتِـني ياابن المنكدر ، فإنك إن تأتني شهرتني للناس ، فقلتُ : إني أُحبُّ أن ألقاك ، قال : القني في المسجد ، وكان فارسيًّا . قال : فما ذكر ذلك ابن المنكدر لأحد حتى مات الرجل . قال ابن وهب : بلغني أنه انتقل من ذلك الدار ، فلم يره ولم يدر أين ذهب ، فقال أهل تلك الدار : الله بيننا وبين ابن المنكدر ، أخرجَ عنا الرجل الصالح(١) .

العلـم :

قال الشافعي : وددتُ أنَّ الخلق تعلموا هذا(٢)، على أن لا يُنسَب إليَّ حرفٌ منه .

وقال عون بن عمارة: سمعتُ هشامًا الدستوائي يقول: والله ما أستطيع

---

(١) حلية الأولياء ٣ / ١٥٢ .

(٢) يقصد عِلْمَهُ .

أن أقول : إني ذهبتُ يومًا قطُّ أطلبُ الحديث أُريد به وجه الله عز وجلّ .

قال الذهبي: والله ولا أنا، فقد كان السلف يطلبون العلم لله؛ فنبلوا...

فنسأل الله النجاةَ والعفو ، كما قال بعضهم : ما أنا عالم ولا رأيتُ عالمًا[1] .

والإمام أبو الحسن الماوردي علي بن محمد بن حبيب شيخ الشافعية .
قيل : إنه لم يُظهر شيئًا من تصانيفه في حياته ، وجمعها في موضع ، فلما دنت وفاتُه ؛ قال لمن يثق به : الكتب التي في المكان الفلاني كُلُّها تصنيفي ، وإنما لم أُظهرها ؛ لأني لم أجد نيَّة خالصة ، فإذا عاينتُ الموت ووقعت في النزع ؛ فاجعل يدك في يدي ، فإن قبضتُ عليها وعصرتُها ؛ فاعلم أنه لم يُقبل مني شيء منها ، فاعمد إلى الكتب وألقها في دجلة ، وإن بسطتُ يدي ولم أقبض على يدك ؛ فاعلم أنها قد قُبِلت ، وأني قد ظفرتُ بما كنتُ أرجوه من النيّة .

قال ذلك الشخص: فلما قارب الموتَ وضعتُ يدي في يده؛ فبسطها ولم يقبض على يدي، فعلمتُ أنها علامة القبول، فأظهرت كُتُبَه بعده.

قلتُ[2]: لعلَّ هذا بالنسبة إلى «الحاوي»، وإلا فقد رأيتُ من مُصنَّفاته غيره كثيرًا، وعليه خطُّه، ومنه ما أكملتُ قراءته عليه في حياته[3].

الزهـــد :

هذا عَلَمُ الزُّهَّاد أيوب السختياني يقول: ليتَّقِ الله رجلٌ، فإن زهد فلا يجعلنَّ زهده عذابًا على الناس؛ فلَأَنْ يُخفي الرجل زهده خيرٌ من أن يُعلنه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧ / ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) أي التاج السبكي صاحب كتاب طبقات الشافعية الكبرى .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٥ / ٢٦٨ - ٢٦٩ .

قال حمَّاد : وكان أيوب ممّن يُخفي زُهْدَه ؛ دخلنا عليه فإذا هو على فراش مخنس أحمر ، فرفعتُه ، أو رفعه بعض أصحابنا ، فإذا خَصَفَة محشوَّة بليف[١] .

وكان الإمام الربَّاني العابد هارون بن رئاب يُخفي الزهد ويلبس الصوف تحت ، وكان النور على وجهه[٢] .

الجهــــاد :

قال رسول الله ﷺ : « لَصوتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من ألف رجل »[٣] ... فهذا صوتُه ، فكيف رُمحُهُ ؟!

وقال رسول الله ﷺ : « كم من أشعث أغبر ذي طِمرين ، لا يُؤبَه له ، لو أقسم على الله لأبرَّه ؛ منهم البراء بن مالك »[٤] .

وقال ﷺ: «رُبَّ ذي طمرينِ لا يُؤبَه له، لو أقسمِ على الله لأبرَّه»[٥].

وقال ﷺ: «رُبَّ أشعثٍ مدفوع بالأبواب، لو اقسم على الله لأبرَّه»[٦].

لقي البراء المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين ، فقالوا له : يا براء ، إن رسول الله ﷺ قال : إنك لو اقسمتَ على الله لأبرَّك ، فأقسِمْ على ربك . قال : أُقسِمُ عليك يارب لما منحتنا أكتافهم ... وذكر الحديث ، وانتصر المسلمون في هذه المعركة بإخلاص البراء ودعائه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦ / ١٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٦٣ .

(٣) صحيح : أخرجه الحاكم عن جابر ، وصححَّه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٩٥٧) .

(٤) حسن صحيح : أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك .

(٥) صحيح: رواه البزار عن مسعود، وصححَّه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٤٨١).

(٦) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .

وهذا الصحابي العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه : يخوض البحر على فرسه في يوم دارين ، ومعه جيش المسلمين ، فما ابتلَّ لهم سرْجٌ ... يجوزون الخليج ... وإنَّ ما بين دارين والساحل مسيرة يوم وليلة لسفر البحر ، يقول عفيف بن المنذر :

ألم تر أن الله ذلَّل بحْرَهُ وأنزل بالكفار إحدى الجلائل

دعونا الذي شقَّ البحارَ فجاءنا بأعجب من فلْق البحار الأوائل

وكان أبو هريرة يقول : رأيتُ من العلاء ثلاثة أشياء ، لا أزال أُحِبُّه أبدًا : قطع البحر على فرسه يوم دارين ، وقدم يُريد البحرين ، فدعا الله بالدَّهناء ، فنبع لهم ماءٌ فارتووا . ونسي رجلٌ منهم بعض متاعه ، فردَّ ، فلقيه ، ولم يجد الماء . ومات ونحن على غير ماء ، فأبدى الله لنا سحابةً ، فمطرنا ، فغسَّلناه ، وحفرنا له بسيوفنا ودفناه ، ولم نلحد له[1] .

وقد أسنده ابن أبي الدنيا عن عبد الملك بن سهم عن سهم بن منجاب قال : غزونا مع العلاء الحضرمي ... فذكره . وقال في الدعاء : ياعليم ، ياحليم ، ياعليّ ، ياعظيم ، إنا عبيدُك ، وفي سبيلك نُقاتل عدوَّك ، اسقنا غيثًا نشرب منه ونتوضأ ، فإذا تركناه فلا تجعل لأحد فيه نصيبًا غيرنا . وقال في البحر : اجعل لنا سبيلًا إلى عدوِّك . وقال في الموت : اخفِ جثتي ، ولا تُطلِع عورتي أحدًا ، فلم يُقدَرْ عليه .

وعند البيهقي مرسلًا : قال : فحفرنا له وغسَّلناه ودفناه ، فأتى رجلٌ بعد فراغنا من دفنه ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقلنا : هذا خيرُ البشر ، هذا ابن الحضرمي ، فقال إن هذه الأرض تلفظ الموتى ، فلو نقلتموه إلى ميل أو ميلين ؛ إلى الأرض تقبل الموتى ، فقلنا : ما جزاء صاحبنا أن نُعرِّضه للسباع تأكله ، قال : فاجتمعنا على نبشه ، فلما وصلنا إلى اللحد إذا صاحبنا ليس

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

فيه ، وإذا اللحد مدُّ البصر نور يتلألأ ، قال : فأعدنا التراب إلى اللحد ، ثم ارتحلنا[١] .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا ياجريرُ المجامعُ

وسيِّدُ فرسان الحديث عبد الله بن المبارك ... وما أدراك ما عبد الله ابن المبارك !!

قال عبدة بن سليمان : كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم ، فصادفنا العدو ، فلما التقى الصفَّان ؛ خرج رجل من العدو ، فدعا إلى البراز ، فخرج إليه رجل ، فطارده ساعة ، فطعنه فقتله ، ثم آخر فقتله ، ثم آخر فقتله ، ثم دعا إلى البِراز ، فخرج إليه رجل ، فطارده ساعة ، فطعنه فقتله ، فازدحم عليه الناس ، وكنت فيمن ازدحم عليه ، فإذا هو يلثم وجهه بِكُمِّه ، فأخذتُ بطرف كُمِّهِ فمددتُه ، فإذا هو عبد الله بن المبارك ، فقال : وأنت يا أبا عمرو ممن يُشنِّع علينا[٢] ... ممن يُشنِّع !! وكأن في الأمر إظهارًا للمساوىء ... إن كانت هذه مساوىء ، فكيف بالحسنات !!

ولهذه القصة أختٌ عند عمر ، وبذكر عمر تطيبُ المجالس :

قضاء حوائج المسلمين :

قال طلحة بن عبيد الله : خرج عمر ليلة في سواد الليل ، فدخل بيتًا ، فلما أصبحتُ ذهبتُ إلى ذلك البيت ، فإذا عجوز عمياء مُقعدة ، فقلتُ لها : ما بال هذا الرجل يأتيكي ؟ فقالت : إنه يتعاهدُني مدة كذا وكذا ، يأتيني بما يُصلحني، ويُخرج عني الأذى فقلتُ لنفسي: ثكلتْك أُمُّك ياطلحة، أعثرات عمر تُتَّبع ؟!![٣] .

---

(١) البداية والنهاية ٥ / ١٦٣ .

(٢) صفة الصفوة ٤ / ١١٩ .

(٣) البداية والنهاية ٧ / ١٣٩ - ١٤٠ .

وهذه عثرات ... تبارك خالق هذه الهمم !!

أصحاب السرائر والخوف من الشهرة :

قال عبد الرحمن بن مهدي : قلت لابن المبارك : إبراهيم بن أدهم ممن سمع ؟ قال قد سمع من الناس ، وله فضلٌ في نفسه ، صاحبُ سرائر ، وما رأيته يُظهر تسبيحًا ، ولا شيئًا من الخير ، ولا أكل مع قوم قط ، إلا كان آخر مَنْ يرفع يده[١] . كان إبراهيم يقول : أعربنا في الكلام ، ولحنّا في العمل .

قال سفيان : كان إبراهيم بن أدهم يُشبه إبراهيم الخليل ، ولو كان في الصحابة لكان رجلًا فاضلًا .. له سرائر ، وما رأيتُه يُظهر تسبيحًا ولا شيئًا[٢] .

قال إبراهيم بن أدهم : ما صدق الله عبدٌ أحبَّ الشهرة[٣] .

لله ما أندى ذكرك يابن أدهم من صادق ، وافق عملك قولَك !!

ذكر إبراهيم بن أدهم نِطارَتَهُ الرُّمَّان ، وقال الخادم له : أنت تأكل فاكهتنا ، ولا تعرف الحُلو من الحامض ؟ قلت : والله ما ذقتُها ، فقال : أتراك لو أنك إبراهيم بن أدهم ، فانصرف فلما كان من الغد ، ذكر صفتي في المسجد ، فعرفني بعض الناس ، فجاء الخادم ومعه عُنُق[٤] من الناس ، فاختفيتُ خلف الشجر، والناس داخلون، فاختلطت معهم وأنا هارب[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٩٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٩٠ ، والبداية والنهاية ١٠ / ١٣٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٩٣ .

(٤) العُنُق : الجماعة من الناس والرؤساء .

(٥) السير ٧ / ٣٩٦ .

يقول إمام الوعاظ ابن الجوزي في المدهش صـ ٤١٥ :

اشتهر ابن أدهم ببلد ، فقيل : هو في البستان الفلاني ، فدخل الناس يطوفون ويقولون : أين إبراهيم بن أدهم ؟ فجعل يطوف معهم ويقول : أين إبراهيم بن أدهم ؟!

ضنًّا بأن يعلمَ الناسُ الهوى ولمن   وهبتُ للسرّ فيه لذة العلـنِ
عرِّضْ بغيري ودعني في ظنونهم   إنْ قيل مَنْ بك يُخفي الحق في الظّنِ

مرض إبراهيم بن أدهم ، فجعل عند رأسه ما يأكله الأصحَّاء ؛ لئلا يتشبَّه بالشاكين ، هذه والله بهرجة أصحُّ من نقدك .

قد سحب الناسُ أذيالَ الظنون بنا   وفرّق الناسُ فينا قولَهم فرقا
فكاذبٌ قد رمى بالظن غيرَكم   وصادقٌ ليس يدري أنه صَدَقَا

قال الإمام الحافظ القدوة عبد الله بن داود الخُرَيْبي : كانوا يستحبُّون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح ، لا تعلمُ به زوجتُه ولا غيرها[١] .

وانظر إلى العلاء بن زياد العدوي الذي قال فيه الحسن البصري : إلى هذا والله انتهى استقلال الحزن .

قال له رجل : رأيتُ كأنك في الجنة ، فقال له : ويحك !! أما وجد الشيطان أحدًا يسخر به غيري وغيرك[٢] .

وإبراهيم النخعي الإمام الفقيه : كان لا يجلس إلى السارية – العمود – في المسجد ، توقيًا للشهرة .

وكان يقول : تكلَّمتُ ، ولو وجدتُ بُدًّا ما تكلَّمتُ ، فإن زمانًا أكونُ فيه فقيه الكوفة لَزمانُ سوء[٣] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩ / ٣٤٦ – ٣٥٢ .
(٢) حلية الأولياء ٢ / ٢٤٥ .
(٣) الحلية ٤ / ٢٢٣ ، وصفة الصفوة ، سير أعلام النبلاء .

وكان يقول :

خلت الديارُ فسُدْتُ غير مُسوّدِ ومن البلاء تفرُّدي بالسؤدد

وكان محمد بن يوسف الأصبهاني عروس الزهاد لا يشتري زاده من خبَّاز واحد. قال: لعلهم يعرفوني فيحابوني، فأكون ممن أعيش بديني[١].

وأبو محيريز عبد الله بن مُحيريز الذي قال فيه رجاء بن حيوة : إن كنتُ لأُعُدُّ بقاء ابن مُحيريز أمانًا لأهل الأرض .

عن بشير بن صالح قال : دخل ابن مُحيريز حانوتًا بدانق ، وهو يريد أن يشتري ثوبًا ، فقال رجل لصاحب الحانوت : هذا ابن مُحيريز ، فأحسن بيْعَه ، فغضب ابن مُحيريز وخرج ، وقال : إنما نشتري بأموالنا ، لسنا نشتري بديننا .

وكان ابن محيريز يقول : اللهم إني أسألك ذكْرًا خاملًا .

قال عبد الله بن عوف القاري : لقد رأيتُنا برودس ، وما في الجيش أحدٌ أكثر صلاةً من ابن مُحيريز في العلانية ، ثم أقصر عن ذلك حين شُهر وعُرِف[٢] .

وهذا الإمام المرضيُ ، الوَرِعُ التَّقي ، أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري ، الذي كانت له النّكتُ الرائقة ، والتُّحَفُ الفائقة ، المُسلَّم له في الإمامة ، المُثبت به الرعاية ، مَنْ كان العلمُ حليفه والزهدُ أليفَه ، الذي قال فيه شعبة : سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث .

قال ابن المبارك : قال لي سفيان : إياك والشهرة ، فما أتيتُ أحدًا إلا وقد نهاني عن الشهرة[٣] .

---

(١) الحلية ٨ / ٢٣١ .
(٢) صفة الصفوة ٤ / ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
(٣) الحلية ٧ / ٢٣ .

قال خلف بن تميم : رأيتُ سفيان الثوري بمكة وقد أكثر عليه أصحاب الحديث ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أخاف أن يكون الله ضيّع هذه الأمة حيث احتجَّ إلى مثلي(١) .

يقول هذا رحمه الله ، وإمام أهل السنة أحمد يقول عنه : أتدري مَنِ الإمامُ ؟ الإمام سفيان الثوري ، لا يتقدَّمه أحدٌ في قلبي .

وكان رحمه الله لا يترك أحدًا يجلس إليه ، إلا نحو ثلاثة أنفس ، فغفل يومًا ، فرأى الحلقة قد كبُرت ، فقام فزعًا ، وقال : أُخِذنا والله ولم نشعر ، والله لو أدرك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه مثلي وهو جالس في هذا المجلس ؛ لأقامه وقال له : مثلُك لا يصلح لذلك .

وكان يقول : قلَّ عالمٌ تكبرُ حلقة درسه ، إلا ويدخُلُه العُجْبُ .

وكان رحمه الله إذا جلس لإملاء الحديث ؛ يجلس مرعوبًا خائفًا ، وكانت السحابة تمرُّ عليه ، فيسكت حتى تمرَّ ، ويقول : أخاف أن يكون فيها حجارةٌ ترجمنا بها .

وكان يقول : كل شيء أظهرتُه من عملي فلا أعُدُّه شيئًا ؛ لعجز أمثالنا عن الإخلاص إذا رآه الناس .

يقول مُعلِّم الخير والإخلاص سفيان : إن أقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة .

قال رحمه الله : ما رأيتُ للإنسان خيرًا من أن يدخل جُحرًا(٢) .

قال الإمام أحمد : كان سفيان الثوري إذا قيل له : رُؤي في المنام ؛ يقول : أنا أعرف بنفسي من أصحاب المنامات .

وكان أشدَّ الناس بُعدًا عن السلاطين ؛ خوفًا على الإخلاص :-

---

(١) الحلية ٧ / ٦٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٠ .

قال الثوري : إن الرجل ليستعير من السلاطين الدابَّة والسرجَ أو اللجام ؛ فيتغيَّر قلبُه لهم .

وقال رحمه الله: إني لألقى الرجل أبغضُه، فيقول لي: كيف أصبحت ؟ فيلين له قلبي ، فكيف بمن أكل ثريدَهم ، ووطيء بساطَهم[1] ؟!

وسيِّدُ البكَّائين الحسن البصري ؛ الذي يُشبه كلامُه كلامَ الأنبياء ، والذي لمَّا سُئل عنه يونس بن عبيد : هل رأيتَ من يعمل بعمل الحسن ؟ فقال : والله ما رأيتُ مَنْ يقول قولَهُ ، حتى أرى مَنْ يعملُ بعمله ... إن الحسن كان إذا تكلَّم أدمى القلوبَ ، ووعْظُ غيره لا يُبكي العيون .

يقول الحسن - الذي مكث ثلاثين سنة لا يضحك -: لقد أدركتُ أقوامًا ، ما أنا عندهم إلا لصٌّ . يقول هذا ويوقن به ، وكأنه حقيقة ؛ لأنه القائل أيضًا : من ذمَّ نفسه في الملأ فقد مدحها ، وذلك من علامات الرياء .

مرَّ الحسن على طاوس وهو يُملي الحديث في الحرم في حلقة كبيرة ، فقرب منه ، وقال له في أُذُنه : إنْ كانت نفسُك تُعجبك فقم من هذا المجلس ، فقام طاوس فورًا .

ومن بعده مرَّ إبراهيم بن أدهم على حلقة بشر الحافي ، فأنكر عليه كِبَرَ حلقة درسِهِ ، وقال : لو كانت هذه الحلقة لأحد من الصحابة ؛ ما أمن على نفسه العُجب .

بشر بن الحارث إمام أهل الورع والزهد ؛ الذي قال : ما اتقى الله مَنْ أحبَّ الشهرة ... يتعلَّم من إبراهيم بن أدهم ... بشر الذي قال الإمام أحمد بعد المحنة ، لما بلغه ثناءُ بشرٍ عليه ؛ قال : الحمد لله الذي رضىً بشرًا بما صنعنا .

قال أحمد بن نصر : كنا قعودًا قُدّام بشر بن الحارث نفسيْن ، قال :

---

(١) حلية الأولياء ٧ / ١٧ ، ٧ / ٤١ .

فجاء الثالث ، فقام ودخل .

وبعث إليه عاصم بن علي : قد اشتدَّ شوقي إليك ، حتى كدتُ أن آتيك من غير إذن ، فعلمتُ كراهيتك لمجيء الرجال ، فإن رأيتَ أن تأذن لي فآتيك لأُسلِّم عليك ، فلعل الله أن ينفعني برؤيتك ، فقال : لا تأْتِني ، فإن في مجيئك إليّ شهرةً عليَّ وعليك .

وقال رحمه الله : لقد شهرني في الدنيا ، فليته لا يفضحني في القيامة . ما أقبح مثلي !! يُظنُّ فيَّ ظنٌّ وأنا على خلافه ، إنما ينبغي لي أن أكون أكبر مما يُظنُّ بي ، إني أكره الموت ، وما يكره الموت إلا مُريب ، ولولا أني مُريب ، لأي شيء أكره الموت ! .

وكان يقول : اللهم استُرْ ، واجعل تحت السِّتر ما تُحبُّ ، فربما سترتَ على ما تكره .

صلَّى رحمه الله ، فقال في سجوده : اللهم إنك تعلمُ فوق عرشك أن الذلَّ أحبُّ إليّ من الشرف ، اللهم إنك تعلمُ فوق عرشك أن الفقر أحبُّ إليّ من الغنى ، اللهم إنك تعلمُ فوق عرشك أني لا أوثر على حُبِّك شيئًا ، فسمعه رجلٌ ، فأخذه الشهيق والبكاء ، فلما سمع الرجل ؛ قال : اللهم إنك تعلمُ أني لو أعلم أن هذا هاهنا لم أتكلم .

قال بشر : لا ينبغي لأمثالنا أن يُظهر من أعماله الصالحة ذرَّة فكيف بأعماله التي دخلها الرياء ، فالأولى بأمثالنا الكتمان !

وشيخ الحجاز سفيان بن عيينة ، قيل له : ألا تجلس فتحدِّثنا ؟ فقال : والله ما أراكم أهلًا لأنْ أُحدِّثكم ، ولا أرى نفسي أهلًا أن تسمعوا مني ، وما مثلي ومثلكم إلَّا كما قال القائل : افتضحوا فاصطلحوا .

وانظر إلى تحقيرهم لأنفسهم وإزرائهم عليها :

أخذ الفضيل بن عياض بيد سفيان بن عيينة إلى الوادي ، وقال له : إن كنتَ تظنُّ أنه بقي على وجه الأرض شرٌّ مِنّي ومنك ؛ فبئس ما تظنُّ .

وكان محمد بن أسلم الطوسي شيخ الإسلام يقول : والذي لا إله إلا هو ، ما رأيتُ نفسًا تُصلّي إلى القبلة شرًّا عندي من نفسي[(١)] .

وقال السري السقطي : ما أُحِبُّ أن أموتَ حيث أعرف ، فقيل له : ولِمَ ذاك يا أبا الحسن ؟ قال : أخاف أن لا يقبلني قبري فأُفتضَح[(٢)] .

وكان مالك بن دينار يقول : إذا ذُكر الصالحون فأفٍّ لي وتُفٍّ .

وقال أيوب السختياني : إذا ذُكر الصالحون كنتُ عنهم بمعزل .

وقال يونس بن عُبيد : إني لأعرف مائة خصلة من خصال البرِّ ، ما فيَّ منها واحدة .

وقال الفضيل : منْ أراد أن ينظر إلى مُراءٍ فلينظر إليَّ .

وقال مطرف بن عبد الله لمّا وقف بعرفة : اللهم لا تردَّهم من أجلي .

وقال بكر بن عبد الله المزني : ما أشرفه من مقام وأرجاه لولا أني فيهم .

قال قتادة : قال عيسى بن مريم : سلوني فإن قلبي ليِّن ، وإني صغير في نفسي[(٣)] .

وقال محمد بن واسع زين القرّاء : لو كان يوجد للذنوب ريحٌ ؛ ما قدرتم أن تدنوا مني من نَتْن ريحي[(٤)] .

وانظر إلى داود الطائي الذي كان ابن المبارك يقول فيه : وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي :

يقول رحمه الله : سبقني العابدون وقُطع بي ، وَا لهْفَاهُ !!

وهو الذي قيل له : لِمَ لا تُسرِّح لحيتك ؟ قال : إني عنها مشغول .

---

(١) الحلية ٩ / ٢٤٤ .

(٢) حلية الأولياء ١٠ / ٩٨ ، ٩٩ .

(٣) الزهد لأحمد صـ ٥٨ .

(٤) صفة الصفوة ٣ / ٢٦٨ .

قال داود : ولو يعلم الناسُ بعض ما نحن فيه ؛ ما ذلَّ لنا لسانٌ بذكر خير أبدًا[(١)] .

وقال رحمه الله : تركتنا الذنوبُ ، وإنا لنستحي من كثير من مجالسة الناس .

رحمك الله ياداود، تقول: تركَتْنا الذنوبُ، ولا تقول: تركْنا الذنوبَ !!

وقال شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك: أُحِبُ الصالحين ولستُ منهم، وأبغضُ الطالحين وأنا شرٌّ منهم[(٢)] .

عن شعيب بن حرب قال : بينا أطوف بالبيت ؛ إذا رجل يشدُّ ثوبي من خلفي ، فالتفتُّ فإذا بفُضيل بن عياض ، فقال : لو شفع فيَّ وفيك أهل السماء ؛ كنا أهلًا أن لا يشفع فينا ، قال شعيب : ولم أكن رأيتُه قبل ذلك بسنة ، قال : فكسرني ، وتمنيْتُ أني لم أكن رأيتُه[(٣)] .

وعن علي بن الحسن قال : بلغ فُضيلًا أنّ جريرًا يُريد أن يأتيه . قال : فأقفل الباب من خارج . قال : فجاء جرير فرأى البابَ مُقفلًا فرجع . قال عليٌّ : فبلغني ذلك ، فأتيته فقلت له : جرير ، فقال : ما يصنع بي ؟ يُظهر محاسن كلامه ، وأُظهِرُ له محاسن كلامي ، فلا يتزيَّن لي ولا أتزيَّن له خيرٌ له[(٤)] .

وقال الفضيل : إني لأسمع صوت حلقة الباب ، فأكره ذلك ؛ قريبًا كان أم بعيدًا ، ولوددت أنه طار في الناس أني قد متُّ ، حتى لا أسمع له بذكر ، ولا يسمع لي بذكر ، وإني لأسمع صوت أصحاب الحديث ،

---

(١) حلية الأولياء ٧ / ٣٥٩ .
(٢) حلية الأولياء ٨ / ١٧ .
(٣) حلية الأولياء ٨ / ٩٠ .
(٤) حلية الأولياء ٨ / ٩٠ .

فيأخذني البول ، فرقًا منهم .

وكان رحمه الله يقول لأصحاب الحديث : لِمَ تُكرهوني على أمر تعلمون أني كاره له ؟ لو كنتُ عبدًا لكم فكرهتكم ، لو أني أعلم إذا دفعتُ ردائي هذا لكم ذهبتم عني ؛ لدفعته إليكم .

وقال رحمه الله : لو رأيتُ رجلًا اجتمع الناس حوله ؛ لقلتُ : هذا مجنون ، ومن الذي اجتمع الناس حوله لا يُحب أن يُجوِّد لهم كلامه !

وقال للحسين بن زياد : احفظْ لسانك ، وأقبلْ على شانك واعرف زمانك ، وأخفِ مكانك .

وقال له: عساك ترى أن في ذلك المسجد- يعني المسجد الحرام- رجلًا شرًّا منك ، إن كنت ترى فيه ، فقد ابتُليت بعظيم[(١)] .

وقال رحمه الله : تُريد الجنة مع النبيين والصدِّيقين ، وتُريد أن تقف المواقف مع نوح وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، بأي عمل ، وأي شهوةٍ تركتها لله عز وجلّ ، وأي قريب باعدتَه في الله ، وأيّ بعيد قرَّبتَه في الله !! ثم قال رحمه الله : لا يترك الشيطان الإنسان ، حتى يحتال له بكل وجه ، فيستخرج منه ما يُخبر به من عمله ، لعله يكون كثير الطواف ، فيقول : ما كان أحلى الطواف الليلة ، أو يكون صائمًا ، فيقول : ما أثقل السحور ، وما أشدّ العطش ، فإن استطعت أن لا تكون مُحدِّثًا ولا مُتكلِّمًا ولا قارئًا ، إن كنتَ بليغًا ؛ قالوا : ما أبلغه وأحسن حديثه وأحسن صوته ، فيُعجبك ذلك فتنتفخ ، وإن لم تكن بليغًا ولا حسنَ الصوت ؛ قالوا : ليس يُحسِن يُحدِّث ، وليس صوتُه بحسن ؛ أحزنك وشقَّ عليك ، فتكون مرائيًا ، وإذا جلست فتكلمت ، ولم تُبال مَنْ ذمَّك ومَنْ مدحك من الله فتكلَّمْ[(٢)] .

---

(١) حلية الأولياء ٨ / ٩٤ - ٩٥ .

(٢) حلية الأولياء ٨ / ٩١ .

عِلُوُّ هِمَّتِهم في الإخلاص بالتجافي عن مجالس الحكَّام والسلاطين :

قيل لداود الطائي : أرأيت رجلًا دخل على الأمراء ، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ؟ قال : أخاف عليه السوط ، قال : إنه يقوى ، قال : أخاف عليه السيف ، قال : إنه يقوى ، قال : أخاف عليه الداء الدفين من العُجب(١) .

قسَّم أمير البصرة أمواله على أهل البصرة ، فبعث إلى مالك بن دينار ، فقبل ، فأتاه محمد بن واسع ، فقال : يامالك ، أقبلتَ جوائز السلطان ؟ قال : يا أبا بكر ، سلْ جُلسائي ، فقالوا : ياأبا بكر ، اشترى بهم رقابًا فأعتقهم ، فقال له محمد بن واسع : أنشُدُك الله ، أقلبُك الساعة له على ما كان قبل أن يُجيزك ؟ قال : اللهم لا ، قال : ترى أيّ شيء دخل عليك ؟ فقال مالك لجلسائه : إنما مالك حمار ، إنما يعبد الله مثلُ محمد بن واسع .

قال عطاء بن مسلم : لما استخلف المهدي بعث إلى سفيان ، فلما دخل عليه ؛ خلع خاتمه فرمى به إليه ، فقال : يا أبا عبد الله ، هذا خاتمي ، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة ، فأخذ الخاتم بيده ، وقال : تأذن في الكلام ياأمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قال : أتكلَّم على أني آمِنٌ ؟ قال : نعم ، قال : لا تبعث إليَّ حتى آتيك ، ولا تُعطني شيئًا حتى أسألك ، قال : فغضب من ذلك وهمَّ به ، فقال له كاتبه : أليس قد أمَّنته يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلى ، فلما خرج حفَّ به أصحابه ، فقالوا : ما منعك ياأبا عبد الله ، وقد أمرك أن تعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة ؟ قال: فاستصغر عقولهم، ثم خرج هاربًا إلى البصرة(٢) .

---

(١) حلية الأولياء ٧ / ٣٥٨ .
(٢) حلية الأولياء ٧ / ٤٠ - ٤١ .

خاتمة ... مَوْقفان لجبلين من شيوخ الإسلام وعُلُوِّ هِمَّتهما في الإخلاص :

أما الأول فهو أمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري :

قال عبد الرزاق : بعث أبو جعفر الخشّابين حين خرج إلى مكة ، فقال : إن رأيتم سفيان الثوري فاصلبوه ، قال : فجاء النّجارون ، فصلبوا الخشب ، ونُودي سفيان ، فإذا رأسُهُ في حجر فُضَيل بن عياض ، ورجلاه في حجر ابن عُيينة ، فقالوا له : ياأبا عبد الله ، اتق الله ولا تُشمتْ بنا الأعداء ، قال : فتقدَّم إلى الأستار ، ثم دخله ، ثم أخذه وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، قال : فمات قبل أن يدخل مكة ، فأخبر بذلك سفيان فلم يقل شيئًا[1] .

قال الذهبي في السير ٧ / ٢٥١ : هذه كرامة ثابتة .

أما الخبر الثاني فهو عن شيخ الإسلام الواعظ القدوة أبو عثمان الحيري :

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤ / ٦٥) :

ذكر الحاكم أخبار أبي عثمان في خمس وعشرين ورقة ، وفي غضون ذلك من كلامه في التوكُّل واليقين والرضا ؛ قال الحاكم : وسمعتُ أبي يقول : لما قَتَلَ أحمد بن عبد الله الخُجستاني الذي استولى على البلاد - الإمام حَيْكان ابن الذُّهلي؛ أخذ في الظلم والعسف، وأمر بحربة رُكزت على رأس المرّبعة[2]، وجمع الأعيان ، وحلف : إن لم يصبُّوا الدراهم حتى يغيب رأس الحربة ، فقد أحلُّوا دماءهم ، فكانوا يقتسمون الغرامة بينهم ، فخصَّ تاجر بثلاثين ألف درهم ، فلم يكن يقدر إلا على ثلاثة آلاف درهم ، فحملها إلى أبي عثمان ،

---

(١) الحلية ٧ / ٤١ - ٤٢ .

(٢) المرّبعة : خشبية قصيرة يرفع بها العدل ... وقال الأزهري : هي عصا تُحمل بها الأثقال حتى تُوضع على ظهر الدواب .

وقال : أيها الشيخ ، قد حلف هذا كما بلغك ، ووالله لا أهتدي إلّا إلى هذه ، قال : تأذن لي أن أفعل فيها ما ينفعُك ؟ قال : نعم ، ففرَّقها أبو عثمان ، وقال للتاجر : امكث عندي ، وما زال أبو عثمان يتردَّد بين السكّة والمسجد ليلته حتى أصبح ، وأذَّن المؤذِّن ، ثم قال لخادمه : اذهب إلى السوق ، وانظرْ ماذا تسمع ، فذهب ورجع ، فقال : لم أرَ شيئًا ، قال : اذهب مرة أخرى ، وهو في مناجاته يقول : وحقّك ، لا أقمتُ ما لم تفرِّج عن المكروبين ، قال : فأتى خادمه الفرغاني يقول : وكفى الله المؤمنين القتال ، شُقَّ بطن أحمد بن عبد الله ، فأخذ أبو عثمان في الإقامة .

قلتُ[1] : بمثل هذا يعظَّم مشايخ الوقت !!

بدمِ المُحبِّ يُباع وصلُهمُ فمنِ الذي يبتاعُ بالثمنِ

* * *

---

(١) أي الذهبي .

الفَصْلُ الثَّالِث

علو الهمة

في طلب العلم ونشره

☐ علو الهمة في طلب العلم ونشره ☐

اعلم يا أخي « أن الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمتُه إخراجَ آدم وذريته من الجنة – أعاضهم أفضلَ منها ، وهو ما أعطاهم من عهده[(١)] ، الذي جعله سببًا موصلًا لهم إليه ، وطريقًا واضحًا بيِّن الدلالة عليه ، منْ تمسَّك به فاز واهتدى ، ومَنْ أعرض عنه شقي وغوى ، ولما كان هذا العهد الكريم ، والصراط المستقيم ، والنبأ العظيم ، لا يُوصل إليه أبدًا إلا من باب العلم والإرادة؛ فالإرادة باب الوصول إليه، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقِّف فتْحه عليه .

وكمال كل إنسان إنما يتمُّ بهذين النوعين : هِمَّة تُرقِّيه ، وعلْم يُبَصِّره ويهديه .

فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين ، أو من إحداهما ؛ إما أن لا يكون له علمٌ بها فلا يتحرّك في طلبها ، أو يكون عالمًا بها ولا تنهض هِمَّتُه إليها ، فلا يزال في حضيض طبْعه محبوسًا ، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودًا منكوسًا ، قد أسام نفسه مع الأنعام ، راعيًا مع الهمل، واستطاب لُقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل،

---

(١) وهو قوله تعالى : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعًا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة : ٣٨] ، وفي الآية الأخرى قال تعالى : ﴿ قال اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعضٍ عدوٌّ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتَّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى ﴾ [طه : ١٢٣ – ١٢٦] .

لا كمن رُفع له علمٌ فشمرّ إليه ، وبورك له في تفرُّده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه ، قد أبت غلباتُ شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله ، ومقتت نفسُهُ الرفقاء إلا ابنَ سبيلٍ يُرافقه في سبيله .

ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها ، وشرفُ العلم تابعًا لشرف معلومه ؛ كانت نهاية سعادة العبد - الذي لا سعادة له بدونها ، ولا حياة له إلا بها - أن تكون إرادته متعلقةً بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت ، وعزماتُ هِمَّته مسافرةً إلى حضرة الحي الذي لا يموت ، ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى والحظ الأوفى ، إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه ، الذي بعثه داعيًا ، وأقامه على هذا الطريق هاديًا ، وجعله واسطةً بينه وبين الأنام ، وداعيًا لهم بإذنه إلى دار السلام ، وأبى سبحانه أن يفتح لأحد منهم إلّا على يديه ، أو يقبل من أحد منهم سعيًا إلا أن يكون مبتدأً منه ومنتهيًا إليه ، فالطرقُ كلها إلا طريقه ﷺ مسدودة ، والقلوبُ بأسرها إلا قلوب أتباعه المنقادة إليه عن الله محبوسةٌ مصدودةٌ .

ومنْ لا يُربِّيه الرسولُ ويسقِهِ لبانًا له قد درَّ من ثدي قُدسِهِ
فذاك لقيطٌ ما له نسبة الولا ولا يتعدَّى طورَ أبناءِ جنسهِ

فحُقَّ على من كان في سعادة نفسه ساعيًا ، وكان قلبُه حيًّا عن الله واعيًا ؛ أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله ، وأن يُصيِّرهما أخبيته التي إليها مفزعُه في حياته »[1] .

فعياذًا بك اللهم ممن دنتْ هِمَّتُه « وقصر في العلم باعُه ، وطال في الجهل ، وأذى عبادك ذراعُه ، فهو لجهله يرى الإحسان إساءةً ، والسنةَ بدعةً ، والعُرف نُكرًا ؛ يُجالس أهل الغيِّ والجهالة ويزاحمهم بركبتيه ، قد ارتوى من ماءٍ آجنٍ ، وتضلَّع واستشرف إلى مراتب ورثة الأنبياء وتطلَّع ،

---

(١) مفتاح دار السعادة جـ ١ / ٤٦ - ٤٧ .

يركض في ميدان جهْله مع الجاهلين ، ويبرز عليهم في الجهالة ، فيظن أنه من السابقين ، وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الوراثة النبوية بمعزل ، وإذا أنزل الورثة منازلهم منها ، فمنزلته منها أقصى وأبعدُ منزل .

نزلوا بمكة في قبائل هاشمٍ ... ونزلتُ بالبيداء أبعدَ منزلِ»(١)

وإذا كانت العين لا تكاد إلا على هؤلاء تُفتح ، والميزان بهم يخفُّ ولا يرجح ، فما أُحرى اللبيب بأن لا يُعيرهم من قلبه جزءًا من الالتفات ، ويُسافر في طريق مقصده بينهم سفره إلى الأحياء بين الأموات ، وما أحسن ما قال القائل :

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهلهِ ... وأجسامُهم قبل القبور قبورُ
وأرواحُهم في وحشةٍ من جسومهم ... وليس لهم حتى النشورِ نشورُ

* * *

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ٤٧ - ٤٨ .

□ فضلُ العلم وشرفُهُ وعمومُ الحاجةِ إليه □

○ وتوقُّف كمال العبد ونجاته عليه ○

وقد جلب شيخ الإسلام ابن القيم في كتابه « مفتاح دار السعادة » في « فضل العلم » نفائس ، في مثلها يتنافس المتنافسون ، وجلب لنا فيه عرائس، إلى مثِلهِنَّ بادر الخاطبون، وهي تحفة عرائس؛ معانيها تُجلى عليك، وخودُ أبكارها البديعة الجمال ترفل في حُلَلها وهي تُزفُّ إليك، وشمسُ منازلها بسعد الأسعد، وخودٌ لا تُزفُّ إلى ضريرٍ مُقعَد(١).

قوله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ [آل عمران : ١٨] .

١ - فاستشهد الله أهلَ العلم دون غيرهم من البشر .

٢ - وأقرن شهادتهم بشهادته .

٣ - وفي ضمن هذا تزكيتُهم وتعديلُهم ، فإن الله لا يستشهدُ من خلقه إلا العدول .

٤ - أنه استشهد بهم على أجلّ مشهودٍ به وأعظمه وأكبره ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وتوحيده ، والعظيم القدْر إنما يستشهدُ على الأمر العظيم أكابرَ الخلق وساداتهم .

٥ - نفى سبحانه التسوية بين أهل العلم وبين غيرهم ، كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقال تعالى : ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ [الزمر : ٩] .

---

(١) يسَّر الله إخراجها في كتيِّب مستقل هو تحت الطبع الآن .

٦ - جعل سبحانه أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون ، فقال تعالى : ﴿ **أفمن يعلم أنما أُنزل إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى** ﴾ [الرعد : ١٩] . فما ثَمَّ إلا عالمٌ أو أعمى .

٧ - وأخبر سبحانه عن أولي العلم بأنهم يرون أن ما أُنزل من ربه حقًّا ، وجعل هذا ثناءً عليهم ، فقال تعالى : ﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحقَّ** ﴾ [سبأ : ٦] .

٨ - أمر سبحانه بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم، وجعل ذلك كالشهادة منهم ، فقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالًا نُوحي إليهم فاسئلوا أهلَ الذِّكْر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ [النحل : ٤٣] . وأهل الذِّكْر هم أهلُ العلم بما أُنزل على الأنبياء .

٩ - واستشهد بهم على صحَّة ما أنزل على رسوله ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ **أفغير الله أبتغي حَكَمًا وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مُفصَّلًا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مُنزَّلٌ من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين** ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

١٠- وسلَّى نبيَّه بإيمان أهل العلم به ، وأمره بأن لا يعبأ بالجاهلين شيئًا ، فقال تعالى : ﴿ **وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْث ونزَّلناه تنزيلًا قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلى عليهم يخرُّون للأذقان سُجَّدًا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعْدُ ربنا لمفعولًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٦- ١٠٨] .

١١- أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرَّفهم ؛ بأن جعل كتابه آيات بيِّنات في صدورهم ، وهذه خاصَّةٌ ومنقبةٌ لهم دون غيرهم ، فقال تعالى : ﴿ **بل هو آياتٌ بيِّناتٌ في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾ [العنكبوت : ٤٩] .

١٢- أنه سبحانه أمر نبيَّه ﷺ أن يسأله المزيد من العلم ، وكفى

بهذا شرفًا للعلم . قال تعالى : ﴿ **فتعالى الله الملك الحقُّ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيُه وقل ربِّ زدني علمًا** ﴾ [طه : ١١٤] .

١٣- أخبر سبحانه عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصَّة ، فقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير** ﴾ [المجادلة : ١١] .

١٤- واستشهد سبحانه بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار ، فقال تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يُقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يُؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون** ﴾ [الروم : ٥٥ - ٥٦] .

١٥- وأمر الله سبحانه أهل العلم بالفرح بما آتاهم ، وأخبر أنه خيرٌ مما يجمع الناس ، فقال تعالى : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾ [يونس : ٥٨] .

١٦- قال رسول الله ﷺ : « الدنيا ملعونةٌ ، ملعونٌ ما فيها ، إلا ذكْر الله وما والاه وعالمٌ ومتعلمٌ »(١) .

١٧- والعلم أفضل الجهاد ، وطلبُه من سبيل الله ؛ لأن به قوامَ الإسلام ، كما أن قوامه بالجهاد ، ولهذا كان الجهاد نوعين :

الأول : جهادٌ باليد واللسان ، وهذا المشارك فيه كثيرٌ .

الثاني : الجهاد بالحجة والبيان ، وهذا جهادُ الخاصة من أتباع الرسل ، وهو

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عبد البر في « جامع بيان العلم » عن أبي هريرة ، وإسناده حسن . وقد صحَّح الحديث بشواهده : الضياء المقدسي والشيخ الألباني .

جهاد الأئمة ، وهو أفضل الجهادين ، لعِظَم منفعته ، وشدَّة مؤنته ، وكثرة أعدائه .

قال تعالى في سورة الفرقان – وهي مكية –: ﴿ **ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرًا فلا تُطع الكافرين وجاهدهم به جهادًا كبيرًا** ﴾ [الفرقان : ٥١- ٥٢] ، فهذا جهادٌ لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين ، وهو جهاد المنافقين أيضًا ، فإن المنافقين لم يكونوا يُقاتلون المسلمين ، بل كانوا معهم في الظاهر ، وربما كانوا يُقاتلون عدوَّهم معهم ، ومع هذا فقد قال تعالى : ﴿ **يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾ [التوبة : ٧٣] ، ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلَّمه أو يعلمُه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله ، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره »[(١)] .

١٨- وقال ﷺ : « إن الله وملائكته ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في البحر ؛ ليُصلُّون على مُعلِّم الناس الخير »[(٢)] .

١٩- وطلبة العلم هم وصية رسول الله ﷺ، فقد قال: «سيأتيكم أقوامٌ يطلبون العلم ، فإذا رأيتموهم ، فقولوا لهم : مرحبًا بوصية رسول الله وأفتوهم »[(٣)] .

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجه والحاكم في المستدرك ، وصحَّحه الحاكم ، والألباني في صحيح الجامع رقم (٦٠٦٠) .
(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير والضياء عن أبي أمامة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٣٤) .
(٣) حسن : رواه ابن ماجه عن أبي سعيد ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٥٤٥) .

٢٠- قال رسول الله ﷺ : « فضلُ العالم على العابد كفضلي على أدناكم »[(١)] .

وهل بعد هذا فضلٌ للعلم وأهله ؟!

وقال رسول الله ﷺ : « فضلُ العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »[(٢)] .

٢١- والله تبارك وتعالى يُباهي ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم، ويذكرون الله ويحمدونه على ما منَّ عليهم به منه .

٢٢- والملائكة تضع أجنحتها ؛ تواضُعًا لطالب العلم ، وتوقيرًا وإكرامًا لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه ، والعلماء هم ورثة الأنبياء .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له مَنْ في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يوِّرثوا دينارًا ولا درهمًا ؛ إنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ ، وموتُ العالم مصيبةٌ لا تُجبر ، وثُلمةٌ لا تُسدُّ ، ونجمٌ طُمِس ، وموت قبيلة أيسرُ من موت عالم »[(٣)] .

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي أمامة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٠٨٩).

(٢) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن معاذ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٠٨٨) .

(٣) حسن : أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، وأحمد والدارمي ، والبغوي في شرح السنة، وابن حبان، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم»، والطحاوي في «مشكل الآثار»، وحسَّنه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» ٦٣/١.

فأعظِمْ بالعلم من ميراث جليل خطرُهُ !!

قال الفُضيل بن عياض : « عالمٌ عاملٌ مُعلِّمٌ يُدعى كبيرًا في ملكوت السموات » .

٢٣- قال تعالى: ﴿**والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصِّدّيقون**﴾ [الحديد: ١٩]. فالصِّدِّيقُون هم أئمةُ أتباعِ الرسل، ودرجتهم أعلا الدرجات بعد النبوة، والصدِّيقية هي كمال الإيمان بما جاء به الرسول علمًا وتصديقًا وقيامًا به ، فهي راجعة إلى نفس العلم . فالصدِّيقية شجرة ؛ أصولُها العلمُ ، وفروعُها التصديقُ ، وثمرتُها العملُ .

فإنْ جرى قلمُ العالم بالصدِّيقية ، وسال مداده بها ؛ كان أفضلَ من دم الشهيد الذي لم يلحقه في رتبة الصِّديقية، وإنْ سال دم الشهيد بالصدِّيقية، وقطر عليها؛ كان أفضلَ من مداد العالم الذي قصر عنها، فأفضلُهما صدِّيقهما، فإن استويا في الصدِّيقية استويا في المرتبة .

تعلَّمْ ما الرزيةُ فقْد مالٍ ولا شاة تموتُ ولا بعيرُ
ولكنَّ الرزيةَ فقْدُ حُرٍّ يموتُ بموته بشرٌ كثيرُ

٢٤- قال الإمام أحمد : « الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب ؛ لأن الطعام والشراب يُحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس » .

وقال ابن القيم :

«العلماء بالله وأمْره هم حياة الموجود وروحه، ولا يُستغنى عنهم طرفة عين، فحاجةُ القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء ؛ بل أعظم ، وبالجملة فالعلم للقلب مثل الماء للسمك ، إذا فقده مات ، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها » .

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ : كنتُ أصوغُ مع أبي ببغداد ، فمرَّ

بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه في يديه ، فأخذ أبي بمجامع ثوبه ، فقال : ياأبا عبد الله ، ألا تستحي ، إلى متى تعدو مع هؤلاء ؟ قال : إلى الموت »[١] .

هذا دأب المؤمن إلى الممات !

« قال الحسين بن منصور الجصّاص : قلت لأحمد بن حنبل رضي الله عنه : إلى متى يكتب الرجل الحديث ؟ قال : إلى الموت .

وقال نعيم بن حماد : سمعت عبد الله بن المبارك رضي الله عنه ، وقد عابه قوم في كثرة طلبه للحديث ، فقالوا له : إلى متى تسمع ؟ قال : إلى الممات .

وقال عبد الله بن بشر الطالقاني : أرجو أن يأتيني أمري والمحبرة بين يدي ، ولم يفارقني العلم والمحبرة .

وقال حميد بن محمد بن يزيد البصري: جاء ابن بسطام الحافظ يسألني عن الحديث ، فقلت له : ما أشدَّ حرصَك على الحديث ! فقال : أو ما أُحِبُّ أن أكون في قطار آل رسول الله ﷺ !

وسُئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة : أيحسُنُ أن يطلب العلم ؟ قال : إن كان يحسُنُ به أن يعيش »[٢] .

٢٥- وأخيرًا في شرف العلم وفضله حتى نُفرد له كتابًا مستقلًّا ، أنه سبحانه ذكر فضْله ومنَّته على أنبيائه ورسله وأوليائه بما آتاهم من العلم :

فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بقوله تعالى : ﴿ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا** ﴾ [النساء : ١١٣] .

---

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ٧٤ .

(٢) مفتاح دار السعادة ١ / ٧٤ .

وأثنى الله على خليله إبراهيم بقوله تعالى: ﴿**إن إبراهيم كان أُمَّةً قانتًا لله حنيفًا ولم يكُ من المشركين شاكرًا لأنعمه اجتباه**﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢١].

والأمة هو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل ، والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات ؛ كلُّها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره ، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الناس إليه .

وقال في يوسف : ﴿ **ولما بلغ أشُدَّه آتيناه حُكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ [يوسف : ٢٢] .

وقال في كليمه موسى : ﴿ **ولما بلغ أشُدَّه واستوى آتيناه حُكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ [القصص : ١١٤] .

وقال في حقِّ المسيح : ﴿ **ياعيسى ابن مريم اذكرْ نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيَّدتك بروح القُدُسِ تُكلِّمُ الناس في المهد وكهلًا وإذ علَّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل** ﴾ [المائدة : ١١٠] .

وقال في حقِّ داود : ﴿**وآتيناه الحكمة وفصْل الخطاب**﴾ [ص: ٢٠].

وقال في حقِّ الخضر صاحب موسى وفتاه : ﴿ **فوجدا عبدًا من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلَّمناه من لدُنَّا علمًا** ﴾ [الكهف : ٦٥] .

وقال في داود وسليمان : ﴿ **ففهّمناها سليمان وكلًّا آتينا حُكمًا وعلمًا** ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

وقال في حقِّ هذه الأُمَّة : ﴿ **هو الذي بعث في الأُميين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويُزكِّيهم ويُعلِّمهم الكتابَ والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مُبين** ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ،فامتنَّ عليهم سبحانه بأنْ علَّمهم بعد الجهل ، وهداهم بعد الضلالة ، وياها من منَّة عظيمة فاتت المنن ، وجَلَّت

أن يقدر العباد لها على ثمن ! »[١] .

قال ميمون بن مهران : « بنفسي ، العلماءُ هم ضالتي في كل بلدة ، وهم بُغيتي إذا لم أجدهم ، وجدت صلاح قلبي في مجالسة العلماء »[٢] .

قال سابق البربري في قصيدة له :

والعلمُ يجلو العمى عن قلبِ صاحبِهِ ... كما يُجلي سوادَ الظُّلمَةِ القمرُ
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلِها ... ولا البصيرُ كأعمى ما له بصرُ

وقال أحمد بن عمر بن عصفور في العلم :

مع العلم فاسلك حيث ما سلك العلمُ ... وعنه فكاشفْ كلَّ من عنده فهمُ
ففيه جلاءٌ للقلوبِ من العمى ... وعونٌ على الدِّينِ الذي أمرُهُ حتمُ
فإني رأيتُ الجهْلَ يُزري بأهلِهِ ... وذو العلم في الأقوام يرفعُه العلمُ
يُعدُّ كبيرَ القومِ وهو صغيرُهم ... وينفذُ منه فيهمُ القولُ والحكمُ
وأي رجاءٍ في امرئ شاب رأسُه ... وأفنى سنيه وهو مستعجمٌ فدم[٣]
يروحُ ويغدو الدهرَ صاحبَ بطنةٍ ... تركَّب في أحضانِها اللحمُ والشحمُ
إذا سُئل المسكينُ عن أمر دِينِهِ ... بدت رحضاءُ العيّ في وجهه تسمو
وهل أبصرتْ عيناك أقبحَ منظرٍ ... من أشيب لا علمٌ لديه ولا حلمُ
هي السوءةُ السوءاءُ فاحذرْ شماتَها ... فأوَّلُها خِزيٌ وآخرها ذمُّ
فخالطْ رواةَ العلْم واصحبْ خيارَهم ... فصحبتُهم زينٌ وخُلْطتُهم غُنْمُ
ولا تعدونْ عيناك عنهم فإنهم ... نجومٌ إذا ما غاب نجمٌ بدا نجمُ
فوالله لولا العلمُ ما اتضح الهدى ... ولا لاح من غيبِ الأمورِ لنا رسمُ[٤]

---

(١) انتهى مُلخصا من مفتاح دار السعادة لابن القيم .
(٢) جامع بيان العلم وفضله ١ / ٢٢١ تحقيق الشيخ حسن أبي الأشبال الزهيري .
(٣) بعيد الفهم .
(٤) جامع بيان العلم وفضله ١ / ٢١٩ - ٢٢٠ .

قال أبو الأسود الدؤلي :

العلمُ زيْنٌ وتشريفٌ لصاحبِـهِ فاطلبْ هُديتَ فنونَ العلم والأدبا
لا خيرَ فيمن له أصلٌ بلا أدبٍ حتى يكون على ما زانه حدبا
كم من كريم أخي عيٍّ وطمطمةٍ فدمٍ لدى القومِ معروفٍ إذا انتسبا
في بيت مكرُمةٍ آباؤه نُجُبٌ كانوا الرؤوسَ فأمسى بعدهم ذَنَبا
وخاملٍ مُقرفِ الآباءِ ذي أدبٍ نال المعاليَ بـالآداب والرُّتَبـا
العلمُ كنزٌ وذُخرٌ لا نفادَ له نعم القرينُ إذا ما صاحبٌ صحبا
قد يجمعُ المرءُ مالًا ثم يُسْلَبُهُ عما قليل فيلقى الذُّلَّ والحَرَبَا
وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبدًا فلا يُحاذرُ فوتًا لا ولا هَرَبا
ياجامعَ العلم نعم الذُّخرُ تجمعُهُ لا تعدلنَّ به دُرًّا ولا ذهبـا[(١)]

قال بعض العلماء : « من شرفِ العلم وفضلِهِ : أنَّ كلَّ من نُسب إليه فرح بذلك وإن لم يكن من أهله ، وكل من دُفع عنه ونُسب إلى الجهل عزَّ عليه ونال ذلك من نفسه وإن كان جاهلًا »[(٢)] .

وقال ابن شهاب الزهري : « العلمُ ذكْرٌ يُحِبُّه ذكورة الرجال ويكرهُهُ مؤنَّثوهم »[(٣)] .

قال العباس بن محمد الخراساني :

رحلتُ أطلبُ أصلَ العلم مجتهدًا وزينةُ المرءِ في الدنيا الأحاديثُ
لا يطلبُ العلمَ إلا بازلٌ ذكرٌ ولـيس يـبغضُه إلا المخانـيثُ

(١) الفقيه والمتفقه (١ / ٥٢) للخطيب البغدادي .
(٢) جامع بيان العلم وفضله ١ / ٢٥١ . وهو قول عليٍّ ، كما جاء في المجموع للنووي ١ / ٤١ .
(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢٥١/١ .

لا تعجبنَّ بمال سوف تتركُهُ فإنما هذه الدنيا مواريثُ[1]

قال ابن القيم رحمه الله :

« السعادة الحقيقية هي سعادة نفسانية روحية قلبية ، وهي سعادة العلم النافع ثمرته ، فإنها هي الباقية على تقلُّب الأحوال ، والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره وفي دُوره الثلاثة، وبها يترقَّى معارج الفضل ودرجات الكمال، كلما طال الأمدُ ازدادت قوةً وعلوًّا ، وهذه السعادة لا يعرف قدرَها ويبعث على طلبها إلا العلمُ بها ؛ وإنما رغَّب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها - وعورة طريقها ، ومرارة مباديها ، وتعبُ تحصيلها ، وأنها لا تُنال إلا على جسر من التعب ، فإنها لا تحصل إلا بالجدّ المحض .

وسعادة العلم لا يورثك إياها إلا بذلُ الوسع ، وصدقُ الطلب ، وصحةُ النِّيَّة ، وقد أحسنَ القائلُ في ذلك :

فقلْ لمُرَجّي معالي الأمور بغير اجتهادٍ رجوتَ المُحالا

وقال الآخر :

لولا المشقةُ ساد الناسُ كلُّهُمُ الجودُ يُفقر والاقدامُ قتَّالُ

ومن طمحت هِمَّته إلى الأمور العالية ؛ فواجبٌ عليه أن يَشُدَّ على محبة الطرق الدينية وهي السعادة ، وإن كانت في ابتدائها لا تنفكُّ عن ضرب من المشقة والكُره والتأذِّي ، وأنها متى أُكرهت النفسُ عليها ، وسيقت طائعةً وكارهةً إليها، وصبرت على لأوائها وشدَّتِها- أفضت منها إلى رياض مونقة، ومقاعد صدقٍ ، ومقام كريم ، تجد كلَّ لذةٍ دونها لعبَ الصبيِّ بالعصفور بالنسبة إلى الذَّات الملوك ، فحينئذٍ حالُ صاحبِها كما قيل :

---

(١) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي صـ ٩٦ تحقيق د . نور الدين عتر . طبع دار الكتب العلمية .

وكُنتُ أرى أنْ قد تناهى بي الهوى ... إلى غاية ما بعدها لي مذهبُ
فلما تلاقينا وعاينت حُسْنَها ... تيقَّنتُ أني إنما كنتُ ألعبُ

فالمكارمُ منوطةٌ بالمكاره ، والسعادة لا يُعبرُ إليها إلا على جسر المشقة ، فلا تُقطع مسافتُها إلا في سفينة الجدِّ والاجتهاد .

قال مسلم في صحيحه : قال يحيى بن أبي كثير : لا يُنال العلمُ براحة الجسد . وقد قيل : من طلب الراحة ترك الراحة .

فيا وصلَ الحبيبِ أما إليه ... بغير مشقَّةٍ أبدًا طريقُ

ولولا جهلُ الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعِظَمِ قدْرها ؛ لتجالدوا عليها بالسيوف، ولكن حُفَّت بحجابٍ من المكاره، وحُجبوا عنها بحجاب من الجهل ؛ ليختصَّ الله لها مَنْ يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »[١] .

« قال عقبة بن عامر رضي الله عنه : « تعلَّموا قبل الظَّانين » . قال البخاري : يعني الذين يتكلَّمون بالظن »[٢] .

« ومعناه : تعلَّموا العلم من أهله المُحقِّقين الورِعين قبل ذهابهم ومجيء قوم يتكلَّمون في العلم بظنونهم التي ليس لها مُسْتَنَدٌ شرعيٌّ »[٣] .

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : أرفعُ الناس منزلةً عند الله مَنْ كان بين الله وبين عباده ، وهم الرسل والعلماء[٤] .

قال أبو بكر بن دُريد ؛ أعلمُ الشعراءِ ، وأشعرُ العلماءِ :

أهلًا وسهلًا بالذين أُحِبُّهم ... وأودُّهم في الله ذي الآلاءِ
أهلًا بقومٍ صالحين ذوي تقى ... غُرِّ الوجوهِ وزينِ كلِّ ملاءِ

---

(١) مفتاح دار السعادة .
(٢) كتاب الفرائض من صحيح البخاري .
(٣) فضل العلم صـ ٩٤ للشيخ محمد سعيد رسلان .
(٤) مفتاح دار السعادة ١ / ١٢٨ .

ومدادُ ما تجري به أقلامُهم أزكى وأفضلُ من دم الشهداءِ
يا طالبي علمَ النبيِّ محمد ما أنتمُ وسواكـمُ بسواءِ

« وقال الأحنف بن قيس : كاد العلماء أن يكونوا أربابًا ، وكُلُّ عزٍّ لم يؤكد بعلم فإلى ذُلٍّ ما يصير .

وقال أبو الأسود الدؤلي : الملوك حُكَّامٌ على الناس ، والعلماء حُكَّامٌ على الملوك »[1] .

انظر رحمك الله إلى قصة الفراء أمير المؤمنين في النحو ، وإمام الكوفيين وأعلمهم باللغة والنحو :

يقول الخطيب البغدادي في تاريخه ١٤/١٥ :

«كان الخليفة المأمون قد وكَّل الفرَّاء يُلَقِّنُ ابنَيْه النحو، فلما كان يومًا أراد الفرَّاء أن ينهض إلى بعض حوائجه ، فابتدرا إلى نعل الفرَّاء يُقدِّمانها له ، فتنازعا أيهما يُقدِّمُها ، ثم اصطلحا على أن يُقدِّم كل واحدٍ منهما فردةً ، فقدَّماها وكان المأمون له على كل شيء صاحبُ خَبَرٍ ، فرفع إليه ذلك الخبر ، فوجَّه إلى الفرَّاء فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال له : من أعزُّ الناس ؟ قال : ما أعرفُ أحدًا أعزّ من أمير المؤمنين ، قال : بلى ، مَنْ إذا نهض تَقَاتَلَ على تقديم نعليه وليَّا عهد المسلمين ، حتى رضي كُلُّ واحدٍ منهما أن يُقدِّم له فردةً .

قال : ياأمير المؤمنين ، لقد أردتُ منْعهما من ذلك ، ولكن خشيتُ أن أدفعَهما عن مكرمة سبقا إليها، وأكسر نفوسهما عن شريفة حصلا عليها، وقد رُوي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين رضي الله عنهما ركابيهما حتى خرجا من عنده ، فقال له بعض مَنْ حضر : أتُمسك لهذين الحَدَثَيْن ركابَيْهما وأنت أسنُّ منهما ؟ فقال له : اسكُتْ ياجاهل ، لا يعرفُ الفضل

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١ / ٢٥٦ - ٢٥٧ .

لأهل الفضل إلا ذوو الفضل .

قال له المأمون : لو منعتهما عن ذلك ؛ لأوجعتُك لومًا وعُتْبًا ، وألزمتُك ذنبًا ، وما وَضَعَ ما فعلاه من شرفهما ؛ بل رفع من قدْرهما ، وبيَّن عن جوهرهما ، ولقد ثبتت لي مَخيلة الفراسة بفعلهما ، فليس يكبُرُ الرجل وإن كان كبيرًا عن ثلاث: عن تواضُعِهِ لسلطانه ، ووالده ، ومُعلِّمه العلمَ ، وقد عوَّضتُهما بما فعلاه عشرين ألف دينار ، ولك عشرة آلاف درهم على حُسن أدبك لهما » .

« قيل لأبي جعفر المنصور – الخليفة العباسي –: ياأمير المؤمنين ، هل بقي شيء من اللذّات لم تنله ؟ قال : شيء واحد ، قالوا : وما هو ؟ قال : قول المُحدِّث للشيخ : مَنْ ذكرتَ رحمك الله ، فاجتمع وزراؤه وكُتَّابُه ، وجلسوا حوله ، وقالوا : ليُمل علينا أمير المؤمنين شيئا من الحديث ، فقال : لستُ منهم ، إنما هم الدَّنِسةُ ثيابُهم ، المُشَّقَقةُ أرجلُهم ، الطويلة شعورُهم، روَّادُ الآفاق، وقُطَّاع المسافات؛ تارةً بالعراق، وتارةً بالحجاز ، وتارةً بالشام ، وتارةً باليمن ، فهؤلاء نقلةُ الحديث »[١] .

« رحم الله مَنْ تَسابَقَ أبناءُ الملوك إلى تقديم نعالهم ، ولهم عند الله تعالى في الدار الآخرة من الأجر والمقام المحمود ؛ ما لا عينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وما أُغمضت منهم العيون لوداع هذه الدار الفانية ، حتى تلقَّتهم رحابُ الخلد ، واستقبلتهم حورُها في الدار الباقية ، فلقوا التكريم والهناء ، ونسوا الشقاء والبلاء ، فكان لهم كما قيل :

هناءٌ محا تلك العزاءِ المُقدَّما   فما عبس المحزونُ حتى تبَسَّما»[٢]

---

(١) البداية والنهاية ١٠/١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) صفحات من صبر العلماء على شدائد التحصيل صـ ٣٨٨ .

رحم الله مَنْ كانت حياتُهم عسلًا مُصفىًّ ، وكاملًا مُوَفىًّ ، وغدت الأحاديث عنهم حوافز ، واستماعُ أخبارِهم مُتعًا ولذائذ .

إيه أحاديث نعمانٍ وساكنهِ ... إن الحديثَ عن الأحباب أسماءُ

* * *

وحدَّثتني ياسعدُ عنها فزدتني ... جنونًا فزدني من حديثك ياسعدُ
هواها هوىً لم يعرف القلبُ غيرَهُ ... فليس له قبلٌ وليَس له بعدُ

قال ابن القيم :

« لا يُنال العلمُ إلا بهجر اللَّذات وتطليق الراحة . قال إبراهيم الحربي : أجمع عقلاءُ كل أمَّة أن النعيم لا يُدرك بالنِّعم ، ومَنْ آثر الراحة فاتتْه الراحة ، فما لصاحب اللَّذات وما لدرجة ورثة الأنبياء .

فدعْ عنك الكتابة لستَ منها ... ولو لطّختَ وجْهَك بالمدادِ

فإن العلمَ صناعةُ القلب وشُغُله ، فما لم تتفرّغْ لصناعته وشغله ، لم تنلها ، ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه ؛ لم ينل درجة العلم أبدًا »[١] .

* * *

---

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ١٤٢ .

□ صفحاتٌ نورانيةٌ في عُلُوِّ الهِمَّةِ في طلبِ العِلْمِ ونشْرِهِ □

١ - رحلة كليم الله موسى وفتاه لطلب العلم على يد الخضر :

قال ابن قيم الجوزية في مفتاح دار السعادة ١ / ٥٥ - ٥٦ :

« إن الله سبحانه أخبرنا عن صفيِّهِ وكليمه ؛ الذي كتب له التوراة بيده ، وكلَّمه منه إليه ، أنه رحل إلى رجل عالم(١) يتعلَّم منه ويزداد علمًا إلى علمه ، فقال تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتىٰ أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حُقُبًا** ﴾ [الكهف : ٦٠] ؛ حرصًا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلَّم منه ، فلما لقيه سلك معه مسلك المُتعلِّم مع مُعلِّمه ، وقال له : ﴿ **هل أتَّبعُك على أن تُعلِّمن مما عُلِّمت رُشْدًا** ﴾ ، فبدأ بعد السلام بالاستئذان على متابعته ، وأنه لا يتَّبِعُه إلا بإذنه ، قال : ﴿ **على أن تُعلِّمنِ مما عُلِّمتَ رُشْدًا** ﴾ ، فلم يجئ مُمتحِنًا ولا مُتعنتًا ، وإنما جاء مُتعلمًا مُستزيدا علمًا إلى علمه . وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعلم ، فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل ، حتى لقي النَّصَبَ من سفره في تعلُّم ثلاث مسائل من رجل عالم ، ولمّا سمع به لم يَقرَّ له قرارٌ ، حتى لقيه ، وطلب منه متابعته وتعليمه ، وفي قصتهما عِبَرٌ وآيات وحِكَمٌ ، ليس هذا موضعَ ذكرها » .

قال الخطيب البغدادي :

« قال بعض أهل العلم : إن فيما عاناه موسى ؛ من الدأب والسفر والصبر عليه ، ومن التواضع والخضوع للخضر ، بعد معاناة قصْده ، مع محلِّ موسى من الله ، وموضعِه من كرامته ، وشرفِ نبُوَّتِه - دلالةً على ارتفاع قدْر العلم ، وعُلُوِّ منزلة أهله ، وحُسْنِ التواضع لِمن يُلتمس منه ويؤخذ

---

(١) هو نبي الله الخضر .

عنه ، ولو ارتفع عن التواضع لمخلوق أحدٌ بارتفاع درجةٍ وسُمُوٍّ منزلةٍ ؛ لسبق إلى ذلك موسى ، فلما أظهر الجدَّ والاجتهاد ، والانزعاج عن الوطن ، والحرص على الاستفادة ، مع الاعتراف بالحاجة إلى أن يصل من العلم إلى ما هو غائبٌ عنه - دلَّ على أنه ليس في الخلق مَنْ يعلو على هذه الحال ولا يكبُرُ عنها »(١).

ولقد بوَّب الإمام البخاري في صحيحه في كتاب العلم ، باب « ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخَضِر عليهما السلام ، وقوله تعالى : ﴿ **هل أتَّبِعُك على أن تُعلِّمنِ مما عُلِّمتَ رُشْدًا** ﴾ » .

عن ابن عباس رضي الله عنهما « أنه تمارى - أي اختلف - هو والحرُّ ابن قيس الفزاري في صاحب موسى عليه السلام مَنْ هو ؟ فقال ابن عباس : هو خَضِر ، فمرَّ بهما أُبيُّ بن كعب ، فدعاه ابن عباس ، فقال : إني تماريتُ أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لُقِيِّه ، هل سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه ؟ قال : نعم ؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل ، جاءه رجلٌ ، فقال : هل تعلمُ أحدًا أعلم منك ؟ قال موسى : لا ، فأوحى الله إلى موسى : بل عبدنا الخضر ، فسأل موسى السبيل إليه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت الحوت ؛ فارجع ، فإنك ستلقاه . وكان يتبع أثر الحوت في البحر ، فقال لموسى فتاه : ﴿ **أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال ذلك ما كنا نبغ فارتدَّا على آثارهما قصصًا** ﴾ [الكهف : ٦٣ - ٦٤] ، فوجدا خضرًا ، فكان من شأنهما الذي قصَّ الله عز وجل » .

---

(١) الرحلة في طلب الحديث صـ ١٠٦، ١٠٧ ، للخطيب البغدادي . تحقيق : نور الدين عتر . دار الكتب العلمية .

قال ابن حجر : « ظاهر التبويب أن موسى عليه السلام ركب البحر لما توجَّه في طلب الخضر ، وفيه نظرٌ ؛ لأن الذي ثبت عند المصنِّف - البخاري - وغيره أن موسى خرج في البر وفي بعض روايات البخاري وأحمد : « فخرجا يمشيان حتى أتيا الصخرة » .

وقال الحافظ ابن رشيد : يُحتمل أن يكون ثبت عند البخاري أن موسى توجَّه في البحر لما طلب الخضر .

قلتُ - القائل ابن حجر -: ويُؤيِّد هذا الاحتمال ما جاء عن أبي العالية وغيره، أن موسى التقى بالخضر في جزيرة من جزائر البحر، والتوصُّل إلى جزيرة في البحر لا يقع إلا بسلوك البحر غالبًا »[1] .

وقال الحافظ ابن حجر : « هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقَّة في طلب العلم ؛ لأنَّ ما يُغْتبط به تُحتَمل المشقة فيه ، ولأن موسى عليه الصلاة والسلام لم يمنعه بلوغُه من السيادة ! المحلّ الأعلى ؛ من طلب العلم ، وركوب البر والبحر لأجله .

وفي الحديث : ركوب البحر في طلب العلم ؛ بل في طلب الاستكثار منه ، وفيه فضلُ الازدياد من العلم ، ولو مع المشقة والنَّصَب بالسفر »[2] .

٢ - حرْصُ الفاروق عمر رضي الله عنه على تحصيل العلم :

روى البخاري في « صحيحه » عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « كنتُ أنا وجار لي من الأنصار[3] ، في بني أمية بن زيد[4]، وهي

(١) فتح الباري ١ / ١٥٣ .
(٢) فتح الباري ١ / ١٥٣ .
(٣) هو أوس بن خولّي الأنصاري ، كما قال ابن حجر في كتاب النكاح من فتح الباري ٩ / ٢٤٤ .
(٤) أي ناحية بني أمية .

من عوالي[١] المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ؛ ينزل يومًا وأنزل يومًا ، فإذا نزل جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك »[٢] .

٣ - معاذ بن جبل مقدام العلماء :

قال رسول الله ﷺ : « إن العلماء إذا حضروا ربَّهم عز وجل ؛ كان معاذ بين أيديهم رَتْوةً[٣] بحجر »[٤] .

وقال ﷺ : « معاذ بن جبل ، أمام العلماء يوم القيامة برتوة »[٥] .

وقال عمر بن الخطاب : « لو استخلفتُ معاذ بن جبل رضي الله عنه ، فسألني عنه ربي عز وجل : ما حملك على ذلك ؟ لقلتُ : سمعتُ نبيَّك ﷺ يقول : « إن العلماء إذا حضروا ربَّهم .... » الحديث .

وروي عن معاذ لما حضرته الوفاة أنه قال : « اللهم إنك تعلم أني لم أكن أُحِبُّ البقاء في الدنيا لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن كنتُ أُحِبُّ البقـاء ؛ لمكابدة الليل الطويل ، ولظمأ الهواجر في الحرِّ الشديد ،

---

(١) قرى بقرب المدينة من ناحية الشرق .

(٢) فتح الباري ١ / ١٦٧ - كتاب العلم - (باب التناوب في العلم) .

(٣) أي رَمْيَة ، وزنًا ومعنى .

(٤) صحيح : روي من حديث عمر ، ومحمد بن كعب مُرسلًا ، وأبي عون مرسلًا ، والحسن البصري .
قال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٠٩١ جـ ٣ / ٨١ - ٨٣) : « وبالجملة فالحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا شكٍّ ، ولا يرتاب في ذلك من له معرفة بهذا العلم الشريف » .

(٥) صحيح : رواه أبو نعيم في الحِلْيَةِ ، والطبراني في المعجم الكبير عن محمد بن كعب مرسلًا ، والحديث صحيح بمجموع الطرق ؛ صحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٨٨٠) . والرتوة : رمية سهم ، وقيل : مدُّ البصر .

ولمزاحمة العلماء بالرُّكَبِ عند حِلَقِ الذِّكْر » .

وإن أردتَ أن تعرف عُلُوَّ هِمَّة معاذ مقدام العلماء في تحصيل العلم ؛ فانظر كم سِنُّهُ يوم إسلامه ، وكم سِنُّه يوم وفاته ، ومكانته من العلم !!

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١ / ٤٤٥) :

« قال عطاء : أسلم معاذ وله ثمان عشرة سنة » .

وقد شهد العقبة الثانية ، وحتى هجرة الرسول ﷺ ، انظر كم مرَّ من أيام لم ينعم فيها بالقرب من الرسول ﷺ وتحصيل العلم منه .. وانظر إلى سِنِّه عند وفاته !!

قال الشيخ الألباني في الصحيحة (٣ / ٨٣ - ٨٤) :

« روى الحاكم بإسناد صحيح عن مالك بن أنس قال : « إن معاذ ابن جبل هلك وهو ابن ثمان وعشرين وهو أمام العلماء برتوة » ، وهو قول الذهبي أيضًا » .

وقال ابن المسيب : « قُبِضَ معاذ وهو ابن ثلاث أو أربع وثلاثين سنة » .

والأشهر أنه مات وهو ابن ثمان وعشرين سنة .. أي مدة تحصيله للعلم لا تبلغ عشر سنوات ، ومع هذا فهو إمام العلماء ، فكيف مرَّت عليه هذه السنون حتى بلغ ما بلغ !!

روى البخاري والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « جَمَعَ القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعةٌ كلهم من الأنصار : أُبيٌّ ابن كعب ، ومعاذُ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد أحدُ عمومتي » .

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود ، وأُبيٍّ ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« معاذ بن جبل أعلمُ الناس بحلال الله وحرامه »(١) .

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في أمْر الله عمر، وأصدقُهم حياءً عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أُبي بن كعب، وأفرضُهم زيدُ بن ثابت ، وأعلمُهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمةٍ أمينٌ، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»(٢).

عن الشعبي قال : « قرأ عبد الله : إن معاذًا كان أُمَّةً قانتًا لله حنيفًا ، فقال له فروة بن نوفل : إن إبراهيم ، فأعادها ، ثم قال : إن الأُمَّة : مُعلِّمُ الخير ، والقانت : المُطيع ، وإن معاذًا رضي الله عنه كان كذلك »(٣) :

وفي رواية أخرى : « قيل له : يا أبا عبد الرحمن ، نسيتَها ؟ قال : لا ، ولكنا كنَّا نُشبِّهُه بإبراهيم »(٣).

وعن سهل بن أبي حَثْمَة قال : كان الذين يُفتون على عهد رسول الله ﷺ ثلاثة من المهاجرين : عمر ، وعثمان ، وعلي ، وثلاثة من الأنصار : أُبيّ ابن كعب ، ومُعاذ ، وزيد .

وعن علي بن رباح قال : خطب عمر الناس بالجابية ، فقال : من أراد الفقه فليأت معاذ بن جبل(٤) .

وقال عمر : « عجزت النساءُ أن يلدن مثل معاذ ، لولا معاذ لهلك عمر »(٥) .

---

(١) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٨٧٩) .

(٢) صحيح : رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي في سننه ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨٩٥) .

(٣) صحيح : أخرجه أبو نعيم في الحلية ، والحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٤) أخرجه الحاكم وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الحافظ في الفتح ١٢٦/٧.

(٥) نسبه صاحب كنز العمال إلى عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي في الدلائل .

فكيف بلغ ما بلغ إلا بعُلُوِّ هِمَّتِه في تحصيل العلم ومُزاحمة العلماء بالرُّكبِ عند حِلَقِ الذِّكْر ، كما أخبر رضي الله عنه .

٤ - عبد الله بن مسعود صاحب السواك والوساد والنعلين رضي الله عنه ، الإمام الحبر فقيه الأمة .

عن ابن مسعود قال : « كنتُ أرعى غنمًا لعقبة بن أبي مُعيط ، فمرّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر ، فقال : ياغلام ، هل من لبن ؟ قلت : نعم ، ولكني مؤتمَن ، قال : فهل من شاة لم ينزُ عليها الفحل ؟ فأتيتُه بشاة ، فمسح ضرعها ، فنزل لبن ، فحلب في إناء ، فشرب ، وسقى أبا بكر ، ثم قال للضرع : اقلُص ، فقلص - زاد أحمد قال : ثم أتيته بعد هذا ، ثم اتفقا - فقلتُ : يارسول الله ، علِّمني من هذا القول ، فمسح رأسي ، وقال : يرحمك الله ، إنك غُلَيِّمٌ مُعلَّم »(١) .

وفيه زيادة ؛ منها : « فلقد أخذتُ من فيه ﷺ سبعين سورةً ، ما نازعني فيها بشرٌ » .

وروى البخاري عن شقيق بن سلمة قال: خطبنا عبد الله بن مسعود، فقال : والله لقد اخذتُ من فِّي رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورةً . والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم لكتاب الله ، وما أنا بخيرهم . قال شقيق : فجلستُ في الحِلَقِ أسمعُ ما يقولون ، فما سمعتُ رادًّا يقول غير ذلك .

عن أبي وائل قال : كنتُ مع حذيفة ، فجاء ابن مسعود ، فقال حذيفة : « إن أشبه الناس هديًا ودلًّا وقضاءً وخطبةً برسول الله ﷺ ؛ مِنْ

---

(١) رواه أحمد ، والفسوي في المعرفة والتاريخ ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، وقال مُحقّق هذا الجزء من السير : بل حسن ؛ لأن عاصمًا - وهو ابن بهدلة - لا يرتقي حديثه إلى درجة الصحيح .

حين يخرج من بيته إلى أن يرجع، لا أدري ما يصنع في أهله- لَعَبْدُ الله ابنُ مسعود ، ولقد علم المتهجِّدون من أصحاب محمد ﷺ أنّ عبد الله من أقربهم عند الله وسيلة يوم القيامة »(١) .

وعن أبي الأحوص قال : أتيتُ أبا موسى وعنده عبد الله وأبو مسعود الأنصاري ، وهم ينظرون إلى مصحف ، فتحدَّثنا ساعة ، ثم خرج عبد الله وذهب ، فقال أبو مسعود : « والله ما أعلم النبي ﷺ ترك أحدًا أعلمَ بكتاب الله من هذا القائم »(٢) .

انظر رحمك الله إلى عُلُوِّ همة ابن مسعود في طلب العلم والحرص عليه:

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « والذي لا إله غيره ، ما أُنزلت سورةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلمُ أين أنزلت ، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أُنزلت ، ولو أعلمُ أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغُه الإبلُ لركبتُ إليه » .

قال عنه عمر بن الخطاب : « كُنيفٌ مُلِئ علمًا »(٣) .

٥ - أبو ذر الغفاري رضي الله عنه :

روى البخاري ومسلم واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنه قال :

---

(١) أخرج البخاري نحوه ، والترمذي ، والحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وأخرجه ابن سعد ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ، وقال الذهبي : « لفظ منصور : كذا قال المتهجِّدون ، ولعله المجتهدون » .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود ، والفسوي في « المعرفة والتاريخ » .

(٣) إسناده صحيح : رواه ابن سعد وأبو نعيم ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٤٩١/١ . والكُنيف : تصغير كنف ، وهو الوعاء . وقال هذا ؛ نظرًا لصغر جسمه ، مع أنه من أعلم الصحابة .

« لما بلغ أبا ذر مبعثُ النبي ﷺ بمكة ، قال لأخيه - أُنيْس -: اركب إلى هذا الوادي ، فاعلم لي علْمَ هذا الرجل ، الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء ، فاسمع من قوله ، ثم ائتني .

فانطلق - أُنيَس - حتى قدم مكة وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبي ذر ، فقال : رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق ، وسمعتُه يقول كلامًا ما هو بالشعر ، فقال أبو ذر : ما شفيتني فيما أردت !

فتزوَّد أبو ذر وحمل شنَّةً له فيها ماءٌ ، حتى قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس النبيَّ ﷺ ولا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه الليل فاضطجع ، فرآه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فعرف أنه غريب ، ودعاه إلى منزله، فتبعه، فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح.

ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد ، وظلَّ ذلك اليوم ولا يَرى النبيَّ ﷺ حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمرَّ به عليٌّ ، فقال : ما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه ، فذهب به معه ، ولا يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان يوم الثالث فعل مثل ذلك ، فأقامه عليٌّ معه ، ثم قال له : ألا تُحَدِّثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لَتُرشدني ؛ فعلتُ ، ففعل ، فأخبره ، فقال : فإنه حقٌّ ، وهو رسول الله ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإنْ رأيتُ شيئًا أخاف عليك ؛ قمتُ كأني أُريق الماءَ ، فإنْ مضيتُ فاتبعني حتى تدخل مدخلي ، ففعل ، فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه ، فسمع من قوله وأسلم مكانه » .

ثم انظر إلى عُلُوِّ هِمَّتِه في تبليغ العلم الذي سمعه من رسول الله ﷺ ، يقول : « لو وضعتم الصِّمصامة[١] على هذه - وأشار بيده إلى قفاه - ثم

(١) الصمصامة : السيف القاطع .

ظننتُ أني أنْفِذُ كلمةً سمعتُها من رسول الله ﷺ قبل أن تُجيزوا عليَّ ؛ لأنفذتُها »[١] .

٦ - أبو الدرداء حكيم الأمة :

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : « مات النبي ﷺ ، ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ، وزيد بن ثابت، وأبو زيد».

وقال ابن إسحاق : كان الصحابة يقولون : أتبعُنا للعلم والعمل أبو الدرداء .

وروى ابن عساكر عن يزيد بن عميرة قال : « لما حضرت معاذًا الوفاةُ؛ قالوا: أوصنا، فقال: العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما - قالها ثلاثًا - فالتمسوا العلم عند أربعة : عند عويمر أبي الدرداء ، وسلمان ، وابن مسعود ، وعبد الله بن سلام الذي كان يهوديًّا فأسلم »[٢] .

وعن يزيد بن معاوية قال : « إن أبا الدرداء من العلماء الفقهاء ، الذين يشفون من الداء » .

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه : « لو أُنسيتُ آيةً لم أجد أحدًا يُذكِّرُنيها إلا رجلًا بِبَرْك الغِماد[٣] ؛ رحلتُ إليه » .

٧ - أمير المؤمنين في الحديث أبو هريرة رضي الله عنه :

قال أبو هريرة : « لم يكن يشغَلني عن رسول الله ﷺ غرسُ الوَدِيّ ولا صفقٌ في الأسواق ، وإنما كنتُ أطلبُ من رسول الله ﷺ كلمةً يُعَلِّمُنيها ،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١ / ١٦٠ ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٢ / ٦٤ .

(٢) ابن عساكر ١٣ / ٣٧٣ / ١ .

(٣) أخرجه ابن عساكر ١/٣٧٢/١٣ ، وبرك الغماد : موضع بناحية اليمن . انظر سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٤٢ .

أو أكلةً يُطعمُنيها .

فقال ابن عمر: كنتَ ألزمنا لرسول الله ﷺ، وأعلمَنا بحديثه»[١] .

قال الذهبي : « كان حفظُ أبي هريرة الخارق من معجزات النبوة » .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ألا تسألني من هذه الغنائم التي يسألني أصحابك ؟ قلت : أسألك أن تُعلِّمني مما علمك الله ، فنزع نمرةً كانت على ظهري ، فبسطها بيني وبينه ، حتى كأني أنظر إلى النمل يدبُّ عليها ؛ فحدَّثني ، حتى إذا استوعبتُ حديثه ، قال : اجمعها فصرْها إليك ، فأصبحتُ لا أُسقطُ حرفًا مما حدَّثني »[٢] .

فانظر إلى همِّ أبي هريرة ... ما يسأل الرسولَ شيئًا إلا العلم ، مع شدَّة حاجته وفقره .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لقد رأيتني وإني لأخرُّ فيما بين منزل عائشة والمنبر مغشيًّا عليَّ من الجوع ، فيمرُّ الرجل ، فيجلس على صدري ، فأقول : ليس الذي ترى ، إنما هو الجوع » أي كان يظنُّه مصروعًا ... مجنونًا .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « إنكم تقولون : إن أبا هريرة يُكثر الحديث عن رسول الله ﷺ ! وتقولون ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدِّثون مثله ! وإن إخواني المهاجرين كان يشغلُهم الصفقُ بالأسواق ، وكان إخواني من الأنصار يشغلُهم عملُ أموالِهم ، وكنت امرأً مسكينًا من مساكين الصُّفَّة ، ألزمُ رسول الله ﷺ على ملءِ بطني ،

(١) جزء من حديث رواه أحمد ، وصحَّحه الحاكم ، ووافقه الذهبي . والوَدِيُّ : صغار النخل ، الواحدة : وديَّة ، والصفقُ : المرة من التصفيق ، والمراد هنا : التبايع ؛ لأن المتبايعين يضع أحدهما يده على يد الآخر .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ورجاله ثقات . والنَّمِرةُ : شملةٌ فيها خطوط بيض وسود .

فأحضر حين يغيبون ، وأعي حين ينسون ، وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يُحدِّثه يومًا : « إنه لن يبسط أحدٌ ثوبه حتى أقضي جميع مقالتي ، ثم يجمع إليه ثوبه ، إلَّا وَعَى ما أقول » ، فبسطتُ نَمِرةً عليَّ ، حتى إذا قضى مقالته ؛ جمعتُها إلى صدري ، فما نسيتُ من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء » .

وروى البخاري أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « تزعمون أني أكثرُ الرواية عن رسول الله ﷺ !- والله الموعدُ - إني كنتُ أمرأً مسكينًا ، أصحبُ رسول الله ﷺ على ملءِ بطني ، وإنه حدَّثنا يومًا ، وقال: «من يبسط ثوبَهُ حتى أقضي مقالتي، ثم قبضه إليه ، لم ينسَ شيئًا سمع مني أبدًا»، ففعلتُ، فوالذي بعثه بالحق، ما نسيتُ شيئًا سمعتُه منه»[(١)] .

٨ - حَبْرُ الأُمَّةِ وإمامُ التفسير أبو العبَّاس عبدُ الله بنُ عبَّاسَ رضي الله عنهما :

صحِبَ النبيَّ ﷺ نحوًا من ثلاثين شهرًا ، ودعا له الرسول ﷺ : « اللهم علِّمْه الحكمة » . وفي رواية : « اللهم علِّمْهُ الكتابَ »[(٢)] .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : بتُّ في بيت خالتي ميمونة ، فوضعتُ للنبي ﷺ غُسْلًا ، فقال : « مَنْ وضع هذا ؟ » . قالوا : عبد الله ، فقال : « اللهم علِّمْهُ التأويلَ وفقِّهْهُ في الدين »[(٣)] .

---

(١) قال ابن حجر في الفتح ١ / ١٠٤ : والإسنادان جميعًا محفوظان ؛ صحَّحهما الشيخان .

(٢) رواه البخاري في العلم ، باب قول النبي ﷺ : « اللهم علّمْه الكتاب » ، والترمذي وابن ماجه والطبراني .

(٣) إسناده صحيح : رواه أحمد وابن سعد والبلاذري ، وصحَّحه الحاكم ، ووافقه الذهبي .

وصحَّ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشره منا رجلٌ . وكان يقول : نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

وقال ابن عمر : هو أعلمُ الناس بما أنزل الله على محمد ﷺ .

وعن أبي وائل : قرأ ابن عباس سورة النور ، ثم جعل يُفسِّرها ، فقال رجل : « لو سمعت هذا الديلم لأسلمت »[(١)] .

وصحَّ عن علي أنه قال فيه « ويح ابن أم الفضل ، إنه لغوَّاص على الهَنات »[(٢)] .

وقال فيه معاوية لعكرمة : مولاك والله أفقهُ مَنْ مات ومن عاش .

فانظر إلى عُلُوِّ هِمَّة ربانيِّ هذه الأمة :

قال ابن عباس: «لما توفِّي رسول الله ﷺ؛ قلتُ لرجل من الأنصار: هلمَّ نسأل أصحاب رسول الله ﷺ ، فإنهم اليوم كثير ، فقال : واعجبًا لك يا ابن عباس ! أترى الناس يحتاجون إليك ، وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ مَن ترى ؟ فترك ذلك ، وأقبلتُ على المسألة ، فإن كان ليبلغُني الحديث عن الرجل ، فآتيه وهو قائلٌ ، فأتوسَّد ردائي على بابه ، فتُسفي الريحُ عليَّ الترابَ ، فيخرجُ فيراني ، فيقول : يا ابن عمِّ رسول الله ، ألا أرسلتَ إلي فآتيك ؟ فأقول : أنا أحقُّ أن آتيك ، فأسألك . قال : فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناس عليَّ ، فقال : هذا الفتى أعقلُ مني »[(٣)] .

وعنه : « وجدتُ عامَّة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحي من

---

(١) رواه يعقوب في تاريخه ، وإسناده صحيح .

(٢) رواه الفسوي في تاريخه ، وإسناده صحيح .

(٣) رواه الذهبي في السير ٣٤٣/٣ ، وابن سعد والفسوي ، وصحَّحه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح .

الأنصار ، إن كنتُ لآتي الرجل منهم ، فيُقال : هو نائم ؛ فلو شئت أن يُوقظ لي لَأُوقِظَ ، فأدعُهُ حتى يخرج ؛ لأستطيب بذلك قلبَه .

وعند ابن سعد : لو شئتُ أن يُوقظ لي لَأُوقِظَ ، فأجلس على بابه ، تُسفي الريحُ على وجهي التراب ، حتى يستيقظ متى استيقظ ، فأسأله عما أُريدُ ، ثم أنصرف »[1] .

قال الذهبي في السير (٣ / ٣٤٤) :

«قال ابن عباس: إنْ كنتُ لأَسأَلُ عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ »[2] .

قال فيه أبو الطفيل الكناني :

كنا نجيء ابنَ عباسٍ فيُقْبِسُنا فقهًا ويُكسبُنا أجرًا ويهدينا

وقال حسَّان في ابن عباس :

إذا ما ابنُ عباسٍ بدا لك وجهُهُ رأيتَ له في كل أقواله فضلا
إذا قال لم يتركْ مقالًا لقائلٍ بمنتظماتٍ لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى ما في النفوس فلم يدعْ لذي أَرَبٍ في القول جدًّا ولا هزلا

وقال ابن عباس رضي الله عنه لمّا عمي :

إنْ يأخذِ الله من عينيَّ نورَهما ففي لساني وقلبي منهما نورُ
قلبي ذكيٌّ وعقلي غيرُ ذي دخلٍ وفي فمي صارمٌ كالسيف مأثورُ[3]

* * *

---

(١) رواه ابن سعد والبلاذري والذهبي في السير ٣ / ٣٤٤ ، وسندهم حسن .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/٣٤٤ . وقال الذهبي : إسناده صحيح .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٥٧ .

○ مَنْ رحل من الصحابة في طلبِ حديثٍ واحدٍ ○

٩ - جابر بن عبد الله الأنصاري ورحلته إلى عبد الله بن أُنيْس رضي الله عنه:

قال جابر بن عبد الله : « بلغني عن رجل من أصحاب النبي ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، فاشتريتُ بعيرًا ، ثم شددتُ رحلي ، فسرْتُ إليه شهرًا ، حتى قدمتُ الشامَ ، فإذا هو عبد الله بن أُنيْس ، فقلتُ للبوَّاب : قل له : جابرٌ على الباب ، فقال : ابن عبد الله ؟ قلتُ : نعم ، فخرج عبد الله بن أُنيْس فاعتنقني ، فقلتُ : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ ، فخشيتُ أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : يحشر الله الناس يوم القيامة عُراةً غُرْلًا بُهْمًا ، قلنا : ما بُهْمًا ؟ قال : ليس معهم شيء ، فيُناديهم بصوت يسمعُه مَنْ بَعُد كما يسمعُه من قَرُب : أنا الملكُ ، أنا الديَّان ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنةَ، وأحدٌ من أهل النار يطلبُه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار، وأحدٌ من أهل الجنة يطلبُه بمظلمة، حتى اللَّطمة. قال: قلنا: كيف هو، وإنما نأتي الله تعالى عُراةً غُرْلًا بُهْمًا؟! قال: بالحسنات والسيئات»[١].

١٠ - أبو أيوب الأنصاري ورحلتُه في طلب حديثٍ واحدٍ إلى عقبة بن عامر بمصر :

قال عطاء بن أبي رباح : « خرج أبو أيوب إلى عقبة بن عامر وهو

(١) صحيح بمجموع الطرق : أخرجه أحمد في المسند ، والبخاري في الأدب المفرد ، « باب المعانقة » وذكره في صحيحه بصيغة الجزم في كتاب العلم ، « باب الخروج في طلب العلم » ، والحاكم في المستدرك وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، والطبراني في مسند الشاميين ، والخطيب في الرحلة في طلب الحديث .

بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، فلما قدم أتى منزل مَسْلَمَة بن مُخَلَّد الأنصاري ؛ وهو أمير مصر ، فأخبر به ، فعجل ، فخرج إليه ، فعانقه ، وقال : ما جاء بك ياأبا أيوب ؟ قال : حديثٌ سمعتُه من رسول الله ﷺ ، لم يبق أحدٌ سمعه غيري وغير عقبة ، فابعث مَنْ يدُلّني على منزله ، قال : فبعث معه منْ يدُلُّه على منزل عقبة ، فأخبر عقبة به ، فعجل ، فخرج إليه ، فعانقه ، وقال : ما جاء بك ياأبا أيوب ؟ فقال : حديثٌ سمعته من رسول ﷺ ، لم يبق أحدٌ سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن . قال : نعم ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ ستر مؤمنًا في الدنيا على خُربة[1] ستره الله يوم القيامة»، فقال له أبو أيوب: صدقت، ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته ، فركبها راجعًا إلى المدينة ، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلَّد إلا بعريش مصر »[2] .

١١ - سيِّدُ التابعين : سعيد بنُ المسيب رحمه الله :

قال سعيد بن المسيب : « إن كنتُ لأسيرُ الأيامَ والليالَي في طلب الحديث الواحد »[3] .

١٢ - التابعي الجليل عروة بن الزبير :

وهو أحد فقهاء المدينة السبعة رحمه الله :

« قال عروة : لقد كان يبلغُني عن الرجل من المهاجرين الحديث ، فآتيه

(١) أي ستر سوءةً أو معصيةً فعلها ولم يفضحه .

(٢) الحديث حسن بمجموع الطرق : رواه أحمد ، والحميدي ، والخطيب البغدادي في الرحلة في طلب الحديث صـ ١١٨- ١٢٠ ، والخطيب في « الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة » .

(٣) المعرفة والتاريخ ٤٦٨/١، ٤٦٩، الرحلة في طلب الحديث للبغدادي صـ ١٢٧، سير أعلام النبلاء ٢٢٢/٤ .

فأجده قد قالَ ، فأجلس على بابه ، فأسأله عنه ؛ يعني إذا خرج »[١] .

١٣ - سعيد بن جبير رحمه الله :

عن المغيرة بن النعمان قال : « سمعتُ سعيد بن جبير يقول : اختلف أهل الكوفة في قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يقتل مؤمنًا مُتعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها ...** ﴾ الآية[٢]، فرحلتُ فيها إلى ابن عباس ، فسألتُه عنها ، فقال : نزلت هذه الآية : ﴿ **ومن يقتل مؤمنًا مُتعمدًا فجزاؤه جهنم ..** ﴾ الآية ، في آخر ما نزل ، ما نسخها شيء »[٣] .

انظر إلى عُلُوِّ هِمَّة سعيد بن جبير ، يرحل في تفسير آية واحدة من الكوفة إلى المدينة !

وقال سعيد بن جبير : « ربما أتيتُ ابن عباس ، فكتبتُ في صحيفتي حتى أملأها ، وكتبتُ في نعلي حتى أملأها ، وكتبتُ في كفِّي ، وربما أتيته فلم أكتب حديثًا حتى أرجع ، لا يسأله أحدٌ عن شيء »[٤] .

وروى الدارمي في سننه عن سعيد بن جبير رحمه الله قال : « كنتُ أسيرُ مع ابن عباس في طريق مكة ليلًا ، وكان يُحدِّثني بالحديث ، فأكتبه في واسطة الرحل ، حتى أُصبحَ فأكتبه » .

---

(١) تاريخ الإسلام ٤ / ٣٢ .

(٢) النساء : ٩٣ ، وتمامها : ﴿ وغضِبَ الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذابًا عظيمًا ﴾ .

(٣) الرحلة في طلب الحديث للخطيب صـ ١٣٩ .
قال الدكتور نور الدين عتر في تعليقه : « وقول ابن عباس : ما نسخها شيء ؛ ذهابٌ منه إلى أن القاتل لا توبة له ، ولكنَّ الجمهور على أنه تُقبل توبة القاتل ؛ لما ورد من النصوص في قبول التوبة النصوح من كل مُذنب » .
والحديث متفق عليه ، واللفظ للبخاري في تفسير سورة النساء .

(٤) الطبقات لابن سعد ٦ / ٢٥٧ ، السير ٤ / ٣٣٥ .

١٤ - أبو عثمان النهدي :

عن أبي عثمان النهدي قال : « بلغني عن أبي هريرة حديثٌ أنه قال : إن الله لَيكتُبُ لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألفَ ألفِ حسنةٍ ، فحججتُ ذلك العام ، ولم أكن أُريد الحجَّ إلا للقائه في هذا الحديث ، فأتيتُ أبا هريرة ، فقلتُ : ياأبا هريرة ، بلغني عنك حديثٌ ، فحججت العام ، ولم أكن أُريد الحجَّ إلا لألقاك ، قال : فما هو ؟ قلتُ : إن الله لَيكتُبُ لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألفَ ألفِ حسنةٍ ، فقال أبو هريرة : ليس هكذا قلتُ ، ولم يحفظ الذي حدَّثك . قال أبو عثمان : فظننتُ أن الحديث قد سقط . قال : إنما قلتُ : إن الله ليُعطي عبْدَه المؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألفِ حسنةٍ ، ثم قال : أَوَ ليس في كتاب الله تعالى ذلك ؟ قلتُ : كيف ؟ قال : لأنَّ الله يقول : ﴿ **مَنْ ذا الذي يُقرضُ الله قرضًا حسنًا فيُضاعفَه له أضعافًا كثيرة**﴾[1]، والكثيرة عند الله أكثر من ألفي ألف وألفي ألف»[2].

١٥ - الضحّاك بن مزاحم :

كان رحمه الله من أوعية العلم ، وكان من أئمة المفسرين :

قال رحمه الله : « أدركتهم وما يتعلّمون إلا الورع » .

وقال رحمه الله: حقٌّ على كلِّ مَنْ تعلّم القرآن أن يكون فقيهًا، وتلا قول الله: ﴿**كونوا ربَّانيِّين بما كنتم تُعلِّمون الكتاب...**﴾ الآية [آل عمران: ٧٩] .

---

(١) البقرة : ٢٤٥ .

(٢) رواه أحمد مختصرًا ٧٩٣٢ ومطوَّلًا بمعناه ٥٢١/٢، وفيه « فوالله ، لقد سمعتُ النبي ﷺ يقول : إن الله لَيُضاعفُ الحسنة ألفي ألف حسنة » ، ولكنه ذكر في الموضع الثاني آية : ﴿ وإنْ تكُ حسنةً يُضاعفْها ويُؤتِ من لدنه أجرًا عظيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] . وحقق العلّامة أحمد شاكر صحة الإسنادين في تعليقه على المسند . انظر الرحلة للخطيب ١٣٢ - ١٣٤ .

قال الثوري : « كان الضحَّاك يُعلِّم ولا يأخذ أجرًا » .

« كان رحمه الله فقيه مكتبٍ كبيرٍ إلى الغاية ، فيه ثلاثة آلاف صبي ، فكان يركب حمارًا ، ويدور على الصبيان »(١) .

فانظر رحمك الله إلى عُلُوِّ هِمَّتِهِ في تعليم ثلاثة آلاف صبي القرآن .

١٦ - عكرمة مولى ابن عباس :

قال عبد الرحمن بن حسَّان : سمعتُ عكرمة يقول : « طلبتُ العلم أربعين سنةً ، وكنتُ أُفتي بالباب ، وابن عباس في الدار » .

وقال عكرمة رحمه الله : « كان ابن عباس يضع في رجلي الكَبل(٢) على تعليم القرآن والسنن »(٣) .

رحمهم الله ؛ قيَّدوهم للعمل فقادوا الناس ، ولما أخذوا برأس الأمر وصبروا ؛ صاروا رؤوسًا .

١٧ - عطاء بن أبي رباح المكي :

سيِّدٌ من سادات التابعين ، هجر النوم والدَّعة والراحة في سبيل العلم ، يصدق فيه قول نصر السمرقندي : « لا ينالُ هذا العلمَ إلا من عطَّل دُكَّانه ، وخرَّب بستانه ، وهجر إخوانه ، ومات أقربُ أهله إليه فلم يشهد جنازته » .

قال ابن جريج : « كان المسجدُ فراشَ عطاء عشرين سنة ! » .

وقال إسماعيل بن أمية : « كان عطاء يُطيلُ الصمت ، فإذا تكلَّم خُيِّلَ إلينا أنه مؤيَّدٌ ، وكان أسود أعور ، أفطس ، أشلَّ ، أعرج ، ثم عمي ! ففي جسمه ستة عيوب ، ولكنه كان ركنًا من أركان العلم والدين والصلاح والقدوة ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٩٩ .

(٢) الكبل : القيد .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥ / ١٤ .

وكان ثقةً فقيهًا ، حجَّ نيِّفًا وسبعين حجةً »[١] .

١٨ - ابن الديلمي عبد الله بن فيروز، ورحلتُه إلى ابن عمرو رضي الله عنهما:

وابن الديلمي من ثقات التابعين .

قال رحمه الله : بلغني حديثٌ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، فركبتُ إليه إلى الطائف أسأل عنه - وكان ابن الديلمي بفلسطين - قال : فدخلتُ عليه وهو في حديقة له ، فوجدتُه مختصرًا بيد رجل كنا نتحدَّث بالشام أن ذلك الرجل من شَرَبَةِ الخمر . قال : فقلتُ له : ياأبا محمدٍ ، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول في شارب الخمر شيئًا ؟ قال : فاختلج[٢] الرجل يده من يد عبد الله بن عمرو ، فقال[٣] : نعم ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من شرب الخمر لم تُقبل له صلاة أربعين صباحًا » .

قلتُ : ما حديث بلغني عنك تقوله : « إن صلاةً في بيت المقدس كألف صلاة ، وإن القلم قد جفَّ ؟ » فقال عبد الله : اللهم إني لا أُحلُّ لهم أن يقولوا إلا ما سمعوا مني ، قالها ثلاثًا . قال : ولكني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن سليمان بن داود سأل الله ثلاثًا : سأله مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه ، وسأله حُكمًا يُصادف حُكمَه فأعطاه إياه ، وسأله مَنْ أتى هذا البيت لا يُريد إلا الصلاة فيه أن يغفر له » .

وسمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق الناس في ظلمةٍ ، فأخذ نورًا من نوره ، فألقى عليهم ، فأصاب مَنْ شاء ، وأخطأ مَنْ شاء ، فقد عرف من يُخطِئُه ممن يُصيبه ، فمَنْ أصابه من نوره اهتدى ، ومَنْ أخطأه

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٤ / ٢٧٩ ، سير أعلام النبلاء .

(٢) أي سحبها وذهب ، كما في المسند « فلما سمع الفتى ذكْر الخمر اجتذب يده من يده ثم انطلق » .

(٣) القائل هو عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

ضلَّ ، فلذلك أقول : إنّ القلمَ قد جفّ »[١] .

١٩ - الشعبي عامر بن شراحيل التابعي الجليل :

روى الحافظ الرامهرمزي في «المُحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي» عن الشعبي « أنه خرج من الكوفة إلى مكة في ثلاثة أحاديث ذُكرت له ، فقال : لعلّي ألقى رجلًا لقي النبي ﷺ ، أو من أصحاب النبي ﷺ » .

قال ابن شبرمة : « سمعتُ الشعبيَّ يقول : ما كتبتُ سوداءَ في بيضاءَ إلى يومي هذا ، ولا حدَّثني رجلٌ بحديث إلا حفظتُه ، ولا أحببتُ أن يُعيده عليَّ ، ولقد نسيتُ من العلم ما لو حفظه أحدٌ لكان به عالمًا » .

وقال : ما أروي شيئًا أقلَّ من الشعر ، ولو شئتُ لأنشدتكم شهرًا لا أُعيد .

قال ابن المديني : قيل للشعبي : من أين لك هذا العلم كله ؟ قال : بنفي الاعتماد[٢] ، والسير في البلاد ، وصبْر كصبر الحمار[٣] ، وبكور كبكور

---

(١) إسناده صحيح : أخرجه الإمام أحمد (٦٦٤٤) عن ابن الديلمي ، فلم يُصرِّح برحلته ، لكنه يُشير إليها إشارة ، وأخرجه الحاكم في المستدرك وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، فقال : « على شرطهما ولا علَّة له » وصحَّح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند . واللفظ هنا للخطيب من « الرحلة في طلب الحديث » صـ ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) أي نفي الاعتماد على الغير .

(٣) كصبر الحمار وقد صُحِّفت إلى صبر الجماد أو الحمام ، والعرب إنما تضرب المثل في الصبر بصبر الحمار ، كما قال الميداني في « مجمع الأمثال » صـ ٣٨٣ : « أصبر من حمار » .

الغراب[١] »[٢] .

وقال صالح بن صالح بن حيٍّ : « جاء رجل إلى الشعبي وأنا عنده ، فقال : ياأبا عمرو ، إن ناسًا عندنا يقولون : إذا أعتق الرجل أَمَتَهُ ثم تزوَّجها ؛ فهو كالراكب بدنتَهُ ! قال الشعبي : حدَّثني أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة يُؤْتَون أجرهم مرتين : الرجل من أهل الكتاب كان مُؤمنًا قبل أن يُبعث النبي ﷺ ؛ فله أجران ، ورجل كانت له جاريةٌ ، فعلَّمها فأَحسن تعلمها ، وأدَّبها فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها وتزوَّجها ؛ فله أجران ، وعبدٌ أطاع الله وأدَّى حقَّ سيِّده ؛ فله أجران »[٣] خذها بغير شيء ، فقد كان الرجل يرحل في أدنى منها إلى المدينة »[٤] .

وقال سفيان بن عيينة : « سمعتُ عطاءً يحدِّث عن عبد الله بن عبيد بن عمير : قيل لابن عمر : « ما لنا لا نراك تستلم إلا هذين الركنين ؟ » ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن استلام الركنين يحطُّ الخطايا كما يتحاتُّ ورقُ الشجر »[٥] .

قال سفيان : حدَّثني بهذا الحديث عطاء ، وأنا وهو في الطواف . قال : فكأنه لم يرني أُعجبتُ به ، فقال : أتزهد في هذا ياابن عيينة ؟! حدَّثت

---

(١) قال حمَّاد الرواية : كانت العرب تقول : تعجَّبنا من أربعة أشياء : من الغراب والخنزير والكلب والسِّنَّوْر ؛ فأما الغراب : فسرعة بكوره وسرعة إيابه قبل الليل .

(٢) تذكرة الحفاظ ١ / ٨١، ٨٤ ، سير أعلام النبلاء ٤ / ٣٠٠ .

(٣) رواه البخاري ومسلم والخطيب في الرحلة واللفظ له صـ ١٤٠ - ١٤١ .

(٤) هذا من كلام الشعبي كما صرَّح به الشيخان .

(٥) صحيح الإسناد : أخرجه أحمد وعبد الرزاق والطيالسي وابنُ حبان والحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وتفرَّد الخطيب بقوله : « كما يتحاتُّ » ، وهو صحيح .

به الشعبي ، فقال : لو رُحِل في هذا الحديث كذا وكذا ؛ لكان أهلًا له »(١) .

٢٠ ، ٢١ - علقمة بن قيس النخعي ، والأسود بن يزيد النخعي :

« قيل لأحمد بن حنبل : رجل يطلب العلم يلزم رجلًا عنده علمٌ كثير أو يرحل ؟ قال : يرحل ، يكتب عن علماء الأمصار ، فيُشامُّ(٢) الناسَ ويتعلَّم منهم »(٣) .

« وقيل لأحمد بن حنبل : أيرحل الرجلُ في طلب العلم ؟ فقال : بلى والله شديدا ، لقد كان علقمة بن قيس النخعي ، والأسود بن يزيد النخعي - وهما من أهل الكوفة بالعراق - يبلغهما الحديث عن عمر ، فلا يقنعهما ، حتى يخرجا إليه - إلى المدينة المنورة - فيسمعانه منه »(٤) .

فلولا اغتراب المسكِ ما حلَّ مَفْرِقًا　　　ولولا اغترابُ الدُّرِّ ما حلّ في التاجِ

ويرحم الله أبا إسحاق الغزي حيث يقول :

أخفاك مُكثك في أرض نشأت بها　　　وليس يُعرف قدرُ الدُّرِّ في اللُّجَجِ

٢٢ - مسروق بن الأجدع الهَمداني :

قال فيه الشعبي : « ما رأيت أطْلَبَ للعلم منه » !

وحكى الحافظ ابن عبد البر « أن مسروقًا رحل في حرف(٥)، وأن

---

(١) الرحلة في طلب الحديث صـ ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) يشامُّ : قال ابن الأثير في « النهاية » : « يُقال : شاممتُ فلانًا ؛ إذا قاربته وتعرَّفت ما عنده بالاختبار والكشف ، وهي مُفاعلةٌ من الشمِّ ، كأنك تشمُّ ما عنده ويشمُّ ما عندك ؛ لتعملا بمقتضى ذلك » .

(٣) فتح الباري ١٥٩/١ ، الرحلة في طلب الحديث صـ ٨٨ .

(٤) شرح الألفية للعراقي ٢٢٦/٢، وفتح المغيث للسخاوي صـ ٣٢١ .

(٥) أي من أجل كلمة واحدة .

أبا سعيد(١) رحل في حرف »(٢) .

٢٣ - أبو العالية رُفَيْع بن مِهْران :

قال أبو العالية رحمه الله : « كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ ونحن بالبصرة ، فما نرضى حتى نركب إلى المدينة ، فنسمعها من أفواههم »(٣) .

٢٤ - الحسن البصري :

« رحلتُ إلى كعب بن عجرة من البصرة إلى الكوفة ، فقلتُ : ما كان فداؤك حين أصابك الأذى ؟ قال : شاة »(٤) .

٢٥ - مغيرة بن مِقْسَم الضبِّي :

أبو هشام الكوفي الأعمى ؛ تفقَّه بإبراهيم النخعي وبالشعبي .

قال الفضيل بن غزوان : « كنا نجلس أنا ومغيرة - وعددَّ ناسًا - نتذاكر الفقه ، فربما لم نقم حتى نسمع النداء بصلاة الفجر »(٥) .

٢٦ - القاضي الفقيه التابعي عبد الله بن شُبْرُمة :

عن الفُضيل بن غزوان قال : « كنا نجلس - أنا وعبد الله بن شبرمة والحارث بن يزيد العُكلي والمغيرة بن مقسم الضبي والقعقاع بن يزيد - بالليل نتذاكر الفقه ، فربما لم نقم حتى نسمع النداء لصلاة الفجر . وفي رواية :

---

(١) لعله الحسن البصري .
(٢) جامع بيان العلم وفضله ٩٤/١ .
(٣) الكفاية في علم الرواية صـ ٤٠٣ .
(٤) الرحلة في طلب الحديث صـ ١٤٣ .
(٥) تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ١٤٣ ، « تاريخ الإسلام ٥ / ٣٠٢ » .

فلم يُفرِّق بينهم إلا أذانُ الصبح »(١) .

٢٧ - مكحول الدمشقي الإمام :

قال ابن إسحاق : سمعتُ مكحولًا يقول : « طفتُ الأرضَ في طلب العلم »(٢) .

قال مكحول رحمه الله : « كنتُ عبدًا بمصر لامرأة من بني هُذَيْل ، فأعتقتني ، فما خرجتُ من مصر وبها عَلمٌ ؛ إلا حويتُ عليه فيما أرى ، ثم أتيتُ الحجاز ، فما خرجتُ منها وبها علمٌ ؛ إلا حويتُ عليه فيما أرى ، ثم أتيت العراق ، ، فما خرجتُ منها وبها علمٌ ؛ إلا حويتُ عليه فيما أرى ، ثم أتيتُ الشام فغربلتُها ؛ كلُّ ذلك أسألُ عن النَّفل(٣)، فلم أجد أحدًا يُخبرني فيه بشيء، حتى أتيتُ شيخًا يُقال له: زياد بن جارية التميمي، فقلتُ له: هل سمعت في النَّفل شيئًا ؟ قال: نعم؛ سمعتُ حبيب بن مسلمة الفهري يقول: شهدتُ النبي ﷺ نفَّل الرُّبعَ في البَدْأة، والثُّلُثَ في الرجعة»(٤).

٢٨ - محمد بن شهاب الزهري :

أول من دوَّن الحديث وكتبه .

قال الليث بن سعد : « ما رأيتُ عالمًا قطُّ أجمع من ابن شهاب ، يُحدِّث في الترغيب ؛ فتقول : لا يُحسن إلا هذا ، وإن حدَّث عن العرب والأنساب ؛ قلتَ : لا يُحسن إلا هذا ، وإنْ حدَّث عن القرآن والسنة ؛

---

(١) سنن الدارمي ١ / ١٢٠ ، باب مذاكرة العلم ، وتهذيب التهذيب ٥ / ٢٥٠ .

(٢) تذكرة الحفاظ ١ / ١٠٨ .

(٣) النَّفَل هو الزيادة على الحق المفروض للجندي ، يجعله له القائد ؛ تشجيعًا على القتال ، أو مُكافأةً على عمل أجراه .

(٤) رواه أبو داود بلفظه في الجهاد وسكت عليه أبو داود والمنذري ، ورواه بلفظه أيضًا الخطيب في « الرحلة في طلب الحديث » صـ ١٩٨ - ١٩٩ .

كان حديثه »[(١)] .

قال أبو الزناد : كنا نطوف مع الزهري على العلماء ، ومعه الألواح والصُّحُف ، يكتب كلَّ ما سمع .

قال عنه ابن أخيه : « جمع عمِّي القرآن في ثمانين ليلة » . سبحان الله ! يحفظ القرآن كلَّه في ثمانين ليلة !!.

وحدَّث هو عن نفسه ، فقال : « نشأتُ وأنا غلام لا مال لي ، ولا أنا في ديوان ، وكنتُ أتعلَّم نسب قومي من عبد الله بن ثعلبة بن صُعير ، وكان عالمًا بذلك ، وهو ابن أخت قومي وحليفهم ، فأتاه رجل ، فسأله عن مسألة من الطلاق ، فعيَّ بها وأشار له إلى سعيد بن المسيب ، فقلتُ في نفسي : ألا أراني مع هذا الرجل المسنِّ يذكر أن رسول الله ﷺ مسح رأسه ، ولا يدري ما هذا ؟! فانطلقتُ مع السائل إلى سعيد بن المسيب ، وتركتُ ابن ثعلبة ، وجالستُ عروة ، وعبيد الله ، وأبا بكر بن عبد الرحمن ، حتى فَقُهْتُ ، فرحلتُ إلى الشام » .

ويقول رحمه الله: «مسَّت ركبتي ركبة سعيد بن المسيب ثماني سنين».

وقال : كنتُ أخدم عُبيد الله بن عبد الله ، حتى إنْ كنتُ أستقي له الماء المالح، وكان يقول لجاريته: من بالباب؟ فتقول: غلامك الأعمش .

رحمه الله ! من طولِ صبْره وملازمته لعبيد الله وخدمته له ؛ ظنَّته مولى لعبيد الله ، وهو القُرشيُّ الحرُّ الحسيبُ النسيبُ .

وقال أبو الزناد : كنا نكتب الحلال والحرام ، وكان ابن شهاب يكتب كلَّ ما سمع ، فلما احتيج إليه ، علمتُ أنه أعلمُ الناس ، وبصَر عيني به ومعه ألواحٌ وصُحُفٌ ، يكتب فيها الحديث ، وهو يتعلَّم يومئذٍ .

قال الليث بن سعد : تذكر ابن شهاب ليلة بعد العشاء حديثًا وهو

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٢٨ .

يتوضَّأ ، فما زال ذاك مجلسه حتى أصبح .

« وقال يعقوب بن عبد الرحمن : إن الزهري كان يبتغي العلم من عروة وغيره ، فيأتي جاريةً له ، وهي نائمة ، فيوقظها ؛ يقول لها : حدَّثني فلان بكذا ، وحدَّثني فلان بكذا ، فتقول : ما لي ولهذا ؟ فيقول : قد علمتُ أنك لا تنتفعي به، ولكن سمعتُ الآن، فأردتُ أن أستذكره»[١].

قال معمر : كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهري ، حتى قُتل الوليد ، فإذا الدفاتر قد حُمِلت على الدوابِّ من خزائنه ، يقول : منْ علْم الزهري .

وقال الزهري : اختلفتُ من الحجاز إلى الشام خمسًا وأربعين سنةً ، فما استطرفتُ حديثًا واحدًا ، ولا وجدتُ من يُطرفُني حديثًا .

قال الليث: سمعتُه- أي الزهري- يبكي على العلم بلسانه، ويقول: يذهب العلم ، وكثيرٌ ممن كان يعمل به ، فقلت له : لو وضعتَ من علمك عند من ترجو أن يكون خلفًا ، قال : والله ما نشر أحدٌ العلم نشري ، ولا صبر عليه صبري ، ولقد كنا نجلس إلى ابن المسيب ، فما يستطيع أحدٌ منا أن يسأله عن شيء ؛ إلا أن يبتدىء الحديث أو يأتي رجل يسأله عن شيء قد نزل به .

وروى إبراهيم بن سعد عن أبيه ، قال : ما رُؤي أحد جمع بعد رسول الله ﷺ ما جمع ابن شهاب .

سأل جعفر بن ربيعة عراك بن مالك : « مَنْ أفقهُ أهل المدينة ؟ قال : أما أعلمُهم بقضايا رسول الله ﷺ، وقضايا أبي بكر وعمر وعثمان، وأفقهُهم فقهًا ، وأعلمُهم بما مضى من أمر الناس ؛ فسعيد بن المسيب ، وأمّا أغزرُهم حديثًا فعروة ، ولا تشاءُ أن تُفجِّرَ من عبيد الله بن عبد الله بحرًا إلا فجَّرتَه ، وأعلمُهم عندي جميعًا ابن شهاب ، فإنه جمع علمَهم جميعًا إلى علمه » .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٣٤ .

يرحم الله ابن شهاب القائل : « إنما يُذهبُ العلمَ النسيانُ ، وتركُ المذاكرة » .

فأدمْ للعلمِ مدارسةً   فحياةُ العلم مُدارستُهُ

يرحم الله ابن شهاب الزهري الذي قال له سعيد بن المسيب : « ما مات من ترك مثلك »[1] .

علمُ الحديث أَجَلُّ السُّؤْل والوطرِ   فاقطعْ به العيشَ تعرفْ لذةَ العُمرِ
وانقلْ رحالك عن مغناك مُرتحِلًا   لكي تفوز بنقلِ العلمِ والأثرِ
ولا تقلْ عاقني شُغلٌ فليس يرى   في الترك للعلم من عُذْرٍ لمُعتذِرِ
وأيُّ شُغل كمثل العلم تطلبُهُ   ونقل ما قد رووا عن سيِّد البشر
ألهى عن العِلم أقوامًا تطلُّبهم   لذَّاتِ دنيا غدوا منها على غَرَرِ
وخلَّفوا ما له حظٌّ ومكرمةٌ   إلى التي هي دأبُ الهونِ والخطرِ
وأيُّ فخرٍ بدنياه لمن هدمتْ   معايبُ الجهلِ منه كل مفتخَرِ
لا تفخرنَّ بدنيا لا بقاء لها   وبالعفافِ وكسبِ العلم فافتخرِ
يفنى الرجالُ ويبقى علمُهم لهمُ   ذكْرًا يُجدَّدُ في الآصالِ والبُكر
ويذهب الموت بالدنيا وصاحبِها   وليس يبقى له في الناس من أَثرِ
تظنُّ أنك بالدنيا أخو كِبَرٍ   وأنت بالجهلِ قد أصبحتَ ذا صِغَرِ
ليس الكبير عظيمَ القدرِ غير فتى   مازال بالعلمِ مشغولًا مدى العُمُرِ
قد زاحمتْ رُكبتاه كلَّ ذي شَرَفٍ   في العلم والحلم لا في الفخر والبطرِ
والحَقْ بقوم إذا لاحتْ وجوهُهمُ   رأيتَها من سنا التوفيقِ كالقمر
أضحوا من السُّنَّة العلياء في سَنَنٍ   سهلٍ وقاموا بحفظِ الدينِ والأثرِ
أجلُّ شيءٍ لديهم قال « أخبرنا »   عن الرسول بما قد صحَّ من خبرِ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٣٧ .

هذي المكارمُ لا قِعْبان من لبنٍ ... ولا التمتُّع باللَّـذاتِ والأشرِ
لا شيءأحسنُ من «قال الرسول» وما ... أجلَّ من سندٍ عن كلِّ مُشتهرِ
ومجلسٌ بين أهلِ العلم جاد بما ... حلا من الدَّرِّ أو حَلَّى من الدُّرَرِ
يومٌ يمرُّ ولم أروِ الحديثَ به ... فلستُ أحسبُ ذاك اليوم من عُمُري
فإنّ في درس أخبارِ الرسولِ لنا ... تمتُّعًا في رياضِ الجنةِ الخُضْرِ
تعلُّلًا إذْ عدمنا طِيبَ رؤيته ... مَنْ فاته العينُ هدَّ الشوقَ بالأثرِ
كأنــه بيــن ظهرينــا نشاهــدُهُ ... في مجلس الدرس بالآصالِ والبُكُرِ(١)
صلَّى عليه إلهُ العرشِ ثُمَّ على ... أصحابِهِ ما جرى طلٌّ على زَهَرِ

قال إبراهيم بن أدهم : إن الله تعالى يدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أصحاب الحديث(٢) .

قال يزيد بن هارون : قلتُ لحمَّاد بن زيد : ياأبا إسماعيل ، هل ذكر الله عزَّ وجلَّ أصحاب الحديث في القرآن ؟ فقال : بلى ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿ **ليتفقَّهوا في الدين ولِيُنذروا قومهم إذا رجعوا إليهم** ﴾ الآية ؟ فهذا في كل مَنْ رحل في طلب العلم والفقه ، ويرجع به إلى مَنْ وراءه ، يُعلِّمهم إياه .

وعن عكرمة مولى ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **السائحون** ﴾ قال : هم طلبة الحديث .

وكان عليُّ بن معبد إذا رأى أصحاب الحديث؛ يقول: شَعِثةٌ رؤوسهم، دَنِسةٌ ثيابُهم ، مُغبرَّةٌ وجوهُهم ، إن لم يكن مع هذا ثوابٌ ، فهذا والله العقاب(٣) .

---

(١) قواعد التحديث للقاسمي : تحقيق : محمد بهجة البيطار صـ ٤٠٦ - ٤٠٨ - طبعة عيسى الحلبي .
(٢) شرف أصحاب الحديث صـ ٥٩ .
(٣) شرف أصحاب الحديث للخطيب صـ ٦٠ .

٢٩ - أبو قلابة عبد الله بن زيد الجَرْمي :

قال رحمه الله : « أقمتُ في المدينة ثلاثًا ، ما لي بها حاجة إلا قدوم رجل بلغني عنه حديثٌ، فبلغني أنه يقدُمُ، فأقمتُ حتى قدم فحدَّثني»(١).

٣٠ - أبو معشر الكوفي :

عن أبان بن أبي عياش قال : قال لي أبو معشر الكوفي : « خرجتُ من الكوفة إليك إلى البصرة في حديث بلغني عنك. قال: فحدَّثتُه به»(٢).

والمسافة بين الكوفة والبصرة ٣٥٠ كيلو مترًا .

٣١ - شعبة بن الحجَّاج أبو بسطام :

قال أبو بكر البكراوي : « ما رأيتُ أحدًا أعْبَدَ لله من شعبة » .

وقال حماد بن زيد الحافظ الإمام : « إذا خالفني شعبة تَبعتُه ؛ لأنه كان لا يرضى أن يسمع الحديث عشرين مرة ، وأنا أرضى أن أسمعه مرةً » .

وكان رحمه الله عظيم العناية بالبحث عن الحديث وحال رواته ، حتى قال : « مَنْ طلب الحديث أفلس ، بعتُ طستَ أُمِّي بسبعة دنانير » .

« وكانت ثيابُه كلون التراب »(٣) ، كما قال أبو قطن تلميذه ؛ لانشغاله بالعلم .

يرحم الله شعبة كم تحمَّل في سبيل الحديث ، وهان عليه في مرضاة ربه كلُّ صعبٍ وشديدٍ .

إذا صح منك الوُدُّ فالكلُّ هيِّنٌ وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابُ

---

(١) « الرحلة في طلب الحديث » للخطيب صـ ١٤٥ ، والدارمي في سننه « الرحلة في طلب العلم » ، وإسناده صحيح .

(٢) الرحلة في طلب الحديث صـ ١٤٨ .

(٣) تذكرة الحفاظ ١ / ١٩٤ ، سير أعلام النبلاء .

قال الإمام أحمد عن شعبة ومنزلته في الحديث : « هو أُمَّةٌ وحده في هذا الشأن » .

وقال فيه الشافعي : « لولا شعبةُ ما عُرف الحديثُ بالعراق » .

قال أحمد بن حنبل : « أقام شعبة على الحكم بن عُتيْبَة ثمانية عشر شهرًا حتى باع جزوعَ بيتِهِ »[١] .

وانظر إلى هذه القصة العجيبة التي تُريك عُلُوَّ هِمَّة أبي بسطام في طلبه للعلم[٢] .

« عن نصر بن حماد قال : كنا بباب شعبة نتذاكر الحديث ، فقلتُ : ثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الله بن عطاء ، عن عقبة بن عامر قال : كنا في عهد رسول ﷺ نتناوبُ رعاية الإبل ، فرحتُ ذات يوم ، ورسول الله ﷺ جالسٌ ، وحوله أصحابه ، فسمعتُه يقول : « من توضَّأ فأحسن الوضوءَ ، ثم دخل المسجد ، فصلَّى ركعتين واستغفر الله ، غفر الله له » . قال : فما ملكتُ نفسي أن قلتُ : بخٍ بخٍ . قال : فجذبني رجل من خلفي ، فالتفتُّ ، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : ياابن عامر ، الذي قال قبل أن تجيء أحسنُ ، قلتُ : ما قال فداك أبي وأمي ؟ قال : قال : « مَنْ شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؛ فُتحت له ثمانية أبواب من الجنة ، من أيِّها شاء دخل » . قال : فسمعني شعبة ، فخرج إليَّ ، فلطمني لطمة ، ثم دخل ، ثم خرج ، فقال : ما له يبكي ؟ فقال عبد الله ابن إدريس : لقد أسأت إليه ! فقال : أما تسمعُ ما يُحدِّث عن إسرائيل عن

(١) العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد بن حنبل ١ / ٣٦٥ .

(٢) هذه القصة أخرجها الخطيب في الكفاية ٤٠٠ - ٤٠١ ، والرامهرمزي في « المُحدِّث الفاصل » ، والخطيب في « الرحلة ١٤٨-١٥٣ » ، والحاكم في المستدرك ١ / ٩٧ .

أبي إسحاق عن عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر! وأنا قلتُ لأبي إسحاق: أَسَمِعَ عبد الله بن عطاء من عقبة بن عامر ؟ قال : لا ، وغضب . وكان مِسعَر بن كدام حاضرًا ، فقال لي مسعر : أَغْضَبْتَ الشيخ ، فقلتُ : ما له؟ لَيُصَحِّحنَّ لي هذا الحديث أو لأُسقطنَّ حديثَه! فقال مسعر: عبد الله ابن عطاء بمكة . قال شعبة : فرحلت إليه ، لم أرِدِ الحجَّ ، إنما أردتُ الحديث، فلقيتُ عبد الله بن عطاء فسألتُه، فقال: سعد بن إبراهيم حدَّثني، فقال لي مالك بن أنس : سعد بن إبراهيم بالمدينة لم يحجَّ العام ، فدخلتُ المدينة ، فلقيتُ سعد بن إبراهيم فسألتُه ، فقال : الحديث من عندكم ، زياد بن مخراق حدَّثني ، فقلتُ : أي شيء هذا الحديث ! بينا هو كوفيٌّ صار مكيًّا ، صار مدنيًّا ، صار بصريًّا ، فدخلتُ البصرة ، فلقيتُ زياد بن مخراق فسألتُه ، فقال : ليس هذا من بابتك ، قلتُ : بلى ، قال : لا تُريده ؟ قلتُ : أُريدُه ، قال : شهربن حوشب حدَّثني عن أبي ريحانة عن عقبة بن عامر، قال: فلما ذكر لي شهرًا ؛ قلتُ : دمِّرْ على هذا الحديث ، لو صحَّ لي هذا الحديث ؛ كان أحبَّ إليَّ من أهلي ومن مالي ومن الدنيا كلها » .

فانظر تتبُّع شعبة للحديث من بلد لآخر ، ورحلته من أجل هذا السَّنَد !! ولكن أصل الحديث صحيح والحمد لله ، صحَّ عن عقبة بن عامر من طريق آخر أخرجه مسلم في صحيحه ، باب الذِّكر المُستحَبِّ عَقِبَ الوضوء .

٣٢ - سفيان الثوري :

أمير المؤمنين في الحديث !

انظر كم بلغ به الشغلُ كل الشغل بالعلم أن جاع ... ويرحم الله الشافعي حين يقول : « لا يطلبُ أحدٌ هذا العلمَ بالمُلك وعزِّ النفس فيُفلح ،

ولكن من طلبه بذُلِّ النفس ، وضيق العيش،وخدمة العلماء أفلح . وقال أيضًا : لا يُدرَكُ العلمُ إلا بالصبر على الذُّلِّ . وقال أيضًا : لا يصلحُ طلبُ العلم إلا لمُفلس ، فقيل : ولا الغنيّ المكفيّ ؟ قال : ولا الغنيّ المكفيّ .

وقال إبراهيم الآجري : مَنْ طلب العلمَ بالفاقة ورث الفهم »[١] .

« حدَّث سفيان بن عيينة ، قال : جاع سفيان الثوري جوعًا شديدًا ؛ مكث ثلاثة أيام لا يأكل شيئًا ، فمرَّ بدارٍ فيها عُرسٌ ، فدعتْه نفسُه إلى أن يدخل ، فعصمه الله ، ومضى إلى منزل أخته ، فأتته بقُرص فأكله ، وشرب ماءً ، فتجشَّى ، ثم قال :

سيكفيك عمّا أُغلقَ البابُ دُونَه ... وضَنَّ به الأقوامُ مِلْحٌ وجَرْدَقُ[٢]
وتشربُ من ماءٍ فُراتٍ وتَغْتَدي ... تُعارضُ أصحابَ الثَّريد المُلَبَّق[٣]
تَجشَّى إذا ما هم تَجشَّوْا كأنما ... ظَلِلت بأنواع الخَبيص تَفَتَّقُ»[٤][٥]

قال أبو شهاب الحنَّاط : « بعثتْ أختُ سفيان الثوري معي بجرابٍ إلى سفيان ، وهو بمكة ، فيه كعك وخشكنانج ، فقدمتُ مكة ، فسألتُ عن سفيان ، فقيل لي : إنه ربما يقعُدُ دُبُرَ الكعبة مما يلي باب الحنَّاطين ، قال أبو شهاب : فأتيتُه هناك- وكان لي صديقًا - فوجدتُه مستلقيًا ، فسلمتَ عليه ، فلم يُسائلني تلك المساءلة ، ولمْ يُسَلِّمْ عليَّ كما كنتُ أعرف منه ، فقلتُ له : إن أختك بعثت إليك معي بجرابٍ فيه كعك وخشكنانج ، قال : فعَجلْ به عليَّ، واستوى جالسًا ! فقلتُ: ياأبا عبد الله، أتيتُك وأنا صديقك،

---

(١) المجموع ١ / ٦٤ للنووي ، طبعة المطيعي .
(٢) الجردق : الرغيف من الخبز .
(٣) المُلبَّق : المُليَّن بالدسم . وفي البيت إقواء .
(٤) الخبيص : حلواء يخلط فيها التمر بالسَّمْن. وتَفتَّق : أي تتَّسع خواصرك من كثرة شِبَعِك منه .
(٥) حلية الأولياء ٦ / ٣٧٣ .

فسلَّمتُ عليك ، فلم تردَّ عليَّ ذاك الردَّ ، فلما أخبرتُك أني أتيتُك بجرابِ كعكٍ لا يُساوي شيئًا جلستَ وكلَّمتني ؟! فقال : ياأبا شهاب ، لا تلُمني ، فإن هذه لي ثلاثة أيام لم أذق فيها ذواقًا ! قال أبو شهاب : فعذرتُه »[1] .

قلتُ للفقر أين أنت مُقيمٌ قال لي في عمائم الفقهاء
إنَّ بيني وبينهم لإخاءً وعزيزٌ عليَّ قطعُ الإخاءِ

هذا ، سفيانٌ أعلمُ الناس في عصره !!

قال ابن المبارك : ما أعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان .

قال ابن حنبل للمروذي : أتدري مَن الإمام ؟ الإمام سفيان الثوري لا يتقدَّمُه أحدٌ في قلبي .

وقال شعيب بن حرب : إني لأحسب أنه يُجاء غدًا بسفيان حجةً من الله على خلقه ، يقول لهم : لم تُدركوا نبيَّكم ، قد رأيتم سفيان .

وقال بشر الحافي : كان الثوري عندنا إمامَ الناس . وعنه قال : سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما .

قال يحيى بن سعيد : سفيان أثبتُ من شعبة ، وأعلمُ بالرجال .

وقال شعبة : سفيان أمير المؤمنين في الحديث .

قال الذهبي : « يُقال : إن عدد شيوخه ستمائة شيخ ، وأما الرواة عنه ، فخلْقٌ ذكر أبو الفرج ابن الجوزي أنهم أكثر من عشرين ألفًا ، وهذا مدفوع ممنوع ، فإن بلغوا ألفًا ، فبالجَهْد »[2] .

« قال الأشجعي : سمعتُ من الثوري ثلاثين ألف حديثٍ »[3] .

« عن مهران الرازي قال : كتبت عن سفيان الثوري أصنافه ، فضاع

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٦ / ٣٧٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، ترجمة سفيان ٧ / ٢٢٩ - ٢٨٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٧ / ٢٤٧ .

مني كتاب الدِّيات ، فذكرتُ ذلك له ، فقال : إذا وجدتني خاليًا فاذكر لي حتى أُمِلّه عليك ، فحجَّ ، فلما دخل مكة ، طاف بالبيت ، وسعى ، ثم اضطجع فذكرتُه ، فجعل يُملي عليَّ الكتاب ؛ بابًا في إثر باب ، حتى أملاه جميعَه من حفظه »[(١)] .

« قال عبد الرزاق : ما رأيتُ أحدًا أحْفَظَ لما عنده من الثوري ، قيل له : ما منعك أن ترحل إلى الزُّهري ؟ قال : لم تكن دراهم »[(٢)] .

٣٣ - الإمام أبو حنيفة :

فقيه الملة وعالم العراق !

قال الذهبي : « عُني بطلب الآثار ، وارتحل في ذلك ، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه ؛ فإليه المنتهى ، والناس عليه عيالٌ في ذلك »[(٣)] .

وقال الشافعيُّ : الناس في الفقه عيالٌ على أبي حنيفة .

قال الذهبي : « الإمامة في الفقه ودقائقه مُسلَّمةٌ إلى هذا الإمام ، وهذا أمْر لا شكَّ فيه » .

وليس يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ   إذا احتاج النهارُ إلى دليل

قال الشافعي : « قيل لمالك : هل رأيتَ أبا حنيفة ؟ قال : نعم ، رأيتُ رجلًا لو كلَّمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا ؛ لقام بحُجَّتِه » .

وقال ابن المبارك : « لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان ؛ كنتُ كسائر الناس » . وقال أيضًا « أبو حنيفة أفقهُ الناس » .

وقال علي بن عاصم: «لو وُزن علمُ الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه؛

---

(١) السير ٧ / ٢٤٧ .

(٢) السير ٧ / ٢٤٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٦ / ٣٩٢ .

لرجح عليهم » .

وروي عن الأعمش أنه سئل في مسألة ، فقال : إنما يُحسن هذا النعمانُ بنُ ثابت الخزَّاز ، وأظنُّه بورك له في علمه .

وقال جرير : « قال لي مغيرة : جالسْ أبا حنيفة تفقه ، فإن إبراهيم النخعي لو كان حيًّا لجالسه » .

قال يحيى بن سعيد القطان : « لا نكذب الله ، ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة ، وقد أخذنا بأكثر أقواله » .

قال الذهبي في السير ٧ / ٤٠٣ « تُوفي شهيدًا مسقيًّا » .

قال أبو حنيفة رحمه الله: «يُستعان على الفقه بجمع الهمِّ، ويُستعان على حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة ولا تزد » .

وقال رحمه الله : « قدمتُ البصرة فظننتُ أني لا أُسأل عن شيء إلا أجبتُ فيه ، فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جوابٌ ، فجعلتُ على نفسي ألَّا أُفارق حمادًا - يعني ابن أبي سليمان - حتى يموت ؛ فصحبتُه ثماني عشرة سنة »[(١)] .

٣٤ - إمام دار الهجرة : مالك بن أنس رحمه الله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « ليضربنَّ الناسُ أكبادَ الإبل في طلب العلم ، فلا يجدون عالمًا أعلمَ من عالم المدينة »[(٢)] .

ويُروى عن ابن عيينة قال : كنتُ أقول : هو سعيد بن المسيب ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦ / ٣٩٨ .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي ، كلهم من حديث ابن عيينة عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر ، ورجاله ثقات ، إلا أن ابن جريج وأبا الزبير مُدلِّسان وقد عنعنا ، وَأَعَلَّه أحمد بالوقف ، ومع ذلك حسَّنه الترمذي ، وصحَّحه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وصحَّحه ابن حبان .

حتى قلتُ: كان في زمانه سليمان بن يسار، وسالم بن عبد الله، وغيرهما، ثم أصبحتُ اليوم أقول : إنه مالك ، لم يبق له نظير بالمدينة .

قال القاضي عياض : هذا هو الصحيح عن سفيان .

قال ابن عيينة : مالكٌ عالمُ أهل الحجاز ، وهو حجةُ زمانه .

وقال الشافعي - وصدق وبرَّ - إذا ذُكر العلماء فمالكٌ النجمُ .

وقال الذهبي : « ولم يكن بالمدينة عالمٌ من بعد التابعين يُشبهُ مالكًا في العلم والفقه والجلالة والحفظ ، فقد كان فيها بعد الصحابة مثل سعيد ابن المسيب والفقهاء السبعة ، فلما تفانوا ؛ اشتهر ذكْر مالك بها ، وابن أبي ذئب ، وابن الماجشون ، وسليمان بن بلال ، وفليح بن سليمان ، والدراوردي، وأقرانهم، فكان مالكٌ هو المُقدَّم فيهم على الإطلاق، والذي تُضربُ إليه آباط الإبل من الآفاق » .

وقال الذهبي أيضًا في السير ٧/٢٣٤: «ما علمتُ أحدًا من الحفَّاظ روى عنه عددٌ أكثر من مالك، وبلغوا بالمجاهيل والكذَّابين ألفًا وأربعمائة».

قال مالك : « ما أجبتُ في الفتوى حتى سألت مَنْ هو أعلم مني : هل تراني موضعًا لذلك ؟ سألت ربيعة ، وسألتُ يحيى بن سعيد ؛ فأمراني بذلك » .

قال خلف : « ودخلتُ عليه ، فقال لي : انظر ما ترى تحت مصلَّاي أو حصيري ، فنظرتُ ، فإذا أنا بكتاب ، فقال : اقرأه ، فإذا رؤيا بعثها بعض إخوانه ، يقول : رأيت النبيَّ ﷺ في المنام ، في مسجد قد اجتمع الناس عليه ، فقال لهم : إني قد خبَّأت تحت منبري طيبًا أو علمًا ، وأمرت مالكًا أن يُفرِّقه على الناس ، فانصرف الناس وهم يقولون : إذًا يُنفذ مالكٌ ما أمره به رسول الله ﷺ ، ثم بكى ، فقمتُ عنه »[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨ / ٦٢ ، الحلية ٦ / ٣١٧ .

روى علي بن المديني عن سفيان قال : رحم الله مالكًا ، ما كان أشدّ انتقاده للرجال .

قال ابن عيينة: كان مالكٌ لا يبَلِّغ من الحديث إلا صحيحًا، ولا يُحدِّث إلا عن ثقة، وما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موته- يعني من العلم-.

وقال الشافعي : إذا جاء الأثر كان مالكٌ كالنجم ، وهو وسفيان القرينان .

وقال : لولا مالكٌ وابن عيينة ؛ لضاع علمُ الحجاز .

وقال ابن معين : مالك من حُجج الله على خلقه .

وذكر أحمد بن حنبل مالكًا ، فقدَّمه على الأوزاعي والثوري والليث وحمَّاد والحكم في العلم . وقال : هو إمامٌ في الحديث وفي الفقه .

ومع هذا كان يقول : ينبغي للعالم أن يُوَرِّث جلساءه قول : « لا أدري » ، حتى يكون ذلك أصلًا يفزعون إليه .

قال ابن وهب : لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك : « لا أدري » ، لفعلتُ .

قال مالك رحمه الله : حدَّثنا ابن شهاب ببضعة وأربعين حديثًا ، ثم قال : أعِدْها عليَّ فأعدتُ عليه منها أربعين حديثًا .

قال مالك رحمه الله في صبر أهل العلم على طلبه : « كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنةً يتعلَّم منه »(١) .

وقال رحمه الله : « لا يبلغ أحدٌ من هذا العلم ما يُريد حتى يضرَّ به الفقر ، ويُؤثره على كل شيء » .

وقال القاضي عياض في «ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك»(٢) :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨ / ١٠٨ .

(٢) ٢/٦٨ ، باب « ابتداء طلب مالك العلم وصبره عليه » .

« قال ابن القاسم : أفضى بمالك طلبُ العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه ! ثم مالت عليه الدنيا بعد » . ثم قال القاضي عياض[(١)]: « قال مالك : لا يُنال هذا الأمرُ حتى يُذاق فيه طعمُ الفقر » .

٣٥ - شيخ الإسلام « المقرىء » :

شيخ الحرم أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن يزيد الأهوازي .

« قال محمد بن المقرىء : كان ابن المبارك إذا سُئل عن أبي ؛ قال : كان ذهبًا خالصًا »[(٢)] .

قال رحمه الله : « أنا ما بين التسعين إلى المائة ، وأقرأتُ القرآن بالبصرة ستًّا وثلاثين سنةً ، وها هنا بمكة خمسًا وثلاثين سنةً »[(٣)] .

فلله دَرُّهُ ! ما كان أعلى هِمّتِهِ في إقراء الناس القرآن سبعين سنةً .

٣٦ - عبد الله بن فرُّوخ القيرواني :

أحد أصحاب الإمام مالك وأبي حنيفة والثوري وغيرهم .

قال رحمه الله : « لما أتيتُ الكوفة ، وأكثرُ أمَلي السماعُ من سليمان ابن مهران- الأعمش- فسألتُ عنه، فقيل لي: غضب على أصحاب الحديث، فحلف أن لا يُسمعهم مُدَّةً ، فكنتُ أختلفُ إلى باب داره ؛ لعلي أصل إليه ! فلم أقدر على ذلك ! فجلستُ يومًا على بابه ، وأنا مُتفكِّرٌ في غربتي وما حُرمتُه من السماع منه ! إذ فتحت جارية بابه يومًا وخرجت منه ، فقالت لي : ما بالك على بابنا ؟! فقلت : أنا رجل غريب ، وأعلمتُها بخبري . قالت: وأين بلدكم ؟ قلتُ: إفريقية، فانشرحت إليَّ، وقالت: تعرف القيروان ؟

---

(١) ٢ / ٦٨ .

(٢) تهذيب الكمال ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٦٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٦٧ .

قلتُ : أنا من أهلها ، قالت : تعرفُ دار ابن فرّوخ ؟ قلتُ : أنا هو ، فتأمّلتني ، ثم قالت : عبد الله ؟ قلتُ : نعم ، وإذا هي جارية كانت لنا ؛ بعناها صغيرةً ، فسارعت إلى الأعمش ، وقالت له : إنّ مولاي الذي كنتُ أُخبرك بخبره بالباب ، فأمرها بإدخالي ، فدخلتُ ، وأسكنني قُبالةَ بيته ، فسمعتُ منه وحدَّثني ، وقد حرم سائر الناس إلى أن قضيتُ أَرَبي منه .

وذكر القاضي عياض عنه أنه رحل قديمًا ، فلقي الشيوخ والفقهاء ، وسمع من أبي حنيفة مسائل كثيرة غير مُدوَّنة ، يقال:إنها عشرة آلاف مسألة ، وذكر أنه قال : سقطت جرَّة من أعلى دار أبي حنيفة - وأنا عنده - على رأسي فأُدمِي ! فقال : اختر : الأرش[1] أم ثلاثمائة حديث ؟ قلتُ : الحديث ، فحدَّثني »[2] .

٣٧ - عبد الرحمن بن القاسم العُتقي المصري :

أحد أصحاب مالك والليث ؛ بل هو تلميذ مالك المُبَرَّز ، وهذه قصتّه ، وهي والله عجبُ العجاب !

قال القاسم : « كنتُ آتي مالكًا غلَسًا ، فأسأله عن مسألتين ، ثلاثة ، أربعة ، وكنتُ أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدرٍ ، فكنتُ آتي كلَّ سَحَرٍ ، فتوسَّدتُ مرة عَتَبَتَهُ ، فغلبتني عيني فِنمتُ ، وخرج مالك إلى المسجد ولم أشعر به ، وركضتني جارية سوداء له برِجلها ، وقالت لي : إنّ مولاك قد خرج ، ليس يغفُل ، كما تغفُل أنت ، اليوم له تسعٌ وأربعون سنةً ، قلَّما صلَّى الصبح إلا بوضوء العتمة » .

ظنَّت السوداء أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه !!

قال ابن القاسم : « وأنختُ بباب مالك سبع عشرة سنة ، ما بعتُ

---

(١) الدِّية .

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٣ / ١١٠ .

فيها ولا اشتريتُ شيئًا ، قال : فبينما أنا عنده ؛ إذ أقبل حاجُّ مصر ، فإذا شابٌّ مُتلثِّمٌ دخل علينا ، فسلَّم على مالك ، فقال : أفيكم ابن القاسم ؟ فأُشيرَ إلي ، فأقبل يُقبِّلُ عينيَّ ، ووجدتُ منه ريحًا طيِّبةً ، فإذا هي رائحة الولد ، وإذا هو ابني ، وكان ابن القاسم ترك أُمَّه حاملًا به ، وكانت ابنة عمه ، وقد خيَّرها عند سفره ؛ لطول إقامته ، فاختارت البقاء »[1] .

٣٨ - هشام بن عمَّار :

شيخ البخاري وأبي داود ، حافظ دمشق ، ومُقرئها ، ومُحدِّثها .

قال رحمه الله : « باع أبي بيتًا له بعشرين دينارًا ، وجهَّزني للحج ، فلما حضرت إلى المدينة أتيتُ مجلس مالك بن أنس ، ومعي مسائل أريدُ أن أسأله عنها ، فأتيتُه وهو جالس في بيته في هيئة الملوك ، وغلمانٌ قيامٌ ، والناسُ يسألونه وهو يُجيبهم ، فلما انقضى المجلس ؛ قال لي بعض أصحاب الحديث : سَلْ عما معك ، فقلتُ له : ياأبا عبد الله ، ما تقول في كذا وكذا ؟ فقال : حَصَلْنا على الصبيان ! ياغلام ، احمله ! فحملني كما يُحمل الصبيُّ ، وأنا يومئذٍ غلامٌ مُدرِكٌ ، فضربني بدِرَّةٍ مثل دِرَّة المُعلمين سبع عشرة درَّة ، فوقفتُ أبكي ، فقال لي مالك بن أنس : ما يُبكيك ، أوجعتك هذه الدِّرَّة ؟! قلتُ: إنَّ أبي باع منزله، ووجَّه بي، أتشرَّفُ بك وبالسماع منك، فضربتني! فقال: اكتب، فحدَّثني سبعة عشر حديثًا، وسألتُه عما كان معي من المسائل فأجابني[2] .

وقال الحافظ جزرة : سمعتُ هشام بن عمَّار يقول : دخلتُ على مالك ابن أنس ، فقلتُ له : حدِّثني ، فقال : اقرأ ، فقلتُ : لا ، بل حدِّثني ،

---

(١) ترتيب المدارك ٣ / ٢٥٠ .

(٢) تهذيب الكمال للمزي ٣ / ١١٤٤ .

فقال : اقرأ ، فلما رادَدْتُه ، قال : ياغلام ، تعالَ اذهب بهذا فاضربه خمسة عشر ، قال : فذهب بي ، فضربني خمس عشرة درَّة ، ثم جاء بي إليه ، فقال : قد ضربتُه ، فقلتُ : قد ظلمتني ! ضربتني خمس عشرة درَّة بغير جُرْمٍ ، لا أجعلُك في حِلٍّ ، فقال مالكٌ : فما كفَّارتُهُ ؟ قلتُ : كفَّارتُهُ أنْ تُحَدِّثَنِي بخمسة عشر حديثًا ، قال : فحدثني بخمسة عشر حديثًا ، فقلتُ له : زدْ من الضرب ، وزدْ من الحديث ، فضحك مالكٌ وقال : اذهب »[1] .

٣٩ - محمد بن سحنون القيرواني :

الفقيه المالكي المُحدِّث الإمام .

قال القاضي عياض في « ترتيب المدارك » (٣ / ١١٤) :

« كانت لمحمد بن سحنون سُرِّيَّة[2] يُقال لها : أُمُّ مُدَام ، فكان عندها يومًا ، وقد شُغل في تأليف كتاب إلى الليل ، فحضر الطعام ، فاستأذنته ليأكل ، فقال لها : أنا مشغول الساعة ، فلما طال عليها ؛ جعلت تُلقِّمه الطعام حتى أتتْ عليه ، وتمادى هو على ما هو فيه ، إلى أنْ أُذِّن لصلاة الصبح ، فقال : شُغِلنا عنك الليلة ياأُمَّ مُدام ، هاتِ ما عندك ، فقالت : قد - والله ياسيدي - ألقمتُه لك ، فقال لها : ما شعرتُ بذلك » .

سَهَري لتنقيحِ العلومِ ألَذُّ لي ... من وَصْلِ غانيةٍ وطيبِ عناقِ
وتمايُلي طربًا لِحَلِّ عويصةٍ ... أشهى وأحلى من مُدامةِ ساقي
وصريرُ أقلامي على أوراقها ... أحلى من الدُّوكَاهِ[3] والعُشَّاقِ
وألَذُّ منَ نقْرِ الفتاةِ لدُفِّها ... نقري لأُلقي الرملَ عن أوراقي

---

(١) معرفة القرَّاء الكبار للذهبي ١ / ١٩٦ .
(٢) أي أَمَة .
(٣) نوع من أنواع النغم .

يا مَنْ يُحاولُ بالأماني رتبتي كم بين مُسْتَفِلٍ وآخرَ راقي
أأبيتُ سهرانَ الدُّجى وتَبيتُه نومًا وتبغي بعد ذاك لَحَاقي[١]

لقد شغلهم العلمُ عن كلِّ شيء ! وإن تعجبْ فاعجبْ لهذا الخبر !

٤٠ - قتادة بن دعامة التابعي الجليل :

هذا الذي شغله وأفناه تحصيله للعلم عن نفسه ، فيقول لغلامه : ياغلام ، ناولني نعلي ، قال : نعلُك في رجْلك .

٤١ - القاضي شَرِيك بن عبد الله النخعي :

العلَّامة الحافظ الفقيه !

«قال يحيى بن يزيد: مرَّ شريك القاضي بالمُستنير بن عمرو النخعي، فجلس إليه ، فقال له المُستنير : ياأبا عبد الله ، مَنْ أدَّبك ؟ قال : أدبتني نفسي والله تعالى . وُلدت بخراسان ببخارى ، فحملني ابن عمٍّ لنا ، حتى طرحني عند بني عمٍّ لي بنهر صرصر ، فكنتُ أجلس إلى مُعلِّم لهم ، فعَلَقَ بقلبي تعلُّمُ القرآن، فجئتُ إلى شيخهم، فقلتُ: ياعمَّاه، الذي كنت تجري علي هاهنا ، أجْرِهِ عليَّ بالكوفة أعرف بها السُنّة وقومي ، ففعل . قال : فكنتُ بالكوفة أضربُ اللبن وأبيعُه ، وأشتري دفاتر وطروسًا ، فأكتب فيها العلم والحديث ، ثم طلبتُ الفقه ، فبلغتُ ما ترى ، فقال المستنير بن عمرو لولده : سمعتم قول عمِّكم ؟ وقد أكثرتُ عليكم في الأدب ولا أراكم تُفلحون فيه، فليؤدِّبْ كل رجل منكم نفسه، فمن أحسن فلها، ومن أساء فعليها»[٢].

وانظر رحمك الله كيف آثر العلمَ على المال ، حتى أضرَّ به الفقر ... شغله طلب العلم عن المال ، حتى ما يجد له ثوبًا .

---

(١) نُسبت هذه إلى الزمخشري ، ونُسبت الأبيات الأربعة الأولى إلى التاج السبكي .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٩ / ٢٨٠ .

« قال عمر بن هيَّاج بن سعيد الهمداني : كنتُ من صحابة شريك ، فأتيتُه يومًا باكرًا ، فخرج إليَّ في فروٍ ليس تحته قميصٌ ، عليه كساءٌ ، فقلتُ له : قد أضحيت عن مجلس الحكم ، فقال لي : غسلتُ ثيابي أمس فلم تجفَّ ، فأنا أنتظر جفوفها ، اجلس ، فجلستُ ، فجعلنا نتذاكر باب العبد يتزوَّج بغير إذن مواليه ، فقال : ما عندك فيه ؟ ما تقول فيه ؟! »[1] .

٤٢ - إمام العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي :

قال عنه سفيان الثوري : « من أحبَّ أن ينظر إلى رجُل خُلق من الذهب والمسك ، فلينظر إلى الخليل بن أحمد » .

قال عنه الذهبي في السير (٧ / ٤٢٩ - ٤٣٠) :

« الإمام ، صاحب العربية ، ومنشىء علم العروض .

حدَّث عن: أيوب السختياني، وعاصم الأحول، والعوام بن حوشب، وغالب القطّان . وكان رأسًا في لسان العرب ، ديِّنًا ، وَرِعًا قانعًا ، متواضعًا كبيرَ الشأن ، يُقال : إنه دعا الله أن يرزقه علمًا لا يُسبقُ إليه ؛ ففُتح له بالعروض ، وله كتاب « العين في اللغة » ، ومات و لم يُتمِّم كتاب « العين » ولا هذَّبه ، ولكن العلماء يغرفون من بحره .

أخذ عنه سيبويه النحو ، و النضر بن شميل .

وثقَّه ابن حبان . وقيل : كان مُتقشِّفًا مُتعبِّدًا .

قال النضر : أقام الخليل في خُصٍّ له بالبصرة ، لا يقدر على فلسين ، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال .

قال رحمه الله : لا يعرف الرجلُ خطأ مُعلِّمه ، حتى يُجالس غيره .

قال أيوب بن المتوكل : كان الخليل إذا أفاد إنسانًا شيئًا ، لم يُرِه بأنه أفاده ، وإن استفاد من أحدٍ شيئًا ؛ أراه بأنه استفاد منه .

---

(١) أخبار القضاة لوكيع ٣ / ١٦٩ ، تاريخ بغداد ٩ / ٢٨٨ .

قال الذهبي : صار طوائف في زماننا بالعكس » .

قال رحمه الله حاضًا الطلاب على الطلب والتحصيل للعلم والصبر عليه : « لا يصلُ أحدٌ من النحو إلى ما يحتاج إليه ، إلا بعد معرفة ما لا يحتاج إليه » .

قال الصفدي في « الوافي بالوفيات » (١ / ٦) : « وهكذا كلُّ علم ، لا يبلغ الإنسانُ إتقانَه إلا بعد تحصيل ما لم يفتقر إليه » .

وقال رحمه الله: «أصفى ما يكون ذهنُ الإنسان في وقت السحر».

٤٣ - مُسنِدُ العراق : عليُّ بن عاصم :

من أسنان سفيان بن عيينة .

قال الخطيب : « قد كان علي من ذوي الأموال والاتساع في الدنيا ، ولم يزل يُنفق في طلب العلم ويُفضل على أهله قديمًا وحديثًا .

قال علي رحمه الله : دفع إليَّ أبي مائة ألف درهم ، وقال : اذهب ، فلا أرى لك وجهًا إلا بمائة ألف حديث .

وقال : أعطاني أبي مائة ألف درهم ، فأتيتُه بمائة ألف حديث ، وكنتُ أُردفُ هَشِيمًا خلفي ؛ ليسمع معي الشيء بعد الشيء »[1].

« قال علي بن عاصم : خرجتُ من واسط أنا وهُشيم إلى الكوفة لِلُقيِّ منصور ، فلما خرجت فراسخ لقيني أبو معاوية ، فقلتُ : أين تُريد ؟ قال : أسعى في دَيْنٍ عليَّ ، فقلتُ : ارجع معي ، فإنّ عندي أربعة آلاف ، أُعطيك منها ألفين ، فرجعتُه ، فأعطيتُه ألفين ، ثم خرجتُ ، فدخل هُشيم الكوفة غداة، ودخلتُها بالعشيِّ، فذهب، فسمع من منصور أربعين حديثًا، ودخلتُ أنا الحمّام ، ثم أصبحتُ ، فأتيتُ باب منصور ، فإذا جنازته ، فقعدتُ أبكي ، فقال شيخٌ هناك : يافتى ، ما يُبكيك ؟ قلتُ : قدمتُ لأسمع من

(١) تاريخ بغداد للخطيب ١١ / ٤٤٧ - ٤٤٨ .

هذا الشيخ ، فمات . قال : أدُلُّك على مَنْ شهد عُرسَ أُمِّ ذا ؟ قلت : نعم ، قال: اكتب: حدَّثنا عكرمة عن ابن عباس، فجعلت أكتب شهرًا، فقلتُ: مَنْ أنت ؟ قال : أنا حُصين بن عبد الرحمن ، ما كان بيني وبين أن ألقى ابن عباس إلا تسعة دراهم ، وكان عكرمة يسمع منه ، ثم يجيء فيُحدِّثني »[١] .

وثَّقه وكيع وأخذ عنه أحمد .

قال البيكندي : « كان يجتمع عند علي بن عاصم أكثر من ثلاثين ألفًا ، وكان يجلس على سطحٍ ، وكان له ثلاثة مُستملين »[٢] .

٤٤ - هُشَيم بن بَشير :

مُحدِّثُ بغداد وحافظُها .

قال الإمام أحمد بن حنبل : « لزمتُ هُشيمًا أربع سنين ، أو خمسًا ، ما سألتُه عن شيء إلا مرتين ، هيبةً له »[٣] .

قال هشيم رحمه الله : « كنتُ أكون بأحد المِصْرين ، فيبلغني أن بالمصر الآخر حديثًا، فأرحل إليه، حتى أسمعه وأرجع»[٤]. ويعني بالمصرين: الكوفة والبصرة .

٤٥ - شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك :

قال الإمام أحمد : لم يكن في زمان ابن المبارك أطْلبُ للعلم منه .

وقال أبو أسامة : ما رأيتُ أطْلبَ للعلم في الآفاق من ابن المبارك .

---

(١) تاريخ بغداد ٤٥٣/١١ ، سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٥٣ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٥٧ ، وتاريخ بغداد ١١ / ٤٥٤ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٨ / ٢٩٠ .
(٤) « الرحلة في طلب الحديث » صـ ١٥٥ .

قال : هو أمير المؤمنين في الحديث .

قال ابن المبارك : حملتُ عن أربعة آلاف شيخ ، فرويتُ عن ألف منهم .

قال عبد الله بن إدريس : كل حديث لا يعرفه ابن المبارك ، فنحن منه براء .

وقال فضالة النسائي : كنتُ أُجالسهم بالكوفة ، فإذا تشاجروا في حديث ؛ قالوا : مُرُّوا بنا إلى هذا الطبيب حتى نسأله ؛ يعنون ابن المبارك .

وقال علي بن الحسن بن شقيق : قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد ، فذاكرني عند الباب بحديث ، أوْ ذاكرتُه ، فما زلنا نتذاكر ، حتى جاء المؤذِّن للصبح .

وقيل لابن المبارك : إلى متى تكتب العلم ؟ قال : لعل الكلمةَ التي أنتفع بها لم أكتبها بعد .

وكان ابن المبارك رحمه الله يقول : الحِبر في الثوب خَلوق العلماء .

قال زكريا بن عدي : رأيتُ ابن المبارك في النوم ، فقلتُ : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي برحلتي في الحديث .

قال أشعث بن شعبة المصيصي : قدم الرشيدُ الرَّقَّة ، فانجفل الناس خلف ابن المبارك ، وتقطَّعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أُمُّ ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب ، فقالت : ما هذا ؟ قالوا : عالم من أهل خراسان قدم . قالت : هذا والله المُلْك ، لا مُلْك هارون الذي يجمع الناس بِشُرَط وأعوان .

وكان ابن المبارك رحمه الله يُكثر الجلوس في بيته ، فقيل له : ألا تستوحش ؟ فقال : كيف أستوحشُ وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه !

قال الذهبي في السير ٨ / ٣٧٩ : « طلب العلم وهو ابن عشرين سنة ، فأقْدمُ شيخ لقيه هو الربيع بن أنس الخراساني ، تحيَّل ودخل إليه

إلى السجن ، فسمع منه نحوًا من أربعين حديثًا ، ثم ارتحل في سنة إحدى وأربعين ومائة ، وأخذ عن بقايا التابعين ، وأكثر من التِّرحال والتِّطواف ، وإلى أن مات ؛ في طلب العلم ، وفي الغزو ، وفي التجارة ، والإنفاق على الإخوان في الله وتجهيزهم معه إلى الحج » .

هارون بن المغيرة عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن قال : « لا تشتر مودَّة ألفِ رجلٍ بعداوة رجلٍ واحد » .

قال هارون : « قدم عليَّ ابنُ المبارك ، فجاء إليَّ وهو على الرحل ، فسألني عن هذا الحديث فحدَّثته ، فقال : ما وضعتُ رَحْلي من مرو إلا لهذا الحديث »[(١)] .

فرحم الله مَنْ قال فيه الرشيد لما مات : مات اليوم سيِّد العلماء !

٤٦ - إسماعيل بن عيَّاش الحمصي الحافظ العابد :

قال أبو اليمان عامر بن عبد الله الحمصي : « كان إسماعيل جارنا ، منزله إلى جنب منزلي ، فكان يُحيي الليل ، وربما قرأ ، ثم قطع ، ثم رجع ، فسألته يومًا عن ذلك ؟ فقال : وما سؤالُك ؟ قلت : أُريد أن أعرف ، قال : إني أُصلِّي فأقرأ ، فأذكر الحديث في الباب من الأبواب التي أخرجتُها ، فأقطع الصلاة ، فأكتبه ، ثم أرجع إلى صلاتي »[(٢)] .

سبحان الله ! إلى هذا الحدِّ بلغ شغفُهم بالعلم !!

٤٧ - النضر بن شميل : إمام النحو واللغة والشعر والأدب والحديث :

عالمُ أهل مرو ، وأنهض تلامذة الخليل بن أحمد .

« قال داود بن مخراق : سمعتُ النضر بن شميل يقول : لا يجدُ الرجل

(١) « الرحلة في طلب الحديث » صـ ١٥٦ - ١٥٧ .
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ٢٥٣ .

لذة العلم ، حتى يجوع وينسى جوعه »[١] .

قال ابن المبارك عن النضر : « هو أحد الأحَدِين » . وهو أول مَنْ أظهر السنةَ بمرو وخراسان .

قال أبو عبيدة : ضاقت المعيشة على النضر بن شميل البصري بالبصرة ، فخرج يُريد خراسان ! فشيَّعه من أهل البصرة نحوٌ من ثلاثة آلاف رجل ، ما فيهم إلا مُحدِّثٌ أو نحويٌّ أو لغوي أو عروضي أو أخباري ، فلما صار بالمِرْبد[٢]- مربد البصرة- جلس وقال: ياأهل البصرة، يعزُّ عليَّ فراقكم! والله لو وجدتُ كل يوم كَيْلَجَة باقليّ[٣] ما فارقتُكم ، وسار حتى وصل إلى خراسان .

قال النضر : كنتُ أدخلُ على المأمون في سمره ، فدخلتُ ذات ليلة وعليَّ ثوبٌ مرقوع ، فقال : يانضر ، ما هذا التقشُّف ، حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخلقان ؟ قلتُ : ياأمير المؤمنين ، أنا شيخ ضعيف ، وحرُّ مروٍ شديدٌ ، فأتبرَّد بهذه الخلقان ، قال : لا ، ولكنك رجلٌ مُتقشِّفٌ ، ثم أجرينا الحديث ، فأجرى هو ذكْرَ النساء ، فقال : حدَّثنا هشيم ، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول ﷺ : « إذا تزوَّج الرجل المرأة لدينها وجمالها ؛ كان فيه سِدَادٌ مِنْ عَوَرٍ » ، فأورده بفتح السين (سَدَادٌ من عَوَر) ، فقلتُ : صدق هشيم ، حدَّثنا عوف بن أبي جميلة ، عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تزوَّج الرجل المرأة لدينها وجمالها ؛ كان فيها سِدَادٌ

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ٣١٤ .
(٢) موقف الإبل ومحبسُها ، وبه سُمِّي مربدُ البصرة ، كان سوقًا للإبل ، وكان الشعراء يجتمعون فيه .
(٣) كيل معروفٌ لأهل العراق ، والباقليّ : الفول .

من عَوَرٍ » . قال : وكان المأمون مُتَّكئًا ، فاستوى جالسًا ، وقال : يانضر ، كيف قلتَ : سِدَاد ؟ قلتُ : لأن السَّدَاد هاهنا لحنٌ ، قال : أوَ تُلحِّنُني ؟ قلتُ : إنما لحن هشيمٌ ، وكان لحَّانة ، فتبع أمير المؤمنين لفظه ، قال : فما الفرقُ بينهما ؟ قلتُ : السَّدَاد بالفتح : القصد في الدين والسبيل ، والسِّداد بالكسر : البُلغَة وكل ما سددتَ به شيئًا فهو سِدَاد ، قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قلتُ : نعم ، هذا العَرْجى يقول :

أضاعوني وأيّ فتًى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسِدَاد ثغرِ

فقال المأمون : قبَّح الله مَنْ لا أدبَ له ! وأطرقَ مليًّا ، ثم قال : ما لَك يا نضر ؟ قلتُ : أُريضة بمرو أتصابُّها وأتمزَّزُها[1]، قال: أفلا نُفيدك مالًا معها ؟ قلتُ : إني إلى ذلك لمحتاجٌ ، فأخذ القرطاس ، وأنا لا أدري ما يكتب ، ثم قال لخادمه : تبلغ معه إلى الفضل بن سهل ، فلما قرأ الفضل القرطاس ؛ قال : يانضر ، إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم ، فما كان السبب فيه ؟ فأخبرتهُ ، ولم أُكذبْه ، فأمر لي بثلاثين ألف درهم ، فأخذتُ ثمانين ألف درهم بحرف استُفيد مني »[2] .

وهذا يدلُّ على حرص المأمون على العلم ، وتقديره لأهله .

لمّا فتح المأمون مصر قال : قد بقيتْ لي خَلَّة - أي حاجة - قال فرج النوبي : وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال : جلوسي في عَسْكر - يعني مكان مُرتفع - ومُسْتَمْل يقول : مَنْ ذكرتَ رضي الله عنك ؟ فأقول : حدَّثنا فلان ، قال : حدَّثنا الحمَّادان : حمَّاد بن سلمة بن دينار ، وحمَّاد ابن زيد بن درهم ، قالا : حدَّثنا ثابت البناني ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عالَ ابنتين أو ثلاثًا ، حتى يُمتْنَ أو يموت عنهن ؛

---

(١)
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ١٦١ .

كنتُ أنا وهو في الجنة كهاتين - وأشار بالمُسَبِّحة والوسطى - »[(١)] .

قال المأمون ليحيى بن أكثم : أُريد أن أحدِّث ، فقلتُ : ومَنْ أولى بهذا من أمير المؤمنين ؟ فقال : ضعوا لي منبرًا ، ثم صعد ، فأوَّل ما حدَّثنا : حدثنا هشيم ، عن أبي الجهم ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رفع الحديث ، قال : « امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار » ، ثم حدَّث بنحو ثلاثين حديثًا ، ثم نزلَ ، فقال لي : كيف رأيتَ يا يحيى مجلسنا ؟ فقلتُ : أجلُّ مجلس ، يُفقِّه الخاصَّة والعامَّة ، قال : ما رأيتُ لكم حلاوة ، وإنما المجلس لأصحاب الخِلقان[(٢)] والمحابر[(٣)] .

« ركب الأمين والمأمون إلى عبد الله بن إدريس وعيسى بن يونس ، فحدَّثهما ابن إدريس بمائة حديث ، فقال المأمون : ياعمّ ، أتأذن لي أن أُعيد من حفظي ؟ فقال : افعل ، فأعادها ، فعجب من حفظه . ثم صار إلى عيسى بن يونس ، فحدَّثهما ؛ فأمر المأمون له بعشرة آلاف درهم ، فأبى أن يقبلها ، وقال : ولا شربةَ ماءٍ على حديث رسول الله ﷺ »[(٤)] .

٤٨ - الواقدي :

صاحب التصانيف والمغازي ، أحدُ أوعية العلم على ضعْفه !

قال الذهبي في السير (٩/٤٥٤- ٤٥٥) : « جمع فأوعى ، وخلط الغثَّ بالسَّمين، والخرزَ بالدُّرِّ الثمين، فاطَّرحوه لذلك، ومع هذا فلا يُستغنى عنه في المغازي ، وأيام الصحابة وأخبارهم » .

وقال الخطيب : « هو ممن طبق ذكْرُه شرق الأرض وغربها ، وسارت

---

(١) شرف أصحاب الحديث (٩٨) ، والمُحدِّث الفاصل (١٨٠) .

(٢) أي الثياب البالية .

(٣) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٢ / ٢٣٥ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٧٦ ، وتذكرة الحفاظ ١ / ٢٨١ .

بكتبه الركبان في فنون العلم؛ من المغازي والسِّيَر والطبقات والفقه»[١].

قال ابن المبارك : « كنتُ أقدمُ المدينة ، فما يُفيدني ويدلُّني على الشيوخ إلا الواقدي .

وقال يعقوب بن شيبة : لما انتقل الواقدي من جانب الغربيّ ؛ يُقال : إنه حمَّل كُتُبهُ على عشرين ومائة وقر » .

قال إبراهيم الحربي : « سمعتُ المُسَيَّبي يقول : رأينا الواقدي يومًا جالسًا إلى أسطوانة في مسجد المدينة ، وهو يُدرِّس ، فقلنا : أي شيء تُدرِّس ؟ فقال : جزئي من المغازي . وقلنا يومًا له : هذا الذي تجمع الرجال تقول: حدَّثنا فلان وفلان، وجئت بمتنٍ واحدٍ، لو حدَّثتنا بحديث كل واحد على حِدَةٍ، فقال: يطول، قلنا له: قد رضينا، فغاب عنا جُمعةً، ثم جاءنا بغزوة أُحُدٍ، في عشرين جلدًا، فقلنا: رُدَّنا إلى الأمر الأول »[٢] .

قال محمد بن سعد : « رآني الواقدي مُغتمًّا ، فقال لي : لا تغتمَّ ، فإنَّ الرزق يأتي من حيث لا يحتسب ، أملقتُ مرَّة حتى بعتُ برذوني[٣] ، فاستبطأني يحيى بن خالد ، فاعتذرتُ إليه ، فوقف على حالي ، فأمر لي بخمسمائة دينار »[٤] .

ويهون هذا كله من أجل العلم وتحصيله !!

٤٩ -.زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي :

قال جزرة صالح بن محمد : « ليس كتاب المغازي[٥] عند أحد أصحَّ

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٣ / ٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٣ / ٧ ، سير أعلام النبلاء ٩ / ٤٦٥ .

(٣) نوع من الخيل غير العربية .

(٤) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٢١٢ - ٢١٣) .

(٥) لابن إسحاق .

منه عند زياد ، وذلك أن زيادًا باع داره ، وخرج يدور مع ابن إسحاق ، حتى سمع منه الكتاب »[١] .

٥٠ - الحافظ أبو الحسين العُكْلي زيد بن الحُبَاب الخراساني :

قال الذهبي في السير (٩ / ٣٩٣) :

« الحافظ الثقة الربَّاني . جال في طلب العلم من مرو الشاهجان - من أقصى المشرق - إلى مصر ، حتى قيل : إنه دخل إلى الأندلس . حدَّث عنه أحمد بن حنبل ، وقال : صاحب حديث ، كيِّس ، قد رحل إلى مصر وخراسان في الحديث ، ما كان أصبره على الفقر ! كتبتُ عنه بالكوفة وهاهنا[٢] . وقال علي بن حرب : أتينا زيد بن الحباب ، فلم يكن له ثوبٌ يخرج فيه إلينا ، فجعل الباب بيننا وبينه حاجزًا !! وحدَّثنا من ورائه رحمه الله »[٣] .

إذا أبقت الدنيا على المرء دينَهُ   فما فاته منها فليس بضائر

عن زيد بن الحباب : ثنا سفيان الثوري ، عن أسامة بن زيد ، عن موسى بن علي اللخمي ، عن أبيه ، عن أبي قيس مولى عمرو ، عن عمرو أن النبي ﷺ قال : « فرقُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكْلَةُ السَّحَر »[٤] .

قال زيد بن الحباب : فلما ذهبتُ لأقوم من مجلس سفيان الثوري ؛ قال لي رجل: أنا خلَّفتُ أسامة حيًّا بالمدينة، فركبتُ راحلتي وأتيتُ المدينة،

---

(١) تهذيب التهذيب ٣ / ٣٧٥ - ٣٧٦ .
(٢) يعني بغداد .
(٣) سير أعلام النبلاء ٩ / ٣٩٣ .
(٤) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

فلقيتُ أسامة ، فقلتُ : حديث حدَّثنيه سفيان الثوري عنك ، عن موسى ابن علي ، عن أبيه ، عن قيس مولى عمرو ، عن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : « فرقُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكْلةُ السَّحَر » .

قال زيد : فلما ذهبتُ لأقوم من مجلس أسامة ؛ قال رجل : أنا خلَّفتُ موسى بن عليٍّ حيًّا بمصر ، فركبتُ راحلتي وأتيتُ مصر ، فجلستُ ببابه ، فخرج إليَّ شيخٌ راكبٌ على فرس ، قال : ألك حاجة ؟ قال : قلتُ : نعم ، حديثٌ حدَّثنيه سفيان الثوري ، عن أسامة بن زيد ، عنك ، عن أبيك ، عن أبي قيس مولى عمرو ، عن عمرو أن النبي ﷺ قال : « فرقُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكْلةُ السَّحَر » ، فقال : نعم ، حدَّثني أبي ، عن أبيْ قيس مولى عمرو ، عن عمرو أن النبي ﷺ قال : « فرقُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكْلةُ السَّحَرِ » .

أيُّ فارس أَنت يازيد !!

ولله دَرُّ مَنْ قال: «فرسان هذا الدين رجال الأسانيد»! وطلبُ الإسناد العالي من الدين.قيل: ما تشتهي؟ قال: «بيتٌ خالٍ وإسنادٌ عالٍ». «ولا يصبر على الخَلِّ إلا دوده»، ولا يصبر على الحديث إلا فرسانه ورجاله!!

٥١ - الشاذكوني سليمان بن داود:

من أفراد الحافظين لكنه واهٍ. قال ابن حنبل لعمرو الناقد: اذهب بنا إلى سليمان نتعلَّم منه نقد الرجال .

قال الشاذكوني: «دخلتُ الكوفة نيِّفًا وعشرين دخلةً أكتب الحديث، فأتيتُ حفص بن غياث فكتبتُ حديثه ، فلما رجعتُ إلى البصرة وصرتُ في بُنانة[١] ؛ لقيني ابن أبي خدُّويه ، فقال : ياسليمان ، من أين جئت ؟

(١) محلّةٌ من محَالِّ البصرة قديمًا ، اختطَّها بنو بنان ، يُنسب إليها التابعي ثابت البناني .

قلتُ : من الكوفة ، قال : حديثُ مَنْ كتبت ؟ قلتُ : حديث حفص بن غياث ، قال : أفكتبتَ علْمَه كُلَّهُ ؟ قلتُ : نعم ، قال : أذَهب عليك مني شيء ؟ قلتُ : لا ، قال : فكتبتَ عنه ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدري ، « أنَّ النبي ﷺ ضحَّى بكبش فَحِيل ؛ كان يأكل في سواد ، وينظر في سواد ، ويمشي في سواد »[١] ؟ قلتُ : لا ، قال : فأسخن الله عينيك ، أيش كنتَ تعملُ بالكوفة ؟! قال : فوضعتُ خرجي عند النرسيين ، ورجعتُ إلى الكوفة ، فأتيتُ حفصًا ، فقال : من أين ؟ قلتُ : من البصرة ، قال : لِمَ رجعتَ ؟ قلتُ : إن ابن أبي خَدُّويَه ذاكرني عنك بكذا وكذا » ، قال : فحدثني ورجعت ، ولم يكن لي حاجة بالكوفة غيرها[٢] .

٥٢ - الحافظ صالح بن محمد المُلقَّب بجزرة :

قال صالح : « قدمتُ خراسان بسبب هذا الحديث ؛ حديث الأعمش عن عبد الملك بن عمير والمسيب بن رافع » . عن وراد قال : أملى عَليّ المغيرة بن شعبة كتابًا إلى معاوية:إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول إذا قضى الصلاة : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيتَ ، ولا مُعطيَ لما منعت ، ولا ينفعُ ذا الجدِّ منك الجدُّ »[٣] .

---

(١) فحيل : من الفحولة . ومعنى « يأكل في سواد ويمشي في سواد » أن ما حول فمه أسود وكذا ما حول عينيه وأن قوائمه سوداء .

(٢) « الرحلة في طلب الحديث » صـ ١٦٠- ١٦٢، وحديث أبي سعيد غريب بهذا السند ، وقد أخرجه من غير طريق الشاذكوني الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح غريب ، وابن ماجه .

(٣) متنُ الحديث مُتَّفقٌ عليه. والقصة من كتاب «الرحلة في طلب الحديث» صـ١٦٢- ١٦٣.

٥٣ - شيخ الإسلام أبو نُعيْم الفضل بن دُكين :

قال الذهبي عن منزلته بين الحفاظ : « كان من أئمة هذا الشأن وأثباتهم » .

وقال عنه الإمام أحمد : « أبو نعيم أعلمُ بالشيوخ وأنسابهم وبالرجال ، ووكيع أفقه » .

وقال الإمام أحمد : « أبو نعيم أثبتُ من وكيع » . وقال : « إذا مات أبو نعيم صار كتابُه إمامًا ، إذا اختلف الناس في شيء ؛ فزعوا إليه »[١] .

وقال يحيى بن معين : « ما رأيت أحدًا أثبتَ من رجلين ؛ أبي نعيم وعفَّان » .

وقال يعقوب الفسوي : « أجمع أصحابنا أن أبا نعيم كان غايةً في الإتقان » .

وقال أبو حاتم : « لم أرَ من المُحدِّثين مَنْ يحفظ ويأتي بالحديث على لفظ واحد لا يُغيِّره ؛ سوى قبيصة وأبي نعيم في حديث الثوري ، وكان أبو نعيم يحفظ حديث الثوري حفظًا جيِّدًا[٢] . قال: وهو ثلاثة آلاف وخمسمائة حديث ، ويحفظ حديث مسعر ، وهو خمسمائة حديث ، وكان لا يُلقَّن » .

قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٧ / ٦٢ : « وهذا دلالة على تمكُّنه من الحفظ، فإن التلقين هو أن يُحدِّث المُحدِّث، فيغلط أثناء الحديث، أو يتوقَّف ، فيردّه الطلبة فيأخذ بقولهم » .

قال أحمد بن منصور الرمادي : « خرجتُ مع أحمد ويحيى إلى عبد الرزاق خادمًا لهما ، قال : فلما عُدنا إلى الكوفة ؛ قال يحيى بن معين : أُريد أن أختبر أبا نعيم ، فقال أحمد : لا تُرد ، فالرجل ثقة ، قال يحيى : لَا بُدَّ

---

(١) تهذيب الكمال ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٤٧ .

(٢) أي الذي عنده .

لي ، فأخذ ورقة ، فكتب فيها ثلاثين حديثًا ، وجعل على رأس كل عشرة منها حديثًا ليس من حديثه ، ثم إنهم جاءوا إلى أبي نُعيم ، فخرج ، وجلس على دُكَّان طينٍ ، وأخذ أحمد بن حنبل ، فأجلَسَه عن يمينه ، ويحيى عن يساره ، وجلستُ أسفل الدُّكَّان ، ثم أخرج يحيى الطبق ، فقرأ عليه عشرة أحاديث ، فلما قرأ الحادي عشر ؛ قال أبو نعيم : ليس هذا من حديثي ، اضربْ عليه، ثم قرأ العشر الثاني، وأبو نعيم ساكت، فقرأ الحديث الثاني، فقال أبو نعيم : ليس هذا من حديثي ، فاضرب عليه ، ثم قرأ العشر الثالث ، ثم قرأ الحديث الثالث ، فتغيَّر أبو نعيم ، وانقلبت عيناه ، ثم أقبل على يحيى ، فقال : أمَّا هذا - وذراع أحمد بيده - فأورعُ من أن يعمل مثل هذا ، وأمّا هذا - يُريدني - فأقلُّ من أن يفعل ذاك ، ولكنَّ هذا من فعْلك يافاعل ، وأخرج رجله ، فرفس يحيى ، فرمى به من الدُّكَّان ، وقام فدخل داره ، فقال أحمد بن حنبل ليحيى : ألم أمنعْك وأقلْ لك : إنه ثبتٌ ؟! قال : والله ، لرفستُه لي أحبُّ إليَّ من سَفرتي »[1] .

قال ابن حنبل تلميذه عنه : نُزاحم به سفيان بن عيينة[2] .

بلغ به الحرص على العلم والاهتمام به والشغل به عن السعي على الكسب؛ أنه ما كان يجد الطعام لأهل بيته !

يقول أبو نعيم : « يلومونني على الأخذ ، وفي بيتي ثلاثة عشر نفسًا ، وما في بيتي رغيف »[3] .

قال الذهبي: «لاموه على الأخذ، يعني من الإمام لا من الطلبة»[4].

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ٧٩ / ٨٠ ، وتاريخ بغداد ٣٥٤/١٢ ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٤٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٥١ .

(٣) تهذيب الكمال .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٥٢ .

قال أبو نعيم : عندي عن أمير المؤمنين في الحديث سفيان أربعة آلاف حديث .

قال عثمان بن أبي شيبة مرة : حدَّثنا الأسد ، فقيل:مَنْ ؟ قال : أبو نعيم[١] .

٥٤ - القاضي أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم :

قال يحيى بن معين : « أبو يوسف صاحب حديث ، صاحب سُنَّة » .

وقال أحمد بن حنبل : « كان أبو يوسف مُصنفًا في الحديث » .

وقال أحمد أيضًا: «أوَّل ما كتبتُ الحديث اختلفتُ إلى أبي يوسف».

« قال أبو يوسف : كنتُ أطلبُ الحديث والفقه ، وأنا مُقِلٌّ رثُّ الحال ، فجاء أبي يومًا وأنا عند أبي حنيفة ، فانصرفتُ معه ، فقال : يا بُني ، لا تمدنَّ رِجْلك مع أبي حنيفة، فإنَّ أبا حنيفة خُبزُه مشويٌّ، وأنت تحتاج إلى المعاش. فقصَّرتُ عن كثير من الطلب ، وآثرتُ طاعة أبي ، فتفقَّدني أبو حنيفة وسأل عني ، فجعلتُ أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيتُه بعد تأخّري عنه ، قال لي : ما شغلك عنا ؟ قلتُ : الشغل بالمعاش وطاعة والدي ، فجلستُ ، فلما انصرف الناسُ ؛ دفع إليَّ صُرَّةً ، وقال : استمتع بهذه ، فنظرتُ فإذا فيها مائة درهم ، فقال لي : الزم الحلْقة ، وإذا نفدت فأعلِمْني ، فلزمتُ الحلقة، فلما مضت مُدَّة يسيرة، دفع إليَّ مائة أخرى، ثم كان يتعاهدني، وما أعلمتُه بخلَّةٍ قطُّ ، ولا أخبرتُه بنفاد شيء ما ، وكان كأنه يُخبَر بنفادها ، حتى استغنيتُ وتموَّلتُ ، فلزمتُ مجلسه ، حتى بلغتُ حاجتي ، وفتح الله لي- ببركته وحُسْن نيَّته- ما فتح من العلمْ والمال، فأحسن الله عني مكافأته وغفر له »[٢] .

---

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ٣٥٤ .

(٢) تاريخ بغداد ١٤ / ٢٤٤ .

قال الذهبي في السير (٨ / ٥٣٦ - ٥٣٧) :

« كان أبو حنيفة يتعاهد أبا يوسف بالدراهم مائة بعد مائة .

وعن أبي يوسف : صحبتُ أبا حنيفة سبع عشرة سنةً .

وعن هلال الرأي قال : كان أبو يوسف يحفظ التفسير ، ويحفظ المغازي ، وأيام العرب ، كان أحد علومه الفقه » .

وانظر إلى هذا الإمام الجليل وعُلُوِّ هِمَّتِهِ في تحصيل العلم :

روى محمد بن قدامة قال: «سمعتُ شجاع بن مخلد قال: سمعتُ أبا يوسف يقول: مات ابن لي، فلم أحضر جهازه ولا دفْنَه، وتركتُه على جيراني وأقربائي؛ مخافة أن يفوتني من أبي حنيفة شيء، لا تذهب حسرتُه عني»[١].

٥٥ - محمد بن الحسن الشيباني :

فقيه العراق ، والتلميذ الثاني لأبي حنيفة .

قال رجل للمزني: قال محمد، فقال له: مَنْ محمد؟ قال ابن الحسن، فقال : مرحبًا بمن يملأ الأذن سمعًا والقلب فهمًا ، ثم قال : ما أنا قلتُه ، الشافعيُّ قاله .

«وقال الشافعي: ما رأيتُ أعلم بكتاب الله من محمد، كأنه عليه نزل.

وقال : ما سمعتُ أحدًا قط كان إذا تكلَّم رأيتُ أن القرآن نزل بلُغَتِه ، غير محمد بن الحسن ، وقد كتبتُ عنه حمْلَ بُخْتِيّ »[٢][٣] .

وفي رواية : « كتبتُ عنه وِقْرَ بُخْتيّ » .

وقال : « حملتُ عن محمد وِقْرَ بعيرٍ كُتُبًا »[٤] .

---

(١) مناقب أبي حنيفة للإمام الموفق المكي ١ / ٤٧٢ .

(٢) البختي : واحد البخت ، وهي الإبل .

(٣) ترجمة الإمام محمد بن الحسن الشيباني للذهبي .

(٤) لسان الميزان ٥ / ١٢١ .

وقال: ما رأيتُ رجلًا أعلمَ بالحلال والحرام والعلل والناسخ والمنسوخ من محمد بن الحسن.

وقال : لو أنصف الناس الفقهاء ؛ لعلموا أنهم لم يروا مثل محمد ابن الحسن ، ما جالستُ فقيهًا قطُّ أفقه منه ، ولا فتق لساني بالفقه مثله ، لقد كان يُحسن من الفقه وأسبابه شيئًا يعجز عنه الأكابر .

« قال إبراهيم الحربي : قلتُ للإمام أحمد : من أين لك هذه المسائل الدقاق ؟ قال : من كُتُبِ محمد بن الحسن »[١] .

وعن محمد بن سلمة : أنه جزَّأ الليل ثلاثة أجزاء : جزء للنوم ، وجزء للصلاة ، وجزء للدرس ، وكان كثير السهر ، فقيل له : لِمَ لا تنام ؟ قال : كيف أنام وقد نامت عيون المسلمين تعويلًا علينا ، وهم يقولون : إذا وقع لنا أمرٌ رفعناه إليه فيكشفه لنا ، فإذا نمنَا ففيه تضييعٌ للدين . اهـ .

لمحمد بن الحسن كتابُ الأصل المعروف بـ « المبسوط » أسلم حكيمٌ من أهل الكتاب بسبب مطالعة «المبسوط» هذا، قائلًا: هذا كتابُ مُحمَّدِكم الأصغر ، فكيف كتاب مُحمَّدِكم الأكبر ؟!

قول الشافعي : « حملتُ عن محمد بن الحسن حمْلَ بختيّ ليس عليه إلا سماعي » ؛ معناه : أنه هو الذي سمعه هو خاصَّة في مجالس خاصَّة ؛ لأن ما سمعه عليه ومعه العراقيون في مجلسه العام؛ يكون عليه سماع وسماع الآخرين. فرحمةُ الله على الشيباني .

« قال الشيباني : أقمتُ عند مالك ثلاث سنين وكسرًا ، وسمعتُ من لفظه سبعمائة حديث »[٢] . ونسخة ورواية الشيباني أجودُ روايات الموطأ « قال محمد بن الحسن : ترك لي أبي ثلاثين ألف درهم ، فأنفقتُ خمسة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٣٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٣٥ .

عشر ألفًا على النحو والشِّعْر، وخمسة عشر ألفًا على الحديث والفقه»[١].

قال محمد بن سماعة : كان محمد بن الحسن قد انقطع قلبُه من فكره في الفقه، حتى كان الرجل يُسلِّم عليه، فيدعو له محمد، فيزيده الرجل في السلام، فيردُّ عليه ذلكَ الدعاء بعينه، الذي ليس من جواب الزيارة في شيء.

٥٦ - هشام بن عبيد الله الرازي :

الفقيه الحنفي،تفقَّه على يد أبي يوسف ومحمد بن الحسن ، وأخذ عنه أبو حاتم الرازي .

قال هشام الرازي رحمه الله : « لقيتُ ألفًا وسبعمائة شيخ ، وخرج مني في طلب العلم سبعمائة ألف درهم »[٢] .

وهذا الخبر بذاته يكفي ، ولا تعليق !!

٥٧ - الإمام الحافظ عفان بن مسلم :

« قال عنه الإمام أحمد : لزمنا عفَّان عشر سنين ، وكان أثبت من ابن مهدي .

قال أحمد : كان عفَّان يسمع بالغداة ، ويَعرض بالعشيِّ .

قال ابن المديني- وذُكر عنده عفَّان- فقال: كيف أذكر رجلًا يشكُّ في حرف ، فيضرب على خمسة أسطر !!

قال علي : قال عبد الرحمن : أتينا أبا عوانة ، فقال : مَنْ على الباب ؟ فقلنا:عفَّان ، وبهز ، وحبّان ، فقال : هؤلاء بلاء من البلاء ، قد سمعوا ، يُريدون أن يعرضوا »[٣] .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٢ / ١٧٣ .

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ٣٨٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ، ترجمة عفَّان ١٠ / ٢٤٢ - ٢٥٠ .

يسمع أول النهار ، ويَعرض ما سمعه على الشيخ ثانيةً بالعشيِّ !!

« كان عفَّان رحمه الله على مسائل معاذ بن معاذ القاضي ، فجُعل له عشرة آلاف دينار ، على أن يقف عن تعديل رجل ، فلا يقول : عدل ولا غير عدل ، فأبى ، وقال : لا أُبطِل حقًّا من الحقوق » .

رحمه الله هذا مع شِدَّة فقْرِه ، فقد قال عمرو بن علي : « جاءني عفّان في نصف النهار ، فقال لي : عندك شيء نأكله ؟ فما وجدتُ في منزلي خبزًا ولا دقيقًا ولا شيئًا نشتري به ، فقلتُ : إنَّ عندي سَوِيق شعير ؛ فقال لي : أخرجْه ، فأخرجتُه ، فأكل منه »[1] .

٥٨ - أسد بن الفرات : الإمام القاضي الشهيد :

« رحل به والده وعمره عامان مع الجند العربي بقيادة ابن الأشعث ، ودخل معه القيروان سنة ١٤٦ هـ ، ثم دخل تونس ، وانقطع لقراءة القرآن وعلومه ، وروى « الموطأ » على ابن زياد ، وفي الثامن عشر من عمره رحل للمشرق ، وأقام بالمدينة مُدَّة ، وأعاد رواية « الموطأ » على مالك ، ثم رحل للعراق ، ولقي أعلامًا من أصحاب أبي حنيفة ؛ منهم الإمام أبو يوسف ومحمد ابن الحسن ، وأخذ عنهما علمًا غزيرًا ، ثم رحل لمصر ، ولقي جماعة من أعيان العلماء ؛ منهم الإمام عبد الرحمن بن القاسم ، فلزمه مُدَّةً ، وهناك ألف « الأسدية » ، ثم قفل راجعًا إلى القيروان ، وبها انتشر ذكْرُه ، وظهر علمُه ، وارتفع قدْرُه . قال للناس لما أتوا لوداعه عند غزوه لصقلية : يامعشر الناس ، والله ما ولي لي أبٌ ولا جدٌّ ولاية قطُّ، ولا أحدٌ من سلفي رأى هذا قطُّ، وما رأيتُ ما ترون إلا بالأقلام[2] ، فأجهدوا أنفسكم ، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، واصبروا على شِدَّته ، فإنكم تنالون به خَيْرَيْ الدنيا

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٤٣ .

(٢) أي بتعلُّم العلم والصبر عليه وخدمته .

والآخرة »[١] .

« لما حضر أسد بن الفرات عند محمد بن الحسن الشيباني قال له : إني غريبٌ ، قليلُ النَّفَقة ، والسماعُ منك نذرٌ ، والطلبة عندك كثيرٌ ، فما حَيلتي ؟ فقال له محمد بن الحسن : اسمع مع العراقيين بالنهار ، وقد جعلتُ لك الليل وحدك ، فتبيتُ عندي وأُسمعك . قال أسد : وكنتُ أبيتُ عنده ، وينزل إليَّ ، ويجعل بين يديه قدحًا فيه الماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل ونعستُ ، ملأ يده ، ونضح وجهي بالماء فأنتبه ، فكان ذلك دأبه ودأبي ، حتى أتيتُ على ما أُريد من السماع عليه . وكان محمد بن الحسن يتعهَّدُه بالنفقة حين علم أن نفقته نفدت ، وأعطاه مرةً ثمانين دينارًا حين رآه يشرب من ماء السبيل » .

٥٩ - شيخ الإسلام قتيبة بن سعيد ، أبو رجاء :

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١ / ١٣) : « ارتحل قتيبة في طلب العلم ، وكتب ما لا يوصف كثرةً وذلك في سنة ثنتين وسبعين ومائة » .

« قال قتيبة : كنتُ في حداثتي أطلب الرأي ، فرأيتُ فيما يرى النائم أن مزادةً دُلِّيت من السماء ، فرأيتُ الناس يتناولونها ، فلا ينالونها ، فجئتُ أنا فتناولتُها، فاطَّلعتُ فيها، فرأيتُ ما بين المشرق والمغرب، فلما أصبحتُ؛ جئتُ إلى مخضَح البزَّار - وكان بصيرًا بعبارة الرؤيا - فقصصتُ عليه رؤياي ، فقال : يا بُنَيَّ ، عليك بالأثر ، فإن الرأي لا يبلغ المشرق والمغرب ، إنما يبلغ الأثر . قال : فتركتُ الرأي ، وأقبلتُ على الأثر .

وقال رحمه الله : قال لي أبي : رأيتُ النبي ﷺ في النوم ؛ في يده

---

(١) شجرة النور الزكيَّة في طبقات المالكية لمحمد مخلوف المالكي صـ ٦٢، ١١٩ من كتاب التَتِمَّة في آخره .

صحيفةٌ، فقلتُ: يارسول الله، ما هذه الصحيفة ؟ قال: فيه أسامي العلماء، قلتُ: ناولْني، أنظر فيه اسم ابني، فنظرتُ، فإذا فيه اسم ابني »[١] .

وانظر رحمك الله إلى عُلُوِّ هِمَّتِهِ في نشر العلم :

« قال قتيبة لأحمد بن سيار المروزي : أقِمْ عندي هذه الشَّتوة ، حتى أُخرِج لك مائة ألف حديث ، عن خمسة أناسيّ ، فقلتُ : لعلَّ أحدهم عمر ابن هارون ؟ قال : لا ، كنت كتبتُ عن عمر بن هارون وحده أكثر من ثلاثين ألفًا ، ولكن وكيع بن الجراح ، وعبد الوهاب الثقفي ، وجرير ، ومحمد بن بكر البُرساني ، ونسيتُ الخامس »[٢] .

قال الذهبي : « حدَّث عنه الحميدي ، ومحمد بن الفضل الواعظ ، وبينهما في الموت ثمانية وتسعون عامًا .

وأما الخطيب ، فقال في كتاب « السابق واللاحق » : حدَّث عنه نُعيم ابن حماد ، وأبو العباس السَّرَّاج ، وبين وفاتيهما أربع وثمانون سنة »[٣] .

قال أحمد بن سلمة : عمل أبي طعامًا ودعا إسحاق ، ثم قال : إن ابني هذا قد ألحَّ عليَّ في الخروج إلى قتيبة ، فما ترى ؟ فنظر إليَّ ، وقال : هذا قد أكثر عني، وهو يجلس بالقُرْب مني، وأبو رجاء عنده ما ليس عندنا، فأرى أن تأذن له عسى أن ينتفع .

رحل إليه النسائي سنة ثلاثين ومائتين، فأقام عنده سنة كاملة، وكتب عنه شيئًا كثيرًا .

قال أبو حاتم الرازي عنه : « حضرتُه ببغداد ، وقد جاءه أحمد ، فسأله عن أحاديث ، فحدَّثه بها . وجاء أبو بكر بن أبي شيبة وابن نُمْير

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٧ – ١٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٩ .

بالكوفة إليه ليلة ، وحضرتُ معهما ، فلم يزالا ينتخبان عليه وأنتخبُ معهما إلى الصبح »[١] .

٦٠ - ناصر السنة : الشافعي الإمام :

« قال الشافعي : سُمِّيتُ ببغداد : ناصر الحديث .

وقال أحمد: ما أحدٌ مسَّ محبرةً ولا قلمًا، إلا وللشافعي في عُنُقِهِ مِنَّةٌ.

قال أحمد بن حنبل : إن الله يُقيِّض للناس في رأس كل مائة من يُعلِّمهم السنن ، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب ، قال : فنظرنا ، فإذا في رأس المائة : عمر بن عبد العزيز ، وفي رأس المائتين : الشافعي »[٢] .

قال الشافعي : ولدتُ باليمن فخافت أُمِّي عليَّ الضيعة ، وقالت : الحقْ بأهلك ، فتكون مثلهم ، فإني أخاف عليك أن تُغلب على نسبك ، فجهَّزتني إلى مكة ، فقدمتُها يومئذٍ وأنا ابن عشر سنين ، فصرتُ إلى نسيب لي ، وجعلتُ اطلبُ العلم ، فيقول لي : لا تشتغلْ بهذا ، وأقبلْ على ما ينفعك ، فجعلتْ لذَّتي في العلم . وفي رواية : ولدتُ بغزة »[٣] .

وقال رحمه الله: « لم يكن لي مالٌ، وكنتُ أطلب العلم في الحداثة، وكنتُ أكتب في الأكتاف والعظام، وكنتُ أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور فأكتب فيها» ؛ أي ظهور الأوراق المكتوب عليها .

---

(١) الجرح والتعديل ٧ / ١٤٠٠ ، وسير أعلام النبلاء ١٦/١١ ، والانتخاب : هو أن ينتقي التلميذ من أحاديث شيخه ، ويختار منها .

(٢) تاريخ بغداد ٦٢/٢، ومعرفة السنن والآثار ١٣٨/١، وحلية الأولياء ٩٧/٩، ٩٨، قال رسول الله ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كل مائة سنة مَنْ يُجدِّد لها أمْر دينها»، ورجاله ثقات. قال الحافظ ابن حجر في «توالي التأسيس» صـ٤٨: وإسناده قوي. انظر رسالتي: «عبق النسرين في ذكر المُجدِّدين».

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٠ .

قال عمرو بن سوَّاد : قال لي الشافعي : كانت نهمتي في الرمي وطلب العلم ، فنِلتُ من الرمي ، حتى كنتُ أُصيب من عشرةٍ عشرة ، وسكت عن العلم ، فقلتُ : أنت والله في العلم أكبر منك في الرمي .

قال الشافعي : كتبتُ عن محمد بن الحسن الشيناني وِقْرَ بعيرٍ .

وقال رحمه الله : قد أنفقتُ على كُتُبِ محمد ستين دينارًا ، ثم تدبرتها ، فوضعتُ إلى جنب كل مسألة حديثًا ردًّا عليه .

قال الشافعي : أخذتُ اللُّبان سنة للحفظ فأعقبني صبُّ الدم سنة .

قال الحميدي : سمعتُ مسلم بن خالد الزنجي يقول للشافعي : أفتِ ياأبا عبد الله ، فقد والله آن لك أن تُفتي ، وهو ابن خمس عشرة سنة .

وكان ابن عيينة إذا جاءه شيء من التفسير والفتيا؛ التفت إلى الشافعي، فيقول : سلوا هذا .

وقال هارون بن سعيد : لو أنّ الشافعي ناظر على أن هذا العمود الحجر خشبٌ ؛ لغلب .

قال الشافعي رحمهِ الله : وددتُ أن الناس تعلَّموا هذا العلم - يعني كتبَه - على أن لا يُنسب إليَّ منه شيءٌ .

وقال : ما ناظرتُ أحدًا إلا على النصيحة .

وقال رحمه الله : لو أردت أن أضع على كل مُخالف كتابًا لفعلتُ ، ولكن ليس الكلام من شأني ، ولا أُحبُّ أن يُنسب إليَّ منه شيءٌ .

قال الذهبي في السير (١٠ / ٣١) : « هذا النَّفَس الزكُّي متواتِرٌ عن الشافعي » .

قال ابن عبد الحكم : ما رأيتُ الشافعي يُناظر أحدًا إلا رحمتُه ولو رأيت الشافعيَّ يُناظرك لظننت أنه سبعٌ يأكلك ، وهو الذي عَلَّم **الحُجَجَ** .

قال الشافعي رحمه الله : لولا أصحاب المحابر لخطبَتِ الزنادقة على المنابر .

وعن أبي ثور الكلبي : كتب عبد الرحمن بن مهدي إلى الشافعي - وهو شابٌّ - أن يضع له كتابًا فيه معاني القرآن ، ويجمع قبول الأخبار ، وحجة الإجماع ، وبيان الناسخ والمنسوخ ، فوضع له كتاب « الرسالة » .

وهو أوَّلُ من كتب في أصول الفقه ، والناس والعلماء عالةٌ عليه في هذا العلم .

قال ابن وارة : قدمتُ من مصر ، فأتيتُ أحمد بن حنبل ، فقال لي : كتبتَ كُتُبَ الشافعي ؟ قلتُ : لا ، قال : فرَّطتَ ، ما عرفنا العموم من الخصوص ، وناسخ الحديث من منسوخه ، حتى جالسنا الشافعي ، قال : فحملني ذلك على الرجوع إلى مصر ، فكتبتُها .

وقال ابن حنبل : صاحبُ حديث لا يشبع من كُتُب الشافعي .

وقال ابن حنبل : الشافعي فليسوف في أربعة أشياء : في اللغة ، واختلاف الناس ، والمعاني ، والفقه .

وقال المبرد: كان الشافعي من أشعرِ الناس، وآدبِ الناس، وأعرفهم بالقراءات .

وقال يونس بن عبد الأعلى قال : كان الشافعي إذا أخذ في التفسير كأنه شهد التنزيل .

قال الشافعي : حفظتُ الموطَّأ قبل أن أحتلم .

قال يونس الصدفي : كان الشافعي إذا أخذ في أيام الناس ؛ قلتُ : هذه صناعته .

وقال مصعب بن عبد الله: ما رأيتُ أحدًا أعلم بأيام الناس من الشافعي.

وقال رحمه الله : ما أردتُ بها - يعني العربية والأخبار - إلا للاستعانة على الفقه .

وكان رحمه الله من أعلم الناس بالأنساب ، لقد اجتمعوا معه ليلة ، فذاكرهم بأنساب النساء إلى الصباح، وقال: أنساب الرجال يعرفها كل أحد.

قال المزني: قدم علينا الشافعي، فأتاه ابن هشام صاحب المغازي ، فذاكره أنساب الرجال ، فقال له الشافعي : دع عنك أنساب الرجال ، فإنها لا تذهب عنا وعنك ، وحدِّثنا في أنساب النساء ، فلما أخذوا فيها بقي[1] ابن هشام .

وقال ثعلب،الإمام في اللغة : الشافعي إمامٌ في اللغة .

قال الربيع بن سليمان : كان الشافعي قد جزَّأ الليل ، فثُلثُهُ الأول يكتب ، والثاني يُصلِّي ، والثالث : ينام .

« قال المزني أو الربيع : كنا يومًا عند الشافعي ؛ إذ جاء شيخ عليه ثياب صوف ، وفي يده عكازة ، فقام الشافعي ، وسوَّى عليه ثيابه ، وسلَّم الشيخ وجلس ، وأخذ الشافعي ينظر إلى الشيخ هيبة له ؛ إذ قال الشيخ : أسأل ؟ قال : سل، قال : ما الحجة في دين الله ؟ قال : كتاب الله ، قال : وماذا ؟ قال : سنة رسول الله ﷺ ، قال : وماذا ؟ قال : اتفاق الأمة ، قال : من أين قلت : اتفاق الأمة ؟ فتدبَّر الشافعي ساعةً ، فقال الشيخ : قد أجَّلتُك ثلاثًا ، فإن جئتَ بحُجَّةٍ من كتاب الله ، وإلا تُبْ إلى الله تعالى ، فتغيَّر لون الشافعي ، ثم إنه ذهب ، فلم يخرج إلى اليوم الثالث بين الظهر والعصر ، وقد انتفخ وجهه ويداه ورجلاه وهو مِسقام ، فجلس ، فلم يكن بأسرع من أن جاءه الشيخ ، فسلَّم ، وجلس ، فقال : حاجتي ؟، فقال الشافعي : نعم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُشاقق الرسول من بعد ما تبيَّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولِّه ما تولّى** ﴾ الآية [النساء : ١١٥] ، قال : فلا يُصليه على خلاف المؤمنين إلا وهو فرض ، فقال : صدقتَ ، وقام فذهب ، فقال الشافعي : قرأتُ القرآن

(١) أي انقطع .

في كل يوم وليلة ثلاث مرات حتى وقفت عليه »[١] .

قال ابن ماجه القزويني : جاء يحيى بن معين إلى أحمد بن حنبل ، فبينا هو عنده ؛ إذ مرَّ الشافعي على بغلته ، فوثب أحمد يُسلِّم عليه ، وتبعه فأبطأ ، ويحيى جالس ، فلما جاء ؛ قال يحيى : ياأبا عبد الله ، كم هذا ؟ فقال : دع عنك هذا ، إن أردتَ الفقه ؛ فالزم ذَنَبَ البغلةِ !

قال الشافعي رحمه الله في عزِّ العلم وقيمته عند العلماء :

أأنثر دُرًّا بين سارحةِ النَّعَم ... وأنظِمُ منثورًا لراعية الغنمْ
فإنْ فرَّج الله اللطيفُ بلُطْفِهِ ... وصادفتُ أهلًا للعلومِ وللحِكَمْ
بثثتُ مُفيدًا واستفدتُ ودادَهم ... وإلا فمخزونٌ لديَّ ومُكتَتَمْ
ومَنْ منح الجُهَّال علمًا أضاعه ... ومَنْ منع المستوجبين فقد ظلمْ
وكاتمُ علمِ الدين عمَّن يُريدُهُ ... يبوءُ بإثم زادَ وإثمٍ إذا كتمْ

قال الذهبي في السير (٩٩/١٠): «لا نلام والله على حُبِّ هذا الإمام».

وإنْ تعجبْ فاعجب ياأخي لحرص العلماء على الاستفادة من علم الشافعي :

« قال أحمد بن سلمة النيسابوري : تزوَّج إسحاق بن راهويه بامرأة رجل كان عنده كُتُبُ الشافعي ، مات ، لم يتزوَّج بها إلا للكتب ، قال : فوضع « جامع الكبير » على كتاب الشافعي ، ووضع « جامع الصغير » على « جامع سفيان » ، فقدم أبو إسماعيل الترمذي نيسابور ، وكان عنده كتبُ الشافعي عن البويطي ، فقال له إسحاق : لا تحدِّثْ بكُتب الشافعي مادمتَ هنا ، فأجابه »[٢] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨٣/١٠- ٨٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧٠/١٠ ، مناقب الشافعي ٢٦٦/١، ٢٦٧، وحلية الأولياء ١٠٢/٩، وتاريخ ابن عساكر ٢/٤/١٥ .

« وقال إسحاق بن راهويه : ما كنتُ أعلمُ أنَّ الشافعي في هذا المحل ، ولو علمتُ لم أفارقْه » .

قال الشافعي رحمه الله :

ما هِمَّتى إلا مطالبةُ العُلا   خَلِقَ الزمانُ وهِمَّتي لم تَخلَق
الجدُّ يُدني كلَّ أمْرٍ شاسعٍ   والجَدُّ يفتح كلَّ بابٍ مُغْلَقِ[1]

وقال رحمه الله :

هِمَّتي هِمَّةُ الملوكِ ونفسي   نفسُ حُرٍّ ترى المذلة كُفرا

وقال :

وما أنا بالغيرانِ من دون أهلهِ   إذا أنا لم أضحى غيورًا على علمي
طبيبُ فؤادي مذ ثَلاثين حَجَّةً   وصيقلُ ذهني والمُفرِّجُ عن همِّي

« قال المزني : قيل لمحمد بن إدريس الشافعي : كيف شهوتُك للعلم ؟ قال : أسمع بالحرف مما لم أسمعه ، فتودُّ أعضائي أنَّ لها أسمْاعًا تتنعَّم به مثل ما تنعَّمت الأُذنان . قيل : وكيف حرصُك عليه ؟ قال : حرصُ الجَموع المنوع على بلوغ لذَّاته في المال . وقال : كيف طلبُك له ؟ قال : طلبُ المرأة المُضلَّة ولدَها وليس لها غيره »[2].

هذا والله يُكتب بالنور !!

« وقال الشافعي رحمه الله : ليس بعد أداء الفرائض شيء أفضل من طلب العلم . قيل له : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله .

وقال : لو أنَّ أهلِ كُورَة اجتمعوا على ترك طلب العلم ؛ لرأيت للحاكم أن يجبرهم على طلب العلم .

وقال الشافعي : سمعتُ « ابن عيينة » يقول : لم يُعطَ أحدٌ في الدنيا شيئًا

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي . تحقيق : السيد أحمد صقر صـ ٩٢ . مكتبة دار التراث .

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي صـ ١٤٣ - ١٤٤ .

أفضل من النبوَّة ، ولم يُعطَ بعد النبوة شيئًا أفضل من طلب العلم والفقه .

وقال الشافعي : بقيتُ ستَّ عشرة سنة ، ما كان طعامي إلا رَخْفًا وتمرًا ، آكل منه بقدر ما يقوم به جسدي ، فقيل له : ما الذي أردتَ به ياأبا عبد الله ؟ قال : أردتُ الحفظ للعلم والفقه ، تركتُه لله ، فرزقني بعد ذلك .

وقال رحمه الله : ما أفلح في العلم إلا مَنْ طلبه بالقِلَّة ، ولقد كنتُ أطلب ثمن القرطاس فيعزُّ عليَّ .

وقال : لا يصلح طلب العلم إلا لمُفلسٍ قيل : ولا لغنيٍّ مكفيٍّ ؟ قال : ولا لغنيٍّ مكفيٍّ .

وقال : لا يُفلح الرجل في هذا الشأن حتى يكون له قميصٌ ولا يكون له سراويل ، ويكون له سراويل ولا يكون له قميصٌ .

وقال : يحتاج طالب العِلم إلى ثلاث خصال : أوَّلُها : طول العمر ، والثاني : سعة ذات اليد ، والثالث : الذكاء .

قال البيهقي : وهذا لا يُخالف ما مضى ، وإنما أراد بما مضى حكايةً عن غالب أحوال الناس في زهادة أهل الثروة في طلب العلم وقِلَّة صبرهم عليه ، وأراد بهذا أن يكون له سِعةٌ في المعيشة ، لا يشغله طلبُ القوت عن التعلُّم ، والله أعلم .

وقال الشافعي : مَنْ تعلَّم علمًا فليُدِّقق فيه ؛ لئلا يضيع دقيق العلم !

قال الربيع بن سليمان : قال لي الشافعي : لو أستطيع أن أطعمك العلم لأطْعَمْتُكَهُ .

وقال الشافعي : أزينُ شيء بالعلماء الفقرُ مع القناعة والرضا بهما .

وقال : فقرُ العلماءِ فقرُ اختيارٍ ، وفقرُ الجُهَّال فقرُ اضطرار .

وقال : ياأبا موسى : لقد أفلستُ ثلاث مرات ، ولقد رأيتُني آكل السَّمك بالتمر ، لا أجد غيرهما .

وقال رحمه الله : لا يصلح في هذا الشأن إلا من أحرق قلبَه البُنُّ .

قال البيهقي : والبنُّ فيما بلغني : كامخٌ يُصنع بالشامات وبمصر من عَكَرِ المرِّي ، يتأدَّم به الغرباء .

وقال : إن لم يكن الفقهاء أولياءَ الله في الآخرة ؛ فما لله وليٌّ .

وقال : إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء لله عز وجلّ ؛ فما لله ولي .

وقال : العلم مروءة مَنْ لا مروءة له .

وقال رحمه الله : كفى بالعلم فضيلةً أنه يدَّعيه مَنْ ليس فيه ؛ ويفرح إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل شرًّا أن يتبرأ منه مَنْ هو فيه ، ويغضب إذا نُسب إليه »(١) .

٦١ - قبيصة بن عقبة أبو عامر السُّوائي الحافظ العابد :

« قال عنه الإمام أحمد : كان رجلًا صالحًا ثقةً ، وأي شيء لم يكن عنده ؟ يعني أنه كثير الحديث .

كان هنَّاد إذا ذكر قبيصة ؛ قال : الرجل الصالح ، وتدمع عيناه ، وكان هنَّاد كثير البكاء .

قال قبيصة : جالستُ الثوريَّ وأنا ابن ست عشرة سنةً،ثلاثَ سنين .

قال حفص بن عمر : ما رأيتُ مثل قبيصة ، ما رأيتُه مُتبسِّمًا قطُّ ، من عباد الله الصالحين .

قال الذهبي : كذا كان والله أهل الحديث ؛ العلم والعبادة ! واليوم فلا علم ولا عبادة ، بل تخبيط ولحن ، وتصحيف كثير ، حفظ يسير ، وإذا لم يرتكب العظائم ، ولا يخلُّ بالفرائض ، فلله دَرُّه !!

قال جعفر بن حمدويه : كنّا على باب قبيصة ، ومعنا دُلف ابن الأمير

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ١٣٨ - ١٥٦ .

أبي دُلَف ، ومعه الخدم يكتب الحديث ، فصار إلى باب قبيصة ، فدَّق عليه، فأبطأ قبيصة، فعاوده الخدم، وقيل له: ابنُ مَلكِ الجبل على الباب، وأنت لا تخرج إليه ! فخرج وفي طرف إزاره كِسَرٌ من الخبز ، فقال : رَجُلٌ قد رضي من الدنيا بهذا؛ ما يصنع بابن ملك الجبل ؟ والله لا أُحَدِّثه ، فلم يُحدِّثه »[١] .

٦٢ - يحيى بن معين أمير المؤمنين في الحديث :

الإمام الحافظ الجهبذ ، شيخ المحدِّثين ، أبو زكريا يحيى بن معين .

كان معينٌ على خراج الريِّ ، فخلَّف ليحيى ابنه ألفَ ألفَ درهم ، فأنفقه كل على الحديث ، حتى لم يبق له نعلٌ يلبسه .

قال أحمد بن حنبل : السماع مع يحيى بن معين شفاءٌ لما في الصدور .

وقال ابن المديني : انتهى العلم إلى يحيى بن آدم ، وبعده إلى يحيى بن معين رحمه الله .

وقلَّما سمَّى الإمام أحمد يحيى بن معين باسمه ، بل يُكنِّيه .

وجاء رجل إلى الإمام أحمد ، وقال : ياأبا عبد الله ، انظر في هذه الأحاديث ، فإن فيها خطأً ، قال : عليك بأبي زكريا ، فإنه يعرف الخطأ .

وقال أحمد رحمه الله : ها هنا رجل خلقه الله لهذا الشأن ، يُظهر كذبَ الكذَّابين ؛ يعني ابن معين .

وقال أحمد : كلُّ حديث لا يعرفه يحيى بن معين ؛ فليس بحديث .

قال ابن معين : لما قدم عبد الوهاب بن عطاء ؛ أتيته فكتبت عنه ، فبينا أنا عنده ، ؛ إذ أتاه كتاب من أهله ، فقرأه وأجابهم ، فرأيتُه ، وقد كتب على ظهره : قدمتُ بغداد ، وقَبِلني يحيى بن معين ، والحمد لله رب العالمين .

قال علي بن المديني : ما أعلم أحدًا كتب ما كتب يحيى بن معين .

---

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ٤٧٦ ، وسير أعلام النبلاء ١٠ / ١٣٤ .

وقال علي أيضًا : لا نعلم أحدًا من لدُن آدم كتب من الحديث ما كتب يحيى .

قال أحمد بن عُقبة: سألتُ يحيى بن معين: كم كتبتَ من الحديث ؟ قال : كتبتُ بيدي هذه ستمائة ألف حديث . قال الذهبي : يعني بالمُكرَّر .

وخلَّف يحيى من الكتب مائة قِمَطرٍ ، وأربعة عشر قِمَطرًا ، وأربعة حِباب[١] شرابية مملوءة كُتُبًا .

قال أبو حاتم الرازي : إذا رأيتَ البغدادي يُحبُّ أحمد بن حنبل ؛ فاعلم أنه صاحبُ سُنَّة ، وإذا رأيتَه يُبغض يحيى بن معين ؛ فاعلم أنه كذّاب .

قال يحيى بن معين رحمه الله: كتبنا عن الكذَّابين، وسجَّرنا به التنُّورَ، وأخرجنا به خبزًا نضيجًا .

قال يحيْى الأحول : تلقينا يحيى بن معين مقدمه من مكة ، فسألناه عن الحسين بن حبان ؛ فقال : أُحدِّثكم أنه لما كان بآخر رمق ؛ قال لي : ياأبا زكريا ، أترى ما مكتوب على الخيمة ؟ قلت : ما أرى شيئًا ، قال : بلى ، أرى مكتوبًا : يحيى بن معين يقضي أو يفصل بين الظالمين ، قال : ثم خرجت نفسُهُ .

قال يحيى بن معين : لو لم نكتب الحديث خمسين مرَّةً ما عرفناه .

وقال رحمه الله : كتبتُ بيدي ألفَ ألفِ حديث .

قال الذهبي : يعني بالمُكَّرر ، ألا تراه يقول : لو لم نكتب الحديث خمسين مرةً ما عرفناه .

وقال رحمه الله : إني لأُحدث بالحديث فأسهر له ؛ مخافة أن أكون قد أخطأتُ فيه .

---

(١) جمع حُبّ ، وهي الجرَّة أو الضخمة منها .

وقال : أشتهي أن أقع على شيخٍ ثقة ، عنده بيتٌ مُلئ بكُتُبٍ ، أكتب عنه وحدي .

وقال مجاهد بن موسى : كان يحيى بن معين يكتب الحديث نيِّفًا وخمسين مرةً .

قال يحيى بن معين : حضرتُ نعيم بن حماد بمصر ، فجعل يقرأ كتابًا صنَّفه ، فقال : حدَّثنا ابن المبارك ، عن ابن عون ، وذكر أحاديث ، فقلتُ : ليس ذا عن ابن المبارك ، فغضب ، وقال : تردُّ عليَّ ؟ قلتُ : أي والله ، أُريد زَيْنَك ، فأبى أن يرجع ، فلما رأيتُه لا يرجع ، قلتُ : لا والله ، ما سمعتَ هذه من ابن المبارك، ولا سمعها هو من ابن عون قطُّ، فغضب، وغضب مَنْ كان عنده ، وقام فدخل ، فأخرج صحائف ، فجعل يقول ، وهي بيده : أين الذين يزعمون أن يحيى بن معين ليس بأمير المؤمنين في الحديث ؟ نعم ، ياأبا زكريا ، غَلطت ، وإنما روى هذه الأحاديث غير ابن المبارك ، عن ابن عون[1] .

وانظر رحمك الله إلى غيرته على العلم ! ذكروا عنده حديث « مَنْ عشق ، وعفَّ ، وكتم وصبر ، غفر الله له وأدخله الجنة » ، فقال : « والله لو كان عندي فرسٌ ورمحٌ لغزوتُ سويدًا في هذا الحديث » . وسويد بن سعيد : ساقط كذَّاب متروك الحديث .

مات رحمه الله بالمدينة ، فأخرجوا له الأعواد التي غُسِّل عليها رسول الله ﷺ ، وحمل على سرير النبي ﷺ ، ورجُلٌ يُنادي بين يديه : هذا الذي كان ينفي الكذب عن حديث رسول الله ﷺ .

قال حُبَيْش بن مبشر الفقيه ، وهو ثقة : رأيتُ يحيى بن معين في النوم ، فقلتُ : ما فعل الله بك ؟ قال : أدخلني عليه في داره ، وزوَّجني

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ٨٩ - ٩٠ .

ثلاثمائة حوراء - [ومهَّد لي بين البابين] - ثم قال للملائكة : انظروا إلى عبدي كيف تَطَرَّى وحَسُن .

٦٣ - شيخ الحرم الحميدي عبد الله بن الزبير القرشي شيخ البخاري :

قال ابن حنبل : الحميدي عندنا إمام .

وقال أبو حاتم: أثبتُ الناس في ابن عيينة الحميدي، وهو رئيس أصحاب ابن عيينة ، وهو ثقة إمام .

وقال الفسوي : حدَّثنا الحميدي ، وما لقيتُ أنصح للإسلام وأهله منه .

قال ابن راهويه : الأئمة في زماننا : الشافعي ، والحميدي ، وأبو عبيد .

وقال محمد بن إسماعيل البخاري : الحُميدي إمام في الحديث .

قال الشافعي: ما رأيتُ صاحب بلغم أحفظ من الحميدي، كان يحفظ لسفيان بن عيينة عشرة آلاف حديث .

قال الحميدي: جالستُ سفيان بن عيينة تسع عشرة سنة أو نحوها(١).

«قال الحميدي: كنتُ بمَصر، وكان لسعيد بن منصور حلقة في مسجد مصر ، ويجتمع إليه أهل خراسان والعراق ، فجلستُ إليهم ، فذكروا شيخًا لسفيان ، فقالوا : كم يكون حديثه ؟ فقلتُ : كذا وكذا ، فشنَّج سعيد بن منصور وأنكر ذلك ، وأنكر ابن دَيْسَم ، وكان إنكار ابن ديسم أشدَّ علي ، فأقبلت على سعيد ، فقلتُ : كم تحفظ عن سفيان عنه ؟ فذكر نحو النصف مما قلتُ ، وأقبلتُ على ابن دَيْسَم ، فقلتُ : كم تحفظ عن سفيان عنه ؟ فذكر زيادة على ما قال سعيد نحو الثلاثين مما قلتُ أنا ، فقلتُ لسعيد : تحفظ ما كتبتَ عن سفيان عنه ؟ فقال : نعم ، قلتُ : فعُدَّ ، وقلتُ لابن ديسم : فعُدَّ ما كتبتَ ، قال : فإذا سعيد يُغرِب على ابن ديسم أحاديث ، وابن ديسم يُغرب

(١) الجرح والتعديل ٥ / ٥٧ .

على سعيد في أحاديث كثيرة ، فإذا قد ذهب عليهما أحاديث يسيرة ، فذكرتُ ما ذهب عليهما ، فرأيتُ الحياء والخجل في وجوههما »[(١)] .

« قال الحميدي : والله لَأَنْ أغزوَ هؤلاء الذين يردُّون حديث رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ مِنْ أنْ أغزو عدَّتهم من الأتراك .

وقال الحميدي: ما دمتُ بالحجاز، وأحمد بن حنبل بالعراق، وإسحاق بخراسان ؛ لا يغلبنا أحد »[(٢)] .

٦٤ - شيخ الإسلام الحافظ المقرئ خلف بن هشام :

تصدَّر رحمه الله للإقراء والرواية .

قال الدارقطني : كان ثقةً عابدًا فاضلًا .

قال عنه الذهبي في السير (١١ / ٥٧٧ - ٥٧٨) : « له اختيار في الحروف صحيح ثابت ، ليس بشاذٍّ أصلًا ، ولا يكاد يخرج فيه عن القراءات السبع ، وأخذ عنه خلقٌ لا يُحصوْن .

قال الحسين بن فهم : ما رأيتُ أنبل من خلف بن هشام ، كان يبدأ بأهل القرآن، ثم يأذن لأصحاب الحديث ، وكان يقرأ علينا من حديث أبي عوانة خمسين حديثًا .

يقول رحمه الله - وما أعلى هِمَّته في تحصيل العلم والحرص عليه -: أشكل عليَّ بابٌ من النحو ، فأنفقتُ ثمانين ألف درهم حتى حَذَقْتُه »[(٣)]!!

٦٥ - الإمام الحافظ محمد بن سَلَام البيكَنْدي :

كان من أوعية العلم وأئمة الأثر ، حدَّث عنه البخاري والدارمي .

---

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي ٢ / ١٧٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٦١٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥٧٨/١١ ، معرفة القرَّاء الكبار للذهبي ٢٠٩/١ .

قال يحيى بن يحيى : بخراسان كنزان : كنز عند محمد بن سلام البيكندي ، وكنز عند إسحاق بن راهويه[١] .

عن محمد بن مبشّر قال : انكسر قلم محمد بن سلام البيكندي في مجلس شيخ ، فأمر أن يُنادي : قلم بدينار ، فطارت إليه الأقلام .

قال رحمه الله : أنفقتُ في طلب العلم أربعين ألفًا ، وأنفقتُ في نشْره أربعين ألفًا ، وليت ما أنفقتُهُ في طلبه كان في نشره أو كما قال .

وقال رحمه الله : أحفظُ نحوًا من خمسة آلاف حديث . وتفرَّغ رحمه الله لنشر العلم[٢] .

قال محمد بن يعقوب : سمعتُ على بن الحسين يقول : كان محمد بن سلام في منزله ، فدُقَّ بابه ، فخرج ، فقال الشخص : ياأبا عبد الله ، أنا جنِّي رسولُ ملكِ الجنِّ إليك ؛ يُسلِّمُ عليك ، ويقول : لا يكون لك مجلسٌ ؛ إلا يكون منا في مجلسك أكثر من الإنس .

قال محمد بن يعقوب : هذه حكاية مُستفيضةٌ عندنا مشهورةٌ[٣] .

ياسبحان الله !! مجالس العلم، هي مجالس الذكْر، هي مجالس الملائكة .. فلا عجب أن تكون مجالس الجن الصالحين ... وملوكهم ... أو ما تدري ما فعلت الجنُّ عند سماعهم من رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان**﴾، وماذا قال الحبيب ﷺ للصحابة ؟ فإن لم يحضر ملوك الإنس لمجالس الحديث ؛ فكفى المُحدِّثين شرفًا حضورُ الصالحين من عالم الغيب .

٦٦ - الإمامُ الحافظُ مُحدِّث العراق : وكيع بن الجرَّاح بن مليح ، أبو سفيان الرُّؤاسي :

قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : كان وكيع إمام المسلمين في زمانه .

---

(١) تهذيب الكمال .

(٢) قال رحمه الله : لم أجلس في سوق بيكند منذ أربعين سنةً .

(٣) سير أعلام النبلاء ٦٢٩/١١ .

اشتغل في الصِّغَر ، وكان من بحور العلم وأئمة الحفظ ، ولما مات سفيان الثوري جلس وكيع موضعه .

قال القعنبي : كنا عند حمَّاد بن زيد ، فلما خرج وكيع ؛ قالوا : هذا راوية سفيان ، قال حمّاد : إن شئتم قلتُ : أرجح من سفيان .

قال يحيى بن معين : وكيع في زمانه كالأوزاعي في زمانه .

وقال أحمد بن حنبل: ما رأيتُ أحدًا أوعى للعلم ولا أحفظَ من وكيع.

قال الذهبي : قلتُ : كان أحمد يُعظِّم وكيعًا ويُفخِّمه .

قال وكيع : مَنْ طلب الحديث كما جاء ؛ فهو صاحب سُنَّة ، ومَنَ طلبه ليُقوِّي به رأيه ؛ فهو صاحب بدعة .

قال وكيع : ما كتبتُ عن الثوري قطُّ ؛ كنتُ أتحفَّظُ ، فإذا رجعتُ إلى المنزل ، كتبتُها .

قال عنه الإمام أحمد : كان وكيع حافظًا حافظًا ، ما رأيتُ مثله .

وقال أيضًا : ما رأيتُ قطُّ مثل وكيع في العلم والحفظ والإتقان والإسناد والأبواب ، مع خشوع وورع .

قال الذهبي : قلتُ : يقول هذا أحمد ، مع تحرِّيه وورعه ، وقد شاهد الكبار مثل هشيم ، وابن عيينة ، ويحيى القطان ، وأبي يوسف القاضي ، وأمثالهم .

قال عبد الرزاق : رأيتُ الثوري وابن عيينة ومعمرًا ومالكًا ، ورأيتُ ورأيتُ ، فما رأتْ عيناي قطُّ مثل وكيع .

قال ابنه سفيان بن وكيع : كان أبي يجلس لأصحاب الحديث من بُكْرة إلى ارتفاع النهار، ثم ينصرف فيقيل، ثم يصلِّي الظهر، ويقصد الطريق إلى المشرعة[1] التي يصعد منها أصحاب الروايا[2]، فيُريحون نواضحهم ، فيُعَلِّمهم

(١) المشرعة : المواضع التي ينحدر إلى الماء منها .

(٢) الروايا : جمع راوية ، وهي المزادة التي فيها الماء، والدابة التي يُستقى عليها الماء .

من القرآن ما يؤدُّون به الفرض إلى حدود العصر ، ثم يرجع إلى مسجده ، فيُصلِّي العصر ، ثم يجلس يُدرِّس القرآن ويذكر الله إلى آخر النهار ، ثم يدخل منزله ، فيُقدَّم إليه إفطاره ، ثم يقوم فيُصلِّي ورْدَهُ من الليل ، ثم ينام .

قال علي بن خَشْرم : ما رأيتُ بيد وكيع كتابًا قطُّ ، إنما هو حفظٌ ، فسألتُه عن أدوية الحفظ ، فقال : إنْ علَّمتُك الدواءَ استعملتَه ؟ قلتُ : إي والله ، قال : تركُ المعاصي ؛ ما جرَّبتُ مثله للحفظ .

عن أبي زرعة الرازي قال : سمعتُ أبا جعفر الجمَّال يقول : أتينا وكيعًا ، فخرج بعد ساعة ، وصلَّى ، عليه ثيابٌ مغسولةٌ ، فلما بصرنا به ؛ فزعنا من النور الذي رأيناه يتلألأ من وجهه ، فقال رجل بجنبي : أهذا مَلَك ؟! فتعجَّبنا من ذلك النور !

قال وكيع : لا يكمُلُ الرجل حتى يكتب عمّن هو فوقه ، وعمَّن هو مثله ، وعمَّن هو دونه .

قال محمود بن آدم : تذاكر بشر بن السري ووكيع ليلةً ، وأنا أراهما من العشاء إلى الصبح ، فقلتُ لبشر : كيف رأيتَه ؟ قال : ما رأيتُ أحفظ منه[1] .

٦٧ - الإمام سيِّدُ الحفَّاظ عبد الرحمن بن مهدي بن حسَّان ، أبو سعيد العنبري اللؤلؤي :

طلب هذا الشأن ، وهو ابن بضع عشرة سنة .

قال الذهبي : حدَّث عن خلْق يتعذَّرُ حصرُهم ، وكان إمامًا حُجَّةً ، قدوةً في العلم والعمل .

قال الشافعي : لا أعرف له نظيرًا في هذا الشأن .

قال أحمد بن حنبل : عبد الرحمن أفقه من يحيى القطان . قال : وإذا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩ /

اختلف عبد الرحمن ووكيع، فعبد الرحمن أثبت؛ لأنه أقرب عهدًا بالكتاب، واختلفا في نحو خمسين حديثًا للثوري . قال : فنظرنا ، فإذا عامَّة الصواب في يد عبد الرحمن .

قال عُبيد الله بن عمر القواريري : أملى علي عبد الرحمن عشرين ألف حديث حفظًا .

قال أبو داود السجستاني : التقى وكيع وعبد الرحمن في الحرم بعد العشاء ، فتوافقا ، حتى سمعا أذان الصبح .

وانظر أخي إلى شدَّة هيامه وولعه بالحديث :

قال أحمد العجلي : قيل لعبد الرحمن بن مهدي : أيما أحبُّ إليك ؛ يُغفر لك ذنبٌ أو تحفظ حديثًا ؟ قال : أحفظ حديثًا .

قال عليُّ بن المديني : كان علمُ عبد الرحمن في الحديث كالسِّحْر .

وقال علي : لو أُخذتُ فحُلِّفتُ بين الركن والمقام ؛ لحلفت بالله أني لم أرَ أحدًا قط أعلم بالحديث من عبد الرحمن بن مهدي .

قال نعيم بن حمّادٍ : قلت لعبد الرحمن بن مهدي : كيف تعرفُ الكذَّاب ؟ قال : كما يعرف الطبيب المجنون .

قال مهدي بن حسَّان : كان عبد الرحمن يكون عند سفيان عشرة أيام ، وخمسة عشر يومًا بالليل والنهار ، فإذا جاءنا ساعة ؛ جاء رسول سفيان في أثره يطلبُه ، فيدعنا ويذهب إليه[1] .

قال : لو استقبلتُ من عمري ما استدبرتُ ؛ لكتبتُ تفسير الحديث إلى جنبه .

قال ابن مهدي : لزمتُ مالكًا حتى ملّني ، فقلتُ يومًا : قد غبتُ عن أهلي هذه الغَيْبَة الطويلة ، وما أعلم ما حدث بهم بعدي . قال : يابُنيَّ ،

---

(١) مقدمة الجرح والتعديل ١ / ٢٥٦ .

وأنا بالقرب من أهلي ، ولا أدري ما حدث بهم منذ خرجت .

قال ابن حبان في صدر كتابه « الضعفاء » : إلا أنّ من أكثرهم تنقيرًا عن شأن المحدِّثين ، وأتركهم للضعفاء والمتروكين ، حتى يجعله لهذا الشأن صناعة لهم لم يتعَدَّوها ، مع لزوم الدين ، والورع الشديد ، والتفقُّه في السنن - رجلين : يحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي .

قال يزيد بن هارون : وقعتُ بين أَسَدَيْن : عبد الرحمن بن مهدي ، ويحيى القطَّان[1] .

٦٨ - الإمام الكبير ، أمير المؤمنين في الحديث أبو سعيد يحيى بن سعيد ابن فرُّوخ القطَّان :

قال عنه الذهبي في السير (٩ / ١٧٦) :

« عُني بهذا - أي الحديث - أتمَّ عناية ، ورحل فيه وساد الأقران ، وانتهى إليه الحفظ ، وتكلَّم في العلَل والرجال ، وتخرَّج به الحفَّاظ . وكان يقول : لزمتُ شعبة عشرين سَنةً .

قال محمد بن عبد الله بن عمار : روى ابن مهدي في تصانيفه ألفي حديث عن يحيى القطَّان ، فحدَّث بها ويحيى حيٌّ .

قال ابن مهدي : لما قدم الثوري البصرة ، قال : ياعبد الرحمن ، جئني بإنسان أُذاكره ، فأتيتُه بيحيى بن سعيد ، فذاكره ، فلمّا خرج ،قال : قلتُ لك : جئني بإنسان ، جئتني بشيطان !! يعني بَهَرَه حفظه .

قال الإمام أحمد : يحيى بن سعيد أثبت الناس .

قال عبد الرحمن بن مهدي : اختلفوا يومًا عند شعبة ، فقالوا له : اجعل بيننا وبينك حَكَمًا ، قال : قد رضيتُ الأحول - يعني القطَّان - فجاء ، فقضى على شعبة ، فقال شعبة : ومَنْ يُطيق نقْدك ياأحولَ ! » .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٩٢ - ٢٠٦ .

قال ابن أبي حاتم في مقدمة « الجرح والتعديل » (٢٣٢) :

« هذه غاية المنزلة ، إذ اختاره شعبة ، ثم بلغ من دالته بنفسه ، وصلابته في دينه ، أن قضى على شعبة .

وقال النسائي : أُمناء الله على حديث رسول الله ﷺ : شعبة ومالك ويحيى القطان .

وقال أحمد بن حنبل : إلى يحيى القطان المنتهى في التثبت .

وقيل لابن المديني : مَنْ أنفع من رأيتَ للإسلام وأهله ؟ قال : يحيى ابن سعيد القطان .

قال محمد بن يحيى بن سعيد : قال أبي : كنتُ أخرج من البيت أطلب الحديث ، فلا أرجع إلا بعد العتمة » .

« قال يحيى القطّان : كنتُ إذا أخطأت ؛ قال لي سفيان : أخطأت يايحيى ، فحدَّث يومًا عن عُبيد الله عن نافع عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الذي يشرب في آنية الذهب والفضة ، إنما يُجرجر في بطنه نار جهنم » ، فقلتُ : أخطأت ياأبا عبد الله ، قال : وكيف هو ؟ قلتُ : حدَّثنا عبيد الله ، عن نافع ، عن زيد بن عبد الله ، عن عبد الله بن عبد الرحمن ، عن أم سلمة ، عن النبي ﷺ . قال : « صدقتَ يايحيى ، اعرض علي كُتُبكِ ، قلتُ : تُريدُ أن ألقى منك ما لقِيَ زائدة ؟ قال : وما لقي ؟ أصلحتُ له كُتُبه ، وذكَّرته حديثه »[(١)] .

٦٩ - الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو خالد يزيد بن هارون بن زادي :

قال عنه الذهبي : كان رأسًا في العلم والعمل ، كبيرَ الشأن .

قال علي بن المديني : ما رأيتُ أحفظ من يزيد بن هارون .

قال يزيد رحمه الله: أحفظُ أربعة وعشرين ألف حديث بالإسناد ولا فخر،

(١) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٧٥ - ١٨٥ .

وأحفظُ للشاميين عشرين ألف حديث لا أسأل عنها[١] .

قال يحيى بن أبي طالب : سمعتُ من يزيد بن هارون ببغداد ، وكان يُقال : إن في مجلسه سبعين ألفًا[٢] .

قال يزيد : أحفظ عشرين ألفًا ، فمن شاء فليُدخل فيها حرفًا .

قال أبو نافع سبط يزيد بن هارون ، كنتُ عند أحمد بن حنبل وعنده رجلان - وأحسبه قال : شيخان - فقال أحدهما : ياأبا عبد الله ، رأيتُ يزيد بن هارون في المنام ، فقلتُ له : ياأبا خالد ، ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وشفَّعني وعاتبني ، قال : قلتُ : غفر لك وشفَّعك قد عرفتُ ، ففيمَ عاتبك ؟ قال : قال لي : يايزيد ، أتُحدِّث عن جرير بن عثمان ؟ قال : قلت : يارب ، ما علمتُ إلَّا خيرًا ، قال : يايزيد ، إنه كان يبغض أبا حسن عليّ ابن أبي طالب . قال : وقال الآخر : أنا رأيتُ يزيد بن هارون في المنام ، فقلتُ له : هل أتاك مُنكرٌ ونكيرٌ ؟ قال : إي والله ، وسألاني : مَنْ ربُّك ؟ وما دينك ؟ ومَنْ نبيُّك ؟ قال : ألمثلي يُقال هذا ؟ وأنا كنتُ أعلمَ الناس بهذا في دار الدنيا ؟ فقالا لي: صدقتَ، فنمْ نومة العروس لا بؤس عليك[٣] .

وقيل في مدحه :

ياطالبَ العلمِ لا تعدلْ به أحدًا ... قد كنت في غفلة منه وفي دَدَنِ
بقية الناسِ مَنْ هذا يُعادلُهُ ... في سالفِ الدهر أو في غابرِ الزمنِ
يُلقى إليه رفاقُ الناسِ عامدةً ... على المحاملِ والأقتابِ والسُّفُنِ
من الجزيرة أرسالًا متابعة ... ومن خراسانَ أهلِ الريفِ والمدنِ
ومن حجاز هناك العيرُ قاصدةٌ ... ومن عراقٍ ومن شامٍ ومن يمنِ

---

(١) تاريخ بغداد ١٤ / ٣٣٩ - ٣٤٠ .
(٢) تاريخ بغداد ٣٤٦/١٤ .
(٣) تاريخ بغداد ٣٤٦/١٤، ٣٤٧ .

يأتون عنه غزيرَ العلم مُحتسبًا ترى الحديثَ لديه غيْرَ مُختَزنِ
يزيدُ أصبحتَ فوق الناس كلِّهمُ شيئًا خُصصتَ به يا واسعَ العطنِ
إليك أصبحتُ من حرّان مغتديًا شوقًا إليك لعلَّ الله يَرحمني

٧٠ - إمام أهل السنة أحمد بن حنبل :

قال عبد الرزاق : ما رأيت أحدًا أفقه ولا أورعَ من أحمد بن حنبل .

قال الذهبي في السِّير (١١ / ١٩٥) : « قال هذا : وقد رأى مثل الثوري ومالك وابن جريج » .

وقال الشافعي : خرجتُ من بغداد ، فما خلَّفتُ بها رجلًا أفضل ، ولا أعلم ، ولا أفقه ، ولا أتقى من أحمد بن حنبل .

وقال إبراهيم الحربي : رأيتُ أبا عبد الله ، كأن الله جمع له علم الأوَّلين والآخرين .

قال أبو عُبيد: إني لأتديَّن بذكر أحمد، ما رأيتُ رجلًا أعلم بالسُّنة منه.

وقال إسحاق بن راهويه : أحمد حُجَّة بين الله وبين خلقه .

وقال ابن معين : أرادوا أن أكون مثل أحمد ، والله لا أكون مثله أبدًا .

وقال ابن المديني : أحمد عندي أفضل من سعيد بن جبير في زمانه ، لأن سعيدًا كان له نظراء وقال : قال لي سيِّدي أحمد بن حنبل ، لا تُحدِّث إلا من كتاب .

وقال ذو النون المصري للمروذي وهم بالعسكر : أي شيء حال .

وقال أبو داود : كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة ، لا يُذكرُ فيها شيءٌ من أمر الدنيا ، ما رأيتُه ذكر الدنيا قطُّ .

قال محمد بن الحسين الأنماطي : كنا في مجلس فيه يحيى بن معين ، وأبو خيثمة ، فجعلوا يُثنون على أحمد بن حنبل ، فقال رجل : فبعْض هذا ، فقال يحيى : وكثرةُ الثناء على أحمد تُستنكر ! لو جلسنا مجلسنا بالثناء عليه ؛

ما ذكرنا فضائله بكمالها .

« قال صالح بن أحمد بن حنبل : رأى رجل مع أبي محبرةً ، فقال له : ياأبا عبد الله ، أنت قد بلغت هذا المبلغ ، وأنت إمام المسلمين[١] ! فقال : مع المحبرة إلى المقبرة .

وقال رحمه الله : أنا أطلبُ العلمَ إلى أن أدخل القبر »[٢] .

قناديلُ دينِ الله يسعى بحملِها رجالٌ بهم يحيا حديثُ مُحمدِ
هم حملوا الآثارَ عن كلِّ عالمٍ تقيٍّ ، صدوقٍ ، فاضلٍ مُتعبد
مَحَابِرُهُم زُهْر تُضيء كأنها قناديلُ حَبْرٍ ناسكٍ وسطَ مسجدِ
تُساقُ إلى مَنْ كان في الفقهِ عالمًا ومَنْ صنَّف الأحكامَ من كلِّ مُسنَدِ[٣]

« وقال أحمد بن منيع بن عبد الرحمن البغوي : سمعتُ جدِّي يقول : مرَّ أحمد بن حنبل جائيًا من الكوفة، وبيده خريطة[٤]، فأخذتُ بيده، فقلتُ : مرَّةً إلى الكوفة ! ومرةً إلى البصرة ! إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث لم يكفه؟ فسكت، ثم قلتُ: ستين ألفًا؟ فسكت، فقلتُ: مائة ألف ؟ فقال : حينئذٍ يعرف شيئًا . قال أحمد بن منيع : فنظرنا ، فإذا أحمد كتب ثلاثمائة ألف ، عن بهز بن أسد وعفان ، وأظنه قال : وروح بن عبادة »[٥] .

« قال قتيبة بن سعيد : كان وكيع إذا صلَّى العتمة ينصرف معه أحمد بن حنبل، فيقف على الباب، فيُذاكره وكيع[٦]، فأخذ وكيع بعضادتي الباب، ثم

---

(١) يعني ، ومعك المحبرة تحملها .
(٢) مناقب الإمام أحمد صـ ٣١ .
(٣) في وصف المحبرة من كتاب « شرف أصحاب الحديث » صـ ٥٣ .
(٤) هي الكيس له خيط يُحيط بفمه يُشدُّ فيُغلَق .
(٥) مناقب الإمام صـ ٢٨ .
(٦) ووكيع من شيوخ أحمد .

قال : ياأبا عبد الله ، أُريد أن أُلقي عليك حديث سفيان ، قال : هاتِ ، قال : تحفظ عن سفيان ، عن سلمة بن كهيل كذا وكذا ؟ قال : نعم ، حدَّثنا يحيى ... ، فيقول - أي وكيع -: تحفظ عن سلمة كذا وكذا ؟ فيقول : حدَّثنا عبد الرحمن ، فيقول : عن سلمة كذا وكذا ؟ فيقول : أنت حدَّثتنا ، حتى يفرغ من سلمة ، ثم يقول أحمد : فتحفظ عن سلمة كذا وكذا ؟ فيقول وكيع : لا ، فلا يزال يُلقي عليه ، ويقول وكيع : لا ، ثم يأخذ في حديث شيخ شيخ . قال : فلم يزل قائمًا حتى جاءت الجارية ، فقالتْ : قد طلع الكوكب ، أو قالت : الزهرة »[١] .

قال أبو اليُمن العُليمي الحنبلي في « المنهج الأحمد » (١ / ٨): « طلب الإمام أحمد الحديث وهو ابن ست عشرة سنة ، وخرج إلى الكوفة سنة ثلاث وثمانين ومائة ، وهو أول سفر له ، وخرج إلى البصرة سنة ست وثمانين ، وخرج إلى سفيان بن عيينة إلى مكة سنة سبع وثمانين ، وهي أول سنة حجّ فيها الإمام أحمد ، وخرج إلى عبد الرزاق بصنعاء اليمن سنة سبع وتسعين ، ورافق يحيى بن معين في رحلته إليه » .

« قال أحمد : رحلتُ في طلب العلم والسُّنة إلى الثغور ، والشامات ، والسواحل ، والمغرب ، والجزائر ، ومكة ، والمدينة ، والحجاز ، واليمن ، والعراقين جميعًا ، وفارس ، وخراسان ، والجبال ، والأطراف ، ثم عدتُ إلى بغداد ، وخرجتُ إلى الكوفة ، فكنتُ في بيت تحت رأسي لبنة ! فَحُمِمتُ ! فرجعتُ إلى أمي رحمها الله ولم أكن استأذنتها ، ولو كان عندي تسعون ذرهمًا كنتُ رحلتُ إلى جرير بن عبد الحميد إلى الريّ، وخرج بعض أصحابنا

(١) مناقب الإمام أحمد ٦١ ، وتاريخ الإسلام - ترجمة أحمد بتحقيق شاكر صـ ٦٣ ، وطبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي ٢ / ٢٨ .

ولم يمكني الخروج ؛ لأنه لم يكن عندي شيءٌ ! »[١] .

« ما أقسى أن يُحرم ابن حنبل الرحلة إلى عبد الحميد بسبب دراهم معدودة ، لا يأبه بها الأغنياء .

وقال أحمد : حججتُ خمسَ حِجَجٍ ، منها ثلاث حِجَج راجلًا – وبلده بغداد – أنفقتُ في إحدى هذه الحِجَج ثلاثين درهمًا »[٢] .

وقال ابن الجوزي : « طاف أحمد بن حنبل الدنيا مرتين حتى جمع المسند »[٣] .

قال أبو اليُمن العليمي الحنبلي : « خرج الإمام أحمد إلى عبد الرزاق بصنعاء اليمن سنة سبع وتسعين ومائة ، ورافق يحيى بن معين . قال يحيى : لمّا خرجنا إلى عبد الرزاق إلى اليمن ، حججنا ، فبينا أنا بالطواف ؛ إذا بعبد الرزاق في الطواف ، فسلَّمتُ عليه ، وقلتُ له : هذا أحمد بن حنبل أخوك ، فقال : حيَّاه الله وثبَّته ، فإنه بلغني عنه كلُّ جميل ، فقلتُ لأحمد : قد قرَّب الله خطانا ، ووفَّر علينا النفقة ، وأراحنا من مسيرة شهر ، فقال أحمد : إني نَوَيْتُ ببغداد أن أسمع من عبد الرزاق بصنعاء ، والله لا غيَّرتُ نيَّتي . قال يحيى : فلما خرجنا إلى صنعاء ، نَفِدت نفقة أحمد ، فعرض علينا عبد الرزاق دراهم كثيرة فلم يقبلها ، فقال له : اقبل على وجه القرض ، فأبى ، وعرضنا عليه – أي على أحمد – نفقاتنا ، فلم يقبل ، فاطلعنا عليه ، فإذا به يعمل التِّكك ويُفطِر على ثمنها »[٤] .

وقال العليمي : « لما كان أحمد باليمن رهن سطلًا عند بقَّال بحضور

(١) مناقب الإمام أحمد ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) تهذيب التهذيب ١ / ٧٣ .
(٣) صيد الخاطر صـ ٢٤٦ .
(٤) المنهج الأحمد ١ / ٨ .

سليمان بن داود الشاذكوني ، وأخذ منه ما يتقّوت به ، ثم جاءه بفكاكه ، فأخرج إليه سَطْلين ، فقال : أيهما سطلك فخذه ، فقال : قد اشتبه عليَّ ، أنت في حلٍّ من السطل وفكاكه، فقال الشاذكوني للبقَّال: أخرجتَ سطلين إلى رجل من أهل الورع ، والسطول تتشابه ، فقال : والله إنه لَسطلُهُ بعينه ، وإنما أردتُ امتحانه »[1] .

« ذكر عبد الرزاق الصنعاني أحمد بن حنبل ، فدمعت عيناه ، ثم قال : قدم علينا فأقام هاهنا سنتين إلا شيئًا . وبلغني أن نفقته نفدت ، فأخذتُ بيده ، فأقمته خلف الباب ، وأشار إلى بابه ، وما معي ومعه أحد ، فقلت : إنه لا يجتمع عندنا الدنانير ، وإذا بعنا الغلَّة شغلناها في شيء ، وقد وجدت عند النساء عشرة دنانير فخذها ، فأرجو أن لا تُنفقها حتى يتهيَّأ عندنا شيء . قال: فقال لي أحمد: ياأبا بكر، لو قبلتُ شيئًا من الناس قبلتُ منك»[2] .

قال إسحاق بن راهويه : « لما خرج أحمد إلى عبد الرزاق ؛ انقطعت به النفقة ، فأكرى نفسه من بعض الجمَّالين إلى أن وافى صنعاء ، وقد كان أصحابُه عرضوا عليه المواساة فلم يقبل من أحد شيئًا .

وقال أحمد بن سنان الواسطي : بلغني أن أحمد رهن نعْله عند خبَّاز على طعام أخذه منه ، عند خروجه من اليمن »[3] .

وقال ابن كثير مُتحدِّثًا عن الشدائد التي لقيها إمام أهل السنة في خلال رحلته إلى اليمن ، وإقامته فيه لتحصيل العلم :

« سُرقت ثيابه وهو باليمن ، فجلس في بيته وردَّ عليه الباب ، وفقده

---

(١) المنهج الأحمد ١ / ١٤ ، طبقات الحنابلة لأبي يعلى ١٦٣/١ ، ومناقب الإمام أحمد صـ ٢٥٩ ، البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٨/١٠ .

(٢) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ٢٠٩/١، مناقب الإمام أحمد صـ ٢٢٦ .

(٣) مناقب الإمام أحمد صـ ٢٢٦ ، وحلية الأولياء ١٧٤/٨– ١٧٥ .

أصحابُه ، فجاءوا إليه فسألوه فأخبرهم ، فعرضوا عليه ذهبًا فلم يقبله ، ولم يأخذ منهم إلا دينارًا واحدًا ليكتب لهم به[1]، فكتب لهم بالأجر ، رحمه الله تعالى »[2] .

ما ضرَّهم ... جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة ... كلُّ مصيبةٍ وشِدَّةٍ تهون .. إذا خرجوا من الدنيا ياإلهي وأنت نصيبهم .. لولا الكري جمَّالًا ... ما صار إمامَ أهل السُّنَّة ... ولما تمنَّى المتوكِّل الخليفة أن يراه ... وطلب ، ولما رفض الإمام ؛ رضي المتوكِّل أن يراه من خلف طاقٍ ، بحيث لا يعلم الإمام أحمد .

« قال المروزي : سمعتُ أبا عبد الله يقول : مات هُشيم ولي عشرون سنة ، فخرجتُ أنا والأعرابي - رفيق كان لأبي عبد الله - قال : فخرجنا مُشاةً ، فوصلنا الكوفة ، يعني في سنة ثلاث وثمانين ، فأتينا أبا معاوية وعنده الخلق ، فأعطى الأعرابي حَجَّةً بستين درهمًا ، فخرج وتركني في بيت وحدي ، فاستوحشتُ ، وليس معي إلا جراب فيه كُتبي ، كنتُ أضعُه فوق لبنةٍ ، وأضع رأسي عليه ، وكنتُ أُذاكر وكيعًا بحديث الثوري ، وذكر مرةً شيئًا ، فقال : هذا عند هشيم ؟ فقلت : لا ، وكان ربما ذكر العشر أحاديث فأحفظها ، فإذا قام ؛ قالوا لي ، فأُمليها عليهم »[3] .

وحدث هذا مع شيخه يزيد بن هارون :

قال الإمام أحمد: «كنا عند يزيد بن هارون، فوهم في شيء، فكلَّمتُه، فأخرج كتابه، فوجده كما قلتُ، فغيَّره، فكان إذا جلس؛ يقول: ياابن حنبل، اُدنُ، ياابن حنبل، اُدنُ هاهنا، ومرضتُ فعادني، فنطحه الباب».

---

(١) أخذ الدينار أجرة لما ينسخه لهم من الكتب .

(٢) البداية والنهاية ١٠ / ٣٢٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٨٦ .

« وقال عبـد الله بن أحمد : قال لي أبي : خذ أي كتاب شئتَ من كُتُب وكيع من المصنَّف ، فإنْ شئتَ أن تسألني عن الكلام حتى أُخبرك بالإسناد ، وإن شئتَ بالإسناد حتى أُخبرك أنا بالكلام »[١] .

ولقد شغل الإمامَ أحمدَ طلبُ العلم عن الزواج فأخَّره .

قال الإمام أحمد : ما تزوَّجت إلا بعد الأربعين .

وقال رحمه الله : نحن كتبنا الحديث من ستة وجوه وسبعة لم نضبطه ، فكيف يضبطه مَنْ كتبه من وجه واحد ؟!

« وقال عبد الله بن أحمد : قال لي أبو زرعة : أبوك يحفظ ألفَ ألفِ حديث، فقيل له: وما يُدريك ؟ قال: ذاكرتُه، فأخذتُ عليه الأبواب»[٢].

« قال الذهبي : فهذه حكاية صحيحة في سعة علم أبي عبد الله ، وكانوا يعدُّون في ذلك المُكرَّر ، والأثر ، وفتوى التابعي ، وما فُسِّر ، ونحو ذلك ، وإلا فالمُتون المرفوعة القويَّة لا تبلغ عُشر معشار ذلك »[٢] .

« قال سعيد بن عمرو : ياأبا زرعة ، أأنت أحفظ أم أحمد ؟ قال : كيف علمت ؟ قال: وجدتُ كُتُبهُ ليس في أوائل الأجزاء أسماء الذين حدَّثوه، فكان يحفظ كل جزء ممن سمعه ، وأنا لا أقدر على هذا .

وعن أبي زرعة قال : حُزرت كُتُبُ أحمد يوم مات ، فبلغت اثني عشرَ حِملًا وعِدلًا ، ما كان على ظهر كتاب منها : حديث فلان ، ولا في بطنه : حدَّثنا فلان ، كل ذلك كان يحفظه .

قال أبو زرعة : أخرج إلَيَّ أبو عبد الله أجزاء كلها سفيان سفيان ، ليس على حديث منها « حدَّثنا فلان » ، فظننتُها عن رجل واحد ، فانتخبتُ منها ، فلما قرأ ذلك علي ؛ جعل يقول : حدَّثنا وكيع ، ويحيى ، وحدَّثنا

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٨٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٨٧ .

فلان ، فعجبتُ ، ولم أقدر أنا على هذا .

قال ابن راهويه: كنتُ أُجالس أحمد وابن معين، ونتذاكر ما نقول: ما فقهه ؟ ما تفسيره ؟ فيسكتون إلا أحمد .

قال أبو بكر الخلَّال : كان أحمد قد كَتَبَ كُتُبَ الرأي وحفظها ، ثم لم يلتفت إليها . وكان أصحاب الحديث يجتمعون عند يحيى بن آدم ، فيتشاغلون عن الحديث بمناظرة أحمد ويحيى بن آدم ، ويرتفع الصوت بينهما ، وكان يحيى بن آدم واحد أهل زمانه في الفقه .

قال ابن راهويه: سمعتُ يحيى بن آدم يقول: أحمد بن حنبل إمامُنا.

ويحكي الإمام أحمد أول لقاء له مع عبد الرزاق .

قال رحمه الله : قدمتُ صنعاء أنا ويحيى بن معين ، فمضيتُ إلى عبد الرزاق في قريته ، وتخلَّف يحيى ، فلما ذهبتُ أدُقُّ الباب ؛ قال لي بقَّالٌ تجاه داره : مهْ ، لا تدقَّ ، فإن الشيخ يُهاب ، فجلستُ حتى إذا كان قبل المغرب ؛ خرج فوثبتُ إليه ، وفي يدي أحاديث انتقيتُها ، فسلَّمتُ ، وقلتُ : حدِّثني بهذه رحمك الله ، فإني رجل غريب ، قال : ومَنْ أنت ؟ وزبرني، قلتُ: أنا أحمد بن حنبل، قال: فتقاصر، وضمَّني إليه، وقال: بالله أنت أبو عبد الله ؟ ثم أخذ الأحاديث وجعل يقرؤها حتى أظلم ، فقال البقَّال: هلّم المصباح حتى خرج وقت المغرب ، وكان عبد الرزاق يؤخرْ صلاة المغرب »[1] .

قال إسحاق بن راهويه: كنا عند عبد الرزَّاق أنا وأحمد بن حنبل، فمضينا معه إلى المُصلَّى يوم عيد، فلم يُكبِّر هو ولا أنا ولا أحمد ، فقال لنا : رأيتُ معمرًا والثوري في هذا اليوم كـبَّرا ، وإني رأيتكما لَمْ تُكبِّرا فلم أُكبِّر فلِمَ لَمْ تُكبِّرا ؛ قلنا : نحن نرى التكبير ، ولكن شُغلنا بأي شيء نبتدىء من الكتب .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٩٢ .

قال أبو إسحاق الجوزجاني : قال : كان أحمد بن حنبل يُصلِّي بعبد الرزَّاق ، فسها ، فسأل عنه عبد الرزَّاق ، فأخبر أنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام شيئًا .

قال أحمد : كنتُ في إزاري من اليمن إلى مكة ، فقال له المروزي : اكتريتَ نفسك من الجمَّالين ؟ قال : قد اكتريت لكتبي ولم يقل لا .

فرحم الله إمامَ أهل السُّنَّة ، وأعلى درجته في الآخرة .

٧١ - الإمام إسحاق بن راهَوَيْه شيخ المشرق ، سيد الحفَّاظ أبو يعقوب :

لقي الكبار، وكتب عن خلْق من أتباع التابعين، وهو شيخ البخاري.

قال يحيى بن معين لرجل : اسكُتْ ، إذا حدَّثك أبو يعقوب أمير المؤمنين فتشكُّ فيه ؟!

قال وهب بن جرير : جزى الله إسحاق بن راهويه ، وصدقةَ بن الفضل ، ويَعْمَرَ عن الإسلام خيرًا ، أحْيَوا السُّنَّة بالمشرق .

وقال أحمد بن حنبل : لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق .

قال الدارميّ : ساد إسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه .

وقال ابن حنبل : لا أعرف لإسحاق في الدنيا نظيرًا .

بيَّض الله وجْهَـهُ ووقـاهُ فَزَعًا يَومَ القمطرير وهَوْلَهُ
وأثابَ الفردوسَ مَنْ قال آميـ ـن وأعطاه يومَ يلقاه سؤْلَهُ

وقال إمام الأئمة ابن خزيمة : والله لو كان إسحاق في التابعين لأقرُّوا له بحفظه وعلمه وفقهه .

كان يحيى بن آدم من شيوخ إسحاق وممن روى عن إسحاق . قال إسحاق : كتب عني يحيى بن آدم ألفَيْ حديث .

عن ابن شُبْرُمة ، عن الشعبي قال : ما كتبتُ سوداء في بيضاء إلى يومي هذا ، فحدَّثتُ بها إسحاق بن راهويه ، فقال : تعجبُ من هذا ؟

قلتُ : نعم ؟ قال : ما كنتُ أسمعُ شيئًا إلا حفظتُهُ ، وكأني أنظر إلى سبعين ألف حديث - أو قال : أكثر - في كتبي .

وقال إسحاق رحمه الله : لكأني أنظر إلى مائة ألف حديث في كُتُبي ، وثلاثين ألفًا أسردُها . قال : وأَمْلى علينا إسحاق أحد عشر ألف حديث من حفظه ، ثم قرأها علينا ، فما زاد حرفًا ، ولا نقص حرفًا .

قال الذهبي : « هذه الحكاية رواها الحافظ ابن عدي ، عن يحيى ابن زكريا بن حيويه ، سمع أبا داود ، فذكرها . فهذا والله الحفظ » .

قال يحيى بن يحيى : لَيومٌ من إسحاق أَحَبُّ إليَّ من عمري .

قال إسحاق : ما سمعتُ شيئًا إلا وحفظتُه ، ولا حفظتُ شيئًا قطُّ فنسيتُه .

وقال : أحفظُ سبعين ألف حديث عن ظهر قلبي .

قال أبو حاتم الرازي : ذكرتُ لأبي زرعة حِفْظَ إسحاق بن راهويه ، فقال أبو زرعة : ما رُئي أحفظ من إسحاق .

ثم قال أبو حاتم : والعجب من إتقانه ، وسلامته من الغلط ، مع ما رُزق من الحفظ ، فقلتُ[1] لأبي حاتم : إنة أملى التفسير عن ظهر قلبه . قال : وهذا أعجب ، فإن ضبْط الأحاديث المُسنَدة أسهل وأهون من ضبْط أسانيد التفسير وألفاظها .

وقال إبراهيم بن أبي طالب الحافظ: فاتني عن إسحاق مجلسٌ من مسنده، وكان يُمليه حفظًا ، فتردَّدتُ إليه مرارًا ليُعيده ، فتعذَّر ، فقصدتُه يومًا لأسأله إعادته ، وقد حملتُ إليه حنطةً من الرُّستاق ، فقال لي : تقوم عندي وتكتب وزْنَ هذه الحنطة ، فإذا فرغت ؛ أعدتُ لك ، ففعلتُ ذلك ، فسألني عن أول حديث من المجلس ، فاتَّكأ على عضادة الباب ، فأعاد المجلس حفظًا ،

---

(١) القائل : هو أحمد بن سلمة .

وكان قد أملى « المسند » حفظًا .

قُربي إلى الله دعاني إلى ... حُبِّ أبي يعقوبَ إسحاقِ
يا حُجَّةَ الله على خلقِهِ ... في سُنَّة الماضين للباقي
أبوك إبراهيمُ مَحْضُ التُّقى ... سبَّاق مجدٍ وابنُ سبَّاقِ

قال أبو يحيى الشعراني : كنتُ إذا ذاكرتُ إسحاق العلم ؛ وجدتُه فيه بحرًا فردًا ، فإذا جئتُ إلى أمْر الدنيا ؛ رأيتُه لا رأي له .

قال الذهبي : قد كان مع حفظه إمامًا في التفسير ، رأسًا في الفقه ، من أئمة الاجتهاد .

وإن تعجَبْ فاعجب لقول إسحاق: أحفظ أربعة آلاف حديث مزوَّرة.

قال علي بن سلمة الكرابيسي - وهو من الصالحين -: رأيتُ ليلة مات إسحاق الحنظلي ، كأن قمرًا ارتفع من الأرض إلى السماء من سكة إسحاق ، ثم نزل فسقط في الموضع الذي دُفن فيه إسحاق . قال : ولم أشعر بموته ، فلما غدوتُ ؛ إذا بحفَّار يحفر قبر إسحاق في الموضع الذي وقع فيه[1] .

وكيف احتمالي للسحابِ صنيعه ... بإسقائه قبرًا وفي بطنه بحرُ

٧٢ - الإمام الحافظ أبو عُبيد ، القاسم بن سَلَّام بن عبد الله :

جمع صنوفًا من العلم ، وصنَّف الكتب في كل فنٍّ .

نقل الخطيب في « تاريخه » وغيره : إن طاهر بن الحسين حين سار إلى خراسان ؛ نزل بمرو ، فطلب رجلًا يُحدِّثه ليلة ، فقيل : ما هاهنا إلا رجلٌ

(١) ترجمة إسحاق في الجرح والتعديل ٢ / ٢٠٩ ، حلية الأولياء ٩ / ٢٣٤ ، تاريخ بغداد ٦ / ٣٤٥ ، ٣٥٥ ، طبقات الحنابلة ، سير أعلام النبلاء ١١/٣٥٨، ٣٨٣ .

مؤدِّب ، فأدخلوا عليه أبا عُبيد ، فوجده أعلمَ الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقه ، فقال له : من المظالِمِ تركُك أنت بهذه البلدة ، فأعطاه ألف دينار ، وقال له : أنا مُتوجِّه إلى حرب ، وليس أحِبُّ استصحابك شفقًا عليك، فأنفِقْ هذه إلى أن أعود إليك، فألَّف أبو عبيد «غريب المصنف»، وعاد طاهر بن الحسين من خراسان ، فحمل معه أبا عبيد إلى (سُرَّ مَنْ رأى) ، وكان أبو عبيد ثقةً ديِّنًا وَرِعًا كبيرَ الشأن .

قال ابن درستويه : « ولأبي عُبيد كُتُبٌ لم يروها ، قد رأيتُها في ميراث بعض الظاهرية تباع كثيرة ، في أصناف الفقه كله ، وبلغَنا أنه كان إذا ألَّف كتابًا ؛ أهداه إلى ابن طاهر ، فيحمل إليه مالًا خطيرًا .. و « الغريب المصنف » من أجلِّ كُتُبِه في اللغة .. قال : ومنها كتابه في « الأمثال » أحسنَ تأليفَه ، وكتاب « غريب الحديث » ذكره بأسانيده ، فرغب فيه أهل الحديث ، وكذلك كتابه في « معاني القرآن » .

وله كتبٌ في الفقه ، فإنه عمد إلى مذهب مالك والشافعي ، فتقلَّد أكثر ذلك ، وأتى بشواهده ، وجمع من رواياته ، وحسَّنها باللغة والنحو ، وله في القراءات كتابٌ جيِّدٌ ، ليس لأحد من الكوفيين قبله مثله ، وكتابه في « الأموال » من أحسن ما صنَّف في الفقه وأجوده » .

قال أبو عُبيد : كنتُ في تصنيف هذا الكتاب[1] أربعين سنة ، وربما كنتُ أستفيدُ الفائدة من أفواه الرجال ، فأضعها في الكتاب ، فأبيتُ ساهرًا فرحًا مني بتلك الفائدة ، وأحدكم يجيئني ، فيُقيم عندي أربعة أشهر ، خمسة أشهر ، فيقول : قد أقمتُ الكثير[2] .

قال عبد الله بن أحمد : عرضتُ كتاب « غريب الحديث » لأبي عُبيد

---

(١) يُريد : « الغريب المصنف » .
(٢) تاريخ بغداد ١٢ / ٤٠٧ وطبقات الحنابلة ١/٢٦١ .

على أبي ، فاستحسنه ، وقال : جزاه الله خيرًا .

قال عبد الله : كتب أبي « غريب الحديث » الذي ألَّفه أبو عُبيد أوّلًا .

قال أبو بكر بن الأنباري : كان أبو عُبيد رحمه الله يَقْسِم الليل أثلاثًا ؛ فيُصلِّي ثُلثُه ، وينام ثُلُثَه ، ويُصنِّف الكتب ثُلثُه .

قال أبو حامد الصاغاني : سمعتُ أبا عبيد القاسم بن سلَّام يقول : فعلتُ بالبصرة فِعلتين أرجو بهما الجنَّة : أتيتُ يحيى القطان وهو يقول : أبو بكر وعمر ، فقلتُ : معي شاهدان من أهل بدر يشهدان أنَّ عثمان أفضلُ من عليٍّ ، قال : مَنْ ؟ قلتُ : أنتَ حدَّثتنا عن شعبة ، عن عبد الملك بن مَيْسرة ، عن النزّال بن سَبْرَة ، قال خطبنا ابن مسعود ، فقال : أمّرْنا خير مَنْ بقي ، ولم نَأْل . قال : ومَنِ الآخر ؟ قلتُ : الزهري ، عن حُميد بن عبد الرحمن ، عن المِسور ، قال : سمعتُ عبد الرحمن بن عوف يقول : شاورتُ المهاجرين الأوّلين ، وأمراء الأجناد ، وأصحاب رسول الله ﷺ ؛ فلم أرَ أحدًا يعدل بعثمان . قال : فترك يحيى قوله ، وقال : أبو بكر وعمر وعثمان . قال : وأتيتُ عبد الله الخُريبي ، فإذا بيتُه بيت خمَّار ، فقلتُ : ما هذا ؟ قال : ما اختلف فيه أوّلنا ولا آخرُنا . قلتُ : اختلف فيه أوّلُكم وآخرُكم . قال : مَنْ ؟ قلتُ : أيوب السختياني ، عن محمد ، عن عَبيدة ، قال : اختلف عليٌّ في الأشربة ، فما لي شرابٌ منذ عشرين سنة إلا عسل أو لبن أو ماء . قال : ومَنْ آخرنا ؟ قلتُ : عبد الله بن إدريس . قال : فأخرج كلَّ ما في منزله فأهرقه[1] .

قال إسحاق بن إبراهيم الحنظلي : أبو عُبيد أوسعُنا علمًا ، وأكثرنا أدبًا ، وأجمعُنا جمعًا ، إنا نحتاج إليه ، ولا يحتاج إلينا .

---

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ٤٠٩ .

وقال : الحقُّ يُحبُّه الله عز وجلَّ : أبو عبيد القاسم بن سلَّام أفقهُ مني وأعلم مني .

وقال : إنَّ الله لا يستحيي من الحق : أبو عبيد أعلمُ مني ، ومن ابن حنبل ، ومن الشافعي .

وقال ثعلب : لو كان أبو عُبيد في بني إسرائيل لكان عجبًا[1] .

قال إبراهيم الحربي : أدركتُ ثلاثة تعجز النساء أن يلدن مثلهم : رأيتُ أبا عُبيد ، ما مثَّلتُه إلا بجبل نُفخ فيه روحٌ ، ورأيت بشر بن الحارث ، ما شبَّهتُه إلا برجل عُجن من قرنه إلى قدمه عقلًا ، ورأيتُ أحمد بن حنبل ، فرأيتُ كأن الله قد جمع له علْمَ الأوَّلين ، فمن كل صنف يقول ما شاء ويُمسك ما شاء .

ليس لأبي عبيد كتاب كـ « غريب المصنف » .

قال يحيى بن معين : مثلي يُسأل عن أبي عُبيد ؟! أبو عُبيد يُسأل عن الناس ، لقد كنتُ يومًا عند الأصمعي ، فقال : أترَوْن هذا المُقبل ؟ قالوا : نعم ، قال : لن تضيع الدنيا أو الناس ما حَيِيَ هذا .

وقال عنه الإمام أحمد : أبو عبيد أستاذ .. أبو عُبيد ممن يزداد عندنا كل يوم خيرًا .

وقال الدارقطني : ثقة إمام جبل .

قال الزبيدي : عَددتُ حروف « غريب المصنف » فوجدتُه سبعة عشر ألفًا وتسعمائة وسبعين حرفًا .

قال الذهبي : يُريد بالحرف اللفظة العربية .

وفيه قيل :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٥٠٠ .

ياطالب العلمِ قد مات ابنُ سلَّام وكان فارسَ علمٍ غيرَ مِحْجام
مات الذي كان فينا رُبع أربعةٍ لم يلقَ مثلهم أستاذُ أحكام[١]

٧٣ - الإمام علي بن المديني أمير المؤمنين في الحديث، أبو الحسن علي ابن عبد الله :

أعلم المُحدِّثين بالعِلل . قال الخطيب فيه : « فيلسوفُ هذه الصنعة وطبيبُها ، ولسانُ طائفة أهل الحديث وخطيبُها » .

قال أبو حاتم الرازي: كان ابن المديني علمًا في الناس في معرفة الحديث والعِلل .

وكان ابن حنبل لا يُسمِّيه ، إنما يُكنِّيه ؛ تبجيلًا له ، ما سمعتُ أحمد سمَّاه قطُّ .

كان سفيان بن عيينة يُسمِّي عليّ بن المديني : حيَّة الوادي .

قال البخاري : ما استصغرتُ نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني .

وقيل للبخاري : ما تشتهي ؟ قال : أن أقدُمَ العراق ، وعلي بن المديني حيٌّ ، فأجالسه[٢] .

قال أبو قدامة السرخسي : سمعتُ عليًّا يقول : رأيتُ كأن الثُّريًّا تدلَّت حتى تناولتُها .

قال أبو قدامة : صدَّق الله رؤياه ، بلغ في الحديث مبلغًا لم يبلغهُ أحدٌ .

وقال النسائي : كأنّ الله خلق عليّ بن المديني لهذا الشأن .

قال عباس العنبري : كان الناس يكتبون قيامه وقعوده ولباسه ، وكل شيء يقول أو يفعل ، أو نحو ذلك .

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٥٠٦ .
(٢) سمعها أبو العباس السراج من البخاري .

قال محمد بن عبد الرحيم : كان عليّ إذا قدم بغداد ؛ تصدَّر في الحلقة، وجاء ابن معين، وأحمد بن حنبل، والمُعيْطي، والناس يتناظرون ، فإذا اختلفوا في شيء ؛ تكلَّم فيه عليٌّ .

قال عليٌّ رحمه الله : التفقُّه في معاني الحديث نصفُ العلم ، ومعرفةُ الرجال نصفُ العلم .

«قال الفسوي: قال عليٌّ: غبتُ عن البصرة في مخرجي إلى اليمن- أظنُّه ذكر ثلاث سنين - وأُمِّي حيَّةٌ ، فلما قدمتُ ؛ قالت : يابُنَيَّ ، فلان لك صديق ، وفلان لك عدُوٌّ ، قلتُ : من أين علمتِ ياأُمَّهْ ؟ قالت : كان فلان وفلان ، فذكرت منهم يحيى بن سعيد يجيئون مُسلِّمين ، فيُعزُّوني ، ويقولون : اصبري ، فلو قدم عليك ، سرَّك الله بما ترين ، فعلمتُ أن هؤلاء أصدقاء ، وفلان وفلان إذا جاءوا ؛ يقولون لي : اكتبي إليه ،وضيِّقي عليه لِيقْدُمَ »[(١)] .

رضي الله عنك ياأُمَّ عليّ ، ومثل هذه لا تكونُ إلا أُمَّ عليٍّ ؟! هذه واحدة من أُمَّهات سادة الإسلام .. تعرف صديق ابنها الذي يُصبِّرُها على طول رحلة ابنها .. وعدُوَّه الذي يأمرها أن تكتب إليه ليقطع رحلته في سبيل العلم ..

قال عليُّ بن المديني : ربما أَذَّكَّرُ الحديثَ في الليل ، فآمر الجارية تُسرج السراج ، فأنظر فيه .

وقال رحمه الله : تركتُ من حديثي مائة ألف حديث ، منها ثلاثون ألفًا لعبّاد بن صهيب .

إذنْ ، فكم تحفظ ياإمام ؟!

قال ابن المديني : « حججتُ حجَّةً وليس لي هِمَّةٌ إلا أن أسمع .. ».

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ٤٩ .

٧٤ - الإمام محمد بن يحيى الذهلي ، أبو عبد الله :

جمع علْمَ الزهري، وصنَّفه وجوَّده، من أجل ذلك يُقال له: الزهري، ويُقال له : الذهلي . وانتهت إليه رياسة العلم والعظمة والسؤدد ببلده . كانت له جلالة عجيبة بنيسابور، من نوع جلالة الإمام أحمد ببغداد، ومالك بالمدينة.

قال عنه ابن أبي حاتم : هو إمام من أئمة المسلمين .

وقال الخطيب : « كان أحدَ الأئمة العارفين ، والحفَّاظ المُتقنين ، صنَّف حديث الزهري ، وجوَّده ، وكان أحمد بن حنبل يُثني عليه ، وينشر فضْله » .

«قال ابنه يحيى: دخلتُ على أبي في الصيف الصائف وقت القائلة ، وهو في بيت كُتُبه ، وبين يديه السِّراج ، وهو يُصنِّف ، فقلتُ : ياأبت ، هذا وقتُ الصلاة ، ودُخان هذا السِّراج بالنهار ، فلو نفَّستَ عن نفسك ، قال: يابُنيَّ، تقول هذا، وأنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين»[1].

رحمةُ الله على الذهلي .. ما أعظم أدبه ، وما أشدّ عشقه للعلم ، لا حرَّ يمنعُه منه ، ولا دخانَ يُبعِدهُ عنه ، ولا شيء يُحِبُّه إلا أن يخلو بحديث النبي ﷺ والصحابة والتابعين !!

مجالسهُم مثلُ الرياضِ أنيقـةٌ ... لقد طاب منها الريحُ واللونُ والطعمُ

قال فيه الإمام أحمد : « لو أنه عندنا ؛ لجعلناه إمامًا في الحديث » .

قال سعيد بن منصور : قلتُ ليحيى بن معين : لِمَ لا تجمع حديث الزهري ؟ فقال : كفانا محمد بن يحيى ذلك .

قال زنجويه بن محمد : كنتُ أسمع مشايخنا يقولون : الحديث الذي لا يعرفه محمد بن يحيى لا يُعبأ به .

---

(١) تاريخ بغداد ٤١٩/٣، سير أعلام النبلاء ٢٧٩/١٢- ٢٨٠ .

وقال ابن أبي داود : حدَّثنا محمد بن يحيى ، وكان أمير المؤمنين في الحديث ، وقال له علي بن المديني : أنت وارث الزهري[١] .

« قال الذهلي رحمه الله : ارتحلتُ ثلاث رحلات ، وأنفقتُ على العلم مائة وخمسين ألفًا ، ولمّا دخلتُ البصرة استقبلتني جنازة يحيى القطّان على باب البصرة »[٢] .

« قال الدارقطني : مَنْ أحبَّ أن ينظر ويعرف قصور علمه عن علم السلف ؛ فلينظر في « علل حديث الزهري » لمحمد بن يحيى »[٣] .

« قال إمام الأئمة ابن خزيمة : حدَّثنا محمد بن يحيى الذُّهلي إمامُ عصره ، أسكنه الله جنَّته مع مُحبِّيه ، قال محمد بن سهل بن عسكر : كنا عند أحمد بن حنبل ، فدخل محمد بن يحيى الذهلي ، فقام إليه أحمد ، وتعجَّب الناس منه ، وقال لأولاده وأصحابه : اذهبوا إلى أبي عبد الله - أي الذهلي - فاكتبوا عنه »[٤] .

« قال أحمد بن الخفاف : رأيتُ محمد بن يحيى بعد وفاته ، فقلتُ : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قلتُ : فما فعل بحديثك ؟ قال : كُتب بماء الذهب ، ورُفعت في علِّيِّين »[٥] .

---

(١) تاريخ بغداد ٤١٩/٣، وتهذيب التهذيب ٥١٥/٩؛وسير أعلام النبلاء ٢٨٣/١٢ .

(٢) تاريخ بغداد ٤١٩/٣، تذكرة الحفاظ ٥٣١/٢، سير أعلام النبلاء ٢٨٣/١٢، وتهذيب التهذيب ٥١٥/٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٨٤/١٢، تذكرة الحفاظ ٥٣١/٢، وتهذيب التهذيب ٥١٥/٩ .

(٤) تذكرة الحفاظ ٥٣١/٢ .

(٥) تاريخ بغداد ٤١٩/٣ ، وسير أعلام النبلاء ٢٧٨/١٢، وتهذيب التهذيب ٥١٥/٩ .

٧٥ - الإمام عبد الملك بن حبيب الأندلسي القرطبي :

« قال تلميذه أبو عمر يوسف بن يحيى المغامي : طرقتُ عبد الملك ابن حبيب يومًا بغَلَسٍ ؛ حرصًا على الاقتباس منه ، واستأذنتُ عليه ، فأذِنَ لي ودخلتُ ، فإذا به جالسٌ في مجلسه ، عاكفٌ على الكتب ، قد أحاطت به ينظر فيها ، والشمعة بين يديه تَقِدُ ، وطويلةٌ عليه[١] ، فسلَّمتُ ، فردَّ عليَّ ، وقال لي : يايوسف ، أَوَ قَدْ انسلخ الليل ؟ قلتُ : نعم ، وقد صلَّيْنا ، فقام إلى صلاة الصبح فصلَّاها ، ثم رجع إلى مقعده ، وقال : يايُوسف ، ما صلَّيْتُ هذه الصلاة إلا بوضوء العشاء الآخرة »[٢] .

٧٦ - الإمام الحافظ أبو يعقوب إسحاق بن منصور الكَوْسَجُ المَرْوزي :

« كان إسحاق بن منصور الكوسج - تلميذ أحمد بن حنبل - فقيهًا عالمًا ، وهو الذي دوَّن عن الإمام أحمد المسائل في الفقه . قال حسَّان بن محمد : سمعتُ مشايخنا يذكرون أن إسحاق بن منصور بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن تلك المسائل التي علَّقها عنه ، فجمع إسحاق بن منصور تلك المسائل في جراب ، وحملها على ظهره ، وخرج راجلًا إلى بغداد وهي على ظهره ، وعرض خطوط أحمد عليه في كل مسألة استفتاه فيها ، فأقرَّ له بها ثانيًا ، وأُعجب أحمد بذلك من شأنه »[٣] .

سبحان الله ! يخرج من نيسابور إلى بغداد ماشيًا ليتثبَّت مما عنده من مسائل .

---

(١) أي على رأسه قلنسوة طويلة .

(٢) « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ٣ / ٤٤ .

(٣) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ١١٤/١ ، وتذكرة الحفَّاظ للذهبي ٥٢٤/٢ .

٧٧ - يعقوب بن شيبة الحافظ[(١)] :

قال عنه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٢/٤٧٦- ٤٧٩) :

«الحافظ الكبير العلّامة الثقة أبو يوسف السدوسي البصري ثم البغدادي، صاحب «المسند » الكبير ، العديم النظير ، المُعلّل ، الذي تمَّ من مسانيده نحوٌ من ثلاثين مُجلَّدًا ، ولو كمُل لجاء في مائة مُجلّد ؛ يُخرِّج العالي والنازل ، ويذكر أوَّلًا سيرة الصحابي مستوفاةً، ثم يذكر مارواه، ويوضِّح عِلَلَ الأحاديث، ويتكلَّم على الرجال ، ويُجرِّح ويُعدِّل ، بكلام مُفيد عذب شافٍ ، بحيث إن الناظر في « مسنده » لا يملُّ منه ، ولكن قلَّ مَنْ روى عنه » .

«قال الدارقطني: لو كان كتاب يعقوب بن شيبة مسطورًا على حمَّام؛ لوجب أن يُكتبْ ، يعني : لا يفتقر الشخص فيه إلى سماع » .

«قال الخطيب: حدَّثني الأزهري، قال: بلغني أنه كان في منزل يعقوب ابن شيبة أربعون لحافًا ، أعدَّها لمن كان عنده من الورَّاقين الذين يُبيِّضون له « المسند » . قال : ولزمه على ما خرَّج منه عشرة آلاف دينار ، ثم قال : وقيل : إن نُسخةً بمسند أبي هريرة منه شوهدت بمصر ، فكانت في مائتي جزء . قال : والذي ظهر له مسند العشرة ، وابن مسعود ، وعمَّار ، والعباس ، وعتبة بن غزوان ، وبعض الموالي »[(٢)] .

قال الذهبي : « وبلغني أنه شوهد له « مسند علي » في خمسة أسفار » .

هذه هِمَّةُ أهل البدع .. فكيف بهمَّة أهل السنة والجماعة .. ولقد أوردتُ هذا لسوق الذهبي له ، والحكمة ضالَّةُ المؤمن .

---

(١) كان من الواقفة – أي ممن يقفون في القرآن – كشيخه أحمد بن المُعذَّل . قال عنه الإمام أحمد : مُبتدع صاحب هوى ، كما جاء في تاريخ بغداد ١٤/٣٥٠ . قال الخطيب : وصفه بذلك لأجل الوقف ، نسأل الله السلامة في الدين .

(٢) تاريخ بغداد ١٤/٢٨١، وتذكرة الحفاظ ٢/٥٧٧ ، وسير أعلام النبلاء ١٢/٤٧٨ .

٧٨ - الإمام الحافظ راوية الإسلام بُندار : محمد بن بشار :

« لُقِّب بذلك ؛ لأنه كان بُندار الحديث في عصره ببلده ، والبندار : الحافظ »[١] .

جمع حديث البصرة ، ولم يرحل ؛ برًّا بأمِّه ، ثم رحل بعدها .

« قال ابن خزيمة : سمعتُ بندارًا يقول : اختلفت إلى يحيى القطَّان - ذكر أكثر من عشرين سنة - ولو عاش بعدُ ، لكنتُ أسمعُ منه شيئًا كثيرًا » .

قال أبو داود : كتبتُ عن بندار نحوًا من خمسين ألف حديث ، وكتبتُ عن أبي موسى شيئًا ، وهو أثبتُ من بندار ، ولولا سلامة في بندار « ترِك حديثه »[٢] .

« قال بندار : أردتُ الخروج - يعني : الرحلة - فمنعتني أُمِّي ، فأطعتُها ، فبورك لي فيه .

قال بندار : سألوني الحديث وأنا ابن ثمان عشرة سنة ، فاستحييتُ أن أُحدِّثهم في المدينة ، فأخرجتُهم إلى البستان ، وأطعمتهم الرُّطب ، وحدَّثتُهم »[٣] .

٧٩ - الحافظ النسَّابة الزبير بن بكَّار القرشي :

قاضي مكة وعالمها أبو عبد الله بن أبي بكر بكَّار .. من ولد عبد الله بن الزبير بن العوام .

ما قال « لا » إلا في تشهُّدِه ولا جرى لفظُه إلا على « نعم »
بين الحواريّ والصدِّيق نسبتُه وقد جرى ورسولُ الله في رَحِمِ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/١٤٤-١٤٩ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/١٠٢، سير أعلام النبلاء ١٢/١٤٥ « يعني أنه كانت فيه سلامة فكان إذا سها أو غلط يُحمل ذلك على أنه لم يتعمَّد » .

(٣) تاريخ بغداد ٢/١٠٢، والسير ١٢/١٤٥، ١٤٧ .

وهو مُصنِّفُ كتاب « نسب قريش » ، وهو كتاب كبير نفيس .

وقد ذكر ياقوت في معجمه (١١/١٦٤،١٦٥) اثنين وثلاثين كتابًا للزبير .

انظر رحمك الله إلى نهمه للعلم من خلال مقولة زوجه عنه :

قال الزبير: «قالت بنت أختي لأهلنا: خالي خير رجل لأهله، لا يتخذ ضُرَّةً ولا سُرِّيَّة[1]. قال: تقول المرأة: والله هذه الكتب أشدُّ عليَّ من ثلاث ضرائر » . ولا تعليق .. !!

٨٠ - أمير المؤمنين في الحديث : محمد بن إسماعيل البخاري :

قال شيخه الإمام أبو إسحاق السُّرْمَاري : مَنْ أراد أن ينظر إلى فقيهٍ بحقِّه وصدقِه ؛ فلينظر إلى محمد بن إسماعيل البخاري ، وأجْلَسَه على حجره .

قال نُعيم بن حمَّاد : محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة .

قال إسحاق بن راهويه: اكتبوا عن هذا الشاب- يعني: البخاري- فلو كان في زمن الحسن؛ لاحتاج إليه الناس، لمعرفته بالحديث وفقهه.

وكان علي بن حُجْر يُسمِّيه بالكبش ، ويقول : لا أعلمُ مثلَهُ .

قال أبو بكر بن أبي شيبة ومحمد بن عبد الله بن نمير : ما رأينا مثل محمد بن إسماعيل .

وقال علي بن المديني : إن محمد بن إسماعيل لم يرَ مثل نفسه .

لما دخل البخاري البصرة قال بُندار : اليوم دخل سيِّد الفقهاء .

قال قتيبة بن سعيد: نظرتُ في الحديث، ونظرتُ في الرأي، وجالستُ الفقهاء والزُّهاد والعُبَّاد؛ ما رأيتُ منذ عقلتُ مثل محمد بن إسماعيل البخاري.

---

(١) في تاريخ بغداد ٨/٤٧١ ، و « وفيات الأعيان » : ضرة ، ولا يشتري جارية .

(٢) تاريخ بغداد ٨/٤٧١، و « وفيات الأعيان » ٢/٣١٢، والسير ١٢/٣١٣ .

وقال رجاء الحافظ : فَضْلُ محمد بن إسماعيل على العلماء كفضل الرجال على النساء ، فقال له رجل : ياأبا محمد ، كُلُّ ذلك بمرّة ؟! فقال : هو آية من آيات الله يمشي على ظهر الأرض .

قال أحمد بن حنبل : انتهى الحفظ إلى أربعة من أهل خراسان : أبو زرعة الرازي، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وعبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي ، والحسن بن شجاع البلخي .

وقال إبراهيم بن محمد بن سلَّام: إن الرُّتُوتَ من أصحاب الحديث[1] كانوا يهابون محمد بن إسماعيل ، ويقضون له على أنفسهم في المعرفة والنظر .

قال علماء مكة : محمد بن إسماعيل إمامُنا وفقيهُنا وإمامُ خراسان .

وقال ابن خزيمة : ما رأيتُ تحت أديم السماء أعلمَ بحديث رسول الله ﷺ وأحفظَ له من محمد بن إسماعيل .

« لما دخل البخاري البصرة قال : صرتُ إلى مجلس بندار ، فلما وقع بصرُهُ عليَّ ، قال : من أين الفتى ؟ قلتُ : من أهل بُخارى ، فقال لي : كيف تركتَ أبا عبدالله ؟ فأمسكتُ ، فقالوا له : يرحمك الله ، هو أبو عبد الله، فقام وأخذ بيدي، وعانقني، وقال: مرحبًا بمن أفتخر به منذ سنين».

وقال يعقوب الحافظ : رأيتُ مسلم بن الحجَّاج بين يدي البخاري يسأله سؤالَ الصبي .

وأتى مسلم إلى البخاري ، فقبَّل يده ، وقبَّل بين عينيه ، وقال له : دعني حتى أقبِّلَ رجليك ياأستاذ الأستاذين، وسيِّد المُحدِّثين، وطبيب الحديث في علله[2] .

---

(١) أي الرؤساء .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١/٧٠/١ ، وطبقات السبكي ٢/٢٢٠، ومقدمة الفتح (٥١٣) .

وكتب أهل بغداد إليه :

المسلمون بخير ما بقيت لهم وليس بعدك خيرٌ حين تُفتقدُ

انظر ياأخي إلى عُلُوِّ هِمَّة البخاري ، فإليه والله المنتهى في عُلُوِّ الهمة في طلب العلم وبذْله ونشره والصبر عليه .. البخاري صاحب الصحيح ، الذي سمعه تسعون ألف رجل ، كما قال محمد بن يوسف الفربري راويه .

حفظ البخاري كُتُبَ ابن المبارك ووكيع ، وعرف كلام أصحاب الرأي لما طعن في ست عشرة سنة .

قال البخاري : دخلتُ بلخ ، فسألوني أن أُملي عليهم لكل من كتبتُ عنه حديثًا ، فأمليتُ ألفَ حديثٍ لألف رجُلٍ ممن كتبتُ عنهم .

قال ورَّاقه محمد بن أبي حاتم : سمعتُه قبل موته بشهر يقول : كتبتُ عن ألف وثمانين رجلًا ، ليس فيهم إلا صاحبُ حديث .

« قال الذهبي عن صحيح البخاري : لو رحل الرجل من مسيرة سنة لسماعه لما فرَّط » .

قال البخاري : « لما طعنتُ في ثمان عشرة ، جعلتُ أُصنِّف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم ، وصنّفتُ كتاب « التاريخ » إذ ذاك عند قبر رسول الله ﷺ في الليالي المُقمرة ، وقلَّ اسمٌ في التاريخ إلَّا وله قصَّةٌ ، إلا أني كرهتُ تطويل الكتاب »[1] .

ياسبحان الله !! والله هذا من أعجب العجب .. فالتاريخ الكبير يزيد عن عشر مُجلَّدات ، كلُّ مُجلَّد لا يقلُّ عن مائتي صفحة إن لم يزد .. يكتب هذا وهو ابن ثمان عشرة سنة .. كتابٌ تمنَّى رؤيته العلماء .

وروى الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤٢٦/١٢) : عن أبي سهل محمود الشافعي قال : « سمعتُ أكثر من ثلاثين عالمًا من علماء مصر ،

---

(١) تاريخ بغداد ٧/٢، سير أعلام النبلاء ٤٠٠/١٢ .

يقولون : حاجتُنا من الدنيا النظر في « تاريخ » محمد بن إسماعيل » .

وقال : « دخلتُ على الحميدي ، وأنا ابن ثمان عشرة سنة ، وبينه وبين آخر اختلاف في حديث ، فلما بصر بي الحميدي - وهو شيخه - قال : قد جاء مَنْ يفصل بيننا ، فعرضا عليَّ ، فقضيتُ للحميدي على مَنْ يُخالفه » .

وقال أبو بكر الأعْيَن : كتبنا عن البخاري على باب محمد بن يوسف الفِريابي ، وما في وجهه شعرة ، فقلنا : ابن كمْ أنت ؟ قال : ابن سبع عشرة سنة .

قال البخاري: «كنتُ عند إسحاق بن راهويه، فقال بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابًا مُختصرًا لسنن النبي ﷺ ، فوقع ذلك في قلبي ، فأخذتُ في جمع هذا الكتاب »[1] .

قال البخاري : أخرجتُ هذا الكتاب من زهاء ستمائة ألف حديث .

وقال : ما وضعتُ في كتابي « الصحيح » حديثًا إلا اغتسلتُ قبل ذلك ، وصلَّيتُ ركعتين .

وقال له محمد بن أبي حاتم : تحفظُ جميعَ ما أدخلت في المصنَّف ؟ قال : لا يخفى عليَّ جميع ما فيه .

وقال : صنَّفتُ جميع كُتُبي ثلاث مرات .

وقال: لو نُشِر بعض أستاذي هؤلاء لم يفهموا كيف صنَّفتُ «التاريخ» ولا عرفوه ، ثم قال : صنَّفتُهُ ثلاث مرات .

وقال : أخذ إسحاق بن راهويه كتاب « التاريخ » الذي صنَّفتُ ، فأدخله على عبد الله بن طاهر ، فقال : أيها الأمير ، ألا أُريك سِحْرًا ؟ قال :

---

(١) تاريخ بغداد ٢/٩ ، تهذيب الكمال ، والسير ١٢/٤٠١ .

فنظر فيه عبد الله ، فتعجَّب منه ، وقال : لستُ أفهم تصنيفَه[١] .

قال محمد بن يوسف البخاري : كنتُ مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلة ، فأحصيتُ عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يُعلِّقها في ليلةٍ ثمان عشرة مرة[٢] .

وقال محمد بن أبي حاتم الورَّاق : كان أبو عبد الله إذا كنتُ معه في سفرٍ ، يجمعنا بيتٌ واحدٌ إلا في القيظ أحيانًا ، فكنتُ أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة ، في كلِّ ذلك يأخذ القدَّاحة ، فيوري نارًا ، ويُسرج ، ثم يخرج أحاديث ، فيُعلِّم عليها[٣] .

فقد حوَّل محمد بن إسماعيل تراجم جامعه بين قبر رسول الله ﷺ ومنبره ، وكان يُصلِّي لكل ترجمة ركعتين .

قال البخاري : صنَّفتُ « الصحيح » في ست عشرة سنة ، وجعلتُه حُجَّةً فيما بيني وبين الله تعالى .

قال هانىء بن النضر : كنا عند محمد بن يوسف - يعني الفريابي - بالشام ، وكنا نتنزَّه فِعلَ الشباب في أكْل الفِرصاد[٤] ونحوه ، وكان محمد ابن إسماعيل معنا ، وكان لا يُزاحمنا في شيء مما نحن فيه ، ويُكبُّ على العلم .

قال عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي : محمد بن إسماعيل أعلمُنا وأفقهُنا وأغوصُنا ، وأكثرُنا طلبًا .

وقال : لم يكن يُشبه طلبُ محمد للحديث طلبَنا ، كان إذا نظر في حديث رجل أنزفه .

---

(١) تاريخ بغداد ٧/٢، وسير أعلام النبلاء ٤٠٣/١٢ .

(٢) تهذيب الكمال (١١٧٠)، وطبقات السبكي ٢٢٠/٢ .

(٣) تاريخ بغداد ١٣/٢، وتهذيب الأسماء واللغات ١/٧٥/١، ومقدمة الفتح (٤٨٢) .

(٤) أي عجم الزبيب والعنب ، والفرصاد : التوت .

قال له شيخه إسماعيل بن أبي أويس : انظر في كُتُبي ، وما أملكه لك ، وأنا شاكرٌ لك ما دمتُ حيًّا .

قال أحمد بن حمدون : رأيتُ محمد بن إسماعيل ، ومحمد بن يحيى الذهلي يسأله عن الأسامي والكنى والعلل ، ومحمد بن إسماعيل يمرُّ فيه مثل السهم ، كأنه يقرأ : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ .

وانظر إلى زين هذه الأمة[1] البخاري ونشره للعلم .

قال صالح بن محمد جزرة : كان محمد بن إسماعيل يجلس ببغداد ، وكنتُ أستملي له ، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفًا .

قال الفربري : « أملى البخاري يومًا عليَّ حديثًا كثيرًا ، فخاف ملالي ، فقال : طِبْ نفسًا ، فإن أهل الملاهي في ملاهيهم ، وأهل الصناعات في صناعاتهم ، والتجار في تجاراتهم ، وأنت مع النبي ﷺ وأصحابه »[2] .

وانظر رحمك الله إلى أُمَّةٍ من الأُمَّة ؛ البخاريِّ ، وكيف يجوع ويعرى في طلب العلم والانشغال به .

قال عمر بن حفص الأشقر : « كنا مع البخاري بالبصرة نكتب ، ففقدناه أيامًا ، ثم وجدناه في بيت وهو عُريان ، وقد نفد ما عنده ، فجمعنا له الدراهم وكسوناه »[3] .

وقال محمد بن أبي حاتم: «سمعتُ البخاري يقول: خرجتُ إلى آدم بن أبي إياس، فتخلفتْ عني نفقتي، حتى جعلتُ أتناول الحشيش ، ولا أُخبر بذلك

---

(١) قال له عبد الله بن منير ، وكان من كبار الزُّهَّاد : جعلك الله زيْنَ هذه الأمة . قال الترمذي : استُجيب له فيه .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٤٥ .

(٣) تاريخ بغداد ٢/١١، ١٢، ومقدمة الفتح (٤٨٠)، وسير أعلام النبلاء ١٢/٤٤٨ .

أحدًا ، فلما كان اليوم الثالث ، أتاني آتٍ لم أعرفه ، فناولني صُرَّةَ دنانير ، وقال : أنفقْ على نفسك »[١] .

وقال البخاري : كنتُ أستغِلُّ كل شهر خمسمائة درهم ، فأنفقتُ كلَّ ذلك في طلب العلم ، فقال محمد بن أبي حاتم : كَمْ بَيْن من يُنفق على هذا الوجه ، وبيْن مَنْ كان خِلْوًا من المال ، فجمع وكسب بالعلم ، حتى اجتمع له، فقال أبو عبد الله : ﴿**وما عند الله خيرٌ وأبقى**﴾ [الشورى : ٣٦] .

قال الحافظ ابن عقدة : لو أن رجُلًا كتب ثلاثين ألف حديث ، لما استغنى عن تاريخ محمد بن إسماعيل البخاري .

وقال ابن حجر : « لو فتحت باب ثناء الأئمة عليه ممن تأخَّر عن عصره ؛ لفني القرطاس ، ونفدت الأنفاس ، فذاك بحرٌ لا ساحلَ له » .

وانظر رحمك الله إلى عُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وجمع همِّه على العلم وحفظه :

قال رحمه الله : أحفظُ مائة ألف حديث صحيح ، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح .

وقال ورَّاقُه : سمعتُه يقول : ما نمتُ البارحة حتى عددتُ كم أدخلتُ في تصانيفي من الحديث ، فإذا نحو مائتي ألف حديث .

وقال أيضًا : « لو قيل لي : تمنَّ ؛ لما قمتُ حتى أروي عشرة آلاف حديث في الصلاة خاصة » .

هذه والله الرجولة .. وهذه والله أمانيّ سيِّد الربَّانيِّين .. هذه والله الحياة الطيبة التي قال فيها الصالحون : « لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من سعادة لجالدونا عليها بالسيوف». ولا عجب أن يقول بعد ذلك قتيبة شيخ أحمد بن حنبل في البخاري: «لو كان محمد في الصحابة لكان آية»[٢].

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/٢، وطبقات السبكي ٢١٧/٢، وسير أعلام النبلاء ٤٤٨/١٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٣١/١٢، ومقدمة الفتح (صـ ٤٨٣) .

قال رجل للبخاري : سمعتُ إسحاق بن راهويه يقول : كأني أنظر إلى سبعين ألف حديث من كتابي ، فقال له محمد بن إسماعيل : أو تعجب من هذا القول ، لعل في هذا الزمان مَنْ ينظر إلى مائتي ألف من كتابه ، وإنما عنى نفسه .

«قال أحمد بن عدي الحافظ: سمعتُ عدَّةً من مشايخ بغداد يقولون: إن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مائة حديث ، فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفس ، لكل رجُل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضر المجلس ؛ أن يُلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم ومن البغداديين ، فلما اطمأنَّ المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال البخاري : لا أعرفه ، فما زال يُلقي عليه واحدًا بعد واحد ، حتى فرغ ، والبخاري يقول : لا أعرفه ، وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفتُ بعضُهم إلى بعض ، ويقولون : فهم الرجل ، ومَنْ كان لم يدرِ القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقِلَّة الحفظ . ثم انتدب رجل من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة ، فقال : لا أعرفه ، فسأله عن آخر ، فقال : لا أعرفه ، فلم يزل يُلقى عليه واحدًا واحدًا ،حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول : لا أعرفه . ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخاري لا يزيدهم على : لا أعرفه ، فلما علم أنهم قد فرغوا ؛ التفت إلى الأول ، فقال : أمّا حديثك الأول ، فقلتَ كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك الثاني كذا ، وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء ، حتى أتى على تمام العشرة ، فردَّ كل متنٍ إلى إسناده ،

وكلّ إسناد إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقرَّ الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل »[١] .

قال ابن حجر : « العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة .

وقال أبو الأزهر : كان بسمرقند أربعمائة مُحدِّث ، فتجمَّعوا وأحبُّوا أن يُغالطوا محمد بن إسماعيل ، فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق ، وإسناد العراق في إسناد الشام ، وإسناد الحرم في إسناد اليمن ، فما استطاعوا مع ذلك أن يتعلَّقوا عليه بسقطة .

ولما دخل البصرة عقد مجلسًا للإملاء حضره المُحدثون والحُفاظ والفقهاء والنظاوة ، حتى اجتمع قريب من كذا كذا ألف نفس ، فجلس أبو عبد الله للإملاء ، فقال قبل أن يأخذ في الإملاء : ياأهل البصرة ، أنا شاب ، وقد سألتموني أن أُحدِّثكم وسأُحدِّثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها ؛ يعني ليست عندكم . قال : فتعجَّب الناس من قولِهِ ، فأخذ في الإملاء ، فقال : حدَّثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة بن أبي رواد العتكي ببلدكم ، قال : حدَّثني أبي عن شعبة عن منصور وغيره عن سالم بن أبي الجعد عن أنس بن مالك أن أعرابيًّا جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يارسول الله ، الرجل يُحبُّ القوم ... الحديث ، ثم قال : هذا ليس عندكم عن منصور إنما هو عندكم عن غير منصور . قال يوسف بن موسى : فأملى عليهم مجلسًا من هذا النسق ، يقول في كل حديث : روى فلان هذا الحديث عندكم كذا ، فأما من رواية فلان - يعني التي يسوقها - فليست عندكم »[٢] .

(١) في سير أعلام النبلاء ١٢/٤٠٩ : فكان ابن صاعد إذا ذكره يقول: الكبش النطَّاح. تاريخ بغداد ٢/٢٠،٢١، ووفيات الأعيان ٤/١٩٠، ومقدمة الفتح (٥١٠-٥١١).

(٢) مقدمة الفتح صـ ٥١٠ - ٥١١ .

« قال البخاري : كتبتُ عن ألف شيخ وأكثر ، عن كلٍّ واحد منهم عشرة آلاف وأكثر ، ما عندي حديث إلا أذكر إسناده »[(١)] .

قال حاشد بن إسماعيل وآخر : كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب ، حتى أتى على ذلك أيام ، فكنا نقول له : إنك تختلف معنا ولا تكتب ، فما تصنع؟ فقال لنا يومًا بعد ستة عشر يومًا : إنكما قد أكثرتما عليَّ وألححتما ، فاعرضا عليَّ ما كتبتما ، فأخرجنا إليه ما كان عندنا ، فزاد على خمسة عشر ألف حديث ، فقرأها كلها عن ظهر القلب ، حتى جعلنا نُحكم كُتُبنا من حفظه ، ثم قال : أترون أني أختلف هَدْرًا ، وَأُضَيِّع أيامي ؟! فعرفنا أنه لا يتقدَّمُه أحدٌ[(٢)] .

وقال رحمه الله : تفكّرت أصحاب أنس ، فحضرني في ساعة ثلاثمائة .

« وقال محمد بن أبي حاتم الورَّاق : قرأ علينا أبو عبد الله كتاب « الهبة » ، فقال : ليس في هبة وكيع إلا حديثان مُسندان أو ثلاثة . وفي كتاب عبد الله بن المبارك خمسة أو نحوه . وفي كتابي هذا خمسمائة حديث أو أكثر »[(٣)] .

وهذا يدل على سعة حفظه وعُلُوِّ كعبه في العلم !!

وقال رحمه الله : صنّفت كتاب « الاعتصام » في ليلة .

رحم الله البخاري جزاءَ ما قدَّم لأُمَّته ، وجزاء صبره على العلم ونشْره .

ولله دَرُّ من قال :

---

(١) « طبقات السبكي » ٢/٢٢٢، وسير أعلام النبلاء ١٢/٤٠٧ .

(٢) طبقات الحنابلة ١ / ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، وتاريخ بغداد ٢ / ١٤ ، ١٥ ، وطبقات السبكي ٢/٢١٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/٤١٠ – ٤١١ .

صحيحُ البخاري لو أنصفوهُ لما خُطَّ إلا بماء الذهبْ
هو الفرقُ بين الهدى والعمى هو السدُّ بين الفتى والعَطَبْ
أسانيدُ مثلُ نجومِ السماءِ أمامَ متون كمثل الشهُبْ
به قام ميزانُ دينِ الرسولِ ودان به العُجمُ بعدَ العربْ
حجابٌ من النار لاشكَّ فيه تميز بين الرضا والغضبْ
وسِترٌ رقيقٌ إلى المصطفى ونص مُبينٌ لكشفِ الرِّيَبْ
فيـا عالمًـا أجمع العالِمــو ن على فضل رُتبته في الرُّتَبْ
سبقتَ الأئمة فيما جمعتَ وفُزتَ على رغمهم بالقصبْ
نفيتَ الضعيفَ من الناقلين ومَنْ كان مُتَّهمًا بالكذب
وأبرزتَ في حُسْنِ ترتيبهِ وتبويبـه عجبًـا للعــجبْ
فأعطاك مولاك ما تشتهيه وأجزل حظَّكَ فيما وهبْ[(١)]

٨١ - المُزَنيُّ :

الإمام فقيه المِلَّة أبو إبراهيم ، إسماعيل بن يحيى المصريّ تلميذ الشافعي .
قال الشافعي : المزنيُّ ناصر مذهبي[(٢)] .

قال الذهبي في «السير» (١٢/٤٩٣): امتلأت البلاد بـ «مختصره» في الفقه ، وشرحه عدَّةٌ من الكبار ، بحيث يُقال : كانت البِكْر يكون في جهازها نسخةٌ من « مختصر المزني » .

« قال أبو العباس ابن سريج : يخرج مختصر المزني من الدنيا عذراء لم تفتضَّ .
وقال أبو العباس في كتاب المزني :

(١) تاريخ ابن كثير ١١/٢٧، ٢٨ .
(٢) وفيات الأعيان ١/٢١٧ و « طبقات السبكي » ٢ / ٩٤ .

حليف فؤادي مذ ثلاثين حجَّةً   وصَيقَل ذهني والمفرِّج عن همِّي
جَموعٌ لأنواع العلوم بأسْرها   بمختصرٍ ليسَ تُفارقه كُمِّي
عزيزٌ على مثلي إضاعةُ علمِهِ   لما فيه من نسجٍ بديعٍ ومن نظمِ

قال منصور بن إسماعيل الفقيه :

لم ترَ عيناي وتسمع أُذني   أحسنَ نظمًا من كتاب المزني

وقال ابن سريج : ما نظرتُ فيه من مرّة إلا واستفدتُ فائدةً جديدة » .

قال البيهقي : « لا أعلم كتابًا صُنِّف في الإسلام أعظم نفعًا وأعمَّ بركةً وأكثر ثمرةً من كتابه ، وكيف لا يكون كذلك ، واعتقاده في دين الله تعالى ، ثم اجتهاده في عبادة الله تعالى ، ثم في جمع هذا الكتاب ، ثم اعتقاد الشافعي في تصنيفه للكتب »[١] .

قال المزني : « كنتُ في تأليف هذا الكتاب عشرين سنة ، وألفتُه ثلاث مرات ، وكنتُ كلما أردتُ تأليفه ؛ أصوم قبله ثلاثة أيام ، وأُصلِّي كذا كذا ركعة »[٢] .

وقال الذهبي : « بلغنا أن المزني كان إذا فرغ من تبييض مسألة ، وأودعها « مختصره » ؛ صلَّى ركعتين »[٣] .

قال الشافعي للمزني وقد أقبل يومًا: هذا لو ناظر الشيطانَ لقطعه[٤].

اعلم ياأخي أن المزني جمع في مختصره ما تفرَّق من كلام الشافعي ، واختصر ما بُسط من قوله ، وقرَّبه على مَنْ أراده ، وسهَّله على مَنْ قصده من أهل الشرق والغرب .

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي صـ ٣٤٨ .
(٢) مناقب الشافعي صـ ٣٤٩ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٩٣ - ٤٩٤ .
(٤) طبقات الشافعية ٢/٩٣، مناقب الشافعي للبيهقي صـ ٣٥٦ .

٨٢ - أبو بكرة : بكَّار بن قتيبة الفقيه المُحدِّث قاضي القضاة بمصر :

« كان بكَّار تاليًا بكَّاءً صالحًا دَيِّنًا . حبسه ابن طولون ، وكان يُحَدِّث من طاقة السجن ؛ لأن أصحاب الحديث طلبوا ذلك من أحمد ، فأذِنَ لهم على هذه الصورة »(١) .

لكم الله يارجال الحديث وفرسانه.. لا يمنعهم عن أن يُحدِّثوا السجن، فهم في وادٍ ، والناس في وادٍ آخر ..

وليس السجنُ حبسَ الجسمِ قهرًا ... فـذا أُنسٌ بـربِّ العالمينـا

٨٣ - الإمام الحافظ الأثرم أبو بكر ، أحمد بن محمد بن هاني مُصنِّف السنن وتلميذ الإمام أحمد :

قال الذهبي : « كان معه تيقُّظٌ عجيبٌ ، حتى نسبه يحيى بن معين ، ويحيى بن أيوب المقابري ، فقال : كان أحدُ أبوي الأثرم جنيًّا »(٢) .

« قال أبو بكر الخَلَّال: كان الأثرم جليل القدرِ، حافظًا، وكان عاصمُ ابن علي لما قدم بغداد؛ طلب رجُلًا يُخرِّج له فوائد يُمليها ، فلم يجد في ذلك الوقت غير أبي بكر الأثرم ، فكأنه لما رآه لم يقع منه موقعًا ؛ لحداثة سنه، فقال له أبو بكر : أخرجْ كُتُبك ، فجعل يقول له : هذا الحديث خطأ ، وهذا غلط ، وهذا كذا . قال : فسُرَّ عاصم بن علي به ، وأملى قريبًا من خمسين مجلسًا ، وكان يعرف الحديث ويحفظ ، فلما صحب أحمدَ بنَ حنبل ترك ذلك ، وأقبل على مذهب أحمد .

قال الأثرم : كنتُ أحفظُ - يعني الفقه والاختلاف - فلما صحبتُ أحمدَ بن حنبل تركت ذلك كله .

(١) سير أعلام النبلاء ٦٠٣/١٢ .

(٢) طبقات الحنابلة ٧٢/١،٧٣، وتذكرة الحفاظ ٥٧١/٢، وسير أعلام النبلاء ٦٢٥/١٢.

قال أبو القاسم بن الخُتَّلِي : قام رجلٌ ، فقال : أُريد مَنْ يكتبُ لي من كتاب الصلاة ما ليس في كُتُب أبي بكر بن أبي شيبة ، فقلنا له : ليس لك إلا أبو بكر الأثرم. قال: فوجَّهوا إليه ورقًا، فكتب ستمائة ورقة من كتاب الصلاة. قال: فنظرنا، فإذا ليس في كتاب ابن أبي شيبة منه شيء»[(١)].

« قال الحسن بن علي بن عمر الفقيه : قدم شيخان من خراسان الحجَّ ، فحدَّثا ، فلما خرجا ، طلب قوم من أصحاب الحديث أحدهما . قال : فخرجا – يعني إلى الصحراء – فقعد هذا الشيخ ناحية ، معه خلقٌ ومُستملٍ ، وقعد الآخر ناحية كذلك ، وقعد أبو بكر الأثرم بينهما ، وكتب ما أملى هذا وما أملى هذا »[(٢)] .

قال إبراهيم بن الأصبهاني : « أبو بكر الأثرم أحفظُ من أبي زرعة الرازي وأتقنُ » .

٨٤ – الإمام الجوَّال الجُرجاني : أبو إسحاق إسماعيل بن زيد الحافظ :

حمل كُتُب الشافعي عن حرملة .

قال أبو أحمد بن عدي : كان إسماعيل هذا يكتب في الليلة تسعين ورقة بخطٍّ دقيقٍ .

قال الذهبي : هذا كان يُمكنه أن يكتب صحيح مسلم في أسبوع[(٣)]

٨٥ – أبو زرعة الرازي سيِّدُ الحُفَّاظ المُشَبَّهُ بأحمد بن حنبل :

الإمام سيِّدُ الحُفَّاظ ، عُبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد مُحدِّث الرِّيِّ .

---

(١) طبقات الحنابلة ٧٣/١، سير أعلام النبلاء ٦٢٥/١٢ .

(٢) طبقات الحنابلة ٧٣/١، وتذكرة الحفاظ ٥٧١/٢، وسير أعلام النبلاء ٦٢٦/١٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥٤/١٣ .

قال يونس بن عبد الأعلى يومًا : حدَّثني أبو زرعة ، فقيل له : من هذا ؟ فقال : إن أبا زرعة أشهرُ في الدنيا من الدنيا .

وقال الربيع : إن أبا زرعة آية ، وإن الله إذا جعل إنسانًا آيةً ؛ أبانه من شكله ، حتى لا يكون له ثانٍ .

وقال محمد بن يحيى : لا يزال المسلمون بخير ما أبقى الله لهم مثل أبي زرعة ، يُعلمُ الناس ، وما كان الله ليترك الأرض إلَّا وفيها مثل أبي زرعة يُعلِّمُ الناسَ ما جهلوه .

وقال أحمد بن حنبل : ما جاوز الجسرَ أحدٌ أفقه من إسحاق بن راهويه ، ولا أحفظ من أبي زرعة .

وقال عبد الله بن أحمد : ذاكرتُ أبي ليلةً الحُفَّاظَ ، فقال : يابُنَّي ، قد كان الحفظُ عندنا، ثم تحوَّل إلى خراسان، إلى هؤلاء الشباب الأربعة. قلتُ : منْ هم ؟ قال : أبو زرعة ، ذاك الرازي ، ومحمد بن إسماعيل ، ذاك البخاري ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، ذاك السمرقندي ، والحسن بن شجاع، ذاك البلخي. قلتُ: ياأبهْ، فمَنْ أحفظُ هؤلاء ؟ قال: أما أبو زرعة؛ فأسردهم ، وأما البخاري ؛ فأعرفهم ، وأما عبد الله - يعني الدارمي - فأتقنهم ، وأما ابنُ شجاع ؛ فأجمعهم للأبواب[(١)] .

قال إسحاق بن راهويه : كل حديث لا يعرفه أبو زرعة الرازي ؛ فليس له أصلٌ[(٢)] .

يقول أبو زرعة رحمه الله : « لا أعلم صفا لي رباطُ يوم قطُّ ؛ أما بيروت ، فأردنا العباس بن الوليد بن مَزْيد ، وأما عسقلان ، فأردنا محمد

---

(١) تاريخ بغداد ٣٢٧/١٠ ، سير أعلام النبلاء ٧٨/١٣ .
(٢) تاريخ بغداد ٣٣٢/١٠ ، سير أعلام النبلاء ٧١/١٣ .

ابن أبي السَّرِي ، وأما قزوين ، فمحمد بن سعيد بن سابق »[١] .

يعني أنه حتى في أماكن الرباط كان يشغله العلم ولُقيا شيوخه في هذه الأماكن ، وهل العلم إلا أخصُّ الجهادين ؟!

قال عبد الله بن أحمد : لما ورد علينا أبو زرعة ؛ نزل عندنا ، فقال أبي : يابُنَيَّ ، قد اعتَضْتُ بنوافلي مُذاكرة هذا الشيخ[٢] .

« قال الحافظ ابن عدي : سمعتُ أبي يقول : كنتُ بالريِّ ، وأنا غلام في البزَّازين، فحلف رجل بطلاق امرأته: أن أبا زرعة يحفظ مائة ألف حديث، فذهب قوم - أنا فيهم - إلى أبي زرعة ، فسألناه ، فقال : ما حمله على الحلف بالطلاق ؟ قيل: قد جرى الآن منه ذلك، فقال أبو زرعة: ليُمسكْ امرأته، فإنها لم تُطلَّقْ عليه ، أو كما قال »[٣] .

قال أبو زرعة : عجبتُ ممن يُفتي في مسائل الطلاق ، يحفظ أقلَّ من مائة ألف حديث .

وقال علي بن الحسين بن الجنيد : ما رأيتُ أحدًا أعلمَ بحديث مالك ابن أنس - مسندها ومنقطعها - من أبي زرعة ، وكذلك سائر العلوم .

قال أبو زرعة : أحفظُ في القراءات عشرة آلاف حديث[٤] .

« قال أبو العباس الثقفي : لما انصرف قتيبة بن سعيد إلى الريِّ ؛ سألوه أن يُحدِّثهم ، فامتنع ، فقال : أُحدِّثكم بعد أن حضر مجلسي أحمد ، وابن معين ، وابن المديني ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وأبو خثيمة ؟ قالوا له :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦٧/١٣ ، وفي تاريخ ابن عساكر ٣٤٥/١٠ب : « لا أعلم أنه صحَّ لي » .

(٢) تاريخ بغداد ٣٢٧/١٠ ، سير أعلام النبلاء ٦٨/١٣ ، وتذكرة الحفاظ ٥٥٧/٢ .

(٣) تاريخ بغداد ٣٢٤/١٠- ٣٢٥ ، وسير أعلام النبلاء ٦٩/١٣ .

(٤) تاريخ بغداد ٣٢٨/١٠ ، سير أعلام النبلاء ٧١/١٣ .

فإن عندنا غلامًا يسرد كلَّ ما حدَّثتَ به ، مجلسًا مجلسًا ، قم ياأبا زرعة ، فقام ، فسرد كلَّ ما حدَّث به قتيبة ، فحدَّثهم قتيبة »[(١)] .

« قال أبو حاتم الرازي : حدَّثني أبو زرعة عبيد الله ، وما خلّف بعده مثله ، علمًا وفهمًا وصيانةً وحذقًا ، وهذا لا يُرتاب فيه ، ولا أعلم من المشرق والمغرب مَنْ كان يفهم هذا الشأن مثله ، ولقد كان من هذا الأمر بسبيل »[(٢)] .

قال رحمه الله : الحديث مثل الشمس ، إذا حُبس عن الشرق خمسة أيام لا يعرف السفر ، فهذا الشأن يحتاج أن تتعاهده أبدًا .

«ارتحل أبو زرعة من الريِّ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وغاب بالكوفة عشرة أشهر ، ثم رجع إلى الريِّ ، ثم خرج في رحلته الثانية ، وغاب عن موطنه أربع عشرة سنة، وجلس للتحديث وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة»[(٣)] .

وقال رحمه الله : « خرجتُ من الريِّ المرة الثانية سنة سبع وعشرين ومائتين ورجعتُ سنة اثنتين وثلاثين ، فبدأتُ فحججتُ ، ثم خرجتُ إلى مصر ، فأقمتُ بمصر خمسة عشر شهرًا ، وكنت عزمت في بُدو قدومي إلى مصر أني أُقِلُّ المقام بها ، فلما رأيتُ كثرة العلم بها وكثرة الاستفادة عزمتُ على المقام ، ولم أكن عزمتُ على سماع كُتُبِ الشافعي ، فلما عزمتُ على المقامِ وجِّهتُ إلى أعرف رجل بمصر بكُتُبِ الشافعي ، فقبَّلتها[(٤)] منه بثمانين درهمًا أن يكتبها كلَّها ، وأعطيتُه الكاغد[(٥)] ، وكنتُ حملتُ معي

(١) تاريخ بغداد ٣٣٢/١٠ .
(٢) تاريخ بغداد ٣٣٣/١٠ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٧٨/١٣ .
(٤) قبّلهُ العمل : تعاقد معه عليه جملة بأجر مقطوع على إنجازه .
(٥) الورق .

ثوبين دَبْيَقِيّين لأقطعهما[١] ، فلما عزمتُ على كتابتها أمرتُ ببيعهما ، فبيعا بستين درهمًا ، واشتريتُ مائة ورقة كاغد بعشرة دراهم ، كتبتُ فيها كُتُب الشافعي ، ثم خرجتُ إلى الشام ، فأقمتُ بها ما أقمتُ ، ثم خرجتُ إلى الجزيرة ، وأقمتُ بها ما أقمتُ ، ثم رجعتُ إلى بغداد ، ورجعتُ إلى الكوفة ، وأقمتُ بها ما أقمتُ ، وقدمتُ البصرة ، فكتبتُ بها عن شيبان وعبد الأعلى ، وأقمتُ في خرجتي الثالثة بالشام والعراق ومصر أربع سنين وستة أشهر »[٢] .

حضر ابن وارة والمنذر بن شاذان وأبو حاتم عند وفاة أبي زرعة، وهُوَ في السَّوْق، فقالوا: كيف يُلقَّنُ مثل أبي زرعة ؟ وذكروا حديث التلقين «لقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله »[٣] واستحيوا من أبي زرعة أن يُلقِّنوه ، فقالوا : تعالَوْا نذكر الحديث ، فقال ابن وارة : حدَّثنا أبو عاصم ، حدَّثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ، وجعل يقول : ابن أبي ، ولم يُجاوزه . وقال أبو حاتم : حدَّثنا بندار ، حدَّثنا أبو عاصم ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ، ففتح عينيه ، وقال : حدَّثنا بندار ، حدَّثنا أبو عاصم ، أخبرنا عبد الحميد ، حدَّثنا صالح بن أبي غريب ، عن كثير بن مرَّة ، عن معاذ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله »[٤] ، وخرج روحه معه . وفي رواية أخرى : « دخل الجنة »[٤] ، وتُوفِّي رحمه الله .

« قال ابن وارة : رأيتُ أبا زُرعة في النوم ، فقلتُ له : ما حالُك يأبا زرعة ؟ قال : أحمدُ الله على أحواله كلِّها ، إني حضرتُ ، فوقفتُ بين

---

(١) أي ليخيطهما في بلده .
(٢) مقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي صـ ٣٤٠ .
(٣) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد ، وأخرجه مسلم عن أبي هريرة والنسائي عن عائشة .
(٤) إسناده حسن ، وأخرجه أحمد وأبو داود والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

يدي الله تعالى ، فقال : ياعُبيد الله ، لِمَ تذرَّعتَ القول في عبادي ؟ قلتُ : يارب ، إنهم حاولوا دينك ، قال : صدقت ، ثم أُتي بطاهر الخُلقاني ، فاستعديتُ عليه إلى ربي ، فضُرب الحدَّ مائة ، ثم أُمر به إلى الحبس ، ثم قال : ألحقوا عبيد الله بأصحابه : أبي عبد الله ، وأبي عبد الله ، وأبي عبد الله : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل » .

قال الذهبي في السير (١٣ / ٨٥) : إسنادها كالشمس .

٨٦ - شيخ الحفَّاظ الإمام أبو حاتم الرازي :

قال الذهبي في السير (٢٤٧/١٣): «كان من بحور العلم طوف البلاد، وبرع في المتن والإسناد، وجمع وصنَّف، وجرح وعدَّل، وصحَّح وعلَّل.

قال يونس بن عبد الأعلى : أبو زرعة وأبو حاتم إماما خراسان ، ودعا لهما ، وقال : مقاؤهما صلاحٌ للمسلمين .

قال أبو حاتم اللبَّان الحافظ: قد جمعتُ مَنْ روى عنه أبو حاتم الرازي، فبلغوا قريبًا من ثلاثة آلاف .

قال أبو حاتم الرازي : قال لي أبو زرعة : ما رأيتُ أحرص على طلب الحديث منك ، فقلتُ له : إن عبد الرحمن ابنِي لحريصٌ ، فقال : « مَنْ أشبه أباه فما ظلم » .

قال الرَّقام: فسألتُ عبد الرحمن عن اتِّفاق كثرة السماع له، وسؤالاته لأبيه ، فقال : ربما كان يأكل وأقرأ عليه ، ويمشي وأقرأ عليه ، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه ، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه » .

أقول شبيهات بما قال عالمًا بهنَّ ومَنْ يُشبه أباه فما ظلمْ

« قال أبو حاتم : جرى بيني وبين أبي زرعة يومًا تمييزُ الحديث ومعرفتُه ، فجعل يذكر أحاديثَ وعللها ، وكذلك كنتُ أذكر أحاديث خطأ وعللها ، وخطأ الشيوخ ، فقال لي : ياأبا حاتم ، قلَّ مَنْ يفهم هذا ، ما

أعزَّ هذا ! إذا رفعتَ هذا من واحد واثنين ، فما أقلّ مَن تجد منْ يحسن هذا ! وربما أشكّ في شيء ، أو يتخالجني في حديث ، فإلى أن ألتقي معك لا أجد مَنْ يشفيني منه ، وكذلك كان أمري .

وقال رحمه الله : قلتُ على باب أبي الوليد الطيالسي : مَنْ أغرب عليَّ حديثًا [غريبًا مسندًا لم أسمع به] صحيحًا ؛ فله عليَّ درهم يتصدَّق به ، وكان ثَمَّ خَلْقٌ : أبو زرعة ، فمنْ دونه ، وإنما كان مرادي أن يُلقى عَلَيَّ ما لم أسمع به ، فيقولون : هو عند فلان ، فأذهب وأسمعه[1] ، فلم يتهيَّأ لأحد أن يُغرِب عليَّ حديثًا »[2] .

هذا والله العزُّ والملك والسيادة !!

« وقال أبو حاتم رحمه الله : أول سنة خرجت في طلب الحديث ، أقمتُ سبع سنين ، أحصيتُ ما مشيتُ على قدميّ زيادة على ألف فرسخ .

قال الذهبي : مسافة ذلك نحو أربعة أشهر ، سير الجادة .

قال أبو حاتم : ثم تركتُ العدد بعد ذلك ، وخرجتُ من البحرين إلى مصر ماشيًا ، ثم إلى الرملة ماشيًا ، ثم إلى دمشق ، ثم أنطاكية وطرسوس ، ثم رجعتُ إلى حمص ، ثم إلى الرَّقَّة ، ثم ركبتُ إلى العراق ؛ كل هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة ، خرجتُ من الريِّ ، فدخلتُ الكوفة في رمضان سنة ثلاث عشرة ، ورحلتُ ثانيًا سنة اثنتين وأربعين ، ثم رجعتُ إلى الريِّ سنة خمس وأربعين ، وحججتُ رابع حَجَّة في سنة خمس وخمسين » .

« وقال رحمه الله : بقيتُ في سنة أربع عشرة ثمانية أشهر بالبصرة ،

---

(١) زاد في « الجرح » هنا : « وكان مرادي أن أستخرج منهم ما ليس عندي » .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٥٥/١٣ .

وكان في نفسي أن أقيم سنة ، فانقطعت نفقتي ، فجعلتُ أبيع ثيابي حتى نفدت ، وبقيتُ بلا نفقة ، ومضيتُ أطوف مع صديق لي إلى المشيخة ، وأسمع إلى المساء ، فانصرف رفيقي ، ورجعتُ إلى بيتي ، فجعلتُ أشرب الماء من الجوع ، ثم أصبحتُ ، فغدا عليَّ رفيقي ، فجعلتُ أطوف معه [في سماع الحديث] على جوع شديد ، وانصرفتُ جائعًا ، فلما كان من الغد؛ غدا عليَّ، فقال: مُرَّ بنا إلى المشايخ، قلتُ: أنا ضعيف لا يُمكنني، قال : ما ضعفُك ؟ قلتُ : لا أكتُمك [أمري ، قد] مضى يومان ، ما طعمتُ فيهما شيئًا، فقال: قد بقي معي دينار، فنصفه لك، ونجعل النصف الآخر في الكراء، فخرجنا من البصرة، وأخذتُ منه النصف دينار»[1].

قال أبو حاتم : « خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري ، وصرنا إلى الجار وركبنا البحر ، فكانت الريح في وجوهنا ، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر ، وضاقت صدورنا ، وفَنِي ما كان معنا ، وخرجنا إلى البر نمشي أيامًا ، حتى فَنِيَ ما تبقَّى معنا من الزاد والماء ، فمشينا يومًا لم نأكل ولم نشرب ، ويوم الثاني كمثل ، ويوم الثالث ، فلما كان يكون المساء صلَّيْنا ، وكنا نُلقي بأنفسنا [حيث كنا] ، فلما أصبحنا في اليوم الثالث ؛ جعلنا نمشي على قدر طاقتنا ، وكنا ثلاثة أنفس : شيخ نيسابوري ، وأبو زهير المروذي ، فسقط الشيخ مغشيًّا عليه ، فجئنا نُحرِّكُه وهو لا يعقل ، فتركناه ، ومشينا قدْر فرسخ ، فضعُفتُ ، وسقطتُ مغشيًّا عليَّ ، ومضى صاحبي يمشي ، فبصر من بُعْد قومًا ، قرَّبوا سفينتهم من البرِّ ، ونزلوا على بئر موسى ، فلما عاينهم ؛ لوَّح بثوبه إليهم ، فجاءوه معهم ماء في إداوة[2] ، فسقوْه وأخذوا بيده ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٥٦- ٢٥٧، وما بين القوسين من الجرح والتعديل ١/٣٦٣- ٣٦٤ .

(٢) الإداوة : المطهرة ، وهي إناء صغير يُحمل فيه الماء .

فقال لهم : الحقوا رفيقيْن لي ، فما شعرتُ إلا برجل يصبُّ الماءَ على وجهي، ففتحتُ عينيَّ، فقلت: اسقني، فصبَّ من الماء في مَشْربة قليلًا، فشربتُ ، ورَجَعَتْ إليّ نفسي ، ثم سقاني قليلًا ، وأخذ بيدي ، فقلتُ : ورائي شيخ مُلْقًى ، فذهب جماعة إليه ، وأخذ بيدي ، وأنا أمشي وأجرُّ رِجليَّ ، حتى إذا بلغتُ إلى عند سفينتهم ، وأتوا بالشيخ وأحسنوا إلينا ؛ فبقينا أيامًا حتى رجعتْ إلينا أنفسُنا ، ثم كتبوا لنا كتابًا إلى مدينة يُقال لها : راية[١]، إلى واليهم وزوَّدونا من الكعك والسَّويق والماء، فلم نزل نمشي حتى نَفِدَ ما كان معنا من الماء والقوت ، فجعلنا نمشي جياعًا على شطٍّ للبحر ، حتى دفعنا إلى سلحفاة مثل التُّرس ، فعمدنا إلى حجر كبير ، فضربنا على ظهرها ، فانفلق ، فإذا منها صُفرة البيض ، فتحسَّيْناه حتى سكن عنا الجوع ، ثم وصلنا إلى مدينة الراية ، وأوصلنا الكتاب إلى عاملها ، فأنزلنا في داره ، فكان يُقدِّم لنا كل يوم القرع ، ويقول لخادمه : هاتي لهم اليقطين المبارك ، فيقدِّمه مع الخبز أيّامًا ، فقال واحدٌ منّا : ألا تدعو باللَّحم المشئوم ؟! فسمع صاحب الدار، فقال: أنا أُحسن الفارسية، فإن جدَّتي كانت هَرَوية، وأتانا بعد ذلك باللحم ، ثم زوَّدنا إلى مصر »[٢] .

قال أبو حاتم : كتبت الحديث سنة تسع ، وأنا ابن أربع عشرة سنة .

ألا تعجبوا خبر المرتضى ... أبي حاتم أعلم العالمينا

٨٧ - الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم صاحب « الجرح والتعديل » :

قال أبو الحسن علي بن إبراهيم الرازي الخطيب : « كان رحمه الله قد كساه الله نورًا وبهاءً، يُسَرُّ من نظر إليه » .

وقال الذهبي في السير (١٣/٢٦٤): « كان بحرًا لا تُكدِّره الدِّلاءُ » .

---

(١) مكان عظيم بفسطاط مصر ، وهي المحلة التي في وسطها جامع عمرو بن العاص .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٥٦- ٢٥٨؛ والجرح والتعديل ١/٣٦٤- ٣٦٦ .

قال أبو يعلى الخليلي : « أخذ أبو محمد علْمَ أبيه ، وأبي زرعة ، وكان بحرًا في العلوم ، ومعرفة الرجال .صنَّف في الفقه ، وفي اختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار ، وكان زاهدًا يُعدُّ من الأبدال » .

وقال الذهبي: «له كتاب نفيس في «الجرح والتعديل» أربع مُجلَّدات[1]، وكتاب « الردُّ على الجهميَّة » مُجلَّد ضخم ، انتخبت منه ، وله « تفسير » كبير في عدة مجلدات ، عامّته آثار بأسانيده ، من أحسن التفاسير » .

قال ابن أبي حاتم : لم يدعني أبي أشتغل في الحديث حتى قرأتُ القرآن على الفضل بن شاذان الرازي ، ثم كتبتُ الحديث .

قال رحمه الله : « كنا بمصر سبعة أشهر ، لم نأكل فيها مرقة ، كلُّ نهارنا مُقسَّم لمجالس الشيوخ ، وبالليل : النسخ والمقابلة . قال : فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا ، فقالوا : هو عليل ، فرأينا في طريقنا سمكةً أعجبتنا ، فاشتريناه ، فلما صرنا إلى البيت ، حضر وقت مجلس ، فلم يمكنا إصلاحه ، ومضينا إلى المجلس ، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام ، وكاد أن يتغيَّر ، فأكلناه نيِّئًا ، لم يكن لنا فراغٌ أن نُعطيه مَنْ يشويه ، ثم قال : لا يُستطاع العلم براحة الجسد »[2] .

ليس عندهم وقتٌ لقَلْي سمكة ، فأكلوها نيئة !!

٨٨ - شيخ الإسلام : إبراهيم الحربي :

قال الدارقطني عن إبراهيم الحربي : إبراهيم إمام بارع في كل علم . كان يُقاس بأحمد بن حنبل في زهده وعلمه وورعه .

وقال الخطيب : كان إمامًا في العلم ، رأسًا في الزهد عارفًا بالفقه ، بصيرًا بالأحكام، حافظًا للحديث، مُميِّزًا لعلله، قيِّمًا بالأدب، جَمَّاعة للُّغة .

---

(١) هو تسع مُجلَّدات في عصرنا هذا بخلاف المقدمة .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٦٥- ٢٦٦، وتذكرة الحفاظ ٣/٨٣٠ .

دخل أبو إسحاق إبراهيم الحربي على إسماعيل القاضي عالم العراق ، فقال : ما رأيتُ مثل إبراهيم . ولما دخل أبو إسحاق ؛ بادر أبو عمر محمد ابن يوسف القاضي إلى نعله ، فأخذها ، فمسحها من الغبار .

قال أبو إسحاق : لا أعلم عصابة خيرًا من أصحاب الحديث ، إنما يغدو أحدهم، ومعه محبرة، فيقول: كيف فعل النبي ﷺ، وكيف صلَّى، إياكم أن تجلسوا إلى أهل البدع ، فإن الرجل إذا أقبل ببدعة ليس يُفلح .

قال ثعلب : ما فقدتُ إبراهيم الحربي في مجلس لغة ولا نحو ، من خمسين سنة[١] .

قال الحربي رحمه الله : ما أنشدتُ بيتًا قطُّ إلَّا قرأتُ بعده : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ ثلاثًا[٢] .

قال الذهبي : يُروى أن إبراهيم لما صنَّف « غريب الحديث » وهو كتابٌ نفيسٌ كاملٌ في معناه .

قال ثعلب : ما لإبراهيم وغريب الحديث ؟! رجل مُحدِّث ، ثم حضر مجلسه ، فلما حضر المجلس ؛ سجد ثعلب ، وقال : ما ظننتُ أن على وجه الأرض مثل هذا الرجل .

« قال أبو طاهر المُخَلِّص : سمعتُ أبي ، سمعتُ إبراهيم الحربي ، وكان وعدنا أن يُمِلَّ علينا مسألةً في الاسم والمُسمَّى ، وكان يجتمع في مجلسه ثلاثون ألف محبرة ، وكان إبراهيم مُقِلًّا ، وكانت له غرفة ، يصعد ، فيُشرف منها على الناس ، فيها كوَّةٌ إلى الشارع ، فلما اجتمع الناس ؛ أشرف عليها ، فقال لهم : قد كنتُ وعدتكم أن أملي عليكم في الاسم والمُسمَّى ، ثم نظرتُ ، فإذا لم يتقدَّمْني في الكلام فيها إمامٌ يُقتدى به ، فرأيتُ الكلام

---

(١) معجم الأدباء ١/١١٨ .

(٢) تاريخ بغداد ٦/٣٢ ، وإنباه الرواة ١/١٥٧ .

فيه بدعة ، فقام الناس وانصرفوا »[١] .

وقال رحمه الله – وقد سُئل عن الاسم والمسمّى –: لي مُنْذ أجالس أهل العلم سبعون سنة ، ما سمعتُ أحدًا منهم يتكلّم في الاسم والمُسمّى .

قال الذهبي في السير (١٣/٣٦٢): « يظهر في تصانيف الحربي أنه ينزل في أحاديث ، ويُكثر منها ، وهذا يدلُّ على أنه لم يزل طَلَّابة للعلم » .

قال القفطي في «تاريخ النحاة» (١/١٥٥): «إبراهيم الحربي له في اللغة كتاب «غريب الحديث»، وهو من أنفس الكتب وأكبرها في هذا النوع».

قال إبراهيم الحربي : « أفنيتُ من عمري ثلاثين سنة برغيفين ، إن جاءتني بهما أُمِّي أو أختي ، وإلا بقيتُ جائعًا إلى الليلة الثانية ، وأفنيتُ ثلاثين سنة برغيف في اليوم والليلة ، إنْ جاءتني امرأتي أو بناتي به ، وإلا بقيتُ جائعًا عطشان ، والآن آكلُ نصف رغيف وأربع عشرة تمرة إن كان بُرْنيًّا ، أوْ نيِّفًا وعشرين إنْ كان دَقَلًا ، ومرضتْ ابنتي ، فمضتْ امرأتي فأقامت عندها شهرًا ، فقام إفطاري في هذا الشهر بدرهم ودانقين ونصف ! ودخلت الحمامَ ، واشتريتُ لهم صابونًا بدانقين ، فقامت نفقة شهر رمضان كله بدرهم وأربعة دوانق ونصف ! » .

وقال رحمه الله : ما كُنَّا نعرف من هذه الأطبخة شيئًا ، كنتُ أجيء من عشيٍّ إلى عشيٍّ ، وقد هيأت لي أُمي باذنجانة مشويَّة أو لَعْقة بُنٍّ[٢] ، أو باقة فجل[٣] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٦٠ – ٣٦١ .

(٢) البنُّ بكسر الباء : الطبقة من الشحم ، وبضم الباء : إدام يُصنع من عَكَرِ المُرِّي : أي من رديء الإدام وأسوئه ، يتأدَّم به الغرباء لفقرهم .

(٣) الحزمة .

قال أبو علي الخيَّاط المعروف بالميِّت : « كنتُ يومًا جالسًا مع إبراهيم الحربي على باب داره ، فلما أن أصبحنا ؛ قال لي : ياأبا علي ، قُم إلى شغلك ، فإن عندي فجلة قد أكلتُ البارحة خضِرها ، أقوم أتغدَّى بجزرتها »(١) .

وروى الذهبي في السير: (٣٦٧/١٣) عن إبراهيم قال: «ما تروَّحتُ، ولا رُوِّحتُ قطُّ ، ولا أكلتُ من شيء في يوم مرتين » .

وانظر رحمك الله إلى قيمة الكتاب عند « الحربي » :

«قال أحمد بن سليمان القطيعي: قال: أضقتُ إضاقةً، فأتيتُ إبراهيم الحربي لأبُثَّه ، فقال لي : لا يضيق صدرُك ، فإن الله من وراء المعونة ، فإني أضقتُ مرةً ، حتى انتهى أمري إلى عدم عيالي قوتهم ، فقالت الزوجة : هبْ أنّي أنا وأنت نصبر ، فكيف بالصبيَّتين ؟ هاتِ شيئًا من كُتُبك نبيعه أو نرهنه، فضننتُ بذلك، وقلتُ: أقترضُ غدًا، فلمّا كان الليل، دُقَّ البابُ ، فقلتُ : مَنْ ذا ؟ قال : رجلٌ من الجيران ، [فقلتُ : ادخلْ ، فقال :] فأطفىء السِّراج حتى أدخل ، فكببتُ شيئًا على السراج ، فدخل ، وترك شيئًا ، وقام ، فإذا هو منديل فيه أنواع من المآكل ، وكاغد فيه خمسمائة درهم ، فأنبهْنا الصغارَ وأكلوا ، ولما كان الغد ، إذا جمَّال يقود جَمَلين عليهما حملان وَرَقًا خراسانيًّا ، وهو يسأل عن منزل إبراهيم الحربي ، فانتهى إليَّ، فقلت: أنا إبراهيم الحربي، فحطَّ الحملين، وقال: هذان الحملان أنفذَهما لك رجلٌ من أهل خراسان ، فقلتُ : مَنْ هو ؟ فقال : قد استحلفني أن لا أقول مَنْ هو ، فأخذتهما منه ، ودعوتُ الله لمرسلهما وللحامل »(٢).

---

(١) تاريخ بغداد ٣١/٦ ، طبقات الحنابلة ٨٦/١-٨٨، و « إنباه الرواة » للقفطي ١٩٠/١، وسير أعلام النبلاء ٣٦٧/١٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٣١/٦- ٣٧، وسير أعلام النبلاء ٣٦٨/١٣، وقال الذهبي: إسنادها مرسل.

« قال رجل لإبراهيم الحربي : كيف قويتَ على جمع هذه الكتب ؟ فغضب إبراهيم الحربي ، وقال : قويتُ عليها بلحمي ودمي ! بلحمي ودمي ! »[١] .

بعد قول إبراهيم هذا ؛ لا يخطر بالبال أن يستجيب إبراهيم لزوجته ببيْع كتبه « فالعالم يبيع ثيابه ، ولا يبيع كتابه » ، وكما قال الزمخشري في كتابه « نوابغ الكَلِم » : « مجدُ التاجر في كيسه ، ومجدُ العالم في كراريسه » .

قال أبو القاسم بن الجبلي : « اعتلَّ إبراهيم الحربيُّ علة حتى أشرف على الموت ، فدخلتُ إليه يومًا ، فقال لي : ياأبا القاسم ، أنا في أمر عظيم مع ابنتي ، ثم قال لها : قومي اخرجي إلى عمِّك ، فخرجتْ وألقت على وجهها خمارها ، فقال لها إبراهيم : هذا عمُّك كلِّميه ، فقالت لي : ياعم ، نحن في أمر عظيم ! لا في الدنيا ولا في الآخرة ! الشهرَ والدهرَ ما لنا طعامٌ إلا كِسَرٌ يابسة وملح ، وربَّما عَدِمنا الملح ! وبالأمس قد وجَّه إليه المعتضد مع بدر بألف دينار فلم يأخذها ! [وقال له : رُدَّها إلى مَنْ أخذتَها منه وهو مُحتاجٌ إلى فلس] ووجَّه إليه فلان وفلان فلم يأخذ منهما شيئًا ! وهو عليل ! فالتفت إبراهيم إليها وتبسَّم ، فقال لها : يابُنيَّة ، إنما خفتِ الفقرَ ؟! فقالت : نعم ، فقال لها: انظري إلى تلك الزاوية، فنظرت، فإذا كتبٌ، فقال: هناك اثنا عشر ألف جزء لغة وغريب ، كتبتُها بخطِّي ، إذا متُّ فوجِّهي كل يوم بجزء تبيعينه بدرهم، فمن كان عنده اثنا عشر ألف درهم فليس هو بفقير!»[٢] .

٨٩ - الهيثم بن جميل البغدادي أبو سهل الحافظ :

نزيل أنطاكية .. ثقة ، صاحب سُنَّة ، يغلط على الثقات .

قال سفيان بن محمد المصيصي : « شهدتُ الهيثم بن جميل وهو يموت وقد سُجِّي نحو القبلة ، فقامت جاريته تغمز رجليه (أي لترى صحْوه)، فقال :

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي صـ ٥٠٨ ، وتاريخ بغداد .

(٢) تاريخ بغداد ، سير أعلام النبلاء ١٣/٣٦٩- ٣٧٠ .

اغمزيهما ، فالله يعلم أنه ما مشتا إلى حرام قط » .

رحل وتجوّل في طلب الحديث ، وتحمَّل الكثير . قال ابن سعد : سمعتُ موسى بن داود يقول : « أفلس الهيثم بن جميل في طلب الحديث مرتين »[١] .

وهذا ابن خراش عبد الرحمن بن يوسف الرافضي الحافظ يقول : « شربتُ بولي في هذا الشأن – يعني الحديث – خمس مرات »[٢].

فأين هِمَّة أهل السنة ، وهذا رافضيٌّ خبيثٌ يُشرف على الهلاك في طلب الحديث ، حتى يضطر إلى شرب بوله .. هذا الرافضيُّ الذي صنَّف جزأين في مثالب الشيخين ، فأجازه شيعيٌّ بألفي درهم ، بنى له حجرةً ببغداد ليُحدِّث فيها ، فمات حين فرغ منها .

قال الذهبي في السير (١٣/٥١٠).: « هذا معثر مخذولٌ ، كان علمُهُ وبالًا ، وسعيُه ضلالًا ، نعوذ بالله من الشقاء » .

٩٠ – الحافظ محمد بن سنجر أبو عبد الله :

قال رحمه الله : « رحلتُ ومعي إسحاق الكوسج – تلميذ الإمام أحمد – ومعي تسعة آلاف دينار ، فكان إسحاق يُورق لي – أي يكتب لي الحديث – ويتزوَّج في كل بلد ، وأنا أؤدِّي عنه المهر » .

قال الذهبي: ثم إن ابن سنجر سكن قرية قطاية، من أعمال مصر[٣].

٩١ – ابن رستم أبو جعفر المديني أحمد بن محمد :

المتوفَّى سنة (٢٧٢ هـ) .

---

(١) الرحلة في طلب الحديث– استدراك نور الدين عتر على كتاب الرحلة (صـ٢٠٥).

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٥٠٩ .

(٣) تذكرة الحفاظ ٢/٥٧٨– ٥٧٩ .

كتب بالشام ومصر والعِرَاقَيْن ، وصنَّف المسند .

قال محمد بن يحيى بن منده : « لم يُحدِّث ببلدنا منذ أربعين سنة أوثق منه ، كان ظاهر الثروة ، صاحبَ ضياع ، لم يكن في أصبهان أكثر منه حديثًا ، صاحب الكتب والأصول الصِّحاح ، أنفق عليها نحـوًا من ثلاثمائة ألف درهم ، لم يُعرف له فراش منذ أربعين سنة ، صاحب صلاة واجتهاد »(١) .

٩٢ - الحافظ أبو محمد حجَّاج بن يوسف بن حجَّاج الثقفي (حجَّاج ابن الشاعر) :

روى عنه مسلم ، وأبو داود ، وبقيُّ بن مخلد ، وأبو يعلى الموصلي ، وابن أبي حاتم .

« قال صالح جزرة : سمعتُ حجاج بن الشاعر يقول : جمعتْ لي أُمِّي مائة رغيف ، فجعلتُها في جراب ، وانحدرت إلى شَبابة بالمدائن ، فأقمتُ ببابه مائة يوم، أغمس الرغيف في دجلة وآكله، فلما نفدت خرجتُ»(٢).

لك الله أيها الحافظ الأوحد الثقة المأمون .. يوم برغيف .. والطعام الماء مع الرغيف .. ولكنه العلم .. ولذة العلم تُنسي ألَمَ الجوع !!

٩٣ - الفَسَوي أبو يوسف ، يعقوب بن سفيان بن جُوان الفارسي :

الإمام الحافظ الحُجَّة ، الرحَّال ، مُحَدِّث إقليم فارس .

وله تاريخ كبير جمُّ الفوائد .

(١) أخبار أصبهان للحافظ أبي نعيم الأصبهاني ١/٨٥ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/٣٠١- ٣٠٢، تاريخ بغداد ٨/٢٤٠، وطبقات الحنابلة ١/١٤٨، وتذكرة الحفاظ ٢/٥٥٠ .

قال الحاكم : « فأما سماعه ورحلته وأفراد حديثه ، فأكثرُ من أن يُمكن ذكرها » .

قال الفسوي رحمه الله: «كتبتُ عن ألف شيخ وكسر، كلُّهم ثقات».

«قال الحافظ أبو إسحاق بن حمزة: سمعتُ أبي يقول: كنتُ رحلتُ إلى يعقوب بن سفيان ، فبقيتُ عنده ستة أشهر ، فقلتُ له : طال مقامي عندك ولي والدة ، فقال : رددت الباب على والدتي ثلاثين سنة »[1] .

قال أبو زرعة الدمشقي : « قدم علينا رجلان من نبلاء الرجال : أحدهما وأجلُّهما يعقوب بن سفيان أبو يوسف ، يعجز أهل العراق أن يروا مثله رجلًا ، وذكر الثاني : حرب بن إسماعيل الكرماني »[2] .

قال يعقوب الفسوي : « [أقمتُ في الرحلة ثلاثين سنة] ، كنتُ في رحلتي في طلب الحديث، فدخلتُ إلى بعض المدن، فصادفت بها شيخًا، احتجتُ إلى الإقامة عليه للاستكثار عنه، وقلّت نفقتي، وبعُدتُ عن بلدي، فكنتُ أُدمنُ الكتابةَ ليلًا وأقرأ نهارًا ، فلما كان ذات ليلة ، كنتُ جالسًا أنسخ، وقدْ تَصرَّم الليل، فنزل الماء في عينيَّ، فلم أُبصر السِّراج ولا البيت، فبكيتُ على انقطاعي ، وعلى ما يفوتني من العلم ، فاشتدَّ بكائي حتى اتكأتُ على جَنْبي ، فنمتُ ، فرأيتُ النبي ﷺ في النوم ، فناداني : يايعقوب بن سفيان ، لِمَ أنت بكيت ؟ فقلتُ : يارسول الله ، ذهب بصري ، فتحسَّرتُ على ما فاتني من كَتْبِ سُنَّتك ، وعلى الانقطاع عن بلدي ، فقال : ادنُ مني ، فدنوتُ منه ، فأمرَّ يده على عينيَّ ، كأنه يقرأ عليهما . قال : ثم استيقظتُ فأبصرتُ ، وأخذتُ نسخي ، وقعدتُ في السراج أكتب »[3] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨١/١٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨٢/١٣، وتهذيب التهذيب ٣٨٧/١١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٨١/١٣-١٨٢، وتهذيب التهذيب ٣٨٦/١١-٣٨٧ .

نعم ، كنْ على الجادة ، فإن أمير القوم يدعو الله أن يرعى القافلة .. وهذه عناية الله بأهل الحديث وفرسانه .. وهذا الفسوي يعقوب ، له من سميِّه يعقوب عليه السلام صلةٌ ، ردَّ الله عليه بصره كما ردَّه على يعقوب .

هذا في حُبِّ يوسف يبكي حتى العمى، وهذا في حديث محمد ﷺ.

٩٤ - ابن الضُّرَيْس الحافظ أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى :

صاحب «فضائل القرآن». انتهى إليه عُلُوُّ الإسناد بالعجم مع الصدق والمعرفة . ثقة مُحدِّث ابن مُحدِّث ، وجدُّه يحيى بن الضريس من أصحاب سفيان الثوري .

قال ابن الضريس : « آخرُ قدْمةٍ قدمتُها البصرة أدَّيتُ أجرة الورَّاقين عشرة آلاف درهم »[(١)] .

« لمَّا سمع أبو بكر الإسماعيلي بموت ابن الضريس - وكان يودُّ أن يرحل إليه - صاح ، ولطم ، وقال لأهله : منعتموني من الرحلة إليه . قال : فرَقُّوا وسَفَّروني مع خالي إلى الحسن بن سفيان »[(٢)] .

٩٥ - ابن أبي عاصم ، أبو بكر : أحمد بن عمرو :

حافظ كبير ، إمامٌ بارعٌ مُتَّبِعٌ للآثار ، كثيرُ التصانيف .

قال أبو الشيخ : كان من الصيانة والعِفَّة بمحلٍّ عجيب .

قال أبو نعيم : كان فقيهًا ظاهري المذهب .

قال الذهبي : « وفي هذا نظرٌ ، فإنه صنَّف كتابًا على داود الظاهري أربعين خبرًا ثابتة مما نفى داود صحتها » .

---

(١) تذكرة الحفَّاظ ٢/٦٤٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٤٥٠ .

صحب النُّساك .

قال رحمه الله : « خرجتُ إلى مكة من الكوفة ، فأكلتُ أكلةً بالكوفة ، والثانية بمكة » .

قال الذهبي في السير (٤٣١/١٣) : « إسنادها صحيح » .

قال ابن أبي عاصم: «لما كان من أمر العلوي [فتنة الزنج] بالبصرة ما كان، ذَهَبَتْ كُتُبي، فلم يبقَ منها شيء، فأعدتُ عن ظهر قلبي خمسين ألف حديث ، كنتُ أمرُّ إلى دكَّان البقال ، فكنتُ أكتب بضوء سراجه ، ثم تفكَّرتُ أني لم أستأذن صاحب السِّراج ، فذهبتُ إلى البحر فغسلته ، ثم أعدتُه ثانيًا » .

هذا والله العلم ، وهذه والله ثمرته : الورع !!

قال الذهبي في ذكر تصانيفه في السير (٤٣٦/١٣) :

«جُمع جزء فيها، فيه زيادة على ثلاثمائة مُصنَّف، رواها عنه أبو بكر القبَّاب، من ذلك: «المسند الكبير» نحو خمسين ألف حديث، و «الآحاد والمثاني » نحو عشرين ألف حديث في الأصناف ، و « المختصر من المسند » نيِّف وعشرون ألفًا ، فذكر نحوًا من هذا إلى أن عدَّ مائةً وأربعين ألفًا ونيِّفًا » .

وكان يحفظ لشقيق البلخي ألف مسألة .

وانظر ياأخي إلى حفظ الله لأهل الحديث :

قال الحكيمي : « ذكروا عند ليلى الديلمي أن أبا بكر بن أبي عاصم ناصبيٌّ ، فبعث غلامًا له ومخلاة وسيفًا ، وأمره أن يأتيه برأسه ، فجاء الغلام ، وأبو بكر يقرأ الحديث ، والكتاب في يده ، فقال : أمرني أن أحمل إليه رأسك ، فنام على قفاه ، ووضع الكتاب الذي كان في يده على وجهه ، وقال : افعل ما شئت ، فلحقه إنسان ، وقال : لا تفعل ، فإن الأمير قد نهاك ، فقام أبو بكر وأخذ الجزء ، ورجع إلى الحديث الذي

قطعه ، فتعجَّب الناس »[١] .

أموت إذا ذكرتُك ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموتُ

أما حفظهم بعد موتهم ..

قال أبو الشيخ : « حضرت جنازة أبي بكر ، وشهدها مائتا ألف ؛ من بين راكب وراجل ، ما عدا رجلًا كان يتولَّى القضاء ، فحُرِم شهود جنازته ، وكان يرى رأي جهم »[٢] .

٩٦ - الدارمي : عثمان بن سعيد الإمام الحافظ أبو سعيد صاحب « المُسنَدْ » :

قال عنه الذهبي في « السير » ٣١٩/١٣ : « طوَّف الأقاليم في طلب الحديث » .

أخذ علْم الحديث وعِلَلَهُ عن علي ويحيى وأحمد ، وفاق أهل زمانه :

قال عنه أبو داود : منه تعلَّمْنا الحديث .

وقال عنه أبو زرعة الرازي : رُزق حُسْنَ التصنيف .

قال المُحدِّث يحيى بن أحمد الهروي ، صاحب ابن معين : رأيتُ في النوم كأن قائلًا يقول : إن عثمان - يعني الدارمي - لذو حظٍّ عظيم[٣] .

قال له رجل كبير يحسده : ماذا أنت لولا العلم ؟ فقال له : أردتَ شَيْنًا ، فصار زيْنًا .

كان الدارمي جِذعًا في أعين المبتدعة ، وهو الذي قام على محمد بن كرَّام وطرده عن هراة .

« قال الدارمي رحمه الله : مَنْ لم يجمع حديث شعبة وسفيان ومالك ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤٣٥/١٣ ، وتاريخ ابن عساكر ٢٥/٢ ب .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٣٥/١٣- ٤٣٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٢٣/١٣- ٣٢٤ .

وحماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة ؛ فهو مُفلس في الحديث ، يُريد أنه ما بلغ درجة الحُفَّاظ » .

قال الذهبي : « وبلا ريب ، أنَّ مَنْ جمع علْم هؤلاء الخمسة ، وأحاط بسائر حديثهم ، وكَتَبه عاليًا ونازلًا ، وفَهِمَ عِللَهُ - فقد أحاط بشطر السُّنَّة النبوية ، بل أكثر من ذلك ، وقد عدم في زماننا مَنْ ينهض بهذا ، وببعضه ، فنسأل الله المغفرة ، وأيضًا فلو أراد أحدٌ أن يتتبَّعَ حديث الثوري وحده ، ويكتبه بأسانيد نفسه على طولها ، ويُبيِّن صحيحه من سقيمه ؛ لكان يجيء « مسنده » في عشر مُجلَّدات ، وإنما شأن المُحدِّث اليوم الاعتناء بالدواوين الستة، و «مسند» أحمد بن حنبل، و «سنن البيهقي»، وضبط متونها وأسانيدها ، ثم لا ينتفع بذلك حتى يتَّقي ربَّه ، ويدين بالحديث، فعَلى علْم الحديث وعلمائه لِيبكِ مَنْ كان باكيًا ، فقد عاد الإسلام المحضُ غريبًا كما بدأ ، فليسعَ امرؤ في فكاك رقبته من النار ، فلا حول ولا قوَّة إلا بالله . ثم العلم ليس هو بكثرة الرواية ، ولكنه نورٌ يقذفه الله في القلب ، وشرطُهُ الاتباع ، والفرار من الهوى والابتداع ، وفَّقنا الله و إياكم لطاعته »[(١)] .

٩٧ - أبو قلابة الإمام الحافظ القدوة العابد مُحدِّث البصرة عبد الملك ابن محمد الرقاشي :

« قال عنه محمد بن جرير الطبري : ما رأيتُ أحفظَ من أبي قلابة الرقاشي .

وقال أحمد بن كامل القاضي: حدَّث من حفظه بستين ألف حديث»[(٢)].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٢٣/١٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧٧/١٣- ١٧٨ .

٩٨ - المَرُّوذي الإمام أبو بكر ، أحمد بن محمد صاحب الإمام أحمد :

حدَّث عن أحمد ، ولازمه ، وكان أجلَّ أصحابه .

قال الخلَّال : « المروذي أوَّلُ أصحاب أبي عبد الله ، وأورعُهم ، روى عن أبي عبد الله مسائل مُشبعة كثيرة ، وأغرب على أصحابه في دقاق المسائل وفي الورع ، وهو الذي غمَّض أبا عبد الله وغسَّله ، ولم يكن أبو عبد الله يُقدِّم عليه أحدًا » .

وكان إمامًا في السنة ، شديدَ الاتباع ، له جلالةٌ عجيبة ببغداد .

قال الخطيب في تاريخه (٤/٤٢٤) : « قال الخلال : كان أبو عبد الله يبعث بي في الحاجة ، فيقول : قلْ ما قلت ، فهو على لساني ، فأنا قلتُه » .

قال الخلَّال : خرج أبو بكر إلى الغزو فشيَّعوه إلى سامراء ، فجعل يردُّهم فلا يرجعون . قال : فحُزِروا فإذا هم بسامراء - سوى مَنْ رجع - نحو خمسين ألفًا ، فقيل له : ياأبا بكر ، احمدِ الله فهذا علمٌ قد نُشر لك ، فبكى ، وقال : ليس هذا العلم لي ، إنما هو لأبي عبد الله أحمد .

٩٩ - الإمام ، شيخ السُّنة ، مُقدّم الحفَّاظ ، أبو داود السِّجستاني مُحدِّث البصرة :

قال الحافظ موسى بن هارون : خُلق أبو داود في الدنيا للحديث ، وفي الآخرة للجنة .

وقال عَلَّان بن عبد الصمد : سمعتُ أبا داود ، وكان من فرسان الحديث .

وقال إبراهيم الحربي : « لمّا صنّف أبو داود « السنن » أُلين لأبي داود الحديث ، كما أُلين لداود عليه السلام الحديد »(١) .

---

(١) تهذيب التهذيب ١٧٢/٤ .

وقال أحمد بن محمد بن ياسين : كان أبو داود أحد حُفَّاظ الإسلام لحديث رسول الله ﷺ وعلمه وعلله وسنده، في أعلى درجة النسك والعفاف، والصلاح والورع ، من فرسان الحديث .

وقال الخلّال : أبو داود الإمام المُقدَّم في زمانه ، رجلٌ لم يسبقه إلى معرفته بتخريج العلوم وبصره بمواضعه أحدٌ في زمانه ، رجلٌ ورعٌ مُقدَّمٌ .

وقال الحاكم : أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مُدافعة .

وقال محمد بن مخلد: كان أبو داود يفي بمذاكرة مائة ألف حديث، ولمّا صنَّف كتاب « السنن » وقرأه على الناس ؛ صار كتابه لأصحاب الحديث كالمصحف يتبعونه ، ولا يُخالفونه ، وأقرَّ له أهل زمانه بالحفظ والتقدم فيه .

قال أحمد بن محمد بن الليث القاضي : « جاء سهل بن عبد الله التُستَري إلى أبي داود السجستاني ، فقيل : ياأبا داود ، هذا سهل بن عبد الله التستري جاءك زائرا ، فرحَّب به ، وأجلسه ، فقال سهل : ياأبا داود ، لي إليك حاجة. قال: وما هي ؟ قال: حتى تقول: قد قضيتها مع الإمكان. قال : نعم . قال : أخرِجْ إليَّ لسانك الذي تُحدِّث به أحاديث رسول الله ﷺ حتى أُقبِّله ، فأخرجَ إليه لسانه فقبَّله »[1] .

قال الحافظ زكريا الساجي : كتاب الله أصلُ الإسلام ، وكتاب أبي داود عهدُ الإسلام .

قال الذهبي في السير (٢١٥/١٣) : « كان أبو داود - مع إمامته في الحديث وفنونه - من كبار الفقهاء ، فكتابه يدلُّ على ذلك ، وهو من نجباء أصحاب الإمام أحمد ، لازم مجلسه مُدَّة ، وسأله عن دقاق المسائل في الفروع

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلّكان ٤٠٤/٢- ٤٠٥ ، سير أعلام النبلاء ٢١٣/١٣ .

والأصول ، وكان على مذهب السلف في اتِّباع السنة والتسليم لها ، وترك الخوض في مضائق الكلام » .

كان عبد الله بن مسعود يُشَبَّه بالنبي ﷺ في هَدْيه ودلِّه . وكان علقمة يُشَبَّه بابن مسعود في ذلك . وكان إبراهيم النخعي يُشبَّه بعلقمة في ذلك. وكان منصور يُشبَّه بإبراهيم. وكان سفيان الثوري يُشبَّه بمنصور. وكان وكيع يُشبَّه بسفيان . وكان أحمد يُشبَّه بوكيع . وكان أبو داود يُشبَّه بأحمد .

قال أبو داود : « كتبتُ عن رسول الله ﷺ خمسمائه ألف حديث ، انتخبتُ منها ما ضمَّنتُه هذا الكتاب - يعني كتاب السنن - جمعتُ فيه أربعة آلاف حديث ، وثمانمائة حديث » .

« جاء الأمير أبو أحمد الموفق وليّ العهد فدخل ، ثم أقبل عليه أبو داود ، فقال : ما جاء بالأمير في مثل هذا الوقت ؟ قال : خِلال ثلاث . قال : وما هي ؟ قال : تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطنًا ؛ ليرحل إليك طلبة العلم ، فتعمر بك ، فإنها قد خربت ، وانقطع عنها الناس ؛ لما جرى عليها من محنة الزنج . فقال : هذه واحدة . قال : وتروي لأولادي « السنن » قال : نعم . قال : وتُفرد لهم مجلسًا ، فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامَّة . قال : أما هذه فلا سبيل إليها ؛ لأن الناس في العلم سواء ، فكانوا يحضرون ويقعدون في كِمٍّ حِيري، عليه ستر، ويسمعون مع العامة»(١).

قال ابن داسة : « كان لأبي داود كمٌّ واسع وكُمٌّ ضيِّق ، فقيل له في ذلك ، فقال : الواسع للكتب ، والآخر لا يحتاج إليه » .

١٠٠ - الحافظ أبو بكر بن أبي داود عبد الله بن سليمان بن الأشعث شيخ بغداد :

قال الذهبي : « كان من بحور العلم » .

---

(١) طبقات السبكي ٢/٢٩٥- ٢٩٦؛ وسير أعلام النبلاء ١٣/٢١٦ .

قال رحمه الله : « دخلتُ الكوفة ومعي درهم واحد ، فأخذتُ به ثلاثين مُدًّا[١] باقِلّا ، فكنتُ آكل منه ، وأكتب عن أبي سعيد الأشجّ ، فما فرغ الباقلّا حتى كتبتُ عنه ثلاثين ألف حديث ، ما بين مقطوع ومرسل»[٢].

قال أبو بكر بن شاذان : « قدم أبو بكر بن أبي داود سجستان ، فسألوه أن يُحدِّثهم ، فقال : ما معي أصلٌ ، فقالوا : ابن أبي داود وأصل ! قال : فأثاروني ، فأمليتُ عليهم من حفظي ثلاثين ألف حديث ، فلما قدمتُ بغداد ؛ قال البغداديون : مضى إلى سجستان ولعب بهم ، ثم فيجوا فيجًا[٣] اكتَرَوْه بستة دنانير إلى سجستان ، ليكتب لهم النسخة ، فكتبت ، وجيء بها وعُرضت على الحفَّاظ ، فخطّؤوني في ستة أحاديث ؛ منها ثلاثة أحاديث حدَّثتُ كما حُدِّثت ، وثلاثة أخطأتُ فيها »[٤] .

وقال رحمه الله : « حدَّثتُ من حفظي بأصبهان بستة وثلاثين ألفًا ؛ ألزموني الوهم في سبعة أحاديث ، فلما انصرفتُ ؛ وجدتُ في كتابي خمسة منها على ما كنتُ حدَّثتهم به »[٥] .

قال الحافظ أبو محمد الخلّال : كان ابن أبي داود إمام أهل العراق ، ومَنْ نصب له السلطان المنبر .

قال أبو حفص بن شاهين : أملى علينا ابن أبي داود سنين ، وما رأيتُ بيده كتابًا ، إنما كان يُملي حفظًا ، فكان يقعد على المنبر بعد ما عَمِي ، ويقعد

---

(١) الباقلاء : الفول .
(٢) تاريخ بغداد ٩ / ٤٦٦ - ٤٦٧ .
(٣) الفيج : الجماعة من الناس .
(٤) تاريخ بغداد ٩ / ٤٦٦ .
(٥) تذكرة الحفاظ ٢/٧٦٩ .

دونه بدرجةٍ ابنُه أبو معمر - بيده كتاب - فيقول له : حديث كـذا ، فيسرده من حفظه ، حتى يأتي على المجلس .

يقول أبو بكر بن أبي داود :

ودعْ عنكَ آراءَ الرجالِ وقولَهم فقولُ رسولِ الله أولى وأشرحُ

ولاتكُ من قوم تَلَهَّوْا بدينهم فتطعن في أهل الحديث وتقدحُ

١٠١ - ابن أبي الخناجر الإمام مُسنِد طرابلس أبو علي ، أحمد بن محمد ابن يزيد بن مسلم بن أبي الخناجر الأنصاري :

حدَّث عن يزيد بن هارون ... وروى عنه ابن أبي حاتم ، وخيثمة .

«قال ابن دحيم: وسمعه خيثمة يقول: وقف المأمون على مجلس يزيد- وكنتُ فيهم، وفي المجلس ألوف- فالتفت إلى أصحابه، وقال: هذا المُلكُ»[(١)].

١٠٢ - الإمام التِّرمذي أبو عيسى ، محمد بن عيسى بن سورة :

مات البخاري، ولم يُخلِّف بخراسان مثل أبي عيسى؛ في العلم والحفظ والورع والزهد ، بكى حتى عمي .

قال رحمه الله : « كنتُ في طريق مكة ، فكتبتُ جُزأين من حديث شيخ ، فوجدتُه ، فسألتُه ، وأنا أظنُّ أن الجزأين معي ، فسألتُه ، فأجابني ، فإذا معي جُزآن بياض ، فبقي يقرأ عليَّ من لفظه ، فنظر ، فرأى في يدي ورقًا بياضًا ، فقال : أما تستحي مني ؟ فأعلمتُه بأمري ، وقلتُ : أحفظه كله . قال : اقرأ ، فقرأتُه عليه ، فلم يُصدِّقني ، وقال : استظهرتَ قبل أن تجيء ؟ فقلتُ : حدِّثني بغيره . قال : فحدَّثني بأربعين حديثًا ، ثم قال : هاتِ ، فأعدتُها عليه ، ما أخطأتُ في حرفٍ »[(٢)] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٤ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٣٥ ، وتهذيب التهذيب ٩ / ٣٨٨ - ٣٨٩ .

قال أبو عيسى: «صنَّفتُ هذا الكتاب، وعرضتُه على علماء الحجاز، والعراق، وخراسان، فرضوا به، ومَنْ كان هذا الكتاب- يعني «الجامع» - في بيته ؛ فكأنما في بيته نبيٌّ يتكلَّم »[1] .

قال الذهبي : « في « الجامع » علمٌ نافعٌ ، وفوائدُ غزيرةٌ ، ورؤوسُ المسائل ، وهو أحد أصول الإسلام ، لولا ما كدَّره بأحاديث واهية ؛ بعضها موضوع ، وكثير منها في الفضائل » .

وقال أيضًا : « « جامعه » قاضٍ له بإمامته وحفظه وفقهه ، ولكنه يترخَّص في قبول الأحاديث ، ولا يُشدّد ، ونَفَسُهُ في التضعيف رخوٌ » .

قال أبو إسماعيل شيخ الإسلام : « جامع الترمذي أنفعُ من كتاب البخاري ومسلم؛ لأنهما لا يقف على الفائدة منهما إلا المتبحِّرُ العالم، و «الجامع» يصل إلى فائدته كلُّ أحد »[2] .

١٠٣ - شيخ الإسلام بقيُّ بن مَخْلَد، أبو عبد الرحمن الأندلسي القرطبي:

قال الذهبي في السير (٢٨٥/١٣): «صاحب «التفسير» و «المسند» اللذيْن لا نظير لهما ، عني بالحديث عناية لا مزيد عليها ، وأدخل جزيرة الأندلس علمًا جمًّا، وبه، وبمحمد بن وضَّاح صارت تلك الناحية دار حديث».

قال عنه أحمد بن أبي خيثمة : « ما كنا نُسمِّيه إلا المكْنسة ، وهل احتاج بلد فيه بقيٌّ إلى أن يرحل إلى هاهنا منه أحدٌ »[3] .

قال أبو الوليد بن الفرضي في « تاريخه » : « ملأ بقيُّ بن مخلد الأندلس حديثًا، فأنكر عليه أصحابه الأندلسيون- أحمد بن خالد، ومحمد بن الحارث، وأبو زيد - ما أدخله من كُتب الاختلاف ، وغرائب الحديث ، فأغروْا به

(١) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٣٤ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٧٧/١٣ .
(٣) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٣٠ .

السلطان وأخافوه به ، ثم إن الله أظهره عليهم ، وعصمه منهم ، فنشر حديثه وقرأ للناس روايته ، فمن يومئذٍ انتشر الحديث بالأندلس ، ثم تلاه ابن وضاح ، فصارت الأندلس دار حديث وإسناد » .

ومما انفرد به ، ولم يُدخله سواه « مُصنَّف أبي بكر بن أبي شيبة » بتمامه ، و « كتاب الفقه » للشافعي بكماله - يعني « الأم » - و « تاريخ » خليفة ، و « طبقات » خليفة ، وكتاب « سيرة عمر بن عبد العزيز » لأحمد ابن إبراهيم الدَّوْرقي ... وليس لأحد مثل « مسنده » .

قال ابن حزم: «أقطع أنه لم يُؤَلَّف في الإسلام مثل «تفسير بقيّ»، ولا « تفسير محمد بن جرير »، ولا غيره»[1] .

قال ابن حزم: «وكان محمد بن عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس مُحِبًّا للعلوم عارفًا ، فلما دخل بقيٌّ الأندلس « بمصنَّف أبي بكر بن أبي شيبة » ، وقُرِىء عليه ؛ أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف ، واستبشعوه ، ونشَّطوا العامّة عليه ، ومنعوه من قراءته ، فاستحضره صاحب الأندلس محمد وإياهم ، وتصفَّح الكتاب كلَّه جزءًا جزءًا ، حتى أتى على آخره ، ثم قال لخازن الكتب : هذا كتاب لا تستغني خزانتنا عنه ، فانظر في نسْخه لنا ، ثم قال لبقيٍّ : انشرْ علْمَك ، واروِ ما عندك ، ونهاهم أن يتعرَّضوا له »[2] .

قال ابن حزم: «و «مسند» بقيّ روى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيِّفٍ ورتَّب حديث كل صاحب على أبواب الفقه ، فهو مُسنَدٌ ومُصنَّفٌ ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه ، وإتقانه واحتفاله في الحديث . وله مُصنَّفٌ في فتاوى الصحابة والتابعين فمَنْ دونهم ، الذي قد

(١) معجم الأدباء ٧/٧٧-٧٨ ، وسير أعلام النبلاء ١٣/٢٨٨ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٨٨ .

أربى فيه على «مُصنَّف» ابن أبي شيبة، وعلى «مُصنَّف» عبد الرزاق، وعلى «مُصنَّف» سعيد بن منصور، وقال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام ، لا نظير لها ، وكان مُتخيِّرًا لا يُقلِّدُ أحدًا ، وكان ذا خاصَّة من أحمد بن حنبل ، وجاريًا في مضمار البخاري ومسلم والنسائي »[١] .

قال الدكتور أكرم ضياء العمري : « جملة أحاديث مسند بقي بن مخلد (٣٠٩٦٩) ، وجملة أحاديث مسند أحمد بن حنبل – سوى زيادات عبد الله وغيره – ثلاثون ألف حديث »[٢] .

قال بقيُّ بن مخلد عن نشْره للسنة بالأندلس : « لقد غرستُ لهم بالأندلس غرسًا لا يُقلَع إلا بخروج الدجَّال »[٣] .

قال حفيده عبد الرحمن بن أحمد : « سمعتُ أبي يقول : رحل أبي من مكة إلى بغداد ، وكان رجلًا ، بُغيتُه ملاقاةُ أحمد بن حنبل . قال : فلما قَرُبْتُ بلغتني المحنة ، وأنه ممنوع ، فاغتممتُ غمًّا شديدًا ، فاحتللتُ بغداد ، واكتريتُ بيتًا في فندق ، ثم أتيتُ الجامع وأنا أُريد أن أجلس إلى الناس ، فدُفعت إلى حلقة نبيلة ، فإذا برجل يتكلَّم في الرجال ، فقيل لي : هذا يحيى ابن معين ، ففُرِجت لي فرجة ، فقمتُ إليه ، فقلتُ : ياأبا زكريا ، رحمك الله ، رجل غريب ناءٍ عن وطنه ، يُحِبُّ السؤال ، فلا تستجْفني ، فقال : قلْ ، فسألتُ عن بعض مَنْ لقيتُه ، فبعضًا زكَّى ، وبعضًا جَرَح ، فسألتُه عن هشام بن عمَّار ، فقال لي : أبو الوليد صاحب صلاة دمشق ، ثقة ، وفوق الثقة ، لو كان تحت ردائه كِبْرٌ ، أوْ مُتقلِّدًا كِبْرًا ؛ ما ضرَّه شيئًا ، لخيره وفضله ، فصاح أصحاب الحلقة : يكفيك – رحمك الله – غيرُك له

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٩١ .
(٢) بقي بن مخلد القرطبي ومُقدِّمة مسنده للدكتور أكرم ضياء العمري صـ ٢٠ .
(٣) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٣٠ .

سؤال ، فقلتُ – وأنا واقف على قدم –: اكشفْ عن رجل واحد ؛ أحمد ابن حنبل ، فنظر إليَّ كالمُتعجِّبْ ، فقال لي : ومثلنا نحن نكشف عن أحمد ؟! ذاك إمام المسلمين ، وخيرُهم وفاضلُهم ، فخرجتُ أستدلُّ على منزل أحمد بن حنبل ، فدُللتُ عليه ، فقرعتُ بابه ، فخرج إليَّ ، فقلتُ : ياأبا عبد الله ، رجل غريب ، نائي الدار ، هذا أوّلُ دخولي هذا البلد ، وأنا طالب حديث ومقيّد سُنَّة، ولم تكن رحلتي إلا إليك، فقال: ادخل الأصطوان، ولا يقع عليك عينٌ ، فدخلتُ ، فقال لي : وأين موضعُك ؟ قلتُ : المغرب الأقصى ، فقال : إفريقية ؟ قلتُ : أبعد من إفريقية ، أجوز من بلدي البحر إلى إفريقية ، بلدي الأندلس ، قال : إن موضعك لبعيدٌ ، وما كان شيء أحبّ إليَّ مَنْ أنْ أُحسِنَ عون مثلك ، غير أني مُمتحَنٌ بما لعلَّه قد بلغك ، فقلتُ : بلى ، قدْ بلغني ، وهذا أوّلُ دخولي ، وأنا مجهول العين عندكم ، فإنْ أَذِنْتَ لي أن آتي كل يوم في زِيِّ السُّؤَّال ، فأقول عند الباب ما يقول السُّؤَّال ، فتخرج إلى هذا الموضع ، فلوْ لمْ تُحدِّثْني كل يوم إلا بحديث واحد ؛ لكان لي فيه كفاية ، فقال لي : نعمْ ، على شرط أن لا تَظْهر في الخلق ، ولا عند المُحدِّثين ، فقلتُ : لك شرطُك ؛ فكنتُ آخذ عصا بيدي ، وأُلُفُّ رأسي بخرقة مُدنَّسةٍ ، وأجعل كاغدي وأوراقي في كُمِّي ، وآتي بابَهُ، فأصيح : الأجر – رحمك الله – والسُّؤَّال هناك كذلك ، فيخرج إليَّ ، ويُغلق ، ويُحدِّثني بالحديثين والثلاثة والأكثر ، فالتزمتُ ذلك حتى مات المُمتحِنُ له ، وولي بعده مَنْ كان على مذهب السُّنة ، فظهر أحمد ، وعلتْ إمامته ، وكانت تُضرَب إليه آباط الإبل ، فكان يعرف لي حقَّ صبري ، فكنتُ إذا أتيتُ حلقته ؛ فسحَ لي ، ويقصُّ على أصحاب الحديث قِصَّتي معه ، فكان يُناولني الحديث مناولةً ، ويقرؤه عليَّ وأقرؤه عليه ، فاعتللتُ علَّةً أشفيتُ منها ، ففقدني من مجلسي ، فسأل عني ، فأُعلمَ بعِلَّتي ، فقام من فوره مُقبلًا إليَّ عائدًا لي بمن معه ، وأنا مُضطجِعٌ

في البيت الذي كنتُ اكتريتُ ، ولَبَدي تحتي ، وكسائي عليَّ ، وكُتُبي عند رأسي ، فسمعتُ الفندق قد ارتجّ بأهله ، وأنا أسمعهم : هو ذاك ، أبصروه ، هذا إمام المسلمين مُقبلًا ، فبدر إليَّ صاحب الفندق مُسرعًا ، فقال لي : ياأبا عبد الرحمن ، هذا أبو عبد الله أحمد بن حنبل إمام المسلمين مُقبلًا إليك ، عائدًا لك ، فدخل فجلس عند رأسي ، وقد احتشى البيت من أصحابه فلم يسعهم ، حتى صارت فرقةٌ منهم في الدار وقوفًا ، وأقلامهم بأيديهم ، فما زادني على هذه الكلمات ، فقال لي : ياأبا عبد الرحمن ، أبشرْ بثواب الله ، أيام الصحة لا سقم فيها ، وأيام السقم لا صحة فيها ، أعلاك الله إلى العافية ، ومسح عنك بيمينه الشافية ، فرأيت الأقلام تكتب لفظه ، ثم خرج عني ، فأتاني أهل الفندق يلطفون بي ، ويخدمونني ديانةً وحسبَةً ، فواحد يأتي بفراش ، وآخر بلحاف ، وبأطايب الأغذية ، وكانوا في تمريضي أكثر من تمريض أهلي لو كنت بين أظهرهم؛لعيادة الرجل الصالح »[1] .

« قام بقي بن مخلد القرطبي برحلتين ؛ إلى مصر والشام والحجاز وبغداد ، طلبًا للعلم ، امتدت الرحلة الأولى أربعة عشر عامًا ، والثانية عشرين عامًا »[2] .

ولقد كان ارتحاله كله من الأندلس ، وعلى قدميه !! نعم ، والله على قدميه !!

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٩٢- ٢٩٤، والمنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد للعليمي (٢٥٩- ٢٦١) . وقد وصف الذهبي هذه الرواية بأنها رواية مُنكَرة ، وقد حقَّق الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه « بقي بن مخلد ومقدمة مسنده » (صـ ٣٩- ٤١) بأن سند الرواية صحيح ، والمتن لا غبار عليه ، ولا مانع من اللقيا بين الإمام أحمد وبقي بن مخلد قبل وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ هـ .

(٢) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ١ / ٢٣٨ .

قال رحمه الله : « كلُّ مَنْ رحلتُ إليه فماشيًا على قدميَّ ، وكلّ مَنْ سمعتُ منه في البلدان ماشيًا على قدميَّ .

قال تلميذه أبو عبد الملك أحمد بن محمد القرطبي : كان بقيٌّ طُوَالًا ، قويًّا جَلْدًا على المشي ، لم يُرَ راكبًا دابةً قطُّ ، متواضعًا ، مُلازمًا لحضور الجنائز »[(١)] .

فلله دَرّه ، وصبرُه ، وشوقُه وعشقُه للعلم ، ولله وَقْفُ أنفاسه وحياته في تحصيله وجمعه !!

لولا عجائبُ صُنعِ الله ما نبتتْ تلك الفضائلُ في لحمٍ ولا عَصَبِ

طوَّف بقي الشرق والغرب على قدميه !!

«قال أبْو الوليد الفَرضي: كان بقيٌّ يقول: إني لأعرف رجلًا كانت تمضي عليه الأيام في وقت طلبه للعلم، ليس له عيشٌ إلا ورق الكرنب الذي يُرمى»[(٢)] .

« قال بقيٌّ يومًا لطلبته : أنتم تطلبون العلم ؟! وهكذا يُطلبُ العلم ؟! إنما أحدكم إذا لم يكن عليه شُغُلٌ يقول : أمضي أسمع العلم ! إني لأعرف رجلًا - يعني نفسه - تمضي عليه الأيام في وقت طلبه للعلم ، لا يكون له عيشٌ إلا من ورق الكرنب الذي يُلقيه الناس ! وإني لأعرفُ رجلًا باع سراويله غير مرة في شراء كاغد، حتى يسوق الله إليه مِنْ حيث يُخْلِفُها»[(٣)] .

١٠٤ - داود الظاهري وأبو يعقوب الشُريطي :

أما داود بن علي فهو رئيس أهل الظاهر ، الحافظ داود بن علي أبو

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢/٦٣٠ ، والسير ١٣/٢٩١ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٣٠ ، سير أعلام النبلاء ١٣ / ٢٩٢ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت الحموي ٨٣/٧ ، باع سراويله أي ويبقى عليه سروال هو لابسُهُ ، لا أنه بقي مكشوف العورة .

سليمان[١] ، ويُسمَّى بالأصبهاني .

« قال قاسم بن أصبغ الحافظ : ذاكرتُ ابن جرير الطبري ، وابن سريج في كتاب ابن قتيبة في الفقه ، فقالا : ليس بشيء ، فإذا أردت الفقه ، فكتبُ أصحاب الفقه كالشافعي وداود ، ونظرائهما »[٢] .

قال الذهبي في السير (١٠٧/١٣) : « داود بن علي بصيرٌ بالفقه ، عالمٌ بالقرآن ، حافظٌ للأثر ، رأسٌ في معرفة الخلاف ، من أوعية العلم » .

كان في مجلسه أربعمائة صاحب طيلسان أخضر ، وقد كان الطيلسان من شارات الفقهاء الكبار ، وكان السلطان إذا أراد تعظيم فقيه وتكريمه طيلسه .

قال ابن حزم عن داود الظاهري : كان عراقيًّا ، كتب ثمانية عشر ألف ورقة .

« قال القاضي الحافظ أبو عبد الله المحاملي : صلَّيتُ صلاة الفطر في جامع المدينة ، وقلتُ : أدخل على دواد بن عليٍّ فأهنِّيه ، فجئتُه ، وإذا بين يديه طبقٌ فيه أوراق هِندباء[٣] ، وعصارة فيها نخالة ، وهو يأكل ، فهنَّأتُه ، وعجبتُ من حاله ! ورأيتُ أن جميع ما في الدنيا ليس بشيء ، فخرجتُ من عنده ، ودخلتُ على رجل من مُحِبِّي الصنيعة[٤] ، يُقال له : الجرجاني ، فخرج إليَّ حاسرَ الرأس، حافي القدمين، وقال لي: ما عنَّى القاضي ؟! قلتُ: مهم! قال: ما هو ؟ قلتُ: في جوارك داود بن علي، ومكانُه من العلم ما تعلمُه، وأنت كثير الصلة والرغبة في الخير، تغفل عنه ؟! وحدَّثته بما رأيت.

(١) عفا الله عنه ، كان ممن يقول بأن القرآن مُحدث .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠٢/١٣ .

(٣) نوع من البقول رخيص مبذول .

(٤) أي فعل الخير .

قال الجرجاني: داود شرسُ الخلق ! وجَّهتُ إليه البارحة بألف درهم ليستعين بها فردَّها عليَّ ، وقال للغلام : قل له : بأي عينٍ رأيتني ؟ وما الذي بلغك من حاجتي وخَلَّتي حتى بعثتَ لي بهذا ؟!

قال المحاملي : فعجبتُ ، وقلتُ للجرجاني : هاتِ الدراهم ، فإني أحملُها إليه ، فدفعها إليَّ ، وقال للغلام : ائتني بكيس آخر ، فوزن ألفًا أخرى ، وقال : تلك لنا ، وهذه لعناية القاضي ، فأخذتُ له الألفيْن ، وجئتُ إليه، فقرعتُ البابَ، ودخلتُ، وجلستُ ساعةً، ثم أخرجتُ الدراهمَ وجعلتُها بين يديه ، فقال : هذا جزاء مَنِ ائتمنك على سرِّه ؟ أنا بأمانة العلم أدخلتُك إليَّ ، ارجع فلا حاجة لي فيما معك .

قال المحاملي : فرجعتُ وقد صغُرت الدنيا في عيني ، وأخبرتُ الجرجاني، فقال : إني أخرجتُ هذه الدراهم لله تعالى فلا ترجعُ في مالي ، فليتولَّ القاضي إخراجها في أهلِ البرّ والعفاف » .

إذا سمتْ عينُ مَنْ تهواه عن ذهبٍ فالتِّبْرُ والتُّرْبُ في الدنيا لديك سَوَا

« قال داود : حضَر مجلسي يومًا أبو يعقوب الشريطي ، وكان من أهل البصرة ، وعليه خِرْقتان ! فتصدَّر لنفسه من غير أن يرفعه أحد ، وجلس إلى جانبي ، وقال لي : سلْ يافتى عمّا بدا لك ، فكأني غضبتُ منه ! فقلتُ له مُستهزئًا : أسألك عن الحجامة ، فبرك أبو يعقوب ، ثم روى طريق حديث « أفطر الحاجم والمحجوم » ومَنْ أرسله ، ومَنْ أسنده ، ومَنْ وقفه ، ومَنْ ذهب إليه من الفقهاء ، وروى اختلاف طريق حديث احتجام النبي ﷺ ، وإعطاء الحجَّام أجْرَهُ ، ولو كان حرامًا لم يُعطه ، ثم روى طرق حديث أنَّ النبي ﷺ احتجم بقرْن ، وذكر أحاديث صحيحة في الحجامة، ثم ذكر الأحاديث المتوسطة مثل «ما مررت بملأ من الملائكة...»، ومثل « شفاء أُمَّتي في ثلاث ... » ، وما أشبه ذلك ، وذكر الأحاديث الضعيفة– أي الموضوعة– مثل قوله ﷺ: «لا تحتجموا يوم كذا ولا ساعة

كذا » ، ثم ذكر ما ذهب إليه أهل الطب من الحجامة في كل زمان ، وما ذكروه فيها ، ثم ختم كلامه بأن قال : وأول ما خرجت الحجامة من أصبهان ! (بلد داود بن علي الظاهري) ، فقلتُ له : والله لاحَقَرتُ بعدك أحدًا أبدًا »[١] .

١٠٥ - موسى بن إسحاق الإمام المقرئ القاضي :

« وصَّى المعتضد وزيره بإسماعيل القاضي ، وبموسى بن إسحاق ، وقال : بهما يُدفع عن أهل الأرض »[٢] .

قال ولده أحمد: قال أبي: سمعتُ من أبي كريب ثلاثمائة ألف حديث.

وقال ابن المنادي : بلغني أنه أقرأ الناسَ القرآن وله ثماني عشرة سنة .

١٠٦ - ثعلب إمام النحو المُحدِّث الحافظ أبو العباس :

قال : ابتدأتُ بالنظر وأنا ابن ثماني عشرة سنة - أي النظر في العربية والشعر واللغة - ولمّا بلغتُ خمسًا وعشرين سنة ، ما بقي عليَّ مسألة للفرّاء ، وسمعتُ من القواريري مائة ألف حديث .

قال الخطيب : ثقة حُجَّة ، دَيِّنٌ صالح ، مشهور بالحفظ .

قال المبرد: أعلمُ الكوفيين ثعلب، فذكر له الفرَّاء، فقال: لا تَعْشُرُه.

قال ابن مجاهد شيخ القرَّاء : رأيت النبي ﷺ في المنام ، فقال لي : أَقْرِئْ أبا العباس السلام ، وقل له : إنك صاحبُ العلم المستطيل[٣] .

وكان يُزري على نفسه ولا يعدُّ نفسه .

---

(١) وفيات الأعيان ١/١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٦٩ .

(٣) إنباه الرواة للقفطي ١ / ١٤٣ - ١٤٤ .

قال القفطي : كان مُكرِّر على كُتُبِ الكسائي والفرَّاء[١] .

١٠٧ - الفريابي الحافظ الثبت القاضي شيخ الوقت أبو بكر : جعفر بن محمد بن المستفاض :

« قال الخطيب : الفريابي قاضي الدِّينَور ، من أوعية العلم ، ثقة حُجَّة ، ومن أهل المعرفة والفهم ، طوَّف شرقًا وغربًا ، ولقي الأعلام .

عن أبي حفص الزَّيات قال : لما ورد الفريابي إلى بغداد استُقبل بالطيارات والزَّبازب[٢] ، ووعد له الناس إلى شارع المنار ليسمعوا منه . قال : فحضر مَنْ حُزروا ، فقيل : كانوا نحو ثلاثين ألفًا ، وكان المُسْتَملون ثلاثمائة وست عشرة نفسًا .

وقال أبو الفضل الزهري : لما سمعتُ من الفريابي كان في مجلسه من أصحاب المحابر مَنْ يكتب حدود عشرة آلاف إنسان ، ما بقي منهم غيري ، هذا سوى من لا يكتب ، ثم جعل يبكي .

وقال أبو أحمد بن عدي : كنا نشهد مجلس جعفر الفريابي ، وفيه عشرة آلاف أو أكثر .

وقال مرة أخرى : رأيتُ مجلس الفريابي يُحزر فيه خمسة عشر ألف محبرة، وكان الواحد يحتاج أن يبيت في المجلس؛ ليجد مع الغد موضعًا»[٣] .

قد كان هذا زمان العلم .. زمان أصحاب الحديث .. زمان المحابر .

إذا ما المسكُ طيَّبَ ريحَ قومٍ كفانَي ذاك رائحة المدادِ
فما شيءٌ بأحسنَ من ثيابٍ على حافاتِها حممُ السواد

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٥ - ٦ .

(٢) ضرب من السفن .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٩٨ - ١٠٠ .

١٠٨ - الإمام محمد بن أحمد بن نصر الشافعي، أبو جعفر الترمذي الزاهد:

كتب الحديث تسعًا وعشرين سنة، وتفقَّه بأصحاب الشافعي، وحدَّث عنه الرامهرمزي صاحب كتاب «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي».

« قال الدارقطني : ثقة مأمون ناسك .

وقال أحمد بن كامل: لم يكن للشافعية بالعراق أرأس منه، ولا أورع، ولا أنقل ولا أكثر تقلُّلا في المطعم ، على حال عظيمة من الفقر والصبر على الفقر .

قال إبراهيم بن السري الزجَّاج : إنه كان يُجرى على أبي جعفر في الشهر أربعة دراهم يتقوَّت بها ، وكان لا يسأل أحدًا شيئًا .

وقال محمد بن موسى بن حمّاد البربري : أخبرني أنه تقوَّت في سبعة وعشرين يومًا بخمس حبَّات ، قلتُ له : وكيف عملتَ ؟ فقال : لم يكن عندي غيرها ، فاشتريتُ بها لِفْتًا ، وكنتُ آكل كل يوم واحدة ، وتُوفِّي عن (٩٤) سنة »[١] .

١٠٩ - الإمام النسائي :

الإمام الحافظ الثبت شيخ الإسلام أحمد بن شعيب ، أبو عبد الرحمن .

قال الذهبي في السير (١٤/١٢٧) :

« كان من بحور العلم ، مع الفهم والإتقان ، والبصر ، ونقد الرجال ، وحُسْن التأليف . جال في طلب العلم في خراسان ، والحجاز ، ومصر ، والعراق ، والجزيرة ، والشام ، والثغور ، ثم استوطن مصر ، ورحل الحفاظ إليه ، ولم يبقَ له نظير في هذا الشأن » .

وقال : «ولم يكن أحد في رأس الثلاثمائة أحفظ من النسائي ، هو

---

(١) تاريخ بغداد ١/٣٦٥، سير أعلام النبلاء ١٣/٥٤٥ .

أحذق بالحديث وعلله ورجاله من مسلم، ومن أبي داود، ومن أبي عيسى، وهو جارٍ في مضمار البخاري ، وأبي زرعة » .

قال الحاكم : كلام النسائي على فقه الحديث كثير ، ومن نظر في سننه تحيَّر في حُسْن كلامه .

قال النسائي : أقمتُ عند قتيبة بن سعيد سنة وشهرين - أي لأخذ الحديث منه - .

قال مأمون المصري المُحدِّث : خرجنا إلى طرسوس مع النسائي سنة الفداء ، فاجتمع جماعة من الأئمة : عبد الله بن أحمد بن حنبل ، ومحمد ابن إبراهيم بن مربع ، وأبو الآذان ، وكيلجة ، فتشاوروا : مَنْ ينتقي لهم على الشيوخ ، فأجمعوا على أبي عبد الرحمن النسائي ، وكتبوا كلهم بانتخابه .

قال ابن الأثير في أول « جامع الأصول » : كان شافعيًّا ، له مناسك على مذهب الشافعي ، وكان وَرِعًا مُتحرِّيًا ، قيل : إنه أتى الحارث بن مسكين في زيٍّ أنكره ، عليه قلنسوة وقباءٍ ، وكان الحارث خائفًا من أمور تتعلَّق بالسلطان ، فخاف أن يكون عينًا عليه ، فمنعه ، فكان يجيء فيقعد خلف الباب ويسمع ، ولذلك ما قال : حدَّثنا الحارث ، وإنما يقول : قال الحارث بن مسكين قراءةً عليه وأنا أسمع .

وقال أبو طالب أحمد بن نصر الحافظ : مَنْ يصبر على ما يصبر عليه النسائي ؟! عنده حديث ابن لهيعة ترجمة ترجمة - يعني عن قتيبة ، عن ابن لهيعة - قال : فما حدَّث بها .

وقال الدارقطني : أبو عبد الرحمن مُقدَّم على كل من يُذكر بهذا العلم من أهل عصره .

وقال أيضًا : كان أبو بكر بن الحدّاد الشافعي كثير الحديث ، ولم يُحدِّث عن غير النسائي ، وقال : رضيت به حُجَّة بيني وبين الله تعالى .

قال الدارقطني: «خرج حاجًّا فامتحن بدمشق، وأدرك الشهادة، فقال: احملوني إلى مكة ، فحُمِل وتوفِّي بها ، وهو مدفون بين الصفا والمروة، وكان أفقه مشايخ مصر في عصره، وأعلمهم بالحديث والرجال»(١).

١١٠ - الإمام مسلم بن الحجَّاج بن ورد القُشيري صاحب الصحيح :

قال أحمد بن سلمة : رأيتُ أبا زرعة وأبا حاتم يُقدِّمان مُسلمًا في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما .

ذكر إسحاق بن راهويه مسلمًا ، فقال بالفارسية كلامًا معناه : أيُّ رجل يكون هذا ؟! .

وقال محمد بن بشار يقول : حفَّاظ الدنيا أربعة : أبو زرعة بالريِّ ، ومسلم بنيسابور، وعبد الله الدارمي بسمرقند، ومحمد بن إسماعيل ببخارى.

وقال محمد الماسَرْجِسِي : سمعتُ مُسلمًا يقول : صنَّفتُ هذا « المسند الصحيح » من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة .

وقال أحمد بن سلمة : كنتُ مع مسلم في تأليف « صحيحه » خمس عشرة سنة(٢) . قال : وهو اثنا عشر ألف حديث .

قال مسلم: لو أن أهل الحديث يكتبون الحديث مائتي سنة؛ فمدارهم على هذا المسند(٣) .

قال الذهبي: «هو كتاب نفيس كامل، فلما رآه الحفاظ أُعجبوا به».

قال الحافظ أبو عمرو بن الصلاح عن الإمام مسلم : « وكان لموته سببٌ غريب ، نشأ من غمرة فكرية علمية ، فقرأت بنيسابور - حرسها الله وسائر ديار الإسلام وأهله- فيما انتخبته من «تاريخها» للحاكم النيسابوري

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/١٢٥- ١٣٧ .
(٢) في « مقدمة صحيح مسلم » : ست عشرة سنة .
(٣) مقدمة صحيح مسلم بشرح النووي صـ ١٥ .

على الشيخ الزكي أبي الفتح منصور بن عبد المنعم ...

قال أحمد بن سلمة – رفيق مسلم في الرحلة –: عُقد لأبي الحسين مسلم بن الحجاج مجلسٌ للمذاكرة ، فذكر له حديث لم يعرفه ، فانصرف إلى منزله ، وأوقد السراج ، وقال لمن في الدار : لا يدخلَنَّ أحدٌ منكم هذا البيت ، فقيل له : أُهديتْ لنا سلَّةٌ فيها تمرٌ ، فقال : قدِّموها إليَّ ، فقدَّموها إليه ، فكان يطلب الحديث ، ويأخذ تمرةً تمرةً يمضغها ، فأصبح وقد فني التَّمر ! ووجد الحديث .

قال الحاكم : زادني الثقة من أصحابنا أنه منها مرض ومات »[1] .

١١١ – الطحاوي الإمام الحافظ الكبير مُحدِّث الديار المصرية وفقيهها أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي :

قال الذهبي في السير (١٥/٣٠) : « مَنْ نظر في تواليف هذا الإمام علم محلَّه من العلم وسعة معارفة . برز في علم الحديث والفقه وجمع وصنَّف » .

قال مسلم بن القاسم في «الصلة» فيما نقله عنه ابن حجر في «اللسان» (١/٢٧٦) : « جليل القدر ، فقيه البدن ، عالمًا باختلاف العلماء ، بصيرًا بالتصنيف » .

وقال ابن عبد البر : « كان من أعلم الناس بسِيَرِ الكوفيين وأخبارهم وفقههم ، مع مشاركة في جميع مذاهب الفقهاء » .

وقال ابن كثير في البداية (١١/١٨٦): «الفقيه الحنفي صاحب التصانيف المفيدة ، والفوائد الغزيرة ، وهو أحد الثقات الأثبات ، والحفَّاظ الجهابذة » .

وقال البدر العيني في «نخب الأفكار»: «أمّا الطحاوي، فإنه مُجمَعٌ عليه

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٥٦٤ ، و « صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمايته من الإسقاط والسقط » صـ ٦٤ .

في ثقته وديانته وأمانته وفضيلته التامة، ويده الطولى في الحديث وعلله وناسخه ومنسوخه، ولم يَخْلُفْه في ذلك أحدٌ، وقد أثنى عليه السلف والخلف».

نشأ الطحاوي في بيت علم وفضل ، وأُمُّه معدودة في أصحاب الشافعي الذين كانوا يحضرون مجلسه ، وخاله هو الإمام المزني صاحبُ الشافعي وناشرُ علمه .

حفظ القرآن على شيخه ابن عمروس ، وتفقَّه على خاله المزني ، وسمع منه مختصره ، ولقد عاصر الذهبي الأئمة الحفاظ أصحاب الكتاب الستة .

ولما بلغ سِنَّ العشرين ترك المذهب الشافعي ، وتحوَّل إلى المذهب الحنفي .

لما بنى أحمد بن طولون والي مصر البيمارستان ، وأراد أن يقف عليه ، وعلى المسجد العتيق – مسجد عمرو بن العاص – أحباسًا ، وأراد أن يكتب وثائق أحباسه ، فتولّى كتابة ذلك أبو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز قاضي دمشق ، فلما جاءت الوثائق ؛ أحضر علماء الشروط لينظروا هل فيها شيء يُفْسِدها ، فنظروا ، فقالوا : ليس فيها شيء ، فنظر فيها أبو جعفر الطحاوي وهو يومئذ شابٌّ ، فقال : فيها غلطٌ ، فطلبوا منه بيانه ، فأبى ، فأحضره أحمد بن طولون ، فقال له : إنْ كنت لم تذكر الغلط لرسلي فاذكره لي ، فقال : ما أفعل . قال : ولِمَ ؟ قال : لأن أبا خازم رجل عالم ، وعسى أن يكون الصواب معه ، وقد خفي عليّ ، فأعجب ذلك ابن طولون ، وأجازه ، وقال له:تخرج إلى أبي خازم ، وتُوافقه على ما ينبغي . فخرج إليه ، فاعترف أبو خازم بالغلط ، فلما رجع الطحاوي إلى مصر ، وحضر مجلس ابن طولون ؛ سأله ، فقال : كان الصواب مع أبي خازم، ورجعتُ إلى قوله، وستر ما كان بينهما، فزاد في نفس ابن طولون، فقرَّبه وشرَّفه .

وقد انتهز الطحاوي فرصة وجوده في الشام ، فتنقل خلالها بين غزة وعسقلان وطبرية وبيت المقدس ودمشق ، فروى عن شيوخها وأفاد منهم ، وتفقَّه على القاضي أبي خازم ، وتفقَّه الطحاوي وتخرج على الإمام شيخ الحنفية ابن أبي عمران البغدادي الحافظ الفقيه ، ولازمه مدة عشرين سنة ، مكَّنته من الإحاطة بمذهب الحنفية ، ومعرفة دقائقه ، واختلاف رواياته ، وكان ابن أبي عمران من بحور العلم .

وأخذ الطحاوي أيضًا العلم عن بكَّار بن قتيبة وسمع منه ، وتأثَّر بمنهجه ، وأكثر الرواية عنه ، وبه انتفع وتخرّج ، إلا أن انتفاعه به كان في الحديث أكثر منه في الفقه ، فإنه لم يكن يتخلَّف عن مجلسه في إملاء الحديث .

وأخذ أيضًا من القاضي أبي عبيد البغدادي ، وحدَّث عنه الطحاوي في « المُشكَل » ، وكان يُجالسه ويذاكره ، وأخذ عن النسائي وأكثر من الرواية عنه ، وأخذ عن يونس بن عبد الأعلى وكثير غيرهم .

والإمام الطحاوي إمام مجتهد كبير ، عارف بأحكام القرآن ومعانيه ، وبما أُثر عن الصحابة والتابعين ، من تفسير آيه ، وأسباب نزوله ، وله ثقافة ممتازة بعلم القراءات ، حافظ للحديث ، واسع المعرفة بطُرُقه ومتونه وعلله وأحوال رجاله ، ذو حظٍّ كبير من العلم بلسان العرب ومواقع كلامها وسعة لغتها ، واسع الاطلاع على مذاهب الصحابة والتابعين ، والأئمة الأربعة المتبوعين، وغيرهم من الأئمة المجتهدين، بارع في علم الشروط والوثائق.

صنّف التصانيف المتنوعة الفريدة في بابها ، المُقدَّمة في موضوعها ، المشحونة بالفوائد أكثر من غيرها .

« قال الطحاوي : كان لمحمد بن عبدة القاضي مجلسٌ للفقه عشيَّة الخميس، ويحضره الفقهاء وأصحاب الحديث، فإذا فرغ وصلَّى المغرب، انصرف الناس ولم يبق أحد إلا من تكون له حاجة فيجلس ، فلما كان

ليلة رأينا إلى جنب القاضي شيخًا عليه عمامةٌ طويلةٌ ، وله لحيةٌ حسنةٌ ، لا نعرفه ، فلما فرغ المجلس ، وصلَّى القاضي ؛ التفت ، فقال : يتأخَّر أبو سعيد - يعني الفريابي - وأبو جعفر ، وانصرف الناس ، ثم قام يركع ، فلما فرغ ؛ استند ، ونُصبت بين يديه الشموع ، ثم قال : خذوا في شيء ، فقال ذلك الشيخ : أيش روى أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود ، عن أُمِّه ، عن أبيه ؟ فلم يقل أبو سعيد الفريابي شيئًا ، فقلتُ أنا : حدَّثنا بكَّار بن قتيبة ، حدَّثنا أبو أحمد ، حدَّثنا سفيان ، عن عبد الأعلى الثعلبي ، عن أبي عبيدة بن عبد الله ، عن أُمِّه ، عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الله ليغارُ للمؤمن فَليَغَرْ » . قال : فقال لي ذلك الشيخ : أتدري ما تتكلم به ؟ فقلتُ : أيش الخبر ؟ فقال : رأيتُك العشيَّة مع الفقهاء في ميدانهم ، ورأيتُك الساعة في أصحاب الحديث في ميدانهم ، وقلَّ مَنْ يجمع بين البابَين . فقلتُ : هذا من فضل الله وإنعامه . فأُعجب القاضي في وصفه لي ، ثم أخذنا في المذاكرة »[(١)] .

قال « اللكنوي » في « الفوائد البهية » صـ ٣١ : « إنّ الطحاوي له درجة عالية ، ورتبة شامخة ، قد خالف بها صاحب المذهب في كثير من الأصول والفروع . وَمَنْ طالع « شرح معاني الآثار » وغيره من مصنَّفاته ، يجده يختار خلاف ما اختاره صاحب المذهب كثيرًا ، إذا كان ما يدلُّ عليه قويًّا . فالحق أنه من المجتهدين المنتسبين الذين ينتسبون إلى إمام معين من المجتهدين ، لكن لا يُقلِّدونه لا في الفروع ولا في الأصول ؛ لكونهم مُتصفين بالاجتهاد ، وإنما انتسبوا إليه ؛ لسلوكهم طريقه في الاجتهاد ، إن انحطَّ عن ذلك فهو من المجتهدين في المذهب ، القادرين على استخراج الأحكام من

(١) تذكرة الحفاظ ٣ / ٨٠٩ - ٨١٠ ، ولسان الميزان ١ / ٢٧٨ ، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٠ .

القواعد التي قَرَّرها الإمام ، ولا تنحطُّ مرتبته عن هذه المرتبة أبدًا على رغم أنف مَنْ جعله مُنحطا » .

ولقد أحصى المؤرخون من تصانيفه ما يزيد على ثلاثين كتابًا ؛ منها :

١ - **العقيدة الطحاوية** : وقد حظيت هذه الرسالة بشهرة واسعة ، ونالت قبول أهل السنة وإعجابهم على اختلاف مذاهبهم ، فتناولوها بالشرح والبيان ، ومن أجود تلك الشروح شرح القاضي ابن أبي العز الدمشقي .

قال التاج السبكي في « مُعيد النِّعَم ومُبيد النِّقَم » (٢٢- ٢٣) : « وهذه المذاهب الأربعة - ولله الحمد - في العقائد واحدة ، إلا مَنْ لحق منها بأهل الاعتزال أو التجسيم ، وإلا فجمهورها على الحق يُقرُّون عقيدة أبي جعفر الطحاوي التي تلقَّاها العلماء سلفًا وخلفًا بالقبول » .

٢ - **شرح معاني الآثار** : تناوله العلماء بالشرح ، وهو كتاب فريد في بابه ، يُدرِّب طالبَ العلم على التفقُّه ، ويُطلعُه على وجوه الخلاف ، ويُربِّي فيه ملكة الاستنباط ، وقد شرحه العلّامة العيني في « نُخَبِ الأفكار في شرح معاني الآثار » ، وهو في ثمانية مُجلَّدات بخطِّه .

٣ - **اختلاف الفقهاء** : في نحو مائة وثلاثين جزءًا حديثيًّا .

٤ - **مختصر الطحاوي** : في الفقه الحنفي على شاكلة مختصر المزني في مذهب الشافعي .

قال أبو الوفا الأفغاني عنه : « أول المختصرات في مذهبنا ، وأبدعُها ، وأحسنُها تهذيبًا ، وأصحُّها روايةً عن أصحابنا ، وأقواها درايةً ، وأرجحها فتوى ، ترى فيه المسائل على وجهها معزوةً إلى مَنْ رواها عن الأئمة - أئمة المذهب - كأبي يوسف ، ومحمد ، وزفر ، والحسن بن زياد ، فإنْ كان في المسألة أقوال ؛ تراه يُرجِّح بعضها على بعض ، ويختاره » .

ولهذا المختصر عدة شروح؛ أقدمُها وأهمُّها: شرح الجصَّاص صاحب « أحكام القرآن » . قال صاحب « الحاوي » : غاية في الإتقان روايةً ودرايةً .

٥ - **أحكام القرآن** : في نحو عشرين جزءًا . يقول القاضي عياض في الإكمال : « إنّ للطحاوي ألفَ ورقة في تفسير القرآن » . وكان له قصبُ السَّبق على غيره في تأليف «أحكام القرآن» بصورة فريدة، تفرَّد فيها بمنهج غير مألوف لدى مُفسِّري أحكام القرآن الكريم ؛ حيث تميَّز من حيث الترتيب والتبويب بجمع الآيات المتصلة بالموضوع ، ثم رتَّبها جميعًا ترتيبًا موضوعيًّا .

٦ - **شرح مُشكل الآثار** : « وهو من أعظم ما كتب الطحاوي ، ولو لم يكن له سواه لكفاه أن يضعه في عداد الأئمة الجهابذة ، وهو مما يضطر العلماء على اختلاف مشاربهم إليه ، والناس كلهم في هذا الباب من العلم عيالٌ عليه .

١١٢ - الحافظ الكبير ابن عدي صاحب كتاب « الكامل » في الضعفاء ، أبو أحمد الجرجاني عبد الله بن محمد بن عدي :

الإمام الحافظ الناقد الجوَّال ، « أحد الجهابذة الذين طافوا البلاد ، وهجروا الوساد، وواصلوا السُّهاد، وقطعوا المُعتاد، طالبين للعلم، لا يعتري هِمَّتَهم قصورٌ ، ولا يُثني عزمَهم عوارضُ الأمور ، ولا يدع سيرَهم في ليالي الرحلة مُدْلهمُّ الديجور . وكتابُه « الكامل » طابقَ اسمُهُ معناه ، ووافقَ لفظهُ فحواه ، من عينه انتجع المُنتجعون ، وبشهادته حكم المُحكَّمون ، وإلى ما يقول رجع المُتقدِّمون والمتأخِّرون »[(١)] .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣ / ٣١٥ - ٣١٦ .

« قال حمزة بن يوسف السهمي : سألتُ الدارقطني أن يُصنِّف كتابًا في الضعفاء ، فقال : أليس عندك كتاب ابن عدي ؟ قلتُ: بلى . قال : فيه كفاية ، لا يُزاد عليه .

قال الخليلي : وسمعتُ أحمد بن أبي مسلم الحافظ يقول : لم أرَ أحدًا مثل أبي أحمد بن عديّ ، فكيف فوقه في الحفظ ؟! وكان أحمد هذا لقي الطبراني وأبا أحمد الحاكم ، وقال لي : كان حفظُ هؤلاء تكلّفًا ، وحفظ ابن عديٍّ طبعًا،زاد معجمه على ألف شيخ » .

قال الذهبي : « كان لا يعرف العربية مع عُجمة فيه ، وأما في العِلَلِ والرجال فحافظٌ لا يُجارى . جرَّح وعدَّل ، وصحَّح وعلَّل »[1] .

١١٣ - الإمام أبو بكر بن الأنباري محمد بن القاسم بن محمد النحوي ، المُفسِّر،الأديب ، الحفّاظ ، بحر الحفظ ، البغدادي :

لم يكن له نسْلٌ ولا ذُريَّة من بعده سوى أكثر من ثلاثين مؤلفًا ، تزيد أوراقها على أكثر من خمسين ألف ورقة ! فلله دَرُّهُ ، ما أغلى العلم على قلبه ! فلقد امتنع هذا الإمام طول حياته من تناول الطيبات من الأطعمة ، وقد قُدِّمت إليه على موائد الملوك إبقاءً على حفْظه ، وزهد في اقتراب النساء تفرُّغًا لعلْمِهِ .

« صنَّف كُتبًا كثيرة في علوم القرآن ، وغريب الحديث والمشكل والوقف والابتداء . وكان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت من الشِّعْر شاهدة في القرآن ، وكان يُملي من حفْظه لا من كتاب .

ومرض مرّة ، فدخل عليه أصحابه يعودونه ، فرأوا من انزعاج أبيه وقلقه عليه أمرًا عظيمًا ، فطيَّبوا نفْسَهُ ، ورجَوْا له عافية أبي بكر ، فقال لهم : كيف لا أقلق وأنزعج من عِلَّة مَنْ يحفظ جميع ما ترون ، وأشار لهم

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/١٥٤- ١٥٦، وتذكرة الحفَّاظ ٣ / ١٤٣ .

إلى حِيْرِيٍّ[1] مملوءٍ كتبًا .

حدَّث أنه يحفظ عشرين ومائة تفسير من تفاسير القرآن بأسانيدها .

وقال تلميذه أبو العباس بن يونس : كان أبو بكر الأنباري آيةً من آيات الله في الحفظ .

وقال تلميذه أبو علي القالي الإمام الأديب المشهور : كان أبو بكر الأنباري يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهدة في القرآن .

سألتهُ جارية عن شيء من تفسير الرؤيا ، فقال لها : أنا حاقن[2] ، ثم مضى ، فلما كان الغد عاد وقد صار مُعَبِّرًا للرؤيا ، وذاك أنه مضى من يومه ، فدرس كتاب الكرماني - في تعبير الرؤيا - وجاء .

وكان رحمه الله لا يشرب الماء المُزمَّل بالثلج ، فقيل له : ياأبا بكر ، لِمَ تفعل هذا بنفسك ؟ قال : أبقي على حِفْظي ، قلتُ : قد أكثر الناس في حفظك ، فكم تحفظ ؟ قال : أحفظ ثلاثة عشر صندوقًا . قال محمد بن جعفر التميمي النحوي : وهذا ما لا يُحفظ لأحد قبله ولا بعده .

وكان يأخذ الرُّطَبَ يشمُّه ويقول : أما إنك لطيِّبٌ ، ولكن أطيب منك حفظ ما وهب الله لي من العلم . ولمّا وقع في عِلَّة الموت أكل كلَّ شيء يشتهيه ، وقال : هي عِلَّة الموت !

ومضى يومًا إلى النَّخَّاسين[3] ، ورأى جارية تُعَرَضُ ؛ حَسَنَةَ الصورة ، كاملةَ الوصف. قال: فوقعتْ في قلبي، ثم مضيتُ إلى دار أمير المؤمنين الراضي بالله، فقال لي: أين كنت إلى الساعة؟ فعرَّفتُه، فأمر بعضَ أسبابِه[4] ، فمضى

(١) حُبٌّ حِيري : هو الجرة الكبيرة الضخمة .

(٢) أي يحتاج لبيت الخلاء للبول .

(٣) الذين يبيعون الرقيق من العبيد والإماء .

(٤) غلمانه .

فاشتراها وحملها إلى منزلي، فجئتُ فوجدتُها، فعلمتُ الأمر كيف جرى. فقلتُ لها : كُوني فوق إلى أن أستبرئَكِ(١)، وكنتُ أطلبُ مسألةً قد اختلَّتْ عليَّ، فاشتغل قلبي عن علمي ! فقلتُ للخادم: خذْها وامضِ بها إلى النخَّاسين، فليس قدرُها أنْ تشغل قلبي عن علمي ، فأخذها الغلام . فقالت : دعني أُكلِّمْه بحرفين ، فقالت : أنت رجل لك محلٌّ وعقلٌ فإذا أخرجتني ، ولم تُبيِّنْ ذنبي ؛ لم آمن أن يظنَّ الناسُ بي ظنًّا قبيحًا ، فعرِّفنيه قبل أن تُخرجني ، فقلتُ لها : مَالكِ عندي عيبٌ ، غير أنكِ شَغَلتيني عن علمي ، فقالت : هذا أسهل عندي . قال : فبلغ الراضي بالله أمرُهُ ، فقال : لا ينبغي أن يكون العلمُ في قلب أحدٍ أحلى منه في صدر هذا الرجل ! »(٢) . رحمه الله تعالى .

١١٤ - الإمام الحافظ : الحسن بن سفيان النسوي صاحب المُسنَد :

ارتحل إلى الآفاق .

قال الحسن رحمه الله : إنما فاتني يحيى بن يحيى بالوالدة ، لم تدعني أخرج إليه ، فعوَّضني الله بأبي خالد الفرَّاء ، وكان أسند من يحيى بن يحيى .

قال الحاكم : كان الحسن بن سفيان - مُحدِّث خراسان في عصره - مُقدَّمًا في التثبُّت والكثرة والفهم والفقه والأدب .

وقال ابن حبان : كان الحسن ممن رحل وصنَّف وحدَّث على تيقُّظ ، مع صحة الديانة والصلابة في السُّنَّة .

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الرازي : ليس للحسن في الدنيا نظير .

قال الحاكم : سمعتُ محمد بن داود بن سليمان يقول : كنا عند الحسن

(١) أي أتبيَّن براءة رحمك من الحمل ، وذلك بحلول الحيض لها .
(٢) تاريخ بغداد ٣ / ١٨١ - ١٨٦ ، و « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطي ٣ / ٢٠٢ - ٢٠٧ ، و« وفيات الأعيان » لابن خَلِّكان ١ / ٥٠٣ .

ابن سفيان، فدخل ابن خزيمة، وأبو عمرو الحِيري، وأحمد بن علي الرازي، وهم متوجِّهون إلى فُرَاوة ، فقال الرازي : كتبتُ هذا الطبَق من حديثك . قال : هاتِ . فقرأ عليه ، ثم أدخل إسنادًا في إسناد ، فردَّه الحسن ، ثم بعد قليل فعل ذلك ، فردَّه الحسن ، فلما كان في الثالثة قال له الحسن : ما هذا ؟ قد احتملتُك مرتين وأنا ابن تسعين سنة ، فاتقِ الله في المشايخ ، فربما استُجيبت فيك دعوة ، فقال له ابن خزيمة : مَهْ ! لا تؤذِ الشيخ . قال : إنما أردت أن تعلم أن أبا العباس يعرف حديثه .

قال أبو الحسن الصفَّار الفقيه : « كنا عند الحسن بن سفيان ، وقد اجتمع إليه طائفة من أهل الفضل ، ارتحلوا إليه ، فخرج يومًا ، فقال : اسمعوا ما أقول لكم قبل الإملاء : قد علمنا أنكم من أبناء النِّعَم ، هجرتم الوطن ، فلا يخطرنَّ ببالكم أنكم رضيتم بهذا التجشم للعلم حقًّا ، فإني أُحدِّثكم ببعض ما تحمَّلتُه في طلب العلم :

ارتحلتُ من موطني ، فاتفق حصولي بمصر في تسعة من أصحابي طلبة العلم ، وكنا نختلف إلى شيخ أرفع أهل عصره في العلم منزلةً ، فكان يُملي علينا كلَّ يوم قليلًا ، حتى خَفَّت النفقةُ ، وبعنا أثاثنا ، فطوينا ثلاثًا ، وأصبحنا لا حراك بنا ، فأحوجت الضرورة إلى كشفِ قناع الحشمة ، وبذْل الوجه ، فلم تسمح أنفسنا ، فوقع الاختيار على قرعة ، فوقعت عليَّ ، فتحيَّرت ، وعدلتُ ، فصلَّيتُ ركعتين ، ودعوتُ ، فلم أفرغ حتى دخل المسجد شابٌّ معه خادم ، فقال : مَنْ منكم الحسن بن سفيان ؟ قلتُ : أنا ، قال : إن الأمير طولون يُقرئكم السلام ، ويعتذر من الغفلة عن تفقُّد أحوالكم ، وقد بعث بهذا،وهو زائركم غدًا . ووضع بين يدي كل واحد مائة دينار ، فتعجَّبنا وقلنا : ما القصة ؟.

قال : دخلتُ عليه بكرةً ، فقال : أُحِبُّ أن أخلو اليوم ، فانصرفنا ، فبعد ساعة طلبني ، فأتيتُ ، فإذا به يدُهُ على خاصرته لوجع مُمِضٍّ اعتراه ،

فقال لي : تعرف الحسن بن سفيان وأصحابه ؟ قلتُ : لا . قال : اقصدِ المسجد الفلانيّ ، واحمل هذه الصُّرَرَ إليهم ، فإنهم منذ ثلاثة أيام جياع ، ومهِّدْ عُذري لديهم . فسألتُه ، فقال : انفردت فنمتُ ، فرأيتُ فارسًا في الهواء ، في يده رمح ، فنزل إلى باب هذا البيت ، ووضع سافلة رُمْحِهِ على خاصرتي، وقال: قمْ فأدرك الحسنَ بنَ سفيان وأصحابه، قمْ فأدركْهم، فإنهم منذ ثلاث جياع في المسجد الفلاني . فقلتُ له : مَنْ أنت ؟ قال : أنا رضوان صاحب الجنة . فمنذ أصاب رُمحُه خَاصرتي ؛ أصابني وجعٌ شديد ، فعجِّلْ إيصال هذا المال إليهم ليزول هذا الوجعُ عني .

قال الحسن : فعجبنا وشكرنا الله ، وخرجنا تلك الليلة من مصر ؛ لئلا نشتهر ، وأصبح كل واحد منا واحدَ عصره ، وقريعَ دهره في العلم والفضل . قال : فلما أصبح الأمير طولون فأحسَّ بخروجنا ؛ أمر بابتياع تلك المحلَّة ، ووقفها على المسجد ، وعلى مَنْ ينزل من الغُرباء وأهل الفضل ، نفقةً لهم ؛ لئلا تختلَّ أمورُهم ، وذلك كلُّه من قوة الدين وصفاء العقيدة »[1] .

١١٥ - محمد بن نصر بن الحجَّاج المَروزي الإمام ، شيخ الإسلام ، أبو عبد الله الحافظ :

قال الحاكم عنه : إمام عصره بلا مُدافعة في الحديث .

وقال الذهبي : أخذ عن أبي إسماعيل المزني كُتُبَ الشافعي ضبطًا وتفقُّهًا ، وكتب الكثير ، وبرع في علوم الإسلام ، وكان إمامًا مُجتهدًا علَّامة ، من أعلم أهل زمانه باختلاف الصحابة والتابعين ، قلَّ أن ترى العيون مثله .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/١٦١- ١٦٢ .

«وقال الخطيب: كان من أعلم الناس باختلاف الصحابة ومن بعدهم في الأحكام .

قال الذهبي : قلتُ : يُقال : إنه كان أعلم الأمة باختلاف العلماء على الإطلاق »[١] .

قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : كان محمد بن نصر بمصر إمامًا . فكيف بخراسان ؟!

قال محمد بن نصر رحمه الله : « بقيتُ بمصر كذا كذا سنةً ؛ قوتي ، وثيابي ، وكاغدي ، وحبري ، وجميع ما أُنفقه على نفسي في السنة عشرون درهمًا » .

وقال رحمه الله : « خرجتُ من مصر ومعي جارية ، فركبتُ البحَر أُريدُ مكة، فغرقتُ، فذهب مني ألفا جزءٍ، وصرتُ إلى جزيرة أنا وجاريتي، فما رأينا فيها أحدًا ، وأخذني العطش ، فلم أقدر على الماء ، فوضعتُ رأسي على فخذِ جاريتي مُستسلمًا للموت ، فإذا رجُلٌ قد جاءني ومعه كوزٌ ، فقال لي : هاه . فشربتُ وسقيتُها ، ثم مضى ، فما أدري مِنْ أين جاء ؟ ولا مِنْ أين راح ! »[٢] .

أمّا عن سبب خروجه لكتابة كتب الشافعي ، فيقول :

فقد« رُوي عنه - يعني محمد بن نصر - أنه قال : كتبتُ الحديث بضعًا وعشرين سنة[٣] ، وسمعتُ قولًا ومسائل ، ولم يكن لي حُسْنُ رأيٍ في الشافعي ، فبينا أنا قاعدٌ في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة إذ أغفيت إغفاءةً ، فرأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام ، فقلتُ : يارسول الله ، أكتبُ رأي

(١) تاريخ بغداد ٣١٥/٣ ، وسير أعلام النبلاء ٣٤/١٤ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٣٧/١٤- ٣٨ .
(٣) في طبقات الشيرازي (١٠٦- ١٠٧) « سبعًا وعشرين سنةً » .

أبي حنيفة ؟ فقال : لا، فقلتُ: رأي مالك ؟ فقال: اكتبْ ما وافق حديثي، فقلتُ : أكتبُ رأي الشافعي ؟ فطأطأ رأسه شبه الغضبان ، وقال : تقول : رأي ! ليس هو بالرأي ، هو ردّ على مَنْ خالف سُنَّتي . قال : فخرجتُ في إثر هذه الرؤيا إلى مصر ، فكتبتُ كُتُبَ الشافعي »[1] .

قال أبو بكر الصيرفي : « لو لم يُصنِّف إلا كتاب « القسامة » لكان من أفقه الناس ، فكيف وقد صنّف سواه ؟! » .

قال ابن حزم : « أعلمُ الناس مَنْ كان أجمعَهم للسُّنَنِ ، وأضبطَهم لها ، وأذكرهم لمعانيها ، وأدراهم بصحتها ، وبما أجمع الناسُ عليه مما اختلفوا فيه . قال : وما نعلم هذه الصفة - بعد الصحابة - أتمَّ منها في محمد بن نصر المروزي ، فلو قال قائل : ليس لرسول الله ﷺ حديث ولا لأصحابه إلا وهو عند محمد بن نصر ؛ لما أبعد عن الصدق .

قال الذهبي : قلتُ : هذه السِّعةُ والإحاطة ما ادَّعاها ابن حزم لابن نصر إلا بعد إمعان النظر في جماعة تصانيف لابن نصر ، ويُمكن ادِّعاء ذلك لأحمد بن حنبل ونظرائه ، والله أعلم »[2].

١١٦ - شيخ المُفسِّرين الإمام محمد بن جرير الطبري :

الإمام العَلَم المجتهد ، عالم العصر ، أبو جعفر . أكثر الترحال ، ولقي نُبلاء الرجال ، وكان من أفراد الدهر علمًا وذكاءً وكثرةَ تصانيف . قلَّ أن ترى العيون مثله .

قال الخطيب: «محمد بن جرير كان أحد أئمة العلماء، يُحكم بقوله، ويُرْجَع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يُشاركه

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٤٩ ، وسير أعلام النبلاء ١٤/٣٤، وطبقات الشيرازي ١٠٦-١٠٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٤٠ .

فيه أحدٌ من أهل عصره ، فكان حافظًا لكتاب الله ، عارفًا بالقراءات ، بصيرًا بالمعاني ، فقيهًا في أحكام القرآن ، عالمًا بالسُّنَنِ وطُرُقها ؛ صحيحها وسقيمها ، وناسخها ومنسوخها ، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في «أخبار الأمم وتاريخهم»، وله كتاب « التفسير » لم يُصنّف مثله ، وكتاب سمَّاه « تهذيب الآثار » لم أرَ سواه في معناه ، لكن لم يُتمَّه ، وله في أصول الفقه وفروعه كُتُبٌ كثيرة ، واختيار من أقاويل الفقهاء ، وتفرَّد بمسائل حُفظت عنه »[1] .

قال الذهبي : « كان رأسًا في التفسير ، إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاف ، علَّامة في التاريخ وأيَّام الناس ، عارفًا بالقراءات وباللغة » .

قال هارون بن عبد العزيز: «لما دخل أبو جعفر بغداد، وكانت معه بضاعة يتقوَّت منها، فسُرقت، فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه وكُمَّيْ قميصه، فقال له بعض أصدقائه : تنشط لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى ابن خلقان ؟ قال : نعم . فمضى الرجل ، فأحكم له أمْره ، وعاد فأوصله إلى الوزير ، بعد أن أعاره ما يلبسه ، فقرَّبه الوزير ورفع مجلسه ، وأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر ، فاشترط عليه أوقات طلبه للعلم والصلوات والراحة، وسأل إسلافه رزْق شهرٍ ، ففعل ، وأُدخل في حجرة التأديب ، وخرج إليه الصبي – وهو أبو يحيى – فلما كتَّبه أخذ الخادم اللوح ، ودخلوا مُستبشرين ، فلم تبق جارية إلا أهدتْ إليه صينية فيها دراهم ودنانير ، فردَّ الجميع ، وقال : قد شُورِطت على شيء فلا آخذ سواه ، فدرى الوزير ذلك ، فأدخله إليه وسأله ، فقال : هؤلاء عبيد ، وهم لا يملكون . فعظم ذلك في نفسه » .

وعن علي بن عبيد الله اللغوي قال : « إن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة » .

قال أبو حامد الإسفراييني : لو سافر رجل إلى الصين حتى يُحصِّل

---

(١) تاريخ بغداد ٢ / ١٦٣ .

تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرًا .

قال أبـو بكـر بن بالُوية : « قال لي أبو بكر بن خزيمة : بلغني أنك كتبتَ التفسير عن محمد بن جرير ، قلتُ : بلى ، كتبتُه عنه إملاءً ، قال : كُلَّه ؟ قلتُ : نعم . قال : في أي سنة ؟ قلتُ : من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين ومائتين . قال : فاستعاره منه أبو بكر ، ثم ردّه بعد سنين ، ثم قال : لقد نظرتُ فيه من أوَّلِهِ إلى آخره ، وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير » .

قال ابن جرير : « استخرتُ الله ، وسألتُه العونَ على ما نويتُه من تصنيف التفسير قبل أن أعمله ثلاث سنين ، فأعانني » .

وانظر إلى عُلُوِّ هِمَّة هذا الإمام :

« قال رحمه الله لأصحابه : هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا ؟ قالوا : كم قَدْرُه ؟ فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة . فقالوا : هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه . فقال : إنا لله ... ماتت الهِمَمُ . فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة . ولما أن أراد أن يُملي التفسير قال لهم نحوًا من ذلك ، ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ »(١) .

ماتت الهِمَمُ .. هذا في زمان ابن جرير .. فكيف لو رأى عصرنا !!

لقد أظهر ابن جرير مذهب الشافعي واقتدى به ببغداد عشر سنين ، وتلقَّاه منه ابن بشار الأحول أستاذ ابن سُريج ، فلما اتسع علمُه ؛ أدَّاه اجتهاده وبحثُه إلى ما اختاره في كُتُبه .

قال أبو محمد الفرغاني : « تمَّ من كُتُب محمد بن جرير كتابُ التفسير ، الذي لو ادَّعى عالم أنْ يُصنِّف منه عشرة كُتُبٍ ، كلُّ كتابٍ منها يحتوي على علم مفرد مُستقصى – لفعل . وتمَّ من كُتُبه كتاب « التاريخ »

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٢٧٤ - ٢٧٥ .

إلى عصره . وتمَّ أيضًا كتاب تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين ، وإلى شيوخه الذين لقيهم. وتمَّ له كتاب لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام، وهو مذهبُه الذي اختاره وجوده واحتجَّ له ، وهو ثلاثة وثمانون كتابًا . وتمَّ له كتاب « القراءات والتنزيل والعدد » . وتمَّ له كتاب « اختلاف علماء الأمصار » . وتمَّ له كتاب « الخفيف في أحكام شرائع الإسلام » ، وهو مُختصر لطيف. وتمَّ له كتاب «التبصير»، وهو رسالة إلى أهل طبرستان، يشرح فيها ما تخلَّله من أصول الدين . وابتدأ بتصنيف كتاب « تهذيب الآثار » ، وهو من عجائب كُتُبه ؛ ابتدأ بما أسنده الصدِّيق مما صحَّ عنده سندُه ، وتكلَّم على كل حديث منه بعِلَلِهِ وطُرُقِه ، ثم فقهه ، واختلاف العلماء وحُجَجهم ، وما فيه من المعاني والغريب ، والردّ على المُلحدين ؛ فتمَّ منه مُسنَد العشرة وأهل البيت ، والموالي ، وبعض مُسنَد ابن عباس ، فمات قبل تمامه » .

قال الذهبي : « هذا لو تمَّ لكان يجيء في مائة مُجلَّد » .

قال : « وابتدأ بكتابه « البسيط » ، فخرَّج منه كتاب الطهارة ، فجاء في نحو من ألف وخمسمائة ورقة ، لأنه ذكر في كل باب منه اختلاف الصحابة والتابعين، وحجةَ كُلِّ قول، وخرَّج منه أيضًا أكثر كتاب الصلاة، وخرّج منه آداب الأحكام، وكتاب المحاضر والسجلّات، وكتاب «ترتيب العلماء »، وهو من كُتُبه النفيسة ؛ ابتدأه بآداب النفوس ، وأقوال الصوفية ، ولم يُتمَّه ، وكتاب المناسك ، وكتاب شرح السنة ، وهو لطيف ؛ بيَّن فيه مذهبَه واعتقاده ، وكتابه « المسند المخرَّج » ؛ يأتي فيه على جميع ما رواه الصحابي ، من صحيح وسقيم ، ولم يُتمَّه .

ولما بلغه أن أبا بكر بن أبي داود تكلَّم في حديث غدير خُمٍّ ؛ عمل كتاب « الفضائل » ، فبدأ بفضل أبي بكر ثم عمر ، وتكلَّم على تصحيح غدير خُمٍّ ، واحتجَّ لتصحيحه ، ولم يُتمَّ الكتاب » .

قال الذهبي : « جمع طرق حديث غدير خُمٍّ في أربعة أجزاء ، رأيتُ شطره ، فبهرني سعة رواياته ، وجزمتُ بوقوع ذلك » .

قال رحمه الله : « أبطأتْ عني نفقة والدي ، واضطررتُ إلى أن فتقتُ كُمَّيْ قميصي فبعتُهما » .

قال تلميذه الفرغاني في كتابه المعروف بكتاب « الصلة » ، وهو كتاب وصل به « تاريخ ابن جرير »:« أن قومًا من تلاميذ ابن جرير حصَّلوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن تُوفِّي وهو ابن ستٍّ وثمانين سنة ، ثم قسَّموا عليها أوراق مُصنفاته ، فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقة ، وهذا شيء لا يتهيَّأ لمخلوق إلا بحُسن عناية الخالق » .

قال ابن جرير الطبري : « كنا نكتب عن محمد بن حُميد الرازي ، فيخرج إلينا في الليل مرَّات ، ويسأل عمّا كتبناه ،ويقرؤه علينا ، وكنا نمضي إلى أحمد بن حماد الدولابي ، وكان في قرية من قرى الريّ ، بينها وبين الريِّ قطعة ، ثم نعدو كالمجانين حتى نصير إلى ابن حميد فنلحق مجلسه .

ويُقال : إنه كتب عن ابن حميد فوق مائة ألف حديث ، وصار في رحلته إلى الكوفة ، فكتب فيها عن عدد من المُحدِّثين ، ومنهم أبو كريب : محمد بن العلاء الهمداني ، وكان هذا شرِسَ الخُلُق ، ومن كبار أصحاب الحديث ... » .

قال أبو جعفر : حضرتُ باب داره مع أصحاب الحديث ، فاضطلع من باب خوخة[1] له ، وأصحاب الحديث يلتمسون الدخول ويضجُّون ، فقال : أيُّكم يحفظ ما كتب عني ؟ فالتفت بعضهم إلى بعض ، ثم نظروا إليَّ ، وقالوا : أنت تحفظ ما كتبتَ عنه ؟ قلتُ : نعم ، فقالوا : هذا ، فسلْه ، فقلتُ : حدَّثتنا في يوم كذا بكذا ، وفي يوم كذا بكذا . قال : وأخذ

(١) الخوخة : الباب الصغير على الباب الكبير .

أبو كريب في مسألته إلى أن عظُم في نفسه ، فقال له : ادخل إليَّ ، فدخل إليه ، وعرف قدْره على حداثته ، ومكَّنه من حديثه ، وكان الناس يسمعون به - أي بسببه - فيُقال : إنه سمع من أبي كريب أكثر من مائة ألف حديث ، ثم عاد إلى مدينة السلام بغداد فكتب بها ، ولزم المقام بها مُدَّة ، وتفقَّه بها ، وأخذ في علوم القرآن ، وروى الشعر عن ثعلب .

قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد : سمعتُ ثعلبًا يقول : قرأ عليَّ أبو جعفر الطبري شِعْرَ الشعراء قبل أن يكثر الناس عندي بمُدَّة طويلة ، ثم غرّب فخرج إلى مصر ، وكتب في طريقه عن المشايخ بأجناد الشام والسواحل والثغور ، وأكثر منها ، ثم صار إلى الفسطاط في سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، وكان بها بقية من الشيوخ وأهل العلم ، فأكثر الكتابة عنهم ؛ من علوم مالك والشافعي وابن وهب وغيرهم .

روى المُعافى بن زكريا عن بعض الثقات أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبل موته ، وتُوفِّي بعد ساعة أو أقلَّ منها ، فذكر له دعاءً عن جعفر بن محمد ، فاستدعى محبرةً وصحيفةً فكتبه ، فقيل له : أفي هذه الحال ؟ فقال : ينبغي للإنسان أن لا يَدع اقتباس العلم حتى الممات .

وطول ترجمتنا لمحمد بن جرير اقتضاه طولُ الثناء والفضل الذي اتصف به .

قال أبو الطيب :

وقد أطال ثنائي طول لابسه إن الثناءَ عن التنبالِ تنبالُ

ورحم الله ابن دُريد في قوله في رثاء ابن جرير :

ودَّتْ بقاعُ بلادِ الله لو جُعِلتْ قبرًا له لحباها جسمه طيبا
كانت حياتُك للدنيا وساكنِها نورًا فأصبح عنها النورُ محجوبا
لو تعلمُ الأرضُ منْ وارت لقد خشعتْ أقطارُها لك إجلالًا وترحيبا

إن يندبوك فقد ثُلَّتْ عروشُهُمُ   وأصبح العلمُ مرثيًّا ومندوبا
ومن أعاجيب ما جاء الزمانُ به   وقد يُبينُ لنا الدَّهْرُ الأعاجيبا
أنْ قد طوتْكَ غُموضُ الأرض في لُحُفٍ   وكنتَ تملأُ منها السَّهل واللُّوبا

وقال ابن الأعرابي :

حَدثٌ مُقطِعٌ وخطبٌ جليلٌ   دقَّ عن مثلِهِ اصطبارُ الصبورِ
قام ناعي العلوم أَجْمَع لمّا   قام ناعي محمد بن جرير[1]

١١٧ - إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة : أبو بكر صاحب التصانيف:

قال الذهبي : عُني في حداثته بالحديث والفقه ، حتى صار يُضرب به المثل في سعة العلم والإتقان .

قال عنه السبكي في طبقات الشافعية (٣/١٠٩- ١١٠): المجتهد المُطلق، البحر العجَّاج ، والحَبْرُ الذي لا يُخَاير في الحجا ، ولايناظر في الحِجَاج ، جمع أشتات العلوم ، وارتفع مقداره ؛ فتقاصرت عنه طوالع النجوم ، وأقام بنيسابور إمامها حيث الضراغم مزدحمة ، وفردها الذي رفع العلمُ بين الأفراد عَلَمَه ، والوفود تفد على رَبْعِه ؛ لا يتجنَّبه منهم إلا الأشقى ، والفتاوى تحمل عنه برًّا وبحرًا ، وتشقُّ الأرضَ شقًّا ، وعلومُه تسير فتهدي في كل سوداء مُدْلهِمَّة ، وتمضي عَلَمًا تأتمُّ الهداةُ به ، وكيف لا وهو إمام الأئمة !

كالبحر يقذِف للقريب جواهرا   كرمًا ويبعثُ للغريب سحائبا

قال شيخ الإسلام أبو عثمان الحيري : إن الله ليدفع البلاء عن أهل هذه المدينة ؛ لمكان أبي بكر محمد بن إسحاق .

قال ابن خزيمة : كنتُ إذا أردتُ أن أُصنِّف الشيء أدخلُ في الصلاة مُستخيرًا حتى يُفتح لي ، ثم أبتدأ التصنيف .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٨٢ .

« قال حفيده محمد بن الفضل بن محمد عنه : إنه لا يدَّخر شيئًا جهده ، بل يُنفقه على أهل العلم ، وكان لا يعرف سنجة الوزن ، ولا يُميز بين العشرة والعشرين ، ربما أخذنا منه العشرة فيتوهَّم أنها خَمسة »(١) .

رحم الله ابن خزيمة .. لا يعرف العشرة من العشرين من النقود ، لا يعرف من أمر الدنيا شيئًا ، فإذا كان أمرُ الآخرة فهو إمام الأئمة .

قال ابن خزيمة : « استأذنتُ أبي في الخروج إلى قتيبة ، فقال : اقرأ القرآن أوَّلًا حتى آذن لك ، فاستظهرتُ القرآن ، فقال لي : امكثْ حتى تُصلِّي بالختمة ، ففعلتُ ، فلما عيَّدنا أذن لي ، فخرجتُ إلى مروْ ، وسمعتُ بمرو الروذ من محمد بن هشام صاحب هُشيم ، فنعى إلينا قتيبة » .

قال أبو أحمد حسينك : سمعتُ إمام الأئمة أبا بكر يحكي عن علي ابن خشرم عن ابن راهويه أنه قال : أحفظ سبعين ألف حديث ، فقلت لابن خزيمة: كم يحفظ الشيخ؟ فضربني على رأسي، وقال: ما أكثر فضولك، ثم قال : يابُني ، ما كتبت سوادًا في بياض إلا وأنا أعرفه .

قال أبو علي الحافظ : كان ابن خزيمة يحفظ الفقهيات من حديثه كما يحفظ القارىء السورة .

قال أبو حاتم بن حبان التيمي : ما رأيتُ على وجه الأرض مَنْ يحفظُ صناعة السُّنن ، ويحفظ ألفاظها الصِّحاح وزياداتها ، حتى كأن السُّنن كلها بين عينيه ؛ إلا محمد بن إسحاق بن خزيمة فقط .

حكى أبو بشر القطان : رأى جارٌ لابن خزيمة - من أهل العلم - كأنَّ لوحًا عليه صورة نبينا ﷺ وابن خزيمة يصقله ، فقال المُعبِّر : هذا رجلٌ يُحيي سُنَّة رسول الله ﷺ .

قال الإمام أبو العبَّاس بن سُريج - وذُكر له ابن خزيمة - فقال :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٣٧٠ .

يستخرج النُّكَت من حديث رسول الله ﷺ بالمنقاش .

قال الحاكم : فضائل إمام الأئمة ابن خزيمة عندي مجموعة في أوراق كثيرة ، ومُصنَّفاته تزيد على مائة وأربعين كتابًا سوى المسائل ، والمسائل المُصنَّفة أكثر من مائة جزء . قال : وله فقه حديث بريرة في ثلاثة أجزاء .

قال ابن خزيمة حاضًّا الناسَ على الصبر على طلب العلم :

« قال مهدي - والد عبد الرحمن بن مهدي -: كان عبد الرحمن يكون عند سفيان عشرة أيام أو أكثر لا يجيء إلى البيت ، فإذا جاءنا ساعة ، جاء رسول سفيان ، فيذهب ويتركنا » .

عن إبراهيم بن محمد بن المضارب قال : رأيتُ ابن خزيمة في النوم ، فقلتُ : جزاك الله عن الإسلام خيرًا ، فقال : كذا قال لي جبريل في السماء .

١١٨ - محمد بن هارون الروياني الإمام الحافظ أبو بكر، صاحب المُسنَد المشهور :

« إنَّ الحامدَ جياعٌ » : قصَّةُ إملاق المُحَمَّدين بمصر :

قال أبو العبَّاس البكري : « جمعت الرحلة بين ابن جرير وابن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر[١] ، فأرملوا و لم يبقَ عندهم ما يُقوِّتهم ، فأضرَّ بهم الجوع ، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه ، فاتَّفق رأيُهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة ، فمن خرجتْ عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام ، فخرجت القرعة على ابن خزيمة ، فقال لأصحابه : أمهلوني حتى أُصلِّي صلاة الخِيرة[٢]، قال: فاندفع في الصلاة ،

---

(١) في حدود سنة (٢٥٦ هـ) .

(٢) صلاة الاستخارة .

فإذا هم بالشموع وخصيّ من قِبَل والي مصر[1] يدقُّ الباب ، ففتحوا ، فقال : أيُّكم محمد بن نصر ؟ فقيل : هو ذا ، فأخرج صُرَّةً فيها خمسون دينارًا ، فدفعها إليه ، ثم قال : وأيكم محمد بن جرير ؟ فأعطاه خمسين دينارًا، وكذلك للروياني، وابن خزيمة، ثم قال: إن الأمير كان قائلًا بالأمس، فرأى في المنام خيالًا أو طيفًا يقول له : إن المحامد جياع [طووا كشحهم جياعًا] ، فأنفذ إليكم هذه الصُّرر ، وأقسمُ عليكم إذا نفدت ، فابعثوا إليّ أحدكم ليزيدكم »[2] .

١١٩ - الباغندي : محمد بن محمد بن سليمان ، الإمام الحافظ الكبير مُحدِّث العراق أبو بكر :

قال أبو بكر الخطيب : « رحل في الحديث إلى الأمصار البعيدة ، وعني به العناية العظيمة ، وأخذ عن الحفَّاظ والأئمة ، وكان حافظًا فَهِمًا عارفًا » .

« قال أبو بكر الأبهري : سمعتُ أبا بكر الباغندي يقول : أنا أُجيب في ثلاثمائة ألف مسألة من حديث رسول الله ﷺ ، فأخبرتُ ابن المظفر بقول الأبهري ، فقال : صدق ، سمعتُه منه .

قال الخطيب : وسمعتُ هبة اللَّالكائي يقول : إن الباغندي كان يسرد الحديث من حفْظه ويهذُّه مثل تلاوة القرآن السريع القراءة ، وكان يقول : حدَّثنا فلان، قال: حدَّثنا فلان، وحدَّثنا فلان وهو يُحرِّك رأسه حتى تسقط عمامته »[3] .

قال أحمد بن محمد بن شجاع بالأهواز : « كُنَّا عند إبراهيم بن موسى

---

(١) أحمد بن طولون .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٠- ٢٧١، تاريخ بغداد ٢/١٦٤- ١٦٥، طبقات الشافعية ٢/٢٥٠- ٢٥١، ومعجم الأدباء ١٨/٤٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٣/٢٠٩- ٢١٠ .

الجوزي ببغداد، وكان عنده أبو بكر الباغندي ينتقي عليه، فقال له إبراهيم: هو ذا ، تُضجِّرني ، أنت أكثرُ حديثًا مني ، وأحفظ وأعرف ، فقال له : لقد حُبِّب إليَّ هذا الحديث .. حسبُك أني رأيتُ رسول الله ﷺ في النوم ، فلم أقلْ له : ادعُ لي ، وقلتُ : يارسول الله ، أيّما أثبتُ في الحديث ؛ منصور أو الأعمش ؟ فقال : منصور منصور »[١] .

هذه حياتهم ... هذه لذَّتُهم ، وهذا نومُهم وسُباتُهم ، حتى في النوم شغل عن سؤال المغفرة والشفاعة بالجرح والتعديل .. أمَّا في يقظتهم فقد فَنَوْا عن أنفسهم !!

« قال عمر بن شاهين : قام أبو بكر الباغندي ليُصلِّي ، فكبَّر ، ثم قال : أخبرنا محمد بن سليمان لُوَيْن ، فسبَّحنا به ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . الحمدُ لله ربِّ العالمين »[١] .

١٢٠ - الإمام الحافظ السَّرَّاج ، محمد بن إسحاق مُحدِّث خراسان ، أبو العباس :

قال الصعلوكي : حدَّثنا أبو العباس السرَّاج الأوحد في فنِّه ، الأكمل في وزْنه .

وقال : كنا نقول : السرَّاج كالسِّراج .

قال أبو علي بن الأخرم : « استعان بي السراج في التخريج على صحيح مسلم ، فكنتُ أتحيَّر من كثرة الحديث الذي عنده ، وحُسْنِ أصوله » . كتب بخطه سبعين ألف مسألة لمالك .. فما ظنّك بما كتب من حديث قد أُولع به ، وكان مُنافرًا للفقهاء أصحاب الرأي .

«قيل للسرَّاج وهو يكتب في كهولته عن يحيى بن أبي طالب : إلى كم هذا ؟ فقال : أما علمتَ أن صاحب الحديث لا يصبر »[٢] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٨٥ ، وتاريخ بغداد .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٩٣ .

١٢١ - أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن القَصْرِي :

من القيروان ، تُوفي سنة (٣٢١ هـ) .

« كان فقيهًا صالحًا وَرِعًا ، سريعَ الدمعة ، له عنايةٌ بالعلم وتصحيح الكتب وجمعها ، وكان يقول : لي أربعون سنة ، ما جفَّ لي قلمٌ ؛ يعني من كثرة ما ينسخ بالليل والنهار ، وكان ربما باع بعض ثيابه واشترى بثمنه كتابًا أو رقوقًا لنسخ كتاب »[1] .

١٢٢ - أبو بكر محمد بن جعفر بن رُميس القصري البغدادي :

« قال الدارقطني : قال ابن رُميس : بعتُ صفَّ الحدّادين ببغدادين بثلاثة آلاف دينار ، فأنفقتُها كلها على الحديث »[2] .

١٢٣ - محمد بن إبراهيم بن عبدوس القيرواني ... الفقيه المالكي :

قال القاضي عياض في « ترتيب المدارك » (٣/١٢٢) ، و « الإلماع » (صـ ٢٣٥) : « ذكر أبو بكر محمد بن اللبَّاد أن محمد بن عبدوس صلَّى الصبح بوضوء العتمة ثلاثين سنة: خمس عشرة سنة من دراسة، وخمس عشرة سنة من عبادة » .

١٢٤ - الإمام الفقيه المالكي ابن عامر ، أبو زكريا يحيى بن عمر ، من كبار أصحاب سحنون :

«طلب العلمَ عند ابن حبيب، ورحل فسمع بإفريقية من سحنون وعون، وأبي زكريا الحفري، وسمع بمصر من ابن بُكير وابن رمح، وحرملة، وغيرهم من أصحاب ابن وهب وابن القاسم وأشهب، وسمع أيضًا بالحجاز وغيرها.

---

(١) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لأبي زيد الدبَّاغ ٣ / ١١ .

(٢) تاريخ بغداد ٢ / ١٣٩ .

قال الكانشي : أنفق يحيى في طلب العلم ستة آلاف دينار . وسمع منه الناس وتفقَّه عليه خلْق ، وإليه كانت الرحلة في وقته »[1] .

١٢٥ - الإمام الكبير عبدان بن محمد، أبو محمد المَرْوزي فقيه مرو الزاهد:

قال الخطيب : كان ثقة حافظًا ، صالحًا زاهدًا .

« تفقّه بأصحاب الشافعي ؛ الربيع وغيره ، وبرع في المذهب وبَعُدَ صيتُه ، وكان يُضرب المثل باسمه في الحفظ والزهد ، وهو الذي أظهر مذهب الشافعي بمرو بعد أحمد بن سيَّار ، فإن أحمد بن سيَّار حمل كُتُبَ الشافعي ، عن الربيع المرادي من مصر إلى مرو ، وأُعجب بها الناس ، فأراد عبدان أن ينسخها ، فمنعها أحمد بن سيَّار عنه ، فباع ضيعة له بجُنْوجرْد[2] ، وخرج إلى مصر ، وأدرك الربيع وغيره من أصحاب الشافعي ، ونسخ كُتُبَه ، وأدرك من المشايخ والفقهاء ما لم يُدركْه غيره ، وحمل عنهم ، ورحل إلى الشام والعراق ، وكتب عن أهل مصر ، ورجع إلى مَرْو .

وكان أحمد بن سيَّار في الأحياء ، فدخل عليه مُسلِّمًا ومُهنئًا بالقدوم ، فاعتذر أحمد بن سيَّار منْ منع الكتب عنه ، فقال عبدان : لا تعتذرْ ، فإنَّ لك منَّةً عليَّ في ذلك ، وذلك أنك لو دفعت إليَّ الكُتُبَ ، كنت اقتصرتُ على ذلك ، وما كنتُ أخرج إلى مصر ، ولا كنتُ أُدرك أصحاب الشافعي ، ففرح بذلك أحمد بن سيَّار »[3] .

١٢٦ - الحافظ الفضل بن محمد بن محمد الشعراني أبو محمد المُحدِّث الجوَّال المُكثِر مُحدِّث اليمن :

قال الحاكم : « كان عالمًا عابدًا ، كثير الرحلة في طلب الحديث ،

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤ / ٣٥٧ .
(٢) قرية من قرى مرو .
(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٢ / ٢٩٨ ، وسير أعلام النبلاء ١٤/١٣- ١٤ .

فهْمًا ، عارفًا بالرجال ، تفرَّد برواية كتب لم يروها أحدٌ بعده : « التاريخ الكبير » عن أحمد ، و « التفسير » عن سُنَيْد ، و « القراءات » عن خلف ، و « التنبيه » عن يحيى بن أكثم ، و « المغازي » عن إبراهيم الحِزَامي ، و « الفتن » عن نعيم بن حماد .

قال محمد بن المؤمّل : كنا نقول : ما بقي في الدنيا مدينة لم يدخلها الفضل في طلب الحديث ، إلا الأندلس »(١) .

١٢٧ - الحافظ الإمام الأرْغياني، أبو عبد الله محمد بن المسيّب النيسابوري العابد :

قال الذهبي : « صنَّف التصانيف الكبار ، وكان ممن برَّز في العلم والعمل .

قال الحاكم : كان من الجوَّالين في طلب الحديث على الصدق والورع ، وكان من العُبَّاد المجتهدين . سمعتُ أبا الحسين بن يعقوب الحافظ يقول : كان محمد بن المسيّب يقرأ علينا ، فإذا قال : قال رسول الله ﷺ ؛ بكى حتى نرحمه .

قال : وسمعتُ محمد بن علي الكلابي يقول : بكى محمد بن المسيّب الأرغياني حتى عَمِي » .

قال الأرغياني : « ما أعلم منبرًا من منابر الإسلام بَقِيَ عليَّ لم أدخله لسماع الحديث .

قال الذهبي : هذا على وجه المبالغة ، وإلا فهو لم يدخل الأندلس ولا المغرب ، ولا أظنُّ أنه عنى إلا المنابر التي بحضرتها رواية الحديث .

قال رحمه الله : كنتُ أمشي بمصر ، وفي كُمِّي مائة جزء ، في كل جزء ألف حديث .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣١٧/١٣- ٣١٩؛ وتذكرة الحفاظ ٦٢٦/٢- ٦٢٧ .

قال الذهبي :هذا يدلُّ على دقَّة خطِّه .

قال الحاكم: وسمعتُ أبا علي الحافظ يقول: كان محمد بن المسيّب يمشي بمصر وفي كُمِّه مائة ألف حديث ، كانت أجزاؤه صغارًا بخطٍّ دقيق ، في الجزء ألف حديث معدودة ، وصار هذا كالمشهور من شأنه »[(١)] .

١٢٨ - أبو بكر محمد بن عبد الرحيم الأصبهاني شيخ القرَّاء في زمانه :

قال رحمه الله : « رحلتُ إلى مصر[(٢)] ، ومعي ثمانون ألفًا ، فأنفقتُها على ثمانين ختمة » ؛ يعني أنه ختم القرآن بقراءته على شيوخ القرآن ثمانين مرة ، وأنفق من أجل ذلك ثمانين ألف درهم ، ربح والله وما غبن .. إذ كان من أهل الله .. أهل القرآن .

١٢٩ - الحافظ العقيلي ، أبو جعفر ، محمد بن عمر مُصنِّف « كتاب الضعفاء » :

« قال مسلمة بن القاسم : كان العقيلي جليل القدر ، عظيم الخطرِ ، ما رأيتُ مثلَه ، وكان كثير التصانيف ، فكان مَنْ أتاه من المُحدِّثين ؛ قال : اقرأْ من كتابك ، ولا يُخرج أصْلَه . قال : فتكلَّمْنا في ذلك ، وقلنا : إما أن يكون من أحفظ الناس ، وإما أن يكون من أكذب الناس ، فاجتمعنا فاتفقنا على أن نكتب له أحاديث من روايته ، ونزيد فيها وننقص ، فأتيناه لنمتحنه ، فقال لي : اقرأْ ، فقرأتُها عليه ، فلما أتيتُ بالزيادة والنقص ؛ فَطِن لذلك ، فأخذ مني الكتاب ، وأخذ القلم ، فأصلحها من حفْظه ، فانصرفنا من عنده ، وقد طابت نفوسُنا ، وعلمنا أنه من أحفظ الناس »[(٣)] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٤٢٢ - ٤٢٥ ، وتذكرة الحفاظ ٣ / ٧٨٩ - ٧٩١ .
(٢) أي من أصبهان .
(٣) تذكرة الحفاظ ٣/٨٣٣- ٨٣٤؛ وسير أعلام النبلاء ١٥/٢٣٦- ٢٣٧ .

١٣٠ - الأصمُّ الإمام المُحدِّث رحلة الوقت ، أبو العباس السِّناني المَعْقِلي أبو الفضل الورّاق :

ارتحل به والده إلى الآفاق ، وسمَّعه الكُتُبَ الكبارَ .

« وحدَّث بكتاب الأُمِّ للشافعي عن الربيع ، وطال عمره وبعُد صيتُه ، وتزاحم عليه الطلبة، وجميع ما حدَّث به إنما رواه من لفظه، فإنَّ الصَّممَ لحقه وهو شابٌّ له بضعٌ وعشرون سنة ، بعد رجوعه من الرحلة ، وقد حدَّث في الإسلام ستًّا وسبعين سنة »(١) ... فما أصبرهُ على تعليم الناس !!.

قال الحاكم عنه : بلغني أنه أذَّن سبعين سنة في مسجده .

« سمع منه الآباء والأبناء والأحفاد ، وكفاه شرفًا أن يُحدِّث طول تلك السنين ، ولا يجد أحد فيه مغمزًا بحُجَّةٍ ، وما رأينا الرحلة في بلاد من بلاد الإسلام أكثر منها إليه ، ولقد رأيتُ جماعة من أهل الأندلس ، وجماعة من أهل طراز ، واسبيجاب على بابه ، وكذا جماعة من أهل فارس ، وجماعة من أهل المشرق »(٢) .

« قال الحاكم : حضرتُ أبا العباس يومًا في مسجده ، فخرج ليُؤذِّن لصلاة العصر ، فوقف موضع المئذنة ، ثم قال بصوت عالٍ : أخبرنا الربيع ابن سليمان ، أخبرنا الشافعي ، ثم أذَّن »(٣) .

سبحان الله ! شغله العلم عن نفسه .

« قال الحاكم : سمعتُ الأصمَّ ، وقد خرج ونحن في مسجده ، وقد امتلأت السِّكةُ من الناس في ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثلاثمائة . وكان يُملي عشيَّة كل يوم اثنين من أصوله . فلما نظر إلى كثرة الناس والغرباء ،

---

(١) « الأنساب » للسمعاني ١ / ٢٩٤ .

(٢) الأنساب ١ / ٢٩٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٥ / ٤٥٨ .

وقد قاموا يُطرِّقون[1] له، ويحملونه على عواتقهم من باب داره إلى مسجده، فجلس على جدار المسجد، وبكى طويلًا، ثم نظر إلى المُستملي، فقال: اكتب: سمعتُ محمد بن إسحاق الصغاني يقول: سمعتُ الأشجَّ، سمعتُ عبد الله بن إدريس يقول: أتيتُ يومًا باب الأعمش بعد موته، فدققتُ الباب، فأجابتني جارية عرفتني: هَاي هَاي تبكي، ياعبد الله، ما فعل جماهير العرب التي كانت تأتي هذا الباب؟ ثم بكى الكثير، ثم قال: كأني بهذه السِّكَّة لا يدخلها أحدٌ منكم، فإني لا أسمع وقد ضعُف البصر، وحان الرحيل، وانقضى الأجل، فما كان إلا بعد شهر أو أقلّ منه حتى كُفَّ بصرُهُ، وانقطعت الرحلة، وانصرف الغرباء».

١٣١ - الإمام الحافظ القدوة أبو الحسن علي بن إبراهيم القزويني القطَّان:

قال الذهبي: جمع وصنَّف، وتفنَّن في العلوم، وثابر على القرب.

قال عنه جماعة من شيوخ قزوين: لم ير أبو الحسن رحمه الله مثل نفسه في الفضل والزهد. أدام الصيام ثلاثين سنة، وكان يُفطر على الخبز والملح، وفضائله أكثر من أن تُعَدَّ.

قال القطَّان رحمه الله: كنتُ حين رحلتُ أحفظ مائة ألف حديث[2].

١٣٢ - الخُتُّلي: الإمام الحافظ أبو عبد الله عبد الرحمن بن أحمد البغدادي ابن الختلي:

قال الخطيب: كان يحفظ خمسين ألف حديث، ويُملي من حفظه.

قال أبو القاسم التنوخي: «حدَّثني أبي، قال: دخل إلينا أبو عبد الله

---

(١) أي يُوسعون له الطريق.

(٢) وقال رحمه الله: أُصِبتُ ببصري! وأظنّ أني عُوقبتُ بكثرة بكاء أمي أيام فُراقي لها في الرحلة في طلب الحديث والعلم.

الخُتُّلي إلى البصرة ، وهو صاحبُ حديثٍ ، جَلْدٌ ، مشهورٌ بالحفظ ، فجاء وليس معه شيء من كُتُبِه ، فحدَّث شهورًا إلى أن لحقتْه كتبُه ، فسمعتُه يقول: حدَّثتُ بخمسين ألف حديث من حفظي إلى أن لحقتْني كُتُبي»(١) .

١٣٣ - ابن زياد النيسابوري الإمام الحافظ أبو بكر ، عبد الله بن محمد ابن زياد الحافظ الشافعي :

قال الذهبي : تفقَّه بالمزني ، والربيع ، وابن عبد الحكم ، وسمع منهم ، ومن محمد بن يحيى الذُّهلي ، ويونس بن عبد الأعلى ، وخلق كثير ، وبرع في العِلْمَيْن : الحديث والفقه ، وفاق الأقران .

قال الحاكم : كان إمام الشافعيين في عصره بالعراق ، ومن أحفظ الناس للفقهيَّات ، واختلاف الصحابة .

قال الدارقطني : ما رأيتُ أحدًا أحفظ من أبي بكر النيسابوري .

وقال أيضًا عنه : لم نرَ مثله في مشايخنا ، لم نرَ أحفظَ منه للأسانيد والمتون ، وكان أفقه المشايخ ، وجالَسَ الربيع والمزني ، وكان يعرف زيادات الألفاظ في المتون . ولما قعد للتحديث ، قالوا : حدِّث ، قال : بلْ سَلُوا ، فسُئل عن أحاديث ، فأجاب فيها ، وأملاها ، ثم بعد ذلك ابتدأ فحدَّث .

قال أبو الفتح يوسف القوَّاس : « سمعتُ أبا بكر النيسابوريَّ يقول : تعرفُ مَنْ أقام أربعين سنة لم ينم الليل ، ويتقوَّت كلَّ يوم بخمس حبَّات ، ويُصلِّي صلاة الغداة على طهارة عشاء الآخرة ؟ ثم قال : أنا هو ، وهذا كلُّه قبل أن أعرف أُمَّ عبد الرحمن ، أيش أقول لمن زوَّجني ؟ ثم قال : ما أراد إلا الخير »(٢) .

---

(١) تاريخ بغداد ١٠/٢٩٠- ٢٩١ .

(٢) تايخ بغداد ١٠/١٢٢، وتذكرة الحفاظ ٣ / ٨١٩ .

قال أبو عبد الله بن بطة: «كنا نحضر في مجلس أبي بكر النيسابوري؛ لنسمع منه الزيادات ، وكان يُحَرَزُ أن في المجلس ثلاثين ألف محبرة ، ومضى على هذا مُدَّة يسيرة ، ثم حضرنا مجلس أبي بكر النجَّاد ، وكان يُحرز أن في مجلسه عشرة آلاف محبرة، فتعجَّب الناس من ذلك، وقالوا: في هذه المُدَّة ذهب ثُلُثا الناس »[(١)] .

١٣٤ - الكَجِّي، الحافظ المُعمِّر، أبو مسلم، إبراهيم بن عبد الله الكَجِّي « صاحب السنن » :

قال الذهبي والخطيب : « قدم بغداد ، وازدحموا عليه ، فقال أحمد ابن جعفر الخُتُّلي : لما قدم علينا أبو مسلم الكَجِّي ؛ أملى علينا في رحبة غسّان ، وكان في مجلسه سبعة مُستملين ، يُبلِّغ كل واحد منهم صاحبه الذي يليه ، وكتب الناس عنه قيامًا ، ثم مُسِحت الرحبة ، وحُسِب من حضره بمحبرة ؛ فبلغ ذلك نيِّفًا وأربعين ألف محبرة سوى النظارة »[(٢)] .

قال الذهبي : « إسنادها صحيح .. يرحم الله العِلْمَ وأهْلَه .. قد كان في مجلس يزيد بن هارون شيخ أحمد سبعون ألفًا »[(٣)] .

« عن فاروق الخطابي ، قال : لما فرغنا من السُّنَن على الكَجِّي ؛ عَمِل لنا مأدبة ، أنفق عليها ألف دينار . وقيل : إنه لما حدَّث ، تصدَّق بعشرة آلاف درهم شكرًا لله »[(٤)] .

---

(١) ما كان بين وفاتيهما إلا (٢٤) سنة . المنتظم لابن الجوزي ٢٨٦/٦، وتذكرة الحفاظ ٨١٩/٣ .

(٢) تاريخ بغداد ١٢١/٦ - ١٢٢ ، وسير أعلام النبلاء ٤٢٤/١٣ .

(٣) تذكرة الحفاظ ترجمة يزيد بن هارون ١ / ٣١٨ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٤٢٥/١٣ .

١٣٥ - محمد بن رافع النيسابوري ، الإمام أبو عبد الله القشيري :

سمع ما لا يُوصف كثرةً ، وجمع وصنَّف .

قال فيه الحاكم في «تاريخه»: شيخ عصره بخراسان في الصدق والرحلة. حدَّث عنه البخاري ومسلم . وعُنِي بالسُّنَن علمًا وعملًا وعُمِّر ، وارتحل الناس إليه .

قال جعفر بن أحمد بن نصر الحافظ : ما رأيتُ من المُحدِّثين أهيبَ من محمد بن رافع ، كان يستند إلى الشجرة الصّنوبر في داره ، فيجلس العلماء بين يديه على مراتبهم ، وأولاد الظاهرية ومعهم الخدم ، كأنَّ على رؤوسهم الطيرَ، فيأخذ الكتاب، ويقرأ بنفسه، ولا ينطق أحدٌ، ولا يتبسَّم؛ إجلالًا له ، وإذا تبسَّم واحد أو راطن صاحبه ؛ قال : وصلَّى الله على محمد ، ويأخذ الكتاب ، فلا يقدر أحد يُراجعه أو يُشير بيده .

« قال زكريا بن دَلُّوَيْه : بعث طاهر بن عبد الله إلى ابن رافع بخمسة آلاف درهم مع رسولٍ ، فدخل عليه بعد العصر ، وهو يأكل الخبز مع الفجل ، فوضع الكيس ، فقال : بعث الأمير إليك بهذا المال . فقال : خذْ خذْ ، لا أحتاج إليه ، فإنَّ الشمس قد بلغت رأس الحيطان ، إنما تغرب بعد ساعة ، وقد جاوزت الثمانين ، إلى متى أعيش ؟ وردَّه . قال : فدخل ابنُه ، وقال: ياأبهْ، ليس لنا الليلة خُبْزٌ. قال: فبعث ببعض أصحابه خلْفَ الرسول ليَرُدَّ المال إلى طاهر ؛ فزعًا من ابنه أن يذهب خلفه ، فيأخذ المال .

قال زكريا : ربما كان يخرج إلينا محمد بن رافع في الشتاء وقد لبس لحافه »[1] .

١٣٦ - ابن الأخرم، مُقرِىء دمشق، أبو الحسن، محمد بن النضر الدمشقي:

كانت له حلقة عظيمة بجامع دمشق ، يقرءون عليه من بعد الفجر

---

(١) الوافي بالوفيات ٦٨/٣، وسير أعلام النبلاء ٢١٦/١٢- ٢١٧ .

إلى الظهر .

« قال علي بن داود الداراني : قدم ابن الأخرم بغداد ، فأمر ابن مجاهد تلامذته أن يختلفوا إلى ابن الأخرم .

قال محمد بن علي السُّلَمي : قمتُ ليلة سَحَرًا لآخذ النوبة على ابن الأخرم ؛ فوجدتُ قد سبقني ثلاثون قارئًا ، وقال : لم تُدركْني النوبة إلى العصر »[1] .

١٣٧ - مُحدِّث الشام الإمام أبو الحسن ، خيثمة بن سليمان الأطرابلسي مُصنِّف « فضائل الصحابة » :

كان رحَّالًا جَوَّالًا ، صاحب حديث .

قال الخطيب : خيثمة ثقةٌ ثقةٌ ، قد جمع فضائل الصحابة .

قال رحمه الله مُبيِّنًا نَصَبَهُ في تحصيل العلم ، وعُلُوَّ هِمَّتِه ، وصبْرَهُ :

« ركبتُ البحر ، وقصدتُ جَبَلة ؛ لأسمع من يوسف بن بحر ، ثم خرجتُ إلى أنطاكية ، فلقِينا مركبٌ - يعني للعدو - فقاتلناهم ، ثم سلّم مركَبنا قومٌ من مقدّمه ، قال : فأخذوني ، ثم ضربوني ، وكتبوا أسماءنا ، فقالوا : ما اسمُك ؟ قلتُ : خيثمة ، فقالوا : اكتب : حمار بن حمار ، ولما ضُربت سَكِرتُ[2] ونمتُ ، فرأيتُ كأني أنظر إلى الجنة ، وعلى بابها جماعةٌ من الحور العين ، فقالت إحداهن : ياشقيّ ، أيش فاتك ؟ فقالت أخرى : أيش فاته ؟ قالت : لو قُتِل لكان في الجنة مع الحور ؛ قالت لها : لَأَنْ يرزُقَه الله الشهادةَ في عزٍّ من الإسلام وذُلٍّ من الشرك خيرٌ له . ثم انتبهتُ ، قال : ورأيتُ كأن من يقول لي: اقرأ (براءة)، فقرأت إلى ﴿**فسيحوا في الأرض**

(١) غاية النهاية ٢/٢٧٠- ٢٧١، وسير أعلام النبلاء ١٥/٥٦٤- ٥٦٥ .

(٢) أي غشي عليه .

أربعة أشهر.. ﴾ الآية [التوبة : ٢] . قال : فعددتُ من ليلة الرؤيا أربعة أشهر ؛ ففكَّ الله أسْري »[١] .

كم تحمَّلوا من أجل العلم.. وقعوا في الأسر.. ويُقال لسيِّد من سادات المسلمين : أنت حمار بن حمار .. ما ضرَّهم ما أصابهم !!

«قال أبو عبد الله بن مَنْدَه: كتبتُ عن خيثمة بأطرابلس ألف جزء»[١].

١٣٨ - ابن الكوفي ، علي بن محمد الأسدي النحوي الكوفي ، من أصحاب ثعلب :

«راوية، جمَّاعة للكتب، صادقُ الرواية، مُنَقِّرٌ بحَّاثٌ، من أصحاب أبي العباس ثعلب . وكان أبوه من أهل ذوي اليسار من أهل الكوفة ، واشتغل وَلَدُه هذا بطلب العلم من يومه ، ولمّا مات أبوه خلف له زائدًا عن خمسين ألف دينارٍ، فصرفها كلَّها في طلب العلم، وتحصيل الكتب؛ اشتراءً واستنساخًا وكتابةً . وشغله طلبُهُ الفوائدَ عن التصنيف ، فلم يُرَ له إلا تصنيفٌ واحدٌ في معاني الشِّعْر واختلاف العلماء في ذلك »[٢] .

١٣٩ - العسَّال ، القاضي أبو أحمد ، محمد بن أحمد الأصبهاني الحافظ صاحب المؤلَّفات :

قال الحاكم : كان أحدَ أئمة الحديث .

قال أبو سعيد النَّقاش : أخبرنا أبو أحمد العسَّال ، و لم نرَ مثله في الحفظ والإتقان .

قال أبو أحمد رحمه الله : أحفظ في القرآن خمسين ألف حديث .

قال ابن منده: كتبتُ عن ألف شيخ؛ لم أرَ فيهم أتقنَ من أبي أحمد العسَّال.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٥/٤١٣- ٤١٥، وتذكرة الحفاظ ٣/٨٥٨- ٨٥٩ .

(٢) « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطي ٢ / ٣٠٥ .

وقال ابن منده أيضًا : طُفتُ الدنيا مرتين ، فما رأيتُ مثل العسَّال .

« لما مات أبو أحمد العسَّال وجلس بنوه للتعزية ؛ فدخل رجلان في لباسٍ سوادٍ ، وأخذا يولولان ويقولان : وإسْلاماه ، فَسُئِلا عن حالهما ، فقالا : إنا وردنا من أغمات من المغرب ؛ لنا سنة ونصف في الطريق في الرحلة إلى هذا الإمام لنسمع منه ، فوافق ورودُنا وفاته »[1] .

رحمة الله على الإمام أبي أحمد .. « روى في معجمه عن أربعمائة شيخ .. وسمع بأصبهان، وهمذان، وبغداد، والكوفة، والبصرة، والحرمين ، وواسط ، والريِّ ، وخوزستان »[2] .

١٤٠ - الإمام الطبراني ، أبو القاسم ، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي :

الحافظ، الرَّحَّالة الجوَّال ، مُحدِّث الإسلام، علم المُعمِّرين، صاحب المعاجم الثلاثة :

قال الذهبي في السير (١٦/١١٩ - ١٢٠) : « بقي في الارتحال ولُقِّي الرجال ستة عشر علمًا ، وكتب عمَّن أقبل وأدبر ، وبرع في هذا الشأن ، وجمع وصنَّف، وعُمِّر دهرًا طويلًا، وازدحم عليه المُحدثون ورحلوا إليه من الأقطار .

سمع بالحرمين واليمن ، ومدائن الشام ، ومصر ، وبغداد ، والكوفة ، والبصرة ، وأصبهان ، وخوزستان ، وغير ذلك ، ثم استوطن أصبهان ، وأقام بها نحوًا من ستين سنةً ينشر العلم ويُؤلِّفهُ » .

انظر رحمك الله إلى عُلُوِّ هِمَّة الطبراني .. بعد رحلاته الطويلة .. ينشر العلم ستين سنة !!

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/١٠- ١١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/١٤ .

قال أبو بكر بن أبي علي : سأل أبي أبا القاسم الطبراني عن كثرة حديثه ، فقال : كنتُ أنام على البواري[1] ثلاثين سنة .

قال أبو نعيم : قدم الطبراني أصبهان سنة تسعين ومائتين ، ثم خرج ، ثم قَدِمها ، فأقام بها مُحدِّثًا ستين سنة .

قال أبو أحمد العسَّال القاضي : إذا سمعتُ من الطبراني عشرين ألف حديث ، وسمع منه أبو إسحاق ابن حمزة ثلاثين ألفًا ، وسمع منه أبو الشيخ أربعين ألفًا - كمُلنا .

قال الذهبي : هؤلاء كانوا شيوخ أصبهان مع الطبراني .

وانظر إلى لذَّة الطبراني : العلم .

قال أبو عبد الله بن حمدان وأبو الحسن المديني وغيرهما : سمعنا الطبراني يقول : هذا الكتاب روحي ، يعني « المعجم الأوسط » .

قال الأستاذ ابن العميد : ما كنتُ أظنُّ أنَّ في الدنيا حلاوةً ألذَّ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها ، حتى شاهدتُ مُذاكرة أبي القاسم الطبراني وأبي بكر الجعَابي بحضرتي ، فكان الطبراني يغلب أبا بكر بكثرة حفظه ، وكان أبو بكر يغلب بفطنته وذكائه ، حتى ارتفعتْ أصواتُهما ، ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه ، فقال الجعابي : عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي ، فقال : هاتِ ، فقال : حدَّثنا أبو خليفة الجُمَحي ، حدَّثنا سليمان بن أيوب ، وحَدَّث بحديثٍ ، فقال الطبراني : أخبرنا سليمان بن أيوب ، ومني سمعه أبو خليفة ، فاسْمعْ مني حتى يعلو فيه إسنادك ، فخجل الجعابي ، فوددتُ أن الوزارة لم تكن ، وكنت أنا الطبراني ، وفرحت كفرحه ، أو كما قال .

---

(١) البواري : الحصير المنسوج .

١٤١ - المُزَكِّي ، الإمام المُحدِّث القدوة ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن محمد النيسابوري :

قال الحاكم: أملى عدة سنين، وكنا نعدُّ في مجلسه أربعة عشر مُحدِّثا؛ منهم أبو العباس الأصمَّ ، ومحمد بن يعقوب بن الأخرم .

« قال الخطيبُ : كان ثقةً ،ثبتًا ،مُكْثِرًا ، مواصلًا للحج . انتخب عليه ببغداد أبو الحسن الدارقطني ، وكتب عنه الناس بانتخابه علمًا كثيرًا . وروى ببغداد مُصنَّفات أبي العباس السَّراج ، مثل كتاب التاريخ ، وكتاب الإخوة والأخوات ، وغيرهما من كُتُبِه ، وروى أيضًا تاريخ البخاري الكبير ، وعدَّةً من كتب مسلم بن الحجاج » .

«قال المُزَكِّي: أنفقتُ على الحديث بدرًا من الدنانير، وقدمتُ بغداد في سنة ست عشرة لأسمع من ابن صاعد ومعي خمسون ألف درهم بضاعة، ورجعتُ إلى نيسابور ومعي أقلّ من ثلثها! أنفقتُ ما ذهب منها على أصحاب الحديث».

« قال محمد بن عبد الله الحافظ : كان إبراهيم بن محمد بن يحيى المُزَكِّي من العُبَّاد المجتهدين الحجَّاجين المُنفقين على العلماء والمستورين »[(١)] .

١٤٢ - غندر الإمام الحافظ ، أبو بكر محمد بن جعفر الورَّاق :

قال الحاكم : أقام سنين عندنا يُفيدنا ، ثم دخل إلى أرض الترك ، وكتب ما لا يُوصف كثرةً ، ثم استُدعي من مرو إلى الحضْرة ببخارى ليُحدِّث بها ، فأدركه الأجل في المفازة .

١٤٣ - الإمام الرحَّال ، ابن حرارة ، أبو الحسن ، محمد بن أحمد بن أسد الأسدي البردعي :

قال الخليلي : « يُعرف أبوه بحرارة . قال : وقد روى من حفظه زيادةً على

(١) تاريخ بغداد ٦ / ١٦٨ - ١٦٩ .

ثلاثين ألف حديث بقزوين والريِّ ، وما كان معه ورقة ، وفي أماليه غرائب وكلام يُستفاد »[١] .

١٤٤ - أبو الشيخ، الإمام أبو محمد، عبد الله بن محمد بن جعفر مُحدِّث أصبهان :

« قال أبو نعيم : كان أحد الأعلام ، صنَّف الأحكام والتفسير ، وكان يُفيد عن الشيوخ ، ويُصنِّفُ لهم ستين سنة .

قال أبو موسى المديني : مع ما ذُكر من عبادته ؛ كان يكتب كل يوم دستجةَ كاغَد ؛ لأنه كان يُورِّق ويُصنِّف ، وعرض كتابَه « ثواب الأعمال » على الطبراني ، فاستحسنه . ويُروى عنه أنه قال : ما عملتُ فيه حديثًا إلا بعد أن استعملتُه .

قال الذهبي : قد كان أبو الشيخ من العلماء العاملين ، صاحب سنة واتِّباع »[٢].

١٤٥ - الماسَرْجسي ، الحافظ الكبير الجوَّال أبو علي ، الحسين بن محمد ابن أحمد النيسابوري :

« كتب العالي والنازل ، وخرَّج على الصحيحين مُستخرجًا حافلًا ، وعمل « المسند الكبير » في نحو من وقر[٣] بعير .

قال أبو عبد الله الحاكم في « تاريخه » : صنَّف « المسند الكبير » في ألف جزء وثلاثمائة جزء ؛ يعني مهَذَّبًا مُعلَّلًا . قال : وجمع حديث الزهري جمعًا لم يسبقه إليه أحد ، فكان يحفظه مثل الماء ، وصنَّف المغازي والقبائل

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/٢٧٧- ٢٧٩ .

(٣) الوِقر : الحمل الثقيل .

والمشايخ والأبواب .

وقال الحاكم في موضع آخر : صنَّف أبو علي حديث الزهري ، فزاد على محمد بن يحيى الذُّهلي .

قال الحاكم : وعلى التخمين يكون مسنده بخطِّ الورَّاقين في أكثر من ثلاثة آلاف جزء .

قال الذهبي : قلتُ : يجيء في مائة وخمسين مُجلدًا .

قال : فعندي أنه لم يُصنَّف في الإسلام مسند أكبر منه ، وعقد أبو محمد ابن زياد مجلسًا عليه لقراءته. قال: وكان مُسند أبي بكر الصدِّيق بخطِّه في بضعة عشر جزءًا بِعلَلِه وشواهده، فكتبه النُّسَّاخ في نيِّفٍ وستين جزءًا»[1].

١٤٦ - الحافظ ابن المُقرِىء، مُسنِدُ الوقت، أبو بكر، محمد بن إبراهيم الأصبهاني صاحب « المعجم » والرحلة الواسعة :

« قال أبو نعيم : مُحدِّثٌ كبير ، ثقةٌ ، صاحب مسانيد ، سمع ما لا يُحصى كثرةً .

قال ابن المقرىء رحمه الله : طفتُ الشرق والغرب أربع مرات .

وقال : مشيتُ بسبب نسخة مفضَّل بن فضالة سبعين مرحلة ، ولو عُرضت على خبَّاز برغيف لم يقبلها .

وقال رحمه الله : دخلتُ بيتَ المقدس عشر مرات ، وحججتُ أربع حجَّات »[2] .

١٤٧ - الشيخ الإمام القدوة ، ابن خفيف ، شيخ الصوفية :

تفقَّه على أبي العباس بن سريج ، مُتمسِّكٌ بالكتاب والسنة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٢٨٧- ٢٨٩ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٣ / ٩٧٣ ، وسير أعلام النبلاء ١٦/٤٠٠ .

قال أبو العباس الفسوي : صنّف شيخنا ابن خفيف من الكتب ما لم يُصنِّفْه أحد ، وانتفع به جماعة صاروا أئمة يُقتدى بهم ، وعُمِّرَ حتى عمَّ نفعُهُ البلدان .

قال ابن خفيف رحمه الله : « اشتغِلوا بتعلُّم شيء ، ولا يغرنَّكم كلام الصوفية ، فإني كنتُ أُخبِّىء مِحْبرتي في جيب مَرْقعي ، والورق في حجزة سراويلي ، وأذهب في الخُفية إلى أهل العلم ، فإذا علموا بي ؛ خاصموني ، وقالوا : لا يُفلح ، ثم احتاجوا إليَّ »[١] .

قال الذهبي : « قد كان هذا الشيخ قد جمع بين العلم والعمل ، وعُلُوِّ السَّنَد ، والتمسُّك بالسُّنن ، ومُتِّع بطول العمر في الطاعة ، وانتقل إلى الله تعالى في ليلة الثالث من شهر رمضان ، وازدحم الخلق على سريره ، وكان أمرًا عجيبًا . وقيل : إنهم صلَّوا عليه نحوًا من مائة مرة »[٢] .

انظرْ وتعجَّبْ من سِيَرِ الصالحين وشغفهم بالعلم .. وهناك ما هو أعجب من قول ابن خفيف السابق ، فما كان يشغله شيء إلا أن يكتب العلم .

وقد كان من أولاد الأمراء .. فما شغلتْه الدنيا عن طلب العلم .. وهو الذي زهد في الدنيا .. وتفرَّغ للعلم والعمل .

قال ابن خفيف : « نُهبتُ في البادية ، وجعتُ حتى سقطتْ لي ثمانية أسنان ، وانتثر شَعْري ، ثمّ وقعت إلى فَيْد ، وأقمتُ بها حتى تماثلتُ ، وحججتُ ، ثم مضيتُ إلى بيت المقدس ، ودخلتُ الشام ، فنمتُ إلى جانب دكَّان صبّاغ ، وبات معي في المسجد رجلٌ به قيام ، فكان يخرج ويدخل ، فلمَّا أصبحْنا صَاحَ الناسُ ، وقالوا : نُقِبَ دكَّان الصَّبَّاغ وسُرقت ، فدخلوا المسجد ورأونا ، فقال المبطون : لا أدري ، غير أن هذا كان طول الليل يدخل ويخرج ، وما خرجتُ إلا مرَّةً تطهَّرتُ ،

(١) تبيين كذب المفتري لابن عساكر صـ ١٩١ ، وسير أعلام النبلاء ١٦ / ٣٤٦ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/٣٤٦ ، ٣٤٧ .

فجرُّوني وضربوني، وقالوا: تكلَّمْ، فاعتقدتُ التسليم، فاغتاظوا من سكوتي، فحملوني إلى دُكَّان الصبَّاغ ، وكان أثرُ رِجْل اللِّص في الرماد ، فقالوا : ضعْ رِجْلَك فيه ، فكان على قدر رجلي ، فزادهم غيظًا ، وجاءَ الأمير ، ونُصبت القِدْرُ ، وفيها الزيتُ يُغلى ، وأُحضرت السكين ، ومَنْ يقطع ، فرجعت إلى نفسي ، وإذا هي ساكنةٌ ، فقلتُ : إنْ أرادوا قطْع يدي سألتُهم أن يعفو عن يميني لأكتب بها ، وبقي الأمير يُهدِّدُني ويصول ، فنظرتُ إليه فعرفتُه ، كان مملوكًا لأبي ، فكلَّمني بالعربية وكلَّمتُه بالفارسية ، فنظر إليَّ ، وقال : أبو الحسين ! وبها كنتُ أُكنى في صباي ، فضحكت ، فأخذ يلطم برأسه ووجهه ، واشتغل الناس به ، فإذا بضجَّة ، وأنَّ اللصوص قد أُخِذوا ، فذهبتُ والناس ورائي وأنا مُلطَّخٌ بالدماء ، جائع لي أيام لم آكل ، فرأتني عجوز فقيرة ، فقالت : ادخلْ ، فدخلتُ ، ولم يرني الناس ، وغسلتُ وجهي ويدي ، فإذا الأمير قد أقبل يطلبُني ، فدخل ومعه جماعة ، وجرَّ من منطقته سكينًا ، وحلف بالله إنْ أمسكني أحدٌ لأقتلنَّ نفسي ، وضرب بيده رأسه ووجهه مائة صفعة ، حتى منعتُه أنا ، ثم اعتذر ، وجهد بي أن أقبل شيئًا ، فأبيْتُ ، وهربتُ ليومي »(١) .

فالشيء الذي كان يشغله فقط هو الخوف من قطع يمينه التي يكتب بها الحديث والعلم !!

١٤٨ - الحافظ المُجوِّد ، ابن المُظفَّر البغدادي :

تقدَّم في معرفة الرجال، وجمع وصنَّف، وعُمِّرَ دهرًا، وأكثرَ الحفَّاظُ عنه.

قال الخطيب: «كان ابن المُظفَّر فَهِمًا، حافظًا، صادقًا، مُكثرًا»(٢).

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٢) تاريخ بغداد ٣ / ٢٦٣ .

« قال ابن أبي الفوارس : سألتُ ابن المُظفَّر عن حديث عن الباغندي ، عن ابن زيد المنادي ، عن عمرو بن عاصم ، عن شعبة ، فقال : ليس هو عندي ، قلتُ : لعله عندك ؟ قال : لو كان عندي كنتُ أحفظُه ، وعندي عن الباغندي مائة ألف حديث ، ليس عندي هذا »[١] .

١٤٩ - الشيخ الصدوق شيخ العراق ، ابن شاهين ، صاحب التفسير الكبير :

قال عنه أبو الفتح بن أبي الفوارس : صنَّف ما لم يُصنِّفْه أحد .

قال عنه الذهبي : صنَّف ثلاثمائة مُصنَّف ؛ أحدها التفسير : ألف جزء ، والمُسنَد : ألف وثلاثمائة جزء ، و« التاريخ » : مائة وخمسين جزءًا ، و« الزهد » : مائة جزء .

« قال ابن شاهين رحمه الله : حسبتُ ما اشتريتُ به الحِبْرَ إلى هذا الوقت ، فكان سبعمائة درهم » .

« قال الداوودي: وكنا نشتري الحِبْرَ أربعة أرطال بدرهم . قال الداوودي : وكتب أبو حفص بعد ذلك زمانًا »[٢] .

١٥٠ - الحافظ ابن حبَّان ، الإمام العلَّامة أبو حاتم ، محمد بن حبَّان البستي ، صاحب « صحيح ابن حبان » ، المُسمَّى « الأنواع والتقاسيم » :

ولي قضاء سمرقند ، وكان من فقهاء الدين وحفَّاظ الآثار ، وكان من عقلاء الرجال ، ومن أوعية العلم في الفقه والحديث واللغة والوعظ ، عاد من رحلته الطويلة إلى بلده « بست » سنة (٣٤٠ هـ) ، واستقرَّ فيها ، وصنَّف ما يُقارب ستين كتابًا ، وكانت الرحلة إليه لسماع كتبه .

« قال ابن حبَّان في أثناء كتابه « الأنواع » : لعلنا قد كتبنا عن أكثر

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٤١٩ .

(٢) تاريخ بغداد ١١ / ٢٦٧ ، وسير أعلام النبلاء ١٦ / ٤٣٣ .

من ألفي شيخ » .

قلتُ - أي الذهبي -: « كذا فلتكن الهِمَم ، هذا مع ما كان عليه من الفقه والعربية والفضائل الباهرة وكثرة التصانيف »(١) .

سافر بين الشاش والإسكندرية، وأدرك الأئمة والعلماء والأسانيد العالية، وأخذ فقه الحديث والغوص على معانيه عن إمام الأئمة أبي بكر ابن خزيمة ولازمه وتلمذ له ، وصارت تصانيفه عُدَّةً لأصحاب الحديث .

وهكذا كان تحصيل العلم من راغبيه قديمًا ؛ طوافٌ في البلدان ، ونَصَبٌ للأبدان ، وكَسَبٌ للزمان ، لا راحة ولا استرخاء ، ولا تمنعهم الصعوبات من لقاء العلماء ، وأمانيهم في تحصيل العلم وخدمة الدين تحدوهم للمزيد ، وتُنسيهم كلَّ ما يلقونه من تعبٍ وعناء .

١٥١ - الحافظ جعفر بن دُرُسْتُويَه الفسوي :

تلميذ الإمام علي بن المديني البصري إمام المحدِّثين .

ساق هذا الحافظ خبرًا عجيبًا في التزاحم على العلم والتسابق إلى تحصيله؛ من أعجب الأخبار، ولكنه ليس فريدًا وحيدًا؛ بل له أمثال كثيرة:

« عن جعفر بن درستويه قال : كنا نأخذ المجلس في مجلس علي بن المديني وقت العصر اليوم لمجلس غدٍ ، فنقعد طوال الليل ؛ مخافةَ ألا نلحق من الغد موضعًا نسمع فيه ، فرأيتُ شيخًا في المجلس يبول في طيلسانَ ويُدرج الطيلسان ؛ مخافة أن يُؤخذ مكانه إن قام للبول »(٢) .

يفعل هذا كبار العلماء ممن يلبس الطيلسان .. فأيُّ حرصٍ على العلم بعد هذا !! .

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٩٤ .

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ٢ / ١٣٨ ، الآداب الشرعية لابن مُفلح ٢ / ١٤٨ .

١٥٢ - شيخ القُرَّاء ، الإمام أبو الحسن الداراني القطَّان الدمشقي ، علي ابن داود :

إمام جامع دمشق ومُقرؤه والمُحدث فيه . قرأ بالروايات على طائفة من كبار القُرَّاء ، وتلقَّاها الناس عنه .

قال تلميذه رشأ بن لطيف المعـرّي الدمشقي : لم ألق مثله حذقًا وإتقانًا في رواية ابن عامر .

قال الحافظ ابن عساكر: «سمعتُ ابن الأكفاني يحكي عن بعض مشايخه أن أبا الحسن بن داود كان إمامَ (داريّا) ، فمات إمامُ جامع دمشق ، فخرج أهل البلد إلى (داريّا) ليأتوا به ، فلبس أهل (داريّا) السلاح وقالوا : لا نُمكِّنُكم من أخذ إمامنا ، فقال أبو محمد عبد الرحمن بن نصر : ياأهل (داريّا) ، ألا ترضون أن يُسمع في البلاد أن أهل دمشق احتاجوا إليكم في إمام ؟ فقالوا: قد رضينا. فقُدِّمت له بغلة القاضي، فأبى، وركب حماره ، ودخل معهم ، فسكن في المنارة الشرقية - أي من جامع دمشق - وكان يُقرىء بشرقي الرواقي الأوسط ، ولا يأخذ على الإمامة رزقًا ، ولا يقبل ممن يقرأ عليه برًّا ، ويقتات من غلَّة أرض له بداريّا ، ويحمل ما يكفيه من الحنطة ، ويخرج بنفسه إلى الطاحون فيطحنه ، ثم يعجنه ويخبزه ، وانتهت إليه الرئاسة في قراءة الشاميين ، ومضى على سدادٍ،رحمه الله تعالى »[(١)] .

أولئك الناسُ إنْ عُدُّوا وإن ذُكِرُوا ... ومَنْ سواهم فلغوٌ غيرُ معدود

١٥٣ - الحافظ أبو نصر السِّجْزِي :

« هو الحافظ الإمام عَلَمُ السنة عُبيد الله بن سعيد بن حاتم أبو نصر السجزي، من أحفظِ أهل زمانه للحديث، طوَّف الآفاق في طلب الحديث.

---

(١) « معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار » للحافظ الذهبي ١ / ٢٩٤ .

قال الحافظ أبو إسحاق الحبَّال : كنتُ يومًا عند أبي نصر السجزي ؛ فدُقَّ الباب، فقمتُ ففتحتُه، فدخلت امرأة وأخرجتْ كيسًا فيه ألف دينار، فوضعته بين يدي الشيخ وقالت : أنفقْها كما ترى ، قال : ما المقصود ؟ قالت : تتزوَّجني ، ولا حاجة لي في الزواج ، ولكن لأخدمك ، فأمرها بأخذ الكيس وأن تنصرف ، فلما انصرفتْ ؛ قال : خرجتُ من سجستان بنيَّة طلب العلم ، ومتى تزوَّجتُ سقط عني هذا الاسم ، وما أُوثر على ثواب طلب العلم شيئًا »[1] .

١٥٤ ، ١٥٥ - أبو جندل القرطبي ، وأبو علي القالي :

جاء في ترجمة أبي جندل القرطبي : أبي نصر هارون بن موسى بن صالح بن جندل القيسي الأديب النحوي القرطبي :

« قال أبو نصر هارون بن موسى : كنا نختلف إلى أبي علي - القالي - البغدادي رحمه الله وقت إملائه النوادر بجامع الزهراء في قرطبة ونحن في فصل الربيع ، فبينما أنا ذات يوم في بعض الطريق إذْ أخذتني سحابة ، فما وصلتُ إلى مجلسه رحمه الله إلا وقد ابتلَّت ثيابي كلها ، وحوالَيْ أبي علي أعلامُ أهل قرطبة ، فأمرني بالدُّنُوِّ منه ، وقال لي : مهلًا ياأبا نصر ، لا تأسفْ على ما عرض لك ، فذا شيء يضمحلُّ عنك بسرعة بثياب غيرها تُبدلها . وقال أبو علي : قد عرض لي ما أبقى بجسمي ندوبًا تدخل معي القبر ، ثم قال : أنا كنتُ أختلف إلى ابن مجاهد رحمه الله ، فأدلجتُ إليه - أي ذهبتُ إليه من آخر الليل قبل الفجر - لأتقرَّب منه ، فلما انتهيتُ إلى الدرب الذي كنت أخرج منه إلى مجلسه ؛ ألفيتُه مُغلقًا ، وعسِر عليَّ فتْحُه ، فقلتُ : سبحان الله ! أُبكِّرُ هذا البكور وأُغْلَبُ على القرب منه ، فنظرتُ إلى سربٍ حفر تحت الأرض ، بجنب الدار ، فاقتحمتُه ، فلما توسَّطتُه ضاق بي ، ولم أقدر

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ٣ / ١١١٩ .

على الخروج ولا على النهوض ، فاقتحمتُه أشدَّ اقتحام حتى نفدتُ ، بعد أن تخرَّقتْ ثيابي ، وأثَّر السربُ في لحمي حتى انكشف العظم ، ومَنَّ الله عليَّ بالخروج ، فوافيت مجلس الشيخ على هذه الحال ، فأين أنت مما عرض لي ، وأنشدنا :

دببتُ للمجدِ والساعون قد بلغوا ... جُهْدَ النفوس وألقَوْا دونه الأُزُرا
وكابدوا المجدَ حتى ملَّ أكثرُهم ... وعانق المجدَ مَنْ أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجدَ تمرًا أنت آكله ... لن تبلغَ المجدَ حتى تلعقَ الصبرا»[1]

١٥٦ - الحافظ الجوزقي :

«الإمام الأوحد أبو بكر: محمد بن عبد الله بن زكريا الشيباني الجوزقي المُعدّل، مُحدِّث نيسابور، وصاحب «الصحيح المُخرَّج على صحيح مسلم».
قال رحمه الله : أنفقتُ في طلب الحديث مائة ألف درهم ، ما كسبتُ درهمًا »[2] .

١٥٧ - الإمام الدارقطني :

« الحافظ المُجوِّد شيخ الإسلام، عَلَمُ الجهابذة ، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي ، البغدادي ، المقرىء ، المُحدِّث ، من أهل محلَّة دار القطن ببغداد . كان من بحور العلم، ومن أئمة الدنيا. انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله ، مع التقدُّم في القراءات وطرقها ، وقوة المشاركة في الفقه ، والاختلاف ، والمغازي ، وأيام الناس وغير ذلك » .

قال أبو عبد الله الحاكم في كتاب « مُزكّي الأخبار » : « أبو الحسن صار واحدَ عصره في الحفظ والفهم والورع ، وإمامًا في القرَّاء والنحويين. صنَّف التصانيف ، وصار ذكْره في الدنيا . وهو أوَّل مَنْ صنّف القراءات

(١) « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطي ٣ / ٣٦٢ .
(٢) تذكرة الحفاظ ٣ / ١٠١٣ .

وعقد لها أبوابًا قبل فروش الحروف .

قال الحاكم : حجَّ شيخنا أبو عبد الله ابن أبي ذهل ، فكان يصف حفْظه وتفرُّده بالتقدُّم في سنة ثلاث وخمسين ، حتى استنكرتُ وصْفه ، إلى أن حججتُ في سنة سبع وستين ، فجئتُ بغداد ، وأقمتُ بها أزيد من أربعة أشهر ، وكثُر اجتماعُنا بالليل والنهار ، فصادفتُه فوق ما وصفه ابن أبي ذهل ، وسألتُه عن العلل والشيوخ .

قال أبو بكر الخطيب : كان الدارقطني فريدَ عصْره ، وقريعَ دهْره ، ونسيجَ وحْده ، وإمامَ وقْته . انتهى إليه عُلُوُّ الأثر ، والمعرفة بعلل الحديث ، وأسماء الرجال ؛ مع الصدق والثقة ، وصحة الاعتقاد ، والاضطلاع من علوم سوى الحديث ؛ منها : القراءات ، فإنه له فيها كتاب مُختصر ؛ جمع الأصول في أبواب عقدها في أول الكتاب ، وسمعتُ بعض مَنْ يعتني بالقراءات يقول : لم يُسبَقْ أبو الحسن إلى طريقته في هذا ، وصار القُرَّاء بعده يسلكون ذلك. ومنها: المعرفة بمذاهب الفقهاء، فإن كتابه «السنن» يدلُّ على ذلك ، وبلغني أنه درس فقْه الشافعي على أبي سعيد الإصطخري ، وقيل : على غيره . ومنها : المعرفة بالأدب والشعر » .

قال رجاء بن محمد المعدّل : قلتُ للدارقطني : رأيتَ مثلَ نفْسَك ؟ فقال : قال الله : ﴿ **فلا تُزكُّوا أنفسكم** ﴾ ، فألححتُ عليه ، فقال : لم أرَ أحدًا جمع ما جمعتُ . رواه أبو ذر والصوري عن رجَاء المصري.وقال أبو ذر : قلتُ لأبي عبد الله الحاكم : هل رأيتَ مثل الدارقطني ؟ فقال : هوَ ما رأى مثل نفسه ، فكيف أنا ؟!

وكان الحافظ عبد الغني الأزدي إذا حكى عن الدارقطني ؛ يقول : قال أستاذي .

قال الأزهري : رأيتُ ابن أبي الفوارس سأل الدارقطني عن علَّة حديث أو اسم ، فأجاب ، ثم قال : ياأبا الفتح، ليس بين الشرق والغرب

مَنْ يعرف هذا غيري .

وقال أبو بكر البرقاني : كان الدارقطني يُملي عليَّ « العِلَل » من حفْظه.

قال الذهبي: «إنْ كان كتابُ «العلل» الموجود قد أملاه الدارقطني من حفظه - كما دلّت عليه هذه الحكاية - فهذا أمرٌ عظيمٌ يُقضى به للدارقطني أنه أحفظ أهل الدنيا ، وإنْ كان قد أملى بعضه من حفظه فهذا مُمكنٌ . وقد جمع قبله كتاب « العلل » علي بن المديني حافظ زمانه .

أهدى إليه رجُلٌ هدية ، فأملى عليه من حفْظه سبعة عشر حديثًا ؛ متونُ جميعها : « إذا أتاكم كريمُ قوم فأكرموه » .

قال أبو عبد الرحمن السُّلمي فيما نقله عنه الحاكم : شهدتُ بالله ، إن شيخنا الدارقطني لم يُخلّف على أديم الأرض مثله في معرفة حديث رسول الله ﷺ ، وكذلك الصحابة والتابعين وأتباعهم .

قال الخطيب في ترجمته: حدَّثنا أبو نصر علي بن هبة الله بن ماكولا، قال : رأيتُ كأني أسأل عن حال الدارقطني في الآخرة ، فقيل لي : ذلك يُدعى في الجنة الإمام .

قال الخطيب : سألتُ البرقاني : هل كان أبو الحسن يُملي عليك « العلل » من حفْظه ؟ قال : نعم ، أنا الذي جمعتُها ، وقرأها الناس من نسختي .

ولحمزة بن محمد بن طاهر في الدارقطني :

جعلناك فيما بيننا ورسولنا وسيطًا فلم تَظْلِمْ ولم تتحوَّب
فأنت الذي لولاك لم يعرف الورى ولوْ جهدوا ما صادقٌ من مُكذِّب»[(١)]

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٤٤٩ - ٤٦٠ .

١٥٨ - الإمام الحافظ أحمد بن منصور بن ثابت :

« الحافظ الجوَّال ، أبو العباس الشيرازي ، تلميذ أبي القاسم الطبراني .

قال عنه الحاكم : جمع من الحديث ما لم يجمعه أحد ، وصار له القبول بشيراز ، بحيث يُضرب به المثل .

قال أحمد بن منصور الشيرازي: كتبتُ عن الطبراني ثلاثمائة ألف حديث.

قال الحسين بن أحمد الشيرازي : لما مات أحمد بن منصور الحافظ ؛ جاء إلى أبي رجُلٌ ، فقال : رأيته في النوم وهو في المحراب واقف بجامع شيراز ، وعليه حُلَّةٌ ، وعلى رأسه تاجٌ مكلَّل بالجوهر ، فقلتُ : ما فعلَ الله بك ؟ قال : غفر لي وأكرمني ، قلتُ : بماذا ؟ قال : بكثرة صلاتي على رسول الله ﷺ »[١] .

١٥٩ - الحافظ ابن بُكير :

الإمام مُفيد بغداد ، أبو عبد الله ، الحسين بن أحمد بن عبد الله بن بُكير الصيرفي .

قال عنه الأزهري : « كنتُ أحضر عنده وبين يديه أجزاء ، فأنظر فيها ، فيقول أيُّما أحبُّ إليك : تذكرُ لي متنًا حتى أُخبرك بإسناده ، أو تذكر إسنادًا حتى أُخبرك بمتنه ؟ فكنتُ أذكر له المتون ، فيُحدِّثني بأسانيدها كما هي حفظًا ، فعلتُ هذا معه مرارًا كثيرة ، وكان ثقةً ، لكنهم حسدوه ، وتكلَّموا فيه »[٢] .

١٦٠ - عالم المغرب ابن أبي زيد « مالك الصغير » :

الإمام العلّامة القدوة الفقيه ، أبو محمد ، عبد الله بن أبي زيد ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٨ / ١٣، ١٤ ، سير أعلام النبلاء ١٧ / ٩ .

القيرواني ، المالكي ، ويُقال له : « مالك الصغير » .

وكان أحد مَنْ بَرَّز في العلم والعمل .

قال القاضي عياض : « حاز رئاسة الدين والدنيا ، ورُحِل إليه من الأقطار، ونجُب أصحابه، وكثر الآخذون عنه، وهو الذي لخَّص المذهب وملأ البلاد من تواليفه ، تفقَّه بفقهاء القيروان .

صنَّف كتاب « النوادر والزيادات » في نحو المائة جزء ، واختصر «المدوَّنة»، وعلى هذين الكتابين المعوَّل في الفُتيا بالمغرب، وهذَّب كتاب «العتبية» على الأبواب، وكتاب «الاقتداء بمذهب مالك»، وكتاب «الرسالة»، وكتاب « الثقة بالله والتوكُّل على الله » ، وكتاب « المعرفة والتفسير » ، وكتاب « إعجاز القرآن » ، وكتاب « النهي عن الجدال » ، وصنع رسالته المشهورة وله سبع عشرة سنة .

وكان مع عظمته في العلم والعمل ذا برٍّ وإيثار وإنفاق على الطلبة وإحسان . وصل الفقيه يحيى بن عبد العزيز العُمري حين قدم القيروان بمائة وخمسين دينارًا ، وجُهِّزت بنت الشيخ أبي الحسن القابسي بأربعمائة دينار من مال ابن أبي زيد .

وقيل : إن كبير الزهَّاد مُحرزًا التونسي أُتي بابنة ابن أبي زيد وهي زَمِنة ، فدعا لها ، فقامت ، فعجبوا ، وسبَّحوا الله ، فقال : والله ما قلتُ إلَّا : بحُرمة والدها عندك ، اكشفْ ما بها ؛ فشفاها الله »[1] .

١٦١ - الإمام الحافظ الجوَّال ابن مَنده :

مُحدِّث الإسلام ، أبو عبد الله ، محمد بن إسحاق الأصبهاني ، صاحب التصانيف .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٠) : « ولم أعلم أحدًا كان

(١) سير أعلام النبلاء ١٧ / ١٠ - ١٢ .

أوسعَ رحلةً منه ، ولا أكثر حديثًا منه ، مع الحفظ والثقة ، فبلغنا أن عِدَّة شيوخه ألف وسبعمائة شيخ » .

وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ (٣ / ١٠٣٢) :

« عِدَّة شيوخه الذين سمع منهم وأخذ عنهم : ألف وسبعمائة شيخ ، وكتب بيده عدَّة أحمال .

ولما رجع من الرحلة الطويلة ؛ كانت كُتُبُه عدة أحمال ، حتى قيل : إنها كانت أربعين حملًا ، وما بلغنا أن أحدًا من هذه الأُمَّة سمع ما سمع ، ولا جمع ما جمع ، وكان ختامَ الرحَّالين ، وفَرْدَ المُكثرين ، مع الحفظ والمعرفة والصدق وكثرة التصانيف .

قال جعفر المستغفري : سألتُه كم تكون سماعات الشيخ ؟ قال : تكون خمسة آلاف صَنٍّ[1]. قلتُ- أي الذهبي-: والصَّنُّ يجيء عشرة أجزاء كبار.

وأوّل ارتحاله كان قبل سنة (٣٣٠ هـ) إلى نيسابور .

قال الحاكم: التقينا ببخارى سنة (٣٦١هـ)، وقد زاد زيادة ظاهرة، ثم جاءنا إلى نيسابور سنة خمس وسبعين ذاهبًا إلى وطنه وهو ابن (٦٥) سنة ، ورُزق الأولاد ، وحدَّث بالكثير » .

وقال الذهبي في السير (١٧ / ٣٦) : بقي أبو عبد الله في الرحلة بضعًا وثلاثين سنة .

ياسبحان الله ! رحل وعُمرُه عشرون سنة، ورجع وعُمرُه خمس وستون سنة ، وكانت رحلته خمسًا وأربعين سنة .. أخذت من عمره خمسًا وأربعين

---

(١) الصَّنُّ : الصِّنُّ بكسر الصاد : السلة المطبقة . قال الصفدي : وجاء في القاموس : الصِّن : شبه السلة المطبقة ، يُجعل فيها الطعام والخبز . انتهى . قال شارحه الزبيدي : « ظاهر سياقه أنه بكسر الصاد ، والصواب بفتحها » . انتهى .

سنة !! لله ما أعلى هِمَّته في الصبر والتحمُّل ، وهكذا غلاء العلم على أهله وعلى قلوبهم، ركبوا في تحصيله الصعب والذَّلول، وقطعوا البراري والقفار، وامتطوا من أجله المخاطر والبحار ، ولقوا ما لقوا من الشدائد والأهوال ما الله به عليمٌ . ولكنها حلاوة التحصيل ولذَّتُه ، والانغمار في تحصيل العلم انغمارًا ، والاشتغال به ليلًا ونهارًا ، قطعوا علاقاتهم بسواه من الأهل والزوجة والولد والبلد ، فخرجوا أئمة أحبارًا ، وسادة أبرارًا، ﴿**وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾ [السجدة : ٢٤] .

قال أبو نعيم الحافظ عن ابن منده – وكانت بينهما وحشة شديدة –: كان جبلًا من الجبال .

قال البَاطِرقاني : حدثنا أبو عبد الله بن منده إمام الأئمة في الحديث ، لقَّاه الله رضوانه .

قال الحسين بن عبد الملك: كتب إلَيّ عبد الرحمن بن أبي عبد الله، أن والده كتب عن أربعة مشايخ أربعة آلاف جزء، وهم أبو سعيد بن الأعرابي، وأبو العباس الأصمّ ، وخيثمة الأطرابلسي ، والهيثم الشاشي . قال : وسمعتُ أبي يقول : كتبتُ عن ألف وسبعمائة نفس .

قال أحمد بن جعفر الحافظ : كتبتُ عن أزيد من ألف شيخ ، ما فيهم أحفظ من ابن منده .

وقال شيخ هراة أبو إسماعيل الأنصاري : أبو عبد الله بن منده سيِّد أهل زمانه .

وعن علي بن الحسين الإسكاف قال : سمعتُ أبا عبد الله بن منده يقول : رأيتُ ثلاثين ألف شيخ ؛ فعشرة آلاف ممّن أروي عنهم وأقتدي بهم ، وعشرة آلاف أروي عنهم ، ولا أقتدي بهم ، وعشرة آلاف من نظرائي ، وليس من الكل واحد إلا وأحفظ عنه عشرة أحاديث أقلّها .

قال الذهبي : « قلتُ : قوله : إنه كتب عن ألف وسبعمائة شيخ أصحُّ ، وهو شيء يقبله العقل ، وناهيك به كثرة ، وقلَّ مَنْ يبلغ ما بلغه الطبراني ، وشيوخه نحو من ألف ، وكذا الحاكم ، وابن مَرْدويه ، فالله أعلم » .

قال الحافظ العراقي في «شرح ألفيته» (٢/٢٣٣): «وقد وُصف بالإكثار من الشيوخ : سفيان الثوري ، وأبو داود الطيالسي ، ويونس بن محمد المؤدّب ، ومحمد بن يونس الكُدَيْمي ، وأبو عبد الله بن منده ، والقاسم ابن داود البغدادي ، روينا عنه قال : كتبتُ عن ستة آلاف شيخ » .

قال ابن منده رحمه الله : طفتُ الشرق والغرب مرَّتين . وحكى أبو زكريا يحيى بن منده قال : « كنتُ مع عمِّي عبيد الله في طريق نيسابور ، فلما بلغنا بئرْ مَجَنَّة، قال عمِّي: كنتُ ها هنا مرةً، فعرض لي شيخ جمّال، فقال : كنتُ قافلًا من خراسان مع أبي ، فلما وصلنا إلى ها هنا إذا نحن بأربعين وقْرا من الأحمال ، فظننّا أنها منسوج الثياب ، وإذا خيمة صغيرة فيها شيخ ، فإذا هو والدك ، فسأله بعضنا عن تلك الأحمال ، فقال: هذا متاع قلَّ مَنْ يرغب فيه في هذا الزمان، هذا حديث رسول الله ﷺ.

قال يحيى بن منده : ثم ذكر لي عمِّي بعد ذلك ، فقال : قفلتُ من خراسان ومعي عشرون وقْرًا من الكتب ، فنزلتُ عند هذا البئر – بئر مجنة – فنزلتُ عنده اقتداءً بالوالد » .

يرحم الله بني منده .

قال أبو علي الحافظ شيخ الحاكم : بنو منده أعلام الحفَّاظ في الدنيا قديمًا وحديثًا ، ألا ترون إلى قريحة أبي عبد الله .

وقال أبو نعيم الأصبهاني : ابن منده حافظ من أولاد المُحدثين .

نعم ، فهو الحافظ محمد بن المحدِّث أبي يعقوب إسحاق بن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يحيى بن منده .

قال الذهبي : « ما علمتُ بيتًا في الرواة مثل بيت بني منده ؛ بقيت الرواية فيهم من خلافة المعتصم وإلى بعد الثلاثين وستمائة .

قال الباطرقاني : كنتُ مع أبي عبد الله في الليلة التي تُوفِّي فيها ، ففي آخر نفسِه قال واحد منا : لا إله إلا الله - يُريد تلقينه - فأشار بيده دفعتين ثلاثة ؛ أي : اسكت ، يُقال لي مثل هذا ؟! »[1] .

كلام نفيس في عُلُوِّ الهمَّة بالرحلة في طلب الحديث :

قال أبو عبد الله الحاكم النيسابوري في « معرفة علوم الحديث » عن أصحاب الحديث : « هم قوم سلكوا محجّة الصالحين ، واتبعوا آثار السلف من الماضين ، ودمغوا أهل البدع والمخالفين ، بسنن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أجمعين .

آثروا قطْع المفاوز والقفار ، على التنعُّم في الدِّمَن والأوطار ، وتنعَّموا بالبؤس في الأسفار ، مع مساكنة أهل العلم والأخبار ، وقَنِعوا عند جمْع الحديث والآثار بوجود الكِسَر والأطمار .

جعلوا المساجد بيوتهم، وأساطينها تكاياهم[2]، وبواريها[3] فُرشَهم، نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة، وسمَرَهم المُعارضة[4] واستروحاهم المذاكرة ، وخلوقهم المداد ، ونومهم السُّهاد ، واصطلاءهم الضياء ، وتوسُّدَهم الحصى .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٣٠ - ٣٨ ، تذكرة الحفاظ ٣ / ١٠٣١ - ١٠٣٥ .

(٢) الأساطين : جمع أسطوانة ، وهي سارية المسجد التي يرتكز عليها سقفُه ، وتكاياهم : يقصد بها متكآتهم التي يسندون ظهورهم وجنوبهم عليها .

(٣) البواري : جمع بورية وبارية ، وهي الحصيرة المنسوجة التي تُبسط ويُجلس عليها .

(٤) هي مقابلة الكتاب الذي كتبوه بالكتاب الذي سمعوه أو نقلوه منه .

فالشدائد مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاء ، ووجود الرخاء مع فقْد ما طلبوه عندهم بؤس ! فعقولهم بلذاذة السُّنَّة غامرة ، وقلوبهم بالرضاء في الأحوال عامرة، تعلُّمُ السُّنَنِ سرورُهم، ومجالسُ العلمِ حبورُهم، وأهلُ السُّنَّةِ قاطبةً إخوانُهم ، وأهلُ الإلحادِ والبدِع بأسرها أعداؤهم »[1] .

قال منصور بن عمَّار في وصْفه لأصحاب الحديث وعُلوِّ هممهم في جمْعه وتحصيله : « ووكّل بالآثار المفسرة للقرآن ، والسُّنَن القويَّة الأركان ، عصابة مُنتخَبة ، وفقهم لِطلابها وكتابها ، وقوَّاهم على رعايتها وحراستها ، وحبَّب إليهم قراءتها ودراستها، وهوَّن عليهم الدأب والكلال، والحَلَّ والترحال، وبذْل النفس مع الأموال ، وركوب المخاوف من الأهوال .

فهم يرحلون من بلاد إلى بلاد ، خائضين في العلم كلَّ وادٍ ، شُعْثَ الرؤوس خُلقانَ الثيابِ ، خمْصَ البطونِ ، ذُبْلَ الشفاهِ ، شُحْبَ الألوانِ ، نُحَّلَ الأبدانِ ، قد جعلوا لهم همًّا واحدًا ، ورضوا بالعلم دليلًا ورائدًا ، لا يقطعهم عنه جوعٌ ولا ظماءٌ ، ولا يُملّهم منه صيفٌ ولا شتاءٌ ، مائزين الأثر ؛ صحيحَه من سقيمه ، وقويَّه من ضعيفه ؛ بألباب حازمة ، وآراءٍ ثاقبة ، وقلوب للحقِّ واعية ؛ فأمِنَتْ تمويه المموِّهين ، واختراعَ المُلحدين ، وافتراءَ الكاذبين .

فلو رأيتهم في ليلهم ، وقد انتصبوا لِنَسْخ ما سمعوا ، وتصحيح ما جمعوا، هاجرين الفرشَ الوطيَّ، والمضجعَ الشهيَّ، غشيهم النعاسُ فأنامهم، وتساقطتْ من أكُفِّهم أقلامُهم، فانتبهوا مذعورين ! قد أوجع الكدُّ أصلابَهم، وتيَّه السهرُ ألبابهم ، فتمطَّوْا ليُريحوا الأبدان ، وتحوَّلوا ليفقدوا النوم من مكان إلى مكان ، ودلكوا بأيديهم عيونهم ، ثم عادوا إلى الكتابة حرصًا عليها ، وميلًا بأهوائهم إليها – لعلمتَ أنهم حُرَّاس الإسلام ، وخُزَّان الملك العلَّام .

---

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم (صـ ٢ – ٣) .

فإذا قضوا من بعض ما راموا أوطارهم ؛ انصرفوا قاصدين ديارهم ، فلزموا المساجد ، وعمَّروا المشاهد ، لابسين ثوبَ الخضوع ، مُسالمين ومُسَلِّمين ، يمشون على الأرض هونًا ، لا يُؤذون جارًا ، ولا يقترفون عارًا ، حتى إذا زاغ زائغٌ ، أو مرق في الدين مارقٌ ؛ خرجوا خروج الأُسْدِ من الآجام ، يُناضلون عن معالم الإسلام »[1] .

١٦٢ - العَلَويُّ :

الإمام السيِّد ، المُحدِّث ، مُسنِد خراسان ، أبو الحسن ، محمد بن الحُسين بن داود الحسني النيسابوري ، رئيس السادة ، وهو شيخ الحاكم .

قال عنه الحاكم : « هو ذو الهِمّة العالية ، والعبادة الظاهرة ، وكان يُسأل أن يُحدِّث فلا يُحدِّث ، ثم في الآخر عقدت له مجلس الإملاء ، وانتقيتُ له ألف حديث ، وكان يُعدُّ في مجلسه ألف محبرة ، فحدَّث وأملى ثلاث سنين »[2] .

١٦٣ - الحاكم النيسابوري :

الإمام الحافظ شيخ المُحدِّثين ، أبو عبد الله بن البَيِّع الضبيِّ .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧ / ١٦٣) : « طلب هذا الشأن في صِغَرِه بعناية والده وخاله ، وقد استملى على أبي حاتم بن حبَّان وهو ابن ثلاث عشرة سنة . ولحق بالأسانيد العالية بخراسان والعراق وما وراء النهر ، وسَمِع من نحو ألفي شيخ ، ينقصون أو يزيدون ، فإنه سمع بنيسابور وحدها من ألف نفسٍ ، وارتحل إلى العراق وهو ابن عشرين سنة . صنَّف وخرَّج ، وجرح وعدَّل ، وصحَّح وعلَّل ، وكان من بحور العلم على

---

(١) المحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي (صـ ٢٢٠ - ٢٢١) .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٩٨ .

تشيُّع قليل فيه . بلغت تصانيفه قريبًا من خمسمائة جزء .

قال عنه عبد الغفّار بن إسماعيل : الحاكم أبو عبد الله هو إمام أهل الحديث في عصره ، العارف به حقَّ معرفته . تصانيفُه المشهورة تطفح بذكر شيوخه، وقرأ بخراسان على قُرَّاء وقته، وتفقَّه على أبي الوليد والأستاذ أبي سهل ، واختصَّ بصحبة الإمام أبي بكر الصبغي ، وكان الإمام يُراجعه في السؤال والجرح والتعديل ، وأوصى إليه في أمور مدرسته دار السُّنَّة ، وفوَّض إليه تولية أوقافه في ذلك ، واتفق له من التصانيف ما لعله يبلغ قريبًا من ألف جزء من تخريج «الصحيحين» والعلل والتراجم والأبواب والشيوخ، ثم المجموعات مثل «معرفة علوم الحديث»، و «المستدرك»؛ و «تاريخ النيسابوريين»، وكتاب «مزكّي الأخبار»، و «المدخل إلى علم الحديث»، وكتاب «الإكليل»، و «فضائل الشافعي»، وغير ذلك. ولقد سمعتُ مشايخنا يذكرون أيامه، ويحكون أنّ مُقدّمي عصره مثل أبي سهل الصعلوكي والإمام ابن فورك وسائر الأئمة يقدمونه على أنفسهم ، ويُراعون حقَّ فضْله ، ويعرفون له الحُرمة الأكيدة، ثم أطنب عبد الغفّار في نحو ذلك من تعظيمه، وقال : هذه جُمَلٌ يسيرةٌ هي غيضٌ من فيض سِيَرِه وأحواله ، ومَنْ تأمَّل كلامه في تصانيفه ، وتصرُّفه في أماليه ، ونظَرَهُ في طُرُقِ الحديث ؛ أذعن بفضله ، واعترف له بالمزيَّة على مَنْ تقدَّمه ، وإتعابه مَنْ بعْده ، وتعجيزه اللاحقين عن بلوغ شأوه ، وعاش حميدًا ، ولم يُخلّف في وقته مثله .

قال الحاكم رحمه الله : شَربتُ ماء زمزم ، وسألتُ الله أن يرزقني حُسْنَ التصنيف »[1] .

« قال أبو نصر الوائلي : لما ورد أبو الفضل الهمذاني نيسابور ، تعصَّبوا له ، ولقّبوه : بديع الزمان ، فأعجب بنفسه إذ كان يحفظ المائة بيت إذا

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٧ / ١٦٢ - ١٧٣ .

أُنشدت مرّةً ، ويُنشدها من آخرها إلى أوَّلها مقلوبة ، فأنكر على الناس قولهم : فلان الحافظ في الحديث، ثم قال : وحِفْظُ الحديث مما يُذكر ؟! فسمع به الحاكم ابن البيِّع ، فوجَّه إليه بجزء ، وأجَّل له جمعة في حفظه ، فردَّ إليه الجزء بعد الجمعة ، وقال : مَنْ يحفظ هذا ؟ محمد بن فلان ، وجعفر بن فلان ، عن فلان ؟ أسامي مختلفة ، وألفاظ مُتباينة ؟ فقال له الحاكم: فاعرفْ نفسك، واعلم أن هذا الحفظ أصعب مما أنت فيه»[(١)].

١٦٤ - ابن الباقلاني :

الإمام القاضي أبو بكر محمد بن الطيِّب الباقلاني .

صنَّف في الردِّ على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية والكرَّامية .

قال عنه القاضي عياض في « طبقات المالكية » : « هو المُلقَّب بسيف السُّنة ولسان الأمَّة ، المُتكلِّم على لسان أهل الحديث وطريق أبي الحسن ، وإليه انتهت رئاسة المالكية في وقته »[(٢)] .

قال أبو بكر الخطيب : « كان وِرْدُهُ في كل ليلة عشرين ترويحة في الحضَرِ والسَّفَرِ ، فإذا فرغ منها كتب خمسًا وثلاثين ورقة من تصنيفه. سمعت علي بن محمد الحربي يقول ذلك . وسمعتُ علي بن محمد الحربي يقول : جميع ما كان يذكر أبو بكر بن الباقلَّاني من الخلاف بين الناس صنَّفه من حفْظه ، وما صنَّف أحد خلافًا إلا احتاج أن يُطالع كُتُبَ المخالفين؛ سوى ابن الباقلاني.

قال الخطيب : سمعتُ أبا بكر الخوارزمي يقول : كلُّ مُصنِّف ببغداد إنما ينقل من كُتُبِ الناس ، سوى القاضي أبي بكر ، فإنما صدْرُهُ يحوي علْمَه

---

(١) « طبقات الشافعية » للسبكي ٤ / ١٦٠ .
(٢) ترتيب المدارك ٤ / ٥٨٥ ، ٥٨٦ .

وعلّمَ الناس »[١] .

« لما مات قال فيه أحدهم :

انظرْ إلى جبلٍ تمشي الرجالُ به وانظرْ إلى القبرِ ما يحوي من الصَّلَفِ
وانظرْ إلى صارمِ الإسلام مُنغمدًا وانظرْ إلى دُرَّةِ الإسلام في الصدفِ

مات رحمه الله وغالب قواعده على السُّنَّة ، وكان سيفًا على المعتزلة والرافضة والمشبِّهة ، وقد أمر شيخ الحنابلة أبو الفضل التميمي مناديًا يقول بين يدي جنازته : هذا ناصر السنة والدين ، والذابُّ عن الشريعة ، هذا الذي صنَّف سبعين ألف ورقة »[٢] .

١٦٥ - أبو حامد الإسفراييني :

قال عنه السبكي في « طبقات الشافعية » :

« حافظ المذهب وإمامه ، جبلٌ من جبال العلم منيعٌ ، وحَبْرٌ من أحبار الأمة رفيعٌ .

قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي : انتهت إليه رئاسة الدين والدنيا ببغداد ، وطبّق الأرض بالأصحاب ، وجمع مجلسه ثلاثمائة مُتفقِّهٍ ، واتفق الموافق والمُخالف على تفضيله وتقديمه ؛ في جودة الفقه ، وحُسْن النظر ، ونظافة العلم .

وقال الخطيب : سمعتُ مَنْ يذكر أنه يحضر في مجلسه سبعمائة مُتفقِّهٍ ، وكان الناس يقولون : لو رآه الشافعي لفرح به .

وقع من الخليفة أمير المؤمنين ما أوجب أن كتب له الشيخ أبو حامد : اعلمْ أنك لَستَ بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولَّانيها الله تعالى ، وأنا أقدر

(١) تاريخ بغداد ٥ / ٣٨٠ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٧ / ١٩٢ - ١٩٣ .

أن أكتب رقعة إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك .

قال النووي : تعليقة الشيخ أبي حامد - على شرح المزني - في نحو من خمسين مُجلَّدًا .

وروى عن سُليم الرازي قال : كان أبو حامد في أول أمْره يحرس في دربٍ ، وكان يُطالع على زيت الحرس ، وإنه أفتى وهو ابن سبع عشرة سنة ، وأقام يُفتي (٤٥) سنة إلى أن مات ، ولما قَرُبتْ وفاته ؛ قال : لما تفقَّهنا متنا »[١] .

١٦٦ - شمس الإسلام ، شيخ الشافعية بخراسان ، الإمام أبو الطيِّب سهل الصعلوكي :

قال الحاكم : هو أنظر مَنْ رأينا ، تخرَّج به جماعة وحدَّث وأملى . مُفتي نيسابور وابن مُفتيها .

وقال أبو إسحاق الشيرازي : كان أبو الطيِّب فقيهًا أديبًا ، جمع رئاسة الدنيا والدين ، وأخذ عنه فقهاء نيسابور .

وقال الحاكم: بلغني عنه أنه كان في مجلسه أكثر من خمسمائة محبرة[٢] .

وقال الحاكم : كان أبوه يُجلُّه ، ويقول : سهلٌ والدٌ[٣] .

لله ما أحلى العلم وأشرفه ، حتى يقول والد عن ولده ما كتبنا !!

قال رحمه الله : مَنْ تصدَّر قبل أوانه ، فقد تصدَّى لهوانه .

قال الحاكم : قد كان بعض مشايخنا يقول : مَنْ أراد أن يعلم النجيب ابن النجيب يكون بمشيئة الله تعالى ، فلينظرْ إلى سهل بن أبي سهل .

قال الحاكم : دخلتُ على الأستاذ - أبي سهل - في ابتداء مرضه ،

---

(١) طبقات الشافعية ٤ / ٦١ ، ٦٥ ، وسير أعلام النبلاء ١٩٣/١٧ - ١٩٦ .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١ / ٢٣٨ .

(٣) طبقات الشافعية ٤ / ٣٩٤ .

وسهل غائب في بعض ضياعه ، وكان الأستاذ يشكو ما هو فيه ، فقال : غيبةُ سهْلٍ أشدُّ عليَّ من هذا الذي أنا فيه .

فرحمةُ الله على الإمام الصعلوكي ، إلا أنه الغني ، الذي لا يُسأل إلا ويُجيب ، ما أمَّه الطالب إلا وجده سهلًا ، ولا أمَّله الراغب إلا وتلقاه بالبشْر وقال له : أهلًا .

١٦٧ - الحافظ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، شيخ الصوفية :

قال الخطيب : محلّه كبير ، وكان مع ذلك صاحب حديث ، مُجَوّدًا ، جمع شيوخًا وتراجمَ وأبوابًا . حدَّث أكثر من أربعين سنة قراءةً وإملاءً .

قال الذهبي: «وللسُّلَمي سؤالات للدارقطني عن أحوال المشايخ الرواة سؤال عارفٍ .

وفي الجمْلة ، ففي تصانيفه أحاديث وحكايات موضوعة .

وقال الذهبي : بلغت تآليف السُّلَمي ألف جزءٍ .

وقال أيضًا عنه : كان - يعني السلمي - وافر الجلالة ، وتصانيفه ؛ يُقال : إنها ألف جزء ، وله كتاب سمَّاه « حقائق التفسير » ليته لم يُصنِّفْه ؛ فإنه تحريفٌ وقرمطْة ، فدونك الكتاب ، فسترى العجب »[(١)] . اهـ .

وقال عنه في السير (١٧ / ٢٤٧) : « وتصانيفه مقبولة » .

قال غالب بن علي الرازي : لما قرأنا كتاب « تاريخ الصوفية » في شهور سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بالريِّ ، قُتل صبيٌّ في الزحام ، وزعق رجل في المجلس زعقة ، ومات ، ولما خرجنا من همذان ؛ تبعنا الناس لطلب الإجازة مرحلة .

---

(١) طبقات الشافعية ٤ / ١٤٦ - ١٤٧ .

١٦٨ - الحافظ مُحدِّث أصبهان ابن مَرْدَويه ، أبو بكر أحمد بن موسى :

«صاحب «التفسير الكبير» و «التاريخ» والأمالي الثلاث مائة مجلس.

كان من فرسان الحديث ، فهِمًا يَقِظًا مُتقنًا ، كثير الحديث جدًّا ، ومَنْ نظر في تواليفه ؛ عرف محلَّه من الحفظ .

من تصانيفه كتاب « المُستخرج على صحيح البخاري » بعُلُوٍّ في كثير من أحاديث الكتاب ، حتى كأنه لقي البخاري .

قال عنه حفيده أحمد بن محمد بن أحمد : « رأيتُ من أحوال جدِّي من الديانة في الرواية ما قضيتُ منه العجب في تثبُّته وإتقانه، وأهدى له كبيره حلاوةً ، فقال : إن قبلتُها ؛ فلا آذنُ لك بعدُ في دخول داري ، وإنْ ترجعْ به ، تَزِدْ عليَّ كرامةً .

قال الإمام إسماعيل : لو كان ابن مردويه خُراسانيًّا ؛ كان صيتُه أكثر من صيت الحاكم »[1] .

١٦٩ - الحافظ العَبْدُوبي أبو حازم، عمر بن أحمد بن عَبْدُويه النيسابوري:

قال عنه أبو بكر الخطيب : لم أرَ أحدًا أُطلق عليه اسم الحفظ غير رجلين ؛ أبو نُعيم ، وأبو حازم العبدوبي .

وقال الذهبي عنه : « كتب العالي والنازل ، وجمع وخرَّج ، وتميَّز في علم الحديث .

قال الحافظ أبو صالح المؤذِّن: سمعتُ أبا حازم الحافظ يقول: كتبتُ بخطِّي عن عشرة من شيوخي عشرة آلاف جزء؛ عن كل واحد ألف جزء»[2] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٣٠٨ - ٣١٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٣٣/١٧- ٣٣٥، وتذكرة الحفاظ ١٠٧٢/٣، وطبقات الشافعية ٥ / ٣٠١ .

١٧٠ - شيخ الشافعية الإمام أبو بكر القفَّال، عبد الله بن أحمد الخراساني:

قال عنه السبكي في « طبقات الشافعية » (٥/٥٣-٥٥) : « الإمام الزاهد الجليل البحر أحد أئمة الدنيا ، يُعرف بالقفَّال الصغير .

كان من أعظم محاسن خراسان ، إمامًا كبيرًا ، وبحرًا عميقًا ، غوَّاصًا على المعاني الدقيقة ، نقيَّ القريحة ، عظيم المحلِّ ، كبيرَ الشأنِ ، عديمَ النظير .

ذكره الإمام السمعاني في « أماليه » ، فقال : كان وحيدَ زمانه فقهًا وحفظًا وورعًا وزهدًا ، وله في فقه الشافعي وغيره من الآثار ما ليس لغيره من أهل عصره . قال : وطريقته المهديَّة في مذهب الشافعي التي حملها عنه فقهاء أصحابه من أهل البلاد أمتنُ طريقةٍ ، وأوضحُها تهذيبًا ، وأكثرُها تحقيقًا . رُحِل إليه من البلاد للتفقُّه عليه ، فظهرت بركتُه على مختلفيه ، حتى تخرَّج به جماعة كثيرة ، صاروا أئمة في البلاد ؛ نشروا علمَه ، ودرسوا قولَه » .

والقفَّال رضي الله عنه أزيد مما وُصف ، وأبلغ مما ذُكر . وقد صار مُعتَمدَ المذهب على طريقة العراق وحامل لوائها أبو حامد الإسفراييني ، وطريقة خراسان والقائم بأعبائها القفَّال المروزي ؛ هما رحمهما الله شيخا الطريقتين ، إليهما المرجع ، وعليهما المعوَّل .

قال ناصر العمري : لم يكن في زمان أبي بكر القفَّال أفقه منه ، ولا يكون بعده مثله ؛ وكنا نقول : إنه مَلَكٌ في صورة إنسان .

قال عنه الذهبي في السير (١٧/٤٠٧): « ابتدأ بطلب العلم وقد صار ابن ثلاثين سنة ، فترك صنعته - صناعة الأقفال - وأقبل على العلم .

هذه والله الهِمَّة العليَّة العالية ! يطلب العلم بعد الثلاثين ، ثم يصير بعد ذلك إمامَ الدنيا في عصره في الفقه !!

قال القفَّال رحمه الله : « ابتدأتُ التعلُّم وأنا لا أُفرِّق بين اختصرتُ واختصرت ؛ يعني لم يكن يدري من اللسان العربي ما يُفرق به بين ضمٍّ

تاء الضمير وفتحها »[١] .

« قال ناصر العمري : إن بعض الفقهاء المختلفين إلى القفَّال احتسب على بعض أتباع متولي مرو ، فرُفع ذلك إلى السلطان محمود ، فقال : أيأخذ القفَّال شيئًا من ديواننا ؟ قال : لا . قال : فهل يتلبَّس بشيءٍ من الأوقاف ؟ قال : لا . قال : فإن الاحتساب لهم سائغ ، دعْهم .

حكى القاضي حسين عن القفَّال أستاذه أنه كان في كثير من الأوقات يقع عليه البكاء حالة الدرس ، ثم يرفع رأسه ، ويقول : ما أغفلَنا عما يُراد بنا »[٢] .

١٧١ - الحافظ المجوّد أبو بكر الإسفراييني، محمد بن أحمد بن عبد الوهّاب الحديثي الرحَّال:

قال عنه الحاكـم : « أشهد على أبي بكر الإسفراييني أنه يحفظ من حديث مالك وشعبة ومسعر والثوري أكثر من عشرين ألف حديث » .

قال الذهبي : « لم تبلغْنا أخبار هذا الحافظ مُفصَّلة »[٣] .

١٧٢- أبو نُعَيم الأصبهاني، صاحب «حلية الأولياء»، الحافظ أحمد بن عبد الله ابن أحمد :

شيخ الإسلام أبو نعيم . مُصنَّفاتُه كثيرةٌ جدًّا .

قال عنه الذهبي : « كان حافظًا مُبرّزًا عالي الإسناد ، تفرَّد في الدنيا بشيءٍ كثير من العوالي ، وهاجر إلى لُقِيِّه الحُفَّاظ » .

قال عنه أبو بكر الخطيب : لم أرَ أحدًا أُطلق عليه اسم الحفظ غير رجلين ؛ أبو نُعيم الأصبهاني ، وأبو حازم العَبْدُويي .

---

(١) طبقات الشافعية ٥ / ٥٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٤٠٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٢٤٥ - ٢٤٦ .

« قال أحمد بن أحمد بن مردويه : كان أبو نُعيم في وقته مرحولًا إليه ، ولم يكن في أُفقٍ من الآفاق أسندَ ولا أحفظَ منه ، كان حُفَّاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده ، فكان كلَّ يوم نوبة واحد منهم يقرأ ما يُريده إلى قريب الظهر ، فإذا قام إلى داره ، ربما كان يُقرأ عليه في الطريق جزء ، وكان لا يضجر ، لم يكن له غداء سوى التصنيف والتسميع .

قال حمزة بن العبَّاس العلويّ : كان أصحاب الحديث يقولون : بقي أبو نعيم أربع عشرة سنة بلا نظير ، لا يوجد شرقًا ولا غربًا أعلى منه إسنادًا ، ولا أحفظ منه . وكانوا يقولون: لما صنَّف كتاب « الحلية » حُمِل الكتاب إلى نيسابور حال حياته ، فاشتروْه بأربعمائة دينار »[1] .

١٧٣ - البرقاني :

الإمام الفقيه ، الحافظ ، شيخ الفقهاء والمُحدِّثين ، أبو بكر ، أحمد ابن محمد بن أحمد الخوارزمي ، ثم البرقاني ، الشافعي ، صاحب التصانيف .

قال الخطيب : « كان البرقاني ثقةً وَرِعًا ثبتًا فَهِمًا ، لم نَرَ في شيوخنا أثبتَ منه ، عارفًا بالفقه ، له حظٌّ من علم العربية ، كثير الحديث ، صنَّف « مُسندًا » ، ضمَّنه ما اشتمل عليه صحيح البخاري ومسلم ، وجمع حديث سفيان الثوري، وأيوب وشعبة، وعُبيد الله بن عمر، وعبد الملك بن عمير، وبيان بن بشر، ومطر الورَّاق، وغيرهم، ولم يقطع التصنيف إلى حين وفاته، ومات وهو يجمع حديث مسعر ، وكان حريصًا على العلم ، مُنصرِفَ الهِمّة إليه ، سمعتُه يقول يومًا لرجل من الفقهاء معروفًا بالصلاح : ادعُ الله تعالى أن ينزع شهوة الحديث من قلبي ، فإنَّ حُبَّهُ قد غلب علي ، فليس لي اهتمامٌ إلا به » .

« قال أبو قاسم الأزهري : البرقاني إمام ، إذا مات ذهب هذا الشأن .

(١) تذكرة الحفاظ ٣ / ١٠٩٤ ، وسير أعلام النبلاء ١٧ / ٤٥٩ .

قال الخطيب : سمعتُ محمد بن يحيى الكرماني الفقيه يقول : ما رأيتُ في أصحاب الحديث أكثر عبادةً من البرقاني . وسألتُ الأزهري : هل رأيتَ شيخًا أتقن من البرقاني ؟ قال : لا ، وذكره أبو محمد الحسن ابن محمد الخلّال ، فقال : هو نسيجُ وحده .

قال الخطيب : أنا ما رأيتُ شيخًا أثبتَ منه »[١] .

« قال البرقاني : دخلتُ إسفراين ومعي ثلاثة دنانير ودرهم ، فضاعت الدنانير وبقي الدرهم ، فدفعته إلى خبَّاز ، وكنت آخذ منه كل يوم رغيفين ، وآخذ من بشر بن أحمد الإسفراييني جزءًا فأكتبه ، وأُفرّغُه بالعشيِّ ، فكتبتُ ثلاثين جزءًا ، ونفد ما عند الخبَّاز ، فسافرتُ »[٢] .

قال أبو بكر الخطيب : حدَّثني أحمد بن غانم ، وكان صالحًا ، قال : نقلتُ البرقاني من بيتي ، وكان معه ثلاثة وستون سفطًا وصندوقان ، كلُّ ذلك مملوءٌ كُتُبًا .

قلتُ - أي الذهبي -: إنه سمع من تلميذه أبي بكر الخطيب ، وحدَّث عنه في حياته .

قال الخطيب : كنتُ أُذاكره الأحاديث ، فيكتبها عني ، ويُضمِّنُها جموعه .

١٧٤ - الحيري :

« العلّامة المفسِّر : أبو عبد الرحمن ، إسماعيل بن أحمد النيسابوري الحيري ، الضرير ، الزاهد ، أحد الأعلام .

له التصانيف في القرآن والقراءات والحديث والوعظ ونفْع الخلق .

قال الخطيب : قدم علينا ، ونِعْمَ الشيخ كان ، له تفسير مشهور ،

(١) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٢) تاريخ بغداد ٤ / ٣٧٥ .

قرأتُ عليه صحيح البخاري في ثلاثة مجالس ؛ ميعادان في ليلتين ، وقرأتُ الثالث من ضحوة إلى الليل ، ثم إلى طلوع الفجر »[١] .

١٧٥ - عبد الله بن حمُّود الزبيدي الأندلسي :

صاحبُ أبي علي الفارسي، المُتوفّى غريقًا في طريق عودته إلى الأندلس.

« كان عبد الله هذا قد صحب أبا علي القالي بالأندلس ، وأخذ عنه ، ثم رحل إلى المشرق ، فصحب أبا سعيد السيرافي إلى أن مات ، وصحب أبا علي الفارسي في مقامه وسفره إلى فارس وغيرها ، وأخذ عنه ، وأكثر ، وبرع .

ومن خبره مع أبي علي الفارسي : أن أبا علي غلَّس يومًا إلى الصلاة في المسجد ، فقام إليه عبد الله بن حمّود هذا من مزود[٢] ، وكان لدابَّة أبي علي خارج داره ، وكان عبد الله قد بات فيه ؛ ليُدلج إليه قبل الطلبة طالبًا للسبق والأخذ عنه ، فارتاع منه أبو علي ، وقال له : ويحك ، مَنْ تكون ؟ قال : أنا عبد الله الأندلسي . فقال : إلى كم تتبعني ؟ والله إنْ[٣] على وجه الأرض أنحى منك! زاد أحمد بن مكتوم: حدَّثني شيخنا أبو حيَّان الأندلسي- أبقاه الله - أنَّ عبد الله هذا رحل إلى الأندلس ، وحين بقي بينه وبين بلده مسافة يوم أو يومين ؛ غرقت المركب ، وهلك كلُّ مَنْ فيها ، ومن جملتهم عبد الله المذكور ، وذهب معه عِلْمٌ كثير كان قد جلبه من العراق ، رحمهُ الله تعالى عليه »[٤] .

---

(١) تاريخ بغداد ٣١٤/٦ ، وسير أعلام النبلاء ٥٣٩/١٧- ٥٤٠ .

(٢) بيت العلف .

(٣) أي (ما) .

(٤) « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطي ٢ / ١١٩ .

١٧٦ - ابن المَكْوي القرطبي :

أبو عمر، أحمد بن عبد الملك الإشبيلي، شيخ فقهاء الأندلس في وقته.

« كان قد حُبِّب إليه الدرس مُدّة عمره ، لا يفتر عنه ليله ونهاره ، وجُعلت فيه لذَّتُه .

ذُكر أنَّ صديقًا له قصده في عيد زائرًا له، فأصابه داخل داره ودربُه مفتوح ، فجلس ينتظره وأبطأ عليه ، فأوصى إليه ، فخرج وهو ينظر في كتاب ، فلم يشعر بصديقه ، حتى عثر فيه ؛ لاشتغال باله بالكتاب ، فتنبَّه حينئذٍ له ، وسلَّم عليه ، واعتذر له من احتباسه بشغله بمسألة عويصة لم يُمكنه تركُها حتى فتحها الله عليه ، فقال له الرجل : في أيام عيد ، ووقت راحة مسنونة ؟ فقال : إذا علتْ هذه النفسُ انصبَّت إلى هذه المعرفة ، والله ما لي راحةٌ ولا لذَّةٌ في غير النظر والقراءة .

قال ابن عفيف : إليه انتهت رئاسةَ العلم بالأندلس حتى صار بمثابة يحيى بن يحيى الليثي في زمانه ، واعتلى على جميع الفقهاء ، ونُفِّذت الأحكام برأيه ، فحكم على الحاكم ، وبعُد صيتُه بالأندلس ، وحاز رئاسةً أحاديثها مشهورةٌ »[(١)] .

١٧٧ - شيخ الإسلام وشيخ الشافعية محمد بن محمد الطوسي :

الإمام الحافظ أبو النضر :

« قال الحاكم تلميذه : سمعتُ أحمد بن منصور يقول : أبو النضر يُفتي الناسَ من سبعين سنة أو نحوها ، ما أُخذ عليه في فتوى قطُّ .

قال الحاكم : رحلتُ إليه مرتين ، وسألتُه متى يفرغ للتصنيف مع هذه الفتاوى؟ فقال: جزَّأتُ الليل؛ فثُلُثه أُصنِّف، وثُلُثُهُ أقرأ القرآن، وثُلُثُهُ للنوم.

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤ / ٦٣٦ .

قال الحاكم : وكان إمامًا عابدًا بارعَ الأدب ، وما رأيتُ في مشايخنا أحسنَ صلاةً منه ، وكان يصوم الدهر ، ويقوم الليل ، ويتصدَّق بما فضُل من قوته ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر »(١) .

١٧٨ - السمَّان الحافظ شيخ المعتزلة :

أبو سعد ، إسماعيل بن علي السمَّان عفا الله عنه :

قال فيه ابن عساكر : « قدم دمشق طالبَ علم ، وكان من المُكثِرين الجوَّالين ، سمع من نحو أربعة آلاف شيخٍ .

وقال الحافظ عبد العزيز الكتاني : كان أبو سعد من الحفَّاظ الكبار ، زاهدًا وَرِعًا ، وكان يذهب إلى الاعتزال » .

قال أبو سعد السمَّان : « مَنْ لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام » .

ولله ما أحلاها من كلمة وأصدقها !!

ومع هذا فقد كان شيخ العدلية - المعتزلة - وعالمَهم وفقيهَهُم ، وكان إمامًا بلا مُدافعة في القراءات والحديث والرجال والفرائض والشروط ، عالمًا بفقه أبي حنيفة ، وبالخلاف بين أبي حنيفة والشافعي ، وفقه الزيدية .

وكان على مذهب أبي هاشم الجُبَّائي المعتزلي ، وكان يُقال في مدحه : هو تاريخ الزمان وشيخ الزمان !!

قال الذهبي: «وأنّى يوصف من قد اعتزل وابتدع، وبالكتاب والسنة فقلَّ ما انتفع ، فهذا عبرةٌ ، والتوفيق فمن الله وحده .

هتف الذكاءُ وقال لستُ بنافعٍ إلا بتوفيق من الوهَّابِ

وأمّا أبو هاشم الجُبَّائي وأبوه أبو علي فمن رؤوس المعتزلة ومن الجهلة

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣ / ٨٩٣ .

بآثار النبوة . برعوا في الفلسفة والكلام ، وما شمُّوا رائحة الإسلام ، ولو تغرغر أبو سعد بحلاوة الإسلام لانتفع بالحديث ، فنسأل الله تعالى أن يحفظ علينا إيماننا وتوحيدنا »(١) .

١٧٩ - الإمام أبو منصور محمد بن الحسين الأيوبي النيسابوري :

«صاحب البيان والحُجَّة والبرهان، واللسان الفصيح والنظر الصحيح، أنظرُ منْ كان في عصره ، ومن تقدَّمه ، ومَنْ بعده .

تَلْمَذ للأستاذ أبي بكر بن فورك في صباه ، وتخرَّج به ولزم طريقته ، وجدَّ واجتهد في فقرٍ وقلَّةٍ من ذات اليد ، حتى كان يُعلِّق دروسه ويُطالعها في القمر لضيق يده عن تحصيل دهن السِّراج ، وهو مع ذلك يُقابل الفقر ، ويُلازم الورع ، ولا يأخذ من مال الشبهة شيئًا »(٢) .

١٨٠ - الوَخْشي :

« الشيخ الإمام الحَافظ المُحدِّث الزاهد : أبو علي ، الحسن بن علي ابن محمد البلخي الوخشي .

قال أبو سعد السمعاني : كان حافظًا فاضلًا ، ثقةً ، حَسَنَ القراءة . رحل إلى العراق والجبال والشام والثغور ومصر ، وذاكر الحفَّاظ ، وسمع ببلخ من أبي القاسم علي بن أحمد الخزاعي .

قال الوخشي: جُعتُ بعسقلان أيامًا وعجزتُ عن الكتابة، ثم فتح الله.

قال عمر السرخسي : ورد نظام الملك علينا ، فقيل له : إنَّ بقرية وخشٍ ذا رحلةٍ ومعرفةٍ ، فاستدعاه ، وقرءوا عليه سنن أبي داود .

قال الوخشي يومًا : رحلتُ وقاسيتُ الذُّلَّ والمشاقَّ ، ورجعتُ إلى

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٥٦ - ٦٠ .

(٢) « تبيين كذب المُفتري » لابن عساكر صـ ٢٤٩ .

وخش، وما عرف أحدٌ قدْري، فقلتُ: أموتُ ولا ينتشر ذكْري، ولا يترحَّم أحدٌ عليَّ ، فسهَّل الله ووفَّق نظام الملك ، حتى بنى هذه المدرسة ، وأجلسني فيها أُحدِّث ، لقد كنتُ بعسقلان أسمع من ابن مُصحّحٍ ، وبقيتُ أيَّامًا بلا أكْلٍ ، وقعدتُ بقُرْبِ خبَّاز لأشُمَّ رائحة الخبز وأتقوَّى بها »(١) .

١٨١ - القاضي أبو علي الهاشمي محمد بن أحمد الحنبلي :

« ذكر أبو علي بن شوكة قال : اجتمعنا جماعة من الفقهاء ، فدخلنا على القاضي أبي علي الهاشمي ، فذكرنا له فقرنا وشدَّةَ ضرّنا ، فقال لنا : اصبروا ، فإنَّ الله سيرزقكم ويُوسِّع عليكم ، وأُحدِّثكم في مثل هذا بما تطيب به قلوبكم :

أذكر سنةً من السنين وقد ضاق بي الأمر شيئًا عظيمًا ، حتى بعتُ رحْلَ داري ، ونفد جميعُه ، ونقضتُ الطبقة الوسطى من داري ، وبعتُ أخشابها وتقوَّتُ بثمنها ، وقعدتُ في البيت فلم أخرج ، وبقيتُ سنة ، فلمَّا كان بعد سنة ؛ قالت لي المرأة : البابُ يدقُّ ، فقلتُ لها : افتحي الباب ، ففعلتْ ، فدخل رجلٌ فسلَّم عليَّ ، فلما رأى حالي لم يجلس حتى أنشدني وهو قائم :

ليس من شِدَّةٍ تُصيبُك إلا ... سوف تمضي وسوف تُكْشفُ كَشْفا
لا يضقْ ذرعُك الرحيبُ فإنَّ النّـار يعلو لهيبها ثم تُطفا
قد رأينا منْ كان أشفى على الهلـك فوافتْ نجاته حين أشفى

ثم خرج عني ولم يقعد ، فتفاءلتُ بقوله ، فلم يخرج اليوم عني ، حتى

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/٣٦٥- ٣٦٧ ، ولسان الميزان ٢/٢٤١ ، وتذكرة الحفاظ ٣/١١٧٣ .

جاءني رسول القادر بالله ، ومعه ثياب ودنانير وبغلة مِمركب ، ثم قال لي : أجبْ أمير المؤمنين ، وسلَّم إليَّ الدنانير والثياب والبغلة ، فغيَّرتُ عن حالي ودخلتُ الحمَّام ، وصرتُ إلى القادر بالله ، فردَّ إليَّ قضاء الكوفة وأعمالها وأثرى حالي »[١] .

١٨٢ - الحافظ الحَرَمي :

«الإمام القدوة، أبو سعد محمد بن الحسين بن محمد المزكي الحَرَمي، نزيل هراة .

كان زاهدًا ، عابدًا ربانيًّا .

قال أبو جعفر محمد بن أبي علي : كان أبو سعد الحَرَمي من الأوتاد، لم أرَ بعيني أحفظَ منه .

وقال الواعظ أبو حامد الخيَّاط : إنْ كان لله بهراة أحدٌ من الأولياء ؛ فهو هذا ، وأشار إلى الحَرَمي .

قال الحرمي رحمه الله : لا يصبر على الخلِّ إلا دودُه ؛ يعني لا يصبر على الحديث إلا أهله »[٢] .

١٨٣ - القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي، البغدادي الفقيه:

قال ابن بسَّام : « كان بقيةَ الناس ، ولسانَ أصحاب القياس ، وقد وجدتُ له شِعْرًا ؛ معانيه أجلى من الصبح ، وألفاظه أحلى من الظَّفر بالنُّجح ، ونَبَتْ به بغداد كعادة البلاد بذوي فضلها على حكم الأيام بمحسني أهلها ، فخلع أهلها وودَّع ماءها وظلَّها، وحُدِّثتُ أنه شيَّعه يوم فُصل عنها من أكابرها وأصحاب محابرها ؛ جملة موفورة ، وطوائف كثيرة ، وأنه قال لهم : لو

(١) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ٢ / ١٨٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٢٠٢ - ٢٠٣ .

وجدتُ بين ظهرانيكم رغيفين كل غداةٍ وعشيَّةٍ ؛ ما عدلتُ عن بلدكم لبلوغ أمنية ، وفي ذلك يقول :

سلامٌ على بغدادَ في كلِّ موطنٍ وحقَّ لها مني سلامٌ مُضاعفُ
فواللهِ ما فارقتها عن قِلًى لها وإني بشطَّي جانبيها لَعارفُ
ولكنها ضاقتْ عليَّ بأسرها ولم تكن الأرزاقُ فيها تُساعفُ
وكانت كخِلٍّ كنتُ أهوى دُنُوَّهُ وأخلاقُه تنأى به وتُخالفُ

ويقول في ذلك أيضًا :

بغدادُ دارٌ لأهلِ المالِ طيِّبةٌ وللمفاليسِ دارُ الضَّنْكِ والضِّيقِ
ظللتُ حيران أمشي في أزقَّتها كأني مُصحفٌ في بيتِ زنديق

واجتاز في طريقه من بغداد إلى مصر بمعرَّة النعمان ، وبالمعرَّة يومئذٍ أبو العلاء المعرِّي ، فأضافه ، وأُعجب بعلمه وفقهه وأدبه وشِعْره ، وفي ذلك يقول أبو العلاء من جملة أبيات :

والمالكي ابنُ نصرٍ زار في سفرٍ بلادَنا فحمدْنا النأْيَ والسَّفرا
إذا تفقَّه أحيا مالكًا جدلًا وينشرُ الملك الضِّلِّيل[(١)] إنْ شَعَرا

ثم توجّه إلى مصر فحمل لواءها ، وملأ بالعلم أرضها وسماءها ، واستتبع سادتها وكبراءها ، وتناهت إليه الغرائب ، وانثالت في يده الرغائب ، فمات لأول ما وصلها ، من أكْلة اشتهاها فأكلها ، وزعموا أنه قال في مرضه - وهو يتقلّب ، ونَفَسُهُ يتصعَّد ويتصوَّب -: لا إله إلا الله ، إذا عشنا متنا .

وهو الذي يقول :

متى يصل العِطاشُ إلى ارتواءٍ إذا استقتِ البحارُ من الرَّكايا
ومَنْ يُثنِ الأصاغرَ عن مرادٍ وقد جلس الأكابرُ في الزوايا
وإنَّ ترفُّعَ الوُضَعاءِ يومًا على الرُّفَعاءِ من إحدى الرزايا
إذا استوتِ الأسافلُ والأعالي فقدْ طابت مُنادمةُ المنايا »[(٢)]

(١) امرؤ القيس .
(٢) الذخيرة لابن بسَّام .

١٨٤ - البغوي ، الشيخ الإمام ، محيي السُّنَّة وركن الدين ، أبو محمد الحسين بن مسعود :

قال عنه الذهبي في السير (١٩/٤٤١) : « كان البغوي يُلقَّب بمُحيي السُّنَّة وبرُكْنِ الدينِ ، وكان سيِّدًا وإمامًا عالمًا علَّامة ، بُورِكَ له في تصانيفه ، ورزق فيها القبول التامَّ ؛ لحُسْنِ قصْدِه ، وصدْق نيَّته وتنافُسِ العلماء في تحصيلها ، وكان لا يُلقي الدرس إلا على طهارة ، على منهاج السلف حالًا وعقدًا ، وله القدم الراسخ في التفسير ، والباع المديد في الفقه » .

وهو أحد العلماء الذين خدموا الكتاب العزيز والسنة النبوية؛ بالعكوف على دراستهما ، والتأليف فيهما ، وإحياء ما درس من معالمهما ، وكشف كنوزهما ودفائنهما .

كان يدعو إلى الاعتصام بالكتاب والسنة اللَّذيْن هما أصْل الدين ومِلَاكُه ، ويُؤلِّف في نشر علومهما ، وبثِّ معارفهما التآليفَ النافعة الماتعةَ ، حتى استحقَّ لقب « مُحيي السنة » من أهل عصره ، وممّن جاء بعده .

وقد دفعه حُبُّه للعلم وشغفُهُ بالسنة أن يرحل إلى مرو الروذ ؛ ليلتقي بإمام عصره غير مُدافع الحسين بن محمد المروزي القاضي ، فتتلمذ له ؛ وتفقَّه عليه ، وروى عنه ، ونهل من علمه ، فكان من أخصِّ تلامذته ، ولم تقف هِمَّتُه عند ذلك ؛ بل طاف خراسان ، وسمع خلقًا كثيرًا من علمائها ، وروى عنهم الصِّحاح والسُّنن والمسانيد ، ودرس مذاهب الأئمة المشهورة وأحاط بها ، وخاصَّة مذهب الإمام الشافعي .

« قال السبكي : اعلم أن صاحب « التهذيب » - يعني البغوي - قلَّ أنْ رأيناه يختار شيئًا إلّا وإذا بُحث عنه وُجد أقوى من غيره . وهو يدلُّ على نُبْلٍ كبيرٍ ، وهو حريٌّ بذلك ، فإنه جامعٌ لعلوم القرآن والسّنة والفقه .

رحمه الله ، ورحمنا به إذا صرنا إلى ما صار إليه »[١] .

ألقى عصا التِّسيار في مروالروذ وطنه الثاني يُؤلِّف الكتب ، ويُفيد الطلبة من علمه الجمِّ ، وأفكاره النيِّرة ، وتعاليمه القيِّمة .

ومن كُتُبِه :

١ - « التهذيب » في فقه الإمام الشافعي . وهو مشهور عند الشافعية يفيدون منه ، وينقلون عنه ، ويعتمدونه في كثير من المسائل ، والإمام النووي رحمه الله يُكثر النقل عنه في « الروضة » .

٢ - وله في التفسير « معالم التنزيل » . « سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن أي التفسير أقرب إلى الكتاب والسنة : الزمخشري ، أم القرطبي ، أم البغوي ، أم غير هؤلاء ؟ فقال : وأما التفاسير الثلاثة المسئوول عنها ، فأسلمُها من البدعة والأحاديث الضعيفة البغوي »[٢] .

٣ - « مصابيح السنة » . وهو كتاب مشهور مُتداوَل ، عني به العلماء قراءةً وتعليقًا وشرحًا ، وقد اعتمده الخطيب التبريزي ، وزاد عليه ، وهذَّبه في كتابه « مشكاة المصابيح » ، وقد طُبع أكثر من مرة في بلاد تركستان والهند ، وحقَّقه الشيخ الألباني .

٤ - « شرح السُّنَّة » . وهو من أجلِّ كُتُبِ السُّنَّة التي انتهت إلينا من تراث السلف ترتيبًا وتنقيحًا ، وتوثّقًا وإحكامًا ، وإحاطةً بجوانب ما أُلِّف فيه . وجاء هذا الشرح مُشتملًا على فوائد شتى من : حَلِّ مُشكَلٍ ، وتفسير غريب ، وبيان حُكْمٍ ، وما إلى ذلك مما يمُتُّ إلى فقه الحديث .

وهو في هذا الكتاب ينحو منحى المُحدِّثين ومنْ نهج نهْجَهم من الفقهاء في التعويل على الحديث الصحيح .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٧ / ٧٦ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢ / ١٩٣ .

«وإنَّ كتابًا كهذا جمع إلى جلالة القدر، وعِظَمِ الفائدة؛ حُسْنَ الانتقاء، وإحكامَ الرصف، ودقّة التحرير، لا يُستغرَب انتشارُ ذكْره بين طوائف الفقهاء والمحدِّثين، وتدارسُ العلماء له على مرِّ الأجيال، والاقتباس منه، والنقل عنه، والإشادة بمؤلفه، والتنويه بعلمه وفضله»[١].

ولو لمْ يكن للبغوي إلّا هذا الكتاب خدمةً للسُّنَّة والعلم ونشْرًا للعلم؛ لكفاه أن يُشار إليه بالبنان، ويُقال: هذا في زمانه أوحد أهل الزمان.

١٨٥ - أبو الغنائم، محمد بن علي الدجاجي البغدادي:

« قال هبة الله بن المبارك السقطي: كان مُسنِدُ بغداد أبو الغنائم محمد ابن علي الدجاجي ذا وجاهةٍ وتقدُّم، وحالٍ واسعةٍ، وعهدي به وقد أخنى عليه الزمان بصروفه.

وقد قصدتُه في جماعة مُثرين لنسمع منه الحديث وهو مريض، فدخلنا عليه وهو على باريّة[٢]، وعليه جُبّةٌ قد أكلتِ النارُ أكثرَها، وليس عنده ما يُساوي درهمًا، فحمل على نفسه حتى قرأنا عليه بحسب شرهنا، ثم قمنا، وقد تحمَّل المشقَّة في إكرامنا، فلما خرجنا؛ قلتُ: هل مع سادتنا ما نصرفه إلى الشيخ؟ فمالوا إلى ذلك، فاجتمع له نحو خمسة مثاقيل من ذهب، فدعوتُ ابنته وأعطيتُها، ووقفتُ لأرى تسليمها إليه، فلمّا دخلتْ وأعطتْهُ؛ لطَمَ وجْهَهُ، ونادى: وافضيحتاه، آآخذ على حديث رسول الله ﷺ عِوَضًا: « لا والله، ونهض حافيًا، فنادى: بحرمة ما بيننا إلا رجعت، فعدتُ إليه، فبكى وقال: تفضحني مع أصحاب الحديث، الموتُ أهونُ

---

(١) شرح السنة للبغوي، مقدمة للشيخ شُعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش من ١ - ٩، طبع المكتب الإسلامي.

(٢) حصيرة.

من ذلك ، فأعدتُ الذهب إلى الجماعة ، فلم يقبلوه وتصدَّقوا به »[(١)] .

١٨٦ - البَرْيَلي وعبد الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي الصقلي :

جاء في « الديباج المذهب » للقاضي ابن فرحون المالكي (١/٣٥٢) في ترجمة «أبي القاسم خلف مولى يوسف بن هلول البلنسي الأندلسي المالكي المعروف بالبرالي، ويُقال: البَرْيَلي»: إنه لما ألَّف في شرح المدوَّنة واختصارها كتابًا سمَّاه « التقريب » استعمله الطلبة في المناظرة ، وانتفعوا به ، عوَّل فيه على نقْل ابن أبي زَمْنين في لفظ المدوَّنة ، ولما أكمل هذا الكتاب تأْليفًا؛ دخلتْ نسخة منه مدينة صقلية ، وكان عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي الصقلي فقيه صقلية وعالمها لم يكن قد رحل من صقلية بعدُ ، فلما قرأه ونظر فيه إلى أقواله ، وما أدخله فيه من كتابه ؛ استحسنه وأراد شراءه ، فلم يتيسر له ثمنُه، فباع حوائج من داره واشتراه، فغلا الكتاب وتنافس فيه الناس عند ذلك .

وكان أبو الوليد بن هشام الفقيه يقول : « من أراد أن يكون فقيهًا من ليلة فعليه بكتاب البريلي » .

١٨٧ - ابن حزم :

الإمام الأوحـد ، البحر ، ذو الفنون والمعارف ، أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم ، الفقيه الحافظ ، صاحب التصانيف ، رأسٌ في علوم الإسلام ، مُتبحِّرٌ في النقل، عديم النظير علي يُبْسٍ فيه، وفرط ظاهرية في الفروع لا الأصول، زهد في الرياسة ، ولزم منزله مُكبًّا على العلم .

قال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد: كان ابن حزم أجمعَ أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفةً مع توسُّعه في علم اللسان، ووفور حظِّه

---

(١) « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » للسخاوي ١ / ٣٤٧ .

من البلاغة والشعر ، والمعرفة بالسير والأخبار . أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخطِّ أبيه أبي محمد من تواليفه أربعمائة مُجلَّد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة .

قال أبو عبد الله الحميدي : كان ابن حزم حافظًا للحديث ، وفقيهًا ، مُستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة ، مُتفنِّنًا في علوم جمَّة ، عاملًا بعلمه ، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتديُّن ، وكان له في الأدب والشعر نَفَسٌ واسعٌ وباعٌ طويلٌ ، وما رأيتُ من يقول الشِّعْر على البديه أسرع منه ، وشِعْرُهُ كثيرٌ ؛ جمعتُه على حروف المعجم .

قال الذهبي في السير (١٨/ ١٩٠) : « لم يُنصف القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله شيخ أبيه في العلم ، ولا تكلَّم فيه بالقسط ، وبالغ في الاستخفاف به ، وأبو بكر فعلَى عظمتِه في العلم ، لا يبلغ رتبة أبي محمد ولا يكاد ، رحمهما الله وغفر لهما » .

قال اليسع بن حزم الغافقي ، وذكر أبا محمد ، فقال : أما محفوظه فبحرٌ عَجَّاج، وماءٌ ثجَّاج، يخرج من بحره مرجان الحكم، وينبت بثجَّاجه ألفاف النعم في رياض الهِمَم ، لقد حفظ علوم المسلمين ، وأربى على كل أهل دين ، وألَّف الملل والنِّحل .

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام – وكان أحد المجتهدين –: ما رأيتُ في كتُبِ الإسلام في العلم مثل « المُحلَّى » لابن حزم ، وكتاب « المُغني » للشيخ موفق الدين .

قال الذهبي : قلتُ : لقد صدق الشيخ عز الدين ، وثالثهما : « السُّنَن الكبير » للبيهقي ، ورابعهما : « التمهيد » لابن عبد البر ، فمنْ حصَّل هذه الدواوين ، وكان من أذكياء المُفتين ، وأدمن المُطالعة فيها ؛ فهو العالم حقًّا .

ولابن حزم مُصنَّفات جليلة؛ أكبرُها كتاب «الإيصال إلى فهم كتاب

الخصال » خمس عشرة ألف ورقة .

قال الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد والد القاضي أبي بكر بن العربي : أخبرني أبو محمد ابن حزم أنَّ سببَ تعلُّمِه الفقه أنه شهد جنازة ، فدخل المسجد، فجلس ولم يركع، فقال له رجل: قمْ فصلِّ تحيةَ المسجد، وكان قد بلغ ستًّا وعشرين سنة . قال : فقمتُ وركعتُ ، فلما رجعنا من الصلاة على الجنازة دخلتُ المسجد، فبادرتُ بالركوع، فقيل لي: اجلسْ، اجلسْ ، ليس ذا وقت صلاة ، وكان بعد العصر . قال : فانصرفتُ وقد حزنتُ ، وقلتُ للأستاذ الذي ربَّاني : دُلَّني على دار الفقيه أبي عبد الله ابن دحُّون . قال : فقصدتُه ، فأعلمتُه بما جرى ، فدلَّني على موطأ مالك ، فبدأتُ به عليه ، وتتابعتْ قراءتي عليه وعلى غيره نحوًا من ثلاثة أعوام ، وبدأتُ بالمناظرة .

ثم قال ابن العربي: صحبتُ ابن حزم سبعة أعوام، وسمعتُ منه جميع مُصنفاته سوى المُجلَّد الأخير من كتاب «الفِصَل»، وهو ستُّ مُجلَّدات.

لله ما أعلى هذه الهمة ! يبدأ في تعلُّم الفقه وهو ابن ستٍّ وعشرين سنة، فما يموت حتى يكتب المُحلَّى الذي يحتاج إليه المجتهد المطلق!!.

قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء (٢٣٩/١٢) :

« ذُكر أن ابن حزم اجتمع يومًا مع الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي صاحب التواليف الكثيرة، وجرت بينهما مُناظرة في سنة (٤٤٠هـ)، فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد الباجي لابن حزم : تعذرني ، فإن أكثر مطالعاتي كانت على سرج الحرَّاس . قال ابن حزم : وتعذرني أيضًا ، فإنَّ أكثر مطالعاتي كانت على منائر الذهب والفضة[1] .

---

(١) أي على المصابيح المصنوعة من الذهب والفضة ، فلقد نشأ وترعرع في الثراء ، وكان وزيرًا .

قال ياقوت الحموي : أراد ابن حزم أن الغنى أضيعُ لطلب العلم من الفقر » .

لله ما أعلى هِمَّة الباجي ! وما أطيب قول ابن حزم الظاهري !

« قال ابن حزم لما أحرق المعتضد بن عبَّاد من الكتب :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمَّنه القرطاسُ بل هو في صدري
يسيرُ معي حيثُ استقلَّت ركائبي ... وينزلُ إنْ أَنزِلْ ويُدفنُ في قبري
دعونيَ من إحراقِ رقٍّ وكاغدٍ ... وقولوا بعلم كَيْ يرى الناسُ مَنْ يدري
وإلَّا فعودوا في المكاتبِ بدأةً ... فكم دون ما تبغونَ لله من سِترِ
كذاك النصارى يحرقون إذا علتْ ... أكفُّهمُ القرآن في مدنِ الثغرِ

وقال ابن حزم :

قالوا : تَحَفَّظْ فإنَّ الناسَ قد كثُرتْ ... أقوالُهم وأقاويلُ الورى محَنُ
فقلتُ هل عيبُهم لي غير أني لا ... أقولُ بالرأي إذْ في رأيهم فِتَنُ
وأنني مُولعٌ بالنصِّ لستُ إلى ... سواه أنحو ولا في نصره أهِنُ
يابردَ ذا القول في قلبي وفي كبدي ... ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضُّوا على صمِّ الحصى كمدًا ... مَنْ مات من قوله عندي له كفنُ

وقال رحمه الله :

أنا الشمسُ في جوِّ العلوم مُنيرة ... ولكنَّ عيبي أنَّ مطلعَي الغَرْبُ
ولو أنني من جانبِ الشرقِ طالعٌ ... لجَدَّ على ما ضاع من ذكري النهْبُ
ولي نحو أكناف العراقِ صبابةٌ ... ولا غرْوَ أن يستوحش الكَلِفُ الصبُّ
فإن يُنزل الرحمنُ رحْلَي بينهم ... فحينئذٍ يبدو التأسُّفُ والكربُ
هُنالك يُدرَى أنَّ للبُعـدِ قصةً ... وأن كسادَ العلم آفتُهُ القُـرْبُ

ولله دَرُّهُ حين يقول :

مُنايَ من الدنيا علومٌ أَبُثُّها ... وأنشُرُها في كلِّ بادٍ وحاضرِ
دعاءٌ إلى القرآنِ والسُّنَنِ التي ... تناسى رجالٌ ذِكْرَها في المحاضر

وألزَمُ أطرافَ الثغورِ مُجاهـدًا إذا هَيْعَةٌ ثـارتْ فـأوَّلُ نافـرِ
لِألقى حِمامِي مقْبلًا غير مُدبرٍ بسُمْـرِ العوالـي والرقـاقِ البـواتـرِ
كفاحًا مع الكفَّارِ في حومة الوغى وأكرمُ موتٍ للفتى قتْلُ كافرِ
فيا ربّ لا تجعلْ حمامي بغيرها ولا تجعلَنّي من قطينِ المقابر»[(١)]

قال ابن حزم رحمه الله :

مَنْ لم يَرَ العلمَ أغلى من كلِّ شيءٍ يُصابُ
فليس يُفلحُ حتـى يُحثى عليه الترابُ

١٨٨ - أبو مروان الطُّبْني :

العالم المُحدِّث اللغوي الإمام ، عبد الملك بن زيادة التميمي القرطبي ، تلميذ ابن حزم .

روى بقرطبة عن أبي محمد بن حزم ، وكانت له رحلتان إلى المشرق ؛ كتب فيهما عن جماعة كثيرة من أهل العلم بمكة ومصر والقيروان ، ولما رجع إلى قرطبة أملى الحديث ، فاجتمع إليه في مجلس الإملاء خلقٌ كثيرٌ ، فلما رأى كثرتهم ، أنشد :

إني إذا احْتَوَشَتْني ألفُ مَحْبَرَةٍ يكتُبْن : حدَّثني طورًا وأخبرني
نادتْ بحضرتي الأقلامُ مُعْلِنَةً هذي المفاخرُ لا قعبان من لبنِ

١٨٩ - شيخ الشافعية ، الإمام أبو إسحاق الشيرازي :

الشيخ القدوة المجتهد شيخ الإسلام ، إبراهيم بن علي الفيروز آبادي الشيرازي الشافعي ، نزيل بغداد .

قال السمعاني: هو إمام الشافعية، ومُدرِّس النِّظامية، وشيخ العصر. رحل الناس إليه من البلاد وقصدوه ، وتفرَّد بالعلم الوافر مع السيرة الجميلة

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ١٨٤ - ٢١٢ .

والطريقة المرضيَّة . جاءته الدنيا صاغرة ، فأباها واقتصر على خشونة العيش أيام حياته . صنَّف في الأصول والفروع والخلاف والمذهب ، وكان زاهدًا وَرِعًا مُتواضعًا ، ظريفًا كريمًا ، جوادًا ، طلْقَ الوجه دائمَ البِشرِ ، مليحَ المحاورةِ .

« حُكي عنه قال : كنتُ نائمًا ببغداد ، فرأيتُ النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر ، فقلتُ : يارسول الله ، بلَغني عنك أحاديث كثيرة عن ناقلي الأخبار ، فأُريد أن أسمع منك حديثًا أتشرَّفُ به في الدنيا ، وأجعله ذُخْرًا للآخرة ، فقال لي : ياشيخ - وسمَّاني شيخًا ، وخاطبني به . وكان يفرح بهذا - قلْ عني : مَنْ أراد السلامة فليطلبْها في سلامة غيره »[1] .

وعنه : أنه اشتهى ثريدًا بماء باقلّاء ، قال : فما صَحَّ لي أكْله ؛ لاشتغالي بالدرس، وأخذي النوبَة[2] .

قال السمعاني : قال أصحابنا ببغداد : كان الشيخ أبو إسحاق إذا بقي مُدَّةً لا يأكل شيئًا ؛ صَعِد إلى النصرية وله بها صديق ، فكان يثرد له رغيفًا ، ويشربه بماء الباقلاء ، فربما صعد إليه وقد فرغ ، فيقول أبو إسحاق : ﴿ **تلك إذًا كرَّةٌ خاسرة** ﴾ [النازعات : ١٢] .

قال أبو بكر الشاشي : أبو إسحاق حُجَّة الله على أئمة العصر .

وقال الموفق الحنفي : أبو إسحاق أمير المؤمنين في الفقهاء .

« وقال القاضي محمد بن محمد الماهاني : إمامان ما اتفق لهما الحج ، أبو إسحاق، وقاضي القضاة الدامغاني. أما أبو إسحاق فكان فقيرًا، ولو أراده لحملوه على الأعناق. والآخر لو أراده لأمكنه على السندس والإستبرق»[3].

---

(١) صفة الصفوة ٤ / ٦٦ ، تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٢ / ١٧٣ .
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ٤ / ٦٧ ، والمجموع للنووي ١ / ٢٥ .
(٣) تهذيب الأسماء واللغات ٢ / ١٧٤ ، وطبقات السبكي ٤ / ٢٢٧ .

قال الشيخ أبو إسحاق : كنتُ أُعيد كل قياس ألف مرّة ، فإذا فرغتُ أخذتُ قياسًا آخر على هذا ، وكنتُ أُعيد كل درس ألف مرة ، فإذا كان في المسألة بيت يُستشهد به حفظتُ القصيدة التي فيها البيت .

قال أبو العباس الجرجاني القاضي : كان أبو إسحاق لا يملك شيئًا ، بلغ به الفقر ، حتى كان لا يجد قوتًا ولا ملبسًا ، كنا نأتيه وهو ساكن في القطيعة ، فيقوم لنا نصف قومة ؛ كي لا يظهر منه شيء في العرْي ، وكنتُ أمشي معه ، فتعلّق به باقلاني ، وقال : ياشيخ ، كسرتني وأفقرتني ! فقلنا : وكم لك عنده ؟ قال : حبّتان من ذهب أو حبتان ونصف .

قال أبو بكر بن الخاضبة: سمعتُ بعض أصحاب أبي إسحاق يقول: رأيتُ الشيخ كان يُصلي عند فراغ كل فصل من « المُهذَّب »[1] .

قال الذهبي: «درس الشيخ بالنظاميّة بعد تمنُّع، ولم يتناول جامكية[2] أصلًا ، وكان يقتصر على عمامة صغيرة وثوب قُطني ، ويقنع بالقوت ، وكان الفقيه رافعُ الحمَّال رفيقهِ في الاشتغال ، فيحمل شطرَ نهارِه بالأجرة ، ويُنفق على نفسه وعلى أبي إسحاق ، ثم إنَّ رافعًا حجَّ وجاور ، وصار فقيه الحرم في حدود الأربعين وأربعمائة .

ومات أبو إسحاق، ولم يُخلِّف درهمًا، ولا عليه درهم. وكذا فليكن الزهد ، وما تزوَّج فيما أعلم . وبحسن نيَّته في العلم اشتهرت تصانيفه في الدنيا، «كالمهذّب»، و «التنبيه»، و «اللمع في أصول الفقه»، و«شرح اللمع».

قال السمعاني : « لما قدم أبو إسحاق نيسابور رسولًا ؛ تَلَقَّوْه ، وحمل إمام الحرمين غاشيته ، ومشى بين يديه ، وقال : أفتخر بهذا . وكان عامَّة المدرسين بالعراق والجبال تلامذته وأتباعه ، وكفاهم بذلك فخرًا .

---

(١) طبقات السبكي ٤ / ٢١٧ .

(٢) رواتب خُدَّام الدولة .

وعن أبي إسحاق قال : خرجتُ إلى خراسان ، فما دخلتُ بلدة إلا كان قاضيها أو خطيبها أو مُفتيها من أصحابي » .

إنْ قيلَ ماتَ فلم يَمُتْ مَنْ ذِكْرُه ... حيٌّ على مَرِّ الليالي باقي »

١٩٠ - المُقرىء المغربي ، أبو القاسم الهُذَلي :

« الأستاذ الكبير الرحَّال ، والعَلَمُ الشهير المقرىء الجوَّال ، أحد مَنْ طوَّف الدنيا في طلب القراءات . واسمه : يوسف بن علي بن جُبَارَة المغربي البَسكريّ ، و (بسكرة) : بُليدة بالمغرب .

رحل من أقصى المغرب إلى بلاد الترك، وكانت رحلته في سنة (٤٢٥) وبعدها، فقرأ بحرَّان على أبي القاسم الزيدي صاحب النقَّاش ، وهو أكبر شيوخه ، وعلى الأهوازي بدمشق ، وعلى إسماعيل بن عمرو بن راشد الحدَّاد وجماعة بمصر ، وعلى مهدي بن طرارة ... »[1]

وقال ابن الجزري : « طاف البلاد في طلب القراءات ، فلا أعلم أحدًا في هذه الأمة رحل في القراءات رحلته ، ولا لقي من الشيوخ مثله . قال في كتابه «الكامل في القراءات»: فجملة منْ لقيتُ في هذا العلم ثلاثمائة وخمسة وستون شيخًا من آخر المغرب إلى باب فَرْغانة يمينًا وشمالًا وجبلًا وبحرًا، ولو علمتُ أحدًا يُقَدَّم عليَّ في هذه الطريقة في جميع بلاد الإسلام؛ لقصدته.

قال الأمير ابن ماكولا: كان يدرس علم النحو، ويفهم الكلام والفقه، وكان قد قرَّره الوزير نظام الملك في مدرسته بنيسابور ، فقعد سنين وأفاد ، وكان مُقدَّمًا في النحو والصرف وعِلَل القراءات ، وكان يحضر مجلس أبي القاسم القشيري ويأخذ من الأصول ، وكان القشيري يُراجعه في مسائل النحو والقراءات ويستفيد منه »[2] .

---

(١) معرفة القراء الكبار للذهبي ١ / ٤٢٩ - ٤٣٣ .
(٢) غاية النهاية في طبقات القرَّاء ٢ / ٣٩٧ - ٤٠١ .

١٩١ - الإمام الخيَّاط :

القدوة المقرىء ، شيخ الإسلام ، أبو منصور ، محمد بن أحمد بن علي البغدادي الخيَّاط .

جلس لتعليم كتاب الله دهرًا ، وتلا عليه أُممٌ .

قال السمعاني : صالح ثقة ، عابد مُلقِّن ، له ورد بين العشاءين بسُبع[١] .

وقال آخر : كان إمام مسجد ابن جَرْدة بحريم دار الخلافة ، لقَّن العُميان دهرًا لله ، وكان يسأل لهم ، ويُنفق عليهم ؛ بحيث إنّ ابن النجار نقل في « تاريخه » أن أبا منصور الخيَّاط بلغ عدد مَنْ أقرأهم من العميان سبعين ألفًا ، ثم قال : هكذا رأيتُ بخطٍّ أبي نصر اليُونارتي الحافظ .

قال الذهبي: «هذا مُستحيل، والظاهر أنه أراد أن يكتب (نَفْسًا)، فسبقه القلم فخطَّ (ألفًا) ، ومَنْ لقّن القرآن لسبعين ضريرًا ؛ فقد عمل خيرًا كثيرًا .

ونقل السِّلَفي عن علي بن الأيسر العُكْبري ، قال : لم أرَ أكثر خلقًا من جنازة أبي منصور ، رآها يهودي ، فاهتال[٢] لها وأسلم »[٣] .

١٩٢ - الرَّوَّاسي أبو الفتيان :

الشيخ الإمام ، الحافظ المُكثر الجوَّال ، أبو الفتيان ، عمر بن عبد الكريم بن سعدويه الدِّهسْتاني ، الرواسي .

قال الذهبي « طوَّف في هذا الشأن خراسان والحرمين والعراق ومصر والشام والسواحل ، وكان بصيرًا بهذا الشأن مُحقِّقًا » .

---

(١) أي كان يقرأ سبعًا كاملًا من القرآن بين العشاءين .

(٢) ففزع .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٢٢/١٩ - ٢٢٣ .

وقال السمعاني في «الأنساب» (١٧٩/٦): «أحد حُفَّاظ عصره ، وكان ممن رحل وجمع وكتب بخراسان والعراق والشام والحجاز ومصر والجزيرة . وقيل له : الرَّوَّاسي ؛ لأن والده كان يبيع الرؤوس بدهستان ، فاتفق دخول أبي مسعود أحمد بن محمد بن عبد الله البجلي الرازي دهستان، واشترى من والده أبي الحسن رأسًا ليأكله ، فقال له أبو الحسن : أراك رجلًا من أهل العلم ، ويقبح أن تجلس في دُكَّاني ، فادخل المسجد حتى يجيئك الرأس . فلما قعد في المجلس نفَّذ إليه رأسًا حسنًا مشويًّا ، مع الخبز النظيف والخلِّ والبقل ، على يد ابنه عمر ، وكان صبيًّا صغيرًا ، فنظر أبو مسعود إلى تلك الحالة ، فاستحسن من الروَّاس ذلك ، فلما فرغ من الأكل شكر الرَّوَّاس ، وقال : أحسنتَ إليَّ ، وليس معي شيء أُكافئك ! فهل لك في أن تُسلم ابنك إليَّ حتى أُسمعه حديث رسول الله ﷺ ؟ ففرح أبوه بذلك، وحمل أبو مسعود عمر معه إلى شيوخ دهستان، وسمَّعه الحديث، وأسمعه من نفسه أيضًا شيئًا ، وانفتح عليه ، وطابت له هذه الصنعة ، ورحل بنفسه بعد ذلك ، وأكثر من الحديث ، حتى سمع ما لم يسمع أقرانه » .

« قال أبو جعفر بن أبي علي الحافظ : ما رأيتُ في تلك الديار أحفظ منه ، لا بل في الدنيا كلها ، كان كتابًا جوَّالًا ، دار الدنيا لطلب الحديث ، لقيتُه بمكة ، ورأيتُ الشيوخ يُثنون عليه ، ويُحسنون القول فيه ، ثم لقيتُه بجرجان ، وصار من إخواننا .

قال ابن نقطة : سمعتُ غير واحد يقولون : إنَّ أبا الفتيان سمع من ثلاثة آلاف وستمائة شيخ .

قال خزيمة بن علي المروزي : سقطتْ أصابع عمر الرواسي في الرحلة من البرد »[1] .

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣١٨ .

لله دَرُّهُ ! أَلِفَ الارتحال والاغتراب ، حتى صارت الغُربة له وطنًا ، والنُقلة له مسكنًا .

وَمُشَتَّتِ العزماتِ لا يأوي إلى سكنٍ ولا أهلٍ ولا جيران
أَلِفَ النَّوى حتى كأنَّ رحيلَهُ للبين رحلتُهُ إلى الأوطان

لله دَرُّهُ ! كم تحمَّل ، وكم تجشَّم ، وكم صبر ! تسقط أصابعه من البرد في تحصيل العلم ، فالعلم عنده أغلى مما فقد !! لله هِمَّتُه العليَّة ، وشوقه الجارف للعلم !!

حدَّث عنه شيخه أبو بكر الخطيب وشيخه ابن ماكولا . وهذا يدلُّ على رفعته في المعرفة وشرف مقامه، حتى احتاج إلى علمه شيوخه الفحول.

قال ابن ماكولا : كتب عني الرواسي وكتبتُ عنه ، ووجدتُه ذكيًّا .

قال السمعاني: سمعتُ أبا الفضل أحمد بن محمد السرخسي يقول: لما قدم عمر بن أبي الحسن علينا ؛ أملى ، فحضر عدَّة ، فقال : أنا أكتب أسماء الجماعة على الأصل ، وسألهم وأثبت ، ففي المجلس الثاني أخذ القلم ، وكتبهم كلهم على ظهر قلب ، وما سألهم ، فقيل : كانوا سبعين نَفْسًا .

قال عبد الغافر بن إسماعيل: عمر الرواسي شيخ مشهور عارف بالطرق ، كتب الكثير ، وجمع الأبواب وصنَّف ، وكان سريع الكتابة ، وكان على سيرة السلف ؛ مُعيلًا مُقِلًّا ، خرج من نيسابور إلى طوس ، فأنزله أبو حامد الغزالي عنده وألزمه ، وقرأ عليه الصحيح ، ثم شرحه .

وقال الذهبي أيضًا : قدم طوس في آخر عمره ، فصحَّح عليه الغزالي « الصحيحين »[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣١٨ ، ٣١٩ .

كلام طيِّبٌ للرامهرمزي :

قال الرامهرمزي في كتابه « المُحدِّث الفاصل » حول الرحلة في طلب العلم : « لو عرف الطاعن على أهل الرحلة مقدار لذة الراحل في رحلته ، ونشاطه عند فصوله من وطنه ، واستلذاذ جميع جوارحه عند تصرُّف لحظاته في المناهل والمنازل، والبُطنان والظواهر، والنظر إلى دساكر الأقطار وغياضها، وحدائقها ورياضها ، وتصفح الوجوه ، واستماع النغم ، ومشاهدة ما لم يَرَ من عجائب البلدان ، واختلاف الألسنة والألوان ، والاستراحة في أفياء الحيطان ، وظِلال الغيطان ، والأكل في المساجد ، والشرب من الأودية ، والنوم حيث يُدركه الليل ، واستصحاب مَنْ يُحِبُّ في ذات الله بسقوط الحشمة ، وترْك التصنُّع ، وكُنهِ ما يصل إلى قلبه من السرور عن ظفره بُغيته ، ووصوله إلى مقصده ، وهجومه على المجلس الذي شمَّر له ، وقطع الشُّقَّة إليه - لَعَلِمَ أن لذَّات الدنيا مجموعةٌ في محاسن تلك المشاهد ، وحلاوة تلك المناظر، واقتناص تلك الفوائد؛ التي هي عند أهلها أبهى من زهر الربيع، وأحلى من صوت المزامير ، وأنفس من ذخائر العقيان ، من حيث حُرمها الطاعن وأشباهه .. » انتهى .

١٩٣ - الغزالي :

الشيخ الإمام البحر ، حُجَّة الإسلام ، أُعجوبة الزمان ، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطَوسي الغزّالي ، صاحب التصانيف .

قال الذهبي : « تفقَّه ببلده أوَّلًا ، ثم تحوَّل إلى نيسابور في مرافقة جماعة من الطلبة ، فلازم إمام الحرمين ، فبرع في الفقه في مُدَّة قريبة ، ومهر في الكلام والجدل ، حتى صار عين المناظرين ، وأعـاد للطلبة ، وشرع في التصنيف ، فما أعجب ذلك شيخه أبا المعالي ، ولكنه مُظْهِرٌ للتبجح به ، ثم سار أبو حامد إلى المخيم السلطاني ، فأقبل عليه نظام الملك الوزير ، وسُرَّ

بوجوده ، وناظر الكبار بحضرته ، فانبهر له وشاع أمْره ، فولَّاه النظام تدريس نظامية بغداد وسِنُّهُ نحو الثلاثين ، وأخذ في تأليف الأصول والفقه والكلام والحكمة، وأدخله سيلانُ ذهنه في مضايق الكلام، ومزالِّ الأقدام، ولله سرٌّ في خلقه »[١] .

قال فيه إمام الحرمين : « الغزالي بحر مُغرِق ، وإلْكيا أسدٌ مطرق ، والخوافي[٢] نارٌ تحرق » .

صنف الغزالي « الإحياء » ، وفيه من الأحاديث الباطلة جُملة ، وفيه خير كثير، لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء، ومُنحرفي الصوفية ، نسأل الله علمًا نافعًا .

الغزالي إمام كبير ، وما من شرط العالم أنه لا يُخطىء .

قال الذهبي: رحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله! ولكن لا ندَّعي عصمته من الغلط والخطأ ، ولا تقليدَ في الأصول .

قال أبو بكر بن العربي : شيخنا أبو حامد بَلع الفلاسفة وأراد أن يتقيَّأهم ؛ فما استطاع .

قال ابن النجار : أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق ، وربَّانيُّ الأمة بالاتفاق، ومجتهدُ زمانه، وعينُ أوانه. برع في المذهب والأصول والخلاف، حتى قيل : إنه ألَّف « المنخول » ، فرآه أبو المعالي ، فقال : دفنتني وأنا حيٌّ ، فهلَّا صبرتَ الآن[٣] ، كتابُك غطَّى على كتابي ..

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣٢٢ - ٣٢٣ .
(٢) أحمد بن محمد بن المظفر الخوافي الشافعي ، وكان مشهورًا بين العلماء بحسن المناظرة .
(٣) أي فهلَّا صبرت حتى أموت ، كما جاء في المنتظم ٩ / ١٦٩ .

قال الشيخ عبد الغافر في « السياق » :

« كانت خاتمة أمر الشيخ أبي حامد إقبالَهُ على طلب الحديث ، ومجالسة أهله ، ومُطالعة الصحيحين ، ولو عاش لسبق الكلَّ في ذلك الفنِّ بيسير من الأيام »[١] .

« قال الإمام أسعد المِيهني : سمعتُ الغزالي يقول : قُطِعت علينا الطريق ، وأخذ العيّارون جميع ما معي ومَضَوْا ، فتبعتُهم ، فالتفتَ إليَّ مُقدّمُهم ، وقال : ارجع ويحك ، وإلا هلكت ، فقلتُ له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه إن تَرُدَّ عليَّ تعليقتي فقط ، فما هي بشيءٍ تنتفعون به . فقال لي : وما هي تعليقتُك ؟ فقلتُ : كُتُبٌ في تلك المِخلاة ، هاجرتُ لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدَّعي أنك عرفتَ علمها ، وقد أخذناها منك فتجرَّدت من معرفتها وبقيتَ بلا علم ؟! ثم أمر بعض أصحابه ، فسلَّم إليَّ المخلاة .

قال الغزالي : هذا مُستنطق ؛ أنطقه الله ليُرشدني به في أمري ، فلما وافيتُ طُوس أقبلتُ على الاشتغال ثلاث سنين ، حتى حفظتُ جميع ما علَّقتُه وصرتُ بحيث لو قطع عليَّ الطريق لم أتجرَّد من علمي »[٢] .

١٩٤ - الحافظ محمد بن طاهر المقدسي :

الحافظ الجوَّال ، أبو الفضل الأثري الظاهري . سمع بالقدس ومصر ، والحرمين والشام، والجزيرة والعراق، وأصبهان والجبال، وفارس وخراسان، وكتب ما لا يُوصف كثرةً بخطِّه ، وصنَّف وجمع ، وبرع في هذا الشأن ، وعُني به أشدَّ عناية .

---

(١) انظر موقف العلماء من الغزالي وما انتقدوه عليه في جمعنا « عبق النسرين في ذكر المُجدِّدين » .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣ / ١٠٣ .

قال يحيى بن منده : كان ابن طاهر أحد الحفَّاظ ، عالمًا بالصحيح والسقيم ، كثير التصانيف ، لازمًا للأثر .

وقال السلفي: سمعتُ محمد بن طاهر يقول: كتبتُ «الصحيحين»، و «سنن أبي داود» سبع مرات بالأجرة ، وكتبتُ « سنن ابن ماجه » عشر مرات بالريِّ .

قال ابن طاهر : بُلْتُ الدمَ في طلب الحديث مرتين ؛ مرة ببغداد ، وأخرى بمكة ، كنتُ أمشي حافيًا في الحرِّ ، فلحقني ذلك ، وما ركبتُ دابةً قطُّ في طلب الحديث ، وكنتُ أحمل كُتُبي على ظهري ، وما سألتُ في حال الطلب أحدًا ، كنتُ أعيش على ما يأتي من غير سؤال .

وكان ابن طاهر يمشي في ليلة واحدة قريبًا من سبعة عشر فرسخًا .

قال عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي : ينبغي لصاحب الحديث أن يكون سريع القراءة ، سريعَ النسخ ، سريع المشي ، وقد جمع الله هذه الخصال في هذا الشابِّ ، وأشار إلى ابن طاهر ، وكان بين يديه .

قال ابن طاهر : رحلتُ من طوس إلى أصبهان لأجل حديث أبي زرعة الذي أخرجه مسلم عنه[(١)]، ذاكرني بعض الرحَّالة بالليل، فلما أصبحتُ؛ سرتُ إلى أصبهان ، ولم أحلُل عني حتى دخلتُ على الشيخ أبي عمرو ، فقرأتُه عليه ، عن أبيه ، عن القطان ، عن أبي زرعة ، ودفع إليَّ ثلاثة أرغفة وكُمثراتين ، فما كان لي قوتٌ تلك الليلة غيره ، ثم لزمتُه إلى أن حصَّلتُ ما أُريد ، ثم خرجتُ إلى بغداد .

قال ابن طاهر : « كنتُ يومًا أقرأ على أبي إسحاق الحبَّال جزءًا ،

---

(١) وهو حديث عبد الله بن عمر ، قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك » .

فجاءني رجُلٌ من أهل بلدي ، وأسرَّ إليَّ كلامًا قال فيه : إنَّ أخاك قد وصل من الشام، وذلك بعد دخول الترك بيت المقدس، وقتْل الناس بها، فأخذتُ في القراءة ، فاختلطتْ عليَّ السطور ، ولم يُمكنني أقرأ ، فقال أبو إسحاق : ما لك ؟ قلتُ : خير ، قال : لا بُدَّ أن تُخبرني ، فأخبرتُه ، فقال : وكم لك لم ترَ أخاك ؟ قلتُ : سنين ، قال : ولِمَ لا تذهب إليه ؟ قلتُ : حتى أُتمَّ الجزء ، قال : ما أعظم حرصكم ياأهل الحديث ، قد تمَّ المجلس ، وصلى الله على محمد ، وانصرف .

وأقمتُ بتنِّيس مُدَّةً على أبي محمد بن الحدَّاد ونُظرائه ، فضاق بي ، فلم يبق معي غير درهم ، وكنتُ أحتاج إلى حبر وكاغد ، فتردَّدتُ في صرفه في الحبْر أو الكاغد أو الخبز ، ومضى على هذا ثلاثة أيام لم أطعم فيها ، فلما كان بكرة اليوم الرابع ؛ قلتُ في نفسي لو كان لي اليوم كاغد ، لم يُمكنني أن أكتب من الجوع، فجعلتُ الدرهم في فمي، وخرجتُ لأشتري خبزًا ، فبلعتُه ، ووقع علي الضحك ، فلقيني صديقٌ وأنا أضحك ، فقال : ما أضحكك ؟ قلتُ : خير ، فألحَّ عليَّ ، وأبيْتُ أن أخبره ، فحلف بالطلاق لتصدقني فأخبرتُه ، فأدخلني منزله ، وتكلَّف أطعمة ، فلما خرجنا لصلاة الظهر ؛ اجتمع به بعض وكلاء عامل تنيس ابن قادوس ، فسأل عني ، فقال : هو هذا ، قال : إنّ صاحبي منذ شهر أمر بي أن أُوصل إليه كل يوم عشرة دراهم قيمتها رُبْع دينار، وسهوتُ عنه، فأخذ منه ثلاثمائة، وجاء بها»[1] .

« سمع ابن طاهر ببلده ، وبمكة ، وبغداد ، ومصر ، والإسكندرية ، وتنِّيس، ودمشق، وحلب، والجزيرة، والرحبة، وصور، وأصبهان، ونيسابور ، وجرجان ، وآمد ، واستراباذ ، وبوشنج ، والبصرة ، والدِّينور ، والريِّ ، وسرخس ، وشيراز ، وقزوين ، والكوفة ، والموصل ، ومرو ، وكرمان ،

(١) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣٦١ - ٣٦٧ .

ومروالروذ ، ونهاوند ، وهمذان ، والحديثة ، وواسط ، وساوة ، وأسد آباد، والأنبار، وإسفرايين، وبآمل طبرستان، والأهواز، وبسطام، ويزدجرد.

فهذه أربعون مدينة قد سمع فيها الحديث، وسمع في بلدان أخرى».

١٩٥ - الإمام الفقيه ابن فُطَيْمَة :

المُسنِد القاضي، أبو عبد الله، الحسين بن أحمد بن علي الخُسْرَوْجِرْدي الشافعي ، قاضي بيهق .

قال السمعاني : « كثيرُ السماع ، حَسَنُ السيرة ، مليحُ المجالسة ، ما رأيتُ أخفَّ روحًا منه مع السخاء والبذل ، سمعتُ منه الكثير ، وكتب لي أجزاءً، ومن العجب أنه قُطعت أصابعه بكرمان من عِلَّة، فكان يأخذ القلم، ويترك الورق تحت رجله، ويُمسك القلم بكفَّيْه، فيكتب خطًّا مليحًا سريعًا، يكتب في اليوم خمس طاقات خطًّا واسعًا . تفقّه بمرو على جدَّيْ أبي المظفّر ، وحجَّ ، خرجتُ نحو أصبهان ، فتركتُ القافلة ، ومضيتُ إلى (خُسْرَوْجِرْد) مع رفيق لي رَاجِلَيْن ، فدخلنا داره ، وسلَّمنا على أصحابه ، فما التفتوا علينا ، ثم خرج الشيخ ، فاستقبلناه ، فأقبل علينا ، وقال : لِمَ جئتم ؟ قلنا : لنقرأ عليك جزأين من « معرفة الآثار » للبيهقي . فقال : لعلكم سمعتم الكتاب من الشيخ عبد الجبَّار ، وفاتكم هذا القدر ؟ قلنا : بلى ، وكان الجزآن فوتًا لعبد الجبار ، فقال : تكونون عندي الليلة ، فإنَّ لي مُهمًّا ، أُريد أن أخرج إلى (سَتْرَوار) ، فإنَّ ابني كتب إليَّ أن ابن أُستاذي جاء في هذه القافلة ، فأُريد أن أُسلِّم عليه ، وأسأله أن يُقيم عندي أيامًا ، وسمَّاني ، فتبسَّمتُ ، فقال لي : تعرفه ؟ قلتُ : هو بين يديك ، فقام ونزل وبكى ، وكاد أن يُقبِّل رِجليَّ ، ثم أخرج الكتب والأجزاء ، ووهبني بعض أصوله ، فكنتُ عنده ثلاثة أيام »[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٦٠ - ٦٢ .

١٩٦ - أبو الوقت :

الشيخ الإمام الزاهد الخيِّر مُسنِد الآفاق ، عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي. حدَّث بخراسان وأصبهان وكرمان وهمذان وبغداد، وتكاثر عليه الطلبة ، واشتهر حديثه ، وبعُد صيتُه ، وانتهى إليه عُلُوُّ الإسناد .

قال السمعاني : « استسعد بصحبة الإمام عبد الله الأنصاري ، وخدمه مُدَّةً ، وسافر إلى العراق وخوزستان والبصرة ، نزل بغداد برباط البسطامي فيما حكاه لي ، وسمعتُ منه بهَراة ومالين ، وكان صبورًا على القراءة ، مُحِبًّا للرواية ؛ حدَّث بالصحيح ومُسنَد عبد والدارمي عدَّة نُوَب ، وسمعتُ أن أباه سمَّاه محمدًا، فسمَّاه عبد الله الأنصاري عبد الأول، وكنَّاه بأبي الوقت ، ثم قال : الصوفيّ ابن وقته .

وقال زكي الدين البرزالي : طاف أبو الوقت العراق وخوزستان ، وحدَّث بهراة ومالين ، وبُوشنج وكرمان وَيزْد وأصبهان ، والكرج وفارس ، وهمذان ، وقعد بين يديه الحفَّاظ والوزراء ، وكان عنده كُتُبٌ وأجزاء ، سمع عليه مَنْ لا يُحصى ولا يُحصر .

وقال ابن الجوزي : كان صبورًا على القراءة ، وكان صالحًا ، كثير الذِّكْر والتهجُّد والبكاء ، على سمْت السلف »[1] .

١٩٧ - الحافظ أبو مروان الباجي ، محمد بن أحمد :

رحل من سبتة في البحر ، في المُحرَّم في يوم الأربعاء السابع منه من عام (٦٣٤ هـ) ، ووصل مَرْسى عكا في عَشِيِّ يوم الجمعة الثاني عشر من شعبان من العام المذكور - أي بقي في رحلته هذه إلى الشرق أكثر من سبعة أشهر في البحر - وتوجَّه منها إلى دمشق ، فوافاها في سابع شهر رمضان

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٣٠٣ - ٣٠٧ .

من العام المذكور، فسمع بها على أبي عمرو بن الصلاح كتاب علوم الحديث، وعلى غيره ، وسُمِع عليه بها وبغيرها من بلاد الشرق ، وأجَلَّه أهلها ، وبالغوا في مبرَّته وإكرامه .

١٩٨ - الحافظ أبو الوليد الباجي، سليمان بن خلف الأندلسي القرطبي :

« كان أصلُه من بطليوس ، ثم انتقل إلى باجة الأندلس ، وكان أول وروده الأَنْدلس مُقلًّا من دنياه ، حتى احتاج في سفره إلى القصد بشعره ! وآجر نفسه مُدَّة مقامه ببغداد لحراسة درب ، فكان يستعين بإجارته على نفقته ، وبضوئه على مطالعته .

ثم ورد الأندلس ، وحاله ضيِّقة ، فكان يتولَّى ضَرْب ورق الذهب للغزل والإنزال ، ويعقد الوثائق ، فلقد حدَّثني ثقة من أصحابه أنه كان حينئذٍ يخرج إلينا للقراءة عليه ، وفي يديه أثَرُ المطرقة وصدأ العمل ، إلى أن فشا علمُه وعُرف ، ونوَّهت الدنيا به ، وشُهِرت تواليفه ، فعُرف حقُّه ، وجاءته الدنيا، وعظُم جاهه، وأُجزلت صلاته، فاتَّسعتْ حالُه، وتوفَّر كسْبُه»[١] .

١٩٩ - إمام الحرمين، أبو المعالي الجُوَيني، عبد الملك بن عبد الله النيسابوري الشافعي الفقيه، شيخ الإمام الغزالي :

« قال الحافظ المُحدِّث الأديب عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي تلميذه في كتابه « السياق » في تاريخ نيسابور : إمام الأئمة على الإطلاق ، حَبْرُ الشريعة ، المُجمَعُ على إمامته شرقًا وغربًا ، المُقِرُّ بفضله السراةُ والحداةُ عجمًا وعربًا ، مَنْ لم ترَ العيون مثله قبله ولا ترى بعده .

لما توفي أبوه الإمام أبو محمد الجويني ؛ كانت سِنُّه دون العشرين أو قريبًا منه ، فأقعد مكانه للتدريس ، فكان يُقيم الرسم في درسه ، ويقوم منه

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤ / ٨٠٤ .

ويخرج إلى مدرسة البيهقي، حتى حصَّل الأصول وأصول الفقه على الأستاذ أبي القاسم الإسكافِ الإسفراييني، وكان يُواظب على مجلسه. وقد سمعتُه يقول في أثناء كلامه : كنتُ علقتُ عليه في الأصول أجزاء معدودة ، وطالعتُ في نفسي مائة مُجلَّدة .

وكان يصل الليل بالنهار في التحصيل حتى فرغ منه ، ويُبكِّر كلَّ يوم قبل الاشتغال بدرس نفسه إلى مجلس الأستاذ أبي عبد الله الخبَّازي يقرأ عليه القرآن ، ويقتبس من كل نوع من العلوم ما يُمكنه ، مع مواظبته على التدريس .

ولما عاد من إقامته ومجاورته بمكة المكرمة أربع سنين يُدرِّس فيها ويُفتي ؛ بُنيت له المدرسة النظامية في نيسابور ، وأُقعد للتدريس فيها ، وبقي على ذلك قريبًا من ثلاثين سنة ، غير مُزاحم ولا مُدافَع ، مُسَلَّم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة والمناظرة وهُجرت له المجالس ، وحضر درسه الأكابرُ والجمُّ العظيم من الطلبة ، وكان يقعد بين يديه كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة ومن الطلبة .

وسمعتُه في أثناء كلام يقول : أنا لا أنام ولا آكل عادة ، وإنما أنام إذا غلبني النوم ، ليلًا كان أو نهارًا ، وآكل الطعام إذا اشتهيتُ الطعام أيَّ وقتٍ كان ، وكان لذَّتُه ولهْوُه ونُزهتُه في مذاكرة العلم وطلب الفائدة من أي نوع كان .

وقدم إلى نيسابور الشيخ أبو الحسن علي بن فضَّال المجاشعي النحوي، فقابله إمام الحرمين بالإكرام ، وأخذ في قراءة النحو عليه والتلمذة له - وقد بلغت سِنُّ إمام الحرمين آنذاك نحو الخمسين سنة ، وغدا إمام وقته وعصره - وكان يحمله كل يوم إلى داره ، ويقرأ عليه « إكسير الذهب في صناعة الأدب» من تصنيفه، فكان أبو الحسن المجاشعي يحكي ويقول : ما رأيتُ عاشقًا للعلم مثل هذا الإمام ، فإنه يطلب العلم للعلم ، وكان

كذلك »[١] .

٢٠٠ - الحافظ الحميدي ، محمد بن فتوح الأندلسي ثم البغدادي :

تلميذ الإمام ابن حزم ، وتلميذ الخطيب البغدادي .

قال الأمير ابن ماكولا : لم أرَ مثل صديقنا الحميدي في نزاهته وعفَّته وورعه وتشاغله بالعلم ، صنَّف « تاريخ الأندلس » .

وقال إبراهيم السَّلَماسي : لم تر عيناي مثل الحميدي في فضله ونُبْله وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم .

وقال يحيى بن البنَّاء : كان الحميدي من اجتهاده ؛ ينسخ بالليل في الحرِّ ، فكان يجلس في إجَّانة ماء[٢] ! يتبرَّد به !.

لايمنعه شيءٌ عن طلب العلم والظفر به ، فالحرُّ والبرد لا وجود لهما إذا ظفر بالعلم !!

٢٠١ - الخطيب التبريزي :

« إمام اللغة ، أبو زكريا ، يحيى بن علي بن محمد ، أحد الأعلام . ارتحل ، وأخذ الأدب عن أبي العلاء المعري ، وعُبيد الله بن علي الرقِّي ، وسمع بصُور من الفقيه سُلَيم ، وأبي بكر الخطيب ، وأقام بدمشق مُدَّةً ، ثم ببغداد ، وكثُرت تلامذته ، وأقرأ علم اللسان . أخذ عنه ابن ناصر ، والسلفي .

قال ابن نقطة : ثقة في علمه ، مُخلِّط في دينه »[٣] .

« كان سبب توجُّهه إلى أبي العلاء المعري - من تبريز إلى المعرَّة - أنه حصلت له نسخة من كتاب « التهذيب » في اللغة ، تأليف أبي منصور

---

(١) « تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري » لابن عساكر ٢٧٨ / ٢٨٣ ، طبقات الشافعية للسبكي ٥ / ١٧٤ - ١٨٠ .

(٢) هي إناء يغسل فيه الثياب .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٢٦٩ .

الأزهري ، في عدَّة مُجلَّدات لِطافٍ ، وأراد تحقيق ما فيها وأخْذَها عن رجل عالم باللغة ، فدُلَّ على المعرِّي ، فجعل الكتاب في مِخلاة ، وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرَّة ، ولم يكن له ما يستأجر به مركوبًا ! فنفذ العَرَق من ظهره إليها ؛ فأثَّر فيها البَلَل ، وهي ببعض المكتبات الموقوفة ببغداد ، وإذا رآها مَنْ لا يعرف صورة الحال فيها ؛ ظنَّ أنها غريقة ، وليس بها سوى عَرق الخطيب التبريزي رحمه الله ، ورَعَى له اجتهاده في طلب العلم »[(١)] .

٢٠٢ - قاضي المارستان ، أبو بكر محمد بن عبد الباقي البزّاز ، الحافظ البغدادي :

قال تلميذه ابن السمعاني: «عارفٌ بالعلوم، مُتفنِّنٌ، حَسَنُ الكلام ، حُلْوُ المنطق ، مليحُ المحاورة ، ما رأيتُ أجمع للفنون منه ، نظر في كل علم ، وكان سريع النسخ ، حَسَنَ القراءة للحديث . سمعتُه يقول : ما ضيَّعتُ ساعة من عمري في لهوٍ أو لعبٍ . وسمعتُه يقول : أسرتني الروم[(٢)] ، وبقيتُ في الأسر سنةً ونصفًا ، وكان خمسة أشهر الغُلّ في عنقي ، والسلاسل على يديَّ ورجليَّ ، وكانوا يقولون لي : قل : المسيح ابن الله ، حتى نفعل ونصنع في حقك ، فامتنعتُ ، وما قلتُ ، ووقتَ أنْ حُبستُ كان ثمَّ مُعلِّمٌ يُعلِّم الصبيان الخطّ بالروميَّة ، فتعلَّمت في الحبس الخطَّ الرومي »[(٣)] .

سبحان الله ! ما أعلى هذه الهِمَم ، لا يصرفه صارف عن العلم ولو كان القيد في عُنُقه ورجليه ويديه !

---

(١) « إنباه الرواة » للقفطي ٢/٢٣٣، « وفيات الأعيان » لابن خلّكان ٢/٢٣٣ ، « معجم الأدباء » لياقوت الحموي ٢٠/٢٥ .

(٢) وكان في سفر .

(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١ / ١٩٣ .

٢٠٣ - المُفسِّر المُحدِّث أبو المظفر ابن السمعاني ، منصور بن محمد :

« جَدُّ أبي سعد السمعاني صاحب كتاب الأنساب » .

قال فيه السبكي : « أحدُ مَنْ طبَّق الدنيا ذكْرُهُ ، وعَبَّق الكونَ نشْرُهُ .

خرج من مَرْو ، ودخل بغداد سنة (٤٦١ هـ) ، وناظر الفقهاء ، ثم خرج منها إلى الحجاز على غير الطريق المعتاد ، فإن الطريق كان قد انقطع بسبب استيلاء العرب ، فقُطِعَ عليه وعلى رفيقه الطريق وأُسِر ، واستمرَّ أبو المظفر مأسورًا في أيدي عرب البادية ، صابرًا إلى أن خلّصه الله تعالى ، فحكى أنه لما دخل البادية وأخذته العرب؛ كان يخرج مع جِمالِهم إلى الرعي ، قال : ولم أقل لهم أني أعرف شيئًا من العلم ، فاتفق أن مُقدَّم العرب أراد أن يتزوّج ، فقال : نخرج إلى بعض البلاد ، ليعقد هذا العقد بعضُ الفقهاء ، فقال أحد الأسرى : هذا الرجل الذي يخرج مع جِمالكم إلى الصحراء فقيه خراسان ، فاستدعوني وسألوني عن أشياء فأجبتُهم ، وكلَّمتُهم بالعربية ، فخجلوا واعتذروا ، وعقدتُ لهم العقد ، ففرحوا ، وسألوني أن أقبل منهم شيئًا ، فامتنعتُ ، وسألْتُهم ، فحملوني إلى مكة في وسط السنة ، وبقيتُ بها مُجاورًا ، وصحبتُ في تلك المدة سعدًا الزنجاني .

قال الحسن بن أحمد المَرْوَزي الصوفي ، رفيق أبي المظفر إلى الحج : اكترينا حمارًا ركبه الإمام أبو المظفر من مَرْوَ إلى خَرَق ، وهي على ثلاثة فراسخ من مرو ، ، فنزلنا بها ، وقلتُ : ما معنا إلا إبريق من خزف ، فلو اشترينا آخر ، فأخرج من جيبه خمسة دراهم ، وقال : ياحسن ، ليس معي إلا هذه ، خذْ واشترِ ما شئتَ ، ولا تطلب مني بعد هذا شيئًا . قال : فخرجنا على التجريد ، وفتح الله لنا ، فكلما دخلنا بلدةً نزل على الصوفية ، وطلب الحديث من المشيخة ، فلما دخلنا مكة نزل على أحمد بن علي بن أسد الكرخي ، ودخل في صحبة سعدٍ الزنجاني ، ولم يزل معه حتّى صار

ببركته من أصحاب الحديث »[١] .

هذا والله العجب العجاب .. شيخ خراسان في طلبه للعلم والحديث والحج يقع أسيرًا ويرعى الجِمال للأعراب .. شدَّ ما قاسوا ! ما ضرَّهم ما أصابهم .. جبر الله لهم بالعلم كلَّ مصيبة !!

٢٠٤ - الحافظ اليُونارتي والباغْبَاني :

« الشيخ الإمام ، أبو نصر ، الحسن بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني .

قال يحيى بن منده: كان حافظًا لأحاديث رسول الله ﷺ، ولأطراف من الأدب والنحو »[٢] .

«قال السمعاني: سألتُ إسماعيل الحافظ- قوَّام السُّنَّة- عن اليُونارتي ؟ فقال : رحل إلى ابن خلف الشيرازي ، وكان آخر من رحل إليه ، ثم رحل بعده عبد الرحمن بن أحمد الباغْباني مع أبيه ، فقال : دخلتُ نيْسابور وأنا أعدو إلى بيت أحمد بن خلف! فلقيتُ اليونارتي، فعاتبني وقال: تعال أُطعمك أوَّلًا ، فقدَّم طعامًا ، وأكلنا ، وأخرج مسموعاته من ابن خلف ، وقال : مات ودفنتُه ! قال عبد الرحمن : فكادت مرارتي تنشَقُّ !!»[٣] .

حسراتٌ صاحَبَتْهُم إلى قبورهم حُزنًا على فوات الشيوخ !!.

ولم يَتَّفقْ حتى مضى لسبيلِهِ   وكم حسراتٍ في بطونِ المقابر

٢٠٥ - الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني :

شيخ بغداد ، أبو محمد ، عبد القادر بن أبي صالح عبد الله الجيلي ، إمام الحنابلة وشيخهم في عصره .

---

(١) طبقات الشافعية ٤ / ٢١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩ / ٦٢١ - ٦٢٢ .

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي ٤ / ١٢٨٧ .

قال شيخ الحنابلة موفق الدين بن قدامة ، وسُئل عن الشيخ عبد القادر ، فقال : أدركناه في آخر عمره ، فأسكننا في مدرسته ، وكان يُعنَى بنا ، وربما أرسل إلينا ابنه يحيى ، فيُسرج لنا السراج ، وربما يُرسل إلينا طعامًا من منزله ، وكان يُصلِّي الفريضة بنا إمامًا ، وكنتُ أقرأ عليه من حفظي من كتاب الخرقي غُدْوة ، ويقرأ عليه الحافظ عبد الغني من كتاب « الهداية » في الكتاب ، وما كان أحد يقرأ عليه في ذلك الوقت سوانا ، فأقمنا عنده شهرًا وتسعة أيام ، ثم مات وصلَّيْنا عليه ليلًا في مدرسته ، ولم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يُحكى عنه ، ولا رأيتُ أحدًا يُعظِّمُه الناس للدين أكثر منه ، وسمعنا عليه أجزاء يسيرة .

قال ابن النجّار في « تاريخه » : « دخل الشيخ عبد القادر بغداد في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، فتفقَّه على ابن عقيل، وأبي الخطاب؛ والمخرِّمي، وأبي الحسين ابن الفرَّاء ، حتى أحكم الأصول والفروع والخلاف ، وسمع الحديث ، وقرأ الأدب على أبي زكريا التبريزي ، واشتغل بالوعظ إلى أنْ برَّز فيه ، ثم لازم الخلوة والرياضة والمجاهدة والسياحة والمقام في الخراب والصحراء ، وصحب الدَّبَّاس ، ثم إن الله أظهره للخلق ، وأوقع له القبول العظيم ، فعقد مجلس الوعظ في سنة إحدى وعشرين ، وأظهر الله الحكمة على لسانه ، ثم درَّس ، وأفتى ، وصار يُقصد بالزيارة ، وصنَّف في الأصول والفروع ، وله كلام على لسان أهل الطريقة عالٍ . وكتب إليَّ عبد الله ابن أبي الحسن الجُبَّائي : قال لي الشيخ عبد القادر : طالبتني نفسي يومًا بشهوة ، فكنتُ أُضاجرها ، وأدخل في درب ، وأخرج من آخر ، أطلب الصحراء ، فرأيتُ رقعة مُلقاةً ، فإذا فيها : ما للأقوياء والشهوات ، وإنما خُلِقتِ الشهوات للضعفاء . فخرجتِ الشهوة من قلبي .

قال: وكنتُ أقتات بخرّوب الشوك وورق الخسّ من جانب النهر»(١).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٤٤٤ .

قال ابن رجب الحنبلي في «ذيل طبقات الحنابلة» (٢٩٨/١): «قال الشيخ عبد القادر : وكنتُ أقتات بخُرْنوب الشوك ، وقمامة البقل ، وورق الخسّ من جانب النهر والشطّ ، وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد إلى أن بقيتُ أيامًا لم آكل فيها طعامًا ، بل كنتُ أتتبَّع المنبوذات أطعمها ، فخرجتُ يومًا من شدَّة الجوع إلى الشط ، لعلي أجد ورق الخسِّ أو البقل ، أو غير ذلك ، فأتقوَّت به ، فما ذهبتُ إلى موضع إلَّا وغيري قد سبقني إليه ، وإنْ وجدتُ أجدُ الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حبًّا ، فرْجعتُ أمشي وسط البلد ، فما أُدرك منبوذًا إلَّا وقد سُبِقتُ إليه ، حتى وصلتُ إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد، وقد أجهدني الضعفُ، وعجزتُ عن التماسك، فدخلتُ إليه ، وقعدتُ في جانب منه ، وقد كدتُ أُصافحُ الموتَ ؛ إذ دخل شابٌّ أعجميٌّ ومعه خبزٌ صافٍ وشواء، وجلس يأكل ، فكنتُ أكاد كلما رفع يده باللقمة أفتح فمي من شدة الجوع ،حتى أنكرتُ ذلك على نفسي، فقلتُ : ما هذا ؟ وقلتُ : ما هاهنا إلا الله أو ما قضاه من الموت ؛ إذ التفتَ إليَّ الأعجميُّ فرآني ، فقال : بسم الله يأخي ، فأبيْتُ ، فأقسمَ عليَّ ، فبادرتُ نفسي فخالفتُها ، فأقسمَ أيضًا ، فأجبتُه ، فأكلتُ مُتقاصرًا ، فأخذ يسألني : ما شغلك ؟ ومنْ أين أنت ؟ وبمن تعرف ؟ فقلت : أنا مُتفقِّهٌ من جيلانَ . فقال : وأنا من جيلان ، فهل تعرف شابًّا جيلانيًّا يُسمى عبدَ القادر ، يُعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد ؟ فقلتُ : أنا هـو ، فاضطرب وتغيَّر وجهُه ، وقال : والله لقد وصلتُ إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي ، فسألتُ عنك ، فلم يُرشدني أحدٌ ، ونفدت نفقتي ، ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا ما كان لك معي ، وقد حَلتْ لي الميتةُ ، وأخذتُ من وديعتك هذا الخبز والشواء ، فكُلْ طيِّبًا ، فإنما هو لك ، وإنما أنا ضيفُك الآن بعد أن كنت ضيفي ، فقلتُ له : وما ذاك ؟ فقال : أمُّك وجَّهت لك معي ثمانية دنانير، فاشتريتُ منها للاضطرار ؛ فأنا مُعتذرٌ إليك ،

فسكّنْتُه ، وطيَّبتُ نفسه ، ودفعتُ إليه باقي الطعام وشيئًا من الذهب رسم النفقة ، فقَبِلَه وانصرف » .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٤٥- ٤٤٧) :

« قال ابن النجَّار : كتب إليّ عبد الله بن أبي الحسن الجبّائي قال : قال لي الشيخ عبد القادر : كنتُ في الصحراء أُكرِّر في الفقه وأنا في فاقة ، فقال لي قائل لم أرَ شخصه : اقترضْ ما تستعين به على طلب الفقه ، فقلتُ : كيف أقترض وأنا فقير ولا وفاءَ لي ؟ قال : اقترض وعلينا الوفاء ، فأتيتُ بقَّالًا، فقلتُ: تعاملني بشرط إذا سهَّل الله أعطيتُك، وإنْ متُّ تجعلني في حلٍّ ، تُعطيني كل يوم رغيفًا ورشادًا ، فبكى وقال : أنا بحكمك ، فأخذتُ منه مُدَّةً ، فضاق صدري ، فأظنّ أنه قال : فقيل لي : امض إلى موضع كذا ، فأيّ شيءٍ رأيتَهُ على الدَّكة ؛ فخذْهُ وادفعْه إلى البقال ، فلما جئت رأيتُ قطعة ذهبٍ كبيرة ، فأعطيتُها البقلي ، ولحقني الجنون مرّةً ، وحملتُ إلى المارستان، فطرقتني الأحوال، حتى حسبوا أني متُّ ، وجاءوا بالكفن ، وجعلوني على المغتسل ، ثم سرِّي عني وقمتُ ، ثم وقع في نفسي أن أخرج من بغداد لكثرة الفتن ، فخرجتُ إلى باب الحلبة ، فقال لي قائل : إلى أين تمشي ؟ ودفعني دفعة خررتُ منها ، وقال : ارجع ، فإن للناس فيك منفعة . قلتُ : أُريد سلامة ديني ، قال : لك ذاك ، ولم أرَ شخصه ، ثم بعد ذلك طرقتني الأحوال ، فكنتُ أتمنَّى مَنْ يكشفها لي، فاجتزتُ بالظفرية[1]، ففتح رجل داره، وقال: ياعبد القادر، أيش طلبتَ البارحة ؟ فنسيتُ ، فسكتُّ ، فاغتاظ ودفع الباب في وجهي دفعةً عظيمة ، فلمَّا مشيتُ ذكرتُ ، فرجعتُ أطلب الباب فلم أجده . قال : وكان حمّادا الدّباس ، ثم عرفتُه بعدُ ، وكشف لي جميع ما كان يشكل عليَّ ، وكنتُ

(١) محلة بشرقي بغداد كبيرة .

إذا غبتُ عنه لطلب العلم وجئتُ ، يقول : أيش جاء بك إلينا ، أنت فقيه ، مُرَّ إلى الفقهاء ، وأنا أسكتُ . فلما كان يوم جمعة ، خرجتُ مع الجماعة في شِدَّة البرد ، فدفعني ؛ ألقاني في الماء ، فقلتُ : غُسْلُ الجمعة بسم الله ، وكان عليَّ جُبَّة صوفٍ ، وفي كُمِّي أجزاء ، فرفعتُ كُمِّي ؛ لئلا تهلك الأجزاء ، وخلّوْني ومشوْا ، فعصرت الجُبَّة وتبعتُهم ، وتأذَّيْتُ بالبرد كثيرًا ، وكان الشيخ يُؤذيني ويضربني ، وإذا جئتُ ؛ يقول : جاءني اليوم الخبز الكثير والفالوذج ، وأكلْنا ، وما خبَّأنا لك ؛ وحشة عليك ، فطمع فيَّ أصحابه ، وقالوا : أنت فقيه ، أيش تعمل معنا ، فلمّا رآهم يؤذونني غار لي ، وقال : ياكلاب ، لِمَ تؤذونه ؟ والله ما فيكم مثله ، وإنما أوذيه لأمتحنه ، فأراه جبلًا لا يتحرَّك ، ثم بعد مدة قَدِمَ رجل من همذان يُقال له: يوسف الهمذاني، وكان يُقال: إنه القطب! ونزل في رباط، فمشيتُ إليه فلم أره ، وقيل لي : هو في السرداب ، فنزلتُ إليه ، فلما رآني ؛ قام وأجلسني ، ففرشني وذكر لي جميع أحوالي ، وحلَّ لي المشكل عليَّ ، ثم قال لي : تكلمْ على الناس ؟ فقلتُ : ياسيدي ، أنا رجل أعجميٌّ قُحٌّ أخرس، أتكلم على فصحاء بغداد؟! فقال لي: أنت حفظت الفقه وأصوله، والخلاف ، والنحو واللغة ، وتفسير القرآن ، لا يصلح لك أن تتكلم ؟!! اصعدْ على الكرسي وتكلَّم ، فإني أرى فيك عذقًا سيصير نخلة .

قال الجبّائي : وقال لي الشيخ عبد القادر : كنتُ أُومر وأُنهى في النوم واليقظة ، وكان يغلب عليَّ الكلام ، ويزدحم على قلبي إنْ لم أتكلَّم به ، حتى أكاد أختنق ، ولا أقدر أسكت ، وكان يجلس عندي رجلان وثلاثة، ثم تسامع الناس بي، وازدحم عليَّ الخلقُ حتى صار يحضر مجلسي نحو من سبعين ألفًا .

وقال لي : أتمنّى أن أكون في الصحاري والبراري كما كنتُ في الأوَّل ، لا أرى الخلق ولا يروني ، ثم قال : أراد الله مني منفعة الخلق ،

فقد أسلم علي يديَّ أكثر من خمسمائة، وتاب على يديَّ أكثر من مائة ألف».

٢٠٦ - الإمام الحافظ الكبير ، مُحدِّث خراسان ، أبو سعد السمعاني :

عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني الخراساني .

طوَّف البلدان والآفاق ، ودوَّخ الدنيا في طلب العلم وهو مُشتاق ، أبو سعد وأبو سعيد النبيل الأصيل، سليل بيت العلم والعلماء، وتاج أسرته، حَفَظَةُ الكتاب والسنة ، وشيوخ الفقهاء ، قد بلغ من التطواف والارتحال ما لا يخطر على بال ، فكانت أخبار ارتحاله من الأساطير ولكنها أصدقُ من الصبح المنير ، نهض برحلات قاربت عشرين سنة ، لا يعرف المَلَلَ ولا الكَلَلَ ، ولا يشبع من النَّهَم والعلل ، ولا يرتاح إلا بتوسيع الطواف ، واقتناص الفوائد ، والازدياد من الشيوخ ، واكتساب الفرائد ، حتى صار عَلمًا فريدًا ، وتاريخًا جديدًا .

قال عنه السبكي في طبقات الشافعية (١٨٠/٧) : « تاج الإسلام بن تاج الإسلام ، مُحدث المشرق ، وصاحب التصانيف المُفيدة المُمتعة ، والرياسة والسؤدد والأصالة .

حمله والده الإمام أبو بكر إلى نيسابور سنة تسع وخمسمائة ، وأحضره السماع - وهو في السنة الرابعة - على عبد الغفَّار الشيرويّ ، وأبي العلاء عُبيد بن محمد القشيري ، وجماعة ، وكان قد أحضره بمرو على أبي منصور محمد بن علي القراعي وغيره ، ثم مات أبوه سنة عشر ، وأوصى به إلى الإمام إبراهيم المروزي صاحب التعليقة ، فتفقَّه أبو سعد عليه ، وتهذَّب بأخلاقه ، وتربَّى بين أعمامه وأهله، فلما راهق أقبل على القرآن والفقه، وعُنِي بالحديث والسماع ، واتَّسعتْ رحلتُه ، فعمَّت بلاد خراسان وأصبهان وما وراء النهر والعراق والحجاز والشام وطبرستان، وزار بيت المقدس وهو بأيدي النصارى، وحجَّ مرَّتين .

سمع بنفسه من الفراوي ، وزاهر الشحَّامي ، وهبة الله السيِّدي ، وتميم

الجرجاني، وعبد الجبار الخواري، وإسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ، وعبد المنعم بن القشيري ، وأبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري ، وخلائق يطول سردهم .

قال ابن النجّار: سمعتُ مَنْ يذكر أنّ عدد شيوخه سبعة آلاف شيخ. وهذا شيء لم يبلغه أحدٌ .

وألّف معجم البلدان التي سمع بها ، وعاد إلى وطنه بمرو سنة ثمان وثلاثين ، فتزوَّج ، ووُلِد له أبو المظفر عبد الرحيم ، فرحل به إلى نيسابور ونواحيها، وهراة ونواحيها، وبلخ وسمرقند، وبخارى، وخرَّج له مُعجمًا، ثم عاد به إلى مرو .

وألقى عصا السفر بعدما شقَّ الأرض شقًّا ، وأقبل على التصنيف والإملاء والوعظ والتدريس . سمع منه جماعة من مشايخه وأقرانه . وروى عنه الحافظ الأكبر أبو القاسم بن عساكر وابنه القاسم بن عساكر ، وأبو أحمد بن سكينة ، وعبد العزيز بن منينا .

عاد بعدما دوَّخ الأرض سفرًا إلى بلده مرو ، وأقام مُشتغلًا بالجمع والتصنيف ، والتحديث والتدريس بالمدرسة العميدية ، ونشر العلم ، إلى أن تُوفِّي إمامًا من أئمة المسلمين في كثير من العلوم ، أمسُّها به الحديث على اختلاف فنونه .

وذكره صاحبه ورفيقه الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر ، وأثنى عليه ، وقال : هو الآن شيخ خراسان غير مُدافَع ، عن صدْق ومعرفةٍ وكثرة سماع للأجزاء ، وكُتُبٍ مُصنَّفة ، والله يُبقيه لنشرِ السُّنَّة ، ويُوفِّقه لأعمال أهل الجنة » .

قالت الأستاذة منيرة ناجي سالم من العراق في مُقدِّمتها لكتابه «التحبير في المعجم الكبير » : « اعتنى به والده عنايةً كبيرةً ، فبكر بإسماعه من أجلّة مشايخ مرو ، ثم رحل به إلى نيسابور بلد الحديث والمُحدِّثين في

سنة (٥٠٩ هـ) ، وكانت سِنُّه آنذاك بلغت الثالثة والنصف من العمر ، فكان والده في مرو وفي نيسابور يُحضره مجالس المُحدِّثين ، ويكتب له ما أملوه أو ما قرىء عليهم في تلك المجالس ، وهو حاضر ، ويُثبت ذلك ويُصحِّحه ؛ ليكون أصلًا يرجع إليه ولده ، ويروي منه إذا كبر ، وكان يأخذ له الإجازات منهم، وبهذا حصل لولده عُلُوُّ الإسناد من مشايخ عصره، وكانت هذه الإجازات والسماعات والمقروءات أساس مادَّته العلمية الأولى . وقد تطلَّب لقاؤه العددَ الكبير من العلماء جهدًا كبيرًا ، واستطاع أبو سعد أن يتحمَّل المشاقَّ المُضنيةَ ، ويُذلِّل العقبات التي كانت تُواجهه في لقاء المشايخ، ولم يكتف بلقاء مشايخ المدينة التي كان يرحل إليها؛ بل كان يلقى مشايخ القرى والمحالِّ ، وينتقل من قرية إلى أخرى ومن محلَّة إلى أخرى، وكذلك كان يتنقَّل في الدروب والسكك والأبواب والدكاكين ، وحتى في طريق الرحلة كان يسمع ويُذاكر العلماء .

وقد رحل أبو سعد إلى أكثر من مائة مدينة ، وكان له رحلاتٌ كثيرةٌ ؛ أهمُّها ثلاث رِحَلٍ :

الرحلة الأولى: وكانت مُدَّتُها نحو عشر سنوات، وكانت من خراسان شرقًا إلى الشام غربًا ، ومن العراق شمالًا إلى الحجاز جنوبًا .

قال الشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني عن الرحلة الأولى : « ألحَّ أبو سعد - بعد أن قارب العشرين من عمره وصار يسمع بنفسه - على وصيِّه وعَمَّيْهِ أن يأذنوا له بالرحلة إلى نيسابور ؛ ليسمع صحيح مسلم من المُتفرِّد به المُعمِّر الثقة الفاضل أبي عبد الله محمد بن الفضل الفراوي ، الذي طال عمرُهُ ، وأصبح يتوقَّع كل يوم موته ، وكان من جلالته في العلم قد تفرَّد بصحيح مسلم بسند عالٍ جليل ، ولم يكن بينه وبين مسلم إلا ثلاثة ، مع أن بين وفاتيهما نحو مائتين وسبعين سنة ، وإذا مات ولم يسمع منه أبو سعد ؛ كانت حسرة في قلبه لا تندمل ، فلم يأذنوا له حتى جاوز عمره الثانية والعشرين

من السنين ، ولم يسمحوا له بالسفر وحده ، بل سافر معه عمُّه أبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني ، وضاق صدْرُ أبي سعد بتلك العناية الحبيبة الكريهة ، فلما أتمَّ سماع صحيح مسلم في نيسابور على الفراوي ؛ أراد عمُّه أن يرجع به إلى وطنه ، فلم يَسعْ أبا سعد إلا أن يختبىء ؛ أملًا أن يملَّ عمُّه الانتظار ، فيذهب ويدعه يطوف في مراكز العلم كما يُحبُّ ، لكن العمّ كان أصبرَ منه ؛ لزم نيسابور حتى ملَّ أبو سعد الاختباء ، فظهر ، وطاوع عمَّه في الرجوع معه ، وكأنه بقي يحاج عمَّه ، ويُوضِّح له أنه مُضطرٌّ إلى الرحلة ، وأنه لا داعي لمنْعه من الغربة وحده ، ويُمكن أن يكون كَاتبَ عمَّه الآخر والوصيَّ ، فعاد جوابُهما بالإذن له .. نَعَمْ ، أَذِنَ له عمُّه وهُما بطوس ، فرجع أبو سعد إلى نيسابور وقام بها سنة ؛ ثم ذهب يطوف في مراكز العلم في الدنيا عدَّة سنوات ، واتَّسعتْ رحلتُه ، ومات عمَّاه والوصيُّ عليه بمرو وهو في الرحلة » . انتهى كلام المعلمي .

الرحلة الثانية : وكانت مُدَّتُها ستَّ سنوات من سنة (٥٤٠ - ٥٤٦ هـ) ، وقد اقتصر فيها على زيارته أغلب مدن خراسان ؛ كنيسابور وسرخس ومروالروذ وهراة وبلخ ونسا . واصطحب معه في رحلته هذه أبا المظفر عبد الرحيم المولود بنيسابور ، وكان له من العمر نحو ثلاث سنوات ، فطاف به بلاد خراسان وما وراء النهر، وأحضره مجالس سماع الحديث هناك، وحصَّل له النُّسَخ من الكتب والأجزاء التي أُحضر مجالس سماعها ، وجمع له مُعجمًا لمشايخه في ثمانية عشر جزءًا ، وعوالي من الأحاديث التي أُسمعها في مُجلَّدين ضخمين .

الرحلة الثالثة: كانت مُدَّتُها أربع سنوات من سنة (٥٤٩- ٥٥٢هـ) إلى بلاد ما وراء النهر ، فزار فيها سمرقند وبخارى ونسا وغيرها . وفي طريق عودته إلى مرو زار مدينة خوارزم ، ثم استقرَّ في وطنه إلى آخر حياته .

فكانت مُدَّة رحلاته الثلاث نحو عشرين سنة » .

ولقد ذكرتِ الأستاذة مُنيرة ناجي في مُقدِّمتها للمعجم أسماء القرى والمدن التي رحل إليها السمعاني مُرتَّبةً على حروف المُعجم ؛ فبلغت مائة واثنتين وستين مدينة وقرية .

أما مؤلَّفاته النفيسة والغالية- وهي في علوم الحديث والرجال والتاريخ والأنساب والفقه والأصول والخلاف والتفسير والأخلاق وغيرها - فقد بلغت (٦٨) مُصنفًا كما ذكرت ذلك العالمة منيرة ناجي سالم في مُقدِّمتها لكتاب « التحبير في المعجم الكبير » .

وقد ألَّفها جميعها في مدة لا تتجاوز عشر سنوات ، بعد عودته من الرحلة الأخيرة واستقراره في بلده مرو من سنة (٥٥٢ إلى ٥٦٢ هـ) التي توفِّي فيها رحمه الله تعالى .

هذه البلاد التي طوَّف بها على قدميه أو على الدابة ، والشيوخ الذين لقيهم وأخذ عنهم سبعة آلاف شيخ ؛ ألَّف هو فيهم خاصَّةً كُتُبًا كبارًا بلغت المُجلَّدات .

فأيُّ شوق للعلم كان في قلب هذا الحافظ الذي طاف تلك البلاد ، ولقي أولئك الأقوام على وسائل ضعيفة مُضنية إن تيسَّرتْ ، وألَّف هذه الكتب التي يهولُك سماعُ أسمائها وتعدُّدُ أجزائها ؛ كتبها وحده بقلمه ، وجمع مادَّتَها بنفسه ، وألَّفها وحقَّقها ، فلله درُّه !

وما أعلى هِمَّتَه .. وجزاه الله عن الإسلام خيرًا !!

« قال السمعاني : كنتُ أنسخ بجامع بروجرد ، فدخل شيخ رثُّ الهيئة ، ثم قال : أيش تكتبَ ؟ فكرهتُ جوابه ، وقلتُ : الحديث . فقال : كأنك طالبُ حديث ؟ قلتُ بلى ، قال : من أين أنت ؟ قلتُ : من مرو . قال : عمَّن يروي البخاري من أهلها ؟ قلتُ : عن عبدان ، وصدقة بن الفضل ، وعليّ بن حجر ، فقال : ما اسم عبدان ، فقلتُ : عبد الله بن عثمان ، فقال : ولِمَ قيل له عبدان ؟ فتوقَّفتُ ، فتبسَّم ، ونظرتُ إليه بعين

أخرى ، وقلتُ : يذكر الشيخ ، فقال : كُنيتُه أبـو عبد الرحمن ، فاجتمع في اسمه وفي كنيته العبدان، فقيل: عبدان، فقلتُ: عمَّن ؟ قال : سمعتُ ابن طاهر يقوله ، وإذا هو الحافظ أبو الفضل محمد بن هبة الله ابن العلاء البوروجردي ، فروى لنا عن أبي محمد الدوني وطائفة »[(١)] .

رحمة الله على السمعاني !

قال القاضي ابن خلّكان في الوفيات (٣٠١/١) في ترجمة أبي سعد السمعاني : « وقال في بعض « أماليه » : وودَّعني عبد الله بن محمد بن غالب أبو محمد الجيلي الفقيه نزيل الأنبار ، وبكى وأنشدني :

ولمّـا برزنـا لتوديعهـم بَكَوْا لؤلؤًا وبكينا عقيقا
أداروا علينا كؤوسَ الفراقِ وهيهاتَ من سُكرِها أن نُفِيقا
تَوَلَّـوْا فأتبعتُهـم أدمعـي فصاحوا الغريقَ وصحتُ الحريقا

٢٠٧ - الحافظ الدقَّاق ، محمد بن عبد الواحد الأصبهاني :

قال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفَّاظ (١٢٥٦/٤) :

« كان الدقّاق صالحًا فقيرًا مُتعففًا ، صاحب سُنَّة واتِّباع ، وكان يقول : أوَّل ما أمليتُ بسرخس في سنة (٤٧٤ هـ) ، ودخلتُ لطلب الحديث طوس وهراة وبلخ ومرو وسمرقند وكرمان وجرجان ونيسابور . ثم قال الذهبي: فما زال يعدُّ حتَّى سمَّى مائة وعشرين مكانًا، ثم قال: فأما الذين كتبتُ عنهم بأصبهان فأكثر من ألف إن شاء الله ، والذين في الرحلة فأكثر من ألف أخرى » . انتهى .

٢٠٨ - الإمام الحافظ ، شيخ الإسلام ، السِّلَفي ، أبو طاهر ، أحمد بن محمد ابن أحمد الأصبهاني ، الجرواني ، ثم الإسكندري :

« نشأ هذا الإمام من صباه فذًّا في الذكاء والنباهة والحفظ وتحصيل

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٤٦٤ - ٤٦٥ .

العلم وجمعه ثم تعليمه ونشره. حدَّث عن نفسه، فقال: كتبوا عني بأصبهان في أول سنة (٤٩٢ هـ) وأنا ابن سبع عشرة سنة أو نحوها وليس في وجهي شَعْر ، ثم غادر أصبهان بعد أن أخذ عن شيوخ بلده ، ورحل إلى بغداد سنة (٤٩٣هـ)، ثم إلى غيرها من بلدان الإسلام، فطلب الحديث، وكتب الأجزاء ، وقرأ القرآن بالروايات ، وأخذ الفقه واللغة والأدب عن أركان العلم في عصره، وغدا إمامًا وأقرانه ما يزالون في الطلب والتحصيل، فسمع الحديث في بغداد من الحافظ أبي الخطَّاب نصر بن أحمد بن البَطِر ، وكان يخشى أن يموت قبل أن يُدركه ، فأدركه وسمع منه وفرح بلقائه .

قال حمَّاد بن هبة الله : سمعتُ السِّلَفي يقول : دخلتُ بغداد في شوال سنة (٤٩٣هـ)، فساعة دخولي لم يكن لي هَمٌّ إلا ابن البَطِر، فذهبتُ إليه ، وكان شيخًا عَسِرًا(١)، فقلتُ له : قد جئتُ من أصبهان لأجلك ، فقال : اقرأ ، فقرأتُ عليه وأنا مُتّكيء من دمامل بي ، فقال : أبصر ذا الكلب ، فاعتذرتُ له بالدمامل ، وبكيتُ من قوله ، وقرأتُ عليه سبعة عشر حديثًا وخرجتُ ، ثم قرأتُ عليه نحوًا من خمسة وعشرين جزءًا .

وسمع في بغداد أيضًا من أبي بكر الطوسي والحسين بن علّي بن البسري وطبقتهم ، واشتغل على إلكيا أبي الحسن الهراس في الفقه ، وعلى الخطيب التبريزي اللغوي في اللغة .

قال ابن ناصر : كان السّلفي ببغداد كأنه شعلةُ نارٍ في التحصيل ، وسمع في الكوفة من أبي البقاء الحبَّال ، وبمكة من الحسين بن علي الطبري ، وبالمدينة من أبي الفرج القزويني ، وبالبصرة من محمد بن جعفر العسكري ، وبزنجان من أبي بكر أحمد بن محمد بن زنجويه ، وبهمذان من أبي غالب أحمد ابن محمد العدل ، وبالريِّ من صاحب البحر أبي المحاسن عبد الواحد بن

---

(١) أي شرس الخلق .

إسماعيل الشافعي ، وبقزوين من إسماعيل بن عبد الجبَّار المالكي ، وبمراغة من سعد بن علي المصري ، وبدمشق من أبي طاهر الحنَّائي ، وبنهاوند من أبي منصور محمد بن عبد الرحمن بن غزو ، وبأبهر من أبي سعيد عبد الرحمن بن ملكان الشافعي ، وبواسط من أبي نعيم بن زيزب ، وبسلماس من محمد بن سعادة الهلالي ، وبالحلية من محمد بن الحسن الكوفي ، وبشهرستان من أبي الفتح أحمد بن محمد بن رشيد الأذمي ، وبالإسكندرية من أبي القاسم بن الفحّام الصقلي ، وسمع بالدينور وساوْة ونهاوند ، وطاف بلاد أذربيجان إلى دربند، وسمع بخلاط ونصيبين والرحبة وغيرها، وبقي في الرحلة ثماني عشرة سنة، وسمع ما لا يُوصف كثرةً، ونسخ بخطِّه الصحيح السريع ، وكان مُتقنًا مُتثبِّتًا ، ديِّنًا خيِّرًا ، حافظًا ناقدًا ، مجموع الفضائل ، انتهى إليه عُلُوُّ الإسناد ، وروى الحفّاظ الكبار عنه في حياته ، وله ثلاثة معاجم دوَّن فيها تراجم شيوخه الذين أخذ عنهم العلم في بلده وفي رحلاته ، فله معجم مشيخة أصبهان في مُجلَّد ، ويكونون أزيد من ستمائة شيخ ، ومُعجم مشيخة بغداد وهو كبير ، ومعجم السفر لشيوخه في باقي البلاد ، وله تصانيف كثيرة ، وركب البحر من صور في لبنان إلى الإسكندرية في سنة (٥١١ هـ) ، فاستوطنها خمسة وستين سنة إلى أن مات ، ما خرج منها سوى خرْجته إلى القاهرة سنة (٥١٧ هـ) للسماع من أبي الصادق مرشد بن يحيى المديني وطبقته .

قال الأوقي: سمعتُه يقول: لي ستون سنةً ما رأيتُ منارة الإسكندرية إلا من هذه الطاقة[1] .

قال الحافظ عبد القادر الرهاوي : بلغني أنه في مُدَّة مقامه بالإسكندرية ما خرج إلى بستان ولا فرجة غير مرَّة واحدة ، بل كان عامَّة دهره مُلازمًا

(١) يعني طاقة حجرته في المدرسة .

مدرسته ؛ وما كنا ندخل عليه إلا نراه مُطالعًا في شيء .

وقال الحافظ عبد العظيم المنذري: كان السِّلفي مُغرى بجمع الكتب، وما حصل له من المال يُخرجه في ثمنها ، وكان عنده خزائن كُتُبٍ لا يتفرَّغ للنظر فيها .

وأخذ عنه من الأئمة والعلماء والأدباء وغيرهم - في الحديث والفقه والتفسير والقراءات والتاريخ والأدب واللغة والشعر - خلائق لا يُحصون ، نظرًا إلى طول عمره المديد وارتفاع أسانيده ، وسُمُوِّ مقامه في العلم والإتقان ، وسعة الاطلاع ، وكثرة الشيوخ ، وطواف البلدان ، وتفنُّنه في العلوم ، فكان مقصد الطالبين ، ومحجَّةَ العلماء العارفين من مشارق الأرض ومغاربها ، واستجازه مَنْ لم يستطع الوصول إليه تشرُّفًا بعُلوِّ سنده ورفيع قدْره في العلم .

قال العماد الأصبهاني في الخريدة وغيره : طوّف السِّلفي البلاد ، وشُدَّت إليه الرحال ، وتبرَّك به الملوك والأقيال . وكان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر ، أزال من جواره مُنكراتٍ كثيرةً ، وكان له عند ملوك مصر العبيديين الجاه والكلمة النافذة مع مُخالفته لهم في المذهب ، وبنى له العادل علي بن إسحاق بن السلار أمير مصر - وكان سُنِّيًّا - مدرسته بثغر الإسكندرية ، ووقف عليها أوقافًا .

قال الرهاوي : بلغني أن سلطان مصر حضر عنده لسماع الحديث ، فجعل يتحدَّث مع أخيه ، فزجرهما الشيخ ، وقال : أيش هذا ، نحن نقرأ الحديث وأنتما تتحدَّثان .

ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله .

قال الحافظ الذهبي : لا أعلم أحدًا في الدنيا حدَّث نيِّفًا وثمانين سنةً سوى الحافظ السِّلفي .

كان حليمًا مُتحمِّلًا كفاء الغرباء، وكان تزوَّج بالإسكندرية امرأة ذات

يسار، وحصلت له ثروةٌ بعد فقْرٍ، وكان لا تبدو منه جفوةٌ لأحد، ويجلس للحديث وإسماعه ؛ فلا يشرب ماءً ، ولا يبصق ، ولا يتورَّك ، ولا تبدو منه قدمٌ ، وقد جاوز المائة »[١] .

قال الذهبي في السير : « كان ينسخ الجزء الضخم في ليلة .

وقد خرَّج « الأربعين البلدية » التي لم يُسبق إلى تخريجها ، وقلَّ أن يتهيأ ذلك إلا لحافظ عُرف باتِّساع الرحلة ، وله كتاب « السفينة الأصبهانية » في جزء ضخم ، و « السفينة البغدادية » في جزأين كبيرين ، ومقدمة « معالم السنن»؛ و «الوجيز في المجاز والمجيز»، وجزء «شرط القراءة على الشيوخ » ، و « مجلسان في فضل عاشوراء» ، وانتخب على جماعة من كبار المشايخ ؛ كجعفر بن أحمد السَّراج ، وأبي الحسين ابن الطيوري ، وأبي الحسن بن الفراء الموصلي ، وكان مُكِبًّا على الكتابة والاشتغال والرواية ، لا راحة له غالبًا إلا في ذلك .

قال الحافظ المنذري : سمعتُ الحافظ ابن المفضَّل يقول : عِدَّةُ شيوخ الحافظ السِّلفي بأصبهان تزيد على ستمائة نفس ، ومشيخته البغدادية خمسة وثلاثون جزءًا ، وكل مَنْ سمع من أبي صادق المديني ومحمد بن أحمد الرازي والمعدّل من المصريين ؛ فأكثره بإفادته » .

قال الذهبي : « قال السِّلفي : متى لم يكن الأصل بخطِّي لم أفرح به .

كان جيّد الضبط ، كثير البحث عما يشكل عليه . وكان أوحدَ زمانه في علم الحديث ، وأعرفهم بقوانين الرواية والتحديث ، جمع بين عُلُوِّ الإسناد وعُلُوِّ الانتقاد . وبذلك كان ينفرد عن أبناء جنسه » .

قال السِّلفي :

---

(١) النقل بتصرُّف من تذكرة الحفاظ ٤ / ١٢٩٨ - ١٣٠٤ ، وطبقات الشافعية الكبرى ٦ / ٣٢ - ٤١ ، وسير أعلام النبلاء ٢١ / ٥ .

دَعُوني عَنْ أَسانيدِ الضَّلَالِ وَهَاتُوا مِنْ أَسَانيدٍ عَوَالـي
رِخَاصٍ عِنْدَ أَهْلِ الجَهْلِ طُرًّا وَعِنْدَ العَارفينَ بِهَا غَوَالـي
عَنَ اشْيَاخِ الحديثِ وما رَوَاهُ إمَامٌ في العُلُومِ عَلَى الكَمَالِ
كمالِكٍ اوْ كمَعْمَرٍ المُزَكَّى وَشُعْبَةَ أو كسُفْيَانَ الهِلالي
وَسُفْيَانَ العِرَاقِ وَلَيْثِ مِصْرٍ فَقِدْمًا كان مَعْدُومَ المِثَـالِ
والاوزَاعِيِّ[1] فَهْوَ لَهُ بِشَرْعِ النَّـــبِيِّ المُصْطَفى أوْفَى اتِّصَالِ
ومِسْعَرٍ[2] الَّذي في كُلِّ عِلْمٍ يُشَارُ كَذَا إلَيْهِ كَـالهِلَالِ
وزائدةٍ[3] وَزِدْ أيضًا جَرِيرًا[4] فَكُلٌّ مِنْهُمَا رَجُلُ الـنِّضَالِ
وكابْنِ مُبَارَكٍ[5] أوْ كَابْنِ وَهْبٍ[6] وَكَالْقَطَّانِ[7] ذي شَرَفٍ وَحَالِ
وَحَمَّـادٍ[8] وَحَمَّـادٍ[9] جَمِيعًـا وكابْنِ الدَّسْتُوائيِّ[10] الجَمَـالِ

---

(١) الإمام المشهور أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو ، المُتوفَّى سنة (١٥٧ هـ) .
(٢) يعني مِسْعَر بن كدام الهلالي الكوفي الثبت الثقة، المتوفى سنة (١٥٣ أو سنة ١٥٥هـ).
(٣) هو أبو الصلت زائدة بن قدامة الثقفي الكوفي ، المُتوفَّى سنة (١٦٠هـ) .
(٤) جرير بن عبد الحميد بن قُرْط الضبيُّ الكوفيُّ ، نزيل الريِّ ، المُتوفَّى سنة (١٨٨هـ).
(٥) يعني عبد الله بن المبارك الإمام المشهور، المُتوفَّى سنة (١٨١هـ).
(٦) عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي ، مولاهم ، أبو محمد المصري الفقيه ، المُتوفَّى سنة (١٩٧هـ).
(٧) يحيى بن سعيد بن فُرُّوخ التميمي ، أبو سعيد القطان المصري ، المتوفى سنة (١٩٨هـ).
(٨) حمَّاد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضمي البصري ، المُتوفَّى سنة (١٧٩هـ).
(٩) حمَّاد بن أسامة القرشي الكوفي ، المُتوفَّى سنة (٢٠١هـ) .
(١٠) أبو بكر هشام بن أبي عبد الله الدستوائي البصري البكري ، المتوفَّى سنة (١٥٣ أو سنة ١٥٤هـ) .

وَبَعْدَهُمْ وَكِيعٌ[١] وابْنُ مَهْـــدِيٍّ[٢] المهدِيُّ في كُلِّ الخِلالِ
ومكِّيٍّ[٣] وَوَهْبٍ[٤] والحُمَـــيْدِيِّ عَبْدِ اللهِ[٥] لَيْثٍ ذِي صِيَالِ
وَضَحَّاكٍ[٦] عقيب يزيدَ[٧] أعني ابْـ ـنَ هارونَ المُحقَّق في الخِصَالِ
كَذَاكَ طَيَالسِيَّا البَصْرَةِ[٨] اذْكُرْ فَمَا رَوَيَاهُ مِنْ أثَرٍ لآلِـي
وَعَفَّانٌ[٩] نَعَمْ وَأَبُو نُعَيْـمٍ[١٠] حَمِيدَا الحَالِ مَرْضِيًّا الفِعَالِ
وَيَحْيَى[١١] شيخُ نَيْسَابورَ ثُمَّ الْـ إمَامُ الشَّافِعِيُّ المُقْتَـدَى لي

---

(١) وكيع بن الجراح الرؤاسي ، أبو سفيان ، الكوفي المتوفَّى سنة (١٩٦هـ).
(٢) عبد الرحمن بن مهدي بن حسّان العنبري ، مولاهم ، أبو سعيد البصري الثقة الثبت ، المتوفَّى سنة (١٩٨هـ).
(٣) أبو السكن ، مكي بن إبراهيم بن بشير التميمي البلخي ، المتوفَّى سنة (٢١٥هـ) .
(٤) وهب بن جرير بن حازم بن زيد، أبو عبد الله الأزدي البصري، المتوفَّى سنة (٢٠٦هـ).
(٥) عبد الله بن الزبير بن عيسى الحميدي القرشي صاحب الشافعي، المتوفَّى سنة (٢١٩هـ).
(٦) لا ريب أنه يُريد الضحاك بن مخلد بن الضحاك بن مسلم الشيباني ، وهو أبو عاصم النبيل ، المتوفَّى سنة (٢١٢هـ) .
(٧) يزيد بن هارون بن زاذان السلمي ، مولاهم ، أبو خالد الواسطي ، المتوفَّى سنة (٢٠٦هـ).
(٨) طيالسيَّا البصرة هما : أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي الفارسي الأصل ، البصري، المُتوفَّى سنة (٢٠٣هـ)، وأبو الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسي ، مولى باهلة ، المُتوفَّى سنة (٢٢٧هـ) .
(٩) عفَّان بن مسلم بن عبد الله الباهلي ، أبو عثمان الصفَّار البصري ، المتوفَّى سنة (٢١٩هـ) .
(١٠) الفضل بن دُكَيْن الكوفي الأحول، أبو نُعيم المُلائي، المتوفَّى سنة (٢١٨ أو سنة ٢١٩هـ).
(١١) نظنُّهُ يُريد أبا زكريا يحيى بن بُكير بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري ، الإمام الثقة الثبت ، المتوفى سنة (٢٢٦هـ) .

كَذَاكُم ابنُ خالدٍ[١] المُكَنَّى أبا ثَوْرٍ وَكَانَ حَوَى المَعَالِي
وأيضًا فالصَّدُوقُ أبو عُبَيْدٍ[٢] فَأَعْلامٌ مِنَ ارْبَابِ المَقَالِ
كَيَحْيى[٣] وَابْنِ حَنْبَلٍ المُعَلَّى بِمَعْرِفَةِ المُتُونِ وَبِالرِّجَالِ
وإسْحاقَ التَّقِيِّ وَفَتَى نُجَيْحٍ وَعَبْدِ اللهِ ذِي مدحٍ طُوَالِ

إسحاقُ : هو ابنُ راهُويه[٤] ، وفتى نُجَيْحٍ : ابنُ المديني[٥] ، وعبد الله : ابن أبي شَيْبَة[٦] .

وَعُثْمَانَ[٧] الرَّضِيَّ أَخِيهِ أَيْضًا وَكَالطُّوسِيِّ[٨] رُكْنِ الابْتِهَالِ
وكالنَّسَوِيِّ[٩] أَعْنِيهِ زُهَيْرًا وَيُعْرَفُ بابْنِ حَرْبٍ في المَجَالِ

---

(١) إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي ، أبو ثور الفقيه صاحب الشافعي ، ثقة ، مات سنة (٢٤٠هـ) .
(٢) من المؤكَّد أنه يقصد القاسم بن سلَّام البغدادي الإمام المشهور ، المُتوفَّى سنة (٢٢٤هـ) .
(٣) هو يحيى بن مَعين ، أبو زكريا البغدادي ، الثقة الحافظ المشهور ، إمام الجرح والتعديل، مات سنة (٢٣٦هـ) .
(٤) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي ، أبو محمد بن راهويه المروزي ، قرين أحمد ابن حنبل ، مات سنة (٢٣٨هـ) .
(٥) يعني علي بن المديني الناقد المُحدِّث المشهور ، المتوفى سنة (٢٣٤هـ) .
(٦) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ، إبراهيم بن عثمان الواسطي الأصل ، الكوفي صاحب التصانيف ، المتوفَّى سنة (٢٣٥هـ) .
(٧) هو أخو عبد الله المُقدَّم ذكْره ، تُوفِّي سنة (٢٣٩هـ) .
(٨) أبو هاشم زياد بن أيوب بن زياد البغدادي ، أبو هاشم الطوسي الذي لقبهُ الإمام أحمد بشعبة الصغير ، تُوفِّي سنة (٢٥٢هـ) .
(٩) زهير بن حرب بن شدَّاد ، أبو خيثمة النسائي ، نزيل بغداد ، المُتوفَّى سنة (٢٣٤هـ) .

وَكَالذُّهْلِيِّ [١] شَمْسِ الشَّرْقِ عَدْلٍ ... يُعَدِّلُـهُ المُعَـادِي والمُوَالِـي
وَأَصْحَابِ الصِّحَاحِ الخَمْسَةِ اعْلَمْ ... رِجَالٍ في الشَّرِيعَةِ كالجِبَـالِ
وَكَابْنِ شُجَاعٍ البَلْخِيِّ [٢] ثُمَّ الْـ ... سَمَرْقَنْدِيِّ [٣] مَنْ هُوَ رَأْسُ مالي
وبُوشَنْجِيِّهِمْ [٤] ثُمَّ ابْنِ نَصْرٍ [٥] ... بِمَـرْوَ مُقَـدَّمٍ فيهم ثِمَـالِ
وَبِالرَّيِّ ابْنُ وارَةَ [٦] ذو افْتِنَانٍ ... وَتِرْباهُ كَذَاكَ عَلَـى التَّـوالي

تِرْبَاهُ هما : أبو زُرْعَةَ [٧] وأبو حَاتِمٍ [٨] .

كَذَاكَ ابْنُ الفُرَاتِ [٩] وكانَ سَيْفًا ... على البدْعِيِّ يَطْعُـنُ كالأَلَالِ
كَذا الحَرْبِيُّ [١٠] أَحْرِ بِهِ وحَرْبُ ابْـ ... ـنُ إسماعيلَ خَيِّرٌ ذو منالِ

(١) محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري الثقة الحافظ ، المُتوفَّى سنة (٢٥٨هـ) على الصحيح.
(٢) الحسن بن شجاع ، أبو علي البلخي ، المُتوفَّى سنة (٢٤٤هـ) .
(٣) الحافظ العَلَمُ ، أبو محمد رجاء بن مُرَجّى السمرقندي مُفيد بغداد ، تُوفِّي سنة (٢٤٩هـ) .
(٤) ما نظنُّهُ قصد غير محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجي ، المتوفَّى سنة (٢٩٠هـ) ، فهو وإن تأخَّرتْ وفاتُه فقد روى عنه البخاري ، وعاش بضعًا وثمانين سنة ، وكان حافظًا فقيهًا ثقةً .
(٥) الإمام الحافظ أبو عبد الله أحمد بن نصر القرشي النيسابوري ، المُتوفَّى سنة (٢٤٥هـ) .
(٦) أبو عبد الله محمد بن مسلم بن عثمان بن وارة الرازي ، الحافظ الثبت ، المتوفَّى سنة (٢٧٠هـ) .
(٧) أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي الناقد المشهور، المتوفَّى سنة (٢٦٤هـ).
(٨) أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي ، المتوفَّى سنة (٢٧٧هـ) .
(٩) أحمد بن الفرات ، الحافظ الحُجَّة ، أبو مسعود الرازي صاحب التصانيف ، المتوفَّى سنة (٢٥٨هـ) .
(١٠) أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق البغدادي الحربي ، المتوفَّى سنة (٢٨٥هـ) .

وَيَعْقُـوب وَيَعْقُوبَـانِ[(١)] أَيْضًا سِوَاهُ وابْنُ سنجرٍ[(٢)] الثِّمَـالِ

يعقوب بن شيبة[(٣)]، ويعقوب[(٤)] بن إبراهيم الدَّوْرَقِيُّ، ويعقوبُ[(٥)] الفَسَوِيُّ.

وَصَالِحٌ الرِّضَا وَأُخـوهُ مِنْهُـمْ كَذَاكَ الدَّارِمِيُّ[(٦)] أُخُو المَعَالي

وَصَالِحٌ المُلَقَّبُ[(٧)] وابنُ عَمْرٍو دِمَشْقِيٌّ[(٨)] حَلِيمٌ ذو احْتِمَـالِ

وَنَجلُ جريرٍ[(٩)] اذْ تُوفِي وتُرْبِي مَنَاقِبُـهُ على عَـدَدِ الرِّمَـالِ

كذا ابْنُ خُزَيْمَةَ[(١٠)] السُّلَمِيُّ ثُمَّ ابْـ ـنُ مَنْدَهْ[(١١)] مُقْتَدَى مُدُنِ الجِبَالِ

---

(١) في الأصل : ويعقوبين .

(٢) الحافظ الكبير محمد بن سنجر ، المتوفَّى سنة (٢٥٨هـ)، وكان في الأصل من أهل جرجان ، ثم سكن مصر .

(٣) مات سنة (٢٦٢هـ) .

(٤) مات سنة (٢٥٢هـ) .

(٥) صاحب التاريخ المشهور ، وهو يعقوب بن سفيان ، تُوفِّي سنة (٢٧٧هـ) .

(٦) أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي المتوفَّى سنة (٢٨٠هـ) .

(٧) في الأصل : « وصالح المُلقب جزرة ، ولا يستقيم البيت بها ، وكأن « جزرة »، وهو لقب صالح بن محمد بن عمر البغدادي ، المتوفَّى سنة (٢٩٣هـ) ، قد أُضيف إلى النص للتوضيح، و لم يكن من الأصل، والسِّلَفي إنما أراد القول بـ«المُلقَّب»: جزرة ؛ لأنه مشهور بذلك .

(٨) لم نجد دمشقيًّا عُرف بابن عمر ، من طبقة صالح جزرة ، ولكن يُحتمل أنه قصد الحافظ العلّامة أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري المعروف بالبزار، صاحب المسند المشهور ، المتوفَّى سنة (٢٩٢هـ) ، والبزار قد سكن الشام آخر عمره ، وتُوفِّي بالرملة .

(٩) يعني محمد بن جرير الطبري صاحب «التاريخ» و «التفسير»، المتوفَّى سنة (٣١٠هـ).

(١٠) إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السُّلَمي النيسابوري، المتوفَّى سنة (٣١١هـ).

(١١) آل منده العبديون الأصبهانيون من بيوتات العلم المشهورة التي خرَّجت العديد من العلماء، والذي أشار السِّلفي إليه هنا هو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن منده ، المتوفى سنة (٣٠١هـ).

وَخلْقٍ تَقْصرُ الأَوْصَافُ عَنْهُمْ   وَعَنْ أَحْوَالِهِمْ حالَ السُّؤَالِ
سَمَوا بالعِلْمِ حِينَ سَمَا سِوَاهُمْ   لَدَى الجُهَّالِ بالرِّمَمِ البَوالي
وَمَعْ هذا المَحَلِّ وَمَا حَوَوْهُ   فآلُهُمْ كَذلِكَ خَيْرُ آلِ
مَضَوْا والذِّكْرُ مِنْ كُلٍّ جَميلٌ   عَلَى المَعْهُودِ في الحُقُبِ الخَوَالي
أطَابَ اللهُ مَثْوَاهُمْ فقدْمًا   تَعَنَّوْا في طِلَابِهِمُ العَوَالي
وَبعْدَ حُصُولِهَا لَهُمُ تَصدَّوْا   كذلك للرِّوَايَةِ والأَمَالي
وتُلْفِي الكُلَّ منهمْ حين يُلْقَى   مِنَ اثَارِ العِبادَةِ كالخِلالِ
وَهَا أنا شَارِعٌ في شَرْحِ دِيني   وَوَصْفِ عَقِيدَتي وَخَفِيِّ حَالي
وأجهدُ في البَيَانِ بقَدْرِ وُسعي   وَتَخْلِيص العُقُولِ مِنَ العِقَالِ
بِشِعْرٍ لا كَشَعْرٍ بل كسِحْرٍ   ولفظٍ كالشَّمُول بلِ الشِّمَالِ
فَلَسْتُ الدَّهْرَ إِمَّعَة وَمَا إنْ   أَزِلُّ وَلَا أزولُ لِذِي النِّزَالِ
فَلَا تَصْحَبْ سِوَى السُّنِّي دِينًا   لِتَحْمَدَ ما نَصَحْتُكَ في المَآلِ
وَجَانِبْ كُلَّ مُبْتَدِعٍ تَرَاهُ   فَمَا إنْ عِنْدَهُمْ غَيْرُ المُحَالِ
وَدَعْ آراءَ أَهْلِ الزَّيْغِ رَأْسًا   وَلَا تَغْرُرْكَ حَذْلَقَةُ الرُّذَالِ
فَلَيْسَ يَدُومُ للبدْعِيِّ رأْيٌ   وَمِنْ أَيْنَ المَقَرُّ لِذِي ارْتِحَالِ
يَوافِي حَائِرًا في كُلِّ حَالٍ   وَقَدْ خلى طَرِيقَ الإعْتِدَالِ
وَيَتْرُكُ دائبًا رَأْيًا لِرَأْيٍ   وَمِنْهُ كذا سَرِيعُ الإنْتِقَالِ
وَعُمْدَةُ مَا يَدِينُ بِهِ سَفَاهًا   فَأَحْدَاثٌ مِنَ ابْوابِ الجِدَالِ
وَقَوْلُ أئِمةِ الزَّيْغِ الذي لا   يُشَابِهُهُ سِوَى الدَّاءِ العُضَالِ
كَمَعْبَدٍ[1] المضَلِّلِ في هَوَاهُ   وَوَاصِلٍ[2] او كغَيْلان[3] المِحَالِ

(١) معبد بن عبد الله الجُهني البصري، أوَّل من قال بالقدر في البصرة، قُتل سنة (٨٠هـ).
(٢) واصل بن عطاء الغزال، رأس المعتزلة والمتكلمين ، وتُنسب إليه طائفة « الواصلية » من المعتزلة . مات سنة (١٣١هـ) .
(٣) غيلان الدمشقي ، رأس القدرية، قتله الخليفة هشام بن عبد الملك .

وَجَعْدٍ[(١)] ثُمَّ جَهْمٍ[(٢)] وابن حَرْبٍ[(٣)] حَمِيـرٌ يَسْتَحِقُّـونَ المخَـالي
وَثَوْرٍ[(٤)] كاسمِهِ أوِ شئتَ فَاقْلِبْ وَحَفْصٍ[(٥)] الفَرْدِ[(٦)] قِرْدٍ ذي افْتِعَالِ
وَبِشْرٍ[(٧)] لا رأى بُشْرَى فَمِنْهُ تَوَلَّدَ كُلُّ شَرٍّ واخْـتِلالِ
وَأَتْبَاعُ ابْـنِ كُلَّابٍ[(٨)] كِلَابٌ عَلَى التَّحْقِيقِ هُمْ مِنْ شَرِّ آلِ
كَذَاكَ أَبو الهُذَيلِ[(٩)] وكانَ مولًى لعَبْدِ القَيْسِ قَدْ شَانَ الموالي
وَلَا تَنْسَ ابنَ أَشْرَسٍ المُكَنَّى أَبا مَعنٍ ثُمامَةَ[(١٠)] فَهُوَ غَالي
ولا ابنَ الحارِثِ البَصْرِيَّ ذَاكَ الْـ مُضِلَّ على اجْتِهَادٍ واحْتِفَالِ
ولا الكوفي أعْنِيه ضِرَارَ بْـ ـنَ عمروٍ فَهْوَ للبَصْرِيِّ تالي

---

(١) الجعد بن درهم الذي كان مُؤَدِّبًا لمروان بن محمد آخر الأُمويين، وكان من القائلين بخلق القرآن ، قتلهُ خالد القسري .

(٢) جهم بن صفوان ، وهو مشهور بآرائه التي أثرت في تكوين آراء المعتزلة ، ومات سنة (١٢٨هـ) .

(٣) جعفر بن حرب الهَمْداني ، من أئمة معتزلة بغداد ، مات سنة (٢٣٦هـ) .

(٤) ثور بن يزيد الكلاعي ، أبو خالد الحمصي ، وكان قَدَرِيًّا، مات سنة (١٥٣هـ) .

(٥) أحد المبتدعة كما في « ميزان » الذهبي ١/٥٦٤ .

(٦) في الميزان : «القرد» بالقاف، ولعل الذي ورد هنا هو الصحيح، وانظر الفهرست لابن النديم : (٢٥٥) .

(٧) لدينا اثنان يُعرفان بهذا الاسم من كبار المعتزلة: الأول: بشر بن المعتمر البغدادي، المُتوفَّى سنة (٢١٠هـ)، وإليه تُنسب الطائفة «البشرية»، والثاني هو بشر بن غياث ابن عبد الرحمن المريسي، المتوفَّى سنة (٢١٨هـ)، وإليه تُنسب الطائفة «المريسية»، ولعله هو المقصود هنا .

(٨) عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب - بضم الكاف وتشديد اللام - البصري المُتكلِّم ، رئيس الطائفة المعروفة بالكُلَّابِيَّة ، وضبطه الذهبي في « المشتبه » : (٥٥٥) .

(٩) أبو الهُذَيل العلَّاف ، شيخ المعتزلة البصريين ، المتوفَّى (٢٢٦هـ) .

(١٠) كان ثمامة بن أشرس من كبار المعتزلة ، ومات سنة (٢١٣هـ) .

كذاكَ ابْنُ الأَصَمِّ[١] ومَنْ قَفَاهُ   مِنَ اوْبَاشِ البَهَاشِمةِ[٢] النِّغَالِ
وَعَمْرو هكذا أَعْني ابْنَ بَحْرٍ[٣]   وَغَيْرُهُمُ مِنَ اصحاب الشِّمالِ
فَرَأْيُ أُولَاءِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا   سِوى الهَذَيَانِ مِنْ قِيلٍ وَقَالِ
وَكُلُّ هَوى وَمُحْدَثَةٍ ضَلَالٌ   ضَعِيفٌ في الحَقِيقَةِ كالخَيَالِ
فَهذَا مَا أَدِينُ بـه إِلٰهِـي   تَعَالَى عَنْ شَبِيهٍ أَوْ مِثَـالِ
وَمَا نَافَاهُ مِنْ خُدَعٍ وَزُورٍ   وَمِنْ بِدَعٍ فَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِي

قال الذهبي في السير (٢١ / ٣٦) : « صدق الناظم رحمه الله ، وأجاد ، فَلأَنْ يعيشَ المسلمُ أخرسَ أبكمَ خيرٌ له من أن يمتلىء باطنُه كلامًا وفلسفةً .

ولله دَرُّ السِّلَفي حين يقول :

إنَّ عِلْمَ الحديثِ عِلْمُ رجالٍ   تركوا الابتداعَ للاتباعِ
فإذا جنَّ ليلُهُم كتبـوهُ   وإذا أصبحوا غدَوْا للسماعِ

يقول السِّلفي :

ليس على الأرضِ في زماني   مَنْ شأنُهُ في الحديث شاني
نظْمًا وضبْطًا بلى عُلُـوًّا   فيه على رغمِ كُلِّ شاني

وقال رحمه الله :

لَيسَ حُسْنُ الحديثِ قُرْبَ رجالٍ   عِنْدَ أَرْبَابِ علمه النُّقَّـادِ
بل عُلُوُّ الحديث عِنْدَ أولي الإتْـ   ـقانِ والحفظِ صِحَّةُ الإسْنادِ
فَإِذَا ما تَجَمَّعَا في حَدِيثٍ   فاغْتَنِمْهُ فَذَاكَ أَقْصىٰ المُرَادِ »

---

(١) البصري وضرار بن عمرو القاضي وابن الأصمّ من كبار المعتزلة .
(٢) نسبةً إلى أبي هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائيِّ ، رئيس معتزلة البصرة بعد أبيه ، والمُتوفَّى (٣٢١هـ) ، وتُسمَّى فرقته « البهشمية » وأتباعها : البهاشمة .
(٣) يعني الجاحظ المشهور ، وكان مُعتزليًّا .

٢٠٩ - أبو العلاء الهمذاني، الإمام الحافظ المُقرىء العلّامة، شيخ الإسلام، أبو العلاء ، الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد الهمذاني ، العطّار ، شيخ همذان بلا مدافعة :

« سمع ببغداد وبأصبهان ، وارتحل إلى خراسان ، فسمع من محمد بن الفضل الفراوي صحيح مسلم ، وما زال يسمع ويرحل ، ويُسمِع أولاده ، وآخر قدماته إلى بغداد وكان بعد الأربعين ، فقرأ لأولاده على أبي الفضل الأرموي وابن ناصر وابن الزاغوني ، فحَدَّث إذ ذاك بها وأقرأ ، فتلا عليه بالعشرة أبو أحمد عبد الوهاب بن سُكينة .

قال الحافظ عبد القادر : شيخنا أشهرُ من أن يعَرَّف ، تعذَّر وجودُ مثله من أعصار كثيرة على ما بلغنا من سير العلماء والمشايخ ، أربى على أهل زمانه في كثرة السماعات ، مع تحصيل أصول ما سمع ، وجودة النسخ ، وإتقان ما كتبه بخطِّهِ ، فإنه ما كانَ يكتب شيئًا إلا منقوطًا مُعربًا ، وأوَّلُ سماعه من الدوني سنة (٤٩٥هـ) ، وبرع على حفَّاظ عصره في حفْظ ما يتعلق بالحديث من الأنساب والتواريخ والأسماء والكُنى والقصص والسير .

ولقد كان يومًا في مجلسه وجاءته فتوى في أمْر عثمان رضي الله عنه ، فأخذها وكتب فيها من حفظه - ونحن جلوس - درجًا طويلًا ، ذكر فيها نَسَبَهُ ومولده ووفاته وأولاده وما قيل فيه ، إلى غير ذلك .

وله التصانيف في الحديث ، وفي الزهد والرقائق . وقد صنَّف كتاب « زاد المسافر » في خمسين مُجلَّدًا ، وكان إمامًا في الحديث وعلومه ، وحصَّل من القراءات ما إنه صنَّف فيها العشرة والمفردات، وصنَّف في الوقف والابتداء، وفي التجويد ، وكتابًا في ماءات القرآن ، وفي العدد ، وكتابًا في معرفة القُرَّاء في نحو من عشرين مُجلَّدًا ، استُحسنت تصانيفه وكُتبت ونُقلت إلى خوارزم وإلى الشام ، وبرع عنده جماعة كثيرة في القراءات ، وكان إذا جرى ذكْر

القُرّاء ؛ يقول : فلان مات عام كذا وكذا ، ومات فلان في سنة كذا وكذا ، وفلان يعلو إسناده على فلان بكذا .

وكان عَلَمًا إمامًا في النحو واللغة ، سمعتُ أنَّ من جملة ما حفظ كتاب « الجمهرة » ، وخرّج له تلامذة في العربية أئمة يُقرئون بهمذان .

وبعض أصحابه رأيتُه ، فكان من محفوظاته كتاب « الغريبين » لأبي عبيد الهروي وكان مُهينًا للمال ؛ باع جميع ما ورثه ، وكان من أبناء التجار ، فأنفقه في طلب العلم ، حتى سافر إلى بغداد وإلى أصفهان مراتٍ ماشيًا يحمل كُتُبَهُ على ظهره. سمعتُه يقول: كنتُ أبِيتُ ببغداد في المساجد، وآكُل خُبْزَ الدخن . قال : وسمعتُ أبا الفضل بن بنيامان الأديب يقول : رأيتُ أبا العلاء العطَّار في مسجد من مساجد بغداد يكتب وهو قائم ؛ لأن السِّراج كان عاليًا إلى أن قال : فعظُم شأنه في القلوب حتى إنْ كان ليمرُّ في همذان ، فلا يبقى أحد رآه إلا قام ، ودعا له ، حتى الصبيان واليهود ، وربما كان يمضي إلى بلدة (مشكان) يُصلِّي بها الجمعة ، فيتلقَّاه أهلها خارج البلد ؛ المسلمون على حِدةٍ ، واليهود على حِدَةٍ ، يدعون له إلى أن يدخل البلد . وكان يُفتَحُ عليه من الدنيا جُمَلٌ فلا يدَّخِرها ؛ بل يُنفقها على تلامذته ، وكان على رسوم لأقوام ، وما كان يبرح عليه ألف دينار همذانية أو أكثر من الدَّيْن ، مع كثرة ما كان يُفتح عليه . وكان يطلب لأصحابه من الناس ويعزُّ أصحابه ومَنْ يلوذ به ، ولا يحضر دعوة حتى يحضر جماعة أصحابه ، وكان لا يأكل من أموال الظلمة ، ولا قَبِلَ منهم مدرسةً قطُّ ولا رباطًا ، وإنما كان يُقرىء في داره ، ونحن في مسجده سكّان، وكان يُقرىء نصف نهاره الحديث، ونصفه القرآن والعلم، ولا يخشى السلاطين ، ولا تأخذه في الله لومةُ لائم ، ولا يُمكّن أحدًا في محلَّته أن يفعل مُنكرًا ولا سماعًا ، وكانت السُّنَّة شِعارَهُ ودثارَهُ اعتقادًا وفعْلًا ، بحيث إنه كان إذا دخل مجلسَهُ رجل فقدَّم رِجله اليسرى ؛ كلَّفه أنْ يرجع ويُقدِّمَ

اليمنى ، ولا يمسّ الأجزاء إلا على وضوء.إلى أن قال : سمعتُ مَنْ أثق به عن عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي أنه قال في الحافظ أبي العلاء لمّا دخل نيسابور : ما دخل نيسابورَ مثلك . وسمعتُ الحافظ أبا القاسم علي ابن الحسن يقول – وذكر رجُلًا من أصحابه رحل –: إنْ رجع ولم يلق الحافظ أبا العلاء ؛ ضاعت رحلتُه » .

قال الذهبي : « كان أبو العلاء الحافظ في القراءات أكبر منه في الحديث ، مع كونه من أعيان أئمة الحديث »(١) .

٢١٠ – الفقيه الشافعي، المُقرىء المُحدِّث، المُتعبِّد الزاهد، أبو الحسن، علي بن أحمد بن مَحْمُويه اليزدِي :

«كان عاملًا بعلمه، كثير المحفوظ، من الفقهاء المُتعبِّدين، وصنَّف الكثير، وزادت مُصنَّفاته على خمسين مُصنَّفًا في أنواع العلوم؛ حديثًا وفقهًا وزُهْدًا.

قال السمعاني : وكان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه ؛ إذا خرج هذا قعد ذاك في البيت ، وإذا خرج ذاك قعد هذا في البيت . سمعتُه يقول وقد دخلتُ عليه داره مع علي بن الحسين الغزنوي الواعظ مُسلِّمًا عليه ، فوجدناه عُريانًا مُتئزِّرًا بمئزر ، فاعتذر من العُري ، وقال : نحن إذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيِّب الطبري :

قوم إذا غسلوا ثيابَ جمالِهمْ لبسوا البيوتَ إلى فراغ الغاسل»(٢)

٢١١ – الإمام الزبيدي اليمني ، القدوة العابد الواعظ ، أبو عبد الله محمد ابن يحيى بن علي القرشي الزبيدي :

« قدم دمشق فوعظ بها ، وأخذ يأمر بالمعروف ، فلم يتحمَّل له الملك

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/٤٠– ٤٤ .
(٢) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٤٩/٣، وطبقات الشافعية ٧ / ٢١١ .

طُغْتكين ، وكان يقول الحقَّ وإنْ كان مُرًّا ، لا تأخذه في الله لومةُ لائم ، وكان نحويًّا فقيرًا قانعًا مُتألِّها حنفيًّا سلفيًّا .

قال الوزير يحيى بن هبيرة : جلستُ معه من بكرة إلى قريب الظهر وهو يلوك شيئًا ، فسألتُه ، فقال : نواة أتعلّل بها ، لم أجد شيئًا .

قال ابن شافع: كان له في علم العربية والأصول حفظٌ وافرٌ، وصنَّف في فنون العلم نحوًا من مائة مُصنَّف، ولم يُضيِّعْ شيئًا من عمره»[١].

٢١٢ - الفيروزآبادي ، صاحب القاموس :

« الإمام الهمام قاضي القضاة مجد الدين ، أبو طاهر محمد بن يعقوب ابن محمد الشيرازي ، اللُّغوي ، المُحدِّث ، المُفسِّر ، المؤرِّخ ، الأديب ، قاضي اليمن . حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وكان سريع الحفظ ، وكان يقول : لا أنام حتى أحفظ مائتي سطر . وانتقل إلى شيراز وهو ابن ثماني سنين ، وأخذ عن والده ، وعن القوام عبد الله بن محمود وغيرهما من علماء شيراز . وانتقل إلى العراق ، فدخل واسط وبغداد ، وجال في البلاد الشرقية والشامية ، ودخل بلاد الروم والهند ومصر ، وأخذ من علمائها ، ولقي الجمَّاءَ الغَفيرَ من أعيان الفضلاء، وأخذ عنهم شيئًا كثيرًا بيَّنه في «فهرسته»، وبرع في الفنون العلمية ، وجوَّد الخطَّ ، وفاق الأقران ، واعتنى بالحديث جدًّا ، وتوسَّع في الحديث والتفسير ، وجدَّ واجتهد في علم اللغة ، فمهر فيه إلى أن بهر ، وفاق مَنْ حضر ومَنْ غبر ، وكان لا يُسافر إلا وصحبَتْهُ عدَّة أحمال كثيرة من الكتب ، ويُخرجها في كل منزلة لينظر فيها ، وحصَّل كُتُبًا نفيسة ، لكنه كان كثير التبذير ، فلا يُبقي ولا يذر ، وإذا أملق باع

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٣١٦ .

كُتُبه »(١) .

٢١٣ - الإمام أبو الفتح ابن برهان ، أحمد بن علي البغدادي الأصولي :

« كان حنبليَّ المذهب أوَّلًا ، ثم انتقل إلى المذهب الشافعي ، وتفقَّه على الشاشي، والغزالي،وإلكيا الهراسي، كان حاذق الذهن، عجيب الفطرة، لا يكاد يسمع شيئًا إلا حفظه وتعلَّق بذهنه . ولم يزل مواظبًا على العلم حتى ضُرب المثل باسمه ، وكانت الرحلة قد انتهت إليه ، وتزاحمت الطَّلَّابُ على بابه حتى انتهى حاله إلى أن صار جميعَ نهاره وقطعةً من ليله مُستوعبًا في الاشتغال ، يجلس من وقت السَّحَرِ إلى وقت العشاء الآخرة ، ويتأخَّر أيضًا بعدها .

حكى أنَّ جماعةً سألوه أن يذكر لهم درسًا من كتاب « الإحياء » للغزالي؛ فقال: لا أجد لكم وقتًا، فكانوا يعيِّنون الوقت، فيقول: في هذا الوقت أذكر الدرس الفلاني ، إلى أن قرروا معه أن يذكر لهم درسًا من « الإحياء » نصف الليل »(٢) .

٢١٤ - ابن الخشَّاب :

« أبو محمد ، عبد الله بن أحمد بن الخشَّاب ، الحنبلي البغدادي الإمام ، النحوي اللغوي ، المُفسِّر المقرىء ، المُحدِّث الأديب .

ذكر ابن النجَّار أنه لم يَمُتْ أحدٌ مِن أهل العلم وأصحاب الحديث إلا وكان يشتري كُتُبَهُ كُلَّها ، فحصلت أصول المشايخ عنده ، وكان لا يخلو كُمُّهُ من كُتُبِ العلم .

وذُكر عنه أنه اشترى يومًا كُتُبًا بخمسمائة دينار ولم يكن عنده شيء ،

(١) مُقدمة تاج العروس للمرتضى الزبيدي ١ / ١٣ .
(٢) طبقات الشافعية ٣٠/٦ .

فاستمهلهم ثلاثة أيام ، ثم مضى ونادى على داره ، فبلغت خمسمائة دينار ، فنقد صاحب الكتب وباعه بخمسمائة دينار ، ووُفِّي ثمنَ الكتب ، وبقيتْ لصاحب الكتب الدار ، ولمّا مرض أشهد عليه بوقف كُتُبه »[(١)] .

٢١٥ - الإمام القدوة ابن الخاضبة ، أبو بكر ، محمد بن أحمد البغدادي :

« قال محمد بن طاهر المقدسي : سمعتُ ابن الخاضبة يقول : لما كانت سنة الغرق سنة (٤٦٦هـ) في بغداد ، لم يكن لي شيءٌ ! وكانت عندي عائلة : الوالدة والزوجة والبنات ، فكنتُ أنسخ وأُنفق عليهن ، فأعرف أني كتبتُ صحيح مسلم في تلك السنة سبع مرَّات ، فلما كانت ليلة من الليالي رأيتُ في النوم كأن القيامة قامت ومنادٍ يُنادي : أين ابن الخاضبة ، فأُحضرتُ ، فقيل لي : ادخل الجنة ، فلما دخلتُ الباب وصرتُ من الداخل استلقيتُ على قفاي ، ووضعت إحدى رجليَّ على الأخرى ، وقلتُ : استرحتُ والله من النسخ »[(٢)] .

٢١٦ - حُجَّة الدين ابن ظفر الصقلِّي المكي الحموي ، أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله بن ظفر :

« النحوي ، اللُّغوي ، الرحَّالة .

وُلد في صقلية، ونشأ بمكة المكرمة، وتنقَّل في البلاد، فدخل المغرب ، وأجال في الأندلس ، وانتقل إلى صقلية ، ثم إلى مصر ، ثم قدم حلب ، وأقام بمدرسة بقُرب قلعة حلب ، وصنَّف فيها تفسيرًا كبيرًا جميلًا في مُصنَّف « الينبوع » ، ولما نهبت حلب قصد مدينة حماة واستوطنها ، ولسان حاله يقول :

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ١٨٥ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٤ / ١٢٢٦ .

تقاذفُ الأهوالُ بي كأنني وُلِّيتُ أمرَ مساحةِ الآفاقِ

زوَّج ابنته من الحاجة والضرورة بغير كفء ! فرحل بها الزوج عن حماة ، وباعها في البلاد !!! ولقي هو قبولًا في حماة ، فاستقرَّ بها ، وأفاد الطلبة ، وأُجري له راتب دون الكفاف ، ولم يزل يُكابد الفقر إلى أنْ مات رحمه الله تعالى. صنَّف الكتب الجميلة في أنواع الأدب، وترك من التآليف نحو ثلاثين كتابًا ؛ فيها الفريد والعجيب ، وله شِعْر ؛ منه قوله :

على قدْر فضل المرءِ تأتي خطوبهُ ويُعرفُ عندَ الصبر فيما يُصيبهُ
ومَنْ قلَّ فيما يتَّقيه اصطبارُهُ فقد قلَّ فيما يرتجيه نصيبُهُ »[1]

٢١٧ - الكمال الأنباري :

« الإمام القدوة ، شيخ النحو ، كمال الدين أبو البركات ، عبد الرحمن ابن محمد بن عبيد الله الأنباري .

تفقَّه بالنظامية في بغداد على أبي منصور الرزّاز وغيره ، وبرع في مذهب الشافعي ، وقرأ الخلاف ، وسمع الحديث بالأنبار من أبيه وخليفة بن محفوظ ، وببغداد من أبي منصور بن خيرون وعبد الوهاب الأنماطي والقاضي أبي بكر محمد بن القاسم الشهرزوري وعدَّةٍ، وحدَّث وأعاد بالنظامية ووعظ.

ثم إنه تأدَّب بابن الجواليقي وأبي السعادات ابن الشجري ، وشرح عدَّة دواوين ، وتصدَّر ، وصار شيخ العراق في الأدب غير مُدافَع ، وأخذ عنه أئمة ، وكان إمامًا كبيرًا في النحو ، ثقةً ، عفيفًا ، مُناظرًا ، غزيرَ العلم ، وَرِعًا ، زاهدًا ، عابدًا ، تقيًّا ، لا يقبل من أحد شيئًا ، وكان خشنَ العيشِ ، جَشْبَ المأكل والملبس ، لم يتلبَّس من الدنيا بشيء ، مضى على أسَدِّ طريقة ، وسرد له ابن النجار تصانيف جمَّة ، وإليه كانت الرحلة من سائر الأقطار .

---

(١) « إنباه الرواة » للقفطي ٣ / ٧٤ ، الوفيات لابن خلّكان ١ / ٥٢٢ ، وبغية الوعاة للسيوطي (صـ ٥٩) بتصرف .

قال الموفّق بن عبد اللطيف البغدادي تلميذه : الكمال شيخنا ، لم أرَ في العُبَّاد المنقطعين أقوى منه في طريقه ، ولا أصدق منه في أسلوبه ، جدٌّ محضٌ ، لا يعتريه تصنُّعٌ ، ولا يعرف الشرور ، ولا أحوال العالم ، كان له من أبيه دارٌ يسكنها وحانوت ؛ مقدارُ أجرتهما نصف دينار في الشهر، يقنع به، ويشتري منه ورَقًا، وسيَّر له الخليفة المُستضيء خمسمائة دينار ، فردَّها ، فقالوا له : اجعلها لولدك ، قال : إن كنت خلقتُه فأنا أرزقُه. وكان لا يُوقِد عليه ضوءًا، وتحته حصير قَصَب، وعليه ثوبٌ وعمامة من قُطن يلبسهما يوم الجمعة ، وكان لا يخرج إلا للجمعة ، ويلبس في بيته ثوبًا خلِقًا. وله مائة وثلاثون مُصنَّفًا، رحمه الله تعالى»[1] ومنها كتابه المشهور : « نزهة الألبَّاء في طبقات الأدباء » .

٢١٨ - الإمام الشاطبي ، شيخ القرَّاء :

« الشيخ العامل القدوة ، سيِّد القرَّاء ، أبو محمد وأبو القاسم ، القاسم ابن فِيرُّه ابن خلف الرُّعَيْني الأندلسي ، الشاطبي ، الضرير .

ناظمُ « الشاطبية » و « الرائية » اللتين في القراءات والرسم ، حَفظهما خلْقٌ لا يُحصَون ، وخضع لهما فحول الشعراء ، وكبار البُلغاء ، وحُذَّاق القُرَّاء ، فلقد أبدع وأوجز وسَهَّل الصعبَ .

تلا ببلده بالسبع على أبي عبد الله بن أبي العاص النَّفْري ، ورحل إلى «بَلَنْسِيَة»، فقرأ القراءات على أبي الحسن بن هُذَيل، وعرض عليه «التيسير» لأبي عمرو الداني من حفظه ، وسمع منه الكتب ، وسمع من آخرين ... وارتحل للحج ، فسمع من أبي طاهر السلفي وغيره .

وكان يتوقَّدُ ذكاءً ، له الباع الأطول في فنِّ القراءات والرسم والنحو والفقه والحديث ، وله النظم الرائق ، مع الورع والتقوى والتألُّه والوقار .

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ١١٣ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٧ / ١٥٥ .

استوطن مصر وتصدَّر ، وشاع ذكْرُهُ ، وعظُمَ شأنُهُ ، وبعُد صيتُه ، انتهت إليه رياسة الإقراء ، وقصده الطلبة من النواحي .

قال أبو شامة : أخبرنا السخاوي أن سبب انتقال الشاطبي من بلده ؛ أنه أُريدَ على أن يليَ الخطابة ، فاحتجَّ بالحجِّ ، وترك بلده ولم يَعُدْ إليه ؛ تورُّعًا مما كانوا يُلزمون به الخطباء ؛ من ذكرهم الأمراء بأوصاف لم يرها سائغة ، وصبر على فقر شديد »[١] .

٢١٩ - الإمام الجُزُولي ، إمام النحو ، أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي البَربري المراكشي :

« كان إمامًا في النحو ، كثيرَ الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذِّهِ .

حجَّ ولازم عبد الله بن بري بمصر ، وأتقن عنه العربية واللغة ، وسمع « صحيح البخاري » من أبي محمد بن عُبيد الله ، ثم رجع إلى بلاد المغرب ، وأقام بمدينة (بجاية م مُدَّة ، وتصدَّر بالمَرِيّة وغيرها ، وتخرَّج به أئمةٌ وخلْقٌ كثير ، وكان إمامًا لا يُجارى ، وعلَّامة لا يُشَقُّ غُبارُه في النحو ، مع جودة التفهيم وحُسْن العبارة .

قال الذهبي : وقرأتُ بخطِّ خمد بن عبد الجليل المُوقاني أن الجُزولي قاسى بمدة مقامه بمصر كثيرًا من الفقر ، ولم يدخل مدرسة ، وكان يخرج إلى الضياع يؤمُّ بقوم ، فيُحصِّل ما يُنفقه في غاية الصبر .

ورجع إلى المغرب فقيرًا مُدْقعاً ، فلما وصل إلى المَرِيَّة أو نحوها ؛ رهن كتاب ابن السرَّاج الذي قرأه على ابن بَرّي وعليه خطُّه ! فأنهى المُرتهِنُ أمْرَهُ إلى الشيخ أبي العباس المغربي أحد الزُّهَّاد بالمغرب ، وكان يُصاحب بني عبد المؤمن، فأنهى أبو العباس ذلك إلى السلطان ، فأمر بإحضاره ، وقدَّمه وأحسن إليه »[٢] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٦١/٢١ ، و « معرفة القُرَّاء الكبار » ٢ / ٥٧٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٩٧/٢١، و « وفيات الأعيان » لابن خلكان ٤٨٨/٣ .

٢٢٠ - الفقيه المالكي ، أبو محمد عبد العزيز بن محمد القروي :

« قال ابن الخطيب القُسنطيني في « رحلته » : قال لي بعض الفقهاء : دخلتُ على عبد العزيز وهو مُحتزِمٌ في كسائه ، وكُتُبُ الفقه مبسوطةٌ بين يديه ، وأعراقه تقطر عليه ، وماؤه في غاية ما يكون من الوسخ ! فقلتُ له : ارفقْ بنفسك ، واغسلْ كساءك ، فقال : لي ستة أشهر نروم غسْلَها وما وجدتُ سبيلًا لذلك ، من أجل هذا الشغل - أي الانهماك في العلـم - فتعجَّبتُ منه وانصرفتُ »[(١)] .

٢٢١ - الإمام أبي علي الفارسي ، الحسن بن أحمد الفسوي :

أوحد زمانه في علم العربية .

« قال عثمان بن جنِّي : حدَّثني شيخنا أبو علي أنه وقع حريق بمدينة السلام ، فذهب به علمُ البصريين .

قال : وكنتُ كتبتُ ذلك كلَّه بخطِّي ، وقرأتُه على أصحابنا ، فلم أجد من الصندوق الذي احترق شيئًا ألبتة ، إلا نصف كتاب الطلاق عن محمد بن الحسن . وسألتُه عن سلوته وعزائه ، فنظر إليَّ عاجبًا ، ثم قال : بقيتُ شهرين لا أُكلِّم أحدًا حزنًا وهمًّا ! وانحدرتُ إلى البصرة لغلبة الفكر عليَّ ، وأقمتُ مُدَّةً ذاهلًا مُتحيِّرًا ! »[(٢)] .

وفقْدُ الكتابِ كفقدِ الصواب فيا هول مَنْ قد أضاع الكُتُبْ

٢٢٢ - أبو الحسن القالي ، علي بن أحمد بن سَلَّك القالي ، المُحدِّث الأديب الشاعر :

« حكى الخطيب التبريزي أنَّ أبا الحسن علي بن أحمد القالي كانت

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي (صـ ١٧٩) .

(٢) معجم الأدباء ٧ / ٢٥٧ .

له نسخة من كتاب « الجمهرة » لابن دُريد في غاية الجودة ، فدعتْهُ الحاجة إلى بيْعها ، فاشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم بستين دينارًا ، وتصفَّحها فوجد بها أبياتًا بخط بائعها أبي الحسن القالي المذكور ، وهي :

أَنِسْتُ بِها عشرين حَوْلًا وبِعتُها لقد طال وَجْدي بعدها وحَنيني
وما كان ظَنِّي أنني سأبيعُها ولو خلَّدتني في السجونِ دُيوني
ولَكنْ لضعْفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ صِغارٍ عليهم تَسْتَهِلُّ شُؤوني
فقلتُ ولم أَمْلِكْ سوابقَ عَبْرتي مقالةَ مَكويِّ الفؤادِ حزيـنِ
وقد تُخرِجُ الحاجاتُ يا أُمَّ مالكٍ كرائم من رَبٍّ بهنَّ ضَنينِ

فأرجع النسخة إليه ، وترك له الدنانير رحمه الله تعالى »[1] .

قال القالي في غربة العلماء وذهاب العلم وأهله :

لما تبـدَّلتِ المجالسُ أوجُهًـا غيرَ الذين عهدتُ من علمائِها
ورأيتُها محفوفةً بِسِوى الأُلَى كانوا وُلاةَ صُدورِها وفِنائها
أنشدتُ بيتًا سائرًا مُتقدِّمًـا والعينُ قد شَرِقَتْ بجاري مائِها
« أمَّا الخيامُ فإنها كخيامِهم وأرى نساءَ الحيِّ غير نسائها »

ومن شِعْره :

تصدَّرَ للتدريس كلُّ مُهوَّسٍ بليدٍ تَسمَّى بالفقيهِ المُدَرِّسِ
فَحُقَّ لأهل العلم أن يتمثَّلُوا ببيتٍ قديمٍ شاعَ في كُلِّ مجلسِ
لقد هُزِلَتْ حتى بدا من هُزَالِها كُلاها وحتى سامَهَا كلُّ مُفْلِسِ

٢٢٣ - الشيخ الحدَّاد المهدوي ، أبو الحسن ، علي بن محمد بن ثابت الخولاني :

باع كُتُبهُ اضطرارًا وفقْرًا ، فتسأله زوجته - وهي تعرف حُبَّه لكُتُبه ،

(١) وفيات الأعيان في أبناء الزمان ١ / ٣٣٧ .

وشِدَّة تعلُّقِه بها -: كيف بعت الكتب وهي أعزُّ شيء لديك ؟! فيقول لها :

قالتْ وأبدتْ صفحـةً كالشمسِ من تحتِ القِنَاعْ
بِعْتَ الدفاترَ وهـي آ خِرُ ما يُبَاعُ مِن المَتَاعْ
فأجبتُهـا ويـدي علـى كَبِدي وهَمَّتْ بانصـداعْ
لا تَعْجَبي مـمـا رَأيْـ ـتِ فنحنُ في زمنِ الضَّيَاعْ(١)

٢٢٤- الإمام ابن هشام النحوي المصري، أبو محمد، جمال الدين عبد الله ابن يوسف :

صاحب كتاب « القطر » و « المغني » .

قال :

ومَنْ يصطبرْ للعلمِ يظفرْ بنيلِهِ ومَنْ يَخْطُب الحسناءَ يصبرْ على البذلِ
ومَنْ لم يُذِلّ النفسَ في طلبِ العُلا يسيرًا يَعِشْ دهرًا طويلًا أخا ذُلِّ

٢٢٥ - الإمام يونس بن حبيب البصري ، أبو عبد الرحمن :

« أخذ الأدب عن أبي عمرو بن العلاء وحمَّاد بن سلمة ، وكان النحو أغلب عليه ، وسمع من العرب .

وروى عنه سيبويه كثيرًا ، وسمع منه الكسائيُ والفرَّاء ، وله قياس في النحو ، ومذاهب ينفرد بها ، وكان من الطبقة الخامسة ، وكانت حَلْقَتُهُ بالبصرة ينتابها الأدباء وفُصَحاء العرب وأهل البادية .

قال مَعْمر بن المُثنى : اختلفتُ إلى يونس أربعين سنة ، أملأ كلَّ يومٍ ألواحي من حفظه .

وقال أبو زيد الأنصاري النحوي : جلستُ إلى يونس بن حبيب عشر سنين ، وجلس إليه قبلي خلف الأحمر عشرين سنة .

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي ٨ / ٢٠٨ .

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : عاش يونس بن حبيب (٨٨) سنة ، لم يتزوَّجْ ولم يتسرَّ ، ولم تكن له هِمَّة إلا طلب العلم ومحادثة الرجال ، وله من الكتب : معاني القرآن الكريم ، وكتابُ اللغات ، وكتاب الأمثال ، وكتاب النوادر الصغير ، وكتاب النوادر الكبير ، ومعاني الشعر ؛ رحمه الله تعالى »[١] .

٢٢٦ - الإمام معمر بن المثنى ، أبو عبيدة البصري النحوي :

الإمام في العلم ، الذي صحب شيخه يونس بن حبيب أربعين سنة .

قال عنه الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه .

ترك من المؤلَّفات نحو (٢٠٠) كتاب .

٢٢٧ - أبو زيد الأنصاري النحوي ، سعيد بن يونس ، شيخ الأصمعي :

قال أبو عثمان المازني : كنا عند أبي زيد ، فجاء الأصمعي إلى حلقة أبي زيد ، فأكبَّ على رأسه ، فقبَّله وجلس بين يديه ، وقال : أنت رئيسُنا وسيِّدُنا ومُعلِّمُنا عشرين سنة . ولفظُ ابن خلِّكَان : خمسين سنة .

رحمة الله على العلماء !!

قال مالك : كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنةً يتعلم منه .

وهذا عبد الله بن نافع تلميذ مالك يقول : جالستُ مالكًا خمسًا وثلاثين سنة .

وهذا الإمام أحمد بن حنبل بعد أن لزم هُشيمًا أربع سنوات يقول : لزمنا إسماعيل بن عُليَّة بعدما مات هُشيم عشر سنين كُلَّ يومٍ ، لا نُخِلُّ إلا أن تكون الحاجة .

---

(١) وفيات الأعيان ٢ / ٤١٦ .

٢٢٨ - الحافظ المؤرِّخ الرحَّال ابن النجَّار :

الإمام البغدادي ، محمد بن محمود مُحبّ الدين ، أبو عبد الله ، مُفيد العراق .

« أوَّلُ شيءٍ سمع وله عشر سنين ، وأول عنايته بالطلب وهو ابن خمس عشرة سنة ، وتلا بالروايات الكثيرة على أحمد بن أبي سُكينة وغيره .

سمع بأصبهان وبنيسابور وبهراة وبدمشق وبمصر ... وجمع فأوعى ، وكتب العالي والنازل ، وخرّج لغير واحد ، وجمع تاريخ مدينة السلام ، وذَيَّل به ، واستدرك على الخطيب ، وهو ثلاثمائة جزء . وكان من أعيان الحُفَّاظ الثقات ، مع الدِّين والصيانة والنُّسُك والفهم وسعة الرواية .

قال ابن الساعي - تلميذه -: كانت رحلة ابن النجار سبعًا وعشرين سنة ، واشتملت مشيختُه على ثلاثة آلاف شيخ . ألَّف :

١ - كتاب القمر المُنير في المُسنَد الكبير . ذكر كل صحابيٍّ وما له من الحديث .

٢ - وكتاب كنز الإمام في السُّنَن والأحكام .

٣ - وكتاب المؤتلف والمختلف . ذيَّل به على ابن ماكولا .

٤ - وكتاب المتفق والمفترق .

٥ - وكتاب أنساب المُحدِّثين إلى الآباء والبلدان .

٦ - وكتاب العوالي .

٧ - وكتاب المعجم .

٨ - وكتاب جُنَّة الناظرين في معرفة التابعين .

٩ - وكتاب العقد الثقفي .

١٠ - وكتاب الكمال في الرجال .

١١ - وذيل التاريخ في ستة عشر مُجلَّدًا .

١٢ - وكتاب الدُّرَر الثمينة في أخبار المدينة .

١٣ - وكتاب روضة الأولياء في مسجد إيلياء .

١٤ - وكتاب نزهة الورى في ذكر أُمِّ القرى .

١٥ - وكتاب الأزهار في أنواع الأشعار .

١٦ - وكتاب عيون الفوائد ستة أسفار .

١٧ - وكتاب مناقب الشافعي .

وأوصى إليَّ ، ووقف كُتُبَهُ بالنظامية ، وكان رحمه الله تعالى من محاسن الدنيا »[1] .

نفسي فداؤك من ميْتٍ ومن بدنٍ ... ما أَطْيَبَ الذِّكْرَ والأخلاقَ والجسدا

٢٢٩ - المُسنِد ابن عبد الدائم المقدسي ، زين الدين أبو العباس ، أحمد ابن عبد الدائم ت (٦٦٨هـ) :

رحل إلى بغداد ، وتلقَّى عن مشايخ عصره ، وقرأ بنفسه ، وتفرَّد بالإسناد والرواية عن جملة من شيوخه ، وغدا مُسنِدَ الوقت في زمنه ، وانتهى إليه عُلُوّ الإسناد ، وكانت الرحلة إليه من أقطار البلاد .

روى عنه الأئمة الكبار والحفاظ المتقدمون؛ كالضياء المقدسي، والبرزالي، وابن الحاجب ، وغيرهم ، والمتأخرون ؛ كالنووي ، وابن دقيق العيد ، وابن تيمية ، والدمياطي ، وخلائق كثيرون .

كان مُحدِّثًا مُسنِدًا ، ونسَّاخًا عجبًا ، كتب بخطِّه السريع المليح ما لا يدخل تحت الحصر ، لنفسه وبالأجرة ، وكان يكتب بسرعة ، حتى كان يكتب في اليوم تسع كراريس أو أكثر إذا تفرَّغ، ويكتب الكراسَيْن والثلاثة- مع اشتغاله - في يوم وليلة ، وكتب « مختصر الخرقي » في ليلة واحدة ، وقد كتب « تاريخ دمشق » لابن عساكر مرتين . ولازم النسخ خمسين سنة ،

---

(١) تذكرة الحفّاظ ٤ / ١٤٢٨ .

وكتب بيده ألفي مُجلَّدة، وأُضِرَّ بآخر عمره أربع سنين، وكتب «المغني» لشيخه الموفق ابن قُدامة المقدسي مرّات ، وروى الحديث ستين سنة .

ومن شِعْرِه - وقد أدركتْهُ الشيخوخة ، وغلبه الضعفُ ، فوقف عن الاشتغال والكتابة - قوله :

عَجَزْتُ عن حَمْلِ قِرْطاسٍ وعن قَلَمٍ ... مِنْ بعدِ إلْفِيَ بالقرطاسِ والقَلَمِ
كتبتُ ألفًا وألفًا من مُجلَّدةٍ ... فيها علومُ الورى من غيرِ ما ألمِ
ما العلمُ فخْرُ امرىءٍ إلا لعامِلِهِ ... إنْ لم يكنْ عَمَلٌ فالعلمُ كالعدمِ
العلمُ زينٌ وتشريفٌ لصاحبِهِ ... فاعملْ به فهو للطُّلّاب كالعَلَمِ
ما زلتُ أطلُبُهُ دهري وأكتُبُهُ ... حتى ابتُليتُ بضعف الجسم والهَرَمِ(١)

٢٣٠ - أبو الريحان البيروني ، محمد بن أحمد الخوارزمي ، المؤرخ اللغوي الأديب :

« كان أبو الريحان مع الفسحة في التعمير - فقد عاش (٧٨) سنة - وجلالة الحال في عامَّة الأمور ؛ مُكبًّا على تحصيل العلوم ، مُنصبًّا إلى تصنيف الكتب ، يفتح أبوابها ، ويُحيط بشواكلها وأقرابها ، ولا يكاد يُفارق يده القلم ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر ، إلا فيما تمسُّ إليه الحاجة في المعاش ؛ من بلغة الطعام وعُلْقة الرِّياش .

ثم هِجِّيرَاه(٢) في سائر الأيام من السَّنَةِ علْمٌ يسفر عن وجهه قناع الإشكال، ويحسر عن ذراعيه كِمام الإغلاق .

حدَّث الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى الوَلْوَالِجي ، قال : دخلتُ على

(١) العِبَر للذهبي ٢٨٨/٥، و « البداية والنهاية » لابن كثير ٢٥٧/١٣، فوات الوفيات لابن شاكر ٤٦/١ .
(٢) أي ديدنه ودوام حاله .

أبي الريحان وهو يجود بنفسه ، قد حشرج نَفَسُهُ ! وضاق به صدرُهُ ! فقال لي في تلك الحال : كيف قلتَ لي يومًا : حساب الجَدَّات الفاسدة[١] . فقلتُ له إشفاقًا عليه : أفي هذه الحالة ؟! قال لي :يا هذا ، أُودِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، ألا يكون خيرًا من أن أُخلِّيها وأنا جاهل بها ؟! فأعدتُ ذلك عليه ، وحَفِظ وعَلَّمَني ما وعد ، وخرجتُ من عنده وأنا في الطريق ، فسمعتُ الصراخ ! »[٢] .

لله ما أغلى العلم على قلوبهم ! وما أشغل خواطرهم وعقولهم به ؟! حتى في ساعة النزع لم يتذكروا فيها زوجة أو ولدًا أو قريبًا عزيزًا ، وإنما تذكروا العلم !

وإنَّ سيادَةَ الأقوام فاعلمْ لهَا صَعْداءُ مطلعُها طويلُ

٢٣١ - شيخ الإسلام ، أبو الفرج ابن الجوزي :

الشيخ الإمام العلَّامة ، الحافظ المفسِّر ، مفخر العراق ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي .

وُلد سنة تسع أو عشر وخمسمائة. وأوَّلُ شيء سمع في سنة ست عشرة.

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٢١ / ٣٦٧) : « كان رأسًا في التذكير بلا مُدافعة ، يقول النظم الرائق والنثر الفائق بديهًا ، ويُسهب ويُعجب ، ويُطرب ويُطنِب ، لم يأت قبله ولا بعده مثلُه ، فهو حامل لواء الوعظ ، والقيم بفنونه ، مع الشكل الحسن ، والصوت الطيِّب ، والوقع في النفوس ، وحُسن السيرة ، وكان بحرًا في التفسير ، علَّامة في السِّيَر والتاريخ ، عليمًا بالإجماع والاختلاف ، ما عرفتُ أحدًا صنَّف ما صنَّف ، وكان ذا حظٍّ عظيم وصيتٍ بعيد في الوعظ ، يحضر مجالسه الملوكُ والوزراءُ

(١) أي في الميراث ، وهي التي تكون من قِبَل الأم .

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٧ / ١٨١ - ١٨٢ .

وبعضُ الخلفاء والأئمة والكُبَراء ، لا يكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة .

قال سبطه أبو المظفر : سمعتُ جدِّي على المنبر يقول : بأصبعيَّ هاتين كتبتُ ألفيْ مُجلَّدة ، وتاب على يديَّ مائة ألف ، وأسلم على يديَّ عشرون ألفًا ، وكان يختم في الأسبوع »[1] .

وُجد بخطِّه قبل موته أنَّ تواليفه بلغت مائتين وخمسين تأليفًا .

قال رحمه الله - يصف انهماكه في طلب العلم ، وإنفاق شبابه في تحصيله ، ويذكر مَلاذَّ ذلك الانهماك والإنفاق في زمن الاكتهال والاكتمال -: « مَنْ أنفق عصر الشباب في العلم ؛ فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جَنْي ما غرس ، ويلتذُّ بتصنيف ما جمع ، ولا يرى ما يفقد من لذَّات البدن شيئًا بالإضافة إلى ما يناله من لذَّات العلم ، هذا مع وجود لذَّاته في الطلب الذي كان تأمَّل به إدراك المطلوب ، وربما كانت تلك الأعمال أطيبَ مما نيل منها ، كما قال الشاعر :

أهتزُّ عند تمنِّي وصْلِها طربًا ... وُربَّ أمنيةٍ أحلى من الظَّفَرِ

ولقد تأمَّلتُ نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا ، وأنفقتُ زمن الصبوة والشباب في طلب العلم ، فرأيتني لم يفُتني مما نالوه إلا ما لوْ حصل لي ندمتُ عليه ، ثُمَّ تأمَّلتُ حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم ، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم ، وما نلتُه من معرفة العلم لا يُقَوَّم . فقال لي إبليس : ونسيتَ تعبَك وسهَرَك ؟! فقلتُ له : أيها الجاهل ، تقطيعُ الأيدي لا وَقْع له عند رؤية يوسف ، وما طالتْ طريق أدَّتْ إلى صديق :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٣٧٠ .

جزى الله المسير إليه خيرًا   وإن تـرك المطايا كالمزادِ »[(١)]

أين هِمَّةُ ابن الجوزي في شبابه ولذّته في تحصيل العلم .. من شباب قال فيهم أبو عبد الله المراغي الفقيه الشافعي :

إذا رأيتَ شبابَ الحيِّ قد نشئوا   لا يَنقُلُون قِلال الحِبْرِ والوَرقَا
ولا تراهم لدى الأشياخِ في حِلَقٍ   يَعُونَ من صالحِ الأخبارِ ما اتَّسقا
فَذَرْهُمُ عنك واعلمْ أنَّهم هَمَجٌ   قد بدَّلُوا بعُلوِّ الهِمَّةِ الحُمُقَا[(٢)]

يقول ابن الجوزي مُتحدِّثًا عن الشدائد التي نالته في بدء طلبه للعلم ، وعن محامد صبره على تلك الشدائد : « ولقد كنتُ في حلاوة طلبي للعلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحْلى من العسل ؛ لأجل ما كنتُ أطلب وأرجو .

ومنْ تكنِ العلياءُ هِمَّةَ نَفْسِهِ   فكُلُّ الذي يَلْقَاهُ فيها مُحَبَّبُ

كُنتُ في زمن الصِّبا آخذ معي أرغفة يابسة ، فأخرج في طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى في بغداد ، فلا أقدر على أكْلها إلا عند الماء ، فكلما أكلتُ لقمة شربتُ عليها ، وعينُ هِمَّتي لا ترى إلا لذَّة تحصيل العلم ، فأثمر ذلك عندي أني عُرفتُ بكثرة سماعي لحديث الرسول ﷺ وأحواله وآدابه ، وأحوال أصحابه وتابعيهم »[(٣)] .

وقال رحمه الله : « ولم أقنعْ بفنٍّ واحدٍ ، بل كنتُ أسـمعُ الفقه والحديث ، وأتْبعُ الزّهَّاد ، ثم قرأتُ اللغة ، ولم أترك أحدًا ممن يروي ويعظ ،

---

(١) صيد الخاطر ٢ / ٣٢٩ والمطايا : المراد هنا النوق التي أضناهن السير ، حتى تركها جلدًا على عظم ، والمزاد : جمع مزادة ، وهي القربة من جلد إذا كانت خالية من الماء ، فإنها تكون لا قوة فيها .
(٢) الأنساب للسمعاني ٨ / ٩٧ .
(٣) صيد الخاطر ٢ / ٣٣٠ .

ولا غريبًا يقدُمُ ؛ إلا وأحضرُهُ وأتخيَّرُ الفضائل .

ولقد كنتُ أدور على المشايخ لسماع الحديث ، فينقطع نَفَسي من العَدْو لئلا أُسبَق ، وكنتُ أُصبح وليس لي مأكل ! وأُمسي وليس لي مأكل ! ما أذلَّني الله لمخلوق قطُّ ، ولو شرحت أحوالي لطال الشرحُ .

قال رحمه الله :

الله أسأَلُ أن يُطوِّلَ مُدَّتي ... لأنالَ بالإنعامِ ما في نِيَّتي
لي هِمَّةٌ في العلم ما إنْ مِثْلُها ... وهي التي جَنَتِ النُّحولَ هي التي
خُلقتْ من العِلْقِ العظيمِ إلى المُنى ... دُعِيت إلى نيلِ الكمالِ فَلَبَّتِ
كمْ كان لي من مجلسٍ لو شُبِّهَتْ ... حالاتُه لتشبَّهتْ بالجَنَّةِ
أشتاقُهُ لَمَّا مَضَتْ أيامُهُ ... عُطْلًا وتُعْذَرُ ناقةٌ إنْ حَنَّتِ
يا هَلْ لِليلاتٍ بجمْعٍ عَوْدَةٌ ... أمْ هلْ على وادي منًى من نَظْرَةِ
قدْ كان أحلى من تصاريفِ الصَّبا ... ومن الحمامِ مُغنِّيًا في الأيكةِ
فيهِ البديهاتُ التي ما نَالَها ... خَلْقٌ بغيرِ مُخَمَّرٍ ومُبَيَّتِ

٢٣٢ - الإمام ابن قدامة ، القدوة العلَّامة المجتهد ، شيخ الإسلام ، موفق الدين أبو محمد ، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجمَّاعيلي ، ثم الدمشقي الحنبلي صاحب « المغني » :

« ولد بجمَّاعيل من عمل نابلس سنة (٥٤١ هـ). حفظ القرآن ، ولزم الاشتغال من صِغَرِه ، وكان من بحور العلم وعالم أهل الشام في زمانه .

قال ابن النجَّار : كان إمامَ الحنابلة بجامع دمشق ، وكان ثقةً ، حُجَّةً ، نبيلًا ، غزير الفضل ، نَزِهًا ، وَرِعًا ، عابدًا ، على قانون السلف ، عليه النور والوقار ، ينتفع الرجل برؤيته قبل أن يسمع كلامه .

وقال عمر بن الحاجب : هو إمام الأئمة ، ومفتي الأُمَّة ، خصَّه الله بالفضل الوافر ، والخاطر الماطر ، والعلم الكامل ، طنَّتْ بذكْره الأمصار ،

وضنَّت بمثله الأعصار ... إلى أن قال : وله المؤلَّفات الغزيرة ، وما أظنُّ الزمان يسمح بمثله ، مجلسُهُ معمور بالفقهاء والمُحدِّثين .

رحل هو وابن خاله الحافظ عبد الغني المقدسي في أول سنة (٥٦١هـ) في طلب العلم إلى بغداد ، فأدرَكَا نحو أربعين يومًا من جنازة الشيخ عبد القادر ، فنزلا عنده بالمدرسة ، واشتغلا عليه تلك الأيام ، وسمعا منه .

وأقام هو والحافظ عبد الغني ببغداد أربع سنين ، فأتقنَا الفقه والحديث والخلاف ، وأقاما عند ابن الجوزي ، ثم انتقلا إلى رباط النعال ، واشتغلا على ابن المَنِّي ، ثم سافر في سنة (٥٦٧هـ) ومعه الشيخ العماد ، وأقاما سنة .

صنَّف «المغني» عشر مُجلَّدات، و «الكافي» أربعة، «والمقنع» مُجلَّد، و «العمدة» ، و « القُنعة » في الغريب ، مجيليد ، و « الروضة » مُجلَّد ، و « الرقة » مُجلَّد ، و « التوابين » مُجلَّد ، و « نسب قريش » ، مجيليد ، و « نسب الأنصار » مُجلَّد ، و « مختصر الهداية » مُجيليد ، و « القدر » جزء ، و « مسألة العُلُوِّ » جزء ، و « المتحابين » جزء ، و « الاعتقاد » جزء، و « البرهان » جزء، و «ذمّ التأويل» جزء، و «فضائل الصحابة» مجيليد، و « فضل العشر » جزء ، و « عاشوراء » أجزاء.و « مشيخته » جزآن ، و « وصيِّته » جزء ، و « مختصر العلل للخلَّال » مُجلَّد ، وأشياء .

قال الحافظ الضياء : رأيتُ أحمد بن حنبل في النوم ، فألقى عليّ مسألة ، فقلتُ : هذه في الخرقي . فقال : ما قصّر صاحبكم الموفق في شرح الخرقي .

قال الضياء: كان رحمه الله إمامًا في التفسير، وفي الحديث ومشكلاته، إمامًا في الفقه ؛ بل أوحدَ زمانه فيه ، إمامًا في علم الخلاف ، أوحدَ في الفرائض ، إمامًا في أصول الفقه ، إمامًا في النحو والحساب .

وسمعتُ داود بن صالح المقرئ ، سمعتُ ابن المنِّي يقول – وعنده الإمام الموفق –: إذا خرج هذا الفتى من بغداد احتاجت إليه .

قال الحافظ أبو عبد الله اليُونينيُّ : أمَّا ما علمتُه من أحوال شيخنا وسيِّدنا موفق الدين ؛ فإنني إلى الآن ما أعتقد أن شخصًا ممن رأيتُه حصل له من الكمال في العلوم والصفات الحميدة التي يحصل بها الكمال سواه ؛ فإنه كان كاملًا في صورته ومعناه ، من حيث الحسن والإحسان والحلم والسؤدد والعلوم المختلفة والأخلاق الحميدة ، رأيتُ منه ما يعجز عنه كبار الأولياء ، فإن رسول الله ﷺ قال : « ما أنْعَمَ الله على عبدٍ نعمةً أفضل من أن يُلهمه ذكْرَهُ » فقلتُ بهذا : إن إلهام الذِّكْر أفضل من الكرامات ، وأفضل الذِّكْر ما يتعدَّى إلى العباد ، وهو تعليم العلم والسُّنَّة ، وأعظمُ من ذلك وأحسن ما كان جِبِلَّةً وطبعًا ؛ كالحلم والكرم والعقل والحياء ، وكان الله قد جبله على خُلُقٍ شريف ، وأفرغ عليه المكارم إفراغًا ، وأسبغ عليه النِّعم ، ولطف به في كل حال .

وبقي الموفق يجلس زمانًا بعد الجمعة للمناظرة، ويجتمع إليه الفقهاء، وكان يُشغل – يُدَرِّس – إلى ارتفاع النهار ، ومن بعد الظهر إلى المغرب ، ولا يضجر ، ويسمعون عليه ، وكان يُقرِئ في النحو ، وكان لا يكاد يراه أحد إلا أحبَّه ، إلى أن قال الضياء : وما علمتُ أنه أوجع قلْب طالبٍ ، وكانت له جاريةٌ تُؤذيه بخُلُقِها فما يقول لها شيئًا ، وأولاده يتضاربون وهو لا يتكلَّم ، وسمعتُ البهاء يقول : ما رأيتُ أكثر احتمالًا منه .

قال أبو شامة : كان إمامًا في العلم والعمل »(١) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/١٦٥ – ١٧٢ .

٢٣٣ - العماد المقدسي ، الشيخ الإمام العالم الزاهد ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن عبد الواحد بن علي المقدسي ، أخو الحافظ عبد الغني :

« سافر إلى بغداد مرَّتين ، وحفظ القرآن ، و « غريب » الغريري فيما قيل، وحفظ الخرقي، وألقى الدرس من «التفسير» ومن « الهداية » ، واشتغل في الخلاف ، شاهدتُه يُناظر غير مرَّةٍ ، وكان عالمًا بالقراءات والنحو والفرائض؛ قرأ بالروايات على أبي الحسن ابن عساكر البطائحي ، وأقرأ بها ، وصنَّف « الفروق في المسائل الفقهية » ، وصنَّف كتابًا في الأحكام لم يُتمَّهُ ، ولا كان يتفرَّغ للتصنيف من كثرة اشتغاله وإشغاله . أقام بحرَّان مدَّة ، فانتفعوا به ، وكان يُشغل - أي يُدَرِّسُ - بالجبل إذا كان الشيخ الموفق بالمدينة، فإذا صعد الموفق؛ نزل هو وأشغل، فسمعتُ الشيخ الموفق يقول : ما نقدر نعمل مثل العماد ، كان يتألَّف الناس ، وربّما كرَّر على الطالب من سَحرٍ إلى الفجر .

قال الضياء : وكان يجلس في جامع البلد من الفجر إلى العشاء ، لا يخرج إلَّا لحاجة ، يُقرىء القرآن والعلْم ، فإذا فرغوا اشتغل بالصلاة ، فسألتُ الشيخ موفق الدين عنه ؛ فقال : كان من خيار أصحابنا وأعظمهم نفعًا ، وأشدّهم وَرَعًا ، وأكثرهم صبرًا على التعليم ، وكان داعيةً إلى السُّنَّة ، أقام بدمشق مُدَّة يعلِّم الفقراء ويُقرِئهم ، ويُطعمهم ويتواضع لهم ، كان من أكثر النـاس تواضُعًا واحتقارًا لنفسه ، وخوفًا من الله .

وقال الضياء : أعرف وأنا صغير أنَّ جميع مَنْ كان في الجبل يتعلَّم القرآن ؛ كان يقرأ على العماد ، وختم عليه جماعة ، وكان يبعث بالنفقة إلى الناس ، ويأخذ بقلب الطالب ، وله بِشْرٌ دائم .

قال الضياء : وسمعتُ الإمام محاسن بن عبد الملك التنوخي يقول :

كان الشيخ العماد جوهرة العصر »[١] .

٢٣٤ - الإمام ابن عبد البر شيخ الإسلام أبو عمر ، يوسف بن عبد الله ابن محمد النمري ، صاحب التصانيف الفائقة :

قال عنه الذهبي في السير : « طلب العلمَ ، وأدرك الكبارَ ، وطال عمرُهُ، وعلا سندهُ، وتكاثر عليه الطلبة، وجمع وصنَّف، ووثَّق وضعَّف، وسارت بتصانيفه الركبان ، وخضع لعلمه علماء الزمان .

قال الحميدي: أبو عمر فقيه حافظ مُكثِر، عالم بالقراءات وبالخلاف، وبعلوم الحديث والرجال . ثم قال: «كان إمامًا دَيِّنًا، ثقةً، مُتقنًا، مُتبحِّرًا، صاحبَ سُنَّةٍ واتِّباع ، وكان أوَّلًا أثريًّا ظاهريًّا فيما قيل ، ثم تحوَّل مالكيًّا ، مع ميْلٍ بيِّن إلى فقه الشافعي في مسائل ، ولا يُنكر له ذلك ، فإنه ممن بلغ رتبة الأئمة المجتهدين ، ومَنْ نظر في مُصنَّفاته ؛ بان له منزلته في سعة العلم ، وقوة الفهم ، وسيلان الذهن » .

قال أبو الوليد الباجي : لم يكن بالأندلس مثل أَبي عمر بن عبد البر في الحديث ، وهو أحفظ أهل المغرب .

وقال أبو علي الغسَّاني : أَلَّف أبو عمر في « الموطَّأ » كُتُبًا مُفيدة ؛ منها : كتاب « التمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد » فرتَّبه على شيوخ مالك على حروف المعجم ، وهو كتاب لم يتقدَّمْه أحدٌ إلى مثله ، وهو سبعون جزءًا .

قلتُ : هي أجزاء ضخمة جدًّا .

قال ابن حزم : لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله ، فكيف أحسن منه !.

ثم صنع كتاب « الاستذكار لمذهب علماء الأمصار فيما تضمَّنه الموطَّأ

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٤٧ - ٥٠ .

من معاني الرأي والآثار » ؛ شرح فيه الموطأ على وجهه ، وجمع كتابًا جليلًا مُفيدًا ، وهو « الاستيعاب في أسماء الصحابة » ، وله كتاب « جامع بيان العلم وفضله » ، وغير ذلك . وكان موفَّقًا في التأليف ، مُعانًا عليه ، ونفع الله بتواليفه ، وكان مع تقدُّمه في علم الأثر وبصره بالفقه ومعاني الحديث ؛ له بسطةٌ كبيرةٌ في علم النسب والخبر »[1] .

قضى ابن عبد البر في تأليف كتاب « التمهيد » أكثر من ثلاثين سنة كما يفيده قوله :

«سميرُ فؤادي مُذْ ثلاثون حِجَّةً وصَيْقَلُ ذِهني والمُفَرِّجُ عن هَمِّي
بسطتُ لكم فيه كلامَ نَبِيِّكُمْ بما في معانيه من الفِقهِ والعلمِ
وفيه من الآثارِ ما يُقْتَدى بهِ إلى البرِّ والتقوى ويَنْهَى عن الظُلْمِ»[2]

٢٣٥ - الإمام البيهقي ، أبو بكر ، أحمد بن الحسين بن علي :

« سمع وهو ابن خمس عشرة سنة من أبي الحسن محمد بن الحسين العلوي وهو أقدم شيخ عنده ، وسمع من الحاكم أبي عبد الله الحافظ ، فأكثر جدًّا وتخرَّج به ، وسمع من عشرين شيخًا من أصحاب الأصمّ ، وبورك له في علمه ، وصنَّف التصانيف النافعة ، ولم يكن عنده « سنن النسائي » ، ولا « سنن ابن ماجه » ، ولا « جامع أبي عيسى » ، بلى عنده عند الحاكم وِقْرُ بعير أو نحو ذلك ، وعنده « سنن أبي داود » عاليًا ، وتفقَّه على ناصر العمري وغيره .

وانقطع بقريته مُقبلًا على الجمع والتأليف ، فعمل « السنن الكبير » في عشر مُجلّدات ، وليس لأحد مثله .

وألّف كتاب « السنن والآثار » في أربع مُجلَّدات .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ١٥٣ - ١٦٢ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٨ / ١٦٣ .

وأما « المبسوط » في نصوص الشافعي ، فقد قال فيه السبكي : ما صُنِّف في نوعه مثله . وقال في « كشف الظنون » ٢ / ١٥٨٢ : « وهو من أعظم كُتُبِه قدْرًا ، وأبسطها علمًا ، يكون في عشرين مُجلَّدًا » .

وكتاب « شعب الإيمان » ، وكتاب « مناقب الشافعي » ، وكتاب « الدعوات الكبير » ، وفيهم قال السبكي : فأُقسم ما لواحد منها نظير .

وأما كتاب « الخلافيَّات » فلم يُسبَقْ إلى نوعه ، ولم يصُنَّف مثلُه ، وهو طريقة مُستقلَّة حديثية ، لا يقدر عليها إلا مُبرِّزٌ في الفقه والحديث ، قيِّمٌ بالنصوص . قاله السبكي .

قال السبكي : شيوخه أكثر من مائة شيخ .

اشتغل بالتصنيف بعد أن صار أوحدَ زمانه ، وفارسَ ميدانه ، وأحذَق المحدِّثين وأحدَّهم ذهْنًا، وأسرعَهم فهمًا، وأجودَهم قريحةً، وبلغت تصانيفه ألف جزء ، ولم يتهيَّأ لأحد مثلها .

أما « السنن الكبير » فما صُنِّف في علم الحديث مثله ؛ تهذيبًا ، وترتيبًا ، وجودةً .

وأما المعرفة «معرفة السنن والآثار» فلا يستغني عنه فقيهٌ شافعي، وسمعتُ الشيخ الإمام رحمه الله يقول: مُراده معرفة الشافعي بالسنن والآثار»[١].

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨ / ١٦٧ - ١٦٩) : « قال الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل في « تاريخه » : هو أبو بكر الفقيه ، الحافظ الأصولي ، الدَّيِّنُ الوَرِع ، واحدُ زمانه في الحفظ ، وفَرْدُ أقرانه في الإتقان والضبط ، من كبار أصحاب الحاكم ، ويزيد على الحاكم بأنواعٍ من العلوم ، كتب الحديث ، وحفظه من صباه ، وتفقَّه وبَرع ، وأخذ فنَّ الأصول ،

---

(١) طبقات الشافعية ٤ / ٩ .

وارتحل إلى العراق والجبال والحجاز ، ثم صنَّف ، وتواليفه تُقارب ألف جزء مما لم يسبقه إليه أحد ، جمع بين علم الحديث والفقه ، وبيان علل الحديث ، ووجْه الجمع بين الأحاديث ، طلب منه الأئمة الانتقال من بيْهق إلى نيسابور ، لسماع الكتب ، فأتى في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، وعقدوا له المجلس لسماع كتاب « المعرفة » ، وحضره الأئمة .

قال شيخ القضاة أبو علي إسماعيل بن البيهقي : حدَّثنا أبي قال : حين ابتدأتُ بتصنيف هذا الكتاب- يعني كتاب المعرفة في السنن والآثار- وفرغتُ من تهذيب أجزاء منه ، سمعتُ الفقيه محمد بن أحمد - وهو من صالحي أصحابي ، وأكثرهم تلاوة ، وأصدقهم لهجة - يقول : رأيتُ الشافعي - رحمه الله - في النوم ، وبيده أجزاء من هذا الكتاب ، وهو يقول : قد كتبتُ اليوم من كتاب الفقيه أحمد سبعة أجزاء ، أو قال : قرأتها . ورآه يَعْتَدُّ بذلك . قال : وفي صباح ذلك اليوم رأى فقيهٌ آخرُ من إخواني الشافعيَّ قاعدًا في الجامع على سرير ، وهو يقول : قد استفدتُ اليوم من كتاب الفقيه حديث كذا وكذا .

وأخبرنا أبي قال: سمعتُ الفقيه أبا محمد الحسن بن أحمد السمرقندي الحافظ يقول : سمعتُ الفقيه محمد بن عبد العزيز المروزي يقول : رأيتُ في المنام كأنَّ تابوتًا علا في السماء يعلوه نورٌ ، فقلتُ : ما هذا ؟ قال : هذه تصنيفات أحمد البيهقي . ثم قال شيخ القضاة : سمعتُ الحكايات الثلاث من الثلاثة المذكورين .

قلتُ : هذه رؤيا حقٌّ ، فتصانيف البيهقي عظيمة القدْر ، غزيرة الفوائد ، قلَّ مَنْ جوَّد تواليفه مثل الإمام أبي بكر ، فينبغي للعالم أن يعتني بهؤلاء سيما « سننه الكبير » ، وقد قدِم قبل موته بسنة أو أكثر إلى نيسابور ، وتكاثر عليه الطلبة ، وسمعوا منه كُتُبه ، وجُلبت إلى العراق والشام والنواحي .

وبلغنا عن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني قال : ما من فقيه شافعي إلا وللشافعي عليه مِنَّة إلا أبا بكر البيهقي ، فإن المنَّةَ له على الشافعي ؛ لتصانيفه في نُصرة مذهبه .

قلتُ : أصاب أبو المعالي ، هكذا هو ، ولو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبًا يجتهد فيه ؛ لكان قادرًا على ذلك ، لسعة علومه ، ومعرفته بالاختلاف ، ولهذا تراه يُلوِّح بنصر مسائل مما صحَّ فيها الحديث » .

رحمه الله ، وأجزل له المثوبة .

٢٣٦ - الإمام الحافظ ابن المنذر ، أبو بكر ، محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري :

« صاحب التصانيف كـ « الإشراف في اختلاف العلماء » ، وكتاب « الإجماع » ، وكتاب « المبسوط » ، وغير ذلك .

قال الشيخ محيي الدين النواوي : « له من التحقيق في كتبه ما لا يُقاربه فيه أحد ، وهي في نهاية من التمكُّن في علم الحديث ، وله اختيار ، فلا يتقيَّد في الاختيار بمذهب بعينه ، بل يدور مع ظهور الدليل » .

وهذا الإمام من حَمَلَة الحُجَّة ، جارٍ في مضمار ابن جرير ، وابن سريج ، وتلك الحلبة ، رحمهم الله .

« وصنَّف في اختلاف العلماء كُتُبًا لم يُصنِّف أحدٌ مثلها ، واحتاج إلى كُتُبِه الموافق والمُخالفُ » . قاله الإمام أبو إسحاق الشيرازي .

ولابن المنذر «تفسير» كبير في بضعة عشر مُجلَّدًا، يقضي له بالإمامة في علم التأويل أيضًا »[1] .

نعته الذهبي في تذكرة الحفاظ (٤/٣) بأنه « الفقيه الأوحد » .

ولقد قال السيوطي صاحب « الدُّر المنثور في التفسير بالمأثور » : إنه

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٤٩٠ - ٤٩٢ .

وقف على تفسير ابن المنذر ، واستفاد منه كثيرًا .

واعتمد علماء الطوائف كلها في نقل المذاهب ومعرفتها على كُتُبه .

قال النووي في مقدمة المجموع (١ / ١٩) : « وأكثر ما أنقلُه من مذاهب العلماء من كتاب « الإشراق والإجماع » لابن المنذر القدوة في هذا الفنِّ » .

قال ابن حجر في لسان الميزان (٥/٢٧): «وكتابه «الإشراف» في الاختلاف ؛ من أحسن المُصنَّفات في فنِّه » .

٢٣٧ - الحافظ الإمام ابن عساكر، أبو القاسم، علي بن الحسن بن هبة الله:

الشيخ الإمام ، الحافظ الكبير المجوّد ، مُحدِّث الشام ، صاحب « تاريخ دمشق » .

« محطُّ رحال الطالبين ، وموئل ذوي الهِمَم من الراغبين ، البحر الذي لا ساحل له ، والحَبْرُ الذي حمل أعباء السُّنَّة على كاهله .

قطع الليل والنهار دائبين في دأبه ، وجمع نَفْسَهُ على أشتات العلوم ، لا يتخذ غير العلم والعمل صاحبيْن ، وهما منتهى أَرَبِه .

له « تاريخ الشام » . ومَنْ طالع هذا الكتاب ؛ عرف إلى أي مرتبةٍ وصل هذا الإمام ، واستقلَّ الثُّريَّا ، وما رضي بدر التمام . له « الأطراف » وعِدَّة تصانيف وتخاريج وفوائد ، ما الحفاظ إليها إلا محاويج »[١] .

وُلد في المُحرَّم سنة (٤٩٩هـ) وسمَّعه أخوه صائن الدين هبة الله في سنة (٥٠٥هـ) وما بعدها .

« سمع بالأنبار ، والرافقة ، والرحبة ، وماردين ، وماكسين ، وغيرها من البلاد الكثيرة ، والمدن الشاسعة ، والأقاليم المتفرقة ، لا ينفكُّ نائي

---

(١) طبقات الشافعية ٧ / ٢١٥ - ٢١٦ .

الديار ، يُعمل مَطيَّه في أقاصي القفار ، وحيدًا لا يصحبه إلا تُقًى اتَّخذه أنيسَهُ ، وعَزْم لا يرى غير بلوغ المآرب درجةً نفيسةً ، ولا يُظلِّله إلا سَمُرَة في رباعٍ قفراء ، ولا يَردُ غير إداوة لعلَّه يرتشف منها الماء .

وسمع منه جماعة من الحفاظ ؛ كأبي العلاء الهمذاني ، وأبي سعد السمعاني ، وروى عنه الجمُّ الغفير ، والعدد الكثير ، ورُويت عنه مُصنَّفاتُه وهو حيّ بالإجازة ؛ في مدن خراسان وغيرها ، وانتشر اسمُهُ في الأرض ، ذات الطول والعرض .

وأقام في بدء رحلته ببغداد خمسة أعوام يُحصِّل العلم .

سمع بمكة ، والمدينة ، وأصبهان ، ونيسابور ، ومرو ، وهراة ، والكوفة ، وهمذان ، وتبريز والموصل ، وميهنة ، وبيهق ، وخسروجرد ، وبسطام ، ودامغان ، والريِّ ، وزنجان ، وغيرها من البلدان ، وعمل أربعين حديثًا بلدانية »[١] .

« وعدَّةُ شيوخه الذي في « معجمه » ألف وثلاثمائة شيخ بالسماع ، وستة وأربعون شيخًا أنشدوا ، وعن مائتين وتسعين شيخًا بالإجازة ، الكُلُّ في « معجمه » ، وبضع وثمانون امرأة لهن «معجم» صغير سمعناه »[٢] . هذا قول الذهبي .

ثم قال الحافظ الذهبي : « صنَّف الكثير ، وكان فَهِمًا ، حافظًا ، ذكيًّا ، بصيرًا بهذا الشأن ، لا يُلْحَق شأؤه ، ولا يُشَقُّ غُبارُه ، ولا كان له نظيرٌ في زمانه .

تفقَّه في حداثته على جمال الإسلام أبي الحسن السُّلمي وغيره ، وانتفع بصحبة جدِّه لأُمِّه القاضي أبي الفضل عيسى بن علي القرشي في النحو ، وعلَّق مسائل من الخلاف عن أبي سعد بن أبي صالح الكرماني ببغداد ، ولازم

(١) الطبقات ٧ / ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٥٦ .

الدرس والتفقُّه بالنظامية ببغداد، وصنَّف وجمع وأحسن. فمن ذلك «تاريخه» في ثمانمائة جزء ؛ الجزء عشرون ورقة ، فيكون ست عشرة ألف ورقة ، وجمع «الموافقات» في اثنين وسبعين جزءًا، و «عوالي مالك»، و «الذيل» عليه خمسين جزءًا ، و « غرائب مالك » عشرة أجزاء ، و « المعجم » في اثني عشر جزءًا ، و « مناقب الشبَّان » خمسة عشر جزءًا ، و « فضائل أصحاب الحديث» أحد عشر جزءًا ، و «فضل الجمعة» مُجلَّد ، و « تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الأشعري» مُجلَّد ، و «المسلْسلات» مُجلَّد ، و « السباعيَّات » سبعة أجزاء ، و « مَنْ وافقتْ كُنيتُه كنية زوجته » أربعة أجزاء ، و « في إنشاء دار السُّنَّة » ثلاثة أجزاء ، و « في يوم المزيد » ثلاثة أجزاء ، و « الزهادة في الشهادة » مُجلَّد ، و « طرق قبض العلم » ، و «حديث الأطيط»، و «حديث الهبوط وصحته»، و «عوالي الأوزاعي وحاله» جزءان » .

ومن تواليف ابن عساكر اللطيفة ثمانية وخمسون مؤلَّفًا غير التي ذكرناها ؛ سردها الذهبي بأسمائها في سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٥٦٠ - ٥٦٢) .

وقال الذهبي : « وأملى أربعمائة مجلس وثمانية » .

قال ابنه القاسم : قال لي : لما حملتْ بي أُمِّي ؛ رأتْ في منامها قائلًا يقول : تلدين غلامًا يكون له شأن ، وصدَّقت اليقظة منامها . وحدثني أنّ أباه رأى رؤيا ؛ معناه : يُولد لك ولدٌ يُحيي الله به السُّنة ، ولما عزم على الرحلة ؛ قال له شيخه أبو الحسن بن قُبيس : أرجو أن يُحيي الله بك هذا الشأن . فكان كما قال ، وعُدَّتَ كرامةً للشيخ ، وبشارةً للحافظ .

ولما دخل بغداد أُعجب به العراقيون ، وقالوا : ما رأينا مثله ، وكذلك قال مشايخه الخراسانيون .

وقال الحافظ أبو العلاء الهمذاني لبعض تلامذته وقد استأذنه أن يُسافر ، فقال : إنْ عرفتَ أستاذًا أعلم مني ، أو في الفضل مثلي ؛ فحينئذ آذن إليك أن تُسافر إليه ، اللهم إلا أن تسافر إلى الحافظ ابن عساكر ، فإنه حافظ كما يجب .

قال السبكي : « نبَّهه السعد ، فأسهره الليالي في طلب العلم ، وغيره سهرها في الشهوات أو نامها ، وكان له الشأن العظيم والشأن الذي يجلُّ عن التعظيم .

قال الحافظ أبو العلاء : أنا أعلم أنه لا يُساجل الحافظ أبا القاسم في شأنه أحدٌ ، فلو خالق الناس ومازجهم كما أُصنع ؛ إذًا لاجتمع عليه الموافقُ والمخالفُ .

وقال أبو العلاء يومًا : أيُّ شيء فُتح له ، وكيف ترى الناس له ؟ فقال محمد بن عبد الرحمن المسعودي لأبي العلاء : هو بعيد من هذا كله ، لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف والتسميع ، حتى في نزهته وخلواته . فقال : الحمد لله ، هذا ثمرة العلم ، ألا إنا قد حصل لنا هذه الدار والكتب والمسجد ، هذا يدلُّ على قِلَّة حظوظ أهل العلم في بلادكم.ثم قال لي : ما كان يُسمَّى أبو القاسم ببغداد إلا شعلة من نار ؛ من توقُّده وذكائه وحُسْن إدراكه .

وروى زين الأمناء ، حدَّثنا ابن القزويني عن والده مُدرِّس النظامية ، قال : حكى لنا الفَراوي قال : قدِمَ علينا ابن عساكر ، فقرأ عليَّ في ثلاثة أيام فأكثر ، فأضجرني ، وآليتُ أن أُغلق بابي ، وأمتنع ، جرى هذا الخاطر لي بالليل ، فقدم من الغد شخص ، فقال : أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك ، رأيتُه في النوم ، فقال : امضِ إلى الفراوي ، وقل له : إنْ قَدِمَ بلدكم رجل من أهل الشام أسمر ، يطلب حديثي ؛ فلا يأخذك منه ضجرٌ ولا مَلَلٌ . قال :

فما كان الفراوي يقوم حتى يقوم الحافظ أوَّلًا »[1] .

قال أبو الواهب : قال لي ابن عساكر : لمّا عزمتُ على التحديث ، والله المُطَّلِعُ أنه ما حملني على ذلك حُبُّ الرئاسة والتقدّم ؛ بل قلتُ : متى أروي كلَّ ما قد سمعتُه ، وأيّ فائدة في كوني أُخلِّفه في صحائف ؟ فاستخرتُ الله ، واستأذنت أعيان شيوخي ورؤساء البلد ، وطُفتُ عليهم ، فكلٌّ قال : ومنْ أحقُّ بهذا منك ؟ فشرعتُ في ذلك سنة ثلاث وثلاثين .

قال أبو محمد القاسم : وكان أبي - أي ابن عساكر - رحمه الله قد سمع أشياء لم يُحصِّل منها نُسخًا ؛ اعتمادًا على نُسخ رفيقه الحافظ أبي علي ابن الوزير ، وكان ما حصَّله ابن الوزير لا يُحصِّله أبي ، وما حصَّله أبي لا يُحصِّله ابن الوزير ، فسمعتُ أبي ليلةً يتحدَّث مع صاحبٍ له في الجامع ، فقال: رحلتُ، وما كأني رحلتُ، كنتُ أحسبُ أن ابن الوزير يقدمُ بالكتب مثل « الصحيحين » وكُتُبِ « البيهقي » والأجزاء . فاتفق سكناه بمرو ، وكنتُ أُؤمِّل وصول رفيق آخر يُقال له : يوسف بن فارُّوا الجيَّاني ، ووصول رفيقنا أبي الحسن المرادي ، وما أرى أحدًا منهم جاء ، فلا بُدَّ من الرحلة ثالثة وتحصيل الكتب والمُهمَّات . قال : فلم يمضِ إلا أيام يسيرة حتى قدم أبو الحسن المرادي، فأنزله أبي في منزلنا، وقدم بأربعة أسفاط كُتُبٍ مسموعة، ففرح أبي بذلك شديدًا ، وكفاه الله مُؤنة السفر ، وأقبل على تلك الكتب ، فنسخ واستنسخ وقابل ، وبقي من مسموعاته أجزاء نحو الثلاثمائة ، فأعانه عليها أبو سعد السمعاني ، فنقل إليه منها جملة حتى لم يبقَ عليه أكثر من عشرين جزءًا ، وكان كلما حصل له جزء منها ؛ كأنه قد حصل على ملك الدنيا .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٦٤- ٥٦٥، تذكرة الحفاظ ٤/١٣٣٠، و «طبقات» السبكي ٧ / ٢١٩ .

سأل معمر بن الفاخر ابن عساكر عند وصوله إلى أصبهان عن سرِّ تأخُّره عن الرحلة إلى أصبهان ، فقال : استأذنتُ أُمِّي في الرحلة إليها ، فما أذنتْ .

قال السمعاني : أبو القاسم كثير العلم ، جمع ما لم يجمعه غيره ، وأربى على أقرانه ، دخل نيسابور قبلي بشهر ، سمعتُ منه ، وسمع مني .

قال الذهبي : وبلغَنَا أنّ الحافظ عبد الغني المقدسي بعد موت ابن عساكر نَفَّذ مَنِ استعار لهُ شيئًا من « تاريخ دمشق » ، فلما طالعه ، انبهر لسعة حفظ ابن عساكر ، ويقال : ندم على تفويت السماع منه . فقد كان بين ابن عساكر وبين المقادسة واقع ، رحم الله الجميع .

قال السبكي في الطبقات (٢١٩/٧): «قال فيه الشيخ محيي الدين النووي ، ومن خطِّه نقلتُ : هو حافظ الشام ، بل هو حافظ الدنيا ، الإمام مطلقًا ، الثقة الثبت .

قال ابن النجار : هو إمام المُحدِّثين في وقته ، ومَنِ انتهت إليه الرياسة في الحفظ والإتقان، والمعرفة التامَّة بعلوم الحديث، والثقة والنبل، وحُسْن التصنيف والتجويد ، وبه خُتم هذا الشأن .

قال:وسمعتُ شيخنا عبد الوهاب بن الأمين يقول : كنتُ يومًا مع الحافظ أبي القاسم ابن عساكر ، وأبي سعد بن السمعاني ، نمشي في طلب الحديث ولقاء الشيوخ ، فلقينا شيخًا ، فاستوقفه ابن السمعاني ليقرأ عليه شيئًا ، وطاف على الجزء الذي هو سماعه في خريطته فلم يجده ، وضاق صدرُه ، فقال له ابن عساكر : ما الجزء الذي هو سماعه ؟ فقال : « كتاب البعث والنشور » لابن أبي داود ، سمعه من أبي نصر الزينبي ، فقال له : لا تحزنْ ، وقرأه عليه من حفظه أو بعضه .

قال ابن النجار : الشكُّ من شيخنا .

وكان الملك العادل محمود بن زنكي قد بنى له دار الحديث النورية،

فدرّس بها إلى حين وفاته ، غير مُلتفتٍ إلى غيرها ، ولا مُتطلّع إلى زخرف الدنيا ، ولا ناظرٍ إلى محاسن دمشق ونُزَهِها ، بل لم يزل مواظبًا على خدمة السُّنَّة والتعبُّد باختلاف أنواعه ؛ صلاةً ، وصيامًا ، واعتكافًا ، وصدقةً ، ونشْرَ عَلْمٍ ، وتشييعَ جنائز ، وصِلات رَحم ، إلى حين قُبض ، رحمه الله تعالى ورضي عنه »[1] .

قال ابن عساكر رحمه الله :

ألا إنَّ الحديثَ أجَلُّ عِلْمٍ   وأشرفُه الأحاديثُ العوالي
وأنفعُ كلِّ نوعٍ منه عندي   وأحسَنُه الفوائدُ والأمالي
فإنك لن ترى للعلم شيئًا   تُحقِّقُهُ كأفواهِ الرجالِ
فكنْ ياصاحِ ذا حرصٍ عليهِ   وخُذْهُ عن الشيوخِ بلامَلالِ
ولا تأْخُذْهُ من صُحُفٍ فتُرمى-   من التصحيف بالداءِ العُضَال[2]

٢٣٨ - شيخ الحنفية ، الإمام الفقيه شمس الأئمة السرخسي ، صاحب « المبسوط » في فقه الحنفية :

لعلّ من أعجب ما قرأتُ أنَّ السرخسي حُبس في جُبٍّ ، فأملى كتاب « المبسوط » على تلامذته الذين كانوا يجلسون أعلى الجُبِّ من حفظه .

٢٣٩ - الإمام الحافظ الكبير القدوة الأثري ، أبو محمد ، عبد الغني بن عبد الواحد بن علي المقدسي :

صاحب « الأحكام الكبرى » و « الصغرى » .

سمع الكثير بدمشق، والإسكندرية، وبيت المقدس، ومصر، وبغداد ، وحَرَّان ، والموصل ، وأصبهان ، وهمذان ، وكتب الكثير .

---

(١) طبقات الشافعية ٧ / ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥٦٩/٢٠ .

سمع عِدَّة ببغداد ، والحافظ أبا طاهر السِّلَفي ، فكتب عنه نحوًا من ألف جزء، ولم يزل يطلب ويسمع ويكتب، ويسهر ويدأب، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويتقي الله ويتعبَّد ، ويصوم ويتهجَّد ، وينشر العلم ، إلى أن مات . رحل إلى بغداد مرَّتين ، وإلى مصر مرتين ؛ سافر إلى بغداد هو وابن خاله الشيخ الموفق في أول سنة إحدى وستين ، فكانا يخرجان معًا، ويذهب أحدهما في صحبة رفيقه إلى درسه وسماعه، كانا شابَّيْن مُختطَّيْن(١)، وخوَّفهما الناس من أهل بغداد ، وكان الحافظ ميلُه إلى الحديث ، والموفق يُريد الفقه ، فتفقَّه الحافظ ، وسمع الموفق معه الكثير ، فلما رآهما العقلاء على التصوُّنِ وقِلَّةِ المُخالطة ؛ أحبُّوهما ، وأحسنوا إليهما ، وحصَّلا علمًا جمًّا ، فأقاما ببغداد نحو أربع سنين ، ونزلا أوَّلًا عند الشيخ عبد القادر فأحسن إليهما ، ثم مات بعد قدومهما بخمسين ليلة ، ثم اشتغلا بالفقه والخلاف على ابن المَنِّي . ورحل الحافظ إلى السِّلَفي في سنة ستٍّ وستين ، فأقام مُدَّةً ، ثم رحل أيضًا إلى السِّلفي سنة سبعين ، ثم سافر سنة نيِّفٍ وسبعين إلى أصبهان ، فأقام بها مُدَّةً وحصَّل الكتب الجيِّدة .

قال الضياء : كان عظيمَ الخلق ، تامَّ القامة ، كأن النور يخرج من وجهه ، وكان قد ضعُف بصرُهُ من البكاء والنسخ والمطالعة .

تصانيفه :

الحافظ عبد الغني هو أوَّلُ مَنْ جمع رجال الكتب الستة في مُصنَّف واحد ، وهو « الكمال في معرفة رجال الكتب الستة » في أربعة أسفار ، يروي فيه بأسانيده .

وله « تبيين الإصابة لأوهام حصلت لأبي نُعيم في معرفة الصحابة » جزآن؛ تدلُّ على براعته وحفظه. وله «الأحكام الكبرى» مُجلَّد، و «الصغرى»

---

(١) يعني أول ظهور الشَّعْرِ في وجههما .

مُجيليد ، وكتاب « السيرة » جزء كبير ، وكتاب « المصباح في عيون الأحاديث الصحاح » مُشتمل على أحاديث الصحيحين ، فهو مُستخرج عليهما بأسانيده في ثمانية وأربعين جزءًا[1]. وله أيضًا «نهاية المراد من كلام خير العباد » في السُّنَن ، نحو مائتي جزء ، لم يُبيضْهُ ، وكتاب « اليواقيت » مُجلد ، وكتاب « تحفة الطالبين في الجهاد والمجاهدين » مُجلَّد ، وكتاب « فضائل خير البرية » أربعة أجزاء ، وكتاب « الروضة » مُجلَّد ، وكتاب « التهجُّد » جزءان ، وكتاب « الفرج » جزءان ، وغيرهما .

أما عن حفظه :

فقد قال ضياء الدين : كان شيخنا الحافظ لا يكاد يُسأل عن حديث إلا ذكره وبيَّنه ، وذكر صحَّتَهُ أو سقمهُ ، ولا يُسأل عن رجل إلا قال : هو فلان بن فلان الفلانيّ ويذكر نَسَبَهُ ، فكان أميرَ المؤمنين في الحديث ، سمعتُه يقول : كنتُ عند الحافظ أبي موسى المديني ، فجرى بيني وبين رجل منازعة في حديث ، فقال : هو في صحيح البخاري . فقلتُ : ليس هو فيه . قال: فكتَبَه في رقعة، ورفعها إلى أبي موسى يسأله، فناولني أبو موسى الرُّقعة، وقال : ما تقول ؟ فقلتُ : ما هو في البخاري . فخجل الرجل .

قال الضياء : رأيتُ في النوم بمَرْو كأن البخاريَّ بين يدي الحافظ عبد الغني يقرأ عليه من جزء ، وكان الحافظ يردُّ عليه ، أو ما هذا معناه .

وسمعتُ إسماعيل بن ظفر يقول : قال رجل للحافظ عبد الغني : رجل حلف بالطلاق أنك تحفظ مائة ألف حديث . فقال : لو قال أكثر لَصَدَقَ !.

ورأيتُ الحافظ عبد الغني على المنبر غير مرَّة يقولون له : اقرأْ لنا من غير كتاب ، فيقرأ أحاديث بأسانيده من حفظه .

وسمعتُ ابنه عبد الرحمن يقول : سمعتُ بعض أهلنا يقول : إن الحافظ

(١) المراد بالجزء هنا هو الجزء الحديثي ، وهو بحدود عشرين ورقة .

سُئل:لِمَ لا تقرأ من غير كتاب ؟ قال : أخاف العُجْبَ .

وسمعتُ خالي أبا عمر أو والدي ، قال : كان الملك نور الدين ابن زنكي يأتي إلينا، وكنا نسمع الحديث، فإذا أشكل شيء على القارىء؛ قاله الحافظ عبد الغني ، ثم ارتحل إلى السِّلفيِّ ، فكان نور الدين يأتي بعد ذلك ، فقال : أين ذاك الشابُّ ؟ فقلنا : سافر .

وقال التاج الكندي : لم يكن بعد الدارقطني مثل الحافظ عبد الغني .

وكتب أبو موسى على كتاب « تبيين الإصابة » الذي أملاه عبد الغني : قلَّ مَنْ قَدِمَ علينا يفهم هذا الشأن كفهم الإمام ضياء الدين أبي محمد عبد الغني المقدسي ، وقد وُفِّق لتبيين هذه الغلطات ، ولو كان الدارقطني وأمثاله في الأحياء لصوَّبوا فعْلَه ، وقلَّ مَنْ يفهم في زماننا ما فهم ، زاده الله عِلمًا وتوفيقًا .

في إفادته وتدريسه :

قال الضياء : كان رحمه الله مُجتهدًا على الطلب ، يكرم الطلبة ، ويُحسن إليهم ، وإذا صار عنده طالب يفهم أَمَرَه بالرحلة ، ويفرح لهم بسماع ما يُحصِّلونه ، وبسببه سمع أصحابنا الكثير .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الحافظ : ما رأيتُ الحديث في الشام كله إلا ببركة الحافظ عبد الغني ، فإنني كلُّ مَنْ سألتُه يقول : أولُ ما سمعتُ على الحافظ عبد الغني ، وهو الذي حرَّضني .

وسمعتُ أبا موسى بن الحافظ يقول عند موته : لا تُضيِّعوا هذا العلم الذي قد تعبنا عليه .

قال الذهبي : قلتُ : هو رحَّل ابن خليل إلى أصبهان ، ورحَّل ابنيْهِ العِزّ مُحمدًا وعبدَ الله إلى أصبهان ، وكان عبد الله صغيرًا ، وسفَّر ابن أخته محمد بن عمر بن أبي بكر وابن عمِّه علي بن أبي بكر .

قال الضياء : وحرَّضني على السفر إلى مصر ، وسافر معنا ابنه أبو سليمان عبد الرحمن بن عشر ، فبعث معنا « المعجم الكبير » للطبراني ، وكتاب « البخاري » ، و « السيرة » ، وكتب إلى زين الدين علي بن نجا يُوصيه بنا ، وسفَّر ابن ظفر إلى أصبهان ، وزوَّده ، ولم يزل على هذا .

قال الضياء : لما دخلنا أصبهان في سفرتي الثانية كُنَّا سبعة؛أحدنا الفقيه أحمد بن محمد بن الحافظ ، وكان طفلًا ، فسمعنا على المشايخ ، وكان المؤيَّد ابن الإخوة عنده جملة من المسموعات ، وكان يتشدَّد علينا ، ثم تُوفِّي ، فحزنتُ كثيرًا ، وأكثر ما ضاق صدري لثلاثة كُتُبٍ . « مُسند العَدَني » ، و « معجم ابن المقرئ » ، و « مُسند أبي يعلى » ، وقد كنتُ سمعتُ عليه في النوبة الأولى « مسند العَدَنّي » ، لكن لأجل رفقتي ، فرأيتُ في النوم كأنَّ الحافظ عبد الغني قد أمسك رجلًا ، وهو يقول لي : أُمُّ هذا ، أُمُّ هذا ، وهذا الرجل هو ابن عائشة بنت معمر ، فلمّا استيقظتُ ؛ قلتُ : ما هذا إلا لأجل شيء . فوقع في قلبي أنه يُريد الحديث ، فمضيتُ إلى دار بني مَعْمر ، وفتَّشتُ الكتب ، فوجدتُ « مُسند العَدَني » سماع عائشة مثل ابن الإخوة ، فلما سمعناه عليها ؛ قال لي بعض الحاضرين : إنها سمعتْ « معجم ابن المقرىء » ، فأخذْنا النسخة من خبَّاز وسمعناه ، وبعد أيام ناولني بعض الإخوان « مسند أبي يعلى » سماعها ، فسمعناه .

لله دَرُّكم آل المقدسي .. في نومكم ويقظتكم لا شُغْلَ لكم إلا الحديث والعلم .. ولله دَرُّك عبد الغني .. تُعلِّم وتُدرِّس وتحثُّ – حتى في المنام – على التعلُّم !!.

كان الحافظ عبد الغني رحمه الله يقرأ الحديث يوم الجمعة بجامع دمشق وليلة الخميس ، ويجتمع خلْقٌ ، وكان يقرأ ويبكي ويُبَكِّي الناس كثيرًا ، حتى إنَّ من حضره مرَّةً لا يكاد يتركه ، وكان إذا فرغ دعا دُعاءً كثيرًا .

سمعتُ شيخنا ابن نجا الواعظ بالقرافة يقول على المنبر : قد جاء الإمام الحافظ ، وهو يُريد أن يقرأ الحديث ، فأشتهي أن تحضروا مجلسه ثلاث مرَّات ، وبعدها أنتم تعرفونه وتحصل لكم الرغبة ، فجلس أول يوم ، وحضرتُ ، فقرأ أحاديث بأسانيدها حفظًا ، وقرأ جزءًا ، ففرح الناس به ، فسمعتُ ابن نجا يقول : حصل الذي كنتُ أُريده في أول مجلس .

وسمعتُ بعض مَنْ حضر يقول: بكى الناس حتى غُشِي على بعضهم.

وكان يجلس بمصر بأماكن .

قال الفقيه نجم بن عبد الوهَّاب الحنبلي– وقد حضر مجلس الحافظ–: يا تقيَّ الدين ، والله لقد حملتَ الإسلام ، ولو أمكنني ما فارقتُ مجلسك .

قال الموفق : كان الحافظ عبد الغني جامعًا للعلم والعمل ، وكان رفيقي في الصبا ، وفي طلب العلم ، وما كنا نستبق إلى خير إلا سبقني إليه إلا القليل ، وكَمَّل الله فضيلته بابتلائه بأذى أهل البدعة وعداوتهم ، ورُزِق العلم وتحصيل الكتب الكثيرة ، إلَّا أنه لم يُعمَّر .

قال أبو موسى بن الحافظ: حدَّثني صَنيعة الملك هبة الله بن حيدرة، قال : لما خرجتُ للصلاة على الحافظ لقيني هذا المغربي – وكان رجُلًا مغربيًّا معه ، فهو يُشير إليه – فقال : أنا غريب ، رأيتُ البارحة كأني في أرض بها قوم عليهم ثيابٌ بيضٌ ، فقلتُ : ماهؤلاء ؟ قيل : ملائكة السماء نزلوا لموت الحافظ عبد الغني . فقلتُ : وأين هو ؟ فقيل لي : اقعدْ عند الجامع حتى يخرج صنيعة الملك فامضِ معه . قال : فلقيتُه واقفًا عند الجامع .

سمعتُ الفقيه أحمد بن محمد بن عبد الغني سنة اثنتي عشرة يقول : رأيتُ البارحة أخاك الكمال عبد الرحيم – وكان توفِّي تلك السنة – في النوم ، فقلتُ : يافلان ، أين أنت ؟ قال : في جنة عدن . فقلتُ : أيُّما أفضل ؛ الحافظ أو الشيخ أبو عمر ؟ فقال : ما أدري ، وأمّا الحافظ فكلَّ

ليلة جمعة يُنصب له كرسيٌّ تحت العرش ، ويقرأ عليه الحديث ، ويُنثر عليه الدُّرُّ والجوهر ، وهذا نصيبي منه ، وكان في كُمِّه شيءٌ [(١)] .

أموتُ وما ماتتْ إليك صبابتي وما شبعت من حب ذاتك أوطاري

٢٤٠ - أبو عمرو ابن الصلاح ، الإمام الحافظ العلّامة شيخ الإسلام تقي الدين، عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشهرزوري، صاحب علوم الحديث « مُقدِّمة ابن الصلاح » :

« كان إمامًا كبيرًا ، فقيهًا مُحدثًا ، مُفيدًا مُعلمًا ، يُعيد زمان السالفين ورعا ، ويزيد بهجة دمشق علم جنى كل طالب جناها ورعا ، فما منهم إلّا من اغترف من بحره ، واعترف بدُرِّه ، وحفظ جانب مِثله ورعًا .

سمع الحديث بالموصل من ابن السمين وهو أقدم شيخ له، وسمع ببغداد من ابن سكينة ، وسمع بنيسابور ، وبمرو ، وبدمشق من الشيخ الموفق ابن قدامة وغيره. جال بلاد خراسان واستفاد من مشايخها، وعلّق التعاليق المُفيدة، وورد دمشق ، ودرَّس بالمدرسة الصَّلاحية بالقدس ، ثم عاد إلى البلاد ، ثم ورد دمشق مُقيمًا مُستوطنًا ، وولي تدريس الرّواحية والشامية الجوّانية ، ومشيخة دار الحديث الأشرفية »[(٢)] .

قال الذهبي : « أشغل ، وأفتى ، وتخرّج به الأصحاب ، وكان من كبار الأئمة » .

قال ابن خلّكان : « كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه ، وله مُشاركةٌ في فنون عدَّة » .

« قال القاضي شمس الدين ابن خلّكان : بلغني أنه كرَّر على جميع « المُهذَّب » قبل أن يَطِرَّ شاربُه ، وكانت فتاويه مُسدَّدة ، وهو أحد شيوخي

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٤٤٣ - ٤٧٠ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٧ / ٣٢٧ .

الذين انتفعتُ بهم ، أقمتُ عنده للاشتغال ، ولازمته سنةً ، وله إشكالات على « الوسيط » ، وذكره عمر بن الحاجب في « معجمه » ، فقال : إمامٌ وَرِعٌ ، وافرُ العقل ، مُتَبحِّرٌ في الأصول والفروع ، بالغَ في الطلب حتى صار يُضَرب به المثل ، وأجهد نفسه في الطاعة والعبادة .

قال الذهبي : كان مع تبحُّره في الفقه مجوِّدًا لما ينقله ، قويَّ المادة من اللغة العربية ، مُتفنِّنًا في الحديث مُتصوِّنًا ، مُكِبًّا على العلم ، عديمَ النظير في زمانه .

ومن فتاويه أنه سُئِل عمن يشتغل بالمنطق والفلسفة ، فأجاب : الفلسفة أُسُّ السَّفَهِ والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومَنْ تفلسف ؛ عميتْ بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيَّدة بالبراهين ، ومن تلبَّس بها قارنه الخذلان والحرمان ، واستحوذ عليه الشيطان ، وأظلم قلبُه عن نبُوَّة محمد ﷺ ، إلى أن قال : واستعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية من المُنكرات المُستبشعة، والرقاعات المُستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية - ولله الحمد - افتقار إلى المنطق أصلًا ، هو قعاقع قد أغنى الله عنها كُلَّ صحيح الذهن ، فالواجب على السلطان أعزَّه الله أن يدفع عن المسلمين شرَّ هؤلاء المشائيم ، ويُخرجهم من المدارس ويُبعدهم »[1] .

٢٤١ - الحافظ شيخ الإسلام، الإمام المنذري، زكيُّ الدين، أبو محمد، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة المنذري :

ولِّي الله ، والمُحدِّث عن رسول الله ﷺ .

« كان رحمه الله قد أُوتي المكيال الأوفى من الورع والتقوى ، والنصيبَ الوافر من الفقه ، وأما الحديث فلا مراء في أنه كان أحفظَ أهلَ زمانه ،

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣ / ١٤٢ - ١٤٣ .

وفارسَ أقرانه ، له القدم الراسخ في معرفة صحيح الحديث من سقيمه ، وحفظِ أسماء الرجال حفظَ مُفرطِ الذكاءِ عظيمِه ، والخبرة بأحكامه ، والدراية بغريبه وإعرابه واختلاف كلامه . سمّع بحرّان والرُّها والإسكندرية وغيرها . وتفقّه ، وصنّف « شرحًا على التنبيه » ، وله « مختصر سنن أبي داود وحواشيه » كتابٌ مُفيد ، و « مختصر صحيح مسلم » ، وخرّج لنفسه مُعجمًا كبيرًا مُفيدًا ، وانتقى ، وخرَّج كثيرًا ، وأفاد الناس . وبه تخرَّج الحافظ أبو محمد الدمياطي ، وإمام المتأخِّرين تقي الدين ابن دقيق العيد ، والشريف عز الدين ، وطائفة ، وعمَّتْ عليهم بَرَكَتُه »[1] .

قال الذهبي في « السِّيَر » (٢٣ / ٣٢١ - ٣٢٢) : « قرأ القراءات على أبي الثناء حامد بن أحمد الأرتاحيِّ ، وتفقَّه على الإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد القرشي الشافعي ، وأخذ العربية عن أبي الحسين يحيى بن عبد الله الأنصاري .

قال الحافظ عز الدين الحُسينيُّ : درَّس شيخنا بالجامع الظافريِّ ، ثم ولي مشيخة الدار الكاملية ، وانقطع بها عاكفًا على العلم ، وكان عديمَ النظير في علم الحديث على اختلاف فنونه ، ثبتًا حُجَّةً ، وَرِعًا مُتحرِّيًا .

قال شيخنا الدمياطي : هو شيخي ومُخَرّجي ، أتيتُه مُبتدئًا ، وفارقتُه معيدًا له في الحديث .

وقال الشريف عز الدين : كان شيخنا زكي الدين عالمًا بصحيح الحديث وسقيمه، ومعلوله وطرقه، مُتبحرًا في معرفة أحكامه ومعانيه ومُشكَلِهِ، قيّمًا بمعرفة غريبه وإعرابه واختلاف ألفاظه ، إمامًا حُجَّةً » .

قال السبكي في الطبقات (٨/ ٢٦٠ - ٢٦١) : « قال الذهبي : وما كان في زمانه أحفظ منه .

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٨ / ٢٥٩ - ٢٦٠ .

وسمعتُ أبي رضي الله عنه أيضًا يحكي أن شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام كان يُسمع الحديث بدمشق ، فلما دخل القاهرة بطَّل ذلك ، وصار يحضر مجلس الشيخ زكيّ الدين ، ويسمع عليه في جملة مَنْ يَسْمع ولا يُسْمِع ، وأن الشيخ زكي الدين أيضًا ترك الفُتيا ، وقال : حيث دخل الشيخ عز الدين لا حاجة بالناس إليَّ » .

وحدَّث الإمام النووي عن شيخه ضياء الدين إبراهيم بن عيسى المراد يصف حال شيخه المنذري ، قال : « لم أرَ ولم أسمع أحدًا أكثر اجتهادًا منه في الاشتغال ، كان دائم الاشتغال في الليل والنهار . قال : وجاورتُه في المدرسة ، يعني بالقاهرة ، بيتي فوق بيته اثنتي عشرة سنة ، فلم أستيقظ في ليلة من الليالي ، ساعة من ساعات الليل ، إلَّا وجدتُ ضوء السِّراج في بيته وهو مشتغل بالعلم ، وحتى كان في حال الأكل والكتاب والكتب عنده يشتغل فيها. وكان لا يخرج من المدرسة لا لعزاء، ولا لهناء، ولا لفرجة، ولا لغير ذلك ، إلا لصلاة الجمعة ، بل يستغرق كل الأوقات في العلم ، رضي الله تعالى عنه وعن والديْنا والمسلمين »(١) .

٢٤٢ - الضياء المقدسي ، أبو عبد الله ، محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي :

« الشيخ الإمام الحافظ القدوة المُحقِّق المجوِّد بقية السلف ، صاحب التصانيف والرحلة الواسعة ، أجاز له الحافظ السِّلَفي ، وشهدة الكاتبة . سمع بدمشق، وبمصر، وبأصبهان، ونيسابور، ومرو، وحلب، وحرَّان ، والموصل ، وهمذان ، وغير ذلك . وبقي في الرحلة المشرقية مدة سنين . وتخرَّج بالحافظ عبد الغني ، وبرع في هذا الشأن ، وكتب عن أقرانه ومَنْ هو دونه ، وحصَّل الأصول الكثيرة ، وجرَّح وعدَّل ، وصحَّح وعلَّل ، وقيَّد وأهمل ، مع الديانة

(١) بستان العارفين (صـ ١٩١) الطبعة الثالثة بدمشق .

والأمانة والتقوى والصيانة والورع والتواضع والصدق والإخلاص وصحة النقل . وله التصانيف المشهورة ؛ منها الأحاديث المختارة . ولم يزل مُلازمًا للعلم والرواية والتأليف إلى أن مات ، وتصانيفه نافعة مُهذَّبة ، أنشأ مدرسةً إلى جانب الجامع المظفري، وكان يبني فيها بيده، ويتقنَّع باليسير، ويجتهد في فعْل الخير ونشر السُّنَّة ، وفيه تعبُّدٌ وانجماعٌ عن الناس .

قال ابن الحاجب فيما قرأتُ بخطِّهِ : سألتُ زكيَّ الدين البرزالي عن شيخنا الضياء ، فقال : حافظٌ ، ثقةٌ ، جَبَلٌ ، ديِّنٌ ، خيِّرٌ .

وقال الشيخ عز الدين عبد الرحمن بن العز : ما جاء بعد الدارقطني مثل شيخنا الضياء ، أو كما قال .

وقال الحافظ شرف الدين يوسف بن بدر : رحم الله شيخنا ابن عبد الواحد ، كان عظيم الشأن في الحفظ ومعرفة الرجال ، هو كان المشارَ إليه في علم صحيح الحديث وسقيمه،ما رأتْ عيناي مثله .

وقال عمر بن الحاجب: شيخُنا الضياء شيخُ وقته، ونسيجُ وحْده؛ علمًا وحفظًا وثقةً ودينًا، من العلماء الربَّانيِّين، وهو أكبر من أن يدلَّ عليه مثلي.

قال الحافظ محبُّ الدين ابن النجار في تاريخه : كتب أبو عبد الله بخطِّهِ الأصول ، وسمعنا منه وبقراءته كثيرًا ... إلى أن قال : وأقام بهراة ومرو مُدَّةً ، وكتب الكتب الكبار بخطِّه ، وحصَّل النُّسَخ ببعضها بهِمَّة عالية ، وجدٍّ واجتهادٍ ، وتحقيقٍ وإتقانٍ ، كتبتُ عنه ببغداد ونيسابور ودمشق ، وهو حافظ مُتقِنٌ ، ثبتٌ صدوقٌ ، نبيلٌ حُجَّةٌ ، عالمٌ بالحديث وأحوال الرجال، له مجموعات وتخريجات، وهو ورِعٌ تقيٌّ، زاهدٌ عابدٌ، مُحتاطٌ في أكْل الحلال ، مُجاهد في سبيل الله ، ولعمري ما رأتْ عيناي مثله في نزاهته وعِفّته وحُسْن طريقته في طلب العلم »(١) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣ / ١٢٦ - ١٣٠ .

٢٤٣ - الشيخ الإمام شيخ الإسلام، أبو الفتح، تقي الدين، مجد الدين، ابن دقيق العيد ، محمد بن علي بن وهب القشيري :

« الجامع بين العلم والدين ، والسالك سبيل السادة الأقدمين ، أكمل المتأخِّرين ، بحرُ العلم الذي لا تُكدِّرُه الدِّلاء ، ومَعدنُ الفضل الذي لقاصده منه ما يشاء ، إمامُ المتأخِّرين ؛ كلمة لا يجحدونها ، وشهادة على أنفسهم يؤدُّونها . كان للعلوم جامعًا ، وفي فنونها بارعًا ، مُقدَّمًا في معرفة علل الحديث على أقرانه ، مُنفردًا بهذا الفنِّ النفيس في زمانه ، بصيرًا بذلك ، سديدَ النظر في تلك المسالك .

إذا قالَ لم يتركْ مقالًا لقائلٍ مصيب ولم يثنِ اللسانَ على هُجْرِ

وكان حَسَنَ الاستنباط للأحكام والمعاني ؛ من السنَّة والكتاب ، بلُبٍّ يسحر الألباب ، وفكرٍ يستفتح له ما يستغلق على غيره من الأبواب .

وكان من العلومِ بحيثُ يُقضَى له من كلِّ علمٍ بالجميعِ

نشأ الشيخ بقوص على أزكى قدَمٍ من العفاف والمواظبة على الاشتغال . تفقَّه بقوص على والده ، وكان والده مالكيَّ المذهب ، ثم تفقَّه على شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، فحقَّقَ المذهبين ، ولذلك يقول فيه الإمام العلَّامة ابن القَوْبَع :

صَبَا للعلمِ صَبًّا في صباهُ فأَعْلِ بِهمَّةِ الصَّبِّ الصَّبِيِّ
وأَتْقَنَ والشبابُ له لِباسٌ أَدِلَّـةَ مـالكٍ والشافعـيِّ

وأما دأبه في الليل علمًا وعبادةً ، فأمْرٌ عُجابٌ ، ربما استوعب الليلة ، فطالع فيها المُجلَّد أو المُجلَّدين ، وربما تلا آيةً واحدةً ، فكرَّرها إلى مطلع الفجر ، استمع له بعض أصحابه ليلةً وهو يقرأ ، فوصل إلى قوله : ﴿ **فإذا نُفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون** ﴾ [المؤمنون : ١٠١] . قال : فما زال يُكرِّرها إلى طلوع الفجر »[١] .

---

(١) طبقات الشافعية ٩ / ٢٠٧ - ٢١١ .

قال الحافظ ابن كثير (١٤ / ٢٩) : « سمع الكثير ، ورحَل في طلب الحديث ، وخرَّج وصنَّف فيه - إسنادًا ومتنًا - مُصنَّفاتٍ عديدةً ، فريدةً مُفيدةً ، وانتهت إليه رياسة العلم في زمانه ، وفاق أقرانه ، ورحل إليه الطلبة، ودرَّس في أماكن كثيرة، ثم ولي قضاء الديار المصرية ومشيخة دار الحديث الكاملية .

قال رحمه الله :

أهلُ المناصِبِ في الدنيا ورِفعَتِها ... أهلُ الفضائِل مرذُولون بينَهُمُ
قد أنزلونا لِأنَّا غَيْرُ جِنْسِهِمُ ... منازلَ الوحشِ في الإهمالِ عندهُمُ
فما لَهُم في تَوَقِّي ضُرِّنا نَظَرٌ ... ولا لهم في تَرَقِّي قَدْرِنَا هِمَمُ
فليتنا لو قَدَرْنا أن نُعَرِّفهم ... مقدارَهم عندنا أو لو دروهُ هُمُ
لهم مُرِيحان من جَهْلٍ وفرطِ غنًى ... وعندنا المتْعِبانِ العِلْمُ والعدمُ

وقد ناقضه الفتح البَقَقِيُّ المنسوب إلى الزندقة ، فقال وأجاد :

أين المراتِبُ والدنيا ورفعَتُها ... عند الذي حازَ علمًا ليس عندهمُ
لاشكَّ أنَّ لنا قدْرًا رَأَوْهُ وَمَا ... لِقَدْرِهم عندنا قَدْرٌ ولا لَهُمُ
هُمُ الوحوشُ ونحنُ الإنس حكمتُنا ... تَقُودهُمْ حيثُ ما شِئْنا وهم نَعَمُ
وليس شيءٌ سوى الإهمال يقْطَعُنَا ... عنهم لأنهُمُ وجدانُهم عَدَمُ
لنا المُريحانِ من عِلْمٍ ومن عَدَمٍ ... وفيهمُ المُتْعِبَانِ الجهلُ والحَشَمُ

وله رحمه الله :

لله دَرُّ الفِئَـةِ الأمجـادِ ... السالكيـنَ مسالكَ الأفـرادِ
عَرَفُوا وهم بالغَوْرِ من وادي الغَضا ... أنْ رُحِّلوا لمبارِك العُبّـادِ
فسرَوْا لنجدٍ لا يَمَلُّون السُّرَى ... أو يَظفَروا منها بكُلِّ مرادِ
لا يقطعون من المناهِلِ مَعْلَمًا ... إلَّا ولاحَ سِواهُ بالمـرصادِ

لَمْ يَثْنِهِم طولُ الطريقِ لَهمُ ولا ... عَدَمُ الرفيق ولا نفادُ الزَّادِ
سَقَّتْهُمُ مَسَّ النُّعاسِ جُفونُهُمْ ... كأسًا تُميلُهمُ على الأعوادِ
وتكادُ أنفسُهُم تفيظُ[1] وَتحْتَبي ... بنسيمِ نجدٍ أو غناءِ الحادي
نَادَتْهُمُ النُّجُبُ الركائبُ عندما ... أَطَّتْ بِوَقْعِ السَّوْطِ والإجهادِ
طيبُ الحياةِ بِنَجْدَ إلَّا أَنَّهُ ... مِن دونِ ذاكَ تَفَتُّتُ الأكبادِ
فأجابها صدْقُ العزيمةِ إنَّما ... نحنُ المعالي أنفسُ الأجْوَادِ
لله دَرُّهُمُ فقد وصلوا إلى ... ظِلِّ النعيم وبرْدِ حَرِّ الصادي
ولَقَدْ يَعِزُّ عليَّ أَنَّهُمُ غدَوْا ... والدارُ قَفْرًا منهُمُ بِبعادِ
فَلأَنهضَنَّ إلى الحمى متوجِّهًا ... بين اعتراضِ عواتِقِ وغوادي
ولأَقْطَعَنَّ عليه كُلَّ مَفَازَةٍ ... تُدْني الهلاكَ وَلَوْ عُدِمتُ الهادي

٢٤٤ - شيخ الإسلام ، الإمام مُحيي الدين ، أبو زكريا ، يحيى بن شرف ابن مِرَى النووي :

أستاذ المتأخرين ، وحُجَّةُ الله على اللاحقين ، والداعي إلى سبيل السالفين .

كان يحيى رحمه الله سيِّدًا وحصورًا ، وليْثًا على النفس هصورًا ، وزاهدًا لا يبالي بخراب الدنيا إذا صَيَّر دينه رَبْعًا معمورًا ، له الزهد والقناعة ، والمصابرة على أنواع الخير ، لا يصرف ساعة في غير طاعة ، هذا مع التفنُّن في أصناف العلوم ؛ فقهًا ، ومتونَ أحاديثِ ، وأسماءَ رجال ، ولغةً .

كان السبكي - لما سكن دار الحديث الأشرفية بعد موت النووي - يخرج في الليل إلى إيوانها ؛ ليتهجَّد ، ويُمرِّغ وجهه على البساط الذي كان النووي يجلس عليه وقت الدرس ، فقال :

---

(١) تفيظ : تموت .

وفي دار الحديث لطيفُ معنًى ... على بُسُط لها أصبو وآوي
عسى أني أمسُّ بحُرِّ وجهي ... مكانًا مَسَّهُ قَدَمُ النَّواوي

رحم الله سفيان بن عيينة إذ يقول : « عند ذكْر الصالحين تتنزّل الرحمة » .

وقال محمد بن يونس: «ما رأيتُ للقلب أنفع من ذكْر الصالحين»[1] .

أما مبدأ أمْر واشتغال النووي وصباه ، فنذكره في عُلُوِّ هِمَّة الصبيان .

قال النووي لتلميذه ابن العطار : « لما كان عُمُري تسع عشرة سنةً ، قدم بي والدي إلى دمشق في سنة تسع وأربعين ، فسكنتُ المدرسة الرَّواحية ، وبقيتُ نحو سنتين لم أضعْ جنبي إلى الأرض ، وكان قوتي فيها جراية المدرسة لا غير » .

قال : « وحفظتُ كتاب « التنبيه » في نحو أربعة أشهر ونصف ، وحفظتُ رُبُعَ العبادات من « المهذب » في باقي السَّنة » .

رحم الله النووي ، ورحم الله الشيرازي الذي ألَّف « المهذب » في أربعة عشر عامًا ، وحفظ رُبُعَ العبادات منه النووي في سبعة أشهر ونصف .

قال النووي : « وجعلتُ أشرح وأُصحّح على شيخنا الإمام العالم ، الزاهد الوَرِع ، ذي الفضائل والمعارف ، أبي إبراهيم إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي الشافعي رحمه الله ، ولازمتُه » . قال : « فأُعجب بي لما رأى من اشتغالي ومُلازمتي وعدم اختلاطي بالناس، وأحبَّني محبَّةً شديدة، وجعلني أُعيد الدروس في حلقته لأكثر الجماعة » .

قال الذهبي عن النووي : « وضُرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليلًا ونهارًا ، وهجرة النوم إلا عن غلبة ، وضبطِ أوقاته بلزم الدرس ، أو الكتابة ، أو المطالعة ، أو التردُّد على الشيوخ » .

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٧ / ٢١٥ ، ٢٢١ .

وحكى البدر بن جماعة أنه سأله عن نومه ، فقال : « إذا غلبني النوم ؛ استندت إلى الكتب لحظةً ثم أنتبه »[١] .

وفي ترجمة النووي للسخاوي قال البدر : « كنتُ إذا أتيتُه أزوره ؛ يضع الكتب على بعض ليُوسِّع لي مكانًا أجلس فيه » .

لما رجع من الحج قال عنه والده : « فلما قضينا المناسك ، ووصلنا إلى (نوى) ، ونزلنا إلى دمشق ؛ صبَّ الله عليه العلم صبًّا ، ولم يزل يشتغل بالعلم ، ويقتفي آثار شيخه المذكور في العبادة ؛ من الصلاة وصيام الدهر ، والزهد والورع ، وعدم إضاعة شيء من أوقاته ، إلى أن تُوفِّي رحمه الله » .

فلما توفِّي شيخه المذكور ؛ ازداد اشتغاله بالعلم والعمل .

قال ابن العطاء - تلميذه - في ترجمته : « وذكر لي الشيخ قدَّس الله روحه ، قال : كنتُ أقرأ كل يوم اثني عشر درسًا على المشايخ ؛ شرحًا وتصحيحًا : درسين في « الوسيط » ، ودرسًا في « المُهذَّب » ، ودرسًا في «الجمع بين الصحيحين»، ودرسًا في «صحيح مسلم»، ودرسًا في «اللُّمع» لابن جنِّي في النحو ، ودرسًا في « إصلاح المنطق » لابن السِّكِّيت في اللغة ، ودرسًا في التصريف، ودرسًا في أصول الفقه؛ تارةً في « اللُّمع » لأبي إسحاق، وتارةً في « المنتخب » لفخر الدين الرازي ، ودرسًا في أسماء الرجال ، ودرسًا في أصول الدين » .

قال : « وكنتُ أُعلِّق جميع ما يتعلَّق بها ؛ من شرح مُشْكل ، ووضوح عبارة ، وضبطِ لغة ، وبارك الله لي في وقتي ، واشتغالي ، وأعانني عليه » .

قال الشيخ عبد الغني الدقر في كتابه « الإمام النووي » (٣٤) : « اثنا عشر درسًا يقرؤها على المشايخ كل يوم ؛ شرحًا وتصحيحًا ، ويُعلِّق

---

(١) ترجمة الإمام النووي للسخاوي (صـ ٣٦) .

ما يتعلّق بها من شرح مُشكل ، وإيضاح عبارة ، وضبط لغة ، تحتاج كل يوم إلى اثنتي عشرة ساعة على أقل تقدير ، وتحتاج إلى مراجعة ما يجب أن يُراجع ، وحفظِ ما يجب أن يُحفظ بأدنى التقدير إلى اثنتي عشرة ساعة ، فهذه أربع وعشرون ساعة، فمتى يَنام؟! ومتى يأكل؟! ومتى يقوم بعبادته ؟! ومتى يتهجَّد في ليله ؟! ومعروف أنه سبَّاقٌ إلى الطاعات والعبادات ... متى يكون هذا كله وهو مُحتاج إلى دراسته ومُراجعته إلى أربع وعشرين ساعة في اليوم والليلة ؟!

هنا يبدو إكرامُ الله إياه ، وتفضُّلُه عليه ، وذلك بأنْ بارك الله له في وقته ، فمنحه القدرة على أن يُنتج في يوم ما يُنتج غيره في يومين ، وفي سنة ما يُنتج غيره في سنتين ، وبهذا نُفسِّر هذه الوثبة الهائلة التي جعلتْ منه في نحو عشر سنوات عالمًا في درجة كبار علماء عصره ، ثم جعلتْ منه إمامَ عصره ، كما نُفسِّر هذه الكثرة الهائلة من مؤلَّفاته المتقنة الرائعة في فترة لا تتجاوز خمسًا وعشرين سنة ، هي كلُّ عُمُره في العلم ، تعلُّمًا وتعليمًا وتأليفًا » . انتهى .

قال النووي : « أخذتُ الفقه ؛ قراءةً وتصحيحًا وسماعًا وشرحًا وتعليقًا عن جماعات :

أوَّلُهم : شيخي الإمام المُتَّفَق على علمه ، وزهده ، وورعه ، وكثرة عباداته ، وعِظَم فضله ، وتميُّزِه في ذلك على أشكاله : أبو إبراهيم إسحاق ابن أحمد بن عثمان المغربي ، ثم المقدسي رضي الله عنه وأرضاه .

ثم شيخنا ، العارف الزاهد العابد ، مُفتي دمشق في وقته : أبو محمد عبد الرحمن بن نوح بن محمد المقدسي .

ثم شيخنا : أبو حفص ، عمر بن أسعد الرَّبعي الأربلي الإمام المُتقِن المُفتي » .

رحم الله يحيى بن معاذ الرازي القائل : « العلماء أرأف بأُمَّة محمد

ﷺ من آبائهم وأُمَّهاتهم ؛ لأنهم يحفظونهم من نار الآخرة وأهوالها ، وآباؤهم وأمهاتهم يحفظونهم من الدنيا وآفاتها » .

« سمع النووي « صحيح البخاري » و « صحيح مسلم » ، و « سُنَنَ أبي داود» و «سُنَنَ الترمذي»، وسمع «سُنَنَ النسائي» بقراءته، « وموطّأ مالك » ، و « مُسنَد الشافعي »، و « مُسنَد أحمد بن حنبل » و « سُنَنَ الدارمي»، و «مُسنَد أبي عوانة الإسفرائيني»، و «مسند أبي يعلى الموصلي»، و «سُنَنَ ابن ماجه» و «سُنَنَ الدارقطني»، و « سُنَنَ البيهقي » ، و « شرح السنة » للبغوي ، و « معالم التنزيل » في التفسير له ، وكتاب « الأنساب » للزبير بن بكّار ، و « الخطب النباتية » ، و « عمل اليوم والليلة » لابن السُّنِّي ، وكتاب « آداب السامع والراوي » للخطيب ، وأجزاء كثيرةً غير ذلك .

وقُرِىء عليه «البخاري» و «مسلم» بدار الحديث الأشرفية ؛ سماعًا وبحثًا .

وقرىء عليه « الرسالة » للقشيري ، و « صفة الصفوة » ، وكتاب « الحُجَّة على تارك المحجَّة » لنصر المقدسي ؛ بحثًا وسماعًا .

وسمع من النووي خلْق كثير من العلماء والحفَّاظ والصدور والرؤساء ، وتخرَّج به خلق كثير من الفقهاء ، وسار علمُه وفتاويه في الآفاق ، ووقع على دينه وعِلمه وزهده وورعه ومعرفته وكرامته : الوِفَاق ، وانتفع الناس في سائر البلاد الإسلامية بتصانيفه ، وأكبُّوا على تحصيل تواليفه .

وذكر لي رحمه الله أنه كان لا يُضيِّع له وقتًا في ليل ولا نهار ، إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم ، حتى في ذهابه في الطرق ومجيئه يشتغل في تكرار محفوظه ، أو مُطالعة ، وأنه بقي على التحصيل على هذا الوجه نحو ست سنين .

ثم إنه اشتغل بالتصنيف، والإشغال، والإفادة، والمُناصحة للمُسلمين

وولاتهم ، مع ما هو عليه من المجاهدة لنفسه ، والعمل بدقائق الفقه ، والاجتهاد ، والخروج على خلاف العلماء وإن كان بعيدًا .

وكان مُحققًا في علومه وفنونه ، مُدقِّقًا في علمه وكل شئونه ، حافظًا لحديث رسول الله ﷺ ، عارفًا بأنواعه كلها ؛ من صحيحه وسقيمه ، وغريب ألفاظه وصحيح معانيه واستنباط فقهه ، حافظًا لمذهب الشافعي وقواعده وأصوله وفروعه ، ومذاهب الصحابة والتابعين ، واختلاف العلماء ووفاقهم وإجماعهم ، وما اشتهر من ذلك جميعه وما هُجر ، سالكًا في كلِّها ذكْر طريقة السلف ، قد صرف أوقاته كلها في أنواع العلم والعمل ؛ فبعضها للتصنيف ، وبعضها للتعليم ، وبعضها للصلاة ، وبعضها للتلاوة ، وبعضها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[1] .

صنَّف رحمه الله كُتُبًا في الحديث والفقه ، عمَّ النفعُ بها ، وانتشر في أقطار الأرض ذكْرُها ؛ منها : « المنهاج في شرح صحيح مسلم » . قال عنه السخاوي : هو عظيمُ البركة . ومنها : « الإشارات إلى بيان الأسماء المُبهمات » ، و «رياض الصالحين». قال السخاوي: «إنه جليلٌ لا يُستغنى عنه»، و « الأذكار » ، وكتاب « الأربعين » ، و « التيسير في مختصر الإرشاد في علوم الحديث » . ومنها : « الإرشاد » ، و « التحرير في ألفاظ التنبيه » ، و « العمدة في تصحيح التنبيه » ، و « الإيضاح في المناسك » ، و « الإيجاز في المناسك » ، و « التبيان في آداب حَمَلَةِ القرآن » . قال عنه السخاوي : « نفيسٌ لا يُستغنى عنه ، خصوصًا القارىء والمُقرىء » . ومنها : « مسألة الغنيمة » . ومنها : « القيام » . ومنها : « كتاب الفتاوى » . رتَّبها ابن العطَّار . ومنها : « الروضة في مختصر الروضة » . قال السخاوي عنها :

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين . لابن العطار . تحقيق : مشهور حسن سلمان من (٤٣ - ٦٨) .

« هي كاسمها فيما قاله ابن المُلقّن » . قال الإسنوي في « المُهمَّات » : « وكانت أنفسَ ما تأثَّر من تصانيفه ؛ لبركات نَفَسِهِ ، وتأتي من ثمرات غراسه » . ومنها : « المجموع في شرح المُهذَّب إلى أثناء باب الرباء » . قال الإسنوي : « وهذا الشرح من أجلِّ كُتُبه وأنفسها » . إلى غير ذلك .

أمر تلميذه ابن العطار بغسل نحو ألف كرَّاس بخطِّه ، فكم كتب وأبقى لنفسه !!

قال المُحدِّث أبو العباس أحمد بن فرح الإشبيلي رحمه الله ، وكان له ميعاد على الشيخ في الثلاثاء والسبت؛ يوم يشرح في «صحيح البخاري»، ويوم يشرح في « صحيح مسلم » . قال : « كان الشيخ مُحيي الدين قد صار إليه ثلاث مراتب ، كلُّ مرتبةٍ منها لو كانت لشخص ؛ شُدَّت إليه آباط الإبل من أقطار الأرض :

المرتبة الأوْلى : العلم والقيام بوظائفه .

الثانية : الزهد في الدنيا وجميع أنواعها .

الثالثة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولله دَرُّ القائل في رثاء النووي :

وكنتَ في سنةِ المختارِ مُجتهدًا ... وأنت باليُمنِ والتوفيقِ مُشتمِلُ
عزفتَ عن شهواتٍ ما لعزم فتى ... بها سواك إذا عَنَّتْ لهُ قِبَلُ
أسهرتَ في العلم عينًا لم تَذُقْ سِنَةً ... إلَّا وأنت به في الحلم مُشتَغِلُ
يا لهْفَ حفلٍ عظيمٍ كنتَ بهجتَهُ ... وحَلْيَهُ فعراهُ بعدكَ العَطَلُ
وطالبُ العلمِ من دانٍ ومغتربٍ ... نالوا بيُمْنِك منه فوقَ ما أَمِلُوا
وكم تواضعتَ عن فضل وعن شرفٍ ... وهِمَّةٍ هامةَ الجوزاءِ تنتعلُ

ويرحم الله مَنْ قال في النووي :

قد كنتَ كاسمِك مُحيي الدين مجتهدًا ... ومن دُعائك نال النصرَ فُرسانُ[1]

---

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام مُحيي الدين . لابن العطَّار .

٢٤٥ - الإمام شيخ الإسلام تقي الدين ، أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرَّاني :

الرَّباني .. مُفتي الأمة ، وبحر العلوم ، وسيِّدُ الحفَّاظ ، وفارس المعاني والألفاظ ، فريدُ العصر ، وقريعُ الدهر ، بركةُ الأنام ، وعلَّامةُ الزمان ، وترجمان القرآن، عَلَمُ الزُّهَّاد، وأوحدُ العُبَّاد، قامعُ المبتدعين، وشيخُ المجتهدين.

شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ .

قال الحافظ عمر البزّار في « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية » (١٧- ١٨):«لم يزل منذ إبَّان صِغَرِه مُستغرق الأوقات في الجدِّ والاجتهاد، وختم القرآن صغيرًا ، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية ، حتى برع في ذلك ، مع ملازمة مجالس الذِّكْر وسماع الأحاديث والآثار ، ولقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية، أما دواوين الإسلام الكبار ، كمُسند أحمد،وصحيح البخاري ، ومسلم ، وجامع الترمذي ، وسنن أبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارقطني ؛ فإنه - رحمه الله ، ورضي عنهم وعنه - سمع كل واحد منها عدَّة مرَّات . وأوَّل كتاب حفظه في الحديث « الجمع بين الصحيحين » للإمام الحميدي ، وقلَّ كتاب من فنون العلم إلَّا وقف عليه ، وكان الله قد خصَّه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان ، لم يكن يقف على شيء ، أو يستمع لشيء غالبًا إلا ويبقى على خاطره ؛ إمَّا بلفظه أو معناه. وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره ، فإنه لم يكن له مُستعارًا ، بل كان له شِعارًا ودِثارًا » .

قال الحافظ الذهبي في شيخ الإسلام ابن تيمية : « كان يحضر المدارس والمحافل في صِغَره ، ويُناظر ويُفحم الكبار ، ويأتي بما يتحيَّر منه أعيان البلد في العلم ، فأفتى وله تسع عشرة سنة ؛ بل أقلَّ ، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت ، وأكَبَّ على الاشتغال » .

قال بعض قدماء أصحاب الشيخ ابن تيمية : « لاتكاد نفْسُهُ تشبع

من العلم ، فلا تروى من المطالعة ، ولا تملُّ من الاشتغال ، ولا تكلُّ من البحث ، وقلَّ أنْ يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويُفتح له من ذلك الباب أبواب ، ويستدرك مُستدركاتٍ في ذلك العلم على حُذَّاق أهله . مقصوده الكتاب والسُّنَّة ، ولقد سمعتُه في مبادىء أمره يقول : إنه لَيقفُ خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تُشكل عليَّ ، فأستغفر الله تعالى ألف مرَّةٍ ، أو أكثر أو أقلَّ ، حتى ينشرح الصدر وينحلَّ إشكال ما أُشكل ، قال : وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجدْ أو الدرب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذِّكْر والاستغفار، إلى أن أنال مطلوبي»[(١)].

قال الحافظ ابن عبد الهادي : « لم يبرح شيخنا في ازدياد من العلوم ، وملازمة الاشتغال والإشغال ، وبثِّ العلم ونشْره، والاجتهاد في سبل الخير، حتى انتهتْ إليه الإمامة في العلم والعمل » .

• قال ابن عبد الهادي : « قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج - المزِّي -: ما رأيتُ مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيتُ أحدًا أعلم منه .

وقال ابن الزِّملكاني : كان إذا سُئل عن فنٍّ من العلم ظنَّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفنِّ ، وحكم أن أحدًا لا يعرف مثله . وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يُعرف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه،وكانت له اليد الطولى في حُسْن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين. ووقعتْ مسألة فرعية في قسمة جرى فيها اختلاف بين المُفتين في العصر ؛ فكتب فيها مُجلَّدة كبيرة ، وكذلك وقعت مسألة في حدٍّ من الحدود ؛ فكتب فيها مُجلَّدة كبيرة ، ولم يخرج في كل واحدة عن المسألة ، ولا طوَّل

(١) العقود الدُّرِّية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لابن عبد الهادي (صـ ٥، ٦) . طبع دار الكتب العلمية .

بتخليط الكلام والدخول في شيء والخروج من شيء ، وأتى في كل واحدة بما لم يكن يجري في الأوهام والخواطر ، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها » .

وقال فيه البرزالي : « قرأ الفقه وبرع فيه والعربية والأصول ، ومهر في علميْ التفسير والحديث ، وكان إمامًا لا يُلحق غُبارُهُ في كل شيء ، وكان إذا ذكر التفسير ؛ بُهت الناس من كثرة محفوظه وحُسْن إيراده وإعطائه كلَّ قول ما يستحقُّه من الترجيح والتضعيف والإبطال ، وخوضه في كل علم . كان الحاضرون يقضون منه العجب ، هذا مع انقطاعه إلى الزهد والعبادة والاشتغال بالله تعالى والتجرُّد من أسباب الدنيا ، ودعاء الخلق إلى الله تعالى . وكان يجلس في صبيحة كل جمعة على الناس يُفسِّر القرآن العظيم ، فانتفع بمجلسه ، وبركة دعائه ، وطهارة أنفاسه ، وصدْق نيَّته ، وصفاء ظاهره وباطنه ، وموافقة قوله لعمله ، وأناب إلى الله - خَلْقٌ كثيرٌ » .

قال عنه الذهبي : « برع في العلم والتفسير ، وأفتى ودرَّس وله نحو العشرين سنة . وصنَّف التصانيف ، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه، وله من المُصنَّفات الكبار التي سارت بها الركبان، ولعلَّ تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كرَّاس وأكثر . وفسَّر كتاب الله تعالى مُدَّة سنين من صدره أيام الجمع ، وكان يتوقَّد ذكاءً . وسماعاته من الحديث كثيرة ، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ . ومعرفته بالتفسير إليها المُنتهى . وحفْظُه للحديث ورجاله وصِحَّتِه وسِقَمِه ، فما يُلحق فيه . وأمَّا نقْله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين - فضلًا عن المذاهب الأربعة - فليس له فيه نظير . وأمَّا معرفتُه بالمِلَلِ والنِّحَلِ والأصول والكلام ؛ فلا أعلم له فيه نظيرًا . ويدري جملةً صالحةً من اللغة ، وعربيته قويَّةٌ جدًّا . ومعرفته بالتاريخ والسِّير فعجبٌ عجيبٌ » .

وقال الذهبي في موضع آخر - وقد ذكر الشيخ رحمه الله -: « كان آيةً في الذكاء وسرعة الإدراك ، رأسًا في معرفة الكتاب والسُّنَّة والاختلاف، بحرًا في النقليَّات، هو في زمانه فريدَ عصره علمًا وزهدًا، وشجاعة وسخاءً، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر ، وكثرة تصانيف . وقرأ وحصَّل ، وبرع في الحديث والفقه ، وتأهَّل للتدريس والفتوى ، وهو ابن سبع عشرة سنة . وتقدَّم في علم التفسير والأصول، وجميع علوم الإسلام؛ أصولها وفروعها، ودِقِّها وجُلِّها ، سوى علم القراءات . فإنْ ذُكِرَ التفسير فهو حامل لوائه . وإنْ عُدَّ الفقهاء فهو مجتهدهم المُطلق. وإنْ حضر الحُفَّاظ نطق وخرسوا، وسرد وأُبلسوا ، واستغنى وأفلسوا . وإن سُمِّي المُتكلِّمون فهو فردهم ، وإليه مرجعهم . وإن لاح ابن سينا يقْدم الفلاسفة فَلَّهم وتيَّسهم ، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم. وله يدٌ طولى في معرفة العربية والصرف واللغة، وهو أعظم من أن يصفه كَلِمي ، أو يُنبِّه على شأوه قلمي . فإن سيرته وعلومه ومعارفَه ، ومحَنَهُ وتنقُّلاته ؛ تحتمل أن تُرصَّع في مُجلَّدتين ، وهو بشرٌ من البشر ؛ له ذنوبٌ ، فالله تعالى يغفر له ويُسكنه أعلى جنته ؛ فإنه كان ربَّانيَّ الأُمَّة ، وفريدَ الزمان ، وحامل لواء الشريعة ، وصاحب حلِّ مُعضلات المسلمين ، وكان رأسًا في العلم .

وقال في مكان آخر - ذكر فيه ترجمة طويلة للشيخ قبل وفاة الشيخ بدهر طويل-: قلتُ: وله خبرة تامَّة بالرجال وجرحِهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالي والنازل ، وبالصحيح والسقيم ، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به ؛ فلا يبلغ أحدٌ في العصر رُتبته ، ولا يُقاربه ، وهو عجبٌ في استحضاره ، واستخراج الحُجج منه ، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند ، بحيث يصدُقُ عليه أن يُقال : « كلّ حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث » ، ولكن الإحاطة لله ، غير أنه يغترف من بحر ، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي . وأما التفسير فمُسلَّمٌ

إليه . وله في استحضار الآيات من القرآن - وقت إقامة الدليل بها على المسألة - قوةٌ عجيبة . وإذا رآه المقرىء تحيَّر فيه . ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطلاعه يُبيِّن خطأ كثير من أقوال المفسرين ، ويُوهِّي أقوالًا عديدة ، وينصر قولًا واحدًا موافقًا لما دلَّ عليه القرآن والحديث . ويكتب في اليوم والليلة من التفسير ، أو من الفقه ، أو من الأصلين ، أو من الردِّ على الفلاسفة والأوائل نحوًا من أربعة كراريس أو أزيد . وما أُبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلُغُ خمسمائة مُجلَّدة . وله في غير المسألة مُصنَّف مُفرد في مُجلد .

وللشيخ رحمه الله من المصنَّفات والفتاوى والقواعد والأجوبة والرسائل وغير ذلك من الفوائد ما لا ينضبط ، وما أعلم أحدًا من مُتقدمي الأُمَّة ولا متأخِّريها جمع مثل ما جمع ، ولا صنَّف نحو ما صنَّف ، ولا قريبًا من ذلك ، مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه . وكثير منها صنَّفه في الحبس ، وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب » .

. وقال الذهبي في موضع آخر عنه : « هو أكبر من أنْ يُنبِّه مثلي على نعوته ، فلو حلفتُ بين الركن والمقام لحلفتُ أني ما رأيتُ بعيني مثله ، ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم » .

قال تلميذه الحافظ عمر البزار : « ومن أعجب الأشياء في ذلك ؛ أنه في محنته الأولى بمصر ، لمّا أُخِذ وسُجِن ، وحيل بينه وبين كُتُبه ؛ صنَّف عدَّة كُتُب صغارًا وكبارًا، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكْره من الأحاديث والآثار ، وأقوال العلماء ، وأسماء المُحدِّثين والمؤلفين ومؤلَّفاتهم ، وعزا كلَّ شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم ، وذكر أسماء الكتب التي ذكر فيها ، وأيَّ موضع هو منها ؛ كلُّ ذلك بديهة من حفظه ؛ لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يُطالعه . ونُقِّبت[1] واختُبرت واعتُبرت ؛ فلم يوجد

---

(١) يقصد بذلك التفتيش على أصولها .

فيها بحمد الله خَلَلٌ ولا تغيُّر ، ومن جملتها كتاب « الصارم المسلول على شاتم الرسول »[١] . وهذا من الفضل الذي خصَّه الله تعالى به .

وأمَّا مؤلَّفاته ومُصنَّفاته ، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها ، أو يحضرني جملة أسمائها ، بل هذا لا يقدر عليه غالبًا أحدٌ ؛ لأنها كثيرة جدًّا ، كبارًا وصغارًا ، وهي منشورة في البلدان . فقلَّ بلد نزلته إلَّا ورأيت فيه من تصانيفه .

وأما فتاويه ونصوصه وأجوبته على المسائل ، فهي أكثر من أن أقدر على إحصائها ، لكن دُوِّن بمصر منها على أبواب الفقه سبعة عشر مُجلّدًا ، وهذا ظاهر مشهور . وجمع أصحابه أكثر من أربعين ألف مسألة . وقلَّ أن وقعتْ واقعة وسُئل عنها ، إلَّا وأجاب فيها بديهة بما بهَر واشتهر ، وصار ذلك الجواب كالمُصنَّف الذي يحتاج فيه غيره إلى زمن طويل ومطالعة كتب ، وقد لا يقدر مع ذلك على إبراز مثله .

أخبرني الشيخ الصالح تاج الدين محمد المعروف بابن الدوري ، أنه حضر مجلس الشيخ رضي الله عنه ، وقد سأله يهودي[٢] عن مسألة في القَدَر ، قد نظمها شِعْرًا في ثمانية أبيات ، فلمّا وقف عليها ؛ فكَّر لحظة يسيرة، وأنشأ يكتب جوابها، وجعل يكتب، ونحن نظنُّ أنه يكتب نثرًا، فلما فرغ ؛ تأمَّله مَنْ حضر من أصحابه ، وإذا هو نظم في بحرِ أبياتَ السؤال وقافيتها ، تقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتًا ، وقد أبرز فيها من العلوم ، ما لو شُرِح بشرح لجاء شرحُه في مُجلَّدَيْن كبيرين . هذا من جملة بواهره .

---

(١) المعروف أن هذا الكتاب أُلِّفه سنة (٦٩٣هـ) بدمشق كما قال ابن كثير في « البداية والنهاية » ١٣/٣٣٥ .

(٢) قائل هذه الأبيات هو محمد بن أبي بكر بن السكاكيني عملها على لسان ذِمِّيٍّ ليمتحن بها علماء زمانه .

وكم من جواب فتوى لم يُسبَقْ إلى مثله .

دروسه :

وأمَّا ذكْرُ دروسه ، فقد كنتُ في حال إقامتي بدمشق لا أُفوِّتها ، وكان لا يُهيِّيء شيئًا من العلم ليُلقيه ويُورده ، بل يجلس بعد أن يُصلِّي ركعتين ، فيحمد الله ويُثني عليه ، ويُصلِّي على رسوله ﷺ ، على صفةٍ مُستحسنةٍ مُستعذبةٍ لم أسمعها من غيره ، ثم يشرع ، فيفتح الله عليه من إيراد علوم، وغوامض، ولطائف، ودقائق، وفنون، ونقول، واستدلالات بآيات وأحاديث، وأقوال العلماء ، ونصْر بعضها ببعض ، وتبيين صحَّته ، أو تزييف بعضها، وإيضاح حُجَّته، واستشهاد بأشعار العرب، وربما ذكر اسم ناظمها، وهو مع ذلك يجري كما يجري السيل ، ويفيض كما يفيض البحر ، ويصير منذ أن يتكلم إلى أن يفرغ ، كالغائب عن الحاضرين ، مُغمضًا عينيه ، وذلك كلُّه مع عدم فكْر فيه أو رويَّة ، من غير تعجرفٍ ، ولا توقُّفٍ ، ولا لحنٍ ، بل فيض إلهي، حتى يبهر كل سامع وناظر، فلا يزال كذلك إلى أن يصمت، وكنتُ أراه حينئذٍ كأنه قد صار بحضرة مَنْ يشغلُه عن غيره ، ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يُرعد القلوبَ ويُحيِّر الأبصار والعقول .

وكان لا يذكر رسول الله ﷺ قطُّ إلا ويُصلِّي ويُسلِّم عليه ، ولا والله ما رأيتُ أحدًا أشدَّ تعظيمًا لرسول الله ﷺ ، ولا أحرصَ على اتباعه ونصْر ما جاء به منه .

وكان إذا فرغ من درسه يفتح عينيه ، ويُقبل على الناس بوجهٍ طلْق بشيشٍ وخُلُقٍ دَمِثٍ ، كأنه قد لقيهم حينئذٍ ، وربما اعتذر إلى بعضهم من التقصير في المقال مع ذلك الحال ، ولقد كان درسُه الذي يُورده حيئذٍ قدْر عدَّة كراريس ، وهذا الذي ذكرتُه من أحوال درْسه أمْرٌ مشهورٌ ، يُوافقني عليه كلُّ حاضرٍ بها ، وهم بحمد الله خلْقٌ كثير، لم يُحصر عددهم؛ علماء، ورؤساء، وفضلاء، من القرَّاء والمحدِّثين والفقهاء، والأدباء، وغيرهم من عوامِّ

المسلمين »[١].

تأليفه في العقيدة والأصول :

قال الحافظ البزار : « وأمَّا ما خصَّه الله تعالى به في معارضة أهل البدع في بدعتهم ، وأهل الأهواء في أهوائهم ، وما ألَّفه في ذلك من دحْض أقوالهم ، وتزييف أمثالهم وأشكالهم ، وإظهار عوارهم وانتحالهم ، وتبديد شملهم ، وقطْع أوصالهم، وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية للشريعة الحنيفية المُحمديَّة ، بما منحه الله تعالى به من البصائر الرحمانية ، والدلائل النقلية ، والتوضيحات العقلية ، حتى ينكشف قناع الحقّ ، وبان - بما جمعه في ذلك وألَّفه - الكذب من الصدق ، حتى لو أنَّ أصحابها أحياء ، ووفِّقوا لغير الشقاء ؛ لأذعنوا له بالتصديق ، ودخلوا في الدين العتيق .

ولقد وجب على كلٍّ مَنْ وقف عليها ، وفهم ما لديها ؛ أن يحمد الله تعالى على حُسْن توفيقه هذا الإمام لنصر الحق بالبراهين الواضحة العظام .

ولقد أكثر رضي الله عنه التصنيف في الأصول فضلًا عن غيره من بقية العلوم ، فسألتُه عن سبب ذلك ، والتمستُ منه تأليف نصٍّ في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ؛ ليكون عمدةً في الإفتاء . فقال لي ما معناه : الفروع أمْرها قريب ، ومَنْ قلَّد - المسلمُ - فيها أحدَ العلماء المُقلَّدين ؛ جاز له العمل بقوله ، ما لم يتيقَّن خطأه ، وأما الأصول : فإني رأيتُ أهل البدع والضلالات والأهواء ، كالمتفلسفة ، والباطنية ، والملاحدة ، والقائلين بوحدة الوجود ، والدهرية ، والقدرية ، والنُّصيرية ، والجهمية ، والحلولية ، والمُعطّلة ، والمُجسِّمة ، والمُشبِّهة ، والراوندية ، والكُلَّابية ، والسُّليمية ، وغيرهم من أهل البدع - قد تجاذبوا فيها بأزمَّة الضلال ، وبان لي أن كثيرًا منهم إنما قصد إبطال الشريعة المُقدَّسة المحمدية، الظاهرة العليَّة على كل دين،

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (٢٠ - ٢٩) .

وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم ، ولهذا قَلَّ أنْ سمعتُ أو رأيتُ مُعرضًا عن الكتاب والسُّنة مُقبِلًا على مقالاتهم ؛ إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده . فلما رأيت الأمر على ذلك ؛ بان لي أنَّه يجب على كلّ مَنْ يقدر على دفْع شُبَهِهِم وأباطيلهم ، وقطْع حُجَّتهم وأضاليلهم؛ أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويُزيِّف دلائلهم؛ ذبًّا عن المِلَّة الحنيفية ، والسُّنَّة الصحيحة الجليَّة .

ولا والله ما رأيتُ فيهم أحدًا ممن صنَّف في هذا الشأن ، وادَّعى عُلُوَّ المقام ، إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام. وسببُ ذلك : إعراضه عن الحق الواضح المبين ، وعمَّا جاءت به الرسل الكرام عن ربِّ العالمين ، واتِّباعه طُرُقَ الفلسفة في الاصطلاحات التي سمَّوْها بزعمهم حِكَميَّات وعقليات ، وإنما هي جهالات وضلالات ، وكونه التزمها مُعرضًا عن غيرها أصلًا ورأسًا ، فغلبت عليه حتى غطَّت على عقله السليم ، فتخبَّط حتى خبط فيها عشوًا ، ولم يُفرِّقْ بين الحق والباطل ، وإلا فالله أعظم لطفًا بعباده أن لا يجعل لهم عقلًا يقبل الحق ويُثبته ، ويُبطل الباطل وينفيه ، لكن عدم التوفيق ، وغلبة الهوى ، أوقع مَنْ أوقع في الضلال ، وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزانًا يزِنُ به العبد الواردات ، فيُفرِّق بين ما هو من قبيل الحق ، وما هو من قبيل الباطل ، ولم يبعث الله الرسل إلَّا إلى ذوي العقل ، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده ، فكيف يقال : إنه مُخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى ، هذا باطل قطعًا ، يشهد له كل عقل سليم ، لكن ﴿**ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور**﴾ [النور : ٤٠] .

قال الشيخ الإمام قدَّس الله روحه : فهذا ونحوه هو الذي أوجب أنِّي صرفتُ جُلَّ همِّي إلى الأصـول ، وألزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبتُ عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية .

قلتُ - البزار -: وقد أبان - بحمد الله تعالى فيما أَلَّف فيها - لكلّ بصير الحقَّ من الباطل، وأعانه بتوفيقه حتى ردَّ عليهم بدَعَهم وآراءهم، وخِدَعَهم وأهواءهم ، مع الدلائل النقلية بالطريقة العقلية ، حتى يُجيب عن كل شبهة من شبههِم بعدة أجوبة جليَّة واضحة يعقلها كل ذي عقل صحيح ، ويشهد لصحتها كُلُّ عاقل رجيح ، فالحمد لله الذي منَّ علينا برؤيته وصُحبته ، فلقد جعله الله حُجَّةً على أهل هذا العصر ، المُعرِض غالب أهله عن قليله وكثيره ؛ لاشتغالهم بفاني الدنيا عما يحصل به باقي الآخرة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله »[1] .

قال العلَّامة شيخ الشافعية ابن الزملكاني في شيخ الإسلام ابن تيمية :

ماذا يقولُ الواصفون له   وصفاتُهُ جلَّتْ عن الحصرِ
هو حُجَّةٌ لله قاهــرةٌ   هو بيننا أُعْجُوبةُ الدهرِ
هو آيةٌ للخلقِ ظاهرةٌ   أنوارُها أربتْ على الفجرِ

ولقد كان نصيب شيخ الإسلام في تفسير القرآن القدح المُعلَّى . ولقد جمع في تفسير القرآن العظيم ما يشهد له بالإمامة المطلقة في هذا العلم . وما جمعه في تفسير القرآن العظيم ، وما جمعه من أقوال مُفسِّري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم ، وذلك في أكثر من ثلاثين مُجلَّدًا . وقد بيَّض أصحابه بعض ذلك ، وكثير منه لم يكتبوه بعد .

• وكان رحمه الله يقول: ربما طالعتُ على الآية الواحدة نحو مائةَ تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يامُعلِّمَ آدم وإبراهيم علِّمْني، وكنتُ أذهب إلى المساجد المهجورة ، ونحوها ، وأُمرِّغ وجهي في التراب ، وأسأل الله تعالى وأقول : يامُعلِّم إبراهيم فهِّمْني ، ويذكر قصة معاذ بن جبل وقوله لمالك بن

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (٣٠ - ٣٥) .

يخامر لما بكى عند موته وقال : إني لا أبكي على دنيا كنتُ أصيبها منك ، ولكن أبكي على العلم والإيمان الذي كنتُ أتعلَّمُه منك فقال : إن العلم والإيمان مكانهما ، مَن ابتغاهما وجدهما ، فاطلب العلم عند أربعة ، فإنْ أعياك العلم عند هؤلاء ، فليس هو في الأرض ، فاطلبْه من مُعلِّم إبراهيم .

قال الشيخ أبو عبد الله ابن رشيق - وكان من أخصِّ أصحاب شيخنا وأكثرهم كتابةً لكلامه وحرصًا على جمعه -: « كتب الشيخ رحمه الله نُقولَ السلف مُجرَّدة عن الاستدلال على جميع القرآن ، وكتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال ، ورأيتُ له سُورًا وآياتٍ يُفسِّرُها ويقول في بعضها : كتبتُه للتذكُّر ونحو ذلك . ثم لمّا حُبس في آخر عمره ؛ كتبتُ له أن يكتب على جميع القرآن تفسيرًا مُرتَّبًا على السُّوَر ، فكتب يقول : إنَّ القرآن فيه ما هو بيِّنٌ بنفسه ، وفيه ما قد بيَّنه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أُشكل تفسيرها على جماعة من العلماء، فرُبَّما يُطالع الإنسان عليها عدَّة كُتُبٍ ولا يتبيَّنُ له تفسيرها ، وربما كتب المُصنِّف الواحد في آية تفسيرًا ، ويُفسِّر غيرها بنظيره ، فقصدتُ تفسير تلك الآيات بالدليل ؛ لأنه أهمُّ من غيره ، وإذا تبيَّن معنى آية ؛ تبيَّن معاني نظائرها . وقال : قد فتح الله عليَّ في هذه المرَّة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء ، كان كثير من العلماء يتمنَّوْنها ، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن ، أو نحو هذا »[1] .

يقول الذهبي في رثاء شيخ الإسلام ابن تيمية :

---

(١) العقود الدريَّة لابن عبد الهادي (٢٦ - ٢٨) .

يا موتُ خُذْ مَنْ أردتَ أو فدعِ ... محوتَ رسمَ العلومِ والورعِ
أخذتَ شيخَ الإسلام وانفصمتْ ... عُرى التُّقى واشتفى أولو البدعِ
غيَّبتَ بحرًا مُفسرًا جَبَلًا ... حَبْرًا تقيًا مُجانبَ الشِّبعِ
فإنْ يُحَدِّثْ فمسلمٌ ثقةٌ ... وإنْ يُناظرْ فصاحبُ اللُّمَعِ
وإنْ يَخُضْ نحو سيبويه يَفُهْ ... بكلِّ معنى في الفنّ مُخترَعِ
وصار عاليَ الإسنادِ حافظةً ... كشعبة أو سعيدٍ الضَّبَعي
الفقهُ فيه فكان مُجْتهدًا ... وذا جهادٍ عارٍ من الجَزَعِ
وجودُهُ الحاتميُّ مُشتهرٌ ... وزهدي القادريُّ في الطَّبعِ
أسكنَهُ اللهُ في الجنان وَلا ... زال علينا في أجمل الخِلَعِ
مع مالكٍ والإمام أحمد والنُّعْمانَ والشافعيِّ والنَّخَعي
مضى ابنُ تيميةٍ وموعدُهُ ... مع خصمِهِ يومَ نفخةِ الفزَعِ

وللمتيم عبد الله بن خضر الرومي يرثي ابن تيمية:

واليومَ أصبحتُ أبكي بعد بُعدِهم ... لما تَناءَوا نأتْ عني مسرَّاتي
وغاب مُذْ غاب عن عيني جمالُهُمو ... راحي وروحي وريحاني وراحاتي
ولا صفا بعدهم عيشي بمنهلةٍ ... ومُذْ تولَّوْا تولَّى طيبُ لذاتي
ياسادةً ملكوا قلبي بلُطفِهمو ... ما ضرَّهم لو أعادوا لي أُويقاتي
هُمْ مُرادي وهُمْ سُؤلي وهُمْ أملي ... وهُمْ نهاية مقصودي وغاياتي
وهُمْ سروري وهم سمعي وهم بصري ... وهم نعيمي وروضاتي وجنَّاتي
وهم حياتي وهم أُنْسي وهم شَرَفي ... وذِكْرُهُمْ لم يزلْ في القلبِ جلواتي
لهفي على زمنٍ ولَّى وما ظَفِرتْ ... روحي بما ترتجي يومَ الأثيلاتِ
لما سَرَوْا وفؤادي في هوادجِهم ... ناديتُ من حرقي ياعِظَمَ لوعاتي
ما كنتُ أعلمُ قُرْبي في محبَّتِهم ... حتى رمتني إلى الأبعاد راياتي
فاندُبْ على ما مضى من عيشنا وصفا ... وابك على ما قد جرى ياقلبيَ العاتي
واذكُر مصارعَ قومٍ كيف قد شربوا ... بعدَ الزُّلالِ بكاساتِ المنيَّاتِ

فأصبحوا في الثرى تبلى وجوهُهُم ... تحتَ الترابِ فيا عِظمَ المُصيباتِ
أقولُ ما قاله العبدُ المُنيبُ[١] وقد ... أودى به السجنُ في بِرٍّ وطاعاتِ
أنا الذليلُ أنا المسكينُ ذو شَجَنٍ ... أنا الفقيرُ إلى ربِّ السمواتِ
أنا الكسيرُ أنا المُحتاجُ يا أملي ... جُدْ لي بفضلِك واعفُ عن خطيئاتي
أنا الغريبُ فلا أهلٌ ولا وطنٌ ... أنا الوحيدُ فكنْ لي في مُلمَّاتي
أنا العُبيْد الذي ما زلتُ مُفتقِرًا ... إليك ياسيِّدي في كل حالاتي
ما لي سواك وما لي عنك مُنصرَفٌ ... ذكراك في القلب قرآني وآياتي
أنت القديرُ على جبري بوصلِكَ لي ... أنت العليمُ بأسراري الخفيَّاتِ
أدعوك ياسيِّدي يا مُشتكَى حُزني ... يا جابري يا مُغيثي في مُهمَّاتي
فانظرْ إلى عَبْرتي وارحمْ صبا جسدي ... يا راحم الخير يا باري البريَّاتِ
ما زال مُفتقرًا في باب سيِّدِهِ ... مازال مُبتليًا بالامتحاناتِ
ما زال يتبعُ آثارَ الرسول على النَّـ ... ـهجِ القويمِ بأعلامِ الدلالاتِ
يهدي لِسُنَّته يُفتِي بِشِرْعَتِهِ ... يرعَى لحُرْمتِهِ في كلِّ ساعاتِ
قطبُ الزمانِ وتاجُ الناس كُلِّهِمُ ... روحُ المعاني حوى كلَّ العباداتِ
حَبْرُ الوجودِ فريدٌ في معارفِهِ ... أفنى بسيفِ الهدى أهلَ الضلالاتِ
حوى من المصطفى علمًا ومعرفةً ... وجاءه منه إمدادُ النوالاتِ
ما جاءه سائلٌ إلا ويمنحُه ... إمَّا بجودٍ وإمَّا بالمداراةِ
ماذا أقولُ وقولي فيه مُنحسرٌ ... في وصْفِ أخلاقه كلَّتْ عباراتي
في علمِهِ ما علِمْنا مَنْ يُناسبُهُ ... إلا أئمتَنا أهلَ العناياتِ
تلوحُ شمسُ المعالي في شمائلِهِ ... وفي صفا وجهِه نورُ الهداياتِ
بحرُ المعارفِ تاهوا في بدايتِهِ ... أهلُ المعاني وأربابُ النهاياتِ
قطبُ الحقائقِ حاروا في فضائلِهِ ... أهلُ التصوُّفِ أصحابُ الرياضاتِ

---

(١) يعني شيخ الإسلام ابن تيمية في قصيدته « أنا الفقير » .

أُعجوبةُ الدهرِ فردٌ في فضائلِهِ عَلَّامةُ الوقتِ في الماضي وفي الآتِي
والهْفَ قلبي على مَنْ كان يجمعُنا على فنونِ المعاني والإشاراتِ
فارقتُ مَن كان يرويني برؤيتِهِ إذا تبدَّى بدَا سِرُّ العبـادات
يروي الأحاديث عن سكانِ كاظمةٍ فيطربُ الكونُ من طيبِ الرواياتِ
ويُطنبُ الذكْرَ في إحسانِ حُسْنِهِمُ فيرقصُ القلبُ شوقًا نحو ساداتِ[1]

٢٤٦ - شيخ الحفَّاظ جمال الدين ، أبو الحجاج ، يوسف بن عبد الرحمن ابن يوسف المِزِّيُّ :

« القدوة ، حافظ الزمان ، حامل راية السُّنة والجماعة ، والقائم بأعباء هذه الصناعة، والمُتدرّع جلباب الطاعة، إمام الحفَّاظ، كلمةٌ لا يجحدونها، وشهادةٌ على أنفسهم يُؤدُّونها ، ورُتبةٌ لو نُشر أكابر الأعداء لكانوا يودُّونها ، واحدُ عصره بالإجماع ، وشيخُ زمانه الذي تُصغي لما يقول الأسماع »[2] .

لم توجِّهْه عائلته إلى طلب الحديث منذ فترة مُبكِّرة كما فعلتْ عائلة رفيقه وتلميذه الذهبي ، فلم يكن له إلا أن يطلبه هو بنفسه حينما بلغ الحادية والعشرين من عمره .

قال ابن حجر في الدُّرر (٥ / ٢٣٣) : « ولو كان له مَنْ يُسمِّعُه صغيرًا ؛ لسَمِع من ابن عبد الدائم والكرمانيّ وغيرهما ، ولكنه طلب بنفسه في أول سنةِ خمسٍ وسبعين » .

وكان أول سماعه الحديث على الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي الخير سلامة الحدَّاد ، فسمع أول ما سمع كتاب « الحلية » لأبي نُعيم ثم أكثر عنه .

ومنذ ذلك الحين اتجهتْ هِمَّةُ المزيِّ إلى سماع الحديث ، فسمع من الجمِّ الغفير ، سمع عليهم الكتب الكبار الأُمَّهات مثل : الكتب الستة ، ومُسند الإمام أحمد، والمعجم الكبير للطبراني، وتاريخ بغداد للخطيب، وكتاب النسب

---

(١) العقود الدريَّة (٤٧٣ - ٤٧٥) .
(٢) طبقات الشافعية ١٠ / ٣٩٥ - ٣٩٦ .

للزبير بن بكار، والسيرة لابن هشام، وموطأ الإمام مالك، والسُّنَن الكبير، ودلائل النبوة للبيهقي ، بحيث قال تلميذه الصلاح الصفدي : وأشياء يطول ذكْرُها، ومن الأجزاء ألوفًا. وذكر ابن حجر في الدُّرر (٥/٢٣٣) أنَّ مشيخته نحو الألف شيخ .

وتجوَّل المزيُّ في المدن الشامية ، فسمع بالقدس الشريف ، وحمص ، وحماة ، وبعلبَك ، وحجَّ وسمع بالحرمين الشريفين ، ورحل إلى البلاد المصرية ، فسمع بالقاهرة والإسكندرية وبلبيس .

عُني المزيُّ بدراسة العربية ، فأتقنها لغةً وتصريفًا ، ففاق أقرانه في ذلك ، بحيث قال الصلاح الصفدي فيه : ولم أر في أشياخي بعد شيخنا أثير الدين في العربية مثله ، خصوصًا في التصريف واللغة ، وقد عرف أبو حيَّان نفسه قدْرَ المزيِّ ، فأغدق الثناء عليه وعلى علمه الجمِّ .

قال الذهبي عنه : تَرافَق هو وابن تيمية كثيرًا في سماع الحديث ، وفي النظر في العلم ، وكان يُقرِّر طريقة السلف في السُّنَّة ، وما وراء ذلك بحمد الله إلا حُسْنُ إسلام وحسبةٌ لله .

وكان ابن تيمية كثير الاعتماد على المزيِّ وعلمه ومعرفته ، فحينما خرج من سجنه بمصر سنة (٧٠٩هـ) بعد عودة السلطان محمد بن قلاوون، وجلس في القاهرة ينشر علْمه ؛ احتاج إلى بعض كُتُبِه التي بالشام ، فكتب إلى أهله كتابًا يطلب جملةً من كتب العلم التي له ، وطلب منهم أن يستعينوا على ذلك بجمال الدين المزي ؛ فإنه يدري كيف يستخرج له ما يُريده من الكتب التي أشار إليها . وحينما ولي المزيُّ أكبر دار حديث بدمشق - وهي دار الحديث الأشرفية - سنة (٧١٨ هـ) ؛ فرح ابن تيمية فرحًا عظيمًا بذلك ، وقال : « لم يلِ هذه المدرسة من حين بنائها إلى الآن أحقُّ بشرط الواقف منه » . وقد وليها عظماء العلماء المُحدِّثين ، منهم تقي الدين ابن الصلاح، وابن الحرستاني، وأبو شامة، ومحيي الدين النووي، وغيرهم ،

فقد اعتمد ابن تيمية قول الواقف : « إنِ اجتمع مَنْ فيه الرواية ومَنْ فيه الدراية ؛ قُدِّم مَنْ فيه الرواية » ؛ فِفضَّله ابن تيمية بذلك على جميع المتقدِّمين في الرواية .

ولقد احتلَّ المزيُّ مكانةً عظيمةً بيْنَ علماء القرن الثامن الهجري في الحديث وعلومه ، وقامت شُهرتُه على أعظم كتابيْن أَلَّفهما في فنِّهما ، هما : « تحفة الأشراف » ، و « تهذيب الكمال » .

ويُعدُّ كتاب « تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف » من أعظم الكتب المؤلَّفة في أطراف الكتب الستة وبعض لواحقها . وهو عملٌ هائل تعجز عنه العُصبة .

قال ابن حجر في النُّكت الظِراف بهامش تحفة الأشراف (٤١١): «قد حصل الانتفاع بهذا الكتاب شرقًا وغربًا ، وتنافس العلماء في تحصيله بُعْدًا وقُرْبًا . ونظرا لهذه المنزلة التي احتلَّها في هذا الفنِّ ؛ فقد تناوله العلماء بالاستدراك والتلخيص والتعليق؛ لأنه صار الكتاب المُعتمد في هذا الفنِّ».

أمَّا كتاب المزيِّ الثاني ، فهو « تهذيب الكمال » ، وهو كتابنا هذا ، فإنه يُعَدُّ أعظمَ كتابٍ أُلِّف في فنِّه غير مُدافَع ، أربى فيه على مَنْ تَقدَّمه وكسف مؤلَّفاتهم ، ولم يستطع أحدٌ بعده حتى اليوم أن يبلغ شأوه ، بله أن يأتي بأحسن منه .

وكتاب «تهذيب الكمال» ليس اختصارًا لكتاب «الكمال» للحافظ عبد الغني المقدسي ، فقد نقَّى كتاب « الكمال » وأصلح ما فيه من خَلَل ، وزاد عليه ، فصار التهذيب ثلاثة أضعاف « الكمال » ، وأصبح يتكون من مائتين وخمسين جزءًا حديثيًّا ؛ يعني في عشرة آلاف صفحة ، في كل صفحة (٢١) سطرًا ، فضلًا عما كتبه من تحقيقات في حواشي نسخته .

قال الصلاح الصفدي : « وصنَّف كتاب « تهذيب الكمال » في أربعة عشر مُجلَّدًا ؛ كسف به الكُتُبَ المتقدِّمة في هذا الشأن ، وسارت

به الركبان ، واشتهر في حياته » .

وقال تاج الدين السبكي : « وصنَّف « تهذيب الكمال » المُجْمع على أنه لم يُصنَّف مثله » .

وقال ابن تغري بردي : « هو في غاية الحُسن في معناه » .

وقال حاجي خليفة : « هو كتاب كبير لم يُؤلَّف مثله ، ولا يُظنُّ أن يُستطاع » .

وقال العلَّامة علاء الدين مُغلطاي الحنفي: «إنه كتاب عظيمُ الفوائد، جمُّ الفرائد ، لم يُصنَّف في نوعه مثله ؛ لأنَّ مُؤلِّفَه أبدع فيما وضع » .

وقال أيضًا : وقد صار كتاب التهذيب حكمًا بين طائفتي المُحدِّثين والفقهاء ، إذا اختلفوا قالوا : بيننا وبينكم كتاب المزيِّ » .

وقال الذهبي : « أتى فيه بكل نفيس ، وبالغ ولم يأل في استيفاء شيوخ الشخص ورواته ، وغرائبه وموافقاته ، وعدالته وجرحاته ، ومناقبه وهناته ، وعمره ووفاته ، فبقي حسرةً على مَنْ لم يُحصِّله من الفُضَلاء ، ولهفةً على مَنْ أعوزه الإمكان » .

أصبح المزيُّ حافظَ عصره غير مُدافَع ، وفضَّله الإمام الذهبي في الحفظ على جميع مَنْ لقي من الحفَّاظ طيلة حياته ، وأتاحت له معرفتُه الفذَّة في علم الرجال منزلةً مُتميِّزة بين أساتيذ العصر ، فأَمَّهُ طلبةُ العلم من كل حَدَبٍ وصوبٍ ، وكانت دار الحديث الأشرفية من أعظم الأماكن التي بثَّ منها المزيُّ عِلْمَهُ ، وحدَّث زيادةً على خمسين سنة .

قال الذهبي فيما نقله عنه ابن حجر في الدرر (٥/٢٣٤) : « وغالب المُحدِّثين من دمشق وغيرها قد تلمذوا له ، واستفادوا منه ، وسألوه عن المُعضلات ، فاعترفوا بفضيلته ، وعُلُوِّ ذكْره .

وقد حدَّث بكتبه مرَّات عديدة ، وحدَّث بصحيح البخاري مرات ، وبالمسند للإمام أحمد ، وبالمعجم الكبير للإمام الطبراني ، وبدلائل النبوة

للبيهقي ، وبكتب كثيرة جدًّا ، كما حدَّث بسائر أجزائه العالية .

ويكفيه فخرًا وفضلًا أنَّ عظماء العلماء من أساتيذه ورفاقه وتلامذته النُّجب قد أخذوا عنه .

فسمع منه الأعلام العلماء : شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن سيِّد الناس ، والذهبي أخذ عنه صحيح البخاري غير مرَّة ، والإمام تقي الدين السبكي، وبه تخرَّج أعاظم الرواة والمُحدِّثين: البرزالي، وابن عبد الهادي، وصلاح الدين العلائي، وعلاء الدين مغلطاي، وابن رافع السلامي، وصهره الشيخ عماد الدين ابن كثير، وخلْقٌ يطول ذكْرُهم .

قال عنه ابن سيِّد الناس : « وجدتُ بدمشق من أهل العلم الإمامَ المُقدَّم ، والحافظ الذي فاق مَنْ تأخَّر من أقرانه ومَنْ تقدَّم ، أبا الحجَّاج المزيَّ ، بحر هذا العلم الزاخر وحَبْره ، القائل مَنْ رآه : كمْ ترك الأوائل للأواخر، أحفظُ الناسْ للتراجم، وأعلمُ الناس بالرواة من أعارب وأعاجم».

وقال عنه الذهبي : « طلب هذا الشأن فما ونى ولا فتر ، ولا لَهَا ولا قصَّر ، وعُني بهذا الشأن أتمَّ عناية ، وقرأ العربية وأفاد ، وأكثر من اللغة والتصريف ، وصنَّف وأفاد ... » .

قال الذهبي عنه في « تذكرة الحفاظ » : شيخنا الإمام العالم الحبر الحافظ الأوحد... أما معرفة الرجال، فهو حامل لوائها، والقائم بأعبائها، لم ترَ العيونُ مثله ... وأوضحَ مُشكلاتٍ ومُعضلاتٍ ما سُبق إليها في علم الحديث ورجاله ... وكان يُطالع وينقل الطباق إذا حدَّث ، وهو في ذلك لا يكاد يخفى عليه شيءٌ مما يقرأ ، بل يردُّ في المتن والإسناد ردًّا مُفيدًا يتعجَّبُ منه فُضَلاء الجماعة » .

قال عنه الذهبي فيما نقل عنه الصفدي في « أعيان العصر » : « ولو كان لي رأيٌ للازمتُهُ أضعاف ما جالستُه ، فإنني أخذتُ عنه هذا الشيء بحسبي لا بحسبه ، وكان لا يكاد يعرف قدْرَهُ إلا مَنْ أكثر مُجالستَهُ » .

وقال عنه أيضًا فيما أورده عنه التاج السبكي والصفدي : « ما رأيتُ أحدًا في هذا الشأن أحفظ من الإمام أبي الحجَّاج المزِّي ، وسمعتُه يقول في شيخنا أبي محمد الدمياطي : إنه ما رأى أحفظ منه ، وكان الدمياطي يقول : إنه ما رأى شيخًا أحفظ من زكيِّ الدين عبد العظيم » .

وقال عنه الصلاح الصفدي : « العلَّامة الحافظ الفريد الرحلة ، إمامُ المُحدِّثين، خاتمةُ الحفاظ، ناقدُ الأسانيد والألفاظ، لو عاصره ابن ماكولا؛ كان له مشروبًا ومأكولًا ، وجعل هذا الأمر إليه موكولًا » .

وقال الصلاح الصفدي أيضًا في حفظه : « وسمعتُ صحيحَ مسلم على البَنْدَنِيجيِّ وهو حاضر بقراءة ابن طُغريل ، وعدَّة نسخ صحيحة حاضرة يُقابل بها ، فيردُّ الشيخ جمال الدين رحمه الله على ابن طُغريل اللفظَ ، فيقول ابن طُغريل : ما في النسخة إلَّا ما قرأه ، فيقول مَنْ بيده بعض تلك النُسَخ الصحيحة : هو عندي كما قال الشيخ ... أو في الحاشية تصحيح ذلك ، ولما تكرَّر ذلك ؛ قلتُ أنا له : ما النسخة الصحيحة إلا أنت » .

وقال عنه التاج عبد الوهاب السبكي مع مُخالفة المزيِّ له في العقائد: « شيخنا وأستاذنا وقدوتنا ... كان شيخنا المزيُّ أُعجوبةَ زمانِهِ ، يقرأ عليه القارئ نهارًا كاملًا، والطُرُقُ تضطربُ، والأسانيدُ تختلفُ، وضبطُ الأسماء يُشكِلِ ، وهو لا يسهو ولا يغفُل ، يُبيِّن وجْه الاختلاف ، ويُوضِّحُ ضبْط المُشكِل ، ويُعيِّنُ المُبهَمَ ، يَقِظٌ لا يغفل عند الاحتياج إليه ، ولقد شاهَدَتْهُ الطلبة ينعَسُ فإذا أخطأ القارئ؛ ردَّ عليه كأنَّ شخصًا أيقظه ، وقال له : قال هذا القارئ كيْتَ وكيْتَ ، هل هو صحيح ؟ وهذا من عجائب الأمور . وكان قد انتهت إليه رئاسة المُحدِّثين في الدنيا »[(١)] .

ونتيجةً لما بلغه المزيُّ من منزلة مرموقةٍ بين علماء عصره ؛ ولي دار

(١) طبقات الشافعية ١٠ / ٣٩٧ .

الأشرفية سنة (٧١٨ هـ) ، وليها على الرغم من مُعارضة الكثيرين بسبب صُحبته لابن تيمية وتأييده لآرائه ، ولكن علمه وفضله لا يستطيع أن يُنكره الأشاعرة ولا غيرهم ، جعلهم يضطرون إلى توليته هذه الدار التي كانت تُعدُّ من أكبر دور الحديث بدمشق ، وأبان الأشاعرة عن سخطهم ، فلم يحضروا حفل الافتتاح .

قال ابن كثير : « مع أنه لم يتولَّها أحدٌ قبله أحقُّ بها منه ، وما عليه منهم إذا لم يحضروا ؟! فإنه لا يوحشه إلا حضورهم عنده ، وبُعْدُهُم أُنْسٌ ، والله أعلم »[١] .

واستمرَّتْ تُحاك المكائد ضده حتى وهو في آخر شيخوخته ؛ ففي سنة (٧٣٩ هـ) ولي تقي الدين السبكي قضاء الشافعية بدمشق ، وما إنْ وصل دمشق حضر عنده صدر الدين سليمان بن عبد الحكيم المالكي ، وكان أشعريًّا جلْدًا ، فقال للسبكي عن المزيِّ : ينبغي لك عزلُه من مشيخة دار الحديث الأشرفية. قال تقيُّ الدين السبكي: «فاقشعرَّ جلدي وغاب فكري، وقلتُ في نفسي : هذا إمامُ المُحدِّثين ، والله لو عاش الدارقطني ؛ استحيا أن يُدرس مكانه » .

ثم قال السبكي لابنه بعد ذلك : « مَنْ ذا الذي يتجاسر أن يقول : المزيُّ ما يصلح لدار الحديث ، والله رُكني ما يحمل هذا الكلام »[٢] .

وقد استمر المزيُّ متوليًّا لهذه الدار طيلة حياته ، وكانت مسكنَهُ ، فكانت ولايتُهُ لها قُرابة أربعة وعشرين عامًا ، ومنها نشر علْمَهُ الجمَّ ، وفيها حدَّث بكتابه العظيم « تهذيب الكمال » وغيره ، وسمعها عليه الجِلَّة من شيوخ العصر .

وكان المزيُّ- إضافةً إلى ذلك- شيخًا لدار الحديث الحمصية المعروفة

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٨٩ .

(٢) طبقات الشافعية ١٠ / ٣٩٧ - ٣٩٨ .

بحلقة صاحب حمص .

وتولَّى أيضًا أقدمَ دار حديث بدمشق وأعرقَها - وهي دار الحديث النورية - إلى حين وفاته .

هذي المفاخرُ لا قعبان من لبنٍ شيبت بماء فعادت بعدُ أبوالا

٢٤٧ - الحافظ شرف الدين الدمياطي ، أبو محمد وأبو أحمد ، عبد المؤمن ابن خلف التوني :

« حافظ زمانه ، وأستاذ الأستاذين في معرفة الأنساب ، وإمام أهل الحديث المُجمَع على جلالته ، الجامع بين الدِّراية والرواية بالسند العالي ، للقدر الكثير »[(١)] .

سمع من الجمِّ الغفير والعدد الكثير بالإسكندرية ودمشق وحلب ، ولازم بها الحافظ يوسف بن خليل ، وسمع بمكة والمدينة وبغداد وماردين وحماة وغيرها .

وخرَّج ببغداد « أربعين حديثًا » لأمير المؤمنين المُستعصم .

روى عنه من الأئمة تلاميذه : الحافظ المزيُّ ، والحافظ الذهبيُّ ، والحافظ ابن سيد الناس ، وتقي الدين السبكي .

ودرَّس بالقاهرة لطائفة المُحدِّثين بالمدرسة المنصورية ، وهو أوَّلُ مَنْ درَّس فيها لهم[(٢)].

قال عنه الذهبي : « شيخنا الإمام العلّامة ، الحافظ الفقيه النَّسَّابة ، شيخ المُحدِّثين. تفقَّه بدمياط، وبرع، ثم طلب الحديث، فارتحل إلى الإسكندرية، فسمع بها وبمصر وببغداد وبحلب ، وحمل عن ابن خليل جِمْلَ دابَّة كُتُبًا

---

(١) طبقات الشافعية ١٠/١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) طبقات الشافعية ١٠ / ١٠٣ - ١٠٤ .

وأجزاءً ، وسمع بحماة ، وبماردين ، وبحرَّان ، وكتب العالي والنازل ، وجمع فأوعى ، وسكن دمشق ، فأكثر بها عن ابن مسلمة وغيره ، ومُعجم شيوخه يبلغون ألفًا وثلاثمائة إنسانًا ، وكان صادقًا حافظًا ، مُتقنًا ، جيِّدَ العربية ، غزير اللغة ، واسع الفقه ، رأسًا في علم النسب .

سمعتُ أبا الحجَّاج الحافظ - وما رأيتُ أحفظَ منه لهذا الشأن - يقول : ما رأيتُ في الحديث أحفظ من الدمياطي .

روى عنه أبو حيان الأندلسي والبرزالي وفخر الدين النويري »[١] .

وكفى بشهادة المزيِّ له شهادة !!

٢٤٨- شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، أبو عبد الله ، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الحنبلي :

يقول الشيخ الفاضل بقية السلف بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » : « إن الناظر في ترجمة ابن القيم رحمه الله يلمس منه : الرغبة الصادقة في الطلب ، والجَلَدَ العظيم في البحث والنظر ، والحريَّة في التلقِّي عن الشيوخ من الحنابلة وغيرهم ، والتفاني في سبيل العلم ، وامتزاج ذلك بلحمه ودمه منذ نعومة أظافره . وانبرى للطلب في سِنٍّ مُبَكرٍ ، وعلى وجه التحديد في السابعة من عمره . ويظهر ذلك بالمقارنة بين تاريخ ولادته سنة (٦٩١ هـ) وتاريخ وفيات جملة من شيوخه الذين أخذ عنهم .

فمن شيوخه الشهاب العابر المُتوفَّى سنة (٦٩٧ هـ) ، فيكون على هذا بدأ بالسماع وهو في السابعة من عمره ، وقد أثنى ابن القيم على شيخه الشهاب ، وذكر طرفًا من تعبيره للرؤيا في كتابه « زاد المعاد » ، ثم قال : وسمعتُ عليه عِدَّة أجزاء ، ولم يتفقْ لي قراءة هذا العلم عليه لِصِغَرِ السِّنِّ ،

---

(١) تذكرة الحفاظ ٤ / ١٤٧٧ - ١٤٧٨ .

واخترام المنية له . رحمه الله » .

قال الشيخ بكر أبو زيد : « وقد منَّ الله تعالى - وهو المانُّ بفضله - فتتبَّعْتُ أسماء مؤلَّفاته أيضًا من ثنايا كُتُبه ومن غيرها ؛ فتحصَّل لي جملة منها بلغت (١٩) كتابًا ، فصار مجموع ما جرى الوقوف عليه حسب التتبُّع والاستقراء هو (٩٦) كتابًا » .

وأما علومه التي تلقَّاها وبرع فيها فهي تكاد تعمُّ علوم الشريعة وعلوم الآلة ، فقد درس التوحيد ، وعلم الكلام ، والتفسير ، والحديث ، والفقه وأصوله، والفرائض، واللغة، والنحو، وغيرها، على علماء عصره المتفنِّنين في علوم الإسلام ، وبرع هو فيها ، وعلا كعبُه ، وفاق الأقران ، ويكفي في الدلالة على عُلُوِّ منزلته ؛ أن يكون هو وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية كفرسَيْ رهان .

وهذه الجامعيَّة المُدهشة في البراعة والطلب نجدها محلَّ اتِّفاق مُسجَّل لدى تلاميذه الكبار ومَنْ بعدهم من ثقات النَّقَلَةِ الأبرار .

يقول تلميذه ابن رجب : « تفقَّه في المذهب ، وبرع وأفتى ، ولازم الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، وتفنَّن في علوم الإسلام ، وكان عارفًا في التفسير لا يُجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيها المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه ، لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية وله فيها اليدُ الطولى، والنحو، وكان عالمًا بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم. له في كلِّ فنٍّ من هذه الفنون اليدُ الطولى»[1].

ويقول تلميذه ابن كثير : « سمع الحديث ، واشتغل بالعلم ، وبرع في علوم متعدِّدة ، لاسيما علم التفسير والحديث والأصلين ، ولما عاد شيخ الإسلام ابن تيمية من الديار المصرية في سنة (٧١٢ هـ) ؛ لازمه إلى أن

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢ / ٤٤٨ .

مات الشيخ، فأخذ عنه علمًا جمًّا مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريدًا في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلًا ونهارًا وكثرة الابتهال»[١].

وقال عنه ابن حجر في الدُّرر الكامنة (٤ / ٢١) : « كان واسعَ العلم ، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف » .

وقال ابن تغري بردي : « كان بارعًا في عدة علوم ما بين تفسير وفقه وعربية ونحو وحديث ، وأصول وفروع ، ولزم شيخ الإسلام ابن تيمية بعد عودته من القاهرة سنة (٧١٢ هـ) ، وأخذ عنه علمًا كثيرًا حتى صار أحدَ أفراد زمانه ، وانتفع به الناس قاطبة »[٢] .

وقال الشوكاني في «البدر الطالع» (١/١٤٣): «برع في شتى العلوم، وفاق الأقران ، واشتهر في الآفاق ، وتبحَّر في معرفة مذاهب السلف » .

وقال البيطار الدمشقي : « هو إمام في لغة القرآن وأسلوبه ، وفقهه وتشريعه ، وإيجازه وإعجازه ، وحقيقته ومجازه » .

وابن القيم يُزاحم بالرُّكَب في شتى الحِلَق على أعداد مُتكاثرة من الشيوخ بروح مُتعطشة ، ونفْس مُتألِّقة ، ليشفيَ غِلَّتَهُ ، ويروي نهمتَه ، فينهل من كل عالم مُتخصِّص ، حتى تفنَّن في علوم الإسلام ، وصارت له اليدُ الطولى في فنون شتى .

لم يشتهر أمْرُ الرحلة عن ابن القيم – وإن أتى إلى مصر – فقد عاش في عصر دُوِّنت فيه العلوم الإسلامية وانتشرت وخاصة في دمشق ، وقد عاش في كنف والده ، وهو يُمثِّل الصدارة في بلده لعلماء الحنابلة ، فيكون قيِّمًا على المدرسة الجوزية. وكيف يرتحل عن دمشق وحال العلم في دمشق وأساتذتها الكبار ومكتباتها العامرة يجعلها موئلَ العلماء ومحطَّ رحالهم ، لاسيما وقد وفد

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٠٢ .
(٢) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ١٠ / ٢٤٩ .

إليها شيخ الإسلام والبحر الذي لا ينزف : أبو العباس أحمد بن تيمية وخيركم مَنْ يأتيه رزقه عند عتبة بابه ، ولنتمثَّل بما كان يلهج به في بعض مؤلفاته متمثِّلا : « وليس وراء عبادان قرية » .

وحجَّ مرَّات كثيرة، وجاور بمكة، وألَّف كتابه «مفتاح دار السعادة» مُدَّة مقامه بمكة . يقول في آخر مُقدِّمته : « وكان هذا من بعض النزول والتحف التي فتح الله بها عليَّ حين انقطاعي إليه عند بيته ، وإلقائي نفْسي ببابه مسكينًا ذليلًا ، وتعرُّضي لنفحاته في بيته وحوله بكرةً وأصيلًا ، فما خاب مَنْ أنزل به حوائجه ، وعلَّق به آماله ، وأصبح ببابه مُقيمًا ، وبحماه نزيلًا .

لقد أفنى ابن القيم حياته مُتقلبًا في أعطاف العلم ، في حِلِّه وترحاله ، في سفره وإقامته ، وإن شدَّه الرحالَ لحجِّه والمجاورة بمكة - حرسها الله تعالى - كانت أسفارًا مشحونة بالعلم ، وتدوينه ، وصدْق التعبُّد ، واللَّهج بذكْر الله والتعلُّق به .

إن السفرَ والبُعدَ عن الوطن ؛ لم يشغلْه شيءٌ من ذلك عن التأليف والنظر . فابن القيم وإنْ سافر لا يحمل إلا زادًا ومزادةً ، فمكتبتُه في صدره ، ويكفي في هذا أنه ألَّف جملةً من كُتُبه في حال سفره عن وطنه وبُعْدِه عن مكتبته ، وهي :

١ - مفتاح دار السعادة . ٢ - روضة المحبين .
٣ - زاد المعاد . ٤ - بدائع الفوائد .
٥ - تهذيب سُنَنِ أبي داود .

ولقد كان غرامُهُ بالكتب أكبر دليلٍ على المحبَّة الصادقة والرغبة المُتناهية للعلم ، بحثًا ومُطالعةً وقراءةً وإقراءً وتأليفًا . وابن القيم رحمه الله تعالى شديدُ المحبة للعلم وكتابته ، فلا عجب إذا رأينا مُترجميه يخصُّون بالذكْر في ترجمته اقتناءه للكتب ، ولهفَه على ذلك ، وأنه اقتنى ما لا يُحصى ، وما لم يحصُل لغيره .

وآثارُهُ العلميةُ تُكسبُنا الدليلَ المادي على ذلك ، فإنَّ مَنْ يقرأ واحدًا من مُصنَّفات ابن القيم رحمه الله ، يرى فيه الاطلاع المذهل على طائفة كبيرة من كُتُب المكتبة الإسلامية على اختلاف فنونها .

ففي كتابه « الجيوش الإسلامية » يذكر في مسألة استواء الله على عرشه أقوال السلف من أكثر من مائة كتاب . وكتاب « أحكام الذِّمَّة » ذكر فيه نحوًا من ثلاثين كتابًا . وكتابه « الروح » ذكر فيه نحوًا من ثلاثين كتابًا .

وهل غزارة المادة في مؤلفاته ، والقدرة العجيبة على حشْد الأدلة ، وذكْر الخلاف والقائل به؛ إلا نتيجة الاطلاع المُدهش، والقراءة المتتابعة!!

يقول ابن قيم الجوزية في معرض كلامه عن الإمام أحمد بن حنبل في كتابه « أعلام الموقعين » : « وكان الإمام أحمد رضي الله عنه شديد الكراهة لتصنيف الكتب ، وكان يُحبُّ تجريدَ الحديث ، ويكره أن يكتب كلامه ، ويشتدُّ عليه جدًّا ، فعلم الله حُسْنَ نيَّته وقصْده ، فكتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سِفْرًا ؛ منَّ الله سبحانه علينا بأكثرها ، فلم يفُتنا منها إلا القليل ، وجمع الخلَّال نصوصه في « الجامع الكبير » فبلغ نحو عشرين سفرًا أو أكثر .

وقد منَّ الله عليه أيضًا بكتب شيخ الإسلام رحمه الله ، فقد قرأ عليه أكثرها .

قال ابن رجب تلميذه : « كان شديدَ المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيف واقتناء الكتب ، واقتنى من الكتب ما لا يحصل لغيره » .

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٤/٢٠٢): «واقتنى من الكتب ما لا يتهيَّأ لغيره تحصيل عُشْر معشاره من كتب السلف والخلف » .

وقال ابن حجر في الدُّرر (٢٢/٤) : « وكان مُغرى بجمع الكتب ، فحصَّل منها ما لا يُحصى » .

وتولَّى ابن القيم :

١ - الإمامة بالجوزية : « فهو إمام الجوزية وابن قيِّمها » كما يقول ابن كثير في البداية (٢٠٢/١٤) .

٢ - ودرس بالصدرية وغيرها . وأخذ عنه العلم جمعٌ غفيرٌ من كبار الحفاظ ؛ كابن رجب ، والذهبي ، وابن كثير ، وابن عبد الهادي .

٣ - وتصدَّى للفتوى .

٤ - أما التأليف فهو موطنُ الجمال والجلال والجاذبية الغريبة في حياة ابن القيم العلمية اللامعة المُتألق نجمها على مدى سبعة قرون ، يتجاذبها الناس بالدرس والفحص والقراءة والإقراء ، ويكفي أنها بالجملة محلّ إعجاب من أنصاره وخصومه على حدٍّ سواء .

وفي ذلك يقول الحافظ ابن حجر في الدُّرر الكامنة (٤ / ٢٢) : « وكلُّ تصانيفه مرغوبٌ فيها بين الطوائف » .

وكيف لا يرغب فيها المسلم ، وفيها تيسير الوحيين ، وتحرير الأحكام وإخراجها للناس عذبةً نقيَّةً من زيغ العقائد ، وتعصُّب المذاهب ، والانتصار للطوائف ، ولو لم يكن من مؤلَّفاته إلا كتابه « زاد المعاد في هدي خير العباد » ، ذلك الكتاب النافع المعطار ، وكتابه الجامع لأُمَّهات الأحكام ، وحقائق الفقه وأصول التشريع وحكمته وأسراره، المُسمَّى «أعلام الموقعين»، لو لم يكن منها إلا هذان الكتابان لكفى ، فكيف وقد ملأ المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلَّفات الطُّوَل والمختصرة في فنون شتى من العلم !!

وتمتاز مؤلَّفاته رحمه الله بالسَّعة والشمول ، ويكفي مثالًا على ذلك : مبحث التحسين والتقبيح العقليين ، أو مبحث المجاز وردّه .

وتمتاز أيضًا بالاستطراد التناسبي ، وليس كل عالم يستطيعه ، ولا كلُّ مؤلِّف يُطيقه ، فهو لا يتأتَّى إلا من أكابر الحفاظ وأوعية العلم الذين تموج قرائحهم وأذهانهم بشتى العلوم والمعارف . وهذا من الجود بالعلم - فكيف

تُعاب كُتُبُه من الجهال بهذا .

لقبوه حامضٌ وهو خَلٌّ مثلُ مَنْ لم يصلْ إلى العنقود

وتمتاز كُتُبُه ومُؤلَّفاته بتفهُّم محاسن الشريعة ؛ فإن مَنْ يقرأ في مباحثه العقائدية والفقهية على حَدٍّ سواء ، يلمس منه نَفْسًا شفَّافَةً ، لها بصرٌ وعنايةٌ بتفهُّم مقاصد الشريعة ومحاسنها ، وحكمة الأحكام وأسرارها ، بما يشفي ويكفي ، ويجعل النفس في راحة وانشراح ؛ لما يُبيِّنُه ويُقرِّرُه وأن هذا هو ما تقتضيه أصول الشريعة المحمدية .

وهذا من أعظم الأسرار في تفوُّقِ مؤلَّفاته على غيره ، ومن أبرز خصائصه في التأليف بين معاصريه فمن بعدهم .

ومما تمتاز به كُتُبُ شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية : الحيوية والمشاعر الفياضة بأحاسيس مجتمعة . وهذه من أروع الخصائص والمُميزات التي اتسمتْ بها كتابات ابن القيم ، فلم يكن مُجرَّدَ آلة تكتب ؛ بل يربط بين العلمِ وبين أجزاء الحياة بقلبٍ واعٍ ، وفكرٍ حسَّاسٍ ، وروح تفيض حيوية ونبوغًا . فلا عجب إذًا إذا رأينا كُتُبَه ومُؤلَّفاته تعيش على مدى سبعة قرون ، وهي محلُّ إعجاب وروعة وتأثير عميق من كافَّة طبقات الناس .

وتتصف مُؤلفاته بعذوبة لفظها ، وسِحْر بيانها ، وأخْذها بمجامع القلوب .

يقول الشوكاني : « وله من حُسْن التصرف مع العذوبة الزائدة وحُسْن السياق ما لا يقدر عليه غالب المُصنِّفين ؛ بحيث تعشق الأفهامُ كلامه ، وتميل إليه الأذهان ، وتُحِبُّه القلوب » .

ويقول خصمه التقيُّ السبكيُّ : « إن ابن القيم رجل أُعطي فضل كلام » .

ولله ما أجمل تواضُعَ ابن القيم العالم الحافظ العابد العامل وتضرُّعَهُ

وابتهالَه ... وسبْرَه لأغوار القلوب ... ولله دَرُّه وهو يصف منازل السائرين وأحوال القلوب ، وعيش الصالحين !! .

ونختم بذكر كتابين من كُتُبه :

قال أبو الحسن الندوي في كتابه « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ٣١٩/٢ - وهو يتكلَّم عن « زاد المعاد » لابن القيم -: « يُعتبر من أهمِّ كُتُب الإسلام الذي يقوم مقام مكتبة بأسرها ، وإنَّ وجوده كوجود عالِمٍ كثير الفنون مُتبحِّر ومُحَقِّقٍ في العلوم ، نال به آلافٌ مُؤلَّفةٌ من طُلَّاب الحق ومُتَّبعي السُّنة هدايةً دينيةً ، وغذاءً روحيًّا ، وصلاةً إيمانيةً . ومن المدهش أنَّ هذا الكتاب أملاه مُؤلِّفُه وهو في حال سفره ، وغيبةٍ عن داره ومكتبته ... فقال في فاتحة الكتاب : « وهذه كلماتٌ يسيرة ، لا يستغني عن معرفتها مَنْ له أدنى نعمة إلى معرفة نبيِّه ﷺ وسيرته وهديه ؛ اقتضاها الخاطر المكدود على عُجَرِه وبُجَرِهِ ، مع البضاعة المزجاة ... مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة ، والقلبُ بكل وادٍ منه شُعبة ، والهمَّة قد تفرَّقتْ شذَرَ مذرَ » .

وكتاب « الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية » : وهي منظومة رائعة من البحر الكامل ، وقصيدة عظيمة في عقيدة أهل السُّنة والجماعة ونصرْها . وقد تناولها بالشرح والاختصار جهابذة العلماء . وعددُ أبياتها (٥٩٤٩) بيتًا ؛ أي ستة آلاف إلا واحدًا وخمسين بيتًا .

فأسكن الله حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن قيم الجوزية أعلى علِّيين ، ورزقه جوار النبيين ؛ بما هزهز الأرواحَ ورطَّب القلوبَ وأدماها ، وألان العَبراتِ وأجراها ... بِرقَّة كلامه ؛ وسلسبيل ونمير بيانه » .

٢٤٩ - الإمام الحافظ الذهبي ، أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز التركماني :

قال عنه تقي الدين السبكيُّ : « اشتمل عصرنا على أربعة من الحفّاظ ،

بينهم عموم وخصوص : المزِّيّ والبرزالي والذهبي والشيخ الإمام الوالد ، لا خامس لهؤلاء في عصرهم .

وأما أستاذنا أبو عبد الله فبصر لا نظير له ، وكنز هو الملجأ إن نزلتِ المعضلة ، إمامُ الوجود حفظًا ، وذهبُ العصر معنًى ولفظًا ، وشيخ الجرح والتعديل ، ورجل الرجال في كل سبيل ، كأنما جُمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يُخبر عنها إخبارَ مَنْ حضرها ، وكان محَطّ رحال تغيَّبْتُ ، ومنتهى رغبات من تَغَيَّبت .

تعمل المَطِيُّ إلى جواره ، وتضرب البُزْلُ المهَارِيُّ أكبادها فلا تبرح أو تُنْبَلَ[١] نحْوَ داره ، وهو الذي خرَّجنا في هذه الصناعة ، وأدخلنا في عداد الجماعة ، جزاه الله عنَّا أفضل الجزاء ، وجعل حظَّهُ من غُرُقات الجنان مُوَفَّر الأجزاء ، وسَعْدَه بدرًا طالعًا في سماء العلوم ، يُذعِـن له الكبير والصغير من الكتب ، والعالي والنازل من الأجزاء »[٢] .

ثم قال : « ما زال يخدم هذا الفنَّ إلى أن رسختْ فيه قدمُهُ ، وتعِبَ الليلَ والنهارَ ، وما تعب لسانُه وقلمُه ، وضُربتْ باسمه الأمثال ، وسار اسمُهُ مسيرَ الشمس ، إلا أنه لا يتقلَّص إلا نزل المطر ، ولا يغيب عند إقبال الليال .

أقام بدمشق يُرحَل إليه من سائر البلاد ، وتُناديه السؤالاتُ من كل نادٍ ، وهو بين أكنافها كَنَفٌ لأهليها ، وشرفٌ تفتخر وتُزهَى به الدنيا وما فيها ، طورًا تراها ضاحكة عن تبسُّم أزهارها وقهقهة غدرانها ، وتارة تلبس ثوبَ الوقار والفخار بما اشتملت عليه من إمامها المعدود في سُكَّانها »[٣] .

---

(١) نبل الإبل : أي ساقها .

(٢) طبقات الشافعية ٩/١٠٠ - ١٠١ .

(٣) طبقات الشافعية ٩/١٠٣ .

وُلد الذهبي سنة (٦٧٣هـ) ، وعاش طفولته بين أكناف عائلة علميَّة متينة ، فكانت مُرضعتُه وعمَّتُه ستُّ الأهل بنت عثمان الحاجة أمُّ محمد قد حصلت على الإجازة من ابن أبي اليسر ، وجمال الدين بن مالك ، وزهير بن عمر الزرعي ، وجماعة آخرين ، وسمعتْ من عمر بن القوَّاس وغيره ، وروى الذهبي عنها .

ويُسرع أخوه من الرضاعة علاء الدين علي بن إبراهيم بن العطَّار ويستجيز للذهبي جملةً من مشايخ عصره في سنة مولده من دمشق وحلب ومكة والمدينة .

قال ابن حجر في ترجمة ابن العطَّار : « وهو الذي استجاز للذهبي سنة مولده ، فانتفع الذهبي بعد ذلك بهذه الإجازة انتفاعًا شديدًا »[1] .

ويمضي الذهبي إلى المؤدِّب علي بن محمد المعروف بالبصبص ، فأقام في مكتبه أربعة أعوام ، ثم اتجه الذهبي بعد ذلك إلى شيخه مسعود بن عبد الله الصالحي ، فلقَّنه جميع القرآن ، ثم قرأ عليه نحوًا من أربعين ختمة .

وبدأ الذهبي يعتني بطلب العلم حينما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وتوجَّهت عنايتُه إلى القراءات والحديث .

وتميز في دراسة القراءات وبرع فيها براعةً جعلت شيخه شمس الدين محمد بن العزيز الدمياطي يتنازل له عن حلقته بالجامع الأموي في أواخر سنة (٦٩٢هـ) ، حينما أصابه المرض الذي تُوفِّي فيه .

وفي الوقت نفسه كان الذهبي وهو في الثامنة عشرة من عمره قد مال إلى سماع الحديث واعتنى به عنايةً فائقة ، وطغى هذا العلم على كلِّ تفكيره ، واستغرق كلَّ حياته بعد ذلك ، فسمع ما لا يُحصى كثرةً من الكتب ،

---

(١) الدرر (٧٣/٣) .

ولقي كثيرًا من الشيوخ والشيخات ، وترك الذهبي لنا ثلاثة معجمات لشيوخه : المعجم الصغير ، والأوسط ، والمعجم الكبير ، وحوى هذا الأخير نحوًا من ألف وثلاثمائة ترجمة (١٢٧٨) . وأُصيب الذهبي بالشَّرَهِ في سماع الحديث وقراءته ، ورافقه ذلك طيلةَ حياته ، حتى كان يسمع من أُناس قد لا يرضى عنهم ، كما أخبر هو بذلك في ترجمة علي بن مظفر الإسكندراني ، فقال عنه : « لم يكن عليه ضوءٌ في دينه ، حملني الشَّرَهُ على السماع من مثله » .

وكان الذهبي رحمه الله يتحسَّر على الرحلة إلى البلدان الأخرى ؛ لما في ذلك من أهمية بالغة في تحصيل عُلُوِّ الإسناد وقدم السماع ، إلّا أنَّ والده لم يُشجِّعْه على الرحلة ، بل منعه في بعض الأحيان ، وسمح له بالرحلة حينما بلغ العشرين من عمره ، على أنه سمح له برحلات قصيرة لا يُقيم في كلٍّ منها أكثر من أربعة أشهر في الأغلب ، ويُرافقه فيها بعضُ مَنْ يعتمد عليهم .

رحل الذهبي داخل بلاد الشام إلى بعلبك وحلب وحمص وحماة وطرابلس والكرك والمعرة وبصرى ونابلس والرملة والقدس وتبوك . ورحل إلى البلاد المصرية وأخذ عن شيوخها ، ومنهم ابن دقيق العيد .

« لما دخل إلى شيخ الإسلام ابن دقيق العيد – وكان شديدَ التحرِّي في الإسماع – قال له : من أين جئْتَ ؟ قال : من الشام . قال : بِمَ تُعرفُ ؟ قال : بالذهبي . قال : مَنْ أبو طاهر الذهبي ؟ فقال له : المخلص . فقال : أحسنتَ . فقال : مَنْ أبو محمد الهلالي ؟ قال : سفيان ابن عيينة . قال : أحسنتَ ؛ اقرأ ، ومكَّنه من القراءة عليه حينئذٍ ؛ إذ رآه عارفًا بالأسماء »[١] .

(١) طبقات الشافعية ٩/١٠٢ .

وانظر إلى عُلُوِّ هِمَّة الذهبي في طلب العلم : قرأ على عبد الرحمن ابن عبد الحليم الدَّكالي بالإسكندرية ، فختم عليه بقراءتَيْ ورش وحفص في أحد عشر يومًا .

وكان الذهبي يُجهد نفسه في قراءة أكبر كميَّة مُمكنة على شيوخ تلك البلاد ؛ فقد ذكر مثلًا أنه قرأ جميع سيرة ابن هشام على شيخه أبي المعالي الأبرقوهي في ستة أيام فقط . ورحل إلى مكة وسمع بها .

لم ينقطع الذهبي طيلة حياته عن الدراسة والسماع ، لا يشغله عنهما شاغل . وكانت دراسته وسماعاته مُتنوِّعة ، فقد عُني بدراسة النحو ، ودرس على شيخ العربية وإمام أهل الأدب في مصر ابن النحاس ، واهتمَّ بالكتب التاريخية ، فسمع عددًا كبيرًا منها على شيوخه ، إلا أنَّ عنايته الرئيسية في السماع كانت مُنصبَّةً على الحديث ، فقد سمع الذهبي مئات الكتب والأجزاء الحديثية طيلة حياته في طلب العلم ، وهناك العدد الهائل من الأحاديث النبوية ، وربما سمع الجزء أو الكتاب على أكثر من شيخ ، فقد سمع «جزء الحسن بن عرفة»- وهو من الأجزاء الحديثية المشهورة- أكثر من أربعين مرَّة على أكثر من أربعين شيخًا .

وتولَّى الذهبي سنة (٧١٨هـ) مشيخة دار الحديث بتربة أم الصالحات وهي من كبريات دور الحديث بدمشق . وفي (٧٢٩هـ) تولَّى دار الحديث بالظاهرية . وفي سنة (٧٣٩هـ) تولَّى تدريس الحديث بالمدرسة النفيسية ، ودار الحديث والقرآن التنكزية . ومن دور الحديث التي تولَّاها الذهبي دار الحديث الفاضلية .

وهكذا تولَّى الذهبي كبريات دور الحديث بدمشق في أيامه . وحينما تُوفِّي في سنة (٧٤٨هـ) كان يتولَّى مشيخة الحديث في خمسة أماكن هي : (١) مشهد عروة ، أوْ دار الحديث العروية . (٢) دار الحديث

النفيسية . (٣) دار الحديث التنكزية . (٤) دار الحديث الفاضلية . (٥) تربة أُمِّ الصالح .

واختصر الذهبي عددًا ضخمًا من الكتب تُربي على خمسين كتابًا ؛ معظمها من الكتب الكبيرة ، وأضاف إليها إضافاتٍ كثيرةً ، وتعليقاتٍ نفيسةً ، واستدراكاتٍ بارعةً ، وتصحيحاتٍ وتصويباتٍ لمؤلّف الأصل ، إذا شعر بوهمه أو غلطه .

فاختصر مثلًا كتاب « أُسْد الغابة » ، وزاده عدَّة تواريخ ؛ منها « تاريخ الصحابة الذين نزلوا حمص » .

واختصر «تاريخ بغداد» للخطيب، والذيول عليه، و « تاريخ دمشق » لابن عساكر ، و « تاريخ نيسابور » للحاكم ، و « تاريخ خوارزم » لابن أرسلان .

واختصر من كتب الوفيات : « التكملة لوفيات النقلة » للمنذري ، ومن كتب الأنساب : كتاب « الأنساب » للسمعاني ، ومن كتب الرجال : « تهذيب الكمال » للمزِّيِّ ، و « المعجم المُشتمل على أسماء شيوخ الأئمة النُّبَّل » لابن عساكر .

وأنتجت هذه المعرفة الرجالية الواسعة مؤلَّفاتٍ كثيرةً ، لعلَّ من أهمها كتابه العظيم « تاريخ الإسلام » .

ومعرفة الذهبي الواسعة في الرجال جعلته شيخ الجرح والتعديل ورجُلَ الرجال . واعتبره السخاوي هو والمزيَّ مؤرِّخا القرن الثامن اللَّذين لا يُنافسهما أحدٌ .

وذهب السيوطي في « طبقات الحفاظ » أن المُحدِّثين في عصره عيالٌ في الرجال وغيرها من فنون الحديث على أربعة ؛ أحدهم الذهبي .

وللذهبي الإمامة في النقد وأصوله ؛ أبرزها كتابه العظيم « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » ، الذي اعتبره ابن حجر من أحسن كُتُبِهِ وأجلِّها . قال السخاوي : عوَّل عليه مَنْ جاء بعده .

ولم يقتصر نقدُ الذهبي على الرجال فحسب ؛ بل تعدَّى ذلك إلى نقْد الموارد التي يُطالعها أو يختصرها أو يأخذ منها ، وهو ما يُعرف اليوم بنقد المصادر ؛ من ذلك مثلًا نقدُه لكتاب « الضعفاء » لابن الجوزي ، الذي اختصره وذيَّل عليه . وانتقد كتاب « الضعفاء » للعقيلي .

قال ابن ناصر الدين عن الذهبي : « ناقد المُحدِّثين ، وإمام المُعدِّلين والمُجرِّحين ... كان آيةً في نقْد الرجال ، عمدةً في الجرح والتعديل » .

واختصر الذهبي عددًا من الكتب المهمَّة في العقائد ؛ منها مثلًا : كتاب « البعث والنشور » ، وكتاب « القدر » للبيهقي ، وكتاب « الفاروق في الصفات » لشيخ الإسلام الأنصاري ، وكتاب « منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال » لابن تيمية .

وخلَّف الذهبي عددًا من الآثار في هذا العلم ؛ منها : « كتاب الكبائر وبيان المحارم » ، وكتاب « الأربعين في صفات ربِّ العالمين » ، وكتاب « العرش » ، وكتاب « مسألة الوعيد » ، وغيرها . ولعل من أشهر كُتُبِهِ في هذا المجال وأهمّها كتاب «العُلو». وللإمام الذهبي القدح المُعلَّى في نصْر العقيدة السلفية .

واختصر الذهبي في الفقه كتاب « المُحلَّى » لابن حزم ، وألَّف عددًا من الكتب والأجزاء التي تناولت موضوعاتٍ فقهيةً .

وتداول العلماء كُتُبَ الذهبي في عصره والعصور التالية له ، واعتُبرت من أعظم الموارد التي استقى منها العلماء الذين جاءوا بعده .

قال ابن حجر : « ورغب الناس في تواليفة ، ورحلوا إليه بسببها

وتداولوها : قراءةً ونسخًا وسماعًا » .

وقال تلميذه الحسيني : « وقد سار بجملة منها الركبان في أقطار البلدان » .

كان الإمام الذهبي مدرسةً قائمةً بذاتها ، خرَّجت العديد من الحفَّاظ والعلماء ، وأَمَّه طلبة العلم من كل حَدَبٍ وصوبٍ ، ودرس عليه عددٌ كبيرٌ من الطلبة يفوق الحصر .

قال تلميذه الحسيني : « وحمل عنه الكتابَ والسُّنَّةَ خلائقُ »[(١)] .

وقال ابن قاضي شهبة : « سمع منه السبكي ، والبرزالي ، والعلائيُّ ، وابن كثير ، وابن رافع ، وابن رجب ، وخلائق من مشايخه ونظرائه ... وتخرَّج به حُفَّاظ » ، وإنّ كُتُبَ القرن الثامن لتزخر بمئات من تلاميذ الذهبي النُّجُب .

قال تلميذه الصفدي : « الشيخ الإمام العلَّامة الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي ؛ حافظٌ لا يُجارى ولافظٌ لا يُبارى ، أتقن الحديث ورجاله ، ونظر عِلَلَهُ وأحواله ، وعرَّف تراجم الناس ، وأزال الإبهام في تواريخهم والإلباس ، أكثر من التصنيف ، ووفَّر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف » .

ووصفه تلميذه ابن كثير بأنه « الشيخ الحافظ الكبير مُؤرِّخ الإسلام وشيخ المُحدِّثين » .

قال عنه تلميذه محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي :

ما زلتُ بالسمعِ أهواكمْ وما ذكرت ... أخباركم قطُّ إلَّا ملتُ عن طربِ
وليس من عجبٍ أنْ ملتُ نحوكُمُ ... فالناسُ بالطبع قد مالوا إلى الذهبِ

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص٣٦ .

قال سبط ابن حجر : « حافظ الوقت الذي صار هذا اللقبُ عَلَمًا عليه ... فلله دَرُّهُ من إمام مُحدِّث .. فكم دخل في جميع الفنون وخرج ، وصحَّح وعدَّل وجرَّح ، وأتقن هذه الصناعة ... فهو الإمام سيِّدُ الحفَّاظ ، إمام المُحدِّثين ، قدوة الناقدين » .

وقال أيضًا : « عُني لهذا الفنِّ أعظمَ عناية ، وبرع فيه ، وخدمه الليل والنهار » .

أمّا آثاره التي تُريك عجائبه وأخباره وأنواره وأزهاره ؛ ففوق الحصر :

أولًا : في القراءات :

(١) التلويحات في علم القراءات .

ثانيًا : الحديث :

له كُتبُ :

(٢) الأربعون البلدانية .

(٣) الثلاثون البلدانية .

(٤) طُرُق حديث : « مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه » .

(٥) الكلام على حديث الطير .

(٦) المُستدرك على مُستدرك الحاكم.

ثالثًا : مصطلح الحديث وآدابه :

(٧) كتاب الزيادة المضطربة .

(٨) طُرق أحاديث النزول .

(٩) العذب المُسلسل في الحديث المُسلسل .

(١٠) مُنية الطالب لأعزِّ المطالب .

(١١) الموقظة في علم الحديث .

رابعًا : العقائد :

(١٢) أحاديث الصفات .

(١٣) الأربعين في صفات ربِّ العالمين.

(١٤) جزء في الشفاعة .

(١٥) جزءان في صفة النار .

(١٦) الرسالة الذهبية إلى ابن تيمية . وذهب البعض إلى القول بأنها مُزوَّرة ، ومنها نسخة في دار الكتب المصرية بخطِّ ابن قاضي شهبة .

(١٧) الروع والأوجال في نبأ المسيح الدجَّال .

(١٨) كتاب رؤية الباري .

(١٩) كتاب العرش .

(٢٠) العُلُوّ للعليِّ الغفَّار .
(٢١) كتاب الكبائر .
(٢٢) كتاب ما بعد الموت .
(٢٣) كتاب مسألة دوام النار .
(٢٤) كتاب مسألة الغيبة .
(٢٥) كتاب مسألة الوعيد .

خامسًا : أصول الفقه :

(٢٦) كتاب « مسألة الاجتهاد ».
(٢٧) كتاب «مسألة خبر الواحد».

سادسًا : الفقه :

(٢٨) تحريم أدبار النساء .
(٢٩) تشبيه الخسيس بأهل الخميس.
(٣٠) جزء في الخضاب .
(٣١) جزء في صلاة التسبيح .
(٣٢) جزء في القهقهة .
(٣٣) حقوق الجار .
(٣٤) كتاب فضائل الحج وأفعاله.
(٣٥) كتاب اللِّباس .
(٣٦) كتاب مسألة السماع .
(٣٧) كتاب الوتر .

سابعًا : الرقائق :

(٣٨) جزء في محبة الصالحين .
(٣٩) كتاب دعاء المكروب .
(٤٠) كتاب ذكْر الولدان .
(٤١) التعزية الحسنة بالأعزة .
(٤٢) كشْف الكربة عند فقْد الأحبَّة .

ثامنًا : التاريخ والتراجم :

(٤٣) أخبار السَّدِّ ؛ أي الذي بناه ذو القرنين .
(٤٤) أخبار قضاة دمشق .
(٤٥) أسماء مَنْ عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع .
(٤٦) الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام .
(٤٧) الإعلام بوفيات الأعلام .
(٤٨) الأمصار ذوات الآثار .
(٤٩) أهل المائة فصاعدًا .
(٥٠) البيان عن اسم ابن فلان .
(٥١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام . وهو أعظم كُتُبه وأوسعها ، جعله في واحد وعشرين مُجلَّدًا .
(٥٢) التاريخ المُمتع .
(٥٣) تذكرة الحفاظ .

(٥٤) تراجم رجال روى عنهم محمد ابن إسحاق .
(٥٥) تسمية رجال صحيح مسلم الذين انفرد بهم عن البخاري .
(٥٦) تقييد المهمل .
(٥٧) التلويح بمن سبق ولحق .
(٥٨) جزء أربعة تعاصروا .
(٥٩) دول الإسلام .
(٦٠) ديوان الضعفاء والمتروكين .
(٦١) ذكْر مَنِ اشتهر بكُنيته من الأعيان .
(٦٢) ذكْر مَن يُؤتمن قولُه في الجرح والتعديل .
(٦٣) ذيْل الإشارة إلى وفيات الأعيان.
(٦٤) ذيل دول الإسلام .
(٦٥) ذيل سير أعلام النبلاء .
(٦٦) ذيْل ديوان الضعفاء والمتروكين.
(٦٧) ذيْل كتاب الضعفاء لابن الجوزي.
(٦٨) الذيل على ذيل الضعفاء لابن الجوزي.
(٦٩) ذيْل العِبَر في خبر مَنْ غبر .
(٧٠) الردّ على ابن القطان .
(٧١) كتاب الزلازل .
(٧٢) سير أعلام النبلاء . في خمسة وعشرين مُجلَّدًا ، ولو لم يكن له إلا هذا السِّفر العظيم لكفاه عُلُوّ همَّة في نشْر العلم .
(٧٣) طبقات الشيوخ .
(٧٤) العُباب في التاريخ .
(٧٥) العِبَر في خبر مَنْ غبر .
(٧٦) عنوان السير في ذكْر الصحابة.
(٧٧) القبان في أصحاب التقيِّ ابن تيمية.
(٧٨) المُجرَّد في أسماء رجال كتب سنن الإمام أبي عبد الله بن ماجه، سوى مَنْ أخرج له منهم في أحد الصحيحين.
(٧٩) المرتجل في الكُنى .
(٨٠) المُشتبه في الرجال ؛ أسمائهم وأنسابهم .
(٨١) مُعجم الشيوخ الكبير .
(٨٢) مُعجم الشيوخ الأوسط .
(٨٣) المُعجم الصغير « اللَّطيف » .
(٨٤) المعجم المختص بمُحدِّثي العصر.
(٨٥) كتاب معرفة آل منده .

(٨٦) معرفة القرَّاء الكبار على الطبقات والأعصار .
(٨٧) المعين في طبقات المُحدِّثين.
(٨٨) المغنـي في الضعفـاء .
(٨٩) المُقدِّمـة ذات النقـاط في الألقاب.
(٩٠) مَنْ تُكلِّم فيه وهو مُوثَّق؛
(٩١) ميـزان الاعتـدال في نقْـد الرجال.
(٩٢) هالة البدر في عدد أهل بدر .

تاسعًا : السير والتراجم المفردة :

(٩٣) أخبار أبي مسلم الخراساني.
(٩٤) أخبار أُمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها .
(٩٥) التبيان في مناقب عثمان رضي الله عنه .
(٩٦) ترجمة ابن عقدة الكوفي .
(٩٧) ترجمة أبي حنيفة .
(٩٨) ترجمة أبي يوسف القاضي.
(٩٩) ترجمة أحمد بن حنبل .
(١٠٠) ترجمة الخضر .
(١٠١) ترجمة السِّلَفي .
(١٠٢) ترجمة الشافعي .
(١٠٣) ترجمة الشيخ الموفَّق .
(١٠٤) ترجمة مالك بن أنس .
(١٠٥) ترجمة محمد بن الحسن الشيباني.
(١٠٦) توقيـف أهـل التوفيـق على مناقب الصِّدِّيق .
(١٠٧) الدُّرَّة اليتيمية في السيرة التيمية.
(١٠٨) سيرة الحلَّاج .
(١٠٩) سيرة أبي القاسم الطبراني .
(١١٠) سيرة سعيد بن المسيب .
(١١١) سيرة عمر بن عبد العزيز.
(١١٢) السيرة النبوية .
(١١٣) فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب .
(١١٤) قضّ نهارك بأخبار ابن المبارك.
(١١٥) مناقب البخاري .
(١١٦) نعـم السمر في سيـرة عمر رضي الله عنه .
(١١٧) نفض الجُعْبة في أخبار شعبة .
(١١٨) سيرة لنفسه .

عاشرًا : المنوَّعات :

(١١٩) بيان زغل العلم والطلب .
(١٢٠) التمسُّك بالسُّنَن .
(١٢١) جزء في فضل آية الكرسي .
(١٢٢) الطب النبوي .

(١٢٣) كسْر وثن رتن .
(١٢٤) مفاخرة المشمش والتوت.

أحد عشر: المُختصرات والمُنتقَيات:

(١٢٥) أحاديث مختارة من الموضوعات من الأباطيل للجوزقاني .
(١٢٦) بلبل الروض .
(١٢٧) تجريد أسماء الصحابة .
(١٢٨) تذهيب تهذيب الكمال في معرفة الرجال .
(١٢٩) ترتيب الموضوعات لابن الجوزي.
(١٣٠) تلخيص العِلَل المتناهية .
(١٣١) تنقيح كتاب التحقيق في أحاديث التعليق لابن الجوزي .
(١٣٢) تهذيب تاريخ علم الدين البرزالي .
(١٣٣) كتاب الجهر بالبسملة مختصرًا.
(١٣٤) الرخصة في الغناء والطرب بشرطه .
(١٣٥) الكاشف في معرفة مَنْ له رواية في الكتب السِّتة .
(١٣٦) المُجرَّد من تهذيب الكمال .
(١٣٧) مُختصر إنباه الرواة على أنباه النحاة لابن القفطي .
(١٣٨) مختصر الأنساب لأبي سعد السمعاني .
(١٣٩) مختصر كتاب البعث والنشور للبيهقي .
(١٤٠) مختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .
(١٤١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر.
(١٤٢) مختصر تاريخ مصر لابن يونس.
(١٤٣) مختصر تاريخ نيسابور للحاكم.
(١٤٤) مختصر تحفة الأشراف للمزِّيِّ.
(١٤٥) مختصر تقويم البلدان لأبي الفدا.
(١٤٦) مختصر التكملة لكتاب الصلة لابن الأبَّار .
(١٤٧) مختصر التكملة لوفيات النقَلَة للمنذري .
(١٤٨) مختصر جامع بيان العلم وفضله .
(١٤٩) مختصر كتاب الجهاد لبهاء الدين ابن عساكر .
(١٥٠) مختصر ذيل تاريخ بغداد لابن السمعاني .

(١٥١) مختصر الردِّ على ابن طاهر لابن المجد .

(١٥٢) مختصر كتاب الروضتين وذيله لأبي شامة .

(١٥٣) مختصر كتاب الزهد للبيهقي.

(١٥٤) مختصر كتاب سلاح المؤمن لابن الإمام .

(١٥٥) مختصر صلة التكملة لوفيات النقَلَة للحسيني .

(١٥٦) مختصر الضعفاء لابن الجوزي.

(١٥٧) مختصر كتاب الفاروق في الصفات لشيخ الإسلام الأنصاري.

(١٥٨) مختصر كتاب القدر للبيهقي.

(١٥٩) المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الدبيثي .

(١٦٠) مختصر المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي .

(١٦١) مختصر كتاب المستدرك على الصحيحين .

(١٦٢) مختصر كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي .

(١٦٣) مختصر مناقب سفيان الثوري لابن الجوزي .

(١٦٤) مختصر وفيات الأعيان لابن خلِّكان .

(١٦٥) مختصر كتاب الوهم والإيهام الواقعيْن في كتاب الأحكام لابن القطان.

(١٦٦) المستحلى في اختصار المُحلَّى لابن حزم .

(١٦٧) معرفة التابعين من الثقات لابن حبان .

(١٦٨) المُقتضَب من تهذيب الكمال للمزيِّ .

(١٦٩) المُقتنى في سرد الكُنى .

(١٧٠) المُنتخب من تاريخ ابن النجار.

(١٧١) مُنتقى الاستيعاب في معرفة الأصحاب .

(١٧٢) المنتقى من تاريخ أبي الفدا.

(١٧٣) المُنتقى من تاريخ خوارزم .

(١٧٤) المُنتقى من مُسند أبي عوانة.

(١٧٥) المُنتقى من مُسنَد عبد بن حُميد .

(١٧٦) المُنتقى من مُعجم يوسف بن خليل الدمشقي .

(١٧٧) المُنتقى من معجمي الطبراني الأوسط والكبير ومن مسند المُقلِّين

لدعلج .
(١٧٨) المُنتقى من معرفة الصحابة لابن منده .
(١٧٩) المُنتقى من منهاج الاعتدال.
(١٨٠) مُهذَّب السنن الكبرى للبيهقي.
(١٨١) نُبذة من فوائد تاريخ ابن الجزري .
(١٨٢) النبلاء في شيوخ السُّنَّة .

اثنا عشر : التخاريج :

ا - مُعجمات الشيوخ :

(١٨٣) مُعجم شيوخ ابن البالسي .
(١٨٤) مُعجم شيوخ ابن حبيب .
(١٨٥) مُعجم شيوخ ابن العطَّار .
(١٨٦) المعجم العلي للقاضي الحنبلي.

ب - المشيخات :

(١٨٧) مشيخة التَّلِّي .
(١٨٨) مشيخة الجعبري .
(١٨٩) مشيخة ابن الزراد الحريري.
(١٩٠) مشيخة عز الدين المقدسي.
(١٩١) مشيخة ابن القوَّاس .
(١٩٢) مشيخة الكمال .

جـ - الأربعينيات :

(١٩٣) أربعون حديثًا بلدانية من المعجم الصغير للطبراني .
(١٩٤) أربعون حديثًا بلدانية من مُعجم ابن جُميع الصيداوي .
(١٩٥) أربعون حديثًا بلدانية من مُعجم شيوخ أبي بكرٍ المقدسي .
(١٩٦) أربعون حديثًا بلدانية من مُعجم شيوخ ابن المُقرىء .
(١٩٧) أربعون حديثًا للأبرقوهي .
(١٩٨) أربعون حديثًا لابنه أبي هريرة عبد الرحمن .

د - كُتُبُ الثلاثينيات :

(١٩٩) ثلاثون حديثًا من المعجم الصغير للطبراني .

هـ - الأحاديث العوالي :

(٢٠٠) عوالي الشمس ابن الواسطي.
(٢٠١) عوالي الطاووسي .
(٢٠٢) عوالي أبي عبد الله ابن اليونيني.
(٢٠٣) العوالي من حديث مالك .
(٢٠٤) العوالي المنتقاة من حديث الذهبي .

و - الأجـزاء :

(٢٠٥) الجزء المُلقَّب بالدينار من

حديث المشايخ الكبار .

(٢٠٦) جزء للقزويني .

(٢٠٧) جزء لأبي بكر المرسي .

(٢٠٨) جزء لابن المُحبِّ المقدسي.

(٢٠٩) جزء لابن الكويك .

(٢١٠) جزء لأمين الدين الواني .

(٢١١) جزء على ابن جماعة الكناني.

(٢١٢) أحاديث مختصر ابن الحاجب.

(٢١٣) ثُلاثيَّات ابن ماجه .

(٢١٤) المُنتقى من حديث تقيِّ الدين ابن الشيخ شمس الدين ابن المجد البعلي ... وغيرها »[١].

وبعد ، أفلا نقول بعد هذا المختصر النيِّر بعُلُوِّ هِمَّة الذهبي في طلب العلم ونشْره ، ما قاله السُّبكي :

مَنْ للحديثِ وللسارينَ في الطلب ... من بعد موتِ الإمام الحافظ الذهبي
مَنْ للروايةِ للأخبارِ ينشرُها ... بين البريَّةِ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ
مَنْ للدرايةِ والآثارِ يحفظُها ... بالنقدِ من وضْعِ أهل الغيِّ والكذبِ
مَنْ للصناعةِ يدري حَلَّ مُعْضِلِها ... حتى يُريكَ جلاءَ الشكِّ والرِّيَبِ
مَنْ للجماعةِ أهلِ العلمِ تُلبسُهُمْ ... أعلامُه الغُرُّ من أبرادِها القُشُبِ
مَنْ للتخاريج يُبديها ويدخلُ في ... أبوابِها فاتحًا للمُقْفَلِ الأشِبِ
مَنْ في القراءاتِ بين الناس نافِعُهم ... وعاصِمٌ رُكْنها في الجَحْفَلِ اللَّجِبِ
مَنْ للخطابةِ لمَّا لاحَ يَرْفُلُ في ... ثوبِ السَّوادِ كبدرٍ لاحَ في سُحُبِ
هو الإمامُ الذي رَوَّتْ روايتُهُ ... وَطبَّقَ الأرضَ مِنْ طُلَّابِهِ النُّجُبِ
مُهذَّبُ القولِ لا عِيٌّ ولجْلَجَةٌ ... مُثبَّتُ النَّقْل سامي القصد والحسَبِ
ثبتٌ صدوقٌ خبيرٌ حافظٌ يَقِظٌ ... في النقلِ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ
كالزُّهْرِ في حَسَبٍ والزَّهْرِ في نَسَبِ ... والنَّهْرِ في حَدَبٍ والدَّهْرِ في رُتَبِ[٢]

(١) مختصر من كتاب « الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام » لبشَّار عواد معروف .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي ٩/١٠٩ - ١١١ .

(٢٥٠) الحافظ عَلَم الدين ، أبو محمد ، القاسم بن محمد بن يوسف البَرْزالي :

قال عنه السبكي : « الحافظ الكبير ، أحد الأربعة الذين لا خامس لهم في هذه الصناعة .

ذكره الشيخ شهاب الدين بن فضل الله في « المسالك » ، فقال : « ممَّن ولدتْه دمشق ، والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِق ، وأوجدته الأيام فسطَع ضوؤها المُشرِق ، وتمخَّضتْ منه الليالي عن واحدها واحد أهل المشرق ، ومشى فيها على طريق واحد ، ما تغيَّر عن سلوكها ولا تقهقر في سلوكها » .

مولده سنة خمس وستين وستمائة . وسمع سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، فجمع « مُعجمُه » العدد الكثير والجمَّ الغفير . وكان مُفيد جماعة المُحدِّثين على الحقيقة »[1] .

وقد كان عَلَمُ الدين البرزالي رفيق الذهبي في الطلب وشيخه ، « وهو الذي حبَّب إلى الذهبي العناية بالحديث النبوي الشريف ؛ فقال الذهبي في معجم شيوخه الكبير : « الإمام الحافظ ، المُتقن الصادق ، الحُجَّة ؛ مُفيدنا ومُعلِّمنا ورفيقُنا ، مُحدِّث الشام ، مُؤرِّخ العصر » . وقال في موضع آخر : « وهو الذي حبَّب إليَّ طلب الحديث ، فإنه رأى خطِّي ، فقال : خطُّك يُشبه خطَّ المُحدِّثين ! فأثَّر قولُه فيَّ ، وسمعتُ منه ، وتخرَّجتُ به في أشياء » ، وكان على غاية من الإعجاب بعلمه ، ولا سيما معجم شيوخه الذي خرَّجه لنفسه ، وفيه ثلاثة آلاف شيخ ؛ منهم ألفان بالسماع وألفٌ بالإجازة . ونظم الذهبي في هذا المعجم بيتين من الشعر ، وقال :

إنْ رُمْتَ تفتيشَ الخزائنِ كلِّها وظهورَ أجزاء حَوَتْ وعوالي

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى . ١٠/٣٨١ - ٣٨٢ .

ونعوتَ أشياخِ الوجودِ وما رَوَوْا طالِعْ أو اسمعْ مُعجمَ البرزالي»[1].

قال عنه الحافظ أبو المحاسن الحسيني في « ذيل تذكرة الحفاظ » : « الشيخ الإمام الحافظ العمدة ، مُحدِّث الشام ومُؤرِّخه ومُفيده ... كتب الكثير من الكتب المُطوَّلة والأجزاء العالية المفيدة ، وخرَّج لخلقٍ من شيوخه وأقرانه ، وسمع منه طوائف ، وحدَّث عنه خلقٌ في حياته وبعد وفاته ، وحجَّ مرَّات حتى مات ، ووقف كُتُبَه وأجزاءه ، أحسن الله جزاءه »[2].

رثاه القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بقصيدة ؛ منها :

قد كان في قاسمٍ من غيرهِ عوضٌ فاليومَ لا قاسِمٌ فينا ولا قَسَمُ
من لو أتى مكَّة مالتْ أباطِحُها به سرورًا وجادتْ أُفقها الدِّيمُ
أقسمتُ منذُ زمانٍ ما رأى أحدٌ لقاسِمٍ شبهًا في الأرضِ لو قُسمُوا
هذا الذي يشكرُ المختارُ هجرتَهُ « والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ »
ما كان يُنْكِرهُ رميُ الحطيمِ بِهِ لو أخَّرَ العُمرَ حتى جاء يَسْتَلِمُ
له إليه وفاداتٌ تُقِرُّ بها جِبالُ مكةَ والبطحاءُ والأكَمُ
مُحدِّثُ الشامِ صِدْقًا بَلْ مُؤرِّخُه جرى بهذا وذا فيما مضى القَلَمُ
يا طالبَ العِلْمِ في الفنَّيْنِ مجْتهدًا في ذا وهذا يُنادي المُفردُ العَلَمُ

ومنها :

وحَقَّقَ النَّقْدَ حتى بانَ بَهْرَجُهُ وصَحَّحَ النقلَ حتى ما به سَقَمُ
وعرَّف الناسَ كيف الطُّرْقُ أجمَعُها إلى النَّبِّي فما حاروا ولا وَهَمُوا
وعَلَّمَ الخلق في التاريخ ما جَهِلوا وبعضُ ما جَهِلُوا أضعافُ ما علموا
يُريك « تاريخهُ » مهما أردتَ به كأنَّ تاريخَه الآفاقُ والأُمَمُ[3]

(١) الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ص١٠٠ .
(٢) ذيل تذكرة الحفاظ ص١٨ .
(٣) ابن قيم الجوزية ؛ حياته وآثاره . لبكر بن عبد الله أبو زيد ص١٠٩ .

(٢٥١) الحافظ ابن عبد الهادي ، شمس الدين أبو عبد الله ، محمد بن أحمد ابن عبد الهادي المقدسي :

قال عنه ابن رجب في « ذيل طبقات الحنابلة » (٢/ ٤٣٦ - ٤٣٩) : المُقرىء الفقيه المُحدِّث ، الحافظ الناقد ، النحوي المُتقنِّن .

قرأ بالروايات ، وسمع الكثير .... وعُني بالحديث وفنونه ومعرفة الرجال والعلل ، وبرع في ذلك . وتفقَّه في المذهب وأفتى ، وقرأ الأصلين والعربية ، وبرع فيها ، ولازم الشيخ تقيَّ الدين ابن تيمية مُدَّة ، وقرأ عليه قطعةً من الأربعين في أصول الدين للرازي .

قرأ الفقه على الشيخ مجد الدين الحرَّاني ، ولازم أبا الحجَّاج المزِّيَّ الحافظ ، حتى برع عليه في الرجال ، وأخذ عن الذهبي وغيره .

وقد ذكره الذهبي في طبقات الحفاظ ، قال : اعتنى بالرجال والعِلَل ، وبرع وجمع ، وتصدَّى للإفادة والاشتغال في القراءة والحديث والفقه والأصلين والنحو ، وله توسُّعٌ في العلوم وذهنٌ سيَّال .

وذكره في معجمه المختص ، وقال : « عُني بفنون الحديث ومعرفة رجاله ، وذهنُه مليح ، وله عدَّة محفوظات وتآليف وتعاليق مفيدة ، كتب عني ، واستفدتُ منه » .

صنَّف تصانيف كثيرة ؛ بعضُها كملت ، وبعضُها لم يُكملْه ؛ لهجوم المنية عليه في سِنِّ الأربعين ! وعدَّ ابن رجب ثمانية وخمسين مُصنَّفًا له . وله الكتاب القيمِّ « الصارمُ المُنكي في الردِّ على السُّبكي » . وقال الدكتور بكر أبو زيد : « ذكر له ابن رجب ما يزيد عن سبعين مُصنَّفًا ، يبلغ بعضها مائة مُجلَّد »(١).

---

(١) ابن قيم الجوزية ؛ حياته وآثاره . لبكر بن عبد الله أبو زيد ص١٠٩ .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٤/ ٢٢١ - ٢٢٢) :
« صاحبنا الشيخ الإمام ، العالِم العلّامة الناقد ، البارع في فنون العلوم ... تُوفي قبل أذان العصر ، فأخبرني والده أنَّ آخر كلامه أنْ قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ... وكانت جنازته حافلةٌ مليحةٌ ، عليها ضوْءٌ ، ونورٌ ... لم يبلغْ الأربعين ، وحصّل من العلوم ما لا يبلغُه الشيوخ الكبار ، وتفنّن في الحديث والنحو والتصريف والفقه والتفسير والأصليْن والتاريخ والقراءات ، وله مجاميعُ وتعاليقُ مفيدة كثيرةٌ ، وكان حافظًا جيدًا لأسماء الرجال ، وطرق الحديث ، عارفًا بالجَرْح والتعديل ، بصيرًا بعلل الحديث ، حسَنَ الفهم له ، جيِّدَ المذاكرة ، صحيح الذِّهن ، مستقيمًا على طريقة السلف ، واتباع الكتاب والسنة ، مثابرًا على فعْل الخيرات » .

٢٥٢ - الحافظ ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي :

شيخ المُفَسّرين في عصره ، ولو لم يكن له إلّا « تفسير ابن كثير » الذي سارت به الركبان ، وطاف ذكره في البلدان لكفاه علوّ همة في تحصيل العلم ونشْره ، وكم لقي هذا التفسير مِنَ القبول عند جهابذة العلماء وعامّة المسلمين .

تأثر وتتلمذ على يد شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ المزِّي صِهْره ، وسمع عليه أكثر تصانيفه ، وتقرّب منه حتى أحسن إليه ، وتزوَّج من ابنته زيْنب ، وأفاد منه كثيرًا في الحديث ورجاله .

ومِن شيوخه نَجم الدين بن العسقلاني ، سمِع عليه صحيح مسلم في تسعةِ مجالسٍ بقراءة الوزير العالم أبي القاسم محمد بن محمد بن سْهل الأزدي الغرناطي الأندلسي .

ومن شيوخه شهابُ الدين الحجار المعروف بابن الشّحنة ، سمع عليه

بدار الحديث الأشرفية في أيام الشتويات نحوًا من خمسمائة جزءٍ بالإجازات والسماع .

ومن شيوخه أيضًا الحافظ الذهبي .

قال عنه أحدُ تلاميذه ابن حجي : كان أحفظَ مَن أدركناه لمتون الأحاديث ، وأعرفَهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانُه وشيوخه يعترفون له بذلك .

وقال عنه الداوي في طبقات المفسرين (٣٢٧) : كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدةَ أهل المعاني والألفاظ .

قال عنه الذهبي : خرّج وناظر ، وصنف ، وفسر ، وتقدم . وقال عنه: الإمام المفتي، المحدِّث البارع، فقيهٌ مُتَفنِّنٌ، محدِّثٌ، متقِنٌ، مفسِّرٌ نقّالٌ.

ووصفه السيوطي بقوله : له التفسير الذي لم يُؤَلَّفْ على نمطٍ مثله .

له كتاب « البداية والنهاية » ، وله كتاب « التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل » جمع فيه بين كتاب « التهذيب » و « الميزان » ، وهو خمس مجلداتٍ ، وله كتاب « الهدى والسُّنن في أحاديث المسانيد والسنن » وهو المعروف بـ « جامع المسانيد » ، رتَّبه على الأبواب ، جمع فيه بين مُسْنَد الإمام أحمد والبزّار وأبي يعلى وابن أبي شيبة إلى الكتب الستة ، وهو من أنفع كتبه .

تولّى مشيخة أمِّ الصالح والتنكزية بعد الذهبي ، وبعد موت السبكي تولّى مشيخة الحديث الأشرفية مدةً يسيرة.

وله « اختصار علوم الحديث » وهي رسالة طيبة في المصطلح ، شرَحَها محدِّثُ الديار المصرية الشيخُ أحمد محمد شاكر بعنوان « الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث » .

قال ابن حجر عنه : « اشتغل بالحديث مطالعةً في متونه ورجاله ،

وجمع التفسير ، وشَرَع في كتاب كبير في الأحكام لم يُكمل ، وجمع التاريخ الذي سمّاه « البداية والنهاية » ، وعمل طبقات الشافعية ، وشرع في شرح البخاري ، وصارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته ، ولم يكن على طريق المحدِّثين في تحصيل العوالي ، وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك مِن فنونهم ، وإنما هو مِن محدِّثي الفقهاء ، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح ، وله فيه فوائد »(١) .

قال ابن حبيب فيه : « زعيمُ أرباب التأويل ، سمِع وجمَع وصنّف ، وأطرب الأسمَاع بالفتوى وشنّف ، وحدّث وأفاد ، وطارت أوراق فتاويه في البلاد ، واشتهر بالضبْط والتحرير ، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير »(٢) .

« وتفسيره مِن أشهر ما دوّن في التفسير المأثور ، ويعتبر في هذه الناحية الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير . وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير الذي يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، وهذا الكتاب أكثر ما عُرِف مِن كتب التفسير سردًا للآيات المتناسبة في المعنى الواحد »(٣).

٢٥٣ - شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن مُفلح بن محمد الراسني الحنبلي صاحب كتاب « الفروع » :

الإمام العالم وحيد دهره ، وفريد عصره .

تفقّه في المذهب الحنبلي حتى برع فيه ، وكان بارعًا متفنّنًا ، ولا سيما علم الفروع ، وكان غايةً في نقل مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه .

وقال عنه أبو البقاء السُّبكي : ما رأت عيناىَ أحدًا أفقه منه . ولم

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/٣٧٣ - ٣٧٤ .
(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ١/٢٣٥ .
(٣) التفسير والمفسرون ١/٢٣٦ .

يُر في زمانه في المذاهب الأربعة مَن له محفوظات أكثر منه[١] فمن محفوظاته : « المنتقى في الأحكام » قرأه وعرضه في قريب أربعة أشهر .

وقال ابن القيم لقاضي القضاة موفَّق الدين الحجاوي سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة : ما تحت قبةِ الفلك أعلم بمذهبِ الإمام أحمد من ابنِ مُفلح .

وحضر عند الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، ونقل عنه كثيرًا ، وكان يقول له : ما أنت ابن مفلحٍ ، بل أنت مُفلحٌ . وكان أخبرَ الناس بمسائله واختياراته ، حتى كان ابن القيم الذي نشر علمَ شيخ الإسلام يراجعه فيها .

وكان يتردد على المزي والذهبي ، ونقل عنهما كثيرًا ، وكانا يعظِّمانه ، وكان الشيخ تقي الدين السبكي يُثني عليه كثيرًا .

قال ابن كثير : وجمع مصنفات ، منها : على « المُقْنِع » نحو ثلاثين مجلدًا ، كما أخبرني عنه قاضي القضاة جمال الدين ، وعلى « المُنتَقى » مجلّديْن .

وله من المصنفات : « الآداب الشرعية الكبرى » و « الوسطى » و « الصغرى » .

ومنها - وهو غُرَّتُها -: كتابُ « الفروع » وهو من أجَلِّ الكتب وأنفعها وأجمعها للفوائد .

قال الحافظ ابن حجر عن كتاب « الفروع » في « الدرر » : « أورد فيه من الفروع الغريبة ما بَهَر العلماءَ ، وكان يسمَّى : مكنسة الذهب » .
ولقد اعتنى علماء الحنابلة بالفروع وشرْحِه والكتابة عليه ، وصحَّحه علَّامة المذهب ومُحرِّرهُ المرداوي .

---

(١) صاحبُ هذا القول هو قاضي القضاة جمال الدين المرداوي الذي زوَّج ابن مفلح ابنته .

وله كتابٌ في أصول الفقه ، وهو كتابٌ جليلٌ حذا فيه حذْوَ ابن الحاجب في مختصره ، لكن فيه من النقول والفوايد ما لا يوجد في غيره ، وليس للحنابلة أحسن منه .

٢٥٤ - الحافظ العراقي أبو الفضل عبد الرَّحيم بن الحُسين بن عبد الرَّحمن المصري :

شيخ الحديث بمصر ، وإمام الحفاظ في عصره .

« حفظ القرآن وهو ابن ثمان ، و « التنبيه » وأكثر « الحاوي » » ، وكان رام حفظ جميعه في شهرٍ ، فملّ بعد اثني عشر يومًا ، وكذا حفظ « الإلمام » لابن دقيق العيد ، وكان ربما حفظ منه في اليوم أربعمائةِ سطرٍ ، إلى غير ذلك من المحافيظ . ولازم الشيوخ في الدراية فكان أول شيءٍ اشتغل به القـراءاتُ ، وأكمل القراءات السبعة ، ونظر في الفقه وأصولِه ، وكان الأسنوي يُثني على فهْمه ، ويستحسن كلامه في الأصول ويُصغي لمباحثه فيه ، ويقول : إن ذهنه صحيح لا يقبل الخطأ . وفي أثناء ذلك أقبل على علم الحديث بإشارة العزّ بن جماعة ؛ فإنه قال له - وقد رآه مُتوغِّلًا في القراءات -: إنه علمٌ كثيرُ التعب قليلُ الجدوَى ، وأنت متوقدُ الذِّهن ، فاصرفْ همتك إلى الحديث . فأخذه بالقاهرة عن العلاء التّركماني الحنفي ، وبه تخرّج وعليه انتفع ، وببيت المقدس وبمكة عن العلائي ، وبالشام عن التَّقي السُّبكي ، وزاد تفنُّنًا باجتماعه بهما ، ورحل إلى المدينة والإسكندرية وبعلبك وحماة وحمص وصفْد وطرابلس وغزَّة ونابْلس .

قال شيخنا في معجمه : اشتغل بالعلوم وأحب الحديث ، لكن لم يكن له مَن يخرجه على طريقة أهل الإسناد ، وكان قد لهج بتخريج أحاديث الإحياء وله من العمر نحو العشرين ، وذكر في شرحه للألفية أن المحدث أبا محمود المقدسي سمع منه شيئًا في تلك السنة (٧٤٥هـ) ، ثم نبّهه العز بن جماعة

لما رأى مِنْ حرْصه على الحديث وجمعه على طريقة أهله ، فحبّب الله له ذلك ؛ ولازمه وأكبّ عليه من سنة اثنتين وخمسين ، حتى غلب عليه وتوغل فيه ؛ بحيث صار لا يُعرَف إلا به ، وانصرفتْ أوْقاتُه فيه ، وتقدّم فيه بحيث كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة ، كالسبكي ، والعلائي ، وابن جماعة ، وابن كثير ، وغيرهم - يعني كالإسنائي - فإنه وصفه بـ « صاحبنا حافظ الوقت »[1]. ونقل عنه في المهمات وغيرها ، وترجمه في طبقات الشافعية ، ولم يذكر فيها من الأحياء سواه .

وكذا صرّح ابن كثير باستفادته منه تخريج شَيْءٍ وقف على المحدِّثين ، وقرأ عليه شيئًا .

بل امتنع السبكي حين قدومه القاهرة - سنةَ وفاتِهِ - من التحديث إلا بحضْرته .

وقال العز بن جماعة : كلّ منْ يدّعي الحديث بالديار المصرية سواه فهو مدّعٍ .

وتصدّى للتخريج والتصنيف والتدريس والإفادة .

فكان من تخاريجه : فِهْرسْت مرويات البياني ، ومشيخة التونسي وابن القاري ، وذيل مشيخة القلانسي ، وتُسَاعِيَّاتٍ للميدومي ، وعُشارياتٍ لنفسه ، وتخريج للإحياء في كبيرٍ ومتوسطٍ وصغيرٍ وهو المتداول ، سمَّاه : « المغني عن حمْل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياءِ مِنَ الأخبار » .

ومن تصانيفه : « الألفية في علوم الحديث » ، و « في السيرة النبوية » ، و « في غريب القرآن » ، وشرح الأُولى وكَتَب على أصلها ابنُ الصلاح نكتًا ، وكذا « نظْمُ الاقتراح » لابن دقيق العيد ، وعمل في المراسِيل كتابًا ،

---

(١) مع كوْنه من تلامذته ، قال السخاوي : وهذا وأمثاله مما يُعد من مفاخر كلّ من الناقل والمنقول عنه .

وهو من أواخر ما جمعه ، و « تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد » في الأحكام ، واختصره ، وكذا أكْمَل « شرح الترمذي » لابن سيد الناس ، فكتب منه تِسْعَ مجلداتٍ ، ولم يكمل أيضًا .

وفي الفقه : « الاستعاذة بالواحد من إقامة جُمْعَتَيْن في مكانٍ واحد » ، و « تاريخ تحريم الربا » و « تكمِلَة شرْح المهذَّب » للنووي ، بني على كتابة شيخه السُّبكي ، فكتب أماكن واستدراك على المهمات للأسنوي ، وسماه « تتمَّات المهمَّات » .

وفي الأصول : نظم « مِنهاج البيضاوي » .

وولي التدريس للمحدِّثين بأماكن ، منها : دار الحديث الكاملية ، والظاهرية القديمة والقراسنقورية ، وجامع ابن طولون ، وللفقهاء : بالفاضلية وغيرها ، وولي قضاء المدينة النبوية وخطابتها وإمامتها سنة ٧٨٨ ، وشرع في الإملاء بالقاهرة من سنة خمس وتسعين ، فأملى أربعمائة مجلسٍ وستةَ عَشر مجلسًا ، فأوّلًا أشياء نثرياتٍ ، ثم تخريج أربعين النووي ، ثم مستخرجًا على « مستدرك الحاكم » كتب منه قدرَ مُجيْلدةٍ إلى أثناء كتاب الصلاة ، في نحو ثلثمائة مجلس ، أولها السادسَ عشرَ بعد المائة .

قال شيخنا في معجمه : وكان يمليها من حفْظِه متقنة مهذبة محررةً ، كثيرة الفوائد الحديثية ، وحكى رفيقه الحافظ الهيثمي أنه رأى النبي ﷺ في النوم ، وعيسى عليه السلام عن يمينه ، وصاحب الترجمة عن يساره .

قال ابن حجر : « وقد لازمتُه مدةً فلم أرَه تَركَ قيامَ الليل ، بل صار له كالمألوف ، وإذا صلى الصبح استمر - غالبًا - في مجلسه مُستقبِلَ القبلة ، تاليًا ذاكرًا ، إلى أن تطلع الشمسُ » .

وقال في صدر أسئلةٍ له : سألتُ سيدنَا وقدوتَنا ومعلِّمنا ومفيدنا ومخرجنا شيخ الإسلام أوحد الأعلام ، حسنةَ الأيام ، حافظَ الوقت .. وفي أنبائه أنه صار المنظورَ إليه في هذا الفن من زمن الأسنائي ، وهُلمَّ جَرًّا . قال : ولم نر في هذا الفن أتقنَ منه ، وعليه تخرّج غالِبُ أهلِ عصره ، ومِن أخصِّهم به : شيخُنا - صِهْرُه - الهيثمي ، وهو الذي درّبه ، وعلّمه كيفية التخريج والتصنيف ، بل كان هو الذي يعمل له خُطَب كُتُبه ويسمِّيها له ، وصار الهيثمي لشدَّةِ ممارسته أكثر استحضارًا للمتون من شيخه ، حتى يظنّ من لا خبرة لهُ أنه أحفظ منه ، وليس كذلك ؛ لأن الحفظ المعرفة .

قال ابن حجر : وقد لازمتُه عشر سنين ، سوى ما تخلَّلها من الرحلات ، وكذا لازمَه البرهان الحلبي نحوًا من عشر سنين .

وقال أيضًا : لم أرَ أعلم بصناعة الحديث منه ، وبه تخرّجت ؛ وقد أخبرني أنه عمل تخريج أحاديث البيضاوي بين الظهر والعصر ، وكان كثيرَ الحياء والعلم والتوافر ، وافرَ الجلالة والمهابة ، على طريق السلف ، وغالبُ أوْقاته في تصنيفٍ أوْ إسماعٍ ، مع الدِّين والأوْراد ، وإدامة الصوم وقيام الليل ، كريم الأخلاق ، ظاهر الوضاء كأنَّ وجهه مصباح ، ومَن رآه عرف أنه رجلٌ صالح . قال : وكان عالمًا بالنحو واللغة والغريب ، والقراءات والحديث والفقه وأصوله ، غير أنّه غلَب عليه فنُّ الحديث فاشتُهر به وانفرد بالمعرفة فيه مع العلو . قال : وذهنُه في غايةِ الصحةِ ، ونقله نقْرٌ في حَجَر . قال : وكان كثير الكتب والأجزاء ؛ لم أر عند أحدٍ بالقاهرة أكثر مَن كُتُبه وأجزائه .

ثم قال : وقد قلتُ لما بلغتني وفاتُه :

رحمةُ اللهِ للعراقِيِّ تَتْرَىٰ ... حافظِ الأرض حَبْرِها باتِّفاقِ
إنّني مُقْسِمٌ أَلِيَّةَ صِدقٍ ... لَمْ يكنْ في البلادِ مِثلُ العراقي

وقال التَّقي الفاسي في «ذيل التقييد»: « كان حافظًا متقنًا ، عارفًا بفنون الحديث والفقه والعربية وغير ذلك ، كثيرَ الفضائل والمحاسن ، ومسموعاته وشيوخه في غاية الكثرة ، وأخذ عنه علماءُ الديار المصرية وغيرهم ، وأثنَوْا على فضائله ، وأخذتُ عنه الكثير بقراءتي وسماعًا ، بعد انصرافه من المدينة أقام بالقاهرة مشتغِلًا بالتصنيف والإفادة والإسماع ، حتى مضى لسبيله محمودًا .

وقال المقريزي في « السلوك » : شيخ الحديث ، انتهتْ إليه رياستُه .

ولم يكن العراقي يحدّث إلا على طهارةٍ ؛ فكان إذا أحدث قطع القارىء القراءةَ حتى يتوضأ »[1].

قرأ العراقي على ابن الخباز محمد بن إسماعيل صحيحَ مسلمٍ في ستةِ مجالسٍ مُتواليةٍ ، قرأ في آخرِ مجلسٍ منها أكثر من ثُلُثِ الكتاب ، وذلك بحضورِ الحافظ زيْن الدين ابن رجب ، وهو معارض بنُسختِه .

له المؤلفات المفيدة المشهورة في علم الحديث ، والتخاريج الحسنة ، ودرس بعدّةِ أماكن ، وأفتى وحدّث كثيرًا بالحرميْن ومصر والشام ، وأفاد ، وتكلّم على العلل والإسناد ، ومعاني الفنون وفقهها فأجاد ، وقُصد من مشارق الأرض ومغاربها فرحَل إليه - للأخذ عنه والسماع - الجمُّ الغفير ، الكبير منهم والصغير ، فلازموه وانتفعوا به ، وكتب عنه جميعُ الأئمةِ من العلماء الأعلام ، والحفاظ ذوي الفضْل والانتقاد .

ورثاه تلميذُه ابن حجر بمرثيةٍ قافيَّةٍ ، أوردها في « إنباء الغُمر بأنباء العُمر » (١٧٣/٥ - ١٧٦) ، وهي :

مُصَابٌ لم يُنفَّسْ للخِنَاقِ   أصارَ الدمعَ جارًا للمَآقِي

---

(١) « الضوْء اللامع لأهل القرْن التاسع » للسخاوي ١٧١/٢ - ١٧٧ - طبع دار الجيل ببيروت .

فَرَوْضُ العلمِ بعدَ الزَّهْو ذاوٍ ... ورُوحُ الفضل قد بَلَغَ التَّراقي
وبحرُ الدَّمْعِ يجري في اندفاقٍ ... وبذْرُ الصبرِ يَسْري في المَحَاقِ
وللأحـزانِ بالقلـبِ اجتمـاعٌ ... يُنادِي الصبرَ حَيِّ على الفِراقِ
فأطفأَتِ المنونُ سِراجَ علمٍ ... ونـوَّر نـاره لأُولـي النِّفـاقِ
فيَا أهلَ الشـآم ومصـرَ فابْكُوا ... على عبدِ الرَّحيمِ ابنِ العِراقي
على الحَبْرِ الذي شهدتْ قُرومٌ ... لـهُ بالإِنفـرادِ على اتِّفـاقِ
على حَاوي علوم الشّرعِ جَمْعًا ... بحفـظٍ لا يخـافُ منَ الإباقِ
ومـنْ فُتحـتْ لَهُ قـدَمًا علـومٌ ... غـدَتْ عنْ غيرِه ذاتَ انغِـلاقِ
وجارَى في الحديثِ قديمَ عهدٍ ... فأحـرَزَ دُونهُ خصـلَ السِّباقِ
وبالسبعِ القـراءاتِ العـوالي ... رَقَى قدمًا إلى السَّبْعِ الطِّبَاقِ
فسَلْ إحْيَا علـومِ الـدينِ عنهُ ... أمَا وافاهُ مَعْ ضِيق النِّطاقِ
فصيَّر ذِكْـرَه يسمُـو وينمـو ... بتخـريج الأحاديـثِ الرِّقـاقِ
وشـرْحُ الترمـذي لقـدْ ترقَّـى ... به قـدمًا إلى أَعـلَى المـرَاقي
ونظْمُ ابن الصـلاحِ لهُ صـلاحٌ ... وهذا شـرْحُه في الأُفـقِ راقِ
وفي نظْـم الأُصـولِ لهُ وصـولٌ ... إلـى مِنهـاجِ حـقٍّ باشْتيـاقِ
ونظْـمُ السيـرةِ الغـرَّا يُجـازَى ... عليهـا الأجـرَ مِنْ راقـي البـراقِ
دعاهُ بحافِظِ العصرِ الإمامُ الْـ ... ـكبيرُ الأسْنَـويُّ لدَى الطّباقِ
وعلّا قدْرَه السُّبكيُّ وابنُ الْـ ... ـعلايِي والأئمـةُ باتِّفـــاقِ
ومـنْ سِتِّينَ عـامًا لـمْ يُجـار ... ولا طمع المجاري في اللِّحاقِ
يُقضّي اليومَ في تصنيف علمٍ ... وطُول تهجُّدٍ في الليل واقـي
فبالصُّحفِ الكريمةِ في اصْطباحٍ ... وبالتُّحَفِ الكريمة في اغْتِباقِ
فمـا فتنتْـهُ كـأْسٌ بالْتِثـامٍ ... ولا أَلْهـاهُ ظَبْـيٌ باعْتنـــاقِ
فتى كرمٍ يزيدُ وشيخُ علـمٍ ... لدَى الطُّلاب مَعْ حمْلِ المشـاق
فيَقْـرِي طالبي عِلْـمٍ ويُقـري ... قِـرًى وقـراءةً ذاتَ اتِّسـاق

فيا أسفا عليه لحُسْنِ خلُقٍ أرَقَّ مِن النسيمات الرِّقاقِ
ويا أسفا عليه لحفظِ ودٍّ إذا نُسيتْ مودَّاتُ الرفاقِ
ويا أسفا لتقْييداتِ علْمٍ تولّتْ بعدَهُ ذاتَ انطلاقِ
عليه سلامُ ربِّي كل حينٍ يُلاقيه الرِّضا فيما يُلاقي
وأسْقَتْ لحْدَهُ سُحُبُ الغَوادِي إذا انْهَمَلَتْ هَمَتْ ذاتَ انطبَاقِ
وذاقتْ رُوحُهُ في كلِّ يومٍ تحيّاتٍ إلى يوم التَّلاقِ

قال السيوطيّ في « التدريب » : كان الإملاءُ دَرَسَ بعد موْت ابن الصلاح إلى أواخر أيام الحافظ العراقي فافتتحه سنة ٧٩٦هـ ، فأملى أربعمائة مجلسٍ وبضعةَ عشر مجلسًا إلى سنة موْتِه سنة ٨٠٦هـ .

وقال السخاوي في « فتح المغيث » : كان الإملاء انقطع قبل العراقي دهرًا وحاوله التاجُ السُّبكي ثم ولَدَهُ الوليُّ العراقي على إحيائه فكان يتعلل برغبة الناس عنه وعدم موقعه منهم ، وقلة الاعتناء به ، إلى أن شرح الله صدره لذلك ، واتفق شروعه فيه بالمدينة المنورة وبعدة أماكن في القاهرة .

ويرحم الله السيوطيَّ القائل :

عابَ الإملَا للحديث رجالٌ قد سَعَوْا في الضلالِ سعيًا حثيثًا
إنما يُنكرُ الأمَاليَ قومٌ لا يكادونَ يفقهُونَ حدِيثًا

٢٥٥ - أستاذ الأستاذِين وحافظ الدنيا الإمَام ابن حجر العسقلاني ؛ أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني :

قال تلميذُه السخاوي في ترجمته في « الضوء اللامع » (٢/٣٦ - ٤٠) : « شيخي الأستاذ إمام الأئمة الشهاب أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري ثم القاهري الشافعي ، ويُعرف بابن حجر . حفظ القرآن وهو ابن تسعٍ عند الصَّدر السقطي شارح مختصر التبريزي ، وحفظ العمدة وألفيّة ابن العراقي والحاوي الصغير ومختصر ابن الحاجب الأصلي والملحة وغيرها ،

وبَحَثَ في صغَره - وهو بمكة - العمدة على الجَمَال بن ظهيرة ، ثم قرأ على الصدر الأبشيطي بالقاهرة شيئًا من العلم ، وبعد بلوغه لازم أحد أوصيائه الشمس بن القطّان في الفقه والعربية والحساب وغيرها ، وقرأ عليه جانبًا كبيرًا من الحاوي ، وكذا لازم في الفقه والعربية النور الآدمي ، وتفقّه بالأبناسي ، بَحَثَ عليه في المنهاج وغيره ، وأكثر من ملازمته أيضًا لاختصاصه بأبيه ، وبالبُلقيني لازمه مدةً وحضر دروسه الفقهية ، وقرأ عليه الكثير من الروضة ومن كلامه على حواشيها ، وسمع عليه بقراءة الشمس البرماوي في مختصر المُزَني ، وبابن الملقّن قرأ عليه قطعة كبيرة من شرحه على المنهاج ، ولازم العز بن جماعة في غالب العلوم التي كان يُقرئها دهرًا ، وممّا أخذه عنه في شرح المنهاج الأصلي ، وفي جمع الجوامع وشرحه للعز ، وحضر دروس الهُمام الخوارزمي ، ومن قبله دروس قنبر العجمي ، وأخذ أيضًا عن البدر بن الطنبدي وابن الصاحب والشهاب أحمد بن عبد الله البوصيري ، وعن الجمال المارداني الموقت الحاسب ، واللغة عن المجد صاحب القاموس ، والعربية عن الغماري والمحبّ بن هشام ، والأدب والعروض ونحوها عن البدر البشتكي ، والقراءات عن التّنُوخي . وجدّ في الفنون حتى بلغ الغاية ، وحبّب الله إليه الحديث ، وأقبل عليه بكليته ، وطلبه من سنة ثلاث وتسعين وهلمّ جرا ، لكنه لم يلزم الطلب إلا من سنة ست وتسعين ، فعكف على الزّين العراقي وتخرّج به وانتفع بملازمته ، وقرأ عليه ألفيتَهُ وشرْحها ، ونُكَتَهُ على ابن الصلاح درايةً وتحقيقًا ، والكثير من الكتب الكبار والأجزاء القصار ، وحمل عنه من أماليه جملةً واستملى عليه بعضَها ، وتحوّل إلى القاهرة فسكنها قُبيل القرن ، وارتحل إلى البلاد الشامية والمصرية والحجازية ، وأكثر جدًّا من المسموع والشيوخ ، فسمع العالي والنازل ، وأخذ عن الشيوخ والأقران فمن دونهم ، واجتمع له من

الشيوخ المشار إليهم والمعوّل في المشكلات عليهم ، ما لم يجتمع لأحدٍ من أهل عصره ، لأن كل واحدٍ منهم كان متبحِّرًا في علمه ، ورأسًا في فنِّه الذي اشتهر به لا يُلحق فيه ، فالتنوخي في معرفة القراءات وعلو سنده فيها ، والعراقي في معرفة علوم الحديث ومتعلّقاته ، والهيثمي في حفظ المتون واستحضارها ، والبلقيني في سعة الحفظ وكثرة الاطّلاع ، وابن الملقّن في كثرة التصانيف ، والمجد الفيروزآبادي في حفظ اللغة واطّلاعه عليها ، والغماري في معرفة العربية ومتعلّقاتها ، والعز بن جماعة في تفنُّنه في علوم كثيرةٍ بحيث إنه كان يقول : أنا أُقرىء في خمسة عشر علمًا لا يعرف علماءُ عصري أسماءَها ، وأذن له جلُّهم أو جميعهم كالبُلقيني والعراقي في الإفتاء والتدريس ، وتصدّى لنشْر الحديث ، وقَصَرَ نفسه عليه مطالعةً وقراءةً وإقراءً ، وشهد له أعيانُ شهوده بالحفظ ، وزادت تصانيفه - التي معظمها في فنون الحديث ، وفيها من فنون الأدب والفقه والأصلين وغير ذلك - على مائة وخمسين تصنيفًا ، ورزق فيها من السعد والقبول ، خصوصًا فتح الباري بشرح البخاري الذي لم يسبق نظيره أمرًا عَجَبًا ، بحيث استدعى طلبه ملوكُ الأطراف بسؤال علمائهم له في طلبه ، وبيع بنحو ثلثمائة دينار ، وانتشر في الآفاق ، ولمَّا تمَّ لم يتخلّف عن وليمة ختْمِه في التاج والسبع وجوهٌ من سائر الناس إلّا النادر ، وكان مصروف ذلك إليهم نحو خمسمائة دينار ، واعتنى بتحصيل تصانيفه كثيرٌ من شيوخه وأقرانه فَمَنْ دونهم ، وكَتَبَها الأكابرُ ، وانتشرت في حياته ، وأقرأ الكثير منها ، وحفظ غير واحدٍ من الأبناء عدّةً منها ، وعرضوها على جاري العادة على مشائخ العصر .

ودرّس في أماكن ؛ كالتفسير بالحسنيّة والمنصوريّة ، والحديث بالبيبرسيّة والجمَّاليّة المستجدة والحسنية والزّينيَّة والشَّيْخُونيَّة وجامع طِولون والقُبّة المنصورية ، والإسماع بالمحمودية ، والفقه بالحزوبيّة البدريّة بمصر

والشريفية الفخريّة ، والشيخونيّة والصَّالحيَّة النّجميّة والصَّلاحيّة المجاورة للشافعي والمؤيّديّة . وولي مشيخة البيبرسية فنظرها ، والإفتاء بدار العدل ، والخطابة بجامع الأزهر ثم بجامع عمرو ، وخزن الكتب بالمحمودية ، وأشياء غير ذلك مما لم يجتمع له في آن واحد .

وأملى ما ينيِّف على ألف مجلسٍ من حفْظه ، واشتهر ذكْره وبعُد صِيتُه ، وارتحل الأئمة إليه ، وتبجَّح الأعيان بالوفود عليه ، وكثرت طلبتُه ، حتى كان رؤوس العلماء من كل مذهبٍ من تلامذته ، وأخذ الناس عنه طبقةً بعد أُخرى ، وألحق الأبناء بالآباء والأحفاد ، بل وأبناءهم بالأجداد .

وامتدحه الكبار ، وتبجّح فحول الشعراء بمطارحته ، وطارت فتواه التي لا يمكن دخولها تحت الحصر في الآفاق ، وحدّث بأكثر مروياته خصوصًا المطوّلات منها .

وقد شهد له القدماء بالحفظ والثقة ، والأمانة والمعرفة التّامّة ، والذّهن الوقّاد والذكاء المفرط ، وسعة العلم في فنونٍ شتى ، وشهد له شيخه العراقي بأنه أعلم أصحابه بالحديث . وقال كلٌّ من التّقي الفاسي والبرهان الحلبي : ما رأينا مثله . وسأله الفاضل تغري برمش الفقيه : أرأيت مثل نفسك ؟ فقال : قال الله تعالى : ﴿ **فلا تُزكُّوا أنفسكم** ﴾ [النجم : ٣٢] وجملة محاسنه جمّةٌ ، وما عسى أن أقول في هذا المختصر أو مَنْ أنا حتى يُعرِّف بمثْله » .

قال ابن حجر في « إنباء الغمر » في ترجمة شيخه العراقي (١٧٢/٥) : « وشهد[1] لي بالحفظ في كثير من المواطن ، وكتب لي خطَّه بذلك مرارًا ، وسُئل عند موته عمّن بقي من الحُفّاظ فبدأ بي وثنّى بولده وثلّث بالشيخ

---

(١) أي العراقي .

نور الدين[١]، وكان السائل للشيخ عن ذلك القاضي كمال الدين بن العديم، ثم سأله الشيخ نور الدين الرشيدي - على ما أخبرني بذلك بعد ذلك - فقال: في فلان كفايةٌ. وذَكَر أنه عناني، وصرَّح بذلك».

أقاضي قضاةِ الدِّين حقًّا بليغهم ... ومنْ هُوَ في أوْجِ المعاني كلامهُ
شروح البخاري مُذْ سُقينا رحيقَها ... أتى شرحُك الوافي ومسكٌ ختامُهُ

وفيه قال الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي السعود المنوفي:

حَبْر الهُدى حافِظ الإسلامِ أحمد مَن ... له مِن الفتحِ ذكرى فتحِ خيرِ نبي
يا عالمًا شَرَحَ اللهُ الصُّدورَ به ... وباسِطَ العلمِ والآمالِ للطَّلَبِ
شرحتَ صَدْرَ البخاري مِثْل جامعِهِ ... فراح يُنشد هذا مُنتهى الطَّلَبِ
هذا المنار الذي للعِلْم مرتفعٌ ... اللهُ أكبرُ كُلُّ الفضلِ في العَرَبِ
فحبّذا جامعٌ بالشَّرحِ صار له ... وقْفًا كبحرٍ جرى باقٍ مَدَى الحِقَبِ
أضاء فيه مصابيحٌ مسلسلةٌ ... من الأحاديث أو من لفظك الضَّربِ
شرحٌ حكى الشمسَ فالدنيا به امتلأتْ ... تغيبُ زهرُ الدّراري وهْو لم يغبِ

ثم قال في مدح ابن حجر:

يُغنيك عن طَلَبِ الأسفارِ مقولُه ... والسيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ
وإنْ رقى شرفَ الإملاء تحسبُهُ ... مع التَّواضُعِ بحرًا سَحّ من حَبَبِ
وكم له من تصانيفٍ حَلَتْ وعَلَتْ ... كالنَّجم يُكثر من قطْرِ الحيا السّربِ
يا منْ يقول لقيتُ الناسَ في رجُلٍ ... دعْ مَنْ أردتَ ويمِّمْ نَعْتَهُ تُصِبِ
ذو همَّةٍ في النَّدَى والعلْم إن رفلتْ ... في بُرْدِهِ سحبتْ ذيلًا على السُّحُبِ
وسيف حلمٍ بأيدي الصَّفْح تجذبُهُ ... دقّتْ لديه رقابُ الحقدِ والغضبِ
ترنحتْ قُضُبُ الأقلامِ في يده ... فأثمرتْ زهرات العلمِ والنّشبِ
تُنْشي فتُنسي شفاه الكأس باسمة ... يا حُسنَ جمْعِ خلال الرّاحِ والقصبِ

---

(١) أي الهيثمي صاحب مجمع الزوائد وصهر العراقي.

واعْجَبْ لمحبرةٍ كم شَيَّبتْ غَسَقًا سُهدًا ومَفرِقُها المُسْوَدُّ لم يَشبِ
نعمْ وأعجبُ من ذا دَمْعُ مرملةٍ بوَجْنَةِ الطِّرْسِ ألْفَتْ حُسنَ مُنقلَبِ
وأوقدتْ رملها في نهرِهِ وشَدَتْ جلّ المؤلِّفُ بين الماءِ واللَّهبِ
يا مُهجةَ الفضل يا عينَ العلوم ويا رُوحَ العُلا وحياة المجدِ والحَسَبِ
بقيتَ يا سيِّد الدنيا صحيحَ عُلًا وعشتَ يا بحرَ علْمٍ غيرَ مضطربِ
ولا برحتَ مدى الأيام تُكسبها حُسنَ الختامِ وترقى أشرف الرُّتَبِ

ويقول برهان الدين البقاعي في « فتح الباري » ومؤلفه ابن حجر :

شرْح البخاري الذي في ضِمْنِهِ نُظِمتْ علومُ الشَّرْعِ مِثْل بحارِ
في كلِّ طرسٍ منه رَوْضٌ مزهِرٌ وبكلِّ سطرٍ منه نهرٌ جاري
وبه زوائدُ من فوائد جمَّةٍ وفرائدٌ أعْيَتْ على النُّظَّارِ
شَرَحَ الحديثَ به فكم من مُشْكلٍ فيه انْجلَى للعينِ بالآثارِ
يأتي إلى طُرُقِ الحديثِ يضُمُّها إن العِيان مصدّقُ الأخبارِ
وتزاحمتْ أفْدِيهِ في تحصيله زُمَرُ الملوكِ فسل من السَّفَّارِ
إن قُلْت نَهْرٌ فهْو للحَجَرِ انتمى ومن الحجارةِ منبعُ الأنهارِ
أو قلت بحرٌ عسقلانٌ أصلُهُ فالناس عالةُ بحْرِها الزَّخَّارِ
كمْ قد رحلتَ وكم جمعتَ مصنَّفًا فالدِّين قد أحييتَ بالأسفارِ
وسكنتَ في العَلْيا تُقًى وفضائلًا أنت الشِّهابُ بك اهتداءُ السَّاري
رحلتْ إليك الطَّالِبون ليقتَدُوا وتتابعوا سبْقًا من الأقطارِ
فارقتُ في أرض البقاع عشائري أطوي إليك فَيَافِيًا وصَحَاري
فمصنَّفاتُك سهَّلتْ وتنزَّهتْ من طاعنٍ يرجو قذًى أو عارِ
تربو على مائةٍ ونصفٍ أُودِعَتْ دُرَرًا تُضيءُ الليلَ وقتَ سرارِ
وتَضُوع بالمسكِ الذَّكِيّ لناشِق حُسنًا فيخجل أن يضُوعَ الدّاري
ماذا أقول ولو أطلتُ مدائحي وجعلتُ أهلَ الأرض من أنصاري
لم تبلُغِ المقصودَ من أوصافكمْ كلَّا ولم تقرب من المعشارِ

فاسْلَمْ على كرِّ الليالي راقيًا رُتَب العُلا تَهْنَأْ بفتح الباري

وقال الشيخ محب الدين البكري في تصانيف الحافظ ابن حجر وأماليه :

أبو الفضل بل قاضي القضاة وخيرُهم ترى السُّنَّة الغَرَّاءَ من حِفْظه تُرْوَى
أماليه تأتي عَسْجَدًا وجواهرًا عَلَتْ وغَلَتْ خُذْها بإسناده الأقوى
أيا شيخ إسلامٍ عليه مهابةٌ ومَجْدٌ له يعلو على الغاية القُصْوى
تصانيفه لا حَصر في ذِكْرِ عَدِّها ففي كلِّ فنٍّ في العلوم له الجَدْوَى
فكم سهرتْ عيناه والنّاسُ نوَّمٌ وكم كتبتْ يُمناه من خبرٍ يُروى
وكَمْ من شروحٍ للبخاريّ عِدَّةٍ طواها بفتح البارىء اعْجَبْ لما يُطوى
كساه جمالًا من عُذُوبة لَفْظِهِ ففازتْ به الدنيا وسلَّمَت الدَّعْوَى
وتوّجه الأسماء من كلِّ مبهمٍ خفيٍّ على النّقّاد يا ويحَ مَنْ سَوَّى
ولا غَرْوَ أن الشافعيَّ إمامَنا يُباهي بك الأصحابَ بالنَّقْل والفَتْوَى
إذا فاح نشْرُ المسكِ كنتَ ختامَهُ فكم حِكَمٍ أظهرتَ فاحتْ لها الشَّذْوَى

وفي ابن حجرٍ قال الدجوي في مجلس ختم فتح الباري :

وحسبُك عالمًا قُطْبُ الأماني وحسبك قدوةً للمُقتدينا
تُسائله الصحيحَ وعنه يُنبي فتَلْقَى عنده الخبرَ اليقينا
فكم داعٍ أتى وله سؤالٌ أجاب سؤالَهُ في السائلينا
وعند لُقيِّه تلقى مليئًا مُفيدَ المبتدِي والمُنتهينا
وكم قطرٍ بعيدٍ منه جاءوا إلى أسماعه متوجِّهينا
إذا السَّندُ اكتسى ثوبَ اضطرابٍ أتوْا عن حالِهِ يتنسَّمُونا
وكم من سُنَّةٍ أنباك عنها بإسنادٍ علا في المُسْنِدِينا
ومن يدري الحديث ومُسْنِدِيه ويُمليه الكرام الكاتبينا
سما بسماعه سَطْحَ الثُّرَيَّا إليه بوَصْلِه يتوصَّلُونا

وكمْ صَاد الشَّريدَ من المعاني وذلَّلَهُ على من يألفونا
وحَسْبُك والمحابر حين تُملَى ترى أقلامها في السَّاجدينا
ومهَّد في الحديثِ مصنَّفاتٍ شريفاتٍ فنِعْمَ الماهِدُونا
علا سنَدًا ترى الأشياخ فيه إلى عليائِهِ يترجَّلُونا
وما في العسقلاني من كلامٍ كفاه اللهُ شرَّ الحاسِدِينا
سوى حفظٍ فشا شرقًا وغربًا وأعلى ذِكْرَه في الحافِظِينا
نراك الشافعيّ تكُون علمًا وأحمدَ في الرِّواية أن تكُونا

وفيه يقول الشيخ الطنوبيُّ:

إليك انتهتْ يا حافظَ العصرِ رحْلة الـ ـحديث مع الإملاء حقًّا بلا مَيْنِ
وأنت الذي أحييتَ سُنَّةَ أحمدٍ وأبرزتَ من أسرارها كلَّ مَكْنُونِ
وأنت الذي صنَّفتَ كهلًا ويافعًا وأفتيتَ في فرضٍ علينا ومَسْنُونِ
وبيَّنتَ في التفسير حُكْم مسائلِ الـ ـخِلافِ بما أظهرتَ من كنزٍ مدفونِ
كرأْيِ ابن عباسٍ ورأي مجاهدٍ ورأي عطاءٍ ثم رأي ابن سيرينِ
وقرَّرتَ للقُرَّاء ما كان نافعًا أتى عن أبي عمرٍو وورشٍ وقالُونِ
وحقَّقتَ حُكْمَ الرّوم فيه وغُنَّةً مَدٍّ مع الإشمامِ والوَصْلِ واللِّينِ
وأعْرَبْتَهُ عن سيبويه وشيخه وأبديتَ فرْقًا بين نونٍ وتنوينِ
ولا عجبٌ فاليَمُّ من حَجَر بدا عيونًا لموسى حين قرَّ على الطِّينِ
فعشر عيونٍ منه عشرُ أصابعٍ تفيضُ ومنشأُ جُورِها الدَّهْرَ يُغنيني
سما بتآليف علتْ في حياته نعم وعَلَتْ فوق السِّمَاكِ وتنّينِ
تُناهِزُ عُشْرَ الألِف عَدًّ وكم سعى لِبَابِ عُلاها وافدٌ من سلاطينِ
وزادُوا اشتياقًا بالسّماع ورُبَّما تعشقُ قبل العينِ سمْعُك في الحينِ
إلى الغرب سارتْ ثم للتّبْكِ سافرتْ وفي يَمَنٍ حلَّتْ وصارتْ إلى الصِّينِ(١)

---

(١) انظر فتح الباري آخر الجزء (١٣).

لطيفـــة :

قال الشيخ جمال الدين القاسمي في كتابه القيّم « قواعد التَّحْدِيث من فنون مصطلح الحديث » ص٢٦٢ - ٢٦٣ تحت عنوان « ذكْر أرباب الهمَّة الجليلة ، في قراءتهم كُتُب الحديث في أيامٍ قليلة » : « ذُكر في ترجمة المجد الفيروزآبادي صاحب القاموس ، أنه قرأ صحيح مسلم في ثلاثة أيامٍ بدمشق ، وأنشد :

قرأتُ بحمدِ اللهِ جامعَ 'مسلمٍ   بجوفِ دِمَشْقِ الشّامِ جوفِ لإِسلامِ
علي ناصر الدِّينِ الإمامِ ابنِ جَهْبَلٍ   بحَضْرَةِ حُفَّاظٍ مشاهيرَ أعلامِ
وتمَّ بتوفيقِ الإلهِ وفَضْلِهِ   قراءةُ ضبطٍ في ثلاثةِ أيّامِ

وقرأ الحافظ أبو الفضل العراقي صحيح مسلم على محمد بن إسماعيل الخبّاز بدمشق ، في ستة مجالس متوالية ، قرأ في آخر مجلسٍ منها أكثر من ثلث الكتاب ، وذلك بحضور الحافظ زين الدين ابن رجب وهو يُعارِض بنسخته .

وفي تاريخ الذهبي - في ترجمة « إسماعيل بن أحمد الحيري النّيسابوري الضرير » - ما نَصُّه : « وقد سمع عليه الخطيبُ البغدادي - بمكة - صحيح البخاري بسماعه من الكشميهني في ثلاثة مجالس : اثنان منها في ليلتين ؛ كان يبتدىء بالقراءة وقت المغرب ، ويختم عند صلاة الفجر ، والثالث من ضحوة النهار إلى طلوع الفجر .

قال الذهبي: « وهذا شيءٌ لا أعلم أحدًا في زماننا يستطيعه ». انتهى.

وقال الحافظ السخاوي : وقع لشيخنا الحافظ ابن حجر أجَلّ مما وقع لشيخه المجد اللُّغوي ، فإنه قرأ صحيح البخاري في أربعين ساعة رَمْلِيَّة ، وقرأ صحيح مسلم في أربعة مجالس سوى مجلس الخَتْم في يومين وشيء ، وقرأ سنن ابن ماجة في أربع مجالس ؛ وقرأ كتاب النسائي الكبير في عشر مجالس ،

كل مجلس منها نحو أربع ساعات ، وقرأ صحيح البخاري في عشر مجالس كل مجلس منها أربع ساعات .

ثم قال السخاوي : وأسرع شيء وقع له - أي لابن حجر - أنه قرأ في رحلته الشاميّة معجم الطبراني الصغير في مجلس واحد بين صلاتَي الظهر والعصر . قال : وهذا الكتاب في مجلد يشتمل على نحو ألف حديث وخمسمائة حديث » . انتهى .

والعبد الضعيف جامع هذا الكتاب ، قد منّ الله عليه بفضله فأسمع صحيح مسلمٍ - روايةً ودرايةً - في مجالس من أربعين يومًا، آخِرها في ٢٨ من شهر صفر الخير سنة ١٣١٦هـ ، وأسمع أيضًا سنن ابن ماجة كذلك في مجالس من إحدى وعشرين يومًا ، آخِرها في ٢٢ من شهر ربيع الأول سنة ١٣١٦هـ ، وأسمع أيضًا الموطّأ كذلك مجالس من تسعة عشر يومًا ، آخرها في ١٥ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣١٦هـ ، وطالعتُ بنفسي لنفسي تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر ، مع تصحيح سهْو القلم فيه وضبطه وتَحْشِيَتِهِ من نسخةٍ مصحّحة جيّدًا ، في مجالس من عشرة أيامٍ ، آخِرها في ١٨ من شهر ذي الحجة سنة ١٣١٥هـ .

أقول : وهذه الكتب قرأتُها بإثر بعضها ، فأجهدت نفسي وبصري ، حتى رَمِدْتُ بأثرْ ذلك ، وشفاني الله بفضله ، وأشفقتُ من العوْد إلى مثل ذلك .

٢٥٦ - الحافظ الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان ، أبو الحسن الهيثمي :

صاحب مجمع الزوائد ، صحب الشيخ زين الدين العراقي وهو صغير ، فسمع معه في ابتداء طلبه على أبي الفتح الميدومي وابن الملوك وابن القطرواني ، وغيرهم من المصريين ، ومن ابن الخبّاز وابن الحموي وابن قيِّم

الضِّيائيَّة ، وغيرهم من الشاميين ، ثم رحل معه جميع رحلاته وحجّ معه جميع حجّاته ، ولم يكن يُفارقه حضرًا ولا سفرًا ، وتزوّج ابنته وتخرّج به في الحديث ، وقرأ عليه أكثر تصانيفه ، وكتب عنه جميع مجالس إملائه ، وخرّج زوائد الكتبِ الستة مسندِ أحمد والبزّارِ وأبي يعلى ومعاجمِ الطبراني الثلاثةِ مفرداتٍ ، ثم جَمَعَها في كتابٍ واحد محذوفِ الأسانيد ، وجمعَ ثقات ابن حبان فرتّبها على حروف المعجم ، وكذا ثقات العجلي ، ورتّب الحلية على الأبواب ، وصار كثير الاستحضار للمتون جدًّا لكثرة الممارسة . وكان هيِّنًا ليِّنًا لا يسأم ولا يضجر من خدمة الشيخ وكتابة الحديث ، وكان كثير الخير ، كثير الاحتمال للأذى ، خصوصًا من جماعة الشيخ . قرأتُ عليه الكثير قرينًا للشيخ ، ومما قرأتُ عليه بانفراده : نحو النصف من « مجمع الزوائد » له ، ونحو الرُّبع من زوائد مسند أحمد ومسند جابر من مسند أحمد ، وغير ذلك ، وكان يودني كثيرًا ويشهد لي بالتَّقدُّم في الفنّ ، جزاه الله عني خيرًا[1] .

وقال السخاوي في « الضوء اللامع » في ترجمة الهيثمي : « قرأ القرآن ثم صحب الزين العراقي وهو بالغ ، ولم يفارقه سفرًا وحضرًا حتى مات ، بحيث حجّ معه جميع حجّاته ، ورحل معه سائر رحلاته ، ورفقه في جميع مسموعه بمصر والقاهرة والحرمين وبيت المقدس ودمشق وبعلبك وحلب وحماة وطرابلس وغيرها ، وربما سمع الزين بقراءته . ولم ينفرد عنه الزين بغير ابن البابا والتّقيّ السُّبكي وابن شاهد الجيش ، كما أن صاحب الترجمة لم ينفرد عنه بغير صحيح مسلم على ابن عبد الهادي ... وهو مُكثِرٌ سماعًا وشيوخًا ، ولم يكن الزين يعتمد في شيء من أموره إلا عليه ، حتى أنه أرسله مع ولده الولي لما ارتحل بنفسه إلى دمشق ، وزوّجه ابنته خديجة ورُزق منها عدّة

(١) إنباء الغمر ٥/٢٥٦ - ٢٥٧ .

أولاد . وعادت بركة الزَّيْن عليه ، كما أن الزين اسْتَرْوَحَ بعدُ بما عمله ، سيّما المجمع .

وكان عَجَبًا في الدين والتقوى والزهد ، والإقبال على العلم والعبادة والأوراد ، وخدمة الشيخ وعدم مخالطة الناس في شيء من الأمور ، والمحبّة في الحديث وأهله . وحدّث بالكثير رفقًا للزّين ، بل قلَّ أن حدّث الزين بشيءٍ إلا وهو معه ، وكذلك قلّ أن حدّث هو بمفرده ، لكنّهم بعد وفاة الشيخ أكثروا عنه ، ومع ذلك ، فلم يغيّر حاله ولا تصدَّر ولا تَمَشْيَخ ، وكان - مع كونه شريكًا للشيخ - يكتب عنه الأمالي بحيث كتب عنه جميعها ، وربما استملى عليه ، ويحدِّث بذلك عن الشيخ لا عن نفسه ، إلّا لمن ضايقه .

قال شيخنا في معجمه : كان كثير الاحتمال لشيخنا ولأولاده ، محبًّا في الحديث وأهله . وقد عاشرتهما مدّةً فلم أرهما يتركان قيام الليل ، ورأيتُ مِن خدمته لشيخنا وتأدُّبه معه ، من غير تكلُّفٍ لذلك ، ما لم أره لغيره ، ولا أظنّ أحدًا يَقْوَى عليه .

وقال البرهان الحلبي : إنه كان من محاسن القاهرة ومن أهل الخير ، غالب نهاره في اشتغالٍ وكتابةٍ ، مع ملازمة خدمة الشيخ في أمر وضوئه وثيابه ، ولا يُخاطبه إلَّا بـ « سَيِّدي » حتى كان في أمر خدمته كالعبد ، مع محبَّته للطلبة والغرباء وأهل الخير ، وكثرة الاستحضار جدًّا .

وقال التّقيّ الفاسي : كان كثير الحفظ للمتون والآثار صالحًا خيِّرًا .

والثناء على دينه وزهده وورعه ونحو ذلك كثيرٌ جدًّا ، بل هو في ذلك كلمة اتِّفاق »[1].

---

(١) الضوء اللامع للسخاوي ٥/٢٠٠ .

٢٥٧ - الكاساني صاحب « بدائع الصنائع » العلَّامة الحنفي :

تلميذ محمد بن أحمد أبو بكر علاء الدين السّمرقندي ، المتوفَّى سنة ٥٣٩ ، صاحب كتاب « تحفة الفقهاء » في الفقه الحنفي .

كان لهذا العالم الجليل - محمد بن أحمد السمرقندي - بنت تُسمّى فاطمة ، ربّاها فأحسن تربيتها ، وعلّمها فأحسن تعليمها ، يقول صاحب كتاب « الفوائد البهية »[1]: « كانت ابنته فاطمة الفقيهة العلّامة زوجة علاء الدين الكاساني ، وكانت تفقّهتْ على أبيها ، وحفظت تُحفته ، وكان زوجها يخطيء ، فتردّه إلى الصواب ، وكانت الفتوى تأتي فتخرج وعليها خطُّها وخطُّ أبيها ، فلمّا تزّوجت بصاحب الصنائع ، كانت تخرج وعليها خطها وخطّ أبيها وخطّ زوجها » .

وقد تسامع الملوك بفاطمة فخطبوها من أبيها ، فامتنع والدها من تزويجها ، وكان من طلبة الشيخ تلميذ يُسمّى علاء الدين أبا بكر بن مسعود الكاساني ، لازم شيخه ، واشتغل بالعلم عليه ، وبرع في علم أصول الفقه والفقه ، وصنّف كتاب « بدائع الصنائع » في الفقه ، وهو في الحقيقة شرحٌ لكتاب شيخه « تحفة الفقهاء » ، وعَرَضَ الكتاب على شيخه ، ففرح به فرحًا شديدًا ، وزوّجه ابنته ، وجعل مهرها منه ذلك الكتاب الذي ألّفه ، فقال الفقهاء في عصره : « شَرَحَ تُحفتَهُ ، وزوّجَهُ ابنتَهُ » .

لله درُّهم من أهل بيت ... كان العلم دِثارهم ، شيخٌ وابنتُهُ وزوجُ ابنته .

٢٥٨ - العلامة المرداوي صاحب كتاب « الإنصاف » الحنبلي ؛ الشيخ الإمام العلّامة شيخ الحنابلة علي بن سليمان بن أحمد المرداوي السّعدي :

قال عنه « العليمي » في « طبقات الحنابلة » : « شيخ الإسلام على

---

(١) الفوائد البهيّة للكنوي ص١٥٨ .

الإطلاق ، ومحرِّر العلوم بالاتّفاق ، فقيه عصرنا وعُمدته : علاء الدين أبو الحسن ، ذو الدين الشامخ والعلم الراسخ ، صاحب التصانيف الفائقة .

خرج من بلده « مردا » ، وأقام بالخليل بزاوية الشيخ عمر المجرد ، وقرأ بها القرآن ، ثم قدم إلى دمشق ونزل بمدرسة شيخ الإسلام أبي عمر بالصالحية ، واشتغل بالعلم فلاحظتْه العناية الرَّبّانيَّة ، واجتمع بالمشايخ ، وجدّ في الاشتغال ، وتفقّه على الشيخ تقي الدين بن قندس البعلي شيخ الإسلام في وقته ، فبرع وفضل في فنونٍ من العلوم ، وانتهت إليه رئاسة المذهب ، ثم فُتح عليه في التصنيف ، فصنّف كتبًا كثيرة في أنواع العلوم جليلة مفيدة ، أعظمها « الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف » أربعة مجلدات ، جعَلَهُ على المُقنع ، وهو من كتب الإسلام ؛ فإنه سلك فيه مسلكًا لم يُسبق إليه ، بيّن فيه الصحيح من المذهب وأطال فيه الكلام ، وذكَر في كل مسألة ما نقل فيها من الكتب وكلام الأصحاب ، فهو دليل على تبحُّر مصنِّفه ، وسعة علمه وقوة فهمه ، وكثرة اطّلاعه ، ولما فرغ من تصنيفه سنة ٨٦٧ توجّه به إلى القاهرة في أيام قاضي القضاة عز الدين الكناني وعرضه عليه ، فأثنى عليه ، وأمر جماعة الحنابلة بمصر بكتابته ونشْره في الديار المصرية .

وله تصحيح كتاب الفروع للعلّامة ابن مفلح ، وشرح الآداب ، وغير ذلك من الكتب المفيدة ، وانتفع الناس بمصنفاته ، وانتشرت في حياته ، وبعد وفاته بحُسن نيته وإخلاصه ، وقصْده الجميل ، وصار قوله حجة في المذهب ، يُعمل به ويُعوّل عليه في الفتوى والأحكام في جميع مملكة الإسلام ... ومحاسنه أكثر من أن تُحصر ، وأشهر من أن تُذكر ، وهو أعظم من أن ينبّه مثلي على فضله » .

٢٥٩ - أبو القاسم العبدوسي ، حافِظ المغرب في وقته :

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني المالكي ،

الشهير بالخطيب ، الإمام الفقيه المسند الرّحّال المتوفى بالقاهرة سنة ٧٨١ رحمه الله تعالى يقول : « إن الله أجرى سُنّته في علماء الإسلام أن يُبارك لأحدهم في قراءته ، والآخر في إلقائه وتفهيمه ، والآخر في نسخه وجمْعه - أي للكتب - والآخر في عبادته ، وسيدي أبو القاسم العبدوسي حافظ المغرب في وقته وإمام الدنيا - الفاسي نزيل تونس - ممّن جمع اللهُ له ذلك كلَّه ، وبارك له في قراءته ، وإلقائه ، ونسخه ، وجمْعه ، وعبادته .

قرأ أبو القاسم صحيح البخاري في نهارِ يومٍ واحد ، وإنه ممن فُتح عليه في حفظ البخاري والقيام عليه نسخًا وفهمًا وقراءةً ، وإنه نسخ منه ثماني نُسَخٍ أو أكثر ، أكثرها في سِفْر واحد ، ونسخ من صحيح مسلم تسْع نسخٍ ، ونَسَخَ غيرَهما من كتب الحديث والفقه ما لا يأتي عليه العدُّ »[1] .

لله درّ القائل :

لَمَحْبرةٌ تُجالسني نهاري ... أحبُّ إليَّ من أُنسِ الصَّدِيقِ
ورِزْمَةُ كاغَدٍ في البيتِ عندي ... أحبُّ إليّ من عِدْلِ الدَّقيقِ
ولطمةُ عالمٍ في الخَدِّ مني ... ألذُّ لَدَيَّ من شُربِ الرَّحيقِ

والقائل :

واعلمْ بأن العلْمَ أرفعُ رُتْبَةٍ ... وأجلُّ مُكْتَسَبٍ وأسْنَى مفخرِ
فاسلُكْ سبيلَ المُقتنين له تَسُدْ ... إن السِّيادةَ تُقْتنى بالدَّفترِ
والعالمُ المدعوُّ حَبْرًا إنما ... سمّاه باسم الحبرِ حَمْلُ المحبرِ
وبضُمَّرِ الأقلامِ يبلُغ أهلُها ... ما ليس يُبْلغ بالجِيَاد الضُمَّرِ[2]

(١) « فهرس الفهارس والأثبات » للشيخ عبد الحي الكتاني ١٠٤٤/٢ .
(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢٠٤/٢ دار الكتب العلمية .

٢٦٠ - ابن سيدَه صاحب كتاب « المُخصَّص » في اللغة :

ألّف ابنُ سيده المخصص وهو ضرير ، سلبتْه الأيام أكرم حواسّه ، وأنْفَس ما يحتاج إليه العلماء الباحثون ، ولم يمنعْه العمى القهّار أن يُخرج للناس كتبًا جليلة ، منها المخصّص في سبعة عشر جزءًا ، في كل جزءٍ قرابة ثلاثمائة صفحة ، بها من أصول اللغة وخصائصها ، ونواحي اتصالها بالحياة ، ما جعله قِبلةَ اللُّغويين ومفزعهم .

أفبعد هذا علوّ همّةٍ وشرف مقصدٍ لمعارجِ قمّةٍ !

٢٦١ - الإمام الشوكاني ، القاضي محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني صاحب نيل الأوطار :

« كان والده قاضي صنعاء فربّاه على عينه . نشأ بصنعاء ، فقرأ القرآن ، وجوّده على جماعة من مشايخ القُرّاء بصنعاء ، وفي أثناء ذلك حفظ عدة مختصرات : في الفقه ، والنحو والعروض ، وآداب البحث وعلوم اللغة ، وطالع عدّة كتبٍ من كتب التاريخ والأدب ، ثم شرع في طلب العلم ، فدرس على والده وعلى البارزين من العلماء في عصره في مختلف العلوم ؛ الدينية واللسانية والعقلية والرياضية والفَلَكِيّة ، وظلّ - كما يقول - يأخذ عن شيوخه ، حتى استوفى كلَّ ما عندهم من كتب ، بل زاد في قراءاته الخاصّة على ما ليس عندهم . وكان طلبه للعلم في صنعاء نفسها ، لم يرحل عنها على عادة طلاب العلم ؛ لعدم إذن أبويْه له في الرحلة ، فكان عند إذنهما .

وكان في أثناء دراسته يُلقي ما يأخذه عن مشايخه إلى تلاميذه الذين اجتمعوا عليه ، وهو لا يزال في دور الطَّلَب الأوّل ، ولذلك كانت دروسه تبلُغ في اليوم والليلة ثلاثة عشر درسًا ، منها ما يأخذه عن أساتذته ، ومنها ما يُلقيه على تلاميذه .

ثم تفرّغ لإفادة طُلّاب العلم ، فكانوا يأخذون عنه في كل يوم زيادةً على عشرة دروس - كما قال - في فنونٍ متعدّدة ؛ كالتفسير والحديث والأصول والمعاني والبيان والمنطق ، وتقدّم للإفتاء وهو في نحو العشرين من عمره ، وكانت ترد عليه الفتاوى من خارج صنعاء ، وشيوخه إذ ذاك أحياء ، وكاد الإفتاء يدور عليه وحده ، وهو في هذه السن .

وفي الجملة فقد درس دراسة واسعة ، واطلع اطّلاعا يندُر أن يُحيط به غيره ، فليس من المستطاع سرْد ما درسه من كتب ، أو استجازَهُ من مَرَاجع ، ومن يرجع إلى كتابه مثلًا (إتحاف الأكابر بإمساك الدفاتر) يُدرك ما كان عليه الرجل من تنوُّع في الثقافة واتِّساعٍ فيها . وقد برع في كل ذلك تقريبًا ، وصنّف ودرس فيه »[1] .

ولقد سرد الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال من كتب الشوكاني المخطوطة والمطبوعة مائة وواحدًا وخمسين كتابًا . ولو لم يكن له إلّا « السَّيل الجرّار المتدفِّق على حدائق الأزهار » و « نيل الأوطار » ، لكفاه فخرًا وعلوّ مكانةٍ وبُعْدَ همّةٍ .

لله درّ القائل : « قلوب المغرمين بالمعرفة بالحقائق منابر الملائكة ، وقلوب المؤثرين للشهوات مقاعد للشياطين » .

يقول الشوكاني : « ينبغي لمن كان صادق الرغبة ، قويّ الفهم ثاقب النظر ، عزيز النفس شهْم الطّبْع ، عالي الهمَّة سامي الغريزة ، أن لا يرضى لنفسه بالدُّون ، ولا يقنع بما دون الغاية ، ولا يقعُد عن الجدِّ والاجتهاد ، المبلّغيْن له إلى أعلى ما يُراد ، وأرفع ما يُستفاد ، فإن النفوس الأبيّة ، والهمم

---

(١) من كلام الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال في مقدمة كتابه « قطر الولي على حديث الولي » للشوكاني ص١٥ - ١٧ طبع دار الكتب الحديثة .

العليّة ، لا ترضى بدون الغاية في المطالب الدنيوية ؛ من جاهٍ أو مالٍ أو رئاسةٍ أو صناعةٍ أو حِرفةٍ ، حتى قال قائلهم :

إذا غامرتَ في شرفٍ مَرُوم فلا تقنعْ بما دُونَ النُّجومِ
فَطَعْمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ

وقال آخر مشيرًا إلى هذا المعنى :

إذا لم تكُن مَلِكًا مُطاعًا فكن عبدًا لخالقه مُطِيعَا
وإن لم تملِكِ الدنيا جميعًا كما تَهواه فاتركْها جميعَا
هما شيئان من مُلْكٍ ونُسْكٍ يُنيلانِ الفتى شرفًا رفيعًا

وقال آخر :

فإمّا مكانًا يضربُ النَّجمُ دُونَهُ سُرادِقَهُ أو باكيًا لِحِمامِ

وقد ورد هذا المعنى كثيرًا في النظم والنثر ، وهو المطْلب الذي تنشط إليه الهمم الشريفة ، وتقبله النفوس العليّة . وإذا كان هذا شأنهم في الأمور الدنيوية التي هي سريعة الزوال قريبة الاضمحلال ، فكيف لا يكون ذلك من مطالب المتوجّهين إلى ما هو أشرف مطلبًا وأعلى مكسبًا ، وأرفع مرادًا ، وأجلّ خطرًا وأعظم قدْرًا ، وأعْوَد نفعًا وأتمُّ فائدةً !! وهي المطالب الدينية ، مع كوْن العلم أعلاها وأولاها بكلِّ فضيلةٍ ، وأجلّها وأكملها في حصول المقصود . فأكْرِمْ بنفسٍ تطلب غاية المطالب ، في أشرف المكاسب ، وأحْبِبْ برجُلٍ أراد من الفضائل ما لا تُدانيه فضيلة ، ولا تُساميه مَنْقَبَةٌ ، ولا تُقاربه مَكْرَمَة .

ولما كانت المطالب في هذا الشأن متفاوتة ، وتتباين المقاصد بتفاوت هِمَم الطالبين وأغراض القاصدين ، فقد ترتفع همَّة البعض من طلبة العلم ، فيقصد البلوغ إلى مرتبةٍ في الطَّلَب لعلم الشرع يكون مقدّمًا لها ، ويكون عند تحصيلها إمامًا مرجوعًا إليه ، مُستفادًا منه ، مأخوذًا بقوله ،

مدرسًا مُفيتًا مصنِّفًا ، فليس بعد ما يتصوّره أهل هذه الطبقة الأولى مُتصوَّر ، فإن نالوه على الوجه الذي تصوّروه ، فقد ظفروا من خير العاجلة والآجلة ، وشرف الدنيا والآخرة ، بما لا يظفر به إلّا من صنع صنيعهم ونال نيْلهم ، وبلغ مبالغهم ، وإن اخترمهم دونه مُخترِم ، وحال بينهم وبينه حائل ، فقد أعذروا ، وليس على من طَلَبَ جسيمًا ورام أمرًا عظيمًا - إنْ منعتْه عنه الموانع وصرفتْه عنه الصَّوارِف - مِن بأسٍ . وما أحسن ما قاله الشريف الرّضيّ الموسوي :

لا بُدّ أن أركبَها صعبةً   وقّاحَةً تحت غُلامٍ وَقّاحْ
أُجهدها أو تنثني بالرَّدَى   دون الذي أمَّلتُ أو بالنَّجاحْ
إمّا فتًى نال المُنى فاشتفَى   أو بطلٌ ذاق الرَّدَى فاستراحْ

وكنت في أيام الطّلب وعصر الشباب ، قد نظمتُ قصيدةً في هذا المعنى على هذا النّمط ، أذكُر منها الآن أبياتًا وهي :

قد أتعبَ السَّيرُ رِحالي وقد   آن لها بعدَ الوَحَى[1] أن تُراحْ
فما يهابُ العتبَ مَنْ فاز مِن   غايــةِ أُمنيّته بالنَّجـــاحْ
سعَى فلمَّا ظفِـرتْ بالمُنـى   يمينُهُ ألقَى العصا واستراحْ

فيا أيها العالم الصّعلوك ، قد ظفرتَ برتبةٍ أرفع من رُتَب الملوك ، ونلتَ من المعالي أعلاها ، ومن المناقب والفضائل أوْلاها بالشّرف وأُولاها . فإن كل المعالي الدنيوية - وإن تناهتْ - فليست باعتبار المعالي العلمية والشرف الحاصل بها في وِرْد ولا صَدْر ، فإنه يحصل للعالم أولًا - وبالذات - الفوز بالنعيم الأُخروي الدائم السَّرمدي ، الذي لا تعدل منه الدنيا بأسرها قيد شرط بل مقدار سوط . ويحصل له ثانيًا - وبالعرض - من شرف الدنيا ما يصغُر عنده كل شرف ، ويَتقاصَر دونه كلُّ مجد ، ويتضاءل

---

(١) الوحى : السير بعجلة .

لديه كلّ فخر . وإن من فهم مقدار ما في العلوم من العلوّ ، كان عند نفسه أعزّ قدرًا وأعلى محلًّا وأجلّ رتبةً من الملوك ، وإن كان متضايق المعيشة ، يركب نعليْه ويلبس طِمْرَيْه . وقلتُ في هذا المعنى من أبياتٍ :

قد كنتُ ذا طِمْرَيْن أمرحُ في العُلى مَرَحَ الأغَرِّ بجانب الميدانِ
ما كنتُ مضطَهَدًا فأطْلُب رِفعةً أو خاملًا فأُرِيد شهرةَ شاني

فاحرص - أيها الطالب - على أن تكون من أهل الطبقة الأُولى ، فإنك إذا ترقّيتَ من البداية التّصوُّرية ، إلى العلّة الغائيّة ، التي هي أول الفِكر وآخر العمل ، كنتَ فرْدَ العالم ، وواحد الدهر ، وقريع الناس ، وفخر العصر ، ورئيس القرن ، وأيّ شرفٍ يُسامي شرفك ، أو فخر يُداني فخرك !! وأنت تأخذ دينك عن الله وعن رسوله ، لا تقلِّد في ذلك أحدًا ، ولا تقتدي بقول رجُلٍ ، ولا تقف عند رأيٍ ، ولا تخضع لغير الدليل ، ولا تعوِّل على غير النّقد . هذه والله رتبةٌ تسمو على السماء ، ومنزلة تتقاصر عندها النجوم . فكيف بك إذا كنت مع هذه المزية مرجعًا في دين الله ، ملْجأ لعباد الله ، مُترجِمًا لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، يدوم لك الأجر ، ويستمرّ لك النفع ، ويعود لك الخير ، وأنت بين أطباق الثرى ، وفي عداد الموتى ، بعد مئين من السنين ، ولا يحول بينك وبين هذا المطلب الشريف ، ما تُنازِعك نفسُك إليه من مطالب الدنيا ، التي تروقها وتودّ الظّفر بها ، فإنها حاصلةٌ لك على الوجه الذي تحبّ ، والسبيل الذي تريد ، بعد تحصيلك لما أرشدتُك إليه من الرُّتبة العلمية ، وتكون - إذ ذاك - مخطوبًا لا خاطِبًا ، ومطلوبًا لا طالبًا . وعلى فَرْض أنها تُكدي عليك المطالب وتُعاند الأسباب ، فلست تعدمُ الكفافَ الذي لا بدّ لك منه ، فما رأينا عالمًا ولا متعلِّمًا مات جوعًا ، ولا أعوزه الحال[1] حتى انكشفت

(١) وجد على هامش المخطوطة ما نصّه : =

عورتُه عُرْيًا ، أو لم يجد مكنًّا يكنّه ، ومنزلًا يسكنه ، وليس الدنيا إلا هذه الأمور ، وما عداها فضلات مشغلةٌ للأحياء مهلكةٌ للأموات .

أنا إنْ عشتُ لستُ أعْدَمُ قُوتًا وإذا متُّ لستُ أعدمُ قَبْـرَا

وعلى العاقل أن يعلم أنه لن يُصيبه إلا ما كتبه الله له ، ولا يعدوه ما قدّره له ، وأنه قد فرغ من أمر رزقه الذي فرضه الله له ، فلا القعود يصدّه ، ولا السّعي وإتعاب النفْس يُوجب الوصول إلى ما لم يأذن به الله . وهذا معلومٌ من الشرع ، قد توافقت عليه صرايحُ الكتاب والسنة ، وتطابقت عليه الشرائع ، وإذا كان الأمر هكذا ، فما أحقَّ هذا النوع العاقل من الحيوان ، الذي دارت رَحَى التكليف عليه ، ونيطت أسباب الخير والشر به ، أن يشتغل بطَلَب ما أمره الله بطلبه ، وتحصيل ما خلقه الله لتحصيله ، وهو الامتثال لما أمره به من طاعته ، والانتهاء عما نهاه عنه من معاصيه . وإن أعظم ما يريده الله منه ، ويقرّبه إليه ، ويفوز به عنده ، أن يشغل نفسه ، ويستغرق أوقاته في طلب معرفة هذه الشريعة التي شرعها الله لعباده ، ويُنفق ساعاته في تحصيل هذا الأمر الذي جاءت به رسل الله إلى عباده ، ونزلت به ملائكته ؛ فإن جميع ما يريده الله من عباده عاجلًا وآجلًا ، وما وعدهم به من خير وشر ، قد صار في هذه الشريعة ، فأكرِمْ برجُلٍ تاقت نفسُه عن أن يكون عَبْدَ بطنِه ، إلى أن يكون عبدَ دِينِه ، حتى يناله على الوجه الأكمل ، ويعرفه على الوجه الذي أراده الله منه ، ويُرشد إليه من عباده من أراد له الرشاد ، ويهدي به من استحقّ الهداية ، فانظر - أعزَّك الله - كم الفرْق بين الرجُليْن ، وتأمّل قدْر مسافة التفاوت بين الأمرين . هذا يستغرق جميع أوقاته ، وينفق كل ساعاته في تحصيل طعامه وشرابه

= من نظم العلامة البدر الأمير في هذا المعنى :

ما مات والله جوعًا عالمٌ أبدًا سلِ التواريخَ عنه والدَّوَاوِين

وملبسه ، وما لا بدّ منه ، قامَ أو قعدَ ، سعَى أو وقفَ ، وهذا يقابله بسعيٍ غير هذا السعي ، وعملٍ غير ذلك العمل ، فينفق ساعاته ويستغرق أوقاته في طلب ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ ، من التكاليف التي كلّف بها عباده ، وما أذن به من إبلاغه إليهم من أمور دنياهم وأُخراهم ؛ لينتفع بذلك ثم ينفع به من شاء الله من عباده ، ويبلّغ إليهم حُجَّة الله ويعرِّفهم شرائعه . فلقد تعاظم الفرْق بين النوعين ، وتفاوت تفاوتًا يقصر التعبير عنه ، ويعجز البيان له ، إلا على وجه الإجمال ، بأن يقال : إن أحد النوعيْن قد التحق بالدوابّ ، والآخر بالملائكة ؛ لأن كل واحدٍ منهما قد سعى سعْيًا شابه من التحقَ به ، فإن الدابّة يستعملها مالكها في مصالحه ، ويقوم بطعامها وشرابها وما يحتاج إليه ، ومع هذا فمن نظر في الأمر بعين البصيرة ، وتأمّله حق التأمُّل ، وجد عيشَ مَنْ شَغَل نَفْسَه بالطاعة ، وفرَّغها للعلم ، ولم يلتفت إلى ما تدعو إليه الحاجة من أمر دنياه ، أرْفَه ، وحاله أقْوَم ، وسروره أتَمّ ، وتلك حكمة الله البالغة ، التي يتبيّن عندها أنه لن يعدو المرء ما قُدِّر له ، ولن يفوته ما كان يدركه ، وكما أن هذا المعنى الذي ذكرناه ثابتٌ في الشريعة ، مصرَّح به في غير موطنٍ منها ، قد أجراه الله على لسان الجبابرة من عباده وعُتاة أُمّته ، حتى قال الحجاج بن يوسف الثقفي في بعض خطبه ما معناه : أيُّها الناس ، إن الله كفانا أمْر الرِّزق ، وأمَرنا بالعبادة ، فسعيْنا لما كُفيناه ، وتركْنا السَّعْيَ للذي أُمِرنا به ، فليتنا أُمرنا بطلب الرِّزق ، وكُفينا العبادة ؛ حتى نكون كما أراده الله منّا . هذا معنى كلامه ، لا لَفْظه . فلما بلغ كلامه هذا بعضَ السلف المعاصرين له ، قال : إن الله لا يُخرج الفاجر من هذه الدار وفي قلبه حِكمةٌ ينتفع بها العباد ، إلّا أخرجها منه ، وإنّ هذا مما أخرجَهُ من الحجاج ، فانظر هذا الجبار ، كيف لم يَخْفَ عليه هذا الأمر ، مع ما هو فيه من التجبر وسفْك الدماء وهتْك الحرم ، والتجرُّؤ على الله وعلى عباده وتعدِّي حدوده . فما أحقَّه

بأن لا يخفَى على من هو ألْيَنُ منه قلبًا ، وأقلّ منه ظُلمًا ، وأخف منه تجبرًا ، وأقْرَب منه مِن خيرٍ ، وأبْعَد منه من شرٍّ ، وإن مَن تصوّر هذا الأمر حقَّ التصوُّر ، وتعقَّله كما ينبغي ، انتفعَ به انتفاعًا عظيمًا ، ونال به من الفوائد جسيمًا ، والهداية بيد الهادي جل جلاله وتقدَّستْ أسماؤه .

وإن لحُسن النية وإخلاص العمل تأثيرًا عظيمًا في هذا المعنى ، فمن تعكّستْ عليه بعضُ أموره من طَلَبة العلم ، أو أكلف عليه مطالبه وتضايقت مقاصدُه ، فليعلم أنه بذنبه أُصيب ، وبعدم إخلاصه عُوقب ، أو أنه أُصيب بشيءٍ من ذلك محنةً له وابتلاءً واختبارًا ، لينظر كيف صبره واحتماله ، ثم يفيض عليه بعد ذلك من خزائن الخير ومخازين العطايا ، في ما لم يكن بحسبان ، ولا يبلُغ إليه تصوُّره ، فليعضّ على العِلْم بناجذه ، ويشدّ عليه يده ، ويشرح به صدره ، فإنه لا محالة واصل إلى المنزل الذي ذكرنا ، نائلٌ للمرتبة التي بيّنّا ، وما أحسن ما حكاه بعضُ أهل العلم عن الحكيم أفلاطون ، فإنه قال : الفضائل مُرَّة الأوائل حُلوةُ العواقب ، والرذائل حلوة الأوائل مُرّة العواقب . وقد صدقَ ؛ فإن من شغلَ أوائل عمره وعنفوان شبابه بطلب الفضائل ، لا بد له أن يفطم نفسه عن بعض شهواتها ويحبسها عن الأمور التي يشتغل بها أترابه ومعارفه ، من الملاهي ومجالس الراحة وشهوات الشباب . فإذا انتهى إليه ما هم فيه من تلك اللّذّات والخلاعات ، وجدَ في نفسه - بحُكم الشباب ، وحداثةِ السّنّ ، وميل الطبع إلى ما هناك - مرارةً ، واحتاج إلى مجاهدةٍ يردّ جامِحَ طبعه ومتفلّت هواه ومتوثّب نشاطه ، لا يتمّ له إلا بإلجام شهوته بلجام الصبر ، ورباطها بمربط العفّة .

وكيف لا يجد مرارة الحبْس للنفس من كان في زاويةٍ من زوايا المساجد ، ومقصورة من مقاصِر المدارس ، لا ينظر إلا في دفتر ، ولا يتكلّم إلا في فنٍّ من الفنون ، ولا يتحدث إلّا إلى عالم أو متعلّم ، وأترابُه ومعارفه مِن قرابته وجيرانه وذوي سِنّه وأهل نشأته وبلده ، يتقلّبون في رافِهِ العيش ورائق

القصف . وإذا انضم لذلك الطالب ، إلى هذه المرارة الحاصلة له بعزْف النفس عن شهواتها ، مرارةٌ أُخرى هي إعواز الحال وضِيق المكسب وحقارة الدخل ، فإنه لا بدّ أن يجّد من المرارة المتضاعفة ، ما يعظُم عنده موقعه ، لكنه يذهب عنه ذلك قليلًا قليلًا ، فأول عقدةٍ تنحلّ عنه من عُقَد هذه المرارة ، عند أن يتصوّر ما يؤول به الأمر وينتهي إليه حاله ، من الوصول إلى ما قد وصل إليه مَنْ يجده في عصره من العلماء ، ثم تنحلّ عنه العقدة الثانية بفهم المباحث وحفظ المسائل وإدراك الدقائق ، فإنه عند ذلك يجدِ من اللّذّة والحلاوة ، ما يذهب بكل مرارةٍ ، ثم إذا نال من المعارف حظًّا ، وأحرز منها نصيبا ، ودخل في عِداد أهل العلم ، كان متقلّبًا في اللّذّات النفسانية التي هي اللذات بالحقيقة ، ولا يعدم عند ذلك من اللذات الجسمانية ، ما هو أفضلُ وأحلى من اللذات التي يتقلّب فيها كلّ مَنْ كان مِن أترابه ، وهو إذا وازن بين نفسه الشريفة وبين فردٍ من معارفه الذين لم يشتغلوا بما اشتغل به ، اغْتَبَطَ بنفسه غايةَ الاغتباط ، ووجد من السرور والحبور ما لا يُقادر قدْره . هذا باعتبار ما يجده من اللذة النفسانية عند أن يجد نفسه عالمةً ونفس معارفه جاهلةً . ويزداد ذلك بما يحصُل له من لوازم العلم ، من الجلالة والفخامة ، وبُعد الصيت وعظم الشهرة ، ونَبَالة الذِّكر ورِفعة المحلّ ، والرجوع إليه في مسائل الدِّين ، وتقديمه على غيره في مطالب الدنيا ، وخضوع مَن كان يُزري عليه ويستخفّ بمكانه من بني عصره ، فإذا جَمَعهم مجلس من مجالس الدنيا كانوا له بمنزلة الخَدَم ، وإن كان على غايةٍ من الإفلاس والعدم . ثم إذا تناهى حالُه وبلغ من الحظّ في العلم إلى مكانٍ عليٍّ ، انثال عليه الطَّلَبة للعلوم ، وأقبل إليه المستفتون في أمر الدين ، واحتاج إليه ملوك الدنيا فضلًا عن غيرهم ، فيكون عند هذا عيشُه حلوًا محضًا ، وعمره مغمورًا باللذات النفسانية والجسمانية ، ويرتفع أمره عن هذه الدرجة ارتفاعًا لا يُقادر قدره ، إذا

تصوّر ما له عند الله من عظيم المنزلة وعليّ الرتبة وعظيم الجزاء ، الذي هو المقصود أوّلًا وبالذات من علوم الدين .

وكنت في أوائل أيام طلبي للعلم في سن البلوغ أو بعدها بقليل ، تصوّرتُ ما ذكرتُه هنا ، فقلت :

سددتُ الأُذنَ عن داعي التَّصابي ... فلا داعٍ لديَّ ولا مُجيبُ

وأنفقتُ الشَّبِيبَةَ غير وانٍ ... لمجدِ الشيب فليَهْنَ المشيبُ

وقلت أيضًا رامزًا إلى هذا المعنى :

وأُبدي رغبةً لنجود نَجْدٍ ... وشوقًا لانْتِشاقي منه رِيَحا

وما بِسِوَى العقيقِ أقام قلبي ... وأضحى بين أهليهِ طريحا

وأما كون الرذائل حلوة الأوائل مُرّة العواقب ؛ فصِدْق هذا غير خافٍ على ذي لبٍّ ، فإن مَنْ أرسل عنان شبابه في البطالات ، وحلّ رباط نفسه فأجراها في ميادين اللذات ، أدرك من اللذة الجسمانية من ذلك بحَسَب ما يتفق له منها ، ولا سيما إذا كان ذا مال وجمال ، ولكنها تنقضي عنه اللذة وتفارقه هذهَ الحلاوة ، إذا تكامل عقلُه ورجح فهمُه وقوي فكره ، فإنه لا يدري عند ذلك ما يدهمه من المرارات ، التي منها الندامة على ما اقترفه من معاصي الله ، ثم الحسرة على ما فوّته من العُمر في غير طائلٍ ، ثم على ما أنفقه من المال في غير حلّه ، ولم يفز من الجميع بشيء ولا ظفر من الكل بطائل . وتزداد حسرته وتتعاظم كربته إذا قاس نفسه بنَفْسِ مَن اشتغل بطلب المعالي من أترابه ، في مقتبل شبابه ، فإنه لا يزال عند موازنة ذاته بذاته ، وصفاته بصفاته ، في حسراتٍ متجدِّدة ، وزفراتٍ متصاعدة ، ولا سيما إذا كان بيته في العلم طويل الدعائم ، وسلفه من المتأهِّلين لتلك المعالي والمكارم ، فإنه حينئذٍ تذهب عنه سكرةُ البطالة ، وتنقشع عنه عماية الجهالة ، بكروبٍ طويلة ، وهموم ثقيلة ، وقد فاته ما

فات ، وحِيلَ بين العَيْر[١] والنَّزوان، و (حالَ الجَرِيضُ[٢] دُونَ القَرِيض)، و (في الصَّيف ضَيَّعتِ اللَّبَن)[٣]. فانظر - أعزّك الله - أيّ الرجلين أَرْبَح صفقةً ، وأكثر فائدةً ، وأعظم عائدةً . فقد بيّن الصُّبْح لذي عينين ، (وعند الصَّبَاح يَحْمَدُ القومُ السُّرى) »[٤].

رحم الله الشوكاني الإمام ، حيث يقول واصِفًا المتعالمين : « لقد أهدت لنا هذه الأيام ما لم يكن لنا في حساب ، من زعانف هم سقط المتاع وفقعة القاع وأبناء الرِّعاع ، لابَسُوا طَلَبَة العلم بعض المُلابسة ، وشارَكُوهم بجامع الخلطة والعشرة في مثل النظر في مختصرات النحو ، حتى صاروا ممن يتمكّن من إعراب أواخر الكلم ، ثم طاحت بهم الطوائح ورمتْ بهم الروامي إلى أن سائر العلماء المتبحّرين - في علم الشرع وغيره من أهل العصر وغيرهم - فهم عند هؤلاء النَّوْكاء[٥] الرُّقَعاء لا يفهمون شيئًا ولا يعقلون ، فقبَّح الله تلك الوجوه ، فإنها صارت عارًا وشنارًا على أهل العلم ... دنَّسوا عرض العلم ، وجهَّموا وجهه ، وأهانوا شرفه ... » .

قال - رحمه الله - مرغِّبا في طلب العلم : « استكثِرْ من الفنون ما أردتَ ، وتبحَّرْ في الدَّقائق ما استطعتَ ، وجاوب من خالَفَك وعذلك وشنَّع

---

(١) العير : الحمار الأهلي أو الوحشي .

(٢) الجريض هو الريق ، وهذا المثل شهير ، معناه أنه حال الغمُّ والغصصُ دون الشِّعر والطَّرب .

(٣) زيادة يقتضيها المعنى . وأصل هذا المثل أن دختنوس بنت لقيط كانت امرأة لعمرو ابن عدس ، وكان شيخًا فابغضته ، فطلّقها ، وتزوّجها فتى جميل الوجه ، وأجدبت السنة ، فبعثت إلى عمرٍو تطلب منه حلوبةً ، فقال المثل المذكور .

(٤) من الأمثلة السايرة ، يُضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة .

(٥) الحمقى .

عليك بقول القائل :

أتانا أن سهلًا ذمّ جهلًا　　علومًا ليس يعرفهنّ سَهْلُ
علومًا لو دَرَاها ما قَلَاها　　ولكنَّ الرِّضا بالجهل سهلٌ »

٢٦٢ - الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، صاحب « أضواء البيان »[١] :

الإمام القدوة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، صاحب كتاب « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » . من خير منْ يُقتدى به من رجال القرن الرابع عشر في العلم والتُّقى والورع والزهد في الدنيا ، وبذل الجهد في نشر العلم ، والدأب الشديد قبل ذلك في تحصيله حتى فاق أقرانه في كل ذلك .

قال فيه الشيخ محمد بن إبراهيم مفتى الديار السعودية سابقًا - رحمه الله - : « مُلِيء علمًا من رأسه إلى أخمص قدميه » .

وقال عنه أيضًا : « آية في العلم والقرآن واللغة وأشعار العرب » .

وقال عنه الألباني : « من حيث جَمْعه لكثيرٍ من العلوم ، ما رأيتُ مثله » . وشبهه بابن تيمية .

وقال عنه الشيخ حمّاد الأنصاري : « وله حافِظةٌ نادِريَّةٌ قويّة ، ويعتبر في وقته نادرًا ، ولم يكن له منافس في تفسير القرآن بأنواعه الأربعة : بالقرآن، والسنة، وأقوال السلف، واللغة العربية. وعنده في اللغة استحضار عديم النظير » .

حفظ القرآن في بيت أخواله وعمره عشر سنوات ، وتعلّم رسم المصحف العثماني عن ابن خاله محمد بن أحمد بن محمد المختار ، وقرأ عليه التجويد في مقرأ نافع برواية ورش ، وقالون من رواية أبي نشيط ، وعمره

---

(١) كل ما يأتي في هذه الترجمة من كتاب « ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان » للشيخ عبد الرحمن السديس . طبع دار الهجرة .

ست عشرة سنة . ودرس الأدب دراسةً واسعة على زوجة خاله ، وأخذ عنها مبادىء النحو كالأجرومية ، ودروسًا في أنساب العرب وأيامهم والسيرة النبوية ، ونظم الغزوات لأحمد البدوي الشنقيطي ، وهو يزيد على خمسمائة بيت ، وشروحه لابن أختِ المؤلف المعروف بحمّاد . ونظم عمود النسب للمؤلف وهو يعدّ بالآلاف ، وشرحه لابن أخته المذكور على خصوص العدنانيين .

وقد صور الشيخ شدَّة انشغاله في شأن طَلَب العلم في شبابه ، بقوله رحمه الله : « ومما قلت في شأن طلب العلم ، وقد كنت في أُخريات زمني في الاشتغال بطلب العلم دائم الاشتغال به عن التزويج ؛ لأنه ربما عاق عنه ، وكان إذ ذاك بعض البنات ممن يصلح لمثلي يرغب في زواجي ويطمع فيه ، فلمّا طال اشتغالي بطلب العلم عن ذلك المنوال ، أيِسَتْ مني ، فتزوّجتْ ببعض الأغنياء ، فقال لي بعض الأصدقاء : إنْ لم تتزوج الآن مَنْ تصلحُ لك ؛ تزوّجتْ عنك ذواتُ الحسب والجمال ، ولم تجد من يصلح لمثلك . يريد أن يُعجلني عن طلب العلم ، فقلت في ذلك هذه الأبيات :

دَعَاني النَّاصحون إلى النِّكاحِ ... غداةَ تَزَوَّجَتْ بِيضُ المِلاحِ
فقالوا لي تزوَّجْ ذاتَ دَلٍّ ... خَلُوبَ اللَّحْظِ جَائِلَةَ الوِشاحِ
ضَحُوكًا عن مُؤشّرَةٍ رِقاقٍ ... تَمُجُّ الرَّاحَ بالماء القَراحِ
كأن لِحَاظَها رَشَقَاتُ نَبْلٍ ... تُذِيقُ القلبَ آلامَ الجراحِ
ولا عجَبٌ إذا كانتْ لِحَاظٌ ... لِبَيْضاءِ المحاجِرِ كالرِّماحِ
فكم قَتَلَتْ كَمِيًّا ذا دلاصٍ ... ضعيفاتُ الجُفُونِ بلا سِلاح
فقلتُ لهم دَعُوني إن قلبي ... من الغَيِّ الصُّراحِ اليومَ صاحِ
ولي شُغْلٌ بأبكارٍ عَذَارَى ... كأنَّ وُجُوهَها غُرَرُ الصَّباحِ
أراها في المهارِقِ لابِساتٍ ... بَراقِعَ من معانيها الصِّحاحِ
أبيتُ مفكِّرًا فيها فتُضْحِي ... لِفَهْمِ الفَدْمِ خافِضةَ الجَنَاحِ

أَبَحْتُ حَرِيمَها جَبْرًا عليها وما كان الحريمُ بمُسْتباحِ

يقول الشيخ عن بدء طلبه للعلم : « قدمتُ على بعض المشايخ لأدرس عليه ، ولم يكن يعرفني مِنْ قبل ، فسأل عني : مَنْ أكون ؟ في ملأ من تلامذته ، فقلتُ مرتجلاً :

هذا فتًى من بني جاكانَ قدْ نَزَلا به الصِّبَا عن لسانِ العُرْب قد عَدَلَا
رَمَتْ به هِّمةٌ علياءُ نَحْوَكُمُ إذ شَامَ بَرْقَ علومٍ نورُهُ اشتَعَلَا
فجاءَ يرجو رُكامًا من سَحائِبه تكسو لسانَ الفتى أزهارُهُ حُلَلَا
إذ ضاقَ ذَرْعًا بجهلِ النَّحوِ ثُمَّ أبي أَلَّا يُمَيِّزَ شكْلَ العينِ مِنْ فَعَلَا
وقد أتى اليومَ صَبًّا مُولَعًا كَلِفًا بِـ « الحمدُ للهِ » لا أبغي به بَدَلَا

يريد دراسة « لامية الأفعال » .

وقد مضى - رحمه الله - في طلب العلم قُدُمًا ، وقد ألزمه بعض مشايخه بالقران ؛ أي أن يَقْرن بين كلِّ فنَّين ، حرصًا على سرعة تحصيله ، وتفرُّسًا له في القدرة على ذلك ، فانصرف بهمة عالية في درسٍ وتحصيل .

صنَّف - رحمه الله - في بلاده قبل مجيئه إلى الديار السعودية :

١ - نظم في أنساب العرب .

ألّفه قبل البلوغ ، يقول في أوّله :

سمَّيْتُهُ بخالِصِ الجُمانِ في ذِكْرِ أنسابِ بني عَدْنانِ

وبعد البلوغ دَفَنَه ، قال : « لأنه كان على نيّة التّفوُّق على الأقران » . وقد لامه مشايخه على دفنه ، وقالوا : كان من الممكن تحويل النيّة وتحسينها .

٢ - رَجَز في فروع مذهب مالك .

يختصّ بالعقود من البيوع والرهون ، وهو آلاف متعدّدة ، قال في

أوّله :

الحمدُ لله الذي قـد نَـدَبَا ... لأنْ نَمِيزَ البَيْعَ عن لَبْسِ الرِّبَا

٣ - نظم في الفرائض .

٤ - ألفيّة في المنطق .

مصنَّفاته بعد إقامته بالمدينة المنورة :

١ - منْع جواز المجاز في المنزّل للتعبُّد والإعجاز .

٢ - دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب .

وهذا الكتاب موضع إجلال وتقدير أهل العلم ؛ لما حواه من نفائس ودُرَر ونُكَت من مسائل العلم ، لا تكاد توجد مجموعةً في غيره .

٣ - مُذكّرة أصول الفقه ، على روضة الناظر لابن قدامة .

وهي مذكّرة قيِّمة لا يكاد يُغني غيرها عنها ، ولا سيّما في مواطن الترجيح والمباحث العقليّة . وقد استدرك الشيخ - رحمه الله - على ابن قدامة عَزْوه لمذهب مالك ما ليس منه .

٤ - رحلة الحج إلى البيت الحرام .

وهي رحلة علمية ، وحَصَر الشيخ في كتابه هذا خمسًا وأربعين مسألة أجاب عنها .

٥ - آداب البحث والمناظرة .

٦ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن .

يقول الشيخ عطية محمد سالم تلميذ الشيخ الشنقيطي في « تتمّة أضواء البيان » ٧٥/٨ : « ينبغي أن يُعلم أن أضواء البيان ليس تفسيرًا شاملًا لجميع القرآن ، كما يظنه البعض ، ويتطلّب فيه تفسير كل ما أشكل عليه ، بل هو تفسير خاصّ على منهج مختصٍّ به ، وهو تفسير ما أُجمل من الآيات ، أيًّا كان سبب إجماله من حيث اللفظ أو المعنى ، وبيان هذا الإجمال من آيات أُخر ، سواء كان بالمنطوق أو المفهوم أو الفحوى ، أو بسُنَّةٍ ثابتة ، ثم استتباع

ذلك ببيان الأحكام التي تُؤخذ من هذه الآية ، فهو تفسير خاص وبمنهج مختصٍّ به .

وإن هذا المنهج الخاص الجديد في مسلكه ، لهو حقٌّ على كل من تحقّق فيه قول الشيخ رحمه الله ، حقٌّ على من توَّفر حظُّه من العلم بكتاب الله ممّن كان مثله أو قريبًا منه .

وقد كان - رحمه الله - حريصًا كل الحرص على إتمامه ، ولكن وافته المنيّة قبل ذلك بعد أن أنجز مهامّه ومقاصده ، وذلَّل صعابه ، وفتح أبوابه إلا اليسير اليسير منه ، وهو ما بعد سورة قد سمع .

ومن العسير جدًّا ، أو المتعذّر فعلًا ، أن يأتي أحد بمنهج الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ولا سيّما مع ما أعطاه الله من سعة العلوم في عدّة فنون كالمتخصّص في كل فنٍّ .

وقد اشتغل بتفسير القرآن على أوسع مجال في المملكة حوالي ثلاثين سنة تقريبًا ، وفسّر القرآن في المسجد النبوي وحده ثلاث مراتٍ تقريبًا ، وقد سمعتُه يقول : ما من آية في المصحف إلّا وعندي عنها ما قيل فيها . وقد ظهر ذلك جليًّا في أضواء البيان بحمد الله .

يقول الشيخ عبد الرحمن السديس : وأخبرني ابنُه عبد الله ، أنه كان يجلس في المجلس ، فيأتي الضيف ولا يشعر به ، حتى ينبّهه ابنُه إلى قدوم الضيف ، وذلك لانشغال فكره بتجميع شواهد آيةٍ من كتاب الله ، وذلك زمن تأليفه « أضواء البيان » . وأخبرني بنحو ذلك تلميذُه الشيخ أحمد بن أحمد الشنقيطي .

وحدثني ابنه عبد الله ؛ قال : حدثني أبي أنه كان يقرأ في البلاد زمان طلبه للعلم في « مختصر خليل » في أول كتاب النكاح ، حتى وصل إلى قول خليل : « في عشرة ندبه ولو ببيع سلطان لفلس » ، قال لي : أقرأنيها

شيخي بعد العصر ، وكانت دراسته جرديّة ، بحيث يقرأ كل ما قيل في الباب . قال : فأخذتُ شُرّاح خليل وحواشيه على هذه المسألة ، وجلستُ أُراجعها حتى جاء الليل ، ثم أوقدتُ النار أُطالع في ضوئها إلى الصبح ، ولم أنَمْ ، ولم أُصَلِّ غير الفريضة ، فوجدتُ أن للشُّرّاح في قول خليل قولَيْن ، ولو كنت أبحث في الكتاب والسُّنّة ، لأتيتُ للأُمّة بالعَجَب .

يقول الشيخ عطية سالم في ترجمته للشيخ ص٣١ في تعليقه على قول الشيخ - رحمه الله - عن نفسه :

ولي شُغلٌ بأبكارٍ عَذارَى كأنّ وجوهَها ضوْءُ الصّباحِ
أبيتُ مُفكِّرًا فيها فتُضحي لفَهْم الفَدْمِ خافضةَ الجناحِ

ما نصُّه : « نعم ، إنه كان يبيت في طلب العلم مفكّرًا أو باحثًا ، حتى يذلِّل الصّعاب، وقد طابق القول العمل ؛ حدثني - رحمه الله - قال : جئت للشيخ في قراءتي عليه ، فشرح لي كما كان يشرح ، ولكنّه لم يشفِ ما في نفسي على ما تعوّدتُ ، ولم يروِ لي ظمئي ، وقمتُ من عنده وأنا أجدني في حاجةٍ إلى إزالةِ بعضِ اللَّبْسِ ، وإيضاح بعضِ المشكل ، وكان الوقت ظُهرًا ، فأخذت الكتب والمراجع ، فطعالتُ حتى العصر ، فلم أفرغ من حاجتي ، فعاودتُ حتى المغرب ، فلم أنْتَهِ أيضًا ، فأوقد لي خادمي أعوادًا من الحطب أقرأ على ضوئها ، كعادة الطُّلّاب ، وواصلتُ المطالعة ، وأتناول الشاهي الأخضر كلّما مللتُ أو كسلتُ ، والخادم بجواري يُوقد الضوء ، حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي ، لم أُقم إلا لصلاةِ فرضٍ أو تناولِ طعامٍ ، وإلى أن ارتفع النهار ، وقد فرغت من درسي ، وزال عني لبسي ، ووجدتُ هذا المحلّ من الدرس كغيره في الوضوح والفهم ، فتركتُ المطالعة ونمتُ ، وأوصيتُ أن لا يوقظني لدرس ذلك اليوم ؛ اكتفاءً بما حصلتُ عليه ، واستراحةً من عناء سهر البارحة . فقد بات مفكّرًا فيها ، فأضحت لفهم الفَدْم خافِضة الجناح » .

رحم الله الشنقيطي ، السائر على درب ابن تيمية ... والمتواضع .

« العلم ثلاثة أشبار ، من دخل في الشِّبر الأول تكبّر ، ومن دخل في الشبر الثاني تواضع ، ومن دخل في الشِّبر الثالث علم أنه ما يعلم » .

يقول : « ولو كنت أبحثُ في الكتاب والسُّنة لأتيت الأُمَّة بالعَجَب » .

مثل ما قال ابنُ تيمية في سجنه ، بعد قراءته للقرآن أكثر من ثمانين مرة : « قد فتح الله عليّ في هذه المرة من معاني القرآن ، ومن أصول العلم ، بأشياء كان كثير من العلماء يتمنّونها ، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن » أو نحو هذا مع أن ما قاما به في الذَّبِّ عن كتاب الله والدعوة إليه وبه ، لا يقوم بمثله إلّا أقلّ القليل من أهل العلم والإيمان .

قال الشيخ الشنقيطي لولده الدكتور عبد الله عميد كلية القرآن بالمدينة : « نفعني الله بشيخٍ لي كان يقول لي : اعلم أن الفقهاء يقولون : إذا كان هناك ذكي ذكاءً لا يوجد مثله إلّا قليل ؛ تكون فروض الكفاية فَرْض عينٍ عليه ، فاتّق الله في الأُمَّة ، ففروض الكفاية فرض عينٍ عليك .

ونفعني الله بشعر محمد بن حنبل الشنقيطي :

لا تُسِءْ بالعِلْمِ ظَنًّا يا فَتَى ... إنَّ سوءَ الظَّنِّ بالعِلْمِ عَطَبْ
لا يُزَهِّدْكَ أخي في العلم أنْ ... غَمَرَ الجُهَّالُ أربابَ الأَدَبْ
إنْ تَرَ العالِمَ نَضْوًا مُرْمِلًا ... صِفْرَ كَفٍّ لم يُساعِدْهُ سَبَبْ
وتَرَ الجاهلَ قَدْ حازَ الغِنَى ... مُحْرزَ المَأمُولِ من كُلِّ أَرَبْ
قد تجوعُ الأُسْدُ في آجامِها ... والذِّئابُ الغُبْسُ تَعتَامُ القَتَبْ
جَرِّعِ النَّفْسَ على تَحصيلِهِ ... مَضَضَ المُرَّيْنِ ذُلٍّ وسَغَبْ
لا يهابُ الشَّوْكَ قَطَّافُ الجَنَى ... وإبَارَ النَّحْلِ مُشْتَارُ الضَّرَبْ »

وحدثني أيضًا أن الشيخ قال له : « حفظت شُرّاح خليل في مدةٍ من الزمن ، وبعد ستة شهور بدأ يضيع عليّ حفظي ، فاضطررت لنظمه خوفًا من الضياع » .

وقال لابنه عبد الله : « لا توجد آية في القرآن إلّا درستُها على حِدَةٍ » .

وحدثني الشيخ عطية أنه لما عرض عليه تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **ما منعك ألّا تسجد إذ أمرتك** ﴾ [الأعراف : ١٢] مكتوبًا بعد أن أفرغه من الشريط المسجّل ، وكان الشيخ قد ألقاه في المسجد النبوي ارتجالًا ، وأعطاه الشيخ عطية الأوراق ليراجعها ، وسمع الشيخُ المكتوبَ بصوته ، قال : « لولا أني أسمع صوتي بأذني ، وأنت أتيتني بها مكتوبة ، ما صدّقت أن شخصًا يقول هذا ارتجالًا » . وذلك بعد حوالي سنة من إلقائه الدرس ، والذي تضمّن ردًّا على ابن حزم في إنكاره القياس ، وهو مطبوع الآن في ملحق بآخر « مذكرة أصول الفقه » في عشرين صفحة ، وسبقت الإشارة إليه .

يقول الشيخ : « إن الله يفتح على المرء ما لم يكن يتوقّع ، ثم إن المسجد يجمع عجائب من أجناس مختلفة ، ويكفيني واحد يحمل عني ما بلّغت مما عندي » .

وقال ابنه : « قال لي الشيخ محمد المختار بن أحمد فريد الشنقيطي : إذا سألت الشيخ عن شيء في اللغة ، فقال لك : لا أدري . فلا تبحث عنها في المعاجم ، لأنني جرّبت » .

ولو لم يكن للشيخ إلّا « أضواء البيان » هذا الكتاب الجليل العظيم ، لكفاه فخرًا مدى الزمان .

يقول محمد بن عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي في رثاء الشيخ الشنقيطي – وصدق –:

بَكَتِ المثاني تَرْجُمَانَ بَيانِها حَامِيمُها تبكي عليهِ وصادُ
وكذا المعاني كالمثانِ ثَواكِلًا أُمَّاتُها تَبْكي وتبكي الضَّادُ
هـذا البيـانُ وهـذه أضـواؤهُ عَزَّتْ لغيـر الشيـخ لا تنقـادُ
قل للذي يَرْتَاضُها لا تَحْسَبَنْ أَنَّ البيـانَ صحيفَةٌ ومِـدادُ
جَهلُوا ولا عَجَبٌ فتلك حقيقةٌ أَنَّ البيـانَ بصيـرةٌ وفـؤادُ
يا مُبدعًا معنى البيان ومُبْدِيًا عَجَبًا ومن خُتِمَتْ به الأمجادُ
إنَّ المعـانـي بعـد مـا أَلَّفتَهـا وتآلفـتْ ليصيـدَها المُصطـادُ
يُخشَى بفقْدِك أن تعودَ شـواردًا بَدَدًا فما يدْرُون كيفَ تُصَـادُ
يا شيخَنا بل يا ضياءَ قلوبِنا كنتَ الحياةَ فشَقَّ منك بُعادُ
دَفَنَ الأمينَ أعِزَّةٌ لو أَنهم عَلِموا النفوسَ فِدَى الأمينِ لجادُوا

وقال الشيخ محمد بن مدين الشنقيطي في الشيخ الشنقيطي رحمه الله :

يُرَوِّي البَرَايا من روايا عُلُومِه بنقْل صحيحٍ عن فُحولِ المذاهب
وتفسيرهِ مِنْ حِفْظِه كُلَّ آيةٍ بأُختٍ لها أَعْظِمْ بهِ من مَواهِبِ
إذا رجفَ اليَمُّ الخِضَمُّ بمَنْزعٍ من العلْمِ أبْدَى فيه كُلَّ العجائبِ
عجيبٌ غريبٌ في البرايا وإنَّما غرائبُهُ في العلْمِ فوقَ الغرائبِ

ولله در الشيخ بكر أبو زيد تلميذ الشيخ الشنقيطي الذي قال فيه : « لو كان في هذا الزمن أحد يستحقّ أن يُسمّي شيخ الإسلام ، لكان هو » .

٢٦٣ - محدث العصر فضيلة الشيخ أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني :

« قال فيه الشيخ ابن باز : ما رأيت تحت أديم السماء عالمًا بالحديث مثل العلّامة محمد ناصر الدين الألباني »[1].

(١) الألباني آثاره وثناء العلماء عليه . لمحمد بن إبراهيم الشيباني جـ١/٦٥ - ٦٦.

وقال فيه الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين : « قلّ رجلٌ يكون مثله في هذا الزمان » . أي في الحديث .

« في عصر الفتن والغوايا وخساسة الهمم ، عصر الزهد في العلم ، والقصور في طلبه ، أن قيّض لها علمًا فذًّا من بقايا السلف ، بكّر في طلبه للعلم ودوَّنَهُ ، وصبر على تلقّيه صبرًا طويلًا ، وحرّض شباب الأُمّة على طلبه ، ودلّهم على مصادره ومظانّه . لقد ذبّ ناصر الدين عن السُّنّة - ستين عامًا - تحريف الغالين وانتحال المُبطلين ، حتى أصبح حديثُ رسول الله ﷺ والدفاع عنه جزءًا من حياته ودمه الذي يجري في عروقه ، فحورب كثيرًا من أقرانه ومن متعصّبة زمانه فزُجّ في السجن مرتين بسبب العداوة والبغضاء .

وقد كان من نعم الله على الشيخ ناصر أثناء سجنه أن دعا المسجونين إلى ما كان يدعو إليه خارج السجن ، فاستجاب لدعوته خلْق كثير ، واستفاد من سجنه أنه ألّف فيه مختصره على صحيح مسلم بن الحجاج ، وهو غير اختصار مسلم للمنذري الذي حقّق أحاديثه الشيخ .

وحثّ الناس في السجن على صلاة الجماعة والجمعة ، وهذه أول مرة تقام صلاة الجمعة في القلعة من بعد سجْن ابن تيمية رحمه الله .

وكانت همته العالية ، وشغفه بالعلم لا تعرفان الحدود والقيود ، مثله مثل ابن الجوزي يقول عندما سجن : « غير أني قد استسلمت لتعذيبي ، ولعلّ تهذيبي في تعذيبي ، لأن علو الهمة يتطلّب المعالي المقرّبة إلى الحق عز وجلّ » . لله درُّهم .

علّمه والده القرآن والتجويد والصرف وفقه مذهبه الحنفي ، وتلقّى بعض العلوم الدينية والعربية على بعض الشيوخ من أصدقاء والده مثل الشيخ سعيد البرهاني إذ قرأ عليه كتاب « مراقي الفلاح » وبعض الكتب الحديثة

في علوم البلاغة ، وأخذ الشيخ إجازة في الحديث من الشيخ راغب الطّبّاخ علّامة حلب في زمانه » .

توجّه الألباني إلى علم الحديث في نحو العشرين من عمره ، متأثرًا بأبحاث مجلة المنار التي كان يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا ، ولقد كانت لكتابات الشيخ رشيد رضا أكبر الأثر في دفعه إلى دراسة الحديث الشريف .

يقول الشيخ الألباني – فيما يرويه عنه الشيخ محمد المجذوب في كتابه « علماء ومفكرون » –: « ذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة ، جزءًا من مجلة المنار ، فاطّلعتُ عليه ، ووقعت فيه على بحثٍ بقلم السيد رشيد رضا ، يصف فيه كتاب الإحياء للغزالي ويُشير إلى محاسنه ومآخذه . ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي ، فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كلِّه ، ثم أمضى لأُتابع موضوع تخريج الحافظ العراقي على الإحياء ، ورأيتني أسعى لاستئجاره لأني لا أملك ثمنه ، من ثَمَّ أقبلت على قراءة الكتاب ، فاستهواني ذلك التخريج الدقيق حتى صمَّمتُ على نسخه ، وهكذا جهدتُ حتى استقامت لي طريقةٌ صالحة تساعد على تثبيت المعلومات ، وأحسب أن هذا المجهود الذي بذلته في دراستي تلك ، هو الذي شجعّني وحبّب إليَّ المضي في ذلك ، إذ وجدتُني أستعين بشتَّى المؤلفات اللُّغوية والبلاغة وغريب الحديث لتفُّهم النص إلى جانب تخريجه ». ويتابع الأستاذ المجذوب : « وقد أطلعني الشيخ على عمله في ذلك النَّسْخ ، فإذا أنا تلقاء أربعة أجزاء في ثلاثة مجلدات ، تبلغ صفحاتها ألفين واثنتي عشرة في نوعين مختلفين من الخطّ ، أحدهما عادي ، والثاني دقيق علّق به في الهوامش تفسيرًا أو استدراكًا . ولعمر الحق إنه لمجهود يعجز عنه أولو العزم من أهل العلم في هذه الأيام ، فكيف إذا أُضيف إلى

ذلك أن الشيخ لم يكن آنئذٍ قد تجاوز العشرين من العمر ، ولا جَرَم أن هذا الجهد الجبار في تأليف تلك المجلدات ، مع الاستعانة بكل وسائل التحقيق المتيسرة للفتى أيامئذٍ ، كان ذا أثر كبير في تمرُّسه بهذا الضرب من العمل العلمي ، فهو وإن كان لا يستحوذ على رضاة بصورة تامة ، قد شقّ له الطريق إلى تقدُّم أعلى في هذا المضمار .

ومن خلال هذه الحياة وتلك النشأة ، وهاتيك الملابسات ، يتراءى لي أن ثمة عواملُ خفيّة كانت دائبة على توجيه الفتى في ذلك الطريق ؛ لتجعل منه في النهاية واحدًا من كبار خَدَمَة السُّنّة المطهرة في ديار الشام » .

وحول هذه المؤثرات يقول الشيخ : إن نِعَم الله عليّ كثيرة لا أُحصي لها عَدًّا ، ولعلّ من أهمّها اثنتين : هجرة والدي من ألبانيا إلى الشام ، ثم تعليمه إيّاي مهنة في إصلاح الساعات . أما الأُولى فقد يسّرتْ لي تعلُّم العربية ، ولو ظللْنا في ألبانيا لما توَّقعت أن أتعلَّم منها حرفًا ، ولا سبيل إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلَّا عن طريق العربية . وأمّا الثانية فقد قيَّضتْ لي فراغًا من الوقت أملؤه بطلب العلم الذي لا بدّ لطالبه من التفرغ .

يقول الشيخ – عندما سُئل عن الطريقة التي يوفّق بها بين تفرُّغه للعلم واشتغاله بتصليح الساعات وبيعها –: إنّ ذلك صحيح ، ومن توفيق الله تعالى وفضله عليّ أن وجّهني منذ أول شبابي إلى تعلُّم هذه المهنة ، ذلك لأنها حُرّة لا تتعارض مع جهودي في علم السُّنّة ، فقد أعطيتُ لها من وقتي كل يوم ، ما عدا الثلاثاء والجمعة ، ثلاث ساعات زمنية فقط ، وهذا القدر يمكنني من الحصول على القوت الضروري لي ولعيالي وأطفالي على طريقة الكفاف طبعًا ، فإن من دعائه عليه الصلاة والسلام : « اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قُوتًا » . رواه الشيخان . وسائر الوقت أصرفه في سبيل

طلب العلم والتأليف ودراسته كتب الحديث ، وبخاصّة المخطوطات منها في المكتبة الظاهرية ، ولذلك فإنني أُلازم هذه المكتبة ملازمة موظفيها لها . ويتراوح ما أقضيه من الوقت فيها ما بين ست ساعاتٍ إلى ثماني ساعاتٍ يوميًّا ، على اختلاف النظام الصيفي والشتوي في الدوام فيها .

وكان إذا جاء وقت صلاة الظهر أذّن وصلّى بالمسلمين في المكتبة ، وكذلك الأوقات الأُخرى كالمغرب والعشاء .

وكان والده - رحمه الله - يحذره قائلًا : « علْم الحديث صَنْعة المفاليس » . ورغم هذا فقد ازداد حب الفتى لحديث رسول الله ﷺ وتمييز صحيحه من ضعيفه .

وبما أنه كان يعيش في كنف والده الذي يعول أسرة كبيرة ، فلم يكن بمقدوره أن يشتري ما يحتاج إليه من الكتب التي لا يجدها في مكتبة أبيه العامرة بكتب المذهب الحنفي خاصة ، فلذلك يَّمم شطر المكتبة الظاهرية ، وكانت من نعم الله الكبرى عليه ، إذا كان يجد فيها ما لا يستطيع شراءه من الكتب ، كما كان يستعين أحيانًا ببعض المكتبات التجارية الخاصّة ، التي يعدّها الشيخ من التوفيقات الربانية بسبب ما تيسّر له من الاتصال بالسيد سليم القصيباتي وابنه عزت ، اللذيْن يملكان إحدى أكبر مكتبات دمشق ، وقد مكّنا الشيخ من كل كتابٍ يعوزه الاطّلاع عليه ، فيسمحان له باستعارته لزمنٍ غير محدود دون أجر ، حتى يأتيهما راغب في شراء الكتاب . فيبعثان إليه فيردّه إليهما ، وبذلك فسح لهذا النَّهم ، الذي لا يشبع من العلم ، أن يجد تحت تصرفه أعدادًا لا حصر لها من الأسفار التي هو في أمسّ الحاجة إليها .

ولعلّ الاهتمام بالحديث أصبح شغله الشاغل ، حتى كان يُغلق محلّه ويذهب إلى المكتبة الظاهرية ويبقى فيها اثنتي عشرة ساعة ، لا يفتر عن

المطالعة والتعليق والتحقيق ، إلا أثناء فترات الصلاة ، وكان يتناول طعامه البسيط في المكتبة في كثير من الأحيان فيها - ولعمري هكذا الأوائل من أهل الحديث - ولهذا قدّرتْه إدارة المكتبة ، فخصَّصتْ له غرفةً خاصّة به ؛ ليقوم فيها مع بعض أُمّهات المصادر بأبحاثه العلمية المفيدة ، فكان يدخل قبل الموظفين صباحًا ، وفي بعض الأحيان كان من عادة الموظفين الانصراف إلى بيوتهم ظهرًا ثم لا يعودون ؛ ولكن الشيخ يبقى في المكتبة ما شاء الله له البقاء فربما يصلي العشاء ثم ينصرف . وإن كل من رآه في المكتبة - آنذاك - يعرف مدى اجتهاده وحرصه على الاستفادة من وقته ، حتى إن كثيرًا من الناس كانوا يحملون عليه لكثرة انهماكه في المطالعة والتأليف أثناء زيارتهم له في المكتبة ، وللشيخ عذره ؛ لأنه لا يريد إضاعة الوقت بالتّرحاب والمجاملة ، وكان يجيب عن بعض الأسئلة التي تُوجّه إليه وهو ينظر في الكتاب ، دون أن يرفع بصره إلى محدِّثة ، بأوجز عبارةٍ تؤدي إلى الغرض ، وكما يقول الأستاذ د . محمد الصبّاغ : عين في الكتاب وعين في السائل . وكان من ثمرة هذا الجهد تخريجه أحاديث البيوع في موسوعة الفقه الإسلامي ، وغيرها من المؤلفات ، وفهرس لمخطوطات الحديث في المكتبة الظاهرية . وكان الشيخ يستفيد من سفره إلى حلب كل شهر ، حيث يذهب إلى مكتبة الأوقاف الإسلامية الوحيدة العامرة بالمخطوطات هناك ؛ يقضي فيها الساعات الطويلة في دراسة مخطوطاتها ونَسْخ ما هو ضروري منها لمشروعاته العلمية ، وصنع الشيخ فهرسًا لمخطوطات الحديث في هذه المكتبة ، ومن الكتب التي نسخها من هذه المكتبة : كتاب « الزوائد » للبوصيري .

مجالسه العلمية :

وقد كان للشيخ برنامج أسبوعي يعقده ويحضره طلبة العلم وأساتذة الجامعات .

وقد درّس في هذه المجالس من الكتب العلمية ما يلي :

(١) الروضة الندية .
(٢) منهاج الإسلام في الحكم لمحمد أسد .
(٣) أصول الفقه لعبد الوهّاب خلاف .
(٤) مصطلح التاريخ لأسد رستم .
(٥) فقه السنة .
(٦) الحلال والحرام .
(٧) الترغيب والترهيب .
(٨) فتح المجيد .
(٩) الباعث الحثيث .
(١٠) رياض الصالحين .
(١١) الإلمام في أحاديث الأحكام لابن دقيق العيد .
(١٢) الأدب المفرد . وكان يدرّس على النساء ، وكان يختار منه ما صحّ من الحديث ويعلّق عليه .

وزاد الأستاذ محمد عيد عباسي أحدُ تلاميذ الشيخ :

(١٣) اقتضاء الصراط المستقيم .
(١٤)

واختير الشيخ أستاذًا لمادة الحديث بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، فظلّ يدرِّس بها ثلاث سنواتٍ ، كان خلالها مثالًا للجدّ والإخلاص ، حتى أنه كان يجلس مع الطلاب على الرمل أثناء الاستراحات بين الدروس ، ويمرّ به بعض الأساتذة والطلاب حوله على الرمل فيقولون : هذا هو الدرس الحقيقي، وليس الذي خرجت منه أو الذي ستعود إليه. حتى وشى الواشون، وعُزِل الشيخ عن التدريس في الجامعة . وقد كان من حسناتِ الشيخ على الجامعة الإسلامية ، أنه أوّل من درّس علم الإسناد ، وهو بهذا أول معلِّم يقرِّر هذا العلم في جامعة في العالم . يقول الدكتور أمين المصري رئيس قسم الدراسات العليا للحديث في الجامعة الإسلامية لطلاب الجامعة : « نحن نستفيد من كتب الألباني ما نقدِّم بعضها لكم » . وقال مرةً : « من نَكد الدنيا أن يختار أمثالنا من حَمَلة الدكتوراة لتدريس مادة الحديث في الجامعة ، وهناك من هو أوْلى بذلك منّا ، مما لا نصلح أن نكون من تلامذته في هذا

العلم ، لكنها النظم والتقاليد » . وكان الدكتور أمين يعدّ نفسه من تلاميذ الشيخ .

ولكثرة مؤلفات الشيخ العلمية الدقيقة ، صار الشيخ مرجعًا في الحديث ، يأتيه العلماء والأساتذة وطلبة العلم ودكاترة الجامعات في الفقه والحديث ، يسألونه عن معضلات المسائل ، فيجيب عنها إجابة المتمكّن الواثق مع ذكر المراجع والصفحات ، وفي كثير من الأحيان يذكر كتبًا لم يسمع بها الحاضرون ؛ لأنها لم تر النور بعد ، إنما هي دفائن خزانة المكتبة الظاهرية بدمشق التي هو أعرف الناس بذخائر مخطوطاتها وبالأخص الحديثية منها .

يقول محمد بن إبراهيم الشيباني في ترجمة الألباني : « الشيخ لم تسنح له الفرصة ليكتب قصة حياته بنفسه ؛ لانشغاله بطلب العلم والتَّنقُّل في فنونه ، وإلا لأصبحتْ قصته مؤثِّرةً حزينة مُبكية ، وقد قال لي يومًا : لو كان عندي فُسْحة من الوقت ، لكتبتُ ما لم تسمع به من القصص .

ومن شدة العنت والفقر الذي عاشه الشيخ ، أنه كان لا يملك قيمة ورقة يشتريها ليسوّدها بما منّ الله تعالى عليه من علْمٍ فيها ، فكان يطوف في الشوارع والأزقّة يبحث عن الأوراق الساقطة فيها من هنا وهناك ؛ ليكتب على ظهرها ، وذلك لأن وجه الورقة يكون عادة مكتوبًا فيه ، إمّا دعوة لافتتاح معرض ، أو حفلة زواج ، أو دعاية لمصنوعةٍ من المصنوعات وقد أطلعني الشيخ على بعض الكتب المخطوطة التي كُتبت بهذه الأوراق ، وأغلبها قد تقطَّعتْ أطرافُها وتساقطت ، وقال لي مرة : كنت أشتري الأوراق (سقط المتاع) بالوزن لرِخَصِه » .

يقول الألباني حفظه الله : « تحقيقًا مني للنُّصح لإخواني المسلمين ، صنّفت ولا أزال أُصنِّف من الكتب ، ما به يستعين القُرّاء على تمييز الصحيح

من الضعيف ، والطيب من الخبيث مما يدور على ألسنة الناس ، أو سُجّل في بطون الكتب من الحديث » .

قال ابن الجوزي : « البكاء ينبغي أن يكون على خساسة الهمم » .

فقد ضعفت الهمم وماتت الرغبة في استبحار كتب الحديث من ألفها إلى يائها .

أين طلاب العلم الذين يقفون على طُرق الحديث وتعدُّد رواياتها ! أين الذين يشغلهم معرفة المُتابَعَات والشواهد والطرق في كتب الحديث المسندة ؛ من صحاحٍ ، وسننٍ ، ومعاجم ، ومسانيد ، وأجزاء ، وفوائد ، ومشيخات . أين الذي يستخرج كنوزها ليطوِّق جِيد العلم بالنافع الماتِع من التخريجات الحديثية الرصينة ! صاروا أعزَّ من عَنْقاءُ مُغْرِب .

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا ... فقد صاروا أعزَّ من القليلِ

رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يحفظ الله بهم الأرض ، بواطنهم كظواهرهم ، بل أجلَى ، وسرائرهم كعلانيتهم ، بل أحلَى ، وهممهم عند الثريّا ، بل أعلى ، فالناس في غفلاتهم ... وهم مع الحديث في خلواتهم ، تحبُّهم بقاع الأرض ، وتفرح بهم أملاك السماء .

لا سبيل إلى سلوك طريقهم إلا بإدمان الطَّلَب ، وكثرة المذاكرة والسهر ، والتَّيقُّظ والفهم ، والتَّردُّد إلى مجالس العلماء ، وإلّا تفعل :

فدعْ عنك الكتابةَ لستَ منها ... ولوْ سوَّدتَ وَجْهَك بالمدادِ

« فإن أنستَ يا هذا من نفسك فهْمًا ، وصِدقًا ودِينًا وورعًا ، وَإلَّا فلا تتعنَّ ، فعلم الحديث صلف ، فأين علم الحديث وأين أهله ؟! كدت أن لا أراهم إلَّا في كتاب أو تحت تراب »[1].

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي «٤/١» .

يقول الشيخ سليم الهلالي – حفظه الله –: « ولكن أبى الله إلّا أن يُتمّ نوره ، فقيَّض لعلم الحديث رجلًا جدَّده ، وأوضح قواعده التي حبّرها علماء الحديث عمليًّا ، فهرع الباحثون إلى كُتُبه زرافاتٍ ، وتداعَوْا إليه رجالًا وركبانًا ، فبرقتْ في الأفق بُشرى ، وأُخرى نحبُّها ؛ أن يتولّى المخلصون ترشيد هذه الصحوة العلمية ، ترشيد في التَّوجُّه والنَّوْعية ، وتجريد في العمل والنِّيَّة . والله المستعان .

هذا الرجل هو شيخنا محدِّث العصر – ولا فخر – العالم الربّاني أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي الألباني ، الذي سلخ بضعًا وخمسين عامًا في الاشتغال بعلم الحديث النبويّ وخدمة السُّنّة المطهرة ، دراسةً وتدريسًا وتأليفًا وتحقيقًا ، عملًا ودعوةً ، فرَسَخَ في رياض الفقه قدمُه ، وسبح في بحار التخريج قلمُه ، فأتى بتحقيقاتٍ جليلة خلتْ عنها الدفاتر ، وأشار إلى تدقيقاتٍ نقية لم تحوها كتب الأكابر ، شهد له بذلك شانئوه قَبْل مُحبيه ، ومخالفوه قبل مُوافِقيه ، ولذلك فإنني لست مُبالِغًا إذا قلت : إنه لا يستغني باحث في هذه الأيام عن الرجوع إلى آرائه في التضعيف والتصحيح ، فإنها مَحْض النُّصح النَّصيح ، ومخْض عن زبد الحق الصريح ، يُنقِّح فيها ما لا يستغني عن التنقيح ، ويرجِّح ما هو مفتقِرٌ إلى الترجيح ، ويوضِّح ما لا بدَّ فيه من التوضيح »[1] .

وقد ظهر من مؤلفات الشيخ سيل غامر فوّاح بأريج السنة ، ومن مؤلفاته:

(١) آداب الزفاف في السنة المطهرة .

(٢) الآيات البيِّنات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات . تحقيق .

---

(١) المعجم المفهرس لأطراف الأحاديث ١/١١ – ١٢ . طبع دار ابن الجوزي التي خرّجها الألباني لسليم الهلالي .

(٣) الأجوبة النافعة عن أسئلة لجنة مسجد الجامعة .
(٤) الاحتجاج بالقدر . تحقيق .
(٥) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل .
وهو من أعظم كتب الألباني ، ولو لم يكن للألباني إلّا هذا الكتاب لكفاه ، وحسْبه أنه الكتاب الوحيد في تخريج أحاديث فقه الحنابلة .
(٦) إصلاح المساجد من البدع والعوائد للقاسمي . تحقيق .
(٧) اقتضاء العلم العمل . تحقيق .
(٨) الإيمان لابن تيمية . تحقيق .
(٩) الإيمان لابن أبي شيبة . تحقيق .
(١٠) الإيمان لأبي عبيد . تحقيق .
(١١) بداية السّول في تفضيل الرسول ﷺ . تحقيق .
(١٢) تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد .
(١٣) تخريج أحاديث مشكلة الفقرِ وكيف عالجها الإسلام .
(١٤) تصحيح حديث إفطار الصائم قبل سفره بعد الفجر ، والرّدّ على من ضعّفه .
(١٥) أحكام الجنائز .
(١٦) تلخيص أحكام الجنائز .
(١٧) تمام المنّة في التعليق على فقه السنة .
(١٨) التّنكيل لما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل .
(١٩) التّوسُّل أنواعه وأحكامه .
(٢٠) حجاب المرأة المسلمة .
(٢١) حجاب المرأة ولباسها في الصلاة .
(٢٢) حجة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر رضي الله عنه .
(٢٣) الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام .

(٢٤) حقوق النساء في الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدي العام . تحقيق .

(٢٥) حقيقة الصيام . تحقيق .

(٢٦) خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها لأصحابه .

(٢٧) دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات الدكتور البوطي في كتابه « فقه السيرة » .

(٢٨) الرّدّ على التعقيب الحثيث .

(٢٩) رفع الأستار لإبطال أدلّة القائلين بفناء النار . تحقيق .

(٣٠) رياض الصالحين . تحقيق .

(٣١) سلسلة الأحاديث الصحيحة . وهي من أقْيَم ما كتب الشيخ .

(٣٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيىء في الأُمَّة بارك الله في يمين الشيخ .

(٣٣) تحقيق شرح العقيدة الطحاوية .

(٣٤) صحيح ابن خزيمة . تحقيق .

(٣٥) صحيح الترغيب والترهيب .

(٣٦) صحيح الجامع الصغير وزيادته .

(٣٧) ضعيف الجامع الصغير وزيادته .

وهما من أجود ما كتب شيخنا .

(٣٨) صحيح الكلم الطيب .

(٣٩) صحيح سنن أبي داود .

(٤٠) ضعيف سنن أبي داود .

(٤١) صحيح سنن النسائي .

(٤٢) ضعيف سنن النسائي .

(٤٣) صحيح سنن الترمذي .

(٤٤) ضعيف سنن الترمذي .

(٤٥) صحيح سنن ابن ماجه .

(٤٦) ضعيف سنن ابن ماجه .

وغيرها من عشرات المؤلفات . ولو لم يكن للشيخ إلا ضعيف وصحيح السنن الأربعة ، لحُفِر اسمه بمدادٍ من نور على جبين تاريخ السُّنَّة .

يقول الشيخ محمد المجذوب في مدح الشيخ ناصر الدين الألباني :

قالوا ألا كلمةٌ في الشيخ تُنْصفُه ... فقد طغى الجورُ حتى في الموازينِ
شُنَّتْ عليه حروبٌ لا يُسوِّغها ... عقلٌ يرى الحقَّ في ظِلِّ البراهينِ
فقلتُ فوقَ ثنائي ما يُبَلِّغُهُ ... محدِّثُ الشّامِ عن خير النَّبيِّينِ
ورَدُّهُ الجيلَ للوَحْيِ الجليلِ يدٌ ... ما إنْ يُكابِر فيها غيرُ مفتونِ
وحَسْبُهُ أنَّهُ هزَّ العقولَ وقَدْ ... باتتْ مِن الحَجْر والتَّقليدِ في هُونِ
فأصبحتْ ذاتَ وعْيٍ ليسَ يُعجِزُهُ التَّـ ... ـمْييزُ ما بين مفروضٍ ومسنونِ
والدِّينُ سِرٌ من الرحمنِ بيَّنَهُ ... رسولهُ وسِواهُ محضُ تخمينِ
والجامدون حيارَى ليسَ في يدهم ... إلّا روايةُ مجروحٍ لمَوْهُونِ
فما عسى أن يقول الشِّعْرُ في رجلٍ ... يدعوه حتى عِداهُ ناصرَ الدِّينِ
وأيِّ خيرٍ إذا فَرْدٌ تجاهَلَهُ ... وقد فشا فَضْلُه بين الملايينِ[1]

٢٦٤ - فضيلة الشيخ أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن باز :

الممثِّل في شخصه الكريم مشيخة الإسلام في هذا العصر ، إمام أهل السنة في هذا العصر، المحدِّث الأثري، الفقيه النابغة، مُفتي الديار السعودية ، ومرجع المُستفتين من مختلف أنحاء العالم .

---

(١) علماء ومفكرون عرفتُهم لمحمد المجذوب جـ١/٢٩٩ - ٣٠٠ .

حفظ الشيخ القرآن عن ظهر قلبٍ قبل أن يبدأ مرحلة البلوغ .

وبحفظه لكتاب الله باشر انطلاقه في طلب العلم ، وجهاده فيه ، فما ينفكّ عالمًا ومتعلِّمًا ، وواعظًا ومذكِّرًا ، لا يكاد يجد في غير سبيله هذه متعةً ولا فائدةً . لم يحبس الشيخ وقته على أستاذٍ واحد ؛ بل اتصل بالعديد من المشايخ يتلقّى عنهم العلم كلّ في حدود تخصُّصه .

ويعدِّد الشيخ من أساتذته الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن ، والشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن ، والشيخ محمد بن إبراهيم ابن عبد اللطيف . ويشيد الشيخ بمشايخه هؤلاء وآثارهم في تشجيعه على المثابرة في تحقيق الخير والعلم والتَّبحُّر في عقيدة السلف .

ومن مشايخه : الشيخ سعد بن حمد من آل عتيق ، والشيخ حمد ابن فارس ، والشيخ سعدو البخاري بمكة الذي أخذ عنه علم التجويد.

على أن أطول سِنِيِّه الدراسية تلك التي قضاها في التتلمُذ على سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، الذي استمر ملازمًا له نحو عشر سنوات .

وقد فقد الشيخ ابن باز البصر في التاسعة عشر من سِنِيِّه[1] .

واستمر الشيخ يطلب العلم بعد فقده لعينيه ، ولكن قلبه يزداد نورًا ، وعوّضه الله بذكاء في القلب . يقول أحد الشعراء :

رأيتُك أعمى العينِ صار ضياؤها ... بقلبِك حتى صرتَ فَجْرًا مُبَلَّجَا
فصار سوادُ العين في القلب فاقتدى ... يَنظمُ من نورِ الشريعة مَنْهَجَا

عوضه الله بصبرٍ على العلم ومثابرة وذكاء مفرط « فالشيخ حافظ العصر في علم الحديث ، فإذا سألته عن حديث من الكتب الستة ، أو من

---

(١) من ترجمة للشيخ من كتاب : علماء ومفكرون عرفتهم . لمحمد المجذوب . طبع دار الاعتصام .

عند غيرهم ، ففي الغالب تجده مذياعًا فصيحًا يستحضر الحديث سندًا ومتنًا ومن تكلّم فيه ، ورجاله وشرحه ، فأْتُوني بأهل العيون المُبصرة يكونون كالشيخ في علمه وفقهه »(١).

يقول الشيخ عائض القرني في ترجمته للشيخ ابن باز : « وتستمر الحال بالشيخ ؛ فلا يفتر ليلًا ولا نهارًا ، يبحث عن العلم ويطلبه من مظانّه ، وفي حياته درسَ العلم على قلَّة ذات اليد ومع الفقر ، ومع العمى ومع العَوَز ، إذا صدق المسلم في طلب العلم ، ونوى الفائدة .

قال الله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ [العنكبوت : ٦٩].

إذا سألتَ الله في كل ما أمَّلْتَه   جُزتَ البحارَ والفَلاحَ بهمَّة
تُخرج ماءُ الصفاءِ ما شابها   قولَ حاسدٍ أو مقولة بَاهتِ

والذي يودّ الحصول على العلم عليه أن يقرأ سيرة الشيخ ، فإن من السلف الصالح منْ هو أعلم من الشيخ بكثير ، لكن علينا أن ننظر إلى سيرة رجل حيٍّ بين أظهرنا يمثّل العلم في قمته ، وقد حصل له في حياته فقرٌ وعَوَز ، والكتب وقتها ليست متوفّرة ، والطباعة كانت ضعيفة ، ووسائل التّنقُّل ما كانت بذاك ، والرجل أعمى ، ومع ذلك حصّل وحصّل ، ووصل إلى ما وصل إليه، فأين الشباب؟! فالعلم متوفر، والطباعة سهلة، والمجلدات كثيرة ، والجامعات مفتوحة والأساتذة كُثر ، والعلماء متوفِّرون ، وفي الثقافة غزارة ، فأين من يطلب العلم ؟!

خرج الإمام القفَّال - وقيل الإمام الشاشي - إلى أحد الأمصار لطلب العلم وعمره أربعون سنة .. لم لا نطلب العلم في الأربعين وفي الخمسين وفي

(١) الممتاز في مناقب الشيخ ابن باز لعائض القرني ص١٣ ، ١٤ دار الصميعي للنشر والتوزيع .

الستين ؟! فالإمام البخاري يقول في الصحيح ، في « كتاب العلم » : « وقد تعلّم أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام في الكِبَر » . فلم لا نتعلّم ولو كبارًا ؟! .

ذهب القفّال وعمره أربعون فقال: كيف أطلب العلم، ومتى أحفظ ، ومتى أفهم ، ومتى أُعلِّم الناس ؟! فرجع فمرّ بصاحب ساقيةٍ يسوق على البقر ، وكان الرِّشاء - هذا الحبل - يقطع الصخر من كثرة ما مرّ ، قال : أطلبُهُ وأتضجَّرُ من طلبه !!

اطلُبْ ولا تَضَّجِرْ من مطلبٍ فآفةُ الطّالِبِ أن يَضْجَرَا
أمَا تَرى الحَبْلَ بَطُولِ المَدَى على صليبِ الصَّخْرِ قد أثَّرا

واستمرّ يطلب العلم ، وأصبح إمامًا من كبار الأئمة الشافعية ، ومِنْ جهابذة الدنيا .

إذ الطموح والهمّة العالية واستعذاب المنايا والمخاطرة بالنفس حتى تصل إلى المطلوب وإلى الهدف السامي »[1] .

« والشيخ ابن باز نَحْوِيٌّ يُجيد اللغة العربية الفصحى ويشرحها ويمليها على طلابه .

وله في الفرائض قَدَم ، وأمَّا في الحديث فهو محدِّث جِهْبِذ ، يعرف الرجال ، وتسأله في الرجال ، وقد سألته قبل ما يُقارب أربع سنوات عن الحجاج بن أرطاة ، قال : ضعيف ومدلِّس . وغيره من الرجال ، وهو يحفظ مئات ، بل آلاف الرجال في ذهنه ، إذا سألته عن الرجل أخبرك عنه وما قيل فيه ، وهو مُغرم بعلم الرجال ، يُطالع كثيرًا في تهذيب التهذيب لابن حجر ، وهو كتابه المفضّل فيما أعلم ، وقال لبعض محبّيه : « رُبّما حفظتُ

---

(١) الممتاز في مناقب الشيخ ابن باز . لعائض القرني (١٧ - ٢٠) .

ثمانين في المائة من هذا الكتاب » . وفتح الباري ، وقد قرأه مراتٍ عديدة من وقت طلبه للعلم إلى الآن ، وهو الذي تولّى الإشراف على إخراجه وتحقيقه للناس ، بالاشتراك مع الفاضليْن محبّ الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي - رحمهما الله تعالى - والذي مكث فيه ابن حجر يؤلِّفه اثنين وثلاثين سنة ، وهو كتاب ، لو كان في العصر معجزة ، لكان هذا الكتاب » .

وللشيخ مشوار مع الفَجْر في تعليم طلبة العلم من بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ؛ يدرِّس الشيخ في كتاب « فتح الباري » ، و « فتاوى ابن تيمية » ، و « بلوغ المرام » ، و « الكتب الستة » و « شرح العقيدة الطحاوية »[١] ، و «تفسير ابن كثير» و «البداية والنهاية» و «جامع العلوم والحكم» ومجلس العشاء ، ما بين الأذان والإقامة من « رياض الصالحين »[٢] .

يقول الشيخ محمد المجذوب في الشيخ ابن باز :

روى عنك أهلُ الفضلِ كلَّ فضيلةٍ ... فقُلْنا حديثُ الحبِّ ضَرْبٌ من الوهْم
فلمَّا تلاقَيْنا وجدْناك فوق ما ... سمعْنا به في العِلْم والأدب الجمِّ
فلم نَرَ شيخًا قَبْلَ بازِنا ... يصيدُ فلم يُؤذِ المَصِيدَ بدَمِ

يقول عائض في مدح الشيخ ابن باز :

قاسمتُكَ الحُبَّ من ينبوعِهِ الصّافي ... فقمتُ أُنشد أشواقي وألطافي
لا أبتغي الأجر إلّا من كريم عطاء ... فهو الغفورُ لزلّاتي وإسرافي
عفوًا لك الله قد أحببتُ طَلْعَتَكم ... لأنّها ذكّرَتْني سِير أسلافي
يا دمعُ حَسْبُكَ بُخلًا لا تجودُ لمَنْ ... أجرى الدموع كمَثْلِ الوابلِ السّافي

(١) الممتاز ص٤٤ ، ص٦٦ - ٦٧ .
(٢) ابن باز الداعية الإنسان . طبع مؤسسة عكاظ ص٤٩ - ٥١ .

يا شيخ يكفيك أن الناسَ قد شُغِلوا بالمُغرياتِ وأنت الثّابتُ الوافي
أغراهمُ المال والدنيا تجاذبُهُمْ ما بين مُنْتَعِلٍ منهم ومن حافي
مجالسُ اللغو مَنْداهم وروحتُهم أكْلُ اللحوم كأكْلِ الأقْطِ في العافي
وأنت جالست أهْلَ العلم فانتظمتْ لكَ المعالي ولم تُولَعْ بإرجاف
بين الصحيحيْنِ تغدو في خمائِلِها كما غدا الطَّلُّ في إشراقها الضافي
يكفي مُحَيَّاك أن القَلْب يَعْمُرهُ مِن حُبِّكم ولَدَيَّ أضعافُ أضعافِ
أراك كالضَّوء تجري في محاجِرنا فلا تراك عيونُ الأجْلَفِ الجافي
كالشَّدْو أشواقي وتأسرُها بنَغْمةِ الوحْي مِنْ طه ومِن قافِ
ما أنْصَفَتْكَ القوافي وهْي عاجزةٌ وعُذْرُها أنَها في عصر إنصافي[1]

لطيفة :

قال الشيخ جمال الدين القاسمي في كتابه « قواعد التحديث » ص٦٠ تحت عنوان « أيادي المحدثين البيضاء على الأُمَّة وشُكر مساعيهم » : « يقول جامعه الفقير : من أين للبليغ أن يُحصيَ أيادي المحدِّثين ، وهم الذين عَشقوا الهدي النبوي دون العالمين ، فتتبّعوه ممّنْ بدا وحضر ، وكابدوا لأخْذه أهوال السفر ، فكم جابوا صَحَارٍ تتلظّى تَلَظي الرَّمضاء ، وقطعوا عن العمران فيافي تستدعي اليأس وتُروِّع الأحشاء ، فحفظوا ووعوْا ، ولِعَهْد النَّفر للتَّفقُّه في الدين رعوْا ، ودفعوا عن الدين صُنع الوضّاعين ، وانتحال المفترين ، وذُبَّ الكذب عن كلام الرسول الصادق ، بما مهّدُوه من تحرِّي كل راوٍ موافِق ، فدونوا ما سمعوه بالسند فرارًا عن الرَّمْي باتّباع الأهواء ، وتحكيم الآراء ، فاستبرأوا لدينهم بجليل هذا الاحتياط ، ودرّبوا الأُمّة على التَّثبُّت في توثيق عُرى الارتباط . رحماك اللهمَّ ، فالاعتراف بمآثرهم الحسنة أمرٌ واجب ، وشُكر فضْلهم لا يُقصِّر عنه إلَّا مَن هو عن الاتِّباع ناكِب ،

(١) الممتاز في مناقب الشيخ ابن باز لعائض القرني ص٧٢ - ٧٤ .

أَفَليست دواوينهم - بعد القرآن - دعائم الإسلام التي قامت عليها صرُوحه ، وأعضاد الدِّين التي بان منها صَرِيحُه ، لا جَرَمَ لولا أخْذهم بناصية ما دوَّنُوه من صحيح السُّنّة ، لَانثالت على الناس جراثيم الأباطيل المستكنَّة ، التي رُزِىء بها الدِّين ، في عصر الوضّاعين المنافقين ، الذين دخلوا في دين الله للتشويش ، فردّ الله كيدهم بتنقيب المحدِّثين عن خُرافاتهم ودأبهم في التفتيش ، حتى أشرقت شموس صحاح الأخبار ، وانبعثتْ أشعتها في الأقطار ، وتمزّقتْ عن البصائر حُجُب الجهالة ، وأغشية الضلالة . فرحم الله تلك الأنْفُس ، التي نهضت لتأييد الدِّين ، ورضي عمَّن أحيا آثارهم من اللاحقين . آمين » .

* * *

فصــــل

دنــاءة الهمة في التزهيد في العلم أو طلب الفلسفة وعلم الكلام

مرّ بك أحوال السادة من وَرَثة العلْم النبوي وخُزّانه .

وعلى الطرف الآخر أرواح لم تُربِّها الرسل فما فلحت ولا صلُحت .

ومَنْ لا يُـرَبِّهِ الرسولُ ويَسْقِهِ لبانًا له قد درَّ من ثدي قُدْسِهِ
فذاك لقيطٌ ما له نسبةُ الوَلَا ولا يتعدَّى طورَ أبناءِ جِنْسِهِ

من صوفي صاحب ذوق يُزهِّد في العلمْ ويستغني عنه .. كقول من قال منهم : «نحن نأخذ عِلْمنا من الحي الذي لا يموت ، وأنتم تأخذونه من حي يموت».

وقولهم : « ما يصنع بالسَّماع من عبد الرزاق[1]، من يسمعُ من الخلّاق » .

وقولهم : العلم حجاب بين القلب وبين الله عزّ وجل .

وقولهم : لنا علم الخُرق ولكم علم الورق .

وقول الآخر « إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ « أخبرنا » و « حدّثنا » فاغسل يدك منه .

لسان حالهم وبغية مناهم : المواجيد .

ويقول قلبي قال لي عن سره عن سرِّ سرّي عن صفا أحوالي
عن حضرتي عن فكرتي عن خَلْوتي عن شاهدي عن واردي عن حالي
عن صَفو وقتي عن حقيقة مشهدي عن سِرِّ ذاتي عن صفات فعالي
دَعْوى إذا حقَّقْتَها ألفيْتها ألقـابَ زُور لُفِّقتْ بمُحالِ
تركوا الحقائق والشرائع واقتدوا بظواهـر الجُهّـال والضُّـلالِ
جعلوا المِرَا فتحًا وألفاظ الخَنا شطْحًا وصالوا صولةَ الإدلالِ

---

(١) إمام حُفّاظ اليمن الذي أكرى الإمام أحمد نَفْسَه حمّالًا حتى يصل إليه .

ونحو هذا من الكلمات ، التي أَحْسَنُ أقوالها : أن يكون جاهلًا يُعذَر بجهله ، أو شاطِحًا معترِفًا بشطحه ، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله ، ولولا « أخبرنا » و « حدثنا » ، لما وصل إلى هذا وأمثاله شيءٌ من الإسلام .

ومَنْ أحَالَكَ على غير « أخبرنا » و « حدثنا » ، فقد أحالك : إمّا على خيال صوفي ، أو قياس فلسفي ، أو رأي نفسي . فليس بعد القرآن و « أخبرنا » و « حدثنا » ، إلا شبهات المتكلّمين ، وآراء المنحرفين ، وخيالات المتصوِّفين ، وقياس المتفلسفين ، ومن فارق الدليل ، ضلَّ عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسُّنّة . وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة ، فهي من طرق الجحيم ، والشيطان الرجيم[(١)] .

وآخر مرادهم من العلم الفلسفة ، نبوّة الخاصَّة كما يقولون ، وقدّموا العقل على النقل ، وعارضوا نصوص الوحييْن ، وشهودُهم أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس وابن سينا ، والفارابي وأبو الهذيل والعلّاف والنَّظّام ، وأوقاح المعتزلة وأفراخ الصّابئين والمجوس .

أما الرسولُ ففيلسوفُ عوامِّهم ... والفيلسوف نبيُّ ذي البرهانِ
والحقُّ عندهمُ ففيما قالَهُ ... أتباعُ صاحبِ منطقِ اليونانِ
ومضى على هذي المقالة أُمَّةٌ ... خلفَ ابن سينا فاغتذَوْا بلَبَانِ
فاسأل بهم ذا خبرة تلقاهُمُ ... أعداءَ كلِّ موحِّدٍ رَبّاني
وانظر إلى أنهارِ كُفرٍ فُجِّرَتْ ... وتَهُمُّ لولا السيفُ بالجَرَيانِ

وانظر إلى فلاسفة الصوفية من الاتِّحادية وأصحاب وحدة الوجود .. الرعاع من أمثال : العفيف التلمساني ، والصدر القونوي ، وابن سبعين ، وابن عربي ، وابن الفارض وغيرهم .

---

(١) نقل بتصرف من مدارج السالكين ٤٦٨/٢ - ٤٦٩ ، إغاثة اللهفان ٢٣٢/١ .

يقول الشافعي : إنما فسد العرب لمَّا تركوا لسان الفطرة واتّبعوا لسان أرسطاليس .

من أنت يا رسْطُو ومن أفـلاطُ قَبْلَكَ يا مبلَّدْ
ومن ابن سينا حين قَـــرَّ ر ما هديت له وأرْشَدْ
هـل أنتـمُ إلَّا الفَـرَا شُ وقـد رأى نـارًا تَـوَهَّجْ
فـدنا فأحـرق نَفْسَـه ولـو اهتـدى رُشْـدًا لأَبْعَدْ
فلتَخْسَأ الحكمـاءُ عن ربٍّ لـه الأفـلاكُ تسـجُدْ

أيُترك نور الكتاب والسُّنّة .. ونجري وراء سراب رجلٍ من يونان ، كان يعبد الأوثان ويجحد بالرحمن ، يضع بعقله قانونًا يصحح - بزَعْمِهِ - علوم الخلائق وعقولهم .. وما وُزِن به علْمٌ إلّا أفسده . ومن العجب أن هؤلاء الأوقاح جعلوا نصوص الأنبياء من باب الظنون وهي من الوحي ، وجعلوا كلمات المنطقيين وقواعد الفلاسفة والجهمية من باب اليقين .

أوقاح فكّروا وقدّروا وظنّوا وخرصوا ، وتعبوا وما أغنَوْا ، ونَصِبوا وما أجدَوْا، وحاموا وما وردوا، ونسجوا فهلهبلوا، ومشطوا ففلفلوا[١]... سافروا في درك المطالب العالية على غير الطريق ، فما ربحوا إلا أذى السفر ، وبعثوا في البلاد بغير دليل ، فلم يقفوا للمطلوب على عينٍ ولا أثر .

رضُـوا بالدَّعاوَي وابتُلُـوا بخيالهـم وخاضوا بحار الفكر والقوم ما ابتلُّوا
فهم في السُّرى لم يبرحوا من مكانهم وما ظَعَنُوا في السَّيْر عنه وقد كَلُّوا
لهم كلّ وقتٍ حيرةٌ بعد حيرةٍ وجهلٌ على جهلٍ فلا بُورك الجهلُ[٢]

(١) شعر مفلفل : إذا اشتدّتْ جعودته .
(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطِّلة لابن قيم الجوزية تحقيق د . علي بن محمد الدخيل الله ٨١٨/٣ - ٨٢٠ . دار العاصمة .

وعلى أثرهم يمضي علماء الكلام ؛ لا للإسلام نصروا ، ولا للفلاسفة كسروا ، كما يقول أبو يوسف - لله درُّه -: « الجهل بعلم الكلام هو العلْم ، والعلم بالكلام هو الجهل ، وإن الرجل إذا صار رأسًا في الكلام تزندق » .

ولله درّ القائل : « أكثرُ الناس شكًّا عند الموت : أهلُ الكلام » .

وقول الخونجي : « أُشهِدكم أني أموت وما عرفتُ مسألة واحدة ، إلّا مسألة افتقار الممكن إلى واجب » . ثم قال : « والافتقار أمرٌ عدميٌّ ، فها أنذا أموت وما عرفتُ شيئًا » .

وقال ابن الجويني عند موته : « لقد خضتُ البحر الخِضَمّ وخلَّيتُ أهل الإسلام وعلومهم ، وما أدري على ماذا أموت ، أُشهدكم أني أموت على عقيدة أمِّي » .

وقال الشهرستاني :

لعمْري لقد طُفتُ المعاهدَ كُلَّها ... وسيَّرتُ طرْفي بين تلك المعالمِ
فلم أرَ إلَّا واضعًا كفَّ حائرٍ ... على ذَقنٍ أو قارعًا سِنَّ نادمِ

.وقال الرازي في كتابه « أقسام اللّذّات » ص١٦٧ :

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقالُ ... وأكثرُ سَعْيِ العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشةٍ من جُسُومِنا ... وحاصِلُ دنيانا أذًى ووَبالُ
ولم نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنا طُولَ عمرنا ... سوى أن جَمَعْنا فيه قِيل وقالوا
وكم من جبالٍ قد علتْ شُرُفاتِها ... رِجالٌ فماتوا والجبالُ جبالُ

لقد تأمّلتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتُها تشفي عليلًا ، ولا تروي غليلًا ... ومن جرَّب مثل تجربتي ، عرف مثل معرفتي .

وهذا ابن أبي الحديد الذي خلط في كتبه بين آراء الفلاسفة والمتكلِّمين ، يضرب أقوال هؤلاء بهؤلاء وهؤلاء بهؤلاء ، ويجلس بينهما حائرًا يقول ويعترف أن المعقولات لم تُعطه إلّا حيرةً .

فيك يا أُغلوطةَ الفكر ضاع دهري وانقضى عُمْري
سافَرَتْ فيك العقولُ فما ربحتْ إلّا أذى السَّفرِ
قاتَلَ اللهُ الأُلى زَعَمُوا أنَّك المعروفُ بالنَّظَرِ
كذبُوا إن الذي ذكروا خارجٌ عن قوّةِ البشرِ

وكذلك قال شمس الدين الخسرو شاهي - وكان من أجلّ تلامذة فخر الدين الرازي - لبعض الفضلاء ، وقد دخل عليه يومًا فقال : ما تعتقد ؟ قال : ما يعتقده المسلمون . فقال : وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقنٌ به ؟ أو كما قال ، قال : نعم . فقال : اشكُر الله على هذه النعمة ، لكني والله ما أدري ما أعتقد ، والله ما أدري ما أعتقد ، والله ما أدري ما أعتقد . وبكى حتى أَخْضَلَ لحيته .

وقال محمد بن سالم بن واصل الحموي : أضطجع على فراشي ، وأضع الملحفة على وجهي ، وأُقابِل بين حُجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ، ولم يترجّح عندي منها شيء .

ولله درّ الشافعي حين يقول : حُكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنِّعال ، ويُطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويُقال : هذا جزاء من تَرَك الكتاب والسُّنّة وأقبل على الكلام .

وقال : لقد اطَّلعتُ من أهل الكلام على شيءٍ ما ظننتُ مسلمًا يقوله ، ولأَن يُبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه - ما خلا الشرك بالله - خيرٌ له من أن يُبتلى بالكلام[1] .

لقد وعّروا الطريق إلى العلم .. وأتوْا بالمنطق وهو لحم جملٍ غثّ لا رأس جبل وعر ، لا سَهْل فيُرتقى ، ولا سمين فيُنتَقَل .

(١) انظر شرح الطحاوية ١/٢٣٨ - ٢٤٧ ، الصواعق المرسلة لابن القيم جـ٢ .

لولا التَّنافُس في الدنيا لما وُضِعتْ كُتُبُ التَّناظُر لا المُغني ولا العُمَدُ[١]
يُحلِّلُون بزَعْمٍ منهم عُقَدًا وبالذي وضعوه زادتِ العُقَدُ

« فيا أرباب المعقولات ، ويا أهل الذاتي والعرضي ، وأهل المقولات العشر والكليّات الخمس، ويا أهل المختلطات والموجّهات، والقضايا المسوّرات والمهملات ، ويا أهل الشكل الأول والثاني والثالث والرابع ، وأصحاب القياس الحملي والشرطي ، وأهل العقول المقدمة بزعم أربابها على الوحي ، ويا من سار على دربكم من أفراخكم .. هل هذا ثمرة عقولكم وحاصل معقولكم ؟!

فعلى عقولكمُ العَفاءُ فإنّكمْ عاديتمُ المعقولَ والمنقولَا
وطلبتمُ أمرًا مُحالًا وهو إدْ راكُ الهُدى لا تبتغون رسولَا
وزعمتمُ أنّ العقول كفيلةٌ بالحقِّ أين العقلُ كان كفيلَا
وهْو الذي يقضي فيَنْقُض حُكْمَه عقلٌ ترْون كليهما معقولَا
وتراه يجزِمُ بالقضاءِ وبعد ذا يُلقي لديه باطلًا معلولَا
لا يستقلّ العقلُ دون هدايةٍ بالوَحْي تأصيلًا ولا تفصيلَا
كالطَّرْفِ دون النورِ ليس بمُدْرِكٍ حتى يراه بُكرةً وأصيلَا
وإذا الظلامُ تلاطمتْ أمواجُهُ وطمعت بالإبصارِ كنتَ مُحِيلَا
فإذا النّبوّة لم يَنَلْك ضياؤها فالعقلُ لا يهديك قَطُّ سبيلَا
نورُ النُّبوّة مِثْلُ نورِ الشمسِ للـ ـعَيْنِ البصيرةِ فاتَّخِذْه دليلَا
طرق الهُدى محدودةٌ إلّا على مَنْ أمّ هذا الوحَي والتنزيلَا
فإذا عدلتَ عن الطريق تعمُّدًا فاعلمْ بأنك ما أردتَ وُصُولَا
يا طالبًا دَرْكَ الهُدى بالعقلِ دو ن النَّقْلِ لن تلقَى لذاك دليلَا

(١) المغني في علم الكلام . والعمد في الأصول وعلم الكلام . لشيخ المعتزلة القاضي عبد الجبار .

كم رامَ قبلك ذاك من متلــذِّذٍ حيران عاشَ مدى الزمان جَهُولَا
ما زالتِ الشُّبُهاتُ تغزو قَلْبَهُ حتى تَشَحَّطَ بينهنَّ قتيلَا
فتراهُ بالكُلِّيِّ والجُزْئيِّ والـــذَّاتي والعَرَضيِّ طُولَ زمانه مشغولَا
فإذا أتاه الوَحْيُ لم يأذَنْ له ويقوم بين يدَيْ عِداهُ مثيلَا
ويقول تلك أدلَّةٌ لفظيــة معزولةٌ عن أن تكون دليلَا
وإذا تمرُّ عليه قال لها اذهبي نحو المجسِّم أو خُذي التّأويلَا
وإذا أبت إلّا النّزولَ عليه كا ن لها القِرَى التحريف والتبديلَا
فيحلُّ بالأعداء ما تلقاه من كيدٍ يكون لحقِّها تعطيلَا
واضربْ لهم مثلًا بعميانٍ خلوا في ظُلمةٍ لا يهتدون سبيلَا
فتصادَمُوا بأكُفِّهم وعِصِيِّهم ضربًا يُدير رحَا القتالِ طويلَا
حتى إذا ملُّوا القتال رأيتهمْ مشجوجًا او مَفْجُوجًا او مقتولَا
وتسامَعَ العميانُ حتى أقبلوا للصُّلح فازداد الصِّياحُ عويلَا »[(١)]

قال بعض المتكلمين : أفنيتُ عمري في الكلام أطلب الدليل ، وأنا لا أزداد إلَّا بُعدًا عن الدليل ، فرجعت إلى القرآن أتدبَّره وأتفكَّر فيه ، وإذا أنا بالدليل حقًّا معي وأنا لا أشعر به ، فقلت : واللهِ ما مثلي إلَّا كما قال القائل :

ومن العجائبِ والعجائبُ جَمَّةٌ قُرْبُ الحبيبِ وما إليه وصولُ
كالعِيسِ في البيداءِ يقتلها الظّما والماءُ فوق ظهورها محمولُ

يقول ابن القيم :

واعَجَبًا لمنطـقِ اليونــانِ كَم فيه من إفْكٍ ومن بُهتانِ
مُخَبِّطٌ لجيِّـد الأذهــانِ ومُفسدٌ لفطرةِ الإنســانِ
مضطربُ الأُصُولِ والمباني على شفا هارٍ بناهُ الباني

(١) الصواعق المرسلة ٣/٩٧٧ - ٩٨١ .

أحوجُ ما كان إليه العاني　　يخونُه في السِّرِّ والإعلانِ
يمشي به اللسانُ في الميدانِ　　مشيَ مُقَيَّدٍ على صَفوانِ
متّصِلُ العثارِ والتَّواني　　كأنه السَّرابُ بالقيعانِ
بدا لعينِ الظَّمِيءِ الحَيرانِ　　فأمَّهُ بالظَّنِّ والحسبانِ
يرجو شفاءَ غلَّةِ الظمآن　　فلم يَجِدْ ثمَّ سوى الحرمانِ
فعاد بالخيبةِ والخسرانِ　　يقرعُ سنَّ نادمٍ حيرانِ
قد ضاع منه العُمْر في الأماني　　وعاينَ الخفَّةَ في الميزانِ

ومن كان من هوس بهذه المنزلة ، فهو بأن يكون جهلًا أوْلَى منه بأن يكون علما .. فما دخل المنطق على علمٍ إلا أفسده وغيّر أوضاعَهُ وشوّش قواعده[1] .

وهذا آخر يقول :

وغايةُ ما حصّلتُهُ من مباحثي　　ومن نظري من بعد طُولِ التَّدبُّرِ
هو الوقْفُ ما بين الطريقين حيرةً　　فما عِلْمُ من لم يَلْقَ غير التَّحيُّر
على أنني قد خضتُ منه غمارَهُ　　ولم أرتضِ فيه بدون التَّبحُّر[2]

فيا من وجّهتم وجوهكم شطر بلاد اليونان .. هلُمّوا فهذه والله الطريق .. وهذه أعلام مكة والمدينة .. وهذه آثار القوم لم تنسخها الرياح ولم تُزكِّها الأهوية :

وكنت وصحبي في ظلامٍ من الدُّجَى　　نسير على غير الطريق ولا ندري
وكُنّا حيارى في القِفارِ ولم يكن　　دليلٌ لنا نرجو الخلاصَ من القَفْرِ
ظِماءٌ إلى وِرْدٍ تبُلُّ غليلَنا　　وقد قطعَ الأعناقَ منّا لَظَى الحَرِّ

---

(١) مفتاح دار السعادة ، وعن الإفادة من مفتاح دار السعادة لسليم الهلالي ١/ ٢٦٣ - ٢٦٥ . طبع مكتبة الصحابة بجدَّة .

(٢) التحف في مذهب السلف للشوكاني ص٥٤ .

فمـا هـو إلَّا أن تبـدَّى لناظِـري ... سَنَا بارِقٍ يبدو كخيطٍ من الفَجْرِ
فقلتُ لصَحْبي هل ترونَ الذي أرى ... فقالوا اتَّئِدْ ذاك السرابُ الذي يجري
فخلَّفْتُهم خلفي وأقبلـتُ نحـوَهُ ... فأوردني عينَ الحياةِ لدى البحـرِ
فناديتُ أصحابي فما سـمعوا النِّدا ... ولو سمعوه ما استجابوا إلى الحشرِ(١)

وأقل ضررًا من هؤلاء المقلِّدة الذي يُغالون في التقليد ويلوون عنق الأدلَّة انتصارًا لمذاهبهم .. ولا يعرفون إلَّا آراء الرجال ، وعدلوا عن الدليل .

تريد تنامُ على ذي الشُّبَه ... وعَلَّك إن نمتَ لم تَنْتَبِهْ
فجاهدْ وقلِّدْ كتابَ الإلهِ ... لتلقى الإله إذا متَّ بِهْ
فقد قلَّدَ الناسُ رهبانَهُم ... وكلٌّ يُجادِل عن راهِبِهْ
وللحقِّ مُسْتَنْبِطٌ واحـدٌ ... وكلٌّ يرى الحقَّ في مَذْهَبِهْ
ففيما أرى عَجَبٌ غير أنْ ... بيان التَّفرُّقِ من أعْجَبِهْ(٢)

ولله در ابن عبد البر حيث يقول :

لا فرقَ بين مقلِّدٍ وبهيمةٍ ... تنقادُ بين جنادِلٍ ودَعاثِر

يصل الأمر في التقليد والعكوف عليه « أنهم اختلفوا في حكم تزوُّج الحنفية بالشافعي ، فقال بعضهم : لا يصح ، لأنها تشكُّ في إيمانها . وقال آخرون : يصحّ ؛ قياسًا على الذِّمِّيَّة »(٣).

بل وحتى بين أبناء المذهب الواحد : « قال أبو بكر بن العربي : ولقد كان شيخنا أبو بكر الفهري يرفع يديه عند الركوع ، وعند رفع الرأس منه ،

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم ٢/٦٦٨ - ٦٦٩ .
(٢) جامع بين العلم وفضله ٢/١١٤ .
(٣) فقه السنة للشيخ سيد سابق ١/١٠ . طبع الفتح للإعلام العربي - الطبعة العاشرة .

وهو مذهب مالك والشافعي ، وتفعله الشيعة . قال : فحضر عندي يومًا في محرس أبي الشعراء بالثغر موضع تدريسي عند صلاة الظهر ، ودخل المسجد من المحرس المذكور ، فتقدّم إلى الصف الأول ، وأنا في مؤخّره قاعد على طاقات البحر ، أتنسّم الريح من شدَّة الحرّ ، ومعي في صف واحدٍ أبو ثمنة رئيس البحر وقائده ، في نفرٍ من أصحابه ينتظر الصلاة ، ويتطلَّع على مراكب المنار ، فلمَّا رفع الشيخ الفهري يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه ؛ قال أبو ثمنة وأصحابه : ألا ترون هذا المشرقي كيف دخل مسجدنا ؟! قوموا إليه فاقتلوه وارموا به في البحر فلا يراكم أحد . فطار قلبي من بين جوانحي ، وقلت : سبحان الله ! هذا الطرطوشي فقيه الوقت . فقالوا لي : ولِمَ يرفع يديه ؟! فقلت : كذلك كان النبي ﷺ يفعل ، وهو مذهب مالك في رواية أهل المدينة . وجعلت أُسكِّنُهم وأُسكِّتُهم ، حتى فرغ من صلاته ، وقمتُ معه إلى المسكن من المحرس ، ورأى تغيُّر وجهي فأنكره ، وسألني فأعلمتُه فضحك وقال : من أين لي أن أُقتل على سُنَّة ؟! فقلتُ له : ويحلُّ لك هذا ، فإنك بين قوم إن قُمتَ بها قاموا عليك ، وربما ذهب دمُك ؟! فقال : دَعْ هذا الكلام وخُذ في غيره »[1] .

فانظر أخي إلى دناءة الهمة إذا تعلَّقتْ بتزهيدٍ في العلم ، أو خيالٍ وذوقٍ وحالٍ صوفي ، وقياس فلسفيّ ، أو آراء منطقيٍّ من أهل الكلام ، أو مقلِّدٍ غالٍ في تقليده غبي .

أو دناءة همّة من يطلب غيرَ العلم .. ويزهد في تحصيله ، وقد هُيِّئتْ له سبل الراحة ، بل سبل الرفاهية في كل شأن من شئون العلم ، في أمكنة الدِّراسة المريحة ، ذات الأجواء المكيَّفة والأنوار الوضّاءة ، والهواء البارد الناعم البليل صيفًا والدافىء المريح شتاء ، وتُقَدَّم له الكتب المطبوعة المخدومة بالعناية

(١) الاعتصام للشاطبي تحقيق سليم الهلالي ١/٤٦٤ - ٤٦٥ . طبع دار ابن عفان .

والإخراج الجميل، المؤلَّفة على أيسر الأساليب وأفضلها سهولة ومتعة.

وتيسَّرت الآن للدّارِس الراحل عن بلده أسباب السفر ووسائله، ولو بأقصى الشرق أو الغرب، بسرعة مذهلة، وراحة شاملة، والدارس الآن يسمع صوت العالم المرموق في داخل بيته، ويشهد فيه صورته إلى جانب صوته، ولا يعجز عن الوصول إلى كتابٍ مطبوعٍ تملُّكًا، أو مخطوطٍ تصويرًا من المكتبات العامة القريبة أو البعيدة، وهو جالس في بيته، متكىء على أريكته، يُصوِّر الكتاب الذي كان يكتبه سلفُه في شهر، بنصف ساعةٍ، فإذا هو لديه كالأصل، لا نقص ولا زيادة، ولا تصحيف ولا تحريف.

شتان ما يومي على كُورِها ... ويومُ حَيَّان أخي جابـرِ[1]

فما يُعجز الناس إلَّا دناءة الهمم.

من فاته التعليمُ حين شبابِهِ ... فكبِّـر عليه أربعًا لوفاتـهِ

فإن حياةَ المرءِ بالعلْمِ والتُّقَى ... فإن لم يكونا فلا اعتبارَ لذاتهِ

ومِنْ دناءةِ الهمَّة: التَّعالُم:

يقول بقية السلف الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه القيِّم «التَّعالم وأثره على الفِكر والكتاب»: «كم رأينا نزالًا في حلائب العلم من رائِم للبروز قبل أن ينضج، فراش قبل أن يبرى، وتزبَّب قبل أن يتحصرم، وقد قيل: «البداية مَزَلَّة». ويُؤثر عن الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قوله: «العلم نقطة كثَّرها الجاهلون». وهو بمعنى قول الغزالي: «لو سكت مَنْ لا يعلم لسقَطَ الخلاف». وما يراد بهم هنا إلا «المتعالمون» الذين ناموا عن العلم فما استيقظوا، وبالغوا قبل أن يبلُغوا، فركبوا مطايا

---

(١) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل لأبي غدة ص٣٩٣. نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب - الطبعة الثالثة.

الخير للشرِّ . وشكا حالهم ابن القيم رحمه الله فقال :

فَظٌّ غليظٌ جاهلٌ مُتَمَعْلِمٌ   ضخمُ العمامةِ واسعُ الأردانِ
مُتفيهقٌ مُتضلِّعٌ بالجهل ذو   ضِلَعٍ وذو جَلَحٍ من العِرفانِ
مُزْجَى البضاعةِ في العلوم وإنّه   زاجٍ من الإيهام والهَذَيانِ

قال ابن حجر : « إذا تكلّم المرء في غير فنِّه ، أتى بهذه العجائب » .

وقيل لسفيان بن سعيد الثوري - رحمه الله تعالى - فيمن حدَّث قبل أن يتأهَّل فقال : « إذا كثر الملَّاحُون ، غرقتِ السفينة » ..

أين هؤلاء من تواضع العلماء . قال أبو عمرو بن العلاء : « ما نحن فيمن مضى إلا كبَقْلٍ في أُصُول نخلٍ طوال » .

المتعالمون زيادةٌ على أنصباء أهل العلم ؛ كواو عمرو ، ونون الإلحاق . وفي « الشَّمَقْمَقِيَّة » :

ولا تُكن كواو عمرٍو زائدًا   في القوم أو كنُونِ المُلْحَقِ

فهذا القطيع هم غُولُ العلم ، بل دودةٌ لزجةٌ ، متلبّدة أسرابها في سماء العلم ، قاصرة من سموّ أهله ، وامتداد ظلّه ، معثرة دواليب حَرَكته ، حتى ينطوي الحق ويمتدّ ظلُّ الباطل وضلاله ، فما هو إلا فجر كاذب وسهم كاب حسير .

هو الوزير ولا أزْرَ يُشَدُّ به   مِثْل العروضيّ له بحرٌ بلا ماءِ

وإنه لزادهم الهابط « التّعالُم » عتبة الدخول الفاجرة إلى خُطَّة السوء الجائرة « القول على الله بلا علم » .

إنها « قضية التعالم » مظلّة صانعي الخيام الهادئة الممتدّ رواقُها ، والتي يقيمها ويحمي حماها من بين أيدينا ومن خلفنا ذُباباتُ « الطوائف » التي تداعت علينا أرسالها : مُنابذة الحياة الصافية من الكَدَر وشوائبه ، وعلى وجه الخصوص : في العلْم منه ، والعلم أثمنُ دُرَّة في تاج الشرع المطهر .

لكنّ هذا الضَّرب من العباد ما يلبث أن يلحقه الإدبار فتُحيط به خطيئته .

كلٌّ مَن يدَّعي بما ليس فيه ⠀⠀ فضحتْهُ شواهدُ الامتحانِ

ولذا قال قتادة « من حدَّث قبل حينه ، افتضح في حينه » .

والحَجْر واجب على كل « مفلس » لصالح الجماعة .

فالمتعالم ، أو العالم الماجن ، يُحجر عليه من الفُتيا ونحوها لصالح الديانة .

ومن أبرز الأمثلة على التَّعالُم .. ما جاء عن الخنفشاري المتعالم - هذا الطراز النَّكِد - ما جاء في كتب المحاضرات عن « مفتي الخنفشار » : أن رجلًا كان يُفتي كل سائل دون توقُّف ، فلحظَ أقرانُه ذلك منه ، فأجمعوا أمرهم لامتحانه ، بنحتِ كلمةٍ ليس لها أصل ، هي « الخنفشار » فسألوه عنها ، فأجاب على البديهة : بأنه نبْتٌ طيِّب الرائحة ينبت بأطراف اليمن ، إذا أكلته الإبل عقدَ لبنها ، قال شاعرهم اليماني :

لقد عقدت محبتكم فؤادي ⠀⠀ كما عقد الحليبَ الخنفشارُ

وقال داود الأنطاكي في « تذكرته » كذا ، وقال فلان وفلان ... وقال النبي ﷺ . فاستوقفوه ، وقالوا : كذبت على هؤلاء ، فلا تكذب على النبي ﷺ . وتحقَّق لديهم أن ذلك المسكين . جِراب كذبٍ ، وعيبة افتراء في سبيل تعالُمِهِ . نسأل الله الصون والسلامة .

ومنهم الجوباري : أحمد بن عبد الله الجوباري ، إذ بلغ من كذبه وتغفيله ، أنه لما ذُكر له اختلاف المحدِّثين في سماع الحسن البصري رحمه الله تعالى ، من أبي هريرة رضي الله عنه ، ساق بإسناده قوله : إن النبي ﷺ قال : سمع الحسن من أبي هريرة[1] .

---

(١) التعالم : بقلم بكر بن عبد الله أبو زيد ٥ - ١٦ . مكتبة التربية الإسلامية .

ومِن دناءةِ الهمَّة : تتبُّع رُخَص الفقهاء :

إن الإشاعة لغَثَاثة الرُّخَص ، والتجسيد للآراء الشّاذَّة وتربية مولودهما « التلفيق » بمعنى جمع الرُّخَص والشواذّ من المذاهب ، منابذةً للاعتقاد السليم ، بل هي من صنع صنائع العداء ، ومُحتضنها يكون بأسًا على المسلمين وبلاءً .

فلله كم تربَّع على وَكْر هذه الفتنة من مارد ، وأبرزها باسم الشريعة من مُحتايِل ، على شُبهٍ يُبديها أو يبتديها ، والقلوب ضعيفة ، والشُّبه خطّافة .

وقد صاح بهذا الضَّرب جلَّة العلماء ، وأبانوا أن من منازل العبودية الأخذ بالعزائم والرُّخَص الشرعية ، أما المُفتعلة فهي عن الشرع بمعزل عن عزائمه ورخصه .

وهذا من منازل العبودية ، أمَّا تتبُّع رخص المذاهب وشاذ العلم فهو من نواقضها .

قال الشيخ الهروي رحمه الله في منزلة الرغبة من منازل العبودية : « وتمنَعُ أصحابها من الرجوع إلى غثاثة الرُّخَص » . قال ابن القيم شارحًا لذلك : « أهل العزائم بناء أمرهم على الجدِّ والصِّدق ، فالسُّكون منهم إلى الرخص رجوعٌ وبطالةٌ »[1] .

وقال أيضًا رحمه الله : « ثم ذلك الخلاف قد يكون قولًا ضعيفًا ، فيتولّد من ذلك القول الضعيف - الذي هو من خطأ بعض المجتهدين - وهذا الظَّنّ الفاسد - الذي هو خطأ بعض الجاهلين - تبديلُ الدين ، وطاعة الشيطان ، ومعصية رب العالمين . فإذا انضافت الأقوالُ الباطلةُ إلى الظنونِ الكاذبة ، وأعانتْها الأهواء الغالبة ، فلا تسألْ عن تبديل الدين والخروج عن

---

(١) مدارج السالكين ٢/٥٧ .

جملة الشرائع بالكُليَّة »(١).

فيحرم تلقُّط الرُّخَص والتلفيق بين المذاهب بلا دليلٍ شرعي .

قال سليمان التيمي : لو أخذتَ برخصةِ كلِّ عالمٍ ، اجتمع فيك الشَّرُّ كلُّه .

وقال ابن عبد البر : هذا إجماعٌ لا أعلم فيه خلافًا .

وقال معمر بن راشد : لو أن رجلًا أخذ بقول أهل المدينة في السَّمَاع وإتيان النساء في أدبارهن ، وبقول أهل مكة في المتعة والصرف ، وبقول أهل الكوفة في المُسْكِر ؛ كان أشَرَّ عباد الله .

وقال الأوزاعي : من أخذ بنوادر العلماء ، خرج من الإسلام .

وقال الإمام أحمد : لو أن رجلًا عمل بقول أهل الكوفة في النّبيذ ، وأهل المدينة في السماع ، وأهل مكة في المُتعة ؛ كان فاسقًا .

قال القاضي إسماعيل : دخلت يومًا على المعتضد فدفع إليّ كتابًا فقرأته ، فإذا فيه الرُّخَص من زلل العلماء قد جمعها بعض الناس ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، إنما جَمَعَ هذا زنديقٌ . فقال : كيف ؟ فقلت : إن من أباح المتعة لم يُبِحِ الغناء ، ومن أباح الغناء لم يُبح إضافته إلى آلات اللهو ، ومَنْ جَمَعَ زَلَلَ العلماء ثم أخذَ بها ، ذهبَ دِينُه . فأمر بتحريق الكتاب .

قال دنيء الهمة ممن يتَّبع زلَّات العلماء :

أباح العراقيُّ النَّبيذَ وشُرْبَهُ ... وقال حراما‌نِ المُدامةُ والسُّكْرُ
وقال الحِجازيُّ الشرابانِ واحدٌ ... فحلَّتْ لنا من بَيْنِ قولَيْهما الخمرُ
سآخذُ مِن قولَيْهما طَرَفَيْهما ... وأشْرَبُها لا فارَقَ الوَازِرَ الوِزْرُ

ذهب العلماء إلى عدم جَواز تتبُّع الرُّخَص ، وإلى هذا ذهب ابن تيمية وابن القيم والعلائي وابن مفلح وتاج الدين السبكي والشاطبي .

---

(١) إغاثة اللهفان ١٤٦/٢ ، والتعالم ص٨٩ ، ٩٠ .

قال إبراهيم بن شيبان : من أراد أن يتعطَّل ويتبطَّل ، فليلزم الرخص[1] .

* * *

(١) انظر الرسالة القيّمة : زجر السفهاء عن تتبُّع رُخَص الفقهاء . لجاسم الدوسري .

□ خاتمــة □

إيهِ أحاديث نعمانٍ وساكِنِهِ   إن الحديثَ عن الأحبابِ أسمارُ

* * *

وحدَّثْتَنِي يا سعدُ عنها فزِدْتَنِي   جُنُونًا فزدني من حديثِكَ يا سَعْدُ
هواها هوًى لم يعرف القلبُ غيَرهُ   فليس له قَبْلٌ وليس له بَعْدُ

فهذه بعض تراجم ممن جُمعت فيهم صفات الحمد الخِلْقي والكسبي ... والله أعلم حيث يجعل العلم ... موهبة مبتدأة ... وعطية جهد فيها طالبها ... وصانها بكدّ القرائح ، وجهد الأبدان وإعمال القلوب والجوارح ، فمِنْ ترّفعها يحمد صاحبها .

« تبارك الله ماذا تبلُغ الهِمَمُ » .

ومن تقاصُرِ هممنا نُلام إلى حيث يرتفع الممدوح بها إلى أعلى من مناط النجوم ، ثم يترقّى إلى ما تتقاصر العقول عن إدراك حقيقته ، ويتنازل المذموم بالتقاعُد عنها إلى أسفل من حظيظ التُّخوم ، إلى ما يُبعد الأنظار عن سواد شقوته ، ومن يُرِدِ الرب تعالى به خيرًا يُنِلْه منها ما شاء على ما يصنع ، ومن يرفع الله لا يُوضَعْ .

نعم .. كانت مجالسهم عسلًا بمثلهم ، فتعلقمتْ بمثلنا .. والله لكأنّ سياحاتهم العلمية وأخبارهم على فقرهم وعُدمهم ، وضعف الوسائل لديهم ، كأنها من صُنع الخيال ، أو أحاديث السمر ، ولكنها ما كانت إلّا صدقًا وحقيقة يحدوهم إليها أشواق محرقة ، وآمال عذاب في نفوسهم ، صنعوا بها ما يعدّه بعض الناس اليوم من المبالغات والأساطير فلله درُّهم على ما بذلوا وما صبروا ، وما سهروا وما بكروا ، ورحمة الله على تلك الأجساد الطاهرة

الكريمة ، والعزائم المؤمنة الخارقة العظيمة .

جادَ بهم الدهرُ ، وأطلعهم شموسَ هداية وعرفان .

فرحمات الله على أصحاب الهمم العالية العليّة ، الصابرين المحتسبين الذين صابروا وصبروا ، وخَلّفوا وآثروا .

ماتوا وغُيِّبَ في التُّرابِ شُخُوصُهم   فالنَّشْرُ مِسكٌ والعظامُ رميمُ

يقول ابن عقيل الحنبلي : « حاشا المبدىء، الخالق لهم على تلك الأشكال والعلوم ، أن يرضى لهم في الوجود بتلك الأيام اليسيرة المشوبة بأنواع الغُصص ، وهو المالك ، وبتلك اللمحة التي عاشوها في الدنيا ، وقد مُزِجت بالعلاقم ، لا والله لا رضا لهم إلَّا بضيافةٍ تجمعهم على مائدةٍ تليق بكرمه سبحانه ، نعيم بلا ثُبُور ، وبقاء بلا موت ، واجتماع بلا فُرقة ، ولذَّات بغير نَغْصة »[1].

بل واللّهِ علمٌ لا ينتهي ، وهذا أغلى ما يشتهونه في الجنة ، وأعلى منه نظرٌ إلى وجه الكريم في يوم المزيد ولقياه ، جزاء ما أعطوا لدينهم ولعلم نبيهم ﷺ من دمهم ونور عيونهم ، وشعلة عقولهم . جزاء ما أوقفوا أنفاسهم لخدمة العلم ، فكانت أحاديثهم وسيرهم تقرّ العين .. وفرائدهم يقول البحر الزاخر : من أين أُخذ مثْل دُرِّها ؟! من أين ؟! وفوائدهم التي سوَّدوا بها القرطاس ، ويودّ لو زيد فيه سواد القلب والبصر ، وتسود بها الأوراق ، فتصبح أسود من الشمس والقمر .

طلع صبحُ هممهم فاستغلظ فاستوى على سوقه ، فكانت فوق النجوم ، وتقهقر خلفها القمران .. وأولى بنا بعد أن سردنا طرفا منها أن يصمت عندها

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١/١٦٥ .

اللافظ .. لسان حالهم يقول : همتنا أعلى من كلامكم .. يُشار إليها بالأصابع .

أخذنا بآفاقِ السماءِ عليكمُ   لنا قَمَراها والنُّجُومُ الطَّوالِعُ

* * *

انتهى المُجلَّد الأوَّل ويليه المُجلَّد الثاني

إنْ شاء الله تعالى

صلاح الأمة

في

علو الهمة

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم

الشيخ عائض القرني

الشيخ محمد عبد المقصود

الشيخ أبو إسحاق الحويني

المجلد الثاني

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصْلُ الأَوَّل

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الدعوةِ إلى الله

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الدعوةِ إلى الله □

قال تعالى : ﴿ **ومن أحسن قولًا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين** ﴾ [فصلت : ٣٣]. « الدعوة إلى الله أحسن كلمة تقال في الأرض ، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة ؛ ومع الاستسلام لله الذي تتوارى معه الذات ، فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ .

إن النهوض بواجب الدعوة أمر شاق ، ولكنه شأن عظيم »(١).

وهذا الحسن البصري يرصد نفسه في البصرة لبعث همم الناس ، وشرح معنى الإصلاح ، فيتلو على أهل البصرة هذه الآية ثم يقول : « هو المؤمن : أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحًا في إجابته . فهذا حبيب الله . هذا وليُّ الله » .

قال ابن القيم : « مقام الدعوة إلى الله أشرف مقامات التعبد » .

يقول ابن القيم : « فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم ، وهم خلفاء الرسل في أممهم ، والناس تبع لهم ، والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه ، وضمن له حفظه وعصمته من الناس . وهكذا المبلغون عنه من أمته ، لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له ، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية ، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثًا ، وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو ، ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس ، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه ، وهم كما قال فيهم عمر بن الخطاب ، في خطبته التي ذكرها ابن وضّاح(٢) في

---

(١) الظلال ٦/٣١٢١ بتصرف .

(٢) في « البدع والنهي عنها » لابن وضاح ص٣ .

كتاب « الحوادث والبدع » له ، قال : « الحمد لله الذي امتن على العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، ويحيون بكتاب الله أهل العمى ، كم من قتيلٍ لإبليس قد أحيوه ، وضال تائهٍ قد هدوه ، بذلوا دماءهم وأموالهم دون هلكة العباد ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، يقبلونهم في سالف الدهر وإلى يومنا هذا ، فما نسيهم ربهم ، وما كان ربك نسيا . جعل قصصهم هدى وأخبر عن حسن مقالتهم . فلا تقصد عنهم ، فإنهم في منزلةٍ رفيعةٍ ، وإن أصابتهم الوضيعة » .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « إن لله عند كل بدعةٍ كِيد بها الإسلام وليًّا من أوليائه يذب عنها ، وينطق بعلاماتها ، فاغتنموا حضور تلك المواطن ، وتوكلوا على الله » .

ويكفي في هذا قول النبي ﷺ لعلي ولمعاذ أيضًا : « لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم »[(١)]. وقوله ﷺ : « من دعا إلى هدى فاتبع عليه ، كان له مِثْل أجر من اتبعه إلى عمله ، إلى يوم القيامة »[(٢)] .

وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »[(٣)] .

وقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **يأيها المدَّثِّر * قم فأنذر * وربك فكبر وثيابك فطهر** ﴾ [المدثر : ١ -٤] .

« إنه النداء العلوي الجليل ، للأمر العظيم الثقيل .. نذارة هذه البشرية

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه مسلم والترمذي وأبو داود .
(٣) جلاء الأفهام (٢٤٩ - ٢٥٠) .

وإيقاظها ، وتخليصها من الشر في الدنيا ، ومن النار في الآخرة ، وتوجيهها إلى طريق الخلاص من قبل فوات الأوان ... وهو واجب ثقيل شاق ، حين يناط بفرد من البشر ، مهما يكن نبيا ورسولا ؛ فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والالتواء والتفصي من هذا الأمر ، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام في هذا الوجود .

. إن كل أحد ، وكل شيء ، وكل قيمة ، وكل حقيقة .. صغير .. والله وحده هو الكبير .

وتتوارى الأجرام والأحجام ، والقوى والقيم ، والأحداث والأحوال ، والمعاني والأشكال ، وتنمحي في ظلال الجلال والكمال لله الواحد الكبير المتعال .

وهو توجيه للرسول ﷺ ليواجه نذارة البشرية ، ومتاعبها وأهوالها وأثقالها ، بهذا التصور ، وبهذا الشعور فيستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة ، وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة ، هو الكبير ... ومشاق الدعوة وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور .

وطهارة القلب والخلق والعمل .. طهارة الذات التي تحتوي الثياب ، وكل ما يلم بها أو يمسها هي الحالة المناسبة للتلقي من الملأ الأعلى ، كما أنها ألصق شيء بطبيعة هذه الرسالة ، وهي بعد هذا وذاك ضرورية لملابسة الإنذار والتبليغ ، ومزاولة الدعوة في وسط التيارات والأهواء والمداخل والدروب ، وما يصاحب هذا ويُلابسه من أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب ، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كي يملك

(١) الظلال (٦/٣٧٥٤ - ٣٧٥٥) .

استنقاذ الملوثين دون أن يتلوث ، وملابسة المدنسين من غير أن يتدنس ، وهي لفتة دقيقة عميقة إلى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام على هذا الأمر بين شتى الأوساط ، وشتى البيئات ، وشتى الظروف ، وشتى القلوب »[1].

قال تعالى : ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ [المدثر : ٦] .

« توجيه إلى إنكار ذاته وعدم المن بما يقدمه من الجهد ، أو استكثاره واستعظامه ، سيقدم الكثير ، وسيبذل الكثير ، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء . ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به . وهذه الدعوة لا تستقيم في نفسٍ تحس بما تبذل فيها ، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه . بل حين لا تستشعره من الأصل ؛ لأنها مستغرقةٌ في الشعور بالله ، شاعرةٌ بأن كل ما يقدمه هو من فضله ومن عطاياه . فهو فضلٌ يمنحها إياه ، وعطاء يختارها له ، ويوفِّقها لِنَيله . وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله . لا المنّ والاستكثار » .

﴿ **ولربِّك فاصبر** ﴾ [المدثر : ٧] .

« الصَّبر هو الزّاد الأصيل في هذه المعركة الشّاقّة ، معركة الدعوة إلى الله ، المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس وأهواء القلوب ، ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات ، وتدفعهم شياطين الأهواء ! وهي معركة طويلة عنيفة ، لا زاد لها إلّا الصبر الذي يُقْصَد فيه وجه الله ، ويتّجه به إليه احتسابًا عنده وحده » .

قال تعالى : ﴿ **في صحفٍ مكرَّمة مرفوعةٍ مطهرة بأيدي سفرةٍ كرامٍ بَرَرَةٍ** ﴾ [عبس : ١٣ - ١٦] .

« يُبيِّن الله عز وجل حقيقة هذه الدعوة وكرامتها ، وعظمتها ورفعتها ، واستغناءها عن كلِّ أحدٍ ، وعن كل سند ، وعنايتها فقط بمن يريدها لذاتها

---

(١) الظلال (٣٧٥٤/٦ - ٣٧٥٥) .

كائنًا ما كان وضعه ووزنه في ميدان الدنيا .

الدعوة كريمة في كل اعتبار ... كريمة في صحفها المرفوعة المطهرة .. الموكّل بها السُّفَراء من الملأ الأعلى ، ينقلونها إلى المختارين في الأرض ليبلّغوها .. وهم كذلك كرامٌ بررة ، فهي كريمةٌ في كل ما يتعلّق بها ، وما يمسّها من قريبٍ أو بعيد .

وهي عزيزة لا يُتصدَّى بها للمُعرِضين الذين يُظهرون الاستغناء عنها ، هي فقط لمن يعرف كرامتها ويطلب التَّطهر بها .

هذا هو الميزان ... ميزان الله ... الميزان الذي توزن به القيم والاعتبارات ، ويُقدّر به الناس والأوضاع .. وهذه هي كلمة الله ، الكلمة التي ينتهي إليها كلُّ قولٍ وكل حُكمٍ وكل فصلٍ » .

وقال تعالى : ﴿ **قل إني لن يُجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه مُلْتَحَدًا إلَّا بلاغًا من الله ورسالاته ..** ﴾ الآية [الجن : ٢٢ - ٢٣] .

« هذه هي القولة الرهيبة ، التي تملأ القلب بجدِّيَّة هذا الأمر ... أمر الرسالة والدعوة .. والرسول ﷺ يُؤْمَر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة ... إني لن يجيرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملجأ أو حماية ، إلا أن أُبلّغ هذا الأمر ، وأُؤدي هذه الأمانة ، فهذا هو الملجأ الوحيد ، وهذه هي الإجارة المأمونة .

يا للرهبة ! ويا للرَّوْعَة ! ويا للجدّ ! .

إنها ليست تطوُّعًا يتقدم به صاحب الدعوة . إنما هو التكليف ، التكليف الصارم الجازم ، الذي لا مفر من أدائه ، فالله من ورائه ! .

وإنها ليست اللذة الذاتية في حمل الهُدى والخير للناس . إنما هو الأمر العلوي الذي لا يمكن التَّفلُّت عنه ولا التَّردُّد فيه !.

وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدَّد ... إنها تكليف وواجب ، وراءه

الهول ، ووراءه الجد ، ووراءه الكبير المتعال ! »[١] .

« إنها رهبة تُفزع المسلم حقًّا ، تقذفها تلك التهديدات التي خاطب الله تعالى بها من يصمت ويتخارس . ويظلّ الأخرس قَلِقًا أبدًا ، محرومًا من الطُّمأنينة والسكينة الإيمانية ، فإنها مكر خالص لأصحاب اللسان الناطق بالحق ، الذين يبشِّرون الناس بالجنة وينذرونهم عذاب جهنم ، فيرثون النبي ﷺ في ذلك ، كما وصفه الله تعالى بأنه أرسله بشيرًا ونذيرًا . والدعوة إلى التوحيد أُسُّ الدعوة ولُبُّها ومُخُّها ﴿ **ولقد بعثنا في كل أُمَّةٍ رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ » .

« وكل ما أحبَّه الله ورسوله من واجبٍ أو مستحبٍّ ، من باطنٍ وظاهرٍ ، فمن الدعوة إلى الله : الأمْرُ به . وكلّ ما أبْغَضَهُ الله ورسوله ، من باطنٍ وظاهر ، فمن الدعوة إلى الله : النَّهْي عنه ... لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبّه الله ، ويترك ما أبغضه الله ، سواء كان من الأقوال أو الأعمال ، الباطنة أو الظاهرة »[٢] .

قال تعالى: ﴿**وادْعُ إلى ربِّك إنّك لعلى هُدًى مستقيم**﴾ [الحج: ٦٧].
وقال تعالى: ﴿**وادْعُ إلى ربِّك ولا تكوننَّ من المشركين**﴾ [القصص: ٨٧].

« وهذه الآيات يدخل فيها المسلمون جميعًا ؛ لأنّ الأصل في خطاب الله لرسوله ﷺ دخول أُمَّته فيه ، إلا ما استثنى ، وليس من هذا المستثنى أمْرُ الله تبارك وتعالى له بالدعوة إليه ، ومعنى ذلك أن الله تعالى أكرم هذه الأمة الإسلامية وشرّفها أن أشركها مع رسوله الكريم في وظيفة الدعوة إليه »[٣] .

---

(١) الظلال بتصرف ٦/٣٧٣٦ - ٣٧٣٧ .
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/١٦٤ .
(٣) أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان ص٢٦٩ .

وقال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ...** ﴾ الآية [التوبة : ٧١].

قال القرطبي : « فجعل الله تعالى الأَمْرَ بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، فرقًا بين المؤمنين والمنافقين ، فدلّ على أنّ أخصّ أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ورأسها الدُّعاء إلى الإسلام »(١) .

قال ابن تيمية : « الدعوة إلى الله واجبة على من اتّبع النبي ﷺ ، وهم أُمّته يدعُون إلى الله كما دعا إلى الله ، وهذا الواجب واجبٌ علىْ مجموع الأُمة ... وهو الذي يُسمِّيه العلماء فرض كفاية .. وكل واحدٍ من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره ، فما قام به غيره سَقَطَ عنه ، وما عجز ، لم يُطالَب به .

وأمّا ما لم يقُم به غيرُه وهو قادِرٌ عليه ، فعليه أن يقوم به ، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على ذاك . وقد تقسَّطتِ الدعوة على الأمة بحَسَب ذلك تارة ، وبحسب غيره أخرى ، فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب ، وهذا إلى عمل ظاهر واجب ، وهذا إلى عمل باطن واجب ، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة ، وفي الوقوع أُخرى »(٢) .

« فالدعوة إلى الخير – وأعلاها الدعوة إلى الله – واجبةٌ على كل مسلم بقدر استطاعته ، والشأن في المسلم : المبادرةُ إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، دون انتظارٍ إلى غيره ، فقد لا يقوم به الغير فيقع في الإثم ... ولو ترك المسلم الدعوة إلى الله تَرْكًا دائمًا ، مستمرًّا متعمِّدًا ؛ فإنه لا ينضوي تحت مفهوم قوله تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني ...** ﴾ الآية [يوسف : ١٠٨] ؛ لأن أتباع الرسول ﷺ هم الذين يدعون إلى الله » .

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٤٧ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/١٦٥ – ١٦٦ .

« وقد يتوهّم الكثيرون أنهم قد أُذن لهم بالقعود ، حين قرَّر الفقهاء أن الدعوة إلى الله فرضٌ على الكفاية ، ويختارون أنفسهم في الطائفة المتخارسة ، وليس الأمر كما فهموا ؛ فإن معنى القيام بها : حصول الشيء المأمور به في عالم الواقع ، وتطبيقه ، واتِّعاظ الطائفة المأمورة فعلًا ، فإذا بقيت الطائفة المأمورة سادرة في غفلتها ، مُتَّبعة لشهوتها ، والِغَة في عصيانها ، بقي جميع المسلمين تحت هذا التكليف ، وعليهم أن يُعينوا الدعاة إلى الله ، الذين يأمرون بالمعروف ، ويزيدوا قوتهم ، ويكثروا سوادهم ، إلى الدرجة التي يكتسبون فيها الهيبة ، والتأثير الكافي لامتناع الطائفة العاصية - من أفراد الأمة - عن عصيانها ومخالفتها للشريعة ، فإذا امتنعت فعلًا ، لزم وجودُ عددٍ من الآمرين الدُّعاة ، يُديمون حالة الامتناع هذه ، وَوَسِعَ البعض الآخر أن يسكتوا ، أمّا قبل ذلك فلا ، ومن يستطلع حالة المسلمين اليوم ، يجدْ أن الجهود المبذولة في الدعوة إلى الله ، لا زالت أقلّ من المقدار المطلوب لامتناع من يرتكب المعاصي منهم . ورأس المعاصي : الحُكم بغير ما أنزل الله ، وبآراء العقول والأهواء والأفكار المستوردة ، ومن ثمّ فإنه لا يَسَعُ المسلمَ اليومَ أن يقعد عن الدعوة إلى الله »(١) .

« وشرط الخروج من عهدة الفرض الكفائيّ : حصول الكفاية بمن يقوم به »(٢) .

« وللدعوة إلى الخير ، وأعلاها الدعوة إلى الله ، شروطٌ أولها العِلمْ ، ولكن العلم ليس شيئًا واحدًا لا يتجزَّأ ولا يتبعَّض ، وإنما هو بطبيعته يتجزّأ

(١) المنطلق لمحمد أحمد الراشد ص٩٤ .
(٢) أصول الدعوة ٢٧٥ .

ويتبعّض ، فمن عَلِم مسألةً وجَهِل أُخرى ، فهو عالمٌ بالأُولى جاهلٌ بالثانية ، ومعنى ذلك أنه يعد من جملة العلماء بالمسألة الأُولى ، وبالتالي يتوفَّر فيه شِرط وجوب الدعوة إلى ما علم دون ما جهل .

إن الأكثرين لا زال الحزن على واقع المسلمين يستهلكهم يومًا بعد يوم ، ولم يعرفوا طريق العمل ، أو عرفوه ومنعهم الخوف من تحمُّل التضحيات ، أو منعهم الحرص على المال فانعزلوا في مساجدهم وبيوتهم يبكون الإسلام ، ويتركون الأجيال وجماهير الشباب الساذج لمن يربيها من دعاة الإلحاد والعلمانية والشيوعية والوجودية ، ولمن يجرها إلى الفساد والحياة الشهوانية والزنا والخمر والإسراف في اللهو .

وخور عزائم هؤلاء علّه يوقع أبصارهم على صيحات المخلصين على مر الأجيال من لدن عصر الصحابة ، وحثّهم على العمل للإسلام والتبشير به ، ودعوة الخلق ، وتنبيه الجموع الغافلة ، وترك العزلة والتّواري .

إنه حزن قاتل ، وتعبُّد مرجوح ، وعزلة مضيّعة ، وبدعة هادمة »[١] .

عن عامر الشعبي أن رجالًا « خرجوا من الكوفة ، ونزلوا قريبًا يتعبَّدون ، فبلغ ذلك عبد الله بن مسعود فأتاهم ، ففرحوا بمجيئه إليهم ، فقال لهم : ما حملكم على ما صنعتم ؟ قالوا : أحببْنا أن نخرج من غمار الناس نتعبّد . فقال عبد الله : لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم ، فمنْ كان يقاتل العدو ؟ وما أنا ببارحٍ حتى ترجعوا »[٢] .

إنها كلمة الحق ، وعنوان الوعي ، وشارة التربية النبوية الكريمة .

---

(١) المنطلق ١/١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك ص٣٩٠ .

سيماهم في كلامهم ، مثلما هي في وجوههم .

من يقاتل العدو إذن لو اعتزل العابدون ؟!.

من يردّ كيد الصهيونية والماسونية ، والدعاية الشيوعية الإلحادية ، إذا بقي المصلون في مساجدهم لا يضمّون جهودهم إلى جهود دعاة الإسلام ؟!.

وفي سورة العصر كفاية ... سطر واحد في القرآن فيه كفاية وغنى لأصحاب المنهج الصحيح ، قال تعالى : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خُسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ وهي تعدل ثلث القرآن .

فكلمتان فحسب بيَّنتا وجوب الدعوة كانتا ربع ثلث القرآن .

فكل واحد في خُسر ، إلا من كمّل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل بطاعته ، فهذا كمال في نفسه ، ثم كمّل غيره بوصيته له بذلك ، وأمره إياه به ، وبملاك ذلك كله ، وهو الصبر ، فكمل نفسه بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك ، ووصيته بالصبر عليه . ولهذا قال الشافعي رحمه الله : « لو فكّر الناس في سورة العصر لكفتْهم »[1] .

فالله سبحانه « لم يكتفِ منهم بمعرفة الحق والصبر عليه ، حتى يوصي بعضهم بعضا ويرشده إليه ، ويحثّه عليه ، فإذا كان من عدا هؤلاء ، فهو من الخاسرين »[2] .

والداعية مجاهد مهاجر :

قال تعالى : ﴿ **فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادًا كبيرًا** ﴾. [الفرقان : ٥٢] .

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ١/٣٣ .

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ٧٣ .

قال ابن القيم : « ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة ، فأما جهاد الحجة فأمر به في مكة بقوله : ﴿ **فلا تطع الكافرين وجاهدهم به** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **جهادًا كبيرًا** ﴾ ، فهذه سورة مكية ، والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة »(١).

فالدعوة ، والأمر والنهي ، والتواصي نوع من الجهاد .

ثم الداعية بعد ذلك له أجر المهاجرين ، كما قرّر الإمام ابن تيمية في تفسير قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا من بعدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم** ... ﴾ الآية [الأنفال : ٧٥]. فقال : « قالت طائفة من السلف : هذا يدخل فيه مَنْ آمن وهاجر وجاهد إلى يوم القيامة ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتنوا ثم جاهدوا ثم صبروا إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ** ﴾ ، يدخل في معناها كل من فتنه الشيطانُ عن دينه أو أوقعه في معصية ، ثم هجر السيئات ، وجاهد نفسه وغيرها من العدو ، وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك ، وصبر على ما أصابه من قولٍ أو فعلٍ ، والله سبحانه وتعالى أعلم »(٢).

صلاة الله تعالى ومَن في السموات والأرض على معلِّم الناس الخيرَ :

عن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض ، حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلّون على معلّم الناس الخير »(٣).

استمرار ثواب الداعي بعد موته :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٥٨/٢ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨٤/١٨ .

(٣) رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣٤٣/٢ رقم (٢١٥٩) .

الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقةٍ جارية ، أو عِلْم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[١].

للدّاعي مثل أُجور من تَبِعه :

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن دلّ على خيرٍ فله مثل أجر فاعله » رواه مسلم .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ».

دعاء النبي ﷺ لمبلِّغ كلامه إلى غيره :

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ بالخيف من منى فقال : « نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فبلغها ، فربّ حامل فقهٍ غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »[٢].

ومن قرأ تراجم الدعاة إلى السُّنّة ووَصْف وجوههم ، لكفاه هذا هِمّةً إلى الدعوة إلى السنة : محمد بن سيرين ... أيوب السختياني ... وكيع بن الجراح ... عبد الغني المقدسي .

ماتوا وغيِّب في التراب شخوصهم ... فالنَّشْر مسكٌ والعظام رميمُ

الثواب الجزيل لمن اهتدى على يديه شخص :

روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه ، لما أعطاه الراية يوم خيبر : « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعُهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله

(١) رواه مسلم .
(٢) صحيح : رواه ابن ماجة ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ١/٤٥ .

فيه ، فوالله لَأَن يهدي الله بك رجلًا واحدًا ، خيرٌ لك من حمر النعم »[١].

وإليك نماذج من علو الهمّة في الدعوة إلى الله عز وجلّ :

١ - علو همة نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ :

وله القدح المعلى في ذلك ، قال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون** ﴾ [العنكبوت : ١٤] .

لله درّه على عظيم صبره في الدعوة ، مع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم ، « وكان كلّما انقرض جيلٌ وصَّوا منْ بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته ، وكان الوالد إذا بَلَغ ولدُه وعَقِل عنه كلامَه ، وصّاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوحٍ أبدًا ما عاش ودائمًا ما بقي »[٢] .

قال تعالى : ﴿ **قال ربِّ إني دعوتُ قومي ليلًا ونهارًا * فلم يزدهم دعائي إلا فرارًا * وإني كُلّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغْشَوْا ثيابهم وأصرُّوا واستكبروا استكبارًا * ثم إني دعوتُهم جهارًا * ثم إني أعلنتُ لهم وأسررتُ لهم إسرارًا * فقلت استغفروا ربَّكم إنه كان غفَّارًا * يُرسل السماء عليكم مدرارًا * ويُمددكم بأموالٍ وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهارًا * ما لكم لا ترجُون لله وقارًا** ﴾ [نوح : ٥ - ١٣].

قال أبو القاسم الغرناطي : « ذَكَر أولًا أنه دعاهم بالليل والنهار ، ثم ذكر أنه دعاهم جهارًا ،ثم ذكر أنه جَمَع بين الجهر والإسرار ، وهذه غاية الجد في النصيحة وتبليغ الرسالة »[٣].

---

(١) قيل المراد : خير لك من أن تكون لك فتتصدق بها ، وقيل : تقتنيها وتملكها ، وكانت مما تتفاخر العرب بها . فتح الباري (٤٧٨/٧) .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير (٧٤ ، ٧٥) .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٢٨٢/٤ .

« قال ابن عطية : الجهار : دعاؤهم في المحافل ومواضع اجتماعهم ، والإسرار دعاء كل واحد على حدته »[(١)] .

قال القرطبي : « وكل هذا من نوح عليه السلام مبالغةٌ في الدعاء ، وتلطُّف في الاستدعاء »[(٢)] .

قال الزمخشري : « قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، في الابتداء بالأهون والترقّي في الأشد فالأشد ، فافتتح بالمناصحة في السرّ ، فلمّا لم يقبلوا ، ثنّى بالمجاهرة ، فلمّا لم تُؤثِّر ، ثلّث بالجمع بين الإسرار والإعلان ، ومعنى « ثم » الدالة على تباعُد الأحوال ؛ لأن الجهر أغلظ من الإسرار ، والجمْع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما »[(٣)] .

قال القاسمي : « بَذَل نوح غاية الجهد دائمًا بلا فتورٍ ولا توانٍ ، وضاقت عليه الحِيَل في تلك المُدَد الطّوَل »[(٤)].

كفاحٌ نبيلٌ طويل :

سلك نوح إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم ، شتّى الأساليب ومتنوّعَ الوسائل ، في دأبٍ طويل ، وفي صبرٍ جميل ، وجهدٍ نبيل ، ألف سنةٍ إلّا خمسين عامًا ... ثم عاد إلى ربِّه يقدّم حسابه ، ويبثّ شكواه ، في هذا البيان المفصَّل وفي هذه اللهجة المؤثرة .

ويحتمل نوح - وهو رسولٌ من أُولي العزم - ما يحتمل في سبيل

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٢٨٢/٤ .
(٢) تفسير القرطبي ٣٠١/١٨ .
(٣) الكشاف للزمخشري ٦١٦/٤ .
(٤) محاسن التأويل (٢٩٤/٩). بتصرف .

الدعوة ؛ ما يحتمل من إعراضٍ واستكبارٍ واستهزاء ، ألف سنة إلّا خمسين عامًا .. وعَدَد المستجيبين له لا يكاد يزيد ؛ ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد .

وصورة نوح في دعوته ، وهو لا يملّ ولا يفتر ولا ييأس أمام الإعراض والإصرار ، صورةٌ لإصرار الداعية على الدعوة ، وتحيُّن كل فرصةٍ ليبلّغهم إياها ، وإصرارهم هم على الضلال .. ملامح الطفولة البشرية العنيدة ، من وضع الأصابع في الآذان ، وآذانهم لا تَسَع أصابعهم كاملة ، ضمانًا لعدم تسرُّب الصوت إليها بتاتًا ، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب ، وهي صورة غليظة للإصرار والعناد ، كما أنها صورة بدائيّة لأطفال البشرية الكبار .

« ولم ينس نوح عليه الصلاة والسلام الدعوة حتى حين حضرته الوفاة ، فقد روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن نوحا عليه السلام لما حضرتْه الوفاة ، دعا ابنيه فقال : إني قاصِرٌ عليكما الوصية . آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين : أنهاكما عن الشرك والكِبْر .وآمركما بلا إله إلا الله ؛ فإن السموات والأرض وما فيهما لو وُضِعتْ في كفَّة الميزان ، ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لكانت أرجح . ولو أن السموات والأرض كانتا حلقةً ، فوضعت لا إله إلا الله عليهما لفصمتْهما . وآمركما بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيءٍ ، وبها يرزق كل شيءٍ »(١) .

لقد كانت دعوة نوح صورةً من الجهد الدائب المُلِحّ الثابت المُصرّ ، تُعرض على رسولنا ﷺ ، وهو الذي انتهت إليه أمانة دعوة الله في الأرض كلها في آخر الزمان ، واضطلع بأكبر عبءٍ كُلّفه رسول .. يرى فيها صورة

(١) الحرص على هداية الناس للدكتور فضل إلهي ص١٢ نشر إدارة ترجمان الإسلام باكستان .

الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل ، لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض . ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق .

وتعرض على الجماعة المسلمة في مكة ، وعلى الأمة المسلمة بعامة ، وهي الوارثة لدعوة الله في الأرض ... ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبي البشرية الثاني ، وتُري المسلمين قيمة وحقيقة دعوتهم ، وحقيقة نسبهم العريق ! وحقيقة موكبهم المتّصل من مطْلع البشرية ، وحقيقة دورهم في إقرار هذه الدعوة والقيام بها ، وهي منهج الله القويم القديم .

وإن الإنسان ليأخذه الدهش والعَجَب ، كما تغمره الروعة والخشوع ، وهو يستعرض هذا الجهد الموصول من الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - لهداية البشرية الضّالّة المعاندة ، ويتدبر إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل ، واحدًا بعد واحدٍ لهذه البشرية المُعرِضة العنيدة .

وقد يعِنّ للإنسان أن يسأل : تُرى تُساوي الحصيلة هذا الجهد الطويل ، وتلك التضحيات النبيلة ، من لدن نوحٍ عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضِّخام ، تُرى : هل تساوي هذا الجهد الذي وصفه نوحٌ عليه السلام ، وقد استغرق عمرًا طويلًا بالغَ الطول ، لم يكتفِ قومه فيه بالإعراض ، بل أتبعوه بالسخرية والاتهام ، وهو يتلقّاهما بالصبر والحسنى ، والأدب الجميل والبيان المنير ؟! .

ثم تلك الجهود الموصولة منذ ذلك التاريخ ، وتلك التضحيات النبيلة التي لم تنقطع على مدار التاريخ من رسلٍ يُستهزأ بهم ، أو يحرقون بالنار ، أو يُنشرون بالمنشار ، أو يهجرون الأهل والديار .. حتى تجيء الرسالة الأخيرة ، فيجهد فيها محمد ﷺ ذلك الجهد المشهود المعروف ، ثم

تتوالى الجهود المُضنية والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته في كل أرض وفي كل جيل ؟؟.

ترى تساوي الحصيلة كل هذه الجهود ، وكل هذا الجهاد الشاق المرير ؟!.

ثم تُرى هذه البشرية كلها تساوي تلك العناية الكريمة من الله ، المتجلّية في استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل تترى ، بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار مِنْ هذا الخلْق الهزيل الصغير المسمى بالإنسان ؟! .

والجواب بعد التدبُّر : أن : نَعَمْ ... وبلا جدال !!

إن استقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد ، وكل هذا الصبر ، وكل هذه المشقة ، وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل !

ولعلَّ استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الإنسان ذاته ، بل أكبر من الأرض وما عليها ، بل أكبر من هذا الكون الهائل ، الذي لا تبلغ الأرض أن تكون فيه هباءةً ضائعة لا تكاد تُحَسَّ أو تُرى .

إن استقرار هذه الحقيقة في قلبٍ ، معناه : أن ينطوي هذا القلب على قبسٍ من آثار نور الله وعلمه ، وأنْ يكونَ مستودعًا لسرٍّ من أسرار الله ، وأن يكون أداة من أدوات قَدَره النافذ في هذا الوجود .... وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسمائه ، ومن كل هذا الكون الكبير !

كما أن استقرار حقيقة الإيمان في حياة البشر أو جماعةٍ منهم ، معناه : اتِّصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية ، وارتفاعها إلى المستوى الذي يؤهّلها لهذا الاتصال ... معناه قُرب الفاني من الباقي وجمعيّته عليه ... وهي حصيلة تُربي على كل جهدٍ وكل تضحية ، ولو تحقَّقتْ على الأرض يومًا أو بعض يوم في عمر البشرية الطويل ؛ لأن تحقُّقها -

ولو في هذه الصورة - يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل النور في صورة عملية واقعية ، تجاهد لتبلُغ إليها طَوَال الأجيال .

ولقد أثبت الواقع التاريخي المتكرر أن النفس البشرية لم تبلُغ إلى آفاق الكمال المقدَّر لها بأي وسيلة ، كما بلغتْها باستقرار حقيقة الإيمان بالله فيها ، وأن الحياة البشرية لم ترتفع إلى هذه الآفاق كما ارتفعت بهذه الوسيلة ، وأن الفترات التي استقرَّت فيها هذه الحقيقة في الأرض ، وتسلَّم أهلها قيادة البشرية ، كانت قمّة في تاريخ الإنسان سامقة ، بل كانت حلمًا أكبر من الخيال ، ولكنَّه متمثِّل في واقع يحياه الناس .

هذه هي الدعوة .. فما أُقِرَّت حقيقة الإيمان بالله في الأرض إلا بالدعوة ، وما قامت قلوب تنطوي على حب الله والشوق إليه والقرب منه إلا بالدعوة ، وما قامت حياةٌ إنسانية يتمثل فيها منهج الله للحياة إلا بالدعوة .

والدعوة إلى الله لا بُدّ أن تمضي في طريقها كما أراد الله ، لأن الحصيلة تستحق الجهود المضنية والتضحيات النبيلة ، ولو صغُرت فانحصرت في قلبِ واحدٍ ، يقرُب من الله ويحبُّه ويشتاق إليه ؛ قال ﷺ : « عُرِضَت عليَّ الأُمم ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرَّهْط ، والنبي ومعه الرجُل والرجُلان ، والنبي وليس معه أحد »[1].

٢ - خليل الرحمن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ، وعلوّ همتهما في الدعوة إلى الله :

قال تعالى : ﴿ **ووصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب**

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عباس .

الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : ١٣٢ - ١٣٣] .

اهتمامات القلب المؤمن وشغله الشّاغل وهمُّه الأول ، هو الدعوة إلى العقيدة .. هذه هي القضية التي شغلت بالَ خليل الرحمن إبراهيم ، ووصَّى بها بنيه ، وشغلت بال حفيده يعقوب في ساعة الاحتضار وفي سكرات الموت .. أمْرٌ جَلَل يريد أن يطمئنّ عليه ويستَوْثِق منه ، ترِكة يريد أن يخلِّفها لأبنائه ، ويحرص على سلامة وصولها إليهم ... إنها الدعوة إلى العقيدة .. هي التَّرِكَة وهي الذُّخر ... وهي القضية الكبرى ، وهي الشُّغل الشاغل والأمر الجلل ، الذي لا تشغل عنه سكراتُ الموت وصرعاتُه .

قال الفخر الرازي في تفسير الآية الثانية من الآيتين : « الآية دالّةٌ على أن شفقة الأنبياء - عليهم السلام - على أولادهم كانت في باب الدين ، وهمّتهم مصروفة إليه دون غيره »[1].

٣ - دعوة يوسف عليه السلام إلى الله تعالى وهو في السجن :

قال تعالى : ﴿ **ودخل معه السجن فَتَيانِ قال أحدُهما إني أراني أعصر خمرًا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزًا تأكُل الطَّيْرُ منه نبِّئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين * قال لا يأتيكما طعامٌ تُرزقانِهِ إلَّا نبّأتُكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذالكما ممّا علّمني ربي إني تركتُ ملّة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتّبعتُ ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون * يا صاحِبَي السجن أأربابٌ متفرِّقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار * ما تعبدون من دونه إلَّا أسماءً سمَّيتُمُوها أنتم**

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٧٥/٤ .

وآباؤكم ما أنزل الله بها من سُلطانٍ إن الحُكم إلَّا لله أمر ألَّا تعبدوا إلَّا إياه ذلك الدِّين القيِّم ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [يوسف : ٣٦ - ٤٠].

ما أروعَ القيامَ بهذه المهمة الجليلة ، في تلك الأحوال الصعبة والظروف العسيرة ! فهو في السجن وظُلُماته ، مع الظّلْم وظلماته ، لا يغفل عن الدعوة لدينه ، ولعقيدته ، في كياسةٍ وتلطُّف ، مع الحزم ، وفي إدراكٍ لطبيعة البيئة ومداخل النفوس فيها ، كما أنه لا يغفل عن حُسن تمثيله بشخصه وأدبه وسلوكه لدينه هذا الذي يدعو إليه في سجنه .

٤ - حرص مؤمن يسٓ على إيمان قومه :

قال تعالى : ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى قال يا قوم اتَّبعُوا المرسلين * اتَّبعوا من لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون * وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه تُرجَعون * أأتَّخذ من دونه آلهةً إن يُردنِ الرحمٰنُ بضُرٍ لا تُغن عنّي شفاعتهم شيئًا ولا يُنقذون * إني إذًا لفي ضلالٍ مبين * إني آمنتُ بربِّكم فاسمعون * قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين** ﴾ [يسٓ : ٢٠ - ٢٧] .

هذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعدما رأى فيها من دلائل الحق ، وحينما استشعر قلبُه حقيقة الإيمان تحرَّكت هذه الحقيقةُ في ضميره ، فلم يطق عليها سُكُوتًا ، ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال مِنْ حوله والجحود والفجور ، ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرَّك في شعوره ، وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق : ﴿ **اتّبعوا من لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون** ﴾ .

إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة ، وهو لا يطلب أجرًا ولا يبتغي مغنمًا .. إنه لصادق . وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء ، إن لم يكن يلبّي تكليفًا من الله ؟! ما الذي يدفعه إلى حمل همّ الدعوة ، ومجابهة الناس

بغير ما ألفوا من العقيدة ؟! والتعرُّض لأذاهم وشرِهم واستهزائهم وتنكيلهم ، وهو لا يجني من ذلك كسبًا ، ولا يطلب أجرًا .

﴿ **إني آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ هكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة ، وأشهدهم عليها ، وهو يُوحي إليهم أن يقولوها كما قالها .

وقتلوه ووطئوه بأرجلهم ... وادَّخر الله لهذا الشهيد الكرامة ∴ كرامة تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص .

ويذكر الشهيد الداعية طيب القلب رضيّ النفس قومه ، بعدما اطَّلَع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة .. وتمنَّى أن يعلم قومه مصيره ليصيروا من المؤمنين ، فما أشدّ وأعمقَ حرصه على هداية قومه : لم يتخلَّ عنهم حتى بعد قتلهم له .

« قال ابن عباس رضي الله عنهما : نصح قومه في حياته بقوله : ﴿ **يا قوم اتَّبعوا المرسلين** ﴾ ، وبعد مماته في قوله : ﴿ **يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين** ﴾ »(١).

قال ابن كثير : « ومراده : أنهم لو اطّلعوا على ما حصل لي من النعيم المقيم والثواب العظيم ، لقادهم ذلك إلى اتّباع الرُّسُل ، فرحمه الله ورضي عنه ، كم كان حريصًا على هداية قومه »(٢).

ما سمعنا بداعيةٍ يذعو إلى الله بعد موته إلّا مؤمن يسٓ .

٥ - علوّ هِمَّة موسى عليه السلام في الدعوة إلى الله عز وجلّ :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « عُرِضتْ عليّ الأُمم ، فرأيت النبيَّ ومعه الرَّهْط ، والنبيّ ومعه الرجل والرجُلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذْ رُفع لي سوادٌ عظيم ، فظننتُ أنهم

(١) ، (٢) مختصر تفسير ابن كثير لمحمد نسيب الرفاعي ٥٦٦/٣ طبع المكتب الإسلامي .

أُمَّتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأُفق ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : انظر إلى الأُفق الآخر ، فإذا سواد عظيم : فقيل لي : هذه أُمّتُك .... » الحديث[1] .

وفي حديث مالك بن صعصعة في الإسراء : « ... فلمّا خلصتُ فإذا موسى قال : هذا موسى فسلِّمْ عليه ، فسلّمتُ عليه ، فردّ ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ، فلما تجاوزتُ بكى . قيل له : ما يُبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلامًا بُعث بعدي يدخل الجنة من أُمّته أكثر ممن يدخلها من أمتي »[2] .

وفي رواية شريك عن أنس : « لم أظن أحدًا يُرفع عليَّ » .

وفي حديث أبي سعيد : « قال موسى : يزعم بنو إسرائيل أني أكْرَمُ على الله ، وهذا أكرمُ على الله مني » .

وزاد الأموي في روايته : « ولو كان هذا وحده هان عليَّ ، ولكن معه أمته ، وهم أفضل الأمم عند الله » .

هذا والله بكاء الرجال .. لم يكتف بالندم والحسرة بل بكى ، فقد كان يتمنَّى أن يكون أسبق من النبي ﷺ في كثرة الأتباع ، حتى يكون رصيده يوم القيامة أعظم رصيد ، بكى « أسفًا على ما فاته من الأجر الذي يترتَّب عليه ؛ بسبب ما وقع من أمّته مع كثرة المُخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم ، المستلزم لتنقيص أجره ؛ لأن لكل نبيٍّ مثل أجر كل من اتبعه ، ولهذا كان مَنِ اتَّبعه مِنْ أُمته في العدد ، دون من اتَّبع نبيَّنا ﷺ ، مع طُول مُدَّتهم بالنسبة لهذه الأمة »[3].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد .

(٢) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب المعراج . انظر فتح الباري ٧/ ٢٤١ - ٢٤٢ ، ٢٥١ .

(٣) فتح الباري ٧/٢٥٢ .

ولا يعني البكاء تقصير موسى عليه السلام في الدعوة إلى الله تعالى ، بل هو دليلُ حرقة القلب الذي يسعى للكمال دائمًا . وإن « لموسى عليه السلام » منزلة عند ربه ، وخصوصًا في همته الدعوية ، حتى غفر الله له ما غفر بسبب همته الدعوية ، كما قرر ابن تيمية رحمه الله فيما يرويه عنه ابن قيم الجوزية قال :

« انظر إلى موسى عليه السلام ، رمى الألواح فيها كلام الله الذي كَتَبَه بيده فكَسَرَها ، وجرَّ بلحية نبيٍّ مثله ، ولَطَمَ عين مَلَك الموت ففقأها ، وعاتب ربَّه ليلة الإسراء في محمدٍ ﷺ ، وربُّه يحتمِلُ له ذلك كله ، ويُحِبُّه ويُكرِمه لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مُقابلة أعْدَى عَدُوٍّ له ، وصَدَع بأمره ، وعالج أُمَّة القِبط وبني إسرائيل ، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر ، وانظر إلى يونس - عليه السلام - حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى ، غاضب ربَّه مرّة ، فأَخَذَه وسجنه في بطن الحوت ، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى »(١).

٦ - علو همّة نبينا ﷺ في الدعوة إلى الله :

وأعلى الهمة همّة نبينا ﷺ ... بأبي هو وأمي ﷺ ، كان حرصه أشدّ الحرص على هداية الناس وتعليمهم وتزكيتهم :

قال تعالى : ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾ [يوسف : ١٠٣] . وقوله تعالى : ﴿ **إن تحرصْ على هداهم فإن الله لا يهدي من يضلّ وما لهم من ناصرين** ﴾ [النحل : ٣٧]. بل كاد يموت غمًّا وأسفًا عليهم ، قال تعالى : ﴿ **فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات إن الله عليمٌ بما يصنعون** ﴾ [فاطر : ٨] ، وقال تعالى : ﴿ **فلعلّك باخِعٌ نفسَك على آثارهم إن لم يؤمنوا**

(١) مدارج السالكين .

بهذا الحديث أسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] ، والبخْع : قتل النفْس غمًّا ، كما قال الراغب الأصفهاني في « المفردات في غريب القرآن » .

عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ أوقد نارًا ، فجعل الجَنَادِبُ والفَرَاشُ يقعن فيها ، وهو يذُبّهن عنها ، وأنا آخذ بحُجَزكم عن النار ، وأنتم تَفَلتون من يدي »(١) .

لقد دعا في جميع الأماكن والأزمان والأحوال ، ودعا جميع أصناف الناس ، واستخدم جميع الأساليب المشروعة .

دعا فوق الجبل ، وفي المسجد ، وفي الطريق ، والسوق ، وفي منازل الناس في المواسم ، وحتى في المقبرة،ودعا في الحضر والسفر ، وفي الأمن والقتال ، في صحته ومرضه ، وحينما كان يزور أو يُزار .

دعا مَنْ أحبّوه ، ومن أبغضوه ، وآذوه ، ومن استمعوا إلى دعوته ومن أعرضوا عنها .

وبَعَث الرسائل والرسل إلى الملوك والرؤساء ، ممن لم يتمكّن من الذهاب إليهم بنفسه .

أ - صعوده ﷺ على الصفا للدعوة إلى الله تعالى :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ [الشعراء : ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي : « يا بني فهر ! يا بني عدي ! » لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج ، أرسل رسولًا ينظر ما هو ، فجاء أبو لهبٍ وقريش ، فقال ﷺ : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي ، تُريد أن تُغير عليكم ، أكنتم مصدّقيّ ؟ » . قالوا : نعم ، ما جرّبنا عليك إلّا صدقًا .

---

(١) رواه مسلم .

قال : « فإني نذيرٌ لكم بين يَدَي عذابٍ شديد » . فقال أبو لهب : تبًّا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعْتَنا ؟ فنزلتْ : ﴿ **تبّتْ يدا أبي لهبٍ وتبّ ما أغنى عنه مالُهُ وما كَسَبَ** ﴾[1].

ب - قيامه بالدعوة في الطريق :

وكان يدعو في الطريق أيضًا :

عن عبد الله بن عباسٍ ، أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يومًا ، فقال له الرسول ﷺ : « يا غلام ! إني مُعلِّمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فلتسأل الله ، وإذا استعنت فاستعِنْ بالله ، واعلم أن الأُمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلَّا بشيءٍ قد كَتَبَه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك لم يضرّوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك . رُفِعت الأقلام وجفّت الصحف »[2].

وتعليمه أيضًا لمعاذٍ في الطريق :

عن معاذٍ رضي الله عنه قال : كنت رِدْفَ النبي ﷺ على حمارٍ يُقال له : عُفَير ، فقال : « يا معاذ ! هل تدري ما حقُّ الله على عباده ؟ وما حقّ العباد على الله ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وحق العباد على الله أن لا يُعذب من لا يشرك به شيئًا » . فقلت : يا رسول الله، ! أفلا أُبشِّرُ به الناس ؟ قال : « لا تبشرهم فيتّكِلُوا »[3].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ حديث رقم (٤٧٧٠) .

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢٣٣/٤ . وقال الشيخ أحمد محمد شاكر : إسناده صحيح .

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب اسم الفرس والحمار. رقم الحديث (٢٨٥٦). فتح الباري ٥٨/٦ .

جـ - قيامه بالدعوة في سوق ذي المجاز :

روى أحمد عن رجلٍ من بني مالك بن كنانة ، قال : « رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتخلّلها يقول : « يا أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تُفلحوا » . قال : وأبو جهل يحثي عليه التراب ويقول : لا يغوينّكم هذا عن دينكم ، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللّات والعزّى . وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ »(١) .

د - ذهابه إلى منازل الناس بمنى للدعوة :

ومن إتيانه ﷺ الناس في أماكنهم للدعوة إلى الله تعالى أنه كان يأتي منازل الناس بمنى في الموسم .

عن ربيعة بن عباد الدؤلي قال : رأيت رسول الله ﷺ بمنى في منازلهم ، قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول : « يا أيها الناس ، إنّ الله أمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا » . قال : ووراءه رجل يقول : يا أيها الناس ، إنّ هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم » . فسألت عن هذا الرجل ، قيل : أبو لهب(٢) .

ولا يظنّ أحدٌ أنّ ذهابه ﷺ للدعوة إلى الله تعالى في الأسواق ومنى ، كان أمرًا نادرًا ، أو كان في موسمٍ واحد ، بل استمرَّ ﷺ على ذلك لمدة عشر سنوات .

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ لبث

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢١/٦ كتاب المغازي والسير : باب تبليغ النبي ﷺ ما أرسل به : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ١٥/١ وصححه ووافقه الذهبي ، وقال : على شرطهما ١٤/١ .

عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنّة وعكاظ ومنازلهم في منى. يقول: «من يُؤويني ؟ ومن ينصرني حتى أُبلّغ رسالات ربي فله الجنة؟». فلا يجد أحدًا ينصره ولا يُؤويه ، حتى إنّ الرجل يرحل من مصر أو اليمن إلى ذي رَحِمِه ، فيأتيه قومه فيقولون له : احذر غلام قريش لا يفتننّك . ويمشي ﷺ بين رجالهم يدعوهم إلى الله عز وجلّ ، ويشيرون إليه بالأصابع ، حتى بَعَثَنا الله من يثرب ، فيأتيه الرجل منّا فيؤمن به ويُقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله فيُسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من دُور الأنصار إلّا وفيها رَهْط من المسلمين يُظهرون الإسلام . وبعثنا الله إليه فائتمرنا واجتمعنا وقلنا : حتى متى رسول الله يُطرد في جبال مكة ويخاف ؟! حتى قدمنا عليه في الموسم ، فواعَدَنا بيعة العقبة[١]».

هـ - رجاؤه ﷺ الهداية لأجيال مَنْ آذوه أشدّ الأذى :

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت للنبي ﷺ : « هل أتى عليك يومٌ كان أشد من يوم أُحُد ؟ قال : « لقد لقيتُ من قومك ما لقيت ، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة ؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال ، فلم يُجبني إلى ما أردت فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي ، فلم أسْتفِق إلّا وأنا بقرن الثعالب[٢]، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتني ، فنظرتُ فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردُّوا عليك ، وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال ؛

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٢/٦٢٤ ، وصححه ووافقه الذهبي ، ورواه أحمد في المسند ، وقال ابن كثير : هذا إسناد جيد على شرط مسلم .

(٢) أي لم أفطن لنفسي وأتنبّه لحالي ، وللموضع الذي أنا ذاهبٌ إليه وفيه ، إلّا وأنا عند قرن الثعالب لكثرة همي الذي كنت فيه . « وقرن الثعالب : قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد » . شرح النووي ١٢/١٥٥ .

لتأمُره بما شئتَ فيهم . فناداني ملَكُ الجبال فسلمّ عليّ ثم قال : يا محمد . فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخْشَبَيْن »[1]. فقال النبي ﷺ : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا » .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ... ينطلق مهمومًا فلا يُفيق إلا بقرن الثعالب ... أفبعد هذا حرصٌ على الناس ، وعلو همة في الدعوة ، من يفعل هذا سواه ، لقد اختلطت الدعوةُ بلحمه ودمه ، وشغلتْه عن كل شيءٍ سواه .. كيف لا وهو الخليل :

قد تخلَّلْتَ مسلَكَ الرُّوحِ منّي وبذا سُمِّي الخليلُ خليـلًا

تخلَّل حُبُّ مولاه مسلك الروِح منه .. فما أشدَّ حِرْصَه على الدعوة إليه ! وما أنوره وأجمله وأبهاه ! فمن يحمل همّ الدعوة يا من تسيرون على سنته ؟! يرجو هداية أجيال قادمة لمن آذوه ، إن لم يهتدوا هم ، بدلًا من تدميرهم وهلاكهم على يد مَلَكٍ مرسَل من الله .

و - ذهابه إلى الطائف ماشيًا دعوة إلى الله ، وتحمُّله الأذى من أهلها :

عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال : مات أبو طالب ، وازداد من البلاء على رسول الله ﷺ شدة ، فعمد إلى ثقيف يرجو أن يُؤوه وينصروه ، فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف ، وهم إخوةٌ : عبد ياليل بن عمرو ، وحبيب بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، فعرض عليهم نَفْسَه ، وشكا إليهم البلاء وما انتهك قومه منه ، فقال أحدهم : أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيءٍ قط،وقال الآخر : والله لا أُكلّمك بعد مجلسك هذا كلمةً واحدةً أبدًا ؛ لئن كنت رسولًا ، لأنت أعظمُ شَرَفًا وحقًّا منْ أن أُكلّمك ؛ وقال الآخر : أعَجَزَ الله أن يرسل غيرك ؟ وأفشوْا ذلك في

---

(١) هما جبلا مكة : أبو قبيس والجبل الذي يقابله .

ثقيف الذي قال لهم ، واجتمعوا يستهزئون برسول الله ﷺ وقعدوا له صفَّيْن على طريقه ، فأخذوا بأيديهم الحجارة ، فجعل لا يرفع رِجْلَهِ ولا يضعها إلَّا رضخوها بالحجارة ، وهم في ذلك يستهزئون ويسخرون ، فلمّا خَلَصَ من صَفَّيْهم وقدماه تسيلان الدماء ، عَمَدَ إلى حائطٍ من كرومهم ، فأتى ظلَّ حُبْلَةٍ من الكَرْم ، فجلس في أصلها مكروبًا مُوجَعًا ، تسيل قدماه الدماء ، فإذا في الكرم عُتْبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فلما أبصرهما كره أن يأتيهما ؛ لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله ، وبه الذي به ، فأرسلا إليه غلامهما عدّاسًا بعنب ، وهو نصرانيٌّ من أهل نينَوَى . فلمّا أتاه وضع العنب بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ : « بسم الله » . فعجب عداس ؛ فقال له رسول الله ﷺ : « من أي أرضٍ أنت يا عداس ؟ ». قال : أنا من أهل نينوى . فقال النبي ﷺ : « من أهل مدينة الرجل الصالح يونس ابن متّى ؟ » فقال له عداس : وما يُدريك من يونس بن متى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ من شأن يونس ما عَرَف ، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحدًا يبلّغه رسالات الله تعالى . قال : يا رسول الله ، أخبرني خبر يونس ابن متى . فلمّا أخبره رسول الله ﷺ من شأن يونس بن متى ما أوحى الله إليه من شأنه ، خرَّ ساجدًا لرسول الله ﷺ ، ثم جعل يقبِّل قدميه وهما تسيلان الدماء . فلمّا أبصر عُتبةُ وأخوه شيبةُ ما فعل غلامُهما سكتا . فلما أتاهما قالا له : ما شأنُك ؛ سجدتَ لمحمدٍ وقبّلتَ قدمَيْه ، ولم نرك فعلتَ هذا بأحدٍ منّا ؟! قال : هذا رجل صالح ، حدَّثني عن أشياء عرفتُها من شأن رسولٍ بَعَثَه الله تعالى إلينا يُدعى يونس بن متّى ، فأخبرني أنه رسول الله ﷺ ؛ فضحكا وقالا : لا يفتنك عن نصرانيّتك ، إنه رجلٌ يخدع . ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة[1].

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني ص١٠٣ .

بأبي أنت وأمي يا سيّد الدعاة ... تخرج إلى ثقيف ماشيًا ، وتعرِض الإسلام على كبار القوم من أهل ثقيف ، وبهم من السفالة والوقاحة ما الله به عليمٌ ، وتتعرّض لسخرية ثقيف ، وتسيل الدماء من قدميْك الشريفتين ، ويبلُغ بك العناء ما يجعل أشد الناس عداوةً لك يُشفق عليك ... ومع هذا بمجرد ما تحين الفرصة لدعوة عداس إلى الله إلّا وتدعُوه ، فمن أحقُّ منك بهذا الشعر ! وقد تغلغل حُبّ مولاك ، والدعوة إليه في كل قطرة دمٍ منك ، وفي كل نبضةٍ من قلبك الطاهر :

واللّهِ ما طلعتْ شمسٌ ولا غربتْ إلّا وحُبُّك مقرونٌ بأنفاسي
ولا جلستُ إلى قومٍ أُحدِّثُهم إلّا وأنت حديثي بين جُلّاسي

ز ــ دعوته ﷺ إلى الله في السفر وفي طريق الهجرة :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فأقبل أعرابيٌّ ، فلمّا دنا منه قال له رسول الله ﷺ : « أين تريد ؟ » قال : إلى أهلي . قال : « هل لك إلى خير ». قال : ما هو ؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ». قال : هل من شاهدٍ على ما تقول ؟ قال : « هذه الشجرة » . فدعاها رسول الله ﷺ وهي على شاطىء الوادي ، فأقبلت تَخُدّ الأرض خدًّا ، فقامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثًا ، فشهدت أنه كما قال . ثم إنها رجعت إلى منبتها ، ورجع الأعرابيُّ إلى قومه فقال : إن يتبعوني أتيتُك بهم ، وإلّا رجعت إليك وكنتُ معك(١) .

وأخرج ابن سعد ، عن عاصمٍ الأسلمي قال : لمَّا هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ، فانتهى إلى الغميم ، أتاه بريدة بن الحصيب ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأسلم هو ومَنْ معه - وكانوا زهاء ثمانين بيتًا -

---

(١) رواه الحاكم وإسناده جيد .

فصلّى رسول الله ﷺ العشاء فصلّوْا خلفه .

حتى وهو مطارَدٌ يتربص به الأعداء .. وكل ثانيةٍ من وقته تُقرِّبهم من إدراكه،ولكنَّ الدعوة هي الدعوة.

ح - انطلاقه ﷺ لدعوة رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ :

لم يكن خروجه ﷺ للدعوة إلى منازل الناس ومجالسهم في المرحلة المكية فقط ، بل استمرَّ على ذلك حتى بعد هجرته إلى المدينة المنورة .

فعن أنس رضي الله عنه قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد الله ابن أبيّ . فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حمارًا ، فانطلق المسلمون يمشون معه ، وهي أرض سَبخَة[١]، فلمّا أتاه النبي ﷺ قال : إليك عني ، والله لقد آذاني نتن حمارك . فقال رجل من الأنصار منهم : والله لحمار رسول الله أطْيَبُ ريحًا منك[٢].

قال النووي في شرح مسلم ١٢/١٥٩ : « وفي هذا الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من الحلم والصفح والصبر على الأذى في الله ، ودوام الدعاء إلى الله تعالى » .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ مرَّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عَبَدَة الأوثان واليهود ، فيهم عبد الله بن أبي ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، فلما غشيت المجلس عَجَاجَةُ الدّابَّةِ[٣] خمّر عبد الله بن أبيّ أنْفَهُ بردائه ، ثم قال : لا تغبِّروا علينا . فسلّم عليهم النبي ﷺ ثم وقف فنزل ، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن ،

---

(١) السَّبَخة : هي الأرض التي لا تنبت لملوحة أرضها .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الصلح ، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس ٥/٢٩٧ - ٢٦٩١ . ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير ، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين .

(٣) ما ارتفع من غبار حوافرها .

فقال عبد الله بن أبيّ : أيها المرء ! لا أحْسَن من هذا . إن كان ما تقول حقًّا ، فلا تُؤذِنا في مجالسنا . وارجع إلى أهلك ، فمنْ جاءك فاقْصُص عليه . فقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه : اغْشَنا في مجالسنا فإنّا نحبّ ذلك[1] .

ط - مجيئه ﷺ للدعوة إلى بيت كبير اليهود :

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : بينما نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « انطلقوا إلى يهود » . فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس[2]، فقام النبي ﷺ فناداهم : « يا معشر يهود ، أسلموا تسلمُوا ». فقالوا : بلّغت يا أبا القاسم . فقال : « ذلك أريد». ثم قالها الثانية. فقالوا: قد بلَّغتَ يا أبا القاسم. ثم قال الثالثة. فقال: « اعلموا أنّ الأرض لله ولرسوله ، وإني أريد أن أُجْلِيَكم ، فمن وجد بماله شيئًا فليَبِعْه ، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ولرسوله »[3].

ى - دعوته وعيادته للمرضى :

لم يكن اهتمامه عليه الصلاة والسلام منصبًّا على دعوة كبار الناس فحسب ، بل اعتنى عناية شديدة بدعوة عامَّة الناس .

فقد روى الإمام البخاري ، عن أنسٍ رضي الله عنه قال : كان غلامٌ يهوديّ يخدم النبي ﷺ فمرض ، فأتاه النبي ﷺ يعُوده ، فقعد عند رأسه ،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين .

(٢) المدراس : المراد به كبير اليهود . ونسب البيت إليه لأنه هو الذي كان صاحب دراسة كتبهم ، أي قراءتها . فتح الباري (١٢/٣١٨) .

(٣) صحيح البخاري - كتاب الإكراه ، باب في بيع المكره ونحوه في الحق وغيره . رقم الحديث (٦٩٤٤) ١٢/٣١٧ .

فقال له : « أسلم » . فنظر إلى أبيه ، وهو عنده ، فقال له : أطِعْ أبا القاسم ، ﷺ فأسلم ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول : « الحمد لله الذي أنقذه من النار »(١).

ك - دعوته لمُحِبِّيه :

ومن أمثلة حرصه على إنقاذ مَنْ أحبّه - عليه الصلاة والسلام - من النار : أنه دعا عمَّه أبا طالب إلى قول : « لا إله إلا الله » واستمرَّ في دعوته هذه ، حتى عند حضور وقت وفاة عمه .

روى البخاري عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه أنه أخبره : لما حضرت أبا طالبٍ الوفاةُ ، جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أُمية بن المغيرة . قال رسول الله ﷺ لأبي طالب : « يا عمّ ، قل : لا إله إلا الله . كلمة أشهدُ لك عند الله » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أميّة : يا أبا طالب ، أترغب عن ملّة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك ». فأنزل الله فيه : ﴿ **ما كان للنبي** ... ﴾(٢) الآية [التوبة : ١١٣] .

ل - دعوته ﷺ لمَنْ كانوا يُبغضونه :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما قاتل رسول الله ﷺ قومًا

---

(١) صحيح البخاري ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلّى عليه ؟ وهل يُعرض على الصبي الإسلام . ٣/٢١٩ - رقم الحديث (١٣٥٦) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب إذا قال المشرك عند الموت : لا إله إلا الله . ٣/٢٢٢ - (١٣٦٠) .

حتى يدعوهم[١] .

م - دعوته ﷺ لمن جاء يريد قَتْلَه :

عن جابر رضي الله عنه قال : كنّا مع النبي ﷺ بذات الرّقاع ، فإذا أتينا على شجرةٍ ظليلةٍ تركناها للنبي ﷺ ، فجاء رجلٌ من المشركين وسيف النبي ﷺ معلّق بالشجرة ، فاخْتَرَطَه ، فقال له : تخافني ؟ فقال له : « لا » . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : « الله »[٢] .

وفي رواية لأبي بكر الإسماعيلي في صحيحه : فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله ﷺ السيف ، فقال : « من يمنعك مني ؟ ». قال : كن خير آخذ . فقال : « أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ ». قال : لا ، ولكني أُعاهدك على أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قومٍ يُقاتلونك . فخلَّى سبيله ، فأتى أصحابه ، فقال : « جئتُكم من عند خير الناس »[٣] .

ن - إرساله ﷺ الرسائل إلى الملوك والأمراء :

عن أنسٍ رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي ، وإلى كل جبّارٍ ، يدعوهم إلى الإسلام ، وليس بالنجاشي الذي صلَّى عليه النبي ﷺ . رواه مسلم .

قال ابن حجر : « روى الطبراني من حديث المسور بن مخرمة - رضي الله عنه - قال : خرج رسول الله ﷺ إلى أصحابه فقال : « إن الله بعثني للناس كافَّةً ، فأدُّوا عني ولا تختلفوا عليَّ » . فبعث عبدَ الله بن حُذافة إلى كسرى ، وسليطَ بن عمرو إلى هوذة بن علّي باليمامة ، والعلاءَ الحضرميّ

(١) رواه أحمد في مسنده . وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح ٣/٣٣٥ .
(٢) رواه البخاري في صحيحه - كتاب المغازي ، باب غزوة ذات الرقاع .
(٣) مشكاة المصابيح - باب التوكل والصبر - الفصل الثالث .

إلى المنذر بن ساوَى بهَجَر ، وعمرو بن العاص إلى جَيْفَر وعباد ابني الجُلَنْدَى بعُمان ، ودِحْيَةَ إلى قيصر ، وشجاعَ بن وهب إلى أبي شَمَّر الغسّاني ، وعمرو بن أُمية إلى النجاشي . فرجعوا جميعًا قبل وفاة النبي ﷺ غير عمرو بن العاص »[١]. اهـ .

وقال ابن حجر أيضًا : « وزاد أصحاب السِّيَر : أنه بعث المهاجر بن أبي أُمية بن الحارث بن عبد كُلَال وجريرًا إلى ذي الكَلَاع ، والسّائبَ إلى مسيلمة ، وحاطبَ بن أبي بلتعة إلى المقوقس »[٢].

س - دعوته عند القبر :

عنونَ البخاريُّ بابًا في صحيحه وسمّاه « موعظة المحدّث عند القبر وقعود أصحابه عنده » .

عن عليٍّ رضي الله عنه قال : كنا في جنازةٍ في بقيع الغرقد ، فأتانا النبي ﷺ فقعد ، وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة ، فنكس ، فجعل ينكت بمخصرته ، ثم قال : « ما منكم من أحدٍ ، ما من نَفْسٍ منفوسةٍ إلّا كُتِب مكانُها من الجنة والنار ، وإلّا قد كُتبت شقيّةً أو سعيدة » . فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نتكِل على كتابنا ونَدَع العمل ، فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، وأمّا من كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ قال : « أمّا أهل السعادة فيُيَسَّرُون لعمل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسّرون لعمل الشقاوة » . ثم قرأ : ﴿ **فأمّا من أعطى واتّقى** ﴾[٣] الآية . [الليل : ٥].

---

(١) فتح الباري ٨/١٢٧ - ١٢٨ ، زاد المعاد ١/٣٠ - ٣١ .
(٢) فتح الباري ٨/١٢٨ .
(٣) فتح الباري ٣/٢٢٥ .

ع - قيامه ﷺ بالدعوة وهو في مرض الموت :

وحتى في مرض الموت ما فترت همّته عن الدعوة إلى الله عز وجل ، وهداية الناس وإرشادهم :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان على رسول الله ﷺ خميصة سوداء حين اشتدّ به وَجَعُه ، قالت : فهو يضعها مرة على وجهه ، ومرة يكشفها عنه ، ويقول : « قاتل الله قومًا اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يُحرِّم ذلك على أُمته[(١)].

ف - قيامه ﷺ بالدعوة وهو يُغرغِر بنفسه :

بقي ﷺ منارًا للدُّعاة ، حريصًا على هداية النَاس ، حتى وهو يغرغر بنفسه :

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال : كانت عامَّة وصيّة رسول الله ﷺ حين حضرتْه الوفاة ، وهو يغرغر بنفسه : « الصلاة وما ملكتْ أيمانُكم »[(٢)] .

واستمر يدعو ويوصي حتى لم يبق لسانه المطهر قادرًا على تبيينها :

فعن أم سلمة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفّي فيه : « الصلاة ، وما ملكت أيمانُكم » . فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانُه[(٣)] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، ورواه البخاري في صحيحه مختصرًا : كتاب الجنائز - باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ٣/٢٠٠ .

(٢) سنن ابن ماجة - أبواب الوصايا ، باب : وهل أوصى رسول الله ﷺ . قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/٩٥ : إسناده حسن ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة ٢١٨٣ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة في سننه ، وصحّحه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة رقم ١٣١٧ - ١/٢٧١ .

بأبي هو وأمي ﷺ ، ما أعلى همته في الدعوة إلى الله التي جرت في جسده مجرى الدم .. بل قام بها وهو ينتقل من الدار الفانية إلى الدار الباقية حيث الرفيق الأعلى . وعلى طريقه ﷺ في الدعوة وبذْل الجهد فيها ، سار صحابتُه الكرام وأُمته .

الصِّدِّيق رضي الله عنه أوّل خطيبٍ في الإسلام :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : لمَّا اجتمع أصحابُ النبي ﷺ ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلًا ، ألحّ أبو بكرٍ على رسول الله ﷺ في الظهور ، فقال : « يا أبا بكر ، إنا قليل » . فلم يزل أبو بكر يُلحّ حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرّق المسلمون في نواحي المسجد ، كل رجلٍ في عشيرته ؛ وقام أبو بكر في الناس خطيبًا ، ورسول الله ﷺ جالس ، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ ، وثار المشركون على أبي بكرٍ وعلى المسلمين ، فضربوا في نواحي المسجد ضربًا شديدًا ، وَوُطِىءَ أبو بكرٍ ، وضُرِب ضربًا شديدا ، ودنا منه الفاسق عُتبة بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ، ويُحرِّفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبي بكر ، وحملتْ بنو تيم أبا بكرٍ في ثوبٍ حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكُّون في موته ، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد ، وقالوا : والله لئن مات أبو بكر ، لنقتُلنَّ عتبة بن ربيعة ، فرجعوا إلى أبي بكر ، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلِّمون أبا بكرٍ حتى أجاب ، فتكلّم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فمسّوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأُمّه أُمّ الخير : انظري أن تُطعميه شيئًا أو تسقيه إياه ، فلمّا خلت به ألحّتْ عليه ، وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : والله ما لي عِلْمٌ بصاحبك . فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل ، فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟ فقالت : ما أعرف

أبا بكرٍ ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبّين أن أذهب معك إلى ابنك . قالت : نعم ، فمضتْ معها حتى وجدت أبا بكرٍ صريعًا دَنِفًا[(١)] ؛ فدنت أُمُّ جميل وأعلنتْ بالصِّياح وقالت : والله إن قومًا نالوا هذا منك لَأَهْلُ فسقٍ وكُفر ، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم . قال : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت : هذه أُمُّك تسمع . قال : فلا شيءِ عليكِ منها . قالت : سالمٌ صالحٌ . قال : أين هو ؟ قالت : في دار ابن الأَرقم . قال : فإن لله عليّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا ، أو آتي رسول الله ﷺ . فأمهلتا حتى إذا هدأتِ الرِّجْل وسكن الناسُ ، خرجتا به يتّكيء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ . قال : فأكبَّ عليه رسولُ الله فقبَّله ، وأكبّ عليه المسلمون ، ورقّ له رسول الله ﷺ رقّةً شديدة . فقال أبو بكر : بأبي وأُمي يا رسول الله ، ليس بي بأسٌ إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أُمّي بَرّةٌ بولدها ، وأنت مبارَكٌ فادْعها إلى الله وادْعُ الله لها ، عسى أن بستنقذها بك من النار . قال : فدعا لها رسول الله ﷺ ، ودعاها إلى الإسلام فأسلمتْ ، وأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهرًا ، وهم تسعة وثلاثون رجلًا[(٢)] .

يا دعاة الإسلام : هذا هو الصديق – رضي الله عنه – يدعو إلى الله ، فيُضرب بالنعال ، ما يصدُّه ذلك عن الدعوة .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرَّة حتى غُشي عليه ، فقام أبو بكرٍ رضي الله عنه فجعل يُنادي : ويلكم ﴿ **أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله** ﴾ فقالوا : من هذا ؟ فقالوا : أبو بكر

---

(١) الدَّنِف : هو المريض الذي لزمه المرض .

(٢) رواه الحافظ أبو الحسن الأطرابلسي . انظر حياة الصحابة للكاندهلوي ١/ ٢٥٩ - ٢٦١ .

المجنون[(١)] .

وزاد البزار : فتركوه وأقبلوا على أبي بكر .

الصِّدِّيق الذي سمّاه الله في السماء صدّيقا ، يُسمّيه المشركون المجنون ، وهو يدعو إلى الله !! ولكنّها الدعوة والصبر عليها وعلو الهمة فيها .

« قال ابن إسحاق : فلمّا أسلم أبو بكر - رضي الله عنه - وأظهر إسلامه ، دعا إلى الله عز وجل ، وكان أبو بكر رجلًا مألفًا لقومه محبًّا سهلًا ، وكان أَنْسَبَ قريشٍ لقريش ، وأَعْلَمَ قريشٍ بما كان فيها من خيرٍ وشرٍّ ، وكان رجلًا تاجرًا ذا خلقٍ ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحدٍ من الأمر ؛ لعِلْمه وتجارته وحُسن مُجالسته ، فجعل يدعو إلى الإسلام مَنْ وَثِق به من قومه ، ممّن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم على يديه - فيما بلغني - الزبير بن العوام ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنهم ، فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ ومعهم أبو بكرٍ ، فعرض عليهم الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن ، وأنبأهم بحق الإسلام ، فآمنوا . وكان هؤلاء النفر الذين سبقوا في الإسلام صدقوا رسول الله ﷺ وآمنوا بما جاء من عند الله »[(٢)] .

فلله درُّ الصديق الداعية الذي أسلم على يديه خمسة من العشرة المبشرين بالجنة .

روى البخاري عن عروة بن الزبير : سألتُ ابنَ العاص فقلتُ : أخبرني بأشدّ شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ ؟ قال : بينما النبي ﷺ يصلّي في حجر الكعبة إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه على

---

(١) رواه أبو يعلى وأخرجه أيضًا البزار ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح . وأخرجه الحاكم وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرّجاه .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣/٢٩ .

عنقه فخنقه خنقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي ﷺ وقال : ﴿ **أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾ الآية .

وهذا بلال بن رباح رضي الله عنه : يعذّبونه في الرمضاء ، وقد وضعوا الصخر على صدره ، وتركوه لأطفال مكة في طرقاتها ، فيجهر بنشيده القدسي : أحد أحد .

وفاروق الإسلام عمر بن الخطاب الذي كان أشدّ قسوة على المستضعفين ، وأبعدهم عن الإسلام ، حتى قال عنه عامر بن ربيعة قبل إسلامه : لا يُسلم حتى يسلم حمار الخطاب . يُسلم ويعزّ به الإسلام ، ويجهر بالدعوة إلى الله عز وجل .

روى البخاري ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما زلنا أعزَّةً منذ أسلم عمر بن الخطاب .

وقال ابن مسعود : إن إسلام عمر كان فتحًا ، وإن هجرته كانت نصرًا ، وإن إمارته كانت رحمةً ، ولقد كنّا وما نصلّي عند الكعبة ، حتى أسلم عمر ، فلما أسلم عمر ، قاتَلَ قريشًا ، حتى صلّى عند الكعبة وصلّيْنا معه .

عمر - رضي الله عنه - الذي اتّبع المجالس التي كان يجالس فيها بالكفر ، فلا يبقى مجلس منها إلا أظهر فيه الإيمان ودعا إلى الله عز وجل .

« عن ابن عمر قال : لما أسلم عمر قال : أيّ قريش أنْقَلُ للحديث ؟ فقيل له : جميل بن معمر الجُمحي ، فعدا عليه ، قال عبد الله : وغدوتُ أتبع أثره وأنظر ما يفعل - وأنا غلامٌ أعْقِل كلّ ما رأيت - حتى جاءه فقال له : أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد ﷺ . قال : فوالله ما راجعه حتى قام يجرّ رداءه ، واتّبعه عمر ، واتّبعتُه أنا حتى قام على باب

المسجد ، صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريشٍ - وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ . قال : يقول عمر مِنْ خلفه : كذب ، ولكني قد أسلمتُ ، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . وثاروا إليه ، فما برح يُقاتلهم ويقاتلـونه ، حتى قامت الشمس على رؤوسهم . قال : وطلح(١) فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحْلِف بالله أن لو قد كُنّا ثلاثمائة رجلٍ ، لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا . قال : فبينما هم على ذلك ، إذ أقبل شيخ من قريش ، عليه حُلّة حبرة وقميصٌ موشى ، حتى وقف عليهم ، فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : صبأ عمر ، قال : فمه ؟! رجلٌ اختار لنفسه أمرًا ، فماذا تريدون ؟! أترون بني عدي يُسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خَلُّوا عن الرجل . قال : فوالله لكأنّما كانوا ثوبًا كشط عنه . قال : فقلت لأبي ، بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبَهْ ، من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ قال : ذاك - أي بُنَيَّ - العاص بن وائل السهمي »(٢).

ابن مسعود - رضي الله عنه - أول من جهر بالقرآن بعد النبي ﷺ :

عن عروة بن الزبير قال : أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود فللّه درّه(٣).

علو همة علي - رضي الله عنه - في الدعوة إلى الله عز وجل :

عن البراء أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد - رضي الله عنه - إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام . قال البراء : فكنت فيمن خرج مع خالد

(١) أى أعْيَا كما في النهاية .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٧٩/٣ . وقال ابن كثير : إسناده جيد قوي .

(٣) أخرجه ابن حجر في الإصابة ، ورجاله ثقات ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٤٦٦/١ ، وابن هشام ٣١٤/١ مطولًا .

ابن الوليد ، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام ، فلم يجيبوه ، ثم إن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وأمره أن يُقفِل خالدًا ، إلَّا رجلاً كان ممن مع خالدٍ ، فأحبّ أن يعقب مع عليٍّ ، فليعقب معه . قال البراء : فكنت فيمن عقب مع عليّ ، فلما دنونا من القوم ، خرجوا إلينا ، ثم تقدم فصلّى بنا عليٌّ ، ثم صفّنا صفًّا واحدًا ثم تقدم بين أيدينا ، وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعًا ، فكتب عليّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم . فلمّا قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرّ ساجدًا ثم رفع رأسه فقال : « السلام على همدان ! السلام على همدان ! »[(١)].

دعوة عبد الرحمن بن عوف إلى الله عز وجل :

أخرج الدارقطني عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : دعا النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقال : « تجهَّزْ فإني باعثك في سرية » . فذكر الحديث ، وفيه : فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه ، فسار حتى قدم دومة الجندل ، فلمّا دخلها دعاهم إلى الإسلام ثلاثة أيامٍ ، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي - رضي الله عنه - وكان نصرانيًّا وكان رأسهم . فكتب عبد الرحمن مع رجلٍ من جُهينة - يقال له رافع بن مكيث - إلى النبي ﷺ يخبره ، فكتب إليه النبي ﷺ ، أنْ تزوّج ابنة الأصبغ ، فتزوّجها ، وهي تماضر التي ولدت له بعد ذلك أبا سلمة ابن عبد الرحمن[(٢)].

مصعب بن عمير بن هاشم ، السيد الشهيد السّابق البدري القرشي العبدري :

قال البراء بن عازب : « أوَّل من قدم علينا مصعب بن عمير ، وابن

(١) أخرجه البيهقي ، ورواه البخاري مختصرًا . كذا في البداية ١٠٥/٥ .
(٢) الإصابة في تراجم الصحابة ١٠٨/١ .

أُمّ مكتوم ، وكانوا يُقرئون الناس » . رواه البخاري ... سبحان الله ! ما منع العمى ابن أُمّ مكتوم عن الدعوة إلى الله والخروج من مكة إلى المدينة لتعليم الناس .

بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار إلى المدينة ؛ ليعلمهم كتاب الله ، فنزل بني غنم ، على أسعد بن زرارة يحدِّثهم ويقصّ عليهم القرآن ، فلم يزل مصعب عند سعد بن معاذ ، يدعو ويهدي الله على يديه ، حتى قلّ دارٌ من دور الأنصار إلّا أسلم فيها ناسٌ لا محالة ، وأسلم أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجموح ، وكسرت أصنامُهم ، ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله ﷺ ، وكان يُدعى المقرىء .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبيد الله بن المغيرة بن معيقيب وعبد الله ابن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب ابن عمير يُريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر ، وكان سعدُ بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر ، على بئرٍ يُقال له : بئر مرق ، فجلسا في الحائط ، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل ، وكلاهما مشركٌ على دين قومه ، فلمّا سمعا به قال سعدٌ لأُسيد : لا أبا لك ، انطلق إلى هذين الرجُلين ، اللذين قد أتيا دارينا ليُسفِّها ضُعفاءنا فازجرهما ، وانههما أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت ، كفيتك ذلك ، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدمًا . قال : فأخذ أسيد بن حضير حربته ، ثم أقبل إليهما ، فلمّا رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب : هذا سيّد قومه وقد جاءك ، فاصدق الله فيه . قال مصعب : إنْ يجلس أُكلّمه . قال : فوقف عليهما مُتشتِّمًا[1]، فقال : ما جاء بكما

(١) أي متلفِّظًا بقبيح الكلام .

إلينا تُسفِّهان ضعفاءنا عنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة . وقال موسى بن عقبة : فقال له : علام أتيتنا في دارنا بهذا الرعيد الغريب الطريد ؟ ليتسفه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم إليه . قال ابن إسحاق : فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرًا قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره ؟ قال : أنصفت . قال : ثم ركّز حربته وجلس إليهما ، فكلّمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يُذكر عنهما : والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله . ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي . فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائي رجلًا إن اتبعكما ، لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن : سعد بن معاذ . ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه ، وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد مقبلًا ، قال : أحلف بالله ، لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسًا ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك . قال : فقام سعد بن معاذ مغضبًا مبادرًا مخوفًا ؛ للذي ذكر له من بني حارثة ، وأخذ الحربة في يده ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئًا . ثم خرج إليهما سعدٌ ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما ، فوقف متشتما ، ثم قال لأسعد بن زرارة : والله يا أبا أُمامة ، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ، ما رمت[1] هذا مني ، أتغشانا في

---

(١) ما بلغت هذا مني .

دارنا بما نكرهُ ؟ قال : وقد قال أسعد لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك اثنان . قال : فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمرًا رغبت فيه ، قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟ قال سعد : أنصفت . ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول الزخرف . قال : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ؛ في إشراقه وتسهله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟ قالا : تغتسل ، فتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين . قال : فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه ، وشهد شهادة الحق ، ثم ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته ، فأقبل عائدًا إلى نادي قومه ومعه أسيد ابن الحضير ، فلمّا رآه قومه مقبلًا قالوا : نحلف بالله ، لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم . فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيّدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة[1]. قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله ورسوله.قال : فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلمًا أو مسلمةً ، ورجع سعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقاما عنده يدعوان الناس إلى الإسلام ، حتى لم تبق دور من دور الأنصار إلا وفيها رجالٌ ونساء مسلمون ، إلّا ما كان من دار بني أُمية بن زيد ، وخطمة ، ووائل ، وواقف ، وتلك الأوس بن حارثة ؛ وذلك أنهم كان فيهم أبو قيس بن الأسلت ، واسمه صيفي ، وقال الزبير بن بكار : اسمه الحارث ، وكان شاعرًا لهم ، قائدًا يستمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام حتى كان بعد الخندق »[2].

---

(١) أي قيادة .

(٢) البداية والنهاية ٣/١٤٩ - ١٥١ .

فلله درّ مصعب بن عمير الداعية الذي على يديه أسلم الجبلان : سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير ، ولله در سعد بن معاذ ، فقد كان إسلامه فتحًا على الأوس والأنصار ، الداعية الذي أسلم بإسلامه قومه الرجال والنساء . فليحسن الداعية خلقه مع أهله ، وليجعل بينه وبينهم وصلا ، فوالله ما دخل بنو عبد الأشهل الإسلام بدايةً إلّا حبًّا لسعد ميمون النقيبة حسن السيرة فيهم .

عروة بن مسعود سيد ثقيف ، ودعوته لقومه :

عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : لما أنشأ الناس الحج سنة تسعٍ ، قدم عروة بن مسعود – رضي الله عنه – على رسول الله ﷺ مسلمًا ، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يرجع إلى قومه ، فقال رسول الله ﷺ : « إني أخاف أن يقتلوك » . قال : لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني . فأذن له رسول الله ﷺ ، فرجع إلى قومه مسلمًا ، فرجع عشاءً فجاء ثقيف يحيونه ، فدعاهم إلى الإسلام فاتهموه وأغضبوه وأسمعوه فقتلوه . فقال رسول الله ﷺ : « مثل عروة مثل صاحب ياسين ، دعا قومه إلى الله تعالى فقتلوه »(١) .

لما قدم عروة الطائف عشاءً فدخل منزله ، فأتته ثقيف تسلّم عليه بتحية الجاهلية ، فأنكرها عليهم وقال : عليكم بتحية أهل الجنة : السلام . فآذوه ونالوا منه ، فحلم عنهم ، وخرجوا من عنده ، فجعلوا يأتمرون به ، وطلع الفجر فأوفى على غُرْفةٍ له ، فأذَّن بالصلاة ، فخرجت إليه ثقيف من كل ناحيةٍ ، ورماه رجلٌ من بني مالكٍ يقال له : أوس بن عوف ، فأصاب أكحله و لم يرق دمه ، فقام غيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل ، والحكم بن عمرو ،

---

(١) رواه الطبراني ، وروى عن الزهري نحوه ، وكلاهما مرسل وإسنادهما حسن ، وأخرجه الحاكم (٣/ ص٦٦٠) بمعناه وصححه .

ووجوه الأحلاف فلبسوا السلاح وحشدوا ، وقالوا : نموت عن آخرنا أو نثأر به عشرة من رؤساء بني مالك ، فلمّا رأى عروة بن مسعود ما يصنعون قال : لا تقتلوا فيَّ ، قد تصدقت بدمي على صاحبه لأُصلح بذلك بينكم ، فهي كرامةٌ أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله إليَّ ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ ، لقد أخبرني أنكم تقتلوني .

دعوة ضمام بن ثعلبة في بني سعد بن بكر :

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : بعث بنو سعد بن بكر ضمام ابن ثعلبة إلى رسول الله ﷺ ، فقدم علينا ، فأناخ بعيره على باب المسجد ، فعقله ثم دخل على رسول الله ﷺ وهو في المسجد جالس مع أصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنا ابن عبد المطلب » . قال : محمد ؟ قال : « نعم » . قال : يا محمد إني سائلك ومغلظٌ عليك في المسألة ، فلا تجدن عليَّ في نفسك ، فإني لا أجد في نفسي . قال : « سل عما بدا لك » . قال : أنشدك الله إلهك وإله من قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك إلينا رسولا ؟ قال : « اللهم نعم » . قال : فأنشدك الله إلهك وإله من قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نعبده ولا نشرك به شيئًا ، وأن نخلع هذه الأوثان والأنداد التي كان آباؤنا يعبدون ؟ فقال : « اللهم نعم » . ثم جعل يذكر فرائض الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضةٍ كما أنشده في التي كان قبلها ، حتى إذا فرغ قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك عبد الله ورسوله ، وسأُؤدي هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ، لا أزيد ولا أنقص . ثم انصرف راجعًا إلى بعيره ، فقال رسول الله ﷺ حين ولى : إن يصدق ذو العقيصتين[1]، يدخل الجنة » .

---

(١) العقيصة : الشعر المعقوص وهو نحو من المضفور ، وأصل العقص : اللَّي وإدخال أطراف الشعر في أصوله .

وكان ضمام رجلًا جلد أشعر ذا غديرتين ، ثم أتى بعيره ، فأطلق عقاله حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به وهو يسب اللات والعزى ، فقالوا : مه يا ضمام ، اتق البرص والجذام والجنون . قال : ويلكم ، إنهما والله ما يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولًا ، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإني قد جئتُكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه . فوالله ما أمسى ذلك اليوم من حاضرته رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلمًا . قال ابن عباس : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة[(١)].

دعوة عُمير بن وهب الجمحي ، رضي الله عنه :

كان عمير بن وهب الجمحي شيطانًا من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويلقون منه عناءً .

جلس عمير بن وهب مع صفوان بن أُمية في الحجر بعد مصاب أهل بدرٍ بيسيرٍ - وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر - فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله ما إن في العيش بعدهم خير . قال له عمير : صدقت ، أما والله لولا دين عليَّ ، ليس عندي قضاؤه ، وعيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدي ، لركبت إلى محمدٍ حتى أقتله ، فإن لي فيهم علة ، ابني أسير في أيديهم . قال : فاعتنمها صفوان بن أمية ، فقال : عليَّ دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا ، لا يسعني شيءٌ ويعجز عنهم . فقال له عمير : فاكتم عليَّ شأني وشأنك . قال : سأفعل . قال : ثم أمر عمير بسيفه ، فشُحِذ ....

---

(١) صحيح : أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٥٤ - ٥٥) وقال : قد اتفق الشيخان على إخراج ورود ضمام المدينة ، ولم يسُق واحد منهما الحديث بطوله وهذا صحيح . ووافقه الذهبي .

وسُمّ[١]، ثم انطلق حتى قدم المدينة فبينما عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم في عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف ، فقال : هذا الكلب ! عدو الله عمير بن وهب ، ما جاء إلّا لشرٍّ ، وهو الذي حرَّش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر ، ثم دخل على رسول الله ﷺ فقال : يا نبي الله ، هذا عدوُّ الله عمير بن وهب ، قد جاء متوشِّحًا سيفه . قال : فأدخله عليَّ . قال : فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها ، وقال لمن كان معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون . ثم دخل به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخِذٌ بحمّالة سيفه في عنقه ، قال : « أرْسِلْه يا عمر ، ادن يا عمير » . فدنا ثم قال : أنعم صباحًا - كانت تحية أهل الجاهلية بينهم - فقال رسول الله ﷺ : « قد أكرمنا الله بتحيَّةٍ خيرٍ من تحيتك يا عمير ! بالسلام تحية أهل الجنة » . قال : أما والله يا محمد ، إن كنت بها لحديث عهدٍ . قال : « فما جاء بك يا عمير ؟ » . قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم ، فأحسنوا فيه . قال : « فما بال السيف في عنقك ؟ »‌. قال : قبحها الله من سيوفٍ ، وهل أغنت شيئًا ؟! قال : « اصدُقني ، ما الذي جئت له ؟ » قال : ما جئت إلَّا لذلك . قال : « بل قعدت أنت وصفوان ابن أمية في الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين عليَّ وعيال عندي ، لخرجت حتى أقتل محمدًا ، فتحمل لك صفوان ابن أمية بدينك وعيالك ، على أن تقتلني له ، والله حائلٌ بينك وبين ذلك » . فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت

---

(١) أي جعل فيه سُمٌّ .

تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان ؛ فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق . ثم شهد شهادة الحق ، فقال رسول الله ﷺ : « فقهوا أخاكم في دينه ، وعلموه القرآن ، وأطلقوا أسيره » . ففعلوا . ثم قال : يا رسول الله ﷺ ، إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله ، وأنا أُحبّ أن تأذن لي ، فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ، لعلَّ الله يهديهم ، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أُؤذي أصحابك في دينهم . فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة . وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول : أبشروا بوقعةٍ تأتيكم الآن في أيامٍ تنسيكم وقعة بدرٍ ، وكان صفوان يسأل عنه الرُّكْبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه فحلف أن لا يكلمه أبدًا ، ولا ينفعه بنفعٍ أبدا[(١)].

فلمّا قدم عمير رضي الله عنه مكة ، أقام بها يدعو إلى الإسلام ويؤذي من خالفه أذى شديدًا ، فأسلم على يديه أناس كثير[(٢)].

رضي اللَّهُ عنك يا عمير ... كم بدّل الإسلام من الرجال .. كان شيطانًا من شياطين قريش فأسلم ، ففرح المسلمون حين هداه الله ، وقال عمر بن الخطاب : رضي الله عنه : « لخنزيرٌ كان أحب إليَّ منه حين اطلع ، وهو اليوم أحبُّ إليَّ من بعض بنيّ » . ثم يصبح داعية يسلم على يديه أناسٌ كثير .

عدي بن حاتم الطائي ، رضي الله عنه :

« لما ارتد بنو طيىء وانضموا إلى جيش المتنبيء طليحة بن خويلد

---

(١) البداية والنهاية ٣١٣/٣ . وهكذا أخرجه ابن جرير عن عروة بطوله .

(٢) الزيادة من كنز العمال ٨١/٧ . وهكذا أخرجه الطبراني عن محمد بن جعفر ابن الزبير . وقال الهيثمي ٢٨٦/٨ : إسناده جيد .

الأسدي ، دعاهم عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه إلى الإسلام بأمرٍ من الصديق رضي الله عنه ، وذلك قبل بدء القتال معهم ، فعادوا بفضل الله مع عدي - رضي الله عنه - إلى خالد رضي الله عنه مسلمين ، وكانوا خمسمائة مقاتل .

كما دعا عدي بن حاتم - رضي الله عنه - بني جديلة ، الذين كانوا قد انضمّوا أيضًا إلى المتنبيء طليحة الأسدي ، فاستجابوا لعديٍّ رضي الله عنه ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب »[١].

الله أكبر .. لله دَرُّ الصحابي الجليل عدي بن حاتم الطائيِّ ، يهدي الله على يديه ألفًا وخمسمائة رجل ، بارك الله في سعيهم ودعوته ؛ لصدقهم وإخلاصهم وتنفيذهم وصية نبيهم ﷺ ببدء الدعوة قبل القتال ، كما قال ﷺ : « ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم » .

أمين الأُمَّة أبو عُبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه :

قام أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بدعوة الرُّوميين إلى الإسلام قبل بدء القتال معهم ، فقد ذهب بنفسه ، ومعه يزيد بن أبي سفيان وضرار ابن الأزور والحارث بن هشام وأبو جندل بن سهيل - رضي الله عنهم - إلى القائد الرومي أخي الملك « تذراق » ودعوه إلى الله عز وجل ، وكان ذلك قبل معركة اليرموك[٢] .

كما دعا أبو عبيدة - رضي الله عنه - الرسول الرومي الذي وفد إليه من قِبَل ماهان - وزير ملك الروم - طالبًا منه إرسال خالد بن الوليد - رضي الله عنه - إلى ماهان كي يتفاهم معه ، وشرح الله صدره للإسلام ،

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٥٣ - ٢٥٤ ، والكامل في التاريخ ٢/٢٣٤ .
(٢) البداية والنهاية ٧/٩ - ١٠ .

فاستجاب لدعوة أبي عبيدة - رضي الله عنه - وصاح : « اشهدوا عليّ بأجمعكم ؛ أني من المسلمين » . ففرح المسلمون بإسلامه وصافحوه ، ودعوا له بخيرٍ ، وقالوا له : « ما أعزَّك علينا ، وأرغبنا فيك ، وأكرمك علينا ! وما أنت عند كل امرئٍ منا إلا بمنزلة أخيه لأمه وأبيه » . قال الرومي : « فإنكم نعم ما رأيت »[1]. وكان هذا قبل معركة فحل .

عمرو بن العاص رضي الله عنه فاتح مصر :

قال ابن كثير في البداية والنهاية ٩٧/٧ - ٩٨ عن توجيه الدعوة لدخول الإسلام إلى أهل مصر : فلمّا تصافوا (المسلمون وأهل مصر) قال عمرو بن العاص رضي الله عنه : لا تعجلوا حتى نُعذِر ، ليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام راهبا هذه البلاد . فبرزا إليه فقال لهما عمرو بن العاص : أنتما راهبَا هذه البلاد ، فاسمعا : إن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق وأمره به ، وأمرنا به محمد ﷺ وأدّى إلينا كل الذي أُمر به ، ثم مضى وتركنا على الواضحة . وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس ، فنحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا إليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة .

وهذا ما بلغه عمرو بن العاص - رضي الله عنه - رسل المقوقس حاكم الإسكندرية أيضًا عند حصاره حصن بابليون ، وبعث به عمرو عبادة بن الصامت مع طائفةٍ من أصحابه إلى المقوقس .

ولما انتهى القتال وقع الأسرى من المصريين في يد فاتح مصر عمرو ، فأبدى المقوقس صاحب الإسكندرية استعداده لأداء الجزية للمسلمين ، على أن يُرَدّ إليه سبايا أرضه . وافق عمرو بن العاص على هذا العرض بعد استئذان أمير المؤمنين الفاروق رضي الله عنه ، على أن يخير الأسرى الموجودون بمصر

---

(١) فتوح الشام للأزدي صـ١٩٨ ، وكتاب الفتوح لابن أعثم ٢٣٨/١ .

بين الإسلام ودين قومهم ، فمن اختار الإسلام فهو من المسلمين ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية .

يقول زياد بن جزء الزبيدي ، الذي كان في جند عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: « فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا ، ثم نخيره بين الإسلام والنصرانية ، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين تفتح القرية ، ثم نحوزه إلينا . وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حاذوه إليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذلك جزعًا شديدًا ، حتى كأنه رجلٌ خرج منا إليهم »[1] .

الله أكبر ، ما أعلى همتهم في الدعوة إلى الله عز وجل ، وما أعظم فرحهم بإسلام الأسرى ، وما أشد تأسفهم على إعراضهم عنه ! كان فرحهم وتأسفهم : على دخول الناس في دين الله ، ولم يكن لحصولهم على الجزية أو حرمانهم منها .

فها هو **خالد بن الوليد** رضي الله عنه يعرض على أصحاب عدي أن يختاروا إحدى ثلاث : « الدخول في الإسلام أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة » فاختاروا أداء الجزية ، ولم يفرح بذلك خالد رضي الله عنه ، رغم أن مبلغ الجزية كان كبيرًا باعتبار ذلك الوقت ، حيث كان مائة وتسعين ألفًا ، بل ضاق صدره بذلك وبدا تأسفه على إعراضهم عن الإسلام من قوله لهم : « تبًّا لكم ، ويحكم ! إن الكفر فلاة مضلة ، فأحمق العرب من سلكها »[2].

وفي عصورنا المتأخرة تحدث توماس . و . أرنولد عن حرص الأتراك

(١) تاريخ الطبري ١٠٥/٤ - ١٠٦ ، والكامل في التاريخ ٣٩٧/٢ .
(٢) تاريخ الطبري ٣٦١/٣ - ٣٦٢ ، والبداية والنهاية ٣٨٦/٦ .

على إدخال الناس في الإسلام ، وفرحهم بمن دخل فيه فقال : « قد رأى الأتراك أن أعظم خيرٍ يستطيعون تقديمه لأي فردٍ هو أن يهدوه إلى الإسلام » ثم قال : « ومما يدل على الحب الروحي المتوقد ، الذي جعل هؤلاء القوم في مثل هذه المنزلة من الغيرة على نشر الدين ، تلك الأفراح الشعبية التي كانوا يحيون فيها من دخلوا طوعًا من المسلمين الجدد في الإسلام ، فكان المسلم الجديد يمتطي حصانًا ويُطاف به في طرقات المدينة ، وهم في نشوة النصر ، فإذا توسموا فيه خلوص النية في تغيير دينه ، وعرفوا أنه دخل بمحض إرادته في حظيرة الإسلام ، أو كان شخصًا ذا مكانةٍ طيبة ، استقبلوه بتكريم عظيم ، وأمدوه بما يعينه ، ولا شك أن هناك دليلًا قويًا ، يؤيد قول من قال : إن في نفوس الأتراك غيرة لا يكاد يصدقها العقل ، حين يبتهلون إلى الله أن يحول الناس إلى الإسلام »(١).

علو همة المتطوعين في نشر الإسلام :

لقد سجل التاريخ أخبارًا حقيقية لنشر العقيدة الإسلامية ، تتضمّن سجلًا بأسماء رجال ونساء من جميع طبقات المجتمع ؛ من الملك إلى الفلّاح ، فلقد كان بدء دخول الإسلام في الهند وجزائر لكديف ومالديف والصين وبلاد أرخبيل الملايو ، وفي إفريقية ، على أيدي التُّجّار المسلمين .

يقول غوستاف لوبون : « والمسلم حيث يمرُّ يترك خلفه دينه ، وقد بلغ أشياع النبي ﷺ ملايين كثيرة في البلاد التي دخلها العرب بقصد التجارة ، لا فاتحين ؛ كبعض أجزاء الصين وإفريقية الوسطى ، وروسية ، وتم اعتناق هذه الملايين الإسلام طوعًا لا كرهًا ، ولم يُسمع أن الضرورة قضت بإرسال جيوشٍ مع هؤلاء المبشرين لمساعدتهم ، ويتسع نطاق الإسلام

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص١٨٤ - ١٨٥ .

بعد أن يقيمه هؤلاء في أي مكان »(١).

بل وتحمس العبيد المسلمون لإدخال النّاس في الإسلام .

ينقل توماس . و . أرنولد قصة عبدٍ مسلم ، في محاولته للدعوة إلى الله فيقول : « إن داوتي قابل رجلًا كان قد انتزع من بلده في طفولته ، وبيع بيع الرقيق في جدة ، فسأله داوتي : « ألا زال يضمر السخط نحو هؤلاء الذين سرقوه ، وأسلموا حياته للعبودية في أقاصي الأرض ؟ » فأجابه الرجل بقوله : « إن شيئًا واحدًا قد عوضني ، وهو أني لم أعد غارقًا في الجهل بين عبدة الأوثان . ما أعجب عناية الرحمن تلك التي جئت بفضلها إلى بلاد الرسول ﷺ هذه ، وتوصلت بها معرفة الدين ! آه ! ما أشد حلاوة الإيمان ! صدقني أيها الرفيق العزيز ، إنه أمر يعجز كل قلب عن الإفصاح عنه . كم أتمنى أن يهديك الله إلى تلك المعرفة السماوية ، ولكني موقنٌ أن الله سيرعاك ، حتى لا تهلك قبل أن تدخل هذا الدين . حقًّا ما أجمل أن أراك مسلمًا ، وأن تصير واحدًا منا ! ولكني أعرف أن الأجل بيد الله يفعل ما يشاء »(٢).

الله أكبر : انظر إلى محاولة داوتي إثارة الحقد في قلب هذا المسلم ضد أهله ، وسعي المسلم إلى إدخاله في الإسلام نفسه .

دخول التتار في الإسلام على يد الشيخ جمال الدين وابنه رشيد الدين من بخارى :

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله : « لمّا فتح التتار العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري ، وأثخنوه جراحًا وقتلًا ، ولم يتركوا فيه إلا روحًا ضعيفةً ونفسًا خافتًا ، وفُلَّ سيف الجهاد والمقاومة ، فأصبح لا

(١) حضارة العرب ٧٣٤ - ٧٣٥ .
(٢) الدعوة إلى الإسلام ص٣٨٥ .

يؤثر ولا يعمل ، وأغمده المسلمون يأسًا وقنوطًا ، وآمن الناس بأن التتار لا يمكن إخضاعهم ، وأن العالم الإسلامي قد كتب عليه أن يعيش تحت حكم هؤلاء الهمج ، وأن الإسلام لا مستقبل له ، قام هؤلاء الدعاة المخلصون ، الذين لا يزال تاريخ الدعوة والإصلاح - على إحصائه واستقصائه - يجهل أسماء كثيرٍ منهم ، يتسربون في هؤلاء الغلاظ الشداد ، يفتحون قلوبهم للإسلام ، حتى تفتحت له وأحبته ، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجا .

وهكذا أخضعوا للإسلام من أخضع العالم الإسلامي بالأمس من شرقه إلى غربه ، وأدخلوا أمةً قهرت الأُمم كلها - في عصرها - في دينٍ لا يحميه سيف ، ولا يدافع عنه جيش . أسلم التتار أُمَّةً وجنسًا ، وكونوا دولًا كثيرة ، كان لكثير منها مآثر إسلامية يتجمل بها تاريخ الإسلام ، وكان انتصار الإسلام على الديانتين المنافستين حادثة غريبة ، لا تتعلَّل إلّا بمشيئة الله تعالى وتأييده ، وتفوق دعاة الإسلام - في الإخلاص والرُّوحانية - على دعاة البُوذِيّة والنّصرانيّة »[1].

يقول أرنولد : « لقد كان منافسة هذه الديانات العظمى في إخضاع القوة القاهرة لعقيدتها صراعًا عجيبًا ينظر إليه التاريخ ، وينظر إليه العالم بدهشة واستغراب ، كل يحاول أن يخضع هؤلاء الوحوش القساة ، الذين داسوا هذه الديانات وحطموها . لم يكن أحد يتوقع أن الإسلام سينتصر في هذه المعركة ، ويهزم البوذية والنصرانية ، ويستأثر بالتتار ، فقد كانت عاصفة هجومهم وغاراتهم أشد على المسلمين منهم على غيرهم ، وكانت خسارتهم في ذلك أعظم من خسارة أيّة أمةٍ ودولةٍ وديانةٍ . وقتل التتار علماء

---

(١) ربانية لارهبانية . لأبي الحسن الندوي ص٣١ .

المسلمين وفقهاءهم ، وأسروهم واستعبدوهم ، وقد كان ملوك التتار وأمراؤهم يعطفون على كل ديانةٍ سوى الإسلام .

ولكن رغم هذه المصاعب ، دان المغول والأمم الوحشية التي جاءت بعدهم ، بديانة أمةٍ داستها بأقدامها، واعتنقت الإسلام .

ولا شك أن الفضل في ذلك - كما صرح به « أرنولْد » وغيره من المؤرخين الإسلاميين - يرجع إلى هؤلاء الدعاة المخلصين وربانيتهم ، وحرصهم على إرشاد هؤلاء الظالمين الذين سفكوا دماء المسلمين .

وقد نقل « أرنولد » قصة طريفة تدل على أسلوب دعوتهم ، ورقة موعظتهم ، وتجردهم من الأنانية والكبرياء ، وكم لها من أمثال فاتت التاريخ ، وأفلتت من أعين المراقبين وأقلام المسجلين .

أسلم سلطان (كاشغر) الذي كان يسمى « تغلق تيمورخان » (١٣٤٧م - ١٣٦٣م) على يد الشيخ « جمال الدين » الذي جاء من بخارى ، وكان من خبره ، أنه كان مع رفقةٍ له في رحلته ، فمروا بأرض السلطان التي كان قد حماها للصيد ، وهم لا يشعرون ، وأمر بهم الملك ، فأوثقوا ، وعرضوا عليه ، وقال - وقد استشاط غضبًا -: كيف دخلتم في حماي من غير إذنٍ ؟ قال الشيخ : نحن غرباء ، ولم نشعر بأننا نمشي على أرضٍ ممنوعة . ولمَّا علم الملك أنهم إيرانيون ، قال في احتقارٍ وسخرية : حتى الكلب أفضل من الإيرانيين . قال الشيخ : صدق الملك ، لولا أن الله أكرمنا بالدين الحق لكنا أذل من الكلاب . وتحير الملك ، ومضى للصيد تشغل فكره ، وأمر بعرضهم عليه بعد الصيد ، ولما رجع خلا بالشيخ وقال : فسِّر لي ما قلت ، وأخبرني ما تعني بالدين الحق ؟ وفسّر الشيخ الإسلام في حماسةٍ وقوّةٍ ، تفسيرًا رق له قلب السلطان ، وصوّر الكفر تصويرًا بشعًا هائلًا ، فزع منه السلطان ، وأيقن أنه على ضلالٍ وخطر .

ولكن السلطان رأى أنه لو أعلن الإسلام لَمَا استطاع أن يدخل قومه في الإسلام ، ورجا الشيخ أن ينتظر ، حتى إذا سمع أنه ولي الملك ، وجلس على أريكة الحُكم ، زاره ، وكانت المملكة « الجغتائية » قد توزعت في إماراتٍ متعددة ، واستطاع « تغلق تيمور » أن يجمعها ، ويكون منها مملكة صغيرة ، ورجع الشيخ « جمال الدين » إلى بلاده ، ومرض مرضًا شديدًا ، ولما حضرته الوفاة ، دعا ولده « رشيد الدين » وقال له : إنَّ « تغلق تيمور » سيكون في يومٍ من الأيام ملكًا عظيمًا ، فإذا سمعت بذلك تزوره ، وتقرئه مني السلام ، وتذكره بما وعدني به « من اعتناق الإسلام » وكان كذلك ، فقد بويع « تغلق تيمور » بالملك ، وجلس مكان أبيه ، ودخل الشيخ « رشيد الدين في المعسكر لينفذ وصية أبيه ، ولكنه لم يخلص إلى الملك ، فاحتال ، وبدأ يومًا يؤذِّن بصوتٍ عالٍ عند خيمة السلطان في الصباح الباكر ، فطار نوم السلطان وغضب ، وطلب الشيخ « رشيد الدين » وحضر الشيخ ، وبلغ السلطان تحية والده ، وكان السلطان على ذكر منه ، فنطق بالشهادتين وأسلم ، ثم نشر الإسلام في رعيته ، وأصبح الإسلام ديانة الأقطار التي كانت تحت سيطرة أولاد جغتاي بن جنكيزخان »[(١)].

علو الهمة في تأسيس المساجد لنشر الدعوة :

يقول الكاتب والعالم الأثري الفرنسي : « ما دخلت مسجدًا قط دون أن تهزني عاطفة حادة ؛ أو بعبارةٍ أُخرى : دون أن يصيبني أسفٌ محقق على أنني لم أكن مسلمًا »[(٢)].

---

(١) ربانية لا رهبانية . ص٣١ - ٣٥ ، كتاب « الدعوة إلى الإسلام » لأرنولد ص٢٥٦ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد ص٤٥٩ .

يقول أرنولد : « في الصلوات اليومية ، يتجلّى هذا الدين في طريقة تزكية خاشعة مؤثرة ، لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين »[(١)].

وذكر أرنولد أن مشهد صلاة في الجمعة في مسجدٍ ، كان عاملًا حاسمًا في تحول سعيد بن الحسن – أحد يهود الإسكندرية – إلى الإسلام ، وذلك في سنة ١٢٣٨م[(٢)] .

لمّا سيّر الصِّديق يزيد بن أبي سفيان وجيشه إلى الشام ، بشرهم بفتح الله تعالى إياها : « حتى تبنوا فيها المساجد ، فلا يعلم أنكم إنما تأتونها تلهيًا »[(٣)]. فأسس المسلمون المساجد بدمشق وحمص وحلب واللّاذقيَّة ، عند أول افتتاحهم البلاد الشاميَّة .

وفي العراق لما اختطّ المسلمون مدينة البصرة ، كان أوّل بناءٍ فيها المسجد .

وعندما أسّس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط ، أقاموا أول ما أقاموا المسجد . الذي كان دائمًا آية استقرارهم في الأرض ، وتمثيلًا لحركتهم في طابعها الديني وظواهرها الاجتماعية[(٤)]، وكذا لما فتحوا الإسكندرية كان المسجد أول بناءٍ فيها .

وبنى عقبة بن نافع مسجدًا أول ما بنى مدينة القيروان ، ثم أُقيمت المدينة ومعالمها وطرقها ومرافقها حول المسجد[(٥)].

(١، ٢) الدعوة إلى الإسلام ص٤٥٨ .
(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١/٤٥٥ .
(٤) انظر فتوح مصر لابن عبد الحكم ص٩١ – ٩٢ والخطط للمقريزي ١/٢٨٦ .
(٥) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لأبي زيد الأنصاري ١/١٠ .

وشيّد حسان بن النعمان الغسّاني مسجدًا جامعًا بمدينة تونس ، عند إنشائه هذه المدينة .

وبنى بالقيروان تاجر الله إسماعيل بن عبيد الأنصاريُّ المسجد الكبير سنة ٩١هـ .

وفي الأندلس كان أول شيءٍ أقامه موسى بن نصير لدى عبوره : « مسجد الرايات » في الجزيرة الخضراء .

وفي الهند وعلى شواطئها الغربية ، بنى مالك بن دينارٍ مسجدًا بمدينة كدنغلور عاصمة مليبار القديمة . كما بنى ابن أخيه مالك بن حبيب عشرة مساجد في أنحاء كيرالا .

وفي السند اختطَّ محمد بن قاسم الثقفي - بعد فتحه مدينة ديبل عام ٩١هـ - مدينةً وبنى فيها مسجدًا .

يقول توماس . و . أرنولد عن تحمس المسلمين لنشر الإسلام على الساحل الغربي من إفريقية : « وإذا ما اجتمع في مدينةٍ ستةُ رجالٍ منهم ، وأقل من ذلك أو أكثر ، وعزموا على أن يقيموا فيها فترةً من الزمن ، سارعوا إلى بناء مسجد ، وأخذوا ينشرون الدعوة »[(١)] .

بعث المعلمين والقراء للدعوة في البلاد المفتوحة :

لما فتحت البلاد ، كان أهم أعمال الولاة تعليم الناس الإسلام ، كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « إنما بعثتُ عمالًا ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، ويقيموا بينكم دينكم »[(٢)] . وإلى جانب هذا ، كان المعلمون يبعثون إلى البلاد المفتوحة لتعليم الناس القرآن الكريم ، وتفقيههم أمور الدين .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص٣٧٦ .

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية ص٢٣ .

لما كتب يزيد بن أبي سفيان إلى الفاروق رضي الله عنهما : « إن أهل الشام كثير ، وقد احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم » . أرسل إليهم الفاروق - رضي الله عنه - معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء رضي الله عنهم .

وبعث - رضي الله عنه - عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، معلمًا ووزيرًا إلى أهل الكوفة ، قال ابن حجر في الفتح (١٦٢/٣) : « وكان قرظة ابن كعب الأنصاري أحد من وجهه عمر رضي الله عنه إلى الكوفه ليفقه الناس » .

قال قرظة بن كعب : « بعث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رهطًا من الأنصار إلى الكوفة فبعثني معهم »[١] .

وترك عقبة بن نافع في المغرب الأقصى بعض أصحابه يعلمون أهله القرآن والإسلام[٢] .

وأرسل حسان بن النعمان - أمير المغرب - الفقهاء إلى سائر أنحاء بلاد البربر ؛ لتعليم البربر قواعد الدين ، ونشر العربية لغة القرآن[٣] .

وترك موسى بن نصير مع البربر سبعة عشر رجلًا ، يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام[٤] .

وأرسل عمر بن عبد العزيز نافعًا مولى ابن عمر - رضي الله عنه - إلى أهل مصر يعلمهم السنن[٥] .

---

(١) سنن الدارمي ، باب من خاف الفتيا مخافة السقط ٧٣/١ .
(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب ٣٧/١ .
(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، للدكتور : السيد عبد العزيز سالم .
(٤) البيان المغرب في أخبار المغرب ٣٧/١ .
(٥) سير أعلام النبلاء ٤٩٦/٤ .

كما أرسل - رحمه الله - عشرةً من التابعين ؛ ليفقهوا أهل إفريقية ويعلموهم أمر دينهم .

علو همة المسلمين في الدعوة إلى الله في أشدّ الأحوال وأصعبها :

ما كان يشغل الدعاة إلى الله عن الدعوة - التي امتزجت بدمائهم واختلطت بوجيب قلوبهم - شاغِلٌ مهما عظم ، ولله صبرهم في نشر دعوتهم وإسلامهم ، وحياتهم من أجل دعوتهم ونشرها .

يقول الشاعر :

لإسلامي أعيش أنا ... لتوحيدي وذا دِيني
نقشتُ حروفه تعلو ... على كلِّ العناوينِ
بخطٍّ بارزٍ يسمو ... على كلّ الميادينِ
لإسلامي ولو حَتَّى ... إلى الجدران شدُّوني
لإسلامي ولو حتى ... إلى النّيران زفّوني
لإسلامي لإسلامي ... ولو في السُّوق باعوني
وإسلامي له عرقي ... له نبضي وتكويني
وثارات لإسلامي ... تُعايشني تغذِّيني
تبثُّ النّور في رُوحي ... وتنبضُ في شراييني
أنا ما رَمْلةٌ إلَّا ... وتعرفني وتدعوني
أنا بالدَّم قد رَوَّيـ ... ـتُ زيتوني وليموني
أنا من أعْيُن الشهدا ... ء أستوحي براكيني
من القرآن ينشدني ... فيُطربني ويُشجيني
أمَامًا يا دروب الخلـ ... ـد شدّيه وشديني
أماما يا مخاض النّا ... ر يا دَرْب القرابينِ
صلاح الدين في أعما ... ق أعماقي يناديني
وراياتي التي طُويتْ ... على ربوات حطّينِ

وأطفالي هناك هنا ... ك في عُمْر الرَّياحينِ
وآلافٌ من الأسرى ... وآلاف المساجينِ
تنادي الأُمة الكبرى ... وتهتف بالملايين
وصوتُ مؤذِّن الأقصى ... يهيب بنا أغيثوني
أنا ماذا أكون أنا ... بلا رَبِّي بلا ديني
أنا ماذا أكون أنا ... أجيبوني أجيبوني

تحمُّس الصديق للدعوة رغم فَقْده لحبيبه ﷺ :

لقد كان موت رسول الله ﷺ أعظم مصيبةٍ حلت بالمسلمين ، ورغم هذا ، ورغم حُبّ أبي بكرٍ الشديد لرسول الله ﷺ ، الذي لا يُعادله حبّ أحدٍ من البشر ، فقد تحمس الصِّدِّيق لنشر الدعوة ، وخطب الصديق بعد موت الحبيب ﷺ فقال :

« إن الله عمر محمدًا وأبقاه حتى أقام دين الله ، وأظهر أمر الله ، وبلغ رسالة الله ، وجاهد في سبيل الله ، ثم توفاه الله على ذلك ، وقد ترككم على الطريقة ، فلن يهلك هالكٌ إلَّا من بعد البيِّنة والشفاء ، فمن كان الله ربه فإن الله حيٌّ لا يموت ، ومن كان يعبد محمدًا ﷺ وينزله إلهًا فقد هلك إلهه . فاتقوا الله أيها الناس ، واعتصموا بدينكم ، وتوكلوا على ربكم ، فإن دين الله قائم ، وإن كلمة الله تامة ، وإن الله ناصر مَنْ نصره ومعزّ دينه ، وإن كتاب الله بين أظهرنا ، وهو النور والشفاء ، وبه هدى الله محمدًا ﷺ ، وفيه حلالُ الله وحرامه . والله لا نُبالي من أجْلَبَ علينا من خلْق الله ، إن سيوف الله لَمَسلولة ما وضعناها بعدُ ، ولنجاهدنّ من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ فلا يبغينّ أحدٌ إلّا على نفسه »[1] .

---

(١) البداية والنهاية ٦/٢٤٣ .

لله درّ الصّدّيق ، الذي قال فيه رسول الله ﷺ وفي عمر : « هذان من الدين السَّمْع والبَصَر »(١) .

ونادى منادي الصديق من بعد الغد من مُتَوَفَّى رسول الله ﷺ : « ليتم بعث أسامة . ألا لا يبقين بالمدينة أحدٌ من جند أُسامة إلَّا خرج إلى عسكره بالجرف »(٢) .

إصرار الصديق على قتال مانعي الزكاة رغم الأحوال العصيبة :

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : « لما قُبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة ، واشرأبّ(٣) النفاق بالمدينة . والله قد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ، وصار أصحاب محمد ﷺ كأنهم معزى في حش في ليلةٍ مطيرةٍ بأرضٍ مسبعة » .

وهنا يظهر معدن الرجال ، وتسمو همة الصديق إلى أعلى ما تسمو إليه الهمم ، ويتجلى عزمه الراسخ على قتال مانعي الزكاة ، ويقول قولته التي تكتب بأحرفٍ من نور وترقم في الوجود أبد الدهر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالًا كانوا يُؤدونه إلى رسول الله ، لقاتلتهم على منعه » . قال له عمر : « يا خليفة رسول الله ، تألف الناس وارفق بهم » . فقال : « أجبار في الجاهلية وخوارٌ في الإسلام ؟ إنه قد انقطع الوحي وتم الدين ، أينقص وأنا حيٌّ ؟! » .

ورضي الله عن الفاروق إذ يقول : « لو أطاعنا أبو بكرٍ لكفرنا » .

---

(١) صحيح . رواه الحاكم في المستدرك ٣/٦٩ وصحّحه وحسّنه الذهبي ، وصحّحه الألباني في الصحيحة رقم (٨١٤) ٢/٤٧٢ - ٤٧٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/٢٢٣ .

(٣) علا وارتفع .

وشهدت الطباق السبع والأرضون السبع ، أن أبا بكرٍ وفيٌّ لدين الله ، وقام مقامًا لا يقومه أحدٌ غيره في الدعوة إلى الله والذَّبِّ عن دين .

نَدْب الفاروق المسلمين لقتال أهل فارس بعد وفاة الصديق رضي الله عنهما :

وبالرغم من ألم وفاة وفراق الصِّدِّيق ، فقد كان « أول ما عمل به عمر رضي الله عنه أن نَدَبَ الناس مع المثنّى بن حارثة الشيباني – رضي الله عنه – إلى أهل فارس ، قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات فيها أبو بكر رضي الله عنه ، ثم أصبح فتبايع الناس ، فعاد فندب الناس إلى فارس »[(١)] .

تحمُّسُ المسلمين للدعوة في زمن زوال خلافتهم :

ورغم المعارضة الشديدة والصعاب الكثيرة ، علتْ هِمَمُ المسلمين في الدعوة في بلاد أرخبيل الملايو ، رغم معارضة الاستعمار الأسباني ، وفي بلاد الهند لم يستطع الاستعمار البريطاني إخماد تحمُّس المسلمين في شبه القارة الهندية للدعوة لدينهم .

يقول الدكتور غوستاف لوبون : « ثقلت قرون على أعفار العرب ، ودخلت حضارتهم في ذمَّة التاريخ منذ زمنٍ طويلٍ ، ولا نقول مع ذلك : إنهم ماتوا تمامًا ، ونرى الآن ديانتهم ولغتهم اللتين أدخلوهما على العالم ، أكثر انتشارًا مما كانتا عليه في أنضر أدوارهم ، فالعربية هي اللغة العامة من مراكش إلى الهند ، ولا يزال الإسلام جادًّا في تقدمه »[(٢)] .

ويرد توماس . و . أرنولد على من قال : « إن النشاط الدعوي للإسلام مرتبط مع سلطانه السياسي وجودًا وعدمًا » . فيقول :

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٤٤ ، والبداية والنهاية ٧/٢٦ .
(٢) حضارة العرب ص٧٣٤ .

« ولم يكن النشاط الروحي للإسلام ، كما زعم عدد كبير جدًّا من الناس ، متمشيًا مع سلطانه السياسي ، بل على العكس من ذلك ، نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادي ، يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية ، التي تعد أصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة ، وقد تعلم الإسلام منافع الشدائد ، ولما كان بعيدًا كل البعد عن الانحدار إلى الرخاء المادي ؛ لكونه نذير انحلالِ هذا الدين ، كان من المهم أن تلك البلاد الإسلامية الخالصة ، التي عاشت أطول وقتٍ في ظل الحكم المسيحي ، تتجلّى كأشد ما تكون نشاطًا في القيام بنشر تعاليم الدعوة . ويظهر مسلمو الهند والملايو من الحماسة والغيرة في نشر الدين ، ما لا نجده في تركيا أو في مراكش »[1].

دعوة إلى الله في السجون :

يقول توماس . و . أرنولد : « حتى الأسير المسلم يغتنم الفرص في المناسبات لدعوة آسريه أو إخوانه في الأسر إلى دينه »[2] .

ثم قال : « وقد تسرب الإسلام إلى أوروبا الشرقية أول الأمر بفضل الله ، ثم ما قام به فقيه مسلم ، سِيق أسيرًا ، وجيء به إلى بلاد بتشنج في مستهل القرن الحادي عشر ، وقد بسط بين يدي كثير منهم تعاليم الإسلام فاعتقدوه في إخلاصٍ ، حتى إنه أخذ في انتشار بين هذا الشعب ، ولم تأت نهاية القرن الحادي عشر حتى كان الشعب بأسره قد اعتنقوا الإسلام ، وكان من بينهم مسلمون تعلموا الفقه والتوحيد .

وفي عهد الإمبراطور جهانجير (١٦٠٥ - ١٦٢٨) كان هناك عالمٌ سني من علماء التوحيد ، يدعى الشيخ أحمد مجدد ، وقد تميز بقدرته على

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص٤٦٩ .
(٢) الدعوة إلى الإسلام ص٤٥٣ .

مجادلة الشيعة في عقائدهم بنوعٍ خاص . ولما كان هؤلاء مقربين إلى البلاط في ذلك الحين ، نجحوا في إيداعه السجن بتهمةٍ تافهة . وفي خلال السنتين اللتين قضاهما في الحبس ، أدخل في الإسلام عدة مئاتٍ من عبدة الأوثان ، الذين كانوا يرافقونه في هذا السجن نفسه .

ومنها أن الحكومة البريطانية قضت بنفي أحد مولوية[١] الهند إلى جزائر أندمان نفيًا مؤبّدًا ؛ لأنه كان قد قام بنصيبٍ فعال في مؤامرةٍ دبرها الوهابيون سنة ١٨٦٤م ، وهناك أدخل هذا المولوي في الإسلام - قبل وفاته - كثيرًا من المحكوم عليهم »[٢] .

علو همة المسلمات في الدعوة إلى الله :

ما كان نشر الإسلام والدعوة إليه قاصرًا على الرجال وحدهم ، فكما قال رسول الله ﷺ : « النساء شقائق الرجال »[٣] فقد أدت المرأة المسلمة أوفر نصيبٍ في الدعوة إلى الله . ومن الشواهد على ذلك :

اهتمام أم شريك رضي الله عنها بالدعوة :

فقد قامت أم شريك - رضي الله عنها - بالدعوة سرًّا في أوساط النساء بمكة المكرمة ، رغم معارضة قريش الشديدة لذلك . ويتجلّى هذا فيما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بقوله : « وقع في قلب أُمّ شريك - رضي الله عنها - الإسلام ، فأسلمت وهي بمكة ، وكانت تحت أبي العسكر الدوسي ، ثم جعلت تدخل على نساء قريشٍ سرًّا ، فتدعوهن وترغبهن في الإسلام ، حتى ظهر أمرها لأهل مكة ، فأخذوها وقالوا : لولا قومك لفعلنا

(١) مولوي : لقب يلقب به العلماء في شبة القارة الهندية .
(٢) الدعوة إلى الإسلام ص٤٥٣ .
(٣) صحيح .

بك وفعلنا ، لكنا سنردك إليهم »[(١)].

حرص أم سليم على إسلام ابنها ومن تقدم لخطبتها :

حرصت أم سليم - رضي الله عنها - على تلقين ابنها أنسٍ - رضي الله عنه - شهادة الإسلام رغم معارضة زوجها ، ودعت أبا طلحة إلى الإسلام حينما تقدم إليها . ولم ترتضِ منه مهرًا لها سوى الإسلام .

روى الإمام ابن سعد ، عن إسحاق بن عبد الله ، عن جدته أم سليم رضي الله عنها ، أنها آمنت برسول الله ﷺ ، قالت : فجاء أبو أنس وكان غائبًا ، فقال : أصبوت ؟ قالت : ما صبوت ولكني آمنت بهذا الرجل . قالت : فجعلت تلقن أنسًا ، تشير إليه ، قل : « لا إله إلا الله » ، قل : « أشهد أن محمدًا رسول الله » . قال : ففعل . قال : فيقول لها أبوه : « لا تفسدي علي ابني » . فتقول : « إني لا أُفسده » . قال : فخرج مالك أبو أنس فلقيه عدو فقتله . فلما بلغها قتله ، قالت : « لا جرم ، لا أفطم أنسًا حتى يدع الثدي حيا ، ولا أتزوج حتى يأمرني أنس ، فيقول : « قد قضت الذي عليها » . فترك الثدي ، فخطبها أبو طلحة وهو مشركٌ ، فأبت . فقالت له يومًا ، فيما تقول : « أرأيت حجرًا تعبده لا يضرك ولا ينفعك ، أو خشبة تأتي بها النجار فينجرها لك ، هل يضرك ، هل ينفعك ؟ »[(٢)].

وفي رواية أنها قالت : « إنه لا ينبغي لي أن أتزوج مشركًا . أما تعلم يا أبا طلحة ، أن آلهتكم التي تعبدون ينحتها عبد آل فلانٍ النجار ، وأنكم لو أشعلتم فيها نارًا لاحترقت ؟ » . قال : فانصرف عنها وقد وقع في قلبه من ذلك موقعًا . قال : وجعل لا يجيئها يومًا إلا قالت له ذلك[(٣)].

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ٥٣/٢ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤٢٥/٨ - ٤٢٦ .
(٣) الطبقات الكبرى ٤٢٧/٨ .

وفي رواية عند النسائي : قالت : « والله ما مثلك يا أبا طلحة يُردّ ، ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة ، ولا يحل لي أن أتزوجك . فإن تسلم فذاك مهري ، وما أسألك غيره .

وفي رواية عند ابن سعد : قالت : فهل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وأزوجك نفسي ، لا أريد منك صداقًا غيره ؟ » .

قال ثابت - البناني -: فما سمعت بامرأةٍ قط كانت أكرم مهرًا من أُمِّ سليم رضي الله عنها : الإسلام ، فدخل بها فولدت له[(١)].

قال ﷺ : « دخلت الجنة ، فسمعت خشفةً بين يدي ، فقلت : ما هذه الخشفة ؟ فقيل : الغميصاء بنت ملحان »[(٢)] .

لله درك أُمّ سليم ... تلقنين ابنك الشهادة وهو يرضع ... ويدخل الإسلام على يديك رجلٌ قال عنه رسولنا ﷺ : « لصوت أبي طلحة في الجيش خيرٌ من ألف رجل »[(٣)] . وهو الذي سرد الصوم بعد النبي ﷺ أربعين عامًا .

أم حكيم بنت الحارث وحرصها على إسلام زوجها عكرمة :

لما أسلمت أُمُّ حكيم بنت الحارث زوجة عكرمة يوم الفتح ، وفرَّ زوجها إلى اليمن ، وكان النبي ﷺ قد أهدر دمه ولو كان معلقًا بأستار الكعبة ، حرصت أم حكيم - رضي الله عنها - على إسلام زوجها ، فبذلت لذلك جهودًا عظيمة . وكان عكرمة قد غادر مكة نحو الغرب في اتجاه جدة ، يريد اليمن عن طريق البحر ، خوفًا من القتل ، فاستأمنت أُمُّ حكيم النبي ﷺ .

---

(١) سنن النسائي - كتاب النكاح - التزويج على الإسلام ، وسير أعلام النبلاء ٢/٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أنس .

(٣) صحيح : أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٠٨١) .

لزوجها ، وخرجت في طلبه ، وكانت قد اصطحبت معها غلامًا لها مملوكًا إلى جدة ، فاستغل الوضع المضطرب التي هي عليه ، فراودها عن نفسها أثناء الطريق ، فجعلت تمنيه « وكانت امرأةً عفيفة فاضلة عاقلة ، حتى قدمت على حي من العرب هم بنو علكٍّ ، فطلبت منهم اعتقال الغلام ، بعد أن أخبرتهم خبر صنيعه القبيح ، فأوثقوه كتافًا ، وأبقوه لديهم حسب طلبها ، ثم واصلت سفرها حتى وصلت ميناء جدة »[١] .

وكان عكرمة قد ركب السفينة ، وعندما ركبها قال له ربانها – وكان مسلمًا –: أخلص فقال : أي شيءٍ أقول : قال : قل : لا إله إلا الله . قال عكرمة متعجِّبًا : ما هربت إلا من هذا . وبينا هو يحاور ربان السفينة ، إذ بامرأته العفيفة الوفية تناديه في إلحاحٍ : يا ابن عمّ جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس ، لا تهلك نفسك فوقف لها ، واستوضحها : ما الخبر ؟ فقالت : إني استأمنت لك محمدًا رسول الله ﷺ . قال : أنت فعلت ذلك ؟ قالت : نعم .

وفي رواية أُخرى : فأدركته وقد ركب سفينة فنادته : « يا ابن عم ، هذا أمانٌ معي من رسول الله ﷺ ، فإن تسلم وتقبل أمان رسول الله ﷺ فأنا زوجتك ، وإلا انقطعت العصمة فيما بيني وبينك »[٢] .

وعاد معها ، وفي الطريق « جعل عكرمة يطلب امرأته ، يجامعها ، فتأبى عليه وتقول : إنك كافر وأنا مسلمة »[٣]. فجعل يقول لها : إن أمرًا منعك مني لَأَمرٌ كبير . وفي أثناء العودة سألها عن غلامها الرومي ... فأخبرته خبر محاولته الدنيئة ، فلما وصل حيث الغلام مكتوفًا ، قتله في

---

(١) فتح مكة لمحمد أحمد بشاميل ص٢٢٧ .

(٢) ، (٣) تاريخ ابن عساكر ١١/٧٥٤ – ٧٥٦ .

الحال ، وذلك قبل أن يسلم . فلما دنا عكرمة من مكة ، بشر النبي ﷺ أصحابه بإسلام عكرمة ، فقال : « يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا » .

وذكر المؤرخون أن الرسول الله ﷺ لما أقبل عليه عكرمة وثب إليه ، وما على النبي ﷺ رداء ، فرحًا بعكرمة . ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف بين يديه ، وزوجته متنقبة ، فقال : يا محمد ، إن هذه أخبرتني أنك أمنتني . فقال رسول الله ﷺ : « صدقتْ ، فأنت آمن ». فقال عكرمة : فإلامَ تدعو ؟ قال : « أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة » . فقال عكرمة : والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسنٍ جميلٍ ، قد كنت والله فينا - قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه - وأنت أصدقنا حديثًا وأبرنا برًّا . ثم قال عكرمة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله . فسر بذلك رسول الله ﷺ وقال : « لا تسألني اليوم شيئًا أُعطيه أَحدًا إلّا أعطيتكه » . فقال عكرمة : فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوةٍ عاديتكها ، أو مسير وضعت فيه ، أو مقام لقيتك فيه ، أو كلام قلته في وجهك ، أو أنت غائبٌ عنه . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها ، وكل مسير سار فيه إلى موضعٍ ، يريد المسير إطفاء نورك ، فاغفر له ما نال مني من عرض ، في وجهي أو أنا غائب عنه ». فقال عكرمة : رضيت يا رسول الله . ثم قال عكرمة : أما والله يا رسول الله ، لا أدع نفقة كنت أنفقها في صدٍّ عن سبيل الله ، إلَّا أنفقت ضعفها في سبيل الله ، ولا قتال في صدٍّ عن سبيل الله ، إلّا أبليت ضعفه في سبيل الله »[1].

وكان إسلام الصنديد عكرمة حسنةً من حسناتٍ ، يسوقها الله ،

---

(١) فتح مكة لبشاميل ص٢٢٨ - ٢٢٩ نقلًا عن مغازي الواقدي ٢/٨٥٣ ، وزاد المعاد ٢/٢٩٨ .

بفضله ومنّه على يد أم حكيم ، رضي الله عنها .

نعم ، هذه هي المرأة المسلمة : في وضاءتها وعفتها ووفائها ودعوتها لدينها .

قال توماس . و . أرنولد : « يرجع الفضل في إسلام كثيرٍ من أمراء المغول إلى تأثير زوجةٍ مسلمة ، ولا يبعد أن يكون مثل هذا التأثير سببًا في إسلام كثيرٍ من الأتراك الوثنيين ، عندما كانوا قد أغاروا على الأقطار الإسلامية » .

وقال توماس : « ويقال إن نساء قزان التتريات بوجهٍ خاص ، ذوات غيرةٍ باعتبارهن داعياتٍ إلى الإسلام ، ولا تمنع المتمسكة بدينها من أن تحتل مكانها إلى جانب الولي من الرجال في زمرة الداعين إلى العقيدة »[(١)].

فيا ربات الخدور ... يا من سرتن على ركب القانتات العابدات الداعيات .. لا بد من الدعوة إلى الله عز وجل ... لا بد أن تخالط الدعوة إلى الله عز وجل دماءكن ، وأنفاسكن ، لا بد أن تؤثرن الدعوة إلى الله على كل شيء . فأهل الباطل ديدنهم : ﴿ **أن امشوا واصبروا على آلهتكم** ﴾ فما أحراكن بالصبر على الدعوة إلى الله .

فهذه « جولدا مائير » رئيسة وزراء إسرائيل من ١٩٦٩ - ١٩٧٣ إحدى النساء اللواتي ساهمن مساهمةً قوية في قيام دولة إسرائيل ، قال عنها « ابن غوريون » أول رئيس للوزراء - عندما عادت من أمريكا محملة بخمسين مليون دولار بعد حملة تبرعات واسعة -: « سيقال عند كتابة التاريخ : إن امرأة يهودية أحضرت المال ، وهي التي صنعت الدولة »[(٢)]. بل

(١) الدعوة إلى الإسلام ص٤٥١ - ٤٥٢ .
(٢) مذكرات جولدا مائير ص١٧١ .

قال عنها ثانية : « إنها الرجل الوحيد في الدولة ! »[(١)(٢)] .

هذه اليهودية الكافرة تقول : « لقد كانت مسألة العمل في حركة العمل الصهيوني ، تجبرني للإخلاص لها ، ونسيان همومي كلها ، وأعتقد أن هذا الوضع لم يتغير طيلة مجرى حياتي في الستة عقود التالية » .

وتقول في مذكراتها ص٢٨٣ : « لم يقدم لنا الاستقلال على طبقٍ من فضة ، بل حصلنا عليه بعد سنين من النزاع والمعارك ، ويجب أن ندرك بأنفسنا ومن أخطائنا ، الثمن الغالي للتصميم والعزيمة » .

وتقول ص٧١ : « لقد كان علينا الاعتماد على أنفسنا ، ومجابهة أي طارىءٍ بروح بطولية مسئولة » .

هذه المرأة الرجل ... فأين دعاة القومية العربية ... الدعاة إلى التراب لا الدين ... أين أصحاب النعرات الناصرية .

« من الخليج الثائر ... إلى المحيط الهادر ... لبيك عبد الناصر » .

تروح بنا مصائبُنا وتغدو ... فما يُرْعَى لنا في الناس عهدُ
ويخطُب باقِلٌ في كلّ نادٍ ... فيا « سُحْبانُ » قولُك لا يُعَدُّ
تُعيرهمُ الصحافةُ مُقلتيها ... فهم في عُرفها الرُّكْن الأشدُّ
لهم عَبْرَ الإذاعة ألفُ صوتٍ ... وفي التِّلفاز أذرعةٌ تُمَدُّ
على وطنيّة التفكير قاموا ... وتحت غطائها قبضوا ومدُّوا
أقول لهم ثقافتُكم هباءٌ ... وليس لغَيمكم برْقٌ ورعدُ
لنا وطنيّةٌ ليست نشازًا ... فما تجفو الكتابَ ولا تنِدُّ

(١) مذكرات جولدا مائير ص٩٧ .
(٢) نكون أو لا نكون .. نظرات في مذكرات المرأة الصهيونية الرجل . لأحمد عبد الرحمن الصويان . ص١٠٧ - مقال في مجلة البيان العدد ٨٨ = المنتدى الإسلامي لندن .

لنا البيتُ الحرامُ لنا حراءٌ ... نعم ، ولنا زمازمُنا[١] ونجْدُ
لنا أرض الجزيرة قام فيها ... من الإسلام دون البغي سدُّ
لنا الأقصى لنا شامٌ ومِصْر ... لنا يمنٌ وبغدادٌ وسِنْدُ
لنا في المغرب العربيّ أهلٌ ... وأحبابٌ ، وفي كابولَ جُندُ
لنا الإسلام يجمع شمل قومي ... وإن وَرِمتْ أنوفُ مَنِ استبدُّوا
ولا وطنيةً لدُعاة فكْرٍ ... دخيلٍ ، مِنْ سوانا يُستَمَدُّ
إذا صارت روابطُنا ترابًا ... عليه حبالُ أُمَّتنا تُشَدُّ
فلا تعجب إذا اضطربت خُطانا ... وساوَمَنا على الأمجاد وغدُ
عروسٌ جُلِّلتْ بثيابِ حُزنٍ ... وطاف بها على الشّارِينَ عبد
مراكبها تُسَيَّرُ في بحارٍ ... ولا هدفٌ على الشّطان يبدو
إذا لم يحكم الإسلامُ قومي ... فمَهْدُك أيها المولود لَحْدُ

لا بدّ من الدعوة إلى الله عز وجل على كل المستويات :

دعوة للمنحرفين والغافلين إلى التمسُّك بالإسلام .

ودعوة للمتمسكين به لبعث هممهم ، وتعريفهم لطريق العمل وفقه الدعوة ، وقيامها على عقيدة السلف ، والتربية الإيمانية بفقة الكتاب والسنة وكثرة الذِّكر ، وقيام الليل وصيام النهار ، والمحافظة على الصلوات ... وتبصيرهم بواقع المسلمين الحاضر المؤلم ؛ ليُؤثروا العمل مع ميامين نفروا لمُقارعة الجاهلية والرجوع بالأمة إلى إسلامها بزيادة بذلٍ ، وترقيق قلب القلب بتراجم وأقوال الأئمة من السلف ؛ من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، وزُهّاد الأُمّة وعُبّادها وأصحاب السلوك فيها ، فكم من بركةٍ كامنة في كلامهم ، وهم العلماء بالله ، وكما قال يحيى بن معاذ : «أحسن شيءٍ: كلامٌ رقيق، يُستخرج من بحرٍ عميقٍ، على لسانِ رجُلٍ رفيق»[٢] .

---

(١) زمازم : اسم من أسماء زمزم .
(٢) تاريخ بغداد ١٤/٢٠٩ .

لا بد من الدعوة إلى الله وعلو الهمة فيها ؛ لانتشال الأمة من تيهها الذي تهيم فيه ، فالسواد الأعظم قد انحرف عن غير ما قصد كيد ، ولا إرادة سوءٍ ، وهم أهلٌ لأن يشاركوا الدعاة إلى إرجاع الأمة إلى التمسك بدينها ، إذا انجلى لهم جانب الانخداع الذي هم فيه ، فالفتنة قد فني عليها الكبير ، وكبر عليها الصغير .

لا بد من الدعوة إلى الله لاستنقاذ الظِّباء الجفولة ، والعصاة الذين تخلفوا عن منازل الفضل .

لا بد من الدعوة لمن ألهته الشهوة والغفلة عن الفرائض ، وسدر في العصيان .

لا بد من خطاب المقت والتذكير الغاضب لصاحب الكبائر الظالم الماجن .

كل ذلك في آنٍ واحد ... ولا تعجب فالدعوة هي الدعوة .

لا بد من تذكير المسلمين بأصلهم الضارب في التاريخ ، وحقيقة دورهم في الماضي والحاضر والمستقبل ، وأنه دورٌ ماضٍ في هذه الأرض إلى آخر الزمان ، كما قال ربعيّ بن عامر : « إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ظلم الكهان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة » .

نحن وُرّاثٌ هُداةٌ للبشرْ   نحن عند الحقِّ سرٌّ مدَّخرْ
لا تزال الشمس تُبدي نورنَا   غَيْمُنا فيه بُرُوقٌ وسَنَا
ذاتُنا المرآةُ للحقِّ ، اعْلَمِ   آيةُ الحقِّ وجودُ المسلمِ[1]

إن وجود المسلم ووجود الدعوة إلى الله حتمية من حتميات التاريخ الماضي والحاضر ، وإنها لحتمية ماضية إلى يوم القيامة .

---

(١) ديوان الأسرار والرموز لإقبال ص٦٧ .

لا بد من الدعوة إلى الله ، وإلّا فسدت الأرض وأسنت الحياة ، وتعفنت ، وذاقت البشرية الويلات من بعدها عن منهج الله .

إن المسلم أعز من أن يعتقد أن لضيق الأرض بإمكانه النطق بالصواب ، وإنما الصواب عنده ما نزل من السماء ، ودعا إليه رسول الله ﷺ : « أصدق كلمةٍ قالها الشاعر : كلمة لبيدٍ : ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل »[(١)] .

حينما يعيش الإنسان لدعوة الله ، يومها فقط سيذوق ، معنى السعادة .

إنّ السعــادة أن تعيــ ـــش لفكرة الحقِّ التليدْ
لعقيــدةٍ كبــرى تحـــل قضية الكــون العتيــدْ
وتُجيب عمّا يسأل الـ ـحيرانُ في وعيٍ رشيدْ
من أين جئتُ ؟ وأين أذ هَبُ لم خُلقتُ ؟ وهل أعودْ
فتُشيع في النفس اليقيـ ـن وتطرد الشكَّ العنيـدْ
وتُعلِّم الفكرَ السّويَّ وتصنع الخُلُق الحميـدْ
وتــردّ للنَّهـج المُسَـدَّ دِ كلّ ذي عقلٍ شرودْ
تُعطي حياتـك قيمـةً ربّ الحيـاة بهـا يشيـدْ
ليظلّ طَرْفُـك رانيـاً في الأُفُق للهدف البعيدْ
فتعيش في الدنيا لأُخـ ـرى لا تزولُ ولا تَبيدْ
وتمـدّ أرضـك بالسمـا ءِ وبالملائكـة الشُّهُـودْ
هــذي العقيـدة للسعيـ ـدِ هَي الأساسُ هَي العمودْ
من عاش يحملها ويهـ ـتفُ باسمها فهو السعيد[(٢)]

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجة عن أبي هريرة .

(٢) ليوسف القرضاوي ، عن مجلة التربية الإسلامية - السنة السادسة ص٢٧٨ .

يقول الشيخ القدوة السلفي عبد القادر الجيلاني ، مبينا فرحه عند العمل للدعوة وهداية الناس : « سبحان من ألقى في قلبي نُصح الخلق وجعله أكبر همي » . ويقول : «إذا رأيتُ وجه مريدٍ صادق قد أفلح على يدي ، شبعت وارتويت واكتسيت ، وفرحتَ ؛ كيف خرج مثله من تحت يدي ! »(١) .

وقال رحمه الله : « المتزهد المبتدىءُ في زهده : يهرب من الخلق ، والزاهد الكامل في زهده : لا يبالي بهم ، لا يهرب منهم ، بل يطلبهم ؛ لأنه يصير عارفًا لله عز وجل ، ومن عرف الله لا يهرب من شيءٍ ، ولا يخاف من شيءٍ سواه . المتبدىء يهرب من الفساق والعصاة ، والمنتهي يطلبهم . كيف لا يطلبهم وكل دوائهم عنده ؟!

ولهذا قال بعضهم : لا يضحك في وجه الفاسق إلا العارف . من كملت معرفته لله عز وجل ، صار دالًّا عليه ، يصير شبكةً يصطاد بها الخلق من بحر الدنيا ، يعطى القوة حتى يهزم إبليس وجنده ، يأخذ الخلق من أيديهم .

يا من اعتزل بزهده مع جهله ، تقدم واسمع ما أقول .

يا زهاد الأرض تقدموا ، خربوا صوامعكم واقربوا مني ، قد قعدتم في خلواتكم من غير أصلٍ . ما وقعتم بشيءٍ . تقدموا »(٢) .

رضي الله عنك يا جيلاني ... كلمات تهز القلب اهتزازًا ، ويطرب لها الفؤاد . خذ مكانك يا ابن الإسلام في صفوف دعوة الإسلام ... وحرر نفسك من نير الأفكار الأرضية ، وآراء طواغيت القرن العشرين .

يقول الإمام العظيم الجيلاني ، مبينا أن المؤمن الأخرس متأخر ، وأنه

(١) الفتح الرباني للجيلاني ص٢٧ .
(٢) الفتح الرباني للجيلاني ص٧٣ بتصرف .

لا مكانة بعد النبوة فوق مكانة الدعوة ، وأن الفائز عند الله من اختاره الله : « وجعله جهبذًا وداعيًا للعباد ونذيرًا لهم ، وحجة هاديًا مهديًا ... فهذه هي الغاية القصوى في بني آدم .. لا منزلة تفوق منزلته إلا النبوة »[1] .

وبمثل هذه الكلمات النيرة أسلم المئات ، واهتدت الألوف المؤلفة في مجلس الجيلاني الداعية الرباني عالي الهمة .

من أراد أن يدلف إلى الفردوس الأعلى ، ولا يرضى بالمنازل الواطئة ، من أراد المنزلة العليا القصوى من الجنة ، فعليه أن يكون في المنزلة القصوى في هذه الحياة الدنيا .. واحدة بواحدة ، ولكلِّ سلعةٍ ثمن .

وما هذه المنزلة القصوى في الدنيا إلّا منزلة الدعوة إلى الله .. رحمك الله يا جيلاني ، فما كان أفهمك لدعوة الله .

يقول الجيلاني عن المؤمن الأخرس عن الدعوة : « قلبٌ بلا لسانٍ ، هو مؤمن ستره الله عز وجل عن خلقه ، وأسبل عليه كنفه ، وبصره بعيوب نفسه ، ونور قلبه » .

« فلأن هذا المؤمن لم يملك اللسان ، نزلت مرتبته ، وتأخرت ، وفقد ما في ألقاب الأول من الهيبة والفخامة ؛ فالأول : (جهبذ) و (داعية) و (حجة) ، وله ما في هذه الكلمات من إشعاع البهاء . والثاني (مستور) فحسب ، وبين جرس هذه الكلمة ولفظها ، وتلك الكلمات وألفاظها من البعد ، مثل ما بين الأرض والسماء . إن بونًا شاسعًا ، وطفرة واسعة بين المنزلتين ؛ منزلة الدعوة ، ومنزلة الإيمان المستور المنعزل . وسبب البون هو اللسان الناطق بالحق لا غير. من ملك هذا اللسان ، فقد بذ وسبق قافلة السائرين إلى الله . كلهم يسير إلى الله ، ولكن أين من في المقدمة ، ممن في المؤخرة ؟ وكلهم يدخل إن شاء الله الجنة ، ولكن أين من يدخلها في الزمر

---

(١) الفتح الرباني ص٤٩ .

الأولى ، ممن يدخلها بعد أعوامٍ من الانتظار في ساحة العرض !! »[١] .

أخي : العالم من كان داعية ، أما مؤلف الكتب فحسب،فنقول له :

لستَ والله عالمًا أو حكيمًا إنما أنت تاجرٌ في العلوم[٢]

ابن الجوزي الداعية الكبير :

صاحب المجلس الذي تاب فيه الآلاف ، وأسلم المئات ، وبكت آلاف العيون من المواعظ النورانية ... ملأ بغداد دعوة إلى الله وحثًّا على الدعوة ، يقول ، رحمه الله : « الزهاد في مقام الخفافيش ، قد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس ، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خيرٍ ، من جماعةٍ واتباع جنازةٍ وعيادة مريضٍ ، إلا أنها حَالة الجبناء .أما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون ، وهذه مقامات الأنبياء عليهم السلام »[٣].

« وهكذا استمرت كلمات الواعين في كل جيل ، لا يسوغون لأحدٍ أن يعتزل ويقعد عن الدعوة إلى الله ولو أكثر العبادة .

حسبوا بأن الدِّين عُزلةُ راهبٍ واستمرءوا الأوراد والأذكارا
عَجَبًا أراهم يؤمنون ببعضه وأرى القلوب ببعضه كُفّارا
والدِّين كان ولا يزال فرائضًا ونوافلًا لله واستغفارا
والدِّين ميدانٌ وصَمْصَام وفُرْ سانٌ تُبيد الشرَّ والأشرارا
والدين حُكم باسم ربِّك قائم بالعدل لا جوْرًا ولا استهتارا »[٤]

دع بيتك وراء ظهرك :

والقعود في البيوت أكثر بعدًا عن صفة المؤمن الكامل ، ولذلك كان

---

(١) المنطلق لمحمد أحمد الراشد ص١٢٢، ١٢٣ . مؤسسة الرسالة .
(٢) ديوان المثاني لعزام ص٩٨ .
(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي ص٢٢٤ .
(٤) المنطلق ص١١٦ .

الصحابة - رضي الله عنهم - ينكرون أشدَّ الإنكار على من يتوارى في بيته .

قال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه -: « إن أقلَّ العيب على المرء أن يجلس في داره »[(١)] . فعدوه عيبًا .

يقول الغزالي رحمه الله : « اعلم أن كل قاعدٍ في بيته ، أينما كان ، فليس خاليًا في هذا الزمان عن منكرٍ ، من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف ، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد ، فكيف في القرى والبوادي ، ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية ، وسائر أصناف الخلق .

وواجبٌ أن يكون في كل مسجدٍ ومحلَّةٍ من البلد فقيهٌ يعلم الناس دينهم ، وكذا في كل قرية ، وواجبٌ على كل فقيهٍ فرغ من فرض عينه ، وتفرغ لفرض الكفاية ، أن يخرج إلى ما يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم ، ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم »[(٢)] .

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣٢٧/١٦) : « فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أُنزل إليه ، وينذروا كما أنذر ، قال الله تعالى : ﴿ **فلولا نَفَر من كل فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقَّهُوا في الدِّين ولِيُنذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ والجن لمّا سمعوا القرآن ﴿ **ولَّوْا إلى قومهم منذرين** ﴾ » .

قال ابن القيم : « والعالم الذي قد عرف السنة ، والحلال والحرام ، وطرق الخير والشر ، مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم : أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح »[(٣)] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢٢١/٣ .

(٢) إحياء علوم الدين ٣٤٢/٢ .

(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن قيم الجوزية ص٩٣ .

الداعية رحّالة(١):

أخي : كان الدعاة إلى الله يسيحون لنشر الدعوة وتبليغها ، ويبادئون الناس بالكلام ، ويحتكون بهم احتكاكًا هادفًا ، ولا ينتظرون مجيء الناس لهم ليسألوهم ، هكذا كان شأن الدعاة دومًا .

أما ترى الأعرابي يقول لرسول الله ﷺ : « يا محمد ، أتانا رسولك ، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك . وكذلك الناس تُؤتى ، ومن انتظر أن يأتيه الناس فليس بداعيةٍ ، وستبقيه الأيام وحيدًا فريدًا وتعلمه التثاؤب ، لا بد من تحركٍ ومبادأةٍ وغدوٍّ ورواح وتكلُّمٍ وزعمٍ .

ليس القعود والتمني من الطرق الموصلة ، فافقه سيرة سلفك وقلدهم ، تصل ، وإلا فراوح في مكانك ، فإنك لن تبرحه .

وَصْل الماضي بالآتي :

إن الإسلام اليوم أحوج ما يكون إلى جماعةٍ من الدعاة الذين يدركون جيدًا واجبهم في هداية الناس ، ويبصرون موقعهم في موكب الدعوة السائر ، وأنهم حلقة تصل الماضي بالآتي :

نحن في ذي الحياة رَكْبٌ سِفَارٌ   يَصِلُ اللاحِقِين بالماضينا
قد هدانا السبيلَ مَنْ سبقُونا   وعلينا هدايةُ الآتينا(٢)

نعم ، تعبوا - رحمهم الله - حتى أوصلوا عقيدة التوحيد لنا ، وربونا ، وهذبونا ، وانتشلونا من مخاطر متلفة ، وعلينا أن نكون أوفياء لهم ، ننفذ عهدنا ، حين أخذوا علينا أن نعمل مثل الذي عملوا .

والغرس يقتضي مخالطة الناس ، ومشافهتهم والصَّدع بالحق .

أما أن يختار الخلوة ، فهو كما وصفه مصطفى صادق الرافعي :

---

(١) المنطلق ص١١٩ ، ١٢٠ بتصرف .
(٢) المثاني لعزّام ص١٤٩ .

« يحسب أنه قد فرّ من الرذائل إلى فضائله ، ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة ، هو في نفسه رذيلةٌ لكل فضائله ، وماذا تكون العفة والأمانة والصِّدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها ، إذا كانت فيمن انقطع في صحراء أو على رأس جبلٍ ؟ أيزعم أحدٌ أن الصدق فضيلة في إنسانٍ ليس حوله إلا عشرة أحجار ؟ وأيم الله ، إن الخالي من مجاهدة الرذائل جميعًا ، لهو الخالي من الفضائل جميعًا »(١) .

وصفٌ لعالي الهمة من الدعاة :

يقول الجيلاني : « هم قيامٌ في مقام الدعوة ، يدعون الخلق إلى معرفة الحق عز وجل ، لا يزالون يدعُون القلوب »(٢) .

« من صحت تبعيته للرسول ﷺ ، ألبسه درعه وخوذته، وقلده سيفه . ونحله من أدبه وشمائله وأخلاقه ، وخلع عليه من خلعه ، واشتد فرحه به : كيف هو من أُمته ؟ ويشكر ربه على ذلك ، ثم يجعله نائبًا له في أمته ، ودليلًا وداعيًا لهم إلى باب الحق عز وجل .

كان هو الداعي والدليل ، ولما قبضه الحق عز وجل أقام له من أُمته من يخلفه فيهم ، وهم آحاد أفراد ، من كل ألفِ ألف واحد ، يدلون الخلق ، ويصبرون على أذاهم ، مع دوام النصح لهم ، يتبسمون في وجوه المنافقين والفساق ، ويحتالون عليهم بكل حيلةٍ حتى يخلصوهم مما هم فيه ، ويحملونهم إلى باب ربهم عز وجل »(٣) .

والدعوة تحتاج إلى مجاهدة النفس وإماتة الهوى ، لتحصل حياة الدعوة : « موتٌ ثم نشر ، ثم إذا شاء أنشرك له ، ردك إلى الخلق لتنظر في مصالحهم وتردهم إلى بابه ، تجيء لك القوة على مقاساة الخلق ، فتردهم عن ضلالهم »(٤) .

---

(١) وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي ٩٧/٢ .

(٢) الفتح الرباني ص٧ .

(٣) (٤) الفتح الرباني ٨٣ ، ١٠٧ .

التَّجرُّد الكامل للدعوة :

لا نجاح للدعوة ، ولا وصول للغاية ، إن أعطيناها فضول الأوقات، ولم ننس أنفسنا وطعامنا .

لا بد من التجرد الكامل والانغماس بكُلِّيَّتك في الدعوة ، حتى ينسى نفسه ، ويعود لا يرى إلّا من يدعوهم ، ولا يتكلم إلّا بما يفيد من يدعوهم ، فعالمه وكونه الفسيح لا يحوي شهوةً ولا منصبًا ، ليس في هذا الكون إلا الذين يباشر دعوتهم ، هم تجارته ، ولذته ، ومنصبه ، ونبض قلبه ووجيب صدره ، وقفٌ على الدعوة إلى ربه .

وشُغِلتُ عن فهْم الحديث سوى ... ما كـان عنـك فإنه شُغلـي
وأُدِيم نحو مُحدِّثي وجهي ليرى ... أنْ قد عقلتُ وعندكم عقلي

يقول الجيلاني : « يصير كأن لا نفس له ، ولا طبع ولا هوى ، ينسى طعامه وشرابه ولباسه ، يصير ناسيًا لنفسه ، ذاكرًا لخلْق ربه عز وجل ، يخرج بقلبه عن نفسه والخلق ، ويبقى بربه عز وجل ، كلّ طلبه نفع الخلق ، قد سلم نفسه إلى يد قضاء ربه عز وجل »[١] .

ويرحم الله الشيخ حسن البنا ، ما كان يدخل بيته إلّا ليُهيّيء متاعه لسفرٍ جديدٍ من أجل الدعوة ، رجته زوجه الانتظار ، وقد خشيت موت ابنه بعد شدة المرض به ، فقال لها : « إن جده يعرف طريق المقابر جيّدًا » .

الداعي عالي الهمة رجل عامّة :

الداعية الفذّ هو رجل العامّة .. يقصد العامة ، يتّصل بهم ويجالسهم ويعلمهم ، مثل سيرة سلفه الجهابذة .

كانوا أئمة للعامة ، يتصدون لإرشاد كل الناس ، فيتزايد حب القلوب

---

(١) الفتح الرباني ص٢١١ .

لهم ، ويرون فيهم القدوة الصحيحة التي لا مطعن فيها ، فيتبعونهم ، ويمتثلون أمرهم .

منهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ، رحمه الله

فهذا الزاهد المشهور بشر بن الحارث الحافي ، رحمه الله ، يعدد ثلاث خصالٍ امتاز بها الإمام أحمد ، وفُضِّل بها عليه ، وقصر هو عنها ، أحدها : « أنه نصب إمامًا للعامة » .

لم يحمله علمه على حصر نفسه بين الجدران ، بل نزل إلى الجموع ، وقادها في مواقفها في معارضة الجهمية والمعتزلة الذين أرادوا حرف عقيدة الأمة ببدعة خلق القرآن ، ونازع الدولة كلها حين أرادت فرض البدعة بالقوة ، حتى نصره الله بالمتوكل . وإنما نعني بالعامة جمهور الناس ، المثقف منهم والأُمِّي ، لا الاصطلاح الحادث الذي يعني الجهال .

وقد كان إمام أهل السنة يترصد أخيار الرجال في المجتمع فيحتك بهم ، ويتعرف عليهم ، ويزورهم .

« كان إذا بلغه عن شخصٍ صلاحٌ أو زهد ، أو قيامٌ بحقٍّ ، أو اتباع للأمر : سأل عنه ، وأحبَّ أن يجري بينه وبينه معرفة ، وأحب أن يعرف أحواله »(١) .

نعم ، لا يكون رجل عامة إلا من فتش عن الناس وبحث عنهم ، وسأل عن أخبارهم ، ورحل للقائهم ، وزارهم في مجالسهم ومنتدياتهم .

وقد بلغ الإمام أحمد الغاية والمنزلة القصوى ، فقد كان « موسى بن حزام - شيخ البخاري والترمذي - في أول أمره ينتحل الإرجاء ، ثم أعانه الله بأحمد بن حنبل ، فانتحل السنة وذب عنها ، وقمع من خالفها ، مع لزوم الدين حتى مات »(٢) . « وهذه الكلمات تحوي من معاني الدعوة

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٢١٨ .

(٢) تهذيب التهذيب ١٠/٣٤١ .

شيئًا كثيرًا

إن تغيير عقيدة موسى بن حزام لم يتمّ بالأماني المجردة، فقد لزم الإمام أحمد أن يجلس معه المجالس، مناقشًا له برفقٍ وسكينةٍ، وحكمةٍ وموعظةٍ حسنة، حتى استطاع صرفه عن بدعة الإرجاء، ثم مجالس أُخرى علمه فيها السنة، ثم مجالس أُخرى بعث فيه همةً عاليةً استمر معها حتى موته بالدفاع عن السنة، وقمع مخالفيها من أهل البدع والشهوات.

إنه كذلك طريق الدعوة وسبيل خدمة الإسلام، وكذلك كان سلفنا من دعاة الإسلام: لا بد لك من ترك زوجك وأولادك، ومجالس الدنيا وهموم التجارة، بضع ساعاتٍ في كل يوم، تتوجه فيها إلى الله، داعيًا أن يعين بك ضالًا من ضحايا الطواغيت فتهديه، أو يعين بك يائسًا جامدًا، يستهلكه الحزن على واقع المسلمين وتقيده همومه الدنيوية، فتحركه وتغطه غطًّا.

إنها غطة العزم.

غط جبريل عليه السلام نبينا محمدًا ﷺ ثلاثًا في غار حراء، في أول لحظات نبوته، فضمه إلى صدره ضمًّا شديدًا، ثم قال له: ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ وغطَّ النبيُّ ﷺ ابن عمه عبد الله بن عباس، فضمه إلى صدره، وقال: « اللهم علمه القرآن ».

وغطّك الدعاة.

وعليك أن تغطَّ غيرك هذه الغطَّة الواجبة، التي تضع حدًّا فاصلًا بين عهد الرخاوة، وعهد حمل الأمانة بحزمٍ وعزمٍ ووفاءٍ.

لقد أعان الله - تعالى - بأحمد بن حنبل آلافًا من مثل موسى بن حزام، وبهم استطاع أن يرد فتنة وكيد الجهمية والمعتزلة وينصر السنة، فكم يا ترى سيعين الله بك اليوم من تردُّ بهم كيد الشرق والغرب »(١).

---

(١) المنطلق ص١٢٧ - ١٢٩.

قال ابن الجوزي : تاب علي يدي مائة ألفٍ ، وأسلم على يدي عشرون ألفًا .

الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام :

وصفوه بأنه كان « رجل عامّة »[١] .

يقول أبو إسحاق الفزاري : « ما رأيت مثل الأوزاعي والثوري ، فأما الأوزاعي فكان رجل عامة ، وأما الثوري فكان رجل خاصة ، ولو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي »[٢] .

« بلغ الثوري وهو بمكة مقدم الأوزاعي ، فخرج حتى لقيه بذي طوى ، فلما لقيه حل رسن البعير من القطار ، فوضعه على رقبته فجعل يتخلل به ، [ومالك بن أنس يسوق به] ، فإذا مرَّ بجماعةٍ قال : الطريق للشيخ »[٣].

وأبو إسحاق الفزاري الإمام :

كان رجل عامَّة :

« قال إبراهيم بن سعيد الجوهري : قلت لأبي أسامة : أيهما أفضل : فُضيل بن عياضٍ أو أبو إسحاق الفزاري ؟ فقال : كان فضيل رجُلَ نفسه ، وكان أبو إسحاق رجل عامةٍ »[٤].

الله أكبر : « الفضيل بن عياض » الذي كان ابن عيينة يقبل يده ، الفضيل : سيد المسلمين في وقته ، كما يقول ابن تيمية ، الفضيل الذي قال

---

(١) تهذيب التهذيب ٢٤١/٦ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١١٣/٧ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١١٢/٧ ، والبداية والنهاية ١١٦/١٠ .
(٤) سير أعلام النبلاء ٥٤٣/٨ .

فيه ابن المبارك : « إذا نظرت إلى فضيل : جدد لي الحزن ومقت نفسي » .
ومع هذا يعلوه مرتبةً الفزاريُّ في رأي أبي أسامة ؛ لأنه كان رجل عامة .

« قال ابن مهدي : كان الأوزاعي والفزاري إمامين في السنة .

وقال أبو حاتم : اتفق العلماء على أن أبا إسحاق الفزاري إمامٌ يقتدى به بلا مدافعةٍ .

يروى أن هارون الرشيد أخذ زنديقًا ليقتله ، فقال الرجل : أين أنت من ألف حديثٍ وضعتها ؟ قال : فأين أنت يا عـدو الله من أبي إسحاق الفزاري وابن المبارك يتخلّلانها ، فيخرجانها حرفًا حرفًا .

قال أبو صالح الفراء : لقيت الفضيل بن عياض ، فعزاني بأبي إسحاق وقال : ربما اشتقت إلى المصيصة ، ما بي فضل الرباط إلا أن أرى أبا إسحاقٍ ، رحمه الله »[١] .

« وهو الذي أدب أهل الثغور الإسلامية التي في أعالي بلاد الشام والجزيرة تجاه الروم ، وعلمهم سنن النبي ﷺ ، وكان يأمر وينهى ، وإذا دخل الثغر رجلٌ مبتدِعٌ ، أَخْرَجَهَ »[٢] .

وخالد بن عبد الله الواسطي :

أحد المحدثين الثقات من شيوخ البخاري ، وصفوه بأنه كان « رجل عامة »[٣] .

والإمام الزهري زعيم المحدثين :

ربَّى أجيالًا من أهل الحواضر الإسلامية ، وجعلهم أئمة في الحديث ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٥٤١ – ٥٤٣ .
(٢) تهذيب التهذيب ١/١٥٢ .
(٣) تهذيب التهذيب ٣/١٠٠ .

وما كان ذلك يكفيه ، بل « كان ينزل بالأعراب يعلمهم » ، يحفظ من بقي صحيح العقيدة ، ويتلطف مع من نجح أهل البدع في جرفه، فيرجعه إلى التوحيد .

وجدد آخرون سيرة الزهري ، منهم الفقيه الواعظ أحمد الغزالي ، أخو الإمام صاحب الإحياء ، فإنه كان « يدخل القرى والضياع ، ويعظ لأهل البوادي تقربًا إلى الله »[(١)] .

الانخلاع عن الفردية والتعاون على البر والتقوى من علوّ الهمة في الدعوة :

أخي : « ألست تبغي القرب منه ؟

فاشتغل بدلالة عباده عليه ، فهي حالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أما علمت أنهم آثروا تعليم الخلق على خلوات التعبد ؛ لعلمهم أن ذلك آثر عند حبيبهم ؟ »[(٢)] .

فواصل الخطو على دربهم تصل ، قال تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتَّبَعني** ... ﴾ الآية [يوسف : ١٠٨] وهذا من أثمن النصوص في التعاون على البر والتقوى .

قال تعالى : ﴿ **وكأيِّن من نبيٍّ قاتَلَ معه ربِّيُّون كثيرٌ** ... ﴾ الآية [آل عمران : ١٤٦] .

قال ابن القيم : « فالرِّبيُّون هنا : الجماعات ، بإجماع المفسرين ، قيل : إنه من الرِّبَّةِ ، بكسر الراء : وهي الجماعة . قال الجوهريُّ : الرِّبِّي واحدُ الرِّبِّيِّين ، وهم الألوف من الناس »[(٣)] .

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٦/٦٢ ، المنطلق ص١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي ص٣٨ .

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/١٥٤ .

وورثة هذا النبي له وأولئك الأنبياء ، لهم أُسوة حسنة بهم ، لا يتفردون ، بل يسيرون ألوفًا .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية الذي سبق عصره ، الفقيه العظيم الذي سَبَرَ المقاصد العامّة لدين الله : « وأما لفظ « الزعيم » فإنه مثل لفظ : الكفيل والقبيل والضَّمِين ، قال تعالى : ﴿ **ولمَنْ جاء به حِمْلُ بعيرٍ وأنا به زعيم** ﴾ [يوسف : ٧٢] فمن تكفل بأمر طائفةٍ فإنه يقال : هو زعيم . فإن كان قد تكفل بخيرٍ ، كان محمودًا على ذلك ، وإن كان شرًّا ، كان مذمومًا على ذلك .

وأما « رأس الحزب » فإنه رأس الطائفة التي تتحزب ، أي تصير حزبًا ، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ ، فهم مؤمنون ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا ، مثل التَّعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل ، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم ، سواء كان على الحق أو الباطل ، فهذا من التفرق الذي ذمَّه الله تعالى ورسوله ، فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف ، ونَهَيا عن الفرقة والاختلاف ، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى ، ونَهَيا عن التعاون على الإثم والعدوان »(١) .

نعم للتعاون على البر والتقوى ولا للتحزُّب المفرق ، لا بد أن يكون ولاء الداعية لله ورسوله ﷺ فوق أي شعارٍ ، وإلا فدعوها فإنها منتنة .

الداعي عالي الهمة من يقول : ها أنا ذا :

وسط رياح الجاهلية التي تصفر صفيرًا شديدًا في ديار المسلمين الخالية ، لا بد من وجود الداعي عالي الهمة ، الذي يصرخ بالمسلمين

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/٩٢ .

مُستنهضًا ، فيعلو هتافُه على صفيرها ، يهدر بنشيد الإسلام الجديد الذي يشوق المسلمين سماعُه ... يعرف طريق العودة الصحيح ، ويفقه واقع المسلمين ، ويعلم سنن الله في الكون ، ويعلم دينه جيّدًا ، يدق صدره ويعلي صوته ليسمعه المسلمون ، ويقول : ها أنا ، فيلتفون حوله ويميّزون صيحته ونبرة تكبيره .

في مثل فترات الذُّهول التي تعيشها الأمة ، وغيبوبتها عن إدراك ذاتها ، الأمة بحاجةٍ إلى داعٍ يقول : « ها أنا » تعني إدراك الطريق الصحيح ، الذي يبدأ من تربية الفرد على معاني العقيدة الإسلامية الصافية ، فالأمة تولد من دعوة رجلٍ واحدٍ فقيهٍ ذي همة ، كما قال إقبال في ديوانه « الأسرار والرموز » ص١٠٨ : « تُولد الأمة من قلب جليل » .

صفاء عقائديّ وتجرُّد سلوكي .

« لا بد من طليعةٍ تعزم هذه العزمة وتمضي في الطريق » .

البعث الإسلامي والعودة الإسلامية « إنما تتحقق بأن تحمل المنهج جماعةٌ من الدعاة تؤمن به إيمانًا كاملًا ، وتستقيم عليه بقدر طاقتها ، تجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك »[(١)] .

« وهذه الطلائع هي الطلائع الموفقة الفائزة ، التي سيندم من لم يلتحق بها منذ الآن ، وسيتوجع كما توجع الصحابي ذو الجوشن الضبابي رضي الله عنه ، حين لم يسلم إلا بعد فتح مكة ، وقد كان رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام بعد بدر ، فقال له : هل لك إلى أن تكون من أوائل هذا الأمر ؟ قال : لا . قال : فما يمنعك منه ؟. قال : رأيت قومك كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، فانظر ، فإن ظهرت عليهم آمنت بك واتبعتك ، وإن ظهروا عليك

---

(١) « هذا الدين » لسيد قطب ص٧ .

لم أتبعك ، فكان ذو الجوشن يتوجع على تركه الإسلام حين دعاه إليه رسول الله ﷺ .

وكم من أناسٍ لا يعدو منطقهم منطق ذي الجوشن ، يدعوهم واقع الدعوة الإسلامية إلى أن يكونوا الأوائل والمقدمة والنُّبلاءَ والقادة ورأس النَّفِيضة ، فيأبون إلّا أن يكونوا مؤخرة ، وكم من إصبعٍ سيعضّ ندمًا يوم يختار الله الطلائع السائرة لإتمام نوره »[١] .

« إن لأفراد المسلمين وللدعاة أُسوةً وقدوةً في الحوار الشريف بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، حين أمر الله إبراهيم ببناء الكعبة . قال إبراهيم عليه السلام : يا إسماعيل ، إن الله أمرني بأمرٍ . قال : فاصنع ما أمرك ربي . قال : وتُعِينني ؟ قال : وأُعينك .

فهذا جواب المؤمنين دومًا بلا تلكُّؤٍ ولا تلعثم ، وإن الله قد أمر بنشْر دينه وإعادة حكمه ، ويجب أن تكون هذه الأعوان غير متخلفة ، وامض وبادر ، وكن وريث إسماعيل ، لا تقعد في بيتك ، لا تسمع نداء مستقبلك الوظيفي والتجاري ، فهنا في هذه الإجابة الإسماعيلية رأس مالك الحقيقي »[٢] .

لقد بكى رسول الله ﷺ عند قتل حمزة ، وقال : « ولكن حمزة لا بواكي له » . ألا مِنْ رجلٍ يحمل همَّ الإسلام في غربته ، ودعوة الإسلام ، أو يندب النادب ويقول : « ولكن الإسلامُ لا بواكي له » . يا له من دينٍ لو أن له رجالًا .

إن الدعوة إلى الله لا تقوم على أكتاف ضعفاء ليس لهم إرادة ولا همّة ... لا تزداد بأن نجمع ونضمّ أصفارًا بعضها إلى بعض .

---

(١) المنطلق ص١٦٦ ، ١٦٧ .
(٢) المنطلق ص١٦٧ - ١٦٨ .

لا بد من تربية الأفراد والدعوة .. وقلوب تضيء للسالكين وتتوقد شوقًا للعمل لدين الله .

قلوب الأحرار ، لا أنوار الثُّريّات ، نار العزم لا غيرها .

تنصب خيمتك في صحراء جاهلية القرن العشرين ، وتضرم نارك ليراها التائهون والمنقطعون فيقصدونها وينزلون خيمتك ، وتنادي ابنتك لُبَيْنى لتزيد لهب النار وتعلمها :

يا لُبَيْنَى أَوْقِدِي طال المدى أوقدي علَّ على النار هُدَى
أوقدي يا لُبْنَ قد حار الدليلْ أوقدي النار لأبناء السبيلْ
ارفعي النار وأذْكِي جَمْرها علّ هذا الرَّكْب يعشو شطْرَها
شردي هذا الظلام الجاثما أرشدي هذا الفَرَاش الهائما
حبَّذَا النـار بلَيْلٍ تُوقَدُ حبّذَا المُؤْنِس هذا الموقِدُ
حبذا عندك هـذا النُّزُلُ لو حوانا في سِفارٍ منزلُ
ما لذَا المنزل قد سار الفريقْ إنما النيران أعلام الطريقْ
زوِّدينا بهُيامٍ ووَجيبْ زوّدي يا لُبْنَ من هذا اللَّهيبْ[1]

أوجه الخير ووسائل الدعوة كثيرةٌ لا نحقرها ، وكيف وقد أعلى من قدرها رسول الله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا »[2]، وقوله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم له أو لغيره في الجنة ، والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله »[3].

---

(١) لعزام من قصيدة « اللمعات » التي ألحقها بترجمته لديوان « رسالة المشرق » لإقبال .
(٢) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي عن سهل بن سعد .
(٣) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٤٧٦) .

وبناء المساجد والمدارس والمصانع وحفر الآبار ، وأولى من هذا كله مصاولة الابتداع وأعداء الإسلام ، وكشف زيف الماسونية والعلمانية والزنادقة ، ونشر العلم والسنة أولى وأولى .

فقد جاء زهير بن أبي زهير تلميذ الإمام أحمد بن حنبل يسأله : « إن فلانا ربما سعى في الأمور ، مثل المصانع والمساجد والآبار ؟ قال : فقال لي أحمد : لا، نَفْسُه أولى به . وكره أن يبذل الرجل نفسه ووجهه »[(١)] .

فهناك بونٌ وبُعد شاسع بين الجهدين :

جهد السعي المجرد في مصالح الناس مهما أتعب البدن .

وجهد مواكبة الدعوة في شمولها مواكبةً تستهلك البدن ، وتُرهق الفكر ، وتمتصّ رحيق الروح .

الداعي عالي الهمة يرفع للخير رايةً ، وينوي المرابطة للدعوة :

نعم يا أخي ، ارفع للخير راية ، تكبيرًا ينبّه ونارًا تلفت ، يبصرها أهل الخير فيتجمعون حولها ، فالجاهلية إن نظمت صفوفها ﴿ **فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفًّا** ﴾ فأحرى بدعاة الحق والإسلام التجرد المطلق له ، إن في الناس نزعاتٍ للحق كامنة ، وعاطفة للإسلام مستسِرَّة ، فاصبر لدعوة الإسلام ، وانوِ المرابطة ، فهذه أرض الإسلام لا تترك لغيره .

شأن الداعية الحرّ دومًا أن يصير على المقام والدعوة في دار الإسلام وإن علا صوت الباطل فيها ؛ ليلتقط من مجتمع مُسْتَخْزٍ فتيانًا صباح الوجوه والمقاصد ، لم يُصب قلوبهم وأبدانهم شيءٌ من دنيس الجاهلية وأمراضها وحرامها ، ويربّيهم ويغرز فيهم العمل لدعوة الإسلام وعزّه .

---

(١) طبقات الحنابلة ١/١٥٩ .

« نعم في المجتمع المستخزي الذي طال خضوعه للطغيان تجد : النفس تميل إلى الإسفاف ، وتخلد إلى الراحة ، وتهوى الهيّن من كل أمر .

ولكن في النفس – على هذا – نزوعًا إلى العلاء وشغفًا بالارتقاء ، وحنينًا إلى المكارم ، وشوقًا إلى العظائم .

إن فيها لجمرةً يغطّيها الرماد ، وشرارة يقدحها الزّناد ، فإن وجدت نافخًا في جمرها ، وقادحًا لشررها ، استيقظت ، وتحفزت ، وعملت ، وصعدت ، وكلما ذاقت لذة العمل والرقي ، زادت حبًّا له ، وهيامًا به »[(١)] .

ولهذا فإن المهاجر مخطىء ، إلا هجرة صاحب سرٍّ يخشى عليه ، أو هجرة صاحب فقه إلى من يحتاج إليه ، أو هجرة من يخشى الفتنة في دينه .

نُرابط في ديار الإسلام التي فتحها عمرو ، وعاش فيها الشافعي ، ونشأ بها الليث ، وأخرجت العسقلاني والطحاوي والسيوطي .

بلاد الليث مأوى الشافعيّ   أنتركها لِفكْر المارقينا
سيوطيُّ الحديث يَنُوحُ يبكي   وحافِظُنا يُجاوِبُه أنينا
ينادي العسقلاني يا بلادي   أضعت الهَدْيَ كنّا حافظينا
فيا فسطاطَ عمرو العاصِ عودي   يعود الطير كم نزح السنينا

عن سهل بن سعد : قال ﷺ : « رباط يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها ... ». رواه البخاري وأحمد والترمذي .

أخي : إن الأرض لا تقدّس أحدًا ، وإنما يقدس العبد عمله كما قال سلمان لأبي الدرداء:... إنما تقدّسنا الدعوة والمرابطة عليها في ديار الإسلام .

---

(١) دراسات إسلامية لسيد قطب ص٢٩ ، والمنطلق لمحمد أحمد الراشد ص١٩٠ ، ١٩١ .

لم نعرف الإسلام إلّا دعوةً وضّاءةً تُحيي الأنام وتُلهمُ

قيل لأحد فحول الرجال : « لنا حُوَيْجة » ، فقال : « اطلبوا لها رُجَيْلًا » . فالرجيل تشبع نفسُه بعمل اليسير ، أما الرجل فهو من كانت همته عالية ، قد رصد نفسه لضخام الأعمال ، ويأنف من صغارها .

وإن هذه الدعوة - والله - لهي شأن الرجال حقًّا الذين يضم سِربُهم كل مقدام ، أما أهل السكوت والخرس فليس فيهم إلّا رويجل .

قالوا : السعادة في السكو ن وفي الخمول وفي الخمودْ
في العيش بين الأهل لا عيشَ المهاجر والطريد
في المشي خلف الرَّكْب في دعةٍ وفي خَطْوٍ وئيد
في أن تقول كما يُقا لُ فَلا اعتراض ولا رُدُود
في أن تسير مع القطيـ ـعِ وأن تُقاد ولا تقود
في أن تصيح لكل وا لٍ عاش عهدُكمُ المجيد
قلتُ : الحياة هي التّحر ك لا السُّكُون ولا الهمود
قلت : السعادة أن تُبلِّـ ـغ دين ذي العرش المجيد(*)
وهي التَّلذُّذ بالمتا عبِ لا التَّلذّذ بالرقود(١) .

الدعوة لدين الله بيعة قديمة مع الله :

قال تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيِّين لَمَا آتيتُكم من كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءكم رسولٌ مصدِّق لما معكم لتؤمنُنّ به ولتنصرُنّه قال أأقْررتمْ وأخذتم على ذلكم إصْري قالوا أقرَرْنا قال فاشْهدُوا وأنا معكم من الشاهدين**﴾. [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس : « ما بعث الله نبيًّا إلّا أخذ عليه الميثاق ، لئن بُعث محمدٌ وهو حَيّ ليؤمنَنَّ به ولينصُرَنَّه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أُمّته ؛ لئن بُعِث محمدٌ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه » .

(١) قصيدة للقرضاوي سوى هذا البيت المشار إليه بالعلامة * .

وإذن فالبيعة علينا نحن الآن من ورثةِ محمدٍ ﷺ أوجبُ وأظهر ، إلزامًا وأولويّة .

وقال الله تعالى : ﴿ **لتؤمنوا بالله ورسوله وتُعزِّروه وتوقّروه وتسبحوه بُكرةً وأصيلًا** ﴾ .

فالدعوة إلى الله ونصرة رسوله بيعةٌ مع الله وعهدٌ معه ، ورحم الله الزاهد جعفر الخلدي البغدادي حين قال : « ما عقدتُ لله على نفسي عقدًا فنكثتُه »[١] للدعاة في عهودهم سمت الوفاء ، فهل نوفي لله بعهده وبيعته .

كان ابن المبارك يتمثّل ببيتين كلّما خرج لصالحةٍ ، فيقول :

بُغض الحياة وخوف الله أخرجني ... وبيع نفسي بما ليست له ثمنا
إني وزنتُ الذي يبقى ليَعْدِلَه ... ما ليس يبقى فلا والله ما اتَّزنا[٢]

يا لها من صرخةٍ في المشرق كان ابن الجوزي إمام الدعاةِ يمدُّ بها صوته على شاطىء دجلة ببغداد ويهتف : « أوّل قدمٍ في الطريق : بذل الروح ، هذه الجادّة ، فأين السالك »[٣].

وقالها رُويم البغدادي: «هو بذل الروح ، وإلّا فلا تشتغل بترهات»[٤].

نعم ، بذل الروح للدعوة لدين الله .

الداعية عالي الهمة ليس من أصحاب العقول المستريحة :

قال أحمد بن داود أبو سعيد الواسطي : « دخلت على أحمد الحبس

---

(١) تاريخ بغداد ٢٢٩/٧ .

(٢) تاريخ بغداد ١٦٦/١٠ .

(٣) المدهش لابن الجوزي ص٢٩٩ .

(٤) تلبيس إبليس لابن الجوزي ١٨٣ .

قبل الضرب ، فقلت له في بعض كلامي : يا أبا عبد الله : عليك عيال ، ولك صبيان ، وأنت معذور . كأني أسهل عليه الإجابة ، فقال لي أحمد ابن حنبل : إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد ، فقد استرحت »[١] .

وما أكثر ما يقال مثل هذا للدعاة اليوم ، وما أكثر من يفهم الإسلام ثم يحدّث نفسه بمثل هذا ، فيجبن وينزوي ولا يُشارك الدعاة سيرهم . وإنما هو حديث من استراح ، كما يقول الإمام أحمد ، وأما من لدغ واقع المسلمين قلبه ، فأنى له الراحة ؟! وأنى يدع لصبيانه وزوجه تخذيله وتقييده عن الاندفاع للدعوة لدين الله ؟ وهل الموت إلّا في آجالٍ ؟ إن عهد الدعوة لن يقدم أجلًا ولكنه يرفع إلى الفراديس .

فإن لم يكن المسلم مع أحمد ، أو مع وَرَثة أحمد ، وقعد لعذرٍ أو شبه عذرٍ ، فإنه مطالبٌ بالأسف وازدراء نفسه على الأقل ، ألّا يكون مع القوم الدعاة العاملين ، كما قيل للزاهد بشر بن الحارث الحافي يوم تعذيب أحمد بن حنبل : « قد ضرب أحمد بن حنبل إلى الساعة سبعة عشر سوطًا . فمدّ بشر رجْله وجعل ينظر إلى ساقيه ويقول : ما أقبح هذا الساق أن لا يكون القيد فيه نُصرةً لهذا الرجل »[٢] .

إن المسلم الصادق إنْ عذر نفسه وأفتاها بالتخلف عن ركب الدعاة ، خوفًا من الفتنة ، وبطش الطغاة « أو لنوع ضرورةٍ أو ضعفٍ يدريه من نفسه ، أو شبهةٍ ، عرف ما يوجبه ذلك من التواضع وترك التطاول على الدعاة ، ويظل يتهم نفسه في اجتهاده ، ويمنح الصابرين المقتحمين المتجردين للدعوة لسانًا جميلًا ، يكون لهم فيه نوع سلوةٍ وراحة ، وأما أسير هواه فيجادل ويثرثر ، ويقذف لسانه بكل لفظٍ صلب ، ألّا يوصف بتخلُّفٍ ،

(١) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ٤٣/١ .
(٢) مناقب أحمد ، لابن الجوزي ص١١٩ .

فيجمع بجداله نقصًا إلى نقصٍ ، والعياذ بالله »[١].

ليس على الداعية غير البلاغ :

عجبتُ لهم قالوا : تماديت في المنى وفي المثل العليا وفي المرتقى الصعبِ
فاقصرْ ولا تُجهد يَرَاعَك إنما ستَبْذرُ حَبًّا في ثرًى لَيْسَ بالخصْبِ
فقلتُ لهمْ مهْلًا فما اليأسُ شيمتي سأَبْذر حَبِّي والثِّمارُ منَ الربِّ
إذا أنا أبلغتُ الرسالة جاهدًا ولم أجِدِ السمعَ المجيب فما ذنبي[٢]

يقول سيد قطب عن الدعاة : « أُجَرَاء عند الله ، أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا ، عملوا وقبضوا الأجر المعلوم ! وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أيّ مصير ، فذلك شأن صاحب الأمر ، لا شأن الأجير »[٣].

﴿ واجعلنا للمتقين إمامًا ﴾ :

قال ابن القيم في « الروح » ص٢٥٢ : « ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه ، وأثنى عليهم في تنزيله ، وأحسن جزاءهم يوم لقائه ، فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ، ثم قال : ﴿ **والذين يقولون ربّنا هَبْ لنا من أزواجنا وذُرِّيّاتنا قُرَّة أعينٍ واجعلنا للمتقين إمامًا** ﴾ [الفرقان : ٧٤]. فسألوه أن يُقِرَّ أَعْينَهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه ، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته » .

الداعي عالي الهمة لا تشغله الدعوة عن عبادته :

لا بد من التوازن بين حق النفس من التربية والعبادة ، وبين حق

---

(١) المنطلق ص٢٣٣ .
(٢) للقرضاوي- مجلة «المباحث المصرية» عدد ٣١ سنة ١٩٥١ ، المنطلق ص٢٣٧ .
(٣) معالم في الطريق ص١٨١ .

المدعوين ؛ فإن الداعي قد ينغمس بكل خلجة فيه إلى تربية الذين يدعوهم وينسى نفسه ، قال ﷺ : « مثل الذي يعلّم الناس الخير وينسى نفسه ، كمثل السّراج يُضيء للناس ويحرق نفسه »[(١)] .

قال ابن المنكدر : « العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه ، وإلّا ارتحل » .

فلا بد على الداعي أن يأخذ بالقسط الوافر من العلم والعبادة ؛ من قيامٍ وصيام وذكر ، وإلّا قسا القلب .

الربانية على نهج السلف علو همّة ، والأسوة هي علم الدعْوة :

باطلٌ ظنّ مَن يتوهم عدم وجوب شرط القدوة ، كيف وقد قال الله تعالى : ﴿ **ولكنْ كونوا رَبّانِيِّين بما كنتم تُعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون** ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

قال مجاهد : هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره ، فهم أهل الأمر والنهي .

قال ابن تيمية : « وذلك هو المنقول عن السلف في الرباني : نقل عن عليٍّ قال : هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها . وعن ابن عباس قال : هم الفقهاء المعلّمون . وقلت : أهل الأمر والنهي هم الفقهاء المعلّمون . وقال قتادة وعطاء : هم الفقهاء العلماء الحكماء .

قال ابن قتيبة : واحدهم رَبّانِي ، وهم العلماء المعلِّمون ... » . ثم ختم فقال : إنهم « منسوبون إلى التربية »[(٢)].

قال ابن تيمية : (٥/٦١) : إن الرباني منسوب إلى الرَّبّ ، فزيادة الألف والنون كاللحياني ، وقيل : إلى تربية الناس ، وقيل : إلى رَبّان السفينة،

(١) إسناده صحيح . أخرجه الدارمي والترمذي وقال : حسن صحيح ، وقال الألباني : إسناده صحيح . انظر : اقتضاء العلم العمل ص١٦ ، ١٧ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/٦٣ .

وهذا أصح ، فإن الأصل عدم الزيادة في النسبة لأنهم منسوبون إلى التربية ، وهذه تختص بهم ، وأما نسبتهم إلى الرب فلا اختصاص لهم بذلك ، بل كل عبدٍ له فهو منسوب إليه .

وهي تدل على إيمانٍ وعبادةٍ وتَأَلُّهٍ .

قال ابن الحنفية لما مات ابن عباس : اليوم مات ربَّانِيُّ هذه الأمة ، وذلك لكونه يؤدِّبهم بما آتاه الله من العلم .

قال إبراهيم : كان علقمة من الرّبّانيّين .

وفي الربانيين :

قال سعيد بن جبير : حكماء أتقياء .

وقال الحسن : فقهاء علماء . وقال : لولا العلماء لصار الناس كالبهائم .

قال ابن القيم :

« وأولى الأقوال عندي بالصوُاب ، أنها جمع رباني ، وأن الرباني المنسوب إلى الربان الذي يربي الناس ، وهو الذي يصلح أمورهم ويربها ويقوم بها .

قال علقمة بن عبد :

وكنت امرأ أفْضَتْ إليك ربابتي   وقَبْلَكَ ربّتني فضِعْتُ ربوبُ

ربتني : ولي أمري والقيام به قبلك من يربه ويُصلحه .

رب أمري فلان فهو يربه ربًّا وهو رابه ، فإذا أُريد به المبالغة في مدحه قيل : هو ربان » .

وعلى أساس التربية الإسلامية الصافية من نبع الكتاب والسنة بفهم السلف وذوقهم يكون المدح ، وإلّا فالربانيون يذمون تارة ويمدحون تارة ، والخلفاء أفضل ولم يسموا ربانيين .

فكل قدوة ومرب على غير فهم السابقين نقول له : « اقصد البحر وخل القنوات » . فحينئذٍ يشع النور ، ويهتدي المدعو برؤية الداعي قبل كلامه .

« لما هم إمام مصر الليث بن سعد بفعل مفضول ينافي العزيمة ، قال له يحيى بن سعيد الأنصاري : لا تفعل ؛ فإنك إمامٌ منظورٌ إليك » .

ويرحم الله من قال : « من لم تهذبك رؤيته ، فاعلم أنه غير مهذب ، ومن لم ينعشك عبيره على بعدٍ ، فاعلم أنه لا طيب فيه ، فلا تتكلف لشمه » .

والداعية الصادق تستمر هيبته الإيمانية في تعاظم ، وتظل في تصاعد ما تصاعدت هيبته لله تعالى وتعاظمت اهتمامات قلبه بدعوته ، حتى يغدو منظره قاطعًا لغفلة ناظره .

وقال الشافعي : من وعظ أخاه بفعله كان هاديًا .

وكان عبد الواحد بن زيد يقول : « ما بلغ الحسن البصري إلى ما بلغ ، إلا لكونه إذا أمر الناس بشيءٍ ، يكون أسبقهم إليه ، وإذا نهاهم عن شيءٍ ، يكون أبعدهم منه » . وقد قيل : « من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه »[1].

نعم : من لا ينتفع بصمت العالم لا ينتفع بعلمه .

« إن الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فعله أكثر مما يكلمهم بلسان قوله ، فإذا نظر الصادق إلى تصاريفه في مورده ومصدره ، وخلوته وجلوته ، وكلامه وسكوته ، ينتفع بالنظر إليه ، فهو نفع اللحظ ، ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا ، فلفظه أيضًا لا ينفع . ونورانية القول على قدر نورانية القلب ، ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها » . وهذا من جيد الكلام .

---

(١) المنطلق ص٢٥٥ - ٢٥٦ .

ومثله من كلام التابعين قول شهر بن حوشب : « إذا حدث الرجل القوم ، فإن حديثه يقع من قلوبهم موقعه من قلبه » .

وقال مالك بن دينار : « إن العالم إذا لم يعمل بعلمه ، زلت موعظته عن القلوب ، كما تزل القطرة عن الصفا » .

ويرحم الله الرافعي ، حيث قال : « إن الموعظة إن لم تتأد في أسلوبها الحي كانت بالباطل أشبه ، وإنه لا يغير النفس إلا النفس التي فيها قوة التحويل والتغيير ، كنفوس الأنبياء ، ومن كان في طريقة روحهم ، وإن هذه الصناعة إنما هي وضع نور البصيرة في الكلام ، لا وضع القياس والحجة ، وإن الرجل الزاهد الصحيح الزهد إنما هو حياة تلبسها الحقيقة لتكون به شيئًا في الحياة والعمل ، لا شيئًا في القول والتوهم ، فيكون إلهامها فيه ، كحرارة النار في النار ، من واتاها أحسها .

ولعمري ، كم من فقيه يقول للناس : هذا حرام ، فلا يزيد الحرام إلا ظهورًا وانكشافًا ، ما دام لا ينطق إلا نطق الكتب ، ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع ، وقد خلا من القوة التي تجعله روحًا تتعلق الأرواح بها ، وتضعه بين الناس في موضعٍ يكون به في اعتبارهم كأنه آتٍ من الجنة منذ قريب ، راجع إليها بعد قريب .

والفقيه الذي يتعلق بالمال وشهوات النفس ، ولا يجعل همه إلا زيادة الرزق بالمال وشهوات النفس ، وحظ الدنيا ، هو الفقيه الفاسد الصورة في خيال الناس ، يفهمهم أول شيءٍ ألا يفهموا عنه »[١] .

« إن الأسوة وحدها هي علم الحياة »[٢] .

ودعوتنا هي الحياة .

---

(١) ، (٢) وحي القلم للرافعي ٢/٢٠١ ، ٢/١١١ .

فالأسوة وحدها علم الدعوة .

وعلم الدعوة كله هو الأسوة الصادقة[١] .

أخي : إن الواو والراء والدال لا يشم منها رائحة الورد ، فكن بالخير موصوفًا ولا تكن للخير وصافًا .

« إن عمر بن الخطاب أبقى معه الأحنف بن قيس - وكان متكلمًا لبقًا داهية - في المدينة سنةً يراقبه ، ثم قال له : يا أحنف ، قد بلوتك وخبرتك ، فلم أرَ إلَّا خيرًا ، ورأيت علانيتك حسنةً ، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك ، فإنا كنا نتحدث : إنما يهلك هذه الأُمّة كل منافقٍ عليمٍ »[٢] .

كم من المتكلمين بالإسلام ترى الدعاية ترفعه ، فإذا عاملته وجدته مصلحِيًّا جافّ القلب والروح . وحقًّا قال عبد الوهاب عزام :

إن في الناس أوجُهًا لامعاتٍ　　تملأ العين زهــرة ورواءَ
ويراها البصير صورة زهــر　　لم تهبها الحياة عطرًا وماءَ[٣]

ولمثل هذا دأَبَ السلف الصالح على كثرة التوصية بضرورة مثل هذا الاختبار ، كقول الحسن البصري : « اعتبروا الناس بأعمالهم ، ودعوا قولهم ، فإن الله لم يدع قولًا إلا جعل عليه دليلًا من عملٍ يصدقه أو يكذبه ، فإذا سمعت قولًا حسنًا ، فرويدًا بصاحبه ، فإن وافق قوله عمله فنعم ، ونعمة عَيْنٍ ، فآخِهِ ، وأحْبِبه ، وأوْدِده ، وإن خالف قولًا وعملًا ، فماذا يشبه عليك منه ، أو ماذا يخفى عليك منه ؟! إياك وإياه ، لا يخدعنك »[٤] .

---

(١) المنطلق ص٢٥٧ - ٢٥٨ .
(٢) طبقات ابن سعد ٧/٩٤ .
(٣) ديوان المثاني ص٨١ .
(٤) الزهد لابن المبارك ص٢٦ .

« إنها الوصية القديمة ، ولكن القلوب تغفل ، وشهوة الوصول السريع ، أو شهوة التكاثر بالأنصار ، تلهي ، وتدعو إلى التجاوز عن العلم الموروث »[(١)].

عالي الهمة من الدُّعاة ليس هدفه التجميع القطيعي :

« من المزالق أن تسير الدعوة وراء رجل الشارع حريصةً عليه قبل حصول المقدار اللازم من الوعي الإسلامي والعدد الكافي من أصحاب التربية الصلبة .

إن المتولعين بالسياسة من الدعاة ، يريدون للدعوة أن تدخل في سباقٍ مع الأحزاب لاكتساب رجل الشارع ، والغوغاءِ ، والدهماء ، والمصفقين ، الذين هم مادة الأحزاب الجاهلية الأرضية وعنصر حياتها ؛ لأن هذه الأحزاب تستطيع أن تبدِّل وتحور برامجها وفق طلبات هؤلاء ، وتبعًا لاستهلاك السوق .

أما الدعوة الإسلامية ، فما بمثل هؤلاء تنتصر ، وما بمثل هؤلاء تغير مجرى الحياة.إن التجميع القطيعي ممكِنٌ ، لكنه لا يستمر طويلًا »[(٢)] .

يقول الشيخ البنا : « التدرج في الخطوات وانتظار الزمن وعدم التسرع بالنتائج ، فلكل أجلٍ كتابٌ » . والزمن جزء من العلاج ، وهذا يقي الدعوة المصارع .

إن الطريق التربوي : صعب ... طويل ... بطيء . يسبقنا فيه الأرضيون لوقتٍ ... يسقط فيه بعضنا ... وتفوتنا بعض المغانم فيه ... لكنه طريقٌ مأمون ، ثابت ، مضمون .

طريق واحد أصيل لا ثاني له : « أقيموا دولة الإسلام في صدوركم .. تقم في أرضكم » .

---

(١) المنطلق ص٢٥٩ - ٢٦١ .

(٢) المنطلق ص٢٤٠ - ٢٤١ .

إنك واجدٌ كثيرًا من الدعاة الإسلاميين والجماعات الإسلامية ، يفنون أعمارهم وهم يلهثون وراء إقامة حُكم إسلامي ، أو المطالبة بدولة إسلامية ، فإذا حاققتهم ، وجدتهم غارقين في المخالفات الشرعية ، والأحوال الشركية ، والأفعال البدعية - إلّا من رحم ربي سبحانه - ناسين أو متناسين ، جاهلين أو متجاهلين « أنَّ قيام حكم إسلامي في أي بلدٍ لن يجيء عن مثل هذه الطرق ، وأنه لن يكون إلا بمنهجٍ بطيءٍ طويل المدى ، يستهدف القاعدة لا القمة ، ويبدأ من غرس العقيدة من جديد ، والتربية الإسلامية الأخلاقية ، وأن هذا الطريق الذي يبدو بطيئًا طويلًا جدًّا ، هو أقرب الطرق وأسرعها »[(١)] .

« إذ إن الوصول إلى تطبيق النظام الإسلامي والحكم بشريعة الله ، ليس هدفًا عاجلًا ؛ لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بعد نقل المجتمعات ذاتها - أو جملة صالحة منها ذات وزن وثقل في مجرى الحياة العامة - إلى فهمٍ صحيح للعقيدة الإسلامية ، ثم للنظام الإسلامي ، وإلى تربية إسلامية صحيحة على الخلق الإسلامي ، مهما اقتضى ذلك من الزمن الطويل والمراحل البطيئة »[(٢)] .

والخلاصة: «إن تحكيم الشريعة، وإقامة الحدود، وقيام الدولة الإسلامية واجتناب المحرمات وفعل الواجبات ؛ كل هذه الأمور من حقوق التوحيد ومكملاته ، وهي تابعةٌ له ، فكيف يعتنى بالتابع ويهمل الأصل ؟! »[(٣)].

التوحيد منطلق الدعوة إلى الله وغايتها :

أُسُّ الدعوة إلى الله التوحيد ، وزبدةُ رسالات الرسل .

---

(١) « لماذا أعدموني » . سيد قطب ص٦٧ .

(٢) « لماذا أعدموني » . سيد قطب ص٢٩ .

(٣) الدعوة إلى الله بين التجمع الحزبي والتعاون الشرعي ، لعلي حسن عبد الحميد ص٣٦ - ٣٧ ، دار الصحابة .

« التوحيد منطلق الدعوة إلى الله ، وغايتها ، فلا دعوة إلى الله بدونه ، مهما تسمت باسم من أسماء الإسلام ، وانتسبت إليه ، وذلك أن الرسل جميعًا ، وعلى رأسهم سيدهم وخاتمهم محمد ﷺ كانت دعوتهم إلى توحيد الله بدءًا وغايةً ونهايةً ، فكل رسول قال لقومه أول ما قال : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره** ﴾ »[١].

يقول الشيخ سيد قطب في الظلال (٢/٩٤٠، ٩٤١) : « إن دين الله ليس راية ولا شعارًا ولا وراثة !! إن دين الله حقيقة تتمثل في الضمير وفي الحياة سواء ، تتمثل في عقيدة تعمر القلب وشعائر تقام للتعبد ، ونظام يصرف الحياة ... ولا يقوم دين الله ، إلا في هذا الكل المتكامل ... وكل اعتبارٍ غير هذا الاعتبار تمييعٌ للعقيدة ، وخداع للضمير .

وصاحب الدعوة لا يكون قد بلغ عن الله إلّا إذا أبلغهم حقيقة الدعوة كاملةً ... وحين يجمجم صاحب الدعوة ويتمتم ولا يبين عن الفارق الأساسي بين واقع الناس من الباطل وبين ما يدعوهم إليه من الحق ، حين يفعل هذا صاحب الدعوة - مراعاةً للظروف والملابسات - يكون قد خدعهم وآذاهم .

إن التلطف في دعوة الناس إلى الله ، ينبغي أن يكون في الأسلوب الذي يبلغ به الداعية ، لا في الحقيقة التي يبلغهم إياها ... إن الحقيقة يجب أن تبلغ إليهم كاملةً ... أما الأسلوب فيتبع المقتضيات القائمة ، ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة » .

إن مصلحة الدعوة لا تكون في بعد الناس عن تعلم عقيدتهم ، أو بيان بدع الناس وما هم عليه من البعد عن السنة .

---

(١) من مقدمة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق لكتاب « منهج الأنبياء » ص١١ .

يقول الشيخ سيد قطب ، رحمه الله : « إن كلمة « مصلحة الدعوة »[١] يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات ؛ لأنها مزلة ، ومدخل للشيطان ، يأتيهم حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص .

ولقد تتحول « مصلحة الدعوة » إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة ، وينسون معه منهج الدعوة الأصيل .

إن على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على منهجها ، ويتحروا هذا المنهج ، دون التفاتٍ إلى ما يعقبه هذا التحري من نتائج ، وقد يلوح لهم أن فيها خطرًا على الدعوة وأصحابها .

فالخطر الوحيد الذي يجب أن يتقوه هو خطر الانحراف عن المنهج لسببٍ من الأسباب ، سواء كان هذا الانحراف كثيرًا أو قليلًا ، والله أعلم منهم بالمصلحة ، وهم ليسوا بها مكلفين ، إنما هم مكلفون بأمرٍ واحدٍ : ألَّا ينحرفوا عن المنهج ، وألَّا يحيدوا عن الطريق »[٢] .

الدعوة إلى الله شرفٌ في الغاية ، طهارةٌ في الوسيلة :

الدعوة إلى الله وسيلة لإقامة العبودية في النفس ، ونشرها بين الناس ، وهي في نفسها عبادة .

والأصل في العبادات التوقف والبطلان حتى يقوم دليلٌ على الأمر . فلا مجال هِنا للتجارب الشخصية ، ولا للاجتهادات الفكرية ... بل المجال أبدًا مجال تعبُّد ، ليس للأقيسة والآراء فيه موضع !! فهو شرف في الغاية وطهارة في الوسيلة ، فلا يسوغ لنا أن نلبس الدعوة إلى الله لباس تنظيمٍ

---

(١) بدون الضابط الشرعي للمصالح والمفاسد .

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب (٥/٦١٧) .

أجنبيٍّ عنها ، واستفراغ الجهد فيه ، مما يؤول بالهدم والإسقاط لأصول الدعوة وبنيتها الأساسية .

فالدعوة تتكون من وسيلة وغاية : حقيقة الدعوة أمر ثابت لا يتغير بتغير الأزمان والمكان والأحوال ، والأصل في وسائل نشر الدعوة كذلك التوقيف على منهاج النبوة ، إذ « كل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادةٌ »[١] .

والوسائل للدعوة هي في عصرنا – وفيما قبله وبعده – لا بد أن تكون هي وسائل الدعوة التي بعث بها النبي ﷺ ، وبلغ فيها الغاية ، ولا تختلف في عصرنا مثلًا إلّا في جوانب منها مرتبطة بأصولها التوقيفية . ولكن هذا التغيير مأسورٌ بمضمار الشرع ، موزون بمقاييس الكتاب والسنة ، فمتى اختل شيءٌ منه ، وجب إبعاده ، والبراءة منه .

أمّا وسيلة محدثة يتعبد بها فلا ، إذ « طريق الدعوة طريق واحد سار عليها رسول الله ﷺ وصحابته من قبل ، وسار الدعاة ، ونسير عليها بتوفيقٍ من الله من بعد ، إيمان وعمل ، ومحبة وإخاء »[٢] .

هذه نصيحتنا للذين يدعون إلى الله ولا يقدمون بين يدي الله ورسوله ، ليس للمخذولين ولا للمتخاذلين ولا للناكصين ولا للمتحمسين الفارغين .

إلى الذين لا يستريبون قيد شعرةٍ بصدق وحقيقة قول نبيهم ﷺ : « تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » ... عملًا لا ادعاءً ، تطبيقًا لا أماني خياليةً ، فيعلمون أنها المحجة ... وبها

(١) العبودية لابن تيمية ص٦٦ .

(٢) الدعوة إلى الله لعلي حسن عبد الحميد ص٤٧ – ٤٨ .

الحجة ، فلا عاطفة تحرفهم ، ولا واقع يزيغهم ... غايتهم السامية العمل بطاعة الله ... رجاء رحمة الله ... على نورٍ من الله .

لا تحك رأسك إلا بأثر :

« إن استطعت أن لا تحك رأسك إلّا بأثر ، فافعل » .

قال أبو العالية : « عليكم بالأمر الأول ؛ الذي كانوا عليه قبل أن يتفرقوا » .

قال عاصم الأحول : فحدثت به الحسن البصري فقال : « قد نصحك والله وصدقك » .

عن مطرف بن عبد الله بن الشخير أنه قال : « كنا نأتي زيد بن صوحان ، فكان يقول : يا عباد الله ، أكرموا ، وأجملوا ؛ فإنما وسيلة العباد إلى الله بخصلتين : الخوف والطمع . فأتيته ذات يوم وقد كتبوا كتابًا ، فنسقوا كلامًا من هذا النحو : إن الله ربنا ، ومحمد نبينا ، والقرآن إمامنا ، ومن كان معنا كنا وكنا ، ومن خالفنا كانت يدنا عليه وكنا وكنا . قال : فجعل يعرض الكتاب عليهم رجلًا رجلًا ، فيقولون : أقررت يا فلان ؟ حتى انتهوا إليّ ، فقالوا : أقررت يا غلام ؟ قلت : لا ! قال - يعني زيدًا -: لا تعجلوا على الغلام ، ما تقول يا غلام ؟ قلت : إن الله قد أخذ علي عهدًا في كتابه ، فلن أُحْدِث عهدًا سوى العهد الذي أخذه علي . فرجع القوم من عند آخرهم ، ما أقر منهم أحد ، وكانوا زهاء ثلاثين نفسًا »[(١)].

وهذه قصة عجيبة تبين كيف كان فهم السلف - رضوان الله عليهم - للعمل الجماعي ، وأنه لا يخرج في شكلٍ ولا مضمونٍ عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وليتعلم منها الدعاة أن الأعمال الشرعية والأقوال الدينية ، يجب أن توضع في قالبها الشرعي ، دون أي شيءٍ مما هو حادث مما لا دليل

(١) حلية الأولياء (٢٠٤/٢) ، وسير أعلام النبلاء (١٩٢/٤) بسند صحيح .

عليه . فأين من هذا مما يسمونه البديل الإسلامي ، والمسارح الإسلامية ؛ التبعية والتقليد المناقض لأصول الشخصية الإسلامية في وضوحها واستقلالها ، بَدَلًا من التحايل والتمييع وتتبع الرخص والزلات و « عصرنة الإسلام » .

وليتعلم الدعاة منها : سماع الحق من أي إنسانٍ كان ، سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا ، طالما أن الحجة معه والدليل يرافقه ، وأن الكثرة أو القلة ليست معيارًا للخطأ والصواب .

ولتعلم يا أخي أن العمل الجماعي - بصفته السنية - والتعاون على البر والتقوى ، ذو ثمرةٍ جليلة ، أما ما يشم منه رائحة تحزُّبٍ أو افتراقٍ عن الأُمة بشكلٍ أو مضمونٍ ، فلا .

يقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/١٥ - ١٦) : « وليس للمعلمين أن يحزبوا الناس ، ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء ، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر والتقوى » .

ويقول رحمه الله (١١/٥١٢) : « وليس لأحدٍ أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته ، ويعادي على ذلك ، بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان ، وما عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم ، ولا يخص أحدًا بمزيد موالاةٍ ، إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه ، فيقدم من قدم الله تعالى ورسوله عليه ، ويفضل من فضل الله ورسوله » .

علو الهمة في دعوة غير المسلمين للإسلام .

رَجُلٌ يُسلم على يديه أربعةُ آلافٍ من الأجانب :

هذا الرجل المبارك الأُمّة المهندس محمد توفيق بن أحمد مؤسس « دار تبليغ الإسلام » أثناء إقامته في سويسرا في بعثة هندسية (١٩٢٩ - ١٩٣١) يعمل في صمتٍ منذ خمسة وستين عامًا ، ومحرر مجلة البريد الإسلامي

وصاحب امتيازها ، والذي أسلم على يده أربعة آلاف من الأجانب ، منهم قسيس يعمل أستاذًا للأدب في جامعة الفاتيكان ، وقاضي جزيرة سان موريس ، والقائد الهولندي « كلنجر » الذي أسمى نفسه « محمد توفيق كلنجر » تيمنًا باسم صديقه الأستاذ محمد توفيق .

أصدر بداية مجلة اسمها « التقوى » وطبع من العدد الأول منها ألف نسخة ، ووزعها فانتشرت بحمد الله انتشارًا واسعًا ، وكان يكتب عليها – كما يكتب على مجلة « البريد الإسلامي » –: « اقرأها وأعطها لغيرك مشكورًا » . وواصل إصدار « التقوى » حتى سنة ١٩٣٥ .

ولَمَّا رشح في بعثة هندسية إلى سويسرا عام ١٩٢٩ ، يقول : « وهناك شعرت بحاجة الأوروبيين للحصول على فكرةٍ صحيحة وموضوعية عن الإسلام ، ومن ثم بدأ العمل لتبليغ الإسلام « دار تبليغ الإسلام » وهو اسم معنوي كنت أعمل من ورائه ولا زلت ، وكانت كل الرسائل والإعلانات التي أبعث بها إلى الصحف الأوروبية ، أو أنشرها من خلالها : باسم محمد توفيق محرر مجلة « التقوى » في القاهرة ، وكنت أتسلم كثيرًا من الرسائل على المنزل الذي كنت أسكن فيه ، وبالطبع كنت أرد عليها ، وفي كل مكانٍ كنت أتواجد فيه ، أجد كثيرًا من الأسئلة المتعلقة بالإسلام والمسلمين ، وكانت صورة الإسلام مشوهة من أعداء الإسلام والمستشرقين ، ومن حَسَنِي النية الذين يصدقون كل ما يقرءون فيعتقدون أن الإسلام بهذه الصورة ، وذات مرة قام أحد المبشرين واسمه روبلي أو دكتور روبلي ، مفتش التبشير في أسوان في ذلك الوقت ، وكان بصدد جمع تبرعات للمساعدة في خدمات المستشفى التبشيري في مصر ، ونشر في الصحف أنه سيلقي محاضرة عن مصر وفلسطين ، وحدد موعدها وحث الجمهور لحضوَرها ، وكان مكان المحاضرة في أحد المعابد الأوروبية وتصورت

وقتها أنه سيتعرض في محاضرته للإسلام ، وفعلًا تناول في حديثه أشياء كثيرة تمس الإسلام ، وتحدث في مواضيع كثيرة عن العرب وفلسطين ومصر ، وقد حمل الرجل صورًا معه إلى المحاضرة ، تسيء إلى الإسلام وإلى مصر أبلغ إساءة ، ومن الصور التي عرضها بالفانوس في هذا الوقت ، صورة جمل ، وسيدة تركب خلف الرجل في المكان المنحدر من مؤخرة الجمل تكاد تسقط ، ليوحي بهذا أن معاملة الرجل للمرأة في الإسلام سيئة . ثم قال : هل تتخيلون كيف يتم الزواج هناك ؟!- القول للدكتور روبلي - المرأة عند المسلمين تباع ، فهناك التي يشتريها الزوج عند الزواج بعشرةِ جنيهات[1]، وأُخرى بعشرين ، وثالثة بخمسين ، كأنك تشتري عنزًا أو جاموسة ، يمكنك أن تشتري المرأة ، ويمكنك أن تتزوج ممن تعجبك بأي عدد تشاء - ولم يحدد الدكتور روبلي عدد النساء بأربع كما هو معروف !! .

وبعد هذا عرض د . روبلي صورة أُخرى لرجلين يمشيان ، أحدهما مغزله يغزل به وأمامه زوجه تحمل حملًا ثقيلًا من القمح ، قدره د . روبلي حسب الصورة بأنه أربع كيلات ، وقال للمشاهدين الذين يشاهدون الصورة : هل تعرفون كم تحمل هذه المرأة ؟ إنها تحمل ما يساوي أربع كيلات من القمح ، وبالرغم من ذلك يقول زوجها لصاحبه : سأطلقها بالرغم من تفانيها وتعبها في خدمته ، وبعد ذلك قال لهم : الآن سأعرض عليكم صورة لأكبر مستشفى رمدي في مصر في القاهرة ، وجاء بصورة ضريح السيدة نفيسة ، وتظهر فيه حلقات في جوانب الضريح ، وجاء بأناس تظهر عيونهم بصورة قبيحة جدًّا ، وقد وضعت عليها طبقاتٌ من الطين بشكل قبيح ، تتقزز منه العين ، وقال : هذه الطبيبة - السيدة نفيسة - من نسل النبي أُرسلت إلى مصر لتعمي المصريين !! وقال لهم : هل تعرفون كم عدد

(١) إشارة إلى المهر في الثلاثينيات من القرن العشرين .

العميان في مصر ؟ وأجاب : إنهم يمثلون (٣٠٪) ! وعندما انتهت المحاضرة قدم المحاضرون التبرعات لهذا المبشر ، ورغبت في أن أرد على د . روبلي ، غير أن لغتي الألمانية لم تكن تسعفني في هذه المهمة ، فقلت كلماتٍ قصيرة في نهاية المحاضرة ، واستمع إليها الحاضرون ؛ مؤداها أن لي تعليقًا قصيرًا ستقرءونه في الصحف ، وأثناء خروجي اعتذرت له عن الإسهام في تقديم التبرعات ، وعندما ذهبت إلى البيت قالت لي المرأة التي كنت أسكن عندها - غاضبةً - وقد حضرت : هل دينكم بهذا الشكل ؟ وهل الحياة في بلادكم على هذه الصورة القبيحة ؟! غير أني لم أنم تلك الليلة ، وجئت بجميع القواميس في محاولة مني لكتابة ردٍّ يصحح ما أثاره مفتش التبشير في محاضرته من أكاذيب ومغالطات ، وفي الصباح صححت لي هذه المرأة الرد المكتوب بلغةٍ ركيكة ، وبعثت بهذا الرد إلى الصحف ، وقد نسخت منه ثماني نسخ ، ونشرت الصحف الرد في صفحاتها الأولى ، وذكرت أنه لمحمد توفيق محرر مجلة « التقوى » بالقاهرة ، ومن هنا كانت الحاجة ماسة لتأسيس « دار تبليغ الإسلام » ؛ لتقوم بتقديم مفهوم صحيح عن الإسلام ، ولتساعد الأجانب الراغبين في معرفة الحقيقة فيما يتصل بالإسلام ، بلغاتهم الحية في مواجهة حملات التضليل والأكاذيب والتعصب »[1] .

والغريب أن المهندس محمد توفيق أثناء إقامته بالفيوم درس في مدرسة تبشيرية ، وغضب والده وطرده من البيت ، وأقام إقامة داخلية بهذه المدرسة ، واكتشف بفطرته أباطيل الإنجيل ، وكتب في ذلك ثلاث كراريس

---

(١) « رجل من أُمّة التوحيد أسلم على يده ٤٠٠٠ من الأجانب » لعبد اللطيف الجوهري ص٢٢ - ٢٥ . دار الصحوة للنشر .

مدرسية ، رد بها على مستر « جلوي » مفتش التبشير ، الذي لم يستطع الإجابة ، وما قال له إلا : إن الذي كتب هذا الكلام شيطان وليس أنت . وضاق ذرعًا بالمدرسة التبشيرية ، وعاد إلى أحضان أبويه بعد أن اطلع عمه - وكان ذا دينٍ - على ما كتبه ابن أخيه ردًّا على الإنجيل .

يقول الأستاذ عبد اللطيف الجوهري - مؤلف كتاب « رجل من أمة التوحيد أسلم على يده ٤٠٠٠ من الأجانب » - للمهندس محمد توفيق ، أثناء حواره معه الذي ذكره في كتابه ، وكان هذا الحوار سنة ١٤٠٧هـ الموافق يونية سنة ١٩٨٧ ، ونشر في مجلة « منار الإسلام » الظبيانية الغراء ص١٠٨ - ١١٣ : « ماذا عن رقم آخر بطاقة تزف للمسلمين بشرى ميلاد مسلم جديد . وما قصة إسلامه باختصار ؟ فقال الشيخ محمد توفيق : آخر بطاقة رقم (٣٣٣٤) وصاحبها هولندي ، جاء إلينا فأعطيته رسائلي ليقرأها ، ولكن لم أرَ منه الحماس الكافي لاعتناق الإسلام ، وفي مرة أُخرى زارني في صحبة صديق إنجليزي معه شديد التحمس إلى الإسلام ، فعندما رأى هذا الحماس لدى الإنجليزي ، عاد إليّ بعدما تفرغ لدراسة الإسلام ، وأقر بالشهادتين وكتب إقرارًا بالإسلام وأسلم »[1] .

كان الشيخ المهندس محمد توفيق يراسل مثقفي العالم الذين يريدون فكرة صحيحة عن الإسلام ، ويتلقى آلاف الرسائل على صندوق بريده رقم (١١٢) في القاهرة من مختلف أنحاء العالم .

يقول رحمه الله : « إن اتجاهي لتبليغ الإسلام للأجانب ، دفعني إليه - بالإضافة إلى واجب التبليغ على كل مسلم - افتتان العرب والمسلمين بالأجانب ، فيما يعرف « بعقدة الخواجة » فأردت أن أتخذ من الأجانب

(١) رجل من أمة التوحيد ص٢٧ .

حقلًا للدعوة الإسلامية ، فإذا أسلم هؤلاء الأجانب ، لفت ذلك أنظارنا في بلاد العرب والمسلمين – مما يلفتنا – إلى عظمة ديننا وضرورة الالتجاء إليه والتشبث بهديه »[١] .

ويقول : « إنني في مجال تبليغ الدعوة للأجانب ، لا أترك الأجنبي الذي يراسلني بصدد دعوة الإسلام ، إلا بعد ما يعلن الشهادتين ، وفي العادة قد تطول المراسلة أو تقصر ، وأقصر مراسلة انتهت بإعلان إسلام أحد الأجانب من ألمانيا استمرت شهرين ، وأطولها استمرت سبعة عشر عامًا مع رجل من تشيكوسلوفاكيا ، ومع هذا الأخير الذي كانت تربطني به صداقة ، وكان يتردد على القاهرة ويتفضل بزيارتي ، وكان مصرًّا على التمسك بعقيدته ، بيد أنه جاءني ذات مرة ، بعد مرور سبعة عشر عامًا على صداقتنا ، وقال لي : إنني أحمل لك مفاجأة ، فقلت له : ما هي ؟ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله »[٢] .

رحمه الله ، لقد تفرغ تفرغًا تامًّا لمراسلة الأجانب والرد على استفساراتهم طوال عمره المبارك الذي يناهز التسعين عامًا .

كتب إليه رجلٌ نصراني أجنبي : إن عمري ثمانون عامًا ، وقد دأبت منذ نعومة أظافري على التردد على الكنيسة، وإن ما قدمته من معلوماتٍ عن المسيح ، يفوق ما عرفت عنه في الكنيسة .

يراسل الشيخ محمد توفيق صيدليًّا كاثوليكيًّا يسكن في « بازل » على الحدود الفرنسية وزوجته ، مدة طويلة بعد طول جهدٍ معهما ، ويرسل إلى زوجة هذا الصيدلي ترجمة معاني القرآن الكريم ، وتستوقفها أشياء ، ويسافر

---

(١) رجل من أمة التوحيد ص٥٩ .
(٢) رجل من أمة التوحيد ص٥٩ – ٦٠ .

الشيخ إلى « بازل » ويصل بقطار الساعة الرابعة بعد الظهر ، وكانوا في انتظاره - الصيدلي وزوجه وأولاده - ولم يكونوا يعرفونه ، وكان قد وافاهم بمواصفاته ، وأنه طويل نحيف بنظارة ومعه كتاب لونه أحمر ، وكان قد حمله ليعرف به ، واهتدوا إلى معرفته ، وفور وصولهم إلى البيت ، قالت له زوجة الصيدلي : هل أنت متوضىء ؟ فقال لها : نعم ، فقالت : ونحن أيضًا متوضئون ، ثم طلبت منه أن يصلي بهم إمامًا ، فتأثر وبكى .

أم نقص حكاية الصبي الألماني ، الذي كان والده يراسل الشيخ في موضوع « الإسلام » ووصلت مراسلته إلى قناعته بالإسلام ، وكان الشيخ في مراسلته قد ذكر له أن أول من أسلم من الصبية علي بن أبي طالب ، ومن الرجال أبو بكر الصديق ، ومن النساء خديجة بنت خويلد ، وبعد ما أعلن الرجل إسلامه ، وبعث إلى الشيخ بإقرار الشهادة ، أرسل إليه الشيخ شهادة اعتناق الإسلام ، وعقب ذلك تلقى الشيخ رسالة من ابن الألماني الصبي وقال : أرجو أن ترسل لي الإقرار للتوقيع عليه ، وشهادةً باعتناق الإسلام مثل أبي ، فكتب إليه الشيخ يستمهله حتى يكبر ويزداد تعرفه على الإسلام ، فأرسل من فوره رسالةً ذات منطقٍ مفحم ، أقنع الشيخ وأثر فيه كثيرًا ، حيث قال في رسالته : « هل طلب محمد بن عبد الله من علي ابن أبي طالب أن يرجىء إسلامه حتى يكبر ؟! » فلم ير إلا أن يلبي طلبه فورًا ، ويرسل إليه الإقرار ليوقعه ، ثم الشهادة باعتناق الإسلام[١] .

يقول الأستاذ أنور الجندي عن المهندس محمد توفيق أحمد : « هذا رجل ليست له شهرة الأدباء ، ولكن له مكانة العاملين في مجال الفكر

---

(١) رجل من أمّة التوحيد ص٨٥ .

الإسلامي والدعوة الإسلامية في صدقٍ وثبات ، وقد اختار مجالًا لا يكاد ينافسه فيه أحد ، وهو المحيط الخارجي ، وفي قلب أوروبا بالذات ، وأصدر مجلة « البريد الإسلامي » الزاهرة عام ١٩٤٣م ، وأنشأ « دار تبليغ الإسلام » قبل ذلك عام ١٩٢٩م ، بدأ عمله في سويسرا عن طريق الرسائل والإعلانات ، ففي كل محطةٍ من المحطات على طول الطريق من النمسا إلى زيورخ إلى باول ، تجد لوحًا تقول : « لقد علمت خطأ عن الإسلام ، إن كنت تريد أن تعرف الحقيقة ، فاكتب إلى فلان ، فإذا أرسلت إليه ، أرسل لك كتبًا صغيرة موجزة » وقال لي : أرسل لي خمسةً من أصدقائك ، ولا يلبث أن يرسل لهم بطاقاته ، وامتد عمله في النمسا والسويد والنرويج وفرنسا ، ونما هذا العمل الصامت الخالص لوجه الله ، وفي سبيل التعريف بالإسلام ، وتحرير مفاهيمه ، حتى كتب إلى مائة ألفٍ من البشر ، قال لهم كلمة التوحيد ، فكسب منهم أصدقاء ، وكسب منهم معتنقين ، ونشأ من خلال ذلك في هذه الأقطار مجتمعات إسلامية »(١) .

يا سبحان خالق الهمم ... يرسل خطابات إلى مائة ألف شخص !! .

ويقول الصحفي المغربي الأستاذ عبد القادر الإدريسي عن الشيخ محمد توفيق في مقالة « الرجل المؤسسة » : « أسلم على يده أكثر من ثلاثة آلاف شخص ... هذا هو المدخل الرئيسي إلى عالم صاحبي ... التقيت به مرتين ، تفصل بينهما ثلاث عشرة سنة كاملة ، لم يتغير الرجل طوال هذه المدة ، بل أستطيع أن أقول : إن قوته وعزيمته تزدادان مضاءً مع توالي الأعوام ، الإشراق في عينيه يجذبك إليه بقوة ، رجل ليس كالرجال ، قمة من القمم

---

(١) رجل من أمة التوحيد ص١١١ - ١١٢ . نقلًا عن مقالة في مجلة « المنهل » الحجازية في رجب سنة ١٣٩٠ الموافق سبتمبر سنة ١٩٧٠ بعنوان « لقاء مع جيل الرواد المهندس محمد توفيق أحمد » .

الشامخة التي وهبت حياتها لله رب العالمين ... يحتفظ بمكتبه - الذي يشغل جناحًا من شقته المتواضعة - بملفاتٍ كاملةٍ عن الأشخاص الذين اهتدوا إلى دين الله على يده ، أصناف متعددة من البشر ، الصفة التي تجمعهم أنهم خارج الوطن الإسلامي ، والحكاية لها بداية جديرة بالتسجيل : رحل صاحبي إلى أوروبا في الثلاثينيات ، وأقام بإحدى المدن السويسرية ، حيث عمل في الهندسة الكهربائية ، وطالت إقامته في تلك الديار ، وأقام علاقات عديدة مع مختلف الطبقات ، مما أكسبه حسن السمعة وطيب الذكر ، وأخذ في الدعوة إلى الإسلام في الأوساط المسيحية ، ولقي عمله إقبالًا كبيرًا ، وفوجيء بتدفق لم يكن يتوقعه من شتى الأوساط ؛ المتعلمة والمثقفة والعادية ، فزاده ذلك إقبالًا على المضي في هذا الطريق ، ودخل الكنائس والمدارس والسجون والنوادي الليلية ، وأخذ ينفق على الدعوة من دخله الشخصي ، وهداه تفكيره إلى استئجار الأماكن العامة ، مثل دور السينما والنوادي وقاعات الاجتماعات ؛ لإلقاء المحاضرات وإدارة الندوات ، وفجأة وجد نفسه في عالمٍ لم يخطط له . كان في البداية يقدر أن المسألة لا تعدو أن تكون عملًا متواضعًا . يقصد به وجه الله لا أقل ولا أكثر ، فإذا به أمام نتائج باهرة وحركة واسعة وإقبالٍ لم يخطر على بال ، وإذا باسم الرجل يتردد في أكثر من جهة في أوروبا ، وإذا بالصحافة تكتب عنه ، وإذا برجال الكنيسة يتحركون لمعرفة السر وراء هذا النجاح ، فلما أيقنوا أن الرجل لا يدعمه أحد سوى الله ، كفوا عن المناوشة وسلموا أمرهم لله ، حتى إن بعض الرهبان والقساوسة أخذوا يترددون عليه في مقر إقامته بمدينة بادن (أرجاو) بسويسرا لمناقشته والأخذ عنه ، وكتب الله لهذا العمل المتواضع الخالص لوجهه الكريم ، أن يتسع ويمتد ويشع وينمو في اطراد ، وكان أن ارتفع المعدل الشهري للذين يُقبلون على الإسلام ، وبمرور الأعوام قفزوا إلى الألف الأُولى ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، وهذا كله

من فضل ربي الذي لا يضيع أجر من أحسن عملا . اتخذ لنفسه شعارًا يلخصه في الجملة التالية : « الناس جميعًا أسرة واحدة ، ربها واحد ، ودينها واحد ، هو الإسلام الذي دعا إليه جميع رسل الله الكرام ، والسعيد الناجي من فهم القرآن ، وعمل على نشر تعاليمه التي تحقق المحبة والسلام بين بني الإنسان » . وهو يطبع هذا الشعار على الرسائل التي يوزعها مجانًا بسبع لغات على القارات الخمس . هذا الرجل تخطى عتبة الثمانين ولا يزال في فتوة وحيوية الشباب .

رجل يستحق التكريم ممن جعل الله تكريم الرجال على أيديهم .. لقد أسعدني أن ألتقي بالمهندس محمد توفيق بن أحمد سعد ، وهذا اسمه بالكامل . ألستم معي أن هذا الرجل يضاهي عمله عمل المؤسسات .. إنه بحق الرجل المؤسسة ، ولا عجب »(١) .

وتحت عنوان « مع العاملين في صمت وبلا دعاية » كتب الأستاذ محمد الجندي : « يذكر المهندس توفيق أحمد ، أنه في الوقت الذي تحاصر فيه الصحافة الإسلامية وتخضع لأجهزةٍ متعددة من الرقابة ، فإن جمعية « شهود يهوه » تصدر مجلة تسمى « برج المراقبة » وتوزع منها عشرة ملايين نسخة ، وبتسع وسبعين لغة ولهجة في العالم ، بينما كل المجلات والصحف في العالم الإسلامي لا تتجاوز إصداراتها في مجموعها على مليون نسخة ، وفي عددٍ محدود من اللغات ، علمًا بأن جمعية « شهود يهوه » هي مؤسسة يهودية ترتدي ثوبًا نصرانيًا مزيفًا ، وتقوم على مبدأ خداع الجماهير المسيحية الساذجة ، وإدخال نبوءات التوراة المحرفة في النفوس ، والتي منها ما يبشر بعودة اليهود إلى فلسطين والتي تخدم الفكر الصهيوني . ودار تبليغ الإسلام

(١) مجلة «المسلمون» الدولية بلندن – العدد الصادر في ٢١ من رجب سنة ١٤٠٢/ الموافق ١٤ من مايو ١٩٨٢م .

تقوم على شخصٍ واحد ، هو « الساعي ومسئول العلاقات العامة والمحرر ورئيس التحرير ومسئول المراسلات والتمويل وغيرها » . وقد وصفته إحدى المجلات الإسلامية بأن هذا الجهد الكبير ، الذي يقوم به ، لا تستطيع مؤسساتٌ بكاملها عمله ، ورجحت جهده على جهد أحد المؤتمرات الإسلامية ، والتي أشرفت عليه مجموعة دولٍ في إحدى العواصم الأوروبية عام ١٩٧٦ ، وكان هذا المؤتمر يهتم بالتراث من خلال مخطوطاتٍ إسلامية ومجموعة محاضرات ، ورغم هذا لم يعلن أحدٌ إسلامه .

ويمنح المهندس توفيق أحمد شهادةً بإسلام من يرغب من الأوروبيين ، ولا يتم منح هذه الشهادة إلّا بعد إجراء الاختبارات الدقيقة حول الدوافع من اعتناق دين الإسلام ، ويكتب في الشهادة أي خروج على تعاليم الإسلام يلغيها »(١) .

« اقرأها وأعطها لغيرك مشكورًا ، ولا تحتكرها فتأثم » . كتبت هذه العبارة على مجلة البريد الإسلامي ... فرحم الله الرجل الأُمَّة المؤسسة ... عالي الهمة ... الشيخ الداعية المهندس محمد توفيق ، الذي أسلم على يديه أربعة آلاف شخص ، وكتب إلى مائة ألف شخص يدعوهم إلى الإسلام ... هذه هي الأُسوة والقدوة .

الشيخ رحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني القرشي الهندي ، وجهوده في مقاومة التنصير ، وكتابه « إظهار الحق » :

وحين نتكلم عن التنصير في الهند ، الذي مهد له الاستعمار الانجليزي ، وتحويل المساجد إلى كنائس ، وبناء ألف مدرسة تبشيرية كنسية يدرس

---

(١) مجلة « الهدى » الخليجية – العدد الصادر في يوم الجمعة ١٤ من ذي الحجة سنة ١٤٠٥هـ .

فيها خمسة وستون ألف طالب ، ويتبع للكنائس معاهد متخصصة وكليات في « هوجلي » و « كلكتا » و « لاهور » و « غازي يور » و « عليكرة » تدار بأموال الوقف الإسلامي ... نتكلم عن المنصر هنري مارتين ، الذي وضع أساسًا قويًا للتنصير بترجمة الإنجيل إلى الفارسية والأردية ... نأتي إلى خاتمة المطاف إلى المستشرق الأمريكي الكاثوليكي د . فندر ، والذي تحول إلى البروتستانتية وأرسلته كنيسة إنجلترا رئيسا للمنصرين في الهند .

تزعم فندر الحملة التنصيرية داخل الهند بإلقاء المواعظ والخطب في الاجتماعات العامة والمآتم والأفراح الإسلامية والهندوسية ، والتهجم على العقائد غير النصرانية ، والطعن في الإسلام ، والتشكيك في القرآن الكريم وفي رسول الإسلام ﷺ ، وتحدي علماء المسلمين علنًا .

وكان يوجه المنصرين إلى مختلف المديريات الهندية ، ويدربهم على إلقاء الخطب والمحاضرات . وألف عدة كتب للدعوة للنصرانية ، أهمها وأخطرُها « ميزان الحق » ، بل هو أخطر كتب المنصرين على الإطلاق ، وتلقى المنصرون والقساوسة هذا الكتاب بالقبول والتقدير ، لشموله جميع الشبه والافتراءات ، وكل ما يمكن أن يعترض به المنصرون والمستشرقون على دين الإسلام ، بالإضافة ... لشموله جميع أوجه الرد والدفاع عن العقائد النصرانية ، ونفدت له ثلاث طبعات متتالية في الهند بالإنجليزية والفارسية والأردية ، وترجم فيما بعد للتركية والعربية . وهذا الكتاب هو الينبوع الذي منه يستقي المبشرون مطاعنهم في الإسلام ، ويعد صاحبه به أخطر منصر دخل القارة الهندية . وقد عد م . هوري زعزعة فندر لعقيدة المسلمين في الهند بترجمته كتابه « ميزان الحق » إلى اللغتين الفارسية والأردية ، أعظم من عمل القس هنري مارتين بترجمته الإنجيل للفارسية والأردية ، كما ورد في كتاب الغارة على العالم الإسلامي

(ص٣١ - ٣٢) ، وقد عد إبراهيم خليل أحمد - القسيس المصري الذي أسلم - في كتابه الاستشراق والتبشير (ص٦٤ ، ٦٢) أخطر أربعة كتب للمنصرين ، وجعل أولها وأكثرها خطورة كتاب « ميزان الحق » .

وكان لهذا الكتاب ردود فعل عنيفة ، حصلت عند المسلمين إثر صدور هذا الكتاب ؛ لانتشاره السريع ، وسكوت كثير من العلماء عن الرد عليه فترةً من الزمن ، بحيث خيف على ضعاف النفوس من الردة .

بل إن رام شندر الهندوسي الذي كان صديقًا لفندر وللشيخ رحمت الله ، وكان محبًّا لفندر وكتبه ، تجرأ أن يطلب من الشيخ رحمت الله - وهو أستاذ الهند بلا منازع في الرد على النصارى - زيارة فندر لعله يهتدي إلى النصرانية !!

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في مجلة البعث الإسلامي عدد ٩ سنة ١٣٩٩هـ ص٥٥ : « وقد استفحل أمر فندر ورأى أن الجو قد خلا له ، فازداد جراءةً وتحديًا ، ورأى الشيخ رحمت الله أنه لا سبيل إلى الحد من نشاط هؤلاء القسوس ، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم القس فندر ، وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين إلا مناظرة فندر في مجمع حافل ، يحضره المسلمون والمواطنون والحكام الأوروبيون والنصارى والمنصرون ، وكان فندر كثير الإدلال بكتابه ميزان الحق ، فخورًا بتبجحاته ، ويرى أنه ليس من السهل معارضته ونقضه من علماء المسلمين .

كل هذه الأسباب مجتمعةً ، جعلت الحاجة ماسة للرد على هذا القسيس ، مما حفز الشيخ رحمت الله للدعوة إلى مناظرته علنًا حتى يعريه ، ويفقده كل هذا الأثر في الأوساط الهندية .

فأرسل الشيخ رحمت الله تسع رسائل إلى الدكتور القسيس فندر لترتيب أمور المناظرة العلنية بينهما ، بدأت المراسلات بتاريخ ٢٣ آذار ،

وانتهت في ٨ نيسان سنة ١٨٥٤ ، ويظهر منها أن الشيخ رحمت الله قد أشرب قلبه حب المناظرة ، وكان يخشى عدم قبول فندر للمناظرة العلنية ، فقد كانت رسائل فندر إليه تحوي شروطًا صعبة لتثبيط همته ، فقبلها ، وتم الاتفاق بينهما على أن تكون المناظرة في خمسة موضوعات ، هي : النسخ ، والتحريف ، وأُلوهية المسيح والتثليث ، وإعجاز القرآن ، ونبوة محمد ﷺ ، وأن تكون المناظرة يومي الإثنين والثلاثاء ١١ ، ١٢ رجب سنة ١٢٧٠هـ و١١ نيسان سنة ١٨٥٤م في موضوعي النسخ ، والتحريف ، ومكان المناظرة في خان عبد المسيح الذي كان مدرسة في السابق ، وأن يكون القسيس فزنج مساعدًا للقسيس فندر ، وأن يكون الدكتور محمد وزير خان أبادي مساعدًا للشيخ رحمت الله ، وكان محمد وزير خان قد درس الطب في لندن وتخرج عام ١٨٣٢م فأتقن اللغتين الإنجليزية واليونانية ، واطلع على المسيحية في مصادرها الأصلية ، وعند عودته إلى الهند أحضر معه عددًا من الكتب الأصلية عن النصرانية وأقوال علمائها المحققين .

وتم انعقاد مجلس المناظرة العام في اليوم الأول ١١ رجب في تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا ، في حي عبد المسيح ببلدة أكبر أباد ، وقد توافد الناس لحضور المناظرة من المسلمين والمسيحيين والوثنيين ، وكان على رأس الحضور أُمراء المسلمين والهندوس وحكام الإنجليز وأعيان البلدة والوجهاء وكبار الموظفين المدنيين والعسكريين ، كما حضرها القضاة والعلماء المسلمون والقساوسة والمنصرون ومراسلو الصحف ، وقد زاد عدد الحضور في هذا اليوم على خمسمائة نفس ، وتناقل الناس خبر المناظرة ، فزاد عدد الحضور في اليوم الثاني على ألف نسمة من جميع الأطراف .

وقد أسفرت هذه المناظرة الكبرى عن :

تعرية فندر وكتاباته :

فقد استطاع الشيخ رحمت الله بفضل الله في هذه المناظرة أن يظهر فندر للناس على حقيقته ، وتعرية كتاباته التي ملئت تبجحًا وتحدِّيًا ، فأظهر تناقضه في مواضع عديدة من كتبه ، وأنه كان يكتب بغير علم ، وقد تراجع فندر عن كتاباتٍ كتبها ، ويكفي انتصارًا للشيخ ، أنه أظهر للحاضرين ضآلة علم فندر ، وتهربه عن الجواب بطرق شتى .

اعتراف القسيس فندر العلني وصاحبه بوقوع النسخ والتحريف في كتب العهدين : بسبعة مواضع أصلية ، منها أكبر شاهدٍ لهم التثليث ، وهو ما في رسالة يوحنا الأولى ٥/٧ - ٨ ، من أن الذين يشهدون في السماء ثلاثة ، وهم واحد .

كما اعترفا بوجود أربعين ألف موضع سمياها سهو الكاتب أو اختلاف العبارة ، مع عدم القدرة على تعيين الصادقة جزمًا ، وقدما القول بأن اختلافات العبارة أربعون ألفًا ، على القول القائل بأنها مائة ألف وخمسون ألفا ، وهي ما يطلق المسلمون عليه اسم التحريف النافي لبقاء إلهامية كتب العهدين .

فلما ظهرت الغلبة لرحمت الله في مسألتي النسخ والتحريف ، ورأى ذلك صاحب الميزان « فندر » ، سد باب المناظرة ، ووقع في عرض الشيخ ونفسه ، ولعل القسيس « فندر » خشي أن يظهر المزيد من مثالب كتاباته ، وخاصة مسألتي الألوهية والنبوة ، بل لعله خشي أن يهتدي إلى الله وإلى الدين الحق ، بعد أن يثبت له الشيخ بطلان عقيدة ألوهية المسيح وثبوت نبوة محمد ﷺ ، على ما كان مشروطًا من دخول المغلوب في دين الغالب منهما .

وبعد هزيمة فندر في المناظرة ، وجره العار الكبير والخزي على الكنيسة ، لم يستطع البقاء في الهند ، وسافر إلى ألمانيا وسويسرا وبريطانيا ،

ثم اختارته الكنيسة منصرًا في مقر الخلافة الإسلامية في القسطنطينية فسافر إليها سنة ١٨٥٨م .

وقد اتصل فندر بالسلطان عبد العزيزَ خان ، وزور أخبار المناظرة ، وزعم أن الغلبة فيها كانت له ، ثم دعا مسلمي تركيا إلى الاقتداء بإخوانهم مسلمي الهند ، حيث زعم أنهم تحولوا إلى النصرانية ، وأن المساجد أصبحت كنائس ، وأخذ يتجول في أرجاء تركيا يشيع أخبار هذه المناظرة بطريقته الخاصة ، معتمدًا على الكذب وتزوير الحقائق ؛ لرفع مكانته وستر فضائحه .

ولكن السلطان عبد العزيز خان أُصيب بغمٍّ شديد لسماعه أخبار فندر ، وخشي أن تؤثر هذه الإشاعات على أبناء المسلمين ، وقد علم من الحجاج الأتراك أن الشيخ رحمت الله موجود في مكة المكرمة - بعد مصادرة الإنجليز لأمواله ، وجعلوا مكافأة ألف روبية لمن يدلهم على الشيخ رحمت الله ، وحظروا بيع كتبه وطبعها ، فاضطر للهجرة متخفِّيًا حتى وصل إلى مكة سنة ١٨٦٢م - فعجل السلطان عبد العزيز بالأمر إلى أمير مكة الشريف عبد الله بن عون ، بإرسال الشيخ رحمت الله إلى دار الخلافة ؛ ليناظر فندر في تركيا .

ولما حل الشيخ ضيفًا رسميًا في قصر الخلافة ، وسمع فندر بذلك فر هاربًا من تركيا .

وقد أوعز السلطان العثماني بترحيل المنصرين عن تركيا ، وحظر نشاطهم ، ومصادرة كتبهم ومنع انتشارها .

ولمَّا سمع السلطان عبد العزيز العلماء والوزراء وكبار رجال الدولة ، طلب من الشيخ أن يقص خبر المناظرة ، فلما استبان للسلطان طول باع الشيخ في هذه الموضوعات ، وتمكنه منها ، طلب منه تأليف كتاب باللغة

العربية يضم مسائل المناظرة الخمس ، فعقد الشيخ العزم على تأليف كتاب يكون سدًّا منيعًا في وجه المنصرين ، فألف كتابه « إظهار الحق » ليكون مرجعًا لطلاب العلم والباحثين عن الحق والمتخصِّصين في هذا الفن .

ولو كان فندر يعلم أن مجيئه إلى تركيا وكذبه على السلطان عبد العزيز خان ، وتزويره أخبار المناظرة ، سيكون سببًا في تأليف هذا الكتاب ، لفضل البقاء في بلاده ، أو قطع لسانه ، كي لا يخرج هذا السفر الجليل إلى عالم الوجود ، فأي دارسٍ لعلم مقارنة الأديان والرد على العقائد الباطلة ، وأي طالب للرد على المنصرين والمستشرقين ، وأي باحث عن الحق بخصوص كتب أهل الكتاب وعقائدهم ، ولا يطلع على « إظهار الحق » ، يكون قد فاته من هذا العالم زبدته ، ولن ينال مادته في أي كتاب آخر .

فهو كتاب في فنه آية ، وليس وراءه لمبتغي الزيادة غاية .

أظهرت أنواره أسراره ... كم جلتْ أقمارُه ليلَ ارتيابْ
نِعْم مبناه رياضٌ أثمرتْ ... دُرَّ معناه لمن يدري الخطابْ
كلّ غاوٍ لو رآه مُنصفًا ... من ظلام الكفر بالإيمان طابْ

وقد طبع الكتاب أكثر من عشر طبعات بالعربية ، وأمر السلطان العثماني عبد الحميد خان بترجمته وطباعته وتوزيعه في العالم الإسلامي ، وترجم إلى تسع لغاتٍ أجنبية ، منها : الألمانية والفرنسية والإنجليزية ، وترجم إلى التركية . وغاظ النصارى صدور هذا الكتاب ، فأخذوا يشترون الكتاب من الأسواق بجميع ترجماته وطبعاته ، ويجمعونها ثم يتلفونها بالحرق ، قاصدين إعدام وجوده من الأسواق العالمية ، ومنع وصوله إلى أيدي القراء عامة والنصارى خاصة ، وقد علقت صحيفة اللندن تايمز على هذه العملية الحاقدة بقولها : « لو دام الناس يقرءون هذا الكتاب لوقف تقدم المسيحية في العالم » .

وكيف لا والشيخ أعلم بكتب النصارى واليهود منهم ، فالشيخ درس كتب العهدين دراسةً نقديةً تحليلية عدة مرات ، ودرس كتب القدماء والمحدثين من علماء المسلمين واليهود والنصارى ، حتى أصبح عالمًا بجميع طرق النقد ، وكان مجموع طبعات كتب العهدين التي رجع إليها الشيخ في مؤلفه اثنتين وثلاثين طبعة ، بأربع لغات منها (١٣) بالعربية ، و (٨) بالفارسية ، و (٦) باللغات الهندية و (٥) بالإنجليزية .

هذا بالإضافة إلى ثمانية وخمسين مصدرًا أساسيًّا من التواريخ والتفاسير التي كتبها العلماء المحققون من أهل اليهودية والنصرانية . هذا بالإضافة إلى كتب التفسير والتاريخ الإسلامية لعلماء السنة »[١].

فلله همة هذا السهم القرشي العثماني الصائب ، ورحم الله بدر شيوخ الهند وشهابها الثاقب .

الداعية عالي الهمة أحمد ديدات :

الذي زلزل أركان التنصير في جنوب أفريقيا ، وناظر زعماءهم في أمريكا ، وتحدى البابا ودعاه إلى مناظرة علنية ، فما استطاع أن يجيبه إلى طلبه .

يقول هذا الداعية الذي يجوب القارات شرقًا وغربًا رادًّا على افتراءات اليهود والنصارى مزلزلًا لعهديهم ، يقول ديدات في خاتمة كتابه « هل الكتاب المقدس كلام الله » :

« ولا بد أن القارىء إذا كان ذا ذهنٍ متفتح ، أن يكون قد اقتنع الآن أن الكتاب المقدس ليس كما يدعي أتباعه من النصارى ، وخلال أربعين سنة

---

(١) مقدمة كتاب « إظهار الحق » للشيخ الدكتور محمد أحمد محمد عبد القادر ملكاوي ، طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الطبعة الثانية .

يسألني الناس ؛ كيف لي بكل هذا العلم بالنصرانية وكتابها ، وبصراحة فخبرتي باليهوديَة والنصرانية ليست من اختياري ، بل قد أُرغمت أن أكون هكذا .

عندما كنت أشتغل مساعد بائعٍ عام ١٩٣٩ بجانب معهد لتخريج الوعاظ ، كنت وأصدقائي هدفًا دائمًا لخريجي هذا المعهد ، فلم يكن يمر يوم لا يضايقنا فيه هؤلاء بإهاناتهم للإسلام ونبي القرآن ، وقد كنت شابًّا حساسًا في العشرين من عمري ، فكنت أقضي ليالي عديدة ساهرًا أبكي ، لضعفي وعدم قدرتي على الدفاع عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو الذي أُرسل رحمة للعالمين ، وقررت دراسة القرآن والكتاب المقدس والكتب التي تتحدث عنهما ؛ واكتشافي لكتاب « إظهار الحق » كان أول خطوة في تغيير مجرى حياتي ، وبعد فترة كانت لدي القدرة على أن أدعو أولئك الوعاظ للمناقشة ، وأحرجهم بالحقائق المعروضة ، مما اضطرهم لاحترام الإسلام ونبيه » .

بائع الملح الهندي أحمد حسين ديدات الذي عاش في جنوب إفريقيا ، الذي أصبح يجادل آباء الكنائس وعلماء اللاهوت وزعماء التنصير.

هذا الرجل الذي يدعو إلى الله عز وجل عن طريق المحاضرات واللقاءات في كل مدينة يذهب إليها ، وفي كل جامعةٍ يزورها ، وقد ألقى محاضراتٍ في بريطانيا، أيرلندة، أمريكا، كندا، هونج كونج، سنغافورة، الهند ، زيمبابوي ، موريتانيا ، ملاوي ، أبو ظبي ، السعودية ، وأعظم تجمع استمع له أكثر من ٣٠ ألف مستمع في جرين بوينت في مقاطعة الكاب .

هذا الرجل الذي تناظر مع اثنين وثلاثين قسيسًا في أماكن مختلفة من العالم ، وأشهرها في نظره المناظرة التي كانت في قاعة الألبرت هول في لندن ، وقد حضرها جَمْعٌ غفير من الناس بمختلف الأديان والطوائف .

الداعية عالي الهمة الذي أقنع أحد رجال الأعمال ، ممن يشغل وظيفةً في مركز الدعوة الإسلامي في مدراس ، بإنشاء معهدٍ للدعاة ، وبدأ ديدات في تدريب الدعاة على طول الساحل الجنوبي هناك ، واستمر العمل في هذا المعهد لمدة عشر سنوات متصلة ، وخرج جيلًا من الدعاة لنشر الدعوة في الكرة الأرضية ؛ شرقها وغربها .

هذا الرجل الذي تحدى النصارى قائلًا : « لكل مسألة جدلية تقدمونها لي تأييدًا لدينكم ، سأقدم لكم عشرًا ضدها »[١] .

أسس مركز نشر الإسلام في عام ١٩٥٨ في جنوب إفريقيا ، يوزع ١٠٠,٠٠٠ من ترجمة معاني القرآن بالإنجليزية .

قال ديدات : « إن النبي ﷺ قال : « اليد العُليا خيرٌ من اليد السفلى » وهذا يعني أن الذي يعطي ، أرفع منزلةً من الذي يأخذ . إن مهمتنا هي أن نخرج لنبلّغ رسالة الله ، إننا في مكانةٍ أعلى من الناحية العقائدية » .

يقول ديدات : إذا امتلكنا أشعة الليزر فلن تجدينا عن الدعوة إلى الله شيئًا ؛ لأن الدين يظهر بالدعوة والمجاهدة .

ويقول : « ملايين الخطط وملايين المتفرغين المنصرين ، هدفهم تحويل العالم الإسلامي إلى النصرانية ونحن نغط في نومٍ عميق » .

ويقول : « علينا أن نتجاوز القضايا الهامشية في مناظرتنا للنصارى ، ونجادلهم في أصل الخلاف الذي هو قضية التوحيد » .

ويقول : « الأمة التي تملك هذه الأموال الطائلة التي بيد المسلمين ، ولا تنفقها في الدعوة ، أمةٌ تستحق الدمار ، وسيحاسبها الله يوم القيامة » .

---

(١) من الحوار الذي أجرته معه فايزة أمبا في جريدة « عرب نيوز » السعودية التي تصدر بالإنجليزية .

يقول ديدات : « كنت أسأل الجمهور الذين التقيت بهم : « هل سيظهر هذا الدين ؟ » ويقولون : نعم ، إنه الحق ، وإن الدين غالب على الجميع . **فأقول** : إذا كنتم تؤمنون بذلك ، فلماذا تستندون على ظهوركم دون أن تفعلوا شيئًا ، وتركبون السيارات الفاخرة ، وتنفقون الأموال الطائلة فيما لا يفيد ، وتقولون : الدين غالب ، دون العمل له ؟!! » .

ويقول : « شرط اللقاء والتحدث مع النصارى : التحدث عن العبودية لله وحده ، فالحديث عن التوحيد شرط التناظر مع النصارى » .

« يسرق النصارى أطفالنا ، ففي ليستر بريطانيا وضعوا خطة بميزانيةٍ تقدر بملايين الدولارات لتنصير الفولانيين في نيجيريا » .

« الآن يتفرغ لنا المنصرون بالملايين ، حيث يتوزعون حول العالم لتنصير المسلمين ، وهم يقرعون أبوابنا في بلادنا ، فقد تنصر (١٥) مليون أندونيسي ، وهم يفخرون - الآن - بأنهم استطاعوا تنصير الباكستانيين والبنغاليين الآن أكثر من أيام الاستعمار البريطاني هناك ، وهناك الآن مئات الآلاف متفرغون للتنصير في إفريقية »[(١)] .

يا أيها الموحِّدون ، يا ورثة خير النبيين وأعلاهم همة : « إن الإسلام لا بواكي له » .

يقول ديدات : « هناك مجموعة صغيرة من النصارى قد طبعوا أكثر من (٨٤) مليون نسخة من كتابٍ واحد ، بأكثر من (٩٥) لغة مختلفة ، ويطبعون (١٠٢) مليون نسخة من مجلة شهرية بأكثر من (١٠٢) لغة ، ويصدرون من مجلةٍ أُخرى تسمى اليقظة (٨,٩) مليون نسخة في الشهر ، بأكثر من (٥٤) لغة . وميزانية الرجل « سويجارت » مليون دولار يوميًّا ،

---

(١) من كتاب « أحمد ديدات بين الإنجيل والقرآن » - كتاب المختار الإسلامي .

ونحن المسلمين بكل دخلنا من البترودولار ، لا نستطيع أن ننفق مليون دولار للدعوة في السنة الواحدة .

النصارى أصبحوا يجرفون المسلمين في كافة أنحاء العالم ، ولكن ليس هناك من يبكي لهذه النتيجة ، بينما نرى النصارى يندفعون على نطاق واحدٍ لنشر دينهم ، والتضحية بحياة الترف والبذخ ، والعيش في أدغال إفريقية والصحاري الحارقة لنشر دينهم .

فالأيرلنديون - مثلًا ، وهم من الفقراء في بريطانيا مقارنةً بالإنجليز - يبعثون آلاف الرجال والنساء لخدمة المسيح عليه السلام - كما يزعمون - في العالم ، وفي الكنيسة الكاثوليكية والرومانية ، ترى الكثير من القساوسة والراهبات الأيرلنديات ، لماذا ؟! لأنهم يربون من الصغر على التضحية في سبيل المسيح - عليه السلام - ومن أجله .

أما نحن ، فصحيح أنهم يربوننا بالصلاة وتربية اللحية ، وهذا جميل ، ولكنه جزء ، فقلما تسمع على المنبر من يحمسك ويشجعك على الانطلاق والدعوة إلى الله في بقاع العالم . كلهم يحدثونك عن الصلاة والزكاة ... إلخ ، ولكن قلما يكون الحديث لنشر الدين ... أين الجهاد؟ »[١].

وصدق الداعية ديدات التي تمتزج الدعوة بدمه ولحمه .

في مدينة ملكال في جنوب السودان ، تأتي المبشرة من بريطانيا أو فرنسا أو أمريكا ، أُوتيت الواحدة منهن قدرًا من الجمال يؤهلها لحياة الترقي في أرقى المدن رفاهية ... تأتي المبشرة طبيبة أو غيرها تعيش في القطاطي .. الواحدة منهن خص من البوص المطين ، تعيش الواحدة منهن على طعام

---

(١) أحمد ديدات من كتاب المختار الإسلامي - نقلًا عن مجلة الإصلاح الخليجية ، بقلم الأستاذ صفوت منصور .

الويكا - البامية المجففة - وتشرب من النهر مباشرة ، فليس هناك صنابير للمياه ... ترعى أطفال السودانيات ، وتشرف على علاج الأطفال والإشراف على تغذيتهن ، في بيئاتٍ لا يرضى أن يعيش فيها السودانيون أنفسهم ، وتصبر الواحدة العام الطويل حتى تدعو إلى النصرانية .

يقول ديدات : « إن المسلم يملك هذا الدين ... يملك البرهان عليه ، وعليه أن يصحو ، ويعلم أنه يملك « جرافة » منحها الله إياه ، تحطم كل الصخـور - صخور الأصنام والجاهلية - هي هذا الدين ، فعليه استخدامها لنيل العزة ، ولكن تصرفاتنا تدل على ألّا عزة لنا في هذا العالم ، مع أن أصل العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » .

ويقول ديدات : « من مائة ألف صحابيٍّ حضروا حجة الوداع ، لم يدفن في المدينة منهم إلا عشرة آلاف ، أين ذهب الباقون ؟ فهموا معاني الشهادة والتبليغ للرسالة ، وانطلقوا في الآفاق يمتطون خيولهم وجمالهم ، ينشرون دعوة الله ويبلغونها للعالمين ، أدركوا رسالتهم للعالم ، ولم يكتفوا بالجلوس في بيوتهم ومساجدهم يقيمون نصف الدين ويتركون النصف الآخر » .

إلى القابعين في منازلهم ... « يكفيكم أن تعرفوا أن عدد المنصرين (١٧) مليون شخص في جميع أنحاء العالم » .

ولعل من أهم مناظرات الداعية عالي الهمة أحمد ديدات ، مناظرته الشهيرة في أمريكا مع « المنصر الصليبي القس جيمي سويجارت ، صاحب الأحاديث التلفزيونية التي يشاهدها أكثر من مليوني شخص في الولايات المتحدة ، وتصل لأكثر من ١٤٠ بلدًا واستطاع أن يحصل على أكثر من ١٤٠ مليـون دولار سنويًا ، ويعتبر من أكثر المنصرين نفـوذًا في

العالم »[١] .

ولقد أفحمه - على مرأى من الآلاف - أحمد ديدات ، وفي المناظرة تطاول على رسول الله ﷺ ، فأخزاه الله بعدها مباشرة « بفضائح مع المومسات في نيو أورليانز وفنادقها ، وقد دفع أموالًا للمومسات ؛ للقيام بأعمال داعرة ، واعترف بخطيئته أمام ثمانية آلاف شخص من أتباع كنيسته ، ونقلت الاعتراف كل كاميرات التليفزيون عبر الولايات المتحدة ، وأجهش بالبكاء وهو يقدم اعترافاته يوم الأحد ٢/٢١ قائلًا : ليست لدي النية بتاتًا لنكران خطيئتي .. ولا أُسميها غلطة ... جريمة ... أنا أُسميها خطيئة ... كل من جلبت لهم الفضيحة والعار والإحراج ... السماح »[٢] .

وصدق الله : ﴿ **فأمَّا الزَّبَد فيذهب جُفاءً وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾ [الرعد : ١٧].

ثم يعاود عالي الهمة ديدات الكرة مع رأس الأفعى بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني ، ويدعوه إلى « حوار في لقاء علني في ميدان القديس بطرس في روما مقر البابوية ، وفي الوقت والزمان المناسب لقداسته .

ولما لم يرد البابا على تلك الرسالة ، عاود الشيخ ديدات الكرة ، وأرسل له ثلاثة خطابات أُخرى وبرقية ، وهنا رد الفاتيكان مقترحًا إجراء مثل هذا الحوار في سكرتارية الفاتيكان وليس في مكان علني .

رد الشيخ ديدات على بابا الفاتيكان برسالةٍ جاء فيها : « يسعدنا أنكم ترتبون للقاء معنا ، ولكننا نتمسك بأن يكون مثل هذا اللقاء علنًا ، كما كان في خطابنا المفتوح إليكم ، والذي اقترحنا فيه مثل هذا اللقاء ، وذلك من أجل البلايين المؤمنة بالمسيحية والإسلام ، من أجل الحقيقة وإرضاء الرب ...

---

(١) ، (٢) من كتاب « أحمد ديدات بين الإنجيل والقرآن » كتاب المختار الإسلامي .

ومع هذا فيمكننا الالتقاء بكم حسب رغبتكم في السكرتارية ، ولكن هناك العديد من المسلمين في جنوب إفريقيا فقط ، والذين يصرون على حضور هذا اللقاء ، لذلك نرجو إفادتنا عن الإمكانيات المتاحة في سكرتارية الفاتيكان والخاصة بإسكان هؤلاء .

ونظرًا لوجود آلاف آخرين ممن يرغبون في حضور هذا الحوار ، فإننا نطلب أيضًا تصريحًا بتصوير اللقاء بأجهزة الفيديو ، حتى تصل مناقشتنا إلى الملايين الذين يودون الاستفادة من الحوار » .

« وبعد أكثر من شهرين من الانتظار تم إرسال برقيتين أخريين ؛ إحداهما إلى سكرتارية الفاتيكان ، والأُخرى إلى البابا ذاته . وبعد شهر آخر تم إرسال برقيتين أُخريين دون جدوى »[١] .

لله درُّك يا ديدات والله لا نقارن قلامة ظفره ببابا الفاتيكان .

ألم تَرَ أن السَّيْف ينقص قَدْرُه إذا قيل إن السيف أمْضى من العصا

وعلى الطريق سار غازي وأخَوَاهُ :

فبدعوةٍ من بعض قساوسة السودان ومبشريه ، وعلى رأسهم المبشر القسيس جيمس بخيت وتيخارمضان ومن معهما من القساوسة ، عقدت مناظرة استغرقت ستة أيام ... في كل يوم ثلاث ساعات متتالية ، في الفترة من ١٤٠١/١/٢٣ هـ إلى ١٤٠١/١/٢٩ هـ ، الموافق ١٩٨٠/١٢/١ م إلى ١٩٨٠/١٢/٧ ، بين ثلاثة من أعلام الفكر الإسلامي : الشيخ الدكتور محمد جميل غازي والأستاذ إبراهيم خليل أحمد - الذي كان من أخطر القساوسة المصريين وأسلم - واللواء مهندس أحمد عبد الوهاب علي الذي شغل بمقارنة الأديان منذ أكثر من خمسةٍ وعشرين عامًا ، وبين القساوسة السودانيين وعلى

(١) أحمد ديدات بين الإنجيل والقرآن كتاب المختار الإسلامي ص٥٥ - ٥٧ .

رأسهم المبشر القسيس جيمس بخيت ، وآمن جميع القساوسة والمبشرون المناظرون ، وأسلم بإسلامهم خمسمائة »[١] .

والله عز وجل لا يضيع جهد الداعية الدكتور محمد جميل عازي ... الذي ربما ظل في الدعوة بعيدًا عن أولاده خمسة شهور متوالية ، فرحمه الله وأجزل له المثوبة .

وهذا الداعية العظيم إبراهيم خليل أحمد ، الذي كان رأسًا من رؤوس التبشير والكفر في مصر والعالم ، فإذا هو بعد إسلامه يجوب البلاد دعوة إلى الله عز وجل ، يتحدث في جامعةِ أسيوط سنة ١٩٧٦ ، فيقف بعد محاضرته سبعة عشر من شباب جامعة أسيوط ليعلنوا إسلامهم بكل قوة وبكل جرأة .

يقول حفظه الله : « لقد شعرت أن الإسلام يفرض علي فرضا ، وهو أن أحمل رسالة التبليغ ، وأن أدعو برسالة لا إله إلا الله » .

فهلا اتعظ الغافلون من المسلمين بسير الرجال العماليق ... وهلا آمن المبشرون الدجالون الذين يصدق عليهم قول المسيح لليهود : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون ؛ لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلًا واحدًا ، ومتى حصل تجعلونه ابنًا لجهنم أكثر منكم مضاعفًا » .

فعلى كل مسلم أن يضع الدعوة إلى الله نصب عينيه حتى يأتيه اليقين .

ذكر توماس . و . أرنولد في كتاب «الدعوة إلى الإسلام» ص٤٥٣-٤٥٤ أنه : « في إفريقية حكم البلجيكيون على زعيم عربي بالإعدام ، فقضى ساعاته الأخيرة وهو يحاول أن يدخل في الإسلام ذلك المبشر المسيحي ، الذي كان قد أرسل إليه ليزجي إليه التعزيات الدينية » .

---

(١) من كتاب « مناظرة بين الإسلام والنصرانية » طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد .

وذكر توماس ص٣١٩ أن الشيخ حسن علي كان من الدعاة المتحمسين جدًّا لنشر الإسلام ، فلما آن رحيله إلى الدار الآخرة بدأ يردد كلمات دعوية طالما قالها وهو يدعو الناس إلى الإسلام .

وعنه قال توماس . و . أرنولد : « وتجلت حماسته في نشر الدعوة ، حتى في آخر لحظةٍ من لحظات حياته ، حين سمعه بعض الناس خلسة وهو يقول على فراشِ الموت : اترك دينك وصر مسلمًا » فلما سئل عن ذلك ، قال : « إنه يتحدث إلى المسيحيين » .

وهذا فاروق الإسلام ، وهو على فراش الموت لا ينسى الدعوة إلى الإسلام والدخول في السلم كافة .

روى البخاري ، عن عمر بن ميمون قال : « جاء شابٌّ إلى عمر - رضي الله عنه - بعدما طعن ، وعرف الناس أنه ميت ، فقال رجل له : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ ، وقدم في الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ثم شهادة . قال : وددت أن ذلك كفافٌ ، لا علي ولا لي . فلما أدبر فإذا إزاره يمس الأرض ، فقال : « رُدّوا عليّ الغلام ، فقال : يا ابن أخي ، ارفع ثوبك فإنه أنْقَى لثوبك وأتْقَى لربِّك »[1] .

هذا عمر ... متكامل الشخصية .. في أحرج اللحظات وهو على فراش الموت ينهى عن إسبال الإزار للرجال ، فأين من يقول بأن الحديث عن هذا في واقع المسلمين الأليم الآن من علامات ضيق الأفق ؟! .

ونختم بمسك الختام وصديق الأُمة الأكبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

فإن آخر ما قاله أبو بكر - رضي الله عنه - قبل انتقاله إلى رحمة الله

---

(١) صحيح البخاري - كتاب فضائل الصحابة ، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان .

كما روى الطبري في تاريخه (٣/٤١٤) : « عَلَيّ بعمر رضي الله عنه » فجاءه فقال له : « اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به . إني لأرجو أن أموت من يومي هذا - وذلك يوم الإثنين - فإن أنا متُّ فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبةٌ وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم » .

الله أكبر ... لله درك من صِدِّيقٍ كان من الدِّين سمعه وبصره .

وفي هـذا أُسوةٌ للدعاة الذين يريدون الآخـرة ويعملون لها ... ويعيشون بالإسلام وللإسلام إلى يوم لقاء ربِّهم ﴿ **يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلَّا من أتى الله بقلبٍ سليم** ﴾ [الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] .



الفصْـلُ الثَّـانِـي

علـو الهمـة
في
الاتبـاع ومجانبة الابتـداع

□ علو الهمة في الاتباع ومجانبة الابتداع □

إذا أردت أن تعرف قدر الرجل ، فانظر أين همته من الاتباع ومجانبة الابتداع ... فلا يُعدّ الرجل رجلًا إلا إذا خالط حبُّ القرآن والسنة والعملُ بهما لحمه ودمه ، وآثرهما على ما سواهما . فقد بَعَث قيّومُ السموات والأرضين رسوله ﷺ بالكتاب المبين ، والنور للأرواح .

هو الفارق بين الهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والشك واليقين . أنزله لنقرأه تدبرًا ، ونتأمله تبصرًّا ، ونسعد به تذكُّرًا ، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه ، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه ، ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله - سبحانه - من أشجاره ، ورياحين الحكم من بين رياضه وأزهاره .

فهو كتابه الدالّ عليه لمن أراد معرفته ، وطريقه الموصلة لسالكها إليه ، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات ، ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات ، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب ، وبابه الأعظم الذي منه الدخول ، فلا يغلق إذا غُلقت الأبواب . وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء ، والذِّكر لحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء ، والنزل الكريم الذي لا يشبع منه العلماء ، لا تفنى عجائبه ، ولا تقلع سحائبه ، ولا تنقضي آياته ، ولا تختلف دلالاته ، كلما ازدادت البصائر فيه تأمُّلًا وتفكيرًا ، زادها هداية وتبصيرًا . وكلما بَجَّستْ معينه فجّر لها ينابيع الحكمة تفجيرًا . فهو نور البصائر من عماها ، وشفاء الصدور من أدوائها وجَوَاها ، وحياة القلوب ، ولذّة النفوس ، ورياض القلوب ، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، والمنادي بالمساء والصباح : يا أهل الفلاح ، حي على الفلاح . نادى منادي الإيمان على رأس الصراط المستقيم : ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعيَ الله وآمنوا به يَغْفر لكم من ذنوبكم ويُجرْكم من عذاب أليم** ﴾ [الأحقاف : ٣١].

فحقيق بالإنسان أن ينفق ساعات عمره - بل أنفاسه - فيما ينال به المطالب العالية ، ويخلص به من الخسران المبين ، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره ، واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه ، وصرف العناية إليه ، والعكوف بالهمة عليه ، فإنه الكفيل بمصالح العباد ، في المعاش والمعاد ، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد ، فالحقيقة والطريقة ، والأذواق والمواجيد الصحيحة ، كلها لا تقتبس إلّا من مشكاته ، ولا تستثمر إلا من شجراته .

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون ﴾ [يونس : ٥٨] .

وقال تعالى : **﴿ أوَ لم يَكْفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم إن في ذلك لرحمةً وذِكْرى لقوم يؤمنون ﴾** [العنكبوت : ٥١] .

لله درّ مَن « اتخذ الله وحده معبوده ومرجوه ومخوفه وغاية مقصده ومنتهى طلبه ، واتخذَ رسوله ﷺ - وَحدهُ - دليله وإمامه وقائده وسائقه ، فوحّد الله بعبادته ومحبته وخوفه ورجائه ، وإفراد رسوله بمتابعته والاقتداء به والتخلق بأخلاقه والتأدُّب بآدابه ، وللعبد في كل وقت هجرتان : هجرةٌ إلى الله بالطلب والمحبة ، والعبودية والتوكل ، والإنابة والتسليم والتفويض ، والخوف والرجاء والإقبال عليه ، وصدق اللجأ والافتقار في كل نفَسٍ إليه . وهجرةٌ إلى رسوله ﷺ في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة ، بحيث تكون موافقةً لشرعه الذي هو تفصيل محابّ الله ومرضاته ، ولا يقبل الله من أحدٍ دينًا سواه ، وكل عملٍ سواه فعيش النفس وحظها لا زاد المعاد ، قال بعض العارفين : كل عملٍ بلا متابعةٍ فهو عيش النفس »(١) .

---

(١) طريق الهجرتين ص٧ .

فهذا هو الغريب حقًّا « والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء . وأهل العلم في المؤمنين غرباء . وأهل السنة - الذين يميزونها من الأهواء والبدع - فهم غرباء . والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين : هم أشدُّ هؤلاء غربة . ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًّا ، فلا غربة عليهم . وإنما غربتهم بين الأكثرين ، الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ **وإن تُطِعْ أكثر من في الأرض يُضِلّوك عن سبيل الله** ... ﴾ [الأنعام : ١١٦] فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه ، وغربتهم هي الغربة الموحشة ، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم ، كما قيل :

فليس غريبًا مَنْ تَناءَتْ دياره ولكِنَّ مَن تنْأَيْنَ عنه غَرِيبُ

غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق . وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها ، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه : « بدأ غريبًا » وأنه : « سيعود غريبًا كما بدأ » وأن « أهله يصيرون غرباء » .

وهذه الغربة قد تكون في مكانٍ دون مكان ، ووقت دون وقت ، وبين قومٍ دون قوم . ولكن أهل هذه « الغربة » هم أهل الله حقًّا ؛ فإنهم لم يأووا إلى غير الله ، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به . وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم ، فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم ، فيقال لهم : « ألا تنطلقون حيث انطلق الناس ؟ فيقولون : فارقنا الناس ، ونحن أحوج إليهم منا اليوم ، وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده » .

فهذه « الغربة » لا وحشة على صاحبها ، بل هو آنَسُ ما يكون إذا استوحش الناس ، وأشدّ ما تكون وحشته إذا استأنسوا ، فوليُّه الله ورسوله والذين آمنوا ، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه .

ومن صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبي ﷺ -: التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس ، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف

عندهم ، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس ، وترك الانتساب إلى أحدٍ غير الله ورسوله ؛ لا شيخ ، ولا طريقة ، ولا مذهب ، ولا طائفة . بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده ، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده . وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا . وأكثر الناس - بل كلهم - لائم لهم .

فلغربتهم بين هذا الخلق : يعدّونهم أهل شذوذٍ وبدعةٍ ، ومفارقة للسواد الأعظم .

ومعنى قول النبي ﷺ : « هم النزاع من القبائل » ، أن الله سبحانه بعث رسوله ، وأهل الأرض على أديانٍ مختلفة ، فهم بين عباد أوثان ونيران ، وعباد صور وصلبان ، ويهود وصابئة وفلاسفة ، وكان الإسلام في أول ظهوره غريبًا ، وكان من أسلم منهم ، واستجاب لله ولرسوله : غريبًا في حيّه وقبيلته وأهله وعشيرته ، فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزّاعًا من القبائل ، بل آحادًا منهم ، تغرّبوا عن قبائلهم وعشائرهم ، ودخلوا في الإسلام ، فكانوا هم الغرباء حقًّا ، حتى ظهر الإسلام ، وانتشرت دعوته ودخل الناس فيه أفواجًا ، فزالت تلك الغربة عنهم . ثم أخذ في الاغتراب والترحل ، حتى عاد غريبًا كما بدأ . بل الإسلام الحق - الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه - هو اليوم أشدّ غُربةً منه في أول ظهوره ، وإن كانت أعلامُه ورسومُه الظاهرةُ مشهورةً معروفةً . فالإسلام الحقيقيّ غريب جدًّا ، وأهله غرباء أشدّ الغربة بين الناس .

وكيف لا تكون فرقةٌ واحدة قليلة جدًّا ، غريبةً بين اثنتين وسبعين فرقة ، ذات أتباع ورئاسات ، ومناصب وولايات ، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول ؟! فإن نفس ما جاء به : يضادّ أهواءهم ولذاتهم ، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم ، والشهوات التي هي غاياتُ مقاصدهم وإراداتهم ؟ .

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم ، وأطاعوا شحهم ، وأعجب كلٌّ منهم برأيه ؟! كما قال النبي ﷺ : « مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيتم شحًّا مطاعًا وهوًى متَّبعًا ، ودنيا مُؤْثَرةً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، ورأيت أمرًا لا بد لك به ، فعليك بخاصّة نفسك . وإياك وعوامّهم ؛ فإن وراءكم أيامًا صبر الصابر فيهن كالقابض على الجمر » . ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت - إذا تمسك بدينه -: أجر خمسين من الصحابة ، ففي سنن أبي داود والترمذي - من حديث أبي ثعلبة الخشني - قال : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفُسَكم لا يضرّكم من ضلَّ إذا اهتديتم** ﴾ [المائدة : ١٠٥] ، فقال : « بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا ، وهوًى متَّبعًا ، ودنيا مُؤْثَرةً ، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام ؛ فإن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله » . قلت : يا رسول الله ، أجر خمسين منهم ؟ قال : « أجر خمسين منكم » . وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس ، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم .

فإذا أراد المؤمن ، الذي قد رزقه الله بصيرةً في دينه ، وفقهًا في سنة رسوله ، وفهمًا في كتابه ، وأراه ما الناس فيه : من الأهواء والبدع والضلالات ، وتنكُّبهم عن الصراط المستقيم ، الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط : فليوطن نفسه على قدح الجهال ، وأهل البدع فيه ، وطعنهم عليه ، وإزرائهم به ، وتنفير الناس عنه ، وتحذيرهم منه ، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ . فأما إن دعاهم إلى ذلك ، وقَدَح فيما هم عليه : فهنالك تقوم قيامتهم ،

ويبغون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، ويجلبون عليه بخيلِ كبيرهم ورَجْلِه .

فهو غريب في دينه ، لفساد أديانهم . غريبٌ في تمسكه بالسنة ؛ لتمسكهم بالبدع . غريب في اعتقاده ؛ لفساد عقائدهم . غريب في صلاته ؛ لسوء صلاتهم . غريب في طريقه ؛ لضلال وفساد طرقهم . غريب في نسبته ؛ لمخالفة نسبهم . غريب في معاشرته لهم ؛ لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم .

وبالجملة : فهو غريب في أمور دنياه وآخرته . لا يجد من العامة مساعدًا ولا مُعينًا . فهو عالمٌ بين جُهّال . صاحب سنة بين أهل بدع . داعٍ إلى الله ورسوله بين دعاةٍ إلى الأهواء والبدع . آمر بالمعروف ، ناهٍ عن المنكر بين قومٍ المعروف لديهم منكر والمنكر معروف »[١] .

قال رسول الله ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولًا »[٢] .

قال ابن قيم الجوزية : « وهذه سهلة بالدعوى واللسان ، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان. والرضا بنبيه رسولًا يتضمن كمال الانقياد له ، والتسليم المطلق إليه ، بحيث يكون أولى به من نفسه ، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته ، ولا يحاكم إلا إليه ، ولا يحكم عليه غيره ، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة ، لا في شيءٍ من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته ، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه . لا يرضى بحكم غيره ، ولا يرضى إلا بحكمه . فإن عجز

(١) مدارج السالكين ٢/١٩٦ - ٢٠٠ .
(٢) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن العباس بن عبد المطلب .

عنه ، كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم . وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور .

لا يبقى في قلبه حرج من حكمهٔ ، ويسلم له تسليمًا ، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها ، أو قول مقلده وشيخه وطائفته .

وهٰهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم . فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد ، فإنه **والله عين العزة** ، والصحبة مع الله ورسوله ، وروح الأُنس به ، والرضا به ربًّا ، وبمحمد ﷺ رسولًا ، وبالإسلام دينا . بل الصادق كلما وجد مسَّ الاغتراب ، وذاق حلاوته ، وتنسّم روحه ، قال : اللهم زدني اغترابا ، ووحشة من العالم ، وأُنسًا بك . وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب ، وهذا التفرد ، رأى الوحشة عين الأنس بالناس ، والذل عيْن العزّ بهم ، والجهل عن الوقوف مع آرائهم وزبالة أذهانهم ، والانقطاع عن التقيّد برسومهم وأوضاعهم ، فلم يؤثر بنصيبه من الله أحدًا من الخلق ، ولم يبع حظّه من الله بموافقتهم فيما لا يجدي عليه إلا الحرمان .

وغايته : **مودة بينهم في الحياة الدنيا ، فإذا انقطعت الأسباب** ، وحقَّت الحقائق ، وبعثر ما في القبور ، وحُصّل ما في الصدور ، وبليت السرائر ، ولم يجد من دون مولاه الحق من قوةٍ ولا ناصر ، تبيّن له حينئذٍ مواقع الربح والخسران ، وما الذي يخفّ أو يرجح به الميزان »[١] .

وقال ﷺ : « لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين على الحق ، حتى تقوم الساعة »[٢].

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن عمر وصححه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧١٦٤ .

وقال ﷺ : « لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين ، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون »[(١)] .

وعن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرُّهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس » . رواه أحمد والبخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي قوامةً على أمر الله ، لا يضرها من خالفها »[(٢)] .

قال يزيد بن هارون : إن لم يكونوا أصحاب الحديث ، فلا أدري من هم .

وقال ابن المبارك : هم عندي أصحاب الحديث .

وقال ابن المديني : هم أصحاب الحديث .

وقال ابن حنبل : « إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث ، فلا أدري من هم » .

وقال البخاري : يعني أصحاب الحديث . وقال : هم أهل العلم .

فأهل الحديث - حشرنا الله معهم - لا يتعصبون لقول شخصٍ معين مهما سما وعلا ، حاشا محمدًا ﷺ ، وهم الذين هدم الله بهم كل بدعةٍ شنيعة ، فهم أمناء الله في خليقته ، وهم الطائفة الظاهرة والفرقة الناجية ، بل والأمة الوسط ، الشهداء على الخلق .

الدعوة إلى الاتباع ... الدعوة إلى الكتاب والسنة : منهجٌ للحياة ومنهجٌ للفكر ، ومنهجٌ للتصور ، تطلق الإنسان من كل قيدٍ إلا ضوابط الفطرة .

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن المغيرة .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧١٦٨ .

﴿ **يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون** ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

الدعـوة إلى الكتاب والسنة ... الدعوة إلى الاتباع : دعوةٌ تُحيي القلوب والعقول ، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة ، ومن ضغط الوهم والأسطورة ، ومن العبودية لغير الله ، والمذلة للعبدِ أو للشهواتِ سواءٌ .

قال تعالى : ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يُطع الله ورسوله ويخشى الله ويَتقْهِ فأولئك هم الفائزون** ﴾ [النور : ٥١ - ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا قد يعلم الله الذين يتسلّلون منكم لِواذًا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنة أو يصيبهم عذابٌ أليم** ﴾. [النور : ٦٣] .

وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تُقدِّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم * يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعضٍ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾. [الحجرات : ١ - ٢] .

يقول ابن القيم رحمه الله : « فرأس الأدب مع الرسول ﷺ كمال التسليم له ، والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن يحمله معارضة خيالٍ باطلٍ يسميه معقولًا ، أو يحمله شبهة أو شكًّا ، أو يقدم عليه آراء الرجال ، وزبالات أذهانهم ، فيوحده بالتحكيم والتسليم ، والانقياد والإذعان . كما وحد المرسل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل .

فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما : توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول . فلا يحاكم إلى غيره ، ولا يرضى بحكم غيره . ولا

يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه ، وذوي مذهبه وطائفته ، ومن يعظمه ، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره ، وإلا فإن طلب السلامة : أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم ، وإلا حرفه عن مواضعه ، وسمى تحريفه تأويلًا وحملًا . فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنبٍ على الإطلاق - ما خلا الشرك بالله - خيرٌ له من أن يلقاه بهذه الحال .

ولقد خاطبت يومًا بعض أكابر هؤلاء ، فقلت له : سألتك بالله ، لو قُدِّرَ أن الرسول ﷺ حَيٌّ بين أظهرنا ، وقد وَاجَهَنا بكلامه وبخطابه ، أكان فرضًا علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه ، أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم ؟ فقال : بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفاتٍ إلى سواه . فقلت : فما الذي نسخ هذا الفرض عنا ؟ وبأي شيءٍ نسخ ؟ فوضع إصبعه على فيه ، وبقي باهتًا متحيِّرًا ، وما نطق بكلمة .

هذا أدب الخواص معه ، لا مخالفة أمره ، ورفع الأصوات ، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم ، وعزل كلامه عن اليقين ، وأن يستفاد منه معرفة الله ، أو يتلقى منه أحكامه ، بل المعول في باب معرفة الله : على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة ، وفي الأحكام : على تقليد الرجال وآرائها . والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبرُّكًا ، لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه . ومن طلب ذلك ورامه ، عاديناه وسعينا في قطع دابره واستئصال شأفته : ﴿ **بل قلوبهم في غمرةٍ من هذا ولهم أعمالٌ من دون ذلك هم لها عاملون حتى إذا أخذنا مُترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون قد كانت آياتي تُتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرًا تهجرون أفلم يدَّبَّروا القول أم جاءهم ما لم يأتِ آباءهم الأولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له مُنكِرون أم يقولون به جِنّة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ولو اتَّبع الحقُّ**

أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهنّ بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون أم تسألهم خَرْجًا فخَراجُ ربِّك خيرٌ وهو خير الرازقين وإنك لتدعوهم إلى صراطٍ مستقيمٍ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾ [المؤمنون : ٦٣ - ٧٤] .

والناصح لنفسه ، العامل على نجاتها يتدبّر هذه الآيات حقّ تدبرها ، ويتأملها حق تأملها ، وينزلها على الواقع فيرى العجب ، ولا يظنها اختصت بقومٍ كانوا فبانوا « فالحديث لك واسمعي يا جارة » والله المستعان .

ومن الأدب معه : أن لا ترفع الأصوات فوق صوته ، فإنه سببٌ لحبوط الأعمال ، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به ؟ أترى ذلك موجبًا لقبول الأعمال ؟! ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها »[1].

قال تعالى : ﴿ **لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجًا** ﴾. [المائدة : ٤٨] . قال ابن عباس : سبيلٌ وسنة .

وقال تعالى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعةٍ من الأمر فاتَّبعها** ﴾ [الجاثية : ١٨] . قال الحسن : على السنة .

وقال تعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته** ﴾. [البقرة : ١٢١] قال عطاء : يتبعونه حقّ اتّباعه ، ويعملون به حق عمله .

وقال تعالى : ﴿ **ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة** ﴾ [آل عمران : ١٦٤]. قال الحسن : الكتاب : القرآن ، والحكمة : السنة .

وقال تعالى : ﴿ **وإني لغفّارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى** ﴾. [طه : ٨٢]. قال سعيد بن جبير : ثم استقام . قال : لزوم السنة والجماعة . وقال شمر بن عطية : ثم اهتدى . قال : للسنة .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٧ - ٣٨٩ .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودّ وجوه** ﴾ [آل عمران : ١٠٦] ، قال : فأما الذين ابيضت وجوههم : فأهل السنة والجماعة وأولو العلم ، وأما الذين اسودت وجوههم : فأهل البدع والضلالة .

وقال تعالى : ﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم** ﴾. [النساء : ٥٩] . قال عطاء : طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة .

وقال تعالى : ﴿ **فإن تنازعتم في شيءٍ فرُدُّوه إلى الله والرسول** ﴾.
قال ميمون بن مهران : ما دام حيًّا ، فإذا قُبض فإلى سنته . وقال مجاهد : كتاب الله وسنة نبيه ، ولا تردوا إلى أُولي الأمر شيئًا .

قال تعالى : ﴿ **وإن تُطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾ [النور : ٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله يُدخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار** ﴾. [النساء : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقًا** ﴾. [النساء : ٦٩] .

وقال تعالى : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾. [النساء : ٨٠] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن يُطع الله ورسوله ويخشى الله ويَتَّقْهِ فأولئك هم الفائزون** ﴾. [النور : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

وقال تعالى : ﴿ **ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله** ﴾. [التوبة : ٧١] .

وقال تعالى : ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول** ﴾ [آل عمران : ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله ولا تولّوا عنه وأنتم تسمعون** ﴾ [الأنفال : ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿**وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**﴾. [محمد: ٣٣].

عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نبيٍّ بعثه الله في أمةٍ قبلي ، إلا كان له من أمته حواريُّون ، وأصحاب يأخذون بسنته ، ويتقيدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[١] .

وقال ﷺ : « إن أناسًا من أُمتي يأتون بعدي ، يودّ أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله وماله »[٢].

وقال ﷺ : « أشدّ أُمتي لي حبًّا قومٌ يكونون بعدي ، يودّ أحدهم أنه فقد أهله وماله وأنه رآني »[٣].

والدعاوى يحتج لها ولا يحتج بها ... وللمحبة علامات حتى لا يدعي الخلي حرقة الشجي .

فأول علامات المحبة : الاتباع والاعتصام بالكتاب والسنة .

قال الحسن : ادَّعى قوم على عهد رسول الله ﷺ محبة الله ، فابتلاهم الله بهذه الآية : ﴿ **قل إن كنتم تحبُّون الله فاتَّبعوني يحُببْكمُ الله ويغفر لكم**

---

(١) رواه أحمد ومسلم .

(٢) حسن : أخرجه الحاكم عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٠٨).

(٣) صحيح : رواه أحمد في المسند عن أبي ذر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٠٣) .

ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

وثمرة الاتباع محبة الله للمتبع .. وشأن عظيم أن تُحِب ، وأعظم منه أن تُحَبّ .

حواريُّو الرسول من يأخُذُون بسُنّته ويتقيّدون بأمره ، وهم أنصار سنته ، يود أحدُهم لو اشترى رؤيته بأهله وماله وولده ، وهم أعلى الناس همة في اتباع هديه ، وحث الناس على التمسك بسنته ، وذم أهل البدع والتنفير منهم .

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنتْ طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفةٌ فأيَّدْنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾ [الصف : ١٤] .

« هذا الموضع الكريم الذي يرفعهم الله إليه ، وهل أرفع من مكانٍ يكون فيه العبد نصيرًا للرب ؟! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم ... كونوا أنصار الله ... فما أجدر أتباع محمد ﷺ أن يَنْتَدِبُوا لهذا الأمر الدائم ، كما انْتَدَبَ الحواريُّون للأمر الموقوت .

وفي هذا استنهاضُ هِمةِ المؤمنين بالدين الأخير ، الأُمَنَاء على منهج الله في الأرض ، وورثة العقيدة والرسالة الإلهية ، المختارين لهذه المهمة الكبرى ، استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه . فما أطعمه من مذاق وما أعظمها من مهمة ، وما أعلاها من همة .. أن تَتَّبع وتقود الناس إلى الاتباع .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتي على الناس زمانٌ ، الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر »[1] .

---

(١) صحيح . رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٨٧٩) ، والصحيحة رقم (٩٥٥) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من ورائكم زمان صبرٍ ، للمتمسِّك فيه أجر خمسين شهيدًا منكم »[١] .

وعن ابن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى للغرباء ، أناس صالحون في أناس سوءٍ كثير ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم »[٢] .

وقال ﷺ : « إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء »[٣] .

وفي رواية جابر : « الذين يصلحون إذا فسد الناس » .

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلتْ منها القلوب ، وذرفتْ منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظةُ مُوَدِّعٍ ، فأوصنا . قال : أُوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإنْ تأمَّر عليكم عبدٌ ، وإنه من يَعِش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بُسنَّتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كلّ بدعةٍ ضلالةٌ »[٤] .

---

(١) صحيح . رواه الطبراني في الكبير وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٢٣٠) .

(٢) صحيح . رواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٨١٦) ، والصحيحة رقم (١٦١٩) .

(٣) رواه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة ، والترمذي وابن ماجة عن ابن مسعود ، وابن ماجة عن أنس ، والطبراني في الكبير عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس .

(٤) صحيح . رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٠/١ .

وقوله : « عضّوا عليها بالنواجذ » أي اجتهدوا على السُّنّة والزموها ، واحرصوا عليها كما يلزم العاضُّ على الشيء بنواجذه ، خوفًا من ذهابه وتفلُّته .

وعن أبي شريح الخزاعي قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ ». قالوا : بلى . قال : « إن هذا القرآن طَرَفه بيد الله وطَرَفه بأيديكم ، فتمسَّكُوا به ، فإنكم لن تضلّوا ولن تهلكوا بعده أبدا »[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تركت فيكم شيئيْن ، لن تضلّوا بعدهما ؛ كتاب الله وسُنَّتي ، ولن يتفرَّقا حتى يردا عليَّ الحوض »[2] .

وعن أبي موسى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب[3] أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أُخرى ، إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ، ولا تنبت كلأً . فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به » . متفق عليه .

---

(١) صحيح . رواه الطبراني في الكبير ، وقال المنذري : إسناده جيد ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب ١/٢٠ .
هذه الأحاديث وأكثر منها وردت في كتاب لي تحت الطبع وهو : « عطر الياسمين في اتّباع سيِّد المرسلين » .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الألباني ، وصححه في صحيح الجامع رقم (٢٩٣٤) .

(٣) جمع أجدب ، وهي الأرض الصلبة التي تمسك الماء .

وعن المقدام بن معدي كرب قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إني أُوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يُوشك رجلٌ شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلالٍ فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرامٍ فحرِّموه ، وإن ما حرم رسولُ الله ﷺ كما حرَّم الله ، ألا لا يحلُّ لكم الحمار الأهليُّ ، ولا كلُّ ذي نابٍ من السِّباع ؛ ولا لُقَطَة معاهدٍ ، إلا أن يستغني عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم ، فعليهم أن يقروه[(١)] ، فإن لم يقروه ، فله أن يُعقبهم بمثل قِراه »[(٢)] .

وروى الترمذي بسندٍ صحيح ، عن أبي رافعٍ رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أُلْفينّ أحَدَكم مُتّكِئًا على أريكته ، يأتيه الأمر من أمري ، مما أمرتُ به أو نهيتُ عنه ، فيقول : لا أدري ، ما وجدنا في كتاب الله اتَّبعناه »[(٣)] .

وقال رسول الله ﷺ : « قد تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ، ومن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بما عرفتم من سُنّتي ، وسُنّة الخلفاء الراشدين المهدِيِّين ، عضّوا عليها بالنّواجِذ ، وعليكم بالطاعة وإنْ عبدًا حَبَشِيًّا ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف ، حيثما قِيدَ انقاد »[(٤)].

---

(١) أي يُضيّفوه .

(٢) صحيح : رواه أبو داود في « الأطعمة » وفي السنة ، وروى الدارمي نحوه ، وكذا ابن ماجة إلى قوله : « كما حرَّم الله » . وقال الألباني في التعليق على المشكاة (٥٧/١ - ٥٨) : سنده صحيح .

(٣) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة والبيهقي في « دلائل النبوة » وسنده صحيح .

(٤) صحيح : رواه أحمد وابن ماجة والحاكم عن العرباض ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٣٦٩) .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهَدْي هدي محمد ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكلّ بدعةٍ ضلالةٌ » . رواه مسلم .

وعن جابر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ حين أتاه عمر ، فقال : إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا ، أفترى أن نكتب بعضها ؟ فقال : « أمُتَهَوِّكُون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي » .

ولفظ الدارمي : عن جابر ، أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة ، فقال : يا رسول الله ، هذه نسخة من التوراة ، فسكت ، فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير ، فقال أبو بكر : ثكلتك الثواكل ! ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟! فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال : أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ، رضينا بالله ربًّا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا . فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني ، لضللتم عن سواء السبيل ، ولو كان حيًّا وأدرك نبوتي لاتبعني »(١) .

عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم أسلمتُ وجهي إليك ، وفوّضتُ أمري إليك ، وألجأتُ ظهري إليك ، رغبةً ورهبةً إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك

---

(١) حسن . رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان والدارمي ، وقال الألباني في التعليق على مشكاة المصابيح (٦٣/١) : « وفيه مجالد بن سعيد وفيه ضعف ، ولكن الحديث حسن عندي لأن له طرقًا كثيرة عند اللالكائي والهروي وغيرهما » .

الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلت . واجعلهن من آخر كلامك ، فإن مت من ليلتك ، مت وأنت على الفطرة » . قال : فرددتهن لأستذكرهن فقلت : آمنت برسولك الذي أرسلت قال : « قل : آمنت بنبيك الذي أرسلت »[١].

لله ما أحلى هذا الحديث في الحثّ على الاتباع ... قد يقول قائل : ما الفرق بين نبيك ورسولك ؟ الفرق بينهما الاتباع .

قال النووي في شرح مسلم (٥/٥٦٣) : « اختار المازري وغيره ، أن سبب الإنكار : أن هذا ذكر ودعاء ، فينبغي فيه الاقتصار على اللفظ الوارد بحروفه ، وقد يتعلق الجزاء بتلك الحروف ، ولعله أُوحي إليه ﷺ بهذه الكلمات ، فيتعين أداؤها بحروفها ، وهذا القول حسن » .

إن كان يتعين هذا في باب الأذكار ، فما ظنك بالاعتقاد والأحكام ؟! فاقصد البحر وخلِّ القنوات .. إذا أتى نهر الله بطل نهر معقل .. في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل .

ونسرد ونعطر صفحاتنا بذكر سادات المتبعين وذبهم عن السنة ودحضهم للبدعة .

الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : « لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به ، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ » .

هذه والله أعلى الهمم ممن كان من دين الله السمع والبصر .

أخرج البيهقي بسنده : جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه لتسأله ميراثها . فقال لها أبو بكر : ما لك في كتاب الله شيء ، وما أعلم لك في سنة النبي ﷺ شيئًا ، فارجعي حتى أسأل الناس ، فسأل الناس ، فقال له المغيرة بن شعبة : حضرت رسول الله ﷺ أعطاها السدس . فقال

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، واللفظ لمسلم .

أبو بكر : هل معك غيرك ؟ فقام محمد بن مسلمة الأنصاري فقال مثل ما قال ، فأنفذه لها أبو بكر .

الفاروق عمر رضي الله عنه :

خَرّج ابن المبارك عن عمر بن الخطاب : أن يزيد بن أبي سفيان يأكل ألوان الطعام ، فقال عمر لمولى له – يقال له : يرفأ –: إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمني . فلما حضر عشاؤه أعلمه ، فأتاه عمر فسلم عليه ، فاستأذن فأذن له فدخل ، فقرب عشاءَه فجاء بثريد لحم ، فأكل عمر معه منها ، ثم قرب شواء فبسط يزيد يده ، وكف عمر ، ثم قال : والله يا يزيد ابن أبي سفيان ، أطعامٌ بعد طعام ؟ والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم .

عن المسور بن مخرمة ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان ، فقرأ فيها حروفًا لم يكن النبي ﷺ أقرأنيها ، فأردت أساوره وأنا في الصلاة ، فلما فرغ قلت : من أقرأك هذه القراءة ؟ فقال : رسول الله ﷺ . فقلت : كذبت ، والله ما أقرأك هكذا رسول الله ﷺ . فأخذت بيده أقوده ، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، إنك أقرأتني سورة الفرقان ، وإني سمعت هذا يقرأ فيها حروفًا لم تكن أقرأتنيها . فقال رسول الله ﷺ : « اقرأ يا هشام » فقرأ كما كان قرأ ، فقال رسول الله ﷺ : « هكذا أُنزلت » ثم قال : « اقرأ يا عمر » فقرأت ، فقال : « هكذا أُنزلت » ثم قال رسول الله ﷺ : « إن القرآن أُنزل على سبعةِ أحرفٍ » .

واستلم عمر الحجر الأسود وقال : إني لأعلم أنك حَجَر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك .

وعن المسيب رحمه الله قال : قضى عمر رضي الله عنه بقضاءٍ في

الأصابع ، ثم أُخبر بكتابٍ كتبه النبي ﷺ لابن حزمٍ ، فأخذ به وترك أمره الأول .

وقال نافع : كان الناس يأتون الشجرة ، التي بايع رسول الله ﷺ تحتها بيعة الرضوان ، فيصلون عندها ، فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها ، وأمر بها فقطعت .

وعن المعرور قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها ، قال : فقرأ بنا في الفجر ﴿ **ألم تَرَ كيف فعَل ربّك بأصْحابِ الفيل** ﴾ ، و ﴿ **لإيلاف قريش** ﴾ فلما انصرف ، فرأى الناس مسجدًا فبادروه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا مسجدٌ صلَّى فيه النبي ﷺ ، فقال : هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم ، اتخذوا آثارَ أنبيائهم بيعًا ، من عرضت له صلاة فليصل ، ومن لم تعرض له صلاة فليمض .

قال عمر رضي الله عنه على المنبر : « ألا إن أَصحاب الرأْي أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فأفتوا برأيهم ، فضلوا وأضلوا ، ألا وإنا نقتدي ولا نبتدي ، ونتبع ولا نبتدع ، ما نضل ما تمسكنا بالأثر » .

وعن عمر قال : اتهموا الرأْي على الدين ، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأي اجتهادًا ، ووالله ما آلو عن الحق ، وذلك يوم أبي جندل ، والكفار بين يدي رسول الله ﷺ ، وأهل مكة ، فقال : « اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم » . فقالوا : إنا قد صدقناك بما تقول ، ولكن تكتب : باسمك اللهم . قال : فرضي رسول الله ﷺ وأبيت عليهم ، حتى قال : « يا عمر ، تراني قد رضيت وتأبى ؟! » قال : فرضيت .

وعن عمر بن ميمون ، عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا لما فتحنا المدائن ، أصبت كتابًا فيه كلام معجب . قال : أمن كتاب الله ؟ قال : لا . فدعا بالدرة فجعل يضربه بها ، فجعل يقرأ ﴿ **الَر تلك آيات الكتاب المبين إنّا أنزلناه قرآنًا عربيًّا**

لعلكم تعقلون ﴾ إلى قوله : ﴿ **وإنْ كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾ [يوسف : ١ - ٣]. ثم قال : إنما هلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم ، وتركوا التوراة والإنجيل ، حتى دَرَسَا وذهب ما فيهما من العلم .

وعن أَسْلم قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : فيم الرمَلان والكشف عن المناكب ، وقد أطال الله الإسلام ونفى الكفر وأهله ، ومع ذلك لا ندع شيئًا كنا نفعله في عهد رسول الله ﷺ .

وعن السائب بن يزيد أنه قال : أتى رجل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا لقينا رجلًا يسأل عن تأويل القرآن . فقال : اللهم أمكني منه . قال : فبينا عمر ذات يوم جالسًا يغدي الناس إذ جاءه وعليه ثياب وعمامة ، حتى إذا فرغ فقال : يا أمير المؤمنين ﴿ **والذَّاريات ذَرْوًا فالحاملات وِقْرًا** ﴾. فقال عمر رضي الله عنه : أنت هو ؟ فقام إليه ، وحسر عن ذراعيه ، فلم يزل يضربه حتى سقطت عمامته ، فقال : والذي نفس عمر بيده ، لو وجدتك محلوقًا لضربت رأسك ، ألبسوه ثيابه واحملوه على قتبٍ ، ثم أخرجوه ، حتى تقدموا عليه بلاده ، ثم ليقم خطيبًا ، ثم ليقل : إن صبيغًا ابتغى العلم ، فأخطأه ، فلم يزل وضيعًا في عمره حتى هلك(١) .

وأخرج البيهقي بسنده عن عمر بن الخطاب أنه قال على المنبر : « يأيها الناس ، إن الرأي إنما كان من رسول الله ﷺ مصيبًا ؛ لأن الله تعالى كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف » .

وأخرج البخاري عن عائشة قالت : لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص١٢٣ ، ١٢٤ تحقيق د . زينب إبراهيم ، دار الكتب العلمية .

مجوس هجر .

وأخرج سعيد بن منصور عن عمران بن حصين أنهم كانوا يتذاكرون الحديث ، فقال رجل : دعونا من هذا وجيئونا بكتاب الله . فقال عمر : إنك أحمق ، أتجد في كتاب الله الصلاة مفسرة ؟ أتجد في كتاب الله الصيام مفسَّرًا ؟! إن القرآن أَحْكم ذلك والسُّنة تفسره .

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أخرج البخاري عن مروان بن الحكم قال : « شهدت عليًّا وعثمان بين مكة والمدينة ، وعثمان ينهى عن المتعة ، وأن يجمع بينهما ، فلما رأى ذلك عليٌّ أهلَّ بهما جميعًا فقال : لبيك بحجة وعمرة معًا ، فقال عثمان : تراني أنهى الناس عن شيء وأنت تفعله ! فقال : ما كنت لأدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحدٍ من الناس » .

وأخرج البيهقي بسنده عن علي رضي الله عنه قال : « لو كان الدِّين بالرأي لكان باطن الخُفَّيْن أحق بالمسح من ظاهرهما ، ولكن رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهرهما » .

سيد القُرَّاء ، المذرى إذا سما من الشوق والكرب سيد المسلمين أبيّ بن كعب رضي الله عنه :

يقول : « عليكم بالسَّبيل والسنَّة ، فإنه ما على الأرض من عبدٍ على السبيل والسنة ذَكَرَ الله ففاضت عيناه من خشية الله فيعذبه الله أبدًا . وما على الأرض من عبدٍ على السبيل والسنة ذكر الله فاقشعرَّ جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرةٍ قد يبس ورقها ، فهي كذلك ، إذا أصابتها ريح شديدة فتحات عنها ورقها إلا حط الله عنه خطاياه كما تحات عن الشجرة ورقها ، فإن اقتصادًا في سبيل الله وسنةٍ خيرٌ من خلاف سبيل الله وسنة ، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهادًا واقتصادًا أن يكون على منهاج

الأنبياء وسنتهم » .

حذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

وفي الصحيح أنه قال : «يا معشر القراء ، اسلكوا الطريق ، فلئن سلكتموها لقد سبقتم سبقًا بعيدًا ، ولئن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا ... » وفي رواية ابن المبارك : « **فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقًا بعيدًا** » .

وعنه رضي الله عنه : « أخوف ما أخاف على الناس اثنتان : أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون ، وأن يضلوا وهم لا يشعرون » .

وعنه : « أنه أخذ حجرين ، ووضع أحدهما على الآخر ، ثم قال لأصحابه : هل ترون ما بين هذين الحجرين من النور ؟ قالوا : يا أبا عبد الله ، ما نرى بينهما من النور إلا قليلًا . قال : والذي نفسي بيده ، لتظهرن البدع حتى لا يرى من الحق إلا قدر ما بين هذين الحجرين من النور ، والله لتفشون البدع حتى إذا ترك منها شيء قالوا : تركت السنة » .

وعنه أنه قال : « أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، ولتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ، وليطأن نساؤكم وهن حيض ، ولتسلكن طريق من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، وحذو النعل بالنعل ، لا تخطئن طريقهم ، ولا تخطىء بكم ، وحتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة ، تقول إحداهما : ما بال الصلوات الخمس ، لقد ضل من كان قبلنا ، إنما قال الله : ﴿ **أقمِ الصلاةَ طرفي النّهار وزُلَفى من الليل** ﴾ لا تصلون إلا ثلاثًا . وتقول الأخرى : إنما المؤمنون بالله كإيمان الملائكة ، ما فيها كافر ولا منافق . حق على الله أن يحشرهما مع الدجال » .

وهذا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

روى عنه مسلم أنه قال : « من سره أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ

على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن ، فإن الله عز وجل شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم ﷺ لضللتم » .

فتأمل كيف جعل تركها ضلالة ، وفي رواية : « لو تركتم سنة نبيكم ﷺ لكفرتم » .

وعنه رضي الله عنه أنه قال : « اتَّبِعوا آثارنا ولا تبتدعوا ، فقد كفيتم » .

وقال : « عليكم بالعلم قبل أن يقبض ، وقبضه بذهاب أهله ، عليكم بالعلم ، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إلى ما عنده ، وستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله ، وقد نبذوه وراء ظهورهم ؛ فعليكم بالعلم ، وإياكم والتبدع والتنطع والتعمق ، وعليكم بالعتيق » .

وعنه أيضًا : « ليس عام إلا والذي بعده شرٌّ منه ، لا أقول : عامٌ أمطر من عام ، ولا عام أخصب من عام ، ولا أمير خير من أمير ، ولكن ذهاب علمائكم وخياركم ، ثم يحدث قوم يقيسون الأمور بآرائهم ، فيهدم الإسلام ويثلم » .

وقال أيضًا : « كيف أنتم إذا أُلبستم فتنة يهرم فيها الكبير ، وينشأ فيها الصغير ، تجري على الناس يحدثونها سنة ، إذا غيرت قيل : هذا منكر » .

وقال أيضًا : « أيها الناس ، لا تبتدعوا ولا تنطعوا ولا تعمقوا ، وعليكم بالعتيق ، خذوا ما تعرفون ، ودعوا ما تنكرون » .

وعنه أيضًا : « القصد في السنة خيرٌ من الاجتهاد في البدعة » .

وعن علو همته في الاتباع وذمّ الابتداع :

قال عمرو بن زُرَارة : « وقف عليَّ عبد الله - يعني ابن مسعود - وأنا أقصُّ فقال : يا عمرو ، لقد ابتدعت بدعة ضلالة ، أو إنك لأهدى من محمد وأصحابه !! فلقد رأيتهم تفرقوا عني ، حتى رأيت مكاني ما فيه أحد »(١) .

« وعن يسار أبي الحكم أن عبد الله بن مسعود حدث أن أُناسًا بالكوفة يسبحون بالحصى في المسجد ، فأتاهم وقد كوم كلُّ رجلٍ منهم بين يديه كومة حصى ، قال : فلم يزل يحصبهم بالحصى حتى أخرجهم من المسجد ، ويقول : « لقد أحدثتم بدعةً ظلمًا ، أو قد فضلتم أصحاب رسول الله ﷺ علمًا ! » .

ومرّ عبدُ الله برجل يقصُّ في المسجد على أصحابه وهو يقول : سبحوا عَشْرًا وهللوا عَشْرًا . فقال عبد الله : « إنكم لأهدى من أصحاب محمدٍ ﷺ أو أضل ، بل هذه ، بل هذه . يعني أضل » .

وعن عبدة بن أبي لبابة أن رجلًا كان يجمع الناس فيقول : رحم الله من قال كذا وكذا مرةً : سبحان الله ، قال : فيقول القوم ، فيقول : رحم الله من قال كذا وكذا مرةً : الحمد لله ، قال : فيقول القوم ، قال : فمر بهم عبد الله بن مسعود فقال : لقد هديتم لما لم يهتد له نبيكم ، أو إنكم لتمسكون بذنب ضلالة .

ومر ابن مسعود بامرأةٍ معها تسبيح تسبح به ، فقطعه وألقاه ، ثم مر برجل يسبح بحصًى فضربه برجله ، ثم قال : لقد سبقتم ، ركبتم بدعة ظلمًا ، أو لقد غلبتم أصحاب محمدٍ ﷺ علمًا .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير بإسنادين ، أحدهما صحيح كما قال المنذري في الترغيب والترهيب ، وأخرجه الدارمي بنحوه أتم منه ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/٢٧ .

وجاء المسيب بن نجيد إلى عبد الله فقال : إني تركت في المسجد رجالًا يقولون : سبحوا ثلثمائة وستين ، فقال : قم يا علقمة واشغل عني أبصار القوم ، فجاء فقام عليهم فسمعهم يقولون ، فقال : إنكم لتمسكون بأذناب ضلال ، أو إنكم لأهدى من أصحاب محمد ﷺ ، أو نحو هذا »[(١)] .

نعم يا صاحب سواك رسول الله ﷺ ... هذه آنيةُ محمد ﷺ لم تجفّ ، وثيابه لم تَبْلُ .

عبد الله بن عباس ، ترجمان القرآن رضي الله عنه :

ولقد كان لترجمان القرآن القدح المعلَّى في الاتباع .

« فعن عروة بن الزبير أنه قال لابن عباس : أضللت الناس . قال : وما ذاك يا عرية ؟ قال : تأمر بالعمرة في هؤلاء العشر ، وليست فيهن عمرة . فقال : أولا تسأل أمك عن ذلك ، فقال عروة : فإن أبا بكر وعمر لم يفعلا ذلك . فقال ابن عباس : هذا الذي أهلككم ، والله ما أرى إلا سيعذبكم ، إني أحدثكم عن النبي ﷺ وتجيبون بأبي بكر وعمر »[(٢)] .

وأخرج الدارمي عن ابن عباس قال : أما تخافون أن تعذبوا ويخسف بكم ؛ أن تقولوا:قال رسول الله ﷺ وقال فلان !.

وعنه أيضًا : أيها الناس ، توشك أن تنزل عليكم حِجَارةٌ من السماء ، أقول لكم : قال رسول الله ﷺ ، وتقولون:قال أبو بكر وقال عمر !! .

لله درك من « طين عجن بماء الوحي ، وغرس بماء الرسالة ، فهل

---

(١) « البدع والنهي عنها » لابن وضّاح القرطبي ص١٧ - ٢٠ ، طبع دار الصفا .

(٢) رواه أحمد والخطيب في الفقيه والمتفقه بسند صحيح نقله في كتاب « العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون » علي حسن علي عبد الحميد ، طبع مكتبة الغرباء الأثرية .

يفوح منك إلا مسك الهدىٰ وعنبر التقى » ... « أقول لكم : قال رسول الله ، وتقولون : قال أبو بكر وقال عمر ... لله درك ... عالي الهمة ... اللقن المعلم ، والفطن المفهم ، فخر الفخار ، وبدر الأحبار ، وقطب الأفلاك ، وعنصر الأملاك المنافس في نفائس الأخلاق ، البحر الزخار ، والعين الحزار ، مفسر التنزيل ، ومبين التأويل ، المفرس الحساس ، والوضيء اللباس ، مكرم الجلاس ، ومطعم الأناس عبد الله بن عباس » .

قال رضي الله عنه : « عليكم بالاستفاضة والأثر ، وإياكم والبدع » .

وقال : « ما يأتي على الناس من عام إلا أحدثوا فيه بدعةً وأماتوا سنة ، حتى تحيا البدع وتموت السنن »[1] .

قال ابن عباس : « إنما هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فمن قال بعد ذلك برأيه فما أدري أفي حسناته أم في سيئاته ؟ » .

حكيم الأمَّة أبو الدَّرْدَاء رضي الله عنه :

أخرج البيهقي عن عطاء بن يسار أن معاوية بن أبي سفيان باع سقاية من ذهبٍ أو ورقٍ بأكثر من وزنها ، فقال له أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ نهى عن مثل هذا ، إلا مثلًا بمثل ، فقال له معاوية : ما أرى بهذا بأسًا . فقال أبو الدرداء : من يعذرني من معاوية ، أخبره عن رسول الله ﷺ ويخبرني عن رأيه ؟! لا أُساكنك بأرضٍ أنت بها .

أبو سعيد الخدري رضي الله عنه :

أخرج الشافعي عن أبي سعيد الخدري أنه لقي رجلًا فأخبره عن

---

(١) الاعتصام للشاطبي ٢/٨١ .

رسول الله ﷺ شيئًا فخالفه ، فقال أبو سعيد : والله لا أواني وإياك سقف بيت أبدًا .

عبد الله بنَ مُغَفَّل رضي الله عنه :

وأخرج الشيخان عن عبد الله بن بُريدة أن عبد الله بن مغفل رأى رجلًا يخذف فنهاه ، وقال : إن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف ، وقال : « إنه لا يرد الصيد ، ولا ينكأ العدو ، ولكنه يكسر السن ، ويفقأ العين » فرآه بعد ذلك يخذف ، فقال : أحدثك عن رسول الله ﷺ ثم تخذف ، والله لا أكلمك أبدًا .

عِمرانُ بن حُصين رضي الله عنه :

وأخرج الشيخان عن عمران بن حصين أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الحياءُ خير كله » فقال بشير بن كعب : إنا نجد في بعض الكتاب : أن منه سكينة ووقارًا ، ومنه ضعفًا . فغضب عمران بن حصين حتى احمرت عيناه . وقال : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه . وفي رواية : « وتحدثني عن صحفك » .

ولفظ ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق : قال بشير بن كعب : إن فيه ضعفًا ، وإن منه لعجزًا . فقال عمران : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتجيء بالمعاريض ، لا أحدثك بحديثٍ ما عرفتك . فقالوا : يا أبا نُجيد : إنه طيب الهوىٰ ... وإنه ... وإنه ، فلم يزالوا به حتى سكن .

أم المؤمنين ، الصِّدِّيقة بنت الصِّديق ، عائشة رضي الله عنها :

عن معاذة العدوية أنها سألت عائشة رضي الله عنها : « ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ؟ فقالت عائشة : أحرورية أنت ؟ قالت : لست بحرورية ، ولكني أسأل . فقالت : كان يصيبنا ذلك مع رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة » .

هذا هو الاتباع « نؤمر ، ولا نؤمر » فرضي الله عن أمِّ المؤمنين ، حبيبة رسول الله ﷺ .

الإمام القدوة شيخ الإسلام المُتعبِّد المتهجِّد ، المُتتبِّع للأثر المُتشدِّد أبو عبد الرحمن القرشيّ العدويّ عبد الله بن عمر :

ما ناقةٌ أضلت فصيلها في فلاة من الأرض بأطلب لأثره من ابن عمر لرسول الله ﷺ .

قال نافع مولى ابن عمر : لو نظرت إلى ابن عمر رضي الله عنه إذا اتبع أثر النبي ﷺ ، لقلت هذا مجنون » .

« وعن عاصم الأحول عمن حدثه قال : كان ابن عمر إذا رآه أحدٌ ظن أن به شيئًا من تتبعه آثار النبي ﷺ » .

« وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه : أنه كان في طريق مكة يقول برأس راحلته يثنيها ويقول : لعل خُفًّا يقع على خُفٍّ ؛ يعني خُفّ راحلة النبي ﷺ »[1] .

بأبي وأمي أنت أبا عبد الرحمن .. هذه والله الرجولة .. وهذا والله الاتباع ...

« لعل خفًّا يقع على خفٍّ ».. رحمك الله يا ابن الفاروق .

وهل يُنبِت الخطِّيَّ إلا وَشِيجُهُ ويُزرَعُ إلا في منابته النخلُ

وعن زيد بن أسلم قال : رأيت ابن عمر يصلي محلولةً أزراره ، فسألته عن ذلك . فقال : رأيت رسول الله ﷺ يفعله[2].

---

(١) الحلية ١/٣١٠ ، السير ٣/٢٣٧ .

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/٢٢ - ٢٣ .

وعن مجاهد قال : « كنا مع ابن عمر رحمه الله في سفر ، فمر بمكان ، فحاد عنه ، فسئل : لم فعلت ذلك ؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ؛ ففعلت »[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : « أنه كان يأتي شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها ، ويخبر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك »[٢].

وعن أنس بن سيرين قال : « كنت مع ابن عمر رحمه الله بعرفات ، فلما كان حين راح ، رحت معه ، حتى أتى الإمام فصلى معه الأولى والعصر ، ثم وقف وأنا وأصحابٌ لي ، حتى أفاض الإمام ، فأفضنا معه ، حتى انتهى إلى المضيق دون المأزمين ، فأناخ وأنخنا ، ونحن نحسب أنه يريد أن يصلي ، فقال غلامه الذي يمسك راحلته : إنه ليس يريد الصلاة ، ولكنه ذكر أن النبي ﷺ لما انتهى إلى هذا المكان قضى حاجته فهو يحب أن يقضي حاجته »[٣].

روى مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنّكم » .

قال سالم بن عبد الله : فقال بلال بن عبد الله : والله لنمنعهن . قال سالم : فأقبل عليه عبد الله ؛ فسبه سبًّا سيِّئًا ، ما سمعته سبه مثله ، وقال : أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول : والله لنمنعهن ؟!

---

(١) رواه أحمد والبزار ، وقال المنذري : إسناده جيد . وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/٢٣ .
(٢) رواه البزار ، وقال المنذري : إسناده لا بأس به .
(٣) رواه أحمد ، وقال المنذري : رواته محتج بهم في الصحيح . وصححه الألباني في الترغيب والترهيب ١/٢٣ .

سهل بن حُنيف رضي الله عنه :

عن أبي وائل قال : قال سهل بن حنيف : « يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم ، لقد رأيتني يوم أبي جندل ، ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته ، وما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر يفظعنا إلّا أسْهَلْنَ بنا إلى أمرٍ نعرفه غير هذا الأمر » . رواه البخاري .

محمد بن سيرين :

وحدث ابن سيرين رجلًا بحديثٍ عن النبي ﷺ ، فقال له رجل : قال فلان كذا وكذا . فقال ابن سيرين : أحدثك عن النبي ﷺ ، وتقول : قال فلان وفلان ، والله لا أكلمك أبدًا .

نجِيبُ بَني أميّةَ أمير المؤمنين مجدّد الدين عمرُ بنُ عبد العزيز :

قال فيه عروة بن أذينة يرثيه :

وَأحيَيْتَ في الإسلام عِلمًا وسنّةً ... ولم تبتدعْ حُكمًا من الحُكمْ أسْحَمَا
فَفِي كلِّ يَوْمٍ كنتَ تهدمُ بدعةً ... وتبني لنا من سُنَّةٍ ما تَهدَّما[١]

ومن كلامه الذي عني به ، ويحفظه العلماء ، وكان يعجب مالكًا جدًّا . قال : « سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا ، الأخذ بها تصديقٌ لكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحدٍ تغييرها ولا تبديلها ، ولا النظر في شيء خالفها ، من عمل بها مهتدٍ ، ومن انتصر بها منصورٌ ، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا »[٢] .

ولما بايعه الناس صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها

---

(١) في الأصل : « أضجعا » بدل « أسحما » وهو غلط ظاهر ، وأسحما : أي حالك السَّواد ، وهذا أقربُ لوصفهم البدعة بالسوداء ، والسنة بالبيضاء الغراء .
(٢) الاعتصام ١/٨٧ .

الناس ، إنه ليس بعد نبيكم نبي ، ولا بعد كتابكم كتاب ، ولا بعد سنتكم سنةٌ ، ولا بعد أمتكم أمةٌ ، ألا وإن الحلال - ما أحل الله في كتابه وعلى لسان نبيه - حلالٌ إلى يوم القيامة ، ألا وإن الحرام - ما حرم الله في كتابه على لسان نبيه - حرام إلى يوم القيامة ، ألا وإني لست بمبتدع ، ولكني متبع ، ألا وأني لست بقاضٍ ولكني منفذٌ ، ألا وإني لست بخازنٍ ولكني أضع حيث أمرت ، ألا وأني لست بخيركم ولكني أثقلكم حملًا ، ألا ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ثم نزل .

وعند اللالكائي (٥٦/١) عن أبي المليح قال : « كتب عمر بن عبد العزيز بإحياء السنة وإماتة البدعة » .

وكتب له عدي بن أرطاة يستشيره في بعض القدرية فكتب إليه : « أما بعد ، فإني أُوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره ، واتباع سنة نبيه ﷺ ، وترك ما أحدث المحدثون فيما قد جرت سنته وكفوا مؤنته ، فعليك بلزوم السنة ، فإن السنة إنما سنها من قد عرف ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق ، فارض لنفسك بما رضي به القوم لأنفسهم ، فإنهم عن علمٍ وقفوا وببصرٍ نافذٍ قد كفوا ، وهم كانوا على كشف الأمور أقوى ، وبفضل كانوا فيه أحرى ، فلئن قلتم : أمرٌ حدث بعدهم . ما أحدثه بعدهم إلا من اتبع غير سننهم ، ورغب بنفسه عنهم . إنهم لهم السابقون ، فقد تكلموا منه بما يكفي ، ووصفوا منه ما يشفي ، فما دونهم مُقصِّرٌ ، وما فوقهم محسر ، لقد قصر عنهم آخرون فقلوا ، وإنهم بين ذلك لعلى هدًى مستقيم »[1].

وقال عمر بن عبد العزيز : لا رأي لأحدٍ في كتاب الله ولا في سنةٍ

---

(١) الاعتصام ٤٩/١ - ٥٠ .

سنها رسول الله ﷺ ، وإنما رأي الأمة فيما لم ينزل فيه كتابٌ ، ولم تمض به سنةٌ عن رسول الله ﷺ .

وأَمَّ عمر بن عبد العزيز أنس بن مالك رضي الله عنه ، فقال أنس : « ما صليت وراء إمام بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاةً برسول الله ﷺ من إمامكم هذا »[(١)]؛ يعني عمر بن عبد العزيز . قال زيد بن أسلم : « فكان عمر يتم الركوع والسجود ، ويخفف القيام والقعود »[(١)] .

وكان عمر رحمه الله يلبس برد رسول الله ﷺ ، ويأخذ قضيبه في يده يوم العيد .

وأوصى رحمه الله عند الموت ، فدعا بشَعْرٍ من شعر النبي ﷺ ، وأظفارٍ من أظفاره ، فقال : اجعلوه في كفني .

رِدّتْ صنائعه عليه حياتَه فكأنه من نشْرِها منشورُ

قال رحمه الله لعمته : « يا عمة ، إن رسول الله ﷺ قبض ، وترك الناس على نهر مورود ، فولي ذلك النهر بعده رجلٌ فلم يستخص منه بشيء ، ثم ولي ذلك النهر بعد ذلك رجلٌ آخر فكري منه ساقية ، ثم لم يزل الناس يكرون منه السواقي حتى تركوه يابسًا ليس فيه قطرة ، وأيم الله ، لئن أبقاني الله لأسكرن تلك السواقي حتى أُجريه مجراه الأول »[(٢)] .

أما علو همته في نقض البدع وذم أهلها : فقد قال رحمه الله : « من جعل دينه عرضا للخصومات أكثر التنقل » .

وقال عمر بن عبد العزيز في أصحاب القدر : يستتابون ، فإن تابوا ، وإلا نفوا من ديار المسلمين .

---

(١) سنده حسن : أخرجه النسائي في الافتتاح : باب تخفيف القيام والقراءة .

(٢) مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص١٣٧ . تحقيق : نعيم زرزور – دار الكتب العلمية .

وقال رحمه الله : « ينبغي لأهل القدر أن يتقدم إليهم فيما أحدثوا من القدر ، فإن كفوا وإلا استلت ألسنتهم من أقفيتهم استلالًا »(١).

وكان عمر بن عبد العزيز يكتب في كتبه : إني أحذركم ما مالت إليه الأهواء والزيغ البعيدة(٢) .

وأفحم عمر بن عبد العزيز غيلان الدمشقي وألقمه حجرًا ، وقال لغيلان : « إنك إن أقررت بالعلم خصمت ، وإن جحدته كفرت ، وإنك إن تقر به فتخصم خير لك من أن تجحد فتكفر » . فلما ولى غيلان قال عمر : « اللهم إن كان كاذبًا بما قال – في ادعائه التوبة – فأذقه حر السلاح » .

وفي رواية:« اللهم إن كان صادقًا فتب عليه ، وإن كان كاذبًا فاجعله آية للمؤمنين » .

وفي رواية : فسلط عليه من يمثل به .

وأظهر غيلان مقالته مرة أخرى بعد موت عمر ، فلما وَلِيَ هشام أرسل إليه ، فقال له : أليس قد كنت عاهدت الله لعمر لا تتكلم في شيء من هذا أبدًا ؟ قال : أقلني فوالله لا أعود . قال : لا أقالني الله إن أقلتك . اذهبا فاقطعا يديه ورجليه ، واضربا عنقه واصلباه .

وكتب رجاء بن حيوة إلى هشام أمير المؤمنين : « بلغني أنه دخلك من قبل غيلان وصالحٍ ، فأقر بالله ، لقتلهما أفضل من قتل ألفين من الترك والديلم » .

وقال إبراهيم بن أبي عبلة : « أصاب والله فيه القضية والسنة ، ولأكتبن إليه فلأحسن له »(٣).

---

(١) مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٨٣ – ٨٤ .

(٢) الاعتصام ١/٨٦ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٤/٧١٤ – ٧١٧ ، الآجُرّي في الشريعة ص٢٢٩ وابن بطة في الإبانة ٢/٣٣٤ .

سيِّد أهل زمانه علمًا وعملًا : الحسنُ البَصْريُّ :

قال فيه عطاء : ذاك إمام ضخم يُقتدى به .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة : « أما بعد ؛ فإنك لن تزال تعني إلي رجلًا من المسلمين ، في الحر والصيف يسألني عن السنة ، كأنك إنما تعظمني بذلك ، وأيم الله لحسبك بالحسن . فإذا أتاك كتابي هذا فسل الحسن لي ولك وللمسلمين . فرحم الله الحسن ، فإنه من الإسلام بمنزلٍ ومكان . ولا تقرئنه كتابي هذا »[(١)] .

وكان الحسن رحمه الله يقول : « يا أهل السنة تفرقوا ، فإنكم أقلُّ الناس » .

وقال رحمه الله : « من وقر صاحب بدعةٍ فقد سعى في هدم الإسلام » .

وقال رحمه الله : « لا تجلس إلى صاحب بدعةٍ ، فإنه يمرض قلبك ويفسد عليك دينك »[(٢)].

الإمام الجبل سليمان بنُ طَرْخان التَّيميُّ :

ويكفيك في علو منزلته في الاتباع ، وحرصه على نجاة الناس وتخليصهم من أهل الابتداع ، ما قال سفيان الثوري الإمام :

« كانت الخشبية – أي الشيعة – قد أفسدوني حتى استنقذني الله تعالى بأربعةٍ لم أر مثلهم : أيوب ويونس وابن عون وسليمان التيمي ، الذي يرون أنه لا يحسن يعصي الله » .

---

(١) مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص١٢١ .

(٢) الحسن البصري لابن الجوزي ص٤١ هدية مجلة الأزهر لعدد المحرم سنة ١٤٠٨هـ .

وقال سعيد بن عامر : مرض سليمان التيمي فبكى في مرضه بكاءً شديدًا ، فقيل له : ما يبكيك ، أتجزع من الموت ؟ قال : لا ، ولكن مررت على قدري فسلمت عليه ، فأخاف أن يحاسبني ربي عز وجل عليه .

وعن مهدي بن سليمان قال : أتيت سليمان ، فوجدت عنده حماد ويزيد بن زريع وبشر بن المفضل وأصحابنا البصريين ، فكان لا يحدث أحدًا حتى يمتحنه . فيقول له : الزنا بقدر ؟ فإن قال : نعم ! استحلفه ؛ إن هذا دينك الذي تدين الله به ؟ فإن حلف أن هذا دينه ، حدثه خمسة أحاديث ، وإن لم يحلف لم يحدثه[1] .

وقال معاذ بن معاذٍ : « كان سليمان إذا أتيناه لا يزيد كل واحد منا على خمسة أحاديث ، وكان معنا رجل فجعل يكرر عليه . فقال : نشدتك بالله ، أجهمي أنت ؟ فقال : ما أفطنك ، من أين عرفتني ؟! »[2] .

شيخُ الإسلام ، حُجَّةُ الأُمَّة ، إمامُ دار الهجرة ، المقدَّمُ من علماء المدينة على الإطلاق ، والذي تُضرب إليه آباطُ الإبل من الآفاق : مالك بن أنس :

تكفيه في علو همته في الاتباع أن قال فيه تلميذ ناصر السنة الشافعي : إذا جاء الأثر **فمالكٌ** النجم .

« **وقال له بقيـة : ما بقي على وجه الأرض أعلم بسنة ماضيـةٍ منك يا مالك** »[3] .

قال الذهبي في السير ٨/٩٣ : « هذا الإمام الذي هو النجم الهادي

(١) حلية الأولياء ٣/٢٨ ، ٣٢ .
(٢) الحلية ٣/٣٣ .
(٣) السير ٨/٩٤ .

قد أنصف ، وقال قولًا فصلًا ، حيث يقول : كل أحد يُؤخذ من قوله ويترك ، إلا صاحب هذا القبر - أو هذه الروضة - ﷺ » .

قال مالك رحمه الله : لا تعارضوا السنة وسلموا لها .

انظر إلى علو همته في الاتباع :

« قال إسحاق بن عيسى : قال مالك : أكلما جاءنا رجل أجدل من رجل ، تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجدله »[١] .

وقال رحمه الله : « سن رسول الله ﷺ ، وولاة الأمر بعده سننًا ، الأخذ بها اتباعٌ لكتاب الله ، واستكمالٌ لطاعة الله ، وقوةٌ على دين الله ، ليس لأحد تغييرها ، ولا تبديلها ، ولا النظر في شيء خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتدٍ ، ومن استنصر بها فهو منصورٌ ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين ، وولّاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا »[٢] .

وأخرج البيهقي عن ابن المبارك ، قال : كنت عند مالك وهو يحدِّث ، فجاءت عقرب فلدغته ست عشرةَ مرةً ، ومالك يتغير لونه ويتصبر ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ ، فلمّا فرغ من المجلس وتفرق الناس ، قلت له : لقد رأيت منك عجبًا ؟ قال : إنما صبرت إجلالًا لحديث رسول الله ﷺ .

وكان رحمه الله إذا أراد أن يحدِّث توضأ ، وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته ، وتمكن من جلوسه بوقار وهيبة وحدث ، فقيل له في ذلك ، فقال : أُحبُّ أن أُعظِّم حديث رسول الله ﷺ .

وكان يكره أن يحدث في الطريق أو هو قائم أو مستعجل ، ويقول : « أُحبُّ أن أتفهم ما أُحدِّث به عن رسول الله ﷺ » .

---

(١) الحلية ٣٢٤/٦ ، والسير ٩٩/٨ .

(٢) السير ٩٨/٨ ، والحلية ٣٢٤/٦ .

وما ظنك باتباع رجلٍ وعلو همته فيه ، كان لا يركب دابةً بالمدينة ، ويقـول : « أوقر أرضًا دفن فيها رسـول الله ﷺ » .. فكيـف هو في اتباعه ؟! .

يقول النسائي : أمناء الله على علم رسول الله ﷺ ثلاثة : شعبة ، ومالك ، ويحيى القطان .

كان رحمه الله كثيرًا ما ينشد :

وخيْرُ أمورِ الدِّين ما كان سُنَّةً وشرُّ الأُمورِ المُحْدَثَاتُ البدائِعُ[1]

وقال عبد الرحمن بن مهدي : قد سئل مالك بن أنس عن السنة ، قال : ما لا اسم له غير السنة ، وتلا ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله** ﴾ .

وأما ذمه للبدع وأهلها ، فهو الإمام .

« قال ابن وهب : سمعت مالكًا يقول : ما آية في كتاب الله أشدُّ على أهل الاختلاف من أهل الأهواء من هذه الآية ﴿ **يوم تبيضُّ وجوه** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بما كنتم تكفرون** ﴾ قال مالك : فأي كلام أبين من هذا ؟ فرأيته يتأولها لأهل الأهواء . ورواه ابن القاسم وزاد : قال لي مالكٌ : إنما هذه الآية لأهل القبلة »[2].

« قال الشافعي : كان مالك إذا جاءه بعض أهل الأهواء ، قال : أما إني على بينة من ديني ، وأما أنت ، فشاكٌّ ، اذهب إلى شاكٍّ مثلك فخاصمه .

وقال يحيى بن خلف الطرسوسي - وكان من ثقات المسلمين -: كنت عند مالك ، فدخل عليه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ، ما تقول فيمن يقول : القرآن مخلوق ؟ فقال مالك : زنديقٌ ، اقتلوه . فقال : يا أبا عبد الله ،

---

(١) الاعتصام ١/٨٥ .

(٢) الاعتصام ١/٥٦ .

إنما أحكي كلامًا سمعته . قال : إنما سمعته منك ، وعظم هذا القول »[١].

وقال مالك : القدرية لا تناكحوهم ، ولا تصلوا خلفهم[٢].

« قال معن : انصرف مالكٌ يومًا ، فلحقه رجل يقال له : أبو الجويرية ، متَّهمٌ بالإرجاء ، فقال : اسمع مني شيئًا أُعلمك به وأحاجك وأخبرك برأيي . قال : احـذر أن أشهد عليك . قال : والله ما أُريد إلا الحق ، فإن كان صوابًا . فقل به ، أو فتكلم . قال : فإن غلبتني ؟ قال : اتبعتني . قال : فإن غلبتك ؟ قال : اتبعتك . قال : فإن جاء رجل فكلمنا ، فغلبنا ؟ قال : اتبعناه . فقال مالك : يا هذا ، إن الله بعث محمدًا ﷺ بدين واحد ، وأراك تتنقل »[٣].

وقال رحمه الله : الجدال في الدين ينشئُ المراء ، ويذهب بنور العلم من القلب ، ويُقسِّي ويورث الضغن .

قال القاضي عياض : « قال أبو طالب المكي : كان مالكٌ رحمه الله أبعد الناس من مذاهب المتكلمين ، وأشد نقضًا للعراقيين . ثم قال القاضي عياض : قال سفيان بن عيينة : سأل رجلٌ مالكًا ، فقال : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ كيف استوى ؟ فسكت مالكٌ حتى علاه الرحضاء ، ثم قال : الاستواء منه معلومٌ ، والكيف منه غير معقولٍ ، والسؤال عن هذا بدعةٌ ، والإيمان به واجبٌ ، وإني لأظنك ضالا . أخرجوه . فناداه الرجل : يا أبا عبد الله ، والله لقد سألت عنها أهل البصرة والكوفة والعراق ، فلم أجد أحدًا وفق لما وفقت له »[٤].

---

(١) الحلية ٣٢٤/٦ - ٣٢٥ ، والسير ٩٩/٨ .

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض ١٧٦/١ ، والسير ١٠٢/٨ ، ١٠٣ .

(٣) ترتيب المدارك ١٧٠/١ ، والسير ١٠٦/٨ .

(٤) السير ١٠٦/٨ - ١٠٧ ، وترتيب المدارك ١٧٠/١ - ١٧١ .

جاء رجل إلى مالكٍ فسأله عن مسألةٍ ، فقال له : قال رسول الله ﷺ كذا وكذا ، فقال الرجل : أرأيت ؟ فقال مالكٌ : ﴿ **فلْيحذرِ الذين يخالفون عن أمره أنْ تصيبَهم فتنةٌ أوْ يُصيبهم عذابٌ أليمٌ** ﴾ .

الإمامُ الرَّبَّانيُّ : ابْنُ أبي ذِئبٍ :

قال ابن سماك بن الفضل الشهابي : « حدثني ابن أبي ذئبٍ بحديثٍ عن رسول الله ﷺ ، فقلت له : يا أبا الحارث أتأخذ بهذا ؟ فضرب صدري وصاح علي صياحًا كثيرًا ، ونال مني ، وقال : أحدّثُكَ عن رسول الله ﷺ وتقول : تأخذ به ؟! نعم آخذ به ، وذلك الفرض عليّ وعلى من سمعه ، إن الله تبارك وتعالى اختار محمدًا ﷺ من الناس ، فهداهم به وعلى يديه ، واختار لهم ما اختار له على لسانه ؛ فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين ، لا مخرج لمسلم من ذلك . قال : وما سكت حتى تمنيت أن يسكت »[1] .

إمام أهل الشام الرَّبّاني عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي :

قال ابن مهدي : ما كان أحد بالشام أعلم بالسنة من الأوزاعي .

وذكر أبو إسحاق الفزاري الأوزاعي فقال : إن ذاك الرجل كان شأنه عجبًا ؛ كان يسأل عن الشيء الذي عندنا فيه الأثر ، فكان والله يرد على الجواب كما هو عندنا في الأثر ، لا يقدم منه ولا يؤخر منه مقدمًا . وقال : كان يسأل عن الشيء الذي عندنا فيه الأثر ، فيقول للسائل : ما عندي فيه شيء ، فيبتلى بلجاجته حتى يرد عليه الجواب ، فلا يعدو الأثر الذي عندنا[2] .

---

(١) الحجة في بيان المحجة لقوام السنة إسماعيل الأصبهاني ١/٢٤٤ - ٢٤٥ تحقيق محمد بن ربيع بن هادي - دار الراية .

(٢) الجرح والتعديل ١/١٨٤ .

الله أكبر .. ينطق بالأثر ولا يعدوه ، وكأن دمه ولحمه سيط به ، أي اتباع وأي همةٍ عاليةٍ كانت عند الأوزاعي « الذي أجاب في سبعين ألف مسألة بالأثر » .

قال موسى بن يسار - وكان صحب مكحولًا أربع عشرة سنة -: « ما رأيت أحدًا أبصر ولا أنفى للغل عن الإسلام أو السنة من الأوزاعي ».

قال الأوزاعي لابنه محمد : إني أُريد أن أُحدثك حديثًا أسرك به ، ولا أفعل حتى تعطيني موثقًا أنك لا تحدث به ما كنت حيًّا ، قال : أفعل يا أبه . قال : إني رأيت كأني وقف بي على بابٍ من أبواب الجنة ، وإذا أحد مصراعي الباب قد زال عن موضعه ، وإذا برسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - يعالجون رده فردوه ، ثم تركوه فزال ، ثم أعادوا ، ثم ثبت في موضعه فزال ، فقال لي رسول الله ﷺ : « يا عبد الرحمن ألا تمسك معنا ؟ ». قال : فأمسكت معهم فثبت[١] . .

قال عبد الرحمن بن مهدي : إذا رأيت الشامي يحب الأوزاعي وأبا إسحاق الفزاري ، فهو صاحب سنة[٢].

« قال إسحاق بن راهويه : إذا اجتمع الثوري والأوزاعي ومالكٌ على أمرٍ ، فهو سُنَّةٌ » .

أي فهو حقٌّ غالبًا ؛ وذلك لمعرفتهم الدقيقة بالسنة .

« قال مالك : الأوزاعي إمام يقتدى به .

قال ابن عيينة : كان الأوزاعي والثوري بمنى ، فقال الأوزاعي للثوري : لم لا ترفع يديك في خفض الركوع ورفعه ؟ فقال : حدثنا يزيد بن أبي زياد .... فقال الأوزاعي : روى لك الزهري عن سالم ، عن أبيه

(١) الجرح والتعديل ١/١٨٤ ، ٢٠٩ .

(٢) الجرح والتعديل ١/٢١٧ .

عن النبي ﷺ ، وتعارضني بيزيد رجل ضعيف وحديثه مخالف للسنة . فاحمر وجه سفيان ، فقال الأوزاعي : كأنك كرهت ما قلت ؟ قال : نعم . فقال : قم بنا إلى المقام نلتعن أينا على الحق . قال : فتبسم سفيان لمَّا رآه قد احتد »[١] .

سبحان الله ... بمثل الأوزاعي حفظ الله الأرض ... يحتد من أجل السنة على جبل السنة والاتباع : الثوري .

قال الأوزاعي : عليك بآثار من سلف ، وإن رفضك الناس ، وإياك وآراء الرجال ، وإن زخرفوه لك بالقول ، فإن الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم .

وقال : العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ ، وما لم يجيء عنهم فليس بعلم[٢] .

وقال رحمه الله : ما ابتدع رجل بدعة ، إلا سلب الورع[٣] .

قال الوليد بن مسلم : قلت لسعيد بن عبد العزيز : من أدركت من التابعين كان يبكر لصلاة الجمعة ؟ قال : ما رأيت أبا عمرو ؟ قلت : بلى . قال : فإنه قد كفا من قبله ، فاقتد به ، فلنعم المقتدى .

قال عبد الرحمن بن مهدي : إنما الناس في زمانهم أربعة : حماد بن زيد بالبصرة ، والثوري بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، والأوزاعي بالشام .

الإمام الرَّشيد ، الآخذ بالأصل الوَكيد ، المتمسك بالمنهج الحميد ، أبو إسماعيل حماد بن زيد :

قال ابن مهدي : لم أر أحدًا قط أعلم بالسنة ، ولا بالحديث الذي يدخل في السنة ، من حماد بن زيد .

---

(١) السير ٧/١١٢ - ١١٣ .

(٢) السير ٧/١٢٠ .

(٣) السير ٧/١٢٥ .

قال ابن المبارك :

أيُّها الطالبُ عِلمًا ايت حماد بن زيدِ
تقتبس حكمًا وعلمًا ثُمَّ قيِّده بقيدِ

وقال عبد الرحمن بن مهدي : إذا رأيت بصريًا يحب حماد بن زيد فهو صاحب سنة[(١)].

عزٌّ كبير ، ومقام رفيع لأبي إسماعيل أن يصير محنة : يميز به السني من البدعي ، وهذا يدل على علو همته في الاتباع .

بعث حماد بن زيد إلى جرير : بلغني أنك تقول في الإيمان بالزيادة ، وأهل الكوفة يقولون بغير ذلك ، اثبت على ذلك ، ثبتك الله .

قال فطر بن حماد بن واقد : سألت حماد بن زيد ، فقلت : يا أبا إسماعيل ، إمامٌ لنا يقول : القرآن مخلوق ، أصلي خلفه ؟ قال : لا ، ولا كرامة .

وكان يقول : « لا يزال الرجل منكم داحضًا في بوله ، يذكر أهل البدع في مجلس عشيرته حتى يسقط من أعينهم »[(٢)].

وكان يقول : « لئن قلت : إن عليًّا أفضل من عثمان لقد قلت : إن أصحاب رسول الله ﷺ قد خانوا » .

فرحم الله حماد بن زيد ، سيد المسلمين بالبصرة في زمانه .

الإمام الرَّبَّاني سفيان بن سعيد الثَّوري :

أبو عبد الله ، أمير المؤمنين في الحديث ، وسيد العلماء العاملين في زمانه .

قال عبد الرحمن بن مهدي : الناس على وجوهٍ ، فمنهم من هو إمامٌ

---

(١) الجرح والتعديل ١/١٧٩ - ١٨٣ .
(٢) الحلية ٦/٢٥٨ .

في السنة إمام في الحديث ، ومنهم من هو إمامٌ في السنة وليس بإمام في الحديث ، ومنهم من هو إمام في الحديث ليس بإمام في السنة ، فأما من هو إمام في السنة وإمام في الحديث فسفيان الثوري[١] .

قال المثنى بن الصباح : سفيان عالم الأُمَّة وعابدها .

وقال بشر الحافي : كان الثوري عندنا إمام الناس . وعنه قال : سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما .

وانظر إلى جبل الاتباع سيدنا سفيان ، يقول رحمه الله : « ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديثٌ قط إلا عملت به ، ولو مرة »[٢] .

وقال الأوزاعي : لو قيل لي : اختر لهذه الأمة رجلًا ، يقوم فيها بكتاب الله وسنة نبيه ، لاخترت لهم سفيان الثوري .

وقال ابن إدريس : ما رأيت بالكوفة رجلًا أتبع للسنة ، ولا أود أني في مسلاخه[٣] من سفيان الثوري .

قال سفيان رحمه الله : من أصغى بسمعه إلى صاحب بدعةٍ وهو يعلم ، خرج من عصمة الله ووكل إلى نفسه . وقال : من سمع ببدعةٍ فلا يحكها لجلسائه ، لا يلقها في قلوبهم .

قال الذهبي في السير (٧/٢٦١) : « قلت : أكثر أئمة السلف على هذا التحذير ؛ يرون أن القلوب ضعيفة ، والشبه خطافة » .

قال الثوري رحمه الله : « استوصوا بأهل السنة خيرًا ؛ فإنهم غرباء » .

قال مؤمل بن إسماعيل : لم يُصَلِّ سفيان على ابن أبي رواد للإرجاء .

عن سفيان قال : « كان رجلٌ له حظ من العقل قال : سبقنا الناس ،

---

(١) الجرح والتعديل ١/١١٨ .

(٢) السير ٧/٢٤٢ .

(٣) أي هَدْيه وسَمْته .

ومضوا أمامنا ، وبقينا على حمر دبرة ، فقال سفيان للرجل : لو كنت على الطريق فشأنك صلح »[١] .

قال رجل لسفيان : رجل يكذب بالقدر ، أأصلِّي وراءه ؟ قال : لا تقدموه ، قال : هو إمام القرية ، ليس لهم إمام غيره . قال : لا تقدموه ، لا تقدموه ، وجعل يصيح .

وقال سفيان : « البدعة أَحبُّ إلى إبليس من المعصية ، المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها »[٢] .

قال بشر بن منصور : سمعت سفيان الثوري يقول ، وسأله رجل فقال : على بابي مسجدٌ ، إمامه صاحب بدعة ؟ قال : لا تصل خلفه . قال : تكون الليلة المطيرة وأنا شيخ كبير ؟ قال : لا تُصَلِّ خلفه .

وقال له رجل : أوصني . قال : إياك والأهواء ، إياك والخصومة ، إياك والسلطان .

قال سفيان رحمه الله : « لا يستقيم قولٌ إلا بعمل ، ولا يستقيم قولٌ وعملٌ إلا بنية ، ولا يستقيم قولٌ وعملٌ ونيةٌ إلا بموافقة السنة »[٣] .

قال يوسف بن أسباط : قال سفيان : يا يوسف ، إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سنة فابعث إليه السلام ، وإذا بلغك عن آخر بالمغرب صاحب سنة فابعث إليه بالسلام ، فقد قل أهل السنة والجماعة[٤] .

---

(١) الحلية ٦/٣٧٩ .
(٢) الحلية ٧/٢٦ .
(٣) الحلية ٧/٣٢ .
(٤) الحلية ٧/٣٤ .

شيخ الإسلام ، عالم زمانه ، وأمير الأتقياء في وقته ، الرَّبَّاني المبارك ، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك :

سيد العلماء ، كما سماه هارون الرشيد .

قال أسود بن سالم : كان ابن المبارك إمامًا يقتدى به ، كان من أثبت الناس في السنة، إذا رأيت الرجل يغمز ابن المبارك فاتهمه على الإسلام[1] .

وقال العمري : ما رأيت في دهرنا هذا من يصلح لهذا الأمر - يعني الإمامة - إلا ابن المبارك .

قال شقيق البلخي : قيل لابن المبارك : إذا أنت صليت لم لا تجلس معنا ؟ قال : أجلس مع الصحابة والتابعين ، أنظر في كتبهم وآثارهم ، فما أصنع معكم ؟ أنتم تغتابون الناس .

وقال : ليكن عمدتكم الأثر ، وخذوا من الرأي ما يفسر لكم الحديث .

وقال رحمه الله : ليكن مجلسك مع المساكين ، وإياك أن تجلس مع صاحب بدعة[2] .

قال نعيم بن حماد : كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته ، فقيل له : ألا تستوحش ؟ قال : كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه .

رحم الله إمام أهل المشرق والمغرب ، لشد ما كان بغضه لأهل البدع ، يقول عن جهم :

عجبتُ لشيطانٍ أتى النَّاس داعيًا ... إلى النَّار وانشقَّ اسمه مِنْ جَهَنَّمِ

وكان يقول : « إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية »[3] .

---

(١) السير ٨/٣٩٥ .
(٢) السير ٨/٣٩٩ .
(٣) السير ٨/٤٠١ .

قال رجل لعبد الله بن المبارك : يا أبا عبد الرحمن ، قد خفت الله تعالى من كثرة ما أدعو على الجهمية . قال : لا تخف ، فإنهم يزعمون أن إلهك الذي في السماء ليس بشيءٍ .

رحمة الله على ابن المبارك ، أمير المؤمنين في الاتباع والحديث والسنة .

قال أبو حاتم الفربري : « رأيت ابن المبارك واقفًا على باب الجنة بيده مفتاح ، فقلت : ما يوقفك هاهنا ؟ قال : هذا مفتاح الجنة ، دفعه إليّ رسول الله ﷺ وقال : حتى أزور الرب ، فكن أميني في السماء ، كما كنت أميني في الأرض »[(١)].

الإمام الرَّبَّاني أبو إسحاق الفَزَاري إبراهيم بن محمد :

قال عبد الرحمن بن مهدي : كان الأوزاعي والفزاري إمامين في السنة[(٢)].

وقال ابن مهدي رحمه الله : إذا رأيت شاميًّا يحب الأوزاعي وأبا إسحاق الفزاري فهو صاحب سنة .

وقال أبو حاتم : اتفق العلماء على أن أبا إسحاق الفزاري إمام يقتدى به بلا مدافعة .

وقال أحمد العجلي عن الفزاري : صاحب سنة ، هو الذي أدب أهل الثغر ، وعلمهم السنة ، وكان يأمر وينهى . وإذا دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه.

قال أبو مسهر : قدم أبو إسحاق الفزاري دمشق ، فاجتمع الناس ليسمعوا منه ، فقال : اخرج إلى الناس فقل لهم : من كان يرى القدر فلا

---

(١) السير ٨/٤١٩ .

(٢) الجرح والتعديل ١/٢٨٢ .

يحضر مجلسنا ، ومن كان يرى رأي فلانٍ فلا يحضر مجلسنا ، فخرجت إليهم فأخبرتهم .

قال أبو إسحاق : قال الأوزاعي في الرجل يسأل : أمؤمن أنت حقًّا ؟ قال : إن المسألة عن ذلك بدعة ، والشهادة عليه تعمق لم نكلفه في ديننا ، ولم يشرعه نبينا ﷺ ، القول فيه جدل ، والمنازعة فيه حدث[(١)] .

لما مات أبو إسحاق قال عطاء : ما دخل على الأمة من موت أحدٍ ما دخل عليهم من موت أبي إسحاق .

وقال ابن عيينة : « ما أعلم أحدًا من أهل الإسلام أجدى وأدفع عن أهل الإسلام من أبي إسحاق الفزاري »[(٢)] .

نعم والله ، فقد « كان الفزاري عظيم الغناء في الإسلام » كما قال أبو حاتم ، وكم ذَبَّ عن السنة .

« يروى أن هارون الرشيد أخذ زنديقًا ليقتله ، فقال الرجل : أين أنت من ألف حديثٍ وضعتها ؟ قال : فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وابن المبارك يتخللانها ، فيخرجانها حرفًا حرفًا » .

فرحم الله أبا إسحاق جزاء علو همته في اتباع نبيه ، والذبِّ عن سنته .

قال الفضيل : « رأيت النبي ﷺ في النوم ، وإلى جنبه فرجة ، فذهبت لأجلس ، فقال : هذا مجلس أبي إسحاق الفزاري »[(٣)].

السَّخْتِياني أيوب بن كَيْسان :

فتى الفتيان ، وسيد العباد والرهبان ، المنور بالاتباع والإيمان . سيد الفتيان ، وسيد شباب أهل البصرة كما قال له الحسن ، وسيد الفقهاء كما قال

---

(١) السير ٨/٥٤٣ .

(٢) الجرح والتعديل ١/٢٨٣ .

(٣) السير ٨/٥٤٢ - ٥٤٣ .

شعبة ، وجهبذ العلماء كما قال أشعث .

قال حماد بن زيد : أيوب عندي أفضل من جالسته ، وأشده اتباعًا للسنة(١) .

قال مالك بن أنس : كنا ندخل على أيوب السختياني ، فإذا ذكرنا له حديث رسول الله ﷺ بكى حتى نرحمه .

قال أيوب : « ليبلغني أن الرجل من أهل السنة مات فكأنما أفقد بعض أعضائي »(٢) .

وكان رحمه الله يبلغه موت الفتى من أصحاب الحديث فيرى ذلك فيه ، ويبلغه موت الرجل يذكر بعبادةٍ فما يرى ذلك فيه .

وقال رحمه الله : إن الذين يتمنون موت أهل السنة يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم .

وقال : إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله للعالم بسنة .

وأورد عنه البيهقي بسنده : إذا حدثت الرجل بسنة فقال : دعنا من هذا ، وأنبئنا عن القرآن ، فاعلم أنه ضالٌّ .

قال حماد بن زيد : سمعت أيوب ، وقيل له : ما لك لا تنظر في هذا ؟ يعني الرأي . فقال : قيل للحمار:ألا تجترُّ ؟ فقال : أكره مضغ الباطل »(٣) .

وكان إذا جلس إليه صاحب رأي قال : قوموا بنا ؛ لا يعدينا بجربه .

أما علوّ همته في بغض أهل البدع ومجانبتهم ، فحدث عنه ولا حرج .

---

(١) السير ٦/٢١ .
(٢) الحلية ٣/٣ - ١٢ .
(٣) السير ٦/١٧ ، ٢١ .

« قال سلام بن أبي مطيع : رأى أيوب رجلًا من أصحاب الأهواء فقال : إني لأعرف الذلة في وجهه ، ثم تلا ﴿ **سَيَنالهم غضبٌ من ربِّهم وذلة** ﴾ [الأعراف : ١٥٢] ، ثم قال : هذه لكل مفترٍ . وكان يسمي أصحابَ الأهواء خوارج ، ويقول : إن الخوارج اختلفوا في الاسم ، واجتمعوا على السيف »[1] .

وعن سلام بن أبي مطيع : قال رجل من أهل الأهواء : أُكلمك كلمة . قال : لا ، ولا نصف كلمة .

وفي رواية : يا أبا بكر ، أسألك عن كلمة ؟ فولى وهو يقول : ولا نصف كلمة ، مرتين .

وعن هشام بن حسان : قال أيوب : ما ازداد صاحب بدعةٍ اجتهادًا إلا ازداد من الله بعدًا .

ناصرُ السُّنَّة الإمام المُطّلبيّ الشَّافِعيُّ :

قال أحمد بن حنبل : ما رأيت أتبع للأثر من الشافعي[2] .

وذكر أحمد بن حنبل الشافعي فقال : لقد كان يذب عن الآثار .

وقال حرملة بن يحيى عنه : سميت ببغداد « ناصر الحديث » .

وقال الربيع بن سليمان : قال الشافعي : قد أعطيتك جملةً تغنيك إن شاء الله : لا تدع لرسول الله ﷺ حديثًا أبدًا ، إلا أن يأتي عن رسول الله ﷺ خلاف ، فتعمل بما قلت لك في الأحاديث إذا اختلفت .

وقال الشافعي : إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ ، فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ، ودعوا ما قلت .

---

(١) الحلية ٩/٣ ، والسير ٢١/٦ .

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ص٤٧١ ، تحقيق السيد أحمد صقر ، طبع مكتبة دار التراث ، الحلية ٢٠٢/٩ .

وقال : إذا صح الحديث فهو مذهبي ، وإذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط[١] .

وقال : إذا وجدتم سنة من رسول الله ﷺ خلاف قولي فخذوا بالسنة ، ودعوا قولي ؛ فإني أقول بها .

وقال : كل مسألةٍ تكلمت فيها صح الخبر فيها عن النبي ﷺ عند أهل النقل ، بخلاف ما قلت - فأنا راجعٌ عنها في حياتي وبعد موتي .

وقال : كل حديث عن النبي ﷺ فهو قولي ، وإن لم تسمعوه مني[٢] .

وقال : كل ما قلت وقال النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح ، فحديث النبي ﷺ أولى ، ولا تقلدوني .

قال الربيع بن سليمان : سمعت الشافعي يقول ، وروى حديثًا ، فقال له الرجل : تأخذ بهذا يا أبا عبد الله ؟ فقال : متى رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثًا صحيحًا فلم آخذ به والجماعة ، فأشهدكم أن عقلي قد ذهب ، وأشار بيده على رءوسهم .

وقال الحميدي : سأل رجلٌ الشافعي بمصر عن مسألة ، فأفتاه وقال : قال النبي ﷺ كذا . فقال الرجل : أتقول بهذا ؟ قال : أرأيت في وسطي زِنَّارًا ؟ أتراني خرجت من الكنيسة ؟! أقول : قال النبي ﷺ وتقول لي : أتقول بهذا ؟ أروي عن رسول الله ﷺ ولا أقول به !![٣] .

وقال الربيع بن سليمان : سمعت الشافعي يقول ، وسأله رجل عن مسألة فقال : روي عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا . فقال له السائل :

---

(١) السير ١٠/٣٥ .

(٢) السير ١٠/٣٥ ، مناقب الشافعي ص٤٧٣ .

(٣) مناقب الشافعي ص٤٧٤ ، والحلية ٩/١٠٦ ، وتوالي التأسيس ٦٣ .

يا أبا عبد الله ، أتقول بهذا ؟ فارتعد الشافعي واصفر لونه وقال : ويحك ، أي أرضٍ تقلني ، وأي سماء تظلني ، إذا رويت عن رسول الله ﷺ شيئًا فلم أقل به ؟! نعم ، على الرأس والعينين ، على الرأس والعينين[١] .

وقال : كل متكلم على الكتاب والسنة فهو الجد ، وما سواه هذيان .

وقال : « لا يقال : لم ؟ للأصل ، ولا كيف » ويعني بالأصل : القرآن والسنة .

وقال الشافعي : لم أسمع أحدًا نسبته عامة ، أو نسب نفسه إلى علم – يخالف في أن فرض الله : اتباع أمر رسول الله ﷺ والتسليم لحكمه ؛ فإن الله لم يجعل لأحدٍ بعده إلا اتباعه ، وإنه لا يلزم قول بكل حالٍ إلا بكتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ، وإن ما سواهما تبع لهما . وإن فَرْض الله علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله ﷺ واحد ، لا يختلف فيه أنه الفرض ، وواجب قبول الخبر عن رسول الله ﷺ .

وقال أحمد بن حنبل : إذا صحَّ عندكم الحديث عن النبي ﷺ ، فقولوا حتى أذهب إليه .

قال أحمد : كان أحسن أمر الشافعي أنه كان إذا سمع الخبر لم يكن عنده قال به ، وترك قوله .

وقال يحيى بن منصور القاضي : سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة وقلت له : هل تعرف سنة لرسول الله ﷺ في الحلال والحرام لم يودعها الشافعي كتابه ؟ قال : لا .

وقال الشافعي رحمه الله : لولا أصحاب الحديث لكنا بياع الفول[٢].

وقال : لولا أصحاب المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر .

---

(١) مناقب الشافعي ١/٤٧٥ .

(٢) مناقب الشافعي ١/٤٧٧ .

قال الربيع بن سليمان : قال الشافعي : اسقني قائمًا ، فإن النبي ﷺ شرب قائمًا .

قال سالم : قالت عائشة : طيبت رسول الله ﷺ بيدي ، وسنة رسول الله ﷺ أحقُّ أن تُتَّبع .

قال الشافعي : وهكذا ينبغي أن يكون الصالحون من أهل العلم . فأما ما تذهبون إليه من ترك السنة لغيرها ، وترك ذلك الغير لرأي أنفسكم ، فالعلم إذن إليكم ، تأتون منه ما شئتم ، وتدعون منه ما شئتم[١] .

وقال الشافعي رحمه الله : من تبع سنة رسول الله ﷺ وافقته ، ومن غلط فتركها خالفته . صاحبي الذي لا أفارقه اللازم الثابت عن رسول الله ﷺ وإن بعد ، والذي أفارق من لم يقبل سنة رسول الله ﷺ وإن قرب[٢] .

قال قتيبة بن سعيد : مات الثوري ومات الورع ، ومات الشافعي وماتت السنن ، ويموت أحمد وتظهر البدع[٣] .

ومن علو همّة الشافعي في الاتباع ، كان شديدًا على المبتدعة ، دائب التحذير من البدع : قال يونس بن عبد الله : قلت للشافعي : قال صاحبنا الليث بن سعد : لو رأيت صاحب هوًى يمشي على الماء ما قبلته . فقال الشافعي : أما إنه قصر ، لو رأيته يمشي في الهواء ما قبلته[٤] .

وقال : لأن يلقى اللَّهَ العبدُ بكل ذنبٍ ما خلا الشِّرك بالله خير من أن يلقاه بشيءٍ من الأهواء . أي البدع .

---

(١) الأم للشافعي ٧/٢٠٠ ، والمناقب ١/٤٨٤ .
(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ١/٤٨٥ .
(٣) السير ١٠/٤٦ ، ومناقب الشافعيْ للبيهقي ٢/٢٥٠ .
(٤) مناقب الشافعي ص٤٥٣ .

وقال الشافعي : لقد اطلعت من أهل الكلام على شيءٍ ، والله ما توهمته قط ، ولَأَنْ يبتلى المرء بجميع ما نهى الله عنه ، ما خلا الشرك بالله ، خير من أن يبتليه الله بالكلام .

ودخل حفص الفرد - وكان الشافعي يسميه المنفرد - على الشافعي فكلمه ، ثم خرج فقال : لأن يلقى الله العبد بذنوبٍ مثل جبال تهامة خير له من أن يلقاه باعتقاد حرفٍ مما عليه هذا الرجل وأصحابه ، وكان يقول بخلق القرآن . وكفر الشافعي حفصًا الفرد .

قال الربيع : لقيت حفصًا الفرد فقال : أراد الشافعي قتلي .

وقال الشافعي : ما ارتدىٰ أحدٌ بالكلام فأفلح .

وقال : لو علم الناس ما في الكلام والأهواء ، لفروا منه كما يفرون من الأسد .

وقال : ما شيءٌ أبغض إليّ من الكلام وأهله .

وقال الشافعي : حكمي في أهل الكلام حكم عمر في صبيغ .

وقال الزعفراني : سمعنا الشافعيّ يقول : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويحملوا على الإبل ، ويطاف بهم في العشائر ، ينادى عليهم : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

وقال : مذهبي في أهل الكلام تقنيع رؤوسهم بالسياط ، وتشريدهم في البلاد .

قال الذهبي : هذا النفس الزكي متواتر عن الشافعي .

وسئل الشافعي عن شيء من الكلام فغضب وقال : سل عن هذا حفصًا الفرد وأصحابه ، أخزاهم الله .

وقال الشافعي للربيع : يا ربيع ، اقبل مني ثلاثة : لا تخوضن في أصحاب رسول الله ﷺ ، فإن خصمك النبي ﷺ غدًا ، ولا تشتغل بالكلام ، فإني قد اطلعت من أهل الكلام على التعطيل ، وزاد المزني :

ولا تشتغل بالنجوم .

ودخل الشافعي على المأمون وعنده بشر المريسي ، فقال أمير المؤمنين للشافعي : أتدري من هذا ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : هذا بشر المرِيسيّ . قال : فقال الشافعي لبشر : أَدخلك اللَّهُ أسفل السافلين ، مع فرعون وهامان وقارون .

قال الربيع : انحدر علينا الشافعي من درجته يومًا وهم يتجادلون في القدر ، فصاح : إما أن تقوموا عنا أو تجاورونا بخير .

ولما نقض إبراهيم بن إسماعيل بن علية كلام الشافعي في « تثبيت خبر الواحد » قال الشافعي : ابن عليّة ضالٌّ ، قد جلس عند باب الضّوال يضل الناس .

وقال المزني : « كنت أنظر في الكلام قبل أن يقدم الشافعي ، فلما قدم أتيته ، فسألته عن مسألة من الكلام ، فقال لي : تدري أين أنت ؟ قلت : نعم ، في مسجد الفسطاط . قال أنت في « تاران » تلطمك أمواجه - وتاران موضعٌ في بحر القَلْزم ، لا تكاد تسلم منه سفينة - ثم ألقى عليّ مسألة في الفقه ، فأجبت ، فأدخل شيئًا أفسد جوابي ، فأجبت بغير ذلك ، فأدخل شيئًا أفسد جوابي ، فجعلت كلما أجبت بشيءٍ أفسده ، ثم قال لي : هذا الفقه الذي فيه الكتاب والسنة وأقاويل الناس ، يدخله مثل هذا ، فكيف الكلام في رب العالمين ؟ الذي فيه الزلل كثير ؟! فتركت الكلام وأقبلت على الفقه »[1] .

وفي رواية أخرى : قال المزني : « قلت : إن كان أحد يخرج ما في ضميري ، وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي ، فصرت إليه ، وهو في مسجد مصر ، فلما جثوت بين يديه ، قلت : هجس في ضميري

(١) السير ٢٦/١٠ ، ٣١ - ٣٢ .

مسألة في التوحيد ، فعلمت أن أحدًا لا يعلم علمك ، فما الذي عندك ؟ فغضب ، ثم قال : أتدري أين أنت ؟ قلت : نعم ، قال : هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون . أبلغك أن رسول الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك ؟ قلت : لا ، قال : هل تكلم فيه الصحابة ؟ قلت : لا ، قال : تدري كم نجمًا في السماء ؟ قلت : لا ، قال : فكوكب منها ؛ تعرف جنسه ، طلوعه ، أفوله ، مِمَّ خُلِق ؟ قلت : لا ، قال : فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه ، تتكلم في علم خالقه ؟! ثم سألني عن مسألة في الوضوء ، فأخطأت فيها ، ففرعها على أربعة أوجه ، فلم أُصب في شيء منه ، فقال : شيءٌ تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه ، وتتكلف علم الخالق ، إذا هجس في ضميرك ذلك ، فارجع إلى الله ، وإلى قوله تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحدٌ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إنَّ في خلق السمٰوات والأرض** ﴾ الآية [البقرة : ١٦٣ - ١٦٤] . فاستدل بالمخلوق على الخالق ، ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك . قال فتبت »(١) .

قال أحمد بن حنبل : إن الله يُقيض للناس في رأس كل مائة من يعلمهم السنن ، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب ، قال : فنظرنا ، فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز ، وفي رأس المائتين الشافعي »(٢) .

شيخ المُحَدِّثين وقامع البدع : يزيد بن هارون :

انظر إلى قامع البدع الذي يخشاه ويرهبه المأمون . قال ابن الجوزي : « كان هارون الرشيد يقول : بلغني أن بشر بن غياث يقول : القرآن مخلوق ، ولله عليّ إن أظفرني به لأقتلنه قتلةً ما قتلتها أحدًا .

قال أحمد : فكان بشر متواريًا أيام هارون نحوًا من عشرين سنة ، حتى

---

(١) السير ١٠/٢٦ ، ٣١ - ٣٢ .
(٢) السير ١٠/٤٦ .

مات هارون ، فظهر ودعا إلى الضلالة ، وكان من المحنة ما كان .

فلما توفي الرشيد كان الأمر كذلك في زمن الأمين ، فلما ولي المأمون خالطه قوم من المعتزلة فحسنوا له القول بخلق القرآن ، وكان يتردد في حمل الناس على ذلك ، ويراقب بقايا الأشياخ ، ثم قوي عزمه على ذلك فحمل الناس عليه .

قال ابن أكثم : قال لنا المأمون لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت أن القرآن مخلوق . فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين ، ومن يزيد حتى يتقى ؟ قال : فقال : ويحك . إني أخاف إن أظهرته فيردّ عليّ فيختلف الناس وتكون فتنة ، وأنا أكره الفتنة . قال : فقال الرجل : فأنا أخبر ذلك منه ، فقال له : نعم . فخرج إلى واسط ، فجاء إلى يزيد فدخل عليه المسجد وجلس إليه ، فقال له : يا أبا خالد ، إن أمير المؤمنين يقرئك السَّلام ، ويقول لك : إني أُريد أن أظهر أن القرآن مخلوق ، قال : فقال : كذبت على أمير المؤمنين ، لا يحمل الناس على ما لا يعرفونه ، فإن كنت صادقًا فاقعد إلى المجلس ، فإذا اجتمع الناس فقل . قال : فلما أن كان الغد اجتمع الناس فقام فقال : يا أبا خالد ، رضي الله عنك ، إن أمير المؤمنين يقرئك السَّلام ويقول لك : إني أردت أن أُظهر أن القرآن مخلوق ، فما عندك في ذلك.؟ قال : كذبت على أمير المؤمنين ، أمير المؤمنين لا يحمل الناس على ما لا يعرفونه ، وما لم يقل به أحد . قال : فقدم فقال : يا أمير المؤمنين ، كنت أعلم ، كان من القصة كيت وكيت . فقال له : ويحك تلعب بك »[١] .

فانظر إلى الشيخ الأثري الذي يخاف أميرُ المؤمنين جنانه ، ولا يستطيع

---

(١) مناقب الإمام ص٣٨٥ - ٣٨٦ .

إظهار البدعة خوفًا منه ... انظر إليه وهو يتلعَّب بحاشية وخواص أمير المؤمنين ويقمع البدعة على ملأ من الناس .

مُعلِّمُ الخير وإمام أهل السُّنَّة الإمام أحمد بن حنبل :

قال سفيان بن وكيع : أحمد بن حنبل مِحْنةٌ ؛ من عاب عندنا أحمد ابن حنبل فهو فاسق .

إذا مُيزَ الأشياخُ يومًا وحُصِّلوا فأحمدُ من بين المشايخ جوهرُ
لَعَمْرِكَ ما يهوى لأحمد نكبة من الناس إلا ناقصُ العقل معورُ
هو المحنة اليومَ الذي يُبْتلى به فيعتبر السُّنِّي فينا ويُستَرُ
شجًى في حلوقِ الملحدين وقرّة لأعينِ أهل النُّسْك عفّ مُشمِّرُ[1]

رحم الله إمام أهل السنة ، علت به همته في الاتباع حتى استحق الرجل السنة بمحبته .

أحمد بن حنبل ... فكم الفرق بين رجل يحب السنة ، ورجل تصير محبته رمزًا لمحبة السنة .

« قال قتيبة بن سعيد : إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة وجماعة .

وقال : إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه على الطريق .

وقال أبو حاتم : إذا رأيتَ الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة .

وقال أبو جعفر محمد بن هارون المخرمي ، المعروف بالفلاس : إذا رأيت الرجل يقع في أحمد بن حنبل فاعلم أنه مبتدع ضال »[2] .

رحم الله ابن حنبل .. ما قام أحدٌ بالسنة وللسنة مثلما قام ، ويكفيه

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٥١٩ .

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ص٣٠٨ - ٣٠٩ .

شرفًا ثباته ودفاعه عن القرآن وعقيدة أهل السنة .

يقول علي بن المديني : « إن الله عز وجل أعز هذا الدين برجلين ، ليس لهما ثالث إلى يوم القيامة ، بأبي بكر الصديق يوم الردة ، وأحمد ابن حنبل يوم المحنة . وقد كان لأبي بكر الصديق أصحاب وأعوان ، وأحمد ليس له أعوانٌ ولا أصحاب » .

وقال المزني : أحمد بن حنبل يوم المحنة ، وأبو بكر يوم الردة ، وعمر يوم السقيفة ، وعثمان يوم الدار ، وعلي يوم صفين .

فبُورِكَ مولـودًا وبـورك ناشئًا ... وبُورِك كهلًا من أمينٍ معَـدَّلِ
وبورك مقبوضًا وبورك مُلْحَدًا ... وبورك مبعوثًا إلى خير منـزِلِ
وبَعْدُ فإن السّنة اليوم أصبحتْ ... مُعزَّزةً حتى كـأنْ لـم تذللِ
تصول وتسطو إذ أقيـم منارها ... وحُطَّ مَنَارُ الإفك والزُّور من عَلِ
وولى أخو الإبداع في الدّين هاربًا ... إلى النار يهوي مدبرًا غير مقبلِ

قال أبو عمير الطالقاني : سمعتهم يقولون : أحمد بن حنبل قرة عين الإسلام .

وقال أبو حاتم الرازي : إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل ، فاعلم أنه صاحب سنة . وهو المحنة بيننا وبين أهل البدع .

وقال أبو الحسن الهمداني : « أحمد بن حنبل محنة ، به يعرف المسلم من الزنديق »(١) .

تعـالَ يا أخي إلى الإمام الذي لو كان في بني إسرائيل لكان آية ، وإلى تمسكه بالسنة والأثر ، يقول ابن الجوزي :

---

(١) مناقب الإمام أحمد .

« كان رضي الله عنه شديد الاتباع للآثار ؛ حتى إنه بلغنا عن أبي الحسين بن المنادي أنه قال : استأذن أحمد زوجته في أن يتسرَّىٰ طلبًا للاتباع فأذنت له ، فاشترى جارية بثمنٍ يسير وسماها ريحانة ، استنانًا برسول الله ﷺ .

وقال الحسن بن أيوب البغدادي : قيل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل : أحياك الله يا أبا عبد الله على الإسلام . قال : والسنة .

قال عبد الملك الميموني : ما رأت عيني أفضل من أحمد بن حنبل ، وما رأيت أحدًا من المحدثين أشد تعظيمًا لحرمات الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ، إذا صحت عنده ، ولا أشد اتباعًا منه .

قال أبو بكر الأثرم : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول : إنما هو السنة والاتباع ، وإنما القياس أن يقيس على أصل ، أما أن تجيء إلى الأصل فتهدمه ثم تقول : هذا قياس ، فعلى أي شيءٍ كان هذا القياس .

قيل لأبي عبد الله : لا ينبغي أن يقيس إلا رجلٌ عالم كبير ، يعرف كيف يشبه الشيء بالشيء ؟ قال : أجل ، لا ينبغي . ورأيت أبا عبد الله فيما سمعنا منه من المسائل ، إذا كان في المسألة عن النبي ﷺ حديث لم يأخذ فيها بقول أحدٍ من الصحابة ولا من بعده خلافه . وإذا كان في المسألة عن أصحاب رسول الله ﷺ قول مختلف تخير من أقاويلهم ، ولم يخرج من أقاويلهم إلى قول من بعدهم . وإذا لم يكن فيها عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه قول ، تخير من أقوال التابعين ، وربما كان الحديث عن النبي ﷺ وفي إسناده شيء فيأخذ به إذا لم يجىء خلافه أثبت منه ، مثل حديث عمرو بن شعيب ، ومثل حديث إبراهيم الهجري ، وربما أخذ بالحديث المرسل .

قال أبو بكر المروذي : خرجت مع أبي عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل إلى المسجد ، فلما دخل قام ليركع ؛ فرأيته وقد أخرج يده من

كمه وقال هكذا - وأومأ بأصبعيه يحركهما - فلما قضى الصلاة قلت : يا أبا عبد الله ، رأيتك تومي بأصبعيك وأنت تصلي ؟ قال : إن الشيطان أتاني فقال : ما غسلت رجليك . قلت : بشاهدين عدلين .

وقال الميموني : قال لي أحمد بن حنبل : يا أبا الحسن ، إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام .

قال عبد الرحمن الطبيب : اعتل أحمد بن حنبل وبشر بن الحارث ، فكنت أدخل على بشر فأقول : كيف تجدك ؟ فيحمد الله ثم يخبرني ، فيقول : أحمد الله إليك ، أجد كذا وكذا . وأدخل على أبي عبد الله أحمد ابن حنبل فأقول : كيف تجدك يا أبا عبد الله ؟ فيقول : بخير . فقلت له يومًا : إن أخاك بشرًا عليل ، وأسـأله عن حاله فيبدأ بحمد الله ثم يخبرني . فقال لي : سله عمن أخذ هذا ؟ فقلت له : إني أهاب أن أسأله . فقال : قل له : قال لك أخوك أبو عبد الله : عمن أخذت هذا ؟ قال : فدخلت عليه فعرفته ما قال ، فقال لي : أبو عبد الله لا يريد الشيء إلا بإسناده ؛ عن ابن عون ، عن ابن سيرين ؛ إذا حمد الله العبدُ قبل الشكوى لم تكن شكوى ، وإنما أقول لك : أجد كذا ، أعرف قدرة الله فيَّ . قال : فخرجت من عنده فمضيت إلى أبي عبد الله فعرفته ما قال ؛ فكنت بعد ذلك إذا دخلت إليه يقول : أحمد الله إليك ، ثم يذكر ما يجده .

وقال المروذي : قال لي أحمد : ما كتبت حديثًا عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به ، حتى مرّ بي في الحديث أن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا ؛ فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت .

وقال إسحاق بن حبة الأعمش : سمعت أحمد بن حنبل سُئل عن الوساوس والخطرات ، فقال : ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون .

قال أبو بكر المروذي : قلت لأبي عبد الله : من مات على الإسلام

والسنة مات على خير ؟ فقال لي : اسكت ، من مات على الإسلام والسنة مات على الخير كله »[١] .

« قال أبو داود : قلت لأحمد : الأوزاعي هو أتبع أم مالك ؟ قال : لا تقلِّد دينك أحدًا من هؤلاء ، ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به ، ثم التابعين بعد ، الرجل فيهم مخير .

وقال أبو داود : الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه ، ثم هو من بعد مع التابعين مخيّر . وقال أحمد أيضًا : « لا تقلِّدْني ، ولا تقلد مالكًا ، ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري ، وخذ من حيث أخذوا » . وقال : من قلة فقه الرجل أن يقلّد دينه الرجال .

قال ابن القيم : ولأجل هذا لم يؤلف الإمام أحمد كتابًا في الفقه ، وإنما دون أصحابه مذهبه من أقواله وأفعاله وأجوبته وغير ذلك »[٢] .

قال أبو بكر المروذي : رأيت رجلًا خراسانيًا قد جاء إلى أبي عبد الله ، فأعطاه جزءًا ، فنظر فيه أبو عبد الله ، فإذا فيه كلام لأبي عبد الله ، فغضب فرمى الكتاب من يده .

ومن تعظيمه وعلو همته في الاتباع كان الإمام أحمد يعظم أهل السنة والنقل :

قال رحمه الله : « من عظّم أصحاب الحديث تعظّم في عين رسول الله ﷺ ، ومن حقرهم سقط من عين رسول الله ﷺ ؛ لأن أصحاب الحديث أحبار رسول الله ﷺ .

قال الفضل بن أحمد الزبيدي : سمعت أحمد بن حنبل يقول ، وقد أقبل أصحاب الحديث وبأيديهم المحابر ، فأومأ إليها وقال : هذه سرج الإسلام .

---

(١) مناقب الإمام أحمد ٢٢٩ - ٢٣٤ .

(٢) إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار ، لصالح بن محمد الفلّاني ص١١٣ .

وقال أبو عمران المالكي : رأى أحمد بن حنبل أصحاب الحديث وقد خرجوا من عند محدث ، والمحابر بأيديهم ، فقال أحمد : إن لم يكونوا هؤلاء الناس فلا أدري من الناس .

وقال عمر بن بكار القافلاني : سمعت أحمد بن حنبل يقول : إن لم يكن أصحاب الحديث الأبدال فمن يكون .

وقال رحمه الله : من ردَّ حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة »[1] .

أخي : لقد كان يوم موت أحمد نصرًا لأهل السنة .. فما ظنك برجل نصر السنة حتى في يوم موته .. فكيف نصره للسنة في حياته :

قال عبد الله بن أحمد : « سمعت أبي يقول : قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم يوم الجنائز » . ولمَّا مات رحمه الله كانت جنازته أكبر جنازة في تاريخ الإسلام .

قال عبد الوهاب الوراق : « ما بلغنا أن جمعًا كان في الجاهلية والإسلام مثله ، حتى بلغنا أن الموضع مسح وحزر على التصحيح ، فإذا هو نحو من ألف ألف ، وحزرنا على السور نحوًا من ستين ألف امرأةٍ . وفتح الناس أبواب المنازل في الشوارع والدروب ، ينادون من أراد الوضوء » .

وقال أبو زرعة : بلغني أن المتوكل أمر أن يُمسح الموضع الذي وقف عليه الناس ، حيث صُلِّي على أحمد بن حنبل ، فبلغ مقام ألف ألفٍ وخمسمائة ألف .

« قال محمد بن إبراهيم البوشنجي : صلوا على أحمد بن حنبل في المصلى ، وظهر اللعن على الكرابيسيّ . فأخبر بذلك المتوكل فقال : من الكرابيسي ؟ فقيل : إنه رجل أحدث قولًا لم يتقدمه أحد ، فأمره بلزوم بيته حتى مات .

---

(١) مناقب الإمام أحمد .

وقال جعفر بن محمد النسوي : شهدت جنازة أحمد بن حنبل وفيها بَشَرٌ كثير ، والكرابيسي يلعن لعنًا كثيرًا بأصوات عالية ، والمريسي أيضًا .

قال عبد الوهاب الوراق : أظهر الناس في جنازة أحمد بن حنبل السنة والطعن على أهل البدع ، فسر الله المسلمين بذلك على ما عندهم من المصيبة ؛ لِمَا رأوْا من العز وعلو الإسلام ، وكبتَ الله أهل البدع والزيغ والضلالة »[١] .

لله درّك ابن حنبل من إمامٍ لأهل السنة ... بأبي هو وأمي ، ما كان أعمق فهمه لعقيدة أهل السنة ، يقول رحمه الله : « لا يكون صاحب الكلام - إن أصاب بكلامه السنة - من أهل السنة حتى يدع الجدل ويُسَلّم »[٢] .

وهو نفس المحكي عن ابن المديني : « الكلام في القدر وغيره من السنة مكروه ، ولا يكون صاحبه - وإن أصاب السنة بكلامه - من أهل السنة حتى يدع الجدل ويسلم ويؤمن بالإيمان » .

نعم ، إن من خاض في شيء من علم الكلام لا يعتبر من أهل السنة ، وإن أصاب بكلامه السنة ، حتى يدع الجدل ويسلم للنصوص ، فلم يشترطوا موافقة السنة فحسب بل التلقي والاستمداد منها ، فمن تلقى من السنة فهو من أهلها وإن أخطأ ، ومن تلقى من غيرها فقد أخطأ ، وإن وافقها في النتيجة[٣] .

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص٥٠٦ - ٥٠٧ .

(٢) شرح أصول الاعتقاد للالكائي ١/١٥٧ .

(٣) منهج الأشاعرة في العقيدة ، للدكتور سفر الحوالي ، من بحثٍ له في مجلة البحوث الإسلامية .

انظر رحمك الله إلى شدة اتباع أحمد بن حنبل :

اختفى أحمد أيام الواثق عند إبراهيم بن هانىء . قال إبراهيم : اختفى عندي أحمد بن حنبل ثلاثة أيام ، ثم قال : اطلب لي موضعًا حتى أتحوَّل إليه . قلت : لا آمن عليك يا أبا عبد الله . فقال : افعل ، فإذا فعلت أفدتك ، وطلبت له موضعًا . فلما خرج قال لي : اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام ثم تحوّل ، وليس ينبغي أن يُتَّبع رسول الله ﷺ في الرخاء ويترك في الشدة[1] .

لله دَرُّك إمام أهل السنة .

ولابن حنبل الصِّدِّيق نورُ هدى　　　حتى القيامة مثل البدر في الغَسَقِ
وفَضْله بين أهل الفضل مُشتهِرٌ　　　وإصبعاه من الزِّنْديق في الحَدَقِ

إعراضه عن أهل البدع :

قال أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل : كنت أنا وأحمد بن الحسن الترمذي عند أحمد بن حنبل ، فقال له أحمد بن الحسن : يا أبا عبد الله ، ذكروا لابن أبي قُتَيْلة بمكة أصحاب الحديث فقال : قوم سوء . فقام أحمد وهو ينفض ثوبه فقال : زنديق زنديق زنديق . ودخل بيته .

وقال صالح بن أحمد : جاء الحزامي إلى أبي ، وقد كان ذهب إلى ابن أبي دؤاد ، فلما خرج إليه ورآه أغلق الباب في وجهه ودخل .

وقال أبو داود السجستاني : قلت لأبي عبد الله : أرى رجلًا من السنة مع رجل من أهل البدع ، أترك كلامه ؟ قال : لا ، أو تعلمه أن الذي رأيته معه صاحب بدعة ، فإن ترك كلامه وإلا فألحقْهُ به . قال ابن مسعود:« المرء بِخِدْنِه » .

(١) مناقب الإمام أحمد ص٤٣٠ .

وقال الحسن بن ثواب : قال لي أحمد بن حنبل : ما أعلم في زمان أحوج منهم إلى طلب الحديث من هذا الزمان . قلت : ولم ؟ قال : ظهرت بدعٌ ، فمن لم يكن عنده حديث وقع فيها .

لله دَرُّك يا إمام ، ما أفطنك .

قال حسان بن عطية : ما ابتدع قوم بدعةً في دينهم إلا نَزَع الله من سنَّتهم مثلها ، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة .

وسئل أحمد بن حنبل عن الوَسَاوس والخطرات ، فقال : ما تكلَّم فيها الصحابة ولا التابعون .

وقال أبو القاسم النصر أباذي : بلغني أن الحارث المحاسبي تكلم في شيء من الكلام فهجره أحمد بن حنبل ، فاختفى في دارٍ ببغداد ومات فيها ، ولم يُصَلِّ عليه إلا أربعة نفرٍ .

أرسل الإمام أحمد إلى المتوكل : « إن أهل البدع والأهواء لا ينبغي أن يستعان بهم في شيءٍ من أمور المسلمين ، فإن في ذلك من أعظم الضرر على الدين ، مع ما عليه رأي أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - من التمسك بالسنة والمخالفة لأهل البدع »(١) .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : قبورُ أهل السنة من الفُسَّاق روضةٌ من رياض الجنة ، وقبورُ أهل البدع من الزُّهاد حفرة من حفر النار »(٢) .

الإمام الرباني ، شيخ الإسلام ، السليم الأسلم ، المذكور بالسواد الأعظم الطوسي أبو الحسن محمد بن أسلم :

كان بالآثار مُقتديًا ، وعن الآراء مُنتهيًا .

« قال أبو عبد الله الحاكم : كان من الأبدال المُتتبِّعين للآثار .

---

(١) مناقب الإمام ص٢٣٣ .

(٢) مناقب الإمام ٢٣٦ - ٢٤١ .

وقال قبيصة : كان ابن مسعود أشبه الناس برسول الله ﷺ ، يعني في هَدْيه وسَمْتِه ، وكان علقمه يشبَّه بابن مسعود في ذلك ، ويشبَّه بعلقمة إبراهيم ، وبإبراهيم منصور ، وبمنصور سفيان ، وبسفيان وكيع .

قال الحاكم : قام محمد بن أسلم مقام وكيع ، وأفضل من مقامه ؛ لزهده وورعه وتتبعه للأثر »[1] .

« قال إسحاق بن راهويه : وذكر في حديثٍ رفعه إلى النبي ﷺ ، قال : « إن الله لم يكن ليجمع أُمّة محمدٍ على ضلالة ، فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم »[2]، فقال رجل : يا أبا يعقوب ، من السواد الأعظم ؟ فقال : محمد بن أسلم وأصحابه ومن تبعه . ثم قال : سأل رجلٌ ابن المبارك فقال : يا أبا عبد الرحمن ، من السواد الأعظم ؟ فقال : أبو حمزة السكوني . ثم قال إسحاق:في ذلك الزمان ؛ يعني أبا حمزة ، وفي زماننا محمد ابن أسلم ومن تبعه . ثم قال إسحاق : لو سألت الجهال : من السواد الأعظم ؟ قالوا : جماعة الناس ، ولا يعلمون أن الجماعة عالمٌ متمسِّك بأثر النبي ﷺ وطريقه ، فمن كان معه وتبعه فهو الجماعة ، ومن خالفه فيه ترك الجماعة . ثم قال إسحاق : لم أسمع عالمًا منذ خمسين سنة كان أشد تمسكًا بأثر النبي ﷺ من محمد بن أسلم »[3].

---

(١) السير ١٢/١٩٦ .

(٢) أخرجه ابن ماجة ، وإسناده ضعيف ، ورواه أبو يعلى الموصلي ، وأبو داود وأحمد والترمذي وأبو نعيم والحاكم وابن منده والضياء في المختارة عن أنس بن مالك وأبي مالك الأشعري وأبي بصرة وابن عمر وأبي ذر ، وفي كلها نظر كما قاله العراقي . قال شعيب الأرنؤوط . لكن بمجموعها يتقوى الحديث . انظر هامش السير ١٢/١٩٧ .

(٣) السير ١٢/١٩٦ - ١٩٧ ، الحلية ٩/٢٣٨ - ٢٣٩ .

قال محمد بن القاسم خادم محمد بن أسلم : سمعت أبا يعقوب المروزي ببغداد ، وقلت له : قد صحبت محمد بن أسلم ، وصحبت أحمد ابن حنبل ، أي الرجلين كان عندك أرجح أو أكثر أو أبصر بالدين ؟ فقال : يا أبا عبد الله ، لم تقول هذا ؟ إذا ذكرت محمد بن أسلم في أربعة أشياء فلا تقرن معه أحدًا : البصر بالدين ، واتباع أثر النبي ﷺ في الدنيا ، وفصاحة لسانه بالقرآن والنحو . ثم قال لي : نظر أحمد بن حنبل في كتاب الرَّدّ على الجهمية ، الذي وضعه محمد بن أسلم ، فتعجب منه ، ثم قال : يا أبا يعقوب ، رأت عيناك مثل محمدٍ ؟ فقلت : يا أبا عبد الله لا يغلط رأي محمد من أستاذيه ورجاله مثله . فتفكر ساعةً ثم قال : لا ، قد رأيتهم وعرفتهم ، فلم أر فيهم على صفة محمد بن أسلم .

قال أبو عبد الله : وسألت يحيى بن يحيى عن ست مسائل فأفتى فيها ، وقد كنت سمعت محمد بن أسلم أفتى فيها بغير ذلك ، احتج فيها بحديث النبي ﷺ ، فأخبرت يحيى بن يحيى بفتيا محمد بن أسلم فيها ، فقال : يا بني أطيعوا أمره ، وخُذُوا بقوله ، فإنه أبصر منا ؛ ألا ترى أنه يحتج بحديث النبي ﷺ في كل مسألة ، وليس ذاك عندنا .

قال أبو عبد الله : سمعت إسحاق بن راهويه - ذات يومٍ - روى في ترجيع الأذان أحاديث كثيرة ، ثم روى حديث عبد الله بن زيد الأنصاري ، ثم قال : يا قوم قد حدثتكم بهذه الأحاديث في الترجيع ، وليس في غير الترجيع إلّا حديث واحد ؛ حديث عبد الله بن زيد ، وقد أمر محمد بن أسلم الناس بالترجيع فقلتم : هذا مبتدع ، عامَّةُ أهل بلده بالكُورة غَوْغَاء ، ثم قال : احذروا الغوغاء ، فإن الأنبياء قتلتهم الغوغاء . فلمّا كان الليل دخلت عليه فقلت : يا أبا يعقوب ، حدثت هذه الأحاديث كلها في الترجيع ، فما لك لا تأمر مؤذنك بالترجيع ؟ قال : يا مغفل ، ألم

تسمع ما قلت في الغوغاء ، إنما أخاف الغوغاء ، فأمّا أمر محمدِ بن أسلم ، فإنه سماويّ ، كلَّما أخذ في شيءٍ ، تمَّ له ، ونحن عنده عبيد بطوننا ، لا يتم لنا أمْرٌ نأخذ فيه ، نحن عند محمد بن أسلم من السُّرَّاق .

لا يعرف قدر الرجال إلا الرجال ، فهذا كلام إسحاق بن راهويه شيخ البخاري .

قال أبو عبد الله : وكتب إليّ أحمد بن نصر : أن اكتب إليَّ بحال محمد بن أسلم ، فإنه ركن من أركان الإسلام .

وقال لخادمه عند موته : « يا أبا عبد الله ؛ أنا معك وقد علمت أن معي في قميصي من يشهد علي ، فكيف ينبغي لي أن آتي الذنوب ، إنما يعمل الذنوب جاهلٌ ينظر فلا يرى أحدًا ، فيقول : ليس يراني أحدٌ ، أذهب فأُذنب . فأما أنا كيف يمكنني ذلك وقد علمت أن داخل قميصي من يشهد علي . ثم قال : يا أبا عبد الله ، ما لي ولهذا الخلق ، كنت في صلب أبي وحدي ، ثم صرت في بطن أمي وحدي ، ثم دخلت الدنيا وحدي ، ثم تقبض روحي وحدي ، وأدخل في قبري وحدي ، ويأتيني منكر ونكير فيسألأني في قبري وحدي ، فإن صرت إلى خيرٍ صرت وحدي ، وإن صُرت إلى شرٍّ كنت وحدي ، ثم أوقف بين يدي الله وحدي ، ثم يوضع عملي وذنوبي في الميزان وحدي ، وإن بُعثت إلى الجنة بُعثت وحدي ، وإن بعثت إلى النار بعثت وحدي ، فما لي وللناس . ثم تفكرَ ساعةً فوقعت عليه الرّعدة ، حتى خشيتُ أن يسقط ، ثم رجعت إليه نفسه ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، إن هؤلاء قد كتبوا رأي أبي حنيفة ، وكتبت أنا الأثر ، فأنا عندهم على غير طريقٍ ، وهم عندي على غير طريقٍ . وقال لي : يا أبا عبد الله ، أصل الإسلام في هذه الفرائض ، وهذه الفرائض في حرفين ، ما قال الله ورسوله : افعل . فهو فريضة ينبغي أن يفعل ، وما قال الله ورسوله : لا تفعل . فينبغي أن ينتهى عنه ، فتُركه فريضة ، وهذا في

القرآن ، وفي فريضة النبي ﷺ ، وهم يقرءونه ولكن لا يتفكرون فيه ، قد غلب عليهم حب الدنيا . ثم قال : حديث عبد الله بن مسعود : خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا فقال : « هذا سبيل الله » ، ثم خطّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله ، ثم قال : « هذه سبل ، على كل سبيلٍ منها شيطان يدعو إليه » ، ثم قرأ : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتَّبعُوه ولا تتَّبعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون** ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، وحديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ : « إن بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين ملّة ، وأُمَّتي تفترق على ثلاثةٍ وسبعين ، كلها في النار إلّا واحدة » . قالوا : يا رسول الله ﷺ ، من هم ؟ قال : « ما أنا عليه اليوم وأصحابي » فرجع الحديث إلى واحدٍ ، والسبيل الذي قال في حديث عبد الله بن مسعود : « الذي قال ما أنا عليه وأصحابي » فدين الله في سبيلٍ واحدٍ ، فكل عملٍ أوله أعرضه على هذين الحديثين ، فما وافقهما عملته ، وما خالفهما تركته ، ولو أن أهل العلم فعلوا ، لكانوا على أثر النبي ﷺ ، ولكنهم فتنهم حب الدنيا وشهوة المال ، ولو كان في حديث عبد الله ابن عمرو الذي قال : « كلها في النار إلا واحدة » قال : « كلها في الجنة إلا واحدة » لكان ينبغي أن يكون قد تبين علينا في خشوعنا وهمومنا وجميع أمورنا ، خوفًا أن يكون من تلك الواحدة ، فكيف وقد قال : « كلها في النار واحدة »[١] .

وقال أبو عبد الله : « وولد له ابنٌ فدفع إلَيّ دراهم وقال : اشتر كبشين عظيمين وغال بهما فإنه كلما كان أعظم كان أفضل . فاشتريت له وأعطاني عشرة دراهم فقال : اشتر به دقيقًا واخبزه . فنخلت الدقيق وخبزته ، ثم جئت به فقال : نخلت هذا ؟ فأعطاني عشرة دراهم أُخَر وقال :

(١) الحلية ٩/٢٤١ - ٢٤٤ .

اشتر به دقيقًا ولا تنخله واخبزه . فخبزته وحملته إليه ، فقال لي : يا أبا عبد الله ، إن العقيقة سنة ، ونخل الدقيق بدعة ، ولا ينبغي أن يكون في السنة بدعة ، فلم أُحب أن يكون ذلك الخبز في بيتي بعد أن يكون بدعة » .

الله أكبر . نخل الدقيق مباح ... ولكنه يريد أن يقتفي أثر الرسول ﷺ الذي ما رأى منخلًا قط منذ أن ابتعثه الله .

فرحم الله شيخ الإسلام الطوسي ، الذي ما علم بسنةٍ إلّا وعملها ، إلَّا سنة واحدة أعيته ، وهي أن يطوف بالبيت راكبًا مثلما طاف رسول الله ﷺ بالبيت راكبًا .

سيِّد الحُفّاظ أبو زُرْعَة الرَّازِي عُبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد :

« قال يونس بن عبد الأعلى : أبو زرعة أشهر في الدنيا من الدنيا .

وقال محمد بن يحيى : لا يزال المسلمون بخيرٍ ما أبقى الله لهم مثل أبي زرعة ، يُعلِّم الناس وما كان الله ليترك الأرض إلَّا وفيها مثل أبي زرعة يعلّم الناس ما جهلوه .

وقال محمد بن إسحاق الصاغاني : أبو زرعة يشبه بأحمد بن حنبل »[(١)] .

وتحت باب « ما ذكر من بدو مكاشفة أبي زرعة لأهل الرأي ، وإظهاره السنن ومقاساته أذى القوم » كتب ابن أبي حاتم الرازي في « الجرح والتعديل » (١/٣٤٧) يقول : « سمعت أبا زرعة يقول : قال لي أبو جعفر الجمال : ما لهم - يعني أصحاب الرأي - سواك » .

وقال أبو زرعة : ما رغبت قط في سكنى الري ، وما كاشفت القوم وأنا أريد مزاحمتهم في دنيا ولا مال ولا في ضيعة ، وقلت في نفسي : أنا لست براغبٍ في شيءٍ من هذا ، فأُقاسي إظهار السنن ، فإن كان كَونٌ ،

(١) السير ١٣/٧٠ - ٧٤ .

خرجت وهربت إلى طرسوس .

وقال أبو زرعة : قال لي السّريّ بن معاذ : لو أني قبلت لأُعطيت مائة ألف درهم قبل الليل فيك وفي ابن مسلمٍ ، من غير أن أحبسكم ولا أضربكم أكثر من أن أمنعكم من التحديث .

سبحان الله : هكذا الخوف من إظهار السنن ونشر الاتباع .

« قال الحسن بن أحمد بن الليث : سمعت أحمد بن حنبل ، وسأله رجلٌ فقال : بالري شابٌّ يقال له : أبو زرعة ، فغضب أحمد وقال : تقول : شاب ؟! كالمنكر عليه ، ثم رفع يديه ، وجعل يدعو الله عز وجل لأبي زرعة ويقول : اللهم انصره على من بغى عليه ، اللهم عافه ، اللهم ادفع عنه البلاء ، اللهم ... اللهم ، في دعاء كثير . قال الحسن : فلما قدمت الري حكيت ذلك لأبي زرعة ، وحملت إليه دعاء أحمد بن حنبل له ، وكنت كتبته عنه ، فكتبه أبو زرعة ، وقال لي أبو زرعة : ما وقعت في بلية فذكرت دعاء أحمد ، إلا ظننت أن الله عز وجل يفرج بدعائه عني .

وكتب عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني - المعروف بـ « رُسْتَةَ » - من أصبهان إلى أبي زرعة : اعلم - رحمك الله - أني ما أكاد أنساك في الدعاء لك - ليلي ونهاري - أن يُمتع المسلمون بطول بقائك ، فإنه لا يزال الناس بخيرٍ ما بقي من يعرف العلم وحقه من باطله ، ولولاك لذهب العلم وصار الناس إلى الجهل ، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ، وقد جعلك الله منهم ، فاحمد الله على ذلك ، فقد وجب لله عز وجلّ عليك الشكر في ذلك » .

« وكتب إليه إسحاق بن راهويه : اعلم - أبقاك الله - أني كنت أسمع من إخواننا القادمين علينا ، ومن غيرهم ، حالك وما أنت عليه من

العلم والحفظ ، فأُسرّ بذلك ، وإني أزداد بك كل يومٍ سرورًا ، فالحمد لله الذي جعلك ممن يحفظ سنته ، وهو من أعظم ما يحتاج إليه الطالب اليوم ، وأحمد بن إبراهيم لا يزال في ذكرك الجميل حتى يكاد يفرط حُبًّا لك ، وإن لم يكن فيك - بحمد الله - إفراط »[(١)] .

قال أبو زرعة : إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق والقرآن حق ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى ، وهم زنادقة[(٢)] .

وقال أبو زرعة وأبو حاتم الرازي : مذهبنا واختيارنا وما نعتقده وندين الله به .. ترك النظر في موضع البدع .. وترك رأي الملبِّسين المُموِّهين المُزَخْرفين .. وترك النظر في كتب الكرابيسي ... وترك مجالسة من وضع الكتب بالرأي بلا آثار .

وكانا يقولان : لا يفلح صاحب كلام أبدًا .

وقال أبو زرعة : هؤلاء المتكلمون لا تكن منهم بسبيل ، فإن آخر أمرهم يرجع إلى شيءٍ مكشوف ينكشفون عنه ، وإنما يتموّه أمرهم سنةً أو سنتين ، ثم ينكشف ، فلا أرى لأحدٍ أن يناضل عن أحدٍ من هؤلاء ، فإنهم إن يهتكوا يومًا قيل لهذا المناضل : أنت من أصحابه ، وإن طلب يومًا طلب هذا به . لا ينبغي لمن يعقل أن يمدح هؤلاء[(٣)] .

---

(١) الجرح والتعديل ٣٤١/١ - ٣٤٤ .

(٢) الكفاية للخطيب ص٤٩ .

(٣) الضعفاء للبرذعي ص٥٥٣ ، وتاريخ بغداد ٣٧٣/٨ ، وطبقات الشافعية ٢/ ٢٨٥ .

وسُئل أبو زرعة عن كتب الحارث المحاسبي ، فقال : إياك وهذه الكتب ، هذه كتب بدعٍ وضلالات ، عليك بالأثر ، تجد فيه ما يغني عن هذه الكتب . فقيل له : في هذه الكتب عبرة . فقال : من لم يكن له في كتاب الله عبرة ، فليس له في هذه الكتب عبرة ، بلغكم أن مالك ابن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمين ، صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء ؟! هؤلاء قومٌ خالفوا أهل العلم ، فأتَوْنا مرةً بالحارث المحاسبي ، ومرة بعبد الرحيم الدبيلي ، ومرة بحاتم الأصم ، ومرة بشقيقٍ البلخي[١]، ما أسرع الناس إلى البدع[٢] .

وقال أبو زرعة : إذا رأيت الكوفي يطعن على سفيان الثوري وزائدة ، فلا تشك أنه رافضيٌّ ، وإذا رأيت الشامي يطعن على مكحولٍ والأوزاعي ، فلا تشك أنه ناصبي ، وإذا رأيت الخراساني يطعن على عبد الله بن المبارك ، فلا تشك في أنه مرجىء ، واعلم أن هذه الطوائف كلها مجمعةٌ على بغض أحمد بن حنبل ؛ لأنه ما منهم أحد إلَّا وفي قلبه منه سهمٌ لا برء له[٣].

وانظر - رحمك الله - إلى حرص أبي زرعة على نشر السنة ، ولو عند الاحتضار :

« قال أحمد بن إسماعيل ؛ ابن عم أبي زرعة : سمعت أبا زرعة يقول في مرضه الذي مات فيه : اللهم إني أشتاق إلى رؤيتك ، فإن قال لي : بأي عمل اشتقت إليّ ؟ قلت : برحمتك يا رب »[٤] .

فبيّن الرؤية والرجاء .

---

(١) حاتم الأصم وشقيق البلخي أثنى عليهما الذهبي وغيره .
(٢) الضعفاء للبرذعي وتاريخ بغداد للخطيب ٢١٥/٨ ، وتلبيس إبليس ص١٦١ .
(٣) طبقات الحنابلة ١٩٩/١ - ٢٠٠ .
(٤) الجرح والتعديل ٣٤٦/١ .

وكان أبو زرعة – رحمه الله تعالى – يجاهر برفع اليدين في الصلاة ، وينكر على أهل الرأي تركهم ذلك . فرُئِي بعد موته كأنه يصلي بالملائكة في السماء ، فقيل له : بم أدركت ذلك ؟! قال : برفع اليدين في الصلاة(١) .

وانظر يا أخي إلى فضل الكلام في أهل البدع وكيف يُعلي صاحبه :

قال محمد بن مسلم بن وارة وهو إمام ثقة :

« رأيت أبا زرعة في المنام ، فقلت له : ما حالك يا أبا زرعة ؟ قال : أحمد الله على أحواله كلها ، إني حضرت فوقفت بين يدي الله تعالى ، فقال : يا عبيد الله ،لم تذرعت القول في عبادي ؟ قلت : يا رب ، إنهم حاولوا دينك . قال الله : صدقت . ثم أُتي بطاهر الخلقاني ، فاستعديت عليه إلى ربي تعالى ، فضرب الحد مائةً ، ثم أُمر به إلى الحبس ، ثم قال : ألحقوا عبيد الله بأصحابه : أبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله ؛ سفيان الثوري ، ومالك ابن أنس ، وأحمد بن حنبل »(٢) .

ولقد كان – رحمه الله – شديدًا على أهل الرأي بعد أن أنقذه الله منه ... وكان شديدًا على أبي حنيفة – رحمه الله – لأنه إمام أهل الرأي .

قيل له : إن إبراهيم بن أورمة كان يُعنى بإسناد أبي حنيفة ؟! فقال أبو زرعة : إنا لله وإنا إليه راجعون ، عظمت مصيبتنا في إبراهيم ! يعنى به ! لأي معنى يصدقه ؟! لاتباعه ؟! لإتقانه . ثم قال : رحم الله أحمد بن حنبل ، بلغني أنه كان في قلبه غصص من أحاديث ظهرت عن المعلى بن منصور : كان يحتاج إليها ، وكان المعلى أشبه القوم (أهل الرأي) بالعلم ، وذلك أنه كان طلَّابةً للعلم ورحل وعني به ، فصبر أحمد عن تلك الأحاديث ، و لم

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٠/٧٠١/ق .

(٢) الجرح والتعديل ٣٤٦/١ ، سير أعلام النبلاء ٧٥/١٣ - ٧٦ ، ٨٤ - ٨٥ .

يسمع منه حرفًا . وأي شيءٍ يشبه المعلى من أبي حنيفة ؟! المعلى صدوق[١] .

وانظر إلى كلام أبي زرعة في محمد بن مقاتل إمام أهل الرأي بالريّ :

« قال أبو زرعة : قال محمد بن مقاتل لَمَّا قدم الري : رأيت أسباب أبي حنيفة قد ضعفت بالعراق ، فلأنصرنه بغاية النصر . قال أبو زرعة للبرذعي : فسلط عليه منَّا ما قد علمت »[٢] .

وقال البرذعي في كتابه الضعفاء ص٥٦٩ - ٥٧٠ : « سألته (يعني أبا زرعة) عن نصر بن عليّ الجهضمي فقال : اتق الله ذاك زَفَّانٌ يجتمع بالليل مع هؤلاء المغبّرين ، يزفن ويرقص معهم . قال : فضربت على ما كتبت عنه » .

والتغبير : هو الغناء بالأشعار الزهدية والضرب على المخادّ مع ذلك الغناء ، وهذا قال فيه الشافعي : أرى الزنادقة وضعوا هذا التغبير ليصدوا الناس عن ذكر الله .

وانظر - رحمك الله - إلى هذه الحكاية التي تدل على شدة اتباع أبي زرعة ، وهي حكايته مع يحيى بن معاذ الرازي ، وكان سليم الاعتقاد يقصُّ ويعظ ، أثنى عليه الجمع الغفير من العلماء .

قال البرذعي في كتابه الضعفاء ص٥٦٥ : « شهدت أبا زرعة ، وأتاه أبو العباس الهسنجاني ، فكلمه أن يُقيل يحيى بن معاذ . فقال : إنه يقول : أنا على مذهبك ، وأنا رجل نَوَّاحٌ ، أنوح وأنوح . فقال أبو زرعة : إنما النوح لمن يدخل بيته ، ويغلق بابه ، وينوح على ذنوبه ، فأما من يخرج إلى أصبهان وفارس ، ويجول في الأمصار في النوح ، فإنا لا نقبل هذا منه . هذا من فعل المستأكلة ، الذين يطلبون الدراهم والدنانير . ولم يقبله »[٣] .

---

(١) الضعفاء للبرذعي ص٥٧٠ .

(٢) الضعفاء للبرذعي ص٧٥٥ - ٧٥٦ .

(٣) ورواه ابن الجوزي في كتاب القُصَّاص ص١٢٢ .

قال أبو حاتم الرازي :

« علامة أهل البدع : الوقيعة في أهل الأثر . وعلامة الزنادقة : تسميتهم أهل الأثر حشوية ، يريدون إبطال الآثار عن رسول الله ﷺ .

وعلامة الجهمية : تسميتهم أهل السنة مشبهةً ونابتةً .

وعلامة القدرية : أن يسموا أهل السنة : مجبرةً .

وعلامة المرجئة : تسميتهم أهل السنة : مخالفة ونقصانية .

وعلامة الرافضة : تسميتهم أهل السنة : ناصبة .

وكل هذا أم عصبات معصبات . ولا يلحق أهل السنة إلا اسمٌ واحد ، ويستحيل أن تجمعهم هذه الأسماء » .

زَيْن الأُمَّة وأمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري :

قال له مسلم : أشهد أنه ليس في الدنيا مثلك .

أبو عبد الله البخاري إمام أهل خراسان وسيدهم ، كتب إليه أهل بغداد :

المسلمون بخيرٍ ما بقيتَ لهم ... وليس بَعْدَك خيرٌ حينَ تُفْتَقدُ

قال عنه الحسين بن محمد السمرقندي : كان لا يشتغل بأمور الناس ، كل شغله كان في العلم .

كان – رحمه الله – جبلًا في الاتباع ، ومن مثله والناس كلهم محتاجون لعلمه وحديثه .

يقول رحمه الله : لا أعلم شيئًا يحتاج إليه إلّا وهو في الكتاب والسنة . فقال له محمد بن أبي حاتم : يمكن معرفة ذلك كله ؟ قال : نعم .

قال محمد بن أبي حاتم : « كنت بنيسابور ، أجلس في الجامع ، فذهب عمرو بن زرارة وإسحاق بن راهويه إلى يعقوب بن عبد الله والي نيسابور ، فأخبروه بمكاني ، فاعتذر إليهم وقال : مذهبنا أنه إذا رفع إلينا

غريبٌ لم نعرفه ، حبسناه حتى يظهر لنا أمره . فقال له بعضهم : بلغني أنه قال لك : لا تُحسن تصلي ، فكيف تجلس ؟ فقال : لو قيل لي شيء من هذا ، ما كنت أقوم من ذلك المجلس حتى أروي عشرة آلاف حديثٍ في الصلاة خاصة »(١).

هذا والله الشرف .

رحم الله البخاري ، فقد كان رأسًا في السنة والأثر ... ومن أراد سبر غور الإمام فلينظر إلى صحيح البخاري ، وخلق أفعال العباد .

« قال محمد بن العباس الفربري : أملى يومًا عليَّ حديثًا كثيرًا فخاف ملالي ، فقال : طب نفسًا ، فإن أهل الملاهي في ملاهيهم ، وأهل الصناعات في صناعاتهم ، والتجار في تجاراتهم ، وأنت مع النبي ﷺ وأصحابه »(٢) .

قال البخاري : نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس ، فما رأيت أحدًا أضل في كفرهم من الجهمية ، وإني لأستجهل من لا يكفرهم .

الإمام بَقِيّ بن مَخْلَد :

كان بقيّ أول من كثر الحديث بالأندلس ونشره ، وهاجم به شيوخ الأندلس ، فثاروا عليه لأنه كان أعلمهم بالمسائل ومذهب مالك ، وكان بقي يفتي بالأثر ، فشذ عنهم شذوذًا عظيمًا ، فعقدوا عليه الشهادات وبدعوه ، ونسبوا إليه الزندقة وأشياء نزهه الله منها . وكان بقي يقول : « لقد غرست لهم بالأندلس غرسًا لا يقلع إلا بخروج الدجال »(٣) .

قال الشاطبي في الاعتصام (٣٤٨/٢) في موقف المقلدة من بقي بن مخلد : « لقد لقي الإمام بقي بن مخلد - حين دخل الأندلس آتيًا من

---

(١) السير ٤١٢/١٢ .
(٢) السير ٤٤٥/١٢ .
(٣) السير ٢٩٠/١٣ - ٢٩١ .

المشرق - من هذا الصنف الأمَرَّيْن ؛ حتى أصاروه مهجور الفناء ، مُهتَضَم الجانب ، لأنه من العلم بما لا يد لهم به ، إذ لقي بالمشرق الإمام أحمد ابن حنبل ، وأخذ عنه مصنفه ، وتفقه عليه ، ولقي أيضًا غيره ، حتى صنف « المسند المصنف » الذي لم يصنف في الإسلام مثله ، وكان هؤلاء المقلدة قد صمموا على مذهب مالكٍ بحيث أنكروا ما عداه ، وهذا تحكيم الرجال على الحق ، والغلو في محبة المذهب » .

فحكّموا الرجال على الشريعة ، ولم يحكموا الشريعة على الرجال .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « اغْدُ عالمًا أو متعلِّمًا ، ولا تغدُ إمّعَةً فيما بين ذلك » قال ابن وهب : فسألت سفيان عن الإمعة فقال : الإمعة في الجاهلية الذي يُدعى إلى الطعام ، فيذهب معه غيره ، وهو فيكم اليوم المُحقب[1] دينه الرجال .

وهم الذين عناهم عليّ - رضي الله عنه - حين قال لكميل بن زياد : « وهمج رعاع أتباع كلّ ناعِقٍ ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى رُكنٍ وثيق ... أُفٍّ لحامل حقّ لا بصيرةَ له ، ينقدح الشّكُّ في قلبه بأول عارضٍ من شبهة ، لا يدري أين الحق ، إن قال أخطأ ، وإن أخطأ لم يدر ، مشغوفٌ بما لا يدري حقيقته ، فهو فتنةٌ لمن فتن به » .

وعن علي رضي الله عنه : إياكم والاستنان بالرجال ، فإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ، ثم ينقلب لعلم الله فيه فيعمل بعمل أهل النار ، فيموت وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، فينقلب لعلم الله فيه فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيموت وهو من أهل الجنة ، فإن كنتم لا بُدَّ

---

(١) المحقب : المقلِّد التابع لغيره ، من الأحقاب وهو الأرداف وشدّ المتاع وراء ظهر الراكب .

فاعلين ، فبالأموات لا بالأحياء . وأشار إلى رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام .

وفي الصحيح عن أبي وائل قال : جلست إلى شيبة في هذا المسجد قال : جلس إليَّ عمر في مجلسك هذا ، قال : هممتُ أن لا أدَعَ فيها صفراء ولا بيضاء إلّا قسمتها بين المسلمين . قلت : ما أنت بفاعلٍ . قال : لم ؟ قلت : لم يفعله صاحباك . قال : هما المَرْءَانِ أهتدي بهما . يعني النبي ﷺ وأبا بكرٍ رضي الله عنه .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في حديث عيينة بن حصن ، حين استُؤْذِن له على عمر ، قال فيه : فلما دخل قال : يا ابن الخطاب ! والله ما تعطينا الجزل ، وما تحكم بيننا بالعدل . فغضب عمر حتى همّ بأن يقع فيه ، فقال له الحرُّ بن قيس : يا أمير المؤمنين ؟ إن الله قال لنبيه عليه الصلاة والسلام :﴿ **خذ العفو وأمُرْ بالعُرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف : ١٩٩] فوالله ما جاوز عمر حين تلاها عليه ، وكان وقّافًا عند كتاب الله .

الإمام القُدْوَة ، شيخُ أهل السُّنَّة والجماعة في عصره : البَرْبَهارِيّ أبو محمد الحسن بن عليّ بن خَلَف :

قال أبو عبد الله الفقيه : « إذا رأيت البغدادي يحب أبا الحسن بن بشار ، وأبا محمدٍ البربهاريَّ ، فاعلم أنه صاحب سنة »(١) .

وقال أبو يعلى : « شيخ الطائفة في وقته ، ومتقدمها في الإنكار على أهل البدع ، والمباينة لهم باليد واللسان » .

وقال ابن الجوزي : « جمع العلم ، والزهد ... وكان شديدًا على أهل البدع » .

---

(١) طبقات الحنابلة (٢/٥٨) .

وقال الذهبي في السير (١٥/٩٠ - ٩٢) : « كان قوّالًا بالحقّ ، داعية إلى الأثر ، لا يخاف في الله لومة لائم » .

وقال في العبر : « شيخ الحنابلة بالعراق ، قالا ، وحالًا ، وحلالًا ، وكان له صيتٌ عظيم وحُرْمةٌ تامَّة » .

وقال ابن كثير : « العالم الزاهد ، الفقيه الحنبلي ، الواعظ ... وكان شديدًا على أهل البدع والمعاصي ، وكان كبير القَدْر ، تعظِّمه الخاصة والعامة » .

لقد كان رحمه الله شديدًا على أهل البدع والأهواء ، منابذًا لهم باليد واللسان ، وكان موقفه منهم يدلّ على الصرامة والشدة ، غيرةً منه على السنة ، أن يحاول النيل منها كل بِدْعِيٍّ مارِق ، فموقفه يعد أُنموذجًا رائعًا لمواقف أهل السنة من أهل البدع والضلال .

قال - رحمه الله - في كتابه القيم « شرح السنة » : « اعلموا أن الإسلام هو السنة ، والسنة هي الإسلام ، ولا يقوم أحدهما إلَّا بالآخر » .

وقال : واعلم - رحمك الله - أن الدين إنما جاء من قبل الله تبارك وتعالى ، لم يوضع على عقول الرجال وآرائهم ، وعلمه عند الله وعند رسوله ، فلا تتبع شيئًا بهواك ، فتمرق من الدين فتخرج من الإسلام ، فإنه لا حجة لك ، فقد بين رسول الله ﷺ لأُمَّته السنة ، وأوضحها لأصحابه ، وهم السواد الأعظم ، والسواد الأعظم : الحق وأهله .

واعلم أن الناس لم يبتدعوا بدعةً قطُّ حتى تركوا من السنة مثلها ، فاحذر المُحدَثات من الأمور ، فإن كلَّ محدثةٍ بدعةٌ ، وكلّ بدعةٍ ضلالة ، والضلالة وأهلها في النار .

واحذر صغار المحدثات من الأمور ، فإن صغير البدع يعود حتى يصير كبيرًا ، وكذلك كل بدعة أُحدِثت في هذه الأمة ، كان أولها صغيرًا

يُشبه الحق ، فاغتر بذلك من دخل فيها ، ثم لم يستطع الخروج منها ، فعظمت وصارت دينًا يدان بها ، فخالف الصراط المستقيم ؛ فخرج من الإسلام .

وقال : انظر - رحمك الله - كل من سمعت كلامه من أهل زمانك خاصّةً ، فلا تعجلن ، ولا تدخلن في شيءٍ منه حتى تسأل وتنظر : هل تكلم به أصحاب رسول الله ﷺ ، أو أحدٌ من العلماء ؟ فإن وجدت فيه أثرًا عنهم فتمسك به ، ولا تجاوزه لشيءٍ ولا تَخْتَرْ عليه شيئًا فتسقط في النار .

واعلم أن الخروج من الطريق على وجهين ؛ أمّا أحدهما : فرجلٌ قد زلّ عن الطريق وهو لا يريد إلا الخير ، فلا يُقتدى بزلته ؛ فإنه هالك . وآخر عاند الحق ، وخالف من كان قبله من المتقين ، فهو ضالٌّ مضلٌّ ، شيطانٌ مريد في هذه الأُمة ، حقيقٌ على من يعرفه أن يحذر الناس منه ، ويبين للناس قصته ، لئلا يقع أحدٌ في بدعته فيهلك .

واعلم - رحمك الله - أنه لا يتم إسلامُ عبدٍ ، حتى يكون مُتَّبِعًا مُصدِّقًا مسلمًا ، فمن زعم أنه قد بقي شيءٌ من أمر الإسلام ، لم يكفوناه أصحاب محمد ﷺ ، فقد كذّبهم ، وكفى به فُرقةً وطَعْنًا عليهم ، وهو مبتدعٌ ضالّ ، محدِثٌ في الإسلام ما ليس فيه .

واعلم - رحمك الله - أنه ليس في السنة قياس ، ولا يضرب لها الأمثال ، ولا تتبع فيها الأهواء ، وإنما هو التصديق بآثار رسول الله ﷺ بلا كيفٍ ، ولا شرحٍ ، لا يقال : لم ؟ وكيف ؟

والكلام والخصومة والجدال والمراء : محدَث ، يقدح الشك في القلب وإن أصاب صاحبه الحق والسنة .

واعلم - رحمك الله - أن الكلام في الرب تعالى محدثٌ ، وهو

بدعة ضلالة ، ولا يتكلم في الرب إلا بما وصف به نفسه في القرآن ، وما بين رسول الله ﷺ لأصحابه .

وإذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ولا يقبلها ، أو ينكر شيئًا من أخبار رسول الله ﷺ ، فاتّهِمه على الإسلام ؛ فإنه رجلٌ رديء القول والمذهب ، وإنما طعن على رسول الله ﷺ وأصحابه لأنه إنما عرفْنا الله ، وعرفنا رسول الله ﷺ ، وعرفنا القرآن ، وعرفنا الخير والشر ، والدنيا والآخرة ، بالآثار .

واعلم - رحمك الله - أنه ما كانت زندقة قطُّ ولا كفر ، ولا شك ، ولا بدعة ولا ضلالة ، ولا حيرة في الدين ؛ إلَّا من الكلام ، وأهل الكلام ، والجدل والمراء والخصومة . والعجب كيف يجترىء الرجل على المراء والخصومة والجدال ، والله تعالى يقول : ﴿ **ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا** ﴾ [غافر : ٤]. فعليك بالتسليم والرضا بالآثار وأهل الآثار ، والكف والسكوت .

واعلم أنه لم تجيء بدعةٌ قط إلّا من الهمج الرعاع ، أتباع كل ناعقٍ ، يميلون مع كلِّ ريحٍ ، فمن كان هكذا ، فلا دين له ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **فما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم** ﴾. [الجاثية : ١٧]، وقال تعالى : ﴿ **وما اختلف فيه إلّا الذين أُوتوه من بعد ما جاءتهم البَينات بغيًا بينهم** ﴾ [البقرة : ٢١٣] . وهم علماء السوء وأصحاب الطمع والبدع .

واعلم أنه لا يزال الناس في عصابةٍ من أهل الحقّ والسنة ، يهديهم الله ويهدي بهم غيرهم ، ويحيي بهم السنن ، فهم الذين وصفهم الله تعالى مع قلتهم عند الاختلاف ﴿ **وما اختلف فيه إلا الذين أُوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيًا بينهم** ﴾ فاستثناهم فقال : ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم** ﴾ [البقرة : ٢١٣] ، وقال رسول الله ﷺ : « لا تزال عصابةٌ من أُمتي ظاهرين على

الحق ، لا يضرُّهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون » .

واعلم - رحمك الله - أن العلم ليس بكثرة الرواية والكتب ، إنما العالم من اتبع العلم والسنن ، وإن كان قليل العلم والكتب ، ومن خالف الكتاب والسنة فهو صاحب بدعةٍ ، وإن كان كثير العلم والكتب .

واعلم - رحمك الله - أنّ من قال في دين الله برأيه وقياسه وتأويله ، من غير حُجَّةٍ من السنة والجماعة ، فقد قال على الله ما لا يعلم ، ومن قال على الله ما لا يعلم ، فهو من المتكلفين .

ومن اقتصر على سنة رسول الله ﷺ وما كان عليه أصحابه والجماعة،فَلَجَ[١] على أهل البدع كلهم ، واستراح بدنه ، وسلم له دينه ، إن شاء الله .

ومن عرَف ما ترك أصحاب البدع من السنة ، وما فارقوا فيه ، فتمسك به ، فهو صاحب سُنّةٍ وصاحب جماعةٍ ، وحقيقٌ أن يُتَّبَع وأن يُعان وأن يُحفظ ، وهو ممّن أوصى به رسول الله ﷺ .

وإياك والنظر في الكلام والجلوس إلى أصحاب الكلام .

وكل علمٍ ادَّعاه العباد من علم الباطن ، لم يوجد في الكتاب وفي السنة ، فهو بدعةٌ وضلالة ، ولا ينبغي لأحد أن يعمل له ولا يدعو إليه .

وإذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ، أو يردّ الآثار ، أو يريد غير الآثار ، فاتّهمه على الإسلام ولا تشك أنه صاحب هوًى مبتدِع .

وإذا رأيت الرجل جالسًا مع رجلٍ من أهل الأهواء ، فحذِّره وعرِّفه ، فإن جلس معه بعدما علم فاتّقه ، فإنه صاحب هوى .

وإذا سمعت الرجل تأتيه بالأثر ، فلا يريده ، ويريد القرآن ، فلا شك أنه رجل قد احتوى على الزندقة .

---

(١) أي ظفر وفاز .

واعلم أنه من تناول أحدًا من أصحاب محمد ﷺ ، فاعلم أنه إنما أراد محمدًا ﷺ وقد آذاه في قبره .

وإذا ظهر لك من إنسانٍ شيءٌ من البدع ، فاحذره ، فإن الذي أخفى عنك أكثر مما أظهر .

رأى يونس بن عبيد ابنه ، وقد خرج من عند صاحب هوًى ، فقال : يا بني،من أين جئت ؟ قال : من عند فلان . قال : يا بني ، لَأَنْ أراك خرجت من بيت خُنثى ، أحبّ إليَّ من أن أراك تخرج من بيت فلان وفلان ، ولأن تلقى الله يا بُنَيَّ زانيًا فاسقًا سارقًا خائنًا ، أحبّ إليَّ من أن تلقاه بقولِ فلانٍ وفلان .

ألا ترى أن يونس بن عبيدٍ قد علم أن الخنثى لا يضل ابنه عن دينه ، وأن صاحب البدعة يضله حتى يكفر .

ولا تطلب من عندك حيلةً تردّ بها على أهل البدع ، فإنك أُمرت بالسكوت عنهم ، ولا تمكنهم من نفسك ، أما علمت أن محمد بن سيرين – في فضله – لم يجب رجلًا من أهل البدع في مسألةٍ واحدةٍ ، ولا سمع منه آيةً من كتاب الله عز وجل ، فقيل له ، فقال : أخاف أن يحرفها ، فيقع في قلبي شيء .

وقال : قال بشر بن الحارث : الإسلام هو السنة ، والسنة هي الإسلام .

وقال الفضيل : إذا رأيت رجلًا من أهل السنة ، فكأنما أرى رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وإذا رأيت رجلًا من أهل البدع ، فكأنما أرى رجلًا من المنافقين .

وكان ابن عون يقول عند الموت : « السُّنَّة السنة ، وإياكم والبدع » . حتى مات .

وقال أحمد بن حنبل : مات رجل من أصحابي ، فرُئِيَ في المنام فقال : قولوا لأبي عبد الله : عليك بالسنة ، فإنه أول ما سألني الله ، سألني عن السنة .

وقال أبو العالية : من مات على السنة مستورًا ، فهو صدِّيق .

وقال الفضيل بن عياض : من جلس مع صاحب بدعةٍ في طريق ، فجُزْ في طريقٍ غيره .

وقال : من عظّم صاحب بدعةٍ ، فقد أعان على هدْم الإسلام ، ومن تبسّم في وجه مبتدعٍ ، فقد استخفّ بما أنزل الله عز وجل على محمد ﷺ ، ومن زوّج كريمته من مبتدِعٍ ، فقد قطع رحمها ، ومن تبع جنازة مبتدِعٍ ، لم يزل في سخط الله حتى يرجع .

وقال فضيل بن عياض : إذا علم الله من الرجل أنه مُبغضٌ لصاحبِ بدعةٍ ، غفر له وإن قلَّ علمُه ، ولا يكون صاحب سُنةٍ يُمالىء صاحبَ بدعةٍ إلا نفاقًا ، ومن أعرض بوجهٍ عن صاحب بدعةٍ ، ملأ الله قلبه إيمانًا ، ومن انْتَهَرَ صاحب بدعة ، آمنه الله يوم الفزع الأكبر ، ومن أهان صاحب بدعة ، رفعه الله في الجنة مائة درجةٍ ، فلا تكن صاحب بدعةٍ في الله أبدًا[١] .

وقال البربهاري : « مثل أصحاب البدع مثل العقارب ، يدفنون رؤوسهم وأبدانهم في التراب ، ويُخرجون أذنابهم ، فإذا تمكّنوا لدغوا ، وكذلك أهل البدع ، هم مختفون بين الناس ، فإذا تمكنوا بلغوا ما يريدون »[٢] .

---

(١) شرح السنة للبربهاري ، تحقيق : خالد بن قاسم الردادي . طبع مكتبة الغرباء الأثرية بالمدينة .

(٢) طبقات الحنابلة ٢/٤٤ .

ما فتئ أهل الأهواء والبدع المُعادُون له يُؤلِّبون السلطان ، ويغيظون قلبه عليه ، حتى أمر الخليفة القاهر وزيره ابن مقلة في سنة ٣٢١ بالقبض على البربهاري وأصحابه ، فاستتر البربهاريُّ ، وقُبض على جماعةٍ من كبار أصحابه ، وحُملوا إلى البصرة ، وعاقب الله ابن مقلة على فعله هذا ، بأن أسخط القاهر عليه ، وعزل عن الوزارة ، وطرح في داره النار ، وحُبس وخلع وسملت عيناه .

ثم تفضل الله وأعاد البربهاريّ إلى حشمته .

وفي سنة ثلاثٍ وعشرين وثلاثمائة ازدادت حشمة البربهاري ، وعلت كلمته ، وظهر أصحابه ، وانتشروا في الإنكار على المبتدعة ، حتى إن البربهاري لما اجتاز بالجانب الغربي ، فعطس ، فشمته أصحابه ، فارتفعت ضجتهم حتى سمعها الخليفة وهو في روشنه ، فسأل عن الحال ، فأُخبر بها ، فاستهولها . ولم تزل المبتدعة يثقلون قلب الراضي على البربهاري ، حتى نودي : أن لا يجتمع من أصحاب البربهاري نفسان ، فاستتر البربهاري رحمه الله .

قال ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص٦١٨ - ٦١٩) عن البربهاري : « جمع بين العلم والزهد ، وصحب المروذي ، وسهلًا التستري ، وكان البربهاري شديدًا على أهل البدع ، فما زالوا يثقلون قلب السلطان عليه ، وكان ينزل بباب محول ، فانتقل إلى الجانب الشرقي ، واستتر عند أخت توزون[1] ، فبقي نحوًا من شهر ، ثم أخذه قيام الدَّم ، فمات ، فقالت المرأة لخادمها : انظر من يغسله . وأغلقت الأبواب حتى لا يعلم أحدٌ ، فجاء الغاسل فغسله ، ووقف يصلي عليه وحده ، فاطلعت -

(١) أحد القُوّاد الأتراك ، خلع عليه المُتَّقي ، وجَعَلَه أمير الأمراء . أخباره في الكامل ٣٣٩/٨ .

من الروشن - فإذا الدار ممتلئة رجالًا بثيابٍ بيضٍ وخُضرٍ ، فاستدعت الخادم وقالت : ما الذي فعلت ؟ فقال : يا سيدتي ، رأيت ما رأيت ؟ قالت : نعم . قال : هذه مفاتيح الباب ، وهو مغلق . فقالت : ادفنوه في بيتي ، وإذا متُّ فادفنوني معه . فدفنوه في دارها ، وماتت بعده فدفنت هناك .

قال ابن الزاغوني : كشف قبر أبي محمدٍ البربهاريِّ ؛ وهو صحيحٌ لم يرم ، وظهر من قبره روائح الطيب حتى ملأت مدينة السلام »[1] .

ولا تعجب يا أخي ، فهاك كلام الإمام أحمد إمام أهل السنة :

« قبور أهل السنة من الفساق روضةٌ من رياض الجنة ، وقبور أهل البدع من الزُّهّاد حفرة من حفر النار »[2] .

فكيف بأئمة أهل السنة ممن لهم القدم العالي في الاتباع ، وحمل الناس عليه ، كالبربهاري .

شيخُ الإسلام ابنُ تيميَة :

حاملُ رايةِ الدعوة إلى الكتاب والسنة ، وإرجاع الإسلام إلى منابعه الصحيحة في القرن السابع الهجري .

نصَر السُّنَّة بأوضح حُجَجٍ وأبهر براهين ، وأُوذِيَ في ذات الله من المخالفين ، وأُخِيفَ وسجن في نصر السنة المحمدية ، حتى أعلى الله مناره .

قال الحافظ ابن سيد الناس عنه : « كان يستوعب السنن والآثار حفظًا » .

وقال ابن الزملكاني عنه : « ما رأينا في عصرنا هذا من تُستجلى النبوة

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص٦١٨ - ٦١٩ ، السير ١٥/٩٠ - ٩٢ .
(٢) مناقب الإمام أحمد ص٢٣٩ .

المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل ، يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقةً » .

وقال الحافظ المزي : « ما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ، ولا أتبع لهما منه »[١].

دعا شيخ الإسلام إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة في عقائد الدين وأصوله وفروعه .

قال رحمه الله : « وليعلم أنه ليس لأحدٍ من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولًا عامًّا ، يعتمد مخالفة رسول الله ﷺ بشيءٍ من سنته ، لا دقيق ولا جليل ؛ فإنهم متفقون اتفاقًا يقينيًّا على وجوب اتباع الرسول ﷺ ، وعلى أن كلّ أحدٍ من الناس يؤْخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله ﷺ » .

وقال : « وليس لأحدٍ أن يعارض الحديث الصحيح عن النبي ﷺ بقول أحدٍ من الناس ، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - لرجلٍ سأله عن مسألةٍ ، فأجابه فيها بحديثٍ ، فقال له : قال أبو بكر وعمر ، فقال ابن عباس : يوشك أن تنزل عليكم حِجَارةٌ من السماء ؛ أقول : قال رسول الله ﷺ ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر » .

وقال رحمه الله : « قد ذم الله في القرآن من عدل عن اتباع الرسل إلى ما نَشَأَ عليه من دين آبائه ، وهذا هو التقليد الذي حرمه الله ورسوله ، وهو أن يتبع غير الرسولِ فيما خَالفَ فيه الرسولَ . وهذا حرامٌ باتفاق المسلمين على كل أحدٍ ؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، والرسول طاعتُهُ فرض على كل أحدٍ من الخاصة والعامة في كل وقت وكل مكان ، في سرِّه وعلانيته وفي جميع أحواله » .

---

(١) الرَّدُّ الوافر ص١٢٩ .

وقال رحمه الله : « قد أوجب الله طاعة الرسول على جميع الناس في قريبٍ من الأربعين موضعًا من القرآن ، وطاعته طاعة الله » .

وقال : « التقليد المحرم بالنص والإجماع ، أن يعارض قول الله ورسوله بما يخالف ذلك ، كائنًا من كان المخالف لذلك » .

وقال : « إن الله سبحانه لما ذكر حال من يقول على الله بلا علمٍ بل تقليد السلف ، ذكر حال من يكتم ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب ، فقال : ﴿ **إنّ الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلًا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يُزكيهم ولهم عذابٌ أليمٌ** ﴾ [البقرة : ١٨٤] فهذا حال من كتم علم الرسول ، وذلك حال من عدل عنها إلى خلافها ، والعادل عنها إلى خلافها يدخل فيه من قلد أحدًا من الأولين والآخرين فيما يعلم أنه خلاف قول الرسول ﷺ ، سواءً كان صاحبًا أو تابعًا أو أحد الفقهاء أو غيرهم . ومن ادعى إجماعًا يخالف نصَّ الرسول من غير نصٍّ يكون موافقًا لما يدعيه ، واعتقد جواز مخالفة أهل الإجماع للرسول برأيهم ، وأن الإجماع ينسخ النص - كما تقوله طائفةٌ من أهل الكلام والرأي - فهذا من جنس هؤلاء » .

وقال رحمه الله : « وكثير من الفقهاء المتأخرين ، أو أكثرهم يقولون : إنهم عاجزون عن تلقي جميع الأحكام الشرعية من جهة الرسول ، فيجعلون نصوص أئمتهم بمنزلة نص الرسول ، ويقلدونهم . ولا ريب أن كثيرًا من الناس يحتاج إلى تقليد العلماء في الأمور العارضة التي لا يستقل هو بمعرفتها . ومن سالكي طريق الإرادة والعبادة والفقر والتصوف من يجعل شيخه كذلك ، بل قد يجعله كالمعصوم !! ولا يتلقى سلوكه إلا عنه ، ولا يتلقى عن الرسول سلوكه ، مع أن تلقي السلوك عن الرسول أسهل من تلقي

الفروع المُتنازَع فيها ، فإن السلوك هو الطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق ، وهذا كله مبين في الكتاب والسنة ؛ فإن هذا بمنزلة الغذاء الذي لا بد للمؤمن منه ، ولهذا جميع الصحابة يعلمون السلوك بدلالة الكتاب والسنة والتبليغ عن الرسول ، ولا يحتاجون في ذلك إلى فقهاء الصحابة ... » إلى أن قال : « ولكن كثيرًا من أهل العبادة والزهادة أعرض عن طلب العلم النبوي الذي يعرف به طريق الله ورسوله ، فاحتاج لذلك إلى تقليد شيخٍ ، وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين ، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد ، كلها منصوصة في الكتاب والسنة ؛ وإنما اختلف أهل الكلام لمّا أعرضوا عن الكتاب والسنة ، فلما دخلوا في البدع وقع الاختلاف ، وهكذا طريق العبادة،عامَّةُ ما يقع فيه من الاختلاف إنما هو بسبب الإعراض عن الطريق المشروع ، فيقعون في البدع ، فيقع فيهم الخلاف ، وهكذا الفقه إنما وقع فيه الاختلاف لما خفي عليهم بيان صاحب الشرع » .

محاربته للبدع والعقائد المخالفة للكتاب والسنة :

يقول ابن تيمية في الحموية : « من المحال أن يكون الرسول ﷺ قد علم أمته كل شيءٍ حتى الخراءة ، وقال : « تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » . وقال فيما صح عنه أيضًا : « ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » .

وقال أبو ذرٍّ : لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « قام فينا رسول الله ﷺ

مَقَامًا ، فذكر بدء الخلق ، حتى دخل أهل الجنة منازلهم ، وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ، ونسيه من نسيه » رواه البخاري .

مُحالٌ مع هذا ، ومع تعليمهم كل شيءٍ لهم فيه منفعةٌ في الدين ، وإن دق - أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ، ويعتقدونه بقلوبهم في ربهم ومعبودهم ، رب العالمين » .

وقال: «إن هؤلاء المبتدعة الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة- ومن حذا حذوهم - على طريق السلف ، إنما أتوا من حيث إن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقهٍ لذلك ، بمنزلة الأُميين الذين قال الله فيهم : ﴿ **ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني** ﴾ »[١].

يقول أبو حفص البزار تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية عن محاربته للبدع : « وأما ما خصه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعتهم ، وأهل الأهواء في أهوائهم ، وما ألفه في ذلك من دحض أقوالهم ، وتزييف أمثالهم وأشكالهم ، وإظهار عوارهم وانتحالهم ، وتبديد شملهم ، وقطع أوصالهم ، وأجوبته عن شبههم الشيطانية ، ومعارضتهم النفسانية للشريعة الحنيفية المحمدية ، بما منحه الله تعالى من البصائر الرحمانية ، والدلائل النقلية والتوضيحات العقلية ، حتى انكشف قناع الحق ، وبان فيما جمعه في ذلك وألفه : الكذبُ من الصدق ، حتى لو أن أصحابها أحياء ووفِّقوا لغير الشقاء ، لأذعنوا له بالتصديق ودخلوا في الدين العتيق » .

وقال ابن فضل الله العمري : « أخمل من القرناء كل عظم ، وأخمد من أهل البدع كل حديثٍ وقديم ، ولم يكن فيهم إلا من يجفل عنه إجفال الظليم ، ويتضاءل لديه تضاؤل الغريم »[٢].

---

(١) العقود الدرية ص٧٦ .

(٢) الرد الوافر ص٩٦ .

لقد تصدى ابن تيمية للفرق المنحرفة عن الكتاب والسنة القائمة في عصره :

فدحض مناهج الفلاسفة والمتكلمين ، وبين أنهم أبعد الناس عن معرفة الأمور الإلهية .

ورد على الأشاعرة وتأويلهم ، وكان لهم منه أوفر نصيبٍ ، ورد على القدرية والشيعة ، وأفحم النصارى في كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .

وهاجم ضلال الصوفية والاتحادية وأصحاب وحدة الوجود ... رد على ابن الفارض وابن عربي والعفيف التلمساني والصدر القونوي وابن سبعين ، وألف « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .

وتصدى للأحمدية والرفاعية .

وقام شيخ الإسلام بتحدي هؤلاء الصوفية ، الذين يزعمون الدخول في النيران ، وضربهم أنفسهم بالسيوف والسهام ، وحملهم الحيات والثعابين ، وغيرها من أنواع المخاريق .

• تحداهم أنه يدخل معهم النار التي يزعمون دخولهم فيها ، وأنها تحرقهم إن شاء الله ، ولا تحرقه ، شريطة أن يغسلوا أنفسهم أوّلًا بالخلّ ، وذلك لإزالة دهن الضفادع الذي يدهنون به أنفسهم حتى لا تؤثر فيهم النار ، فلما كشف حيلهم وتحداهم ، وكان ذلك بمحضر السلطان ، تراجعوا من ذلك ، وظهر كذبهم ومخاريقهم .

وقد كان للشيخ استقلاله في أخذ الفقه من الكتاب والسنة .. واختار ما ترجح بالكتاب والسنة ، وجهر به ، من دون أن يبالي بالذي قال خلافه من الأئمة السابقين ، فهو تابع للدليل ، يدور معه حيث دار .

يقول تلميذه أبو حفص البزار : « كان لا يذكر رسول الله ﷺ إلّا

ويصلي ويسلم ، ولا والله ما رأيت أحدًا أشد تعظيمًا لرسول الله ﷺ ، ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به منه ، حتى إذا أورد شيئًا من حديثه في مسألةٍ ، ويرى أنه لم ينسخه شيءٌ غيره من حديثٍ ، يعمل به ويقضي بمقتضاه ، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين ، كائنًا من كان . وقال رضي الله عنه : « كلُّ قائلٍ إنما يحتج لقوله ، لا به ، إلا الله ورسوله »(١) .

وقال ابن الوردي : « له باعٌ طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، قل أن يتكلم في مسألةٍ إلّا ويذكر فيها مذاهب الأربعة . وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة ، وصنف فيها واحتج لها بالكتاب والسنة » . ثم قال : « وبقي سنين لا يفتي بمذهبٍ معين ، بل بما قام الدليل عليه عنده . ولقد نصر السنة المحضة واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها »(٢) .

وقبل أن نذكر طيب قول الشيخ عماد الدين الواسطي في شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية ، نذكر ما قاله ابن كثير ، من أن الواسطي كان في أول الأمر من الفقهاء المتكلمين ، وكان يغلب عليه الجدل والكلام والرأي ، فلما انتقل من مصر إلى بغداد ، والتقى بأهلها وعلمائها ، وتوسعت مداركه وحاسب نفسه ، وجدها فارغة من الطمأنينة ، فترك سبيل الفقهاء والمتكلمين ، واتجه إلى التصوف واقترب من المتصوفة ، فلما رأى ما رأى عندهم من الغرائب ، تكدر طبعه ، وقرر السفر إلى دمشق ، وحضر مجلس شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكان الدرس الأول عن المتكلمين والفلاسفة وعن فقدهم طمأنينة القلب ، وأن مشاهيرهم اعترفوا بهذا ، وشهدوا على أنفسهم بالاضطراب

---

(١) الأعلام العلية ص٢٩ .

(٢) تاريخ ابن الوردي ٢/٤٠٦ ، ٤١٣ .

والحيرة اللذين سببهما الكلام والفلاسفة .

يقول الشيخ عماد الدين ما معناه : إن شيخ الإسلام استمر في كلامه ، وأوضح أن الدواء الناجع لأمراض القلب ، والسبيل الوحيد لنيل طُمأنينته ، هو التمسك بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فانقشع الظلام ، وزالت الحيرة ووجدت نور الحقيقة الذي كنت حيران من أجله . قال : فلما اطلع شيخ الإسلام على أحوالي ، أوصاني بقراءة السيرة النبوية ؛ فإنها الوصفة الكافية الشافية من جميع أمراض القلوب .

ولقد كتب الشيخ عماد الدين الواسطي في الثناء على ابن تيمية - ووصى تلامذته به - رسالةً سمَّاها « التذكرة والاعتبار ، والانتصار للأبرار » وسمى فيها بعض تلامذة ابن تيمية : عمر بن عبد الله بن شقير ، ومحمد ابن عبد الأحد ، ومحمد بن المنجى ، ومحمد بن محمد بن الصائغ ؛ وغيرهم من اللائذين بحضرة شيخهم وشيخنا السيد الإمام ، الأُمَّة الهمام ، محيي السنة ، وقامع البدعة ، ناصر الحديث ، مفتي الفرق ، الفائق عن الحقائق ، وموصلها بالأصول الشرعية للطالب الذائق ، الجامع بين الظاهر والباطن ، فهو يقضي بالحق ظاهرًا وقلبه في العلى قاطن ، أنموذج الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، الذين غابت عن القلوب سيرهم ، ونسيت الأُمَّة حذوهم وسبلهم ، فذكرهم بها الشيخ ؛ فكان في دارس نهجهم سالكًا ، ولموات حذوهم محييا . ولأعنة قواعدهم مالكا : الشيخ الإمام تقي الدين أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ، أعاد الله علينا بركته ، ورفع إلى مدارج العُلى درجته ، وأدام توفيق السادة المبدوّ بذكرهم وتسديدهم ، وأجزل لهم حظهم ، ومزيدهم .

السلام عليكم - معشر الإخوان - ورحمة الله وبركاته ، جعلنا الله وإياكم ممن ثبت على قرع نوائب الحق جأشه ، واحتسب لله ما بذله من

نفسه في إقامة دينه ، وما احْتَوَشَتْه من ذلك وحاشة ، واحتذى حذو السبق الأولين ، من المهاجرين والأنصار ، والذين لم تأخذهم في الله لومة لائم .

ويوصي إخوانه من تلامذة الشيخ بالمواظبة على الاتباع ونبذ الابتداع ، ويثني عليهم بدعوتهم ودعوة شيخهم ابن تيمية إلى السنة فيقول :

« وبعد ذلك الحظوة في هذه الدار بلقاء رسول الله ﷺ ، غيبًا في غيب ، وسرًّا في سر ، بالعكوف على معرفة أيامه وسننه واتباعها . فتبقى البصيرة شاخصةً إليه ، تراه عيانًا في الغيب ، كأنها معه ﷺ ، وفي أيامه . فيجاهد على دينه ، ويبذل ما استطاع من نفسه في نصرته .

واعلموا - أيَّدكم الله - أنه يجب عليكم أن تشكروا ربكم تعالى في هذا العصر ، حيث جعلكم بين جميع أهل هذا العصر كالشامة البيضاء في الحيوان الأسود . لكن من لم يسافر إلى الأقطار ، ولم يتعرف أحوال الناس ، لا يدري قدر ما هو فيه من العافية . فأنتم - إن شاء الله تعالى - في حق هذه الأُمّة الأُولى ، كما قال تعالى : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ للناس تأمُرون بالمعروف وتَنْهَوْنَ عن المنكرِ وتؤمنون بالله** ﴾ . [آل عمران : ١١٠] وكما قال تعالى : ﴿ **الذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأرض أقاموا الصَّلاة وَآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بالْمَعْرُوفِ وَنَهوا عن المنكر ولله عاقبة الأُمور** ﴾. [الحج : ٤١] .

أصبحتم إخواني تحت سَنْجقِ[1] رسول الله ﷺ ، إن شاء الله تعالى ، مع شيخكم وإمامكم ، وشيخنا وإمامنا المبدوء بذكره رضي الله عنه . قد تميزتم عن جميع أهل الأرض - فقهائها وفقرائها ، وصوفيتها ، وعوامِّها - بالدين الصحيح .

وقد عرفتم ما أحدث الناس من الأحداث ، في الفقهاء والفقراء

(١) أي تحت لوائه ورايته .

والصوفية والعوام . فأنتم اليوم في مقابلة الجهمية من الفقهاء ، نصرتم الله ورسوله في حفظ ما أضاعوه من دين الله ، تصلحون ما أفسدوه من تعطيل صفات الله .

وأنتم أيضًا في مقابلة من لم ينفذ في علمه من الفقهاء إلى رسول الله ﷺ ، وجمد على مجرد تقليد الأئمة ، فإنكم قد نصرتم الله ورسوله في تنفيذ العلم إلى أُصُوله من الكتاب والسنة ، واتخاذ أقوال الأئمة ، تأسيًا بهم ، لا تقليدًا لهم .

وأنتم أيضًا في مقابلة ما أحدثته أنواع الفقراء من الأحمدية والحريرية من إظهار شعار المكاء والتصدية ، ومؤاخاة النساء والصبيان ، والإعراض عن دين الله إلى خرافاتٍ مكذوبة عن مشايخهم ، واستنادهم إلى شيوخهم وتقليدهم في صائب حركاتهم وخَطَّائها ، وإعراضهم عن دين الله الذي أنزله من السماء . فأنتم بحمد الله تجاهدون هذا الصنف - أيضًا - كما تجاهدون من سبق . حفظتم من دين الله ما أضاعوه ، وعرفتم ما جهلوه ، تقومون من الدين ما عوجوه ، وتصلحون منه ما أفسدوه .

وأنتم أيضًا في مقابلة رسمية الصوفية والفقهاء ، وما أحدثوه من الرسوم الوضعية، والآصار الابتداعية، من التصنع باللباس، والإطراق والسجادة؛ لنيل الرزق من المعلوم ، ولبس البقيار ، والأكمام الواسعة في حضرة الدرس ، وتنميق الكلام ، والعدو بين يدي المدرس راكعين ، حفظًا للمناصب ، واستجلابًا للرزق والإدرار .

فخلط هؤلاء في عبادة الله غيره ، وتألهوا سواه ، ففسدت قلوبهم من حيث لا يشعرون . يجتمعون لغير الله ، بل للمعلوم ، ويلبسون للمعلوم ، وكذلك في أغلب حركاتهم يراعون ولاة المعلوم ، فضيعوا كثيرًا من دين الله وأماتوه . وحفظتم أنتم ما ضيعوه ، وقومتم ما عوجوه .

وكذلك أنتم في مقابلة ما أحدثته الزنادقة من الفقراء والصوفية من قولهم بالحلول والاتحاد، وتأله المخلوقات؛ كاليونسية، والعربية، والصدرية، والسبعينية ، والتلمسانية ، فكل هؤلاء بدلوا دين الله تعالى وقلبوه ، وأعرضوا عن شريعة رسول الله ﷺ .

فاليونسية يتألهون شيخهم ، ويجعلونه مظهرًا للحق ، ويستهينون بالعبادات ، ويظهرون بالفرعنة والصولة ، والسفاهة والمحالات ، لما وقرّ في بواطنهم من الخيالات الفاسدة ، وقبلتهم الشيخ يونس ، ورسول الله ﷺ والقرآن المجيد عنهم بمعزل ، يؤمنون به بألسنتهم ، ويكفرون به بأفعالهم.

وكذلك الاتحادية ، يجعلون الوجود مظهرًا للحق ، باعتبار أن لا متحرك في الكون سواه ، ولا ناطق في الأشخاص غيره . وفيهم من لا يفرق بين الظاهر والمظهر ، فيجعل الأمر كموج البحر ، فلا يفرق بين عين الموجة وبين عين البحر ، حتى إن أحدهم يتوهم أنه الله ، فينطق على لسانه ، ثم يفعل ما أراد من الفواحش والمعاصي ، لأنه يعتقد ارتفاع الثنوية : فمن العابد ومن المعبود ؟ صار الكل واحدًا .

اجتمعنا بهذا الصنف في الرُّبُط والزَّوايا .

فأنتم بحمد الله قائمون في وجه هؤلاء أيضًا ، تنصرون الله ورسوله ، وتذبون عن دينه ، وتعملون على إصلاح ما أفسدوا ، وعلى تقويم ما عوجوا ، فإن هؤلاء محوا رسم الدين ، وقلعوا أثره . فلا يقال : أفسدوا ولا عوجوا ، بل بالغوا في هدم الدين ومحوا أثره ، ولا قربة أفضل عند الله من القيام بجهاد هؤلاء بما أمكن ، وتبيين مذاهبهم للخاصّ والعامّ . وكذلك جهاد كل من ألحد في دين الله ، وزاغ عن حدوده وشريعته ، كائنًا في ذلك ما كان من فتنةٍ وقول ، كما قيل :

إذا رَضي الحبيبُ فلا أُبالي   أقام الحيُّ أم جَدَّ الرَّحيلُ

وبالله المستعان .

وكذلك أنتم بحمد الله قائمون بجهاد الأمراء والأجناد ، تصلحون ما أفسدواِ من المظالم والإجحافات ، وسوء السيرة الناشئة عن الجهل بدين الله ، بما أمكن ، وذلك لبعد العهد عن رسول الله ﷺ ، لأن اليوم له سبعمائة سنة ، فأنتم بحمد الله تجدِّدون ما دَثَرَ من ذلك ودُثر .

وكذلك أنتم بحمد الله قائمون في وجوه العامة ، ممّا أحدثوا من تعظيم الميلادة، والقَلَنْدس، وخميس البيض، والشَّعانين ، وتقبيل القبور والأحجار ، والتوسل عندها . ومعلوم أن ذلك كله من شعائر النصارى والجاهلية ، وإنما بُعث رسول الله ﷺ ليُوحَّد الله ويعبد وحده ، ولا يُؤَلَّه معه شيء من مخلوقاته . بعثه الله تعالى ناسخًا لجميع الشرائع والأديان والأعياد . فأنتم بحمد الله قائمون بإصلاح ما أفسد الناس من ذلك .

وقائمون في وجوه من ينصر هذه البدع من مارقي الفقهاء ، أهل الكيد والضرار لأولياء الله ، أهل المقاصد الفاسدة ، والقلوب التي هي عن نصر الحق حائدة .

وإنما أعرض هذا الضعيف عن ذكر قيامكم في وجوه التتر والنصارى ، واليهود ، والرافضة ، والمعتزلة ، والقدرية ، وأصناف أهل البدع والضلالات ؛ لأن الناس متفقون على ذمهم . يزعمون أنهم قائمون برد بدعتهم ، ولا يقومون بتوفية حق الرد عليهم كما تقومون ، بل يعلمون ويجبنون عن اللقاء ، فلا يجاهدون وتأخذهم في الله اللائمة ؛ لحفظ مناصبهم ، وإبقاء على أعراضهم .

سافرنا البلاد فلم نر من يقوم بدين الله في وجوه مثل هؤلاء – حق القيام – سواكم ، فأنتم القائمون في وجوه هؤلاء – إن شاء الله – بقيامكم بنصرة شيخكم وشيخنا – أيده الله – حق القيام ، بخلاف من ادعى من الناس أنهم يقومون بذلك .

ثم اعرفوا إخواني حقَّ ما أنعم الله عليكم من قيامكم بذلك . واعرفوا طريقكم إلى ذلك ، واشكروا الله تعالى عليها . وهو أن أقام لكم ولنا - في هذا العصر - مثل سيدنا الشيخ ، الذي فتح الله به أقفال القلوب ، وكشف به عن البصائر عمى الشبهات وحيرة الضلالات ، حيث تاه العقل بين هذه الفرق ، ولم يهتدِ إلى حقيقة دين الرسول ﷺ .

ومن العجب أن كُلًّا منهم يدعي أنه على دين الرسول ، حتى كشف الله لنا ولكم - بواسطة هذا الرجل - عن حقيقة دينه الذي أنزله من السماء وارتضاه لعباده .

واعلموا أن في آفاق الدنيا أقوامًا يعيشون أعمارهم بين هذه الفرق ، يعتقدون أن تلك البدع حقيقة الإسلام ، فلا يعرفون الإسلام إلا هكذا .

فاشكروا الله الذي أقام لكم في رأس السبعمائة من الهجرة ، مَنْ بيَّن لكم أعلام دينكم ، وهداكم الله به وإيانا إلى نهج شريعته ، وبين لكم بهذا النور المحمدي ، ضلالات العباد وانحرافاتهم ، فصرتم تعرفون الزائغ من المستقيم ، والصحيح من السقيم . وأرجو أن تكونوا أنتم الطائفة المنصورة ، الذين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، وهم بالشأم إن شاء الله تعالى .

ثم إذا علمتم ذلك ، فاعرفوا حق هذا الرجل - الذي هو بين أظهركم - وقدره ، ولا يعرف حقه وقدره إلا من عرف دين الرسول ﷺ وحقه وقدره ، فمن وقع دين الرسول ﷺ من قبله بموقعٍ يستحقه ، عرف حق ما قام به هذا الرجل بين أظهر عباد الله ، يقوم معوجهم ، ويصلح فسادهم ، ويلمّ شعثهم ، جهد إمكانه ، في الزمان المظلم ، الذي انحرف فيه الدين ، وجهلت السنن ، وعهدت البدع ، وصار المعروف منكرًا ، والمنكر معروفًا ، والقابض على دينه ، كالقابض على الجمر ، فإن أجر

من قام بإظهار هذا النور - في هذه الظلمات - لا يوصف ، وخطره لا يعرف . هذا إذا عرفتموه أنتم من حيثية الأمر الشرعي الظاهر ، فهنا قوم عرفوه من حيثيةٍ أخرى من الأمر الباطن . ومن يقوده إلى معرفة أسماء الله تعالى وصفاته ، وعظمة ذاته ، واتصال قلبه بأشعة أنوارها ، والاحتظاء من خصائصها وأعلى أذواقها ، ونفوذه من الظاهر إلى الباطن ، ومن الشهادة إلى الغيب ، ومن الغيب إلى الشهادة ، ومن عالم الخلق إلى عالم الأمر ، وغير ذلك مما لا يمكن شرحُه في كتاب .

فشيخكم - أيّدكم الله تعالى - عارفٌ بذلك ، عارف بأحكام الله الشرعية ، عارف بأحكامه القدرية ، عارف بأحكام أسمائه وصفاته الذاتية ، ومثل هذا العارف قد يبصر ببصيرته تنزُّل الأمر بين طبقات السماء والأرض ، كما قال تعالى : ﴿ **الله الذي خلق سَبْع سموات ومن الأرض مِثلهُنَّ يَتنزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لتعْلمُوا أنَّ الله على كل شيءٍ قدير وأنَّ الله قد أَحاطَ بكُلِّ شيءٍ عِلْمًا** ﴾. [الطلاق : ١٢] .

فالناس يحسون بما يجري في عالم الشهادة ، وهؤلاء بصائرهم شاخِصةٌ إلى الغيب ، ينتظرون ما تجري به الأقدار ، يشعرون بها أحيانًا عند تنزلها . فلا تهونوا أمر مثل هؤلاء في انبساطهم مع الخلق ؛ واشتغال أوقاتهم بهم ، فإنهم كما حكي عن الجنيد - رحمه الله - أنه قيل له : « كم تنادي على الله تعالى بين الخلق ؟ فقال : أنا أنادي على الخلق بين يدي الله » .

فالله الله في حفظ الأدب معه ، والانفعال لأوامره ، وحفظ حرماته في الغيب والشهادة ، وحب من أحبه ، ومجانبة مَنْ أبغضه وتنقَّصه ، ورَدِّ غيبته ، والانتصار له في الحق .

واعلموا - رحمكم الله - أن هنا من سافر إلى الأقاليم ، وعرف الناس وأذواقهم ، وأشرف على غالب أحوالهم ، فوالله ، ثم والله ، ثم والله ، لم ير تحت أديمِ السماء مثل شيخكم : علمًا ، وعملًا ، وحالًا ، وخلقًا ،

واتباعًا ، وكرمًا وحلمًا ؛ في حق نفسه ، وقيامًا في حق الله عند انتهاك حرماته . أصدق الناس عقدًا ، وأصحهم علمًا وعزمًا ، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همّةً ، وأسخاهم كفًّا ، وأكملهم اتباعًا لنبيه محمدٍ ﷺ .

ما رأينا - في عصرنا هذا - من تُستجلى النبوة المحمدية وسنتها من أقواله وأفعاله إلّا هذا الرجل ، بحيث يشهد القلب الصحيح ، أن هذا هو الاتباع حقيقةً .

وتكلم عمن يطعن في الشيخ ابن تيمية :

يا سبحان الله العظيم ، أين عقول هؤلاءِ ؟ أعميت أبصارهم وبصائرهم ؟! أفلا يرون ما الناس فيه من العمى والحيرة في الزمان المظلم المدلهم ، الذي قد ملكت فيه الكفار معظم الدنيا ؟! وقد بقيت هذه الخطة الضيقة ، يشم المؤمنون فيها رائحة الإسلام ، وفي هذه الخطة الضيقة من الظلمات من علماء السوء والدعاة إلى الباطل وإقامته ، ودحض الحق وأهله ، ما لا يحصر في كتاب . ثم إن الله تعالى قد رحم هذه الأمة بإقامة رجلٍ قوي الهمة ، ضعيف التركيب ، قد فرق نفسه وهمه في مصالح العالم ، وإصلاح فسادهم ، والقيام بمهماتهم ، وحوائجهم ، ضمن ما هو قائم بصدد البدع والضلالات ، وتحصيل مواد العلم النبوي الذي يصلح به فساد العالم ، ويردهم إلى الدين الأول العتيق جهد إمكانه ، وإلا فأين حقيقة الدين العتيق ؟!

فهو مع هذا كله قائمٌ بجملة ذلك وحده ، وهو منفردٌ بين أهل زمانه ، قليلٌ ناصره ، كثيرٌ خاذله ، وحاسده ، والشامت فيه !!

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في جمعه لعقيدة السلف الصالح :
« ما جمعت إلّا عقيدة السلف الصالح جميعهم ، ليس للإمام أحمد اختصاصٌ

بهذا . والإمام أحمد إنما هو مبلِّغ العلم الذي جاء به النبي ﷺ ، ولو قال أحمد من تلقاء نفسه ما لم يجيء به الرسول ﷺ ، لم نقبله . وهذه عقيدة محمدٍ ﷺ » .

وقال أيضًا : « الإمام أحمد رضي الله عنه ، لمَّا انتهى إليه من السنة ونصوص رسول الله ﷺ أكثر مما انتهى إلى غيره ، وابتلي بالمحنة والرد على أهل البدع أكثر من غيره ، كان كلامه وعمله في هذا الباب أكثر من غيره ، فصار إمامًا في السنة أظهر من غيره ، وإلّا فالأمر كما قاله بعض شيوخ المغاربة العلماء الصلحاء ، قال : المذهب لمالكٍ والشافعي ، والظهور لأحمد بن حنبل . يعني أن الذي كان عليه أحمد ، عليه جميع أئمة الإسلام ، وإن كان لبعضهم من زيادة العلم والبيان وإظهار الحق ودفع الباطل ، ما ليس لبعضٍ » .

ولله درّ شيخ الإسلام ابن تيمية ، العلم في الاتباع ، حين يدافع عن عقيدته ؛ عقيدة السلف : « قلت مرات : قد أمهلت كل من خالفني في شيءٍ منها ثلاث سنين ، فإن جاء بحرفٍ واحد عن القرون الثلاثة ، التي أثنى عليها النبي ﷺ - حيث قال : « خير الناس القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » - يخالف ما ذكرته ، فأنا راجعٌ عن ذلك . وعليَّ أن آتي بنقولٍ جميع الطوائف من القرون الثلاثة توافق ما ذكرته » .

وما ذاك إلّا أنه لنبيِّه نبيّ الهُدى في كل شيءٍ متابعُ

ويقول آخر :

منه حُبُّ الكتابِ والسُّنّة الـ ـمُثْلَى جرى في عُرُوقه والعظامِ

ويقول الشيخ المتيم عبد الله بن خضر الرومي تلميذ شيخ الإسلام ، في الثناء على شيخه ابن تيمية ورثائه :

ملأتُ النواحي من نُواحي ، وكيفْ لا أنوح على قومٍ هُم خير جيرتي

ومن عجبٍ أني أحِنُّ إليهـمُ ... وقد سكنوا قلبي وروحي ومهجتي
ذكرتُ فلم أنس زمان وصالهم ... أأنسى ليالٍ بالعُذيب تقضَّـتِ
منازلُ أحبابي مواطـن سـادتي ... مطالع أقمـاري شـروق أهلَّتي
معاهد أفراحي ديـار سعـادتي ... مواسم أرباحـي أُويقـات لَذَّتي
وحاشايَ أن أسْلُو هواهم وحُبَّهم ... يُذكّرني حِفْظ العهود القديمةِ
فهم سرُّ أسراري ونور مناظري ... ورُوحي وريحاني وأُنسي وبهجتي
وهم عينُ أعياني وقلبي وقالبي ... وهم منتهى قصدي ومشهد رؤيتي
وهم في معانيهم حياتي حقيقةً ... وهم في مغانيهم أُهَيْل مودّتي
وهم في تجلِّيهم شموسٌ إذا بَدَوْا ... وهم في تجنِّيهم رياضي ونزهتي
وهم أينما كانوا نهاية مقصدي ... وهـم أينما حلُّوا مـرادي وبُغيتي
وقد آن أنْ أُبدي خفايا صبابتي ... وأُظهر للعُذّال أصل رَزيَّـتي
وأبكي على مَن كان يجمعُ شملنا ... على طاعة الرحمن في كلِّ لمحةِ
وأندب أحزاني بما قد أصابني ... وأنثُر أشجاني بنظْم قصيـدتي
فقدتُ إمامًا كان أوْحَدَ عصرِهِ ... وقد فُجعتْ فيه جميعُ البَـرِيّةِ
فقدتُ إمامًا لم يَزَلْ متوكِّلًا ... على الله لا يُصغي إلى غير سُنَّةِ
فقدتُ إمامًا كان بالعلم عاملًا ... وكان حقيقًا قامعًا كلَّ بدعـةِ
أتى بكتـاب الله والسُّنّة التي ... علَتْ وارتقتْ حقًّا على كلِّ ملَّةِ
أتى بأحاديث الرسول وشرحها ... وعمّنْ رواها بالمتون الصحيحةِ
أتانا بأحوال الرسـول حقيقـة ... وسيرته تسمو على كل سيرةِ
أتانا بأحوال الصحابة كلِّهم ... والتَّابعين المِلَّة المستقيمـةِ
أتانا بوصف الصالحين وحالهم ... وما هم عليه من جميل العقيدةِ
وعلَّمنا شرعَ الرسـول ودينَهُ ... بأفصـح ألفاظٍ وأصـدق لهجةِ
وأعْلَمَنا أن النجـاة من الهـوى ... تمسُّكنـا بالسُّنّة النّبـويّةِ

وحذّرنا من كل زيغٍ وبدعةٍ ... وعن كل طاغٍ خارجٍ عن مَحَجَّةِ
وناظَرَ أربابَ العقائد كلّهم ... وبيّن مَنْ قد ضلَّ من كلِّ فرقةِ
وردَّ علىَ أهلِ الضلال جميعهم ... بأوضح برهانٍ وأبْلَغِ حُجّةِ
وبيّن تكذيب اليهود وخُبْثهم ... وما بدّلوا في الملَّةِ المُوسوِيَّةِ
وأخبرهم عن سرٍّ أسباب كفرهم ... فتعْسًا لهم من أُمَّةٍ غَضَبِيَّةِ
وأظهر أيضًا للنصارى ضلالهم ... وما أحدثوا في الملَّةِ العِيسوِيَّةِ
وباحَثَهم حتى تبيَّن أنّهم ... سُكارى حَيارى بالطِّباع الخبيثةِ
وردَّ على كُتُب الفلاسفة الأُلى ... بمنقولِ أحكامٍ ومعقولِ حِكْمةِ
وقرَّر إثبات النُّبوات عندهم ... وجال عليهم كرَّةً بعدَ كرَّةِ
وردّ على جَهْمٍ وجَعْدِ بن دِرْهمٍ ... وبشرِ المَريسي عُمْدة الجَهْمِيَّةِ
زنادِقةٌ كم أهلكوا من عوالمٍ ... بسُوءِ اعتقاداتِ النُّفوسِ السَّقيمةِ
وجُادَلَ أهلَ الاعتزال جميعهم ... وسلَّ عليهم سيفَه بالأدلَّةِ
وباحَثَ أشياخَ الرَّوافِض وانثنى ... يُقاتلهم بالدِّرَّةِ العُمَرِيَّةِ
وردَّ على قومٍ تربَّتْ نُفوسهم ... على النَّفْي والتعطيل من غير حُجَّةِ
وردَّ على قومٍ وشتَّتَ شملَهم ... وهم أهلُ تشبيه أتوْا بكبيرةِ
وردَّ على أهل التَّناسُخ عندما ... تَجَرَّوْا وخاضُوا في أمورٍ عظيمةِ
وردّ على أهل الحُلُولِ فإنَّهم ... يروْن تجلِّي الحقِّ في كلِّ صورةِ
وقد زعموا أن التَّجلِّي ظاهِرٌ ... ولا سيَّما في صورةٍ أمْرَدِيَّةِ
فمن أجْلِ هذا يرقصون ديانةً ... وفي رقصهم جاءوا بكُلِّ قبيحةِ
يروْن شهودَ المُرْدِ والرَّقص قُربةً ... فيا وَيْلهم من خِزْي يومِ الفضيحةِ
وردَّ على أتْباعِ إبليسَ عندما ... رآهم وقد مالوا إلى الجَبْرِيَّةِ
وكم قد طوى في عِلْمه من طوائف ... حَرُورِيَّةٍ منهم على حَشَوِيَّةِ
مطايا بُنَيَّات الطريق سرتْ بهم ... إلى أن أناخُوا في عِراصِ القطيعةِ

وفي بحر آراء العقائد أغرقوا رمتْهم خيالاتُ العقول السخيفةِ
وكم قدْ أراهم كلّهم سُبُل الهُدى وكم قد نهاهم مرَّةً بعد مرّةِ
فمن كان قطب الكون في حال عصره سواه ومنْ قد فاز بالبَدَليَّةِ
شجاعٌ هُمامٌ بارعٌ في صفاته يروم مرامًا في المراقي العَلِيَّةِ
هو الحَبْر والقُطب الذي شاع ذكْرُه وفاح شذاه كالعبير المُفتَّتِ
ألا يا تقيَّ الدين ، يا فردَ عَصْرِه بُرُوقُك قد لاحتْ كشمسٍ مضيئةِ
وبانتْ لكلِّ الناس أوصافُك التي برزتَ بها مِثْلَ العيون الغزيرةِ
ظهرتَ بأنواع العلوم وجنسها وسارت بها الرُّكْبانُ في كلِّ بلدةِ
لقد كُنتَ رُوحًا للقلوب وراحةً وقُوتًا وأُنسًا للنفوس النفيسةِ
تمسَّكت بالدين الحنيفيّ والهُدى وبالعُروة الوثقى وأصل الشريعةِ
وجُدتَ بكأس الفضل منك تكرُّمًا على تابِعِين السُّنّة المحمديّة
لقد عشتَ محبوبًا ومتَّ مكرَّمًا عليك من الرحمن أزْكَى تحيَّةِ[1]

حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، الإمام ابن قيم الجوزية :

لقد كان هذا الإمامُ العظيمُ إمامًا في السنة والاتباع ، ثائرًا على التقليد « يندد بالمقلدة ويَنْعَى عليهم حظهم من العلم ، ويعقد مجالس المناظرة بين المقلد وصاحب الحجة - في كتبه - ويصفه بأنه بدعة ، وأنه من المحدثات بعد خير القرون ، وقد عالج هذه القضية في كتبه في مناسبات كثيرة ، وقد بسط الحديث عن أحكام الاجتهاد والتقليد في كتابه (إعلام الموقِّعين) في أكثر من مائة صحيفة .

وابن القيم - رحمه الله - لم يصل في هذا إلى حظيرة المتهورين الذين

---

(١) العقود الدُّرِّيّة في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لابن عبد الهادي ص٤٦٥ - ٤٧٢ .

أزروا بالأئمة الأربعة وأصحابهم ، كمتطرفي الظاهرية ومن نحا نحوهم ، فردوا بدعة التقليد ببدعة الإزراء بالسلف واقتراف إثمه وجرمه . ولم يكن أيضًا من أولئك الذين أشقاهم التعصب ، وأصمهم وأعمى أبصارهم عن نور الوحيين : الكتاب والسنة ، حتى بلغ بهم الهوس . ردَّ المذهب بمذهبٍ آخر ، وأبدوا من غرائب المواقف والتراشق ، ما يكون سُبَّةً وعارًا في تاريخ المسلمين ، ولكنه - رحمه الله - أخذ بالطريق الأوسط ، وهو بعبارةٍ مختصرة : (مُناشدة الدليل مع احترام الأئمة) .

يقول في إعلام الموقعين (١٧٧/٤) : « كثيرًا ما ترد المسألة نعتقد فيها خلاف المذهب ، فلا يسعنا أن نفتي بخلاف ما نعتقده ، فنحكي المذهب الراجح ونرجحه » .

فمعرفة المذهب شيءٌ ، والتقليد له شيءٌ آخر . فالمعرفة مع الانقياد للدليل ، هو منهج أصحاب الأئمة ، وهو مقام مدحٍ لا مقام ذمٍّ ، بخلاف التقليد بلا دليل »[١] .

وقد أُوذي ابن القيم بسبب مجاهدته لنشر عقيدة السلف ، ومحاولة ردّ الخلف إلى طريق السلف ، فحُبس مدةً لإنكاره شدّ الرِّحال إلى قبر الخليل ، وسجن بسبب فتاويه القائمة على الدليل ، كمسألة الطلاق الثلاث بلفظٍ واحد ، فقد تصدى للفتوى بهذه المسألة على وفق اختيار شيخه ابن تيمية ، وعامة أهل الأرض مطبقون على أن طلاق الثلاث بلفظ واحدٍ ، يعتبر ثلاثًا لا واحدةً .

فرحم الله من سجن لكسر سلطان التقليد ، وانتصر للدليل ردًّا للأُمّة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

---

(١) ابن قيم الجوزية ، حياته وآثاره . لبكر بن عبد الله أبو زيد ص٤٤ - ٤٥ .

وابن القيم - رحمه الله تعالى - في فاتحة كتابه (إعلام الموقعين) يذكر انعقاد الإجماع - خلفًا وسلفًا - على وجوب الرد إلى الله ورسوله ، وأن التقليد مع ظهور الدليل ، حكمه التحريم ، والمقلد الأعمى خارجٌ عن زمرة العلماء ، وينعى حال عصره ، وما ينال من قام بهذا الشأن من الكيد والأذى ، فيقول بعد امتداحه لحال الصحابة رضي الله عنهم : « ثم خلف من بعدهم خلوفٌ فرقوا دينهم وكانوا شيعًا ، كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون ، وتقطعوا أمرهم بينهم زبرًا ، وكل إلينا راجعون ، جعلوا التعصُّب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون ، ورؤوس أموالهم التي بها يتّجرون ، وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليد وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنا على آثارهم مقتدون .

والفريقان بمعزل عما ينبغي اتباعه من الصواب ، ولسان الحق يتلو عليهم : ﴿ **ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب** ﴾ [النساء : ١٢٣] .

قال أبو عمر وغيره من العلماء : « أجمع الناس على أن المقلّد ليس معدودًا من أهل العلم ، وأنّ العلم معرفة الحق بدليله » . وهذا كما قال أبو عمر رحمه الله تعالى ؛ فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدليل ، وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد . فقد تضمن هذان الإجماعان : إخراج المتعصب بالهوى والمقلد الأعمى عن زمرة العلماء ، وسقوطهما باستكمال من فوقهما وراثة الأنبياء ، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء ، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر ، وكيف يكون من ورثة الرسول من يجهد ويكدح في رد ما جاء به إلى قول مقلده ومتبوعه ، ويضيع ساعات عمره في التعصب والهوى،ولا يشعر بتضييعه ؟! .

تالله ، إنها فتنة عمت فأعمت ، ورمت القلوب فأصمت ، ربا عليها الصغير ، وهرم فيها الكبير ، واتخذ لأجلها القرآن مهجورًا ، وكان ذلك

بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطورًا ، ولمّا عمت بها البلية ، وعظمت بسببها الرزية ، بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها ، ولا يعيرون العلم إلا إياها ، فطالب الحق من مظانه لديهم مفتون ، ومؤثره على ما سواه عندهم مغبون ، نصبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائل ، وبغوا له الغوائل ، ورموه عن قوس الجهل والبغي والعناد ، وقالوا لإخوانهم : إنا نخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد .

فحقيقٌ بمن لنفسه عنده قدر وقيمة ، ألّا يلتفت إلى هؤلاء ، ولا يرضى لهم بما لديهم ، وإذا رفع لهم علم السنة المحمدية شمر إليه ولم يحبس نفسه عليهم . فما هي إلا ساعة حتى يبعثر ما في القبور ، ويحصل ما في الصدور ، وتتساوى أقدام الخلائق في القيام لله ، وينظر كل عبدٍ ما قدمت يداه ، ويقع التمييز بين المحققين والمبطلين ، ويعلم المعرضون عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ، أنهم كانوا كاذبين » .

فرحم الله ابن القيم ، لقد كان - مع ما ناله في هذا السبيل - رابط الجأش ، ثابت الجنان كالجبل الأشم ، لا تؤثر فيه العوامل من الرياح والأمطار والمناخ ، ولا تثنيه عن مسلك الحق وقولة الحق ، ويرى أن هذا كله طيش وسفه ، لا يلبث أن يذوب ويتفرق شأن الباطل ، ولا يؤثر إلا على من في عقله ضعف وفي دينه ذلة . وفي ذلك يقول[1]: « من في عقله ضعف : تؤثر فيه البداءات ، ويستفز بأوائل الأمور ، بخلاف الثابت التام العاقل ؛ فإنه لا تستفزه البداءات ، ولا تزعجه ولا تقلقه ، فإن الباطل له دهشة وروعة في أوله ، فإذا ثبت له القلب ، رده على عقبيه . والله يحب من عنده العلم والأناة ، فلا يعجل ، بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ، ولا يعجل بأمرٍ فيه استحكامه ، فالعجلة والطيش من الشيطان ، فمن

---

(١) مفتاح دار السعادة ص١٥٤ .

ثبت عند صدمة البداءات ، استقبل أمره بعلمٍ وحزمٍ ، ومن لم يثبت لها ، استقبله بعجلةٍ وطيشٍ وعاقبته الندامة ، وعاقبة الأول حمد أمره ، ولكن للأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها ، وهي الفوت ؛ فإنه لا يخاف من التثبيت إلا الفوت ، فإذا اقترن به العزم والحزم ، تم أمره » .

ولقد تم الأمر - ولله الحمد - للشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى ، فقد أرسى سفينة النجاة على شاطىء السلامة ، تحمل النور والهدى ، وكسر المقلدة المتعصبة ، ومن نحا نحوهم ، فذابت العصبية المذهبية في الطريقة الأثرية ؛ فصححت المفاهيم ، وأخذ يدبّ في الناس روح الأخذ بالدليل ، مع احترام الأئمة السالفين ، بل هو مسلكهم وكريم منهجهم ، وما زال هذا يدب في كل عهدٍ ومهدٍ حتى أيامنا هذه ، بل في هذه الأيام والأزمان الحاضرة ، لم يجد الناس بدًّا من ذلك المنهج السوي والمشرع الروي ؛ لأنه هو الذي يتمشى ووقائع العصر ونوازله ، فعاد أعداء المدرسة الأثرية لها أصدقاء ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

ولقد كان الاعتماد على الأدلة من الكتاب والسنة ، أبرز خصائص المدرسة السلفية التي قام بنشرها ابن القيم - رحمه الله تعالى - على أنقاض الرد إلى محض الآراء ومستبعد الأقيسة وفاسد التأويل .

فابن القيم - رحمه الله تعالى - يبرز الأدلة من الكتاب والسنة ، ويستنبط الأحكام الشرعية منها بأسلوبٍ سهل مبسط ، خالٍ من التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي ، متطلِّبًا نشر التشريع وبث التوجيه ردًّا إلى الله ورسوله ، وإلى أن يرد الناس منابع الشريعة الأولى خاليةً من كل وَضَرٍ ، خالصةً من كلِّ شائبةٍ .

وهذا منهجٌ أصيل في عامَّة كتبه ومباحثه ، لا أراني مضطرًّا إلى سياق مواضع من كلامه للتدليل عليه .

لكني أراني مضطرًّا إلى نقل طائفةٍ من كلامه في احترام الأدلة من

الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة ، والتنديد بمن أعرض عن هذا وخالفه ، لمخالفته أمر الله ورسوله ﷺ ، لأن هذا هو الذي يشكل التقعيد والتأصيل لمنهج ابن القيم رائد المدرسة السلفية . ومن ذلك ما يلي :

قال في مقام الأدب مع النبي ﷺ : « ومن الأدب معه ﷺ أن لا يستشكل قوله ، بل يستشكل الآراء لقوله ، ولا يعارض نصه بقياسٍ ، بل تهدر الأقيسة وتلغى لنصوصه ، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيالٍ يسميه أصحابه معقولًا ، نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ، ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحدٍ ، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ ، وهو عين الجرأة » .

ويقرر ابن القيم في (مدارج السالكين) بحثًا ممتعًا لطيفًا ، في وجوب إذعان المسلم وتواضعه للدليل ، وحرمة المعارضة والمخالفة ، أسوقه بطوله لنفاسته ، فيقول - رحمه الله تعالى -: « التواضع للدين هو الانقياد لِمَا جاء به الرسول ﷺ والاستسلام له والإذعان ، وذلك بثلاثة أشياء :

الأول : أن لا يعارض شيئًا مما جاء به ، بشيءٍ من المعارضات الأربعة السارية في العالم ، المسماة : بالمعقول ، والقياس ، والذوق ، والسياسة . فالأول : للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين ، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة ، وقالوا : إذا تعارض العقل والنقل ، قدمنا العقل وعزلنا النقل ، إما عزل تأويلٍ وإما عزل تفويض . والثاني : للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه ، قالوا : إذا تعارض القياسُ والرأيُ والنصوصُ ، قدمنا القياس على النص ، ولم نلتفت إليه . والثالث : للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد ، فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر ، قدموا الذوق والحال ، ولم يعبئوا بالأمر . والرابع : للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين ، إذا تعارضت عندهم الشريعة

والسياسة ، قدموا السياسة ، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة .

فهؤلاء الأربعة هم أهل الكبر . والتواضع : التخلص من ذلك كله .

الثاني : أن لا يتَّهِم دليلًا من أدلة الدين ، بحيث يظنه فاسد الدلالة ، أو ناقص الدلالة ، أو قاصرها ، أو أن غيره كان أولى منه . ومتى عرض له شيءٌ من ذلك ، فليتهم فهمه ، وليعلم أن الآفة منه ، والبلية فيه ، كما قيل :

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا وآفَتُهُ مِن الفَهْمِ السَّقِيمِ
ولكنْ تأخُذُ الأذهانُ منه على قَدْرِ القَرائِحِ والفُهُومِ

وهكذا في الواقع حقيقةً : أنه ما اتهم أحدٌ دليلًا للدين ، إلا وكان المتهم هو الفاسد للذهن ، المأفون في عقله وذهنه ، فالآفة من الذهن العليل ، لا في نفس الدليل . وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك ، وينبو فهمك عنه ، فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك ، وأن تحته كنزًا من كنوز العلم . ولم تؤت مفتاحه بعد هذا في حق نفسك ، وأما بالنسبة إلى غيرك : فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحي ، وليكن ردها أيسر شيءٍ عليك للنصوص ، فما لم تفعل ذلك ، فلست على شيءٍ ولو .... ولو .... وهذا لا خلاف فيه بين العلماء .

قال الشافعي - قدّس الله روحه -: (أجمع المسلمون على أن مَنِ استبانت له سنة رسول الله ﷺ ، لم يحل له أن يدعها لقول أحدٍ) .

الثالث : أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلًا ألبتة ، لا بباطنه ولا بلسانه ، ولا بفعله ولا بحاله ، بل إذا أحسَّ بشيءٍ من الخلاف ، فهو كخلاف المقدم على الزنا ، وشرب الخمر ، وقتل النفس . بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك ، وهو داعٍ إلى النفاق ، وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم .

واعلم أن المخالف للنص ؛ لقول متبوعه وشيخه ومقلده ، أو لرأيه

ومعقوله وذوقه وسياسته : إن كان عند الله معذورًا - ولا والله ما هو بمعذورٍ - فالمخالف لقوله ؛ لنصوص الوحي ، أولى بالعذر عند الله ورسوله وملائكته والمؤمنين من عباده .

فواعجبا إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليدًا أو تأويلًا أو لغير ذلك ، فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم وأقوال شيوخهم ؛ لأجل موافقة النصوص ؟! وكيف نصبوا له الحبائل ، وبغوه الغوائل ، ورموه بالعظائم ، وجعلوه أسوأ حالًا من أرباب الجرائم ؟! فرموه بدائهم وانسلوا منه لواذًا ، وقذفوه بمصابهم وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذًا لهم ومعاذًا . والله أعلم » .

نهج ابن القيم - رحمه الله تعالى - في مسائل العلم منهج الاسترواح والتطلب من كتاب الله تعالى ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن سنة رسوله ﷺ ، الذي لا ينطق عن الهوى ، فإن لم يجد ، أخذ بأزمة أقوال الصحابة رضي الله عنهم ؛ لأنهم أبر الأُمّة قلوبًا وأعمقها دينًا وأصحها فهومًا .

وهذه صفة بارزة وسمة ظاهرة في جميع مباحثه في العقائد والأحكام .

ولهذا أفاض - رحمه الله تعالى - بالاستدلال لهذا الأصل ، ووجوب الأخذ به ، والعمل بموجبه ، من ستةٍ وأربعين وجهًا ، بسطها في كتابه (إعلام الموقعين)[1] .

مدى تأثُّره بابن تيمية :

إن المدرسة السلفية التي جدد بناءها شيخ الإسلام ابن تيمية ، بما ملأ الأسماع ، وصار حديث أهل الإسلام في شتى الأقطار ، وبما آتاه الله من

---

(١) إعلام الموقعين ٤/١٢٣ - ١٥٦ .

المواهب النادرة ، والتفنن في علوم الإسلام ، وابن القيم يسمع ويرى ، ويعايش هذا الاتجاه الفكري الانقلابي على التقليد والطائفية والمذاهب الكلامية ، والتخبطات العقائدية ، رجوعًا بالأُمّة إلى ما كان عليه السلف الصالح ، وردًّا لكل نزاعٍ في ذلك إلى الله والرسول . كل ذلك لا بد أن يكون له في نفوس المتعلمين الأثر الكبير ، وابن القيم يعيش في مرحلة الطلب ، ولديه من الهمة والعلم والذكاء والألمعية ، ما يسيره إلى الطريق السوي والمَشْرع الروي ، بعد حلول العناية الربانية في أعطاف ما أعطاه الله من المواهب ، فما كان لابن القيم إذن أن ينفلت من ذلك التأثير ، فاتصل بشيخ الإسلام عام قدومه ، وثنى ركبتيه في حلقات درسه ، لينهل من معارفه وعلومه ، وصحبه في ذلك ستة عشر عامًا وهو يقرأ عليه فنون العلم .

فصار لهذه الصحبة والملازمة الطويلة ، الأثر البالغ على ابن القيم في تكوين اتجاهه ، وتغذية مواهبه ، وإشباع نهمته بعلوم الكتاب والسنة والرد إلى الله والرسول ، حتى صار أبرع تلاميذه ، وألمعهم نجمًا ، وأجلاهم اسمًا ، فلا يكاد يذكر الشيخ ابن تيمية ، إلّا ويذكر معه تلميذه ابن قيم الجوزية ، وسرى نور هذين العلمين في آفاق المعمورة ، بسعة العلم ، وأصالة الفكر ، والتجديد في دعوة الناس إلى صراط الله المستقيم .

وقد اتفقت كلمة النقلة ، على أن تاريخ اللقاء بينهما كان منذ سنة ٧١٢هـ ، واستقر إلى أن مات - رحمه الله تعالى - سنة ٧٢٨هـ .

وقد بقي ابن القيم - رحمه الله تعالى - ملازمًا له طيلة هذه المدة ؛ أي طوال ستة عشر عامًا ، فأخذ عنه علمًا جمًّا ، وتلقى فنونًا كثيرة .

ومن مآثر شيخ الإسلام ابن تيمية وأياديه البيضاء : توبة ابن القيم على

يديه بعد اتصاله به ، وتأثره به في النهج السلفي في الاعتقاد والاتباع .

ذكر ابن القيم – رحمه الله تعالى – في النونية بعض ما يقوله الأشاعرةُ وغيرهم ، في الصِّفات من التأويلات . وبعض ما في كتب النُّفاة من الطّامّات ، وبيَّن ضررهم على الدين ، ومناهضتهم لنصوص الكتاب والسنة . ثم عقد فصلًا أعلن فيه أنه قد وقع في بعض تلك المهالك ، حتى أتاح له الإلهُ مَنْ أزال عنه تلك الأوهام ، وأخذ بيده إلى طريق الحق والسلامة ، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

وفي إعلانه لتوبته على يديه يقول :

يا قوم واللَّهِ العظيمِ نصيحةٌ ... مِن مُشفِقٍ وأخٍ لكم مِعْوانِ
جرَّبتُ هذا كلَّه ووقعتُ في ... تلك الشّباكِ وكنت ذا طَيَرانِ
حتى أتاح لَيَ الإلهُ بفَضلِهِ ... مَن ليس تجزيه يدي ولساني
فتًى أتى من أرض حَرَّانَ فيا ... أهلًا بمن قد جاء مِنْ حرّانِ
فاللَّهُ يجزِيهِ الذي هو أهْلُه ... من جنَّةِ المأوى مَعَ الرِّضوانِ
أخذتْ يداه يدي وسار فلم يَرُمْ ... حتى أراني مَطْلَعَ الإيمانِ
ورأيتُ أعلامَ المدينةِ حولها ... نُزُلُ الهُدى وعساكرُ القرآنِ
ورأيت آثارًا عظيمًا شأنُها ... محجوبةً عن زُمرةِ العمْيانِ
ووردتُ كأس الماء أبيضَ صافيًا ... حَصْباؤُه كلآلىء التِّيجانِ
ورأيتُ أكوابًا هناك كثيرة ... مِثْل النُّجُوم لواردٍ ظمآنِ
ورأيتُ حَوْضَ الكَوْثَر الصافي الذي ... لا زال يَشخُبُ فيه مِيزابانِ
ميزاب سُنَّته وقول إلهِهِ ... وهما مدى الأيام لا يَنِيانِ
والناس لا يَرِدُونهُ إلَّا مِن الـ ... آلاف أفرادٌ ذوو إيمانِ
وَرَدُوا عِذابَ مَناهِلٍ أكْرِمْ بها ... ووَرَدْتُمُ أنتم عَذابَ هَوانِ

ثم إن ابن القيم – رحمه الله تعالى – أعاد الكرة بذكر هذه النعمة ،

فبين أنه طاف المذاهب يبتغي الهدى والنور ، فما زاده ذلك التطواف إلّا ظلمةً وحرقةً ، حتى هداه الله تعالى وتداركه بلطفه ، فأخذ بزمام الكتاب والسنة ، واستعصم بهما عن المذاهب الكلامية والمناهج الفلسفية ، وفي ذلك يقول :

يا طالبَ الحقِّ المُبينِ ومُؤْثِرًا ... عِلْمَ اليقينِ وحُجَّةَ الإيمانِ
اسمعْ مقالةَ ناصحٍ خَبَرَ الذي ... عند الوَرَى قد شبَّ حتى الآنِ
ما زال مُذ عقدتْ يداه إزارَهُ ... قد شدَّ مِئْزَرَهُ إلى الرحمنِ
وتَخَلُّلُ الفَتَرَاتِ للعَزَماتِ أمْـ ... ـرٌ لازِمٌ لطبيعة الإنسانِ
وَتَولُّد النُّقْصانِ مِن فَتَرَاتِهِ ... أو ليس سَائِرُنا بَني النقصانِ
طاف المذاهبَ يبتغي نورًا لِيَهْـ ... ـدِيَهُ وينجيه من النيرانِ
وكأنَّه قد طاف يبغي ظلمة اللَّيْـ ... ـلِ البهيمِ ومذهبَ الحَيْرانِ
واللَّيْلُ لا يزدادُ إلَّا قوةً ... والصُّبْحُ مقهورًا بذا السُّلْطانِ
حتى بدتْ في سيْرِه نارٌ على ... طور المدينةِ مَطْلَع الإيمانِ
فأتى لِيَقْبِسَها فلم يُمكنه مغْ ... تلك القُيُودِ مَنَالَها بأمانِ
لولا تَدَارَكَهُ الإلهُ بلُطْفِه ... ولَّى على العَقِبَيْن ذا نُكصانِ
لكن توقَّف خاضعًا مُتذلِّلا ... مُسْتَشْعِرَ الإفلاس مِن أثمانِ
فأتاه جندٌ حلَّ عنه قيودَهُ ... فامتدَّ حينئذٍ له الباعانِ
واللهِ لولا أن تُحلّ قيودُه ... وتَزُول عنهُ رِبْقَةُ الشَّيطانِ
كان الرُّقِيّ إلى الثُّرَيَّا مصعدًا ... مِن دون تلك النارِ في الإمكانِ
فرأى بتلك النار آطامَ المديـ ... ـنة كالخيامِ تَشُوفُها العينانِ
ورأى هُنالك كلَّ هادٍ مهتدٍ ... يدعو إلى الإيمان والإيقانِ
فهناك هنَّا نَفْسَه متذكِّرًا ... ما قاله المشتاقُ منذ زمانِ
والمُسْتَهَام على المحبّةِ لم يَزَل ... حَاشَا لذكْرِكُم من النسيانِ

لو قيل ما تهوى لقال مبادِرًا أهوى زيارتكُم على الأجفانِ
تاللهِ إن سمح الزمانُ بقُرْبِكم وحللتُ منكم بالمحلِّ الدّاني
لأُعفِّرنَّ الخَدَّ شُكرًا في الثّرى وأُكحِّلَنَّ بتُرْبِكم أجفاني
إنْ رُمتَ تُبصِر ما ذكرتُ فغُضّ طر فًا عن سوى الآثارِ والقرآنِ
واترُكْ رسوم الخلق لا تعبأْ بها في السَّعْد ما يُغنيك عن دَبَرانِ
حدِّقْ لقلبك في النصوص كمثل ما قد حدّقوا في الرّأي طُول زمانِ
واكْحَلْ جفونَ القلب بالوحْيَيْنِ واحْـ ـذَرْ كُحْلهم يا كثرة العُمْيَانِ
فاللّهُ بيَّن فيهما طرق الهُدى لعبادِهِ في أحسن التِّبيانِ
لم يُحوِج الله الخلائقَ معْهما لخيال فَلْتانٍ ورأي فُلانِ
فالوحي كافٍ للّذي يُعْنَى به شافٍ لداءِ جهالة الإنسانِ
والعلم أقسامٌ ثلاثٌ ما لها من رابعٍ والحقّ ذو تِبيان
علمٌ بأوصاف الإلهِ وفِعْله وكذلك الأسماء للرحمنِ
والأمر والنهي الذي هو دينُهُ وجزاؤه يوم المعادِ الثاني
والكلُّ في القرآن والسُّنَنِ التي جاءت عن المبعوثِ بالقرآنِ

يرحم الله ابن القيم ، فقد امتحن وأُوذي من أجل مناصرته لشيخه في ذات الله ، ومن أجل نصرة السنة والدليل .

يقول ابن رجب : « وقد امتحن وأُوذي مراتٍ ، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة ، منفردًا عنه ، ولم يفرج عنه إلَّا بعد موت الشيخ »[١] .

ويقول ابن حجر : « إنه اعتقل مع ابن تيمية بالقلعة ، بعد أن أُهين وطيف به على جملٍ مضروبًا بالدرة ، فلما مات ، أُفرج عنه »[٢] .

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٤٨ .
(٢) الدرر الكامنة ٤/٢١ .

وكما احتفى بشيخه وعلومه حال حياته ، وأخلص في محبته وولائه ، فقد كان خليفته الراشد بعد وفاته ، فتلقف راية التجديد ، وثبت على جادة التوحيد : بنشر العلم ، وبرد الخلف إلى مذهب السلف .

فاتسعت به دائرة المَدرسة السلفية ، وانتشر روادها في كل ناحية وصقع . وكان من حفاوته بشيخه (شيخ الإسلام) أن دون في ثنايا كتبه جُمَلًا من مواقفه ، وسؤالاته له ، وأسئلة غيره له ، وطائفة من أحواله ومرائيه واختياراته ، مما لو استل من مؤلفات ابن القيم ، لظهر في مجلدة لطيفة ، ترفل بعزيز الفوائد ولطائف العلم . والله أعلم .

يقول الشوكاني في « البدر الطالع » (٢/١٤٤ - ١٤٥) عن ابن القيم : « ليس له على غير الدليل معول .. وبالجملة فهو أحد من قام بنشر السنة ، وجعل بينها وبين الآراء المحدثة أعظم جنة ، فرحمه الله وجزاه عن المسلمين خيرًا » .

ويقول العلَّامة صديق حسن خان عن ابن القيم:« كان يتقيد بالأدلة الصحيحة ، معجبًا بالعمل بها ، غير مصرٍّ على الرأي » .

يقول الشيخ بكر أبو زيد : « وهذه أرضى العبارات وأسعدها بالقبول ، لمطابقتها عين الواقع لمن كانت له دربة تامة على مؤلفات ابن القيم ، ودرى ما فيها من العلم والفقه » .

يقول ابن القيم مبيِّنًا أن اتباع السنة والقرآن طريق النجاة من النيران :

يا مَن يُريد نجاتَهُ يوم الحسا ... بِ من الجحيم ومُوقد النِّيرانِ
اتْبَعْ رسول الله في الأقوال والْـ ... أعمالِ لا تَخْرُج عن القرآنِ
قَدِّرْ رسول الله عندك وَحْدَهُ ... والقولُ منه إليك ذو تِبيانِ
ماذا ترى فرضًا عليك مُعَيَّنًا ... إن كُنت ذا عقلٍ وذا إيمانِ

عَرْض الذي قالـوا على أقواله | أو عَكْس ذاك فذانِكَ الأمـرانِ
هي مَفْرقُ الطرقات بَيْنَ طريقنا | وطريق أهل الزَّيْغِ والعُـدوانِ
قدِّرْ مقالاتِ العبادِ جميعهـم | عَدَمًا وراجع مَطْلَع الإيمـانِ
واجعلْ جُلوسَك بين صَحْب محمدٍ | وتَلَقَّ معْهم عنه بالإحسـانِ
وتَلَقَّ عنهـم ما تلقَّوْه هُـمُ | عنه من الإيمـان والعِرْفـانِ
أفليس في هذا بلاغ مُسافرٍ | يبغي الإلَـهَ وجنـة الحيـوانِ
فلأيّ شيءٍ يَعْدِلُ الباغي الهُدى | عن قوله لولا عَمَى الخُـذْلانِ
فالنَّقْل عنه مُصَدَّقٌ والقولُ مِن | ذي عصمةٍ ما عندنا قـوْلانِ
والعَكسُ عند سواه في الأمرين يا | مَن يهتدي هل يستوي النَّقْلانِ
تاللَّهِ قد لاح الصّباحُ لمن له | عينان نحو الفجر ناظِرتـانِ
وأخو العَمَاية في عَمَايَتِهِ يقـو | ل اللَّيْل بعدُ أيستوي الرَّجُلان
تاللَّهِ قد رُفِعتُ لك الأعلامُ إنْ | كنتَ المُشَمِّر نلتَ دارَ أمـانِ

ويقول ابن القيم ناصحًا باتباع السنة في نونيته :

يا مَنْ تعزُّ عليهـمُ أرواحُهُـمْ | ويَـرَوْن غَبْنًا بَيْعها بهـوانِ
ويَرَوْن خسرانًا مُبِينًا بَيْعهـا | في إثْر كلِّ قبيحةٍ ومهـانِ
ويروْن مَيْدان التَّسابُق بارِزًا | فيتاركـون تَقَحُّـم الميـدانِ
ويرون أنفـاسَ العبـادِ عليهـمُ | قد أُحصيتْ بالعَدّ والحسبـانِ
ويرون أن أمامهم يوم اللِّقا | لله مسألتـان شاملتـانِ
ماذا عبدتم ثُمَّ ماذا قد أجَبْـ | ـتُم مَن أتى بالحقِّ والبرهـانِ
هاتوا جوابًا للسُّؤال وهيئُوا | أيضًا صوابًا للجـواب يداني
وتيقَّنُوا أن ليس يُنجيكم سـوى | تجريدكـم لحقائـق الإيمـانِ
تجريدُكـم توحيـده سبحانه | عن شركةِ الشيطان والأوثـانِ
وكذاك تجريد اتِّباع رسولـه | عـن هـذه الآراء والهَذَيـانِ

والله ما يُنجي الفتى من ربه   شيءٌ سوى هذا بلا رَوَغانِ

ما من عمل إلا وينشر له ديوانان يوم القيامة : لمن ؟ وكيف ؟

لمن : سؤال عن الإخلاص . وكيف : سؤال عن المتابعة .

قال تعالى : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملًا** ﴾ [الملك : ٢] .

قال الفضيل بن عياض : هو أخْلصُه وأصوبه . قالوا : يا أبا عليّ ، ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا ، لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا ، لم يقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملًا صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

ويتكلم ابن القيم - رحمه الله - عن الفرق بين أهل السنة وغيرهم ، فيقول في النونية لخصوم أهل السنة :

والفَرْق بَيْنَكمُ وبين خصومكم   من كلِّ وجهٍ ثابتٌ ببيانِ
ما أنْتُم مُنهم ولا هم منكمُ   شتَّان بين السَّعْدِ والدَّبَران
فإذا دَعَوْنا للقُرانِ دعوتمُ   للرَّأْي أين الرأيُ من قرآنِ
وإذا دعونا للحديث دعوتمُ   أنتم إلى تقليدِ قولِ فُلانِ
وكذا تلقّينا نصوص نبيِّنا   بقَبُولِها بالحقِّ والإذعان
من غير تحريفٍ ولا جَحْدٍ ولا   تفويضِ ذي جهلٍ بلا عِرفانِ
لكنْ بإعراضٍ وتجهيلٍ وتأ   ويلٍ تلقَّيْتُم مع النُّكرانِ
أنكرتموها جُهْدَكم فإذا أتى   ما لا سبيل له إلى نكرانِ
أعرضتمُ عنه ولم تستنبطُوا   منه هُدًى لحقائق الإيمانِ
فإذا ابتُلِيتم مُكْرَهين بسَمْعِها   فوَّضتُمُوها لا على العرفانِ
لكنْ بجهلٍ للذي سِيقَتْ له   تفويض إعراضٍ وجهلِ معانِ

فإذا ابتُليتم باحتجاجِ خُصومِكم أَوْلَيْتُموها دَفْعَ ذي صَوَلانِ
فالجَحْد والإعراض والتأويل والتَّـجهيل حظُّ النصِّ عند الجاني
لكنْ لدَيْنا حظُّه التَّسْليم مَعْ حُسْن القَبُول وفَهْم ذي الإحسانِ
ولنا الحقيقةُ من كلام إلهنا ونَصيبُكم منه المجاز الثاني
وقواطِعُ الوحْيَيْن شاهدةٌ لنا وعليكم هل يستوي الأمرانِ
وجنودُنا مَنْ قد تقدَّم ذِكْرُهم وجُنُودُكُم فعساكِرُ الشيطانِ
وخيامُنا مضروبةٌ بمشاعر الْـ وحْيَيْنِ من خَبَرٍ ومنِ قرآنِ
وخيامُكم مضروبةٌ بالتِّيه فالسُّكَّان كلُّ مُلَدَّدٍ حَيْرَانِ
ولنا المسانِدُ والصِّحاحُ وهذه السُّنَنُ التي نابتْ عن القرآنِ
ولكم تصانيفُ الكلام وهذه الْـ آراءُ وهْي كثيرةُ الهَذَيانِ
شُبهٌ يُكَسِّرُ بعضُها بعضًا كَبَيْـ تٍ من زُجاجٍ خرَّ للأركانِ
هل ثَمَّ شيءٌ غيرَ رأيٍ أو كلا مٍ باطلٍ أو منطقِ اليونانِ
ونقول قال الله قال رسولُه في كلِّ تصنيفٍ وكلِّ مكانِ
لكن تقولوا قال آرسطو وقا ل ابنُ الخطيب وقال ذو العرفانِ
شيخٌ لكم يُدعَى ابن سينا لم يكن متقيِّدًا بالدين والإيمانِ
وخيارُ ما تأتُون قال الأشعريُّ وتشهدون عليه بالْبُهتانِ
هذا ونحن فتاركوا الآراء للنَّـقْل الصحيح ومُحْكَم الفرقانِ
وعرضتمُ قول الرسول على الذي قال الشيوخُ ومحكم الفرقانِ
فالمحكم النَّصُّ الموافِقُ قولهم لا يَقْبَلُ التأويلَ في الأذهانِ
لكنَّما النَّصّ المخالف قولهم لا يقبل التأويل في الأذهانِ
لكن عرضنا نحنُ أقوال الشيو خِ على الذي جاءتْ به الوَحْيَانِ
ما خالف النَّصَّين لم نعبأْ به شيئًا وقُلنا حَسْبُنا النَّصَّانِ
والمُشْكِل القول المخالف عندنا في غاية الإشكال لا التِّبيانِ

هذي سبيلُكمُ وتلك سبيلُنا والموعدُ الرحمنُ بعد زمانِ
وهناك يُعْلَمُ أيّي حزبَيْنا على الْـ ـحقِّ الصريح وفِطْرةِ الدَّيَّانِ
فاصبِرْ قليلًا إنّما هي ساعةٌ فإذا أُصِبْتَ ففي رضا الرحمنِ
فالقومُ مِثْلك يَأْلَمُون ويصبرو نَ وصبرُهم في طاعة الشيطانِ

ويقول - رحمه الله - في كفاية النصين وجناية أعداء السنة عليهما :

وكفايةُ النَّصَّين مشروطٌ بتَجْـ ـريد التَّلَقِّي عنهما لِمَعَانِ
وكذاك مشروطٌ بخلْع قيودهم فقيودهم غُلٌّ إلى الأذقانِ
وكذاك مشروط بهدم قواعد ما أنزلت ببيانها الوحيانِ
وكذاك مشروطٌ بإقدامٍ على الْـ آراء إن عَرِيَتْ عن البُرهانِ
بالرَّدِّ والإبطال لا تعبأْ بها شيئًا إذا ما فاتها النَّصَّانِ
لولا القواعد والقيود وهذه الْـ آراء لاتَّسعَتْ عُرى الإيمانِ
لكنَّها والله ضيِّقة العُرى فاحتاجتِ الأيدي لذاك توانِ
وتعطَّلتْ من أجلها والله أَعْـ ـدَادٌ من النَّصَّين ذات بيانِ
وتضمَّنتْ تقييدَ مُطْلَقِها وإطْـ ـلاق المقيَّدِ وهْو ذو ميزانِ
وتضمَّنتْ تخصيصَ ما عمَّته والتَّـ ـعميم للمخصوص بالأعيانِ
وتضمَّنتْ تفريقَ ما جَمَعَتْ وجَمْـ ـعًا للَّذي وسَمَتْهُ بالفُرقانِ
وتضمّنتْ تحليل ما قدْ حرَّمَتْـ ـهُ وعَكْسه فلتنظُرِ العينانِ
سكتتْ وكان سكوتُها عَفْوًا فلم تعْفُ القواعدُ باتِّساع بطانِ
وتضمَّنتْ إهدارَ ما اعتبرتْ كذا بالعكس والأمران محذورانِ
وتضمَّنتْ أيضًا شُرُوطًا لم تكُن مشروطةً شَرْعًا بلا بُرهانِ
وتضمّنتْ أيضًا موانع لم تكُنْ ممنوعةً شرعًا بلا تِبيانِ
إلَّا بأقْيسةٍ وآراءٍ وتقْـ ـليدٍ بلا علمٍ أو استِحْسَانِ
عمَّنْ أتت هذي القواعدُ مِنْ جميـ ـعِ الصَّحْبِ والأتباع بالإحسانِ

ما أسَّسُوا إلَّا اتِّبـاعَ نبيِّهـم لا عَقْلَ فلْتانٍ ورأيَ فُـلانِ
بل أنكروا الآراء نُصحًا منهُمُ لله والـدَّاعـي وللقـــرآنِ
أَوَ ليس في خُلْفٍ بها وتناقُضٍ ما دَلَّ ذا لُـبٍّ وذا عِرفـانِ
واللهِ لو كانت من الرحمن ما اخْـ ـتَلَفَتْ ولا انْتَقَضَتْ مَدَى الأزمانِ
شُبَهٌ تهافَتُ كالزُّجاجِ تَخَالُها حَقًّا وقد سقطتْ على صَفْوَانِ
واللّهِ لا يَرْضَى بها ذو همَّةٍ عليـاءَ طالبة لهـذا الشَّـانِ

ثم يقول عن خصوم السنة ممن ناصبوه وناصبوا السنة العداء :

هذا وإني بَعْدُ ممْتَحَنٌ بـأر بعةٍ وكلُّهـمُ ذوو أضْغـانِ
فَظٌّ غليـظٌ جاهلٌ مُتَمَعْلِـمٌ ضخـمُ العِمامـةِ واسعُ الأَرْدَانِ
مُتَفَيْهِقٌ مُتضلِّعٌ بالجهـل ذو صَلَعٍ وذو جَلَحٍ من العِرفـانِ
مُزْجَى البضاعةِ في العلوم وإنَّه زاجٍ من الإيهـانِ والهَذَيـانِ
أو حاسِدٌ قد باتَ يغلي صدرُهُ بعَدَاوَتي كالمِرْجَلِ المـلآنِ
لو قلتُ هذا البَحْرُ قال مكذِّبًا هذا السَّرابُ يكون بالقِيعـانِ
أو قلتُ هذي الشمسُ قال مُباهِتًا الشمسُ لم تَطْلُع إلى ذا الآنِ
أو قلتُ قال اللَّهُ قال رسولُه غَضِبَ الخبيثُ وجاء بالكِتمانِ
أوْ حرَّف القرآنَ عن موضوعِهِ تحريفَ كذَّابٍ على القـرآنِ
والثالث الأعمى المقلِّد ذَيْنِكَ الـ ـرَّجُلَيْنِ قائِدُ زُمْـرَةِ العميـانِ
هذا ورابعُهُم وليس بكَلْبِهـم حاشا الكلابَ الآكلي الأنتـانِ
خِنْزيرُ طَبْعٍ في خَلِيقَةِ ناطِقٍ مُتَسَوِّف بالكذبِ والبُهتـانِ
كالكلبِ يَتْبَعُهُم يُمَشْمِشُ أعْظُمًا يَرْمُونهـا والقـوم لِلَّحْمـانِ
هو فَضْلَةٌ في الناس لا عِلْمٌ ولا دينٌ ولا تمكينُ ذي سُلطـانِ
فبقاؤه في الناس أعْظَمُ مِحْنَة من عسكر يُعْزَى إلى غـازانِ
هذي بضاعةُ ضارِبٍ في الأرض يَبْـ ـغي تاجرًا يَبْتَاعُ بالأثمـانِ

وَجَدَ التُّجَار جميعهم قد سافروا عن هذه البُلْـدانِ والأوطـانِ
إلا الصَّعَافِقَةَ الذين تكلَّفُـوا أن يَتْجَرُوا فينا بـلا أثمـانِ
فَهُمُ الزُّبُونُ لها فباللَّهِ ارحموا مِنْ بَيْعةٍ من مفلس مِدْيَـانِ
يا رَبِّ فارزُقْها بحقِّك تاجرًا قد طاف بالآفاقِ والبلـدانِ
ما كلّ مَنْقُوشٍ لديه أصفـرٍ ذَهَبًا يـراه خالصَ العِقْيَـانِ
وكذا الزُّجاجُ ودُرَّةُ الغوّاصِ في تمييـزه ما إن هُمَا مِثْـلانِ

ويقول عمّن يُبْغِض أهل الحديث وهم أنصار هذا الدين :

يا مُبغِضًا أهْلَ الحديث وشاتِمًا أبشِرْ بعَقْدِ ولايةِ الشيطـانِ
أوَ مَا علمتَ بأنَّهم أنصارُ دِيـ ـنِ الله والإيمـانِ والقـرآن
أوَ ما علمتَ بأن أنصار الرَّسُو لِ هُمُ بلا شكٍّ ولا نُكـرانِ
هل يُبْغض الأنصارَ عبدٌ مؤمنٌ أو مُدْرِكٌ لروائحِ الإيمـانِ
شهد الرسولُ بذاكِ وَهْيَ شهادةٌ من أصدقِ الثقلَيْنِ بالبُرهـانِ
أوَ ما علمتَ بأن خَزْرَجَ دِينهِ والأوسَ هُمْ أبدًا بكُلِّ زمـانِ
ما ذنبُهم إذ خالفـوك لقوله ما خالفوه لأجْلِ قـولِ فُلانِ
لمّا تحيَّزْتم إلى الأشياخِ وانْـ ـحَازُوا إلى المبعـوثِ بالقـرآنِ
نُسِبُوا إليه دُونَ كلِّ مقالـةٍ أو حالـةٍ أو قائلٍ ومكـانِ
والله ما يُنْجِيكَ من سجن الجحيـ ـم سوى الحديثِ ومُحكمِ القرآنِ
والله ليـس الناسُ إلَّا أهْلَـهُ وسواهُمُ من جُملةِ الحيـوانِ

ويقول رحمه الله :

والله ما خَوْفِي الذنوبَ فإنها لَعَلَى طريقِ العَفْوِ والغُفـرانِ
لكنَّما أخشى انسِلاخ القلبِ مِنْ تحكيمِ هذا الوَحْي والقـرآنِ
ورضًا بآراء الرجال وخَرْصِها لا كان ذاك بمِنَّةِ الرحمـنِ
فبأيِّ وَجْـهٍ ألْتَقِي ربـي إذا أعرضتُ عن ذا الوحي طولَ زمانِ
وعـزلتُه عمَّا أُريـدَ لأجلِـهِ عَزْلًا حقيقيًّا بـلا كتمـانِ

يقول ابن القيم في تعين الهجرتين إلى الله ورسوله :

يا قومُ فرْضُ الهجرتَيْنِ بحالِهِ والله لم يُنسخ إلى ذا الآنِ
فالهجرةُ الأُولى إلى الرحمن بالْـ إخلاص في سِرٍّ وفي إعلانِ
والهجرةُ الأُخرى إلى المبعوث بالْـ إسلام والإيمان والإحسانِ
أتَرَوْنَ هَذِي هجرةَ الأبدانِ لا والله بل هِيَ هجرةُ الإيمانِ
قَطْعُ المسافةِ بالقلوبِ إليه في دَرْكِ الأُصُولِ مع الفروعِ وَذَانِ
أبـدًا إليه حُكْمُها لا غَيْـرُهُ فالحُكْم ما حَكَمَتْ به النَّصَّانِ
يا هجرةً طالتْ مسافَتُها على مَنْ خُصَّ بالحِرْمانِ والخِذْلانِ
يا هجرةً طالتْ مسافتها على كَسْلانَ مَنْخُوبِ الفُؤادِ جبانِ
يا هجرةً والعَبْدُ فوقَ فِراشِهِ سَبَقَ السُّعاةَ لمنزِلِ الرِّضْوانِ
رُفِعتْ له أعلامُ هاتِيكَ النُّصُو صِ رُؤوسُها شَابَتْ من النِّيرانِ
نارٌ هي النُورُ المُبِينُ ولم يكُن ليـرَاهُ إلّا مَنْ لـه عينـانِ
مكحولتان بمِرْوَدِ الوَحْيَيْنِ لا بمَـرَاوِدِ الآراءِ والهَذَيـانِ
فَلِذَاكَ شَمَّرَ نحوها لم يلتفِتْ لا عن شَمَـائِلِهِ ولا أيمـانِ
يا قومُ لو هاجرتم لرأيتـمُ أعـلامَ طَيْبَـةَ رُؤْيَـةً بعِيـانِ
ورأيتمُ ذاكَ اللِّواءَ وتحتَهُ الـرُّسـلُ الكرامُ وعَسْكَرُ القـرآنِ
وكذا المُهاجِرَةُ الأُلى سبقوا كذا الْـ أنْصارُ أهْلُ الـدَّارِ والإيمـانِ
والتابِعونَ لهم بإحسانٍ وَسَا لِكُ هَدْيِهم أبدًا بكلِّ زمـانِ
لكنْ رَضِيتُم بالأماني وابْتُلِيـ ـتُمْ بالحُظُوظ ونُصرة الإخوانِ
ونَبَذْتُمُ غَسْلَ النُّصُوصِ وراءكم وقَنَعْتُـمُ بِقُطـارَةِ الأذهـانِ
وتركتمُ الوَحْيَيْنِ زُهدًا فيهما ورَغِبْتُمُ في رَأْيِ كلِّ فـلانِ
وعزلتـمُ النَّصَّيْنِ عَمَّـا وُلِّيَا للحُكْم فيه عَزْلَ ذي عُدوانِ

وزعمتمُ أن ليس يحكُمُ بيننا إلَّا العقولُ ومنطقُ اليُونـانِ
فهما بحُكْم الحقِّ أوْلَى منهما سُبحانك اللَّهمَّ ذا السُّبْحَانِ
حتّى إذا انكشَفَ الغِطاءُ وُحصِّلَتْ أعمال هذا الخلْقِ في الميزانِ
وبَدَتْ على تلك الوجوهِ سِماتُهَا وَسْمَ المليك القادِرِ الدَّيّانِ
مُبْيَضَّـةً مِثْلَ الرِّياضِ بجَنَّـةٍ والسُّودُ مثْلَ الفَحْمِ للنِّيـرانِ
فهناك يعلمُ راكِبٌ ما تَحْتَهُ وهناك يَقْرَعُ ناجذَ النَّدْمـانِ
وهناك يعلم مُؤْثِرُ الآراء والـشَّـطَحَاتِ والهَذَيانِ والبُطـلانِ
أيَّ البضائعِ قد أضاع وما الذي منها تَعَوَّضَ في الزمانِ الفاني

يقول ابن القيم فيما أعد الله للمتمسكين بكتابه وسنة رسوله ﷺ

هذا وللمُتَمَسِّكِينَ بُسنَّةِ الْـ ـمُخْتارِ عِنْدَ فَسَادِ ذِي الأزمانِ
أجْرٌ عظيمٌ ليس يَقْدِرُ قَدْرَهُ إلَّا الذي أعطـاهُ للإنسـانِ
فرَوَى أبو داوُدَ في سُنَنٍ له ورواهُ أيضًا أحمدُ الشَّيْبَـاني
أثَرًا تَضَمَّنَ أجْرَ خمسين امْرَأً مِنْ صَحْبِ أحْمَدَ خِيرةِ الرحمنِ
إسنادُهُ حَسَنٌ ومصـداقٌ له في مُسلمٍ فافْهَمْهُ بالإحسانِ
إنَّ العبادَةَ وَقْتَ هَرْجٍ هِجْرَةٌ حقًّا إليَّ وذاك ذو بُرهـانِ
هذا فكَمْ مِنْ هجرةٍ لك أيُّها الـسُّـنِّيُّ بالتَّحْقِيقِ لا بأمـانِ
هذا وكَمْ من هجرةٍ لهُمُ بما قال الرسولُ وجاء في القرآنِ
وَلقَدَ أتى مِصداقُهُ في الترمـذي لمن لَهُ أُذُنـان واعِيَتـانِ
في أجْر مُحْيِي سُنَّةٍ ماتت فَذَا كَ مَعَ الرسولِ رفيقهُ بجِنانِ[١]
هذا ومِصـداقٌ له أيضًا أتـى في التِّرمِـذِيِّ لمن له عينـانِ
تشبيـهُ أُمَّتِـهِ بغَيْـثٍ أوَّلٌ منـه وآخِـرُهُ فمُشْتَبِهَـانِ
فلذاك لا يُدْرَى الذي هو منهما قد خُصَّ بالتَّفْضِيلِ والرُّجْحانِ

---

(١) الحديث ضعيف .

ولقد أتى في الوَحْيِ مِصداقٌ له ... في الثُّلّتَيْنِ وذاك في القـرآنِ
أهْلُ اليمينِ فثُلَّةٌ مَعْ مِثْلِهَا ... والسَّابِقُونَ أقَلُّ في الحُسْبانِ
ما ذاك إلّا أن تابِعَهُمْ هُمُ الْـ ... ـغُرَبَاءُ ليستْ غُربَةَ الأوطانِ
لكنَّها واللَّهِ غُربةُ قائِمٍ ... بالدِّينِ بين عساكِرِ الشيطانِ
فانظُرْ إلى تفسيرِهِ الغُرَبَاءَ بِالْـ ... ـمُحْيِينَ سُنَّتَهُ بكلِّ زمانِ
طُوبَى لهم والشَّوْقُ يَحْدُوهُم إلى ... أخْذِ الحديثِ ومُحكَمِ القرآنِ
طوبى لهم لم يَعْبَئُوا بِنُحاتَةِ الْـ ... أفكار أو بزبالةِ الأذهانِ
طوبى لهم رَكِبُوا على مَتْنِ العَزَا ... ئِمِ قاصدِينَ لمَطْلَعِ الإيمانِ
طوبى لهم لم يَعْبَئُوا شيئًا بذي الْـ ... آرَاءِ إذْ أغناهُمُ الوَحْيَانْ
طوبى لهم وإمامُهُمْ دُونَ الوَرَى ... مَنْ جاءَ بالإيمانِ والفُرقانِ
والله ما ائتَمُّوا بشخصٍ دُونَهُ ... إلَّا إذا ما دَلَّهُمْ بِبَيَانِ
هذا وقد بَعُدَ المَدَى وتَطَاوَلَ الْـ ... ـعَهْدُ الذي هو مُوجِبُ الإحسانِ
ولذاك كان كقابِضٍ جَمْرًا فَسَلْ ... أحشاءَهُ عن حَرِّ ذي النِّيرانِ
واللَّهُ أعْلَمُ بالـذي في قَلْبِهِ ... يكفيهِ عِلْمُ الواحِدِ المَنَّانِ
بِرٌّ وتوحيدٌ وصَبْرٌ مَعْ رِضًا ... والشُّكْرُ والتَّحكيمُ للقـرآنِ

يقول ابن القيم في عهده مع ربه ، وعهد الرجال الجبال يبين عن علو همتهم :

يا ناصرَ الإسلام والسُّنَن التي ... جاءتْ عن المبعوث بالقرآنِ
اشرحْ لدينك صدْرَ كلِّ مُوحِّدٍ ... شرحًا ينال به ذُرَا الإيمانِ
واجْعَلْهُ مُؤتَما بوَحْيِكَ لا بما ... قد قالَهُ ذُو الإفْكِ والبُهتانِ
وانْعِشْ به مَنْ قصْدُهُ إحياؤه ... واعصِمْهُ من كَيْد امْرِىءٍ فَتَّانِ
فَوَحَقِّ نعمتِك التي أوليتَنِي ... وجعلت قلبي واعِيَ القـرآنِ
وكتبتَ في قلبي مُتابَعَةَ الهُدى ... فقرأتُ فيه أسْطُرَ القـرآنِ

ونشلْتَنِي من حُبِّ أصحاب الهَوَى بحبائلٍ من مُحكَمِ القـرآنِ
وجعلتَ شِرْبي المَنْهَلَ العَذْبَ الذي هُوَ رأسُ ماءِ الوارِدِ الظَّمآنِ
وعصمتَني من شِرْبِ سِفْلِ الماءِ تَحْـ ـتَ نجاسةِ الآراءِ والأذهانِ
وحَفِظْتَنِي ممَّا ابتليتَ به الأُلى حكموا عليك بشرْعَةِ البُهتانِ
نَبَذُوا كتابَكَ مِنْ وراءِ ظُهُورهم وتمسَّكُوا بزَخارِفِ الهَذَيانِ
وأريتَني البدَعَ المُضِلَّةَ كيف يُلْـ ـقِيهَا مُزَخْرَفَةً إلى الإنسانِ
شيطانُهُ فَيَظَلّ يَنْقُشُهَا لَـهُ نَقْشَ المُشبِّهِ صُورةً بدِهَانِ
فَيَظُنُّها المغرورُ حقًّا وَهْيَ في التَّـحْقِيق مِثْلُ اللآلِ في العِقيانِ
لأُجَاهِدَنَّ عِدَاكَ ما أبْقَيْتَنـي ولأجعلنَّ قتالَهُمْ دَيْـدَانـي
ولأَفْضَحَنَّهُمُ على رُوس المَلا ولأَفْرِيَنَّ أدِيمَهُـمْ بلسـانـي
ولأَكشِفَنَّ سَرَائِرًا خَفِيَتْ على ضُعَفاءِ خَلْقِكَ منهُمُ ببَيَـانِ
ولأَتْبَعَنَّهُمُ إلى حيث انْتَهَوْا حتّى يُقالَ أبَعْدُ عَبَّـادان
ولأَرْجُمَنَّهُمُ بأعلامِ الهُـدى رَجْمَ المَرِيدِ بثَاقِبِ الشُّهْبَانِ
ولأقْعُدَنَّ لهم مَرَاصِدَ كَيْدِهم ولأحْصُرَنَّهُـمُ بكُلِّ مكـانِ
ولأجْعَلَنَّ لحُومَهم ودماءَهـم في يوم نَصْرِكَ أعْظَمَ القُربانِ
ولَأَحْمِلَـنَّ عليهـمُ بعَسَاكِـر ليستْ تَفرُّ إذا الْتَقَى الزَّحْفانِ
بعَسَاكِرِ الوَحْيَيْنِ والفِطْرَاتِ بالْـ ـمعْقُولِ والمنقُولِ بالإحسانِ
حتَّى يَبِينَ لمن له عَقْلٌ مَنِ الْـ أوْلَى بحُكْمِ العَقْلِ والبُرهانِ
ولأنْصَحَنَّ اللَّهَ ثُـمَّ رسـولَهُ وكتابَهُ وشـرائِعَ الإيمـانِ
إن شاءَ رَبِّي ذا يكُونُ بحَوْلِهِ إن لم يَشأْ فالأمْرُ للرحمـنِ

ولقد صدق ابن القيم في عهده مع ربه أيما صدقٍ ، ووفَّى أعظم توفيةٍ ، لله درُّه .

* * *

□ كلماتٌ طَيِّبة في الدَّعْوة إلى السُّنَّة □

عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « من دعا إلى هُدًى ، كان له من الأجر مثل أُجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أُجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالةٍ ، كان له من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا » . أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة .

وقال ابن عباس : النظر إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السنة وينهى عن البدعة ، عبادةٌ[1] .

وعن الزهري : الاعتصام بالسنة نجاةٌ .

وقال أبو العالية : « تعلموا الإسلام ، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه ، وعليكم بالصراط المستقيم ، فإنه الإسلام ، ولا تحرفوا الإسلام يمينًا ولا شمالًا ، وعليكم بسنة نبيكم والذي كان عليه أصحابه ، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء » . وصدق ونصح كما قال الحسن وابن سيرين .

وعن الحسن قال : يا أهل السنة ترفقوا - رحكم الله - فإنكم من أقل الناس .

وعن سعيد بن جبير : لا يقبل قولٌ إلَّا بعمل ، ولا يقبل عملٌ إلا بقولٍ ، ولا يقبل قولٌ وعملٌ إلا بنيَّةٍ ، ولا يقبل قولٌ وعملٌ ونيّةٌ إلَّا بنيّةٍ مُوافِقةٍ للسنة .

وقال يونس بن عبيد : أصبح مَن إذا عُرِّف السُّنّة عرفها ، غريبًا ، وأغْرَب منه من يُعرِّفها .

وقال يونس : إن الذي يعرض عليه السنة لغريب ، وأغرب منه من يعرفها .

وقال : ليس شيءٌ أغرب من السنة ، وأغرب منها من يعرفها .

---

(١) شرح أصول الاعتقاد ١/٥٥ .

قال أيوب السختياني : إن من سعادة الحدث والأعجمي ، أن يوفقهما الله لعالِمٍ من أهل السنة .

وعن ابن شوذب : إن من نعمة الله على الشاب إذا نسك ، أن يواخي صاحب سنة يحمله عليها .

وقال أيوب لعمارة بن زاذان : يا عمارة ، إذا كان الرجل صاحب سنة وجماعة ، فلا تسأل عن أي حال كان فيه .

وقال حماد بن زيد : حضرت أيوب السختياني وهو يغسِّل شعيب ابن الحبحاب ، وهو يقول : إن الذين يتمنون موت أهل السنة يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

وقال ابن عون : ثلاث أُحِبُّهن لنفسي ولأصحابي . فذكروا قراءة القرآن والسنة ، والثالثة : أقبل رجلٌ على نفسه ولها من الناس ، إلا من خَيْرٍ .

وقال الأوزاعي : ندور مع السنة حيث دارت .

وقال : كان يقال : خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسانٍ : لزوم الجماعة ، واتباع السنة ، وعمارة المساجد ، وتلاوة القرآن ، والجهاد في سبيل الله .

وأخرج ابن أبي حاتمٍ عن ابن مسعود : ما من شيءٍ إلا بُيِّن لنا في القرآن ، ولكن فهمنا يقصر عن إدراكه ، فلذلك قال تعالى : ﴿ **ولتُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم** ﴾ [النحل : ٤٤] .

لله ما أروع هذا الكلام !

وقال رجل عن مطرف بن عبد الله : لا تحدثونا إلا بما في القرآن . فقال مطرف : إنّا والله ما نريد بالقرآن بدلًا ، ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا .

وأخرج الدارمي عن سعيد بن جبير ، أنه حدث يومًا بحديثٍ عن النبي ﷺ فقال له رجل : في كتاب الله ما يخالف هذا . فقال : لا أراني أُحدِّثك عن رسول الله ﷺ وتعرض فيه بكتاب الله ، كان رسول الله ﷺ أعلم بكتاب الله منك .

وأخرج البيهقي عن أيوب السختياني قوله : إذا حدثت الرجل بُسنّةٍ ، فقال : دعنا من هذا وأنبئا عن القرآن ، فاعلم أنه ضالٌ .

وكتب عمر بن عبد العزيز : لا رَأْيَ لأحدٍ في كتاب الله ولا في سُنّةٍ سنَّها رسول الله ﷺ ، وإنما رأيُ الأمة فيما لم ينزل فيه كتاب ، ولم تَمْضِ به سُنّةٌ عن رسول الله ﷺ .

وقال الأوزاعي : إن السنة جاءت قاضيةً على الكتاب ، ولم يجيء الكتاب قاضيًا على السنة . وكذا قال يحيى بن أبي كثير .

وقال مكحول : القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن .

قال البيهقي : ومعنى ذلك أن السنة مع الكتاب أُقيمت مقام البيان عن الله ، كما قال الله ﴿ **وأنزلنا إليك الذِّكْر لتُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم** ﴾ [النحل : ٤٤].

وقال السيوطي : والحاصل أن معنى احتياج القرآن إلى السنة ؛ أنها مبينة له ومفصلة لمجملاته ؛ لأن فيه كنوزًا تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها ، فيبرزها ، وذلك هو المنزل عليه ﷺ .

وهذا هو معنى كون السنة قاضيةً عليه ، وليس القرآن مبينًا للسنة ولا قاضيًا عليها ؛ لأنها بَيِّنَةٌ بنفسها .

« كان إبراهيم التيمي يقول : اللهم اعصمني بدينك وبسنة نبيك من الاختلاف في الحق ، ومن اتباع الهوى ، ومن سبل الضلالة ، ومن شبهات الأمور ، ومن الزيغ والخصومات .

وقال ابن المبارك : اعلم - أي أخي - أن الموت كرامةٌ لكل مسلمٍ لقي الله على السنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فإلى الله نشكو وحشتنا وذهاب الإخوان وقلة الأعوان ، وظهور البدع ، وإلى الله نشكو عظيم ما حلَّ بهذه الأُمّة من ذهاب العلماء وأهل السنة وظهور البدع »[١] .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : والمتبع للسنة كالقابض على الجمر ، وهو اليوم عندي أفضل من ضرب السيف في سبيل الله عز وجل .

قال الألباني : هذا في زمانه ، فماذا يقال في زماننا ؟! .

قال ابن عمر : لا يزالون على الطريق ما اتبعوا الأثر .

قال وكيع : لو أن الرجل لم يصب في الحديث شيئًا إلَّا أن يمنعه من الهوى ، كان قد أصاب فيه .

وقال سفيان : الملائكة حراس السماء ، وأصحاب الحديث حراس الأرض .

وقال سفيان : استوصوا بأهل السنة خيرًا ؛ فإنهم غرباء[٢] .

وقال فضيل بن عياض : إن لله عبادًا يحيي بهم البلاد ، وهم أصحاب السنة ، ومن كان يعقل ما يدخل جوفه من حله ، كان من حزب الله .

وقال أبو بكر بن عيّاش : السنة في الإسلام أعز من الإسلام في سائر الأديان .

وقال ابن المبارك : ما رأيت أحدًا شرح السُّنة من أبي بكر بن عياش .

وعن عون قال : من مات على الإسلام والسنة ، فله بشيرٌ بكل خيرٍ .

وقال معتمر بن سليمان : دخلت على أبي وأنا منكسر ، فقال : ما لك ؟ قلت : مات صديقٌ لي . قال : مات على السنة ؟ قلت : نعم . قال :

---

(١) الاعتصام للشاطبي ٨٦/١ .
(٢) شرح أصول الاعتقاد ٦٣/١ .

فلا تخف عليه .

وقال معافى بن عمران : لا تحمدن رجلًا إلا عند الموت : إما يموت علىَ السنة أو يموت على بدعة .

وقال شاذ بن يحيى : ليس طريقٌ أقصد إلى الجنة من طريق من سلك الآثار .

دِينُ النبيِّ محمدٍ أخبـارُ نِعْمَ المَطِيَّةُ للفتى آثـارُ
لا تَعْدِلَنَّ عن الحديث وأهْلِهِ فالرَّأْيُ ليْلٌ والحديثُ نهـارُ
ولرُبَّما غَلِطَ الفتى أثَرَ الهُدى والشمسُ بازِغَة لها أنـوارُ

وقال ابن خزيمة : ليس لأحدٍ قولٌ مع رسول الله ﷺ إذا صحّ الخبر .

وقال يحيى بن آدم : لا يحتاج مع قول النبي ﷺ إلى قولِ أحدٍ ، إنما كان يقال : سنة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر ؛ ليعلم أن النبي ﷺ مات وهو عليها .

وقال مجاهد : ليس أحدٌ إلا يؤخذ من قوله ويترك من قوله إلّا النبي ﷺ .

وقال أبو حنيفة : إذا جاء عن النبي ﷺ ، فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن أصحابه ، نختار من أقوالهم ، وإذا جاء عن التابعين ، زاحمناهم .

وقال عروة بن الزبير : اتباع السنن قوام الدين .

وقال ابن سيرين : كانوا يقولون : ما دام على الأثر ، فهو على الطريق .

وقال الأوزاعي : إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديثٌ ، فإياك أن تقول بغيره ، فإن رسول الله ﷺ كان مبلغًا عن الله .

وقال الثوري : إنما العلم كله العلم بالآثار .

وقال كهمس : من لم يتحقق أن أهل السنة حفظة الدين ، فإنه يعد في ضعفاء المساكين ، الذين لا يدينون لله بدين ، يقول الله لنبيه ﷺ : ﴿ **الله نَزَّل أحْسَنَ الحديث** ﴾ [الزمر : ٢٣] ويقول رسول الله ﷺ : « حدثني جبريل عن الله » .

قال أبو إلياس الألباني : ثلاث لو كتبن في ظفر لوسعهن ، وفيهن خير الدنيا والآخرة : اتبع ولا تبتدع ، اتضع ولا ترتفع ، ومن ورع لا يتسع .

* * *

□ كلمات في الاتِّباع وذَمّ البدع لأهل الزُّهْد وأصحاب السلوك □

قيل لإبراهيم بن أدهم : إن الله يقول في كتابه : ﴿ **ادعوني أستجب لكم** ﴾ [غافر : ٦٠] ونحن ندعوه منذ دهر فلا يستجيب لنا ؟! فقال : ماتت قلوبكم في عشرة أشياء : أولها : عرفتم الله فلم تؤدُّوا حقه . والثاني : قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به . والثالث : ادعيتم حب رسول الله ﷺ وتركتم سنته ... إلى آخر الحكاية .

وقال ذو النون : من علامة حب الله متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأمره وسنته .

وقال : إنما فسد الخلق من ستة أشياء : الأول : ضعف النية بعمل الآخرة . والثاني : صارت أبدانهم مُهَيَّأَةً لشهواتهم . والثالث : غلبهم طول الأمل مع قصر الأجل . والرابع : آثروا رضاء المخلوقين على رضاء الله . والخامس : اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم ﷺ . والسادس : جعلوا زلات السلف حجة لأنفسهم ، ودفنوا أكثر مناقبهم .

وقال لرجلٍ أوصاه : « ليكن آثر الأشياء عندك وأحبها إليك ، إحكام ما افترض الله عليك ، واتقاء ما نهاك عنه ؛ فإنّ ما تعبَّدك الله به ، خيرٌ لك مما تختاره لنفسك من أعمال البر وأنت ترى أنها أبلغ لك فيما تريد ، كالذي يؤدب نفسه بالفقر والتقلل ، وما أشبه ذلك ، وإنما للعبد أن يراعي أبدًا ما وجب عليه من فرضٍ يحكمه على تمام حدوده ، وينظر إلى ما نهي عنه ، فيتقيه على إحكام ما ينبغي ، فإن الذي قطع العباد عن ربهم ، وقطعهم عن أن يذوقوا حلاوة الإيمان ، وأن يبلغوا حقائق الصدق ، وحجب قلوبهم عن النظر إلى الآخرة – تهاونهم بأحكام ما فرض عليهم ؛ في قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وبطونهم وفروجهم ، ولو وقفوا على

هذه الأشياء وأحكموها ، لأُدخل عليهم البر إدخالًا تعجز أبدانهم وقلوبهم عن حمل ما رزقهم الله من حسن معونته ، وفوائد كرامته ، ولكن أكثر القراء والنساك حقروا محقرات الذنوب ، وتهاونوا بالقليل مما هم فيه من العيوب ، فحرموا ثواب لذة الصادقين في العاجل » .

وقال بشر الحافي : رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي : يا بشر ، أتدري لم رفعك الله بين أقرانك ؟ قلت : لا يارسول الله . قال : لاتباعك سنتي وحرمتك للصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي ، هو الذي بلغك منازل الأبرار .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : اختلاف الناس كلهم يرجع إلى ثلاثة أصول ، فلكل واحد منها ضد ، فمن سقط عنه وقع في ضده : التوحيد وضده الشرك ، والسنة وضدها البدعة ، والطاعة وضدها المعصية .

وقال أبو بكر الترمذي : لم يجد أحد تمام الهمة بأوصافها إلا أهل المحبة ، وإنما أخذوا ذلك باتباع السنة ومجانبة البدعة ، فإن محمدا ﷺ كان أعلى الخلق كلهم همة وأقربهم زلفى .

وقال أبو عليّ الحسن بن علي الجوزجاني : من علامات السعادة على العبد تيسير الطاعة عليه ، وموافقة السنة في أفعاله ، وصحبته لأهل الصلاح ، وحسن أخلاقه مع الإخوان ، وبذل معروفه للخلق ، واهتمامه للمسلمين ، ومراعاته لأوقاته .

وسئل : كيف الطريق إلى الله ؟ فقال : الطرق إلى الله كثيرة ، وأوضح الطرق وأبعدها عن الشبه : اتباع السنة قولًا وفعلًا وعزمًا وعقدًا ونِيَّةً ؛ لأن الله يقول : ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا** ﴾ [النور : ٥٤]. فقيل له : كيف الطريق إلى السنة ؟ فقال : مجانبة البدع ، واتباع ما أجمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام ، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله ، ولزوم طريقة

الاقتداء ، وبذلك أُمِر النبي ﷺ بقوله تعالى : ﴿ **ثم أوحينا إليْك أن اتّبع ملّة إبراهيم** ﴾ [النحل : ١٢٣] .

وقال أبو الحسن الورَّاق : لا يصل العبد إلى الله إلّا بالله وبموافقة حبيبه ﷺ في شرائعه ، ومن جَعَلَ الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء ، يضلُّ من حيث إنه مُهتدٍ .

وقال : الصدق استقامة الطريق في الدين ، واتباع السنة في الشرع .

وقال : علامة محبة الله متابعة حبيبه ﷺ .

وقال إبراهيم القمار : علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ .

وقال أبو محمد بن عبد الوهاب الثقفي : لا يقبل الله من الأعمال إلَّا ما كان صوابًا ، ومن صوابها إلّا ما كان خالصًا ، ومن خالصها إلَّا ما وافق السنة .

وقد كان إبراهيم بن شيبان القرميسيني - الذي صاحب إبراهيم الخواص - شديدًا على أهل البدع ، متمسكا بالكتاب والسنة ، لازمًا لطريق المشايخ والأئمة ، حتى قال فيه عبد الله بن منازل : إبراهيم بن شيبان حجة الله على الفقراء وأهل الآداب والمعاملات .

وقال أبو بكر بن سعدان - وهو من أصحاب الجنيد -: الاعتصام بالله هو الامتناع من الغفلة والمعاصي والبدع والضلالات .

وقال أبو عمر الزجاجي - وهو من أصحاب الجنيد والثوري -: كان الناس في الجاهلية يتبعون ما تستحسنه عقولهم وطبائعهم ، فجاء النبي ﷺ فردهم إلى الشريعة والاتباع ، فالعقل الصحيح الذي يستحسن ما يستحسنه الشرع ، ويستقبح ما يستقبحه .

وقيل لإسماعيل بن محمد السلمي جد أبي عبد الرحمن السلمي - ولقي الجنيد -: ما الذي لا بد للعبد منه ؟ فقال : ملازمة العبودية على السنة ،

ودوام المراقبة .

وقال أبو عثمان المغربي التونسي : هو الوقوف مع الحدود لا يقصر فيها ولا يتعداها ، قال الله تعالى : ﴿ **ومن يَتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه** ﴾ [الطلاق : ١] .

وقال بندار بن الحسين : صحبة أهل البدع تورث الإعراض عن الحق .

وقال أبو بكر الطمستاني : الطريق واضح ، والكتاب والسنة قائم بين أظهرنا ، وفضل الصحابة معلومٌ لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم ، فمن صحب منا الكتاب والسنة ، وتغرب عن نفسه والخلق ، وهاجر بقلبه إلى الله ، فهو الصادق المصيب .

وقال أبو يزيد البسطامي(١): عملت في المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئًا أشد من العلم ومتابعته ، ومتابعة العلم هي متابعة السنة لا غيرها .

وروي عنه أنه قال : قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية . وكان رجلًا مقصودًا مشهورًا بالزهد ، قال الراوي : فمضينا ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا غير مأمونٍ على أدبٍ من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه ؟! .

قال الشاطبي في « الاعتصام » (١/ ٩٤) : « وهذا أصل أصَّله أبو يزيد - رحمه الله - للقوم : وهو أن الولاية لا تحصل لتارك السنة ، وإن كان ذلك جهلًا منه ، فما ظنك إذا كان عاملًا بالبدعة كفاحًا ؟! » .

---

(١) له كلامٌ طيِّبٌ ، وله شطحات ، عفا الله عنه ، فنأخذ منه كلامه الطيب ، ولنا سلفٌ في ذلك : شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم .

وقال : هممت أن أسأل الله أن يكفيني مؤنة الأكل ومؤنة النساء ، ثم قلت : كيف يجوز أن أسأل الله هذا ، ولم يسأله رسول الله ﷺ ؟! فلم أسأله ، ثم إن الله سبحانه كفاني مؤنة النساء ، حتى لا أبالي أستقبلتني امرأة أم حائط .

وقال : لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات ، حتى يرتقي في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود وآداب الشريعة .

وقال سهل التستري : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداءٍ ، طاعةً كان أو معصية ، فهو عيش النفس - يعني اتباع الهوى - وكل فعلٍ يفعله العبد بالاقتداء فهو عتابٌ على النفس ، واتباع الهوى هو المذموم ، ومقصود القوم تركه ألبتة .

وقال : أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله ، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق .

وقال : قد أيس الخلق من هذه الخصال الثلاث : ملازمة التوبة ، ومتابعة السنة ، وترك أذى الخلق . وسئل عن الفتوة فقال : اتباع السنة .

وقال أبو سليمان الداراني : ربما تقع في قلبي النكتة من نكتة القوم أيامًا ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة .

وقال أحمد بن أبي الحواري : من عمل عملًا بلا اتباع سنةٍ ، فباطلٌ عمله .

وقال أبو حفص الحداد : من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقتٍ بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا تعده في ديوان الرجال.

وسئل عن البدعة ، فقال : التعدي في الأحكام ، والتهاون في

السنن ، واتباع الآراء والأهواء ، وترك الاتباع والاقتداء .

قال : وما ظهرت حالةٌ عاليةٌ إلّا من ملازمة أمرٍ صحيح .

وسئل حمدون القصار : متى يجوز للرجل أن يتكلم على الناس ؟ فقال : إذا تعين عليه أداء فرضٍ من فرائض الله في علمه ، أو خاف هلاك إنسانٍ في بدعةٍ ، يرجو أن ينجيه الله منها .

وقال : من نظر في سير السلف ، عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال .

قال الشاطبي في « الاعتصام » (٩٥/١) : « وهذه - والله أعلم - إشارةٌ إلى المثابرة على الاقتداء بهم ، فإنهم أهل السنة » .

وقال أبو عثمان الحيري : الصحبة مع الله تعالى : بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة ، والصحبة مع رسول الله ﷺ : باتباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم .

ولما تغير عليه الحال ، مزق ابنه أبو بكرٍ قميصًا على نفسه ، ففتح أبو عثمان عينيه وقال : خلاف السنة - يا بني - في الظاهر ؛ علامة رياءٍ في الباطن .

وقال : مَن أمّر السنة على نفسه قولًا وفعلًا ، نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولًا وفعلًا ، نطق بالبدعة ؛ قال الله تعالى : ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا** ﴾ [النور : ٥٤] .

وقال محمد بن الفضل البلخي : ذهاب الإسلام من أربعة : لا يعملون بما يعلمون ، ويعملون بما لا يعلمون ، ولا يتعلمون ما لا يعلمون ، ويمنعون الناس من التعلم .

وقال : أعرفهم بالله أَشَدُّهم مجاهدةً في أوامره ، وأتبعهم لسنة نبيه ﷺ .

وقال شاه الكرماني : من غضَّ بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشبهات ، وعمّر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة،وعوّد نفسه أكل الحلال ، لم تخطىءْ له فِرَاسَةٌ .

وقال أبو العباس بن عطاء ، وهو من أقران الجنيد : من ألزم نفسه آداب الله ، نور الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه .

وقال إبراهيم الخوّاص : ليس العلم بكثرة الرواية ، وإنما العالم من اتبع العلم واستعمله ، واقتدى بالسنن ، وإن كان قليل العلم .

وسئل عن العافية فقال : العافية أربعة أشياء : دينٌ بلا بدعةٍ ، وعملٌ بلا آفةٍ ، وقلبٌ بلا شغلٍ ، ونفسٌ بلا شهوةٍ .

وقال : الصبر : الثبات على أحكام الكتاب والسنة .

وقال أبو حمزة البغدادي : من علم طريق الحق ، سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله إلَّا متابعة سنة الرسول ﷺ في أحواله وأفعاله وأقواله .

وسُئل أبو علي الرّوزباري عمّن يسمع الملاهي ويقول : « هي لي حلال ، لأني قد وصلت إلى درجةٍ لا يؤثر في اختلاف الأحوال » . فقال : نعم قد وصل ، ولكن إلى سقر .

وقال أبو محمد عبد الله بن منازل : لم يضيع أحدٌ فريضةً من الفرائض ، إلا ابتلاه الله بتضييع السنن ، ولم يبتل بتضييع السنن أحدٌ ، إلَّا يوشك أن يُبتلى بالبدع .

وقال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلَّا من اقتفى آثار الرسول ﷺ .

وقال : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا

الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسنة . وقال : هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ .

هذا قول سيد من سادات العابدين العاملين ، فلم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق من الصوفية ، ونواب إبليس وشرطه .

وقال الجنيد : الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى آثار النبي ﷺ ، فإن الله عز وجل يقول : وعزتي وجلالي ، لو أتوْني من كل طريقٍ ، واستفتحوا من كل بابٍ ، لما فتحت لهم ، حتى يدخلوا خلفك[1] .

وقال رجل له : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله . فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، ولو بقيت ألف عام ، لم أنقص من أعمال البر ذرَّةً ، إلا أن يحال بي دونها .

« فهذا كلام أهل الحقائق والمواجد والأذواق والأحوال والأسرار التوحيدية ، فهم الحجة لنا على كل من ينتسب إلى طريقهم ولا يجري على منهاجهم ، بل يأتي ببدعٍ محدثات ، وأهواء متبعات »[2] .

فالسابقون مَضَوْا وما خدعوا الوَرَى ... بالتُّرَّهَاتِ لأنّهم أُمَناءُ
واللّاحِقون مضوْا على أهوائهم ... أرأيتَ ما فعلتْ بنا الأهواءُ
بدع بها جمعوا من الأموال ما ... جمعوا ومجموعُ الهباءِ هباءُ
في ذمة العُلماءِ هذا كُلُّه ... إن كان فيما بيننا علماءُ

* * *

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص٧ .
(٢) الاعتصام للشاطبي بتصرف ١/٩٠ - ٩٨ .

☐ ذم الابتـــداع ☐

قال العلامة ابن بطة العكبري : « يا إخواني ، عصمنا الله وإياكم من غلبة الأهواء ومشاحنة الآراء ، وأعاذنا وإياكم من نصرة الخطاء وشماتة الأعداء ، وأجارنا وإياكم من غِيَر الزمان وزخاريف الشيطان ، فقد كثر المغترون بتمويهاتها ، وتباهى الزائغون والجاهلون بلبس حلتها ، فأصبحنا وقد أصابنا ما أصاب الأُمَمَ قبلنا ، وحل الذي حذرناه نبينا ﷺ من الفرقة والاختلاف ، وترك الجماعة والائتلاف ، وواقع أكثرنا الذي عنه نهينا ، وترك الجمهور منا ما به أُمرنا ، فخُلعتْ لبسة الإسلام ، ونزعت حلة الإيمان ، وانكشف الغطا ، وبرح الخفا ، فعُبدتِ الأهواء ، واستُعملتْ الآراء ، وقامت سوق الفتنة ، وانتشرت أعلامها ، وظهرت الردة ، وانكشف قناعها ، وقُدحتْ زناد الزندقة ، فأُضرمت نيرانها ، وخلف محمد ﷺ في أُمَّته بأقبح الخلف ، وعظمتْ البليَّة ، واشتدت الرزيَّة ، وظهر المبتدعون ، وتنطّع المتنطعون ، وانتشرت البدع ، ومات الورع ، وهتكت سجف المشاينة ، وشهر سيف المحاشة ، بعد أن كان أمرهم هينا ، وحدهم لينا ، وذاك حين كان أمر الأُمّة مجتمعا ، والقلوب متآلفة ، والأئمة عادلة ، والسلطان قاهرا ، والحق ظاهرا ، فانقلبت الأعيان ، وانعكس الزمان ، وانفرد كلُّ قومٍ ببدعتهم ، وحُزِّبَ الأحزاب ، وخولف الكتاب ، واتخذ أهل الإلحاد رؤوسًا وأربابا ، وتحولت البدعة إلى أهل الاتفاق ، وتهوك في العسرة العامة وأهل الأسواق ، ونعق إبليس بأوليائه نَعْقةً فاستجابوا له من كل ناحية ، وأقبلوا نحوه مسرعين من كل قاصية ، فأُلْبِسوا شيعا ، ومُيِّزوا قِطَعا ، وشمتت بهم أهل الأديان السالفة والمذاهب المخالفة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وما ذاك إلّا عقوبة أصابت القوم عند تركهم أمر الله ، وصدفهم عن الحق ، وميلهم إلى الباطل ، وإيثارهم أهواءهم ، ولله عز وجل عقوبات في خلقه عند ترك أمره ومخالفة رُسُله ، فأشعلتْ نيران البدع في الدين ،

وصاروا إلى سبيل المخالفين ، فأصابهم ما أصاب من قبلهم من الأمم الماضين »[١] .

قالَ الشاطبي في الاعتصام (٣٨/١) : « هذا تمام الحكاية ، فكأنه - رحمه الله - تكلم على لسان الجميع » .

ولقد وردت عن سيد البرية ﷺ أحاديث عطرة في ذم البدع والتنفير من أهلها :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه ، فهو رد » . متفق عليه .

ولفظ مسلم : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ » .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أبغض الناس إلى الله ثلاثة : مُلحدٌ في الحرم ، ومُبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية ، ومطَّلِب دم امرىء بغير حقٍّ ليهريق دمه » . رواه البخاري .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أُمتي يدخلون الجنة إلَّا مَنْ أبى » . قيل : ومَنْ أَبَى ؟ قال : « من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى »[٢].

وفي حديث أنس : « فمن رغب عن سنتي ، فليس مني » . متفق عليه .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات** ﴾ وقرأ إلى : ﴿ **وما يذَّكَّر إلّا أُولو الألباب** ﴾ [آل عمران : ٧] قالت : قال رسول الله ﷺ : « فإذا

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية .° لابن بطة ١٦٣/١ - ١٦٥ .

(٢) رواه البخاري .

رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه ؛ فأولئك الذين سماهم الله ؛ فاحذروهم ». متفق عليه . وعند مسلم : « فإذا رأيتم » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر الزمان دجالون ، كذّابون ، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم ، لا يضلونكم ولا يفتنونكم » . رواه مسلم .

وعن عبد الله بن عمرو قال : هجرت إلى رسول الله ﷺ يومًا ، قال : فسمع أصوات رَجُلين اختلفا في آية ، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب ، فقال : « إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب » . رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، و ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا** ... ﴾ » الآية [البقرة : ١٣٦] . رواه البخاري .

وعن خبّاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ بني إسرائيل لمّا هلكوا قَصُّوا »(١) .

أي لما هلكوا بترك العمل ، أخلدوا إلى القصص ، وعولوا عليها واكتفوا بها . قاله المناوي .

وحال كثير من المؤمنين اليوم يشبه حالهم ، فقد أعرضوا عن العلم النافع والعمل الصالح .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والضياء في المختارة ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٤١) والصحيحة رقم (١٦٨١) .

وقال ﷺ : « لتتَّبِعنّ سُنن الذين من قبلكم ، شبرًا بشبرٍ ، أو ذراعًا بذراعٍ ، حتى لو سلكوا جحر ضَبٍّ لسلكتموه » . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ! »(١) .

وقال ﷺ : « لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبرٍ ، وذراعًا بذراعٍ ، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضَبٍّ لدخلتم ، وحتى لو أن أحدهم جامع أُمّه بالطريق لفعلتموه »(٢) .

وقال ﷺ : « ليس منا من عمل بسنة غيرنا »(٣) .

وقال ﷺ : « من صنع أمرًا على غير أمرنا ، فهو رَدٌّ »(٤) .

وقال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تأخذ أُمَّتي أخذ القرون قبلها ، شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراعٍ » . قيل : يا رسول الله ، كفارس والروم ؟ قال : « ومن الناس إلّا أولئك »(٥) .

وقال رسول الله ﷺ : « ليأتينَّ على أُمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملَّة ، وتفترق أُمّتي على ثلاثٍ وسبعين ملّة ، كلهم في النار ، إلّا ملّة واحدة ؛ ما أنا عليه وأصحابي »(٦) .

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وابن ماجة عن أبي سعيد ، والحاكم عن أبي هريرة .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٩٤٣) .

(٣) حسن : رواه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٤٣٩) .

(٤) صحيح : رواه أبو داود عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٣٦٩) .

(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٦) حسن : رواه الترمذي عن ابن عمرو ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٣٤٣) .

وقال ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة ، وسبعون في النار ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، فإحدى وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة ، والذي نفس محمدٍ بيده ، لتفترقن أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة ، واثنتان وسبعون في النار »[١] .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر الزمان دجّالون كذّابون ، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإيّاكم وإيّاهم ، لا يُضلّونكم ولا يفتنونكم » .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا ، ثم قال : « هذا سبيل الله » . ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله ، وقال : « هذه سُبُلٌ على كلِّ سبيلٍ منها شيطان يدعو إليه » . وقرأ : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتَّبعُوه ولا تتَّبِعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتَّقون** ﴾ . [الأنعام : ٦٣][٢] .

وعن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة ، وإنه سيخرج من أُمّتي أقوام تَجارَى بهم تلك الأهواءُ كما يَتَجارَى الكَلَبُ بصاحبه ، لا يبقى منه عِرق ولا مَفْصِل إلّا دَخَلَه »[٣].

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجة عن عوف بن مالك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٨٢) .
(٢) إسناده حسن . رواه أحمد والنسائي والدارمي والحاكم وصححه . وحسّن إسناده الألباني في التعليق على المشكاة ١/٥٩ .
(٣) إسناده صحيح . رواه أحمد وأبو داود . وقال الألباني : وسندهما صحيح .

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ضلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه ، إلّا أُوتوا الجدل » . ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **ما ضربوه لك إلّا جدلًا بل هم قوم خصِمُون** ﴾[١] [الزخرف : ٥٨].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أبْغَضُ الرِّجال إلى الله الألَدُّ الخَصِم »[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المدينة حرام ، ما بين عَيْر إلى ثور ، فمن أحْدَثَ فيها حَدَثًا ، أو آوى محدثًا ، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفًا ولا عَدْلًا »[٣] .

هذا في المحدث المبتدع ، والذي يأويه لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلًا ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وقال رسول الله ﷺ : « المِراءُ في القرآن كفر »[٤].

وعن أبي برزة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إنما أخشى عليكم شهوات الغيّ في بطونكم وفروجكم ، ومُضِلّات الهوى »[٥] .

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة . وقال الألباني : سنده صحيح . انظر مشكاة المصابيح ٦٤/١ .

(٢) رواه البخاري وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن علي ، ومسلم عن أبي هريرة ، ونحوه عن أنس رواه أحمد والبخاري ومسلم . ورواه الطيالسي وأبو نعيم والبيهقي في السنن .

(٤) صحيح . رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الحاكم والألباني في صحيح الجامع رقم (٦٥٦٣) .

(٥) صحيح . رواه أحمد والطبراني في معاجمه الثلاثة . وقال المنذري : وبعض أسانيدهم رواته ثقات ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب ٢٥/١ .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « وأما المُهلِكات ؛ فُشحٌّ مُطاع ، وهَوًى مُتَّبَعٌ ، وإعجاب المرء بنَفْسِه »(١) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله حَجَبَ التوبة عن كلِّ صاحبِ بدعةٍ حتى يَدَعَ بدعته »(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أبى الله أن يقبل عَمَلَ صاحبِ بدعةٍ حتى يَدَع بدعته »(٣) .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لكلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ ، ولكل شِرّةٍ فَتَرَةٌ ، فمن كانت فترتُه إلى سُنَّتي ، فقد اهتدى ، ومن كانت فترته إلى غير ذلك ، فقد هلك »(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل عملٍ شِرَّة(٥)، ولكل شرّةٍ فَتْرةٌ ، فإن كان صاحبها سَدَّدَ أو قارَبَ فارْجُوهُ ، وإن أشير إليه بالأصابع ، فلا تعُدُّوه »(٦).

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ

(١) حسن . رواه البزار والبيهقي ، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب ٢٥/١ .

(٢) صحيح . رواه البزار وقال المنذري : إسناده حسن . وصححه الألباني في صحيح الترغيب ٢٥/١ .

(٣) صحيح . رواه ابن ماجة وابن أبي عاصم في « السنة » . وصححه الألباني في صحيح الترغيب ٢٦/١ .

(٤) صحيح . رواه أحمد والطحاوي ، وابن حبان وابن أبي عاصم. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٦/١ .

(٥) الشِّرَّة : النشاط والهمّة .

(٦) صحيح . رواه الترمذي والطحاوي وابن حبان في صحيحه . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . وصححه الألباني في صحيح الترغيب ٢٦/١ .

يقول : « لقد تركتُكم على مثل البيضاءِ ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك »[١]. قال أبو عمران الجوني : ليت شعري ، أيّ شيءٍ علم ربنا من أهل الأهواء حين أوجب لهم النار .

من سار على المحجة البيضاء في الدنيا ، يسير على المرمرة البيضاء أرض الجنة في الآخرة ... واحدة بواحدة .

أنت القتيلُ بكُلِّ من أحْبَبْتَهُ   فاخْتَرْ لنَفْسِكَ في الهوى مَنْ تَصْطَفِي

وعن أبي الدرداء قال : خرج رسول الله ﷺ علينا فقال : « وأيم الله لأتركنكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها سواء » . فقال أبو الدرداء : صدق الله ورسوله ، فقد تركنا على مثل البيضاء[٢].

وعن العرباض قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والبدع »[٣].

وعن العرباض رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ : « إياكم والمحدثات ؛ فإن كل محدثةٍ ضلالةٌ »[٤] .

وفي رواية : « إياكم ومحدثات الأمور ، فإنها ضلالة » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر ، ومن الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفتاح الخير على يديه ، وويلٌ لمن جُعل مفتاح

---

(١) صحيح . رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وابن أبي عاصم . وقال المنذري : رواه ابن أبي عاصم بإسناد حسن . وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٧/١ .

(٢) صحيح . أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » ٢٦/١ وصححه الألباني .

(٣) حديث حسن . رواه ابن أبي عاصم في « السنة » ٢٠/١ وحسَّنه الألباني .

(٤) حديث صحيح . رواه ابن أبي عاصم – واللفظ له – وابن حبان وابن ماجه ، وصححه الألباني في التعليق على « السنة » لابن أبي عاصم ١٧/١ .

الشر على يديه »[١] .

عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : والله ما أظن على ظهر الأرض اليوم أحدًا أحب إلى الشيطان هلاكًا مني . فقيل : وكيف ؟ فقال : والله إنه ليحدث البدعة في مشرقٍ أو مغربٍ ، فيحملها الرجل إليّ ، فإذا انتهت إليَّ قمعتها بالسنة ، فترد عليه كما أخرجه[٢] .

عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة عاقٌّ ولا مُكذِّبٌ بقَدَرٍ ولا مُدمِنُ خمرٍ »[٣] .

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يقبل الله لهم صرفًا ولا عدلًا : عاقٌّ ، ومَنَّانٌ ومُكذِّبٌ بالقَدَر »[٤] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله تعالى إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم ، وإن ماتوا فلا تصلوا عليهم »[٥] .

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم »[٦] .

---

(١) حديث حسن . رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (١/١٢٧ - ١٢٨) وحسَّنه الألباني .
(٢) شرح أصول الاعتقاد للالكائي ١/٥٥ .
(٣) حديث حسن . رواه ابن أبي عاصم واللفظ له ، وأحمد والبزار والطبراني وحسنه الألباني في التعليق على « السنة » لابن أبي عاصم ١/١٤١ .
(٤) إسناده حسن . رواه ابن أبي عاصم في « السنة » ١/١٤٢ وحسن إسناده الألباني .
(٥) حديث حسن . رواه ابن أبي عاصم في « السنة » واللفظ له ، وابن ماجه ، والطبراني في الصغير ، والآجري في الشريعة ، وحسنه الألباني .
(٦) حديث حسن . رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/١٥٠) وحسَّنه الألباني .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكلِّ أُمَّة مجوسًا ، وإن مجوس هذه الأمة القدرية ، فلا تعودوهم إذا مرضوا ، ولا تصلوا على جنائزهم إذا ماتوا »(١) .

وقال رسول الله ﷺ : « الخوارج كلابُ النار »(٢).

وقال ﷺ : « إن من ضئضيء هذا قومًا يقرءون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عادٍ »(٣) .

وقال ﷺ : « سيخرج في آخر الزمان قومٌ أحداث الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من خير البرية ، يقرءون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة »(٤) .

وقال ﷺ : « سيكون بعدي من أُمَّتي قومٌ يقرءون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم ، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ، ثم لا يعودون فيه ، هم شر الخلق والخليقة سيماهم التحليق »(٥) .

* * *

---

(١) حديث صحيح . رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/١٥١) واللفظ له ، والآجري في الشريعة ، والدولابي في « الكنى » وصححه الألباني .

(٢) صحيح : رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن ابن أبي أوفى ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٤٧) .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد .

(٤) رواه البخاري ومسلم عن علي .

(٥) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبي ذر ورافع بن عمرو الغفاري .

□ نماذج من علوّ هِمَمِهم في اجتناب البدع وذَمّ أهلها والتحذير منها □

قال ابن الماجشون : سمعت مالكًا يقول : « من ابتدع في الإسلام بدعةً يراها حسنةً ، فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة ؛ لأن الله يقول : ﴿ **اليوم أكملتُ لكم دِينَكُمْ** ﴾ [المائدة : ٣] فما لم يكن يومئذٍ دينا ، فلا يكون اليوم دينا » .

نعم ... لئن لم يسعنا ما وسع القوم ، فلا وسعتنا رحمة الله .

وعن حميد بن مهران قال : سألت الحسن : كيف يصنع أهل هذه الأهواء الخبيثة بهذه الآية في آل عمران ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيِّنات** ﴾ [آل عمران : ١٠٥] قال : نبذوها وربِّ الكعبة وراء ظهورهم .

وعن قتادة في قوله تعالى : ﴿ **كالذين تفرقوا واختلفوا** ﴾ يعني أهل البدع .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ **يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ** ﴾ [آل عمران : ١٠٦] قال : تبيض وجوه أهل السنة ، وتسود وجوه أهل البدعة .

قال تعالى : ﴿ **وأنَّ هذا صراطي مستقيمًا فاتَّبعوه ولا تتَّبِعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله** ﴾ الآية [الأنعام : ١٥٣] .

قال بكر بن العلاء : أحسبه أراد شيطانًا من الإنس وهي البدع ، والله أعلم .

وعن مجاهد ، في قوله : ﴿ **ولا تتَّبعوا السُّبُل** ﴾ قال : البدع والشهوات .

وقال تعالى : ﴿ **وعلى الله قَصْدُ السبيل ومنها جائِرٌ ولو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ [النحل : ٩] .

قال التستري : ﴿ **قصد السبيل** ﴾ طريق السنة ، ﴿ **ومنها جائر** ﴾ يعني إلى النار ، وذلك الملل والبدع .

وجاء عن سفيان بن عيينة وأبي قلابة وغيرهما ، أنهم قالوا : كل صاحب بدعةٍ أو فريةٍ ذليلٌ . واستدلوا بقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين اتَّخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربِّهم وذِلَّةٌ في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ﴾ [الأعراف : ١٥٢].

قال أبو الجوزاء - وذكر أصحاب الأهواء فقال -: والذي نفس أبي الجوزاء بيده ، لأن تمتلىء داري قردةً وخنازير ، أحب إلَّي من أن يجاورني رجلٌ منهم ، ولقد دخلوا في هذه الآية : ﴿ **ها أنتم أُولاءِ تُحبُّونهم ولا يُحبُّونكم وتُؤمنون بالكتاب كُلِّه** ﴾ الآية [آل عمران : ١١٩] .

وقال الحسن : « صاحب البدعة لا يزداد اجتهادًا ؛ صيامًا وصلاة ، إلا ازداد من الله بعدًا » .

وعن أبي إدريس الخولاني أنه قال : لأن أرى في المسجد نارًا لا أستطيع إطفاءها ، أحبُّ إلَّي من أن أرى فيه بدعةً لا أستطيع تغييرها .

وقال الفضيل بن عياض : اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين ، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين .

وقال الحسن : لا تجالس صاحب هوى ؛ فيقذف في قلبك ما تتبعه عليه فتهلك ، أو تخالفه فيمرض قلبك .

وعن أبي قلابة : « لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم ، ويلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون » . قال أيوب : وكان والله من الفقهاء ذوي الألباب .

وعنه أيضًا ، أنه كان يقول : « إن أهل الأهواء أهل ضلالةٍ ، ولا أرى مصيرهم إلَّا إلى النار » . وعنه : « ما ابتدع رجلٌ بدعةً إلا استحل السيف » .

وعن أيوب السختياني : ما ازداد صاحب بدعةٍ اجتهادًا ، إلا ازداد من الله بعدًا .

وعن سفيان قال : كان رجل فقيه يقول : ما أُحبّ أني هديت الناس كلهم وأضللت رجلًا واحدًا .

وكان ابن سيرين يرى أسرع الناس ردة أهل الأهواء .

وعن إبراهيم : لا تكلموهم ؛ إني أخاف أن ترتد قلوبكم .

وعن هشام بن حسان قال : لا يقبل الله من صاحب بدعةٍ صيامًا ولا صلاةً ، ولا حجًّا ولا جهادًا ولا عمرةً ، ولا صدقةً ولا عتقًا ، ولا صرفًا ولا عدلًا ، وليأتين على الناس زمانٌ يشتبه فيه الحق والباطل ، فإذا كان ذلك ، لم ينفع فيه دعاء إلا كدعاء الغرق .

وقال يحيى بن أبي كثير : إذا لقيت صاحب بدعةٍ في طريقٍ ، فخذ في طريق آخر .

وعن بعض السلف : من جالس صاحب بدعةٍ ، نزعت منه العصمة ، ووكل إلى نفسه .

وعن العوام بن حوشب ، أنه كان يقول لابنه : يا عيسى ، أصلح قلبك ، وأقلل مالك . وكان يقول : والله لأن أرى عيسى في مجالس أصحاب البرابط[1] والأشربة والباطل ، أحب إليَّ من أن أراه يجالس أصحاب الخصومات . قال ابن وضاح : يعني أهل البدع .

وقال يحيى بن أبي عمر الشيباني : كان يقال : يأبى الله لصاحبِ بدعةٍ توبةً ، وما انتقل صاحب بدعةٍ إلّا إلى شرٍّ منها .

وقال أبو العالية : إياكم وهذه الأهواء ، التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء . فحُدث الحسن بذلك فقال : رحمه الله ، صدق ونصح .

---

(١) البرابط : جمع بربط ، والبربط هو المزهر والعود ، وهو فارسيٌّ معرب .

وقال آخر : « أهل هذه الأهواء آفة أُمَّة محمد ﷺ ، إنهم يذكرون النبي ﷺ وأهل بيته ، فيتصيدون بهذا الذكر الحسن عند الجهال من الناس ، فيقذفون بهم في المهالك ، فما أشبههم بمن يسقي الصبر باسم العسل ! ومن يسقي السم القاتل باسم الترياق ! فأبصرهم ، فإنك إن لا تكن أصبحت في بحر الماء ، فقد أصبحت في بحر الأهواء ، الذي هو أعمق غورًا وأشد اضطرابًا ، وأكثر صواعق ، وأبعد مذهبًا من البحر وما فيه ، فَفُلك مطيتك التي تقطع بها سفر الضلال: اتباع السنة »[١].

وقال ابن شبرمة :

إذا قلتُ جدُّوا في العبادة واصبروا   أصرُّوا وقالوا لا الخصومةُ أفْضَلُ
خلافًا لأصحاب النبي وبدعةً   وهُمْ لسبيل الحقِّ أعْمَى وأجْهَلُ

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : لو كانت هذه الأهواء كلها هوًى واحدًا ، لقال القائل : الحق فيه . فلما تشعبت واختلفت ، عرف كل ذي عقلٍ أن الحق لا يتفرق .

وقال مالك بن أنس : الكلام في الدين كله أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، القدر ورأي جهمٍ وكل ما أشبه ، ولا أحب الكلام إلا فيما كان تحته عَمَلٌ ، فأما الكلام في الله ، فالسكوت عنه ؛ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلّا ما كان تحته عملٌ .

وقال مالك : مهما تلاعبت به من أمر شيء ، فلا تلاعبن بأمر دينك .

وقال الأوزاعي : إذا أراد الله بقومٍ شرًّا ، ألزمهم الجدل ، ومنعهم العمل .

---

(١) الاعتصام ١/٨٢ - ٨٦ .

وقال عبد الله بن المبارك : صاحب البدعة على وجهه الظلمة ، وإن ادَّهَنَ كل يومٍ ثلاثين مرَّةً .

وقال عطاء الخراساني : ما يكادَ الله أن يأذن لصاحب بدعةٍ بتوبةٍ .

وقال الحسن بن أبي الحسن : أبى الله تبارك وتعالى أن يأذن لصاحب هوًى بتوبةٍ .

وقال الحسن : ليس لصاحب بدعةٍ ولا لفاسقٍ يعلن بفسقه ، غيبةٌ .

وعن كثير بن أبي سهل : يقال : أهل الأهواء لا حرمة لهم(١).

« وقال الفضيل بن عياض : المؤمن يقف عند الشبهة ، ومن دخل على صاحب بدعةٍ فليست له حرمة ، وإذا أحب الله عبدًا ، وفقه لعملٍ صالحٍ ، فتقربوا إلى الله بحب المساكين .

وقال ابن المبارك : لم أر مالًا أحمق من مال صاحب بدعةٍ .

وقال : اللهم لا تجعل لصاحب بدعةٍ عندي يدًا ، فيحبه قلبي .

وقال ابن المبارك : يكون مجلسك مع المساكين ، وإياك أن تجالس صاحب بدعةٍ .

وقال الفضيل : من أتاه رجلٌ فشاوره ، فدله على مبتدعٍ ، فقد غش الإسلام ، واحذروا الدخول على أصحاب البدع ؛ فإنهم يصدون عن الحق .

وقال – رحمه الله –: لا تجلس مع صاحب بدعةٍ ، فإني أخاف أن ينزل عليك اللعنة .

وقال : لا تجلس مع صاحب بدعةٍ أحبط الله عمله ، وأخرج نور الإسلام من قلبه .

وقال : صاحب البدعة لا تأْمَنْه على دينك ، ولا تشاوره في أمرك ، ولا تجلس إليه ، فمن جلس إلى صاحب بدعةٍ ، ورَّثه الله العمى .

---

(١) شرح أصول الاعتقاد للالكائي ١/١٤٠ - ١٥٠ .

وقال : إن لله ملائكةً يطلبون حلق الذكر ، فانظر مع من يكون مجلسك ؛ لا يكون مع صاحب بدعةٍ ؛ فإن الله لا ينظر إليهم ، وعلامة النفاق أن يقوم الرجل ويقعد مع صاحب بدعةٍ .

وقال : الأرواح جنودٌ مجندةٌ ، ولا يمكن أن يكون صاحب سنةٍ يمالىء صاحب بدعةٍ إلا من النفاق .

وقال : أدركت خيار الناس كلهم أصحاب سنةٍ ، وينهون عن أصحاب البدع .

وقال : لا يرفع لصاحب بدعةٍ إلى الله عملٌ .

وقال عبد الله بن عمر السرخسي - عالم الخرز -: أكلت عند صاحب بدعةٍ أكلة ، فبلغ ذلك ابن المبارك فقال : لا كلمته ثلاثين يومًا .

وقال إبراهيم بن ميسرة : من وقر صاحب بدعةٍ ، فقد أعان على هدم الإسلام .

وقال يونس بن عبيد : لا تجالس سلطانًا ولا صاحب بدعة .

وقال محمد بن النضر الحارثي : من أصغى سمعه إلى صاحب بدعةٍ ، وهو يعلم أنه صاحب بدعة ، نزعت منه العصمة ، ووكل إلى نفسه .

وقال الثوري : إياك والأهواء والخصومة ، وإياك والسلطان .

وقال : المسلمون كلهم عندنا على حالةٍ حسنةٍ إلا رجلين : صاحب بدعة ، أو صاحب سلطان .

وقال عمر بن عبد العزيز : إذا رأيت قومًا يتناجون في دينهم بشيءٍ دون العامة ، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة »[١].

(١) شرح أصول الاعتقاد للالكائي ١/١٣٥ - ١٤١ .

« قال معمر : كان ابن طاوس جالسًا ، فجاء رجلٌ من المعتزلة ، فجعل يتكلم . قال : فأدخل ابن طاوس إصبعيه في أُذُنَيْه وقال لابنه : أي بني ، أدخل إصبعيك في أُذنيك ، واشدد ، لا تسمع من كلامه شيئًا . قال معمر : يعني أن القلب ضعيف »[١] .

وقال عبد الرزاق : قال لي إبراهيم بن أبي يحيى : إني أرى المعتزلة عندكم كثيرًا ! قلت : نعم ، وهم يزعمون أنك منهم . قال : أفلا تدخل معي هذا الحانوت حتى أُكلِّمك ؟ قلت : لا . قال : ولم ؟ قلت : لأن القلب ضعيف ، وإن الدين ليس لمن غلب[٢] .

وقال الثوري : من سمع بدعةً فلا يحكها لجلسائه ، لا يلقيها في قلوبهم[٣] .

وقال أيوب : لست ترد عليهم بشيءٍ أشد من السكوت[٤] .

وقال عبد الله بن السري : ليس السنة عندنا أن يرد على أهل الأهواء ، ولكن السنة عندنا أن لا نكلم أحدًا منهم .

« وروي عن حنبل بن إسحاق بن حنبل ، أنه قال : كتب رجلٌ إلى أبي عبد الله - رحمه الله - كتابًا يستأذن فيه أن يضع كتابًا ، يشرح فيه الرد على أهل البدع ، وأن يحضر مع أهل الكلام فيناظرهم ويحتج عليهم . فكتب إليه أبو عبد الله كتابًا فيه : الذي كنا نسمع ، وأدركنا عليه من أدركنا من أهل العلم ، أنهم كانوا يكرهون الكلام ، والجلوس مع أهل الزيغ ، وإنما الأمر في التسليم والانتهاء إلى ما كان في كتاب الله أو سنة

---

(١) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني رقم ٢٠٠٩٩ .
(٢) الإبانة لابن بطة .
(٣) شرح السنة للبغوي ٢٢٧/١ .
(٤) الإبانة لابن بطة ٣٦٥/٢ - ٣٦٦ .

رسول الله ﷺ ، لا في الجلوس مع أهل البدع والزيغ لترد عليهم ، فإنهم يلبسون عليك ، وهم لا يرجعون ، فالسلامة - إن شاء الله - في ترك مجالستهم والخوض معهم في بدعتهم »[١] .

وعن إسماعيل بن خارجة قال : دخل رجلان من أهل الأهواء على محمد بن سيرين ، فقالا : يا أبا بكر ، نحدثك بحديثٍ ؟ قال : لا . قالا : فنقرأ عليك آيةً من كتاب الله ؟ قال : لا . قال : تقومان عني وإلّا قمت . فقام الرجلان فخرجا ، فقال بعض القوم : ما كان عليك أن يقرأا آية ؟ قال : إني كرهت أن يقرأا آية فيحرفانها ، فيقر ذلك في قلبي[٢] .

وقال الحسن البصري : أهل الهوى بمنزلة اليهود والنصارى .

وقال محمد بن سيرين : لو خرج الدجال لرأيت أنه سيتبعه أهل الأهواء .

وعن إبراهيم قال : إذا امتنع الإنسان من الشيطان ، قال : من أين آتيه ؟ قال : ثم قال : بلى آتيه من قبل الأهواء .

وعن الشعبي قال : إنما سميت الأهواء لأنها تهوي بصاحبها في النار .

وقال أبو العالية : ما أدري أي الغنمين علي أعظم : إذا أخرجني الله من الشرك إلى الإسلام ، أو عصمني في الإسلام أن يكون لي فيه هوًى !! .

وعن الحسن ، أن رجلًا أتاه فقال : يا أبا سعيد ، إني أريد أن أخاصمك . فقال الحسن : إليك عني ، فإني قد عرفت ديني ، وإنما يخاصمك الشاك في دينه[٣] .

---

(١) الإبانة لابن بطة .

(٢) الشريعة للآجري ١/٥٧ .

(٣) رواه الآجري في الشريعة ص٥٧ ، وشرح أصول الاعتقاد للالكائي ١/١٢٩ .

وقال جعفر الباقر : إياكم والخصومات في الدين ؛ فإنها تشغل القلب وتورث النفاق .

وقال الأحنف بن قيس : كثرة الخصومة تنبت النفاق في القلب .

وقال معاوية بن قرة : إياكم وهذه الخصومات ؛ فإنها تحبط الأعمال .

وقال هرم بن حيان : صاحب الكلام على إحدى المنزلتين : إن قصر فيه خُصم ، وإن أعرق فيه أثم .

وقال الفضيل بن عياض : لا تجادلوا أهل الخصومات ؛ فإنهم يخوضون في آيات الله .

عن مجاهدٍ قال : قيل لابن عمر : إن نجدة[1] يقول كذا وكذا . فجعل لا يسمع منه كراهية أن يقع في قلبه منه شيءٌ .

وعن عبد الله بن خباب بن الأرت قال : بينما نحن في المسجد ، ونحن جلوسٌ مع قوم نقرأ السجدة ونبكي ، فأرسل إليَّ أبي ، فوجدته قد أحضر معه هراوة له ، فأقبل عليَّ ، فقلت : يا أبه،مالي مالي ؟ قال : ألم أرك جالسًا مع العمالقة[2]. ثم قال : هذا قرن خارجٌ الآن .

وعن عبد الله بن أبي الهذيل العنبري قال : كنا جلوسًا مع عبد الله ابن خباب بن الأرت ، وهو يقول : سبحوا كذا وكذا ، واحمدوا كذا وكذا ، وكبروا كذا وكذا . قال : فمر خبابٌ فنظر إليه ، ثم أرسل إليه فدعاه ، فأخذ السوط ، فجعل يضرب رأسه به ، وهو يقول : يا أبتاه ، فيم تضربني ؟! فقال : مع العمالقة ؟! هذا قرن الشيطان قد طلع أو قد

(١) هو نجدة بن عامر الحروري الخارجي .
(٢) العمالقة : يقال لمن يخدع الناس ويخلبهم عملاق ، والعملقة : التعمق في الكلام .

بزغ[1] .

وعن الضحاك قال : رأيت عمر بن عبد العزيز يسجن القُصَّاصَ ومن يجلس إليهم .

وقال عمر بن العلاء اليماني لسفيان الثوري : يا أبا عبد الله ، أستقبل القاصّ ؟ فقال : وَلُّوا البدع ظهوركم[1].

« عن حميد الأعرج : قدم غيلان مكة يجاور بها ، فأتى غيلان مجاهدًا فقال : يا أبا الحجاج ، بلغني أنك تنهى عني وتذكرني ، بلغك عني شيءٌ لا أقوله ؟ إنما أقول كذا . فجاء بشيءٍ لا ينكر ، فلما قام قال مجاهد : لا تجالسوه ؛ فإنه قَدَرِيٌّ . قال حميد : فإنه يومًا في الطواف ، لحقني غيلان من خلفي يجذب ردائي ، فالتفت ، فقال : كيف يقول مجاهدٌ حرف كذا ؟ فأخبرته ، فمشى معي ، فبصر بي مجاهد معه ، فأتيته فجعلت أُكلمه ، فلا يرد علي ، وأسأله فلا يجيبني . قال : فغدوت إليه ، فوجدته على تلك الحال ، فقلت : يا أبا الحجاج ، أبلغك عني شيء ؟! ما أحدثت حدثًا ، ما لي ؟! قال : ألم أرك مع غيلان ، وقد نهيتكم أن تكلموه أو تجالسوه ؟! قال : قلت : يا أبا الحجاج ، ما أنكرت قولك ، وما بدأته ، هو بدأني . قال : والله يا حميد ، لولا أنك عندي مصدق ، ما نظرت لي في وجهٍ منبسطٍ ما عشت ، ولئن عدت ، لا تنظر لي في وجه منبسط ما عشت .

وعن أيوب : كنت يومًا عند محمد بن سيرين ، إذ جاء عمرو بن عبيد فدخل ، فلمّا جلس ، وضع محمدٌ يده في بطنه وقام ، فقلت لعمرو : انطلق بنا . قال : فخرجنا ، فلما مضى عمرو رجعت ، فقلت : يا أبا بكر ، قد فطنت إلى ما صنعت . قال : أقد فطنت ؟ قلت : نعم . قال : أما إنه

(١) البدع والنهي عنها لابن وضّاح القرطبي ص٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ .

لم يكن ليضمني معه سقف بيتٍ .

وعن أيوب : دخل رجلٌ على ابن سيرين ، فقال : يا أبا بكر ، أقرأ عليك آيةً من كتاب الله ، لا أزيد أن أقرأها ثم أخرج ؟ فوضع إصبعيه في أُذُنَيْه ثم قال : أعزم عليك ، إن كنت مسلمًا إلّا خرجت من بيتي . قال : فقال : يا أبا بكر ، لا أزيد على أن أقرأ الآية ، ثم أخرج . فقام لإزاره يشده ، وتهيأ للقيام ، فأقبلنا على الرجل ، فقلنا : قد عزم عليك إلَّا خرجت ، أفيحلُّ لك أن تخرج رجلًا من بيته ؟ قال : فخرج ، فقلنا : يا أبا بكر ، ما عليك لو قرأ آيةً ثم خرج ؟! قال : إني والله لو ظننت أن قلبي ثبت على ما هو عليه ، ما جاليت أن يقرأ ، ولكن خفت أن يلقي في قلبي شيئًا ، أجهد في إخراجه من قلبي فلا أستطيع .

روي عن ابن مسعود أنه قال : من أحب أن يكرم دينه ، فليعتزل مخالطة الشيطان ومجالسة أصحاب الأهواء ؛ فإن مجالستهم ألصق من الجرب .

وعن بعضهم قال : كنت أمشي مع عمرو بن عبيد ، فرآني ابن عونٍ ، فأعرض عني . وقيل : إنه دخل دار ابن عونٍ ، فسكت ابن عون لَمَّا رآه ، وسكت عمروٌ عنه فلم يسأله عن شيء ، فمكث هنيهةً ، ثم قال ابن عون : بم استحل أن دخل داري بغير إذني ؟! مرارًا يرددها .

وعن مؤمّل بن إسماعيل قال : قال بعض أصحابنا لحماد بن زيد : ما لك لم ترو عن عبد الكريم إلَّا حديثًا واحدًا ؟ قال : ما أتيته إلّا مرة واحدة لمساقه في هذا الحديث ، وما أُحبُّ أن أيوبَ علم بإتياني له ، وأنّ لي كذا وكذا ، وإني لأظنه لو علم ، لكانت الفصيلة بيني وبينه .

وعن إبراهيم أنه قال لمحمد بن السائب : لا تقربنا ما دمت على رأيك هذا . وكان مرجِئًا .

وعن حماد بن زيد قال : لقيني سعيد بن جبير فقال : ألم أرك مع طلق ؟ قلت : بلى ، فما له ؟ قال : لا تجالسه ، فإنه مرجىء .

وعن محمد بن واسع قال : رأيت صفوان بن محرز وقريبٌ منه شيبةُ ، فرآهما يتجادلان ، فرأيته قائمًا ينفض ثيابه ، ويقول : إنما أنتم جُرب .

وعن الأوزاعي : لا تكلموا صاحب بدعةٍ من جدلٍ ، فيورث قلوبكم من فتنته »[١] .

وقال أبو يوسف لبشر المريسي : يا بشر ، إما أن تتوب أو تفسد علينا خشبة .

وروى مسلم « عن يحيى بن يعمر قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر،فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلًا المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبي ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت : يا أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبلنا ناسٌ يقرءون القرآن ويتقفرون العلم . وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف . قال : فإذا لقيت أولئك ، فأخبرهم أني بريءٌ منهم ، وأنهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم مثل أُحُدٍ ذهبًا فأنفقه ، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر »[٢] .

وانظر إلى جعد بن درهم ، وهو أول من تفوه بكلمةٍ خبيثةٍ في

---

(١) الاعتصام للشاطبي ٢٧٦/٢ - ٢٧٨ .

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان ، أول حديث في صحيح مسلم .

الاعتقاد ، ونفى صفات الله ، وقال بخلق القرآن ، وأنكر أن يكون الله قد تكلم به ، وقال : إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا . فذبحه خالد بن عبد الله القسري أميرَ العراق بواسط ، في يوم الأضحى حيث قال : « أيها الناس ، اذهبوا إلى أضاحيكم ، يتقبل الله منكم ، فإنِّي مضحٌّ بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ، ولا كلم موسى تكليمًا » . ثم نزل فذبحه ، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من التابعين ، فشكر له صنيعه أهل السنة والجماعة .

شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كلُّ صاحِبِ سُنَّةٍ ... لله دَرُّك مِنْ أخي قُرْبانِ

وانظر إلى أُسِّ الضلالة ورأس الجهمية : جهم بن صفوان ، الذي تبنى آراء الجعد ، وزاد عليها بدعًا أُخرى :

قال عنه إبراهيم بن طهمان : ما ذكرته ، ولا ذكر عندي إلّا دعوت الله عليه ، ما أعظم ما أورث أهل القبلة من منطقه العظيم .

لما أسر الجهم وأوقف بين يدي سلم بن أحوز ، فأمر بقتله ؛ لإنكاره أن الله كلم موسى ، فقال : إن لي أمانًا من أبيك . فقال : ما كان له أن يؤمنك ، ولو فعل ما أمنتك ، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب ، ما نجوت ، والله لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك . وأمر ابن ميسر فقتله . وفي رواية ابن جرير : وأبرأك إلَيَّ عيسى بن مريم ، ما نجوت[١] .

وأحمد بن أبي دؤاد الإيادي ، الذي جر البلاد إلى محنة خلق القرآن ، وأهان علماء الأُمَّة ، وتكلم في عقيدة أهل السنة ، دعا عليه الإمام أحمد ، فحبسه الله في جسده ، فدخل عليه عبد العزيز الكناني وقال له : لم آتك عائدًا ، بل لأحمد الله أن سجنك في جلدك[٢].

---

(١) البداية والنهاية (٢٨/١٠) ، تاريخ الطبري ٢٩٥/٤ ، سير أعلام النبلاء ٢٧/٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧٠/١١ - ١٧١ .

قال الخطيب البغدادي : « لما مات بشر بن غياث المريسي ، لم يشهد جنازته من أهل العلم والسنة أحد إلَّا عبيد الشونيزي ، فلما رجع من جنازته ، أقبل عليه أهل السنة والجماعة ، وقالوا له : يا عدو الله ، تنتحل السنة ، وتشهد جنازة المريسي ؟! فقال : أنظروني حتى أُخبركم ، ما شهدت جنازةً رجوت بها من الأجر ، ما رجوت في شهود جنازته ؛ لما وضع في موضع الجنائز ، قمت في الصف فقلت : اللهم إن عبدك هذا كان لا يؤمن برؤيتك في الآخرة ، اللهم فاحجبه عن النظر إلى وجهك يوم ينظر المؤمنون إليك ، اللهم عبدك هذا كان لا يؤمن بعذاب القبر ، اللهم فعذبه اليوم في قبره عذابًا لم تعذبه أحدًا من العالمين ، اللهم عبدك هذا كان ينكر الميزان ، اللهم فخفف ميزانه يوم القيامة ، اللهم عبدك هذا كان ينكر الشفاعة ، اللهم فلا تشفع فيه أحدًا من خلقك يوم القيامة . قال فسكتوا عنه وضحكوا »(١) .

ذَمُّ الرَّأْي :

وهو الرأي المذموم غير المبني على أُسٍّ من كتاب ولا سُنَّةٍ .

قال ﷺ : « إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالمًا ، اتخذ الناس رؤساء جهالًا ، فسئلوا فأفتوا بغير علمٍ ، فضلوا وأضلوا »(٢) .

وعند ابن عبد البر في التمهيد : « فيبقى ناسٌ جهالٌ يُستفتون ، فيفتون برأيهم فيضلون ويُضلون » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينزع العلم منكم بعدما أعطاكموه انتزاعًا ، ولكن يقبض العلماء بعلمهم ،

---

(١) تاريخ بغداد ٦٦/٧ .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن عمرو .

ويبقى جهالٌ ، فيسألون فيفتون ، فيضلون ويُضلون »[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من أحدث رأيًا ليس في كتاب الله ، ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ ، لم يدر ما هو عليه إذا لقي الله عز وجل .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : قراؤكم يذهبون ، ويتخذ الناس رؤساء جهالًا يقيسون الأمور برأيهم .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : السنة ما سنه الله ورسوله ، لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة .

وعن عروة بن الزبير : لم يزل أمر بني إسرائيل مستقيمًا حتى أدرك فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم ، فأخذوا بالرأي ، فأضلوا بني إسرائيل .

وعن الشعبي : إنما هلكتم حين تركتم الآثار وأخذتم بالمقاييس .

وعن الحسن : إنما هلك من كان قبلكم حين شعبت بهم السبل ، وحادوا عن الطريق ، فتركوا الآثار ، وقالوا في الدين برأيهم ، فضلوا وأضلوا .

وعن دراج بن السهم بن أسمح : يأتي على الناس زمانٌ يسمن الرجل راحلته حتى تعقد شحمًا ، ثم يسير عليها في الأمصار حتى تعود نقضًا ، يلتمس من يفتيه بسنةٍ قد عمل بها ، فلا يجد إلا من يفتيه بالظن .

وقال أبو بكر بن أبي داود : أهل الرأي هم أهل البدع . وقال :

وَدَعْ عنك آراءَ الرِّجالِ وقَوْلَهُم فقَوْلُ رسول الله أزْكَى وأشْرَحُ

وقال مسروق : من رغب برأيه عن أمر الله يضل .

وقال الشافعي : « من استحسن فقد شرع » .

---

(١) حسن . رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٥٧) .

والرأي المذموم يشمل البدع المحدثة في الاعتقاد ، ويشمل أيضًا العمليات ... وإعمال النظر العقلي مع طرح السنن : إما قصدًا أو غلطًا وجهلًا .

قال أبو الزناد : « وأيم الله إن كنا لنلتقط السنن من أهل الفقه والثقة ، ونتعلمها شبيهًا بتعلمنا آي القرآن ، وما برح من أدركنا من أهل الفقه والفضل من خيار أولية الناس ، يعيبون أهل الجدل والتنقيب والأخذ بالرأي ، وينهون عن لقائهم ومجالستهم ، ويحذروننا مقاربتهم أشد التحذير ، ويخبرون أنهم أهل ضلالٍ وتحريفٍ لتأويل كتاب الله وسنن رسوله ، وما توفي رسول الله ﷺ حتى كره المسائل وناحية التنقيب والبحث ، وزجر عن ذلك ، وحذره المسلمين في غير موطنٍ ، حتى كان من قوله كراهية لذلك : « ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك الذين من قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيءٍ فخذوا منه ما استطعتم » .

فعليكم بالسنن والآثار .. وترك ومجانبة أهل البدع الأشرار ، وعليكم بطريق الصحابة الأبرار .

قال ابن مسعود : من كان منكم متأسيًا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ، وأقومها هديًا ، وأحسنها خلالًا ، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم » .

وأخيـــرًا :

يا قومنا أجيبوا داعي الله .

قال ابن القيم : « أسمع - والله - لو صادف آذانًا واعية ، وبصّر لو

صادف قلوبًا من الفساد خالية . لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء ، فأطفأت مصابيحها ، وتمكنت منها آراء الرجال ، فأغلقت أبوابها وأضاعت مفاتيحها ، وران عليها كسبها فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذًا ، وتحكمت فيها أسقام الجهل ، فلم تنتفع معها بصالح العمل .

واعجبًا لها ! كيف جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، ولم تقبل الاغتذاء بكلام رب العالمين ، ونصوص حديث نبيه المرفوع ؟! أم كيف اهتدت في ظلَم الآراء إلى التمييز بين الخطأ والصواب ، وخفي عليها ذلك في مطالع الأنوار من السنة والكتاب ؟! .

واعجبا ! كيف ميزت بين صحيح الآراء وسقيمها ، ومقبولها ومردودها ، وراجحها ومرجوحها ، وأقرت على أنفسها بالعجز عن تلقي الهدى والعلم من كلام من كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الكفيل بإيضاح الحق مع غاية البيان ، وكلام من أُوتي جوامع الكلم ، واستولى كلامه على الأقصى من البيان ؟!.

كلا ، بل هي والله فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها ، وحيرت العقول عن طرائق قصدها ، يربى فيها الصغير ، ويهرم فيها الكبير .

وظنت خفافيش البصائر أنها الغاية التي يتسابق إليها المتسابقون ، والنهاية التي تنافس فيها المنافسون ، وتزاحموا عليها ، وهيهات ، أين السهى من شمس الضحى ؟! وأين الثرى من كواكب الجوزاء ؟! وأين الكلام الذي لم تضمن لنا عصمة قائله بدليلٍ معلومٍ ، من النقل المصدق عن القائل المعصوم ؟! وأين الأقوال التي أعلا درجاتها : أن تكون سائغة الاتباع ، من النصوص الواجب على كل مسلمٍ تقديمها وتحكيمها والتحاكم إليها في محل النزاع ؟! وأين الآراء التي نهى قائلها عن تقليده فيها وحذر ، من النصوص التي فرض على كل عبدٍ أن يهتدي بها

ويتبصر ؟! وأين المذاهب التي إذا مات أريها فهي من جملة الأموات ، من النصوص التي لا تزول إذا زالت الأرض والسموات ؟! .

سبحان الله ! ماذا حرم المعرضون عن نصوص الوحي واقتباس العلم من مشكاته - من كنوز الذخائر ؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر ؟! قنعوا بأقوال استنبطتها معاول الآراء فكرا ، وتقطعوا أمرهم بينهم لأجلها زبرا ، وأوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غرورًا ، فاتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورًا .

درست معالم القرآن في قلوبهم ، فليسوا يعرفونها . ودثرت معاهده عندهم ، فليسوا يعمرونها . ووقعت ألويته وأعلامه من أيديهم ، فليسوا يرفعونها . وأفلت كواكبه النيرة من آفاق نفوسهم ، فلذلك لا يحبونها . وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وعقدها ، فليسوا يبصرونها .

خلعوا نصوص الوحي عن سلطان الحقيقة ، وعزلوها عن ولاية اليقين . وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة ، فلا يزال يخرج عليها من جيوشهم كمينٌ بعد كمين ، نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام ، فعاملوها بغير ما يليق بها من الإجلال والإكرام ، وتلقوها من بعيد ، ولكن بالدفع في صدورها والأعجاز . وقالوا : ما لك عندنا من عبور ، وإن كان ولا بد ، فعلى سبيل الاجتياز . أنزلوا النصوص منزلة الخليفة في هذا الزمان ؛ له السّكة والخطبة ، وما له حكم نافذ ولا سلطان . المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر ، مبخوس حظه من المعقول . والمقلد للآراء المتناقضة المتعارضة ، والأفكار المتهافتة لديهم هو الفاضل المقبول . وأهل الكتاب والسنة ، المقدمون لنصوصها على غيرها ، جهال لديهم منقوصون . ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناسُ قالوا أنؤمنُ كما آمنَ السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ [البقرة : ١٣].

حرموا - والله - الوصول ، بعدولهم عن منهج الوحي ، وتضييعهم الأصول . وتمسكوا بأعجاز لا صدور لها ، فخانتهم أحرص ما كانوا عليها ، وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها ، حتى إذا بعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ، وتميز لكل قومٍ حاصلهم الذي حصلوه ، وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه ، وقدموا على ما قدموه ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾ [الزمر : ٤٧] وسقط في أيديهم عند الحصاد لَمَّا عاينوا غلة ما بذروه .

فيا شدة الحسرة عندما يعاين المبطل سعيه وكده هباءً منثورًا ، ويا عظم المصيبة عندما يتبين بوارق أمانيه خلبًا ، وآماله كاذبة غرورًا . فما ظن من انطوت سريرته على البدعة والهوى ، والتعصب للآراء ، بربه يوم تبلى السرائر ؟ وما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره في يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذر ؟ .

أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله ، أن ينجو من ربه بآراءِ الرجال ؟! أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال ، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال ؟! أو بالإشارات والشطحات ، وأنواع الخيال ؟! .

هيهات والله ، لقد ظن أكذب الظن ، ومنّته نفسه أبين المحال . وإنما ضمنت النجاة لمن حكّم هدي الله على غيره ، وتزود التقوى وائتمَّ بالدليل ، وسلك الصراط المستقيم ، واستمسك من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، والله سميع عليم .

❊ ❊ ❊

الفصْلُ الثَّالث

عُلُوّ الهمة في الصَّلاة

□ عُلُوّ الهمّة في الصّلاة □

العبادة على رؤوس العباد أحلى من التيجان على رؤوس الملوك ... وإذا سئم البطالون من بطالتهم ، فلن يسأم العباد من عبادة ربهم ومناجاتهم ... فهي دواء الجنون ، كما قال أبو مسلم الخولاني لرجلٍ لما رآه كثير الذكر ، فقال له الرجل : أمجنون أنت ؟ فقال أبو مسلم : هذا دواء الجنون .

فرحم الله رجالًا نصبوا أبدانهم لخدمة مولاهم ... وكابدوا العبادة حتى استمتعوا بها .

يقول ثابت البناني وعتبة الغلام : كابدت الصلاة عشرين سنةً واستمتعت بها عشرين سنة .

إذا أقبل وقت الطاعة اشتاقوا إليها ... وحنت أرواحهم للقيام بها ، ورأوا الفوائد تأتي فيها كما قال السري : « رأيت الفوائد ترد في ظلم الليل » فسبحان من أعانهم ووفقهم ، وعلّى هممهم حتى حطت فوق الشمس ، وكم اشتاق الناس إلى سماع سيرهم وأخبارهم .

تتنوع بساتين عباداتهم من صلاةٍ وصيامٍ وحجٍّ وذكرٍ وتصدقٍ ، وتعرف البشرية وتشرف وتتعطر صفحاتها بذكر قمم العبادة ، وسادات العباد من الصحابة فمن بعدهم .. وبذكرهم تطيب المجالس : عمر بن الخطاب وابنه وعثمان وعبد الله بن عمرو وتميم الداري ، وأُويس القرني وأبو مسلم الخولاني وسليمان التيمي ومسلم بن يسار ومنصور بن المعتمر ووكيع وشعبة والأوزاعي وابن حنبل وبشر بن الحارث وعبد الله بن وهب والجنيد والثوري والنووي وابن قيم الجوزية وغيرهم وغيرهم .

ولو أردنا أن نذكر أخبار العباد وعباداتهم ، لاستغرق ذلك المجلدات ، ولكنا نشير إلى قممهم ممن علت هممهم ، ونقطف من بستان كلٍّ منهم زهرة ، نستنشق عبيرها .. فتنقلنا بعيدًا بعيدًا عن هجير دنيانا الكالح .. أين

منا صوام النهار ورجال الليل .. أين ابن أدهم والفضيل .. ذهب الأبطال وبقي كل بطال .. ذهب السادة وبقي قرناء الحشاء والوسادة .

نَزَلُوا بمكةَ في قبائلِ هاشمٍ ... ونزلتُ بالبيداءِ أبْعَد منزِلِ

* * *

□ فـائــدةٌ هامّــة □

سنَسرد بعد قليلٍ أخبار جملةٍ من الصحابة والتابعين وتبعهم من الفقهاء والمحدثين والأئمة المجتهدين ، قد جاهدوا في العبادة حق الجهاد ، واجتهدوا في التعبد غاية الاجتهاد ، ففازوا بأعلى النصيب أيّ نصيبٍ ، وصاروا بحيث تنزل بذكرهم الرحمة ، وتندفع بسماع أخبارهم الزحمة .

وقد طالعت كتب التاريخ والتراجم لأئمة هذا الفن ، ونقلنا عنهم ، والذاكرون لهذه المناقب ليسوا ممن لا يعتمد عليه ، أو ممن لا يكون حجة في النقل ، بل هم أئمة الإسلام وعمد الأنام ، الذين يرجع إلى أقوالهم في المهمات ؛ كأبي نعيم وابن كثير والسمعاني وابن حجر العسقلاني والسيوطي والنووي وإمام الجرح والتعديل شيخ الإسلام الذهبي ، ومن يحذو حذوهم ، وهم أهل الحيطة والنقد . ويكفي الذهبي .

وإن قال قائل : بعض المجاهدات مما لا يعقل وقوعها . فأقول : إن صح السند ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .. ومدمن القرع للأبواب سيلج .

ومثل هذه الاجتهادات ليست ببدعةٍ وضلالة ؛ لوجوه :

الأول : أنه قد وجد الاجتهاد في العبادة حسب الطاقة من الصحابة وتبع التابعين من غير إنكار أحدٍ منهم ؛ ولا يصح أن تنسب إليهم البدعة المنكرة .

الثاني : بعض الخلفاء الراشدين فعل بعض هذه الاجتهادات ، وهذا دليل أنه سنة .

الثالث : صدور مثل هذه الاجتهادات من المجتهدين ، ولا ينسبون إلى الضلالة بالإجمال .

الرابع : أن أجلة المؤرخين ، الذين هم المعتمد عليهم بين المسلمين ،

وقد اشتهر ورعهم في الدين ، وتحرزهم عن الابتداع في الدين ، قد أوردوا في تصانيفهم في تراجم العلماء ذكر اجتهادهم في العبادة ، وأدرجوا ذلك مدرج المدح والجلالة ، وهذا أدل دليل على أنه ليس ببدعةٍ عندهم ، فإن المدح بما هو بدعةٌ ليس من شأن العلماء .

الوجه الخامس : ثبوت الاجتهاد في العبادة عنه ﷺ .. بل هو سيد المجتهدين على الإطلاق وزينهم وفخرهم « وأيهم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق » . ولو لم يكن إلّا قيامه ﷺ الليل حتى ترم قدماه وتزلع ، لكان كافيًا .

قال ابن بطال : في هذا الحديث أخذ الإنسان على نفسه بالشدة في العبادة ، وإن أضر ذلك ببدنه ؛ لأنه ﷺ إذا فعل ذلك ، مع علمه بما سبق له ، فكيف بمن لم يعلم ذلك ؟ فضلًا عمن لم يأمن أنه استحق النار . ومحله - كما قال الحافظ ابن حجر - ما لم يفض إلى الملال ؛ لأن النبي ﷺ كان أكمل الأحوال ، فكان لا يمل من عبادة ربه ، وإن أضر ذلك ببدنه .

وقد ثبت إحياء الليل من النبي ﷺ ،وهو سهر الليل كله للعبادة .

قال النووي : أي استغرقه بالسهر بالصلاة وغيرها .

فنفي عائشة قيام الليل كله « لا أعلم نبي الله قرأ القرآن كله في ليلة ، ولا صلى ليلةً إلى الصبح » محمولٌ على غالب أوقاته ﷺ . وكذلك خبر الزيادة على إحدى عشرة ركعة ، محمول على ما هو الأغلب ، وإلّا فقد ثبت بروايات متعددةٍ الزيادة على ذلك . ورضي الله عن عائشة القائلة : « وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع ؟ » .

السادس : أنه قد أجاز النبي ﷺ العبادة على حسب الطاقة .

فقال ﷺ : « اكلفوا من العمل ما تطيقون ؛ فإن الله لا يمل حتى تملوا »[(١)] .

---

(١) صحيح . رواه أبو داود ، ورواه مسلم بنحو هذا اللفظ .

وأخرج البخاري عن عائشة مرفوعًا : « عليكم ما تطيقون من الأعمال ، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا » .

والنفوس مختلفة في الطاقة ، فمن أطاق كثرة العبادة من دون حصول مَلَلٍ ، يجوز له ذلك ، والله تعالى خلق بعض النفوس ذوَّاقةً شوَّاقة ، لها تشبُّهٌ بالملائكة الذين لا يفترون عن العبادة ، فمن حصل لنفسه التذاذٌ بشيءٍ ، لم يحصل له بكثرته ملالٌ أصلًا ، ومن لم يلتذ بشيءٍ ، حصل له بكثرته ملالٌ .

فالحاصل أن السلف الماضين اختاروا العزائم في أنفسهم ؛ لأنهم أهل الهمم والعزائم ، وكانوا معترفين بصحة الرخص الشرعية ، يفتون بها للعامة ، ويحرضونهم على فعلها .

« فالاجتهاد في العبادة جائزٌ بعشرة شروط :

الأول : أن لا يحصل له مللٌ يفقده لذة العبادة ؛ بدليل : « ليصل أحدكم نشاطه » .

الثاني : أن يكثر حسب طاقته ، ودليله : « عليكم من الأعمال ما تطيقون » .

الثالث : أن لا يفوت ما هو أهم ، ويدل عليه قول عمر رضي الله عنه : « لأن أشهد الصبح في جماعةٍ ، أحبُّ إليَّ من أن أقوم ليلةً » .

الرابع : أن لا يضيع حقًّا شرعيًّا ، كما حصل لابن عمرو وأبي الدرداء .

الخامس : أن لا يبطل رخصةً شرعية ، كما ظن الرهط الذين تقالّوا عمل النبي ﷺ في بيته .

السادس : أن لا يوجب ما ليس بواجبٍ شرعيٍّ ، كما أوجب ابن مظعون على نفسه .

السابع : أن يأتي بالعبادة المجتهد فيها بتمامها ، بدليل : « لا يفقه من

قرأ القرآن في أقل من ثلاثٍ » .

الثامن : أن يداوم على ما يختاره من العبادة ؛ بدليل : « أحب الأعمال إلى الله أدومها » .

التاسع : أن لا يجتهد بحيث يورث الملل لغيره ، أخذًا بحديث : « إذا صلى أحدكم فليخفف » .

العاشر : أن لا يعتقد أنه أفضل عملًا مما كان عليه ﷺ من تقليل العمل تشريعًا لأمته حتى لا يفرض عليهم »[١] .

ثم نختم بكلامٍ نفيسٍ للشاطبي ، وبعده نشرع في عبادة ومناقب أرباب الكمال ، واللطائف الشريفة والشرائف اللطيفة.. نصرة لعلاة الهمم من العابدين ، ودفعًا لطعن الخامدين .. ومن ذاق عرف .

إن الصلاة عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ، وغرة الطاعات ، عمر الله بأنوارها قلوب العباد ، بفتح الباب ، ورفع الحجاب ، ورخص للعباد في المناجاة بالصلوات ، كيفما تقلبت بهم الحالات في الجماعات والخلوات .

هي المعين الذي لا ينضب ، والزاد الذي يزود القلب ، إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض ، إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة ، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود ، إنها زاد الطريق ، ومدد الروح وجلاء القلب ، إنها العبادة التي تفتح القلب ، وتوثق الصلة ، وتيسر الأمر ، وتشرق بالنور ، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان .

حين تستشعر القلوب رهبة الموقف في الصلاة بين يدي الله ، فتسكن وتخشع ، ويسري الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات ، ويغشى

---

(١) انظر « إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة » للكنوي تحقيق أبي غدة - نشر مكتب المطبوعات الإسلامية - الطبعة الثانية .

الأرواح أنوار الجلال في حضرة الله ، وتختفي من الأذهان جميع الشواغل ، فلا تشتغل بغير ربها ، وتستغرق في الشعور به ، وتشغل بنجواه - يتوارى عن الحسِّ كل ما حوله وكل ما به ، فلا يتذوق العبد إلا معنى الوقوف في تلك الحضرة القدسية ، ومناجاة الذات العلية ، فتجد الروح طريقها ، ويعرف القلب الموحش مثواه .

بدأت صفات المؤمنين بالصلاة وختمت بالصلاة ؛ لعظيم مكانها في بناء الإيمان ، بوصفها أكمل صورةٍ من صور العبادة .

قال ﷺ : « الصلاة خير موضوعٍ ، فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر »[(١)] .

« لأن بها تبدو قوة الإيمان في شهود ملازمة خدمة الأركان ، ومن كان أقواهم إيمانًا كان أكثرهم وأطولهم صلاةً وقنوتًا وإيقانًا »[(٢)].

« وأي دعوة تريد أن تستقيم إلى الله فعليها أن تدلف من باب الاستقامة ، وبابها المحراب »[(٣)].

« وسجود المحراب واستغفار الأسحار ودموع المناجاة : سيماء يحتكرها المؤمنون .. ولئن توهم الدنيوي جناته في الدينار ، والنساء ، والقصر المنيف ، فإن جنة المؤمن في محرابه »[(٤)]. في خلوته بربه .

« يصلي ما كتب الله له صلاة محبٍّ ناصح لمحبوبه ، متذلل منكسر

---

(١) حسن . رواه أحمد وابن حبان والحاكم في صحيحه عن أبي ذر . ورواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ، وحسن الحديث الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٧٦٤) .

(٢) المناوي في فيض القدير ٢٤٧/٤ .

(٣) الرقائق لمحمد أحمد الراشد ص١٥ .

(٤) الرقائق لمحمد أحمد الراشد ص٢٧ .

بين يديه ، لا صلاة مدلٍّ بها عليه ، يرى من أعظم نعم محبوبه عليه أن استزاره وطرد غيره ، وأهَّله وحرَّم غيره ، فهو يزداد بذلك محبةً إلى محبته ، ويرى أن قرة عينه وحياة قلبه ، وجنة روحه ، ونعيمه ولذته وسروره ، في تلك الصلاة ، فهو يتمنى طولها ، ويهتم بفراقها ، كما يتمنى المحب الفائز بوصول محبوبه ذلك ، فهو كما قيل :

يَوَدُّ أنَّ ظلامَ الليلِ دَامَ له ... وزِيدَ فيه سَوَادُ القلبِ والبَصَرِ

فهو يتملق فيها مولاه تملق المحب لمحبوبه العزيز الرحيم ، ويناجيه بكلامه ، معطيًا لكل آية حظها من العبودية ، فتجذب قلبه وروحه إليه آيات المحبة والوداد ، والآيات التي فيها الأسماء والصفات ، والآيات التي تعرف بها إلى عباده بآلائه وإنعامه عليهم وإحسانه إليهم ، وتطيب له السير آيات الرجاء والرحمة وسعة البر والمغفرة ، فتكون له بمنزلة الحادي الذي يطيب له السير ويهونه ، وتقلقه آيات الخوف والعدل والانتقام وإحلال غضبه بالمعرضين عنه ، العادلين به غيره ، المائلين إلى سواه ، فيجمعه عليه ويمنعه أن يشرد قلبه عنه .

وبالجملة فيشاهد المتكلم سبحانه وقد تجلى في كلامه ، ويعطي كل آية حظها من عبودية قلبه الخاصة الزائدة على مجرد تلاوتها والتصديق بأنها كلام الله ، بل الزائدة على نفس فهمها ومعرفة المراد منها . ثم شأنٌ آخر ، لو فطن له العبد لعلم أنه كان قبل يلعب ، كما قيل :

وكنتُ أري أن قد تَنَاهى بيَ الهَوَى ... إلى غايةٍ ما بَعْدَهَا لي مَذْهَبُ
فلمَّا تلاقَيْنَا وعاينتُ حُسْنَهَا ... تَيَقَّنْتُ أني إنَّما كُنتُ أَلْعَبُ

فواأسفاه وواحسرتاه ، كيف ينقضي الزمان وينفد العمر والقلب محجوبٌ ، ما شم لهذا رائحةً ، وخرج من الدنيا كما دخل إليها ، وما ذاق أطيب ما فيها ، بل عاش فيها عيش البهائم ، وانتقل منها انتقال

المفاليس . فكانت حياته عجزًا ، وموته كمدًا ، ومعاده حسرةً وأسفًا »[١] .

يا ابن آدم ، أي شيءٍ يعزُّ عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك .. الصلاة مكيال ... وقد علمت ما قال الله في المطففين . إن كان الله قد توعد المطففين في مكيال الدنيا بالويل .... فما ظنكم بالمطففين في مكيال الدين ... ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود .

قال رسول الله ﷺ : « أسرق الناس الذي يسرق صلاته ، لا يتم ركوعها ولا سجودها ، وأبخل الناس من بخل بالسلام » .

وهذه أحاديث ساقها الحبيب البشير النذير ﷺ ، تعلو بها الهمم في الصلاة والمحافظة عليها والخشوع فيها والإتيان بالنوافل .

ومن علوّ الهمّة : التَّسوُّك وإسْباغُ الوضوء ، ومُشابَهَة وضوء النبي ﷺ :

قال ﷺ : « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلَّا مؤمن »[٢] .

وقال ﷺ : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخُطى إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط »[٣] .

وقال ﷺ : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء »[٤] .

وقال ﷺ : « ما من مسلمٍ يتوضأ ، فيحسن وضوءه ، ثم يقوم فيصلي ركعتين ؛ يقبل عليهما بقلبه ووجهه ، إلَّا وجبت له الجنة »[٥] .

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص٢٠٥ .

(٢) صحيح : رواه أحمد وابن ماجة ، والبيهقي والطبراني في الكبير عن ثوبان وابن عمرو وسلمة .

(٣) رواه مسلم ومالك وأحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٥) رواه مسلم وأبو داود عن عقبة بن عامر .

وقال ﷺ : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم صلى ركعتين ، لا يسهو فيهما ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه »[١] .

وقال ﷺ : « من توضأ مثل وضوئي هذا ، ثم قام فصلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه بشيءٍ ، غفر له ما تقدم من ذنبه »[٢].

وقال ﷺ : « إذا قام الرجل يتوضأ ليلًا أو نهارًا ، فأحسن الوضوء واستن[٣]، ثم قام فصلى ، أطاف به الملك ، ودنا منه ، حتى يضع فاه على فِيهِ ، فما يقرأ إلَّا في فيه ، وإذا لم يستن أطاف به ، ولا يضع فاه على فيه »[٤].

ومن علو الهمة : المحافظة على الصلاة في أوَّل وقتها :

وقال ﷺ : « اتَّقوا الله في الصلاة ، وما ملكت أيمانُكم »[٥].

وقال ﷺ : « خمس صلواتٍ افترضهن الله عز وجل ، من أحسن وضوءهن وصلاتهن لوقتهن ، وأتم ركوعهن وخشوعهن ، كان له على الله عهدٌ أن يغفر له ، ومن لم يفعل ، فليس له على الله عهد ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه »[٦].

وقال ﷺ : « أكثرْ من السجود ، فإنه ليس من مسلمٍ يسجد لله تعالى سجدةً ، إلَّا رفعه الله بها درجةً في الجنة ، وحط عنه بها خطيئةً »[٧] .

---

(١) حسن : رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن زيد بن خالد ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع .

(٢) صحيح : رواه النسائي عن عثمان وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦١٧٥) .

(٣) استنّ : استاك .

(٤) صحيح : رواه محمد بن نصر في الصلاة ، والبيهقي في سننه والضياء عن علي .

(٥) صحيح : رواه الخطيب في التاريخ عن أم سلمة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٥) .

(٦) صحيح : رواه أبو داود ، والبيهقي في سننه عن عبادة بن الصامت وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٧) رواه أحمد وابن سعد عن أبي فاطمة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٢٠٤).

وقال ﷺ : « إن العبد إذا قام يصلي ، أُتي بذنوبه كلها فوضعت على رأسه وعاتقيه ، فكلما ركع أو سجد تساقطت عنه »(١) .

وقال ﷺ : « حبب إليَّ من دنياكم : النساء والطيب . وجعلت قرة عيني في الصلاة »(٢) .

وقال ﷺ : « صلاةٌ في إثر صلاةٍ لا لغو بينهما كتابٌ في عليين »(٣) .

وقال ﷺ : « أفضل الأعمال الصلاة في أول وقتها »(٤) .

وقال ﷺ : « أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها ، ثم بر الوالدين ، ثم الجهاد في سبيل الله »(٥) .

وقال ﷺ : « أفضل العمل الصلاة لوقتها ، والجهاد في سبيل الله »(٦) .

وقال ﷺ : « إذا سمعت النداء فأجب داعي الله »(٧) .

وقال ﷺ : « يا بلال،أقم الصلاة أرحنا بها »(٨) .

ومن علوّ الهمَّة : المَشْيُ إلى المساجد مُتوضِّئًا :

فأجر الخارج إلى صلاة مكتوبة متطهِّرًا كأجر الحاج المحرم :

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم ، والبيهقي في سننه عن ابن عمر وصححه الألباني .

(٢) صحيح : رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي في سننه عن أنس ، وصححه الألباني .

(٣) حسن : رواه أبو داود وأحمد عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٨٣٧) .

(٤) حسن . رواه أحمد في مسنده ، وأبو داود ، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١/١١١ .

(٥) أهمية صلاة الجماعة في ضوء النصوص وسير الصالحين ، للدكتور فضل إلهي ص١٥ . الناشر : إدارة ترجمان الإسلام بباكستان .

(٦) صحيح : رواه البيهقي في الشعب عن ابن مسعود .

(٧) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن كعب بن عجرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٨) صحيخ : رواه أحمد ، وأبو داود عن رجل ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من خرج من بيته متطهِّرًا إلى صلاةٍ مكتوبةٍ ، فأجره كأجر الحاج المحرم »(١).

قال زين العرب في شرح قوله ﷺ : « كأجر الحاج المحرم » : « أي كامل أجره » .

« الله أكبر ! ما أعظم أجر الخارج إلى المسجد ! يدرك المرءُ المسلم يوميًّا بخروجه للصلوات الخمس أجر من خرج للحج خمس مراتٍ ، وإذا كان هذا الأجر العظيم على الخروج لأداء الصلاة في جماعةٍ فحسب ، فكيف يكون الأجر على أداء الصلاة في جماعة »(٢).

وقال ﷺ : « من خرج من بيته متطهّرًا إلى صلاةٍ مكتوبة ، فأجره كأجر الحاج المحرم ، ومن خرج إلى تسبيح الضحى ، لا يَنصِبه إلَّا إياه ، فأجره كأجر المعتمر ، وصلاةٌ على أثر صلاة لا لغو بينهما ، كتابٌ في عليين »(٣) .

وقال ﷺ : « من مشى إلى صلاةٍ مكتوبة في الجماعة ، فهي كحجة ، ومن مشى إلى تطوعٍ فهي كعمرةٍ نافلةٍ »(٤).

وقال ﷺ : « يا بني سلمة ، دياركم تكتب آثاركم »(٥).

وقال ﷺ : « أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم إليها مَمْشًى ، فأبعدهم . والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام ، أعظم أجرًا من الذي يصليها ثم ينام »(٦).

والمشي إلى المساجد للجماعة ثوابه عظيمٌ ، ومنه :

---

(١) حسن : ويأتي برقم (٣) كاملًا .

(٢) أهمية صلاة الجماعة .

(٣) حسن: رواه أبو داود عن أبي أمامة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٢٢٨).

(٤) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، ورواه أحمد وابن عدي والبيهقي في سننه وابن عساكر .

(٥) رواه مسلم وأحمد عن جابر .

(٦) رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

اختصام الملأ الأعلى في كتابتها .
والمشي إلى الجماعات من أسباب العيش بخير والموت بخير .
والمشي إلى الجماعات من أسباب محو الخطايا ورفع الدرجات .
والخارج إلى الصلاة ضامِنٌ على الله .
والخارج إلى الصلاة في صلاةٍ حتى يرجع إلى بيته .
والله تعالى بكرمه ومَنِّه يُعِدُّ نُزُلًا من الجنة لمن غدا إلى المسجد أو راح .
قال ﷺ : « بشر المشّائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة »(١) .

ومن علو الهمّة الحِرْص على صلاة الجماعة والتكبيرة الأولى :

لعلو همـة من يحرص عليها ... فما ظنك بالسَّبّاقين إليها ، الحريصين على تكبيرة الإحرام .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى لله أربعين يومًا في جماعةٍ ، يدرك التكبيرة الأُولى ، كتب له براءتان : براءةٌ من النار ، وبراءةٌ من النفاق »(٢) .

فما أحلى وأعطر وأطيب البراءتين جزاءً لعلو الهمة .

وما ظنك بعملٍ يعجب منه مولى الورى رب السموات السبع والأرضين السبع .

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ليعجب من الصلاة في الجميع »(٣) .

---

(١) صحيح : رواه أبو داود والترمذي عن بريدة ، وابن ماجة والحاكم عن أنس وسهل ابن سعد .

(٢) حسن : رواه الترمذي عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٣٦٥) .

(٣) رواه أحمد في مسنده ، وقال الشيخ أحمد شاكر ١٢٠/٧ : إسناده حسن ، وقال الهيثمي في المجمع ٣٩/٢ : رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن . وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٦٥٢) .

ومن علت همته وحرص على الجماعة ، فرح الله بقدومه إلى المسجد ... وأي شيءٍ أعلى من عملك عملًا يفرح به الودود المجيد .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتوضأ أحدكم فيحسن وضوءه ويسبغه ، ثم يأتي المسجد لا يريد إلّا الصلاة فيه ، إلا تبشبش الله إليه كما يتبشبش[1] أهل الغائب بطلعته »[2].

وقد بوب الإمام ابن خزيمة على هذا الحديث بقوله : « باب ذكر فرح الرب تعالى بمشي عبده متوضّيًا » .

عالي الهمّة مُعلَّق القلب في المسجد ، يكون في ظِلِّ الله تعالى يوم القيامة :

روى الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلّا ظله : الإمام العادل ، وشابٌّ نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأةٌ ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله . ورجل تصدق ، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه » .

قال النووي : « ورجلٌ قلبه معلقٌ في المساجد » معناه : شديد الحب لها والملازمة للجماعة فيها .

وقال ابن حجر في الفتح ١٤٥/٢ : ظاهره أنه من التعليق ، كأنه شبهه بالشيء المعلق في المسجد ، كالقنديل مثلًا ، إشارةً إلى طول الملازمة بقلبه ، وإن كان جسده خارجًا عنه . ويدل عليه رواية الجوزقي : « كأنما

---

(١) البَشُّ : فرح الصديق بالصديق ، واللُّطْف في المسألة والإقبال عليه وبرُّه وإكرامه .

(٢) صحيح . رواه ابن خزيمة في صحيحه ، كتاب الإمامة في الصلاة رقم (١٤٩١) ٣٧٤/٢ ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١٩٤/١ - ١٩٥ .

قلبه في المسجد » . ويحتمل أن يكون من العلاقة وهي شدة الحب ، ويدل عليه رواية أحمد : « معلقٌ بالمساجد » . وكذا رواية سلمان : « من حبها » .

ومن علو الهمّة الحرص على الصلاة الوسطى في جماعة ، وهي صلاة العصر :

قال تعالى : ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين** ﴾.

وقال ﷺ : « إن هذه الصلاة – يعني العصر – عرضت على من كان قبلكم فضيعوها ، فمن حافظ منكم اليوم عليها ، كان له أجره مرتين ، ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهد »[١].

وقال ﷺ : « الذي تفوته صلاة العصر كأنما وُتِر أهلَه ومالَه »[٢].

ومن علوّ الهمّة المُحافظة على صلاة العشاء والصبح في جماعةٍ ، والجلوس في المسجد للذِّكْر حتى تطلُع الشمس ، ثم صلاة ركعتين :

قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصلوات عند الله صلاة الصبح يوم الجمعة في جماعة »[٣].

وقال ﷺ : « من صلى العشاء في جماعةٍ ، فكأنما قام نصف ليلة ، ومن صلى الصبح في جماعة ، فكأنما صلى الليل كله »[٤].

وقال ﷺ : « من صلى العشاء في جماعةٍ ، كان كقيام نصف ليلةٍ ،

---

(١) النجم .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر .

(٣) صحيح : رواه أبو نعيم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر ، وصححه الألباني .

(٤) رواه أحمد ومسلم عن عثمان .

ومن صلى العشاء والفجر في جماعة ، كان كقيام ليلةٍ »[١].

وقال ﷺ : « لو يعلم الناس ما في صلاة العشاء وصلاة الفجر ، لأتوهما ولو حبوًا »[٢].

وقال ﷺ : « ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها »[٣].

وعالي الهمّة أول من يغدو إلى المسجد للفجر يُرافقُه مَلَك :

عن مِيثم رضي الله عنه - رجل من أصحاب النبي ﷺ - قال : بلغني « أن الملك يغدو برايته مع أول من يغدو إلى المسجد ، فلا يزال بها معه ، حتى يرجع فيدخل بها منزله ، وأن الشيطان يغدو برايته إلى السوق مع أول من يغدو ، فلا يزال معه حتى يرجع فيدخلها منزله »[٣].

لله ما أعظم هذا الشرف لعالي الهمة ! أول الذاهبين إلى المسجد لصلاة الفجر في جماعة .

وهذا الأثر وإن كان موقوفًا ، لكنه مرفوعٌ حقيقةً ، فقد قال النووي : « إذا قيل في الحديث عند ذكر الصحابي : يرفعه ، أو ينميه ، أو يبلُغ به ، أو رواية ، فكل هذا وشبهه مرفوعٌ عند أهل العلم »[٤].

---

(١) صحيح . رواه أبو داود والترمذي وابن المنذر عن عثمان بن عفان ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١/١١١ ، وصحيح سنن الترمذي ١/٧١ .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجه عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٣٤٠).

(٣) رواه ابن أبي عاصم ، وأبو نعيم ، والمنذري في الترغيب والترهيب ١/٢٧١ ، وقال ابن حجر : وهذا موقوف صحيح السند (الإصابة في تمييز الصحابة) ٦/١٤٨ ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٤) تدريب الراوي للسيوطي ١/١٩١ - ١٩٢ ، واختصار علوم الحديث لابن كثير ص٤٥ ، ونزهة النظر شرح نخبة الفكر لابن حجر ٧٨ ، وفتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي ١/١٢٥ .

ولعالي الهمَّة نقول :

كِتابةُ صلاةِ الفجر مع الجماعة في صلاة الأبرار ، ومُصَلِّيها في وَفْدِ الرحمن :

عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من توضأ ثم أتى المسجد ، فصلى ركعتين قبل الفجر ، ثم جلس حتى يصلي الفجر ، كُتبت صلاته يومئذٍ في صلاة الأبرار ، وكُتب في وفد الرحمن »(١) .

لله ما أعظم هذا الشرف ، ولا يحرص عليه إلَّا من علت همته ، وعلم معنى أن يكون من وفد الرحمن ، وأن تكتب صلاته في صلاة الأبرار .

ومُصَلِّي الفجر في جماعةٍ في ذمَّة الله :

وهل هناك أعلى وأشرف وأوثق وأجل من ضمان العزيز الملك ، وعهده وأمانه في الدنيا والآخرة .

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى الصبح في جماعةٍ ، فهو في ذمَّة الله ، فمن أخفر ذمة الله ، كبّه الله في النار لوجهه »(٢) .

وقال ﷺ : « من صلى الصبح ، فهو في ذمة الله ، فلا يتبعنكم الله بشيءٍ من ذمته »(٣) .

وقال ﷺ : « من صلى البَرْدَيْن دخل الجنة »(٤) . أي صلاة العصر والصبح .

مُصلِّي الفجر في جماعةٍ له أجْرُ حجَّةٍ وعُمرةٍ إذا قَعَدَ يذكر الله حتى تطلع الشمسُ ثم صلَّى ركعتين :

عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى

---

(١) حسن . رواه الطبراني ، وعنه المنذري ؛ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) صحيح . رواه الطبراني في الكبير .

(٣) صحيح: رواه الترمذي عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٣٣٨).

(٤) رواه مسلم عن أبي موسى .

صلاة الغداة في جماعة ، ثم جلس يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم قام فصلى ركعتين ، انقلب بأجر حجَّةٍ وعُمرةٍ »[(١)].

وقال ﷺ : « من صلى الفجر في جماعةٍ ، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم صلى ركعتين ، كانت له كأجر حجّةٍ وعُمرةٍ تامَّةٍ تامَّةٍ تامَّةٍ » .

فيا عالي الهمة .. هذا نبيك ﷺ يشحذ همتك لمتابعة سنته .

فرسولنا ﷺ : « كان إذا صلى الغداة جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس ».

ومن علوّ الهمَّة انتظارُ الصلاة :

فهي الرباط كما قال رسولنا ﷺ : « فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » .

وقال رسول الله ﷺ : « المرء في صلاةٍ ما انتظرها »[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ : « القاعد على الصلاة كالقانت ، ويكتب من المصلين من حين يخرج من بيته حتى يرجع إلى بيته »[(٣)].

وقال ﷺ : « الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ، ما لم يُحدث أو يقم : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه »[(٤)].

ومن علو الهمّة الصلاة في الصفوف المُقدَّمة :

قال رسول الله ﷺ : « إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول »[(٥)].

---

(١) حسن . رواه الطبراني وقال المنذري والهيثمي : إسناده جيد ، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/٢٦١ .

(٢) صحيح: رواه عبد بن حميد عن جابر، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٦٨٨).

(٣) صحيح : رواه ابن حبان عن عقبة بن عامر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٤٣٧) .

(٤) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني .

(٥) صحيح : رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم عن البراء ، وابن ماجة عن عبد الرحمن بن عوف والطبراني في الكبير عن بشير ، والبزار عن جابر .

وقال ﷺ : « إن الله وملائكته يصلون على الصفوف المقدمة »(١) .

وقال رسول الله ﷺ : « وإن الصف الأول على مثل صف الملائكة ، ولو علمتم ما فضيلته ، لابتدرتموه »(٢) .

قال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا في شرح قوله ﷺ : « مثل صف الملائكة » : « أي في القرب من الله عز وجل ، ونزول الرحمة ، وإتمامه واعتداله » .

وانظر إلى صلاة النبي الكريم ﷺ على الصف الأول والثاني :

روى النسائي ، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلي على الصف الأول ثلاثًا ، وعلى الثاني واحدةً(٣) .

ومعنى صلاة النبي ﷺ – كما يقول العلامة السندي -: يدعو لهم بالرحمة ويستغفر لهم ثلاث مراتٍ .

وقد جاء « أن رسول الله ﷺ كان يستغفر للصف المقدم ثلاثًا ، وللثاني مرةً »(٤) .

ولو لم يكن في علو همة رجال الصف الأول ، إلَّا استغفار الرسول ﷺ ثلاثًا ، لكفى .

---

(١) صحيح : رواه النسائي ، وأحمد وأبو داود والدارمي وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم ، وصححه الألباني .

(٢) صحيح . جزء من حديث صحيح ، رواه أبو داود في سننه ، كتاب الصلاة ، باب في فضل صلاة الجماعة ، جزء من رقم الحديث (٥٥٠) ٢/٢٥٩ – ٢٦٠ .

(٣) صحيح . سنن النسائي ، كتاب الإمامة ، فضل الصف الأول على الثاني . وصححه الشيخ الألباني ، انظر صحيح سنن النسائي ١/١٧٦ – ١٧٧ .

(٤) صحيح . رواه ابن ماجة والحاكم ، وصحح إسناده الحاكم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ١/١٦٤ .

وقال رسول الله ﷺ : « لا يزال قومٌ يتأخرون عن الصف الأول حتى يؤخرهم الله في النار »(١).

وقال ﷺ : « لو تعلمون ما في الصف الأول ، لكانت قرعة » . رواه ابن ماجه .

وقال ﷺ : « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلَّا أن يستهموا عليه ، لاستهمُوا ، ولو يعلمون ما في التهجير ، لاستبقُوا إليه ، ولو يعلمون ما في العَتَمَة والصبح ، لأتَوْهما ولو حَبْوًا »(٢).

ومن عُلُوّ الهمّةِ الصلاةُ في ميامِنِ الصفوف :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف »(٣).

ومن علوّ الهمّةِ صِلَة الصفوف ولِينُ المناكِب :

قال رسول الله ﷺ : « إن الله وملائكته يصلّون على الذين يَصِلون الصفوف ، ومن سدّ فُرجةً ، رفعه الله بها درجةً »(٤).

وقال ﷺ : « خيارُكم ألينُكم مناكب في الصلاة » .

ومن علوّ الهمَّةِ غُسْلُ الجمعةِ والتبكير إليها :

قال رسول الله ﷺ : « من غسل يوم الجمعة واغتسل ، ثم بكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ، وأنصت ولم يلغ ،

---

(١) رواه مسلم والنسائي وابن ماجه وأحمد .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه .

(٣) حسن . رواه أبو داود وابن ماجه ، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب ٣٢٠/١ ، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٢١٣/٢ .

(٤) رواه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب إقامة الصفوف. وأحمد في المسند: ٨٩/٦.

كان له بكل خطوةٍ يخطوها من بيته إلى المسجد ، عمل سنةٍ ؛ أجر صيامها وقيامها »[١].

وقال ﷺ : « احضروا الجمعة وادنوا من الإمام ، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتى يؤخر في الجنة وإن دخلها »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « تقعد الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة ، فيكتبون الأول والثاني والثالث ، حتى إذا خرج الإمام رفعت الصحف »[٣].

ومن عُلُوّ الهمَّةِ ، الحِرْصُ على السُّنَن الرَّواتِب وأدائها في البيوت ، والحِرْصُ على صلاةِ الضُّحى ، وصلاة التسبيح :

قال ﷺ : « من صلى في اليوم والليلة اثنتي عشرة ركعةً تطوعًا ، بنى الله له بيتًا في الجنة » .

وقال ﷺ : « من صلى في يومٍ وليلةٍ ثنتي عشرة ركعةً بُني له بيتٌ في الجنة ؛ أربعًا قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الغداة » .

وقال ﷺ : « من صلى قبل الظهر أربعًا وبعدها أربعًا حرمه الله على النار » .

وأوصى رسول الله ﷺ باستحباب صلاة النافلة في البيوت ، فقال ﷺ : « فضل صلاة الرجل في بيته على صلاته حيث يراه الناس ، كفضل المكتوبة على النافلة » .

---

(١) صحيح : رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان والحاكم عن أوس بن أوس ، وصححه الألباني .

(٢) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والبيهقي في سننه ، والحاكم عن سمرة ، وصححه الألباني .

(٣) حسن: رواه أحمد عن أبي أمامة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٩٨٣).

وقال ﷺ : « لا يحافظ على صلاة الضحى إلَّا أوَّابٌ ، وهي صلاة الأوّابِينَ » .

وأفضل أوقاتها كما قال ﷺ : « صلاة الأوّابين حين تَرْمَضُ الفِصالُ » .

وقال ﷺ : « صلاة الضحى صلاة الأوّابين » .

وقال ﷺ : « يا عباس ، يا عماه ، ألا أُعطيك ، ألا أمنحك ، ألا أحبوك ، ألا أفعل بك عشر خصالٍ ، إذا أنت فعلت ذلك ، غفر الله ذنبك أوله وآخره ، قديمه وحديثه ، خطأه وعمده ، صغيره وكبيره ، سره وعلانيته ، عشر خصال : أن تصلي أربع ركعاتٍ ، تقرأ في كل ركعةٍ فاتحة الكتاب وسورةً ، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم ، قلت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، خمس عشرة مرةً ، ثم تركع فتقولها وأنت راكعٌ عشرًا ، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرًا ، ثم تهوي ساجدًا ، فتقولها وأنت ساجدٌ عشرًا ، ثم ترفع رأسك من السجود ، فتقولها عشرًا ، ثم تسجد ، فتقولها عشرًا ، ثم ترفع رأسك ، فتقولها عشرًا ، فذلك خمسٌ وسبعون في كل ركعة ؛ تفعل ذلك في أربع ركعات ، فلو كانت ذنوبك مثل زبد البحر أو رمل عالج(١)، غفرها الله لك ، إن استطعت أن تصليها في كل يومٍ مرةً ، فافعل ، فإن لم تفعل ففي كل جمعةٍ مرةً ، فإن لم تفعل ، ففي كل شهرٍ مرةً ، فإن لم تفعل ، ففي كل سنةٍ مرةً ، فإن لم تفعل ، ففي عمرك مرةً »(٢).

ومن علوّ الهمَّةِ الخشوعُ في الصلاة :

قال ﷺ : « إذا قمت في صلاتك ، فصل صلاة مودّعٍ ، ولا تكلّم

---

(١) متراكم . وهو موقع قرب مكة أيضًا .

(٢) صحيح : رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم عن ابن عباس ، وصححه جمع غفير من الحفاظ .

بكلامٍ تعتذر منه ، وأجمع الإياس مما في أيدي الناس »[١] .

وقال ﷺ : « اذكر الموت في صلاتك ، فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لحري أن يحسن صلاته ، فصل صلاة رجلٍ لا يظن أنه يصلي صلاةً غيرها ، وإياك وكل أمر يعتذر منه »[٢] .

وقال ﷺ : « أفضل الصلاة طول القنوت »[٣] .

وقال ﷺ : « إن أحدكم إذا قام يصلي إنما يناجي ربه ، فلينظر كيف يناجيه »[٤] .

وقال ﷺ : « صل صلاة مودعٍ كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك »[٥] .

ومِن عُلُوّ الهمَّةِ في الصلاة مراعاةُ المعاني الباطِنة التي تتمّ بها حياةُ الصلاة :

ويجمعها ستُّ جُمَلٍ، وهي: حضور القلب، والتَّفهُّم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء ، والحياء .

« **أما حضور القلب** : فسببه الهمة ، فإن قلبك تابع لهمتك ، فلا يحضر إلا فيما يهمك ، ومهما أهمك أمرٌ ، حضر القلب فيه شاء أم أبى ، فهو مجبولٌ على ذلك ومسخر فيه ، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة ، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوطٌ بها ، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خيرٌ وأبقى ، وأن الصلاة وسيلةٌ إليها ، فإذا أُضيف إلى هذا حقيقة العلم بحقارة الدنيا

(١) صحيح : رواه أحمد وابن ماجه عن أبي أيوب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٤٢) .

(٢) حسن : رواه الديلمي في مسند الفردوس ، وحسنه ابن حجر والألباني في صحيح الجامع رقم (٨٤٩) .

(٣) رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة عن جابر ، والطبراني في الكبير عن أبي موسى .

(٤) صحيح : رواه الحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٥٣٨) .

(٥) حسن : رواه أبو محمد الإبراهيمي في الصلاة وابن النجار عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع .

ومهماتها ، حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة . وبمثل هذه العلة ، يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر ، ممن لا يقدر على مضرتك ومنفعتك ، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك ، الذي بيده الملك والملكوت ، فلا تظنن أن له سببًا سوى ضعف الإيمان .

وأمَّا التَّفهم : فهو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ ، وهذا مقامٌ يتفاوت الناس فيه ، إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات ، وكم من معانٍ لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ، ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله ، فيقبل الإنسان على الفكر في المعاني ، ويتشمر لدفع الخواطر .

والتعظيم : يتولد من : معرفة جلال الله عز وجل وعظمته ، ومعرفة حقارة النفس وخستها ، وكونها عبدًا مربوبًا مسخرًا ، فيتولد من المعرفتين : الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه .

وأما الهيبة : فخوف مصدره الإجلال والتعظيم . وتتولد من المعرفة بقدرة الله ونفوذ مشيئته .

وأمّا الرجاء : فسببه معرفة لطف الله عز وجل ، وكرمه وعميم إنعامه ، ولطائف صنعه ، ومعرفة صدقه في وعده بالجنة بالصلاة .

وأمّا الحياء : فباستشعاره التقصير في العبادة ، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل ، ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها ، وقلة إخلاصها وخبث دخلتها ، وميلها إلى الحظ العاجل ، مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عز وجل ، وأنه مطلعٌ على السر وخطرات القلب .

وبقدر الإيمان واليقين بهذه المعاني يخشع القلب »[1].

---

(١) ملخصًا من إحياء علوم الدين ، للغزالي ١/١٩١ - ١٩٢ .

قال ابن القيم : « كان بعض السلف يصلي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة ، ثم يقبض على لحيته ويهزها ، ويقول لنفسه : يا مأوى كل سوءٍ ؛ وهل رضيتك لله طرفة عينٍ ... وقال بعضهم : إني لأُصلي ركعتين ، فأقوم عنهما بمنزلة السارق أو الزاني الذي يراه الناس ، حياءً من الله عز وجل »[1] .

وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب ، انقسم الناس إلى غافلٍ يتمم صلاته ولم يحضر قلبه في لحظةٍ منها ، وإلى من يتمم ولم يغب قلبه في لحظةٍ ، ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الأُسْطُوانَة في المسجد واجتماع الناس عليها . وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم . وكل ذلك غير مستبعدٍ ، فإن أضعافه مشاهدٌ في همم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا ، مع عجزهم وضعفهم ، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم ، حتى يدخل الواحد على ملكٍ أو وزيرٍ ويحدثه بمهمته ثم يخرج ، ولو سئل عمن حواليه ، أو عن ثوب الملك ، لكان لا يقدر على الإخبار عنه ؛ لاشتغال همه به ، عن ثوبه وعن الحاضرين إليه ، فحظ كل واحدٍ من صلاته ، بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه ، فإن موقع نظر الله – سبحانه – القلوب دون ظاهر الحركات .

صلاة عالي الهِمَّة وحضور قلبه عند كلِّ رُكنٍ وشرطٍ :

أخي : إن كنت من المريدين للآخرة ، فلا تغفل عن الدقائق الفقهية ، ومتابعة السنة في شروط الصلاة وأركانها ، حتى تمتثل أمر رسول الله ﷺ : « صلوا كما رأيتموني أُصلي » ... وتستحضر المعاني في شروط الصلاة من الأذان ، والطهارة، وستر العورة ، واستقبال القبلة والانتصاب قائمًا ، والنية ...

---

(١) مدارج السالكين ٢/٩٤ – ٩٥ .

أخي : إن علت همتك صوت بك حادي الخاشعين ، فسرت معهم ، وإن رمت جوارهم حملوك إلى ديارهم .

عند سماع الأذان : إذا سمعت نداء المؤذِّن ، فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة ، وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة ، فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر ، فاعرض قلبك على هذا النداء ، فإن وجدته مملوءًا بالفرح والاستبشار ، مشحونًا بالرغبة إلى الابتدار ، فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء ؛ ولذلك قال ﷺ : « أرحنا بها يا بلال » .

قال أحد العباد : ما سمعت النداء ، إلَّا تذكرت هول النداء بالعرض على الله يوم القيامة ... ﴿ **يومئذٍ تُعرضُون لا تخفى منكم خافية** ﴾ [الحاقة : ١٨] .

وأمّا الطهارة : فإذا أتيت بها في مكانك وهو ظرفك الأبعد ، ثم في ثيابك وهي غلافك الأقرب ، ثم في بشرتك وهي قشرك الأدنى ، فلا تغفل عن لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك ، فاجتهد له تطهيرًا بالتوبة والندم على ما فرطت ، وتصميم العزم على الترك في المستقبل ، فطهر بها باطنك ، فإنها موضع نظر معبودك .

وأمّا ستْر العورة : فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق ، فإن ظاهر بدنك موقعٌ لنظر الخلق ، فما بالك في عورات باطنك وفضائح سرائرك ، التي لا يطلع عليها إلَّا ربك عز وجل ؟! فأحضر تلك القبائح ببالك ، وطالب نفسك بسترها ، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه ساتر ، وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف ، فتستفيد - بإحضارها في قلبك - انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنهما ، فتذل بها بنفسك ، ويستكين تحت الخجلة قلبك ، وتقوم بين يدي الله عز وجل قيام العبد المجرم المسيء الآبق ، الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكِسًا رأسه من الحياء والخوف .

وأمّا استقبال القبلة : فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى ، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عز وجل ، ليس مطلوبًا منك ؟! هيهات فلا مطلوب سواه . وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن ، وضبط للجوارح ، وتسكينٌ لها بالإثبات في جهةٍ واحدة ، حتى لا تبغي على القلب ، فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها ، استتبعت القلب ، وانقلبت به عن وجه الله عز وجل ، فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك ، فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت ، إلّا بالانصراف عن غيرها ، فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل ، إلّا بالتفرغ عما سواه .

« سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته ؟ فقال : « هو اختلاسٌ يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . فإذا كان هذا التفات طرفه أو لحظه ، فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله ؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية .

وقال ابن مسعود : « لا يجعل أحدكم للشيطان حظًّا من صلاته ، يرى أن حقًّا عليه : أن لا ينصرف إلا عن يمينه ». فجعل هذا القدر اليسير النزر حظًّا ونصيبًا للشيطان من صلاة العبد . فما الظن بما فوقه ؟ »[(١)].

وأمّا الاعتدال قائمًا : فإنما هو مُثُولٌ بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل ، فليكن رأسك - الذي هو أرفع أعضائك - مطرقًا مطأطئًا متنكِّسًا ، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه ، تنبيها على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن الترؤس والتكبر ، وليكن على ذكرك هاهنا ، خطر القيام بين يدي الله عز وجل في هول المطلع عند العرض للسؤال ، واعلم في الحال أنك قائمٌ بين يدي الله عز وجل وهو مطلعٌ عليك ، فقم بين يديه قيامك

(١) مدارج السالكين ٢/٩٤ .

بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله ، بل قدر في دوام قيامك في صلاتك ، أنك ملحوظٌ ومرقوبٌ بعينٍ كالئةٍ من رجلٍ صالح من أهلك ، أو ممن ترغب أن يعرفك بالصلاح ، فإنه تهدأ وتخشع أطرافك عند ذلك ، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع ، وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبدٍ مسكينٍ ، فعاتب نفسك وقل لها : إنك تدعين معرفة الله وحبه ، أفلا تستحين من استجرائك عليه ، مع توقيرك عبدًا من عباده ؟! أو تخشين الناس ولا تخشينه ، وهو أحق أن يخشى ؟! فلم جعلته أهون الناظرين إليك ؟ أفكان الله عز وجل أهون عليك من بعض خلقه ؟! .

قال رسول الله ﷺ للرجل الذي استوصاه : « أُوصيك أن تستحيي من الله كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك »[(١)].

وأمّا النية : فاعزم على إجابة الله عز وجل في امتثال أمره بالصلاة ، وإتمامها والكف عن نواقضها ومفسداتها ، وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه ، رجاءً لثوابه وخوفًا من عقابه وطلبًا للقربة منه ، متقلدًا للمنة منه ؛ بإذنه إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك ، وعظم في نفسك قدر مناجاته ، وانظر من تناجي ، وكيف تناجي ، وبماذا تناجي ، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل ، وترتعد فرائصك من الهيبة ، ويصفر وجهك من الخوف ، كما قال ذو النون المصري - رحمه الله - في ذكره لأعلام الإيمان : « وارتعاش القلب عند الفرائض حتى يؤديها » . « لو رأيت أحدهم وقد قام إلى صلاته ، فلما وقف في محرابه واستفتح كلام سيده ،

(١) إسناده جيد . رواه أحمد في الزهد ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » من حديث سعيد بن يزيد بن الأزور ، وقال الألباني : إسناده جيد ، رجاله كلهم ثقات . انظر الصحيحة رقم (٧٤١) .

خطر على قلبه أن ذلك المقام هو الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين ، فانخلع قلبه وذهل عقله » .

وأما التكبير : فإذا نطق به لسانك ، فينبغي أن لا يكذبه قلبك ، فإن كان في قلبك شيءٌ هو أكبر من الله سبحانه ، فالله يشهد إنك لكاذبٌ وإن كان الكلام صدقًا ، فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله عز وجل ، فأنت أطوع له منك لله تعالى ، فقد اتخذته إلهك وكبرته ، فيوشك أن يكون قولك : « الله أكبر » كلامًا باللسان المجرد ، وما أعظم الخطر في ذلك ، لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه .

وأما دعاء الاستفتاح : فأول كلماته قولك : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض » .

فتوجه بقلبك إلى فاطر السموات ، ولا تتوجه به إلى أمانيك وهمك في البيت والسوق ولا تتبع الشهوات . وإياك أن تكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق ، فاجتهد - في الحال - في صرف القلب إلى الله ، وإن عجزت عنه على الدوام ، فليكن قولك في الحال صادقًا .

وإذا قلت : « محياي ومماتي لله » فاعلم أن هذا حال عبدٍ مفقود لنفسه ، موجود لسيده .

وإذا تعوذت بالله من الشيطان الرجيم ، فاعلم أنه عدوك ومترصدٌ لصرف قلبك عن الله عز وجل ، حسدًا لك على مناجاتك مع الله عز وجل ، وسجودك له ، مع أنه لعن بسبب سجدةٍ واحدةٍ تركها ، وأن استعاذتك بالله سبحانه : بترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله عز وجل ، لا بمجرد قولك ، فإن من قصده سبعٌ ليفترسه ، فقال : أعوذ منك بذلك الحصن الحصين ، وهو ثابتٌ على مكانه ، فإن ذلك لا ينفعه ، بل لا يعيذه إلَّا تبديل المكان ؛ فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن ، فلا

يغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان .

فإذا قرأ الفاتحة ، فليتدبر أنها كما قال رسول الله ﷺ : « أُمّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم »(١) و « السبع المثاني فاتحة الكتاب »(٢) وأن « ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ أُمُّ القرآن ، وأُم الكتاب ، والسبع المثاني »(٣) وأن « أفضل القرآن : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ »(٤). وأنها أخير سورة في القرآن الكريم ؛ قال ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ما أُنزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها - يعني أم القرآن - وإنها لسَبْعٌ من المثاني والقرآن العظيم الذي أُعطيته »(٥). وقال ﷺ : « ما أنزل الله في التوراة ، ولا في الإنجيل ، مثل أُمِّ القرآن ، وهي السبع المثاني ، قال الله تعالى : وهي مقسومةٌ بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل »(٦) .

وأي فخر للعبد فوق هذا إذا تدبره ، وتدبر أن هذه السورة نزل بها بفضلها ملكٌ لم ينزل إلى الأرض قبلها قطُّ ، وقال لرسولنا ﷺ : « أبشر بنورين أُوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة » .

لو لم يكن لك من صلاتك حظٌّ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته ، فناهيك بذلك غنيمة ، فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ؟!

---

(١) رواه البخاري عن أبي بكر .
(٢) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والترمذي والطحاوي عن أبي هريرة وصححه الألباني .
(٣) صحيح : رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .
(٤) صحيح : رواه الحاكم والبيهقي في الشعب عن أنس ، وصححه الألباني .
(٥) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني .
(٦) صحيح : رواه الترمذي والنسائي عن أبي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٥٦٠) .

وكيف بالتأمين الذي تحسدنا عليه يهود .

انظر إلى الزاهد في السراري ، النّابذ للجواري ، العابد في القفار والبراري : أبي الحسن أحمد بن أبي الحواري :

« يقول محمد بن عوف الحمصي : رأيت أحمد بن أبي الحواري عندنا بأنطرسوس[1]، فلما صلى العتمة قام يصلي ، فاستفتح بـ ﴿ **الحمد لله** ﴾ إلى ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ فطفت الحائط كله ، ثم رجعت ، فإذا هو لا يجاوزها ، ثم نمت ، ومررت في السحر ، وهو يقرأ : ﴿ **إياك نعبد** ﴾ فلم يزل يرددها إلى الصبح »[2] .

وينبغي أن تحرص على تدبر ما تقرؤه من السور ، فهذا زرارة بن أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ **فإذا نُقِر في الناقور** ﴾ [المدثر : ٨] خرَّ ميتًا وكان يصلي الصبح ، وكان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى : ﴿ **إذا السماء انشقَّتْ** ﴾ [الانشقاق : ١] اضطرب حتى تضطرب أوصاله ، وحق له أنْ يحترق قلبه بوعد سيده ووعيده ، فإنه عبد ذليل بين يدي جبّارٍ قاهِر ، وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ، ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب ، ودرجات ذلك لا تنحصر ، والصلاة مفتاح القلوب ، فيها تنكشف أسرار الكلمات ، فهذا حق القراءة ، وهو حق الأذكار والتسبيحات .

والناس في القراءة ثلاثة : رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ، ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان ، فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره ، ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولًا ، ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه ، ففرْقٌ

---

(١) بلدة من سواحل بحر الشام .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/٨٥ - ٩٤ .

بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب ، والمقربون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب .

وأما دوام القيام ، فإنه تنبيهٌ على إقامة القلب مع الله عز وجل على نعتٍ واحد من الحضور ، فإن الله يقبل على المصلي ما لم يلتفت ، وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات ، فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة ، فإذا التفت إلى غيره ، فذكِّره باطلاع الله عليه ، وبقبح التهاون بالمناجى عند غفلة المناجي ؛ ليعود إليه ، وخشوع القلب يثمر خشوع الجوارح فإن الرعية بحكم الراعي .

قال عكرمة في قوله عز وجل : ﴿ **الذي يراك حين تقوم وتقلُّبك في الساجدين** ﴾ [الشعراء : ٢١٨ - ٢١٩] : يرى قيامه وركوعه وسجوده ، في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع .

وأمّا الركوع والسجود : فينبغي أن تجدد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه ، وترفع يديك مستجيرًا بعفو الله عز وجل من عقابه ، بتجديد نِيَّةٍ ، متبعًا سنة نبيه ﷺ ، ثم تستأنف له ذُلًّا وتواضُعًا بركوعك ، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك ، وتستشعر ذلك ، وعزَّ مولاك واتضاعك وعلوَّ ربِّك ، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك ، فتسبِّح ربَّك وتشهد له بالعظمة ، وأنه أعظم من كل عظيم ، وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار ، ثم ترتفع من ركوعك راجيًا أنه راحم لك ، ومؤكِّدًا للرجاء في نفسك بقولك : « سمع الله لمن حمده » ، ثم تُردِف ذلك الشكر المتقاضي للمزيد فتقول : « ربنا لك الحمد » ، وتكثر الحمد بقولك : « ملء السموات وملء الأرض » . ثم تهوي إلى السجود ، وهو أعلى درجات الاستكانة ، فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه ، من أذل الأشياء وهو التراب ، وإن أمكنك ألَّا تجعل بينهما حائلًا فتسجد على الأرض ، فافعل ؛

فإنه أجلب للخشوع وأدل على الذل . وإذا وضعت نفسك موضع الذل ، فاعلم أنك وضعتها موضعها ، ورددت الفرع إلى أصله ، فإنك من التراب خلقت وإليه تعود ، فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل : « سبحان ربي الأعلى » ، وأكده بالتكرار ، فإن الكرَّة الواحدة ضعيفة الأثر ، فإذا رق قلبك وظهر ذلك ، فلتصدق رجاءك في رحمة الله ، فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل ، فارفع رأسك مكبِّرًا وسائلًا حاجتك ، وقائلًا : « ربِّ اغفر وارحم ، وتجاوز عمّا تعلم » . ثم أكد التواضع بالتكرار ، فعد إلى السجود ثانيًا .

وأمّا التّشهُّد : فإذا جلست له ، فاجلس متأدِّبًا ، وصرِّح بأن جميع ما تدلي به من الصلوات الطيبات ، أي من الصفات الطاهرة لله ، وكذلك الملك لله وهو معنى التحيات ، وأحضر في قلبك النبي ﷺ وشخصه الكريم ، وقل : « السلام على النبي ورحمة الله وبركاته » ، وليصدق أملك في أنه يبلغه ، ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين ، ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلامًا وافيًا بعدد عباده الصالحين ، ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ، ولمحمد نبيه ﷺ بالرسالة ، مجدِّدًا عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي الشهادة ، ومستأنفًا للتحصن بها ، ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المأثور ، مع التواضع والخشوع ، والضراعة والابتهال ، وصدق الرجاء بالإجابة ، وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين ، واقصد - عند التسليم - السلام على الملائكة والحاضرين ، وانو ختم الصلاة به ، ونِعِمَّا به من ختم تحسدنا عليه يهود .

واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة ، وتوهم أنك مودّع بصلاتك هذه ، وأنك ربما لا تعيش لمثلها ، وقال ﷺ للذي أوصاه : « صلِّ صلاةَ مودِّع » .

ثم أشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير في الصلاة ، وخف ألَّا تقبل صلاتك ، وأن تكون ممقوتًا بذنبٍ ظاهرٍ أو باطن ، فتُردّ صلاتك في وجهك ، وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله .

« **كان يحيى بن وثاب** ، وهو أقرأ من بال على تراب ، إذا قضى صلاته مكث مليًّا تعرف فيه كآبة الصلاة » . كما قال الأعمش . وقال أيضًا : « كنت إذا رأيته قد جثا ، قلت : هذا وقف للحساب فيقول : أي رب ، أذنبت كذا فعفوت عني ، فلا أعود ، وأذنبت كذا فعفوت عني ، فلا أعود »[١] .

وكان إبراهيم يمكث بعد الصلاة ساعةً كأنه مريض .

وهذ حاتم الأصم : لما سئل عن صلاته ، قال : أقوم إلى صلاتي ، وأجعل الكعبة بين حاجبي ، والصراط تحت قدمي ، والجنة عن يميني ، والنار عن شمالي ، وملك الموت ورائي ، أظنها آخر صلاتي .

فهذا تفصيل عالي الهمة من الخاشعين ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، والذين هم على صلاتهم دائمون ، فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة ، فبالقدْر الذي يُسّر له منه ، ينبغي أن يفرح ، وعلى ما يفوته ينبغي أن يتحسَّر ، وفي مداراة ذلك ينبغي أن يجتهد[٢] .

* * *

(١) السير ٤/٣٧٩ - ٣٨٢ .

(٢) ملخصًا من إحياء علوم الدين ١/١٩١ - ٢٠٠ .

□ عُلُوّ همّة سيِّد العابِدِين ﷺ □

بأبي وأمي سيّد ولد آدم ﷺ ، من كانت الصلاة أُنسَهُ وميدانه ، وروحه وريحانه ، ونزهته وبستانه ، ونعيمه وعنوانه .

بأبي وأمي ﷺ ... من قال لبلال : « يا بلال ، أقم الصلاة أرحنا بها »[١] .

بأبي وأمي سيّد العابدين ﷺ « كان إذا حَزَبَهُ[٢] أمْرٌ صَلّى »[٣] .

وبأبي وأمي ﷺ ، من قال : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » .

فإذا سألت عن صلاة الليل وهديه فيها ، فهو سيد المتهجدين ، كما قالت أم المؤمنين رضي الله عنها : « وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق » .

وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه : « صليت مع رسول الله ﷺ فأطال ، حتى هممتَ بأمر سوءٍ . قال : قيل : وما هممت به ؟ قال : هممت أن أجلس وأدَعَهُ » . رواه البخاري ومسلم وابن ماجة .

وعن أنس رضي الله عنه قال : وجد رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ شيئًا فلما أصبح قيل : يا رسول الله ، إن أثر الوجع عليك لبيِّنٌ . قال : « إني على ما ترون – بحمد الله – قد قرأت السبع الطوال »[٤] .

---

(١) صحيح . رواه أحمد في مسنده وأبو داود عن رجل من خزاعة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٦٦٩) ومشكاة المصابيح رقم (١٢٥٣) .
(٢) أي أصابته شدة .
(٣) حسن : رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٧٠٣) .
(٤) صحيح . أخرجه أبو يعلى والحاكم في كتاب صلاة التطوع ، وقال : صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبي .

أما بكاؤه وخشوعه ﷺ :

فعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : « أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يصلي وفي صدره أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء »(١).

وعن عطاء قال : دخلت أنا وعبد الله بن عمير على عائشة - رضي الله عنها - فقال عبد الله بن عمير : حدثينا بأعجب شيءٍ رأيتيه من رسول الله ﷺ . فبكت وقالت : قام ليلةً من الليالي فقال : « يا عائشة ، ذريني أتعبد لربي . قالت : قلت : والله إني لأُحبُّ قربك ، وأُحب ما يسرك . قالت : فقام فتطهر ، ثم قام يصلي ، فلم يزل يبكي حتى بَّل حجره ، ثم بكى ، فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض ، وجاء بلال يؤذن للصلاة ، فلما رآه يبكي ، قال : يا رسول الله ، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا . لقد نزلت عليَّ الليلة آياتٌ ، ويلٌ لمن قرأها و لم يتفكر فيها : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض** .... ﴾ الآية [آل عمران : ١٩٠] »(٢).

وربما قام الليل كله بآيةٍ حتى الصباح :

وعند ابن ماجة وابن خزيمة : « قام النبي ﷺ بآيةٍ حتى أصبح يرددها والآية : ﴿ **إن تعذّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ [المائدة : ١١٨] »(٣).

بأبي وأمي سيد المتهجدين ﷺ .

عن المغيرة بن شعبة : أن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه ، فقيل

(١) صحيح . رواه أبو داود والترمذي في الشمائل ، وصححه النووي والألباني .

(٢) إسناده جيد . رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي ﷺ » ، وابن حبان في صحيحه ، وصححه الألباني .

(٣) حديث صحيح .

له : أتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر ؟ فقال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا »[١].

وعند البخاري : « إن كان النبي ﷺ ليقوم – أو ليصلي – حتى ترم قدماه – أو ساقاه – فيقول : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » .

وعند مسلم : حتى ورمت قدماه . وعند مسلم : حتى تفطر رجلاه .

وعند النسائي : حتى تزلع ؛ يعني تشقق قدماه .

بأبي وأمي رسول الله ﷺ ، من كان له القدح المعلَّى ، ومن قالت في طول اجتهاده أم المؤمنين رضي الله عنها : « ما لكم وصلاته ﷺ » .

قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في رسولنا ﷺ :

يَبيتُ يُجافي جَنْبَهُ عن فراشِهِ إذا استثقلتْ بالمشركين المضاجِعُ

وقال شوقي رحمه الله :

مُحْيي الليل صلاةً لا يُقَطّعُها إلّا بِدَمْع من الإشفاق مُنْسَجِمِ
مُسَبِّحًا لك جُنْحَ الليلِ محتمِلًا ضرًّا من السُّهْد أو ضُرًّا من الوَرَمِ
رضيَّةً نَفْسه لا تشتكي سَأَمًا وما على الحُبّ إن أخلصتَ مِنْ سَأَمِ[٢]

وهديه ﷺ في التهجد وقيام الليل ، أفردنا له بابًا كاملًا في كتابي السابق « رهبان الليل » ، وهو إن شاء الله كافٍ في صلاة رسولنا ﷺ ليلًا .

علوّ همّة رسولنا ﷺ وحرصه على صلاة الجماعة :

كان صلوات ربي وسلامه عليه أشد الناس اهتمامًا بها ، حتى في أشد الأحوال وأصعبها .

---

(١) رواه البخاري ومسلم – واللفظ له – والترمذي والنسائي .

(٢) الشوقيات لأمير الشعراء ٢٠٧/١ طبع المكتبة التجارية الكبرى .

قيامه ﷺ بأداء الصلاة مع الجماعة في شدّة المعركة :

روى الإمام مسلم ، عن جابر رضي الله عنه قال : « غزونا مع رسول الله ﷺ قوما من جُهينة ، فقاتلونا قتالًا شديدًا ، فلمّا صلينا الظهر قال المشركون : لو ملنا عليهم ميلةً واحدة لاقتطعناهم . فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بذلك ، فذكر ذلك لنا رسول الله ﷺ . قال : وقالوا : إنهم ستأتيهم صلاة هي أحب إليهم من الأولاد . فلما حضرت العصر ، قال : صفّنا صفّين ، والمشركون بيننا وبين القبلة . قال : فكبر رسول الله ﷺ وكبرنا ، وركع فركعنا ، ثم سجد وسجد معه الصف الأول ، فلما قاموا ، سجد الصف الثاني ، ثم تأخّر الصف الأول ، وتقدم الصف الثاني فقاموا مقام الأول ، فكبّر رسول الله ﷺ وكبّرنا ، وركع فركعنا ، ثم سجد وسجد معه الصف الأول ، وقام الثاني ، فلما سجد الصف الثاني ، ثم جلسوا جميعًا سلم عليهم رسول الله ﷺ » .

« ويتجلى في هذا الحديث اهتمام الرسول الكريم ﷺ بصلاة الجماعة من عدة وجوهٍ ، منها :

أولًا : أدى رسول الله ﷺ صلاة الظهر مع الجماعة أثناء قتالٍ مع قوم من جهينة ، وكانوا قد قاتلوا المسلمين قتالًا شديدًا .

ثانيًا : أن الاطلاع على قرار المشركين بالإغارة على المسلمين دفعة واحدة ، أثناء تأديتهم صلاة العصر مع الجماعة ، لم يقلل من اهتمامه ﷺ بأدائها في الجماعة .

هـذا ولا يظنن أحد أن النبي الكريم ﷺ صلى مع الجماعة أثناء المعركة ، في يوم واحد فقط ، بل إنه عليه الصلاة والسلام صلّاها في أيام مختلفة ، ومواطن عدة .

يقول الخطابي : « صلاة الخوف أنواع ، وقد صلّاها رسول الله ﷺ

في أيام مختلفة وعلى أشكال متباينة »[١].

« كما ذكر ابن القصار المالكي أن النبي ﷺ صلّاها في عشرة مواطن ».

وذكر الإمام أبو بكر ابن العربي أنه ثبت عن النبي ﷺ ، أنه صلّى صلاة الخوف مرارًا عدة بهيئاتٍ مختلفة ، فقيل في مجموعها : إنها أربع وعشرون صفة ، ثبت فيها ست عشرة صفة »[٢][٣].

علوّ همّته في الخروج إلى صلاة الجماعة مع شدة مرضه :

روى البخاري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : قال : دخلت على عائشة - رضي الله عنها - فقلت : ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ ؟ قالت : بلى ، ثقل النبيُّ ﷺ فقال : « أصلَّى الناس ؟ » قلنا : لا ، هم ينتظرونك . قال : « ضعوا لي ماءً في المِخْضب »[٤]. قالت : ففعلنا ، فاغتسل فذهب لِيَنُوءَ[٥] فأُغمي عليه ، ثم أفاق ﷺ فقال : « أصلى الناس ؟ » . قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله . قال : « ضعوا لي ماء في المخضب » . قالت : فقعد فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأُغمي عليه ، ثم أفاق فقال : « أصلّى الناس ؟ » . قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله . فقال ﷺ : « ضعوا لي ماء في المخضب » . فقعد فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأُغمي عليه ثم أفاق ، فقال : « أصلّى الناس ؟ » فقلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله . والناس عكوف في المسجد ، ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخرة ، فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر - رضي الله عنه - بأن يصلي بالناس . فأتاه

---

(١) معالم السنن ١/٢٦٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/٤٩١ .

(٣) أهمية صلاة الجماعة ، للدكتور فضل إلهي ص٦٦ - ٦٧ .

(٤) المِخْضَب أي الإجانة .

(٥) ليقوم لفظا ومعنى .

الرسول فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس . فقال أبو بكر رضي الله عنه- وكان رجلًا رقيقًا-: يا عمر ، صلِّ بالناس . فقال له عمر- رضي الله عنه -: أنت أحقُّ بذلك . فصلى أبو بكر تلك الأيام ... الحديث(١) .

الله أكبر ... كم كان صلوات ربي وسلامه عليه حريصًا على حضور صلاة الجماعة ، يشتد مرضه فيغتسل ، ثم يُغمى عليه فيفيق ، فيغتسل للمرة الثانية ، ثم يُغمى عليه فيفيق ، فيغتسل للمرة الثالثة ، كل ذلك لعله ﷺ يكسب نشاطًا يمكنه - بفضل الله تعالى - من حضور صلاة الجماعة في المسجد ، ثم يُغمى عليه فيفيق ، فيجد نفسه غير قادرٍ على الذهاب إلى المسجد ، فيرسل إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - كي يصلي بالناس ... وليس هذا فحسب ، بل نجده ﷺ يخرج إلى صلاة الجماعة في المسجد ، حينما وجد من نفسه خفَّةً .

فكيف كانت الخفّة ، وكيف كان خروجه عليه الصلاة والسلام ، كي نتصور ذلك ، فلنقرأ ما رواه الإمام البخاري ، عن عائشة رضي الله عنها : « فوجد النبي ﷺ من نفسه خفّة ، فخرج يُهادَى(٢) بين رجُلَيْن ، كأني أنظر رجليه تخطان(٣) من الوجع .... »(٤). الحديث .

سبحان الله ... لم يكن ﷺ يتمكن من المشي إلّا اعتمادًا على رجُلَيْن ، وحتى بعد ذلك ، لم يكن يقدر على تمكين رجليه على الأرض ؛

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب : إنما جعل الإمام ليؤتم به .
(٢) أي يعتمد على الرجلين متمايلًا في مشيه من شدة الضعف .
(٣) لم يكن يقدر على رفعهما من الأرض .
(٤) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب : حد المريض أن يشهد الجماعة .

نظرًا لشدة ضعفه ، لكنه مع هذا كله خرج إلى صلاة الجماعة في المسجد[١] .

* * *

(١) أهمية صلاة الجماعة ، للدكتور فضل إلهي ص٦٨ - ٦٩ .

□ علوّ همَّة السلف وعنايتهم بصلاة الجماعة [(١)] □

لسلف الأمة من الصحابة ومن بعدهم - رضي الله عنهم - مواقف تدل على علو هممهم وعنايتهم بصلاة الجماعة ، وحرصهم على دعوة الآخرين لأدائها ، ويتجلى ذلك في :

ا - اختيار مكان بعيد من المسجد كي يكثر الثواب .
ب - المسارعة إلى صلاة الجماعة .
جـ - المداومة على حضور صلاة الجماعة .
د - حضور صلاة الفجر ليلة الزواج .
هـ - تَرْك العلاج حرصًا على جماعة العشاء والفجر .
و - حضور المرضى صلاة الجماعة .
ز - الذهاب إلى المسجد في أصعب الظروف .
ح - الحرص على الموت في انتظار صلاة الجماعة .
ط - الذهاب إلى مسجد آخر عند فوات جماعة في مسجد .
ى - حثّ الابن على ملازمة المسجد .
ك - مساءلة الابن عن حضور صلاة الجماعة .
ل - تأديب الابن على التّأخُّر عن صلاة الجماعة .
م - الدعوة إلى المحافظة على صلاة العشاء والفجر في جماعة في المرض الأخير .
ن - اهتمام وليّ أمر المسلمين بصلاة الجماعة .

اختيار مكانٍ بعيد من المسجد كي يكثُر ثوابُه :

روى الإمام مسلم ، عن أبيّ بن كعب - رضي الله عنه - قال :

---

(١) للدكتور فضل إلهي في كتابه « أهمية صلاة الجماعة » فصلٌ طيب ، أتينا بالكثير منه تحت هذا العنوان ، والله يُثيبه خيرًا على جمعه .

كان رجل من الأنصار بيته أقصى بيتٍ في المدينة ، فكان لا تخطئه الصلاة مع رسول الله ﷺ . قال : فتوجعنا له ، فقلت له : يا فلان ، لو أنك اشتريت حمارًا يقيك من الرمضاء ويقيك من هوام الأرض . قال : أما والله ، ما أُحبّ أن بيتي مُطَنَّبٌ[1] ببيت محمدٍ ﷺ . قال : فحملت به حملًا ، حتى أتيت نبي الله ﷺ فأخبرته . قال : فدعاه فقال له مثل ذلك ، وذكر له أنه يرجو في أثره الأجر ، فقال له النبي ﷺ : « إن لك ما احتسبت » .

وفي رواية أخرى أنه قال : ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد ، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي . فقال رسول الله ﷺ : « قد جمع الله لك ذلك كله » .

وفي رواية ابن حبان : « أعطاك الله ذلك أجمع . أنطاك[2] الله ما احتسبت أجمع »[3].

ما أطيبها وأزكاها ، وأجل همته وأعلاها .

ب - المسارعة إلى صلاة الجماعة :

انظر إلى علو همة عمر بن عبد العزيز في المسارعة إلى صلاة الجماعة .

روى ابن سعد في الطبقات ، عن سليمان بن موسى قال : « رأيت مؤذِّن عمر بن عبد العزيز وهو خليفة بخناصرة[4] يسلم على بابه : السلام

---

(١) مطنّب : مشدود بالأطناب وهي الحبال إلى بيت النبي ﷺ ، بل أُحِبّ أن يكون بعيدًا منه لتكثير ثوابي وخطاي إليه . شرح النووي ١٦٨/٥ .

(٢) أنطاك الله معناه : أعطاك الله . وهو لغة أهل اليمن ، كما جاء في النهاية لابن الأثير ٧٦/٥ .

(٣) رواه ابن حبان رقم (٢٠٤١) . وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٤) خُناصرة : بليدة من أعمال حلب نحو البادية .

عليك أمير المؤمنين ، ورحمة الله . فما يقضي حتى يخرج إلى الصلاة »[١] .

ج - المداومة على حضور الجماعة :

سيمر بك ذلك عند ذكر سعيد بن المسيب وربيعة بن يزيد والأعمش .

د - حضور صلاة الفجر ليلة الزواج :

انظر إلى علو همة الصحابي الحارث بن الحسان ، تزوج في ليلة من الليالي ، فحضر صلاة الفجر مع الجماعة .

روى الإمام الطبراني ، عن عنبسة بن الأزهر قال : « تزوج الحارث ابن حسان وكان له صحبة ، فقيل له : أتخرج وإنما بنيت بأهلك في هذه الليلة ؟ فقال : والله ! إن امرأة تمنعني من صلاة الغداة في جمعٍ لامرأة سوءٍ »[٢] .

هـ - تَرْك العلاج حرصًا على جماعة العشاء والفجر :

كما سيأتي في خبر ابن المسيب لما اشتكى عينه ... وكيف أنه تحمل مرض العين ، وما تحمل تفويت صلاتي العشاء والفجر في جماعة .

لا تقعُدَنَّ لذِكْرِنا في ذِكْرِهم ليس الصحيحُ إذا مَشَى كالمُقْعَدِ

و - حضور المرضى صلاة الجماعة :

لله دَرُّهم من مرضى .... لا ، بل والله نحن المرضى ... مرضى القلوب .

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود : « ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها

(١) الطبقات الكبرى ٣٥٩/٥ .
(٢) قال الهيثمي في المجمع ٤١/٢ : رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن .

إلَّا منافقٌ معلومُ النفاقِ . ولقد كان الرجل يؤتى به يتهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف » .

وروى الإمام ابن أبي شيبة في مصنفه ٣٥٠/١ : « عن سعد بن عبيدة ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، أنه كان يُحمل وهو مريض إلى المسجد » .

لله در مقرئ الكوفة ، الإمام العلم عبد الله بن حبيب بن ربيعة أبي عبد الرحمن السلمي .

وليس هذا فحسب ، بل كان يأمر بحمله في اليوم المطير إلى المسجد ، حيث كانت تجتمع له رخصتان للتخلف عن المسجد ، وهما : المرض والمطر .

فقد أخرج الإمام ابن المبارك في الزهد : « عن سعد بن عبيدة ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، أنه كان يأمرهم أن يحملوه في الطين والمطر إلى المسجد وهو مريض »(١) .

ز - الذهاب إلى المسجد في أصعب الظروف :

« قيل لسعيد بن المسيب : إن طارقًا يريد قتلك ؛ فتغيب . فقال : أبحيث لا يقدر الله عليّ ؟ فقيل له : اجلس في بيتك . فقال : أسمع : حي على الفلاح ، ولا أجيب ؟! »(٢) .

ح - الحرْص على الموت في حالة انتظار الجماعة :

وانظر إلى حرص أبي عبد الرحمن السلمي ، أن يأتيه الموت وهو في انتظار الصلاة في المسجد ، ولذا رفض الانتقال من المسجد إلى فراشه لما حضرته المنية .

---

(١) الزهد لابن المبارك ص١٤١ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ١٧٢/٦ .
(٢) تفسير القرطبي ٢٥١/١٨ .

عن عطاء بن السائب قال : دخلنا على أبي عبد الرحمن السلمي وهو يُقضي - أين ينزع - في المسجد ، فقلنا له : لو تحولت إلى الفراش ، فإنه أوثر - قال الحسين ، أحد الرواة : أوثر : أوطأ - قال : حدثني فلانٌ أن النبي ﷺ قال : « لا يزال أحدكم في صلاةٍ ما دام في مصلّاه ينتظر الصلاة »[(١)] .

وفي رواية ابن سعد : « والملائكة تقول : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » . قال أبو عبد الرحمن السلمي : « فأريد أن أموت وأنا في مسجدي »[(٢)] .

ط - الذهاب إلى مسجدٍ آخر عند فوات جماعة في مسجد :

نقل البخاري عن الأسود ، أنه إذا فاتته الجماعة ذهب إلى مسجدٍ آخر[(٣)] .

ى - حَثّ الابن على ملازمة المسجد :

قال أبو الدرداء لابنه : يا بني ، ليكن المسجد بيتك ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن المساجد بيوت المتقين ، فمن كانت المساجد بيوته ، ضمن الله له بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى الجنة »[(٤)] .

ك - مُساءَلَة الابن عن حضور صلاة الجماعة :

روى عبد الرزاق ، عن مجاهد قال : « سمعت رجلًا من أصحاب النبي

---

(١) الزهد لابن المبارك ص١٤١ - ١٤٢ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٧٤/٦ - ١٧٥ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب : فضل صلاة الجماعة ١٣١/٢ . ووصله ابن أبي شيبة في المصنف ، وقال ابن حجر ١٣١/٢ . إسناده صحيح .

(٤) الزهد لهنّاد ٣٦٢/٢ . وقال محقق الكتاب ، الشيخ محمد أبو الليث الخير آبادي : إسناده صحيح .

ﷺ - قال : لا أعلمه إلّا من شهد بدرًا - قال لابنه : أدركت الصلاة معنا ؟ قال : أدركت التكبيرة الأُولى ؟ قال : لا . قال : لَمَا فاتك منها خيرٌ من مائة ناقةٍ ، كلها سود العين »(١) .

ل - تأديب الابن على التّأخُّر عن صلاة الجماعة :

ذكر الذهبي في السير (٥/١١٦) : « عن يعقوب عن أبيه ، أن عبد العزيز بن مروان بعث ابنه عمر إلى المدينة ، يتأدّب بها ، وكتب إلى صالح بن كيسان يتعاهده ، وكان يلزمه الصلوات ، فأبطأ يومًا عن الصلاة ، فقال : ما حبسك ؟ قال : كانت مُرجِّلَتي تُسَكِّن شَعري . فقال : بلغ من تسكين شعرك ، أن تؤثره على الصلاة . وكتب بذلك إلى والده ، فبعث عبد العزيز رسولًا إليه ، فما كلمه حتى حلق شعره » .

م - الدعوة إلى المحافظة على صلاة الفجر والعشاء في جماعةٍ في المرض الأخير :

روى ابن أبي شيبة عن ابن أبي ليلى ، عن أبي الدرداء « أنه قال في مرضه الذي مات فيه : ألا احملوني . فحملوه ، فأخرجوه ، فقال : اسمعوا وبلِّغوا من خلفكم : حافظوا على هاتين الصلاتين العشاء والصبح ، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموها ولو حبوًا على مرافقكم وركبكم »(٢) .

ن - اهتمام وليّ الأمر بصلاة الجماعة :

قال ثابت بن الحجاج : « خرج عمر بن الخطاب إلى الصلاة ، فاستقبل الناس ، فأمر المؤذن فقام وقال : والله ، لا ننتظر لصلاتنا أحدًا .

---

(١) المصنف لعبد الرزاق ، كتاب الصلاة ، باب : فضل الصلاة في جماعة ١/ ٥٢٨ - ٥٢٩ .

(٢) المصنف لابن أبي شيبة ، كتاب الصلوات ، في التخلف في العشاء والفجر وفضل حضورهما .

فلما قضى صلاته ، أقبل على الناس ثم قال : ما بال أقوامٍ يتخلفون ، يتخلف بتخلفهم آخرون ، والله لقد هممت أن أُرسل إليهم ، فيجأ في أعناقهم[١]، ثم يقال : اشهدوا الصلاة »[٢] .

وكان الفاروق يتفقد الناس في صلاة الجماعة ، فقد روى مالك ، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة « أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فقد سليمان بن أبي حثمة في صلاة الصبح ، وأن عمر بن الخطاب غدا إلى السوق ، ومسكن سليمان بين السوق والمسجد النبوي ، فمر على الشفاءِ أمِّ سليمان ، فقال لها : لم أر سليمان في الصبح . فقالت : إنه بات يصلي ، فغلبته عيناه . فقال عمر : لأن أشهد صلاة الصبح في الجماعة ، أحبُّ إليّ من أن أقوم ليلةً »[٣] .

وروى ابن أبي شيبة ، عن هشيم عن أبيه ، قال : « فقد عمر – رضي الله عنه – رجلًا في صلاة الصبح ، فأرسل إليه فجاء ، فقال : أين كنت ؟ فقال : كنت مريضًا ، ولولا أن رسولك أتاني لَمَا خرجت . فقال عمر : فإن كنت خارجًا إلى أحدٍ ، فاخرج للصلاة »[٤].

وانظر إلى علوِّ همة الفاروق ، وإعانته الناس على صلاة الجماعة .

فقد روى ابن سعد ، عن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة ، قال : « جاء عمر – رضي الله عنه – إلى سعيد بن يربوع ؛ إلى منزله ، فعزّاه بذهاب بصره ، وقال : لا تدع الجمعة ولا الصلاة في مسجد رسول الله

---

(١) فيجأ في أعناقهم : أي يضرب في أعناقهم . (الصحاح ١/٨٠) .
(٢) كنز العمال : ٨/٢٥٢ كتاب الصلاة من قسم الأفعال ، الباب الخامس : في الجماعة وفضلها ، فصل في فضلها .
(٣) الموطأ ، كتاب صلاة الجماعة ، باب : ما جاء في العتمة والصبح ١/١٣١ .
(٤) المصنف لابن أبي شيبة ، كتاب الصلوات ، من قال : إذا سمع المنادي فليجب .

ﷺ . قال : ليس لي قائد . قال : فنحن نبعث إليك بقائد . فبعث إليه بغلامٍ من السبي » .

وانظر إلى علوّ همة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه كان يمرّ في الطريق مناديًا : « الصلاة ، الصلاة » يوقظ الناس لصلاة الفجر ، وكان رضي الله عنه يفعل ذلك كل يومٍ .

فقد روى ابن سعد في طبقاته (٣/٣٦ - ٣٧) عن الحسن رضي الله عنه ، يحدث عن خروج عليٍّ اليوم الذي طعن فيه من بيته ، حيث يقول : « فلمّا خرج من الباب نادى : أيها الناس ، الصلاة الصلاة . كذلك كان يفعل في كل يومٍ ، ومعه دِرَّته يوقِظ الناس » .

وكان أمير مكة من قبل النبي ﷺ ، وهو عتّاب بن أُسَيد الأموي - رضي الله عنه - يهدّد بضرب عنق من تخلف عن الصلاة في المسجد في الجماعة .

فقد ذكر الإمام ابن القيم أنه خطب أهل مكة وقال : « يا أهل مكة ، والله ، لا يبلُغُني أن أحدًا منكم تخلّف عن الصلاة في المسجد في الجماعة ، إلّا ضربتُ عنقه »(١). يقول الإمام ابن القيم : « وشكر له أصحابُ رسول الله ﷺ هذا الصنيع ، وزاده رفعة في أعينهم » . فأين نحن من هؤلاء .

السَّيِّدُ المتعبِّدُ المتجرد السّابِق الـوامِق ، سيّد المؤذِّنين وخازِن الرسـول الأمين ، بلالُ بن رَبَاحٍ رضي الله عنه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال لبلال ، عند صلاة الفجر : « يا بلال ، حدثني بأرجى عملٍ عملته في الإسلام ؛ فإني سمعت

(١) كتاب الصلاة ص٨١ . وهذه أيام الردة بعد وفاة النبي ﷺ .

دف نعليك بين يدي في الجنة » . قال : ما عملت عملًا أرجى عندي أني لم أتطهر طهورًا ، في ساعة ليلٍ أو نهارٍ ، إلّا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أُصلي .

رواه البخاري ومسلم وأحمد .

ودف نعليك ؛ قال البخاري : يعني تحريك نعليك .

وعند أحمد : ما أحدثت إلّا توضأت وصليت ركعتين .

وهذه منقبةٌ عظيمة لبلال من إدامته الوضوء والصلاة عند كل وضوء ... وقرب منزلته من رسول الله ﷺ .. فلله درُّه من سيدٍ يبيت طاهرًا ، وتعرج روحه فتسجد تحت العرش . فرضي الله عنه .. ورضي الله عن عمر الذي يعرف قدر الرجال بقوله : « أبو بكرٍ سيِّدُنا ، وأعْتَقَ سيِّدَنا » . يعني بلالًا .

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

« قيل لنافع : ما كان يصنع ابن عمر في منزله ؟ قال : لا تطيقونه ، الوضوء لكل صلاةٍ ، والمصحف فيما بينهما »[(١)] .

وعن نافع : أن ابن عمر كان إذا فاتته العشاء في جماعةٍ ، أحيا بقية ليلته[(٢)] .

وعن محمد بن زيد : أن ابن عمر كان له مهراس فيه ماء ، فيصلي فيه ما قدر له ، ثم يصير إلى الفراش ، فيغفي إغفاءة الطائر ، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ، يفعل ذلك في الليل أربع مراتٍ أو خمسة[(٣)] .

---

(١) أخرجه ابن سعد ١٧٠/٤ . ورجاله ثقات .

(٢) الحلية ٣٠٣/١ . ورجاله ثقات .

(٣) رجاله ثقات . سير أعلام النبلاء ٢١٥/٣ ، والمهراس : صخرة منقورة تسع كثيرًا من الماء ، وقد يُعمل منها حياض للماء .

« قال طاووس : ما رأيت مصلّيًا مثل ابن عمر أشد استقبالًا للقبلة بوجهه وكفيه وقدميه .

وروى نافع : أن ابن عمر كان يحيي بين الظهر إلى العصر .

وعن عبد الله بن واقد : رأيت ابن عمر يصلي ؛ فلو رأيته ، رأيته مُقْلَوْليًا »[١][٢].

أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب رضي الله عنه :

« عن سعيد بن المسيب : أن أبا سفيان بن الحارث كان يصلي في الصيف نصف النهار ، حتى تُكره الصلاة ، ثم يصلي من الظهر إلى العصر »[٣].

عَدِيّ بن حاتم الطائيّ رضي الله عنه :

الأمير الشريف ، أبو وهب وأبو طريف الطائي رضي الله عنه ، صاحب النبي ﷺ .

قال ابن عيينة : حُدِّثتُ عن الشعبي ، عن عدي ، قال : ما دخل وقت صلاةٍ حتى أشتاق إليها .

وعنه : ما أُقيمت الصلاة منذ أسلمت ، إلَّا وأنا على وضوءٍ[٤].

هذا شوق الصحابة للعبادة .

وِمِنْ عَجَبٍ أنِّي أحِنُّ إليهِمُ ... وأسأَلُ شوقًا عنهمُ وهُمُ معي

وتبكيهِمُ عيني وهُمْ في سَوَادِها ... ويشكو النَّوَى قلبي وهمْ بَيْنَ أضْلعي

---

(١) مقلوليًا : المتجافي المستوفز . وفلان يتقلَّى على فراشه : يتململ ولا يستقر .

(٢) السير ٣/٢٢٣ - ٢٣٥ .

(٣) طبقات ابن سعد ٤/٣٦١ ، سير أعلام النبلاء ١/٢٠٥ .

(٤) السير ٣/١٦٤ .

تَمِيم الدَّارِيّ أبو رُقيَّة رضي الله عنه :

عن محمد بن سيرين : « أن تميمًا الداري كان يقرأ القرآن في ركعةٍ »[(١)] .

وعن مسروق : قال لي رجلٌ من أهل مكة : هذا مقام أخيك تميم الداري ، صلى ليلةً حتى أصبح أو كاد ؛ يقرأ آيةً يرددها ويبكي : ﴿ **أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾[(٢)] [الجاثية : ٢١] .

وعن المنكدر بن محمد ، عن أبيه : « أن تميما الداري نام ليلةً لم يقم يتهجد ، فقام سنةً لم ينم فيها ، عقوبة للذي صنع »[(٣)] .

أبو رفاعة العدوي رضي الله عنه :

عن حميد بن هلال قال : كان أبو رفاعة العدوي يقول : « ما عزبت عني سورة البقرة منذ علمنيها رسول الله ﷺ ، أخذت معها ما أخذت من القرآن ، وما وجع ظهري من قيام الليل قطُّ »[(٤)] .

قال الذهبي في السير (٣/ ١٥) : « كان أبو رفاعة ذا تعبُّد وتهجد .

قال حميد بن هلال : خرج أبو رفاعة في جيشٍ عليهم عبد الرحمن ابن سمرة ، فبات تحت حصنٍ يصلي ليله ، ثم توسد ترسه فنام ، وركب أصحابه وتركوه نائمًا ، فبصر به العدو ، فنزل ثلاثة أعلاجٍ فذبحوه ،

---

(١) تهذيب ابن عساكر ٣/٣٥٩ .

(٢) رجاله ثقات . أخرجه الطبراني برقم (١٢٥٠) . ونسبه في الإصابة إلى البغوي في الجعديات .

(٣) تهذيب ابن عساكر ٣/٣٥٩ ، وسير أعلام النبلاء ٢/٤٤٥ .

(٤) طبقات ابن سعد ٧/٦٩ . ورجاله ثقات .

رضي الله عنه »[١].

عبدُ الله بنُ الزبير بن العوَّام حمامُ المسجد رضي الله عنه :

قال مجاهد : كان ابن الزبير إذا قام إلى الصلاة كأنه عود ، وحدث أن أبا بكر رضي الله عنه كان كذلك .

قال ثابت البناني : « كنت أمر بابن الزبير وهو خلف المقام يصلي ، كأنه خشبة منصوبة لا تتحرك » .

« وروى يوسف بن الماجشون ، عن الثقة يُسنده قال : قسم ابن الزبير الدهر على ثلاثة ليالٍ : فليلة هو قائم حتى الصباح ، وليلة هو راكع حتى الصباح ، وليلة هو ساجد حتى الصباح »[٢] .

وعن مسلم بن يناق قال : « ركع ابن الزبير يومًا ركعة ، فقرأْنا بالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة ، وما رفع رأْسَهُ »[٣].

وعن عمرو بن دينار قال : كان ابن الزبير يصلي في الحجر والمنجنيق يصب توبه[٤] فما يتلفت .

وعن ابن المنكدر قال : لو رأيت ابن الزبير يصلي كأنه غصن تصفقه الريح ، وحجر المنجنيق يقع هاهنا[٥].

« وعن عمر بن قيس ، عن أُمه : أنها دخلت على ابن الزبير بيته ، فإذا هو يصلي ، فسقطت حَيَّةٌ على ابنه هاشم ، فصاحوا : الحية الحية ، ثم

---

(١) طبقات ابن سعد ٦٩/٧ ، وسير أعلام النبلاء ١٥/٣ . ورجاله ثقات .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٤٠٠/٧ .

(٣) ابن عساكر ٤٠٠/٧ ، وسير أعلام النبلاء ٣٦٩/٣ .

(٤) حجر المنجنيق .

(٥) حلية الأولياء ٣٣٥/١ .

رموها ، فما قطع صلاته »[١] .

وعن مجاهد : ما كان بابٌ من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه ابن الزبير ، ولقد جاء سيلٌ طبق البيت ، فطاف سباحةً[٢].

وعن عثمان بن طلحة قال : كان ابن الزبير لا ينازع في ثلاثة : شجاعة ، ولا عبادة ، ولا بلاغة[٣].

سُهيلُ بنُ عمرو خطيبُ قريشٍ رضي الله عنه :

« لما أسلم كان كثير الصلاة والصوم والصدقة ، وخرج بجماعته إلى الشام مجاهدًا ، ويقال : إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير ، وكان كثير البكا إذا سمع القرآن »[٤].

سيِّدُ العُبّاد ، وعَلَمُ الأصفياءِ من الزُّهّاد ، وسيّدُ التّابعين ، التَّقِيُّ أُوَيْسُ ابنُ عامرٍ القَرَنيُّ :

سماه الشاطبي (سيد العباد بعد الصحابة) لما عرف عنه من كثرة العبادة .

عن الربيع بن خثيم أنه قال : أتيت أُويسًا القرني ، فوجدته قد صلى الصبح وقعد ، فقلت : لا أشغله عن التسبيح ، فلما كان وقت الصلاة قام فصلى إلى الظهر ، فلما صلى الظهر صلى إلى العصر ، فلما صلى العصر قعد يذكر الله إلى المغرب ، فلما صلى المغرب صلى إلى العشاء ، فلما صلى العشاء ، صلى إلى الصبح ، فلما صلى الصبح جلس ، فأخذته عينه ، ثم انتبه فسمعته يقول : « اللهم إني أعوذ بك من عينٍ نوامة ، وبطن لا

---

(١) تهذيب ابن عساكر ٧/٤٠١ .
(٢) تهذيب ابن عساكر ٧/٤٠١ .
(٣) السير ٣/٣٧٠ .
(٤) السير ١/١٩٤ - ١٩٥ .

تشبع »[١] .

رحم الله سيد التابعين أبا عمرو أويسًا . لله ما أعلى همته ، يعاتب نفسه على إغفاءةٍ خاطفة . « ولهذا يعده الشاطبي ممن يأخذ بما هو شاقٌّ على الدوام ، ومع هذا لا يعتبر مخالفًا للسنة ، بل إنه من السابقين الأولين ، ألم يكن الرسول ﷺ يقوم الليل حتى تتورم قدماه » .

« عن أصبغ بن زيد قال : كان أُويس إذا أمسى يقول : هذه ليلة الركوع . فيركع حتى يصبح ، وكان إذا أمسى يقول : هذه ليلة السجود . فيسجد حتى يصبح »[٢] .

وكان - رحمه الله - يقول : « لأعبدن الله في الأرض كما تعبده الملائكة في السماء » .

سيِّدُ التّابِعِين سعيدُ بن المسيِّب :

سيد في العلم والعمل . كان كاسمه بالطاعات سعيدًا ، ومن المعاصي والجهالات بعيدا ، متمكن من الخدمة ، حافظ للحرمة .

« عن أبي حرملة ، عن ابن المسيب قال : ما فاتتني الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة .

وقال : ما فاتتني التكبيرة الأُولى منذ خمسين ، وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة »[٣] .

وعن عثمان بن حكيم : سمعت سعيد بن المسيب يقول : ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلّا وأنا في المسجد[٣] .

---

(١) الزُّهّاد الأوائل لمصطفى حلمي ٨٤ - ٨٩ ، والاعتصام ٣٠٩/١ ، وتنبيه المغترين ص١١٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٠/٤ .

(٣) الحلية ١٦٢/٢ ، ١٦٣ .

قال الذهبي : إسناده ثابت .

« وعن ابن شهاب : قلت لسعيد بن المسيب : لو تبديت . وذكرت له البادية وعيشها والغنم ، فقال : كيف بشهود العتمة ؟! »(١) .

وعن بشر بن عاصم قال : قلت لسعيد بن المسيب : يا عم ، ألا تخرج فتأكل اليوم مع قومك ؟ قال : معاذ الله يا ابن أخي ، أدع خمسًا وعشرين صلاة خمس صلوات ؟!.

« وعن ابن حرملة ، عن سعيد بن المسيب أنه اشتكى عينه ، فقالوا : لو خرجت إلى العقيق فنظرت إلى الخضرة ، لوجدت لذلك خفة . قال : فكيف أصنع بشهود العتمة والصبح »(٢) .

وعن ابن حرملة : قلت لبرد مولى ابن المسيب : ما صلاة ابن المسيب في بيته ؟ قال : ما أدري، إنه ليصلي صلاة كثيرة ، إلا أنه يقرأ بـ ﴿ **ص والقرآن ذي الذِّكْر** ﴾(٣) [ص : ١].

وعن برد مولى ابن المسيب قال : ما نودي للصلاة منذ أربعين سنة إلَّا وسعيد في المسجد .

قال الأوزاعي : كانت لسعيد بن المسيب فضيلةٌ لا نعلمها كانت لأحدٍ من التابعين ، لم تفته الصلاة في جماعةٍ أربعين سنة ، عشرين منها لم ينظر في أقفية الناس .

قال سعيد : ما نظرت في أقفاء قومٍ سبقوني بالصلاة منذ عشرين سنة .

---

(١) ابن سعد ١٣١/٥ .

(٢) ابن سعد ١٣٢/٥ ، والحلية ١٧٣/٢ .

والعقيق : موضع ناحية المدينة فيه عيون ونخل .

(٣) طبقات ابن سعد ١٣٢/٥ .

قال سعيد بن المسيب : من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادةً .

وقال رحمه الله : ما دخل عليَّ وقت صلاة إلّا وقد أخذت أُهبتها ، ولا دخل عليّ فضاء فرض إلّا وأنا إليه مشتاق(١) .

أبو عائشة مسروق بن عبد الرحمن الهمداني الكوفي :

العالم بربه ... الهائم بحبه ، الذاكر لذنبه ، في العلم معروق ، وبالضمان موثوق ، ولعباد الله معشوق ، المشمر للورود واللحوق ، والمتبصر في الوجود والطروق الإمام القدوة العلم مسروق .

عن أبي إسحاق قال : حج مسروق فما بات إلَّا ساجدًا .

وقال العلاء بن هارون : حج مسروق فما افترش إلا جبهته حتى انصرف .

قال سعيد بن جبير : لقيني مسروق فقال : يا سعيد ، ما بقي شيءٌ يرغب فيه إلّا أن نعفر وجوهنا في التراب ، وما آسى على شيءٍ إلا السجود لله تعالى .

وعن أبي الضحى : كان مسروق يقوم فيصلي كأنه راهب ، وكان يقول لأهله : هاتوا كل حاجةٍ لكم ، فاذكروها لي قبل أن أقوم إلى الصلاة .

وعن إبراهيم بن محمد بن المنتشر : كان مسروق يرخي الستر بينه وبين أهله ، ويقبل على صلاته ويخليهم ودنياهم(٢) .

كانت امرأة مسروق تقول : والله ما كان مسروق يصبح ليلةً من الليالي إلَّا وساقاه منتفختان من طول القيام ، وكنت أجلس خلفه فأبكي رحمةً له ، وكان رحمه الله إذا طال عليه الليل وتعب ، صلّى جالسًا ولا يترك

---

(١) الحلية ٢/١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) الحلية ٢/٩٥ - ٩٦ .

الصلاة ، وكان إذا فرغ من صلاته يزحف كما يزحف البعير من الضعف[١].

رحمك الله أبا عائشة ، تبكي زوجك خلفك وأنت تتهجد رحمةً لك ... لسان حالكم يقول :

أُمسي وأُصبحُ مِنْ تذكاركم قَلقًا   يرثى لي المُشفقان الأهلُ والولدُ
قد خدَّدَ الدمعُ خدّي من تَذَكُّرِكم   واعتادني المُضنِيانِ الشَّوقُ والكَمَدُ
وغاب عن مُقْلَتي عيني ونافِرُها   وخانني المُسعِدان الصَّبْرُ والجَلَدُ

تزحف كما يزحف البعير من التعب :

لا غَرْوَ للدَّمْعِ أن تجري غَوارِبُه   وتحتَهُ الخافقانِ القلبُ والكَبِدُ
لم يبقَ إلّا خفيّ الرُّوحِ من جسدي   فداؤك الباقيانِ الرُّوحُ والجَسَدُ[٢]

أبو مسلم الخولاني المُتَسلّي بالأوراد والنوب ، الخولانيُّ عبدُ الله بن ثوب ، حكيم الأُمّة ومُمثِّلُها ، ومُديم الخِدمة ومُحَرِّرُها :

عن شرحبيل ، أن رجلين أتيا أبا مسلمٍ فلم يجداه في منزله ، فأتيا المسجد فوجداه يركع فانتظراه ، فأحصى أحدهما أنه ركع ثلاثمائة ركعة ، والآخر أربعمائة ركعة ، قبل أن ينصرف ، فقال له : يا أبا مسلم ، كنا قاعدين خلفك ننتظرك . فقال : إني لو عرفت مكانكما ، لا نصرفت إليكما أن تحفظا عليّ صلاتي ، وأقسم لكما بالله ، إن خير كثرة السجود ليوم القيامة[٣].

وعن عثمان بن أبي العاتكة : علق أبو مسلم سوطًا في المسجد ، فكان يقول : أنا أولى بالسوط من البهائم ، فإذا فتر مشق[٤] ساقيه سوطًا أو

(١) تنبيه المغترين .
(٢) المدهش .
(٣) تاريخ ابن عساكر ١٧/٩ .
(٤) أي ضربها بسرعة .

سوطين . قال : وكان يقول : لو رأيت الجنة عيانًا أو النار عيانًا ، ما كان عندي مستزاد[١] .

وقال رحمه الله : لو قيل لي : إن جهنم تسعر ، ما استطعت أن أزيد في عملي .

رحم الله أبا مسلم حكيم هذه الأمة ، القائل : « أيظن أصحاب محمدٍ ﷺ أن يسبقونا عليه ، والله لأزاحمهم عليه حتى يعلموا أنهم خلفوا بعدهم رجالًا » .

عامر بن عبد قيس :

راهب هذه الأمة كما قاله كعب الأحبار .

عن الحسن ، أن عامرًا كان يقول : من أُقرئ ؟ فيأتيه ناس فيقرئهم القرآن ثم يقوم فيصلي إلى الظهر ، ثم يصلي إلى العصر ، ثم يقرئ الناس إلى المغرب ، ثم يصلي ما بين العشاءين ، ثم ينصرف إلى منزله فيأكل رغيفًا ، وينام نومةً خفيفةً ، ثم يقوم لصلاته ، ثم يتسحر رغيفًا ويخرج[٢] .

وعن أبي الحسين المجاشعي قال : قيل لعامر بن عبد قيس : أَتُحَدِّث نفسك في الصلاة ؟ قال : أُحدّثها بالوقوف بين يدي الله ومنصرفي[٣].

قال الذهبي في السير (١٨/٤) : « قيل : كان عامر لا يزال يصلي من طلوع الشمس إلى العصر ، فينصرف وقد انتفخت ساقاه فيقول : يا أمّارة بالسوء ، إنما خلقت للعبادة »[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/٤ .

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٧/٤ .

(٤) تاريخ ابن عساكر ص٣٤٠ ، وتاريخ الإسلام ٢٧/٣ .

« هبط عامر واديًا به عابدٌ حبشي ، فانفرد يصلي في ناحيةٍ ، والحبشي في ناحيةٍ أربعين يومًا ، لا يجتمعان إلَّا في فريضة »[1].

« قيل لعامر بن عبد قيس : أما تسهو في صلاتك ؟ قال : أَوَ حديث أحَبّ إليّ من القرآن حتى أشتغل به !! هيهات ، مناجاة الحبيب تستغرق الإحساس »[2].

القُدوة الرَّبَّانيّ أبو يزيدٍ الرَّبِيعُ بنُ خُثَيْم :

المخبت الورع ، المتثبت القنع ، الحافظ لسره ، والضابط لجهره ، المعترف بذنبه ، المفتقر إلى ربه .

كان رحمه الله يقول : إني لآنس بصوت عصفور المسجد عن أُنسي بزوجتي .

وكان رحمه الله إذا سجد كأنه ثوبٌ مطروحٌ ، فتجيء العصافير فتقع عليه .

« وكان - رحمه الله - بعدما سقط شقه يهادى بين رجلين إلى مسجد قومه ، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقولون : يا أبا يزيد ، لقد رخص الله لك لو صليت في بيتك . فيقول : إنه كما تقولون ، ولكني سمعته ينادي : حيّ على الفلاح ، فمن سمع منكم : حيّ على الفلاح ، فليجبه ولو زحفًا ، ولو حبوًا .

وعن أبي حيان التيمي عن أبيه ، قال : أصاب الربيع الفالج ، فكان يحمل إلى الصلاة ، فقيل له : أنه قد رخص لك . قال : قد علمت ، ولكن أسمع النداء بالفلاح »[3].

(١) تاريخ الإسلام ٢٧/٣ .
(٢) المدهش ص٤٧٢ .
(٣) الحلية ١١٣/٢ ، ١١٤ .

قال عبد الرحمن بن عجلان : بتُّ عند الربيع بن خثيم ذات ليلةٍ ، فقام يصلي ، فمر بهذه الآية : ﴿ **أم حَسِب الذين اجترحوا السيئات** ... ﴾ الآية [الجاثية : ٢١] ، فمكث ليلته حتى أصبح ما جاوز هذه الآية إلى غيرها ببكاءٍ شديد .

وكان أصحابه يعلمون شعره عند المساء - وكان ذا وفرةٍ - ثم يصبح والعلامة كما هي ، فيعرف أن الربيع لم يضع جنبه ليلهُ على فراشه .

قال سفيان : بلغنا أن أُمّ الربيع بن خُثيم كانت تنادي ابنها الربيع ، فتقول : يا ربيع ، ألا تنام ؟ فيقول : يا أُمّهْ ، من جنَّ عليه الليل وهو يخالف البيات ، حق له أن لا ينام .

اشترى - رحمه الله - فرسًا بثلاثين ألفًا ، فغزا عليها ، ثم أرسل غلامه يسار يحتش وقام يصلي ، وربط فرسه ، فجاء الغلام فقال : يا ربيع ، أين فرسك ؟ قال : سرقت يا يسار . قال : وأنت تنظر إليها ؟! قال : نعم يا يسار ، إني كنت أُناجي ربي عز وجل ، فلم يشغلني عن مناجاة ربي شيءٌ ، اللهم إنه سرقني ولم أكن أسرقه ، اللهم إن كان غنيًّا فاهده ، وإن كان فقيرًا فأغنه . ثلاث مراتٍ[١] .

رحم الله ابن خثيم تلميذ ابن مسعود ، الذي قال له ابن مسعود : « يا أبا يزيد ، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك ، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين »[٢] .

يرحم الله من عظموا قدر الصلاة .

---

(١) الزهد ص٢٣١ ، مختصر قيام الليل ص٢٧ .

(٢) الحلية ٢/١٠٦ .

عن أبي وائل قال : دخلت على الأسود بن هلال فقلت : ليتني وإياك قد مضينا . قال : بئس ما تقول ، أليس أسجد كل يومٍ وليلة أربعًا وثلاثين سجدةً .

وعنه : قلت للأسود بن هلال : وددت أنك مت منذ سنةٍ . فقال : لي صاحب خيرٌ منك،ما أبغض حياة شهر ، أُصلي خمسين ومائة صلاة إلى ضعفها . أو قال : إلى سبعمائة ضعف[1].

مُـرَّة الطَّيِّب :

مرةُ الخير ، مرةُ بن شراحيل ، المدمن للتعبد والمواظب على التهجد .

قال الذهبي في السير (٤/٧٥ ، ٧٦) : « يقال له : مرة الخير ؛ لعبادته وخيره وعلمه . وثقه يحيى بن معين ، وبلغنا عنه أنه سجد لله حتى أكل التراب جبهته .

وعن عطاء بن السائب : رأيت مصلى مرة الهمداني مثل مبرك البعير .

ونقل عطاء وغيره : أن مرة كان يصلي في اليوم والليلة ستمائة .

قال الذهبي : قلت : ما كان هذا الولي يكاد يتفرغ لنشر العلم ، ولهذا لم تكثر روايته ، وهل يراد من العلم إلَّا ثمرته » .

« عن عطاء بن السائب قال : كان مرة يصلي كل يوم وليلة ألف ركعةٍ ، فلما ثقل وبدن صلى أربعمائة ركعة ، وكنت تنظر إلى مباركه كأنها مبارك الإبل .

وقال العلاء بن عبد الكريم الأيامي : كنا نأتي مرة الهمداني ، فيخرج إلينا فنرى أثر السجود في جبهته وكفيه وركبتيه وقدميه . قال : فيجلس معنا هنيئةً ثم يقوم ، فإنما هو ركوع وسجود .

وعن أبي الهذيل قال : قلت لمرة الهمداني ، وكان قد كبر : كم بقي

---

(١) الحلية ٤/١٠٤ .

من صلاتك ؟ قال : شطر ، مائتان وخمسون ركعة كل يوم »[١] .

الإمام الحُجَّة أبو عبد الله عمرو بن ميمون الأودي :

« قال إبراهيم : لما كبر عمرو بن ميمون أُوتد له في الحائط ، وكان إذا سئم من القيام ، أمسك به ، أو يتعلق بحبلٍ »[٢] .

الإمام الحُجَّة ، شيخ الوقت أبو عثمان عبد الرحمن بن مُلّ النَّهْدِي :

قال معاذ بن معاذ : كانوا يرون أن عبادة سليمان التيمي : من أبي عثمان النهدي أخذها .

عن عاصم بن الأحول ، قال : بلغني أن أبا عثمان النهدي كان يصلي ما بين المغرب والعشاء مائة ركعة[٣] .

العلاء بن زياد بن مطر القدوةُ العابد :

قال عنه الذهبي في السير (٤/٢٠٤) : « كان ربانيًا تقيًّا قانتًا لله بكّاءً من خشية الله » .

« قال هشام بن حسان : كان العلاء يصوم حتى يخضر ، ويصلي حتى يسقط ، فدخل عليه أنس والحسن فقالا : إن الله لم يأمرك بهذا كله »[٤] .

« عن هشام بن زياد أخي العلاء ، أن العلاء كان يُحيي ليلة الجمعة[٥] ، فأتاه من أخذ بناصيته وقال : قم يا ابن زيادٍ فاذكر الله يذكرك ، فقام ،

---

(١) الحلية ٤/١٦٢ .
(٢) السير ٤/١٥٨ - ١٦١ .
(٣) السير ٤/١٧٧ .
(٤) الحلية ٢/٢٤٣ .
(٥) أي يقومها حتى الصباح ، وإن كان يقوم غيرها فليس في هذا تخصيصٌ لقيام ليلة الجمعة المنهي عنه .

فما زالت تلك الشعرات التي أخذها منه قائمة حتى مات »[١].

سعيد بن جبير :

قال القاسم بن أبي أيوب : سمعت سعيدًا يردد هذه الآية في الصلاة بضعًا وعشرين مرة : ﴿ واتَّقُوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله ﴾[٢]. [البقرة : ٢٨١] .

وعن هلال بن يساف قال : دخل سعيد بن جبير الكعبة ، فقرأ القرآن في ركعةٍ[٣].

العابِدُ العَلَمُ التّابِعِيُّ عُمير بنُ هانىء :

أخرج الترمذي في « أبواب الدعاء » : عن مسلمة بن عمرو قال : كان عُمير بن هانىء يصلي كل يومٍ ألف ركعة ، ويسبح مائة ألف تسبيحة .

قال أبو العالية : كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيامٍ لأسمع منه ، فأتفقد صلاته ، فإن وجدته يحسنها ، أقمت عليه ، وإن أجده يضيعها ، رحلت ولم أسمع منه ، وقلت : هو لما سواها أضيع[٤].

« وقال سفيان بن عيينة : لا تكن مثل عبد السوء ، لا يأتي حتى يدعى ، ايت الصلاة قبل النداء »[٥].

الإمام مُفتي المدينة وعالمها وأحَدُ الفقهاءِ السَّبعة عبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة :

قال مالك : كان عبيد الله يطول الصلاة ، ولا يعجل عنها لأحدٍ .

---

(١) الحلية ٢/٢٤٤ .
(٢) الحلية ٤/٢٧٢ .
(٣) الزهد لأحمد ص٣٧٠ .
(٤) الحلية ٢/٢٢٠ ، والسير ٤/٢٠٩ .
(٥) التبصرة لابن الجوزي ص١٣١ .

قال : فبلغني أن عليّ بن الحسين جاءه وهو يصلي ، فجلس ينتظره ، وطول عليه ، فعوتب عبيد الله في ذلك ، وقيل : يأتيك ابن بنت رسول الله ﷺ فتحبسه هذا الحبس ؟! فقال : اللهم غفرًا ، لا بد لمن طلب هذا الشأن أن يُعَنَّى[(١)]

زاذان أبو عُمر الكِنْدِيُّ أحَدُ كبار علماء التابِعِين :

« قال عنه زبيد : رأيت زاذان يصلي كأنه جذع »[(٢)].

زَيْنُ العابِدِين عليُّ بن الحسين الإمامُ ابن الإمام :

قال الزهري : ما رأيتُ قُرَشِيًّا أفضل من علي بن الحسين[(٣)].

عن أبي نوحٍ الأنصاري قال : وقع حريقٌ في بيتٍ فيه علي بن الحسين وهو ساجد ، فجعلوا يقولون : يا ابن رسول الله ، النار . فما رفع رأسه حتى طفيت ، فقيل له في ذلك ، فقال : ألهتني عنها النار الأُخرى[(٤)] .

وعن عبد الله بن أبي سليمان قال : كان عليّ بن الحسين إذا مشى لا تجاوز يده فخذيه ولا يخطر بها ، وإذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة ، فقيل له ، فقال : تدرون بين يدي من أقوم ، ومن أُناجي[(٥)].

وعنه ، أنه كان إذا توضأ اصفر[(٦)].

وعن مالك : أحرم علي بن الحسين فلما أراد أن يلبي قالها ، فأُغمي عليه ، فسقط من ناقته فهشم ، ولقد بلغني أنه كان يصلي في كل يوم وليلة

---

(١) السير ٤/٤٧٨ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/٢٨٠ .
(٣) ابن عساكر ١٢/١٨أ ، والمعرفة والتاريخ ١/٥٤٤ .
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/٣٩١ .
(٥) طبقات ابن سعد ٥/٢١٦ ، والحلية ٣/١٣٣ .
(٦) السير ٤/٣٩٢ .

ألف ركعةٍ إلى أن مات ، وكان يسمى زين العابدين لعبادته[1].

رحمك الله يا ابن الحسين ، كان يسمى ذا الثفنات ، وكانت ركبتاه كثفنات البعير .

وعن طاوس : سمعتَ علي بن الحسين وهو ساجد يقول : « عبيدك بفنائك ، مسكينك بفنائك،سائلك بفنائك ، فقيرك بفنائك » . قال : فوالله ما دعوت بها في كربٍ قط إلا كشف عني[2].

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث المخزوميُّ أحَدُ فقهاء المدينة السبعة :

قال ابن سعد : كان يُقال له:راهِب قريش ؛ لكثرة صلاته ، وكان مكفوفًا[3] .

وقال ابن خراش : هو أحد أئمة المسلمين ، هـو وإخوته يضرب بهم المثل[4] .

قال الزبير بن بكار : هو أحد فقهاء المدينة السبعة ، وكان يسمى الراهب ، وكان من سادات قريش[5].

قال أبو داود : كان إذا سجد يضع يده في طشت ماءٍ ؛ لعلَّةٍ كان يجدها[6].

أبو جعفر الباقر السيِّدُ الإمام محمدُ بن عليّ بن الحسين :

عن عبد الله بن يحيى قال : كان أبو جعفر يصلي كل يومٍ وليلةٍ خمسين

---

(١) ابن عساكر ١٢/٢٠أ .
(٢) السير ٤/٣٩٣ .
(٣) الطبقات ٥/٢٠٧ - ٢٠٨ .
(٤) السير ٤/٤١٧ .
(٥) ابن عساكر ٨٦ب .
(٦) السير ٤/٤١٧ .

ركعة بالمكتوبة[١].

رحمك الله يا باقر العلم. قال فيه القرظي:

يا باقرَ العِلْمِ لأَهلِ التُّقَى وخَيْرَ مَنْ لَبَّى على الأَجْبُلِ

وقال فيه مالك بن أعين:

إذا طلب الناسُ عِلْمَ القُرَا نِ كانت قريشٌ عليه عِيالَا
وإن قيل أين ابنُ بنتِ الرسو لِ نلتَ بذلك فرعًا طُوالَا
نجومٌ تهلّلُ للمُدْلجِينَ جبالٌ تُورِّث عِلمًا جِبالَا[٢]

عُروة بن الزُّبير ابنُ حواري الرسول ﷺ وأحد فقهاء المدينة السبعة:

« عن هشام، أن أباه وقعت في رجله الآكلة، فقيل: ألا ندعو لك طبيبًا؟ قال: إن شئتم. فقالوا: نسقيك شرابا يزول فيه عقلك؟ فقال: امض لشأنك، ما كنت أظن أن خلقًا يشرب ما يزيل عقله حتى لا يعرف به. فوضع المنشار على ركبته اليسرى، فما سمعنا له حسًّا، فلما قطعها جعل يقول: لئن أخذتَ لقد أبقيتَ، ولئن ابتليت فقد عافيت. وما ترك جزأه بالقرآن تلك الليلة »[٣].

أي صلاته بالقرآن، وإن جزأه لسبع القرآن.

الإمامُ القُدوةُ الرَّبّانيُّ أبو مُحَيْرِيز عبدُ الله بن محيريز:

قال رجاء بن حيوة، لما مات ابن محيريز: والله لقد كنت أعد بقاء ابن محيريز أمانًا لأهل الأرض[٤].

---

(١) الحلية ٣/١٨٢.
(٢) السير ٤/٤٠٤، ومعجم المرزباني ٢٦٨.
(٣) السير ٤/٤٣٠.
(٤) الحلية ٥/١٤٢.

« وقال الأوزاعي : من كان مقتديًا ، فليقتد بمثل ابن محيريز ، إن الله لم يكن ليضل أُمَّةً فيها ابن محيريز .

وقال رجاء بن حيوة : إن يفخر علينا أهل المدينة بعابدهم ابن عمر ، فإنا نفخر عليهم بعابدنا ابن محيريز » .

« قال عمرو بن عبد الرحمن بن محيريز : كان جدي يختم في كلِّ جمعةٍ ، وربما فرشنا له فلم ينم عليه »[(١)] .

« وقال عبد الله بن عوف القارىء : لقد رأيتنا برودس وما في الجيش أكثر صلاةً في العلانية من ابن محيريز ، ثم قد أقصر عن ذلك حين عُرف وشُهر »[(٢)] .

الإمامُ القُدوةُ أبو عمرو الأسودُ بن يزيد النَّخَعِيُّ :

هو أخو عبد الرحمن بن يزيد ، ووالد عبد الرحمن بن الأسود ، وابن أخي علقمة بن قيس ، وخال إبراهيم النَّخَعي .

فهؤلاء أهل بيت من رؤوس العلم والعمل .

وقد كان الأسود نظير مسروق في الجلالة والعلم والثقة والسن ، يضرب بعبادتهما المثل .

قال الذهبي[(٣)] واليافعي[(٤)]: ورد أنه كان يصلي في اليوم والليلة سبعمائة ركعة .

أبو عبد الله مسلمُ بن يَسَار ، المشاهدُ المبصارُ ، المجاهدُ المحضار :

« قال العلاء بن زياد : لو كنت متمنيًا لتمنيت فقه الحسن ، وورع ابن

---

(١) السير ٤/٤٩٤ - ٤٩٦ .

(٢) الحلية ٥/١٤١ .

(٣) العبر ١/٨٦ .

(٤) مرآة الجنان لليافعي ١/١٥٦ .

سيرين ، وصواب مطرفٍ ، وصلاة مسلم بن يسار »[١] .

« قال جعفر بن حيان : ذكر لمسلم بن يسار قلة التفاته في صلاته ، فقال : وما يدريكم أين قلبي .

وعن حبيب بن الشهيد ، أن مسلم بن يسار كان قائمًا يصلي ، فوقع حريق إلى جنبه ، فما شعر به حتى طفئت النار .

وعن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه ، أنه كان يصلي ذات يومٍ ، فدخل رجلٌ من أهل الشام ففزعوا ، واجتمع له أهل الدار ، فلما انصرفوا قالت له أم عبد الله : دخل هذا الشامي ففزع أهل الدار ، فلم تصرف إليهم - أو كما قالت - قال : ما شعرت .

قال معتمر : وبلغني أن مسلمًا كان يقول لأهله : إذا كانت لكم حاجةٌ فتكلموا وأنا أُصلّي .

وعن عبد الله بن مسلم بن يسار ، عن أبيه قال : ما رأيته يصلي قطُّ إلّا ظننت أنه مريض .

وعن ابن شوذب قال : كان مسلم بن يسار يقول لأهله ، إذا دخل في صلاته في بيته : تحدثوا فلست أسمع حديثكم .

وعن ميمون بن حيان قال : ما رأيت مسلم بن يسار متلفتًا في صلاته قطُّ خفيفةً ولا طويلةً ، ولقد انهدمت ناحيةٌ من المسجد ، ففزع أهل السوق لهدمه ، وإنه لفي المسجد في الصلاة ، فما التفت .

وعن عبد الله بن مسلم بن يسار : كان مسلم بن يسار إذا دخل المنزل ، سكت أهل البيت فلا يسمع لهم كلام ، وإذا قام يصلي ، تكلموا وضحكوا .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٦/٢٤٥ .

وعن غيلان بن جرير قال : كان مسلم بن يسار إذا رُئِيَ وهو يصلي كأنه ثوبٌ مُلقًى .

وعن ابن عونٍ قال : كان مسلم بن يسار إذا كان في غير صلاةٍ ، كأنه في صلاة .

عن معاوية بن قرة قال : دخلت على مسلمٍ فقال : دخلت عليَّ وأنا أدفن بعض جسدي .

قال معاوية : وكان يطيل السجود ، أراه قال : فوقع الدم في ثنيتيه ، فسقطتا فدفنهما .

وقال ابن عون : رأيت مسلم بن يسار يصلي كأنه وتدٌ لا يميل على قدمٍ مرة ولا على قدمٍ مرة »[1].

إذا اشتغلَ اللَّاهُون عنك بشُغْلهم ... جعلتُ اشتغالي فيك يا مُنتهى شغلي

فمن لي بأن ألقاك في ساعة الرِّضا ... ومَنْ لي بأنْ ألقاك والكلُّ لي من لي

هذا والله الخشوع .. وهذه صلاة مسلم بن يسار العابد الذي « لَمَّا مات قال الحسن البصري : وامُعَلِّماه »[2].

« عن عبد الله بن مسلم بن يسار قال : رأيت مسلمًا وهو ساجدٌ ، وهو يقول في سجوده : متى ألقاك وأنت عني راضٍ . ويذهب في الدعاء ، ثم يقول : متى ألقاك وأنت عني راضٍ »[3].

أبو عبد الله وهبُ بن مُنَبِّه بن كامل :

الإمام العلامة الأخباري القصصي .

قال المثنى بن مصباح : لبث وهب بن منبه عشرين سنة لم يجعل بين

---

(١) الحلية ٢/٢٩٠ - ٢٩١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/٥١٣ .

(٣) الحلية ٢/٢٩٢ .

العشاء والصبح وضوءًا[١].

« وقال مسلم الزنجي : لبث وهب بن منبه أربعين سنة لا يرقد على فراش ، وعشرين سنة لم يجعل بين العتمة والصبح وضوءًا .

وعن عبد الصمد بن معقل قال : صحبت عمي وهبًا أشهُرًا يصلي الغداة بوضوء العشاء »[٢].

« عن كثير أنه سار مع وهبٍ ، فباتوا بصعدة عند رجلٍ ، فخرجت بنت الرجل فرأت مصباحًا ، فاطلع صاحب المنزل ، فنظر إليه صافًّا قدميه في ضياءٍ كأنه بياض الشمس ، فقال الرجل : رأيتك الليلة في هيئةٍ . وأخبره فقال : اكتم ما رأيت »[٣] .

وروى عبد الرزاق بن همام عن أبيه ، قال : رأيت وهبًا إذا قام في الوتر قال : « لك الحمد السرمد ، حمدًا لا يحصيه العدد ، ولا يقطعه الأبد ، كما ينبغي لك أن تحمد ، وكما أنت له أهل ، وكما هو لك علينا حق » .

أخي ، الصلاة أول فريضة بعد الإخلاص بالعبادة لله،فأين حظك منها ، وانظر إلى :

طَلْق بن حَبِيب :

الوفي النجيب ، المتعبد اللبيب .

« عن كلثوم بن جبر قال : كان المتمني بالبصرة يقول : عبادة طلق ابن حبيب ، وحلم مسلم بن يسار .

وعن حماد بن زيد ، عن أيوب قال : ما رأيت أعبد من طلق بن حبيب .

---

(١) طبقات ابن سعد ٥٤٣/٥ ، وابن عساكر ٤٧٧/١٧أ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٥٤٧/٤ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٥٤٦/٤ - ٥٤٧ .

قال ابن الأعرابي : كان يقال : فقه الحسن ، وورع ابن سيرين ، وحلم مسلم بن يسار ، وعبادة طلق .

قال سفيان بن عيينة : سمعت عبد الكريم يقول : كان طلق لا يركع إذا افتتح القراءة حتى يبلغ العنكبوت ، وكان يقول : إني أشتهي أن أقوم حتى يشتكي صلبي .

قال طلق : يموت المسلم بين حسنتين ، حسنة قد قضاها ، وحسنة ينتظرها - يعني الصلاة - »[1] .

أخي : استمع إلى قول المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/٣٣٨) : « إن الله تبارك وتعالى قد خص أهل جواره بخاصة اللطف في جنته من الهدايا ، ثوابًا لهم على صلاتهم من بين سائر الأعمال ، فجعل هداياه إلى أوليائه في جنته ، بمقادير صلواتهم في الأوقات التي كانوا يصلونها ، من بين جميع الطاعات وأوقاتها ، فكفى بالصلاة فضلًا ، وحسن عاقبةٍ في الآخرة .

قال بعض أهل العلم : إن كان متواضعًا في الدنيا في صلاته ، خاشعًا ، يأخذ بيده اليسرى باليمنى ، حشر على إخباته في صلاته ، ثوابًا لخشوعه في صلاته ، علامة له من بين الخلائق ، أنه هكذا كان لله في الدنيا ، متذلِّلا إذا قام بين يديه يناجيه » .

أخي : وفر نصيبك من هدايا في الجنة ، وجاهد نفسك في صلاتك حتى تحشر على صورةٍ كريمة .

ليكن لسان حالك : « ما دخل وقت صلاة قط ، حتى أشتاق إليها » .

كن مثل :

عبد الرحمن بن الأسودِ بنِ يزيدَ أبو حفصٍ النَّخَعِيّ :

الفقيه ، الإمام ابن الإمام . كان من المتهجدين العباد .

---

(١) حلية الأولياء ٣/٦٣ - ٦٥ ، وسير أعلام النبلاء ٤/٦٠١ - ٦٠٣ .

« قال الشعبي : أهل بيتٍ خلقوا للجنة : علقمة والأسود وعبد الرحمن .

عن ابن إسحاق قال : قدم علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجًّا ، فاعتلت رجله ، فصلى على قدمٍ حتى أصبح .

وعن الحكم ، أن عبد الرحمن بن الأسود لما احتُضِر ، بكى ، فقيل له ؟ فقال : أسفًا على الصلاة والصوم ، ولم يزل يتلو حتى مات »[١] .

وما أحلى العبادة من أبناء الملوك والخلفاء ، فهذا :

عبدُ الرحمن بنُ يزيدَ بنِ معاويةَ بنِ أبي سفيان :

وكان من الأتقياء العباد .

كان عمر بن عبد العزيز يرق له ؛ لما هو عليه من النسك .

قال الذهبي في السير (٥/٥٠) : « قيل : اجتهد عبد الرحمن بن يزيد في العبادة حتى صار كالشن البالي .

قال المفضل الغلابي : عباد الرحمن من قريشٍ كلهم عابد ، عبد الرحمن ابن زياد بن أبي سفيان ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعبد الرحمن ابن أبان بن عثمان ، وعبد الرحمن بن يزيد بن معاوية »[٢] .

أخي : « لو أحببت المخدوم ، لحضر قلبك في الخدمة . ويحك ، هذا الحديد يعشق المغناطيس ، فكيفما التفت التفت . إن كنت ما رأيت هذا الحجر ، فانظر إلى الحرابي تواجه الشمس ، فكيفما مالت قابلتها .

وإنِّي إذا اصْطَكَّتْ رِقابُ مَطِيِّكُمْ ... وثَوَّرَ حادٍ بالرِّفاقِ عَجُولُ
أُخالِف بين الرَّاحَتَيْنِ على الحَشَا ... وأَنْظُرُ أَنَّى مِلْتُمُ فَأَمِيلُ

يا واقفًا في صلاته بجسده ، والقلب غايب ، ما يصلح ما بذلته من

(١) سير أعلام النبلاء ٥/١١ - ١٢ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٥/٥٠ .

التعبد مهرًا للجنة ، فكيف ثمنًا للجنة ؟! .

أخي : الصلاة مكيال ، من وفى وفِّي له ، ومن طفف طفف عليه .

فكن من قومٍ جدوا في انطلاقهم إلى خلاقهم ، وأذابهم كرب اشتياقهم ، فما الذي حبسك عن لحاقهم ، **قد لزموا محاريبهم** ، وأحاط بهم القلق ودار ﴿ **يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾ [النور : ٣٧] . فهذا :

بلال بن سعد :

المتشمِّر في الوعظ ، المتفكر في الوعد .

قال عنه أبو نعيم الأصبهاني في الحلية : « كان عقولًا عن الله - تعالى - سميعًا ، حمولة في الخدمة رفيعًا ، بليغًا في الموعظة ضليعًا » .

قال عنه الأوزاعي : كان بلال بن سعد من العبادة على شيءٍ لم نسمع أحدًا من أمة محمد ﷺ[1] .

قال الذهبي في السير (٥/٩٠) : « قال الأوزاعي : كان من العبادة على شيءٍ لم نسمع أحدًا قوي عليه ، كان له في كل يومٍ وليلة ألف ركعة » .

فرحمة الله على الإمام الرباني الذي قال عنه ابن المبارك : « كان محل بلال بن سعد بالشام ومصر كمحل الحسن بن أبي الحسن بالبصرة »[2] .

أخي : أما سمعت قول رسولك ﷺ : « الصلاة خير موضوعٍ ، فمن أراد أن يستكثر فليستكثر » .. هذه التجارة مع الله ... وهذه أحلى تجارات الآخرة ، فرحم الله من سمع هذا فاستكثر ، وصار على درب الرجال المستكثرين ، ومنهم :

---

(١) الحلية ٥/٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) الحلية ٥/٢٢٢ .

الإمامُ سليمانُ بنُ مِهْران الأعمش :

الإمام المقرىء ، الراوي المفتي ، كثير العمل ، قليل الأمل .

« قال وكيع : كان الأعمش قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى ، واختلفت إليه قريبًا من ستين ، فما رأيته يقضي ركعةً .

كان يحيى بن القطان إذا ذكر الأعمش قال : كان من النساك ، وكان محافظًا على الصلاة في الجماعة ، وعلى الصف الأول .

قال يحيى : وهو علّامة الإسلام . وكان يحيى يلتمس الحائط حتى يقوم في الصف الأول »[(١)].

الإمامُ القُدْوَةُ الفقيه أبو أسماء ، إبراهيمُ بن يزيدَ التَّيْمِيّ :

عابد الكوفة .

قال الأعمش : كان إبراهيم التيمي إذا سجد ، كأنه جذم حائطٍ ينزل على ظهره العصافير ..

قال إبراهيم التيمي : إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى ، فاغسل يدك منه[(٢)].

مُفتي الحَرَم وشيخُ الإسلام أبو محمد عطاءُ بن أبي رَباح :

قال ابن جريج : كان المسجد فراش عطاءٍ عشرين سنةً ، وكان من أحسن الناس صلاةً[(٣)].

الإمامُ الرَّبّانِيّ أبو الحارث عامرُ بنُ عبدِ الله بنِ الزّبَيْر :

« قال مصعب : سمع عامرٌ المؤذن ، وهو يجود بنفسه ، فقال : خذوا

---

(١) حلية الأولياء ٥/٤٩ - ٥٠ .

(٢) السير ٥/٨٤ .

(٣) السير ٥/٦٠ - ٦٢ .

بيدي . فقيل : إنك عليل . قال : أسمع داعي الله فلا أجيبه ! فأخذوا بيده ، فدخل مع الإمام في المغرب ، فركع ركعةً ثم مات »[١].

أبو محمد ثابتٌ البُنانيّ :

المتعبد الناحل ، والمتهجد الذابل ، الحافظ للحرمة ، المداوم على الخدمة ، الإمام القدوة .

« قال أنس بن مالك : إن للخير مفاتيح ، وإن ثابتًا مفتاحٌ من مفاتيح الخير .

قال ثابت رحمه الله : لا يسمى عابدٌ أبدًا عابدًا - وإن كان فيه كل خصلة خيرٍ - حتى تكون فيه هاتان الخصلتان : الصوم والصلاة ؛ لأنهما من لحمه ودمه »[٢] .

« وعن حماد بن سلمة قال : كان ثابت يقول : اللهم إن كنت أعطيت أحدًا الصلاة في قبره ، فأعطني الصلاة في قبري . فيقال : إن هذه الدعوة استجيبت له ، وإنه رئي بعد موته يصلي في قبره »[٣].

قال يوسف بن عطية : سمعت ثابتًا يقول لحميدٍ الطويل : هل بلغك يا أبا عبيدٍ ، أن أحدًا يصلي في قبره إلّا الأنبياء ؟ قال : لا . قال ثابت : اللهم إن أذنت لأحدٍ أن يصلي في قبره فائْذَنْ لثابتٍ أن يصلي في قبره .

قال : وكان ثابت يصلي قائمًا حتى يَعْيَا ، فإذا أعْيَا جلس ، فيصلي وهو جالس ، ويحتبي في قعوده ويقرأ ، فإذا أراد أن يسجد وهو جالس ، فتح حبوته.

قال ثابت : الصلاة خدمة الله في الأرض ، لو علم الله عز وجل شيئًا

---

(١) السير ٥/٢٢٠ .

(٢) الحلية ٢/٣١٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/٢٢٢ .

أفضل من الصلاة لما قال : ﴿ **فنادتْه الملائكةُ وهو قائمٌ يُصلّي في المحراب** ﴾ [آل عمران : ٣٩].

وقال المبارك بن فضالة : دخلت على ثابت البناني في مرضه ، وهو في علوّ له ، وكان لا يزال يذكر أصحابه ، فلما دخلنا عليه ، قال : يا إخوتاه ، لم أقدر أن أُصلّي البارحة كما كنت أصلي ، ولم أقدر أن أصوم كما كنت أصوم ، ولم أقدر أن أنزل إلى أصحابي ، فأذكر الله عز وجل كما كنت أذكره معهم . ثم قال : اللهم إذ حبستني عن ثلاثٍ ، فلا تدعني في الدنيا ساعة ؛ إذ حبستني أن أصلي كما أريد ، وأصوم كما أريد ، وأذكرك كما أريد ، فلا تدعني في الدنيا ساعةً . فمات من وقته ، رحمه الله .

قال جعفر : حدثنا ثابت البناني قال : كان رجلٌ من العباد يقول : إذا نمت ثم استيقظت ثم ذهبت أعود إلى النوم ، فلا أنام الله عيني !

قال جعفر : كنا نرى ثابتًا إنما يعني نفسه .

قال ثابت : والله للعبادة أشد من نقل الكارات .

وقال رحمه الله : كان يقال : فقه كوفي ، وعبادة بصري .

وعن ابن شوذب قال : ربما مشيت مع ثابتٍ البناني فلا يمر بمسجدٍ إلّا دخل فصلى فيه .

وقال ابن شوذب : ربما مشينا مع ثابتٍ ، فإذا عدنا مريضًا ، بدأ بالمسجد الذي في بيت المريض ، فركع فيه ، ثم يأتي المريض .

وقال حميد : كنا نأتي أنس بن مالك ومعنا ثابتٌ ، فكلما مر بمسجدٍ صلى فيه ، فكنا نأتي أنسًا فيقول : أين ثابت ؟ أين ثابت ؟ إن ثابتًا دويبة أحبها .

وعن حرمي قال : استعان رجلٌ بثابت البناني على القاضي في حاجة ، فجعل لا يمر بمسجد إلّا نزل فصلى ، حتى انتهى إلى القاضي وقد ختمت

القماطر ، فكلمه في حاجة الرجل فقضاها ، فأقبل ثابتٌ على الرجل فقال : لعله شق عليك ما رأيت . قال : نعم . قال : ما صليت صلاة إلَّا طلبت إلى الله تعالى في حاجتك .

وقال جعفر : كان ثابت يخرج إلينا وقد جلسنا في القبلة ، فيقول : يا معاشر الشباب ، حلتم بيني وبين ربي أن أسجد له . وكان قد حببت إليه الصلاة .

قال أنسٌ لثابت : ما أشبه عينيك بعيني رسول الله ﷺ . فما زال يبكي حتى عمشت عيناه .

رحمة الله على تلميذ أنس بن مالك ، ثابت البناني الذي قال : كابدت الصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة .

رحمة الله على تلميذ أنس الذي تأدب معه أستاذه أنسٌ كل الأدب .

قالت جميلة مولاة أنسٍ : كان ثابت إذا جاء ، قال أنسٌ : يا جميلة ، ناوليني طيبًا أمس به يدي ، فإن ابن أُمّ ثابتٍ لا يرضى حتى يقبل يدي ، ويقول : قد مست يد رسول الله ﷺ[١] .

رحمة الله على جبل العبادة ثابت البناني ، الذي تعلمها من أُستاذه أنس .

« قال ثابت : صحبت أنس بن مالك أربعين سنة ، ما رأيت أعبد منه »[٢] .

ربيعةُ بنُ يزيدَ أبو شعيبٍ الإيادِيُّ الدّمشقيّ القصيرُ :

قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/٢٣٩ - ٢٤٠) : « الإمام القدوة .

---

(١) حلية الأولياء بتصرف ٢/٣١٨ - ٣٢٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/٢٢٢ .

قال فرج بن فضالة : كان ربيعة يُفَضَّلُ على مكحول - أعني في العبادة -.

وقال سعيد بن عبد العزيز : لم يكن عندنا أحدٌ أحسن سمتًا في العبادة منه ، ومن مكحول .

قال أبو مسهر : حدثنا عبد الرحمن بن عامر : سمعت ربيعة بن يزيد يقول : ما أذن المؤذن لصلاة الظهر منذ أربعين سنة ، إلَّا وأنا في المسجد ، إلَّا أن أكون مريضًا أو مسافرًا » .

الإمام القانِتُ أبو الخلائِف أبو محمد الهاشِمِيُّ السَّجَّاد علي بن عبد الله بن العباس :

« ذكر عنه الأوزاعي وغيره ، أنه كان يسجد كلّ يومٍ ألف سجدة .

قال علي بن أبي حملة : دخلت على عليٍّ بن عبد الله وكان جسيمًا آدم ، ورأيت له مسجدًا كبيرًا في وجهه .

قال ابن المبارك : كان له خمسمائة شجرة ، يصلي عند كل شجرة ركعتين ، وذلك كل يوم »[١].

الإمام الكبير مُقْرِىء العصر أبو بكرٍ عاصمُ بنُ أبي النَّجُودِ :

« قال زياد بن أيوب : حدثنا أبو بكر قال : كان عاصم إذا صلَّى ينتصب كأنه عود ، وكان يكون يوم الجمعة في المسجد إلى العصر ، وكان عابدًا خيِّرًا ، يصلي أبدًا ، ربما أتى حاجةً ، فإذا رأى مسجدًا قال : مِلْ بنا فإن حاجتنا لا تفوت . ثم يدخل فيصلي »[٢].

صفوان بن سليم الزُّهْرِي :

المجتهد الوفي ، العابد السخي .

---

(١) السير ٥/٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) السير ٥/٢٥٩ .

عن عبد العزيز بن أبي حازم قال : عادلني صفوان بن سليم إلى مكة ، فما وضع جنبه في المحمل حتى رجع .

وقال سليمان بن سالم : كان صفوان بن سليم في الصيف يصلي في البيت ، وإذا كان في الشتاء صلى في السطح ؛ لئلّا ينام .

وقال مالك بن أنس : كان صفوان يصلي في الشتاء في السطح ، وفي الصيف في بطن البيت ، يتيقظ بالحر والبرد حتى يصبح ، ثم يقول : هذا الجهد من صفوان وأنت أعلم . وإنه لتَرِم رجلاه حتى تعود مثل السقط من قيام الليل ، ويظهر فيها عروق خضر . وقال مالك : كان صفوان بن سليم يصلي في قميصٍ لئلّا ينام .

قال أبو ضمرة أنس بن عياضٍ : رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له : غدًا القيامة ، ما كان عنده مزيدٌ على ما هو عليه من العبادة[1] .

قال أبو غسان النهدي : سمعت سفيان بن عيينة – وأعانه على الحديث أخوه محمد –: حلف صفوان ألَّا يضع جنبه بالأرض حتى يلقى الله ، فمكث على ذلك أكثر من ثلاثين عامًا ، فلمَّا حضرته الوفاة ، واشتد به النْزع والعلز[2] وهو جالس فقالت ابنته : يا أبه ، لو وضعت جنبك . فقال : يا بنية ، إذن ما وفيت لله بالنذر والحلف . فمات وإنه لجالسٌ .

قال سفيان : فأخبرني الحفار الذي يحفر قبور أهل المدينة ، قال : حفرت قبر رجلٍ ، فإذا أنا قد وقعت على قبرٍ فوافيت جمجمةً ، فإذا السجود قد أثر في عظام الجمجمة ، فقلت لإنسان : قبر مَنْ هذا ؟ فقال : أو ما تدري ، هذا قبر صفوان بن سليم .

---

(١) الحلية ٣/١٥٨ - ١٥٩ .

(٢) القلق والكرب وشبه رعدة عند الموت .

وعن محمد بن منصور قال : قال صفوان بن سليم : أعطي الله عهدًا أن لا أضع جنبي على فراشٍ حتى ألحق بربي . فبلغني أن صفوان عاش بعد ذلك أربعين سنة لم يضع جنبه ، فلما نزل به الموت ، قيل له : رحمك الله ، هلّا تضطجع ؟ قال : ما وفيت لله بالعهد إذن . فأسند فما زال كذلك حتى خرجت نفسه . قال : ويقول أهل المدينة : إنه بقيت جبهته من كثرة السجود .

قال ابن أبي حازم : دخلت مع أبي على صفوان وهو في مصلاه ، فما زال به أبي حتى ردَّه إلى فراشه ، فأخبرته مولاته قالت : ساعة خرجتم مات[١] .

شيخُ الكوفة الإمام أبو إسحاق السَّبيعيُّ عمرو بن عبد الله الهمداني :

« قال أبو الأحوص : قال لنا أبو إسحاق : يا معشر الشباب اغتنموا - يعني قوتكم وشبابكم - قل ما مرت بي ليلةٌ ، إلَّا وأقرأ فيها ألف آيةٍ ، وإني لأقرأ البقرة في ركعة ، وإني لأصوم الأشهر الحرم ، وثلاثة أيام من كلِّ شهرٍ ، والاثنين والخميس .

قال أبو بكر : قال أبو إسحاق : ذهبت الصلاة مني وضعفت ، وإني لأُصلي فما أقرأ وأنا قائمٌ إلَّا بالبقرة وآل عمران »[٢] .

رحمك الله أبا إسحاق : ما تقرأ في ركعةٍ إلَّا البقرة وآل عمران ، فأين شبيهك في هذا الزمان .

ذَهَبَ الرِّجالُ الصالحون وَأُخِّرَتْ نَتَنُ الرِّجال لذا الزمان المُنْتِنِ

الحافِظُ القُدْوَةُ أبو غياث منصورُ بنُ المُعْتَمِر :

المتفكر المعتبر ، حليف الصيام والقيام ، خفيف التطعم والمنام .

---

(١) السير ٣٦٧/٥ - ٣٦٨ .

(٢) السير ٣٩٧/٥ .

قال عنه الذهبي في السير ٥/٤٠٢ : « كان من أوعية العلم ، صاحب إتقانٍ وتألُّهٍ وخيرٍ » .

« قال عبد الله بن الأجلح : رأيت منصور بن المعتمر ، وكان من أحسن الناس قيامًا في الصلاة » .

« قال أبو بكر بن عياشٍ : رأيت منصور بن المعتمر إذا قام في الصلاة ، وقد عقد لحيته في صدره .

قال الثوري : لو رأيت منصورًا يصلي ، لقلت : يموت الساعة .

قال أبو بكر بن عياش : لو رأيت منصور بن المعتمر وعاصمًا والربيع ابن أبي راشد في الصلاة ، وقد وضعوا لحاهم على صدورهم ، عرفت أنهم من أبرار الصلاة .

قال العلاء بن سالم العبدي : كان منصور يصلي في سطحه ، فلما مات قال غلامٌ لأُمِّه : يا أُمَّهْ ، الجذع الذي كان في سطح آل فلانٍ ، ليس أراه ؟ قالت : يا بني ، ليس ذاك جذعًا ، ذاك منصور قد مات .

عن زائدة قال : إن منصور بن المعتمر صام ستين سنة ، يقوم ليلها ويصوم نهارها ، وكان يبكي فتقول له أُمُّه : يا بني ، قتلت قتيلًا ؟ فيقول : أنا أعلم بما صنعت بنفسي . فإذا كان الصبح ، كحل عينيه ودهن رأسه وفرق شفتيه ، وخرج للناس .

قال جرير بن عبد الحميد : كانت أُمُّ منصور تقول له : إن لعينيك عليك حقًّا ، ولجسمك عليك حقًّا . فكان يقول لها : دعي عنك منصورًا ، فإن بين النفختين نومًا طويلًا .

قال أبو بكر بن عيّاش : رحم الله منصورًا ، كان صوَّامًا قوامًا »(١).

(١) الحلية ٥/٤٠ - ٤١ .

الإمامُ الرَّبّانِيُّ أبو المُغِيرةِ منصورُ بنُ زَاذان :

زين القرَّاء والفتيان ، الميسر له تلاوة القرآن ، شيخ واسطٍ علمًا وعملًا.

« قال ابن سعد : كان ثقةً حجَّةً ، سريع القراءة ، يريد أن يترسل فلا يستطيع ، وكان يختم في الضحى .

قال يزيد بن هارون : كان منصور بن زاذان يقرأ القرآن كله في صلاة الضحى ، وكان يختم القرآن من الأولى إلى العصر ، ويختم في اليوم مرتين ، ويصلي الليل كله .

قال هشيم : كان منصور لو قيل له : إن ملك الموت على الباب ، ما كان عنده زيادةٌ في العمل ، وكان يصلي من طلوع الشمس إلى أن يصلي العصر ، ثم يسبح إلى المغرب »[١] .

عن أبي حمزة قال : رأيت جنازة منصور بن زاذان ، فرأيت الرجال على حدةٍ ، والنساء على حدةٍ ، واليهود على حدةٍ ، والنصارى على حدة[٢].

الزَّاهدُ القُدوةُ : أبو عبد الله كُرْزُ بن وبرة الحارِثُّي :

قال عنه أبو نعيم الحافظ في الحلية (٧٩/٥) : « له الصيت البليغ ، والمكان الرفيع في النسك والتعبد .

عن فضيل بن غزوان قال : لم يرفع كرز بصره إلى السماء أربعين سنة ، وكان له عود عند المحراب يعتمد عليه إذا نعس »[٣] .

وقال فضيل : كان كرز يصلي حتى ترم قدماه ، فيحفر الحفيرة – يعني تحت رجليه –.

وقيل : كان كرز لا ينزل منزلًا إلَّا ابْتَنَى فيه مسجدًا فيصلي فيه .

---

(١) السير ٤٤١/٥ – ٤٤٢ .

(٢) الحلية ٥٧/٣ .

(٣) السير ٨٥/٦ .

« قال ابن عيينة : سمعت ابن شبرمة يقول : قلت لابن هبيرة :

لو شئتَ كنتَ كَكُرزٍ في تعبُّدِهِ   أو كابْنِ طارِقٍ حَوْلَ البَيْتِ في الحَرَمِ
قد حال دُونَ لذيذِ العيش خَوْفهما   وسَارَعا في طلابِ الفَوْز والكَرَمِ

فقال لي ابن هبيرة : من كرز ، ومَنِ ابن طارقٍ ؟ قال : قلت : أما كرزٌ فكان إذا كان في سفرٍ واتخذ الناس منزلًا ، اتخذ هو منزلًا للصلاة »[1].

« قال خلف بن تميم : سمعت أبي يذكر ، قال : قدم علينا كرز بن وبرة الحارثي من جرجان ، فانجفل إليه قُرَّاءُ الكوفة ، فكنت فيمن أتاه ، وما سمعت منه إلَّا كلمتين ؛ قال : صلوا على نبيكم ﷺ ، فإن صلاتكم تعرض عليه . قال : وقال : اللهم اختم لنا بخير . وما رأيت في هذه الأمة أعبد من كرز ، كان لا يفتر يصلي في المحمل ، فإذا نزل من المحمل ، افتتح الصلاة .

وعن ابن شبرمة : صحبت كرزًا في سفرٍ ، وكان إذا مر ببقعةٍ نظيفة ، نزل فصلى .

قال أبو سليمان المكتب : صحبت كرزًا إلى مكة ، فكان إذا نزل أخرج ثيابه ، فألقاها في الرحل ، ثم تنحى للصلاة ، فإذا سمع رغاء الإبل أقبل ، فاحتبس يومًا عن الوقت ، فانبث أصحابه في طلبه ، فكنت فيمن طلبه . قال : فأصبته في وهدةٍ يصلي في ساعةٍ حارةٍ ، وإذا سحابة تظله ، فلما رآني أقبل نحوي فقال : يا أبا سليمان ، لي إليك حاجة . قلت : وما حاجتك يا أبا عبد الله ؟ قال : أُحِبّ أن تكتم ما رأيت . قال : قلت : ذلك لك يا أبا عبد الله . فقال : أوثق لي . فحلفت أن لا أُخبر به أحدًا حتى يموت .

---

(١) الحلية ٥/٨٢ .

قال أبو داود الحفري : دخلت على كرز بن وبرة بيته ، فإذا هو يبكي ، فقلت له : ما يُبكيك ؟ قال : إن بابي مغلق ، وإن ستري لمسبل ، ومنعت حزبي أن أقرأه البارحة ، وماَ هو إلَّا من ذنبٍ أحدثته »[١] .

« عن فضيل بن غزوان قال : دخلت على كرزٍ بيته ، فإذا عند مُصلّاه حفيرةٌ ، قد ملأها تبنًا وبسط عليها كساء من طول القيام .

عن أبي بشر قال : كان كرز بن وبرة من أعبد الناس ، وكان قد امتنع من الطعام ، حتى لم يوجد عليه من اللحم إلَّا بقدر ما يوجد على العصفور ، وكان يطوي أيامًا كثيرة ، وكان إذا دخل في الصلاة لا يرفع طرفه يمينًا ولا شمالًا ، وكان من المحبين المخبتين لله ، قد وله من ذلك ؛ فربما كلم فيجيب بعد مدةٍ ، من شدة تعلق قلبه بالله واشتياقه إليه .

قال الذهبي : هكذا كان زهاد السلف وعبادهم ، أصحاب خوفٍ وخشوعٍ وتعبُّدٍ وقُنوعٍ »[٢].

الإمامُ الرَّبّانِيُّ القُدوةُ أبو عبد الله محمدُ بنُ واسعٍ :

العامل الخاشع والخامل الخاضع . كان لله عاملا ، وفي نفسه خامِلا . كان الحسن يسميه « زين القُرَّاء » .

« عن موسى بن يسار قال : صحبت محمد بن واسع إلى مكة ، فكان يصلي الليل أجمعه ، يصلي في المحمل جالسًا ويومئُ »[٣] .

« رَحِمَه اللَّهُ ، كان عالمًا واعيًا ، لا ناقِلًا راوِيًا ، وَعَى فارْعَوَى ، ونَوَى فاسْتَوَى ، قليلُ الكلام والرِّواية ، طويل الصِّيام والسّعاية »[٤].

---

(١) الحلية ٥/٧٩ - ٨١ .

(٢) سير ٦/٨٤ - ٨٦ .

(٣) السير ٦/١٢١ .

(٤) الحلية ٢/٣٥٤ .

المتعبِّدُ المتهجِّدُ ، المتثبِّتُ المتشدِّدُ ، شيخُ الإسلام الرَّبّانِيُّ أبو المُعتَمِر سليمانُ ابنُ طرخانَ التَّيمِيُّ :

« روى مثنى بن معاذ عن أبيه قال : ما كنت أُشبه عبادة سليمان التيمي إلَّا بعبادة الشاب أول ما يدخل في تلك الشدة والحدة »(١).

« قال حماد بن سلمة : ما أتينا سليمان التيمي في ساعةٍ يطاع الله عز وجل فيها ، إلَّا وجدناه مطيعًا ، إن كان في ساعة صلاةٍ ، وجدناه مصلِّيًا ، وإن لم تكن ساعة صلاة ، وجدناه : إما متوضِّئًا ، أو عائدًا مريضًا ، أو مشيِّعًا لجنازةٍ ، أو قاعدًا في المسجد . قال : فكنا نرى أنه لا يحسن يعصي الله عز وجل .

وقال معتمر بن سليمان التيمي لمحمد بن عبد الأعلى : لولا أنك من أهلي ما حدثتك عن أبي بهذا ، مكث أبي أربعين سنة : يصوم يومًا ويُفطر يومًا ويصلي الصبح بوضوء العشاء ، وربما أحدث الوضوء من غير نومٍ .

وقال يحيى بن المغيرة : زعم جريرٌ أن سليمان التيمي لم تمر ساعة قطُّ إلَّا تصدق بشيءٍ ، فإن لم يكن شيءٌ صلى ركعتين »(٢).

وقال محمد بن عبد الله الأنصاري : كان التيمي عامة دهره يصلي العشاء والصبح بوضوءٍ واحد ، وليس وقت صلاةٍ إلَّا وهو يصلي ، وكان يسبح بعد العصر إلى المغرب ، ويصوم الدهر ، وانصرف الناس يوم عيدٍ من الجبان فأصابتهم السماء ، فدخلوا مسجدًا فتعاطوا فيه ، فإذا رجلٌ متقنعٌ قائمٌ يصلي ، فنظروا فإذا سليمان التيمي .

وقال يحيى بن سعيد القطان : خرج سليمان التيمي إلى مكة ، فكان يصلي الصبح بوضوء عشاء الآخرة ، وكان يأخذ بقول الحسن : إنه إذا غلب النوم على قلبه توضّأ . وكان يحيى يتعجب من صبر التيمي .

---

(١) السير ٦/١٩٥ - ٢٠٢ .
(٢) الحلية ٣/٢٨ .

قال سليمان التيمي لأهله : هلموا حتى نجزىء الليل ، فإن شئتم كفيتكم أوله ، وإن شئتم كفيتكم آخره .

وقال معمرٌ مؤذن التيمي : صلى إلى جنبي سليمان التيمي بعد العشاء الآخرة ، وسمعته يقرأ : ﴿ **تبارك الذي بيده الملك** ﴾ [الملك : ١] قال : فلمَّا أتى على هذه الآية : ﴿ **فلمّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وجوهُ الذين كفروا** ﴾ [الملك: ٢٧] جعل يرددها حتى خف أهل المسجد فانصرفوا . قال : فخرجت وتركته . قال : وعدوت لأذان الفجر ، فنظرت فإذا هو في مقامه . قال : فسمعت ، فإذا هو فيها لم يجزها وهو يقول : ﴿ **فلمّا رأوه زُلفةً سِيئت وجوهُ الذين كفروا** ﴾ .

وقال حماد بن سلمة : كان سليمان التيمي طوى فراشه أربعين سنة ، ولم يضع جنبه بالأرض عشرين سنة .

قال معاذ بن معاذ : كنت أرى سليمان التيمي كأنه غلامٌ حدثٌ قد أخذ في العبادة ، وكانوا يرون أنه قد أخذ عبادته عن أبي عثمان النهدي(١) .

قال ابن سعد : « كان سليمان التيمي من العباد المجتهدين كثير الحديث ، ثقة ، يصلي الليل كله بوضوء عشاء الآخرة ، وكان هو وابنه يدوران بالليل في المساجد ، فيصليان في هذا المسجد مرة ، وفي هذا المسجد مرة ، حتى يصبحا »(٢) .

الوَرِعُ البَكَّاءُ ، كَهْمَسُ بنُ الحسن أبو عبد الله الدَّعَّاءُ :

« قال الهيثم بن معاوية عن شيخٍ من أصحابه ، قال : كان كهمس

---

(١) الحلية ٣/٢٧ - ٣٠ .

(٢) السير ٦/١٩٥ - ٢٠٢ .

يصلي ألف ركعةٍ في اليوم والليلة ، فإذا مل قال لنفسه : قومي يا مأوى كل سوءٍ ، فوالله ما رضيتك لله ساعةً قطٌّ .

كان رحمه الله يقول في جوف الليل : أراك معذبي وأنت قرة عيني ، يا حبيب قلباه »[١].

الإمامُ المَرْضِيُّ ، والوَرِعُ السَّرِيُّ ، أبو عبد الله سفيانُ الثَّوْرِيُّ :

قال عنه شعبة : سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث .

قال عنه ابن عيينة : أئمة الناس ثلاثةٌ بعد أصحاب رسول الله ﷺ ؛ ابن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه ، وسفيان الثوري في زمانه .

وقال بشر بن الحارث : سفيان الثوري عندي إمام الناس .

قال رحمه الله :

إذا أنت لم تَرْحَل بزادٍ من التُّقَى ولاقيتَ بعدَ الموت مَنْ قد تَزَوَّدَا
ندمتَ على أن لا تكونَ كمِثله وأنَّك لم تَرْصُدْ كما كان أَرْصَدَا

« قال عبد الرزاق : دعا سفيان بطعامٍ فأكله ، وبتمرٍ وزبدٍ فأكله ، ثم قام يصلي حين زالت الشمس إلى العصر ، وقال : أحسنوا إلى الزنجي وكدوه »[٢].

وقال أيضًا : « لما قدم سفيان علينا ، طبخت له قدر سِكْبَاج[٣] فأكل ، ثم أتيته بزبيب الطائف فأكل ، ثم قال : يا عبد الرزاق ، اعلف الحمار وكده . ثم قام يصلي حتى الصباح .

قال ابن وهب : رأيت سفيان في الحرم بعد المغرب صلى ، ثم سجد سجدةً ، فلم يرجع حتى نودي بالعشاء .

---

(١) الحلية ٦/٢١١ - ٢١٣ .
(٢) الحلية ٦/٣٨٩ .
(٣) السِّكْباج : لحمٌ يُطبخ بخَلٍّ .

وقال أحمد بن يونس : حدثنا علي بن الفضيل : رأيت الثوري ساجدًا ، فطفت سبعة أسابيع[١] قبل أن يرفع رأسه .

وعن مؤمل بن إسماعيل قال : أقام سفيان بمكة سنةً ، فما فتر من العبادة سوى من بعد العصر إلى المغرب ، كان يجلس مع أصحاب الحديث ، وذلك عبادة .

وعن ابن مهدي : كنت لا أستطيع سماع قراءة الثوري من كثرة بكائه »[٢] .

قال سفيان ، وهو القوام لليل دائمًا : « حرمت قيام الليل بذنبٍ أحدثته ، خمسة أشهرٍ .

وقال مزاحم بن زفر : صلى بنا سفيان الثوري المغرب ، فقرأ حتى بلغ : إياك نعبُد وإياك نستعين ، بكى حتى انقطعت قراءته ، ثم فعاد فقرأ : الحمد لله »[٣] .

قال يحيى بن سعيد القطان : ما رأيت رجلًا أفضل من سفيان لولا الحديث ، كان يصلي ما بين الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء صلاة ، فإذا سمع مذاكرة الحديث ، ترك الصلاة وجاء .

رحم الله الثوري ، لقد خالط حب الحديث لحمه ودمه .

قال عبد الرزاق : اجتمع سفيان وأصحابه ، فقال سفيان : حدثنا منصور عن إبراهيم عن علقمة ، ثم قال : هذا الشرف على الكراسي[٤] .

---

(١) الأسبوع هنا : الطواف الكامل حول الكعبة مرةً واحدةً ، فالمراد أنه طاف سبعًا .
(٢) السير ٢٧٧/٧ .
(٣) الحلية ١٧/٧/٣ .
(٤) الحلية ٢١/٧ .

قال عبد الرحمن بن إسحاق الكناني : لمَّا مات سفيان ، حملته إلى المغتسل فحللت إزاره ، فإذا فيها رقعة فيها أطراف الحديث(١) .

قال الحواري بن أبي الحواري : رأيت سفيان الثوري يصلي قائمًا حتى تغلبه عيناه ، ثم يصلي قاعدًا حتى يُعنَّى فيضطجع ، فيصلي مضطجعًا .

وقال الفرياني : كان سفيان الثوري يصلي ، ثم يلتفت إلى الشباب فيقول : إذا لم تصلوا اليوم فمتى ؟! .

وقال يحيى بن يمان : رأيت سفيان يخرج يدور بالليل ، وينضح في عينيه الماء حتى يذهب عنه النعاس .

قال إسحاق بن إبراهيم الحنيني : كنا في مجلس سفيان الثوري ، وهو يسأل رجلًا رجلًا عما يصنع في ليله ، فيخبره ، حتى دار القوم ، فقالوا : يا أبا عبد الله ، قد سألتنا فأخبرناك ، فأخبرنا أنت كيف تصنع في ليلك . قال : لها عندي أول نومةٍ ؛ تنام ما شاءت لا أمنعها ، فإذا استيقظت فلا أُقيلها والله(٢).

« قال عبد الرحمن بن مهدي : ما عاشرت في الناس رجلًا هو أرق من سفيان .

قال ابن مهدي : وكنت أُرامقُه الليلة بعد الليلة ، فما كان ينام إلَّا في أول الليلة ، ثم ينتفض فزعًا مرعوبًا ، ينادي : النار ، شغلني ذكر النار عن الشهوات . كأنه يخاطب رجلًا في البيت ، ثم يدعو بماءٍ إلى جانبه ، فيتوضأ ثم يقول على إثر وضوئه : اللهم إنك عالمٌ بحاجتي غير معلم بما أطلب ، وما أطلب إلَّا فكاك رقبتي من النار ، اللهم إن الجزع قد أرقني من الخوف فلم يؤمني ، وكل هذا من نعمتك السابغة علي ، وكذلك فعلت بأوليائك وأهل طاعتك ، إلهي قد علمت أن لو كان لي عذرٌ في التخلي ،

(١) (٢) الحلية ٧/٦٠ - ٦٢ .

ما أقمت مع الناس طرفة عينٍ . ثم يقبل على صلاته ، وكان البكاء يمنعه من القراءة ، حتى إني كنت لا أستطيع سماع قراءته من كثرة بكائه .

قال ابن مهدي : وما كنت أقدر أن أنظر إليه ؛ استحياءً وهيبةً منه .

قال أبو زيد عبثر : قرأ سفيان ليلةً : ﴿ **إنّا كُنّا قَبْلُ في أهلنا مشفقين** ﴾ [الطور : ٢٦] فخرج فارًّا على وجهه ، حتى لحقوه ، واجتمعت بنو ثورٍ على سفيان وهو شابٌّ ، يناشدونه مما كان فيه من العبادة - أي أقصر عن هذا - »[١] .

قال عبد الله بن الفرج : لما قضى سفيان حجه صار إلى البصرة ، فنزل على بقالٍ في جوار يحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي ، فقال لي البقال : ما زال ليلةَ مات يقوم فيتمسح للصلاة ، حتى عددت له خمسين مرةً ، ثم مات من آخر الليل ، رحمةُ الله تعالى عليه[٢] .

قال قبيصة : رأيت سفيان الثوري في النوم ، فقلت : ما فعل بك ربك ؟ فقال :

نظرتُ إلى ربِّي كِفاحًا فقال لي ... هنيئًا رِضائي عنك يا ابن سعيدِ
فقد كُنتَ قوَّامًا إذا أقْبَلَ الدُّجى ... بعَبْـرَةِ مُشتاقٍ وقَلْبِ عَميـدِ
فَدُونَكَ فاخْتَرْ أيَّ قَصْرٍ أردتَهُ ... وزُرْني فإني منك غيرُ بعيدِ[٣]

العَلَم المنشور ، والحَكَم المشهور ، الإمام المبجَّل ، والمقدام المفضَّل واحِدُ زمانِهِ ، وإمامُ عصرِهِ وأوانِهِ ، شيخُ الإسلام وعالمُ أهْلِ الشامِ أبو عمرٍو عبدُ الرحمن بن عمرٍو الأوْزاعِيُّ :

سئل رحمه الله عن الخشوع في الصلاة ، قال : غضُّ البصر ، وخفض

(١) الحلية ٦٠/٧ - ٦٢ .
(٢) الحلية ٤٧/٧ .
(٣) الحلية ٧٤/٧ .

الجناح ، ولين القلب ، وهو الحزن ، الخوف .

قال الوليد بن مزيد : كان الأوزاعي من العبادة على شيءٍ ما سمعنا بأحدٍ قوي عليه ، ما أتى عليه زوال قطُّ ، إلَّا وهو قائم يصلي .

قال الأوزاعي رحمه الله : من أطال قيام الليل ، هوَّن الله عليه وقوف يوم القيامة .

قال الوليد بن مسلم : ما رأيت أكثر اجتهادًا في العبادة من الأوزاعي .

وقال ضمرة بن ربيعة : حججنا مع الأوزاعي سنة خمسين ومائة ، فما رأيته مضطجعًا في المحمل في ليلٍ ولا نهارٍ قطُّ ، كان يصلي ، فإذا غلبه النوم استند إلى القتب .

وعن سلمة بن سلام : نزل الأوزاعي على أبي ، ففرشنا له فراشًا فأصبح على حاله ، ونزعت خفيه ، فإذا هو مبطن بثعلب[1] .

« قال عبيدة بن عثمان : من نظر إلى الأوزاعي اكتفى به ، بما يرى عليه من أثر العبادة ، كنت إذا رأيته قائمًا يصلي ، كأنما تنظر إلى جسدٍ ليس فيه روح »[2] .

قال بشر بن المنذر : رأيت الأوزاعي كأنه أعمى من الخشوع .

قال أبو مسهر عنه : كان يحيي الليل صلاة وقرآنًا وبكاءً ، وأخبرني بعض إخواني من أهل بيروت ، أن أمه كانت تدخل منزل الأوزاعي ، وتتفقد موضع مُصلّاه ، فتجده رطبًا من دموعه في الليل[3] .

« دخلت امرأةٌ كانت لها صلةٌ بزوج الأوزاعي ، فنظرت فوجدت بللًا في مسجده ؛ في موضع سجوده ، فقالت لها : ثكلتك أُمُّكِ ، أراك غفلت

(١) السير ٧/١١٩ .
(٢) الجرح والتعديل ١/٣١٨ .
(٣) السير ٧/١١٩ - ١٢٠ .

عن بعض الصبيان حتى بال في مسجد الشيخ . فقالت لها : ويحك ، هذا يصبح كل ليلةٍ من أثر دموع الشيخ في سجوده »[١] .

نَزَف البكاءُ دموعَ عَيْنِكَ فاسْتَعِرْ عينًا لغيْـرِكَ دَمْعُها مِـدْرارُ
مَنْ ذا يُعيرُكَ عينَهُ تبكي بها أرأيـت عيْنًا للدُّموعِ تُعـارُ

نضر الله وجهك أبا عمرٍو بالنظر إلى وجهه ، كما أفنيت دمعك في تهجدك .

شيخُ العراق ، المعظِّم للمعالي العِظام ، المسَلِّم مُدَّته بمُصاحَبةِ الأعِفَّة الكِرام ، أبو سلمة مِسْعَرُ بنُ كِدَام :

كان للحق ناصحًا ودودًا ، وفي عبادة ربه كادحًا كدودًا .

« قال سفيان بن عيينة عنه : ما رأيت أفضل من مسعر ، كان مسعر من معادن الصدق .

عن خالد بن عمرو قال : رأيت مسعرًا كأن جبهته ركبة عنزٍ من السجود »[٢] .

« قال أبو الوليد الضبي : رأيت شيخًا من الأعراب له سِنٌّ ، يتوكأ على محجنٍ ، قد قصد مسعر بن كدام فوجده يصلي ، فأطال مسعر الصلاة ، فأعيا الشيخ فجلس ، فلما فرغ مسعر من صلاته ، قال الشيخ : خذ من الصلاة كفيلًا . فقال له مسعر : اقصد لما يبقى عليك نفعه »[٣] .

وقال رحمه الله : من همته نفسه ، تبين ذلك عليه .

أميرُ المؤمنين في الحديث ، المتثبِّتُ المِحْجاجُ أبو بِسْطَامٍ شُعْبَةُ بن الحَجّاجِ :

كان حماد بن زيد إذا حدث عن شعبة قال :

حدَّثنا الضَّخْمُ عن الضِّخامْ شُعْبَةُ الخيرِ أبو بِسطَامْ

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢١٨/١ ، البداية والنهاية ١١٧/١٠ .
(٢) السير ١٦٥/٧ .
(٣) الحلية ٢٢٢/٧ .

قال يحيى بن معين : شعبة إمام المتقين .

وقال أبو زيد الأنصاري : هل العلماء إلا شعبة من شعبة .

وكان الثوري يقول : ما فعلَ أُستاذنا شعبة .

قال أبو قطن : ما رأيت شعبة ركع قطُّ ، إلّا ظننت أنه نسي ، ولا قعد بين السجدتين ، إلّا قلت : قد نسي . وقال : كانت ثياب شعبة كالتراب ، وكان كثير الصلاة ، سخيًّا .

قال أبو بحر البكراوي : ما رأيت أَحَدًا أَعْبَدَ لله من شعبة ، لقد عبد الله حتى جف جلده على عظمه واسود . [حتى جفَّ جِلْدُهْ على ظهره ، ليس بينهما لحم] .

قال عبد السلام بن مطهر : ما رأيت أحدًا أمعن في العبادة من شعبة رحمه الله .

وقال عبد العزيز بن أبي رواد : كان شعبة إذا حك جسمه ، انتثر منه التراب ، وكان سخيًّا كثير الصلاة .

وقال عفان : كان شعبة من العُبّاد[(١)] .

رحم الله شعبة العابد العالم ، الذي خالطت العبادة والحديث لحمه ودمه ، قال رحمه الله : « إن الذين يطلبون الحديث على الدواب لا يفلحون .

وقال : إني لأُذاكر بالحديث قد فاتني فأمرض »[(٢)] .

فأي همة أعلى من هذه الهمة الشريفة والشريف صاحبها .

شيخُ الإسلام القُدوةُ حمَّاد بنُ سلمة :

« قال عبد الرحمن بن مهدي : لو قيل لحماد بن سلمة : إنك تموت غدًا . ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا .

---

(١) السير ٢٠٢/٧ - ٢٢٨ .

(٢) الحلية ١٥٥/٧ - ١٥٦ .

قال الذهبي : قلت : كانت أوقاته معمورة بالتعبد والأوراد .

قال موسى بن إسماعيل : لو قلت لكم : إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكًا ؛ لصدقت ؛ كان مشغولًا : إما أن يحدث أو يقرأ أو يسبح أو يصلي ، قد قسم النهار على ذلك .

قال يونس بن محمد المؤدب : مات حماد بن سلمة في الصلاة في المسجد »[(١)].

رحم الله من كانت خاتمته في الصلاة جماعة .

شيخُ الإسلام وبَقِيَّةُ الأعلام ، القارِىءُ الهشَّاش ، العابِدُ البشَّاشُ ، أبو بكر ابنُ عَيَّاش :

كان في العداد واحدا ، وفي العبادة شاهدا . ارتقاء لاقتراب ، وانتصاب في ارتقاب .

« قال رحمه الله : قال لي رجلٌ مرةً وأنا شابٌّ : خلص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رق الآخرة ؛ فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبدًا . قال : فما نسيتها أبدًا »[(٢)].

« قال الأحمسي : ما رأيت أحدًا أحسن صلاةً من أبي بكر بن عياش .

وعن أبي عبد الله النخعي قال : لم يفرش لأبي بكر بن عياش فراشٌ خمسين سنة .

وقال يزيد بن هارون : كان أبو بكر بن عياش خيِّرًا فاضلًا ، لم يضع جنبه على الأرض أربعين سنة »[(٣)].

---

(١) السير ٧/٤٤٤ - ٤٥٦ .

(٢) الحلية ٨/٣٠٣ .

(٣) السير ٨/٤٩٥ - ٥٠٣ .

الإمامُ القُدوةُ مُفتي دمشق : أبو عبد العزيز سعيدُ بنُ عبد العزيز التَّنُوخِيُّ :

« قال أبو حاتم الرازي : كان أبو مسهر يقدّم سعيدًا على الأوزاعي .

وقال الحاكم : سعيد بن عبد العزيز لأهل الشام كمالكٍ لأهل المدينة في التقدم والفقه والأمانة .

قال عنه إسحاق بن إبراهيم أبو النضر : كنت أسمع وقع دموع سعيد ابن عبد العزيز على الحصير في الصلاة .

قال أحمد بن أبي الحواري : حدثني أبو عبد الرحمن الأسدي ، قال : قلت لسعيد بن عبد العزيز : ما هذا البكاء الذي يعرض لك في الصلاة ؟ فقال : يا ابن أخي ، وما سؤالك عن ذلك ؟ قلت : لعل الله أن ينفعني به . فقال : ما قمت إلى صلاةٍ إلَّا مثلت لي جهنم »[1].

هذا والله الخشوع .. وهذه والله هي الصلاة التي هي قرة عين صاحبها .

« قال محمد بن المبارك الصوري : كان سعيد إذا فاتته صلاة الجماعة بكى »[2].

وهذا والله بكاء الرجال .

« قال الوليد بن مسلم : كان سعيد بن عبد العزيز يُحيي الليل ، فإذا طلع الفجر ، جدّد وضوءه وخرج إلى المسجد »[3].

الإمامُ المحدِّث الرَّبّانيّ أبو محمد الأزديُّ السليميُّ بِشْر بن منصورٍ :

المتعبد العليم ، المتوجد السليم ، أستاذ عليٍّ بن المديني ، وعبد الرحمن ابن مهدي ،وبشر الحافي .

---

(١) السير ٣٢/٨ - ٣٤ .

(٢) الحلية ١٢٦/٦ .

(٣) السير ٣٥/٨ .

قال عنه عبد الرحمن بن مهدي : لم أر مثله .

قال العباس بن الوليد بن نصر : كان بشر بن منصور يستحب أن يصلي بالأوقات ولا يتحرى .

قال غسَّان بن الفضل : كان بشر بن منصور من الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله ، وإذا رأيت وجهه ذكرت الآخرة .

قال أسيد بن جعفر ابن أخي بشر بن منصور : بشر بن منصور ما فاتته التكبيرة الأُولى قط[1] .

قال ابن مهدي : ما رأيت أحدًا أقدمه عليه في الورع والرقة .

وقال علي بن المديني : ما رأيت أحدًا أخوف لله من بشر بن منصور ، كان يصلي كل يوم خمسمائة ركعة .

قال سهل بن منصور : كان بشر يصلي فيطول ، ورجل وراءه ينظر ، ففطن له ، فلما انصرف قال : لا يعجبك ما رأيت مني ، فإن إبليس قد عبد دهرًا مع الملائكة[2] .

شيخُ الإسلام الإمامُ أبو عبد الله جريرُ بن عبد الحميد :

قال علي بن المديني : كان جرير بن عبد الحميد صاحب ليلٍ ، وكان له رسن ، يقولون : إذا أعيا تعلق به ، يريد أنه كان يصلي[3] .

الإمام الحافظُ وكيعُ بنُ الجرَّاح :

قال يحيى بن أيوب : حدثني بعض أصحاب وكيع الذين كانوا يلزمونه ، أن وكيعًا كان لا ينام حتى يقرأ جُزْأَهُ من كل ليلة ثلث القرآن ،

---

(١) الحلية ٦/٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) السير ٨/٣٦٠ - ٣٦١ .

(٣) السير ٩/٩ - ١٨ .

ثم يقوم في آخر الليل ، فيقرأ المفصل ، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر .

قال إبراهيم بن وكيع : كان أبي يصلي فلا يبقى في دارنا أحدٌ إلَّا صلّى ، حتى جارية لنا سوداء .

وقال أحمد بن سنان : رأيت وكيعًا إذا قام في الصلاة ، ليس يتحرك منه شيءٌ ، لا يزول ولا يميل على رِجْلٍ دون الأخرى(١) .

الإمام الرَّضيّ ، والزِّمام القويّ عبد الرحمن بن مهدي :

عن يحيى بن عبد الرحمن بن مهدي ، أن أباه قام ليلةً – وكان يُحيي الليل كله – فلمّا طلع الفجر ، رمى بنفسه على الفراش ، فنام عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس ، فقال : هذا مما جنى عليَّ هذا الفراش ، فجعل على نفسه أن لا يجعل بينه وبين الأرض وجلده شيئًا شهرين ، **فقرَّح** فخذيه جميعًا(٢) .

« قال عبد الرحمن رسته : سألت ابن مهدي عن الرجل يبني بأهله ، أيترك الجماعة أيامًا ؟ قال : لا ، ولا صلاة واحدة . وحضرته صبيحة بني على ابنته ، فخرج فأذن ، ثم مشى إلى بابهما ، فقال للجارية : قولي لهما : يخرجان إلى الصلاة . فخرج النساء والجواري ، فقلن : سبحان الله ! أي شيءٍ هذا ؟! فقال : لا أبرح حتى يخرجا إلى الصلاة . فخرجا بعدما صلَّى ، فبعث بهما إلى مسجدٍ خارج الدرب »(٣) .

قال الذهبي : هكذا كان السلف في الحرص على الخير(٤) .

---

(١) السير ٩/١٤٨ – ١٤٩ ، ١٥٧ .
(٢) الحلية ٩/١٢ .
(٣) الحلية ٩/١٣ .
(٤) السير ٩/٢٠٤ .

الإمامُ القُدوةُ أبو خالد يزيدُ بن هارونَ بنِ زاذي السلمي :

قال عنه الذهبي في السير ٩/٣٥٨ : « كان رأسًا في العلم والعمل ، ثقة حجة ، كبير الشأن .

قال أحمد بن سنان القطان : ما رأينا عالمًا قط أحسن صلاةً من يزيد ابن هارون ، يقوم كأنه أسطوانة ، لم يكن يفتر من صلاة الليل والنهار .

وعن عاصم بن علي قال : كنت أنا ويزيد بن هارون عند قيس بن الربيع ، فأما يزيد فكان إذا صلى العتمة ، لا يزال قائمًا حتى يصلي الغداة بذلك الوضوء نيِّفًا وأربعين سنة .

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ نزيل مكة : قال رجل ليزيد بن هارون : كم جزؤك ؟ قال : وأنام من الليل شيئًا ؟! إذن لا أنام الله عيني .

قال أحمد بن عبد الله العجلي : يزيد بن هارون ثقة متعبد حسن الصلاة جدًّا ، يصلي الضحى ست عشرة ركعة ، بها من الجودة غير قليل »[١] .

قال أحمد بن سنان : كان يزيد وهشيم معروفين بطول صلاة الليل والنهار[٢].

الإمام الحافظ مقرىء البصرة وأحد القُرّاء العشرة ، يعقوب بن إسحاق ابن زيد الحضرمي :

« أبوه من القُرَّاءِ كانَ وجَدُّهُ ويعقوبُ في القُرَّاءِ كالكوكبِ الدُّرِّي
تفرُّدُهُ مَحْضُ الصَّوابِ وَوَجْهُهُ فَمَنْ مِثْلُهُ في وَقْتِهِ وإلى الحَشْرِ

قال أبو القاسم الهذلي في « كامله » : ومنهم يعقوب الحضرمي ، لم يُر

(١) تاريخ بغداد ١٤/٣٤٠ - ٣٤١ .
(٢) السير ٩/٣٦١ .

في زمانه مثله ، كان عالمًا بالعربية ووجوهها ، والقرآن واختلافه ، فاضلًا تقيًّا ، نقيًّا وَرِعًا زاهدًا ، بلغ من زهده أنه سرق رداؤه عن كتفه وهو في الصلاة ولم يشعر ، ورد إليه فلم يشعر ؛ لشغله بعبادة ربه »(١).

الإمام الحافظ هُدبة بن خالد ، أبو خالد القيسي :

« كان من العلماء العاملين .

رحم الله هدبة ، وأين مثل هدبة .

قال عبدان الأهوازي : كنا لا نصلي خلف هدبة من طول صلاته ، يسبح في الركوع والسجود نيِّفًا وثلاثين تسبيحة . قال : وكان من أشبه خلق الله بهشام بن عمار ، لحيته ووجهه ، وكل شيءٍ منه ، حتى صلاته »(٢).

الإمام المجتهد قاضي القضاة أبو يوسف ، القاضي يعقوب بن إبراهيم :

« قال ابن سماعة : كان ورد أبي يوسف في اليوم مائتي ركعة »(٣).

الإمام حقّا ، وشيخ الإسلام صِدْقا ، الإمام المبجَّل ، والهُمام المفضل ، أبو عبد الله أحمد بن حنبل ... معلِّم الخير وإمامُ أهل السُّنّة :

« قال عبد الله بن أحمد : كان أبي يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة ، فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته ، فكان يصلي كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة »(٤).

« قال إبراهيم بن هاني النيسابوري - وكان رأسًا في العبادة وعلوّ

---

(١) السير ١٧٢/١٠ - ١٧٣ .
(٢) السير ٩٩/١١ .
(٣) السير ٥٣٧/٨ .
(٤) السير ٢١٢/١١ .

الهمّة -: كان أبو عبد الله حيث توارى من السلطان عندي . وذكر من اجتهاده في العبادة أمرًا عجبًا . قال : وكنت لا أقوى معه على العبادة ، وأفطر يومًا واحدًا واحتجم »(١) .

« قال الإمام أحمد : ما أُبالي أن لا يراني أحد ولا أراه ، وإني لأشتهي أن أرى عبد الوهاب الورَّاق .

وقال عبد الوهاب : أبو عبد الله إمامنا ، وهو من الراسخين في العلم ، إذا وقفت غدًا بين يدي الله فسألني : بمن اقتديت ؟ أي شيءٍ أقول ؟ وأي شيءٍ ذهب على أبي عبد الله من أمْر الإسلام ؟! »(٢) .

راهِب الكوفة الإمام الحُجَّة القُدوةُ زينُ العابدين أبو السَّرِيّ هنّادُ بن السّرِيّ بن مصعب :

« قال أحمد بن سلمة النيسابوري الحافظ : كان هنّاد - رحمه الله - كثير البكاء ، فرغ يومًا من القراءة لنا ، فتوضأ وجاء إلى المسجد ، فصلى إلى الزوال وأنا معه بالمسجد ، ثم رجع إلى منزله فتوضأ ، وجاء فصلى بنا الظهر ، وأخذ يقرأ في المصحف حتى صلى المغرب . قال : فقلت لبعض جيرانه : ما أصبره على العبادة . فقال : هذه عبادته بالنهار منذ سبعين سنة ، فكيف لو رأيت عبادته بالليل . وكان يقال له : راهب الكوفة »(٣) .

الزّاهِد القُدوةُ الرّبّانيّ : الآخِذ بالألْزَم والأقْوم ، المُؤْثِر للأدْوَم والأعَمّ ، أبو عبد الرحمن حاتِم الأصمُّ :

قال عنه الذهبي في السير (١١/٤٨٤ - ٤٨٥) : « حاتم بن عنوان ابن يوسف البلخي الواعظ الناطق بالحكمة ، الأصم ، له كلام جليل في

(١) السير ١١/٢٢٧ .
(٢) السير ١١/٣٠٤ - ٣٠٥ .
(٣) السير ١١/٤٦٥ - ٤٦٦ .

الزهد والمواعظ والحكم ، كان يقال له : لقمان هذه الأمة » .

« عن رباح الهروي قال : مر عصام بن يوسف بحاتمٍ الأصم وهو يتكلم في مجلسه ، فقال : يا حاتمَ تحسن تصلي ؟ قال : نعم . قال : كيف تصلي ؟ قال حاتم : أقوم بالأمر ، وأمشي بالخشية ، وأدخل بالنية ، وأكبر بالعظمة ، وأقرأ بالترتيل والتفكير ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأجلس للتشهد بالتمام ، وأُسلم بالسبل والسنة ، وأسلمها بالإخلاص إلى الله عز وجل ، وأرجع إلى نفسي بالخوف ، أخاف أن لا تقبل مني ، وأحفظه بالجهد إلى الموت . قال : تكلم فأنت تحسن تصلي »[1] .

هذه صلاة المراقب عالي الهمة ... من ظن أنه يصل بغير بذل المجهود فهو متمن ، ومن ظن أنه يصل ببذل المجهود فهو مُتَعَنٍّ .

« **قال حاتم الأصمّ** : فاتتني الصلاة في الجماعة ، فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده ، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف ، لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا »[2] .

الإمام المُزَنّي شيخ الشافعيَّة :

كان رحمه الله إذا فاتته صلاة الجماعة ، صلى تلك الصلاة خمسًا وعشرين مرة[3] .

فقيهُ المغرب ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبدوس :

تلميذ الإمام سحنون .

---

(١) الحلية ٧٥/٨ .
(٢) الإحياء ١٧٧/١ .
(٣) السير ٤٩٢/١٢ - ٤٩٧ .

قال عبد الله بن إسحاق بن التبان : إن ابن عبدوس أقام أربع عشرة سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء ، وكان على غاية التواضع[١] .

عَلَم الحُفَّاظ وأميرُ المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل البخاري :

« قال مسبح بن سعيد : كان محمد بن إسماعيل يختم في رمضان ، في النهار كل يوم ختمة ، ويقوم بعد التراويح كل ثلاث ليالٍ بختمة .

قال محمد بن أبي حاتم الوراق : كان أبو عبد الله يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة ، وكان لا يوقظني في كل ما يقوم ، فقلت : أراك تحمل على نفسك ولم توقظني ، قال : أنت شابٌّ ، ولا أُحِبّ أن أُفسد عليك نومك .

قال بكر بن منير : كان محمد بن إسماعيل يصلي ذات ليلة فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة ، فلما قضى الصلاة قال : انظروا أيش آذاني »[٢] .

« قال محمد بن أبي حاتم : دُعِي محمد بن إسماعيل إلى بستان بعض أصحابه ، فلما صلى بالقوم الظهر ، قام يتطوع ، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه ، فقال لبعض من معه : انظر ، هل ترى تحت قميصي شيئًا ؟ فإذا زنبور قد أبره في ستة عشر أو سبعة عشر موضعًا ، وقد تورم من ذلك جسده ، فقال له بعض القوم : كيف لم تخرج من الصلاة أول ما أبرك ؟ قال : كنت في سورةٍ ، فأحببت أن أُتمها » .

إمام أهْل الرَّيّ : أبو زرْعَة : عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد الرَّازي :

« كتب إليه إسحاق بن راهويه : إني أزداد بك كل يوم سرورًا ، فالحمد لله الذي جعلك ممن يحفظ سنته .

---

(١) السير ٦٤/١٣ .
(٢) طبقات الحنابلة ٢٧٦/١ ، والسير ٤٣٩/١٢ - ٤٤٢ .

وقال محمد بن يحيى النيسابوري : لا يزال المسلمون بخيرٍ ما أبقى الله عز وجل لهم مثل أبي زرعة ، وما كان الله عز وجل ليترك الأرض ، إلَّا وفيها مثل أبي زرعة يعلم الناس ما جهلوا »[١].

صلى أبو زرعة الرازي عشرين سنة ، وفي محرابه كتابةٌ ، فسئل عن الكتابة في المحراب فقال : قد كرهه قومٌ ممن مضى . فقالوا له : هو ذا في محرابك كتابة ، أما علمت به ؟ قال : سبحان الله ! رجل يدخل على الله ويدري ما بين يديه .

يا سبحان الله ! هذه القمم ، وهؤلاء الرجال في خشوعهم وشغلهم بالله عن كل شيء .

شيخ الإسلام إمام أهل المغرب بَقِيّ بن مَخْلَد :

قال أبو عبيدة صاحب القبلة : كان بقي يختم القرآن كل ليلة في ثلاث عشرة ركعة . وكان يصلي بالنهار مائة ركعة ، ويصوم الدهر ، وكان كثير الجهاد ، فاضلًا[٢] .

قال عبد الرحمن بن أحمد بن بقي : « كان جدي قد قسّم أيامه على أعمال البرّ ، وكان إذا صلّى الصبح قرأ حزبه من القرآن في المصحف ، سدس القرآن ، وكان أيضًا يختم القرآن في الصلاة في كل يوم وليلة ، ويخرج كل ليلة في الثلث الأخير إلى المسجد ، ويختم قرب انصداع الفجر ، وكان يصلي بعد حزبه من المصحف صلاة طويلة جدًّا ، ثم ينقلب إلى داره ، وقد اجتمع في مسجده الطلبة ، فيجدد الوضوء ويخرج إليهم ، فإذا انقضت الدول ، صار إلى صومعة المسجد ، فيصلي إلى الظهر ، ثم يكون هو المبتدىء

---

(١) مقدمة الجرح والتعديل ص٣٢٩ - ٣٣٠ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٩٢/١٣ .

بالأذان ، ثم يهبط ، ثم يُسمِع إلى العصر ويصلي ويَسمَع ، وربما خرج في بقية النهار ، فيقعد بين القبور يبكي ويعتبر ، فإذا غربت الشمس أتى مسجده ، ثم يصلي ويرجع إلى بيته فيفطر ، وكان يسرد الصوم إلى يوم الجمعة ، ويخرج إلى المسجد فيخرج إليه جيرانه ، فيتكلم معهم في دينهم ودنياهم ، ثم يصلي العشاء ويدخل بيته فيُحدِّث أهله ، ثم ينام نومة قد أخذتها نفسه ، ثم يقوم . هذا دأبه إلى أن توفي[١] .

سيد الطائفة الجُنَيْد بن محمد بن الجُنيد البغدادي :

المربى بفنون العلم ، المؤيد بعيون الحلم ، المنور بخالص الإيقان وثابت الإيمان ، فاق أشكاله بالبيان الشافي واعتناقه للمنهج الكافي ، ولزومه للعمل الوافي .

قال عنه الذهبي في السير (٦٦/١٤ - ٧٠) : « أتقن العلم ، ثم أقبل على شأنه ، وتأله وتعبد ، ونطق بالحكمة ..... رحمة الله على الجنيد . وأين مثل الجنيد في علمه وحاله » .

قال رحمه الله : فتح كل بابٍ وكل علم نفيس بذل المجهود .

وقال أبو الحسين بن الدراج : « ذكر الجنيد أهل المعرفة بالله وما يراعونه من الأوراد والعبادات ، بعد ما ألطفهم الله به من الكرامات ، فقال الجنيد : العبادة على العارفين ، أحسن من التيجان على رؤوس الملوك »[٢] .

قال الذهبي في السير (٦٧/١٤ - ٦٨) : « قيل : إنه كان في سوقه ووروده كل يوم ثلاثمائة ركعة ، وكذا كذا ألف تسبيحة . وقال ابن نجيد : كان الجنيد يفتح حانوته ويدخل ، فيسبل الستر ويصلي أربعمائة ركعة » .

---

(١) السير ٢٩٥/١٣ .

(٢) الحلية ٢٥٧/١٠ .

« قال الجنيد : لو أقبل صادقٌ على الله ألفَ ألف سنةٍ ، ثم أعرض عنه لحظةً ، كان ما فاته أكثر مما نالهُ .

قال محمد بن إبراهيم : رأيت الجنيد في النوم ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت العلوم ، ونفدت تلك الرسوم ، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في جوف السحر »[١] .

شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي :

« قال أبو بكر الصبغي : أدركت إمامين لم أُرزق السماع منهما : أبو حاتم الرازي ، ومحمد بن نصر المروزي ، فأما ابن نصر فما رأيت أحسن صلاةً منه ، لقد بلغني أن زنبورًا قعد على جبهته ، فسال الدم على وجهه ولم يتحرك .

وقال محمد بن يعقوب بن الأخرم : ما رأيت أحسن صلاةً من محمد ابن نصر ، كان الذباب يقع على أُذنه ، فيسيل الدم ولا يذُبُّهُ عن نفسه ، ولقد كنا نتعجب من حسن صلاته وخشوعه وهيئته للصلاة ، كان يضع ذقنه على صدره فينتصب كأنه خشبة منصوبة »[٢] .

الزاهد أبو الحسين النُّورِيّ :

« صحب السري السقطي وغيره ، كان الجنيد يعظمه .

قال علي بن عبد الرحيم : دخلت على النوري ، فرأيت رجليه منتفختين ، فسألته عن أمره فقال : طالبتني نفسي بأكل تمرٍ ، فدافعتها ، فأبت عليَّ ، فاشتريته ، فلما أكلت ، قلت : قومي فصلي ، فأبت ، فقلت : لله عليّ إن قعدت على الأرض أربعين يومًا ، فما قعدت ؛ يعني إلا

---

(١) الحلية ١٠/٢٧٨ - ٢٨٧ .
(٢) السير ١٤/٣٦ - ٣٧ .

في صلاةٍ »[١].

الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري :

الفقيه الشافعي تلميذ المزني .

« قال أبو الفتح يوسف القواس : سمعت أبا بكر النيسابوري يقول : تعرف من أقام أربعين سنة لم ينم الليل ، ويتقوت كل يوم بخمس حبات ، ويصلي صلاة الغداة على طهارة عشاء الآخرة ؟ ثم قال : أنا هو ، وهذا كله قبل أن أعرف أم عبد الرحمن ، أيش أقول لمن زوجني ؟! ثم قال : ما أراد إلا الخير »[٢].

الإمام المحدِّث مُسْنِد عصرِهِ أبو العباس محمد بن يعقوب الأصَمّ :

كان أبوه من أصحاب إسحاق بن راهويه .

« قال الحاكم : كان يرجع إلى حسن مذهب وتدين ، وبلغني أنه أذَّن سبعين سنة في مسجده ، وربما كان يحتاج إلى الشيء لمعاشه ، **فيورِّق** ويأكل من كسب يده »[٣].

هذه والله الرجولة ... **يؤذِّن** سبعين سنة ، فما أعلى همته !! .

وقد قال رسول الله ﷺ : « من أذن ثنتي عشرة سنة ، وجبت له الجنة ، وكتب له بتأذينه في كل يوم ستون حسنة ، وبإقامته ثلاثون حسنة »[٤].

---

(١) السير ١٤/٧٠ - ٧٧ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب ١٠/١٢٢ ، والسير ١٥/٦٦ .

(٣) الأنساب للسمعاني ١/٢٩٥ ، والسير ١٥/٤٥٥ .

(٤) صحيح . رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن عمر ، وصححه الحاكم والألباني في صحيح الجامع رقم (٥٨٧٨) .

الإمام الحافظ أبو الشيخ الأصبهاني :

« عن بعض الطلبة قال : ما دخلت على أبي الشيخ إلَّا وهو يصلي »(١) .

العبد الصالح والِدُ ابنِ جُمَيْع ؛ أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد الغسَّاني الصيداوى :

والِدُ المحدِّث الرَّحَّال أبي الحسين صاحب المعجم .

« حكى حفيده عن خادم جده طلحة ، أن جده أبا بكرٍ كان يقوم الليل كله ، فإذا صلى الفجر نام إلى الضحى ، وإذا صلى الظهر يركع إلى العصر . إلى أن قال : وكانت هذه عادته »(٢) .

الشيخ الإمام العارف الفقيه القُدوةُ ، أبو عبد الله محمد بن خَفِيف الشِّيرازِي شيخ الصوفية :

قال ابن باكويه : سمعت ابن خفيف يقول : كنت في بدايتي ربما كنت أقرأ في ركعةٍ القرآن كله .

« وروي عن ابن خفيف ، أنه كان به وجع الخاصرة ، فكان إذا أصابه أقعده عن الحركة ، فكان إذا نودي للصلاة ، يحمل على ظهر رجل ، فقيل له : لو خففت على نفسك ؟ قال : إذا سمعتم حيّ على الصلاة ولم تروني في الصف ، فاطلبوني في المقبرة »(٣) .

الإمام الحافظ الأنْبَل القُدوةُ حُسيْنَك أبو أحمد الحسين بن علي النيسابوري ابنُ مُنَيْنَة :

قال عنه الحاكم تلميذه : « هو شيخ العرب في بلدنا ، ومن ورث

---

(١) السير ٢٧٨/١٦ .

(٢) السير ٣١٩/١٦ .

(٣) السير ٣٤٦/١٦ .

الثروة القديمة ، وسلفه جلة ، صحبته حضرًا وسفرًا ، فما رأيته ترك قيام الليل من نحو ثلاثين سنة ، وكان يقرأ سبُعا كلَّ ليلة ، وكانت صدقاته دارّةً سرًّا وعلانيةً ، أخرج مرةً عشرةً من الغزاة بآلاتهم عوضًا عن نفسه ، ورابط غير مرة »[١].

الإمام أبو بكر ابن الباقِلَّاني :

قال عنه أبو بكر الخطيب : « كان ورده في كل ليلة عشرين ترويحة في الحضر والسفر »[٢] . أي ثمانون ركعة .

الشيخ القُدوةُ العابد المُسْنِد أبو الفضل محمد بن عبيد الله الصَّرَّام :

« مات في عشر التسعين ، وكان يقرأ القرآن في ركعتين ويديم التعبد والتلاوة »[٣].

الشيخ الصّادِق الزاهد القُدوةُ أبو العباس أحمد بن أبي غالب المعروف بابن الطَّلَّايَة :

بركة المسلمين .

قال عنه السمعاني : « شيخ كبير أفنى عمره في العبادة والقيام والصيام ، لعله ما صرف ساعةً من عمره إلَّا في عبادة ، وانحنى حتى لا يتبين قيامه من ركوعه إلا بيسير »[٤].

« قال أبو المظفّر ابنُ الجوزي : سمعت مشايخ الحربية يحكون عن آبائهم وأجدادهم ، أن السلطان مسعودًا لما أتى بغداد ، كان يحب زيارة العلماء

---

(١) السير ١٦/٤٠٨ .
(٢) تاريخ بغداد ٥/٢٨٠ ، والسير ١٧/١٩١ .
(٣) السير ١٨/٤٨٣ .
(٤) الأنساب للسمعاني ٨/٣٧ .

والصالحين ، فالتمس حضور ابن الطَّلاية ، فقال للرسول : أنا في هذا المسجد ، أنتظر داعي الله في النهار خمس مرات . فذهب الرسول ، فقال السلطان : أنا أَوْلَى بالمشي إليه . فزاره فرآه يصلي الضحى ، وكان يطولها يصليها بثمانية أجزاء ، فصلى معه بعضها ، فقال له الخادم : السلطان قائمٌ على رأسك . فقال : أين مسعود ؟ قال : ها أنا . قال : يا مسعود ، اعدل ، وادع لي . الله أكبر . ثم دخل في الصلاة ، فبكى السلطان ، وكتب ورقة بخطه بإزالة المكوس والضرائب ، وتاب توبة صادقٍ »[1] .

الفقيه الحنبلي الزاهِد جعفر بن الحسن الدَّرْزِيجاني :

« كان من عباد الله الصالحين ، أمّارًا بالمعروف ، نهَّاءً عن المنكر ، كان مُداومًا على الصيام والتَّهجُّد والقيام ، له ختماتٌ كثيرة جدًّا ، كل ختمة منها في ركعة ، توفي في الصلاة ساجدًا سنة ٥٠٦ . رحمه الله »[2] .

شيخ الإسلام عالِم الحُفَّاظ أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد المَقْدِسِيّ :

« كان لا يضيع شيئًا من زمانه بلا فائدة ، فإنه كان يصلي الفجر ، ويلقن القرآن ، وربما أقرأ شيئًا من الحديث تلقينًا ، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثلاثمائة ركعة بالفاتحة والمعوذتين إلى قبل الظهر ، وينام نومة ، ثم يصلي الظهر ، ويشتغل إمَّا بالتسميع أو بالنسخ إلى المغرب ، فإن كان صائمًا أفطر ، وإلَّا صلى من المغرب إلى العشاء ، ويصلي العشاء ، وينام إلى نصف الليل أو بعده ، ثم قام كأن إنسانًا يوقظه ، فيصلي لحظة ، ثم يتوضأ ويصلي إلى قرب الفجر ، ربما توضأ سبع مرات أو ثمانيًا في الليل ، وقال : ما تطيب لي الصلاة إلَّا ما دامت أعضائي رطبةً . ثم ينام نومة يسيرةً إلى الفجر ، فهذا دأبه .

---

(١) السير ٢٠/٢٦٢ ، ومرآة الزمان ٨/١٣٢ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١/١١١٠ .

قال موفق الدين ابن قدامة : كان الحافظ عبد الغني جامعًا للعلم والعمل ، كان رفيقي في الصبا وفي طلب العلم ، وما كنا نستبق إلى خير إلَّا سبقني إليه ، إلَّا القليل ، وكمل الله فضيلته بابتلائه بأذى أهل البدعة وعداوتهم . قال الضياء : قال محمود بن سلامة التاجر الحرّاني : كان الحافظ عبد الغني نازلًا عندي بأصبهان ، وما كان ينام من الليل إلَّا قليلًا ، بل يصلي ويقرأ ويبكي .

وسمعت الحافظ يقول : أضافني رجلٌ بأصبهان ، فلما تعشينا كان عنده رجلٌ أكل معنا ، فلما قمنا إلى الصلاة لم يصلِ ، فقلت : ما له ؟ قالوا : هذا رجل شمسيٌّ . فضاق صدري ، وقلت للرجل : ما أضفتني إلا مع كافرٍ . قال : إنه كاتب ، ولنا عنده راحة . ثم قمت بالليل أُصلّي ، وذاك يستمع ؛ فلمّا سمع القرآن تزفر ، ثم أسلم بعد أيام ، وقال : لمَّا سمعتك تقرأ ، وقع الإسلام في قلبي »[١].

لله دَرُّك يا شيخ الإسلام ، والله لأنت أولى الناس بما قاله ابن الدَّواليبي « ابن الخرَّاط » :

كَمْ قَد صَفَتْ لقلوبِ القَوْمِ أوقاتٌ ... وكم تَقَضَّتْ لهمْ باللَّيْلِ لَـذَّاتُ
واللَّيْلُ دَسْكَرَةُ العُشَّـاقِ يَجْمَعُهُـمْ ... ذِكْرُ الحبيبِ وصِرْفُ الدَّمْعِ كَاساتُ
ماتـوا فأحياهـمُ إحيـاءُ لَيْلِهِـمُ ... ومَنْ سواهـمْ أناسٌ بالكَرَى ماتـوا
لَمَّا تَجلَّى لهمْ والحُجْبُ قد رُفِعَتْ ... تَهَتَّكُوا وصَبَـتْ منهـمْ صَبابـاتُ
وغَيَّبَتْهُمْ عن الأكـوانِ في حُجُـبٍ ... وأَظهَرَتْ سِرَّ مَعْناهُمْ إشـاراتُ
ساقي القلوبِ هو المحبوبُ يَشهدُهُ ... صَبٌّ لهم بقيـام اللَّيل عـاداتُ
إذا صفا الوقتُ خافوا مِنْ تَكَدُّرِه ... وللوصولِ من الهِجْرانِ آفـاتُ[٢]

---

(١) السير ٤٥٢/٢١ - ٤٥٣ .

(٢) طبقات الشافعية ٢٠١/٩ .

الإمام المحدِّث شيخ الإسلام أبو عمر محمد بن أحمد بن قُدامة المَقْدِسِيّ ، أخو الشيخ ابن قُدامة :

جمع له الحافظ الضياء سيرة في جزأين فشفى وكفى ، وقال : ما ترك قيام الليل من وقت شبوبيَّته ، فإذا رافق ناسًا في السفر ، ناموا وحرسهم يصلي .

قال الذهبي : « كان قدوة صالحًا عابدًا ، قانتًا لله ربانيًّا ، خاشعًا مخلصًا ، عديم النظير كبير القدر ، كثير الأوراد والذكر والمروءة والفتوة والصفات الحميدة ، قل أن ترى العيون مثله . قيل : كان ربما تهجد ، فإن نعس ضرب على رجليه بقضيبٍ حتى يطير النعاس ، وكان يكثر الصيام ، ويتلو كل ليلة سُبْعًا مرتَّلًا في الصلاة ، وفي النهار سُبعًا بين الصلاتين ، وإذا صلى الفجر تلا آيات الحرس ويسٓ ، والواقعة وتبارك ، ثم يقرىء ويُلقِّن إلى ارتفاع النهار ، ثم يصلي الضحى فيُطيل ، ويصلي طويلًا بين العشاءين ، ويصلي صلاة التسبيح كل ليلة جمعة ، ويصلي يوم الجمعة ركعتين بمائة ﴿ **قل هو الله أحـد** ﴾ ، فقيل : كانت نوافله في كل يومٍ وليلة اثنتين وسبعين ركعة »[١] .

العابِد التَّقِيّ ، فَتْح بن سعيد الموصليُّ :

« قال إبراهيم بن عبد الله : صدع فتحٌ الموصلي فعرج ، فقال : يا رب ابتليتني ببلاء الأنبياء ، فشكر هذا أن أُصلّي الليلة أربعمائة ركعة »[٢] .

الإمام الحافظ القُدوةُ العابد أبو قَلَابَةَ عبد الملك بن محمد بن عبد الله الرقاشي مُحدِّث البَصرة :

« أريت أُمُّه وهي حامِلٌ به كأنها ولدت هدهدًا ، فقال لها عابِرٌ :

---

(١) السير ٦/٢ - ٧ .

(٢) الحلية ٢٩٢/١٠ .

إن صدقت رؤياك تلدين ولدًا يكثر الصلاة »[١].

« قال أحمد بن كامل القاضي : قيل:إن أبا قلابة كان يصلي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة »[٢] .

أخي ، حين يتقرب الأغنياء بالمال يتقرب الزهاد بالصلاة .

فانظر إلى ما فعل سمنون المحب وأبو أحمد القلانسي القدوة الزاهد .

« قال الخلدي : قال لي أبو أحمد القلانسي : فرَّق رجلٌ أربعين ألفًا على الفقراء ، فقال لي سمنون : أما ترى ما أنفق هذا ، وما قد عمله ؟! ونحن لا نرجع إلى شيءٍ ننفقه ، فامض بنا إلى موضعٍ . فذهبنا إلى المدائن ، فصلينا أربعين ألف ركعة »[٣].

ومن عُلُوّ الهِمَّة في الصلاة : حِرْص الرَّجُل على قيام الليل :

قال رسول الله ﷺ : « نِعْم الرَّجُل عبدُ الله لو كان يُصلِّي من الليل »[٤].

قال سالم بن عبد الله بن عمر : فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلَّا قليلًا .

قال الحافظ في الفتح (٩/٣ - ١٠) : « مقتضاه أن من كان يصلي من الليل يوصف بكونه نعم الرجل » .

وفي رواية حفصة : قال رسول الله ﷺ : « إن عبد الله رجلٌ صالحٌ لو كان يكثر الصلاة من الليل »[٥].

---

(١) تاريخ بغداد ٤٢٦/١٠ .
(٢) السير ١٧٨/١٣ .
(٣) تاريخ بغداد ١١٥/١٣ .
(٤) رواه البخاري ومسلم - واللفظ له - وأحمد في مسنده .
(٥) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « في الجنة غُرفةٌ يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » . فقال أبو مالك الأشعري : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : « لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات قائمًا والناس نيام »(١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يومًا ويفطر يومًا »(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل ، فقال : يا محمد ، عش ما شئت فإنك ميّتٌ ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس »(٣) .

وقال رسول الله ﷺ : « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار عن وطائه ولحافه ، من بين أهله وحبه إلى صلاته ، فيقول الله جل وعلا : [أيا ملائكتي] انظروا إلى عبدي ، ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله

---

(١) صحيح . رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما . ووافقه الذهبي ، وحسنه الهيثمي وصححه الألباني في صحيح الترغيب رقم (٦١٣) .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد في مسنده .

(٣) حسن . رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والشيرازي في الألقاب عن سهل بن سعد ، والبيهقي في شعب الإيمان عن جابر ، وأبو نعيم في الحلية عن علي ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وحسنه المنذري في ترغيبه ، وقال الشيخ الألباني في الصحيحة ٢/٥٠٥ - ٥٠٧ بعد أن ذكر تحسين المنذري له : وهو الصواب الذي يدل عليه مجموع هذه الطرق . والله أعلم .

إلى صلاته ، رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي . ورجلٌ غزا في سبيل الله ، وانهزم أصحابه ، وعلم ما عليه في الانهزام ، وما له في الرجوع ، فرجع حتى يهريق دمه ، فيقول الله لملائكته : انظروا إلى عبدي ، رجع رجاءً فيما عندي ، وشفقةً ممَّا عندي ، حتى يهريق دمه »[١] .

من علت همته من رجال الليل نظر إلى هذا الحديث :

عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة يحبهم الله ، ويضحك إليهم ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئةٌ ، قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فإما أن يقتل وإما أن ينصره الله ويكفيه ، فيقول : انظروا إلى عبدي هذا ، كيف صبر لي بنفسه . والذي له امرأة حسنةٌ وفراش لين حسن ، فيقوم من الليل ، فيقول : يذر شهوته ويذكرني ، ولو شاء رقد . والذي إذا كان في سفرٍ ، وكان معه ركب فسهروا ، ثم هجعوا ، فقام من السحر في ضراء وسَّراء »[٢] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من قام بعشر آياتٍ ، لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المُقنطرين »[٣] .

---

(١) حسن . رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ، وابن حبان في صحيحه من رواية ابن مسعود ، وحسّنه الألباني ، وقال الشيخ شاكر في تحقيق المسند : إسناده صحيح . وحسّن إسناده الهيثمي .

(٢) حسن . رواه الطبراني في الكبير وقال : إسناده حسن ، وقال الهيثمي في المجمع : رجاله ثقات . وحسنه الألباني في صحيح الترغيب حديث رقم (٦٢٥) .

(٣) صحيح . رواه أبو داود وابن خزيمة في صحيحه وقال الألباني في التعليق على صحيح ابن خزيمة : إسناده جيد . وحسنه في صحيح الترغيب رقم (٦٣٥) . وصححه في صحيح الجامع رقم (٦٣١٥) .

والمقنطرون : هم من كتب لهم قنطارٌ من الأجر ، والقنطار كما جاء في حديث فضالة بن عبيد وتميم الداري عند الطبراني : « خيرٌ من الدنيا وما فيها » .

وسيِّد العابدين المتهجِّدين ﷺ يقول فيه ابن رواحة :

يَبِيتُ يُجافي جَنْبَهُ عن فراشِهِ إذا استثقلتْ بالمشركين المضاجِعُ

والذي قال فيه شوقي أمير الشعراء :

مُحيي اللَّيالي صلاةً لا يُقَطِّعُها إلَّا بدَمْعٍ من الإشفاق مُنْسَجِمِ
مُسَبِّحًا لك جُنْحَ اللَّيْلِ مُحْتَمِلًا ضُرًّا من السُّهْدِ أو ضُرًّا من الوَرَمِ

عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : أتكلَّفُ هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » . رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

وعند مسلم : « حتى وَرِمَتْ قدماه » .

وعند البخاري : « حتى ترم قدماه أو ساقاه » .

وعند البخاري ومسلم : « حتى تفطَّر رجلاه » .

وفي حديث أبي هريرة « حتى تزلع قدماه » .

قال النووي : تفطرت : تشققت .

قال الحافظ في الفتح : « لا اختلاف بين هذه الروايات ؛ فإنه إذا حصل الانتفاخ أو الورم ، حصل الزلع والتشقق . والله أعلم » .

وروى البخاري ومسلم وابن ماجه ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : صليت مع رسول الله ﷺ فأطال حتى هممت بأمر سوءٍ . قال : قيل : وما هممت به ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه .

وعند البخاري بلفظ : صليت مع النبي ﷺ ليلةً ، فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوءٍ . قلنا : وما هممت ؟ قال : هممت أن أقعد وأذر النبي ﷺ .

قال الحافظ في الفتح (١٩/٣) : « وفي الحديث دليل على اختيار النبي ﷺ تطويل صلاة الليل ، وقد كان ابن مسعود قويًّا محافظًا على الاقتداء بالنبي ﷺ ، وما همَّ بالقعود إلَّا بعد طولٍ كثيرٍ ما اعتاده » .

وفي حديث حذيفة : فصلى أربع ركعاتٍ ، قرأ فيهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام .

وعن أنس رضي الله عنه قال : وجد رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ شيئًا ، فلمّا أصبح قيل : يا رسول الله ، إنّ أثر الوجع عليك لبيِّن . قال : « إني على ما ترون بحمد الله قد قرأتُ السَّبْع الطّوال »[١] .

وعن عطاء قال:« دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها ، فقال عبد الله بن عمير : حدثينا بأعجب شيءٍ رأيتيه من رسول الله ﷺ . فبكت ، قالت : قام ليلة من الليالي فقال : « يا عائشة ، ذريني أتعبد لربي » . قالت : قلت : والله إني لأحب قربك ، وأحب ما يسرك . قالت : فقام فتطهر ، ثم قام يصلي ، فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره ، ثم بكى ، فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض ، وجاء بلال يُؤذِّن بالصلاة ، فلمّا رآه يبكي ، قال : يا رسول الله ، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر ؟ قال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا . لقد نزلت عليَّ الليلة آياتٌ ، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿ **إن في خلق السموات والأرض** ... ﴾»[٢] الآية [آل عمران : ١٩٠] .

---

(١) صحيح . أخرجه أبو يعلى والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي وسكت عنه الألباني . وضعفه الألباني في التعليق على صحيح ابن خزيمة رقم (١١٣٦) .

(٢) صحيح . رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ، وابن حبان في صحيحه ، وصححه الألباني

ولقد سطر سلفُنا أنصع الصفحات في قيام الليل ، بحيث يعجز الإنسان عن تصور علو همتهم في هذا المضمار ، لكأنهم من غير طينتنا أو عجنوا بعبرات القيام ... ولقد أفردت مجلدًا ضخمًا من جمعي - وهو « رهبان الليل » - في ذكر قيامهم وتهجدهم ، وحسبنا هنا أن نشير إلى نماذج منهم ... ومن أراد التوسعة والاستقصاء فعليه بـ « رهبان الليل » .

قيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

« قال الحسين : تزوج عثمان بن أبي العاص امرأةً من نساء عمر بن الخطاب ، فقال : والله ما نكحتها رغبة في مال ولا ولد ، ولكني أحببت أن تخبرني عن ليل عمر .. !! »[١] .

قال الحافظ ابن كثير عن ليل عمر : « كان يصلي بالناس العشاء ثم يدخل بيته ، فلا يزال يصلي إلى الفجر » .

وقال لمعاوية بن خديج : « لئن نمت بالنهار لأُضَيِّعنَّ الرَّعِيَّة ، ولئن نمتُ بالليل لأُضيعنَّ نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية »[٢].

قيام ذي النُّورين عثمان بن عفان رضي الله عنه :

عن ابن سيرين قال : قالت امرأةُ عثمان حين قتل : لقد قتلتموه وإنه ليحيي الليل كله بالقرآن في ركعة[٣].

« روي عنه : أنه كان يقرأ القرآن في ركعة ، ثم يوتر بها »[٤].

---

(١) الزهد لابن حنبل ص١١٨ ، ١١٩ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧٣/٩ : وأخرجه الطبراني ورجاله ثقات .

(٢) الزهد لابن حنبل ص١٢٢ ، ١٢٣ .

(٣) الزهد لابن حنبل ص١٢٧ .

(٤) إسناده صحيح . أخرجه الطحاوي والبيهقي ٢٥/٣ ، وابن أبي داود ، =

قيام أبي هريرة رضي الله عنه :

« عن أبي عثمان النهدي قال : تضيفت أبا هريرةً سبعًا ، فكان هو وامرأته وخادمه يقسمون الليل ثلاثًا ؛ يصلي هذا ثم يوقظ هذا »[١].

قيام تميم الداري رضي الله عنه :

قال ابن المبارك : ما بلغني عن أحدٍ من أصحاب النبي ﷺ من العبادة ما بلغني عن تميم الداري .

عن جعفر بن عمرو قال : كنا فئة من أبناء أصحاب النبي ﷺ ، قلنا : إن آباءنا قد سبقونا بالهجرة وصحبة النبي ﷺ ، فهلموا نجتهد في العبادة ، لعلنا ندرك فضائلهم . أو كما قال . قال : عبد الله بن الزبير ومحمد ابن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن طلحة ومحمد بن عبد الرحمن ابن عبد يغوث . قال : فاجتهدنا في العبادة بالليل والنهار ، وأدركنا تميمًا الداري شيخًا فما قمنا له ولا قعدنا في طول الصلاة[٢].

قيام عبّاد بن بشر رضي الله عنه :

انظر إلى شغف عبادٍ بقيام الليل ، لا يمنعه من ذلك جراحٌ كادت تودي بحياته .

عن جابر بن عبد الله قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ، فأصاب رجلٌ امرأة رجلٍ من المشركين ، فحلف أن لا أنتهي حتى أُهريق دمًا في أصحاب محمدٍ ، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ ، فنزل النبي ﷺ فقال : « هل

= وصحح إسناده الشيخ شعيب الأرنؤوط وزهير الشاويش في تحقيق شرح السنة ٤/٤٩٩ .

(١) الإصابة لابن حجر وسنده صحيح . انظر الإصابة ٤/٢٠٩ .

(٢) الزهد ص٢٠٠ .

رجُلٌ يَكْلَأُ » . فانتدب رجلٌ من المهاجرين[(١)] ورجل من الأنصار[(٢)]، فقال : « كُونا بفم الشّعْب » فلمَّا خرج الرجلان إلى فم الشعب اضطجع المهاجري ، وقام الأنصاري فصلى ، فأتى الرجل ، فلمَّا رأى شخصه ، عرف أنه ربيئة القوم ، فرماه بسهمٍ فوضعه فيه ، فنزعه حتى رماه بثلاثة أسهمٍ ، ثم ركع وسجد ثم انتبه صاحبه ، فلما عرف أنهم قد نذروا به ، هرب ، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري قال : سبحان الله ! ألا أنبهتني أول ما رمى ؟! قال : كنت في سورةٍ أقرأها ، فلم أُحِبّ أن أقطعها . اهـ .

وفي دلائل النبوة : فنام عمار بن ياسر ، وقام عباد بن بشر يصلي ، وقال : كنت أُصلي بسورةٍ وهي الكهف ، فلم أُحِبّ أن أقطعها[(٣)].

نعم يا سيدي ... عذابه فيك عذب .

قيام أبي ريحانة رضي الله عنه :

عن مولى لأبي ريحانة قال : « قفل أبو ريحانة من بعث غزا فيه ، فلمّا انصرف أتى أهله فتعشى من عشائه ، ثم دعا بوضوءٍ فتوضأ منه ، ثم قام إلى مسجده فقرأ سورة ، ثم أُخرى ، فلم يزل كذلك مكانه ، كلما فرغ من سورة افتتح الأُخرى ، حتى إذا أذن المؤذن من السحر ، شد عليه ثيابه ، فأتته امرأته ، فقالت : يا أبا ريحانة ، قد غزوت فتعبت في غزوتك ، ثم قدمت إلّي ، لم يكن لي منك حظٌّ ونصيبٌ . فقال : بلى ، والله ما خطرت لي على بالٍ ، ولو ذكرتك لكان لك عليَّ حقٌّ . قالت : فما الذي يشغلك يا أبا ريحانة ؟ قال : لم يزل يهوى قلبي فيما وصف الله في جنته من لباسها

---

(١) هو عمّار بن ياسر .

(٢) هو عبّاد بن بشر .

(٣) رواه أبو داود في سننه ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرك وصححه ، وعلّقه البخاري في صحيحه ، وأحمد والدارقطني وصححه .

وأزواجها ونعيمها ولذاتها ، حتى سمعت المؤذّن »[١].

لسان حاله يقول :

دَعِ المَصُوغاتِ مِنْ ماءٍ وطِين   واشْغَلْ هَواكَ بحُورٍ عِينِ

قيام أبي الصَّهباء صِلَةَ بن أشْيَم العدويّ :

« لما زُفَّت إليه معاذة العدوية ، أدخله ابن أخيه الحمام ، ثم أدخله بيتًا مطيَّبا ، فقام يصلي حتى أصبح ، وفعلت معاذة كذلك ، فلمَّا أصبح عاتبه ابن أخيه على فعله ، فقال له : إنك أدخلتني بيتًا أذكرتني به النار ، ثم أدخلتني بيتًا أذكرتني به الجنة ، فما زالت فكرتي فيهما حتى أصبحتُ »[٢].

رجلٌ وامرأتهُ يقومان الليلَ كلّه ليلةَ بنائهما .

قالت عنه زوجته المتهجدة العابدة معاذة : « ما كان صلة يجيء من مسجد بيته إلى فراشه إلَّا حبوا ، يقوم حتى يفتر ، فما يجيء إلى فراشه إلَّا حبوًا »[٣] .

وكانت امرأته - رحمها الله - إذا جاء الليل قالت : هذه ليلتي التي أموتُ فيها . فلا تنام حتى تصبح ، وإذا جاء البرد لبست الثياب الرقاق ؛ حتى يمنعها من النوم[٤] .

وكانت رحمها الله تُحيي الليل صلاةً ، فإذا غلبها النوم قامت فجالت في الدار وهي تقول : يا نفس ، النوم أمامك ، لو قد متِّ لطالت رقدتك

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك ص٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ومختصر قيام الليل ص١٨ .

(٢) التخويف من النار لابن رجب الحنبلي ص٢٣ .

(٣) إسناده صحيح . أخرجه أحمد في الزهد ص٢٠٩ وابن سعد ، والذهبي في السير ٤٩٧/٣ .

(٤) التخويف من النار لابن رجب الحنبلي ص٢٣ .

في القبور على حسرةٍ أو سرور .

وكانت تقول : « عجبتُ لعينٍ تنام ، وقد عرفت طول الرُّقاد في ظُلَم القبور » .

قيام عمرو بن عتبة بن فَرْقَد :

كان رحمه الله يخرج على فرسه ليلًا فيقف على القبور فيقول : يا أهل القبـور ، لقد طويت الصحف ، لقد رفعت الأعمال ، لا تستعتبون من سيئةٍ ، ولا تستزيدون من حسنةٍ . ثم يبكي ، ثم يصف بين قدميه حتى يصبح ، فيرجع فيشهد صلاة الصبح[١] .

وكان يقول لأبيه : يا أبت ، إنما أنا عبدٌ أعمل في فكاك رقبتي ، فدعني أعمل في فكاك رقبتي .

وكان يخرج إلى العدوّ مع الناس ، فلا يتحارس الناس ؛ لكثرة صلاةِ عمرو ، ورأوه ليلةً يصلي ، فسمعوا زئير الأسد ، فهربوا وهو قائمٌ يصلي فلم ينصرف ، فقالوا له : أما خفت الأسد ؟ فقال : إني لأستحي من الله أن أخاف شيئًا سواه[٢] .

ولما مات عمرو ، دخل بعض أصحابه على أخته فقال : أخبرينا عنه ، فقالت : قام ليلة فاستفتح حمٓ ، فأتى على هذه الآية : ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة** ... ﴾ [غافر : ١٨] فما جاوزها حتى أصبح[٣] .

قيام همام بن الحارث النَّخَعِي ، المتعبِّد القوَّام ، المتلذِّذ بالسَّهر ، للذِّكْر همَّام :

كان يصبح مترجِّلًا ، فقال بعض القوم : إنّ جُمَّة همام لتخبركم أنه لم يتوسدها الليل .

---

(١) الزهد ص٣٥٣ .
(٢) حلية الأولياء ٤/١٥٦، ١٥٧ .
(٣) صفة الصفوة ٣/٧٢ .

وكان رحمه الله يدعو ويقول : « اللهم اشفني من النوم باليسير ، وارزقني سهرًا في طاعتك » .

وكان لا ينام إلا هُنَيْهَة وهو قاعد(١) .

قيام أبي عبد الرحمن السلمي عبد الله بن حبيب :

قال شمر : أخذ بيدي أبو عبد الرحمن السلمي ، فقال : كيف قوَّتُك في الصلاة ؟ فذكرت ما شاء الله أن أذكُره ، قال أبو عبد الرحمن : كنت أنا مثلك ، أصلي العشاء ثم أقوم أُصلي ، فإذا أنا حين أصلي الفجر أنشط مني أول ما بدأت .

قيام عبد العزيز بن سلمان :

وكانت رابعة - رحمها الله - تسميه « سيد العابدين » .

كان رحمه الله يقول : ما للعابدين وما للنوم !! لا نوم والله في دار الدنيا إلا نومٌ غالِب .

يقول عنه ابنه محمد : كان أبي إذا قام من الليل ليتهجد ، سمعت في الدار جَلَبَةً شديدة ، واستقاء للماء الكثير . قال : فنرى أن الجن كانوا يستيقظون للتهجد فيصلون معه(٢) .

قيام علي بن بكّار :

المرابط الصبّار والمجاهد الكَرَّار .. بكى حتى عَمِي ... كانت الجارية تفرش له فراشه فيلمسه بيده ويقول : والله إنك لطيب ، والله إنك لبارد ، والله ما علوتك ليلتي . ويصلي حتى الفجر(٣) .

---

(١) حلية الأولياء ٤/١٧٨ .

(٢) حلية الأولياء ٦/٢٤٥ .

(٣) حلية الأولياء ٩/٣١٨ .

قال علي بن بكار : منذ أربعين سنة ما أحزنني إلا طلوع الفجر .

بكى الباكُونَ للرحمن ليلًا   وباتوا دَمْعهمْ لا يَسْأمُونا
بِقاعُ الأرضِ مِنْ شوقٍ إليهمْ   تحِنُّ متى عليها يَسْجُدُونا

قيام أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها :

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال جبريل : راجع حفصة فإنها صوَّامة قوَّامة »(١) .

قيام حفصة بنت سيرين :

كانت رحمها الله تُسرِج سراجها من الليل ثم تقوم في مُصلّاها ، وكانت تلبس كفنها ، فربما طُفِئَ السِّراج ، فُيضيء لها البيت حتى تصبح . ومكثت في مصلاها ثلاثين سنة لا تخرج إلا لحاجةٍ أو قائلة .

قيام أم الدرداء الصغرى :

عن يونس بن ميسرة قال : كنا نحضر أم الدرداء ، وتحضرها نساء متعبدات يقمن الليل كله ، حتى إن أقدامهن قد انتفخت من طول القيام .

قيام عجردة العمية رحمها الله :

قال رجاء بن مسلم العبدي : كنا نكون عند عجردة العمية في الدار ، فكانت تحيي الليل صلاة ، وربما قال : تقوم من أول الليل إلى السحر ، فإذا كان السحر نادت بصوتٍ لها محزون : إليك قطع العابدون دُجى الليالي بتكبير الدُّلَج إلى ظُلَم الأسحار ، يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك ، فبك إلهي

---

(١) حسن . أخرجه الحاكم في المستدرك عن أنس وقيس بن زيد ، وأبو نعيم في الحلية عن عمار ، وأبو نعيم والحاكم في المستدرك عن قيس بن زيد مرسلًا ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٢٢٧) .

لا بغيرك أسألك أن تجعلني في أول زمرة السابقين إليك ، وأن ترفعني إليك في درجة المقربين ، وأن تلحقني بعبادك الصالحين ، فأنت أكرم الكرماء ، وأرحم الرحماء ، وأعظم العظماء . ثم تخر ساجدة ، فلا تزال تبكي وتدعو في سجودها ، حتى يطلع الفجر ، فكان ذلك دأبها ثلاثين سنة .

قيام حبيبة العدويَّة رحمها الله :

قال عبدِ الله المكي : كانت حبيبة العدوية إذا صلت العتمة ، قامت على سطحٍ فشدت عليها درعها وخمارها فقالت : إلهي ، غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وبابك مفتوح ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك . ثم تُقبل على صلاتها ، فإذا كان السحر قالت : اللهم ، وهذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعري هل قبلت مني ليلتي فأُهنَّى ، أم رددتها عليّ فأُعزَّى ، فوعزتك لهذا دأبي ودأبك أبدًا ما أبقيتني ، وعزَّتك لو انتهرتني ، ما برحت عن بابك ، ولا وقع في قلبي غير جُودك وكرمك[1] .

وكانت تقول : اللهم اغفر لي سوء أدبي في صلاتي[2].

قيام عُفيرة العابدة :

قيل لها : إنك لا تنامين بالليل . فبكت وقالت : ربما اشتهيت أن أنام فلا أقدر عليه ، وكيف ينام أو يقدر على النوم ، مَنْ لا ينام عنه حافظاه ليلًا ولا نهارًا[3] .

هؤلاء نساءٌ !!

ولو أن النساء كما ذَكَرْنا لفُضّلت النِّساءُ على الرِّجالِ

---

(١) صفة الصفوة ٣٢/٤ .
(٢) تنبيه المغترين ص١١٦ .
(٣) مختصر قيام الليل ص٢٩ .

وسنُفرد للنساء فصلًا خاصًّا في علوّ همَّتهنّ وتنوُّعها .

ونختم بما قيل في المتهجِّد ... عالي الهمة :

فللهِ دَرُّ العـارِفِ النَّـدْبِ إنّـه تَفِيـضُ لفَرْطِ الـوجْدِ أجفـانُهُ دَمَا
يُقيـمُ إذا ما الليلُ مـدَّ ظـلامَهُ على نفْسِهِ من شدَّةِ الخوفِ مَأْتَما
فصار قَرِينَ الهَمِّ طُـولَ نهـارِهِ أخا السُّهْد والنَّجْوَى إذا الليلُ أظْلَمَا
يقولُ حبيبي أنت سُؤْلي وبُغْيَتي كفى بك للرَّاجينَ سُؤْلًا ومَغْنَمَا
ألسـتَ الذي غـذيتَني وهـديتَني ولا زلـتَ منَّانًا عليَّ ومُنْعِمَـا
ففي يقْظتي شَوْقٌ وفي غَفْوَتي مُنًى تُلاحِقُ خَطْوِي نشْوَةً وتَرَنُّمَـا(١)

* * *

(١) ديوان الشافعي ص١١٥ تحقيق دكتور محمد عبد المنعم خفاجة ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية .

الفصْـــلُ الـرَّابِــع

عُلُـوُّ الهِمَّـةِ
فـي
الصِّيــام

□ عُلُوُّ الهِمَّـة في الصِّيـام □

الصوم عبادة السادات ، وعبادةُ الساداتِ ساداتُ العبادات ، وأحلى أعطيات الصـوم وأغلى معانيه الإخـلاص ، والإخلاص تجرُّد وخَلاص . والصوم هو العبادة الوحيدة التي خُصَّت بالنسبة إلى الله : « إلا الصِّيام فإنه لي » .

والغاية القصوى من الصوم : إعداد القلوب للتقوى والشّفافية والحساسية والخشية من الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتبَ على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾. [البقرة : ١٨٣] .

والصوم إعداد للأمة التي فُرض عليها الجهاد في سبيل الله ؛ لتقرير منهجه في الأرض ، لتستعلي على ضرورات الجسد كلها ، ولتحتمل مشقّات الطريق المفروش بالعقبات والأشواك ؛ والذي تتناثر على جوانبه الرَّغبات والشّهوات ، والذي تهتف بالسَّالِكِيه آلاف المُغريات .

والصوم أعظم مُرَبٍّ للإرادة ، وكابح لجماح الأهواء .

وأعظم آثار الصوم شأنًا ، وأنصعها برهانًا ، وأعلاها خطرًا ، ما يتركه في نفس العبد من مراقبةٍ لمولاه .

والصائمون هم السّائحون ، فلله ما أحلاها سياحةً .

والصوم لا مثل له ، قال ﷺ : « عليك بالصوم ، فإنه لا عدل له »(١).

وفي رواية : « فإنه لا مثل له »(٢).

---

(١) صحيح . رواه النسائي وابن خزيمة في صحيحه وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٤١٣/١ .

(٢) إسناده صحيح على شرط مسلم . رواه ابن حبان في صحيحه وأحمد والنسائي والطبراني وابن أبي شيبة وعبد الرزاق .

والصوم رفعة للدرجات ما بعدها رفعة ، قال تعالى : ﴿ **إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾. [الزمر : ١٠] . والصابرون : الصائمون ، في أكثر الأقوال .

وجميع العبادات توفَّى منها مظالم العباد إلّا الصيام ، في رواية للبخاري : « عن ربكم قال : لكل عملٍ كفّارة ، والصوم لي وأنا أجزي به » .

وعند الطيالسي : « قال ربكم تبارك وتعالى : كل العمل كفّارة إلّا الصوم » .

والصوم كفّارة للخطيئات ، قال ﷺ : « فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يُكفِّرها الصيامُ ، والصلاة والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[١].

ويكفي الصائم تشريف الله والملائكة له بالصلاة عليه ، قال ﷺ : « إن الله وملائكته يُصلُّون على المتسحِّرين »[٢].

فأكْرِمْ بها من عبادة يصلي الله عليك بها والملأُ الأعلى .

والصوم جُنَّة من النار ، قال ﷺ : « من صام يومًا في سبيل الله ؛ باعد الله منه جهنم مسيرة مائة عام »[٣] .

وقال ﷺ : « من صام يومًا في سبيل الله ، جعل الله بينه وبين النار خندقًا كما بين السماء والأرض »[٤].

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن حذيفة .

(٢) حسن . رواه ابن حبان في صحيحه ، والطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٤٤) .

(٣) حسن . رواه النسائي عن عقبة بن عامر ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٣٣٠) .

(٤) صحيح . رواه الترمذي عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٣٣٣) والصحيحة (٥٦٣) .

والصوم في الصيف يورث السُّقيا من العطش ، والصوم في الشتاء الغنيمة الباردة .

وباب الريان لا يدخله إلَّا الصائمون ، فإذا دخل آخرهم أُغلِق ، لا يدخل فيه أحدٌ غيرهم ، من دخل شرب ، ومن شرب لا يظمأ أبدًا .

والصوم سبيلٌ إلى الجنات ، قال ﷺ : « من ختم له بصيام يومٍ دخل الجنة »(١) .

قال تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية** ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

قال مجاهد وغيره : نزلت في الصائمين .

والصوم يشفع لصاحبه يوم القيامة .

ودعوة الصائم لا تُردّ .

والصوم شعار الأبرار ، كما صحَّ عن رسولنا ﷺ أنه كان يدعو ويقول : « جعل الله عليكم صلاة قوم أبرار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، ليسوا بأَثَمَةٍ ولا فُجَّار » . رواه عبد بن حميد والضياء عن أنس .

وفي مسلم وغيره : « للصائم فرحتان : فرحةٌ حين يفطر ، وفرحة حين يلقى ربه » .

وخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك .

والصوم قطْعٌ لأسباب التَّعبُّد لغير الله ، فالهوى معبود ، والدينار والدرهم والقطيفة والخميصة والطعام والشراب .

---

(١) صحيح . رواه البزار عن حذيفة ، ورواه أحمد وابن شاهين وابن بشران وأبو نعيم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٢٢٤) .

والصوم شكرٌ للمنعم عالم الخفيات ، وتحريضٌ على المثوبات ، وتكثيرٌ للصدقات ، وإحسان إلى ذوي الحاجات .

والصوم رِقَّةٌ للقلب وصيانةٌ للجوارح .

وإلى هنا يقف القلب ليذكر الصائمين والسادات .

* * *

□ سـادات الصّائمين □

وردت آثار كثيرة عن السابقين في علوّ هممهم ، وأخذهم بالعزائم في الصوم ، وهـم جبالٌ في الاقتداء والتَّأسي برسول الله ﷺ .

يقول الشاطبي : « كم من رجل صلّى الصبح بوضوء العشاء كذا كذا سنة ، وسَرَد الصيام كذا وكذا سنة ، وكانوا هم العارفين بالسُّنّة ، لا يميلون عنها لحظةً ، وروي عن ابن عمر وابن الزبير : أنهما كانا يواصلان الصيام . وأجاز مالك – وهو إمام في الاقتداء – صيام الدهر ؛ يعني إذا أفطر أيام العيد ، والآثار في هذا المعنى كثيرة عن الأوَّلين ، وهي تدل على الأخذ بما هو شاقّ على الدوام ، ولم يعدهم أحد بذلك مخالفين للسُّنّة ، بل عدّوهم من السابقين ، جعلنا الله منهم » .

(١) صوم الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

المفارِق للتنعُّم والتّرفيه ، المعانق لما كُلِّف من التَّشمُّر والتَّوجُّه ، قال رسول الله ﷺ : « لم أرَ عبقريًّا يَفرِي فَرِيَّه » . متفق عليه .

عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : ما مات عمر حتى سَرَدَ الصوم[١] .

فَمَنْ يَسْعَ أو يَرْكَبْ جَناحَيْ نَعامَةٍ ... لِيُدْرِكَ ما قدَّمتَ بالأمسِ يُسْبَقِ[٢]

(٢) صوم ذي النُّورين عثمان بن عفان رضي الله عنه :

أمير البَرَرَة وقتيل الفَجَرَة .

حبيب محمـدٍ ووزيـرُ صـدْقٍ ... ورابـعُ خيـرِ مَنْ وَطِئَ التُّرابا

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢٨٦/١ ، والأثر أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » ١٢١/١ ، والبيهقي في « سننه » ٣٠١/٤ ، وابن حزم في المحلى ١٤/٧ .

(٢) صفة الصفوة ٢٩٢/١ .

قال أبو نعيم عنه : « حظه من النهار الجود والصيام ، ومن الليل السجود والقيام ، مبشر بالبلوى ، ومنعم بالنجوى »[١].

وعن الزبير بن عبد الله ، عن جدةٍ له يقال لها:هيمة ، قالت : « كان عثمان يصوم الدهر ، ويقوم الليل إلا هجعةً من أوَّله » . رضي الله عنه ، قتلوه وقد كان صائمًا[٢] .

وروى ابنُ كثير في البداية والنهاية [٧/٢٠٧] : « صلى صلاة الصبح ذات يومٍ ، فلما فرغ أقْبَلَ على الناس فقال : إني رأيت أبا بكر وعمر أتياني الليلة ، فقالا لي : صُم يا عثمان ، فإنك تُفطر عندنا ، وإني أُشهدكم أني وقد أصبحت صائمًا ، وإني أعزم على من كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخرج من الدار سالمًا مسلومًا منه . ثم دعا بالمصحف فأكبَّ عليه » . رضي الله عنه : « ما طوى المصحف ... وقتلوه وهو يقرؤه » .

(٣) صوم أبي طلحة الأنصاري :

زيد بن سهل ، أحد أعيان البدريين ، وأحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة ، قال عنه ﷺ : « لَصَوْتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ مِن ألف رجلٍ »[٣].

عن أنس رضي الله عنه قال : كان أبو طلحة لا يصوم على عهد رسول الله ﷺ من أجل الغزو ، فلمّا قُبض النبي ﷺ لم أره يفطر إلَّا يوم أضحى أو يوم فطرٍ[٤].

---

(١) حلية ١/٥٥ .

(٢) حلية ١/٥٦ ، صفة الصفوة ١/٣٠٢ .

(٣) صحيح . رواه الحاكم في المستدرك عن جابر ، ورواه ابن عساكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٠٨١) .

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٥/٩١ . وأشار الشيخ حمدي عبد المجيد السلفي إلى صحته .

وقال الذهبي : « كان قد سرد الصوم بعد النبي ﷺ »[١] .

قال أبو زُرعة الدمشقي : إن أبا طلحة عاش بعد رسول الله ﷺ أربعين سنة يسرُد الصوم[٢]، قال الذهبي : قلت:بل عاش بعده نيِّفًا وعشرين سنة[٣] .

وعن أنس : « أن أبا طلحة صام بعد رسول الله ﷺ أربعين سنة لا يُفطر إلَّا يوم فطرٍ أو أضحى »[٤] .

(٤) صوم عائشة زوج رسول الله ﷺ :

« الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق ، العتيقة بنت العتيق ، حبيبة الحبيب ، وأليفة القريب ، سيد المرسلين محمد الخطيب ، المبرّأة من العيوب ، المعرّاة من ارتياب القلوب لرؤيتها جبريل رسول علَّام الغيوب »[٥] .

عن عبد الرحمن بن القاسم : أن عائشة كانت تصوم الدهر[٦] .

وأخرجه ابن سعد عن القاسم بلفظ : أن عائشة كانت تسرُد الصوم[٧] .

عن عروة : أن عائشة رضي الله عنها كانت تسرد الصوم . وعن القاسم أنها كانت تصوم الدهر ، لا تفطر إلا يوم أضحى أو يوم فطر[٨][٩] .

قال عروة : « بعث معاوية مرة إلى عائشة بمائة ألف درهم ، فقسمتْها ؛

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٧/١ .

(٢) تاريخ دمشق لأبي زرعة ٥٦٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٩/١ .

(٤) المستدرك ٣٥٣/٣ . وقال : على شرط مسلم .

(٥) حلية الأولياء ٤٣/٣ .

(٦) سير أعلام النبلاء ١٨٧/١ ، ورجاله ثقات أخرجه ابن سعد ٦٨/٨ .

(٧) أخرجه ابن سعد ٧٥/٨ .

(٨) أي : أنها كانت تصوم غير الأيام المنهي عنها ؛ كالعيدين وأيام التشريق والحيض .

(٩) السمط الثمين ص٩ ، صفة الصفوة ٣١/٢ .

لم تترك منها شيئًا ، فقالت بريرة : أنت صائمة ، فهلا ابتعت لنا منها بدرهمٍ لحمًا ؟ قالت : لو ذكَّرْتِني لفعلت »[1] .

« وعن محمد بن المنكدر عن أم ذرة - وكانت تغشى عائشة رضي الله عنها - قالت : بعث إليها الزبير بمالٍ في غرارتين . قالت : أراه ثمانين ومائة ألف ، فدعت بطبقٍ وهي صائمة يومئذٍ ، فلمّا أمست قالت : يا جارية هلُمِّي فطوري . فجاءتها بخبزٍ وزيت ، فقالت لها أم ذرّة : أما استطعت مما قسمت اليوم ، أن تشتري لنا بدرهمٍ لحمًا نُفطر عليه . فقالت : لا تُعنِّفيني ، لو كنت أذكرتني لفعلتُ »[2].

(٥) صوم أم المؤمنين حفصة بنت عمر :

القوّامة الصوّامة ، حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وارثة الصحيفة ، الجامِعة للكتاب[3].

عن قيس بن زيد أن النبي ﷺ طلَّق حفصة بنت عمر ، فدخل عليها خالاها قدامة وعثمان ابنا مظعون ، فبكت وقالت : والله ما طلّقني عن شِبَع . وجاء النبي ﷺ فتَجَلْبَبت . قال : « فقال لي جبريل عليه السلام : راجِعْ حفصةَ ؛ فإنها صوَّامةٌ قوَّامةٌ ، وإنها زوجتك في الجنة »[4] .

أيّ شهادةٍ أعظم من شهادة الله وجبريل لحفصة رضي الله عنها ، وأنعم بها من عبادةٍ كانت سببًا لرجوع أم المؤمنين حفصة إلى رسولنا ﷺ ، لتبقى له زوجة في الجنة .

وعن نافع قال : « ماتت حفصة حتى ما تُفطر » .

---

(١) أبو نعيم في « الحلية » ٢/٤٧ ، الحاكم ٤/١٣ .

(٢) ابن سعد ٨/٤٦ ، والحلية ٢/٤٧ ورجاله ثقات .

(٣) الحلية ٢/٥٠ .

(٤) حسن . أخرجه الحاكم في « المستدرك » عن أنس وقيس بن زيد .

(٦) صوم أبي الدرداء حكيم الأمة وسيد القُرَّاء :

وامق العبادة ، وفارق التجارة ، داوم على العمل استباقًا ، وأحب اللقاء اشتياقًا ، تفرغ من الهموم ، ففتحت له الفهوم ، صاحب الحِكَم والعلوم(١) .

قال أبو الدرداء : « كنت تاجرًا قبل أن يُبعث محمد ﷺ ، فلمّا بُعث محمد ﷺ ، زاولتُ العبادة والتجارة ، فلم يجتمعا ، فأخذتُ في العبادة وتركت التجارةَ »(٢).

وفي رواية : « كنت تاجرًا قبل المبعث ، فلما جاء الإسلام جمعت التجارة والعبادة ، فلم يجتمعا ، فتركت التجارة ولَزِمْتُ العبادة »(٣).

قال ابن إسحاق : كان الصحابة يقولون : أتبعنا للعلم والعمل أبو الدرداء(٤).

وعن يزيد بن معاوية : أن أبا الدرداء كان من العلماء الفقهاء ، الذين يشفون من الداء(٥) .

عن أبي جحيفة أن رسول الله ﷺ آخى بين سلمان وأبي الدرداء ، فجاءه سلمان يزوره ، فإذا أم الدرداء مُتَبَذِّلَة(٦)، فقال : ما شأنك ؟ قالت : إن أخاك لا حاجة له في الدنيا ، يقوم الليل ويصوم النهار . فجاء

---

(١) الحلية ١/٢٨ .
(٢) الحلية ١/٢٩ .
(٣) ابن سعد ٧/٣٩١ ، قال الهيثمي ٩/٣٦٧ : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .
(٤) ابن عساكر ٢/١٣/٣٧١ .
(٥) سير أعلام النبلاء ٢/٣٤٦ .
(٦) أي لابسة ثياب البِذْلة وهي المِهْنَة .

أبو الدرداء فرحَّب به وقرَّب إليه طعامًا ، فقال له سلمان : كُل . قال : إني صائم . قال : أقسمت عليك لَتُفطِرَنَّ . فأكل معه ، ثم بات عنده ، فلما كان من الليل ، أراد أبو الدرداء أن يقوم ، فمنعه سلمان ، وقال : إن لجسدك عليك حقًّا ، ولربك عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقًّا ، صُمْ وأفطِرْ ، وصلِّ وائتِ أهلك ، وأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقهَّ . فلمّا كان وجه الصبح ، قال : قُم الآن إن شئت . فقاما ، فتوضَّأ ، ثم ركعا ، ثم خرجا إلى الصلاة ، فدنا أبو الدرداء ليُخبر رسول الله ﷺ بالذي أمَرَه سلمان . فقال له : « يا أبا الدرداء ، إن لجسدك عليك حقًّا ، مِثْل ما قال لك سلمان »[1] .

(٧) صيام عبد الله بن عمرو بن العاص :

صاحب الصيام والقيام ، « الإمام الحَبْر العابد » ، « له مناقب وفضائل ومقام راسخ في العلم والعمل »[2] .

عن عبد الله بن عمرو قال : أنكحني أبي امرأةً ذات حسب ، فكان يتعاهد كَنَّته[3] فيسألها عن بعلها ، فتقول : نعم الرجل مِن رجل ، لم يَطَأْ لنا فراشًا ، ولم يفتِّش لنا كنفًا منذ أتيناه . فلما طال ذلك عليه ، ذكر للنبي ﷺ فقال : « ألقني به » . فلقيته بعدُ ، فقال : « كيف تصوم ؟ » . قلت : أصوم كل يوم . قال : « وكيف تختم ؟ » . قلت : كلّ ليلة . قال : « صُم في كلِّ شهر ثلاثةً ، واقرأ القرآن في كل شهر » . قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : « صم ثلاثةَ أيام في الجمعة » . قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : « أفطر يومين وصم يومًا » . قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : « صُم أفْضَل الصوم ؛ صوم داود : صيام يوم وإفطار يوم ،

---

(١) البخاري والترمذي .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/٨٠ .

(٣) كَنَّته : بفتح الكاف وتشديد النون ، هي زوج الولد .

واقرأ في كل سبعةِ ليالٍ مرّةً » . فليتني قبلتُ رُخصةَ رسول الله ﷺ ، وذاك أني كَبِرتُ وضَعُفتُ . فكان يقرأ على بعض أهْلِه السُّبع من القرآن بالنهار ، والذي يقرؤه يَعرِضه من النهار ؛ ليكون أخفَّ عليه بالليل ، وإذا أراد أن يتقوّى أفطر أيامًا وأحصى وصام مثلهنّ ، كراهيةَ أن يترُك شيئًا فارق النبيَّ ﷺ عليه[1] .

وعند النسائي : قلت : دعني أستمتع من قوّتي وشبابي . قال : « اقرأه في عشرين » .

قلت : دعني استمتع . قال : « اقرأه في سبع ليالٍ » . قلت : دعني يا رسول الله أستمتع . قال : فأبى[2] .

وصحَّ أن رسول الله ﷺ نازَلَه إلى ثلاث ليالٍ ، ونهاه أن يقرأ في أقل من ثلاث[3] .

وعند أحمد : عن عبد الله بن عمرو : زوجني أبي امرأةً من قريش ، فلمّا دخلت عليَّ ، جعلتُ لا أنْحاش لها ؛ مما بي من القوّة على العبادة ، فجاء أبي إلى كَنَفِه ، فقال : كيف وجدتِ بعلَكِ ؟ قالت : خير رجلٍ من رجل ، لم يفتّش لنا كَنَفا ، ولم يقرُب لنا فراشًا . قال : فأقبل عليَّ ، وعضَّني بلسانه ، ثم قال : أنكحتك امرأةً ذات حَسَب ، فعضلتها وفعلت . ثم انطلق ، فشكاني إلى النبي ﷺ فطلبني فأتيتُه ، فقال لي : « أتصوم النهار وتقوم الليل ؟ » . قلت : نعم . قال : « لكنّي أصوم وأُفطر ، وأُصلي وأنام ،

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب « في كم يقرأ القرآن » ٨/٧١٢ ، ٧١٣ .

(٢) رواه النسائي .

(٣) أبو داود والترمذي وابن ماجه .

وأمسُّ النساء ، فمن رغب عن سُنتّي فليس مني »[١] .

عن عبد الله بن عمرو قال : دخل رسول الله ﷺ بيتي هذا ، فقال : « يا عبد الله ، ألم أُخبَر أنك تكلَّفت قيام الليل وصيام النهار ؟ » . قلت : إني لَأَفْعَل . فقال : « إن من حسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، فالحسنة بعشر أمثالها ، فكأنك قد صمت الدَّهر كلَّه » . قلت : يا رسول الله ، إني أجد قوّةً ، وإني أحبّ أن تزيدني . فقال : « فخمسة أيام » . قلت : إني أجد قوة . قال : « سبعة أيام » . فجعل يستزيده ، ويزيده حتى بلغ النِّصف ، وأن يصوم نصف الدهر : « إن لأهلك عليك حقًّا ، وإن لعبدك عليك حقًّا ، وإن لضيفك عليك حقًّا » . وكان بعدما كَبِر وسنّ يقول : ألا كنت قبلتُ رخصةَ النبي ﷺ أحبّ إليّ من أهلي ومالي[٢] .

قال الذهبي : هذا السيد العابد الصاحب ، كان يقول لمَّا شاخ : ليتني قبلتُ رخصةَ رسول الله ﷺ . فرضي الله عن صاحب الصيام والقيام ، الذي زَمَّ نفسَه في تعبُّده ووِرده بالسنة النبوية .

(٨) صوم عبد الله بن عمر :

«الإمام القُدوة شيخ الإسلام»[٣]، المتعبِّد المتهجِّد ، يكفيه قول رسول الله ﷺ : « نعم إن عبد الله »[٤]، وقوله : « إن عبد الله رجل صالح »[٥] .

قال عنه نافع : « كان ابن عمر لا يصوم في السفر ، ولا يكاد يُفطر

---

(١) رجاله ثقات .

(٢) إسناده حسن . رواه أحمد في مسنده ٢/٢٠٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/٢٠٤ .

(٤) صحيح .

(٥) صحيح . رواه البخاري .

في الحضر »[١] .

عن سعيد بن جبير قال : لما احْتُضِر ابن عمر ، قال : ما آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث : ظَمَأ الهواجر ، ومُكابدة الليل ، وأني لم أُقاتل الفئة الباغية التي نزلتْ بنا ؛ يعني الحجَّاج[٢] .

(٩) صوم أبي أُمامة الباهِلِيّ :

صاحب رسول الله ﷺ .

عن رجاء بن حيوة ، عن أبي أُمامة : أنشأ رسول الله ﷺ جيشًا فأتيته ، فقلت : يا رسول الله ﷺ ، ادعُ الله لي بالشهادة . قال : « اللهم سلِّمْهم وغنِّمْهم » . **فغزونا ، فسلمنا وغنمنا ، حتى ذكر ذلك ثلاث مرات .** قال : ثم أتيته ، فقلت : يا رسول الله ، إني أتيتك تترى ثلاث مراتٍ ، أسألك أن تدعو لي بالشهادة ، فقلت : « اللهم سلّمهم وغنّمهم » . فسلمنا وغنمنا يا رسول الله ، **فمرني بعملٍ أدخل به الجنة ، فقال : « عليك بالصوم ؛** فإنه لا مثل له » . قال : فكان أبو أمامة لا يرى في بيته الدخان نهارًا إلا إذا نزل بهم ضيف ، فإذا رأوا الدخان نهارًا ، عرفوا أنه قد اعتراهم ضيف »[٣] .

وعند الإمام أحمد : فكان أبو أمامة ، وامرأته ، وخادمه ، لا يُلْفَوْن إلا صُيَّامًا[٤] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/٢١٥ .
(٢) إسناده صحيح ، أخرجه ابن سعد ٤/١٨٥ ، والذهبي في « السير » ٣/٢٣٢ .
(٣) إسناده صحيح على شرط مسلم ، أخرجه ابن حبان في صحيحه ، وابن أبي شيبة ، والنسائي ، والطبراني ، وعبد الرزاق .
(٤) سير أعلام النبلاء ٣/٣٦٠ .

قال الذهبي : « ولأبي أُمامة كرامة باهرة جَزِع هو منها ، وهي في كرامات الدَّاكاليّ ، وأنه تصدّق بثلاثة دنانير ، فلقي تحت كراجته ثلاثمائة دينار »[١] .

وفي تاريخ الذهبي (٣/٣١٥) عن مولاة لأبي أُمامة ، قالت : « كانَ أبو أمامة يحبّ الصدقة ، ولا يقف به سائل إلّا أعطاه ، فأصبحنا يومًا وليس عنده إلا ثلاثة دنانير ، فوقف به سائل ، فأعطاه دينارًا ، ثم آخر ، فكذلك ، ثم آخر ، فكذلك ، قلت : لم يبق لنا شيءٌ . ثم راح إلى مسجده صائمًا ، فرفقت له ، واقترضت له ثمن عشاء ، وأصلحت فراشه ، فإذا تحت المرفقة ثلاثمائة دينار ، فلمّا دخل ورأى ما هيَّأتُ له ، حَمِد الله وابتسم ، وقال : هذا خيرٌ من غيره . ثم تعشَّى ، فقلت : يغفر الله لك ، جئت بما جئت به ، ثم تركته بموضع مَضْيَعَة ؟! قال : وما ذاك ؟ قلت : الذهب . ورفعت المرفقة ، ففزع لما رأى ، وقال : ما هذا ويحك ؟ قلت : لا علم لي . فكثر فزعه » .

(١٠) صوم عبد الله بن الزُّبير :

أمير المؤمنين ، ابن الحواريّ ، عائِذُ بيت الله ، المشاهد في القيام ، المواصِل للصيام ، قال الذهبي : « عدادُه في صغار الصحابة ، وإن كان كبيرًا في العلم والشرف والجهاد والعبادة » .

قالت عنه أسماء بنت أبي بكر أنه : قوّام الليل ، صوّام النهار ، وكان يُسّمى : حمامَ المسجد[٢] .

عن ابن أبي مُلَيكة قال : « كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام ، ويصبح في اليوم السابع وهو أَلْيَثنا »[٣][٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/٣٦٢ .
(٢) حلية الأولياء ١/٣٣٥ ، سير أعلام النبلاء ٣/٣٦٧ .
(٣) أليثنا : أي كأنه لَيْث .
(٤) رواه الحاكم : ٣/٥٤٩ .

لقد كان ابن الزبير مع مُلْكه صِنْفًا في العبادة(١) .

وقال ابن عمر وقد رآه مصلوبًا : « السلام عليك أبا خبيب ، السلام عليك أبا خبيب ، السلام عليك أبا خبيب ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، أما والله إنْ كنت ما علمتُ صوّامًا قوّامًا وَصُولًا للرَّحِم ، أما والله لأمة أنت أشرُّها لأمةُ خيرٍ »(٢).

(١١) صوم عبد الله بن رَوَاحَة :

الأمير السعيد الشهيد البَدْرِيّ النقيب ، أبو عمرو الأنصاري الخزرجي شاعر رسول الله ﷺ .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : « خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره في يوم حارّ ، حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدّة الحر ، وما فينا صائم إلا ما كان من النبي ﷺ وابن رواحة »(٣) .

وعند الذهبي في السير : « إن كنا لنكون مع رسول الله ﷺ في السفر في اليوم الحار ، ما في القوم أحدٌ صائم إلّا رسول الله ﷺ وعبد الله ابن رواحة »(٤).

عن ابن أبي ليلى : تزوَّج رجلٌ امرأة ابنِ رواحة ، فقال لها : تدرين لِمَ تزوّجتك ؟ لتُخبريني عن صنيع عبد الله في بيته . فذكرت له شيئًا لا أحفظهُ ، غير أنها قالت : كان إذا أراد أن يخرج من بيته ، صلَّى ركعتين ، وإذا دخل صلى ركعتين،لا يَدَع ذلك أبدًا(٥).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٦٨/٣ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه .

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٣٢/١ - ٢٣٣ .

(٥) إسناده صحيح . نسبه الحافظ في « الإصابة » ١٧٨/٦ - ١٧٩ ، ابن المبارك =

(١٢) صوم الصحابي الجليل حمزة بن عمرو الأسلمي :

كان رضي الله عنه يسرُد الصوم .

روى الإمام أحمد ، عن عائشة رضي الله عنها ، أن حمزة بن عمرو الأسلمي سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني رجل أسرد الصوم ، فأصوم في السفر ؟ قال : « صم إن شئت ، وأفطر إن شئت » .

قال النووي : « فيه دلالة لمذهب الشافعي ، وموافقته أنّ صوم الدهر وسرْده غير مكروهٍ لمن لا يخاف منه ضررًا ، ولا يُفوِّت به حقًّا ، بشرط فطْر يومي العيدين والتشريق ؛ لأنه أخبر بسرده ولم يُنكر عليه ، بل أقرَّه عليه ، وأذن له فيه في السفر ، ففي الحضر أوْلَى .

وهذا محمول على أن حمزة بن عمرو كان يطيق السرد بلا ضررٍ ولا تفويتِ حقٍّ ، كما في الرواية التي بعدها : (أجد بي قوّةً على الصيام في السفر) ، وأما إنكاره ﷺ على ابن عمرو بن العاص صوم الدهر ؛ فلأنه عَلِم ﷺ أنه سيضعف عنه ، وهكذا جرى بأنه ضعف في آخر عمره ، وكان يقول : يا ليتني قبلتُ رخصة رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ يحب العمل الدائم وإن قلَّ ، ويحثُّهم عليه »[1] .

(١٣) صوم أبي مسلم الخَوْلانِيّ :

« المتسلِّي بالأوراد والنُّوَب ، الخولاني عبد الله بن ثُوَب ، حكيم الأمة وممثِّلها ، ومُديم الخِدمة ومحرِّرها »[2] .

عن عطية بن قيس ، قال : دخل ناس من أهل دمشق على أبي مسلم

= في « الزهد » وصحّح سنده ، ورواه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » ٣٣/١ . ورجاله ثقات .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧٩/٣ .

(٢) حلية الأولياء ١٢٢/٢ .

وهو غازٍ في أرض الروم ، وقد احتفر جورة في فسطاطه[١]، وجعل فيها نِطْعًا وأفرغ فيه الماء وهو يَتَصَلَّق[٢] فيه ، فقالوا : ما حملك على الصيام وأنت مسافر ؟ قال : لو حضر قتالٌ لأفطرت ولتهيَّأتُ له وتقوَّيْت ، إن الخيل لا تجري الغايات وهُنّ بُدَّن ، إنما تجري وهن ضُمَّر ؛ ألا وإن أيامنا باقية جائية »[٣] .

وفي الحلية : « بين أيدينا أيامًا لها نعمل »[٤].

(١٤) صيام عامر بن عبد قيس :

القُدوة الولّي الزّاهِد ، راهِب هذه الأمة .

كان يقول : « لَذَّات الدنيا أربعة : المال ، والنساء ، والنوم ، والطعام . فأما المال والنساء فلا حاجة لي فيهما ، وأما النوم والطعام فلا بد لي منهما ، فوالله لأضرن بهما جهدي » . ولقد كان يبيت قائمًا ، ويظلُّ صائمًا[٥] .

« وعن علقمة بن مَرْثَد قال : انتهى الزهد إلى ثمانية : عامر بن عبد الله ابن عبد قيس ، وأُوَيْس القَرَني ، وهرم بن حيّان ، والربيع بن خُثَيْم ، ومسروق بن الأجدع ، والأسود بن يزيد ، وأبو مسلم الخولاني ، والحسن ابن أبي الحسن »[٦].

---

(١) الفُسطاط : البيت من الشَّعر .
(٢) يتصلق : يتقلَّب ويتلوَّى على جنبه .
(٣) سير أعلام النبلاء ٤/١٠ .
(٤) الحلية ١٢٧/٢ .
(٥) الحلية ٨٨/٢ .
(٦) الحلية ٨٧/٢ .

وكان يقول : « ما أبكي علي دنياكم رغبةً فيها ، ولكن أبكي على ظَمَأ الهَوَاجِر ، وقيام ليل الشتاء »[١] .

وعن قتادة : « لما احتضر عامر بكى ، فقيل:ما يبكيك ؟ قال : ما أبكي جزعًا من الموت ، ولا حرصًا على الدنيا ، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الليل »[٢] .

(١٥) صوم الأسود بن يزيد النَّخَعِيّ :

الإمام القُدوة ، القارىء القوَّام ، السّاري الصَّوَّام ، الفقيه الأثير ، الفقير الأسير « هو نظير مسروق في الجلالة والعلم والثِّقة والسِّنّ ، يُضرب بعبادتهما المَثَل »[٣] .

سُئل الشَّعْبِيُّ عن الأسود فقال : « كان صوّامًا قوّامًا حجّاجًا »[٤] .

وعن علقمة بن مرثد ، قال : « انتهى الزُّهد إلى ثمانيةٍ من التابعين ، منهم الأسود بن يزيد ، كان مجتهدًا في العبادة ، يصوم حتى يخضرَّ جسده ويصفَرّ ، وكان علقمة بن قيس يقول له : وَيْحَكَ ، لِمَ تعذِّب هذا الجسد ؟ قال : راحة هذا الجسد أريد ، [إن الأمر جِدّ ، إن الأمر جد][٥] . فلما احتُضِر بكى فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال : ما لي لا أجزع ، ومن أحقّ بذلك منّي ، والله لو أتيت بالمغفرة من الله عز وجل ، لهَمَّني الحياء منه مما قد صنعتُه ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه ، فلا يزال مستحيًا منه »[٦] .

---

(١) الحلية ٨٨/٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩/٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥٠/٤ .

(٤) حلية الأولياء ١٠٣/٢ ، سير أعلام النبلاء ٥١/٤ .

(٥) الاعتصام للشاطبي ٣٩٩/١ .

(٦) حلية الأولياء ١٠٣/٢ ، ١٠٤ ، سير أعلام النبلاء ٥٢/٤ .

وروى شُعْبَة عن الحكم ، أن الأسود كان يصوم الدهر[١] .

وروى حمّاد عن إبراهيم : كان الأسود يصوم حتى يَسودّ لسانه من الحر[٢] .

وعن عبد الله بن بشر ، أن علقمة والأسود بن يزيد حجَّا ، وكان الأسود صاحب عبادةٍ ، وصام يومًا فكان الناس بالهجير وقد تربَّد وجهُه ، فأتاه علقمة فضرب على فخذه فقال : ألا تَتَّقِ الله يا أبا عمرو في هذا الجسد ؟ علام تعذِّب هذا الجسد ؟ فقال الأسود : يا أبا شبل ، الجد الجد[٣] .

قال حنس بن حارث : رأيت الأسود وقد ذهبت إحدى عينيه من الصوم[٤]، لا ضير إن كانت الجنة فسيبدِّل الله بعينٍ أصَحّ منها .

ما ضرَّهم ما أصابهم ، جَبَرَ الله لهم بالجنة كلَّ مصيبة .

(١٦) صيام مسروق بن عبد الرحمن :

« في العلم معروق ، وبالضمان موثوق ، ولعباد الله معشوق ، أبو عائشة مسروق »[٥] .

عن الشَّعْبِي قال : « غشي على مسروق في يومٍ صائف ، وكانت عائشة قد تبنَّته فسمى بِنْتَهُ عائشةَ ، وكان لا يعصي ابنته شيئًا ، قال : فنزلت إليه فقالت : يا أبتاه ، أفطر واشرب . قال : ما أردتِ بي يا بُنيَّة ؟ قالت : الرفق . قال : يا بنيَّة ، إنما طلبت الرفقَ لنفسي في يومٍ كان مقداره خمسين

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥٢/٤ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٥٣/٤ .
(٣) حلية الأولياء ١٠٤/٢ .
(٤) حلية الأولياء ١٠٤/٢ .
(٥) حلية الأولياء ٩٥/٢ .

ألف سنة »[١]. وفي رواية : « إنما طلبت الرفق لتعبي »[٢].

قالت له عائشة الصِّدِّيقة : « يا مسروق ، إنك من ولدي ، وإنك لمن أحَبِّهم إليَّ »[٣].

وكان لا يأخذ على القضاء أجرًا ، وكان يقول : « لأن أُفتي يومًا بعدلٍ وحقٍّ ، أحبُّ إليَّ من أن أغزوَ سنةً »[٤].

قال الأصمعيّ : كان مسروق يتمثَّل :

وَيَكْفِيك مما أُغْلِقَ البابُ دُونَهُ ... وأُرْخِي عليه السِّتْرُ مِلْحٌ وجَرْدَقْ
وماءٌ فُـراتٌ بـاردٌ ثـم تَغْتَدِي ... تُعارِضُ أصحابَ الثَّرِيدِ المُلَبَّقْ
تَجَشَّا إذا ما هُم تَجَشَّوْا كأنَّما ... غُذِيتَ بألوانِ الطَّعـامِ المُفَتَّقْ

(١٧) صوم العلاء بن زياد :

« المبشّر المحزون ، المُستَترِ المخزون ، تجرَّد من التّلاد ، وتشمَّر للمِهاد ، وقدَّم العَتاد للمَعَاد ، العلاء بن زياد »[٥].

كان ربانيًّا تقيًّا قانتًا لله ، بكّاء من خشية الله .

قال قتادة : كان العلاء بن زياد قد بكى حتى غُشي بصره ، وكان إذا أراد أن يقرأ أو يتكلّم ، جَهَشَهُ البكاء ، وكان أبوه قد بكى حتى عَمِي .

« قال الحسن لعلاء بن زياد وقد سلَّه الحزن : كيف أنت يا علاء ؟ فقال : واحزناه على الحزن . قال الحسن : قوموا ، فإلى هذا والله انتهى استقلالُ الحزن »[٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/٦٧ - ٦٨ .
(٢) الاعتصام ١/٤٠٠ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٤/٦٦ .
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/٦٦ ، ٦٨ .
(٥) حلية الأولياء ٢/٢٤٢ .
(٦) حلية الأولياء ٢/٢٤٢ .

« وعن هشام بن حسّان ، أن العلاء بن زياد كان قُوت نفسه رغيفًا كل يوم ، وكان يصوم حتى يخضرَّ أو يصلي حتى يسقط ، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا : إن الله تعالى لم يأمرك بهذا كله . فقال : إنما أنا عبدٌ مملوك ، لا أدع من الاستكانة شيئًا إلا جئتُه به »[١].

قال له رجل : رأيتُ كأنك في الجنة فقال له : وَيْحَك ، أما وجَدَ الشيطان أحدًا يسخر به غيري وغيرك[٢] .

وكان يقول : « لِيُنزل أحدكم نَفْسَه أنه قد حَضَرَه الموت ، فاستقال ربّه - تعالى - نَفْسَه ، فأقاله ، فليعملْ بطاعة الله عز وجل »[٣].

قال سلمةُ بن سعيد : رُئِيَ العلاء بن زياد أنه من أهل الجنة ، فمكث ثلاثًا لا تَرْقَأ له دمعة ، ولا يَكْتَحِل بنومٍ ، ولا يتذوَّق طعامًا ، فأتاه الحسن فقال : أي أخي ، أتقتل نفسَك أن بُشِّرت بالجنة ؟! فازداد بكاءً ، فلم يُفارقه حتى أمسى - وكان صائمًا - فطعم شيئًا[٤] .

« عن هشام بن زياد العدويّ قال : تجهَّز رجل من أهل الشام وهو يريد الحجّ ، فأتاه آتٍ في منامه فقال : ائتِ العراق ثم ائت البصرة ، ثم ائت بني عَدِيّ فائت بها العلاء بن زياد ، فإنه رجل أَقْصَم الثَّنِيَّة بسَّام ، فبشِّره بالجنة . قال : فقال : رؤيا ليست بشيءٍ . حتى إذا كانت الليلة الثانية رقد ، فأتاه آت فقال : ألا تأتي العراق . فذكر مثل ذلك . حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، جاءه بوعيد فقال : ألا تأتي العراق ثم تأتي البصرة ، ثم تأتي بني عدي فتَلْقَى العلاء بن زياد ، رجل ربعة أقصم الثّنيّة بسّام،فبشِّره بالجنة . قال

(١) حلية ٢/٢٤٣ .
(٢) حلية ٢/٢٤٥ .
(٣) حلية ٢/٢٤٤ .
(٤) سير ٤/٢٠٣ .

فأصبح وأخذ جهازه إلى العراق ، فلمّا خرج من البيوت ، إذا الذي أتاه في منامه يسير بين يديه ما سار ، فإذا نزل فَقَدَهُ ، فلم يزل يراه حتى دخل الكوفة ففقدَهُ . قال : فتجهَّز من الكوفة فرآه يسير بين يديه ما سار ، حتى قدم البصرة فأتى بني عدي ، فدخل دار العلاء بن زياد ، فوقف الرجل على باب العلاء فسلَّم . قال هشام : فخرجتُ إليه ، فقال لي : أنت العلاء بن زياد ؟ قلتُ : لا . وقلتُ : انزل - رَحِمَك الله - فضع رَحْلَك وَضَعْ متاعَك . فقالْ : لا ، أين العلاء بن زياد ؟ قلت : هو في المسجد . قال : وكان العلاء يجلس في المسجد ويدعو بدعواتٍ ويحدِّث . قال هشام : فأتيتُ العلاء فخفَّفَ من حديثه ، وصلّى ركعتين ثم جاء ، فلمّا رآه العلاء تبسَّم فَبدَتْ ثنيّتُه ، فقال : هذا والله صاحبي . قال : فقال العلاء : هلّا حططتَ رَحْلَ الرجل ، هَلّا أنزلته ؟ قال : قد قلت له فأبى. قال : فقال العلاء : انزلْ رحمك الله . قال : فقال الرجل : أدخِلْني . قال : فدخل العلاء منزله وقال : يا أسماء ، تحوَّلي إلى البيت الآخر . قال : فتحوَّلتْ ، ودخل الرجل وبشَّره برؤياه ، ثم خرج فركب . قال : وقام العلاء فأغلق بابه وبكى ثلاثة أيامٍ ، وقال: سبعة أيامٍ لا يذوق فيهما طعامًا ولا شرابًا ولا يفتح بابه . قال هشام : فسمعته يقول في خلال بكائه : أنا أنا . قال : فكنا نهابه أن نفتح بابه ، وخشيت أن يموت ، فأتيت الحسن فذكرت له ذلك ، وقلت : لا أراه إلّا ميتًا ؛ لا يأكل ولا يشرب باكيًا . قال : فجاء الحسنُ حتى ضرب عليه بابه ، وقال : افتح يا أخي . فلمّا سمع كلام الحسن قام ففتح بابه ، وبه من الضُّر شيءٌ الله به عليم ، فكلَّمه الحسن ثم قال : رحمك الله ، ومن أهل الجنة إن شاء الله ، أفقاتِلٌ نفسك أنت ؟! قال هشام : حدثنا العلاء لي وللحسن بالرؤيا ، وقال : لا تحدثوا بها ما كنت حيًّا »[١] .

---

(١) الحلية ٢/٢٤٥ - ٢٤٦ ، سير أعلام النبلاء ٤/٢٠٣ - ٢٠٤ .

لك الله يا علاء ، أئن بشرت بالجنة صمت وبكيت ، حتى أشرفت على الموت ؟! . لك الله يا إمام ، ولك من اسمك أوفر نصيب .

(١٨) صيام سعيد بن المُسَيِّب سيِّد التابعين :

عالم العلماء - كما قال مكحول - فقيه الفقهاء ، حدث يزيد بن أبي حازم أن سعيد بن المسيب كان يسرُد الصوم . وقال ابن المسيب : ما أذَّن المؤذِّن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد[١].

(١٩) صوم أبي بكر بن عبد الرحمن راهِب قريش :

الإمام أحد فقهاء المدينة السبعة ، وكان من سادات قريش . قال ابن سعد : كان يقال له : راهب قريش ؛ لكثرة صلاته[٢] .

روى الشعبي عن عمر بن عبد الرحمن ، أن أخاه أبا بكر كان يصوم ولا يفطر .

قال الذهبي : « قلت : كان أبو بكر بن عبد الرحمن ممن جَمَع العلم والعمل والشرف ، وكان ممن خلف أباه في الجلالة »[٣].

(٢٠) صوم عُرْوة بن الزُّبَيْر :

عالم المدينة ، أحد الفقهاء السبعة ، وابنُ حواري رسول الله ﷺ ، مُكِّن من الطاعة فاكْتَسَب ، وامتُحن بالمحنة فاحْتَسَب ، عروة بن الزبير بن العوَّام المجتهد المتعبِّد الصوّام[٤].

قال الزهري : « جالستُ ابن المسيَّب سبع سنين ، لا أرى أن عالمًا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢١/٤ ، وقال الذهبي : إسناده ثابت .
(٢) طبقات ابن سعد ٢٠٧/٥ - ٢٠٨ .
(٣) سير ٤١٧/٤ - ٤١٨ .
(٤) حلية ١٧٦/٢ .

غيره ، ثم تحوَّلت إلى عُروة ففجَّرت به ثَبَجَ بحرٍ .

وقال أيضًا : رأيت عروة بحرًا لا تكدِّره الدلاء »[1].

عن هشام بن عروة ، أن أباه كان يصوم الدهر إلا يوم الفطر ويوم النحر ، ومات وهو صائم ويعفو ، يقولون له : أفطر ، فلم يفطر[2].

وعن هشام بن عروة ، أن أباه كان يسرُد الصوم[3].

وعن هشام أن أباه وقعت في رِجله الآكِلَةُ فقال : ألا ندعو لك طبيبًا ؟ قال:إن شئتم . فقالوا : نسقيك شرابًا يزول فيه عقلك ؟ فقال : امض لشأنك ، إن ربي ابتلاني ليرى صَبْرِي ، ما كنت أظنُّ أن خلْقًا يشرب ما يُزيل عقلَه حتى لا يعرف به . فوضع المنشار على رُكْبَتِه اليسرى ، فما سمعنا له حسًّا ، فلمّا قَطَعَها ، جعل يقول : لئن أخذت . لقد أبقيت ، ولئن ابتليتَ ، لقد عافيتَ . وما ترك جزأه بالقرآن تلك الليلة[4].

وكان وِرده ربع القرآن كلّ يوم في المصحف نظرًا يقوم به الليلَ .

وعن عبد الواحد مولى عروة قال : شهدتُ عروة بن الزبير قطع رِجْله من المفصل وهو صائم[5] .

والله لكأنها الأعاجيب ، ولا تعجب ؛ فإنّ أمه أسماء وأبوه الحواري ، وجدته صفية وخالته عائشة ، وجَدّه الصِّدِّيق .

فما اسْتَخْبَأْت في رجُلٍ خَبِيئًا كمِثْل الدِّينِ أو حَسَبٍ عَتِيقِ
ذَوُو الأَحْسَابِ أَكْرَمُ مِنْ تُراثٍ وأصْبَرُ عنـدَ نائبَةِ الحُقُوقِ

---

(١) سير ٤/٤٢٥ .
(٢) طبقات ابن سعد ١٨٠/٥ ، والزهد لأحمد ٣٧١ ، صفة الصفوة ٨٨/٢ .
(٣) صفة الصفوة ٨٧/٢ .
(٤) سير أعلام النبلاء ٤٣٠/٤ .
(٥) حلية ١٧٨/٢ .

(٢١) صوم سليمان بن يسار :

الفقيه الإمام ، عالم المدينة وفقيهها .
عن أبي الزِّناد قال : كان سليمان بن يسار يصوم الدهر .
وكان أخوه عطاء يصوم يومًا ويفطر يومًا[١].

(٢٢) عطاء بن يسار :

الإمام الفقيه الواعظ المذكِّر ، كبير القدر ، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا .

(٢٣) صوم إبراهيم النَّخَعِيّ :

التّقي الخَفِيّ الفقيه الرضيّ الإمام الحافظ ، فقيه العراق ومفتي أهل الكوفة .

حدثت هُنيدةُ امرأةُ إبراهيم ، أن إبراهيم كان يصوم يومًا ويفطر يومًا .
قال سعيد بن جبير : تستفتوني وفيكم إبراهيم النخعي ؟![٢] .

وكان يقول - رحمه الله -: وددت أني لم أكُن تكلّمت ، ولو وجدت بدًّا من الكلام ما تكلّمت ، وإن زمانًا صرت فيه فقيهًا لزمان سوء[٣].

(٢٤) صوم الحسن البصري :

إمام الدنيا بأسرها .
قال عنه أبو جعفر الباقر : ذاك الذي يُشبِه كلامه كلام الأنبياء[٤].
قال أيوب السَّخْتِياني : لو رأيتَ الحسن لقلت : إنك لم تُجالس فقيهًا قط[٥].

---

(١) سير ٤/٤٤٨ ، ابن سعد ٥/١٧٣ ، صفة الصفوة ٢/٨٤ .
(٢) حلية ٤/٢٢١ .
(٣) حلية ٤/٢٢٣ .
(٤) الحلية ٢/١٤٧ ، سير ٤/٥٨٥ .
(٥) سير ٤/٥٨٥ .

وقال عنه عطاء : ذاك إمام ضخم يُقتدى به[١]، وكان من رؤوس العلماء في الفتن والدماء والفروج[٢].

وقال علي بن زيد : سمعت من ابن المسيِّب أو عروة والقاسم وغيرهم : ما رأيت مِثْل الحسن ، ولو أدرك الصحابة وله مثل أسنانهم ، ما تقدَّموه[٣].

قال عوف : ما رأيتُ رجلًا أعلم بطريق الجنة من الحسن[٤].

رحم الله الحسن ، نَبَت في العِلْم وتحقَّبه وتشرَّبه ، به يُسْقون وبه يُدفع عنهم ، قال السري بن يحيى : « كان الحسن يصوم البيض وأشهر الحرم والاثنين والخميس »[٥] .

دعوه لا تلوموه دعوه :

قيل له يومًا : يا أبا سعيد ، أي شيء يُدخل الحزن في القلب ؟ فقال : الجوع . قال : فأي شيء يُخرجه ؟ قال : الشِّبع . وكان يقول : توبوا إلى الله من كثرة النوم والطعام[٦].

وكان يقول : إذا لم تقدر على قيام الليل ولا صيام النهار ، فاعلم أنك محروم قد كبَّلتْك الخطايا والذنوب[٧].

دَعُـوهُ لا تَلُومُـوهُ دَعُـوهُ ... فَقَدْ عَلِمَ الذي لم تَعْلَمُوهُ

---

(١) سير ٤/٥٧٤ .
(٢) سير ٤/٥٧٥ ، ابن سعد ٧/١٦٣ .
(٣) ابن سعد ٧/٢٦١ .
(٤) سير ٤/٥٧٥ .
(٥) سير ٤/٥٧٨ ، الزهد لأحمد ٢٦٩ .
(٦) الحسن البصري لابن الجوزي ص١٣ ، ١٤ .
(٧) الحسن البصري لابن الجوزي ص١٩ .

رأى عَلَمَ الهُدَى فَسَمَا إليه　　وطَالَبَ مَطْلَبًا لَمْ تَطْلُبُوهُ
أجابَ دُعاءَهُ لَمَّا دَعَاهُ　　وقامَ بأمْرِهِ وَأَضَعْتُمُوهُ
بَنْفسِي ذَاكَ مِنْ فَطِنٍ لَبِيبٍ　　تَذَوَّق مَطْعَمًا لَمْ تَطْعَمُوهُ

هذا قول الحسن وبكاء الحسن ، وهذا صدق رضيع أُمِّ سلمة ، كان يقول وهو يبكي : أي ربِّ ، ما أخسر صفقة من صرف عن بابك ، وضرب دونه حجابك . ثم أنشد :

إذا أنا لم أشْكُرْكَ جَهْدِي وطَاقَتِي　　ولم أُصْفِ من قَلْبِي لك الوُدّ أجْمَعَا
فلا سَلِمَتْ نَفْسِي من السَّقْمِ سَاعَةً　　ولا أبْصَرَتْ عَينِي مِنَ الشَّمْسِ مَطْلَعَا

ثم استغفر وبكى وقال : القلب الذي يُحِبّ اللَّهَ يحبّ التعب ، ويُؤثِر النصيب ، هيهات لا ينال الجنة من يُؤثِر الراحةَ ، من أحبَّ ما عند الله سخا بنفسه إن صدق وترك الأمانيَّ ؛ فإنها سلاح النَّوكْى(١) .

(٢٥) صوم ابن سيرين :

ابن سيرين الإمام شيخ الإسلام .

عن حبيب بن الشهيد : كنت عند عمرو بن دينار فقال : والله ما رأيت مثل طاووس . فقال أيوب السختياني – وكان جالسًا –: والله لو رأى محمد بن سيرين لم يقله(٢) .

وعن ابن عون قال : ثلاثة لم تَرَ عيناي مِثْلَهم : ابن سيرين بالعراق ، والقاسم بن محمد بالحجاز ، ورجاء بن حيوة بالشام ، كأنهم الْتَقَوْا فَتواصَوْا(٣) .

---

(١) الفعل منه نَوك ، بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع . والمصدر نوكا ونواكا : حَمقُ ، والأنوك : الأحمق والجموع نوكى ونُوك . الحسن لابن الجوزي ص٢٠ ، ٢١
(٢) سير ٤/٦٠٨ .
(٣) سير ٤/٦٠٩ .

ذكر محمد عند أبي قلابة فقال : اصرفوه كيف شئتم ، فلتجدنه أشدكم ورعًا ، وأملككم لنفسه ، ومن يستطع ما يطيق محمد ، يركب مثل حد السنان(١) .

عن أيوب قال : كان محمد يصوم يومًا ويُفطر يومًا . قال ابن عون : كان محمد من أشدّ الناس إزرًا على نفسه(٢) .

(٢٦) صوم عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد النَّخَعِي :

الإمام ابن الإمام . قال هلال بن خباب : كان عبد الرحمن بن الأسود وعقبة مولى أديم وسعد أبو هشام يحرمون من الكوفة ، ويصومون يومًا ويفطرون يومًا ، حتى يرجعوا .

وعن الحكم ، أن عبد الرحمن بن الأسود لما احتُضِر بكى ، فقيل له ، فقال : أسفًا على الصلاة والصوم . ولم يزل يتلو حتى مات .

قال الشعبي : أهل بيتٍ خُلقوا للجنة : علقمة والأسود وعبد الرحمن .

وروي أن عبد الرحمن صام حتى أحرق الصومُ لسانه(٣) .

(٢٧) صوم عبد الرحمن بن أبي نُعْم البَجَلِيّ الكوفي :

الإمام الحُجَّة القُدوةُ الرَّبانّي أبو الحكم ، قال بكير بن عامر : كان لو قيل له : قد توجَّه إليك مَلَك الموت ، ما كان عنده زيادة عمل .

قال عبد الملك بن أبي سليمان : كان يُفطر في الشهر مرتين .

وروي أنه أنكر على الحجاج كثرة القتل فهمَّ به ، فقال له : مَنْ في بطنها أكثر ممن على ظهرها(٤) .

---

(١) ابن سعد ١٩٦/٧ ، سير ٦٠٩/٤ .

(٢) الزهد ٣٠٧ ، سير ٦١٥/٤ .

(٣) سير ١٢/٥ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٦٢/٥ - ٦٣ .

(٢٨) صوم عِراك بن مالك الغِفاري :

أحد العلماء العاملين ، كان يسرُد الصوم . وقال عمر بن عبد العزيز : ما أعلم أحدًا أكثر صلاةً من عِرَاك بن مالك[١] .

(٢٩) صوم منصور بن المعتمر :

حليف الصيام والقيام ، خفيف التَّطعم والمنام ، الحافظ القُدوة أبو عتَّاب السُّلمي .

قال أبو بكر بن عيَّاش : رحم الله منصورًا ، كان صوّامًا قوّامًا .

قال الثوري : لو رأيت منصور بن المعتمر لقلت : يموت الساعة .

حدَّث زائدةُ أن منصورًا صام أربعين سنة وقام ليلها ، وكان يبكي فتقول له أمه : يا بُنيَّ ، قتلتَ قتيلًا ! فيقول : أنا أعلم بما صنعتُ بنفسي . فإذا كان الصبح أكْحَلَ عينيه ودهن رأسَهُ وبرق شفته ، وخرج إلى الناس .

وذَكَر سفيان بن عيينة منصورًا فقال : قد كان عمش من البكاء .

وقال سفيان : إن منصور بن المعتمر صام ستين سنةً ، يقوم ليلها ويصوم نهارها[٢] .

عن مفضل قال : حبس ابنُ هبيرة منصورًا شهرًا على القضاء يريده عليه ، فأبى ، وقيل : إنه أحضر قيدًا ليقيِّده به ثم خلاه[٣] .

وكانت أمه فظّةً عليه تصيح به وتقول : يا منصور ، يريدك ابن هبيرة على القضاء فتأبى ! وهو واضعٌ لحيتَهُ على صدره ، ما يرفع طَرْفَه إليها[٤] .

---

(١) سير ٥/٦٣ - ٦٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/٤٠٤ - ٤٠٦) ، حلية الأولياء ٥/١٢٤ ، مختصر قيام الليل ٢٨ .

(٣) سير ٥/٤٠٦ .

(٤) سير ٥/٤٠٥ .

(٣٠) صيام سليمان بن طرخان :

الإمام شيخ الإسلام ، أبو المعتمر التَّيْمي ، كان مقدَّمًا في العلم والعمل[١] .

عن محمد بن عبد الأعلى : قال لي معتمر بن سليمان : لولا أنك من أهلي ما حدَّثتُك بذا عن أبي ، مَكَثَ أبي أربعين سنةً يصوم يومًا ويُفطر يومًا ، ويصلي صلاة الفجر بوضوء عشاء الآخرة[٢] .

عن معاذ بن معاذ : ما أتينا سليمان التيمي في ساعةٍ يُطاع الله فيها ، إلا وجدناه مطيعًا[٣] .

قال حمّاد بن سلمة عن سليمان التيمي : كنّا نرى أنه لا يُحْسِن يعصي الله[٤] .

عن عبد الله بن المبارك قال : أقام سليمان التيمي أربعين سنةً إمام الجامع بالبصرة ، يصلي العشاء والصبح بوضوء واحد[٥] .

وعن حماد بن سلمة قال : لم يضع سليمان التيمي جنبه بالأرض عشرين سنةً . أي ليلًا .

عن شُعبة قال : ما رأيت أحدًا أصْدَقَ من سليمان التيمي - رحمه الله - كان إذا حدَّث عن النبي ﷺ تغيَّر لونه[٦] .

(٣١) صوم الزُّهْرِي :

الإمام العَلَم ، حافظ زمانه ، محمد بن شهاب الزهري .

---

(١) سير أعلام ١٩٥/٦ .
(٢) حلية الأولياء ٢٢٨/٣ ، سير ١٩٧/٦ .
(٣) حلية ٢٨/٣ .
(٤) سير ١٩٨/٦ .
(٥) سير ٢٠٠/٦ .
(٦) حلية ٢٣١/٣ ، سير ١٩٦/٦ .

عن معاذ بن صالح أن أبا جبلة حدَّثه قال : كنت مع ابن شهاب في سفرٍ ، وصام يوم عاشوراء ، فقيل له : لِـمَ تصوم وأنت تُفطر في رمضان في السفر ؟ قال : إن رمضان له عِدَّةٌ من أيام أُخر ، وإن عاشوراء يفوت(١) .

(٣٢) صوم ابن جُرَيْج :

الإمام الحافظ شيخ الحَرَم أبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج القرشي .

قال عطاء بن أبي رَباح : سيد شباب أهل الحجاز ابن جريج(٢) .

قال عبد الرزاق : ما رأيت أحسنَ صلاةً من ابن جريج(٣) .

وقال : كنت إذا رأيت ابن جريج علمت أنه يخشى الله(٤) .

قال أبو عاصم النبيل : كان ابن جريج من العُبّاد ، كان يصوم الدهر سوى ثلاثة أيامٍ من الشهر(٥) .

(٣٣) صوم عبد الله بن عَوْن :

ابن أرْطبـان ، سَيِّد القُرَّاء في زمانه ، الإمام القُـدوةُ الحافظ عالـم البصرة ، الحافظ للسانه ، الضابِط لأركانه .

عن خارجة بن مصعب قال : صحبت عبد الله - يعني ابن عون - أربعًا وعشرين سنة ، فما أعلم أن الملائكة كتبتْ عليه خطيئةً(٦) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٣٤٢ .

(٢) سير ٦/٣٢٨ .

(٣) سير ٦/٣٣٠ .

(٤) سير ٦/٣٣٢ .

(٥) سير ٦/٣٣٣ .

(٦) حلية ٣/٣٧ .

قال الذهبي : كان ابن عون عَدِيم النظير في وقته زهدًا وصلاحًا .

قال ابن المبارك : ما رأيت مصلّيًا مثل ابن عون[١]، ما رأيت أحدًا ممن ذُكِر لي إلا كان إذا رأيته دون ما ذُكر لي ، إلا ابن عون وحَيْوَة بن شُريح[٢] .

قال بكّار بن محمد : كان ابن عون يصوم يومًا ويفطر يومًا[٣] .

قال الأوزاعي : إذا مات ابن عون والثوري استوى الناس . وقال : لو خيّرت لهذه الأمة مَنْ ينظر لها ، ما اخترتُ إلا الثوري وابن عون .

(٣٤) صيام داود بن أبي هند[٤]:

أبو بكر الإمام الحافظ الثقة مفتي أهل البصرة[٥] .

قال حمّاد بن زيد : ما رأيت أحدًا أفْقَهَ من داود .

قال ابنُ جريج : ما رأيتُ مثل داود بن أبي هند ، إن كان ليقرع العِلْم قرعًا .

قال الفلّاس : سمعت ابن أبي عون يقول : صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله ، كان خَزّازًا يحمل معه غداءه فيتصدّق به في الطريق[٦] .

قال ابن الجوزي : يظنُّ أهلُ السوق أنه قد أكل في البيت ، ويظنّ أهلهُ أنه قد أكل في السوق[٧] .

---

(١) حلية ٣/٣٨ .

(٢) سير أعلام ٦/٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٣) سير ٦/٣٦٦ ، حلية ٣/٤٠ .

(٤) اسم أبي هند : دينار بن عُذافر .

(٥) سير أعلام ٦/٣٧٦ - ٣٧٧ .

(٦) سير ٦/٣٧٨ .

(٧) المدهش ٤٣٥ .

ومُسْتَفْسِرٍ عن سرِّ يومي رَدَدْتُهُ   فأُصْبح في يومي بغير يقينِ
يقولون خبِّرْنا فأنت أمينُها   وما أنا إن خبَّرتُهمْ بأمينِ

قال محمد بن أبي عدي : أقبل علينا داود فقال : يا فتيان ، أُخبركم لعلَّ بعضَكم أنه ينتفع به ، كنت وأنا غلام أختلِف إلى السوق ، فإذا انقلبتُ إلى البيت جَعَلْتُ على نفسي أن أذكُر الله إلى مكانِ كذا وكذا ، فإذا بَلَغْتُ إلى ذلك المكان جعلت على نفسي أن أذكر الله كذا وكذا ، حتى آتي المنزل[١] .

رَحِمَكَ الله يا إمام ، صيامٌ مع صدقةٍ مع ذكْرٍ مع علْمٍ وفقهٍ وحديثٍ ، حزتَ الخير أجْمَعَهُ .

(٣٥) صوم ابن أبي ذئب :

الإمام شيخ الإسلام أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب القرشي .

قال أحمد : كان يُشبَّه بسعيد بن المسيب . فقيل لأحمد : خلَّف مِثْلَه ؟ قال : لا . ثم قال : كان أفضل من مالك ، إلا أن مالكًا - رحمه الله - أشدّ تنقية للرجال منه .

وقال الواقدي تلميذُه : كان يُصلي الليل أجْمَع ويجتهد في العبادة ، ولو قيل له : إن القيامة تقوم غدا ، ما كان فيه مزيد من الاجتهاد .

قال أخوه : كان أخي يصوم يومًا ويُفطر يومًا ، ثم سَرَد الصومَ ، وكان شديد الحال يتعشَّى الخبز والزيت[٢] .

---

(١) سير ٦/٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٢) سير ٧/١٤١ .

قال أحمد بن حنبل : إن ابن أبي ذئب ثقة ، قد دَخَل على أبي جعفر المنصور ، فلم يهبه أن قال له الحقَّ ، وقال : الظُّلم ببابك فاشٍ . وأبو جعفر أبو جعفر .

(٣٦) صوم شُعْبَة الخيرِ أبي بِسطام :

سيد المحدِّثين كما قال سليمان بن المغيرة[١]، الضَّخم الذي يتحدث عن الضِّخام ، الإمام المشهور والعلم المنثور .

شعبة بن الحجَّاج الإمام ، أمير المؤمنين في الحديث .

كان الثوري يقول : أستاذُنا شعبة .

وقال حمزة بن زياد عن شعبة : كان قد يَبِس جِلدُه على عظمِه من العبادة[٢].

وقال أبو بكر البكراوي : ما رأيت أعْبَدَ لله من شعبة ، لقد عبد الله حتى جفَّ جلده على عظمه من العبادة[٣].

وقال عمر بن هارون : كان شعبة يصوم الدهر كلَّه .

قال أبو قطن : كانت ثياب شعبة لونها لون التراب ، وكان كثير الصلاة كثير الصيام سَخِيّ النَّفْس .

قال شعبةُ : كلُّ مَنْ سمعتُ منه : حدَّثنا ، فأنا له عَبْد .

قال يحيى بن معين : شعبة إمام المتقين .

وقال ابن مهدي : ما رأيت أحدًا أكثر تقشفًا من شعبة .

قال عبد السلام بن مطهَّر : ما رأيت أمْعَن في العبادة من شعبة[٤].

---

(١) حلية ١٥٣/٧ .

(٢) حلية ١٤٤/٧ .

(٣) حلية ١٤٤/٧ .

(٤) سير ٢٢٦/٧ .

(٣٧) صوم غُنْدَر :

الحافظ المجوِّد الثَّبْت أبو عبد الله محمد بن جعفر الهُذَلي ، لزم شعبة عشرين سنة .

قال يحيى بن معين : أخرج غُندر إلينا ذات يومٍ جرابًا فيه كتب ، فقال : اجتهدوا أن تُخرجوا فيها خطأً . قال : فما وجدنا فيه شيئًا ، وكان يصوم يومًا ويُفطر يومًا منذ خمسين سنة[١].

قال ابن مهدي : كنا نستفيد من كتب غُندر في حياة شعبة ، وقال : غندر أَثْبَتُ في شعبة مني .

(٣٨) صوم معروف الكَرْخي :

الملهوف إلى المعروف ، عن الفاني مصروف ، وبالباقي مشغوف ، وبالتحف محفوف ، وللُّطف مألوف ، الكَرخي أبو محفوظ معروف[٢]، عَلَم الزُّهّاد ، بركة العصر ، أبو محفوظ البغدادي[٣] .

قال ابن حنبل : وهل يُراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف !.

قال ابن عبيد لإسماعيل بن شداد : ما فعل ذلك الحَبْر الذي فيكم ببغداد ؟ قلنا : من هو ؟ قال : أبو محفوظ معروف . قلنا : بخير . قال : لا يزال أهل تلك المدينة بخير ما بقي فيهم[٤].

سئل : كيف تصوم ؟ فغالط السائلَ وقال : صوم نبينا ﷺ كان كذا وكذا ، وصوم داود كذا وكذا . فألحَّ عليه فقال : أُصبح دهري صائمًا ،

---

(١) سير ٩/٩٩ .

(٢) سير أعلام ٩/٣٩ .

(٣) تاريخ بغداد ١٣/٢٠٠ ، طبقات الحنابلة ١/٣٨٢ .

(٤) حلية ٨/٣٦٦ ، تاريخ بغداد ١٣/٢٠١ ، سير أعلام ٩/٣٤٠ .

فمن دعاني أكلتُ ولم أقُل : إني صائم[١] .

قال عبيد بن محمد الورّاق : مرّ معروف - وهو صائم - بسقّاءٍ يقول : رحم اللَّهُ مَنْ شَرِبَ . فشَرِبَ رجاءَ الرحمةِ[٢] .

وكان رحمه الله يقول : إن صلّيتُ بكم هذه الصلاةَ لا أُصلي بكم ثانية ، نعوذ بالله من طُول الأمل ؛ فإنه يمنع خيرَ العمل[٣] .

وكان يقول : إذا أراد الله بعبد شرًّا أغْلَقَ عنه باب العمل وفتح عليه باب الجدل[٤] .

وعنه قال : ما أكْثَرَ الصالحين وما أقلَّ الصادقين .

(٣٩) صوم أحمد بن حرب :

الإمام القُدوةُ شيخ نَيْسابور ، أبو عبد الله النَّيسابوري ، كان من كبار الفقهاء والعُبّاد[٥] .

من صحَّتْ بدايتُه صحتْ نهايتُه ، أجسام ذُلِّلتْ منذ الصِّغر لخدمة سيِّدها ومولاها .

قال زكريا بن حرب : ابتدأ أخي بالصوم وهو في الكتاب ، فلمّا راهق حجَّ مع أخيه الحسين بن حرب ، أقاما بالكوفة للطلب وبالبصرة وبغداد ، ثم أقبل على العبادة لا يفتُر ، وأخذ من المواعظ والتذكير وحثَّ على العبادة ، وأقبلوا على مجلسه[٦] .

---

(١) سير ٣٤١/٩ ، تاريخ بغداد ٢٥٢/١٣ .
(٢) حلية ٣٦٥/٨ ، سير ٣٤٢/٩ .
(٣) حلية ٣٦١/٨ .
(٤) حلية ٣٦١/٨ ، سير ٣٤٠/٦ .
(٥) سير ٣٢/١١ - ٣٣ .
(٦) سير ٣٣/١١ .

هكذا صوم منذ الصغر ، مثلما كان ابن حنبل يُحيي الليل وهو غلام .

قال محمد بن يحيى : مرّ أحمد بن حرب بصبيان يلعبون ، فقال أحدهم : أمسِكوا ؛ فإن هذا أحمد بن حرب الذي لا ينام الليل . فقَبَضَ على لحيته وقال : الصبيان يهابونك وأنت تنام ! فأحيا الليل بعد ذلك حتى مات(١) .

(٤٠) صوم أحمد بن حنبل إمام أهل السنة :

مُعلِّم الخير كما قال يحيى بن معين . وقال : والله ما تَقْوَى على ما يقوَى عليه أحمد وعلى طريقة أحمد .

قال ابن المديني : أحمد بن حنبل سيِّدُنا .

وقال : اتَّخذتُ أحمد بن حنبل إمامًا فيما بيني وبين الله .

وقال : إن الله عز وجل أعزَّ هذا الدين برجلينْ لا ثالث لهما ؛ أبو بكر الصديق يوم الرِّدَّة ، وأحمد بن حنبل يوم المحنة .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام : أحمد بن حنبل إمامنا ، إني لأتزيَّن بذكْره .

وقال إسحق بن راهويه : لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لِمَا بَذَلَها له ، لَذَهَبَ الإسلام .

وقال بشر بن الحارث : إن هذا الرجل قام اليوم بأمرٍ عجز عنه الخلْق ، أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء ؟! إن أحمد بن حنبل قام مقام الأنبياء ، حفظ الله أحمد من بين يديه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله ، إن أحمد بن حنبل طار بحظِّها وغنائها في الإسلام .

وقال أبو ثور : كنت إذا رأيتَ أحمد بن حنبل ، خُيِّل إليك أن الشريعة

---

(١) سير ١١/٣٣ .

لوحٌ بين عينيه .

« قال إبراهيم بن هانيء - وكان أبو عبد الله حيث توارى من السلطان توارى عنده - فحكى أنه لم يَرَ أحدًا أقوى على الزهد والعبادة وجهد النَّفْس من أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، قال : كان يصوم النهار ويعجِّل الإفطار ، ثم يصلي بعد العشاء الآخرة ركعاتٍ ، ثم ينام نومة خفيفة ، ثم يقوم فيتطهَّر ، ولا يزال يصلي حتى يطلع الفجر ، ثم يوتر بركعة ، وكان هذا دأبه طُولَ مقامه عندي ، ما رأيته فَتَر ليلةً واحدة ، وكنت لا أقْوَى معه على العبادة ، وما رأيته مفطرًا إلا يومًا واحدًا ، أفطر واحتجم »[1] .

وبعد خروج الإمام أحمد إلى العسكر بعد انقضاء ما اتُّهِم به « قال أبو بكر المروزيّ : قال لي أحمد بن حنبل ونحن بالعسكر : لي اليوم ثمان منذ لم آكل شيئًا ولم أشرب ، إلا أقلّ من ربع سويق . وكان يمكث ثلاثًا لا يطعم ، فإذا كانت ليلة الرابعة ، أضع بين يديه قدر نصف ربع سويق ، فربما شربه وربما ترك بعضه ، وكان إذا ورد عليه أمر يهمّه ، لم يَطْعم ولم يُفطر إلا على شَربة ماء .

قال صالح بن أحمد : جعل أبي يُواصل الصوم ، يُفطر في كل ثلاثٍ على تمر شهرين ، فمكث بذلك خمسة عشر يومًا ، يفطر في كل ثلاث ، ثم جعل بعد ذلك يفطر ليلة وليلة ، لا يفطر إلا على رغيف .

وكان إذا جيء بالمائدة ، توضع في الدهليز لكي لا يراها فيأكل من حضر ، وكان إذا أجهده الحرّ ، تُلقى له خِرقة ، فيضعها على صدره »[2] .

---

(١) مناقب الإمام أحمد ٣٥٩ .

(٢) مناقب الإمام أحمد ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

قال أبو بكر المروزي : أَنْبَهَنِي أبو عبد الله ذات ليلة ، وكان قد واصل ، فإذا هو قاعد فقال : هو ذا يُدار بي من الجوع ، فأطعمني شيئًا . فجئته بأقل من رغيف ، فأكل ثم قال : لولا أني أخاف العون على نفسي ، ما أكلتُ . وكان يقوم من فراشه إلى المخرج ، فيقعد يستريح من الضعف من الجوع ، حتى إن كنت لأبل له الخرقة ، فيُلقيها على وجهه لترجع إليه نفسه .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : مكث أبي بالعسكر عند الخليفة ستة عشر يومًا ، ما ذاق شيئًا إلا مقدار ربع سوِيق ، في كل ليلة كان يشرب شَرْبَة ماء ، وفي كل ثلاثٍ يستفُّ حَفنةً من السّويق ، فرجع إلى البيت ولم ترجع إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر ، ورأيت مآقيه قد دخلا في حَدَقتيْه .

وقال أبو بكر المروزي : كان أبو عبد الله بالعسكر يقول : انظر هل تجد لي ماء الباقِلّاء ؟ فكنت ربما بللتُ خبزَهُ بالماء فيأكله بالملح ، ومنذ دخلنا العسكر إلى أن خرجنا ما ذاق طبيخًا ولا دسمًا[1] .

قال أبو بكر المروزي : قال لي أبو عبد الله ونحن بالعسكر : ألا تعجب ! كان قُوتِي فيما مضى أرغفة ؛ وقد ذهبت عني شهوة الطعام فما أشتهيه ، قد كنت في السجن آكُل وذلك عندي زيادة في إيماني وهـذه نقصان . وقال لنا يومًا ونحن بالعسكر : لي اليوم ثمان لم آكل شيئًا ولم أشرب إلا أقل من ربع سويق . وكان يمكث ثلاثًا لا يَطْعَم وأنا معه ، فإذا كان الليلة الرابعة أضع بين يديه قدر نصف ربع سَوِيق ، فربما شربه وربما ترك بعضه .

وكلّم في أمره في الحَمْل على نَفْسِه فقيل له : لو أمرت بقدْرٍ تُطبخ لك ليرجع إليك نفسك فقال : الطبيخ طعام المطمئنِّين ، مكث أبو ذرٍّ ثلاثين

---

(١) مناقب الإمام أحمد ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

يومًا ما له طعام إلا ماء زمزم ، وهذا إبراهيم التيمي كان يمكث في السجن كذا وكذا لا يأكل ، وهذا ابن الزبير كان يمكث سبعًا[(١)].

« كتب المتوكّل إلى خليفته أن يحمل أحمد إليه ، فحُمل إليه ، فلمّا قدم أحمد ، أمر أن يُفرغ له قصر ويُبسط له فيه ، ويُجرى على مائدته كل يوم كذا وكذا ، وأراد أن يُسمع ولدَهُ الحديث ، فأبى أحمد و لم يجلس على بِساطه ، و لم ينظر إلى مائدته ، وكان صائمًا ، فإذا كان عند الإفطار أَمَرَ رفيقه الذي معه أن يشتري له ماء الباقلاء ، فيفطر عليه ، فبقي أيامًا على هذه الحال ، وكان عليّ بن الجَهْم من أهل السُّنّة حَسَنَ الرأي في أحمد ، فكلم أمير المؤمنين فيه ، وقال : هنا رجل زاهد لا يُنتفع به ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن له ؟ ففعل ، ورجع أحمد إلى منزله »[(٢)].

(٤١) صوم إبراهيم بن هانئ النيسابوري :

الإمام العَلَم أبو إسحاق النيسابوريّ .

قال الخطيب : « كان أحد الأبدال »[(٣)].

قال الإمام أحمد : « إن يكُن أحد ممن يُعرف من الأبدال فإبراهيم بن هانئ » .

وقال : إن كان ببغداد رجل من الأبدال فأبو إسحاق النيسابوريّ[(٤)].

قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ : كان أحمد بن حنبل مختفيًا هاهنا عندنا في الدار ، فقال لي أحمد بن حنبل : لست أُطيق ما يُطيق أبوك - يعني من العبادة - .

ولو لم يكن لهذا الإمام الجبل من الفَضْل إلا ما قاله إمام أهل السنة

---

(١) المناقب ٤٥٦ .

(٢) المناقب ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٦/٢٠٤ .

(٤) تاريخ بغداد ٦/٢٠٥ .

فيه ، لكفاه فخرًا إلى يوم أن يَرِث الله الأرض ومن عليها .

هذا الإمام الصَّوّام الذي مات وهو صائم .

قال أبو بكر النيسابوري : حضرت إبراهيم بن هانىء عند وفاته ، فجعل يقول لابنه إسحاق : يا إسحاق ، ارفع السِّتْر . قال : يا أبتِ ، الستر مرفوع . قال : أنا عطشان . فجاءه بماء ، قال : غابت الشمس ؟ قال : لا . قال : فردَّه ، ثم قال : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ [الصافات : ٦١]. ثم خرجت روحه .

وفي صفة الصفوة : « فدعا ابنه إسحاق فقال : هل غربت الشمس ؟ قال : لا . ثم قال : يا أبتِ ، رُخِّص لك في الإفطار في الفرض وأنت منطوّع . قال : امهَلْ . ثم قال : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾. ثم خرجت نفسه »[١]

رحمك الله يا أبا إسحاق ، فقد كنت نسيجًا وَحْدَك في صومك وعبادتك .

(٤٢) صوم أبي بكر أحمد بن سلمان النَّجَّاد :

الإمام الحافظ المفتي ، من كبار علماء الحنابلة في جمْع العلم والزُّهد ، وكانت له حلقة بجامع المنصور ، يُفتي قبل الصلاة ، ويُملي الحديث بعدها .

وصنَّف كتاب « الخلاف » نحو مائتي جزء ، وقد سمع من أبي داود السجستاني وغيره .

قال الذهبي : « وقال أبو إسحاق الطبري : كان النّجّاد يصوم الدهر ، ويُفطر كلَّ ليلة على رغيف ، فيترك منه لقمةً ، فإذا كان ليلة الجمعة ، تصدَّق برغيفه ، واكتفى بتلك اللُّقم »[٢].

---

(١) تاريخ بغداد ٢٠٦/٦ ، صفة الصفوة ٤٠١/٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥٠٣/١٥ ، وتاريخ بغداد ١٩١/٤ .

(٤٣) صوم بَقِيّ بن مَخْلَد :

الإمام القُدوة ، شيخ الإسلام الحافظ ، صاحب « التفسير » و « المسند » اللذَيْن لا نظير لهما ، تلميذ الإمام أحمد .

قال عنه الذهبي : كان إمامًا مجتهدًا صالحًا ، ربانيًّا صادقًا مخلصًا ، رأسًا في العلم والعمل ، عديم المِثْل ، منقطِع القرين ، يُفتي بالأثر ، ولا يُقلِّد أحدًا .

قد ظهرت له إجابات الدعوة في غير ما شيء[1] .

قال عنه أبو عبد الملك أحمد بن محمد بن عبد البر : « كان فاضلًا تقيًّا صوّامًا قوّامًا متبتِّلًا ، منقطع القرين في عصره ، منفردًا عن النظير في مِصْره »[2] .

ذكر أبو عبيدة صاحب القبلة قال : « كان بقيٌّ يختم القرآن كل ليلة ثلاث عشرة ركعة ، وكان يصلي بالنهار مائة ركعة ، ويصوم الدهر ، وكان كثير الجهاد ، فاضلًا ، يُذكر عنه أنه رابط اثنتين وسبعين غزوة »[3] .

قال عنه حفيده عبد الرحمن : « كان جدي قد قسّم أيامه على أعمال البر ، فكان إذا صلى الصبح قرأ حِزْبَه من القرآن في المصحف ؛ سدس القرآن ، وكان أيضًا يختم القرآن في الصلاة في كل يوم وليلة ، ويخرج كل ليلة في الثلث الأخير إلى مسجده ، فيختم قُرب انصداع الفجر ، وكان يصلي بعد حزبه من المصحف صلاة طويلة جدًّا ، ثم ينقلب إلى داره - وقد اجتمع في مسجده الطلبة - فيجدِّد الوضوء ويخرج إليهم ، فإذا انقضت الدُّوَل ، صار إلى صومعة المسجد ، فيصلي إلى الظهر ، ثم يكون هو المبتدىء بالأذان ، ثم يهبط ، ثم يسمع إلى العصر ، ويصلي ويُسمع ، وربما خرج في بقية النهار

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٨٩/١٣ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٩٢/١٣ .

فيقعد بين القبور يبكي ويعتبر ، فإذا غربت الشمس أتى مسجده ، ثم يصلي ، ويرجع إلى بيته فيفطر ، وكان يسرد الصوم إلا يوم الجمعة ، ويخرج إلى المسجد ، فيخرج إليه جيرانه ، فيتكلَّم معهم في دينهم ودنياهم ، ثم يصلي العشاء ، ويدخل بيته فيحدِّث أهله ، ثم ينام نومةً قد أخذتها نفسه ، ثم يقوم . هذا إلى أن توفي »[١].

(٤٤) صوم المَنْبِجِيِّ :

الإمام المحدِّث ، القُدوة العابد ، أبو بكر عمر بن سعيد الطَّائي المنبجي .

قال عنه ابن حبّان : « كان قد صام النهار وقام الليل ثمانين سنة ، غازيًا مرابطًا ، رحمةُ الله عليه »[٢].

كذاك الفَخْرُ يا هِمَمَ الرِّجالِ   تَعَالَيْ فانظُري كيفَ التَّعالِي

(٤٥) صوم ابن زياد النيسابوري :

الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد ، إمام الشافعيين في عصره بالعراق .

قال **الدَّارَقُطْنِيُّ** تلميذُه : ما رأيت أَحْفَظَ من أبي بكر النيسابوري .

« قال أبو الفتح يوسف القَوَّاس : سمعت أبا بكر النيسابوري يقول : تعرف من أقام أربعين سنة لم ينم الليل ، ويتقوت كل يومٍ بخمس حبّاتٍ ، ويصلي صلاة الغداة على طهارة عشاء الآخِرة ؟ ثم قال : أنا هو ، وهذا كلّه قبل أن أعرف أم عبد الرحمن ، أيش أقول لمن زوَّجني ؟! ثم قال : ما أراد إلا الخير »[٣].

ومعنى يتقوت كل يوم بخمس حبّاتٍ : أي بعد صيامه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٩٥ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٩٠ .
(٣) تاريخ بغداد ١٠/١٢٢ ، سير أعلام النبلاء ١٥/٦٦ .

(٤٦) صوم القَطَّان :

الإمام الحافظ القُدوة ، شيخ الإسلام أبو الحسن القَطَّان ، عالِمُ قَزْوِين .

قال عنه جماعةٌ من شيوخ قزوين : لم يَرَ أبو الحسن - رحمه الله - مثل نفسه في الفضل والزهد ، أدام الصيام ثلاثين سنة ، وكان يُفطر على الخبز والملح ، وفضائله أكثر من أن تُعَدّ[1] .

(٤٧) صوم ابن بَطَّة :

الإمام القُدوة العابد الفقيه المحدِّث ، شيخ العراق ، العكبري الحنبلي ، صاحبُ « الإبانة الكبرى » .

قال الخطيب : « لَمَّا رجع ابنُ بطة من الرِّحلة لازم بيتَهُ أربعين سنة ، لم يُر في سوق ولا رُئِيَ مُفْطِرًا إلا في عيد ، وكان أمّارًا بالمعروف ، لم يبلغه خبر منكر إلا غيَّره »[2] .

قال العتيقيّ : كان ابن بطة مستجاب الدعوة .

قال أبو محمد الجوهري : سمعت أخي الحسين يقول : رأيت النبي ﷺ في المنام ، فقلت : يا رسول الله ، قد اختلفت عليَّ المذاهب . فقال : عليك بابن بطة . فأصبحتُ ولبستُ ثيابي ، ثم أصعدتُ إلى عُكْبَرَا ، فدخلت وابن بطة في المسجد ، فلمّا رآني قال لي : صدق رسول الله ﷺ ، صدق رسول الله ﷺ[3] .

(٤٨) صوم ابن جُمَيْع :

المُسْنِد الرَّحَّال ، العالم الصالح ، محمد بن أحمد بن جميع الغساني

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٥/٤٦٤ .

(٢) تاريخ بغداد ١٠/٣٧٢ ، سير أعلام النبلاء ١٦/٥٢٩ ، ٥٣٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٦/٥٣٠ .

الصيداوي ، صاحب « المعجم » .

« قال ابنه : صام أبي أبو الحسين وله ثمان عشرة سنة إلى أن توفي . وقد عاش ستًّا وتسعين سنة »(١) .

وكذا كان والده أبو بكر عابدًا صوَّامًا .

سبحان الله ! يسرد الصوم ثمانية وسبعين سنة ، لا يفطر إلا في العيدين وأيام التشريق ! .

(٤٩) صوم السَّكَنِ ابنِ جُمَيْع :

أبو محمد .

قال : سردتُ الصوم ولي ثمان وعشرون سنة ، ولي الآن سبع وثمانون سنة ، وكذا سَرَدَ الصومَ أبي وجَدّي(٢) .

وهل يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إلا وَشِيجُهُ ... ويُـزْرَعُ إلَّا في منابِتِهِ النَّخْـلُ

(٥٠) صوم الصُّورِيّ :

الإمام الحافظ ، البارع الحُجَّة ، أبو عبد الله محمد بن علي بن رُحَيْم الشاميُّ الصُّوريّ ، تلميذُ الحافظ عبد الغني .

كان رحمه الله يَسْرُد الصوم إلا الأعياد(٣) .

(٥١) صوم الدُّونِيّ :

الشيخ العالم الزاهد ، أبو محمد عبد الرحمن بن حَمْدٍ الدُّونيُّ .

وهو آخِر مَنْ روى كتاب « المجتبى » من سنن النسائي .

قرأ عليه السِّلَفِيُّ كتاب النسائي .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٥٥/١٧ ، ١٥٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥٧/١٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٦٢٨/١٧ .

قال السِّلفي : قال ابنهُ أبو سعد لي : لوالدي خمسون سنةً ما أفطر النهار[١].

(٥٢) صوم العِماد المَقْدِسِيّ :

العالِم الإمام الزاهد القُدوة بركةُ الوقتِ ، عماد الدين أبو إسحاق إبراهيم المقدسي ، أخو الحافظ عبد الغني .

كان الشيخ الموفَّق يقول : ما نقدر نعمل مثل العماد .

قال الضياء : لم أر أحدًا أحسن صلاةً منه ولا أتمَّ ، بخشوع وخضوع ، قيل : كان يسبح عشرًا يتأنى فيها ، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا ، وكان إذا دعا كان القلب يشهد بإجابة دعائه من كثرة ابتهاله وإخلاصه .

ومن دعائه المشهور : « اللهم اغفر لأقسانا قلبًا ، وأكبـرِنا ذنبًا ، وأثقلِنا ظهرًا ، وأعظمِنا جرمًا » .

وكان يدعو : « يا دليل الحيارى دلنا على طريق الصادقين ، واجعلنا من عبادك الصالحين » .

قال عنه الموفق : ما أعلم أنني رأيت أشد خوفًا منه[٢].

(٥٣) صوم ثابت البناني :

المتعبد الناحل ، والمتهجد الذابل ، أبو محمد .

قال عنه أنس : إن للخير مفاتيح ، وإن ثابتا مِفتاحٌ من مفاتيح الخير .

قال شعبة : كان ثابت يقرأ القرآن في يوم وليلة ، ويصوم الدهر .

قال بكر بن عبد الله : من أراد أن ينظر إلى أعبد أهل زمانه ، فلينظر إلى ثابت البُناني ، فما أدركتُ الذي هو أعبد منه ، إنه ليظلّ في اليـوم

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/٢٤٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢/٤٨ ، ٤٩ .

المعمعاني(١) الطويل ما بين طرفيه صائمًا ، يروح ما بين جبهته وقدمه(٢).

وكان رحمه الله يقول : لا يسمى عابدٌ أبدًا عابدًا ، وإن كان فيه كلّ خصلةِ خيرٍ ، حتى تكون فيه هاتانَ الخصلتان : الصوم والصلاة ؛ لأنهما من لحمه ودمه(٣).

قال المبارك بن فضالة : دخلتُ على ثابت البناني في مرضه وهو في عُلُوٍّ له ، وكان لا يزال يذكر أصحابه فلما دخلنا عليه ، قال : يا إخوتاه ، لم أقدر أن أصلي البارحة كما كنت أصلي ، ولم أقدر أن أصوم كما كنت أصوم ، ولم أقدر أن أنزل إلى أصحابي فأذكر الله عز وجل كما كنت أذكره معهم . ثم قال : اللهم إذ حبستَنِي عن ثلاثٍ ، فلا تدعني في الدنيا ساعة . أو قال : إذ حبستني أن أُصلي كما أريد وأصوم كما أريد وأذكرك كما أريد ، فلا تدعني في الدنيا ساعة . فمات من وقته ، رحمه الله(٤).

رحم الله ثابتًا .. وأقرّ عينه في جناته .

(٥٤) صوم سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهْرِي :

فقيه العصر ، صائم الدهر ، المتعبد القارىء ، الكاسي العاري ، سعد ابن إبراهيم الزهري .

قال شعبة : كان سعد بن إبراهيم يصوم الدهر(٥).

كان رحمه الله يحتبي ، فما يحُلُّ حبوتَهُ حتى يقرأ القرآن .

قال إبراهيم بن سعد : كان أبي سعد بن إبراهيم إذا كانت ليلة إحدى

---

(١) في النهاية : كان ابن عمر يتتبع اليوم المعمعاني فيصومه ، أي الشديد الحرّ .
(٢) حلية الأولياء ٢/٣١٨ .
(٣) حلية الأولياء ٢/٣١٨ .
(٤) حلية الأولياء ٢/٣٢٠ .
(٥) حلية الأولياء ٣/١٦٩ .

وعشرين ، وثلاث وعشرين ، وخمس وعشرين ، وسبع وعشرين ، وتسع وعشرين ، لم يُفطر ، حتى يختم القرآن ، وكان يفطر فيما بين المغرب والعشاء الآخِرة ، وكان كثيرًا إذا أفطر يرسلني إلى مساكين يأكلون معه[1].

(٥٥) صوم وكيع بن الجرَّاح :

النَّصّاح والمفهم المِفصاح ، أبو سفيان وكيع بن الجرّاح .

الإمام الحافظ الرّؤاسي محدِّث العراق .

كان من بحور العلم وأئمة الحفظ .

قال يحيى بن معين : وكيع في زمانه كالأوزاعي في زمانه .

قال الإمام أحمد : ما رأيتُ قطُّ مثل وكيع في العلم والحفظ والإسناد والأبواب ، مع خشوعٍ ووَرَعٍ . وقال عنه : وكيع إمام المسلمين في زمانه .

وقال ابن المبارك :رجل المصرين وكيع .

قال له الفُضَيْل بن عِياض : ما هذا السِّمَن ، وأنت راهِب العراق ؟ قال : هذا مِن فَرَحي بالإسلام . فأفْحَمَه[2].

قال يحيى بن أكثم : صحبتُ وكيعًا في الحضر والسفر ، وكان يصوم الدهر ، ويختم القرآن كل ليلة[3].

قال الذهبي : « رضي الله عن وكيع . وأين مِثْل وكيع »[4].

---

(١) حلية الأولياء ١٧٠/٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥٦/٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤٢/٩ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٤٣/٩ .

قال ابن عمَّار : كان وكيع يصوم الدهر ، ويفطر يوم الشَّكِّ والعيد[١] .

كان وكيع لا ينام حتى يقرأ جُزأه من كل ليلة ثلثَ القرآن ، ثم يقوم في آخر الليل ، فيقرأ المفصّل ، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر .

قال أبو جعفر الجمّال : أتينا وكيعًا فخرج بعد ساعة ، وعليه ثياب مغسولةٌ ، فلمّا بصرنا به ، فَزِعنا من النور الذي يتلألأ من وجهه ، فقال رجل بجنبي : أهذا مَلَك ؟ فتعجَّبْنا من ذلك النور[٢] .

(٥٦) صوم أبي بكر بن عَيَّاش :

القارىء الهشَّاش ، العابد البشَّاش ، أبو بكر بن عياش ، كان في العداد واحدًا ، وفي العبادة شاهدًا[٣] .

كان رحمه الله يقول : يا ملَكَيَّ ، ادعوا الله لي ، فإنكما أطوع لله مني .

وكان رحمه الله يقول : إن أحدهم لو سقط منه درهم ، لظلَّ يومه يقول : إنا لله ، ذهب درهمي . ولا يقول : ذهب يومي ما عملتُ فيه[٤] .

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم ٧٩/١ : « هو الإمام المُجْمَع على فضله » .

روينا عن ابنه إبراهيم قال : قال لي أبي : إن أباك لم يأت بفاحشةٍ قطُّ ، وإنه يختم القرآن منذ ثلاثين سنة كلَّ يوم مرة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤٩/٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥٧/٩ .

(٣) حلية الأولياء ٣٠٣/٨ .

(٤) حلية الأولياء ٣٠٣/٨ .

وروينا عنه أنه قال لابنه : يا بنيّ ، إياك أن تعصي الله في هذه الغرفة ، فإني ختمت فيها اثنتي عشرة ألف ختمة .

وروينا عنه أنه قال لبنته عند موته وقد بكت : يا بُنَيَّة ، لا تبكي ، أتخافين أن يعذبني الله تعالى وقد ختمت في هذه الزاوية أربعة وعشرين ألف ختمة .

قال الحافظ ابن حجر في ترجمته : « ولد سنة ٩٥ أو ٩٦ ، ومات سنة ١٩٣ ، وكان قد صام سبعين سنة وقامها ، وكان لا يُعلم له بالليل نوم »[١] .

(٥٧) صوم جعفر بن الحسن الدَّرْزِيجاني المقرىء :

الزاهد الفقيه الحنبلي .

قال عنه الحافظ ابن رجب : « كان من عباد الله الصالحين ، أمّارًا بالمعروف ، نهَّاء عن المنكر ، وله المقامات المشهورة في ذلك .

كان مداوِمًا على الصيام والتَّهجُّد والقيام ، وله ختمات كثيرة جدًّا ، كل ختمة منها في ركعة ، توفي في الصلاة ساجدًا سنة ٥٠٦ ، رحمه الله تعالى »[٢] .

(٥٨) صوم رحلة العابدة مولاة معاوية :

عن سعيد بن عبد العزيز قال : « ما بالشام ولا بالعراق أفضل من رحلة ، ودخل عليها نفر من القراء ، فكلموها في الرِّفْق بنفسها فقالت : ما لي وللرفق بها ! فإنما هي أيام مبادرة ، فمن فاته اليوم شيء ، لم يدركه غدًا ، والله يا إخوتاه لأُصلينّ ما أقلّتني جوارحي ، ولأصومنّ له أيام حياتي ،

---

(١) تهذيب التهذيب ٣٦/١٢ ، وانظر أيضًا : الثبات عند الممات ١٠٩ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١١٠/١ .

ولأبكين له ما حملت الماء عيناي . ثم قالت : أيكم يأمر عبده بأمرٍ فيُحِبّ أن يقصِّر فيه . ولقد قامت رحمها الله حتى أقعدت ، وصامت حتى اسودّتْ ، وبكت حتى عمشتْ ، وكانت تقول : علمي بنفسي قرَّح فؤادي ، وكلم قلبي ، والله لَوَدِدْتُ أن الله لم يَخْلُقْنِي ولم أكُ شيئًا مذكورًا . وكانت رحمها الله تخرج إلى الساحل ، فتغسل ثياب المرابطين في سبيل الله »[١].

(٥٩) صوم ميمونة بنت الأقرع :

عابدة زاهدة ، كتبتْ عن الإمام أحمد بن حنبل أشياء ، وأخبر المروزيّ فقال : « ذكرتُ لأحمد بن حنبل ميمونة بنت الأقرع فقلت له : إنها أرادت أن تبيع غزلها فقالت للغزّال : **إذا بعت هذا الغزل فقل : إني ربما كنت** صائمة فأُرخي يدي فيه . ثم ذهبتْ ورجعتْ فقالت : رُدّ عليّ الغزل ، أخاف ألا تبيِّن للناس هذا »[٢].

(٦٠) صوم أبي حنيفة :

عن الحسن بن عمارة أنَّه غسَّله حين تُوفِّي وقال : غفر الله لك ، لم تفطر منذ ثلاثين سنة ، ولم تتوسَّد يمينَك في الليل منذ أربعين سنة[٣].

(٦١) صيام الملك العادل نور الدين محمود زِنْكِي :

الشهيد ابن الشهيد والقسيم ابن القسيم .

قال ابن كثير : « صاحب بلاد الشام وغيرها من البلدان الكثيرة

---

(١) صفة الصفوة ٤/٤٠ ، ٤١ .

(٢) أعلام النساء لعمر رضا كحالة ٥/١٣٨ نقلًا عن طبقات الفقهاء الحنابلة للفراء مخطوط .

(٣) إقامة الحجة على أن الإكثار من التعبد ليس ببدعة ، ص٧٧ .

الواسعة ، كان مجاهدًا في الفرنج ، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر ، محبًّا للعلماء والفقراء والصالحين ، مُبغضًا للظلم ، صحيح الاعتقاد ، مُؤثِرًا لأفعال الخير ، لا يجسر أحدٌ أن يظلم أحدًا في زمانه ، وكان قد قَمَع المناكر وأهلها ، ورفع العِلْم والشرع ، وكان مُدمِنًا لقيام الليل ، يصوم كثيرًا ويمنع نفسه من الشهوات ، وكان يحب التيسير على المسلمين ، ويرسل البر إلى العلماء والفقراء والمساكين والأيتام والأرامل ، وليست الدنيا عنده بشيءٍ ، رحمه الله وبلَّ ثراه بالرحمة والرضوان .

قال ابن الجوزي : استرجع نور الدين محمود بن زنكي - رحمه الله تعالى - من أيدي الكفار نَيِّفًا وخمسين مدينة .

وكان قد عزم على فتح بيت المقدس - شرَّفه الله - فوافته المَنِيَّةُ في شوال من هذه السنة (٥٦٩هـ) والأعمال بالنيات ، فحَصَل له أجر ما نوى »[١] .

« وكان نور الدين يأمر الولاة والأمراء في الموصل ، ألا يفعلوا أمرًا حتى يُعلِموا به الشيخ عمر الملا من الموصل وكان من الصالحين الزهاد ، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يُفطر عليه ، وكان يرسل إليه بفتيتٍ ورقاقٍ فيفطر عليه جميع رمضان »[٢] .

يرحم الله نور الدين ، لا يَطْعَم ولا يفطر في رمضان على طعام المملكة ، بل يفطر على طعام شيخه .

ويرحم الله من يقول :

ومَدْرَسَة سَتَدْرِسُ كُلَّ شَيْءٍ ... وتَبْقَى في حِمَى عِلْمٍ وَنُسْكِ
تَضَوَّعَ ذِكْرُها شَرْقًا وغَرْبًا ... بنُورِ الدِّينِ محمودِ بنِ زِنْكِي

---

(١) البداية والنهاية ١٢/٣٠٦ - ٣٠٧ .
(٢) البداية والنهاية ١٢/٣٠٢ .

(٦٢) صوم الإمام البَيْهَقِي :

الإمام الجليل ، والحافظ الكبير ، والأُصُولي الفقيه النِّحرير ، أبو بكر أحمد بن الحسين .

قال الحافظ الذهبي : كان البيهقي واحد زمانه ، وفرد أقرانه ، وحافظ أوانه .

قال السُّبكي في طبقات الشافعية (١١/٤) : « قيل : وكان البيهقي يصوم الدهر من قبل أن يموت بثلاثين سنة » .

ونختم بختام المسك من آل هاشم .

(٦٣) صوم السيدة المكرمة الصالحة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن السيد سِبْط النبي ﷺ الحسن بن علي (رضي الله عنهما) العلويّة الحسنية :

« كانت رحمها الله وأكرمها بين الصالحات العوابد ، زاهدة ، تقية نقية ، تقوم الليل ، وتصوم النهار حتى قيل لها : ترفَّقي بنفسك . لكثرة ما رأَوْا منها ، فقالت : كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبة لا يقطعها إلا الفائزون ؟! حجَّت ثلاثين حجَّة ، وكانت تحفظ القرآن وتفسيره »[١] .

قال عنها ابن كثير : « كانت عابدة زاهدة كثيرة الخير »[٢] .

« توفيت رحمها الله تعالى وهي صائمة ، فألزموها الفطر ، فقالت : واعجباه ! أنا منذ ثلاثين سنة أسأل الله تعالى أن ألقاه صائمة ، أأفطر الآن ، هذا لا يكون . وخرجت من الدنيا ، وقد انتهت قراءتها إلى قوله تعالى :

---

(١) عودة الحجاب ٦٠٧/٢ - ٦٠٨ .

(٢) البداية والنهاية ٢٩٩/١٢ - ٣٠٧ .

﴿ قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ﴾ [الأنعام : ١٢] »[١] .

ويرحم الله من قال :

لو كان يَقْعُدُ فوق الشَّمسِ مِنْ كَرَمٍ   قومٌ بآبائهمْ أو مَجْدِهم قَعَدُوا
قومٌ أبُوهُم عَلِيٌّ حين تَنْسِبُهُم   طابوا وطابَ مِن الأولاد ما وَلَدُوا
إنسٌ إذا أمِنوا جِنٌّ إذا فَزِعُوا   مُرَزَّءونَ بَهَالِيلٌ إذا حَشَدُوا
مُحَسَّدُونَ على ما كان مِن نِعَمٍ   لا يَنْزِع اللَّهُ منهمْ ما له حُسِدُوا

قال عمر : « أحسن ، وما أعلم أحدًا أولى بهذا الشعر من هذا الحي من بني هاشمٍ ؛ لفضل رسول الله ﷺ وقرابتهم منه »[٢] .

* * *

(١) مرآة الزمان ٨٢ .

(٢) العقد الفريد ٢/٥٧٧- ٥٧٨، والبيت الثاني في الأصل: قوم أبوهم سنان، بدلًا من عليّ .

الفصْـلُ الخَـامِـس

عُلُـو الهِـمَّةِ
في
الصَّـدقةِ والجُـودِ والإيثَـارِ

تَعوّدَ بَسْط الكفِّ حتَّى لو انَّهُ ثناها لِقَبْضٍ لم تجِبْه أَنامِلُهْ
تَـراه إذَا مـا جئتَـه مُتهـلِّلَا كأنَّك تُعطيه الذي أنت سَائلُهْ
ولو لم يكن في كفِّه غير رُوحهِ لجَادَ بها فليتـقِ اللهَ سَـائلُهْ
هُو البَحْرُ من أيِّ النَّواحي أتيته فلُجَّتُهُ المعروفُ والجُودُ ساحِلُهْ

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الصَّدقةِ والجُودِ والإيثار □

أَشْرَفُ ملابسِ الدُّنيا ، وأَزينُ حُلَلها ، وأَجْلَبُهَا لحمدٍ ، وأَدفَعُهَا لذمٍّ ، وأَستَرُهَا لعيبٍ - كرمُ طبيعةٍ يتحلَّى بِهَا السَّمْح السَّرِيّ ، والجَوَاد السَّخي . ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى تسمَّى بها ، فهو الكريم عز وجلْ ، ومن كان كريمًا منْ خَلْقه ، فقد تسمَّى باسمه ، واحتذى على صفته[١].

قال رسـول الله ﷺ : « إنَّ الله تعالى جَوَادٌ يحبُّ الجُـودَ ، ويحبُّ معاليَ الأخلاق ، ويكره سَفْسَافَهَا »[٢].

وقال رسـول الله ﷺ : « إنَّ الله كريمٌ يحبُّ الكُرَماء ، جَـوَادٌ يحب الجَوْدة ، يحبُّ معالي الأخلاق ، ويكره سَفْسَافَهَا »[٣].

وقال ﷺ : « إنَّ الله كريمٌ يحبُّ الكرم ، ويحبُّ معالي الأخلاق ، ويكره سَفسافها »[٤].

سبحانه من كريم . جَواد ، علا على كلِّ جوادٍ ، وبه جَادَ كلُّ من جاد .

والجُودُ على ألسنةِ الورى محمودُ .

ليس يُعْطيك للرجاءِ أو الخَوْ   فِ ولكنْ يَلذُّ طَعْم العطـاءِ

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ٢٢٥ .
(٢) صحيحٌ ، سبق تخريجه .
(٣) صحيحٌ ، سبق تخريجه .
(٤) صحيحٌ ، سبق تخريجه .

وكفى بالجود حمدًا أن اسمه - مطلقًا - لا يقع إلا في حمدٍ ، وكفى بالبخلِ ذمًّا أن اسمه - مطلقًا - لا يقع إلا في ذمٍّ .

ومنْ شرفه أنَّ الله عز وجل قَرَن ذِكْرَه بالإيمان ، ووصف أهله بالفلاح ، والفَلاحُ أجمع اسمٍ لسعادة الدَّارين ، فقال : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيبِ ويُقيمون الصلاةَ ومما رزقناهم يُنْفقون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أولئك هم المفلحون** ﴾ [البقرة : ٣ - ٥] ، وقال تعالى : ﴿ **ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون** ﴾ [الحشر : ٩] .

وحُقَّ للجُودِ أنْ يقترن بالإيمان ، فلا شيء أخصّ به وأشد مجانسةً له منه ، فَمِنْ صفة المؤمن انشراحُ الصدر : ﴿ **فمن يُرِدِ اللهُ أن يهديَه يشرحْ صدره للإسلام ومن يُرِدْ أن يضلَّه يجعلْ صدره ضَيِّقًا حَرَجًا** ... ﴾ الآية [الأنعام : ١٢٥] ، وهما من صفات الجَوَاد والبخيل ؛ لأن الجَوَاد يوصفُ بِسَعَةِ الصَّدر للإنفاق ، والبخيل يوصف بضيق الصَّدر للإمساك .

فبادروا وجوِّدوا هممكم ، واعلوا بها لمصَامِ الأجواد والكرماء ، يرفعكم الجُودُ إلى عَنان السماء .

لو كان يَقْعُدُ فوقَ الشمس من كرمٍ قومٌ بأوَّلهمْ أو مَجْدهم قعدُوا

الأيام صحائفُ الأعمار ، فخلِّدوها بأحسن الأعمال ، والفُرصُ تمرُّ مرَّ السَّحاب ، والعجز عن استدراكها شأن الخوالف .

يجني الغنيُّ للئّامِ لو عقلوا ما ليس يجني عليهمُ العدمُ
همُ لأموالهمْ ولَسْنَ لهمْ والعارُ يَبْقَى والجُرْحُ يلتئمُ

البُخْلُ فِعلٌ لازم ، لا يتعدى بجمع الدَّراهم جمْع الثّريا ، والأقدار تفرِّقها كبناتِ نعش[1] .

---

(١) اسم لعدة نجوم .

وَمَنْ يُنفِق الأعمارَ في جمعِ مالهِ مخافةَ فقرٍ فالذي فَعَلَ الفقـرُ

يا هذا ، كان المال عند الكرماء كالماءِ ، فلو تأمّل البخيل فَضْلَ مطلوب الكريم لصبا ، وَيْحَكَ إنَّ أكبر شرفِ الكريم ردُّ لهف العديم .

فسبحان من خلق الأضداد ، وفرَّق بين العباد ، أمّا البخيل بالذَّهَب فمات وَذَهَب ، وأمّا الكريم فعاش بعد الموت بما وَهب .

وَهُمْ يُنْفذونَ المالَ في أوّل الغِنَى وَيَسْتأنفونَ الصَّبْرَ في آخرِ الصبرِ
إذا سُئلوا لم يبتغوا المال وجهـةً ولم يَدْفعوا في صفحةِ الحقِّ بالعُذْرِ
من البيضِ بسّامون والعامُ كالحٌ جدوبًا ومطّارون في الحجج الغُبْرِ
مغـاويرُ في الجُـلّا مغايير للحمى مَفَـاريجُ للغُمَّـى مَـداريكُ للوَترِ
وتأخذهمْ في سـاعةِ الجود هِزّة كما خايل المِطرابُ من نزوةِ الخمرِ
فتحسَبهمْ فيها نشـاوى مـن الغِنى وهم في جلابيب الخصَاصَة والفَقرِ
عظـيمٌ عليهــمْ أن يبيتـوا بِلا يَـدٍ وهَـيْنٌ عليهـمْ أن يَبيتوا بلا وَفْـرِ
إذا نزل الحـيَّ الغـريبُ تقارعـوا عليه فلـم يُدرَ المقـلُّ مــن الثري
يميلـون في شِـقِّ الوفـاء مع الردى إذا كان محبوبُ البقاء مع الذِّكْرِ

قال تعالى : ﴿ **مثل الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبةٍ أنبتت سبعَ سنابل في كل سنبلةٍ مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم * الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتْبعون ما أنفقوا مَنًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[البقرة : ٢٦١ - ٢٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ **يَـأَيُّهَا الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كَسَبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون وَلَسْتُم بآخذيه إلا أن تُغْمضوا فيه واعلموا أن الله غنيٌّ حميد * الشيطان يعدكم الفقر**

ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلًا والله واسعٌ عليم ﴾

[البقرة : ٢٦٧ - ٢٦٨] .

فالذي يدعوهم إلى البخل والشُّح هو الشيطان .

دَلَّاهُمُ بغُرورٍ ثمَّ أوردهمْ   إنَّ الخبيثَ لمن وَالاه غَرَّارُ

والله يعدُ عبده مغفرةً منه لذنوبه وفضلًا ، بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه ، إما في الدنيا ، أو في الدنيا والآخرة .

فهذا وعدُ الله ، وذاك وعدُ الشيطان ، فلينظر البخيلُ والمنفقُ أيَّ الوعدين هو أوثق ، وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه ؟!

فاشكرْ من أماتَ غيرك بالعدم وهو حيٌّ وأنْشَرك .

وما قدر كسرة تعطيها ، أوما سمعتَ أن الرَّبَّ يُرْبيها ، فيراها صاحبها كجبلِ أُحُد ، أفيرغبُ عن مثل هذا الخير أَحدٌ ؟!

واعجبا للُقْمةٍ كانت قليلةً فكثُرت ، وفانيةً فبقيتْ ، ومَحْفوفةً[1] فَحُفِظَتْ . أما علمت أن الصدقةَ إذا صَدَقتْ في إخراجها نفسُ تقيٍّ ، تقي ميتةَ السّوءِ ، وتُطفئ غضبَ الربِّ .

إن اللقمة إذا أُكلتْ صارتْ أذًى وقبائح في الحُشِّ ، وإذا تُصدِّق بها صارت إذًا مدائح عند العرش .

إن تطوّعات البدن لا تتعدَّى المتطوِّع ، وإن نفع الصدقة متعدّد متنوّع .

إن مقيم جسد الفقير بأسباب صِلاته ، شريكٌ له في ثواب صَلاته .

ومن فطّر صائمًا قد صبر إلى عشائه من فَجْره ، فله مِثْلُ أجْرِهِ .

---

(١) زائلة ، من قولهم : حفّ الشمع ؛ إذا ذهب .

إن الصَّدَقة سريعةُ الخلف ، وحافظةٌ بعد الموت للخَلَف .

واعلم أن إنفاق حبّة ، يُثمر لك الوفاق والمحبّة ﴿ **في كلِّ سنبلةٍ مائةُ حبة** ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

ثم قدِّر أنك لا تُثاب على هذه اللقمة ، أين الحُنُوّ على الأخ والرحمة ؟!

هان على الأملس ما لاقى الدَّبر[١] .

قد كان حاتم الطائيُّ كافرًا ، وكان يُطعم حاضرًا ومسافرًا ، فإذا فضلت لقماتٌ ألقاهنّ على الرَّمْل ، وقال : إنّهنّ جارات - يعني النمل - .

كان الصالحون يثورون إلى الإيثار وأنت رصاصة[٢] ﴿ **ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة** ﴾ [الحشر : ٩] .

كان الكرام وأبناءُ الكرام إذا   تسامعوا بكريمٍ ناله عَدَمُ
تسابقوا فيُواسيه أخو كرمٍ   منهم ويرجع باقيهم وقد ندموا
فاليوم صاروا يَعُدُّون النَّدى سرفًا   ويُنكرون على المعطي إذا علموا

فالزم فعل الخير مكانَك ، وأطْعِم البُرَّ إمكانَك ، وأقْرِضْ ربَّك فقد ربَّكْ ، وعاملْ مولاك بما أولاك ، ولا تَرُدَّنّ سائلًا بلا ، فإنه موت عنده بلْ بِلى ، ولا تكُن من البخلاء ، وقانا الله وإياك أدوى داء .

قال ﷺ : « وأيّ داء أدوى من البخل » .

واعلم أخي أنه لا يقول المجد : واطرباه حتى يصيح المال : واحرباه .

هيهات أن يسمن المدحُ حتى يُهزل الكيس .

---

(١) يُضرب مثلًا في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه .
(٢) أي حَجَر .

يُعنى البخيل بجمع المال مدّته ... وللحوادثِ والوُرَّاثِ ما يَدَعُ
كدودةِ القز ما تبنيه يهدمها ... وغيرها بالذي تبنيه ينتفعُ

قال تعالى : ﴿ **قل إن ربي يَبْسُطُ الرزق لمن يشاء من عباده وَيَقْدِرُ له وما أنفقتم من شيءٍ فهو يُخْلِفُهُ وهو خير الرازقين** ﴾ [سبأ : ٣٩] .

قال ابن كثير : « يخلفه عليكم في الدنيا بالبَدَل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب » .

وروى أحمد والبخاري ومسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : أنفِقْ أُنفِقْ عليك » .

وقال رسول الله ﷺ : « أنفق يا بلالُ ، ولا تَخْشَ من ذي العرش إقلالًا »[1].

وفي رواية : « أنفِقْ بلالا » .

كيف ينقص مُلك هو قَيِّمُه ! أبواب العباد مغلقة ، ومفاتيح الأبواب بيديه ، وبابه مفتوحٌ لمن دعاه ، وفي الحديث القدسي : « يا عبادي ، كُلُّكم جائعٌ إلَّا مَنْ أطعمتُه ، فاستطعموني أُطعمكم ، يا عبادي ، كلُّكم عارٍ إلَّا من كسوتُه ، فاستَكْسُوني أكسكم » .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من يومٍ يُصبح العباد فيه ، إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدُهما : اللهم أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعطِ

---

(١) صحيح . رواه البزار عن بلال وعن أبي هريرة ، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٥٠٨) ، وتخريج المشكاة رقم (١٨٨٥) . وحسّن إسناده ابن حجر في زوائد البزار ، كما قال المناوي . وحسنه الهيثمي .

مُمسِكًا تَلَفًا »[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من تصدّق بعدل تمرةٍ من كسبٍ طيِّب، ولا يقبل الله إلا الطَّيِّب، فإن الله يتقبَّلُها بيمينه، ثم يُرَبِّيها لصاحِبه، كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّه[٢]، حتى تكون مثل الجبل »[٣].

وقال ﷺ: « ما تصدَّق أحدٌ بصدقةٍ من طيِّبٍ، ولا يقبل الله إلا الطّيّب، إلَّا أخذها الرحمـٰن بيمينه وإن كانت تمرةً، فَتَرْبُو في كفِّ الرحمـٰن حتى تكون أعْظَمَ من الجبل، كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوّه أو فصيلَه »[٤].

وقال ﷺ: « صَنَائِعُ المعروف تقي مَصَارِعَ السُّوءِ والآفاتِ والهَلَكَاتِ، وأهل المعروف في الدُّنْيا هم أهل المعروف في الآخرة »[٥].

وقال رسول الله ﷺ: « أيُّما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على عُرْيٍ، كساه الله تعالى من خُضر الجنة، وأيّما مسلم أطعمَ مسلمًا على جوعٍ، أطعمه الله تعالى يوم القيامة من ثمار الجنة، وأيّما مسلمٍ سقى مسلمًا على ظمأٍ، سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرَّحِيق المختوم »[٦].

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة، وأحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك عن أبي الدرداء.

(٢) الفَلُوّ: المُهْرُ؛ لأنه يُفْلَى؛ أي يُفْطَم، والجمع أفلاء.

(٣) رواه البخاري، ومسلم، وأحمد.

(٤) رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد عن أبي هريرة، وهو صحيح.

(٥) صحيح: رواه الحاكم عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٦٨٩) والصحيحة رقم (١٩٠٨).

(٦) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري، وقال المنذري: =

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حُوسب رجلٌ ممن كان قبلكم ، فلم يُوجد له من الخير شيءٌ ، إلَّا أنه كان رَجُلًا مُوسِرًا ، فكان يخالط الناس ، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسِر ، فقال الله تعالى : نحن أحقُّ بذلك منه ، تجاوزوا عنه »(١).

وعن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أنْظَرَ معسِرًا ، فله بكلِّ يومٍ مثله صَدَقَةٌ ، قبل أن يحلَّ الدَّيْن ، فإذا حلَّ الدين فأنظره ، فله بكل يومٍ مثلاه صَدَقَةٌ »(٢).

وعن أبي اليسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنْظَرَ معسِرًا ، أو وَضَعَ عنه ، أظلَّه الله في ظلِّه يوم لا ظِلّ إلَّا ظِلُّه »(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أعْتَقَ رقبةً مسلمةً ، أعتق اللهُ له بكل عُضْوٍ منها عضوًا من النار ، حتى فَرْجه بِفَرْجِه »(٤).

الجوادُ كريمٌ على الله وعلى الناس :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بَيْنَا رجلٌ بِفَلاةٍ من الأرض ، فسمع صوتًا في سَحابةٍ يقول : اسْقِ حديقةَ فُلان ،

= رواه أبو داود والترمذي من رواية أبي خالد بن يزيد الدالاني ، وحديثه حسن . اهـ .

(١) صحيح . رواه الترمذي ، والبخاري في الأدب ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣١٥٤) .

(٢) رواه الشيخان ، وأحمد ، والنسائي .

(٣) رواه مسلم وأحمد .

(٤) رواه الشيخان والترمذي .

فتنحَّى ذلك السحابُ ، فأفْرَغ ماءَه في حَرَّةٍ ، فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشِّراج قد استوعبتْ ذلك الماءَ كلَّه ، فتتبَّع الماء ، فإذا رجلٌ قائمٌ في حديقته يُحوِّل الماء بِمِسْحاتِهِ ، فقال له : يا عبد الله ، ما اسمُكَ ؟ قال : فلان . للاسم الذي سمع في السحابة . فقال له : يا عبد الله ، لِمَ تسألني عن اسمي ؟ قال : إني سمعتُ صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان ؛ لاسمِك ، فما تصنع فيها ؟ قال : أمّا إذْ قلتَ هذا ، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدَّق بثلثه ، وآكل أنا وعيالي ثلثا ، وأرُدّ فيها ثلثًا »[١].

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أقيلوا ذوي الهيئات عَثَرَاتِهِم إلَّا الحدود »[٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « تجاوزوا عن ذنب السَّخِيِّ ؛ فإنّ الله آخِذٌ بيده كلَّما عثر »[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « أَحَبُّ الناس إلى الله أَنْفَعُهُم ، وأحبّ الأعمال إلى الله عز وجل سرورٌ تُدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كُربةً ، أو تقضي عنه دَيْنًا ، أو تطرد عنه جوعًا ، ولَأَنْ أمشي مع أخي المسلم في حاجةٍ ، أحبُّ إلي من أن أعتكف في المسجد شهرًا ، ومن كفَّ غضبهُ ، ستر الله عورتَهُ ، ومن كَظَم غيظًا ولو شاء أن يُمْضِيَهُ أمضاه ، ملأَ اللهُ

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة ، ورواه الطيالسي وابن منده .
(٢) صحيح . رواه أحمد في مسنده ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٩٦) .
(٣) حسن . رواه الدارقطني في المُسْتجاد من فعلات الأجواد ، والبيهقي في الشعب ، وابن الجوزي في الموضوعات .

قلبَهُ رِضًا يوم القيامة ، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له ، أثبت الله تعالى قدمَهُ يوم تَزِلُّ الأقدام ، وإنّ سُوء الخُلُق ليُفسِدُ العملَ ، كما يُفْسد الخلُّ العَسَلَ »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « أفضل الأعمال أن تُدخل على أخيك المؤمن سرورًا ، أو تقضي عنه دَيْنًا ، أو تُطعمه خُبزًا »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « خيرُ الناس أنْفَعُهم للناس »[٣].

وقال ﷺ : « السّاعِي على الأرْمَلَةِ والمسكين ، كالمجاهد في سبيل الله ، أو القائِم الليلَ الصّائِم النهارَ »[٤].

الأشعَرِيُّونَ مِنْ رسول الله ﷺ وهو منهم :

وقال رسول الله ﷺ : « إن الأشعريِّين إذا أرْمَلُوا[٥] في الغزو أوْ قلَّ طعامُ عيالهم بالمدينة ، جعلوا ما كان عندهم في ثوبٍ واحد ، ثم اقتسموه

---

(١) حسن . رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » والطبراني في « الكبير » عن ابن عمر ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٧٦) .

(٢) حسن . رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » والبيهقي في « شعب الإيمان » عن أبي هريرة ، وابن عدي في « الكامل » عن ابن عمر ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٠٩٦) .

(٣) حسن . رواه القضاعي عن جابر ، والطبراني في « الكبير » ، والدارقطني ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ، وابن عساكر ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٢٨٩) .

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي ، والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٥) أي نفد زادهم .

بينهم في إناء واحدٍ بالسَّوِيَّة ، فهم منِّي وأنا منهم »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « لا خير في مَنْ لا يُضَيِّفُ »[٢].

عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لا حَسَدَ إلَّا في اثنتين : رجل آتاه الله مالًا ، فسلّطه على هَلَكَتِهِ في الحقِّ ، ورجل آتاه الله حِكْمَةً ، فهو يقضي بها ويُعَلِّمها » .

وفي رواية : « لا حسد إلَّا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالًا ، فهو يُنفقه آناء الليل وآناء النهار » . رواه البخاري ومسلم .

والمراد بالحَسَد هنا : الغِبْطَة ، وهي تمنِّي مثل ما للمغتَبط .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أيُّكم مالُ وارِثِهِ أحبُّ إليه من ماله ؟ » . قالوا : يا رسول الله ، ما منّا أحد إلَّا ماله أحبُّ إليه من مالِ وارثه . قال : « فإنّ مالَهُ ما قدَّم ، ومال وارثه ما أخَّر » . رواه البخاري والنسائي .

وفي الصحيح عند ابن حبان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مَلَكًا بباب من أبواب الجنة يقول : مَنْ يُقرِض اليوم يُجْزَ غَدًا ، وملكٌ بباب آخر يقول : اللهم أعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وأعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى .

(٢) صحيح . رواه أحمد والبيهقي في « شعب الإيمان » والروياني عن عقبة بن عامر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٤٩٢) .

تعالى : يا عبدي أَنْفِق أُنْفِق عليك » . وقال : « يَدُ الله مَلْأَى لا يغيضها نَفَقَةٌ ، سحّاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أَنْفَقَ منذ خَلَقَ السمٰوات والأرضَ ، فإنه لم يَغِض ما بِيَدِهِ، وكان عرشه على الماء ، وبيده الأُخرى الميزان ، يخفضُ ويرفعُ » . رواه البخاري ومسلم .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ قال : أيُّ الإسلام خَيْرٌ ؟ قال : « تُطْعِم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفتَ وَمَنْ لم تعرف »[(١)].

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اعبدوا الرحمٰن ، وأطعموا الطعام ، وأفْشُوا السلام ، تدخُلُوا الجنة بسلام »[(٢)].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة غُرَفًا يُرى ظَاهِرُها من باطِنِها ، وباطنُها من ظاهِرِها ، أعدَّها الله تعالى لمن أطْعَمَ الطعام،وأفشى السلام ، وصلَّى بالليل والناسُ نِيَام »[(٣)].

وعن حمزة بن صُهيب ، عن أبيه رضي الله عنه ، قال : قال عمر لصُهَيْب : فيك سَرَفٌ في الطعام ! فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خيارُكم مَنْ أطْعَمَ ....

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

(٢) حسن . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب ١ / ٣٩٥ .

(٣) حسن . رواه ابن حبان في « صحيحه ».وحسنه الألباني في « صحيح الترغيب » ١ / ٣٩٦ .

الطعـام »[١].

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا ابن آدم ، إنك إن تَبْذُل الفَضْلَ خيرٌ لك ، وإن تُمسِكْه شرٌّ لك ، ولا تُلام على كفافٍ ، وابدأ بِمَنْ تَعُولُ ، واليَدُ العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « أفضلُ الصَّدَقةِ : الصدقة على ذي الرَّحِم الكاشِح »[٣].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم طلعت شمسُه ، إلَّا وكان بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكان يناديان نداءً يسمعه ما خَلَقَ الله كلّهم غير الثَّقَلَيْن : يَـٰأَيُّهَا الناس ، هَلُمُّوا إلى ربكم : فإن ما قَلَّ وكَفَى ، خيرٌ ممّا كَثُرَ وأَلْهَى . ولا آبتِ الشمسُ ، إلَّا وكان بجنبتيها ملكان يناديان نداءً يسمعه خَلْقُ الله كلّهم غير الثقلَيْن : اللهم أعطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وأعطِ مُمْسِكًا تَلَفًا . وأنزل الله في ذلك قرآنًا ؛ في قول المَلَكَيْن : يَـٰأَيُّهَا الناس هَلُمُّوا إلى ربكم في سورة يونس : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم** ﴾ [يونس : ٢٥] ، وأنزل في قولهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، وأعطِ ممسكًا تلفًا ﴿ **والليل إذا يغشى ۞ والنهار**

(١) حسن . رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب « الثواب » وحسّنه الألباني في « صحيح الترغيب » ١ / ٣٩٦ .

(٢) رواه مسلم والترمذي .

(٣) صحيح . رواه أحمد والطبراني في « الكبير » عن أبي أيوب وعن حكيم بن حزام ، ورواه البخاري في الأدب وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير والحاكم عن أم كلثوم بنت عقبة،وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١١١٠) .

إذا تجلّى وما خلق الذَّكَرَ والأُنثى ﴾ إلى قوله : ﴿ **لِلعُسْرى** ﴾ »[1].
[الليل : ١ - ١٠] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « مَثَلُ البخيل والمُنْفِق كمثل رجُلَيْن عليهما جُنَّتَان من حديدٍ ، من ثُديهما إلى تراقيهما ، فأمّا المنفق فلا يُنفق إلَّا سَبَغَتْ أوْ وَفَرَتْ على جِلْده ، حتى تُخفيَ بَنانَهُ ، وَتَعْفُوَ أثَرَهُ ، وأمّا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلّا لزمتْ كُلُّ حَلْقةٍ مكانها ، فهو يُوسِّعها فلا تَتَّسِع » . رواه البخاري ومسلم .

فالمنفِق كلَّما أنفق ، اتَّسعَتْ عليه النِّعم وسبغتْ وَوَفَرَتْ ، والبخيل كلّما أراد أن يُنفق ، مَنَعَهُ الشُّحُّ والحِرْصُ وَخَوْفُ النَّقْص ، فهو يمنعه ، ولا تتَّسع عليه النِّعم .

* * *

(١) صحيح . رواه البيهقي وصحَّحه الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب » ١ / ٣٨٤ - ٣٨٥ .

□ أبو الضِّيفانِ خَلِيلُ الرحمٰن إبراهيمُ عليه السلام □

قال رسول الله ﷺ : « كان أَوَّلَ مَنْ أضاف الضَّيْفَ إبراهيمُ »[١].

قال المناوي : « كان يُسمَّى أبا الضِّيفان ، كان يمشي المِيلَ والميلَيْن في طَلَب مَن يتغدَّى معه . وفي الكشَّاف : كان لا يتغدى إلَّا مع ضيف »[٢].

قال تعالى : ﴿ **هل أتاك حديثُ ضيفِ إبراهيم المُكْرَمِينَ إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال سلامٌ قومٌ مُنْكَرُون فَرَاغَ إلى أهله فجاء بعجلٍ سمينٍ فقرَّبه إليهم قال ألا تأكلون** ﴾ [الذاريات : ٢٤ - ٢٧] .

قال مجاهد : سمَّاهم مكرمين لخِدمة إبراهيم إيَّاهم بنفسه[٣].

قال الرازيُّ : في « **مفاتيح الغيب** » (١٤/٥١٠- ٥١٣) : « **أُكرِموا** إذ دخلوا ، وهذا من شأن الكريم أن يُكرم ضَيْفَهُ وقتَ الدخول . فإن قيل : بماذا **أَكْرَمَهُم** ؟ **قُلْنا** : ببشاشةِ الوجهِ **أوَّلًا** ، وبالإجلاس في أحسن المواضع وألطفها ثانيًا ، وتعجيل القِرَى ثالثًا ، وَبُعْد التكليف للضيف بالأكل والجلوس .

ولقد أراد إبراهيم عليه السلام ، أن يردّ عليهم بالأحسن ، فأتى بالجملة الاسمية ؛ فإنها أدلُّ على الدوام والاستمرار ، فلما قالوا : ﴿ **سلامًا** ﴾ ، **قال** : ﴿ **سلامٌ** ﴾ عليكم مستمرٌّ دائمٌ .

﴿ **فراغ إلى أهله** ﴾ : فأتى بفاء التعقيب ، وهي دالَّةٌ على السرعة » . اهـ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قِرى الضيف » عن أبي هريرة .
(٢) فيض القدير ٤ / ٥٤٣ .
(٣) تفسير القرطبي ٩ / ٦٢١٥ .

قال الزّجّاجُ : عَدَلَ إلى أهله ومال سرًّا وحاد ، أي انطلق إبراهيمُ إلى منزله كالمُسْتَخْفِي من ضيفه ؛ لئلّا يظهروا على ما يريد أن يتّخِذ لهم من الطعام .

قال الرازيُّ : « إن الرَّوَغان يدلُّ على السُّرعة والرَّواح الخفيِّ ؛ فإن المُضِيف إذا أحضر شيئًا ، ينبغي أن يُخفيه عن الضيف ؛ كي لا يمنعه من الإحضار بنفسه ، حيث راغ هو ولم يقل : هاتوا ، وغيبة المضيف لحظةً من الضيف مُستحسَنٌ ؛ ليستريح ويأتي بدفعْ ما يحتاج إليه ويمنعه الحياءُ منه .

وتعجيل القِرى أيضًا دلّ عليه قولُه تعالى : ﴿ **فما لَبِثَ أن جاء بعجلٍ حَنِيذٍ** ﴾ [هود : ٦٩] .

ثم اختيار الأَجْوَد بقوله : ﴿ **سمين** ﴾ .

ثم تقديمُ الطعام إليهم لا نَقْلُهم إلى الطعام ، بقوله : ﴿ **فَقَرَّبَهُ إليهم** ﴾ ؛ لأن من قدَّم الطعام إلى قومٍ ؛ يكون كلُّ واحدٍ مستقِرًّا في مقرِّه ، لا يختلف عليه المكان ، فإن نَقَلَهم إلى مكانِ الطعامِ ؛ ربما يحصُل هناك اختلافُ جلوسٍ ، فيقرب الأدنى ويضيق على الأعلى .

ثم العَرْض لا الأمْر ، حيث قال : ﴿ **ألا تَأْكُلُون** ﴾ ولم يَقُل : كلوا » . اهـ .

أكْرَمُ الناسِ يوسفُ بن يعقوبَ عليهما السلام :

قال رسول الله ﷺ : « أكرمُ الناس يُوسُفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ ابنِ إبراهيمَ »[1] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود .

وقال رسول الله ﷺ : « الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ : يوسفُ بن يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ »[١].

قال المناويُّ في « فيض القدير » (٢ / ٩٠) : « أي أكرمُهم أصلًا يوسفُ ؛ فإنه جَمَعَ شرفَ النُّبُوَّة وشرف النَّسَب ، وكوْنه ابنَ ثلاثةِ أنبياء متناسِقة ، فهو رابع نبيٍّ في نَسَقٍ واحدٍ ، ولم يقع ذلك لغيره ، وضمَّ له **أشرف عِلْم - الرُّؤْيا - ورئاسة الدُّنْيا ، وحِياطَة الرّعِيَّة ، وشَفَقَته عليهم** » .

وقال المناوي : « وأيّ كريمٍ أكْرَم ممَّن حاز - مع كونه ابنَ ثلاثةِ أنبياء مُتَرَاسِلِين - شرفَ النُّبُوَّة وحُسنَ الصورة وَعِلْمَ الرُّؤيا ورئاسةَ الدنيا وحِياطة الرَّعايا في القَحْط والبلاء ! .

قال الشاعر :

إن السَّرِيَّ إذا سَرَى فَبِنَفْسِهِ ... وابنُ السَّرِيِّ إذا سَرَى أسْرَاهُمَا »[٢]

كان يوسف - عليه السلام - وهو على خزائن الأرض لا يشبع ، ويقول : أخاف أن أشبع فأنسى الجياعَ .

وقد كان جُود يوسف وكَرَمُه جودَ فتوَّة ، جود صَبْرٍ على شهوات النَّفْس ، وصبر عن المعصية ، وهو جُودُ ساداتِ الرجال .

كان الضَّحَّاك - رحمه الله تعالى - **يقول في قوله تعالى : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾** قال : « كان إحسان يوسف - عليه الصلاة والسلام - أنّ كُلَّ مَنْ مَرِضَ في السجن ، قام عليه ، وكلّ مَن احتاج ، وسَّعَ عليه . وكان - عليه الصلاة والسلام - إذا لم يجد عنده شيئًا للفقير ، يدور على

---

(١) رواه البخاري وأحمد عن ابن عمر ، وأحمد عن أبي هريرة .
(٢) فيض القدير ٥ / ٦٤ .

الأبواب يسأل له الناس »[١].

جُودُ رسول الله ﷺ :

عن أنسٍ رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ أحْسَنَ الناس ، وأجْوَد الناس ، وأشْجَعَ الناس »[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أجْوَد الناس ، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كلِّ ليلةٍ من رمضان ، فيُدارِسه القرآن ، فَلَرَسُولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أجْوَد بالخير من الرِّيح المُرسَلَة »[٣].

وعن جابر رضي الله عنه قال : « ما سُئِلَ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن شيءٍ قطُّ فقال : لا » . رواه البخاري .

وعن أنس بن مالك ، رضي الله عنه : « كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يدَّخِر شيئًا لغدٍ »[٤].

وعن عبد الله بن بسرٍ قال : « كان للنبي ﷺ قصعةٌ يُقال لها : الغراء ، يحملها أربعة رجال »[٥].

---

(١) تنبيه المُغترِّين للشعراني صـ ٩١ .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد والدارمي وابن سعد .

(٤) صحيح . رواه الترمذي عن أنس ، وابن حبان وصحّحه ، والبيهقي في « سننه » والخطيب ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٨٤٦) .

(٥) صحيح . رواه أبو داود في « سننه » ، وأبو الشيخ ، وابن عساكر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٨٣٣) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : « إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يجتمع عنده غداءٌ ولا عشاءٌ من خُبزٍ ولا لحمٍ إلَّا على ضَفَفٍ »[(١)].

وعن سهل بن سعد قال : جاءت امرأةٌ إلى النبي ﷺ ببُرْدة فقالت : يا رسول الله : أكْسُوك هذه . فأخذها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم محتاجًا إليها ، فَلَبِسَهَا ، فرآها عليه رجلٌ من الصحابة ، فقال : يا رسول الله ، ما أحْسَنَ هذه ، فاكْسُنِيهَا . فقال : « نعم » . فلمّا قام النبي ﷺ ، لامَهُ أصحابه فقالوا : ما أحسنْتَ حين رأيتَ النبي ﷺ أخَذَهَا مُحتاجًا إليها ، ثم سألتَهُ إياها ، وقد عرفتَ أنه لا يُسْأَل شيئًا فيمنعه . فقال : رجوتُ بَرَكَتَهَا حين لَبِسها النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ لَعَلِّي أُكَفَّن فيها . رواه البخاريُّ .

وأتاه رجلٌ فسأله ، فأعطاه غنما سدَّتْ ما بين جبلين ، فرجع إلى قومه وقال : أسلموا ، فإن محمدًا يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر .

وأُتي بمال من البحرين فقال : انثُروه في المسجد ، وكان أكثر مالٍ أُتي به ، فخرج إلى الصلاة ، ولم يلتفت إليه ، فلمّا قَضَى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحدًا إلَّا أعطاه ، وما قام وثَمَّ منها درهم .

وكان جوده ﷺ بجميع أنواع الجُود من بذْل العلم والمال ، وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دينه وهداية عباده ، وإيصال النفع إليهم بكل طريق ، من إطعام جائعهم ، ووعْظ جاهِلِهم ، وقضاءِ حوائجهم ، وتحمُّل أثقالهم ، ولم يزل ﷺ على هذه الخصال الحميدة منذ نَشَأ ، ولهذا قالت

---

(١) إسناده صحيح . أخرجه أحمد وابن حبان وابن سعد ، وقال الألباني في « مختصر الشمائل » : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

له خديجةُ في أوَّل مبعثه : والله لا يُخزيك الله أبدًا ، إنك لَتَصِلُ الرَّحِم ، وتَقْرِي الضَّيف ، وتحمل الكلَّ ، وتَكْسِب المعدومَ ، وتُعين على نوائب الحق . ثم تزايدت هذه الخصالُ فيه بعد البعثة ، وتضاعفتْ أضعافًا كثيرة .

وفي صحيح مسلم ، عن أنس رضي الله عنه قال : ما سُئِلَ رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلَّا أعطاه ، فجاء رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم ، أسلموا فإن محمدًا يُعطي عطاء من لا يخشى الفاقة .

قال أنس : إنْ كان الرجل ليُسلم ما يريد إلَّا الدنيا ، فما يُمسي حتى يكون الإسلامُ أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها .

وفي صحيح مسلم عن صفوان بن أُمية رضي الله عنه : لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لَمِن أبغض الناس إليَّ ، فما برح يُعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليَّ .

قال ابن شهاب : أعطاه يومَ حُنين مائة من النَّعَم ثم مائة ثم مائة .

وفي مغازي الواقدي : أن النبي ﷺ أعطى صفوان يومئذٍ واديًا مملوءًا إبلًا ونَعَمًا ، فقال صفوان : أشهدُ ما طابتْ بهذا إلَّا نَفْسُ نَبِيٍّ .

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم : أن الأعراب علقوا بالنبي ﷺ مَرْجِعَهُ من حُنَيْن ، يسألونه أن يقسم بينهم فقال : « لو كان لي عَدَدُ هذه العَضَاةِ نَعَمًا ، لقَسمتُه بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلًا ، ولا كذوبًا ، ولا جبانًا » .

وفيهما عن جابر أنه ﷺ قال له : « لَو جاءنا مالُ البحرين ، لقد أعطيتُك هكذا وهكذا وهكذا » وقال بيديه جميعًا .

وكان جوده ﷺ كلّه لله ، وفي ابتغاء مرضاته ، فإنه كان يبذل

المال إمّا لفقيرٍ ، أو محتاج ، أو ينفقه في سبيل الله ، أو يتألَّف به على الإسلام مَنْ يَقْوَى الإسلام بإسلامه ، وكان يُؤثر على نفسه وأهله وأولاده ، فيعطي عطاءً يعجز عنه الملوكُ مثل كسرى وقيصر ، ويعيش في نفسه عيش الفقراء ، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يُوقَد في بيته نار ، وربَّما رَبَطَ على بطنه الحَجَرَ من الجوع ، وكان قد أتاه صبيٌّ مرةً فشكتْ إليه فاطمةُ ما تَلْقَى من خدمة البيت ، وطلبت منه خادمًا يكفيها مُؤْنَة بيتها ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد عند نومها ، وقال : « لا أُعطيك وأَدَع أهل الصُّفَّة تَطْوَى بطونُهم من الجوع » .

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « إني لَأَلِج هذه الغُرفةَ ما ألجها إلَّا خشية أن يكون فيها مالٌ ، فأُتَوَفَّى ولم أُنفقه »[1].

وعن أبي ذرٍّ ، أن النبي ﷺ التفت إلى أُحُدٍ فقال : « والذي نفسي بيده ، ما يَسُرُّني أن أُحُدًا تحوَّل لآلِ محمدٍ ذهبًا ، أُنفقه في سبيل الله ، أموتُ يومَ أموتُ أدَعُ منه دينارين ، إلَّا دينارين أُعدُّهما للدَّيْن إنْ كان »[2].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : كانت عند رسول الله ﷺ سبعة دنانير وَضَعَهَا عند عائشة ، فلمّا كان عند مرضه قال : « يا عائشة ، ابعثي بالذهب إلى عليّ » . ثم أُغمي عليه ، وشَغَلَ عائشةَ ما به ، حتى قال ذلك مرارًا . كلّ ذلك يُغمى على رسول الله ﷺ ، ويشغل عائشةَ ما به ، فبعث إلى عليٍّ فتصدَّق بها ، وأمسى رسول الله ﷺ ليلة الإثنين

---

(١) حسن . رواه الطبراني في « الكبير » ، وحسّنه المنذريُّ والألبانيُّ .

(٢) حسن . رواه أحمد وأبو يعلى ، وقال المنذري : وإسناد أحمد جيد قوي ، وحسَّنه الألباني في « صحيح الترغيب » ١ / ٣٩١ .

في جديد الموت ، فأرسلت عائشةُ بمصباح لها إلى امرأةٍ من نسائها ، فقالت : أهدِي لنا في مصباحنا من عُكَّتك السَّمْن ، فإن رسول الله ﷺ أمسى في جديد الموت[1].

وكان رسول الله ﷺ أجْوَد ما يكون حين يلقى جبريل ، ولا شكَّ أن المخالطة تُؤثِّر وتُورث أخلاقًا من المخالطة . كان بعض الشعراء قد امتدح ملكًا جوادًا ، فأعطاه جائزة سَنِيَّةً ، فخرج بها من عنده وفرَّقها كلها على الناس وأنشد :

لَمَسْتُ بكفِّي كَفَّهُ أبتغي الغِنَى ... ولم أدْرِ أن الجُودَ من كَفِّهِ يُعدِي

فبلغ ذلك الملكَ ، فأضعفَ له الجائزةَ .

وقد قال بعضُ الشعراء يمتدح بعضَ الأجواد - ولا يصلحُ أن يكون ذلك إلَّا لرسول الله ﷺ - :

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حتى لَو انَّهُ ... ثَناها لِقَبْضٍ لم تُجِبْهُ أنامِلُهْ
تَـرَاهُ إذا مـا جِئْتَـهُ مُتَهَـلِّلا ... كَأنَّكَ تُعطيه الذي أنتَ سائِلُهْ
هو البَحْرُ من أيِّ النَّواحي أتيتَهُ ... فَلُجَّتُهُ المعروفُ والجُودُ ساحِلُهْ
ولو لم يَكُن في كَفِّهِ غيرُ رُوحِهِ ... لَجَـادَ بِهَـا فَلْيَتَّـقِ اللهَ سَـائِلُهْ

أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما نَفَعَنِي مالٌ قطُّ ما نفعني مالُ أبي بكرٍ » فبكى أبو بكرٍ وقال : هل أنا ومالي إلَّا لك يا ....

---

(١) صحيح . رواه الطبراني في « الكبير » ، وقال المنذري : ورواته ثقات محتجٌّ بهم في « الصحيح » ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » ١ / ٣٨٨ - ٣٨٩ .

رسول الله[١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مَنْ أنْفَقَ زوجًا - أو قال : زوجين - من ماله - أراه قال : - في سبيل الله ، دَعَتْهُ خَزَنَةُ الجنَّة : يا مسلم هذا خيرٌ ، هَلُمَّ إليه » . فقال أبو بكر : هذا رَجُلٌ لا تودى عليه . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما نفعني مالٌ قطُّ إلَّا مال أبي بكرٍ » . قال : فبكى أبو بكر وقال : وهل نفعني الله إلَّا بك ، وهل نفعني الله إلَّا بك ، وهل نفعني الله إلَّا بك[٢].

وقال عمر بن الخطاب : أمرنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يومًا أن نتصدَّق فوافَق ذلك مالًا عندي ،فقلتُ : اليومَ أسبقُ أبا بكرٍ ، إن سبقتُه يومًا . فجئتُ بنصف مالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما أبقيتَ لأهلك ؟ » . فقلتُ : مِثْله . قال : وأتى أبو بكر بكلِّ ما عنده ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما أبقيتَ لأهلك ؟ » . قال : أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَهُ : قلتُ : لا أُسَابِقُكَ إلى شيءٍ أبدًا[٣].

لمَّا طُبِعَ رسولُ الله ﷺ على أشرف الخلائق كان منها الكَرَم ، فأعطى غَنَمًا بين جَبَلَيْن ، فلمَّا سار في فيافي الجُود ، تَبِعَهُ صديقُه فجاء بكلِّ ماله .

سَبَقَ النَّاسَ إليها صَفْقَةً ... لم يَعُدْ رائدُها عنها بِغَبَنْ

---

(١) صحيح . رواه ابن ماجه وأحمد ، وابن أبي عاصم في « السنة » ، وابن حبان ، وابن أبي شيبة في « المصنف » ، والنسائي في « فضائل الصحابة » .

(٢) صحيح . أخرجه أحمد في « فضائل الصحابة » .

(٣) حسن . أخرجه الترمذي والدارمي وابن أبي عاصم وعَبْدُ بن حميد في « المنتخب » .

هِـزَّةٌ للجُـودِ صـارتْ نَشْـوَةً   لم يُكَـدِّرْ عندَهـا العُـرْف بِمَـنّْ
طَلَبُـوا الشَّـاءَ فـوافَى سَابِقـًا   جَـرَعَ غبَّرَ في وَجْهِ المَشَنّ[1]

عن جابرٍ قال : قال عمر : أبو بكرٍ سَيِّدُنا ، وأعْتَقَ سيِّدَنا . يعني بلالًا[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : أعتق أبو بكرٍ – رضي الله عنه – سبعةً ممَّن كان يُعذَّب في الله عز وجلّ ، منهم بلال وعامر بن فهيرة[3].

أبو بكـرٍ حَبَـا[4] في الله مـالا   وأعْتَــقَ فــي محبَّتِــهِ بِــلالَا
وقـد وَاسَـى النبيَّ بكـلِّ فَضْـلٍ   وأسْـرَعَ في إجابتِـهِ بـلا : لا
لـو انَّ البَحْـرَ يقصُـدُه ببعـضٍ   لَمَـا تَـرَكَ الإلٰـهُ بـه بِـلالا

ومن الأجواد عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه :

قال الأعمش : كنتُ يومًا عنده ، فأُتي باثنين وعشرين ألف درهم ، فلم يقُم من مجلسه حتى يفرّقها ، وكان إذا أعجبه شيءٌ من ماله تصدّق به ، وكان كثيرًا ما يتصدّق بالسُّكَّر ، فقيل له في ذلك فقال : إني أُحِبّه ، وقد قال تعالى : ﴿ **لن تنالوا البِرَّ حتى تُنفقوا مما تُحِبُّون** ﴾ . [آل عمران : ٩٢][5].

وقال مجاهد : كتب عمرُ بن الخطاب إلى أبي موسى أن يبتاع له جاريةً

---

(١) جَرَعَ : بلعَ . والمشن : حلب ما في الضرع .
(٢) موقوف صحيح . أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ، ورواه البخاري معلّقًا .
(٣) موقوف صحيح . أخرجه الحاكم في المستدرك وقال : صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي .
(٤) أعتق .
(٥) الدُّرّ المنضود في ذَمّ البُخل ومَدْح الجُود لعبد الرؤوف المناوي صـ ٦٤ – دار الصحابة بطنطا .

من سَبْي جلولاء ، ففعل ، فدعاها عمرُ فأعتقها ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **لن تنالوا البرّ حتى تُنفقوا مما تحبُّون** ﴾ .

عثمان رضي الله عنه :

عن أبي عبد الرحمن أن عثمان - رضي الله عنه - حين حُوصِر ، أشْرَفَ عليهم وقال : أنْشُدُكم الله ، ولا أنشُدُ إلّا أصحاب النبي ﷺ : ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ حَفَرَ رُومة فلة الجنة » . فحفرتُها ؟ ألستم تعلمون أنه قال : « مَنْ جَهَّزَ جيشَ العُسرة فله الجنة » . فجهَّزْتُه ؟ قال : فصدَّقُوه بما قال[1].

اشترى عثمان - رضي الله عنه - بئر رُومَةَ بأربعين ألف درهم ، وأنْفَقَ في جيش العُسرة عشرة آلافِ درهمٍ .

عن عبد الله قال : رأى رسول الله ﷺ عثمان بن عفان يوم جيش العُسرة جائيا وذاهبًا ، فقال : « اللهم اغْفِرْ لعثمان ما أقْبَلَ وما أدْبَرَ ، وما أخْفَى وما أعْلَنَ ، وما أسرَّ وما أجْهَرَ »[2].

وأخرج المناوي في « الدر المنضود » : أنه « أصاب الناس قحطٌ في خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فلمّا اشتدَّ بهم الأمرُ ، جاءوا إلى أبي بكر الصديق وقالوا : يا خليفة رسول الله ﷺ ، إن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت ، وقد توقَّع الناسُ الهلاك ، فما تصنعُ ، فقال : انصرِفُوا واصبروا ، فإني أرجو الله ألَّا تُمسوا حتى يفرّج الله عنكم . فلمَّا أصبحوا خرجوا يتلقَّوْنها ، فإذا هي ألف بعيرٍ موثوقة بُرًّا وزيتًا ودقيقًا ، فأناختْ بباب

(١) صحيح بشواهده . ذكره البخاري معلّقًا ، ورُوي موصولًا عند الدارقطني والإسماعيلي .
(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » وسنده جيد .

عثمان رضي الله عنه ، فجعلها في داره ، فجاء إليه التجارُ ، فقال : ما ترون ؟ قالوا : إنك لتعلمُ ما نريد . فقال : كم تُرْبحُوني ؟ قالوا : اللهم درهمين . قال : أُعطِيتُ زيادةً على هذا . قالوا : أربعة . قال : أُعطِيتُ أكثر . قالوا : خمسة . قال : أُعطيت أكثر . قالوا : ليس في المدينة تُجّار غيرنا ، فمن الذي أعطاك ؟ قال : إن الله أعطاني بكل درهمٍ عشرة دراهم ، أعندكم زيادة؟ قالوا : لا . قال : فإني أُشْهِدُكم الله تعالى ، أني جعلتُ ما حملتِ العِيرُ صدقةً لله على الفقراء والمساكين »[1] .

« يُروى : أنه كان لعثمان بن عفان على طلحةَ بنِ عُبيد اللهِ - رضوان الله عليهما - خمسون ألف درهم ، فخرج عثمان يومًا إلى المسجد ، فقال له طلحة : قد تهيَّأ مالُك فاقبِضْهُ . فقال له عثمانُ رضي الله عنه : هو لك يا أبا محمد معونة على مروءتك »[2] .

عبد الرحمٰن بن عوف :

عن المسور بن مخرمة ، أن عبد الرحمٰن بن عوف باع كديمته من عثمان بأربعين ألف دينار ، فأمر عثمانُ بن عفان عبدَ الله بنَ أبي سرحٍ فأعطاه الثمن ، فقسَّمه بين بني زهرة وفقراء المسلمين وأزواج رسول الله ﷺ . قال المسور : فأتيتُ عائشة - رضي الله عنها - بنصيبها ، فقالت : ما هذا ؟ فقلت : بعث به عبدُ الرحمٰن . فقالت : قال رسول الله ﷺ : « لا يَحْنُو عليكُنَّ بَعْدِي إلَّا الصَّابرون » سقى اللهُ ابنَ عوفٍ من سلسبيل الجنة[3] .

---

(١) الدر المنضود صـ ٦٦ .

(٢) لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ صـ ١٢٧ .

(٣) صحيح . قال الترمذي : حسن صحيح . وصححه ابن حبان والحاكم والذهبي من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وله شواهد من حديث =

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خيرُكم خيركم لأهلي من بعدي » . قال : فباع عبدُ الرحمـٰن بن عوف حديقةً بأربعمائة ألفٍ ، فقسمها في أزواج النبي ﷺ[١] .

الزُّبير بن العَوَّام :

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١ / ٥٥ - ٥٦) : « قال مغيثُ بن سُمَيٍّ : كان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدُّون إليه الخراج ، فلا يُدخل بيته من خراجهم شيئًا .

رواه سعيد بن عبد العزيز نحوه وزاد : بل يتصدَّق بها كلّها » .

طَلْحَةُ الفَيَّاضُ ، طلحةُ الجُودِ ، طلحةُ الخيرِ ، أبو محمد طلحةُ بن عُبَيْد الله رضي الله عنه ، أحَدُ العشرة المبشَّرِين بالجنة :

عن سُعدى بنت عوف المريّ قالت : دخل عليَّ طلحةُ ذات يوم وهو خَاثِرُ النَّفْس[٢] ، فقلتُ : مالي أراك كالح الوجهِ ، ما شأنُك ، أرَابَكَ مني فأُعْتِبك ؟ قال : لا ، ولنِعْمَ حليلة المرء المسلمِ أنتِ . قلتُ : فما شأنُك ؟ قال : المال الذي عندي قد كَثُر وأَكْرَبَنِي . قالت : فقسَّمه حتى ما بقي منه درهم واحد . قالت سُعدى : فسألت خازن طلحةَ : كم كان المال ؟ قال : أربعمائة ألف[٣]. قال سفيان بن عيينة : وكانت غلَّة طلحة كلّ يومٍ ألفًا وافيًا .

= أم سلمة والمقداد وأبي هريرة .

والكديمة : اسم مكان لموضع كان فيه سهم عبد الرحمن رضي الله عنه من منازل بني النضير .

(١) حسن لشواهده . أخرجه ابن أبي عاصم في السنة .

(٢) أي غير نشيط .

(٣) صحيح . رواه أبو نعيم في الحلية ، وابن عساكر ، وأحمد في الزهد .

وفي رواية سفيان : « فقال : اجتمع عندي مالٌ فقد غمَّني ! قلتُ : وما يَغُمُّك ؟! ادْعُ قومَك . قال : يا غلام ، عليَّ بقومي . فقسمه فيهم ... » . وقد تكرَّر ذلك من طلحة .

وصحَّ عن الحسن البصري - رحمه الله - أنه قال : باع طلحةُ أرضًا له بسبعمائة ألف ، فبات ذلك المال عنده ليلةً ، فبات أرِقًا من مخافة المال ، حتى أصبح ففرَّقه[1] .

وعند ابن سعد عن الحسن به ، وفيه : « قال طلحة : إن رجلًا تبيتُ هذه عنده في بيته لا يدري ما يطرقُه من أمر الله ، لغريرٌ بالله . فبات ورسله تختلف بها في سِكَك المدينة ، حتى أسْحَرَ وما عنده منها درهم » .

وصح عن محمد بن عمران التيمي ، عن سُعدى قالت : لقد تصدَّق طلحةُ يومًا بمائة ألف درهم ، ثم حَبَسَهُ عن الرَّواح إلى المسجد أن جمعت له بين طرفي ثوبه[2] .

وعن سلمة بن الأكوع قال : ابتاع طلحة بئرًا في ناحية الجبل ، ونحر جزورًا ، فأطعمَ الناسَ ، فقال رسول الله ﷺ : « أنت يا طلحةُ الفيَّاضُ »[3] .

وعن موسى بن طلحة ، عن أبيه طلحة بن عبيد الله ، أنه أتاه مالٌ

---

(١) الحسن عن طلحة منقطع .

(٢) محمد بن عمران منقطع عن سُعدى .

(٣) محتمل . رواه ابن عساكر ، وابن عدي ، والطبراني ، وأبو نعيم في « الصحابة » ، والدارقطني في « المستجاد من فعلات الأجواد » . وقد صحَّ عن ابن عيينة - وهو من أتباع التابعين - قال : كان أهل طلحة يقولون : سمّاه رسول الله ﷺ « الفيّاض » .

من حضرموت سبعمائة ألف . قال : فبات ليلته يتململ . فقالت له زوجتُه : يا أبا محمد ، ما لي أراك منذ الليلة تتململ ؟ أرابك منّا أمرٌ فنُعْتِبك . قال : لعمري لنِعْمَ زوجة المرء أنتِ ، ولكنْ تفكَّرتُ منذ الليلة ، فقلتُ : ما ظن رجلٍ بربِّه عز وجل ، يَبِيتُ وهذا المال في بيته ؟ قالت : فأين أنت عن بعض أخلاقك ؟ قال : وما هو ؟ قالت : إذا أصبحت دعوتَ بجفانٍ وقِصاعٍ ، فقسمته على بيوت المهاجرين والأنصار على قَدْرِ منازلهم . قال : فقال لها : يرحمك الله تعالى ، إنك ما علمتُ موفَّقة بنت موفَّق . وهي أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه . فلمَّا أصبح دعا بجفانٍ وقِصاعٍ ، فقسمها بين المهاجرين والأنصار ، فبعث إلى عليٍّ بن أبي طالبٍ منها بجفنة ، فقالت له زوجته : يا أبا محمدٍ ، أما كان لنا في هذا المال من نصيبٍ ؟ قال : فأين كُنتِ منذ اليوم ؟ فشأنك ما بقي . قالت : فكانت صرَّة فيها نحوٌ من ألف درهم(١) .

وعن قبيصة بن جابر قال : صحبتُ طلحة ، فما رأيت أعْطَى لجزيلِ مالٍ مِن غير مسألة منه(٢) .

عَلَم المجاهدين ، أبو المساكين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « ما احْتَذَى النِّعال ، ولا رَكِب المطايا بعدَ رسول الله ﷺ أفْضَلَ من جعفر بن أبي طالب »(٣) . يعني في الجُود والكرم .

---

(١) حسن . رواه الدارقطني في « المستجاد » وابن عساكر . ولا يمتنع أن تكون كلتاهما « أم كلثوم ، وسُعدى » قد قالت ذلك وكانتا زوجتيه .

(٢) صحيح . رواه الدارقطني في « المستجاد » وابن عساكر .

(٣) إسناده جيد . أخرجه أحمد ، والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، والذهبي في « السير » .

وعن أبي هريرة قال : كُنَّا نُسمِّي جعفرًا أبا المساكِين . كان يذهب بنا إلى بيته ، فإذا لم يجد لنا شيئًا ، أخرج إلينا عُكَّة أثَرُهَا عَسَل ، فنشُقّها ونَلْعَقها[1].

وعند البخاري عن أبي هريرة : « وكان أخْيَر الناس للمساكين جعفر ابن أبي طالب ، كان ينقلب بنا فيُطعمنا ما كان في بيته ، حتى إن كان ليُخرِج إلينا العكَّة التي ليس فيها شيءٌ ، فيشقها ، فَنَلْعَقُ ما فيها » .

ومن الأجواد : عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

« عن حبيب بن أبي ثابت قال : قدم أبو أيوب الأنصاري البصرةَ ، ونزل على ابن عباس ففرَّغ له بيتَهُ الذي كان فيه ، وقال : لأَصْنَعَنَّ بك كما صنعت برسول الله ﷺ . وقال : كم عليك من الدَّيْن ؟ قال : عشرون ألفًا . فأعطاه أربعين ألفًا ، وعشرين مملوكًا وقال : لك ما في البيت كلّه »[2].

واجتمع إليه قُرَّاء البصرة حين كان عامِلَها وقالوا : لنا جارٌ صوَّامٌ قوَّامٌ ، زوَّج بنتَهُ من ابن أخيه ، وليس عنده ما يُجهِّزها به . فأَدْخَلَهُم دارَهُ ، وأخرجَ لهم سبعة بِدَرٍ ، فحملوها ، فقال ابن عباس : ما أنصفناه ، أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه ، ارجعوا ، ولنكُن أعوانَهُ على تجهيزها ، فليستِ الدُّنيا بقدرٍ حتى تشغله عن عبادة ربِّه . فَفَعَلَ وفَعَلُوا .

وكان هو والناس في ماله سواء ، من سأله أعطاه ، ومن لم يسأله ابتداه .

❊ ❊ ❊

(١) إسناده حسن . رواه الذهبي في السير ٢ / ٢١٧ . والعُكّة : ظرف السمن .
(٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا صـ ١١٥ – مكتبة ابن تيمية بالقاهرة .

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر قال : أعطى ابنُ جعفرٍ عبدَ الله ابنَ عمر بنافعٍ عشرة آلاف أو ألف دينار ، فدخل عبد الله على صفيَّة ، فقال لها : إنه أعطاني ابن جعفر بنافعٍ عشرة آلاف أو ألف دينار . فقالت : يا أبا عبد الرحمٰن ، فما تنتظر أن تبيعه ؟ فقال : فهلَّا ما هو خيرٌ من ذلك ، هو لوجه الله . قال أبي : فكان يخيَّل إليَّ أن عبد الله بن عمر كان ينوي قولَ الله عز وجل : ﴿ لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا ممّا تُحِبُّون ﴾ [آل عمران : ٩٢](١) .

وعن نافعٍ قال : دخلتُ مع مولاي على عبد الله بن جعفر ، فأعطاه بي اثْنَيْ عشر ألفًا ، فأبى ، وأعتقني ، أعتقَهُ الله من النار .

عن نافع قال : ما مات ابنُ عمر حتى أعتق ألفَ إنسانٍ ، أو زادَ(٢) .

وعن نافعٍ قال : كان ابن عمر إذا اشتدَّ عجبه بشيءٍ من ماله ، قرَّبه لربِّه عز وجلّ .

قال نافع : كان بعض رقيقه قد عرفوا ذلك منه ، فربما شمَّر أحدهُم فلزم المسجدَ ، فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة ، أعتقَهُ ، فيقول له أصحابُه : يا أبا عبد الرحمٰن ، والله ما بهم إلَّا أن يخدعوك ! فيقول ابن عمر : فمن خَدَعَنَا بالله انْخَدَعْنَا له !

قال نافع : فلقد رأيتُنا ذات عشيَّةٍ ، وراح ابنُ عمر على نجيبٍ له قد

---

(١) صحيح . رواه ابن عساكر ، وأحمد في « الزهد » وأبو نعيم . وصفية هي بنت عبيد امرأة عبد الله بن عمر .

(٢) قال الذهبي في « السير » ٣ / ٢١٨ - ٢١٩ : إسنادها صحيح .

أخَذَه بمال ، فلمَّا أعجبه سَيْرُه ، أناخه بمكانه ثم نزل عنه وقال : يا نافع ، انزعوا زمامَه ورَحْلَه ، وجَلِّلوه وأشعِروه ، وأدخِلوه في البُدْن[1].

وعن ابن عمر : خطرتْ هذه الآيةُ ببالي : ﴿ **لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا ممّا تُحبُّون** ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، ففكَّرتُ فيما أعطاني الله عز وجل ، فما وجدتُ شيئًا أحبَّ إليَّ من جاريتي رميثة ، فقلت : هي حُرَّة لوجه الله ، فلولا أني لا أعود في شيءٍ جعلتُه لله ، لَنَكَحْتُهَا . فأَنْكَحَهَا نافِعًا ، فهي أُمُّ وَلَدِهِ[2].

عن محمد بن زيد ، أن ابن عمر كاتَبَ غلامًا له بأربعين ألفًا ، فخرج إلى الكوفة ، فكان يعمل على حمرٍ له ، حتى أدَّى خمسة عشر ألفًا ، فجاءه إنسان ، فقال : أمجنون.أنت ؟ أنت هاهنا تعذِّب نفسك ، وابن عمر يشتري الرقيقَ يمينًا وشمالًا ، ثم يُعتقهم ؛ ارجع إليه فَقُلْ : عجزتُ . فجاء إليه بصحيفة ، فقال : يا أبا عبد الرحمٰن ، قد عجزتُ ، وهذه صحيفتي ، فامْحُها . فقال : لا ، ولكن امحُها أنتَ إن شئتَ . فمحاها ، ففاضتْ عينا عبد الله ، وقال : اذهب فأنت حُرٌّ . قال : أصلحك اللهُ ، أحسن إلى ابْنَيَّ . قال : هما حُرَّانِ . قال : أصلحك الله ، أحسن إلى أُمَّيْ وَلَدَيَّ . قال : هما حُرَّتان[3].

وعن نافع قال : أُتي ابنُ عمر ببضعة وعشرين ألفًا ، فما قامَ حتى أعطاها[4].

---

(١) التبصرة ٢ / ٢٥٥ ، والسير ٣ / ٢١٧ ، والحلية ١ / ٢٩٥ .
(٢) التبصرة لابن الجوزي ٢ / ٢٥٥ .
(٣) رجاله ثقات . رواه الذهبي في « السير » ٣ / ٢١٧ .
(٤) الحلية ١ / ٢٩٦ .

وقال أيوب بن وائل : أُتي ابن عمر بعشرة آلاف ، ففرّقها ، وأصبح يطلب لراحلته عَلَفًا بدرهمٍ نسيئة .

وعن نافع : بعث معاويةُ إلى ابن عمر بمائة ألف ، فما حال عليه الحول وعنده منها شيء .

وعن نافع : إن كان ابن عمر ليُفرِّق في المجلس ثلاثين ألفًا ، ثم يأتي عليه شهرٌ ما يأكل مُزْعَةَ لحمٍ[١]. واشتهى في مرضه إن يأكل حُوتًا ، ومرةً أخرى اشتهى عنبًا ، فلما جيء به إليه تصدَّق به[٢].

عن نافع قال : مرض ابن عمر ، فاشتهى عنبًا أول ما جاء ، فأرسلت امرأته بدرهم فاشترت به عنقودًا ، فاتَّبع الرسولَ سائلٌ ، فلما دخل قال : السائل ، السائل . فقال ابن عمر : أعطوه إياه . ثم بعثت بدرهم آخر ، قال : فاتبعه السائل ، فلما دخل قال : السائل ، السائل . فقال ابن عمر : أعطوه إياه. فأعطوه ، وأرسلت صفية إلى السائل تقول : والله لئن عُدتَ لا تصيب مني خيرًا ، ثم أرسلت بدرهم آخر ، فاشترت به[٣].

سيد الخزرج سعد بن عبادة رضي الله عنه :

الصحابي الجليل ، والسيد الكبير ، النقيب الأنصاري أبو قيس .

عن ابن سيرين : كان سعد بن عبادة يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصُّفَّة يعشِّيهم .

---

(١) رجاله رجال الصحيح . أخرجه في « الحلية » ١ / ٢٩٥ ، ٢٩٦ . والمُزْعَة : القِطعة اليسيرة من اللحم .

(٢) رواه أبو نعيم ١ / ٢٩٧ - ٢٩٨ ، وابن عساكر . والحوت يعني السمك .

(٣) رجاله ثقات ؛ أخرجه الذهبي في « السير » ، وأخرجه بنحوه ابن سعد ٤ / ١٥٨ .

وكان سعد ينادي على أُطمهم : من أحبَّ الشَّحم واللحم فليأتِ أُطُم دُليم بن حارثة[١].

وعن عروة بن الزبير قال : كان منادي سعد بن عبادة ينادي على أطمه[٢] : من كان يريد شحمًا ولحمًا فليأتِ سعدًا . وكان سعد يقول : اللهم هب لي حمدًا ، وهب لي مجدًا ، لا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمالٍ ، اللهم إنه لا يصلحني القليل ، ولا أصلح عليه[٣].

قيس بن سعد بن عبادة ، الأمير المجاهد أبو عبد الله سيد الخزرج وابن سيدهم :

قال الذهبي في السير : وَجُودُ قيسٍ يُضرب به المثل .

قال الواقدي : حدَّثنا داود بن قيس ومالك وطائفة قالوا : بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة في سرية فيها المهاجرون والأنصار ، وهم ثلاثمائة ، إلى ساحل البحر إلى حيّ من جُهَيْنة ، فأصابهم جوعٌ شديد ، فأمر أبو عبيدة بالزاد فجمع حتى كانوا يقتسمون التمرة ؛ فقال قيس بن سعد : من يشتري مني تمرًا بجزر ؟ يوفيني الجزر هاهنا ، وأوفيه التمر بالمدينة ، فجعل عمر يقول : يا عجبًا لهذا الغلام ، يدين في مال غيره ! فوجد رجلًا من جُهَينة فساومه ، فقال : ما أعرفك . قال : أنا قيس بن سعد بن عبادة بن دليم ، فقال : ما أعرَفَني بنسبك ، أما إن بيني وبين سعد خلة ، سيد أهل يثرب . فابتاع منه خمس جزائر ، كل جزور بوسق من تمر ، وأشهد له نفرًا ، فقال عمر : لا أشهد ، هذا يدين ولا مال له ، إنما المال لأبيه . **فقال الجهني :**

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٧٦ .

(٢) الأطم : الحصن .

(٣) صحيح عن عروة .

والله ما كان سعد ليُخْني بابنه في شِقَّةٍ من تمرٍ ، وأرى وجهًا حسنًا . فنحرها لهم في ثلاثة مواطن ، فلما كان في اليوم الرابع نهاه أميره ، وقال : تريد أن تخرب ذمتك ولا مال لك ؟! قال : فحدثني محمد بن يحيى بن سهل عن أبيه عن رافع بن خديج قال : بلغ سعدًا ما أصاب القوم من المجاعة فقال : إن يكُ قيس كما أعرف فسوف ينحر للقوم ، فلما قدم قصَّ على أبيه ، وكيف منعوه آخر شيءٍ من النحر ، فكتب له أربع حوائط ، أدنى حائط منها يُجَدُّ خمسين وسقًا . فقيل : إن النبي ﷺ لما بلغه قال : « أما إنه في بيت جُودٍ » .

قال أبو عاصم : حدثنا جويرية قال : كان قيس يستدين ويطعم ، فقال أبو بكر وعمر : إن تركنا هذا الفتى أهلكَ مالَ أبيه ، فمشيَا في الناس ، فقام سعد عند النبي ﷺ وقال : من يُعذرني من ابن أبي قحافة وابن الخطاب يُبَخِّلان عليَّ أبي .

وهل يُنبتُ الخَطِّيَّ إلَّا وَشيجُهُ ... ويُزرَعُ إلا في مَنابِتِهِ النَّخْلُ

وروى عمرو بن دينار ، سمع أبا صالح السّمان يذكر أن قيس بن سعد نحر لهم - يعني في تلك الغزوة - عدة جزائر ، وهذه الغزوة هي سرية الخبط ، أو غزوة سيف البحر[1] . قال الذهبي في « السير » (٣ / ١٠٤) : وقد جوَّدَ ابنُ عساكر طرقه .

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعثهم في بعْثٍ ، عليهم قيس بن سعد بن عبادة ، فجهدوا ، فنحر لهم قيس بن سعد تسع ركائب . قال عمرو في حديثه : فقال رسول الله ﷺ : « إن الجود لمن شيمة أهل ....

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ١٠٥ - ١٠٦ ، وتاريخ ابن عساكر .

ذلك البيت »[١].

وعن يحيى بن سعيد قال : كان قيس بن سعد يُطعم الناس في أسفاره مع النبي ﷺ وكان إذا نفد ما معه تديَّن ، وكان يُنادي في كل يوم : هلموا إلى اللحم والثَّريد[٢].

قال ابن سيرين : كان سعد ينادي على أطمه : من أحبَّ شحمًا ولحمًا فليأت ، ثم أدركتُ ابنه مثل ذلك[٣].

وقيل : وَقَفتْ على قيس عجوزٌ فقالت : أشكو إليك قلة الجُرْذان ، فقال : ما أحسن هذه الكناية ، املئوا بيتها خبزًا ولحمًا وسمنًا وتمرًا .

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال : باع قيس بن سعد مالًا من معاوية بتسعين ألفًا ، فأمر من نادى في المدينة ، من أراد القرض فليأت ، فأقرض أربعين ألفًا ، وأجاز بالباقي ، وكتب على من أقرضه ، فمرض مرضًا قَلَّ عوادُه ، فقال لزوجته ؛ قريبة أُخت الصِّدِّيق : لِمَ قَلَّ عُوّادي ؟ قالت : للدَّيْن . فأرسل إلى كل رجلٍ بصَكِّهِ ، وقال : اللهم ارزقني مالًا وفعالًا ، فإنه لا تصلح الفعال إلا بالمال[٤].

وفي « لباب الآداب » : مرض قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه ، فاستبطأ إخوانه عن عيادته ، فسأل عنهم ، فقيل : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّيْن . فقال : أخزى الله مالًا يمنع الإخوان من الزيارة ،

---

(١) صحيح في ذكر النحر ، محتمل في المرفوع ، ذكره الدارقطني في « المستجاد » صـ ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٣ / ١٠٦ ، وابن عساكر ١٤ / ٢٢٩ / أ .
(٣) السير ٣ / ١٠٦ .
(٤) السير ٣ / ١٠٦ ، ١٠٧ .

ثم أمر مناديًا فنادى : من كان لقيس عليه دين فهو في حلٍّ منه ، فكُسرت درجته بالعَشي لكثرة من عَادَه[١].

السيد السِّبط ، ريحانة رسول الله ﷺ ، وسيد شباب أهل الجنة : الحسن ابن علي رضي الله عنهما :

قيل له : من الجَوَاد ؟ قال : الذي لو كانت الدنيا له فأنفقها لرأى على نفسه بعد ذلك حقوقًا[٢].

كان رضي الله عنه يعطي الرجل الواحد مائة ألفٍ[٣].

عن علي رضي الله عنه أنه خطب ، وقال : إن الحسن قد جمع مالًا ، وهو يريد أن يقسمه بينكم ، فحضر الناس ، فقام الحسن ، فقال : إنما جمعته للفقراء ، فقام نصف الناس[٤].

قال أبو هارون : انطلقنا حجّاجًا ، فدخلنا المدينة ، فدخلنا على الحسن ، فحدّثناه بمسيرنا وحالنا ، فلما خرجنا بعث إلى كل رجل منا بأربعمائة ، فرجعنا ، فأخبرناه بيسارنا ، فقال : لا تردُّوا عليَّ معروفي ، فلو كنتُ على غير هذه الحال ، كان هذا لكم يسيرًا ، أما إني مزودِّكم : إن الله يباهي ملائكته بعباده يوم عرفة[٥].

* * *

(١) لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ صـ ١٠٩ ، دار الكتب السلفية بالقاهرة .
(٢) لباب الآداب صـ ٨٤ .
(٣) السير ٣ / ٢٥٣ .
(٤) السير ٣ / ٢٦١ .
(٥) تهذيب ابن عساكر ٤ / ٢١٨ .

الإمام الشريف الكامل ، سبط رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا الحسين الشهيد :

قال سلمة بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة : حدثني ظِئْر كان لنا قال : **قدمت بأَبَاعِرَ لي – عشرين أو ثلاثين بعيرًا – ذا المروة ، أريد المِيرة** من التمر ، فقيل لي : إن عمرو بن عثمان في ماله ، والحسين بن علي في ماله . قال : فجئت عمرو بن عثمان فأمر لي ببعيرين أن يُحمَل لي عليهما ، فقال لي قائل : ويلك ، ايتِ الحسينَ بن علي . فجئته ولم أكن أعرفه ، فإذا رجل جالس بالأرض حوله عبيده ، بين يديه جفنة عظيمة فيها خبز غليظ ولحم ، وهو يأكل وهم يأكلون معه ، فَسَلَّمت ، فقلت : والله ، ما أرى أن يعطيني هذا شيئًا . فقال : هَلُمَّ فكلْ ، فأكلت معه ، ثم قام إلى ربيعِ الماء – مجراه – **فجعل يشرب بيديه ثم غسلهما وقال : ما حاجتك ؟ فقلت : أمتع الله بك ، قدمت بأَبَاعر أُريد المِيرة من هذه القرية ، فذُكِرْتَ لي فأتيتك لتعطيني مما أعطاك الله . قال : اذهب فأتني بأَبَاعِرك . فجئت بها ، فقال : دونك** هذا المِرْبد فأوقرها من هذا التمر ، فأوقرتها والله ما حَمَلَتْ . ثم انطلقت فقلت : بأبي وأمي ، هذا والله الكرم[١] .

وقدم على الحسين شيخٌ من بني سعد بن بكر فقال : يا ابن بنت رسول الله ، إن ابن أخ لي أصاب دمًا ، وقدمت أستعين هذا الحيّ من قريش على ديته ، فرأيت أن أبدأ بك . فقال : والذي نفس حسين بيده ، ما أصبح في بيتي دينار ولا درهم ، وما غدوت إلى السوق إلا لألتمس العينة في بعض نفقاتنا وما لا بدّ منه ، ولكني أراك رجلًا جلدًا ، وقد حان حصاد مالي بذي المروة عَيْنِ يُحَنَّسَ ، فاخرج إليها فقم عليها بِعِمالةٍ ، ثم احصد ودُقّ

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا صـ ١١١ .

وبِعْ ، فإنها مؤدية عنك ، ولا تسأل أحدًا شيئًا . فقال : أفعل ، بأبي وأمي ، وكتب إلى قيِّمه : انظر فلان بن فلان ، فخلِّ بينه وبين حصاد أرضك ، فإني قد أعطيته إياه ، فخرج فحصدها ، فباع منها بعشرين ألف درهم ، فأدى اثني عشر ألفًا واستفضل ثمانية آلاف(١) .

حكيم بن حِزام رضي الله عنه :

قال حكيم : ما أصبحتُ صباحًا قطُّ ، فرأيت بفنائي طالبَ حاجة قد ضاق بها ذرعًا فقضيتها ، إلا كانت من النعم التي أحمد الله عليها ، ولا أصبحتُ صباحًا لم أرَ بفنائي طالب حاجة ، إلّا كان ذلك من المصائب التي أسأل الله عز وجل الأجر عليها(٢) .

قال عبد الملك بن مروان : ما كنت أحب أن أحدًا ولدني من العرب إلا عروة بن الورد لقوله :

أتهزأُ مني أن سَمنت وأن ترى ... بجسميَ مسَّ الجوعِ والجوعُ جاهِدُ
لأني امرؤٌ عافى إنائي شركةٌ ... وأنت امرؤ عافى إناءك واحدُ
أُقسِّم جسمي في جسومٍ كثيرةٍ ... وأحسو قراحَ الماءِ والماء باردُ(٣)

ومن أجواد أهل الإسلام :

قال ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (١ / ٢٩٣ - ٢٩٤) : « وأما أجواد أهل الإسلام فأحد عشر رجلًا في عصر واحد ، لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم :

فأجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد : عبيد الله بن عباس ، وعبد الله

---

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا صـ ١٢١ .
(٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا صـ ١٠٧ .
(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ٢٣٦ - ٢٣٧ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ابن جعفر ، وسعيد بن العاص .

وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد ، وهم : عبد الله بن عامر ابن كُريز ، وعُبيد الله بن أبي بكرة مولى رسول الله ﷺ ، ومسلم بن زيادة ، وعبيد الله بن معمر القرشي ثم التيمي ، وطلحة الطلحات ، وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي .

وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد ، وهم عَتّاب بن ورقاء الرياحي ، وأسماء بن خارجة الفزاري ، وعكرمة بن ربعي الفيّاض » .

عَلَمُ الجُود عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما :

إنه أول من فطّر جيرانه ، وأول من وضع الموائد على الطرق ، وأوّل من حيَّا على طعامه ، وأول من أنهبه .

من جوده : أنه أتاه رجلٌ وهو بفناء داره ، فقام بين يديه فقال : يا ابن عباس ، إنّ لي عندك يدًا ، وقد احتجت إليها . فصعَّد فيه بصره وصوَّبه ، فلم يعرفه ، ثم قال له : ما يدُك عندنا ؟ قال : رأيتك واقفًا بزمزم وغلامك يمتحُ[1] لك من مائها ، والشمس قد صهرتك ، فظللتك بطرف كسائي حتى شربتَ . قال : إني لأذكر ذلك ، وإنه يتردَّدُ بين خاطري وفكري ، ثم قال لقيّمهِ : ما عندك ؟ قال : مائتا دينار وعشرة آلاف درهم ، قال : فادفعها إليه ، وما أُراها تفِي بحق يده عندنا ، فقال له الرجل : والله لو لم يكن لإسماعيل ولدٌ غيرك لكان فيه ما كفاه ، فكيف وقد وَلد سيد الأولين والآخرين محمدًا ﷺ ، ثم شفعه بك وبأبيك .

ومن جوده أيضًا : أن معاوية حَبَسَ عن الحسين بن علي صِلاتِه حتى

(١) المتح : الاستسقاء .

ضاقت عليه حاله ، فقيل له : لو وجهت إلى ابن عمك عبيد الله ، فإنه قد قدم بنحوٍ من ألفِ ألفِ درهم . فقال الحسين : وأين تقع ألف ألف من عبيد الله ! فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت ، وأسخى من البحر إذا زخر . ثم وجه إليه مع رسوله بكتابٍ ذكر فيه حَبْسَ معاوية عنه صِلاته وضِيقَ حاله ، وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم ، فلما قرأ عبيد الله كتابه ، وكان مِن أرقّ الناس قلبًا وألينهم عطفًا ، انهملت عيناه ، ثم قال لِقَهْرَمَانِهِ : احمل إلى الحسين نصف ما أملكَه من فضةٍ وذهبٍ وثوب ودابة ، وأَخْبِرْه أني شاطرته مالي ، فإنْ أقنعه ذلك ، وإلا فارجع واحمل إليه الشطر الآخر ، فقال له القيِّم : فهذه المؤن التي عليك ، من أين تقوم بها ؟ قال : إذا بلغنا ذلك دللتُك على أمرٍ يقيم حالك . فلما أتى الرسول برسالته إلى الحسين ، قال : إنَّا لله ، حَمَلتُ والله على ابن عمي ، وما حسبته يتسع لنا بهذا كله ، فأخذ الشطر من ماله . وهو أول من فعل ذلك في الإسلام .

ومن جوده : أن معاوية بن أبي سفيان أهدَى إليه وهو عنده بالشام من الهدايا حُللًا كثيرة ، ومسكًا وآنية من ذهب وفضّة ، ووجهها مع حاجبه ، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها ، فقال : هل في نفسك منها شيء ؟ قال : نعم والله ، إنَّ في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام . فضحك عُبيد الله ، وقال : **فشأنك بها فهي لك . قال : جُعلت فداك ، أخاف أن يبلغ ذلك معاوية** فيجد عليّ . قال : فاختمها بخاتمك ، وادفعها إلى الخازن ، فإذا حان خروجنا حملها إليك ليلًا . فقال الحاجب : والله لهذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم .

ومن جوده أيضًا : أنه جاءه رجلٌ من الأنصار فقال : يا ابن عم رسول الله ﷺ ، إنه وُلد لي في هذه الليلة مولود ، وإني سميته باسمك

تبرُّكًا مني به ، وإنَّ أمه ماتت . فقال عبيد الله : بارك الله لك في الهبة ، وأجزل لك الأجر على المصيبة . ثم دعا بوكيله ، فقال : انطلق الساعة فاشترِ للمولود جارية تحضنه ، وادفع إليه مائتي دينار للنفقة على تربيته ، ثم قال للأنصاري : عُد إلينا بعد أيامٍ ؛ فإنك جئتنا وفي العِيس يُبسٌ وفي المال قلّة . قال الأنصاري : لو سَبقتَ حاتمًا بيوم واحد ما ذكرتْه العرب أبدًا ، ولكنه سبقك فصرت له تاليًا ، وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده ، وطلُّ كرمك أكثر من وابله[1] .

لله دَرُّ بيت النبوة : هذه هِزة كريم حسيب !!

ومن جوده : أنه خرج يريد معاوية ، فأصابته السَّماء وهو في أرضٍ قفر ليلًا ، فرُفعت له نأرٌ ، فقال لغلامه مِقسَم : اقصد بنا النار ، فأتاها ، فإذا شيخ معه أهله ، وكان عبيد الله من أجمل الناس ، فلما رآه الشيخ أعظمه ، وقال لامرأته : إن كان هذا قرشيًّا فهو من بني هاشم ، وإن كان يمانيًّا فهو من بني آكل المرار ، فهيِّئي لنا عنزك أقضي بها ذِمَامه ، فقالت له امرأته : إذن تموت ابنتي من الجوع ، قال الشيخ : الموت خير من اللؤم ، فأخذ الشَّفرة وقام إلى العنز وهو يقول :

قَرينَتَا لا توقظي بُنَيَّهْ ... إنْ تُوقظيها تَنْتحبْ عَلَيَّهْ
وتنزعُ الشفرةَ من يَدَيَّهْ ... أبْغِضْ بهذا وبذا إليَّهْ

فذبحها ، وحدَّث عبيد الله حتى نضجت ، فأكَل عبيد الله منها وبات ليلته ، فلما قَرُبَ الرحيل قال لمقسم : كم معك من نفقتنا ؟ قال : خمسمائة دينار ، قال : أَلقها إلى الشيخ ، قال مقسم : سبحان الله ! إنما

---

(١) العقد الفريد ١ / ٢٩٥ - ٢٩٦ .

كان يكفيه أن تضعف له ثمن عنزه ، والله ما يعرفك ولا يدري من أنت !! قال : لكني أعرف نفسي ، وأدري من أنا ! هذا لم يكن له من الدنيا غير هذه العنز فجاد لنا بها ، وهو لا يعرفنا ، فخرج من دنياه ، وأعطيناه بعض دنيانا ، فهو أجود منا ! وسار عبيد الله حتى قدم على معاوية ، وقضى حوائجه ، فلما انصرف قال : يا مقسم ، مُرَّ بنا على الشيخ ننظر كيف حاله ، فإذا إبل عظيمة، وأنشده الشيخ شعرًا قال فيه :

تَوسَّمْتُه لما رأيت مهابةً ... عليه وقلتُ المرءُ من آلِ هاشمِ
وإلَّا فمن آلِ المُرار فإنهم ... ملوكُ ملوكٍ من ملوكٍ خَضَارمِ
فقمتُ إلى عَنْزٍ بقية أعنز ... فأذْبحَها فعلَ امرئٍ غير عاتمِ
فعوّضني منها غناي ولم تكن ... تساوي عَنَاقي غير خمس دراهم
فقلتُ لعُرسي في الخلا وصبيتي ... أألحق هذا أوْ هُوَ أضغاث حالمِ
فقالوا جميعًا لا ، بل الحق هذه ... يَخُبُّ بها الركبانُ وسْط المواسمِ
بخمسِ مِئِينٍ من دنانير عُوِّضَتْ ... من العنز ما جادتْ بها كَفُّ حاتمِ

فلما ارتحل عبيد الله سار الشيخ في العرب بالذي صنع عُبيد الله ، وبلغ ذلك معاوية ، فقال : للهِ عُبيد الله !! من أيِّ بيضةٍ خرج ، ومن أي عشٍّ دَرَج ! وهذا لعمري من فَعلاته[1]!!

وقال عبيد الله للحسن والحسين : « إن الله تبارك وتعالى عوّدني عادة جميلة ، فعوّدتها عبادَهُ ، ولستُ آمن إن قطعتُ عادتي عن عباده أن يقطع عادته عنّي . فقالا : لا نأمرك في هذا بشيءٍ . وقاما وانصرفا حامدَيْن لأمره »[2].

---

(١) لباب الآداب صـ ٩٩ – ١٠٠ .

(٢) لباب الآداب صـ ١١٨ .

عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما :

قال عنه الذهبي في السير : كان كبير الشأن ، جوادًا ، يصلح للإمامة .

عن ابن سيرين رحمه الله قال : جلب رجل من التجار سُكَّرًا إلى المدينة ، فكسد عليه ، فبلغ عبد الله بن جعفر ، فأمر قَهْرمانه أن يشتريه ، وأن ينهبه الناس(١) .

« قال الحميدي : سمعت القدّاح يذكر أن رجلًا عَرَض لعبد الله وقد خرج من باب بني شيبة فقال : يا ابن الطيار في الجنة ، صِلْني بنفقةٍ أتبلَّغ بها إلى أهلي ، كرّم الله وجهك . قال : فرمى إليه برمّانةٍ من ذهبٍ كانت في يده ، فوزنها الرجل فإذا فيها ثلاثمائة مثقال .

وعن الشعبي قال : كان لعبد الله بن جعفر على رجلٍ من أهل المدينة خمسون ألفًا ، فاستعان عليه بعُبيد الله بن عباس في ذلك فقال : قد حططتُ عنه شطرها وأخرته بالشطر الآخر إلى ميسوره . قال : فجزاه عُبيد الله خيرًا وانصرف ، فأتْبعه ابن جعفر رسولًا : إني قد طيّبت له النصف الآخر »(٢) .

ومن جوده أيضًا : أنه أعطى امرأةً سألته مالًا عظيمًا . فقيل له : إنها لا تعرفك ، وكان يُرضيها اليسير . قال : إن كان يُرضيها اليسير فإني لا أرضى إلّا بالكثير ، وإنْ كانت لا تعرفني فإني أعرف نفسي .

قيل : إن أعرابيًّا قصد مروان فقال : ما عندنا شيء ، فعليك بعبد الله ابن جعفر . فأتى الأعرابيُّ عبدَ الله فأنشأ يقول :

أبو جعفر من أهل بيت نبوّة صَلاتهم للمسلمين طَهورُ

(١) المستجاد صـ ٧٧ .
(٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا صـ ١٠٨ - ١٠٩ .

أبا جعفرٍ ضنَّ الأميرُ بمالهِ ... وأنت على ما في يديك أميرُ
أبا جعفر يا ابن الشَّهيد الذي له ... جناحان في أعلى الجنان يطيرُ
أبا جعفرٍ ما مثلك اليومَ أرتجي ... فلا تتركنِّي بالفلاةِ أدورُ

فقال : يا أعرابي ، سار الثقل ، فعليك بالراحلة بما عليها ، وإياك أن تُخدع عن السيف ، فإني أخذته بألفِ دينار .

ويروى أن شاعرًا جاء إلى عبد الله بن جعفر فأنشده :

رأيتُ أبا جعفرٍ في المنامِ ... كساني من الخزِّ درّاعهْ
شكوتُ إلى صاحبي أمرها ... فقال ستُوتَى بها السَّاعهْ
سَيكْسُوكَها الماجدُ الجعفريُّ ... وَمَنْ كَفُّه الدهرَ نفّاعهْ
ومَنْ قال للجود لا تعدُني ... فقال له السمعُ والطاعهْ

فقال عبد الله لغلامه : أعطه جبتي الخزّ ، ثم قال له : ويحك ، كيف لم تَرَ جبتي الوَشْي ، اشتريتها بثلاثمائة دينار منسوجة بالذهب ، فقال : أنام فلعلِّي أراها ، فضحك عبد الله ، وقال : ادفعوها إليه .

وعن الأصمعي : أنَّ امرأةً أتت بدجاجة مَسْموطة فقالت لابن جعفر : بأبي أنت هذه الدجاجة كانت مثل بنتي ، فآليت ألّا أدفنها إلا في أكرم موضع أقدر عليه ، ولا والله ما في الأرض أكرم من بطنك ، قال : خذها منها واحملوا إليها ، فذكر أنواعًا من العطاء حتى قالت : بأبي أنت ، إن الله لا يحب المسرفين .

وذكر الزبير بن بكّار أن عبيد الله بن مليكة عن أبيه عن جده قال : دخل ابن أبي عمّار ، وهو يومئذ فقيه أهل الحجاز ، على نخّاس[1] ،

(١) مَنْ يَبيعُ العبيد والرقيق والجواري .

فعرض عليه جاريةً فعلق بها ، وأخذه أمر عظيم ، ولم يكن معه مقدار ثمنها ، فمشى إليه عطاء وطاووس ومجاهد يعذلونه ، وبلغ خبره عبد الله فاشتراها بأربعين ألفًا ، وزينها وحلَّاها ، ثم طلب ابنَ أبي عمار فقال : ما فعل حبك فلانة ؟ قال : هي التي هام قلبي بذكرها ، والنفسُ مشغولة بها ، فقال : يا جارية ، أخرجيها . فأخرجتها ترفل في الحليِّ والحلل ، وقال : شأنك بها ، بارك الله لك فيها ، فقال : لقد تفضلت بشيءٍ لا يتفضل به إلا اللهُ . فلما ولّى بها ، قال : يا غلام ، احمل معه مائة ألف درهَم . فقال : لئن والله وُعدنا نعيم الآخرة ، فقد عَجّلت نعيم الدنيا[1] .

وفي العقد الفريد (١ / ٢٩٧) : « قال : ما فعل حب فلانة ؟ قال : في اللحم والدم والمخ والعصب . قال : أتعرفها لو رأيتَها ؟ قال : لو أُدخلتُ الجنة لم أُنكرها . فأمر بها عبدُ الله أن تخرج إليه وقال له : إنما اشتريتها لك ، ووالله ما دنوتُ منها ، فشأنك بها ، مباركًا لك فيها . فلما ولَّى قال : يا غلام ، احمل معه مائة ألف درهم ينعم بها معها . قال : فبكى عبد الرحمن فرحًا ، وقال : يا أهل البيت ، لقد خصَّكم الله بشرف ما خصَّ به أحدًا قبلكم من صلب آدم ، فتهنئكم هذه النعمة وبورك لكم فيها » .

وعن العمري أن ابن جعفر أسلف الزبير ألف ألف ، فلما تُوفي الزبير قال ابن الزبير لابن جعفر : إني وجدتُ في كتبِ الزبير أنَّ له عليك ألف ألف . قال : هو صادق . ثم لقيه بعد ، فقال : يا أبا جعفر ، وهمتُ، المال لك عليه : قال : فهو له . قال : لا أريد ذلك[2] .

---

(١) السير ٣ / ٤٦١ .
(٢) السير ٣ / ٤٦٠ .

جُـودُ أعـرابيّ :

قال شيخٌ من بني عمرو بن كلاب : خرج عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما يريد الشَّام ، فألجأه المطر إلى أبياتٍ ، فإذا قبّة حمراء بفنائها رجل ينادي : الذَّري الذَّري[1] ، قال عبد الله : فأنخنا فدخلنا القبّة ، وحُطَّ عن رواحلنا ، ثم أتى بجزور فذبحها ، فبتنا في شواء وقديد ، وتحدّث معنا من الليل هُنيهةً ثم انصرف . فلما أصبح وقف عن القبّة ، وسألنا عن سَبِيتنا ، وانصرف ، فأتى بجزورٍ فعقرها ، فقلنا : رحمك الله ، ما تريدُ إلى هذا ؟! قال : كلوا رحمكم الله طريًّا ، فإنا لا نُطعم الضيف غَابًّا[2] . قال عبد الله رحمه الله : فدعوت بثوبٍ فجعلت فيه زعفرانًا ، وصَرَرتُ في طرفٍ منه مائة دينار ، ثم بعثت به إلى أهله ، فقالوا : إنَّا لا نقدر على أخذه إلا بإذنه . فسألته أن يقبله مني فأبى ، فلما ارتحلنا وودّعته أمرتُ فأُلقي الثوب بين البيوت ومضينا ، فإنا لنسير إذ لحقنا على فرسٍ مشرعًا رمحه ، قد احمرَّتْ عيناه ، والثوب بين يديه ، فصاح بنا : أغنوا[3] عني هذا . ونبذه إلينا ، وولَّى وهو يقول :

وإذا أخـذتُ ثواب ما أعطيتُـهُ ... فكفـى بذاكَ لِنَـائلي تَكْـدِيرَا

ضرار بن القعقاع رضي الله عنه :

عـن قتيبة بن مسلم قال : كان في مكز[4] دماء ، فاجتمعوا لها في المسجد الجامع ، فأرسلني أبي إلى ضرار بن القعقاع ، فقال لي : قل له : إن قومك قد اجتمعوا في هذه الدماء ، فاحضرهم . فانتهينا إلى المسجد الجامع

(١) الذري : الكنُّ ، يعني : ما كَنَّك .
(٢) الغابُّ : هو اللحم البائت .
(٣) أي اصرفوه عني وكفوه .
(٤) مكز : بلد بالمشرق من بلاد مكران .

وهم حلق . قال : فنظر إلى عين الشمس فجعلها في ظهره ، ثم جلس ، قال : فجعلوا يتحوّلون إليه رجلًا ورجلين ، حتى صاروا حوله ، ثم جعلوا يتهاترون ، وهو ينكت في الأرض ، فلما انتصف النهار ، قال له رجل : يا أبا القعقاع ، ألا تكلَّم ؟! أما ترى ما فيه قومك ؟! فقال : أو قد احتجتم إلى ذلك ؟! قالوا : نعم . فقال للمطلوبين : أمّا أنتم فبراء ، وقال للطالبين : حقُّكم إليّ . قال : فكأنما كانت نارًا طُفيت ، فقاموا فتفرقوا ، وأرسل إلى آبل مأبله بالبادية ، فوَدَى تلك الدِّيات(١).

عدي بن حاتم رضي الله عنه :

قال ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (١ / ٣٠٩) : دخل عليه ابن دارة فقال : إني مدحتك ، قال : أمسك حتى آتيك بمالي ثم امدحني على حسن ، فإني أكره ألَّا أعطيك ثمن ما تقول ؛ لي ألف شاة ، وألف درهم ، وثلاثة أعبد ، وثلاث إماء ، وفرسي هذا حَبْس في سبيل الله ، فامدحني على حسب ما أخبرتك. فقال :

تحِنُّ قلوصي في مَعَدّ وإنما ... تلاقي الربيعَ في ديارِ بني ثُمَلْ
وأبقى الليالَي من عديّ بن حاتمٍ ... حسامًا كَنَصْلِ السيفِ سُلَّ من الخللْ
أبوك جَوادٌ لا يُشَقّ غبارُه ... وأنت جوادٌ ما تَعَذّرُ بالعِللْ
فإنْ تتقوا شرًّا فمثلكمُ اتّقى ... وإنْ تفعلوا خيرًا فمثلكمُ فعلْ

قال له عدي : أمْسِكْ ، لا يبلغ مالي أكثر من هذا .

جُودُ سعيد بن العاص :

عن عبد الحميد بن جعفر الأنصاري قال : قدم أعرابي المدينة يطلب في أربعِ دياتٍ حملها ، فقيل له : عليك بالحسن بن علي ، عليك بعبد الله

(١) المستجاد صـ ٨٢ ، ٨٣ .

ابن جعفر ، عليك بسعيد بن العاص ، عليك بعبد الله بن العباس ، فدخل المسجد فرأى رجلًا يخرج معه جماعة ، فقال : من هذا ؟ فقيل : سعيد ابن العاص . قال : هذا أحد أصحابي الذين ذُكِرُوا لي ، فمشى معه فأخبره بالذي قدم له ومن ذُكِر له وأنه أحدهم ، وهو ساكت عنه لا يجيبه ، فلما بلغ باب منزله قال لخازنه : قُلْ لهذا الأعرابي فليأت بمنٍّ يُحمل له . فقيل له : ايتِ بمنٍّ يُحمل لك . قال : عافى الله سعيدًا ، إنما سألناه وَرِقًا ولم نسأله تمرًا . قال : ويحك ، ايت بمنٍّ يُحمل لك ، فأخرج إليه أربعين ألفًا ، فاحتملها الأعرابي فمضى إلى البادية ولم يلق غيره[1] .

ومن جوده : أنه مرض وهو بالشام ، فعاده معاوية ومعه شرحبيل ابن السِّمطِ ، ومسلم بن عقبة المرّي ، ويزيد بن شجرة الرَّهاوي ، فلما نظر سعيدُ معاوية وثب عن صدر مجلسه إعظامًا لمعاوية ، فقال له معاوية : أقسمت عليك أبا عثمان ألَّا تتحرك ، فقد ضعفت بالعلّة ، فسقط ، فتبادر معاوية نحوه حتى حَنَا عليه وأخذ بيده ، فأقعده على فراشه وقعد معه ، وجعل يُسَائله عن عِلَّته ومنامه وغذائه ، ويصفْ له ما ينبغي أن يتوقّاه ، وأطال القعود معه ، فلما خرج التفت إلى شرحبيل بن السِّمط ، ويزيد بن شجرة فقال : هل رأيتما خللًا في مال أبي عثمان ؟ فقالا : ما رأينا شيئًا ننكره . فقال لمسلم بن عقبة : ما تقول ؟ قال : رأيت . قال : وما ذاك ؟ قال : رأيت على حشمه ومواليه ثيابًا وسخة ، ورأيت صحن داره غير مكنوس ، ورأيت التُّجار يخاصمون قَهْرَمانه . قال : صدقت ، كل ذلك قد رأيته . فوجَّه إليه مع مسلم بثلاثمائة ألف . فسبق رسولٌ يُبشّره بها ويخبره بما كان ، فغضب سعيد وقال للرسول : إن صاحبك ظنَّ أنه أحسن فأساء ، وتأوَّل فأخطأ ؛ فأما وسخ ثياب الحَشَم فمن كثرة حركته اتَّسخ

(١) مكارم الأخلاق صـ ١١٦ - ١١٧ .

ثوبه ؛ وأما كَنْس الدار فليست أخلاقنا أخلاق من جَعَل داره مِرْآته ، وتزيّنه لبسه ، ومعروفه عطره ، ثم لا يبالي بمن مات هزلًا من ذي لُحمة أو حُرمة . وأما منازعة التجار قهرماني ؛ فمن كثرة حوائجه وبيعه وشرائه لم يجد بُدًّا من أن يكون ظالمًا أو مظلومًا ، وأما المال الذي أمر به أمير المؤمنين فوصلتُه كل ذي رَحِم قاطعة ، وَهَنَأْته كرامته المُنعَم بها عليه ، وقد قبلناه وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف ، ولشرحبيل بن السمط بمثلها ، وليزيد بن شجرة بمثلها . وفي سعة الله وبسط يد أمير المؤمنين ما عليه مُعَوَّلنا . فركب مسلم بن عقبة إلى معاوية فأعلمه . فقال : صدق ابن عمي فيما قال ، وأخطأت فيما انتهيت إليه ، فاجعل نصيبك من المال لروح بن زنباع عقوبة لك ، فإنه من جَنَى جناية عُوقب بمثلها ، كما أنه من فعل خيرًا كُوفىء عليه .

وقال له معاوية يومًا : أخبرني عن مَالِكَ ، فقد نبئتُ أنك تتجر فيه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لنا مال يَخْرجُ لنا منه فضلٌ ، فإذا كان ما خرج قليلًا أنفقناه على قلّته ، وإن كان كثيرًا فكذلك ، غير أنا لا ندخر منه شيئًا عن مُعْسر ولا طالب ولا مستحمل ، ولا نستأثر منه بفلذة لحم ، ولا مُزعة شحم . قال : فكم يدومُ لك هذا ؟ قال : من السَّنة نصفها . قال : فما تصنع في باقيها ؟ قال : نجد من يسلّفنا ويسارع إلى معاملتنا . قال : ما أحدٌ أحوج إلى أن يُصلح من شأنه منك . قال : إن شأننا لصالح يا أمير المؤمنين ، ولو زدت في مالي مثله ما كنت إلا بمثل هذه الحال . فأمر له معاوية بخمسين ألف درهم وقال : اشْترِ بها ضَيْعةً تُعينك على مروءتك . فقال سعيد : بل أشتري بها حمدًا وذكرًا باقيًا ، أُطعم الجائع ، وأُزوّج بها الأيِّم ، وأفك العاني ، وأواسي بها الصديق ، وأُصلح بها حال الجار . فلم تأت عليه ثلاثة أشهر وعنده منها درهم . فقال معاوية : ما فضيلة بعد

الإيمان بالله ، هي أرفع في الذكر ، ولا أنبه في الشرف من الجُودِ ، وحسبك أنَّ الله تبارك وتعالى جعل الجُود أحد صفاته[(١)].

ومن جوده أيضًا ما حكاه الأصمعي قال : كان سعيد بن العاص يَسْمر مع سمّاره إلى أن ينقضي حينٌ من الليل ، فانصرف عنه القوم ليلةً ورجل قاعد لم يقم . فأمر سعيد بإطفاء الشمعة وقال : حاجتك يا فتى ؟ فذكر أن علينا دينًا أربَعَة آلاف درهم ، فأمر له بها ، وكان إطفاؤه للشمعة أكثر من عطائه[(٢)].

قال سعيد بن العاص : قبّح الله المعروفَ إنْ لم يكن ابتدىء من غير مسألةٍ ، فالمعروف عِوضٌ عن مسألة الرجل إذا بذل وجهه ، فقلبه خائف ، وفرائصه ترتعد ، وجبينه يرْشح ، لا يدري أيرجع بنُجْحِ الطلب ، أم بسوء المُنقلب ، قد انتُقِعَ لونه ، وذهب دم وجهه ، اللهم إن كانت الدنيا لها عندي حظًّا فلا تجعل لي حظًّا في الآخرة .

ولله دَرُّ من قال :

وما الجودُ مَنْ يعطي إذا ما سألتَه ... ولكنَّ من يُعطي بغيرِ سُؤالِ

وسأل معاويةُ صعصعة بن صوحان : ما الجود ؟ فقال : التبرع بالمال ، والعطية قبل السؤال .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأصحابه : من كانت له إليَّ منكم حاجة فليرفعها في كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة .

نعم ، فكل سؤالٍ وإنْ قلَّ أكثر من نوالٍ وإنْ جلَّ .

---

(١) العقد الفريد ١ / ٢٩٩ - ٣٠٠ .
(٢) العقد الفريد ١ / ٣٠٠ .

عبد الله بن عامر بن كُرِيْز القرشي :

عن عبد الله بن عباس رحمه الله قال : لقد رأيت من عبد الله بن عامر منظرًا لوددت أني كنت فعلته ؛ كنا في الربيع في المسجد ، فنشأت سحابة فأمطرت فتقوّضت الحِلَق ، فدعا ابن عامر بطيَالسةٍ ، فألقى على كل رجل من جُلسائه طيلسانًا مطبقًا ، ثم لم تلبث أن تَجَلَّتْ ، فقال : قوموا بها[١] .

ولله دَرُّ ابن عامر حين أقسم : لا يُغلق له باب ، فكانت أبوابه تبيت مفتوحة[٢] .

قال القاضي التنوخي : خرج رجلان من المدينة ، يريدان عبد الله بن عامر بن كُرَيز للوفادة عليه : أحدهما من ولد جابر بن عبد الله الأنصاري ، والآخر من ثقيف ، وكان عبد الله عاملًا بالعراق لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، فأقبلا يسيران ، حتى إذا كانا بناحية البصرة قال الأنصاري للثقفي : هل لك في رأي رأيته ؟ قال : اعرضه . قال : نُنيخ برواحلنا ونتوضَّا ونصلي ركعتين ، نحمد الله عز وجل فيهما على ما قضى من سفرنا . قال له : نعم ، هذا الرأي الذي لا يُردُّ . قال : ففعلا . ثم التفت الأنصاري إلى الثقفي فقال له : يا أخَا ثقيف ، ما رأيك ؟ قال : وأي موضع رأي هذا ؟ قضيتُ سفري ، وأضنيت بدني ، وأتعبت راحلتي ، ولا مؤمّل دون ابن عامر ، فهل لك من رأي غير هذا ؟ قال : نعم ، إنني لما صليت فكّرت ، فاستحييتُ من ربي أن يراني طالبَ رزقٍ من عند غيره ، ثم قال : اللهم رازق ابن عامر ارزقني من فضلك ، ثم ولَّى راجعًا إلى المدينة . ودخل الثقفي إلى البصرة ، فمكث على باب ابن عامر أيامًا ، فلما أذن له دخل عليه ، وكان قد كُتب إليه من

---

(١) لباب الآداب ٩١ - ٩٢ .

(٢) لباب الآداب ١١٩ - ١٢٠ .

المدينة بخبرهما ، فلما رآه رَحَّبَ به وقال : أَلم أُخبر أنَّ ابن جابر خرج معك ؟ فأخبره ما كان منهما ، فبكى ابن عامر وقال : والله ما قالها أشرًا ولا بَطَرًا ولكن رأى مَجرى الرزق ومَخْرج النعمة ، فعلم أن الله عز وجل هو الذي فعل ذلك فسأله من فضله ، ثم أمر للثقفي بأربعة آلافٍ وكسوة ، وأضعف ذلك للأنصاري ، فخرج الثقفي وهو يقول :

أُمامةُ ما سَعْيُ الحريصِ بزائدٍ … فتيلًا ولا عجزُ الضعيفِ بضائرِ
خرجنا جميعًا من مساقطِ روسنا … على ثقةٍ منَّا بجُودِ ابن عامرِ
فلما أنخنا الناعجاتِ ببابه … تأخّر عني اليثربي ابن جابرِ
وقال ستكفيني عطيةُ قادرٍ … على ما يشاء اليوم للخلق قاهرِ
فإنَّ الذي أعطى العراقَ ابن عامر … لَرَبِّي الذي أرجو لِسَدِّ مَفاقِري
فلما رآني قال أين ابن جابرٍ … وَحَنَّ كما حَنَّت عرابُ الأباعرِ
فأضعفَ عبدُ الله إذْ غاب حظُّه … على حَظِّ لهْفَانٍ من الحرص فاغرِ

الجود خِلْقةٌ أَثَرتْ عذوبة لذة الثناء على لذة المال ، وهو مِنْ أمهات المحاسن ، ومن الكرم بسبيل خاصة ، وبمكان رفيع من القلوب .

خرج عبد الله بن عامر بن كُرَيْز رحمه الله من المسجد يريد منزله ، وهو وحده ، فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه ، فقال له عبد الله : ألك حاجة يا غلام ؟ قال : سلامتك وفلاحك ، رأيتك تمشي وحدك فقلت : أقيك بنفسي ، وأعوذ بالله إن طار بجناحك مكروه ، فأخذ عبد الله بيده ، ومشى معه إلى منزله ، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام ، وقال : استنفق هذه ، فَنِعْمَ ما أدَّبك أهلُك .

واشترى رحمه الله من خالد بن عقبة بن أبي مُعيط دَارَه التي في السوق

بسبعين ألف درهم ، فلما كان الليل سمع بكاء آل خالد ، فقال لأهله : ما لهؤلاء ؟ قال : يبكون من أجل دارهم . قال : يا غلام ، ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعًا[1].

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه :

قال عبد الله بن نمر : ما رأيتُ أحدًا بعد رسول الله ﷺ أجود من معاوية ، وهو أول من أعطى ألف ألف درهم في صدقة .

« قال مصعب الزبيري : حجَّ معاوية بن أبي سفيان ، فلما انصرف مرّ بالمدينة ، فقال الحسين بن علي لأخيه الحسن رضي الله عنهما : لا تَلْقَه ولا تُسَلِّم عليه ، فلما خرج معاوية رضي الله عنه قال الحسن : يا أخي ، إن علينا دَيْنًا ، ولا بُدّ لي أن أذهب إليه ، فلحقه بِثَنِيَّة النول ، وهو منحدر على الوادي ، فَسلَّم عليه وأخبره بديْنه ، فمرُّوا بِبُخْتِيٍّ عليه ثمانون ألف دينار ، وهو يضلع وهم يزجونه ، فقال معاوية : ما هذا ؟ قالوا : أعيا وعليه المال ، ونحن نزجّه ليلحق ، فقال : اصرفوه إلى أبي محمد ، فدفعه إليه وعليه ثمانون ألف دينار »[2].

ومن الأجواد:التابعيّ : عبيد الله بن أبي بَكْرة مولى رسول الله ﷺ :

عن قريش بن أنس قال : وجَّه محمد بن المهلب بن أبي صفرة إلى عُبيد الله بن أبي بكرة أنه أصابتني علّة ، فوُصف لي لبنُ البقر ، فابعث إليَّ ببقرة أشرب من لبنها ، فبعث إليه بسبعمائة بقرة ورُعَاتها ، وقال : القرية التي كانت ترعى فيها لك[3].

---

(١) لباب الآداب صـ ١٤٣ - ١٤٥ .

(٢) لباب الآداب صـ ٨٧ .

(٣) رواه الذهبي في « السير » ، والمحاملي في « أماليه » ، وابن عساكر ، والدارقطني =

وعن ابن سيرين قال : اشتكى رجلٌ فوُصف له لبن الجواميس ، **فبعث إلى عبيد الله بن أبي بكرة : ابعث إلينا بجاموسة ، قال : فبعث** إلى قيِّمه: كم حلوب لنا ؟ قال : تسعمائة . قال : ابعث بها إليه ، قال : فلما أتته قال : إنما أردت واحدة . قال : فبعث إليه : اقبضها كلَّها[١] .

وعن محمد بن عبد الرحمٰن الهمداني قال : رأى عبيد الله بن **أبي بكرة على أبي الأسود الدّيلي جُبَّةً رثَّةً كان يكثر لبسها ، فقال** : يا أبا الأسود ، أمَا تَمَلُّ هذه الجبَّة ؟ فقال : لَرُبَّ مَمْلولٍ لا يُستطاع فراقه . قال : فبعث إليه بمائة ثوب .

قال أبو الحسن المدائني : لقي ابن أبي بكرة سعيدَ بن عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد ولَّاه معاوية خراسان ، وابن أبي بكرة يريد المدينة ، فرأى خباءً مضروبًا رثًّا ، فقال : لمن هذا ؟ قالوا : لسعيد بن عثمان بن عفان ، يريد خراسان ، فمشى إليه ، وقال : أنت ابن أمير المؤمنين عثمان والي خراسان في هذه الهيئة ، اجعل طريقك بالبصرة ، واكتب إلى وكيلي يجهِّزك ، فكتب إلى وكيله سُليم الناصح أن أعطه عشرين ألفًا ، وعشرين عبدًا ، وعشرين بِرْذَونًا ، وعشرين بعيرًا ، وعشرين طَيْلسانًا ، فظن سعيد ابن عثمان أنه يهزأ به ، فدخل البصرة ، فنزل على مولى لعثمان بن عفان رحمه الله ، وقال : إن ابن أبي بكرة قد كتب إلى وكيله بشيءٍ ، أفتراه يُنْفذ ما كتب به ؟ فأرسل إلى وكيله وأعطاه الكتاب ، فقال : أجِّلْني جمعةً ،

= في « المستجاد » .

(١) حسن : أخرجه الدارقطني في « المستجاد » ، وابن عساكر ، والذهبي وقال : هذا بعبيد الله أشبه من عبد الرحمٰن . وهو كذلك لسعة مال عبيد الله وشهرته في السخاء .

فأجَّلَه ، فأتاه بما في الكتاب ، ثم قال له سليم : ألك حاجة ؟ فقال له سعيد : لو كانت لي حاجة كنتَ تَقْضيها ؟ قال : أمَّا في مثل ما أعطاك مولاي ما كنت لأفعل ، فقال سعيد : ما أدري أيّكما أكرم[(١)].

وَوَسَّعَ لعبيد الله بن أبي بكرة رجلٌ في مجلس ، فلما قام قال للرجل : الحقني ، فأمر له بعشَرة آلاف درهم .

وابتنى رحمه الله دارًا بالبصرة ، أنفق عليها عشرة آلاف دينار ، فدخل عليه فيها بعض أصحابه فاستحسنها ، فقال : هي لك بما فيها من الفُرُش والأثاث والرقيق ، فقال الرجل : عمَّرها الله بك ومتَّعك بها . فقال : والله لتقبلنَّها ، فقبلها .

ودخلت عليه امرأةٌ وقالت : سألت أحياءَ العرب : مَنْ المرجو نايله ؟ فأُرسلتُ إليك ودخلت عليك ، وأنا - أصلح الله أمرك - امرأة قد هلك عنها الوالد والولد ، وذهب الطارف والتالد ، ومثلك من يسدُّ الخلة ، ويزيح العلة ، فإمَّا أنْ تُحْسن صَفَدي فتقيمَ أَوَدي ، وإمَّا أنْ تَردَّني إلى بلدي . فقال : بل أجمعُ لك كلَّ ما ذكرتِ ، وأمر لها بعشرة آلاف درهم وزادٍ وكسوة وراحلة[(٢)].

ومن جوده أنه أدلى إليه رجل بحرمة فأمر له بمائة ألف درهم ، فقال : أصلحك الله ، ما وَصَلَني أحدٌ بمثلها قط ، ولقد قطعت لساني عن شكرِ غيرك ، وما رأيت الدنيا في يدِ أحدٍ أحسن منها في يدك[(٣)].

وكان رضي الله عنه ينفق على جيرانه أربعين دارًا من كل جانب ،

(١) لباب الآداب ٩٠ - ٩١ .
(٢) الدّر المنضود في ذم البخل ومدح الجود صـ ٧٢ .
(٣) العقد الفريد ١ / ٣٠٠ .

ويُفْطِر على الكسرة ، وكان يبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد ، وكان يعتق كلَّ سنة في عيد الفطر مائة مملوك(١) .

جود عُرابة الأوسي :

اجتمع جماعةٌ بفناء الكعبة ، فتذاكروا الأجواد ، وتلاحقوا ثلاثة منهم ؛ فقال أحدهم : أجود الناس عبد الله بن جعفر ، وقال أحدهم : أجود الناس قيس بن سعد ، وقال الآخر : أجود الناس عرابة الأوسي . وَكَثُرَ نزاعهم ، فقال رجل : ليمضِ كلُّ واحدٍ لصاحبه حتى ننظر ما يعطيه ، ونحكم على العيان . **فقام صاحب عبد الله ، فصادفه قد وضع رجله في الركاب يريد** سفرًا ، فقال له : يا ابن عم رسول الله ﷺ ، ابن سبيل ومنقطع به . فثنى رجله وقال : خذ الناقة بما عليها ، ولا تُخْدع على السيف فإنه من سيوف ابن أبي طالب ، قُوِّم عليَّ بألفَ دينار . فجاء بالناقة بما عليها .

ومضى الآخر إلى قيس بن سعد فوجده نائمًا ، فقال غلامه : ما حاجتك ؟ قال : ابن سبيل ومنقطع به ، قال : حاجتك أيسر من أن أُوقظه ، هذا كيسٌ فيه سبعمائة دينار ، والله ما في داره اليوم غيرها ، خذه وامضِ إلى معاطن الإبل بغلامه كذا ، إلى من فيها ، فخذْ راحلةً وعبدًا ، وامضِ لشأنك ، فلمّا انتبه قيس ، وأعلمه غلامه بما صنع أعتقه ، وقال : هلَّا أيقظتني فكنت أزيده .

ومضى صاحب عرابة إليه ، فلقِيَه قد خرج من منزله يريد الصلاة ، **وهو متوكِّئ على عبدين ، وقد كُفَّ بصره ، فقال : ابن سبيل ومنقطع به .** فتخلَّى عن الغلامين ، وصفَّق بيديه وقال : أواه !! ما تركت الحقوق لعرابة مالًا ، خذ العبدين ، فقال الرجل : ما كنتُ بالذي أَقُصُّ جَناحَيْك . قال :

(١) تنبيه المُغترين للشعراني .

إن لم تأخذهما فهما حُرَّان ، فإنْ شئت خذ وإن شئت فأعْتِق ، ورفع يديه عنهما ، وتركهما وأقبل يلتمس الحائط بيده ، فأخذ الرجل الغلامين ومضى . فأجمع الناس على أن عرابة أجود الثلاثة ، لأنه أعطى جهدًا من مقلّ وغيره أعطى من سعةٍ وفضل .

وفي عرابة يقول الشّماع :

رأيتُ عرابة الأوسيَّ يسمو ... إلى العَلْيَاءِ مُنْقطع القرينِ
إذا ما رأته رفعت لحد ... تلقَّاها عرابةُ باليمينِ[1]

قالت الحكماء : القليلُ من القليل أحمد من الكثير من الكثير .

وقالوا : جهد المُقِلّ أفضلُ من غِنى المُكثِر .

وقيل لبعض الحكماء : من أجودُ الناس ؟ قال : مَنْ جاد عن قلّةٍ ، وصان وجه السائل عن المذلة .

إنَّ الكريم ليُخْفي عنك عُسْرتَه ... حتى تراه غنيًّا وهْو مجهودُ
وللبخيل على أمواله عِلَلٌ ... زُرقُ العيونِ عليها أوْجُهٌ سُودُ

وقال حاتم :

أُضاحِكُ ضيفي قبل إنزالِ رَحْلِه ... ويُخصَبُ عندي والمحلُّ جَديبُ
وَمَا الخِصْبُ للأضيافِ أن يكثر القِرَىٰ ... ولكنَّما وَجْه الكريمِ خَصيبُ

أويس القَرَني :

عن مغيرة قال : إن كان أُويس القرني ليتصدّق بثيابه حتى يجلس عُريانًا لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة .

---

(١) الدّر المنضود في ذم البخل ومدح الجود صـ ٧٠ - ٨١ .

وعن أصبغ بن زيد : كان أويس إذا أمسى تصدّق بما في بيته من الفضل من الطعام والشرابِ ، ثم قال : اللهم من مات جوعًا فلا تُؤاخذني به ، ومن مات عُريًا فلا تؤاخذني به[١].

وكان يقول في دعائه : « اللهم إني أعتذر إليك اليوم من كل كبدٍ جائعةٍ وبَدَنٍ عارٍ ، فإنه ليس في بيتي من الطعام إلَّا ما في بطني ، وليس لي شيء من الدنيا إلَّا ما على ظهري » . ولم يكن على ظهره حينذاك إلَّا خرقة .

إيه يا سيّد التابعين .. هذا والله الكرم .. وتعجز الكلمات عن أن توفيك قدرك .

قال رسول الله ﷺ : « أفْضَلُ الصدقة جهد المُقِلِّ ، وابدأ بمن تعُول »[٢].

زين العابدين علي بن الحسين رحمه الله :

عن عمرو بن دينار قال : دخل عليُّ بن الحسين على محمدِ بنِ أُسامة ابن زيد في مرضه فجعل يبكي ، فقال : ما شأنك ؟ قال : عليَّ دَيْن ، قال : كم هو ؟ قال : خمسة عشر أو بضعة عشر ألف دينار . قال : فهي عليّ .

وروى أبو نُعيم عن زين العابدين أنه أعتق غلامًا له أعطاه فيه عبد الله ابن جعفر عشرة آلاف درهم وألف دينار .

وعن سفيان : كان علي بن الحسين يحمل معه جرابًا فيه خبزٌ ، فيتصدّق

(١) السير ٤ / ٣٠ ، والحلية ٢ / ٨٤ ، ٢ / ٨٧ .
(٢) صحيح . رواه أبو داود ، والحاكم في « المستدرك » عن أبي هريرة وصححه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١١١٢) .

به ويقول : إن الصدقة تُطفئ غضب الرَّبِّ عز وجل .

وكان يقول : ما يسرّني بنصيبي من الذُّلّ حُمْر النَّعم .

أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين الباقِر :

قال الوصّافي : كنت عند أبي جعفر فقال : يُدخل أحدكم يده في كمّ أخيه أو كِيسِهِ ، فيأخُذ حاجتَهُ ؟ قلنا : لا . قال : ما أنتم بإخوان[١].

شِنْشِنَة أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَم .. هذا كرم بيت النبوة .

ويرحم الله من قال من علماء سلفنا : إني لأستحي من الله عز وجل أن أسأله الجنة لأخٍ من إخواني ، أو أقول له : إني أحبك في الله ، ثم أمنعه شيئًا من الدنيا .. لا بل والله الدنيا كلها .

موسى الكاظِمُ بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رحمه الله :

كان رحمه الله إذا بَلَغه عن الرجل ما يكره - يعني من الحاجة - بعث إليه بصُرَّة دنانير ، وكانت صِرارُه ما بين الثلثمائة إلى المائتي دينار فكانت صراره مَثَلًا بالمدينة[٢].

فقيه الشام أبو عبد الله مكحول :

عن سعيد بن عبد العزيز أن مكحولًا أُعطي مرةً عشرة آلاف دينار ، **فكان يُعطي الرجل من أصحابه خمسين دينارًا ثمن الفرس - أي ليغزو ويجاهد بها في سبيل الله -** .

قال سعيد : وكان مكحول يقول : إذا أَعطيتَ ....

---

(١) إسناده حسن . رواه الدارقطني في المستجاد ، وأبو نعيم ، وابن أبي الدنيا في الإخوان ، وابن عساكر .

(٢) تاريخ الخطيب ١٣ / ٢٧ - ٣٢ .

فاجبر[١] .

الحَكَم بن المطّلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي :

سأل أعرابيٌّ الحكمَ بن المطّلب ، فأعطاه مالًا ، فبكى الأعرابيُّ ، فقال الحاكم : ما يُبكيك ؟ قال : والله إني أَنْفَسُ على الأرض أن تأكُل مثلك إذا متَّ .

وفي العقد الفريد : فقال : ما يُبكيك يا أعرابي ؟ لعلَّك استقللتَ ما أعطيناك ؟ قال : لا والله ، ولكني أبكي لما تأكُل الأرض منك ، ثم أنشأ يقول :

وكأنَّ آدمَ حينَ حانَ وفاتُهُ ... أوصاك وهْو يجودُ بالحَوْباءِ
ببَنِيهِ أنْ ترعاهُمُ فرعيتَهُم ... وكَفَيتَ آدمَ عَيْلَةَ الأبناءِ[٢]

قال العتبي : أخبرني رجل من أهل مَنْبِج ، قال : قدم علينا الحكم ابن حنطب وهو مُملِقٌ فأغنانا . قال له : كيف أغناكم وهو مُملق ؟ قال : علَّمَنا المكارمَ ، فعاد غنيُّنا على فقيرنا .

ولما مات الحكمُ رثاه ابنُ هرمةَ فقال :

سألوا عن الجُودِ والمعروفِ أين هما ... فقلتُ إنهما ماتا مع الحَكَمِ
ماتا مع الرجل المُوَفِّي بذِمَّتِهِ ... يومَ الحِفَاظِ إذا لم يُوفَ بالذِّمَمِ
ماذا بَمنْبِجَ لو يُنْشَر مقابرُها ... من التَّهَدُّمِ بالمعروفِ والكرمِ

خيثمة بن عبد الرحمٰن بن أبي سَبْرَة :

كان رحمه الله من فقهاء التابعين .

---

(١) المستجاد للدارقطني صـ ٩١ .

(٢) مكارم الأخلاق صـ ١٣٧ ، والعقد الفريد ١ / ٣٠٢ ، والحوباء : النفس .

وكان رحمه الله يحمل صُرَرًا - وكان موسِرًا - فيجلس في المسجد ، فإذا رأى رجلًا من أصحابه في ثيابه رَثَاثَةٌ ، اعترض له فأعطاه[1].

أبو بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام رحمه الله :

« عن أبي عمر القرشي المكي قال : خرج قوم من قريش ، يريدون بعض الخلفاء في الشام ، فمرّوا قريبًا من أبي بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث ابن هشام ، فقالوا : لو مِلْنا إلى أبي بكر . فمالوا إليه ، فحبسهم ثم أرسل إليهم بثوبٍ فيه مال تحملُه عدَّة ، وقال : لو كان عندنا أكثر من هذا ، أرسلنا به إليكم . فلمّا رأوْا ذلك قالوا : ما نحتاج إلى الذهاب في وجهنا ، في هذا ما نكتفي به » فارتحلوا ، فلم يَدْنُ منهم أحدٌ مِنْ غلمانه وحَشَمِه يُعينهم على رحلتهم ، فلمّا ودّعوه قالوا : لقد رأينا من برِّك وإكرامك وصنيعك ما أعْجَبَنا ، ولكنّا رأينا شيئًا أنكَرناه عند رحلتنا ، لم يدنُ منّا أحدٌ من غلمانك وحشمك فيعيننا على رحلتنا ، حتى تكلّفْنا نحن ذلك . فضحك وقال : إنهم لا يعينون أحدًا على رحلتهم عنا »[2].

هذا والله الكرم يَسْرِي من السَّيِّد إلى خدمه .

عمرو بن عُتبة :

دخل الفرزدق على عمرو بن عتبة وهو في داره بالزاوية ، فجعل يسلِت العرق عن وجهه وقال :

لولا ابنُ عُتبةَ عمرٌو والرَّجاءُ له ... ما كانتِ البصرةُ الحمقاءُ لي وَطَنَا
أعطانيَ المالَ حتى قلتُ : يُودعني ... أو قُلتُ : أودعَ لي مالًا رآه لنا

---

(١) أبو نعيم في « الحلية » ٤ / ١١٣ ، وابن سعد ٦ / ٢٠٠ .
(٢) « مكارم الأخلاق » لابن أبي الدنيا صـ ١٤٢ .

فجُودهُ مُكسِبٌ شُكرًا ومِنّتُهُ ... وكُلَّما ازدَدْتُ شُكرًا زادَني مِنَنا
يرمي بِهِمَّتِهِ أقْصَى مسافتِها ... ولا يُريدُ على معروفه ثَمَنا[1]

محمد بن سيرين :

قال أبو خَلْدة : دخلنا على محمد بن سيرين رحمه الله ؛ أنا وعبدُ الله ابن عون ، فقال : ما أدري ما أُتحِفُكم ؟ كلٌّ منكم في بيته خبزٌ ولحمٌ ، ولكنْ سأُطْعِمُكم شيئًا لا أراه في بيوتكم . فجاء بِشُهْدَةٍ ، فكان يقطع بالسِّكّين ويُلقمنا[2] .

الحسن البصري :

قال رحمه الله : كُنّا نعدُّ البخيل الذي يُقرض أخاه[3] .

رحمك الله يا أبا سعيد .

قليلٌ منك يكفيني ولكنْ ... قَلِيلُك لا يُقالُ له قليلُ

طلحةُ الجودِ .. طلحةُ النَّدَى .. طلحة بن عبد الله بن عوف :

ابنُ أخي عبد الرحمٰن بن عوف .

« قال ابن عائشة : كان طلحة بن عبد الله بن عوف جوادًا ، وَوَلِيَ المدينة ، وأنشدني بعضُ قريش فيه :

يا طَلْحُ أنت أخُو النَّدَى وَعَقِيدُهُ ... إنَّ النَّدَى إن ماتَ طلحةُ ماتا
إن الفَعَالَ إليكَ أطْلَقَ رَحْلَهُ ... فبحيثُ بِتَّ مِنَ المنازل باتا

قدم الفرزدقُ المدينة وقد مات طلحة ، فقال : يا أهلَ المدينة ، أنتم

---

(١) مكارم الأخلاق صـ ١٣٤ .
(٢) لباب الآداب صـ ٨٠ - ٨١ .
(٣) حسن . رواه البيهقي في « شعب الإيمان » .

أذلُّ قومٍ في الأرض . قالوا : وما ذاك ؟ قال : غَلَبكم الموتُ على طلحة »[١].

الطَّلحات المعروفون بالكرم :

قال الأصمعيُّ :

طلحة بن عبيد الله التيمي ، وهو الفيَّاض .

وطلحة بن عمر بن عبيد الله بن عمرو ، وهو طلحة الجواد .

وطلحة بن عبد الله بن عوف الزهري ، وهو طلحةُ النَّدَى .

وطلحة بن الحسن بن علي ، وهو طلحةُ الخير .

وطلحة بن خلف الخزاعي ، وهو طلحة الطَّلحاتِ . سُمِّي بذلك لأنه كان أجْوَدَهم[٢].

طَلْحَةُ الطَّلَحاتِ : طلحة بن عبد الله بن خلف الخُزاعي :

أبو المطرف ، أحد الأجواد المشهورين . وفيه يقول الشاعر :

رحم الله أعظُمًا دفنوها   بِسِجِسْتَان طَلْحَة الطلحاتِ

« وَهَبَ في عامٍ واحدٍ ألف جاريةٍ ، فكانت كلُّ جاريةٍ منهن إذا ولدتْ غلامًا ، تسمِّيه طلحة على اسم سيِّدها »[٣].

« قدم المغيرة بن حبناء على طلحة الطلحات يطلب صِلَتَه ، فأخرج إليه حَجَرَيْ ياقوت في دُرْج ، فقال : أيّما أحبُّ إليك : عشرة آلاف ، أو هذان الحجران ؟ فقال : ما كنت لأختار الحجارة على الدراهم . فأعطاه

---

(١) لباب الآداب صـ ٩٥ .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ٥ / ١٧ .

(٣) الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود للمناوي صـ ٦٩ .

عشرة آلاف درهم ، فقال : إن نفسي قد تتبَّعتْ أحَدَ الحجريْن . فدفعهما إليه . فقال المغيرة :

أرى الناس عاضوا ثم غاضُوا ولا أرى ... بني خَلَفٍ إلَّا رواءَ المواردِ
إذا نفعوا عادوا لمن ينفعونه ... وكائن تَرَى من نافعٍ غير عائِدِ[1]

خارجة بن زيد بن ثابت المفتي الفقيه :

عن صالح بن سنان قال : « لما قدم سليمانُ بن عبد الملك المدينةَ ، أهدى له خارجة بن زيد بن ثابت – رحمه الله – ألف عِرق موز ، وألف قَرْعة عسل أبيض ، وألف شاة ، ومائة أوزّة ، وألف دجاجة ، ومائة جزور ، فقال له سليمان : يا خارجة ، أجحفتَ بنفسك ، وما كنت تصنع بهذا في مثل هذا الموضع ؟! فقال : يا أمير المؤمنين ، قدمتَ بلد رسول الله ﷺ ، ونزلت في بني مالك بن النجّار ، فأنتَ ضيفٌ ، وإنما هذا قِرًى . قال : يغفر الله لك . هذا أجحفُ ببني مخزوم ، وَصَلَكَ الله . قال صالح : فقال سليمان : هذا وأبيكم السُّؤْدُد ! رجلٌ أهدى إليَّ – فسمَّى كلَّ ما أهدى له ، حتى أتى على آخره . ثم سأل : ما عليه من الدين ؟ فقال : خمسة وعشرون ألف دينار . قال : اقضوها عنه . وأمَرَ له بعشرة آلاف دينار ، وهلك خارجة في تلك السنة حين صَدَرَ سليمان عن الحج »[2].

قال المناوي : « رجع خارجة بن زيد يومًا إلى داره فرأى فتى جالسًا عليها ، فقال : ما أجْلَسَك هاهنا ؟ قال : خير ، قال : والله لتخبرني . قال : جئت سائلًا أهل هذه الدار ما آكُل ، فخرج إليَّ منها جارية أخذت قلبي وسلبتْ عقلي ، فأنا جالسٌ لعلَّها تخرج ثانيًا فأنظر إليها . قال : أتعرفُها إذا

---

(١) لباب الآداب صـ ٨٩ .

(٢) لباب الآداب صـ ١٠٣ – ١٠٤ .

رأيتَها ؟ قال : نعم . فدعا بمن في الدار من الجواري ، وجعل يعرضهنّ عليه واحدةً واحدةً حتى مرّت الجارية ، فقال : هذه . قال : قف مكانك . ودخل داره وخرج بالجارية ودفَعَهَا إليه ، وقال : إنما أبطأتُ عليك لأنها لم تكُن لي ، بل كانت لبعض بناتي ، فابتعتُها منها ، وقد وهبتُها لك ، وخُذ هذه الآلاف أصْلِحْ بها شأنَك »[1] .

زيد بن وهب الجُهَنِي التابعي :

عن أبي المجالد الجهني : كان زيد بن وهب الجهني إذا خرج عطاؤه ، لم يَدَع أحدًا من كبار أهل ربيعة إلّا كساه ثوبًا ، ويَهَب لِمَنْ كان صغيرًا درهمًا ، فلا والله ما رأيتُ ألفَيْ درهم أعْظَمَ بركةً من ألفَيْ درهم زيدِ بنِ وهبٍ . وذلك أن القبيلة يظلّون فَرِحِينَ مِن ثيابٍ وطعامٍ ودراهِمَ : الصغير والكبير[2] .

عبد الرحمٰن بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان :

كان رجلًا فقيهًا فاضلًا موسرًا ، كثير الغزو والحجّ ، أعطى حتى بلغت عطاياه قواعد المسجد . قال : فبينا هو يومًا يتغدّى حيث فرغَ من غدائه ، إذ استأذنَ عليه رجلٌ مكفوف من بني فِهر ، تقوده أَمَةٌ سوداء ، فقال : يا غلام ، طعامك . فأقبل يأكُل معه كأنه لم يأكل شيئًا ، ثم قال : حاجتك ؟ قال : حفظك الله ، شيخ من بني فهر ، لي أربع بنات ، ليس لي ولا لهنّ إلّا الأمة السوداء ، فإن خدمَتْني أضرّ ذلك بهنّ ؛ وإن خَدَمَتْهُنَّ أضرَّ ذلك بي ، ووالله ما أصبحتُ أملك شيئًا ، فانظُر في حاجتي ، وَصَلَكَ اللهُ . فأقبل يعتذر إليه ، ويذكر مسيره وَمَنْ يأتيه من قومه وما يتكلّف ، فقلنا :

---

(١) الدر المنضود للمناوي صـ ٧٢ .

(٢) لباب الآداب صـ ١٠٣ - ١٠٥ .

يعطيه خمسة دنانير ، فإن أعطاه عشرة فذلك كثير ! فقال : يا غلام ، أعطه مائة دينار ، وأخْدِمْ كلَّ ابنةٍ له خادِمًا ، وأعطِهِ قائدًا ، وأجْرِ عليه من مالنا بالسُّقيا كذا وكذا وسقًا من تَمْر . فلمّا نهض الشيخ قيل له : يرحمك الله ، اعتذرت إليه ، فقلنا : يعطيه خمس دنانير ، فإن زاده أعطاه عشرة دنانير ! فقال : إي والله ، لأن يكون فِعْلي أحْسَن من قولي ، أحبُّ إليّ من أن يكون قولي أحسن من فِعْلي[١].

إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله ، أسَدُ قريش :

قال إبراهيم بن هرمة : أردتُ البناء على ابني ، وخروجًا إلى باديتي - وكان يخرج إلى العقيق في كلِّ سنةٍ - ومؤنةً للشتاء ، فتفكَّرتُ في قريش ، فلم أذكُر إلا إبراهيم بن محمد بن طلحة ، فخرجتُ إليه في مالٍ له بين شرقي المدينة وغربيها ممّا يلي أُحُدًا ، يقال له : رحبة ، وقد هيَّأتُ له شِعرًا ، فلمّا جئتُه قال لبنيه : قوموا إلى عمِّكم . فقاموا إليّ حتى أنزلوني عن دابّتي فسلَّمتُ عليه ، وجلستُ أتحدّث معه ، ورحّب بي ، وبشَّ إليَّ ، فقلتُ له ، حيث اطمأنّ بي المجلس : أردتُ الباديةَ ، وحَضَر الشتاءُ ومؤنتُه ، وأردتُ أن أجمع على ابني أهْلَهُ ، وكانت الأشياء متعذِّرة فتفكَّرتُ في قومي ، فلم أذكُر إلا أنت وقد هيَّأتُ لك ما أُحبُّ أن تسمعه . فقال : بحقي عليك أن لا تسمعني شعرًا ؛ ففي قَرابتِك ورَحِمك وواجب حقِّك ، ما تُوصل به رحمُك ، وتُقضى به حاجتُك ، فامضِ إلى باديتك واعذرْني فيما يأتيك مني . قال : فلمّا انصرفتُ ، مضيتُ إلى باديتي بالعقيق ، فإني لجالس بعد أيامٍ إذ نظرتُ إلى شُوَيْهاتٍ تتسايل : يتبع بعضُها بعضًا ، فأعجبني ما رأيت من حُسنها ، فما زالت تتسايل حتى انفرشتْ في الوادي ، وإذا غلامان أسودان فيها ،

(١) لباب الآداب صـ ١٠٣ - ١٠٥ .

وإنسان راكب على بغلٍ يحمل بين يديه رِزْمَةً ، حتى جاءني فثنى رِجْلَه ، ثم قال : أرسلني إليك أخوك إبراهيمُ بن محمد بن طلحةٍ ، وهذه ثلثمائة شاة من غنمه ، وهذان راعيان ، وهذه أربعون ثوبًا ، ومائتا دينار ، وهو يسألك أن تعذِره[١].

أمير المؤمنين المهدي :

قال المهدي : ما توسّل إليّ أحدٌ بوسيلة ، ولا تذرَّع بذريعةٍ ، هي أقرب من تذكيره إياي يدًا سلفتْ مني إليه ، أُتبعها أُختَها وأُحْسِن رَبَّها ؛ لأن منْع الأواخر يقطع شُكْر الأوائل[٢].

إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس المعروف بالإمام :

قدم إبراهيم بن محمد المدينة ، فأَتَتْهُ عجوزٌ من ولد الحارث بن عبد المطّلب ، فشكت إليه ضنْك المعيشة ، فقال : ما يحضرني لك الكثير ، ولا أرضى لك بالقليل ، وإنّا على ظهر سفرٍ ، اقْبَلي ما حضر ، وتفضّلي بالعُذر ، ثم دعا مولًى له ، فقال : ادفع إليها ما بقي من نفقتنا ، وخذي هذا البعير والعبد . فقالت : بأبي وأمي ! أجزل الله لك في الآخرة أجرك ، وأعلى في الدنيا كعبك ، ورفع فيها ذكْرك ، وغفر لك يوم الحساب ذنبك .

وقدم إبراهيم المدينة ، فأتاه قومه يكلِّمونه في حمالةٍ ، فأجابهم ، فقال له رجل من الأنصار : أنت والله كما قال الأعشى :

تری البخلَ مُرًّا والعطاءَ كأنّما تَلَذُّ به عذْبًا من الماء باردَا
وأحْلَمُ من قيسٍ وأمْضَى من الذي بِذِي الغيل من جفانٍ أصبح حارِدَا

---

(١) المستجاد صـ ٩٥ - ٩٦ .

(٢) المستجاد صـ ٩٧ .

فقال : يا أخا الأنصار ، لسنا نفعل ما ترى من سعةٍ ، ولكن وَلَدُ أبي - أي بني هاشم - لا يُحسنون إلا ما ترى . ثم تمثّل بقول لبيد :

وبنـــو الديّـــان لا يأتُـــون لا   وعـــلى ألسُنهـــم خفَّـــت نعـــمْ
زيّنتْ أحـــلامُهم أحسـابَهـــم   وكذاك الـدِّينُ زَيْـنٌ للكـرم[1]

مُحمَّد بن عبَّاد بن حبيب بن المهلّب :

كتب المنصور ابنُ المهْدي إلى محمد بن عبَّاد يشكو دَيْنًا وضيقَ ذات يدٍ وجفوة سلطانه ، فبعث إليه بعشرة آلاف دينار .

وكان رحمه الله يقول : منْعُ الموجودِ سوءُ ظنٍّ بالمعبودِ .

عمارة بن حمزة الهاشمي مولاهم :

من أولاد عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما ، وكان سخيًّا ، حتى يخبز في بيته ألفا رغيفٍ كل يومٍ لألفي إنسان .

عبد الرحمٰـــن الكِنـــدي :

قال محمد بن يونس بن موسى : كنت عند أبي نعيم ، فجاءه ابنه عبد الرحمٰـن يكلِّمه أن يكلم له رجلًا في حاجته ، فقال : يا بني ، لا تَخْلِقْ وجهي ، فقد ذهب الأحرار . فأعاد عليه ، فزَبَرَهُ ، ثم أقبل عليَّ فقال : يا محمد بن يونس . قلت : لبيك وسعديك . قال : إن الغناء عن الناس بابٌ جَسِيم . ثم قال : لقد جاءني حفصُ بن غياث ومحمد بن بشر معهما رجل ، فقالا : يا أبا نعيم ، قم معنا إلى عبد الرحمٰـن الكندي في حاجةٍ لهذا الرجل . قال أبو نعيم : وكان الكندي كريمًا ما شئت ، فأتيناه ، فقال حفص : يا أبا محمد ، نعرض الحاجة ، وأنت مخيرٌ في القضاء ، قال : وما هي ؟ قال :

---

(١) ابن عساكر (٢ / ٥٤١ / ق) ، والمستجاد صـ ١٠٤ .

إنَّ هذا الرجل اشتريتُ منه ضيعةً بمائة ألف ، هي قُوته وقوت عياله ، وقد جئناك طالبين أن تُقِيله ، وتأخذ المائة الألف ! فقال : ليس إلى الإقالة سبيل ، ولكن يا بُني ، هات عهدة الرجل . فجاء بها ، فأقبل على حفصٍ ، فقال : يا أبا عمرو . وعلى محمد بن بشر ، فقال : يا أبا عبد الله . وعليّ فقال : يا أبا نعيم ، اشهدوا عليَّ أنَّ هذه الضيْعة لهذا الرجل بحقوقها ، كما لا حقَّ لي فيها ، ولا دعوى ، ولا طلبة بوجهٍ من الوجوه ، ولا سببٍ من الأسباب ، ورُدَّ يا بني عليه المائة الألفَ وخَراجُها عليَّ . قال أبو نعيم : فنحن اليوم في كُسَيْر وعُوَيْر[1] .

« كُسير وعُوير ، وكل غير خير »[2] .

مَسْرُوق بن الأجدع التابعي الجليل :

قال أبو إسحاق السَّبيعي : زوَّج مسروق بنته بالسائب بن الأقرع على عشرة آلاف ، يجعلها في المجاهدين والمساكين[3] .

عامر بن عبد الله بن الزبير ، الإمام الرباني أبو الحارث :

قال أحمد بن حنبل : حدثنا سفيان أن عامر بن عبد الله اشترى نفسه من الله سِتَّ مرَّاتٍ ، يعني يتصدق كل مرة بدِيَتِهِ[4] .

محمد بن كعب القرظي :

قال الذهبي : قيل : كان له أملاكٌ بالمدينة ، وحصَّل مالًا مرة ، فقيل

---

(١) المستجاد صـ ١١٩ .

(٢) أمثال العسكري ٢ / ١٢٧ . يعنون بالخصلتين المكروهتين والرجلين الرديئين .

(٣) السير ٤ / ٦٦ .

(٤) السير ٥ / ٢١٩ .

له : ادَّخر لولدك ، قال : لا ، ولكن أدخره لنفسي عند ربِّي ، وأدَّخر ربي لولدي[١].

بكر بن عبد الله المزنيّ :

كان بكر بن عبد الله المزني - رحمه الله تعالى - يطعم الضيفَ ثم يكسوه إذا أراد الانصراف ، ويقول : إنَّ فَضْلَ إجابتِهِ إلى طعامي أعظم مما صنعت أنا معه .

حبيب العجمي :

انتبَه من رقدة الغفلة ، فخرجَ عن جميع مَالِهِ .

عبد الله بن أبي ربيعة :

كان - رحمه الله تعالى - إذا حَجَمه عبدٌ من عبيده أعتقه ، وإذا كان لغيره اشتراه من مولاه وأعتقه[٢].

مُحمَّد بن شِهاب الزُّهْريّ :

قال الإمام مالك : كان ابنُ شهابٍ من أسخى الناس ، فلما أصاب تلك الأموال ، قال له مولى له وهو يعظه : قد رأيت ما مرَّ عليك من الضِّيق ، فانظر كيف تكون ، أَمْسِكْ عليك مالك ، قال : إن الكريم لا تحنكه التجارب .

قال الشافعي : قال عمي : ونزل ابن شهاب بماءٍ من المياه ، فالتمس سَلَفًا فلم يجد ، فأمر براحلته فنحرت ، ودعا إليها أهل الماء ، فمرّ به عمُّه ، فدعاه إلى الغداء ، فقال : يا ابن أخي ، إنَّ مروءة سنة تذهب بِذُلِّ الوجهِ

(١) السير ٥ / ٦٨ .

(٢) تنبيه المغترّين للشعراني صـ ٩٠ ، ٩١ .

ساعة ، قال : يا عم ، انزل فاطْعَمْ ، وإلا فامضِ راشدًا .

ونزل مرَّة بماء ، فشكا إليه أهل الماء أن لنا ثماني عشرة امرأة عُمرية ؛ أي لهن أعمار ليس لهن خادم ، فاستسلف ابن شهاب ثمانية عشر ألفًا ، وأخدم كل واحدةٍ خادمًا بألف .

وقال رحمه الله : وجدنا السَّخيَّ لا تَنْفَعُه التجارب .

وقال الشافعي : مَرَّ رجلٌ تاجر بالزهري وهو بقريته ، والرجل يريد الحج ، فأخذ منه بأربعمائةِ دينار إلى أن يرجع من حَجِّهِ ، فلم يبرح الزهري حتى فرَّقه ، فَعَرَف الزهريُّ في وجه التاجر الكراهية ، فلما رجع قَضَاه ، وأمر له بثلاثين دينارًا ينفقها .

وقيل للزهري : إنهم يعيبون عليك كثرة الدَّيْن ، قال : وكم دَيْني ؟ قيل : عشرون ألف دينار ، قال : ليس كثيرًا ، وأنا مليء لي خمسةُ أعين ، كل عينٍ منها ثَمَنُ أربعين ألف دينار .

وعن عقيل بن خالد أن ابن شهاب كان يَخْرج إلى الأعراب يُفقِّههم ، فجاء أعرابي وقد نَفِدَ ما بيده ، فمدَّ الزهري يده إلى عمامتي ، فأخذها فأعطاه ، وقال : يا عقيل ، أُعطيك خيرًا منها[1].

اللَّيثُ بن سَعْد ، إمامُ مصر وفقيهها ومُحدِّثها ومُحْتشمها ورئيسها وَمَنْ يَفْتخر بوجودِهِ الإقليمُ :

قال ابن وهب : كتب مالك إلى الليث بن سعد : إني أريد أن أُدخل بنتي على زوجها ، فأحبُّ أن تبعث لي بشيءٍ من عُصْفرٍ ، فبعث إليه بثلاثين

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٣٨ - ٣٤١ .

حِمْلًا عصفرًا ، فباع منه بخمسمائة دينارٍ ، وبقي عنده فضلة[١].

قال أبو داود:قال قتيبة : كان الليث يستغلُّ عشرين ألفَ دينار في كل سنة ، وقال : ما وجبت عليَّ زكاة قَطُّ . وأعطى الليثُ ابنَ لهيعة ألفَ دينار ، وأعطى مالكًا ألف دينار ، وأعطى منصور بن عمار ألفَ دينار ، وجارى تَسْوى ثلاثمائة دينار .

قال : وجاءتْ امرأة إلى الليث ، فقالت : يا أبا الحارث ، إن ابنًا لي عليلٌ ، واشتهى عسلًا ، فقال : يا غلام ، أعطها مِرْطًا من عسلٍ ، والمِرْط : عشرون ومائة رطل .

وقال رحمه الله : ما وجبتْ عليَّ زكاةٌ مُنْذُ بلغتُ .

وقال أبو صالح : سألت امرأةٌ الليثَ مَنًّا من عسلٍ ، فأمر لها بِزِقٍّ ، وقال : سألت على قدرها ، وأعطيناها على قدر السَّعة علينا .

وعن يحيى بن إسحاق قال : جاءت امرأةٌ بسُكُرُّجةٍ[٢] إلى الليث تطلب عسلًا ، فأمر من يحمل معها زِقًّا ، فجعلت تأبى ، وجعل الليث يأبى إلَّا أنْ يَحمل معها من عسل ، وقال : نعطيك على قدرنا .

وعن الحارث بن مسكين ، قال : اشترى قومٌ من الليث ثمرةً فاسْتَغْلَوْها . فاستقالوه فأقالهم ، ثم دعا بخريطةٍ فيها أكياس ، فأمر لهم بخمسين دينارًا ، فقال له ابنه الحارث في ذلك . فقال : اللهم غفْرًا ، إنهم قد كانوا أمَّلُوا فيها أملًا ، فأحببت أن أُعوّضهم من أملهم هذا .

وقال شعيب بن الليث : خرجتُ حَاجًّا مع أبي ، فقدم المدينة ،

---

(١) تاريخ بغداد ١٣ / ٧ ، ٨ ، وحلية الأولياء ٧ / ٣١٩ ، والسير ٨ / ١٤٨ .
(٢) إناءٌ صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأُدْم ، وهي فارسية .

فبعث إليه مالك بن أنس بطبقِ رطبٍ ، قال : فجعل على الطبق ألف دينار ، وردّه إليه .

وقال عبد الله بن صالح : صحبتُ الليث عشرين سنة ، لا يتغدَّى ولا يتعشَّى إلا مع الناس .

وكان له كل يوم أربعة مجالس ، منها مجلس لحوائج الناس ، لا يسأله أحد فيردّه ، كَبُرتْ حاجتُه أو صَغُرت ، وكان يُطْعم الناسَ في الشِّتاء الهَرَائسَ بعسل النَّحل وسمن البَقَرِ ، وفي الصيف سويق اللَّوزِ في السُّكر[(١)] .

قال قتيبة : قَفَلْنا مع الليث بن سعدٍ من الإسكندرية ، وكان معه ثلاث سفائن ، سفينةٌ فيها مَطْبخه ، وسفينةٌ فيها عائلته ، وسفينة فيها أضيافه[(٢)] .

وقال : ولمَّا احترقتْ كتبُ ابن لهيعة ، بعث إليه الليث من الغد بألف دينارٍ .

قال شعيب بن الليث : يستغلُّ أبي في السَّنَةِ ما بين عشرين ألفَ دينارٍ إلى خمسة وعشرين ألفًا ، يأتي عليه السَّنَة وعليه دَيْنٌ .

قال سعيد الآدم - وكان من سَادَات العُبَّاد -: مررتُ بالليث بن سعد فتنَحْنَح لي ، فرجعت إليه ، فقال لي : يا سعيد ، خُذْ هذا القُنْداقَ[(٣)] فاكتب لي فيه مَنْ يلزم المسجد ممن لا بضاعة له ولا غلَّة . فقلت : جزاك الله خيرًا يا أبا الحارث ، وأخذت منه القنداقَ ، ثم صرت إلى المنزل ، فلما صليتُ أوقدت السِّراج ، وكتبتُ : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، ثم

---

(١) تاريخ بغداد ١٣ / ٩ ، وفيات الأعيان ٤ / ١٣١ .

(٢) السير ٨ / ١٥٠ .

(٣) صحيفة الحِسَاب .

قلت : فلان بن فلان . ثم بدرتني نفسي ، فقلت : فلان بن فلان . قال : فبينا أنا على ذلك إذْ أتاني آتٍ ، فقال : هاالله يا سعيد ، تأتي إلى قومٍ عاملوا الله سِرًّا فتكشفهم لآدمي ؟! مات الليث ، ومات شعيب ، أليس مَرْجِعُهُمْ إلى الله الذي عاملوه ؟! فقمتُ ولم أكتب شيئًا ، فلما أصبحتُ أتيت الليث ، فتهلّل وجهه ، فناولتُه القُنْداق ، فنشره ، فما رأى فيه غير : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال : ما الخبر ؟ فأخبرته بصدقٍ عمّا كانَ ، فصاح صيحةً ، فاجتمع عليه الناس من الحِلَق فسألوه فقال : ليس إلا خير ، ثم أقبل عليّ فقال : يا سعيد ، تَبَيَّنْتَهَا وحُرِمْتُها ، صَدَقتَ ؛ مات الليث ، أليس مرجعهم إلى الله[1] ؟!

عن أبي صالح – كاتب الليث – قال : كُنَّا على باب مالك ، فامتنع عن الحديث ، فقلت : ما يُشبه هذا صاحبنا ؟ قال : فسمعها مالك فأدخلنا ، وقال : من صاحبكم ؟ قلت : الليث . قال : تُشَبِّهونا برجلٍ كَتبتُ إليه في قليل عُصْفرٍ ، نَصْبغ به ثيابَ صِبْياننا ، فأنفذَ منه ما بعنا فَضْلَته بألف دينارٍ[2] .

قال أسَد بن موسى : كان عبد الله بن علي يطلب بني أمية فيقتلهم . قال : فدخلت مصر في هيئةٍ رَثَّةٍ ، فأتيتُ الليث ، فلما فرغت من المجلس ، تبعني خادمٌ له بمائةِ دينار ، وكان في حُزَّتي هِمْيان[3] فيه ألف دينار فأخرجتها ، فقلت : أنا في غنى ، استأذن لي على الشيخ . فاستأذن فدخلت ، وأخبرته بنسبي واعتذرت من الرَّدِّ ، فقال : هي صلةٌ . قلت : أكره أن أُعوّد نفسي . قال : ادفعها إلى من ترى من أصحاب الحديث .

---

(١) تهذيب الكمال ١١٥٣ ، وتاريخ بغداد ١٣ / ١١ ، ١٢ ، والسير ٨ / ١٥٣ .
(٢) حلية الأولياء ٧ / ٣١٩ ، والسير ٨ / ١٥٧ .
(٣) هي موضع شَدِّ السَّراويل .

قال قتيبة : كان الليث يتصدق كل يوم على ثلاثمائةِ مسكين .

وقال منصور بن عمار : دخلتُ على الليث خلوة ، فأخرج من تحته كيسًا فيه ألف دينار ، وقال : يا أبا السَّري ، لا تُعْلِمْ بها ابني ، فتهون عليه .

رحم الله الليث .. لله دَرُّهُ من إمامٍ عالمٍ بالمروءة ، ورأس في الفتوَّة .

مُحمَّد بن عُمَر الوَاقِديّ :

قال الحسن بن شاذان : قال الواقدي : صَار إلَيَّ من السُّلطان ستمائة ألف درهم[١] ، ما وجبت عليَّ فيها الزكاة .

قال محمد بن سعد : رآني الواقديُّ مغتمًّا فقال لي : لا تغتمّ ، فإن الرزق يأتي من حيث لا تحتسب ؛ أملقتُ مرةً حتى بعت بِرْذَوني ، فاستبطأني يحيى بن خالد[٢] ، فاعتذرت إليه ، فوقف على حالي فأمر لي بخمسمائةِ دينار ، فصرتُ بها إلى البيت ، فأنا في تصريفها في قضاء الدَّيْن والعيال إذ طرقني رجلٌ من أهل المدينة قد قُطع عليه الطريق ، من وَلَد أبي بكرٍ رضي الله عنه ، فشكا إليَّ حاله ، فدفعت إليه ما فضل ، ولم أشتر بِرْذونًا ، فاستبطأني يحيى بن خالد ، فأخبرته الخبر ، فوجَّه إلى البكري فسأله ، فقال : نعم ، أخذتُ الدنانير منه ، فلما صرتُ بها في البيت جاءني فلان الأنصاري ، فشكا إليَّ حاله ، فدفعتها إليه . فوجّه يحيى إلى الأنصاري يسأله : هل وجَّه البكري إليه المال ؟ فأخبره الخبر ، فتعجَّب يحيى بن خالد من الكرم ، ثم أمر لي بألفِ دينار ، وللبكري بمثلها ، وللأنصاري بمثلها ، ولزوجتي بخمسمائةٍ لغمِّهَا حين

---

(١) يعني في عطاءات متكررة .

(٢) البرامكة كانوا من الزنادقة .

دفعتُ الدنانير إلى البكري .

قال الواقدي : وكان لي صديقان ؛ أحدهما هاشمي ، وكنا كَنَفْسٍ واحدة ، فنالتني ضِيقَةٌ شديدة ، وحضر العيد ، فقالت لي امرأتي : أمّا نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة ، وأما صِبياننا فقد قطَّعوا قلبي رحمة لهم ؛ لأنهم يرون صِبيان الجيران قد تزيَّنوا في عيدهم ، وأصلحوا ثيابهم ، وهم على هذه الحال من الثياب الرَّثَّة ، فلو احتلتَ بشيءٍ تصرفه في كسوتهم . فكتبتُ إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليَّ بما حضره ، فوجَّه إليَّ كيسًا مختومًا ، ذَكَر أنَّ فيه ألفَ درهم ، فما استقر قراري حتى كتب إليَّ الصديق الآخر يشكو مثل شكواي إلى صاحبي ، فوجَّهتُ إليه الكيس بحاله ، وخرجتُ إلى المسجد ، فأقمت في ليلي مُسْتحييًا من امرأتي ، ثم رجعت ، فلما دخلتُ عليها استحسنتْ ما كان مني ولم تعنِّفْني عليه ، فبينا أنا كذلك ، إذْ وافاني صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته ، فقال لي : اصدقني عمَّا فعلته فيما وجهتُ إليك . فعرَّفْته الخبر على جهته . فقال : إنَّك وجهت إليَّ تسألني العونَ ، وما أملك إلا ما بعثت به إليك ، وكتبتُ إلى صديقنا أسأله المواساة ، فوجَّه إليّ كيسي بخاتمي ، قال الواقدي : فتواسينا الألفَ وقسمناها بيننا أثلاثًا ، بعد أن أخرجنا للمرأة مائة درهم ، ونُمِيَ الخبرُ إلى المأمون ، فدعاني ، فشرحتُ له الأمر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار ؛ لكل واحدٍ منا ألفا دينار ، وللمرأة ألف دينار[1] .

الإمــام الشــافعيُّ :

قال أبو ثور : قلَّ ما كان يُمسك الشافعيُّ الشيءَ من سماحته .

---

(١) مُروج الذهب للمسعودي ٧ / ٧٣ - ٧٥ ، وترتيب المدارك للقاضي عياض ٢١٢ - ٢١٣ .

وقال عمرو بن سواد : كان الشافعي أسخى الناس على الدِّينار والدِّرْهم والطَّعام ، فقال لي الشافعي : أفلستُ من دهري ثلاث إفلاسات ، فكنتُ أبيع قليلي وكثيري ، حتى حُلّي بنتي وزوجتي ، ولم أَرهن قطُّ .

قال الربيع : أخذ رجلٌ برِكَاب الشَّافعي ، فقال لي : أعطه أربعة دنانير ، واعْذِرْني عنده[1] .

قال المزني : كنتُ مع الشافعي يومًا ، فخرجنا الأكوام ، ومَرَّ بهدفٍ ، فإذا برجلٍ يرمي بقوسٍ عربيَّةٍ ، فوقف عليه الشافعي ينظر ، وكان حَسَن الرمي ، فأصاب بأَسْهمٍ ، فقال الشافعي : أحسنتَ ، وبرَّك عليه ، ثم قال : أعطه ثلاثة دنانير ، واعْذِرني عنده .

وقال الربيع : كان الشافعي مارًّا بالحذَّائين ، فسقط ثوبه ، فوثب غلامٌ ومسحه بكُمِّه وناوله ، فأعطاه سبعة دنانير .

قال الربيع : تزوجتُ ، فسألني الشافعي : كم أَصْدَقْتَهَا ؟ قلتُ : ثلاثين دينارًا ، عجّلتُ منها ستة ، فأعطاني أربعةً وعشرين دينارًا .

وقال الربيع : ناول الشافعي إنسان رُقعةً يقول فيها : إنني بقَّال ، رأس مالي درهم ، وقد تزوجتُ فأعنِّي . فقال : يا ربيع ، أَعْطِهِ ثلاثين دينارًا واعْذرني عنه . فقلت : أصلحك الله ، إنَّ هذا يكفيه عشرة دراهم . فقال : ويحك ! وما يصنع بثلاثين ؟ أفي كذا ، أم في كذا - يَعُدُّ ما يصنع في جهازه - أعطه .

وعن الشافعي قال : خرج هرثمة ، فأقرأني سَلَامَ أمير المؤمنين هارون ، وقال : قد أمر لك بخمسة آلاف دينار ، قال : فَحُمِلَ إليه المال ،

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢ / ٢٢٠ .

فدعا بحجَّامٍ ، فأخذ شعره ، فأعطاه خمسين دينارًا ، ثم أخذ رِقَاعًا ، فصرَّ صُرَرًا ، وفرّقها في القُرشيين الذين هم بالحضرة وَمَنْ بمكة ، حتى ما رجع إلى بيته إلا بأقل من مائة دينار .

وقال الحميدي : قدم الشافعي صنعاءَ ، فضُربت له خيمةٌ ، ومعه عشرة آلاف دينار ، فجاء قوم فسألوه ، فما قُلِعت الخيمة ومعه منها شيء[1] .

مَعْنُ بن زَائِدة أبو الوليد الشَّيْباني ، أمير العرب وعَيْن الأجْواد :

حدّثْ عن البحر ولا حَرَج ، وحَدِّثْ عن معن ولا حرج .

قال صاحب شرطة معن : بينا أنا على رأس معنٍ إذا هو براكبٍ يوضع ، قالى : فقال معن : ما أحسب الرجل يريد غيري . قال : ثم قال لحاجبه : لا تحجبه . قال : فجاء حتى مَثُلَ بين يديه . قال : فقال :

أَصْلَحَكَ الله قلَّ ما بيدي ... فما أُطيق العِيالَ إذْ كَثُرُوا
ألحَّ دهرٌ رمى بكَلْكَلِه ... فأَرْسَلوني إليك وانْتَظَرُوا

قال : فقال معن - وأخذتْه أرْيَحِية - : لا جَرَم ، والله لأُعجلنَّ أوبتك . ثم قال : يا غلام ، ناقتي الفلانية وألف دينار . فدفعها إليه وهو لا يعرفه .

وقال سعيد بن سلم : لمَّا ولَّى المنصورُ معنَ بن زائدة أذربيجان قَصَده قومٌ من أهل الكوفة ، فلما صاروا ببابهِ واستأْذَنُوا عليه ، فدخل الآذِنُ فقال : أصلح اللهُ الأمير ، بالباب وفدٌ من أهل العراق . قال : من أي أهل العراق ؟ قال : من الكوفة . قال : ايذنْ لهم . فدخلوا عليه ، فنظر إليهم معن في هيئةٍ رزيَّة ، فوثب على أريكته وأنشأ يقول :

(١) مناقب الشافعي للرازي صـ ١٢٨ .

إذا نَوبةٌ نابتْ صديقَك فاغتنمْ مرمَّتَهَا فالدَّهْرُ بالناس قُلَّبُ
فأحسنُ ثوبَيْك الذي هو لابسٌ وأَفْرَهُ مُهْرَيْك الَّذي هو يَركبُ
وبادرْ بمعروفٍ إذا كنتَ قادرًا زوال اقتدارٍ أو غنًى عنكَ يُعْقبُ

قال : فوثب إليه رجلٌ من القوم ، فقال : أصلح الله الأمير ، ألا أنشدك أحسنَ من هذا ؟ قال : لابن عمك ابن هرمة . قال : هاتِ . فأنشأ يقول :

وَلِلنَّفْسِ تاراتٌ تحلُّ بها العُرى وتَسْخُو عن المالِ النُّفوس الشَّحائحُ
إذَا المرءُ لم ينفعْك حيًّا فنفعهُ أقلُّ إذا ضُمَّتْ عليه الصَّفَائحُ
لأيةِ حالٍ يمنعُ المرءُ مَالَه غدًا فغدًا والموتُ غادٍ ورائحُ

فقال معن : أحسنت والله ، وإنْ كان الشِّعْر لغيرك ، يا غلام ، أعطهم أربعة آلافٍ يستعينون بها على أمورهم إلى أنْ يتهيأ لنا فيهم ما نريد . فقال الغلام : يا سيدي،أجعلُها دنانيرَ أم دراهم ؟ فقال مَعن : واللهِ لا تكون همَّتك أرفع من همتي ، صَفِّرْها لهم .

وكتب إليه شاعرٌ ، وقد رأى الحجاب على بابه :

إذا كان الجوادُ له حجابٌ فما فَضْلُ الجَوادِ على البخيل

فقال معن :

إذا كان الجوادُ قليلَ مالٍ ولم يُعْذر تَعلَّلَ بالحجابِ

فقال الشّاعر : إنا لله ، أَيُؤْيسُني من معروفه ؟ ثم ارتحل منصرفًا ، فسأل معنٌ عنه فأخبر بانصرافه ، فأتبعه بعشرة آلافٍ وقال : هي لك عندنا في كلِّ زَوْرةٍ .

ولله دَرُّ من قال في معن :

له راحتان الجُودُ والحَتْفُ فيهما أبى اللهُ إلا أنْ تَضُرَّ وَتَنْفَعَا

وَلَّى أبو جعفر قُثَم - يعني رجلًا من ولد العباس - فأتاه أعرابي فقال :

يا قُثَم الخير جُزيتَ الجَنَّهْ أُكْسُ بُنَيَّاتي وأُمَّهُنَّهْ
أُقسمُ باللهِ لتَفْعلَنَّهْ

قال : فقال : والله لا أفعل . فقال الأعرابي : لكنْ لو أقسمتُ على معنٍ لأبرَّ قَسَمي ، فبلغتْ الكلمةُ معنًا ، فبعث إليه ألف دينار .

وقال السهمي : أذن معن بن زائدة إذنًا عامًّا ، فدخل عليه كلُّ رجل يمُتُّ بوسيلةٍ وذكر حاجته ، ثم دخل في آخرهم فتًى ، فقال : منْ أنت ؟ وما سبيلك ؟ فقال :

أَتاك بَي الرَّحمنُ لا شيءَ غَيْره وفَضْلٌ وإحسانٌ عليك دليلُ
فشفِّعْ كريمًا سَيِّدًا متفضِّلًا فليس إلى ردِّ الجليلِ سبيلُ

فقال : يا فتى ، لقد توسلت بأجلّ منْ تَوسَّل به أحد ، فأعطاه وفضّله على سائر من أعطى .

وأتى أعرابي إلى معن بن زائدة ومعه نِطْعٌ فيه صبي حين ولد ، فاستأذن عليه ، فلما دخل دَهْدَه الصبيَّ بين يديه وقال :

سَمَّيْتُ معنًا بمعنٍ ثم قلتُ له هذا سَمِيُّ فتًى في النَّاسِ مَحْمودُ
أنتَ الجَوادُ ومنْك الجُودُ نَعْرفهُ ما مِثْلُ جودِكَ مَعهودٌ وموجودُ
أَمْستْ يمينُك عن جودٍ مُصوَّرة لا بل يمينُك منها صُوِّرَ الجودُ

قال : كم الأبيات ؟ قال : ثلاثة . قال : أعطوه ثلاثمائة دينار ، ولو زدت لزدناك . قال : حَسْبُك ما سمعتَ ، وحَسْبي ما أخذتُ[1] .

---

(١) تاريخ بغداد ١٣ / ٢٣٦ - ٢٤٠ .

وأتاه رجلٌ يسأله أن يَحْمله فقال : يا غلام ، أعطه فرسًا وبِرْذَونًا وَبَغْلًا وَعِيرًا وبعيرًا وجارية ، وقال : لو عرفتُ مَرْكُوبًا غير هؤلاء لأعْطَيْتك[1] .

وهو أول من عمل البيمارستان ، وأخرج الصدقات على الزَّمْنى والمجذومين والعميان والمساكين ، واستخدم لهم الخدَّام .

وقال له رجل : إني جعلتُ فضلك سَبَبي إليك ، وكرمك وسيلة عندك . قال : سَلْ . قال : ألف درهم . قال معن : قد أربحتني أربعة آلاف ، وإني حَدَّثتُ نفسي أن أعطيك خمسة آلافٍ ، قال : أنت أكبر من أن تربح على مؤمليك . فأعطاه خمسة آلاف .

ومما قيل فيه :

أيَا جُودَ معنٍ ناجِ معنًا بِحَاجتي فَمَا لِي إلى معنٍ سِوَاكَ رَسُولُ

ومما قيل فيه :

كتبتُ نَعَمْ ببابك حين يدعو إليك الناسُ مسفرة النِّقَاب

وقال فيه الحسين بن مطير الأسدي بعد موته :

ويا قبرَ معنٍ كَيْفَ واريتَ جُودَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ البَرُّ والبَحْر مُتْرَعَا
ولكنْ حَوْيت الجودَ والجودُ مَيِّتٌ ولو كان حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدَّعَا
وما كان إلَّا الجودُ صورةَ وجْهِهِ فعاشَ ربيعًا ثمَّ ولَّى فودَّعَا
فلما مضى معنٌ مضى الجودُ والندى وأصبح عِرْنِينُ المكارمِ أَجْدعَا

وكتب رجلٌ إلى معن بن زائدة ، وهو والي اليمن ، يستهديه خِطْرًا ، فأرسل إليه بجرابِ خِطْرٍ ، وفي الخِطر ألف دينار ، وكتب إليه : أنِ

---

(١) العِقد الفريد ١ / ٣٠٢ .

اختضب بالخطر ، وانتفع بنخالته . وكان الرجلُ قبل أن يكتب إلى معنٍ قد سأل بعض إخوانه خطرًا فلم يبعث إليه ، فلما ورد عليه الخطر من معنٍ أنشأ يقول :

أتَانَا أبو العَبَّاسِ ضَنَّ بخِطْرِهِ ... كتَبنَا إلى مَعْنٍ فأهدىٰ لنا خِطرَا
وأهدى دنانيرًا ، وأهدى دراهمًا ... **وأهدى لنا بَزًّا وأهدى لنا عِطرا**
وما النـاسُ إلا مَعـدنَانِ فمعـدِنٌ ... قريشٌ وشيبانُ الَّتي فرَّعتْ بَكرَا

ورثاه مروان بن أبي حفصة فقال :

مَضَـى لِسَـبيله معـنٌ وأبقـىٰ ... مَحـامـدَ لن تَبـيدَ ولنْ تُنَـالَا
وكان النـاسُ كلُّهُـمُ لمعـنٍ ... إلى أنْ زَارَ حفـرته عِـيالَا
ولم يَكُ طالِبٌ للعرفِ يَنوي ... إلى غـير ابنِ زائدةَ ارْتحـالَا
ثوى مَنْ كان يَحْمِل كلَّ ثقلٍ ... ويسبق فيضُ راحتِهِ السـؤالَا
ومـا نَزلَ الوُفـودُ بمثـلِ معـنٍ ... ولا حَطُّـوا بِسـاحته الرِّحَـالَا
وَمَا بلغتْ أكُفُّ ذوي العَطَايَا ... يمينـًا مـن يَديْهِ ولا شِمَـالَا
ومـا كـانت تجـفُّ له حيـاضٌ ... مـن المعـروفِ مُتْرعـةً سِجالَا
لأبيضَ لا يعـدُّ المالَ حتى ... يعـمَّ بـه بغـاةَ الخـيرِ مَـالَا
فلَهْـفَ أبي عليـك إذا العَطَـايا ... جُعلن مُنًى كَوذاب واعْتِلَالَا
ولهـفَ أبي عليـك إذا اليتـامى ... غَـدَوْا شُعْثًا كأنَّ بهـم سُلَالَا
ولهفَ أبي عليك إذا المواشي ... رَعَتْ جَدْبًا تموت به هُزالَا
ولهف أبي عليك إذا القـوافي ... لمُمْتَـدحٍ بهـا ذهبتْ ضَـلَالَا
وقلنـا أين نَذْهـبُ بعـد معـنٍ ... وقـد ذهـبَ النـوالُ فَلا نَوالَا[١]

---

(١) تاريخ بغداد ١٣ / ٢٤١ - ٢٤٣ .

يزيد بن المُهَلّب :

وكان هشام بن حسّان إذا ذكره قال : والله إنْ كانت السُّفن لتجري في جوده .

قال سليمان بن عبد الملك لموسى بن نصير : اغْرَمْ ديتك خمسين مرَّةً . قال : ليس عندي ما أغرم . قال : والله لتغرمنَّ ديتك مائة مرة . قال يزيد ابن المهلب : أنا أغرمها عنه يا أمير المؤمنين . قال : اغرم . فغرمها عنه مائة ألف .

ومرّ يزيدُ بن المهلب في طريق البصرة بأعرابيةٍ ، فأهدت إليه عنْزًا فقبلها ، وقال لابنه معاوية : ما عندك من نفقة ؟ قال : ثمانمائةِ درهم . قال : ادْفَعْها إليها . قال : إنها لا تعرفك ، ويُرضيها اليسير . قال : إن كانت لا تعرفني ، فأنا أعرف نفسي ، وإنْ كان يرضيها اليسير ، فأنا لا أَرضىٰ إلّا بالكثير .

وكان يقول : إن خير المال ما قُضِيتْ فيه الحقوق ، وحُملت فيه المغارمُ ، وإنما لي من المال ما فضل عن إخواني .

قال الأصمعي : قدم على يزيد بن المهلب قومٌ من قُضَاعة من بني ضِنَّة ، فقال رجل منهم :

والله ما ندري إذَا ما فَاتَنَا   طلبٌ إليك مَن الَّذي نَتطلَّبُ
ولقد ضَرَبنا في البلادِ فَلَمْ نَجِدْ   أَحدًا سواكَ إلى المكارمِ يُنسَبُ
فاصبر لعادتنا التي عَوَّدتنا   أوْ لَا فَأَرْشِدْنا إلى مَنْ نَذْهَبُ

فأمر له بألف دينارٍ ، فلما كان في العام المقبل وفد عليه فقال :

ما لي أرى أبوابهم مهجورة   وكأنَّ بابَك مَجْمعُ الأسواقِ

حَابوكَ أَمْ هابوكَ أَمْ شامُوا النَّدى   بِيَدَيْكَ فاجتمعـوا مـن الآفـاقِ
إني رأيتُـك للمكَـارمِ عاشقًا   والمَكْرُمَـات قليـلةُ العُشَّـاقِ
وَلَيَتْ أَنْعُمُـكَ البـلادَ فأصبحتْ   تُجْنى إليك مَكـارِمُ الأخـلاقِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم(١).

وحج رحمه الله فأتى بحلَّاقٍ حلق رأسه ، فأمر له بألف درهم ، فتحيّر ودُهِشَ ، وقال : أمضي إلى فلانةٍ أُبشِّرها ، قال : أعطوه ألفًا أخرى(٢).

الإمام المُبَارَك عَبْدُ الله بن المُبَارَك :

قال إسماعيل بن عياش : لقد حَدَّثني أصحابي أنهم صَحبوهُ - أي ابن المبارك - من مصر إلى مكة ، فكان يطعمهم الخَبِيص ، وهو الدهر صائم .

وانظر إلى كرمه وأدبه ومروءته :

قال عمر بن حفص الصوفي : خرج ابن المبارك من بغداد يريد المِصِّيصة ، فصحبه الصوفية ، فقال لهم : أنتم لكم أنفس تحتشمون أن يُنفق عليكم ، يا غلام ، هات الطَّسْت ، فألقى عليه مِنْديلًا ، ثم قال : يُلقي كلُّ رجلٍ منكم تحت المنديل ما معه ، فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم ، والرجل يلقي عشرين ، فأنفق عليهم إلى المصِّيصة ، ثم قال : هذه بلاد نفير ، فنقسم ما بقي ، فجعل يُعطي الرجل عشرين دينارًا فيقول : يا أبا عبد الرحمٰن ، إنما أعطيتُ عشرين درهمًا ، فيقول : وما تُنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته(٣).

---

(١) العِقْد الفريد ١ / ٣٠٣ - ٣٠٦ ، والدر المنضود صـ ٨٤ .
(٢) الدر المنضود صـ ٩٠ .
(٣) تاريخ بغداد ١٠ / ١٥٧ - ١٥٨ ، والسير ٨ / ٣٨٤ - ٣٨٥ .

وقال علي بن الحسن بن شقيق : كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج ، اجتمع إليه إخوانه من أهل مَرْو ، فيقولون : نصحبك ، فيقول : هاتوا نفقاتكم ، فيأخذ نفقاتهم ، فيجعلها في صندوق ، ويقفل عليها ، ثم يَكْتري لهم ، ويخرجهم من مَرْو إلى بغداد ، فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلوى ، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زيٍّ وأكمل مروءة ، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ ، فيقول لكل واحدٍ : ما أَمَرَكَ عيالُكَ أنْ تشتري لهم من المدينة مِنْ طُرَفها ؟ فيقول : كذا وكذا ، ثم يخرجهم إلى مكة ، فإذا قضوا حَجَّهم ، قال لكل واحد منهم : ما أمرك عيالُك أن تشتري لهم من متاع مكة ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيشتري لهم ، ثم يخرجهم من مكة ، فلا يزال ينفق عليهم إلا أن يصيروا إلى مروٍ ، فيجصِّص بيوتهم وأبوابهم ، فإذا كان بعد ثلاثة أيام ، عمل لهم وليمةً وكساهم ، فإذا أكلوا وسُرُّوا ، دعا بالصندوق ، ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صُرَّته عليها اسمه .

وقال : أخبرني خادمه أنه عمل آخر سَفْرةٍ سافرها دعوةً ، فقدَّم إلى الناس خمسةً وعشرين خُوانًا فالوذج . فبلغنا أنه قال للفُضيل : لولاك وأصحابك ما اتَّجرت . وكان ينفق على الفقراء في كلِّ سنة مائة ألف درهم[1] .

وعن سلمة بن سليمان : جاء رجلٌ إلى المبارك ، فسأله أن يقضي دينًا عليه ، فكتب له إلى وكيلٍ له ، فلما وَرَدَ عليه الكِتابُ قال له الوكيل : كم الدَّيْن الذي سألَته قضاءه ؟ قال : سبعمائة درهم . وإذا عبد الله قد كتب له أن يُعطيه سبعة آلاف درهمٍ ، فراجعه الوكيل ، وقال : إنّ الغلّات

(١) تاريخ بغداد ١٠ / ١٥٨ .

قد فنيت . فكتب إليه عبد الله : إن كانت الغَلَّات قد فنيت ، فإن العمر أيضًا قد فنيَ ، فأجزْ له ما سبق به قلمي .

وعن حبان بن موسى قال : عُوتب ابن المبارك فيما يُفَرِّقُ من المال في البلدان دون بلده ، قال : إني أعرف مكانَ قومٍ لهم فضلٌ وصدق ، طلبوا الحديث ، فأحسنوا طلبه لحاجةِ الناس إليهم ، احتاجوا ، فإن تركناهم ضاع عِلْمُهم ، وإن أعنّاهم بثُّوا العلم لأمة محمد ﷺ ، لا أعلم بعد النبوةِ أفضل من بثِّ العلم .

قال أبو إسحاق الطَّالقاني : رأيتُ بعيرَيْن محمَّلين دَجَاجًا مَشْويًّا لسُفرة ابنِ المبارك .

وقال الحَسن بن حمَّاد : دخل أبو أسامة على ابن المبارك ، فوجد في وجه عبد الله أثر الضرِّ ، فلما خرج بعث إليه أربعة آلاف درهم ، وكتب إليه :

وَفَتًى خَلَا من مالِهِ ... ومن المروءة غَيْرُ خَالِ
أعطاكَ قَبْلَ سؤالِهِ ... وكفاك مَكْروهَ السُّؤَّالِ

وقال المسيب بن واضح : أرسل ابن المبارك إلى أبي بكر بن عيّاش أربعة آلاف درهم ، فقال : سُدَّ بها فتنة القوم عنك[(١)].

خالد بن عبد الله القَسْري ، أبو الهيثم :

كان جَوَادًا مُمدَّحًا معظَّمًا عالي الرتبة ، من نُبَلاء الرِّجَال .

قال خالد : إنَّ أكرم الناس من أعطى مَنْ لا يرجوه ، وأعظم الناس عفوًا من عفا عن قُدْرةٍ ، وأَوْصل الناس من وصل عن قطيعةٍ .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨ / ٤١٠ .

وقال رحمه الله على المنبر : إني لأطعم كلَّ يومٍ ستةً وثلاثين ألفًا من الأعرابِ تمرًا وسويقًا .

وأنشد أعرابي :

أخَالدُ بَيْن الحَمْدِ والأجر حاجتي　　فأيُّهمَا يأتي فأنتَ عِمَادُ
أخالدُ إني لم أَزُرْك لحاجةٍ　　سوى أنني عافٍ وأنتَ جَوَادُ

فقال : سَلْ ، قال : مائة ألفٍ ، قال : أسرفتَ يا أعرابي ، قال : فأحُطُّ للأمير ؟ قال : نعم . قال : قد حططتك تسعين ألفًا ، فتعجَّبَ منه ، فقال : سألتك على قدرك ، وحططتك على قدري ، وما أستأهله في نفسي ، قال : لا والله ، لا تغلبني ، يا غلام أعطه مائة ألفٍ .

وعن إسماعيل بن عبد الله قال : قدم الراعي الشَّاعر على خالد بن عبد الله القسري ومعه ابنه جندل ، فكان يغشاه مع أبيه ، ثم فقده ، فقال له : ما فعل ابنك ؟ فقال : تُوفِّي - أصلح اللهُ الأمير - بعد أنْ زوَّجْته وأصدقته . فأمر له خالد بديةِ ابنه وصداقه ، فقال الراعي :

وَدَيْتَ ابنَ راعي الإبْل إذْ حَانَ يَومُه　　وشقَّ له قبرًا بأرضِكَ لاحدُ
وَقَدْ كَانَ مات الجودُ حتى نَعَشْتَهُ　　وذَكَّيْتَ نَارَ الجودِ والجودُ خامدُ
فلا حَمَلَتْ أنثى ولا آب غائبٌ　　ولا وَلدتْ أنثى إذَا مَاتَ خالدُ[1]

إسماعيل بن عيّاش :

عن يحيى الوُحَاظِي : ما رأيتُ رجلًا كان أكبر نَفسًا من إسماعيل بن عيّاش ، كُنَّا إذا أتيناه إلى مزرعته لا يرضى لنا إلا بالخروف والخَبِيص[2] .

---

(١) لباب الآداب صـ ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) السير ٨ / ٣١٢ - ٣٢٨ .

يعقوب بن شيبة ، الحافظ صاحب المسند المعلّل :

قال يوسف بن البُهلول : حدثني يعقوب بن شيبة قال : أظلَّ عيدٌ من الأعياد رجلًا - يشير إلى نفسه - وعنده مائة دينارٍ ، لا يملك سواها ، فكتب إليه رجل من إخوانه يقول له : قد أظلّنا هذا العيد ، ولا شيءَ عندنا ننفقه على الصِّبْيان ، ويستدعي منه ما ينفقه . فجعل المائة دينار في صُرَّةٍ وختمها ، وأنفذها إليه ، فلم تلبث الصُّرَّة عند الرجل إلا يسيرًا حتى وردتْ عليه - أي على الرجل - رقعةُ أخٍ من إخوانه ، وذكر إضَاقته في العيد ، ويستدعي منه مثل ما استدعاه ، فوجَّه بالصُّرَّة إليه بختمها ، وبقي الأول لا شيءَ عنده ، فكتب إلى صديقٍ له وهو الثالث الذي صارت إليه الدَّنَانير ، يذكر حاله ، ويستدعي منه ما ينفقه في العيد ، فأنفذ إليه الصرَّة بخاتمها ، فلما عادتْ إليه صرته التي أنفذها بحالها ، ركب إليه ومعه الصرّة وقال له : ما شأن هذه الصرّة التي أنفذتها إليَّ ؟ فقال له : إنه أظلّنا العيد ، ولا شيءَ عندنا ننفقه على الصبيان ، فكتبتُ إلى فلان أخينا أستدعي منه ما ننفقه ، فأنفذ إليَّ هذه الصرّة ، فلما وردت رقعتُك عليَّ أنفذتها إليك . فقال : قمْ بنا إليه ، فركبَا جميعًا إلى الثاني ومعهما الصرّة ، فتفاوضوا الحديث ، ثم فتحوها فاقتسموها أثلاثًا .

قال أبو الحسن : قال لي أبي : والثلاثة : يعقوب بن شيبة ، وأبو حسان الزيادي ، وأُنسيتُ أنا الثالث(١).

كَـرَمُ عبـدٍ :

خرج عبدُ الله بن جعفر إلى ضِياعهِ ينظر إليها ، فإذا في حائطٍ لنسيب له عبدٌ أسود ، بيده رغيف ، وهو يأكل لقمة ، ويطرح لكَلب لقمة ، فلمّا

---

(١) صفحات من صبر العلماء صـ ١٨٥ - ١٨٦ .

رأى ذلك استحسنه ، فقال : يا أسود ، لمن أنت ؟ قال : لمصعب بن الزبير . قال : وهذه الضيعة لمن ؟ قال : له . قال : لقد رأيتُ منك عجبًا ، تأكل لقمة وتطرح للكلب لقمة ! قال : إني لأستحيي من عينٍ تنظرُ إليَّ أنْ أُوثر نفسي عليها . قال : فرجع إلى المدينة ، فاشترى الضيعة والعبد ، ثم رجع ، وإذا بالعبد ، فقال : يا أسود ، إني قد اشتريتك من مصعب ، فوثب قائمًا ، وقال : جعلني الله عليك مَيْمونَ الطلعة . قال : وإني اشتريتُ هذه الضَّيْعة . فقال : أكْمَل الله لك خيرها . قال : وإني أُشهدُ أنَّك حُرٌّ لوجه الله . قال : أحسن الله جزاءك . قال : وأُشهد الله أنَّ الضيعة مني هدية لك . قال : جزاك الله بالحسنى . ثم قال العبد : فأُشهد الله وأُشهدكَ أنَّ هذه الضيعة وقفٌ مني على الفقراء . فرجع وهو يقول : العبدُ أكْرَم منَّا[1].

وفي تاريخ بغداد : روي عن الحسن بن علي أنه كان مَارًّا في بعضِ حِيطان المدينة ، فرأى أَسْودَ بيده رغيف يأكل لقمةً ويُطْعِمُ الكلبَ لقمة ، إلى أنْ شاطره الرَّغيف . فقال له الحسن : ما حملك على أنْ شاطرته ولم تغابنه فيه بشيءٍ ؟ فقال : استَحتْ عيناي من عينيْه أن أغابنه . فقال له : غلامُ من أنت ؟ فقال: غلامُ أبان بن عثمان ، فقال : والحائط ؟ قال : لأبان بن عثمان ، فقال له الحسن : أقسمتُ عليك ، لا برحتَ حتى أَعودَ إليك ، فمرَّ واشترى الغلام والحائط ، وجاء إلى الغلام فقال : يا غلام ، قد اشتريتُك ، قال : فقام قائمًا ، فقال : السَّمعُ والطاعة لله ولرسوله ولك يا مولاي ، **قال : وقد اشتريتُ الحائط** ، وأنت حُرٌّ لوجه الله ، والحائط هبةٌ مني إليك . قال : فقال الغلام : يا مولاي ، قد وهبتُ الحائط للذي وهبتني له .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٦٣ - ٣٦٤ ، تاريخ بغداد ٦ / ٣٤ .

الفَقِيه الإمام المُحدِّث دَعْلَج بنُ أحمد بن دعلج :

قال الحاكم : دعلج الفقيه ، شيخ أهل الحديث في عصره ، له صدقاتٌ جارية على أهل الحديث بمكة وببغداد وسجستان . وقال الخطيب : كان دعلج من ذوي اليَسَار ، له وقوفٌ على أهل الحديث .

قال أبو عمر بن حيويه : أَدْخَلَني دعلج إلى داره ، وأراني بِدَرًا من المال معبأة في منزله ، وقال لي : يا أبا عمر ، خُذْ من هذه ما شئت ، فشكرتُ له ، وقلتُ : أنا في كفايةٍ وغنًى عنها ، فلا حاجة لي فيها .

« وَحَدَّثَ أبو بكر محمد بن علي بن عبد الله الحدّاد – وكان من أهل الدِّين والقرآن والصَّلاح – عن شيخ سمّاه ، فذهب عني حفْظ اسمه ، قال : حضرتُ يوم جمعةٍ مسجد الجامع بمدينة المنصور ، فرأيت رجلًا بين يديّ في الصَّفِّ حسن الوقار ، ظاهر الخشوع ، دائم الصلاة ، لم يزل يتنفَّل مُذْ دخل المسجد إلى قرب قيام الصلاة ، ثم جلس ، قال : فعلَتْني هَيْبتُه ، ودخل قلبي محبته ، ثم أقيمت الصلاةُ فلم يُصَلِّ مع الناس الجمعة ، فَكَبُرَ عليَّ ذلك من أمره ، وتعجَّبْتُ من حاله وغاظني فعله ، فلما قُضيت الصلاة تقدمتُ إليه ، وقلت له : أيها الرجل ، ما رأيتُ أعجب من أمرك ! أطلتَ النافلةَ وأحسنتها ، وتركت الفريضة وضَيَّعْتها ؟! فقال : يا هذا ، إنَّ لي عذرًا ، وبي علةٌ منعتني عن الصلاة ، قلت : وما هي ؟ فقال : أنا رجلٌ عليَّ دَيْنٌ اختفَيتُ في منزلي مدةً بسببه ، ثم حضرتُ اليوم الجامع للصلاة ، فقبل أن تقام التفتُّ فرأيتُ صاحبي الذي له الدَيْن عليَّ ورائي ، فمن خوفِه أحدثتُ في ثيابي ، فهذا خبري ، فأسألك بالله إلَّا سترتَ عليَّ وكتمتَ أمري . قال : فقلت : وَمَن الذي له عليك دَيْن ؟ قال : دعلج بن أحمد ، قال : وكان إلى جانبه صاحبٌ لدعلج قد صلَّى وهو لا يعرفه ، فسمع هذا القول ،

ومضى في الوقت إلى دعلج ، فذكر له القصة ، فقال لهُ دعلج : امض إلى الرجل واحْمله إلى الحمام ، واطرح عليه خُلْعةً من ثيابي ، وأجلسْه في منزلي حتى أنصرف من الجامع ، ففعل الرجل ذلك ، فلما انصرف دعلج إلى منزله أمر بالطعام فأُحضرَ ، فأكل هو والرجل ، ثم أخرج حِسَابَه فنظر فيه ، وإذا له عليه خمسة آلاف درهم ، فقال له : انظر لا يكون عليك في الحساب غلط أو نَسِيٌّ نقدٍ . فقال الرجل : لا ، فضرب دعلج على حسابه . وكتب تحته علامة الوفاء ، ثم أحضر الميزان ووزن خمسة آلاف درهم وقال : أمَّا الحساب الأول فقد حللناك مما بيننا وبينك فيه ، وأسألك أن تقبل هذه الخمسة آلاف الدرهم ، وتجعلنا في حلٍّ من الروعة التي دخلت قلبك برؤيتك إيَّانا في مسجد الجامع .

وأودع أبو عبد الله بن أبي موسى الهاشميّ عشرة آلاف دينارٍ ليتيم ، فضاقت يده فامتدت إليها ، فأنفقها وحلَّ موعدُ فَكِّ الحجر عن الغلام ، وضاقتْ بالهاشمي الأرضُ بما رَحُبَتْ ، فذهب إلى دعلج وقصَّ عليه القصة ، فأعطاه إياها ، حتى كاد عَقْلُه يطير فرحًا ، وبعد ثلاث سنين أتى بها إلى دعلج شاكرًا فما قبلها ، وقال : يا سبحانَ الله ، والله ما خَرجتْ الدنانيرُ عن يدي فنويت آخذ عِوَضها ، حَلِّ بها الصِّبْيان »[1].

لُؤلُؤ العَادلي ، الحاجب ، من أبطال الإسلام :

خدم مع صلاح الدِّين ، وفي آخر أيامه أقبل على الخير والإنفاق في زمن قَحْطِ مصر ، وكان يتصدق في كل يوم باثني عشر ألف رغيفٍ مع عدة قُدُورٍ من الطَّعام[2].

---

(١) تاريخ بغداد ٨ / ٣٨٩ - ٣٩١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٣٨٤ - ٣٨٥ .

عَبْدُ القَادِر الجِيلانّي :

قال الإمام الرَّبَّاني عبد القادر الجيلاني : « فَتَّشتُ الأعمال كلَّها ، فما وجدتُ فيها أفضل من إطعام الطعام ، أوَدُّ لو أن الدنيا بيدي فأُطْعِمُهَا الجياعَ ، كَفِّي مثقوبةٌ لا تضبط شيئًا ، لو جاءني ألفُ دينارٍ لم أبيِّتها »[١] .

شيخُ الإسلام ابن تَيْمِيَة :

قال الذهبي عن شيخ الإسلام : « هو أحد الأَجْوادِ الأسخياء الَّذين يُضْرَبُ بهم المَثَل »[٢] .

وقال الحافظ عمر البزّار في « الأعلام العليَّة في مناقب ابن تيمية » (٦٣ - ٦٧) :

كان رضي الله عنه مجبولًا على الكرم ، وما شدَّ على دينارٍ ولا درهمٍ قطُّ ، بل كان مَهْمَا قدر على شيءٍ من ذلك ، يجود به كله ، وكان لا يردُّ من يسأله شيئًا يقدر عليه من دراهم ولا دنانير ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك .

بل ربَّما كان يسأله بعضُ الفقراء شيئًا من النفقة ، فإن كان حينئذٍ متعذرًا لا يَدَعهُ يذهب بلا شيءٍ ، بل كان يَعْمَدُ إلى شيءٍ من لباسه فيدفعه إليه . وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله .

قال الشيخ عبد الله بن أحمد بن سعيد : كنتُ يومًا جالسًا بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه ، فجاءه إنسان فسلَّم عليه ، فرآه الشيخ مُحتاجًا إلى ما يعتَمُّ به ، فنزع الشيخ عمامته ، من غير أن يسأله الرجل ذلك ، فقطعها نصفين ، واعْتَمَّ بنصفها ، ودفع النصف الآخر إلى ذلك

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٤٤٧ .
(٢) العقود الدرية لابن عبد الهادي صـ ٢٣ .

الرجل ، ولم يحتشم للحاضرين عنده .

وكان الشيخُ مَارًّا يومًا في بعض الأزقَّة ، فدعا له بعض الفقراء ، وعرف الشيخ حاجتهِ ، ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه ، فنزع ثوبًا على جلده ودفعه إليه ، وقال : بِعْهُ بما تيسَّر وأنفقه ، واعتذر إليْه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة . وكان لا يردُّ أحدًا يسأله شيئًا من كتبه ، بل يأمره أن يأخذَ هو بنفسه ما يشاء منها .

وحكى غيرُ واحدٍ ما اشتهر عنه من كثرة الإيثار ، وتَفَقُّد المحتاجين والغرباء ، ورقيقي الحال من الفقهاء والقُرَّاء ، واجتهاده في مصالحهم وصلاتهم ، ومساعدته لهم ، بل ولكل أحدٍ من العامة والخاصة ممن يُمكنه فعل الخير معه ، وإسداء المعروف إليه بقوله وفعله ، ووجهه وجاهه[١].

عِكْرَمةُ الفَيَّاض الرّبعي ، جَابِرُ عَثَراتِ الكِرَام :

كان في أيَّام سليمان بن عبد الملك رجلٌ يقال له : خزيمة بن بشر ، من بني أسد بالرقَّة ، وكان له مروءةٌ ونعمة حسنة ، وفضلٌ وبرٌّ بالإخوان ، فلم يزل على تلك الحال حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يتفضَّل عليهم ، فواسَوْه حينًا ثم مَلُّوه ، فلما لاح تغيُّرهم أتى امرأته - وكانت ابنة عمه - فقال لها : يا ابنة عمي ، قد رأيتُ من إخواني تغيُّرًا ، وقد عزمتُ على لزوم بيتي إلى أن يأتيني الموت ، ثم إنه أغلق بابه ، وأقام يتقوَّتُ بما عنده حتى نفد ، وبقي حائرًا في حاله ، وكان عكرمة الفياض الربعي واليًا على الجزيرة ، فبينما هو في مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد ، إذ جرى ذِكْرُ خزيمة بن بشر في مجلسه ، فقال عكرمة : ما حاله ؟ فقالوا : صار من سوءِ الحال إلى

(١) الأعلام العليّة في مناقب ابن تيمية ، للبزار صـ ٥٠ .

أمرٍ لا يُوصف ، فأغلق بابه ولزم بيته . فقال الفيّاض : فما وَجَدَ خزيمةُ بن بشر مواسيًا ولا مكافِئًا ؟! قالوا : لا . فأمسك ، ثم لمَّا كان الليل عمد إلى أربعةِ آلافِ دينارٍ ، فجعلها في كيس واحد ، ثم أمر بإسراجِ دابَّته ، وخرج سرًّا من أهله ، فَرَكِبَ ومعه غلامٌ من غلمانه يحمل المال ، ثم سار حتى وقف بباب خزيمة ، ثم أخذ الكيس من الغلام ، ثم أبعده عنه ، وتقدَّم فدفعه بنفسه ، فخرج إليه خزيمة ، فناوله الكيس وقال : أَصْلِحْ بهذا شأنك . فتناوله ، فرآه ثقيلًا ، فوضعه ، ثم أمسك بلجام الدابة ، وقال له : مَنْ أنت جُعلتُ فداك ؟ فقال : يا هذا ، ما جئتك في هذه السَّاعة وأنا أريد أن تعرفني . قال خزيمة : فما أقبله أوْ تُعرِّفني من أنت . قال : أنا جابر عثرات الكرام . قال : زدني . قال : لا مزيد . ثم مضى ، ودخل خزيمة بالكيس إلى امرأته فقال لها : أبشري ، فقد أتى الله بالفرج والخير ، ولو كان هذا فلوسًا فهو كثير ، قومي فأسرجي . قالت : لا سبيل إلى السِّراج ، فبات يلمسها فيجد خشونة الدنانير ولا يصدّق ، فرجع عكرمة إلى منزله فوجد امرأته قد افتقدته وسألت عنه ، فأُخبرت بركوبه منفردًا ، فارتابت فشقّت جيبها ولطمت خدَّها ، فلما رآها على تلك الحال قال لها : ما دَهَاكِ ؟ قالت : يا ابن عمي ، غدرتَ . قال : وما ذاك ؟ قالت : أميرُ الجزيرة يخرج بعد هدوءٍ من الليل منفردًا عن غلمانه ، في سرٍّ من أهله إلّا إلى زوجةٍ أو سُرِّيّة ؟ قال : لقد علم اللهُ ما خرجت إلى واحدة منهما . قالت : فخبِّرني فيمَ خرجت ؟ قال : يا هذه ، لم أخرج في هذا الوقت ، وأنا أريد أن يعلم بي أحدٌ . قالت : لابدّ أن تخبرني بالقصة . قال : فاكْتُميهِ إذًا . قالت : أفعل . فأخبرها بالقصة على وجهها ، وما كان من قوله له وردّه عليه ، ثم قال لها : أتحبين أن أحلف لك ؟ قالت : لا ، فإن قلبي قد سَكَنَ إلى ما ذكرت . فلما أصبح خزيمة صالحَ الغُرَمَاء ، وأصلح حاله ، ثم تجهَّز

يريد سليمان بن عبد الملك بفلسْطِين ، فلما وقف ببابه دخل الحاجب فأخبره بمكانه - وكان مَشْهورَ المروءة ، وكان سليمان به عارفًا - فأذن له ، فلما دخل عليه وسلّم بالخلافة . قال : يا خزيمة ، ما أبطأكَ عنَّا ؟ قال : سوءُ الحال . قال : فما منعك من النَّهْضة إلينا ؟ قال : ضعفي . قال : فبمَ نهضتَ ؟ قال : لم أعلم بعد هدوءٍ من الليل إلا ورجل طرق بابي ، فكان منه كَيْتَ وكَيْتَ ، وأخبره بقصَّته من أولها إلى آخرها ، فقال له : هل تعرفه ؟ قال : ما عرفتُه يا أميرَ المؤمنين ، وذلك أنه كان متنكرًا ، وما سمعتُ منه إلا : « جابر عثرات الكرام » . فتلَهّفَ سليمانُ على معرفته وقال : لو عرفناه لأعنَّاه على مروءته ، ثم قال : عليَّ بقناةٍ . فعقد لخزيمة الولاية على الجزيرةِ التي على عَمَلِ عِكرمة الفيَّاض ، فخرج خزيمة طالبًا الجزيرة ، فلما وصل إليها خرج عكرمةُ وأهل بلده للقائه ، فسلّم عليه ، ثم سارَا جميعًا إلى أنْ دخلَا جميعًا ، فنزل خزيمةُ دارَ الإمارة ، وأمر أن يُؤخذ عكرمة بكفيلٍ وأن يُحاسب ، فحوسب فوُجد عليه فضولٌ كثيرة ، فطالبه بأدائها ، قال : ما لي إلى شيءٍ منها سبيل . قال : لابدَّ منها . قال : ما هي عندي ، فاصنع ما أنت صانع . فأمر به إلى الحَبْس ، ثم بعث إليه يطالبه ، فأرسل إليه : لستُ ممن يصون ماله بعرضه ، فاصْنعْ ما شئت . فأمر به فكُبِّل بالحديد ، وضُيِّق عليه ، وأقام كذلك شهرًا أو أكثر ، فأضناه ذلك وأضرَّ به ، وبلغ ابنةَ عمه ضُرُّه ، فجزعتْ واغتمتْ لذلك ، ثم دعت مولاةً لها ذات عقل . فقالت : امضِ السَّاعة إلى باب هذا الأمير خزيمة ابن بشر ، فإذا دخلتِ عليه فسليه أن يُخْلِيَك ، فإذا فعل فقولي له : ما كان هذا جزاءُ « جابر عثرات الكرام » منك أن كافأتَه بالحَبْس والضيق والحديد ، ففعلتْ ذلك ، فلما سمع خزيمة قولها قال : وَاسَوْءَتَاهُ ، وإنَّه لهو ؟ قالت : نعم . فأمر من وقته بدابته فأُسرجتْ ، وبعث إلى وجوه أهل

البلد فجمعهم ، وأتى بهم إلى الحبس ففُتح ، ودخل خزيمة ومن معه ، فلقي عكرمةَ في قاعة الحبس متغيِّرًا ، قد أضناه الضرّ ، فلما نظر إليه عكرمةُ وإلى الناس أحْشَمَه ذلك ، فنكَّسَ رأسه إليه وقال : ما أعقبَ هذا منك ؟ قال : كريمُ فعالك وسوءُ مكافأتي . قال : يغفرُ الله لنا ولك ، ثم أمر بالحـدّاد ففكَّ القيد عنه ، وأمر خزيمة أن يوضع في رجله نفْسه ، فقال عكرمة : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن ينالني من الضرّ مثل ما نالك ! فقال : أُقسم عليك بالله ألا تفعل . فخرجَا جميعًا إلى أن وصلَا إلى دار خزيمة ، فودَّعه عكرمة وأراد الانصراف ، فقال له : ما أنت ببارحٍ ، قال : فماذا تريد ؟ قال : أُغيِّرُ من حالك ما رَثَّ ، وحيائي من ابنة عمك أشدُّ من حيائي منك ، ثم أمر بالحمَّام فأخْلي ، فدخلَا جميعًا ، ثم قام خزيمة فتولى خدمته بنفسه ، ثم خرجَا ، فخلع عليه وجمَّله ، وحمل إليه مالًا كثيرًا ، ثم سار معه إلى داره ، واستأذن في الاعتذار من ابنة عمه فأذن له ، فاعتذر إليها وتذمَّمَ من ذلك ، ثم سأله بعد ذلك أن يسير معه إلى أمير المؤمنين سليمان ابن عبد الملك ، وهو يومئذ مقيمٌ بالرملة ، فأنعم له بذلك ، فسارَا جميعًا حتى قدمَا على سليمان بن عبد الملك ، فدخل الحاجبُ فأعلمه بقدومِ خزيمة بن بشر ، فَرَاعَه ذلك ، وقال : والي الجزيرة يَقْدم بغير أمْرِنَا ، ما هذا إلَّا لحادثٍ عظيم ، فلما دخل عليه قال له قبل أن يُسَلم : ما وراءك يا خزيمة ؟ قال : خير يا أمير المؤمنين . قال : فما الذي أقدمك ؟ قال : ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسرَّك ، لِمَا رأيتُ من تلهفك عليه وتشوُّقك إلى رؤيته . قال : ومن هو ؟ قال : عكرمة الفيّاض ، فأذن له بالدخول ، فدخل وسلَّم عليه بالخلافة ، فرحَّب به وأدناه من مجلسه . فقال له : يا عكرمة ، ما كان خَيْرُكَ لخزيمة إلَّا وَبَالًا عليك ، ثم قال له : اكتب حوائجك كلَّها وما تختاره في رقعة . قال : أَوَ تعفِيني يا أمير المؤمنين ؟

قال : لابدَّ من ذلك . ثم دعا بدواة وقرطاس وقال : اعتزل واكتب جميع حوائجك ، ففعل ذلك ، فأمر بقضائها جميعًا من ساعته ، وأمر له بعشرة آلاف دينارٍ ، وبِسفْطَيْن ثيابًا ثم دعا بقناةٍ وعَقَد له على الجزيرة وأرْمينيًّا وأذربيجان ، وقال له : أَمْرُ خزيمة إليك ، إن شئتَ أبقيته ، وإن شئت عزلته . قال : بل أردُّه إلى عمله ، ثم انصرفا جميعًا ، ولم يزالا عاملَيْن لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته[1] .

كَرَمُ رجلٍ مع قاتلِ أبيه :

عن الحسن بن خضر قال : لما أفضتِ الخلافةُ إلى بني العباس اختفتْ رجالٌ من بني أُميَّة ، وكان فيمن اختفى إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك ، حتى أَخَذ له داود بن العباس أمانًا ، وكان إبراهيم رجلًا حَدُثًا[2] ، فَخُصَّ بأبي العباس ، فقال له يومًا : حدّثني عن ما مرَّ بك في اختفائك ؟ قال : كنتُ - يا أميرَ المؤمنين - مختفيًا بالحِيرَةِ ، في منزلٍ شارع إلى الصحراء ، فبينا أنا على ظهر بيتٍ إذْ نظرتُ إلى أعلامٍ سود قد خرجتْ من الكوفة تريد الحيرة ، فوقع في رُوعي أنها تريدني ، فخرجتُ من الدار متنكِّرًا ، حتى أتيتُ الكوفة ، ولا أعرف بها أحدًا أختفي عنده ، فبقيتُ مُتلدِّدًا[3] ، فإذا بباب كبير ، ورحبة واسعة ، فدخلت فيها ، فإذا رجل وسيم الهيئة على فرسٍ قد دخل الرحبة ، ومعه جماعةٌ من غلمانه وأتباعه ، فقال : من أنت ؟ وما حاجتك ؟ فقلت : رجل مختفٍ يخاف على دمهِ ، استجار بمنزلك . فَأَدْخَلَني

---

(١) المستجاد من فعلات الأجواد صـ ١٨ - ٢٢ ، لأبي القاسم التنوخي ، ط . دار العرب .

(٢) أي كثير الحديث ، حسن السياقة له .

(٣) التلدد : أنْ يحتارَ فيلتفتُ يمينًا وشمالًا .

منزله ، ثم صَيَّرني في حجرة تلي حُرمه ، وكنت عنده فيما أُحبُّ من مطعمٍ ومشرب وملبس ، ولا يسألني عن شيءٍ من حالي ، إلّا أنه يركب في كل يوم رَكْبة ، فقلتُ له يومًا : أراك تُدْمن الركوب ، ففيم ذلك ؟ فقال : إن إبراهيم بن سليمان قتل أبي صبرًا ، وقد بلغني أنه مُخْتفٍ ، وأنا أطلبه لأدرك منه ثأري . فكثر والله تعجُّبي ؛ إذْ ساقني القدرُ إلى حتفي في منزل من يطلب دمي ! وكرهتُ الحياة ، فسألتُ الرجل عن اسمه واسم أبيه فخبّرني ، فعرفت أن الخبر صحيح ، وأنا قتلتُ أباه صبرًا ، فقلتُ : يا هذا ، قد وَجَبَ عليّ حَقُّك ، ومن حقك عليَّ أن أدلك على خصمك ، وأُقرِّب عليَّ الخطوة . قال : وما ذاك ؟ قلت : أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك ، فخذ بثأرك . فقال : إني أحسبك رجلًا قد مَضَّه[1] الاختفاء فأحبَّ الموت . فقلت : بل الحق ما قلت لك ، أنا قتلته يوم كذا وكذا ، بسبب كذا وكذا ، فلما عرف صدقي ارْبَدّ وجهه واحمرت عيناه ، وأطرق مَليًّا ، ثم قال : أمّا أنت فستلقى أبي فيأخذ بثأره منك ، وأمَّا أنا فغير مُخْفِرٍ ذمَّتي ، فاخرج عني ، فلستُ آمن نفسي عليك . وأعطاني ألفَ دينار . فأخذتها وخرجت من عنده . فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين[2].

عبد الحمِيد بن سَعْد ، أمير مِصْر :

أجدب الناسُ بمصرَ وعبد الحمِيد بن سعد أميرهم ، فقال : والله لأعلمنَّ الشيطان أني عدوه ؛ فَقَالَ[3] مَحَاوِيجَهُم إلى أن رَخُصَت الأسعار ، ثم عُزل عنهم ، فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم ، فرهنهم بها حليَّ نسائه

---

(١) مضه وأمَضَّه ؛ أي شقَّ عليه .
(٢) لباب الآداب ١٢٨ - ١٢٩ .
(٣) يعني أقال .

وقيمتها خمسمائة ألف ألف ، فلما تعذَّر عليه ارتجاعُهَا كَتَب إليهم بيعها ، وَدَفَعَ الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صِلاته[١] .

أبو مَرْثَد :

وكان أبو مرثد أحد الكرماء ، فمدحه بعض الشعراء ، فقال للشاعر : والله ما عندي ما أعطيك ، ولكن قدِّمْني إلى القاضي ، وادّع عليَّ بعشرة آلاف درهم حتى أقرَّ لك بها ، ثم احبسني ، فإن أهلي لا يتركوني محبوسًا . ففعل ذلك ، فلم يُمْسِ حتى دُفع إليه عشرة آلاف درهم . وأُخرج أبو مرثد من السجن[٢] .

سَعيد بن خالد :

دخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك ، وكان سعيد رجلًا جوادًا ، فإذا لم يجد شيئًا كتب لمن سأله صَكًّا على نفسه حتى يَخْرج عطاؤه ، فلمّا نظر إليه تمثَّل بهذا البيت فقال :

إني سمعتُ مع الصَّباحِ مُناديًا ... يَا مَنْ يُعينُ على الفَتى المِعْوانِ

ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : دَيْنٌ عليَّ ، قال : وكم هو ؟ قال : ثلاثون ألف دينار . قال : لك دينك ومثله .

الأَشْعَث بن قَيْس :

عن الأغرِّ : كان الأشعث بن قيس لا يَقْدم من سفرٍ فيصلي الفجر إلَّا كَسَا أهل المسجد وَوَصَلهم ، قال : وكانت لي على رجلٍ من كِنْدة ألف وخمسمائة درهم ، فأتيته أتقاضاه ، فقال : ما عندي شيءٌ ، ولكن الأشعث

---

(١) إحياء علوم الدين ٣ / ٢٦٣ .

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ٣ / ٢٦٣ .

قد قدم اليوم ، وما قدم من سفرٍ قَطُّ فصلَّى الفجر في المسجد إلا كَسَا ووصل ، فاحْضرْنا بالغداة فصَلِّ معنا ، فإني لأرجو أنْ تأخذ مَالَكَ . قال : فصليتُ معهم الفجر ، فلما سلَّم الإمامُ قام رجل فقال : أيُّهَا القوم ، أقيموا في صفوفكم ، ثم أعطى كلَّ رجلٍ حلةً وخمسمائة درهم ، فقال : فجاءني الرجل فأعطاني الخمسمائة درهم التي دُفعتْ إليه ، وأُعطيت أنا خمسمائة أخرى لنفسي ، فانصرفتُ بألف درهم[١] .

حَمَّاد بن أبي سُلَيْمان :

قال الشافعي : لا أزال أحب حمّاد بن أبي سليمان لشيءٍ بلغني عنه ؛ أنه كان ذات يوم راكبًا حماره فحرَّكه فانقطع زرُّه ، فمرَّ على خيَّاطٍ ، فأراد أن ينزل إليه ليُسوي زرَّه ، فقال الخيّاط : والله لا نزلتَ . فقام الخيّاط إليه فسوّى زرَّه ، فأخرج إليه صُرَّة فيها عشرة دنانير ، فسلَّمها إلى الخيّاط واعتذر من قلَّتها . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه :

يَا لَهْفَ قلبي على مالٍ أجُودُ به ... على المُقِلِّينَ من أهل المروءاتِ
إنَّ اعتذاري إلى مَنْ جاء يسألني ... ما ليس عندي من إحدى المصيباتِ

شعبة بن الحجاج :

جاء سائلٌ إلى شعبة وليس عنده شيء ؛ فنزع خَشَبَةً من سقف بيته ثم اعتذر إليه[٢] .

قال عبد الملك بن مَرْوان لأسماء بن خارجة : بلغني عنك خصالٌ ، فحدِّثْني بها . فقال : هي من غيري أحْسَن منها مني ، فقال : عزمتُ عليك

---

(١) لباب الآداب صـ ١٠٤ .
(٢) إحياء علوم الدين ٣ / ٢٧٣ .

إلَّا حدّثتني بها . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما مددتُ رِجلي بين يدي جليسٍ لي قطُّ ، ولا صنعتُ طعامًا قطّ فدعوتُ عليه قومًا ، إلَّا كانوا أمَنّ عليَّ مني عليهم ، ولا نَصَبَ لي رجلٌ وجهَهُ قطُّ يسألني شيئًا فاستكثرتُ شيئًا أعطَيتُه إيَّاهُ[(١)] .

كَهْمَس العابد :

عن إسحاق بن إبراهيم قال : دخلنا على كهمس العابد رحمه الله ، فقدَّم إلينا إحدى عشرة تمرة حمراء ، وقال : هذا الجهد من أخيكم ، والله المستعان[(٢)] .

عن بكر بن عبد الله المُزَني رحمه الله ، قال : إذا أتاك الضَّيفُ فلا تنتظر به ما ليس عندك ، وتمنعه ما عندك ، قدِّمْ له ما حَضَر ، وانتظر بعد ذلك ما تريد من إكرامه .

الشيخ عبد العزيز بن باز :

وما ظنُّك بكرم إمامٍ ما أكل طعامًا إلَّا بحضرة الضيف أو العلماء أو طلبةِ العلم طيلة ثلاثين عامًا ، وَتُمَدُّ الموائد دائمًا ببيته ، فيتناول الناسُ من طعامه ، وينهلون من علمه ، ويتعلّمون من أدبه وخلقه . وما ادَّخر شيئًا من مالٍ ، إنما يُنفقه على طلبة العلم . لله دَرُّه .



---

(١) إحياء علوم الدين ٣ / ٢٦٥ .

(٢) لباب الآداب صـ ٨٠ .

□ صُورٌ من الإنفاق في سبيل الله □

أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه :

قال أنس : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخلٍ ، وكان أحَبّ أمواله إليه بَيْرَحَاء ، وكانت مُسْتقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طَيِّب . قال أنس : فلمَّا أُنزلت هذه الآية : ﴿ **لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ وإن أحَبَّ أموالي إليّ بيرحاء ، وإنها صدقة لله أرجو بِرَّها وَذُخْرها عند الله ، فَضَعْها يا رسول الله حيث أراك الله ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « **بَخٍ ، ذلك مالٌ رابحٌ ، ذلك مال رابح** ، وقد سمعتُ ما قلتَ ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين » . فقال أبو طلحة : أفْعَلُ يا رسول الله . فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه[1].

الرَّبيع بن خُثَيم :

عن منذر أن الرَّبيع كان إذا أخذ عطاءه فرَّقه ، وتَرَكَ قَدْرَ ما يكفيه[2].

وروى بشير بن دعلوف عن الربيع بن خثيم أنه وقف سائلٌ على بابه فقال : أطعموه سُكّرًا ؛ فإن الربيع يحب السُّكّر[3].

---

(١) رواه البخاري في كتاب « الزكاة » ، باب « الزكاة على الأقارب » ، ومسلم ومالك والترمذي والنسائي .

(٢) السير ٤ / ٢٥٨ - ٢٦٢ .

(٣) « التبصرة » لابن الجوزي ٢ / ٢٥٥ .

« وكان الربيع - رحمه الله تعالى - لا يُعطي السائل كِسرةً ولا شيئًا مكسورًا ولا ثوبًا خَلِقًا ، ويقول : أستحيي أن تُقرأ صحيفتي على الله تعالى وفيها الأشياء التافهة التي أعطيتها لأجله »(١) .

وعن منذر الثوري ، عن ربيع بن خُثيم أنه قال لأهله : اصنعوا لنا خَبيصًا . فصُنِع ، فدعا رجلًا كان به خَبَل ، فجعل يُلقمه ولُعابُه يسيل ، فلمّا أكل وخرج ، قال له أهله : تكلّفنا وصنعْنا ثم أطعمتَهُ ، ما يدري هذا ما أكَل ! قال الربيع : لكنّ الله يدري(٢) .

إبراهيم التّيْمي :

كان رحمه الله يجمع كلَّ قليل جماعةً من الفقراء ، ويُجلسهم في المسجد ، ويقول لهم : تعبَّدُوا وأنا أقوم بخدمتكم ومُؤْنَتِكم(٣) .

أبو حفص النَّيْسابُورِي :

الإمام القُدوة الرَّبَّانّي شيخ خُراسان .

قال عنه الذهبي في ترجمته في السير (١٢ / ٥١٠ - ٥١٣) :
« أنفذ في يومٍ واحد بضعة عشر ألف دينار يفتكُّ به أَسْرى ، فلمَّا أمسى لم يكن له عشاء » .

الحافظ عبد الغنّي المَقْدِسّي :

قال الضِّياء المقدسي : رأيت يومًا قد أُهدي إلى بيت الحافظ مشمش ، فكانوا يفرِّقون ، فقال من حينه : فرِّقوا ﴿ **لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما**

---

(١) تنبيه المغترين للشعراني صـ ٩٣ .
(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٧ / ١٠٠ .
(٣) تنبيه المغترين صـ ٩١ .

تحبون ﴾ [آل عمران : ٩٢] . وقد فُتح له بكثيرٍ من الذهب وغيره ، فما يترك شيئًا ، حتى قال لي ابنُه أبو الفتح : والدي يعطي الناس الكثير ، ونحن لا يبعث إلينا شيئًا[1].

حَمَّاد بن أبي سليمان :

كان رحمه الله ذا دنيا متَّسِعة ، وكان يفطِّر في رمضان خمسمائة إنسان ، وكان يُعطِيهم بعد العيد لكلِّ واحدٍ مائة درهم[2].

أبو جَعْفر القارئ :

قال الذهبي في السير (٥ / ٢٨٧ ، ٢٨٨) : كان أبو جعفر يتصدّق حتى بإزاره .

جعفر الصادق بن محمد بن علي :

قال الذهبي في ترجمة جعفر في السير (٦ / ٢٥٥ - ٢٧٠) : « عن هيّاج بن بِسْطام قال : كان جعفر بن محمد يُطعم حتى لا يبقى لعياله شيء » .

قال تعالى : ﴿ **مَنْ ذَا الذي يُقرض الله قَرضًا حسنًا فيُضاعفه له أضعافًا كثيرة والله يقبض ويبسُط وإليه تُرْجَعُون** ﴾ [البقرة : ٢٤٥].

وقال تعالى : ﴿ **الذين يُنفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانيةً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ . [البقرة : ٢٧٤].

* * *

(١) انظر ترجمة الحافظ عبد الغني في « السير » ٢١ / ٤٤٣ - ٤٧١ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٣١ - ٢٣٩ .

أبو الدَّحْدَاح رضي الله عنه :

عن أنس بن مالك أن رجلًا قال : يا رسول الله ، إن لفلان نَخْلَة ، وأنا أُقيم حائطي بها ، فمُره أن يُعطيني حتى أُقيم حائطي بها . فقال له النبي ﷺ : « أعطها إياه بنخلةٍ في الجنة » . فأبى . وأتاه أبو الدحداح فقال : بعني نخلتك بحائطي . قال : ففعل . قال : فأتى النبيَّ ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني قد ابتعتُ النخلة بحائطي ، فجَعَلَهَا له ، فقال رسول الله ﷺ : « كم مِنْ عِذْقٍ رِدَاحٍ لأبي الدّحْداح في الجنة » . مرارًا ، فأتى امرأته فقال : يا أمَّ الدَّحداح ، اخرجي من الحائط ، فإني بعتُه بنخلةٍ في الجنة . فقالت : قد ربحتَ البيع . أو كلمة نحوها[1].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رُبَّ عذقٍ مُذَلَّلٍ لابن الدَّحداحة في الجنة »[2].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كم من مُعلَّقٍ لأبي الدّحداح في الجنة »[3].

زيد بن عَمْرو بن نُفَيل رضي الله عنه :

وكان من الأحناف ، مات وهو في طريقه إلى مكّة .

قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها : لقد رأيت زيد بن عمرو

---

(١) إسناده رجاله ثقات . والحديث أخرجه الحاكم في « المستدرك » عن أبي النضر ، وقال : صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبي ، وأخرجه ابن حبان في « صحيحه » ٩ / ١٤٤ رقم (٧١١٥) .

(٢) صحيح . رواه ابن سعد عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٤٨٣) .

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي .

ابن نفيل قائمًا مُسنِدًا ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش ، والله ما فيكم أحد على دين إبراهيم غيري . وكان يُحيي المَوْءودة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : مَهْ ، لا تَقْتُلْهَا ، أنا أكفيك مُؤْنَتَهَا . فيأخُذُها فإذا ترعرعتْ قال لأبيها : إن شئتَ دفعتها إليك ، وإن شئتَ كفيتُك مؤنتها[1] .

كم بَيْنَكَ وَبَيْنَ المَوْصوفين ؟! كم بين المجهولين والمعروفين ؟! آثرتَ الدنيا وآثروا الدِّين ، فتَلَمَّحْ تفاوُتَ الأَمْر يا مِسْكِين .

* * *

(١) رواه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » ١٣٩/٨ . وهذا حديث صحيح .

□ سَجْعٌ على قولِه تعالىٰ : ﴿ لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ □

حَرِّكُـوا هِمَمَكم إلى الخـير وأزْعِجُوا ، وحثُّوا عزائمكم على الجِدِّ وأدْلِجُوا ، والتفتوا عن الحِرْص على المال وَعَرِّجُوا ، وآثِروا الفقير بما تُؤْثِرون ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ .

وَيْحَكُم ، السَّيْر حَثِيث ، ولا مُنجد لكم ولا مُغِيث ، فبادِرُوا بالصَّدقة المواريث ﴿ **ولا تيمَّمُوا الخبيث منه تُنفقون** ﴾ .

كَم قطعت الآمال بتًّا ، كَم مُصَيِّفٍ ما أرْبَعَ ولا شتَّى ، كَم عازمٍ على إخـراج المـال ما تَأَتَّى ، سبقته المَنُـون ﴿ **لَنْ تنالوا البر حـتى تنفقـوا مما تحبون** ﴾ .

يا حريصًا ما يستقِرّ ، يا طَالِبًا للدنيا ما يقِرّ ، إن كنتَ تُصَدِّق بالثواب فتصدَّق في السِّرِّ بالمحبوب المَصُون ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ .

يا بخيلًا بالفتيل ، وشحيحًا بالنَّقِير ، يا صريعًا بالهوىٰ إلى متى عَقِير ، تختار لنفسك الأجود ولرَبِّك الحقير ، وما لا يصلُح لك من الشيء تُعطيه الفقير ، فما تختار لنا كذا يكون ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ .

اكْتِسـابُكَ على أغـراضك أنْفَقْـتَ ، أمْرَجْتَ نَفْسَـكَ في الشهـوات وأطْلَقْتَ ، ونسيتَ الحساب غدًا وما أشْفَقْتَ ، فَإذا رحمتَ الفقير وتصدَّقت ، أعطيتَ الرَّدِيَّ الدُّون ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ .

أمَّا المسكين أخوك من الوالِدَيْن ، فكيف كَفَفْتَ عن إعطائه اليَدَيْن ، كيف تحثُّ على النَّفْلِ والزَّكاةُ عليك دَيْن ، وأنتم فيها تتأوَّلُون ﴿ **لن تنالوا**

البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ .

يا وحيدًا عن قليل في رَمْسِه ، يا مُسْتَوْحِشًا في قبره بعد طُول أُنسه ، لو قدّم خيرًا نَفَعه في حَبْسه ﴿ **ومن يُوقَ شُحّ نَفْسِهِ فأولئك هم المفلحون** ﴾ .

تجمعُ الدينار على الدينار لغيرك ، وينساك مَنْ أخذ كلَّ خَيْرِكَ ، ولا تزوّدْتَ منه شيئًا لسَيْرِكَ ، هذا هو الجنون ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾[1].

* * *

(١) التبصرة ٢ / ٢٦٠ .

□ كلماتٌ عَطِرة في الجُودِ والكَرَم □

قال أكْثَم بن صَيْفِي حكيمُ العرب : ذَلِّلُوا أخلاقكم للمطالب ، وقُودوها إلى المحامد ، وعَلِّموها المكارم ، ولا تُقيموا على خُلُقٍ تَذُمُّونه من غيركم ، وصِلوا من رَغِبَ إليكم ، وتَحَلُّوا بالجُود يُكسبكم المحبة ، ولا تعتقدوا البخل فتتعجّلوا الفقر .

وقال محمود الورَّاق :

مَنْ ظَنَّ بالله خيرًا جَادَ مُبتدِئًا وَالبُخْلُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ المَرْءِ باللهِ

وقال عبد الله بن عباس : سادات الناس في الدنيا الأسخياء ، وفي الآخرة الأتقياء .

وقال أبو مسلم الخولاني : ما شيءٌ أحسن من المعروف إلّا ثوابه ، وما كُلّ من قَدَر على المعروف كانت له نِيَّة ، فإذا اجتمعت القُدرة والنِّيَّة تمَّت السَّعادة . وأنشد :

إن المكارمَ كُلَّها حَسَنٌ والبذلُ أحْسَنُ ذلك الحسنِ
كم عارفٍ بَي لستُ أعرفُهُ ومُخَبِّرٌ عنّي وَلَمْ يَرَني
يأتيهمُ خبري وإن بَعُدتْ داري وبُوعِدَ عنهمُ وطني
إنّي لحُرِّ المال مُمْتَهِنٌ ولحُرِّ عِرْضَي غيرُ مُمْتَهِنِ

وقال خالد بن عبد الله القَسْرِيّ : من أصابه غُبار مركبي ، فقد وَجب عليَّ شكرُه .

تَمثّل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال :

إن الصَّنِيعَةَ لا تكون صنيعةً حتى يُصابَ بها طريقُ المصنعِ

فإذا اصطنعتَ صنيعةً فاعْمِدْ بها ... لله أو لـذوي القـرابة أو دَعِ

فقال عبد الله بن جعفر : إن هذين البيتين ليُبَخِّلان الناس ، ولكن أمطر المعروف مطرًا ، فإن أصاب الكرامَ كانوا له أهْلًا ، وإن أصاب اللِّئام كنتَ له أهلًا .

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : والله لَرَجُلٌ ذَكَرني ، ينام على شِقّةٍ مرة وعلى شقةٍ أُخرى ، يراني موضعًا لحاجته ، لَأَوْجَبَ عليَّ حقًا إذا سألنيها مني ، إذن قضيتُها له .

وقال عبد العزيز بن مَرْوان : إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده ، فيَدُه عندي أعظم من يدي عنده . وأنشد لابن عباس رضي الله تعالى عنهما :

إذا طارِقَاتُ الهَمِّ ضاجعتِ الفَتَى ... وأعمل فِكْرَ اللَّيْلِ والليلُ عاكِرُ
وَبَاكَرَني في حاجةٍ لم يَكُنْ لها ... سِوَايَ ولا مِنْ نَكْبَةِ الدَّهْرِ ناصِرُ
فَرَجْتُ بِمالي همَّهُ عن خِنَاقِهِ ... وزايَلَهُ الهَمُّ الطَّرُوقُ المُسَاوِرُ
وكانَ له فَضْلٌ عليَّ بِظَنِّهِ ... بِيَ الخَيْرَ إنّي للَّذي ظَنَّ شَاكِرُ

وقيل لأبي عُقيل البليغ العراقي : كيف رأيتَ مَرْوان بن الحكم عند طَلَب الحاجة إليه ؟ قال : رأيت رغبتَهُ في الإنعام فوق رغبته في الشُّكْر ، وحاجتَهُ إلى قضاء الحاجة أشَدَّ من حاجة صاحِب الحاجة .

وقال الشاعر :

ليس يُعطيك للرَّجاءِ ولا الخو ... فِ ولكنْ يَلَذُّ طَعْمَ العطاءِ

وقال الشَّاعر في علوِّ همَّةِ رجلٍ في الجُود :

لَزِمْتَ نَعَمْ حتَّى كأنَّك لم تَكُنْ ... سمعتَ من الأشْياءِ شيئًا سِوى نَعَمْ

وأنكرت لا حتى كأنَّك لم تكنْ سمِعتَ بها في سالِفِ الدَّهر والأُمَمْ[(١)]

وقالوا : الأيامُ مَزارِع ، فما زرعتَ فيها حصدتهُ .

إن الحـــياة مـــزارِعٌ فازرَعْ بها ما شئتَ تحصُدْ

وقال الأحنف بن قيس : ما ادَّخرتِ الآباءُ للأبناء ، ولا أبْقَتِ الموتى للأحياء شيئًا أفْضَلَ من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب والآداب .

وقالوا : أَحْيِ معروفَك بإماتةِ ذِكْره ، وعظِّمْهُ بالتَّصغير لهُ .

وقالت الحكماء : مِن تمام كَرَم المُنعم التَّغافُل عن حجَّته ، والإقرار بالفضيلة لشاكِرِ نعمته .

وقالوا : للمعروف خِصال ثلاث : تعجيله وسَتْره وتيسِيره ، فمن أخلَّ بواحدةٍ منها ، فقد بَخَس المعروف حقَّه ، وسقط عنه الشُّكْر .

وفي منثور الحِكَم : الجُود خيرُ موجود .

وقال عابد : من وُصِف ببذل ماله لطُلّابه فليس سخِيًّا ، إنما السّخيّ من يبدأ بحقوق الله في أهل طاعته ، ولا تُنازعه نَفْسُه إلى حُبِّ الشُّكْر له إذا كان يَقينُه بثواب الله تامًّا .

وقال ابن السَّمّاك : عجبتُ لمن يشتري المماليك بماله ، ولا يشتري الأحرار بمعروفه .

وقيل لابن عُيَيْنَة : ما السَّخَاء ؟ قال : بِرُّ الإخوان ، والجُود بالمال .

وَوَرِثَ عبد الرحمـٰن بن الحارث خمسين ألفًا ، فبعث بها سرًّا إلى

(١) وفيات الأعيان ٢ / ٢٢٧ .

إخوانه وقال : قد كنتُ أسأل لهم الجنة في صَلاتي ، فأبخل عليهم بالدنيا !!

لله ما أحلى هذه الكلمة وأعمقها !

وأحلى منها ما قاله الإمام الرّبّاني شيخ خراسان أبو حفص النيسابوري : « ما استحق اسم السَّخاء مَنْ ذَكَرَ العطاء ولا لَمَحَهُ بِقَلْبِهِ » .

ولله دَرُّ القائل : « الكرم طَرْحُ الدنيا لمن يحتاج إليها ، والإقبال على الله بحاجتك إليه » .

وقيل لمعاوية : مَنْ أحبُّ الناس إليك ؟ قال : من كَثُرَتْ أياديه عندي . قيل : فإن لم يَكُنْ ؟ قال : مَنْ كثرتْ أياديَّ عنده .

وقال الحكماء : جُود الرجل يُحبِّبه إلى أضداده ، وبُخْلُه يُبغِّضه إلى أولاده .

وخير الأمور ما استرقَّ حُرًّا ، وخير الأعمال ما استحقَّ شُكرًا .

وقالوا : الإحسان رِقٌّ والمكافآت عِتْق .

وقالوا : مَنْ بذلَ مالَه أدرك آمالَه .

وقيل لحكيم : أيّ فِعْل البشر أشْبَهُ بفعل الباري ؟ قال : الجُود .

وإذَا الكريمُ مَضَى وولَّى عمْرُهُ ... كَفَـلَ الثَّنَـاءُ له بِعُمـرٍ ثـانِ

قال الحافظ : ليس شيء ألذّ ولا أسَرّ ، ولا أنْعَم من عزّ الأمر والنَّهي ، ومن الظَّفَر بالأعداء ، ومن تقليد المِنَن في أعناق الرجال .

وقالوا : مما يَلْزَم الكريمَ الماجد بِشْر الوَجْه المُسائل والوافِد .

وقالوا : البِشْر أوّلُ البُسْر ، وهو دالٌّ على السخاء ، كما يدل الشَّجر على المَطر ، والنُّوَّار على الثمر .

وقال الحسن : لَأَن أقضي حاجة لأخي ، أحبُّ إليَّ من عبادةِ سنةٍ .

وقال إبراهيم بن السّندي : قلتُ لرجلٍ من أهل الكوفة ، مِنْ وجوه أهلها ، كان لا يَجفُّ لِبْدُه ، ولا يستريح قلبُه ، ولا تسكُن حركتُه في طَلَبِ حوائج الرجال ، وإدخال المرافق على الضعفاء ، وكان رجلًا مفوَّهًا ، فقلتُ له : أخبرني عن الحالة التي خفَّفتْ عنك النَّصَب ، وهوَّنتْ عليك التعب في القيام بحوائج الناس ، ما هي ؟ قال : قد والله سمعتُ تغريد الطير بالأسحار ، في فروع الأشجار ، وسمعت خفق أوتار العِيدان ، وترجيع أصوات القِيان ، فما طَرِبتُ من صوتٍ قطُّ طَرَبي من ثناءٍ حسن بلسانٍ حسن ، على رَجُلٍ قد أحْسَنَ ، ومن شُكرِ حرٍّ لمنعِمٍ حرٍّ ، ومن شفاعةِ مُحْتَسب لطالب شاكِر . قال إبراهيم : فقلت له : لله أبوك ! لقد حُشيتَ كرمًا .

وقال جعفر الصادق : إن الله خَلَقَ خَلْقًا من رحمته برحمته لرحمته ، وهم الذين يقضون حوائجَ الناس ، فمن استطاع منكم أنْ يكون منهم فليكُن .

ومن أفرطِ ما قيل في الجود ، قولُ بكر بن النَّطّاح :

فَتًى جَعَلَ الدُّنْيَا وِقَاءً لِعِرْضِهِ ... فأسْدَى بِهَا المَعْروفَ قبل عداتِهِ
فلو خَذَلَتْ أموالُه جُودَ كَفِّهِ ... لَقَاسَمَ مَنْ يَرْجوه شَطْرَ حياتِهِ
وإن لم يَجُزْ في العمر قَسْمٌ لمالكٍ ... وجاز له أعطاه من حَسَنَاتِهِ
وجَادَ بِهَا مِنْ غَيْرِ كُفْرٍ بِرَبِّهِ ... وأشْرَكَهُ في صومِهِ وَصَلاتِهِ

وقول القائل :

ملأتُ يدي من الدنيا مِرَارًا ... وما طَمِعَ العَواذِلُ في اقتصادي
ولا وَجَبَتْ عليّ زكاةُ مالٍ ... وهل تجبُ الزكاةُ على الجَوادِ

وقالوا : السَّخِيّ من كان مسرورًا بِبَذْلِهِ ، متبرِّعًا بعطائه ، لا يلتمس

عَرَضَ دُنيا فيُحبط عمله ، ولا طَلَب مكافأةٍ فيسقط شكره ، ولا يكون مثله فيما أعطى مثل الصَّائِدِ الذي يُلقي الحَبَّ للطائر ، لا يريد نَفْعها ولكن نفع نفسه .

ولله دَرُّ من قال :

كريمٌ على العِلّات جَزْلٌ عطاؤه ... يُنيل وإنْ لم يُعْتَمَد لنَوالِ
وما الجودُ من يُعطي إذا ما سألتَهُ ... ولكنّ مَنْ يُعطي بغير سؤالِ

ولله دَرُّ خالد بن صفوان حين يقول : فواتُ الحاجة خيرٌ من طَلَبِها إلى غير أهلها .

ودخل محمد بن واسع على قُتيبة بن مسلم فقال : أتيتُك في حاجةٍ فإن شئت قضيتها وكُنّا كريميْن ، وإنْ شئتَ لم تَقضِهَا وكُنَّا لئيميْن .

أراد إن قضيتَها كنت أنت كريمًا بقضائها ، وكنتُ أنا كريمًا بسؤالك إياها ؛ لأني وضعتُ الطِّلبة في موضعها ، فإنْ لم تَقْضِها ، كنتَ أنتَ لَئِيمًا بمنْعك ، وكنتُ أنا لئيمًا بِسُوءِ اختياري لك .

لله أقوامًا خلقهم الله للجُود ونَفْع الناس !

فهذا خالد بن الخليفة يزيد بن معاوية ، كان موصوفًا بالعلم ، وكان من صالحي القوم .

قال فيه الشاعر :

سَألتُ النَّدى والجُودَ حُرَّان أنتما ... فقالَا جميعًا إنَّنا لَعَبيدُ
فقلتُ فَمَنْ مولاكُما فتطاوَلَا ... عليَّ وقالَا خالد بن يزيد[1]

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٣٨٢ - ٣٨٣ .

وقال ﷺ في الصحيح : « الناس كإبل مائة ، لا تكاد تجد فيها راحلة » .

وقالت الحكماء : الكرام في اللئام كالغُرَّة في الفَرَس .

وقال دِعْبِل :

ما أكْثَرَ الناس لا بَلْ ما أقلَّهُمُ ... والله يعلم أني لم أقل فَنَدَا
إني لأُغلِق عيني ثم أفْتَحُها ... على كثيرٍ ولكنْ ما أرى أحَدَا

« قال إبراهيم بن أدهم : عجبًا للرجل اللئيم يبخل بالدنيا على أصدقائه ويَسْخىٰ بالجنة لأعدائه .

وقال محمد بن سيرين : أدركنا الناسَ وهم يتهادون بالفضة في الأطباق كالفاكهة .

وقال الحسن البصري : عجبًا لك يا ابن آدم ، تنفق في شهواتك إسرافًا وَبِدَارًا ، وتبخل في مرضاة ربك بدرهم ، ستعلم يا لُكع مقامك عنده غدًا .

وكان يقول : أعطوا الشعراء وذوي اللسان ؛ فإنَّ مَنْ لم يبالِ بالشِّكاية فيه فقد نادى على نفسه بالدناءة وقلة المروءة .

وكان يقول : إياك أن تطلب حاجة من بخيلٍ ، فإن من طلب منه حاجة فهو كمن يطلب صيد السمك من البراري والقفار .

وكان أبو القاسم الجنيد - رحمه الله - لا يمنع قط أحدًا سألَه شيئًا ، ويقول : أتخلَّق بأخلاق رسول الله ﷺ .

وكان حمَّادُ بن أبي سليمان - رحمه الله - يقول : لولا سؤال المحتاجين لي ما اتَّجرتُ في شيءٍ أبدًا .

وقال معمر : من أقبح المعروف أنْ تحوج السائل إلى أنْ يسأل وهو خَجِلٌ منك ، فلا يجيءُ معروفُك قَدْرَ ما قاسىٰ من الحياء ، وكان الأَوْلىٰ أن تتفقَّدَ حال أخيك وترسل إليه ما يحتاج ولا تُحْوجه إلى السؤال .

وكان الفُضيل بن عياض - رحمه الله - يقول : نحن لا نعدُّ القرضَ من المعروف ؛ لأن صاحبه يطلب المقابلة ، وإنما المعروف المسامحة للناس في كل ما يطلبونه منك في الدنيا وفي الآخرة .

وكان السّري السّقطي - رحمه الله - يقول : ذهب المعروفُ وبقيت التجارة ؛ يعطي أحدُهم لأخيه الشيءَ لأجل أنْ يعطيه نظيره .

وكان أحدهم يقول : لا يتم المعروف إلا بثلاث : تعجيلُه ، وتَصْغيره في عين مُعْطيه ، وإخفاؤه عن الناس .

وكان الحسن البصري يقول : لقد أدركنا الناس وأحدهم يدخل دارَ أخيه وهو غائبٌ فيرى السَّلَّة مملوءة فاكهة ، فيأخذها فيأكل منها ويُفرّق منها بغير إذنٍ ، فإذا جاء أخوه وأُخبر فرح بذلك .

وكان لمحمد بن سيرين - رحمه الله - بغلٌ مربوط في دِهْليزه ، فكلُّ من احتاج إلى ركوبه أخذه وركبه من غير استئذانٍ ؛ لما يعلمون من طِيب نَفْسِهِ بذلك .

وكان بقيَّة بن الوليد - رحمه الله - يَدْخل دار صديقه في غيبته ، ويأخذ القِدْر من النّار ويضعه على باب الدار ، فيأكل منه ويفرّق على الفقراء والمساكين ، فإذا جاء أخوه فرح بذلك وقال : جزاك الله من أخٍ صالحٍ خيرًا ، قدَّمت لنا اليوم معادنا »[1] .

---

(١) تنبيه المغترين للشعراني ٨٩ - ٩٢ .

وكان جعفر بن محمدٍ رضي الله عنهما يقول : بِئْس الأخُ من لا يتجرَّأُ أخوه أن يفتح كيسه في غَيْبته ، ويأخذ منه ما يحتاج إليه بغير إذنه .

وكان مطرِّف بن عبد الله - رحمه الله تعالى - يقول : مَنْ كان له عندي حاجة فليكتبها في قرطاسٍ ويرسلها إليَّ ؛ فإني أكره أن أرى ذلَّ المسألة في وجه مسلم ، فإن السؤال أرجح من النَّوَال ، وإنْ جَلَّ .

وكان الفُضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول : من المعروف أن ترى المِنَّة لأخيك عليك إذا أخذ منك شيئًا ؛ لأنه لولا أخذه منك ما حصل لك الثواب ، وأيضًا فإنه خصَّك بالسؤال ورجا فيك الخير دون غيرك .

وكان السلف يعدون ليلة الضيف كأنها ليلة عيد ؛ لِمَا يحصل لهم من السُّرور .

وكان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقول : لأن أَجْمَع نفرًا من أصحابي على طعامي أحبّ إليَّ من عتق رقبة .

وكان أحدهم يقول : زكاة الدَّار أَنْ يُجعل فيها بيتٌ للضيافة .

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : ليس من السَّرف التَّبسط للضيف في الطعام .

وكان ميمون بن مِهْران - رحمه الله تعالى - يقول : من أطْعَم ولم يُتْمر - أي لم يقدِّم تمرًا أو شيئًا حُلوًا - كان كمن صلَّى العشاء ولم يُوتر .

وكان يحيى بن معاذ يقول : عجبتُ ممّن يبقى معه مالٌ وهو يسمع قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **إنْ تَقْرِضوا الله قرضًا حَسَنًا يضاعفه لكم** ﴾ [التغابن : ١٧] .

قال الأصعمي : ما استُضِفْتُ عند بخيل إلَّا وصاحتْ دَابَّتي جُوعًا ،

واستغنيتُ عن الخلاء ، وأمنتُ من التُّخْمَة .

وقالوا عن البخيل : لو مَلَك بيتًا من بغداد إلى النُّوبة مملوءًا إبرًا ، ثم جاءه جبريلُ وميكائيلُ ومعهما يعقوب النبي عليه السلام ، يطلبون منه إبرةً ، ويسألونه إعارتهم إياها ليخيطَ بها قميصَ يوسف مَا فَعَل.

لو أنَّ دارك أَنْبَتَتْ له أَرْضُها ... إبرًا يضيقُ بها فِنَاءُ المحملِ
وأتاك يُوسفُ يَسْتَعيرُكَ إبرةً ... لِيَخيطَ قَدَّ قَمِيصِهِ لم تَفْعَلِ

وقالوا عن البخيل :

وإذا أردتَ إخاءَه ... فارْفَعْ يَمِينكَ مِنْ طَعَامِهْ
فالموتُ أهونُ عنده ... من مَضْغِ ضيفٍ والتقامِهْ
سِيَّان كَسْرُ رغيفهِ ... أو كَسْرُ شَيءٍ من عِظَامِهْ
وإذا مَرَرتَ ببابهِ ... فاحْفَظْ رغيفكَ من غُلامِهْ

وكان عبد العزيز بن عمير يقول : الصلاة توصلك إلى نصف الطريق ، والصَّوْم يوصلك إلى باب المَلِك ، والصدقةُ تُدخلك إلى الملك .

وكان رحمه الله يقول : الأموال عندنا ودائعُ للمكارم .

وكان إبراهيم بن يوسف – رحمه الله – يجمع الأموال ويقول : إنما أَجْمَعُ ذلك لبطونٍ جائعة ، وظهور عاريَة ، ولم أجمعه للماء والطين .

وقال أحد العُبَّاد : يتزوج أحدُكُم فلانة بنت فلان بالمال الكثير ، ولا يتزوَّج الحور العين بلقمةٍ أو تمرة أو خِرْقة ، هذا من العجب !!

وكان الليث بن سعد يقول : من أخذ مني صدقةً أو هديّةً فحقه عليَّ أعظم من حقي عليه ؛ لأنه قبل مني قُرباني إلى الله عز وجل .

وقال معاذ النسفي – رحمه الله – : مَنْ لم يَرَ نفسه أَحْوج إلى ثواب

صدقته من الفقير إلى صدقته ، فهو ممَّن أَبْطَلَ صدقته بالمنِّ ؛ لأنه رأى نفسه على الفقير .

أخي ، لا تَحْقر من الصدقة شيئًا ولو حَبَّة ، فكم في الحَبَّة من مثقال ذرة .

أخي ، لا تَنْهَرْ سائلًا ، فلو عرفتَ ما يحمله لك من الخير لحملتَه في فؤادك ، لا على رأسك .

فقد كان سفيان الثوري – رحمه الله – يَنْشرح إذا رأى سائلًا على بابه ويقول : مرحبًا بمن جاء يغسل ذنوبي .

وكان الفُضيل بن عياض – رحمه الله – يقول : نِعْم السائلون ، يحملون أَزْوادنا إلى الآخرة بغير أجرة ، حتى يضعوها في الميزان بين يدي الله تعالى .

وكان إبراهيم بن أدهم ، قبل زهده ، إذا جاءه سائلٌ يَدْخل إلى عياله ويقول لهم : قد جاءكم رسولُ المقابر ، فهل توجِّهون إلى موتاكم شيئًا من الصدقة ؟!.

ودخل سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم بالحَرَم يومًا ، فرأى هشام بن عبد الملك ، فقال له هشام : سلني حاجتك يا سالم . فقال : يا أمير المؤمنين ، إني أستحيي أنْ أسألَ في بيت الله أحدًا غيره تعالى .

ودخل سائلٌ يومًا على معروف الكَرْخي فلم يَرَ عنده ما يعطيه غير نعله ، فأعطاه إياه ، ثم بلغ معروفًا بعد ذلك أنه باع النعل واشترى بثمنها فاكهة ، فقال معروف : الحمد لله ، لعله كان يشتهي الفاكهة فواسَيْناه بثمنها .

وقالوا : إن لك في مالك شَريكَيْن : الحَدَثان والوارث ، فإن استطعت

ألَّا تكون أبخس الشُّركاء حظًّا فافعل .

أخي ، أترضى أن يكون كافرٌ أجودَ منك وأنت مُسْلم .. فإن كنتَ بعيد الهمة عاليها فانظر بعض خبر حاتم الطائي .. يقول لغلامه يسار :

أوقِدْ فإنَّ الليلَ ليلٌ قَرُّ والرِّيحُ يا مَوْقِدُ ريحٌ صِرُّ
عَسَى يرى نَارَك مَن يمرُّ إنْ جَلَبْتَ ضَيْفًا فأنتَ حرُّ

ومرَّ حاتمٌ في سفره على عَنَزة ، وفيهم أسيرٌ ، فاستغاث بحاتم ولم يحضره فِكَاكه ، فاشتراه من العنزِّيين وأطلقه ، وأقام مَكَانه في القيد حتى أدى فداءه .

وَرُئِي حاتم يومًا يضرب ولدَه ، لمَّا رآه يضربُ كلبةً كانت تدل عليه أضيافه ، وهو يقول :

أَقُولُ لابني وقد سَطَتْ يداهُ بكلبةٍ لا يزال يَجْلِدُهَا
أُوصيكَ خيرًا بها فإنَّ لها عندي يدًا لا أزال أَحْمدُهَا
تدلُّ ضَيْفي عليَّ في غَلَسِ اللَّيلِ إذا النَّارُ نامَ مُوقِدُهَا

وذكرت طَيِّئ عند عديٍّ بن حاتم أن رجلًا يُعرف بأبي الخَيبريّ مرَّ بقبرِ حاتم ، فنزل به وجعل ينادي : أبا عديّ ، أَقْرِ أضيافك . قال : فيقال له : مهلا ، ما تُكلِّم من رَمَّةٍ باليةٍ . فقال : إن طَيِّئًا يزعمون أنه لم ينزل به أحدٌ إلا قراه ، كالمستهزئ ، فلما كان في السَّحَر ، وثب أبو خيبريّ يصيح : واراحلتاه !! فقال له أصحابه : ما شأنك ؟ قال : خرج والله حاتم بالسيف حتى عقر ناقتي وأنا أنظر إليها ، فتأملوا راحلته ، فإذا هي لا تنبعث ، فقالوا : قَدْ والله أقراك ، فنحروها وظلّوا يأكلون من لحمها ، ثم أردفوه وانطلقوا ، فبينا هم في مسيرهم إذ طلع عليهم عديُّ بن حاتم ومعه جملٌ قد قرنه ببعيره ، فقال : إن حاتمًا جاء في النوم ، فذكر لي قولك ، وأنه

أقراك وأصحابَك راحلتك ، وقال لي أبياتًا ، ردَّدها عليَّ حتى حفظتها ، وهي :

أبا الخيبريِّ وأنت امرؤٌ حَسُودُ العشيرةِ شتَّامُهَا
فماذا أردتَ إلى رِمَّةٍ بداويةٍ صخب هَامُهَا
أتبغي أذاها وإعْسَارها وحولك غوثٌ وأنعامُهَا
وإنَّا لنطعم أَضْيافنا من الكُوم بالسَّيف نَعْتامُهَا[١]

وأمرني بدفعِ راحلةٍ عوض راحلتك ، فخذها،فأخذها .

هذا حاتم وبعض أمره ... وهو القائل :

يرى البخيلُ سبيلَ المالِ واحدةً إن الجَوادَ يرى في مالِهِ سُبُلا

يَتسخَّى مَيْتًا :

« قال محمد بن محمد الحافظ : سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول : كان بمصر رجلٌ عُرف بأنه يجمع للفقراء شيئًا ، فوُلد لبعضهم مولودٌ ، قال : **فجئت إليه وقلت له : وُلد لي مولود وليس معي شيءٌ،فقام معي ودخل على جماعة ، فلم يُفتح بشيءٍ ، فجاءَ إلى قبر رجل وجلس عنده وقال : رحمك الله ،** كنتَ تفعل وتصنع ، وإني درتُ اليوم على جماعةٍ فكلَّفْتهم دفعَ شيءٍ للمولود ، فلم يَتَّفق لي شيء ، قال : ثم قام وأخرج دينارًا وقسمه نصفين وناولني نصفه ، وقال : هذا دَيْنٌ عليك إلى أن يفتح الله عليك بشيءٍ ، قال : فأخذته وانصرفتُ فأصلحت ما اتَّفق لي به ، قال : فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال : **احضر منزلي ، وقل لأولادي يحفروا مكان** الكَانون ، ويُخرجوا قِرَابَةً فيها خمسمائة دينار ، فاحملها إلى هذا الرجل ، فلما

---

(١) الكُوم : جمع كَوْماء ، وهي الناقة عظيمةُ السَّنام ، ونعتامها : أي نختارها .

كان من الغَـدِ تقدَّم إلى منزلِ الميت وقَصَّ عليهم القصـة ، فقالوا له : اجلس ، وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاءوا بها فوضعوها بين يديه ، فقال : هذا مالكم ، وليس لرؤيايَ حُكْمٌ ، فقالوا : هو يتسخَّى ميتًا ولا نتسخَّى نحن أحياء ؟! فلما ألحّوا عليه حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود ، وذكر له القصة ، قال : فأخذ منها دينارًا فكسره نصفين ، فأعطاه النصف الذي أقرضه ، وحمل النصف الآخر ، وقال : يكفيني هذا ، وتصدَّق به على الفقراء ، فقال أبو سعيد : فلا أدري أيّ هؤلاء أسخى[1].

* * *

(١) الإحياء ٣ / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

□ مَـرَاتِبُ الجُـودِ □

قال ابن القيم عن مَنْزِل الجود والسخاء والإحسان :

« المراتب ثلاثة :

إحـداهـا : أن لا ينقصـه البَـذْلُ ولا يصعـب عليـه ، فهـو منزلة « السخاء » .

الثانية : أن يعطي الأكثر ويُبقي له شيئًا ، أو يُبقي مثل ما أعطى فهو « الجود » .

الثالثة : أن يُؤْثر غيره بالشيء مع حاجته إليه ، وهو « مرتبة الإيثار » .

قالوا لقيس بن سعد يومًا : هل رأيتَ أسخَى منك ؟ قال : نعم . نزلنا بالبادية على امرأةٍ ، فحضر زوجها ، فقالت : إنه نزل بك ضيفان . فجاء بناقة فنحرها ، وقال : شأنكم . فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها ، فقلنا : ما أكلنا من التي نَحَرْتَ البارحة إلا اليسير ، فقال : إني لا أطعم ضيفاني البائت ، فبقينا عنده يومين أو ثلاثة ، والسماء تمطر وهو يفعل ذلك . فلما أردنا الرَّحيل وضعنا مائة دينار في بيته ، وقلنا للمرأة : اعتذري لنا إليه . ومضينا ، فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا : قفوا أيها الركب اللئام ، أعطيتموني ثمن قِرايَ !! ثم إنه لحقنا ، وقال : لتأخذنَّه أو لأُطَاعنكم بِرُمْحي ، فأخذناه وانصرف .

والجُـودُ عَشْـر مَـرَاتِب :

أحدها : الجُودُ بالنَّفْسِ :

وهو أعلى مراتبه ، كما قال الشاعر :

يَجودُ بالنَّفْسِ إذ ضنَّ الجوادُ بها   والجُودُ بالنَّفْسِ أقصىٰ غايةِ الجُودِ

هذا الفتح بن خاقان ، طرح نفسه على الخليفة المتوكّل ، حتى خلط لحمَه بلحمِهِ ، ودمَه بدمِهِ ، فهل بعد هذا مواساة .

احْملاني إنْ لم يكنْ لكُمَا عَقْـ   ـرٌ إلى جنبِ قـبرِهِ فاعْقِـراني
وانْضحَـا مـن دَمي علَيه فَقَـدْ   كان دمي من نَداهُ لو تَعْلمانِ

الثانية : الجود بالرِّيَاسة :

وهو ثاني مراتب الجود ، فيحمل الجَوَاد جوده على امتهان رياسته ، والجود بها ، والإيثار في قضاء حاجاتِ الملتمس .

وهذا كجُود الحَسن بن علي .. جَادَ بالخلافة على معاوية ليُصْلِحَ بين طائفتين من المسلمين .. فهو سَيِّدٌ من سادات المسلمين الأَجواد .

الثالثة : الجود برَاحتِه ورفاهيته ، وإجمامِ نفسِه :

فيجود بها تعبًا وكدًّا في مصلحة غيره ، وَمِنْ هَذَا جود الإنسان بِنَوْمه ولَذَّته لِمُسَامِرِه ، كما قيل :

مُتَيَّمٌ بالنـدى لو قـالَ سَائله   هبْ لي جميعَ كَرىٰ عَيْنَيْكَ لم يَنَمِ

علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه :

عن أبي جعفرٍ قال : ما مات علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – حتى بلغتْ غلَّتُه مائة ألف ، ولقد مات يوم مات وعليه سبعون ألفًا دَيْنًا . فقلت : مِنْ أين كان عليه هذا الدَّيْن ؟ قال : كان تأتيه حامَّتُه من أصهاره ومعارفه ، ممَّن لا يرىٰ لهم في الفَيْءِ نصيبًا ، فيُعطيهم ، فلمَّا قام الحسنُ ابن علي ، باع وأخذ من حواشي مالِهِ ، حتى قضى عنه ، ثم كان يُعْتِق عنه في كل عامٍ خمسين نَسَمةً حتى هلك ، ثم كان الحسين يُعتق عنه خمسين

نسمةً حتى قُتِلَ ، ثم لم يفعله أحدٌ بعدهما[١] .

نزع أبو بكر مَخيطَ الهوى فمزَّقه عليٌّ ، رمى الصِّدِّيق جهاز المُطلَّقة فوافقه عليٌّ حتى رمى الخاتم .

حبَّب الفقرَ إليه أنَّه سُؤْدُدٌ وَهْوَ بذاكَ الفقر يَغْنَى
وشَريفُ القومِ من بَقَّى لهم شَرَفَ الذِّكْرِ وخَلَّى المال يَفْنَى
ما اطمأنّ الوَفْرِ في بُحْبُوحَةٍ فرأيتُ المجدَ فيها مُطْمَئِنَّا
تُهْدَمُ الأموالُ مِن آساسها أبدًا ما دامتِ العلياءُ تُبْنَى[٢]

الحسن بن علي :

قاسَمَ الحسنُ اللهَ مَالَه ثلاث مرات ، حتى كان يُعطي الخُفَّ ويُمسِك النعل .

سأل رجلٌ الحسن بن علي - رضوان الله عليهما - حاجةً ، فقال له : يا هذا ، حقّ سؤالك إيايّ يعظُم لديّ ، ومعرفتي ما يجب لك تكبُر عليّ ، ويدي تعجز عن نَيْلك ما أنت أهلُه ، والكثير في ذات الله تعالى قليلٌ ، وما في مَلَكَتِي وفاء لِشُكْرك ، فإنْ قَبِلتَ الميسورَ ، ورفعتَ عني مؤونَةَ الاحتيال ، والاهتمام لما أتكلَّف من واجبك ، فعلتُ . فقال : يا ابن رسول الله ، أقبلُ القليل ، وأشكُرُ العَطِيَّة ، وأعْذِر على المَنْع . فدعا الحسن - رضوان الله عليه - وكيلَهُ ، وجعل يُحاسبه على نفقاته حتى استقصاها ، ثم قال : هات الفاضِلَ من الثلثمائة ألف درهم . فأحضر خمسين ألفًا ، قال : فما فعلت الخمسمائة دينار ؟ قال : هي عندي . قال : أحْضِرها . فأُحْضِرَتْ ، فَدَفَعَ

(١) مكارم الأخلاق صـ ١٠٦ .
(٢) التبصرة ٢ / ٢٥٨ .

الدراهم والدنانير إلى الرجل ، وقال : هات من يحملها . فأتاه بحمَّالين ، فدفع إليهم الحسن - رضي الله عنه - رداءَهُ لِكِرَى الحمل ، فقال له مواليه : والله ما بقي عندنا درهم . فقال : لكني أرجو أن يكون لي عند الله تعالى أجر عظيم(١) .

الرابعة : الجُودُ بالعلم وبَذْله :

وهو من أعلى مراتب الجود ، والجود به أفضل من الجود بالمال ؛ لأن العلم أشرف من المال . وأفضل الجود ما يقرِّبك من مولاك خطوة ، ويُدنيك من الجنة ، أو يُعينك بالعلم على طَلَبها ، ويَدُلّك على طريقها ، لا من يُطعمك الدنيا . ورحم الله أُمَّ البنين بنت عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز ، حين قالت كلمةً تساوي الدنيا وما عليها : « البَخيل كُلّ البخيل مَنْ بخل على نَفْسِه بالجنة » .

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة . وقد اقتضتْ حكمةُ الله وتقديرُه النّافِذ : أن لا ينفع به بخيلًا أبدًا .

ومن الجود به : أن تبذُله لمن يسألك عنه ، بل تطرحه عليه طرحًا .

ومن الجود بالعلم : أن السائل إذا سألك عن مسألة ، استَقْصَيْتَ له جوابها جوابًا شافيًا ، لا يكون جوابُك له بِقَدْر ما تدفع به الضرورة ، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا « نعم » أو « لا » مقتصرًا عليها .

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - في **ذلك أمرًا عجيبًا : كان إذا سُئل عن مسألة حُكْميَّة ، ذَكَر في جوابها مذاهب** الأئمة الأربعة ، إذا قدر ، ومَأْخذ الخلاف ، وترجيح القول الراجح ، وَذَكَر

(١) لباب الآداب صـ ١٢٥ - ١٢٦ .

متعلّقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته ، فيكون فَرَحُه بتلك المتعلّقات واللّوازِم ، أعظم من فرحه بمسألته . وهذه فتاويه - رحمه الله - بين الناس ، فمن أحبّ الوقوف عليها رأى ذلك .

فمن جود الإنسان بالعلم : أنه لا يقتصر على مسألة السائل ، بل يذكر له نظائرها ومتعلّقها ومَأْخَذها ، بحيث يشفيه ويكفيه .

وقد سأل الصحابةُ - رضي الله عنهم - النبيَّ ﷺ عن المتوضِّئ بماء البحر ؟ فقال : « هو الطهور ماؤه ، الحِلُّ ميتَتُهُ » فأجابهم عن سؤالهم ، وجَادَ عليهم بما لعلَّهم - في بعض الأحيان - إليه أحْوَج مما سألوه عنه . وكانوا إذا سألوه عن الحُكم ، نبَّههم على عِلَّته وَحِكْمته ، كما سألوه عن بيع الرُّطب بالتمر ، فقال : « أينقص الرُّطب إذا جَفَّ ؟ » . قالوا : نعم . قال : « فلا إذن » . ولم يكن يَخْفَى عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه ، ولكنْ نبّههم على علّة الحكم . وهذا كثيرٌ جدًّا في أجوبته ﷺ ؛ مثل قوله : « إن بعتَ من أخيكَ ثمرةً ، فأصابتها جائِحَةٌ ، فلا يحلّ لك أن تأخُذ من مال أخيك شيئًا ، بِمَ يأخُذ أحدكم مال أخيه بغير حقٍّ ؟! » . وفي لفظ : « أرأيتَ إن منعَ الله الثمرة ، بِمَ يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق ؟! » . فصرّح بالعلّة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن ، وهي مَنْعُ اللهِ الثمرة التي ليس للمشتري فيها صُنع .

وكان خصومه - يعني شيخ الإسلام ابن تيمية - يعيبونه بذلك ، ويقولون : سأله السائل عن طريق مصر - مثلًا - فيذكُر له معها طريق مكة ، والمدينة ، وخراسان ، والعراق ، والهند ، وأيّ حاجة بالسائل إلى ذلك ؟! ولعمر الله ، ليس ذلك بعيبٍ ، وإنما العيب : الجهل والكِبْر . وهذا موضع المثل المشهور :

لَقَّبُوهُ بِحَامِضٍ وَهْوَ خَلٌّ مِثْل مَنْ لم يَصِلْ إلى العُنْقُودِ

الخامسة : الجود بالنَّفْعِ بالجَاه :

كالشفاعة ، والمشِي مع الرجل إلى ذي سلطانٍ ، ونحوه ... وذلك زكاة الجاه المُطالبُ بها العبد ، كما أن التعليم وبذل العلم زكاته .

السادسة : الجود بِنَفْعِ البَدَنِ على اختلافِ أنواعه :

كما قال ﷺ : « يصبح على كل سُلَامَى من أحدكم صَدَقَةٌ كلّ يومٍ تطلُع فيه الشمس ، يعدل بين اثنين : صدقة ، ويُعين الرجل في دابَّته ؛ فيحملُه عليها ، أو يرفع له عليها متاعه : صدقةٌ ، والكلمة الطَّيِّبة : صدقةٌ ، وبكل خُطوةٍ يمشيها الرجل إلى الصلاة : صدقةٌ ، ويُميط الأذى عن الطريق : صدقةٌ » . متفق عليه .

السابعة : الجودُ بالعِرْضِ :

كجودِ عُلبة بن زيد بن حارثة بن الأوس الأنصاري « المتصدِّق بعِرْضِه » .

فقد كان علبة بن زيد بن حارثة رجلًا من أصحاب النبي ﷺ ، فلمَّا حضَّ على الصدقة ، جاء كل رجلٍ منهم بطاقته وما عنده ، فقال علبةُ ابن زيد : اللهم إنه ليس عندي ما أتصدَّق به ، اللهم إني أتصدَّق بعِرْضِي على من ناله من خَلْقك . فأمر رسولُ الله ﷺ مناديًا فنادى : أين المتصدِّق بعرضه البارحة ؟ فقام عُلبة ، فقال : « قد قُبِلَتْ صَدَقتُك » . وعند ابن القيم في زاد المعاد : « أبْشِر ، فوالذي نفس محمدٍ بيده ، لقد كُتبتْ في الزَّكاة المُتقبَّلة » . وفي هذا الجود من سلامة الصدر ، وراحة القلب ، والتَّخلُّص من مُعاداة الخَلْق ما فيه .

الثامنة : الجُود بالصَّبر ، والاحتمال ، والإغضاء :

هذه مرتبة شريفة من مراتبه . وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال وأعَزّ له وأنْصَر ، وأمْلَك لنفسه ، وأشرف لها . ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار ، كما قال ﷺ : « من كظم غيظًا ، وهو قَادِرٌ على أن يُنفذه ، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يُخيِّره من الحور العين ، يُزوِّجه منها ما شاء »(١).

وكما جاء في حديث ابن عمر عند الطبراني : « ... ومن كظم غيظًا ، ولو شاء أن يُمضيه أمضاه ، ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة »(٢).

فمن صَعُبَ عليه الجود بماله ، فعليه بهذا الجود ، فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة . وهذا جود الفتوّة . قال تعالى : ﴿ **والجروح قِصاص فمن تصدَّق به فهو كفَّارةٌ له** ﴾ [المائدة : ٤٥] . وفي هذا الجود : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحبُّ الظالمين** ﴾ [الشورى : ٤٠].

التاسعة : الجود بالخُلق والبِشْر والبَسْطَة :

وهو فوق الجود بالصبر ، والاحتمال والعفو . وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم ، وهو أثقل ما يوضع في الميزان . قال النبي ﷺ : « لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا ، ولو أن تَلْقَى أخاك ووجهُك مُنْبَسِط إليه » . وفي هذا الجود من المنافع والمسارّ ، وأنواع المصالح ، ما فيه ، والعبد يمكنه أن

---

(١) حسن . رواه أصحاب السنن الأربعة ، وأحمد ، وأبو نعيم في الحلية ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٩٣٩٤) .

(٢) حسن . جزء من حديث رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج ، والطبراني في الكبير وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (٩٠٣) وصحيح الجامع رقم (١٧٤) .

يَسَعَهم بِخلُقه واحتماله .

العاشرة : الجود بتركِهِ ما في أيدي الناس عليهم :

فلا يلتفت إليه ولا يستشرِف له بقلبه ، ولا يتعرَّض له بحاله ، ولا لسانه . وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك فيه : « سخاء النفس عمّا في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبَذْل » فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد : وإن لم أُعطك ما تجود به على الناس ، فجُد عليهم بزُهدك في أموالهم وما في أيديهم ، تُفضِل عليهم ، وتُزاحمهم في الجود ، وتنفرد عنهم بالراحة . ولكلٍّ مرتبةٍ من مراتب الجود ، مزيد وتأثير خاصّ في القلب والحال . والله سبحانه قد ضَمِنَ المزيد للجواد ، والإتلاف للمُمْسِك . والله المستعان »[1] .

* * *

(١) مدارج السالكين بتصرف ٢ / ٢٩٣ - ٢٩٦ .

□ الإيثـــار □

قال تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصَةٌ ومن يُوق شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر : ١٦] .

أعلى مراتب الجود والإحسان الإيثار ... بأبي وأُمي صفة كأنَّما أُنزلت في دار الدنيا من أجل الأنصار ، فلهم فيها القدح المعلّى وقَصَب السَّبق .

وتأمّل سِرّ التقدير ، حيث قدَّر الحكيم الخبير - سبحانه - استئثار الناس على الأنصار بالدنيا - وهم أهْلُ الإيثار - ليجازيهم على إيثارِهم إخوانَهم - في الدنيا - على نفوسهم ، بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس ، فتظهر حينئذٍ فضيلة إيثارهم ودرجته ، ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غِبْطة . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فإذا رأيت الناس يستأثِرون عليك - مع كونك من أهل الإيثار - فاعلم أنه لخير يُراد بك . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال ابن القيم في مدارج السالكين (٢ / ٢٩٧ - ٢٩٨) : قال : « وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن تُؤثر الخلْق على نفسك فيما لا يَخْرِم عليك دينًا ، ولا يقطع عليك طريقًا ، ولا يُفسد عليك وقتًا » .

يعني : أن تقدّمهم على نفسك في مصالحهم ، مثل أن تطعمهم وتجوع ، وتكسوهم وتَعْرَى ، وتسقيهم وتَظْمأ ، بحيث لا يؤدِّي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين . ومثل أن تؤثرهم بمالك وَتَقْعُدَ كَلًّا مضطرًّا ، مستشرِفًا للناس أو سائلًا ، وكذلك إيثارهم بكل ما يحرمه على المؤثر دينه ، فإنه سَفَه وَعَجْز ، يُذمّ المؤثر به عند الله وعند الناس .

وأما قوله : « ولا يقطع عليك طريقًا » . أي لا يقطع عليك طريق الطَّلب والمسير إلى الله تعالى ، مثل أن تؤثِر جليسك على ذِكْرِك وتوجّهِك وجمعيّتِك على الله ، فتكون قد آثرته على الله ، وآثرت بنصيبك من الله ما لا يستحقّ الإيثار . فيكون مَثَلك كمثل مسافر سائر على الطريق ، لَقِيَه رجلٌ فاستوقفه ، وأخذ يحدّثه ويُلهيه حتى فاته الرِّفاق . وهذا حال أكثر الخلْق مع الصادق السائر إلى الله تعالى ، فإيثارهم عليه عين الغبْن . وما أكثر المؤثِرين على الله تعالى غيره ، وما أقلّ المؤثرين الله على غيره .

وكذلك الإيثار بما يُفسد على المؤثر وقته قبيح أيضًا ، مثل أن يؤثر بوقته ويفـرّق قلبه في طَلَب خلفه ، أو يؤثر بأمرٍ قـد جمع قلبـه وهمّه على الله ، فيفرّق قلبه عليه بعد جمعيته ، ويشتِّت خاطره ، فهذا أيضًا إيثار غير محمود .

وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفِكر في مهماتهم ومصالحهم - التي لا تتعيّن عليك - على الفكر النافع ، واشتغال القلب بالله ، ونظائر ذلك لا تخفى . بل ذلك حال الخلْق ، والغالب عليهم .

وكل سببٍ يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله : فلا تُؤثِر به أحدًا ، فإن آثرتَ به ، فإنما تُؤثِر الشيطان على الله ، وأنت لا تعلم .

وتأمّل أحوال أكثر الخَلْق في إيثارهم على الله مَنْ يَضُرّهم إيثارُهم له ولا ينفعهم . وأيّ جهالة وسفهٍ فوق هذا ؟!

ومن هذا تكلّم الفقهاء في الإيثار بالقُرَب ، وقالوا : إنه مكروه أو حرام ؛ كمن يؤثِر بالصَّفِّ الأول غَيْرَهُ ويتأخّر هو ، أو يؤثره بقُربه من الإمام يوم الجمعة ، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة ، أو يؤثِره بِعِلْمٍ يحرِمُه نَفْسَه ،

ويرفعه عليه ، فيفوز به دونه .

وتكلَّموا في إيثار عائشة - رضي الله عنها - لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بدَفْنِه عند رسول الله ﷺ في حجرتها . وأجابوا عنه بأن الميت ينقطع عملُه بموته وبقُربه ، فلا يتصوّر في حقِّه الإيثار بالقرب بعد الموت ، إذ لا تقرُّب في حق الميت ، وإنما هذا إيثار بمسكنٍ شريفٍ فاضلٍ لمن هو أوْلَى به منها . فالإيثار به قُربةٌ إلى الله عز وجل للمُؤثِر . والله أعلم .

قال : « ولا يُستطاع إلا بثلاثة أشياء : بتعظيم الحقوق ، ومَقْت الشُّحّ ، والرَّغْبة في مكارم الأخلاق » .

ذكر ما يُعين على « الإيثار » فيبعث عليه ، وهو ثلاثة أشياء :

تعظيم الحقوق ؛ فإن من عظمت الحقوق عنده ، قام بواجبها ، ورعاها حق رعايتها ، واستعظم إضاعتها ، وعلم أنه إن لم يبلُغ درجة الإيثار ، لم يؤدّها كما ينبغي ، فيجعل إيثاره احتياطًا لأدائها .

الثاني : مَقْت الشُّحّ ؛ فإنه إذا مَقَته وأبغضَهُ ، التزم الإيثار ، فإنه يرى أنه لا خَلَاصَ له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار .

الثالث : الرغبة في مكارم الأخلاق ، وبِحَسَب رغبته فيها يكون إيثاره ؛ لأن الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق .

« **الدرجة الثانية** : إيثار رضا الله على رضا غيره ، وإن عَظُمت فيه المحن ، وثقُلت فيه المُؤَن ، وضعف عنه الطَّوْل والبدن » .

قال ابن القيم : إيثار رضا الله على غيره : هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته ، ولو أغضب الخلق . وهي درجة الأنبياء ، وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، وأعلاها لأُولي العزم منهم ، وأعلاها لنبيِّنا ﷺ

وعليهم ؛ فإنه قاوم العالم كله ، وتجرَّد للدعوة إلى الله ، واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى ، وآثر رضا الله على رضا الخلْق من كل وجهٍ ، ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم ، بل كان هَمُّه وعَزْمه وَسَعْيه كلّه مقصورًا على إيثار مرضاة الله ، وتبليغ رسالاته ، وإعلاء كلماته ، وجهاد أعدائه ، حتى ظَهَر دين الله على كل دينٍ ، وقامتْ حجَّتُه على العالمين ، وتمَّت نعمته على المؤمنين ، فبلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونَصَحَ الأُمَّة ، وجاهد في الله حقَّ جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه . فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما نال صلوات الله وسلامه عليه .

وأما قوله : « وإن عَظُمتْ فيه المحن ، وثَقُلتْ فيه المؤن » .

فإن المحنة تعظم فيه أولًا ، ليتأخّر من ليس من أهله ، فإذا احتملها وتقدَّم انقلبت تلك المحن مِنَحًا ، وصارت تلك المؤن عَوْنًا . وهذا معروف بالتَّجرِبة الخاصّة والعّامة ؛ فإنه ما آثر عبدٌ مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق ، وتحمّل ثقل ذلك ومُؤْنَته ، وصبر على محنته ، إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة : نعمةً ومسرَّةً ومعونةً ، بِقَدْر ما تحمَّل من مرضاته ، فانقلبتْ مخاوِفُهُ أمانًا ، ومظانُّ عَطَبِه نجاةً ، وتعبُهُ راحةً ، ومؤنتُهُ معونةً ، وبليَّتُهُ نعمةً ، ومحنتُهُ مِنحةً ، وسخطُهُ رضًا . فيا خيبةَ المتخلِّفين ، ويا ذِلَّة المتهيِّبين !

هذا ، وقد جرت سُنَّة الله - التي لا تبديل لها - أن مَنْ آثَرَ مرضاة الخلْق على مرضاته ، أن يسخطَ عليه مَنْ آثر رضاه ، ويخذُله مِن جهته ، ويجعل محنتَهُ على يديه ، فيعود حامدُهُ ذامًّا ، ومَن آثر مرضاته ساخطًا ، فلا على مقصوده منهم حَصَل ، ولا إلى ثواب مرضاة رَبِّه وَصَل ، وهذا أعجز الخلْق وأحمقُهم .

هذا مع أن رضا الخلْق : لا مقدور ، ولا مأمور ، ولا مأثور . فهو مستحيلٌ ، بل لا بدَّ من سخطهم عليك ، فَلأَنْ يسخطوا عليك وتفوز برضا الله عنك ، أحبُّ إليك وأنْفَعُ لك من أن يَسْخوا عليك والله عنك غير راضٍ . فإذا كان سخطهم لا بدَّ منه - على التقديريْن - فآثِرْ سخطَهم الذي يُنال به رِضَا الله ، فإنْ هم رضوا عنك بعد هذا ، وإلَّا فأهْوَن شيءٍ رضا مَنْ لا ينفعك رضاه ، ولا يضرُّك سخطُه في دينك ، ولا في إيمانك ، ولا في آخرتك . فإن ضرَّك في أمرٍ يسيرٍ في الدنيا ، فمضرَّةُ سخطِ الله أعْظَمُ وأعظمُ . وخاصّة العقل : احتمال أدنى المفسدتيْن لدفع أعلاهما ، وتفويت أدنى المصلحتيْن لتحصيل أعلاهما . فوازِنْ بعقلك ، ثم انظر أيَّ الأمريْن خيرٌ فآثِرْه ، وأيهما شرٌّ فابْعُدْ عنه ، فهذا برهان قطعيّ ضروري في إيثار رِضَا الله على رِضَا الخلْق .

هذا مع أنه إذا آثر رِضَا الله ، كفاه اللهُ مؤنةَ غضب الخلْق ، وإذا آثر رضاهم ، لم يكفوه مؤنةَ غضب الله عليه .

قال بعض السَّلف : **لَمُصَانَعَةُ** وجهٍ واحد **أيسرُ** عليك من مصانعة وجوه كثيرةٍ ؛ إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها .

وقال الشافعي رضي الله عنه : رضا الناس غايةٌ لا تدرك ، فعليك **بما فيه صلاح نفسك فالزمه .**

ومعلوم : أنه لا صلاحَ للنفس إلَّا بإيثارِ رضا ربها ومولاها على غيره . ولقد أحسن أبو فراس في هذا المعنى ، إلا أنه أساء كل الإساءة في قوله ؛ إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعًا ولا ضرًّا :

فليتكَ تَحْلُو والحياة مَريرة ... وَلَيْتَكَ ترضى والأنام غِضَابُ
وليتَ الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العَالِمينَ خَرَابُ

إذا صَحَّ منك الوُدُّ فالكل هَيِّن وكلُّ الذي فوق الترابِ تُرابُ

ثم ذكر الشيخ - رحمه الله - ما يُستطاع به هذا الإيثار العظيم الشأن فقال : « ويستطاع هذا بثلاثة أشياء : بطيب العود ، وحُسْن الإسلام ، وقوة الصبر » .

من المعلوم : أن المؤثر لرضا الله مُتصدٍّ لمعاداةِ الخلق وأذاهم ، وسعيهم في إتلافه ولا بد . هذه سنة الله في خلقه ، وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل ، والذين يأمرون بالقسط من الناس ، والقائمين بدين الله ، الذَّابِّينَ عن كتابه وسنة رسوله عندهم ؟

فمن آثر رضا الله فلا بد أن يُعادِيه رُذَالةُ العالم وسَقَطُهم ، وغَرْثَاهم[(١)] وجُهَّالهم ، وأهلُ البدع والفجور منهم ، وأهلُ الرِّيَاسات الباطلة ، وكلُّ من يخالف هَدْيُه هَدْيَه . فما يُقْدم على معاداة هؤلاء إلا طالبُ الرجوع إلى الله ، عامل على سماع خطاب : ﴿ **يأيَّتها النَّفسُ المطمئنة ارْجعي إلى رَبِّك راضيةً مَرْضِيةً** ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٢٨] ومَنْ إسْلَامه صُلبٌ كامل لا تُزَعْزعه الرجال ، ولا تُقَلْقله الجبال ، ومَنْ عَقْد عزيمةِ صَبْره مُحْكَمٌ لا تَحُلُّه المحن والشدائد والمخاوف .

قلت : ومَلاكُ ذلك أمران : الزهد في الحياة والثناء . فما ضَعُفَ من ضعف ، وتَأَخَّر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء ، وثناء الناس عليه ، ونفرته من ذَمِّهم له . فإذا زهد في هذين الشيئين ، تأَخَّرت عنه العوارضُ كلها ، وانغمس حينئذٍ في العساكر .

ومَلاكُ هذين الشيئين بشيئين : صحة اليقين ، وقوة المحبة .

---

(١) جوعاهم .

ومَلاكُ هذين بشيئين أيضًا : بصدْق اللُّجْأ والطَّلب ، والتَّصدي للأسباب الموصلة إليهما .

فإلى هاهنا تنتهي معرفة الخَلْق وقدرتهم . والتوفيق بعدُ بِيَدِ مَنْ أَزِمَّةُ الأمور كلها بيده ﴿ **وما تشاءُون إلَّا أنْ يشاءَ الله إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا يُدْخِل مَنْ يشاءُ في رحمته والظَّالمين أعَدَّ لهم عذابًا أليمًا** ﴾ [الإنسان : ٣٠ - ٣١] .

قال : « **الدَّرجة الثالثة** : إيثارُ إيثارِ الله . فإن الخوض في الإيثار دعوى في المِلْك . ثم تَرْك شهودِ رؤيتك إيثار الله . ثم غيبتك عن الترك » .

يعني بإيثار إيثار الله : أن تَنْسب إيثارَك إلى الله دون نفسك ، وأنه هو الذي تفرد بالإيثار ، لا أنت . فكأنَّك سَلَّمت الإيثار إليه . فإذا آثرتَ غيرك بشيءٍ فإن الذي آثره هو الحق ، لا أنت . فهو المُؤْثر حقيقةً ؛ إذْ هو المعطي حقيقة .

ثم بَيَّنَ الشيخ السببَ الذي يصحُّ به نسبة الإيثار إلى الله ، وترك نسبته إلى نفسك ، فقال : « فإن الخوض في الإيثار : دعوى في الملك » .

فإذا ادَّعى العبد : أنه مُؤْثر فقد ادَّعى مِلْك ما آثر به غيره . والملك في الحقيقة : إنما هو لله الذي له كل شيءٍ . فإذا خرج العبد عن دعوى الملك فقد آثر إيثار الله - وهو إعطاؤه - على إيثار نفسه ، وشهد أن الله وحده هو المؤثر بملكه . وأما من لا ملك له : فأي إيثار له ؟

وقوله : « ثم تركُ شهود رؤيتك إيثار الله » .

يعني أنك إذا آثرتَ إيثار الله بتسليمك معنى الإيثار إليه ؛ بقيتْ عليك من نفسك بقية أخرى لا بدَّ من الخروج عنها ، وهي أن تُعْرِض عن شهودك رؤيتك أنك آثرت الحق بإيثارك ، وأنك نسبتَ الإيثار إليه لا إليك . فإن

في شهـودك ذلك ، ورؤيتك له : دعـوى أخرى ، هي أعظم من دعوى الملك ، وهي أنك ادَّعيت أن لك شيئًا آثرت به الله ، وقدمته على نفسك فيه ، بعد أن كان لك . وهذه الدعوى أصعب من الأولى ؛ فإنها تتضمن ما تضمنته الأولى من الملك ، وتزيد عليها برؤية الإيثار به ؛ فالأول : مُدَّعٍ للملك مؤثر به . وهذا مدعٍ للملك ومدع للإيثار به . فإذن يجب عليه ترك شهود رؤيته لهذا الإيثار ، فلا يعتقد أنه آثر الله بهذا الإيثار ، بل الله هو الذي استأْثر به دونك ، فإن الأَثَرة واجبةٌ له بإيجابه إياها بنفسه ، لا بإيجاب العبد إياها له .

قوله : « ثم غيبتك عن الترك » .

يريد : أنك إذا نزلت هذا الشهود وهذه الرؤية : بقيت عليك بقية أخرى ، وهي رؤيتك لهذا التَّرك ، المتضمِّنة لدعوى ملكك للترك . وهي دعوى كاذبة ؛ إذ ليس للعبد شيء من الأمر ؛ ولا بيده فِعْلٌ ولا ترك ، وإنما الأمر كله لله .

وقد تبيَّن في الكشف والشهود والعلم والمعرفة : أن العبد ليس له شيء أصلًا ، والعبد لا يملك حقيقةً ؛ إنما المالك بالحقيقة سيده . فالأَثَرة والإيثار والاستئثار كلها لله ، ومنه وإليه ، سواء اختار العبد ذلك وعلمه أو جهله ، أمْ لم يختره ، فالأَثَرة واقعة ، كَرِه العبدُ أم رضي ، فإنها استئثار المالك الحق بملكه تعالى ، وقد فهمتُ من هذا قوله : « فإن الأَثَرة تَحْسُن طوعًا . وَتَصِحُّ كَرهًا » . والله سبحانه وتعالى أعلم[1] .

* * *

---

(١) انتهى النقل بأكمله من مدارج السالكين لابن القيم ٢ / ٢٩١ - ٣٠٤ .

□ صُورٌ من الإيثار □

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رجلًا أتى النبيَّ ﷺ ، فبعث إلى نسائه ، فقلن : ما معنا إلّا الماء ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ يَضُمُّ – أو يضيف – هذا ؟ » فقال رجلٌ من الأنصار : أنا . فانطلق به إلى امرأته فقال : أكرمي ضيف رسول الله ﷺ فقالت : ما عندنا إلّا قوتَ صبياني .. فقال : هيئي طعامَك ، وأصبحي سِرَاجك ، ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عَشَاءً ، فهيَّأت طعامها ، وأصبحتْ سِرَاجَهَا ، ونوّمت صبيانها ، ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفأته ، فجعلَا يُريانه أنهما يأكلان ، فباتا طاويين . فلما أصبح غَدَا إلى رسول الله ﷺ فقال : « ضحك اللهُ الليلةَ – أو عجب – من فعالكما » فأنزل الله : ﴿ **ويُؤْثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خصَاصة ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ [الحشر : ٩][(١)] .

واسم هذا الصحابي أبو طلحة ، كما وقع في رواية مسلم ، وليس هو أبا طلحة زيد بن سهل .

علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه :

بات رضي الله عنه على فراشِ النبي ﷺ يَفديهِ ويُؤْثره بالحياة ، وهو مَوْقفٌ تَعْجز كلُّ كلمات الدنيا أن تحيط به .. حمى الدعوة والرسالة في شخصِ نبيِّها ، فآثره الله على من سواه بزواجه من أحبِّ الناس إلى رسول الله ﷺ ، وأم أبيها ، وسيدة نساء العالمين ، فاطمة بنت محمدٍ ﷺ ؛ لتُسْعد فراشه رضي الله عنه وعنها .

* * *

(١) رواه البخاري ومسلم .

سَعْد بن الرَّبيع رضي الله عنه :

لمَّا هاجر عبد الرحمٰن بن عوف إلى المدينة فقيرًا ، لا شيءَ له ، آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ، أحد النُّقباء ، فعرض عليه أن يشاطره نعمته ، وأن يُطلِّق له أحسن زوجتيه . فقال له عبد الرحمٰن بن عوف : بارك الله لك في أهلك ومالك ، ولكن دُلَّنْي على السوق .

فهذا والله الإيثار .. وهذه شِيَمُ الأنصار ، وهذا سَعْدٌ ، وأي الناس كابن الربيع .

قال الحسن البصري : والله لقد رأيتُ أقوامًا كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قَدَمَيْه ، ولقد رأيتُ أقوامًا يُمسي أحدُهم ولا يَجدُ عنده إلا قوتًا ، فيقول : لا أجعل هذا كلَّه في بطني ، فيتصدَّق ببعضه ، ولعلّه أجوع إليه ممن يتصدق عليه .

إبراهيم بن يَزيد التَّيْمي :

عن ابن سعد : أخبرنا علي بن محمد قال : طلب الحجاجُ إبراهيمَ النَّخعي ، فجاء الرسول فقال : أريد إبراهيم ، فقال إبراهيم التيمي : أنا إبراهيم ، ولم يستحلّ أن يدلَّه على النخعي ، فأمر بحبسه في الدَّيْمَاس ، ولم يكن لهم ظلٌّ من الشمس ، ولا كِنٌّ من البرد ، وكان كل اثنين في سلسلة ، فتغيّر إبراهيم ، فعادته أُمُّه فلم تعرفه حتى كلَّمها ، فمات ، فرأى الحجاجُ في نومه قائلًا يقول : مات في البلد الليلة رجل من أهل الجنة . فسأل فقالوا : مات في السجن إبراهيم التيمي ، فقال : حُلْم ، نَزْغةٌ من نزغات الشيطان ، وأمر به فألقي على الكُنَاسة .

رحمك الله يا إبراهيم ، آثرتَ أخاك على نَفْسِكَ وأنت تَعْلم أنك ستسجن .

بَقيُّ بن مَخْلد :

قال ابن البادية الحافظ : كان أَسْلم بن عبد العزيز يُقدِّمه على جميع من لقيه بالمشرق ، ويصف زهده ويقول : ربما كنتُ أمشي معه في أزقَّة قرطبة ، فإذا نظر في موضع خالٍ إلى ضعيفٍ محتاج أعطاه أحد ثوبيه .

الخَطيب البَغْدادي وأبو بكر ابن زهراء :

مَنْ صَفا صُفِّيَ له .

أوصى الخطيب البغدادي بأن يُتصدق بجميع ثيابه .

قال أبو البركات إسماعيل بن أبي سعدٍ الصوفي : كان الشيخ أبو بكر ابن زهراء الصوفي بِرِبَاطِنَا ، قد أعدَّ لنفسه قبرًا إلى جانب قبر بشرٍ الحافي ، وكان يمضي إليه كل أسبوع مرة وينام فيه ، ويَتْلو فيه القرآن كله ، فلما مات أبو بكر الخطيب ، كان قد أوصى أن يُدفن إلى جنب قبر بشرٍ ، فجاء أصحاب الحديث إلى ابن زهراء ، فسألوه أن يدفنوا الخطيب في قبره وأن يؤثره به ، فامتنع وقال : موضعٌ قد أعددتُه لنفسي يُؤخذ مني ؟! فجاءوا إلى والدي ، وذكروا له ذلك ، فأُحضر ابن زهراء ، وهو أبو بكر أحمد بن علي الطُّرَيْثِيثي فقال : أنا لا أقول لك : أعْطهم القبر ، ولكن أقول لك : لو أن بشرًا الحافي في الأحياء وأنت إلى جانبه ، فجاء أبو بكر الخطيب ليقعد دونك ، أكان يَحْسُن بك أن تقعد أعلى منه ، قال : لا ، بل كنت أُجْلِسُه مكاني . قال : فهكذا ينبغي أن تكون السَّاعة . قال : فطاب قلبه وأَذِنَ .

عبد الغَني المقدسي :

قال منصور الغضاري : شاهدتُ الحافظ في الغلاء بمصر ، وهو ثلاث ليالٍ يُؤثر بِعَشَائه ويَطْوي .

* * *

دَاود الطَّائي :

قال حماد بن أبي حنيفة : إن مولاةً كانت لداود الطائي تخدمه ، قالت : لو طبختُ لك دَسَمًا تأكله ؟ فقال : وددت . فطبختْ له دسمًا ثم أتته به ، فقال لها : ما فعل أيتام بني فلان ؟ قالت : على حالهم . قال : اذهبي بهذا إليهم . فقالت : أنت لم تأكل أُدْمًا منذ كذا وكذا . فقال : إنَّ هذا إذا أكلوه صار إلى العَرْش ، وإذا أكلتُه صار إلى الحُشِّ[١] .

« وعن أبي الحسن الأنطاكي : أنه اجتمع عنده نَيِّفٌ وثلاثون نفسًا – وكانوا في قريةٍ بِقُرْب الرَّيِّ – ولهم أرغفةٌ معدودة ، لم تُشْبع جميعهم ، فكسروا الرُّغفان وأطفئوا السِّراج ، وجلسوا للطعام ، فلما رُفع فإذا الطعام بحاله ، ولم يَأْكل أحدٌ منه شيئًا ، إيثارًا لصاحبه على نفسه »[٢] .

بِنفْسِي أَنْتم شُهَدَاء اليَرْمُوك :

عن ابن الأعرابي قال : اسْتَشْهد باليرموك عكرمةُ بن أبي جهل ، وسهيل بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام ، وجماعةٌ من بني المغيرة ، فأُتوا وهم صَرْعى ، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه !! أتي عكرمةُ بالماء فنظر إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال : ابدءوا به . فَنَظر سُهيل إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال : ابدءوا بهذا . فماتوا كلهم قبل أن يشربوا ، فمر بهم خالد بن الوليد فقال : بنفسي أنتم[٣] !.

وفي الإحياء للغزالي : « قال حذيفة العدوي : انطلقتُ يوم اليرموك

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ٢٦١ .
(٢) إحياء علوم الدين ٣ / ٢٧٣ .
(٣) التبصرة ٢ / ٢٥٩ .

أطلب ابن عمٍّ لي ، ومعي شيءٌ من ماء ، وأنا أقول : إن كان به رمقٌ سَقَيتُه ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به فقلت : أسقيك ؟ فأشار إليَّ أَنْ نَعم ، فإذا رجل يقول : آه .. فأشار ابن عمي إليَّ أن انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو هشام بن العاص ، فقلتُ : أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال : آه .. فأشار هشام : انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات ، رحمةُ الله عليهم أجمعين »[١] .

الرَّبيع بن خُثيْم رحمه الله :

اشتهى الربيعُ بن خثيم حَلْواء ، فلمَّا صُنعت دعا بالفقراء فأكلوا ، فقال أهله : أتعبْتنا ولم تأكل . فقال : وهل أكل غيري ؟!.

بشر بن الحارث الحافي :

قال عباس بن دَهْقان : ما خرج أحدٌ من الدنيا كما دخلها إلا بشر ابن الحارث ؛ فإنه أتاه رجلٌ في مرضه فشكا إليه الحاجة ، فنزع قميصه وأعطاه إياه ، واستعار ثوبًا فمات فيه .

الجريري أبو محمد :

قال أبو الحسن بن مقسم : مات الجُريري - يعني أبا محمد - سنة وقعة الهَبير[٢] ، مات عَطَشًا ؛ بلغني أن بعض الصوفية حمل إليه قدحًا من ماء يشربه ، فنظر إلى من حوله ، فقال للذي جاء به : وَيْحَكَ ، كيف أشرب أنا وهؤلاء يَتْلَفُونَ حولي ؟! أعطِه من شئت منهم ؛ فإن كان يصحُّ في وقتٍ

---

(١) الإحياء ٣/ ٢٧٤ .

(٢) الهَبير : رملُ زرُود ، في طريق مكة ، كانت عنده وقعة ابن أبي سعيد القرمطي بالحجاج في سنة ٣١٢ .

إيثارٌ ففي مثل هذا الوقت ، ومات عطشًا[١] .

أبو الحُسين النُّوري :

عن أبي العباس بن عطاء قال : سَعَى ساعٍ بالصوفية إلى الخليفة ، فقال : إن هاهنا قومًا من الزَّنادقةِ يرفضون الشَّريعة ، فأُخذ أبو الحسين النُّوري ، وأبو حمزة ، والدَّقام ، وتَستَّر الجُنيدُ بالفقه ، فكان يتكلّم على مذهب أبي ثور ، فأُدخلوا على الخليفة ، فأمر بضرب أعناقهم ، فَبَدَرَ أبو الحسين إلى السَّيَّاف ليضرب عنقه ، فقال له السيَّاف : مَا لكَ بدرتَ من بين أصحابك ؟ فقال : أحببتُ أن أُوثر أصحابي بحياةِ هذه اللحظة . فتعجَّب السَّياف من ذلك وجميعُ من حضر ، وكتب به إلى الخليفة ، فردَّ أمرَهم إلى قاضي القضاة إسماعيل بن إسحاق ، فقام إليه النوريُّ ، فسأله عن أصول الفرائض في الطهارة والصلاة فأجابه ، ثم قال : وَبَعْدَ هذا ، فإنَّ لله عبادًا يأكلون بالله ، ويلبسون بالله ، ويسمعون بالله ، ويَصْدُرون بالله ، وَيَرِدُونَ بالله ، فلما سمع القاضي كَلاَمَه بكى بكاءً شديدًا ، ثم دخل على الخليفة فقال : إن كان هؤلاء القوم زنادقة ، فما على وجه الأرض مُوَحِّدٌ[٢] .

نافع بن جُبير :

عن مِسْعر قال : شُوي لنافع بن جبير دَجَاجة ، فجاء سائل فأعطاها إيَّاه ، فقال له إنسان في ذلك ، فقال : إني أبغي ما هو خير منها[٣] .

* * *

---

(١) تاريخ بغداد ٤ / ٤٣٣ - ٤٣٤ ، والجامع لشُعَب الإيمان للبيهقي ٧ / ٩٦ - ٩٧ .

(٢) تاريخ بغداد ٥ / ١٣١ ، والحلية ١٠ / ٢٥٠ ، والجامع لشعب الإيمان ٧ / ٩٧ .

(٣) المعرفة والتاريخ للفسوي ١ / ٥٦١ ، والجامع لشعب الإيمان ٧ / ١٠٠ .

يحيى بن معاذ الرَّازي :

قال يحيى بن معاذ الرازي : عجبتُ من رجل يُرائي بعمله الناس وهم خَلْق مثله ، ومِنْ رجلٍ بقي له مالٌ وربُّ العزة يستقرضه ، ورجلٍ رغب في محبة مخلوق والله يدعو إلى محبته ، ثم تلا : ﴿ **والله يدعو إلى دارِ السَّلام** ﴾ [يونس : ٢٥] .

الحَكَم بن المطَّلب بن حَنْطَب :

قال مصعب : كان الحكم بن المطَّلب من أبرِّ الناس بأبيه ، وكان أبوه - المطلب بن عبد الله - يحب ابنًا له يقال له : « الحارث » حُبًّا شديدًا مفرطًا ، وكان بالمدينة جارية مشهورة بالجمال والفَراهة ، فاشتراها الحكم من أهلها بمالٍ عظيم ، فقال له أهلها - وكانت مُوَلَّدةً عندهم - : دعها عندنا حتى نصلح لك من شأنها ، ثم نزفّها إليك بما تستأهل الجارية منا ، فإنَّما هي لنا ولد ، فتركها عندهم حتى أصلحوا حالها ، ثم نقلوها كما تُزَفُّ العروس إلى زوجها ، وتهيَّأ الحكم بأجمل ثيابه وتطيَّب ، ثم انطلق ، ثم بدأ بأبيه ليراه في تلك الهيئة ويدعو له - تَبَرُّكًا بدعائه - حتى دخل عليه وعنده الحارث ابن المطلب أخوه ، فلما رآه أبوه في تلك الهيئة أقبل عليه فقال : إنّ لي حاجة . قال : ما تقول يا أَبَهْ ؟! إنَّما أنا عبدك ، فَمُرني بما أحببت . قال : تَهِبُ جاريتك هذه للحارث أخيك ، وتعطيه ثيابك هذه التي عليك ، وتطيِّبه من طيبك ، وتدعه حتى يدخل على هذه الجارية . فقال له الحارث : لِمَ تُكَدِّرُ عليَّ أخي وتُفسد عليه قلبه ؟! وذهب يريد يَحْلف ، فَبَدَره الحكم ، فقال : هي حرّةٌ إن لم تفعل ما أمرك به أبي ؛ فإنّ قرةَ عينهِ أَسرُّ إليَّ من هذه الجارية ، وخلع ثيابه فألبسه إياها وطيَّبه ، ودفع إليه الجارية[1] !!.

(١) لباب الآداب ، للأمير أسامة بن منقذ صـ ٩٧ - ٩٨ .

إنَّ الكِـــرامَ مُناهِبُــــو ... كَ المجـدَ كُلَّهُـمُ فناهِـبْ
أخلِـفْ وأتلِـفْ كلّ شـيْ ... ءٍ زَعْزعتـه الـريحُ ذاهـبْ

وقال محمود الورّاق :

تمتَّعْ بمـالِكَ قبلَ الممـاتِ ... وإلَّا فَـلا مـالَ إنْ أنتَ مُتَّـا
شقـــيتَ به ثم خلّفتَـــهُ ... لغَيْرِكَ بُعْـدًا وسُحقًـا ومَقْتَـا
فجـادُوا عليك بزُور البُكَـا ... وجُدتَ عليهم بما قد جَمَعْتَا
وأوهبتَهمْ كلَّ ما في يَدَيْك ... وخَلَّوْك رهنًا بما قَد كسبتَا

وقال ابن الرومي :

بَقَّيْتَ مَالكَ ميراثًا لوَارثِهِ ... فليتَ شِعْرِيَ ما بقَّى لك المالُ
القومُ بعدكَ في حال تَسرُّهُمُ ... فكيفَ بعدهُمُ حالتْ بِكَ الحالُ
مَلُّوا البكاءَ فما يَبْكيك من أحدٍ ... واستحكم القيلُ في الميراث والقالُ
وَلَّتْهُمُ عنك دنيا أقبلتْ لَهُمُ ... وأدبرتْ عنكَ والأيامُ أحوالُ[١]

قال أبو نصر العاملي : كان يقـال : زكاة النِّعَم اتخـاذُ الصنائع والمعروف[٢].

وقال محمد بن واسع : ما رَدَدتُ أحدًا عن حاجةٍ أقدر على قضائها ، ولو كان فيها ذَهَاب مالي[٣].

قال رسول الله ﷺ : « وأي داءٍ أَدْوى من البخل »[٤].

---

(١) لباب الآداب صـ ١٢٧ .
(٢) قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا صـ ٩٨ تحقيق عمرو عبد المنعم ، مكتبة ابن تيمية .
(٣) قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا صـ ٨٢ .
(٤) صحيح :

قال ابن القيم في الوابل الصيب : « كان عبد الرحمـٰن بن عوف - أو سعد بن أبي وقَّاص - يطوف بالبيت وليس له دَأْبٌ إلا هذه الدَّعْوة : ربِّ قني شُحَّ نفسي ، رب قني شح نفسي . فقيل له : أما تدعو بغير هذه الدعوة ؟ فقال : إذا وُقيتُ شَرَّ نفسي فقد أفلحت .

والفرق بين **الشُّحِّ والبخلِ** : **أن الشُّحَّ** : هو شدة الحرص على الشيء ، والإحفاء في طلبه ، والاستقصاء في تحصيله ، وجشع النفس عليه . والبخل : منع إنفاقه بعد حصوله،وحُبّه وإمساكه ، فهو شحيحٌ قبل حصوله ، بخيل بعد حصوله .

فالبخل ثمرة الشح ، والشح يدعو إلى البخل ، والشُّح كامنٌ في النفس .

وقال ﷺ : « شَرُّ ما في رجل شُحٌّ هالع وجبنٌ خالع »(١).

وقال رسول الله ﷺ : « إيَّاكم والشح ، فإنما هَلَكَ من كان قبلكم بالشُّح ، أمرهم بالبخل **فبخِلوا** ، وأمرهم بالقَطِيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفُجُور ففجروا »(٢).

وقال رسول الله ﷺ : « إذا ضَنَّ الناسُ بالدينار والدرهم ، وتبايعوا بالعِينَةِ ، وتبعوا أَذْنَابَ البقر ، وتركوا الجهادَ في سبيل الله ، أَدْخل اللهُ عليهم ذُلًّا ، لا يرفعه عنهم حتى يُراجعوا ....

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري في التاريخ ، وأبو داود ، عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٧٠٩ .

(٢) صحيح : رواه أبو داود والحاكم عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٧٨ .

دِينهم »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « إن لله تعالىٰ أقوامًا يختصُّهم بالنِّعَم لمنافعِ العباد ، ويُقِرُّها فيهم ما بَذلوها ، فإذا منعوها نَزَعَها منهم فحوَّلها إلى غيرهم »[٢].

قال ابن القيم في الوابل الصَّيِّب : « السَّخِيُّ قريبٌ من الله تعالىٰ ، ومن خَلْقِه ومن أَهْله ، وقريبٌ من الجنة ، وبعيدٌ عن النار ، والبخيلُ بعيدٌ عن خَلْقه ، بعيدٌ من الجنة ، قريبٌ من النار . فجودُ الرجل يحبِّبه إلى أضداده ، وبخله يبغِّضُه إلى أولاده .

والسَّخاء نوعان :

فأشرفهما : سخاؤك عما بيد غيرك .

والثاني : سخاؤك ببذل ما في يدك . فقد يكون الرجل من أسخى الناس ، وهو لا يعطيهم شيئًا ؛ لأنه سَخَا عمَّا في أيديهم ، وهذا معنى قول بعضهم : السَّخاءُ أن تكون بمالك متبرِّعًا ، وعن مال غيرك متورعًا[٣].

إخواني ، رَحَلَ من أَصِفُه ، وبقي من لا أعرفه ، سَلْ عنهم ﴿ **تجارةً لن تبور** ﴾ وزُرْ إذا اشتقتهُمُ القبور .

أَقْوَتْ مـن الحيِّ الدِّيَا ... رُ فمـا لها في العَيْنِ نُور

---

(١) صحيح : رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٧٥ .

(٢) حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج ، والطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٦٤ .

(٣) الوابل الصَّيِّب صـ ٦٨ - ٧٠ .

كانوا يُؤْثرون بالطعام ويؤثرون الصيام ، ويَأْملون فضل الإنعام ، فما كانت إلا أيام حتى اخضرَّتِ البذور ﴿ **وَأَنْفَقُوا مما رَزَقْناهم سِرًّا وعلانيةً يَرْجُونَ تجارةً لن تَبُور** ﴾ .

بَعَثوا الأموال الحبيبة إلى بلاد البَعْث الغريبة ، فإذا الأرباح عن قريبٍ قريبة ، وعلى هذا التجارةُ تدور ﴿ **يرجون تجارة لن تبور** ﴾ .

بالجِدِّ فاز من فاز ، وبالعَزْم جاز من جاز ، وما حاز الثناءَ مَنْ للمالِ حاز .

وسائلٍ عنهمُ ماذا تَقَدَّمَهُمْ فقلتُ فَضْلٌ به عن غَيْرهمْ بَانُوا
وأهج الحمد بالأبطالِ بَيْنَهُمُ أنْ ليس بَيْنَهُمُ للمالِ إبطانُ

واعجبًا لغنيٍّ يبخل بما يَفْنىٰ ، ولفقيرٍ لا يصبر على ما يبقىٰ .

أعاذلَ إن المال غير مُخَلَّدٍ وإنَّ الغنىٰ عَارِيَّةٌ فتزوّدِ
فكم من جوادٍ يُفسِدُ اليومَ جُودَه وَسَاوسُ قَدْ خوَّفْنه الفَقْرَ في غَدِ

كم ناداك مولاك وما تسمع ، وكم أعطاك وما تَقْنَع ، لقد استقرضك مالَكَ فما لكَ تَجْمع ؟! وضمن أن **الجَنَّة** تُنبتُ سبعمائة وما تزرع .

لِيَكُنْ همّك في طلب المال الإفضالَ به ، فإن الشَّريف الهمّة لا يطلب الفضل إلا للفضل .

قال أعرابي لأخيه : إنَّ مَالَكَ إنْ لم يكنْ لك كنتَ له ، فكُلْه قبل أن يَأْكُلك .

كم مُخَلِّفٍ لمتخلِّفٍ ، ترك لمن لا يحمده ، وقَدم على من لا يَعْذِرُه ، رانَ على القلوب حبُّ الدنيا فجمعَتْها كفُّ الشَّره ، وتمسكتْ بها أيدي البخل ، فلو تَلَمَّحتَ معنى ﴿ **من ذا الذي يقرض** ﴾ أو اشتقتَ إلى أرباح

﴿ فيضاعفه ﴾ لرأيتَ إنفاق كلِّ محبوبٍ حقيرًا في جنب ما ترجو .

فتدبروا إخواني أحوالكم ، وأنفقوا في الخير أموالكم ، فإنَّ المال إذا أُخِذْتُم في سيركم لِغَيْركم .

كم مشغولٍ بالقصور يعمرها ، لا يفكر في القبور ولا يذكرها ، يبيتُ الليالي في فكر الدنيا ويسهرها ، يجمع الأموال إلى الأموال يثمرها ، وقع في أشراكِ المنايا وهو لا يُبْصرها ، أُفٍّ لدنيا هذا آخرها ، وآهٍ لأخرى هذا أولها ﴿ ولن يُؤخر اللهُ نفسًا إذا جاء أجَلُها ﴾ .

* * *

الفَصْلُ السَّادِس

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الحَجِّ والعُمْرَةِ

□ علو الهمة في الحج والعمرة □

عبدُ الله بن عُمَر رضي الله عنهما :

قال الذهبي في السير (٥ / ٩٧) : « قال نافع : سافرتُ مع ابن عمر بِضْعًا وثلاثين حِجَّةً وعمرة » .

الحَسَن بن عليٍّ سِبْط رسول الله ﷺ ورَيْحانته من الدُّنيا وسَيِّد شباب أهلِ الجنة :

حَجَّ الحسن خمسَ عشرةَ مرةً ، وحجّ كثيرًا منها ماشيًا من المدينة إلى مكة ، ونجائبهُ تُقاد معه[١].

أنس بن مالك :

قال الجريري : أَحْرَمَ أنس بن مالك من ذات عِرق ، فما سمعناه متكلِّمًا إلَّا بذكرِ الله حتى حلَّ ، قال : فقال له : يا ابن أخي ، هذا الإحرام[٢].

عبد الله بن الزُّبير بن العَوَّام رضي الله عنه :

قال الذهبي في السير (٣ / ٣٧٠) : « قال مجاهد : ما كان بابٌ من العبادة يَعْجَز عنه الناس إلَّا تكلَّفه ابنُ الزبير ، ولقد جاء سيل طبَّق البيت فطاف سِبَاحَةً » .

ولا يشغله عن الطواف ماء ... والله إنها لأعاجيب ، وأحاديث أطيب من نفح المسك ، وأحلى مذاقًا من العَسل !

* * *

(١) السير ٣ / ٢٥٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ٧ / ٢٢ .

مُطرِّف بن الشِّخِّير ، وبَكْر بن عبد الله المُزَني :

قال أحدهما في يوم عرفة : ما أحلى هذا الجمع لولا أنّي فيهم . وقال الآخر : اللهم لا تَردّهم من أجلي .

رحم الله العَابِدَيْن ، ومن في الناس مثلهما !

الأسود بن يَزيد النَّخعي :

عن أبي إسحاق قال : حَجَّ الأسود ثمانين ، من بين حِجّة وعمرة(١) .

عمرو بن ميمون الأَوْدي :

قال أبو إسحاق : حَجَّ عمرو بن ميمون ستين مرةً ، من بين حجة وعمرة .

وفي رواية : مائة مرة(٢) .

أبو عثمان النَّهْدي :

عن عبد القاهر بن السري عن أبيه عن جَدهِ قال : كان أبو عثمان من قضاعة ، وسكن الكوفة ، فلما قُتل الحُسين تحوَّل إلى البصرة ، وقال : لا أسكن بلدًا قُتل فيها ابن بنت رسول الله ﷺ . قال : وحج ستين مرة ، ما بين حِجة وعمرة(٣) .

سعيد بن المُسَيِّب :

قال عبد الرحمٰن بن حَرْملة : سمعتُ ابن المسيب يقول : حججتُ

---

(١) السير ٤ / ٥١ .

(٢) الحلية ٤ / ١٤٨ ، والسير ٤ / ١٦٠ .

(٣) طبقات ابن سعد ٧ / ٩٨ ، وتاريخ بغداد ١٠ / ٢٠٤ ، والسير ٤ / ١٧٧ .

أربعين حجة(١).

سعيد بن جُبير :

عن هلال بن خبَّاب قال : كان سعيد بن جبير يُحْرم في كل سنةٍ مرتين ؛ مرة للحج ومرة للعمرة(٢).

زَيْن العَابِدِين عليٌّ بن الحُسَين رضي الله عنهما :

قال مالك : أَحْرم عليُّ بن الحسين ، فلما أراد أن يُلبي قالها ، فأغمي عليه وسقط من ناقته ، وهُشِم(٣).

مُسْلم بن يَسَار :

كان مسلم بن يسار يحج كلَّ سنةٍ ، ويُحجج معه رجالًا من إخوانه تعوّدوا ذلك ، فأبطأ عامًا حتى فاتت أيام الحج ، فقال لأصحابه : اخرجوا ، فقالوا : كيف ؟! قال : لابد أن تخرجوا . ففعلوا استحياءً منه ، فأصابهم حين جنَّ عليهم الليل إعصارٌ شديدٌ ، حتى كاد لا يَرى بعضهم بعضًا ، فأصبحوا وهم ينظرون إلى جبال تِهَامة ، فحمدوا الله ، فقال : ما تعجبون من هذا في قدرة الله تعالىٰ(٤).

نَافِع بن جُبير :

قال ابن حبَّان : كان من خيار الناس ، كان يحج ماشيًا ، وناقته تُقاد(٥).

---

(١) السير ٤ / ٢٢٢ .

(٢) السير ٤ / ٣٢٥ .

(٣) السير ٤ / ٣٩٢ ، وابن عساكر ١٢ / ٢٠ أ .

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٦ / ٢٤٧ أ ، والسير ٤ / ٥١٢ .

(٥) طبقات ابن سعد ٥ / ٢٠٦ ، والسير ٤ / ٥٤٢ .

طـــاووس :

قال ابن حبان : كان طـاووس مـن عُبَّاد أهـل اليمن ، ومن سَادات التابعين ، مُسْتجاب الدَّعوة ، حجَّ أربعين حجة .

وعن ابن شَوْذب قال : شهدتُ جنازةَ طاووس بمكة سنة خمسٍ ومائة ، فجعلوا يقولون : رحم الله أبا عبد الرحمٰن،حَجَّ أربعين حجة(١).

عَطَاء بن أبي رَبَاح :

قال أبو حازم : ما أدركتُ أحدًا أَعْلَمَ بالحج من عطاء بن أبي رباح .

وعن ابن أبي ليلى قال : دخلتُ على عطاء ، فجعل يسألني ، فكأنَّ أصحابه أنكروا ذلك ، وقالوا : تسأله ؟! قال : ما تنكرون ، هو أعْلم مني . قال ابن أبي ليلى - وكان عالمًا بالحج - : قد حَجَّ زيادةً على سبعين حجة(٢).

أيوب السَّخْتياني :

عن هشام بن حَسّان أن أيوب السَّختياني حج أربعين حجة(٣).

الأوْزاعــي :

« قال ضمرة بن ربيعة : حججنا مع الأوزاعي سنة خمسين ومائة ، فما رأيته مضطجعًا في المَحْمَل في ليلٍ ولا نهارٍ قَطُّ ، كان يصلِّي ، فإذا غَلَبه النَّوْم استند إلى القِتْب »(٤).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٥ ، ٤٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥ / ٨١ - ٨٢ .

(٣) السير ٦ / ٢١ .

(٤) السير ٧ / ١١٩ .

سُفيان بن عُيَيْنة :

روى سليمان بن أيوب : سمعت سفيان بن عيينة يقول : شهدت ثمانين مَوْقفًا .

ويُروى أن سفيان كان يقول في كل موقف : اللهم لا تَجْعله آخرَ العهدِ منك ، فلما كان العام الذي مات فيه ، لم يقل شيئًا ، وقال : قد استحييتُ من الله تعالى(١) .

عيسى بن يُونس :

الإمامُ القدوة الحافظ الحجة السَّبيعي أخو الحافظ إسرائيل .

قال أحمد بن جَناب : غزا عيسى بن يونس خمسًا وأربعين غزوة ، وحج كذلك(٢) .

عبد الله بن وَهْب إمامُ أهل مصر :

عن سُحْنون الفقيه قال : كان ابنُ وهب قد قسَّم دَهْرَه أثلاثًا ، ثُلُثًا في الرِّبَاط ، وثُلُثًا يُعَلِّمُ الناس بمصر ، وثُلُثًا في الحج . وذكر أنه حج سِتًّا وثلاثين حجة(٣) .

عبد الرحمٰن بن مَهْدي :

قال رُسته : كان عبد الرحمٰن يحج كل عام(٤) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨ / ٤٦٥ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٨ / ٤٩٤ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٢٦ .
(٤) سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٠٤ .

هَارُون الرَّشيد أمير المؤمنين رحمه الله :

كان يَغزو عامًا ويَحجُّ عامًا..

قال الشاعر :

فَمَنْ يَطْلُبْ لِقَاءَكَ أو يُرِدْهُ فَبالحَرَميْنِ أو أَقْصى الثُّغُورِ
ففي أرضِ العَدوِّ على طِمِرٍّ وفي أرضِ التَّرفُّهِ فَوْقَ كُورِ
وما جَازَ الثُّغورَ سِوَاكَ خَلق من المُتخلِّفينَ على الأُمورِ

كان رحمه الله إذا حَجَّ أحجَّ معه مائةً من الفقهاء وأبناءهم ، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السَّابغة والكسوة التامة[1].

مُحمَّد بن طارق :

قال محمد بن فضيل : قال ابن شبرمة :

لَوْ شِئْتُ كنتُ ككُرزٍ في تَعَبُّدِهِ أو كابنِ طارقَ حَوْلَ البيتِ في الحَرَمِ
قَدْ حَالَ دونَ لذيذِ العَيْشِ خَوْفُهُما وسارعًا في طِلابِ الفَوْزِ والكرمِ

قال : كان محمد بن طارق يطوف في كل يوم وليلة سبعين أُسْبوعًا ، وكان كُرز يختم في كل يومٍ وليلة ثلاث خَتْمات .

وقال ابن شبرمة : قال لي ابن هبيرة : مَنْ كُرز ؟ وَمَنْ ابن طارق ؟ قال : قلت : أما كُرز فكان إذا كان في سفرٍ واتَّخَذَ الناس منزلًا اتخذ هو منزلًا للصلاة . وأما ابن طارق فلو اكتفى أحدٌ بالتُّراب كفاه كفٌّ من تراب . قال أبو حفص : ذَكروا أنَّ ابن طارق كان يُقدِّرُ طوافُه في اليوم عشرة فراسخ[2].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٢١٣ - ٢٢٣ .
(٢) حلية الأولياء ٥ / ٨١ - ٨٢ .

الخُلْدي : جعفر بن محمد بن نُصَير الإمام القدوة :

قال الخُلْدي : وقفتُ بعرفة سِتًّا وخمسين وَقْفةً[١].

الحافظ ابنُ المُقْرِئ : مُحمَّد بن إبراهيم الأَصْبهاني :

قال أبو طاهر ابن سلمة : سمعت ابنَ المقرئ يقول : استلمتُ الحجرَ في ليلة مائةً وخمسين مرة[٢].

الخَطيبُ البَغْدادي :

قال أبو الفرج الإسفراييني : كان الخطيبُ معنا في الحج ، فكان يختم كل يوم ختمةً قراءةَ ترتيل ، ثم يجتمع الناسُ عليه وهو راكب يقولون : حدِّثنا ، **فيُحدِّثهم** .

قال الخطيب في ترجمة إسماعيل بن أحمد النيسابوري الضَّرير : حَجَّ وحدَّث ونعم الشيخ كان ! ولما حَجَّ كان معه حمل كتبٍ ليجاور ؛ منه « صحيح البخاري » سمعه من الكُشْمِيهَني ، فقرأتُ عليه جميعَه في ثلاث مجالس ، فكان المجلس الثالث من أول النهار وإلى الليل ، ففرغ طلوع الفجر .

قال الذهبي : هذه والله القراءة التي لم يُسمع قطُّ بأسرع منها[٣].

الفقيه هَيَّاجُ بن عُبيد ، إمام الحرم ومفتيه شيخ الإسلام :

كان رحمه الله يعتمر في اليوم ثلاث عُمر[٤].

قال عنه هبةُ الله الشيرازي في مُعجمه : حدَّثنا هيّاج الزاهد الفقيه ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٥ / ٥٥٩ .

(٢) السير ١٦ / ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٤) السير ١٨ / ٣٨٦ .

وما رأتْ عَيْناي مثله في الزُّهد والورع[(١)].

ابن قيِّم الجُوزيَّة :

قال ابن رجب عن ابن القيم : « وَحَجَّ مَرَّات كثيرة ، وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شِدَّة العبادة وكثرة الطواف أمرًا يُتعجَّب منه »[(٢)].

ولقد ألَّف كتابَه القيم « مفتاح دار السعادة » بمكة . يقول ابن القيم في آخر مقدمته له : « وكان هذا من بعضِ النُّزول والتُّحفِ التي فتح الله بها عليَّ حين انقطاعي إليه عند بيته ، وإلقائي نفسي ببابه مسكينًا ذليلًا ، وتعرُّضي لنفَحَاته في بيته وحوله بُكرةً وأصيلًا ، فما خَاب من أنزل به حوائجه ، وعلّق به آماله ، وأصبح ببابه مُقيمًا وبحماه نزيلًا » .

الحافظ البرزالي صاحب التَّاريخ والمعجم الكبير :

« مات بخليص مُحْرمًا في ثالث ذي الحجة ، سنة ثمانٍ وثلاثين وسبعمائة .

ولقد حكى بعض مشايخنا عنه أنه كان إذا قرأ الحديث ، ومرّ به حديث ابن عباس في قصة الرَّجُل الذي كان مع النبي ﷺ فَوَقصتْه ناقته وهو مُحْرم فمات ... الحديث ، وفيه : « فإنه يُبْعث يوم القيامة مُلبِّيًا » ، فكان إذا قرأه يبكي ، ويَرِقُّ قلبه ، فمات مُحْرمًا بخليص »[(٣)].

رُوحٌ دَعَاها للوِصَالِ حَبيبُهَا   فَسَعَتْ إليه تُطِيعُهُ وتُجيبُهُ

---

(١) السير ١٨ / ٣٩٤ .
(٢) ذيل طبقات الحنابلة ٢ / ٤٤٩ .
(٣) الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي صـ ٢١٧ - طبعة المكتب الإسلامي .

يا مُدَّعي صدقَ المحبَّةِ هكذا   فِعْلُ الحبيبِ إذَا دَعَاهُ حَبِيبُهُ

قولوا لمن لم يكن صادقًا : لا يتعنَّى ... وهذا خِتَامُ المِسْكِ لهذا الفصل .

* * *

انتهى المُجلَّد الثاني ويليه المُجلَّد الثالث

إنْ شاء الله تعالى

صلاح الأمة

في

علو الهمة

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم | الشيخ عائض القرني

الشيخ محمد عبد المقصود | الشيخ أبو إسحاق الحويني

المجلد الثالث

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصْـل الأَوَّل

عُلُـوُّ الهِمَّـةِ
فـي
الذِّكْـرِ وَتِـلَاوةِ القُـرْآنِ

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا
عَنِ الطَّعَامِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ

□ عُلوُّ الهِمة في الذِّكْر وتِلاوةِ القرآنِ □

« الذِّكْرُ مَنْشورُ الولاية ، الذي من أُعطيه اتَّصل ، ومن مُنعه عُزل ، وهو قوتُ قلوب القوم ، الذي متي فارقها صارت الأجسادُ لها قبورًا ، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بُورا .

وهو مَنْزِلُ القوم الذي منه **يتزوَّدُون** ، وفيه يَتَّجرون ، وإليه دائمًا يتردَّدون ، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قُطَّاع الطريق ، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق ، ودواءُ أسْقَامهم الذي متى فارقهم انتكستْ منهم القلوب ، والسَّبب الواصل والعَلاقة التي كانت بينهم وبين علَّام الغيوب .

إِذَا مَرِضْنَا تداوينَا بِذِكْرِكُمُ فَنَتْرُكُ الذِّكْـرَ أحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ

به يستدفعون الآفات ، ويستكْشِفون الكُرُبات ، وتهون عليهم به المصيبات . إذا أظلَّهم البلاءُ فإليه ملجؤهم ، وإذا نزلت بهم النوازلُ فإليه مَفْزَعُهم . فهو رياض جَنَّتهم التي فيها يتقلبون ، ورءوس أموال سعادتهم التي بها يتَّجرون ، يدعُ القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا ، ويوصل الذاكرَ إلى المذكور بل يدع الذَّاكر مذكورًا .

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقَّتةٌ . و« الذِّكْر » عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة . بل هم يُؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال ؛ قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، فكما أن الجنة قيعان ، وهو غراسها ، فكذلك القلوب بورٌ خرابٌ ، وهو عِمَارتها وأَسَاسها .

وهو جلاءُ القلوب وصِقَالُها ، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها ، وكلما ازداد الذَّاكِرُ في ذكره استغراقًا ، ازداد المذكورُ محبةً إلى لقائه واشتياقًا . وإذا وَاطَأَ في ذكره قَلْبُه للسانه ، نسي في جنب ذكره كل شيءٍ ، وحفظ اللهُ

عليه كلَّ شيءٍ ، وكان له عوضًا من كل شيءٍ .

به يزول الوَقْرُ عن الأسماع ، والبكم عن الألسن ، وتَنْقَشع الظُّلْمَةُ عن الأبصار .

زيَّن الله به ألسنةَ الذَّاكرين ، كما زين بالنُّور أبصار الناظرين .

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ، ما لم يغلقه العبد بغفلته .

قال الحسن البصري رحمه الله : تفقَّدوا الحلاوةَ في ثلاثة أشياء : في الصلاة ، وفي الذِّكر ، وقراءة القرآن ، فإنْ وجدتم ..... وإلَّا فاعلموا أنَّ الباب مغلق .

وبالذِّكر يَصْرَع العبدُ الشيطان ، كما يصرعُ الشيطان أهلَ الغفلة والنسيان . **قال بعض السَّلف : « إذا تمكن الذِّكْر من القلب ، فإن دنا منه** الشيطان صَرَعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشَّيطان . فيجتمع عليه الشياطينُ فيقولون : ما لهذا ؟ فيقال : قد مسَّه الإنسيُّ »[1].

ما عَرَفَ قدر جلاله من فَتَر لحظةً عن ذكره .

قال ذو النُّون : ما طابت الدنيا إلا بِذِكْرِهِ ، ولا طابت الآخرة إلا بِعَفْوه ، ولا طابت الجنة إلا برؤيته .

أَبَـدًا نُفُـوسُ الطَّـالبيـ ـنَ إلى رِيَاضِكُـمُ تَحِـنُّ
وَكَذَا القلوبُ بِذِكْرِكُمْ بَعْـدَ المَخَافَـةِ تَطْمَـئِنُّ
حَنَّتْ بِذِكْرِكُمُ ومن يهْوَى الحَبِيبَ ولا يَحِنُّ

---

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ٢ / ٤٢١ - ٤٢٢ .

وفي القلب خلَّة وفاقة لا يَسدُّهَا شيءٌ ألبتة إلا ذكرُ الله عز وجل ، فإذا صار الذكر شعارَ القلب ، بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة ، واللسان **تبعًا له** ، فهذا هو الذكر الذي يسدُّ الخَلَّة ، ويُفني الفَاقة .

والذِّكْر يَجْمع المُتفرِّق ، ويفرِّق المجتمع ، ويقرِّب البعيد ، ويبعد القريب ، فيجمع ما تفرَّق على العبدِ من قلبه وإرادته ، وهمومه وعزومه ، والعذاب كلَّ العذاب في تفرقها وتشتّتها عليه ، وانفراطها له ، والحياةُ والنعيمُ في اجتماع قلبه وهَمِّه ، وعزمه وإرادته .

ويفرِّق ما اجْتَمع عليه من الهموم والغموم والأحزان والحسرات على فوتِ حُظُوظه ومطالبه .

ويفرِّق أيضًا ما اجتمع عليه من ذُنُوبه وخطاياه وأَوْزاره .

ويفرِّق ما اجتمع على حَرْبه من جند الشيطان ، فإن إبليس لا يزال يبعث له سرية بعد سرية ، وكلَّما كان أقوى طلبًا لله سبحانه وتعالى ، وأَمْثَل تعلّقًا به وإرادة له ، كانت السَّريةُ أكثف وأكثر وأعظم شوكةً ، بحسب ما عند العبدِ من مواد الخير والإرادة ، ولا سبيلَ إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر .

ويقرِّب إليه الآخرة ، فلا يزال يَلْهج بالذِّكْر حتى كأنه قد دخلها وحضرها .

والذكرُ ينبِّهُ القلبَ من نومه ، ويوقظه من سِنَتِهِ ، والقلب إذا كان نائمًا فاتته الأرباحُ والمتاجر ، وكان الغالبُ عليه الخُسْران ، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته ، شَدَّ المِئْزَرَ ، وأَحْيَا بقيَّة عمره ، واستدرك ما فاته ، ولا تحصل يقظتُه إلا بالذِّكْر ، فإنَّ الغفلة نومٌ ثقيل .

والذِّكر شجرةٌ تُثْمر المعارف والأحوال التي شمّر إليها السَّالكون .

والذِّكْرُ يُثْمر المقاماتِ كلَّها من اليقظة إلى التوحيد ، ويَعْدل عتقَ الرِّقاب والحَمْـل على الخيل في سبيل الله ، ويَعْـدل الضربَ بالسَّيْف في سبيل الله عز وجل ، وهو خيرُ الأعمال على الإطلاق ، قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أنبِّئكم بخيرِ أعمالكم وأزكاها عند مَلِيككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الوَرِق والذَّهب ، وخير لكم من أن تلقوا عَدوَّكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « ذِكْرُ اللهِ »[١] .

وأعلى الذِّكر منزلةً تلاوة القرآن .. أَحْسَـن الحديث والطَّيب مـن القـول .. مَزَاميرُ الأُنْس مـن حَضْرة القدس ، بألحان التوحيد مـن رياض التَّمجيد ، هذا طَعْم الخبر فكيف طعم النَّظَر !

آياتٌ منزَّلةٌ من حول العرش ، الأرض بها سماء هي منها كواكب .

ألفاظٌ إذا اشتدتْ فأمواه البحار الزَّاخرة ، وإذا لانت فأنفاسُ الحياة الآخرة .

معانٍ هي عذوبةٌ ترويك من ماءِ البيان ، ورقَّةٌ تَسْتروح منها نسيمَ الجِنَان .

ألفاظٌ لم تعهد كلم أحداقها ، وثمرات لم تنبت في قلم أوراقها .. نورُ القلوب الذي لا تستضيءُ إلا به ، وحياةُ الأرواح .. بل الروح الذي تتوقف الحياة الحقيقية عليه ... فضلُ اللهِ ورحمته ونعمته الكبرى ، لا يَسَعها

---

(١) صحيح : رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي الدرداء ، وصححه الحاكم ، والألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٢٩ .

ولا يُحيط بها حَمْدُ وشُكْر الخلائق .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ ﴾ [العنكبوت : ٥١].

وقال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] .

وإذا فَرِحَ العبدُ بِفَضْلِ الله ورحمتِهِ وأنس به لَهِجَ به ، وعلتْ همَّته في تلاوتهِ وتدبرهِ والإكثار من الذِّكْر ، حتى يصيرَ الذكرُ والقرآن نعيمَ الرجلِ وعنوانه وجنته وبستانه وأنسه وميدانه .

قال تعالى لكليمه موسى عليه السلام : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ [طه : ٤٢] .

وقال تعالى على لسان نبيه موسى : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُركَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [طه : ٣٣ - ٣٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١ - ٤٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

وفي الأثر الإلٰهي : « إنّ عبدي - كلَّ عبدي - الذي يَذْكرني وهو مُلاقٍ قِرْنه » .

قال ابن القيم : « سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّسَ اللهُ روحَه - يستشهد به .

وسمِعته يقول : المحبُّون يفتخرون بِذِكْرِ من يحبونه في هذه الحال ، كما قال عنترة :

وَلَقَدْ ذَكَرْتكِ والرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الأَدْهمِ

وقال الآخر :

ذكَرْتُكَ والخَطِّيّ يَخْطُر بيننا وقد نَهَلَتْ منَّا المُثقَّفة السُّمْرُ

قال آخر :

ولقدْ ذكرتُك والرِّماحُ شَواجِرٌ نَحْوي وبيضُ الهِنْد تَقْطُر من دمِي

وهذا كثير في أشعارهم . وهو مما يدلُّ على قوة المحبة ، فإن ذكر المحب محبوبه في تلك الحال التي لا يهمُّ المرءَ فيها غير نفسه ، يدل على أنه عنده بمنزلة نفسِهِ أو أعز منها »[١].

وقال تعالى : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ **... والذَّاكرينَ اللهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ الآية [الأحزاب : ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُم وَيَزِيدَهُم**

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٤٢٧ - ٤٢٨ .

مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٩ - ٣٠] .

قال مُطرِّف بن عبد الله : هذه آية القُرَّاء .

وقال تعالى : ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا** ﴾ الآية [البقرة : ٢٠٠] .

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا مِن ساعةٍ تمرُّ بابنِ آدمَ ، لا يَذْكر اللهَ تعالَى فيها ، إلا تحسَّر عليها يوم القيامة »(١) .

وعن معاذ بن جبل يرفعه أيضًا : « ليس تَحسُّرُ أهل الجنة إلَّا على ساعةٍ مرَّتْ بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها »(٢) .

وعن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ : أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله عز وجل ؟ قال : « أن تموتَ ولسانك رَطِبٌ من ذكر الله عز وجل »(٣) .

وعن قيس بن سعد بن عبادة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أدُلُّكَ على بابٍ من أبواب الجنة ؟ لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله »(٤) .

وقال رسول الله ﷺ : « أَكْثِرْ من : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛

---

(١) حسن : أخرجه أبو نُعيم في الحلية (٥ / ٣٦١ - ٣٦٢) ، والبيهقي في شعب الإيمان كما في « فيض القدير » (٥ / ٤٨٣) ونقل المناوي عن البيهقي قوله : في هذا الإسناد ضعف ، غير أن له شاهدًا من حديثِ معاذ ، فالحديث حسن به .

(٢) صحيح : أخرجه ابن السُّني في « عمل اليوم والليلة » ، والطبراني والبيهقي ، وغيرهم .

(٣) حسن : أخرجه ابن حبان والبزار .

(٤) صحيح : رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه ، ورواه الخطيب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦١٠ .

فإنَّها من كَنْزِ الجنةِ »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « أَكْثروا من قول : لا حول ولا قوة إلَّا بالله ، فإنَّها من كنوزِ الجنة »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « أَلَا أَدُلُّكَ على كلمةٍ من تحت العرش ، من كنز الجنة ؟ تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فيقول الله : أَسْلم عبدي واستسلم »[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « أَكْثِرُوا من غَرْسِ الجنة ، فإنه عَذْبٌ ماؤها ، طيِّب تُرابها ، فأكثروا من غِراسها : لا حول ولا قوة إلا بالله »[٤].

وهناك أحاديث تَشْحَذُ الهِمَمَ وتُعليها في تلاوة القرآن والمداومة على الأذكار ؛ لعظيم أَجْرها وسموِّ فاعلها :

قال ﷺ : « اقْرَءُوا القرآنَ ، فإنَّكم تُؤْجرون عليه ، أمَا إني لا أقول : ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف ولكنْ ألفٌ عَشْر ، ولام عشر ، وميمٌ عشر ، فتلك ثلاثون »[٥].

---

(١) صحيح : رواه أبو يعلى ، والطبراني في الكبير ، وابن حبان ، عن أبي أيوب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٠٥ .

(٢) صحيح : رواه ابن عدي في الكامل عن أبي هريرة ، وأخرجه أحمد والترمذي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢١٤ .

(٣) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك وصححه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦١٤ .

(٤) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢١٣ .

(٥) صحيح : أخرجه أبو جعفر النَّحاس في « الوقف والابتداء » والسجزي في =

وقال ﷺ : « إنَّ لله تعالى أَهْلينَ مِن الناس » قالوا : مَنْ هم يا رسول الله ؟ قال : « أهل القرآن ، هُمْ أهلُ الله وخاصَّتُهُ »(١).

وقال ﷺ : « أوصيك بتقوى الله تعالى ؛ فإنه رأسُ كلِّ شيءٍ ، وعليك بالجهاد ؛ فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ؛ فإنه رَوْحُكَ في السَّماء ، وَذِكْرُكَ في الأرض »(٢).

وقال ﷺ : « خيارُكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه »(٣).

وقال ﷺ : « خَيْرُكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه »(٤).

وقال ﷺ : « إن الله تعالى يرفعُ بهذا الكلام أقوامًا ويضع به آخرين »(٥).

وقال ﷺ : « يُقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة : اقرأ واصعد ، فيقرأ ويصعد لكل آيةٍ درجة ، حتى يقرأ آخر شيءٍ ....

= « الإبانة » والخطيب في التاريخ عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٦٠ .

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٦٥ .

(٢) حسن : رواه أحمد عن أبي سعيد ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٤٣ .

(٣) صحيح : رواه الدارمي عن سعد ، وأحمد وابن أبي شيبة عن علي ، وابن أبي شيبة عن عثمان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢٦٨ .

(٤) رواه البخاري عن عثمان ، والترمذي عن علي ، وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عثمان .

(٥) رواه مسلم وابن ماجه عن عمر .

معه »[١].

وقال ﷺ : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارْقَ وَرَتِّلْ كما كنتَ تُرَتِّل في دار الدنيا ؛ فإن **منزلتك عند آخر آيةٍ كنت تقرؤها** »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكِرَام البَرَرَة ، والذي يقرؤه وَيَتَتَعْتَعُ فيه ، وهو عليه شاقٌّ ، له أجران »[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « من قَرَأَ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بِعَشْرِ أمثالها ، لا أقول : ﴿ **الٓمٓ** ﴾ حرف ، ولكن ألفٌ حرف ، ولامٌ حرف ، وميم حرف »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « من سَرَّه أن يحبَّ الله ورسوله فليقرأ في **المصحف** »[٥].

وقال رسول الله ﷺ : « مَنْ عَلَّمَ آيةً من كتاب الله فله ثوابها ما تُليت »[٦].

---

(١) صحيح : رواه أحمد والنسائي وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨١٢٢ .
(٢) صحيح : رواه أحمد والنسائي وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨١٢٢ .
(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن عائشة .
(٤) رواه البخاري في التاريخ والترمذي والحاكم عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٦٩ .
(٥) حسن : رواه أبو نُعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٤٢ .
(٦) صحيح .

وقال رسول الله ﷺ : « لا حَسَدَ إلّا في اثنتيْن : رجلٌ آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناءَ الليل وآناءَ النهار . ورجلٌ آتاه الله مالًا ، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار »[(١)].

وقال رسول الله ﷺ : « لا حَسَدَ إلّا في اثنتين : رجلٌ علَّمه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار ، فسمعه جارٌ له ، فقال : ليتني أُوتيتُ مثل ما أُوتِيَ فلان ، فعملتُ مثل ما يعملْ . ورجل آتاه الله مالًا ، فهو يهلكه في الحق ، فقال رجل : ليتني أوتيتُ مثل ما أُوتي فلان ، فعملتُ مثل ما يعمل »[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ : « يَجِيءُ القرآنُ يوم القيامة فيقول : يا رب ، حَلِّهِ . فيُلْبس تاج الكرامة ، ثم يقول : يا رب ، زِدْهُ . فيُلْبَسُ حُلَّةَ الكرامة ، ثم يقول : يا رب ، ارْضَ عنه . فيرضى عنه ، فيقول : اقْرأْ ، وارْقَ ، ويزداد بكل آية حسنة »[(٣)].

وقال رسول الله ﷺ : « اسمُ اللهِ الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، في ثلاثِ سورٍ من القرآن ، في (البقرة) و(آل عمران) و(طه) »[(٤)].

وعالي الهمة يَحْرِص على استجابة دعائه ، ويحرص على اسم الله الأعظم والدعاء به ؛ أشد من حرصه على حياته .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر .

(٢) رواه البخاري وأحمد عن أبي هريرة .

(٣) حسن : رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٣٠ .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجه والطبراني في الكبير والحاكم عن أبي أُمَامة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٧٩ .

وقال ﷺ : « **أُعطيتُ** هذه الآيات ، من آخرِ سورة البقرة ، من كنزٍ تحت العرش ، لم يُعْطها نبي قبلي »[١]. واللهِ لو كانت من تحت العرش لكَفَتْ ، فكيف إذا كانت من كنز !

ولذا يقـول ﷺ : « اقرءوا هـاتين الآيتين اللَّتَيْن في آخر سورة البقرة ؛ فإن ربي أَعطانيهما من تحت العَرْش »[٢].

وعن ابن عباس قال : « بينما جبريلُ عليه السلام جالسٌ عند النبي ﷺ إذ سَمع نقيضًا من فوقه ، فرفع رأسه إلى السماء ، فقال : إن هذا الباب **من السَّماء قد فُتِحَ ، ما فُتِحَ قط ، قال : فنزل منه مَلَك ، قال : فإنَّ هذا الملك قد نَزَلَ ، مَا نَزَلَ إلى الأرض ، قال** : فجاء المَلَكُ إلى رسول الله ﷺ فسلم عليه وقال : يا محمد ، أَبْشِر بنورَيْن أُوتيتَهما ، لم يُؤْتهن نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لم تَقْرأْ حرفًا منهما إلَّا أوتيته »[٣].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يكرر الفاتحة حتى شروق الشمس بعد أذكار الصباح ، كما قال الحافظ عمر البزار .

وقال ﷺ : « إنَّ سورةً من القرآن ثلاثون آية ، شفعت لرجلٍ حتى غُفِرَ له ، وهي ﴿ **تَبَارَكَ الذي بِيدِهِ المُلْك** ﴾ »[٤].

---

(١) صحيح : رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن حذيفة ، وأحمد عن أبي ذرٍّ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٦٠ .

(٢) صحيح : رواه أحمد والطبراني عن عقبة بن عامر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٧٢ .

(٣) رواه مسلم والنسائي والطبراني في الكبير ، وابن أبي شيبة في المصنف ، والحاكم في المنستدرك .

(٤) حسن : رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة ، وابن حبان والحاكم عن =

وقال ﷺ : « اقرءوا القرآن ؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه . اقرءوا الزَّهْرَاوَيْنِ : البقرة وآل عمران ، فإنهما تأْتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غَيَايَتان ، أو كأنَّهما فِرْقَانِ من طَيْرٍ صوافَّ ، يحاجَّان عن أصحابهما . اقرءوا سورة البقرة ؛ فإن أخذها بركة ، وتركها حَسْرة ، ولا تستطيعها البطلة »[(١)].

وقال ﷺ : « ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ** ﴾ تعدل ثلث القرآن ، و﴿ **قُلْ يَاأَيُّهَا الكافرون** ﴾ تعدل ربع القرآن »[(٢)]. وعالي الهمة لا يفوته العمل بهذا الحديث .

وقال ﷺ : « لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورة ، لَهِيَ أَحبُّ إليّ مما طلعت عليه الشمس : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا** ﴾ »[(٣)].

وقال ﷺ : « ما أَنْزَلَ الله في التوراة ولا في الإنجيل ، مثلَ أُمِّ القرآن ، وهي السَّبْع المثاني ، قال الله تعالى : وهي مَقْسُومةٌ بيني وبين عبدي ، ولِعَبْدِي ما سَأَل »[(٤)].

وقال ﷺ : « من أخذ السَّبْعَ فهو حَبْرٌ »[(٥)].وفي رواية : « فهو خيرٌ » .

= أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٠٩١ .

(١) رواه مسلم وأحمد عن أبي أُمَامة .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٠٥ .

(٣) رواه البخاري وأحمد والترمذي عن عمر .

(٤) صحيح : رواه الترمذي والنسائي عن أُبيٍّ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٦٠ .

(٥) حسن : رواه الحاكم والبيهقي عن عائشة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٧٩ .

وفي الحديث عن أنس :.... وكان الرَّجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا ؛ يعني عَظُمَ . وفي رواية : يُعَدُّ فينا عظيمًا . وفي أخرى : عُدّ فينَا ذا شأنٍ[١].

وقال رسول الله ﷺ : « من قَرَأَ سورة الكَهْفِ ، يوم الجمعة ، أضاءَ له من النورِ ما بين الجُمْعَتين »[٢].

وقال ﷺ : « من قرأ سُورة الكهف ، يوم الجمعة ، أضاءَ له النورُ ما بينه وبين البيت العتيق »[٣].

وقال ﷺ : « من قرأ ﴿ **قُلْ هُو اللهُ أَحد** ﴾ عَشْر مرَّاتٍ بنى اللهُ له بيتًا في الجنة »[٤].

وهذه الأحاديث التي سُقْناها يَحْرص عليها الرِّجَال الذين سَبَقت لهم من ربِّهم الحسنى ، وعظَّموا ما عظَّمه الله عز وجل .

❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد وابن عدي وابن حبان والطحاوي في مشكل الآثار ، وابن أبي شيبة .

(٢) صحيح : رواه الحاكم والبيهقي عن أبي سعيد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧٠ .

(٣) صحيح : رواه البيهقي عن أبي سعيد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧١ .

(٤) صحيح : رواه أحمد عن معاذ بن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧٢ .

□ في كَمْ يُقْرَأُ القُرْآن □

روى البخاري عن مجاهدٍ عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال : أنكحني أبي امرأةً ذات حَسَبٍ ، فكان يتعاهد كَنَّتَهُ[1] فيسألها عن بَعْلها فتقول : نِعْمَ الرجلُ مِنْ رجلٍ ، لم يَطأْ لنا فراشًا ، ولم يُفتِّشْ لنا كَنَفًا[2] منذ أتيناه . فلما طال ذلك عليه ، ذكر للنبي ﷺ فقال : « الْقني به » فلقيته بَعْدُ ، فقال : « كيف تصوم ؟ » قلت : أصوم كلَّ يوم . قال : « وكيفَ تَخْتِم ؟ » قلت : كلَّ ليلة . قال : « صُمْ في كل شهرٍ ثلاثةً ، واقرأ القرآن في كلِّ شهر » قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : « صم ثلاثة أيام في الجمعة » قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : « أفطر يومين وصمْ يومًا » قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : « صم أفضل الصوم ؛ صوم داود ؛ صيام يوم وإفطار يوم ، واقرأ في كلِّ سبع ليال مرةً » فليتني قبلتُ رخصةَ رسول الله ﷺ ، وذلك أنِّي كبرتُ وضَعُفت ، فكان يقرأ على بعض أهله السّبعَ من القرآن بالنهار ، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ؛ ليكون أخفَّ عليه بالليل ، وإذا أراد أن يتقوَّى أفطر أيامًا وأحصى وصام مثلهن ؛ كراهية أن يترك شيئًا فارق النبي ﷺ عليه . قال أبو عبد الله : وقال بعضهم : في ثلاثٍ أو في سبع ، وأكثرهم على سبعٍ .

قال ابن حجر : « وقال بعضهم : في ثلاثٍ أو في سبعٍ . كذا لأبي ذر ، ولغيره : « في ثلاث وفي خمسٍ » ، وفي رواية شعبة عن مغيرة بهذا الإسناد : « فما زال حتى قال : في ثلاث » .

---

(١) كَنَّته : هي زوج الولد .

(٢) الكنف : الستر .

ووقع في رواية هُشيم المذكورة : « فاقْرأْه في كل ثلاثٍ » .

وعند أبي داود والترمذي مُصحَّحًا من طريق يزيد بن عبد الله بن الشِّخير عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا : « لا يَفْقه من قرأَ القرآنَ في أقل من ثلاث » وشاهده عند سعيد بن منصور بإسنادٍ صحيح ، من وجهٍ آخر ، عن ابن مسعود : « اقرءوا القرآن في سبع ، ولا تقرءوه في أقل من ثلاث » ولأبي عبيد من طريق الطيب بن سلمان عن عمرة عن عائشة : أن النبي ﷺ كان لا يختم القرآنَ في أقل من ثلاث . وهذا اختيار أحمد وأبي عبيد وإسحاق بن راهويه وغيرهم ، وثبت عن كثيرٍ من السلف أنهم قرءوا القرآن في دون ذلك ، قال النووي : والاختيار أنَّ ذلك يختلفُ بالأشخاص ؛ فمن كان من أهل الهَمِّ وتدقيقِ الفكر استُحب له أن يقتصر على القدر الذي لا يختلُ به المقصود من التدبر واستخراج المعاني ، وكذا من كان له شغلٌ بالعلم أو غيره من مُهمَّات الدِّين ومصالح المسلمين العامة ، يستحبُّ له أن يقتصر منه على القدرِ الذي لا يخلُّ بما هو فيه ، ومن لم يكن كذلك فالأَوْلى له الاستكثار ما أمكنه من غيرِ خروجٍ إلى المَلَلِ ، ولا يقرؤه هَذْرمةً ، والله أعلم »[١] .

وقال ابن حجر في الفتح (٨ / ٧١٦) : « وكأنَّ النهي عن الزيادةِ ليس على التَّحريم ، كما أن الأمر في جميع ذلك ليس للوجوب ، وعُرِفَ ذلك من قرائن الحال التي أرشد إليها السِّياقُ ، وهو النَّظرُ إلى عَجْزه عن سوى ذلك في الحال أو المآل ، وأَغْرَبَ بعض الظاهريةِ فقال : يَحْرُم أن يُقرأ القرآن في أقل من ثلاث . وقال النووي : أكثر العلماءِ على أنه لا تَقْدير في ذلك ، وإنَّما هو بحسب النَّشاط والقوة ، فعلى هذا يختلف باختلاف

(١) فتح الباري ٨ / ٧١٥ .

الأحوال والأشخاص ، والله أعلم » .

وعلى الجانب الآخر ، جانب من ذهبوا للكراهة ، نَسْرُد هنا قول الحافظ الذهبي في السير ، تعليقًا على حديث عبد الله بن عمرو :

« وصحَّ أنَّ رسول الله ﷺ نَازَلَهُ إلى ثلاثِ ليال ، ونهاه أن يقرأه في أقل من ثلاث ، وهذا كان في الذي نزل من القرآن ، ثم بَعْد هذا القول نزل ما بقي من القرآن ، فأقلُّ مراتبِ النهي أنْ تُكْره تلاوةُ القرآنِ كله في أقل من ثلاث ، فما فَقِهَ ولا تدبَّر من تلا في أقل من ذلك ، ولو تلا ورتَّل في أسبوع ، ولازم ذلك لكان عملًا فاضلًا ، فالدِّينُ يُسْرٌ ، فوالله إن تَرْتيل سُبع القرآن في تهجُّد قيامِ الليل ، مع المحافظة على النوافل الراتبة ، والضُّحى وتحية المسجد ، مع الأذكار المأثورة الثَّابتة ، والقول عند النَّوم واليقظة ودُبر المكتوبة والسَّحَر ، مع النظر في العلم النافع والاشتغال به مُخلصًا لله ، مع الأمر بالمعروف وإرشاد الجاهل وتفهيمه ، وزجر الفاسق ، ونحو ذلك ، مع أداء الفرائض في جماعةٍ بخشوعٍ وطمأنينةٍ وانكسار **وإيمان ، مع أداء الواجب واجتناب الكبائر ، وكثرة الدعاء والاستغفار والصَّدَقة وصلة الرحم والتواضع والإخلاص في جميع ذلك - لشغل عظيم** جَسِيم ، ولمقامُ أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين ، فإن سائر ذلك مطلوبٌ ، فمتى تشاغل العبد بختمة في كل يومٍ فقد خالف الحنيفيَّة السَّمْحة ، ولم يَنْهض بأكثر ما ذكرناه ، ولا تدبر ما يتلوه.هذا السَّيد العابد الصاحب - يعني عبد الله بن عمرو - كان يقول لمَّا شَاخ : ليتني قبلتُ رخصةَ رسول الله ﷺ . **وكذلك قال له عليه السلام في الصوم ..**

وكلُّ من لم يَزُمّ نَفْسَه في تعبُّده وأوراده بالسُّنَّة النَّبوية يَنْدم ويترهَّب ويسوء مزاجه ، ويفوته خيرٌ كثير من متابعة سنة نبيِّه الرَّءوف الرَّحيم

بالمؤمنين ، الحريص على نَفْعهم ، وما زال ﷺ معلِّمًا للأمة أَفْضَل الأعمال ، وآمرًا بِهَجْر التبتل والرَّهْبانية التي لم يُبْعث بها ، فنهى عن سَرْد الصَّوم ، ونهى عن الوِصَال ، وعن قيام أكثر الليل إلا في العَشْر الأخير ، ونهى عن **العُزْبة للمستطيع** ، ونهى عن ترك اللَّحم ، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي ، فالعابدُ بلا معرفةٍ لكثيرٍ من ذلك معذورٌ مأْجور ، والعابدُ العالم بالآثار المحمدية المتجاوز لها مفضولٌ مغرورٌ ، وأحبُّ الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلَّ . **أَلْهَمَنَا** الله وإيَّاكم حُسْنَ المتابعة ، وجنَّبنا الهوى والمخالفة »[١].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « لم يَفقَه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث »[٢].

قال العلامة ابنُ رجب الحنبلي : « وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك ، فأمَّا في الأوقات المفضَّلة كمكَّة لمن دخلها من غير أهلها ، فيُستحب الإكثارُ فيها من تلاوة القرآن اغتنامًا للزمان والمكان ، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة ، وعليه يدلُّ عمل غيرهم كما سبق ذكره »[٣]. وكان قد أورد خَتمَ الشافعي للقرآن ستين مرةً في شهر رمضان ، وختم قتادة للقرآن مرةً كل يوم في العَشْر الأَخير ، وختم أبي حنيفة للقرآن في ليلةٍ .

وعن عبد الله بن مسعود قال : من قَرَأَ القرآنَ في أقل من ثلاث فهو

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٨٤ - ٨٦ .

(٢) حديث حسن صحيح . رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وهو كما قال .

(٣) لطائف المعارف لابن رجب صـ ١٩١ - ١٩٢ ، مؤسسة الرَّيَّان ، ودار ابن حزم .

رَاجِزٌ . وزاد في رواية أبي إسحاق : هذًّا كهذِّ الشِّعْر ، ونثرًا كنثرِ الدّقل[١] .

وعن ابن وهبٍ قال : قيل لمالك : الرَّجلِ المُحْصر يَخْتم القرآن في ليلة ؟ قال : ما أجودَ ذلك ، إن القرآن إمامٌ لكلِّ خير . قال مالك : ولقد أخبرني من كان يصلي إلى جنب عمر بن حُسين في رمضان قال : كنتُ أسمعه يستفتح القرآن في كل ليلة[٢] .

قال الإمام النَّووي رحمه الله : « ينبغي لحامل القرآن أن يحافظ على تلاوته ويكثر منه ، ليلًا ونهارًا ، سفرًا وحَضَرًا ، وقد كانت للسَّلَفِ رضي الله عنهم عادات مختلفة فيما يختمون فيه القرآن :

فكان جماعةٌ منهم يختمون في كل شهريْن ختمة ، وآخرون في كل شهرٍ ختمة ، وآخرون في كل عشرِ ليال ختمة ، وآخرون في كل ثمانِ ليال ختمة ، وآخرون في كل سبعِ ليال ختمة ، وهذا فعل الأكْثرين من السَّلف . وآخرون في كل ستِّ ليال ، وآخرون في كل خمس ليالٍ ، وآخرون في كل أَرْبع ليال ، وكثيرون في كلِّ ثلاث ليال ، وكان كثيرون يختمـون في كل يومٍ وليلة ختمـة ، وختم جماعـةٌ في كل يوم وليلة ختمتين ، وآخرون في كل يوم وليلة ثلاث ختمات ، وختم بعضهم في

---

(١) إسناده لا بأس به : أخرجه عبد الرزاق والطبراني في الكبير ، والبيهقي في الشعب .

(٢) إسناده رجاله ثقات ، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٥ / ١٤٧ ، ويعقوب الفسوي في المعرفة ١ / ٦٦٥ . والرَّجل المُحْصر ؛ إما محصر بالمهملتين ، من أحصره المرضُ إذا منعه من السَّفر ، أو من حاجةٍ يريدها . أو من أُحصر الرجل ببول أو بغائط ، إذا أمسك عنه . ويجوز أن يكون المُحتَضَر بالضَّاد المعجمةِ ؛ من حَضَرَه الهمُّ واحتضره وتحضره .
وعمر بن حسين المذكور في الخبر هو عمر بن حُسَين بن عبد الله الجُمحي ، أبو قدامة المكي ، من رجال مسلم .

اليوم والليلة ثماني ختمات ؛ أربعًا في الليل وأربعًا في النهار ، وهذا أكثر ما بلغنا في اليوم والليلة .

وممن خَتَمَ أربعًا في الليل وأربعًا في النهار : السيد الجليل ابن الكاتب الصوفي رضي الله عنه ، وهذا أكثر ما بلغنا في اليوم والليلة . وروى السيد الجليل أحمد الدَّوْرَقي بإسناده عن منصور بن زاذان ، من عبّاد التابعين ، رضي الله عنه أنه كان يختم القرآن ما بين الظهر والعصر ، ويختمه أيضًا فيما بين المغرب والعشاء ، ويختمه فيما بين المغرب والعشاء في رمضان ختمتين وشيئًا ، وكانوا يؤخِّرون العشاء من رمضان إلى أن يمضي ربعُ الليل . وروى ابن أبي داود بإسناده الصحيح أن مجاهدًا رحمه الله كان يختم القرآن في رمضان فيما بين المغرب والعشاء .

وأما الذين ختموا القرآن في ركعةٍ أو في يوم وليلة فلا يُحصَون لكثرتهم ؛ فمنهم : عثمان بن عفان ، وتميم الدَّاري ، وسعيد بن جبير ، ختموا القرآن في ركعة في الكعبة .

ومنهم : مجاهد والشافعي وآخرون ، ختموا القرآن في يوم وليلة .

وعن منصور قال : كان علي الأزدي يختم فيما بين المغرب والعشاء في كل ليلة من رمضان . وعن إبراهيم بن سعد قال : كان أبي يَحْتبي فما يحلُّ حَبْوته حتى يختم القرآن .

ومن الذين كانوا يختمون ثلاث ختمات : سليم بن عِتْر رضي الله عنه ، قاضي مصر في خلافة معاوية رضي الله عنه . وروى ابن أبي داود أنه كان يختم في الليلة أربع ختمات . وروى أبو عُمر الكندي في كتابه « **قضاة مصر** » أنه كان يختم في الليلة أربع ختمات .

وأما الذين خَتَموا القرآن في أسبوعٍ فكثيرون ؛ نُقل عن عثمان بن

عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأُبيّ بن كعب رضي الله عنهم ، وعن جماعة من التابعين ؛ كعبد الرحمـٰن بن يزيد ، وعلقمة ، وإبراهيم ، رحمهم الله تعالى .

والمُختارُ أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص : فمن كان يَظْهر له بدقيقِ الفكر لطائف ومعارف ، فليقتصرْ على قدرٍ يحصل له معه كمال فهم ما **يقرؤه** .

وكذا من كان مشغولًا بِنَشْر العلم أو فَصْل الحكومات بين المسلمين ، أو غيره من مُهمَّات الدين والمصالح العامة للمسلمين ، فليقتصرْ على قدرٍ لا يَحْصُل بسببه إخلالٌ بما هو مُرْصَدٌ له ولا فوْت كماله .

وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر منه ما أمكنه ، من غير خروجٍ إلى حدِّ المَلَلِ والهَذْرَمة في **القراءة** »(١) .

قال ابن حجر في فتح الباري (٨ / ٧١٣) : « قوله : باب في كم يقرأ القرآن ؟ وقول الله تعالى : ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ كأنَّه أشار إلى الردِّ على من قال : أقلُّ ما يُجزىء من القراءة في كل يوم وليلة جزءٌ من أربعين جزءًا من القرآن ، وهو منقولٌ عن إسحاق بن راهويه والحنابلة ؛ لأن عموم قوله : ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ يشمل أقلّ من ذلك ، فمن ادَّعى التحديد فعليه البيان . وقد أخرج أبو داود من وجهٍ آخر عن عبد الله بن عمرو : **في كم يقرأ القرآن ؟ قال : في أربعين يومًا . ثم قال : « في شهر ...»** الحديث ، ولا دلالة فيه على المدَّعىٰ » .

(١) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي صـ ١١ - ١٢ ، والأذكار للنووي صـ ٩٥ - ٩٦ .

« فإنْ قلتَ : بعضُ المجاهَدات مما لا يُعْقل وقوعها ، كثمانِ ختمات في يوم وليلة ، وكأداء ألف ركعةٍ في ليلة ونحو ذلك ؟!

قلتُ : وقوعُ مثل هذا ، وإن استُبْعد من العَوام ، لكن لا يُستبعَدُ ذلك من أهل الله تعالى ؛ فإنهم أُعطوا من ربهم قوةً مَلكيَّة ، وصلوا بها إلى هذه الصفات ، لا يُنكره إلا مَنْ يُنكر صدور الكراماتِ وخوارق العادات .

وإنَّ الذَّاكرين لهذه المناقب ليسوا ممن لا يُعتمد عليه ، أو ممن لا يكون حُجَّة في النَّقل ، بل هم أئمةُ الإسلام وعُمدُ الأنام ، الذين يُرجع إلى أقوالهم في المهمات ، وتُجعل أخبارهم من القَطعيَّات ؛ كأبي نُعيم وابن كثير والسَّمْعاني وابن حجر المكي وابن حجر العَسْقلاني والسيوطي وعلي القاري وشمس الأئمة الكردري والنووي وشيخ الإسلام الذهبي ومن يحذو حذوهم .

أَفَترى هؤلاء قد اعتمدوا على نقل ما ينقله أرباب الكذب ؟! كَلَّا والله ، هم أئمة محتاطون ، لا يُنَاقَشون فيما يكتبون ، فإن شككتَ في ذلك فارجع إلى الطبقات ينكشف لك أحوال صدقِ هؤلاء الثقات .

وإن اعتُبر مثل هذا الشَّك،ارتفع الأمان عن كتب التواريخ وأسماء الرجال ، فإنهم غالبًا يكتبون ما يكتبون في تراجم العلماء بغير سندٍ مسلسل ، بل بالاختصار والإرسال ، فإن شكَّ في ذلك شاكٌّ عُلم قطعًا أنه متعصب ، خارجٌ عن حدِّ الخطاب ، لا يليق معه إلا الزَّجْر والعتاب »[١].

* * *

(١) إقامة الحجة على أنَّ الإكثار في التَّعبد ليس ببدعة ، لأبي الحسنات اللكنوي ، صـ ١٠١ - ١٠٣ .

□ آدَابُ التِّــلاوَة □

ومن علو الهمة في التلاوة ، مراعاة آدابها الظاهرة والباطنة :

ومن الآداب الظاهرة :

استحباب الوضوء ، واستقبال القبلة ، والتَّرتيل ، والبكاء ، قال تعالى : ﴿ **ويخِرُّون للأَذْقان يَبْكُونَ ويَزيدُهُم خُشُوعًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٩] ، ومراعاة حقِّ الآيات ؛ فإذا مرَّ بآيةِ سجدةٍ سجد ، والتَّعوذ في مبتدأ قراءته ، وتحسين القراءة ؛ قال ﷺ : « ما أذِنَ الله لشيءٍ ما أَذن لنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن » متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وزاد مسلم : « لنبيٍّ حسن الصوت » ، وفي رواية له : « كإذنه لنبي يتغنَّى بالقرآن » .

وقوله ﷺ : « ليس مِنَّا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن »[1].

وقوله ﷺ : « أَحْسَنُ الناس قراءة الذي إذا قرأ رأيتَ أنه يخشى الله »[2].

وقوله ﷺ : « إن من أحسن النَّاس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ رأيتَ أنه يخشى الله »[3].

أما الآداب الباطنة فهي عَشْرة :

(١) فَهْم أصلِ الكلام . (٢) التَّعْظيم .
(٣) حُضُور القلب . (٤) التَّدبُّر .
(٥) التَّفهم . (٦) التَّخلي عن موانع الفهم .

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة ، وأحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم عن عائشة .

(٢) صحيح : رواه محمد بن نصر في الصلاة ، والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٤) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه عن جابر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٢٠٢) .

(٧) التَّخْصيص . (٨) التَّأَثر .
(٩) التَّرقي . (١٠) التَّبرُّؤ .

فالأول : فهم أصل الكلام :

فهم عظمة الكلام وعلوّه ، وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه ، وإفهامه كلامه لهم ، وتيسير القرآن للذكر ، ولولا لُطْفُ الله بعباده لَمَا ثبت لسماع الكلام ، وهو من صفاته ، عرشٌ ولا ثرًى ، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه ، ولولا تثبيت الله لموسى عليه السلام لما أطاق سماع كلامه ، كما لم يُطق الجبل مبادي تجلّيه ، حيث صار دَكًّا .

والثاني : التَّعْظيم للمتكلِّم :

فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يُحْضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويَعْلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر ، وأنَّ في تلاوة كلام الله غاية الخطر ﴿ **لاَ يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ [الواقعة : ٧٩] ، وكما أنَّ ظاهر جِلْدِ المصحف وورَقه محروسٌ عن ظاهر بَشَرة اللّامس إلا إذا كان متطهِّرًا ، فباطنُ معناه أيضًا بحُكْم عِزِّه وجلاله محجوبٌ عن باطن القلب إلا إذا كان متطهِّرًا عن كلِّ رجسٍ ، ومستنيرًا بنورِ التعظيم والتوقير ، وكما لا يصلح لمسِّ جلدِ المصحف كلُّ يدٍ ، فلا يصلح لِنَيْل معانيه كلُّ قلب ، ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف وضعه على وجهه وقال : كتاب ربي ، كتاب ربي .

فتعظيم الكلام تعظيمُ المتكلم ، ولن تحضره عظمةُ المتكلم ما لم يتفكَّر في صفاته وجلاله وأفعاله ، فبالتفكُّر في جلاله وصفاته وأفعاله يَحْضر تعظيمُ المتكلم ثم تعظيم الكلام .

قال مالك بن دينار : إن الصِّدِّيقين إذا تُليت عليهم آياتُ الرحمٰن

طربت قلوبهم واشتاقت إلى ما عنده ، ثم يقول : « اسمعوا إلى ما يقول الصَّادق من فوق عرشه » ثم يبدأ في التلاوة .

الثالث : حُضُور القلب وتَرْك حديث النَّفْس :

قيل لبعْضهم : إذا قرأتَ القرآن تحدِّث نفسك بشيءٍ ؟ فقال : أَوَ شيء أحبُّ إليَّ من القرآن حتى أحدِّثَ به نفسي ؟! وكان بعض السَّلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية .

وهذه الصفة تتولَّد عمَّا قبلها من التعظيم ؛ فإن المعظِّم للكلام الذي يتلوه ويَسْتَبْشِر به ويستأنس ، لا يغفل عنه ؛ ففي القرآن ما يَسْتأنس به القلب ، إن كان التالي أهلًا له ، فكيف يطلب الأُنس بالفِكْر في غيره وهو في مُتَنَزَّه ومتفرَّج ، والذي يتفرَّج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها ؟ قال الفُضيل بن عياض : كفى بالله مُحبًّا ، وبالقرآن مؤنسًا ، وبالموت واعظًا ، اتَّخذِ الله صاحبًا ، وَدَعِ الناس جانبًا .

وقال : من لم يَسْتأنس بالقرآن فلا أَنس اللهُ وحشته .

وقيل لذي النّون : ما الأُنْس بالله ؟ قال : العلم والقرآن .

وَلَقَدْ جعلتُكَ في الفُؤادِ مُحدِّثي ... وأبحتُ جسْمي مَنْ أَرادَ جُلوسي
فَالجِسْـمُ منِّي للجَلِيسِ مُؤانسٌ ... وحبيبُ قَلبي في الفؤادِ أَنِيسي

وقال محمد بن واسع : القرآنُ بستانُ العارفين ، فأينما حلّوا منه حلّوا في رياضٍ نضرة .

وكم في القرآن من ميادينَ وبساتين ومقاصير وعرائس وَدَيَابيج ورياضٍ وخاناتٍ ، فإذا دخل القارئ الميادين ، وقطف من البساتين ، ودخل المقاصير ، وشهد العرائس ، ولبس الدِّيابيج ، وتَنَزَّه في الرياض ، وسكن غرف الخانات -

استغرقه ذلك ، وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ، ولم يتفرَّق فكره .

الرابع : التَّدبُّر :

وهو وراء حضور القلب ؛ فإنه قد لا يتفكَّر في غير القرآن ، ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره .

وقد قام رسول الله ﷺ بآية يردِّدُها : ﴿ **إن تُعذِّبهمْ فإنَّهم عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُم فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ [المائدة : ١١٨] .

وقام تميم الداري ليلةً بهذه الآية : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سواءً مَحْيَاهُمْ ومَمَاتُهم سَاءَ مَا يَحْكُمونَ** ﴾ [الجاثية : ٢١] .

وقام سعيد بن جبير ليلة يردِّد هذه الآية : ﴿ **وامْتَازُوا اليَوْمَ أَيُّهَا المُجْرِمُونَ** ﴾ [يس : ٥٩] .

ومحمد بن المنكدر يسأله أبو حازم عن البكاء طيلةَ ليلِهِ ، فيقول : آيةٌ من كتاب الله أبكتني : ﴿ **وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكونُوا يَحْتَسِبون** ﴾ [الزمر : ٤٧] .

وقال بعضهم : إني لأفتتح السُّورة فيوقفني بعضُ ما أَشْهَد فيها عن الفَرَاغ منها حتى يطلع الفجر .

وكان بعضهم يقول : آيةٌ لا أتفهَّمُهَا ، ولا يكون قلبي فيها ، لا أعدُّ لها ثوابًا .

ويقول أبو سليمان الدَّاراني : إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليالٍ أو خمس ليال ، ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها .

قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَم عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] .

الخامس : التَّفهم :

قال أبو تراب النخشبي :

وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ يُرَىٰ مُتَفَهِّمًا   لكلامِ مَنْ يَحْظَىٰ لَدَيْهِ السَّائِلُ[1]

فيستوضح من كل آيةٍ ما يليق بها ؛ إذ القرآن يشتمل على ذِكْرِ صفات الله عز وجل ، وذكر أفعاله ، وذكر أحوال الأنبياء ، وذكر أحوال المُكذّبين ، وَذِكْرِ الأوامر والزَّواجر ، وذكر الجنة والنار .

ومن أراد علم الأَوَّلين والآخرين فليثَوِّر القرآن . وأعظمُ علوم القرآن تَحْتَ أسماء الله عز وجل وصفاته ؛ إذْ لم يدرك أكثرُ الخلقِ منها إلَّا أمورًا لائقةً بأفهامهم ، ولم يَعْثروا على أغوارها .

السادس : التخلِّي عن مَوَانع الفَهْم :

فإن أكثر الناس مُنِعوا عن فهمِ معاني القرآن ؛ لأسباب وحُجُبٍ أَسْدَلَهَا الشيطانُ على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائبُ أسرارِ القرآن .

وحُجُب الفَهْم ثلاثة :

أولها : أن يكون الهَمُّ منصرفًا إلى تحقيق الحروف فقط ، فأنَّى تنْكشف له المعاني .

ثانيها : أن يكون مقلِّدًا لمذهبٍ سمعه بالتقليد .

ثالثها : أنْ يكون مُصِرًّا على ذنبٍ أو متّصفًا بكبْرٍ أو مبتلى بهوًى في

(١) صفة الصفوة ٤ / ١٧٢ .

الدنيا مطاع ، فيُحْرم بركة الانتفاع بالوحي وفهم القرآن ، فالإنابة شرطٌ في الفهم والتذكير ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ** ﴾ [غافر : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ **تبصرةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ** ﴾ [ق : ٨] .

السابع : التَّخْصيص :

وهو أن يُقَدِّرْ أنه المقصود بكلِّ خطاب في القرآن ، فإنْ سمع أمرًا أو نهيًا قدَّر أنه المنهِيُّ والمأمور ، وإنْ سمع وَعْدًا أو وعيدًا فكمثل ذلك ، وإن سمع قَصَصَ الأَوَّلين علم أن السَّمر غير مقصودٍ وإنما الاعتبار ، فهذا القارئ الواحد مقصود ، فما له ولسائر الناس فليقدِّر أنه المقصود .

قال محمد بن كعب القرظي : من بَلَغَه القرآنُ فكأنَّما كلَّمه الله .

قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائلُ أتتنا من قِبَلِ ربِّنا عز وجل بعهوده ، نتدبَّرها في الصلوات ، ونقفُ عليها في الخَلَوات ، ونُنفِّذُهَا في الطاعات والسنن المتَّبعات .

وكان مالك بن دينار يقول : يا أصحاب السورة ، ويا أصحاب السورتين ، يا حملة القرآن ، ماذا غَرَسَ القرآنُ في قلوبكم ؛ إن القرآن ربيع قلب المؤمن ، **كما أنَّ الغَيْثَ ربيعُ الأرض ، إن الغيث قد ينزل على الحَبَّة في** الحُشِّ ما يمنعه نَتَن موضعها من أن تثمر ، فماذا غرس القرآن في قلوبكم .

وقال قتادة : لم يجالس أحدٌ هذا القرآن إلا قام بزيادةٍ أو نقصان ، قال تعالى : ﴿ **هو شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤْمِنينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

الثامن : التَّأَثُّر :

وهو أن يتأثَّر قلبه بآثارٍ مختلفة بحسب اختلافِ الآيات ، فيكون له بحسب كلِّ فهم حالٌ ووَجْد يتَّصف به قلبه من الخوف والرجاء .

قال الحسن : والله ما أَصْبَحَ اليوم عبدٌ يتلو القرآن يؤمن به إلا كَثُرَ حُزْنُه ، وقلَّ فرحه ، وكثر بكاؤه ، وقلَّ ضحكه ، وكثر نصبه وشغله ، وقلَّت راحته وبطالته .

وقال طبيب القلوب وهيب بن الورد : نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئًا أرقَّ للقلوب ، ولا أشدَّ استجلابًا للحزن من قراءة القرآن وتفهُّمِه وتدبُّره . فرحم الله أقوامًا كانوا إذا مَرُّوا بآية فيها ذِكْرٌ للنار فكأنَّ زَفِيرها في آذانهم .

مَنَعَ القُرَانُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ مُقَلَ العُيونِ بِلَيْلِهَا لَا تَهْجَعُ
فَهِمُوا عن المَلِكِ الجَلِيلِ كَلَامَه فَهْمًا تَذِلُّ لَه الرِّقَابُ وَتَخْضَعُ

وإذا مَرُّوا بآية فيها ذِكْرٌ للجنَّة فكأنَّهم فيها مُنعَّمين ، وطربتْ قلوبُهم لنعيمها ، وَتَنْبعث بواطنُهم شوقًا إليها . ومن الصالحين مَنْ مات من سماعِ آياتِ العذاب ؛ كعليِّ بن الفُضيل وزرارة بن أبي أوفى ، وغيرهما كثير .

قال ابن أبي الحواري : إني لأعجب لقُرَّاء القرآن ، كيف يُهنِّيهم النوم ومعهم القرآن ، أما واللهِ لو علموا ما حَمَلوا لطار عنهم النوم فرحًا بما رزقوا . وسُئل : رجلٌ ينامُ ومعه القرآن ؟ قال : ذاك رجل يتوسَّد القرآن .

ومن لا يتأثر بالقرآن يكون له نصيبٌ من هذه الآية : ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ** ﴾ [البقرة : ٧٨] ؛ أي تلاوةً مجرَّدة . أمَّا أهلُ العلم بالله فَهُمُ الَّذِينَ قال الله فيهم : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَه حَقَّ تلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ...** ﴾ [البقرة : ١٢١] .

فتلاوة القرآن حَقّ تلاوتِهِ هو أن يَشْترك فيه اللِّسان والعقل والقلب ، فحظُّ اللسان تصحيح الحروف ، وحظُّ العقل تفسير المعاني ، وحظُّ القلب

الاتِّعاظ والتأثر بالانْزِجَار والائْتِمَار ، فاللسان يُرتِّل ، والعقل يترجمُ ، والقلب يتَّعظ .

﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهم لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْل فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُم فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد : ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ **لَوْ أَنْزَلْنَا هَـذَا القُـرْآنَ عَلَىٰ جَبَـلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الحشر : ٢١] .

التاسع : التَّرقِّيْ :

والمرادُ به أن يترقَّى ؛ حتى كأنَّه يَسْمعه من ربِّه لا من نفسه ، فدرجات القراءة ثلاث :

أدناها : أن يُقدِّر العبدُ كأنَّه يَقْرؤه على الله عز وجل ، واقفًا بين يَدَيْه ، وهو ناظر إليه ومستمع منه ، فيكونُ حالُه عند هذا التقدير السؤالَ والتملُّق والتَّضرُّع والابتهال .

الثانية : أَنْ يَشْهَد بِقَلْبه كأنَّ الله عز وجل يراه ويخاطبه بألْطافه ، ويناجيه بإِنْعامه وإحسانه ، فمقامه مقامُ الحياء والتَّعظيم والإصغاء والفَهْم .

والثالثة : أن يَرَىٰ في الكَلام المُتكلِّمَ وفي الكلماتِ الصِّفات ، فيكون مقصورَ الهمِّ على المتكلم ، فهذه درجة المقرَّبين .

وقد قال كعب : عَلَيْكُمْ بالقرآن ؛ فإنه فَهْم العقل ، ونُور الحكمة ، وأَحْدَثُ الكتب بالرحمٰن ، لقد كان رسول الله ﷺ يتلَقَّى المطرَ بِثَوْبه ، ولَمَّا يُسأل عن ذلك يقول : « إنه حَديثُ عهدٍ بربه » فما ظَنُّكم بالقرآن ...

فليست كل التلاوة واحدة ، وإلّا فما معنى قول رسول الله ﷺ : « من أحبَّ أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنزل فليقرأ على قراءةِ ابن أمِّ عبدٍ »(١). يعني عبد الله بن مسعود .

قال بعض الحكماء : كنت أَقرأُ القرآن فلا أَجد له حلاوةً ، حتى تلوتُه كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه ، ثم رُفعتُ إلى مقامٍ فوقه كأني أسمعه من جبريل عليه السلام يُلقيه على رسول الله ﷺ ، ثم جاء اللهُ بمنزلةٍ أخرى كأني أسمعه من المتكلِّم به ، فعندها وجدتُ له لذَّةً ونعيمًا لا أصبر عليه .

قال عثمان بن عفان : لو طَهُرَتْ قلوبُكم ما شَبِعْتم من كلام ربِّكم .

وقال ثابت البناني : كابدتُ القرآن عشرين سنةً ، وتنعَّمْتُ به عشرين سنة .

العاشر : التَّبرُّؤ :

فيتبرّأ مِنْ حَولِهِ وقوَّته والالتفات إلى نفسه بعينِ الرِّضا والتَّزكية ، فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نَفْسَه عند ذلك ، بل يَشْهَد المُوقنين والمُصدِّقين ، ويتشوَّف إلى أن يُلْحقه اللهُ عزَّ وجلَّ بهم ، وإذا تلا آيات المَقْت وذمِّ العصاة والمقصِّرين شهد على نفسه هناك ، وَقَدَّرَ أنه المُخاطَب خوفًا وإشفاقًا .

قيل ليوسف بن أسباط : إذا قرأتَ القرآن بماذا تدعو ؟ قال : بماذا أدعو ! أستغفر اللهَ من تَقْصِيري سبعين مرة ، وكان يقول : اللهم لا تَمْقُتْنَا .

---

(١) صحيح : رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي بكر وعمر ، ورواه البخاري في التاريخ عنهما ، وابن سعد عن ابن مسعود والحاكم عن عمار ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٩٦١) .

قال ﷺ : « مَنْ قَرَأَ بمائة آيةٍ في ليلة كُتب له قنوت ليلة »[(١)].

قال أبو سليمان الدَّاراني : ربما أقمتُ في الآية الواحدة خمسَ ليالٍ ، ولولا أني أدعُ الفِكْرَ فيها ما جُزْتها أبدًا ، ولربَّما جاءتِ الآية من القرآن فيطيرُ العقلُ ، فسبحان الذي يَردُّه[(٢)].

وقال ﷺ : « إذا قام صاحبُ القرآنِ فقرأه بالليل والنهار ذَكَره ، وإن لم يقمْ به نسيه »[(٣)].

قال زهير البابي : « إن لله عبادًا ذكروه ، فخرجت نفوسهم إعظامًا واشتياقًا ، وقومٌ ذكروه فوجلت قلوبهم فَرَقًا وهيبةً ، وآخرون ذكروه في الشِّتاء فارفضُّوا عرقًا من خوفه ، وقوم ذكروه فحالت ألوانُهم غَبَرًا ، وقوم ذكروه فجفتْ أَعينُهم سَهَرًا » ... يَتْلُون كتاب الله بشفاهٍ ذابلة ، ودموع وابلة ، وَزَفَرات قاتلة ، وأجسام نَاحلة ، وخواطر في عظمتهِ جائلة .

عَمِيَ أحدُ العُبَّاد ؛ فكان إذا قرأَ في المُصْحف عاد إليه بَصَرُهُ .

قال مالك بن دينار : ما تنعَّمَ المتنعِّمونَ بمثل ذِكْرِ الله .

نعم .. إذا سَئِمَ البَطَّالون من بطالتهم فَلَن يَسْأَم مُحِبُّوك من ذكرك ومناجاتك ... وأهلُ الليل والذِّكر في ليلهم ألذُّ من أهل اللهو بِلَهْوهم .

---

(١) صحيح : رواه أحمد والنسائي عن تميم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٤٦٨) .

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ٤ / ٢٣٢ .

(٣) صحيح : أخرجه ابن نصر في قيام الليل عن ابن عمر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٩٧ .

وهاك نعيمهم وهذه جَنَّتهم وبَساتينهم ، نبدأ بسيِّدهم وإمامهم ﷺ :

○ رسول الله ﷺ سَيِّدُ الذَّاكِرين ○

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يَذكر الله تعالى على كل أَحْيانه . رواه مسلم .

« ولم تَسْتَثْنِ حالةً من حالةٍ ، وهذا يدلُّ على أنه كان يذكر ربَّه - تعالى - في حال طهارته وجنابته .

وأما حال التَّخلِّي ، فلم يكن يشاهده أحدٌ يُحكىٰ عنه ، ولكن شَرَع لأمَّتِهِ من الأذكار قبل التخلِّي وبعده ما يدل على مزيد الاعتناء بالذِّكر ، وأنه لا يخلُّ به عند قضاء الحاجة وبعدها ، وكذلك شَرَعَ للأمَّة من الذكر عند الجماع أن يقول أحدهم : « اللهم جَنِّبْنا الشيطانَ ، وجَنِّب الشيطان ما رزقْتَنَا »(١) .

وأما عند نَفْسِ قضاء الحاجة وجِماع الأهل ، فلا ريبَ أنَّه لا يُكْرَه بالقلب ؛ لأنه لا بدّ لقلبه من ذِكرٍ ، ولا يمكنه صَرْف قلبه عن ذكرِ مَنْ هو أحبُّ شيءٍ إليه ، فلو كَلَّفَ القلبَ نسيانه ؛ لكان تكليفه بالمحال ، كما قال القائل :

يُرادُ من القَلْبِ نِسْيَانكُمْ وَتَأْبىٰ الطِّبَاعُ على النَّاقِلِ

فأما الذِّكْر باللسان على هذه الحالةِ ؛ فليس ممَّا شُرِعَ لنا ، ولا نَدَبَنا إليه رسول الله ﷺ ولا نُقِلَ عن أحدٍ من الصحابة رضي الله عنهم .

ويكفي في هذه الحال استشعار الحياء والمراقبة والنعمة عليه في هذه

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس .

الحالة ، وهي من أجلِّ الذكر . فَذِكْر كلِّ حالٍ بحسب ما يليق بها »[(١)].

أما القرآن .. فما قام أحدٌ به قيام رسولنا ﷺ .. وما تدبَّره أحدٌ تدبُّر رسولنا ﷺ .. وما بكى أحدٌ من تلاوتِهِ أو استماعِهِ ما بكى سَيِّدُ الخائفين .. أما قال لابن مسعود : « اقرأْ عليَّ ، فإني أُحبُّ أن أستمعه من غيري » ... وينظر ابنُ مسعود فإذا وجه الكريم ﷺ قد بلَّلَتْه الدموع .

وَفِينَا رسـولُ اللهِ يَتْلو كِتَـابَهُ   إِذَا انْشَقَّ مَعْروفٌ من الفَجْرِ سَاطِعُ

صلّى الله عليه وسلم قَدْرَ ما ذكره الذَّاكِرونَ .

أُبيّ بن كَعْبٍ سَيِّد القُرَّاء :

عن أنس بن مالك قال : لما نَزَلت ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ والمُشْرِكِينَ** ... ﴾ [البيِّنة : ١] قال رسول الله ﷺ لأُبيِّ بن كعب : « إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك » قال : وذكرني ؟ قال : « نعم » فبكى أُبيّ[(٢)].

وفي رواية : أَوَذُكرت فيما هنالك ؟ قال النبي ﷺ : « نعم » . قال : فبكى أُبيّ[(٣)].

هذا والله السُّؤدد ، وهذا والله الشَّرف .

عن عبد الرحمٰن بن أَبْزى عن أبيّ بن كعب قال : قال النبي ﷺ : « أُنزلت عليَّ سورةٌ وأردتُ أن أُقرِئَكَهَا » قلت : أَسُمِّيتُ لك ؟ قال : « نعم » . **فقلتُ لأبي : أَفَرِحْتَ بذلك يا أبا المنذر ؟ قال : وما**

(١) الوابل الصيب صـ ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأبو يعلى وأبو نُعيم وأحمد وابن سعد والبغوي في شَرْح السُّنة .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه والنسائي في « فضائل القرآن » وأحمد .

يمنعني ، والله تعالى يقول : ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ...** ﴾[(١)] الآية [يونس : ٥٨] .

وَصَحَّ من طرقٍ عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « أَرْحَمُ أمتي أبو بكر ... وأقرؤهم أبيّ ... »[(٢)] .

قال الذهبي في « معرفة القُراء الكبار » : أُبيٌّ بن كعب أَقْرَأُ من أبي بكر ومن عمر .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول : « استقرئوا القرآنَ من أربعة : عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حُذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأُبيّ بن كعب »[(٣)] .

وعن أبي قلابة عن أبي المهلب قال : كان أبيّ يختم القرآنَ في ثمانٍ . قال الذهبي : إسناده صحيح .

وقال له النبي ﷺ : « لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذر » .

وقال عمر رضي الله عنه يوم موت أبيّ : اليوم مات سَيِّد المُسْلمين .

ذو النُّورَيْن عُثْمان بن عَفَّان :

« قال عبد الرحمٰن التَّيمي : لأَغْلبنَّ الليلةَ على المقام ، قال : فلما صلَّيتُ العَتَمَة تخلَّصتُ إلى المقام حتى قُمتُ فيه ، فبينا أنا قائم إذا رجل وضع

---

(١) إسناده حسن : رواه أحمد والبيهقي في « الشعب » والبخاري في « خلق أفعال العباد » وابن أبي شيبة في المصنَّف ، وأبو نعيم في « الحِلْية » .
(٢) صحيح : رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد والبغوي ، وصحَّحه ابن حبان والحاكم والطحاوي في المُشْكل ، وأبو نعيم والطيالسي وابن سعد .
(٣) رواه البخاري والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وأبو نُعيم .

يده بين كَتِفَيَّ ، فإذا هو عثمان بن عفان فبدأ بأمِّ القرآن ، فقرأ حتى ختم القرآن فركع وسجد ، ثم أخذ نَعْليه ، فلا أدري أصلَّى قبل ذلك شيئًا أمْ لا »[(١)].

« كان رضي الله عنه يقرأ القرآن في ركعةٍ ، ثم يُوتر بها »[(٢)].

وعن ابن سيرين قال : قالت امرأة عثمان حين قُتل : لَقَدْ قتلتموه ، وإنه لَيُحْيي الليلَ كلَّه بالقرآن في ركعة[(٣)].

قال الحافظ ابن كثير : « وقد رُوي من غَيْر وجهٍ أنه صلَّى بالقرآن العظيم في ركعة واحدةٍ عند الحَجَر الأسود ، أيام الحج ، وقد كان هذا من دأبه رضي الله عنه ، ولهذا رَوَيْنَا عن ابن عمر أنه قال في قوله تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هو قَانِتٌ آناءَ الليلِ سَاجِدًا وقَائمًا يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُو رحمةَ ربِّه** ﴾ [الزمر : ٩] قال : هو عثمان بن عفان » .

وقال فيه حسان بن ثابت :

ضَحَّوْا بأشْمطَ عُنْوانُ السُّجود به ... يُقَطِّعُ الليـلَ تَسْبِيحًا وقُرآنـا

قال النووي في « التبيان » (٥٥) : « فَمِن الَّذين كانوا يختمون الختمة في اليوم والليلة : عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وتَميم الداريّ ، وسعيد ابن جبير ، ومجاهد ، والشَّافعي ، وآخرون » .

---

(١) الحلية ١ / ١٥٦ .
(٢) إسناده صحيح : أخرجه الطحاوي والبيهقي ٣ / ٢٥ ، وابن أبي داود ، وصحَّح إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط ، والشيخ زهير الشاويش في تحقيق شرح السنة ٤ / ٤٩٩ .
(٣) الزُّهد صـ ١٢٧ لأحمد بن حنبل .

وقال أيضًا في « التبيان » (٥٧) : « وأمَّا الذين خَتَموا القرآن في ركعة فلا يُحصَون لكثرتهم ؛ فمن المتقدِّمين : عثمان بن عفان ، وتميم الداريّ ، وسعيد بن جبير رضي الله عنهم ، ختمه في كلِّ ركعة في الكعبة » .

وقال النووي في « التبيان » (٥٩) : « وروى ابن أبي داود بإسناده أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يفتتح القرآنَ ليلةَ الجمعة ، ويختمه ليلة الخميس » .

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

قال عروة بن الزبير : « أولُّ من جَهَر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود »(١).

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إلـٰه غيره ، ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلَّا أنا أعلمُ أين أُنزلت ، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلَّا أنا أعلم فيمن أنزلت . ولو أعلمُ أحدًا أعلمَ منِّي بكتابِ الله تبلغه الإبلُ لركبتُ إليه .

قال عبد الله : « والذي لا إلـٰه غيره ، لقد قرأتُ من فِي رسول الله ﷺ بِضْعًا وسبعين سورةً ، ولو أعلم أحدًا أعلمَ بكتاب الله مني تُبلِّغُنيه الإبلُ لأتيته »(٢).

وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « من أحبَّ أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنزل ، فليقرأ على قراءة ابن ....

(١) أخرجه ابن حَجَر في الإصابة ٦ / ٢١٥ ، ورجاله ثقات .
(٢) إسناده صحيح ، سير أعلام النبلاء ١ / ٤٧١ .

أمِّ عبدٍ »[١].

فلله دَرُّكَ يا ابن مسعود حين يُتوِّجُك رسول الله ﷺ هذه الكَرامة .

لقد كان رسول الله ﷺ يَفْرح بالمطر إذا نزل ، ويقول : « إنه حَدِيثُ عهدٍ بربِّه ... » فما الظن بكلامِ الله بقراءتك الغَضَّة !!

وعن عبد الله أن رسول الله ﷺ مرَّ بين أبي بكرٍ وعمر ، وعبد الله قائمٌ يصلِّي ، فافتتح سورة النِّساء يَسْجُلُها ، فقال ﷺ : « مَنْ أحبَّ أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنزل ، فليقرأ قراءة ابن أمِّ عبدٍ » فأخذ عبدُ الله في الدعاء ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « سَلْ تُعْطَ » فكان فيما سأل : اللهم إني أسألك إيمانًا لا يَرتدُّ ، ونعيمًا لا يَنْفد ، ومرافقة نبيِّك محمدٍ ﷺ في أعلى جِنان الخُلْد . فأتى عمرُ عبدَ الله يبشِّره ، فوجد أبا بكر خارجًا قد سبقه ، فقال : إنك لَسَبَّاق بالخير[٢].

وعن خَيْثمة قال : كنت جالسًا عند عبد الله بن عمرو ، فذكر ابنَ مسعود ، فقال : لا أزال أحبُّه بعد إذ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « استَقْرِئوا القرآن من أربعةٍ : من عبد الله بن مسعود - فَبَدَأَ بِهِ - وأُبّي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة » .

قال النووي في التبيان : « وأمَّا الذين ختموا في الأُسبوع فكثيرون : نُقل عن عثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأُبّي ابن كعب رضي الله عنهم » .

---

(١) صحيح : رواه أحمد وابن ماجه والحاكم في المستدرك ، ووافقه الذهبي ، وتابعه الألباني . انظر صحيح الجامع رقم ٥٩٦١ .

(٢) إسناده حسن : أخرجه أحمد ١ / ٤٤٥ ، ٤٥٤ والحاكم بنحوه . وقوله يَسْجُلُهَا : أي يقرؤها مفصَّلة .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : « ينبغي لحامل القرآن أن يُعْرف بِلَيْله إذا النَّاس نائمون ، وبنهاره إذا النَّاس مُفْطِرون ، وبِحُزْنه إذا النَّاس يفرحون ، وببكائه إذا النَّاس يضحكون ، وبِصَمْته إذا النَّاس يخوضون ، وبِخُشوعه إذا النَّاس يختالون .

وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا مَحْزونًا ، حليمًا حكيمًا ، سكينًا . ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ، ولا غافلًا ، ولا صَخَّابًا ، ولا صيّاحًا ، ولا حديدًا »(١) .

معاذ بن جبل رضي الله عنه ، مِقْدَام العلماء ، وأعلم الأمَّة بالحَلال والحرام :

قال رسول الله ﷺ : « خُذُوا القرآنَ من أربعة : من ابن مسعود ، وأُبيٍّ ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة »(٢).

وعن أنس رضي الله عنه : جَمَعَ القرآنَ على عَهد رسول الله ﷺ أربعةٌ ، كلهم من الأنصار : أُبيّ بن كعب ، وَزَيْد ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد ، أحد عمومتي(٣).

وقال عمر بن الخطاب : عجزتِ النساءُ أن يَلِدْنَ مثل معاذ .

هذا العَالِمُ العابد المجاهد ، ما بكى عند الموتِ إلَّا على مَجَالس الذِّكْر ...

ففي مرض موته قال : اخْنق خَنْقَك ، فوعزَّتِكَ إني أحبك .. اللهم إني كنتُ أخافك ، وأنا اليوم أرجوك .. اللهم إنك تعلم أني ما كنت أحبّ البقاء في الدنيا لكَرْي الأنهار ، ولا غَرْسِ الأَشْجار ، وإنما لمكابدةِ السَّاعات ،

---

(١) الفوائد لابن القيم صـ ١٩٥ .
(٢) رواه البخاري والترمذي وأبو نعيم في الحلية .
(٣) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

وَظَمأ الهَوَاجر ، ومزاحمةِ العلماء بالرُّكب عند حِلَق الذِّكْر .

وعنه رضي الله عنه قال : « ما عمل آدميٌّ عملًا أنجى له من عذاب الله من ذِكْرِ الله . قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا ، إلَّا أنْ يضرب بسيفه حتى ينقطع ؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ **وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] »(١).

أبو الدَّرْدَاء رضي الله عنه :

عن ابن حَلْبَس : قيل لأبي الدَّرداء ، وكان لا يَفْتُر من الذكر : كم تسبِّح في كل يوم ؟ قال : مائة ألفٍ ، إلَّا أن تخطئ الأصابع(٢).

تَمِيم الدَّارِي رضي الله عنه :

عن أبي المهلب : كَانَ تميم يختم القرآن في سبعٍ(٣).

وعن ابن سيرين ، أنَّ تميمًا الداري كان يقرأ القرآن في ركعةٍ(٤).

عن مسروق : قال لي رجل من أهل مكة : هذا مقام أخيك تميم الداري ، صلى ليلةً حتى أصبح ، أوْ كاد ، يقرأ آيةً ، يردِّدُها ويبكي ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ... ﴾(٥) الآية [الجاثية : ٢١] .

---

(١) رواه أحمد في الزهد ، وأبو نُعيم في الحلية .
(٢) ابن عساكر ١٣ / ٣٧٧ / ٢ ، وسير أعلام النبلاء ٢ / ٣٤٨ .
(٣) أخرجه ابن سعد ٣ / ٥٠٠ ، وإسناده صحيح .
(٤) تهذيب ابن عساكر ٣ / ٣٥٩ ، والسير ٢ / ٤٤٥ .
(٥) رجاله ثقات : أخرجه الطبراني برقم ١٢٥٠ ، والسير ٢ / ٤٤٥ .

أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه :

عن عكرمة ، أنَّ أبا هريرة كان يسبِّح كلَّ يوم اثني عشر ألف تسبيحةٍ ، يقول : أسَبِّح بِقَدْرِ دِيَتِي(١) .

أبو مسلم الخَوْلَاني :

كان يرفع صَوْته بالتَّكْبير حتَّى مع الصبيان ، ويقول : « اذْكُر الله حتى يرى الجاهلُ أنك مجنون »(٢) ، وفي رواية : « أنه مجنون »(٣) .

الأسود بن يَزِيد النَّخعي :

عن إبراهيم قال : كان الأسودُ يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين ، وكان ينَام بين المغرب والعشاء ، وكان يختم القرآن في غير رمضان في كل ستٍّ ليالٍ(٤) .

الإمام سُلَيم بن عِتْر :

الفقيه قاضي مصر وواعظها وقاصُّها وعابدها ، وكان يُدعَى الناسك ؛ لشدة تألُّهه .

عن الحارث بن يزيد أن سُلَيم بن عتر كان يقرأ القرآنَ كلَّ ليلةٍ ثلاث مرات(٥) .

---

(١) السير ٢ / ٦١٠ ، تاريخ دمشق ١٩ / ١٢٢ / ٢ .
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٩ / ١٧ ب .
(٣) السير ٤ / ١٠ .
(٤) السير ٤ / ٥١ .
(٥) السير ٤ / ١٣٢ .

أبو العالية : رُفيع بن مِهْران :

عن أبي العالية : كان ابن عباسٍ يرفعني على السَّرير - سرير دارِ الإمْرَة - وقُريش أسفل من السرير ، فتغامزت بي قريش ، فقال ابن عباس : هكذا العلمُ ، يزيد الشَّريف شرفًا ، ويُجْلس المملوك على الأسِرَّة .

قال أبو بكر بن أبي داود : وليس أحدٌ بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية .

وقال أبو خلدة خالد بن دينار : سمعت أبا العالية يقول : كنَّا عبيدًا مملوكِين ، منا من يؤدِّي الضَّرائب ، ومنَّا من يَخْدم أهله ، فكنَّا نختم كل ليلة ، فشقَّ علينا حتى شَكَا بَعْضُنَا إلى بعض ، فَلَقينَا أصحاب رسول الله ﷺ فعلَّمُونا أن نَخْتمَ كلَّ جمعة ، فصلَّيْنا ونمنا ، ولم يشقَّ علينا[١] .

سَعِيد بن جُبَير رضي الله عنه :

عن عبد الملك بن أبي سليمان عن سعيد بن جبير أنه كان يختم القرآن في كل ليلتين[٢] .

عُرْوَة بن الزُّبير :

عن ابن شَوْذب قال : كان عروة يَقْرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف نظرًا ، ويقوم به الليل ، فما تركه إلا ليلة قُطعتْ رِجْله ، وكان وَقَعَ فيها الآكِلَةُ ، فنُشِرَت ، وكان إذا كان أيام الرُّطب يَثْلَم حائطَه ، ثم يَأْذَن للناس فيه ، فيدخلون يأكلون ....

---

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ١١٣ ، والسير ٤ / ٢٠٩ .

(٢) حلية الأولياء ٤ / ٢٧٣ ، وطبقات ابن سعد ٦ / ٢٥٩ ، والزهد لأحمد ٣٧٠ ، والسير ٤ / ٣٢٥ .

ويحملون[١] .

عَبْد الله بن مُحَيْرِيز :

قال عمرو بن عبد الرحمٰن بن محيريز : كان جَدي يختم في كل جمعة ، وربَّما فَرَشْنا له فلم ينم عليه[٢] .

أبو عبد الرَّحمٰن السُّلمي ، عبد الله بن حبيب ، مُقْرِئ الكُوفة :

عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْركم مَنْ تَعَلَّمَ القُرآن وَعَلَّمه »[٣] .

قال أبو عبد الرحمٰن : فذلك الذي أَقعدني هذا المَقْعد .

قال أبو إسحاق السَّبيعي : إن أبا عبد الرحمٰن كان يُقرئ الناسَ في المسجد الأعظم أربعين سنةً .

وقال أبو عبد الرحمٰن السُّلمي : أقبلتُ على زيد بن ثابت ، فقرأت عليه القرآن ثلاثَ عشرة سنة .

وقال رحمه الله : إنَّا أخذنا القرآن عن قومٍ أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلَّموا عشر آيات لم يُجَاوِزُوهنَّ إلى العشر الأخر حتى يَعْمَلوا ما فيهنَّ ، فكنَّا نتعلم القرآن والعمل به ، وإنه سَيرث القرآنَ بعدنا قومٌ يشربونه شُرْبَ الماء ، لا يجاوز تَرَاقِيهم ، بل لا يُجَاوز هاهنا . ووضع يده على حلقه .

---

(١) ابن عساكر ١١ / ٢٨٦ ب ، والحلية ٢ / ١٧٨ - ١٨٠ ، وسير أعلام النبلاء ٤ / ٤٢٦ .

(٢) ابن عساكر ٧١ أ ، وسير أعلام النبلاء ٤ / ٤٩٥ .

(٣) رواه البخاري .

نافع بن عبد الرحمٰن ، أبو رُوَيْم ، المقرئ المدني :

جَزَى اللهُ بالخَيْراتِ عَنَّا أئمةً لَنَا نَقَلُوا القُرآنَ عَذْبًا وَسَلْسَلَا
فأمَّا الكريمُ السِّرِّ في الطِّيبِ نَافِعٌ فَذَاكَ الَّذِي اخْتَارَ المَدِينَةَ مَنْزِلَا

قال مالك : نافع إمام الناس في القراءة .

وقال أحمد بن هلال المصري : قال لي الشَّيباني : قال لي رجل ممن قرأ على نافع : إن نافعًا كان إذا تكلَّم يُشَمُّ من فِيه رائحة المسك ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، أو يا أبا رُويم ، أتتطَّيبُ كلما قعدتَ تُقرئ ؟ قال : ما أمسُّ طيبًا ، ولكني رأيت النبيَّ ﷺ وهو يقرأ في فِيِّ[1] ، فمن ذلك الوقت أَشَمُّ من فِيِّ هذه الرائحة[2].

رحم الله رئيس القُرَّاء نافعًا ... قرأ على سبعين من التابعين ، وأقرأ الناس دهرًا طويلًا .

قُدْوة المُفَسِّرين والمُحَدِّثين قَتادة بن دِعَامة :

قال سعيد بن المسيب لقتادة : ما كنتُ أظن أن الله خلق مِثْلك .

وقال سفيان الثوري : وهل كان في الدنيا مَثل قتادة .

قال سلام بن أبي مُطيع : كان قتادة يختم القرآن في سبع ، فإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث ، فإذا جاء العشر ختم في كل ليلة[3].

---

(١) وفي سير أعلام النبلاء : يَتْفل في فيّ .
(٢) معرفة القراء الكبار للذهبي ١ / ١٠٧ تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، وشرح الشاطبية صـ ١٠ - ١٢ .
(٣) السير ٥ / ٢٧٦ .

الإمام الحُجَّة الفقيه ، قاضي المدينة : سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن ابن عَوْف :

قال ابن سعد بن إبراهيم : كان أبي يَحْتبي ، فما يَحلُّ حَبْوته حتى يقرأ القرآن(١).

الإمام الرَّباني منصور بن زَاذَان :

شيخ واسط علمًا وعملًا ، المُتيسر له تلاوة القرآن .

قال ابن سعد : كان ثقةً حجة ، سريع القراءة ، يريد أن يَترسَّل فلا يستطيع ، وكان يختم في الضُّحى .

قال يزيد بن هارون : كان منصور بن زاذان يقرأ القرآن كلَّه في صلاة الضحى ، وكان يختم القرآن من الأُولى إلى العصر ، ويختم في اليوم مرتين ، ويصلي الليل كله(٢).

وكان رحمه الله يبلُّ عمامَتَه من دموع عينيه .

قال هُشيم : كان منصور لو قيل له : إن ملك الموت على الباب ، ما كان عنده زيادة في العمل . وكان يصلِّي من طلوع الشَّمْس إلى أن يصلِّي العصر ، ثم يسبِّح إلى المغرب(٣).

الإمام الحُجَّة حَسَّان بن عَطيَّة :

قال الأوزاعي : ما رأيت أحدًا أكثر عملًا في الخير من حَسَّان بن عطية .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٢١ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٤١ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٤٢ .

وقال الأوزاعي : كان حسان بن عطية إذا صلَّى العصر يذكر الله تعالى في المسجد حتى تغيب الشمس[١].

الإمام حَمْزة بن حَبيب الزَّيَّات :

أَحَد القُرَّاء السَّبعة .

قال الذهبي : كان إمامًا حجة ، قيِّمًا بكتاب الله ، عابدًا خاشعًا قانتًا لله ، ثَخِين الورع ، عَديم النَّظِير .

كان شعيب بن حرب يقول لأصحاب الحديث : ألا تَسْألوني عن الدُّرِّ ؟ قراءة حمزة .

وقال يحيى بن معين : سمعت محمد بن فُضيل يقول : ما أحسب أن الله يدفع البلاء عن أهل الكوفة إلا بحمزة .

قال حمزة رحمه الله : نظرتُ في المصحف حتى خَشِيتُ أن يَذْهب بصري .

وكان رحمه الله يُقرئ القرآن حتى يتفرق الناس ، ثم يَنْهض فيصلي أربع ركعات ، ثم يصلِّي ما بين الظهر والعصر ، وما بين المغرب والعشاء وحدَّث بعضُ جيرانه أنه لا ينام الليل ، وأنهم يسمعون قراءته يُرَتِّل القرآن[٢].

أبو جعفر القارئ ، يَزيد بن القَعْقَاع :

أَحَدُ القرَّاء العَشْرة .

قال سليمان بن مسلم : شهدتُ أبا جعفر حين احتُضر ، جاء أبو حازم ومَشْيخةٌ ، فأكبُّوا عليه يصرخون به ، فلم يُجبْهم .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٦٧ .

(٢) معرفة القراء الكبار ١ / ١١١ - ١١٥ .

قال شيبة - وكان خَتَنه على ابنة أبي جعفر - : ألا أريكم منه عجبًا ؟ قالوا : بلى ، فكشف عَنْ صدره ، فإذا دَوَّارة بيضاء مثل اللبن ، فقال أبو حازم وأصحابه : هذا والله نور القرآن . قال سليمان : فقالت لي أمُّ ولده بعدما مات : صار ذلك البياض غرةً بين عَيْنيه .

وعن نافع ، قال : لما غُسِّلَ أبو جعفر القارئ ، نظروا ما بين نَحْره إلى فؤاده مثل ورقة المصحف ، فما شكَّ من حضره أنه نور القرآن ، رحمه الله(١).

بأبي وأمي ذلكم السَّيد .. الذي خالط القرآن لحمه ودمه .. وكان نورًا في صدره وبين عينيه بعد وفاته .

عن مالك بن أنس : كان أبو جعفر القارئ إذا مرَّ سائلٌ وهو يصلي بالليل ، دعاه فيستَتِر منه ، ثم يُلقي إليه إزاره .

شيخ الإسلام وبقيَّة الأَعْلام أبو بكر بن عَيَّاش :

قال الذهبي : قد روي من وجوه متعدِّدة أنَّ أبا بكر بن عيّاش مكث نحوًا من أربعين سنة يختم القرآن في كل يومٍ وليلة مرة .

وهذه عبادة يُخضع لها(٢).

قال يحيى الحمَّاني : لمَّا حضرت أبَا بكر الوفاةُ بكتْ أخته ، فقال لها : ما يُبْكيكِ ؟ انظري إلى تلك الزَّاوية ، فقد ختم أخوك فيها ثمانيةَ عشر ألف ختمةٍ .

---

(١) معرفة القراء الكبار للحافظ الذهبي ١ / ٧٥ - ٧٦ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٨ / ٥٠٣ .

أَحَادِيثُ لو صِيغَتْ لألْهَتْ بحُسْنِهَا
عن الوَشْي أَوْ شُمَّتْ لأغْنَتْ عَنِ المِسْكِ

كان رحمه الله يقول : يا مَلَكَيَّ ، ادعُوَا اللهَ لي ، فإنَّكما أطوع لله مني[1].

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم (١ / ٧٩) : « هو الإمام المُجْمَعُ على فَضْله ، واسْمُهُ كُنْيَتُهُ على الصحيح ... روينا عن ابنه إبراهيم قال : قال لي أبي : إن أباك لم يَأتِ فاحشةً قَطُّ ، وإنه يختم القرآن منذ ثلاثين سنة كل يوم مرة . وَروينا عنه أنه قال لابنه : يا بنيَّ ، إياك أن تَعْصي اللهَ في هذه الغُرفة ، فإني ختمتُ فيها اثني عَشر ألف ختمة . وروينا عنه أنه قال لابنته عند موته ، وقد بكت : يا بُنيَّة ، لا تبكي ، أتخافين أن يعذِّبني الله تعالى وقد ختمتُ في هذه الزاوية أربعةً وعشرين ألف ختمة ؟! » .

يَحْيَى بن وَثَّاب القارئ العابد :

مقرئ الكوفة في زمانه .

قال الأعمش : يحيى بن وثاب أَقْرأُ من بَالَ على ترابٍ .

وقال الأعمش : كان يحيى من أحسن الناس قراءة ، وربَّما اشتهيتُ تقبيل رأسه لحُسْن قراءته ، وكان إذا قرأ لم تحسّ في المسجد حركة ، كأنْ ليس في المسجد أحد .

قال الأعمش : كان يحيى بن وثّاب إذا قضى الصلاة مكث ما شاء الله ، تُعرف فيه كآبةُ الصلاة .

---

(١) السير ٨ / ٥٠٤ .

قال الأعمش : كنت إذا رأيتُه قلت : هذا قد وقف للحِساب[١].

أبو إسْحَاق السَّبيعي :

كان رحمه الله من العلماء العاملين ، ومن جِلَّة التابعين .

عن ابن فُضيل عن أبيه قال : كان أبو إسحاق السَّبيعي يقرأ القرآن في كل ثلاث[٢].

الزَّاهد القدوة كُرْز بن وَبَرَة :

له الصِّيت البالغ في النُّسك والتَّعبد .

سأل ربَّه أن يَقْوىٰ حتى يختم القرآن في اليوم والليلة ثلاث مرات[٣].

ثَابِت البُنَانيّ :

قال السَّمعاني : هو من تابعي البصرة ، صَحِبَ أنسًا أربعين سنةً ، وكان أَعْبَد أهل البصرة .

« قال شعبة : كان ثابت يقرأ القرآن في يوم وليلة ، ويصوم الدهر »[٤].

أبو حنيفة النُّعْمان :

قال شَمْس الأئمة الكردري في كتابه « مناقب الإمام أبي حنيفة » أنه : « كان يختم القرآن في كل يوم وليلة مرة ، وفي رمضان كل يوم مرتين ؛ مرة في النهار ومرة في الليل .

---

(١) معرفة القراء الكبار ١ / ٦٣ - ٦٤ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٩٤ .
(٣) السير ٦ / ٨٥ .
(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم ٢ / ٢١٩ .

وقال ابن المبارك : كان أبو حنيفة يَجْمع القرآنَ في ركعتين . وقال أيضًا : أربعةٌ من الأئمة ختموا القرآن في ركعتين : عثمان بن عفان ، وتميم الدَّاري وسعيد بن جبير ، وأبو حنيفة » انتهى مُلخّصًا .

وعن أسد بن عمرو : كان أبو حنيفة عامةَ الليل يقرأ القرآن في ركعة .

وعن مسعر بن كدام قال : دخلتُ المسجد ليلةً فرأيت رجلًا يصلِّي ، فاستَحْليتُ قراءته ، فقرأ سُبْعًا ، فقلت : يركع ، ثم قرأ الثلث ، ثم النِّصف ، فلم يزل يقرأ حتى خَتَمه كلَّه في ركعة ، فنظرت فإذا هو أبو حنيفة .

وَاصِل بن عبد الرَّحمٰن البَصْري :

قال الذهبي في العبر : « قال أبو داود الطَّيالسي : كان يختم القرآن في كل ليلة »[1].

وَكِيع بن الجَرَّاح :

قال الكَفَوي في « أعلام الأخيار » : قال يحيى بن أكثم : صحبتُه في الحَضَر والسَّفَر ، وكان يصوم الدَّهر ، ويختم القرآن كلَّ ليلة .

وعن محمد بن جرير قال : مكث وكيعٌ بعَبادان أربعين ليلة ، وختم أربعين مرة ، وتصدَّق بأربعين ألف درهم . انتهى .

مِسْعَر بن كِدَام :

قال الحافظ ابن حجر : « قال محمد بن مِسْعَر : كان أبي لا ينام حتّى يقرأ نصف القرآن »[2].

---

(١) العبر للذهبي ١ / ٢١٨ .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ١٠ / ١١٥ .

الحَسَنُ بنُ صالح بنِ حيّ الثوري :

« قال وكيع : كان الحسن وعليّ ابنا صالح ، وأمُّهما قد جزَّءُوا الليل ثلاثة أجزاءٍ يختمون فيه القرآن في بيْتِهم كلَّ ليلةٍ ، فكان كلُّ واحد يقوم بثلثه ، فماتت أمُّهما ، فكانا يختمانه ، ثم مات عليّ ، فكان الحسن يختم كلَّ ليلةٍ »(١).

الإمامُ أبو محمَّد عبدُ الله بنُ إدريس بنِ يزيد الأَوْديّ :

قال الإمام النووي : « مُتَّفَقٌ على إمامته وجلالته ، وإتقانه وفضيلته ، وورعه وعبادته . روينا عنه أنه قال لبنته حين بكتْ عند حضور موته : لا تبكي ؛ فقد ختمتُ القرآن في هذا البيت أربعةَ آلافِ ختمةٍ .

قال أحمد بن حنبل : كان ابن إدريس نسيج وحده . توفي سنة ١٩٢ هـ رحمه الله تعالى »(٢).

عَبْدُ الرَّحمٰن بنُ القاسم إمامُ مِصر وصاحبُ الإمامِ مالك :

قال أسدُ بن الفُرات : كان ابنُ القاسم يختم كلَّ يومٍ وليلة ختمتين ، قال : فنزل بي حين جئتُ إليه عن ختمة ؛ رغبةً في إحياءِ العلم(٣).

أميرُ المؤمنين في الحديث الإمام يحيٰى بن سعيد القَطَّان :

« قال يحيٰى بن معين : أقام يحيٰى بن سعيد عشرين سنةً يختم القرآن كلَّ ليلةٍ »(٤).

وقال عمرو بن علي : « كان يحيٰى بن سعيد القطَّان يختم القرآن كلّ

---

(١) تهذيب التهذيب ٢ / ٢٨٨ .
(٢) شرح صحيح مسلم ١ / ٧٨ - ٧٩ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٢١ .
(٤) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٧٩ .

يوم وليلة ، يدعو لألف إنسان ، ثم يخرج بعد العصر فيحدّث الناس »[١].

وقال علي بن المديني : « كنّا عند يحيى بن سعيد ، فقرأ رجل سورة الدُّخَان ، فصعِقَ يحيىٰ ، وغُشِيَ عليه . قال أحمد بن حنبل : لو قَدَر أحدٌ أن يدفع هذا عن نفسه ، لدفعه يحيىٰ - يعني الصَّعْق - »[٢].

وقال يحيىٰ بن معين : وكان يحيىٰ يجيء معه بمسباحٍ ، فيُدخل يده في ثيابه فيُسبِّح[٣].

إمام الدنيا وناصر السُّنَّة الشَّافعي :

« قال حسين الكرابيسي : بتُّ مع الشافعي ليلةً ، فكان يصلي نحو ثلث الليل ، فما رأيته يزيد على خمسين آيةً ، فإذا أكثر ، فمائة آيةٍ ، وكان لا يمرُّ بآية رحمةٍ إلا سأل الله ، ولا بآية عذابٍ إلا تعوّذ ، وكأنما جُمع له الرجاء والرهبة جميعًا »[٤].

قال الذهبي في « السير » (١٠ / ٣٦) : « قال الربيع بن سليمان - من طريقين عنه ، بل أكثر - : كان الشافعي يختم القرآن في شهر رمضان ستين ختمةً . ورواها ابن أبي حاتم عنه ، فزاد : كل ذلك في صلاة »[٥].

وفي تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١ / ٥٤) : « قال الربيع : نِمْتُ في منزل الشافعي ليالي ، فلم يكن ينام إلا يسيرًا من الليل . وقال الحميدي : كان الشافعي يختم القرآن كلَّ يومٍ ختمةً » .

هُمُ الرِّجالُ وعيْبٌ أنْ يُقالَ لمنْ   لمْ يتَّصفْ بمعاني وَصْفِهِمْ رجلُ

---

(١) السير ٩ / ١٧٧ - ١٧٨ .
(٢) السير ٩ / ١٨٠ .
(٣) السير ٩ / ١٧٨ - ١٨٠ .
(٤) السير ١٠ / ٣٥ ، ومناقب الرازي صـ ١٢٧ ، وتوالي التأسيس : ٦٨ .
(٥) آداب الشافعي صـ ١٠١ ، مناقب الشافعي للرازي صـ ١٢٧ ، تاريخ ابن عساكر ١٥ / ١١ / ٢ .

إمامُ أهل السُّنة أحمد بن حنبل :

قال أبو نعيم في « الحلية » (٩ / ١٨١) : « ثنا سليمان بن أحمد ، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : كان أبي يُصلّي في كلّ يوم وليلة ثلاثمائة ركعة ، فلمّا مرِضَ من تلك الأسواط أضعفتْه ، فكان يصلّي في كلّ يوم وليلة مائة وخمسين ركعة ، وكان قُرب الثمانين » .

لله درُّك يا إمام ، أنت في وادٍ ، والناس في وادٍ آخر . لسان حالك يقول :

أَنْتَ تدري أيُّهَا الحيرانُ عنّا كيفَ فوقَ الشَّمسِ أزمانًا حلَلْنا

يقول عبد الله بن أحمد : « وكان يقرأ في كلّ يوم سُبْعًا ، يختم في كل سبعةِ أيامٍ ، وكانت له ختمة في كل سَبْع ليالٍ سوى صلاة النهار ، وكان ساعة يصلي عِشاءَ الآخرة ينام نومة خفيفة ، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو »[1] .

وقال هلال بن العلاء : « خرج الشافعي ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل إلى مكة ، فلما أنْ صاروا بمكة ، نزلوا في موضع ، فأمّا الشافعي فإنه استلقى ، ويحيى بن معين أيضًا استلقى ، وأحمد بن حنبل قائم يصلي ، فلما أصبحوا قال الشافعي : لقد عملتُ للمسلمين مائتيْ مسألة .

وقيل ليحيى بن معين : أيّ شيءٍ عملتَ ؟ قال : نفيتُ عن النبي ﷺ مائتي كذّاب .

وقيل لأحمد بن حنبل : فأنت ؟ قال : صلّيْتُ ركعاتٍ ختمتُ فيها القرآن .

---

(١) مناقب الإمام أحمد صـ ٣٥٧ .

وعن جعفر بن أبي هاشم قال : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول : ختمتُ القرآن في يوم ، فعددتُ موضع الصبر ، فإذا هو نيِّفٌ وتسعون »[١].

أبو العباس : أحمد بن محمد بن سهْل بن عطاء :

قال أبو نعيم : « سمعتُ أبا الحسين محمد بن علي صاحِب الجنيد بن محمد يقول : صحبتُ أبا العباس بن عطاء عدّةَ سنين متأدبًا بآدابه ، وكان له في كل يوم ختمةٌ ، وفي كلّ شهر رمضان - في كل يوم وليلة - ثلاثُ ختمات »[٢].

بِشْرُ بْنُ الحارث الحَافي :

« قال عليُّ بن المَدِيني : ما رأيتُ أخوفَ لله منه ، كان يصلي كلَّ يوم خمسمائة ركعة .

قال ابن المديني : حَفَرَ - بشرٌ - قبرَه ، وختم فيه القرآن ، وكان وِردُه ثُلُث القرآنِ »[٣].

عَبْدُ الرَّحمٰن بنُ مَهْدي :

قال عليّ بن المديني : كان وِرْدُ عَبْدِ الرحمٰن كلَّ ليلةٍ نصف القرآن[٤].

قال الذهبي في السير : « عبد الرحمٰن له جلالةٌ عجيبةٌ ، وكان يُغْشَىٰ عليه إذا سَمِعَ القرآن » . نقله صاحب « شريعة المقارئ »[٥].

---

(١) مناقب الإمام أحمد صـ ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
(٢) الحلية ١٠ / ٣٠٢ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٨ / ٣٦٠ .
(٤) السير ٩ / ٢٠٣ .
(٥) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٥٣ .

الجُنَيْدُ :

قال أبو الحسين بن الدّرّاج : ذكر الجنيد أهلَ المعرفة بالله ، وما يُراعُونه من الأوْراد ، والعبادات بعد ما ألطفهم الله به من الكرامات ، فقال الجنيد : العبادة على العارفين أحسنُ من التِّيجانِ على رؤوس الملوك(١).

قال أبو بكر العطوي : كنت عند الجنيد حين مات فختم القرآن ، ثم ابتدأ من البقرة فقرأ سبعين آيةً ، ثم مات ، رحمه الله(٢).

وقال الجنيد ، رحمه الله : إنَّ الله عز وجل يخلُص إلى القلوب مِن بِرِّه حَسبَمَا خَلَصَتْ القلوبُ به إليه من ذكره ، فانظر ماذا خالط قلبَك .

وكان رحمه الله يقول - عمَّن قال وتكلَّم بإسقاط الأعمال - : هذه عندي عظيمةٌ ، والذي يسرق ويزني أحسنُ حالًا من الذي يقول هذا ، وإنّ العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألفَ عامٍ لم أُنقصْ من أعمال البرّ ذرةً ، إلا أنْ يُحال بي دونَها .

وقال رحمه الله : لو أقبل صادقٌ على الله ألفَ ألفِ سنةٍ ، ثم أعْرَضَ عنه لحظةً كان ما فاتَهُ أكثرَ مِمَّا نالَه .

وقال الجنيدُ رحمه الله : مَن استخلَصَهُ الحقُّ بمفرد ذكره وصافاه ، يكون له وليًّا منتخَبًا مكرَّمًا مُواصلًا ، يُورِثُه غرائبَ الأنبياءِ ، وَيَزِيدُه في التقريب زلفى ، ويُثَبّتُه في مَحَاضِرِ النَّجْوَى ، ويصطنِعُه للاصْطفاءِ ، ويرفعُه إلى الغاية القُصوى ، وَيُبَلِّغُهُ في الرِّفعة إلى المُنْتَهَى ، ويُشْرِفُ به من ذِرْوَةِ

---

(١) الحلية ١٠ / ٢٥٧ .

(٢) الحلية ١٠ / ٢٦٤ .

الذُّرا على مواطنِ الرُّشْدِ والهُدَىٰ ، وعلى درجاتِ البَرَرَةِ الأتقياءِ ، وعلى منازل الصَّفوةِ والأوْلياء ، فيكون كلُّه مُنْتَظِمًا ، وعليه بالتمكين مُحتويًا ، وبأنْبائِهِ خبيرًا عالمًا ، وعليه بالقوة والاسْتظهارِ حاكمًا ، وبإرشاد الطالبين له إليه قائمًا ، وعليهم بالفوائد والعَوائد والمنافع دائمًا ، وَلِمَا نَصَبَ له الأئمة مِنَ الرِّعَايةِ لَدَيْهِ به لازمًا ، وذَلِكَ إمامُ الهداةِ السُّفراء العظماء الأجلّة الكبراء ، الذين جعلهم للدِّين عُمُدًا وللأرض أوْتادًا .

عَطَاءُ بنُ السَّائِبِ :

قال عنه الإمامُ أحمد بن حنبل : « عطاءُ بن السائبِ ثقةٌ ثقةٌ ، رجلٌ صالحٌ ، وَمَنْ سَمِعَ منه قديمًا كان صحيحًا ، وكان يختم كلَّ ليلةٍ »(١).

عُمَيْرُ بنُ هانِئ العَبْسِيُّ الداراني :

قال أبو داود : كان عُمَيْرُ بنُ هانِئ قَدَرِيًّا ، يُسَبِّحُ كلَّ يومٍ مائةَ ألفِ تسبيحةٍ(٢).

بَكْرُ بنُ سَهْلِ بنِ إسماعيلَ الإمامُ المفسِّر المُقْرِئ :

كان له القَدَحُ المُعَلَّىٰ فِي خَتْمِ القرآنِ في أقَلِّ مُدةٍ .

أبُو قبيصَةَ الإمامُ الخَيِّرُ محمدُ بنُ عبدِ الرحمٰن الضَّبّي :

قال إسماعيل الخُطَبي : سألت أبا قبيصةَ الضَّبي - وكان مِنْ أدْرَسِ مَنْ رأيْناه للقرآن - عَنْ أكثر ما قرأ في يوم ، وكان يُوصف بسرعة القراءة ، فامتنَع أن يخبرني ، فَلَمْ أزَلْ به حَتَّى قال : قرأت في يومٍ مِنْ أيام الصَّيْف أربع خُتَم ، وبلغتُ في الخامسة إلى « براءة » ، وأذَّنْتُ العصر .

---

(١) التعليق على الرحلة للخطيب البغدادي لنور الدين عتر صـ ١٤٢ .
(٢) السير ١٣ / ٢١٧ ، ٥ / ٤٢١ .

قال : وكان من أهل الصدق[١].

الكتَّانِيُّ القُدْوَةُ أبو بكر محمدُ بن علي بن جعفر :

قال الذهبي : « يقال : ختم الكتانيُّ في الطّواف اثنتي عَشْـرَة ألفِ ختمةٍ ، وكان من الأولياء »[٢].

وكان رحمه الله يقول : مِنْ حكَمِ المريد أن يكون نومُهُ غَلَبَةً ، وأكْلُهُ فاقةً ، وكلامُهُ ضرورةً .

أَبو سَهْلِ القطّان : أحمدُ بنُ محمد بن عبد الله :

« قال أبو عبد الله بن بشْر القطّان : ما رأيتُ أحسن انتزاعًا لما أراد من آي القرآن من أبي سهل بن زياد ، وكان جارَنا ، وكان يُديمُ صلاةَ الليل والتلاوة ، فَلِكَثْرَةِ دَرْسِهِ صارَ القرآنُ كأنَّه بيْن عَيْنَيْهِ »[٣].

الإمام القدوة شيخ نيسابور ، أبو عبد الله أحمد بن حرْب بن فيروز :

قال زكريا بن دَلَّوَيه : كان أحمد بن حرب إذا جلس بين يدي الحجّام ليُحفي شاربَه ، يُسبّح ، فيقول له الحجَّام : اسكت ساعةً ، فيقول : اعمل أنت عملك ، وربما قطع من شفته ، وهو لا يعلم .

وقال محمد بن يحيى : مرّ أحمد بن حرب بصبيان يلعبون ، فقال أحدهم : أمسكوا ؛ فإن هذا أحمد بن حرب الذي لا ينام الليل . فقبض على لحيته ، وقال : الصبيان يهابونك وأنت تنام ؟ فأحيا الليل بعد ذلك ، حتى مات[٤] .

---

(١) تاريخ بغداد ٢ / ٣١٥ ، والسير ١٣ / ٤٩٢ .
(٢) السير ١٤ / ٥٣٥ .
(٣) تاريخ بغداد ٥ / ٢٤٥ ، والسير ١٥ / ٥٢١ .
(٤) السير ١١ / ٣٢ - ٣٣ .

قال يحيى بن يحيى التميمي : إن لم يكن أحمد بن حرب من الأبدال ، فلا أدري مَنْ هم ؟!

« وقال أحمد بن حرب رحمه الله : عبدتُ الله خمسين سنةً ، فما وجدتُ حلاوة العبادة حتى تركتُ ثلاثةَ أشياءٍ : تركت رضا الناس حتى قدرتُ أن أتكلم بالحق ، وتركتُ صحبة الفاسقين حتى وجدتُّ صحبة الصالحين ، وتركتُ حلاوة الدنيا حتى وجدت حلاوة الآخرة »(١).

لله دَرُّ أهل القرآن ، كم أَنِسُوا بكتاب ربهم ، وعلّموه لغيرهم ! فهذا :

محمد بن أبي محمد أبو شجاع ابن المقرون البغدادي :

تصدّر للإقراء والتلقين ستين سنةً ، حتى لقّن الآباء والأبناء والأحفاد احتسابًا لله تعالى ، فكان لا يأخذ من أحد شيئًا ، ويأكل من كسب يمينه(٢).

وشيخ همذان : أبو العلاء الهمذاني العطّار المقرئ :

يقول : « كنتُ أبيتُ ببغداد في المساجد ، وآكُلُ خبز الدّخن ... » قال عبد القادر : ثم عظم شأنه حتى كان يمرُّ بالبلد ، فلا يبقى أحد رآه إلا قام ودعا له ، حتى الصِبيان واليهود ... وكان يُقرئ نصف نهاره القرآن والعلم ، ونصفه الآخر الحديث ، وكانت السُّنة شعارَه ودِثاره اعتقادًا وفعلًا ، وكان لا يمسُّ الجزء الحديثي إلا على وضوء »(٣).

لله دَرُّ أهل القرآن ! كم كان أُنسهم بكتاب ربهم !

---

(١) السير ١١ / ٣٤ .

(٢) معرفة القراء الكبار ٢ / ٥٦٩ .

(٣) معرفة القراء الكبار ، ٢ / ٥٤٣ - ٥٤٤ .

فهذا الصحابي الجليل عبّاد بن بشر يقوم الليل ، ويُصاب بالأسهم وهو يصلي ويقرأ ، فما يمنعه ذلك عن قراءته ، ويقول لعمار بن ياسر : « كنت في سورة فكرهتُ أن أقطعها » .

وعروة بن الزبير : كان يقرأ كلّ يوم ربْع الختمة في المصحف ، ويقوم الليل به ، فما قطعه حتى في الليلة التي قُطعت فيها رجله .

وهذا الشيخ ابن مقرون وابن العطار يتصدران للإقراء السنين الطويلة ... فسقى الله قبورهم عاطرَ رحمته وملأها عليهم نورًا وخضرًا إلى يوم يُبعثون .

الإمامُ القدوةُ الشَّهيدُ أبو بكر محمد بن أحمَد بن سَهْلٍ ، المعروفُ بابنِ النابلسي :

قال أبو ذرّ الحافظُ : سجنه بنو عبيدٍ – الفاطميُّون – وصلبُوه على السنّة ، سمعت الدارقطني يذكره ويبكي ، ويقول : كان يقول وهو يُسْلَخُ : ﴿ **كان ذلك في الكتاب مسطورًا** ﴾ .

« قال أبو الفرج ابن الفرج : أقام جوهر – القائدُ – لأبي تميمٍ صاحب مصر أبا بكر النابلسي ، وكان يَنزل الأكواخ ، فقال له : بلغني أنك قلت : إذا كان مع الرجل عَشْرةُ أسهم ، وجب أن يرمي في الروم سَهْمًا وفينا تسعةً . قال : ما قلتُ هذا ، بل قلت : إذا كان معه عَشْرة أسهمٍ وجب أن يرميَكم بتسعةٍ ، وأن يرميَ العاشر فيكم أيضًا ، فإنكم غيَّرتم المِلّة ، وَقَتَلْتُم الصالحين ، وادَّعيتُم نورَ الألوهية ، فشهره ثم ضربه ، ثم أمر يهوديًّا ، فسلخه .

قال مَعْمَر بن أحمد بن زياد الصوفي : أخبرني الثقةُ أنّ أبا بكر سُلخ

من مفْرقِ رأسِهِ ، حتى بلغ الوَجْهَ وكان يذكر الله ويصبر حتى بلغ الصدر ، فرحمه السلّاخ ، فوكزه بالسكين موضع قلبه ، فقضى عليه ؛ وأخبرني الثقةُ أنَّه كان إمامًا في الحديث والفقه ، صائمَ الدهر ، كبير الصَّوْلةِ عند العامّة والخاصَّة ، ولما سُلخ كان يُسمع من جَسَدِهِ قراءةُ القرآن »[١].

أبو بِشْر أحمد بن محمد بن حَسْنُويه ، الحَسْنُويي العابد النيسابوري :

ذكره العلامة ابنُ الأثير في « اللُّباب في تهذيب الأنساب » (١ / ٣٠٠) ، وقال : « سَمِعَ محمد بن إسحاق بن خزيمة : كان يختم القرآن كلّ ليلةٍ ».تُوفي سنة ٣٩٠ هـ،رحمه الله تعالى .

جَعْفَر بن الحَسنِ الدَّرزيجاني المقرئ الزاهد الحنبلي :

قال الحافظ ابن رجب : « كان مِنْ عبادِ الله الصالحين ، أمّارًا بالمعروف ، نهّاءً عن المنكر ، وله المقامات المشهودة في ذلك ، كان مداوِمًا على الصيام والتهجُّد والقيام ، له ختماتٌ كثيرةٌ جدًّا ، كلُّ ختمةٍ منها في ركعةٍ ، توفي في الصلاة - ساجدًا - سنة ٥٠٦ هـ،رحمه الله تعالى »[٢].

أبو الحَسَنِ الْبَاهِلِي تلميذُ أبي الحسن الأشْعَرِي :

قال عنه أبو إسحاق الإسفراييني : أنا في جانب شَيْخِنَا أبي الحسن الباهلي كقطرةٍ في بحرٍ .

وقال ابن الباقلّاني : كان الباهلي من شِدّةِ اشتغالِهِ بالله مثلَ مجنونٍ أوْ وَالِهٍ[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١ / ١١٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٣٠٤ .

الحافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ :

قال ابْنُه القَاسِمُ : كان أبي مواظِبًا على صلاةِ الجماعةِ وتلاوة القرآنِ ، يختِمُ كلَّ جُمُعَةٍ ، ويختِمُ في رمضانَ كلَّ يومٍ ، وكان كثيرَ النّوافِلِ والأذكارِ ، ويحاسِبُ نفسَه على لحظةٍ تَذْهَبُ في غَيْرِ طَاعَةٍ[1].

الإمامُ الصَّالح عبدُ الرحمٰن بنُ علي بن المسلم بن الخرقي الشافعي :

« قال ابن الحاجب : كان فقيهًا ، عدلًا ، صالحًا ، يتلو كلَّ يومٍ وليلةٍ ختمةً ، وقال أبو حامد ابن الصابوني في كتابه إليَّ : أُضِرّ في الآخر وأُقْعِدَ ، فاحتاج إلى وُضُوءٍ في الليل وما عنده أحدٌ ، فذكرَ أنه قال : بينا أنا أتفكَّر ، إذ بنورٍ من السماء داخل البيتِ ، فبصُرْتُ بالماء فتوضأْتُ . حدّث بعضَ إخوانِهِ بهذا ، وأوصاه أنْ لا يُخبرَ بِهِ إلا بعدَ موته »[2].

شَيْخُ الإسلام أبو عُمَرَ محمدُ بنُ أحمد بن قُدامةَ المَقْدِسي :

قال الذَّهبيّ في السير (٢٢ / ٧) : « كان قدوةً ، صالحًا ، قانتًا لله ، ربّانيًا ، خاشعًا ، مخلصًا ، عديمَ النظير ، كبيرَ القَدْر ، كثيرَ الأوْرَادِ والذِّكْرِ ، والمروءَةِ والفُتُوَّة ، والصِّفَاتِ الحميدة ، قلّ أن تَرَىٰ العيوُن مثلَه . يتلو كلَّ ليلةٍ سُبُعًا مرتّلًا في الصلاة ، وفي النهار سُبُعًا بين الصلاتَيْن » .

أحمدُ بن رَضْوَانَ بن محمد :

مُصَنِّفُ كتاب « الواضح في القراءات العَشْر » .

« قال أبو بكر الخطيب : كان أحمد بن رضوان أحدَ القرّاء المذكورين بإتقان الروايات ، له في ذلك تصانيف ، توفي وهو شابٌّ ، وقد كان الناسُ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٥٦٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١ / ١٩٦ - ١٩٧ .

يقرءون عليه في حياة الحمامي لعلمه ، حضرته ليلةً في الجامع ، فقرأ فيها ختمَتَيْن قبل أن يَطْلُع الفجر »[١].

شَيْخُ الإسلامِ ابنُ تيميَة :

قال عنه الحافظ عمر بن علي البزار :

« أمَّا تعبُّده - رضي الله عنه - فإنه قلَّ أن سُمِعَ بمثلِهِ ؛ لأنَّه كان قد قطع جُلَّ وقتهِ وزمانهِ فيه ، حتى إنه لم يجعلْ لنفسهِ شاغلة تشغله عن الله تعالى ، ما يُراد له لا من أهلٍ ، ولا مال . وكان في ليله ، منفردًا عن الناس كلهم ، خاليًا بربه عز وجلّ ، ضارعًا مواظِبًا على تلاوة القرآن العظيم ، وكان قد عُرفت عادته : لا يكلمه أحدٌ بغير ضرورة بعد صلاة الفجر ، فلا يزالُ في الذكر يُسْمِعُ نفسه ، وربما يَسْمع ذكرَه منْ إلى جانبهِ .. هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس »[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن القيم : « حضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلَّى الفجر ، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريبٍ من انتصاف النهار ، ثم التفت إليّ وقال : هَذِهِ غَدْوتي ، وَلَوْ لَمْ أتغدّ الغدَاءَ ، سقطتْ قوتي . أوْ كلامًا قريبًا مِنْ هذا .

وقال لي مرةً : لا أترك الذِّكر إلا بنيَّةِ إجمام نفسي وإراحَتِهَا ؛ لأستعد بتلك الرَّاحة لذكْرٍ آخَر . أو كلامًا هذا معناه[٣] .

وقال ابنُ القيم في « الوابِل الصيِّب » (٨٤) : « سمعتُ شَيْخَ الإسلام ابنَ تيمية - قَدّس اللهُ روحه - يقول : « الذِّكْرُ للقلب مثلُ الماءِ

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٤ / ١٦١ .

(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للبزار صـ ٣٦ - ٣٨ .

(٣) الوابِل الصيِّب لابن القيم صـ ٨٤ .

للسَّمَكِ ، فكيْف يكون حالُ السَّمك إذا فَارَقَ الماءَ ؟! » .

وقال : « سَمِعْتُ شَيْخَ الإسلام ابنَ تيمية - قَدّس اللهُ روحه - يقول : إنَّ في الدنيا جنَّةً ، مَنْ لَمْ يدْخُلْهَا ؛ لا يدخل جنَّةَ الآخِرَة » .

وقال لي مرةً : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنَا جَنَّتي وَبُسْتَانِي في صَدْري ، إنْ رُحْتُ ، فهي معي لا تُفارقُني ؛ إنَّ حَبْسِي خلْوَةٌ ، وقتلي شهادةٌ ، وإخْراجي مِنْ بَلَدِي سياحةٌ .

وكان يقول في محبسه في القلعة : لو بذلتُ ملءَ هذه القلعة ذَهَبًا ، ما عَدَل عندي شُكْرَ هذه النعمة . أو قال : ما جزيتهم على ما تسبّبوا لي فيه مِنَ الْخَيْرِ . ونحوَ هذا .

وكان يقول في سجوده ، وهو محبوسٌ : « اللهمَّ أعنِّي على ذكْرك وشكرك ، وحُسْنِ عبادتك » . ما شاء الله .

وقال لي مرةً : المحبُوسُ مَنْ حُبِسَ قَلْبُهُ عن رَبِّهِ تعالى ، والمَأْسُورُ مَنْ أَسَرَهُ هَوَاهُ .

ولما دخل القلعةَ ، وصارَ داخلَ سُورِهَا ؛ نظر إليه ، وقال : ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ [الحديد : ١٣] »[(١)] .

وما هذا إلا لِتَفَرُّغِهِ لتلاوة القرآن في السجن بعد أن أخذُوا منه أقلامه وكتبه ودفاتره .

« وَخَتَمَ القرآن مُدَّةَ إقَامَتِهِ بالقلعة - ثمانين أو إحدى وثمانين ختمة -

(١) الوابل الصيب صـ ٩٤ .

انتهى في آخرِ ختمةٍ إلى آخر: اقتربت الساعة ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ** ﴾ ثم كُمِّلت عليه بعد وفاته، وهو مُسَجًّى. كان كلَّ يومٍ يقرأُ ثلاثةَ أجزاءٍ، يختِمُ في عَشْرَةِ أيَّامٍ. هكذا أخبرني أخوه زَيْنُ الدين »[1].

* * *

« سُبْحَانَ مَنْ أَشْهَدَ عِبَادَهُ جَنَّتَهُ قَبْلَ لِقَائِهِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَهَا فِي دارِ العَمَلِ، فَآتَاهُمْ مِنْ رَوْحِهَا وَنَسِيمِهَا وَطِيبِهَا ما استفْرَغَ قُوَاهُم لِطَلَبِهَا والمسابقة إِلَيْهَا ».

كان بعضُ العارفينَ يقول: لو عَلِمَ الملوكُ وأبناءُ المُلُوكِ ما نحنُ فيه، لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسيوف.

وقال آخرُ: مساكينُ أهل الدُّنْيَا خرجوا منها، وما ذَاقُوا أطْيَبَ ما فيها! قيل: وما أطيبُ ما فيها؟

قال: محبةُ الله تعالى، ومعرفتُهُ وَذِكْرُهُ. أَوْ نَحْوَ هذا.

وقال آخرُ: إنَّه لَتَمُرُّ بالقلب أوْقاتٌ يَرقُصُ فيها طربًا.

وقال آخرُ: إنَّه لَتَمُرُّ بي أوقاتٌ، أقول: إنْ كانَ أهلُ الجنَّةِ في مثلِ هذا، إنَّهم لَفِي عيشٍ طَيِّب.

يَا مَنْ يُذَكِّرُني بِعَهْدِ أَحِبَّتي   طَابَ الحَدِيثُ بِذِكْرِهِمْ وَيَطِيبُ
أَعِدِ الحَدِيثَ عَلَيَّ مِنْ جَنَبَاتِهِ   إِنَّ الحَدِيثَ عَنِ الحَبِيبِ حَبِيبُ

---

(١) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية للحافظ ابن عبد الهادي صـ ٣٦٨.

مَلأَ الضُّلوعَ وَفَاضَ عَنْ أجْنَابِهَا قَلْبٌ إِذَا ذُكِـرَ الحَبِيبُ يَذُوبُ
مَا زَالَ يَخْفِقُ ضَارِبًا بِجَنَاحِهِ يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَطِيرُ قُلُوبُ

قال ابن القيم : « فَمَحَبَّةُ اللهِ تعالى ، وَمَعْرِفَتُهُ ، ودوامُ ذكرِهِ ، والسُّكُونُ إِلَيْهِ ، والطُّمَأْنِينَة إليه ، وإفرادُه بالحُبِّ ، والخوف والرجاء والتَّوكُّل والْمُعَامَلَة ، بِحَيْثُ يكونُ هو وحدَهُ المستولي على هموم العبدِ ، وعزماتِهِ وإرادَتِهِ - هو جَنَّةُ الدنيا ، والنعيمُ الذي لا يُشْبِهُهُ نعيمٌ ، وهو قُرَّةُ عَيْنِ المحبين ، وحياةُ العارفين » .

يَا ذَا الذي أَنِسَ الفُؤَادُ بِذِكْرِهِ أَنْتَ الَّذِي مَا إِنْ سِوَاهُ أُرِيدُ
تَفْنَى اللَّيَالي والزَّمَانُ بَأَسْرِهِ وَهَوَاكَ غَضٌّ فِي الفُؤَادِ جَدِيدُ

ولله ما أحلىٰ قَوْلَ الشاعرِ :

واللهِ مَا طلعتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ إِلَّا وَحُبُّكَ مَقْرُونٌ بِأَنْفَاسِي
وَلَا جَلَسْتُ إِلىٰ قَوْمٍ أُحَدِّثُهُمْ إِلَّا وَأَنْتَ حَدِيثي بَيْنَ جُلَّاسِي

قال فَتْح المَوْصِلي : المحبُّ لا يَجِدُ مَعَ حبِّ اللهِ للدنيَا لذةً ، ولا يَغْفلُ عن ذِكْرِ اللهِ طَرفَةَ عَيْنٍ .

لَا لِأَنِّي أَنْسَاكَ أُكْثِرُ ذِكْرَاكَ وَلَكِنْ بِذَاكَ يَجْرِي لِسَانِي

ولله دَرُّ القائل :

خَطَرَاتُ ذِكْرِي تَسْتَثِيرُ مَوَدَّتِي وَأُحِسُّ مِنْهَا فِي الفُؤَادِ دَبِيبَا
لَا عُضْو لِي إِلَّا وَفِيهِ مَحَبَّةٌ فَكَأَنَّ أعْضَائِي خُلِقْنَ قُلُوبَا

الْمُحِبُّ لله طائرُ القَلْبِ ، كَثِيرُ الذكرِ ، مُتَسَبِّبٌ إلى رِضْوَانِهِ بِكُلِّ سَبِيلٍ يقدِرُ عليه من الوسائِل والنَّوافل شوقًا .

إِذَا نَسِيَ النَّاسُ العُهُودَ وأغْفَلُوا فَعَهْدُكَ فِي قَلْبِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي

وللهِ دَرُّ القائل :

ذَكَرْتُكَ لا أنِّي نَسِيتُكَ لَحْظَةً وَأَهْوَنُ مَا فِي الذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي

وعالي الهِمَّة ينظُرُ إلى عِظَمِ أجْرِ الذكْر ، فَيُدَاوِمُ عَلَيْهِ ، وخاصةً بعض الأذكار .

وَمَنْ شاءَ أنْ يسكنَ رِيَاضَ الجنَّةِ في الدنيا ، فَلْيَسْتَوطِنْ مَجَالِسَ الذِّكْرِ ؛ فإنها رياضُ الجنة .

عن جابرٍ رضي اللهُ عنه ، قال : خَرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ ، فقال : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ ، ارْتَعُوا فِي رِيَاضِ الجنَّة » قلنا : يا رسول الله ، وما رِيَاضُ الجَنَّةِ ؟ قال : « مجالسُ الذِّكْرِ » ثم قال : « اغْدُوا ورُوحوا واذكروا ، فَمَنْ كان يحبُ أنْ يعلمَ منزلتَهُ عندَ اللهِ ، فلينظُرْ كيفَ منزلةُ اللهِ تعالى عِنْدَهُ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يُنْزِلُ العبدَ مِنْهُ حيثُ أنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ »[١].

وفي الترمذي : عن أنسٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا » قالوا : يا رسول الله ، وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ ؟ قال : « حِلَقُ الذِّكْرِ »[٢].

ودُور الجنَّةِ تُبْنَى بالذكْرِ ، فإذَا أَمْسَكَ الذاكرُ عن الذكر ، أمْسَكَتِ الملائكةُ عَنِ البناءِ .

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لَقِيتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي إِبْرَاهِيمَ الخليلَ عليه السلام ، فقال : يا محمد ، أقْرِئ أُمَّتَكَ مِني السلامَ ، وأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجنةَ طيبةُ التُّرْبَةِ ، عَذْبَةُ الماءِ ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ ، وأنَّ غِراسَهَا : سبحانَ الله ، والحمدُ للهِ ، ولا إلٰه

---

(١) حسنٌ بشواهده : أخرجه ابن أبي الدنيا .

(٢) حسنٌ بشواهده .

إلا الله ، والله أكبر »[١].

فالذكرُ غراسُها وبناؤُها . قال الحسنُ عن بناء الملائكة لدُور الجنة : بالذكر - بأبي أنتم وأمي - أعِينُوهم على العمل .

وكان أحدُ العُبَّادِ يستشعِرُ حضورَ الملائكةِ لمجالسِ الذكرِ ، فيقول حين يشرع في ذكره : أهلًا بملائكةِ ربي ، لا أعدمُكم اليومَ خيرًا ، خذوا على بركةِ الله .

والله - عز وجل - يباهي بالذاكرين ملائكته ، كما روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي سعيد الخدريّ ، قال : خرج معاوية على حلقةٍ في المسجد ، فقال : ما أجلسكُم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى . فقال : آلله ، ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا: آلله ، ما أجْلَسَنَا إلَّا ذلك . قال : أمَا إني لمْ أستحلفْكم تهمةً لكم ، وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثًا مني ، وإنَّ رسول الله ﷺ خرج على حَلقَةٍ من أصحابه ، فقال : « ما أجْلَسَكُم ؟ » قالوا : جَلَسْنَا نذكر الله تعالى ، ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومَنّ به علينا . قال : « آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ » قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال : « أما إني لم أستحلفكم تهمةً لكم ؛ ولكن أتاني جبريل ، فأخبرني أن الله - تبارك وتعالى - يُباهي بكم الملائكةَ » .

فهذه المباهاة من الربِّ - تبارك وتعالى - دليلٌ على شرف الذكر عنده ومحبته له ، وأن له مزيةً على غيره من الأعمال .

يا هذا ، إن مدمنَ الذكر يدخل الجنة وهو يضحك . فللَّه درُّها من منزلةٍ .

---

(١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن غريب ، وهو حديث حسنٌ بشواهده .

والذاكرون ، كما جاء في الحديث : « هم الجلساءُ لا يشقى بهم جليسُهم »؛ مِن بركتِهم على نفوسهم ، وعلى جليسهم .

فمجالس الذكر مجالسُ الملائكةِ ، ومجالس الغفلة مجالسُ الشياطين ، وكلٌّ مضافٌ إلى شكله وأشباهه ، وكلُّ امرئ يصيرُ إلى ما يناسبُه .

والذكر يُوجب صلاة الله عز وجل على الذاكر ، وَمَن صلَّى الله - تعالى - عليه وملائكتُه ، فقد أفلح كلَّ الفلاح ، وفاز كلَّ الفَوْز . فيا حسرة الغافل دنيء الهمة عن ربه ، ماذا حرم من خيْره وفضله !

والذكر يورث ذكر الله تعالى للذَّاكر ؛ قال تعالى : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٥٢] ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدَها ، لكفى بها فضلًا وشرفًا .

يقول يحيى بن معاذ الرازي : « يا غَفولُ ، يا جهول ، لو سمعتَ صَرِيرَ الأقلامِ في اللَّوْح المحفوظ ، وهي تكتب اسمَك عند ذكرك لمولاك لَمُتَّ شوقًا إلى مولاك » .

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ ، قال : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه ، مثلُ الحيِّ والميِّت » .

عالي الهمّة سبّاق إلى الذكر :

في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يسيرُ في طريقِ مكةَ ، فمرّ على جبلٍ يُقال له : جُمْدان ، فقال : « سيروا ، هذا جُمْدان ، سبق المُفرِّدون » قيل : وما المفرِّدون يا رسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات » .

وعن معاذ بن جبل ، قال : سألت رسول الله ﷺ : أيُّ الأعمالِ أحبّ إلى الله عز وجلّ ؟ قال : « أن تموت ولسانك رطبٌ من ذكر الله

عز وجل »[١].

وعالي الهمة يضعُ نصبَ عَينيه أن العطاءَ والفضلَ الذي رُتِّبَ على الذكر لم يُرَتَّبْ على غيره من الأعمال :

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قال : لا إلـٰه إلا الله وحدَه لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير ، في يوم مائة مرةٍ،كانت له عَدْلَ عشْرِ رقابٍ ، وكُتبتْ له مـائةُ حسنةٍ ، ومُحِيَتْ عنـه مائةُ سَيِّئَةٍ ، وكانتْ له حِرزًا من الشَّيْطان يومَهُ ذلك ، حتَّى يُمسي ، ولمْ يأتِ أحدٌ بأفضلَ مِمَّا جاء به ، إلَّا رجلٌ عَمِلَ أكثرَ منه . ومن قال : سبحان الله وبحمده،في يوم مائة مرة حُطّتْ عنه خطاياه وإن كانت مثلَ زبد البحر » .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَأَن أقولَ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر أحبُّ إليّ مما طلعتْ عليه الشمسُ » . رواه مسلم . وحديث السوق[٢] وعظم أجره .

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أدلُّكَ على ما هو أكثرُ من ذكرِكَ اللهَ الليلَ مع النهارِ ؟ تقول : الحمد لله عدد ما خلق ، الحمد لله ملءَ ما خلق ، الحمد لله عدد ما في السمٰوات وما في الأرض ، الحمد لله عدد ما أحصىٰ كتابُه ، والحمد لله على ما أحصى كتابُه ، والحمد لله عدد كلِّ شيء ، والحمد لله ملءَ كلِّ شيءٍ ، وتسبِّح الله

---

(١) حسن : أخرجه ابن حبان والبزار .
(٢) صحَّحه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وصحَّحه البوصيري ، وحسّنه الحافظ .

مثلَهن ، تعلَّمْهن ، وعلِّمْهُن عقِبَك مِنْ بَعْدِك »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « أيُعجزُ أحدكم أنْ يكسب كلَّ يوم ألفَ حسنةٍ ؟ يسبح الله مائة تسبيحة ، فيكتب اللهُ له بها ألفَ حسنةٍ ، ويحطُّ عنه بها ألف خطيئةٍ »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « لا يذكرني عبدٌ في نفسه إلا ذكرتُه في ملأ من ملائكتي ، ولا يذكرني في ملأ ، إلا ذكرتُه في الرفيق الأعلى »[٣].

وقال ﷺ : « ليس أحدٌ أفضلَ عند الله من مؤمن يعمّر في الإسلام لتكبيره ، وتحميده ، وتسبيحه ، وتهليله »[٤].

وقال ﷺ : « ما عَمِلَ ابنُ آدم عملًا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله »[٥].

وقال ﷺ : « لا يجلس قومٌ مجلسًا لا يصلون فيه على رسول الله ﷺ ، إلا كان عليهم حسرة ، وإن دخلوا الجنة ؛ لما يَرَوْنَ من الثواب »[٦].

وقال : « ما من ساعة تمرُّ بابن آدم لم يذكر الله فيها ، إلا حسر عليها يوم ....

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦١٥ .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي عَن سعد .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن معاذ بن أنس وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٣٣٥) .

(٤) صحيح : رواه أحمد عن طلحة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٣٧١).

(٥) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن معاذ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٦٤٤) .

(٦) صحيح : رواه النسائي عن أبي سعيد ، وأحمد وابن حبان والحاكم والخطيب عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٦٢٤) .

القيامة »[١].

وقال ﷺ : « إن أفضل عباد الله يوم القيامة الحمّادون » .

وقال ﷺ : « أحبُّ الكلام إلى الله تعالى أربعٌ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر ، ولا يضرُّك بأيِّهن بدأت »[٢].

وقال ﷺ : « أحب الكلام إلى الله أن يقول العبد : سبحان الله وبحمده »[٣].

وقال ﷺ : « أحب الكلام إلى الله تعالى ، ما اصطفاه الله لملائكته : سبحان ربي وبحمده ، سبحان ربي وبحمده ، سبحان ربي وبحمده »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « أفضل الذكر : لا إلـٰه إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله »[٥].

وقال ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمـٰن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[٦].

وقال رسول الله ﷺ : « لقد قلتُ بعدَكِ أربعَ كلمات ، ثلاثَ مراتٍ ، لو وُزِنَتْ بما قلتِ – منذ اليوم – لوزنتهنَّ : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »[٧].

---

(١) صحيح : رواه الطبراني عن عمران بن حصين ، الصحيحة (١٥٨٤) . وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٧١) .

(٢) صحيح : رواه مسلم وأحمد عن سمرة بن جندب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٧٣) .

(٣) صحيح : رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي ذر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٧٤) .

(٤) صحيح : رواه الترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب عن أبي ذر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٧٥) .

(٥) حسن : رواه الترمذي والنسائي وابن حبان وابن ماجه والحاكم عن جابر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١١٠٤) .

(٦) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه .

(٧) رواه مسلم عن جويرية .

يقول ابن القيم : الذكر نوعان :

الأول : ذكر أسماء الرب - تبارك وتعالى - وصفاتِه ، والثناء عليه بهما ، وتنزيهُه وتقديسه عمّا لا يليق به تبارك وتعالى .

وهذا أيضًا نوعان :

أحدهما : إنشاءُ الثناء عليه بها من الذاكر ، وهذا النوع هو المذكور في الأحاديث ؛ نحو : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر » و« سبحان الله وبحمده » ، و« لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيءٍ قدير » ... ونحو ذلك . فأفضل هذا النوع : أجمعه للثناء وأعمُّه ، نحو : « سبحان الله عدد خلقه » فهذا أفضل من مجرد « سبحان الله » .

ثانيهما : الخبر عن الربّ - تعالى - بأحكام أسمائه وصفاته ، نحو قولك : الله عز وجل يسمع أصوات عباده ، ويرىٰ حركاتِهم ، ولا تخفىٰ عليه خافية من أعمالهم ، وهو أرحم بهم من آبائهم .

وأفضل هذا النوع : الثناء عليه بما أثنى به على نفسه ، وبما أثنى به عليه رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل .

وهذا النوع أيضًا ثلاثة أنواع : حمدٌ ، وثناءٌ ، ومجدٌ .

فالحمد لله : الإخبار عنه بصفات كماله - سبحانه وتعالى - مع محبته والرضا به ، فلا يكون المحبُّ الساكت حامدًا ، ولا المُثْني بلا محبةٍ حامدًا ، حتى تجتمع له المحبة والثناء ، فإن كرر المحامدَ شيئًا بعد شيءٍ ، كانت ثناءً ، فإن كان المدْح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجدًا .

وقد جمع الله - تعالى - لعبده الأنواع الثلاثة في أول الفاتحة : « فإذا قال العبد : ﴿ **الحمد لله ربِّ العالمين** ﴾ ؛ قال الله : حمدني عبدي ، وإذا

قال : ﴿ **الرحمٰن الرحيم** ﴾ قال : أثنى عليّ عبدي ، وإذا قال : ﴿ **مالكِ يوْمِ الدِّين** ﴾ قال : مجّدَني عبدي »(١) .

والثاني : ذِكْر أمْره ونهيه وأحكامه .

وهو أيضًا نوعان :

أحدهما : ذِكْره بذلك إخبارًا عنه بأنه أمر بكذا ، ونهٰى عن كذا ، وأَحبَّ كذا ، وسخِط كذا ورضي كذا .

والثاني : ذكْره عند أمْره فيُبادر إليه ، وعند نهيه فيهرب منه ، فذكْر أمْره ونهيه شيء ، وذكْره عند أمْره ونهيه شيء آخر .

فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر ، فذكره أفضل الذكر ، وأجلّه وأعظمه .

قال ابن القيم : فهذا الذكر - من الفقه الأكبر وما دونه - أفضل الذكر ، إذا صحّت فيه النية .

ومن ذكره سبحانه : ذكره بآلائه ، وإنعامه ، وإحسانه ، وأياديه ، ومواقع فضله على عبيده ، وهو أيضًا من أجلّ أنواع الذكر .

قال ابن القيم في « الوابل الصيب » : « فهـذه خمسة أنواع : وهي تكون بالقلب واللسان تارة ، وذلك أفضل الذكر . وبالقلب وحده تارة ، وهي الدرجة الثانية ، وباللسان وحده تارة ، وهي الدرجة الثالثة .

فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان ، وإنما كان ذكْر القلب وحده أفضلَ من ذكر اللسان وحده ؛ لأن ذكر القلب يُثمر المعرفة ، ويهيّج المحبة ، ويُثير الحياء ، ويبعث على المخافة ، ويدعو إلى المراقبة ، ويَزَعُ عن

---

(١) صحيح مسلم .

التقصير في الطاعات ، والتهاون في المعاصي والسَّيئات ، وَذِكْر اللسان وحده لا يوجب شيئًا من هذه الآثار ، وإن أثمر شيئًا منها ، فثمرة ضعيفة » .

يقول ابن القيم في « الوابل الصيب » (١٦١ - ١٦٣) : « قراءة القرآن أفضل من الذكر ، والذكر أفضل من الدعاء ، هذا من حيث النظر لكلٍّ منهما مجردًا . وقد يَعْرِض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل ، بل يُعَيِّنه ، فلا يجوز أن يَعْدِل عنه إلى الفاضل ، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود ؛ فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما ، بل القراءة فيهما منهيّ عنها نَهْي تحريم أو كراهة ، وكذلك التسميع والتحميد في محلِّهما أفضل من القراءة ، وكذلك التشهد ، وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة - ذكر التهليل والتسبيح ، والتكبير والتحميد - أفضلُ من الاشتغال عنه بالقراءة ، وكذلك إجابة المؤذِّن ، والقول كما يقول،أفضل من القراءة ، وإن كان فضْل القرآن على كلّ كلام كفضل الله تعالى على خلقه ، لكنْ لكلٍّ مقام مقالٌ ، متى فات مقاله فيه ، وعدل عنه إلى غيره ، اختلت الحكمة ، وفُقدت المصلحة المطلوبة منه .

وهكذا الأذكار المقيّدة بمحالّ مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة ، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة ، اللهمَّ إلَّا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفعَ له من قراءة القرآن .

مثاله : أن يتفكر في ذنوبه ، فيُحْدث ذلك له توبةً من استغفار ، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن ، فَيَعْدِل إلى الأذكار والدعوات التي تُحَصّنه وتحوطه . وكذلك أيضًا قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر ، لم يحضر قلبُه فيهما ، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء إليها ، اجتمع قلبه كله على الله تعالى ، وأحدث له تضرُّعًا وخشوعًا وابتهالًا ، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء،والحالة هذه

أنفع ، وإن كان كلٌّ من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجرًا . وهذا باب نافع يحتاج إلى فقهِ نفسِه ، وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه ، وبين فضيلته العارضة ، فيعطى كلّ ذي حق حقه ، ويوضع كلّ شيءٍ في موضعه .

وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يومًا : سُئل بعض أهل العلم : أيّما أنفع للعبد : التسبيح أو الاستغفار ؟ فقال : إذا كان الثوب نقيًّا ، فالبخور وماء الورد أنفع له ، وإن كان دَنِسًا ، فالصابون والماء الحارُّ أنفع له . فقال لي رحمه الله تعالى : فكيف والثياب لا تزال دَنِسَة ؟!

فهذا أصل نافع جدًّا ، يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منازلها ، لئلَّا يشتغل بمفضولها عن فاضلها ، فيربح إبليس الفضل الذي بينهما ، أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل به عن مفضولها ، وإن كان ذلك وقته ، فتفوته مصلحته بالكلية ؛ لظنّه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثوابًا وأعظم أجرًا . وهذا يحتاج إلى معرفةٍ بمراتب الأعمال وتفاوتها ومقاصدها ، وفقهٍ في إعطاءِ كلّ عمل منها حقَّه ، وتنزيله في مرتبته ، وتفويته لما هو أهمُّ منه ، أو تفويت ما هو أولى منه وأفضل ؛ لإمكان تدارُكه والعوْد إليه ، وهذا المفضول إن فات لا يمكـن تداركه ، فالاشتغال به أولى ، وهذا كترْك القراءة لردّ السلام ؛ وتشميت العاطس ، وإن كان القرآن أفضل ؛ لأنه يمكن الاشتغال بهذا المفضول والعوْد إلى الفاضل ، بخلاف ما إذا اشتغل بالقراءة ، فاتتْه مصلحة ردّ السلام وتشميت العاطس ، وهكذا سائر الأعمال إذا تزاحمت. والله الموفق ».ا هـ .

يقول ابنُ عطاء :

أرىٰ الذِّكْرَ أصْنافًا مِنَ الذِّكرِ حَشْوُهَا ... ودادٌ وشوقٌ يَبْعثانِ على الذِّكْرِ
فَذِكْرٌ أَلِيفُ النَّفْسِ مُمْتَزِجٌ بِهَا ... يحلُّ محلَّ الرُّوحِ في طَرِّهَا يَسْرِي
وَذِكْرٌ يُعَزِّي النَّفْسَ عنها لأنهُ ... لها مُتْلِفٌ مِنْ حيثُ تدري ولا تَدْرِي

وَذِكْرٌ عَلَا مِنِّي المَفَارِقَ والذُّرَا   يَجِلُّ عَنِ الإدراكِ بالوهْمِ والفِكْرِ
تَرَاهُ لِحَاظُ العَيْنِ بالقَلْبِ رُؤْيَةً   فيجْفُو عَلَيْهِ أنْ يُشَاهَدَ بالذِّكْرِ[(١)]

قال ذو النون : صحبت زنجيًّا ، وكان مُفلفلَ الشّعر ، فإذا ذكر الله ابيضّ ، فوَرَدَ عليَّ أمرٌ عظيم ، فقلت : لِمَ يا هذا ، أنك إذا ذكرت الله ، تحوّل لونُك وانقلبتْ عيناك ؟ فقال :

ذكَرْنَا وَمَا كُنَّا لِنَنْسَى فَنَذْكُرُ   وَلَكِنْ نَسِيمُ القُرْبِ يَبْدُو فَيَظْهَرُ
فَأَحْيَا بِهِ عَنِّي وأحْيَا بِهِ لَهُ   إذِ الحقُّ عنْهُ مُخْبِرٌ ومُعَبِّرٌ

قال ذو النون : فما طرق سمعي مثلُ حكمةِ ذلك الزّنجيّ ، فعلمت أن لله تعالى عبادًا تُعْلَى قلوبهم بالأذكار ، كما تُعْلَى الأطيارُ في الأوكار ، لو فتشت منهم القلوبَ ، لما وجدت فيها غير حبّ المحبوب . قال : ثم بكى ذو النّون وأنشأ يقول :

وأَذكُر أصنافًا منَ الذِّكرِ حشوُها   ودادٌ وشوقٌ يبعثانِ على الذِّكرِ[(٢)]

وقال ذو النون عن الذاكرين :

رجالٌ أطاعُوا اللهَ في السِّرِّ والجهرِ   فما باشرُوا اللذاتِ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ
أُناسٌ عليهم رحمةُ الله أُنزلتْ   فظلُّوا سُكُونًا في الكهوفِ وفي القفرِ
يراعُون نَجْمَ اللَّيل مَا يرقدونَهُ   فباتُوا بإدمانِ التهجُّدِ والصَّبْرِ
فداخل هموم القَوْمِ للخلقِ وحْشَةٌ   فصاحَ بهم أُنْسُ الجليلِ إلى الذِّكْرِ
فأجسادُهم في الأرض هَوْنًا مُقيمةٌ   وأرواحُهم تَسْري إلى مَعدِن الفَخْرِ
فهذا نعيمُ القوم إن كنتَ تَبتغِي   وتعقِلُ عن مولاكَ آدابَ ذَوِي القَدْرِ[(٣)]

---

(١) التعرُّف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر الكلاباذي صـ ٧٦ مطبعة السعادة .
(٢) الحلية ٩ / ٣٩١ .
(٣) الحلية ٩ / ٣٨٦ .

يقول ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢ / ٤٣٣) : « وذِكْر العبد لربه محفوف بذكرَيْن من ربه له : ذكرٌ قبله ، به صار العبد ذاكرًا له ، وذكر بعدَه ، به صار العبد مذكورًا ، كما قال تعالى : ﴿ **فَاذكروني أذكرْكم** ﴾ ، والذكر الذي ذكره الله به بعد ذكره له : نوع غير الذكر الذي ذكره به قبل ذكره له ، ومن كثُف فهمُه عن هذا فليجاوزْه إلى غيره ، فقد قيل :

إذا لم تستطِعْ شيئًا فَدَعْـهُ وجـاوزْه إلى مـا تستطـيع

وَمِنْ علوّ الهمة في الذكر : « البقاءُ في الذكر ، فهو أكمل منَ الفناء فيه والغيبة به . والبقاء في الذكر الدّرب الأعظم ، والطريق الأقوم ؛ لما في البقاء من التفصيل والمعارف ، وشهود الحقائق على ما هي عليه ، والتمييز بين الرب والعبد ، وما قام بالعبد ، وما قام بالرب تعالى ، وشهود العبودية والمعبود ، وليس في الفناء شيء من ذلك .

والفناء كاسمه « الفناء » ، والبقاء « بقاء » كاسمه ، والفناء مطلوب لغيره ، والبقاء مطلوب لنفسه . والفناء وصف العبد ، والبقاء وصف الرب ، والفناء عدمٌ ، والبقاء وجودٌ ، والفناء نفيٌ ، والبقاء إثبات . والسلوك على دَرْبِ الفناء فخطر ، وكم به من مفازة ومهلكة ! والسلوك على درب البقاء آمن ؛ فإنه درب عليه الأعلام والهداة والخفراء ، ولكنّ أصحاب الفناء يزعمون أنه طويل ، ولا يشكُّون في سلامته ، وإيصاله إلى المطلوب ، ولكنَّهم يزعمون أنَّ درب الفناء أقرب وراكبه طائر ، وراكب درب البقاء سائر »[1] .

ومـن علو الهمـة في الذكر : « الخَلاص من القيود ، والبقاء مع الشّهود ، ولزوم المسامرة .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٤٣٧ .

أمّا الخلاص من القيود : فهو التخلّص من الغفلة والنسيان ، والحُجُب الحائلة بين القلب وبين الرب سبحانه .

والبقاء مع الشهود : ملازمة الحضور مع المذكور ، ومشاهدة القلب له ، حتّى كأنه يراه .

ولزوم المسامرة : هي لزوم مناجاة القلب لربه ؛ تملُّقًا تارة ، وتضرُّعًا تارة ، وثناءً تارة ، واستعظامًا تارة ، وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسِّر والقلب . وهذا شأن كلِّ محبٍ وحبيبه . كما قيل :

إذا ما خَلَوْنَا والرّقيبُ بمجلسٍ فنحنُ سُكوتٌ والهَوىٰ يتكلَّمُ »[1]

« والذكر الظاهر الجاري على اللسان ، المطابق للقلب : إما ثناء ، أو دعاء ، أو رعاية .

وذكر الرعاية : فمثل قول الذّاكر : الله معي . الله ناظرٌ إلّي . الله شاهدي ، ونحو ذلك مما يُستعمل لتقوية الحضور مع الله ، وفيه رعاية لمصلحة القلب ، ولحفظ الأدب مع الله ، والتحرُّز من الغفلة ، والاعتصام من الشيْطان والنفس .

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة ، فإنها متضمِّنة للثناء على الله ، والتعرض للدعاء والسؤال ، والتصريح به ، كما في الحديث : « أفضل الدعاء الحمد لله ».قيل لسفيانَ بن عيينة : كيف جعلها دعاء ؟ قال : أمَا سمعت قول أميَّة بن الصلت لعبد الله بن جُدعان ، يرجو نائلَه :

أأذكرُ حَاجتي أمْ قد كَفاني حياؤُك إنّ شيمتَكَ الحياءُ
إذا أثنىٰ عليكَ المرءُ يومًا كفاه مِنْ تعرُّضِهِ الثَّناءُ

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٤٣٥ .

فهذا مخلوق واكتفى من مخلوقٍ بالثناء عليه من سؤاله ، فكيف برب العالمين ؟!

والأذكار النبوية متضمنة لكمال الرعاية ، ومصلحة القلب ، والتحرُّز من الغفلات ، والاعتصام من الوساوس والشيطان . والله أعلم »(١) .

﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم** ﴾ :

« ليس العجب من قوله : ﴿ **فاذكروني** ﴾ إنما العجب من قوله : ﴿ **أذكركم** ﴾ .

يا هذا ، حفْرُ النهر إليك ، وإجراءُ الماء ليس عليك ، احضرْ ساقية ﴿ **فاذكروني** ﴾ إلى جنب بحر ﴿ **أذكركم** ﴾ ، فإذا بالغ فيها مِعْولُ الكدّ ، فاضتْ عليك مياهُ البحر « فبي يسمع ، وبي يُبصر » ، ألقِ بذر الفكر في أرض الخلْوة ، واسْقِ إليه ساقيةً من ماء الفكْر ، لعلَّها تُنبت لك شجرة « أنا جليسُ مَنْ ذكرني » .

﴿ **فاذكروني** ﴾ بالتذلُّل ﴿ **أذكركم** ﴾ بالتفضُّل .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بالانكسار ﴿ **أذكركم** ﴾ بالمبارِّ .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بتصفية السرِّ ﴿ **أذكركم** ﴾ بتوفية البرِّ .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بالرهْبة ﴿ **أذكركم** ﴾ بتحقيق الرغْبة .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بالتنصُّل ﴿ **أذكركم** ﴾ بالتفضُّل .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بصفاء السر ﴿ **أذكركم** ﴾ بخالص البرّ .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بالتعظيم ﴿ **أذكركم** ﴾ بالتكريم .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بترْك الخطاء ﴿ **أذكركم** ﴾ بأنواع العطاء .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٤٣٤ - ٤٣٥ .

هذا ذِكْره في دار الشقاء ... فكيف عند اللقاء .

هذا في دار المحنة ... فكيف في دار النعمة .

هذا وأنت على الباب ... فكيف إذا كُشف الحجاب ..؟! » .

وملأْتُ كلِّي منك حتى لم أدعْ مـني مكـانًا خالـيًا لســواكا
والقلـب فيك هيامُـهُ وغرامُـهُ والرُّوح لا تنفكُّ عنْ ذكْراكا

فيا ركائبَ الأرْواح ، جدِّي في طلب هذه المنازل .

ويا نجائبَ القلوب ، أسرعي إلى نَيْل هذه الدرجات .

وكان أبو مسلم الخولاني كثيرَ الذكر ، فرآه بعضُ الناس فأنكر حاله ، فقال لأصحابه : أمجنون صاحبُكم ؟! فسمعهُ أبو مسلمٍ ، فقال : لا يا أخي ، ولكن هذا دواء الجنون .

عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون »[1] .

وَقَدْ شرطتُ على قَوْمٍ صَحِبْتُهُمُ بأن قلْبي لكم منْ دونهمْ غرَض
ومِنْ حديثي بكمْ قالوا بِهِ مرضٌ فَقُلْتُ لَا أَذْهَبَ اللهُ عَني ذلك المرض

أمر الحجَّاج بصلب ماهان العابد ، فرُفع على خشبةٍ وهو يسبِّح ويهلِّل ويعقد بيده ، حتى بلغ تسعًا وعشرين ؛ فبقي شهرًا بعد موْته ويده

(١) رواه أحمد ، وأبو يعلى ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي ، وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٨٥) : رَمَزَ المصنِّفُ لصحته ، وهو فيه تابعٌ لتصحيح الحاكم له ، وقد اقتصر الحافظ ابن حجر في أماليه على كونه حسنًا ، وقال الهيثمي : فيه « دراج » ضعَّفه جمعٌ ، وبقية رجال أحدِ إسنادَيْ أحمد ثقات . وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة وضعيف الجامع الصغير .

على ذلك العقد مضمومة .

لَتُحْشَرَنَّ عظامي بعد ما بلِيَتْ ... يوم الحساب وفيها حبُّكُمْ عَلِقُ

وكان خالد بن معدان يسبِّح كلَّ يوم أربعين ألفِ تسبيحة ، سوى ما يقرأ من القرآن ، فلما مات وُضع على سريره ليغسَّل ، فجعل يشير بأصبعه يحركها بالتسبيح[(١)] .

وقال عبد العزيز بن أبي رواد : كانت عندنا امرأة بمكة تسبح كلَّ يوم اثنتي عشرة ألفِ تسبيحةٍ فماتت ، فلما بلغت القبرَ اختُلستْ من أيدي الرجال[(٢)] .

* * *

---

(١) لهذه القصة إسناد منقطع في سير أعلام النبلاء (٤ / ٥٤٠) ، وهي في الحلية (٥ / ٢١٠) وابن عساكر (٥ / ٢٦٠) بطريقٍ أخرى .

(٢) جامع العلوم والحكم ٤١٧ .

الفصْـلُ الثَّانِـي

عُلُوّ الهِمَّة
في
الأمْر بالمعروفِ والنَّهْي
عن المُنْكَر

□ عُلُوّ الهِمَّة في الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنْكَر □

« إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القُطب الأعظم في الدين ، وهو المُهمّ الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوي بساطه وأُهمل عمله ، لتعطَّلتِ النبوة واضمحلَّتِ الدِّيانة ، وعمَّتِ الفَتْرة وفَشَتِ الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتَّسع الخَرْق ، وخربت البلاد وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلَّا يوم التَّناد ، وقد كان الذي خِفْنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القُطب عَمَلُه وعِلمُه ، وانْمَحَقَ بالكليّة حقيقتُه ورَسْمُه ، فاستولت على القلوب مُداهنةُ الخلْق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتِّباع الهوى والشهواتِ استرسالَ البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومةُ لائِم ، فمن سعي في تلافي هذه الفترة وسَدِّ هذه الثُّلْمَة ؛ إمَّا متكفِّلًا بعملها ، أو متقلّدًا لتنفيذها ، مجدِّدًا لهذه السُّنَّة الدَّاثِرة ، ناهِضًا بأعبائها ، ومتشمِّرًا في إحيائها – كان مُستأثرًا من بين الخلق بإحياء سُنَّةٍ أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدًّا بقُربةٍ تتضاءل درجات القُرب دون ذروتها »[1] .

قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

أُمَّةٌ تُخرج إخراجًا من الغيب من وراء الستار السرمدي ، الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله ، تخرج إلى الوجود ، أمة ذات دور خاص ، لها مقام خاص ، ولها حساب خاص .

---

(١) الإحياء ٢/٣٣٣ .

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة ، لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف أنها أُخرجتْ لتكون طليعةً ، ولتكون لها القيادة ، بما أنها هي خير أمة ينبغي دائمًا أن تُعطي هذه الأُمم مما لديها ، وأن يكون لديها دائمًا ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح ، والتَّصوُّر الصحيح ، والنظام الصحيح ، والخُلق الصحيح ، والمعرفة الصحيحة ، والعلم الصحيح .. هذا واجبها الذي يحتِّمه عليها مكانُها ، وتحتِّمه عليها غايةُ وجودها . واجبها أن تكون في الطليعة دائمًا ، وفي مركز القيادة دائمًا . ولهذا المركز تَبعاته .

وفي أول مقتضيات هذا المكان ، أن تقوم على صيانة الحياة من الشَّرِّ والفساد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحريض على الخير ، وصيانة المجتمع من عوامل الفساد ، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، ومواجهة طواغيت الشَّرّ في عنفوانهم وجبروتهم .

الدُّعاةُ إلى الخير الآمرون بالمعروف النّاهـون عن المنكر يُواجهون الشَّرَّ في عنفوانه ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عَرَامتها وشِدَّتها ، ويواجهون هبوط الأرواح ، وكَلَلَ العزائم ، وثقلة المطامع ، وزادُهم هو الإيمان بالله ، وسَنَدُهم هو الله ، وكلّ زاد سوى زاد الإيمان يَنْفَد ، وكل عدّةٍ سوى عدة الإيمان تُفَلّ ، وكل سَنَدٍ غير سند الله ينهار .

إن الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر عبودية ودينونة لله في أبْهَى صُوَرها .

إنه لا بد من عبودية ! فإن لا تكُن لله وحده ، تكُن لغير الله .. والعبودية لله وحده تُطلق الناس أحرارًا كرامًا شرفاء أعلياء .. والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الإنسان وكرامته وحريته وفضله .

إن الله سبحانه وَصَفَ الأُمة المسلمة بأن الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر صفتها ؛ ليدُلَّها على أنها لا تُوجد وجودًا حقيقيًّا إلا أنْ تتوافر فيها هذه السمة الأساسية ، التي تُعرف بها في المجتمع الإنساني ، وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ بيّن أنهم كانوا به خير أُمَّةٍ أُخرجت للناس .

وقال تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾. [آل عمران : ١٠٤] .

وبيَّن الملك عز وجل أن الفَلَاح مَنُوطٌ بالقائمين به المباشرين ، وإنْ تقاعَدَ عنه الخلْق أجمعون ، عمَّ الحَرَج كافَّةَ القادرين عليه لا محالة .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صيانةٌ للأمة من أن يعبث بها كلُّ ذي هوًى ، وكلّ ذي شهوةٍ ، وكلّ ذي مصلحة ، يقول برأْيِهِ وتصوُّرِهِ ، زاعِمًا أن هذا هو الخير والمعروف والصواب .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليفٌ ليس بالهيِّن ولا باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، ومصالح بعضهم ومنافعهم ، وغرور بعضهم وكبريائهم ، وفيهم الجبار الغاشم ، وفيهم الحاكم المتسلِّط ، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود ، وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد ، وفيهم المنحلّ الذي يكره الجِدّ ، وفيهم الظالم الذي يكره العدل ، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة ، وفيهم وفيهم ، ممن ينكرون المعروف ويعرفون المنكر ، ولا تُفلح الأمة ، ولا تُفلح البشرية ، إلَّا أن يسود الخير ، وإلا أن يكون المعروف معروفًا ، والمنكر منكرًا .

والمعروف الأكبر هو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة ، والعبودية له وحده .

والمنكر الأكبر هو الشرك ، ورفْض أُلُوهيَّة الله ، ورفض شريعته للحياة .

حينئذٍ تتحوَّل الحياة إلى مستنقعٍ آسن : حُكْم بغير شرع الله ، اقتصاد يقوم على الرِّبا ، مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمةً إلَّا في حالة الإكراه ، ولا يُعاقب حتى في حالة الإكراه بشريعة الله ، وخمور يُباح تداولُها ، ولا يُعاقب شاربُها إلَّا على حالة السُّكر البيِّن في الطريق العام ، وحتى هذه لا يعاقب فيها بحدِّ الله ، وشذوذ .... وسبّ لدين الله .

عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض : الله الله »(١).

قال ابن كثير في أحد قولَيْه : معناه أن أحدًا لا يُنكر منكرًا ، ولا يزجُر أحدًا إذا رآه قد تعاطى منكرًا ، وعبّر عن ذلك بقوله : « حتى لا يقال : الله ، الله » .

وفي حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطتَهُ من أهل الأرض ، فيبقى فيها عَجَاجَة لا يعرفون معروفًا ، ولا يُنكرون منكرًا »(٢).

وكما جاء في حديثْ البخاري ، لَمَّا قيل للنبي ﷺ : أنهلِك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثُر الخَبَثُ » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها ستأتي على الناس سنون خدَّاعة ، يُصدَّق فيها الكاذب ، ويُكذَّب فيها الصادق ، ويُؤتَمَن فيها الخائن ، ويُخَوَّن فيها الأمين ، وينطق فيها ......

---

(١) رواه مسلم .

(٢) إسناده صحيح . رواه أحمد في مسنده (١١/١٨١ - ١٨٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

شريطته : أي أهل الخير والدين ، والأشراط من الأضداد يقع على الأشراف والأراذل والعجاجة والعجاج : الأراذل ، ومن لا خير فيهم .

الرُّوَيْبِضَة »[١]. قيل : وما الرويبضة ؟ قال : « السَّفيه يتكلَّم في أمر العامَّة »[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « من أشراط الساعة ... أن يعلو التُّحوتُ الوعول » أكذلك يا عبد الله بن مسعود سمعتَهُ من حِبِّي ؟ قال : نعم ورب الكعبة . قلنا : وما التُّحوت ؟ قال : « فسول الرجال ، وأهل البيوت الغامضة ، يُرفعون فوق صالحيهم ، والوُعُول أهل البيوت الصالحة »[٣].

وقال تعالى : ﴿ **ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يُكفروه والله عليم بالمتقين** ﴾ [آل عمران : ١١٣ - ١١٥].

« صورة وضيئة تُرفع أمام الراغبين في هذه الشهادة ، وفي هذا الوعد ، ليحقّقها في ذات نفسه كلُّ من يشتاق إلى نورها الوضيء في أفقها المنير »[٤].

لم يشهد الله لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر ، حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون**

---

(١) الرُّوَيْبِضَة : تصغير الرَّابِضة ، وهو العاجز الذي رَبَضَ عن معالي الأمور ، وقعد عن طلبها ، والتّافه الخسيس الحقير .

(٢) إسناده جيد . رواه أحمد في مسنده ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٥/٣٧ - ٣٨) : إسناده حسن ومتنه صحيح . وقال ابن كثير في « النهاية في الفتن والملاحم » : هذا إسناد جيد ، ولم يخرجوه من هذا الوجه .

(٣) ذكره ابن حجر في الفتح (١٣/١٥) من رواية الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ، وقال الهيثمي : حديث أبي هريرة وحده في الصحيح بعضه ، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث وهو ثقة .

(٤) الظلال ١/٤٥٠ .

بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويُؤْتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ . [التوبة : ٧١] .

هذا نعت المؤمنين . والذي هَجَر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، خارِجٌ من هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية .

والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها ، إنما تكوْن في هذه الأرض ، رحمة الله في اطمئنان القلب ، وفي الاتِّصال بالله ، وفي الحماية من الفتن ، وصلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها .

والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر صفوة مختارة،باعوا نفوسهم لله .

﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلون وعدًا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشِّر المؤمنين ﴾** [التوبة : ١١١ - ١١٢] .

بيعة رهيبة وأجر عظيم ، وصفات جليلة تتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة ، وحفظ لحدود الله يردُّ عنها العادِين والمُضيِّعين ، ويصونها من التَّهجُّم والانتهاك .

وقال تعالى : ﴿ **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يَعْدُون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعًا ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يَفْسُقُون. وإذ قالت أُمَّةٌ منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو مُعذِّبهم عذابًا شديدًا قالوا معذرةً إلى ربكم ولعلَّهم يتقون. فلمَّا نسوا ما ذُكِّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون ﴾** [الأعراف : ١٦٣ - ١٦٥] .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب يُؤدَّى لله ؛ لنبلغ إلى الله عُذرنا ، ويعلم أن قدْ أدَّيْنا واجبنا ، ثم لعلَّ النُّصح يُؤثِّر في تلك القلوب العاصية ، فيثير فيها وجدان التقوى .

ولَمَّا لم يُجْدِ النصح ، ولم تنفع العظة ، وسَدِرَ السَّادِرُون في غَيِّهم ، حقَّت كلمة الله ، وتحقَّقتْ نُذُره ، فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نَجْوَة السوء ، وإذا الأُمَّة العاصية يحلّ بها العذاب الشديد ، وأمّا الأُمة الثالثة ، فقد سكت عنها النَّصّ .. ربما تهوينًا لشأنها - وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب - فاستحقَّتِ الإهمال ، وإن لم تستحقّ العذاب .

قال تعالى : ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾. [المائدة : ٧٨ - ٧٩] .

وطبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يُصبِحا عُرفًا مصطلحًا عليه ، أو أن يُصبحا أمْرًا سهلًا يجترىء عليه كل من يهمُّ به .

والقائمون بأمر الله ودينه ، عليهم أن يؤدّوا أمانتهم التي استُحْفِظوا عليها ، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء ، لا يخافون لومة لائم ، سواءٌ جاء هذا الشر من الحكَّام المتسلطِّين بالحكم ، أو الأغنياء المتسلِّطين بالمال ، أو الأشرار المتسلِّطين بالأذى ، أو الجماهير المتسلّطة بالهوى ، فمنهج الله هو منهج الله ، والخارجون عليه علوا أم سفلوا سواءٌ .

والإسلام يشدِّد في الوفاء بهذه الأمانة ، فيجعل عقوبة الجماعة عامَّة بما يقع فيها من شرٍّ ، إذا هي سكتتْ عليه ، ويجعل الأمانة في عنق كلِّ فردٍ ، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة .

وفي الآية غاية التَّشدُّد ، إذ علَّل استحقاقهم للعنةِ بتَرْكِهم النهي عن المنكر .

وقال تعالى : ﴿ **لولا ينهاهم الرَّبّانيُّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السُّحت لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ [المائدة : ٦٣] .

وهذا صوت النذير لكل أهلِّ دين .

قال رسول الله ﷺ : « أكثر منافقي أُمَّتي قُرَّاؤها »(١) .

وقال ﷺ : « غيرُ الدَّجّال أخوَفُ على أُمّتي من الدَّجّال ، الأئمة المُضِلُّون »(٢) .

قال تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذين حُمِّلُوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارًا بئس مَثَلُ القوم الذين كذَّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ [الجمعة : ٥] .

وهذه صورة زريّة بائسة ، ومَثَلٌ سيىء شائِنٌ لكل الذين حُمِّلوا أمانة العلم والعقيدة ، ثم لم يحملوها ويصدعوا بها .

يقول مصطفى صادق الرافعي في « وحي القلم » (٣/٥٨ - ٦٦) تحت عنوان « أمراء للبيع » : « إننا نفوس لا ألفاظ ، والكلمة من قائلها هي بمعناها في نَفْسِه ، لا بمعناها في نفْسِها ، فما يحسُن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يردُّه الشرعُ عليه ، ولو نافق الدينُ ، لبَطَل أن يكون دينًا ، لو نافق العالِم الدينيُّ ، لكان كلّ منافقٍ أشرف منه ، فلَطْخَةٌ في الثوب الأبيض ليست كلَطْخةٍ في الثوب الأسود ، والمنافق رجل مُغَطّى في حياته ، لكن عالم الدين

---

(١) صحيح . رواه أحمد والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، وأحمد والطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر ، والطبراني في الكبير وابن عدي عن عصمة بن مالك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٢٠٣) والسلسلة الصحيحة رقم (٧٥٠) .

(٢) صحيح . رواه أحمد عن أبي ذر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٩٨٩) وصحيح الجامع رقم (٤١٦٥) .

رجل مكشوف في حياته لا مغطّى ، فهو للهداية لا للتلبيس ، وفيه معاني النور لا معاني الظلمة ، وذاك يتصل بالدِّين من ناحية العمل ، فإذا نافق ، فقد كَذَبَ ، والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التَّبْيين ، فإذا نافق ، فقد كذبَ وغشَّ وخانَ .

وما معنى العلماء بالشرع إلَّا أنهم امتدادٌ لعمل النبوة في الناس دهرًا بعد دهر ، ينطقون بكلمتها ، ويقومون بحجَّتها ، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النُّور ، تحويه في نفسها ، وتُلقيه على غيرها ، فهي أداةٌ لإظهاره وإظهار جماله معًا .

أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء ، وكلّهم آخِذٌ من نُورٍ واحدٍ لا يختلف ؟!

أولئك في أخلاقهم كاللَّوح من البَلُّور ، يُظهر النُّور نَفْسَه فيه ، ويُظهر حقيقته البَلُّورية ، وهؤلاء بأخلاقهم كاللّوح من الخشب ، يُظهر النُّور حقيقتهُ الخشبيَّة لا غير !

وعالم السوء يفكّر في كتب الشريعة وحدها ، فيسهُل عليه أن يتأوَّل ويحتال ، ويغيِّر ويُبدِّل ، ويُظهر ويُخفي ، ولكن العالم الحقّ يفكّر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة ، فهو معه في كل حالةٍ ؛ يسأله : ماذا تفعل ؟ وماذا تقول ؟

والرجل الدِّينّي لا تتحوّل أخلاقُه ، ولا تتفاوت ، ولا يجيء كل يوم من حوادث اليوم ، فهي بأخلاقه كلها ، لا يكون مرّة ببعضها ومرة ببعضها ، ولن تراه مع ذوي السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا ؛ الذي لو نطقتْ أفعالُه لقالت لله بلسانه : هم يُعطوني الدراهم والدنانير ، فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟!

إن الدينار يا ولدي إذا كان صحيحًا في أحد وجهيْه دون الآخر ،

أو في بعضه دون بعضٍ ، فهو زائفٌ كلّه .

وأهل الحُكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء ، يتعاملون مع قوَّة الهضم فيهم ، فينزلون بذلك منزلة البهائم ، تقدِّم أعمالها لتأخذ بطونها ، والبطن الآكِل في العالِم السّوء ، يأكُل دِين العالم فيما يأكله .

فإذا رأيت لعالم السوء وقارًا ، فهو البلادة ، أو سكوتًا عن الظلم ؛ فتلك رشوةٌ يأكلون بها .

وقال تعالى : ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقيَّةٍ ينهون عن الفساد في الأرض إلَّا قليلًا ممَّن أنجينا منهم واتَّبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين** ﴾. [هود : ١١٦] .

سُنّة من سنن الله في الأمم ؛ الأمم التي يظلم فيها الظالمون ، ويفسد فيها المفسدون ، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد ، فإن سنة الله تحقّ عليها ؛ إمَّا باستئصال أو انحلال واختلال . فالآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هم صمام الأمان للأمم والشعوب ، وهم يحُولون دون أُممهم وغضب الله ، واستحقاق النَّكال والضياع .

وقال تعالى : ﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلّا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا** ﴾. [النساء : ١١٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ الآية [المائدة : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ **الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾. [الحج: ٤١].

لا يُبقون على منكرٍ وهم قادرون على تغييره ، ولا يقعدون عن معروفٍ وهم قادرون على تحقيقه .

قال رسول الله ﷺ : « إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وإن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة »(١) .

وقال رسول الله ﷺ : « أحبُّ الأعمال إلى الله إيمانٌ بالله ، ثم صلة الرَّحِـم ، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأبغض الأعمال إلى الله الإشراك بالله ثم قطيعة الرحم »(٢) .

وقال ﷺ : « إن من أُمَّتي قومًا يُعطوْن مثل أجور أوَّلهم ، يُنكرون المنكر »(٣) .

وقال ﷺ : « إن الدَّالّ على الخير كفاعله »(٤) .

وقال رسول الله ﷺ : « دليل الخير كفاعله »(٥) .

وقال ﷺ : « من استنّ خيرًا ، فاستُنّ به ، كان له أجره كاملًا ، ومن أُجور من استنَّ به ، ولا ينتقص من أُجورهم شيئًا ، ومن استنّ سُنَّةً سيئةً فاستنّ به ، فعليه وِزْرُه كـاملًا ، ومن أوزار الذين استنّوا به ، ولا ينتقص من أوزارهم شيئًا »(٦) .

وقال ﷺ : « إذا عُملت الخطيئة في الأرض ، كان من شهدها فكرِهَها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرَضِيَها كان كمن شهدها »(٧) .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن سلمان وقبيصة وابن عباس ، ورواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٣١) .

(٢) حسن : رواه أبو يعلى في مسنده عن رجل من خثعم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٦٦) .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن رجلٍ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٢٢٤) .

(٤) صحيح: رواه الترمذي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٦٠٥).

(٥) حسن : رواه ابن النجار عن علي ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٩٠).

(٦) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٤٠) .

(٧) حسن : رواه أبو داود عن العرس بن عميرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٨٩) .

وقال ﷺ : « إن الناس إذا رَأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه ، أَوْشَكَ أن يعُمَّهم الله بعقابٍ منه »[١].

وقال ﷺ : « إن الناس إذا رأوا المنكر ، ولا يُغيِّرونه ، أوشك أن يعُمَّهم الله بعقابه »[٢] .

وقال ﷺ : « ما من قوم ٍ يُعمل فيهم بالمعاصي ، هم أعزُّ وأكثر ممَّن يعمله ، ثم لم يُغيِّروه ، إلَّا عمَّهم الله تعالى منه بعقابٍ »[٣].

وقال ﷺ : « ما من نبيٍّ بعثه الله في أُمّةٍ قبلي ، إلَّا كان له من أُمَّته حواريُّون وأصحاب يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوفٌ ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يُؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خردل »[٤].

وقال ﷺ : « فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره ، يُكفِّرها الصيام ، والصلاة ، والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[٥].

وقال ﷺ : « من رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[٦] .

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ، ولتنهونَّ عن

---

(١) صحيح : رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي بكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٧٣) .

(٢) صحيح : رواه أحمد عن أبي بكر ، ورواه الطحاوي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٧٤) .

(٣) صحيح : رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان عن جرير ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٧٤٩) .

(٤) رواه أحمد ومسلم عن ابن مسعود .

(٥) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن حذيفة .

(٦) رواه أحمد ومسلم والنسائي والترمذي وأبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد .

المنكر ، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ، ثم لتدْعُنَّه فلا يستجيب لكم »[١].

وقال ﷺ : « والله لأن يُهدى بهداك واحدٌ ، خيرٌ لك من حمر النَّعَم »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ القائم على حدود الله ، والمُدهِن فيها ، كمثل قومٍ استهموا على سفينةٍ في البحر ، فأصاب بعضُهم أعلاها ، وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَنْ فوقهم ، فقال الذين في أعلاها : لا نَدَعكم تصعدون فتؤذونا ، فقالوا : لو أنَّا خرقْنا في نصيبنا خرقًا ولم نُؤْذِ مَن فوقنا . فإن يتركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم ، نجوْا جميعًا »[٣].

وهناك أمثلة وضيئة شفّافة في علوّ الهمَّة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ودفعِ الشُّبَهِ الباطلة وتبيين الحق للناس ، لسادةٍ من سادات سلفنا ، تبقى مدى الأيام ناصعةً منيرة بيضاء ، تهدي الحائرين وتشدّ أزر العاملين .

الإمام القُدوة ، أبو الوليد عُبادَة بن الصَّامِت الخَزْرجي ، رضي الله عنه :

أحد النُّقباء ليلة العقبة ، ومن أعيان البدريين .

عن قبيصة بن ذؤيب ، أن عبادة أنكر على معاوية شيئًا ، فقال : لا أُساكنك بأرضٍ ، فرحل إلى المدينة ، قال له عمر : ما أقْدَمَك ؟ فأخبره بفعل معاوية ، فقال له : ارحل إلى مكانك ، فقبَّح الله أرضًا لستَ فيها وأمثالك ، فلا إمْرَةَ له عليك[٤].

---

(١) حسن : رواه أحمد والترمذي عن حذيفة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٠٧٠) .

(٢) صحيح : رواه أبو داود عن سهل بن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٠٩٤) .

(٣) رواه أحمد والبخاري والترمذي عن النعمان بن بشير .

(٤) رجاله ثقات . رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/٧ .

عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ[١] على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمَنْشَط والمَكْرَه ، وأن لا نُنازع الأمر أهله ، وأن نقول، أو نقوم بالحق حيث كُنّا ، لا نخاف في الله لومة لائم . وثمة بيعة أخرى[٢] .

وعن عبيد بن رفاعة : أن عبادة بن الصامت مرّت عليه قِطَارَة[٣] وهو بالشام تحمل الخمر ، فقال : ما هذه ، أزيتٌ ؟ قيل : لا ، بل خمر يُباع لفلان . فأخذ شفرةً من السوق ، فقام إليها ، فلم يذرْه فيها راوية إلا بَقَرَها .. وأبو هريرة إذ ذاك بالشام - فأرسل فلانٌ إلى أبي هريرة ، فقال : ألا تُمسك عنَّا أخاك عبادة ؛ أمَّا بالغَدَوَات ، فيغدوا إلى السوق يُفسد على أهل الذِّمَّة متاجرهم ، وأما بالعَشِيِّ ، فيقعد في المسجد ليس له عَمَل إلا شتْم أعراضنا وعيْبنا ! قال : فأتاه أبو هريرة ، فقال : يا عبادة ، ما لك ولمعاوية ؟ ذَرْهُ وما حُمِّل . فقال : لم تكن معنا إذ بايعْنا على السمع والطاعة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وألا يأخذنا في الله لومة لائم . فسكت أبو هريرة ، وكتب فلانٌ إلى عثمان : إن عبادة قد أفْسَدَ عليَّ الشام[٤] .

أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه :

عن محمد بن كعب قال : كان أبو أيوب يُخالف مروان ، فقال : ما يحملك على هذا ؟ قال : إني رأيت رسول الله ﷺ يصلي الصلوات ، فإن وافقْتَهُ ، وافقْناك ، وإن خالفتَهُ خالفْناك[٥] .

---

(١) أي ليلة العقبة .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي .

(٣) القطارة والقطار : أن تشد الإبل على نَسَقٍ ، واحد خلف واحد .

(٤) السير ٢/٩ - ١٠ .

(٥) رجاله ثقات . أخرجه الطبراني (٣٩٩٣) .

وعن سالم بن عبد الله بن عمر قال : أعرستُ ، فدعا أبي الناس ، فيهم أبو أيوب ، وقد ستروا بيتي بجُنادِيّ أخضر ، فجاء أبو أيوب فطأطأ رأسَهُ ، فنظر فإذا البيت مُستَّر ، فقال : يا عبد الله ، تسترون الجُدُر ؟ فقال أبي : واسْتَحْيا : غلبنا النساءُ يا أبا أيوب . فقال : مَنْ خشيتُ أن تغلِبَه النساء ، فلم أخشَ أن يغلِبْنَك ، لا أدخُل لكم بيتًا ، ولا آكُل لكم طعامًا[(١)].

أبو هريرة رضي الله عنه :

« قام أبو هريرة – رضي الله عنه – إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة ، فقال له : أتظلُّ عند ابنة فلان تُرَوِّحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد ، وأبناء المهاجرين والأنصار يُصْهَرون من الحَرِّ ! لقد هممتُ أن أفعل وأفعل . ثم قال : اسمعوا من أميركم »[(٢)].

أبو ذَرّ رضي الله عنه :

عن الأوزاعي : حدثني أبو كثير ، عن أبيه ، قال : أتيتُ أبا ذرّ وهو جالس عند الجمرة الوُسطى ، وقد اجتمع الناسُ عليه يَستفتونَه ، فأتاه رجل ، فوقف عليه ، فقال : ألم يَنْهَك أميرُ المؤمنين عن الفُتيا ؟ فرفع رأسه ، ثم قال : أرقيب أنت عليَّ ! لو وضعْتُم الصَّمْصَامَة على هذه – وأشار بيده إلى قفاه – ثم ظننتُ أني أُنْفِذُ كلمةً سمعتُها من رسول الله ﷺ قبل أن تُجيزوا عَليَّ لأنْفَذْتُها[(٣)].

---

(١) إسناده قوي . أخرجه الطبراني (٣٨٥٣) والذهبي في السير ٢/٤٠٨ – ٤٠٩ . والجنادي : هو جنس من الأنماط والثياب يستر بها الجدران .

(٢) العقد الفريد ١/٥٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/٦٤ .

صحابي يقتُل مَنْ سبَّتِ النبي ﷺ :

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن أعمى كانت له أُمّ وَلَدٍ تشتم النبي ﷺ وتقع فيه ، فينهاها فلا تنتهي ، ويزجُرها فلا تنزجر . قال : فلمّا كانت ذات ليلة ، جعلتْ تقع في النبي ﷺ وتشتمه ، فأخذ المِغْوَل[1] فوَضَعَه في بطنها ، واتَّكَأَ عليها فقتلها ، فوقع بين رِجْلَيْها طفل ، فلطَّختْ ما هناك بالدم ، فلمَّا أصبح ، ذُكر لرسول الله ﷺ ، فجَمَعَ الناس فقال : « أنشد الله رجلًا فَعَلَ ما فعلَ ، لي عليه حقٌّ ، إلَّا قام » . فقام الأعمى يتخطَّى الناس وهو يتزلزل ، حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أنا صاحبها ، كانت تشتمك ، وتقع فيك ، فأنهاها فلا تنتهي ، وأزجرها فلا تنزجر ، ولي منها ابنان مثل اللُّؤْلُؤَتَيْن ، وكانت بي رفيقة ، فلمَّا كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك ، فأخذت المغول فوضعته في بطنها واتَّكأتُ عليها حتى قتلتها ، فقال النبي ﷺ : « ألا اشهدوا أن دَمَها هَدْرٌ »[2] .

وعند ابن سعد عن عبد الله بن معقل : قال نزل ابنُ أمِّ مكتوم على يهوديّة بالمدينة كانت تَرْفُقه وتؤذيه في النبي ﷺ ، فتناولها فضربها فقتلها ، فرُفع ذلك إلى النبي ﷺ فقال : أما والله إن كانت لترفقني ، ولكن آذتني في الله ورسوله ، فقال النبي ﷺ : « أبعدها فقد أبطلتُ دمها »[3].

ابن عباس رضي الله عنهما يُفحم الخوارج :

أثناء الحرب التي دارت بين علي ومعاوية ، خرج فريق كفّر عليًّا ومعاوية ، وجاءوا بأمور لم تكُن معروفةً من قبل ، وذهب ابن عباس إليهم ليوضِّح الحق ، ويكشف الشُّبهة .

---

(١) سيف قصير دقيق .

(٢) صحيح . أخرجه أبو داود والنسائي ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) صححه الألباني في إرواء الغليل (١٢٥١) وضعّفه في ضعيف أبي داود (٩٣٧) .

قال ابن عباس : دخلت عليهم وهم قائلون ، فإذا هم مسهمة وجوههم من السَّهر ، قد أثَّر السجودُ في جباههم ، كأن أيديهم ثفن الإبل (ثفن الإبل : ما يقع على الأرض من الإبل كالرُّكْبتين) ، عليهم قُمُص مُرَحَّضَة (المرحَّضة : المغسولة) ، فقالوا : ما جاء بك يابن عباس ؟ وما هذه الحُلَّة التي عليك ؟ قال : قلت : ما تعيبون من ذلك ؟ فلقد رأيت رسول الله ﷺ وعليه أحسن ما يكون من الثياب اليمنيّة . قال : ثم قرأتُ هذه الآية : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ** ﴾. [الأعراف : ٣٢]، فقالوا : ما جاء بك ؟ قال : جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد ، ومن عند ابن عمّ رسول الله ﷺ ، وعليهم نزل القرآن ، وهم أعلم بتأويله ، جئت لأُبلّغكم عنهم ، وأُبلّغهم عنكم . فقال بعضهم : لا تُخاصموا قريشًا ، فإنَّ الله يقول : ﴿ **بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾. [الزخرف : ٥٨] ، فقال بعضهم : بلى فلنكلّمه . قال : فكلَّمني منهم رجلان أو ثلاثة . قال : قلت : ماذا نقمتم عليه ؟ قالوا : ثلاثًا . فقلت : ما هنَّ ؟ قالوا : حكَّم الرجال في أمر الله ، وقال الله تعالى : ﴿ **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** ﴾ [الأنعام : ٥٧]. قال : هذه واحدة ، وماذا أيضًا ؟ قالوا : فإنّه قاتل ، فلم يَسْبِ ، ولم يَغْنَم ، فلئن كانوا مؤمنين ، ما حلَّ قتالهم ، ولئن كانوا كافرين ، لقد حلّ قتالهم وسَبْيُهم . قال : قلت : وماذا أيضًا ؟ قالوا : ومحا نفسه من إمرة المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين ، فهو أمير الكافرين . قال : قلت : أرأيتم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله بما ينقُض قولكم هذا ، أترجعون ؟ قالوا : وما لنا لا نرجع !! قال : قلت : أمّا قولكم : « حكَّم الرجال في أمر الله » ، فإنَّ الله قال في كتابه : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [المائدة : ٩٥] . وقال في المرأة وزوجها : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ**

بَيْنِهِما فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٣٥] ، فصير الله ذلك إلى حُكم الرجال ، فناشدتكم الله ، أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين ، وفي إصلاح ذات بينهم أفضل ، أو في دم أرنب ثمنه ربع درهم ، وفي بضع امرأة ؟ قالوا : بلى ، هذا أفضل . قال : أخرجتم من هذه ؟ قالوا : نعم . قال : وأمّا قولكم : « قاتل ولم يَسْبِ ، ولم يغنم » ، أتَسْبُون أُمّكم عائشة ؟! فإن قلتم : نَسبيها ، فنستحلَّ ما نستحلّ من غيرها . فقد كفرتم ، وإن قلتم : ليست بأمّنا . فقد كفرتم ، فأنتم تردَّدُون بين ضلالتين ، أخرجتم من هذه ؟ قالوا : بلى . قال : وأمّا قولكم : « محا نفسه من إمرة المسلمين » ، فأنا آتيكم بمن ترضَوْن ، إنَّ نبي الله ﷺ يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو ، قال رسول الله ﷺ : « اكتب يا علي : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » ، فقال أبو سفيان وسهيل ابن عمرو : ما نعلم أنك رسول الله ، ولو نعلم أنك رسول الله ، ما قاتلناك . قال رسول الله ﷺ : « اللهم إنك تعلم أني رسولك ، يا عليّ اكتب : هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو »(١) .

لقد كان ابن عباس بحرًا زخّارًا ، كشفَ الشُّبهة ودَحَضَها ، وأتى بالأدلة البيِّنة من الكتاب والسنة ، ولقد أثمرت جهودُه ، فرجع منهم عن باطلهم ألفان .

لله در ابن عباس من إمام .. ورضي الله عن تُرْجُمان القرآن وحبره .

وما أحوجَ المسلمين اليوم إلى علماء أمثال ابن عباس ، كي يقارعوا أهل الباطل ، ويكشفوا عن شبهاتهم ، ويوضِّحوا الطريق الحق ، وفي الأمة بقيّة خير ، والله غالب على أمره ، ولا حَوْل ولا قوة إلّا بالله العظيم .

---

(١) انظر الاعتصام للشاطبي ١٨٧/٢ .

أبو بكرة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ :

« قال عبد العزيز بن أبي بكرة أن أباه تزوّج امرأةً فماتت ، فحال إخوتها بينه وبين الصلاة عليها ، فقال : أنا أحقُّ بالصلاة عليها . قالوا : صدق صاحب رسول الله ﷺ . ثم إنه دخل القبر فدفعوه بعنفٍ ، فغُشي عليه ، فحُمِل إلى أهله ، فصرخ عليه عشرون من ابنٍ وبنتٍ ، وأنا أصغرهم ، فأفاق ، فقال : لا تصرخوا ، فوالله ما من نفسٍ تخرج أحبّ إليّ من نفسي . ففزع القوم ، وقالوا : لِمَ يا أبانا ؟ قال : إني أخشى أن أُدرك زمانًا لا أستطيع أن آمر بمعروفٍ ولا أنهى عن منكر ، وما خير يومئذٍ »[1].

عامر بن عبد قيس راهب العرب :

مرّ - رحمه الله - في الرّحبة ، وإذا رجل يُظلَم ، فألقى رداءه ، وقال : لا أرى ذمَّة الله تخفَر وأنا حيّ . فاستنقذه .

ويُروى أن سبب إبعاده إلى الشام ، كوْنه أنكر وخلَّص هذا الذِّمِّي[2].

وبعث إليه أمير البصرة : ما يمنعك أن تأتي الأمراء ؟ قال : إن لدى أبوابكم طُلّاب الحاجات ، فادعوهم واقضوا حاجاتهم ، ودعوا من لا حاجة له إليكم .

أُوَيْس القَرَني :

قال أُويس القرني لرجلٍ من مراد : يا أخا مراد ، إن الموت وذكْره لم يَدَع لمؤمنٍ فرحًا ، وإن عِلْمه بحقوق الله لم يترك له في ماله فضةً ولا ذهبًا ، وإن قيامه لله بالحق لم يترك له صديقًا[3].

---

(١) معجم الطبراني ، وتاريخ ابن عساكر ٣١٩/١٧/ب ، ٣٢٠/أ ، والسير ٧/٣ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/٤ .
(٣) حلية الأولياء ٨٣/٢ .

عبد الله بن مُحيريز بن جُنادة :

كان من العلماء العاملين ، ومن سادة التابعين .

قيل : إنه رأى على خالد بن يزيد بن معاوية جُبَّة خزٍّ ، فقال : أتلبس الخز ؟ قال : إنما ألبس لهؤلاء . وأشار إلى الخليفة ، فغضب وقال : ما ينبغي أن يعدل خوفك من الله بأحدٍ من خلْقه[1] .

رحم الله ابن محيريز الذي قال فيه الأوزاعي : من كان مقتديًا ، فليقتدِ بمثل ابن محيريز ، إن الله لم يكن ليُضلّ أمةً فيها ابن محيريز . وقال رجاء بن حَيْوَة : بقاء ابن محيريز ، أمان للناس.

أبو مسلم الخوْلاني ومعاوية :

« السلام عليك أيها الأجير » :

أتى أبو مسلم الخولاني إلى معاوية بن أبي سفيان ، فقام بين السِّماطيْن ، فقال : السلام عليك أيها الأجير . فقال مَن عنده : أبا مسلم ، السلام عليك أيها الأمير . فقال أبو مسلم : السلام عليك أيها الأجير . فقال معاوية : دعوا أبا مسلم ، فإنه أعلم بما يريد . فقال : اعلم أنه ليس من أجير استُرعي رعيَّة إلّا ربُّ الرعية سائلُه عنها ، فإن داوى مرضاها وجبر كسراها ، وهَنَأ جرباها ، ورد أُولاها على أُخراها ، ووضعها في أُنُف من الكَلَأ وصفْو من الماء ؛ وفَّاه أجره ، وإن كان لم يُداو مرضاها ، ولم يَهْنأ جرباها ، ولم يجبُر كسراها ، ولم يرد أولاها على أخراها ، ولم يضعها في أنف من الكلأ وصفو من الماء ؛ لم يُؤته أجرها ، فانظر أين أنت يا معاوية من ذلك . فقال معاوية : يرحمك الله يا أبا مسلم[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء .

(٢) المصباح المضيء لابن الجوزي .

رحم الله ريحانةَ الشام عبد الله بن ثُوَب أبا مسلم الخولاني .

وحبس معاوية بن أبي سفيان العطاء يومًا (العطاء : مرتبات ثابتة لجميع أفراد الشعب تُؤدَّى لهم من بيت المال) فلما صَعِد المنبر ، قام إليه أبو مسلم الخولاني وقال : لم حبستَ العطاء يا معاوية ؟ إنه ليس من كَدّك ولا كد أبيك ولا كد أمك حتى تحبس . فغضب معاوية غضبًا شديدًا ونزل عن المنبر ، وقال للناس : مكانَكم . وغاب عن أعينهم ساعةً ، ثم عاد إليهم فقال : إنَّ أبا مسلم كلّمني بكلام أغضبني ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الغضب من الشيطان ، والشيطان خُلق من النار ، وإنما تُطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليغتسل » ، وإني دخلت فاغتسلتُ ، وصدق أبو مسلم ، إنه ليس من كدي ولا كد أبي فهلُمُّوا إلى عطائكم .

فانظر رحمك الله إلى صدْع أبي مسلم بالحق ، وانظر إلى حلم خال المؤمنين معاوية رضي الله عنه وقبوله ، وأين نحن من غُبار قدم معاوية ... من أقزام نصبوا أنفسهم آلهة ، يقولون فلا يُردّ قولهم .

هُبَل هبل .. رمز السخافة والخيانة والعمالة والدَّجَلْ
هتَّافة التهريج ما ملّوا الثناء .. زعموا له ما ليس عند الأنبياءْ
مَلَكٌ تَجَلْبَبَ بالضياء وجاء من كَبِد السماءْ
هو عالم ومعلّم .. هو عبقريّ مُلهَم
ومن الجهالة ما قَتَلْ
وسعى القطيعْ غباوة يا للبطلْ
وثنٌ يقود جموعهم يا للخجلْ

سيّد التابعين سعيد بن المسيّب :

قال رحمه الله : لا تملئوا أعيُنكم من أعوان الظلمة إلّا بالإنكار من

قلوبكم ، لكيلا تحبط أعمالكم[(١)] .

وقال عبد الله بن جعفر : استعمل ابنُ الزبير جابرَ بنَ الأسود بن عوف الزهري على المدينة ، فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير ، فقال سعيد بن المسيّب : لا ، حتى يجتمع الناس . فضربه ستين سوطًا ، فبلغ ذلك ابن الزبير ، فكتب إلى جابر يلومه ويقول : ما لنا ولسعيدٍ ، دَعْه[(٢)] .

لمّا ضرب سعيد بن المسيب ، صاح بجابر بن الأسود - وكان قد تزوج الخامسة قِبل انقضاء عدَّة الرابعة -: والله ما ربَّعْت على كتاب الله ، وإنك قد تزوّجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة ، وما هي إلا ليالٍ ، فاصنع ما بدا لك ، فسوف يأتيك ما تكره . فما مكث إلا يسيرًا حتى قتل ابن الزبير .

وعقد عبد الملك لابنَيْه الوليد وسليمان بالعهد ، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدة ، وعاملُه يومئذٍ على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي ، فدعا الناس إلى البيعة ، فبايعوا ، وأبى سعيد بن المسيب أن يبايع لهما وقال : لا أُبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار . فقيل : ادخل واخرج من الباب الآخر . قال : والله لا يقتدي بي أحد من الناس . فضربه هشام ستين سوطًا ، وطاف به في تبّان من شَعر وسجنوه ، فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع ويقول : سعيد ! كان والله أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه .

وقيل لسعيد بن المسيب : ما شأن الحجّاج لا يبعث إليك ، ولا يحرّكك ولا يُؤذيك ؟ قال : والله ما أدري ، إلا أنه دخل ذات يوم مع أبيه المسجد ، فصلى صلاةً لا يُتمّ ركوعها ولا سجودها ، فأخذت كفًّا من حَصًى فحَصَبْتُه بها . زعم أن الحجاج قال : ما زلت بعدُ أُحسن الصلاة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣٢/٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ١٢٢/٧ ، ١٢٣ .

وفي الطبقات لابن سعد : (٥/٣٠) : عن ميمون بن مهران ، قال : قدم عبد الملك بن مروان المدينة ، فامتنعت من القائلة ، واستيقظ ، فقال لحاجبه : انظر ، هل في المسجد أحد من حُدَّاثنا . فخرج فإذا سعيد بن المسيب في حلقته ، فقام حيث ينظر إليه ، ثم غمزه وأشار بإصبعه ، ثم ولّى ، فلم يتحرَّك سعيد ، فقال:لا أراه فَطِن . فجاء ودنا منه ، ثم غمزه وقال : ألم ترني أُشير إليك ؟ قال : وما حاجتك ؟ قال : أجب أمير المؤمنين . فقال : إليّ أرسلك ؟ قال : لا ، ولكن قال : انظر بعض حُدَّاثنا . فلم أرَ أحدًا أهْيأ منك . قال : اذهب فأعلمه أني لست من حُدّاثه . فخرج الحاجب وهو يقول : ما أرى هذا الشيخ إلا مجنونًا . وذهب فأخبر عبد الملك ، فقال : ذاك سعيد بن المسيب ، فدَعْه .

فلله درّه من إمام في عزَّة نفسه وصدْعه بالحق .

جهْبِذ العلماء الشهيد سعيد بن جبير :

عن عمرو بن ميمون عن أبيه ، قال : لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحدٌ إلا وهو محتاجٌ إلى عِلْمه .

« وقال سالم بن أبي حفصة : لما أُتي الحجاج بسعيد بن جبير قال : أنا سعيد بن جبير . قال : أنت شقيّ بن كسير ، لأقتُلَنَّك . قال : فإذن أنا كما سمّتني أُمّي . ثم قال : دعوني أصلي ركعتين . قال : وجِّهوه إلى قبلة النصارى . قال : ﴿ **فأينما تُولّوا فثمَّ وجه الله** ﴾ [البقرة : ١١٥]، وقال : إني أستعيذ منك بما عاذت به مريم . قال : وما عاذت به ؟ قال : قالت ﴿ **إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** ﴾ [مريم : ١٨] .

قال ابن عيينة : لم يقْتُل بعد سعيد إلّا رجلًا واحدًا »[1].

وجعل الحجاج يقول بعد قتله : ما لي ولسعيد بن جبير .

---

(١) الحلية ٤/٢٩٠ ، والسير ٤/٣٣٨ .

وعن خلف بن خليفة ، عن أبيه قال : شهدتُ مقتل سعيد بن جبير ، فلمّا بان رأسه قال : لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله . ولم يُتمّ الثالثة .

قال سليمان التيمي : كان الشعبي يرى التَّقِيَّة ، وكان ابن جبير لا يرى التقية ؛ وكان الحجاج إذا أُتي بالرجل - يعني ممن قام عليه - قال له : أكفرتَ بخروجك عليّ ؟ فإن قال : نعم . خلّى سبيلَهُ . فقال لسعيد : أكفرت ؟ قال : لا . قال : اختر أي قتلةٍ أقتلك . قال : اختر أنت ، فإن القصاص أمامك[(١)] .

« وعن داود بن أبي هند قال : لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال : ما أراني إلا مقتولًا ، وسأُخبركم : إني كنت أنا وصاحبان لي دعوْنا حين وجدنا حلاوة الدعاء ، ثم سألنا الله الشهادةَ ، فكلا صاحبيَّ رُزِقها ، وأنا أنتظرها . قال : فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء »[(٢)].

قال الذهبي : « قلتُ : ولمّا علم من فضل الشهادة ، ثَبَت للقتل ولم يكترث ، ولا عامل عدوَّه بالتَّقِيَّة المباحة له ، رحمه الله »[(٢)].

قال ابن كثير : « عن سالم بن أبي حفصة قال : لما أُتي بسعيد بن جبير إلى الحجاج قال له : أنت الشقي بن كسير ؟ قال : لا ، إنما أنا سعيد ابن جبير . قال : لأقتلنك . قال : أنا إذن كما سمَّتني أُمي سعيدًا . قال : شقيتَ وشقيتْ أُمُّك . قال : الأمر ليس إليك . ثم قال : اضربوا عنقه . فقال : دعوني أصلي ركعتين ».

« وفي رواية أنه قال له : لأبدلنّك بالدنيا نارًا تلظَّى . قال : لو علمت أن ذلك بيدك لاتّخذتُك إلهًا . وفي رواية أنه لما أراد قتْله قال : وجّهوه إلى قِبلة النصارى . فقال : ﴿ **فأينما تُولّوا فثمَّ وجه الله** ﴾. فقال : اجلدوا

---

(١) السير ٤/٣٣٨ .

(٢) السير ٤/٣٤٠ .

به الأرض . فقال : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نُعيدكم ومنها نُخرجكم تارةً أخرى** ﴾ [طه : ٥٥]. فقال : اذبح فما أنزعه لآيات الله منذ اليوم . فقال : اللهم لا تُسلِّطه على أحدٍ بعدي .

وقد ذكر أبو نعيم هنا كلامًا كثيرًا في مقتل سعيد بن جبير ، أحسنهُ هذا والله أعلم » .

قال ابن كثير عن سعيد بن جبير : « قال له الحجاج : ويلك . فقال : الويل لمن زُحزح عن الجنة وأُدخل النار . فقال : اضربوا عنقه . فقال : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، أستحفظُك بها حتى ألقاك يوم القيامة ، فأنا خصمك عند الله . فذُبح من قفاه ، فبلغ ذلك الحسن فقال : اللهم يا قاصم الجبابرة ، اقصم الحجاج . فما بقي إلا ثلاثة حتى وقع من جوفه دود ، فأنتن منه فمات . وقال سعيد للحجّاج لمّا أمر بقتله وضحك فقال له : ما أضحكك ؟ فقال : أضحك من غيراتك عليّ وحلم الله عنك » .

قال ابن كثير : « لم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يومًا ، وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول : يا عدو الله ، فيم قتلتني ؟ فيقول الحجاج : ما لي ولسعيد بن جبير ، ما لي ولسعيد بن جبير ؟ »(١) .

قال رسول الله ﷺ : « أَحَبُّ الجهاد إلى الله كلمة حقٍّ تُقال لإمام جائر »(٢) .

وقال ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »(٣) .

---

(١) البداية والنهاية ٩/١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٣ .

(٢) حسن . رواه أحمد والطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٦٨) .

(٣) صحيح . رواه ابن ماجه عن أبي سعيد ، وأحمد وابن ماجه والطبراني في =

وقال ﷺ : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطان جائر »[(١)].

وقال رسول الله ﷺ : « سيّد الشهداء حمزة ، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ ، فأمره ونهاه ، فقتَلَه »[(٢)].

الأوزاعي ، عبد الرحمن بن عمرو شيخ الإسلام وعالم الشام رحمه الله :

قال الأوزاعي : رأيت كأن مَلَكيْن عرجا بِي ، وأوقفاني بين يدي ربِّ العزة ، فقال لي : أنت عبدي عبد الرحمن الذي تأمر بالمعروف ؟ فقلت : بعزّتك أنت أعلم . قال : فهبطا بي حتى ردّاني إلى مكاني . رواها عبد الله بن أحمد ، عن الحسن بن عبد العزيز ، عنه[(٣)].

قال أحمد بن الغمر : لما جلَّت المحنة التي نزلت بالأوزاعي ، لمّا نزل عبد الله بن علي حماة ، بعثَ إليه فأُشخص . قال : فنزل على ثور بن يزيد الحمصي . قال الأوزاعي : فلم يزل ثور يتكلّم في القدر من بعد صلاة العشاء الآخرة إلى أن طلع الفجر وأنا ساكت ما أجابه بحرف ، فلمّا انفجر الفجر صليتُ ، ثم أتيت حماة ، فأُدخلت على عبد الله بن علي فقال : يا أوزاعي ،

= الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أُمامة ، وأحمد والنسائي والبيهقي في شعب الإيمان عن طارق بن شهاب ، وأبو داود والحميدي والحاكم عن أبي سعيد ، والروياني وابن عدي عن أبي أمامة ، والضياء عن طارق ، والعقيلي عن جابر ، والحاكم عن عمير بن قتادة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٠٠) .

(١) صحيح . رواه الترمذي عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٤٩١) وصحيح الجامع رقم (٢٢٠٩) .

(٢) حسن . رواه الحاكم والضياء عن جابر ، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (٣٧٤) وصحيح الجامع رقم (٣٦٧٥) .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١١٨/٧ .

أيعدُّ مقامنا هنا ومسيرنا رباطًا ؟ فقلت : جاءت الآثار عن النبي ﷺ أنه قال : « من كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله » . قال : فنكت بالخيزرانة نكْتًا هو أشدّ من نكْت الأوَّل ، وجعل من حوله يعضُّون على أيديهم ، ثم رفع رأسه فقال : يا أوزاعي ، ما تقول في دماء بني أمية ؟ قلت : جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه « لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث » الحديث . فنكتَ بالخَيْزُرَانَة نكتًا هو أشد من ذلك ، وأطرق مَلِيًّا ، ثم رفع رأسه ، فقال : يا أوزاعي ، ما تقول في أموال بني أمية ؟ فقلت : إنْ كانت لهم حرامًا فهي عليك حرام ، وإن كانت لهم حلالًا فما أحلَّها الله لك إلا بحقّها . قال : فنكت بالخيزرانة نكتًا هو أشد من ذلك ، وأطرق مليًّا ، ثم رفع رأسه فقال : يا أوزاعي ، هممتُ أن أُولِّيك القضاء . فقلت : أصلح الله الأمير ، وقد كان انقطاعي إلى سلفك ومن مضى من أهل بيتك ، وكانوا بحقي عارفين ، فإن رأى الأمير أن يستتمّ ما ابتدأه آباؤه فليفعل . قال : كأنك تريد الإذن ؟ فقلت : إن ورائي لحرمًا بهم حاجة إلى قيامي بهم وسِتْري لهم . قال : فذلك لك . قال : فخرجت ، فركبت دابّتي وانصرفت ، فلم أعلم حين وصلت إلى بيروت إلّا وعثمان على البريد . قال : قلت : بدا للرجل فيّ . فقال : إن الأمير غفل عن جائزتك ، وقد بعث لك بمائتي دينار . قال أحمد : قال ابن أبي العشرين : فلم يبرح الأوزاعي مكانه حتى فرّقها في الأيتام والأرامل والفقراء ، ثم وضع الرسائل في ردّ ما سمع من ثور بن يزيد في القدر[(١)].

ولقد وصَفَ الأوزاعي مجلس عبد الله بن علي لحظةَ دخوله ، فقال رحمه الله : « دخلت أتخطَّى القتلى » .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١٠/٤٨ب/ ٤٩أ ، وسير أعلام النبلاء ٧/١٢٢ - ١٢٣ .

وفي رواية : « سألني والمسودة قيامٌ على رؤوسنا بالكافركوبات »[١] .

وفي رواية أخرى : « دخلتُ عليه فرأيت الرجال وقوفا بين يديه بالسيوف ، فلمّا رأيت ذلك لم أشكّ إلا وأنا مقتول »[٢] .

وفي رواية : « لما فرغ عبد الله بن علي - يعني عمّ السفّاح - من قتْل بني أمية ، بعث إليّ ، وكان قتل يومئذ نيِّفًا وسبعين منهم بالكافر كوبات ، فدخلت عليه »[٣] .

وفي رواية : « فنكس رأسه ونكستُ ، فأطلت ، ثم قلت : البولِ . فأشار بيده : اذهب . فقمت ، فجعلت لا أخطو خطوة إلَّا قلت : إن رأسي يقع عندها » .

وفي رواية : « قلت : لأصدقنّه ، واستبسلتُ[٤] للموت » .

قال الذهبي في السير (١٢٥/٧) : « قد كان عبد الله بن علي ملكا جبّارًا ، سفّاكا للدماء ، صعب المِراس ، ومع هذا فالإمام الأوزاعي يصدعه بمُرِّ الحق كما ترى ، لا كخلْقٍ من علماء السوء ، الذين يُحَسِّنُون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعسْف ، ويقلبون لهم الباطل حقًّا - قاتلهم الله - أو يسكتون مع القُدْرة على بيان الحق » .

قال محمد بن عمر التنوخيّ : « كتب المنصور إلى الأوزاعي : أما بعد ... فقد جعل أمير المؤمنين في عنقك ، ما جعل اللَّهُ لرعيَّته قِبَلَك في عنقه ، فاكتب إليَّ بما رأيتَ فيه المصلحة مما أحببتَ .

---

(١) المقارع . مفردها : الكافركوب . أي : المقرعة .

(٢) من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي .

(٣) السير ١٢٣/٧ - ١٢٤ .

(٤) أبسل نفسه للموت ، واستبسل : إذا وطّن نفسه عليه ، واستيقن .

فكتب إليه : أمّا بعد .. فعليك بتقوى الله ، وتواضَعْ يرفعك الله يوم يضع المتكبِّرين في الأرض بغير الحق ، واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله عليك إلا عِظمًا ، ولا طاعته إلا وجوبًا »[1].

الأوزاعي والمنصور :

« خذ لنفسك الأمان من ربك » :

يقول الأوزاعي : بعث إليَّ المنصور أمير المؤمنين وأنا بساحل الشام ، فأتيتُه ، فلما وصلت إليه وسلّمت عليه بالخلافة ، ردَّ عليّ واستجلسني ثم قال : ما الذي أبطأك عنا يا أوزاعي ؟ قلت : وما الذي تريد يا أمير المؤمنين ؟ قال : أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم . قلت : فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئًا ثم لا تعمل به . فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف ، فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثُوبة لا مجلس عقوبة . فطابتْ نفسي وانبسطتُ في الكلام فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله ﷺ : « أيّما عبد جاءتْه موعظةٌ من الله في دينه ، فإنها نعمة من الله سِيقت إليه ، فإن قَبِلَها بشكرٍ ، وإلا كانت حجَّة من الله عليه » يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله ﷺ : « أيّما والٍ بات غاشًّا لرعيَّته ، حرَّم الله عليه الجنة » . يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدْشٍ خَدَشَهُ أعرابيًّا لم يتعمَّده ، فأتاه جبريل فقال : يا محمد ، إن الله لم يبعثك جبّارًا متكبِّرًا . فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال : « اقتصّ مني » . فقال الأعرابي : قد أحللتُك بأبي أنت وأمي ، وما كنت لأفعل ذلك أبدًا ولو أتيتَ على نفسي . فدعا له بخيرٍ . يا أمير المؤمنين ، رض نفسك لنفسك ، وخُذ لها الأمان من ربّك . يا أمير المؤمنين ، إن المُلك لو بقي لمن قبلك ، لم يصل إليك ، وكذا لا يبقَى لك كما لَمْ يبقَ لغيرك . يا أمير المؤمنين ، جاء في

---

(١) السير ١٢٥/٧ .

تأويل هذه الآية عن النبي ﷺ - ﴿ **ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ [الكهف : ٤٩] قال : « الصغيرة التَّبسُّم ، والكبيرة الضَّحك » . فكيف بما عملته الأيدي وحصدتْه الألسن . يا أمير المؤمنين ، بلغني أن عمر بن الخطاب قال : لو ماتت سَخْلَةٌ على شاطىء الفرات ضيعةً ، لخشيت أن أُسال عنها . فكيف بمن حُرِم عدلك وهو على بساطك . يا أمير المؤمنين ، جاء في تأويل هذه الآية عن جدك ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى** ﴾ [صٓ : ٢٦]، قال : يا داود ، أقْعِد الخصمين بين يديك ، وإن كان لك في أحدهما هوًى فلا تَمَنَّيَنَّ في نفسك أن يكون الحق له ، فيفلُج على صاحبه ، فأمحوك من نبوّتي ثم لا تكون خليفتي . يا داود ، جعلتُ رسلي إلى عبادي رِعاء كرعاء الإبل ، لعِلْمهم بالرَّعِيَّة ورفقهم بالسياسة ، ليجبروا الكسير ويكْلَئُوا الهزيل على الكلأ والماء . يا أمير المؤمنين ، استعمل عمر بن الخطاب رجلًا من الأنصار على الصدقة ، فرآه بعد أيام مقيمًا ، فقال له : ما منعك من الخروج إلى عملك ، أما علمتَ أن لك مِثْل أجر المجاهد في سبيل الله ؟ قال : لا . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه بلغني أن الرسول ﷺ قال : « ما من والٍ يلي شيئًا من أمور المسلمين ، إلا أُتي به يوم القيامة مغلولًا، يده إلى عنقه على جسرٍ في النار ، ينتفض به ذلك الجسر انتفاضةً ، يزيل كلّ عضوٍ منه عن موضعه ، ثم يُعاد فيُحاسَب ، فإن كان محسنًا نجا بإحسانه ، وإن كان مسيئًا انْخرقَ به ذلك الجسر ، فهوى به في النار سبعين خريفًا » . فقال له : ممن سمعتَ هذا ؟ فقال : من أبي ذر وسلمان . فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا : نعم ، سمعناه من رسول الله ﷺ . فقال عمر : واعمراه ، من يتولّاها بما فيها . فأخذ أبو جعفر المنديل فوضعه على وجهه ، ثم بكى وانْتَحَب حتى أبكاني .

يقول الأوزاعي : ثم قلت للمنصور : يا أمير المؤمنين ، قد سأل جدُّك العباسُ النبيَّ ﷺ إمارة مكة والطائف أو اليمن ، فقال له النبي ﷺ :

« يا عمّ ، نَفْسٌ تُنجيها ، خيرٌ من إمارة لا تُحصيها » . نصيحة منه لعمه وشفقةً منه عليه ، وأنه لا يُغني عنه من الله شيئًا ، إذ أوحى الله إليه : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فقال : « يا عباس ويا صفية ويا فاطمة ، إني لست أُغني عنكم من الله شيئًا ، لي عملي ولكم عملكم » .

وقد قال عمر بن الخطاب : لا يُقيم أمر الناس إلا حصيف العقل ، لا تأخذه في الله لومة لائم . وقال : السلطان أربعة أمراء ؛ فأمير ظَلَفَ نفسَه وعُمّالَه ، فذلك كالمجاهد في سبيل الله ، يد الله عليه باسِطة بالرحمة . وأمير ضعيف ظلفَ نفسَه وأرْتَعَ عمالَه بضعفه ، فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله . وأمير ظلفَ عمالَه وأرتع نفسه ، فذلك الذي قال رسول الله ﷺ : « شرُّ الرُّعاة الحُطَمَة » ، فهو الهالك وحده . وأمير أرتع نَفسَه وعمالَه ، فهلكوا جميعًا . وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : أتيتُك حين أمر الله بمنافيخ النار ، فوُضِعتْ على النار تسعر ليوم القيامة . فقال له : « جبريل ، صف لي النار » . فقال : إن الله عز وجل أمر بها فأُوقِد عليها ألف عام حتى احمرَّت ، ثم أُوقد عليها ألف عام حتى اصفرَّت ، ثم أُوقد عليها ألف عام حتى اسودَّت ، فهي سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا يَطفأ جمرها . والذي بعثك بالحق ، لو أن ثوبًا من ثياب أهل النار أُظهر لأهل الأرض ، لماتوا جميعًا . ولو أن ذَنُوبًا من شرابها صُبّ في ماء الأرض جميعًا ، لقتل مَن ذاقه . ولو أن ذراعًا من السّلسلة التي ذكر الله ، وُضِع على جبال الأَرْض جميعًا ، لذابتْ وما استقرَّتْ ، ولو أَنَّ رجلًا أُدْخِل النَّارَ ، ثم أُخْرج منها لَمَاتَ أَهْلُ الأرض من نَتَن ريحهْ وتشويه خلقه . فبكى النبي ﷺ ، وبكى جبريل لبكائه وقال : أتبكي يا محمد وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا ! ولم بكيتَ يا جبريل وأنت الروح الأمين ؟ » فقال : أخاف أن أُبتلى بما ابتُلي به هاروت وماروت .

يا أمير المؤمنين ، إن أشدّ الشّدّة القيام لله بحقه ، وإن أكرمَ الكرم عند الله التقوى ، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزّه ، ومن طلبه بمعصية الله أذلَّه الله ووضعه ، فهي نصيحتي ، والسلام عليك . ثم نهضتُ فقال : إلى أين ؟ قلت : إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين ، إن شاء الله . قال : فقد أذنتُ لك ، وشكرت لك نصيحتك ، وقبلتها بقبولها ، والله الموفِّق للخير والمعين عليه ، وبه أستعين وعليه أتوكّل ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثلها ، فإنك المقبول القول غير المتّهم في النصيحة . قلت : أفعل إن شاء الله . قال محمد بن مصعب : فأمر له بمالٍ يستعين به على خروجه ، فلم يقبله وقال : لنا في ذلك غِنى عنه ، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا كلها.وعرف المنصور مذهبه ، فلم يَجِد عليه في ردِّه[(١)].

« قال عبد الحميد بن حبيب : لما سوّينا على الأوزاعي تراب قبره ، قام والي الساحل عند رأسه فقال : رحمك الله أبا عمرو ، فوالله لقد كنت لك أشدّ تقية من الذي ولّاني ، فمن ظُلم بعدك فليصبر »[(٢)].

الثوري ، إمام الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال يحيى بن يمان : سمعت سفيان يقول : إني لأرى المنكر ، فلا أتكلّم ، فأبول أكدمَ دمًا[(٣)].

وقال يحيى بن يمان : لقيت سفيان عند بني فزارة فقال : تدري من أين جئت ؟ قلت : لا . قال : مررت بدار الصّيّدنانيين[(٤)] فنهيتُهم عن بيع الدّاذي

(١) مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين . تأليف:أحمد رضوان أبو الخير ، نقلًا عن « المصباح المضيء » لابن الجوزي .
(٢) الجرح والتعديل ٢٠٧/١ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٥٩/٧ .
(٤) الصَّيْدنانِيُّون والصّيْدلانيّون لغتان بمعنى واحد . والداذي ، ويقال:الذآذي : حَبّ يُوضع الرَّطل منه في فرقٍ من الماء فيكون مُسكرًا .

وإني لأرى الشيء يجب علي أن آمر فيه وأنهى ، فأبول دمًا[1] .

رحمك الله يا سفيان ، أين من غبار نعلك علماء السوء وقُرّاء السوء ، الذين قال فيهم نبينا ﷺ : « أكثر منافقي أُمّتي قُرّاؤها »[2] . وفيهم يقول القائل :

شيَّخَ الشيخَ بياضُ الشَّعْر وهْو للأطفالِ مِثْل السُّخْر

* * *

وَجْهه للحانِ ولَّى شيخُنا يا رفاقي بعدُ ما تدبيرُنا

أو كما يقول القائل :

يُرمرِمُ مِن فُتات الكُفرِ قُوتًا ويَلْعَق من كؤوسهم الثُّمالَهْ

يُقبِّل راحة الطّاغُوتِ حِينًا ويَلْثِم دونما خَجَلٍ نِعَالَهْ

قال عبد الرزاق : قدمنا مكة ، وقدمها الذي يُقال له : المهدي ، فحضرتُ الثوريَّ وقد خرج من عنده وهو مغضب ، فقال : أُدخلت آنفًا على ابن أبي جعفر فقال لي : يا أبا عبد الله ، طلبناك فأعجزتنا ، فأمكننا الله منك في أحبّ المواضع إليه ، فارفع إلينا حوائجك . قال : فقلت : وأي حاجةٍ تكون لي إليك ؟! وأولاد المهاجرين وأولاد الأنصار يموتون خلف بابك جوعًا . فقال لي أبو عبيد الله : يا أبا عبد الله . لا تُكثر الفضول واطلب حوائجك من أمير المؤمنين . فقلت : ما لي إليه من حاجة ، لقد أخبرني إسماعيل بن أبي خالد أن عمر بن الخطاب حجَّ فقال لصاحب نفقته : كم أنفقنا في حجِّنا هذا ؟ قال : اثنا عشر دينارًا . قال : أكْثَرْنا أكثرنا . أو قال :

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/١٢٤ .

(٢) صحيح : رواه أحمد والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، وأحمد والطبراني في الكبير ، عن عقبة بن عامر ، والطبراني وابن عدي ، عن عصمة بن مالك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٢٠٣) .

أسرفْنا أسرفنا . وعلى أَبْوابكم أمور لا تقوم لها الجبال الرّاسيات . قال : فقال لي ابن أبي جعفر : يا أبا عبد الله ، أفرأيت إن لم أقدر أن أُوصل إلى كل ذي حقٍّ حقه ، فما أصنع ؟ قال : تفرّ بدينك وتَلْزَم بيتك ، وتترك الأمر إلى من يقدر أن يُوصل إلى كل ذي حق حقه . قال : فسكت ، وقال لي أبو عبيد الله : أراك تكثر الفضول ، إن كانت لك حاجة فاطلبها ، وإلّا فانصرف . قال : فانصرفت(١).

وعن سفيان أنه أُخذ في المسجد الحرام ، فأُدخل على أبي هارون وهو في إزار ورداء والنعلان في يده . قال : فلمّا دخلتُ سلَّمت وقعدت ، فقال أبو عبيد الله : إني أظن أن له رأي سوء - يعني رأي الخوارج -. فقلت لأبي هارون : من هذا ؟ قال : هذا معاوية بن عُبيد الله . فقلت له : احذر هذا وأصحابه .

قال إبراهيم بن أعين البجلي : كنت مع سفيان الثوري والأوزاعي وإسحاق بن القاسم الأشعثيّ بمكة ، فدخل علينا عبد الصمد بن علي - وهو أمير مكة - عند المغرب وسفيان يتوضّأ وأنا أصبّ عليه ، وهو يتوضأ كأنه بطة وهو يقول : لا تنظروا إليّ فإني مُبتَلى . فيدخل البيت الذي فيه الأوزاعي فسلّم ، ثم أتى عبد الصمد بن علي فسمعت الأوزاعي يقول : مرحبًا مرحبًا . ثم جاء فسلّم على سفيان ، فقال له سفيان : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الصمد . فقال له : كيف أنت ، اتق الله ، اتق الله ، إذا كَبَّرت فأسمعْ(٢).

---

(١) الجرح والتعديل ١/١١٠ - ١١١ .
(٢) الجرح والتعديل ١/١١١ - ١١٢ .

وقال أبو رجاء : طُلِب سفيان حتى أُدخل على أبي جعفر ، والمهدي قائم على رأسه ، فدخل سفيان وسلّم ، ثم دنا من البساط فنحّاه برِجله وجلس . قال : فقال المهدي : يا أبا عبد الله ، حدِّث أمير المؤمنين بشيءٍ ينفعه الله عز وجلّ به . قال : إن سألتمونا عن شيءٍ عِلْمُ ذلك عندنا ، أخبرناكم . فأعاد عليه ، فقال : إني لست بقاصٍّ . ثم قال : حدّثنا أيمن ابن نابل ، عن قدامة بن عبد الله قال : رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمار على ناقةٍ صَهْباء من بطن الوادي ، بلا ضَرْبٍ ولا طَرْد ، ولا إليك إليك . ثم قال المهدي : حدِّث أمير المؤمنين بشيء ينفعه الله عز وجلّ به . فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **ألم تَرَ كيف فعل ربُّك بعاد إرَمَ ذات العماد** ﴾ قرأ إلى قوله : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ [الفجر : ٦ - ١٤] ، ثم قال بيده على خصره : بي بول بي بول . ثم قطعَ .

وقال عبد الصمد بن حسان : قال سفيان الثوري : إني أُدخلت على المهدي ، فقلتُ له : انظر إلى عمر بن الخطاب . فقال : عمر كان له أصحاب . فقلت : فعمر بن عبد العزيز ، فقد كان في فتنة وفي ما كان فيه ، فما تكلّم بشيءٍ إلا صار سُنَّة . فقال : إن لم أُطِق ؟ فقلت : اجلس في بيتك .

وقال عبد الرزاق : كان رجل صَحِب الثوري - يقال له : يوسف - إلى صنعاء ، فلم يشعر إذ جاءته الولاية من أبي جعفر ، فقال له الثوري : ويحك يا يوسف ، شحطوك بغير سكينٍ ، كيف إذا قيل يوم القيامة : أين أبو جعفر وأتباعه ؟ قُمتَ فيهم[1] .

وعن يحيى بن أبي غُنَيّة قال : ما رأيت رجلًا قطُّ أصْفَق وجهًا في الله

---

(١) الجرح والتعديل ١/١١٢ - ١١٤ .

عز وجلّ من سفيان الثوري[1].

قال الذهبي في السير (٧/٢٥٩) : « قال شجاع بن الوليد : كنت أحجّ مع سفيان ، فما يكاد لسانه يفتُر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ذاهبًا وراجعًا » .

عن مفضل بن مهلهل قال : حججت مع سفيَان ، فوافَيْنا بمكة الأوزاعي ، فاجتمعنا في دارٍ ، وكان على الموسم عبد الصمد بن علي ، فدقَّ داقٌ الباب ، قلنا : من ذا ؟ قال : الأمير . فقام الثوري ، فدخل المخرج ، وقام الأوزاعي فتلقّاه ، فقال له : من أنت أيها الشيخ ؟ قال : أنا الأوزاعي . قال : حيّاك الله بالسلام ، أما إن كتبك كانت تأتينا فنقضي حوائجك ، ما فعل سفيان ؟ قال : فقلت : دخل المخرج . قال : فدخل الأوزاعي في إثره ، فقال : إن هذا الرجل ما قصد إلا قصْدك . فخرج سفيان مقطّبًا ، فقال : سلام عليكم ، كيف أنتم ؟ فقال له عبد الصمد : أتيتُ أكتب عنك هذه المناسك . قال : أَوَلا أدلّك على ما هو أنفع لك منها ؟ قال : وما هو ؟ قال : تدع ما أنت فيه . قال : وكيف أصنع بأمير المؤمنين ؟ قال : إنْ أردتَ كفاك الله أبا جعفر . فقال له الأوزاعي : يا أبا عبد الله ، إن هؤلاء ليس يرضون منك إلا الإعظام لهم . فقال : يا أبا عمرو ، إنا لسنا نقدر أن نضربهم وإنما نؤدِّبهم بمثل هذا الذي ترى . قال مفضل : فالتفت إليّ الأوزاعي فقال لي : قم بنا من هاهنا ، فإني لا آمن أن يبعث هذا من يضعُ في رقابنا حبالًا ، وإن هذا لا يبالي[2].

وعن عطاء بن مسلم قال : لما استُخلف المهدي بعث إلى سفيان ، فلمّا دخل عليه ، خلعَ خاتمه ، فرمى به إليه ، وقال : يا أبا عبد الله ، هذا

(١) الجرح والتعديل ١/١٠٨ .
(٢) الحلية ٧/٣٩ .

خاتمي ، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة . فأخذ الخاتم بيده ، وقال : تأذن في الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قلت لعطاء : قال له : يا أمير المؤمنين ؟! قال : نعم . قال : أتكلَّم على أني آمن ؟ قال : نعم . قال : لا تبعث إليّ حتى آتيك ، ولا تُعطني حتى أسألك . قال : فغضب ، وهمّ به ، فقال له كاتبه : أليس قد أمَّنْتَه ؟ قال : بلى . فلما خرج ، حفّ به أصحابه ، فقالوا : ما منعك ؟ وقد أمرك أن تعمل في الأمة بالكتاب والسنة ؟! فاستصغر عقولهم ، وخرج هاربًا إلى البصرة[(١)] .

ويوضح هذا الموقف ما يأتي :

قال الثوري : قال لي المهدي : أبا عبد الله ، اصحبني حتى أسير فيكم سيرة العُمَرَيْن . قال : قلت : أمّا وهؤلاء جلساؤك ، فلا . قال : فإنك تكتب إلينا في حوائجك فنقضيها . قال سفيان : والله ما كتبت إليك كتابًا قطّ .

قال يحيى بن يمان : وقال لي سفيان : إن اقتصرتَ على خبزك وبقلك ، لم يستعبِدْك هؤلاء[(٢)] .

قال وزير المهدي أبو عبيد الله : ما أعلَقْنا مخالِيَنا هذه في عنق أحدٍ ، إلا قضم منها ، إلا الثوري .

وقال محمد بن عصام بن يزيد : سمعت أبي يقول : أرسلني سفيان إلى المهدي بكتابه ، بأن نأخذ له الأمان منه ، فدخلت على المهدي ، فقال لي فيما يقول : لو جاءنا أبو عبد الله ، لكنّا نتَّزِر بإزارٍ ، ونرتدي بآخر ، ونضع أيدينا في يده ونخرج إلى السوق ، فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . فلما رجعتُ قلتُ : لأي شيءٍ تهرب منه ، وهو يقول : لو جاء ، لخرجت

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٦٢/٧ .

(٢) الحلية ٣٧٨/٦ .

معه إلى السوق فأمرنا ونهينا ؟! فقال : يا ناعس ! حتى يعمل بما يعلم ، فإذا فَعَل ، لم يسعنا إلا أن نذهب ، فنعلِّمه ما لا يعلم . قال عصام : فكتب معي سفيان إلى المهدي ، وإلى وزيره أبي عبيد الله . قال : وأُدخلت عليه ، فجرى كلامي ، فقال : لو جاءنا أبو عبد الله ، لوضعْنا أيدينا في يده ، وارتدينا بُردًا ، واتّزرنا بآخر ، وخرجْنا إلى السوق ، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ، فإذا توارى عنا مثل أبي عبد الله ، لقد جاءني قُرّاؤكم الذين هم قراؤكم ، فأمروني ونهوني ووعظوني ، وبكوا – والله – لي ، وتباكيتُ لهم ، ثم لم يفجأني من أحدهم إلا أن أخرج من كُمِّه رُقعةً : أن افعل بي كذا ، وافعل بي كذا . ففعلتُ ، ومقتُّهم . قال : وإنما كتب إليه ؛ لأنه طال مهربُه ، أن يعطيه الأمان ، فأتيتُه فقدمتُ عليه البصرة بالأمان ، ثم مرض ومات[(١)] .

فانظر – رحمك الله – إلى علوّ فهم الثوري للأمر بالمعروف ، وهربه بعيدًا عن مجالس السلاطين والخلفاء ، حتى يعملوا بما عندهم من علمٍ ، وإلّا فلا .

أَخَذَه عبد الصمد فذهب به إلى المهدي وهو بمنى ، فلمّا رآه ، صاح بأعلى صوته : ما هذه الفساطيط ؟ ما هذه السُّرادِقات ؟![(٢)] .

وعن سفيان قال : أُدخلت على المهدي بمنى ، فسلّمت عليه بالإمرة ، فقال : أيها الرجل ، طلبناك فأعجزْتَنا ، فالحمد لله الذي جاء بك ، فارفع إلينا حاجتك . فقلت : قد ملأتَ الأرض ظلمًا وجورًا ، فاتّقِ الله ، وليكن منك في ذلك عبرة . فطأطأ رأسه ، ثم قال : أرأيت إن لم أستطع دفْعه ؟ قال : تُخلِّيه وغيرك . فطأطأ رأسه ، ثم قال : ارفع إلينا حاجتك . قلت :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/٢٦٣ – ٢٦٤ ، والحلية ٧/٤٣ ، ٤٤ ، والجرح والتعديل .
(٢) السير ٧/٢٦٥ .

أبناء المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسانٍ بالباب ، فاتق الله ، وأوْصِل إليهم حقوقهم . فطأطأ رأسه ، فقال أبو عبيد الله : أيها الرجل ، ارفع إلينا حاجتك . قلت : وما أرفع ؟! حدثني إسماعيل بن أبي خالد قال : حجّ عمر ، فقال لخازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر درهمًا . وإني أرى هاهنا أمورًا لا تُطيقها الجبال[(١)].

رحم الله أمير المؤمنين وشيخ الإسلام وزين العُبّاد سفيان الثوري ... إن كان الرَّبّانيُّون يهابونه ، فكيف بملوك الدنيا .

قال ابن مهدي : « ما كنت أقدر أن أنظر إلى سفيان استحياءً وهيبةً منه »[(٢)].

« قال عبد الله بن المبارك : إن سفيان دخل على أبي جعفر ، فقال : حاجتك ؟ فقال : حاجتي أن لا تدعوني حتى آتيك »[(٣)].... وأبو جعفر أبو جعفر في بطشه !! .

لله درُّك يا سفيان من إمام .

قال يحيى بن سعيد : أملى عليّ سفيان إلى المهدي : من سفيان بن سعيد إلى المهدي . فقلت له : لو بدأتَ به . قال : فأبى وقال : اكتب كما أقول . قال أبو الوليد[(٤)]: فاحتججتُ عليه بكتابه إلى عثمان بن زائدة ، وأنه بدأ بعثمان ، فقال : كان عثمان رجلًا صالحًا[(٥)].

قال يوسف بن أسباط : قال رجلٌ لسفيان الثوري : إني جعلتُ في

---

(١) ٧/٢٦٤ - ٢٦٥ .
(٢) السير ٧/٢٦٧ .
(٣) الجرح والتعديل ١/١١٢ .
(٤) الراوي عن يحيى بن سعيد .
(٥) الجرح والتعديل ١/١١٠ .

جدة في بناء يبنونه - يعني للسلطان -. قال : ألستَ تَمَنَّى بقاءهم إلى أن يُعطوك أجرك ؟ قال أبو محمد : يعني كم ظلمًا يُجري الله على أيديهم إلى أن تقبض أجرك .

والله لكأن الأمر بالمعروف في زماننا يبكي على سفيان ... لكثرة علماء السوء الذين فرطحوا نعالهم أمام أبواب الحُكّام ، ودَبَّجوا لهم فتاوى ما أنزل الله بها من سلطان .

لقد مات سفيانٌ حميدًا مبرَّزًا ... على كلِّ قارٍ هجَّنَتْهُ المطامعُ
يَلُوذُ بأبواب الملوكِ بِنِيَّةٍ ... مُبَهْرجَةٍ والزِّيُّ فيه التَّواضُعُ
يُشمِّرُ عن ساقيْهِ والرأسُ فوقَهُ ... مُبَرَّكَةٌ[1] فيها اللَّصِيصُ المُخادِعُ
جُعِلتمْ فداءً للذي صان دِينَهُ ... وقَرَّبَهُ حتى حوتْهُ المضاجعُ
على غير ذنبٍ كان إلَّا تَنَزُّهًا ... عن النَّاس حتى أدركتْهُ المَصارِعُ
بعيدٌ عن ابواب الملوك مُجانِبًا ... وإن طلبُوه لم تَنَلْهُ الأصابعُ

قال سفيان : إذا أثنى على الرجل جيرانُه أجمعون ، فهو رجل سوءٍ ؛ لأنه ربما رآهم يعصون ، فلا يُنكر ، ويلقاهم بِبِشْرٍ[2].

جاء في كتاب « الذهب المسبوك في وعظ الملوك » : قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدي وأُتي بسفيان الثوري كبير علماء المسلمين في عصره ، فلما دخل عليه سلّم ، ولم يسلِّم بالخلافة ، والربيع قائمٌ على رأسه ، متّكئًا على سيفه يرقب أمره ، فأقبل عليه المهدي بوجه طلْقٍ وقال له : يا سفيان تَفِرُّ هنا وهاهنا ، تظنّ أن لو أردناك بسوءٍ لم نقدر عليك ، فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكُم فيك بهوانا ؟ قال سفيان : إن تحكم فيَّ يحكم فيك مَلِكٌ قادِر ، يفرق بين الحقّ والباطل . فقال الربيع له : يا أمير

---

(١) قلنسوة .

(٢) السير ٧/٢٧٨ .

المؤمنين ، أَلِهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا ؟ أتأذن لي أن أضرب عنقه . فقال له المهدي : اسكت ، ويلك ، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم ، اكتبوا عهده على قضاء الكوفة ، على أن لا يُعترض عليه في حُكم . فكتب عهده ودفعه إليه ، فأخذه وخرج ، ورمى به في دجلة وغاب عن أنظار الناس ، فطُلب في كل بلدٍ فلم يُوجَد ، فعُيِّن مكانه شريك النَّخَعِي .

وجاء في كتاب « الإمامة والسياسة » : دخل سفيان الثوري على أبي جعفر المنصور فأمره ونهاه ، فقال له أبو جعفر : ها هنا يا أبا عبد الله ، إلَّي إلَّي ، ادنُ مني . فقال : إني لا أطأُ ما لا أملك ولا تملك . فقال أبو جعفر : يا غلام ، ادْرُج البساطَ ، وارفع الوطاءَ . فتقدَّم سفيان فصار بين يديه وقعد ، ليس بينه وبين الأرض شيء وهو يقول : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ [طه : ٥٥]. فدمعت عينا أبي جعفر . ثم تكلَّم سفيان دون أن يستأذن ، فوعظَ وأمرَ وَنهَى وذكَّر ، وأغلظ في قوله ، فقال له الحاجب : أيها الرجل أنت مقتول . فقال سفيان : وإن كنت مقتولًا فالساعة . فسأله أبو جعفر عن مسألةٍ فأجابه ، ثم قال سفيان : فما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقتَ من مال الله ومال أمة محمدٍ ﷺ بغير إذنهم ، قد قال عمر في حجّة حجها ، وقد أنفق ستة عشر دينارًا هو ومن معه : ما أرانا إلا وقد أجحفْنا ببيت المال . وعن ابن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال : « ربَّ متخوضٍ في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه ، له النار غدًا » . فقال أبو عبيدة الكاتبُ : أمير المؤمنين يُستقبل بمثل هذا ؟! فقال له سفيان : اسكت ، فإنما أهلكَ فرعونَ هامانُ وهامانَ فرعونُ . ثم خرج سفيان ، فقال أبو عبيدة الكاتب : ألا تأمر بقتْل هذا الرجل ، فوالله ما أعلم أحدًا أحقّ بالقتل منه ؟ فقال أبو جعفر : اسكت ، فوالله ما بقي على الأرض أحدٌ - اليومَ - يُستحيا منه غير هذا ومالك بن أنس .

وذكر الإمام ابن بلبان والغزالي وغيرهما ، أن الرشيد لما ولي الخلافة زاره العلماء بأسرهم إلا سفيان الثوري ، فإنه لم يأتِه ، وكان بينه وبينه صُحبة ، فشقّ عليه ذلك ، فكتب إليه الرشيد كتابًا يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هارون أمير المؤمنين ، إلى أخيه في الله سفيان ابن سعيد الثوري : أما بعد يا أخي ، فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين ، وقد آخيتُك في الله مؤاخاةً لم أصرِم فيها حَبْلَك ، ولم أقطع منها ودَّك ، وإني مُنْطوٍ لك على أفضل المحبة وأتمّ الإرادة ، ولولا هذه القلادة التي قلَّدنيها الله تعالى ، لأتيتُك ولو حبْوًا ؛ لما أجد لك في قلبي من المحبة ، وإنه لم يبق أحدٌ من إخواني وإخوانك إلا زارني وهنأني بما صرتُ إليه ، وقد فتحتُ بيوت الأموال ، وأعطيتهم المواهب السَّنيَّة ، ما فرحتْ به نفسي ، وقرّتْ به عيني ، وقد استبطأتُك ، وقد كتبت كتابًا مني إليك أُعْلِمك بالشوق الشديد إليك ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل زيارة المؤمن ومُواصلته ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فالعَجَلَ العَجلَ » . ثم أعطى الكتاب لعباد الطالقاني ، وأمره بإيصاله إليه ، وأن يُحصي عليه بسمْعه وقلبه دقيق أمره وجليله ليُخبره . قال عباد : فانطلقتُ إلى الكوفة ، فوجدت سفيان في مسجده ، فلمَّا رآني على بُعدٍ قام ، وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بك اللهم من طارقٍ يطرق إلَّا بخيرٍ . قال : فنزلت عن فرسي بباب المسجد ، فقام يصلي و لم يكن وقت صلاة ، فدخلت وسلّمت ، فما رفع أحدٌ من جلسائه رأسه . إلى أن قال : فبقيتُ واقفًا ، وما منهم أحد يعرض عليّ الجلوس ، وقد علتْني من هيبتهم الرِّعْدَة ، فرميتُ بالكتاب إليه ، فلمّا رأى الكتاب ، ارتعدَ وتباعدَ منه كأنه حيَّة عرضتْ له في محرابه ، فركع وسجد ، وسلّم ، وأدخل يده في كُمِّه وأخذه ، وقلّبه بيده ، ورماه إلى من كان خلفه ، وقال : ليقرأه بعضكم ، فإني أستغفر الله أن أمس شيئًا مسّه ظالم بيده ، قال عباد : فمد بعضهم

يده إليه ، وهو يرتعد كأنه حيَّة تنهشه ، ثم قرأه ، فجعل سفيان يتبسَّم تبسُّم المتعجِّب ، فلمّا فرغ من قراءته ، قال : اقلبوه ، واكتبوا للظالم على ظهره . فقيل له : يا أبا عبد الله ، إنه خليفة ، فلو كتبت إليه في بياضٍ نقيّ لكان أحسن . قال : اكتبوا للظالم في ظهر كتابه ، فإن اكتسبه من حلالٍ ، فسوف يُجزى به ، وإن كان اكتسبه من حرامٍ ، فسوف يَصْلَى به ، ولا يبقى شيء مسّه ظالم بيده عندنا فيُفسد علينا ديننا . فقيل له : ما نكتب إليه ؟ قال : اكتبوا له : « بسم الله الرحمن الرحيم . من العبد الميت سفيان ، إلى العبد المغرور بالآمال هارون ، الذي سُلب حلاوة الإيمان ولذّة قراءة القرآن . أما بعد : فإني كتبت إليك أُعلِمك أني قد صَرَمْتُ حبلَك ، وقطعت ودّك ، وإنك قد جعلتني شاهدًا عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمتَ على بيت مال المسلمين ، فأَنْفَقْتَه في غير حقه ، وأنفذته بغير حُكمه ، ولم ترضَ بما فعلته وأنت ناءٍ عني ، حتى كتبت إليّ تُشهدني على نفسك ، فأمّا أنا فإني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين حضروا قراءة كتابك ، وستؤدَّى الشهادة غدًا بَيْن يدي الله الحكم العدل . يا هارون ، هجمتَ على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضي بفِعلك المؤلّفةُ قلوبهم ، والعاملون عليها في أرض الله ، والمجاهدون في سبيل الله ، وابن السبيل ؟! أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم ؛ يعني العاملين ؟ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل ؟ أم رضي بذلك خلْق من رعيّتك ؟! فشدّ يا هارون مِئزرك ، وأعدّ للمسألة جوابًا ، وللبلاء جلبابًا ، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل ، فاتّق الله في نفسك ، إذ سُلبت حلاوة العلم والزهد ولذّة قراءة القرآن ومُجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالمًا وللظالمين إمامًا . يا هارون ، قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأَسْبَلْت ستورًا دون بابك ، وتشبَّهتَ بالحَجَبَة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك ،

وتركتهم يظلمون الناس ولا يُنصفون ، ويشربون الخمر ويحدّون الشارب ، ويزنون ويحدّون الزاني ، ويسرقون ويقطعون السارق ، ويقتلون ويقتلون القاتِلَ ، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن يحكموا بها على الناس ؟! فكيف بك يا هارون غدًا ، إذا نادى المنادي من قِبَل الله : احشروا الظَّلَمَة وأعوانهم . فتقدَّمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك ، لا يفكّهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم إمام أو سائق إلى النار ؟! وكأني بك - يا هارون - وقد أُخذتَ بِضيق الخِناق ، ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك ، وسيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك بلاء على بلاء ، وظُلْمة فوق ظلمة ، فاتّق الله يا هارون في رعيَّتك ، واحفظ محمدًا ﷺ في أُمته ، واعلم أن هذا الأمر لم يَصِر إليك إلَّا وهو صائرٌ إلى غيرك ، وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحدًا بعد واحد ، فمنهم من تزوّد زادًا نَفَعَه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، وإياك إياك أن تكتب إليّ بعد هذا ، فإني لا أُجيبك ، والسلام » . وألقى الكتاب منشورًا من غير طيٍّ ولا ختْم ، فأخذتهُ وأقبلت به إلى سوق الكوفة ، وقد وقعت الموعظة بقلبي ، فناديت : يا أهل الكوفة ، من يشتري رجلًا هرب إلى الله ؟ فأقبلوا إليّ بالدراهم والدنانير ، فقلت : لا حاجة لي بالمال ، ولكنْ جُبَّة صوف وعَباءَة قَطَوانِيّة ، فأُتيت بذلك ، فنزعت ما كان عليّ من الثياب التي كنت أُجالس بها أمير المؤمنين ، وأقبلت أقود الفرس الذي كان معي ، إلى أن أتيت باب الرشيد حافيًا راجلًا ، فهزأ بي من كان على الباب ثم استُؤذن لي ، فلما رآني على تلك الحالة ، قام وقعد ، وجَعَل يلطِم رأسه ووجهه ، ويدعو بالويل والحَرَب ، ويقول : انتفع الرسول وخاب المُرسِل ، ما لي وللدنيا ، والمُلك يزول عني سريعًا . فألقيت الكتاب إليه مثل ما دُفع إليّ ، فأقبل يقرؤه ، ودموعه تنحدر على وجهه ، وهو يشهق ، فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين ، قد اجترأ عليك سفيان ، فلو وجّهتَ

إليه فأثقلتهُ بالحديد ، وضيَّقتَ عليه السجن ، فجعلته عبرةً لغيره . فقال هارون : اتركوا سفيان وشأنه يا عبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه ، والشقي والله - حقًّا - من جالستموه ، إن سفيان أُمَّةٌ وَحْدَه . ولم يزل كتاب سفيان عند الرشيد يقرؤه ويبكي ، حتى توفّي رحمه الله تعالى .

مالك بن أنس وصَدْعه عند السلطان بالحق :

قال مالك « قال لي أبو جعفر : قد أردت أن أجعل هذا العِلْم علمًا واحدًا ، فأكتب به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة ، فيعملون به ، فمن خالف ضربتُ عنقه . فقلت له : يا أمير المؤمنين ، أو غير ذلك . قلت : إن النبي ﷺ كان في هذه الأُمة ، وكان يبعث السرايا ، وكان يخرج ، فلم يفتح من البلاد كثيرًا حتى قبضه الله عز وجل ، ثم قام أبو بكر رضي الله عنه بعده ، فلم يفتح من البلاد كثيرًا ، ثم قام عمر رضي الله عنه بعدهما ، ففُتحت البلاد على يديه ، فلم يجد بدًّا من أن يبعث أصحاب محمدٍ ﷺ معلِّمين ، فلم يزل يُؤخذ عنهم كابرًا عن كابرٍ إلى يومهم هذا ، فإن ذهبت تحوِّلهم إلى ما لا يعرفون ، رأوْا ذلك كفرًا ، ولكن أقِرّ أهل كل بلدةٍ على ما فيها من العلم ، وخُذ هذا العلم لنفسك . فقال لي : ما أبعدتَ القول ، اكتب هذا العلم لمحمد »(١) - يعني ابنه المهدي -. وكان أبو جعفر يريد حمْل الناس على الموطأ وقال لمالك : لعمري ، لو طاوعتني لأمرتُ بذلك .

وعن عبد المتعال بن صالح - من أصحاب مالكٍ - قال : قيل لمالك ابن أنس : إنك تدخل على السلطان وهم يظلمون ويجورون ؟ قال : يرحمك الله ، فأين التَّكلُّم بالحق .

« قال مالك بن أنس : وجَّه إليّ هارون الرشيد ، فسألني أن أحدِّثه فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن العلم يُؤتَى ولا يأتي . فصار إلى منزلي ،

---

(١) الجرح والتعديل ١/٢٩ .

فاستند معي في الجدار ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، إن من إجلال الله إجلال ذي الشّيْبة المسلم . قال : فقام فجلس بين يديّ . فقال لي بعد مدّةٍ : يا أبا عبد الله ، تواضعْنا لعلمك فانتفعْنا به ، وتواضع لنا علمُ سفيان ابن عيينة فلم ننتفع به . وكان سفيان يأتيهم إلى بيوتهم فيأخذ دراهم »[١].

« عن مروان الطّاطَرِيّ ، أن أبا جعفر نهى مالكًا عن الحديث : « ليس على مُسْتَكْرَه طلاق »[٢]، ثم دسّ إليه من يسأله ، فحدّثه به على رؤوس الناس ، فضربه بالسياط .

قال الواقدي : لما دُعي مالك ، وشُوِر ، وسُمع منه ، وقُبل قوله حُسد ، وبغَوْه بكل شيءٍ ، فلمّا ولي جعفر بن سليمان المدينة ، سَعَوْا به إليه ، وكثروا عليه عنده ، وقالوا : لا يرى أَيْمان بَيْعتكم هذه بشيء ، وهو يأخذ بحديثٍ رواه عن ثابت بن الأحنف في طلاق المكره : أنه لا يجوز عنده . قال: فغضب جعفر ، فدعا بمالك ، فاحتجّ عليه بما رُفِع إليه عنه ، فأمر بتجريده ، وضربه بالسياط ، وجُبذت يده حتى انخلعت من كتفه ، وارتكب منه أمر عظيم ، فوالله ما زال مالك بعد في رفعة وعلو »[٣].

مالك والرشيد :

« احذر بطانة السوء وأهل الرَّدَى » :

---

(١) المصباح المضيء لابن الجوزي .

(٢) لم يرد في المرفوع ، وإنما هو موقوف على ابن عباس ، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٤٨/٥: « ليس لمكْرَه ولا لمضطَهَد طلاق » . ورجاله ثقات ، وعلّقه البخاري ٣٤٣/٩ ولفظه : قال ابن عباس : طلاق السكران والمستكره ليس بجائز . وقال الحافظ : وصله ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور .

(٣) سير أعلام النبلاء ٨٠/٨ - ٨١ .

كتب الإمام مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - رسالته الشهيرة إلى هارون الرشيد يعظه فيها وينصحه . وقد جاء في مقدمتها : أما بعد ، فإني كتبت إليك بكتاب لم آلُك فيه رُشدًا ، ولم أدّخِر فيه نُصحًا ، تحميدًا لله ، وأدبًا عن رسول الله ﷺ ، فتدبَّره بعقلك ، وردِّد فيه بصرك ، وأرْعِهِ سمْعك ، ثم اعقِله بقلبك ، وأحضر فهمك ولا تغيبن عنه ذِهْنك ، فإن فيه الفضل في الدنيا وحسن ثواب الله في الآخرة . اذكر نفسَك في غَمَرات الموت وكُربة ما هو نازل بك منه ، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله سبحانه ثم الحساب ، ثم الخلود بعد الحساب . وأعِدّ لله عز وجل ما يسهِّل عليك أهوال تلك المشاهد وكربها ، فإنك لو رأيتَ سخط الله تعالى ، وما صار إليه الناس من ألوان العذاب ، وشدّة نقمته عليهم ، وسمعتَ زفيرهم في النار وشهيقهم ، مع كُلُوح وجوههم ، وطول غمّهم ، وتقلّبهم في دَرَكاتها على وجوههم ، ولا يسمعون ولا يبصرون ، ويدعون بالويل والثُّبور . وأعْظِم بحسرة إعراض الله عنهم وانقطاع رجائهم ، وإجابته إياهم بعد طول الغمّ بقوله : ﴿ **اخسئوا فيها ولا تُكلّمون** ﴾ [المؤمنون : ١٠٨]. ثم قال له : لا تأمن على شيءٍ من أمرك مَنْ لا يخاف الله ، فإنه بلغني عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال : « شاور في أمرك الذين يخافون الله ». احذر بطانة السوء وأهل الرَّدَى على نفسك ، فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما من نبيٍّ ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأْمُره بالمعروف وتنهاه** عن المنكر ، وبطانة لا تَألُوه خَبَالًا » . ثم قال : لا تَجُرّ ثيابك ، فإن الله لا يحب ذلك ، فقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « من جرَّ ثيابه خُيَلاء ، لم ينظُر الله إليه يوم القيامة » . أطع الله في معصية الناس ، ولا تُطع الناس في معصية الله ، فقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[1].

---

(١) الإسلام بين العلماء والحكام .

الإمام ابن أبي ذئب ، محمد بن عبد الرحمن :

شيخ الإسلام أبو الحارث القرشي .

قال الذهبي : « كان من أوعية العلم ، ثقة ، فاضلا ، قوّالًا بالحق ، مهيبًا .

قال أحمد بن حنبل : كان يُشبَّه بسعيد بن المسيّب . فقيل لأحمد : خلّف مثله ؟ قال : لا . ثم قال : كان أفضل من مالك ، إلا أن مالكًا أشد تَنْقِيةً للرجال منه . وقال أحمد : هو أوْرَع وأقْوَل بالحق من مالك »[١] .

قال الذهبي في ترجمته في السير (١٣٩/٧ - ١٤٨) : « دخل ابن أبي ذئب مرّة على والي المدينة ، فكلمه - وهو عبد الصمد بن علي عَمّ المنصور - فكلّمه في شيء ، فقال عبد الصمد بن علي : إني لأراك مرائيا . فأخذ عُودًا ، وقال : مَنْ أُرائيَ ؟! فوالله لَلنَّاسُ عندي أهْوَن من هذا .

وقال أبو العيناء : لمّا حج المهدي ، دخل مسجد رسول الله ﷺ ، فلم يبقَ أحدٌ إلّا قام ، إلّا ابن أبي ذئب ، فقال له المسيّب بن زهير : قم ، هذا أمير المؤمنين . فقال : إنما يقوم الناس لرب العالمين . فقال المهدي : دَعْهُ ، فلقد قامت كلُّ شعرةٍ في رأسي .

قال أبو العيناء : وقال ابن أبي ذئب للمنصور : قد هلك الناس ، فلو أعَنْتَهُم من الفَيْءِ . فقال : ويلك ، لولا ما سددتُ من الثُّغور ، لكنتَ تؤتى في منزلك فتُذبح . فقال ابن أبي ذئب : قد سدّ الثغور ، وأعطى الناس ، من هو خيرٌ منك : عمر رضي الله عنه . فنكس المنصورُ رأسه - والسيف بيد المسيب - ثم قال : هذا خير أهل الحجاز .

قال أحمد بن حنبل : ابن أبي ذئب ثقة . قد دخل على أبي جعفر

---

(١) السير ١٤٠/٧ ، ١٤٢ .

المنصور ، فلم يَهُلْه أن قال له الحق ، وقال : الظُّلم ببابك فاشٍ . وأبو جعفر أبو جعفر .

قال أبو نُعيم : حججتُ عامَ حجَّ أبو جعفر ومعه ابن أبي ذئب ومالك ابن أنس ، فدعا ابنَ أبي ذئب ، فأقعده معه على دار النَّدوة ، فقال له : ما تقول في الحسن بن زيد بن حسن ؟ - يعني أمير المدينة - فقال : إنه ليتحرى العدل . فقال له : ما تقول فيَّ ؟ مرتين فقال : ورَبِّ هذه البَنِيَّة إنك لجائر . قال : فأخذ الربيع الحاجِب بلحيته ، فقال له أبو جعفر : كُفّ يا ابن اللَّخْناء[1]، ثم أمر لابن أبي ذئب بثلاثمائة دينار .

وقال أحمد بن حنبل : كان ابن أبي ذئب رجلًا صالحًا قوّالًا بالحق ، يُشَبَّهُ بسعيد بن المسيب » .

وقال حماد بن خالد : كان يُشبّه بابن المسيب ، وما كان هو ومالك في موضعٍ عند سلطانٍ ، إلّا تكلّم ابن أبي ذئب بالحق والأمر والنهي ، ومالك ساكت .

« إنك لا تعدل في الرعية » :

قال أبو جعفر المنصور لابن أبي ذئب : ما تقول في بني فلان ؟ قال : أشرار من أهل بيت أشرار ، قالوا : سَلْه يا أمير المؤمنين عن الحسن بن يزيد . وكان عامله على المدينة . قال : ما تقول في الحسن ؟ قال : يأخذ بالإِحْنَةِ ويقضي بالهوى . فقال الحسن : والله يا أمير المؤمنين ، لو سألتَهُ عن نفْسِك لرماك بداهيةٍ ونَعَتَك بشرٍّ . قال : ما تقول فِيَّ ؟ قال : أعفني يا أمير المؤمنين . قال : لا بدَّ أن تقول . قال : إنك لا تعدل في الرَّعِيَّة ولا تَقْسِمُ بالسَّوِيَّة . فتغيَّر وجه المنصور ، فقام إبراهيم بن محمد بن علي صاحب الموصل وقال : طهّرني بدمه يا أمير المؤمنين . قال له ابن أبي ذئب : اقعد

(١) اللخن : نتن الريح عامة ، وقبح ريح الفرج . ويقال : اللخناء : التي لم تختن .

يا بُنَيَّ ، فليس في دم رجلٍ يشهد أن لا إله إلا الله طهورٌ[(١)].

محمد بن أوس والرشيد :

كان هارون الرشيد يطوف بالبيت وهو متَّكيء على الفضل بن الربيع ورجل آخر ، فقام إليه محمد بن أوس الهلالي ، واعْتَرَضَهُ عند الحجر وقال : يا أمير المؤمنين ، استمعْ كلامي ، فإنك إن سمعتَهُ حقًّا قَبِلْتَه ، وإن سمعتَهُ باطلًا فلا تَعْبأ به ، فوقف فقال : يا من غُذِّي في نعيم ، وتردَّد في مُلك سليم ، إن خفتَ العذاب الأليم ، وأحببت البقاء في سرور مقيم ، فلا تسمعنّ ممن أنت بينهما ، ولا تغترنّ بشيءٍ من قولهما ، فإن الله عز وجل يخلو بك دونهما ، فالموت يصل إليك على الطَّوع والكُره منهما ، فلا تقتصدنّ بالذليل ، ولا تتكثّرنّ بالقليل ، ولا تعتصم بغير دافع ، ولا تطمئنّ إلى غير مانعٍ ، لا يمنع ولا يدفع عنك ، فإنك بعين الله ، وبحضرة بيته الذي جعلَهُ مَثابةً للزائر ، ومنحجرًا للفاجر . فانتفض الرشيد وجلس وخلا يديه عنهما ، وأومأ أن خُذوا الرجل ، فأُخِذ ، حتى قضى طوافَهُ وصلى ، ورجع إلى المنزل الذي به نزل ، ودعا بالرجل فأُدخل عليه شيخ جليل ، فقال : من أين أنت ؟ قال : من مكة . قال : ما اسمك ؟ قال : محمد . قال : ابن من ؟ قال : ابن أوس . قال : من قبيلتك ؟ قال : بنو هلال . قال : قبيلة مشهورة ، فما حملك أن كلَّمتني بالذي كلّمتني ؟ قال : إشفاقًا عليك ، إذا أنضيت الرّكاب ، وأتعبت الرجال ، وأنفقت الأموال في أمورٍ الله عز وجل أعْلَمُ بها ، حتى صرتَ إلى غاية الطالب ، وموضعٍ ترجو فيه الرحمة ، اعتمدت على ظالمَيْن طاغييْن ، قد جُبلا على الغَشْم ، ونُشِّئا على الظُّلم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وما كنتُ مُتَّخِذ المُضِلِّين عَضُدًا** ﴾ [الكهف : ٥١]. فنكس الرشيد رأسَهُ ، وأقبل ينكُت في الأرض وعيناه تذرِفان ، ثم رفع رأسه فقال :

---

(١) سراج الملوك للطرطوشي .

من أين مطعمُك ومشربك ؟ قال : مِن عند مَن يرزقك . قال : مَنْ ذاك ؟ قال : من عند مَنْ فَلَقَ الحَبَّ والنَّوى ، وأخرجَ الحبّ من الثَّرى ، من طعامٍ سهرتْ فيه العيون ، وتعبت في حصاده الأجساد ، وحرسته الملائكة ، حتى أتاني به القَدَرُ بلا رنق ولا كدرٍ . قال : ألك عيال ؟ قال : نعم . قال . ومن هن ؟ قال : زوجة . قال أفلا أُجري عليك رزقًا تستعين به على بعض أمورك ، وتستغني به عن الطَّلَب من غيركْ ؟ قال : إني بالله عز وجل أغْنَى مني بما بذلتَ لي من ذلك . قال : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، أطِعِ الله عز وجل فيما تعلم من سِرِّك ، فإنك تصل إلى كل محبوبٍ ، وتنال به كل مطلوب . قال : ألك حاجة غيرها ؟ قال : أتُؤمنني من الموت ؟ قال : لا أقدر على ذلك . قال : فتُجيرني من النار ؟ قال : ليست في يدي . قال : فتدخلني الجنة ؟ قال : لست أملك . قال : أفتُحيي لي ميتًا ، حتى أسأله عما عاين ورأى ؟ قال : ذاك في قدرة غيري . قال : ما أنت إلا كسائر مَنْ ترى من رَعِيَّتك ، غير أن الله عز وجل فضَّلك عليهم بما أعطاك من هذا الحطام الزائل ، واسْتَخْلَفَك في الأرض لينظر كيف تعمل . وذكر كلامًا ثم خرج . فقال الرشيد : الحمد لله الذي جَعَل في رعيَّةٍ أنا عليها مِثْلَه ، ولا تزال هذه الأمة بخير ما لم يعدموا هذا ونظراءه وأشباهه .

الليث بن سعد وهارون الرشيد :

« ومن رأس العين يأتي الكدر » :

يقول عبد الله بن صالح : سمعت الليث بن سعد يقول : لما قدمت على هارون الرشيد قال لي : يا ليث ، ما صلاح بلدِكم ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، صلاح بلدنا بإجراء النيل ، وإصلاح أميرها ، ومن رأس العين يأتي الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي فقال : صدقت يا أبا الحارث[1] .

(١) حلية الأولياء ، سير أعلام النبلاء .

العُمَرِيّ .. وما العمري !! :

الإمام القدوة الزاهد ، العابد ، أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن عبد العزيز ابن عبد الله بن صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر بن الخطاب .

قال الذهبي : أمّار بالعُرْف ، لا تأخذه في الله لومة لائم . كان ينكر على مالك الإمام الاجتماع بالدولة .

قال الذهبي : كتب مالك إلى العُمريّ : إنك بَدَوت ، فلو كنتَ عند مسجد رسول الله ﷺ . فكتب : إني أكره مجاورة مثلك ، إن الله لم يَرَك متغير الوجه فيه ساعةً قَطُّ .

قال الذهبي : « هذا على سبيل المبالغة في الوعظ ، وإلا فمالك من أقْوَل العلماء بالحق ، ومن أشدهم تغيُّرًا في رؤية المنكر »[١] .

وعن علي بن حرب ، عن أبيه قال : مضى الرشيد على حمار ، ومعه غلام إلى العُمريّ ، فوعظه ، فبكى وغُشي عليه .

وقيل : إن العمري وعظ الرشيد مرة ، فكان يتلقى قوله بـ : نعمْ يا عمّ ، فلما ذهب ، أتْبَعَهُ الأمين والمأمون بكيسين فيهما ألفا دينار ، فردّها وقال : هو أعلم بمن يفرقها عليه . وأخذ دينارًا واحدًا ، وشخص عليه بغداد ، فكره مجيئه ، وجمع العُمَريين ، وقال : ما لي ولابن عمكم !! احتملتُه بالحجاز ، فأتى إلى دار ملكي ، يريد أن يُفسد عليَّ أوليائي ، ردُّوه عني . قالوا : لا يقبل منا . فكتب إلى الأمير موسى بن عيسى : أنْ ترفقْ به حتى تردّه .

قال مصعب الزُّبيري : ما أدركت بالمدينة رجلًا أهْيَب منه ، وقدم الكوفة ليُخَوِّف الرشيد بالله ، فرجف لمجيئه الدولة ، حتى لو كان نزل بهم من العدو مائة ألف ، ما زاد من هيبته ، فرُدّ من الكوفة ، ولم يصل إليه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٧٧/٨ - ٣٧٨ .

قال أبو المنذر إسماعيل بن عمر : سمعت أبا عبد الرحمن العمري الزاهد يقول : إن من غفلتك إعراضك عن الله ، بأن ترى ما يُسخطه فتتجاوزه ، ولا تأمر ولا تنهى ، خوفًا من المخلوق ، مَنْ تَرَكَ الأمر بالمعروف خوف المخلوقين ، نُزِعت منه الهيبة ، فلو أمر ولَدَهُ ، لاستخفّ به[1] .

قال محمد بن حرب المكي : قدم العمريُّ ، فاجتمعنا عليه ، فلمَّا نظر إلى القصور المُحدِقة بالكعبة صاح : يا أصحاب القصور المشيَّدة ، اذكروا ظُلْمة القبور الموحشة ، يا أهل التَّنعم والتَّلذُّذ ، اذكروا الدود والصديد ، وبلاء الأجسام في التراب . ثم غلبتْه عينُه ، فقام .

لما قدم أبو جعفر المنصور بغداد ، ورد عليه كتابٌ من عبيد الله العُمريّ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله أبي جعفر أمير المؤمنين ، من عبيد الله بن عمر . سلام الله عليك ورحمة الله التي اتَّسعتْ فوسعتْ مَنْ شاء . أما بعد ، فإني عهدتُك وأمْر نفسك لك مهمّ ، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة ، أحمرها وأسودها وأبيضها ، وشريفها ووضيعها ، يجلس بين يديك العدو والصديق ، والشريف والوضيع ، ولكلٍّ حِصتُّه من العدل ونصيبه من الحق ، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر ، وإني أُحذِّرك يومًا تعنو فيه الوجوه والقلوب ، وتنقطع فيه الحُجّة لملك قد قهرهم وأذلهم بسلطانه ، والخلق داخرون يرجون رحمته ويخافون عذابه وعقابه ، وإنّا كنّا نتحدَّث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السَّرِيرة ، وإني أعوذ بالله أن تُنزل كتابي سوء المنزل ، فإني إنما كتبت به نصيحة ، والسلام »[2] .

---

(١) السير ٨/٣٧٥ .
(٢) الإمامة والسياسة .

العُمَرِيّ والرشيد :

« فكيف بمن أسْرَف في مال المسلمين » :

يقول سعيد بن سليمان : كنت بمكة وإلى جانبي عبد الله بن عبد العزيز العُمَرِيّ ، وهو من نسل عمر بن الخطاب ، وقد حجّ هارون الرشيد ، فقال له إنسان : يا أبا عبد الله ، ها هو ذا أمير المؤمنين يسعى ، قد أُخلي له المسعى . فقال العمريُّ للرجل : لا جزاك الله خيرًا ، كلَّفتني أمرًا كنت عنه غنيًّا . ثم تعلَّق نَعْلَيه وقام ، فتَبِعتُه ، فأقبلَ هارون الرشيد من المروة يريد الصّفا ، فصاح به : يا هارون . فلمّا نظر إليه قال : لبيك يا عمّ . قال : ارْقَ الصفا . فلما رَقِيهُ قال : ارم نظرك إلى البيت . قال : قد فعلتُ . قال : كم هو ؟- أي عَدَدهم -. قال : ومن يُحصيهم . قال : فكم في الناس مِثْلهم ؟ قال خلْق لا يُحصيهم إلا الله . قال : اعْلَمْ أيها الرجل أن كل واحدٍ منهم يُسأل عن خاصَّةِ نفْسِه ، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلّهم ، فانظر كيف تكون . قال : فبكى هارون . قال العمريُّ : وأُخرى أقولها . قال : قل يا عمّ . قال : إن الرجل ليُسرف في ماله ، فيستحقّ الحَجْر عليه ، فكيف بمن أسْرَفَ في مال المسلمين ! ثم مضى وهارون يبكي[1] .

« ولا يَغُرَّنّك المدَّاحُون الزُّور » :

كتب عبد الله العُمريُّ إلى هارون الرشيد مرة يقول له : « الحمد لله رب العالمين . والعاقبة للمتقين . الذي لا يخذُل مَن أطاعه ولا يكرم عليه أحدٌ عصاه . يا أمير المؤمنين ، هذا داعي القرآن يُسمِعك يقول : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ ، فلا استقامة إلا على طريق نجاةٍ ، فاحفظ وصية الله وارْجُ ثوابَه وخف عقابَه ، وتواضع له بحُسن الاستماع من رَعِيَّتك ، واعلم أنك عبد قد بُليت برعاية أمم لا تُحصى ، قد خفرت أمانتها وتفرَّقت أهواؤها

---

(١) صفة الصفوة ١٨٢/٢ .

واختلفت في دينها . فأمرهم مَرِيج وبأسهم بينهم شديد . وَلِيتَهُمْ لإحدى اثنتين : إمّا أدَّيتَ أمانَتَهُم وعَطَفْتَهم على ربِّهم ، فعلَّم الله بك جاهِلَهم وذكَّر بك ناسِيَهُم ، وجدَّد بك العدل وأحيا بك الحقَّ ، فكنت بذلك من المصلحين ، ونلتَ به من الله عز وجل ثواب القائمين بالقسط . وإمّا خفرتَ أمانة الله عز وجل ونقضتَ عهدَهُ ، وزِدت المفسدين فسادًا ، وظلمتَ اليتيم حقَّه ، ومنعت المسكين نصيبَهُ ، وحكمتَ في عباد الله بغير ما أنزل الله ، استكبارًا وعُلُوًّا على المستضعفين ، والله لا يحب المستكبرين . والإمام العادل كالوالد في برِّه ، يسعى لهم صغارًا ويعلِّمهم كبارًا ، ويجمع لهم حياتَهُ ويدَّخِر لهم مماتَهُ ، ويُؤثرهم على نفسه . والإمام العادل خليفة المرسلين ، والقائم بين الله وبين عباده . لا تكُن كعبدٍ ائتمنَهُ سيِّدُه واسْتَحْفَظَه مالَهُ ، فعطَّل الضيعةَ وبذر المال ، وشرَّد العيال وأفْقَرَ أهله ، وأهلكَ مالَهُ . ولا يغُرّنّك المدّاحون الزُّور ، ولا تُوَلِّينّ قريبًا لقرابته ، ولا صديقًا لصداقته ، ولا تُحابِينّ في دين الله عز وجل فيُحاجّك الدِّين غدًا عند الله عز وجل . وإني لم آلُك نصيحةً وعليك شفقةً ، فأنزِلْ كلامي بمنزلة المداوي جرحَه ﴿ **واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله** ﴾ » [البقرة : ٢٨١][١] .

كُرز بن وَبَرَة :

عن ابن فُضيل عن أبيه أو عن نفسه ، قال : كان كُرز إذا خرج أمر بالمعروف ، فيضربونه حتى يُغشى عليه[٢] .

لله درُّه من عابدٍ له الصِّيت البليغ في النُّسك والتَّعبُّد وله القدح المعلى في الأمر بالمعروف ، فما اجْمَلَه من تكامُل ... وهكذا فليكن العُبّاد .

---

(١) حلية الأولياء .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/٨٥ .

أبو حازم الأعرج ، سلمة بن دينار الأفزر[1] التمّار :

قال ابن خزيمة : لم يكن في زمانه مثْله .

« اعرِض نَفْسَك على كتاب الله » :

لما حجّ سليمان بن عبد الملك ، ودخل المدينة زائرًا لقبر النبي ﷺ ، سأل عن أحدٍ ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ ، فقيل له : هاهنا رجل **يُقال له : أبو حازم . فبعثَ إليه فجاءه ، فقال له : يا أبا حازم ، ما هذا** الجفاء الذي ظهر منك ، وأنت تُوصف برؤية أصحاب رسول الله ﷺ مع فضلٍ ودِينٍ تُذكَر به ؟ فقال أبو حازم : وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين ؟ فقال سليمان : إنه أتاني وجوه أهل المدينة وعلماؤها وخيارها ، وأنت معدودٌ منهم ، ولم تأتني . فقال أبو حازم : أُعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها . قال سليمان : صدق الشيخ . فقال : يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟ فقال أبو حازم : لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . قال سليمان : صدقت يا أبا حازم ، فكيف القدوم على الآخرة ؟ قال : نعم ، أمّا المحسن ، فإنه يقدم على الآخرة كالغائب يقدم على أهله من سفرٍ بعيد ، وأما قدوم المسيء ، فكالعبد الآبق . يؤخذ فيشد كتافه ، فيؤتى به إلى سيّده ، فإن شاء عفا عنه وإن شاء عذّب . فبكى سليمان بكاء شديدًا ، وبكى من حوله . ثم قال : ليت شعري ، ما لنا عند الله يا أبا حازم ؟ فقال : اعرضْ نفسك على كتاب الله ، فإنك تعلم ما لك عند الله . قال سليمان : يا أبا حازم ، وأين أُصيب تلك المعرفة في كتاب الله تعالى ؟ قال : عند قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** ﴾ [الانفطار : ١٣ ، ١٤] قال سليمان : يا أبا حازم ، فأين رحمة الله ؟ قال :

(١) أي الأحدب الذي في ظهره عُجرة عظيمة .

قريبٍ من المحسنين . قال سليمان : يا أبا حازم ، مَنْ أعْقَلُ الناسِ ؟ قال أبو حازم : أعقل الناس من تعلّم الحكمة والعلم ، وعلّم بها الناس . قال سليمان : فمن أحمقُ الناس ؟ فقال : من حطَّ في هوى رجُلٍ هو ظالم ، فباع آخرتَهُ بدنيا غيرِه . قال سليمان : فما أسْمَعُ الدعاء ؟ قال أبو حازم : دعاء المُخبِتِين الخائفين . فقال سليمان : فما أزكى الصدقة عند الله تعالى ؟ قال : جهدُ المقلّ . قال : فما تقول فيما ابتُلينا به ؟- يعني الخلافة -. قال : أعفنا عن هذا وعن الكلام فيه ، أصلحك الله . قال سليمان : نصيحة تُلقيها . فقال : ما أقول في سلطانٍ استولى عنوةً بلا مشورةٍ من المؤمنين ، ولا اجتماع المسلمين ، فسُفكت فيه الدماء الحرام ، وقُطعت به الأرحام ، وعُطّلت به الحدود ، ونُكثت به العهود ، ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها ، فيا ليت شعري ما تقولون ؟ وماذا يُقال لكم ؟ فقال بعض جلسائه : بئس ما قلتَ يا أعور ، أمير المؤمنين يُستقبَل بهذا . فقال أبو حازم : اسكُت يا كاذب ، فإنما أهْلَكَ فرعونَ هامانُ وهامانَ فرعونُ ، إن الله قد أخذ على العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه .

« كيف لنا أن نُصلح ما فَسَد » :

قال سليمان بن عبد الملك : يا أبا حازم كيف لنا أن نُصلح ما فسد منا ؟ فقال : المأخذ في ذلك قريبٌ يسيرٌ يا أمير المؤمنين . فاستوى سليمان جالسًا من اتّكائه ، فقال : كيف ذلك ؟ فقال : تأخذ المال من حِلّه وتضعه في أهله ، وكُفّ الأكُفّ عما نُهيت ، وتُمضيها فيما أُمرت به . قال سليمان : ومن يُطيق ذلك ؟ فقال أبو حازم : مَن هربَ من النار إلى الجنة ، ونبذَ سوء العادة إلى خير العبادة . فقال سليمان : اصْحَبْنا يا أبا حازم وتوجّه معنا ، تُصِب منا ونُصب منك . قال أبو حازم : أعوذ بالله من ذلك . قال سليمان : ولِمَ يا أبا حازم ؟ قال : أخاف أن أرْكَن إلى الذين ظلموا فيذيقني الله

ضِعفَ الحياة وضعف الممات . فقال سليمان : فتزورنا . قال أبو حازم : إنا عهدْنا الملوك يأتون العلماء ، ولم يكن العلماء يأتون الملوك ، فصار في ذلك صلاح الفريقين ، ثم صِرنا الآن في زمانٍ صار العلماء يأتون الملوك والملوك تقعد عن العلماء ، فصار في ذلك فساد الفريقين جميعًا . قال سليمان : فأوصِنا يا أبا حازم وأوجِز . قال : اتّقِ الله ألا يراك حيث نهاك ، ولا يَفقِدك من حيث أمَرَك . قال سليمان : ادْعُ لنا بخيرٍ . فقال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وَلِيّك ، فبشِّره بخيرِ الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوّك ، فخُذ إلى الخير بناصيته . قال : زدني . قال : قد أوجزت ، فإن كنت وليه فاغتَبطْ ، وإن كنت عدوّه فاتّعِظ ، فإن رحمته في الدنيا مباحة ، ولا يكتبها في الآخرة إلا لمن اتَّقى في الدنيا ، فلا نفْع في قوسٍ ترمي بلا وترٍ. فقال سليمان : هات يا غلام ألف دينار. فأتاه بها ، فقال : خذها يا أبا حازم . فقال : لا حاجة لي بها ؛ لأني وغيري في هذا المال سواء ، فإن سوَّيتَ بيننا وعدلت ، أخذتُ ، وإلا فلا ؛ لأني أخاف أن يكون ثمنًا لما قلت من كلامي . قال سليمان : يا أبا حازم ، عظني وأوجز . قال : حلالُ الدنيا حسابٌ ، وحرامُها عقاب ، وإلى الله المآب ، فاتّق عذابك أو دع . قال : لقد أوجزتَ ، فأخبرني ما مالك ؟ قال : الثقة بعدله ، والتَّوكُّل على كرمه ، وحُسن الظَّنّ به ، والصبر إلى أجله ، واليأس مما في أيدي الناس قال : يا أبا حازم ، ارفع إلينا حوائجك . قال : رفعتها إلى من لا تُخذل دُونَه ، فما أعطاني منها قبلتُ ، وما أمسكَ عني رضيتُ ، مع أني نظرت فوجدت أمر الدنيا يؤول إلى شيئَيْن : أحدهما لي ، والآخر لغيري ، فأمّا ما كان لي ، فلو احْتَلْتُ عليه بكل حيلةٍ ، ما وصلت إليه قبل أوانِه وحينِه الذي قدِّر لي ، وأمّا الذي لغيري ، فذلك لا أطمع فيه ، فكما منعني رزقَ غيري ، كذلك منعَ غيري رزقي ، فعلام أقتُل نفسي في الإقبال والإدبار . قال سليمان : لا بد أن ترفعَ إلينا حاجةً تأمُر

بقضائها . قال : فتقضيها . قال : نعم . قال : فلا تعطني شيئًا حتى أسألكه ، ولا تُرسل إليَّ حتى آتيك[١].

« **حلالها حساب** » :

قدم هشام بن عبد الملك إلى المدينة ، فأرسل إلى أبي حازم ، فقال : يا أبا حازم ، عظني وأوجز . قال : اتّق الله وازْهد في الدنيا ؛ فإن حلالَها حساب ، وإن حرامَها عذاب . قال : لقد أوجزتَ يا أبا حازم ، ارفع حوائجك إلى أمير المؤمنين . فقال : أبو حازم : هيهات ، هيهات . قد رفعتُ حوائجي إلى من تُنجز الحوائج دُونَه ، فما أعطاني منها قنعتُ ، وما منعني منها رضيتُ . وقد نظرت في هذا الأمر ، فإذا هو نصفان : أحدهما لي والآخر لغيري.

وعن زيد بن أسلم قال : كنت مع أبي حازم في الصّائفة ، فأرسل عبد الرحمن بن خالد - وكان أصْلَح من بقي من أهل بيتنا - إلى أبي حازم أن ائتنا ، حتى نُسائلك وتُحدِّثنا . فقال أبو حازم : معاذ الله ، أدركتُ أهل العلم لا يأتون الدِّين إلى أهل الدنيا ، فلن أكون بأولَ مَن فعلَ ذلك ، فإن كان لك حاجة فأبلغنا . فتصدَّى له عبد الرحمن وسأل عنه ، وقال له : لقد ازددتَ علينا بهذا كرامةً[٢].

الإفريقي والسفاح :

أمَّا الإفريقي فهو شيخ الإسلام ، الإمام القدوة ، أبو أيوب : عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم ، قاضي إفريقية وعالمها .. كان الثوري يعظِّمه جدًّا .

قال إسماعيل بن عيّاش : ولي السفاح ، فظهر جوْرٌ بإفريقية ، فوفد

(١) كتاب الإمامة والسياسة .

(٢) حلية الأولياء .

ابن أنعم على أبي جعفر مُشتكيًا . ثم قال : جئت لأُعلمك بالجور ببلدنا ، فإذا هو يخرج من دارك ؟! فغضب ، وهمَّ به . وقيل : قال له : كيف لي بأعوان ؟ قال : أفليس عمر بن عبد العزيز كان يقول : الوالي بمنزلة السوق ، يُجلب إليه ما ينفق فيه ؟ فأطرق طويلًا ، فأومأ إلى الربيع الحاجب بالخروج[1].

الحَكَمُ بن عمرو الغِفاري ووالي العراق زياد بن أبيه :

« كتاب الله قبلَ كتابِ أمير المؤمنين » :

روى الأعمش عن الشّعبي ، أن زيادًا كتبَ إلى الحكم بن عمرو الغفاري ، وكان على الصائفة - أي الغُزاة في زمن الصيف - أنَّ أمير المؤمنين معاوية كتب إليَّ يأمرني أن أُصطفي له الصفراء والبيضاء ، فلا تقسِم بين الناس ذهبًا ولا فضة ، واقسم ما سوى ذلك . فكتب إليه الحكمُ : إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، والله لو أن السموات والأرض كانتا رَتْقًا على عبدٍ فاتَّقى الله ، لجعلَ له منهما مخرجًا . ثم نادى في الناس ، وقسم فيهم ما اجتمع له من الفَيْءِ[2].

أحَدُ الرَّعِيَّة وعبد الملك بن مَرْوان :

« والحاكم عليك عادل » :

قام عبد الملك بن مروان ليخطب في الناس ذات يوم - وكان بالكوفة - فقام إليه رجل اسمه سمعان بن معمر ، وقال له : مهلًا يا أمير المؤمنين ، اقض لصاحبي بحقه ، ثم اخطب . فقال عبد الملك : وما ذاك ؟ فقال سمعان : إن لهذا الرجل مظلمةً ، فجئتُك به لأنظُر عَدْلَك الذي كنت

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤١٢/٦ .
(٢) العقد الفريد .

تَعِدُنا به قبل توليتك . فقال عبد الملك : ما بدا لك أن تقول . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، إنكم تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهوْن ولا تنتهون ، وتعظون ولا تتَّعِظون ، أفنقتدي بسيرتكم ، أم نُطيع أمْركم بألسنتكم ؟! فإن قلتم : أطيعوا أمرنا واقبلوا نُصحَنا . فكيف ينصح غيرَهُ من غشَّ نفسه ؟! وإن قلتم : خُذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا العظةَ ممَّن سمعتموها . فعلامَ قلَّدْناكم أزِمَّة أمورْنا ، وحكَّمناكم في دمائنا وأموالنا ؟! أوَ ما تعلمون أن منّا من هو أعْرَفُ منكم بصنوف اللغات ، وأبْلَغُ في العظات فإن كانت الإمامة قد عجزتْ عن إقامة العدل فينا ، فخلّوا سبيلها وأطلقوا عقالها ، أما والله لئن بقيتْ في أيديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المرة ، لتَضمحِلّ حقوق الله وحقوق العباد . فقال عبد الملك : وكيف ذلك ؟ فقال سمعان : لأن من كلَّمكم في حقه زُجِر ، ومن سكتَ عن حقه قُهِر ، فلا قوله مسموع ، ولا ظُلْمُه مرفوع ، ولا من جار عليه مَرْدُوع ، وبينك وبين رعيتك مقام تزول منه الجبال ؛ حيث مُلكك هناك خامِل ، وعزُّك زائل ، وناصرك خاذِل ، والحاكم عليك عادل . فبكى عبد الملك ثم قال للرجل : ما حاجتك ؟ فقال : عاملك بالسماوةِ ظلمني ، وليلهُ لهو ، ونهاره لغو ، ونظره زهْو . فكتب إليه بإعطائه ظَلامته ، ثم عَزَلَه .

أحَدُ الرَّعِيّة وسليمان بن عبد الملك :

« اذكر يوم الأذان » :

دخل رجل في جماعة من الناس على سليمان بن عبد الملك وهو جالِسٌ للعامّة ، فقال : يا سليمان أُذكِّرك يوم الأذان . فارتاعَ لمَّا دعاه باسمه وقال : ويحك ، وما يوم الأذان ؟ قال : قول الله جل ذكره : ﴿ **فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُ بَيْنَهُمْ أن لَّعنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾. فبكى سليمان وقال له : ما حاجتك ؟ فقال : أنا جارٌ في ضيعتك الفُلانيّة ، وقد ظلمني وكيلك ، فأضرَّ ذلك بي وبعيالي .

قال : قد وهبتُ لك الضيعة . وكتب إلى وكيله بتسليمها إليه(١).

أعرابي وسليمان بن عبد الملك :

« وأنت مسئول عما اجترحوا » :

قال عمر بن عبد العزيز لسليمان بن عبد الملك : إن بالباب – يا أمير المؤمنين – رجلًا له حزم ولسان . قال : أدخِله . فدخل ، فقال له سليمان : ممن الرجُل ؟ فقال : من عبد القيس بن أقصى ، وإني مكلِّمك يا أمير المؤمنين بكلامٍ ، فاحتملْه وإن كرهتَه ، فإن وراءه ما تحب إن قَبِلْتَه . فقال : قل يا أعرابي . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قد اكْتَنَفَك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ولم يخافوه فيك ، خربوا الآخرة وعمَّروا الدنيا ، فهم حربٌ للآخرة سِلْم للدنيا ، فلا تأتَمِنْهم على ما ائتمنك الله عليه ؛ فإنهم لن يألوا الأمانة إلا تضييعًا ، والأُمّة خسفًا ، وأنت مسئول عما اجترحوا وليسوا بمسئولين عما اجترحتَ ، فلا تُصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبنًا بائِع آخرته بدنيا غيره . قال سليمان : أما أنت يا أخا ربيعة ، فقد سَلَلْتَ لسانك ، وهو أَقْطَعُ من سيفك . فقال : أجل يا أمير المؤمنين ، لك لا عليك . قال : فهل من حاجةٍ في ذات نفسك . قال : أمّا خاصّة دون عامّة فلا . ثم قام فخرج . فقال سليمان : لله درّه ما أشْرَف أصْلَه وأجْمَع قلبَه ، وأذْرَب لسانه وأصدق بيِّنته ، وأوْرَعَ نفسه ، هكذا فليكُن الشرف والعقل(٢).

سيِّد أهل اليمن وإمامهم طاووس :

طاووس وسليمان :

« أتعلمون مَن أبْغَضُ الخلْق إلى الله » :

روي أن رجاء بن حَيْوَة نظر إلى طاووس اليماني يصلي في المسجد

---

(١) كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقي .

(٢) المصباح المضيء لابن الجوزي ، وعيون الأخبار ، والعقد الفريد .

الحرام ، فانصرف رجاء إلى سليمان بن عبد الملك ، وهو يؤمئذٍ بمكة قد حجّ ذلك العام ، فقال : إني رأيت طاووسًا بالمسجد ، فهل لك أن تُرسل إليه ؟ قال : فأرسل إليه سليمان . فلمّا أتاه قال رجاء لسليمان : يا أمير المؤمنين ، لا تسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يتكلّم . فلما قعد طاووس سكت طويلًا ثم قال : ما أول شيء خُلق ؟ فقلنا : لا ندري . فقال طاووس : أول شيء خُلِق القلمُ . ثم قال : أتدري ما أول شيء كُتب ؟ قلنا : لا . قال : فإن أول ما كُتب : بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، ثم كُتب القدر خيُره وشره إلى يوم القيامة . ثم قال : أتعلمون من أبغض الخلق إلى الله ؟ قلنا : لا . فقال : إن أبغض الخلق إلى الله تعالى ، عبدٌ أشْرَكَهُ الله في سلطانه ، فعمل فيه بمعاصيه . ثم نهض . قال رجاء : فأظلم عليَّ البيت ، فما زلتُ خائفًا عليه حتى توارى ، فرأيتُ سليمان يحكُّ رأسه بيده ، حتى خشيت أن تُخرج أظافرُه لحمَ رأسه[1].

طاووس وهشام بن عبد الملك :

« ما الذي حملك على ما صنعت » :

قدم هشام بن عبد الملك حاجًّا إلى مكة ، فلما دخلها قال : ائتوني برجل من الصحابة . فقيل : يا أمير المؤمنين ، قد تفانوْا . قال : فمن التابعين . فأتَوْه بطاووس اليماني . فلما دخلَ عليه ، خلع نعليْه بحاشية بساطه ، ولم يسلِّم بإمرة أمير المؤمنين ، ولكن قال : السلام عليك . ولم يُكنِّه ، ولكن جلس بإزائه . قال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضبًا شديدًا ، حتى همَّ بقتله . فقيل له : أنت في حرم الله ورسوله ، فلا يمكن ذلك . فقيل له : يا طاووس ، ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟! فازداد هشام غضبًا وقال : لقد خلعت نعليْك بحاشية

---

(١) كتاب الإمامة والسياسة .

بساطي ، ولم تقبِّل يدي ، ولم تسلّم بإمرة أمير المؤمنين ، ولم تُكنني ، وجلستَ بإزائي بغير إذني ، وقلتَ : كيف أنت يا هشام . فقال : أما ما خلعت نعليَّ بحاشية بساطك ، فإني أخلعها بين يدي رب العزة كلَّ يومٍ خمس مرات ، فلا يعاتبني ولا يغضب عليّ . وأما قولك : لم تقبِّل يدي ؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يقول : لا يحلّ لرجل أن يقبل يد أحدٍ ، إلَّا امرأته من شهوةٍ أو ولده برحمةٍ . وأما قولك : لم تسلّم بإمرة أمير المؤمنين ؛ فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب . وأما قولك : جلست بإزائي ؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجلٍ من أهل النار ، فانظر إلى رجلٍ جالس وحوله ناسٌ قيامٌ . وأما قولك : لم تُكنِّني . فإن الله عز وجل سمَّى أولياءه ، وقال : يا داود ، يا يحيى ، يا عيسى . وكنَّى أعداءه ، فقال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد : ١] فقال هشام : عظني . فقال : سمعت أمير المؤمنين عليًّا كرم الله وجهه يقول : « إن في جهنم حيّاتٍ كأمثال القِلال ، وعقاربَ كالبغال ، تلدغ كلَّ أميرٍ لا يعدل في رعيته » . ثم قام وذهب[1].

عمر بن عبد العزيز :

لله درّه من آمرٍ بالمعروف وناهٍ عن المنكر ووزير صدْقٍ قبل تولّيه الخلافة .

« لا تُحْي ذكرى الحَجَّاج » :

لما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتبَ الحجاج يزيد بن أسلم ، قال له عمر بن عبد العزيز : أسألك بالله - يا أمير المؤمنين - أن

---

(١) مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين ص٦٢ نقلًا من كتاب نزهة الناظرين لعبيد الضرير .

لا تُحي ذكرى الحجّاج باستكتابك إياه . فقال : يا أبا حفص ، إني لم أجد عنده خيانة دينارٍ ولا درهمٍ . قال عمر : أنا أوجدك من هو أعفّ منه في الدينار والدرهم . قال : ومن هو ؟ قال : إبليس ، ما مسَّ دينارًا ولا درهمًا ، وقد أهلك هذا الخلْق(١) .

وحجّ سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز ، فلما أشرفا على قبّة عسفان ، نظر سليمان إلى السُّرادقات قد ضُربت ، فقال له : يا عمر ، كيف ترى ؟ قال : أرى دنيا عريضة يأكل بعضها بعضًا ، وأنت المسئول عنها والمأخوذ بها . فبينما هما كذلك ، إذ طار غراب من سرادقات سليمان في منقاره كسرة ، فصاح ، فقال سليمان : ما يقول هذا الغراب ؟ قال عمر : ما أدري ما يقول ، ولكن إن شئتَ أخبرتك بعلمٍ . قال : أخبرني . قال : هذا غراب طار من سرادقاتك ، في منقاره كسرة أنت بها مأخوذ ، وعنها مسئول ، من أين دخلت ومن أين خرجت . قال : إنك لتُخبرنا بالعجائب . قال : أفلا أُخبرك بأعجب من هذا ؟ قال : بلى . قال : من عرف الله ، كيف عصاه ؟! ومن عرف الشيطان ، كيف أطاعه ؟! ومن أيقن بالموت ، كيف يَهنيه العيش ؟! قال : لقد غثثتَ علينا ما نحن فيه . ثم ضرب فرسه وسار .

« **فكيف سلطانُه عند غَضَبِه** » :

وحجّ سليمان بن عبد الملك في خلافته ومعه عمر بن عبد العزيز ، فلما أشرف من ثنيّة قديد رأى سواد عسكره ، فأعجبه ذلك فقال : يا أبا حفص ، ما ترى ما هناك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أرى دُنيا يأكل بعضها بعضًا ، أنت المبتلَى بها والمسئول عنها . فبينما هو على ذلك برقت برقة فصعقت صاعقة ، فاعتنق سليمان دابَّته ، فلما تجلّى ذلك قال : يا أبا حفص ،

(١) سراج الملوك للطرطوشي .

ما ترى هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، هذا سلطان الله عز وجل عند رحمته ، فكيف سلطانه عند غضبه . ثم قال : العَجَب والله ممن عرف الله عز وجل فعصاه ، وعرف الشيطان فأطاعه ، ورأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها فاطمأنّ إليها .

زياد[1] العَبْدِي :

« ما أحد من أُمّة محمد إلا وهو خَصْم لك » :

قدم زياد العبدي على عمر ، فقال له عمر : يا زياد ، ألا ترى ما ابتُليتُ به من أمر أمة محمد ﷺ . قال : يا أمير المؤمنين ، لا تُعمِل نفسك في الوصف ، وأعمِل نفسك في المخرج مما وقعت فيه ، فلو أن كل شعرةٍ منك نطقتْ ، ما بلغت كُنه ما أنت فيه . ثم قال زياد : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن رجل له خصم ألَدّ ، ما حاله ؟ قال : سيىء الحال . قال : فإن كانا خصميْن الدَّيْن ؟ قال : ذاك أسوأ لحاله . قال : فإن كانوا ثلاثة ؟ قال : ذلك حين لا يَهْنَؤُه عيشٌ . قال : فوالله يا أمير المؤمنين ، ما أحد من أمة محمد إلا وهو خَصم لك . قال : فبكى عمر حتى تمنَّيت أن لا أكون قلت له . وقال له عمر مرَّةً : يا زياد ، إني أخاف أن أكون قد هلكت ؟ قال : أنا أخاف عليك أن لا تكون تخاف .

أبو قِلَابَة :

حكي عن أبي قلابة ، أنه دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له : يا أبا قلابة ، عظني . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه لم يبق من لدن آدم إلى يومنا هذا خليفة غيرك . قال له : زدني . قال : وأنت أول خليفة يموت . قال : زدني . قال : إذا كان الله معك فمن تخاف ! وإذا كان عليك فمن

---

(١) زياد العبدي : هو زياد بن أبي زياد ميسرة مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المتوفّى سنة ١٣٥هـ .

ترجو ! قال : حسبي[١] .

عطاء بن أبي رَباح وهشام :

دخل عطاء بن أبي رباح على هشام بن عبد الملك ، فقال له هشام : مرحبًا مرحبًا ، هاهنا هاهنا . فرفعه حتى مسَّت ركبته ركبته ، وعنده أشراف الناس يتحدثون فسكتوا ، فقال هشام : ما حاجتك يا أبا محمد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أهل الحرمين ، أهل الله وجيران رسول الله ﷺ ، تقسم فيهم أعطياتهم وأرزاقهم . قال : نعم ، يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاءيْن وأرزاقهم لسنة . ثم قال : هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب ومادة الإسلام ، تردّ فيهم فضول صدقاتهم . قال : نعم ، اكتب يا غلام بأن تردّ فيهم صدقاتهم ، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل الثغور يرمون من وراء بَيْضَتكم ، ويقاتلون عدوكم ، قد أجريت لهم أرزاقًا تردّها عليهم ، فإنهم إن هلكوا غُزيتم . قال : نعم ، اكتب يا غلام ، تُحمل أرزاقهم إليهم ، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل ذِمَّتكم ، لا يكلَّفون إلا ما يطيقون ، فإنما يجيئون معونةً لكم على عدوكم . قال : نعم ، اكتب يا غلام ، أن لا يُحمَّلوا ما لا يطيقون ، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، اتق الله في نفسك ، فإنك خُلقت وحدك وتموت وحدك ، وتحشر وحدك وتحاسب وحدك ، لا والله ما معك ممن ترى أحد . فأكبَّ هشام يبكي . وقام عطاء ، فلما كان عند الباب ، وإذا رجل قد تَبِعه بكيسٍ ما ندري فيه دراهم أو دنانير ، وقال : إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا . فقال : ما أصنع

---

(١) فضائح الباطنية للغزالي .

بهذا ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٩] ثم خرج عطاء فوالله ما شرب عنده حسوة من ماء فما فوقها(١).

أعرابيّ وهشام :

« هذا جزاء من يطفِّف في الكَيْل » :

دخل أعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له هشام:عظني يا أعرابي . فقال : كفى بالقرآن واعظًا : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين : ٦] . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، هذا جزاء من يطفّف الكيل والميزان ، فما ظنّك بمن أخذه كله(٢).

سالم بن عبد الله بن عمر :

« ما أعظم ما ابتُليتَ به يا عمر » :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب : « سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من أمر هذه الأمة ، من غير مشورةٍ مني فيها ولا طلب مني لها ، إلا قدر من الرحمن قدَّره عليّ ، فأسأل الذي ابتلاني أن يُعينني على ما ولّاني من عباده وبلاده ، أن يرزقني فيهم العمل بطاعته ، وأن يرزقهم مني الرأفة والرحمة ، ويرزقني فيهم السمع والطاعة وحُسن المؤازرة . فإذا جاءك كتابي هذا ، فابعث إلَّي بكتب عمر وسيرته وقضائه

---

(١) مختصر منهاج القاصدين .

(٢) العقد الفريد .

في أهل القبلة وأهل الذمة ، فإني سائر بسيرته ومتَّبع أثره إن الله أعانني على ذلك ، إن شاء الله . والسلام » .

فكتب إليه سالم : « من سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن الله تعالى خلقَ الدنيا لما أراد ، فجعل لها مُدَّة قصيرة ، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء . ثم إنك يا عمر قد وليت أمرًا عظيمًا ، فإن استطعت أن لا تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة ، فافعل ، وإن استطعت أن تجيء يوم القيامة لا يتبعنّك أحد بمظلمة ، ويجيء مَن قبلَك وهم غابِطون لك ، فافعل ، فإنهم قد عالجوا نزْع الموت ، وعاينوا أهوال المطْلع ، وانفقأت أعينهم التي كانت لا تنقضي لذَّتها ، وانشقّت بطونهم التي كانوا لا يشبعون فيها ، واندقَّت رقابهم غير متوسّدين ، بعد تظاهُر الفُرُش والمرافق والسرر والخدم . فصاروا جِيَفًا في بطون الأرض تحت آكامها ، لو كانوا إلى جنب مساكين تأذّوا من ريحهم ، بعد إنفاق ما لا يُحصى من الطِّيب ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . ما أعظم ما ابتُليتَ به يا عمر . فمن بعثتَ من عُمّالك فازجُر زجرًا شديدًا ، شبيهًا بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها . المالَ المال يا عمر . الدمَ الدم يا عمر . كتبتَ إليّ أن أبعث إليك بكتب عمر وسيرته . إن عمر عمل في غير زمانك وبغير رجالك ، وأنا أرجو إن عملتَ على النحو الذي عمل به عمر ، بعد ما بلوت من المظالم ، أن تكون أفضل من عمر عند الله ، وقل كما قال العبد الصالح : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ [هود : ٨٨] »[١] .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .

سالم وهشام بن عبد الملك :

حجّ هشام بن عبد الملك أيام خلافته ، فدخل الكعبة ، فوجد فيها سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعًا ، فقال الخليفة : يا سالم ، سلني حاجة . فقال له سالم : إني لأستحيي من الله أن أسأل في بيته غيرَهُ . فلما خرج سالم من الكعبة ، خرج هشام في إثره ، وقال له : الآن خرجتَ من بيت الله ، فسلني حاجة . فقال سالم : من حوائج الدنيا أم حوائج الآخرة ؟ فقال هشام : من حوائج الدنيا . فقال سالم : إني ما سألت الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟!

الحسن البصري :

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز يعظه ويحذّره من الدنيا : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإن الدنيا دار ظَعْن وانتقال ، وليست بدار إقامةٍ على حال . وإنما أُنزل إليها آدم عقوبة ، فاحْذَرْها ؛ فإن الراغب فيها تارك ، والغني فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرَّض لها . إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق ، وجدَها تُذلّ مَن أعزّها ، وتفرِّق من جمعها . فهي كالسّمّ يأكله من لا يعرفه ، ويرغب فيه من يجهله ، وفيه - والله - حَتْفُه . فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه ، يحتمي قليلًا مخافة ما يكره طويلًا . الصبر على لأوائها أيسر من احتمال بلائها ، واللبيب من حذرها ولم يغترّ بزينتها ، فإنها غدّارة ختّالة خدّاعة ، قد تعرّضتْ بآمالها ، وتزيّنت لخُطّابها ، فهي كالعروس ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة ، وهي - والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق - لأزواجها قاتلة . فاتّق يا أمير المؤمنين صَرْعتها ، واحذر عثرتها ، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء مُؤَدٍّ إلى الهلكة والفناء . واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وتاركها موفّق ، والمتمسِّك بها هالك غَرِق . والفَطِن

اللبيب من خاف ما خوّفه الله ، وحَذِر ما حذّره ، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين . الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة ، لها يجمع من لا عَقْل له ، وبها يغتر من لا علم عنده ، والحاذق اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه ، يصبر على مرارة الداء لما يرجوه من العافية ويخاف من سوء العاقبة . والدنيا - وأيم الله - يا أمير المؤمنين حلم والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، والعباد في أضغاث أحلام . وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم :

فإن تَنْجُ منها تنجُ مِن ذي عظيمةٍ ... وإلَّا فإنّي لا أَخَالُكَ ناجِيَا

ولما وصل كتابه إلى عمر ، بكى وانتحب ، حتى رَحِمَه من كان عنده ، وقال : رحم الله الحسن ، فإنه لا يزال يُوقظنا من الرّقدة ويُنبّهنا من الغفْلة ، ولله هو من مشفقٍ ما أنْصَحَه ، وواعظٍ ما أصدقَه وأفصحَه .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري : عظني . فكتب إليه الحسن : « أما بعد يا أمير المؤمنين ، فكُن للمثْل من المسلمين أخًا ، وللكبير ابنًا ، وللصغير أبًا ، وعاقب كلّ واحدٍ منهم بذنبه على قدر جسمه ، ولا تضربن لغضبك سوطًا واحدًا فتدخل النار »(١) .

« والإمام العادل يا أمير المؤمنين » :

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، كتب إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل . فكتب الحسن البصري رحمه الله : « والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ؛ يسعى لهم صغارًا ، ويعلّمهم كبارًا ، يكتسب لهم في حياته ، ويدّخر لهم في مماته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها ، حملته كرهًا ووضعته كرهًا ،

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .

وربّته طفلًا ، تسهر بسهره وتسكُن بسكونه ، تُرضعه تارة وتفطمه أُخرى ، وتفرح بعافيته وتغتمّ بشكايته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربّي صغيرهم ، ويَمُون كبيرهم . والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم . فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك الله كعبدٍ ائتمنه سيّدُه ، فاستحْفَظَهُ مالَه وعيالَه ، فبدَّد المال وشرّد العيال ، فأفقر أهلَه وفرَّق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليُزدجَر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ! وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم ؟! واذكُر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلّة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم أن لك منزلًا غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحبّاؤك ، ويسلموك في قعره وحيدًا فريدًا ، فتزوّد له . واذكُر إذا بُعثر ما في القبور وحصِّل ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة . لا تحكُم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحُكم الجاهلين ، ولا تسلُك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلِّط المستكبرين على المستضعفين ، فتبوء بأوزارك وأوزارٍ مع أوزارك ، وتحمل أثْقالَكَ وأثقالًا مع أثقالك . ولا يَغُرَّنّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطَّيِّبات في دنياهم بذهاب طيّباتك في آخرتك . ولا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنتِ الوجوه للحي القيوم . إني يا أمير المؤمنين لم آلُك شفقةً ولا نصحًا ، فأنزِل كتابي إليك كمداوي حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ؛ لما يرجوه له من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير

المؤمنين ورحمة الله وبركاته »[١].

« إن استقمتَ استقاموا » :

كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - إلى فقهاء العراق أن يأتوه ، فاعتلَّ الحسن - أصيب بعلّة بفتْق في بطنه - وكتب إليه : « يا أمير المؤمنين ، إن استقمتَ استقاموا ، وإن مِلت مالوا . يا أمير المؤمنين ، لو أنَّ لك عمر نوحٍ وسلطان سليمان ويقين إبراهيم وحكمة لقمان ، ما كان لك بُدٌّ من أن تقتحم العقبة الجنة أو النار ، من أخطأتْه هذه دخل هذه » . فلما أتاه الكتاب ، أخذه فوضعه على عينيه ، ثم بكى ثم قال : كيف لي بعمر نوح ويقين إبراهيم وسلطان سليمان وحكمة لقمان ؟! ولو نلت ذلك ، لم يكن لي بدّ أن أشرب بكأس الأوَّلين .

الحسن والحجّاج :

روي أن الحجاج بنى دارًا بواسط ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها قال : الحمد لله ، إن الملوك ليروْن لأنفسهم عزًّا ، وإنا لنرى فيهم كل يوم عِبَرًا ، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيّده ، وإلى فرش فينجّده ، وإلى ملابس ومراكب فيحسّنها ، ثم يحفّ به ذباب طمعٍ وفراش نارٍ وأصحاب سوءٍ ، فيقول : انظروا ما صنعتُ : فقد رأيْنا أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ! أما أهل السماوات فقد مقتوك ، وأما أهل الأرض فقد لعنوك ، بنيتَ دار الفناء ، وخربت دار البقاء ، وغُرِرت في دار الغرور لتذلّ في دار الحبور . ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ، لَيُبيِّننَّه للناس ولا يكتمونه . وبلغ الحجّاج ما قال ، فاشتدَّ غضبه ، وجمع أهل الشام فقال : يا أهل الشام ، أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه .

حضور ، فلا تنكرون ؟! ثم أمر بإحضاره ، فجاء وهو يحرِّك شفتيْه بما لم يُسمع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال له الحجاج : هاهنا اجلس . فأجلسه قريبًا منه وقال : ما تقول في عليٍّ وعثمان ؟ قال : أقول قوْل مَن هو خيرٌ مني عند من هو شرٌّ منك . قال : قال موسى لفرعون حين سأله ﴿ **فَمَا بالُ الْقُرُون الأولى قال علْمُهَا عَنْدَ رَبِّي فِي كِتَاب لَا يضلُّ رَبِّي وَلَا ينْسَى** ﴾ [طه : ٥١ ، ٥٢] عِلْم عليٍّ وعثمان عند الله . قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد . ودعا بغاليةٍ - طِيب - وعلف بها لحيتَهُ ، فلما خرج تَبِعَه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلتَ عليه ؟ قال : قلت : « يا عُدَّتي عند كُربتي ، ويا صاحبي عند شدّتي ، ويا وليّ نعمتي ، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودَّته واصرف عني أذاه » . ففعل ربي عز وجل[1] .

الحسن وابن هُبيرة :

لما قدم عمرو بن هبيرة العراق ، أرسل إلى الحسن البصري والشعبي ، وأمر لهما ببيتٍ ، فكانا فيه شهرًا ونحوه ، ثم جاء عمرو إليهما ، فسلَّم ثم جلس معظِّمًا لهما ، فقال : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك كتب إلّي كتبًا ، أعرف أن في إنفاذها الهلاك ، فإن أطعتُه عصيتُ الله ، وإن عصيتهُ أطعتُ الله ، فهل تريا لي في متابعتي إياه مخرجًا ؟ فقال الحسن للشعبي : أجب الأمير . فتكلّم الشعبي كلامًا يريد به إبقاء وجهه عنده - أي يريد إرضاءه - فقال ابن هبيرة للحسن : ما تقول أنت يا أبا سعيد ؟ قال : أقول : يا ابن هبيرة ، أوشك أن ينزل بك مَلَك من ملائكة الله فظٌّ غليظ ، لا يعصي الله ما أمره ، فيُخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . يا عمرو ابن هبيرة ، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن

---

(١) الحسن البصري لابن الجوزي .

عبد الملك ، فيغلق به باب المغفرة دونك . يا عمرو بن هبيرة ، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة ، كانوا عن هذه الدنيا وهي مقبلة ، أشدّ إدبارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة . يا عمرو بن هبيرة ، إني أُخوِّفك مقامًا خوَّفك الله عز وجل فقال : ﴿ **ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وعِيدِ** ﴾ [إبراهيم : ١٤]. يا عمرو بن هبيرة ، إن تَكُ مع الله في طاعته ، كفاك يزيد ابن عبد الملك . وإن تكُ مع يزيد على معاصي الله ، وكلك الله إليه . فبكى عمرو بن هبيرة وقام بعَبْرته . فلما كان من الغد أرسل إليهما ، فأدناهما وأجازهما ، فأكثر في جائزة الحسن وأنقص جائزة الشعبي . فخرج الشعبي إلى المسجد فقال : أيها الناس ، من استطاع منكم أن يُؤثر الله على خلْقه ، فليفعل ، فوالذي نفسي بيده ما علم الحسنُ شيئًا منه فجهلتُه ، ولكنْ أردتُ وجه ابن هبيرة ، فأقصاني الله منه .

وفي رواية أُخرى : رققْنا فرقِّقُوا .

الحسن والنضر بن عمرو :

أحضر النضر بن عمرو – وكان واليًا على البصرة – الحسن البصري يومًا فقال : يا أبا سعيد ، إن الله عز وجل خلق الدنيا وما فيها من رياشها وبهجتها وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : ﴿ **وكُلُوا واشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إنَّه لا يُحِبُّ الْمُسْرِفينَ** ﴾. [الأعراف : ٣١] وقال عزَّ من قائل : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللَّهِ التي أَخْرَجَ لِعبادِه والطَّيِّباتِ من الرِّزق قُلْ هي لِلَّذِين آمنوا في الحياةِ الدُّنْيا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ** ﴾. [الأعراف : ٣٢]. فقال الحسن : يا أيها الرجل ، اتّقِ الله في نفسك ، وإياك والأماني التي ترجّحتَ فيها فتهلك ، إن أحدًا لم يُعط خيرًا من خير الدنيا ولا من خير الآخرة بأُمنيته ، وإنما هي داران ، من عمل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قدِّر له منها ، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعًا . إن الله سبحانه اختار محمدًا ﷺ لنفسه ، وبعثه

برسالته ورحمته ، وجعله رسولًا إلى كافة خلقه ، وأنزل عليه كتابًا مهيمنًا ، وحدَّ له في الدنيا حدودًا ، وجعل له فيها أجلًا ، ثم قال عز وجل : ﴿ **لقد كانَ لكم في رسولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ [الأحزاب : ٢١]. وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدي بهديه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بسُنّته ، فما بلغنا إليه فبفضله ورحمته ، وما قصرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر . فذلك باب مخرجنا ، فأمّا أماني فلا خير فيها ، ولا في أحدٍ مّن أهلها . فقال النضر : والله يا أبا سعيد ، إنا على ما فينا لنُحِبّ ربّنا . فقال الحسن : لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتَّبعُوني يُحْبِبْكُم اللهُ** ﴾ [آل عمران : ٣١] . فجعلَ سبحانه اتِّباعه ﷺ علمًا للمحبّة وأكْذَبَ من خالف ذلك . فاتقِ الله أيها الرجل في نفسك ، وأيم الله لقد رأيت أقوامًا كانوا قبلك في مكانك ، يعلون المنابر وتهتزّ لهم المراكب ، ويجرّون الذيول بطرًا ورياءَ الناس ، يبنون المدر ويُؤثرون الأثر ، ويتنافسون في الثياب ، أُخرجوا من سلطانهم ، وسُلبوا ما جَمعوا من دنياهم ، وقدموا على ربهم ، ونزلوا على أعمالهم . فالويل لهم يوم التغابن ويا ويحهم ﴿ **يوم يفرّ المرءُ من أخيه وأُمّه وأبيه وصاحبته وبنيه لكلِّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه** ﴾[1] . [عبس : ٣٤ - ٣٧].

ودخل عليه مرة أخرى فقال له : أيها الأمير - أيَّدك الله - إن أخاك مَن نصحك في دينك ، وبصَّرك عيوبك ، وهداك إلى مراشدك ، وإن عدوّك من غرَّك ومنّاك . أيها الأمير ، اتقِ الله ، فإنك أصبحتَ مخالفًا للقوم في الهدي والسيرة والعلانية والسريرة ، وأنت مع ذلك تتمنّى الأماني ، وترجّح في طلب العذر . والناس - أصلحك الله - طالبان : فطالب دنيا ، طالب آخرة . وأيم الله لقد أدرك طالبُ الآخرة واستراح ، وتعب الآخر واخترم .

---

(١) الحسن البصري لابن الجوزي .

فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطَلَب الفاني وترْك الباقي ، فتكون من النادمين ، واعلم أن حكيمًا قال :

أين الملوك التي عن حظِّها غفلتْ   حتى سقاها بكأس الموتِ ساقيها

نعوذ بالله من الحوْر بعد الكوْر ، ومن الضلالة بعد الهُدى . لقد حدّثت أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كان يقول « كفى بالمرء خيانةً أن يكون للخونة أمينًا ، وعلى أعمالهم مُعينًا »[١] .

خالد بن صفوان وعمر بن عبد العزيز :

« إن أقوامًا غرَّهم ستْر الله » :

قال عمر بن عبد العزيز لخالد بن صفوان : عظني وأوجِز . فقال خالد ابن صفوان : يا أمير المؤمنين ، إن أقوامًا غرّهم ستر الله ، وفتنهم حُسن الثناء ، فلا يغلبنّ جهلُ غيرك بك عِلْمَك بنفسك ، أعاذنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين ، وبثناء الناس مفتونين ، وعما افترض الله علينا متخلِّفين ، وإلى اللهو مائلين . قال : فبكى ، ثم قال : أعاذنا الله وإياك من اتِّباع الهوى .

ودخل عليه مرة أُخرى فقال له : عظني يا خالد . فقال : إن الله لم يرض أحدًا أن يكون فوقك ، فلا ترضَ أن يكون أحدٌ أوْلَى بالشُّكر منك . قال : فبكى عمر حتى غُشي عليه ثم أفاق ، فقال : هيه يا خالد ، لم يرض أن يكون أحد فوقي ، فوالله لأخافنّه خوفًا ، ولأحذرنّه حذرًا ، ولأرجونّه رجاءً ، ولأُحبنّه محبّة ، ولأشكُرنّه شكرًا ، ولأحمدنّه حمدًا ، يكون ذلك كله غاية طاقتي ، ولأجتهدنّ في العدل والنَّصفة والزهد في فاني الدنيا لزوالها ، والرغبة في بقاء الآخرة ودوامها ، حتى ألقى الله عز وجل ؛ فلعلي أن أنجو مع الناجين ، وأفوز مع الفائزين . وبكى حتى غُشي عليه .

---

(١) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .

أحد الرَّعِيَّة وعمر بن عبد العزيز :

« ويحك ارْدُدْ عليَّ كلامَك » :

ذكر رجل مظلمة له على عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين اذكُر مقامي هذا ، فإنه مقام لا يشغل الله - عز وجل - عنه كَثْرة مَن تخاصم إليه من الخلائق ، يومَ تلقاه بلا ثقةٍ من العمل ولا براءةٍ من الذنب . فقال عمر : ويحك ، اردُد عليّ كلامك . فردَّده عليه ، فجعل يبكي وينتحب حتى إذا أفاق قال : ما حاجتك ؟ قال : عاملك على أذربيجان ظلمني ، وأخذ من مالي عشرة الآف درهم . فكتب بردٍّ ذلك عليه ، وبعزْل عامله ، وقال : انظروا هل اخْلَوْلَقَ له ثوب ، أو تقطّع له من حذاء . فحسب ذلك فبلغ عشرين دينارًا ، فأمر عمر بدفْعها إليه(١).

يعلى بن مَخْلَد والحجّاج :

دخل يعلى بن مخلد المجاشعي على الحجاج في مرض الموت ، فقال له : كيف ترى ما بك يا حجاج مِن غَمَرات الموت وسَكَراته ؟ فقال : يا يعلى ، غمًّا شديدًا ، وجهدًا جهيدًا ، وألمًا مضيضًا ، ونزْعًا حَريضًا ، وسفرًا طويلًا ، وزادًا قليلًا ، فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبّار . فقال : له يا حجاج ، إنما يرحم الله من عباده الرُّحماء الكُرماء ، أُولي الرحمة والرأفة ، والتَّحنُّن والتَّعطُّف على عباده وخلْقه ، أشهد أنك قرين فرعون وهامان ؛ لسوء سيرتك ، وترْك مِلّتك ، وتنكُّبك عن قصد الحق وسنن المحجة وآثار الصالحين ، قتلتَ صالحي الناس فأفْنَيْتَهم ، وأبرت عِترةَ التابعين فتبرتهم ، وأطعت المخلوق في معصية الخالق ، وهرقت الدماءَ ، وضربت الأبشار ، وهتكتَ الأستار ، وسُستَ سياسة متكبِّر جبّار ، لا الدِّين أبقيتَ ، ولا الدنيا أدركتَ ، أعززتَ بني مَرْوان ، وأذللتَ نفسك ، وعمرتَ دورهم ،

---

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقي .

وأخربتَ دارك . فاليوم لا يُنجُّونك ولا يُغيثونك ، إذ لم يكن لك في هذا اليوم ولا لما بعده نظر . لقد كنت لهذه الأمة اهتمامًا واغتمامًا ، وعناءً وبلاءً ، فالحمد لله الذي أراحها بموتك ، وأعطاها مُناها بخِزْيك . قال : فكأنما قُطع لسانه عنه ، فلم يحر جوابًا ، وتنفّس الصُّعَداء ، وخنقتْه العَبْرة ، ثم رفع رأسه فنظر إليه ، وأنشأ يقول :

ربِّ إن العبادَ قد أيأسُوني ورجائي لك الغداةَ عظيمُ[1]

يحيى بن يعمر والحجّاج :

عن الشعبي : كنت عند الحجاج ، فأُتي بيحيى بن يعمر فقيه خراسان من بلخ مكَّبلًا بالحديد ، فقال له الحجاج : أنت زعمت أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ . فقال : بلى . فقال الحجاج : لتأتيني بها واضحة بيِّنة من كتاب الله ، أو لأقطعنّك عضوًا عضوًا . فقال : آتيك بها واضحة بيّنة من كتاب الله يا حجاج . قال : فتعجَّبَ من جُرأته بقوله : يا حجاج . فقال له الحجاج : ولا تأتيني بهذه الآية : ﴿ **نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ** ﴾. فقال : آتيك بها واضحة من كتاب الله ، وهو قوله : ﴿ **وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيوسُفَ وَمُوسَى وَهَارونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسَى** ﴾ فمن كان أبو عيسى وقد أُلحِق بذرية نوح ؟ قال : فأطرق مليًّا . ثم رفع رأسه فقال : كأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله . حلّوا وثاقَهُ ، وأعطوه من المال كذا[2] .

رجل من اليمن والحجاج :

بينما الحجاج جالس في الحجر إذ دخل رجلٌ من أهل اليمن ، فجعل يطوف فوكّل به بعض من معه ، فقال : إذا خرج من طَوْفِه فأْتِني به . فلما

---

(١) ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي .

فرغ من طوْفه ، أتاه به فقال له : ممن أنت ؟ قال : من أهل اليمن . قال : ألك علم بمحمد بن يوسف ؟ قال : نعم . قال : فأخْبِرني عنه . قال : لقد تركتُه أبيض بضًّا سمينًا طويلًا عريضًا . قال : ويلك ، ليس عن هذا أسألك . قال : فعَمَّه ؟ قال : عن سيرته وطُعمته . قال : فأجْوَرُ السِّير ، وأخْبَث الطُّعم ، وأعْدَى العداةِ على الله وأحكامه . قال : فغضب الحجاج وقال : ويلك ، أما علمتَ أنه أخي ؟ قال : بلى . قال : أفأنت ما علمت أن الله ربي ؟ والله لهو أمْنَعُ لي منك ، أكْثَر منك لأخيك . قال : أجل ، أرسِلْه يا غلام[1].

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وأبوه :

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لي إليك حاجة ، فأخلني – وعنده مسلمة بن عبد الملك بن مرْوان – فقال له عمر : أسِرٌّ دون عَمِّك ؟ فقال : نعم . فقام مسلمة وخرجَ . وجلس بين يديه فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما أنت قائل لربّك غدًا إذا سألك فقال : رأيت بدعةً فلم تُمتها ، أو سُنَّة لم تُحْيِها ؟ فقال له : يا بني أشيءٌ حمَّلَتكَهُ الرعيّة إليّ ، أم رأي رأيتَهُ من قِبَل نفسك ؟ قال : لا والله ، ولكن رأي رأيته من قبل نفسي ، وعرفت أنك مسئولٌ ، فما أنت قائل ؟ فقال له أبوه : رحمك الله ، وجزاك من ولدٍ خيرًا ، فوالله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير . يا بُنَّي ، إن قومك قد شدّوا هذا الأمر عُقدةً عقدة وعروةً عروةً ، ومتى ما أُريد مُكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم ، لم آمن أن يفتقوا عليّ فَتْقًا تكثُر فيه الدماء ، والله لَزوالُ الدنيا أهْوَن عليّ من أن يُهراق في سببي محجمةٌ من دم ، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا ، إلا وهو يُميت فيه بدعة ويُحيي فيه سنة ، حتى يحكُم الله

---

(١) سراج الملوك للطرطوشي .

بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الحاكمين .

الخازن وعمر :

كان لعمر بن عبد العزيز غلام ، وكان خازنًا لبيت المال ، وكان لعمر ثلاث بناتٍ ، فجئنه يوم عرفة وقلن له : غدًا العيد ، ونساء الرعيَّة وبناتهم يَلُمْنَنا ، ويقُلن : أنتنّ بنات أمير المؤمنين ، ونراكن عُريانات ، لا أقلّ من ثياب بيضاء تَلْبَسْنها . وبكين عنده ، فضاق صدر عمر فدعا غلامه الخازن ، وقال له : أعطني مُشاهرتي - الراتب الشهري - لشهرٍ واحد . فقال الخازن : يا أمير المؤمنين ، تأخذ المشاهرة من بيت المال سلفًا ، انظر ، إن كان لك عُمرُ شهرٍ ، فخُذ مشاهرةَ شهرٍ . فتحيَّر عمر وقال : نِعم ما قلت أيها الغلام ، وبارك الله فيك . ثم قال لبناته : اكظِمن شهواتكنّ ؛ فإن الجنة لا يدخلها أحد بغير مشقّة[١] .

غلامٌ هاشميّ وعمر بن عبد العزيز :

« لو أن الأمر بالسِّنّ ، لكان في الأُمّة من هو أحقّ منك » :

حينما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وفدتِ الوفود من كل بلد ؛ لبيان حاجتها وللتهنئة ، فوفد عليه الحجازيّون ، فتقدم غلامٌ هاشمي للكلام ، وكان حديث السِّنّ ، فقال عمر : ليتكلمْ من هو أسنُّ منك . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه : قلبِه ولسانِه ، فإذا منح الله عبدًا لسانًا لافِظًا وقلبًا حافظًا ، فقد استحق الكلام ، وعرَف فضله من سمِع خطابه ، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن ، لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك . فقال عمر : صدقت ، قل ما بدا لك . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة ، وقد أتيناك لمنّ الله الذي منّ علينا بك ، ولم يُقدمنا إليك رغبةٌ ولا رهبة ، أما الرغبة : فقد

---

(١) التبر المسبوك .

أتيناك من بلادنا . وأما الرهبة : فقد أمِنَّا جورك بعدْلِك . فقال عمر : عظني يا غلام . فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، إن ناسا من الناس غرّهم حِلْم الله عنهم ، وطول أملهم ، وكثرة ثناء الناس عليهم ، فزلت بهم الأقدام فهوَوْا في النار . فلا يغرنَّك حِلم الله عنك ، وطول أملك ، وكثرة ثناء الناس عليك ، فتزِلّ قدمُك فتلحق بالقوم . فلا جعلك الله منهم ، وألحقَكَ بصالحي هذه الأمة . ثم سكت . فقال عمر : كم عمر الغلام ؟ فقيل : إحدى عشرة سنة . ثم سأل عنه ، فإذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهم ، فأثنى عليه خيرًا ، ودعا له وتمثّل قائلًا :

تعلَّمْ فليسَ المرءُ يُولدُ عالمًا ... وليسَ أخو علمٍ كمنْ هُو جاهلُ
فإنَّ كبيرَ القومِ لا علم عندَهُ ... صغيرٌ إذا التفَّتْ عليه المحافلُ

محمد بن واسع وبلال بن أبي بُردة :

« لا تظلمْ ولا تحتاجُ إلى دعائي » :

دخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة في يوم حارٍّ ، وبلال في حشمه وعنده الثلج ، فقال بلال : يا أبا عبد الله ، كيف ترى بيتنا هذا ؟ قال : إن بيتك لطيّب والجنة أطيب منه . وذكْر النار يُلهي عنه . قال : ما تقول في القدر ؟ قال : جيرانك من أهل القبور ففكّرْ فيهم ، فإن فيهم شغلا عن القدر . قال : ادع لي . قال : وما تصنع بدعائي ، وعلى بابك كذا وكذا ، كلٌّ يقول إنك ظلمتهم . يرتفع دعاؤهم قبل دعائي ؟! لا تظلمْ ولا تحتاجُ إلى دعائي .

مالك بن دينار وبلال بن أبي بُردة :

« ما أدري أيُّهما أكرم على الله » :

خرج بلال بن أبي بردة في جنازة ، وهو أمير على البصرة ، فنظر إلى جماعة وقوفًا فقال : ما هذا ؟ قالوا : مالك بن دينار يذكّر الناس . فقال لوصيف معه : اذهب إلى مالك بن دينار ، فقل له يرتفع إلينا إلى القبر . فجاء الوصيف

فأدّى الرسالة إلى مالك ، فصاح به مالك : ما لي إليه حاجة فأجيئه فيها ، فإن تكن له حاجة ، فليجيء إلى حاجة نفسه . فلما دفنوا ميِّتهم ، قام بلال بمن معه إلى حلقة مالك ، فلما دنا منه ونزل ، نزل من معه ، ثم جاء يمشي إلى الحلقة حتى جلس ، فلما رآه مالك بن دينار سكت ، فأطال السكوت ، فقال بلال : يا أبا يحيى ذكّرنا . فقال : ما نسيتَ شيئًا فأذكِّرك به . قال : فحدِّثنا . قال : أمّا هذا فنعم ، قدم علينا أمير من قبلك على البصرة فمات فدفناه في هذه الجبانة ، ثم أتينا بزنجي فدفناه إلى جنبه . فوالله ما أدري أيهما كان أكرم على الله سبحانه . فقال بلال : يا أبا يحيى ، أتدري ما الذي جرأك علينا ، وما الذي أسكتنا عنك ؟ لأنك لم تأكل من دراهمنا شيئًا . أما والله لو أخذت من دراهمنا شيئًا ، ما اجترأت علينا هذه الجرأة .

يقول الطرطوشي : فأفاد هذا الحديث علمًا . ألا فاتقوا دراهمهم . وما أشبه هذا بقول القائل :

مَنْ كان لا يطأُ الترابَ برجلِهِ وَطِيء الترابَ بناعمِ الخَدِّ
مَن كانَ بينَكَ في الترابِ وبينَهُ شبرانِ كان بغايةِ البعدِ
لو بُعثرتْ للناسِ أطباقُ الثَّرى لم يُعرَفِ المولى مِنَ العبدِ[1]

مالك بن دينار والمهلّب :

« أعرفك حقَّ المعرفة » :

عن الأصمعي عن أبيه ، قال : مرَّ الملهب بن أبي صفرة على مالك ابن دينار ، وهو يتبختر في مِشيته ، فقال له مالك : أما علمت أن هذه المشية تكره إلا بين الصَّفّيْن ؟ فقال له المهلّب : أما تعرفني ؟ فقال مالك : أعرفك أحسن المعرفة . قال : وما تعرف مني ؟ قال : أمَّا أولك نطفة مذرة ،

(١) سراج الملوك للطرطوشي .

وآخرك ، جيفة قَذِرة ، وأنت فيما بينهما تحمل العذرة . قال : فقال المهلب : الآن عرفتني حق المعرفة .

نعم يا أخي يحيى :

أنفٌ يسيل وأذن كلها سَهَكُ والعين مُرْمَصَة والثَّغرُ مَلْعُوبُ
يا ابنَ التراب ومأكولُ الترابِ غدًا قصِّرْ فإنك مأكولٌ ومشروبُ

حطيط الزَّيَّات والحجَّاج :

« أنت خطيئةٌ من خطاياه » :

جِيءَ بحطيط الزيات إلى الحجاج ، فلما دخل عليه قال : أنت حطيط ؟ قال : نعم ، سلِ عمّا بدا لك ، فإني عاهدتُّ الله عند المقام على ثلاث خصال : إن سُئلتُ لأصدقنَّ ، وإن ابتُليتُ لأصبرنّ ، وأن عوفيت لأشكرنّ . قال : فما تقول فيَّ ؟ قال : أقول : إنك من أعداء الله في الأرض ، تنتهك المحارم ، وتقتل بالظّنة . قال : فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : أقول : إنه أعظم جرمًا منك ، وأنت خطيئة من خطاياه . قال : فقال الحجاج : ضعوا عليه العذاب . قال : فانتهى به العذاب ، حتى انتحلوا لحمه . فما سمعوه يقول شيئًا ، ثم مات . رحمه الله . وكان ابنَ ثمان عشرة سنة .

أحد الزُّهاد وخليفة :

حُكيَ أن بعض الزهاد دخل على بعض الخلفاء ، فقال له : عظني . فقال له : يا أمير المؤمنين ، كنت أسافر الصين ، فقدِمتها مرة وقد أصيب ملكُها بسمْعِه ، فبكى بكاء شديدًا ، وقال : أما إني لست أبكي على البليَّة النازلة ، ولكن أبكي لمظلوم على الباب يصرخ فلا يؤْذن له ، ولا أسمع صوته ، ولكن إن ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب ، نادوا في الناس : لا يلبَس أحد ثوبا أحمر إلا متظلِّم . ثم كان يركب الفيل في نهاره حتى يرىٰ

حمرة ثياب المظلومين . فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله تعالى ، غلبت عليه رأفته على المشركين . وأنت مؤمن بالله تعالى ، ومن أهل بيت نبيه ﷺ . كيف لا تغلب رأفتك بالمؤمنين[1]؟!.

صالح المري[2] والمهدي :

قال صالح المري : دخلت على المهدي ، فلما مثُلْت بين يديه قلت : يا أمير المؤمنين احمل الله ما أكلمك به اليوم ، فإن أولى الناس بالله أحملهم لغلْظة النصيحة فيه ، وجدير بمن له قرابة برسول الله ﷺ أن يرث أخلاقه ويأتم بهدْيه ، وقد ورثك الله من العلم والحجة ميراثا قطع به عذرَك . واعلم أن رسول الله ﷺ خصمُ مَن خالَفه في أمته ، ومن كان محمد خصمَه : اللَّهُ خصمُه ، فأعدَّ لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حُججًا تضْمن لك النجاة ، أو استسلم للهلكة . واعلم أن أبطأ الصَّرعى : نهضة صريعِ هوًى يدّعيه إلى الله قربةً ، وأن أثبتَ الناس قدمًا يوم القيامة آخَذُهم بكتاب الله وسنة نبيه . فمثلك لا يكابر المعصية ، ولكن تُمثَّل له الإساءة إحسانًا ، وتشهد له عليها خونة العلماء ، وبهذه الحبالة تصيدتِ الدنيا نظراءَك ، فأحسِن الحَمْل ؛ فقد أحسنتُ إليك الأداء . قال : فبكى المهدي . يقول مَن روى هذا القول : وقد أخبر بعض الكتَّاب في الدواوين ، أنه رأى هذا الكلام مكتوبًا في دواوين المهدي .

صالح بن عبد الجليل والمهدي :

« أنت أعلمُ بموضع النجاة » :

دخل صالح بن عبد الجليل - وكان ناسكًا مفوها - على المهدي ، فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال : تكلم . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه لما

---

(١) فضائح الباطنية للغزالي .

(٢) صالح بن بشير المري ، واعظ البصرة ، روى عن الحسن البصري .

سهل علينا ما توعَّر على غيرنا من الوصول إليك ، قمنا مقام المؤدي عنهم وعن رسول الله ﷺ ، بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي ، لانقطاع عذر الكتمان في التَّقيّة ، لا سيما حين اتسمتَ بميْسَم التواضع ، ووعدتَ الله وحملةَ كتابه إيثار الحقّ على ما سواه ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : مَن حجب الله عنه العلم ، عذّبه على الجهل ، وأشدُّ منه عذابًا من أقبل إليه العلم فأدبرَ عنه ، ومَن أُهدي إليه العلم فلم يعمل به ، فقد رغب عن هدية الله ، وقصر بها ، فاقبلْ ما أهدىٰ الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيقٍ . فبكى المهدي حتى ظنوا أنه لا يسكت ، وقال : يا صالح ، **لو وجدتُ رجالًا يعملون بما آمرهم به وما أنوي في رعيتي** ، لظننت أني ألقىٰ الله عز وجل وأمْر أمة محمد ﷺ أقلّ ذنوبي وأهون حسابي . ولكن دُلّني على وجه النجاة ، فإن لم أعمل كنت أنا الجاني على نفسي ، والمؤثر هوايَ على رضا ربي . قال له صالح : أنت يا أمير المؤمنين أعلم بموضع النجاة . قال : لو كنتُ أعلم بموضع النجاة ما كنتُ أولى بعظتي مني بعظتك ، وما هو إلا أن أركب سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولا يَصلُح والله عليها أحد من أهل هذا العصر ؛ وذلك أن الناس في الزمن الماضي كان يُرضي أحدهم التمر البالي ، وتنفعه الكسرة اليابسة ، والماء القَراح . وهم اليوم في مطارف الخزّ والوشْي ، ومائدة أحدهم في اليوم تمثل غنىٰ ذي العيال في زمن عمر ، ولو أنني حملتُ الناس على سيرة العمريْن في هذا العصر ، كنت أولَ مقتول ؛ وذلك أن الفطام عن هذا الحطام شديد ، لا يصبر عليه إلا المرزأ السابق ، فأطرق صالح مفكّرًا ثم رفع رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه ليقع في خَلَدي أنك قبلت قولي قبول تحقيقٍ . فقال المهدي : شهيدي على ذلك هو الله . فقام صالح ، وقال : أعانك الله يا أمير المؤمنين على صالح نيَّتك ، وأعطاك أفضل ما تأمَلُه في رعيَّتك ، ووهب لك أعوانًا صالحين بررة ، يعملون بما

يجب عليهم فيك . ثم خرج .

حماد بن سلمة ومحمد بن سليمان :

« أدركنا العلماءَ وهم لا يأتون أحدًا » :

قال مقاتل بن صالح الخراساني : دخلتُ على حماد بن سلمة مفتي البصرة ، فإذا ليس في البيت إلا حصيرٌ ، وهو جالس عليه ، ومصحف يقرأ فيه ، وجراب فيه علْمُه ، ومطهرة يتوضأ فيها ، فبينما أنا عنده جالس ، إذا بطارقٍ يطرق الباب ، فقال : يا صبية،اخرجي فانظري مَن هذا ؟ فقالت : رسول محمد بن سليمان . قال : قولي له يدخل وحده . فدخل ، فناوله كتابًا فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن سليمان إلى حماد ابن سلمة ، أما بعد : فصبَّحك الله بما صبّح به أولياءه وأهل طاعته . وقعتْ مسألة فأْتنا نسألك عنها . والسلام ». قال : يا صبية ، هلمِّي الدواة . ثم قال لي : اقلب الكتاب واكتب : « أما بعد،وأنت فصبّحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته . إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدًا . فإن كانت وقعت مسألة فأْتِنا واسألنا عما بدا لك . وإن أتيتني فلا تأتني إلا وحدَك ، ولا تأتني بخيلك ورَجْلِك ، فلا أنصح ، ولا أنصح إلا نفسي . والسلام » فبينما أنا عنده ، إذ دقّ داقٌّ الباب . فقال : يا صبية،اخرجي ، فانظري من هذا ؟ فقالت : محمد بن سليمان . قال : قولي له : ليدخلْ وحده . فدخل فسلم ، فجلس بين يديه ، فقال : ما لي إذا نظرتُ إليك ، امتلأتُ رعبًا . فقال حماد : سمعتُ ثابتًا البناني يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن العالم إذا أراد بعلمه وجهَ الله عز وجل ، هابه كلُّ شيء ، وإذا أراد أن يكتنز به الكنوز ، هاب من كلِّ شيء » . فقال : ما تقول رحمك الله في رجل له ابنانِ ، وهو عن أحدهما أرضى ، فأراد أن يجعل له في حياته ثُلثَيْ ماله ؟ قال : لا يفعل رحمك الله ؛ فإني سمعت البناني

يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله أن يعذب عبدَه بماله ، وقفه عند موْته لوصية جائرة » . قال : فحاجة إليك . قال : هات ؛ ما لم تكن رزية في دين . قال : أربعون ألف درهم تأخذها ؛ تستعين بها على ما أنت عليه . قال : ارددها على مَن ظلمته بها . قال : والله ما أعطيتك إلا ما ورثته . قال : لا حاجة لي فيها ، ازوها عني ، زَوَىٰ الله عنك أوزارك . قال : فتقسِمُها . قال : فلعلي إن عدلْت في قسمتها أن يقول بعض مَن لم يُرزق منها : لم يعدِل . ازوِها عني ، زوىٰ الله عنك أوزارك[1].

بهلول[2] المجنون والرشيد :

« لا يعطيك وينساني » :

عن الفضل بن الرَّبيع ، قال : حججتُ مع هارون الرشيد ، فمررنا بالكوفة ، فإذا بهلول المجنون يَهذي ، فقلت له : اسكُتْ ؛ فقد أقبل أمير المؤمنين . فسكت . فلما حاذاه الهوْدَجُ ، قال : يا أمير المؤمنين ، حدثني أيمن بن نابل ، قال : أنبأنا قدامة بن عبد الله العامري قال : « رأيت النبي ﷺ بمنىٰ على جمل ، وتحته رَحْل أسود ، فلم يكنْ ثَمَّ طردٌ ولا ضرْبٌ ولا إليكَ إليكَ »[3]. قلت : يا أمير المؤمنين ، إنه بهلول المجنون . قال : قد عرفته . قال : يا بهلول . فقال : يا أمير المؤمنين :

هبْ أنك قد ملكتَ الأرضَ طَرًّا ... ودانَ لك العبادُ فكانَ ماذا
أليس غدًا مصيرك جوْفُ قبرٍ ... ويحثو التُّربَ هذا ثم هذا

---

(١) صفة الصفوة .
(٢) هو أبو وهيب بهلول بن عمرو المجنون ، من أهل الكوفة .
(٣) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح ، ورواه النسائي والدارمي وابن ماجة .
(إليكَ إليكَ) : اسم فعل ، بمعنى تنحَّ عن الطريق .

قال : أجدتَّ يا بهلول ، أفغيره ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، من رزقه الله جمالًا ومالًا ، فعفَّ في جماله وواسى في ماله ، كُتب في ديوان الأبرار . قال : فظن أنه يريد شيئًا . قال : فإنا قد أمرنا بقضاء دَينك . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين . لا تقضِ دَينا بدَين ، ارددِ الحق إلى أهله ، واقضِ دَيْن نفسك من نفسك . قال : إنا قد أمرنا أن يُجرَى عليك . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، لا يعطيك وينساني . أجرى عليَّ الذي أجرى عليك ، لا حاجة لي في جرايتك .

« وهذه قصورهم ، وهذه قبورهم » :

حينما التقى هارون الرشيد بالبهلول ، قال له : عظني يا بهلول . فقال له بهلول : بمَ أعظك يا أمير المؤمنين ؟! هذه قصورهم ، وهذه قبورهم . ثم قال : كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق بين يديه ، وسألك عن النقير والفتيل والقطمير ، وأنت عطشان جوعان عُريان ، وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون . فإذا بهارون تخنقه العَبرة ، وتسيل دموعه ، ويأمر بصِلَةٍ لبهلول ، فقال له بهلول : ردَّها على من أخذتها منهم ، قبل أن لا تجد لهم شيئًا ترتضيهم به . ثم أنشد :

دعِ الحرْصَ على الدنيا … وفي العيْشِ فَلا تَطمعْ
فإنَّ الرزقَ مقسُوم … وسوءُ الظنِّ لا يَنفعْ
فقيرٌ كلُّ ذي حرْصٍ … غَنيٌّ كلُّ مَنْ يقنعْ[1]

ابن السَّماك والرشيد :

« لو مُنعتْ عنك هذه الشربة ؟ » :

حينما دخل ابن السماك على الرشيد أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : عظني . فقال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك

(١) المصباح المضيء لابن الجوزي .

واقف غدًا بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنة أو نار . فبكى هارون حتى ابتلتْ لحيته بالدموع ، ثم طلب هارون ماءً ليشرب ، فلما وضع الماء على فيه ليشرب ، قال له ابن السماك : على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ ، لو منعت عنك هذه الشربة فبكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي . فقال له ابن السماك : اشربْ هنَّأك الله . فلما شرب ، قال له : أسألك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ ، لو منعتَ خروجها من بدنك ، بماذا كنت تشتريها ؟ قال : بجميع ملكي . قال ابن السماك : إن ملكًا قيمته شربة ماء لجدير أن لا يُنافس فيه . فبكى هارون الرشيد ، حتى أشفق الحاضرون عليه .

« **لا يكنْ أحدٌ أطوعَ لله منك** » :

قال ابن السماك : أرسل إليَّ هارون الرشيد ، فدعاني ، فقال لي : يا ابن السماك ، عظني . فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن أولى الناس أن يرغب في نعيم الآخرة من ذاق نعيم الدنيا . قال : فبكى ، ثم قال : زدْنا . فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى لم يرضَ لك أن يجعل فوقك في الأرض أحدًا ، فلا ترض أن يكون في الأرض أحد أطوع لله منك . قال : فبكى هارون حتى رحمتُه . فقال لي الفضل : ارفق بأمير المؤمنين . ثم قال : تكلَّمْ يا ابن السماك وادعُ . فدعوتُ بدعاءٍ أعجبه ، وقلت في دعائي : اللهمَّ إنك قلتَ : ﴿ **وأقسموا بالله جَهد أيْمانهم لا يبعث اللَّهُ مَن يموت** ﴾ أفتراك يا رب تجمع بين أهل القَسَمَيْن في مكان واحد . وهارون يبكي[1] .

وجاء في « سراج الملوك » للطرطوشي : لما دخل ابنُ السّماك على هارون الرشيد ، قال له : عظني . قال : يا أمير المؤمنين ، إن الله لم يرضَ

---

(١) المصباح المضيء لابن الجوزي .

لخلافته في عباده غيركَ ، فلا ترض من نفسك إلا بما رضيَ الله به عنك ، فإنك ابن عمّ رسول الله ﷺ ، وأنت أولى الناس بذلك . يا أمير المؤمنين ، مَن طلب فِكاك رقبته في مهلة مِن أجَله ، كان خليقًا أن يعتق نفسَه . يا أمير المؤمنين ، منَ ذوَّقته الدنيا حلاوتَها بركون منه إليها ، أذاقتْه الآخرة مرارتها بتجافيه عنها . يا أمير المؤمنين ، ناشدتك الله أن تَقدُم إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض ، وقد دُعيتَ إليها ، وليس لك فيها نصيب . يا أمير المؤمنين ، تموت وحدك وتحاسَب وحدك ، وإنك لا تَقدُم إلا على نادمٍ مشغول ، ولا تُخلف إلا مفتونًا مغرورًا ، وإنك وإيّانا في دار سفرٍ وجيران ظعن .

وجاء فيه أيضًا :

« هذا ذلّ الصفة ، فكيف بذلِّ المُعاينة ؟! » :

بعث هارون إلى ابن السماك ، فلما أخذه الحرس بغير رفْق ورآه الرشيد ، قال : ارفقوا بالشيخ . فلما وقف بين يديه ، قال له : يا أمير المؤمنين ، ما مرَّ بي يوم منذ ولدتني أمي - أتعب فيه من يومي هذا ، فاتقِ الله في خلقه ، واحفظ محمدًا في أمته ، وانصح لنفسك في رعيَّتك ؛ فإن لك مقامًا بين يدي الله تعالى أنت فيه أذلّ من مقامي هذا بين يديك. فاتق الله ، واعلم أن مِن أخْذ الله وسَطوته على أهل المعصية كَيْت وكَيْت . قال : فاضطرب الرشيد على فراشه ، حتى نزل إلى مصلًّى بين يديْ فراشه ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، هذا ذلُّ الصّفة ، فكيف لو رأيتَ ذلَّ المعاينة ؟! فكادتْ نفس الرشيد تخرج .

شقيق البلْخي والرَّشيد :

قال هارون الرشيد لشقيق البلخي : أوصني . فقال له شقيق : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قد أجلسك مكان الصِّدِّيق ، وإنه تعالى يطلب منك

مثل صِدْقه ، وإنه تعالى أعطاك مكان الفاروق وهو يطلب منك مثل عدْله ، وإنه تعالى أجلسك مكان عثمان وهو يطلب منك مثل حيائه وخوفه ، وإنه أعطاك مكان عليّ وهو يطلب منك مثل علمه وحُكمه . فقال له الرشيد : زدْني يا شقيق . فقال شقيق : يا أمير المؤمنين ، إن لله دارًا تُعرف بجهنم ، وإنه جعلك بوَّابًا عليها ، وأعطاك ثلاثة أشياء لتردَّ عباده عنها : أعطاك بيت المال والسوْط والسيف ، وأمرك أن تمنع الناس عن دخول النار ، فمن جاءك مُحتاجًا إلى طعام حلال ، فلا تمنعْه حقه في بيت المال ، حتى لا يسرق ويقتل . ومن خالف أمر الله ، وخرج على حدود الله فأدّبه بالسوط . ومن قتل نفسًا بغير حق ، فاقتله بالسيف ، إلا أن يعفو ولي المقتول . فإن لم تفعل في مُلكك بدين الله ، فأنت زعيم أهل النار . فقال له الرشيد : زدْنا . فقال له شقيق : يا أمير المؤمنين ، إن مَثَلك كمَثل منبع الماء ، والعلماء والأمراء هم السواقي على منبع الماء ، فإذا كان المنبع صافيًا ، نقلت السواقي الماء صافيًا ، وإن كان النبع كَدَرًا ، كان ماء السواقي كدرًا . فبكى هارون الرشيد من قوْله ، وأمر له بمال . فأبى أن يأخذه وتركه ، وانصرف .

عمرو بن عُبيد[1] والمنصور :

« أظهرِ الحق يتبعْك أهلُه » :

قال المنصور : يا أبا عثمان ، عظني . فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **والفجر وليالٍ عشر والشفعِ والوتر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فصبَّ عليهم ربك سوْطَ عذابٍ إن ربك**

(١) شيخ أهل البدع والمعتزلة ولا كرامة .. وقد سقناها لقبول كلمة الحق ولو من أبعد الناس عنها ؛ فقد قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة عن شيطان الجن الذي عَرَض له : « صدقك وهو كذوب » .

لبالمرصاد ﴾ قال : فبكى بكاءً شديدًا ، كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة ، وقال : إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشترِ نفسك منه ببعضها . واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك ، ثم أفضىٰ إليك ، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك . وإني أحذرك ليلة تَمخضُ صبيحتُها عن يوم القيامة . قال : فبكى والله أشد من بكائه الأول ، حتى رجف جنباه . فقال له سليمان بن مجالد : رفقًا بأمير المؤمنين ، قد أتعبته منذ اليوم . فقال له عمرو : وبمثلك ضاع الأمر وانتشر - لا أبالك - وماذا خفتَ على أمير المؤمنين أن يبكَي من خشية الله ؟ فقال له أمير المؤمنين : يا أبا عثمان،أعني بأصحابك أستعن بهم . قال : أظهرِ الحق يتبعك أهله . قال : لقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم ، تستعين بها على سفرك وزمانك . قال : لا حاجة لي فيها . قال : والله لتأخذنها . قال : والله لا آخذُها . فقال له المهدي : يحلف أمير المؤمنين وتحلف . فقال : من هذا الفتى ؟ فقال : هو ابني محمد ، وهو المهدي ، وولي العهد . فقال : والله لقد سميتَه اسمًا ما استحقه عملُه ، ولقد مهدتَّ له أمرًا أمتعَ ما يكون به ، أشغلَ ما يكون عنه . ثم التفتَ إلى المهديّ فقال : يابن أخي ، إذا حلَف أبوك ، وحلَف عمك ، فإن أباك أقدر على الكفَّارة من عمِّك . ثم قال : يا أبا عثمان ، هل من حاجة ؟ قال : نعم . قال : وما هي ؟ قال : لا تبعثْ إليَّ حتى آتيك . قال : إذًا لا نلتقي . قال : عن حاجتي سألتني . قال : فاستحفظه وودعه ، ونهض قائمًا . فلما ولّى مدَّه بصرَه ، وهو يقول :

كلُّكـمْ يمشـي رُويـدْ　　　كلُّكـمْ يطلـبُ صَيـدْ
غيـرَ عمـرو بـن عُبَيـدْ

« **لَيتقربنَّ إليك بالعدلِ مَن لا نيَّةَ له فيه** » :

دخل عمرو بن عبيد على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله عز وجل يوقفك ويسائلك عن مثقال ذرةٍ من الخير والشرِّ . وإن الأمة

خُصماؤُك يوم القيامة ، وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك ، ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليْك . وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية . يا أمير المؤمنين ، إن وراء بابك نيرانًا تتأجج من الجور ، والله ما يُحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه ﷺ . قال : فبكى المنصور . فقال سليمان بن مجالد ، وهو واقف على رأس المنصور : يا عمرو ، قد شققتَ على أمير المؤمنين . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين مَن هذا ؟ قال : أخوك سليمان بن مجالد . قال عمرو : ويلك يا سليمان ، إن أمير المؤمنين يموت ، وإن كل ما تراه يَنفَد ، وإنك جيفة غدًا بالفناء ، لا ينفعك إلا عمل صالح قدَّمته ، ولَقرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قُرْبك ، إذا كنت تطوي عنه النصيحة وتنهى من ينصحه .. يا أمير المؤمنين ، إن هؤلاء اتخذوك سُلَّمًا إلى شهواتهم . قال المنصور : فأصنعُ ماذا ؟ ادعُ لي أصحابك ، أُوَلِّهم . قال : ادع أنت بعمل صالح تُحدِثه ، ومرْ بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس ، واستعمل في اليوم الواحد عمَّالًا ، كلما رابَك منهم ريْب ، أو أنكرت على رجل عزلْتَه وولَّيْت غيره . فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقرَّبن به إليك مَن لا نيةَ له فيه .

الفُضَيْل بن عِياض :

انظر إلى سيِّدٍ من سادات المتهجدين ، الذي كان إذا وعظ قبّل ابنُ المبارك جبهته ، وقال : يا مُعلّمَ الخير ، من يحسن هذا غيرك .

انظر إليه حين يقول : لَأَنْ يدنو الرجل من جيفة منتنةٍ ، خير له من أن يدنو إلى هؤلاء - يعني السلطان -.

وقال أيضًا : رجل لا يخالط هؤلاء ، ولا يزيد على المكتوبة ، أفضل عندنا من رجل يقوم الليل ، ويصوم النهار ، ويحج ويعتمر ، ويجاهد في سبيل الله .

واسمع يا أخي إلى الجبال حين تتكلم،استمع إلى زواجر الكلم تُلقى على مسامع الخليفة من قِبل متهجد ، وهو الفُضَيل : « قال الفَضْل بن الربيع : حجّ أمير المؤمنين ، فأتاني فخرجتُ مسرعًا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إليّ أتيتك . فقال : ويحك ، قد حاك في نفسي شيء ، فانظر لي رجلًا أسأله . فقلت : هاهنا سفيان بن عيينة . فقال : امضِ بنا إليه . فأتيناه ، فقرعنا الباب ، فقال : مَن ذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعًا ، فقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلتَ إليّ أتيتك . فقال : خذ لما جئناك له - رحمك الله - فحدَّثه ساعةً ، ثم قال له : عليك دَيْن ؟ فقال : نعم . قال : أبا عباس ، اقضِ دَيْنه . فلما خرجنا ، قال : ما أغنى عني صاحبك شيئًا ، انظر لي رجلًا أسأله . قلت : هاهنا عبد الرزاق بن همام . قال : امض بنا إليه . فأتيناه ، فقرعنا الباب ، فخرج مسرعًا ، فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين . فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إليّ لأتيتك . قال : خذ لما جئناك له ، فحادثه ساعةً ، ثم قال له : عليك دَيْن ؟ قال : نعم . قال : أبا عباس ، اقضِ دَيْنه. فلما خرجنا ، قال : ما أغنى عني صاحبك شيئًا ، انظر لي رجلًا أسأله . قلت : هاهنا الفضيل بن عياض . قال : امضِ بنا إليه . فأتيناه فإذا هو قائم يصلي ، يتلو آية من القرآن يردّدها ، فقال : اقرع الباب . فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين . فقال : ما لي ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله ، أما عليك طاعة ؟ أليس قد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس للمؤمن أن يُذلّ نفسه » فنزل ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا فجعلنا نجول بأيدينا ، فسبقت كفُّ هارون قبلي إليه ، فقال : يالها من كفٍّ ! ما ألْينها إن نجتْ غدًا من عذاب الله عز وجل ! فقلت في نفسي : ليكلمنّه الليلة بكلام من تقي قلب نقيّ . فقال له : خذ لما جئناك له ،

رحمك الله . فقال : إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم ابن عبد الله ، ومحمد بن كعب ، ورجاء بن حيْوة ، فقال لهم : إني قد ابتُليتُ بهذا البلاء ، فأشيروا عليّ . فعدّ الخلافة بلاء ، وعددتَّها أنت وأصحابك نعمة . فقال له سالم بن عبد الله : إن أردتّ النجاة من عذاب الله فصم الدنيا ، وليكن إفطارك منها الموت . وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المؤمنين عندك أبًا ، وأوسطهم أخًا ، وأصغرهم عندك ولدًا ، فوقِّر أباك ، وأكرمْ أخاك ، وتحنّنْ على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله ، فأحبّ للمسلمين ما تحبّ لنفسك ، واكرْه لهم ما تكره لنفسك ، ثم متْ إذا شئت . وإني أقول لك ؛ فإني أخاف عليك أشدّ الخوف يومًا تزِلُّ فيه الأقدام ، فهل معك رحمك الله مثلُ هذا ؟ أو مَنْ يشير عليك بمثل هذا ، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا ، حتى غُشي عليه ، فقلت له : ارفُقْ بأمير المؤمنين . فقال : يا ابن الربيع ، تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ! ثم أفاق ، فقال له : زدني ، رحمك الله . فقال : يا أمير المؤمنين ، بلَغني أن عاملًا لعمر بن عبد العزيز شكا ، فكتب إليه عمر : يا أخي ، أذكّرك طولَ سهر أهل النار مع خلود الأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله ، فيكون آخرَ العهد ، وانقطاع الرجاء . قال : فلما قرأ الكتاب طوى البلاد ، حتى قدم على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : ما أقدمَك ؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك ، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل . قال : فبكى هارون بكاء شديدًا ، ثم قال له : زدني رحمك الله . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن العباس عمَّ المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أمِّرني على إمارة . فقال له النبي ﷺ : « إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعلْ » . فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا ، فقال له : زدني ، رحمك الله . قال : يا حسنَ الوجه ،

أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإياك أن تُصبح وتمسي وفي قلبك غشٌّ لأحد من رعيتك ؛ فإن النبي ﷺ قال : « من أصبح لهم غاشًا ، لم يرحْ رائحة الجنة » فبكى هارون الرشيد ، وقال له : عليك ديْن ؟ قال : نعم ، ديْن لربي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي إن سألني ، والويل لي إنْ ناقشني ، والويل لي إن لَمْ أُلهم حجتي . قال : إنما أعني من ديْن العباد ؟ قال : إن ربي لم يأمرني بهذا ، إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره ، فقال جل وعز : ﴿ **وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يُطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ . فقال له : هذه ألف دينار ، فأنفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادتك . فقال : سبحان الله ، أنا أدلّك على طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا ! سلّمك الله ووفقك . ثم صمت فلم يكلمنا ، فخرجنا من عنده ، فلما صرنا على الباب ، قال هارون : إنْ دللتني على رجل فدلّني على مثل هذا . هذا سيد المسلمين »[1].

« هذا كتاب الله بين الدَّفتيْن » :

حدث يحيى بن يوسف الزمي عن الفضيل بن عياض ، قال : لما دخل على هارون الرشيد أمير المؤمنين ، قال : أيّكم هو ؟ قال : فأشاروا إلى أمير المؤمنين ، فقال : أنت هو يا حسنَ الوجه ؟! لقد كُلِّفتَ أمرًا عظيمًا ، إني ما رأيت أحدًا هو أحسن وجهًا منك ، فإن قدرت أن لا تُسوِّد هذا الوجه بلفحة من النار ، فافعل . فقال لي : عظني . فقلت : بماذا أعظك ؟! هذا كتاب الله تعالى بين الدفتين ، انظر ماذا عمل بمن أطاعه ؟ وماذا عمل بمن عصاه ؟ إني رأيتُ الناس يُعرضون على النار عرضًا شديدًا ، ويطلبونها طلبًا شديدًا حثيثًا ، أمَا والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها . فقال : عدْ إليّ . فقال : لو لم تبعث إليّ لم آتِك ، وإن انتفعتَ بما سمعتَ مني عدتُ إليك.

(١) الحلية ٨/١٠٥ - ١٠٧ .

عبد الله الخُراساني وهارون الرشيد :

حُكي عن إبراهيم بن عبد الله الخراساني أنه قال : حججتُ مع أبي - سنةَ حجّ الرشيد - فإذا نحن بالرشيد ، وهو واقف حاسرٌ حافٍ على الحصباء ، وقد رفع يديْه وهو يرتعد ويبكي . ويقول : يا رب ، أنت أنت ، وأنا أنا ، أنا العوّاد إلى الذنب ، وأنت العوّاد إلى المغفرة ، اغفر لي . فقال لي : يا بنّي ، انظر إلى جبّار الأرض كيف يتضرّع إلى جبّار السماء .

هارُونُ الرَّشيد ورجلٌ :

أمير المؤمنين هارون الرشيد أمَر يحيى بن خالد بحبْس رجل جنى جناية ، فحبسه ، ثم سأل عنه الرشيدُ ، فقيل : هو كثير الصلاة والدعاء . فقال للموكّل به : عَرِّضْ له بأنْ يكلّمني ، ويسألني إطلاقَه . فقال له الموكّل ذلك . فقال : قلْ لأمير المؤمنين : إن كلّ يومٍ يمضي من نعمتك يُنقص من محنتي ، فالأمر قريب ، والموْعدُ الصراطُ ، والحاكمُ الله . فخرّ الرشيد مغشيًّا عليه ، ثم أفاق وأمر بإطلاقه .

أسلم مولى عمرَ وجعفر بنُ أبي سليمان :

« مَن أبطأ به عملُه لم يُسرعْ به نسبُه » :

روى زيد بن أسلم عن أبيه ، قال : قلت لجعفر بن سليمان بن عبد الله بن أبي طالب الهاشمي ، والي المدينة : احذر أن يأتَي رجل غدًا ، ليس له في الإسلام نسبة ، ولا أبٌ ، ولا جدٌّ ، فيكون أولى برسول الله منك ، كما كانت امرأة فرعونَ أوْلى بنوحٍ ولوطٍ عليهما السلام من زوْجيْهما ، وكما كانت زوجة نوح ولوط أولى بفرعون من زوجته . مَن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسُبه ، ومن أسرع به عمله لم يُبطىءْ به نسُبه .

الأَمينُ بن هارونَ الرشيد :

قال الإمـام أحمد : بلغني أنّ إسماعيل بن عُلَيَّة الحافظ أُدخِل على

الأمين ، فلما رآه ، زحَف ، وجعل يقول : يا ابنَ الفاعلة ، تتكلم في القرآن[(١)]؟! وجعل إسماعيل يقول : جعلني الله فداك ، زلةٌ من عالِم ، ثم قال أحمد : إنْ يغفرِ اللَّهُ له - يعني الأمين - فبها[(٢)].

شيخ الإسلام ، أبو نعيم ، الفضْل بن دُكَين :

قال الإمام أحمد : شيخانِ كان الناس يتكلمون فيهما ، ويذكرونهما ، وكنا نلقى من الناس في أمرهما ما الله به عليم ، قاما لله بأمر لم يقُم به كبير أحد[(٣)] .

قال أبو العباس السرّاج عن الكديمي ، قال : لما دخل أبو نُعيم على الوالي ليمتحِنَهُ ، وثَمّ يونس وأبو غسّان وغيرهما ، فأول مَنِ امتُحن فلانٌ فأجاب ، ثم عطَفَ على أبي نُعيم ، فقال : قد أجاب هذا ، فما تقول ؟ فقال : والله ما زلتُ أتّهم جَدَّه بالزندقة ، ولقد أخبرني يونس بن بُكير أنه سمع جدَّه يقول : لا بأس أن يرمي الجمرة بالقوارير . أدركتُ الكوفة وبها أكثر من سبعمائة شيخ ، الأعمش فمَن دونه ، يقولونه : القرآن كلام الله ، وعنقي أهونُ من زِرّي هذا . فقام إليه أحمد بن يونس ، فقبّل رأسه - وكان بينهما شحناء - وقال : جزاك الله من شيخٍ خيرًا[(٤)].

رحم الله أبا نعيم من إمامٍ حافظ ، قال فيه الإمام أحمد : نُزاحم به سفيانَ بن عُيينة . وقال فيه : كان ثقة ، يقظانَ في الحديث ، ثم قام في أمر

---

(١) وكان إسماعيل يقول بخلق القرآن .
(٢) سير أعلام النبلاء ١١٢/٩ ، وتاريخ بغداد ٢٣٨/٦ .
(٣) تاريخ بغداد ٣٤٨/١٢ - ٣٤٩ ، والسير ١٤٩/١٠ .
(٤) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ٤٨١ ، وتاريخ بغداد ٣٤٩/١٢ ، وتهذيب الكمال لوحة ١٠٩٨ .

الامتحان ما لم يقُم غيره ، عافاه الله .

وقال محمد بن عبد الوهاب الفراء : « كنا نهاب أبا نعيم أشدّ من هيبة الأمير » . والجزاء من جنْس العمل .

قال أبو المظفَّر سِبطُ ابن الجوزي في كتابه « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » : قال عبد الصمد بن المهتدي : لما دخل المأمون بغداد ، نادى بترْك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وذلك لأن الشيوخ بقوْا يُضربون ويُحبسون ، فنهاهم المأمون ، وقال : قد اجتمع الناس على إمام . فمرّ أبو نعيم ، فرأى جنديًّا وقد أدخل يديْه بين فخذَي امرأة ، فنهاه بعنْفٍ ، فحمله إلى الوالي ، فيحمله الوالي إلى المأمون ، قال : فأُدخلتُ عليه بُكرةً وهو يُسبِّح ، فقال : توضأ . فتوضأتُ ثلاثًا على ما رواه عبد خير عن علي ، فصلّيتُ ركعتين ، فقال : ما تقول في رجل مات عن أبويْن ؟ فقلت : للأمّ الثلث ، وما بقي للأب . قال : فإنْ خلّف أبوَيْه وأخاه ؟ قلت : المسألة بحالها ، وسقَطَ الأخُ . قال : فإن خلّف أبوين وأخويْن ؟ قلت : للأم السُّدُس وما بقي للأب . قال : في قول الناس كلّهم ؟ قلت : لا ، إن جدّك ابن عبّاس يا أمير المؤمنين ، ما حجَبَ الأمَّ عن الثلث إلا بثلاثة إخوة . فقال : يا هذا ، مَن نهى مثلك عن الأمر بالمعروف ؟! إنما نهينا أقوامًا يجعلون المعروف منكرًا . ثم خرجتُ[1] .

الإمام الحافظ أبو عثمان ، عفان بن مسلم البصري الصَّفّار :

قال حنبل : حضرت أبا عبد الله وابن معين عند عفّان ، بعدما دعاه إسحاق بن إبراهيم للمحْنة ، وكان أول مَن امتُحن من الناس عفّان ، فسأله يحيى من الغد ، بعد ما امُتحن ، وأبو عبد الله حاضر ونحن معه ، فقال : أخبِرْنا بما قال لك إسحاق . قال : يا أبا زكريا ، لم أُسوِّدْ وجهك ولا وجوه

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/١٤٩ - ١٥٠ ، وتاريخ بغداد ١٢/٣٥٠ .

أصحابك ، إني لم أُجبْ . فقال له : فكيف كان ؟ قال : دعاني ، وقرأ عليّ الكتاب الذي كتب به المأمون من الجزيرة ، فإذا فيه : امتَحِنْ عفّان ، وادعُه إلى أن يقول : القرآن كذا وكذا ، فإن قال ذلك ، فأقرّه على أمره ، وإن لم يجبْك إلى ما كتبتُ به إليك ، فاقطعْ عنه الذي يُجرى عليه . وكان المأمون يُجري على عفان كلَّ شهرٍ خمسمائة درهم ، فلما قرأ عليّ الكتابَ ، قال لي إسحاق : ما تقول ؟ فقرأتُ عليه ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ حتى ختمتُها ، فقلت : أمخلوق هذا ؟ فقال : يا شيخ ، إنّ أمير المؤمنين يقول : إنك إنْ لم تُجبْه إلى الذي يدعوك إليه ، يقطع عنك ما يُجري عليك . فقلت : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما تُوعدون** ﴾ [الذاريات : ٢٢] فسكت عني ، وانصرفت ، فسُرّ بذلك أبو عبد الله ويحيى[١] .

قال إبراهيم بن ديزيل : لما دُعي عفان للمحنة ، كنت آخذًا بلجام حماره ، فلما حضر عُرِض عليه القوْل ، فامتنع أن يُجيبَ ، فقيل له : يُحبس عطاؤك . قال : وكان يُعطى في كل شهر ألف درهم . فقال ﴿ **وفي السماء رزقكم وما تُوعدون** ﴾ فلما رجع إلى داره عذله نساؤه ومَن في داره ، قال : وكان في داره نحو أربعين إنسانًا ، فدقّ عليه داقٌّ الباب ، فدخل عليْه رجل شبّهتُه بسمّان أو زيّات ، ومعه كيس فيه ألف درهم ، فقال : يا أبا عثمان ، ثبّتك الله كما ثبّتَّ الدِّين ، وهذا في كل شهر[٢] .

أخي ، « اعلم أنه إذا هذّب الآمر نفسَه ، أثّر قولُه إما في زوال المنكر ، أو في انكسار المذنب ، أو إلقاء الهيبة له في القلوب .

خرج إبراهيم الخوّاص لإنكار منكر فنبح عليه كلبٌ ، فما قَدَر على الوصول إلى مكان المنكر ، فرجع إلى مسجده وتفكّر ساعةً ، ثم قام ، فجعل

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٤٤/١٠ ، وتاريخ بغداد ٢٧١/١٢ .
(٢) تاريخ بغداد ٢٧١/١٢ - ٢٧٢ ، والسير ٢٤٥/١٠ .

الكلب يتبصْبَص حوله ولا يُؤذيه ، حتى أزال المنكر ، فسئل عما جرى له ، فقال : إنما نبح عليّ لفسادٍ دخل عليّ في عقدٍ بيني وبيْن الله عز وجل ، فلما رجعتُ ذكرته ، فاستغفرت »[١].

عبد الله بن مرزوق :

« لما قدِم المهدي مكة ، لبث بها ما شاء الله ، فلما أخذ في الطّواف نحّى الناس عن البيت ، فوثب عبد الله بن مرزوق ، فلبّبه بردائه ، ثم هزّه وقال له : انظر ما تصنع ! مَن جعلك بهذا البيت أحقَّ ممن أتاه من البُعْد ، حتى إذا صار عنده حُلْتَ بينه وبينه ؟! وقد قال الله تعالى : ﴿ **سواءً العاكِف فيه والبَاد** ﴾ مَن جعل لك هذا ؟ فنظر في وجهه - وكان يعرفه لأنه ابن مواليهم - فقال : أعبدُ الله بن مرزوق ؟ قال : نعم . فأُخذ فجيء به إلى بغداد ، فكرِه أن يعاقبه عقوبة يُشنّع بها عليه في العامّة ، فجعله في إصطبل الدوابّ ليَسُوسَ الدوابَّ ، وضمّوا إليه فرسًا عضوضًا سيّىء الخُلُق ، ليعْقره الفرس ، فليّن الله تعالى له الفرس . قال : ثم صيّروه إلى بيْت وأُغلق عليه ، وأخَذَ المهدي المفتاح عنده ، فإذا هو قد خرج بعد ثلاثٍ إلى البستان يأكل البقْل ، فأوذِن به المهدي ، فقال له : مَن أخرجك ؟ فقال : الذي حبسني . فضجّ المهدي وصاح ، وقال : ما تخاف أنْ أقتلك ؟ فرفع عبد الله إليه رأسه يضحك وهو يقول : لو كنتَ تملك حياة أو موتًا . فما زال محبوسًا حتى مات المهدي ثم خلوا عنه ، فرجع إلى مكة . قال : وكان قد جعل على نفسه نذْرًا ، إن خلصه الله مِن أيديهم أن ينحر مائة بدَنة ، فكان يعمل في ذلك ، حتى نحرها »[٢].

---

(١) التبصرة ٢/٣٣٢ .

(٢) إحياء علوم الدين ٢/٣٤٣ - ٣٤٤ .

بِشر بن الحارث الحافي :

« قال فتح بن شخرف : تعلَّق رجل بامرأةٍ ومعه سكين ، لا يدنو منه أحد إلّا عَقَره ، وكان شديد البدن ، فبينا الناس كذلك والمرأة تصيح ، مرّ بشر بن الحارث فدنا منه ، وحكّ كتفه بكتف الرجل ، فوقع الرجل إلى الأرض ، ومرّت المرأة ومَرّ بشر ، فدَنوا من الرجل وهو يرشح عرقًا ، فسألوه : ما حالك ؟ فقال : ما أدري ولكن حاكّني شيخ وقال : إن الله عز وجل ناظرٌ إليك وإلى ما تعمل . فضَعُفْتُ لقوله وهِبْتُه هيبةً شديدة ؛ لا أدري مَنْ ذلك الرجل . فقالوا له : ذاك بشر بن الحارث . فقال : واسَوْأتاه ، كيف ينظر إليّ بعد اليوم ! وحُمَّ من يومه ذاك . ومات يوم السابع »[(١)].

الإمام أحمد بن حنبل :

ومَنْ في الناس كأحمد ، وكل موقفٍ يتضاءل دون موقفه وثباته في فتنة خلْق القرآن ... ويكفي أن يصدع بالحق الخليفة ويقول : « ايتُوني بشيءٍ من كلام الله أو سُنَّة رسوله ﷺ » .

وكان رحمه الله أمْرًا بالمعروف ونهْيًا عن المنكر يمشي على الأرض .

« قال صالح بن أحمد : كان رجل يختلف إلى عفان ، يقال له : أحمد ابن الحكم العطار ، فختن بعض ولده ، فدعا يحيى وأبا خيثمة وجماعة من أصحاب الحديث ، وطلب إلى أبي أن يحضر ، فمضوا ومضى أبي بعدهم وأنا معه ، فلمَّا دخل أُجلس في بيت ومعه جماعة من أصحاب الحديث ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ، هاهنا آنية من فضة . فالتفت فإذا كرسي ، فقام فخرج ، وتبعه من كان في البيت ، وأُخبر الرجل فخرج فلحق أبي ، وحلف أنه ما علم بذلك ، ولا أمر به ، وجعل يطلب إليه فأبى ، وجاء

---

(١) التبصرة ٢/٣٣١ .

عفان فقال له الرجل : يا أبا عثمان ، اطلب إلى أبي عبد الله يرجع . فكلّمه عفان فأبى أن يرجع ، ونزل بالرجل أمر عظيم .

وعن علي بن أبي صالح السّوّاق قال : كنّا في وليمة باب القبر قال : فجاء أحمد بن حنبل ، فلمّا دخل نظر إلى كرسي عليه فضة فخرج ، فلحقه صاحب المنزل ، فنفض يده في وجهه وقال : زيّ المجوس ، زي المجوس . وخرج »[1].

* * *

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٣٤٨ - ٣٤٩ .

□ مواقف الربانيين تُحيي الأمة □
« قد مات في حديدهم أقوام »

حين يَدْلَهِمُّ الخطب ، ويجلُّ الأمر ، ويظهر الفساد ، ويشيع الظلم في كثير من البلدَان التي نَحّت الحكم بما أنزل الله ، حينئذ يخشى الناس على أنفسهم وأولادهم وذويهم ، فيُضطرون إلى الانزواء بعيدًا عن معترك الأحداث ، بل ويخضعون لهذا الواقع المظلم ، ويستسلمون له بعد أن ألجمتْ ألسنتَهم تلك الأوضاع ، فنجدهم قد رضُوا أن يتجرعوا مرارة الصبر ، وربما شربوا كؤوس الذلِّ والمهانة ، لكن الظالم ينسى - حين بغيه وجبروته - تدبير الخالق العزيز الجبار ، وأنه له بالمرصاد ، فيتمادى في بغيه ويزيد في طغيانه ، ولكن يأبى الله إلا أن ينصر دينه ويتمَّ نوره ، ويدحض الباطل ، ويعلي الحق ، فيقيِّض لتلك الشعوب الذليلة المنكسرة من يخرجها من خُنوعها وذلتها ، ويبعث فيها روح العزة والكرامة ، وذلك حين يضحي العلماء والدعاة بأنفسهم ، حينما يقعون تحت سِياط الجلادين وسيوف الجبارين وأعواد المشانق ؛ لأنهم لا يخافون في الله لومة لائم ليقولوا للناس : إن الموت في سبيل الله خير من الموت جبنًا وذلًّا . ويقيض الله كذلك لأولئك الظلمة الطغاة من يرهب قلوبهم ، ويزلزل كراسيهم بالصدع بكلمة الحق ابتغاء مرضاة الله ، بعد أن يتخذوا كل الوسائل المتاحة والمشروعة لذلك ، وبعد أن يصرَّ الظالم على ظلمه ، ويقف من شرع الله موقف المعارض ، ويقف من الدعاة إلى الله موقف المعادي والمحارب .

إن إحياء الأمة من مواتها ، وبعثها من غفوتها ونومها ، وإخراجها من عبادة غير الله ، وقيادتها إلى ربها وسوْقها إليه سوقًا جميلًا ، وحمْل هذا الدين والسعي به والجهاد في سبيله - إن هذا وغيره هو من سمات العلماء الفحول عبر تاريخنا المجيد . ونستعرض هنا صورًا من مواقف أولئك العلماء ، لعلها

تكون إحياءً للغافلين ، ورهبة للظالمين ، إذ ضحوا بأرواحهم في سبيل إعلاء دين الله سبحانه ، وهي العزاء لكل مسلم يسوؤه تلك التصرفات الجائرة ضد الدين ودعاته .

ولو استرجعنا التاريخ لوجدنا الأمر لا يكاد يختلف ، بل يسجل التاريخ تلك الحقيقة الجليَّة ألا وهي الصراع بين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان ، ولن تموت أمثال هذه الكلمات الصادقة : « ولأموتنَّ في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم ... » !!

فإلى أولئك الذين يسقطون ظلمًا وعدوانًا في الدفاع عن الإسلام ودعوته ؛ ليعلموا أنه قد سبقهم أقوام على الطريق نفسه ، وإليك أخي صورًا من تلك المواقف : ﴿ **سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٨] ﴿ **ولن تجد لسنة الله تحويلًا** ﴾ [فاطر : ٤٣] :

الإمام البويطي[1] :

هو العلّامة ، سيّد الفقهاء ، يوسف أبو يعقوب بن يحيى المصري البويطي . صاحَب الشافعيَّ ولازمه مدة ، وفاق الأقران ، وكان إمامًا في العلم قدوة في العمل ، زاهدًا ربانيًا متهجدًا ، دائمَ الذكر .. سعى به أصحابُ ابن أبي دُؤاد ، حتى كتب فيه ابن أبي دُؤاد إلى والي مصر ، فامتحنه - أي في محنة خلق القرآن - فلم يُجب ، وكان الوالي حسن الرأي فيه ، فقال له : قل فيما بيني وبينك . قال : إنه يقتدي بي مائة ألف ، ولا يدرون المعنى !! فأمر به أن يُحمل إلى بغداد .

قال الربيع بن سليمان : رأيته على بغلٍ في عنقه غُلٌّ ، وفي رجليه قيدٌ ،

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٥٨ .

وبينه وبين الغلّ سلسلة فيها لَبِنَةٌ- طوبة- وزنها أربعون رطلًا ، وهو يقول: «إنما خَلَقَ الله الخلْق بـ « كن » ، فإذا كانت مخلوقة فكأن مخلوقًا خُلق بمخلوق ، ولئن دخلت عليه لأصْدُقَنَّه - يعني الواثق - ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم » .

وتوفي رحمه الله في قيده مسجونًا بالعراق ، في سنة إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة .

الإمام نعيم بن حماد(١) :

هو العلّامة صاحب التصانيف ، وكان شديدًا في الرد على الجهمية ، حُمل إلى العراق في إبّان تلك الغيمة مع البويطي مقيدَيْن .

وكان يقول : « من شبّه الله بخلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس في ما وصف اللهُ به نفسه ورسولُه تشبيه » .

قال ابن يونس : حُمل على القول بتلك الفرية ، فامتنع أن يجيب ، فسجن ، ومات في سجنه سنة تسع وعشرين ومائتين ، وجُرّ بأقياده ، فأُلْقي في حفرة ، ولم يكفَّن ، ولم يُصلَّ عليه .. وأوصى نُعيمُ بن حماد أن يدفن في قيوده . وقال : « إني مخاصم » .

الإمام الخزاعي(٢) :

هو أبو عبد الله أحمد بن نصر الخزاعي ، كان أمّارًا بالمعروف ، قوّالًا بالحق ، من أكابر العلماء العاملين ، ومن أهل العلم والديانة .

حُمل من بغداد إلى سامرّاء مقيدًا ، وجلس له الواثق ، فقال له :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٦١٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١ / ٦٧ ، والبداية والنهاية ١٠ / ٣١٨ .

ما تقول في القرآن ؟ قال : كلام الله . قال : أفمخلوق هو ؟ قال : كلام الله . قال : فترى ربك يوم القيامة ؟ قال : كذا جاءتِ الرواية . قال : ويحك ! يُرى كما يُرى المحدود المتجسم ، ويحويه مكان ، ويحصره ناظر ؟! أنا كفرتُ بمن هذه صفته . ما تقولون فيه ؟ فقال قاضي الجانب الغربي : هو حلال الدَّم . ووافقه فقهاءٌ . قال الواثق : ما أراه إلا مؤديًا لكفره ، قائمًا بما يعتقده . ودعا بالسيف ، وقام ، وقال : إني لأحتسب خُطاي إلى هذا الكافر . فضرب عنقه ، بعد أن مدُّوا له رأسَه بحبل ، وهو مقيد .

قال الحسن بن محمد الحربي : سمعت جعفر الصائغ يقول : رأيت أحمد بن نصر - حين قُتل - قال رأسه : لا إلـٰه إلا الله . والله أعلم .

وعُلّق في أذن أحمد بن نصر ورقة فيها : هذا رأس أحمد بن نصر ، دعاه الإمام إلى القول بخلْق القرآن ، ونفي التشبيه ، فأبى إلا المعاندة ؛ فجعله الله إلى ناره . وبقي رأسه منصوبًا ببغداد ، والبدن مصلوبًا بسامراء ، وفي رجليه زوج قيود .

هذه صور لابتلاء العلماء على مرِّ التاريخ من الظَّلَمة والطواغيت ، والنتيجة أن أولئك العلماء يُترحم عليهم حتى الآن ، أمَّا أولئك الظلمة المحادُّون لله ولرسوله ولشريعته . فإنهم محلُّ المقت والكراهية .. ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلَب ينقلبون** ﴾ [الشعراء : ٢٢٧][1] .

شيخٌ شاميٌّ يُلقِم كبيرَ المعتزلة حجرًا :

مَنْ أوتي بصيرة في كتاب الله لم يحتج في مناقشة أهل الضلال إلى

---

(١) « مواقف العلماء تحيي الأمة » لحسن قطامس مقال في مجلة البيان عدد ٧٤ شوال ١٤١٤ هـ .

علم الكلام ، ومنطق اليونان ، وعلم الفلسفة ؛ ففي كتاب الله غنًى ، كيف لا ، وهو كتاب الله الذي وضّح الدلائل ، وبيّن المسائل ، ونفى الضلال والباطل ؟! وإذا قَصُر الناس في الاستدلال من القرآن ، وطلبوا الحجة من غيره ؛ فلقصور في عقولهم ، وضعف في بصائرهم . وقد ذكر علماء التاريخ مناقشة أحد علماء السنة لقادة فتنة القوْل بخلْق القرآن ، فألقمهم حجرًا ، وأخزى حقُّه باطلَهم ، وقد اعتمد في حِجَاجه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وهو حِجاجٌ قريب المأخذ ، يدركه الناس بسهولة ويسر ، وتستمع إليه فيأسرك روعةُ الاستدلال ، وقوة الحجة .

حكى المسعودي عن علي بن صالح قال : « حضرت يومًا من الأيام جلوس المهتدي للمظالم ، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي ، فيما يتظلم به إليه - ما استحسنته ، فأقبلتُ أرمُقه ببصري إذا نظر في القصص ، فإذا رفع طرْفه إليَّ أطرقت ، فكأنه علِم ما في نفسي . فقال لي : يا صالح ، أحسب أنَّ في نفسك شيئًا تحب أن تذكره . قال : قلت : نعم يا أمير المؤمنين . فأمسك ، فلما فرغ من جلوسه أمر أن لا أبرح ، ونهض ، فجلست جلوسًا طويلًا ، فقمت إليه ، وهو على حصير الصلاة ، فقال لي : أتحدثني بما في نفسك ، أمْ أحدثك ؟ فقلت : بل هو من أمير المؤمنين أحسن . فقال : كأنني بك وقد استحسنت مِن مجلسنا . فقلت : أيُّ خليفة خليفتنا ، إن لم يكن يقول بقوْل أبيه ، من القول بخلْق القرآن ! فقال - أي الخليفة - : قد كنت على ذلك برهة من الدهر ، حتى أُقدِم عَلَى الواثق شيخ من أهل الفقه والحديث من « أذنه » من الثغر الشامي ، مقيدًا طوالًا ، حسن الشيبة ، فسلّم غيرَ هائب ، ودعا فأوجز ، فرأيت الحياء منه في حماليق عينَي الواثق ، الرحمةَ عليه . فقال : يا شيخ ،

أجبْ أحمد بن أبي دؤاد عما يسألك عنه . فقال : يا أمير المؤمنين ، أحمد يصغُر ، ويضعف ، ويقلُّ عند المناظرة . فرأيت الواثق ، وقد صار مكان الرحمة ، غضبًا عليه . فقال : أبو عبد الله يصغر ويضعف ويقل عند مناظرتك ؟! فقال : هوّن عليك يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في كلامه ؟ فقال الواثق : قد أذنتُ لك . فأقبل الشيخ على أحمد ، فقال : يا أحمد إلامَ دعوت الناس ؟ فقال أحمد : إلى القوْل بخلق القرآن . فقال له الشيخ : مقالتك هذه التي دعوت الناس إليها ، من القول بخلق القرآن أداخلة في الدين ، فلا يكون الدين تَامًّا إلَّا بالقوْل بها ؟ قال : نعم . قال الشيخ : فرسول الله ﷺ دعا الناس إليها أم تركهم ؟ قال : لا . قال له : يعلمُها أم لم يعلمها ؟ قال : عَلِمَهَا . قال : فلمَ دعوتَ إلى ما لم يدعهم رسول الله ﷺ إليه ، وتركهم منه ؟ فَأَمْسَك . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، هذه واحدة .

ثم قال له : أخبرني يا أحمد ، قال الله في كتابه العزيز : ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ الآية [المائدة : ٣] ، فقلتَ أنت : الدين لا يكون تامًّا إلَّا بمقالتك بخلق القرآن ، فالله تعالى - عز وجل - صدق في تمامه وكماله ، أم أنت في نقصانك ؟! فَأَمْسَكَ . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، وهذه ثانية .

ثمَّ قال بعد ساعة : أخبرني يا أحمد ، قال الله عز وجل : ﴿ **يَٰأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ الآية [المائدة : ٦٧] ، فمقالتك هذه التي دعوتَ الناس إليها ، فيما بلَّغه رسول الله ﷺ إلى الأمّة أم لا ؟ فأمسك . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، وهذه ثالثة .

ثمَّ قال بعد ساعة : خبِّرني يا أحمد ، لمّا علم رسول الله ﷺ مقالتك التي دعوت الناس إليها ، أتَّسع له عن أن أمسك عنها أم لا ؟ قال أحمد :

بل اتَّسع له ذلك . فقال الشيخ : وكذلك لأبي بكر ، وكذلك لعمر ، وكذلك لعثمان ، وكذلك لعلي رحمة الله عليهم ؟ قال : نعم . فصرف وجهه إلى الواثق ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إذا لم يتَّسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه فلا وسَّع الله علينا . فقال الواثق : نعم ، لا وسَّع الله علينا ، إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه ، فلا وسع الله علينا . ثمَّ قال الواثق : اقطعوا قيوده ، فلما فُكَّت ، جاذب عليها . فقال الواثق : دعُوه ، ثم قال : يا شيخ،لِمَ جاذبْتَ عليها ؟ قال : لأني عقَدتُ في نيتي أن أجاذب عليها ، فإذا أخذتُها أوصيتُ أن تُجعل بين يدَي كفني ، ثمَّ أقول : يا ربي ، سَلْ عبدك : لِمَ قيدني ظلمًا ، وارتاع بي أهلي ؟ فبكى الواثق ، والشيخ ، وكلُّ مَنْ حضر . ثمَّ قال له : يا شيخ ، اجعلني في حِلٍّ . فقال : يا أمير المؤمنين ، ما خرجت من منزلي حتى جعلتُك في حلٍّ ، إعظامًا لرسول الله ﷺ ، ولقرابتك منه . فتهلل وجه الواثق وسُرَّ . ثمَّ قال له : أَقِمْ عندي آنسُ بك . فقال له : مكاني في الثغر أنفع ، وأنا شيخ كبير ، ولي حاجة . قال : سَلْ ما بدا لك . قال : يأذن لي أمير المؤمنين في رجوعي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم . قال : قد أذنت لك . وأمر له بجائزة ، فلم يقبلْها .

قال المهتدي : فرجعتُ من ذلك الوقت عن تلك المقالة ، وأحسب – أيضًا – أن الواثق رجع عنها »[1].

ابن الجوزي والمستضيء بالله :

عبد الرحمٰن بن الجوزي وعظ المستضيء بالله، فقال له: يا أمير المؤمنين،

(١) الاعتصام ١ / ٣٢٤ .

إنْ تكلمتُ خفتُ منك ، وإن سكتُّ خفت عليك . فأنا أُقدِّم خوفي عليك من خوفي منك ؛ لمحبتي دوامَ أيامِك . وأن أقدم قول القائل : اتق الله . خيرٌ من قول القائل : إنكم أهل بيت مغفورٌ له . وكان عمر بن الخطاب يقول : إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية ، ولم أغيِّره فأنا الظالم . يا أمير المؤمنين ، كان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمان القحط ؛ لئلا يَنسىٰ الجياع . وكان عمر يضرب بطنه عامَ الرمادة ويقول : قرْقِري إن شئت أوْ لا ، والله ، لا شبعْتِ والمسلمون جياع . فترتب على هذه الموعظة أن أطلق أمير المؤمنين المستضيء بالله المحابيس ، وتصدق صدقات كثيرة ، وأشبع الجياع(١).

الغزالي والسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي :

« في كلّ زمان تقتدي الرعية بالسلطان » :

كان مما كتبه الإمام الغزالي للسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي : « ويجب أن تعلم أن صلاح الناس في حُسْن سيرة الملك ، فينبغي للملِك أن ينظر في أمور رعيته ، ويقف على قليلها وكثيرها وعظيمها وحقيرها ، لا يشارك رعيته في الأفعال المذمومة ، ويجب عليه احترام الصالحين ، وأن يثبت على الفعل الجميل ، ويمنع من الفعل الرديء الوبيل ، ويعاقب من ارتكاب القبيح ، ولا يحابي مَنْ أصر على القبيح ؛ ليرغِّب الناس في الخيرات ويحذَرُوا من السيئات ، ومتىٰ كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهىٰ المُفْسِد عن فساده ويتركه على مراده ، أفسد سائر أموره في بلاده . وقال الحكماء : إن طباع الرعية نتيجة طباع الملك ؛ لأن العوامّ إنما يبخلون ، ويركبون الفساد ، وتضيق أعينهم اقتداء منهم بمُلوكهم ، فإنهم يتعلمون منهم ،

(١) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي .

ويلزمون طباعهم ، ألا ترى أنه قد ذُكر في التاريخ أن الوليد بن عبد الملك - من بني أمية - كان مصروف الهمة إلى العمارة والزراعة . وكان سليمان بن عبد الملك همّته في كثرة الأكل ، وتطييب الطعام ، وقضائه الأوطار ، وبلوغ الشهوات . وكانت همّة عمر بن عبد العزيز في العبادة والزهادة . قال محمد بن علي بن الفضيل : ما كنتُ أعلم أمور الرعية تجري على عادة ملوكها ، حتى رأيت الناس في أيام الوليد بن عبد الملك قد اشتغلوا بعمارة الكُرْم والبساتين ، واهتموا ببناء الدور ، وعمارة القصور . ورأيتهم في زمان سليمان بن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب الطعام ، حتى كان الرجل يسأل صاحبه : أيَّ لون اصطنعتَ ، وما الذي أكلتَ ؟ ورأيتُهم في أيام عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة ، وتفرغوا لتلاوة القرآن ، وأعمال الخيرات ، وإعطاء الصدقات . لتعلم أن في كلّ زمان تقتدي الرعية بالسلطان ، ويعملون بأعماله ، ويقتدون بأفعاله : من القبيح والجميل ، واتباع الشهوات ، وإدراك الكمالات ، كما يُقال »[1].

البخاري وأمير بُخارى :

« إني لا أُذِلُّ العلمَ » :

بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي - والي بخارى - إلى محمد بن إسماعيل أن احمل إليّ كتابَ الجامعِ والتاريخ ؛ لأسمع منك . فقال محمد بن إسماعيل لرسوله : قل له : إني لا أُذِلُّ العلم ، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين ، فإن كانت له حاجة إلى شيء منه فلْيحضِرني في مسجدي ، أو في داري ، فإن لم يعجبْك هذا فأنت سلطان ، فامنعني من المجلس ؛ ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة : أني لا أكتم العلم ؛ فكان سبب الوحشة ....

(١) التبر المسبوك .

بينهما[١] .

النّــوريّ :

صَحِبَ السري ، وكان الجنيد يعظمه ، لكنه في الآخر رقّ له وعذره ، لما فسد دماغُه .

ولما مات قال الجنيد : « ذهب نصف العلم بموته »[٢] .

قال أبو بكر بن الجلّاد : كان النوريّ إذا رأى منكرًا غيّره ، ولو كان فيه تَلَفُه . نزل يومًا ، فرأى زورقًا فيه ثلاثون دَنًّا ، فقال للملّاح : ما هذا ؟ قال : ما يلزمك ؟ فألحّ عليه . قال : أنت - والله - صوفي كثير الفضول ، هذا خمر للمعتضد . قال : أعطني ذلك المِدْرى . فاغتاظ ، وقال لأجيره : ناولْه حتى أُبصر ما يصنع ، فأخذه ، ونزل ، فكسَّرها - كلها - غير دَنٍّ ، فأُخذ وأُدخل إلى المعتضد ، فقال : من أنت ، ويلك ؟ قال : مُحْتَسِب ، قال : من ولّاك الحِسْبة ؟ قال : الذي ولّاك الإمامة يا أمير المؤمنين ، فأطرق ، وقال : ما حملك على فعْلك ؟ قال : شفقة منِّي عليك . قال : كيف سَلِم هذا الدَّنُّ ؟ فذكر أنه كان يكسِّر الدّنان ونفسه مخلصَة خاشعة ، فلما وصل إلى هذا الدَّنِّ ، أعجبته نفسه ، فارْتاب فيها ، فتركه[٣] .

شيخ الإسلام ، المحدِّث الإمام ، أبو الحسن بنانُ الحمّال .

« من يُضرب بعبادته المثَل . وقد امتحِن في ذات الله فصبر ، وارتفع شأنه . فنقل أبو عبد الرحمـٰن السلمي في « مِحَن الصوفية » أن بنانًا الحمّال

---

(١) مقدمة فتح الباري .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٧٠ ، ٧٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٧٦ .

قام إلى وزير خُمارويه صاحب مصر - وكان نصرانيا - فأنزله عن مركوبه ، وقال : لا تركبِ الخيل وغَيِّر ، كما هو مأخوذ عليكم في الذمة . فأمر خُمارويه بأن يُؤخذ ويُوضع بين يدي سَبُع ، فطُرح ، فبقي ليلةً ، ثم جاءوا والسبع يلحسه وهو مستقبِلٌ القبلة ، فأطلقه خُمارويه واعتذر إليه .

قال أبو علي الروذباري : كان سبب دخولي مصر حكاية بنان الحمال ؛ وذلك أنه أمر ابن طولون بالمعروف ، فأمر به أن يُلقى بين يدي سبع ، فجعل السبُع يشمه ولا يضرُّه ، فلما أُخرج من بين يدي السبع ، قيل له : ما الذي كان في قلبك حيث شمَّك ؟ قال : كنت أتفكر في سُؤْر السباع ولُعابها »[1].

لله درُّه مِن سيد مِن سادات المسلمين .. حتى الأُسد الضواري تعرف منزلته ، وتتأدب معه ... خافوا الله وقاموا بحقه ، فخافتهم الأُسد وقاموا بحقهم .

شيخ الإسلام ابنُ الحطيئة ، أبو العباس أحمد بن عبد الله اللخمي :

قال شجاع المدلجي - وكان من خيار عباد الله - : كان شيخنا ابن الحطيئة شديدًا في دين الله ، فظًّا غليظًا على أعداء الله ، لقد كان يحضر مجلسه داعي الدعاة[2] مع عِظَم سلطانه ، ونفوذ أمره ، فما يحتشمه ، ولا يكرمه ، ويقول : أحمق الناس في مسألة كذا وكذا : الروافض ؛ خالفوا الكتاب والسنة ، وكفروا بالله . وكنتُ عنده يومًا في مسجده بشرق مصر ، وقد حضره بعض وزراء المصريين - أظنه ابن عباس - فاستسقى في مجلسه ، فأتاه بعض غلمانه بإناءٍ فضّةً ، فلما رآه ابن الحطيئة وضع يده على فؤاده ، وصرخ

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٢) قاضي الخليفة العاضد .

صرخة ملأت المسجد ، وقال : واحَرّها على كبدي ، أتشربُ في مجلس يُقرأ فيه حديث رسول الله ﷺ في آنية الفضة ؟! لا ، والله لا تفعل ، وطرد الغلام ، فخرج ، وطلب الشيخ كوزًا ، فجيء بكوزٍ قد تثلّم ، فشرب واستحيى من الشيخ ، فرأيته - والله - كما قال الله : ﴿ **يتجرَّعُه ولا يكاد يُسيغه** ﴾[1] [إبراهيم : ١٧] .

شيخ الإسلام الهَرَوي الأنصاري ، أبـو إسماعيل : عبد الله بن محمد بن علي :

قال تلميذه المؤتمن : كان يدخل على الأمراء والجبابرة ، فما يبالي .

قال عنه الذهبي في السِّير (١٨ / ٥٠٩) : « كان سيفًا مسلولًا على المتكلمين ، له صولةٌ وهيبة واستيلاء على النفوس ببلده ، يعظمونه ، ويتغالون فيه ، ويبذلون أرواحهم فيما يأمر به . كان عندهم أطوع وأرفع من السلطان بكثير ، وكان طوْدًا راسيًا في السُّنة ، لا يتزلزل ولا يلين ، وقد امتُحن مرات ، وأُوذيَ ، ونُفي من بلده .

قال ابن طاهر : سمعتُه يقول : عُرضتُ على السيف خمسَ مرات ، لا يُقال لي : ارجع عن مذهبك . لكن يُقال لي : اسكت عمّن خالفك . فأقول : لا أسكت »[2].

هذا - والله - الثبات على الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر !

« قال الحافظ أبو النضر الفامي : كان شيخ الإسلام أبو إسماعيل بِكْر الزمان ، وواسطة عِقد المعاني ، وصورة الإقبال في فنون الفضائل وأنواع

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٣٤٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٥٠٩ ، وتذكرة الحفاظ ٣ / ١١٨٤ .

المحاسن ، منها نُصرةُ الدين والسنة ، من غير مداهنة ولا مراقبةٍ لسلطان ولا وزير . وقد قاسىٰ بذلك قصد الحُسّاد في كلّ وقت ، وسعَوا في رُوحه مرارًا ، وعَمدوا إلى إهلاكه أطوارًا ، فوقاه الله شرَّهم ، وجعل قصدهم أقوى سببٍ لارتفاع شأنه » .

قال ابن طاهر : « حكىٰ لي أصحابنا أن السلطان ألب أرسِلان قَدِمَ هراة ومعه وزيره نظام الملك ، فاجتمع إليه أئمة الحنفية ، وأئمة الشافعية للشكوى من الأنصاري ، ومطالبته بالمناظرة ، فاستدعاه الوزير ، فلما حضر قال : إن هؤلاء قد اجتمعوا لمناظرتك ، فإنْ يكن الحق معك رجعوا إلى مذهبك ، وإن يكن الحق معهم رجعت ، أو تسكت عنهم . فوثب الأنصاري وقال : أناظر على ما في كُمّي . قال : وما في كمِّك ؟ قال : كتاب الله – وأشار إلى كمِّه الأيمن – وسنة رسول الله ، وأشار إلى كمِّه اليسار ، وكان فيه « الصحيحان » ، فنظر الوزير إليهم مستفهمًا لهم ، فلم يكن فيهم مَنْ ناظره من هذا الطريق . وسمعت خادمه أحمد بن أميرجه يقول : حضرتُ مع الشيخ ؛ للسلام على الوزير نظام الملك ، وكان أصحابنا كلّفوه الخروج إليه ، وذلك بعد المحنة ، ورجوعه إلى وطنه بلخ – يعني أنه كان قد غُرِّب – قال : فلما دخل عليه أكرمه وبجّله ، وكان هناك أئمة من الفريقين ، فاتفقوا على أن يسألوه بين يدي الوزير ، فقال العلوي الدبوسي : يأذن الشيخ الإمام أن أسأل ؟ قال : سَلْ . قال: لِمَ تلعن أبا الحسن الأشعري ؟ فسكتَ الشيخ ، وأطرق الوزير ، فلما كان بعد ساعة قال الوزير : أجبْه . فقال : لا أعرف أبا الحسن ، وإنما ألعن من لم يعتقد أن الله في السماء ، وأن القرآن في المصحف ، ويقول : إن النبي ﷺ اليوم ليس بنبيٍّ . ثم قام وانصرف . فلم يُمكن أحدًا أن يتكلم من هَيْبته ، فقال الوزير للسائل : هذا أردتم ! أن نسمع ما كان يذكره بهراة بآذاننا ، وما عسى أن أفعل

به ؟ ثم بعث إليه بصلة وخِلَع فلم يقبلها ، وسافر من فوْره إلى هراة »[(١)].

قال خادمه : وسمعت أصحابنا بهراة يقولون : لما قدم السلطان ألب أرسلان في بعض قدماته ، اجتمع مشايخ البلد ورؤساؤه ، ودخلوا على أبي إسماعيل ، وسلَّموا عليه ، وقالوا : ورد السلطان ونحن على عزْمٍ أنْ نخرج ونُسلّم عليه ، فأحببنا أن نبدأ بالسلام عليك ، وكانوا قد تواطؤوا على أن حملوا معهم صنمًا من نحاس صغيرًا ، وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ ، وخرجوا ، وقام الشيخ إلى خلْوته ، ودخلوا على السلطان واستغاثوا من الأنصاري ، وأنه مجسِّمٌ ، وأنه يترك في محرابه صنمًا ، يزعم أن الله تعالى على صورته ، وإنْ بعث السلطان الآن يجده ، فعظُم ذلك على السلطان ، وبعث غلامًا وجماعة ، فدخلوا ، وقصدوا المحراب ، فأخذوا الصنم ، فألقى الغلام الصنم ، فبعث السلطان مَن أحضر الأنصاري ، فأتى فرأى الصنم والعلماء ، وقد اشتدَّ غضب السلطان ، فقال له السلطان : ما هذا ؟ قال : صنم يُعمل من الصُّفر شبه اللعبة . قال : لستُ عن ذا أسألك . قال : فعمّ يسألني السلطان ؟ قال : إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا ، وأنك تقول : إن الله على صورته . فقال شيخ الإسلام - بصولة وصوت جَهْوري -: سبحانك! هذا بهتان عظيم. فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه ، فأمر به ، فأُخرج إلى داره مكرمًا ، وقال لهم : اصدقوني . وهددهم ، فقالوا : نحن في يد هذا في بليّة من استيلائه علينا بالعامة ، فأردنا أن نقطع شرّه عنا ، فأمر بهم ، ووكّل بهم ، وصادرهم ، وأخذ منهم ، وأهانهم[(٢)].

ما يضيرُ البحرَ أمسى زاخِرًا أنْ رمى فيهِ غلامٌ بِحَجَرْ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٥١١ - ٥١٢ ، وتذكرة الحفاظ ٣ / ١١٨٧ - ١١٨٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٥١٢ ، وتذكرة الحفاظ ٣ / ١١٨٨ - ١١٨٩ .

ولله در القائل :

يَا نَاطِحَ الجبلِ العالي لتُكْلِمَهُ   أشفقْ على الرأْس لا تُشفق عَلى الجبلِ

الحافظ الأثري عبد الغني المقدسي :

« قال الضِّياء : أخبرني خالي موفق الدين ، قال : كان الحافظ عبد الغني جامعًا للعلم والعمل ، وكان رفيقي في الصِّبا ، وفي طلب العلم ، وما كنا نستبق إلى خير إلَّا سبقني إليه ، إلا القليل ، وكمّل الله فضيلته بابتلائه بأذى أهل البدعة وعداوتهم .

قال الضياء : كان لا يرى منكرًا إلَّا غيّره بيده أو بلسانه ، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم . قد رأيته مرة يهريق خمرًا ، فجبذ صاحبه السيف فلم يَخَفْ منه ، وأخذه من يده ، وكان قويًّا في بدنه ، وكثيرًا ما كان بدمشق ينكر ويكسر الطنابير والشَّبابات . قال خالي الموفق : كان الحافظ لا يصبر عن إنكار المنكر إذا رآه ، وكنّا مرة أنكرنا على قومٍ وأرقنا خمرهم وتضاربنا ، فسمع خالي أبو عمر ، فضاق صدره ، وخاصمنا ، فلما جئنا إلى الحافظ طيّب قلوبنا ، وصوّب فعلنا ، وتلا ﴿ **وانْهَ عن المنكر واصبرْ على ما أصابك** ... ﴾ [لقمان : ١٧] .

وسمعت أبا بكر بن أحمد الطحان ، قال : كان بعض أولاد صلاح الدين قد عُمِلَتْ لهم طنابير ، وكانوا في بستان يشربون ، فلقي الحافظ الطنابيرَ فكسَّرها . قال : فحدثني الحافظ ، قال : فلما كنتُ أنا وعبد الهادي عند حمَّام كافور ، إذا قوم كثير معهم عِصِيٌّ فخفّفتُ المشي ، وجعلت أقول : « حسبي الله ونعم الوكيل » ، فلما صرت على الجِسر لحقوا صاحبي ، فقال : أنا ما كسرت لكم شيئًا ، هذا هو الذي كسر ، قال : فإذا فارس يركض فترجَّل ، وقبّل يديّ ، وقال : الصبيان ما عرفوك . وكان قد وضع الله

لهُ هيبة في النفوس »[١].

هذه واللهِ أحلى مذاقًا منَ العسل ...

« قال فضائل بن محمد المقدسي : سمعتُهم يتحدثون بمصر أن الحافظ كان قد دخل على العادل فقام له ، فلما كان اليوم الثاني جاء الأمراء إلى الحافظ ، مثل سركس وأزكش ، فقالوا : آمنا بكرامتك يا حافظ . وذكروا أن العادل قال : ما خِفْتُ من أحدٍ ما خفتُ من هذا . فقلنا : أيُّهَا الملك هذا رجل فقيه . قال : لما دخل ما خُيِّل إليّ إلّا أنه سَبُع . وبلغني - بعدُ - عنه أنه قال : ما رأيتُ بالشام ولا مصر مثل فلان ، دخل عليّ فَخُيِّل إليّ أنه أسد .

قال الضياء : كانوا قد أوغروا عليه صدر العادل ، وتكلموا فيه ، وكان بعضهم أرسل إلى العادل يبذل في قتل الحافظ خمسة آلاف دينار »[٢].

قال الذهبي في السير : جرّ هذه الفتنة نشر الحافظ أحاديث النزول والصفات ، فقاموا عليه ورمَوْه بالتجسيم ، فما دارى كما كان يداريهم الموفق .

وحكى الأمير درباس أنه دخل مع الحافظ إلى الملك العادل ، فلما قضى الملك كلامه مع الحافظ ، جعل يتكلم في أمر (ماردين) وحصارها ، فسمع الحافظ فقال : أيش هذا ، وأنت بعدُ تريد قتال المسلمين ، ما تشكر الله فيما أعطاك ، أمَا ... أمَا ؟! قال : فما أعاد ولا أبدى . ثم قام الحافظ وقمتُ معه ، فقلت : أيش هذا ؟ نحن كنا نخاف عليك من هذا ،

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٤٥٣ - ٤٥٥ .
(٢) السير ٢١ / ٤٥٥ .

ثم تعمل هذا العمل ؟! قال : أنا إذا رأيتُ شيئًا لا أقدر أصبر .

وسمعتُ أبا بكر بن الطحان ، قال : كان في دولة الأفضل جعلوا الملاهي عند الدَّرج - يعني درج جيرون - فجاء الحافظ فكسّر شيئًا كثيرًا ، ثم صعد المنبر يقرأ الحديث ، فجاء رسول القاضي يأمره بالمشي إليه ليناظره في الدُّفِّ والشبابة ، فقال : ذاك عندي حرام ، ولا أمشي إليه . ثم قرأ الحديث ، فعاد الرسول ، فقال : لا بُدّ من المشي إليه ، أنت قد بطّلتَ هذه الأشياء على السلطان . فقال الحافظ : ضرب الله رقبته ورقبة السلطان . فمضى الرسول وخفنا . فما جاء أحد(١) .

قال الحافظ عبد الغني : سألت الله أن يرزقني مثل حال الإمام أحمد ، فقد رزقني صلاته . قال : ثم ابتُلي بعد ذلك وأوذي .

ولقد ناظر الفقهاءَ ، وثبت على عقيدة أهل السنة أمام الأشاعرة ، وصدع بها فوشوا به إلى الحكام والسلاطين ، وبدّعوه وكفّروه ، وهمُّوا أن يقتلوه . رحمه الله .

ولقد أُمِرَ الحافظ أن يكتب اعتقاده ، فكتب : أقول كذا ، لقول الله كذا . وأقول كذا ؛ لقول الله كذا ، ولقول النبي ﷺ كذا . حتى فرغ من المسائل التي يخالفون فيها ، فلما رآها الكامل قال : أيش أقول في هذا ، يقول بقوْل الله ، وقول رسوله ﷺ ؟!

ناظره القاضي محيي الدين ، والخطيب ضياء الدين ، وجماعة ، فصعدوا إلى القلعة ، وقالوا لواليها : هذا قد أَضلّ الناس ، ويقول بالتشبيه . وارتفعت الأصوات ، فقال والي القلعة الصَّارم برغش : كلّ هؤلاء على

---

(١) السير ٢١ / ٤٥٥ - ٤٥٦ .

ضلالة وأنت على الحق ؟ قال : نعم . فأمر بكسر منبره .

رحم الله الحافظ عبد الغني ، فقد كان سيدًا من سادات أهل الدين والعلم ، والتألُّه ، والصدْع بالحق .

العماد المقدسي « جوهرة عصره » :

قال عنه الضياء المقدسي : ما علمت أنه دخل إلى سلطان ولا والٍ ، وكان قويًّا في أمر الله ، ضعيفًا في بدنه ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، أمّارًا بالمعروف ، لا يرى أحدًا يُسيء صلاته إلا قال له ، وعلَّمَه .

قال : وبلغني أنه أتى فُسَّاقًا ، فكسّر ما معهم ، فضربوه حتى غُشي عليه ، فأراد الوالي ضربَهم ، فقال : إنْ تابوا ولازموا الصلاة فلا تُؤْذِهم ، وهُم في حِلٍّ . فتابوا[1] .

أَسد الشَّام اليونيني ، عبد الله بنُ عثمان بن جعفر :

قال الشيخ علي القصار : كنت أَهَابه كأنه أسد .

وقال الذهبي : كان أمّارًا بالمعروف لا يهاب الملوك .

قيل : إن العادل أتى والشيخ يتوضأ ، فجعل تحت سجادته دنانير ، فردّها وقال : يا أبا بكر، كيف أدعو لك والخمور دائرة في دمشق ، وتبيع المرأة وقية ، يؤخذ منها قراطيس ؟! فأبطل ذلك .

وقيل : جلس بين يديه المعظم وطلب الدعاء منه ، فقال : يا عيسى ، لا تكن نحسًا مثل أبيك ، أظهر الزغل[2] ، وأفسد على الناس ....

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٤٩ - ٥٠ .

(٢) العملة المغشوشة .

المعـــاملة[١].

البربهاري شيخ الحنابلة القدوة الإمام أبو محمد الحسن بن علي :

كان قوّالًا بالحق ، داعيةً إلى الأثر ، لا يخاف في الله لومة لائم . وكان له - رحمه الله - مجاهداتٌ ومقامات في الدين ، وكانت له المنزلة الرفيعة في قلوب الناس .

وكان له أصحاب كثيرون ، ثم لم تزل المبتدعة توحش قلب الراضي عليه ، حتى نُودي في الناس : لا يجتمع اثنان من أصحاب البربهاري . فاختفى ، وتوفي مستترًا ، فدفن بدار أخت توزون .

سلطان العلماء ، وبائع الملوك والأمراء : أبو محمد عِزُّ الدين عبد العزيز ابن عبد السلام بن أبي القاسم :

« شيخ الإسلام والمسلمين ، وأحد الأئمة الأعلام ، سلطان العلماء ، إمام عصره بلا مدافعة ، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه ..... لم ير مثل نفسه ، ولا رأى من رآه مثلَه ، علمًا وورعًا وقيامًا في الحق ، وشجاعة وقوةَ جنانٍ ، وسلاطة لسان »[٢].

وقال عنه ابن حجر : « كان عالي الهمة ، بعيد الغوْر في فهم العلوم ..... وكان قائمًا بالأمر بالمعروف ، لا يخاف في ذلك كبيرًا ولا صغيرًا »[٣].

وذكر اليافعي أن الإمام العزَّ كان جبل إيمان ، لا يخشى سلطانًا ، ولا يهاب سَطوة الملك ، بل يعمل بما أمر الله ورسوله به ، وما يقتضيه الشرع

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ١٠١ - ١٠٢ .
(٢) طبقات الشافعية ٨ / ٢٠٩ .
(٣) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر ٢ / ٣٥١ .

المطهـر[١].

أمرُه بالمعروف ونهيُه عن المنكر للملك الأشرف موسىٰ بن الملك العادل ابن أيوب :

دخل سلطان العلماء على الملك الأشرف في مرضِ موْته ، فقبَّل الأشرف يده ، وقال له : ادعُ الله لي ، وأوصني وانصحني . فقال له عزّ الدين : أمّا دعائي للسلطان ، فإني أدعو له في كثير من الأحيان ؛ لما في صلاحه من صلاح المسلمين والإسلام ، والله تعالى يُبَصِّر السلطان فيما يبيِّض به وجهه يوم يلقاه ، وأما وصيتي ونصيحتي للسلطان، فقد وجبت وتعيّنت لقبوله وتقاضيه ، وكان قُبَيْل مرضه قد وقع بينه وبين أخيه السلطان - الملك - الكامل واقع ووحشة ، وأمر وهو في ذلك المرض بنصْب دِهليزه إلى صوْب مصر ، وضرب منزلة تُسمّىٰ : الكُسوة[٢] ، وكان في ذلك الزمان قد ظهر التَّتَرُ بالمشرق ، فقال الشيخ للسلطان - الملك - الكامل : أخوك الكبير وَرَحِمُكَ ، وأنت مشهور بالفتوحات والنصر على الأعداء ، والتَّتَرُ قد خاضوا بلاد المسلمين ، تترك ضَرْب دهليزك إلى أعداء الله وأعداء المسلمين ، وتضربه إلى جهة أخيك ! فينقل السلطان دهليزه إلى جهة التتار ، ولا تقطعْ رَحِمَك في هذه الحالة ، وتنوي مع الله نصر دينه وإعزاز كلمته ؛ فإنْ مَنَّ الله بعافية السلطان رجوْنا من الله إدالته على الكفار ، وكانت في ميزانه هذه الحسنة العظيمة ، فإنْ قضىٰ الله تعالى بانتقاله إليه كان السلطان في خفارة نِيَّته . فقال له : جزاك الله خيرًا عن إرشادك ونصيحتك . وأَمَر - والشيخ حاضر - في الوقت بنقل دهليزه إلى الشرق ، إلى منزلة يُقال لها : القُصير[٣] ، فنُقل

(١) مرآة الجنان لليافعي ٤ / ١٥٥ .

(٢) أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر .

(٣) هذه المنزلة هي القرية التي تُسمّىٰ اليوم باسم : الجعافرة . إحدىٰ قرى مركز =

في ذلك اليوم . ثم قال له : زدني من نصائحك ووصاياك . فقال له : السلطان في مثل هذا المرض ، وهو على خطر ، ونُوّابُه يُبيحون فروج النساء ، ويُدمنون الخمور ، ويرتكبون الفجور ، ويتنوَّعون في تمكيس المسلمين ، ومن أفضل ما تلقى الله به أن تتقدم بإبطال هذه القاذورات ، وبإبطال كلِّ مَكْسٍ ، ودفْع كلِّ مظلمة . فتقدم رحمه الله - للوقت - بإبطال ذلك كله ، وقال له : جزاك الله عن دينك وعن نصائحك ، وعن المسلمين خيرًا ، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنِّه وكرمه . وأطلق له ألف دينار مصرية فردَّها عليه ، وقال : هذه اجتماعةٌ لله لا أكدِّرها بشيء من الدنيا ، وودَّع الشيخ السلطان ، ومضى إلى البلد ، وقد شاع عند الناس صورة المجلس ، وتبطيل المنكرات ، وباشَرَ الشيخ بنفسه تبطيلَ بعضها »[(١)] .

إنكارُه على مَلِك دمشق التَّنازُل عن ديار المسلمين ، وعقْد الصُّلح مع الفرنجة الصليبيين المعتدين :

« لما تحالف الصالح إسماعيل - المعروف بأبي الخبيش ، حاكم دمشق - مع الصليبيين ، وأسلمهم قلعة صَفَد ، وقلعة الشقيف ، وصيدا ، وبعض ديار المسلمين اختيارًا ؛ لينجدوه على الصالح نَجم الدين أيوب ، حاكم مصر ؛ لأنّ الصالح إسماعيل خاف منه فكاتب الفرنجة ؛ ليساعدوه ضد ابن أخيه حاكم مصر ، فدخل الصليبيون دمشق لشراء السلاح ، ليقاتلوا المسلمين ، فشقّ ذلك على سلطان العلماء مشقةً عظيمة في مبايعة الفرنج السلاح ، وعلى المتدينين من المتعيِّشين مِنَ السلاح ، فاستفتَوا الشيخ في مبايعة الفرنج السلاح ، فقال : يحرُم عليكم مبايعتُهم ؛ لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به

= فاقوس ، محافظة الشرقية .

(١) طبقات الشافعية ١٠ / ٢٤٠ - ٢٤١ .

إخوانكم المسلمين .

وترك عز الدين الدعاء للحاكم في الخطبة ، وجدّد دعاءه - في الجامع - الذي كان يدعو به إذا فرغ من الخطبتين : « اللهم أبرِمْ لهذه الأمة أمرًا رشدًا تُعِزُّ فيه وليّك ، وتُذِلُّ فيه عَدُوّك ، ويُعمل فيه بطاعتك ، ويُنهىٰ فيه عن معصيتك » والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين ، والنصر على أعداء الله الملحدين .

فكاتب أعوانُ الشيطانِ السلطانَ بذلك ، وحرّفوا القول وزخرفوه ، فجاء كتابه باعتقال الشيخ ، فبقي مدة معتقلًا ، ثم وصل الصالح إسماعيل ، وأخرج الشيخ بعد محاورات ومراجعات ، فأقام مدةً بدمشق ، ثم انتزح عنها إلى بيت المقدس ، فوافاه الملك الناصر داود في الفوْر ، فقطع عليه الطريق وأخذه ، وأقام عنده بنابلس مدة ، وجرت له معه خطوبٌ ، ثم انتقل إلى بيت المقدس وأقام به مدة ، ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور - صاحب حمص - وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس ، يقصدون الديار المصرية ، فسيّر الصالح إسماعيل بعض خواصِّه إلى الشيخ بمنديله ، وقال له : تدفع منديلي إلى الشيخ وتتلطف به غاية التلطُّف وتستنزله ، وتعِدُه بالعوْد إلى مناصبه على أحسن حال ، فإن وافقك تدخل به عليّ ، وإنْ خالفك فاعتقلْه في خيمة إلى جانب خيمتي . فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرَع في مُسايسته وملاينته ، ثم قال له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة ، أن تنكسر للسلطان ، وتقبِّل يده لا غيره »[1]. وهنا قال سلطان العلماء كلماته النَّيِّرة ، وهي كلمات للحياة ، فيها استعلاءُ أهل العلم وعزَّة العقيدة ، خرَّ من هوْل هذه الكلمات رسولُ الحاكم . قال

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٣ - ٢٤٤ .

عز الدين : « والله يا مسكين ، ما أرضاه أن يُقبِّل يدي ، فضلًا أن أُقَبِّل يدَه . يا قوم ، أنتم في وادٍ ، وأنا في وادٍ ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به »(١).

عزةُ سلطان العلماء بربه .. يصون يده المتوضِّئة عن ملامسة عميل للصليبيين ، وإن كان سلطانَ دمشق .. يصون يده التي تكتب العلم وتسجد لمولاها .

لَوْ كَانَ فيهمْ مَنْ عَراهُ غرامُ ... ما عنّفوني في هواهُ ولامُوا(٢)
لكنَّهم جهِلُوا لَذاذةَ حُسْنِهِ ... وعلمْتُها ولذَا سَهِرْتُ ونامُوا
لَوْ يعلمُونَ كَمَا علمتُ حقيقةً ... جَنحُوا إلى ذاك الجَنَابِ وهامُوا
أوْ لَوْ بدتْ أنوارُهُ لعُيونِهمْ ... خَرُّوا ولم تثبُتْ لهم أقدامُ
مولايَ عِزَّ الدين عَزّ بك العُلا ... فَخْرًا فدونَ حِذاكَ مِنْهُ الْهامُ
جاوزتَ حدَّ المدْح حتىٰ لم يُطِقْ ... نظْمًا لفضلِكَ في الورىٰ النَّظَّامُ
فعليكَ يا عبدَ العزيز تحيةٌ ... وعليكَ يا عبدَ العزيز سَلامُ(٣)

يقول الشيخ شرف الدين عبد اللطيف ولد الشيخ سلطان العلماء ، فيما حكاه السُّبكي في « طبقات الشافعية » بعد مقولة الشيخ لرسول السلطان :

« فقال له : قد رسم لي إنْ لم توافق على ما يُطلب منك وإلا اعتقلتك . فقال : افعلوا ما بدا لكم . فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خَيْمة السلطان . وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه ، فقال يومًا لملوك

---

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٣ - ٢٤٤ .
(٢) هذا البيت لسلطان العلماء ، وما بعده لتلميذه عمر بن عبد العزيز الأسواني قاضي أسوان .
(٣) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٦ - ٢٤٧ .

الفرنج : تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن ؟ قالوا : نعم . قال : هذا أكبر قُسُوس المسلمين ، وقد حبستُه لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين ، وعزلتُه عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ، ثم أخرجتُه فجاء إلى القدس ، وقد جدّدتُ حبسه واعتقاله لأجْلِكم . فقالت له ملوك الفرنج : لو كان هذا قِسِّيسَنا لغسَلْنَا رجليه ، وشربنا مرقتها »[1].

لله ما أحلى هذه الكلمة وأطيبها ... « صَدَقَكَ وهو كذوب » ... ونور الحق لا يخفى ، وجمال الشيخ وهيبته ، وحسن موقفه يشهدُ به الأعداء .. وهذه شهادة الكفار في حقّه .. فما بالُ أذنابهم ؟!

قَدْ تُنكرُ العيْنُ ضَوْءَ الشمسِ مِنْ رَمَدٍ ويُنكرُ الفمُ طَعْمَ الماءِ مِن سقَمِ

« ثم جاءت العساكر المصرية ، ونصر الله تعالى الأمة المحمدية ، وقتلوا عساكر الفرنج ، ونجّى الله سبحانه وتعالى الشيخ ، فجاء إلى الديار المصرية ، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب رحمه الله ، وولّاه خطابة مصر وقضاءَها ، وفوّض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة ، واتفق له في تلك الولايات عجائبُ وغرائبُ » .

عالم تَهابُهُ المبتدعة والملوك :

« كان رحمه الله سيفًا ذا حدَّيْن : حدٌّ سلّه على ترف الملوك ولهْوهم ولعبِهم ومنكرهم ، وآخر على بِدَع العوامّ ، بجرأة لا نظير لها ، ولو كان وراء ذلك السجنُ أو الموتُ ، فيُمْضي اللهُ كلمته في الملك والمملوك . وترجم ذلك قولًا وعملًا[2] ، فكان يقول :

---

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٤ .

(٢) صفحات مطويَّة من حياة سلطان العلماء بقلم سليم بن عيد الهلالي صـ ٦٥ - طبع دار ابن الجوزي .

طُوبى لمن تولَّى شيئًا من أمور المسلمين ، فأعان على إماتة البدع ، وإحياء السنن[(١)].

وأبطل بدعًا كثيرة منها : صلاة الرغائب المبتدَعة ، وصلاة ليلة النّصف من شعبان ، ودقّ المنبر بالسيف .

ولله دُّره حين يقول في نُصرة الحق : « ينبغي لكلِّ عالم إذا أُذل الحقُّ ، وأُخمل الصوابُ أن يبذل جهده في نصرهما ، وأن يجعل نفسه بالذلِّ والخمول أولى منهما ، وإنْ عزّ الحق فظهرَ الصوابُ ، أن يستظل بظلِّهما ، وأن يكتفيَ باليسير مِن رشاش غيرهما »[(٢)].

وقال رحمه الله في « الفتاوى » (٧١ - ٧٢) مُنبِّهًا على خطورة البدع الزاعمة أن في الإسلام قشرًا ولُبابًا : « لا يجوز التعبير عن الشريعة بأنها قشرٌ ، مع كثرة ما فيها من المنافع والخير ، وكيف يكون الأمر بالطاعة والإيمان قشرًا ، وأنّ العلم الملَقّب بعلم الحقيقة جزءٌ من أجزاء الشريعة ؟! ولا يُطلق مثل هذه الألقاب إلا غبيٌّ شقيّ ، قليل الأدب . ولو قيل لأحدهم : إن كلام شيخك قُشورٌ ، لأنكَرَ ذلك غاية الإنكار ، ويطلق لفظ القشور على الشريعة ! وليست الشريعة إلا كتاب الله وسنة رسوله . فيعزَّر هذا الجاهل تعزيرًا يليق بمثل هذا الذنب .

وكان سلطان العلماء رحمه الله يقوم بإنكار المنكر وإبطال البدع بنفسه ، فقد اتفق أن الوزير فخر الدين عثمان ابن شيخ الشيوخ ، أستاذ دار الملْك - وهو الذي كان إليه أمر المملكة - عمد إلى مسجد بمصر ، فعمل على ظهره بناءً ....

(١) مساجلة علمية صـ ١٠ .

(٢) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٥ .

لطبلخانات[١]، وبقيتْ تَضْرِبُ هنالك ، فلما ثبت هذا عند الشيخ عزّ الدين حكم بهدْم البناء ، بل وذهب بنفسه وجماعته وهدَم البناء . ولما علم الوزير غضب لذلك ، فقام الشيخ بالإشهاد عليه ، وأسقط عدالته ، وحكم بفسْقه ، وعزل نفسه عن القضاء ، ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان ، ولكنه لم يُعِدْه إلى الولاية ، وظنَّ فخر الدين أن هذا الحكم لا يتأثر به فخر الدين في الخارج .

العزُّ ونجم الدين أيوب :

وقد كانت له قصة - أيَّ قصة - مع نجم الدين أيوب سلطان مصر .

ونجم الدين هو نجم الدين ظلمًا وجبروتًا .

قال عنه صاحب النجوم الزاهرة : « كان كثير التخيُّل والغضب ، والمؤاخذة مع الذنب الصغير ، والمعاقبة على الوهْم ، لا يقيل عثْرةً ، ولا يقبل معذرة ، ولا يرعى سالف خدمةٍ ، السيئة عنده لا تُغتفر ، وكان جبارًا متكبرًا ، شديد السطوة ، كثير التجبُّر على أصحابه ونُدمائه وخواصِّه ، ثقيل الوطأة ، حتى إن خواصَّه لم يكونوا يأمنون سطوته ، ولا يقدرون على الاحتراز منه ، ولم يكن في خلقه الميْل لأحدٍ من أصحابه ولا أهله ولا أولاده ، ولا المحبة لهم ، ولا الحنوُّ عليهم على ما جرت به العادة »[٢].

قال أبو الحسنْ الباجي تلميذ العز : « طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفِّين بين يديه ، ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قَوْمِه في زينته ، على عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذتِ الأمراءُ تقبّل الأرض بين

---

(١) أي : دار لهوٍ وغناء .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦ / ٣٣٥ .

يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان ، وناداه : يا أيوب .. ما حجتك عند الله ، إذا قال لك : يا أيوب ألم أُبَوِّء لك ملك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟! فقال : هل جرى هذا ؟ قال : نعم ، الحانة الفلانية تُباع فيها الخمور ، وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة - يناديه بأعلىٰ صوته ، والعساكر واقفون - فقال : يا سيدي ، هذا ما أنا عملته ، هذا من زمان أبي . فقال : أنت من الذين يقولون:﴿ **إنا وجدْنا آباءَنا على أمَّة** ... ﴾ [الزخرف : ٢٢] فَرَسَمَ السلطان بإبطال تلك الحانة .

يقول الباجي : فسألتُ الشيخ لمَّا جاء من عند السلطان ، وقد شاع هذا الخبر : يا سيدي ، كيف الحال ؟ فقال : يا بنيَّ ، رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ؛ لئلا تَكْبُر عليه نفسه فتؤذيه . فقلت : يا سيدي ، أما خفتَه ؟ فقال : واللهِ يا بني استحضرت هَيْبة الله تعالى ، فصار السلطان قُدّامي كالقط »[١].

لله ما أعطرَ هذا الكلام .. وإنْ شئتَ فهناك ما هو أحلىٰ وأعطرَ :

« **أمراءُ للبَيْع** » :

حكىٰ السُّبكي والسيوطي أنه « لما تولَّى الشيخ عزُّ الدين القضاء تصدّىٰ لبيْع أمراء الدولة مِنَ الأتراك ، وذكر أنه لم يثبتْ عنده أنهم أحرار ، وأن حكم الرِّق مستصحبٌ عليهم لبيْت مال المسلمين ، فبلغهم ذلك ، فعظُم الخَطْب عندهم ، واضَّرم الأمر ، والشيخ مصمِّم لا يصحِّح لهم بَيْعًا ولا شراءً ولا نكاحًا ، وتعطلتْ مصالحهم لذلكْ ، وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستثار غضبًا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه ، فقال : نعقد لكم مجلسًا ويُنادىٰ عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصل عِتقُكم بطريق شرعي ، فرفعوا الأمر

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢١١ ، وطبقات المفسرين للداودي ١ / ٣١١ .

إلى السلطان ، فبعث إليه فلم يرجعْ ، فجَرَتْ من السلطان كلمة فيها غِلظة ، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر وأنه لا يتعلق به ، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار ، وأركب عائلته على حمار آخر ، ومشى خلفهم خارجًا مِنَ القاهرة قاصدًا نحو الشام ، فلم يصل إلى نحو نصف بريد إلا وقد لحقه غالبُ المسلمين ، لم تكدِ امرأة ولا صبي ولا رجل لا يُؤْبَه إليه يتخلف ، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم ، فبلغ السلطان الخبر ، وقيل له : متى راح ذهب ملكُك ، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيّب قلبه ، فرجع ، واتفقوا معهم على أنه يُنادَى على الأمراء ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالمُلاطفة فلم يُفِدْ ، فانزعج النائب ، وقال : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ، ونحن ملوك الأرض ؟! والله لأضربنَّه بسيفي هذا ، فركب بنفسه في جماعته ، وجاء إلى بيت الشيخ ، والسيف مسلول في يده ، فطرَق الباب ، فخرج ولد الشيخ ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى ، وشرح له الحال فما اكترث لذلك ، وقال : يا ولدي أبوك أقلُّ من أن يقتل في سبيل الله . ثم خرج ، فحين وقع بصره على النائب يبُسَتْ يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدتْ مفاصلُه ، فبكى ، وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال : يا سيدي ، أيش تعمل ؟ قال : أنادي عليكم ، وأبيعكم . قال : ففيمَ تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين . قال : وَمَن يقبضه ؟ قال : أنا ، فتمّ ما أراد ، ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا ، وغالى في ثمنهم ، ولم يبِعْهم إلا بالثمن الوافي ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير ، وهذا ما لم يُسمع بمثله عن أحد . رحمه الله تعالى »[1] .

ولقوة الشيخ في الحق وجرأته في بيانه ، وأمره بالمعروف ونهيه عن

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ٢ / ١٦٢ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٨ / ٢١٦ .

المنكر ، لا يهاب أحدًا إلا الله ، ولا يخشى مِن دونه شيئًا . رُوي عن الملك الظاهر بيبرس أنه لما توفي الإمام العز ، ومرَّت جنازته تحت القلعة ، وشاهد الملك كثرة الخلق الذين معها ، قال لبعض خواصّه : « اليوم استقر أمري في الملك ؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه . لانتزع الملك مِني »[١].

وبرغم هذا ، فقد كان الملك الظاهر بيبرس يجلّ سلطان العلماء ، « ولم يبايع بيبرس واحدًا من الخليفة المستنصر والحاكم إلا بعد أن تقدمه الشيخ عزّ الدين للمبايعة ، ثم بعده السلطان ، ثم القضاة . ولما مات حزن عليه كثيرًا حتى قال : لا إلٰه إلا الله ، ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي ، وشيّع أمراءه وخاصته وأجناده لتشييع جنازته ، وحَملَ نعشَه ، وحضر دفنه »[٢].

فاتفق أن جهّز السلطان الملك الصالح رسولًا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد ، فلما وصل الرسول إلى الديوان ووقف بين يدي الخليفة ، وأدّىٰ الرسالة خرج إليه وسأله : هل سمعتَ هذه الرسالة من السلطان ؟ فقال : لا ، ولكن حمّلنيها عن السلطان فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أستاذ داره . فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام ، فنحن لا نقبل روايته ، فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة ، ثم عاد إلى بغداد وأدّاها[٣].

بأبي وأمي من يحكمون ، ويخضع لحكمهم الخلفاء والسلاطين .

---

(١) طبقات الشافعية لابن قاضي شبة ٢ / ١٣٩ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٨ / ٢١٥ ، وطبقات المفسرين للداودي ١ / ٣١٦ .

(٢) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٥ .

(٣) طبقات الشافعية بتصرف ٨ / ٢١٠ - ٢١١ .

أمره بالمعروف أيام قطز :

« لما دَهَم التتار البلاد عُقَيْبَ واقعة بغداد ، جَبُنَ أهل مصر عنهم ، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض ، استشاروا الشيخ عزّ الدين رحمه الله ، فقال : اخرجوا ، وأنا أضمن لكم على الله النصر . فقال السلطان له : إن المال في خزانتي قليل ، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار . فقال له الشيخ عز الدين : إذا أحضرتَ ما عندك وعند حريمك ، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحليّ الحرام ، وضربتَه سكّة ونقدًا ، وفرّقته في الجيش و لم يقمْ بكفايتهم ذلك الوقت ، اطلبِ القرْض ، وأمّا قبل ذلك فلا . فأحضر السلطان والعسكر – كلهم – ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ ، وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيبة ؛ بحيث لا يستطيعون مخالفته ، فامتثلوا أمره ، وانتصروا »[١].

ابن دقيق العيد :

قال السبكي في «طبقات الشافعية» (٢١٢/٩) عن شيخ الإسلام ابن دقيق العيد : « كان يخاطب عامّة الناس ، السلطان فمَن دونه ، بقوله : يا إنسانُ . وإن كان المُخاطَب فقيهًا كبيرًا قال : يا فقيه . وتلك كلمة لا يسمحُ بها إلا لابن الرفعة ، ونحوه . وكان يقول للشيخ علاء الدين الباجي : يا إمام . ويخصُّه بها »[٢].

هذا الإمام العظيم الأمّار بالمعروف الذي كانت تَهابه الملوك ، وكان سلطانُ مصر إذا رآه من على البعد قام له ، فإذا وصل عنده قبّل السلطان يده ، فيقول له شيخ الإسلام : هذا خير لك ، هذا ينفعك .

هذا هو العالم الرباني .. أما علماء السوء ، فأصدق وصفٍ للفرد منهم

---

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢١٥ .

(٢) طبقات الشافعية ٩ /

قول الشاعر :

يرمـرِمُ مِـنْ فُتات الكُفر قُـوتًا ... ويشـربُ مِنْ كُؤوسِهِمُ الثّمالَهْ

يُقبِّـلُ راحَـةَ الطاغـوتِ حِينًا ... وَيلْـثَمُ دُونمـا خجـلٍ نِعَـالَهْ

الإمام النَّـووي :

كان مواجِهًا للملوك والجبابرة بالإنكار ، ولا تأخذه في الله لومةُ لائم ، وكان إذا عجز عن المواجهة ، كتب الرَّسائل ، وتوصل إلى إبلاغها ، فممَّا كتبه وأرسلني في السعي فيه وهو يتضمَّن العدل في الرعيَّة . وإزالة المكوس عنهم ، وكَتَبَ معه في ذلك شيخُنا شيخ الإسلام أبو محمد عبد الرحمٰن بن الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة ، وشيخنا العلّامة قدوة الوقت أبو محمد عبد السلام بن عليّ بن عمر الزواوي شيخ المالكية ، وشيخنا العلّامة ذو العلوم أبو بكر محمد بن أحمد الشريشي المالكي ، وشيخنا العارف القدوة أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ العارف ولي الله عبد الله ، عُرِفَ بابن الأرمني ، وشيخنا المفتي أبو حامد محمد بن العلَّامة أبي الفضائل عبد الكريم بن الحرستاني خطيب دمشق وابن خطيبها ، وجماعة آخرون ، ووضعها في ورَقة كتبها إلى الأمير بَدْر الدِّين بيْلبك الخَزنْدَار بإيصال ورقة العلماء إلى السلطان الظاهر التُّركي ، وهذه صورتها :

بسم الله الرحمٰن الرحيم .

من عبد الله يحيىٰ النَّواوي .

سلام الله ورحمته وبركاته على المولىٰ المُحْسِن ملكِ الأمراء بدر الدين ، أدام الله الكريم له الخيرات ، وتولَّاه بالحسنات ، وبلَّغه من خيرات الآخرة والأولى كلَّ آماله ، وبَارَكَ له في جميع أحواله ، آمين .

وَيُنْهَى إلى العلوم ....

الشريفة[١] أَنَّ أهل الشام في هذه السنة في ضِيقِ عيشٍ ، وَضَعْف حالٍ ، بسبب قلَّة الأمطار ، وغلاء الأسعار ، وقلَّة الغلَّات والنبات ، وهلاك المواشي ، وغير ذلك . وأنتم تعلمون أنَّه تجب الشفقةُ على الرعيّةِ والسُّلطان ، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم ؛ فإنَّ الدِّين النَّصيحة .

وقد كتبَ خدَمَةُ الشَّرعِ ، الناصحون للسلطان ، المحبُّون له ، كتابًا بتذكيره النَّظَر في أحوال رعيَّتِهِ ، والرفق بهم ، وليس فيه ضررٌ ، بل هو نصيحةٌ مَحْضَةٌ ، وشفقةٌ تامةٌ ، وذكرىٰ لأولي الألباب .

والمسئول من الأمير - أيَّده الله تعالىٰ - تقديمه إلى السلطان ، أدام الله له الخيرات ، ويتكلَّم عليه من الإشارة بالرِّفق بالرعيَّة بما يجدُهُ مُدَّخَرًا له عند الله ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ** ﴾ الآية [آل عمران : ٣٠] .

وهذا الكتاب الذي أرسله العلماء إلى الأمير أمانةٌ ونصيحةٌ للسلطان - أعزَّ الله أنصاره - والمسلمين كلّهم في الدُّنيا والآخرة ، فيجب عليكم إيصالُهُ للسُّلطانِ - أعزَّ الله أنصاره - وأنتم مسئولون عن هذه الأمانة ، ولا عُذْرَ لكم في التأخُّرِ عنها ، ولا حُجَّةَ لكم في التَّقصيرِ فيها عند الله تعالى ، وتُسألون عنها ﴿ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ** ﴾ ، ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ [عبس : ٢٤ - ٢٧] .

أنتم بحمد الله تحبُّون الخير ، وتحرِصون عليه ، وتسارعون إليه ، وهذا

---

(١) أي نرفع إلى علْمِكم الشريف .

من أهم الخيرات ، وأفضل الطَّاعات ، وقد أُهِّلْتُم له ، وساقه الله إليكم ، وهو مِنْ فضلِ الله ، ونحن خائِفون أن يزداد الأمر شدَّةً إن لم يَحْصُلِ النَّظَرُ في الرِّفْقِ بهم . قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة : ١١٥] .

والجماعة الكاتِبون منتظرون ثمرةَ هذا ، مما إذا فَعَلْتُمُوهُ ، وَجَدتُّموه عند اللهِ ؛ ﴿ **إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل : ١٢٨] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فلما وصَلتِ الورقتان إليه ؛ أوقفَ عليهما السُّلطان ، فلما وقف عليها ؛ ردَّ جوابَها جوابًا عنيفًا مؤلمًا ، فتنكَّدَت خواطرُ الجماعة الكاتبون ، وغيرهم ، فكتب - رحمه الله - جوابًا لذلك الجواب :

بسم الله الرحمٰن الرحيم .
الحمدُ لله رب العالمين .
اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد وسلِّم .

من عبد الله يحيٰى النواوي : يُنْهَىٰ أنَّ خَدَمَةَ الشَّرْعِ كانوا كتبوا ما بلغ السلطان - أعزَّ الله أنصاره - فجاء الجوابُ بالإنكارِ والتَّوبيخ والتَّهديد ، وَفَهِمْنَا منه أنَّ الجهادَ ذُكِرَ في الجواب على خِلاف حكْم الشَّرع ، وقد أَوْجَبَ الله إيضاحَ الأحكامِ عند الحاجة إليها ، فقال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيْثَاقَ الَّذِينَ أُوتوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** ﴾ الآية [آل عمران : ١٨٧] فوجب علينا حينئذ بيانُهُ ، وحَرُمَ علينا السكوتُ ؛ قال الله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا**

يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩١] .

وَذُكِرَ في الجوابِ أنَّ الجهادَ ليسَ مختصًّا بالأجنادِ ، وهٰذا أمرٌ لم نَدَّعِهِ ، ولكنَّ الجهادَ فرضُ كفايةٍ ، فإذا قَرَّرَ السُّلطانُ له أجنادًا مَخْصوصينَ ، ولهم أخباز(١) معلومةٌ مِن بيت المال ، كما هو الواقع - تفرَّغَ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم ، من الزِّراعة ، والصَّنائع ، وغيرهم ، الذي يحتاجُ الناسُ كلُّهم إليها ، فجهادُ الأجنادِ مُقابِلَ الأخبازِ المقرَّرَةِ لهم ، ولا يَحِلُّ أنْ يُؤْخَذَ مِنَ الرَّعِيَّةِ شيءٌ ما دَامَ في بيتِ المالِ شيءٌ مِن نَقْدٍ ، أو متاعٍ ، أو أرضٍ ، أو ضِياعٍ تباع ، أو غير ذٰلك . وهٰؤلاء علماءُ المسلمينَ في بلاد السلطان - أعزَّ الله أنصاره - مُتَّفِقونَ على هٰذا ، وبيتُ المال - بِحَمْدِ الله - معمورٌ ، زَادَهُ الله عمارةً وَسَعَةً ، وخيرًا وبركةً في حياة السلطانِ المقرونةِ بكمالِ السعادةِ له ، والتَّوفيقِ والتَّسديد والظُّهورِ على أعداء الدين ، ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ** ﴾ [آل عمران : ١٢٦] ، وإنما يُسْتَعَانُ في الجهادِ وغيرِهِ بالافتقارِ إلى الله تعالى ، واتِّباع آثار النبي ﷺ ، ومُلازمةِ أحكام الشرع .

وجميعُ ما كتَبْناهُ أوَّلًا وثانيًا هو النصيحةُ التي نعتَقِدُهَا ، ونَدِينُ اللهَ بها ، ونسألُهُ الدَّوام عليها حتىٰ نَلْقَاه . والسُّلطانُ يعلمُ أنَّها نصيحةٌ له وللرَّعيَّة ، وليس فيها ما نُلامُ عليه ، ولم نكتُب هٰذا للسلطان ؛ إلا لِعِلْمِنَا أنَّه يُحِبُّ الشَّرْعَ ، ومتابعَتَهُ أخلاقَ النبيِّ ﷺ ، في الرِّفْقِ برعيَّتِهِ ، والشفقةِ عليهم ، وإكرامِهِ لآثَارِ النبيِّ ﷺ ، وكلُّ ناصحٍ للسلطانِ موافِقٌ على هٰذا الذي

---

(١) الأخباز واحدها : الخبزة أي النصيب ، وهي الرواتب والجرايات التي تعطىٰ شهريًّا ، أو تبعًا للمواسم الزراعية ، أو عند الحملات الحربية .

كَتَبْنَاهُ . وأما ما ذُكِرَ في الجواب مِن كَوْنِنا لم نُنْكِر على الكُفَّارِ حين كانوا في البلاد ، فكيف يُقَاسُ ملوكُ الإسلامِ ، وأهلُ الإيمان والقرآنِ بِطُغَاةِ الكفَّارِ ؟! وبأيِّ شيءٍ كُنَّا نُذَكِّرُ طُغَاةَ الكفَّارِ وَهُم لا يَعْتَقِدُونَ شيئًا مِن دينِنَا ؟!

وأما تهديدُ الرعيةِ بسبب نصيحَتِنَا ، وتهديدُ طائفةٍ ، فليس هو المَرْجُوّ مِن عَدْلِ السلطانِ ، وَحِلْمِهِ ؛ وأيُّ حِيلةٍ لضعفاءِ المسلمين المفرَّقين في أقطار ولايةِ السلطان في كتابٍ كَتَبَهُ بعضُ المسلمين النَّاصحينَ نصيحةً للسلطان ولهُم ، ولا عِلْمَ لَهُمْ به ؟! وكيفَ يؤاخذونَ بهِ لو كانَ فيهِ ما يُلامُ عليه ؟!

وأمَّا أنا في نفسي ، فلا يضرُّني التهديدُ ، ولا أكبرُ منه ، ولا يمنَعُني ذٰلك من نصيحة السُّلطان ، فإنِّي أعتَقِدُ أنَّ هـٰذا واجبٌ عليَّ وعلىٰ غيري ، وما ترتَّبَ على الواجبِ ، فهو خيرٌ وزيادةٌ عند الله تعالى ، ﴿ **إنَّما هـٰذِهِ الحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرارِ** ﴾ [غافر : ٣٩] ، ﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إلى اللهِ إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ** ﴾ [غافر : ٤٤] ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول بالحق حيثما كنا ، وأن لا نخافَ في اللهِ لومَةَ لائمٍ .

ونحنُ نُحِبُّ للسلطانِ معالِيَ الأمورِ ، وأكمَلَ الأحوالِ ، وما ينفعُهُ في آخرتِهِ ودُنْياه ، ويكونُ سببًا لدوامِ الخيراتِ له ، ويَبْقىٰ ذِكْرُهُ له على مرِّ الأيام ، ويخلُدُ في سننه الحسنة ، ويجد نفعَهُ ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا** ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وأما ما ذُكِرَ من تمهيد السلطانِ البلادَ ، وإدامته الجهاد ، وفتْح الحصون ، قَهْر الأعداء ، فهذا بحمد الله من الأمور الشائعة التي اشترك في العلم بها الخاصَّةُ والعامَّة ، وسارَتْ في أقطارِ الأرض ، ولله الحمد ، وثواب ذلك مُدَّخَرٌ

للسلطان إلى ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

ولا حُجَّةَ لنا عند اللهِ تعالىٰ إذا تَرَكْنا هذه النَّصيحَةَ الواجبَةَ علينا .
والسلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته .
الحمدُ لله رب العالمين[١].

ومما كتبه لمَّا احتيطَ على أملاكِ دمشق - حرسها الله تعالى - بعد إنكاره مواجهةَ السلطان الظاهر ، وعدم إفادته وقبوله :

بسم الله الرحمٰنِ الرحيم .
الحمدُ لله ربِّ العالمين .

قال الله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيْثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] وقد أوجبَ الله على المكلَّفين نصيحةَ السلطانِ - أعزَّ الله أنصارَه - ونصيحَةَ عامَّةِ المسلمين ؛ ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الدِّينُ النَّصيحةُ ؛ للهِ ، ولكتابِهِ ، ورسولِهِ ، وأَئمَّةِ المسلمين ، وعامَّتِهم »[٢]. وَمِن نصيحة السلطان - وفَّقه الله لطاعته ،

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين لابن العطار صـ ١٠١ - ١٠٨ .
(٢) أخرجه مسلم في « الصحيح » (١ / ٧٥) ، والنسائي في « المجتبى » (٢ / ١٧٨) ، وأبو داود في « السنن » (٥ / ٢٢٣) ، والحميدي في « المسند »=

وتولَّاه بكرامته – أن تُنْهى[1] إليهِ الأحكام إذا جرتْ على خِلافِ قواعدِ الإسلام .

وأوجبَ الله تعالى الشَّفَقَةَ على الرعيَّةِ ، والاهتمامَ بالضَّعَفَةِ ، وإزالَةَ الضَّررِ عنهم . قال الله تعالى : ﴿ **وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الحِجْر : ٨٨] .

وفي الحديث الصحيح : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ بِضعفائِكم »[2] .

وقال ﷺ : « مَنْ كَشَفَ عن مسلم كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيا ، كَشَفَ الله عنهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، واللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَـوْنِ ....

= (٢/ ٣٦٩) ، وأحمد في « المسند » (٤/ ١٠٢) ، والبخاري في « التاريخ الصغير » (٢ / ٣٥) ، وابن نصر في « تعظيم قدر الصلاة » (رقم ٧٤٧ و٧٤٩ و٧٥٠ و٧٥١) ، وبيَّن أن محمد بن عجلان أدخل إسنادًا في إسناد ، فجعل الحديث من مسند أبي هريرة . والصحيح أنه من حديث تميمٍ الدَّاري . وانظر حوْل هذا الأمر : « فوائد الليث بن سعد » (ص ٥١ – ٥٥) ، وكلام محققه عليه .

(١) أي : تُرفع إليه وتبلُغ مسامعَه .

(٢) أخرجه البخاري في « الصحيح » (٦ / ٨٨) ، والنسائي في « المجتبى » (٦ / ٤٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٣ / ٣٤٥) ، والبغوي في « شرح السنة » (١٤ / ٢٦٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥ / ١٠ ، ٢٦ و٨ / ٢٩٠) ، والدَّوْرَقي في « مسند سعد بن أبي وقاص » (رقم ٥١) ، والهيثم الشاشي في « مسنده » (ورقة ١٠ / أ) . وأبو طاهر المخلِّص ، وأبو القاسم التيْمي في « الترغيب » ، كما في « النكت الظراف » (٣/٣١٩) .

أخيهِ »[١].

وقال ﷺ : « اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ المسلمينَ شيئًا ، فَرَفَقَ بِهِمْ ؛ فارْفُقْ بِهِ ، وَمَنْ شَقَّ عليهِم ، فاشْقُقْ عليهِ »[٢].

وقال ﷺ : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »[٣].

وقال ﷺ : « إِنَّ المُقْسِطِينَ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَلَى يمينِ الرحمـٰنِ ، الذينَ يَعْدِلُونَ في حُكْمِهِم ، وأهليهِم ، وما وُلُّوا »[٤].

وقد أنعم الله تعالى علينا ، وعلى سائِر المسلمين بالسلطان – أعزّ الله أنصارهُ – فقد أقامَه لنُصْرَةِ الدِّين والذَّبِّ عن المسلمين ، وأذلَّ بِهِ الأعداءَ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ ، وفتحَ عليهِ الفتوحاتِ المشهورةَ في المدةِ اليسيرةِ ، وأوْقَعَ الرُّعْبَ منه في قلوب أعداءِ الدين وسائر الماردين ، ومَهَّدَ له البلادَ والعبادَ ، وقَمَعَ بسببهِ أهلَ الزَّيْغِ والفساد ، وأمدَّهُ بالإعانةِ واللُّطْفِ والسَّعَادَةِ .

---

(١) أخرجه مسلم في « الصحيح » (٤ / ٢٠٧٤ ، رقم ٢٦٩٩) ، وأبو داود في « السنن » رقم ٤٩٤٦) ، والترمذي في « الجامع » رقم ١٤١٥ ، ١٩٣٠) ، وابن ماجه في « السنن » (رقم ٢٢٥) ، وأحمد في « المسند » (٢ / ٢٥٢ ، ٢٩٦ ، ٥٠٠ ، ٥١٤) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم في « الصحيح » (رقم ١٨٢٨) ، وأحمد في « المسند » (٦ / ٦٢ ، ٩٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠) ، وغيرهما .

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح والأدب المفرد ، ومسلم ، والنسائي ، والترمذي ، وعبد الرزاق ، وأبو داود وأبو عوانة وابن الجارود في المنتقى ، وأحمد ، والطبراني في الكبير .

(٤) أخرجه مسلم ، وأحمد ، والبخاري في التاريخ ، والنسائي ، والحميدي في المسند ، والبغوي في شرح السنة ، وعبد الرزاق في المصنف ، والبيهقي في « السنن الكبرى » .

فللهِ الحمدُ على هٰذه النعمِ المتظاهرةِ ، والخيراتِ المتكاثرةِ ، ونسألُ اللهَ الكريمَ دوامَهَا له وللمسلمين ، وزيادَتَها في خير وعافية ، آمين .

وقد أوجبَ اللهُ شكْرَ نِعَمِهِ ، وَوَعَدَ الزيادةَ للشَّاكرينَ ، فقال تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم ﴾ [إبراهيم : ٧] .

ولقد لَحِقَ المسلمين بسبب هٰذه الحَوْطَةِ على أملاكِهم أنواعٌ مِن الضَّرَرِ ، لا يمكنُ التعبيرُ عنها ، وطُلِبَ منهُم إثباتٌ لا يلزَمُهُم ، فهٰذه الحَوْطَةُ لا تَحِلُّ عندَ أحدٍ مِنْ عُلَمَاءِ المسلمين ، بل مَن في يدهِ شيءٌ ، فهو مُلْكُه ، لا يَحِلُّ الاعتراضُ عليه ، ولا يُكَلَّفُ بإثباتِهِ .

وقد اشْتُهِرَ من سيرةِ السلطان أنَّه يُحِبُّ العملَ بالشرع ، ويُوصي نُوَّابَهُ به ، فهو أَوْلى مَنْ عَمِلَ به ، والمسئول إطلاق النَّاس من هٰذه الحَوْطَةِ ، والإفراج عن جميعِهم ، فَأَطْلِقْهُم ، أَطْلَقَكَ اللهُ مِن كُلِّ مَكروهٍ ، فَهُم ضَعَفَةٌ ، وفيهم الأيتامُ ، والأراملُ ، والمساكينُ ، والضَّعَفَةُ ، والصَّالحونَ ، وبهم نُنْصَرُ ، ونُغَاثُ ، ونُرْزَق ، وهم سُكَّان الشام المبارك ، جيرانُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم ، وسكَّانُ ديارِهم ، فلهُم حُرماتٌ مِن جهاتٍ . ولو رأى السُّلطانُ ما يلحَقُ الناسَ مِن الشَّدائِد ، لاشتَدَّ حُزْنُه عليهِم ، وأطلقَهُم في الحالِ ولم يُؤَخِّرْهُم ، ولكن لا تُنْهَى الأمورُ إليهِ على وجْهِهَا .

فباللهِ ، أغِثِ المسلمين ، يُغِثْكَ اللهُ ، وارْفقْ بِهِمْ ؛ يَرْفقِ اللهُ بك ، وعَجِّلْ لَهُم الإفراجَ قبلَ وقوعِ الأمطارِ ، وتَلَفِ غَلَّاتِهم ؛ فَإِنَّ أكثرَهُمْ وَرِثُوا هٰذه الأملاكَ مِن أسلافِهِم ، وَلَا يمكِنُهُم تحصيلُ كتبِ شراءٍ ، وقد نُهبَتْ كُتُبُهم .

وإذا رفقَ السلطانُ بهِم ؛ حَصَلَ له دعاءُ رسولِ اللهِ ﷺ لمن رفق

بأمَّتِهِ ، ونصره على أعدائِهِ ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم** ﴾ [محمد : ٧] ، وَتَتَوَفَّرُ له من رعيَّتِهِ الدَّعوات ، وتظْهَرُ في مملكَتِهِ البركاتُ ، ويُبَارَكُ له في جميعِ ما يقصدُه من الخيرات .

وفي الحديثِ عن رسولِ اللهِ ﷺ قال : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً ؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يوم القيامَةِ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً ؛ فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يَوْمِ القِيَامَةِ »[١]. فنسأَلُ الله الكريم أن يوفِّقَ السلطانَ للسُّننِ الحسنةِ التي يُذكَرُ بها إلى يوم القيامة ، ويحميه مِن السُّنن السيِّئةِ .

فهٰذه نصيحَتُنَا الواجبةُ علينا للسُّلطانِ ، ونرجو مِن فضلِ اللهِ تعالى أن يُلْهِمَهُ الله فيها القَبولَ . والسلامُ عليكُم ورحمة الله .

الحمدُ لله رب العالمين ، وصلواتُه وسلامُه على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبِهِ[٢].

قال السخاوي : « وكان السبب في هذه الحوْطة - كما صرّح به صاحب البدر السَّافر - : أن السلطان الظاهر بيبرس لما ورد دمشق بعد قتال التتار ، ونزوحهم عن البلاد ولّى وكالة بيت المال شخصًا من الحنفية ، فقال : إن هذه الأملاك التي بدمشق كان التتار قد استولَوْا عليها ، فتملَّكوها ، على مقتضى مذهب الإمام أبي حنيفة[٣] رحمه الله . فوضع السلطان يده عليها ، فقام جماعة من أهل العلم في ذلك ، وكان الشيخ فيهم.. (قلت) - أي

---

(١) أخرجه مسلم والنسائي وغيرهما .
(٢) تحفة الطالبين صـ ١٠٨ - ١١٤ .
(٣) والجمهور علىٰ خلافه .

السخاوي -: بل هو أعظمهم . قال : فكلّم السلطان في ذلك كلامًا فيه غِلْظَة ، فظنَّ السلطان أنّ له مناصبَ يعزله عنها . فقيل له : ما له . انتهى كلام البدر .

وقال الخطيب النونيني : إنه وَاقَفَ الظَّاهرَ غير مرة ، بدار العدل بسبب الحوْطة على بساتين دمشق وغير ذلك . وحُكي عن الظاهر أنه قال : أنا أفزع منه . أو ما هذا معناه . ولقد شاهدتُّه مرةً طلع إلى زاوية الشيخ خضر - بالجبل المشرِف على المزة - وحدَّثه في أمرٍ ، وبالغ معه وأغلظ له ، فسمع الشيخ خضر كلامًا مؤْلِمًا ، فأمر بعض مَنْ عنده بإخراجه ودفْعه ، فما تأثر لذلك في ذات الله - عز وجل - ولا رجع عن قَصْده ؛ لنفْع يجلِبُه لبعض المسلمين .

وقال العماد ابن كثير : إنه قام على الظاهر في دار العدل في قضية الغوطة ، لمّا أرادوا وضْع الأمْلاك على بساتينها ، فردّ عليهم ذلك ، ووقى اللهُ شرَّها ، بعد أن غضب السلطان وأراد البطش به ، ثم بعد ذلك أحبّه وعظّمه ، حتى كان يقول : أنا أفزع منه . انتهى كلام ابن كثير »[(١)] .

ومما كتبه بسبب الفقهاء ، لما رُسِمَ[(٢)] بأن الفقيه لا يكون منزلًا في أكثر من مدرسة واحدة ، وهٰذه صورته :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم :

خَدَمَةُ الشَّرْع يُنْهونَ أَنَّ الله تعالى أمرَنا بالتَّعاوُنِ على البرِّ والتَّقوى ،

---

(١) ترجمة شيخ الإسلام النووي ، للحافظ السخاوي صـ ٤٥ طبع جمعية النشر والتأليف بالأزهر .

(٢) أي : كُتب ، و « المرسوم » ما يُصدره رئيس الدولة كتابة في شأنٍ من الشئون ، فتكون له قوة القانون .

ونصيحَةِ وُلاةِ الأمورِ ، وعامَّةِ المسلمين ، وأخَذَ على العُلماءِ العهدَ بتَبْليغِ أحكامِ الدينِ ، ومناصحةِ المسلمين ، وحثَّ على تعظيمِ حُرُماتِهِ ، وإعظامِ شعائِرِ الدينِ ، وإكرامِ العلماء وتُبَّاعِهِم .

وقد بلغَ الفقهاءَ بِأَنَّهُ رُسِمَ في حَقِّهِم بِأَنْ يُغَيّروا عن وظائِفِهم ، ويُقْطَعوا عن بعضِ مدارِسِهم ، فتنكَّدَتْ بذلك أحوالُهُمْ ، وتضرَّروا بهذا التضييقِ عليهم ، وهُم محتاجونَ ، ولهُم عِيالٌ ، وفيهِم الصَّالِحونَ ، والمشتغِلونَ بالعلومِ ، وإنْ كَانَ فيهِم أفرادٌ لا يَلْتَحِقُونَ بمراتِبِ غيرِهم ، فهم منتَسِبونَ إلى العلمِ ، ومشارِكُونَ فيهِ . ولا تَخْفَى مراتِبُ أهلِ العلمِ ، وفضلُهم ، وثناءُ الله تعالى عليهم ، وبيانُه مزيَّتَهم على غيرِهم ، وأنَّهم وَرَثَةُ الأنبياءِ – صلواتُ الله وسلامُه عليهِم – وأنَّ الملائِكَةَ – عليهم السلام – تضعُ أجْنِحَتَهَا لَهُم ، ويستَغْفِرُ لَهُم كُلُّ شيءٍ ، حتى الحيتانُ . واللائِقُ بالجَنابِ العالي إكرامُ هـٰذه الطَّائِفَةِ ، والإحسانُ إليهِم ، ومُعاضَدَتُهُم ، ودفعُ المكروهاتِ عنهُم ، والنَّظَرُ في أحوالِهم ؛ بما فيهِ الرِّفقُ بهم ؛ فقد ثبت في « صحيح مسلم » عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا ، فَرَفَقَ بِهِم ؛ فَارْفَقْ بِهِ » .

وروى أبو عيسى الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أنه كان يقول لطلبةِ العلم : مرحبًا بوصيةِ رسول الله ﷺ ، إن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ رجالًا يأتونَكُم يَتَفَقَّهونَ في الدِّين ، فإذا أَتَوْكُمْ ؛ فاسْتَوْصوا بِهِمْ خَيْرًا »(١) .

---

(١) أخرجه الترمذي ، وابن ماجه ، وعبد الرزاق في المصنف ، والرامهرمزي في المحدث الفاصل صـ ١٧٦ ، كلهم من طريق أبي هارون العبدي عمارة بن جُوَين كذبه بعضهم . انظر الميزان (٣ / ١٧٣) .

والمسئول أن لا يُغَيَّر على هذه الطائفةِ شيءٌ ، وتُسْتَجْلَب دعوتُهم لهٰذه الدولة القاهرة ، وقد ثبت في « صحيح البخاري » أن رسول الله ﷺ قال : « هل تُنْصَرُونَ وتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ » .

وقد أحاطتِ العلومُ بما أجاب بِهِ الوزيرُ نظامُ المُلْك ، حينَ أنْكَرَ عليهِ السلطانُ صرْفَ الأموالِ الكثيرةِ في جهةِ طلبةِ العلم ، فقال : « أَقَمْتُ لَكَ بِهَا جُنْدًا لَا تُرَدُّ سِهَامُهُم بالأَسْحارِ » . فاستَصْوبَ فِعْلَهُ ، وساعَدَهُ عليهِ .

واللهُ الكريمُ يوَفِّقُ الجنابَ دائمًا لمرضاتِهِ ، والمسارعة إلى طاعاتِهِ .

والحمد لله ربِّ العالمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

وله - رَحِمَهُ اللهُ تعالى - رسائِلُ كثيرةٌ في كُلِّياتٍ تتعلَّقُ بالمسلمين وجزئيات ، وفي إحياء سننٍ نيِّرات ، وفي إماتة بدع مظلماتٍ ، وله كلامٌ طويل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مواجهًا به أهل المراتب العاليات »[(١)].

قال السخاوي مُعَقِّبًا : « قلت : منها رسالة إلى نائب السَّلطنة بدمشق يطلب جمْع الناس للاستسقاء ، كتبها في يوم الأحد ، حادي عشر جمادىٰ الأولىٰ ، سنة ثمانٍ وستين وستمائة » .

وقد ردّ فيها على من خذَّل في صلاة الاستسقاء ، وجاء فيها : « فهذا المخذِّل مخطئ جاهل ، بل إنِ اعتقد هذا ، كان كافرًا ؛ لأنّ ما فعله رسول الله ﷺ هو الحق والصواب الذي يجب على كلّ مكلَّف

(١) تحفة الطالبين ١١٥ - ١١٨ ، وترجمة النووي للسخاوي صـ ٤٦ - ٤٧ .

الانقياد له ، والمسارعة إلى قبوله ، وانشراح الصدر له . قال الله تعالى : ﴿ **فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا ممّا قَضَيْتَ وَيسلِّموا تسليما** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **إنما كان قول المؤمنينَ إذا دُعوا إلى الله ورسوله لِيحكُم بيْنهم أن يقولُوا سمِعْنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

وكلُّ ما خالف سنة رسول الله ﷺ فهو البدْعة والضلالة والغباوة والجهالة والسَّفاهة والرذالة ، بل هذه طريقة الكفَّار في مُدافعة دين الإسلام ، ويأبىٰ الله إلا أن يُتمّ نورَه ، ولو كرِه الكافرون ، ويجب على وليّ الأمر - وفقه الله لطاعته - إذا سمع كلام هذا الزاعم الجاهل الضّالّ الغاشم المتجاهل ، وغيره ممّن يقول نحوَ هذا القوْل في مدافعة الحق والاعتراض على سنن رسول الله ﷺ - أن يؤدّب تأديبًا بليغًا ينزجر به هو وأمثالُه ، ويُشهرَ أمْره ، لِيَنْكِفَ أهلُ الجهالة والضلالة عن مثل فعله ، ولِيعلم أن المراد بالاستسقاء امتثال أمر الله تعالى والاقتداء برسول الله ﷺ وهو مصلحة فاخرة ، وسعادة معجّلة ، ومِنة مِنَ الله تعالى ، يُشكر على التوفيق لها . وأمّا نزول المطر فهو إلى الله تعالى ، وليس المراد بالاستسقاء تيقُّن نزول المطر » .

وحثّ النّووي في رسالتِهِ نائبَ السلطنة أن يأمر الناس قبل الخروج للاستسقاء ، بالتوبة من المعاصي ومصالحة الأعداء ، والصدقة وصيام ثلاثة أيام ، والخروج في اليوم الرابع صيامًا . ولمّا وصلتِ الرسالة لوليّ الأمرِ ، أمَرَ مُحتَسِب البلد ، فنادىٰ - ساعته - في الناس بصيام ثلاثة أيام ، أوَّلُها يوم الإثنين الثاني عشر من جمادىٰ الأولى ، ثمّ خرج وليّ الأمر والناس يوْم الخميس ، الخامس عشر من الشهر المذكور واستسقَوْا ، ثم سُقوا بعد ذلك بسبعة أيّام سقيا عامة وترادفتْ أمطار كثيرة بعد أنْ حصل لكثير من الناس قنوطٌ ، فللّه الحمد على نِعَمِهِ ، والتوفيق لإظهار شعائر دينه ، ومتابعة

رسوله ﷺ ، والاعتناء بسنتهِ .

وكتب ولي الأمر إلى نوابه في البلدان يأمرهم بالاستسقاء في اليوم الذي يستسقي فيه أهل دمشق ، فامتثلوا لأمْره في ذلك ، فسُقوا كلُّهم في بلدانهم في الوقت المذكور ، ثم وقعتْ في البلدان ثلوج كثيرة لم يُرَ في تلك السنين مثلُها ، وأبطل تضمين الخانات والخمور ، وأُريقتْ على كلّ مَنْ وُجدتْ عنده في دمشق وسائر بلاد الشام ، ورفعتِ المنكرات - ولله الحمد - رَفْعًا تامًّا بعد أن كانت شائعةً أفحش الشَّياع ، وذلك في ربيع الآخر من السنة . ثم جعل اللهُ الكريم في الغلات أنواعَ البركات ، وأخصبتِ الغلّات في جميع بلاد الشام إلى حدٍّ لم يُعهد مثلُه ، من نحو ثلاثين سنة ، ثم أعقب ذلك رُخْصًا لكثرة الغلات ، لم يُعهد مثلُه من نحو خمسَ عشْرة سنةً[1] .

بَيْنَ الإمام النَّووي وابنِ النّجار :

كان في دمشق شخصٌ - يُقال له : ابن النجار - « سَعَىٰ في إحداث أمورٍ على المسلمين باطلةٍ ، فقام الشيخ - قدّس الله رُوحه - مع جماعة من علماء المسلمين فأزالوها بإذن الله تعالى ، ونصر الله الحقّ وأهله ، فغضب لذلك ؛ لكراهيته مصلحة المسلمين ونصيحة الدين ، وبعث إلى الشيخ يهدِّده ، ويقول : « أنت الذي تحزِّبُ العلماء على هـٰذا » . فكتب إليه الشيخ - قدَّس الله روحه - كتابًا هذا صورته :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم .

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

(١) ترجمة النووي للسّخاوي ص ٤٧ - ٤٩ .

من يحيىٰ النووي .

اعلم أيُّها المقصرِّ في التأهُّب لمعادِه ، التاركُ مصلحَةَ نفسه في تهيئةِ جهازِهِ له وزادِه ، أنِّي كنتُ لا أعلمُ كراهَتَكَ لنُصْرَةِ الدين ، ونصيحةِ السلطان والمسلمين ؛ حمـلًا منِّي لك على ما هو شأنُ المؤمنين ، من إحسان الظنِّ بجميع الموحِّدين ، وربما كنتُ أسمعُ في بعض الأحيانِ مَنْ يذْكُرُكَ بِغِشِّ المسلمين ، فأُنْكِرُ عليه بلساني وبقلبي ، لأنها غيبةٌ لا أعلم صحَّتها ، ولم أزَلْ على هـٰذا الحال إلى هـٰذه الأيام . فجرىٰ ما جرىٰ من قَوْل قائل للسُّلطان - وفَّقه الله لكريمِ الخيرات - : إنَّ هـٰذه البساتينَ يَحِلُّ انتزاعُها من أهلِها عندَ بعضِ العلماء . وهـٰذا مِنَ الافتراء الصريح ، والكذب القبيح ، فوجب عليَّ وعلى جميعِ مَن عَلِمَ هـٰذا من العلماء أن يُبَيِّنَ بُطلانَ هـٰذه المقالة ، وَدَحْضَ هـٰذه الشناعة ، وأنَّها خلافُ إجماع المسلمين ، وأنَّه لا يقـولُ بها أحـدٌ من أئمَّـةِ الدين ، وأن يُنْهوا[1] ذلك إلى سلطان المسلمين ؛ فإنَّه يجبُ على الناس نصيحته ؛ لقول النبيّ ﷺ في الحديث الصحيح : « الدِّينُ النصيحة ، للهِ ، ولكتابه ، ولرسوله ، وأئمَّة المسلمين ، وعامَّتهم » .

وإمام المسلمين في هـٰذا العصـر هـو السلطان - وفَّقه الله تعالى لطاعته ، وتولَّاه بكرامته - ، وقد شاع بين الخواصِّ والعوامّ ، أنَّ السلطانَ كثيرُ الاعتناء بالشَّرعِ ، ومحافظٌ على العملِ به ، وأنَّه بَنَىٰ المدرسة لطوائف العلماء ، ورتَّب القُضاة مـن المذاهب الأربعـة ، وأمر بالجلوس في دار العدل ؛ لإقامة الشرع ، وغير ذٰلك ، مما هو معروف من اعتناء السُّلطان - أعزَّ الله أنصارَهُ - بالشرع ، وأنَّه إذا طلبَ طالبٌ منهُ العملَ بالشرعِ ؛

---

(١) أي : يرفعوا .

أمر بذٰلك ، ولم يخالفه .

فلما افترى هٰذا القائلُ في أمرِ البساتين ما افتراه ، ودلَّس على السلطان ، وأظهر أن انتزاعها جائزٌ عند بعض العلماء ، وغشَّ السلطان في ذٰلك ، وبلَغ ذٰلك علماءَ البلد ؛ وجب عليهم نصيحةُ السلطان ، وتبيينُ الأمرِ له على وجهه ، وأنَّ هٰذَا خلافُ إجماع المسلمين ، فإنَّه يجب عليهم نصيحةُ الدين ، والسلطانِ ، وعامَّةِ المسلمينَ . فوفَّقهم الله تعالى للاتفاقِ على كَتْبِ كتاب يتضمَّن ما ذكرتُه ؛ على جهةِ النَّصيحة ؛ للدين ، والسلطان ، والمسلمين ، ولم يذكروا فيه أحدًا بعينه ، بل قالوا : مَن زعم جوازَ انتزاعِهَا ، فقد كذب ، وكتب علماءُ المذاهب الأربعة خطوطَهم بذٰلك ؛ لِمَا يجب عليهم من النَّصيحةِ المذكورة ، واتَّفقوا على تبليغها وليَّ الأمرِ - أدامَ الله نِعَمَهُ عليه - لِيَنْصحوه ، ويُبَيِّنوا حكمَ الشرع .

ثم بلَّغني جماعاتٌ متكاثِراتٌ في أوقاتٍ مختلفاتٍ - حصل لي العلم بقوْلهم - أنك كرهت سعيَهم في ذلك ، وسارَعَتْ في ذمِّ فاعل ذلك ، وأسندت معظم ذٰلك كله إليَّ . ويا حبذا ذٰلك من صنيع . وبلَّغني عنك هٰؤلاء الجماعات أنَّك قلت : قولوا ليحيىٰ : هو الذي سعىٰ في هٰذا ، فينكفَّ عنه ، وإلا أخذتُ منهُ دارَ الحديث .

وبلَّغني عنك هٰؤلاء الجماعاتُ أنَّك حلَفتَ مراتٍ بالطلاق الثلاث أنَّك ما تكلَّمتَ في انتزاع هٰذه البساتين ، وأنَّك تشتهي إطلاقَها .

فيا ظالم نفسه ، أمَا تستحي من هٰذا الكلام المتناقض ، وكيف يصحُّ الجمع بين شهوتك إطلاقها وأنَّك لم تتكلم فيها ، وبين كراهتك السَّعي في إطلاقها ونصيحة السلطان والمسلمين ؟!

ويا ظالمَ نفسهِ ، هل تعرَّض لك أحدٌ بمكروه ، أو تكلَّم فيك بعينِك ؟

وإنما قال العلماءُ : مَن قالَ هـٰذَا للسلطان فقد كذب ودلَّس عليه ، وغشَّه ، ولم ينصحْه ؛ فإنَّ السلطانَ ما يفعلُ هٰذا إلَّا لاعتقادِهِ أنَّه حلالٌ عند بعضِ العلماء ، فبيِّنوا أنَّه حرامٌ عند جميعهم . وأنت قد قُلْتَ أنَّك لم تتكلم فيها . وحلفتَ على هـٰذا بالطَّلاقِ الثلاث ، فأيُّ ضررٍ عليك في إبطال قولِ كاذبٍ على الشرع ، غاشٍّ مدلس على السلطان ، وقد قلتَ أنَّه غيرُك ؟! وكيف تكره السَّعْيَ على شيءٍ قد أجمعَ الناسُ على استحسانِهِ ، بل هو واجب على مَن قدر عليه ؟! وأنا - بحمد الله - من القادرين عليه بالطريق الذي سلكت ، وأمّا نجاحُه ، فهو إلى الله تعالى ، مقلِّب القلوب والأبصار .

ثم إني أتعجَّب غايةَ العجب من اتِّخاذكَ إيَّاي خَصمًا ، ويا حَبَّذا ذٰلك من اتِّخاذ ؛ فإنِّي - بحمد الله تعالٰى - أُحِبُّ في الله تعالى ، وأُبْغِضُ فيه ، فأُحِبُّ مَنْ أطاعَهُ ، وأُبْغِضُ مَن خالفه ، وإذا أخبرتَ عن نفسكَ بكراهتِك السَّعْيَ في مصلحة المسلمين ، ونصيحة السلطان ؛ فقد دخلتَ في جملة المخالفين ، وصرتَ ممَّن نُبْغِضُهُ في الله ربِّ العالمين ؛ فإنَّ ذٰلك من الإيمان ؛ كما جاءت به الآثار الصحيحة ، المنقولة بأسانيد الأئمة الأخيار[1] .

ارْضَ لِمَنْ غَابَ عَنْكَ غَيْبَتَهُ فَـذَاكَ ذَنْـبٌ عِقَـابُـهُ فِيـهِ

ويا ظالمَ نفسه ، أنا خاصمتُك ، أو كالَمْتُكَ ، أو ذكرتُك ، أو بيني وبينك مخاصمة ، أو مُنازَعَة ، أو معاملةٌ في شيءٍ ؛ فما بالك تكره فعْل

---

(١) يشير الإمام النووي إلى حديث : « مَنْ أَحَبَّ لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » أخرجه أبو داود في « السنن » (رقم ٤٦٨١) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (رقم ٧٦١٣ و٧٧٣٧ و٧٧٣٨) . والبغوي في « شرح السنة » (١٣ / ٥٤) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (ص ١٧٨ ، ١٧٩) بإسنادٍ حسنٍ .

خيرٍ يَسَّرني الله الكريمُ له ؟! ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [البروج : ٨] .

بل أنت لسوءِ نَظَرِكَ لنفسك تتأذّىٰ على نفسكَ ، وتُشْهِدُ الشهودَ بكراهة هٰذه النصيحة ، التي هي مصرِّحة بأنَّك أنت الذي تكلَّمتَ في هٰذه البساتين ، وأنَّ الطلاقَ واقعٌ عليكَ ، وما أبعدَ أن تكون شبيهًا بمن قال الله تعالى فيهم : ﴿ **وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُم** ﴾ [محمد : ٣٠] .

ويا عدوَّ نفسِهِ ، أتُراني أكرَهُ مُعاداةَ مَن سَلَكَ طَرِيقَتِكَ هٰذه ؟! بل - واللهِ - أُحِبُّها ، وأوثِرها ، وأفعَلُهَا بِحَمْدِ الله تعالى ، فإنَّ الحُبَّ في الله ، والبُغْضَ فيهِ ، واجبٌ عليَّ وعليكَ ، وعلى جَميعِ المكَلَّفينَ ، ولستُ أَدْري أَيَّ غرضٍ لك في حِرْصِكَ في الإنكارِ على السَّاعين في إعظام حُرُماتِ الدِّين ، ونصيحة السلطان والمسلمين . فيا ظَالِمَ نفسه ، انْتهِ عن هٰذا ، وارْجِعْ عن طَرِيقةِ المباهتين المعاندين .

وأَعْجَبُ مِن هٰذا تَكْريرُك الإرسالَ إليَّ - بزعمك الفاسد - كالمتوعِّد : إنْ لم يَنْكَفَّ أخذتُ مِنهُ دارَ الحديث .

فيا ظالِمَ نفسِهِ ، وجاهِلَ الخير وتاركه ، أطَّلَعْتَ على قلبي أنِّي متهافِت عليها ، أو علمتَ أني منحَصِرٌ فيها ، أو تحقَّقْتَ أني معتمِدٌ عليها ، مستَنِدٌ إليها ، أو عَرَفْتَ أنِّي أعتقدُ انحصارَ رزقي فيها ، أوَما علمتَ - لو أنصفتَ - كيف كان ابتداءُ أمرها ؟! أوَ ما كنتَ حاضرًا ، مُشاهِدًا أخْذي لها ؟! ولو فُرِضَ تهافُتي عليها ، أكنْتُ أوثِرُهَا علىٰ مصلحةٍ عامةٍ للمسلمين ، مشتملةٍ على نصيحة الله ، وكتابه ، ورسوله ﷺ ، والسُّلطان ، وعامة المسلمين ؟! هٰذا ما لم أفْعَلْهُ ولا أفعله ، إن شاء الله تعالى .

وكيف تتوهم أنِّي أترك نصيحةَ الله ورسوله وسلطان المسلمين وعامَّتِهم ؛ مخافةً مِن خيالاتك ؟! إن هٰذه لغباوةٌ منك عظيمة .

ويا عجبًا منك ! كيفَ تقول هٰذا ؟! أنتَ ربُّ العالمين ؟! بيدك خزائنُ السَّماوات والأرض ، وعليك رزقي ورزق الخلائق أجمعين ؟! أمْ أنت سلطان الوقت ؛ تحكم في الرَّعيَّة بما تُريد ؟!

فلو كنتَ عاقلًا ؛ ما تهَجَّمْتَ علىٰ التَّفَوُّهِ بِهٰذا الذي لا ينبغي أن يقولَه إلا ربُّ العالمين ، أو سلطان الوقت ؛ مع أن سلطان الوقت منزَّهٌ عن قولك الباطلِ ، مرتفعُ المَحَلِّ عن فعْلِ ما ذكرتَ .

يا ظَالِمُ ، فإنْ كنت تقول هٰذا استقلالًا منك ؛ فقد افتأَتَّ عليه ، واجْتَرَأْتَ علىٰ أمرٍ عظيم ، ونسبْتَه إلى الظُّلم عدوانًا ، وإنْ كنتَ تقوله عنه ، فقد كذبتَ عليه ؛ فإنَّه - بحمد الله - حَسَنُ الاعتقاد في الشَّرع ، وذٰلك من نِعَمِ الله تعالى عليه ، والسلْطان - بحمد الله وفضله - أكثرُ اعتقادًا في الشَّرْع مِن غيره ، ومعظم حُرُماته ، وليس هو ممن يقابلُ ناصِحَهُ بهذيانات الجاهلين ، وتُرَّهات المخالفين ، بل يقبلُ نصائِحَهُم ، كما أمره الله تعالى .

واعلم أيُّها الظالمُ نفسه ، أنِّي - والله الذي لا إلٰه إلا هو - لا أترُكُ شيئًا أقْدِرُ عليه من السعْي في مناصحةِ الدين والسُّلطانِ والمسلمين في هٰذه القضيَّة ، وإنْ رَغِمَتْ أنوفُ الكارِهين ، وإنْ كَرِهَ ذٰلِكَ أعداءُ المسلمين ، وفِرَقَ حزبُ المخذِّلين ، وسترىٰ ما أتكلَّم به ، إن شاء الله تعالى ، عند هٰذا السلطان - وفَّقه الله تعالى لطاعته ، وتولّاه بكرامته - في هٰذه القضيةِ ، غيْرةً على الشرعِ ، وإعظامًا لحُرمات الله تعالى ، وإقامةً للدِّين ، ونصيحةً للسلطان وعامة المسلمين .

ويا ظالمَ نفسه ، أَجْلِبْ بِخَيْلِكَ وَرجلِكَ إنْ قَدَرْتَ ، واسْتَعِنْ بأهلِ المشرقَيْنِ وما بين الخافقَيْن ؛ فإني - بحمد الله - فيَّ كِفَايَةٌ تامَّةٌ ، وأرجو من فضلِ الله تعالى أنَّك لا تَقْوىٰ لمنابذةِ أقلِّ الناس مرتبةً ، وأنا - بحمد الله تعالى - مِمَّن يَوَدُّ القتلَ في طاعةِ الله تعالى .

أَتَقْوى يا ضعيف الحِيَلِ لمنابذتي ؟! أَبَلَغَكَ يا هٰذا أنِّي لا أؤمِنُ بالقدر ، أو بلغكَ أنِّي أعتَقِدُ أنَّ الآجالَ تَنْقُصُ ، وأنَّ الأَرْزَاقَ تَتَغَيَّرُ[1] ؟! أما تفكِّرُ في نفسك في قبيحِ ما أَتَيْتَهُ من الفعالِ ، وسوء ما نَطَقْتَ بهِ من المقالِ ؟!

أيا ظالمَ نفسه ، مَن طلب رضا اللهِ تعالى تردُّه خيالاتُك ، وتمويهاتُك ، وأباطِيلُكَ ، وتُرَّهاتُك ؟!

وبعد هٰذا كله ، أنا أرجو من فضل الله تعالى أنَّ الله يوفق السلطان - أدام الله نِعَمَهُ عليه - لإطلاقِ هٰذه البساتين ، وأن يفعَلَ فيها ما تقرُّ به أعيُنُ المؤمنين ، ويُرْغِمُ أنفَ المخالِفينَ ، فإن الله تعالى قال : ﴿ **والعَاقِبَةُ للمُتَّقِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

والسُّلْطانُ - بحمدِ الله تعالى - يفعل الخيراتِ ، فما يترُكُ هذه القضيَّة تفوتُه .

واعلَمْ أنك عندي - بحمد الله تعالى - أقلُّ ممَّن أهتم بشأنك ، أو ألتفتُ إلى خيالاتِك وبطلانِك ، ولكنِّي أردتُ أن أعرِّفَكَ بعضَ أمري ؛

(١) انظر رسالة « إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان » للشيخ مرعي الحنبلي . نشر دار عمار ، و« تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل » للشوكاني - نشر دار ابن حزم تحقيق: مشهور حسن سليمان .

لتدخلَ نفسكَ في منابذةِ المسلمين بأسرِهم ، ومنابذةِ سلطانِهم - وفَّقه الله تعالى - على بصيرةٍ منك ، وترتفع عنك جهالةُ بعضِ الأمر ؛ ليكون دخولُك بعد ذٰلك معاندةً لا عذرَ لك فيها .

ويا ظالِم نفسهِ ، أتتوهَّمُ أنَّه يَخْفىٰ عليَّ وعلى مَن سَلَكَ طريقَ نصائحِ المسلمين وولاةِ الأمرِ وحُماةِ الدين أنَّا لا نَعْتَقِدُ صِدْقَ قَوْلِ اللهِ تعالى : ﴿ والعاقِبَةُ للمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

وقولِهِ تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلَّا بأهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وقوله تعالى : ﴿ إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم ﴾ [محمد : ٧] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .

وقول النبيِّ ﷺ في الحديث الصحيح : « لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي ظاهرين على الحق ، لا يضرُّهم خذلان من خذلهم »[1] .

والمراد بِهٰذه الطائفة أهل العلم ؛ كذا قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيره من أولي النُّهى والفهم .

وقوله ﷺ : « والله في عونِ العبدِ مَا كَانَ العبدُ في عونِ أخيهِ » .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، وغيرهما بنحوه ، من حديث المغيرة بن شعبة ، والحديث وارد عن جمع من الصحابة ، بلغ عددهم ستة عشر نفسًا مِنَ الصحابة . وعدّه ابن تيمية من الأحاديث المتواترة .

هٰذا فِيمَنْ كَانَ فِي عَوْنِ واحدٍ مِنَ النَّاس ، فكيفَ الظَّنُّ بِمَنْ هُو في عَوْنِ المسلمين أجمعينَ ؛ مع إعظامِ حُرُمَاتِ الشَّرْعِ ، ونصيحة السلطان ، وموالاته ، وبذْل النَّفس في ذٰلك ؟!

وَاعْلَمْ أَنِّي واللهِ لَا أتعرَّضُ لك بمَكْرُوهٍ سوىٰ أنِّي أُبغِضُكَ لله تعالى ، وما امتناعي عن التعرُّض لك بمكروهٍ عن عَجْزٍ ، بل أخافُ الله ربَّ العالَمين من إيذاءِ مَنْ هُوَ مِن جملةِ الموحِّدين .

وقد أخبرني مَن أثِقُ بخبرِهِ وصلاحِهِ ، وكراماتِهِ وفَلاحِهِ ، أنَّكَ إنْ لم تُبَادِرْ بالتَّوْبَةِ ، حلَّ بك عقوبةٌ عاجلةٌ ، تكونُ بها آيةً لِمَن بعدكَ ، لا يَأْثَمُ بِهَا أحدٌ مِنَ النَّاسِ ، بل هو عدلٌ مِنَ الله تعالى ، يوقِعُهُ بِكَ ؛ عِبرةً لِمَنْ بَعْدَكَ ، فَإنْ كنتَ ناظرًا لِنَفْسِكَ ، فَبَادِرْ بالرُّجوعِ عن سوءِ فعالِك ، وَتَدَارَكْ ما أَسْلَفْتَهُ مِنْ قَبِيحِ مقالِكَ ، قبلَ أنْ يَحِلَّ بِكَ مَا لَا تُقَالُ فيهِ عَثرَتُكَ ، ولا تغترَّ بسلامَتِك وثروتِكَ ووصلتِكَ ، وأفْكِر في قول القائل :

قَدْ نَادَتِ الدُّنْيَا عَلَىٰ نَفْسِهَا ... لَوْ كَانَ فِي العَالَمِ مَنْ يَسْمَعُ
كَمْ وَاثِقٍ بِالعُمْرِ وَارَيْتُهُ ... وَجَامِعٍ بَدَّدتُّ مَا يَجْمَعُ

والسَّلام على مَنِ اتَّبَعَ الهدىٰ ، والحمد لله رب العالمين(١) .

شَيخ الإسلام ابن تيمية :

شيخ المسلمين ، ودرَّة الموحدين وبقيَّة السلف العاملين ، سيرته تحتاج لمجلدات ضِخام ، ولكن :

قليلٌ منكَ يَكفيني ولكنْ ... قليلُكَ لَا يُقَال له قليلُ

---

(١) تحفة الطالبين صـ ١١٩ - ١٢٠ ، وترجمة النووي للسخاوي صـ ٣٦ ، ٥٠ - ٥٥ .

حديث ابن تيمية مع قازان :

لما ظهر قازان على دمشق المحروسة ، جاءه ملك الكُرج ، وبذل له أموالًا كثيرة جزيلة على أن يُمَكِّنه مِنَ الفتْك بالمسلمين من أهل دمشق ، ووصل الخبر إلى ابن تيمية ، فخرج ورجالٌ من وجوه دمشق وكبرائهم وذوي الأحلام منهم ، في يوم الإثنين الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هجرية إلى حضْرة قازان ، فلما رآهم السلطان قال : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل : هم رؤساء دمشق . فأذِنَ لهم ، فحضروا بين يديه ، فتقدم الشيخ رضي الله عنه أوَّلًا ، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة ، حتى أدْناه وأجلسه ، وأخذ الشيخ في الكلام معه أوَّلًا في عكس رأيه عن تسليط المخزول ملك الكُرج على المسلمين ، وأخبره بحرمة دماء المسلمين ، وذكّره ووعظه ، فأجابه إلى ذلك طائعًا ، وحُقنتْ بسببه دماء المسلمين ، وحُميت ذراريهم ، وصِين حريمُهم .

يقول الحافظ عمر بن البزار في « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية » : حدثني من أثق به ، عن الشيخ وجيه الدين بن المنجّا قدس الله روحه ، قال : كنتُ حاضرًا مع الشيخ حينئذٍ ، فجعل - يعني الشيخ - يحدّث السلطان بقوْل الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه ، حتى جثا على ركبتيه ، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قرب أن تُلاصِق ركبتُه ركبةَ السلطان ، والسلطان مع ذلك مُقبلٌ عليه بكُلّيته ، مصْغٍ لما يقول ، شاخصٌ إليه ، لا يُعرض عنه ، وإن السلطان من شدة ما أوْقَعَ الله في قلبه من المحبة والهيبة ، سأل من يخصّه من أهل حضرته : مَنْ هذا الشيخ ؟ وقال ما معناه : إني لم أرَ مثله ولا أثبت قلبًا منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعْظَمَ انقيادًا مني لأحد منه . فأُخبرَ بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل . فقال الشيخ للترجمان : قلْ

لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذّنون – على ما بلغنا – فغزوْتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت ، عاهدَا فوفَّيا ، وأنت عاهدت فغدرتَ ، وقلتَ فما وفَّيت ، وجُرْتَ .

وسأله : إن أحببتَ أن أُعمِّر لك بلد آبائك حَرّان ، وتنتقل إليه ، ويكون برسمك ؟ فقال : لا والله ، لا أرغب عن مهاجر إبراهيم ﷺ ، وأستبدل به غيره . فخرج من بين يديْه مُكرمًا مُعزَّزًا ، قد صنع له الله بما طوىٰ عليه نيَّته الصالحة من بذْله نفسَه في حقن دماء المسلمين ؛ فبلّغه ما أراده .

وكان ذلك أيضًا سببًا لتخليص غالب أُسارىٰ المسلمين من أيديهم وردِّهم على أهلهم ، وحفظ حريمهم[(١)] .

بل خلّص أهل الذمَّة من النصارىٰ واليهود ؛ لأن التتار ومن معهم من ملوك النصارى كانت لهم عداوة مع أبناء دينهم ، وكان بعضهم يفتك بالبعض الآخر ، فقال ابن تيمية للقائد (بولاي) ، وكان قد التحق مع قازان : بل جميع من معك من اليهود والنصارى ، الذين هم أهل ذمتنا ، فإنا نفكهم ولا ندع أسيرًا ، لا من أهل الملَّة ، ولا من أهل الذمة .

يقول ابن تيمية : وقدِ أطلقنا من النصارىٰ مَن شاء الله . فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله .

قال ابن تيمية : لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرضٍ في قلبه ؛ فإن رجلًا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة . فقال : لو صَحَحْتَ لم تخفْ أحدًا .

---

(١) الأعلام العَليَّة صـ ٦٩ – ٧٢ .

فابن تيمية الخائف الوجِل الذي يهاب ربَّه تهابُه الملوكُ .

وقد قصَّ - أيضًا - هذه القصة الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر ابن قوام البالسي ، وكان يومَ قازانَ في جملةِ مَن كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية لمّا تكلم مع قازان ، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازانَ ، وشجاعته وجرأته عليه ، وأنه قال لتُرْجمانه : قلْ لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك مؤذِّنون وقاضٍ وإمام وشيخ - على ما بلغنا - فغزوتَنا ، وبلغتَ بلادنا على ماذا ؟! وأبوك وجدُّك (هولاكو) كانا كافرين ، وما غزوَا بلاد الإسلام ، بل عاهدوا قومنا ، وأنت عاهدتَّ فغدرت ، وقلت فما وفَّيت . قال : وجرَتْ له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونُوَب ، قام ابن تيمية فيها كلّها لله ، وقال الحقَّ ، ولم يخشَ إلا الله عز وجل . قال : وقرّب إلى الجماعة طعامًا فأكلوا منه إلا ابن تيمية ، فقيل له : ألا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامكم وكلّه مما نهبتُم من أغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ! قال : ثم إن قازان طلب منه الدعاء ، فقال في دعائه : اللهمَّ إن كان هذا - عبدك محمود - إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا ، وليكون الدين كلُّه لك ، فانصرْه وأيّده ، وملِّكه البلاد والعباد ، وإن كان إنما قام رياءً وسمعة وطلبًا للدنيا ، ولتكون كلمته هي العليا ، وليذلَّ الإسلام وأهله ، فاخذله وزلْزِلْه ، ودمِّره واقطع دابره . قال : وقازان يؤمِّن على دعائه ، ويرفع يديه . قال : فجعلنا نجمع ثيابنا خَوْفًا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله . قال : فلما خرجنا من عنده ، قال له قاضي القضاة نَجم الدين بن صرصري وغيره : كِدتَّ أن تُهلكنا وتُهلك نفسك ، والله لا نصحبُك من هنا . فقال : وأنا والله لا أصحبكم . قال : فانطلقنا عُصبةً ، وتأخّر هو في خاصَّةِ نفسه ، ومعه جماعة من أصحابه ، فتسامعتْ به الخواقِين والأمراء من أصحاب قازان ، فأتَوْه يتبرَّكون

بدعائه ، وهو سائر إلى دمشق ، وينظرون إليه ، قال : والله ما وصل إلى دمشق إلّا في نحو ثلثمائة فارسٍ في ركابه ، وكنت أنا من جملة مَن كان معه ، وأمَّا أولئك الذين أبَوْا أن يصحبُوه ، فخرج عليهم جماعة من التَّتَر ، فشلَّحوهم عن آخرهم[(١)].

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » في تاريخ سنة « أربع وسبعمائة » :

« وفي رجب أُحضر إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخٌ كان يلبس دلقًا كبيرًا متَّسعًا جِدًّا ، يُسمَّى : المجاهد إبراهيم القطان ، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق ، فتناهبه الناسُ من كلّ جانبٍ وقطّعوه ، حتى لم يدعُوا فيه شيئًا ، وأمَر بحلْق رأسه ، وكان ذا شعر ، وقلّم أظفاره ، وكانوا طوالًا جدًّا ، وحَفّ شاربه المُسبَل على فمه ، المخالف للسنة ، واستتابه من كلامه الفَحِش وأكْل ما يغيّر العقل ، من الحشيشة وما لا يجوز من المحرّمات وغيرها ، وبعدَه استحضر الشيخُ محمدَ الخباز البلاسي فاستتابه - أيضًا - عن أكْل المحرمات ومخالطة أهل الذمة ، وكتبَ عليه مكتوبًا أن لا يتكلم في تعبير المنامات ، ولا في غيرها بما لا عِلْمَ له به . وفي هذا الشهر بعينه راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مسجد التاريخ ، وأمر أصحابه ومعهم حجّارون بقطع صخرةٍ كانت - بنهر قلوط - تُزار ويُنذر لها ، فقطعها وأراح المسلمين منها وَمِنَ الشِّرك بها ، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرُّها عظيما ، وبهذا وأمثاله حسدوه ، وأبرزوا له العداوة ، وكذلك بكلامه بابن عربي وأتباعه ، فحُسد على ذلك وعُودي ، ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم ، ولا بالى ، ولم يصِلُوا إليه بمكروه ، وأكثر ما نالوا به الحبْس ، مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام ، ولم يتوجه لهم عليه ما

(١) البداية والنهاية (١٤ / ٩١ - ٩٢) .

يَشِينه ، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه ، وإلى الله إيابُ الخلق وعليه حسابُهم .

وفي مستهَلِّ ذي الحجة رَكِبَ الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجَرَد والكسروانيين ، ومعه نقيبُ الأشراف زيْن الدين ابن عدنان ، فاستتابوا خلقًا منهم وألزموهم بشرائع الإسلام ، ورجع مؤيَّدًا منصورًا »[1] .

وعن أحداث سنة تسعٍ وسبعمائة يقول ابن كثير : « استهلَّتْ وخليفةُ الوقت المستكفي أمير المؤمنين ... وسلطان البلاد ، الملك المظفر ، ركْن الدين بيبرس الجاشنكير . وفي ليلةِ سلَخَ صفرُ توجّه الشيخ تقي الدين ابن تيمية مِنَ القاهرة إلى الإسكندرية بصحبة أمير مقدَّم ، وكان دخوله إلى الإسكندرية يوم الأحد ، وبعد عشرة أيام وصل خبره إلى دمشق ، فحصل عليه تألُّم ، وخافوا عليه غائلة الجاشنكير وشيخه المنبجي ، فتضاعف له الدعاء ؛ وذلك أنهم لم يُمكّنوا أحدًا من أصحابه أن يخرج معه إلى الإسكندرية ، فضاقتْ له الصدور ، وذلك أنه تمكن منه عدوُّه نصر المنبجي ، وكان سبب عداوته له أن الشيخ تقي الدين كان ينال من الجاشنكير ومن شيخه نصر المنبجي ، ويقول : زالت أيامه ، وانتهت رياسته ، وقرُب انقضاءُ أجلهِ . ويتكلم فيهما ، وفي ابن عربي وأتباعه ، فأرادوا أن يُسيّروه إلى الإسكندرية - كهيئة المنفى - لعلّ أحدًا من أهلها يتجاسَرُ عليه فيقتله غيْلَةً ، فما زاد ذلك الناسَ إلا محبة فيه ، وقربًا منه ، وانتفاعًا به ، واشتغالًا عليه ، وحُنُوًّا وكرامة له .

وجاء كتابٌ من أخيه يقول فيه : إن الأخ الكريم نزل بالثَّغْر المحروس على نية الرِّباط ؛ فإنّ أعداء الله قصدُوا بذلك أمورًا يَكيدونه بها ، ويَكيدون

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣٦ - ٣٧ .

الإسلام وأهله ، وكانت تلك كرامةً في حقنا ، وظنوا أن ذلك يُؤدي إلى هلاك الشيخ ، فانقلبتْ عليهم مقاصدُهم الخبيثة ، وانعكستْ من كلّ الوجوه ، وأصبحوا وأمسَوْا ، وما زالوا عند الله وعند الناس العارفين سُودَ الوجوه ، يتقطعون حَسَراتٍ وندمًا على ما فعلوا . وانقلب أهل الثغر أجمعين إلى الأخ مُقْبِلين عليه مُكرمين له ، وفي كل وقتٍ ينشر من كتاب الله ، وسنة رسوله ما تَقَرُّ به أعين المؤمنين ، وذلك شجًى في حُلُوق الأعداء .

واتُّفق أنه وَجَد بالإسكندريةِ إبليس[1] قد باض فيها وفرّخ ، وأضلّ بها فِرَق السبعينية والعربية ، فمزّق الله بقدومه عليهم شملهم ، وشتَّتَ جموعَهم شَذَرَ مَذَرَ ، وهتك أستارهم وفضحهم ، واسْتتاب جماعةً كثيرةً منهم ، وتوّب رئيسًا من رؤسائهم ، واستقر عند عامّة المؤمنين وخواصّهم من أميرٍ ، وقاضٍ وفقيه ، ومُفتٍ وشيخ ، وجماعة المجتهدين - إلَّا من شَذّ من الأغمار الجهّال ، مع الذلة والصَّغار - محبةُ الشيخ وتعظيمهُ وقبولُ كلامه ، والرجوع إلى أمره ونهيه ، فَعَلَتْ كلمةُ الله بها على أعداء الله ورسوله ، ولُعِنوا سرًّا وجهرًا ، وباطنًا وظاهرًا في مجامع الناس بأسمائهم الخاصَّة بهم ، وصار ذلك عند نصر المنبجي المقيم المقعد ، ونزل به من الخوْف والذل ما لا يُعَبَّر عنه »[2] .

ابن تيمية والأحمدية الرفاعية :

عَنْ سَنة خمسٍ وسبعمائة يقول ابن كثير : « وفي يوم السبت تاسِع جمادىٰ الأولى حضر جماعة كثيرة مِنَ الفقراء الأحمدية إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق ، وحضر الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، فسألوا مِن نائبِ

(١) كُنية إبليس : الشيخ أبو مرَّة .

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٥١ - ٥٢ .

السَّلْطنة بحضرة الأمراء أن يكُفّ الشيخ تقي الدين إمارَته عنهم ، وأن يُسلم لهم حالهم ، فقال لهم الشيخ : هذا ما يمكن . لا بد لكلِّ أحدٍ أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولًا وفعلًا ، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه . فأرادوا أن يفعلوا شيئًا من أحوالهم الشيطانية التي يتعاطونها في سماعاتهم ، فقال الشيخ : تلك أحوالٌ شيطانية باطلة ، وأكثر أحوالهم من باب الحِيَل والبهتان ، ومَن أراد منهم أن يدخل النار ، فليدخل أولًا إلى الحمّام ولْيغسل جسدَه غسلًا جيدا ، ويدلِّكه بالخلّ والأُشنان ، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إنْ كان صادقًا ، ولو فُرض أنّ أحدًا من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل ، فإن ذلك لا يَدلّ على صلاحه ولا على كرامته ، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالِفة للشريعة إلا إذا كان صاحبها على السنة ، فما الظن بخلاف ذلك . فابتدر شيخ المنيبع ، الشيخ صالح وقال : نحن أحوالنا إنما تَنْفَق عند التَّتر ، ليست تنفق عند الشرع . فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة ، وكثر الإنكار عليهم من كل أحد ، ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من رقابهم ، وأنّ من خرج عن الكتاب والسنة ضُربت عنقُه .

وصنّف الشيخ جزءًا في طريقة الأحمدية ، وبيّن فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيُّلاتهم ، وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب ، وأظهر الله السنة على يديْه ، وأخمد بدعتهم ، ولله الحمد والمنَّة »(١).

ويحلو لنا أن نبسُط هذه القصة بقلم ابن تيمية نفسه :

ابن تيمية يُخزي دَجَاجِلَة البطائحية :

ظهرت في عهد شيخ الإسلام ابن تيمية جماعة تسمى بالبطائحية ،

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣٨ .

وهم الأحمدية الرفاعية(١) ، وينتسبون إلىٰ الزهد والتصوف ، ويدَّعون التأله والتعبد ، ولكنهم يقومون بأعمالٍ شركية ، ويُظهرون بدَعًا ما أنزل الله بها من سلطان ، ويحتالون لنيْل أغراضهم بالكذب والتلبيس على الناس ، ويُظهرون أعمالًا وخوارقَ يدلّلون بها على أن طريقهم حقٌّ وصدق ، كالدخول في النار ، وملامسة الحيَّات ، وإظهار الدم واللّاذن والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغير ذلك ، وقد وقف شيخ الإسلام ابن تيمية في وجهِ باطِلهم ، وأنكر عليهم ما خالفوا فيه أحكام الإسلام ، وسنَّة الرسول ﷺ ، وجَرَت بينه وبين رجالهم وزعمائهم مراجعاتٌ ومحاوراتٌ ، فأقام عليهم الحجة ، وكشف باطلهم ، ثمَّ ناقشهم في مَحفلٍ عامٍّ ، حضر فيه الأمراء والقوَّاد والعلماء ، وكثير من أهل دمشق وغيرهم ، وسنذكر طَرَفًا مما جرىٰ بينه وبينهم مما ذكره شيخ الإسلام نفسه(٢).

فمن ذلك أن شيخًا منهم استدل على باطله بأنَّه كان عند بعض أمراء التَّتر بالمشرق ، وكان له صنم يعبده ، فقال له الأمير التتري : هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كلَّ يوم ، ويبقىٰ أثر الأكل في الطعام بيِّنًا يُرىٰ فيه . فأنكر الشيخ ذلك ، فقال له الأمير التتري : إنْ كان يأكل ، فأنت تموت . فقال الشيخ : نعم . قال : فأقمت عنده إلى نصف النهار ، ولم يظهر في الطعام أثر ، فاستعظم ذلك التتري ، وأقسم بأيْمانٍ مغلَّظة أنه كلَّ يوم يَرىٰ فيه أثر الأكل ، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك . فقال شيخ الإسلام : أنا أبيِّن لك سبب ذلك ؛ ذلك التتري كافر مشرك ، ولصنمه شيطان يغويه بما يُظهره من الأثر في الطعام ، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله

---

(١) الشيخ أحمد الرفاعي بريء منهم ؛ لأنه من شيوخ أهل السنة والجماعة ، أثنى عليه ابن تيمية ، والحافظ الذهبي في السير ، وكفىٰ بهذا تعديلًا له .

(٢) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية ١١ / ٤٤٥ - ٤٤٧ .

تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك ، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتتري بالنسبة إلى أمثالك ، فالتتري وأمثاله سُودٌ ، وأهل الإسلام المحْض بيضٌ ، وأنتم بلَق ، فيكم سواد وبياض . فأعجب هذا المثل من كان حاضرًا .

نهي الشيخ لهم عن التعبُّد بما لم يشرعه الله :

قال شيخ الإسلام : جاءني جماعة منهم مع شيخ لهم من شيوخ البر ، مطوَّقين بأغلالِ الحديد في أعناقهم ، وهو وأتباعه معروفون بأمور ، وكان يحضر عندي مرّاتٍ فأخاطبه بالتي هي أحسن ؛ فلما ذكر الناس ما يُظهرونه من الشعار المبتدَع الذي يتميزون به عن المسلمين ، ويتخذونه عبادة ودينًا يوهمون به الناس أن هذا سرٌّ من أسرارهم ، وأنه سِيمَاء أهل الموهبة الإلـٰهية السالكين طريقهم - أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه - خاطبتُه في ذلك في المسجد الجامع ، وقلت : هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله ، ولا فعَل ذلك أحدٌ من سلف هذه الأمة ، ولا من المشايخ الذين يقتدىٰ بهم ، ولا يجوز التعبُّد بذلك ، ولا التقرُّب به إلى الله تعالى ؛ لأنَّ عبادة الله بما لم يشرعْه ضلالة ، ولباسُ الحديدِ على غير وجه التعبد قد كَرِهَه مَن كرهه مِن العلماء ؛ للحديث المرويّ في ذلك وهو أن النبي ﷺ رأى على رجل خاتمًا من حديد فقال : « ما لي أرىٰ عليك حِلـيةَ أهـل النار ؟ » . وقد وصف الله تعالى أهل النار بأنَّ في أعناقهم الأغلال ، فالتشبه بأهل النار من المنكرات ، وقال بعض الناس : قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ في حديث الرؤيا ، قال في آخره : « أحبُّ القيْد وأكره الغُلَّ . القيْد ثبات في الدين » . فإذا كان مكروهًا في المنام فكيف في اليقظة ؟!..

فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحوًا منه مع زيادة . وخوَّفته مِن عاقبة الإصرار على البدعة . وأن ذلك يوجب عقوبة فاعله ،

ونحو ذلك مِنَ الكلام الذي نسيتُ أكثره لبعْد عَهدي به . وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبُّد بها - باتفاق المسلمين - ولا التقرب بها إلى الله ، ولا اتخاذها طريقًا إلى الله وسببًا لأَنْ يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه ، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك ، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيرًا عند الله وقربةً إليه ، ولا أن يُجعل شعارًا للتائبين المريدين وجهَ الله ، الذين هم أفضل ممن ليس مثلَهم .

التقرُّب إلى الله بفعل المباح والمكروه والحرام :

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به ، وهو أنَّ المباحات إنَّما تكون مباحة إذا جُعلت مباحاتٍ ، فأمَّا إذا اتُخذت واجباتٍ أو مستحباتٍ كان ذلك دينًا لم يشرعه الله ، وجعْلُ ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعْل ما ليس من المحرمات منها ، فلا حرام إلا ما حرّمه الله ؛ ولا دِين إلا ما شرعه الله ؛ ولهذا عظُمَ ذمُّ الله في القرآن لمن شرع دينًا لم يأذنِ الله به ، ولمن حرّم ما لم يأذنِ الله بتحريمه . فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات ؟! ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر ، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم ، لم يجب عليه فعْله كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه ، بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل ، عند أحمد وغيره . وعند آخرين لا شيء عليه ، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة طاعةً وعبادةً .

العهود التي تؤخذ على الناس مخالفة للكتاب والسنَّة :

ونحو ذلك العهود التي تُتَّخذ على الناس لالتزام طريقةِ شيخٍ معيَّنٍ ، كعهود أهل « الفُتُوَّة » ، و« رُمَاة البنْدق » ، ونحو ذلك ، ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدِّين والطاعة لله إلَّا ما كان دِينًا وطاعةً لله ورسوله في شرع الله . لكن قد يكون عليه كفارة عند الحِنْثِ في ذلك ؛

ولهذا أمرتُ غيرَ واحد أن يعدِلَ عما أُخذ عليه من العهد بالتزام طريقة مرجوحةٍ ، أو مشتملة على أنواعٍ من البدع ، إلى ما هو خيرٌ منها من طاعة الله ورسوله ﷺ ، واتباع الكتاب والسنَّة ؛ إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل : إنَّه قربة وطاعة وبرٌّ ، وطريق إلى الله ، واجب أو مستحب إلَّا أن يكون مما أمر الله به ورسوله ﷺ ؛ وذلك يُعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك ، وما عُلم باتفاق الأمّة أنَّه ليس بواجب ولا مستحبٍّ ، ولا قربة؛لم يَجُز أن يُعتقد ، أو يُقال : إنَّه قربة وطاعة .

فكذلك هم متفقون على أنَّه لا يجوز قصْد التقرب به إلى الله ، ولا التعبُّد به ، ولا اتخاذه دينًا ، ولا عَمَلُه من الحسنات ، فلا يجوز جعْله من الدين لا باعتقاد وقول ، ولا بإرادة وعمل . وبإهمال هذا الأصل غلط خلْق كثير من العلماء ، يروْن الشيء إذا لم يكن محرَّمًا لا يُنهىٰ عنه ، بل يقال : إنه جائز . ولا يفرقون بين اتخاذه دينًا وطاعة وبرًا ، وبين استعماله كما تُستعمل المباحات المحضة ، ومعلوم أن اتخاذه دينًا بالاعتقاد أو الاقتصاد أوَ بهما ، أو بالقوْل أو بالعمل أو بهما - من أعظم المحرّمات وأكبر السيئات ، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يُعلم أنها مَعَاصٍ وسيئات .

نفاق ومداهنة :

فلما نهيْتُهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة ، ومَضَتْ على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع في الدين ، وإظهار ما يخالف شِرْعة المسلمين ، ويطلبون الإيقاع بهم ، وأنا أسلك مسلك الرِّفق والأَناة ، وأنتظر الرجوع والفيْئة ، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر (ذلك الشيخ) لمسجد الجامع . وكان قد كتب إليَّ كتابًا بعد كتابٍ ، فيه احتجاج واعتذار ،

وعتبٌ وآثار ، وهو كلام باطل لا تقوم به حجة ، بل إمَّا أحاديث موضوعة ، أو إسرائيليات غير مشروعة ، وحقيقة الأمر الصَّدُّ عن سبيل الله ، وأكْل أموال النَّاس بالباطل .

شيخ الإسلام يطلب شيخهم للمناظرة :

فقلت لهم : الجواب يكون بالخطاب ؛ فإن جوابَ مثلِ هذا الكتاب لا يتم إلَّا بذلك . وحضر عندنا منهم شخصٌ فنزعنا الغُلَّ من عنقه . وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ** ﴾ [القصص : ٥٠] ؛ ولهذا غَالِبُ وجدِهم هوًى مطلقٌ ، لا يدرون من يعبدون ، وفيهم شَبه قوي من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ [المائدة : ٧٧] ؛ ولهذا كان السلف يُسَمُّونَ أهلَ البدع :أهلَ الأهواء .

رَفْضُهم للحِجَاج وإظهارهم الدَّجَل والتَّهريج :

فَحَمَلَهم هواهُم على أن تجمَّعوا تجمُّع الأحزاب ، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب ، بالأحوال التي يعدونها للغلاب . فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسوله ﷺ ، ونتفق على اتباع سبيله ، فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصر الإمارة ، وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مَطلوبهم ، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو - على ما ذكر لي - وهم من الصِّياح والاضطراب ، على أمر من أعجب العُجاب . فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعْذِرة ، وطلبًا للبيان والتبصرة ، ورجاءَ المنفعة والتذكرة . فعمدوا إلى القصرة مرة ثانية ، وذكر لي أنهم قدِموا

من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والإزباد والإرعاد ، واضطراب الرؤوس والأعضاء ، والتقلُّب في نهر بَرَدَى ، وإظهار التَّولُّه الذي يُخيِّلون به على الورىٰ ، وإبراز ما يدَّعونه من الحال والمُحَال ، الذي يسلمه إليهم مَن أضلوا من الجهال .

بين البطائحية والأمير :

فلما رأى الأمير ذلك هالَه ذلك المنظر . وسأل عنهم ، فقيل له : هم مشتَكُون ، فقال : ليدخلْ بعضُهم . فدخل شيخهم ، وأظهر من الشكوىٰ عليَّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلامًا كثيرًا لم يبلغني جميعه ، لكن حدثني مَن كان حاضرًا أنَّ الأمير قال لهم : فهذا الذي يقوله مِنْ عنده ، أو يقوله عن الله ورسوله ﷺ ؟ فقالوا : بل يقوله عن الله ورسوله ﷺ . قال فأيّ شيء يُقال له ؟ قالوا : نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا . قال : فنسمع كلامه ، فمَن كان الحق معه نصرناه . قالوا : نريد أن تشدَّ منا . قال : لا ، ولكن أشدُّ من الحقِّ ، سواء كان معكم أو معه . قالوا : ولا بدَّ من حضوره ؟ قال : نعم . فكرَّروا ذلك ، فأمر بإخراجهم . فأرسل إلَيَّ بعضَ خواصّه مِن أهل الصدق والدين ممن يَعرفُ ضلالَهم ، وعَرَّفني بصورة الحال ، وأنه يريد كشف أمر هؤلاء .

نُصْح شيخ الإسلام لهم :

فلمّا علمتُ ذلك أُلقي في قلبي أن ذلك لأمر يريده الله من إظهار الدين ، وكشْف حال أهل النفاق المبتدعين ، لانتشارهم في أقطار الأرضين ، وما أحببتُ البغْي عليهم والعدوان ، ولا أن أسلك معهم إلَّا أبلغ ما يمكن من الإحسان ، فأرسلت إليهم من عَرَّفهم بصورة الحال ، وإني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال ، وكثُر فيكم القيل والقال ، وإن من قعد أو قام قُدَّامَ رماحِ أهل الإيمان ، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان . فاجتمعوا ،

وأشار عليهم شيوخُهم بإظهار موافقة الشريعة ، والخروج عما يُنكر عليهم من البدع . وقال لهم شيخهم : أحوالنا تَظْهر عند التتار ، لا عند شرع محمد بن عبد الله ، ونزعوا الأغلال من الأعناق ، وأجابوا إلى الوفاق .

الأمير يُصرُّ على كشْف باطلهم :

ولكن الأمير أصرّ على عقْد المناظرة ، لكشْف باطلهم ، وألزَمَهم بالحضور .

شيخ الإسلام يستَنْصِرُ ربَّه :

قال رحمه الله : فاستخرتُ الله تعالى تلك الليلة ، واستعنته واستنصرته واستهديته ، وسلكتُ سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك ، حتى أُلقِيَ في قلبي أن أَدخل النَّار عند الحاجة إلى ذلك(١) ، وأنها تكون بَرْدًا وسلامًا على من اتَّبع ملةَ الخليل ، وأنها تحرق أشباهَ الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل . وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم – إمامِ الحنفاء – بنواحي البطائح منضمين إلى مَن يُضاهيهم مِن نصارى الدَّهماء .

وَبَيْنَ الصابئة وَمَن ضَلَّ مِن العباد المنتسبين إلى هذا الدين نَسَبٌ يعرفه مَن عرف الحق المبين . فالغالية من القرامطة والباطنية ، كالنصيرية والإسماعيلية ، يخرجون إلى مُشابَهَة الصابئة الفلاسفة ، ثم إلى الإشراك ، ثم إلى جحود الحق تعالى . ومن شركهم الغلوُّ في البَشَر ، والابتداع في العبادات ، والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك ، بحسب ما هو به لائق ، كالملحدين من أهل الاتحاد ، والغالية من أصناف العباد .

---

(١) يقول الشيخ عمر الأشقر معلِّقًا في كتابه « جَوْلةٌ في رياض العلماء » صـ ١٨٩ : رحمه الله ، ما كان أسخاه بنفسه في سبيل إظهار دين الله .

استثارتُهم للناس وجَمْعُهم الأعوانَ والأنصار :

فلما أصبحنا ذهبتُ للميعاد ، وما أحببت أن أستصحب أحدًا للإسعاد ، لكن ذهب أيضًا بعض من كان حاضرًا من الأصحاب ، واللهُ هو المسبِّبُ لجميع الأسباب . وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء ، وقالوا أنواعًا مما جرتْ به عادتُهم من التلبيس والافتراء ، الذي استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء ، مثلَ زَعْمهم أنّ لهم أحوالًا لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء ، وأنّ لهم طريقًا لا يعرفها أحد من العلماء . وأن شيخهم هو في المشايخ كالخليفة ، وأنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المَنِيفة ، وأن المُنْكِر عليهم هو آخذٌ بالشرع الظاهر ، غيرُ واصل إلى الحقائق والسرائر ، وأن لهم طريقًا وله طريق ، وهم الواصلون إلى كُنْهِ التحقيق . وأشباه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزويق .

سببُ انتشارِهم في ديار الإسلام :

وكانوا لِفَرْط انتشارهم في البلاد ، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد ؛ لخفاء نور الإسلام ، واستبدالِ أكثر الناس بالنورِ الظلامَ ، وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار ، ودروس حقيقةِ الإسلام في دولة التتار - لهم في القلوب موقع هائل ، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقوْل قائل .

أنصار الباطل :

قال المخبرُ : فغدا أولئك الأمراءُ الأكابر ، وخاطبوا فيهم نائبَ السلطان بتعظيم أمرهم الباهر . وَذَكَر لي أنواعًا من الخطاب ، والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب ، والأمير مستشعر ظهورَ الحق عند التحقيق ، فأعاد الرسولَ إليّ مرة ثانية فبلغتُه أنّا في الطريق . وكان كثير من أهل البدع الأضّداد - كطوائف من المتفقهة والمتفقرة وأتباع أهل الاتحاد - مُجدِّين في نصْرهم بحسب مقدورهم ،

مجهزين لمن يُعينهم في حضورهم . فلما حضرتُ وجدتُّ النفوس في غاية الشوْق إلى هذا الاجتماع ، متطلعين إلى ما سيكون ، طالبين للاطلاع .

كذِبُهم على الشيخ ، وفضْح الشيخ لهم ، وكشْفُه لباطلهم :

فلما وصل الشيخ ذكر له نائب السلطان وغيره أنهم قالوا : إن الشيخ طلبهم للامتحان ، وأن يُحْموا الأطواقَ نارًا ويَلبسونها . فأَكْذبَ ذلك ، وقال للأمير : نحن لا نستحلُّ أن نأمر أحدًا بأن يدخل نارًا ، ولا تجوز طاعة مَن يأمر بدخول النَّار ، وفي ذلك الحديث الصحيح . وهؤلاء يكذبون في ذلك ، وهم كذَّابون مبتدعون ، قد أفسدوا من أمر دين المسلمين ودنياهم ما الله به عليم . وذكرت تلبيسَهم على طوائف من الأمراء ، وأنَّهم لبَّسوا على الأمير المعروف بالأيدمري ، وعلى قفجق نائب السلطنة ، وعلى غيرهما ، وقد لبَّسوا أيضًا على الملك العادل - كتغا - في مُلكه ، وفي حالة ولاية حماة ، وعلى أمير السلاح ، أجلِّ أمير بديار مصر . وضاق المجلس عن حكاية جميعِ تلبيسهم ، فذكرتُ تلبيسهم على الأيدمري ، وأنَّهم كانوا يُرسلون من النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة ، ثم يخبرونه بها على طريق المُكاشفة ، ووعدوه بالمُلْك ، وأنهم وعدوه أن يُروه رجالَ الغيْب ، فصنعوا خُشبًا طوالًا ، وجعلوا عليها مَن يمشي كهيئةِ الذي يلعب بأكر الزجاج ، فجعلوا يمشون على جبل المزة ، وذاك يَرىٰ مِن بعيدٍ قومًا يطوفون على الجبل ، وهم يرتفعون عن الأرض ، وأخذوا منه مالًا كثيرًا ، ثم انكشف له أمرهم .

قلت للأمير : وولدُه هو الذي في حلقة الجيش يعلم ذلك ، وهو ممن حدثني بهذه القصة ، وأما قفجق فإنهم أدخلوا رجلًا في القبر يتكلم ، وأوْهموه أن الموتىٰ تتكلم ، وأتوا به في مقابر باب الصغير إلى رجلٍ زعموا أنَّه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان ، ولم يُقربوه منه ، بل مِن بعيد ؛ لتعود عليه بركته ، وقالوا : إنه طلب منه جملةً من المال . فقال قفجق : الشيخ

يكاشف ، وهو يعلم أنَّ خزائني ليس فيها هذا كله . وتَقرَّب قفجق منه وجذَب الشَّعَرَ ، فانقلع الجِلْد الذي ألصقوه على جلده من جلْد الماعز . فذكرت للأمير هذا ؛ ولهذا قيل لي : إنه لما انقضى المجلس ، وانكشف حالهم للناس ، كتب أصحاب قفجق إليه كتابًا ، وهو نائب السلطنة بحماة يخبره بصورة ما جرى .

وذكرتُ للأمير أنهم مُبتدِعون بأنواعٍ من البدع ، مثل الأغلال ونحوها ، وأنَّا نهيْناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة . فذكر الأمير حديث البدعة ، وسألني عنه ، فذكرت حديث العِرْباضِ بن سَارِيَة ، وحديث جابر ابن عبد الله ، وقد ذكرتُهما بعد ذلك بالمجلس العامّ ، كما سأذكره .

الشيخ مستعد لدخول النار لكشْف باطِلهم :

قلت للأمير : أنا ما امتحنتُ هؤلاء ، لكن هم يزعمون أنَّ لهم أحوالًا يدخلون بها النَّار ، وأنَّ أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك ، ويقولون لنا : هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشّرع ، ليس لهم أن يعترضوا علينا ، بل يُسلَّم إلينا ما نحن عليه ، سواء وافق الشرع أو خالفه . وأنا قد استخرتُ الله سبحانه أنهم إنْ دخلوا النار أَدخل أنا وهم ، ومن احترقَ منّا ومنهم فعليه لعنة الله وكان مغلوبًا ، وذلك بعد أن نغسل جسومَنا بالخلّ والماء الحارّ .

حِيلة دخول النار :

فقال الأمين : ولِمَ ذاك ؟ قلت : لأنهم يَطْلُون جسومَهم بأدوية يصنعونها من دُهْن الضفادع ، وباطنِ قشْر النارنج ، وحجرِ الطلق ، وغير ذلك من الحِيل المعروفة لهم . وأنا لا أطلي جلدي بشيء ، فإذا اغتسلتُ أنا وهم بالخلّ والماء الحار ، بطُلتْ الحيلة وظهر الحق . فاستعظم الأميرُ هجومي على النار ، وقال : أتفعل ذلك ؟ فقلت له : نعم ، قد استخرت الله

في ذلك ، وألقى في قلبي أن أفعله ، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء ؛ فإنَّ خوارق العادات إنما تكون لأمَّة محمد ﷺ ، المتبعين له باطنًا وظاهرًا - لحُجَّةٍ أو حاجةٍ ، فالحجة لإقامة دين الله ، والحاجة لما لا بد منه ، من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله . هؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتِهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تُبطل دين الله وشرعه ، وجب علينا أن ننصر الله ورسوله ﷺ ، ونقوم في نصر دين الله وشريعته ، بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا ، فلنا حينئذٍ أن نعارض ما يُظهرونه مِن هذه المخاريق ، بما يؤيدنا الله به من الآيات .

ولْيُعلمْ أن هذا مثلُ معارضة موسى للسحرة ، لمّا أظهروا سحرهم أيّد الله موسى بالعصا التي ابتلعتْ سحرهم . فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السّماط بذلك ، وفرح بذلك ، وكأنهم كانوا قد أوهموه أنَّ هؤلاء لهم حال لا يقدر أحدٌ على ردِّه . وسمعتُه يخاطب الأمير الكبير الذي قَدِم من مصر (الحاج بهادر) - وأنا جالسٌ بينهما على رأس السّماط - بالتركي ، ما فهمتُه منه إلَّا أنه قال : اليوم ترىٰ حربًا عظيمًا . ولعل ذاك كان جوابًا لمن كان خاطبه فيهم ، على ما قيل .

الأمير يُصرُّ على البيان :

وحضر شيوخُهم الأكابر ، فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح ، وإطفاءَ هذه القضية ، ويترفقون ، فقال الأمير : إنما يكون الصُّلح بعد ظهور الحق . وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر ، أنا وهو وبَهادر ، فسمعتُه يذكر له أيُّوب الحمّال بمصر ، والمُولَهين ونحو ذلك ، فدلَّ ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظَّمة ، وأن لهم فيهم ظنًّا حسنًا ، والله أعلم بحقيقة الحال ؛ فإنه ذكر لي .

وكان الأمير أحبَّ أن يُشهد (بهادرَ) هذه الواقعة ليتبيَّن له الحقّ ،

فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده ، وقد قدِم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه ، فأمر ببساط يُبسط في الميْدان . وقد قدم البطائحية ، وهم جماعة كثيرون ، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية ، من الإزباد والإرغاء ، وحركة الرؤوس والأعضاء ، والطفر والحبْو والتقلُّب ، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات ، والحركات الخارجة عن العادات ، المخالِفة لما أمَر به لقمان لابنه في قوله تعالى : ﴿ **وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ** ﴾ الآية . [لقمان : ١٩] . فلما جلسنا وقد حضر خَلْق عظيم من الأمراء والكتّاب والعلماء والفقراء والعامة وغيرهم ، وحضر شيخهم الأوَّل المشتكي ، وشيخ آخر يُسمي نفسه : خليفةَ سيِّده أحمد ، ويركب بعلمين ، وهم يسمُّونه : عبد الله الكذَّاب . ولم أكن أعرف ذلك . وكان من مدةٍ قد قدِم عليَّ منهم شيخٌ بصورةٍ لطيفة ، وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيتُه طلْبَته ، ولم أتفطّنْ لكذبه ، حتى فارقني ، فبقي في نفسي أنَّ هذا خفيَ عليَّ تلبيسُه إلى أن غاب ، وما يكاد يخفى عليَّ تلبيسُ أحدٍ ، بل أُدركه في أول الأمر ، فبقي ذلك في نفسي ، ولم أره قطُّ إلى حين ناظرتُه ، ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بي قديمًا ، فتعجبتُ من حسْن صنْع الله ، أنه هتكه في أعظم مشهد يكون ، حيث كتم تلبيسَه بيني وبينه .

فلما حضروا تكلّم منهم شيخٌ - يقال له : حاتم - بكلامٍ مضمونه طَلَبُ الصلح ، والعفو عن الماضي والتوبة ، وأنّا مُجيبون إلى ما طلب من ترْك هذه الأغلال وغيرها من البدع ، ومُتّبعون للشريعة . فقلت : أما التوبة فمقبولة . قال الله تعالى : ﴿ **غَافِرِ ٱلذَّنبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ** ﴾ الآية [غافر : ٣] هذه إلى جنب هذه . وقال تعالى : ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ** ﴾ [الحجر : ٤٩ - ٥٠] .

ردُّ الشيخ عليهم في بدعةِ لُبْسِ أطواق الحديد :

فأخذ شيخهم المشتكي ينتصر للُبسهم الأطواق ، وذكر أن وَهْبَ بنَ مُنبه روى أنه كان في بني إسرائيل عابدٌ ، وأنه جعل في عنقه طَوْقًا ، في حكاية من حكايات بني إسرائيل ، لا تثبت . فقلت لهم : ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا ؛ قد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله ، أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة ، فقال : « أَمُتَهوِّكونَ يا ابن الخطاب ؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لو كان موسى حيًّا ، ثم اتبعتموه وتركتموني لَضللْتم ». وفي مراسيل أبي داود أن النبي ﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئًا من كتب أهل الكتاب ، فقال : « كفى بقومٍ ضلالة أنْ يتبعوا كتابًا غيرَ كتابهم ، أُنزل إلى نبي غير نبيهم » ، وأنزل الله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ الآية . [العنكبوت : ٥١] .

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى ، فيما علمنا أنَّه أُنزل عليهما من عند الله ، إذا خالف شرعنا ، وإنَّما علينا أن نتَّبع ما أُنزل علينا من ربنا ، ونتّبع الشرعة والمِنْهاج الذي بعث الله به إلينا رسولَنا . كما قال تعالى : ﴿ **فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ الآية [المائدة : ٤٨] . فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بني إسرائيل في حكاية لا تُعلَم صحتها ؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل ؟! ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة : ١٤١] . هاتِ ما في القرآن ، وما في الأحاديث الصِّحاح ، كالبخاري ومسلم . وذكرتُ هذا وشبهه بكيفية قوية .

لا يجوز الخروج على الشريعة بحال :

فقال هذا الشيخ منهم ، يخاطب الأمير : نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قومٌ شافعية . فقلت له : هذا غير مستحبٍّ ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين ؛ بل كلُّهم يَنهى عن التعبُّد به ويَعُدُّه بدعة . وهذا الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني مفتي الشافعية دعوتُه ، وقلت : يا كمال الدين ، ما تقول في هذا ؟ فقال : هذا بدعة غير مستحبة ، بل مكروهة . أو كما قال . وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوطُ طائفةٍ من العلماء بذلك . وقلت : ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد ﷺ ، ولا الخروج عن كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ . وأشكُّ هل تكلمتُ هنا في قصة موسى والخضر ، فإنِّي تكلمتُ بكلام بَعُدَ عهدي به .

الباطن والظاهر محكومٌ بالكتاب والسنَّة :

فانتدبَ ذلك الشيخُ عبد الله ورفع صوته ، وقال : نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يُوقف عليها . وذكر كلامًا لم أضبط لفظَه ، مثل المجالس والمدارس ، والباطن والظاهر ، ومضمونُه : أنَّ لنا الباطن ولغيرنا الظاهر ، وأن لنا أمرًا لا يقف عليه أهل الظاهر ، فلا يُنكرونه علينا .

فقلتُ له - ورفعت صوتي وغضبت - : الباطن والظاهر والمجالس والمدارس ، والشريعة والحقائق ، كلّ هذا مردود إلى كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ؛ ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ، لا من المشايخ والفقراء ، ولا من الملوك والأمراء ، ولا من العلماء والقُضاة وغيرهم ؛ بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ﷺ . وذكرت هذا ونحوه .

إدِّعَاءُ الخوارق :

فقال - ورفع صوته - : نحن لنا الأحوال وكذا وكذا . وادعى

الأحوال الخارقة كالنار وغيرها ، واختصاصهم بها ، وأنهم يستحقون تسليمَ الحال إليهم لأجْلها .

فقلت - ورفعتُ صوتي وغضبت - : أنا أخاطب كلّ أحمديّ من مشرق الأرض إلى مغربها ، أيّ شيء فعلوه في النار ، فأنا أصنع مثل ما تصنعون ، ومن احترقَ فهو مغلوبٌ - وربما قلت : فعليه لعنة الله - ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخلّ والماء الحار . فسألني الأمراء والناس عن ذلك ، فقلت : لأن لهم حِيَلًا في الاتصال بالنار ، يَصنْعُونها من أشياء من دُهن الضفادع ، وقشر النارنج ، وحجر الطلق . فضجَّ الناس بذلك ، فأخذ يُظهر القدرة على ذلك ويقول : أنا وأنت نلف في بارية ، بعد أن تُطلىٰ جسومُنا بالكِبْريت . فقلت : فقم . وأخذتُ أكرر عليه في القيام إلى ذلك ، فمدَّ يده يُظهر خَلْع القميص ، فقلت : لا ، حتى تغتسل في الماء الحارّ والخلّ . فأظهر الوهم على عادتهم ، فقال : من كان يحب الأمير فليُحضرْ خشبًا . أو قال : حزمة حطبٍ . فقلت : هذا تطويلٌ وتفريق للجمع ، ولا يحصل به مقصود بل قنديل يُوقد ، وأُدخل أُصبعي وأُصبعَك فيه بعد الغسْل ، ومنِ احترقت أصبعُه فعليه لعنة الله ، أو قلت : فهو مغلوب . فلما قلت ذلك تغيَّر وذَلّ . وذكر لي أنَّ وجهه اصفر .

الخوارق ليست دليل الصَّلاح والتُّقىٰ :

ثم قلت لهم : ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة ، ولو طِرتُم في الهواء ، ومشيْتم على الماء ، ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدلّ على صحة ما تدّعونه من مخالفة الشرع ، ولا على إبطال الشرع ؛ فإنَّ الدَّجال الأكبر يقول للسماء : أمطري . فتمطر ، وللأرض : أنبتي . فتنبت ، وللخربة : أَخرجي كنوزَكِ . فتُخرج كنوزها تتبَعُه ؛ ويقتل رجلًا ثم يمشي بين شِقَّيْه ، ثم يقول له : قُمْ . فيقوم ، ومع هذا فهو دجّالٌ كذّاب

ملعون ، لعنه الله . ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقْعٌ عظيم في القلوب .

وذكرتُ قوْل أبي يزيد البسْطامي : لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ، ويمشي على الماء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي . وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنَّه قال للشافعي : أتدري ما قال صاحبنا ؟- يعني الليث بن سعد - قال : لو رأيتَ صاحب هوًى يمشي على الماء ، فلا تغتر به . فقال الشافعي : لقد قصر اللَّيث ، لو رأيتَ صاحب هوًى يطير في الهواء فلا تغتر به . وتكلمتُ في هذا ونحوه بكلامٍ بعُد عهدي به . ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح . وجعلتُ أُلحُّ عليه في إظهار ما ادَّعوه من النار مرةً بعد مرةٍ ، وهم لا يُجيبون ، وقد اجتمع عامّة مشايخهم الذين في البلد والفقراء المولهون منهم ، وهم عدد كثير ، والناس يضجون في الميدان ، ويتكلمون بأشياء لا أضبطها .

وقع الحقُّ وبطَل ما كانوا يعملون :

فذكر بعض الحاضرين أنَّ النَّاس قالوا ما مضمونه : ﴿ **فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنْقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ** ﴾ وذكروا أيضًا أنَّ هذا الشيخ يُسمَّى : عبد الله الكذاب . وأنَّهُ الذي قصَدك مرة فأعطيتَه ثلاثين درهمًا . فقلت : ظهر لي - حين أخذ الدراهم وذهب - أنه مُلَبِّس ، وكان قد حكى حكاية عن نفسه ، مضمونها أنَّه أَدخل النَّار في لحيته قُدّام صاحب حَماة ، ولما فارقني وقع في قلبي أنَّ : لحيته مدهونة ، وظهر عجزهم وكذبهم وتلبيسهم .

استخدام القوة إن لم تنفع الحُجّة :

فقال : فبأي شيء تبطل هذه الأحوال ؟ فقلت : بهذه السِّياط الشرعية . فأعجب الأمير وضحك ، وقال : إيْ والله ، بالسِّياط الشرعية تبطل هذه

الأحوال الشيطانية . كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد ، ومن لم يُجب إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية . وأمسكتُ سيف الأمير وقلت : هذا نائب رسول الله ﷺ وغلامه ، وهذا السيف سيف رسول الله ﷺ ، فمن خرج عن كتاب الله وسنَّة رسوله ضربناه بسيف الله . وأعاد الأمير هذا الكلام .

لا يُقَرُّ أحدٌ على إظهار المنكر في ديار الإسلام :

وأخذ بعضهم يقول : فاليهود والنصارى يُقَرُّون ولا نُقَرُّ نحن ؟!. فقلت : اليهود والنصارى يُقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دُورهم ، والمبتدِع لا يُقَرُّ على بدعته . فأُفحموا بذلك .

وحقيقة الأمر أن مَن أظهر منكرًا في دار الإسلام لم يُقَرَّ على ذلك ، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يُقَر ، ولا يُقَر مَن أظهر الفجور ، وكذلك أهل الذّمة لا يُقَرون على إظهار منكرات دينهم ، ومَن سواهم فإنْ كان مسلمًا أخذ بواجباتِ الإسلام وترك محرماتِه ، وإن لم يكن مسلمًا ولا ذِميًا ، فهو إما مرتدٌّ وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة .

ذمُّ المبتدِعَة :

وذكرت ذمَّ المبتدعة ، فقلت : روى مسلم في صحيحه عن جعفر ابن محمد الصادق ، عن أبيه أبي جعفر الباقر ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته : « إنَّ أصدق الكلام كلام الله ، وخيرَ الهدي هدي محمد ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » . وفي السنن عن العرباض بن سارية ، قال : خطَبَنا رسول الله ﷺ خطبةً ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مُودِّعٍ ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أوصيكم بالسمع والطاعة ،

فإنه من يَعِش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسّكوا بها ، وعضّوا عليها بالنواجذ ، وإيّاكم ومُحدَثات الأمور ؛ فإنَّ كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » . وفي رواية : « وكل ضلالة في النار » .

البدعة شرٌّ من الزنا والمعاصي :

فقال لي : البدعة مثل الزنا ، وروى حديثًا في ذمّ الزنا . فقلت : هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ ، والزنا معصية ، والبدعة شرٌّ من المعصية ، كما قال سفيان الثوري : البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية ؛ فإنَّ المعصية يُتاب منها ، والبدعة لا يُتاب منها . وكان قد قال بعضهم : نحن نُتَوِّب الناس ، فقلت : من ماذا تتوبونهم ؟ قال : من قطْع الطريق ، والسرقة ، ونحو ذلك . فقلت : حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم ؛ فإنهم كانوا فُسّاقًا يعتقدون تحريم ما هم عليه ، ويرجون رحمة الله ، ويتوبون إليه ، أو ينْوُون التوبة ، فجعلتموهم بتتويبكم ضالّين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام ، يحبون ما يُبْغضه الله ويُبغضون ما يحبه الله . وبيّنتُ أنَّ هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شرٌّ مِنَ المعاصي .

قلت مخاطبًا للأمير والحاضرين : أمّا المعاصي فمثل ما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلًا كان يدعى حمارًا ، وكان يشرب الخمر ، وكان يُضحك النبي ﷺ ، وكان كلما أُتي به النبي ﷺ جلده الحدَّ ، فلعنه رجل مرةً ، وقال : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ !. فقال النبي ﷺ : « لا تلعنْه فإنه يحبُّ الله ورسوله » . قلت : فهذا رجل كثير الشرب للخمر ، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله ، شهد له النبي ﷺ بذلك ، ونهى عن لعْنه .

وأما المبْتَدِع فمثل ما أخرجا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب ،

وعن أبي سعيد الخدري وغيرهما - دخل حديث بعضهم في بعض - أن النبي ﷺ كان يَقْسِم ، فجاءه رجل ناتِئُ الجبين ، كَثُّ اللحية ، محلوقُ الرأس ، بين عينيه أثر السجود ، وقال ما قال ، فقال النبي ﷺ : « يخرج من ضِئْضِىء هذا قوم يحقر أحدكم صلاتَه مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءَته مع قراءتهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرُقون من الإسلام كما يمرُق السهم من الرَّمِيَّة ؛ لئن أدركتهم لأقتلنهم قتلَ عاد » وفي رواية : « لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل » ، وفي رواية : « شرُّ قتلى تحت أديم السماء ، خيرُ قتلى من قتلوه » .

قلت : فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم ، وما هم عليه من العبادة والزهادة أمَرَ النبي ﷺ بقتلهم ، وقَتَلهم عليّ بن أبي طالب ومَن معه من أصحاب النبي ﷺ ؛ وذلك لخروجهم عن سُنَّة النبي وشريعته ، وأظن أني ذكرتُ قول الشافعي : لأَن يُبتَلَى العبد بكلّ ذنبٍ ما خلا الشرك بالله خيرٌ من أن يُبْتَلى بشيء من هذه الأهواء . فلما ظهر قُبْح البدع في الإسلام ، وأنها أظلمُ من الزنا والسرقة وشرْب الخمر ، وأنهم مبتدعون بدَعًا منكرة ، فيكون حالهم أسوأ مِن حال الزاني والسارق وشارب الخمر ، أخذ شيخهم عبد الله يقول : يا مولانا ، لا تتعرض لهذا الجَناب العزيز . يعني أتباع أحمد بن الرفاعي . فقلتُ منكِرًا بكلام غليظ : ويحك ؛ أيّ شيء هو الجَناب العزيز ، وجَناب من خالفه أولى بالعزّ يا ذا الزرجنة ، تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله ؟! فقال : يا مولانا ، يحرقك الفقراء بقلوبهم . فقلت : مثل ما أحرقني الرافِضَةُ لما قصدتُ الصُّعود إليهم ، وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرِّهم ، ويقول أصحابهم : إن لهم سرًّا مع الله ، فنصر الله وأعان عليهم . وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بَركة ما

يسَّره الله في أمْر غزو الرافضة بالجبل ، أكذب الطوائف ، حتى قيل فيهم : لا تقولوا : أكذبُ من اليهود على الله . ولكن قولوا : أكذب من الأحمدية على شيخهم . وقلت لهم : أنا كافر بكم وبأحوالكم ﴿ **فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ** ﴾ [هود : ٥٥] .

ولما رددتُّ عليهم الأحاديث المكذوبة ، أخذوا يَطلبون مِنِّي كتبًا صحيحة ليهتدوا بها فبذلتُ لهم ذلك ، وأُعيد الكلام : أنه مَن خرج عن الكتاب والسنَّة ضربتُ عنقه ، وأعاد الأمير هذا الكلام ، واستقر الكلام على ذلك . والحمد لله الذي صدق وعْده ، ونصر عبده ، وهزَمَ الأحزاب وحده .

وقلت لهم : يا شبه الرافضة ، يا بيْت الكَذِب . فإن فيهم من الغلوّ والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم ، وفيهم مِنَ الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك ، أو يساوونهم ، أو يزيدون عليهم » . ا هـ .

ابن تيمية والملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون :

لمّا عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى المُلْك ، وزالت دولة المظفر الجاشنكير وخُذل ، وخُذل شيخه نصر المنبجي الاتحادي الحلولي « دخل السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر ، ولم يكن له دأْب إلَّا طلب الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الإسكندرية معزَّزًا مكرَّمًا مبجَّلًا ... ولما قَدِمَ عليه الشيخ تقي الدين نهض قائمًا للشيخ أوَّل ما رآه ، ومشى له إلى طرف الإيوان ، واعتنقا هناك هُنَيْهة ، ثم أخذ معه ساعة إلى طبقة فيها شباك إلى بستانٍ ، فجلسا ساعةً يتحدثان ، ثم جاء ويَدُ الشيخ في يد السلطان ، فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة قاضي مصر ، وعن يساره ابن الخليلي الوزير ، وتحته ابن صصرى ، ثم صدْر الدين علي الحنفي ، وجلس الشيخ تقي الدين بين يدي السلطان

على طرف طراحته ، وتكلّم الوزير في إعادة أهل الذِّمَّة إلى لُبْس العمائم البيض بالعلائم ، وأنهم قد التزموا للديوان بسبعمائة ألفٍ في كلّ سنة زيادةً على الحالية ، فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام ، وكبار العلماء من أهل مصر والشام ، من جملتهم ابن الزملكاني . قال ابن القلانسي : وأنا في مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكاني ، فلم يتكلم أحدٌ من العلماء ولا مِنَ القُضاة ، فقال لهم السلطان : ما **تقولون ؟** يستفتيهم في ذلك ، فلم يتكلم أحد ، فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتَيْه ، وتكلم مع السلطان في ذلك بكلامٍ غليظ ، وردّ على الوزير ما قاله ردًّا عنيفًا ، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويُسكته برفقٍ وتُؤُدَةٍ وتوقير . وبالغ الشيخ في الكلام ، وقال ما لا يستطيع أحد أن يقوم بمثله ولا بقريبٍ منه ، وبالغ في التَّشنيع على مَنْ يُوافق في ذلك . وقال للسلطان : حاشاك أن يكون أولُ مجلس جلسته في أُبَّهة المُلْك تنصر فيه أهل الذِّمة لأجْل حُطامِ الدنيا الفانية ، فاذكرْ نعمة الله عليك إذْ ردّ مُلْكك إليك ، وكبتَ عدوَّك ، ونصرك على أعدائك . فذكر أن الجاشنكير هو الذي جدّد عليهم ذلك ، فقال : والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك ؛ لأنه إنما كان نائبًا لك . فأعجب السلطان ذلك واستمر بهم على ذلك . وجرتْ فصول يطولُ ذكْرها . وقد كان السلطان أعلم بالشيخ مِن جميع الحاضرين ، ودينه وقيامه بالحق وشجاعته . وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لمَّا انفردا في ذلك الشبّاك الذي جلسا فيه ، وأن السلطان استفتى الشيخ في قتْل بعض القضاة ؛ بسبب ما كانوا تكلّموا فيه ، وأخرج له فتاوى بعضِهم بعزْله مِنَ المُلْك ومُبايعة الجاشنكير ، وأنهم قاموا عليك ، وآذوك أنت أيضًا ، وأخذ يحثُّه بذلك على أن يُفتيه في قَتْل بعضِهم . وإنما كان حَنَقُه عليهم بسبب ما كانوا سَعَوْا فيه من عَزْلِهِ ومبايعة الجاشنكير ،

ففهم الشيخ مُرادَ السلطان ، فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء ، ويُنكر أن يَنال أحدًا منهم بسوءٍ ، وقال له : إذا قتلتَ هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم . فقال له : إنهم قد آذَوْك وأرادوا قتلك مِرارًا . فقال الشيخ : مَنْ آذاني فهو في حِلٍّ ، وَمَن آذى اللهَ ورسولَه فالله ينتقم منه ، وأنا لا أنتصر لنفسي ، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح »(١).

قال : وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : ما رأينا مثلَ ابن تيمية حرّضنَا عليه فلم نقدِر عليه ، وقدَر علينا فصفح عنا وحاجَجَ عنا .

لله درُّك يا شيخ الإسلام مِن إمامٍ !

لله درُّك من إمامٍ أمة ... لله درُّ أمٍ درتْ عليك .. وأمةٍ فيها مثلك ...

لقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية آيةً من آيات الله في الصَّدْع بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن الفرق . ويكفي ردُّه على فلاسفة الصوفية ، والدجاجلة منهم ، والأشاعرة والمتكلمين ، والشيعة ، والمُقَلِّدة ، والفلاسفة وأهل الاعتزال ، وكان أمَّارًا بالمعروف للسلاطين والأمراء .

قال الحافظ عمر بن علي البزار : « أخبرني مَن لا أتَّهِمُه أن الشيخ رضي الله عنه حين وُشي به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد بن قلاوون ، أحضره بين يديْه ، قال : فكان من جملة كلامه : إنني أُخبرتُ أنك قد أطاعك الناس ، وأنّ في نفسك أخْذ المُلْك . فلم يكترثْ به ، بل قال له بنفسٍ مطمئنةٍ ، وقلب ثابت ، وصوت عالٍ ، سمعَه كثيرٌ ممّن حضَر : أنا أفعل ذلك ؟! والله إنّ مُلْكَك ومُلك المُغل لا يساوي عندي فِلْسَيْن . فتبسم السلطان لذلك ، وأجابه في مقابلته – بما أوقع الله له في

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٥٣ ، ٥٥ – ٥٦ .

قلبه منَ الهَيْبة العظيمة - : إنك - والله - لصادق ، وإن الذي وشى بك إليّ لكاذب »[١] .

لقد « كان رضي الله عنه من أعظم أهل عصره قوةً ومقامًا وثبوتًا على الحق ، وتقريرًا لتحقيق توحيد الحق ، لا يصدُّه عن ذلك لوْمُ لائم ، ولا قوْل قائل ، ولا يرجع عنه لحُجَّة مُحتجٍّ ، بل كان إذا وضح له الحق يعضُّ عليه بالنواجذ ، ولا يلتفتُ إلى مُباينٍ معاندٍ ، ولقد سُجن أزمانًا وأعصارًا وسنين وشهورًا ، ولم يُوَلِّهم دُبُره فرارًا ، ولقد قصَد أعداؤه الفتْكَ به مرارًا ، وأوسعُوا حِيَلهم عليه إعلانًا وإسرارًا ، فجعل الله حِفْظَهُ منهم له شعارًا ودِثَارًا . ولقد ظنُّوا أن في حبْسه مشينةً ، فجعله اللهُ له فضيلةً وزينةً ، وظهر له يوم موْته ما لوْ رآه وادُّه أقرّ به عَيْنَيْه ، فإن الله تعالى لعلْمِه بقرْب أَجَله ، ألبسَه الفراغ عن الخلْق ، للقدوم على الحقِّ أجملَ حُلَلِه ، كونه حُبِسَ على غير جَريرةٍ ولا جريمة ، بل على قوة في الحق وعزيمة ، هذا مع ما نَشَر الله له من عُلومه في الآفاق ، وبَهَر بفنونهِ البصائر والأحداق وملأ بمحاسن مؤلفاته الصُّحُف والأوراق ، كبْتًا ورغْمًا للأعداء ، أهل البدع المُضلّة والأهواء ، وصُنعًا عظيمة من رب السماء ، لعوائده لخاصَّة الأولياء ، أهل المحبة والولاء »[٢] .

قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرْسًا يستعملهم فيه بطاعته إلى يوْم القيامة »[٣] .

---

(١) الأعلام العَليَّة صـ ٧٢ ، ٧٣ .
(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية صـ ٧٥ - ٧٧ .
(٣) حسن : رواه أحمد ، وابن ماجه ، والبخاري في التاريخ عن أبي عنبة الخولاني وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٦٩٢ .

الطرطوشي وأمير مصر :

« افتحِ البابَ وَسَهِّلِ الحجابَ » :

« قال أبو بكر الطرطوشي : دخلتُ على الأفضل ابن أمير الجيوش وهو أمير على مصر ، فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فردّ السلام عليّ نحو ما سلّمتُ ردًّا جميلًا ، وأكرمني إكرامًا جزيلًا ، وأمرني بدخول مجلسه ، وأمرني بالجلوس فيه ، فقلتُ : أيُّها الملِك ، إن الله تعالى قد أحلَّك محلًا عليًّا شامخًا ، وأنزلَك منزلًا شريفًا باذخًا ، وملَّكك طائفةً من مُلْكه ، وأشرَكَك في حكمه ، ولم يرضَ أن يكون أمْر أحدٍ فوق أمرك ، فلا ترضَ أن يكون أحدٌ أولى بالشُّكر منك ، وليس الشكر باللسان ، وإنما هو بالفِعال والإحسان ؛ قال الله تعالى : ﴿ **اعملُوا آلَ دَاودَ شُكْرًا** ﴾ . واعلمْ أن هذا الذي أصبحتَ فيه مِن الملْك إنما صار إليك بموْت مَن كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك ، فاتَّقِ الله فيما حوْلك من هذه الأمة ، فإن الله تعالى سَائِلُك عن الفتيل والنقير والقِطْمير ، قال الله تعالى : ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنسألنَّهم أجمعِينَ عمَّا كَانُوا يَعْمَلون** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وإنْ كَانَ مِثْقَالَ حبَّةٍ مِنْ خَردلٍ أتيْنا بها وكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ ، واعلم أيُّها الملك أنَّ الله تعالى قد آتى مُلْك الدنيا بحذافيرها سليمانَ بنَ داود عليه السلام ، فسخَّر له الإنس والجنَّ والشياطين والطير والوحْش والبهائم ، وسخَّر له الرِّيح تجري بأمره رُخَاءً حيثُ أصابَ ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له : ﴿ **هذا عَطَاؤنا فامْنُنْ أوْ أمْسِكْ بغير حِسابٍ** ﴾ . فوالله ما عدَّها نعمة كما عددتُّموها ، ولا حَسِبها كرامةً كما حسبتموها ، بل خاف أن تكون استدراجًا مِنَ الله تعالى ومَكْرًا به ، فقال : ﴿ **هـٰذا مِنْ فَضْلِ ربِّي لِيَبْلُوَني أأَشْكُرُ أمْ أكفُرُ** ﴾ . فافتحِ البابَ ، وسهِّل الحجابَ ، وانصرِ المظلومَ ، وأغثِ الملهوف ، أعانك الله على نصْر المظلوم ، وجعَلك كَهفًا للملهوف وأمانًا

للخائف »[١] .

الشيخ شمس الدين والسلطان بايزيد :

« إنك تاركٌ للصلاة مع الجماعة » :

حضرَ السلطان بايزيد بن محمـد[٢] - أحدُ سـلاطين العثمانين - إلى المحكمة الشـرعية بين يديْ الشيخ شمس الدين محمـد بن حمزة الفناري[٣] قاضي القسطنطينية ليشهد أمامه في قضية من القضايا ، فما كان من الشيخ الفناري إلا أن ردّ شهادة السلطان و لم يقبلْها ، وسأل السلطانُ الشيخَ الفناري عن أسباب ردِّ شهادته ، فقال له الشيخ : إنك تاركٌ للصلاة مع الجماعة . وابتسم السلطان ، ثم أمر ببناءِ مسجدٍ أمام دارِه . و لم يترك صلاة الجماعة بعد ذلك[٤] .

الشيخ عبد الحميد الجزائري والمندوب السامي :

استدعى المندوب السامي الفرنسي - في سورية - الشيخ عبد الحميد الجزائري ، وقال له : إما أن تُقلع عن تلقـين تلاميذِك هـذه الأفكار وإلّا أرسلتُ جنودًا لإغلاق المسجد الذي تنفثُ فيه هذه السموم ضدَّنا ، وإخمادِ أصواتك المنكَرة . فأجاب الشيخ عبد الحميد : أيُّها المسيُو الحاكم ، إنك لا تستطيع ذلك . واستشاط المسيو غضبًا ، وقال : كيف لا أستطيع ؟ قال الشيخ : إذا كنتُ في عرسٍ علّمتُ المحتفلين ، وإذا كنتُ في مأْتمٍ وعظْتُ

---

(١) المستطرف في كلّ فنٍّ مستظرف .
(٢) السلطان بايزيد بن محمد الفاتح .
(٣) هو الشيخ شمس الدين محمد ، ولي القضاء في بروسيا وارتفع قدْره عند السلطان بايزيد ، وهو من عائلة اشتُهرت بالعلم والفقه .
(٤) « أقباس روحانية » لشيث خطاب .

المُعزِّين ، وإنْ جلستُ في قطار علَّمتُ المسافرين ، وإن دخلتُ السجن أرشدتُّ المسجونين ، وإن قتلتموني ألهبتُ مشاعر المواطنين ، وخيرٌ لك أيها المسيو ألا تتعرض للأمة في دينها ولغتها[١] .

أبو غياث الزاهد والأمير[٢] :

رُوي أن أبا غياث الزاهد كان يسكن المقابر ببخارى ، فدخل المدينة ليزورَ أخًا له ، وكان غلمان الأمير نصر بن محمد ، ومعهم المُغَنُّون والملاهي ، يخرجون من داره ، فلما رآهم أبو غياث الزاهد قال : يا نفس ، وقع أمرٌ إن سكتِّ فأنت شريكةٌ . فرفع رأسه إلى السماء واستعان بالله وأخذ العصا ، فَحَمَلَ عليهم حملةً واحدة ، فولُّوا منهزمين مدبرين إلى دار السلطان ، وقصُّوا على الأمير ، فدعا به ، وقال له : أما علمتَ أنه مَن يخرج على السلطان يتغدى في السجن ؟ فقال له أبو غياث : أما علمت أنه من يخرج على الرحمٰن يتعشَّى في النيران ؟ فقال له : مَن ولّاك الحسبة ؟ فقال : الذي ولّاك الإمارة . فقال الأمير : ولّاني الخليفةُ . فقال أبو غياث : ولّاني الحسبةَ ربُّ الخليفة . فقال الأمير : ولَّيتُكَ الحسبةَ بسمرقند . فقال : عزلتُ نفسي عنها . فقال الأمير : العجَب في أمْرِك ، تحتسب حين لم تؤْمر ، وتمتنع حيث تؤْمر ؟! قال : لأنك إن وليتني عزلتني ، وإذا ولّاني ربي لم يعزلني أحد . فقال الأمير : سَلْ حاجتَك ؟ فقال : حاجتي أن تردَّ علي شبابي ؟ فقال : ليس ذلك إليَّ ، فهل لك حاجة أخرى ؟ قال : أن تكتب إلى مالكٍ خازنِ النار أن لا يعذبني . قال : ليس لي ذلك أيضًا . قال : هل لك حاجة أخرى ؟ قال : أن تكتب إلى رضوان خازن الجنان يدخلني الجنة . قال : ليس ذلك إليّ أيضًا . قال

---

(١) « أقباس روحانية » .

(٢) « تربية الأولاد في الإسلام » لعبد الله ناصح عُلوان .

أبو غياث : فإنها مع الربّ الذي هو مالك الحوائج كلها ، لا أسأله حاجة إلَّا أجابني إليها . فخلّى الأميرُ سبيلَه[١].

الشاطبي[٢] والأمير موسك :

« قُلْ للأمير نصيحةً » :

كان الأمير عزُّ الدين مُوسك مِن أمراء دولة بني أيُّوب - ويُنسب إليه شارع الموسكي بمصر - كان أميرًا يحبّ أهل العلم والصلاح ، فلما قَدِمَ الإمام القاسم الشاطبي المقرئ الضرير ، وكان إمامًا منقطِع القرين ، رأسًا في القراءات ، الذي سارت الرُّكبان بقصيدته (حرز الأماني) فلما قَدِمَ مصر ووُصِفَ للأمير ، طَلَبَهُ ، ولم يتقدم إليه الأميرُ بنفسه . فأخذتِ الشيخَ عِزَّةُ العلم ، وهو الغريب الفقير ، فكتب له رقعةً فيها :

قُلْ للأميرِ نصيحةً ... لا تركَنَنَّ إلى فقيهْ
إنَّ الفقيهَ إذا أتَى ... أبوابَكُم لا خيرَ فيهْ

أحد علماءِ الأزهر والخديوي إسماعيل :

« مِنك يا إسماعيل ، لا منَّا » :

لما وقعتِ الحرب بين مصر والحبشة ، وتوالتِ الهزائم على مصر - لوقوع الخلاف بين قوّاد جيوشها - ضاق صدر الخديوي لذلك ، فركب

---

(١) الموعظة مِن كتاب « من أخلاق العلماء » .

(٢) (الشاطبي) : هو القاسم بن فيروه الرعيني ، وهو إمام قُرَّاء عصره . وُلد بشاطبة (الأندلس) ، وتوفي بالقاهرة عام ٥٩٠ هـ . وكان ضريرًا ، رحَل إلى القاهرة وعلَّم فيها. من آثاره: حِرز الأماني؛ وهي قصيدة في القراءات تُعرف بالشاطبية ، وكان عالمًا بالحديث والتفسير واللغة . قال ابن خلكان : كان إذا قُرئ عليه صحيح البخاري ، ومسلم ، والموطأ ؛ تُصحح النُّسخ مِن حفظه .

يومًا مع شريف باشا ، وهو مُحرج ، فأراد أن يفرِّج عن نفسه ، فقال لشريف باشا : ماذا تصنع حينما تلمُّ بك مُلمَّة تريد أن تدفعها ؟ فقال : يا أفندينا ، إن الله عوَّدني إذا حاق بي شيءٌ من هذا أن ألجأ إلى صحيح البخاري ، يقرؤه لي علماءٌ أطهارُ الأنفاس ، فيفرج الله عني . قال : فكلَّم شيخَ الأزهر ، وكان الشيخ العروسي ، فجمع له من صلحاء العلماء جمعًا ، أخذوا يتلون في البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر . قال : ومع ذلك ، ظلَّتْ أخبار الهزائم تتوالى ، فذهب الخديوي ومعه شريف باشا إلى العلماء ، وقال لهم محنقًا : إمَّا أن هذا الذي تقرءونه ليس بصحيح البخاري ، أو أنكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح ؛ فإن الله لم يَدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئًا . فَوَجَم العلماء لذلك . وابتدره شيخٌ من آخر الصفِّ يقول له : منك يا إسماعيل ، فإنا روينا عن النبي ﷺ ، أنه قال : « لَتَأمُرُنَّ بالمعروف ولَتنهونَّ عن المنكر ، أَوْ لَيُسلِّطنَّ الله عليكم شرارَكم ، فيدعو خيارُكم ، فلا يُستجاب لهم »[1]. وانصرف الخديوي ومعه شريف باشا ، ولم يَنْبِسَا بكلمة . وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنِّبونه . فبينما هم كذلك إذا بشريف باشا قد عاد يسأل : أين الشيخ القائل للخديوي ما قال ؟ فقال : أنا . فأخذه وقام ، وانقلب العلماء بعد أن كانوا يَلُومون الشيخ يُودِّعونه وداعَ مَن لا يأملون أن يرجع . وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخلا على الخديوي في قصره ، فإذا به قاعد في البهْو وأمامه كرسي ، أجلس عليه الشيخ وقال : أَعِدْ يا أستاذ ما قلته لي في الأزهر . فأعاد الشيخ كلمته وردَّد الحديث وشرحه ، فقال له الخديوي : وماذا صنعْنَا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟ قال له : يا أفندينا ، أليست المحاكم المختلطة قد فتِحت بقانون يُبيح الربا ؟! أليس الزنا برخصة ؟! أليس الخمر مباحًا ؟! وعدّد له

(١) رواه البزار والطبراني في الأوسط .

منكراتٍ تجري بلا إنكارٍ ، وقال : فكيف تنتظر النصر مِنَ السماء ؟! فقال الخديوي : وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب ، وهذه مدنيَّتهم ؟ قال : إذن ، فما ذنب البخاري ، وما حِيلة العلماء ؟! ففكّر الخديوي مليًّا ، وأطرق طويلًا ، ثم قال : صدقتَ . وأمر ، فرتِّبت له في الرزنامجة ثلاثون جنيهًا[1] .

الشيخ العدوي أمام السلطان :

« ذَكَرَ دينَه ونسيَ دنياه » :

عندما زار السلطان العثماني عبد العزيز مصر في عهد إسماعيل باشا كان إسماعيل حَفِيًّا بالزيارة ؛ لأنها كانت جزءًا من برنامجه للحصول على لقب خديوي ، مع عدَّة امتيازات في نظام الحكم بمصر . وكان من برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السَّراي ، ولما كانت للمقابلة السُّنِّية تقاليدُ ، منها أن يَنحني الداخل إلى الأرض ، وغير ذلك من التقاليد السخيفة المنافية لروح الإسلام ، فقد كان حتْمًا على رجال السراي أن يدرِّبوا العلماء على طريقة المقابلة عدَّة أيام ؛ كي لا يُخطئوا في حضْرة السلطان . وعندما حان الموعد ، دخل السادة العلماء الأجلَّاء فنسُوا دينهم واشتَروْا به دنياهم ، وانْحَنَوْا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات ، وخرجوا مُوجِّهين وجوهَهم إلى الخليفة ، كما أمرهم رجال التشريفات ، إلا عالمًا واحدًا هو الشيخ حسن العدوي ، ذكَر دينَه ونسيَ دنياه ، واستحضر في قلبه أن لا عزة إلا لله ، ودخل مرفوعَ الرأس كما ينبغي أن يدخل الرجال الأحرار ، وواجه الخليفة بتحية الإسلام : السلام عليكم يا أمير المؤمنين . وابتدره بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالمُ الحاكمَ ، دعاه إلى تقوى الله ، والخوف من عذابه ،

---

(١) من كتاب « من أخلاق العلماء » .

والعدل والرحمة بين رعاياه ، فلما انتهى سلَّم ، وخرج مرفوع الرأس . وأُسقط في يَد الخديوي ورجال السراي ، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم ، وأن السلطان لا بدّ غاضبٌ ، فضائعةٌ تلك الجهود التي بذلوا ، والآمال التي نسجوا . ولكنّ كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سُدًى ، فلا بدَّ أن تصدع القلوب قوية حارّة ، كما نبعت من مَكمنها قوية حارّة ، وهكذا كان ، فقال السلطان : ليس عندكم إلا هذا العالم . وخلَع عليه دون سواه[1].

الشيخ العدوي أمام المحكمة :

« لم يَعُدْ جديرًا بأن يحكمنا » :

كان الشيخ الأزهري حسن العدوي أحدَ الذين شاركوا في الثورة العرابية ، فلما حلَّتِ الهزيمة وقبِض على عرابي والعرابيين ، كان العدوي واحدًا من الذين قُدِّموا للمحاكمة أمام المحكمة التي كانت مؤلَّفة من لفيفٍ مِنَ الباشوات ، ومن رجال الخديوي . ووقف الشيخ – الذي قارَب سنّ الثمانين – أمام المحكمة ، وسأله رئيسها إسماعيل باشا أيوب بصوتٍ غليظ جافٍّ : هل وقَّعتَ باسمك ، أو ختمتَ بخاتَمك قرارًا يقضي أنّ أفندينا المعظَّم سُمُو الخديوي توفيق باشا يستحقُّ العزْل ؟ وإذا بالشيخ الطاعن في السِّنِّ يستعيد حَمِيَّة الشباب وحماستَه ، فنظر إلى أيوب باشا نظرةً ثابتةً حادَّة ، واتَّكأ بذراعيْه على منضدةٍ أمامه ، وقال : أيُّهَا الباشا ، إنني لم أرَ الورقة التي تتحدث عنها ، ولهذا فلن أجيب على سؤالك عمّا إذا كنتُ قد وقَّعتُها ، ولكنني أقول لك ما يأتي : إنه إذا أحضرتَ لي الآنَ ورقةً تحتوي على مثلِ هذا المعنى الذي ذكرتَه ، فإنني لن أتأخر عن توقيعها باسمي وأختمُها بخاتمي في حضورك ،

---

(١) « مواقف حاسمة للعلماء في الإسلام » ، نقلًا عن « التصوف الإسلامي » لزكي مبارك .

الآن أيُّها الباشا . ونظر الشيخ إلى أعضاء المحكمة قائلًا : إذا كنتم مسلمين ، فهل تستطيعون أن تُنكروا أن توفيق باشا - وقد خان بلاده ، وذهب إلى الإنجليز وانضم إليهم - لم يعدْ جديرًا بأن يكون حاكمًا لنا . واصفرَّ وجْه الباشا رئيس المحكمة ، الذي كان يظنُّ أنه يُخيف المحكومين ، ولم ينطق بكلمة واحدة يردُّ بها على الرجل المُسنِّ الجريء ، وأوْمأ إلى حُرَّاس المحكمة أن يأخذوه ويَخرجوا به من قاعة المحكمة ، ثم نقلوه إلى قريته ، واعتقلوه فيها(١) .

أحد علماء الأزهر والسلطان :

« مَنْ يمدُّ رجلَه لا يمدُّ يدَهْ » :

لما قَدِمَ السلطان عبد العزيز مصرَ وزار الجامع الأزهر وصحبَه الخديوي إسماعيل ، **فَلَحَظَ** الخديوي على شيخ بالجامع كأنه **غيرُ مُهتمٍّ** ، **فهو مسندٌ** ظهرَه ، مادٌّ رجلَه ، فأسرع بالسلطان عنه ، ثم كلَّف أحدَ رجاله - وقد أراه الشيخَ - أن يذهب له بصُرَّةٍ ، يريد أن يعرف حاله ، فلما جاء الرسولُ ليعطيه قبضَ الشيخُ عنه يدَه ، وقال له : قل لمن أرسلك : إن مَنْ يمدُّ رجلَه لا يمدُّ يده(٢) .

صَاحِبُ الظِّلال أسكَنَه اللهُ ظلالَ الجنة :

سيد قطب ، وله مِن اسمه أوْفَى نصيبٍ - رحمه الله - في صَدْعِهِ بالحقّ ، ونهْيه عن المنكر ...

---

(١) جريدة أخبار اليوم ٨ / ١٩٨١ .

(٢) كتاب : « أخلاق العلماء » . والسلطان عبد العزيز هو ابن السلطان محمود الثاني ابن السلطان سليم الثالث ، وُلد عام ١٨٣٠م وتُوفي عام ١٨٧٦م ، انسلخت على أيامه رومانيا والصرب والبلغار ومصر عن الإمبراطورية العثمانية .

هذا الذي أصدروا الحكْم بإعْدامه ورفض أنْ يكتب الْتماسًا للطاغية بتخفيف الحكْم ..

وكتابُهُ « الظلال » يُنبئ عن لَيْثٍ هَصُورٍ ، وعن رجل أمَّارٍ بالمعروف ، يطلب منه عبد السلام عارف - حاكم العراق - أن يرحل معه حيث الأمن والأمان والمناصب ، فيفضّل البقاءَ في مصر مرابطًا ، آمرًا بالمعروف ، وكفاه شرفًا وفخرًا .. رحمه الله ، وأجزل له المثوبة .

قافلة النور تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فَتُبْتَلَى :

لقد ضرب الربّانيون الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر أروعَ الأمثلة في القيام بالحقّ ، وأن لا تأخذهم في الله لومةُ لائمٍ .

« قتل الحجاجُ عبدَ الرحمـٰن بن أبي ليلَى ، وعبدَ الله بن غالب الحدّاني ، وسعيدَ بن جُبير ، وأبا البختري الطائيَ ، وكميل بن زياد ، وحُطيطًا الزيّات ، وماهان الحنفي ؛ صَلَبه ، وصلَب قبلَه ابن الزبير . وقتَل الواثقُ أحمدَ بن نصر الخزاعي ، وصلَبه .

فأمّا من ضُرِبَ من كبار العلماء :

فعبد الرحمـٰن بن أبي ليلَى : ضربه الحجاج أربعمائة سَوْطٍ ، ثم قتله .

سعيد بن المسيب : ضربه عبدُ الملك بن مروان مائةَ سَوْطٍ ، وصب عليه جَرَّةَ ماءٍ في يوم شاتٍ ، وأُلبس جُبَةَ صوفٍ .

وخُبيب بن عبد الله بن الزبير : ضربه عمر بن عبد العزيز - بأمْر الوليد - مائةَ سَوْطٍ ، فكان عمر إذا قيل له : أبشِرْ . قال : كيف بخبيبٍ على الطريق ؟!

أبو الزِّناد : ضربه بنو أمية .

أبو عمرو بن العلاء : ضربه بنو أمية خمسمائة سَوْطٍ .

ربيعة الرأي : ضربه بنو أمية .
عطية العوفي : ضربه الحجاج أربعمائة سوط .
يزيد الضَّبي : ضربه الحجاج أربعمائة سوط .
ثابت البناني : ضربه ابن الجارود خليفة ابن زياد .
عبد الله بن عون : ضربه بلال بن أبي بُردة سبعين سوطًا .
مالك بن أنس : ضربه المنصور سبعين سوطًا في يَمينِ المُكْرَه ، وكان مالك يقول : لا تلزمُه اليمين .
أبو السّوار العدوي ، وعقبة بن الغافر : ضُرِبا بالسِّياط » .

وضُرب إمام أهل السنة بالسياط في الله ، فقَام مَقَامَ الصِّدِّيقين ، في العَشْر الأواخر مِن رمضان سنةَ عشرين ومائتين .

وكَمْ للرَّبانيين - على مدار التاريخ - من مواقف أنصعَ من ضَوْءِ النهار ! بَيّضَ الله وجوههم كما بيّضوا وجْه التاريخ .. وكانوا شامةَ الحُسْنِ فيه .

إلى الله نشكو أهلَ الممالك من أهل مِلَّتِنا :

« ماذا يملك أفذاذ الرجال الذين أعطاهم الله البصيرة والنور حينما يَرَوْنَ الحالة الأليمة التي تتردَّى فيها الأمة ؟! إلَّا أن يتوجهوا إلى ربهم بالشكوى ، ثمَّ يُجرِّدوا ألسنتهم وأقلامهم لتبصير الناس وتوجيههم الوِجْهة الصحيحة .

هذا عَالِم فذٌّ من علماء الأندلس يجأَرُ بالشكوى إلى الله ، يشكو ملوكَ زمانه ؛ لانشغالهم بالدنيا عن الآخرة ، وبعمارة القصور عن عمارة الشريعة ، وبجمع المال عن حماية الديار .

وفي مثل هذا الجوّ يضعُف الأخيار ويكثر الأشرار ، ويستشرف أعداء الإسلام إلى السِّيادة والسلطان ، وهذا ما حدث ، عندما اتخذ بعضُ الملوك

اليهودَ وزراءً وعمّالًا سلّطُوهم على رِقاب المسلمين فاستأسدُوا ، وضارّوا المسلمين ، وتجرَّأ زعيمُهم على كتابة كتابٍ يتهجم فيه على كتاب الله الكريم ، ويزعم أنه متناقِض . فكتب ابن حزم كتابه هذا[1] ، وبدأه بالشكوى : « اللهمَّ إنَّا نشكو إليك تشاغُل أهل الممالك - من أهل ملتنا - بدنياهم عن إقامة دينهم ، وبعمارة قصورٍ - يتركونها عمّا قريبٍ - عن عمارة **شريعتهم اللازمة لهم في معادِهم ودار قرارهم ، وبجمْع أموال - ربما كانت سببًا إلى انقراض أعمارهم ، وعونًا لأعدائهم عليهم - عن حِياطة مِلَّتهم التي** بها عَزُّوا في عاجِلَتهم ، وبها يرجون الفوز في آجلتهم ، حتى استشرف **لذلك أهلُ القبلة والذّمة ، وانطلقت ألسنةُ أهل الكفر والشرك بما لو حقَّق** النظرَ أربابُ الدنيا لاهتموا بذلك ضِعفَ هَمِّنَا ؛ لأنهم مُشارِكون لنا فيما يلزم الجميع ، من الامْتِعَاضِ للديانة الزهراء ، والحميَّة للملة الغرَّاء ، ثُمَّ هُم **بعدُ مُتردُّون بما يؤول إليه إهمالُ هذه الحال ، من فساد سياستهم والقدح** في رياستهم . فللأسباب أسباب ، وللمداخل إلى البلاء أبواب ، والله أعلم بالصواب ، وقد قال علي بن العباس :

لا تَحْقِــرنَّ سُبَيْبًــا كم جرَّ أمرًا سُبَيْبُ

وقال أبو نصر ابن نباتة :

فَلَا تَحْقِرَنَّ عدوًّا رماكَ وإنْ كَانَ في سَاعِدَيْهِ قِصَرْ
فإنَّ السيوفَ تحزُّ الرقابَ وتعجَـزُ عمَّا تنــالُ الإبَـرْ

لقد كان في المسلمين بقية خيرٍ ؛ فقد أثَّرت كتابات **الأخيار** فيهم ، وأثارتْ حميَّتهم قصائدُ الشعراء الذين بيَّنوا مساوئ اليهود ، ومنها قصيدة

(١) كتاب « الردُّ على ابن النغريلة اليهودي » صـ ٤٥ - ٤٦ تحقيق د . إحسان عباس - نشر مكتبة دار العروبة - القاهرة .

أبي إسحاق الألْبيري التي يقول فيها :

وإنِّي احتللتُ بِغِرْنَاطَةَ فكنتُ أراهم بِهَا عابثينْ
وَقَدْ قسَّموها وأعمالَهَا فمنهُمْ بكلِّ مكانٍ لَعِينْ
وَهُمْ يَقْبِضُونَ جِبَاياتِهَا وأنْتُمْ لأوضَاعِهَا لابِسُونْ
وهم أُمَناكم على سِرِّكمْ وكيفَ يكون أمينًا خَؤُونْ

وثار المسلمون وهبُّوا جميعًا في ثورةٍ عارمةٍ أوْدَتْ بحياة أربعمائة مجرمٍ يهودي ، منهم ابن النغريلة ، هذا الذي بلغ مرتبة الوزارة .

ما أشبه الليلةَ بالبارحة ! ومُصابُ اليوم أعظمُ ، فأهل الممالكِ في زماننا أقاموا لليهود دولة في مَسرَى الرسول ﷺ ، وباعوا الأرض المباركة بِعَرَضٍ حقيرٍ ، واعترف بعض هؤلاء بدولة أبناءِ الخنازير ، واستقبلوهم في ديارهم . تُرى ، لو كان ابن حزم حيًّا ماذا يقول ، وماذا يكتب ؟ وتراه لو كتَب ، أيحرِّك أشجان المسلمين ؟! إلى الله نشكو ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم »(١) .

لا يعلم إلا الله – إن لم يأمرِ الربانيُّون بالمعروف وينهون عن المنكر – ما سيكون ، والوحْل والحضيض الذي تعيش فيه الأمة يُدمي القلوب والعيون ، والمسلمون ينحدرون من هاوِيَةٍ إلى هاوية ، ويتقهقرون من نكْسة إلى نكسة ، ويتهافتون من خَرابٍ إلى خرابٍ .

أَلِفَتِ الأمة الآثام ، حتى أمْسَتْ جزءًا من كِيَانِها تتمسَّك به وتدافع عنه ، حالُهم مثلُ حال الأُمم التي قال الله عز وجل فيها : ﴿ **تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا**

(١) « جوْلة في رياض العلماء » صـ ١٠٣ – ١٠٥ للدكتور عمر سليمان الأشقر – طبع دار النفائس ومكتبة الفلاح .

إلى أُمَمٍ مِنْ قبلكَ فزيَّنَ لهُمُ الشيطانُ أعمالَهمْ فهوَ وَلِيُّهم اليومَ ... ﴾ الآية [النحل : ٦٣] جعل القبيح في عيونهم حَسَنًا ، والمُرّ في مذاقهم حلوًا ، وكرّه لهم الاستقامة وَوَحْيَ السماء ، فهم لا يرتضُون إلا ما ابتدعوا ، ولا يقبلون عنه بَديلًا .

ومثال ذلك الواضح : كان القذَرُ الجنسيّ يتمُّ في خَفَاءٍ ، ثم صار يبدو على استحْيَاءٍ ، ثم تواضَعَ عليه الرِّعَاعُ ، ثم صار قانونًا يُعمل به ، ثم انعقدتْ مؤتمراتٌ عالمية تدعو إليه ولا ترىٰ فيه عِوَجًا فَمَنْ يُعرِّي هؤلاءِ العُراة ويفضحهم إنْ سَكَتَ الربانيُّون ؟!

ناشئةٌ حديثةٌ تكره اللهَ ورسوله ، وتنقِم على الإسلام ووحْيه ، وتريد باسم العلمانية أن تعيدَنا إلى جاهلية عمياء ..

ومَنْ لهؤلاء الأقزام يصدُّهم إلا الجبال الشُّمُّ مِنَ الربانيين الذين ذاقوا حلاوة الأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فاستعذبوا ما يُلاقون ، ابتغاءَ وَجْه ربِّهم الأعلى ؟! يا جيلَ المصاحف · أكلتْ مواسِمَنا الجنادب .. واستبدَّ بنا الحواة ، وغادرتنا آخرُ السُّحُبِ الحميمةِ في السماء .

وأقول يا جيلَ المصاحف .. يا خميرَ الأرض .. يا غَرْسَ الشهادة ، أنت الذي سيبدِّل الأوزان والأحزان ، يزرعُ في العيون نخيلَها، فَلَكَمْ تباطأَ في الرحيل عن القُرىٰ عامُ الرَّماد !!

أبو النصر وعاملٌ للخليفة :

« كتاب الله قبل كتاب الخليفة » :

دخل أبو النصر سالم مولَى عمر بن عبيد الله على عاملٍ للخليفة ، فقال له : يا أبا النصر ، إنه تأتينا كتبٌ مِن عند الخليفة فيها وفيها ، ولا نجد

بُدًّا من إنفاذها ، فما تَرَى ؟ قال أبو النصر : قد أتاك كتابُ الله قبل كتاب الخليفة ، فأيّهما اتبعتَ كنت من أهله .

أبو سعيد الضبعي ومحمد بن سليمان :

« لِمَ تقولونَ ما لا تفعلون ؟ » :

كان والِي البصرة : محمدُ بن سليمان ، فكان كلما صعد المنبر أمَرَ بالعدل والإحسان ، فقام أبو سعيد الضبعي ، فقال : يا محمدَ بن سليمان ، إن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ **يَاأَيُّهَا الذينَ آمنُوا لِمَ تقولونَ ما لا تَفعلونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقولُوا مَا لا تفعلونَ** ﴾ . يا محمدَ بنِ سليمان ، إنه ليس بيْنَك وبيْنَ أن تتمنَّى أَنْ لم تُخلق إلا أن يَدخل مَلَكُ الموتِ من بابِ بيتك . قال : فخنقَتْ محمدَ بن سليمان العَبْرة ، فلم يقدر أن يتكلم ، فأحبَّه النُسَّاكُ حين خنقته العَبْرة ، وقالوا : مؤمنٌ مذنبٌ .

* * *

الفصْـلُ الثَّـالِـث

عُلُوّ الـهِمَّة
في الجهـــاد

دعنا نُسافر في دروب إبائنا ولنا من الهِمَم العظيمةِ زادُ
ميعادنا النصرُ المُبينُ فإن يكُنْ موتٌ فعند إلٰهنا الميعـادُ
دَعْنَا نمُت حتى ننال شهادةً فالموت في درب الهُدى ميلادُ

□ علو الهِمّة في الجهاد □

مع أن اللهَ مَلِكَ الملوك ، وخلْقه عبيدٌ ، وهو سبحانه يفعل في ملكه ما يريد ، مع هذا اشترى من المؤمنين نفوسهم لنفاستها لديه ، إحسانًا منه وفضلًا ، ورقم ذلك العقد الكريم في كتابه الحكيم ، فهو يُقرأ أبدًا بألسنتهم ويُتلى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلون ويُقتلون وعدًا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ . [التوبة : ١١١] فجعل سبحانه هاهنا الجنة ثمنًا لنفوس المؤمنين وأموالهم ، وأتى بالتوكيد لذلك ، وأضاف الجليلُ هذا العقد إلى نفسه سبحانه ، وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع ، ووعدَ بتسليم هذا الثمن وعدًا لا يُخلفه ولا يتركه ، وجعل محلَّ هذا الوعد أفضل كُتُبه المنزلة من السماء ، ولا أحد أوفى من الله ، وأمرهم أن يستبشروا بهذا العقد ، ويبشّر به بعضهم بعضًا ، وأخبرهم إخبارًا مؤكّدًا بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم ، والبيع هاهنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة .

والجهاد في سبيل الله أغلى التّجارات مع ملك الملوك ، الذي خزائن جوده لا يغيضها الإنفاق ، قال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الذين آمنوا هل أَدُلُّكم على تجارةٍ تُنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويُدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم** ﴾ [الصف : ١٠ - ١٢] .

أفلا عاقل يعلم أن الجنة تحت ظلال السيوف ، وأن الرّيّ الأعظم في شرب كؤوس الحتوف ، وأن من اغبرّتْ قدماه في سبيل الله ، حرّمه الله

على النار ، ومن أنفق دينارًا ، كُتب له بسبعمائة دينار ، وأن الشهداء حقًّا عند الله من الأحياء ، وأن أرواحهم في جوف طيرٍ خُضرٍ تتبوّأ من الجنة حيث تشاء ، وأنه لا يحسُّ ألم القتل إلَّا كمسِّ القَرْصة ، وكم للموت على الفراش من سكْرة وغصّة ، فهذا فضلٌ لا يُضاهَى ، وخيرٌ لا يتناهى ، فهل من متعرِّضٍ لهذه الرُّتَب وإن كان نيلُها مقسومًا ، وصرف عمره في طلبها وإن كان منها محرومًا ، ومشمِّرٍ للجهاد عن ساق الاجتهاد ، هل من نفير إلى ذوي العناد من كل العباد،وتجهيز الجيوش والسّرايا ، وبذْل الصِّلات والعطايا ، وإقراض الأموال لمن يضاعفها ويزكّيها ، ودفع سلع النفوس من غير مُماطلة لمشتريها ، وأن ننفر في سبيل الله خِفافًا وثِقالًا ، ونتوجّه لجهاد أعداء الله رُكبانًا ورجالًا ، وأن نجرّ الخميس القمقام[1] إلى أولياء إبليس اللئام ، حتى يخرجوا إلى الإسلام من أديانهم ، ويُعطوا الجزية صغرةً بأيمانهم ، أو نستلب نفوسهم من أبدانهم ، ونجتذب رؤوسهم من تيجانهم ، فجموع ذوي الإلحاد مكسَّرة ، وجيوش أُولي العناد مُدبرة مُدمَّرة ، وعزمات رجال الضلال مؤنثة مصغّرة ، أفلا نطير إليهم زرافاتٍ ووحدانًا ، ونُغير عليهم رجالًا وفرسانًا ، ونُخاطر بالنفوس والمُهَج ، ونركب قفر البرِّ وَثَبَجَ البحر لنيل الدّرج ، أفلا يبيت كلٌّ منّا وسلاحه له ضجيعًا ، ويُصبح معترك الحروب للمسلمين ربيعًا ، وحَرّ الوطيس لهم غَيْثًا مَرِيعًا[2].

أفلا نُبيد بأيدي الجلاد حُماة الشرك وأنصاره ، ونصول بنُصُول الحداد على دُعاة الكفار لنهتك أستاره ، ونتطهّر بدماء المشركين والكفار من أرجاس الذنوب وأنجاس الأوزار .

---

(١) القمقام : العدد الكثير .

(٢) المريع : الخصب .

ألا من أيامٍ تعود ، يلمع البِيض البواتِر في ظُلُمات نَقْعٍ كالدَّياجِر ، وجريان الدم الزّاخِر من الحناجر بالخناجر ، هُنالك تفتح من الجنة أبوابها ، وترتفع فرشها ، وتوضع أكوابها ، وتبرز الحور العين عروبها وأترابها ، هنالك يقوم للجهاد خُطّابها ، يضربون فوق الأعناق ، ويستعذبون من المنيّة مُرّ المذاق ، ويبيعون الحياة الفانية بالعيش الباق ، يردون مورد الشهادة منهلًا لن يظمئوا بعده أبدا ، تربح تجارتهم وهم أسعد السعداء .

يا رجال الله ، أتُقفَل أبواب الجهاد فلا تُطرق ! وتُهمَل أسبابه فلا تُرمق ! وتُصفَن خيوله فلا تركُض ! وتصمت طبولُه فلا تنبض ! وتربض أُسوده فلا تنهض ! أتمتدّ أيدي الكفرة الأذِلّاء إلى المسلمين فلا تُقبض ! أتُغمد السيوف من أعداء الدِّين ، إخلادًا إلى حضيض الدَّعَة والأمان ! ويخرس لسان النَّفِير إليهم فصاح نفيرهم في أهل الإيمان !

آمَتْ عروس الشهادة إذ عدمت الخاطِبين ، وأمات الناس الجهاد كأنهم ليسوا به مُخاطَبين ، فلا نجد إلّا من طوى بساط نشاطه عنه ، أو اثّاقل إلى نعيم الدنيا الزّائل رغبةً منه ، أو تركه جزعًا من القتْل وهَلَعًا ، أو أعرض عنه شُحًّا على الإنفاق وطمعا ، أو جَهِلَ ما فيه من الثواب الجزيل ، أو رضي بالحياة الدنيا من الآخرة ، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل .

أفلا يقظة للهِمَم الرُّقَّد ! أفلا نهضة للعزم المُقْعَد !

أيهوي نجم الجهاد بعد أن كان مُشرقًا سَنِيًّا ، وينمحي رَسْمُه واسمه كأن لم يكُن له من قبل سَمِيًّا ؟!

﴿ يَـٰأَيُّهَا الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ولا تضروه

شيئًا والله على كل شيءٍ قدير ﴾ [التوبة : ٣٨ - ٣٩] .

إن النَّفْرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع من ثقلة اللحم والدم ، وتحقيقٌ للمعنى العلوي في الإنسان ، وتغليبٌ لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة .

بالجهاد الذي فيه الشُّقَّة والعناء ، يذهب الهمّ والغمّ ، ولكنّها الشّقّة البعيدة التي تتناحر دونها الهمم السّاقِطة ، والعزائم الضعيفة ، ولكنّه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة المنخوبة ، ولكنّه الأُفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبِنْية المهزولة .

كثيرٌ هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة ، إنهم ليعيشون على حاشية الحياة ، وإن خُيِّل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب ، واجتنبوا أداء الثمن الغالي ، فالثمن القليل لا يشتري سوى التّافه الرخيص .

قال تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لمن يُقْتَل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون** ﴾ [البقرة : ١٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تحسبنّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزَقُون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

أخـي : إن كنت عالي الهِمّة ، فلا ريب أن هٰذِهِ الأحاديث لها وقْع أيّ وقع في نفسك .. تحدو بها ليلَ نهار ، علَّك ترى خَفْق البُنُود وصهيل الخيل في الوَغَى .

قال رسول الله ﷺ : « أفْضَل الناس مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله ، ثم مؤمن في شِعْبٍ من الشّعاب يتّقي الله وَيَدَع الناس من شرِّه »[1].

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « أفضل العمل الصلاة لوقتها ، والجهاد في سبيل الله »[(١)].

ويكفي الجهاد فضلًا تَمَنّي الرسول ﷺ ألّا يقعُد خلف سريّةٍ ، ويكفي الشهادةَ فخرًا تمنّي رسول الله ﷺ لها .

قال رسول الله ﷺ : « انْتَدَبَ الله لمن خرج في سبيله ، لا يُخرجه إلا إيمانٌ بي ، وتصديقٌ برسلي ، أن أرجعه بما نال من أجرٍ أو غنيمة ، أو أُدخله الجنة ، ولولا أن أشُقّ على أُمتي ، ما قعدتُ خلفَ سريّة ، ولَوَدِدْتُ أن أُقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ثم أُقتل ، ثم أحيا ثم أُقتل »[(٢)].

ولما تمنى سليمان عليه السلام كثْرة الأولاد ؛ ليكونوا فرسانًا يجاهدون في سبيل الله .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال سليمان بن داود : لأطُوفنَّ الليلة على سبعين امرأة ، تحمل كُلُّ امرأةٍ فارسًا يُجاهد في سبيل الله . فقال له صاحبُه : إن شاء الله . فلم يقُل ، ولم تحمل شيئًا ، إلّا واحدًا ساقطًا أحَدُ شِقَّيْه » فقال النبي ﷺ : « لو قالها لجاهدوا في سبيل الله » . رواه البخاري ومسلم .

قال شعيب وابن أبي الزِّناد : « تِسْعِين » . وهو أصحُّ .

وقال ﷺ : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف »[(٣)].

---

(١) صحيح . رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٢٣) . وعند البخاري ومسلم : « ثم بر الوالدين ثم الجهاد في سبيل الله » .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم ، والنسائي عن أبي هريرة .

(٣) رواه أحمد ومسلم ، والترمذي عن أبي موسى .

وقال ﷺ : « إن سياحة أُمتي الجهاد في سبيل الله »[١].

وقال رسول الله ﷺ لأبي ذرّ : « أُوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنه رأس كل شيءٍ ، وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكْر الله تعالى ، وتلاوة القرآن ، فإنه رَوْحُكَ في السماء وَذِكْرك في الأرض »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « أيّما مسلم رمى بسهمٍ في سبيل الله ، فبلغ مخطئًا أو مُصيبًا ، فله من الأجر كرقبةٍ أعْتَقَهَا من ولد إسماعيل ... »[٣].

وقال ﷺ : « تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله ، لا يُخرجه من بيته إلا الجهادُ في سبيله ، وتصديق كلماته ، بأن يُدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمةٍ »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « ثلاثة كلّهم ضَامِنٌ على الله : رجلٌ خرج غازيًا في سبيل الله ، فهو ضامن على الله حتى يتوفَّاه ، فيُدخله الجنة أو يُردّه بما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ ... »[٥].

---

(١) صحيح . أخرجه أبو داود ، والحاكم في المستدرك وصححه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أُمامة ، وأخرجه ابن عساكر وابن المبارك عن سعد بن مسعود الكِنْدي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٩٣) .

(٢) حسن . رواه أحمد عن أبي سعيد ، وحسّنه الألباني في الصحيحة رقم (٥٥٥) وصحيح الجامع رقم (٢٥٤٣) .

(٣) صحيح . رواه الطبراني في الكبير عن عمرو بن عبسة ، وأحمد في مسنده ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٧٣٩) والصحيحة رقم (١٧٥٦) .

(٤) رواه البخاري ومسلم ، والنسائي عن أبي هريرة .

(٥) صحيح . رواه أبو داود ، وابن حبان ، والحاكم وصححه عن أبي أُمامة ، وصححه الألباني في تخريج المشكاة (٧٢٧) وصحيح الجامع رقم (٣٠٥٣) .

وقال ﷺ: « ثلاثة في ضمان الله عز وجل : رجل خرج إلى مسجدٍ من مساجد الله عز وجلّ ، ورجل خرج غازيًا في سبيل الله تعالى ، ورجل خرج حاجًّا »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بالجهاد في سبيل الله ، فإنه بابٌ من أبواب الجنة ، يُذهِب الله به الهمَّ والغمَّ »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « الرَّوْحة والغَدْوة في سبيل الله ، أفضل من الدنيا وما فيها »[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « غَدْوَة في سبيل الله أو رَوْحَة ، خيرٌ مما طلعتْ عليه الشمسُ وغربتْ »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « قيام ساعةٍ في الصَّفِّ للقتال في سبيل الله ، خيرٌ من قيام ستين سنة »[٥].

وقال رسول الله ﷺ : « موقفُ ساعةٍ في سبيل الله ، خيرٌ من قيامِ ليلة القَدْر عند الحجر ....

(١) صحيح . رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٠٥١) والصحيحة رقم (٥٩٨) .
(٢) صحيح . رواه الطبراني في الأوسط عن أبي أُمامة ، وأحمد والحاكم والهيثم ، وابن بشران والضياء عن عبادة ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٩٤١) وصحيح الجامع (٤٠٦٣) .
(٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي سعيد .
(٤) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أبي أيوب .
(٥) صحيح . أخرجه ابن عدي وابن عساكر عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٤٢٩) .

الأسود »[١].

وقال ﷺ في حديث معاذ : « وَذِرْوَة سَنَامِهِ : الجهاد » .

وقال رسول الله ﷺ : « ما اغبرَّتْ قدما عبدٍ في سبيل الله ، إلَّا حرَّم الله عليه النار »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يُجاهد في سبيله - كمثلِ الصائم الدائم ، الذي لا يفتُر من صيامٍ ولا صدقةٍ ، حتى يرجع ، وتوكَّل الله للمجاهد في سبيله إنْ توفّاه أن يُدخله الجنة ، أو يرجعه سالمًا مع أجرٍ أو غنيمة »[٣].

وقال ﷺ : « مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم القائم الخاشع الرّاكع الساجد »[٤].

وقال ﷺ : « ما خالط قلبَ امرئ مسلم رَهْجٌ في سبيل الله ، إلَّا حرّم الله عليه النار »[٥].

---

(١) صحيح . رواه ابن حبان ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٦٣٦) .

(٢) صحيح . رواه الشيرازي في الألقاب عن عثمان ، والبخاري والترمذي والنسائي ، وأحمد عن عبد الرحمٰن بن جبر ، وأحمد والدارمي عن مالك بن عبد الله ، والطيالسي وأحمد عن جابر .

(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، والنسائي والترمذي عن أبي هريرة .

(٤) صحيح . رواه النسائي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٨٥٠) .

(٥) صحيح . رواه أحمد عن عائشة ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٢٧) وصحيح الجامع رقم (٥٦١٦) .
والرهج : الغُبار .

وقال ﷺ : « من راح رَوْحَة في سبيل الله ، كان له بمثْل ما أصابه من الغُبار مسْكًا يوم القيامة »(١).

وقال ﷺ : « من قاتل في سبيل الله فُواق ناقةٍ ، فقد وجبتْ له الجنة ، ومن سأل القتْل في سبيل الله من نفسه صادقًا ، ثم مات ، أو قُتل ، فإنّ له أجر شهيدٍ ، ومن جُرح جرحًا في سبيل الله ، أو نُكب نَكْبةً ، فإنها تجيء يوم القيامة كأغْزَر ما كانت ، لونها لون الزَّعْفَران ، وريحها ريح المسك ، ومن خرج به خُرَّاج في سبيل الله ، كان عليه طابع الشهداء »(٢).

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لو أن رجالًا من المؤمنين لا تطيب أنفسُهم أن يتخلَّفوا عني ، ولا أجد ما أحْمِلُهم عليه ، ما تخلَّفتُ عن سريّةٍ تغزو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده ، لوددتُ أني أُقتل في سبيل الله ثم أحيا ، ثم أُقتل ثم أحيا ، ثم أُقتل ثم أحيا ، ثم أُقتل »(٣).

وقال ﷺ : « لا تفعل ، فإن مقام أحدكم في سبيل الله ، أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا ، ألَا تُحِبُّون أن يغفر الله لكم ويُدخلكم الجنة ؟ اغْزُوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فُواق ناقةٍ ، وجبتْ له الجنة »(٤).

وقال رسول الله ﷺ : « يا أبا سعيد ، من رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام

---

(١) حسن . رواه ابن ماجه والضياء عن أنس ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٢٣٣٨) وصحيح الجامع رقم (٦٢٦٠) .

(٢) رواه أحمد ، وأبو داود والترمذي والنسائي ، وابن حبان عن معاذ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٤١٦) .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم ، والنسائي عن أبي هريرة .

(٤) حسن . رواه الترمذي ، والحاكم عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٣٧٩) وتخريج المشكاة (٣٨٣٠) .

دِينًا ، وبمحمدٍ نبيًّا ، وجبْت له الجنة . وأُخرى يُرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض ؛ الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله »[١].

قال تعالى : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يَهدي القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يُبشِّرهم ربهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجنّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ خالدين فيها أبدًا إن الله عنده أجرٌ عظيمٌ** ﴾ [التوبة : ١٩ - ٢٢] .

وقال ﷺ : « إن أرواح الشهداء في جوف طيرٍ خُضرٍ ، لها قناديلُ معلَّقةٌ تحت العرش ، تسرح من الجنة حيث شاءتْ ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعة فقال : هل تشتهون شيئًا ؟ قالوا : أيّ شيءٍ نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ فيفعل ذلك بهم ثلاث مراتٍ ، فلمّا رأوْا أنهم لم يُتركوا من أن يُسألوا ، قالوا : يا ربّ ، نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا ، حتى نرجع إلى الدنيا فنُقتل في سبيلك مرةً أُخرى . فلمَّا رأى أنْ ليس لهم حاجة تُركوا »[٢].

وقال ﷺ : « للشهيد عند الله سبع خصال : يُغفر له في أوّل دَفْعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويُحَلَّى حُلَّة الإيمان ، ويُزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفَزَع الأكبر ، ويُوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتةُ منه خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ويشفع

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والنسائي عن أبي سعيد .
(٢) رواه مسلم والترمذي عن ابن مسعود .

في سبعين إنسانًا من أهل بيته »[١].

وقال ﷺ : « ما من مكلومٍ يُكْلَم في سبيل الله ، إلَّا جاء يوم القيامة وكَلْمُه يَدْمَى ، اللّونُ لونُ الدمِ ، والرِّيح ريح المسك »[٢].

وقال ﷺ : « من سأل الله الشهادة بِصِدْقٍ ، بَلَّغَه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه »[٣].

وقال ﷺ : « يُؤْتى بالرجل يوم القيامة من أهل الجنة ، فيقول له : يا ابن آدم ، كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أيْ ربّ ، خير منزلٍ . فيقول : سَلْ وتَمَنَّ . فيقول : يا ربّ ، ما أسأل ولا أتمنّى إلا أن ترُدَّني إلى الدنيا ، فأُقتل في سبيلك عشر مرارٍ . لما يرى من فَضْلِ الشهادة ... »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « يضحك الله إلى رَجُلَيْن قتلَ أحدُهما الآخَرَ ، يدخُلان الجنة ، يُقاتل هذا في سبيل الله فيُقْتَل ، ثم يتوب الله على القاتِل فيُسلِم ، فيُقاتِل في سبيل الله فَيُسْتَشْهَد »[٥]. وإنا لنرجو أن يكون عكاشة بن محصن وطليحة الأسدي من هؤلاء .

وقال ﷺ : « يُغفر للشهيد كل ذنبٍ إلَّا الدَّيْن »[٦].

---

(١) صحيح . رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه عن المقدام بن معدي كرب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥١٨٢) وأحكام الجنائز (٣٥ – ٣٦) .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٣) رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن سهل بن حنيف .

(٤) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أنس .

(٥) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٦) رواه أحمد ومسلم عن ابن عمرو .

وقال ﷺ : « لما أُصيب إخوانكم بأُحد ، جعل الله أرواحهم في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهار الجنة ، تأكُل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ ، معلَّقة في ظِلِّ العرش ، فلمَّا وجدوا طِيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : مَنْ يُبَلِّغُ عنّا أنَّا أحياء في الجنة نُرزق ؛ لئلَّا يزهدوا في الجهاد ، ولا يتَّكِلُوا عند الحرب ؟ فقال الله تعالى : أنا أُبلِّغهم عنكم »[1].

وقال رسول الله ﷺ : « عَجِب ربُّنا من رَجُلٍ غزا في سبيل الله ، فانهزم أصحابُه ، فَعَلِمَ ما عليه ، فرجع حتى أُهريق دمُه ، فيقول الله عز وجل لملائكته : انظروا إلى عبدي ، رجع رغبةً فيما عندي ، وشفقةً مما عندي ، حتى أُهريق دمه »[2].

وقال ﷺ : « عينان لا تَرَيَانِ النار : عينٌ بَكَتْ وَجَلًا من خشية الله ، وعين باتتْ تَكْلأ في سبيل الله »[3].

وَبَيّنَ ﷺ أن الشهيد لا يُفتن في قبره فقال : « كفى ببارِقَةِ السيوف على رأسه فتنة »[4].

وقال رسول الله ﷺ : « « رِبَاطُ شهرٍ خير من صيامِ دهرٍ ، ومن

---

(١) صحيح . رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس ، وصححه الحاكم ، والألباني في صحيح الجامع رقم (٥٢٠٥) .

(٢) صحيح . رواه أبو داود عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٩٨١) .

(٣) صحيح . رواه الطبراني في الأوسط عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤١١١) .

(٤) صحيح . رواه النسائي عن رجل ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٤٨٣) .

مات مُرابطًا في سبيل الله أمِنَ من الفزع الأكبر ، وغُدِي[١] عليه برزقه ، وَرِيحَ[٢] من الجنة ، ويُجرى عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله »[٣].

وقال ﷺ : « رباط يومٍ في سبيل الله ، خيرٌ من الدنيا وما عليها ، وموضع سَوْطِ أحدكم من الجنة ، خيرٌ من الدنيا وما عليها ، والرَّوْحَة يَرُوحها العبد في سبيل الله أو الغَدْوَة ، خيرٌ من الدنيا وما فيها »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « القتلى ثلاثة : رجلٌ مؤمنٌ جاهَدَ بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لَقِيَ العدو قاتَلَهم حتى يُقتل ، فذلك الشهيد المُمْتَحَن في خيمة الله تحت عرشه ، ولا يَفْضُلُه النبيون إلا بِفَضْلِ درجةِ النُّبوَّة . ورجل مؤمن قرف على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله في سبيلِ الله حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قُتل ، فتلك مصمصةٌ محتْ ذنوبه وخطاياه ؛ إن السيف محَّاءٌ للخطايا ، وأُدْخِلَ من أيّ أبواب الجنة شاء ، فإن لها ثمانية أبواب - ولجهنم سبعة أبواب - وبعضها أفضلُ من بعضٍ . ورجل منافق ، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قُتل ، فذلك في النار ، إن السيف لا يمحو النفاق »[٥].

---

(١) مُرَّ عليه برزقه .

(٢) طُيِّب .

(٣) صحيح . رواه الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٤٧٩) .

(٤) رواه مسلم عن سلمان .

(٥) إسناده حسن . رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي المثني - فقد روى عنه اثنان .

أخرجه ابن حبان واللفظ له ، والطيالسي ومن طريقه البيهقي ، وأخرجه أحمد والدارمي ، والطبراني ، وقال الهيثمي : ورجال أحمد رجال الصحيح خلا =

وقال ﷺ : « أفضل الشهداء من سُفِكَ دمه وعُقِر جواده »(١).

وقال ﷺ : « أفضلُ الشهداء الذين يُقاتِلون في الصَّفِّ الأوَّل ، فلا يَلْفِتُون وجوههم حتى يُقتلوا ، أولئك يتلبَّطُون(٢) في الغُرَف العُلا من الجنة ، يضحك إليهم ربُّك ، فإذا ضحك ربُّك إلى عبدٍ في موطنٍ ، فلا حساب عليهم »(٣).

اللهم اضحكْ إلينا ، وارزقنا أعلى درجات الشهداء ، واحشُرنا إليك من حواصل الطيور .

يا وَيْحَ نَفْسي وما ارتفعتْ بنا هِمَمٌ ... إلى الجنانِ وتالي القومِ أوّابُ
إلى كَوَاعِب لِلأطرافِ قاصِرَة ... وَظِلِّ طُوبَى وَعِطْرُ الشَّذْو يَنْسَابُ
إلى قناديل ذَهَبٍ عُلِّقتْ شرفًا ... بعرشِ ربي لمن قُتِلوا وما غَابُوا

قال أنس : أنزل الله في الذين قُتلوا ببئر معونة قرآنًا قرأناه حتى نُسِخَ بعدُ : (أن بَلِّغوا قومَنَا أن قد لَقِينا ربَّنا فَرَضِيَ عنّا وَرَضِينَا عنه)(٤).

وقال ﷺ : « أنا زعيمٌ - والزعيم : الحميل - لمن آمن بي وأسلم

= أبي المثنى وهو ثقة .
والشهيد المُمتَحَن : المصفَّى المهذّب ، وعند أحمد والطبراني « المفتخر » ، وقرف : أي كسب ، ومصمصة : أي مطهرة من دنس الخطايا .

(١) صحيح . رواه الطبراني في الكبير عن أبي أُمامة ، وأحمد ، وأبو داود عن عبد الله ابن حبشي ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٥٠٤) وصحيح الجامع رقم (١١٠٨) .

(٢) أي يتمرَّغون .

(٣) صحيح . رواه أحمد ، والطبراني في الكبير عن نعيم بن همار ، وأخرجه أبو يعلى ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧ - ١١) .

(٤) رواه البخاري ومسلم والبغوي ، وابن حبان .

وهاجر ، ببيتٍ في ربض الجنة ، وببيتٍ في وسط الجنة ، وأنا زعيمٌ لمن آمن بي وأسلم وجاهد في سبيل الله ، ببيتٍ في ربض الجنة ، وببيت في وسط الجنة ، وببيتٍ في أعلى غُرَف الجنة ، فمن فعل ذلك ، لم يَدَع للخير مطْلبًا ، ولا من الشَّرِّ مهربًا ، يموت حيث شاء أن يموت » .

والزعيم هو الحميل ، هو الكفيل ، وهو مدرج في الحديث(١) .

قالوا سهرتَ وفي فُؤادكَ حرقةٌ ... تدمَى وألفُ تساؤلٍ يتردّدُ
وعلى جبينك قصَّةٌ مكلومةٌ ... تروي المآسي للجميع وتسرُدُ
ودموعك الملْأى بألف حكايةٍ ... رسمتْ على خَدَّيْكَ نارًا تُوقدُ
أنا يا صِحابُ قضيَّةٌ مسلوبةٌ ... لَعِبَ الدَّعيُّ بِهَا وغاب السيّدُ
أنا يا صِحَابُ مشاعرٌ موتورةٌ ... للثأر تسعى والمسالك تُوصَدُ
أنا يا صحاب مدامعٌ محمومةٌ ... تَهْمي من الألم المُميتِ فتبردُ
أنا يا صحابُ من الجراح مُعَذَّبٌ ... في كل أرضٍ جرحنا يتمدّدُ
في كل أرضٍ تُستباح دماؤنا ... في كل أرضٍ يُستباح المسجدُ
هل هذه كشميرُ ضاع نحيبُها ... بين اللَّظَى وبها الكلابُ استأسدوا
أم هذه حلبٌ ظلامٌ موحِشٌ ... صمتٌ يقطِّعه الأنينُ الأسودُ
أم هذه القدسُ الجريحةُ تشتكي ... مما يُخطِّطه القريب الأنجدُ
أم هذه أفغانُ تلعَقُ جرحها ... وتبيتُ تبحث عن صديقٍ يُنجدُ
وأبِيتُ تلحقني معرَّةُ ذِلَّتي ... وبكاءُ أحبابي هناك استنجدوا

ولله دَرُّ القائل :

هذي بساتين الجنان تزيَّنتْ ... للخاطبين فأين مَنْ يرتادُ

---

(١) إسناده صحيح . رواه ابن حبان واللفظ له ، والنسائي ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في السنن ، والحاكم في المستدرك وصححه ، ووافقه الذهبي .

يا ويحنا ماذا أصاب رجالنا ... أَوَ ما لنا سعدٌ ولا مقدادُ
نامتْ ليالي الغافلين وليلُنا ... أرقٌ يُذيب قلوبَنا وسُهادُ
سُلَّتْ سيوفُ المعتدين وعربدتْ ... وسيوفُنا ضاقتْ بها الأغمادُ
أهو القُنُوط يهدُّ رُكْن عزيمتي ... وبه ظلَّمُ مخاوفي تزدادُ
يا ليلَ أُمَّتنا الطويلَ متى نرى ... فجرًا تُغرِّد فوقه الأمجادُ
أجدادنا كتبوا مآثرَ عزِّها ... فمحا مآثر عزِّها الأحفادُ
ترعى حِماها كلُّ سائبةٍ وفي ... تمزيقها يتجمَّع الأضدادُ
تصغي لأغنية الهوى فنهارها ... نومٌ ثقيل والمساء سِفادُ
دَعْنا نُسَافِر في دروبِ إبائنا ... ولنا من الهِمَم العظيمةِ زادُ
ميعادُنا النصرُ المبين فَإِنْ يكُن ... موتٌ فعند إلٰهنا الميعادُ
دَعْنا نمُت حتى ننال شهادةً ... فالموت في دربِ الهُدى ميلادُ

* * *

□ أعلى الناس هِمَّة في الجهاد رسولُنا ﷺ □

قال رسول الله ﷺ : « ما من الناس من نَفْسٍ مسلمةٍ يقبضها ربها ، تُحبّ أن ترجع إليكم ، وأن لها الدنيا وما فيها غير الشهداء ، ولأن أُقتل في سبيل الله ، أحبُّ إليّ من أن يكون لي أهْل الوَبَر والمَدَر »[1].

كان رسول الله ﷺ أشجع الناس ، وأقواهم قلبًا ، وأثْبَتهم جنانًا ، وقد حضر المواقف الصعبة المشهورة ، وفرّ الكُماةُ والأبطالُ عنه غير مرّةٍ ، وهو ثابتٌ لا يبرح ، ومُقْبِل لا يُدبر ، ولا يتزحزح .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أحْسَن الناس ، وكان أجْوَد الناس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهلُ المدينة ذات ليلةٍ ، فانطلق ناس قِبَل الصوت ، فتلقّاهم رسول الله ﷺ راجعًا وقد سبقهم إلى الصوت ، وهو على فَرَسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ ، وفي عنقه السيف ، وهو يقول : « لم تُراعُوا ... لم تراعوا »[2].

وفي لفظ للبخاري ، قال : فزِع الناس ، فركب رسول الله ﷺ فرسًا لأبي طلحة قطَفًا[3] ، ثم خرج يركُض وحده ، فركب الناس يركضون خَلْفَه ، فقال : « لم تُراعُوا ، إنه لبحر » . قال : فما سُبق بعد ذلك اليوم .

وقال ابن عمر : ما رأيتُ أشجع ولا أنْجَد ولا أجْوَد ولا أرْضَى من رسول الله ﷺ .

---

(١)
(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه .
(٣) القطاف : تقارب الخطو في السرعة .

وفي صحيح مسلم عن البراء : كنّا والله إذا احمرَّ البأس نتَّقِي به ، وإن الشجاع منا الذي يُحَاذِي به ؛ يعني النبي ﷺ .

وقال عليٌّ : « لقد رأيتُني يوم بدرٍ ونحن نلوذُ بالنبي ﷺ ، وهو أقْرَبُنا إلى العدوّ ، وكان من أشدّ الناس يومئذٍ بأسًا » .

وفي الصحيحين عن البراء – وسأله رجل من قيس : أفَرَرْتُم عن رسول الله ﷺ يوم حُنَيْنٍ ؟ – قال البراء : رسول الله ﷺ لم يفرّ ،وكانت هوازنُ يومئذٍ رُماةً ، وإنّا لمّا حملْنا عليهم انكفّوا ، فأقبلنا على الغنائم ، فاستقبلونا بالسِّهام ، ولقد رأيتُ رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان بن الحارث آخِذٌ بلجامها ، وهو يقول : « أنا النبيُّ لا كَذِبْ ، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ » .

وروى مسلم عن العباس رضي الله عنه قال : « فلما التقى المسلمون والكفار ، ولّى المسلمون مُدبِرِين ، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار ، وأنا آخِذٌ بلجامها أكُفُّهَا إرادةَ أن لا تُسرِع ، وأبو سفيان آخذٌ بركابه ، ثم نادى : يا للمسلمين » .

ولما رآه أبيّ بن خلف يوم أُحُد وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا . وقد كان يقول للنبي ﷺ : عندي فرسٌ ، أعلفها كلَّ يومٍ فرقًا من ذرةٍ ، أقْتُلك عليها . فقال له النبي ﷺ : « أنا أقتُلك إن شاء الله » . فلمّا رآه يوم أحد ، شدّ أُبيٌّ على فرسه على رسول الله ﷺ ، فاعترضَهُ رجال من المسلمين ، فقال النبي ﷺ هكذا ؛ أي خَلُّوا طريقه ، وتناول الحربةَ من الحارث بن الصِّمَّة ، فانتفض بها انتفاضةً تطايروا عنه تطايُرَ الشعراء[1]. عن ظهر البعير إذا انْتَفَضَ ، ثم استقبله النبيُّ ﷺ ، وطعنَهُ

(١) الشُّعْر ، بضم الشين وسكون العين : جمع شَعْراء ، وهي ذِبَّانٌ حُمر – =

في عنقه طعنةً تَدَأْدَأ(١) عنها عن فرسه مرارًا ، وقيل : بل كسر ضلعًا من أضلاعه ، فرجع إلى قريش ، يقول : قتلني محمد . وهم يقولون : لا بأس . فقال : لو كان ما بي بجميع الناس ؛ لَقَتَلَهم ، أليس قد قال : أنا أقتُلك ، والله لو بَصَقَ عليَّ لقتلني . فمات - لعنه الله - بسرف في قفولهم إلى مكة .

أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثاني اثنين :

كان رضي الله عنه يَذُبّ عن رسول الله ﷺ .

فعن عُروة بن الزبير قال : سألتُ ابنَ عمرو بن العاص : أخبِرْني بأشد شيءٍ صنعه المشركون بالنبي ﷺ . قال : بَيْنَا النبي ﷺ يصلي في حِجر الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيْط ، فوضَعَ ثوبه في عنقه ، فخنَقَهُ خَنْقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودَفَعَهُ عن النبي ﷺ ، قال : ﴿ **أتقتلون رجلًا أن يقول ربِّي الله** ﴾ [غافر : ٢٨] رواه أحمد والبخاري .

وفي يوم بدرٍ جعل الصحابة لرسول الله ﷺ عَرِيشًا ، وقالوا : من يكون مع النبي ﷺ ؛ لئلّا يصل إليه المشركون ؟ فوالله ما دنا منه أحدٌ إلّا أبو بكرٍ ، شاهِرًا السيف على رأس رسول الله ﷺ .

نعم ... كان الصديق أشجع الناس بعد رسول الله ﷺ ، فإنه كان أثبتهم قلبًا ، وحَسْبُكَ من ذلك ثباتُ قلبه يوم بدر ، وهو يقول للنبي ﷺ : يا رسول الله ، كفاك بعض مُناشَدَتك ربّك ، فإنه مُنجز لك ما وَعَدَكَ . وثبات قلبه يوم أُحُد ، وقد صرخ الشيطان بأن محمدًا ﷺ قد قُتِلَ ، ولم

= وقيل : زُرق - تقع على الإبل والحمير فتؤذيها أذًى شديدًا .

(١) دَأْدَأ - وَتَدَأْدَأ : تدحرج وسقط .

يبَق أحدٌ مع أحد ، وثبات قلبه يوم الخندق ، ويوم صُلح الحديبية ، ويوم حُنَينٍ حين فرَّ الناس ولم يفرّ .

ولو لم يكن من شجاعته إلا ثبات قلبه ، وتثبيته المسلمين عند الخطب الأعظم والأمر الأفخم بموت نبينا ﷺ ، إذ زاغتْ قلوب كثيرٍ من الناس ، وزُلزِلُوا بموته زلزالًا شديدًا ، وأُقعِدَ بعضهم ، وشكَّ آخرون ، لكفانا ذلك دليلًا على عظيم شجاعته وقوة قلبه ، إذ كان قلبه في تلك النازلة العُظمى التي اهتزّتْ لها الدنيا بأجمعها ، لو وُزن بقلوب الأمة لَرَجَحَهَا .

وكان عزمه في قتال من ارتدّ ، لو فُرِّقَ على قلوب الجبناء من أهل الأرض لشجّعهم إلى أن قام بمهمة قناة الإسلام بعد اعوجاجها ، وجرت الملة الشهباء على سننها ومنهاجها ، وأذّن مؤذِّن الإيمان ﴿ **ألا إن حزب الله هم الغالبون** ﴾ وتولّى حزبُ الشيطان وهم خاسرون ، فتلك - لعمر الله - الشجاعة التي تضاءلت لها فرسان الأُمم ، والهِمَّة التي تنازلتْ لها أعالي الهمم ، فرضوان الله عليهم أبدًا ما شهر بارق ، وقُهر مارق ، وعلى بقية الصحابة أجمعين[١] .

الفاروق الذي تفِرُّ شياطينُ الإنسِ والجنِّ منه :

قال رسول الله ﷺ : « إيهًا يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ، ما لَقِيَكَ الشيطان سالكًا فجًا قطُّ ، إلا سلك فجًّا غير فجِّك »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فرُّوا من عمر »[٣] .

---

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ٢/ ٩٦٥ - ٩٦٦ .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) حسن . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وعزاه المزي للنسائي .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « اللهم أعزّ الإسلام بأحبّ هذين الرجُلَين إليك؛ بأبي جهلٍ أو بعمر بن الخطاب » قال: وكان أحبّهما إليه عمر [(١)].

وروى البخاري، عن عبد الله بن مسعود قال: ما زلنا أعِزَّة منذ أسلم عمرُ [(٢)].

وعن ابن مسعود: أن عمر صارعَ جِنِّيًّا ثلاث مراتٍ فَصَرَعَهُ [(٣)].

وقد ذكر القرطبي في تاريخه، أن عمر رضي الله عنه كان يُمسك أُذُنه اليسرى بيده اليمنى، ويَثِب، فيصير على ظهر الفَرَس، من غير أن يُمسك شيئًا بيده.

وعن ابن عمر قال: لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لم تعلم قريشٌ بإسلامه، فقال: أيُّ أهل مكة أفْشَى للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجُمَحي، فخرج إليه وأنا أتبعُ أثَرَهُ، أعقِلُ ما أرى وأسمع، فأتاه فقال: يا جميلُ، إني قد أسلمتُ. قال: فوالله ما ردّ عليه كلمةً، حتى قام عامدًا إلى المسجد، فنادى أنديةَ قريش فقال: يا معشر قريش،

---

(١) صحيح لشواهده. أخرجه الترمذي، وأحمد، وابن حبان، وعَبْدُ بن حُميد، وأحمد في فضائلْ الصحابة، وابن سعد في الطبقات.

(٢) وأخرجه أحمد في فضائل الصحابة، وابن سعد في الطبقات، وابن أبي شيبة في المصنف.

(٣) صحيح لشواهده. رواه الهيثمي بمعناه وقال: رواه الطبراني بإسنادين، ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح، إلا أن الشعبي لم يسمع من ابن مسعود، والطريقة الثانية فيها المسعودي وقد اختلط، فبان لنا صحة رواية المسعودي برواية الشعبي.

إنّ ابن الخطاب قد صَبَأ . فقال عمر : كذبَ ، ولكنّي أسلمتُ ، وآمنت بالله ، وصدَّقت رسوله . فثاوروه ، فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رؤوسهم ، حتى فَتَر عمرُ ، وجلس فقال : افعلوا ما بدا لكم ، فوالله لو كُنَّا ثلثمائة رَجُلٍ ، لقد تركتموها أو تركناها لكم . فَبَيْنَا هم كذلك قيام ، **إذ جاء رجُلٌ عليه حُلَّة حرير ، وقميص موَشًّى فقال : ما لكم ؟ فقالوا :** إن ابن الخطاب قد صبأ . قال : فَمَهْ ، امرؤٌ اختار دينًا لنفسه ، أفتظنون أن بني عَدِيّ تُسلم إليكم صاحبهم . قال : فكأنما كانوا ثوبًا انكشف عنه . فقلت له بعدُ بالمدينة : يا أبهْ ، من الرجل الذي ردَّ عنك القوم يومئذٍ ؟ قال : يا بُنَيَّ ، ذاك العاص بن وائل[١].

إنه عمرُ هادِم دولة بني ساسان ، في عهده زال مُلْك المجوس ، **وذهبت إمبراطورِيةُ كسرى ، ولا يزال التاريخ يذكر لرستم قائد قوات الفرس** مقولته الشهيرة : « أكل عمرُ كبدي ، أحرق الله كبده . وإنما هو عمر الذي يُكَلِّم الكلاب فيعلّمهم العقل ، علّم هؤلاء حتى علّموا »[٢].

يَا مَنْ يرى عمرًا تكسُوه بُرْدَتُهُ والزَّيتُ أُدْمٌ له والكُوخُ مأواهُ
يهتزُّ كسرى على كُرْسِيِّهِ فَرَقًا من خوفه وملوكُ الرُّومِ تَخْشَاهُ

أبو محمد ، طلحة بن عُبيد الله التَّيْمي ، أحد العشرة :

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١ / ٢٦) : في جامع أبي عيسى بإسناد حسن ، أن رسول الله ﷺ قال يوم أُحُد : « أوجب طلحة »[٣].

---

(١) حسن . رواه ابن حبان في موارد الظمآن ٢ / ٢١٨ .
(٢) الطبري ٣ / ٥٣٢ .
(٣) سنده حسن . أخرجه الترمذي وأحمد وابن سعد ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وسنده حسن ، وهو في الإصابة والاستيعاب وتاريخ الطبري .

وفي رواية : « أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع » .

وعن جابر قال : لما كان يوم أحد ، وولى الناس ، كان رسول الله ﷺ في ناحيةٍ في اثني عشر رجلًا ، منهم طلحة ، فأدركهم المشركون ، فقال النبي ﷺ : « مَنْ للقوم ؟ » قال طلحة : أنا . قال : « كما أنت » . فقال رجل : أنا . قال : « أنت » . فقاتل حتى قُتل ، ثم التفت فإذا المشركون ، فقال : « مَنْ لهم » ؟ قال طلحة : أنا . قال : « كما أنت » . **فقال رجل من الأنصار : أنا . قال : « أنت » . فقاتل حتى قتل ، فلم يزل** كذلك حتى بقي مع نبي الله طلحةُ ، فقال : « منْ للقوم ؟ » قال طلحة : أنا . فقاتل طلحة قتال الأحدَ عشر ، حتى قُطعت أصابعه ، فقال : « حَسِّ » . فقال رسول الله ﷺ : « لو قلتَ : « باسم الله » لرفعتْك الملائكة ، والناسُ ينظرون » ثم ردّ الله المشركين .

وعند الطبراني : « لو قلتَ : « بسم الله » لطارت بك الملائكة ، والناس ينظرون إليك »[1].

وعند النسائي والبيهقي في الدلائل : « حتى تَلِجَ بك في جوِّ السماء » .

لله دَرُّ أبي محمد .. ما فعل ، حتى لو نطق بـ« بسم الله » لطارت به الملائكة ، حتى تَلِجَ به السماءَ ؟!

روى البخاري عن خالد بن قيسٍ ، قال : رأيت يد طلحة التي وَقَى

---

(١) الحديث حسن . أخرجه النسائي والطبراني والحاكم وابن شاهين والبيهقي في الدلائل ، وقال الذهبي : رواته ثقات . وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٥ / ٢٠٤) : « ورجال إسناده ثقات كلهم على شرط مسلم ، لكن أبو الزبير مدلس ، وقد عنعنه ، وبالجملة : فالحديث حسن بمجموع هذه الطرق . والله أعلم » .

بها النبيَّ ﷺ يومَ أُحُد شَلّاء .

وعن المعتمر - وهو ابن سليمان - قال : سمعت أبي ، عن أبي عثمان ، قال : لم يبقَ مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن غيرُ طلحة وسعد . عن حديثهما[١].

« وعن عائشة وأمِّ إسحاق بنتْي طلحة ، قالتا : جُرح أبونا يومَ أحدٍ أربعًا وعشرين جراحة ، وقع منها في رأسه شجّة مربّعة ، وقُطع نساه - يعني العِرْق - وشُلّتْ إصبعه ، وكان سائر الجراح في جسَده ، وغلبه الغَشْيُ ، ورسول الله ﷺ مكسورةٌ رباعيته ، مشجوجٌ في وجهه ، قد علاه الغشي ، وطلحة مُحتَمِلُه ، يرجع به القَهْقَرى ، كلما أدركه أحد من المشركين قاتل دونه ، حتى أسنده إلى الشِّعْب »[٢].

قال تعالى : ﴿ **مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صَدَقُوا ما عَاهدُوا الله عليه فمِنهُم مَّن قضىٰ نحْبَهُ ومنهم مَّن ينتظر وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

عن طلحة أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابيٍّ جاء يسأله عمَّنْ قضى نَحْبَه : من هو ؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته ﷺ ، ويوقِّرونه ويَهابونه ، فسأله الأعرابي فأعرضَ عنه ، ثم سأله فأعرضَ عنه ، ثم إني اطَّلعتُ مِن باب المسجد - وعليَّ ثيابٌ خُضْر - فلما رآني رسول الله ﷺ قال : « أينَ السائل عمّن قضى نَحْبَه ؟» قال الأعرابي : أنا . قال : « هذا ممَّن قضى نَحْبَه »[٣].

---

(١) معناه : وهما حدَّثاني بذلك . أو يريد أنها حدثان .

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٢ .

(٣) سنده حسن . أخرجه الترمذي في المناقب ، وقال : حسن غريب . والطبراني في الكبير وابن سعد . وسنده حسن .

وقال ﷺ : « طلحة ممَّن قضى نحبه »[(١)].

وعن طلحة رضي الله عنه ، قال : عُقِرتُ يوم أحد في جميع جسدي ، حتى في ذَكَري[(٢)].

وطلحة يومَ الشِّعْبِ واسى محمَّدًا   لدَى ساعة ضَاقَتْ عليهِ وسُدَّتِ
وقاهُ بكفَّيْهِ الرِّماحَ فقُطِّعَتْ   أصابعُهُ تَحتَ الرماحِ فشُلَّتِ

الزُّبير بن العوَّام ، حوارِيُّ الرسول :

أوّلُ مَنْ سَلَّ سَيْفَه في الإسلام ، رضي الله عنه :

قال رسول الله ﷺ : « إنّ لكلّ نبي حواريًّا ، وإن حواريّي : الزبيرُ »[(٣)].

وقال ﷺ : « الزبير ابن عمّتي ، وحواريّي من أمتي »[(٤)].

بأبي وأمي فارس رسول الله ﷺ وحواريّه ، مَنْ نزلتْ بسِيمَاهُ الملائكة في يوم بدر ، وجمَع له رسول الله ﷺ بين أبويْه .

عن عروة بن الزبير قال : كانت على الزبير - يوْم بدرٍ - عمامةٌ صفراءُ ، فنزل جبريل على سيماءِ الزبير .

---

(١) صحيح ، رواه الترمذي وابن ماجه عن معاوية ، وابن عساكر عن عائشة ، وابن سعد والترمذي وأبو يعلى والضياء عن طلحة ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٩١٦ ، والصحيحة رقم ١٢٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٩ .

(٣) رواه البخاري والترمذي عن جابر ، والترمذي والحاكم عن علي .

(٤) صحيح ، رواه أحمد في مسنده عن جابر ، وصحّحه الألباني في الصحيحة رقم ١٨٧٧ ، وصحيح الجامع رقم ٣٥٨٣ .

يقول عامر بن صالح بن عبد الله بن الزبير :

جَدِّي ابنُ عمّةِ أحمدٍ ووزيرُهُ ... عنـدَ البـلاءِ وفـارسُ الشَّقْـراءِ
وَغَـداةَ بـدرٍ كان أَوَّلَ فـارسٍ ... شَهِدَ الوغَى في اللَّامَةِ الصَّفراءِ
نَزَلتْ بِسِيمَـاهُ المـلائِكُ نُصْرَةً ... بالحـوْضِ يَوْمَ تألُّبِ الأعـداءِ

قال الثوريّ : نَجْدةُ الصحابةِ : حمزة ، وعليّ ، والزبير .

قالت عائشة لعروة : يا ابن أختي ، كان أبواك - يعني الزبير وأبا بكر - منَ ﴿ **الذين استجابُوا لله والرسول مِن بعد ما أصابهم القَرْحُ** ... ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٢] .

لما انصرف المشركون من أُحُدٍ ، وأصاب النبيَّ ﷺ وأصحابَه ما أصابهم ، خاف أن يرجعُوا ، فقال : « مَنْ ينتدبُ لهؤلاء في آثارهم ، حتى يعلموا أنّ بنا قوةً ؟ » فانتدب أبو بكر والزبير في سبعين ، فخرجوا في آثار المشركين ، فسمعُوا بهم ، فانصرفوا . قال تعالى : ﴿ **فانقَلبُوا بنعمةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُم سُوءٌ** ... ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٤] ، لم يلقوا عدوًّا[(١)].

وروى البخاري ومسلم عن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ يومَ الخَندق : **« مَنْ يأتينا بخبرِ بني قُريظة ؟ » فقال الزبير : أنا . فذهب على فرسٍ ،** فجاء بخبرهم . ثم قال الثانية ، فقال الزبير : أنا . فذهب ، ثم الثالثة ، فقال النبي ﷺ : « لكلّ نبيٍّ حواريٌّ ، **وحواريّي[(٢)] الزبير** » .

---

(١) أخرجه البخاري إلى قوله : سبعين ، وأخرج الجزءَ الأوّلَ مسلمٌ ، وابن ماجه ، وابن سعد ، والحميدي ، والحاكم .

(٢) الحواري : هو الخالص من كل شيء . قاله مصعب الزبيري ، والحواريّ : خالصة الإنسان وصفيّه المختص به كأنه أخلص ونقي من كل عيب . وتحوير الثياب : تبييضها وغسلها ، ومنه سمي أصحاب عيسى : حواريين ، لأنهم كانوا =

عن ابن الزبير ، عن أبيه قال : جمع لي رسول الله ﷺ أبوَيْه .

وعن ابن الزبير أنه قال له : يا أبه ، قد رأيتُك تحملُ على فرسك الأشقر يومَ الخندق . قال : يا بنيَّ ، رأيتَني ؟ قال : نعم . قال : فإن رسول الله ﷺ يومئذٍ لَيجمعُ لأبيك أبوَيْه ، يقول : « ارْمِ ، فِدَاكَ أبي وأمي » .

وعن ابن أبي الزّناد قال : ضرب الزبيرُ يوم الخندق عثمانَ بنَ عبد الله ابن المغيرة بالسَّيف على مِغْفَره ، فقطعه إلى القَرَبُوس[1] ، فقالوا : ما أجود سيفك ! فغضب الزبير ، يريد أن العمل ليده لا للسيف .

وعن علي بن زيد : أخبرني من رأى الزبيرَ ، وفي صدْره أمثالُ العيونِ من الطَّعن والرَّمْي .

وعن عروة قال : كان في الزبير ثلاثُ ضرباتٍ بالسيف : إحداهن في عاتِقِه ، إنْ كنتُ لأُدخل أصابعي فيها ، ضُرب ثنتين يومَ بدْر ، وواحدةً يوم اليرموك .

قال عروة : قال عبد الملك بن مروان ، حين قُتل ابنُ الزبير : يا عروة ، هل تعرف سيف الزبير ؟ قلت : نعم . قال : فما فيه ؟ قلت : فَلَّةٌ فلها يومَ بدرٍ . فاستلّه فرآها فيه ، فقال : بهنَّ فلولٌ من قِراعِ الكتائبِ .

قال علي بن أبي طالب : أشجع الناس : الزبير ، ولا يعرف قَدْرَ الرجال إلا الرجالُ .

عن الزبير قال : لقيتُ يوم بدر عُبيدةَ بن سعيد بن العاص ، وهو

= قصّارين يبيضون الثياب . وقيل:الحواري : الناصر .

(١) مُقدَّم السَّرج ومُؤخره .

مُدجَّج لا يُرى إلا عيناه ، وكان يُكنَى : أبا ذاتِ الكِرَش . فحمَلتُ عليه بالعَنَزَة ، فطعنتُه في عينه ، فمات . فأُخْبرت أن الزبير قال : لقد وضعتُ رجلي عليه ، فكان الجهْدُ أن نزعتُها . يعني الحربة ، فلقد انثنى طرفُها . رواه البخاري .

« قَتَلَ الزبيرُ في هذه المعركة عبيدةَ بن سعيد بن العاص ، وقتل عمَّه نَوْفَلَ بنَ خُويلد بن أسد » .

لله ما أصدق الزبيرَ مع الله ورسوله حين يقتل عمَّه .

وعن عروةَ أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للزبير : ألا تشُدّ فنشدَّ معك ؟ قال : إني إنْ شددتُ كذبتم . فقالوا : لا نفعل . فحمل عليهم حتى شقَّ صفوفَهم ، فجاوزهم وما معه أحَد ، ثم رجع مُقبلًا ، فأخذوا بلجامه فضربوه ضربَتَيْن ، ضربةً على عاتقه ، بينهما ضربة ضُرِبَهَا يومَ بدر . قال عروة : فكنت أُدخل أصابعي في تلك الضربات ، ألعبُ وأنا صغير . قال : وكان معه عبد الله بن الزبير وهو ابنُ عشر سنين ، فحمله على فرس ، ووكل به رجلًا[1] .

قال الذهبي في السِّير معلِّقًا : « هذه الوقعة هي يوم اليمامة إن شاء الله ؛ فإن عبد الله كان إذْ ذاك ابنَ عشر سنين » .

وذكر ابن كثير أن الموقعة هي « اليرموك » . ولا مانع من وقوع ذلك في الموقعتين .

ويا لروعة إقدام الزبير حين يُحجم الأبطالُ من صحابة رسول الله ﷺ ، ولا يصبرون معه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٦٢ - ٦٣ .

قال ابن كثير : « وقد كان فيمن شَهِدَ اليرموك : الزبيرُ بن العوام ، وهو أفضل مَنْ هناك مِنَ الصحابة ، وكان من فرسان الناس وشجعانهم ، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ ، فقالوا : ألا تحملُ فنحمل معك ؟ فقال : إنكم لا تثبتون . فقالوا : بلى . فحمل وحملوا ، فلما واجهوا صفوفَ الروم أحجموا وأقدم هو ، فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر ، وعاد إلى أصحابه . ثم جاءوا إليه مرةً ثانية ففعل كما فعل في الأولى ، وجُرح يومئذٍ جُرحَيْن بين كتفيْه . وفي رواية : جُرْحٌ »[(١)].

ويقول ابن كثير مرة أخرى : « خرج مع الناس إلى الشام مجاهدًا ، فشهد اليَرْمُوك ، فتشرَّفوا بحضوره ، وكانت له بها اليد البيضاء والهمة العلياء ، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتَيْن ، مِن أوّلهم إلى آخرهم »[(٢)].

« ورأى النبيُّ يوم « أحد » رجلًا يقتل المسلمين قَتْلًا عنيفًا ، فقال : « قمْ إليه يا زبير » فَرَقِي إليه الزبير ، حتى إذا عَلا فوقه اقتحم عليه فاعتنقه ، فأقبلا ينحدران حتى وقعا إلى الأرض ، فوقع الزبيرُ على صدره وَقَتَلَه »[(٣)].

قال الزبير رضي الله عنه : « جمع لي رسول الله ﷺ أبوَيْه مرتَيْن : في أُحد ، وفي قريظة »[(٤)].

« ويوم (حُنين) طاعَن الزبيرُ المشركين حتى أزالهم عن أماكنهم ، وكان قائد المشركين يراقب سير القتال ، فأخبره أصحابه أنهم يروْن فارسًا واضعًا رمحَه على عاتقه ، عاصبًا رأسه بملاءَةٍ حمراء ، فقال : هذا الزبير بن

(١) البداية والنهاية ٧ / ١١ .
(٢) البداية والنهاية ٧ / ٢٦٠ .
(٣) تهذيب ابن عساكر ٥ / ٣٥٨ .
(٤) الاستيعاب (٢/ ٥١٣) ، وأُسد الغابة (٢ / ١٩٧) .

العوام ، وأحلِفُ باللّات ليخالطنّكم فاثبتوا له . فلما انتهى الزبير إلى مواضع المشركين وأبصرهم ، قصدهم ، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها »(١).

لله دَرُّ أشجع الناس الذي قال فيه علي بن أبي طالب : « يغضَبُ كالنَّمِر ، وَيَثِبُ وُثوبَ الأَسَد »(٢).

« ولما قصد عمرو بن العاص مصر لفتْحها كانت معه قوَّات تبلغ ثلاثةَ آلافٍ وخمسمائة رجل ، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستمدُّه ، فأشفق عمر من قلة عدد قوات عمرو ، فأرسل الزبيرَ بنَ العوام في اثني عشر ألفًا ، وقيل : أرسل عمر أربعة آلافِ رجلٍ ، عليهم من الصحابة الكبار : الزبير ، والمقداد بن الأسود ، وعُبادة بن الصامت ، ومَسْلمة بن مُخَلّد ، وقال آخرون : خارجة بن حذافة هو الرابع . وكتب إليه : « إني أمددتك بأربعةِ آلافٍ ، على كلّ ألفٍ منهم رجل مَقامَ ألفٍ » . وكان الزبير على رأس هؤلاء الرجال »(٣).

وحين قدِم الزبير على عمرو وجدَه مُحَاصِرًا حصن (بابليون) ، فلم يلبث الزبير أن ركب حصانه وطاف بالخندق المحيط بالحصن ، ثم فرّق الرجال حوْل الخندق ، وطال الحصار حتى بلغت مدّته سبعة أشهرٍ ، فقيل للزبير : « إن بها الطاعون » . فقال : « إنما جئنا للطعن والطاعون »(٤).

---

(١) قادة فتح الشام ومصر صـ ٢٠٥ للواء الركن محمود شيث خطاب - طبع دار الفكر .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٥ / ٣٦٢ .

(٣) فتوح مصر والمغرب صـ ٦١ ، ومعجم البلدان ٦ / ٣٧٦ ، وقادة فتح الشام ومصر صـ ٢٠٨ ، ٢٢٦ .

(٤) طبقات ابن سعد ٣ / ١٠٧ ، والبلاذري صـ ٢١٥ .

« وأبطأ الفتح على عمرو بن العاص ، فقال الزبير : « إني أهِبُ نفسي لله ، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » . فوضع سُلَّمًا وأسنده إلى جانب الحصن من ناحيةِ سُوق الحمّام ثم صَعِد ، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبّر ومعه السيف ، فتحامل الناس على السُّلّم حتى نهاهم عمرو ؛ خوْفًا من أن ينكسر ، فلما رأى الرُّوم أنّ العرب قد ظفروا بالحصن انسحبوا ، وبذلك فتح حصن بابليون أبوابَه للمسلمين ؛ فانتهت بفتحه المعركة الحاسمة لفتح مصر ، وكانت شجاعة الزبير النادرة السبب المباشر لانتصار المسلمين على المُقَوْقِس »(١) .

ولله دَرُّ حسان حين يقول :

أقام على عهْد النبيِّ وهَدْيِهِ ... حواريُّه والقوْلُ بالفعلِ يُعْدَلُ
أقام على منهاجِهِ وطريقِهِ ... يُوالي وليَّ الحقِّ والحقُّ أَعْدَلُ
هو الفارِسُ المشهورُ والبطلُ الذي ... يصولُ إذا ما كان يومٌ مُحَجَّلُ
إذا كشفتْ عن ساقها الحربُ حَشَّهَا ... بأبيضَ سَبَّاقٍ إلى الموتِ يُرْقِلُ(٢)
وإنَّ امرأً كانت صفيةُ أمَّهُ ... ومِن أَسَدٍ في بيتها لَمُؤَثَّلُ
له من رسولِ اللهِ قُرْبَى قريبةٌ ... ومِن نُصْرَةِ الإسلام مَجْدٌ مُؤَثَّلُ
فكمْ كُرْبَةٍ ذَبَّ الزبيرُ بسيفِهِ ... عن المصطفى واللهُ يُعْطي فيُجزلُ
ثناؤُكَ خيرٌ من فَعالِ معاشرٍ ... وفعلُكَ يا ابنَ الهاشِمِيةِ أفضلُ(٣)

---

(١) قادة فتح الشام ومصر صـ ٢٠٩ ، ٢٢٧ .
(٢) يقال : أرقل القوم إلى الحرب إرقالًا : أسرعوا ، والإرقال : ضرْب من الخَبَب ، وهي سرعة سيْر الإبل .
(٣) ديوان حسان ١٩٩ - ٢٠٠ طبعة دار صادر البيروتية .

ويرحم الله مَنْ قال :

لما أَتى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَواضَعَتْ سُورُ المدينةِ والجِبَالُ الخُشَّعُ

الإمامُ البطل الضِّرْغام ، أسد الله أبو عمارة ، وأبو يعلى حمزةُ بن عبد المطلب :

قال رسول الله ﷺ : « سَيِّدُ الشهداء عند الله يوم القيامة حمزةُ بن عبد المطلب »[١].

وقال ﷺ : « سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجلٌ قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه ، فقتله »[٢].

قال ابن إسحاق : لما أسلم حمزة ، علمت قريشٌ أن رسول الله ﷺ قد امتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

وكان حمزة رضي الله عنه أوّلَ قاتلٍ لأوّلِ قتيلٍ من المشركين يوم بدر ، فلما « تَواجَه الفئتانِ ، وتقابلَ الفريقانِ ، وحضر الخَصْمانِ بين يدي الرَّحمٰن ، واستغاث بربه سيد الأنبياء ، وضجَّ الصحابة بصنوف الدعاء إلى رب الأرض والسماء ، سامعِ الدعاء وكاشِفِ البلاء ، فكان أولَ من قُتل من المشركين : الأسودُ بن عبد الأسد المخزومي .

قال ابن إسحاق : وكان رجلًا شرسًا سَيِّئ الخلق ، فقال : أعاهد الله لأشربنّ من حَوْضهم ، أو لأهدِمنّه ، أو لأموتنَّ دُونه ، فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنّ[٣] قدمَه بنصف ساقه وهو

---

(١) حسن ، أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر ، والطبراني في الكبير عن علي ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٧٦ ، والصحيحة رقم ٣٧٤ .

(٢) حسن ، رواه الحاكم والضياء عن جابر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٧٥ ، والصحيحة رقم ٣٧٤ .

(٣) أطنَّ : قطع .

دون الحوْض ، فوقع على ظهره تشخب[١] رجلُه دمًا نحو أصحابه ، ثم حبَا إلى الحوْض حتى اقتحم فيه ، يريد زعم أن تبرَّ يمينُه ، وأَتْبَعَهُ حمزة فضربه حتى قتله في الحوْض »[٢].

« وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنه كان يُقسم فيها قَسَمًا : إن هذه الآية ﴿ **هذانِ خَصْمانِ اختصمُوا في ربِّهم** ... ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيْه ، وعُتْبة وصاحبيْه يوم برزُوا في يوم بدر »[٣].

برز عُتْبة وشيْبة والوليد بن عتبة ، فلما توسطوا بين الصفين ، دَعَوا إلى البراز ، فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم : عوف ومعاذ ابنا الحارث ، وأمهما عفراء ، والثالث : عبد الله بن رواحة – فيما قيل – فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهْط من الأنصار . فقالوا : ما لنا بكم من حاجة . وفي رواية : فقالوا : أكفاء كِرام ، ولكن أخرجوا إلينا مِنْ بني عمِّنا . ونادَى مناديهم : يا محمد ، أخرجْ إلينا أكْفاءنا من قومنا . فقال النبي ﷺ : « قُمْ يا عبيدة بن الحارث ، وقمْ يا حمزة ، وقم يا علي » . فلما دَنَوْا منهم ، قالوا مَن أنتم ؟ تكلموا نعرفكم . فقال حمزة : أنا أسد الله وأسد رسول الله ، أنا حمزة بن عبد المطلب . فقال : كفْؤٌ كريم . وقال علي : أنا عبد الله وأخو رسول الله . وقال عبيدة : أنا الذي في الحلفاء . فأمّا حمزة فلم يُمهل شيبةَ **أن قتله ، وأما عليّ فلم يُمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما** بضربتين ، كلاهما أثبت صاحبه ، وكرّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فذفّفا عليه ، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابهما رضي الله عنه .

---

(١) تشخب : تسيل .
(٢) البداية والنهاية ٣ / ٢٧٢ .
(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، والنسائي في فضائل الصحابة .

فقالت هندُ في ذلك :

أعَيْني جُودي بدمعٍ سَرَبْ — على خيرِ خُنْدُفَ لَمْ ينقلبْ
تداعَى له رهْطُه غُدْوةً — بنو هاشمٍ وبنو المطَّلِبْ
يُذيقونَهُ حدّ أسيافِهِمْ — يُعلونه بعدَما قَدْ عَطِبْ

ولهذا نذرت هندُ أن تأكل من كبد حمزة(١).

رضي الله عن أسد الله وأسد رسوله ؛ فكم قتل من رجالاتِ المشركين يوم بدر ومنهم طعيمة بن عدي بن الخيار .

عن سعد بن أبي وقاص : كان حمزة بن عبد المطلب يقاتل يوم أحد بين يديْ رسول الله ﷺ بسيفين ويقول : أنا أسد الله(٢).

وعن جابر بن عبد الله قال : فَقَدَ رسول الله ﷺ يوم أُحد حمزةَ حين فاءَ الناسُ من القتال ، قال : فقال رجل : رأيتُه عند تلك الشجرة وهو يقول : « أنا أسد الله وأسد رسوله »(٣).

قال الضِّرغَامُ - قولًا صدق به ومضَى عليه - : « والذي أَنزل عليك الكتاب لنجالدنَّهم » . فَيقتل حمزةُ يوم أحد أرطأة بنَ عبد شَرْحَبيل بن هاشم بن عبد مناف ، وكان أحد النفر الذين يحملون اللِّواء ، وكذلك قتل عثمانَ بن أبي طلحة كبشَ قريشٍ ، وحاملَ لوائها ، والقائل :

إنّ على أهلِ اللّواءِ حقًّا — أن يخَضِبُوا الصَّعْدَةَ أو تَنْدَقّا

فحمل عليه حمزة فقتله .

---

(١) البداية والنهاية ٣ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
(٢) إسناده صحيح ، رواه الحاكم في المستدرك ، وابن سعد ٣ / ١ / ٦ .
(٣) صحيح ، رواه الحاكم في المستدرك وقال : صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه .

كَحمزة لمّا وفّى صادقًا ... بذي هبة صارمٍ سلجَجِ[(١)]
فلاقاهُ عبدُ بني نَوْفلٍ ... يبربرُ كالجملِ الأدْعَجِ
فأوْجَرَهُ حربةً كالشِّهابِ ... تلهَّبُ في اللَّهبِ المُوهَجِ

قال وحشيُّ بن حرب : مرّ بحمزة سباع بن عبد العزى الغبشاني ، وكان يكنى بأبي نِيارٍ ، فقال حمزة : هلمّ إليّ يا ابن مُقَطِّعة البظور ؛ وكانت أمُّه أمَّ أنمار مولاة شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، وكانت ختّانةً بمكة ، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله ، والله إني لأنظر لحمزة كأنه الجمل الأوْرَق ، يَهُدُّ الناس بسيفه هدًّا ، ما يقوم له شيء .

وعند البخاري من قوْل وحشيّ : « خرج سباع فقال : هل من مبارزٍ ؟ قال : فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال : يا سباع ، يا ابن أمِّ أنمار مُقَطِّعَةِ البظور ، أتحادّ الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : ثم شدّ عليه ، فكان كأمسِ الذاهب » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : نظروا ، فإذا حمزة قد بُقِرَ بطنُه ، وأخذتْ هند كبده ، فلاكتْها . فلم تستطع هند أن تأكلها ، فقال رسول الله ﷺ : « أكلتْ منها شيئًا ؟ » قالوا : لا . قال : « ما كان الله ليُدخل شيئًا من حمزةَ النار »[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ : « لولا جَزَع النساء ، لتركته حتى يُحشر من حواصل الطيْر وبطون السِّباع »[(٣)].

(١) سَلْجَج : طيب لذيذ .
(٢) حسن لغيره ، رواه ابن سعد في الطبقات .
(٣) إسناده حسن لغيره ، رواه ابن سعد في الطبقات .

رضي الله عن أسد الله ، الذي قال فيه عبد الرحمن بن عوف : « قُتل حمزة وهو خير منِّي »[١].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمع رسول الله ﷺ نساءَ الأنصار يَبكين على هلكاهُنّ ، فقال : « لكنّ حمزة لا بواكَي له » . فجئْن فبكين على حمزة عنده ، إلى أن قال : « مروهُنَّ لا يبكين على هالكٍ بعدَ اليوم »[٢].

ولكنّ الإسلامَ وديارَه لا بواكَي له ولها :

بكى رسول الله ﷺ حمزةَ .. بكَى الفروسية والرجولة « ولكن حمزة لا بواكَي له » .. وفي واقعنا تَدْمَى القلوب قبل العيون صارخة : « ولكن السيف لا بواكي له » ، « ولكن الأعراض لا بواكي لها » ، « ولكن الإسلامَ لا بواكي له » .

فكمْ من مسجدٍ جعلُوه ديرًا ... على محَرابه رُسِمَ الصَّليبُ
دَمُ الخِنزيرِ فيه لهم خَلُوفٌ ... وتحريقُ المصاحفِ فيهِ طيبُ

وهذي صرخاتِ طفلةٍ من البوسنة :

في عالمٍ قَطَعَ الرقابَ وأشعَل النيران في صدر العذَارَى المؤمناتْ
في عالمٍ جعَل البطونَ خنادقًا للموت أطلق في بيوت الله رِجْسَ المَعْصِيَاتْ
في عالمٍ فقأَ العيونَ وغاص في دم الصغار وأسكت الصَّلواتْ
في عالمٍ أعطى الكلاب الحقَّ في عِرض البناتْ
مِنْ ثدي أمي كان لوْن الدَّمِ يحكي قصة الأهوال في الزمن اللّعينْ

---

(١) رواه البخاري .

(٢) إسناده قوي : أخرجه أحمد ، وابن ماجه ، وابن سعد ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وقال ابن كثير في « البداية » ٤ / ٤٨ : هو على شرط مسلم .

كفّنتُ بين يديَّ وجهيَ وانحنيتُ على التراب أُقبّل الأَب الحنونْ
وقد توارى في قطار الراحلينْ
ومضيتُ عاريةً أُغطي عُرْي نفسي والقطار الأسود الملعونْ
يطوي ليلنا الدامي الحزينْ
الآن يا مولاي في صَمْتِ المنابرْ
يشرب الأوْغاد دم المسلمينْ
الآن يأكل ثَدْيَ أُمِّي ألفُ نخَّاسٍ
ويشرب من دمائي ألف قوّادٍ
ويعبث في مآذننا ضلالُ المُفسدينْ
الآن أرحل في قطار الموْت ألعنُ كلّ خائنْ
مَنْ خان يومًا مسجدًا مَن باع آلاف المآذنْ
لا تسأل البحّارَ حين يموتُ مَن في البحر قد خرقَ السفائِنْ
الآن يا مولاي نرحل في قطار الموت تبكينا المدائنْ
فالكل يا مولاي خائنٌ فالكل يا مولاي خائنْ(١)

في البوسنة : ذبح الآباءُ أمامَ الأبناء ... صَبُّ المسكراتِ بالقوة في أفواه القاصرات وحقنهن بدماء الخنازير قبل الاغتصاب ... امرأة تموت فورًا فيغتصبها جندي صربيّ مباشرةً بعد موْتها ، وكان يقول : لا تزال ساخنة ، يمكنني أن أفعل ذلك : ذبح الآلاف كما تُذبح الشِّياه ، قطْع رؤوسهم بالمنشار الكهربائي ، وتعليق رؤوسهم على جانبي الطُرُق وفي المساجد ... اغتصاب المئات من القاصرات ، ما بين خمسة سنوات إلى اثنتي عشرةَ سنة ... اغتصاب آلاف المسلمات ...

---

(١) رسالة من طفلة مسلمة بالبوسنة .

فالبكاء على حمزة ، على أسد الله ، الذي كان مِدْرَهًا[١] يذود عن الإسلام كلّ كَفُورٍ ، البكاء على حمزة .. البكاء على الإسلام الآن .. **أَشْجَى** :

يا سيدي .. فلأعترِفْ ..
أنّ الجواد الجامحَ المجنون قد خسِرَ الرّهانْ
وبأن أَوحالَ الليالي السُّود
فوق رؤوسنا
صارت ثياب الملك والتيجانْ
وبأنّ أشباه الرجال تحكّموا
وبأنّ هذا العَصرَ للغلمانْ
يا سيدي .. فَلأَعترف
أن المآذن لا تساوي رقصةً
أو هزّ خَصرٍ في حمى السلطان
أن الفراشاتِ الجميلة
لن تقاوم خِسَّة الثعبانْ
أن الأُسود تموت حُزْنًا
عندما تتحكم الفئرانْ
أن السَّماسِرة الكبارَ توحَّشوا
باعُوا الشعوبَ وأجهضوا الأوطانْ
ولأَعترف يا سيدي
أني وَفَيْتُ .. وأنّ غيريَ خانْ
أني نزفتُ رحيقَ عمري كي يطلّ الصبحُ
لكنْ خانني الوغْد الجبان

(١) سَيِّدًا .

قتلوا الشباب وصوْلة الفرسانْ
في زمنِ النخاسَة والهوانْ
سجنوا الزهور وفجر العمر قربانا
لأصنام تبيع الإفك جهرًا
في حِمَى الشيطانْ
القدس ترسم وجْه أحمدَ
والملائك حولهُ
والكون يتلو سورةَ الرَّحمـٰنْ
القدس في الأفق البعيدِ
تُطِلُّ أحيانا وفي أحشائها
طَيْفُ ابن زنكيٍّ وحوْله الفرْسانْ
القدس تبدو في ثيابِ الحزنِ
قنديلًا بلا ضوءٍ
بلا نبضٍ .. بلا ألوانْ
تبكي كثيرًا
كلّما حانتْ صلاةُ الفجرِ
وانطفأتْ عيونُ الصبحِ
وانطلق المؤذِّنُ بالأذانْ
القدسُ تسألُ
كيف صار الابنُ سمسارًا وباعَ الأمَّ
في سوق الهوانِ بأرخصِ الأثمانْ
صوتُ المآذِنِ والمنابرِ لم يزلْ
في القدسِ يرفع رايةَ العصيانْ

اللهُ أكبرُ منكَ يا زمنَ الهوانْ
الله أكبرُ منكَ يا زمنَ الهوانْ
الله أكبرُ منكَ يا زمنَ الهوانْ

* * *

كانت لنا يومًا .. هنا أوطانْ
وطنٌ بلوْنِ الصُّبْحِ كانْ ..
وطنٌ بلون الفرح
حين يجيءُ منتصرًا على الأحزانْ
وطنٌ أضاءَ الكون عمرًا
بالسماحةِ .. والهدايةِ .. والأمانْ
وطنٌ على أرجائه الخضراءِ هَلَّ الوحيُ
في التوراة .. والإنجيلِ والقرآنْ
في كلّ شبرٍ مِن ثَراه
تمهّل التاريخُ .. وانتفضَ الزمانْ
وطنٌ بلونِ الصبح كانْ
يمتد مِن صوْت المؤذنِ
في رُبوعِ الشام .. للسودانْ
ينسَابُ فوق ضفاف دجلةَ ينتشني فيها
ويخشعُ في رُبَا لبنانْ
ويُطِلّ فوق خمائِل الزيتونِ
في بغداد .. في حلب .. وفي عمّانْ
عَيْنَاهُ دجلةُ والفراتُ
جناحُه يمتدُّ في اليمنِ السعيدِ

إلى ضفافِ المغربِ العربي
من أقصى الخليج إلى ذُرا أسوانْ
وُلِد الزمانُ وكبّر الهرمانْ
القلب في سَيْنَاءَ ينبضُ
يحملُ الوحي المتوّجَ بالجلالِ
فيخسَأُ الشيطانْ
وطنٌ تطوف عليه مكّةُ كعبةُ الدنيا
وبيتُ الحقّ .. والإيمانْ
وطنٌ عنيدٌ أيقظَ الدنيا
وعلّمها طريق المجدِ
علّمها آي الذّكرِ
علمّها البيانْ

* * *

وطنٌ جميلٌ كان يومًا كعبةَ الأوطانْ
ماذا تبقّى منهُ ..
الآن تأكلهُ الكلابُ وترتوي
بالدَّمِ فوقَ ربوعِهِ الديدانْ
الآن ترحل عنه أفواجُ الحمامِ
وَتَنْعَق الغربانْ
الآن ترتع فيه أسرابُ الجرادِ
وتعبثُ الفئرانْ
الآن يأتي الماءُ مسمومًا
ويأتي الخبزُ مسمومًا

ويأتي الحلمُ مسمومًا
ويأتي الفجر مصلوبًا على الجدرانْ
وطنٌ بلون الفرح يبدو الآن محمولًا
على نعشٍ مِنَ الأحزانْ
جسدٌ هزيلٌ في صقيعِ الموتِ
مصلوبٌ بلا أكفانْ
وطنٌ جميلٌ كان يومًا كعبةَ الأوطانْ
الآنَ ترتحلُ الرجولةُ عن ثَراهُ
ويسقط الفرسانْ
في ساحة الدَّجل الرخيصِ
يغيبُ وجْه الحقِّ
تسقط أمنياتُ العمرِ
يزحَفُ موكبُ الطغيانْ
في ساحةِ القَهْرِ الطويلِ
يضيع صوتُ العدْل
تخبو تسبيحاتُ الفجرِ
تعلُو صيحةُ البهتانْ
وطنٌ بلونِ الصبحِ كانْ
وطنٌ كبيرٌ أنت في عيني
هزيلٌ في ظلامِ السّجن والسجّانْ
وطنٌ جسورٌ أنت في عيني
ذليلٌ في ثياب العجْز والنسيانْ
وطنٌ عريقٌ أنت في عيني
أراكَ الآن أطلالًا

بلا اسم .. بلا رَسْمٍ .. بلا عنوانْ
وطنٌ بلون الصبح كانْ
في أيّ عينٍ
سَوف أحمي وجهَ ابني
بعدما صلبوا صلاحَ الدينِ
يا وطني على الجدرانْ
في أيّ صدرٍ
سوف يسكن قلبُ ابني
بعدما عزلُوا صلاحَ الدينِ
من عَيْن الصغارِ .. وتوّجوا ديّانْ
يا للمهانة عندما تغدو سيوف المجدِ
أوْسمةً بلا فرسانْ
يا للمهانة عندما يغدو صلاح الدين
خلفَ القدسِ مطرودًا
بلا أهلٍ .. بلا سكنٍ .. بلا وطنٍ .. بلا سلطانْ
في كل شيء أنت يا وطني مهانْ
مَنْ عَلَّمَ الأسد الأبيّ
بأنْ يُنَكِّسَ رأسه ويهادنَ الجرذانْ
مَنْ عَلَّمَ الفرس المكابرَ
أن يهرولَ ساجدًا في موْكب الحملانْ
من علّم القلبَ التقيّ
بأن يبيع صلاته ويعود للأوثانْ
من عَلَّمَ الوطنَ العريقَ

بأن يبيع جنودَه ..
ويقايض الفرسانَ .. بالغلمانْ
مَنْ علّم الوطنَ العزيزَ بأن يبيعَ تُرابَهُ
للراغبين بأبخسِ الأثمانْ
مَنْ عَلَّمَ السيفَ الجسورَ
بأن يُعانِقَ خَصْمَهُ
ويعلِّق الشهداءَ في الميدانْ
يـأيُّها الوطن المهانْ
إني بريء منكَ ..
أيها الزمن الجبانْ[١]
إني بريء منك يا ..
عصرَ الضياع وسطوةَ الخصيانْ
إني بريء منكَ ..
مِنْ كَفُورك والجبانْ

البطل الكرّارُ البَراءُ بن مالك بن النضر ، رضي الله عنه :

قال ﷺ : « كم من أشعثَ أغبرَ ذي طِمرينِ لا يُؤْبَهُ له ، لو أقسم على الله لأبرّه ، منهم البراء بن مالك »[٢].

كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الجيش : لا تستعملوا البراءَ على جيش ؛ فإنه مهلكة من المهالك ، يقدم بهم .

---

(١) قصيدة « رسالة إلى صلاح الدين » بتصرف ، للشاعر فاروق جويدة .
(٢) صحيح : رواه الترمذي والضياء عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٥٧٣ ، تخريج مشكلة الفقر ١٢٥ .

قال الذهبي في السير (١ / ١٩٦) : « بلغنا أن البراءَ يومَ حربِ مسيلمةَ الكذاب أمر أصحابه أن يحتملوه على ترس على أسنة رماحهم ، ويلقوه في الحديقة ، فاقتحم إليهم وشدّ عليهم ، وقاتل حتى افتتح باب الحديقة ، فجُرح يومئذ بضعةً وثمانين جرحًا ، ولذلك قام خالد بن الوليد عليه شهرًا يداوي جراحه »[١].

لك الله يا براء ، تجادل صناديد الشرك بمفردك في حديقة الموت ، حتى تفتح بابها ، والله ما عقمتْ أمةٌ أنجبتْك .

« وقد اشتُهر أن البراء قَتَل في حروبه مائة نفس من الشجعان مبارزةً . وعن ابن سيرين قال : قال الأشعري – يعني في حصار « تُسْتَر » – للبراء ابن مالك : إنْ قد دُلِلنا على سِرْبٍ يخرج إلى وسطِ المدينة ، فانظر نفرًا يدخلون معك فيه . فقال البراء لمجزأة بن ثور : انظر رجلًا من قومك طريفًا جَلْدًا فسمّه لي . قال : وَلِمَ ؟ قال : لحاجةٍ . قال : فإني أنا ذلك الرجل . قال : دُللنا على سرب ، وأردنا أن ندخله . قال : فأنا معك . فدخل مجزأة أولَ من دخل ، فلما خرج من السِّرب شدخوه بصخرة ، ثم خرج الناس من السرب ، فخرج البراء فقاتلهم في جَوْف المدينة ، وقتل رضي الله عنه ، وفتح الله عليهم » .

وعن أنس مرفوعًا قال : « كم من ضعيف مُتضعف ذي طمرين ، لو أقسم على الله لأبرّه ، منهم البراء بن مالك »[٢].

وإن البراء لقي المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين ،

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط صـ ١٠٩ ، والإصابة ١ / ٢٣٦ ، والاستيعاب لابن عبد البر ١ / ٢٨٧ .

(٢) أخرجه الحاكم ٣ / ٢٩٢ وصحّحه ، ووافقه الذهبي ، وابن عبد البر في الاستيعاب .

فقالوا له : يا براء،إن رسول الله ﷺ قال أنك لو أقسمت على الله لأبرّك ، **فأقسمْ على ربك . قال : أقسِم عليك يا رب لمَا مَنَحْتَنَا أكتافَهم** ... وذكر الحديث .

ومنحهم الله أكتاف القوم .

وعند الطبري : اللهم اهزمهم لنا ، واستشهدني[1]. وكان له ما أراد .

قال حمّاد بن سلمة : زعم ثابت ، عن أنس قال : دخلتُ على البراء وهو يتغنّى ويرنّمُ قوسه ، فقلتُ : إلى متى هذا ؟ قال : أتراني أموتُ على فراشي ؟! والله لقد قتلْتُ بضعًا وتسعين[2].

استشهد الأسد المغوار يوم فتح « تُسْتَر » سنة عشرين .

علَمُ المجاهدين أبو عبد الله جعفر بن أبي طالب ذو الجَناحيْن ، السيِّد الشهيد ، رضي الله عنه :

أوّلُ من عَقَرَ في الإسلام .

قال رجلٌ من بني مُرّة بن عوف : لَكَأنّي أنظر إلى جعفر يوم « مُؤْتة » حين اقتحم عن فرسٍ له شقراءَ فعقرها ، ثم قاتل حتى قتِل[3].

قال جعفر بعدما عَقَر جوادَه :

يا حبـذا الجنـة واقترابُها طَيِّبَـةٌ وبـاردٌ شَرَابُهـا
والرُّوم رُومٌ قد دنا عذابُها عـليّ إنْ لاقيتُهـا ضِرَابُهَـا

عن محمد بن عمر بن علي قال : « ضربه رومي فقطعه نصفين ، فوُجد في

(١) تاريخ الطبري صـ ٥١٠ .
(٢) طبقات ابن سعد ٧ / ١ / ١٠ وإسناده صحيح .
(٣) رجاله ثقات ، وإسناده قوي .

نصفه بضعةٌ وثلاثون جرحًا .

وروَى البخاري عن ابن عمر قال : أَمَّرَ رسولُ الله ﷺ في غزوة مؤتة زيدَ بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : « إنْ قُتل زيدٌ فجعفر ، وإن قتلَ جعفرُ فعبد الله بن رواحة » . قال عبد الله : كنتُ فيهم في تلك الغزوة ، فالتمسْنَا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلَى ، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعينَ ، مِن طعنةٍ ورميةٍ .

وعن ابن عمر قال : جمعتُ جعفرًا على صدري يوم مؤتة ، فوجدتُ في مُقدم جسده بضعًا وأربعين من بين ضربةٍ وطعنةٍ[١] .

وفي البخاري عن ابن عمر : أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل ، فعددتُ به خمسين ، بين طعنةٍ وضربةٍ ليس منها شيء في دُبُره ؛ يعني ظهره .

قال ﷺ : « رأيتُ جعفر بن أبي طالب ملَكًا في الجنة مُضَرَّجةً قوادِمُه بالدماء ، يطير في الجنة »[٢] .

بأبي أنت وأمي يا ذا الجناحين ... تُمسك اللواءَ بيمينك فتقطع يمينُك ، فتمسكه بيسارِك فتقطع ، فتضمّه إلى عضدَيْك .

عبد الله بن رَوَاحَة بن ثَعْلَبَة ، الأمير السعيد الشهيد :

لما جهَّز النبيُّ ﷺ إلى مؤتة الأمراءَ الثلاثةَ ، فقال : « الأمير : زيدٌ ، فإن أُصبتَ فجعفر ، فإن أصيب فابنُ رواحة » .

---

(١) إسناده حسن ، سير أعلام النبلاء ١ / ٢١٠ .

(٢) أخرجه الحاكم وصححه ٣ / ٢٠٩ ، وقال الحافظ في الفتح : وإسناده جيد ٧ / ٧٦ .

قال عروة بن الزبير : لما تجهز الناس وتهيئوا للخروج إلى مؤتة ، قال للمسلمين : صحبكم الله ، ودفع عنكم . قال عبد الله بن رواحة :

لكنني أسأل الرَّحمٰنَ مغفرةً وضربةً ذاتَ فرغٍ تقذفُ الزَّبَدَا
أو طعنةً بيديْ حرّانَ مُجهزَةً بحربةٍ تنفذ الأحشاءَ والكَبِدَا
حتى يقولوا إذا مرُّوا على جَدَثي أرشدَكَ اللهُ مِن غَازٍ وقد رشدَا

قال : ثم مَضَوْا حتى نزلوا بأرض الشام ، فبلغهم أن هِرَقْل قد نزل من أرض البلقاء في مائة ألفٍ من الروم ، وانضمت إليه المستعربة من لَخْم ، وجذام ، وبلقين ، وبهرا ، وبلي ، في مائة ألف فأقاموا لَيْلَتَيْن ينظرون في أمرهم . وقالوا نكتب لرسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدوِّنا . قال : فشجع عبد الله بن رواحة الناسَ ، ثم قال : والله يا قوم ، إنّ الذي تكرهون لَلَّذي خرجتم له ، تطلبون الشهادة ، وما نقاتل العدو بِعُدّة ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلِقوا ؛ فإنما هي إحدَى الحُسْنَيَيْنِ ، إما ظهورٌ وإما شهادة . قال : فقال الناس : قد - والله - صدق ابنُ رواحة . فمضى الناس .

وفي رواية للوليد بن مسلم : استشار زيدٌ أصحابه ، فقالوا : قد وَطِئْتَ البلاد وأخفتَ أهلَها فانصرِفْ ، وابن رواحة ساكت ، فسأله ، فقال : إنا لم نَسِرْ لغنائم ولكنا خرجنا للِّقاء ، ولسنا نقاتلهم بعدد ولا عُدَّة ، والرأي : المسير إليهم .

وعن زيد بن أرقم قال : كنت يتيمًا لعبد الله بن رواحة في حِجْرِه ، فخرج في سفْرته تلك مُرْدِفي على حقيبةِ راحلتهِ ، فوالله إنا لنسير ليلةً ، إذ سمعتُه يتمثَّل بأبياته هذه :

إذا أَدنيْتني وحملْتِ رحْلي مسيرةَ أربعٍ بعد الحِساءِ

فشأنُكِ فانعمي وخَلاكِ ذمٌّ   ولا أَرْجِعْ إلى أهلي ورائي
وآبَ المسلمون وغادروني   بأرضِ الشام مستنهى الثَّواءِ[(١)]
وردّكِ كلّ ذي نسبٍ قريبٍ   إلى الرحمٰن منقطعَ الإخاءِ
هنالكَ لا أبالي طَلْعَ بعْلٍ   ولا نخلٍ أسافلها رُوَاء

فلما سمعتهن بكيتُ ، قال : فخفقني بالدِّرة ، وقال : ما عليك يا لُكَع أن يرزقني الله الشهادة ، وترجع بين شعبتَيْ الرَّحْل .

فأخذ الرايةَ عبدُ الله بن رواحة بعد قتْل صاحبيه ، فجعل يستنزل نفسَه ، ويتردد بها بعضَ التردُّد ، فقال عند ذلك :

أقسمتُ بالله لتنزلنَّهْ   طائعةً أوْ لتُكْرَهِنَّهْ
إنْ أجلبَ الناسُ وشدُّوا الرَّنَّهْ   ما لي أراكِ تكرهينَ الجنهْ
قد طالَ ما قد كنتِ مُطمئنهْ   هل أنتِ إلا نطفةٌ في شَنَّهْ

وقال أيضًا :

يا نفسُ إنْ لا تُقتلي تموتي   هذا حِمامُ الموتِ قد لَقِيتِ
وما تمنيتِ فقد أُعطيتِ   إنْ تفعلي فِعْلَهُما هُدِيتِ
وإن تأخرتِ فَقَدْ شقيتِ

ونزل فلما نزل ، أتاه ابن عمٍّ له بعظمٍ من لحمٍ ، فقال : شُدَّ بهذا صُلْبَك ؛ فإنك قد لاقيتَ من أيامكِ هذه ما قد لقيتَ . فأخذه من يده ، ثم انتهشَ منه نَهْشَةً ، ثم سمع الحِطْمَة في ناحية الناس ، فقال : وأنت في الدنيا ! ثم ألقاه من يده ، ثم أخَذَ سيفه ، فقاتل حتى قُتل ، رضي الله تعالى عنه[(٢)].

---

(١) أيْ : حيث انتهى مثواه ، أي : لا أريد رجوعًا .
(٢) الحلية ١ / ١١٨ – ١٢٠ ، والبداية والنهاية ٤ / ٢٤٣ – ٢٤٥ .

أبو دُجَانَةَ الأنصاري ، سِمَاكُ بن خَرَشَةَ رضي الله عنه :

ثبتَ أبو دجانة يوم أُحد مع النبي ﷺ ، وبايعه على الموت ، وهو ممَّن شارك في قَتْل مسيلمة الكذاب ، ثم استُشهد يومئذٍ .

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أُحدٍ فقال : « مَنْ يأخذ مني هذا ؟ » فبسطوا أيديهم ، كلُّ إنسانٍ منهم يقول : أنا ، أنا . قال : « فمن يأخذه بحقِّه ؟ » فأحجمَ القوم ، فقال سِماك بن خَرَشَةَ أبو دجانة : أنا آخذه بحقّه . قال : فأخذه ، ففلق به هامَ المشركين . رواه أحمد ومسلم .

« قال ابن إسحاق : قاتَل أبو دجانة حتى أمْعَن في الناس . قال ابن هشام : حَدَّثني غير واحدٍ من أهل العلم أن الزبير بن العوَّام قال : وجدتُّ في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنَعَنيه وأعطاه أبا دجانة ، وقلت : أنا ابن صفية عمته ومن قريشٍ ، وقد قمتُ إليه وسألتُه إياه قبله ، فأعطاه أبا دجانة وتركني ، والله لأنظرنَّ ما يصنع ، فاتَّبعتُه ، فأخرج عصابةً له حمراءَ ، فعصب بها رأسَه ، فقالتِ الأنصار : أخرج أبو دجانة عِصَابة الموت ، وهكذا كانت تقول له إذا تعصّب ، فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهَدَني خليلي ... ونحنُ بالسَّفْحِ لدَى النَّخيلِ
أن لا أقومَ الدهرَ في الكَيُّول(١) ... أضربُ بسيفِ اللهِ والرسولِ

فجعل لا يَلقَى أحدًا إلا قتله ، وكان في المشركين رجلٌ لا يدعُ جريحًا إلَّا ذفَّف(٢) عليه ، فجعل كلٌّ منهما يدنو من صاحبه ، فدعوتُ الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا فاختلفا ضربتَيْنِ ، فضرب المشركُ أبا دجانة ، فاتَّقاه

---

(١) الكَيُّول : مؤخر الصفوف .
(٢) أجهز عليه .

بدرَقَتِه ، فعضّتْ بسيفه ، وضربه أبو دجانة فقتله »[١].

رحمك الله ، ورضي عنك يا أبا دجانة .. يا صاحب عِصابة الموت .. يا مَنْ لا تقوم الدهرَ في الكيول بل تفلق هامَ المشركين .

أمّا نحن ، فتُفلق هامُنا .. وتصبغ العصابات من دمانا وأعراض نسائنا .

قد استردّ السبايا كلُّ منهزمٍ لم تبقَ في أسْرِهَا إلا سَبَايَانَا
وما رأيتُ سياطَ الذلِّ داميةً إلا رأيتُ عليهم لحْمَ أسْـرَانا
وما نموتُ على حدّ الظُّبا أنفًا حتى لقـد خجِلَتْ منّا مَنَايانا

عن أنس بن مالك قال : رمَى أبو دجانة بنفسه يوم اليمامة إلى داخل الحديقة ، فانكسرتْ رجلُه ، فقاتل وهو مكسورُ الرِّجل حتى قُتِلَ رضي الله عنه[٢].

مَجْزَأَةُ بن ثوْرٍ السَّدُوسي :

المغوار الذي جعله الله سببًا في فتح « تُسْتَر » .. بعد أن دلّهم رجلٌ من فارس على منفذٍ خفيٍّ ، ونفقٍ تحت الأرض يصل بين النهر والمدينة ، بعد أن طال حصار تُستر ومصاولة المسلمين للمشركين ثمانين مرة . وسار مجزأة على رأس ثلاثمائة من أشجع جندِ المسلمين ، يُصارعون هذا النفق الخطير ويعبرونه ، وابتلع النفق مائتين وعشرين رجلًا ... وانقضَّ مَجزأة سيد بني بكر وصحبه على حُماة الحصن ، وفتحوا الأبواب وهم يكبرون .

هذا البطل العظيم الذي قتل مائةً مبارزةً .. لله درُّ أمٍّ درَّتْ عليه ، وثَدْيٍ أرضعه !

---

(١) البداية والنهاية ٤ / ١٧ - ١٨ .
(٢) أسد الغابة ٢ / ٤٥٢ ، وسير أعلام النبلاء ١ / ٢٤٤ .

يقول الطبري عن حصار تُسْتَر ، في أحداث سنة سبع عشرة : « قتل البراءُ بن مالك فيما بين أوّلِ ذلك الحصار ، إلى أن فتح الله على المسلمين مائة مبارزٍ ، سوى من قتل في غير ذلك ، وقتل مجزأةُ بنُ ثور مثلَ ذلك ، وقتل كعب بن سور مثل ذلك ، وقتل أبو تميمة مثل ذلك ، في عدةٍ من أهل البصرة ، وفي الكوفيين مثل ذلك ، منهم : حبيب بن قرّة ، ورِبْعيّ ابن عامر ، وعامر بن عبد الأسود - وكان من الرؤساء - في ذلك ما ازدادوا به إلى ما كان منهم[١] ».

ثابت بن قيْس بن شمَّاس الخَزْرجي ، خطيبُ الأنصار والبطل الكرّار ، رضي الله عنه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « نِعْمَ الرجل ثابت بن قيس بن شماس »[٢].

وقال له النبي ﷺ : « يا ثابت ، أما ترضَى أن تعيش حميدًا ، وتُقتل شهيدًا ، وتدخل الجنة »[٣].

« فلما كان يوم اليمامة ، انهزم الناس ، فقال ثابت : أُفٍّ لهؤلاء ولِمَا يعبدون ! وأفٍّ لهؤلاء ولِمَا يصنعون ! يا معشر الأنصار ، خلُّوا سَنَني لعلّي أصلىٰ بحرِّها ساعةً ، ورجل قائم على ثُلْمَةٍ ، فقتله وقُتل .

وعن أنس قال : أتيتُ على ثابت بن قيس يوم اليمامة وهو يتحنّط ، فقلت : أي عَمِّ ، ألا ترى ما لقي الناس ؟ فقال : الآن يا ابن أخي .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٥٠١ طبع دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ، وقال : حديث حسن . وهو كما قال ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) إسناده قوي ، أخرجه الحاكم ٣ / ٢٣٤ وصححه ، ووافقه الذهبي .

وعن أنسٍ قال : جئتُه وهو يتحنط ، فقلت : ألا ترى ؟ فقال : الآن يا ابن أخي . ثم أقبل ، فقال : هكذا عن وجوهنا نقارعُ القوم ، بئس ما عوّدتُّم أقرانكم ، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ، فقاتل حتى قُتل[(١)] .

« وعن أنسٍ : أن ثابت بن قيسٍ جاء يوم اليمامة ، وقد تحنط ولبس ثوبيْن أبيضيْن ، فكُفِّن فيهما ، وقد انهزم القوم ، فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، وأعتذر من صنيع هؤلاء ، بئس ما عوّدتم أقرانكم ، خلّوا بيننا وبينهم ساعة ، فَحَمَلَ ، فقاتل حتى قُتل »[(٢)] .

لك الله يا ثابتُ مِن فارسٍ مغوارٍ وبطل كرّار .. تلبس الكفن ببطولةٍ وفدائية ، وغيرك من أقزام عصرنا أوْلى بلُبْسِ الكفن من الأموات ذلًّا وخِزْيًا وهوانا !!

لقد جفّتْ سواقينا وهَدّ الذل مأْوَانا
ولم يتركْ لنا الأعداءُ غرسًا في أراضِينا
سِوى أجيافِ مَوْتانا
أخي إن ضجّ بعد الحرب (يهودي) بأعمالِهْ
وقدّس ذِكْرَ مَن ماتُوا وعظّمَ بَطْشَ أبطالِهْ
فلا تهزجْ لمن سادوا ولا تشمَتْ بمَن دَانا
بل اتبعني لنحفر خندقًا بالرفش والمِعْوَلْ
نُواري فيه موتانا
بل اركعْ خاشعًا مِثلي لنبكي حظَّ موتَانا
أخي مَنْ نحن لا وطن ولا أهل ولا جار

(١) رواه البخاري .
(٢) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

إذا نِمْنَا إذا قُمْنا ردانا الخزيُ والعارُ
لقد خمّتْ بنا الدنيا كما خُمَّتْ بموتانا
فهاتِ الرّفش واتبعني لنحفرَ خندقًا آخرْ
نواري فيه أَحيانا

نعيم بن مالك بن ثَعْلبة ، وهو أَحَد بني سالمٍ ، رضي الله عنه :

في البداية والنهاية (٤ / ١٣ - ١٤) : قال في يوم أُحد للنبي ﷺ : يا نبي الله ، لا تحرمْنا الجنة ، فوالذي نفسي بيده لأَدخلنّها . فقال له رسول الله ﷺ : « بِمَ ؟ » قال : بأني أحبُّ الله ورسوله ، ولا أفرّ يوم الزّحف . فقال له رسول الله ﷺ : « صدقت » . واستُشهد يومئذٍ .

عبد الله بن عمرو بن حَرام ، الصحابي الذي كلّمه اللهُ كِفاحًا :

رزقه الله الشهادة يوم أُحد لمّا تعرض لها .

رأى عبدُ الله بن حرام مبشّر بن عبدِ المنذر - وكان ممن استشهد ببدرٍ - يقول له : أنت قادمٌ علينا في هذه الأيام . فقصَّها على النبي ﷺ ، فقال : « هذه الشهادة » .

وعن جابرٍ أن أباه قال له : إني مُعرّضٌ نفسي للقتل(١) .

وروى البخاري عن جابر قال : لمّا حضر أُحُد ، دعاني من الليل فقال : ما أراني إلّا مقتولًا في أول من يُقتَل من أصحاب النبي ﷺ ، وإني لا أترك بعدي أعزّ عليّ منك ، غيرَ نفسِ رسول الله ﷺ ، وإنّ عليّ دَيْنًا فاقض ، واستوصِ بأخواتك خيرًا . فأصبحنا فكان أول قتيل ...

لله درُّه .. يتعرض للشهادة ويعزم عليها ، ويُوصي ابنه ، وكأنه يرى

(١) فتح الباري ٣ / ٢٥٦ .

الشهادة رأْيَ العين ..

قال جابر : لما قُتل أبي يوم أُحد ، جعلتُ أكشف عن وجهه ، وأبكي ، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني ، وجعلتْ عمتي تبكيه ، فقال النبي ﷺ : « تبكيه أو لا تبكيه ، ما زالت الملائكة تُظلله بأجنحتها حتى رفعتموه »(١).

وعن جابر قال : قال لي رسول الله ﷺ : « ألا أخبرك أن الله كلَّم أباك كفاحًا ، فقال : يا عبدي ، سَلْني أُعطِكَ . قال : أسألك أن تردَّني إلى الدنيا ، فأُقتل فيك ثانيًا . فقال : إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يُرجعون . قال : يا ربِّ ، فأبلغْ من ورائي . فأنزل الله ﴿ **ولا تحسبَنَّ الذين قُتلوا في سبيلِ اللهِ أمواتًا بلْ أحياءٌ عند ربّهم يُرزقون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] »(٢) .

سعد بن الربيع رضي الله عنه :

أَحَدُ النُّقَباء ليلةَ العَقَبة .

« لما كان يوْم أُحد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رجلٌ ينظرُ لي ما فعل سعدُ بن الربيع ؟ » فقال رجل من الأنصار(٣) : أنا . فخرج يطوف في القتلَى ، حتى وجد سعدًا جريحًا مثبتًا بآخر رَمَقٍ ، فقال : يا سعد ، إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر : أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟! قال : فإني في الأموات ، فأبلِغْ رسول الله ﷺ السلام ، وقلْ : إن سعدًا يقول : جزاك الله عني خيرَ ما جزى نبيًّا عن أمته ، وأبلغْ قومَك مِني السلام ، وقلْ لهم : إن سعدًا يقول لكم : إنه لا عُذْرَ لكم عند الله إنْ خُلِص إلى نبيّكم

---

(١) أخرجه أحمد ٣ / ٢٩٨ ، والبخاري (١٢٤٤ ، ٤٠٨٠) ومسلم والنسائي .

(٢) صحيح ، أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٣) هو أبيّ بن كعب .

ومنكم عَيْنٌ تَطْرِف »[١].

«وعن مالك بن أنس أن النبي ﷺ قال : « مَنْ يأتينا بخبرِ سعد ؟». فقال رجل : أنا . فذهب يطوف بين القتلَى ، فوجده وبه رمَق ، فقال : بعثني رسول الله ﷺ لآتيه بخبرك . قال : فاذهب فأَقْرِهِ مني السلام ، وأخبره أنني قد طُعنتُ اثنتي عشرة طعنةً ، وقد أنفذت مقاتلي »[٢].

لله دَرُّكَ يا ابن الربيع !

المِقْدَادُ بن عمرو ، فارس بدْر ، رضي الله عنه :

السابق إلى الإسلام ، الفارس يوم الحرب والإقدام ، أعرض عن العمالات ، وآثر الجهادَ والعبادات .

روى البخاريُّ عن عبد الله بن مسعود قال : شهدتُّ من المقداد بن الأسود مشهدًا ، لأَنْ أكون صاحبَه أحبّ إليّ ممّا عُدل به ، أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسَى لموسَى : ﴿ **اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون** ﴾ ، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، وبين يديْك وخلفك . فرأيتُ النبي ﷺ أشرق وجهُه ، وسرَّ :

« وعند ابن إسحاق : أن المقداد قال : يا رسول الله ، امضِ لِمَا أراك الله ، فنحن معك لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ **اذهبْ أنت وربُّك فقاتِلا إنا هاهنا قاعِدُون** ﴾ ولكن اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرتَ بنا إلى « بَرْكِ الغِماد » ،

---

(١) الإصابة ٤ / ١٤٤ ، والاستيعاب لابن عبد البر ٤ / ١٤٥ ، والسيرة لابن هشام ٢ / ٩٤ - ٩٥ .

(٢) الموطأ ٢ / ٢١ ، وطبقات ابن سعد ٣ / ٢ / ٧٧ .

لجالدْنَا معك من دونه . حتى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له »(١).

عن أبي راشد الحُبراني قال : وافيتُ المقدادَ فارسَ رسول الله ﷺ بـ« حِمص » على تابوت من توابيت الصيارفة ، قد أفضل عليها من عِظَمِه ، يريد الغزو ، فقلت له : قد أعذر الله إليك . فقال : أبتْ علينا سورة البَحُوث ﴿ انفرُوا خِفَافًا وثِقَالًا ... ﴾ [التوبة : ٤١](٢).

أبو طَلْحَة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ ، وأحدُ أعْيان البدْريِّين ، رضي الله عنه :

هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « لَصوتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من ألف رجل »(٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لصوتُ أبي طلحةَ في الجيش خيرٌ من فِئةٍ »(٤).

بربِّك قُلْ لي : إنْ كان هذا حال صوته ، فكيف زَنْدُه ونَبْله ، وسيفه ورمْحُه ؟!

---

(١) البداية والنهاية ٣ / ٢٦١ ..

(٢) صحيح : أخرجه ابن سعد ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي . وسورة البَحوث هي التوبة ، سُميتْ بذلك لبحثها عن المنافقين وهتْكها لأستارهم .

(٣) صحيح ، رواه الحاكم عن جابر ، وابن عساكر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٢٧٥ ، وصحيح الجامع ٥٠٨١ .

(٤) صحيح ، رواه أحمد والحاكم وابن سعد وأبو نعيم في الحلية والخطيب وابن عساكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٠٨٢ .

عن أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة كان يرمي بين يديْ رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ ، وكان رجلًا راميًا ، وكان رسول الله ﷺ إذا رمَى أبو طلحة ، رفع بصرَه ينظر أينَ يقع سهمُه . وكان يدفع صدر رسول الله ﷺ بيده ، ويقول : يا رسول الله ، هكذا لا يُصيبك سهم[(١)].

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : لما كان يوم أُحد ، انهزم الناس عن رسول الله ﷺ ، وأبو طلحة بين يديْه مُجَوِّبًا عليه بحَجَفَةٍ[(٢)] ، وكان راميًا شديد النَّزْع ، كسَر يومئذٍ قوسيْن أو ثلاثةً . وكان الرجل يمرّ معه **الجَعْبة من النَّبْل فيقول ﷺ : « انثُرْها لأبي طلحة »**. **ثم يشرف** إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : يا نبي الله ، بأبي أنت ، لا تُشرف ، لا يُصيبك سهمٌ ، نَحْري دونَ نَحْرِكَ .

وكان إذا بقي مع النبي ﷺ ، جثا بين يديْه ، وقال : نفسي لنفسك الفداءُ ، ووجْهي لِوجْهك الوِقَاءُ .

« وعن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ **قال يوم حُنَيْنٍ** : « مَنْ قتل قتيلًا فله سَلَبُه » . فقَتل أبو طلحة يومئذٍ عشرين رجلًا ، وأخذ أسْلاَبَهم »[(٣)].

وعن أنس رضي الله عنه ، أن أبا طلحة قرأ ﴿ **انفرُوا خِفافًا وثِقالًا** ... ﴾ الآية [التوبة : ٤٢] ، فقال : استنفرنا الله ، وأمَرنا : شيوخَنا وشبابَنا ؛ جهِّزوني . فقال بنوه : يرحمك الله ! إنك قد غزوتَ على عهد رسول الله ﷺ ،

---

(١) أخرجه أحمد ٣ / ٢٨٦ ، ٢٨٧ وابن سعد ٣ / ٥٠٦ وإسناده صحيح .
(٢) مجوبًا عليه : أي مُتَرِّسًا عليه ، والحجفة : الترس .
(٣) إسناده صحيح ، أخرجه أبو داود ، والدارمي ، وابن سعد ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي .

وأبي بكر ، وعمر ، ونحن نغزو عنك الآن . قال : فغزا البحرَ فمات ، فلم يجدوا جزيرةً يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام ، فلم يتغيَّر[١] .

عَمرو بن الجَمُوح بن زيد الخَزرجي ، سيِّد بني سَلَمَةَ ، رضي الله عنه :

عن جابرٍ رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « يا بني سلمة ، مَن سيِّدكم ؟ » . قالوا : الجدُّ بن قيس ، وإنا لنبخِّله . قال : « وأيّ داءٍ أدْوَى مِنَ البخل ؟! بل سيدكم : الجَعْد الأبيض عمرو بن الجَمُوح »[٢] .

وأخرج أحمد من حديث أبي قتادة قال : أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيتَ إنْ قاتلتُ في سبيل الله حتى أُقتل ، أأمشي برجلي هذه صحيحةً في الجنة ؟ - وكانت رجله عَرْجاء - فقال رسول الله ﷺ : « نعم » . فقُتلوا يومَ أُحدٍ : هو ، وابنُ أخيه ، ومولًى له . فمرَّ رسول الله ﷺ فقال : « كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة » . فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجُعِلوا في قبر واحد[٣] .

لم يشهد رضي الله عنه بدرًا ؛ كان أعرجَ ، ولما خرج يوم أحدٍ منعه بنوه ، وقالوا : عَذَرك اللهُ . فأتى رسول الله ﷺ يشكوهم . فقال : « لا عليكم أنْ لا تمنعوه ؛ لعلّ الله يرزقه الشهادة » .

قالت امرأته هندُ أختُ عبد الله بن عمرو بن حرام : كأني أنظر إليه قد أخذ دَرَقَته ، وهو يقول : اللهمَّ لا تردَّني .

---

(١) إسناده صحيح .
(٢) سنده قوي ، أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو نعيم في الحلية .
(٣) قال الحافظ في « الفتح » ٣ / ١٧٣ : سنده حسن .

فلما كان يوم أحد قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى جنة عرضُها السمٰوات والأرض ، أعِدَّتْ للمتقين » . فقام وهو أعرج ، فقال : والله لأقْحزَنَّ(١) عليها في الجنة . فقاتل حتى قُتِلَ .

ابنُ أمِّ مَكْتُوم القرشي ، رضي الله عنه :

عن مروان بن الحَكَم ، أن زيد بن ثابتٍ أخبره أن رسول الله ﷺ أملَى عليه (لا يستوي القاعدُون مِنَ المؤمنينَ والمجاهدونَ في سبيل الله ...) فجاءَه ابن أمّ مكتوم ، وهو يُملُّها عليّ ، قال : يا رسول الله ، لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ . وكان أعمَى ، فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخِذُه على فخِذي ، فثقلت عليّ ، حتى خفتُ أن تُرضَّ فخذي ، ثم سُرِّي عنه . فأنزل الله ﴿ **غيرُ أولي الضَّرر** ﴾(٢) .

وكان رضي الله عنه - بعدُ - يغزو ويقول : ادفعوا إليّ اللواء ؛ فإني أعمَى لا أستطيع أن أفرَّ وأقيموني بين الصَّفَّين(٣) .

وعن أنس ، أن عبد الله بن زائدة - وهو ابن أم مكتوم - كان يقاتل يوم القادسية وعليه دِرْعٌ له ، حصينة سابغة(٤) .

قال الواقدي : شَهِدَ القادسية معه الراية ، ثم رجع إلى المدينة فمات بها .

قال الذهبي في « السير » (١ / ٣٦٥) : « قلت : ويقال:استشهد يوم القادسية » .

---

(١) القَحْزُ : الوَثْب .
(٢) أخرجه البخاري ، والترمذي ، وابن سعد .
(٣) أخرجه ابن سعد .
(٤) أخرجه ابن سعد ٤ / ١ / ١٥٤ .

لله دَرُّكَ يا مؤذِّن رسول الله ﷺ ! حين تشهد الوغَى ، وطَعْنَ الرماح ووقْع الأسنّة ، وتُمسك بالراية وأنت أعمى .. مِن أيّ طينةٍ طاهرةٍ عَطِرة كنتم ، وبأيّ أرحامٍ حُملتم ، ومن أيّ أصلاب خرجتم ؟! لكأنكم أتيتم إلينا من عوالم علوية غير عالمنا هذا !!

فالقادسيَّةُ ما يزالُ حديثُها   عِبَرٌ تُضِيءُ بأرْوَعِ الأمثالِ
تَحْكِي مفاخرَنا وتَذكُر مجدَنا   فتجيبُها حِطِّينُ بالمِنْوَالِ
صَفَحَاتُ مجدٍ في الخلودِ سطُورُها   تاقَ الزمانُ لها بغيرِ جِدالِ

الطَّيِّب المُطيَّب الذي تشتاقُ إليه الجنةُ عمَّار بن ياسر ، رضي الله عنه :

قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاقُ إلى ثلاثةٍ : علي وعمّار وسَلمان »[(١)].

وعن علي رضي الله عنه قال : استأذن عمّار على النبي ﷺ ، فقال : « مَنْ هذا ؟ » قال : عمار . قال : « مرحبًا بالطَّيِّب المُطيَّب »[(٢)].

وقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مُلِئَ إيمانا إلى مُشَاشِهِ » . يعني عمّارًا[(٣)].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اقتدوا باللَّذيْن مِن بعدي ، أبي بكر وعمر ، واهتدوا بهدي عمّار ، وتمسّكوا بعهد

---

(١) حسن ، رواه الترمذي ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٩٨ .
(٢) صحيح ، أخرجه الترمذي ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم في المستدرك وصححه ، ووافقه الذهبي .
(٣) إسناده صحيح . رواه النسائي ، والبزار ، وقال الحافظ في الفتح ٧ / ٩٢ : إسناده صحيح . والمُشاش : رؤوس العظام اللَّيِّنة .

ابن أمّ عبد »[١].

وعمار رضي الله عنه هو الذي قال عنه أبو الدرداء رضي الله عنه : « الذي أُجيرَ من الشيطان » .

وقال أبو هريرة : « وعمار الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه » .

قال ابن عمر : رأيت عمَّارًا يوم اليمامة على صخرة ، وقد أشرف يَصيح : يا معشرَ المسلمين ، أَمِنَ الجنة تفرُّون ؟! أنا عمار بن ياسر ، هلمُّوا إليّ . وأنا أنظر إلى أُذُنه قد قطعتْ فهي تُذبذب ، وهو يقاتل أشدَّ القتال[٢].

وعن طارق بن شهاب : إن أهل البصرة غزوا « نهاوند » ، فأمدَّهم أهل الكوفة وعليهم عمار ، فظفروا ، فأراد أهل البصرة ألا يقْسموا لأهل الكوفة شيئًا ، فقال رجل تميمي : أيها الأجدعُ ، تريد أن تشاركنا في غنائمنا ؟! فقال عمار : خيرُ أذنيّ سَبَبْتَ ؛ فإنها أصيبتْ مع رسول الله ﷺ[٣].

عكرمَة بنُ أبي جَهْل :

الشَّريف الرئيس الشهيد أبو عثمان القرشي المخزومي ، رضي الله عنه .

« قال الشافعي : كان محمودَ البلاءِ في الإسلام . رضي الله عنه .

---

(١) حسن ، أخرجه أحمد ، والترمذي ، وصححه ابن حبان ، وأخرجه ابن ماجه مختصرًا ، والحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وأخرجه الفسوي في « المعرفة والتاريخ » .

(٢) أخرجه ابن سعد ٣ / ١ / ١٨١ .

(٣) إسناده صحيح ، أخرجه ابن سعد ٣ / ١ / ١٨١ - ١٨٢ ، وعبد الرزاق في المصنف ، والبيهقي في السنن ، والبغوي في شرح السنة .

وقال أبو إسحاق السَّبيعي : نزل عِكْرمة يومَ اليرْمُوك ، فقاتل قَتْلًا شديدًا ، ثم استُشهد ، فوجدوا به بضعًا وسبعينَ ، من طعنةٍ ورمْيةٍ وضربةٍ .

وقال عروة وابن سعد وطائفة : قُتل يوم أجنادين »[(١)].

لمّا كان يوم اليرموك ، تقدّم خالد إلى عكرمة بن أبي جهل والقَعْقَاع ابن عمرو أن يُنشِئا القتال ، فبدرا يرتجزان ودعوا إلى البِرَاز ، وتنازل الأبطال وتجاولوا ، وحمِي الحرب وقامت على ساقٍ . فنادى عكرمة : « قاتلتُ رسول الله ﷺ في كلّ موطنٍ ، وأفرّ منكم اليوم ؟! مَنْ يبايع على الموت ؟ فبايعه أربعمائة من وُجوه المسلمين وفرسانهم ، فبايعه عمُّه الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور ، فاستبسلوا وقاتلوا قُدَّام فسطاط خالد ، حتى أثبتوا جميعًا جراْحًا . وأُتي خالد بِعِكْرمة جريحًا فوضع رأسَه على فخِذه ، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسَه على ساقه ، وجعل يمسح عن وجهيْهما ، ويُقطِرُ الماءَ في حلقيْهما .

فرضي اللهُ عن شهيد اليرموك عكرمة ، الذي قال فيه ابن كثير : « يُقال : إنه لا يُعرف له ذنبٌ بعد ما أسْلَم »[(٢)].

أبو الأعْور ، سعيدُ بن زيْد بن عمرو بن نُفَيْل أحدُ العشرة ، رضي الله عنه :

قائد الفرسان يوم أجْنادِين ، وكان من أشد الناس ، وهو الذي أشار على خالد بِبَدْءِ القتال يوم أجنادين لما رمَى الرومُ المسلمين بالنُّشَّاب ، فصاح سعيد بن زيد بخالد قائلًا : « عَلامَ نستهدف لهؤلاء الأعْلاج ؛ وقد رشقونا بالنشاب حتى شَمَسَتِ[(٣)] الخيل ؟! » . فأقبل خالد إلى خيل المسلمين ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ٧/ ١١ ، ٧/ ٣٥ ، والطبري ٣/ ٤٠١ .

(٣) امتنعتْ ظهورها عن الركوب .

وقال لهم : « احملوا - رحمكم الله - على اسم الله » . وحمل خالدٌ على الروم ، وحمل المسلمون معه بأجمعهم ، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرتين .. على ميْمنتهم مرة ، ثمّ على ميْسرتهم ، ثم صبروا لرَشْق نبالهم ، وانطلق جيش المسلمين إلى الروم ، فما صبر الروم لهم فَوَاقًا[1] ، وانهزموا هزيمةً شديدة ، وقتلهم المسلمون كيف شاءُوا ، وأصابوا معسكرهم وما حَوى .

وعند الطبري ، عن ابن إسحاق : « فلما رأى القبقلار[2] ما رأى من قتال المسلمين ، قال للروم : لفّوا رأسي بثوْبٍ . قالوا : لِمَ ؟ قال : يوم البئِيس ، لا أحب أن أراه ، ما رأيت في الدنيا يومًا أشدَّ من هذا . فاحْتَزَّ المسلمون رأسَه ، وإنه لَمُلَفَّفٌ » .

ولعلّ أروع بطولاته تلك التي سجّلها يوم اليرموك :

« قال سعيد بن عمرو بن نُفيل : لمّا كان يوم اليرموك كنا أربعًا وعشرين ألفًا أو نحوًا من ذلك ، فخرجتْ لنا الروم بعشرين ومائة ألفٍ ، وأقبلوا علينا بخطًى ثقيلةٍ ، كأنهم الجبال تُحركها أيدٍ خفيّةٌ وسار أمامهم الأساقفةُ والبطارقةُ والقسِّيسُون يحملون الصلبان وهم يجهرون بالصلوات ، فيردِّدُها الجيش من ورائهِمْ ، ولهم هَزِيمٌ كهزيم الرَّعد . فلما رآهم المسلمون على حالهم هذه ، هالتْهم كثرتُهم ، وخالط قلوبَهم شيءٌ من خوْفهم . عند ذلك قام أبو عبيدة بن الجراح يحضُّ المسلمين على القتال ، فقال : عبادَ الله ، انصروا الله ينصرْكم ويثبِّتْ أقدامكم . عباد الله ، اصبروا ؛ فإن الصبر منجاةٌ

(١) الفواق : ما بين الحلْبَتَيْن من الوقت ، والمراد : الزمن القصير .
(٢) قائد جيش الروم .

من الكفر ومرضاةٌ للرب ، وَمَدْحَضَةٌ للعار . وأَشرعُوا الرماح ، واستتِرُوا بالتروس ، والزموا الصمتَ إلا من ذكْر الله عز وجل في أنفسكم ، حتى آمركم إن شاء الله .

قال سعيد : عند ذلك خرج رجلٌ من صفوف المسلمين وقال لأبي عُبيدة : إني أزمعتُ[١] على أن أقضي أمري الساعة[١] ، فهل لك من رسالة تبعث بها إلى رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو عُبيدة : نعم ، تُقرئه مني ومن المسلمين السلامَ ، وتقول له : يا رسول الله ، إنا وجدْنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا . قال سعيد : فما إنْ سمعتُ كلامَه ، ورأيتُه يمتشِقُ حُسَامَه ويمضي إلى لقاءِ أعداء الله ، حتى اقتحمتُ[٢] إلى الأرض ، وجثوْتُ على ركبتَّي ، وأشرعتُ رمحي ، وطعنت أوَّلَ فارس أقبَل علينا ، ثم وَثبتُ على العدوِّ ، وقد انتزع الله كلَّ ما في قلبي من الخوْف ، فثار الناس في وُجوه الروم ، وما زالوا يقاتلونهم حتى كتب الله للمؤمنين النصر »[٣] .

« قال حبيب بن سلمة : اضطررنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد ، فللّه درُّ سعيد ! ما سعيد يومئذ إلا مثلُ الأسد ، لما نظر إلى الروم وخافها ، اقتحم إلى الأرض وجثا على ركبتيْه ، حتى إذا دَنَوْا منه وثب في وجوههم مثلِ الليْثِ ، فطعن برابته أوَّلَ رجلٍ من القوم فقتله ، وأخذ - واللهِ - يقاتل راجلًا - قتالَ الرجل الشجاع البَأْسِ - فارسًا ، ويعطِفُ الناسُ إليه »[٤] .

---

(١) أزمعتْ : عزمتُ . وأقضي أمري الساعة : أي أموت في هذه الساعة .
(٢) اقتحمت إلى الأرض : رميتُ بنفسي بشدةٍ على الأرض .
(٣) صُور من حياة الصحابة ١ / ١٥٥ - ١٥٨ للدكتور عبد الرحمٰن رأفت الباشا - طبع مؤسسة الرسالة .
(٤) تاريخ ابن عساكر ١ / ٥٤١ ، الأزدي ٢٢٦ .

حَكِيمُ الأُمَّةِ أبو الدَّرْدَاء :

« قال ابن إسحاق : كان الصحابة يقولون : أَتْبَعُنَا للعلم والعمل أبو الدرداء .

قال سعيد بن عبد العزيز : أسلم أبو الدرداء يومَ بدر ، ثم شَهِدَ أُحُدًا ، وأمَره رسول الله ﷺ يومئذٍ أن يَرُدَّ مَنْ على الجبلِ ، فردَّهم وحْدَه » .

أبو أيُّوب الأنصارَي ، السيّدَ الخزرجي ، النَّجّاري البدْري :

رفع الله في الخافقيْن ذِكْره ، وأعلى في الأنام قَدْرَه حين اختار بيْتَه مِن دون بُيوت المسلمين جميعًا لينزل فيه النبي ﷺ ، لما حلَّ في المدينة مهاجرًا ، وحسبُه بذلك فَخْرًا .

أمّا في شيخوخته فقد كان عجبًا .

وكانت آخر غزَوَاته حين جهَّز معاويةُ جيشًا بقيادة ابنه « يزيد » لفتْح القسطنطينية ، وكان أبو أيُّوب آنذاك شيخًا طاعِنًا في السِّنِّ يحبو نحو الثمانين من عمره ، فلم يمنعه ذلك من لقاءِ العدوّ ، لكنّه لم يمض غيرُ قليلٍ على مُنازَلة العدو ، حتى مرض أبو أيوب مرضًا أقعده ، فأتاه يزيد يعوده ، فقال : حاجتكَ ؟ قال : نعم ، إذا أنا متّ فاركب بي ، ثم تبيّغْ[1] بي في أرض العدوّ ما وجدتَّ مَسَاغًا ، فإذا لم تجد مساغًا ، فادفنِّي ثم ارجعْ ، فلما مات ركب به ، ثم سار به ، ثم دفنه . وكان يقول : قال الله : ﴿ **انفروا خِفافًا وثِقالًا** ... ﴾ الآية [التوبة : ٤١] ، لا أجدُني إلا خفيفًا أو ثقيلًا .

وعند ابن سعد : عن أبي ظبيان ، قال : أغزى أبو أيوب فمرض ،

---

(١) تبيّغ به الدم : أي تردَّد فيه . وفي « الطبقات » ، و« أسد الغابة » ، وابن عساكر : ثم سُغْ،أي : ادخل فيها ما وجدت مُدَّخَلًا .

فقال : إذا متُ فاحملوني ، فإذا صافَفْتم العدوَّ ، فارموني تحت أقدامكم . أمَا إني سأحدثكم بحديث سمعتُه من رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : « من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة »(١).

يا له من شَوْقٍ عارم إلى الجهاد ، لا يحدُّه حدٌّ ! فرضي الله عن السيِّد الشيْخ المجاهد ، المدفون تحتِ أسوار القسطنطينية .

أبو الغادية ، الصحابي الذي قَتل بِسَهْمٍ واحدٍ ثلاثمائة رُوميّ في وقتٍ واحدٍ :

لا تعجبْ .. فحياة الصحابة كلُّها أعاجيبُ .

تركْنا البحارَ الزاخراتِ وراءنا فَمِنْ أينَ يدري الناسُ أنَّى توجَّهنا

قال الذهبي عن أبي الغادية : « مِن وجوه العرب ، وفرسان أهل الشام .

قال عثمان بن أبي العاتكة : رمَى العدوّ الناسَ بالنِّفْطِ ، فقال معاوية : أمَا إذْ فعلوها فافعلوا . فكانوا يترامَوْنَ بها . فتهيَّأ روميٌّ لرمْي سفينة أبي الغادية في طنجير(٢) ، فرماه أبو الغادية بسهمٍ ، فقتله ، وخرّ الطنجير في سفينتهم ، فاحترقتْ بأهلها . كانوا ثلاثمائة . فكان يُقال : رميةُ سهمِ أبي الغادية قتلتْ ثلاثمائة نفسٍ »(٣).

الصحابي الجليل سَلَمَة بن عمرو بن الأكْوَع رضي الله عنه :

قال مولاه يزيد : سمعتُ سلمةَ يقول : بايعتُ رسول الله ﷺ على الموت ، وغزوتُ معه سبعَ ....

(١) إسناده قوي ، أخرجه ابن سعد ٣ / ٤٨٤ - ٤٨٥ .
(٢) الطّنجير : قِدرٌ نُحاسي ، مُعرَّب ، وفارسيّته : باتيل .
(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٥٤٥ .

غزَوات[١] .

عن إياس بن سلمة ، عن أبيه قال : بيَّتنا هوازن مع أبي بكر الصديق ، فقتلتُ بيديّ ليْلتئذٍ سبعة أهل أبيات[٢] ، وكان شعارُنا تلك الليلة : « أَمِتْ أَمِتْ » .

« وروى مسلم في صحيحه عن سلمة : قدِمنا الحديبيةَ مع رسول الله ﷺ ونحن أربعَ عشرَةَ مائة ، وعليها خمسون شاةً لا تُرْويها . قال : فقعد رسول الله ﷺ على جبَا الرَّكِيَّة[٣] ، فإمّا دعا وإما بصَق فيها . قال : فجاشتْ[٣] ، فسقينا واستقينا . قال : ثم إن رسول الله ﷺ دعانا للبيْعةَ في أصل الشجرة . قال : فبايعتُه أوّلَ الناس ، ثم بايع وبايع ، حتى إذا كان في وسطٍ من الناس ، قال : « بايعْ يا سلمة » . قال : قلت : قد بايعتُك يا رسول الله في أوَّلِ الناس . قال : « وأيضًا » . قال : ورآني رسول الله ﷺ عَزِلًا - يعني ليس معه سلاح - قال : فأعطاني رسول الله ﷺ حَجَفَة أو دَرَقَةً ، ثم بايع ، حتى إذا كان في آخر الناس قال : « ألا تبايعني يا سَلمة ؟ » قال : قلت : قد بايعتك يا رسول الله في أوَّل الناس ، وفي أوسط الناس . قال : « وأيضًا » . قال : فبايعتُه الثالثة ، ثم قال لي : « يا سلمة ، أين حَجَفَتُكَ أو دَرَقَتُكَ التي أعطَيتُك ؟ » قال : قلتُ : يا رسول الله ، لقيني عمّي عامر عَزِلًا فأعطيتُه إيّاها . فضحك رسول الله ﷺ ، وقال : « إنك كالذي قال الأول : اللهم أبغني حبيبًا ، هو أحبّ إليّ من نفسي » . ثم إن المشركين راسلونا الصُّلح ، حتى مشى بعضنا في بعض ، واصطلحنا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي .

(٢) إسناده حسن ، أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن سعد .

(٣) الجَبَا : ما حول البئر ، والحوْض . والرَّكِيَّة : البئر . وجاشت : ارتفعت .

قال : وكنتُ تَبيعًا لطلحة بن عُبيد الله ، أسقي فرسَه وأحسُّه وأخدمه ، وآكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي إلى الله ورسوله ﷺ . قال : فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة ، واختلط بعضنا ببعض ، أتيتُ شجرةً فكسحتُ شوكها ، فاضطجعت في أصلها . قال : فأتاني أربعةٌ من المشركين من أهل مكة ، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ ، فأبغضهُم ، فتحولتُ إلى شجرةٍ أخرى ، وعلّقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك ، إذْ نادَى منادٍ من أسفل الوادي : يا للمهاجرين ، قُتِلَ ابن زنيم . قال : فاخترطتُّ سيفي ، ثم شددتُ على أولئك الأربعة وهم رقودٌ ، فأخذت سلاحهم ، فجعلتُه ضِغثًا في يدي . قال : ثم قلت : والذي كَرَّم وَجْهَ محمدٍ ، لا يرفع أحد منكم رأسَه إلا ضربتُ الذي فيه عيناه . قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ ، وجاء عمِّي عامرٌ برجل من العَبَلات - يُقال له : « مكرز » - يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مُجَفَّفٍ في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال : « دعُوهم ، يكن لهم بَدءُ الفجور وثِنَاه » . فعفا عنهم رسول الله ﷺ ، وأنزل الله ﴿ **وهو الذي كفَّ أيْديَهم عنكمْ وأيديَكُم عنهُمْ بِبَطْنِ مكةَ مِن بعدِ أنْ أظفرَكُم عليْهم** ... ﴾ الآية كلّها . قال : ثم خرجنا راجعين إلى المدينة ، فنزلنا منزلًا بيننا وبين بني لِحْيان : جبلٌ ، وهم المشركون ، فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رَقِيَ هذا الجبل الليلة ، كأنه طليعةٌ للنبي ﷺ وأصحابه . قال سلمة : فرقيتُ تلك الليلة مرتين أو ثلاثًا ، ثم قدمنا المدينة ، فبعث رسول الله ﷺ بِظَهْره[1] مع « رباح » غلامِ رسول الله ﷺ وأنا معه ، وخرجتُ معه بفرس طلحة ، أندّيه مع الظَّهر ، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمٰن الفَزَارِي قد أغار على ظَهْرِ رسول الله

(١) الإبل تُعَدُّ للركوب وحمْل الأثقال .

ﷺ فاستاقه أجمع ، وقَتَل راعيه . قال : فقلت : يا رباح ، خذْ هذا الفرس ، فأبلِغه طلحة بن عبيد الله ، وأخبرْ رسول الله ﷺ أنّ المشركين قد أغاروا على سرحه . قال : ثم قمتُ على أَكَمَة فاستقبلتُ المدينة ، فناديتُ ثلاثًا : يا صَبَاحاه . ثم خرجتُ في آثار القوم أرميهم بالنَّبْل ، وأرتجز أقول :

أنـا ابـنُ الأكـوعْ　　　واليومُ يومُ الرُّضّـعْ

فألحق رجلًا منهم فأصكُّ سهمًا في رحْلِهِ ، حتى خلص نَصْلُ السهم إلى كَتِفِه . قال : قلت : خذْها .

وأنـا ابـنُ الأكـوعْ　　　واليومُ يوم الرُّضّـعْ

قال : فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم ، فإذا رجع إليّ فارسٌ أتيتُ شجرةً فجلست في أصلها ، ثم رميْتُه فعقرتُ به ، حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا في تضايُقه ، علوتُ الجبلَ فجعلتُ أُردّيهم بالحجارة ، فما زلتُ كذلك أتبعهم ، حتى ما خَلَقَ اللهُ من بعيرٍ من ظهْرِ رسول الله ﷺ إلّا خلّفتُه وراء ظهري ، وخلَّوْا بيني وبينه ، ثم اتبعتُهم أرميهم حتى ألقوْا أكثر من ثلاثين بُرْدةً ، وثلاثين رمحًا يستخفّون ، ولا يطرحون شيئًا إلا جعلتُ عليه آرامًا من الحجارة ؛ يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه ، حتى أتوا مُتَضايقًا من ثَنِيَّةٍ ، فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزاري ، فجلسوا يتضحَّوْن - يعني يتغدّون - وجلستُ على رأسِ قَرْنٍ . قال الفزاري : ما هذا الذي أرى ؟ قالوا : لقينا من هذا البَرْح ، والله ما فارقنا منذ غَلَسٍ يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا . قال : فليقمْ إليه نفرٌ منكم أربعةٌ . قال : فصعِد إليّ منهم أربعةٌ في الجبل . قال : فلمّا أمكنوني من الكلام ، قال : قلت : هل تعرفونني ؟ قالوا : لا ، ومن أنت ؟ قال : قلت : أنا سلمة بن الأكوع ، والذي كرّم وجه محمدٍ ﷺ لا أطلب رجلًا منكم إلا أدركتُهُ ، ولا يطلبني رجل منكم

فيدركني . قال أحدهم : أنا أظنُّ . قال : فرجعوا ، فما برحتُ مكاني حتى رأيتُ فوارسَ رسول الله ﷺ يتخلَّلون الشجر . قال : فإذا أوّلهم : الأخْرم الأَسَدي ، على إثْره أبو قتادة الأنصاري ، وعلى إثْره المقداد بن الأسود الكِنْدي . قال : فأخذتُ بعَنَانِ الأخْرَم . قال : فولَّوا مدبرين . قلتُ : يا أخرم ، احذرهم ، لا يقتطعوك حتى يلحَق رسولُ الله ﷺ وأصحابه . قال : يا سلمة ، إن كنتَ تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتعلمُ أن الجنة حَقٌّ والنَّار حقٌّ ، فلا تَحُلْ بيني وبين الشَّهادة . قال : فخلّيتُه ، فالتقى هو وعبد الرحمٰن . قال : فَعَقَرَ بعبدِ الرحمٰن فرسَه ، وطعنه عبدُ الرحمٰن فقتله ، وتحوّل على فرسه ، ولحِقَ أبو قتادة فارسُ رسول الله ﷺ بعبد الرحمٰن فطعنه فقتله ، فوالذي كرّم وجه محمد ﷺ ، لتبعتهُم أعدو على رجليّ ، حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمدٍ ﷺ ، ولا غبارِهم شيئًا ، حتى يعدِلوا قبل غروب الشمس إلى شِعْبٍ فيه ماء ، يقال له : ذو قَرَد ؛ ليشربوا منه وهم عِطاشٌ . قال : فنظروا إليّ أعدو وراءهم ، فخلّيْتُهم عنه - يعني أجليْتُهم عنه - فما ذاقوا منه قطرةً . قال : ويخرجون فيشتدون في ثَنِيّةٍ . قال : فأعدو فألحق رجلًا منهم ، فأصكُّه بسهم في نُغْض كَتِفِهِ . قال : قلتُ : خذها .

وأنا ابنُ الأكوعْ   واليومُ يومُ الرّضّعْ

قال : يا ثَكِلَتْهُ أمُّهُ أَكْوَعُهُ بكْرَةَ ؟ قال : قلتُ : نعم يا عدوّ نفسِه ، أَكْوَعُكَ بُكْرَة . قال : وأرادوا فرسين على ثَنِيَّة . قال : فجئت بهما ، أسوقهما إلى رسول الله ﷺ ، ولحقني عامرٌ بسطيحةٍ فيها مَزْقَةٌ من لبنٍ وسطيحةٍ فيها ماءٌ ، فتوضأت وشربتُ ، ثم أتيتُ رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي خلّيْتُهم عنه ، فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل وكلّ شيءٍ استنقذتُه من المشركين ، وكلّ رمحٍ وبُرْدةٍ ، وإذا بلال نَحَرَ ناقةً

من الإبل الذي استنقذتُ من القوم ، وإذا هو يشوي لرسول الله ﷺ من كَبِدِهَا وسَنامها . قال : قلت : يا رسول الله ، خلّني فأنتخبُ من القوم مائةَ رجلٍ فأتّبع القوم ، فلا يبقَى منهم مُخبرٌ إلا قتلتُه . قال : فَضَحِكَ رسول الله ﷺ ، حتى بَدَتْ نَواجِذُهُ في ضوء النار . فقال : « يا سلمة ، أتراكَ كنتَ فاعلًا ؟ » قال : قلت : نعم ، والذي أكرمك . فقال : « إنهم الآن لَيُقْرَوْن في أرض غَطَفَان » . قال : فجاء رجل من غَطَفَان ، فقال : نَحَرَ لهم فلان جزورًا . فلما كشفوا جلدَها رأوا غبارًا ، فقالوا : أتاكم القوم . فخرجوا هاربين ، فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ : « كان خيرَ فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخيرَ رَجَّالتِنا سلمَةُ » . قال : ثم أعطاني رسول الله ﷺ سَهْمَيْن : سهمَ الفارس وسهمَ الراجل فجمعهما إلي جميعًا ، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءَه على العَضْبَاء راجعين إلى المدينة . قال : فبينما نحن نسير ، قال : وكان رجل من الأنصار لا يُسبَق شدًّا ، قال : فجعل يقول : ألا مُسابقٌ إلى المدينة ؟ هل من مُسابقٍ ؟ فجعل يُعيد ذلك ، فلما سمعتُ كلامه ، قلت: أما تُكْرِم كريمًا ، ولا تَهاب شريفًا ؟ قال : لا ، إلا أن يكون رسولَ الله ﷺ . قال : قلت : يا رسول الله ، بأبي وأمي ، ذرني فلأسابقنَّ الرجلَ . قال : «إنْ شئت » . قال : قلت : اذهب إليك . وثنيتُ رجليّ ، فطَفَرْتُ فعدوتُ ، فربطت عليه شَرَفًا أو شَرَفَيْن أستبقي نفسي(١) ، ثم عدوتُ في إثْره فربطت عليه شرفًا أو شرفيْن ، ثم إني رفعت حتى ألحقه . قال : فأصكُّه بين كَتِفيْه ، قال : قلتُ : قد سُبِقتَ والله . قال : أنا أظنُّ . قال : فسبقتُه إلى المدينة ... » .

---

(١) أي : حبست نفسي عن الجرْي الشديد . والشرف : ما ارتفع من الأرض . وطفرت : أي وَثَبْتُ .

فيا لبديع صُنع ابن الأكوع !! يطارد جيشًا بمفرده حتى يستردَّ منهم ما سلبوه ، وهو راجلٌ ، بل ويأخذ منهم السَّلَب والغنيمة ، ولا يسمح لهم حتى بشرْب الماء !!

وعلى النقيض .. تطارد ملايينَ العرب شرذمةٌ من اليهود ، تأخذ منهم كل شيء ، ولا تُبقي لهم إلا العطش ، تأخذ أغلى مقدَّساتهم ، ولا تعطيهم إلا الذبح ... وهتْكَ الأعراض وبقْر البطون .. ومع هذا فالمسلمون نائمون .. ومنْ لم توقظْه النوائب وتُعلي همَّتَه .. فليطُلْ نومُه .. فإلى الجماهير الغافلة :

نامي فإنْ لم تشبعي من يقظةٍ فمن المنامِ
نامي على زَبَدِ الوعود يُدَافُ في عسَل الكلامِ
نامي تَزُرْكِ عرائسُ الأحلام في جُنْح الظَلامِ
تتنوّري قرصَ الرغيف كدورةِ البدر التمامِ
وَتَرَي ذرائبَـكِ الفِسـاحَ مُبلَّطاتٍ بالرُّخـامِ
نامي إلى يومِ النشـورِ ويوم يُؤذنُ بالقيامِ
نامي على المُسْتنقَعَاتِ تموجُ باللُّجَجِ الطَّوامي
زخّارةً بشذا الأقاح يمدّه نَفْخُ الخُـزَامِ
نامي على قَتْل الرضيع كأنّه سجْعُ الحمامِ
نامي على لون الدماءِ كأنّه شهْدُ الطعامِ
نامي على هتْك النساءِ كأنّه طُهْر التمامِ
نامني على ذَبْح الرجال كأنهم أضحَى اللئامِ
نامي على مَهْد الأذَى وتوسَّدي خدَّ الرّغامِ
واستفرشي صُمَّ الحصَى وتلحّفي ظُلَلَ الغمامِ
فالشمس لن تؤذيك بعدُ بما توهَّج من ضِرامِ

والنور لن يُعمي جفونًا قد جُبلْنَ على الظلامِ
نامي إليك تحيتي وعليك نائمةً سَلامي

فارسُ رسول الله ﷺ ، أبو قتادةَ الحارثُ بن ربعيّ ، الأنصاريّ السّلمِيّ ، رضي الله عنه :

عن سلمة بن الأكوع ، عن النبي ﷺ : « خير فرساننا أبو قتادة ، وخير رَجَّالتنا سلمةُ بن الأكوع »[١].

قال أبو قتادة : إني لأغسل رأسي ، قد غسلتُ أحدَ شِقَّيْه إذ سمعتُ فرسي جِرْوَة تصهلُ وتبحث بحافرها ، فقلت : هذه حرب قد حضرتْ ، فقمتُ ولم أغسل شقّ رأسي الآخر ، فركبتُ وعليّ بُرْدةٌ ، فإذا رسول الله ﷺ يصيح : « الفَزَع الفَزَع » . فأُدرك المقدادَ فسايرتُه ساعةً ، ثم تقدّم فرسي ، وكان أجودَ من فرسه ، وأخبرني المقدادُ بقتل مسعدة[٢] محرزًا - يعني ابن نضلة - فقلت للمقداد : إما أن أموت أو أقتل قاتلَ محرز . فضرب فرسَه ، فلحقه أبو قتادة ، فوقّف له مسعدةُ ، فنزل أبو قتادة فقتله وجنب فرسه معه ، قال : فلما مرّ الناس تلاحقوا ونظروا إلى بُرْدي فعرفوها ، وقالوا : أبو قتادة قُتِلَ . فقال رسول الله ﷺ : « لا ، ولكنه قتيل أبي قتادة ، عليه بُرْدُه ، فخلّوا بينه وبين سَلَبه وفرسه » . قال : فلما أدركني ، قال : « اللهم باركْ له في شَعْره وبَشَرِه . أفلح وجهُك ، قتلتَ مسعدةَ ؟ » قلت : نعم . قال : « فما هذا الذي بوجهك ؟ » قلت : سهمٌ رُميتُ به . قال : « فادْنُ مِنّي » ، فبصق عليه ، فما ضربَ عليّ قطّ ، ولا قاح . فمات أبو قتادة وهو ابن سبعين سنة ، وكأنه ابنُ خمسَ عشرةَ سنةً . قال : وأعطاني

---

(١) أخرجه الطبراني وأحمد ومسلم .
(٢) زعيم المشركين .

فرسَ مسعدةَ وسلاحَه(١).

وقال أبو قتادة : خرجنا مع رسول الله ﷺ عامَ حنينٍ ، فلما التقينا رأيت رجلًا قد علا المسلمين ، فاستدرتُ له مِن ورائه ، فضربتُه بالسيف على حبل عاتقي ضربَةً قطعت منها الدّرع ، فأقبل عليّ ، وضمّني ضمّةً وجدتُ منها ريحَ الموت ، ثم أرسلني ومات - إلى أن قال -: فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَتَل قتيلًا له بيّنةٌ فله سَلَبُه » . فقمتُ فقلت : مَنْ يشهد لي ؟ وقصصتُ عليه ، فقال رجلٌ : صدق يا رسول الله ، وسلبُ ذلك القتيل عندي ، فأرضِه منه . فقال أبو بكر : لاها الله ! إذًا لا يعمد إلى أسد من أُسد الله يقاتل عن الله ورسوله ، فيعطيك سلبَه . وقال النبي ﷺ : « صدق » . فأعطانيه ، فبعتُ الدّرع وابتعت به مخرقًا في بني سلمة ، فإنه لأول مالٍ تأثلته في الإسلام(٢).

وعند أحمد بإسناد صحيح : فقال عمر : لا يُفيئها الله على أسد من أُسده ، ويعطيكَها . فضحك رسول الله ﷺ ، وقال : « صدق عمر » .

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذْ تأخر عن الراحلة ، فدعَمْتُه بيدي ، حتى استيقظ ، فقال : « اللهمّ احفظْ أبا قتادةَ كما حفظني منذ الليلة ، ما أرانا إلا قد شققْنا عليك »(٣).

وعن عبد الله بن عُبيد بن عُمير أن عمر بعث أبا قتادة ، فقتلَ ملكَ فارس بيده ، وعليه منطقةٌ قيمتُها خمسةَ عشرَ ألفًا ، فنفَلَها إياه ....

---

(١) المغازي للواقدي ، والمعجم الصغير ، والمستدرك ، والاستيعاب ، والإصابة ١١ / ٣٠٣ .

(٢) الموطأ ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي .

(٣) سنده صحيح ، أخرجه الطبراني ، وأحمد ، ومسلم .

عمـر[١] .

البطلُ عُكَّاشةُ بن محْصن يقتل فارسَيْن بطعنةٍ واحدةٍ :

وأسدنا عكاشةُ أحدُ السبعِين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب .

ذكر ابن إسحاق في سيرته أنه أدرك في غزوة الغابة أوْبارًا ، وابنَه عمرَو بن أوْبار ، وهما على بعيرٍ واحدٍ ، فانتظمهمًا بالرُّمحِ فقتلهما جميعًا ، واستنقذ بعض اللقاح[٢] .

قاتَل عكاشةُ يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده ، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلًا من حطبٍ ، فقال : « قاتِلْ بهذا يا عكّاشة » . فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزَّه فعاد سيفًا في يده طويلَ القامةِ شديدَ المتْن أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين ، وكان ذلك السيف يُسمّى : العوْن ، ثم لم يزل عنده يشهد به المَشاهدَ مع رسول الله ﷺ حتى قتله طليحة الأَسدي أيامَ الرِّدَّة[٣] .

لله ما أعظمَ شوقَهم للشهادة والجنة ! فهذا عُمير بن الحمَام الأنصاري :

يوم بدرٍ يسمع قول رسول الله ﷺ : « قوموا إلى جنةٍ عرضها السمٰوات والأرض » . فقال عمير : يا رسول الله ، جنةٌ عرضها السمٰوات والأرض ؟ قال : « نعم » . قال : بَخٍ بَخٍ . فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قول : بخٍ بخٍ ؟ » قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاءَةَ أن أكون من أهلها . قال : « فإنك مِنْ أهلها » . فأخرج تمراتٍ من قَرنِهِ ،

---

(١) رجاله ثقات .

(٢) مشارع الأشواق ٢/٩٨٥ .

(٣) البداية والنهاية ٣ / ٢٩٠ .

فجعل يأكل منهنَّ ، ثم قال : لئِن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياةٌ طويلةٌ . قال : فرمَى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قُتل(١).

حَرام بن ملحان الأنصاري ، رضي الله عنه :

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : « لما طُعِنَ حرام بن ملحان - وكان خاله - يوم بئر معونة قال بالدَّم هكذا ، فنضحه على وجهه ورأسه ، ثم قال : فزتُ وربِّ الكعبة » . أخرجه البخاري .

الله أكبر ... فزت وربِّ الكعبة .

وقالها عامر بن فهيرة ، فأسلم قاتلُه في الحال .

حَنْظَلَةُ غِسِّيل الملائكة :

عن الزبير بن العوام قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول عند قتْل حنظلة بن أبي عامر بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن الحارث ، حين علاه شداد بن الأسود بالسيف فقتله ، فقال رسول الله ﷺ : « إن صاحبكم تغسّله الملائكة ، فسلوا صاحبته عنه » . فقالت : إنه خرج لمّا سمع الهائعةَ وهو جُنُبٌ . فقال رسول الله ﷺ : « لذلك غسّلته الملائكة »(٢).

الله أكبر ، يستشهَد يوم زفافه ! فهل هناك مثلٌ أعلى للبطولة والشهامة ، والوفاء لدينه ونبيه فوق هذا ؟!

قد كانت ليلةُ المعركة الليلة التي دخل فيها بزوجته جميلة بنت أُبيّ

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد عن أنس بن مالك .

(٢) حسن ، رواه الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وسكت عليه الذهبي ، وله شاهد مرسل عند البيهقي وشاهدٌ عند أبي يعلى والطبراني في الكبير .

ابن سلول ، كما يقول الواقدي .. يترك زوجه بعد أن تشبثتْ به ، فيتركها ليمضي على عَجَلٍ ، ليخوض معركةً طاحنة رهيبة .. وقد كاد هذا البطل أن يَقتل أبا سفيان قائد عام المشركين ، وحَمَل عليه ، وبعد أن عقر فرس أبي سفيان وقع أبو سفيان على الأرض ، فعلاه حنظلةُ ليذبحه .. فسارَع شدادُ بن الأسود الملقّب بابن شعوب ، فضرب حنظلةَ فقتله وهو بارِكٌ على صدر أبي سفيان[١].

أنس بن النَّضر :

عن أنسٍ رضي الله عنه قال : « غاب عمّي أنس بن النضر عن قتال بدرٍ ، فقال : يا رسول الله ، غبتُ عن أول قتالٍ قاتلت المشركين ، لئن أشهدني الله قتالَ المشركين ، لَيرينَّ الله ما أصنع . فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون ، قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنةَ وربِّ النضر ، إني أجد ريحها من دون أُحدٍ . قال سعد : فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع . قال أنس : فوجدنا به بضعًا وثمانين : ضربةً بالسيف ، أو طعنةً برمح ، أو رميةً بسهمٍ ، ووجدناه قد قُتل وقد مَثَّلَ به المشركون ، فما عرفه أحدٌ إلا أُختُه ، ببنانِهِ . قال أنس : كنا نرى - أو نظنُّ - أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ** ... ﴾ إلى آخر الآية »[٢] .

سَيِّد الأنصارِ سعد بن معاذ ، رضي الله عنه :

رضي الله عن السيِّد البطل ، الذي قال للرسول ﷺ في يوم بدر

---

(١) انظر سلسلة معارك الإسلام الفاصلة لبشاميل « أحد » صـ ١٤٤ - ١٤٦ .

(٢) أخرجه البخاري .

لما قال : « أشيروا عليّ أيُّها الناس » . قال : واللهِ لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : « أَجَل » . قال : فقد آمنا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ما جئتَ به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودَنَا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة لك ، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضتَّ بنا البحر لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، إنا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعلّ الله أن يُريَكَ منا ما تَقَرّ به عينُك ، فسرْ على بركةِ الله .

قال ابن إسحاق : فسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ، ثم قال : « سيروا وأبشروا ؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتيْن ، واللهِ لكأني أنظر إلى مَصَارِعِ القَوْمِ »[1] .

« واللهِ لا نُعطيهم إلا السَّيْف » :

كلماتٌ لسعد بن معاذ تسطَّر بمدادٍ من نور في تاريخ أمتنا .

لما تكالبت قُوى الشرك بكتائبها الهائجة ، وكادت تغرق القِلة المؤمنة ، أراد رسول الله ﷺ أن يعقد صلحًا منفردًا بينه وبين غَطَفَان ، وسيديْها : عيينة بن حِصن والحارث بن عوف ، على أن تفكّ غطفان الحصارَ عن المدينة ، وتنسحب بجيوشها وتخذل الأحزابَ ، على أن يعطيهم رسول الله ﷺ ثلثَ ثمار نخْل المدينة ، واستشار رسول الله السعديْن ، فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم - يعني غطفان - لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة ، إلا قِرًى[2] أو بيْعًا ، وإن كانوا ليأكلون العِلْهز[2] في

(١) البداية والنهاية ٣ / ٢٦١ .
(٢) القِرَى : الضيافة ، والعلهز : وبر يُخلط بدماءِ الحَلَم ، كانت العرب في الجاهلية تأكله في الجَدْب .

الجاهلية في الجهد ، أَفَحينَ أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، أعزّنا بك وبه ، ونُقطعهم أموالنا ؟! ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . ثم خرج سعد إلى سيِّدَيْ غطفان وقد رفع صوته في تحدٍّ : ارجعا ، ليس بيننا وبينكم غير السيف .

يا للرجال ! في وقتٍ بلغتْ القلوب الحناجر من شدّة الكرْب وتقاطُر البلايا ؟! كلمات تصدر من فمِ الصادق سعد ، تتفجّر منها ينابيع الرجولة والشجاعة والأَنَفَة ، فتبثُّ الأملَ في نفوس المسلمين ، وتُدهش سيِّدَيْ غطفان ؛ فيفيقوا ، ويعلّمهم سعد أن الذي يصنع النصر قوةُ العقيدة ، وزخم الإيمان بالله والثقة به .

الأنصارُ أكثرُ الناس شهيدًا :

قال ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (١ / ١١٨) : « رجالُ الأنصار أشجعُ الناس . قال عبد الله بن عباس : ما استُلَّتْ السيوف ، ولا زحفتِ الزحوف ، ولا أقيمتِ الصفوف ، حتى أسلم ابنا قيْلة ، يعني الأوس والخزرج ، وهما الأنصار من بني عمرو بن عامر ، من الأزد » .

عن قتادة قال : « ما نعلم حيًّا من أحياء العرب أكثر شهيدًا ، أغرَّ يوم القيامة من الأنصار . قال قتادة : وحدّثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أُحدٍ سبعون ، ويوم بئر معونة سبعون ، ويوم اليمامة سبعون . قال : وكان بئر معونة على عهد رسول الله ﷺ ، ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مسيلمة الكذاب »(١).

وعن أنس أنه كان يقول : يا ربّ،سبعين من الأنصار يوم أحد ،

(١) أخرجه البخاري .

وسبعين يوم بئر معونة ، وسبعين يوم مسيلمة الكذاب ، وسبعين يوم جسر أبي عبيدة .

سعد بن خَيْثمة الأنصاري رضي الله عنه :

أحد نقباء الأنصار الاثني عشر ، شهد العقبة الأخيرة مع السبعين ، ولما ندب رسول الله ﷺ الناسَ إلى غزوة بدر قال لهْ أبوه خيثمة : إنه لا بدّ لأحدنا أن يقيم ، فآثِرني بالخروج وأقمْ مع نسائِك . فأبى سعد ، وقال : لو كان غير الجنة آثرتك به ؛ إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا . فاستَهما ، فخرج سهمُ سعد ، فخرج فقتِل ببدرٍ(١) .

أبو عَقيل عبد الرحمٰن بن ثعْلبة الأنصاري ، رضي الله عنه :

بدريّ ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

روى ابن الجوزي ، عن جعفر بن عبد الله بن أسلم ، قال : لما كان يوم اليمامة واصطفّ الناس ، كان أول من جُرح أبو عَقِيل ، رُمِي بسهمٍ ، فوقع بين منكبيْه وفؤادِه في غير مَقتل ، فأخرج السهم ووهَن له شقّه الأيسر في أول النهار ، وجُرّ إلى الرَّحل . فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم - وأبو عقيل واهِن من جُرحه - سُمع معن بن عدي يصيح : يا لَلأنصار ، اللهَ اللهَ والكرّةَ على عدوّكم . قال عبد الله بن عمر : فنهض أبو عَقيل يريد قومه ، فقلت : ما تريد ؟! ما فيك قتال . قال : قد نوّه المنادي باسمي . قال ابن عمر : فقلت : ماذا تريد ؟! ما فيك قتال . قال : قد نوَّه المنادي باسمي . قال ابن عمر : فلت له : إنما يقول : يا لَلأنصار . ولا يعني الجرحى . قال أبو عَقيل : أنا من الأنصار ، وأنا أجيبه ولو حَبْوًا . قال

(١) صفة الصفوة ١ / ٤٦٨ .

ابن عمر : فتحزّم أبو عَقيل وأخذ السيف بيده اليمنى ، ثم جعل ينادي : يا لَلأنصار ، كرّةً كيومِ حُنين ، فاجتمِعوا رحمكم الله جميعًا ، تقدّموا فالمسلمون دريئة دون عدوّهم . حتى أقحموا عدوّهم الحديقة ، فاختلطوا واختلفتِ السيوف بيننا وبينهم . قال ابن عمر : فنظرتُ إلى أبي عَقيل وقد قُطعت يده المجروحة من المنكب فوقعتْ إلى الأرض ، وبه من الجراح أربعةَ عشرَ جرحًا ، كلّها قد خلصتْ إلى مقتل ، وقُتل عدوّ الله مسيلمة . قال ابن عمر : فوقفتُ على أبي عَقِيل وهو صريعٌ ، بآخر رَمَقٍ ، فقلت : يا أبا عَقيل . قال : لبيك - بلسان ملتاث - لمن الدّبرَة ؟ قلت : أبشِر ، قد قُتل عدو الله . فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله . ومات يرحمه الله .

قال ابن عمر : فأخبرت عمر ، بعد أن قدِمت ، خبره كله . فقال : رحمه الله ، ما زال يسعى للشهادة ويطلبها ، وإن كان - ما علمتُ - من خِيار أصحَاب نبينا ﷺ ، وقديم إسلامهم ، رضي الله عنه[1] .

« لقد كان يوم اليمامة يومًا من أيام الله .. يوم عَلَتْ فيه الهمم ، حمي البراء بن معرور .. وكان إذا رأى الحرب أخذتْه العرواء ، فيجلس على ظهر الرجال حتى يبول في سراويله ، ثم يثور كما يثور الأسد ، وقاتلتْ بنو حنيفة قتالًا لم يعهد مثله ، وجعلتِ الصحابة يتواصوْن بينهم ، ويقولون : يا أصحابَ سورة البقرة ، بطل السِّحر اليوم . وقال زيد بن الخطاب : أيّها الناس ، عَضُّوا على أضراسكم ، واضربوا في عدوّكم ، وامضوا قدمًا . وقال : والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله ، أوْ ألقى الله فأكلمه بحُجّتي . فقُتل شهيدًا ، رضي الله عنه . وقال أبو حذيفة : يا أهل القرآن ، زيّنوا القرآن بالفعال . وحملَ فيهم حتى أبعدهم ، وأصيب ، رضي الله عنه . وحَمَل

---

(١) صفة الصفوة ١ / ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

خالد بن الوليد حتى جاوزهم ، ورجع ثم وقف بين الصفيْن ودعا للبِراز ، وقال : أنا ابن الوليد العوْد ، أنا ابن عامرٍ وزيد . ثم نادَى بشعار المسلمين - وكان شعارهم يومئذٍ : يا محمداه - وجعل لا يبرز له أحدٌ إلا قتله ، ولا يدنو منه شيءٌ إلا أكلَه ، وميّز خالدٌ المهاجرين من الأنصار من الأعراب ، وكل بني أب على رايتهم ، يقاتلون تحتها ، حتى يعرف الناس من أين يُؤْتَوْن ، وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبرًا لم يُعهد مثلُه ، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوّهم حتى فتح الله عليهم ، وولّى الكفار الأدبارَ ، واتّبعوهم يقتلون في أقفائهم ، ويضعون السيوف في رقابهم حيث شاءوا ، حتى أَلجَئُوهم إلى حديقة الموت ، وقد أشار عليهم محكم اليمامة - وهو محكم بن الطفيل لعنه الله - بدخولها ، فدخلوها وفيها عدوّ الله مُسيلمة لعنه الله ، وأدرك عبدُ الله بن أبي بكر محكمَ بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله ، وأغلقتْ بنو حنيفة الحديقة عليهم ، وأحاط بهم الصحابة . وقال البراء بن مالك : يا معشر المسلمين ، ألقوني عليهم في الحديقة . فاحتملوه فوق الجحفِ ، ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها ، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه ، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها ، يقتلون مَن فيها من المرتدّة من أهل اليمامة ، حتى خلصوا إلى مُسيلمة لعنه الله ، وإذا هو واقفٌ في ثلمةِ جدارٍ كأنه جملٌ أوْرق ، وهو يريد يتساند ، لا يعقل مِن الغيظ ، وكان إذا اعتراه شيطانه أزبَدَ ، حتى يخرج الزَّبد من شِدْقيْه ، فتقدم إليه وحشيُّ بن حرْب مولى جُبَيْر بن مُطعم - قاتل حمزة - فرماه بحربته فأصابه وخرجتْ من الجانب الآخر ، وسارع إليه أبو دُجانة سِمَاك بن خَرشة ، فضربه بالسيف فسقط ، فنادتْ امرأةٌ من القصر : واأمير الوضاءة ، قتله العبد الأسود . فكان جملةُ من قُتلوا في الحديقة وفي المعركة قريبًا من عشرة آلاف مقاتل ،

وقيل : واحدٌ وعشرون ألفًا »[1].

قال ضرار بن الأزور البطل في غزوة اليمامة :

فَلَو سُئِلَتْ عَنَّا جَنوبٌ لأَخْبرتْ عَشِيَّةَ سَالَتْ عَقِرباءُ ومُلْهَمُ
وسال بفرع الوادي حتى ترقرقتْ حجارتُهُ فيه من القومِ بالدَّمِ
عشيةَ لا تُغني الرماحُ مكانها ولا النَّبْلُ إلا المشرفيُّ المُصَمِّمُ
فإن تبتغي الكفارَ غير مسيلمٍ جَنوبٌ فإني تابعُ الدين مُسْلِمُ
أُجاهدُ إذْ كانَ الجهادُ غنيمةً ولله بالمرءِ المجاهد أَعلمُ

أبو يحيىٰ صُهَيب الرومي ، الرابح بيْعه :

عن حماد بن سلمة : حدثنا عليُّ بنُ زيد ، عن ابن المسيِّب ، قال : أقبل صُهَيبٌ مُهَاجرًا ، واتَّبعه نفرٌ ، فنزلَ عن راحلته ، ونَثَل كِنَانَتَهُ ، وقال : لقد علمتم أني من أرماكم ، وأيمُ الله ، لا تَصِلون إلَيَّ حتى أرمي بكلّ سهمٍ معي ، ثم أضربُكم بسيفي ، فإن شئتُم دللتُكم على مالي ، وخلَّيتُم سبيلي ؟ قالوا : نفعل . فلما قَدِمَ على النبي ﷺ قال : رَبِحَ البيعُ أبا يحيى . ونزلتْ : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ** ... ﴾.

وفي رواية أخرى : « أخرج منها أربعين سهمًا ، فقال : لا تصلون إليّ حتى أضع في كل رجل منكم سهمًا ، ثم أصيرُ بعدُ إلى السيف ، فتعلمون أني رجلٌ » .

وعن أنس : « ونزلتْ على النبي ﷺ ﴿ **وَمِنَ الناسِ مَن يشري نفسه ابتغاءَ مرضاتِ الله** ... ﴾ الآية ، فلما رآه النبي ﷺ ، قال : « يا أبا يحيى ، رَبِحَ البيعُ » . قال : وتلا عليه ....

---

(١) البداية والنهاية ٦ / ٣٢٩ - ٣٣٠ .

الآيـة »[١].

عبدُ الله بن أُنيس البطل ، قاتل خالد بن سفيان الهذَلي :

ذكر البيهقـي في الدلائل : « عـن عبد الله بن أنيس قال : دعـاني رسول الله ﷺ فقال : « إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع لي الناس ليغـزوني ، وهو بعُـرَنة ، فائتِه فاقتلْه » . قال : قلت : يا رسول الله ، انعتْه لي حتى أعرفه . قال : « إذا رأيتَه وجدتَّ له قشعريرة » . قال : فخرجتُ متوشّحًا سيفي ، حتى وقعتُ عليه وهو بعرنة مع ظعْنٍ يرتادُ لهُـنَّ منزلًا ، وحين كان وقت العصر فلما رأيته ، وجدت ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة ، فأقبلتُ نحوه ، وخشيتُ أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصـلاة ، فصلّيت وأنا أمشي نحوه أومىء برأسي للركوع والسجود ، فلما انتهيتُ إليه قال : مَنِ الرجل ؟ قلت : رجلٌ من العرب ، سمع بك وبجمْعك لهذا الرجل ، فجاءك لذلك . قال : أجَل ، أنا في ذلك.قال : فمشيتُ معه شيئًا ، حتى إذا أمكنني ، حملتُ عليه بالسيف حتى قتلتُه ، ثم خرجتُ وتركتُ ظعائنه[٢] مُكِبّاتٍ عليه ، فلما قدِمتُ على رسول الله ﷺ فرآني قال : « أفلح الوجه » . قال : قلت : قتلتُه يا رسول الله . قال : « صدقت » . قال : ثم قام معي رسول الله ﷺ فدخل في بيته ، فأعطاني عصا ، فقال : « أمسِكْ هذه عندك يا عبد الله بن أنيس » . قال : فخرجتُ بها على الناس ، فقالوا : ما هذه العصا ؟ قلت : أعطانيها رسول الله ﷺ ، وأمرني أن أُمسكها . قالوا : أوَ لا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك .

---

(١) صحيح ، أخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرّجاه .

(٢) نساؤه .

قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، لِمَ أعطيتني هذه العصا ؟ قال : « آية بيني وبينك يوم القيامة . إن أقلّ الناس المنحصرون يومئذ » . قال : فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه ، حتى إذا مات أُمِرَ بها فضُمّتْ في كفنه ، ثم دُفِنَا جميعًا »[١].

قال عبد الله بن أنيس في قتْله خالد بن سفيان :

تركتُ ابنَ ثورٍ كالحوار وحولَهُ نوائحُ تفري كلّ جَيبٍ مُعـدَّدِ
تناولتُه والظعـنُ خلفي وخلفَـهُ بأبيضَ مِنْ ماءِ الحديد المُهَنَّدِ
أَقـولُ له والسيفُ يعجمُ رأسَـهُ أنا ابنُ أنيسٍ فارسٌ غيرُ قعددِ
أَنا ابنُ الذي لم ينزل الدهر قدرَهُ رحيبُ فنـاءِ الدار غـيرُ مـزنّدِ
وقلـتُ له خذهَـا بضرْبةِ ماجدٍ خفيفٍ على دين النبيّ محمَّـدِ
وكنـتُ إذا هَـمَّ النبيُّ بكافـرٍ سبقـتُ إليه باللّسـان وباليَدِ[٢]

أبو سنان وهب الأسدي ، أَوَّلُ مَن بايع تحت الشجرة :

يا له من سبّاق إلى الخير .. بلغت همته فوق الثريا !!

أنتَ تدري أيّهـا الحـيرانُ عنّـا كيفَ فوقَ الشمسِ أزمانًا حَلَلْنَا

عن الشّعبي : أنّ أول من بايع رسولَ الله ﷺ بيعةَ الرضوان أبو سنان الأسدي .

« وأخرج الحميدي ، عن الشعبي قال : لما دعا رسول الله ﷺ الناسَ إلى البيعـة ، **كان أول من انتهـى إليه أبو سنان ، فقال : ابسـطْ يدَكَ أبايعك .** فقال النبي ﷺ : « علامَ تبايعني ؟ » فقال أبو سنان : على ما في .....

(١) رواه أحمد بلفظه ، وأخرجه أبو داود مختصرًا والبيهقي بلفظ أحمد ، وقال الساعاتي في الفتح الرباني ٧ / ٢٨ : حسَّنَ الحافظ إسناده .

(٢) البداية والنهاية ٤ / ١٤٣ .

نفسك »[١].

يا الله .. « على ما في نفسك » .. تُغني عن أي تعليق !

أمير المؤمنين ، وفارسُ الخلفاء ، وابن الحواري أبو خبيب عبد الله بن الزبير ابن العوّام ، رضي الله عنه :

عن عثمان بن طلحة قال : كان ابن الزبير لا ينازَع في ثلاثة : شجاعة ، ولا عبادةٍ ، ولا بلاغةٍ[٢].

شهد عبد الله معركة اليرموك الحاسمة مع أبيه ، فلما انهزم الروم يوم اليرموك ، جعل يُجْهز على جَرْحاهم[٣].

ولما انتهى عمرو بن العاص من فتح طرابلس ، أمر الخيل بالإسراع إلى « صبراته » لفتحها ، وأسرعت الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير ، فصبحوها من ليلتهم على غرّةٍ ، فوجدوا أبواب السور مفتوحةً وأهلها مشغولين بإخراج الحيوانات للمرعى ، فاقتحموها عليهم بالقوة وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا ، ولم يهرب منهم أحد إلا من ركب البحر هاربًا إلى صقلية ، وهدَم المسلمون سورها خوفًا من تحصُّن الروم به مرةً ثانية ، وغنموا كلّ ما فيها ، وكان شيئًا كثيرًا .

قَتْل عبدِ الله بن الزبير لملك إفريقية « جُرْجِير » :

وشهد ابن الزبير فتح (إفريقية) أيام عثمان بن عفان ، تحت لواء عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وكان الفتح على ....

---

(١) تفسير ابن كثير ٧ / ٣١٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٧٠ .

(٣) تهذيب ابن عساكر ٧ / ٣٩٦ - ٣٩٧ .

يـديْـه[١] .

قال ابن الزبير : هَجَمَ علينا جُرْجِيرُ في عشرين ومائة ألف ، فأحاطوا بنا ونحن في عشرين ألفًا[٢] .

« سيّر عثمانُ ابنَ الزبير في جماعة إلى إفريقية ، سنة ستٍ وعشرين الهجرية ، ليأتيه بأخبار الفتح ، فسار مُجِدًّا حتى وصل إلى المسلمين هناك وأقام معهم ، ولما وصل كثُر الصِّياحُ والتكبير في المسلمين ، فسأل « جُرجيرُ » ملكُ إفريقية عن الخبر ، فقيل : « قد أتاهم عَسْكرٌ » . ففتَّ ذلك في عضُده ... ورأى عبد الله قتالَ المسلمين كلّ يوم ، من بكْرةٍ إلى الظهر ، فلما أذّن سمع منادي « جُرجير » يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألفِ دينارٍ ، وأزوِّجه ابنتي . فخاف عبد الله بن سعد على نفسه ، فحضر ابن الزبير عند عبد الله بن سعد وقال له : تأمر مناديًا ينادي : مَن أتاني برأس « جُرجير » نفلْتُه مائة ألفٍ ، وزوّجتُه ابنتَه ، واستعملته على بلاده . ففعل ، فصار « جرجير » يخاف أشدَّ مِن عبد الله بن سعد . ثم إن عبد الله ابن الزبير قال لعبد الله بن سعد : إنّ أمْرَنا يطول مع هؤلاء ، وهم في أمدادٍ متَّصِلةٍ وبلادٍ هي لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيتُ أن نترك غدًا جماعةً صالحةً من أبطالِ المسلمين في خيامهم متأهبين ، ونقاتل نحن الروم في باقي العَسْكَر إلى أن يضجروا ويَملّوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب مَنْ كان في الخيام من المسلمين ، ولم يشهدوا القتال ، وهم مستريحون ، ونقصدهم على غرّةٍ ، فلعلّ الله ينصرنا عليهم . فأحضر ابن سعد جماعةً من أعْيَان الصحابة واستشارهم ،

---

(١) الإصابة ٤ / ٧١ .

(٢) السير ٣ / ٣٧١ .

فوافقوه على ذلك .

وفي صباح الغد نفّذ ابن سعدٍ خطّةَ ابن الزبير هذه ، فأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم ، وخيولهم عندهم مسرجةٌ ، ومضَى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالًا شديدًا ، فلما أذّن بالظهر وهمّ الروم بالانصراف على العادة ، لم يتركهم ابن الزبير وألحّ عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فكلٌّ من الطائفتين ألقى سلاحَه ووقع تعبًا .. عند ذلك أخذ ابن الزبير من كان مستريحًا من شجعان المسلمين وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا حملة رجل واحدٍ . وكبّروا ، فلم يتمكن الروم من لُبْس سلاحهم حتى غَشِيَهم المسلمون ، ونظر عبد الله فرأى « جُرجير » وقد خرج من عسْكره ، فأخذ معه جماعة من المسلمين وقصده فقتله »[1] .

فقد رأى ابن الزبير « جُرجير » وراءَ عسْكره على برذون أشهب ، ومعه جاريتان تظلانه بريش الطواويس ، وبينه وبين عسْكره أرضٌ بيضاء ليس فيها أحدٌ ، فاختار ثلاثين فارسًا من المسلمين وأخذهم معه ... ثم حَمَلَ في الوجه الذي فيه « جُرجير » ، وقال للفرسان الذين معه : احمُوا ظهري ... فخرق الصف إلى جرجير ، وخرج صامدًا له ، وما يظنُّ هو وأصحابه إلا أن ابن الزبير رسولٌ إليه ، حتى دنا منه ، فعرف الشرّ ، فثنى بِرْذَوْنه مُولِّيًا ، ولكنّ ابن الزبير أدركه فطعنه ، ودافّه[2] بالسيف ، وحزّ رأسَه ، ونصبه في رمح ، وكبَّر ... فحمل المسلمون من الوجه الآخر ، فانهزم العدو في كلّ وجهٍ ، ومنح الله المسلمين ....

---

(١) أسد الغابة (٣ / ١٦٢) ، وابن الأثير (٣ / ٣٤) .

(٢) دافّ مدافّة ودفافًا : أي أجهز عليه .

أكتافهم[١].

وانهزم الروم بعد أن قتل ابنُ الزبير « جرجير » ، فقتل المسلمون منهم مقتلةً عظيمةً ، وأُخِذَتْ ابنة « جُرجير » سبيةً ، فنفّلها ابن الزبير ، وكان سهمُ الفارس ثلاثة آلافِ دينارٍ ، وسهمُ الراجل ألف دينارٍ . ولما أراد ابن أبي سرح أن يبشّر عثمان بالفتح ، قال لابن الزبير : أنت أوْلى بهذا . فأرسله إلى عثمان بشيرًا ، فأخبره بما فتح الله عليه ، فأمره عثمان أن يخطب ، فلما خطب قال عثمان : كأنه أبو بكر[٢].

قال الذهبي في السير (٣ / ٣٧٧) : « قد كان يُضرب بشجاعته المثل » .

قاتل يوم الدار دفاعًا عن عثمان ، فجرح بضعة عشر جرحًا غائرة ، يقول : وإني لأضع اليوم يدي على بعضِ تلك الجراحات ، فأرجو أن تكون خيرَ أعمالي .

يقول رجلٌ من أهل حمص ، يصف يوم ابن الزبير الأخير ، قال : « رأيته يوم الثلاثاء ، وإنا لنطّلع عليه ، أهل حمص خمسمائة خمسمائة ، من باب ندخله لا يدخله غيرنا ، فيخرج إلينا وحده في أثرنا ، ونحن منهزمون منه ، ولقد رأيته يقف بالأبطح ، ما يدنو منه أحدٌ ، حتى ظننا أنه لا يُقتل »[٣].

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤٠١ - ٤٠٢) .
(٢) تهذيب ابن عساكر ٧ / ٤٠٢ ، وقادة فتح المغرب العربي صـ ٤١ - ٤٣ للواء الركن محمود شيت خطاب .
(٣) تاريخ الطبري ٥ / ٣٣ .

« وكان رضي الله عنه يقول :

جلسنا على الأعقاب تدْمي كُلُومُنَا ولكنْ على أقدامنا تقطر الدَّمَا

ولما قُتل وقف عليه الحجاج وطارق بن عمرو ، فقال طارق : ما ولدتِ النساءُ أذْكرَ مِن هذا . فقال الحجاج : تمدح مَن يخالف طاعة أمير المؤمنين ؟ فقال : نعم ، هو أعذر لنا ، ولولا هذا ما كان لنا عذْر ، إنا مُحَاصِرُوه ، وهو في غير خندقٍ ولا حِصنٍ ولا منعةٍ منذ سبعةِ أشهر ، ينتصف منّا ، بل يفضل علينا في كل ما التقينا نحن وهو . فبلغ كلامُهما عبدَ الملك ، فصوّب طارقًا »[1].

بُسْر بن أرْطاة القرشيّ :

كان فارسًا ، شجاعًا ، فاتكًا ، من أفراد الأبطال ، وكان له نكايةٌ في الروم .

« لقد كان بسرٌ على جانبٍ عظيمٍ من الشجاعة والإقدام ، وكان من أُسود العرب .

كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، بعد فتح مصر أن افرضْ لمن شهد بيعة الحديبية - أو قال : بيعة الرضوان - مائتيْن من الدنانير ، وأتِمّها لخارجةَ بن حذَافة لضيافته ، ولبُسْر بن أرطاة لشجاعته .

وفي روايةٍ عن عمر بن الخطاب : جعل لعمرو بن العاص مائتيْن ؛ لأنه أمير ، ولبُسر مائتيْن ؛ لأنه صاحب سيف .

وقال عمر بن الخطاب عن بسرٍ : رُبَّ فتحٍ قد فتحه الله على يديْه »[2].

---

(١) الطبري ٥ / ٣٣ .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٣ / ٢٢٢ .

وانظر - بربك - إلى واقعةٍ أغربَ من الخيال :

« غَزَا بُسر الروم مرةً ، فكانت ساقته[١] لا يزال يُصَاب منها طرفٌ ، فجعل يلتمس أن يصيب الذين يلتمسون عوْرة ساقتِه ، فيكمن لهم الكمينَ ، فلم تُصب كمائنُه ولم تَظفر ، فلما رأى ذلك تخلّف في مائةٍ من جيشه ، ثم جعل يتأخر حتى تخلّف وحده ، فبينما هو يسير في بعض أوْدية الروم ، إذْ رُفع إلى قريةٍ فيها جَوْزٌ كثيرٌ ، وإذا براذين مربوطةٌ بأشجار الجوْز ، وإلى جانب الأشجار كنيسةٌ فيها فرسان ، وكانت تلك براذين الذين كانوا يتعقبونه في ساقتِه ، ونزل « بُسْر » عن فرسه فربطه مع تلك البراذين ، ثم مضى حتى أتى الكنيسة ، فدخلها ثم أغلق عليه وعليهم بابها ، فجعلتِ الروم تعجب من إغلاقه وهو وحده ، فما استمالوا إلى رماحِهم حتى صرَع منهم ثلاثة ، وفقده أصحابه ، فلاموا أنفسهم ، وقالوا : إنكم لأهلٌ لِأَنْ تُجْعَلُوا مثلًا للناس ، إنّ أميرَكم خرج معكم فضيّعتموه حتى هلك ، ولم يهلك منكم أحدٌ ، فبينما هم يسيرون في الوادي إذْ بهم قد أتوْا على مرابط البراذين ، وإذا فرس « بُسْر » مربوط معها فعرفوه ، وسمعوا الجلَبة في الكنيسة فدخلوها ، فلما رآهم « بُسْر » سقط مغشيًّا عليه ، فأقبلوا على من كان باقيًا فأسروه ، وقَتلوا مَن قتلوا ، فأقبلت عليهم الأسارى يقولون لهم : ننشدكم الله ، من هذا الذي دخل علينا ؟ فقالوا : بُسْر بن أرطاة . فقالوا : ما ولدتِ النساءُ مثلَه . فعمدوا إلى جلدٍ فوضعوه في جوْفه ، ثم عصبوه بعمائمهم ، وحملوه على شِقِّهِ التي ليست بها جراحة ، حتى أتوْا به العسكر فخاطوا جراحَه ، فَسَلِمَ وعُوفي »[٢].

---

(١) جماعة من الرجال واجبها حماية مؤخرة الجيش من العدو .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٣ / ٢٢١ ، سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٧٤ .

عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ، رضي الله عنه :

الهاشمي ، ابنُ عم رسول الله ﷺ ، ومن مُسلمة الفتح .

لما توفي رسول الله ﷺ كان لهذا نحوٌ من ثلاثين سنةً .

قال أبو الحُويْرث : أول من قُتِلَ يوم أجنادين بِطْرِيْقٌ برز يدعو إلى البراز ، فبرز إليه عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ، فاختلفا ضَرَباتٍ ، ثم قتله عبد الله ، ثم برز آخر ، فضربه عبد الله على عاتقه ، وقال : خذْها وأنا ابن عبد المطلب . فأثبته وقطع سيفه الدرع ، وأشرع في منكبه ، ثم ولّى الرومي منهزمًا[1] .

« وعزم عليه عمرو بن العاص أن لا يبارز ، فقال : لا أصبر . فلما اختلطت السيوف ، وُجِدَ في رِبْضةٍ من الروم عشرةٍ مقتولًا ، وهم حوله ، وقائم السيف في يده في غري[2] ، وإنّ في وجهه لثلاثين ضربة .

قال الواقدي : فحدّثتُ بهذا الزبيرَ بن سعيد النوفلي ، فقال : سمعتُ شيوخنا يقولون : لمّا انهزمتِ الروم يومئذٍ ، انطلق الفضل بن عباس في مائة نحوًا مِن ميل ، فيجد عبد الله مقتولًا في عشرةٍ مِنَ الروم قد قتلهم ، فقبروه »[3] .

وَاثِلةُ بن الأسْقَع ، رضي الله عنه :

آخر من مات من الصحابة بدمشق .

لله درُّه من بطلٍ ! يُلقي الرعبَ في كتيبةٍ من الروم قبل فتْح دمشق .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٩ / ١١٥ ب ، ١١٦أ ، وسير أعلام النبلاء ٣ / ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٢) لزق .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٨٢ .

« عن واثلة قال : وقفتُ في ظُلمة قنطرةِ « قينية »[1] ليَخْفَى على الخارجين من باب « الجابية »[2] موقفي . فأسمع صريرَ باب « الجابية » فمكثتُ ، فإذا بخيلٍ عظيمةٍ ، فأمهلْتُها ثم حملتُ عليهم ، وكبّرتُ ، فظنوا أنهم أحيط بهم ، فانهزموا إلى البلد ، وأسلموا عظيمَهم ، فدعستُه بالرمح ، ألقيتُه عن بِرْذَونه ، وضربتُ بيدي على عِنان البرْذَوْن ، وراكضتُّه حتى أنهكتُه ، والتفتوا ، فلما رأوني وحدي تبعوني ، فدعستُ فارسًا بالرمح فقتلتُه ، ثم دنا آخر فقتلته ، ثم جئتُ خالد بن الوليد فأخبرته ، وإذا عنده عظيمٌ من الروم يلتمس الأمان لأهل دمشق »[3].

وقبلها .. في معركة فحل « كان واثلة في خَيْلِ ابن هبيرةَ ، فعَرَض له بِطْريقٌ من كبارهم ، فبرز له واثلة وهو يقول :

لَيْثٌ وليثٌ في مَجَالِ ضَنكِ ... كلاهُمَا ذو أَنفٍ ومَعْكِ
أجولُ جَوْلَ صارمٍ في العركِ ... أوْ يكشف اللهُ قِناع الشَّكِ
مع ظَفري بحاجتي وتركِي

ثم حمل على البِطْرِيق فضربه ضربةً فقتله »[4].

جُلَيْبيب رضي الله عنه « هذا مني وأنا منه » :

« عن أبي برزة أن النبي ﷺ كان في مغزًى له فأفاء الله عليه ، فقال لأصحابه : « هل تفقدون مِن أحدٍ ؟ » قالوا : نعم ، فلانا وفلانا وفلانا . ثم قال : « هل تفقدون من أحدٍ ؟ » قالوا : نعم ، فلانًا وفلانًا وفلانًا . ثم

---

(١) قرية كانت مقابل الباب الصغير من مدينة دمشق ؛ صارت الآن بساتين .
(٢) باب الجابية من أحياء دمشق يقع غربي جامع بني أمية .
(٣) تاريخ دمشق ١٧ / ٣٥٣ ب ، ٣٥٤أ .
(٤) الطريق إلى دمشق صـ ٣٣٥ .

قال : « هل تفقدون من أحدٍ ؟ » قالوا : لا . قال : « لكني أفقد جُليبيبًا فاطلبوه » . فطُلب في القتلَى فوجدوه إلى جنبِ سبعةٍ قد قتلهم ثم قتلوه ، فأتى النبي ﷺ فوقف عليه ، فقال : « قتَل سبعةً ثم قتلوه ، هذا مني وأنا منه ، هذا مني وأنا منه » . قال : فوضعه على ساعديْه ، ليس له إلا ساعِدَا النبيّ ﷺ . قال : فحفر له ووُضع في قبره . ولم يَذكرْ غُسْلًا »(١).

هذا مني وأنا منه .. فمَن مِن الناس على مدار التاريخ يقال له مثل هذا ؟!

بانُوا وكأنهم ما كانوا !

قائد مجاهدي العيص أبو بصير : عتبة بن أسد ، رضي الله عنه : « ويلُ أُمِّهِ مِسْعَر حربٍ لو كان له أحَدٌ » :

بعد صلح الحديبية وما اشترطْه قريشٌ على النبي ﷺ : إنه لا يأتيك منّا رجلٌ ، وإن كان على دينك ، إلا رددته إلينا « رجع النبي ﷺ إلى المدينة ، فجاءه أبو بصير - رجلٌ من قريش - وهو مسلم ، أرسلوا في طلبه رجليْن ، فقالوا : العهد الذي جعلتَ لنا . فدفعه إلى الرجليْن فخرجا به ، حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمرٍ لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأَرى بسيفك هذا يا فلان جيِّدًا . فاستلّه الآخر ، فقال : أجل والله إنه لجيِّدٌ ، لقد جربتُ به ثم جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه . فأمكنه منه فضربه حتى برد ، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : « لقد رأى هذا ذعرًا » . فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قُتل والله صاحبي ، وإني لمقتولٌ . فجاء أبو بصير فقال : يا نبي الله ، قد - والله - أوفى اللهُ ذمّتك ، قد رددتَني

(١) صحيح : أخرجه أحمد مصحوبًا بقصة ، والنسائي في فضائل الصحابة .

إليهم ثم أنجاني الله منهم . قال النبي ﷺ : « ويلُ أمّه مِسْعَر حرب ، لو كان له أحد » . فلما سمع ذلك عرف أنه سيردُّه إليهم ، فخرج حتى أتى سِيْفَ البحر ، قال : وينفلت منهم أبو جندَل بن سُهيل ، فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجلٌ قد أسلم إلا لَحِق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابةٌ ، فوالله ما يسمعون بعِيرٍ خرجتْ لقريشٍ إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلتْ قريشٌ إلى النبي ﷺ تناشده اللهَ والرّحِمَ لما أرسل ، فمَن أتاه فهو آمنٌ ، فأرسَل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليهم ،فأنزل الله تعالى ﴿ **وهُوَ الذي كفَّ أيْديَهم عنكم وأيديَكُمْ عنهُمْ ببَطْنِ مكةَ مِنْ بعدِ أنْ أظفرَكم عليهِم** ... ﴾ حتى بلغ ﴿ **الحَمِيةَ حَميَّةَ الجاهليةِ** ... ﴾ ، وكانت حمِيّتهم أنهم لم يُقرُّوا أنه نبي الله ، ولم يقرُّوا ببسم الله الرحمٰن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيْت »[1].

لله دَرُّكَ فتى قريشٍ عتبةَ بن أسيد الزهري ! كم عانيْتَ في سبيل دينك ! زجّ بك قومُك بنو زهرة في السجن ، وفررتَ منه مُسرعًا إلى المدينة بعد صلحِ الحديبية ، وعلمتَ أن نبيك ﷺ لا يغدر ، واستسلمت طائعًا لأمر رسول الله : « يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرَجًا ومخرجًا ، فانطلق إلى قومك » .

ولله دَرُّكَ من شجاعٍ ، حين قتلتَ حارسك العامري ! ولله درُّك حين فرّ الآخر مذعورًا طالبًا النجاة !

ولله درُّك حين توّجك وتوّج شجاعتك نبيُّكَ ﷺ ، حين قال :

---

(١) أخرجه البخاري وأبو داود عن المِسْور بن مَخْرمة ومروان . وعزاه المِزّي للنسائي .

« ويْلُ أمِّه مِسْعَرِ حربٍ لو كان معه رجالٌ » !

ولله دَرُّكَ حين تحمل سيْف القتيل المشرك ، وتستوي على بعيره الذي غنمتَ منه ، وتتجه نحو «العِيصِ» ، حيث تكثر الأحراش والأشجار ، لتبدأ منها حرب العصابات وتعلن الثورة على قومك قريش !

ولله دَرُّكَ حين أخفْتَ قريشًا إخافةً شديدةً ، فصارت لا تُرسل قوافلها إلى الشام إلا تحت حراسةٍ شديدةٍ ، ومع ذلك لم تنجُ هذه القوافل منك أيها الثائر البطل !

ولله دَرُّكَ حين يفرّ إليك المستضعفون من شبابِ مكة ، يفرون من سجون أهليهم ، يجتمع إليك من شباب قريشٍ - وحدهم - سبعون شابًّا ، وينضمُّ إليك رجالٌ من غِفَار وجُهيْنة ، حتى بلغتم ثلاثمائة !

لله دَرُّكَ ودرُّ نائبك أبي جندل بن سهيل بن عمرو !

لله دَرُّكَ حين يجتمع رجالاتُ قريشٍ في دار الندوة ، يرتجفون فزعًا منك ، ويرسلون أبا سفيان إلى النبيّ ﷺ ، وهم يستعطفونه ويسترحمونه : إننا قد أسقطنا هذا الشرط من الشروط . مَن جاء منهم إليك فأمسِكْه مِن غير حَرَجٍ فهو آمن ؛ إن هؤلاء الرَّكْب - يَعني ثوار العِيص - قد فتحوا علينا بابًا لا يصلح إقراره[1] . إننا نسألك بالأرحام ، إلا ما آويتهم فلا حاجة لنا بهم[2] .

لله دَرُّكَ ودرُّ إخوانِك حين تقضُّ مضاجعَ قريشِ الكفر ، فجعلتهم يطلبون صاغرين ، مسترحمين ، مناشدين نبيّك ﷺ الرّحِمَ أنْ يُسقط الشرطَ

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ١٥١ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٢٤ .

الذي أملَوْه صلفًا وكبرياءً وغُرورًا وبغيًا وبطرًا ! يأتي الزبانية مُقرّين أن لا طاقةَ لهم بمِسْعر الحرب .. وما يأتيك كتابُ نبيّك إلا وأنت في مرضِ الموت .. فتفضُّه وتَشْرع في قراءَته ، إلا أن روحَك الطاهرة فاضت إلى باريها وكتابُ الرسول ﷺ في يدك .. فسلامٌ عليك مع الأبرار .. واللهِ ما عقمتْ أمةٌ ولدتْ مثلك .

كَعْبُ بنُ مالكٍ ، رضي الله عنه يُخوِّفُ دَوْسًا ببيْتِ شعرٍ فتسلم :

شاعر رسول الله ﷺ وصاحبه ، وأحد الثلاثة الذين خلّفوا ، فتاب الله عليهم .

شهد العقبة ، وفيها يقول : لقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ بيعة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبّ أنّ لي بها مشهد بدرٍ ، وإنْ كانت بدرٌ أذكر في الناس منها[١].

قال كعب : لما انكشفنا يوم أحدٍ ، كنت أول من عرف رسول الله ﷺ ، وبشّرتُ به المؤمنين حيًّا سويًّا وأنا في الشِّعْب ، فدعا رسول الله ﷺ كعبًا بلأْمته - وكانت صفراء - فلبسها كعب ، وقاتل يومئذٍ قتالًا شديدًا ، حتى جُرح سبعةَ عشرَ جرحًا[٢].

قال ابن سيرين : كان شعراءُ أصحاب رسول الله ﷺ : حسّان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك .

وعن كعبٍ أنه قال : يا رسول الله ، قد أنزل الله في الشعراء ما أنزل . قال : « إن المجاهد مجاهدٌ بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده ، لكأنما ترمونهم

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٤٣ ، والمستدرك ٣ / ٤٤١ .

نضْحَ الإبل »(١).

قال ابن سيرين : أما كعب ، فكان يذكر الحرب ، يقول : فعلنا ونفعل ، ويتهددهم . وأما حسان ، فكان يذكر عيوبهم وأيّامهم . وأما ابن رواحة ، فكان يعيِّرهم بالكفر .

ولقد أسلمتْ دَوْس فَرَقًا من بَيْتٍ قاله كعبٌ :

نُخَيِّرُهَا ولوْ نطقتْ لَقالتْ قواطِعُهنَّ دَوْسًا أو ثقيفا(٢)

والبيت مع البيت الذي قبله :

قضينا مِن تِهامَةَ كلَّ رَيْبٍ وخيبرَ ثُمَّ أجممنَا السيوفَا

نُخيّرها ولوْ نطقتْ لقالتْ قواطِعُهنَّ دَوْسًا أو ثقيفا

لله دَرُّكَ يا كعب ! ببيْتٍ واحدٍ منك أيها البطل تُسلمُ قبيلةٌ بأسرها خوْفًا .

وما أحلى التاج الذي يرصّع به جبينك رسولُ الله ﷺ في هذا الحديث : عن جابرٍ أن رسول الله ﷺ قال لكعبِ بن مالك : « ما نسي ربُّك لك - وما كان ربُّك نسيا - بيتًا قلتَه » . قال : ما هو ؟ قال : « أنْشِدْه يا أبا بكر » . فقال :

زَعمتْ سَخِينَةُ أَنْ ستَغْلِب رَبَّهَا وَلَيُغْلَبنَّ مُغَالِبُ الغلَّابِ(٣)

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٥٠٠) وعنه أحمد ، وسنده صحيح .

(٢) أسد الغابة ٤ / ٤٨٨ ، والإصابة ٨ / ٣٠٥ . وقوله : « نخيِّرها » أي : السيوف . أي نعطيها الخِيَرة ، ولو نطقتْ لاختارتْ أن تحارب دوْسًا أو ثقيفًا .

(٣) أورده صاحب كَنز العمال ١٣/ ٥٨١ ، ونسبه لابن منده وابن عساكر . والسخينة : طعام من سمنٍ ودقيقٍ ، أو دقيقٍ وتمرٍ ، أغلظ من الحَساء ، وكانت =

يهودٌ ولا علِيَّ لهم : البطَلُ .. بل حَيْدَرة الأبطال عليُّ بن أبي طالبٍ ، رضي الله عنه :

روى البخاري عن قيْس بن عباد عن علي بن أبي طالبٍ قال : أنا أول مَن يَجْثو بين يدي الرحمٰن للخصومة يوم القيامة .

وقال قيْس بن عباد : وفيهم أنزلت ﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اختصمُوا في رَبِّهِمْ** ... ﴾ الآية . قال : « هم الذين تبارزُوا يوم بدرٍ : حمزةُ ، وعليٌّ ، وعبيدة - أو أبو عبيدة - بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة وعُتبة بن ربيعة ، والوليد بن عُتبة .

« وعن علي قال : تقدم - يعني عُتبة بن ربيعة - وتَبِعَه ابنه وأخوه ، فنادى : مَن يُبارز ؟ فانتُدب له شبابٌ من الأنصار ، فقال : مَنْ أنتم ؟ فأخبروه ، فقال : لا حاجةَ لنا فيكم ، إنما أردْنا بني عمّنا . فقال رسول الله ﷺ : « قُمْ يا حمزة ، قم يا عليّ ، قم يا عبيدة بن الحارث » فأقبل حمزة إلى عُتبة ، وأقبلتُ إلى شَيْبة ، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتانِ ، فأثخن كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه ، ثم مِلْنَا على الوليد ، فقتلناه واحتملنا عُبيدة »[1].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧ / ٢٩٨) : فيه فضيلةٌ ظاهرةٌ لحمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم .

وانظرْ - بربّك - إلى الفارس الشابّ .. علي بن أبي طالب ، وإلى قتلاه يومَ بدرٍ ، فقد قتل بعد شيبةَ ، والوليد : العاصَ بن سعيد بن العاص ، وعامرَ بن عبد الله النمري ، وطعيمةَ بن عديّ بن نوفل ، وزمعة بن الأسود بن

= قريشٌ تكثر من أكلها ، فَعُيِّرتْ بها ، حتى لقبوا : « سخينة » .

(١) صحيح أخرجه أبو داود (٢٦٦٥) .

المطلب ، ونوفل بن خُوَيْلد بن أسد وهو أخو أمِّ المؤمنين خديجة - وكان من شياطين قريش - وعقيل بن الأسود بن المطلب ، والنضر بن الحارث قتله صَبْرًا بعد المعركة ، وعُمير بن عثمان بن عمرو ، ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة ، وأبا قَيْس بن الفاكهة بن المغيرة ، وحاجِبَ بن السائب ابن عُوَيْمر ، وعبد الله بن المنذر ابن أبي رفاعة ، والعاص بن مُنَبِّه بن الحجَّاج ، وأَوْس بن مِعْيَر بن لَوْذَان ؛ خمسةَ عشَرَ رجلًا قتلهم حَيْدَرَةُ .. علي بن أبي طالب في يوم بدرٍ .

وفي أُحُدٍ يقتل عليّ أبا أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة ، وعبد الله ابن حميد بن زهير .

قتل عليٍّ لعمرو بن عبد وُدّ فارس قريش في يوم الأحزاب :

كان عمرو بن عبد ودّ العامري « كبشَ الكتيبة » قد حضر معركة بدرٍ الكبرى ، وذاق مرارة الهزيمة بعد أن جُرح في المعركة ، فنذر أن لا يَمَسَّ رأسُه دُهنًا حتى يقتل محمدًا ، ولهذا كان أولَ الفرسان المقتحمين بخيلهم الخنْدق نحو المسلمين ، ومعه فوارس من قريش ، وخرج علي بن أبي طالب في نفرٍ معه من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلَهم ، وأقبلت الفرسان تُعْنِق[1] نحوهم .

قال ابن إسحاق : « كان عمرو بن ودّ العامري (وهو كبش الكتيبة) قد قاتل يوم بدرٍ حتى أثبتتْهُ الجراحةُ فلم يشهد أُحُدًا ، فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلَمًا ليُرَى مكانُه ، فلما وقف هو وخيله قال : مَن يبارز ؟ فبرز إليه علي بن أبي طالب » .

---

(١) أي : تُسرع .

وعند البيهقي في « دلائل النبوة » : « خرج عمرو بن عبد ودّ وهو مُقنَّع بالحديد ، فنادى : مَنْ يبارز ؟ فقام علي بن أبي طالبٍ فقال : أنا لها يا نبي الله . فقال : « إنه عمرو ، اجلسْ » . ثم نادى عمرٌو : ألا رجلٌ يبرز ؟ فجعل يُؤنِّبهم ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أنه مَنْ قُتل منكم دخلَهَا ، أفلا تبرزون إليّ رجلًا ؟! فقام عليٌّ فقال : أنا يا رسول الله . فقال : « اجلسْ » . ثم نادى الثالثة فقال :

ولقد بحِحْتُ من النداء لِجَمْعِهِم هلْ منْ مُبارِزْ
ووقفتُ إذْ جَبُنَ المشجَّعُ موقِفَ القرنِ المناجِزْ
ولذاك إني لم أزلْ متسرِّعًا قبلَ الهَزَاهِزْ
إنَّ الشجاعةَ في الفتَى والجود من خيْرِ الغرائِزْ

قال : فقام عليٌّ رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، أنا . فقال : « إنه عمرٌو » . فقال : وإن كان عمرًا . فأذِن له رسول الله ﷺ ، فمشى إليه ، حتى أتى وهو يقول :

لا تَعْجَلَنَّ فَقَدْ أتاكَ مُجيبُ صَوْتِكَ غيرُ عاجزْ
في نيّةٍ وبصيرةٍ والصدقُ مَنْجَى كلِّ فائزْ
إني لأرجُو أن أُقِيـ ـمَ عليكَ نائِحَةَ الجنائِزْ
مِن ضربةٍ نجلاءَ يَبْـ ـقَى ذكرُها عندَ الهزاهزْ[1] »

ولما مشى علي إلى عمرو ليبارزه قال له : يا عمرُو ، إنك كنتَ تقول : لا يدعوني أحدٌ إلى واحدةٍ من ثلاثٍ إلّا قبلتُها . قال له : أجل . فقال له : إني أدعوك أن تشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وتُسلِمَ لرب العالمين . فقال عمرو : يا ابن أخي ، أخّرْ عني هذه . قال

---

(١) الهَزاهِز : الحروب والشدّة .

علي : وأخرى : ترجع إلى بلادك ، فإنْ يكُ محمد رسول الله صادقًا كنتَ أسعد الناس به ، وإن يكُ كاذبًا كان الذي تريد . فقال عمرٌو : هذا ما لا تتحدث به نساءُ قريشٍ أبدًا . كيف وقد قدرتُ على استيفاءِ ما نذرتُ ؟! ثم قال عمرٌو : فالثالثة ، ما هي ؟ فقال علي : البرازُ . فضحك فارسُ قريشٍ عمرٌو - وكان فارسًا مشهورًا مُعَمَّرًا قد جاوز الثمانين - ثم قال لعليٍّ : إن هذه الخصْلة ما كنت أظنُّ أحدًا من العرب يروِّعني بها . ثم قال لعليٍّ : مَنْ أنت ؟ قال له : أنا علي . قال : ابن عبد مناف ؟ فقال عليٌّ : أنا علي ابن أبي طالب . فقال عمرٌو : يا ابن أخي مِن أعمامك مَن هو أسنُّ منك ؛ فواللهِ ما أحب أن أقتلك . فقال علي : ولكني - والله - أحبُّ أن أقتلك . فعند ذلك غَضِبَ عمرٌو غضبًا شديدًا ، ونزل فسلّ سيفَه ، كأنه شُعْلَةُ نارٍ ، ثم أقبل نحو عليٍّ مُغضَبًا ، واستقبله عليّ بدَرَقَته فضربه عمرو في دَرَقته فقدّها ، وأثبتَ السَّيْف فيها ، وأصابَ رأسَه فشجّه ، وضربه عليٌّ على حبل عاتِقِه فسقط ، وثار العَجَاجُ ، وَسَمِعَ رسول الله ﷺ التكبير ، فعرف الناس أنَّ عليًّا قد قتل عمرًا ، فثَمَّ يقول عليّ :

أعليَّ تقتحم الفوارسَ هكذا ... عنّي وعنهم أخّروا أصحابي
اليوم يمنعني الفرارَ حفيظتي ... ومُصَمَّمٌ في الرأسِ ليسَ بنابي

وألقى عكرمة رمحه يومئذٍ وهو منهزم عن عمرٍو ، فقال حسان بن ثابت :

فــرّ وألقَــى لنــا رمحَــه ... لعــلَّكَ عِكْــرِمُ لم تفعــلِ
ووليّتَ تعدو كعدْو الظَّليـ ... ـم ما أن يحوّر عن المَعدِلِ
ولم تلوِ ظهـرَك مسـتأنسًا ... كأنّ قفـاكَ قفـا فُرْعَـلِ[1]

---

(١) الفرعل : صغار الضباع .

قال عمر بن الخطاب : هلّا استلبت درعَه ، فإنه ليس للعرب درعٌ خير منها . فقال : ضربته فاتقاني بسوءَتِه فاستحيَيْتُ - ابنَ عمي - أن أسلبه . وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفتَه بعشرة آلافٍ ، فقال : « ادفعوا إليهم جيفتَهُ ؛ فإنه خبيث الجيفة ، خبيث الدِّية » . فلم يقبل منهم شيئًا .

عليّ صاحب الراية يوم خَيْبَر الذي يفتح الله عليه :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأُعطينَّ هذه الراية رجلًا يحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديْه » . قال عمر بن الخطاب : ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذٍ . قال : فتساورتُ لها رجاءَ أن أُدْعَى لها . قال : فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب فأعطاه إياها . وقال : « امشِ ولا تلتفتْ ، حتى يفتح الله عليك » . فسار عليٌّ شيئًا ، ثم وقف ولم يلتفت ، فصرخ : يا رسول الله على ماذا أقاتلُ الناس ؟ قال : « قاتِلْهم حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءَهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابُهم على الله »[1].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأعطينَّ هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديْه ، يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله » . قال : فبات الناس يدركون ليلتهم ، أيُّهم يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوْا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،كلُّهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : « أين علي بن أبي طالب ؟ » فقيل : هو يا رسول الله يشتكي عينيْه . قال : فأرسَلوا إليه فأُتي به ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه

---

(١) رواه مسلم وأحمد والنسائي في الخصائص ، والطيالسي .

ودعا له ، فبرأ حتى كأنَّه لم يكن به وجعٌ ، فأعطاه الراية ، فقال عليٌّ : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : « انفُذ على رِسْلِكَ حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادْعُهم إلى الإسلام ، وأخبِرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه ، فوالله ، لَأَن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم »[١].

وعند البخاري عن سلمة ، قال : « كان عليّ قد تخلَّف عن النبي ﷺ في خيبر ، وكان به رمدٌ ، فقال : أنا أتخلّف عن رسول الله ﷺ ؟! فخرج عليٌّ فلحِقَ بالنبي ﷺ ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لأُعطينَّ الراية - أو ليأخذنَّ الراية - غدًا رجلًا يحبُّه الله ورسوله - أو قال : يحبُّ الله ورسوله - يفتح الله عليه » . فإذا نحن بعليّ ، وما نرجوه ، فقالوا : هذا علي . فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ، ففتح الله عليه »[٢].

وعن أبي سعيد الخدري ، قال : إن رسول الله ﷺ أخذ الراية فهزّها ، ثم قال : « مَنْ يأخذها بحقِّها ؟ » فجاء فلان فقال : أنا . قال : أمط . ثم جاء رجلٌ فقال : أَمِطْ . ثم قال النبي ﷺ : « والذي كَرَّم وجهَ محمدٍ ، لأُعطينَّهَا رجلًا لا يفرّ ، هاك يا عليّ » فانطلَقَ حتى فتح الله عليه خيبر وفَدَك ، وجاء بعجْوتهما وقديدهما[٣].

وفي حديث سلمةَ بن الأكْوع عند مسلم : « ثم أَرسلني رسول الله ﷺ إلى عليّ وهو أرمد ، فقال : « لأُعطينَّ الراية رجلًا يحبُّ الله ورسوله ،

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد ، وأبو يعْلى ، والنسائي في الخصائص .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم .
(٣) حسن : أخرجه أحمد في المسند ٣ / ١٦ ، وأخرجه أحمد أيضًا في فضائل الصحابة .

أو يحبه الله ورسوله » . قال : فأتيتُ عليًّا فجئت به أقوده وهو أرمد ، حتى أتيتُ به رسول الله ﷺ ، فبصق في عينيْه فبرأ ، وأعطاه الراية . وخرج « مرحب » فقال :

قد علمتْ خيبرُ أني مرحَبُ   شاكي السلاحِ بطلٌ مجربُ
إذا الحروبُ أقبلتْ تلهَّبُ

فقال عليٌّ :

أنا الذي سمّتْني أُمّي حَيْدَرَهْ[1]   كلَيْثِ غاباتٍ كريهِ المنْظَرَهْ
أُوَفِّيهمْ بالصاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قال : فضرب رأسَ « مرحب » فقتله ، وكان الفتح على يديْه .

مَرْحب هذا : فارس فرسان اليهود ، وكان مكتوبًا على سيفه بالعبرية :

هذا سَيفُ مَرحَبْ   من يَذُقْهُ يعطبْ

فضربه عليٌّ فقدّ الحجر والمغفر ورأسَه ، ووقع السيف في الأضراس .

وقبله قتل علي أخا مَرحَبَ ، وهو الحارث . وبارز عليٌّ قائدًا يهوديًّا - بعد مبارزة الزبير لياسر - وكان هذا القائد الفارس يُسمّى عامرًا ، فقتله عليٌّ أمام الحصن . قال رسول الله ﷺ حين طلع عامرٌ : « ترْونه خمسةَ أذرع ؟ » وكان طويلًا جسيمًا ، فلما دعا للبراز ، وخطر بسيفه ، وعليه دِرعانِ ، وهو مُقَنَّعٌ في الحديد يصيح : من يبارز ؟ فأحجم الناس عنه ، فبرز إليه عليّ فضربه ضرباتٍ ، كلّ ذلك لا يصنعُ شيئًا ، حتى ضرب ساقيْه فبرك ، ثم ذفّف[2] عليه فأخذ ....

---

(١) حيدرة : هو الأسد .

(٢) أجهز عليه .

سلاحه[١] .

وفتح الله على يد عليّ بن أبي طالب حصن « ناعم » أقوى حصون خيبر .. فيا لعليٍّ مِن حَيْدَرة !!

الحُبَابُ بن المُنْذر بن الجَمُوح حاملُ اللِّواء أمام حِصن « الصَّعب » بخَيْبر :

في أيام خيبر .. بعد سقوط حصن ناعم ، كان الدوْر قد أتى على حصن « الصَّعب بن معاذ » من حصون النطاة ، وأعطى الرسول ﷺ الراية للحباب بن المنذر الأنصاري للقيام بالهجوم على هذا الحصن .. وخرج كبيرُ قادةِ اليهود على فرسه أمام الحصن وطلب المبارزة ، وكان اسم هذا القائد « يوشع » فخرجَ لملاقاته الحباب فنازله ، وبعد كرٍّ وفرٍّ ، ومقارعةٍ عنيفةٍ بالسيوف ، تمكَّن قائد قوات المسلمين مِن قتل « يوشع »[٢] .

ورمَى اليهود المسلمين بسهامهم التي صبُّوها كالمطر على المسلمين من أبراج الحصن ، بل إن اليهود بلغ بهم الاستبسال والشراسة في الدفاع عن حصن « الصَّعب » إلى أن يفتحوا أبواب هذا الحصن ويقوموا بهجومٍ مضادٍّ كاسحٍ عنيفٍ ، كشفوا به قوات المسلمين وطاردوها ، وثبت قائد المسلمين الحباب يقاتل اليهود بشراسة عندما انكشف رجاله أمام اليهود ، وأمام ثبات رسول الله ﷺ ومعه الحباب ، عادت قوات المسلمين من جديد إلى التجمُّع خلفَ قائدهم الحباب ، الذي قام بتنظيمهم في الحال ، ثم شنَّ بهم في نفس الوقت هجومًا عنيفًا على حِصْنِ « الصعب » بُغْية اقتحامه ، فطارد اليهودَ حتى أدخلهم حصنهم الذي أغلقوا أبوابه .

يقول جابر بن عبد الله عن اليهود : « رمَوْا بالنبل ساعةً سراعًا ،

---

(١) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة – خيبر – لمحمد أحمد بشاميل صـ ١٢٢ .

(٢) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة – خيبر صـ ١٣٠ .

وترّسْنَا عن رسول الله ﷺ ، وأمطرونا بالنّبْل ، فكأنَّ نبْلَهم الجرادُ ، حتى ظننت أن لا يُقلعوا ، ثم حملوا حملةَ رجلٍ واحدٍ ، فانهزم المسلمون ، حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ ، وهو واقفٌ قد نزل عن فرسه ، وثبّتَ الحبابُ رايتَنَا ، واللهِ ما يزال يراميهم على فرسه . وندب رسولُ الله المسلمين وحضّهم على الجهاد ، ورغبّهم فيه ، وأخبرهم أن الله قد وعدَه خيبر يغنّمه إياها ، قال : فأقبل الناس جميعًا حتى عادوا إلى صاحب رايتهم ، ثم زَحَفَ بهم الحباب ، فلم يزل يدنو قليلًا قليلًا ، وتراجع اليهود على أدبارها حتى لحمَهَا الشرُّ ، فانهزموا سراعًا ، ودخلوا الحصن وغلّقوا عليهم » .

أقام المسلمون على حصن « الصعب » يومين ، ثم عدا بهم الحباب البطل في اليوم الثالث ومعه الراية ، فقاتلهم أشدَّ قتالٍ ... واغتنم فرصة اضطراب اليهود وتدنّي معنوياتهم ، فشنّ هجومًا خاطفًا برجاله على الحصن فاقتحموه ، وقاتلوا بضراوةٍ حتى افتتحوه ، واستولَوْا على كلّ ما فيه من أسلحةٍ وأرزاقٍ ، وكان شيئًا عظيمًا فرّج الله به الضائقة التي عانى منها الجيش الإسلامي بعد أن نَفِد التموين بسبب طول الحصار .

« يقول أبو سبرة : حمَل صاحبُ رايتنا وحملنا معه ، وأدخلنا اليهود الحصن وتبعناهم في جوْفه ، فلما دخلنا عليهم الحصن فكأنهم غَنَمٌ ، فقتلنا مَن أشرف لنا ، وأسرنا منهم ، وهربوا في كل وجهٍ يركبون الحرّة يريدون حصن قلعة الزُّبير ، وصعد المسلمون على جُدُره ، فكبّروا عليه تكبيرًا كثيرًا ، ففتّتْنا أعضادَ اليهود بالتكبير ... فوجدنا - والله - من الأطعمة ما لم نظن أنه هناك ، من الشعير والتمر والسَّمن والعسل والزيت والودك ، وأخرجنا منه غَنَمًا كثيرًا وبقرًا وحُمُرًا ، وأخرجنا منه آلاتٍ كثيرةً للحرب ، ومنجنيقًا ودباباتٍ وعُدّة ، فنعلم أنهم كانوا يظنون أن الحصار يكون دهرًا ، فعجّل الله خِزيَهم .

وقد خرج من أُطمٍ مِن حصن « الصعب » من البرّ عشرون عكمًا مخرومةً من غليظ متاع اليمن ، وألفٌ وخمسمائة قطيفة .. يقال:قدم كلُّ رجل بقطيفةٍ على أهله ... وجعل المسلمون يأكلون مقامهم شهرًا وأكثر من ذلك الحصن ، ويعلفون دوابَّهم .

وفي حصون الشّق .. وأمام « قلعة أُبيّ » أمنعِ حصونهم،قتَل الحبابُ ابن المنذر قائدَ اليهود عزول .. فقد قاتل أهلُ الحصن قتالًا شديدًا ، وخرج رجلٌ من اليهود يُقال له : غزّال ، فدعا إلى البِراز ، فبرز له الحباب بن المنذر ، فاختلفا ضرباتٍ ، ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليمنى من نصف الذراع ، فوقع السيف من يد غزّال ، فكان أعزل ، ورجع منهزمًا فوقع ، فذفَّف عليه » .

لله دَرُّ الحباب بن المنذر من صحابيٍّ عاشقٍ لمبارزة اليهود وقتالهم !!

محمد بن مَسْلمة بن سلَمة الأنصاريّ ، قاتلُ طاغيةِ اليهود كعب بن الأشرف :

كعب بن الأشرف طاغية اليهود الذي اغتلم الحقد والغدر في نفسه ، وخانَ عهده مع المسلمين ، وجعل يؤلِّب قريشًا ويحرضها على العرب ، ويرثي أبا جهل ويقول :

نبئْــتُ أنَّ بـني المغـيرةِ كُلّهمْ خشعُوا لقتْل أبي الحكيمِ وجدّعُوا

ويقول عن قتلَى بدرٍ من المشركين : هؤلاء أشرافُ العرب وملوك الناس ، واللهِ لئن كان محمدٌ أصاب هؤلاء القوم ، لبطْنُ الأرض خيرٌ من ظهرها .

« عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لكعب ابن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله » . فقام محمد بن مسلمة فقال : يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : « نعم » . قال : فأْذنْ لي أن أقول شيئًا . قال : « قُلْ » . فأتاه محمد بن مسلمة فقال : إن هذا الرجل قد سألنا

صدقةً ، وإنه قد عنّانا ، وإني قد أتيتُك أستسلفك . قال : وأيضًا واللهِ لتملِنَّه . قال : إنا قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيءٍ يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقًا أَوْ وسقيْن . فقال : نعم ، ارهنوني . قالوا : أيّ شيءٍ تريد ؟ قال : ارهنوني نساءَكم . قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟! قال : فارهنوني أبناءَكم . قالوا : كيف نرهنك أبناءنَا فيُسبّ أحدهم ، فيقال : رُهن بِوسقٍ أوْ وسقيْن ؟! هذا عارٌ علينا ، ولكنا نرهنك اللّامة[1] . فواعده أن يأتيه ، فجاءه ليلًا ومعه أبو نائلة – وهو أخو كعب من الرضاعةِ – فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم ، فقالت له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟ فقال : إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة . قالت : أسمع صوتًا كأنه يقطُر منه الدم . قال : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة ؛ إن الكريم لو دُعي إلى طعنةٍ بليلٍ لأجاب . ويدخل محمد بن مسلمة معه رجالٌ : أبو عَبْس بن جبر والحارث بن أوس وعباد بن بشر ، فقال : إذا ما جاء فإني قائلٌ بشَعْرهِ فأشمّه ، فإذا رأيتموني استمكنتُ من رأسه فدونكم فاضربوه . وقال مرةً : ثم أشمُّكم . فنزل إليهم متوشّحًا وهو ينفح منه ريح الطيب ، فقال : ما رأيت كاليوم ريحًا – أيْ أطْيَبَ . وقال غير عمرو[2] : قال : عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب . قال عمرو : فقال : أتأذن لي أن أشمَّ رأسك ؟ قال : نعم . فشمّه ، ثم أشمّ أصحابَه ، ثم قال : أتأذن لي ؟ قال : نعم . فلما استمكن منه قال : دونكم فاقتلوه . ثم أتَوْا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأخبروه »[3] .

---

(١) قال سفيان أحد رواة الحديث : يعني السلاح .

(٢) أحد رواة البخاري ، راوي الحديث عن جابر بن عبد الله

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود ، وعزاه المزي للنسائي .

وعند محمد بن إسحاق : « فأخذ - أبو نائلة - بفَوْدَي رأسه ، ثم قال : اضربوا عدو الله . فاختلفتْ عليه أسيافهُم فلم تُغن شيئًا . قال محمد ابن مسلمة : فذكرت مِغْوَلًا - نَصْلًا - في سيفي فأخذتُه ، وقد صاح عدوُّ الله صيْحةً ، فلم يبقَ حولنا حصنٌ إلّا أُوقدتْ عليه نارٌ . قال : فوضعتُه في ثُنَّته ثم تَحاملتُ عليه حتى بلغت عانته ، فوقع عدوّ الله ... وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله ، فليس بها يهوديٌّ إلا وهو خائفٌ على نفسه »[1].

قال كعب بن مالك :

فغُودِرَ منهمُ كعبٌ صريعًا ... فذلّتْ بعد مَصرعِهِ النَّضيرُ
علَى الكفَّيْن ثمّ وَقدْ علتْهُ ... بأيدينا مُشَهَّرةٌ ذُكورُ
بأمْرِ محمدٍ إذْ دسَّ ليلًا ... إلى كعبٍ أخا كعبٍ يسيرُ
فماكره فأنزلهُ بمَكْرٍ ... ومحمودٌ أخو ثقةٍ جَسُورُ

يقول عباد بن بشر - وكان أحد الذين اشتركوا في قتل كعب بن الأشرف - :

صرختُ لهُ فلمْ يعرضْ لصوتي ... وأوفى طالعًا مِن فوْقِ خدْرِ
فعُدتُ لهُ فقال مَنِ المُنادِي ... فقلتُ أخوكَ عبّادُ بنُ بِشرِ
وهذي درْعُنا رهنًا فخُذْها ... لشهرٍ إنْ وفَتْ أوْ نصفِ شهرِ
فأقبلَ نحونا يسعَى سريعًا ... وقالَ لنا لقدْ جئتُمْ لأَمرِ
فشَدَّ بسيفهِ صلتًا عليهِ ... فَقَنْطَرَهُ أبو عبسٍ بنُ جَبْرِ
وكان اللهُ سادسَنا فأُبْنا ... بأنعم نعمةٍ وأعزّ نصْرِ
وجاءَ برأسِهِ نفرٌ كرامٌ ... هُمُ ناهيكَ مِنْ صدقٍ وبرّ

---

(١) الإصابة لابن حجر ٤ / ١٩٥ .

قَتْلُ عبدِ الله بن عتيك بن قَيْس الأنصاري لمِلِك خَيْبر أبي رافعٍ سَلَّام ابن أبي الحُقَيْقِ النضري :

كان سلّام من كبار مجرمي الحرب التي شنّها على المسلمين في المدينة - وبتدبيرٍ من يهودِ خيْبر - عشرةُ آلافِ مقاتلٍ مِن الأحزاب الوثنية المتحالفة : قريش ، وغطفان ، وأشجع ، وفزارة ، وأسلم .

فقد كان سلّام في مقدمة وَفْدِ التحريض اليهودي الذي طاف بمضارب البدو ، وفي نجدٍ ، ومواطن القبائل في الحجاز لتحريضهم على غَزْوِ المسلمين ، وكان سلّام هذا مع حُيَيّ بن أخطب على رأْس القوة الضاربة .

وقبلها كان سلّام أحد أركان تلك المؤامرة الدنيئة التي كانت تستهدف حياة النبي الأعظم ﷺ ، والتي شرَع يهودُ بني النضير في تنفيذها عندما كان النبي ﷺ موجودًا في ديارهم . وانتدب النبي ﷺ خمسةً من الفدائيين الأنصار - وكلهم من الخزرج - لقتل أبي رافع ، وهم : ١ - عبد الله بن عتيك ٢ - مسعود بن سنان ٣ - عبد الله بن أُنيْس ٤ - الحارث بن رِبعيّ أبو قتادة ٥ - خُزاعي بن أسود .

« أخرج البخاري عن البراء بن عازب ، قال : بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافعٍ اليهودي رجالًا من الأنصار فأمّر عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان أبو رافع اليهودي يُؤذي رسول الله ﷺ ويُعينُ عليه ، وكان في حصنٍ له بأرض الحجاز ، فلما دنوْا منه وقد غربتِ الشمس وراح الناس بسرْحهم ، فقال عبد الله لأصحابه : اجلسوا مكانكم ؛ فإني مُنطلقٌ ومتلطفٌ للبواب لعلّي أن أدخل . فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنّع بثوْبه كأنه يقضي حاجةً ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : يا عبد الله ، إن كنتَ تريد أن تدخل فادخلْ ؛ فإني أريد أن أغلق الباب . فدخلتُ فكمنتُ ، فلما دخل

الناس أغلق الباب ، وكان أبو رافعٍ يُسمَر عنده ، وكان في علالي له ، فلما ذهب عنه أهل سَمَره صَعدتُ إليه ، فجعلتُ كلما فتحت بابًا أغلقت عليّ مِن داخل ، قلت : إن القوم إن نذِرُوا بي لم يخلُصوا إليّ حتى أقتله ، فانتهيتُ إليه ، فإذا هو في بيتٍ مظلمٍ وسط عيالِه ، لا أدري أين هو من البيت ، فقلت : يا أبا رافع . قال : من هذا ؟ فأهويتُ نحو الصوت فأضربه ضربةً بالسيف وأنا دَهِشٌ فما أغنيت شيئًا ، وصاح ، فخرجت من البيت فأمكث غيرَ بعيدٍ ، ثم دخلتُ إليه فقلت[1] : ما هذا الصوت يا أبا رافعْ ؟ فقال : لأُمِّك الويلُ ، إن رجلًا في البيت ضربني قبلُ بالسيف . قال : فأضربه ضربةً أثخنْتُه ولم أقتلْهُ ، ثم وضعتُ ضبيبَ السيف في بطنهِ حتى أخذ في ظهره ، فعرفتُ أني قتلتُه ، فجعلتُ أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيت إلى درجةٍ له ، فوضعتُ رجلي وأنا أرى أني قد انتهيتُ إلى الأرض ، فوقعتُ في ليلة مُقْمرةٍ فانكسرتْ ساقي فعصبْتُها بعمامةٍ ، ثم انطلقتُ حتى جلستُ على الباب ، فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلمَ أقتلتُه ، فلما صاح الديكُ قام الناعي على السُّور فقال : أنعى أبا رافعٍ تاجرَ أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابي فقلت : النجاءَ ؛ فقد قتل الله أبا رافع . فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثتُه ، فقال لي : « ابسُطْ رجلَك » . فبسطتُ رجلي فمسحَها فكأني لم أشتَكِهَا قطُّ » .

وعند ابن إسحاق : « فأوْقدوا النيران واشتدوا في كلّ وجهٍ يطلبوننا ، حتى إذا يئسُوا رجعوا إليه ، فاكتنفُوه وهو يقضي . قال : فقلنا : كيف لنا بأن نعلم بأن عدو الله قد مات ؟ قال : فقال رجلٌ منا : أنا أذهب فأنظر لكم . فانطلق حتى دخل في الناس ، قال : فوجدتها – يعني امرأته –

---

(١) في رواية : وغيّرتُ صوتي .

ورجال يهود حوْله ، وفي يدها المصباح ، تنظر في وجهه وتحدثهم وتقول : أما والله قد سمعتُ صوتَ ابن عتيكٍ ، ثم أكذبتُ نفسي وقلت : أنَّى ابنُ عتيكٍ بهذه البلاد ! ثم أقبلتْ عليه تنظر في وجهه فقالت : فاظ[1] وإلٰهِ يهود . فما سمعت كلمةً كانت ألذّ على نفسي منها » .

وفي رواية ابن سعد في « الطبقات » : أن النبي ﷺ لما رأى الفدائيين عائدين إلى المدينة قال : « أفلحتِ الوجوه » . فقالوا : أفلح وجهُك يا رسول الله[2].

ورجّح ابنُ إسحاق وأصحابُ الكتب الستة أنّ قاتل أبي رافع هو عبد الله بن أنيس ، ورجّح البخاري أنه هو عبد الله بن عتيك .

قال حسان بن ثابت :

لله دَرُّ عصابةٍ لاقيتَهُم … يا ابنَ الحُقَيْق وأنتَ يا ابنَ الأشْرفِ
يَسْرُون بالبِيضِ الخِفافِ إليكُمُ … مَرَحًا كأُسْدٍ في عَرِينٍ مُغرفِ
حتَّى أتوْكُمْ في مَحلِّ بلادِكُمْ … فَسَقوكُمُ حَتْفًا ببيضٍ ذُفَّفِ
مُستنْصِرين لنَصْرِ دِينِ نبيِّهم … مُستصغرينَ لكلِّ أمرٍ مُجْحِفِ[3]

مُعاذ بن جبل مقدامُ العلماءِ ، الفارس البطل ، رضي الله عنه :

لله دَرُّه مِن شخصيةٍ متكاملةٍ !!

في الليل رهبانٌ وعند قتالِهِمْ … لعدُوِّهم منْ أشجعِ الفرْسانِ

كان رضي الله عنه قائد المَيْمنة في أجنادين ، « قام في أصحابه فقال :

(١) أي : مات .
(٢) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة - صُلْح الحديبية صـ ٩٠ .
(٣) البداية والنهاية ٤ / ١٤٠ .

يا معشرَ المسلمين ، اشروا أنفسَكم اليوم لله .. فإنكم إنْ هزمتموهم اليوم ، كانت لم هذه البلاد دار الإسلام أبدًا مع رضوانِ الله والثواب العظيمِ مِنَ الله » .

وإنْ شئتَ فسَلْ « فحل بيْسان»: مَن كان على ميْمنة المسلمين ؟ يجبْك : معاذ بن جبل .

« قال ثابت بن سهل بن سعد : كان معاذُ بن جبل يومئذٍ من أشدِّ الناس علينا حرصًا ، وأمضاهم في رقاب الروم سيفًا ، فبينما هو يحارب في ميمنة المسلمين إذْ أقبلتْ جنودُ الروم تحُوط عَسْكر المسلمين ، فبرز إليهم معاذ بن جبل في رجاله ونادى فقال : أيُّهَا الناس اعلموا - رحمكم الله - أن الله قد وعدكم بالنصر وأيّدكم بالإيمان ، فانصروا الله ينصرْكم ويثبِّتْ أقدامكم ، واعلموا أن الله معكم وناصركم على عَبَدَةِ الأوثان »[١] .

لله دَرُّ البطل .. يقول لوُجهاء الروم قبل معركة « فحل » - لما فاوضهم ورفض الجلوسَ معهم على البسط - : قمتُ إعظامًا للمشي على هذه البُسُط ، والجلوس على هذه النّمارق التي استأثرتُم بها على ضعفائكم وأهل ملّتكم ، وإنما هي من زينة الدنيا وغُرورها ، وقد زهّد الله في الدنيا وذمَّها ، ونهى عن البغي والسَّرف فيها ، فأنا جالسٌ هاهنا على الأرض وكلّموني .

ولما قالوا له : « اذهب إلى أصحابك ، فوالله إنا لنرجو أن نفرّكم في الجبال غدًا . قال معاذ : أمَّا الجبال فلا ، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا أوْ لنخرجنّكم من أرضكم أذلةً وأنتم صاغرون »[٢] .

ولله دَرُّ فارسنا ابن جبل قائد الميمنة يوم اليرموك ، حين يخطب

---

(١) الأزدي صـ ١٣٧ .

(٢) الطريق إلى دمشق أحمد عادل كمال صـ ٣١١ - ٣٢٣ .

صباح المعركة يقول للناس : « يا قرّاء القرآن ومستحفظي الكتاب وأنصار الهدى وأولياء الحق ، إن رحمة الله - والله - لا تُنال وجنته لا تُدخل بالأماني ، ولا يُؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله عز وجل ، ألم تسمعوا قول الله عز وجل : ﴿ **وعدَ اللهُ الذينَ آمنُوا منكُمْ وعملُوا الصالحاتِ ليَستخلفنَّهم في الأرض كما استخلفَ الذينَ مِنْ قبلهم ...** ﴾ الآية ، أنتم إن شاء الله منصورون ، فأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، واستحيوا من ربكم أن يراكم فرارًا من عدوّكم وأنتم في قبضته ورحمته ، وليس لأحدٍ منكم ملجأ من دونه ، لا متعززٌ بغير الله »[1].

ولما انقضّ الروم على الميمنة صاح معاذ بن جبل : يا عباد الله المسلمين ، إن هؤلاء قد تيسروا للشدة عليكم ، ولا والله لا يردّهم إلا صدْق اللقاء والصبر في البأساء . ثم نزل عن فرسه وقال : مَن أراد أن يأخذ فرسي ويقاتل عليه فليأخذْه . وآثر بذلك أن يقاتل راجلًا مع المُشاة ، فوثب إليه ابنه عبد الرحمٰن بن معاذ بن جبل وهو غلام قد احتلم ، فقال : يا أبتِ ، إني لأرجو أن أكون أنا فارسًا أعظم غناء عن المسلمين مني راجلًا ، وأنت - يا أبتِ - راجلٌ أعظم منك فارسًا ، وأعظم المسلمين رجّالة ، وإذا رأوك صابرًا محافظًا صبروا - إن شاء الله - وحافظوا . فقال معاذ : وفقني الله وإيّاك يا بُنيّ »[2].

الأَزْدُ وما أدْراكَ ما الأَزْدُ .. ودَوْس وما أدراك ما دَوْس :

لله دَرُّهم مِن أبطالٍ ، حفروا بالنور أسماءهم في سجلّ التاريخ ...

---

(١) الطريق إلى دمشق صـ ٤٧٢ .

(٢) الطريق إلى دمشق صـ ٤٧٦ .

وما يزال التاريخ يُنشد مع سيّدهم الطفيل بن عمرو الدّوْسي – وهو يُضرم النار في « ذي الكَفَيْن » صنمهم – :

يا ذا الكَفَيْنِ لستُ من عُبَّادِكَا
ميلادُنَا أقدَم من ميلادِكَا
إني حشوْتُ النارَ في فُؤَادِكَا

وفي طريقه إلى اليمامة لحربِ مُسيْلمة يرى البطل رؤيا يُؤوّلها : إني لأرجو أن أُقتل شهيدًا ، ويطلب ابني الشهادة ، لكنها يدركها فيما بعد .

وفي اليمامة أبلى الطفيل أعظم البلاء حتى خرَّ صريعًا على أرض المعركة . وأما ابنه عمرو فما زال يقاتل حتى أثخنتْه الجراح ، وقطعت كفُّه اليمنى وسبقتْه – إن شاء الله – إلى الجنة .. وكان له ما أراد وتمنّى في يوم اليرموك .

وفي اليرموك .. اشتد القتال في الأزْد ، فأُصيب منهم ما لم يُقتل مِن غيرهم مِنَ القبائل .. واستشهد عمرو يوم اليرموك وهو ثابت ، وهو يقول : يا معشرَ الأزْد ، لا يُؤْتينَّ المسلمون من قِبَلكم . وأخذ يضرب بسيفه قُدُمًا وهو يقول[1] :

قد علمتْ دوْس ويشكرُ تعلمْ ... أني أخو البيضِ ليومٍ مُظْلِمْ
وأعزلُ الشّكيم شدّ الأَيْهَمْ ... كنتُ عزيزًا في الوغَى وضيْغَمْ

وقد قَتل من أشدَّائِهم تسعةً قبل أنْ يُقتل .

(١) أوردها الأزدي صـ ٢٢٤ :
قد علمتْ أوْسُ ويشكرُ تعلمْ ... أني إذا الأبيضُ يومًا مُظْلِمْ
وعرَّد النكْسُ وَفرّ الأيْهَمْ ... أني عُفْرٌ في الوقاعِ ضَيْغَمْ

وثبت **جندب بن عمرو بن حُمُمَة** ورفع رايته وهو يقول : يا معشر الأزْد ، إنه لا يبقى منكم ولا ينجو من القتل والعدوّ والإثم والعار إلّا مَن قاتل . ألا وإن المقتول شهيدٌ ، والخائب مَنْ تولّى . يا معشر الأزد ، إنه لا يمنع الراية إلّا الأبطال .

يا معشـرَ الأزدِ احتذاذُ الأفيالْ هيهاتَ هيهاتَ ووقوفٌ للحـالْ
لا يمنعُ الرايةَ إلّا الأبطالْ

وقاتل قتالًا شديدًا حتى قُتل ، يرحمه الله .

وكان **أبو هريرة رضي الله عنه** مِن رؤوس الأزْد فصاح يقول : يا مبرور ، يا مبرور . فأطافت به الأزد .

يقول عبد الأعلى بن سراقة : انتهيتُ إلى أبي هريرة يومئذٍ وهو يقول : تزينوا للحُور العِين ، وارغبوا في جِوار ربِّكم عز وجلّ في جنات النعيم ، فما أنتم إلى ربكم في موطنٍ مِنْ مَواطِن الخير أحبّ إليه منكم في هذا الموطن ، ألا وإنّ للصابرين فضلَهم . ثم اضطربوا - الأزْد والروم - فوالذي لا إلـٰه إلا هو لرأَيْنا الروم وإنها لتدور بهم الأرضُ وهم في مجالٍ واحدٍ كما تدور الرَّحا ، يعني يدورون حول أنفسهم ، فما برحوا ولا زالوا - يعني الأزد - وركْبهم من الروم أمثال الجبال ، فما رأيتُ موطنًا قطُّ أكثَر قُحْفًا[١] ساقطًا أوْ معصمًا نادرًا[٢] أو كفًّا طائحة مِن ذلك المَوْطن ، والناس يضطربون تحت القسْطل (التراب) وقد - واللهِ - أوْحَلناهم شرًّا وأوحلونا ، فنحن في ذلك ، وكان جلّ القتال في الميمنة ، وإنّ القلْبَ ليلقُون مثلَ ما نلقى ، ولكنَّ حمَّة القوم وحدهم ....

---

(١) القحفة : العظم الذي فوقَ الدِّماغ . وما انفصل من الجمجمة من عظْم .
(٢) زائلًا عن موضعه .

وحَرْدَهم[١] وَحَنَقَهم علينا ، وكنا في آخر الميمنة ، فقد لقينا مِن قتالهم ما لَمْ يلقَ مثلَه أحدٌ ، فوالله إنا لكذلك نقاتلهم وقد دخل عسكرَنا منهم نحوٌ مِن عشرين ألفًا مِن ورائنا فعصمَنَا الله من أن نزول »[٢].

جبالٌ تقارع جبالًا ...

كنَّا جبـالًا في الجبـالِ وربَّما   سِرْنَا عَلَى مَوْجِ البحارِ بحارَا

نعم ...

وكنَّا عظامًا فَصِـرْنَا عظامًا   وكـنَّا نقـوتُ فهَا نحنُ قـوتْ

قَبَّاث بن أُشيم قائد المَيْسَرةِ في اليرموك :

أشار خالد بن الوليد على أبي عبيدة بن الجراح بتوليته قائدًا للميسرة في اليرموك ، وقاتلَ قبّاثُ يومئذٍ قتالًا شديدًا ، وأخذ يقول :

إن تفقدوني تفقدُوا خيرَ فارسٍ   لدَى الغَمَرَاتِ والرئيسَ المُحامِيَا

وذَا فَخْـرٍ لا يَمْـلأُ الهـولُ قلبَهُ   ضَروبًا بنصْلِ السيفِ أروعَ ماضِيَا

وكسر في الروم ثلاثةَ رماحٍ وقطع سيفين ، وكان كُلّما كسر رمحًا أو سَيْفًا يقول : من يُعير سيفًا أوْ رمحًا - في سبيل الله - رجلًا قد حبَس نفسه مع أولياء الله وقد عاهد الله لا يفرّ ولا يبرح ، يقاتل المشركين حتى يظهر المسلمون أو يموت . فكان مِن أحسنِ الناس بلاءً في ذلك اليوم[٣].

الأَشْتر مالك بن الحارث النخعي ، ملك العرب :

قال عنه علي بن أبي طالب : « مالكٌ ، وما مالك ؟! وهل موجودٌ

---

(١) غضبهم .

(٢) الأزدي ٢٢٥ ، وابن عساكر ١ / ٥٤٠ .

(٣) الطريق إلى دمشق صـ ٤٤٣ ، ٤٨٤ .

مثلُ ذلك ؟! لو كان حديدًا لكان قيدًا ، ولو كان حجرًا لكان صَلْدًا ، على مثله فلتبْكِ البواكي »[١].

« فُقِئَتْ عينه يوم اليرموك ، وقاتل قتالَ الأبطال .. وتعقب مع خالدٍ فلول الروم بعد موقعة اليرموك فأدركهم في غوطة دمشق ، وتقدم إليهم الأشتر في رجالٍ من المسلمين فإذا أمامهم رجلٌ من الروم عظيمٌ جسيم ، واتجه إليه الأشتر فوثب عليه ، واستوى هو والرومي على صخرةٍ مستوية فتبادلا الضرب بالسيف ، فقَطع الأشترُ كفَّ الرومي ، وضرب الروميُّ الأشترَ بسيفه فلم يضرّه . واعتنق كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه فوقعا على الصخرة ، ثم انحدرا والأشتر يردِّدُ ﴿ **قُلْ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي للهِ ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرتُ وأنا أول المسلمين** ﴾ ولم يزلْ يردّدها حتى انتهىٰ إلى مستوى في الجبل ، فلما استقرّ وثب على الرومي فقتله ، وصاح في المسلمين أن يجتازوا . فلما رأت الروم أن صاحبَهم قد قتل انسحبوا من الثَّنية وانهزموا ، وكان الأشتر ذا بلاءٍ حسنٍ في اليرموك ، قتَلَ ثلاثةَ عشر . وصعد خالد والمسلمون الثنية راكبين حتى هبطوا نحوَ الشرق ، وأشاعوا النكاية في الروم الفارّين في سائر البلاد ، فعاد يقتلهم في القرى والأودية والجبال والشِّعَاب والسهول ، حتى انتهىٰ إلى حمص »[٢].

عمرُو بن سعيد بنِ العاص شهيدُ « فحلٍ » وبطلُها :

استشهد البطل في معركةِ فحل ، « رُئِيَ وهو مضروبٌ على حاجبه بالسيف ، وقد ملأ الدمُ عينيْه ، وهو لا يستطيع أن يطرف ولا أن يفتح جفنَه من الدم ، وكان الروم قد حنقوا عليه لِمَا رأوْا مِن شدةِ قتاله ، فجرَّدوا

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٣٤ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٦ / ١٩١ أ .
(٢) الطريق إلى دمشق صـ ٤٩٥ .

له فريقًا ، فمشى إليهم بسيفه فضاربهم ساعة ، وثارَ بينهم الغبارُ ؛ فشدّ عليهم المسلمون ، وإذا الروم قد قطّعوه بسيوفهم ، ووجِد به أكثرُ من ثلاثين ضربة »[١].

وما يضيره وقد مضى البطل إلى ربه ، ومنح الله إخوانه من المسلمين أكتاف الروم ، وقتلوا قائدهم سقلار (سكلاريوس) ، وقتلوا منهم زهاءَ عشرة آلافٍ .

قيس بن هبيرة قائد ميْمنةِ الفرسان في « فحل » وبطلٌ من اليرموك :

كان هذا البطل مِن سلاح الفرسان ، وقائد ميمنة الفرسان في قوات خالد في معركة « فحل » .

حمل على ميْسرة الروم ، فقصف بعضهم على بعضٍ ، وقد تكسّرتْ في يدِ قيْسٍ يومئذٍ ثلاثةُ أسيافٍ وبضعة عشر رمحًا ، وكان يقاتل وهو يقول :

لا يَبْعُـدَنَّ كل فتى كَـرَّارِ ماضي الجَنَـانِ خشـنٍ صبّـارِ
حبـوتُهم بالخيْل والإدبـار يَقْدُمُ إقْدَامَ الشجاعِ الضّاري[٢]

أين تدعون الجنة ..... وتأتون قرحًا والحِجْر ؟!

قبْل اليرموك أشار رجلٌ على أبي عبيدة بالرجوع ، وقال : أما إنك لو خرجت حتى تنزل قرحًا والحِجْر ، وانتظرنا مَدَدَنا هناك لكانَ منزلًا . وقد كانت قرحٌ وحِجْر ثمود إلى الوراءِ كثيرًا قريبًا مِن المدينة . فقال قيْس ابن هُبيرة : لا ردّنا اللهُ إذنْ إليها إن خرجنا لهم عن الشام أكثر مما خرجنا لهم عنه .. أتدعون هذه العيون المتفجرة والأنهار المطّردة والزروع والأعناب

(١) الطريق إلى دمشق صـ ٣٤٤ .
(٢) الطريق إلى دمشق صـ ٣٣٥ .

والخُمُر والذهب والفضة والحرير وترجعون إلى أكل الضِّباب ، ولُبْس العناء ، والبؤْس والشقاء ، وتزعمون أن قتيلنا يدخل الجنة ويصيب نعيمًا لا يشاكله نعيم ! فأين تدعون الجنة وتهربون منها وتزهدون فيها ، وتأتون قرحًا والحِجْر ؟! لا صحب اللهُ مَن سار إليها ولا حفظه . قال أبو عبيدة : الحقُّ ما قُلت يا قيْس ، أتريدون أن ترجعوا إلى بلادكم وتدَعُوا لهؤلاء القوم حصونًا وديارًا وأموالًا قد فتحها الله عليكم ونزعها من أيديهم ، ثم تدعونها وتخرجون منها ، وترجعون إليها ثانية تقاتلونهم عليها ، وقد كفاكم الله مُؤْنة نزْعها من أيديهم . هذا والله رأي مضلل .

قال خالد : جزاك الله خيرًا يا قيْس ؛ فإن رأيك موافقٌ لرأيي ، ولسنا - واللهِ - بمرتحِلين ولا زائلين من هذه البلاد حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين . وقال ميسرة بن مسروق : فقال لأبي عبيدة : أصلحك الله ، لا تبرح مكانك الذي أنت فيه وتوكل على الله ، وقاتل عدوَّك ؛ فوالله إني لأرجو أن ينصرك الله عليهم . عَلامَ تدعُ لهم البلاد وقد قاتلناهم عليها حتى نفيْناهم عنها ، وقتلنا بطارقتهم وفرسانهم فيها يوم أجنادين ويوم فحل ؟! قال أبو عبيدة : لستُ بارحًا وقد ولّيْتُ خالد بن الوليد ما خلْف بابي ، وأنا معكم لا أبرح الأرض حتى يحكم الله بيننا ، وهو خيرُ الحاكمين .

لله دَرُّكَ قيْسُ مِن مشمِّر للجنة مُرَغِّب فيها !

وقبل معركة اليرموك ، لما أراد الرومُ منعْ التموين عن المسلمين الذي يأتي إليهم من الأردن نازلهم خالدٌ في ألفيْ فارس ، وكان على خيْلِهِ قيس بن هبيرة ، فحمل قيسٌ على خيولِ الروم واقتتلوا اقتالًا شديدًا ، وحمَل

(١) الأزدي ١٧١ .

قيسٌ في خَيْل المسلمين على خيلهم فهزمها ، حتى اضطرها إلى الرَّجَّالة الذين مع خالد .. وقال قيْس لرجلٍ من بني نُمير مرّ به البطريق - قائد قوات الروم - يركض منهزمًا : يا أخا بني نُمير ، لا يفوتنّك البطريق ؛ فإني والله قد كددتُ فرسي على هذا العدو من هذا اليوم ، حتى ما عند فرسي مِن جريٍ . فحمل عليه النميري فركضَ في أثره ساعةً ، ثم إنه أدركه . فلما رأى البطريق أنه قد غشيه وأحرجه عطف عليه البطريق ، فاضطربا بسيْفيْهما ، فلم يصنع السيفانِ شيئًا ، واعتنق كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه ، ووقعا على الأرض فاعتركا ساعةً ، ثم صرعه النميريُّ ، ووقع النميريُّ على صدْر البطريق فضمَّه البطريق إليه ، وكان مثل الأسد ، فجعل النميري لا يستطيع أن يتحرك ، وبصُر بهما قَيْسٌ فجاء حتى وقف عليهما ، فقال : يا أخا بني نُميرٍ ، قتلتَ الرجلَ إن شاء الله ؟ قال : لا ، واللهِ ما أستطيع أن أتحرك ولا أضربه بشيءٍ ، ولقد ضمّني بفخذِهِ وأمسك يديَّ بيديْه . فنزل إليه قيسٌ فضربه فقطع إحدى يديْه ثم تركه وانطلق ، وقال للنميريّ : شأنك به . وقام النميري فضربه بسيفه حتى قتله ، ومرّ به خَالد بن الوليد فقال له : ما هذا يا قيس ، ومَن قتله ؟ فقال له قيس : قتله هذا النميري . ولم يخبرْه بما صنع هو[1].

في اليرموك :

« وفي اليرموك كان لبطلنا الدورُ الرائع الذي زلزل قلوبَ الروم .. فقد خرج الروم وصفُّوا صفوفهم ، ورفعوا راياتهم ، وخرجوا بالصُّلبان ومعهم القسِّيسون والرهبان والبطارقة ، وأخرجوا إلى المسلمين خيلًا أضعافَ خيل المسلمين ، فلما تدانتْ خيلُهم من خيل خالد خرج بطريق من بطارقتهم

(١) الطريق إلى دمشق صـ ٤٤٠ - ٤٤١ .

وشُجعانهم يتعرض لخيل المسلمين ويطلب المبارزة ، فقال خالد : أما لهذا رجل يخرج إليه ؟ فأراد مَيْسرة بن مسروق أن يخرج إليه ، فقال له خالد : أنت شيخ كبيرٌ وهذا الرومي شابٌّ ، ولا أحب أن تخرج إليه . وأراد عمرو ابن الطفيل أن يخرج إليه ، فقال له خالدٌ : يا ابن أخي ، أنت غلامٌ حديثُ السِّنِّ ؛ وأخاف ألا تقوى عليه . وأراد الحارث الأزدي أن يخرج إليه ، ولم يكن بارَزَ رجلًا قطُّ قبلَه ، فقال له خالد : فلا تخرج إليه . قال قَيْسُ ابن هبيرة : يا خالد ، كأنك عليّ تحوّط ؟ قال له : أجَل ، فإني أرجو إنْ أنت خرجتَ إليه أنْ تقتله ؛ فإنْ أنت لم تخرج إليه لأخرجنَّ أنا إليه . وخرج قيسٌ وهو يقول :

سائِلْ نساءَ الحيِّ في حِجَالِهَا ألستُ يومَ الحربِ مِن أبطالِهَا

ومُقَعِّص[1] الأقْرانِ مِن رجالها

فلمّا دنا منه ضرب الروميُّ فرسه وحمل عليه ، فما لبث أن ضربه بالسيف على هامته فقطع ما عليه من السلاح (المغفر) ، وفلق هامته وسقط الروميُّ أمامَ فرسه قتيلًا ، وكبّر المسلمون . صاح خالد : ما بعد ما ترون إلّا الفتح ، احملْ عليهم يا قيس »[2].

لله دَرُّكَ يا قيس ، تفلق هامة البطريق العملاق الجسيم - ذي المنظر والمهابة - ومغفرَه بضربةٍ واحدةٍ أمام مائتي ألفٍ من الروم .. وقيسٌ نفسُه هو الذي يأمره خالد بالحمل على الروم ؛ لأنه الآن صاحب الرهبة في نفوس الروم ، بعد أن جنْدَلَ بطَلَهم بضربةٍ واحدةٍ .

(١) مُقَتِّل .

(٢) الطريق إلى دمشق صـ ٤٥١ .

مَيْسرة بن مسروق العَبْسيُّ ، الشيخُ البطلُ :

كان مِن سلاح الفرسان ، وقائد قلبهم في معركة فحل بيسان .

ومع كِبَرِ سنِّه كان أسدًا ضرغامًا .. ويكفيه شهادةُ سيف الله خالدٍ : إنك ما علمتُ حسنُ البلاءِ عظيمُ الغناء .

وعن « فحل » يقول سالم بن ربيعة العبسي : حمل ميسرة بن مسروق العبسي يومئذٍ ونحن معه في الخيل ، فحملنا على القلْب ، وقد أخذ صفُّ الروم ينتقض من قِبَلِ مَيْسرتهم ومَيْمنتهم ، ولم ينته إلى الانتقاض إلى القلبِ بعدُ ، فثبتوا لنا ، وقاتلونا قتالًا شديدًا ، فَصُرِع[1] ميسرة عن فرسه وصُرِعتُ معه ، ويعتنق ميسرةُ رجلًا مِنْ الروم ، فاعتركا ساعةً فصرعه ميسرة فقتله ، ثم شدّ آخرُ على ميسرة فعانقه ، واعتركا ساعةً فَصرع ميسرة وجلس على صدره ، وأَشدُّ عليه فضربتُ وجهَ الرومي بالسيف فأطرتُ قحْفَ رأسِه ووقع ميتًا ، ووثب ميسرةُ ، وأقبل رجلٌ منهم فضربني ضربةً أدارني منها ، وبصُر به ميسرةُ فضربه فقتله[2].

أبو سفيانَ بنُ حَرْبٍ وابنُه يزيد :

أبو سفيان شيخ قريش وسيدها ، وصاحب المكيدة والرأي ، صاحب : « يا نصرَ الله اقتربْ » .

قبل معركة اليرموك .. « وكان أمراء الجيش مجتمعين في خباءِ يزيد بالجابية ، يسمعون الخبر من عَيْنٍ لهم مِن قُضاعةَ يخبرهم بكثرة الروم ونزولهم على نَهْر ....

---

(١) سقط .

(٢) الطريق إلى دمشق صـ ٣٣٩ .

الرقاد[١] ومرج الجولان . وطاف بهم أبو سفيان فقال : ما كنت أظنُّ أني أبقى حتى أرى غِلْمةً مِن قريشٍ يذكرون أمْر حربهم ويكيدون عدوّهم بحضرتي لا يحضرونيه . فقالوا : هل لكم إلى رأي شيخكم ؟ قالوا : ادخل أبا سفيان . فدخل ، فقال : إن معسكركم هذا - بالجابية - ليس بمعكسر ؛ إني أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والأردن فيحُولوا بينكم وبين مَدَدِكم من المدينة فتكونوا بين عسكرهم ، فارتحلوا حتى تجعلوا أَذْرُعَات خلف ظهوركم يأتكم المددُ والخيرُ . فحدد لهم أبو سفيان مكان معركة اليرموك .. وقد كان هذا من براعة الفِكر الحربي عند المسلمين أنهم كانوا يختارون أرض المعركة حين يُتاح لهم ذلك ، خاصة إذا كانت المعركة هامّة وحاسمة .

قال أبو سفيان : إذا قبلتم هذا من رأيي فأمِّروا خالد بن الوليد على الخيول ، ومروه بالوقوف بها مما يلي الرقاد ، وأمّروا رجلًا على المرامية - الرُّماة - وأخرجوا إليهم كلّ نابضٍ بوترٍ ، ومُرُوه بالوقوف فيما بين العسكريْن وبين الخيول ، فإنه ستكون لرحيل العسكر من السَّحر أصواتٌ عاليةٌ تُحدثِ لعدوّكم فيكم طمعًا ، فإنْ أقبلوا يريدون ذلك لقيتْهم الخيول فكفّتْها »[٢]. وقبلوا ذلك منه وكان الأمر كما قدّر أبو سفيان .

وفي اليرموك كان بيتُ أبي سفيان في المعركة ، هو وولداه يزيد ومعاوية وزوجه هند بنت عتبة . فخرج أبو سفيان يومئذ يسير في المسلمين ، ويقف على أهل كلِّ رايةٍ وعلى كلّ جماعةٍ يحضُّهم ويعظهم ويقول : « إنكم يا معشر المسلمين أصبحتم في دارِ العجم منقطعين عن الإبل ، نائين عن أمير المؤمنين وأمدادِ المسلمين ، وقد - والله - أصبحتم بإزاء عدوٍّ كثيرٍ

---

(١) من روافد نهر اليرموك .

(٢) تاريخ ابن عساكر ١ / ٥٣٢ .

عددُهم شديدٍ عليكم حَنَقُهم ، وقد وترتموهم في أنفسهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم وبلادهم ، فلا واللهِ لا يُنجّيكم منهم اليوم وتبلغون رضوانَ الله إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة ، ألا إنها سُنَّةٌ لازمةٌ ، وإن الأرض وراءكم ، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارٍ وبرارٍ ، ليس لأحد فيها معقل ولا معقول إلا الصبر ورجاءُ ما وعد الله ؛ فهو خير معول ، فامتنعوا بسيوفكم ، وتقرّبوا بها إلى خالقكم ، ولتكنْ هي الحصون التي تلجأون إليها وبها تمتنعون »[١].

« وكان رضي الله عنه يسير فيقف على الكراديس فيقول : اللهَ اللهَ ؛ إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا يومٌ من أيّامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك »[٢].

« وجاءتْ نساءُ المسلمين فوقفن على مرتفعٍ خلْف الصفوف ينظرنَ ما يكون من أمْر المعركة المرتقبة ، فرجع إليهن أبو سفيان ، وأمر بالحجارة فأُلقيتْ بين أيديهن ، ثم قال لهن : لا يرجع إليكنَّ أحدٌ من المسلمين إلا رميتموه بهذه الحجارة وقلتنّ : مَنْ يرجوكم بعد الفرار عن الإسلام وأهله ، وعن النساء بأرض العدو ؟ فالله الله . ثم رجع إلى موقفه مِن صفوف المسلمين ونادَى : يا معشر أهل الإسلام ، حضر ما تَرَون ، فهذا رسول الله ﷺ والجنة أمامكم ، والشيطان والنار خلفكم . ثم وقف موقفه »[٣].

ما أجمل الإسلام .. يغيّر صناديد الشرك وقادته .. فيجعلهم قِمَمًا في سماءِ التوحيد !

---

(١) فتوح البلدان للبلاذُري صـ ١٦٠ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٣٩٧ .
(٣) تاريخ دمشق ١ / ٥٣٧ ، والأزدي ٢٢٠ .

« قال حبيب بن مسلمة : كان يزيد بن أبي سفيان من أعظم الناس غناءً ، وأحسنِهم بلاءً هو وأبوه جميعًا ، وقد كان أبوه مرّ به وهو يحرّض الناس وبعظهم ، فقال : يا بنيّ ، إنك تلي مِن أمر المسلمين طرفًا - ويزيد حينئذٍ على ربْع الناس - وإنه ليس بهذا الوادي رجلٌ من المسلمين إلا وهو محقـوقٌ بالقتال ، فكيف بأشباهك الذين وُلّوا أمورَ المسلمين ؟! أولئك أحقُّ الناس بالجهاد والنصيحة والصبر والتضحية ، فاتّقِ الله يا بُنيّ وأكرمْه في أمرك ، ولا يكوننَّ أحدٌ من أصحابك أرغب في الآخرة ، ولا أصْبر في الحرب ، ولا أشد نكايةً في المشركين ، ولا أجهدَ على عدوّ الإسلام ، ولا أحسنَ بلاءً عندهم منك . فقال : أفعلُ واللهِ يا أبت . فقاتل يزيدُ في الجانب الذي كان فيه قتالًا شديدًا ، وكان في الميسرة ممّا يلي القلب » ..

ولله دَرُّ هندٍ حين تقول : « قاتلوا فلستم ببعولتِنَا إن لم تمنعونا ... عَضَّدوا الغلفان بسيوفكم »[1]...

رضي الله عنكم أهل بيتٍ من بيوتِ قريشٍ .. بيتٍ سمَا وعلا بمصاهرة رسول الله ﷺ . ولا يزال بسمْع التاريخ صوتُ أبي سفيان اليرموك يجلجلُ حتى يُسمعَ الجيش : « يا نصر الله اقترب » .

القادسيّة ... وما أدراك ما القادسية !

فالقادسيةُ ما يزالُ حديثُها عِـبَرٌ تضيءُ بأطـيبِ الألوانِ
تحكي مفاخرَنا وتذكرُ مجدَنا فتجيبهـــا حِطّـــينُ بالمنـــوالِ
صفحاتُ مجدٍ في الخلودِ سطورُها دانَ الرجـال لهـا بغيْر جدالِ
وكأنني بابن الوليد وجنده وبكـلِّ كفٍّ لامعِ الأنصـالِ
نشرُوا على أرضِ الخليلِ لواءَهمْ فغــدَا يظلّلُ أطْهـرَ الأطـلالِ

---

(١) الأزدي صـ ٢٢٨ ، والبلاذري ١٦٠ .

وعن اليمينِ أبو عبيدةَ قد أتى   وأتَى صلاحُ الدينِ صوبَ شِمالِ
يَسعىٰ إليهمْ قد شَرَوْا أرواحَهُمْ   للهِ بعـــدَ تســـابقٍ لقتـــالِ
فَهُم الأعزَّةُ في كتابٍ خالدٍ   ما بعـدَ قوْلِ اللهِ مِـنْ أقـوالِ

جوائِز مِنْ عُمَرَ لأُسْدِ القادسِية :

عُمر ... وما أدراك ما عمر !

انظر إلى شهادة الكفار في حقِّه : يقول رستم : « أكَلَ عمرُ كبدي ، أحرق الله كبده . وإنما هو عمر الذي يُكَلِّم الكلاب فيعلمهم العقل ، علّم هؤلاء حتى علمُوا »[(١)].

أرسل عمر مع رسولٍ خاصٍّ ثماني جوائز ، مكافأةً لمن يرى القائدُ سعد أنهم قد أبلوْا في الجهاد أحسنَ مِن غيرهم ، وهذه الجوائز هي أربعة سيوفٍ مِن أجودِ السيوف ، وأربعة أفراسٍ عربية أصيلة ، فسلّمها سعد إلى أحسن الناس غناءً عن الإسلام في القتال . وهؤلاء الثمانية ثلاثة منهم من بني أسد ، وخمسة من بني تميم .

أمّا الأسْدِيُّون الثلاثة فهم : طليحة بن خويلد الأسدي ، وحمَّال بن مالك الوالبي الأسدي ، والربيل بن عمرو بن ربيعة الوالبي الأَسْدي .

وأما الخمسةُ الذين هم من بني تميم فهم : القعقاع بن عمرو ، وأخوه عاصم بن عمرو ، ونعيم بن عمرو بن عتّاب ، وعتّاب بن نعيم بن عتّاب ، وعمرو بن شبيب بن زنباع .

فدعا سعدُ حمالَ والربيل وطليحة وعاصم فأعطاهم الأسياف؛لِمَا تفوّقوا به على غيرهم في القتال يوم أرماث ، ودعا القعقاع بن عمرو اليربوعيين

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٣٢ .

نعيم وعتّاب وعمرو بن شبيب ، فحملهم على الخيل لبسالتهم يوم أغواث . فأصاب ثلاثةٌ من بني أسد ثلاثةَ أرباع الأسياف ، وأصاب ثلاثةٌ من بني يربوع ثلاثة أرباع الأفراس . وفي ذلك قال الربيل بن عمرو :

لقد عِلم الأقوامُ أنّا أحقُّهم إذا حصلوا بالمرهَفَاتِ البَواترِ
وما فتئَتْ خيلي عشيةَ أرمثُوا يذودون رهوًا عن جموعِ العشائِرِ
لدُنْ غدوةٍ حتَّى أتى الليلُ دونَهُمْ وقد أفلحتْ أخرى الليالي الغوابرِ

وقال القعقاع في شأْنِ الخيل :

لم تعرفِ الخيلُ العرابُ سَواءَنا عشيةَ أغواثٍ بجنبِ القوادِسِ
عشيةَ رُحْنَا بالرِّماحِ كأنَّهَا على القومِ ألوانُ الطيورِ الرسارِسِ[١]

طليحة بن خُويْلد بن نوْفل الأَسدي ، البطل الكرّار صاحب رسول الله ﷺ ومَن يُضرب بشجاعته المثل :

« أسلم ثم ارتدّ وظلم نفسه ، وتنبّأ بنجد ، ثم ارعوى ، وأسلم وحسُن إسلامه لما تُوفي الصديق .

شهد القادسية ونهاوند ، وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقّاص : أن شاوِرْ طليحةَ في أمْر الحرب ولا تُولِّهِ شيئًا .

قال محمد بن سعد : كان طليحة يُعدّ بألفِ فارسٍ لشجاعته وشدَّته .

أبلى يوم نهاوند ثم استشهِد رضي الله عنه »[٢].

« في يوم أرماث أول أيام معركة القادسية ألقتْ فارس بثقلها على

---

(١) القادسية لأحمد عادل كمال صـ ١٥٨ طبع دار النفائس ، و« القادسية » لبشاميل صـ ٦٣٤ ، ٦٣٥ . والرسارس أي : النشيطة .
(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٣١٦ - ٣١٧ .

« بجيلة » أقوى جانب في مَصافّ المسلمين ، وكان قِوام الهجوم الفارسي اثنين وخمسين ألفِ مقاتلٍ تساندهم تسعة أفيالٍ ، وألقى الفُرْسُ حَسَكَ الحديد تحت سنابك خيلِ بجيلة لتتعطل عن الحركة ، وقصفوهم بوابل من نشاباتهم،وأدرك سعدٌ ما تعانيه بجيلة وكندة فأصدر أمره إلى أقوى وأشجع قبيلة تقع على ميمنة بجيلة ، وهي قبيلة بني أسد : ذُبُّوا عن بجيلة ومَنْ لافّها مِن الناس . فاستجابت أسد لأمر سعد ، وقام فيها فارسها المعلَّم – الذي يُعدُّ بألف فارسٍ – طليحة خطيبًا وقال : يا عشيرتاه ، إنّ المُنوّه باسمه الموثوق به ، وأن هذا – يعني سعدًا – لو علم أن أحدًا أحقُّ بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم .. ابتدئوا الشّدّة ، وأقدِموا عليهم إقدام اللّيوث الحربة .. فإنما سُمّيتم أسدًا لتفعلوا فعلة الأسد ، شدّوا ولا تصدّوا[1] ، وكِرُّوا ولا تفرّوا ، لله درُّ ربيعة ! أيّ فريّ يفرون ، وأيّ قرنٍ يفنون ! هل يُوصل إلى مواقفهم ؟! فأغْنوا عن مواقفكم أعانكم الله ، شدُّوا عليهم باسم الله »[2].

قال المعرور بن سويد – وكان ممّن شهد القادسية – : شدَّ بنو أسد على الفُرس ، واللهِ فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبسنا الفيلة عنهم فأخرت ، وخرج إلى طليحةَ عظيمٌ منهم فبارز ، فما لبّثه طليحة حتى قتله. وخرج الجالينوس فاعترضه طليحة وجهًا لوجهٍ ، وضربه ضربةً على رأسه ، ولكنّ مغْفَره كان سميكًا فشقه السيف ولم ينفذ إلى رأسه ، فنجا من القتل ، فقال طليحة شعرًا :

أنا ضربتُ الجالينوسَ ضَرْبهْ   حينَ جيادُ الخيلِ وسْطَ الكُبّهْ

وكان يوم أرماث هو يوم بني أسد بحقٍّ ؛ لأنهم لم يَبلُ في ذلك

---

(١) أي : لا تقفوا مدافعين .

(٢) القادسية ومعارك العراق صـ ٦١٨ – ٦١٩ لمحمد أحمد بشاميل ، وتاريخ الطبري ٥٣٨ ، ٥٣٩ .

اليوم أحدٌ مثل بلائهم .. بقيادة طُليحة بن خُويلد فارسِها الذي يعدِل ألفَ فارسٍ ، وأظهروا بطولاتٍ كانت مثارَ إعجابِ كلِّ المسلمين ...

يقول الأشعث بن قيْس الكندي - لما قام خطيبًا في قومه (كندة) - : يا معشرَ كندةَ ، للهِ درّ بني أسد ، أيّ فريّ يُفرون ، وأيّ هذٍّ يهذّون عن موقفهم ؟!

وفي يوم « عماس » من أيام القادسية : غامر طليحة - وكان مقدامًا لا يَهاب الموتَ ، ويعدل ألفَ فارس - وعبَر بمفردِهِ نحو الفرس فجاءهم من وراء العتيق ، حيث الجسر المردوم ، حتى صار خلف صفوفهم ، ومِن هناك كبّر ثلاثَ تكبيراتٍ ارتاع لها الفرس ، فظنُّوا أن جيش الإسلام جاءهم من ورائهم . وتعجّب المسلمون وكفّ بعضُهُم عن بعض ...

فلله درُّ رجلٍ يُرْعِب تكبيرُه الفُرسَ ... يخاطب طليحةُ الفُرس بعدهم قائلًا : لا تُعدموا أمرًا يضعضعكم .

قال طليحة :

طرقَتْ سُلَيْمَى أَرْحُل الرَّكْبِ أنّي اهتديتُ بسَبْسَبٍ سَهْبِ
أنّي كَلَفْتُ سلامَ بُعدكم بالغارةِ الشّعواءِ والحرْبِ
لوْ كنتِ يومَ القادسيةِ إذْ نازلتُهم بمهنّدٍ عضْبِ
أبْصرْتِ شَدّاتي ومُنْصرفي وإقامتي للطَّعْنِ والضَّرْبِ

وانظرْ - يربك - ما فعل هذا المغوار الذي يعدلُ جيشًا بأسْرِهِ قبل معركة القادسية :

« بعث سعدٌ طليحةَ بن خويلد وعمرو بن مَعْدي كَرِب الزبيدي في غير قوةٍ من خيْلٍ ، كالطليعة في « دَوْرِيَّةٍ » استكشافيةٍ ، فكان طليحةُ وحده مكلّفًا بعسْكرِ رُسْتم ، وكان عمرٌو في خمسةٍ من أصحابه مكلّفًا بعسكر

جالينوس ، وأمرهم أن يصيبوا له رجلًا منهم ليستخبره . فلمّا تجاوز طليحةُ وعمرٌو قنطرةَ القادسية لمْ يسيروا إلا فرْسَخًا وبعض فرسخٍ – حوالي سبعة كيلو متراتٍ – حتى رأوا خيلًا عظيمةً ، وقواتُ المجوس تتحرك بسلاحها قد ملئوا الطّفوف[١] . قال بعضهم : ارجعوا إلى أميركم فإنه سرحكم ، وهو يرى أنّ القوم بالنّجف ، فأخْبِرُوه بالخبر . وقال بعضُهم : ارجعوا ، لا ينذر[٢] بكم عدوكم . فقال عمرو : صدقتم . وقال طليحة : كذبتم ، ما بعثتم لتخبروا عن السّرح ، وما بعثتم إلا للخبر . قالوا : فما تريد ؟ قال : أريد أن أخاطر القومَ أوْ أَهْلكَ . فقالوا : أنت رجلٌ في نفسك غدْرٌ ، ولن تفلح بعد قتْل عكّاشةَ بن محْصَن ؛ فارجع بنا . فأبى ، ثم فارقهم يريد معسْكَرَ رُستم في مغامرةٍ خطيرةٍ[٣] .

« ومنذ فارق طليحة عمرًا وهو يعمل للدخول إلى قلْب معسكر رستم بمفرده ، مع العلم أنَّ معكسر رستم يضمُّ ثمانينَ ألفِ مقاتلٍ ، ومثلهم من الخدم والحرس الخاصّ ، ولكنها شجاعة وجرأةُ بطل الأبطال طليحة ، فقد مضى يعارض المياه المنبثقة من الأنهار حتى دخل عسكر رستم ، دخله في ليلةٍ مقمرةٍ ، وبات ليلةً يتخبّر ، وكان يحبُّ الخيل كعاشقٍ للفروسية فرأى فرسًا لم يَرَ مثلها في خيل رستم ، ورأى فُسطاطًا أبيض لم يَرَ مثله ؛ فامتشق حسامَه . فقطع به مِقْوَد ذلك الفرس ثُمَّ ربطه إلى مِقْوَد فرسه ، ثم مشى بفرسِهِ وخرج يعدو به ، وأحسَّ الفرسُ بما حدث فتنادَوْا ، وركبوا الصّعبة والذّلولَ ، وتعجّل بعضهم فلم يسرجْ فرسَه ، وخرجوا يجدّون في أثره . ولحِقه فارسٌ منهم مع الصباح ، فلما أدركه وصوّب إليه رُمْحَه

(١) ما أشرف على الأرض على ريف العراق .
(٢) نذر به : علِمَه فحذِره واستعدّ له .
(٣) تاريخ الطبري ٣ / ٥١٢ – ٥١٣ .

ليطعنه عَدَل طليحة فرسَه ومال به عن تصويب الفارسي ، فانصبّ الفارسي بين يديْه وصار أمامه ، فكرّ عليه طليحة وطعنَه برمحه فقصمَ ظهره ، وانطلق يعدو بفرسه ، فلحق به أعجميٌّ آخرُ ففعل به مثلَ ما فعل بالأول وانطلق يعدو ، فلحق به ثالثٌ وقد رأى مصرعَ صاحبيْه ، وهما ابنا عمِّه فازداد حنَقًا ، فلما لَحِقَ بطليحةَ وبوّأ له الرمحَ ليطعنه عدَل طليحةُ فرسَه فانصب المجوسي أمامَه ، وكرّ عليه طليحةُ وقد شرع رمحه ودعاه إلى الأسر ، وأدرك المجوسي أنه مقتولٌ فاستسلم ، وكانا قد اقتربا من معسكر المسلمين ، فأمره طليحة أن يركُض بيْن يديْه ، وهو يسُوقه من خلفه برمحه ، وهو على فرسه فامتثل للأمر . وأقبل جمعٌ آخر من العجم يجدّون في آثارهما فرأوْا فارسَيْهم وقد قُتِلا ، وشاهدوا الثالث يركض مُسْتَسْلمًا أمام طليحة ، وقد أوشكا على دخول معسكر المسلمين فأحجموا ونكَصُوا ، ثم عادوا من حيث أتوا . وجاء طليحة على فرسه يسحب وراءَه الفرس التي غنِم ، وأسيره يعدو بين يديْه ، ودخل عسكرَ المسلمين ففزعوا منه ، ثم أجازوه حين عرفوه ، فدخل على سعدٍ . قال له سعد : ويحك ، ما وراءك ؟ قال طليحةُ : دخلتُ عساكرهم وجُسْتُها منذ الليلة ، وقد أخذتُ أفضلهم توسُّمًا ، وما أدري : أصبتُ أم أخطأتُ ، وها هو ذا فاسْتخبره .

لم أرَ ولم أسمعْ بمثل هذا :

« استدعى سعد المترجم ليقوم بالترجمة بين الاثنين ، فقال الأسيرُ الفارسي: أتؤمِّنني على دمي إن صدَقتك ؟ قال سعد : نعم ، الصدق في الحرب أحبُّ إلينا من الكذب . قال الأسير الفارسي : أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمّن قِبَلي .. باشرتُ الحروبَ وغشيتُها ، وسمعت بالأبطال ولقيتُها منذ أنا غلامٌ إلى أن بلغتُ ما ترى ، ولم أرَ ولم أسمع بمثل هذا أنّ رجلًا قطع عسكريْن ، لا يجترئ عليهما الأبطال إلى عَسْكرٍ فيه سبعون ألفًا ، يخدم الرجل

منهم الخمسة والعشرة ، إلى ما هو دون ، فلم يرضَ أن يخرج كما دخل حتى سَلَب فارس الجُند ، وهتك أطنابَ بيته ، فأنذره فأنذرنا به ، فطلبناه فأدركه الأول وهو فارسُ الناس ، يعدل ألف فارسٍ فقتله ، فأدركه الثاني وهو نظيرُه فقتله ، ثم أدركته ولا أظنُّ أنني خلّفتُ بعدي من يعدِلني ، وأنا الثائر بالقتيلَيْن وهما أبناءُ عمّي ، فرأيتُ الموت فاستأسرتُ . ثم أخبر سعدًا عن أهل فارسٍ بأن الجند عشرون ومائة ألفٍ ، وأن الأتْباع مثلُهم خُدّامٌ لهم ؛ ورغب الأعجمي في الإسلام فأسلم بمحْض إرادته ، فسمّاه سعدٌ مسلمًا ، فكان يوم القادسية وغيرها من أهل البلاء ، فقد استفاد منه المسلمون لخبرته بأرضِ فارس ؛ ولأنه فارسيٌّ يعدِل بألف »[1] .

مِن فرسان العربٌ في الإسلام :

علي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقّاص ، والزبير ، وطلحة ، ورجال الأنصار ، وعبد الله بن خازم السُّلمي ، وعمرو بن معد يكرب ، وعباد بن الحُصَين ، وعُمير بن الحُباب .

وقالوا : ما استحيا شجاع قطُّ أن يفرّ من عبد الله بن خازم .

وقالوا : ذهبَ حاتم بالسخاء ، والأحنف بالحلم ، وخُزَيْم بالنعمة ، وعُمَيْر بن الحباب بالشّدَّة .

فارسُ اليمن أبو ثور ، عمرو بن مَعْديكرب :

أبو ثور .. ومَن مثل أبي ثور !!

بعث عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرّن - وهو على الصائفة -

---

(١) القادسية لبشاميل صـ ٥٦٢ - ٥٦٣ ، والقادسية لأحمد عادل كمال صـ ٩٥ - ٩٧ .

أن استعنْ في حربك بعمرو بن معديكرب ، وطُليحة الأسْدي ، ولا تولّهما مِن الأمر شيئًا .

وبعث عمر رضي الله عنه إلى عمرو بن معديكرب أن يبعث إليه بسيْفه المعروف بالصَّمصامة فبعث إليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه في ذلك ، فردّ عليه : إنما بعثتُ إلى أمير المؤمنين بالسيف ، ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضرب به[(١)].

وفي سيف عمرو (الصَّمصامة) قال الشاعر ابن يامين :

سيفُ عمرٍو وكانَ فيما سمِعنَا ... خيرُ ما أُغمدتْ عليهِ الجفُونُ
أخضرُ المتنِ بينَ حدَّيْهِ نورٌ ... مِن فرِنْدٍ تمتدُّ فيهِ العيونُ
أوقدتْ فَوقَه الصّواعقُ نارًا ... ثمَّ شابتْ بهِ الذُّعافُ المنونُ
وكأن المنونَ نِيطتْ إليهِ ... فَهْوَ مِنْ كلِّ جانبَيْهِ مَنونُ
نِعْمَ مخراقُ ذي الحفيظةِ في الهَيْـ ... ـجَاءِ يسطو بهِ ونِعْمَ القرينُ
ما يُبالي مَنِ انتضَاه لضرْبٍ ... أَشِمالٌ سَطَتْ بهِ أمْ يَمِينُ

وقال رحمه الله :

أَعاذِلُ عُدَّتي بَزِّي ورُمحي ... وكلُّ مُقَلَّصٍ[(٢)] سَلِس القِيادِ
أَعاذِلُ إنما أفنىٰ شبابي ... إجابتي الصَّريخ إلى المُنادِي
مَعَ الأبطالِ حتَّى سَلَّ جِسمي ... وأقْرحَ عاتِقِي حَمْلُ النِّجَادِ
وَيَبْقَىٰ بعدَ حِلْمِ القوْمِ حِلمي ... ويفنَىٰ قبلَ زادِ القوْمِ زادي
وَمِنْ عجبٍ عجبتُ لهُ حديثٌ ... بديعٌ لَيْسَ مِن بدْعِ السّدادِ
تمنّى أنْ يلاقيني أبيٌّ ... وَدِدْتُ وأينما مني وِدَادي

(١) العقد الفريد ١ / ١٧٩ .
(٢) الفرس الطويل القوائم .

تَمنَّـاني وسـابغتي قميصي   كأنَّ قَتيرَها[1] حَدَقُ الجَرَادِ
وسيفٌ من لَدُنْ كنعانَ عندي   تُخُيِّرَ نصْلهُ مِن عهدِ عادِ
فلو لاقيتني لَلقيتَ لَيْثًا   هَصُورًا ذَا ظُبًا وشَبًا حدادِ
ولاستيقنتَ أنَّ الموت حقٌّ   وصرّحَ شَحْمُ قلبكَ عنْ سَوادِ
أُريدُ حياتَه ويريدُ قتلي   عَذِيرك مِن خليلِكَ مِن مُرادِ

وقال رحمه الله :

تمنّاني على فرسٍ   عليهِ جالسًا أَسَدُهْ
عليّ مُفاضةٌ كالنِّهـ   ـي أخلص ماءَه جُدَدُهْ[2]
فلو لاقيتني لَلقيـ   ـت ليثًا فوقهُ لِبَدُهْ
سَبَنْتَى ضَيْغمًا هَصِرًا   صِلَخْدًا ناشزًا كَتَدهْ[3]
يُسامي القِرْنَ إنْ قِرْنٌ   تيمَّمَه فَيَعْتَضِدُهْ
فيأخذُهُ فَيُرْدِيهِ   فَيَخْفِضُهُ فَيَقْتَصِدُهْ[4]
فَيَدْمَغُهُ فَيَحْطِمُهُ   فَيَخْضِمُه فَيَزْدَرِدُهْ[5]

إي والله .. وأنت أكبر من هذا .

بطـل القادسـية :

وكان يومُ القادسية من أيامه العَطِرة .

« فقد خرج فارسٌ من الفُرْس يصيح : مَرْدٌ ومَرْدٌ . يعني : رجلٌ

(١) مسامير الدّرع التي تكون بين حلقاتها .
(٢) المفاضة : الدرع الواسعة . والنهي : الغدير من الماء ، والجدد : الأرض الصلبة .
(٣) السبنتى : الجريء المقدام ، والصلخد : الصلب القوي ، والناشز : المرتفع ، والكتد : ما بين الكتفين .
(٤) يقتصده : أي يقتله .
(٥) يدمغه : يصيب دماغه ، يحطمه : يكسره ، ويخضمه : يأكله ، يزدرده : يبتلعه .

لرجلٍ ، يطلب المبارزة ، وكان ذلك أمام القطاع الذي تشغله بجيلة وكِندة ، وكان عمرُو بن معديكرب الزبيدي يسير بفرسه بين الصَّفَّيْن يحرّض المسلمين ويُحمِّسهم ويقول : يا معشرَ المهاجرين[١] ، كونوا أسُودًا ؛ فإنما الأسد مَنْ أغنى شأنه ، إن الرجل من هذه الأعاجم إذا ألقى مزراقه[٢] فإنما هو ليثٌ . ووقف ذلك الأعجمي بين الصفَّيْن ، وكان من أساورتهم ، لا يكاد تسقط له نشابةٌ ، فرمى عَمْرًا بنشابةٍ ، فأصابت سِيَة قَوْسِهِ وهو مُتنكّبها[٣] ، فالتفتَ إليه عمرو ، ثم حمل عليه فبارزه ، ثم اعتنقه وأمسكه من حزامه ، وسحبَه من فوق فرسه ، فحمله ووضعه بين يديْه[٤] على فرسه هو ، ثم عاد به إلى صفوف المسلمين ، فلما اقترب منهم كسَر عنقه ورماه على الأرض ونزل إليه فذبحه من حلقة السيف ، وأخذ سَلَبه سِوارَيْن من ذهبٍ ، ومنطقة من ذهب ، ويْلمقًا من ديباج ، وعاد يقول للمسلمين : هكذا فاصنعوا بهم . قالوا : يا أبا ثور ، مَن يستطيع أن يصنع كما تصنع[٥] !

وفي يوم « عماس » مِن أيام القادسية نظر عمرو بن معديكرب إلى فيل كان تجاهه ، وقال لمن معه مِن بني زبيد - في الميسرة - : إني حاملٌ على الفيل ومَن حوله ، فلا تدعوني أكثر من جَزْرِ جزورٍ[٦] ، فإن تأخرتم عني فقدتم أبا ثورٍ ، وأنَّى لكم مثلُ أبي ثور ؟! فإنْ أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف . ثم حمَل عليهم ، فما انثنى عن عزْمه حتى ضرب فيهم ،

---

(١) أي : المجاهدين .

(٢) أي : إذا فقد قَوْسَه .

(٣) معلقها في منكبه وراء ظهره .

(٤) وكأنه طفل .

(٥) الطبري ٣ / ٥٣٧ .

(٦) مقدار ذَبْح جملٍ .

وستره الغُبَارُ عن أصحابه ، فقالوا : ما تنتظرون ؟ ما أنتم بخلقاءَ أن تُدركوه ، وإنْ فقدتموه فَقَدَ المسلمون فارسَهم . فحملوا حملةً فانفرج الفرس عنه ، وقد أوقعوه وطعنوه وطعنوا فرسه ، وما زال سيفه في يده يضاربهَم به ، فلما رأى أصحابَه وقد مرّ به رجلٌ مِنَ العجم على فرسٍ له ، أخذ عمرٌو بِرِجْل الفرس ، فلما حرّكه راكبه اضطرب ، والتفتَ الفارس إلى عمرو فهمَّ به ، ولكنّ المسلمين حملوا عليه ، فنزل عن فرسه[1] وجرى نحو أصحابه ، قال عمرو : أَمْكِنُوني من لجامه . فأمكنوه منه ، فركبه بدلًا من فرسِهِ[2] .

أبطال مِنَ القَادسية وكلمات للحياة :

أرسل سعد إلى الذين تنتهي إليهم آراءُ الناس ، مثل : المغيرة بن شعبة ، وحُذيفة بن محصن ، وبُسْر بن أبي رهم ، وعرفجة بن هرثمة ، ورِبْعي بن عامر ، وقرفة بن زاهر ، ومذعور بن عدي ، والمضارب بن يزيد ، ومعبد ابن مرّة ، وطليحة الأسدي ، وقيس بن هبيرة الأسدي ، وغالب بن عبد الله الليثي ، وعمرو بن معديكرب ، والشماخ بن ضرار ، وأوْس بن مغراء ، وعَبدة بن الطبيب ، وقال لهم : انطلقوا فقوموا في الناس بما يحقُّ عليكم ويحقّ عليهم عند مواطن البأْس ؛ فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم ، فسيروا في الناس فذكِّروهم وحرّضوهم على القتال . فساروا في المسلمين بما كُلِّفوا به .

قال قيس بن هبيرة الأسدي : أيُّها الناس ، احمدوا الله على ما هداكم له وأبلاكم يزدْكم ، واذكروا آلاءِ الله وارغبوا إليه في عاداته ؛ فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم ، وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء والأرض القفر ....

---

(١) الذي قيّد عمرٌو أقدامه .

(٢) تاريخ الطبري ٣/٥٥٤ - ٥٥٥ .

والظِّراب[١] الخُش والفلوات التي لا يقطعها الأدلة .

وقال غالب بن عبد الله : يٰأَيُّهَا الناس ، احمدوا الله على ما أبلاكم ، وسَلُوه يزدْكم ، وادعوه يجبْكم ، يا معشر مَعَدٍّ ، ما عِلّتكم اليوم وأنتم في حصونكم[٢] ومعكم مَن لا يعصيكم[٣] ، واذكرو حديث الناس في غدٍ ؛ فإنه بكم غدًا يُبدَأ عنده ، وبمَن بعدكم يُثنَّى .

وقال ابن الهُذيل الأسدي : يا معاشرَ معدٍّ ، اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليها كأُسودِ الأجم ، وتربّدوا لهم تربُّدَ النمور ، وادّرِعوا العَجاج[٤] ، وثقوا بالله ، وغضُّوا الأبصار ، فإذا كلّتِ السيوف فإنها مأمورة ، فأرسِلوا عليهم الجنادل[٥] ؛ فإنها يُؤذن لها فيما لا يُؤذنُ للحديد فيه .

وقال بُسر بن أبي رهم الجهني : احمدوا الله وصدّقوا قولكم بفعلٍ ، فقد حمدتم الله على ما هداكم له ، ووحّدتموه ولا إلٰه غيره ، وكبّرتموه وآمنتم بنبيه ورسله ، فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ، ولا يكونَنَّ شيءٌ بأهون عليكم من الدنيا ؛ فإنها تأتي مَن تَهاوَنَ بها ، ولا تميلوا إليها فتهرب منكم لتميل بكم ، وانصروا الله ينصرْكم .

وقال عاصم بن عمرو التميمي : يا معاشرَ العرب ، إنكم أعيانُ العرب ، وقد صمدتم الأعيان من العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ....

---

(١) الظّراب : جمع ظرب وهي الرابية الصغيرة . والخُشُّ : التل .
(٢) يعني : الخيل .
(٣) يعني : السيوف .
(٤) العجاج : الغبار ، والدخان : أيضًا ، والعجاج: كل ذي صوت من قَوْس وريح ونحوهما .
(٥) الحجارة .

ويخاطرون[1] بالدنيا ، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحْوَط منكم على آخرتكم ، لا تُحْدِثوا اليوم أمرًا تكونوا به شَيْنًا على العرب غدًا .

وقال ربيعة بن البلاد السَّعدي : يا معاشرَ العرب ، قاتلوا للدِّين والدنيا ، وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ عرضُها السمٰوات والأرض أُعدّتْ للمتقين ، وإنْ عظّم الشيطانُ عليكم الأمرَ فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار أهلٌ .

وقال ربعي بن عامر : إن الله قد هداكم للإسلام وجمعكم به ، وأراكم الزيادة ، وفي الصبر الراحة ، فعوِّدوا أنفسكم الصبر تعتادوه ، ولا تُعوِّدوها الجزع فتعتادوه .

وقام عاصم بن عمرو في المجردة ، فقال : إنّ هذه بلادٌ قد أحلّ الله لكم أهلها ، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم ، وأنتم الأعلَوْن والله معكم ، إنْ صبرتم وصدقتموهم الضَّرب والطَّعن فلكم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم وبلادهم ، وإنْ خُرْتم وفشِلتم - واللهُ لكم من ذلك جارٌ وحافظٌ - لم يُبقِ هذا الجمعُ منكم باقيةً مخافةَ أن تعودوا عليهم بعائدةِ هلاكٍ . اللهَ اللهَ .. اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها . أوَلا تروْن أن الأرض وراءكم بَسابسُ قفارٌ ليس فيها خمرٌ[2] ولا وَزَرٌ يُعْقل إليه ولا يمتَنع به ؛ اجعلوا الآخرة همَّكم .

وقام قيس بن المكشوح في الميسرة فقال : يا معشرَ العرب ، إن الله قد منّ عليكم بالإسلام وأكرمكم بمحمدٍ صلى اللهُ عليهِ وآله وسلم فأصبحتم

---

(١) الخطر : السَّبق الذي يتراهن عليه ، يعني تسابقون على الجنة ويسابقون على الدنيا وصمدتم : يعني قصدتم .
(٢) غطاء .

بنعمة الله إخوانا ، دعْوَتكم واحدة وأمركم واحد ، بعدَ إذْ أنتم يعدو بعضكم على بعضٍ عَدْوَ الأسد ، ويتخطف بعضكم بعضًا اختطافَ الذِّئاب ، فانصروا الله ينصركم وتَنجَّزُوا مِنَ الله فتح فارسٍ ، فإن إخوانكم أهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام وانتثال القصور الحُمْر والحصون الحُمْر .

وقال طليحة الأسدي لقومه بني أسد : ابتدئوهم الشّدة ، وأقدِموا عليهم إقدام اللّيوث الحرِبة ، فإنما سُمِّيتم أسدًا لتفعلوا فعْله ، شُدُّوا ولا تصدوا[1] وكِرّوا ولا تفرّوا .

وقام الأشعث بن قَيْس الكندي في أيام المعركة وقال : يا معشر العرب ، إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت ولا أسخَى أنفسًا عن الدنيا ، تنافسوا الأزواج والأولاد ولا تجزعُوا من القتْل ؛ فإنه أمانيُّ الكرام ومنايا الشهداء .

وقام دريد بن كعب النخعي - وكان معه لواءُ النخع - فقال لقومه في ميْسرة الجيش : إن المسلمين قد تهيَّئوا للمزاحفة فاسبقوا المسلمين الليلةَ إلى الله والجهاد ، فإنه لا يسبق الليلة أحدٌ إلا كان ثوابُه على قدْر سبْقه ، نافسوهم في الشهادة وطيِّبوا بالموت نفسًا ؛ فإنه أنجى من الموت إنْ كنتم تريدون الحياة ، وإلَّا فالآخرة ما أردتم .

وقال الحارث بن سمي الهمداني :

أقدِمْ أخَا فهْمٍ على الأَسَاورهْ ... ولا تهـالنَّ لرؤوسٍ نـادرهْ
فإنمـا قصـرك مـوتُ السّاهرهْ ... ثم تعـودُ بعدَهـا في الحـافِرهْ

ولما حمي وطيسُ المعركة بيْن المسلمين والفرس ، وأبلى بنو تميم

---

(١) أي : اهجموا ولا تقفوا مدافعين .

أحسنَ البلاء ، وقام ابن ذي البردين الهلالي وقيس بن عبد يغوث المرادي والأشعث بن قيس وعمرو بن معدي كرب وعبد الله بن ذي السهمين الخثعمي ، كلهم في الميسرة ، فقالوا : لا يكونن هؤلاء - يعني بني تميم - أجدَّ في أمر الله منكم ، ولا يكونن هؤلاء القُلْف(١) - يقصد المجوس - أجرأ على الموت منكم ، ولا أسخى أنفسًا عن الدنيا ، تنافسوها .

وقام رجال في ربيعة - بكر بن وائل وعبد القيس - فقالوا : أنتم أعلم الناس بفارس ، وأجرؤهم عليهم فيما مضى ، فما يمنعكم اليوم أن تكونوا أجرأ مما كنتم بالجرأة !

أبطالٌ مِن القادسية يقاتلون الفِيَلَة :

للهِ دَرُّهم مِن رجالٍ صنعهم الإسلام .. يُقاتلون الفيلة ويصارعونها في أيام القادسية :

في يوم أرماث وجّه الفُرْسُ إلى المَيْمنة التي فيها بجيلة ثلاثَة عشر فيلًا ، هي كل جناحهم الأيمن ، بقيادة هرمزان وجالينوس ، وفُرِّقت الأفيال ما بين الكتائب ، فَنَفَرت خيول المسلمين ، وأرسل سعدٌ إلى بني أسد ، وهم ثلاثة آلافٍ على ميمنة بجيلة ، يقول لهم : « ذبُّوا عن بَجيلة ومَنْ لافَّها من الناس » . فخرج حَمَّال بن مالك الأسدي والرِّبيل بن عمرو ، وغالب بن عبد الله الليثي ، كلٌّ خرج من كتيبته نحو الفيلة ، فشدُّوا والله ، فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حَبَسْنَا الفيلةَ عنهم ، ورأى العَجَمُ ما يصنع بنو أسد بالأفيال . ونَشطت فيولُ المجوس على طول خطِّ القتال ، فحملت في الميمنة والميسرة على خيول المسلمين ، فكانت الخيل تخاف منها ، فتحْجم عنها وتحيد عن طريقها ، وكان فرسانها يَلحُّون على المشاة أن يمنعوا ظُهُورَ الخيل ويردُّوها

---

(١) القُلْف : جمع أقلف وهو من لم يُختن .

إلى الأمـام .

وأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو من يقول له : يا معشر بني تميم ، ألستم أصحاب الإبل والخيل ؟! أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟! قالوا : بلى والله . ثم نادى في قومه ، فجمع أفضل من في بني تميم من الرُّماة ، وآخـرين لهم مهارة وخفـةُ حركة في القتال ، ووضع خطته على أسـاس مُشاغلة رُكْبان الفيلة ، ثم مهاجمتها من الخلف في غفلةٍ منهم ، قال لهم : « يا معشر الرُّماة ذُبُّوا رُكْبان الفيلة عنهم بالنَّبْل . وقال : يا معشرَ أهل الثَّقَافَة ، استدبروا الفيلة فقطِّعوا وُضُنَها »[1] وخرج معهم يحميهم ويقودهم ، فشقُّوا طريقهم نحو الأفيال التي تهاجم بني أسد ، والرَّحى تدور عليهم .

وفي يوم عماس استعمل الفرس الأفيال ، فوجَّهُوها ضدَّ كتائب الفرسان ، فعادت تفرِّقُها كيوم أرماث ؛ فلما رأى سعدٌ ذلك أرسل إلى الفرس الذين أسلموا وانضمُّوا إليه ؛ ضخم ومسلم ورافع وعَشنّق والرفيل وأصحابهم ، فدخلوا عليه ، فسألهم عن الفيلة ، وهل لها مقاتل ؟ فقالوا : نعم ، المشافر والعيون ، لا يُنْتفع بها بعدها . وكان أكبرَ الأفيال فيلان ، وضعهما رُسْتم في القلب : أحدهما أبيض ، وكان أمام بني تميم ، والثاني أجرب وكان حيال بني أسد . وكانت جميع الفيلة الأخرى آلفة لهذين الفيلين ؛ تقلِّدهما وتتبعهما .

القَعْقَاع وعاصم ابنا عمرو للفيل الأبيض، وحَمَّال بن مالك والرِّبِّيل بن عمرو للفيل الأجرب :

أرسل سعد إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو : « اكفياني الفيل الأبيض » ، وأرسل إلى حَمَّال بن مالك – أمير المشاة – والرِّبِّيل بن عمرو : « اكفياني الفيل

---

(١) الوضين : الأحزمة التي تثبت توابيتها على ظهورها .

الأجرب » وأوضح لهم مَقَاتِلَ الأفيال . فأخذ القعقاع وعاصم رُمْحَين أصمَّيْن لَيِّنين ، ودبَّا في كتيبةٍ من خيل ومشاة ، وقالا لهم : « اكتنفوه لتحيِّروه » وهما معهم ، فأطافوا به ، وخالطوا حرّاسه ، والتحموا معهم ، وظلَّ الفيل متخبِّطًا ينظر يَمْنةً ويسرة وهو متحيِّر ، فحمل القعقاع وعاصم على الفيل وهو متشاغل بمن حوله ، ووضعا رُمْحَيْهما معًا في وقت واحدٍ وتنسيق في عينيه ، وجلس الفيل على يديه ورجليه ، ونفض رأسه ، فألقى سائسَهُ من فوقه ، ودلَّى خرطومه ، فنقل القعقاع رمحه إلى يُسْراه ، واستل سيفه ، فنفح الخرطومَ فقطعه ورمى به على الأرض ، ووقع الفيل على جنبه وقد أُعمي ، وسقط من كان في التَّابوت فوقه ، فقتلتهم كتيبةُ القعقاع وعاصم .

وفي نفس الوقت كان حمّال بن مالك والرِّبيل بن عمرو يقولان لبني أسد : يا معشر المسلمين ، أي الموت أشدُّ؟ قالوا : أن يُشَدَّ على هذا الفيل . فخرجا إليه في خيلٍ ومشاة ، حتى أطافوا بالفيل الأجرب عن يمينه وشماله ليحيِّروه ، وقال حمّال للربيل : اختر ؛ إما أن تضربَ المِشْفر بالسَّيف وأطعن في عينه بالرمح ، أو تطعن في عينه وأضرب مشفره ، فاختار الربيل أن يضرب الخرطوم . وحملَا مع كتيبتيهما ، فلمّا تشاغل الفيل بملاحظة من أحاط به من المسلمين ، وانشغل سائسُه أيضًا ، لا يخاف إلّا على بطانه - أحزمته - فقد كان ما زال معقدًا من تقطيع أحزمة الأفيال يوم أرماث ، فكان مشغولًا بذلك ؛ ينظر إلى أجنابه وإلى خلفه في ملاحظةٍ مستمرة بأولئك الذين أحاطوا به ، إذ ذاك نَفَذَ حمّال والربيل ونزقا[1] فرسَيْهما ، حتى إذا قامَا على أطراف حوافرهما ضرباهما على الفيل ، وسدَّد حمال طعنةً برمحه إلى عين الفيل ، وفوجئ الفيل بالرّمح في عينه قد عوّره ،

(١) غَمَزَا .

فأقعى على استه مفترشًا رجليه . وناصبًا يديه ، ووطئ مَن خلفه مِن العجم ، ثم استوى واقفًا ، فنفح الربيل خرطومَه بسيفه فقطعه ، وبصر سائسُه بالربيل ، فضربه على وجهه وجبينه بالطبرزين[1] ضربةً منكرةً ، حطم بها أنفه ، غير أنه أفلت بها ، وبقي الفيل الأبيض - الذي أعماه القعقاع وعاصم ، وقطعَا خرطومه - مُتلدِّدًا بين الصَّفين ، كلَّما أتى صف المسلمين وَخَزُوه ، وإذا أتى صف المجوس نخسوه ، وهو يصيح صياحَ الخنزير ، وولَّى الفيلُ الأجرب الذي عوَّر حمال بن مالك والربيل وهو يصيح أيضًا ، فمرق غاضبًا بين صفوف الفرس يدوسهم ، وأثار صياحُه انتباه الأفيال الأخرى ، والتفتت إليه ، فرأته يثب في العتيق - النهر - فأتبعته كلُّها ، وخرقت صفوف الأعاجم ، وعبرت العتيق في إثره ، وظلت منطلقةً ، حتى بلغت المدائن في توابيتها ، وقد هلك من كان فيها .

لله دَرُّهم من أبطال .. بل من جبال .. تصارع وتُعمي الأفيال .

قال القعقاع بن عمرو :

حضَّضَ قومي مَضْرَحِيّ بن يَعْمرٍ فللَّهِ قومي حين هَزُّوا العَوَاليَا
وَما خام عنها يومَ سَارتْ جُمُوعُنا لأهلِ قُدَيسٍ يَمنعُون المَوَاليَا
فإنْ كُنتُ قاتلتُ العَدوَّ فلَلْتُه فإني لَألْقى في الحُروبِ الدَّوَاهِيَا
فيولًا أراها كَالبُيوتِ مُغِيرةً أُسَمِّلُ أعيانًا لها ومَآقيَا[2]

هَاشم بن عُتبة بن أبي وقاص ، المِرْقال ، الأسد ، قاتل الأسود :

قال ابن حجر في الإصابة : « الشجاعُ المشهور ، المعروف بالمِرْقال ، ابن أخي سعد بن أبي وقّاص . قال الدُّولابي : لُقِّبَ بالمرقال؛لأنه كان يُرْقِلُ

---

(١) الفأس من السلاح ؛ وهو نوع من البلطة ، كان يتسلح بها سائِسُو الأفيال .
(٢) الطبري ٣ / ٥٥٦ .

في الحرب ؛ أي يسرع ، من الإرقال وهو ضَرْبٌ من العَدْو . أسلم يوم الفتح ، وحضر مع عمه حرب الفُرس بالقادسية ، وله بها آثار مذكورة ، وكانت راية عليّ في صِفِّين مع هاشم »[١].

قاتل هاشمُ المرتدين تحت لواء خالد ، فلما انتهت حروب الرِّدَّة ، وسار خالد بن الوليد نحو العراق ، كان هاشم معه في معاركه التي خاضها في العراق ، فلمّا توجه نحو أرض الشَّام كان هاشم من بين الذين انتخبهم خالد من جيش العراق . فشارك خالدًا في المعارك التي خاضها في طريقه إلى الشام .

وكان هاشم قائد مَيْسرةِ المسلمين في معركة فَحْل بيسان . يقول رحمه الله : « والله لقد كنَّا يومئذٍ أشْفَقْنَا على خيلنا أول النهار ، ثم إن الله نَصَرَنَا عليهم ، فما هو إلا أن رأينا خَيْلنا قد نصرها الله على خيلهم ، فدعوت الناس إليَّ ، وأمرتهم بتقوى الله ، ونزلتُ فهززتُ رايتي ثم قلت : والله لا أردُّها حتى أركزها في صفِّهم ، فمن شاء فليتبعني ، ومن شاء فليتخلَّف عني ، فوالذي لا إلـٰه إلا هو ما أعلم أن أحدًا من أصحاب رايتي تخلَّف عني ، حتى انتهيت إلى صفِّهم ، فنضَحُونا بالنُّشَّاب ، فجثونا على الرُّكب واتَّقَيْنَاهم بالدَّرْق ، ثم دنوت بلوائي وقلت لأصحابي : شدُّوا عليهم ، أنا فداؤكم ، فإنها غنيمةُ الدنيا والآخرة . فشددتُ وشدُّوا معي ، فاستقبلت عظيمًا منهم ، وقد أقبل نحوي ، فأوجزته الرُّمح فخرَّ ميتًا ، وضَارَبْنَاهم بالسيوف ساعةً في صفِّهم ، وحمل عليهم خالدُ بن الوليد من قِبَلِ مَيْمنتهم ، فقاتلهم قتالًا شديدًا ، وَنَهَدَ إليهم أبو عبيدة بالرجَّالة والناس ،

(١) الإصابة في تراجم الصحابة لابن حجر ٣ / ٥٦١ - ٥٦٢ . دار الكتاب العربي .

وأمر الخيل التي كانت قِبَلَه من خيل خالد ، فحملتْ على المشركين ، وكـانت هـزيمتهم[١] .

في اليرموك :

وفي اليرموك ولَّاه أبو عبيدة قيادة الرجَّالة وقال : « أوليها - إن شاء الله - من لا يخاف نُكوله ولا صُدُوره عند البَأْس ، أُوليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، فقال له خالد : وُفِّقْتَ ورُشِدت »[٢] .

« وفي معركة « اليرموك » برز هاشم فدائيًّا وقائدًا ، فقد انتخَب خالد فدائيِّين من أبطال المهاجرين والأنصار ، وعددُهم مائة فارسٍ فقط[٣] ، للتأثير على معنويات الرُّوم في ابتداء معركة اليرموك ، وكان هاشم أحدُ هؤلاء الفدائيين المُنتَخَبين . وبعد أن فعل هؤلاء الفدائيون الأعاجيب ، تولَّى هاشم قيادة مُشاة المسلمين ، في معركة اليرموك ، في رواية الواقدي[٤] ، وقيادة كُرْدُوس من مشاة المسلمين في رواية الطبري[٥] . وفي هذه المعركة فقد إحدى عينيه[٦] ، وقاتل الروم بشجاعة فائقةٍ ، كان لها أثرٌ ملموسٌ في انتصار المسلمين على عدوِّهم في هذه المعركة الحاسمة »[٧] .

---

(١) الأزدي صـ ١٣٥ .

(٢) الحارث الأزدي صـ ١٨٨ .

(٣) فتوح الشام للواقدي ١ / ١٢٠ .

(٤) فتوح الشام للواقدي ١ / ١٣٤ .

(٥) تاريخ الطبري ٢ / ٥٩٣ .

(٦) فتوح البلدان للبلاذري صـ ١٤١ .

(٧) قادة فتح الجزيرة والعراق لمحمود شيت خطاب صـ ٣٢٢ .

في القادسية :

أعاد عمر رضي الله عنه إلى العراق كلَّ الرجال الذين جاءوا مددًا إلى الشام ، وهم ستة آلاف ، وأمَّر على هذا الجيش هاشم بن عتبة ، وجعل على مُقدِّمته القعقاع بن عمرو التميمي ، وعجَّله أمامه كي يدرك سعدًا قبل فوات الأوان .

وفي اليوم الثالث من أيام القادسية ، وهو يوم « عماس » ، أدرك هاشم وجنودُه رجالَ القعقاع ، فجعل رجاله فِرَقًا ، وأمرهم أن يتلاحقوا دِراكًا ، فلا تسير فرقة حتى تغيب الأخرى عن نظرها . وسار هاشم على رأس الفرقة الأولى ، حتى إذا خالط القلب ، كبَّر وكبَّر المسلمون وهم في مصافِّهم . قال هاشم : أوَّل القتال المطاردة ثم المراماة . وأخذ قوسَه فوضع سهمًا على كبدها ، ثم نزع فيها ، فرفعت فرسُه رأسها فجأة – وكان لا يقاتل إلا على فرسٍ أنثى ، لا يقاتل على ذَكَرٍ – فقطع أُذنها ، فضحك وقال : « واسوأتاه من رميةِ رجل كلُّ من رأى ينتظره ، أين تروْن سهمي كان بالغًا لو لم يُصب أذنَ الفرس ؟ » قالوا : كان يبلغ كذا وكذا . [وفي رواية : أنه قيل : كان يبلغ العتيق] فأجال فرسه ثم نزَّقها ، وقد نزع السَّهم ثم ضربها حتى بلغت حيث قالوا ، ثم ضربها ، فأقبلت به تخرقهم حتى عاد إلى موقفه . وفي رواية أخرى : أنه أجال فرسه ثم نزل وتركه وخرج إليهم يضربهم ، حتى بلغ حيث قالوا . وما زالت قواته تصل تباعًا »[1].

لقد كان لقدوم قوات هاشم في الوقت المناسب أثرٌ حاسم في انتصار المسلمين على الفرس ، وكان هاشم « أبلى فيها بلاءً حسنًا ، وقام منه في ذلك ما لم يقم من أحد ، وكان سببَ الفتح على ....

(١) الطبري ٣ / ٥٥١ ، و« القادسية » لأحمد عادل كمال صـ ١٦٧ – ١٦٩ .

المسلمين »[(١)].

تُرَىٰ : لو لم تَصِل قواتُ هاشم إلى ساحة معركة القادسية في الوقت المناسب ، فماذا كان يحدث للمسلمين في تلك المعركة ؟!

ولقد وصل أمرٌ من عمر بعد انتصار المسلمين في القادسية بالتوجُّه لفتحِ المدائن ، فعبَّأ سعد جيشه بقدمات : قَدَّم زهرة بن الحويّة ، ثم أتبعه بعبد الله بن المعتم ، ثم بشرحبيل بن السِّمط ، ثم بهاشم الذي جعله نائبًا عنه بدلًا من خالد بن عُرْفُطة ، الذي جعله على السَّاقة ، فسارت قواتُ المسلمين من نصرٍ إلى نصر ؛ انتصروا في بُرس ، وفي بابل ، وفي ساباط . وهنا لنا وقفة مع الأسد .

قَتْل أسد كسرى في مظلم ساباط :

تقـدَّم الجيشُ إلى ساباط على ثلاثين كيلو مترًا من المدائن ، بطريق بهرسير ، وفي مكانٍ اسمه مظلم بضواحي ساباط ، التقى المسلمون بقوةٍ مجوسية ، ذكرتها الأنباء على أنها « كتيبة كسرى » أو كتائب كسرى ، وحملت اسم : بوران [بنت كسرى أبرويز ، وهي عمَّة يزدجرد الثالث] ، وهي تمثل قوات الحرس الملكي .

« وبلغ هاشم إلى مظلم ساباط ، فوقف المسلمون حتى لحق بهم سعد ، وفي مظلم ساباط كانت بعضُ الحدائق الملكيَّة ، وكان كسرى قد اقتنى فيها بعضَ الأسود ، منها أسد اسمه المقرط ، كان كسرى قد اختاره من أسود المظلم واستأنسه ، واجتمعت كتائب كسرى بوران في المظلم ، وكانوا يحلفون بالله كلَّ يوم : « لا يزول ملك فارس ما عشنا » ودارت المعركة ،

(١) الاستيعاب (٤ / ١٥٤٦) لابن عبد البر .

وبلغهم سعد وهي دائرة ، فأطلق المجوس أَسَدَهم المقرط على صفوف المسلمين . ونزل هاشم عن فرسه ، وتقدَّم إلى الأسد بقلبٍ لا يعرف الخوف ، كما تقدّم إخوانٌ له من قَبْل إلى الأفيال بالقادسية . وضرب هاشم الأسد بسيفه حتى قتله ، وسمَّى سيفه « المنن » ، وقَبَّل سعدٌ رأس هاشم ؛ تقديرًا له ولما فعل ، وانحنى هاشم حُبًّا واحترامًا لعمه وقائده حتى قبَّل قدم سعد »[1].

جلولاء :

لم يكد المسلمون يستقرُّون في المدائن ، حتى علموا بأن قوات فارس قد عسكرت بجلولاء ، وهي مدينة على طريق خراسان شمال المدائن ، فكتب عمر إلى سعد : سرِّح هاشم بن عتبة إلى « جلولاء » في اثني عشر ألفًا ، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى ميمنته مسعر بن مالك ، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة ، واجعل على ساقته عمرو بن مرة الجهني[2].

وسار هاشم من المدائن أربعةَ أيامٍ ، حتى بلغوا جلولاء ، فأحاط بها وحاصر المجوس فيها وطاولوه ، فكانوا لا يخرجون من استحكاماتهم إلا إذا أرادوا . وكان المجوس يزاحفون المسلمين بأعدادٍ كبيرة وبجلَبَةٍ وأهاويل ، وقد وقع أثناء هذا الحصار ثمانون زحفًا ، كان الظَّفر فيها جميعًا للمسلمين ، ويعود العَجَمُ إلى ما وراء خنادقهم ، واستمر الحصار على هذه الحال سبعة أشهر أو يزيد . وكان يزد جرد يحشد من أهل الجبال من حول حلوان ، ويمدُّ قواته في جلولاء بأمدادٍ جديدة في كل يوم ، وكانت استحكامات الفرس عبارة

---

(١) « سقوط المدائن » لأحمد عادل كمال صـ ٢٠ - ٢١ ، دار النفائس .
(٢) الطبري ٣ / ١٢٢ .

عن خندق كبير متسع وعميق ، حَفَره المجوس حول مواقعهم ، يحوطه حزام من حَسَك الخشب . وهي خوازيق من الخشب ، قد نصبوها كموانع لاندفاع الخيل ، وبين الخندق ونطاق الحسك مجالٌ خالٍ ، ثم جعلوا بعد ذلك حسك الحديد . وخرج المجوس في زحفٍ كبير من العَدد والعُدة ، وكان هو الأخير ، فقام هاشم في جنده وخطبهم فقال : « إن هذا المنزل منزل له ما بعده ، أبلوا الله بلاءً حسنًا يتمّ لكم عليه الأجر والمَغْنم ، واعملوا لله » .

وكان الالتحام شديدًا ، لم يَقْتتلوا مثله ؛ رميًا بالنَّبْل ، وطعنًا بالرماح ، حتى تقصَّفت ، فاستلُّوا السُّيوف وتجالدوا بها حتى انثنت ، وانهزم المجوس ، وتراجعوا ، فتبعهم المسلمون يشدِّدون من ضغطهم عليهم ، حتى غلبوهم على خوازيق الخشب ، وهم يقتلونهم قتلًا ذريعًا ، حتى حجزهم الليل ، والتحم مرة ثانية مع المجوس ، بعد أن أَلقوا أمام خندقهم حسك الحديد ليغرز في أقدام خيل المسلمين ، والتحم الفريقان واقتتلوا اقتتالًا شديدًا ، والظلام يسحب رداءه على الميدان ، قتالًا لم يقتتلوا مثله إلَّا ما كان ليلةَ الهرير ، وبلغ القعقاعُ وجنده مدخل الخندق فأخذ به ، وقد انعزلوا عن سائر المسلمين ، فأمر مُنادِيَه فنادى : « يا معشر المسلمين ، هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به ، فأقبلوا إليه لا يمنعكم مَنْ بينكم وبينه من دخوله » ولم يَعُد المسلمون يشكُّون في أن هاشمًا في الخندق ، فكيف يتركونه بين المجوس ، وحمل المسلمون حملةً صادقة عنيفة ، لم يصمد لها العجم ، حتى أدركوا القعقاع ، وهو آخذٌ بمدخل الخندق ، يمنع المجوس من الانسحاب إليه .

وبدأت هزيمة المجوس ، وأصاب حَسَكُ الحديد خيولهم ، فنزلوا عنها وقاتلوا مشاةً ، ولكن أيّ مشاة ؟! مشاة مشتتة ، وتعقَّبهم المسلمون ،

فلم يفلت منهم إلَّا من لا يُعَدُّ . يقول الرواة : إن قتلى المجوس بلغوا مائة ألفٍ ، فجلَّلت المجال وما أمامه وما خلفه ؛ ولذلك سمِّيت جلولاء ؛ بما جلَّلها من قتلاهم . وكان مِهرانُ قائد قوات الفرس من بين القتلى ، وفرَّ فيرزان إلى المرتفعات الوعرة .

وقد قُوِّمت غنائم جلولاء بثلاثين مليون درهم ، وبلغ سهم الفارس بجلولاء مثل سهمه بالمدائن .

وفي رواية أخرى : في جلولاء اقتسم على كل فارس تسعة آلاف درهم ، وتسعة من الدواب .

وكتب سعد إلى عمر بفتح جلولاء ، وبنزول القعقاع حلوان ، فلما قدموا على عمر كلَّمه زياد بن أبي سفيان ، ووصف له ، وأفاض في طلاقةٍ أعجبت عمر ، فقال له : « هل تستطيع أن تقومَ في الناس بمثل الذي كلّمتني به ؟ » قال : والله ما على الأرض شخصٌ أهيب في صدري منك ، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك . وقام زياد في الناس ، فحكى لهم عما أصابوا ، فقال عمر : « هذا الخطيب المصقع » فقال زياد قولته الندية : « إن جُنْدَنَا أَطلقُوا بالفَعَال لِسَانَنَا » .

رضي الله عن المِرْقال هاشم ، فاتح محور ديالي ، من المدائن إلى جلولاء ، الذي شَيَّبته المعارك فقال :

يَومَ جلولاءَ ويوم رستمْ ... ويوم زحفِ الكوفة المُقَدَّمْ
ويوم عرض النهر المحرَّم ... من بين أيامٍ خَلون صُرَّمْ
شيَّبْن أصداغي فهنَّ هُرَّمْ ... مثل ثَغَام البلد المَحرَّمْ[1]

(١) سقوط المدائن لأحمد عادل كمال ، وقادة فتح العراق والجزيرة .

أبو مِحْجَن بن حَبيب الثَّقفي :

فارسٌ من فرسان القادسية ، وبطلٌ من مَغاويرها ، حَبَسه سعد فيمن حبس لاعتراضهم على خالد بن عُرفُطة .

ولما علا صليلُ السيوف وأصواتُ المعركة ، بلغتْ مسامعَ الذين حبسهم سعد في القصر مقيَّدين ، فصعد أبو محجن الثقفي بعد أن دخل الليل إلى سعد ، وهو مشرف من فوق القصر ، يستعفيه ويسترضيه ، ويَسْتميحه أن يفكَّ قَيْدَه ويسمح له بالقتال ، فزجره سعد وردَّه إلى مَحْبسه ، فنزل إليه ، ثم جاء إلى امرأة سعد فقال : يا سلمى ، يا بنت آل خصفة ، هل لك إلى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : « تُخَلِّين عني وتُعيريني البَلْقاء ، فللَّهِ عليَّ إن سلّمني الله أن أرجع إليك ، حتى أضع رجليَّ في قيدي » . فقالت : وما أنا وذاك . فرجع إلى مكانه يَرْسُف في قيوده ويقول :

كفى حزنًا أن ترتدي الخيلُ بالقَنَا ... وأُترَكُ مشــدودًا علـيَّ وثاقـيَا
إذا قمـتُ عنّاني الحـديدُ وغُلِّقَتْ ... مصارعُ دوني قد تُصمُّ المُناديا
وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... وقد تركوني واحدًا لا أخا لِيَا
وقد شفَّ جسمي أنني كلَّ شارقٍ ... أعـالجُ كَبْلًا مُصْمتًا قد بَرانيَا
فللَّه دَرِّي يـوم أُتـرك مُوثقـًا ... ويذهـل عـني أُثْرتي ورجـاليَا
حُبِسْنَا عن الحرب العَوانِ وقد بدتْ ... وأعمالُ غيري يوم ذاك العواليَا
فللَّه عهـدٌ لا أخيسُ بعهـده ... لئن فُرِّجتْ أن لا أزور الحَوَانيَا

فراجعتْ سلمى نفسها : إني استخرت الله ، ورضيت بعهدك . فأطلقته وقالت : أمَّا الفرس فلا أعيرها ، ورجعت إلى بيتها ، فاقتاد أبو محجن الفرس ، فأخرجها من الباب الخلفي للقصر المواجه للخندق - وكان يُقال لها : البلقاء - فركبها ثم دبَّ عليها ، واتجه إلى الميمنة حيث قومه من بني

ثقيف ، فكبَّر ، وحمل على ميسرة الفرس ، يلعب برمحه وسيفه بين الصَّفين [قال بعضهم : إن البلقاء كانت بسَرْجها ، وقال آخرون : بل كانت عُريًا] ، ثم رجع من خلف المسلمين ، واتجه إلى الميسرة ، فكبَّر وحمل على مَيْمنة المجوس ، يلعب بين الصَّفين برمحه وسلاحه ، ثم رجع من خلف المسلمين إلى القلب ، فبرز أمام الناس ، فحمل على العجم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه ، فكان يقصف المجوس لَيْلَتَئِذٍ قصفًا منكرًا ، ولا يحمل على رجل إلَّا قتله ، ودقَّ صلبه ، والناس منه في أشد العجب ، وهم لا يعرفونه ، ويغلب على ظننا أنه كان مُلَثَّمًا ، إذْ لو كان حَاسرَ الوجه لعرفوه ، ولم يكن أحدٌ قد رآه بالنهار ، فقال بعضُهم : لعله أوائل أصحاب هاشم بن عتبة ، أو لعلّه هاشم نفسه . وظلَّ أبو محجن يحمل على العجم ، فلا يقف بين يديه أحدٌ ، لقد كان فارسًا شديدًا مغوارًا ، ولعلَّ حَبْسه يوم أرماث ويوم أغواث قد حال دون إجهاده ، فكان جَمَّ النشاط ، موفورَ القوة ، والناس متعبون . وكان سعدٌ من أحدِّ الناس بصرًا ، فجعل ينظر إليه في ظلام الليل وهو مشرفٌ مكبٌّ من فوق القصر ويقول : « من ذلك الفارس ؟ الضَّبْرُ[1] ضَبْرُ البلقاء ، والطَعْنُ طعن أبي محجن ، وأبو محجن في القيد ، والله لولا محبس أبي محجن لقلت:هذا أبو محجن ، وهذه البلقاء » وقال بعضهم : لولا أن الملائكة لا تباشر القتال لقلنا : ملك يُثبِّتنا،ولا يذكر الناس أبا محجن ، ولا يأبهون له ، لعلمهم أنه بات في محبسه .

وانتصف الليل ، فتحاجز العجم وتراجع المسلمون ، وأسرع أبو محجن فأقبل حتى دخل من حيث خرج ، ووضع عن نفسه وعن دابته ، وأعاد رجلَيْه في قيده ، وأنشد وهو مغتبطٌ سعيد :

---

(١) إذا جَمَعَ الفرسُ يداه ، فوثب فوق ، مجموعةً يداه ، فذلك الضَّبْر .

لقد علمتْ ثقيفٌ غير فخر ... بأنّا نحن أكرَمُهم سُيوفَا
وأكثرهم دُروعًا سابغاتٍ ... وأصْبرهم إذا كرهوا الوُقوفَا
وأنّا وَفْدهم في كلِّ يومٍ ... فإنْ عَمِيوا فَسْل بهمُ عَرِيفَا
وليلة قادسٍ لم يشعروا بي ... ولم أُشعِرْ بمخرجيَ الزُّحوفَا
فإنْ أُحبس فذلكمُ بلائي ... وإنْ أُتركْ أذيقهمُ الحُتُوفَا

وفي الثاني : أتت سلمى سعدًا وأخبرته خبرها ، وخبر أبي محجن ، فسامحه سعد ، ودعا به فأطلقه[١].

يرحم الله الفارسَ الملَثم والبطل أبا محجن القائل :

اليوم أعلمُ أني من سَراتهمُ ... إذا تطيشُ يدُ الرِّعْديدةِ الفَرِقِ[٢]
قد أَركبُ الهَولَ مَسْدولًا عَسَاكره[٣] ... وأكتم السِّرَّ فيه ضربة العُنقِ[٤]
أُعطي السّنان غداة الروع حصَّته ... وعامل الرمح أَرْويه من العَلَقِ[٥]

ضِرَار بن الخطَّاب القرشي ، فاتح ماسبذان بإيران :

كان رضي الله عنه من فرسان قريش وشجعانهم .. وقاتل المسلمين أشدَّ القتال يوم أُحُد ؛ فقد اختلَف الأوس والخزرج فيمن كان أشجع يوم

(١) القادسية لأحمد عادل كمال صـ ١٥٩ – ١٦٥ . وفي رواية الطبري ٤ / ١٣٩ أن قصة أبي محجن كانت مع الزّبراء ، وتذهب إلى أن سعدًا نزل من رأس الحصن ، فرأى فرسه تعرق ، فعرف أنها قد رُكبت ، فسأل زبراءَ أم ولده عن ذلك ، فأخبرته خبرَ أبي محجن ، فخلّى سبيله .
(٢) الخائف .
(٣) كثيرة لا تخترق .
(٤) أكتم سرَّ من أمامي بضربي عنقه ، فلا ينطق بسره .
(٥) عامل الرمح : نَصْل سِنِّه . العلق : الدَّم .

أحد ، فمرَّ بهم ضرار فقالوا : هذا شَهِدَها ، وهو عالم بها ، فسألوه عن ذلك فقال : « لا أدري ما أَوْسكُم مِنْ خزرجكم ، ولكنّي زَوَّجتُ منكم يوم أُحُدٍ أَحَدَ عشر رجلًا من الحُور العين »[(١)].

وفي يوم الخندق كان أَحَدَ الأربعة الذين وَثَبوا الخندق ... وكان أَحَدَ قادة قريش يوم الخندق ..

قال ضرار يومًا لأبي بكر الصديق : « نحن خيرٌ لقريش منكم ؛ أدخلناهم الجنة ، وأنتم أدخلتموهم النار »[(٢)] يريد أنه قَتَلَ المسلمين فدخلوا الجنة ، وقتل المسلمون الكفار من قريش فأدخلوهم النار .

وأسلم يوم فتح مكة وحَسُنَ إسلامه .

وشهد ضرار يومَ اليمامة تحت راية خالد بن الوليد ، وشهد كلَّ معارك العراق التي خاضها خالد هناك ، وكان هو الذي حاصر قصر « الغَرِيِّين » في فتح الحيرة[(٣)] ، ولمَّا تحرك خالد إلى أرض الشَّام كان معه ، وشهد تحتَ لواء خالد كافة معارِكِه في طريقه من العراق إلى أرض الشام ، وشهد معه معركة اليرموك ، وشهد مع أبي عبيدة فتح الشام .

وعاد ضرار إلى العراق مع هاشم بن عتبة الزهري فشهد القادسية ، وفي هذه المعركة غنم ضرار عَلَم الفُرْس الأكبر ، فَعُوِّض منه ثلاثين ألفًا ، وكانت قيمته ألف ألف ومائتي ألف[(٤)].

---

(١) أسد الغابة ٣ / ٤٠ ، والاستيعاب ٢ / ٧٤٩ .
(٢) الإصابة ٣ / ٢٧٠ ، والاستيعاب ٤ / ٧٤٩ .
(٣) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٤٩ .
(٤) ابن الأثير ٢ / ١٨٦ .

وشهد ضرار فتح المدائن القديمة على الضفة الغربية من النهر ، فلما رأى ضرار من المدائن القديمة إيوان كسرى في الضفة المقابلة من النهر ، نادى بأعلى صوته : « الله أكبر ! هذا أبيض كسرى .. هذا ما وعد اللهُ ورسولُهُ » وكبَّر ضرار ، وكبّر الناس معه[1].

وشهد ضرار معركة « جلولاء » فلما رجع هاشم منتصرًا من جلولاء إلى المدائن ، بلغ سعد بن أبي وقاص أن الهُرْمزان قد جمع جمعًا من قواته في سهل « ماسبذان » فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب عمرُ : « ابعث إليه ضرار بن الخطاب في جندٍ ، واجعل على مقدمته الهُذيل الأسدي ، وعلى مَجْنَبتيه عبد الله بن وهب الراسبي والمضارب بن فلان العجلي »[2] فخرج ضرار بمن معه حتى انتهى إلى سهل « ماسبذان » والتقى بالفُرْس ، وأسرع المسلمون في الهجوم على الفرس ، وأخذ ضرارُ قائدَهُم آذين سَلَمًا ، فأسره فانهزم عنه جيشه ، فقدَّمه فضرب عنقه ، ثم خرج في الطَّلب ، حتى انتهى إلى السيروان ، فأخذ ماسبذان عَنْوة ، وتطاير أهلها في الجبال ، فدعاهم فاستجابوا له .

وفي معركة ماسبذان قال ضرار يَذْكُر أَسْر آذين :

ويوم حَبَسْنَا قومَ آذين جنده ... وقطراته عند اختلاف العواملِ
وزردَ وآذينًا وفهدًا وجَمْعَهم ... غداةَ الوَغى بالمرهفاتِ الصَّواقلِ
فجاءوا إلينا بعد غبٍّ لقائنا ... بماسبذانَ بعد تلك الزَّلازِلِ[3]

* * *

(١) ابن الأثير ٢ / ١٩٧ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ١٤٣ .
(٣) قادة فتح بلاد فارس (٩٣) عن معجم البلدان ٧ / ٣٦٤ .

نُعيم بن مُقرِّن المزني ، فاتح همذان والرَّيّ :

قَدَمَ نعيم بن مُقرِّن مع أخوته ، ومنهم النّعمان بن مُقرِّن ، على رأس أربعمائة فارس من مُزَيْنة على النبي ﷺ ، وشهد مع الرسول ﷺ غزوة الخندق وغزواته الأخرى .

وقاتل تحت لواء أبي بكر الصديق مانعي الزكاة من الأعراب ، عندما هاجموا المدينة ، وقاتل تحت لواء خالد بن الوليد في العراق ، وتحت لواء سعد بن أبي وقّاص في القادسية ، وأبلَى في ذلك أعظم البلاء .

وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص : « استنفر من أهل الكوفة مع النُّعمان كذا وكذا ، فإني قد كتبت إليه بالتوجّه من الأهواز إلى « ماه » فليوافوه بها ، وليَسِرْ إلى « نهاوند » وقد أمَّرت عليهم حذيفة بن اليَمَان ، فإن حدث بحذيفة حدثٌ فعلى الناس نُعيم بن مقرّن ، وفي معركة نهاوند كان نعيم في المقدمة ، ولما نشب القتال في نهاوند قاتل نعيم تحت لواء أخيه قتالَ الأبطال ، فلما استشهد النعمان تناول نعيم الرَّايةَ من يد أخيه قبل أن تقع ، وسجَّى النعمانَ بثوبٍ ، وأتى حذيفة بن اليمان بالراية فدفعها إليه ، ولما انتصر المسلمون طارد نعيمٌ والقعقاع بن عمرو فُلولَ المنهزمين من الفرس ، حتى وصلوا إلى همذان ، فلما رأى قائدها ألّا فائدة تُرجى من المقاومة استأمنهم على الجزية ، فراسلوا حذيفة ، فأجابهم إلى ما طلبوا .

في همذان :

أعاد الفُرْس تحشيد قواتهم في منطقة الرَّيِّ ، فشجَّع ذلك أهل « همذان » ، ونقضوا الصلح الذي عقدوه مع المسلمين . وبلغت عمر بن الخطاب أنباء انتقاض الفرس في « همذان » فأمر نُعيم بن مقرن أن يسير إليها ، وأن يدخلها عَنْوة ؛ عقابًا لأهلها ، حتى لا يعودوا لمثلها أبدًا . قال عمر في كتابه لنعيم :

« فإن فتح اللهُ على يديك همذان فإلى ما وراء ذلك في وجهك ذلك ، إلى خراسان »[١].

وسمع أهلُ « همذان » اسمَ نعيم ، وعرفوا سَيْرَه إليهم ، فَسُقِطَ في أيديهم ، وتولَّاهم الرُّعب ، وزاد جَزَعُهم حين علموا باستيلاء نعيم على ما حول « همذان » من البلاد ، فلما انتهى إليهم نعيم وحاصر مدينتهم ، بعثوا إليه يطلبون الصلح ، فصالحهم وقبِلَ منهم الجزية على المنعةِ[٢].

في واج روذ :

وبينما كان نعيم في « همذان » على رأس اثني عشر ألف جندي ، سمع بمكاتبة الديلم وأهل « الرَّي » وأهل « أذربيجان » ، وحركة قواتهم إلى « واج روذ »[٣] ، تحرّك الدَّيلم ، وعلى رأسهم أميرهم « موتا » ، وتحرَّك أهل الري وعلى رأسهم « الزينبى »[٤] أبو الفرخان ، وتحرَّك أهل أذربيجان بقيادة « اسفنديار » أخو رستم ؛ فاستخلف نعيم على همذان ، وخرج بجيشه لمواجهة تحشُّد قوات فارس في « واج روذ » ، فلما وصلها نزل بقواته قبالة قوّات الفُرس وحلفائهم ، التي لم تمهل المسلمين أول ما نزلوا الميدان أن هاجمتهم هجومًا شديدًا ، واشتد القتال بين الطرفين ، وكانت وقعة عظيمة تعدل « نهاوند » ولم تكن دونها[٥] ، وصمد المسلمون صمودًا عنيدًا ، وقُتل من

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٢٢٢ .
(٢) الطبري ٣ / ٢٢٩ .
(٣) موضع بين همذان وقزوين .
(٤) الاسم الفارسي (الزنبدى) أو (الزبندى) ومؤرخو العرب يطلقون عليه اسم « الزينبى » .
(٥) الطبري ٣ / ٢٣٠ .

المجوس عددٌ كثير لا يُحصى ، واستطاع اسفنديار أن يفرَّ ببعض قواته مع حلول الظلام . وكان نعيم قد أخبر عمر باجتماع هذا العدد الضخم من قوات فارس وحلفائهم لقتاله ، فاهتمَّ عمر بذلك اهتمامًا بالغًا ؛ ولكن لم يفجأ إلا البريد بالبشارة مع عروة بن زيد الخيل ؛ فقد كان عمر متلهفًا لسماع أخبار المسلمين ، وهو أشدُّ ما يكون إشفاقًا عليهم ، وإنه لكذلك إذ قدم عروة ، وكان قدم عليه من قبل بنبأ كارثة موقعة « الجسر » وانهزام المسلمين ، فلما رآه عمر قال : « بشيرٌ ؟ » وأجاب الرجل : « بل عروة » ، فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ! عند ذلك فطن عروة فقال : بل احمد الله ، فقد نَصَرَنَا وأظهرنا[1] .

قال عروة في فتح « واج روذ » :

فلما أتاني أنّ (مُوتا) ورهطَهُ ... بني باسلٍ جرّوا جنودَ الأعاجِمِ
نهضْتُ إليهمْ بالجنودِ مُساميًا ... لأمنعَ منهمْ ذمَّتي بالقَواصِمِ
فجئْنَا إليهمْ بالحديدِ كأنَّنا ... جبالٌ تراءى من فروعِ القلاسمِ[2]
فلمَّا لقيناهمْ بها مُستفيضةً ... وقدْ جعلوا يسمونَ فعْلَ المساهمِ
صدمناهم في واجَ روذ بجمْعنا ... غَداةَ رميْناهم بإحدى العظائِمِ
فما صبروا في حوْمةِ الموتِ ساعةً ... لحدّ الرماح والسيوفِ الصَّوارِمِ
كأنّهم عندَ انبثاثِ جُموعِهِمْ ... جدارٌ تشظّى لبنُهُ للهوادِمِ
أصبنا بها (مُوتا) ومَن لفّ جمعهُ ... وفيها نهابٌ قسْمُه غيرُ غانمِ
تبعناهم حتى أوَوْا في شعابِهِمْ ... نقتّلهم قتْلَ الكلابِ الجَواجِمِ[3]

---

(١) الطبري ٣ / ٢٣٠ .
(٢) القلاسم : الجبال .
(٣) الجواجم : السائبة .

كأنَّهم في واجَ روذَ وُجوهُهُمْ ضِئِين(١) أصابَتْهَا فروجُ المخارمِ(٢)

وقدم وفدٌ من الجيش بالأخماس إلى عمر ، فيهم سِماك بن مَخْرمة ، وسماك بن عبيد ، وسِماك بن خَرَشَةَ ، فذكروا أسْماءهم سماك وسماكٍ وسِماك ، فقال عمرو : بارك الله فيكم ، اللهم اسمكْ بهم الإسلام (أَيِّدْ بهم الإسلام) وأيّد الإسلام بهم .

فتح الري :

« كتب عمر بن الخطاب إلى نُعيم : سرْ حتى تقدم الري وتلقَى جمعهم ، ثم أقمْ بها فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد . فأخرب نعيمُ بن مقرن « واج روذ » ، ثم خرج منها في جيشه إلى « دستبي » ومنها اتجه نحو الري ، حتى إذا كان في « قها » لقيه جيشٌ فارسيٌّ بعث به « سياوخش » بن مهران بقيادة زنبدى « الزينبى » ، وقد كُلّف بالتصدي لنُعيم ، فاستسلم زنبدى لنعيم دون قتالٍ وسالمه ، وسار معه إلى الري .. وقد كان الزينبى رأى حُسْنَ وفاءِ المسلمين معه وسوءَ معاملةِ سياوخش له .

واستمد « سياوخش » الأقاليم المجاورة مثل « دنباوند » و« طبرستان » و« قومس » و« جرجان » ، وقال لهم : قد علمتمْ إنْ هؤلاء حلّوا بالري أنه لا مُقامَ لكم فأمدّوه واحتشدوا له ، وقاد « سياوخش » هذه القوات ، فالتقوا بنعيمٍ على سَفْحِ جبل « الري » بجانبِ مدينة الري ذاتِهَا ، ودارتْ بينهما المعركة . فقال زنبدى لنعيم : إن القوم كثيرٌ وأنت في قِلّةٍ ، فابعثْ معي خيلًا أدخل بهم مدينتهم في مدخل لا يشعرون به وناهِدْهم أنت ؛ فإنهم إذا خرجوا عليهم لم يثبتوا لك . وفي الليل بعث نعيم خيلًا من جيْشهِ عليها

---

(١) ضئين : جمع ضأن .

(٢) ومخارم : جمع مخرم ، وهو الأبرق .

ابنُ أخيه المنذر بن عمرو بن مقرن ، فساروا مع زنبدى متسلّلًا خلال ما يعرف من المسالك ، حتى دخل بهم مدينة الري ، و« سياوخش » وجيشه لا يشعرون ، في حين شنّ نعيم بجيشه هجومًا ليليًّا عنيفًا ، فصمدوا له وصبروا في القتال حتى سمعوا تكبير المنذر في جنده مِن خلفهم ، فانهزموا وكثر القتْل فيهم . يقول الرواة : فَقُتِلوا مقتلةً عُدُّوا بالقَصَبِ فيها . وكانت غنائم المسلمين بالري قريبًا من غنائمهم بالمدائن ، وأخرب نُعيم مدينة « الري » العتيقة ، وأمر زنبدى فبنى مدينة « الري » الحديثة ، وجعل زنبدى مرزبانًا عليهم .

وقد كان « الري » عاصمة فارس الشمالية ، فما إنْ سقطتْ ، حتى فتح سويد بن مقرن « قومس » سِلْمًا ، وصالح نعيمٌ أهلَ دبناوند ، وبفتْح الري وتسليم هاتيْن المدينتيْن الكبيرتين لم يبقَ بين المسلمين وبين شواطئ بحر قزوين من أرض فارسٍ غير « جرجان » و« طبرستان » و« أذربيجان » ، وقد سُلّمتْ « جرجان » و« طبرستان » لسويد بن مقرن صلحًا ، كما فتح المسلمون « أذربيجان » بعدَ مناوشاتٍ لا ترقى إلى درجة الحرب »[(١)].

البراءُ بن عازب الأَوْسي الأنصاري ، فاتحُ قزوين :

قال رضي الله عنه : استصغره رسول الله ﷺ هو وابن عمر فردّهما يوم بدرٍ ، ولم يشهد أُحدًا لصِغرِ سِنّه .. وأجازه النبي ﷺ يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنةً ، وقاتل مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوةً .

وكان للبراء نصيب في مقاتلة المرتدين ، وشهد فتح « تُسْتَر » مع أبي موسى الأشعري .

---

(١) قادة فتح بلاد فارس صـ ١٢٧ ، وسقوط المدائن - لأحمد عادل كمال صـ ٢٣٥ - ٢٣٧ .

وسار البراء إلى قزوين ... فأتى « أبهر » وكانت محصنةً ، فحاصرها وقاتله أهلها ، ولكنّهم طلبوا الأمان بعد ذلك فصالحهم البراء[١] ودخلها المسلمون .

ثم غزا البراء أهل حصن « قزوين » ، فلما بلغهم قصْدُ المسلمين لهم طلبوا من حلفائهم الدَّيْلم معاونتهم فوعدوهم خيرًا ، ولكنهم لم يبرُّوا بوعدهم ، فلما رأى أهل « قزوين » ذلك طلبوا الصُّلح فصالحهم البراء ، ودخلها المسلمون أيضًا[٢] .

وفي ذلك يقول أحد رجال البراء :

قَدْ عَلِمَ الدَّيْلمُ إذْ تُحارِبْ حينَ أتى في جيشهِ ابنُ عازبْ
بأنّ ظنّ المشركين كاذبْ فكمْ قطعنا في دُجَى الغياهبْ
مِنْ جبلٍ وعْرٍ ومنْ سَبَاسِبْ

إذْ كانت المنطقة جبليةً وعرة لم يألفِ العربُ مثلها من قبلُ ؛ لأنهم من سكّان السهول والصحاري ، ومع ذلك استولَوْا عليها .

وغزا البراءُ « الدّيلمَ » حتى أدّوْا له الإتاوة ، وغزوا منطقة « جيلان » ، وفتح « زنجان » عُنْوةً[٣] .

رضي الله عن البراء فقد كانتْ مهمته صعبةً للغاية ، ومَن لها سواه مِن شجاعٍ ومقدامٍ ، صاحب إرادة لا تزعزعها المخاطر والأهوال ، لقد كان البراء أمةً في رجلٍ .

---

(١) فتوح البلدان - للبلاذري صـ ٣١٧ .
(٢) البلاذري صـ ٣١٧ .
(٣) قادة فتح بلاد فارس صـ ١٣٠ - ١٣٤ .

ذو النُّورِ عبد الرحمٰن بنُ ربيعة غازي التُّرك ، الذي تمنعه الملائكةُ مِنَ الموت :

أدرك النبيَّ ﷺ ولم يسمع منه ولا روى عنه .

كان من أبطال المسلمين بالقادسية .

وبعد انهيار جيش رستم حاولت بضعٌ وثلاثون كتيبةً منهم أن تصمُدَ فتصدّى لهم بضعٌ وثلاثون كتيبةً من المسلمين ، فكان ابن هربذ أمام عبد الرحمٰن ابن ربيعة ، فأباد عبد الرحمٰن جندَه بخيلِهِ وقتل ابن هربذ .

وأمره عمر بن الخطاب بغزْوِ الترك فسار عبد الرحمٰن بجيشه حتى اجتاز الباب ، فقال له ملك الباب شهربراز : ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أريد « بلنجر »[(١)]. قال : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب . قال : لكنا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم . وتاللهِ إن معنا لأقوامًا لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان ، لبلغتُ بهم الروم . قال شهربراز : وما هم ؟ قال عبد الرحمٰن : أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر بنيَّةٍ ، كانوا أصحاب حياءٍ وتكرُّم في الجاهلية ، فازداد حياؤهم وتكرُّمُهم ، فلا يزال هذا الأمر دائمًا لهم ، ولا يزال النصر معهم حتى يغيّرهم مَنْ يغلبهم ، وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيّرهم .

فغزا عبد الرحمٰن « بلنجر » في عهد عمر دون أن تُصاب قُوَّاته بأية خسائر ، حتى قال عنها الرواة : إنها غـزاةٌ لم تئم فيها امرأة و لم يُيَتّمْ فيها صبيٌّ . وأوغل عبد الرحمٰن في أرض التُّرك ، حتى بلغتْ خيلُه « البيضاء » على مسافة مائتي فرسخ من « بلنجر » — أي أكثر من ألف ومائة كيلو

---

(١) من مُدن بحر « قزوين » .

متر – وكانت العوامل النفسية من أسباب نجاح المسلمين في ذلك الغزو ، وكانت نفسيَّات الترك على النقيض .

قال سلمان بن ربيعة – أسد القادسية – عن غزو الترك : لما دخل عليهم عبد الرحمٰن بن ربيعة حال الله بين الترك والخروج عليه ، وقالوا : ما اجترأ علينا هذا الرجل إلّا ومعه الملائكة تمنعه من الموت . فتحصّنوا منه وهربوا ، فرجع بالغُنْم والظفر ، وذلك في إمارة عمر ، ثم إنه غزاهم غزوات من زمن عثمان ، فظفر كما كان يظفر ... وتذامرت الترك وقال بعضهم لبعض : إنهم – المسلمون – لا يموتون . قال : انظروا . وفعلوا ، فاختفوا لهم في الغياض ، فرمى رجل منهم رجلًا من المسلمين على غرّةٍ ، فقتله وهرب عنه أصحابه ، فخرجوا عليه عند ذلك .. فاقتتلوا فاشتد قتالُهم ، وقاتل عبد الرحمٰن حتى قُتل ، وانكشف الناس ، وأخذ الراية سلمان بن ربيعة ، وخرج بالناس ومعه أبو هريرة على « جيلان » ، فقطعوها إلى « جرجان »[1] .

وقد أثبتت هذه الحادثة للترك أن وهمهم الأول كان خاطئًا ، وأن المسلمين بشرٌ يموتون كما يموت البشر . وإن دلَّت هذه فإنما تدل على بطولةِ فارسنا ذي النور عبد الرحمٰن الذي يغزو الغزوَة تلو الغزوة ، فلا يموت أحدٌ من جنده حتى يتوهّم الترك أن المسلمين لا يموتون .

سلمان بن ربيعة الباهلي ، سلمان الخيل :

ذكره البخاري في الصحابة ، وكان يلي أمر الخيول – الفرسان – أيامَ عمر .

---

(١) الطبري ٤ / ١٥٨ ، وسقوط المدائن صـ ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

وقد شهد فتوح الشام مع أبي أمامة الباهلي .

وفي القادسية حاول بضعٌ وثلاثون كتيبة من المجوس أن تصمد للمسلمين ، فتصدى لهم أمثالُهم ، وكان « كناري » قائد فرسان « رستم » أمام سلمان فقتله سلمان ، وأبصرهم تحت رايةٍ لهم قد حفروا لهم وجلسوا تحتها ، وقالوا : لا نبرح حتى نموت . فحمل عليهم فقتل مَن كان تحتها وسلبهم[(١)] .

وكان سلمان حقًّا فارس الناس بالقادسية ، فكان يُقال لسلمان : لَسلمانُ أبصرُ بالمفاصل من الجازر بمفاصلِ الجزور[(٢)] .

وفي ٢٤ هـ جاشت الروم ، فأمدّ عثمان أهل الشام بثمانية آلافٍ من العراق عليهم سلمان بن ربيعة ، فدخلوا أرض الروم ، وشنّوا الغارات وسَبَوْا ، وافتتحوا الحصون .

لله دَرُّكَ يا سلمان حين تقول : قتلت بسيفي هذا مائة مستلئم ، كلهم يعبد غير الله ، ما قتلت رجلًا منهم صبرًا .

وولي غزو « أرمينيا » في زمن عثمان فاستُشهد حوالي عام ٣٠ هـ بـ« بلنجر » من بلاد أرمينيا .

الحارث بن قموم البهزي ، بطل بني سُليم في القادسية :

كان سعد يعدّد على عمر فرسان القادسية « فكان مما ذكر سعد لعمر أن وصف الحارث بن قموم بالشجاعة وقال : لم أرَ راكبًا مثل الحارث ابن قموم ؛ إنه جلّل بعيرَه وبرقعه ، ثم ركب الفراديس ففرّق بينها ، فإذا

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٦٩ ، وفتوح البلدان ٦٤٤ .

(٢) الطبري ٣ / ٥٦٩ وهذا القول للشعبي .

بصُر بفارسٍ انحطّ عليه فعانقه ثم قتله ، ثم وثب على بعيره من قيام »[١].

يعفور بن حسّان الذهلي ، مِن أبطال القادسية :

وكذا وصف سعدٌ لعمرَ يعفور بن حسّان الذهلي فقال : « لم أرَ رجلًا مثل يعفور ؛ إنه قد جاء في يوم بخمسة فوارس ، يختل الرجل منهم حتى يرميه ، ثم يغلبه على عنايته حتى يأتي به مسلمًا »[٢].

غالب بن عبد الله الأسدي :

« خرج رحمه الله أمام صفوف بني أسد وهو يُنشد يوم القادسية :

قد عَلِمتْ واردةُ المسالحْ   ذاتُ اللّبان والبنان الواضِحْ
أني سَمامُ البطل المُشايحْ   وفارجُ الأمرِ المهمِّ الفادِحْ[٣]

فخرج إليه هرمز وكان من ملوك الباب على رأسه تاج ، فأسره غالب أسرًا فجاء به سعدًا فأدخله عليه ، وانصرف إلى مبارزة جديدةٍ »[٤].

علباء بن جحش العجليّ ، يقاتل بعد خروج أمعائه :

وهذه قصةٌ في البذْل لا تُنسى :

في معركة القادسية « برز رجلٌ من المجوس أمام صفوف بَكر بن وائل فنادَى : مَنْ يبارز ؟ فخرج له علباء بن جحش العجلي ، فنفحه[٥] علباءُ

(١) الإصابة ١٩٢٥ .
(٢) الإصابة ٩٤٢٧ .
(٣) المسالح : مواقع السلاح . اللّبان : الصّدر . البنان : استعارة لقوائم الخيل . سمام :الذي أتى بالسموم .
(٤) فتوح البلدان ٦٤٦ .
(٥) النفح : الضرب إلى خارج اليمين .

فأصابه في صدره وشقّ رئته ، ونفحه الآخر فأصابه في بطنه وانتثرت أمعاؤه ، وسقطا معًا إلى الأرض . أمَّا المجوسي فمات من ساعته ، وأما علباء فلم يستطع القيام ، وحاول أن يُعيد أمعاءه إلى مكانها فلم يتأتَّ له ، ومرّ به رجلٌ من المسلمين ، فقال له علباء : يا هذا ، أعِنِّي على بطني . فأدخل له أمعاءه ، فأخذ بصفاقيه ، ثم زحف نحو صفِّ العجم دون أن يلتفت إلى المسلمين وراءه ، فأدركه الموت على ثلاثين ذراعًا من مَصْرَعِه وهو يقول :

أرجُـو بها مـن ربِّنـا ثوابَا قد كنتُ ممَّنْ أحسنَ الضِّرابَا

وفاضت نفسه »[١] .

هلال بنُ عُلّفَة التيمي ، قاتلُ رستم :

أمَّا رستم فهو قائد قوات الفرس ، الشيخ أبو مرةَ الفرس ؛ أي شيطانهم . عندما قربتْ ساعة الصفر للقتال في القادسية أسرجوا له فرسَه ، فقفز قفزةً واحدةً استوى بعدها في السَّرج على ظهر الجواد دون أن يمَسَّ حتى الركاب ، وهذا أكبر دلّيل على فروسيته وحيويته وتمُّرسه بالحرب ، فقد كان محاربًا ممتازًا وخبيرًا عسكريا مجرِّبًا ... قال لجنده عن المسلمين : غدًا ندقّهم . فقال له رجل : إن شاء الله . فردَّ عليه رستم في كبرياءَ فارسيةٍ مَقِيتةٍ ، وكفرٍ مجوسيٍّ مُلحِدٍ : وإن لم يشأ ؛ إنما ضعا الثعلب حين مات الأسد[٢] ، قد خشيت أن تكون هذه سنة القرود .

« وفي المعركة .. كانت أول وحدةٍ من جيش الإسلام تصل إلى حيث يوجد رستم؛وحدة من بني تيمٍ من الرباب ، وعلى رأسها فارسها القعقاع ،

---

(١) الطبري ٣ / ٥٤٦ .

(٢) الطبري ٣ / ٥٢٩ ، ويعني بالأسد : كسرى برويز .

وعثرت الوحدة على سرير رستم ، ولكنهم لم يعثروا عليه فوقه ، واقترب هلال بن علقمة من البغل الذي يستظل بظلّه رستم ، وهلال لا يعلم بوجود رستم ، فضرب علقمة الحبال التي تشـدُّ العدْلين إلى ظهْر ذلك البغل فقطعها ، فوقع أحدُ العدْليْن فوق « رستم » ، وكان العدل ثقيلًا جدًّا ، لذلك أصاب رستم إصابةً بالغةً أدَّتْ إلى إزالةِ فقرةٍ من فِقار ظهْر رستم ، وعاد الفارس هلال يضرب حِمْلَ البغل ، فانبعثت منه رائحة المسك . وتسلل رستم هاربًا نحو العتيق ، فأبصر به هلالٌ وعرفه فتوجّه نحوه ، فرماه رستم بنشابةٍ أصابتْ قدمه ، وشكّتها إلى ركاب سرجه ، وكان ركاب فرس هلال من الخشب ، وكان رستم - حين رمى النشاب - يصيح بالفارسية : بپايه ؛ أي كما أنت . وأوغل رستم في الهرب نحو نهر العتيق ، وصار يُخفّف مما عليه من عُدة الحرب ، فألقى عنه درعه ورمى بسيفه ، وقذف بنفسه في نهر العتيق ، ولم يترك له هلالٌ فرصةَ النجاة إذ اقتحم النهر خلفه ، وقد عام رستم في الماء ، ولم يشعر رستم إلّا بهلالٍ قد أدركه ، إذْ رآه واقفًا إلى جنبه على قدميْه ، وفي الحال أخذ هلال برجْل رستم ، ثم جذبه وأخذ يسحبُه حتى خرج به إلى البر ، وهناك ضرب جبينه بالسيف ففلق هامته وضرب أنفه ، فقتله ، ثم سحب جُثّته »[1] ، حتى رمى بها بين أرجُل البغال ، ثم صعد على سرير رستم ، ونادى بأعلى صوته : قتلتُ رستم وربِّ الكعبة . ثم نَادى الناس قائلًا : إليّ . فأطافوا به وهم لا يرون السرير ولا يحسُّون به ، وعندما علموا بمصرع رستم كبّروا من فوق سريره ، وتهدّم قلب جيش الفُرْس وعمّتهم الهزيمة ..

فللَّه دَرُّكَ يا هلال .. وبوركت يمينُك !

---

(١) الطبري ٣ / ٥٦٤ .

وداعيةٍ بفارسَ قد تركْنَا ... تُبكّي كلّما رأتِ الهلالَا
قتلْنا رستمًا وبنيهِ قسْرًا ... تثيرُ الخيلُ فوقَهُمُ الهيَالا
تركْنا منهمُ حيثُ التقينا ... قيامًا ما يريدونَ ارْتحالَا

قتل الفُرْس وذلُّهم ونزولُ رايتهم « درفش كابيان » إلى الأبد :

بعد مصرع رستم حاول قادة الفرس المنهزمون - وعلى رأسهم الجالينوس قائد القلْب - أنْ ينسحب بقيةُ الجيش بانتظام ، فوقف الجالينوس على قنطرة الردم على العتيق ، ونادى الفرس ليعبروا النهر على القنطرة الترابية ، وكان معه الهرمزان ، ولكنّ زهرة بن الحويّة خاض النهر بفرسه واصطدم بالجالينوس ، فاختلفا فقتله زهرة وأخذ سَلَبَه[1] ، وهكذا بقي العجم بدون قائدٍ ماهرٍ ينظِّم ، حتى انسحابهم ، فصار همّهم النجاة بأنفسهم فقط . وكان هناك ثلاثون ألفًا من مغاوير الفرس وطّنوا أنفسهم على الموت ، فاقترنوا بالسلاسل كي لا يفرّوا ، وعندما حاقتِ الهزيمة بجيش رستم تهافت هؤلاء المقترنون في النهر جميعًا ، يجرّ بعضُهم بعضًا ، فقتلهم المسلمون وَخْزًا بالرماح ، فلم ينجُ منهم أحد ، بل قُتلوا جميعًا .

قال الطبري في تاريخه (٣ / ٥٦٩) - يصف إبادة الثلاثين ألفًا مِن الفرس المقترنين في السلاسل -: فأما المقترنون فإنهم جشعوا فتهافتوا في العتيق ، فوخزهم المسلمون برماحهم ، فما أفلت منهم مخبّر ، وهم ثلاثون ألفًا .

ضرار بن الخطاب القرشي مُسْقِطُ راية الفُرْس إلى الأبد :

لله دَرُّه ..

وصل ضرار بن الخطاب القرشي إلى ساري راية الفرس الكبرى « دِرَفش

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٦٥ .

كابيان » فأنزلها من عليائها لآخر مرة ، فلم ترتفع بعدُ أبدًا ..

هذه راية فارس الكبرى التي رآها المسلمون مرة واحدة قبل هذه ، فهي التي كان يرفعها « بهمن جاذويه » في يوم الجسر ، هذه الراية الحمراء ذات الشمس البنفسجية والقمر الذهبي « درفش كابيان » أشهر راية في التاريخ .

راية كسرى « دِرَفش كابيان » ، أوْ « دِرَفْش كاوْيان » ، وكانت من جلود النمر ، عرض ثمانية أذرع في طُول اثني عشر ذراعًا - أربعة أمتار في ستة أمتار - ، وكان يُضاف إلى زينتها بعض الجواهر بعد كلّ انتصار ، ووشوها بِقِطَع الذهب والفضة والجواهر واللآلئ ، وتبرّك بها ملوكُ الفرس ، وصارت على الأيّام يتيمة الدّهر ، وكريمة العمر ، وبِكْر الفلك ، ونكتة الحِقب ، يحملها « السالار » رئيسهم المقدم ، يعينه عليها خمسةٌ من الموابذة - كبار رجال الدين - ليحملوه أمام الجيش ... أسقطها البطل ضرار بن الخطاب فعُوّض عنها بثلاثين ألف درهم ، وكانت قيمتُها ألفي ألفِ دينار .

فَبُورِكَ زندُك يا ضرار ... وبوركَتْ يمينك .

على ترانيمِ تكبيراتنا سقطتْ رayاتُ كسرَىٰ وذاق الموتَ سَاسَانُ

وسقط مُلْك بني ساسانَ على يد الأُسُودِ الموحدين :

ركب الذلُّ والهوانُ الفرسَ بعد القادسية .

« قال رجلٌ من بني عبس : أصاب أهل فارس يومئذٍ بعد ما انهزموا ما أصاب الناس قبلهم ، قُتلوا حتى إنْ كان الرجل من المسلمين ليدعُو الرجل منهم فيأتيه حتى يقوم بين يديْه فيضرب عنقه ، وحتى إنه ليأخذ سلاحه فيقتله به ، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدَهما بصاحبه ، وكذلك في ....

العِدّة »[١]، يعني يأمر العدد منهم فيقتل العدد .

ولقد شهد شقيق بن سلمة الأسدي القادسية غلامًا بعد ما احتلم ، يروي فيقول : « فهزمهم الله ، فلقد رأيتُني أشرتُ إلى إسوارٍ منهم ، فجاء إليّ وعليه السلاح التامُّ فضربتُ عنقه ، ثم أخذتُ ما كان عليه »[٢].

قال الأسود النخعي : « شهدتُ القادسية ، فلقد رأيتُ غلامًا منّا مِن النخْع يسوق ستينَ أو ثمانين رجلًا مِن أبناء الأحرار ، فقد أذلّ الله أبناء الأحرار »[٣].

لا صلح أبدًا حتى نأكلَ عسلَ إفريذين بأُتْرُجٍّ كوثى :

وإفريذين على بحر قزوين ، وكوثى : بيْن دجلة والفرات ، والأُتْرُجُّ : نوع من التمر .

ولهذا قصةٌ لا تُنسىٰ : لما وقعتِ القادسية ومُني الفرس بأنكر هزيمة وقُتِل بها رستم ، وتقدم جيش المسلمين نحو المدائن .. حتى حاصروا « بهرسير » وكانت على الشاطئ الأيمن لدجلة ، وهي أولى المدائن السَّبع التي تتكون منها العاصمة « المدائن » ، واستمر حصار المسلمين لها شهرين ، وقال بعضهم : ستة أشهر ، حتى أكل الفرسُ الكلابَ والسنانير . وذكر المؤرخون أن المسلمين ضربوا « بهرسير » بالمنجنيق والعرادات ، وعرض « يزدجرد » ملك الفرس على المسلمين أن يصالحوه ، شريطة أن يقِفُوا حيث هم ، ويكون لهم كلُّ ما فتحوه في العراق غربيّ دجلة حتى حدود بلادهم ، ويكون نهر دجلة الحدود الفاصلة بين العرب والفرس .. حتى جاءه الردُّ الذي اضطره إلى الفرار .

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٦٩ .
(٢) الطبري ٣ / ٥٢٥ .
(٣) الطبري ٣ / ٥٦٨ .

ذكر الطبري في « تاريخ الرسل والملوك » (٤ / ٧) عن أنس بن الحليس قال : قال : بينا نحن محاصرون « بهرسير » بعد زحفهم ، أشرف علينا رسولٌ فقال : إن المَلِك يقول لكم : هل لكم إلى المصالحة على أنّ لنا ما يلينا مِن دجلة وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم ! فبدر الناسَ[١] أبو مفرّز الأسود بن قطبة ، وقد أنطقه الله بما لا يدري ما هو ولا نحن ، فرجع الرجل[٢] ، ورأيناهم يقطعون[٣] إلى المدائن . فقلنا : يا أبا مفرز : ما قلتَ للرسول ؟ فقال : لا ، والذي بعث محمدًا بالحق ما أدري ما هو ، إلّا أنّ عليّ سكينة ، وأنا أرجو أن أكون قد أُنْطِقتُ بالذي هو خير . وانتاب الناس يسألونه[٤] ، حتى سمع سعدٌ بذلك فجاءَنا ، فقال : يا أبا مفرز ، ما قلت ، فوالله إنهم لهرّابٌ ؟! فحدثه بمثل حديثه إيانا ، فنادى - سعدٌ - في الناس ثم نهد بهم ، وإن مجانيقنا لتخطر عليهم[٥] ، فما ظهر على المدينة أحدٌ ، ولا خرج إلينا إلّا رجلٌ نادى بالأمان فأمّناه ، فقال : إنْ بقي فيها أحد[٦] فما يمنعكم[٧] ؟! فتسوّرها الرجال وافتتحناها ، فما وجدنا فيها شيئًا ولا أحدًا إلّا أُسارى أسرناهم خارجًا منها وذلك الرجل ، فسألناه : لأَيّ شيءٍ هربوا ؟ فقال : بعث الملك

(١) أي : سبقهم .
(٢) أي رسول كسرى .
(٣) أي : يعبرون النهر .
(٤) في تعجُّبٍ كيف أن كلمةً واحدةً قالها جعلت حامية « بهرسير » تترك المدينة خالية .
(٥) أي تقصفهم بحممها .
(٦) يعني : لم يبقَ فيها أحد .
(٧) أي : ما الذي يحول بينكم وبين دخول المدينة .

إليكم يعرض عليكم الصُّلح فأجبتموه بأن « لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدًا حتى نأكل عسل أفريذين بأترجِّ كوثى » . فقال الملك : واويله ، ألا إن الملائكة تكلَّم على ألسنتهم تردّ علينا وتجيبنا عن العرب ، والله لئن لم يكن كذلك ، ما هذا إلا شيءٌ ألقي عليّ في هذا الرجل لننتهي ، فأَرَزُوا إلى المدينة القصوى »(١) .

رضي الله عنك أبا مفرّزٍ ! ألست القائل يا سيدي بعدَ انتصاركم في اليرموك :

وكَمْ قدْ أغرْنا غارةً بعدَ غارةٍ ... ويومًا ويومًا قد كشفنا أهاوِلَهْ
ولولا رجالٌ كان حشوَ غنيمةٍ ... لدى مَأْقِطٍ رُجّتْ عليهم أوائِلُهْ
كفيناهُمُ اليرموكَ لما تضايقتْ ... بمنْ حلّ باليرموكِ منْهُ حمائلُهْ
فلا يَعْدِمَنْ منَّا هرقلُ كتائبًا ... إذَا رامها رامَ الذي لا يحاولُهْ(٢)

وفي القادسية كنتَ شاعرَهم ومن أبطالهم ، تقول :

ألا بلِّغا عني الغريبَ رسالةً ... فقدْ قُسِّمَتْ فينا فيوهُ الأعاجمِ
وَرُدّتْ علينا جزيةُ القومِ بالذي ... فككْنَا به عنهُم وُلاة المعاصمِ

أبو نباتة نائِل بن جعشم قاتل قائد الجيش الفارسي في « كوثى » « شهريار » :

« لا يقتلك إلا عبد » :

« بعد أن تمت سيطرةُ المسلمين على مدينة بابل أقاموا بها عدةَ أيام .. بعدها أمر سَعْدٌ قائد المقدمة زهرةَ بن الحويّة أن يزحف نحو بلدةِ « كوثى » ، وكان عليها دهقان الباب الفارسي شهريار ، وهو من أشدّ فرسان فارس .. وتكامل

---

(١) أي : انحازوا إلى « اسبانير » و « طيسفون » .
(٢) الطريق إلى دمشق صـ ٤٩٦ - ٤٩٧ .

جيش المسلمين الذي أتت كتائبه على شكل موجاتٍ ، وفي ضواحي كوثى لَحِقَتْ خيل المسلمين بقوات شهريار فاصطدمت بها ، وهنا خرج قائد الجيش الفارسي شهريار- وكان متكبرًا - إلى ما بيْن الصَّفيْن وعليه درعه وفي يده رمحه ومعتقِلًا سيفه ، فنادى : ألَا فارسٌ منكم شديدٌ عظيمٌ يخرج إلّي حتى أنكّل به ؟ فناداه القائد زهرة : لقد أردتُ أن أبارزك ، فأما إذْ سمعتُ قولَك فإني لا أُخرج إليك إلّا عبدًا ، فإنْ أقمتَ له قتلَك إن شاء الله ببغيك ، وإن فررتَ منه فإنما فررتَ منْ عبدٍ . فغاظه زهرة بذلك ، ثم أمر أبا نباتة بن جعشم الأعرجي ، وكان من شجعان بني تيم ، فخرج إليه عليه دِرْعٌ ، وبيده رمحٌ أيضًا ، وكان كلاهما جسيمًا (وثيق الخلْق) ، ويبدو أنّ شهريار كان أجسم . يقول الرفيل :... إلا أن شهريار مثل الجمل . فلما رأى نائِلًا ألقى الرمح ليعتنقه ، وألقى نائلٌ رمحَه ، وانتضيا سَيْفَيْهِمَا فاجتلدا ، ثم اعتنقا - تصارعا - فخرّا عن فرسيهما ، ووقع شهريار على « نائل » كأنه بيت ، فضغطه بفخِذِه وأخذ الخنجر وأراغ[1] حَلّ أزرار درعه ، فوقعتْ إبهامه في فيّ نائل - فمه - فحطّم عظمها ، ورأى منه فُتُورًا فثاوره - ثار به - فجلد به الأرض ، ثم قعد على صدره ، وأخذ خنجره ، فكشف عن بطنه فطعن في بطنه وجنبه حتى مات ، فأخذ فرسه وسَلَبَه ، وانكشف أصحابه فذهبوا في البلاد . وأقام زهرة بكوثى حتى قَدِمَ عليه سعدٌ فأتى به سعدًا ، فقال سعد : عزمت عليك يا نائل بن جعشم لَمَا لبستَ سواريْه وقباءه ودرعه ، ولتركبنّ بِرْذَوْنه . وغنّمه ذلك كلَّه ، فانطلق فتدرّع سَلَبَه ، ثم أتاه في سلاحه على دابته ، فقال : اخلعْ سواريْك إلّا أن ترى حربًا فلْتلبسهمَا . فكان أوَّلَ رجلٍ من المسلمين سُوِّر بالعراق[2] » . ا هـ .

---

(١) أي : أراد .

(٢) سقوط المدائن - لأحمد عادل كمال صـ ١٧ - ١٩ .

في بلدة « كوثى » حيث جلس إبراهيم الخليل وحُبس .. انتصر أهل مِلَّته على عبدة الأوثان والنيران ، وقتل أبو نباتة قائدهم شهريار ﴿ **وتلكَ الأيامُ نداولها بَيْنَ الناس** ﴾ الآية [آل عمران : ١٤٠] .

النُّعْمان بن مُقَرِّن المُزني ، قائد فتح الفتوح :

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « إن للإيمان بيوتًا وللنِّفاق بيوتًا ، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرِّن » .

وكان لابن مقرن عشرة إخوة من الفرسان : سنان وسويد وعبد الله وعبد الرحمٰن وعقيل ومعقل والنعمان ونعيم ومرضي وضرار ، كلهم صحب الرسول ﷺ ، وليس ذلك لأحد من العرب غيرهم ، نزلت فيهم الآية الكريمة : ﴿ **وَمِنَ الأعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ باللهِ واليوم الآخر** ... ﴾ [التوبة : ٩٩] الآية ، وكانوا من جلَّة الصحابة .

قدم النعمان مع إخوته على رأس أربعمائة فارسٍ من مُزَيْنَة ، وشهدوا مع الرسول ﷺ غزوة الخندق ، وكان مع النعمان لواء مزينة في غزوة فتح مكة .

وكان له جهاده المُشَرِّف في حروب الرِّدة ، ولما أغار المرتدون على المدينة عَبَّأ الصديقُ النَّاسَ ، ثم خرج بهم في الثلث الأخير من الليل ، وعلى مَيْمنتهِ النعمان ، وعلى ميسرته أخوه عبد الله بن مقرن ، وعلى السَّاقة أخوه سويد بن مقرن ، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد ، فما سمعوا للمسلمين هَمْسًا ولا حسًّا حتى وضعوا فيهم السيوفَ قبل شروق الشمس ، فلم تشرق الشمس حتى انهزم المشركون ، فطاردهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة ، حيث وضع فيها حاميةً من المسلمين بقيادة النعمان ، وعاد إلى المدينة(١) .

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٤٧٨ .

ولما نَشَبَ القتال في القادسية أبلى فيها النعمان بلاء الأبطال .

ولما حَضَّ يزدجرد أهل فارس للدفاع عن بلادهم ، وأثمرت محاولاته توحيد جهود الفرس وأهل الأهْواز في سبيل صدِّ عدوِّهم المشترك ؛ فأخبر قادةُ المسلمين في الأهواز عمرَ بن الخطاب ، فكتب عمر إلى سعد : « ابعثْ إلى الأهواز جُندًا كثيفًا مع النعمان بن مقرن وعجِّلْ ، فلينزلوا بإزاء الهُرْمزان ويتحققوا أمره »[(١)].

وتحرك النعمان بأهل الكوفة إلى الأهواز على البغال يجنبون الخيل ، فلما وصلها بادر إلى مهاجمةِ جيش الهرمزان في « رام هُرمز » ، فهزم الفُرسَ ، وفتح المدينة ، ولجأ الهرمزان إلى مدينة « تُسْتَر » ، فسار النعمان بقوات الكوفة إليه ، وسارت قوات البصرة إلى « تستر » أيضًا ، وأمدَّهم عمرُ بأبي موسى الأشعري ، وجعله على أهل البصرة ، وجعل أبا سبرة بن أبي رَهْم قائدًا عامًّا على الجميع ، فاستولى عليها بعد حصارٍ دَامَ أكثر من شهر . أما الهرمزان ، فالتجأ إلى قلعة المدينة وتحصَّن بها ، لكنه سلّم نفسه للمسلمين ، على أن يقرر مصيرَه عمرُ بن الخطاب بنفسه .

وحاصر النعمان « السوس » حتى جاء أَمْرُ عمر بالحركة إلى « نهاوند » .

في نهاوند :

وكان ما حدث للهرمزان حافزًا لأمراء الفرس أن يُوَحِّدوا كلمتهم ، فتكاتفوا وتجمعوا في « نهاوند » حتى بلغ عددهم مائة وخمسين ألفًا ، اجتمعوا بإمرة الفيرزان ، وقرر عمرُ أن يَسيرَ بنفسه لمعالجة هذا الخطر الداهم ، ولكن أصحاب الشورى نصحوه بأن يبقى في المدينة ، ويرسل قائدًا يعتمد عليه ؛

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ٣١١ .

ليفرق شمل القوات الفارسية ، فقال : « واللهِ لأُوَلينَّ أمرهم رجلًا يكون أول الأَسِنَّةِ إذا لقيها غدًا .. هو النعمان بن مقرن » . فقالوا : هو لها[١].

وكتب عمر إلى النعمان : « بسم الله الرحمـٰن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن : سلامٌ عليك ، فإني أحْمَدُ إليك الله الذي لا إلـٰه إلا هو ، أمَّا بعد : فإنه قد بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابي هذا فَسِرْ بأمر الله ، وبعون الله ، وبنصر الله ، بمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعْرًا فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقّهم فتكفرهم ، ولا تدخلهم غَيْضَةً[٢] ، فإن رجلًا من المسلمين أحب إليَّ من مائة ألف دينار ، والسلام عليك »[٣].

وهبَّ النعمان بجيشه للقاء العدو ، وأرْسل أمامه طلائع من فرسانه ؛ لتكشف له الطريق ، فوجدوا أن العجم قد نثروا في الدروب المؤدية إلى « نهاوند » حَسَكَ الحديد ؛ ليعوقوا الفرسان والمشاة عن الوصول إليها . وأخبر الفرسانُ النعمانَ بما رأوا ، وطلبوا منه أن يمدهم برأيه ، فأمرهم بأن يقفوا في أماكنهم ، وأن يوقدوا النيران في الليل ليراهم العدو ، وعند ذلك يتظاهرون بالخوف منه ؛ ليغروه باللحاق بهم ، وإزالة ما زرعه من حسك الحديد ، وجازت الحيلة على الفرس ، فما إن رأوا طليعة جيش المسلمين تمضي منهزمة أمامهم ، حتى أرسلوا عمالهم فكنسوا الطرق من الحسك ، فكرَّ عليهم المسلمون ، واحتلُّوا تلك الدروب .

وتحصَّن المشركون بحصونهم وخنادقهم ومدائنهم في مائة وخمسين

---

(١) ابن الأثير ٣ / ٣ .
(٢) مغيض : ماء يجتمع فيه الشجر .
(٣) تاريخ الطبري ٣ / ٢٥٣ ، ٣ / ٢١٣ .

ألفًا ، وأمامهم ثلاثون ألفًا من المسلمين .

وقال طليحةُ الأسدي للنعمان : أرى أن تبعث خيلًا مؤدية فيحدقوا بهم ، ثم يرموهم لينشبوا القتال ويُحمّسوهم ، فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج ، أرزوا[(١)] إلينا استطرادًا[(٢)] ، فإنا لم نَسْتطردْ لهم في طول ما قاتلناهم ، وإنا إذا فعلنا ذلك ، ورأوا ذلك منا ؛ طمعوا في هزيمتنا ، ولم يشكوا فيها ، فخرجوا فجادُّونا ، وجاددناهم ؛ حتى يقضي الله فيهم وفينا ما يحبّ .

وقالوا للنعمان : « انتقلْ من منزلك هذا ، حتى يروا أنك هارب منهم فيخرجوا في طلبك »[(٣)].

ولقي هذا الرأْيُ القبول ، وفي حينها وكل النعمان تنفيذ دور الفرسان إلى القعقاع بن عمرو ، وأَنْشبَ القعقاعُ القتالَ ، وتحرَّش بهم ، ورماهم بعد احتجازٍ من العجم فأخرجهم ، فلما خرجوا واقتتلوا ، جعل يتراجع ويتراجع ويتراجع ، وكأنه انهزام .... ورمى المجوسُ المسلمين بالنبل ، والمسلمون يستترون بالحجف ، لا يتحركون ، حتى أكثروا فيهم الجراح ، وشكا بعضهم إلى بعض من ذلك ، ثم قالوا للنعمان : « ألا ترى ما نحنُ فيه ؟! ألا ترى ما لقي الناس ، فما تنتظر بهم ؟! ائذن للناس في قتالهم » ... فيجيبهم النعمان تلميذ سعْد : « رويدًا رويدًا » وأعادوا عليه القول وهو يجيبهم : « رويدًا رويدًا » .

قال المغيرة بن شعبة - وقد رأى كثرة جيوش العجم وما تفعل - :

---

(١) أي : لجئوا .

(٢) مبارزة على الخيل بالكرِّ والفرِّ .

(٣) الطبري ٤ / ١١٥ .

« لم أر كاليوم فشلًا ، إن عدونا يُتركون يتأهبون ولا يُعجلون !! أما والله لو أن هذا الأمر إليَّ ، لكنت قد أعجلتهم وعلمت ما أصنع ، ولو كنت بمنزلتك باكرتهم القتال » .

قال النعمان : « رويدًا ترى أمرك ، وقد كنت تلي الأمر فتحسن ، فلا يخذلنا الله ولا إياك ، ونحن نرجو في المكث مثل الذي ترجو في الحثّ ، ربما باكرت القتال ثم لم يسوّد الله وجهك ، فالله عز وجل يشهدك أمثالها ، فلا يحزنك ولا يعيبك موقفك ، إنه والله ما منعني من أن أُنَاجِزَهُمْ إلا شيءٌ شهدته من رسول الله ﷺ ؛ إن رسول الله ﷺ كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار لم يعجلْ حتى تحضر الصلاةُ ، وتهب الأرواحُ ، ويطيب القتالُ ، فما منعني إلا ذلك »[1].

نعم إنه المغيرة القائل لبندار قائد جيوش الفرس في نهاوند : « فوالله ما زلنا نتعرّف من ربنا منذ جاءنا رسوله الفتح والنصر حتى أتيناكم ، وإنَّا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبدًا حتى نغلبكم على ما في أيديكم أو نُقتل بأرضكم » . يقول المغيرة : « فقمت ، وقد والله أَرْعَبْتُ العِلْج جهدي » ... وإنه النعمان تلميذ سعد يفعل فعل سعد يوم أرماث ، ويوم أغواث ، ويوم عمواس بالقادسية .

لله دَرُّكَ وصبرك يا نعمان ! جيوش الفرس تأتي - كما يقول جُبير -: « لم أر والله مثل ذلك اليوم ، إنهم ليجيئون كأنهم جبال حديد ، قد تواثقوا أن لا يفروا من العرب ، وقد قرن بعضهم بعضًا ، كل سبعة في قران ، وألقوا حسك الحديد ، وقالوا : مَنْ فرَّ منا عقره حسك الحديد »[2].

---

(١) الطبري ٤ / ١١٥ .
(٢) الطبري ٤ / ١١٩ .

ووقف النعمان وقال لجيشه :

« قد علمتم ما أعزَّكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من الظهور ، وقد أنجز لكم هوادي ما وعدكم وصدوره ، وإنما بقيت أعجازه وأكارعه ، والله مُنْجزٌ وَعْدَهُ ، ومتبع آخر ذلك أوله ، واذكروا ما مضى إذْ كنتم أذلة ، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزّة ، فأنتم اليوم عباد الله حقًّا وأولياؤه . وقد علمتم انقطاعكم عن إخوانكم من أهل الكوفة ، والذي لهم في ظفركم وعزكم ، والذي عليهم في هزيمتكم وذُلّكم . وقد ترون ما أنتم بإزائه من عدوكم وما أخطرتم وما أخطروا لكم ؛ فأمّا ما أخطروا لكم فهذه الرثة وما ترون من هذا السَّواد ، وأمَّا ما أخطرتم لهم فدينكم وبيضتكم ، ولا سواء ما أخطرتم وما أخطروا ، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحمى منكم على دينكم . واتقى اللهَ عبدٌ صَدَقَ اللهَ ، وأبلى نفسه فأحسن البلاء ، فإنكم بين خَيْرَينِ ، منتظرين إحدى الحُسْنَيَينِ ، من بين شهيدٍ حيٍّ مرزوقٍ ، أو فتح قريب ، وظفْرٍ يسيرٍ ، فكفى كل رجل ما يليه ، ولم يَكِلْ قرنه إلى أخيه ، فيجتمع عليه قرنه وقرن نفسه ، وذلك من الملاءمة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم مُسَلَّطٌ على ما يليه . فإذا قضيت أمري فاستعدوا فإني مكبرٌ ثلاثًا ، فإذا كَبَّرتُ التكبيرة الأُولى ؛ فشدَّ رجلٌ شسعه ، وأصلح من شأنه ، وليتهيأْ مَنْ لم يكن تهيّأ . فإذا كبرت الثانية ؛ فشدَّ رجلٌ إزاره ، وليشدَّ عليه سِلاحه ، وليتأهب للنهوض ، ويتهيأ لوجه حملته . فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معًا . اللهم إني أسألك أن تُقِرَّ عيني اليوم بفتحٍ يكون فيه عزّ الإسلام ، وذُلٌّ يُذَلُّ به الكفار ، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ، ونصر عبادك . أمّنوا يرحمكم الله »[١] .

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١١٩ .

فأمّن المسلمون وبكوا .

وحمل النعمان مع التكبيرة الثالثة ، وهو يحمل الراية وقد رآها المسلمون تنقضّ نحو الأعاجم انقضاض العقاب ، وكان النعمان مميَّزًا بقباء أبيض ، وقلنسوة بيضاء ... يقول جبير : « فوالله ما علمت من المسلمين أحدًا يومئذ يريد أن يرجع إلى أهله حتى يُقتل أو يظفر ، فحملنا حملة واحدة وثبتوا لنا ، فما كنا نسمع إلا وقع الحديد على الحديد حتى أصيب المسلمون بمصائب عظيمة ، فلما رأوا صَبْرَنَا وأنّا لا نبرح العرصة انهزموا ، فجعل يقع الواحدُ فيقع عليه سبعةٌ ، بعضهم على بعض في قياد فيُقتلون جميعًا ، وجعلوا يعقرهم حَسَكُ الحديد الذي وضعوه خلفهم » .

واقتتلوا بالسيوف قتالًا شديدًا ، يصفه الرواة بقولهم : « لم يسمع السامعون بوقعة قط كانت أشدّ منها » واستمرّ القتال من انتصاف النهار حتى هبوط الظلام ، وكثر قتلى الفرس حتى طبق أرض المعركة دمًا يزلق فيه الناس والدواب ، فانزلق فيه من خيول المسلمين وأصيب فرسانهم ، وزلق فرس النعمان فلقي النعمان مصرعه . وفي رواية ابن إسحاق وجبير : أنه رُمي بنشابة فأصابت خاصرته فقتلته ، وكان أخوه نعيم بن مقرن قريبًا منه ، وأسرع نعيم - وفي رواية جبير : معقل بن مقرن - وسجّى النعمان بثوب ، ثم أتى حُذيفةَ بن اليمان في مَيْمَنَتِهِ فدفع إليه الراية باعتباره خليفة النعمان . وكتموا مصاب النعمان عن الجيش لكيلا يهن الناس .

واستمرَّ القتالُ حتى إذا أظلم الليل ، انكشف العجم وتراجعوا ، والمسلمون ملتحمون بهم ملتبسون فيهم لا يرفهون عنهم ، فاختلط عليهم طريق التراجع وعمي عليهم قصدهم فخرجوا عنه ، واتجهوا نحو اللَّهب[(١)]

---

(١) جرف من خندقٍ أَوْ وادٍ عميق .

الذي كانوا دونه « بأسبيذهان » فوقعوا فيه ، فكان لا يهوي منهم أحدٌ إلا صرخ بالفارسية : « وايَهْ خُرْد » ، وبذلك سُمِّي المكان ، فمات فيه منهم مائة ألفٍ أو يزيدون ، وفي رواية : أنه قُتل في اللَّهب ثمانون ألفًا ، وفي المعركة ثلاثون ألفًا ، مقترنون في السَّلاسل سوى من قُتِل في المطاردة(١).

واجتمع المسلمون بعد المعركة فتساءلوا : « أين أميرنا ؟ » ، قال معقل بن مقرن المزني : « هذا أميركم ، قد أقرّ اللهُ عينه بالفتح ، وختم له بالشهادة » .

وفي رواية عن معقل بن يَسَار قال : « فأتيت النعمان وبه رَمَقٌ ، فغسلت وجهه من إدَاوَةِ ماءٍ كانت معي . فقال : من أنت ؟ قلت : معقل ، قال : ما صنع المسلمون ؟ قلت : أبشر بفتح الله ونصره . قال : الحمد لله ، اكتبوا إلى عمر . ولم يفلت إلا الشريد ، فكان منهم فيرزان ، ولما أُتي عمر بغنائم « نهاوند » ، فقال : ما وراءك يا سائب ؟ فقلت : خيرًا يا أمير المؤمنين ، فتح الله عليك بأعظم الفتح ، واستشهد النعمان بن مقرن رحمه الله ، فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم بكى ، فنشج حتى لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كتده ... ونشج كأنما أصيب بأعزّ إنسانٍ لديه ... وكاد الحزن على النعمان يُنْسِي عمر فرحة الفتح بهذا النصر الكبير الذي سُمِّيَ في التاريخ بفتح الفتوح . فقال : ومن ويحك ؟! فقال : فلان وفلان ، حتى عددت له ناسًا كثيرًا ، يقول السائب : فلمَّا رأيت ما لقي ، قلت : والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجلٍ يُعرف وجهه ، فقال عمر وهو يبكي : المستضعفون من المسلمين [لا يضرّهم ألا يعرفهم عمر] لكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم ، وما يصنعون بمعرفة عمر بن

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٣٦ .

أم عمر[١] ؟

الجرّاحُ بن عبد الله الحكمي ، مقدم الجيوش ، وفارس الكتائب :

« أبو عقبة : وَلِيَ خُرَاسَانَ وسِجِسْتَانَ لعمر بن عبد العزيز ، وكان بطلًا شجاعًا ، مهيبًا طُوالًا ، عابدًا قارئًا ، كبير القدر .

قال الوليد بن مسلم : كان إذا مرَّ في جامع دمشق ، يُميل رأسه عن القناديل من طوله . وكان رحمه الله على خراسان كلها ؛ حربها وصلاتها ومالها .

قال ابن جابر : وفي سنة اثنتي عشرة ومائة غزا الجراح بلاد الترك ورجع فأدركته الترك ، فقُتل هو وأصحابه .

وقال سُليم بن عامر : دخلتُ على الجرَّاح ، فرفع يديه ، فرفع الأمراء أيديهم ، فمكث طويلًا ، ثم قال لي : يا أبا يحيى ، هل تدري ما كنا فيه ؟ قلت : لا ، وجدتُكم في رغبة ، فرفعت يدي معكم ، قال : سألنا الله الشهادة . فوالله ما بقي منهم أحد في تلك الغزاة إلا استشهِد .

قال خليفة : زحف الجراح من بَرْذعة[٢] سنة اثنتي عشرة إلى ابن خاقان ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ، فقُتل الجراح في رمضان[٣] .

قال الواقدي : كان البلاء بمقتل الجرّاح على المسلمين عظيمًا ، بَكَوْا عليه في كلِّ جندٍ »[٤] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣ / ٦ ، والخراج صـ ٤١ .

(٢) قصبة أذربيجان .

(٣) تاريخ خليفة صـ ٣٤٢ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٥ / ١٨٩ - ١٩٠ .

الأميرُ الكبيرُ ، رأس الشجعان والأبطال ، أبو محمد عبد الله البطّال :

كان شاليش[١] الأمير مسلمة بن عبد الملك ، وكان مقرّه بأنطاكية ، أوطأ الروم خوفًا وذلًّا .

ولما عقد عبد الملك بن مروان لابنه مسلمة على غزو بلاد الروم ، وَلَّى على رؤساء أهل الجزيرة والشّام البطال ، وقال لابنه : سيّره على طلائعك ، وآمرْه فليعس[٢] ، فإنه أمين ، أمير ثقة مقدم شجاع ، فقدّم مسلمةُ البطالَ على عشرة آلافٍ ، يكونون بين يديه ؛ ترسًا من الرُّوم أن يصلوا إلى جيش المسلمين .

قال أبو مروان - شيخٌ من أهل أنطاكية - قال : كنت أغازي مع البطال ، وقد أوطأ الروم ذلًّا . قال البطال : فسألني بعض ولاة بني أمية عن أعجب ما كان من أمري في مغازيّ فيهم . فقلت له : خرجت في سريَّةٍ ليلًا ، فدفعنا إلى قرية ، فقلت لأصحابي : ارخوا لجم خيلكم ، ولا تحركوا أحدًا بقتلٍ ، ولا بشيءٍ حتى تستمكنوا من القرية ومن سكانها ، ففعلوا وافترقوا في أزقتها ، فدفعت في أناس من أصحابي إلى بيتٍ يزهر سِرَاجُهُ ، وإذا امرأة تُسَكّت ابنها من بكائه ، وهي تقول له : لتسكتن أوْ لأدفعنك إلى البطال يذهب بك ، وانتشلته من سريره ، وقالت : خذه يا بطّال ، قال : فأخذته[٣] .

إن النساء في عصرنا ، وفي كل عصرٍ يسكتن أطفالهن بالشيء المرعب ، أو عفاريت الجن ... فلك الله يا بطال ، من جنٍّ أنت أم إنس ؟! طارت

---

(١) مقدم الجيش .

(٢) يطوف بالليل .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، والبداية والنهاية ٩ / ٣٤٥ .

بذكرك الرّكبان ، وتُسَكِّت باسمك نساءُ العدوِّ فزعًا الصبيان .

عن أبي مروان الأنطاكي عن البطّال قال : انفردت مرةً ليس معي أحدٌ من الجند ، وقد صمدت خلفي مِخْلَاةً فيها شعيرٌ ، ومعي منديلٌ فيه خبزٌ وشواءٌ ، فَبَيْنَا أنا أسير لعلّي ألقى أحدًا منفردًا ، أو أطّلع على خبرٍ ، إذا أنا بِبُسْتَانٍ فيه بُقُولٌ حسنة ، فنزلت وأكلت من ذلك البَقْلِ بالخبز والشواء مع البَقْل ، فأخذني إسْهَالٌ عظيم قمت منه مرارًا ، فَخِفْتُ أن أضعف من كثرة الإسهال ، فركبت فرسي والإسْهَالُ مستمرٌّ على حاله ، وجعلت أخشى إنْ أنا نزلت عن فرسي أن أضعف عن الركوب ، وأفرط بي الإسهال في السير حتى خشيت أن أسقط من الضعف ، فأخذت بعنان الفرس ونمت على وجهي ، لا أدري أين يسير الفرس بي ، فلم أشعر إلا بِقَرْع نعاله على بلاطٍ فأرفع رأسي ، فإذا دَيْرٌ ، وإذا قد خرج منه نِسْوَةٌ بصحبةِ امرأةٍ حسناء جميلة جدا ، فجعلتْ تقول - بلسانها - : أنزلنه . فأَنْزَلْنني ، فَغَسَلْن عنِّي ثيابي وسَرْجي وَفَرَسي ، ووضعنني على سريرٍ ، وعملن لي طعامًا وشرابًا ، فمكثْتُ يومًا وليلة مسْتويًا ، ثم أقمت بقية ثلاثة أيام حتى ترد إلَيّ حالي ، فبينا أنا كذلك ، إذ أقبل البطريق[1] ، وهو يريد أن يتزوجها ، فأمرت بفرسي ، فحوِّل وعلِّق على الباب الذي أنا فيه ، وإذا هو بطريق كبير فيهم ، وهو إنما جاء لِخطْبَتِهَا ، فأخبره من كان هناك بأن هذا البيت فيه رجلٌ ، وله فرس ، فهمَّ بالهجوم علَيَّ ، فمنعَتْهُ المرأة من ذلك ، وأرسلتْ تقولُ له : إنْ فُتِحَ عليه الباب لم أَقْضِ حاجته ، فثناه ذلك عن الهجوم علّي ، وأقام البطريق إلى آخر النهار في ضيافتهم ، ثم ركب فرسه ، وركب معه أصحابه وانطلق ، قال البطال : فنهضتُ في أثرهم ،

(١) البطريق في لغة الروم : الأمير الكبير في الجيش .

فهمّتْ أن تمنعني خوفًا عليَّ منهم ، فلم أقبلْ ، وسُقتُ حتى لحقتهم ، فحملتُ عليه ، فانفرج عنه أصحابُه ، وأرادَ الفرارَ،فألحقُهُ فأضرب عنقه ، واسْتلبْتُهُ ، وأخذت رأسه مسمطًا على فرسي ورجعت إلى الدَّيْر ، فخرجْنَ إليّ ووقفن بين يديّ ، فقلت : ارْكَبْنَ ، فركبنَ ما هنالك من الدَّوابِّ ، وسُقت بهنَّ حتى أتيتُ أمير الجيش فدفعتهن إليه ، فنفلني ما شئتُ منهنَّ ، فأخذت تلك المرأة الحسناء بعينها فهي أُمُّ أولادي ، وكان أبوها بطريقًا كبيرًا فيهم - يعني : تلك المرأة - وكان البطال بعد ذلك يكاتب أباها ويُهَادِيهِ .

وذكر أن عبد الملك بن مروان لما ولّاهُ المصِّيصَة بعث البطَّالُ سريةً إلى أرض الروم ، فغاب عنه خبرُها ، فلم يَدْرِ ما صنعوا ، فركب بنفسه وحده على فرس له ، وسار حتى وصل « عَمُّورِيَّة » فطرق بَابَهَا ليلًا ، فقال له البواب : مَنْ هذا ؟ قال البطال : فقلت : أنا سيّاف الملك ورسوله إلى البطريق ، فأخذ لي طريقًا إليه ، فلمَّا دخلت عليه إذا هو جالسٌ على سرير ، فجلستُ معه على السرير إلى جانبه ، ثم قلت له : إني قد جئتك في رسالة فمُرْ هؤلاء فلينصرفوا ، فأمر مَنْ عنده فذهبوا ، قال : ثم قام فأغلق باب الكنيسة علي وعليه ، ثم جاء فجلس مكانه ، فاخترطت سيفي ، وضربت به رأسه صَفْحًا ، وقلت له : أنا البطال ، فاصْدُقْني عن السريَّة التي أرسلتها إلى بلادك وإلا ضربتُ عنقك الساعة ، فأَخْبِرْني ما خبرها ؟ فقال : هُمْ في بلادي ينتهبون ما تهيَّأ لهم وهذا كتابٌ قد جاءني يُخْبِرُ أنهم في وادي كذا وكذا ، والله لقد صدقتك . فقلت : هات الأمان.فأعْطاني الأمان ، فقلت : ائتني بطعام ، فأمر أصحابه فجاءوا بطعامٍ فوُضِعَ لي ، فأكلتُ فقمتُ لأنصرف ، فقال لأصحابه : اخرجوا بين يديْ رسول الملك ، فانطلقوا يتعادون بين يديْ ، وانطلقت إلى ذلك الوادي الذي ذكر ، فإذا

أصحابي هنالك ، فأخذتهم ورجعت إلى « المصيصة » . فهذا أغرب ما جرى .

قال الوليد : وأخبرني بعض شيوخنا أنه رأى البطّال وهو قافلٌ من حجَّته ، وكان قد شغل بالجهاد عن الحج ، وكان يسأل الله دائمًا الحج ثم الشهادة ، فَلَمْ يتمكن من حجة الإسلام إلَّا في السَّنَةِ التي استشهد فيها رحمه الله .

وكان سبب شهادته أن ليون - ملك الروم - خرج من القُسْطَنْطِينيَّةِ في مائة ألف فارس ، فبعث البطريق - الذي البطال متزوج بابنته التي ذكرنا أمرها - إلى البطَّالِ يخبره بذلك ، فأخبر البطالُ أميرَ عساكر المسلمين بذلك - وكان الأمير مالك بن شبيب - وقال له : المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة « حران » ، فنكون بها ، حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ، فأبى عليه ذلك ، ودهمهم الجيش ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ، والأبطال تحوم بين يدي البطال ، ولا يتجاسر أحدٌ أن يُنوِّه باسمه خوفًا عليه من الروم ، فاتَّفق أَنْ ناداه بعضهم وذكر اسمه غلطًا منه ؛ فلمّا سمع ذلك فرسان الروم ، حملوا عليه حملة واحدة فاقتلعوه من سرجه برماحهم ، فألقوه إلى الأرض ، ورأى الناس يقتَلون ويؤسَرون ، وقُتِل الأمير الكبير مالك بن شبيب ، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصَّنوا فيها ، وأصبح ليون ، فوقف على مكان المعركة ، فإذا البطَّال بآخِرِ رَمَقٍ ، فقال له ليون : ما هذا يا أبا يحيى ؟ فقال : هكذا تُقتَل الأبطال ، فاستدعى ليون الأطباء ليداووه ، فإذا جِرَاحُهُ قد وصلت إلى مقاتلِهِ ، فقال له ليون : هَلْ من حاجة يا أبا يحيى ؟ قال : نعم . فأمُرْ مَنْ معك من المسلمين أن يَلُوا غسلي والصلاة عليّ ودفني ، ففعل الملك ذلك وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى ، وانطلق ليون إلى جيش المسلمين الذين

تحصَّنوا فحاصرهم ، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذْ جاءتهم البُرد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ، ففرَّ ليون في جيشه الخبيث هاربًا راجعًا إلى بلاده ، قبّحه الله ، فدخل القسطنطينية وتحصّن بها .

قال ابن كثير : « وأما ما يذكره العامة عن البطال من السيرة المنسوبة إلى دلهمة والبطال والأمير عبد الوهاب والقاضي عقبة فكذب وافتراء ، ووضع باردٌ وجهل ، وتخبط فاحش ، لا يروج ذلك إلّا على غبيٍّ أو جاهل رديءٍ »(١).

قال الذهبي في « السيرة / ٢٦٩ » : « كُذب عليه أشياء مستحيلة في سيرته الموضوعة » .

فارس المغرب ابن فتحون :

قال الطرطوشي عن ابن فتحون : « كان خال والدتي ، وكان أشجع العرب والعجم ، وكان المستعين بن المقتدر بالله يرى ذلك له ويعظمه ، وكان يُجري له في كل يوم خمسمائة دينار ، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانه وهابت لقاءه ، فيُحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه فلم يشرب ، يقول له : اشرب أَوَ ابن فتحون رأيت في الماء »(٢).

حتى الخيول تهابهم .... وتظن أن في الماء خيالهم ، وسرى الخوف من بطلنا في دماء فرسان العدو وأوصالهم .... والله لا تموت الأمة يا ابن فتحون إلا بموت مثلك ... فللّه دَرُّ أم درت عليك . وإن شئت أخي أن تسمع الأعاجيب من سيرة بطلنا فاسمع الآتي :

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٣٤٥ - ٣٤٧ .

(٢) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق لابن النحاس ٢ / ١٠٠٥ طبع در البشائر الإسلامية .

« قال الطرطوشي : حسده نظراؤه على كثير العطاء ومنزلته من السلطان ، وما زالوا حتى غيّروه عليه ، فغزا المستعينُ بلادَ الرُّومِ ، فتواقف المسلمون والمشركون صفوفًا فبرز عِلْجٌ وسط الميدان ينادي : هل من مبارزٍ ؟ فخرج إليه فارسٌ،فتجاولا ساعة فقتله الرومي ، فصاح الكفار سرورًا ، وانكسرتْ نفوس المسلمين ، ثم برز له آخر فقتله ، وآخر فقتله ، فجعل الروميُّ يكرّ بين الصفين ويقول : هَلْ من مبارزٍ واحد لاثنين ، واحد لثلاثة ، ثلاثة من المسلمين لواحد من الفرنج ، فضجّ المسلمون واضطربوا ، ولم يتجرأ أحدٌ من المسلمين أن يخرج إليه ، وبقي النَّاسُ في حيرةٍ ، فقيل للمستعين : ما لها إلا أبو الوليد ابن فتحون ، فدعاه وقال له : ما ترى ما يصنع هذا العلج ؟ فقال : هو بعيني . قال : فما الحيلة فيه ؟ فقال أبو الوليد : ماذا تريد ؟ قال : أن يُكفى المسلمون شره . قال : الساعة يكون ذلك إن شاء الله ، فلبث قميص كتان واسعَ الأكمام ، وركب فرسًا بلا سلاحٍ ، وأخذ بيده سوطًا طويل الطرف ، وفي طرفه عقدة معقودة ، ثم بَرَزَ إليه ، فعجب النصراني منه ، وحمل كل منهما على صاحبه ، فلم تخطئ طعنة النصراني سرج ابن فتحون ، فتعلَّق ابن فتحون برقبة فرسه ، ونزل الأَرْض ، لا شيء منه في السرج ، ثم استوى على سرجه وحمل عليه ، فضربه بالسوط على عنقه ، فالتوى على عنقه ، وأخذه بيده من السرج ، فاقتلعه وجاء به نحو المستعين ، فألقاه بين يديه ، فعلم المستعين أنه أخطأ في صنعه معه ، فأكرمه وردَّه إلى منزلته ، وزاد في عطائه »[1].

لله دَرُّكَ يا ابن فتحون .. تنزل في الميدان إلى أعظم الفرسان ، الذي جندل قبلك الأبطال ، وأشاع الرعب في صفوف المسلمين .. فلا ترضَى

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ٢ / ١٠٠٥ - ١٠٠٦ .

بأن تنزل إليه بسلاحٍ أو بسيفٍ ، وإنما بسوطٍ وكأنه من العبيد لا يُربّى إلا به ، وتأتي به تَجُرّهُ والسوط في عنقه غلٌّ ... فبوركت يمينك ... وبورك سوطك .

ابن الجزري :

« في أثناء حصار الرشيد لحصن « هرقلة » بأرض الروم ، خرج رجلٌ من أتم الرجال في أكمل السلاح ، على أجود الخيل ، ونادى بلسانٍ فصيح : يا معشر العرب ؛ ليخرج إليّ من فرسانكم عشرون مبارزة ، فلم يخرج إليه أحدٌ لنوم الرشيد ، وجال الرومي بين الصَّفَّيْنِ وهو ينادي بذلك ، فضجَّ المسلمون واضطربوا ، وعاد إلى الحصن مسرورًا يضحك هو وأصحابه ، وكثر ضَجِيجُهُم ، فلمَّا استيقظ الرشيدُ أُعْلِمَ بذلك ، فَتَألَّم وقلق وقام وقعد ، وقال : هلَّا أَيْقَظتموني ؟! وما بال أحدكم لم يخرج إليه ؟ فقال له بعض الحاضرين : إنَّ غرَّته ستحمله على الخروج في غد ، فما نام الرشيد تلك الليلة ، فلمَّا أصبح خرج الرومي ، وقال ما قاله بالأمس ، فقال الرشيد : ليخرج إليه عشرون فارسًا ، فقال ابن مخلد : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما يخرج إليه غير واحد ، فإن ظفر به فالحمد لله ، وإن قتله كان شهيدًا ، ولا تسمع الروم أن فارسًا روميًّا خرج إليه عشرون من المسلمين ، فقال : صدقت ، وكان في عسكر المسلمين رجلٌ يعرف بابن الجزري ، معروفٌ بالنجدة موصوفٌ بالشجاعة ، فقال : أنا أخرج إليه وأستعين بالله عليه ، فأمر له بفرسٍ وسلاحٍ ، فقال : لا أريد شيئًا ، فانحدر إليه بعد أن ودَّعه الرشيد ودعا له ، ونزل معه عشرون فارسًا ليودِّعوه . فلما صاروا في بطن الوادي ، قال الرومي : غدرتم يا مسلمين ، طلبت عشرين ، نزل واحدٌ وعشرون ، فقالوا : ما يبارزك غير واحد ، ونحن مودعوه وراجعون . فقال العلج : سألتك بالله أنت ابن الجزري ؟ قال : نعم . قال : كفؤ كريمٌ . فرجع

المسلمون ، وتطاعنا حتى كَلَّا ، واشتد الحرُّ عليهما ، والمسلمون والمشركون ينظرون إليهما ... فولَّى ابنُ الجزري منهزمًا ، فعطعطَ[١] المشركون ، وضجَّ المسلمون ، والعلج في أثره ، ثم عطف ابن الجزري على العلج ، فاختطفه من سرجه ، وما أوصله إلى الأرض إلَّا بعد مفارقة رأسه لجسده ، فكبَّر المسلمون تكبيرةً واحدةً كادت الجبال تتدكدك منها ، وانكسر المشركون ، وجدَّ المسلمون في القتال ، فَفُتِحَ الحصْنُ عنوةً ، وقتلوا وأسروا ، ولما صعد ابن الجزري إلى الرشيد أجلسه ، وأمر بِصَبِّ الأموال عليه حتى عجز عن النهوض ، وأفرِغت عليه الخلع حتى لم يُطِقْ حملها ، وصار يسأل الإعفاء »[٢].

شيخ الإسلام ، بقي بن مخلد :

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٣ / ٢٩٦) :

« من مناقبه أنه كان من كبار المجاهدين في سبيل الله ، يقال : شهد سبعين غزوة » .

المنبجي : الإمام المحدِّث ، أبو بكر عمر بن سعيد :

« حدث عنه الطبراني ، وأبو حاتم بن حبان .

قال ابن حبان : كان قد صام النهار ، وقام الليل ثمانين سنة ، غازيًا مرابطًا ، رحمة الله عليه »[٣].

* * *

(١) العطعطة : حكاية الصوت ، يقال : عطعط القوم : إذا قالوا : عيط عيط .
(٢) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ٢ / ١٠٠٠ - ١٠٠٢ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٢٩٠ .

الإمام الزاهد شيخ خراسان ، أبو علي شقيق البَلْخي :

كان شقيق مع تألهه وزهده رأْسًا من رؤوس الغزاة .

قال حاتم الأصم : كنا مع شقيق البلخي ونحن مصافوّ الترك ، في يوم لا أرى فيه إلا رؤوسًا تندر[١] ، وسيوفًا تقطع ، ورماحًا تقصر ، فقال لي شقيق - ونحن بين الصَّفَّيْنِ - : كيف ترى نفسك يا حاتم ؟ تراه مثله في الليلة التي زُفَّتْ إليك امرأتك ؟! قلت : لا والله ! قال : لكني والله أرى نفسي في هذا اليوم مثله في الليلة التي زفَّت فيها امرأتي ، قال : ثم نام بين الصفين ودَرَقَته تحت رأسه ، حتى سمعت غطيطه ، قال حاتم : ورأيت رجلًا من أصحابنا في ذلك اليوم يبكي ، فقلت : ما لك ؟ قال : قُتل أخي . قلت : حَظٌّ أخيك صار إلى الله وإلى رضوانه . فقال لي : اسْكُتْ ، ما أبكي أسفًا عليه ولا على قتله ، ولكنِّي أبكي أسفًا أن أكون دريت كيف كان صبره لله عند وقوع السَّيف به . قال حاتم : فأخذني في ذلك اليوم تُركِّي فأضْجَعَنِي للذَّبح ، فلم يكن قلبي به مشغولًا ، كان قلبي بالله مشغولًا ، أنظر ماذا يأذن الله له فيَّ ، فبينا هو يطلب السكين من جفنة إذْ جاءه سهمٌ غابرٌ فذبحه فألقاه عني[٢] .

لله دَرُّكَ أبا علي ... عرفت فالزم ... هذا طريقٌ سار من قبلك عليه أبو سليمان خالد بن الوليد ... بل قال قولًا أَحْلَى من قولك .. وإن أمةً تعي مثل قولك ، وتفرح بالجهاد والشهادة مثل فرحك لا تموت ، إنما تموت إذا فرحت بالدِّرْهَمِ والدِّينَارِ والقَطِيفَةِ والخَمِيصَةِ ، وتبايعتْ بالعِينَةِ،وتبعتْ أَذْنَابَ البَقَرِ .

---

(١) تسقط .

(٢) حلية الأولياء ٨ / ٦٤ .

فارس الإسلام ، الإمام العابد المجاهد ، أبو إسحاق أحمد بن إسحاق السُّرْمَاري :

شيخ البخاري ... وبشجاعته يُضْرَبُ المثل .

قال إبراهيم بن عفّان البزّار : كنت عند أبي عبد الله البخاري ، فجرى ذكر أبي إسحاق السُّرْمَاري ، فقال : ما نعلم في الإسلام مثله ، فخرجْتُ ، فإذا أحيد – رئيس المطوّعة – فأخبرته ، فغضب ودخل على البخاري وسأله ، فقال : ما كذا قلتُ ، بل ما بلغنا أنه كان في الإسلام ولا الجاهلية مثله .

قال إبراهيم بن شماس : كنت أكاتب أحمد بن إسحاق السرماري فكتب إليَّ : إذا أردت الخروج إلى بلاد الغُزِّيَّة ، في شراء الأسرى فاكتب إليَّ ، فكتبت إليه ، وقدم سمرقند ، فخرجنا ، فلما علم جَعْبَوَيْه استقبلنا في عِدَّةٍ من جيوشه ، فأقمنا عنده ، فعرض يومًا جيشه ، فمرَّ رجلٌ فعظَّمه وخلع عليه ، فسألني عنه السرماري ، فقلت : هذا رجلٌ مبارزٌ ، يُعَدُّ بألف فارسٍ . قال : أنا أبارزه . فسكتُّ . فقال جعبويه : ما يقول هذا ؟ قلت : يقول كذا وكذا . قال : لعلَّه سكران لا يشعر ، ولكن غدًا نركب . فلما كان الغد ركبوا ، فركب السرماري معه عمودٌ في كُمِّهِ ، فقام بإزاء المبارز فقصده ، فهرب أحمد حتى باعده من الجيش ، ثم كرَّ وضربه بالعمود فقتله ، وتبع إبراهيم بن شماس لأنه كان سبقه ، فلحقه ، وعلم جَعْبَوَيْه فجهّز في طلبه خمسين فارسًا نقاوةً ، فأدركوه ، فثبت تحت تَلٍّ مختفيًا ، حتى مرُّوا كلُّهم واحدًا بعد واحدٍ ، وجعل يضرب بعموده من ورائهم إلى أن قتل تسعةً وأربعين ، وأمسك واحدًا قطع أنفه وأذنيْه ، وأطلقه ليخبر ، ثم بعد عامين تُوفِّي أحمد ، وذهب ابن شماس في الفداء ، فقال له جعبويْه : مَن ذاك الذي قتل فرساننا ؟ قال : ذاك أحمد السرماري ، قال : فلِم لم تحمله معك ؟ قلت : تُوفي . فصك في وجهي ، وقال : لو أعلمتني أنه هو ؛ لكنت أعطيه

خمسمائة برذون ، وعشرة آلاف شاة .

قال محمد المُطَّوِّعي : كان عمود المطوعي السرماري وزنه ثمانية عشر مَنًّا[(١)] ، فلما شاخ جعله اثني عشر مَنًّا ، وكان به يُقاتل ، قال عُبيد الله بن واصل : سمعتُ أحمد السرماري يقول ، وأخرج سيفه ، فقال : أعلم يقينًا أنِّي قتلت به ألف تركيٍّ ، وإن عشتُ قتلت به ألفًا أخرى ، ولولا خوفي أن يكون بدعةً لأمرت أن يدفن معي[(٢)] .

السُّرْمَارِي من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ منه .. لقد قتل جُلَيْبِيبُ سَبْعَةً ، فقال رسول الله ﷺ : « قتل سبعة ثم قتلوه ، هذا مني وأنا منه ، هذا مني وأنا منه » فكيف لو رأى رسولُنا ﷺ قَاتِلَ الألفِ ... إنَّ أيامنا وواقعنا المخزي يحتاج لِشسْعِ نَعْلِ السرماري .

وَشِسْعُ النَّعْلِ مِنْهُ يا لِئَام يَفُوقُ الْهَامَ مِنْكُمْ والجَبِينَا

قال محمود بن سَهْلٍ الكاتب : كانوا في بعض الحروب يحاصرون مكانًا ، ورئيس العدوِّ قاعد على صُفَّة[(٣)] ، فرمى السرماري سَهْمًا فغرزه في الصفة ، فأومأ الرئيس لينزعه ، فرماه بسهمٍ آخر خَاطَ يده ، فتطاول الكافر لِيَنْزَعَهُ من يده ، فرماه بسهمٍ ثالث في نَحْرِهِ ، فانهزم العدوُّ وكان الفتح .

قال الذهبي : « وأخبار هذا الغازي تَسُرُّ قلب المسلم » .

قال الحافظ أبو القاسم الدمشقي : كان مع فرط شجاعته من العلماء

---

(١) المَنّ : زنة رطلين .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٨ - ٣٩ ، وتهذيب التهذيب ١ / ١٤ .

(٣) الصفّة : الظلة والبهو الواسع العالي السقف .

العاملين العُبَّاد .

فأين هذا ممن يُسمون أنفسهم - من قرَّاء السُّوءِ وعلمائه - : بالقرّاء إنهم الخرّاء .. أكلوا كثيرًا ، وذهبوا إلى الخلاء كثيرًا .. وناموا كثيرًا .. بِئْسَ حملة القرآن والعلم هم .

« قال أحمد بن إسحاق : ينبغي لقائد الغزاة أن يكون فيه عَشْرُ خِصَالٍ :
أن يكون في قلب الأسد لا يَجْبُن .
وفي كِبْرِ النّمر لا يتواضع .
وفي شجاعة الدُّبِّ يقتل بجوارحه كلها .
وفي حملة الخنزير لا يولِّي دبره .
وفي غارة الذئب إذا آيس من وجه أَغَارَ من وجه .
وفي حمل السلاح كالنَّمْلة تحمل أكثر من وزنها .
وفي الثبات كالصَخْر .
وفي الصبْرِ كالحِمَارِ .
وفي الوقاحة كالكلب ، لو دخل صيده النَّار لدخل خلفه .
وفي الْتماس الفرْصة كالدِّيك »[1].

وكلها كانت في السرماري .. فإن لم تكن فيه ، ففي من ؟!

الإمام الحافظ ، أبو أحمد محمد بن علي بن محمد الكرجي الغازي المجاهد المعروف بالقصّاب :

قال الذهبي في السير (١٦ / ٢١٣) : « وَعُرِفَ بالقصَّاب؛ لكثرة ما قتل في مغازيه » .

(١) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٧ - ٣٨ .

الأمير عبد الوهاب بن بخت :

« قتِل شهيدًا مع البطّال .

قال مالك : كان كثير الحجِّ والعمرة والغزو حتى استُشْهِدَ ، ولم يكن أحق بما في رحله من رفقائه .

لقي العدوَّ ففرّ بعض المسلمين ، فجعل ينادي ويركض فرسه نحو العدو أن : هلمّوا إلى الجنة ، وَيْحَكُمْ ! أفرارًا من الجنة ؟! أتفرّون من الجنة ؟! إلى أين ويحكم ؟ لا مقام لكم في الدنيا ولا بقاء !! ثم قاتل حتى قُتل »[1].

محمد بن عبد الله بن حوذان :

قُتِلَ هذا البطل المغوار في سنة اثنتي عشرة ومائة ، في وقعة الجنيد مع التُرْكِ ورئيسهم خاقان بالشعب .

يقول ابن جرير الطبري : « قاتل يومئذ محمد بن عبد الله بن حوذان وهو على فرسٍ أشقر ، عليه تجفاف مذهَّب ، فحمل سبع مرات يقتل في كلّ حملة رجلًا ، ثم رجع إلى موقفه ، فهابه من كان في ناحيته ، فناداه ترجمان للعدو : يقول لك الملك : لا تقبل وتحوّل إلينا ، فنرفض صَنَمَنَا الذي نعبده ونعبدك ، فقال محمد : أنا أقاتلكم لتتركوا عبادة الأصنام وتعبدوا الله وحده . فقاتل واستشهِد »[2].

لله دَرُّه ! كيف كان قتاله حتى يقولوا له من إعجابهم وذهولهم مقالتهم هذه الشنيعة له .

وفي هذه الموقعة قُتِل :

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٣١٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٤ / ١٣٩ ، ١٤١ .

النضر بن راشد العبدي :

وكان دخل على امرأته والناس يقتتلون ، فقال لها : كيف أنت إذا أُتيت بأبي ضمرة في لبد مُضَرَّجًا بالدماء ؟ فشقّت جيبها ودعتْ بالويل ، فقال : حسبك ، لو أعولت عليّ كل أنثى لعصيتها شوقًا إلى الحور العين ؛ ورجع فقاتل حتى استشهد ، رحمه الله(١) .

لكنّ الذي أكرمهم بالشهادة يعرفهم :

نعم .. كم في الإسلام من مَغَاوِيرَ وأسْدٍ لا نعرفهم .. وما ضرهم أن لا نعرفهم .. ولكنّ الذي أكرمهم بالشهادة يعرفهم .

عن عبد الله بن قيس ، أبي أميَّة الغِفاري قال : كنا في غزاةٍ لنا . فحضر عَدُوّهُم فَصِيحَ في الناس ، فهم يثوبون إلى مصافّهم،إذا رجل أمامي ، رأسُ فَرسي عند عَجُز فَرسِه ، وهو يُخاطب نفسه ويقول : أيْ نفس ، ألم أشهد مشهدَ كذا وكذا ؟! فقلتِ لي : أهلك وعيالك ، فأطعتُك ورجعتُ ؟! ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت : أهلُكَ وعيالُكَ فأطعتك ورجعت ؟! والله لأعرضنَّكِ اليوم على الله ، أخذَكِ أو تَركك . فقلتُ : لأرمُقنَّه اليوم . فرمقته فحمل الناسُ على عدوّهم ، فكان في أوائلهم . ثم إن العدوّ حمل على الناس فانكشفوا فكان في حُماتهم ، ثم إن الناس حملوا فكان في أوائلهم ، ثم حمل العدوّ وانكشف الناس فكان في حُماتهم . قال : فوالله ما زال ذلك دأْبه حَتَّى رأيْته صريعًا . فعدَدْتُ به وبدابته ستّين ، أو أكثر من ستّين طَعنةً(٢) .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٤١ .

(٢) صفة الصفوة ٤ / ٤٢١ .

حسن أولوبادلي ، أوّل مسلم وطئ أرض القسطنطينية :

« في حصار السلطان محمد الفاتح للقسطنطينية ، في محاولة فتحها ، تكلم الجنود عن أسوار القسطنطينية التي أُحْكِمَ تحصينها ، والزيت المغلي الذي يصبونه على المسلمين فيهلكهم ، وإذا بصوتِ شابٍّ في مقتبل العمر من « أولوباد » يُسمى « حسن أولوبادلي » يرتفع ويقول : « وهل جئنا إلى هنا إلا لنهلك في سبيل الله عز وجل ؟! يا إخوتي ؛ كيف نخاف من زيت الكافرين المغلي إذا كنا مجاهدين حقًّا ؟! وهل تركنا قريتنا ، وأهلنا ، وأحبابنا إلا من أجل لقاء ربنا عز وجل شهداء في سبيله ؟! » .

وأقبل الجند يبايعون حسنًا على أن يكونوا أول من يجيب نداء قائدهم المجاهد في الغد ، وتواعدوا أن يكون هدفهم الثغرة التي أحدثتها مدافع الإسلام قريبًا من بابٍ في الجهة الشمالية للقسطنطينية . ولما اشتد القتال ، واستمر الكرّ والفر ، وقوافل الشهداء تزداد لحظة بعد لحظة ، في تلك الأثناء ، كان المجاهد حسن ، وثلاثون من أبناء قريته « أولوباد » يتقدمون بخفةٍ وحذر نحو الثغرة التي حددوها هدفًا لهم في ليلتهم السابقة ، وتمكن حسن وعددٌ من إخوانه المجاهدين من النجاة من السهام المنهمرة من السماء ، حتى إذا بلغوا الثغرة اندفعوا إلى داخل المدينة مكبرين مهلِّلين ، فتلقفتهم مئات السيوف والرماح ، وانهمرت على أجسادهم مئات الأسهم ، واندلقت فوق رؤوسهم قدور الزيت المغلي ، ولكن حسن وإخوانه لم يَأْبَهُوا لكلِّ هذا العناء ، فقاتلوا قتالًا لا يقدر عليه إلا رجالٌ صنعهم الإسلام ، وتمكنوا بعونِ الله وقوته من الوصول إلى أحد أبواب القسطنطينية ففتحوه . وبينما كان جند الإسلام يندفعون إلى داخل القسطنطينية ويتواثبون إلى

أعالي سورها يزيلون رايات الكفر البِيزنْطِيَّة من فوقها ، ويضعون مكانها الرايات الإسلامية ، كان حسن أولوبادلي وإخوانه يُستشهدون واحدً إثْر واحدٍ عن بكرة أبيهم ، وَصَدى تكبيراتهم لا يفتأ يزلزل الأرض من تحت أقدام أعداء الإسلام .

وسجل التاريخ في صفحاته البيضاء ، بمداد من نور أن حسن أولوبادلي ، كان أول مسلم وطئت قدماه أرض القسطنطينية .

فبوركت يا حسن ، وبوركت روح كل شهيد جعل من جسده جِسْرًا يعبر من فوقِهِ إخوانه المجاهدون إلى القسطنطينية ليرفعوا من فوق أسوارها راية الإسلام الخالدة »[1].

الشيخ سعيد ملّا الكردي :

« يا جنرال سوف نصفّي حسابنا يوم الحساب الأخير »

« كجبلٍ شامخٍ من جبال الأناضول ، قلعة الإسلام في تركيا ، يبرز اسم الشيخ المجاهد سعيد ملا الكردي - شيخ أكبر القبائل الكرديَّة - الذي تصدى لمؤامرات الرِّدَّة التي قادها العلماني أتاتورك .

أسَّس في عام ١٩١٩ م حزبًا أطلق عليه « حزب انبعاث وحدة الإسلام » ليقف أمام محاولات التغريب ، وشتّت أتاتورك أعضاءه ، وحين أعلن أتاتورك إلغاء الخلافة في ١٩٢٤ م ثار ضده الشيخ سعيد ملا سنة ١٩٢٥ ، واندفعت معه الجماهير المسلمة تحت راياته الخضراء التي كُتب عليها : « لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله » وكوَّن الشيخ جيشًا من الأكراد ، وتمكّن من السيطرة على مناطق شَاسِعَةٍ ، حتى وصل إلى « ديار بكر »

---

(١) مواقف بطولة من صنع الإسلام . لزياد أبو غنيمة صـ ٢١ - ٢٥ - دار التوزيع والنشر الإسلامية .

فحاصرها ، وكاد يسيطر عليها ، لولا أن أتاتورك سارع فقذف بكل ما لديه من قوات زاد تعدادها عن ثمانية فرق عسكرية كاملة التجهيز ، واستعملت في تقدُّمها أبشع أساليب البطش والتنكيل ، واضطر الشيخ سعيد ملا - أمام هذه القوة الغاشمة - إلى التراجع إلى الجبال الوعرة ؛ ليبدأ من هناك شن حرب عصابات ضد قوات أتاتورك ، فأحكم أتاتورك الحصار حول الشيخ ، ومنع وصول أية إمدادات أو مؤن إليه .

وفي ميدان ديار بكر الرئيسي ، انعقدت محكمة الطغاة ؛ لمحاكمة الشيخ سعيد ملّا وإخوانه ، فحكمت بإعدامه مع عددٍ كبيرٍ من إخوانه ، وَأَمَرَ أتاتورك بأن تبقى أجسادهم الطاهرة معلقة على أبواب مسجد ديار بكر الكبير .

وكان الشيخ سعيد ملّا قد أظهر أثناء المحاكمة رباطة جأشٍ لا يقدر عليها إلَّا الأبطال ، ولقد ظلَّ - رحمه الله - محتفظًا برباطة جأشه حتى آخر لحظةٍ من حياته ، وتوجه إلى رئيس المحكمة العسكرية التي حكمت بإعدامه قائلًا : « سوف نُصَفِّي حسابنا يوم الحساب الأخير » ، ثم توجَّه إلى قائد الحملة العسكرية التي هزمته قائلًا : **يا أمير اللواء ، تعالَ ودِّع غريمك** ، ثم تقدم من منصة الإعدام ، وأمسك حبل المشنقة بيديه ، وساعد الجلّادَ في وضعه حول عنقه ، وأجمعت المراجع التركية ، التي وصفت تنفيذ حكم الإعدام بالشيخ الملّا ، أن صوته شقَّ عنان السماء مردِّدًا بشموخٍ : « لا إلٰه إلا الله محمدٌ رسول الله » . وتدلَّى الجسد الطاهر على أبواب مسجد ديار بكر شاهد صدقٍ على أن جماهير الشعب التركي المسلم قدّمت القوافل المتتالية من الشهداء ؛ دفاعًا عن دينها ووفاءً لعهدها مع الله »[1] .

---

(١) مواقف بطولة من صنع الإسلام صـ ٤٤ - ٤٨ .

الشيخ بديع الزَّمان ، سعيد النورسي :

كوَّن - رحمه الله - سنة ١٩٠٨ جمعيَّة إسلامية ، تسمى « الاتحاد المحمدي » ، وانتشرت فروعها في جميع أنحاء تركيا ، وأصبحت في فترةٍ وجيزةٍ شوكة في حلوق زعماء الاتحاد والترقي ، الماسونيين ، الذين أدركوا أن هذه الجمعيَّة ستكون السَّدّ المنيع ، الذي ستتكسر عليه كلّ سهام تآمرهم ومكائدهم ضد الإسلام في تركيا .

واندفعت جماهير الشعب المسلم في « إسلام بول » في يوم ٣١ آذار سنة ١٩٠٨ م ، يتقدمها العلماء ، وطلّاب الشريعة ، وأعداد غفيرة من العسكريين ، تعلن غضبها ضد تسلط جمعية الاتحاد والترقِّي ، وترتفع هتافاتها تشقُّ عنان السماء :« الشريعة في خطر ، نريد حكم الشريعة » .

ولم تتوقف هذه الانتفاضة إلا بعد أن تخلَّتْ جمعيَّة الاتحاد والترقي عن الحكم مرغمةً ، وتسلل زعماؤها إلى مدينة « سلانيك » ، فرارًا من غضب الجماهير المسلمة حتى شكلوا جيشًا من صنائعهم بقيادة اللواء محمود شوكت باشا ، يعاونه نفرٌ من الضباط ، كان أتاتورك من أبرزهم .

وتسلَّل جيش الخلاص نحو « إسلام بول » ، وحين دخل جيش الخلاص إلى إسلام بول ، خرجت شراذم عصابات الاتحاد والترقي من جحورها لتنضمَّ إلى جيش الخلاص،وتمكن أعداء الله من قمع المقاومة الإسلامية بكلِّ عنفٍ وقسوةٍ ، وعزلوا السلطان عبد الحميد الثاني ، وصبُّوا جَامَّ غضبهم ضد الشيخ النورسي وإخوانه ، وكان أول حصاد محكمة خورشيد باشا الماسوني الحكم بإعدام خمسين مجاهدًا ، وما هي إلا دقائق إلا وكانت أجسادهم الطاهرة تتدلَّى من فوق أعواد المشانق .

وجيءَ بالشيخ المجاهد سعيد النورسي ليمثل أمام خورشيد باشا ، فسأله

خورشيد – وهو ينظر إلى الأجساد التي تتأرجح في الهواء – : وهل أنت أيضًا تدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية يا شيخ سعيد ؟ فأجابه – وهو ينظر إلى أجساد إخوانه الذين أكرمهم الله بالشهادة –: « اعلم يا خورشيد أنه لو كان لي ألف روحٍ لما ترددت أن أجعلها كلها فداءً لحقيقةٍ واحدةٍ من حقائق الإسلام ، واسمعْ منِّي جيدًا يا خورشيد ، إنني لا أَخْشى حكمكم بإعدامي ، فقد هيَّأْتُ نفسي بشوقٍ عظيمٍ للذهاب إلى الآخرة ، لألحق بإخواني الذين سبقوني إلى أعواد المشانق لينالوا الشهادة في سبيل الله » .

واكتفى الطغاة بسجنه ، ومضى – رحمه الله – في قيادة مسيرة الحركة الإسلامية الممتحنة في تلك الأيام العصيبة .

أرسل إلى أعضاء مجلس النواب في تركيا وكانوا يُسمَّوْن « المبعوثون » : « أيها المبعوثون .. إنكم مبعوثون ليومٍ عظيمٍ » ، وكان من بركة هذا البيان أن أعلن ستون نائبًا ممن كانوا قد خُدعوا بأتاتورك توبتهم واستقاموا على أداء الصلاة .

وناظر النورسي أتاتورك أمام مجلس النواب ، وقال أتاتورك للشيخ غاضبًا : « لقد دعوتك إلى هنا لأستفيد من آرائك المهمة ، ولكنك بدلًا من ذلك لم تتحدث إلا عن الصلاة » ، فجاءه جواب الشيخ النورسي حممًا تلفح وجه الزنديق : « اعلم يا باشا ، أن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هي الصلاة ، وأن الذي لا يصلي خائن ، وحكم الخائن مرفوض »[١].

هكذا الرجال ، وإلا فالقبر أولى .

وبعـد :

فهذه بطولات تحتاج إلى ....

(١) مواقف بطولة من صنع الإسلام صـ ٤٩ – ٥٦ .

مجلدات[١]... وسيذكر التاريخ أن الإسلام أتى على قومٍ لا شأن لهم في الأرض ولا ذكر لهم في السماء ، فغيّرهم وصنع بهم تاريخًا وأمجادًا وأيامًا لا تُنسى .. وإن نسي التاريخ فلن ينسى أنه يومًا من الأيام نودي في دمشق على الأسرى بعد حطين « وبيع فيها الأسير بدينار ، وباع بعض الفقراء أسيرًا بنعلٍ ، فقيل له في ذلك ، فقال : أردت هوانهم ، وحكى بعضهم أنه لقي بـ « حوران » شخصًا واحدًا ، ومعه طنب خيمة وفيه نيف وثلاثون أسيرًا يجرّهم وحده ؛ للخذلان الذي وقع عليهم »[٢].. هذه أيامهم أيام تمسّكوا بدينهم .. فكن على طريق القوم فإن أمير القوم يرعى القافلة .. علك تسمع صوت حاديهم :

مَلَكْنَا هٰذِهِ الدنْيا القُرُونَا ... وَأَخْضَعَهَا جدودٌ خالدُونَا
وسَطَّرْنَا صَحَائِفَ مِنْ ضِياءٍ ... فما نَسِيَ الزَّمَانُ ولا نَسِينَا
وكنَّا حِينَ يأخذنا ولِيٌّ ... بطُغْيَانٍ نَدُوسُ لَهُ الجَبِينَا
تَفِيضُ قُلوبُنَا بالهَدْيِ بَأْسًا ... فَمَا نُغْضِي عَنِ الظُّلْمِ الجُفُونَا
بَنَيْنَا حُقْبَةً في الأَرْضِ مُلْكًا ... يُدعِّمُهُ شَبابٌ طَامِحُونَا
شَبَابٌ ذَلَّلوا سُبُلَ المَعَالِي ... وَمَا عَرَفوا سِوَى الإِسْلَامِ دِينَا
تَعَهَّدَهُمْ فَأَنْبَتَهُمْ نَبَاتًا ... كَرِيمًا طَابَ في الدُّنْيَا غُصُونَا
إِذَا شَهِدُوا الوَغَى كَانُوْا كُمَاةً ... يَدُكُّونَ المَعَاقِلَ والحُصُونَا
شَبَابٌ لَمْ تحطِّمْهُ اللَّيَالِي ... وَلَم يُسْلِمْ إِلى الخَصْمِ العَرِينَا
وَإِنْ جَنَّ المَسَاءُ فَلَا تَرَاهُمْ ... مِنَ الإِشْفَاقِ إِلَّا سَاجِدِينَا

(١) تحت الطبع كتابي « فرسان النهار » في أكثر من مجلد،فيه - والحمد لله - جمع وافر عن أبطال المسلمين .

(٢) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ٢ / ٩٣٥ .

كَذَلِكَ أَخْرَجَ الإِسْلامُ قَوْمِي شَبَابًا مُخْلِصًا حُرًّا أَمِينَا
وَعَلَّمَهُ الكَرَامَةَ كَيْفَ تُبْنَى فَيَأْبَى أَنْ يُقَيَّدَ أَوْ يَهُونَا
وَمَا فَتِئَ الزَّمَانُ يَدُورُ حَتَّى مَضَى بِالْمَجْدِ قَوْمٌ آخَرُونَا
وَأَصْبَحَ لَا يُرَى فِي الرَّكْبِ قَوْمِي وَقَدْ عَاشُوا أَئِمَّتَهُ سِنِينَا
وَآلَمَنِي وَآلَمَ كُلَّ حُرٍّ سُؤَالُ الدَّهْرِ أَيْنَ المُسْلمونَا
ترى هَلْ يَرْجِع الماضي فإنِي أَذُوبُ لِذَلِكَ الماضي حَنِينَا
دَعُونِي مِن أمانٍ كَاذِبَاتٍ فَلَمْ أَجِدِ المُنَى إِلَّا ظُنُونَا
وَهَاتُوا لي مِن الإيمانِ نورًا وقَوُّوا بَيْنَ جَنَبيَّ اليَقِينَا
أَمُدُّ يَدِي فَأَنْتَزِعُ الرَّواسي وأَبْني المَجْدَ مؤْتلفًا مَكِينَا(١)

وبعد .. فما أشدَّ شوق البلاد والعباد إلى فارس الأُمَّة المنتظر ، شبيه خالد ، وابن زنكي ، وصلاح الدين ، ليَضْمِدَ جراح الأُمَّة !. وفي ثنايا الشَّوْق تمرُّ أطياف مَنْ سبقوه مِنَ الأبطال الذين غيَّروا وجه التاريخ .

زَمَانُكَ بُسْتَانٌ وَعَصرُكَ أَخْضَرُ وَذِكْراكَ عُصْفورٌ من القلبِ يَنْقرُ
دَخَلْتَ على تَاريخنَا ذاتَ لَيْلَةٍ فَرَائِحَةُ التَّاريخِ مِسْكٌ وَعَنْبَرُ
وكنتَ فكانت في الحُقُولِ سَنَابِلٌ وكانت عَصَافِيرٌ وَكَانَ صنوبَرُ
لمسْتَ أمانِينَا فصارَتْ جَداولًا وأمطَرتَنا حُبًّا ولا زلت تمطرُ
تأخَّرْتَ عن نَقْعِ الوَغَى يا حبيبنا وما كُنْتَ عن نَقْعِ الوَغَى تتأخرُ
سَهِدْنَا وفكَّرْنا وشاختْ دُمُوعُنَا وشابَتْ لَيَالِينَا وما كنتَ تحْضرُ
تُعاوِدُني ذِكْرَاكَ كلَّ عشيَّةٍ ويُورق فِكْري حين فيك أُفكِّرُ
وتأْبَى جراحي أَنْ تَضُمَّ شِفَاهَهَا كأَنَّ جِرَاحَ الحبِّ لا تتخَثَّرُ

---

(١) القاصيدة لهاشم الرفاعي مع تقديم وتبديل لبعض مواضع الأبيات . انظروا ديوان الرفاعي .

تأخَّرْتَ يا أغْلى الرِّجَالِ فليلُنا ... طويلٌ وأضواءُ القناديل تسهـرُ
تأخَّرْتَ فالساعات تأكُلُ نَفْسَهَا ... وأيامُنَـــا في بَعْضِهَـا تتعـــثَّرُ
أَتسْأَلُ عَنْ أَعْمَارِنَا أَنْتَ عمرنا ... وأنت لنا الآمالُ أنت المحرِّرُ
وأَنْتَ أَبو الغَمَرَاتِ أنت وَقُودُهَا ... وأنتَ انْبِعَاثُ الدِّينِ أنت التغيّرُ
تأخَّـرت عنَّـا فالجِيادُ حـزينة ... وسيفُكَ من أَشْوَاقِهِ كاد يُنحرُ
حصانك في سيناء يَشْرَبُ دَمْعَه ... ويا لعَـذَابِ الخـيلِ إذْ تتذكَّرُ
وراياتُكَ الخَضْراء تَمْضُغُ دَرْبَهَا ... وَعَلَـيْكَ آمـال الثُّغُـورِ تقصـرُ
نسـاءُ فلَسْطينَ تكحَّلْنَ بالأَسَى ... وفي بيتِ لَحْمٍ قاصِراتٌ وقُصَّرٌ
وَلَيْمُـونُ يافا يابسٌ في حقولِهِ ... وهلْ شجرٌ في قبضةِ الظُّلْمِ يُزهِرُ
رَفِيقَ صلاح الدين هَلْ لَكَ عوْدةٌ ... فَإِنَّ جيوشَ الرُّوم تَنْهَى وتَأْمُرُ
رِفَاقُكَ في الأَغْوَارِ شَدُّوا سُروجَهُمْ ... وجندُكَ في حِطِّينَ صلُّوا وكبَّروا
تغني بك الدُّنْيَا كأنَّك طَـارِقٌ ... على بركاتِ اللهِ يَرْسُو ويُبْحِرُ
تناديك من شـوقٍ مآذنُ مكةَ ... وتبكيك بدرٌ يا حبيبي وخَيْبَرُ
ويبكيك صفْصافُ الشَّآمِ ووردُها ... ويبكيك زهر الغُوطَتَيْنِ وتدْمُرُ
تعـالَى إلينا فالمـروءَاتُ أطرَقَتْ ... وموطـنُ آبائي زُجـاجٌ مُكَسَّرُ
هُـزِمْنَا ومـا زلنـا شـتات قبائلٍ ... تعيش على الحِقْدِ الدَّفينِ وتَزْأَرُ
يُحَاصِرُنَا كالموْتِ بليون كَافِرٍ ... فَفِي الشَّرْقِ هولاكو وفي الغرب قيصرُ
أَيَا فـارسًا أشْكـو إليهِ مَواجِعِي ... ومثلي له عُــذْرٌ ومثلك يَعْـذرُ
أنا شَجَرُ الأَحْزَانِ أَنْزِفُ دائمًا ... وفي الثلْج والأنوارِ أعطي وأُثْمِرُ
وأصرخ يا أَرْض المروءَاتِ احْبَلي ... لعـلَّ صَلاحًا ثانيًا سوفَ يظهرُ

* * *

لا تُهيِّئْ كَفَنِي يا عاذلي فأنا لي مَعَ الفَجْرِ مَواثِيق وعهْدُ

لنا الفجْر الآتي ... مثلما كان لنا الماضي الزَّاهر ... فَهَل تعقل الصليبيَّة .

أنا جـوادٌ عصيٌّ لا يطـوِّعهُ بوحُ العَنَاقِيدِ أو عِطْرُ الهُنَيْهَاتِ
أَتيتُ أَرْكُضُ والصَّحراءُ تَتْبَعُني وأحرفُ الرَّمْل تجري بين خطواتي
أتيتُ أَنْتَعِلُ الآفاق ... أمنحها جرحي ... وأَبْحَثُ فيها عَنْ بداياتي

* * *

يا أَنْتِ لو تَسْكُبينَ البَدْرَ في كَبدي أَوْ تشْعلين دِمَاءَ البَحْرِ في ذاتي
فَلَنْ تُزيلي بقايا الرَّمْلِ عَن كتفي ولا عبير الخزامى من عَباءاتي
هذِي الشُّقوق التي تَخْتَالُ في قَدَمِي قَصَائِدٌ صَاغَهَا نَبْضُ المَسَافَاتِ
ماذا ترين أمْريكا إن في غدنا عُرْسُ اللَّيالي .. وأفْراحُ السَّمٰواتِ
وهل عَلِمْتِ بنيرانٍ مُؤَجَّجةٍ ومارِدٍ يحتويه الموسمُ الآتي ...؟

أمَّا الواقع المرّ والوحل الذي نعيشُ فيه وسط الوحل دنيء الهمم..

تراني أُحِبُّكَ
يا وطن الموتِ في نشرةِ التاسعة ؟
كيف أحبّك
لا شيء غير الجفُونِ ...
الشجُونِ ...
الجراحِ ...
لَهْوِ الطَّواويس ؟
لَغْوِ القواميس ؟

أَحْبُولةِ العنكبوتِ ؟
وتعْويذةِ الانْشراحِ [(١)]

نعم .. لَهْوُ الطَّواويس : ما يدور في الاسْتِعْرَاضاتِ العسكرية عبر هذه الأمة .

أفي السَّلام أعيار جفاء وغلظة   وفي الحرْبِ أشْباه النِّساءِ العَوارِك

وأمَّا لَغْوُ القَوَامِيسِ : فهو كلام السَّحَرَةِ الَّذين يحوِّلون « الهزيمة » إلى « نصر » والرضوخ إلى سلام الشجْعان .

وأما أحبولة العنكبوت : فهو كيدنا الضعيف .

وأما تعويذة الانشراح : فهي الأغنيَّة الشبابية للفسَّاقِ والمارقين ، التي تعيش عليها الأمة وتصحو .

أمَّا الغد ..
لَكَ الآن أَنْ تعبر الموت نحوك ..
تعتَنِقَ الحُلْمَ ..
تفتح للصوت طَاقَاته المطْلَقةِ
على قمة الصُبْحِ تبصره يتمادَى ..
اغترفْ منه فاتحة الفَجْر ..
كَيْ تتوضأ مغتسلًا مِنْ هُمُومِكَ ..
قِف الآن محتفلًا بقدومِكَ ..
لك الشرْق شمسٌ وَفَجْرٌ ووعدٌ

---

(١) أين اتجاه الشجر - للشاعرة ثريا إبراهيم العريض .

لك الغرب أرجوحة للمساءِ الرقيقِ
لك الذاريات شمالًا جنوبًا ..
وكلُّ الْتماعِ الأهلّة ..
وكلُّ امتداد الطريقِ
فاترك الآن مَوْتَك واستقبل الذاريات
ارْتجلْ موسِم الأَجْنِحَةِ »[١].

لَنا الفَجْرُ الآتي :

في سبيل اللهِ أمْضي
وَعَلى هَدْي كتابِ اللهِ قد أحْكمتُ نَبْضِي
أرتدي الفَجْرَ وأَمْضي في سبيلي
.. فإذا الشمسُ دَليلي
وإذا الأنجُمُ في قلبي .. وأعْراسُ النخيلِ
وسُطورًا من رحيقِ الذكرِ
.. أَتْلُوها .. فيسْتيقظُ سَيْفُ الحقِ
.. أتْلُوها .. فيصْحو الشرقُ
.. أتْلُوها فتجْري للينابيعِ طُيورِي
وَعَلَى هَدْيِ كتابي
.. أكتب الفصل الذي يأْتي
.. وأخطو فَوْقَ حدِّ الشَمْسِ استنطق عُرى البرقِ
كي أنقذ آلافَ الرِّقَابِ
قَدْ تقولون بِأنَّ السَّيفَ في كَفِّي أَقَالَتْه المعَارِكْ

---

(١) أين اتجاه الشجر – لثريا إبراهيم العريض . المجلة العربية – العدد ٢٢١ .

.. وبأنَّ الليلَ هَالِكْ
وبأنِّي لم أعُدْ أُتْقِن شدَّ القَوْسِ .. تغريد النبالْ
والفتوحاتُ التي أدْمنَهَا العُشَّاقُ في السَّبع الطوالْ
قد تقولون ..
.. « وإفْكًا ما يقول الزَّيف » .. ضَرْبٌ مِنْ خيالْ
قد تقولون محالْ
.. أين يجيءُ السَّيل دَفّاقًا
.. وأن تجري مع السَّيل التِّلالْ
قد تقولون ..
.. ولكنِّي أقولْ
وأنا أَقْرأ فاتحةَ العَصْرِ .. وأشواقَ الحقولْ
إنَّ في الدَّرْبِ الخيولْ
.. وعلى وَقْع التِّلاواتِ ستخضرُّ الفصولْ
ولنا اليومُ الجميلْ
.. ولنا التكْبيرةُ الأولى
لنا الأُفْقُ
لنا الرَّاياتُ والصَّوتُ البديلْ
ولنا السَّيف الذي خبَّأه البرقُ إلى اليوم الثَّقيلْ

أمَّا مَنْ سفُلتْ هِمَّته ..عابدو التراب .. أصْحابُ القوميات :

هـذا يُشَـرِّقُ إن الشَّـرْقَ كَعْبتُه ... وذا يُغَـرِّبُ إلَّا أَنـه الذَّنَـبُ
الزَّارُ والعَـارُ والأَوْتَـارُ تعـرِفُهُمْ ... والعَزْفُ والقَصْفُ والإِدْبَارُ والهربُ
مَهْمَا دَجَا الليلُ فالتاريخُ أنْبأني ... أن النهـارَ بأَحْشـاءِ الدُّجَى يَثبُ
مُستَمسـكٌ بكتابِ اللهِ مُعتَصمٌ ... والرِّيحُ حَوْلي والأوثانُ والنُّصُبُ

إني لأَسْمَعُ وَقْعَ الخيل في أُذُني ... وأُبصـرُ الزمَنَ الموْعـودَ يقتربُ
وَفِتْيَة في رياض الذكرِ مَرْتَعُهم ... للهِ مَا جَمَعُـوا للهِ مَا وَهَبُـوا
إذَا نظـرتُ إليهـمْ خِلْـتُ أَنَّهُمُ ... جاءوا من الخلدِ أوْ للخلْدِ قد رَكِبُوا
هُمُ الَّذين على سِيمَائِهمْ رَكَضَتْ ... أغْلى النجوم وَشَعَّ الموسمُ الخَصِبُ
تـأبى الأَعِنَّـة إلا في أكُفِّهـمُ ... والخيلُ إلَّا إذا ما فَوْقها رَكِبُوا
جاءوا على قَدَرٍ واللهُ يحرسهُم ... وشِرْعةُ اللهِ نعْمَ الغاي والنَسَبُ[1]

* * *

(١) إنها الصحوة إنها الصحوة . ديوان محمود مفلح – دار الوفاء للطباعة والنشر .

الفصْـلُ الـرَّابِـع

عُـلُوّ هِمَّـةِ الْقَـادَةِ

أَيْنَ سَعْـدٌ وَخَـالِدٌ والمثـنَّى كلُّهـم بالدِّمـاءِ يَنْصـرُ دِينَـهْ
والسَّـرايا يقـودُها ابنُ زيادٍ رَكِبَ البَحْرَ لا يَهَابُ سفينَهْ
وصـلاحٌ كغُرَّةِ الصُّبحِ يَرجو أن تُعـيدُوا وتبْعثُـوا حطينَـهْ
هَلْ تسيلُ الدماءُ حتى ترَوِّي صَخْرةَ القدسِ والقبابَ الحزينهْ

□ عُلوُّ هِمّة القَادة □

تُشْرِقُ وتلألأ في سماءِ مَجْدِ الإسْلام أسْمَاءُ قَادَةٍ غيَّروا وَجْهَ التَّاريخِ .. كان الرَّجلُ منهم أُمَّةً .. لا بألف .. بل واللهِ أمَّة .. قادوا جيوشَ الإسلامِ في معارك أغْرب من الخيالِ .. فللَّهِ دَرُّ خالد بن الوليد ، ولله دَرُّ أبي عبيدة ، وسعد بن أبي وقَّاصٍ ، والمثنى بن حارثة ، وعمرو بن العاص ، والقعقاع بن عمرو التميمي ، وعاصم ، وزهرة ، وعتبة المرقال ، وعقبة بن نافع ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وقتيبة بن مسلم ، ومَسْلمة بن عبد الملك ، رهبان الليل وفرسان النهار ... ملأوا المحاريب طاعةً وسجودًا ، والميادين بطولة تأخذ بالألباب .

أما واقِعُنا .. ويا بُؤْسَ واقعنا ، فكما يقول الشاعر :

يا بلادًا عزّ الفوارسُ فيها   وتخلَّى عَنْ سَاحِهَا الضِّرغامُ

وبكى الإسْلامُ لغَيْبة فُرْسانِهِ ، وعلا الصوتُ « وامثناه » ... ولا مثنَّى للخيل ، « وامعتصماهُ » .

رُبَّ « وامعتصماهُ » انْطَلَقَتْ   مِلْءَ أفْواهِ الصَّبَايا اليُتَّمِ
صادفتْ أسماعَنا لكنَّها   لَمْ تصادفْ نَخْوةَ المعْتصمِ

وهذا حالُنا تصوِّرُه هذه القصيدة :

كَسَرْنا قوسَ حمزةَ عن جَهَالهْ   وَحَطَّمْنَا بِلا وَعْيٍ نِبَالَهْ
فمزَّقَنا العدوُّ ولا جهادٌ   وشرَّدَنا الطُّغَاةُ ولا عَداله
وباتتْ أُمَّةُ الإسلامِ حَيْرَى   وبات رُعَاتها في شَرِّ حالهْ
فلا الصدِّيقُ يرعاها بحزْمٍ   ولا الفاروقُ يُورِثُهَا فِعَالَهْ

ولا عُثمـانُ يمنحُها عطـاءً ... ويُـرْخِصُ في سـبيلِ اللهِ مـالَهْ
ولا سَيْفٌ صقيلٌ من عَلِيٍّ ... يُفَيِّئُنَـا إلى « عَـدَنٍ » ظِـلالَهْ
ولا زيدٌ يقودُ الجَمْعَ فيها ... لحَرْبٍ أو يُعِـدُّ لها رجـالَهْ
ولا القعقاعُ يهتفُ بالسَّرايا ... فتخشـى ساحةُ الهَيْجـا نِزَالَهْ
ولا حطـينُ يصنعُها صلاحٌ ... طوى الجبناءُ في خَوْرٍ هِلَالَهْ
سرى صوتُ المؤذنِ في حمانا ... وقـد فقـدتْ مآذِنُنَـا بـلالَهْ
وأقْصانـا يُدَنِّسُـه يهـودٌ ... ويَعْـبَثُ في مَرابعـه حُثَـالَهْ
نَشُـد رِحَالنـا شـرْقًا وَغَرْبًا ... وأولى أن نشـدَّ له رحـالَهْ
وَشَعْبٌ ضائعٌ في كلِّ أرضٍ ... وجُلُّ مناهُ أنْ يُرضي « جَمَالَهْ »
وراعي الشعب سجّانٌ غشومٌ ... وسفّـاحٌ يَسِـنُّ له نِصـالَه
وحادي الركبِ بومٌ أو غرابٌ ... وقد قادَ الجموعَ « أبو رغالهْ »
يُرمرمُ من فتاتِ الكفرِ قوتًا ... ويلعَقُ من كؤوسهـم الثُّمـالَهْ
يقبِّل راحةَ الطاغوتِ حينًا ... ويلـثمُ دونمـا خجـلٍ نِعَـالَهْ
فـيرْتعُ في مرابعنـا دخـيلٌ ... يُطارِد في حضارتنـا الأصالهْ
إذا سـأَلَ الزعـيمُ مزيدَ ذُلٍّ ... لشعــب لا يَـرُدُّ لَهُ سُـؤالَهْ
وإن نَصَحَ الحكيمُ فلا سميعٌ ... ولا قلبٌ يَعِي صِـدْقَ المَقالهْ
وَهَمُّ الشعـبِ ثوبٌ أو رغيفٌ ... و« صَكٌّ » من رصيدٍ أو « حوالَهْ »
وألقـاب يتيه بِهَـا قـرودٌ ... وليس لهـا مَعَـانٍ أو دلَالـهْ
« سعادته » شَقَاءٌ في شقاءٍ ... وقد رَفعتْ « معاليه » السَّفالَهْ
« سيادتُه » يقيمُ على هوانٍ ... « سماحتهُ » يعيش مع الضلالهْ
« فخامته » هزيلٌ ليس يدري ... بأن النَّاسَ قـد فضحوا هُزالَهْ
و« دولَتُهُ » يعيش مع الأماني ... ويخشـى أن تُفاجئَـه الإقـالهْ
مَضَغْنا قلبَ حَمْزةَ وانْثنينا ... نـذوقُ المـرَّ أَوْ نجـني وَبَالَهْ

مُؤامــرةٌ يُدَبِّرُهَــا يَهــودٌ ويرعاها عميلٌ لا أبَا لَهْ(١)

أبو عبيدة بن الجراح ، أمين هذه الأمَّة ، وفاتح بلاد الشام :

أمين الأمة ، أول من لقب بـ : « أمير الأمراء » ، مَنْ أمَّره رسولُ الله ﷺ في حياته ، على بعض سرايا المسلمين في ثلاث غزوات ، على جيشٍ فيه أبو بكر وعمر .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ لكلِّ أمة أمينًا ، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح »(٢).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء أهلُ نجران إلى النبي ﷺ فقالوا : ابعث لنا رجلًا أمينًا . فقال : « لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين » ، فاستشرف له الناسُ ، فبعث أبا عبيدة بن الجراح (٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح »(٤).

« وكما عاش أبو عبيدة مع الرسول ﷺ أمينًا ، عاش بعد وفاة الرسول ﷺ أمينًا .. يحمل مسئولياته في أمانةٍ تكفي أهلَ الأرضِ لو اغترفوا منها

---

(١) قصيدة « ضلال وخبال » من ديوان « في رحاب الأقصى » ليوسف العظم صـ ٢٠٧ - ٢١١ - المكتب الإسلامي .

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي في فضائل الصحابة ، وأحمد ، وأبو يعلى ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن أبي شيبة في المصنف .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والنسائي في الفضائل ، وأحمد ، والطيالسي ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن سعد في الطبقات ، وابن أبي شيبة .

(٤) حسن : رواه ابن سعد في الطبقات .

جميعًا »[١] .

ولو لم يكن له إلا موقفه في سقيفة بني ساعدة لكفاه ، وهو يجمع شمل المسلمين على أبي بكر .

ولقد ساد تحت راية الإسلام أنّى سارت جنديًّا ، كأنه بفضله وبإقدامه الأمير .. وأميرًا كأنه بتواضعه وبإخلاصه واحدًا من عامة المقاتلين .

ولّاه أبو بكر القيادة العامة في أرض الشام ، فاستعفاه أبو عبيدة من ذلك ، ولكنّ أبا بكر أصرَّ على رأيه ، فلما تحرّج موقف المسلمين في أرض الشام واجتمعوا باليرموك ، ولّى أبو بكر خالدًا منصب القيادة العامة في الشام بدلًا من أبي عبيدة الذي بقي على جند حمص ، ولكن عمر بن الخطاب أعاده إلى منصب القيادة العامة بعد وفاة أبي بكر ، وكان يقول عنه: « لا أمير على أبي عبيدة » .

وصيّر خالدًا موضع أبي عبيدة ، وذلك في أثناء حصارهم لدمشق ، الذي لم يتم فتح دمشق فيه ، وكتم أبو عبيدة هذا الخبر في نفسه ، طاويًا عليه صدر زاهدٍ فطن ، أمين .... حتى انتهت المعركة . وعلم خالد بأمر عزله ، فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة ، فقال : « يغفر الله لك ، أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمْني ، وأنت تصلي خلفي ، والسلطان سلطانك ؟! » فقال أبو عبيدة : « وأنت يغفر الله لك ، ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري ، وما كنتُ لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله ، ثم قد كنتُ أعلمك إن شاء الله ، وما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل ، وإنَّ ما ترى سيصير إلى زوالٍ وانقطاعٍ ، وإنما

---

(١) رجال حول الرسول لخالد محمد خالد صـ ٢٦٢ دار الريان للتراث .

نحن إخْوانٌ وقوّامٌ بأمر الله عز وجل ، وما يضرّ الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه ، بل يعلم الوالي أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة ؛ لما يعرض من الهلكة إلّا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم » .

لمثل هذا كان الأمراء والفرسان يؤثرون قيادته على قيادة غيره .

فهذا خالد بن سعيد يتجهز بأفضل العُدَّة ويأتي لأبي بكر قائلًا له ولمن كان عنده : « إني أشهدكم أني وإخوتي وفتياني ومن أطاعني من أهلي حبيس في سبيل الله ، نقاتل المشركين أبدًا حتى يُهْلكهم الله أو نموت عن آخرنا » وينضم إلى جيش أبي عبيدة ، ولا ينضم إلى جيش ابن عمه يزيد بن أبي سفيان ، ولما يُسأل عن ذلك يقول : « ابن عمِّي أحبُّ إلي من هذا في قرابته ، وهذا أحبّ إلّي من ابن عمي في دينه ، هذا كان أخي في ديني على عهد رسول الله ﷺ ووليِّي وناصري على ابن عمي قبل اليوم ، وأنا أشَدُّ استئْناسًا إليه وأشد طمأنينة مني بغيره » .

ويفضله هاشم بن عتبة على يزيد .

يقول أبو بكر لهاشم : « يا هاشم ، إنا إنما كنا نَنْتَفِعُ من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره ، وكنا ننتفع من الشاب بصبره وبأسه ونجدته ، وإن الله عز وجل قد جمع لك تلك الخصال كلها ، وأنت حديث السن مستقبل الخير ، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر » ، فقال هاشم : « إنْ يُرد الله بي خيرًا يجعلني كذلك ، وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله ، وأنا أرْجو إن أنا لم أُقْتَلْ أن أقْتُل ثم أُقْتَل إن شاء الله » . قال أبو بكر : « يا هاشم إن من سعادة جدّك ، ووفاء حظّك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمةُ على جهاد عدوها من المشركين ... وقد بعث إلَّي المسلمون يستنصرون على

عدوهم من الكفار ، فسرْ إليهم فيمن تبعك ، فإني نادب الناسَ مَعَكَ ، فاخرج حتى تقدم على أبي عبيدة أو يزيد » . قال هاشم : « بل على أبي عبيدة » .

ويصبح أبو عبيدة أمير الأمراء بالشام .. ويصير تحت إمْرته أكثر جيوش الإسلام طولًا وعرْضًا .. عتادًا وعددًا .. وحين ترامى إلى سمعه أحاديث أهل الشام عنه ، وانبهارهم بأمير الأمراء هذا ؛ قام فيهم خطيبًا ، فقال لمن يفتنون بقوته ، وعظمته وأمانته : « يَـٰأَيُّـهَا الناسُ .. إني مسلم من قريش .. وما منكم من أحدٍ - أحمر ولا أسود - يفضلني بتقوى إلا وددتُ أني في إهابه ، أو مسلاخه » .

حيّاك الله أبا عبيدة .. وحيّا الله دينًا أنْجبك ، ورسولًا علّمك .

و« لئن كانت شهرة خالد بن الوليد الحرْبيَّة سبقته إلى أهل الردة وإلى العراق وإلى الشام ، فتحدّث عنها العدو والصديق ، فإن شهرة أبي عبيدة في الحِلْم والرِّفْق ، وسعة الصدْر ، والأمانة والصدقة ، وحب السلام ، قد سبقته كذلك إلى أهل الشام ؛ لذلك أحبوه ويسّروا له مهمته ، وكان من أثر ذلك أن كثر تسليم مدن الشام له صلحًا ، وبذلك حُقنت كثيرٌ من الدماء ، واطمأنتْ كثيرٌ من النفوس .

لقد كان أبو عبيدة قائدًا مكيثًا ، والحرب لا يُصْلحها إلا الرجلُ المكيثُ ، كما يقول عمر بن الخطاب[1] . وكان قائدًا مُتَّبعًا يتلقى الأوامر وينفِّذُهَا بكل أمانةٍ وإخلاصٍ ، وقد بقي بعد معركة اليرموك في موضعه لا يبرحه حتى أتاه رأي عمر وأمره[2] ؛ وهذا دليلٌ على شدة ضبط أبي عبيدة ،

---

(١) الطبري ٢ / ٦٣١ .

(٢) الطبري ١ / ٥٩٩ .

وإيمانه بضرورة إطاعة أوامر مرجعه الأعلى » .

ولعلّ هناك من يأخذ على أبي عبيدة تريثه الشديد قبل الإقْدام على خوض معركة من معاركِه ، ويرد على هذه الفرية كبار الفرسان ، فقد بلغ معاذ بن جبل أن بعض أهْل الشام استعجز أبا عبيدة أيام حصار دمشق ، ورجَّح خالد بن الوليد ، فغضب مُعاذٌ وقال : « أَبِأَبي عُبَيْدَةَ يُظَنُّ ؟! واللهِ إنه لمن خير من يمشي على الأرض »[١] وسمع معاذ رجلًا يقول : « لو كان خالد بن الوليد ، ما كان البأس ذو كون » وذلك في أيام حصار أبي عبيدة بحمص ، فقال معاذ:« فإلى أبي عُبيدة تضطر المعجزة ؟! لا أبا لك ؟ والله إنه لَمِنْ خير مَنْ على الأرض »[٢] .

ولقد كان رضي الله عنه من القادة الذين يستشيرون رجالهم في كل خُطْوةٍ يخْطونها ، وعندما تحشّد الرُّومُ لاستعادة أرض الشام ، استشار أصحابه ، فأشار عليه الأكثرية بقبول الحصار في حمص ؛ أما خالد فأشار عليه بالهجوم على جموع الروم ، ولكن أبا عبيدة أخذ برأي الأكثرية .

وكان رضي الله عنه مهيبًا ؛ مؤثرًا في نفوس رجاله حين كان يتجوَّل في معسكراتهم وهو يقول : « أَلَا رُبَّ مبيِّضٍ لثيابه وهو مدنّسٌ لدينه ، ألا رُبّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين غدًا ! ادفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات » .

وكان يساوي نفسه برجاله بل يستأثر دونهم بالأخطار ، فلما أراد عمر بن الخطاب أن يستخرج أبا عبيدة من منطقة الطاعون بعد اشتداده ، فكتب إليه : « سلامٌ عليك . أما بعد . فقد عرضت لي إليك حاجة أريد

---

(١) الإصابة ٤ / ١٢ .
(٢) طبقات ابن سعد ٣ / ٤١٤ .

أن أشافهك فيها ، فعزمتُ عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ، ألَّا تضعه من يدك حتى تُقبِل » فعرف أبو عبيدة ما أراد عمر ، فكتب إليه : « يا أمير المؤمنين ، قد عرفت حاجتك إليّ ، وإني في جند المسلمين ، لا أجدُ بنفسي رغبة عنهم ، فلستُ أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه ؛ فخلني من عزيمتك » فلما قرأ عمرُ هذا الكتابَ بكى ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ! أمات أبو عبيدة ؟! فقال : « لا ، وكأن قد »(١).

لقد كانت لأبي عبيدة فكرة سوقية - استراتيجية - ممتازة ، فقد بعث بعضَ القوات لمشاغلة قوات الروم في « فَحْل » ، بينما حاصر هو دمشق حتى فتحها ، ثم قصد « فحل » بقواته كلها ، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن تتعاون القوتان المعاديتان في « فحل » و« دمشق » على مقاومة المسلمين في وقت واحد وفي مكان واحد .

كما أرسل خالدًا على رأس جيش ؛ لضرب الجيش الرومي الذي كان متوجِّهًا إلى دمشق ، مما أدى إلى فشل هذا الجيش في مهمته ؛ لأنه أصبح يقاتل في جبهتين في آنٍ واحد ؛ من الأمام يقاتل جَيْشَ يزيد بن أبي سفيان ، ومن الخلف يقاتل جيش خالد بن الوليد .

ولله دَرُّ القائد المكيث الذي يباغت قوات عدوه ... وسلوا « اللَّاذِقيَّة » تجبْكُم ؛ فقد سار أبو عبيدة إلى « اللَّاذقية » وكان لها باب عظيم لا يمكن فتحه ، إلّا بجماعةٍ كبيرةٍ من الناس ، فعسكر المسلمون على بعدٍ منها ، ثم أَمَرَ فحُفرتْ حفائر عظيمة ، تَسترُ الحفرة منها الفارِسَ راكبًا ، ثم أظهر المسلمون أنهم عائدون عنها ورحلوا ، فلما أظلم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائر ، وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا

---

(١) ابن الأثير ٢ / ٢١٦ .

عنهم ، فأخْرجوا سَرْحَهُمْ وانتشروا بظاهر البلد ، فلم يَرُعْهم إلَّا والمسلمون يصيحون بهم ؛ ودخلوا معهم المدينة ، ففتحوها عنوةً(١).

ولقد كانت معارك التطهير ، واستثْمار فوز اليَرْمُوكِ أكبر المعارك التي أظهرتْ مقدرة أبي عبيدة الفذّة « فقد فضّل أبو عبيدة التخلِّي عن القيادة العامة في معركة اليرموك الحاسمة لخالد بن الوليد ، ولكن أبا عبيدة عَادَ إلى تولِّي القيادة العامة بعد اليرموك ، فخاض معارك التطهير بنجاحٍ باهرٍ يكاد يعتبر معجزة عسكرية ، إذا أدخلنا في حسابنا تفوّق الروم السَّاحِق على المسلمين ، وسرعة إنجاز الفتح ، وقلة الخسائر بالأرواح التي ضحَّى بها المسلمون من أَجْلِ فتح البلاد كلها »(٢).

للهِ دَرُّ أبي عبيدة ... من قاهر للروم وما أدراك ما الروم ... بنو الأصفر حدٌّ حديدٌ وركنٌ شديدٌ .

للهِ دَرُّه من قائدٍ زاهدٍ لا يكترث بمتاع الدنيا ، يرسل إليه عمرُ بن الخطاب بأربعةِ آلاف درهم وأربعمائة دينار ، وقال لرسوله : « انظرْ ما يصنع » ، فقسّمها أبو عبيدة ، فلما أخبر عمرَ رسولُه بما صنع أبو عبيدة بالمال ، قال : « الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا ! »(٣).

ولما قدم عمرُ الشامَ ، تلقّاه أمراءُ الأجنادِ وعظماءُ أهلِ الأرضِ ، فقال عمر : « أين أخي ؟ » فقالوا : مَنْ ؟ قال : « أبو عبيدة » . قالوا : يأتيك الآن ، فجاء على نَاقَةٍ مَخْطُومةٍ بحبْـلٍ ، فسلّم عليه ، فقال عمر

---

(١) ابن الأثير ٢ / ١٩٠ ، وفي البلاذري صـ ١٣٧ : أن الذي فتح اللاذقية هو عبادة بن الصامت . ولكنه بأمر أبي عبيدة ومشورته ، أو تحت قيادته .
(٢) قادة فتح الشام ومصر للواء الركن محمود شيت خطاب صـ ٨٠ دار الفكر .
(٣) طبقات ابن سعد ٣ / ٤١٣ .

للناس : « انصرفوا عنا ! » ، وسار مع أبي عبيدة حتى منزله فنزل عليه ، فلمْ يَرَ في بيته إلا سيفه وترسه ، فقال عمر : « لو اتخذْت متاعًا » - أَوْ قال : شيئًا - فقال أبو عبيدة : « يا أمير المؤمنين ، إن هذا سيبلّغنا المقيل »[1].

وفي رواية أن عمر قال : « اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عُبيدة » فقال له : « وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين ؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليّ ! » . ودخل عمر فلم ير في البيت شيئًا ، فقال : أين متاعُك ؟ لا أرى إلا لبدًا ، وصفحةً ، وشنًّا[2] وأنت أمير !، أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة[3] فأخذ منها كسيرات ، فبكى عمر ، فقال له أبو عبيدة : قلتُ لك : إنك ستعْصِرُ عَيْنَيْكَ عليَّ يا أمير المؤمنين ! يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحل !! فقال عمر : « غيّرتنا الدُّنيا كُلَّنا غيرك يا أبا عبيدة » !

رضي الله عن أبي عبيدة قائد القلب يوم اليرموك .. ومطهِّر الشام من دنس الروم : مرج الصفر .. فحل ، حمص ، بعلبك ، حماة ، شيرز ، معرة حمص ، اللاذقية ، وحلب ، أنطاكية ، يوقا ، الجومة ، وشرْمين ، ومرتحوان ، وتيزين ، وأنطاكية ، وقورس ، وتل عزاز ، ومنبج ، ودلوك ، ورعبان ، ودمشق ؛ كلها تعرف أبا عبيدة ؛ فاتحًا لَهَا ، إما عنوةً وإمّا صلحًا .

« كان هرقل إمبراطور الروم كلَّمَا حجَّ بيت المقدس ، ثم عاد مخلفًا سوريًّا ظاعنًا في أرض الروم ، التفت إلى سورية - وقال : « عليك السَّلام يا سورية ، تسليم مودِّعٍ لم يقضِ منك وطره وهو عائد » . أما هذه المرة فقد كان يدرك أن الأمر يختلف . فما خرج من شمشاط وحاذى سورية ،

(١) الإصابة ٤ / ١٢ ، وأسد الغابة ٣ / ٨٦ .
(٢) القربة الخلق .
(٣) السلة المستديرة .

وقف على مرتفع والتفت إلى سورية وقال : « قد كنت سلّمت عليك تسليم المسافر ، أما اليوم ، عليك السلام يا سورية تسليم المفارق ، سلام مودعٍ لا يرى أنه يرجع إليك أبدًا ، ولا يعود إليك روميٌّ أبدًا إلا خائفًا ، حتى يولد المولود المشْئوم ، وليته لم يولد ، عليك يا سورية السلام ، ونعم البلد هذا للعدو »[١].

ومسك الختام فلسطين « إيلياء » بيت المقدس ، حاصرها حتى طلب أهلُها من أبي عبيدة أن يصالحهم على مثل ما صالح عليه أهل الشام ، وأن يكون المتولي لعقد الصُّلْح عمرُ بن الخطاب ، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك ، فقدم عمر وفتح بيت المقدس .

تُرى ماذا يقول أبو عبيدة ... لكأنِّي به ينادي من وراء الغيب : هلْ فَتَحْنَا فلسطينَ ليُسلِّمها أَحْفَادُنَا لليهود ؟ واحسرتاه ! واأسفاه .

مات القويُّ الأمين ... مات فوق الأرض التي طهرها من الروم ، وَخَمَدَ صَوْتُ القِسيِّسين والنواقيس .

وهناك اليوم تحت ثرى الأردن يثوي رُفَات نبيل ، كان مُسْتَقرًّا لِرُوح خيّرٍ ونفسٍ مطمئنةٍ .

أما في واقعنا فَسَلْ ملوك الهرولة إلى التطبيع ، بل على حدِّ قول ملكٍ من ملوك العرب : « لا أهرول بل أركض ركضًا » ، قالها الملك الذي يحكم الأرض التي تحوي جثمان الأمين .

نعم يا أبا عبيدة ، هذا زماننا ... يقول ياسر عرفات : رابين ابن عمي ... رابين قائد شجاع .

---

(١) سقوط دمشق صـ ٥٢١ ، الطبري ٣ / ٦٠٣ ، والبلاذري ١٦٢ ، الأزدي ٢٣٤ .

رابين يتساءل إن كان عرفات يهوديا :

« في يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٩٥ م أثناء توقيع اتفاق توسيع الحكم الذاتي الفلسطيني في العاصمة الأمريكية واشنطن ... وخلال حفل استقبال في أحد متاحف واشنطن بعد توقيع الاتفاق ، بدأ رابين ملاحظته متوجهًا إلى من حوله من الضيوف والمراسلين ، فقال : « في تراثنا اليهودي قولٌ مأثور يرى أن رياضة اليهود هي فنُّ الخطابة ، ثم تابع بعد فترة من الصمت ، وبكثير من الجدية مخاطبًا عرفات : « بدأتُ أعتقد أيُّها الرئيس عرفات أنك قد تكون يهوديًّا ... » وفي حينها ضجَّ الجميع بالضحك ، وصفقوا طويلًا !!! »[1].

في موقف العشق يا قدسُ :

سافرتُ فِيكِ ولمْ يزلْ يَحْلو السَّفَرْ
سافرتُ فِيكِ ولم يزلْ سَفَري على دَرْبِي
يُقاوِمُ في عِنادٍ كُلَّ أَعْدَاءِ السَّفَرْ
نَصَبوا الحَواجِزَ في طَرِيقِ العِشْقِ
واسْتَدعُوا الخَفَرْ
حَفَروا بِدربِ الحُبِّ آلافَ الحُفَرْ
وَتَصَيَّدوا بِحرابِهِمْ وَكِلابِهِمْ
فُرْسانَ عشقٍ ما تراجعَ أو تَرَدَدَ أو كَفَرْ
يا عِشْق قَلْبِي مُنْذُ ما قَبْلَ الذي
يا حُبَّ رُوحي مُنْذُ ما بعدَ الذي
لا قَبلَ قَبْلَكِ حَيْثُمَا
لَا بَعْدَ بَعْدَكِ أَيْنَمَا

(١) الوعي الإسلامي العدد ٣٥٨ جمادى الآخرة ١٤١٦ هـ صـ ٧٢ .

أنتِ العَشيقةُ والقَصيدَةُ والأغاني والوَتَرْ
سافرتُ فيكِ وَلَم يزلْ يَحْلو السَّفَرْ
سافرتُ فيكِ وَأَنْتِ مِشْكاتي وَرُمْحي
والليلُ يَخْنقُ شُعْلَتي
وَتُحَاصِرُ الأنواءُ فَرْحي
وَقُرَيْشُ تَرْفُضُني وَتَطْرُدني
وَتَسْجنُ فَجْرِيَّ الآتي وَصُبْحِي
فَصَفَعْتُ وَجْهَ اللَّاتِ والعُزى
لِيَبْرقَ في صَحاري التِّيهِ جُرْحِي
عَرَّيْتُ صَدْري للخَنَاجرِ والأَظَافِرِ
والنُّيوبِ المُشْرَّعَاتِ لِقَتْلِ آمالي وَذَبْحي
وَرَكِبْتُ ظَهْرَ اللَّيلِ
لَا أَخْشَاهُ
لَا أَرْجوهُ
بل يَطْويهِ إصراري وَكَدْحي
والعشقُ يَحمِلُني وَيُسْلِمُني لِقَرْحٍ بَعْدَ قَرْحِ
وَأَنَا بِهٰذَا العِشْقِ مَأْخُوذٌ وَمَشْدُودٌ
فَفَرْحُكِ فِي لَيالي العِشْقِ صَدْحِي
يَا بَلْسَمَ الجُرْحِ المُرصَعِّ بِالضِيَّاءِ وبالسَّناء وَبِالجَمَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحلو السَّفَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ عِشْقِي بِسَاحِك يَسْتَعِرْ
العِشْقُ مِجْدافِي وَكَشَّافي
وَسيَّافي

وَجَلَّادي الأَشِرْ
العِشْقُ أَشْرِعَتي وَصَوْمَعَتي
وَنَاقُوسُ الخَطَرْ
دُقِّي بِصَدْرِي يَا نَوَاقِيسَ الخَطَرْ
لَنْ تُوقِظِي ظَهْرِي
فَظَهْرِي قَدْ تَسَمَّرَ لِلْجِدَارِ وَلِلقَرَارِ وَلِلحَجَرْ
ظَهْرِي تَخَلَّى بَاعَني
هٰذي ضُلُوعِي
تَطْعَنُ الرُّمْحَ المُسَدَّدَ والشَّظَايَا وَالمَطَرْ
وَتَذُودُ عَنْكِ الريحَ والإِعْصَارَ
في لَيلٍ تَدَثَّر بالشِّقَاقِ وبالنِّفَاقِ وبالخَورْ
هٰذِي ضُلوعي تَلْطِمُ الموْجَ المُعَرْبِدَ
في بِحارِ الجُبْن والتَّدليسِ فِي اللَّيلِ العَسِرْ
هٰذِي ضُلُوعِي أَصْبَحَتْ جِسْرًا لِجَيْشِ العِشْقِ
حَتَّى يَنْتَصِرْ
سَافَرتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحْلو السَّفَرْ

* * *

سَافَرْتُ فِيكِ مُحَجَّبًا مِنْ قَبْلِ آلافِ القرونْ
سافرتُ فِيكِ مُدَجَّجًا مِنْ بَعْدِ آلافِ القُرونْ
قَد كُنْتُ في الأُولى بحَشْدٍ مِنْ ذَراري
عاهَدتُ عَهْدَ الحَنينْ
عهدًا بلا شَكٍ يَمورُ ولا ظُنونْ

عَهْدَ الإرادةِ كي تَكونْ
وما يكونُ لِكي تكونْ
قد كُنْتِ أنتِ ... وأنتِ كُنْتِ لكي نَكونْ
وأتيتُ في الأُخْرى فَكُنْتِ العَهْدَ
نَفْسَ العهدِ
نَفْسَ القيْدِ
نَفْسَ النَفْسِ في حَشدٍ مِنَ البَشَرِ المُبَارَك
في الحياةِ وفي المَنونْ
فَحَملت دربي فوقَ كتْفي
وانطلقتُ إليكِ يا عِشْقِي المعتقِ بالسنونْ
العِشْقُ في زيفِ الحيَاةِ مُصنَّفٌ بعض الجُنونْ
والعِشْقُ في أصْلِ الحياةِ
هو الحياةُ ... هو النعيمُ المُنتظرْ
سافرت فيكِ ولم يزلْ يَحلو السَّفرْ

* * *

سَافرتُ فِيكِ ولم يزلْ
قَدَري المُقدَّرُ أَنْ أُسَافِرْ
لَسْتُ المكابرَ في دروبِ العشقِ لكني أُصابِرْ
لَستُ المُغامِرَ إنما عِشْقِي على دَرْبي يُعلمني ويلهِمُني
وَينْبتُ لي أَظَافِرْ
عِشْقِي المُحاصرُ في الشعابِ وفي المَوانِئ والمَغاورْ
عِشْقِي المُقيدُ في السطورِ وفي الصُدورِ وفي الحَناجِرْ

عِشْقي المُكَبَّل يُرعِبُ السَّياف
والهَتَّافَ
والشَّبَق المُقامِرْ
لا الشَّمْسُ يمكنُ أنْ تَقَرَّ بِراحتي يَومًا
ولا القَمَرُ المُثابِرْ
وسُراقةُ المخدوعُ لَنْ يُثني جِمالي
في دُروبِ العشقِ أن تَأتيكِ في أَقْصى المَهَاجِرْ
جَاءَتْكِ فَوقَ خُيولِهِمْ
جاءَتْكِ عَبْرَ فُلولِهِمْ
جاءَتْكِ رَغْمَ طُبولِهِمْ
جاءَتْكِ تَقْتَحِمُ الحَواجِزَ والمغاوِرَ والغرائِزَ والخطرْ
سَافرتُ فِيكِ ولمْ يزلْ يَحلو السَّفَرْ

* * *

سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزلْ
سَفَرِي يُصارِعُ كُلَّ أَشْكَالِ الوَهَنْ
سَافرتُ فِيكِ وأنتِ عَذْراءُ الوَطَنْ
سَافرتُ فِيكِ وَلستِ خَضْراءَ الدِّمَنْ
لا أَصْلَ جَدِّكِ ساقطٌ
لا فَرْعَ أُمّكِ هَابِطٌ
لا اسْمَ أَهْلِكِ يُخْتَبنْ
يا عِطْرَ كُل الأنْبياءِ المُخْلِصِينْ
يَا زَهْرَ كُلِّ الأولياءِ المتَّقِينْ

مَنْ قَالَ إِسْمُكِ مُمتَهَنْ
مَنْ قَالَ سَيْفُكِ يُرْتَهَنْ
هٰذا حَدِيثُ الإِفْكِ مَصْنوعٌ وَمَدْفوعٌ
لِتَشْتَعِلِ الفِتَنْ
قِديسَةُ الآباءِ والأَجْدَادِ والتَّارِيخِ
والفَرْعِ الحَسَنْ
قِديسَةُ التُرْبِ المبارَكِ حَوْلَهُ
يَا عِشْقَنَا
قِديسَةُ الرُؤيا الجلِيلَةِ والأَمَانِي والصُورْ
سَافرتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحلو السَّفَرْ

* * *

سَافرتُ فِيكِ وَفَوْقَ راحِلَتي عُمَرْ
وَأنَا رَفِيقُ رِكابِهِ والقُدسُ فِي مَرمى البَصَرْ
وَصَهِيلُ خَيْلِكِ فِي الشَّمال وفي الجنوب
وفِي البَوَادِي والحَضَرْ
وَفوارِسُ الجِيلِ العَظِيم تَدُقُّ أبوابَ الظَّفَرْ
وأبو عُبَيْدة والمُثنى وابن وَقاصٍ وَخَالِدٌ في دَمي
وَسيوفُهمْ نَشوى تَذودُ عن الأَقصى الخَطَرْ
كُنتِ الإِعَادَةَ للبداية والبدايةُ للشرُوقِ المُنْتَظَرْ
أَحْرَقْتُ إسطولي بِشاطِئِكِ العَظيمِ تَقَحُّمًا
وَنَشَرْتُ رَايَاتي على هامِ القَمَرْ
وَحَمَلْتُ دِرْعكِ لا أُبَالِي قَيصَرًا في الساحِ

أَوْ كِسْرى ولا حَشْدَ التتَرْ
عُمْرِي عَلى مُهْري
وَمُهْرِي فَوْقَ ساحِكِ لا يُبالي
بالجنودِ وبالقرودِ وبالذئابِ وبالْحُمُرْ
هٰذَا يَميني فَوْقَ سَيْفِ الحَقِّ إيمانًا وَعِهدًا
لَنْ يُزَعْزعَه المَوالي في رِحَابِكِ تَنْتَحِرْ
سافرتُ فِيكِ ولم يَزَلْ يَحلو السفَرْ

* * *

سافرتُ فِيكِ وَعِشْقُنَا
ينمو علي لهبِ الطهارةِ والغضبْ
ما كُنْتِ خَائِنَةَ العَزيزِ
ولستِ زانِيَةَ العَربْ
إني أُعيذُكِ بالذي أَجْلاكِ في سِوَرِ الكتابِ
فَكُنْتِ جَوْهَرَةَ الزَّمان المُرتَقَبْ
إني أُعيذُكِ بالذي سَوَّاكِ عاصفةً بِكَفِّ الحَقِّ
تكتسحُ العفونَةَ والعطبْ
إني أُعيذُكِ أن تَهُزي الأَثْلَ مِن أجلِ الرطبْ
لا نَخْلَ في وادِ السَّرابِ ولا رُطَبْ
هٰذي المشانِقُ فاحذري أنْ تَقْربيها
وارقُبيها عَنْ كَثَبْ
فَعَسَى الطَّليقَةُ تَحْتَ ظِل العَرْشِ بَاتَتْ تَقْتَرِبْ
فإلى مَتى ؟!

تَأتي وَتَنْتَصِبُ العَسى ؟!
لا تَسألِيني فَالعَسى
نَجْمٌ تَدلى فَوْقَ بابلَ قَابَ قوسٍ واقتربْ
فَلْتُرضِعيهِ مِن الشرايينِ التي
لَمْ تَأكلِ الثَّمَرَ المُحَرَّمَ
لم تُصَلِّ لِلكراسي والرُّتَبْ
فَلْتُرْضِعِيهِ مِنَ الشرايين التي
ما لاكت الكَبِدَ الشريفَ
ولا نَمَتْ فِي حُضْنِ حَامِلَةِ الحَطبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشَّرايينِ التي
ما حاصَرتْ شِعْبَ الصُّمودِ
ولم تُدَنْ للمستبدِ أبي لَهَبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايينِ التي
لَمْ تَحْتَسِي بَحْرَ السَّرابِ
وَلَمْ تُلَقَّنْ مِن مُسَيْلمَةَ الكَذِبْ
فَلتُرضِعِيهِ من الشرايينِ التي
لَمْ تَحْمِلِ السيفَ الذي
ذَبَحَ الحسينَ
وَلَمْ تَنم في صَدْرِهَا
نَارُ الجراحِ العاصفاتِ ولا الغضَبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايين التي ما سَلَّمتْ
لِبني قُرَيْظَةَ خَلْفَهَا أو أَنْفَهَا أو سَيْفَهَا أو حَرْفَهَا
أو أهل يَثْرِبَ أو صَبَاحًا يَقْتَرِبْ

لا تَسأليني فَالْعَسى
نَجْمٌ تَدلى فَوْقَ بابلَ قابَ قَوسٍ واقتَربْ
فإذا غَدِيْ شمسًا يُعانقها الضُّحى
تُلْقِي على الأقصى أكاليلَ الضِّياءِ المُرْتَقَبْ
هـٰذي العسَى سَطَعَتْ وَكانت في الخبرْ
سَافَرْتُ فِيكِ ولم يزلْ يحلو السفرْ(١).

الأمير أبو إسحاق ، سعد بن أبي وقَّاص ، خال رسول الله ﷺ ، بطل القادسيَّة ، وفاتح « المدائن » ، ومُطفئ نار المجوس المعبودة إلى الأبد :

سعدُ بنُ مَالك لَيْثٌ في براثِنِهِ قَدْ قَالَ عمرُ إِنَّه الليثُ غَادِيَا

عن جابر قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ ، فأقبل سعد بن أبي وقاص ، فقال النبي ﷺ : « هذا خالي ، فَلْيُرني امرؤٌ خالَه »(٢).

وهو أول من أراق دمًا في الإسلام ؛ لَمَّا ضرب أَحَدَ المشركين بِلَحْيِ جملٍ فشجَّه .

وهو البطل أول رامٍ بِسَهْمٍ في سبيل الله .

قال سعد رضي الله عنه : إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله ، وكنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر ، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ما له خِلْط ، ثم أصبحت بنو أسد تُعزِّرُني

(١) قصيدة في موقف العشق ، لسعيد المزين ٣٠ يناير ١٩٨٦ المنشورة بمجلة ديوان القدس ، العدد الثاني رجب ١٤٠٦ - مارس ١٩٨٦ ص٥٨ - ٦١ .

(٢) إسناده صحيح : رواه الحاكم في « المستدرك » ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

على الإسلام ، لقد خِبتُ إذن وضلَّ عملي . وكانوا وَشَوْا به إلى عمر ، قالوا : لا يُحسن يصلي[١] .

قال سعد :

ألا أبلــغ رســولَ اللهِ أنِّي   حَمَيْتُ صَحابتي بصدور نُبلي
أذودُ بهــا عــدوَّهُم ذيــادًا   بكــلِّ حــزونة وبكــلِّ سهــلِ
فَمَــا يُعتــد رامٍ مِــن معــدٍ   بسهْمٍ يا رسول الله قَبلي[٢]

وهو البطل الذي جمع له رسول الله ﷺ أباه وأُمَّه .

قال عبد الله بن مسعود : لقد رأيت سعدًا يقاتل يوم بدر قتال الفارس في الرِّجال[٣] .

وعن سعد أن رسول الله ﷺ جمع له أبويه ، قال : كان رجلٌ من المشركين قد أحرق المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ : « ارم فداك أبي وأمِّي » فنزعْتُ بسهْمٍ ليس فيه نصل ، فأصبت جبهته ، فوقع وانكشفتْ عورته ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه[٤] .

فداك أبي وأمي سعد في يوم « تقذف المشركين بألف سهم »[٥] .

وفي الإصابة لابن حجر (٤ / ١٦٣) : قال أبو إسحاق : أشد

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، والترمذي ، والنسائي في « الفضائل » ، وأحمد في « فضائل الصحابة » وأبو نعيم .
(٢) الإصابة : (٣ / ٨٥) ، والاستيعاب : (٢ / ٦٠٧) . والحزونة : هي الوعر من الأرض .
(٣) طبقات ابن سعد : (٣ / ١ / ١٠٠) .
(٤) أخرجه مسلم ، والطبراني في الكبير .
(٥) « أحد » لمحمد أحمد بشاميل صـ ١٣٨ .

الصحابة أربعة : عمر ، وعلي ، والزبير ، وسعد .

بأبي وأمي من كان له سلاحان : رمحه ، ودعاؤه ؛ فقد كان مستجاب الدعوة .

عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال : سمعت سعدًا يقول : قال رسول الله ﷺ : « اللهم استجب له إذا دعاك »(١) .

ولما تجهز الفُرسُ لقتال العرب ، قال عمر بن الخطاب : « واللهِ لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب » وكتب عمر إلى عماله : « لا تَدَعُوا أحدًا له سلاحٌ أو فرسٌ أو نجدةٌ أو رأيٌ إلا انتخبتموه ، ثم وجهتموه إليّ ، والعَجَلَ العَجلَ »(٢). وأراد عمر أن يتولى قيادة هذا الجيش ، فصرفه عن ذلك أهل مشورته ، فجمع عمر الناس ، وقال لهم : « إني كنت عزمتُ على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم ، وقد رأيت أن أُقيم وأبعث رجلًا ، فأشيروا عليَّ برجل » ، وكان سعد يومذاك على صدقات هوازن ، فلما وصل كتاب منه – حين كان عمر يستشير الناس فيمن يبعثه – فقال عمر : وجدته ! قالوا : مَنْ هو ؟ قال : « الأسدُ عاديًا سعد بنِ مالك »(٣) وقال : « إنَّه شجاعٌ رامٍ »(٤).

وقال عبد الرحمٰن بن عوف : « الأسد في براثنه : سعد بن مالك الزهري » .

---

(١) إسناده صحيح : رواه ابن حبان والترمذي والحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .
(٢) الطبري : (٢ / ٦٦٠) ، وابن الأثير : (٢ / ١٧٢) .
(٣) الطبري : ٣ / ٤ .
(٤) البلاذري : صـ ٢٥٥ .

ويستدعي عمر سعدًا ويقول له : « إنِّي قد ولّيتك حرب العراق ، فاحفظ وصيَّتي ، فإنك تقدم على أمرٍ شديدٍ كريه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعوِّد نفسك وَمَنْ معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أنَّ لكلِّ عدةٍ عتادًا ، وعتاد الخير الصبر ، فاصبر على ما أصابك »(١) .

وفي القادسيَّة نظَّم سعدٌ الجيش ، وعبَّأه للحَرب ، وجعل على كلِّ عشْرة رجالٍ عريفًا ، وأمر على الرايات رجالًا من أهل السابقة ، وولَّى الحروب رجالًا ، فولَّى على مقدِّماتها ومجنَّباتها وساقاتها وطلائعها ومشاتها وفرسانها ، ولم يتقدم بعد ذلك إلا على تعبيةٍ ، حتى يحول دون مباغتة العدوّ لقواته .

ولم ينسَ سعد القضايا الإدارية في جيشه ، فعيَّن مسئولًا عن القضاء ، وجعله مسئولًا عن قِسْمة الفيء أيضًا ، وعيَّن مسئولًا عن الوعظ والإرشاد ، وعيَّن مترجمًا يجيد اللغة الفارسية، كما عيَّن كاتبًا تنتهي إليه الأمور الكتابية .

ووصل جيش المسلمين القادسية ، فبعث عيونه ليعلموا له خبر أهل فارس ، ثم أرسل بعض المفارز للإغارة على المناطق المجاورة ، فعادت كلُّها بالفتح والغنائم والسلامة ، وأرسل وفودًا من رجالات المسلمين إلى كسرى وإلى رستم ، يفاوضونهما ويعرضون عليهما مطالب المسلمين : الإسلام ، أو الجزية ، أو السَّيف ، فكان لهذه الوفود تأثير معنوي حاسم على كسرى وقائده رستم .

وتهيَّأ الفريقان للقتال ، وقبل أن يأذن سعد بالقتال ، بعث ذوي الرأي والعقل والنجدة إلى الناس ، ليحرِّضوهم على القتال ، وأمر سعد بقراءة سورة الجهاد وهي سورة الأنفال ، فلمَّا قرئت هشَّتْ قلوبُ الناس وعيونهُم

---

(١) تاريخ الطبري : ٣ / ٤ - ٥ .

وعرفوا السكينة مع قراءتها[1].

ونادى منادي سعد في جيشه : « أَلَا إِنَّ الحسد لا يحلُّ إلا على الجهاد في أَمْر اللهِ يَـٰأَيُّهَا الناس ، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد » .

وتحالفت الأمراض على البطل القائد العام سعد ، فأصابته بِعِرْق النَّسَا ، وبحبون ودماميل منعته من الركوب ، بل حتى من الجلوس ، فلم يستطعْ أن يركب ولا أن يجلس فاعْتلى القصر وأكبَّ من فوقه على وسادةٍ في صدره يُشرف على الناس ، وأسفل منه في الميدان خليفتُه ؛ خالد بن عرفطة ، يرمي إليه من أعلى بالرِّقاع فيها أمره ونهيه ، وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر[2].

وأكبّ سعدٌ على وجهه مطلعًا على جيشه ، فخطبهم وقال : « إن الله هو الحق ، لا شريك له في الملك ، وليس لقوله خُلْف قال جلَّ ثناؤه : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالحون** ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] إنَّ هذا ميراثُكم وموعود ربِّكم وقد أباحَهَا لكم مُنذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها ، وتأكلون منها وتقتلون أهلها وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم ، بما نال منهم أصحاب الأيام منكم ، ولقد جاءكم منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كلّ قبيلة وعزّ من وراءكم ، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يُقرِّب ذلك أحدًا إلى أجله ، وإن تفشلوا وتَهِنُوا وتَضْعفوا تذهب ريحُكم وتوبقوا آخرتكم » . ثم قال : « إني قد استخْلفتُ عليكم خالد بن عرفطة ، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبون ، فإني

---

(١) الطبري : ٣ / ٤٧ ، وابن الأثير : (٢ / ١٨١ - ١٨٢) .
(٢) الطبري ٣ / ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٧٣ .

مكبٌّ على وَجْهي ، وشخْصي لكم بادٍ ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه إنما يأمركم بأمري ، ويعمل برأْيي » .

قال الطبري : « فَقُرِىءَ على الناس فزادهم خيرًا ، وانتهوا إلى رأيه ، وقبلوا منه وتحادثوا على السمع والطاعة ، وأجمعوا على عذْر سعد والرضا بما صنع »[1].

لك الله أيها « الليث في براثنه » تدير أشرس المعارك .. المعركة الفاصلة ، وأنت منبطحٌ على وجهك في شرفتك ، وباب دارك مفتوح ، وأقل هجوم من الفرس على الدار يسقطك في أيديهم حيًّا أو ميتًا .

دماملك تنبح وتنزف ، وأنت عنها في شغلٍ ، فأنت من الشرفة تكبّر ، وتصيح أوامرك لجنودك : « الزموا مواقفكم ، لا تحرِّكوا شيئًا حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر فإني مكبرٌ تكبيرةً ، فكبِّروا وشدُّوا شِسْعَ نعالكم واستعدوا ، واعلموا أن التكبير لم يُعْطَهُ أحدٌ قبلكم ، واعلموا أنما أعطيتموه تأييدًا لكم ، فإذا كبرتُ الثانية فكبّروا وتهيأوا ولتستتم عدتكم ، فإذا كبّرت الثالثة فكبّروا ، ولينشِّط فرسانُكم الناسَ ليبرزوا ويطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة فشدّوا النواجذ على الأضراس ، واحملوا وازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوَّكم ، وقولوا : (لا حول ولا قوة إلا بالله) » .

وبعد ثلاثة أيامٍ ونصف يوم تهاوى جنود الفرس كالذبابِ المترنح .. وتهاوت معهم الوثنية وعبادة النار ..!!

إن المسلمين لم يلقوا في جميع حروبهم - باستثناء بلاط الشهداء في فرنسا - مقاومةً أعنف مما لقوا من الفرس في معركة القادسية ، فلقد

(١) الطبري ٣ / ٥٣٢ .

صبر الفرس في هذه المعركة صبرًا عجيبًا وغير معهودٍ منهم ، وأظهروا قدرة قتالية فائقة ، وأجبروا العرب على أن يقاتلوا في هذه المعركة أربعة أيام ، وخسر المسلمون في القادسية أكثر من خمسة وعشرين في المائة من قوّاتهم .

والقادسية أعظم أثرًا في تاريخ الإنسانية من غزوات تيمورلنك ونابليون ، بل من كل الغزوات التي وقعت إلى عصرنا الحاضر ، لقد كشفت معركة القادسية عن معدن سعد النفيس وفرط شجاعته ، وما إقامته بالقصر مع ما به من علّة تمنعه من مباشرة القتال إلّا إفراطًا في الشجاعة ، فكما ذكر الراوية عثمان بن رجاء السعدي : « ولو عرّاه الصف فواق ناقة لأخذ برمّته ، فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه » .

هذه المعركة التي سارت بها الجن قبل الإنس ، فبدرت امرأة ليلًا على جبل بصنعاء لا يُدرى من هي ؟ وهي تقول :

حيّيتِ عنّا عكرم ابنة خالدٍ ... وما خيْر زادٍ بالقليل المصرَّدِ
وحيّتك عنّي عُصْبةٌ نخْعيّة ... حِسان الوجوهِ آمَنوا بمحمدِ
أَقاموا لكسْرَى يَضْرِبُون جنودَه ... بكلِّ رقيقِ السفْرتين مهنّدِ
إِذَا ثوَّبَ الدَّاعي أَناخُوا بِكَلْكَلٍ ... من الموتِ تسودّ الغياطل مجردِ

وسمع أهلُ اليمامة مجتازًا يغنّي بهذه الأبيات :

وجدْنا الأكثرين بَني تميمٍ ... غداة الرَّوْعِ أصْبرهُم رِجالَا
همُ ساروا بأرْعَنَ مُكْفَهرٍّ ... إلى لجبٍ فزرتهم رعالَا
بحورٍ للأكاسر مِنْ رجالٍ ... كأسْدِ الغَابِ تحسبُهم جِبالَا
تَرْكَن لَهُم بقادِس عزّ فخر ... وبالخِيفَيْنِ أيّامًا طِوالَا

....

مقطَّعـــةٌ أكُفّهـــم وســـوقٌ بمردى حَيثُ قابلتِ الرِّجالَا[(١)]

وكتب سعد إلى عمر بخبر النَّصر على المجوس فقال : « أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتالٍ طويلٍ ، وزلزالٍ شديدٍ ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم يرَ الراؤون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سُلِبُموه ، ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتَّبعهم المسلمون على الأنهار ، وعلى طفوف الآجام ، وفي الفجاج ، وأُصيب من المسلمين سعد بن عُبيد القارئ ، وفلان وفلان ، ورجالٌ من المسلمين ، لا نعلمهم الله بهم عالم ، كانوا يدوُّون بالقرآن - إذا جنّ الليل - دويَّ النَّحْل ، وهم آساد النَّاس ، لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل مَن مضى منهم مَن بقي إلا بفضْل الشّهادة إذ لم تُكتب لهم »[(٢)] .

هَلْ دَحَرْنَا في القادسيَّة جَيْشًا بِخَميسٍ مُهلْهِلٍ مُسْتَأْجَـرْ
أَمْ بِجَيْشٍ شِعَارُه دون خَـوفٍ لا يَهابُ الحِمامَ « اللهُ أكبرْ »
مَـزَّقَ الظُّلـمَ زحفُه يَتَحـدَّى جَحْفَلَ الظُّلْمِ بالعَقيدةِ يَزْخَرْ
عَلَّمَ الفُرْسَ والعروش تهاوى أنَّ عَرْشَ القُلوبِ أنْقَى وأطْهَرْ[(٣)]

نعم :

سَلوا فخامة كِسْرَى عن كتائبنا وَجَيْشَه الضَّخْمَ لمَّا مدَّت القضبُ
سرى يَجرُّ ذُيولَ الخِزْي مُنكسرًا وَكُسِّرتْ عنده التِّيجانُ والحُجُبُ[(٤)]

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٨٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥٨٣ .

(٣) من قصيدة جواب لسؤال من ديوان « في رحاب الأقصى » ليوسف العظم صـ ٦٤ .

(٤) من ديوان « لحن الخلود » لعائض القرني صـ ٨٣ - طبع هجر .

نعم يا أخي :

ومشى سَعْدٌ على أصدائِهِ   يَسْتَبيحُ الفرسَ قَتلى وأُسارى

فتح البيت الأبيض :

عن جابر بن سمرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « عُصْبَةٌ من أُمَّتي يفتحون البيت الأبيضَ ؛ بيت كسرى » . رواه أحمد ومسلم .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لتفتحنّ عصابةٌ من أُمَّتي كَنْزَ آل كسرى الذي في الأبيض » .

أمضى سعد شهرين في القادسية بعد المعركة ، وكاتبَ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فيما يفعل ، فكتب إليه عمر بالمسير إلى « المدائن » عاصمة كسرى . وتحرّك الجيش المنتصِر باتجاه المدائن ، وسار المسلمون من نصرٍ إلى نصرٍ في « برس » وفي بابل وفي « بهرسير » . وبذلك أصبح جيش المسلمين في الضفة المقابِلة للمدائن ، وحاول سعد أن يُؤمِّن عبور جيشه في السفن ، فلم يقدر على شيء منها ؛ لأن الفرس ضمُّوا السفن ليحرموا المسلمين من الإفادة منها[1] . وكان النهر عريضًا طافحًا بالماء ، يقذف بالزَّبَد لشدَّة جَرَيانه ، وموجُه متلاطِم ، وزاد المدُّ فيه ، وارتفعتْ مياهه ارتفاعًا كبيرًا ، وفي ليلةٍ من ليالي سعد ، رأى رؤيا خلاصتها أن خيول المسلمين اقتحمتْ مياه دجلة الهادرة وعبرتْ ، وقد أقبلتْ من المدّ بأمرٍ عظيم .

عبور لا مثيل له في التاريخ :

فصدّق الرؤيا ، وعزمَ على عبور النهر ، فجمع الجيش وقام فيهم خطيبًا ،

---

(١) الطبري ٣ / ١١١٩ .

فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « إن عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلُصُون إليه معه ، وهم يخلُصون إليكم إذا شاءوا فيُناوِشُونَكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تُؤتوْا منه ، فقد كفاكُمُوهُ أهل الأيام ، وعطَّلُوا ثغورهم ، وأفنوْا ذادتهم ، وقد رأيت من الأوفق أن تبادروا جهاد العدو بنيّاتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إني قد عزمتُ على قطْع هذا البحر إليهم . فقالوا جميعًا : عزمَ اللهُ لنا ولك على الرُّشد ، فافعل »[1] .

وندب سعد الناس للعبور ، ثم قال : « من يبدأ ويحمي لنا الفراض[2] لكيلا يمنعونا من العبور » . فانتدب عاصم بن عمرو التميمي ، وانتدب معه ستمائة من أهل النّجدات ، فعبر هؤلاء المغاوير ، وعبر سعد مع جيشه بعدهم ، ففاجأوا أهل فارس بأمرٍ لم يكن في حسابهم .

سبحان الله !! نهر هادر لا يقلّ عُمق مياهه عن ستة أمتار تخوضه الخيول سباحةً وعلى رأسها الفرسان يقاتلون .

قال لهم سعد وهم يخوضون ليصلوا إلى شاطئ أسبانير : « قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم »[3] .

لقد اقتحموا دجلة ما يكترثون ، وإنهم ليتحدثون أثناء عبورهم النهر الهادر كما يتحدثون في مسيرتهم على الأرض .

نجحت خطة سعد نجاحًا يذهل له المؤرخون ، نجاحًا أذهل سعدًا

---

(١) الطبري ٣ / ١١٩ ، وابن الأثير ٢ / ١٩٨ ، وفتوح الشام للواقدي ٢ / ١٢٧ .
(٢) الفراض : جمع فرضة ، وهي ثغور المخاضة من الناحية الأخرى ويُسمَّى في المصطلح العسكري رأس جسر .
(٣) الطبري ٤ / ٤٨ .

نفسه وأذهل صاحبه ورفيقه في المعركة « سلمان الفارسي » . « عامت بهم الخيل وسعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليّه ، وليُظهرنّ الله دينه ، وليهزمنّ الله عدوّه ، إن لم يكن في الجيش بغيٌ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات » . فقال له سلمان : « الإسلام جديد ، ذُلِّلتْ لهم والله البحور ، كما ذُلِّل لهم البرُّ ، أما والذي نفسي بيده ليخرجُنّ منه أفواجًا كما دخلوه أفواجًا . لم تَضِع منهم شكيمةُ فرسٍ »[1]. فطبّقوا الماء حتى ما يُرى الماء من الشاطئ ، ولهم فيه أكثر حديثًا منهم في البر لو كانوا فيه ، فخرجوا منه - كما قال سلمان - لم يفقدوا شيئًا ، ولم يغرق منهم أحد ، إلا رجلًا من بارق يُدعى غرقدة زال عن ظهر فرسٍ له شقراء ، قال أبو عثمان النهدي : كأني أنظر إليها تنفض أعرافها عريًا والغريقُ طافٍ ، فثنى القعقاع عنانَ فرسه إليه ، فأخذه بيده فجرّه حتى عبر ، فقال البارقي - وكان من أشدّ الناس - : عجز الأخواتُ أن يَلِدْنَ مثلك يا قعقاع . وكان للقعقاع فيهم خؤولة .

يوم الجراثيم :

روى أبو جعفر في تاريخه ، أن سعدًا لمّا أقحم الناس في دجلة ، اقترنوا - أي صار لكل رجلٍ قرين يُلازمه أثناء العبور - فكان سلمان الفارسي قرين سعد إلى جانبه يُسايره في الماء ، فقال سعد : ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ ، والماء - لشدّة جريانه - يطمو بهم ، وما يزال فرس يستوي قائمًا ، إذا أعيا يُنشِز له تلعةً فيستريح عليها كأنه على الأرض ، فلم يكن بالمدائن أعجب من ذلك ، وذلك يوم الماء ، وكان يُدعى يوم الجراثيم . ومن عناية الله تعالى بالجيش المجاهد ، أنه لا يعيى فرس أحدٍ أثناء عبور النهر

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤ / ١١ .

إلّا جرثومة يريح عليه .

وعن قيس بن أبي حازم قال : خُضنا دجلة وهي تطفح ، فلمّا كُنّا في أكثرها ماءً ، لم يزل فارس واقفًا ما يبلغ الماء حزامه ، قال المسلمون : ما تنتظرون بهذه النطفة ؟ فاقتحم رجلٌ فخاض الناس ، فما غرق منهم إنسان ، ولا ذهب لهم متاع[1] .

تموت المبادئ في مهدها ... ويبقى لنا المبدأُ الخالدُ
مراكبُ أهلِ الهوى أُتخمتْ ... نُزُولًا ومركبُنا صاعِدُ
سوانا يَلُوذُ بعرّافةٍ ... وأسطورةٍ أصلُها فاسدُ
يحدِّثنا الليلُ عن نَفْسِهِ ... وفيه على نفسه شاهدُ
إذا عدَّد الناسُ أربابهم ... فنحن لنا ربّنا الواحدُ[2]

وأثناء العبور لم يذهب لأحدٍ من الجيش شيءٌ ، إلّا قَدَح كانت له علاقة رثّة فانقطعتْ ، فذهب به الماء ، فقال صاحبه : والله إني لعلى جديلة ، ما كان الله ليسلبني قدحي من بين أهل العسكر . فلمّا عبر ، قذفتِ الرياحُ والأمواج قدحه فأخذه .

ما تُقاتلون إلّا الجِنَّ :

نظر جنود « يزدجرد » إلى هذه الخيل التي ملأت دجلة ، وجعلوا يردِّدون بالفارسية (ديوان آمد) ويقول بعضهم لبعض : « والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن » .

قال أبو عثمان النهدي : « طُبقت دجلة خيلًا ودوابَّ حتى ما يرى

(١) القادسية لمحمد أحمد بشاميل ٧٤٤ - ٧٤٦ .
(٢) قصيدة موقف من ديوان « شموخ في زمن الانكسار » لعبد الرحمٰن صالح العشماوي صـ ٥ طبع مكتبة الأديب بالرياض .

الماء من الشاطئ أحد ، فخرجتْ بنا خيلُنا إليهم تنفض أعرافها ، لها صهيل ، فلمّا رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء » .

وفزع يزدجرد ملك الفرس ، وما استطاع أن يخرج من باب قصره المواجه للشاطئ ، وكان بينه وبين الشاطئ ثلاثة كيلو مترات ..... فدلّاه من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض في زنبيل .. ليفرّ من المدائن ومعه ألف طبّاخ وألف فهّاد وألف بازيار .

إي والله ، في زنبيل !! هذه نهاية الطواغيت .

حتى خيولهم أصابها الرعب نصرًا لأنصار الله ؛ فقد جاء في تاريخ الطبري (٤ / ٥٣) : « أن أوائل كتيبة الأهوال بقيادة عاصم أدرك رجالها مؤخرة المجوس ، وفيهم فارس منهم يعترض على طريقٍ من طرقها ، يحمي مؤخرة أصحابه في فرارهم ، وهو يضرب فرسه للإقدام فيُحجم ، ثم يضربه للهرب فيتقاعس ، حتى لحقه رجل من جيش سعد يُدعى ثقيفًا من بني عدي بن طريف ، فضرب عنقه وأخذ ما كان عليه . ودخل سعد المدائن ، وانتهى إلى إيوان كسرى ، فأقبل يقرأ قوله تعالى : ﴿ **كَمْ تركوا من جناتٍ وعيون * وزروعٍ ومقامٍ كريم * ونعمةٍ كانوا فيها فاكِهين * كذلك وأورثناها قومًا آخَرِين** ﴾ [الدخان : ٢٥ : ٢٨] »[1] .

الفاتح العظيم :

وجّه سعدٌ هاشمَ بنَ عتبة بن أبي وقاص ومعه القعقاع لفتح محور ديالي ، فانتصر هاشم في معركة جلولاء ، وفتح القعقاع وجرير بن عبد الله البجلي خانقين وحلوان وقصر شيرين .

---

(١) الطبري ٤ / ١٦ .

كما وجّه عبد الله بن المعتم وربعي بن الأفكل وعرفجة بن هرثمة البارقي إلى محور دجلة ، ففتح عبدُ الله بن المعتم تكريت ، وفتح ربعيُّ ابن الأفكل الموصلَ ، ولمّا رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن ، بلغ سعدًا أن الفرس قد حشدوا قواتهم في سهل ماسبذان ، فأرسل سعد إليهم ضرار بن الخطاب الفهري ، فانتصر المسلمون على الفرس ، وفتح ضرار ماسبذان .

ووجّه سعدٌ عمرَ بنَ مالك الزهري والحارث بن يزيد العامري لفتح محور الفرات حتى قرقيسياء الواقعة في ملتقى خابور الفرات بنهر الفرات ، ففتحا هذه المنطقة .

كما وجّه سعدٌ عتبةَ بن غزوان لفتح جنوب العراق ، ففتح منطقة البصرة والأهواز .

كما وجّه عتبةَ بنَ فرقد السلمي لفتح شمالي العراق وأذربيجان ، ففتح تلك المناطق .

ووجّه سعدٌ عياضَ بن غنم وسهيلَ بن عدي وعبدَ الله بن عبد الله ابن عتبان لفتح الجزيرة ، ففتحوا منطقة الرّقّة ونصيبين وحرّان والرّها .

فالفتوحات الإسلامية إذن التي جرت في العراق ، وفي شرقه وشماله حتى نهاية سنة عشرين الهجرية ، فتحها سعدٌ بنفسه ، أو أرسل إليها الجيوش والقادة لفتحها ، وحتى الجيش الذي فتح نهاوند أرسله سعد ، ولكن فَتْحهَا جرى بعد عزله .

ولقد كان فتح سعد لهذه البلاد فتحًا مُستدامًا . لقد فتح سعد العراق ، وأكثر بلاد فارس ، وأذربيجان ، والجزيرة وبعض أرمينية ، أي أنه فتح بصورة مباشرة العراق الحديث ، وأكثر إيران بحدودها اليوم ، وفتح

القسم الجنوبي من تركيا المتاخمة لإيران ، والقسم الواقع في شمالي إيران والذي يحدّ روسيا . وفوق ذلك مَصَّر الكوفة وكوَّفها ، فأصبحت القاعدة الأمامية للفتح الإسلامي في الشرق كله ، وأمدّت العالم الإسلامي بعددٍ ضخم من قادة الفتح والفاتحين .

فرضي الله عن سعد الفاتح العظيم .

وأخيرًا تبقى كلمة :

سأل عمرُ بن الخطاب فارسَ اليمن عمرو بن معديكرب عن سعد فقال : « متواضع في خبائه ، عربي في نمرته[(١)] ، أسد في تاموره[(٢)] ؛ يعدِل في القضية ، ويقسم بالسَّوِيَّة ، ويبعد في السَّرِيَّة ؛ يعطف علينا عطف الأُمِّ البَرَّة ؛ وينقل إلينا حَقَّنا نَقْلَ الذَّرَّة »[(٣)].

خالد بن الوليد القرشي المخزومي ، سيف الله تعالى وفارس الإسلام ، وَلَيْثُ المَشَاهِد ، السيد الإمام الكبير ، قائد المجاهدين ، أبو سليمان :

ابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث .

عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابنَ رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : « أخذ الراية زيد فأُصيب ، ثم أخذ جعفر فأُصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم[(٤)].

---

(١) كساء فيه خطوطٌ بيض وسود ، تلبسه الأعراب .
(٢) التّامور : هو عرين الأسد ، وهو بيته الذي يأوي إليه .
(٣) أسد الغابة ٢ / ٢٩٢ ، والبيان والتبيين للجاحظ ٢ / ٦٨ .
(٤) رواه البخاري والنسائي ، وأحمد ، وأبو يعلى ، والبيهقي .

« عن أبي قتادة فارس رسول الله ﷺ قال : بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء وقال : « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أُصيب فجعفر ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة الأنصاري » . فوثب جعفر فقال : بأبي أنت يا نبي الله وأمي ، ما كنت أرهب أن تستعمل عليَّ زيدًا ! قال : « امضوا ، فإنك لا تدري أيّ ذلك خير » . قال : فانطلق الجيش ، فلبثوا ما شاء الله ، ثم إن رسول الله ﷺ صَعِدَ المنبر وأمر أن يُنادى : الصلاة جامعة ، فقال رسول الله ﷺ : « تاب خبر - أو ثاب خبر . شكَّ عبد الرحمٰن - ألا أُخبركم عن جيشكم هذا الغازي ؟ إنهم انطلقوا حتى لَقَوُا العدوَّ ، فأُصيب زيدٌ شهيدًا ، فاستغْفِرُوا له » فاستغفر له الناسُ « ثم أخذ اللواءَ جعفرُ ابن أبي طالب ، فشدَّ على القوم حتى قُتل شهيدًا أشهدُ له بالشهادة ، فاستغفِرُوا له . ثم أخذ اللِّواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميْه حتى أُصيب شهيدًا ، فاستغفروا له . ثم أخذ اللِّواء خالد بن الوليد ، ولم يكُن من الأمراء ، وهو أمَّر نفسه » فرفع رسول الله ﷺ أصبعيه وقال : « اللهم هو سيفٌ من سيوفك فانصرْهُ » . وقال عبد الرحمٰن - مرةً - : « فانتصر به » . فيومئذٍ سُمِّي خالد سيف الله ، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « انفروا فأمِدُّوا إخوانكم ، ولا يتخلفنّ أحد » . فنفر الناس في حر شديد مشاةً وركبانًا »[1].

لمَّا أتى خالدٌ مسلمًا هو وعمرو بن العاص قال ﷺ : « ألقت إليكم مكةُ أفلاذ أكبادها » . وقال النبي ﷺ : « اللهمَّ اغفر لخالد بن الوليد كلَّ ما أوضع فيه من صَدٍّ عن سبيلك » .

قال خالد : فوالله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمتُ يعدِلُ بي

(١) إسناده صحيح . أخرجه أحمد ، والنسائي في فضائل الصحابة .

أحدًا من أصحابه فيما يُجزئه .

وفي رواية : فيما كان حَزَبَه . وفي رواية عمرو : في أمرِ حَرْبِهِ[1].

في مؤتة :

كانت هذه أول معركة يشترك فيها خالد بعد إسلامه ، وبعد قتْل قادة الجيش الثلاثة ، وانكشاف صفِّ المسلمين ، دَفَعَ ثابتُ بن أقرم اللِّواء إلى أبي سليمان خالدٍ قائلًا : « خذ اللواء يا أبا سليمان ، فأنت أدْرَى بالقتال مني ، والله ما أخذتُه إلا لك » .

تلقَّى خالد اللواء ، وأصبح قائدًا عامًّا لقوات المسلمين في أصعب ظروف .. جيش أنهكه القتال الشديد الضَّاري طيلة الأيام الستة .. ثلاثة آلاف مسلم يواجهون جيشًا قوامه مائتا ألف مقاتل ، جيش قد انفرط عقده وفقد تنظيمه ، موقف جعل هذا الجيش مُهَيَّأً لأن يُدمَّر تدميرًا كاملًا ، أو يقع بكامله أسيرًا في قبضة الرومان وأحلافهم من العرب .

« واعتلى العبقري جواده ، ودفع الراية بيمينه إلى الأمام ، كأنما يقرع بها أبوابًا مغلقة آن لها أن تُفتح ، على طريق طويل لَاحِب سيقطعه البطل وثْبًا وثبًا في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته ؛ حتى تبلُغ المقادير بعبقريته أمرًا كان مقدورًا »[2].

وقد كانت خطة انسحاب خالد بالجيش رائعة ... فقد قام بتبديل كلِّي في الميمنة والميسرة والقلب من جيشه ، فجعل رجال ميمنة الجيش مكان رجال الميسرة ، كما جعل رجال الميسرة مكان رجال الميمنة ، كما استبدل

---

(١) طبقات ابن سعد ٤ / ٢٥٢ ، ٧ / ٣٩٤ .

(٢) رجال حول الرسول صـ ٣٠٩ .

رجال القلب برجال آخرين ، كل هذا في ظلام الليل ، وجعل مقدمة الجيش ساقةً ، وساقته مقدمةً ، أي أنه سحب جيشه من ساحة المعركة ، وأبقى ساقةً تحمي الانسحاب ، نَشَر هذه الساقة ليحتلّ فرسانها مساحةً شاسعة من الأرض ، وأمرهم أن يُحدثوا أصواتًا مرتفعة بما لديهم من أبواق وطبول حربية ، وإثارة الغُبار بالخيل تدور بسرعة في دوائر ضيقة . كل هذا ليدخل في نفوس قادة الروم ويوهمهم أن جيشًا جديدًا ومددًا كبيرًا ، قد جاء لجيش المسلمين . هذه هي الخطة التي وضع القائد المحنَّك الفذّ ، فأنقذ بها جيش الإسلام من فناء محقق . فقد وجد الرومان أنفسهم - أثناء تقابُل الصفوف في اليوم السابع - أمام قادة وجنود وهيئات وراياتٍ غير التي كانوا يواجهونها في الصفوف الأُولى أثناء القتال في الأيام الستة الماضية . ووجد الرومان غبارًا يسدُّ الأفق من بعيد ، ناحية الجزيرة خلف ظهر الجيش الإسلامي ، ودوَّتْ أصوات التهليل والتكبير ، منبعثةً من بين ثنايا ذلك الغبار الذي حجب الأفق ، ثم انشقَّ هذا الغُبار عن كتائب من الفرسان ، تتبع إحداهما الأُخرى في تنسيقٍ وإحكامٍ راكضةً نحو المسلمين في مؤتة ، قد رجفتِ الأرضُ رجفًا لوقْع حوافر خيلها المنطلقة ، وأصوات فرسانها تصمّ آذان الرومان بالتهليل والتكبير ، واهتزّ معسكر المسلمين المواجه للرومان بالتهليل والتكبير . ودبّ الفزع في نفوس الروم وسادهم الهرج والمرج ، ولسان حالهم يقول : إذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالرومان هذه الأفاعيل طيلة الأيام الستة ، فما عساهم فاعلين بعد مجيء هذا المدد ؟!

نعم ، إن ثبات المسلمين في وجه الرومان طيلة الأيام الستة ، هو أرقى مراتب النصر والغَلَبة .

وأدرك خالد بحسّ القائد المحنّك ما أصاب الرومان وحلفاءهم من خوفٍ ورعبٍ ، نتيجة خدعته الحربية البارعة المحكمة ، فاغتنمها فرصةً ،

فأمر في الحال بالهجوم على خطوط الرومان ، وبأسلوب عامّ صاعِق كاسِح فتمَّ له ما أراد .

« وتضعضعتْ خطوط الروم الأمامية ، وركبهم المسلمون وأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمة ، كانت بكل معاني الكلمة « مذبحة » وَصَفَهَا الواقدي في كتابه « المغازي » بقوله : « فرُعِبوا فانكشفوا منهزَمين ، فقتلوا مقتلةً لم يُقتلها قوم قطُّ »[1] .

وقال ابن سعد في طبقاته : « ثم أخذ خالد اللواء ، ثم حمل على القوم ، فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتُها[2] قطُّ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا »[3] .

كان القتال ضاريًا ، خاضه المسلمون بحنقٍ وغيظ ، وكان الرومان في تراجعهم أمام هجوم خالد يقاتلون بشراسةٍ ، وليس أدلّ على عنف المعركة من قول خالدٍ نفسه : « لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسيافٍ ، فما بقي في يدي إلّا صفيحة يمانية »[4] .

لله دَرُّك يا خالد ، تسعة أسيافٍ تتكسَّر في يدك !! ومن أوْلى منك بهذا .

أناضل عن دينٍ عظيم وهبتُهُ   عطاء مُقِلٍّ مهجتي وحياتيا

---

(١) مغازي الواقدي ٢ / ٧٦٤ تحقيق الدكتور مارسدن جونس - طبع جامعة أكسفورد .
(٢) الرواي هنا أحد الصحابة وهو أبو عامر .
(٣) الطبقات الكبرى ٢ / ١٣٠ ، مؤتة لمحمد أحمد بشاميل صـ ٢٠٧ .
(٤) رواه البخاري ، وأحمد في فضائل الصحابة ، وابن سعد ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك .

ومُمْتَثِـــل لله أسْــلَمَ وجهَــهُ ... يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
وخالدُ سيفُ الله أسلم وجهَهُ ... يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
بظهري ببطني بالذراع بمقلتي ... بجنبي بعظمِ الصدرِ حتى التَّراقِيا
فـلم أرَ يومًا كالتقـدُّم لـذَّةً ... ولم أرَ عيشًا كالتقـدم هانـيا
على ذروة التوحيد تخفق رايتي ... وتحـت روابيها تصـبّ دمائيا

وانسحب الجيش الإسلامي بكل هدوء وضبط وانتظام ، فقد انسحبت قوات القسم الأكبر[1] من المسلمين ، ومع ذلك لم يكن سَحْبُ الساقة سهلًا ، وذهـل الروم أمام هذه المفاجأة والخدعة الحربية البارعة ، وما استطاعوا أن يتعقّبوا المسلمين أثناء انسحابهم مسافة ستمائة ميل ، حتى وصل الجيش سالمًا إلى المدينة ، فلمّا وصل الجيش إلى ضواحي المدينة (الجرف) ، جعل أهل المدينة يصيحون بالجيش « يا فُرّار .. فررتم » ... ويحثون في وجوه الجند والقادة التراب . وأتت كلمة الوحي ناصعة تردّ الأمر إلى موضعه ، فقد قال رسول الله ﷺ : « ليسوا بفُرَّار ، ولكنهم الكرّار في سبيل الله » . وتكفي شهادة الرسول ﷺ شهادة .

ثم علم المسلمون بعدُ قدْر تضحية خالد وبذْله ، وأن انسحابًا كهذا كان من الاستحالة بمكان .. ولكن لا مستحيل على القلب الشجاع ، ومن أشجع من خالدٍ قلبًا ، وأروع عبقريةً وأنْفَذ بصيرةً ؟!

في فتح مكة :

قال النبي ﷺ للزبير وخالد : « لا تقاتلا إلَّا من قاتلكما » . وكان خالد على ميمنة قوات المسلمين ، وكان عليه أن يدخل مكة من أسفلها

---

(١) القلب والميمنة والميسرة والمقدمة كما يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب .

من « اللِّيط » ، إلّا أن بعض رجالات قريش جمعوا ناسًا بالخندمة أسفل مكة ؛ ليقاتلوا المسلمين ويصدّوهم عن فتح مكة ، وكما قال خالد : « بدءونا بالقتال ، ورمونا بالنَّبل ووضعوا فينا السلاح ، وقد كففتُ ما استطعتُ ،ودعوتُهم إلى الإسلام فأبوا ، حتى إذا لم أجد بُدًّا من أن أقاتلهم ، فظفَّرَنا الله بهم ، فهربوا من كل وجه »[1]. وقتل من المشركين ثمانية وعشرون رجلًا ثم انهزموا .

يقول ابن حماس الدّيلي فارسُ مكة ، لما عاتبتْه زوجُه على فراره في الخَنْدَمة :

وأنتِ لو شهدتِنا بالْخَنْدَمَـهْ   إذ فَرَّ صفـوانٌ وفَـرَّ عِكْرِمَهْ
وأبو يزيدَ كالعجُوزِ المُؤْتِمَهْ[2]   إذ يلحقونا بالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ   ضَـرْبًا فلا يُسْمَعُ إلَّا غَمْغَمَـهْ
لهـمْ زئيرٌ خَلْفَنَـا وَهَمْهَمَـهْ   لم تَنْطِقِي في اللَّوْمِ أدْنَى كَلِمَهْ[3]

وعاد المسلمون إلى مكة على صهوات جيادهم الصّاهلة ، وتحت رايات الإسلام الخافقة ، وتكبيراتهم الصّادِعة الرائعة ، ترجّ مكة رجًّا ، وتهليلاتهم الباهرة الظافرة ، يبدو الكون معها ، وكأنه كلّه في عيد .

خالد يقتل العُزَّى ويهدمها :

وهذا البطل مرة أخرى يستبدّ به تَوْقٌ عارِم إلى هدم عالمه القديم كله ، ومظاهر الشرك ، فعن أبي الطُّفيل قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٢٠٩ .
(٢) هي المرأة التي قُتل زوجها فبقي لها أيتام .
(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٥٠ ، ومغازي الواقدي ٢ / ٨٢٧ ، والبداية والنهاية ٤ / ٢٩٧ .

وآله وسلم مكة بعث، خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العُزَّى ، فأتاها خالد بن الوليد،وكانت على تلال السَّمُرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : « ارجع فإنك لم تصنع شيئًا » . فرجع خالد ، فلمّا نظرتْ إليه السَّدَنةُ - وهُمْ حُجَّابُها - أمعنوا في الجبل وهم يقولون : يا عُـزَّى خَبِّليه ، يا عزى عَوِّرِيه ، وإلَّا فموتي برغم . قال : فأتاها خالد ، فإذا هي امرأة عريانة ناشرةٌ شعرها تحثو التراب على رأسها ، فعمَّمها بالسيف حتى قتلها ، ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره قال : « تلك العزى »[١].

وفي رواية : فلما سمع سادِنُها بمسير خالدٍ إليها ، علّق عليها سيفه ، والتجأ إلى الجبل الذي هي فيه وهو يقول :

أيا عُزّ شدّي شدّةً لا شوًى لها[٢] على خالدٍ ألقي القناعَ وشمِّري
ويا عُزّ إن لم تقتلي اليوم خالدًا فبُوئي بإثمٍ عاجلٍ أو تنصَّرِي

فلما انتهى إليها خالد هدمها وهو يقول :

يا عُـزّ كُفـرانك لا سبحانكْ إني رأيـتُ الله قـد أهـانكْ

وعند الطبري (٣ / ٦٥) :

يا عُزّ شُدِّي شدَّةً لا سِواكِها على خالدٍ أَلقِي الخمارَ وشَمِّرِي
فإنَّك إن لا تَقْتُلي المرءَ خالدًا تبوئي بذنبٍ عاجلٍ وتُقَصِّرِي

فشد خالد عليها ، فقتلها ، وقال : ذهبت العزى ، فلا عزى بعد اليوم .

---

(١) حسن . رواه أبو يعلى في مسنده (٢ / ١٩٦) . وهو حسن .
(٢) أي لا تُبقي على شيء .

هَدم خالدٍ لِوُدّ :

ويعود البطل راسخ العقيدة ثانيةً إلى الأصنام ، فقد « بعث النبي ﷺ خالدًا لهدم « ود »[(١)] في دومة الجندل ، وقد بعثه من غزوة تبوك ، فحالتْ بنو عبد ودّ وغيرهم بينه وبين هدمه ، فقاتلهم خالد ، وبعد دحرهم هدمه وكسّره جذاذًا »[(٢)].

أسْرُه لأُكَيْدِر صاحب دومة الجندل :

وفي أثناء مقام النبي ﷺ في تبوك ، أرسل خالدًا في أربعمائة وعشرين فارسًا إلى أُكيدر بن عبد الملك الكِنْدي ثم السكوني صاحب « دومة الجندل » ، وكان أُكيدر قد خرج من حصنه في ليلةٍ مقمرةٍ إلى بقر الوحش يطارده هو وأخوه حسان ، فهاجمته خيل خالد ، فاستأسر أُكيدر ، وامتنع أخوه وقاتل حتى قُتل ، ثم هرب من كان معهما ، وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله ﷺ ، على أن يفتحوا له دومة الجندل ، فدخلها المسلمون ، وصالحه خالد على ألفيْ بعيرٍ وثمانمائة رأس وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، ثم خرج خالد بأكيدر وأخيه « مصاد » قافلًا إلى المدينة ، وهناك صالحه النبي ﷺ على الجزية وحقن دمه ، ودم أخيه ، وخلّى سبيلهما ، وكتب له كتابًا فيه أمانهم وما صالحهم عليه .

لله دَرُّ خالدٍ .. إن فترة إسلامه التي قضاها إلى جانب الرسول ﷺ لا تتجاوز أربع سنوات ، بينما قاتل شمالًا على حدود أرض الشام ، وجنوبًا في اليمن ، وشهد أحد عشر مشهدًا ، قاتل في ثلاثة مشاهد منها تحت لواء

---

(١) تمثال رجل كبير الجسم ، عَبَدَهُ بنو كلب بن وبرة من قضاعة بدومة الجندل .

(٢) قادة فتح العراق والجزيرة صـ ٩٠ ، نقلًا عن « خالد بن الوليد » لأبي زيد شلبي صـ ٨٦ - ٨٨ .

الرسول القائد ﷺ ، وقاتل في ثلاثة مشاهد منها قائدًا مستقلًا ، ولم يُقاتل في خمسة مشاهد منها ، بل أنجز واجبه سِلمًا ، فمن أين له الوقت الكافي لتحقيق كل هذه الأعمال !!

لقد كان خالد موضع ثقة الرسول ﷺ ، وكانت له قابليّات نادرة في القيادة العسكرية خاصَّة لا يجود بها الزمان إلا نادرًا ، فلا عجب أن يقول الرسول ﷺ عنه : « نعم عبد الله وأخو العشرة ، وسيف من سيوف الله سلَّه الله على الكفار والمنافقين »[١] .

خالد وحروب الرِّدَّة :

لقد كانت حروب الردة – التي استمرت ملتهبةً حوالي سنةً كاملة – أعنف ما شهد العرب المسلمون في تاريخهم العسكري ، وأبرزتْ هذه الحروب وكشفتْ معادن الرجال ، وخالد بن الوليد لم يقم أي محاربٍ مقامه في منازلة أهل الردة والقضاء على فتنتهم ، وكانت مسرح أعماله الرئيسية منطقة « بزاخة » ببلاد بني أسد ، ومنطقة البطاح في ديار بني تميم ، ومنطقة اليمامة موطن بني حنيفة وكانوا أكثر وأشرس قوةٍ قارعها خالد في حياته .

مع طليحة في بزاخة :

التقى خالد مع طليحة الأسدي في بزاخة ، فتقاتل الطرفان قتالًا شديدًا ، ولما رأى طليحة أن كفَّة المسلمين رجحت على كفَّة أتباعه ، ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها ، وقال : « يا معشر فزارة ، من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته ، فليفعل » . وبذلك قضى خالد على فتنة طليحة وأعاد الإسلام إلى بزاخة . ولقد حطَّم انتصار خالد معنويات أسد وغطفان والقبائل الأُخرى كبني عامر وسُليم وهوازن ، فبايعوه وعادوا إلى الإسلام ،

---

(١) الاستيعاب ٢ / ٤٢٩ ، وقادة فتح العراق والجزيرة صـ ٩٤ ، ٩٥ .

ولم يقبل منهم إلّا أن يأتوه أوّلًا بالذين حرّقوا ومثّلوا وَعَدَوْا على الإسلام ، فأتَوْا بهم ، فمثّل بهم وحرّقهم ، ورضخهم بالحجارة ، ورمى بهم من الجبال ، ونكّسهم في الآبار[١].

في اليمامة مع مسيلمة الكذّاب :

بعد أن فشل عكرمة بن أبي جهل وشرحبيلُ بن حسنة في القضاء على المرتدين في اليمامة ، سار إليها خالد ، فلمّا كان على بُعْد ليلةٍ من معسكر مسيلمة ، هجم على مفرزة من بني حنيفة بإمرة « مجاعة بن مرارة الحنفي » قوّتُها ما بين ثلاثين أو أربعين فارسًا ، فأسرهم وقتل أصحاب « مجاعة » ، واستحياه رهينةً لشرفه في بني حنيفة . والتقى الجمعان في عقرباء ، واشتدّ القتال ، وتكسّرت في يد خالد تسعة سيوف ، واشتدّ القتال بشكلٍ لم يسبق له مثيل ، وانهزم المسلمون حتى دخل بنو حنيفة فسطاط خالد ، ولكنّ المسلمين عادوا فاستقتلوا ، فقال خالد : « يَـٰأَيُّـهَا الناس ، امتازوا ؛ لنعلم بلاء كلِّ حيٍّ ولنعلم من أين نُؤتى » . وكان النصر بعد جهدٍ جهيدٍ لأنصار دين الله ، وانتصر ثلاثة عشر ألف مسلم على رجال مسيلمة وعددهم حوالي أربعين ألف مقاتل أو أكثر ، وقُتل من بني حنيفة في معركة اليمامة أربعة عشر ألفًا ، وقُتل منهم في الطلب سبعة آلاف[٢] ، وقُتل عدو الله مسيلمة ، وقُتل من المسلمين ثلاثمائة وستون من المهاجرين والأنصار ، وثلاثمائة من المهاجرين من غير أهل المدينة ، وثلاثمائة من التابعين ، وقتل من القُرّاء خمسمائة ، فكان جملة من قتل من المسلمين ألفًا ومائتي شهيد ، أي أن نسبة شهداء المسلمين إلى قتلى المشركين تُعادل ستة بالمائة فقط ، وهذا يعدُّ من أروع الانتصارات .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٣٣ .

(٢) الطبري (٢/ ٥١٦) ، وابن الأثير (٢/ ١٤٠) .

فللَّه درُّك يا خالد وأنت تريد قتل مسيلمة ، وما تطلب من الفرسان حين تشدُّ عليه إلّا حماية ظهرك فقط ، وتقول : « لا أُوتينّ من خلفي » . فلا يثبت لك الكافر .

لقد أبلى خالد في قتال أهل الردة بلاء عظيمًا .. ولله دَرُّ أبي بكر حين قال فيك : « ما كنتُ لأَشِيمَ سيفًا سلَّه الله على الكافرين »[1].

هازم الفرس في أرض العراق :

« عجزت النساء أن يلدن مثل خالد » . [الصديق أبو بكر] .

لقد كان خالد قائدًا لا يُجارَى ولا يُبارى في خططه وأسلوب قتاله وشجاعته ، وأُقسِمُ بالله أن معاركه كانت أغرب من الخيال ، وله في كل معركة ذكْر ونبأ تطير بذكره الرّكبان .

كاظمة ميدان المعركة الأولى مع الفرس :

وفيها كان قائد قوات الفرس « هرمز » ، أرسل إليه خالد رسالةً مع رجل اسمه « ازاذبة » وكان نص رسالة خالد الخالدة : « أمّا بعد ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذِّمَّة وأقرر بالجزية ، وإلّا فلا تلومنّ إلّا نَفْسَكَ ، فقد جئتُك بقومٍ يحبّون الموتَ كما تحبون الحياة » . وفي رواية : « جئتكم بقومٍ يحبون الموتَ كما تحبون شُرب الخمر » . قد كان ابن الوليد قمة في سياسته العسكرية ، وقدرته على المناورة وخداع العدو ، لإنزال الهزيمة به بأقلّ خسارة ممكنة في جيش الإسلام ، فتوقّع هرمز أن خالدًا سيتجه بجيشه إلى كاظمة في أول الأمر ، فوجّه كافة قواته إلى كاظمة ، واستعدّ جندُه وحفروا الخنادق ، ولكن خالد الذي قسم جيشه وفرّقه إلى ثلاث فرق ،

---

(١) الطبري (٢ / ٥٠٣) ، وابن الأثير (٢ / ١٣٧) .

لم يحملهم على طريق ليُعمّي وجهته عن عدوه ، فيظل في حيرةٍ من أمره حتى آخر لحظة ، وأربك خالد القائد الفارسي وفتّت أعصابه ، فتخطّى كاظمة ، واتجه نحو الحفير الواقعة شمال كاظمة وغربي الأبلّة . وعندما لم يجد هرمز أي أثرٍ لخالد في كاظمة ، وأنه تخطّاها نحو الحفير ، اغتاظ وأصدر أمره إلى الكتائب في جيشه بأن يعودوا جميعًا إلى الحفير لمصادمة جيش خالد ، وأمر هرمز قواته بأن تُجهد نفسها في التّحرّك ؛ ليسبق خالدًا إلى الحفير ، وهذا هو الذي هَدَفَ إليه القائد الفذّ خالدٌ ؛ أن يُرهق عدوه نفسيًّا وجسديًّا قبل نشوب المعركة ، وعن عمدٍ تباطأ خالد بجيشه في السير نحو الحفير ليسبق إليها القائد هرمز ، وفعلًا وصل هرمز الحفير على عجلٍ ليسبق إليها خالدًا ، ثم أمر جنده بحفر الخنادق في الحفير استعدادًا لمواجهة خالد ، ولما تلقّى خالد من استخباراته أن هرمز قد أرهق جنده بحفر الخنادق والتعبئة للقتال ، عطف بجيشه راجعًا إلى كاظمة ، وكان المغاوير من مقاتلي الفرس - بعد حفر الخنادق في الحفير - قد ربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل ؛ توطينًا لأنفسهم على الموت ، أو إحراز النصر ، ولما أبلغتْ هرمز استخباراتُه أن خالدًا وجيشه قد عطف نحو الكاظمة راجعًا ، استشاط غضبًا وتوتّرتْ أعصابه للغاية ، فأصدر أمره إلى جيشه بالعودة نحو كاظمة ، وهناك وجد خالدًا في انتظاره ، قد عبَّا جيشه للقتال ، وكانت قوات الفرس أضعاف أضعاف المسلمين ، وحال هرمز وقواته بين المسلمين وبين نهر الفرات ، ومنعوهم الماء ، فقال خالد كلمته الخالدة : « ألا انزلوا وحطّوا رحالكم ، فلعمري ليصيرنّ الماء لأصْبر الفريقين وأكرم الجُنْدَيْن »[1]. ودعا هرمز خالدًا للبراز ، وسرعان ما أجابه خالد ، ولكن هرمز الخبيث - الذي ضُرب به المثل فيه فقيل : أخْبَثُ من

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٤٩ .

هرمز ، وأكفر من هرمز - قد عهد إلى فرسانه عهدًا للغدر بخالد ، فلما نزل خالد نزل هرمز ، ومشى إليه خالد ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتيْن ، واحتضنه خالد ، **وحملت حاميةُ هرمز وغدرتْ ، فاسْتلْحموا**[١] خالدًا ، **فما شغله** ذلك عن الهرمزان ، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز ، فأبادها جميعًا ، أمَّا خالد فقد تمكّن في الحال من ذبْح هرمز ذبح النِّعاج ، وركن الفرس إلى الفرار بعد قتل قائدهم ، فركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون إلى الليل ، ولم ينجُ من الفرس إلَّا من استطاع ركوب السُّفُن ، وجمع خالد الرثاث[٢] وفيها السلاسل ، فكانت وقر بعير ؛ ألف رطل ، فسُمِّيَتْ « ذات السلاسل » ونفَّل أبو بكر خالدًا قلنسوةَ هرمز ، وكانت قيمتها مائة ألف . وقدم زر بن كليب بالفيل مع الأخماس إلى المدينة ، فطيف به في المدينة ليراه الناس ، فجعل ضعيفات النساء يقلن : أَمِنْ خلْق الله ما نرى ؟! وردَّه أبو بكر مع زر .

وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك :

نعم ، الإسلام رفع من شأن العرب ، وقد كانوا قبله حُفاةً عُراةً رُعاةً ، لا شأن لهم في الأرض ، ولا ذِكْر لهم في السماء ، أذلَّهم الفرس ، حتى إنَّ سابور الثاني والملقب بذي الأكتاف كان يقوم بتعذيب الأسرى من العرب ، فيقتلهم عن طريق نَزْع أكتافهم ، فنزع أكتاف خمسين ألف عربي من تميم وبكر بن وائل ، حتى قالت له عجوز عربية : « إن لهذا قصاصًا ولو بعد حين » . الفرس الذين كانوا أشجع وأشدّ بأسًا من العرب ، بجيشهم الكبير الذي يقوده ألمعُ وأمهرُ قادة الفرس ، يُذِلّهم خالد ويقتلهم ويأسرهم ...

(١) تبعوه .
(٢) المتاع .

حتى صار ذِكْره يُقضُّ مضاجع الفرس .. ويبدو هذا في معركة الأُبُلّة .

معركة الأُبُلَّة ، وفرار الفرس من اسم خالد :

سار خالد بجيشه إلى الأُبُلَّة ، وفيها جيوش كثيفة للفرس ، وسبق سويد بن قطبة الذهلي – وكان من جيش خالد – في جماعةٍ من قومه خالدًا في اتجاه الأبلة ، وعسكر حولها ، ولما وصل خالد بقواته مكان البصرة اليوم ، وجد سويدًا يتعقّب أهل الأبلة في انتظار أن يُهاجموه ، فيُقاتلهم خارج مدينتهم ، ولكن سويدًا أخبر خالدًا بأن أهل الأبلة يهابون مقامه ، وأنهم سيظلّون معتصمين بقلاعهم ما دام خالد موجودًا في المعسكر ، فقال سويد لخالد : إن أهل الأبلة قد جمعوا لي ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك ؛ أي خوفًا منك . وهناك رسم خالد بالاتفاق مع سويد خُطّة يخدعون بها الفرس ، حتى يأمنوا فيخرجوا لمُقاتلة سويد ، وذلك بحيث يعتقدون أن خالدًا الذي بثَّ في قلوبهم الرعب بعد قتله هرمز ، قد ترك معسكر سويد ، وأنه لم يبق قائد للمسلمين في المعسكر سوى سويد فقط ؛ فقال خالد لسويد : فالرأْيُ أخْرُجُ من المعسكر نهارًا ، ثم أعود إليه ليلًا ، فأدخل بأصحابي ، فإن صبّحوك حاربناهم ، ونفّذ خالد خطّته لتضليل حامية الأُبُلَّة الفارسية واستدراجهم لمهاجمة سويد ، فتوجّه خالد بمعظم قوّاته في وضح النهار في اتّجاه الحيرة ، فاطمأنَّ الفرس إلى تَرْك خالد للمكان ، وعاد – رضي الله عنه – بقواته إلى المعسكر ليلًا ، فلمّا خرجت جيوش الفرس من الأُبُلَّة قاصدين مهاجمة سويد ، وما كادوا يصلون مدخل معسكر سويد ، حتى رأَوْا كثرة العساكر وهم على أهبة الاستعداد ، فأُسقط في أيديهم لمَّا علموا بوجود خالدٍ في المعسكر ، ولم يشرع الفرس سيفًا ولا رمحًا في وجه خالد ، وما كان همّهم إلّا الفرار للعودة إلى الأُبُلَّة المحصَّنة ، فولوا الأدبار مسرعين نحو أبواب المدينة ، ولكنّ خالدًا حال بينهم وبين ذلك ، وانفرط عقد جيش

الأُبُلَّة ، وتمزّق شملهم ، وكثُر القتل فيهم ، وقذف كثيرٌ منهم نفسه في نهر دجلة والفرات فغرقوا وبعث خالدٌ معقل بن مقرن المزني إلى الأُبُلَّة التي كانت خاليةً من المحاربين ، فسيطر عليها بدون قتال ، وجمع ما فيها من غنائم وأسلحة .

الخـربية :

وبعد ذلك سيطر خالد على نقطة حربية مهمة يُقال لها : الخريبة ، وكانت من مسالح العجم ، وقال خالد لجنوده قبل المعركة ، لمّا رأى وجوه قادة الفرس وجنودهم ، وأدرك الرعب المسيطر عليهم : « احملوا عليهم ، فإني أرى هيئة قومٍ ألقى الله في قلوبهم الرعب » . فحملوا عليهم ، فهزموهم ، وكثر القتل فيهم ، وغرق طائفة منهم في دجلة .

الجولة الثالثة : معركة المذار وقتل قُوَّاد الفرس الثلاثة :

جهّز شيرويه ملك الفرس جيشًا جرّارًا ، وأعطى قيادة الجيش لأكبر قائد من قوّاده وهو « قارن بن قرباس » يسانده قائدان كبيران وهما : «الأنوشجان » و« قباذ » ، وكان هذا الجيش يضم أيضًا فلول الأُبُلَّة والكاظمة وأهل الأهواز وفارس والسواد والجبل ، وتعاهدوا بعدم الفرار .

وبلغت قوات فارس ما يقارب الثمانين ألفًا ، بينما خالد في جيشٍ لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا . وبدأت المعركة اللاهبة بدعوة قارن إلى البزار ، فاستبق إليه اثنان من المسلمين : خالد بن الوليد ، وأبيض الركبان معقل بن الأعشى النباشي ، فسبق معقل على فرسه خالدًا ، وبارز قارنًا فقتله في الحال . وهجم عاصم بن عمرو على الأنوشجان فقتله في الحال ، وبادر البطل الميمون عدي بن حاتم إلى القائد قباذ فقتله ، وقاتل الفرس على حنقٍ وحفيظةٍ ، واضطرب شمل الفرس بعد مقتل قارن ، وكان شرف قارن قد انتهى ؛ أي

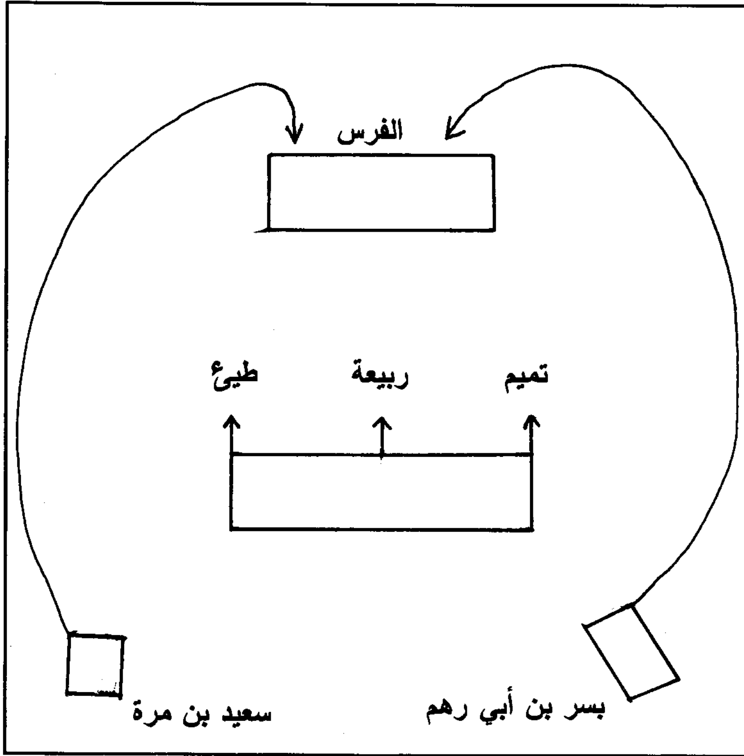
أنه وصل إلى أعلى رتبة عسكرية في فارس . وقُتل من الفرس في الميدان ثلاثون ألفًا ، سوى من غرق في دجلة بحديده . « ولولا المياه لأتى المسلمون على آخرهم ، ولم يفلت منهم إلا عراة أو شبه عراة »(١) .

الولجة أو (واترلو الفرس) :

أقام خالد - رضي الله عنه - بمنطقة المذار يجمع المعلومات ويرقب اتجاه مسارات العدو ، وعلم أن القيادة العامة في المدائن أعدت جيشين يقودهما أعظم قائدين مجرّبيْن وهما : « الأندرزغِر » و« بهمن جاذويه » . وأراد بهمن جاذويه أن يوقع خالدًا بين فكّيْ كماشةٍ ، إن هو اتّجه من الشرق إلى الغرب رأسًا : بين جيش الأندرزغر الذي يعسكر غربًا في الولجة ، وبين جيش بهمن الذي يتحرك في السواد شرقًا ، ثم إنه مع وقوعه في الكماشة ، سيقع بين حاجزين مائيين كبيرين . وفكر خالد - وهو الألمعي - في اتّباع أسلوبٍ يجعله يتصل بالأندرزغر في الولجة ، دون أن يوقع بجيشه في كمّاشة ، فانحدر جنوبًا في طريق طويل بمُحاذاة نهر دجلة ، حتى إذا ما وصل الأُبُلَّة عَبَرَ نحو الغرب ، ثم أخذ يتجه شمالًا نحو الولجة غربي الفرات حيث يعسكر الأندرزغر . لقد كان خالد من أبرز قادة الجيوش في العالم ، وأقدرهم على استخراج النتائج من حساب المعارك قبل وقوعها ، ورغم أنه محارب جريء ممتاز ، فإنه كان أبعد القادة عن الغرور ، وكان شديد التَّيقُّظ والحذر ، وأوقع جيش الفرس في كماشته بدلًا من أن يوقعوه هم . ولكي يختصر خالد المعركة ، ويكسب النصر بأقل خسارةٍ ممكنةٍ من رجاله ، أقام قبل أن يصل إلى مكان المعركة خلفه كمينيْن من خيرة رجاله ، كمين في مواجهة الفرس من اليمين على رأسه بسر بن أبي رهم الجهني ، وكمين من يسار الفرس وجعل على

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٥٢ .

قيادته سعيد بن مرة العجلي ، وأخفى الكمينيْن ، وطلب من قائديهما أن لا يسرعا في الهجوم على الفرس ، وهذه الخطة التي رسمها خالد بالكمينيْن تجعل جيش فارس بين فكّي كمَّاشة ، مع انشغاله بالرمح المُشْرَع في صدره وهو جيش خالد ، وأُعْطِيت الأوامر بألا يهجم الكمينان على الفرس إلَّا عندما



يحتدم القتال ، وتظهر بوادر الوهن على الفرس . واشتبكت قوات خالدٍ مع قوات « أندرزغر » في قتالٍ ضارٍ عنيفٍ ؛ ذلك أن الفريقين صبروا صبرًا عظيمًا على أن يتلقّى أحدهما مدده قبل الآخر ، واشتدّ القتال في الولجة ، وثبت الفرس ثباتًا أزعج خالدًا حتى بات يخشى الهزيمة ، وظنَّ الفريقان أن الصبر قد فرغ ، ولكن النصر في اللحظة الحاسمة كان من نصيبه ،

فقد أطبق الكمينان على جيشِ الفرس من الشرق ومن الغرب ، ثم شكَّلا رأس حربتين إذ انقضّا على جيش الفرس من وراء ظهره ، في الوقت الذي كان يرقب الأفق بقلق ، ينتظر أن يظهر عليه بهمن جاذويه فينقذه . وأُسقط في يد الفرس ، وانتابهم الذعر ، وشرع العرب في إبادة جيش الفرس ، ولم يَرَ رجلٌ من الأعاجم مقتل صاحبه ، ومضى الأندرزغر في هزيمته إلى مجاهل الصحراء فمات عطشًا .

وتعلّم الغرب من خالد .. فهذه معركة « واترلو » التي دارت في بلجيكا بين نابليون بونابرت ، وبين قائد جيوش الحلفاء « ولنجتون » الإنكليزي عام ١٨١٥ ، وفيها انهزم نابليون بوقوعه في كمين القائد « بلوخر » وجيشه ، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من النصر ، واستقال من منصبه ، ودخل الحلفاء باريس ، ولجأ نابليون إلى انجلترا ، فلم تقبله لاجئًا سياسيًّا ، بل عدّته أسيرًا وَنَفَتْهُ إلى جزيرة القديسة هيلانة .

وخطب خالد بن الوليد بعد انتهاء المعركة ، وحثَّ جنده على تحقيق المزيد من الانتصارات ، فقال : « ألا ترون إلى طعام كرفغ التراب[1] ، وبالله لو لم يُلزمنا الجهادَ في الله والدعوة إلى الله عزّ وجلّ إلّا المعاشُ ، لكان الرأي أن نُقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونُولّي الجوع والإقلال مَنْ تولاه ممَّن اثّاقل عمّا أنتم عليه »[2].

معركة أُلَّيْس أو « نهر الدم » ؛ الجولة الرابعة بين خالد والفرس :

حَقَدَ نصارى العرب وهم من تغلب وبكر بن وائل على المسلمين بعدما أصابهم في الولجة ، فاستغاثوا بكسرى (شيرويه) ليمدّهم بجيش فارسي ؛

---

(١) أي كثير التراب .

(٢) تاريخ الطبري (٢ / ٥٥٩) ، وابن الأثير ٢ / ١٤٨ .

ليشتركوا سويًّا في القضاء على خالد وجيشه ، وكان على العرب في أُلَّيْس عبد الأسود العجلي ، ووصل « جابان » على رأس جيش كثيفٍ من الفرس ، وتولّى جابان القيادة العامة ، وكان عبد الأسود قائد خليط نصارى العرب ، وهم من بكر بن وائل وبني عجل ، وتيم اللّات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة ، وانضمَّ إليهم زهيرٌ ومالكٌ ابنا قيس من قبيلة جذرة العربية النصرانية . وصل خالد بجيشه ، والمجوس قد مدُّوا البُسُط يستعدُّون للغداء ، وقد وُضع الطعام الفاخر على البُسُط ، وأصابهم الغرور وهم فيما يقارب المائة والخمسين ألف محارب ، وخالد في جيشٍ لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا ، فلم يحفلوا بخالدٍ وأقبلوا على طعامهم ، فقال لهم قائدهم جابان : « اتركوا الطعام ، واستعِدُّوا للصدام » . فلمّا عصوْه قال : « إن القوم سيعجلونكم قبل أن تَطْعَمُوا الطعام ، وإنكم إنما هيأتموه لهم ليأكلوه بدلًا منكم » . فعصوه ، وبسطوا البُسُط ، ووضعوا الأطعمة ، ودعا بعضهم إلى بعضٍ ، وتوافوا إلى البُسُط ، وزحف خالد والمسلمون ، فأجبروا الفرس على القيام عنه ، وأجهضوهم عنه قبل أن يطعموه . ودعا خالد للبراز ونادى « أين أبجر بن عبد الأسود ، أين مالك بن قيس ؟ » . فجبنوا جميعًا عن مبارزته إلَّا مالك بن قيس ، فإنه خرج إلى خالد ، فقال له خالد مُوبِّخًا ومُحتَقِرًا : « يا ابن الخبيثة ، ما جرَّأك ؟! لستَ لي عليّ من بينهم ، وليس فيك وقاء » . أي أَنك لست لي بكُفْءٍ . ثم ضربه ضربةً قتلته في الحال . ومع ذلك فقد اقتتلوا اقتتالًا شديدًا كان أشدَّ من أي قتالٍ سبق ؛ لأن نصارى العرب كانوا شديدي الغيظ لخالدٍ ؛ لقتله ابْنَي زعيميْهم في الولجة ، وصبر الفرس صبرًا شديدًا ، ولقي المسلمون مقاومةً عنيفةً ، حتى شقَّ عليهم الأمر ، قال خالد : « ما لقيتُ قومًا كقومٍ لقيتُهم من أهل فارس ، وما لقيتُ من أهل فارس قومًا كأهل أُلَّيْس » . ونذر خالد لله أن يُجري نهرًا

من دمائهم إنْ مَنَحَهُ الله النصر عليهم ، فقال : « اللهم إنّ لك عليّ إن منحتَنا أكتافهم ، ألَّا أستبقي منهم أحدًا قدرْنا عليهم حتى أُجرِيَ نهرهم بدمائهم » . وانتاب الفرس والنصارى الذعرُ والخوفُ عندما رأوْا ثبات المسلمين وشدَّة ضرباتهم ، وركنوا إلى الفرار ، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون ، ونادى منادي خالد حتى يفيَ بنذره : الأسر ، الأسر ، لا تقتلوا إلَّا مَنْ امتنع . فأقبلت خيولُ المسلمين بهم أفواجًا مستأسرين يُساقون سوْق الأنعام ، فجمعهم خالدٌ وقد حَبَسَ الماء عن النهر ، فوكَّل بهم رجالًا يضربون أعناقهم في النهر يومًا وليلةً ، على رجاء أن يسيل النهر بدمائهم ، وهنا قال القعقاع وغيره لخالدٍ : لو أنك قتلتَ أهل الأرض ، لم تُجْرِ دماءهم ، ولكنْ أرسِلْ على الدماء الماءَ ، فيجري النهر دمًا لتبرّ بيمينك . فعمل خالد بمشورة القعقاع ، وأُعيد الماء إلى النهر ، فجرى أحمر قانيًا ، فسُمِّي لذلك : نهر الدم ، وعُرف بذلك إلى قرونٍ طويلة . قالوا : وكانت على النهر طواحين تُدار بالماء ، فطحنت بالماء وهو أحمر اللون قوت العسكر ثمانية عشر ألفًا - أو يزيدون - ثلاثة أيامٍ ، وأكل المسلمون طعامَ الفرس الذي وضعوه على البُسُط ، بعد أن قتلوا من الفرس ونصارى العرب سبعين ألفًا ، أكثرهم من أهل « أمغيشيا » ، وَزُفَّ خبر النصر إلى الصِّدِّيق ، فتوَّج خالدًا بشهادةٍ من أرقى الشهادات ، وحَسْبُكَ بها من شهادةٍ ، فهو لا يرى لخالدٍ نظيرًا في عبقريته وشجاعته ، ولا نظير له في عسكريته .

أعَجَزَتِ النِّساءُ أن يُنشِّئن مِثْلَ خالدٍ :

قال الصِّدِّيق في خالد - وهو يخطب في الناس بعد نصر أُلَّيْس -: « يا معشر قريش ، عدا أسَدُكم على الأسدِ ، فَغَلَبَهُ على خراذيله[1]، أعجزتِ النساء

(١) أطايب اللحم المقطّع الوافر ، وخردل وخرذل بمعنى واحد .

أن يُنشّئن مثل خالد !! » .

« يوم أمغيشيا » نَصَرَ اللهُ خالدًا بالرُّعب :

كانت أمغيشيا أعظم وأهمّ من أُلَّيْس ، وكانت على بُعْد أربعين كيلو مترًا من أُلّيْس ، فتملَّكهم الرعب ، وفرَّ أهلها من مدينتهم خوفًا من خالد ، وتركوا وراءهم كل شيء قال ابن جرير : « لمَّا فرغ خالد من وقعة أُلَّيْس ، نهض فأتى أمغيشيا ، وقد أعجلهم عمّا فيها ، وقد هرب أهلُها ، وتفرّقوا في السَّواد ، فأمر خالدٌ بهدم أمغيشيا وكل شيء فيها ، وكانت مِصْرًا كالحيرة . ولم يُصِبِ المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغيشيا مِثْل ما أصابوا في أمغيشيا ؛ بلغ سهمُ الفارس ألفًا وخمسمائة سوى النَّفْل الذي نفله أهل البلاء » .

معركة المقر واستسلام الحيرة :

قدّر صاحب الحيرة ومَرْزُبانُها (أزاذيه) أن خالدًا لن يتركه ، وأنه سيركب إليه النهر ، فقدَّم ابنه ، وأمره أن يسدّ قناطر الفرات ، ويفتح للروافد التي تمدّه مسالك جديدة ، حتى يجفّ النهر وتتوقّف السفن عن الحركة . وكان خالد قد قسّم جيشه إلى قسمين ؛ القسم الأول : وهم المشاة تحملهم السفن مع المُؤَن . والقسم الثاني : وهم الفرسان وراكبوا الإبل . وسارت السفن شمالًا ، ولم يَفْجَأْ المسلمين إلا السفن جوانح ، ولم تفُتّ المفاجأةُ المزعجة في عضُد أبي سليمان بعد أن أخبره الفلاحون : أن الفرس قد فجَّروا الأنهار ، فسلك الماء غير طريقه ، فتعجَّل خالد في جريدة من الخيل نحو ابن صاحب الحيرة ، فباغتَ خيلَهُ وهم على فم العتيق – مَصَبّ الفرات الأصلي – وهم آمنون من الغارة في تلك الساعة ، فاقتتلوا بموضع المقر – فم العتيق – حتى هزمهم بعد أن قتل ابن صاحب الحيرة ، وأعاد الماء يجري في النهر ، فعادت سفن المسلمين إلى المسير ، وقصد خالد الحيرة ، فوجد أهلها متحصِّنين داخلها، بعد أن فرَّ المَرْزُبان صاحبُها ، فعسكر خالد بين

« الغريين »[١] والقصر الأبيض ، وأجال خيله في عَرَصَاتهم ، وبعد قتالٍ افتتح المسلمون الدور والدّيرات ، وأكثروا القتل ، فنادى القسّيسون والرّهبانُ أهلَ الحصون : يا أهلَ القصور ، ما يقتلنا غيركم !! فنادى أهلُ القصور : يا معشر العرب ، قد قَبلنا واحدةً من ثلاثٍ فكفُّوا عنّا . وفاوضوا خالدًا ، وأقروا بدفْع الجزية مائة وتسعين ألف درهم ، تُقبل كل سنة ، وأصبحت عاصمة المناذرة وعاصة الأقاليم وعاصمة كسرى الثانية تحت سيطرة المسلمين وحمايتهم.

ولِيُّ اللهِ خالدٌ يشرب السُّمَّ فلا يضرُّه ، ويتعجَّب منه ويُبْهَرُ حكيمُ نصارى العرب :

عن قيس : أُتِي خالدٌ بِسُمٍّ فقال : ما هذا ؟ قال : سُمّ . فَشَرِبَهُ[٢].

وفي أُمّهات كتب التاريخ : أن ابنَ بقيلة حكيم نصارى العرب ، ومعمّرهم وأرجح قومه عقلًا ، لمّا دخل على خالدٍ ، اصطحب معه إلى مقر قيادة خالد خادمًا يحمل كيسًا صغيرًا في وسطه ، فتناوله خالد وقال : ما في هذا الكيس ؟ ونشر ما فيه في راحته ، ثم قال : ما هذا يا عمرو ؟ فقال عمرو : هذا والله سُمُّ ساعةٍ . فقال خالد : وَلِمَ تحتقبُ السُّمَّ ؟- وكان رأسَ أهل الحيرة وكبيرَ الذين فاوضوا خالدًا من أهل الحيرة - قال عمرو : خشيتُ أن تكون على غير ما رأيتُ من العَدْل ، وقد أتيتُ على أجلي[٣] ، والموت أحبُّ إليَّ من مكروهٍ أُدخله على أهل قريتي . فأخذ خالد السُّمّ المذكور ، وتلا هذا الدعاء : « إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها ، بسم الله خير الأسماء ، رب الأرض والسماء ، الذي لا يضرّ مع اسمه داء ، الرحمٰن

---

(١) بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة .

(٢) صحيح . رواه أحمد في « فضائل الصحابة » ، والطبراني في الكبير .

(٣) وكان سِنُّه عند التفاوض ثلاثمائة وخمسون سنة .

الرحيم » . ثم وضع السم في فمه ، وبادروه ليمنعوه ، ولكنَّه قد سبقهم فابتلعه ، وانتظروا ساعةً ليصرع السم خالدًا ، فمضت ولم يضرّ السم خالدًا ، كيف لا وهو من أكابر أولياء الله المتقين ، وسيد المجاهدين في الشام والعراق ، فقال عندها ابنُ بقيلة : « والله يا معشر العرب لتملكُنَّ ما أردتم » .

أهل السَّوَاد يُصالحون خالدًا على الجزية :

ومثلما فعلَ أهلُ الحيرة ، صالحَ أهلُ السواد من الفرس ووفودُ الدهاقين ، خالدًا على دَفْع الجزية مليونين من الدراهم سنويًّا للمسلمين .

إعجاز عسكري : فتح خالد ثُلُثي العراق خلال أربعين يومًا :

لله دَرُّكَ يا خالد .. تمَّتْ لجيوشه السيطرة على أكثر من ثلثي العراق خلال أربعين يومًا عام ١٢ هـ ، فيما بين أواخر محرم وأوائل ربيع أول ، وهذا إنجاز عسكري عظيم مدهش ، تعجز اليوم عن تحقيق مثله أعتى الجيوش المدجَّجة بالصواريخ والطائرات والأساطيل والدبابات ... فَبُورِكَ زَنْدُكَ وبورك ساعدُك ، وبورك سيفك ورمحك ، وبورك جوادك ، وبوركتْ همَّتُك أعلى الهِمَم وأشرفُها وأنبلها وأعزُّها وأغلاها .

معركة الأنبار وفَقْءُ ألفِ عَيْنٍ من الكفار :

سار خالد إلى الأنبار ، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، وكان من شجعان البادية ، فلمّا بلغها طاف بها ، فرأى أهلها قد تحصَّنوا بها ، وخندقوا عليها خندقًا عميقًا عريضًا ، وأشرفوا من حصونهم ، فأنشب خالدٌ القتال ، وكان قليل الصبر عنه ، وتقدَّم إلى رماته ، فأوصاهم قائلًا : « إني أرى أقوامًا لا علْم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ، لا توخّوا غيرها ، فارموا رشْقًا واحدًا ثم تابِعُوا » . وانطلقتِ السهام دفعةً واحدةً ولها أزيزٌ فأصابت مراميها ، ثم

تتابعَ الرَّمْيُ ، فأُصيب الرّماة من العدوّ الذين كانوا فوق جدران الحصن بكارثةٍ ، إذ فقأتْ سهام المسلمين منهم ألفَ عينٍ ، ولذلك سُمِّيتْ موقعةُ الأنبار « ذات العيون » . واضطرب أهل الحصن وماجوا متصايحين : ذهبت عيون أهل الأنبار . وراسل مَرْزُبان الأنبار « شيرا زاد الفارسي » خالدًا بشروطه التي رفضها خالد ، وقرر خالد أن يردم الخندق ، ولكن بماذا ؟ أمر خالد أن ينحر المسلمون الإبل الهزيلة العجاف ، ويقذفوا بها في نقط الخندق الضيِّقة حتى تطمرها ، فإذا طمرتها عبر الجيشُ على الجمال المنحورة ، ونجحت الحيلة ، واستقام الجسر اللحمي ، وعبر عليه الجيش مشاةً وركبانًا إلى أبواب الأنبار ، واستسلمت الأنبار لخالد .

خالد يختطف القائد العامَّ للنصارى من قلبِ صَفِّهِ في معركة عين التَّمْر ويأسره أوَّلَ المعركة :

كان على عين التمر « مهران الفارسي » في جمعٍ عظيم من العجم والعرب ، وكان على العرب عقَّة بن أبي عقة ، وحين سمعوا بمسير خالدٍ إليهم ، قال عقة لمهران : « إن العرب أعلم بقتال العرب ، فَدَعْنَا وخالدًا » . قال : « صدقت ، لعمري أنتم أعلم بقتال العرب » . وكانت قوات عقّة في العراء ، وقوات مهران في الحصن حين قدم خالد على تعبيةٍ ، فقال لمجنبتيْه : « اكفوني ما عنده فإني حاملٌ عليه » . ووكّل بنفسه حوامي ، وأراد خالد أن يفاجئ قائد النصارى لا بقتْله ، ولكنْ بأَخْذه أسيرًا ؛ كي يفهم ذلك المغرور أيّ رجال حربٍ ومهارة هم المسلمون ، ثم ليُدخل الرعب والفزع في قلوبهم .

قد كان المتَّبع في الحروب المبارزة ، فكيف بخالدٍ عاشق المفاجآت يريد ما هو أعظم من المبارزة ؛ وهو اختطاف قائد الأعداء وانتزاعه من قلب صفوف جيشه . وانقضَّ خالد على عقّه كما ينقضُّ الصقر على فريسته ،

وعقّة مشغولٌ بتسوية صفوف جيشه ، واندهش العرب المتنصِّرة للجريدة الصغيرة من الخيل التي خرجت تركض نحوهم ، وماذا عسى أن يفعل عشرة رجال مع عشرات الألوف من قوم عقَّة !! وَبَيْنَا هم غارقون في دهشتهم ، إذا بخالدٍ يتجه نحو عقَّة يحتضنه ، ثم يحمله ويعود به حيًّا - كالبرق - أسيرًا إلى صفوف المسلمين . وتجمَّدتِ الدماء في عروق المُتَنَصِّرة وهي ترى انتزاعَ خالدٍ لعقّة من بينهم في أسلوب صاعقٍ مفاجئ ، ما كان أحدٌ يتوقّعه ، وحَمْلَهُ بين يديه على فرسه كأنه طفل رضيع ، فلم يتحمَّلوا الصَّدْمة ، واختطاف قائدهم من بين أيديهم وهم ينظرون إليه ، فلاذوا بالفرار ، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون ، وقد كثُر من بينهم الأسرى الذين استسلموا بدون مقاومة ، وهرب الباقون ودخلوا حصن عين التمر ، ونجا القائد الفارسي مهران ، وهرب من الحصن ومعه العناصر الفارسية المسلحة . وهكذا دمَّر خالدٌ جيشًا بأكمله دون أن يخسر جنديًّا واحدًا . وفتح خالد عين التمر بعد أن نزلوا على رأي خالد ، فقتل خالد مُقاتلتهم ، وبدأ بعقّة فأُعدِم ثم رمى بجثته على الجسر ليكون عبرةً لغيره ، ثم أعدم نائبه ، وعمرو بن الصعق ، ثم نفّذ حكم الإعدام في كلِّ مَنْ حمل السلاح في وجهه ممَّن تحصَّن بعين التمر ، وسَبَى النساء والذَّرارِي .

لله دَرُّكَ يا خالد .. « لا أَحَدَ أيْمَنُ طائرًا منك ، ولا يرى قومٌ وجه خالد - قلُّوا أو كثُروا - إلّا انهزموا أمامه » . هذا قول ملك دومة الجندل أُكيدر ... والفضل ما شهدتْ به الأعداءُ .

ولله دَرُّ فارسنا حين يبعث إلى عياض بن غنم : « من خالد إلى عياض ، إياك أريد » .

لَبِّـثْ قليلًا تَأْتِكَ الحَـلَائِبْ　　　يَحْمِلْنَ آسادًا عليها القاشبْ

كتائب تتبعُها كتائِبْ

خالد صاحب المفاجآت ومعاركه اللّيْليّة :

قد كان خالد من طرازٍ نادر ، فهو وإن كان دقيقًا في رسم خطة المعارك ، إلا أنه يمتاز أيضًا بسرعة التنفيذ وحُبِّ المخاطر ، والقُدرة الفائقة على ابتكار أساليب مُفاجِئة للعدو ، ولا أضرَّ على الجيوش - وإن كانت عظيمةً - من أن تتعرَّض للهجوم بغتةً وبأسلوبٍ مفاجئ وهي على غير استعداد . فمشاهير القادة العظام حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ، كانوا ينفرون من القتال الليلي ، ويذهبون إلى عدم جدواه ، ويقرّر « فردريك الأكبر » أنه يستبعِد دائمًا التفكير في القيام بأي عمليةٍ ليليَّةٍ ؛ نظرًا لما ينشأ عنها من اضطراب وانحلال في الضبط بين الصفوف للجنود ، نتيجة لتعذُّر الرؤية بين الضُّبّاط ورجالهم ، ويقرر « بلوفر » أنه يخشى العمليات الليلية .

وكان القتال ليلًا قليلًا ما يلجأ إليه المحاربون في ذلك العصر . ولكنَّ خالدًا هو خالد .

معركة المصيّخ :

أبلغ خالد خُطَّته إلى قادة الفرق المحتشدة ، وأخبرهم بكتمان الخطة حتى على جنودهم ، وأخبرهم بأن الهجوم سيكون بعد منتصف الليل بساعتين ، فالقمر لا يطلع في مثل هذا الوقت إلا قبل منتصف الليل بقليل ، وقبل طلوع القمر وفي غَلَس الظلام ، قام خالد بتطويق المصيّخ على شكل دائرةٍ ، دون أن يشعر بوجودها أهل المصيّخ الذين كانوا نيامًا ، وَمَنْ ظلّ مستيقظًا كان يحتسي الخمر في عرس حرقوص بن النعمان أحد زعمائهم . وقال لهم حرقوص : « اشربوا شراب وداعٍ ، فما أرى أن تشربوا بعدها ، هذا خالد في عين التمر ، وجنوده بحصيد ، وقد بلغه جَمْعُنا وليس بتاركنا » . ولم يعلم

أن جيوش خالد قد طوّقتهم في ظلام الليل في انتظار طلوع القمر . ثم أنشد حرقوص :

أَلَا فاشربوا مِنْ قَبْلِ قاصمةِ الظَّهْرِ ... بُعَيْدَ انتفاخِ القومِ بالعَسْكَرِ الدّثْرِ
وَقَبْلَ منايانا المُصيبةِ بالقـدْرِ ... لِحِينٍ لَعَمْرِي لا يزيد ولا يحْرِي
ألا فاسقياني قَبْلَ جيشِ أبي بكرٍ ... لعلَّ منايانَا قـريبٌ ولا ندري
أظنُّ خيول المسلمين وخالدًا ... ستطْرُقُكم عند الصباحِ على البشْرِ
فهل لكمو بالسير قَبْلَ قتالهمْ ... وقبل خروج المُعصراتِ من الخِدْرِ
أريني سلاحي يا أُميمةُ إنني ... أخافُ بياتَ القومِ أو مطلعَ الفجرِ

وكان ما قال ، فعندما غمر القمر بنوره الأرض ، شَنَّ خالدٌ وقادته الهجوم الصاعق من جميع الجهات ، وكان حرقوص أوَّل الذين قُتلوا ، فقد أطاح المسلمون برأسه وهو سكران ، وسقط في جفنة الخمر التي كانوا يشربون منها ، وقُتل جميع أبنائه ، وصحا النائمون من أهل المصيّخ على وقع السيوف ، وانهزم وقُتل الذين استعدّوا للقاء خالد ، وكانت غارة موفّقة ، وأُبيد أكثرُ أهل المصيّخ ، ولم يَنْجُ منهم إلا القليل .

الثّني والزميل :

وبعدها بأربع ليالٍ ، طَبَّقَ خالدٌ نفس خطته في المصيخ على الثني ، فأباد رجال الثني عن آخرهم وسبوا كلَّ النساء . وفعل بالزميل ما فعل بالثني والمصيّخ ، وقسم جيشه فرقًا ثلاثًا ، وأحاط بالزميل من جهاتها الثلاث ، وباغتهم عند بزوغ القمر ، وأوقع المسلمون فيهم السلاح ، فأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمةً لم يقتلوا مثلها ، ونجا مَنْ أفلت من الموت تاركين نساءهم وأطفالهم غنيمة للمسلمين .

* * *

خالد هازم الروم والفرس ونصارى العرب في معركة الفِراض الخامس عشر من ذي القعدة عام اثني عشرة هجرية :

اتَّحد النقضيان الفرس والروم لقتال خالدٍ ، فقد كاتبَ الرومان الفرس والعرب المتنصِّرة الموتورين ؛ للاندماج في جيشٍ واحدٍ للقاء خالد ، واحتشد الجميع في جيشٍ لا يقلّ عدده عن مائة وخمسين ألفًا ، وكان عدد المسلمين لا يزيد على عشرين ألفًا في الفِراض بحدود الشام ، ونصحهم العقلاء بأن لا يُقاتلوا خالدًا وقالوا لهم : « احتسِبُوا ملككم !! هذا رجل يقاتل عن دينٍ وعقلٍ وعلمٍ ، والله ليُنصرنّ ولتُخذَلُنَّ » . وخيّر الروم والفرس والمتنصِّرة خالدًا بين أن يعبر الفرات إليهم ، أو يخلّي عنهم فيعبروا هم الفرات ، فقال لهم : « بل اعبروا إلينا » . فطلبوا من خالد أن يتنحَّي عن موقعه حتى يعبروا وتنشب المعركة حيث تنحّى . فقال خالد : « لا نفعل ، ولكن اعبروا أسفل منا ، ولن نتعرَّض لكم حتى تستكملوا العبور » . ولم يعبر خالدٌ ميمونُ النَّقيبة حتى تكون الصحراء خلف ظهره ، وتصاعد لَهَبُ القتال ، وبدا الاضطراب واضحًا على القوات المشتركة ، وبدأت كفَّة الميزان ترجح لصالح العسكر الإسلامي ، ولحظ خالد ذلك ، فأصدر أمره إلى جنده بأن يُضاعفوا حملاتهم عليهم ، فصاح فيهم : « ألحوا عليهم ولا تُرفِّهوا عنهم » . فصار المسلمون يحصدونهم حصدًا ، ولجأ فرسان المسلمين إلى أسلوبٍ رائع في القتال ، إذ صار هؤلاء الفرسان يحشرون الزمرة من الحُلَفاء بالرِّماح ، فإذا جمعوهم ، قتلوهم عن آخرهم ، ثم عمَّتِ الهزيمة جيوش الحلفاء الثلاثة ، فأخذتْهم سيوفُ المسلمين من كل ناحيةٍ ، فقتل المسلمون منهم يوم الفِراض - في المعركة وفي المُطاردة بعدها - مائة ألفٍ ، في روايات جميع المؤرِّخين . وكانت معركة الفراض خاتمة معارك خالد في العراق .. وما أحلاها من خاتمة .

يقول القعقاع بن عمرو عن هذه الموقعة :

لقينا بالفِراضِ جموعَ رومٍ وفُرْسٍ عَمَّهَا طُولُ السَّلامِ
أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ لمَّا التقيْنا وبيَّتْنَا بِجَمْعِ بَني رزامِ
فما فَتِئَتْ جنود السِّلْمِ حتى رأينا القومَ كالغَنَمِ السَّوَامِ

قال أهلُ التاريخ عن خالد : « كان الفرس قد هابوه هيبةً شديدةً ، وكان خالدٌ إذا نزل ، نزل عذابًا من عذاب الله عليهم ولَيْثًا من اللُّيُوثِ » .

وأمر الصِّدِّيقُ خالدًا بالتَّوجُّه لقتال الروم في الشام وَتَرْك العراق ، وأثنى على خالدٍ ثناءً عطرًا ؛ بأن أحدًا لن يستطيع قهر الروم وإنزال الهزيمة بهم إلا خالدٌ ، فكتب إليه : « أمّا بعد ، فَدَعِ العراق وخلّفه في أهله الذين قدمتَ بهم عليهم وهم فيه ، وامضِ مُختفيًا في أهل القوة من أصحابك ، الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك في الطريق ، حتى تأتي الشام ، فتلقَى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين ، فإذا الْتقيتم فأنت أمير الجماعة . والسلام » . وعند الطبري : « أن سِرْ بالمسلمين حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشْجَوْا ، وإياك أن تعود لمثلها[1] ، فإنه لم يُشجِ الجموع من الناس - بعون الله - شجاك ، ولم ينزع الشجيُّ من الناس نَزْعك ، فَلْيَهْنِكَ أبا سليمان النِّيَّة والحظوة ، فأتْمِمْ يُتمم الله لك ولا يَدْخُلَنّكَ عُجْبٌ فتخسر وتخذل ، وإياك أن تُدِلَّ بعملٍ فإن الله له المَنُّ ، وهو وليُّ الجزاء »[2].

خالد قمَّة في الطاعة والانضباط العسكري :

لله دَرُّكَ يا خالد .. ما كدتَ تذوق حلاوة نصرك ، ويذيع صِيتُكَ بين أعداء الله الفُرس ويرهبون اسمك .. وبينك وبين المدائن التي تتوّج نصرك

---

(١) يقصد الحج بدون إذن الخليفة .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٣٨٤ .

قاب قوسين أو أدنى ، حتى يصدر أمرُ الصِّدِّيق إليك بِتَرْك العراق ، فلم تعتذر للخليفة ولا حتى تُناقشه ، وحينما قال لك زعيم البدو وفارسُهم دسين العجلي : « أصلحك الله ، والله ما جعل الله في الشام من العراق خلفًا للعراق ، أكثر حنطةً وشعيرًا وديباجًا وحريرًا وفضةً وذهبًا ، وأوْسَع سعةً وأعْرَض عرضًا ، والله ما الشام كلّه إلا كجانبٍ من العراق » . فرردت - لله دَرُّك - وما تُريد إلّا عزَّ الإسلام : « إن بالشام أهل الشام ، وقد تهيَّأتُ لهم وتسيَّرت ، فإنَّما أنا مُغيثٌ وليس لهم مَدَد ، فكونوا أنتم على حالتكم التي كنتم عليها ، فإن نفرغ ممَّا أُشخِصنا إليه عاجلًا ، عجلْنا لكم ، وإن أبطأتُ ، رجوتُ أن لا تعجزوا ولا تَهِنوا ، وليس خليفة رسول الله ﷺ بتاركٍ إمدادكم بالرجال حتى يفتح الله عليكم هذه البلاد ، إن شاء الله تعالى » .

حـرب المفاجـآت :

إذا أردنا كلمةً جامعةً لحرب خالدٍ مع الفرس ، فنكاد نجزم بأخْذ خالدٍ بزمام المُباغتة والمُفاجآت التّكتيكيّة فأربكتْ صفوفَ أعدائه ... نرى ذلك واضحًا في تغيير مكان اللقاء من كاظمة إلى الحفير ، إلى كاظمة مرة ثانية ، ثم مفاجآته لعدوه في كمين الولجة ، وفي اقتحام خندق الأنبار بردمه بالإبل العجاف ، وفي مفاجأة « عقّة » في عين التمر باحتضانه وحمْله إلى صفوف المسلمين أسيرًا . فهذا أسلوب في القتال لم يكُن مألوفًا ، وفي الهجوم اللَّيلي على عدوّه وكسبه في المصيّخ وفي الثني وفي الزميل ، في سرعةٍ وخفَّةٍ ، لم تَدَعْ لهم فرصةً أو مجالًا للتَّصرُّف أو القتال . رضي الله عن خالد ، لقد كان أسدًا إذا احتاج الأمر إلى تأسُّد ، ثعلبًا إذا احتاج الأمر إلى ثعلبة ، وهكذا الحرب مكْرٌ وخدعة وقوة . « بارز خالد يوم « الولجة » رجلًا من أهل فارس يَعْدِل ألف رجلٍ فقتله ، فلمَّا فرغ منه اتَّكأ عليه ودعا ....

بغدائه »[١].

ورضي الله عن عمرو بن العاص ، القائل في مدح خالد : « له أناةُ القَطاةِ ووثوبُ الأسد »[٢].

وفي واقعنا المعاصر :

تحطَّمتِ الطائرات عند الفجر :

ينقل الدكتور عبد الله عزام في إحدى رسائله ، عن المستشار العسكري للقيادة الجوية في ٦٧ وكان يهوديًّا ولا يعرفون .. وهو صاحب كتاب « وتحطَّمت الطائرات عند الفجر » وقد طُبع بأكثر من لغةٍ : « كيف أنهم أعدوا حفلة ماجنة لكبار قُوَّاد القوات الجوية وطياريها مع بنات الهوى والراقصات ، ليلة الخامس من يونيو ٦٧ ، وكيف أنهم أسموها الميج والميراج المصري والإسرائيلي ، وانتصر الميج المصري على الميراج الإسرائيلي ... أي الطيارون المصريون الغارقون في الفاحشة على الراقصات وبنات الهوى ، واستمرَّت إلى قُبيل الفجر ، وعند الفجر كان ضرب المطارات لمَّا نام العصاة في وحلهم ، وبعد أن تمَّ له ما أراد ، هرب اليهوديُّ مع أَول طائرة » .

في الطريق إلى الشام : قطع البرية السماويَّة في خمس ليالٍ :

قال الذهبي عن خالد بن الوليد : « تأَمَّر في أيام النبي ﷺ ، واحتبس أدراعه ولأْمته في سبيل الله ، وحارب أهل الرِّدَّة ومسيلمة ، وغزا العراق ، واستظهر ، ثم اخترق البرية السماوية ، بحيث إنه قطع المفازةَ من حدِّ العراق إلى أوَّل الشام في خمس ليالٍ في عسكرٍ معه ، وشهد حروب الشام ، ولم

---

(١) الطبري ٢ / ٥٦٠ .

(٢) اليعقوبي ٢ / ١٠٨ .

يبق في جسده قيد شبرٍ إلا وعليه طابع الشهداء »[١].

فعدَّ من مناقبه وأعماله قطْع البرية السماوية والمفازة من العراق إلى الشام في خمسِ ليالٍ .

أرسل خالد قبل قطْعه المفازةَ كتابًا سبقه إلى المسلمين بالشام وإلى أبي عبيدة ، وكان من قوله « ..... إن كتاب خليفة رسول الله ﷺ أتاني يأمرني بالمسير إليكم ، وقد شمّرتُ وانكمشتُ[٢] ، وكأنّ خيلي قد أطلّت عليكم في رجال ، فأبشروا بإنجاز موعود الله وحُسن ثوابه . عصمنا الله وإياكم بالإيمان ، وثبّتنا وإيَّاكم على الإسلام ، ورزقنا وإيّاكم حُسن ثواب المجاهدين والسلام عليكم » . وكتب إلى أبي عبيدة : « بسم الله الرحمٰن الرحيم . لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إلـٰه إلا هو . أما بعد ، فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة في دار الدنيا . لقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالمسير إلى الشام ، وبالمقام على جندها ، والتّولّي لأمرها ، ووالله ما طلبتُ ذلك ولا أردتُه ، ولا كتبت إليه فيه ، وأنت - رحمك الله - على حالك التي كنت بها ، لا يُعصى أمرك ، ولا يُخالف رأيك ، ولا يُقطع أمرٌ دونك ، فأنت سيِّدٌ من سادات المسلمين ، لا يُنكر فضلُك ولا يُستغنى عن رأيك ، تمَّمَ الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار ، والسلام عليك ورحمة الله » . فقال أبو عبيدة : « بارك الله خليفة رسول الله ﷺ فيما رأى ، وحيَّا خالدًا بالسلام » .

سلك خالد أقصر طريق أمين ؛ من ناحية عدم وجود مقاومة معادية

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) أسرعت .

كبيرة فيه ، وهو طريق الحيرة - دومة الجندل - وادي سرحان - قراقر - وهناك استشار أصحابه قائلًا : « كيف لي بطريقٍ أخرج فيه من وراء جموع الروم ، فإني إن استقبلتها ، حبستني من غياث المسلمين ؟! » . فأجابوه : لا نعرف إلَّا طريقًا لا يحمل الجيوش ، إنما يأخذه الفذُّ الراكب ، فإياك أن تُغرِّر بالمسلمين . فعزم عليهم ، فلم يُجبه إلى ذلك غير رافع بن عميرة الطائي ، على تهيُّبٍ شديد ، فقام خالد في أصحابه وقال : « لا يختلفنّ هَدْيُكم ، ولا يضعفنّ يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قدْر النِّيَّة ، والأجر على قدر الحِسبة ، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيءٍ يقع فيه مع معونة الله له » . فكان رد أصحابه عليه : أنت رجلٌ قد جمع اللهُ لك الخير ، فشأنك[١]. فقال خالدٌ لدليله رافع : « انطلق بالناس » . فقال رافع : إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأنفال ، والله إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه ، إنها لخمس ليالٍ لا يصاب فيها ماء . فأمر خالد أصحابه أن يستكثروا من الماء ، وأمر صاحب كل خيل أن يعدّ لها الماء بقدْر ما يسقيها ، وجمع عددًا من الإبل السِّمان ظمَّأها ، حتى إذا أجهدها عطشًا أوردها الماء عَلَلًا بعد نَهَلٍ[٢] ، فلمَّا امتلأت صرَّ آذانها وشدَّ مشافرها لئلا تجترّ[٣]. وانطلق خالد بالجيش ، ينزلون كل يوم ، فيأكل الرجال ويشربون ممَّا معهم من الماء ، ثم يشُقُّون بطون عشرة من الإبل ، ويُخرجون الماء منها ويسقونه الخيلَ ، حتى اليوم الخامس ، حيث أدركوا الرِّيّ . لما كان اليوم الخامس نادى خالد دليله : « ويحك يا رافع ، ما عندك ؟ » . وكان رافع أرمد ، فأدار رأسه يمنة ويسرة ، ثم قال : أيها الناس ، انظروا علمين

---

(١) تاريخ الطبري (٢ / ٦٠٣) ، والكامل لابن الأثير (٢ / ١٥٦) .

(٢) العَلَل : الشَّرْبَة الثانية ، والنَّهَل : الشربة الأولى .

(٣) تاريخ الطبري ٢ / ٦٠٣ ، والكامل ٢ / ١٥٦ ، وفتوح الشام للواقدي ١ / ١٤ .

كأنهما ثديان . فلمّا أتوهما ، وقف رافع عليهما وقال : انظروا ، هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ قالوا : ما نراها . فأمرهم بالتفتيش عليها ، فلمَّا وجدوها كبَّروا وكَبَّر رافع ، ثم قال : احفروا في أصلها . فحفروا ، فنبع الماء من عينٍ ، فشرب الناس حتى رووا ، فقال رافع : والله ما وردتُ هذا الماء قطُّ إلَّا مرّةً واحدة مع أبي وأنا غِلام(١) .

لله دَرّك يا خالد .. كم كانت كفاءة دليلك الصحابي ، ولله جرأتك حين تُقدم على ما يتهيّب عنه الأدِلّاء .. فللّه بركتك .. ولله دَرّك من سيِّدٍ من ساداتِ أولياء هذه الأمة .

خالدٌ لها ، والله لأُنْسِيَنَّ الرُّومَ وساوسَ الشيطانِ بخالد بن الوليد :

كلماتٌ عَطِرَةٌ قالها الصِّدِّيق عن خالدٍ ، حين اشتدَّ الكرب على المسلمين بالشام ، وذلك لكثرة الروم وحُلَفَائهم الهائلة ، التي بلغت ربع مليون مقاتل ، بينما جيوش الإسلام كلها لا تزيد على اثنين وثلاثين ألفًا ، وأرسل أبو عبيدة إلى أبي بكر الصِّدِّيق : « وبعد ، فإن الروم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب ، قد أجمعوا على حرب المسلمين ، ونحن نرجو النصر ، وإنجاز موعود الرب تبارك وتعالى وعادته الحسنة ، وأحببتُ إعلامك لترينا رأيك » . فقال الصِّدِّيق : « خالدٌ لها ، والله لأُنسينّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »(٢) .

فتح تَدْمُر :

مرّ خالد في طريقه بتدمر ، فتحصَّنوا منه ، فأحاط بهم من كل جانبٍ ،

---

(١) أسد الغابة ٢ / ١٥٥ ، والاستيعاب ٢ / ٤٨٢ ، والطبري ٣ / ٦٠٣ - ٦٠٤ ، وابن الأثير ، ٢ / ١٥٦ .
(٢) الطبري ٢ / ٦٠٢ .

وأخذهم بكل مأخذ فلم يقدر عليهم ، فقال لهم : « والله لو كنتم في السحاب ، لاسْتَنْزَلْنَاكُم ، ولَظَهَرْنَا عليكم ، وما جئناكم إلَّا ونحن نعلم أنكم ستفتحونها لنا ، وإن أنتم لم تُصالحوني هذه المرة لأرجعنَّ إليكم لو قد انصرفتُ من وجهي هذا ، ثم لا أرتحل عنكم حتى أقتل مُقاتلتكم وأسبي ذراريكم » . ثم ارتحل عنهم فمضى ، واجتمع عظماؤهم ، فقال بعضهم لبعض : « لا نرى إلا أن هؤلاء القوم الذين نزلوا بكم ، هم الذين كنّا نتحدّث أنهم يظهرون علينا ، فافتحوا لهم وصالحوهم » . فبعثوا في إثر خالد ، فرجع إليهم ، ففتحوا له مدينتهم وصالحوه .

أيّ عزٍّ عزُّك يا خالد !! ترحل ماضيًا عنهم ، فيُرسلون إليك حتى ترجع ويُصالحوك ؛ خوفًا منكَ ومن تهديدك .

فتح القريتين وحوارين :

وأتى خالد القريتين ، فقاتله أهلها فظفر بهم ، وغنم منهم . ثم مرَّ على حوارين فخافه أهلها وهابوه ، وتحرَّز أكثرهم منه وتحصَّنُوا ، فأغار عليهم واستاق مواشيهم ، وقتل رجالهم ، وأقام عليها أيامًا ، فبعثوا إلى مَنْ حولهم فجاءهم مددان ، أحدهما من بَعْلَبَك ، والآخر من بُصرى ، وكلٌّ منهما أكثر من ألفين ، فلمَّا رآهم خالدٌ ، صفَّ صفوفه ، ثم خرج في مائتين من الفرسان ، فحمل على مدد بعلبك ، فقصف بعضهم على بعض ، وأثخن فيهم قتلًا ، فما صمدوا ساعة حتى انهزموا ، وحمل على أهل بُصرى فما ثبتوا له إلا قليلًا حتى انهزموا إلى المدينة ، وخرج أهل حوارين فرموا المسلمين بالنّشاب ، فحمل عليهم خالد ، وأعادهم إلى حوارين منهزمين ، ورجع عنهم ذلك اليوم . فلمَّا كان اليوم التالي ، خرج أهل حوارين ليقاتلوا المسلمين ، فهاجمهم خالد فهزمهم ، فلمَّا رأوْا أنهم لا طاقة لهم به ، صالحوه . قال علج من أهل حوارين – وكان من شجعانهم وأشدّائهم – : « والله لخرجنا إلى خالد بعدما

جاءنا مدد بعلبك وأهل بُصرى بيوم ، فخرجنا إليه ، وإنَّا لأكثرُ من خالد وأصحابه بعشرة أضعفاهم ، فما هو إلَّا أن دنونا منهم ، فثاروا في وجوهنا بالسيوف كأنهم الأُسْد ، فهزمونا أقبح هزيمة ، وقتلونا أشدّ القتل ، فما عُدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم . وقد رأيتُ منَّا رجلًا كُنَّا نعدُّه بألف رجل ، وكان يقول : لئن رأيت أميرهم لأقتُلَنَّه . فلمَّا رأى خالدًا قال له أصحابُه : هذا خالدٌ أمير القوم . فَحَمَلَ عليه العِلْجُ ، وإنّا لنرجو لبأسه وشدَّته أن يقتله ، فما هو إلا أن دنا منه ، فضرب خالدٌ فرسه ، فقدمه عليه ، وكان خالد إذا كان عند الحرب ، فكأنه يربو ويعظُم ويَهُول مَنْ ينظر إليه ، فاستقبل العلجَ فاستعرض وجهه بالسيف فضربَهُ ، فأطار نصفَ وجهه وقِحْفَ رأسِه فقتله . وانهزمنا أقبح هزيمةٍ حتى دخلنا مدينتنا ، فما كان لنا هَمٌّ إلَّا الصُّلح حتى صالحناهم » .

مَرْج رَاهِط :

بلغت الأخبار خالدًا بأن أعراب غسّان النصارى ، قد اجتمعوا بمرج راهط وعليهم الحارث بن الأيهم - أخو جبلة بن الأيهم - فانقضَّ عليهم خالد ، فانتسف عسكرهم وعيالاتهم ، وسبى منهم يوم فحصتهم[1] ، ونزل بالمرج أيامًا ، ثم سار خالد حتى أتى أبا عبيدة بالجابية ، فالتقيا ومضيا معًا بجُنْدَيْهما إلى بُصرى .

فتح بُصْرَى :

جِزْية بصرى أَوَّل جزيةٍ بالشام في عهد الصِّدِّيق :

قال قيس بن أبي حازم يصف فتح خالد ....

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤١٠ ، وتاريخ ابن عساكر ١ / ٤٥٨ ، وفتوح البلدان للبلاذري ١٣٢ .

لبُصرى[١] : « كنت مع خالد بن الوليد حين مرّ بالشام ، فأقبل حتى نزل بُصرى من أرض حوران وهي مدينتها ، فلمَّا اطمأننا خرج إلينا الدّرنجار في خمسة آلافٍ من الروم ، فأقبل إلينا ، وما يظنُّ هو وأصحابه إلّا أنَّا في أكُفّهم ، فخرج خالد فصفَّنا ، ثم جعل على ميمنتنا رافع بن عمرو الطائي ، وعلى ميسرتنا ضرار بن الأزور ، وعلى الرجال عبد الرحمـٰن بن حنبل الجُمحي ، وقسّم خيله ؛ فجعل على شطرها المسيّب بن نجبة ، وعلى الشطر الآخر رجلًا من بكر بن وائل ، فظننتُ أنه مذعور العجلي ، فأمرهما خالد حين قسّم الخيل بينهما ، أن يرتفعا من فوق القوم عن يمين وعن شمال ، ثم ينصبَّا على القوم[٢] ، فانطلقا ففعلا ذلك . ثم أمر خالد مَنْ معه أن يرجعوا إلى القلب ، فرجعنا إليهم ، والله ما نحن إلَّا ثمانمائة رجل وخمسون رجلًا ، وأربعمائة رجل من مشجعة من قضاعة ، فكُنّا ألف رجلٍ ومائتي رجل ونَيِّفًا ، وكنّا نظنُّ أن الكثير من المشركين والقليل عند خالدٍ سواءٌ ؛ لأنه لا يملأ صدرَهُ منهم شيءٌ ، ولا يُبالي مَنْ لقي منهم ؛ لجُرأته عليهم وشدّته ونجدته . ثم دنونا منهم ، فبدءونا بالحملة علينا ، فشدُّوا علينا شدَّتَيْن ، فلم نبرح مواقفنا ، ثم إن خالدًا نادى بصوت جَهْوَرِيٍّ شديدٍ عال فقال : « يا أهل الإسلام ، الشدَّة الشدة ، احْمِلُوا - رحمكم الله - عليهم ، فإنكم إن قاتلتموهم مُحتسِبِين ، تريدون بذلك وجه الله ، فليس لهم أن يواقفوكم ساعةً » . ثم إن خالدًا شدّ عليهم وشددْنا معه ، فوالله الذي لا إلـٰه إلا هو ، ما ثبتوا لنا فُواقًا حتى انهزموا ، فقتلْنا منهم في المعركة مقتلةً عظيمة ، ثم أتْبَعنَاهم نَكْرُدُهم[٣] ونقتلهم ، ونُصيب الطرف منهم ونقطعهم عن أصحابهم

---

(١) وكان معه أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد .

(٢) مِثْل كَمِينَي الوجة .

(٣) أي نطردهم .

ثم نقتلهم ، فلم نَزَلْ كذلك حتى انتهينا إلى مدينة بُصرى ، فأغلقوا أبوابها وتحصَّنُوا منا ، ثم أخرجوا إلينا الأسواق وصالحونا ؛ أهلُ بصرى ، واستقبلوا المسلمين بكل ما يحبُّون ، وسألونا الصلح فصالحناهم » . وكانت جزية بُصرى أوَّل جزية بالشام في عهد أبي بكر .

ولمّا جاءت الأنباءُ هرقل ، قال لجلسائه : « ألم أَقُل لكم : لا تُقاتلوهم ؛ فإنه لا قَوَامَ لكم مع هؤلاء القوم ؟!! إن دينهم جديد يجدِّد لهم ثِبارهم[1] ، فلا يقوم لهم أحد حتَّى يُبْلَى » . فقالوا : « قاتل عن دينك ولا تُجبِّن الناس واقضِ الذي عليك » . قال : « وأيّ شيءٍ أطلب إلّا توفير دينكم » .

أجنادين ... يَوْمٌ من أيّامِ خالد :

جاءت الأخبار خالدًا أن جيشًا كبيرًا للروم قد نزل بأجنادين من جنوب فلسطين ، وأن نَصَارىٰ العرب وأهل الشام قد سارعوا بالانضمام إليه . وقام خالد في جيشه خطيبًا ، وقال لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ : « أما بعد ، فإنه بلغني أن طائفةً من الروم نزلوا بأجنادين ، وأنهم استعانوا بأناسٍ - وَهُمْ قليل - من أهل البلد ، فسألوهم النصر علينا استقلالًا لمن معهم من الكثرة ذلًّا ولَوْمًا . والله - إن شاء الله - جاعلُ الدَّبَرة عليهم وقاتلهُمْ كلّ مقتلة ، فاقصدوا بنا قصدهم ؛ فإني كاتب إلى يزيد بن أبي سفيان ، حتى يوافيني بِمَنْ معه مِنَ المسلمين مِن البلقاء ، وإلى عمرو بن العاص حتى يوافيني هنالك مِن أرض فلسطين » . وكتب إلى « شرحبيل » وسائر الأمراء :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم .

أما بعد ، فإنه نزل بأجنادين جموعٌ من جموع الروم غير ذي عددٍ ،

(١) مواظبتهم عليه .

ولا قوة ، واللهُ قاصمهم وقاطع دابرهم ، وجاعل دائرة السَّوْءِ عليهم . وقد شخصتُ إليهم يوم سرّحت رسولي إليكم ، فإذا قدم عليكم فانهضوا إلى عدوِّكم - رحمكم الله - في أحسن عدَّتكم وأصحّ نيّتكم ، ضاعفَ الله لكم أجوركم وحطّ أوزاركم ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

وصلت جيوش المسلمين وتوافت جموعهم في أجنادين ، وجاء « وردان » بمن معه حتى وافى جموع الروم بأجنادين ، وانضمّت إليهم جموعٌ من أهل فلسطين ومن الأعراب المُوالين للروم ، حتى صار جيش الروم يزيدُ عن مائةِ ألفٍ ، وكان عدد المسلمين ثلاثين ألفًا ، هذه الجموع من المسلمين تجتمع لأول مرة في معركة كبرى ، هي الأولى في حجمها في حَرْب الشام ؛ يقول ابن إسحاق : « لمّا تدانى العسكرانِ بعث « القُبُقْلار » رجلًا عربيًا من قضاعة ، يقال له : « ابن هزارف » ، فقال : ادخل في هؤلاء القوم ، فأقِمْ فيهم يومًا وليلةً ثم ائْتني بخبرهم . فدخل في الناس .. رجل عربي لا يُنكر ، فأقام فيهم يومًا وليلةً ثم أتاه ، فقال له : ما وراءَك ؟ قال : بالليل رهبانٌ وبالنهار فرسانٌ ، ولو سَرَق ابن ملكِهم قطعوا يده ، ولو زنى رُجم ، لإقامة الحقّ فيهم » . فقال له القبقلار : لئن كنتَ صدقتني لَبطْنُ الأرض خيرٌ من لقاءِ هؤلاء على ظهرها ، ولَوَددتُ أنّ حظي من اللهِ أن يُخلّي بيني وبينهم ، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم عليّ .

خرج خالد فصفَّ قواته ، فجعل أبا عبيدة على المشاة ، وجعل معاذ ابن جبل على الميمنة ، وجعل سعيد بن عامر القرشي على الميسرة ، وبعث سعيد بن زيد بن عمرو على الخيل ، وأقبل خالد يسير خلال صفوف المسلمين ، لا يستقرّ في مكانٍ واحد ، يُحرِّض جنده ويحمِّسهم ، وأقام نساء المسلمين خلف الجيش يبتهلن إلى الله ويدعونه ويستغثْنه ، وكلما مرّ بهنّ رجلٌ من المسلمين دفعن إليه أولادَهن ، وقُلن له : قاتلوا دون

أولادكم ونسائكم . كما أمرهن خالد أن يَحْتَرِمْنَ - أي يُحرِّمْن - على الرجال ما كان مباحًا لهم معهنّ . وأقبل خالد يقف على كلِّ قبيلة وكل جماعة ويقول : اتقوا الله عباد الله ، قاتلوا في الله مَنْ كفر بالله ، ولا تنكصوا على أعقابكم ، ولا تهنوا من عدوكم ، ولكن أقدموا كإقدام الأسد وأنتم أحرارٌ كرامٌ ، فقد أبيْتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة ، ولا يَهُولنَّكم ما ترون مِن كثرتهم ؛ فإن الله مُنزِلٌ عليهم رجزَه وعقابَه ، ثم قال : أيها الناس ، إذا أنا حملتُ فاحملوا . وكان خالد أولَ مَن حمل على صفوف الروم ، وأقبل خالد إلى خيل المسلمين ، وقال لهم : احملوا - رحمكم الله - على اسم الله . وحمل خالد على الروم ، وحمل المسلمون معه بأجمعهم على طول الصَّفّ ، فقد سئموا الوقوف ، وكانت معنوياتهم مرتفعةً ، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرَّتَيْن ... ثم صبروا لرشْق نبالهم ، والآن صَدَرَ الأمرُ فانطلق الجيش المتحمِّسُ المكبوت ، فما صبر الروم له فُواقًا - على حدِّ تعبير الرواة - وانهزموا هزيمةً شديدةً ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ، وأصابوا معسكرهم وما حوَىٰ .

وعند ابن إسحاق : « لما رأى القبْقلار - قائد الروم - ما رأى مِن قتال المسلمين ، قال للروم : لفّوا رأسي بثوبٍ . قالوا : لِمَ ؟ قال : يومُ البئيسِ لا أحب أنْ أراه ! ما رأيت في الدنيا يومًا أشدَّ مِن هذا . فاحتزَّ المسلمون رأسَه ، وإنه لملَفَّفٌ » ، وانتهى خبر هذه الهزيمة إلى « هِرقل » فنُخب قلبُه وأُسْقِطَ في يده ، ومُلِئ رُعْبًا .

وقد بلغ قتلى الروم في هذه المعركة ثلاثة آلاف ، وفرّتْ فلولهم المنهزمةُ متفرقةً نحو « إيلياء » و« قيسارية » و« دمشق » و« حِمْص » ، وتبعهم المسلمون يطاردونهم ، فيقتلون منهم ويأسرون . وكتب خالد إلى

أبي بكر رضي الله عنه :

« لِعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ مِن خالدٍ بن الوليد سيف الله المصبوب على المشركين ، أمَّا بعد ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك اللهَ الذي لا إلـه إلا هو . أما بعد : فإني أخبرك أيها الصديق أنّا التقينا نحن والمشركون ، وقد جمعوا لنا جموعًا جمّة كثيرةً بأجنادين ، وقد رفعوا صلبهم ونشروا كتبهم ، وتقاسموا بالله لا يفرّون حتى يَفنون أو يخرجونا من بلادهم ، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكّلين على الله ، فطاعنّاهم بالرماح ، ثم صرنا إلى السيوف ، فقارعناهم في كلّ فجٍّ وشِعْبٍ وغائطٍ ، فأحمد الله على إعزاز دينه ، وإذلال عدوِّه ، وحسْن الصنع لأوليائه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . فلما قرأ الرسالة فَرِحَ بها وأعجبتْه ، وقال : « الحمد لله الذي نصر المسلمين ، وأقرّ عيني بذلك » .

مـرج الصفـر :

أرسل هرقل خمسة آلاف يقودهم درنجار[1] ، كانوا من أهل القوّة والشدّة ، ليُغيث حامية دمشق ، وانضمّ إليهم عدد كبير من حامية حمص ، فهم جميعًا أكثر من عشرة آلاف اجتمعوا في مرج الصفر جنوب دمشق ، وصفّ خالدٌ جيشه ، فجعل على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته هاشم ابن عتبة ، وعلى الفرسان سعيد بن زيد ، وعلى المشاة أبا عبيدة ، ثم سار خالد فوقف في أوَّل الصف ، يريد أن يُحرِّض المسلمين ويُحمِّسهم ، ونظر إلى الصَّفِّ من أوَّله إلى آخره ، فبادره الروم بالهجوم . وكان سعيد بن زيد واقفًا في جماعةٍ من فرسانه في الميمنة يَدعُون الله ، وهو يخطب فيهم ويقُصُّ عليهم ، فحملتِ الروم تجاهه بثقلهم ، فصمد لهم سعيدٌ ونازلهم في فرسانه ،

(١) رتبة لقائد ، وليست اسم شخص .

وتحرَّكتْ صفوف المسلمين ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا على شاطئ نهرٍ عليه طاحونة ، حتى جرت الدماء في ماء النهر وطحنت بها الطاحونة[1] .

وانهـزم الروم وأصاب المسلمـون عسكرهم ، وقتلوا منهم كثيرًا وتبددت فلولهم شراذم ، فمنهم من دخل دمشق مع أهلها ، ومنهم من رجع إلى حمص ، ومنهم من لحق بهرقل ، ومنهم من فرّ إلى بيت القدس . وقتل من الروم خمسمائة في المعركة ، ووقع في أسر المسلمين نحو من خمسمائة آخرين .

وفاة الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وَعَزْل عمر لخالد من قيادة الجيش :

توفي الصديق رضي الله عنه ، وتولّى عمر الخلافة ، فعزل خالدًا أثناء حصار المسلمين لدمشق ، وهو الحصار الذي لم يتمّ فتح دمشق فيه .

وعند الطبري (٢ / ٥٩٥) ، وابن الأثير (٢ / ٨٥) : أنّ عَزْل خالد كان أثناء معركة اليرموك .

خالد في معركة فحل بيسان حديث ومَثَل لمن حضره :

كانت هذه المعركة من المعارك الهامّة ضِمْن فتح الشام ، وكانت قوات الروم ثمانين ألفًا ، هم جُنّة الروم وجيش الدفاع ، وإليهم ينظرون ، والشام بعدهم سلم ، وكان القائد سَقِلّار بن مخراق أو « سكلاريوس » . وكانت القيادة العامَّة لأبي عبيدة ، فجعل على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة ، وعلى المُشاة سعيد بن زيد بن عمرو ، وعلى الخيل القائِدَ المبارك خـالد بن الوليد . تقدَّم خـالد بالخيل ، فأخرج إليه الروم فرسانًا كثيرة ، وكان قيس بن هبيرة من أشدّ الناس نكايةً وَبَأْسًا في العدو ومباشرةً لهم . فقال له خالد أن يخرج إليهم ، فحمل عليهم مرارًا وحملوا عليه ،

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري صـ ١٤١ ، وابن عساكر ١ / ٤٨٢ .

فقاتلهم قتالًا شديدًا . ثم خرجت خيل أُخرىٰ عظيمة للروم ، فقال خالد : اخرج إليهم يا ميسرة بن مسروق . فخرج ميسرة فقاتلهم قتالًا شديدًا ، وحمل عليهم وحملوا عليه ، ثم خرجتْ إليهم جموعٌ أخرىٰ من فرسان الروم أعظم من الجمعين السابقين ، يقودهم بِطْرِيقٌ عظيم من عظماء بطارقتهم ، فقسَّم فرسانه قسمين ، وأمر أحد القسمين فحملوا على خالدٍ وأصحابه ، فصمد لهم خالد ولم يتزحزح ، ثم أمر البطريق الثاني ، فحملوا أيضًا على خالدٍ ، فصمد لهم ، فلمَّا رأى الروم أن هجومهم لم يُثمر شيئًا ، تراجعوا وانصرفوا ، فقال خالد لفرسانه : « إنه لم يبق من جدّ القوم ولا حدّهم ولا قوتهم إلَّا ما قد رأيتم ، فاحملوا معي بأهل الإسلام حملةً واحدةً واتّبعوهم ولا تغفلوا عنهم ، رحمكم الله »(١) . وحمل خالد بمن معه ، فاكتسح مَنْ أمامه منهم ، ثم حمل قيس بن هبيرة على الذين أمامه منهم فكشفهم ، وحمل مسروق على الذين أمامه من فرسانهم فهزمهم ، واتَّبعهم المسلمون يقتلون منهم ، ويقصفون بعضهم على بعض ، وقد اختلَّ نظامهم حتى اضطرّوهم إلى الانسحاب إلى عسكرهم وجماعتهم . وعادت فرسان المسلمين يومئذٍ ولها الظفر . وفي اليوم التالي ، قاتل خالد يومئذٍ قتالًا شديدًا ، ما قاتل مثله أحدٌ من المسلمين ، فكان حديثًا ومثلًا لمن حضره ، كان يستعرض صفوفهم وجماعتهم فيحمل عليهم حتى يُخالطهم ، ثم يُجالدهم حتى يُفرِّقهم ويهزمهم ، ويُكثر القتل فيهم ، قَتَل في ذلك اليوم أحد عشر رجلًا من بطارقة الروم ، وأشدَّائهم وأهل الشجاعة منهم ، وكان يقول :

أضْـرِبهُمْ بصـارِمٍ مُهَنَّـدِ ... ضَرْبَ صَليبِ الدِّينِ هادٍ مُهْتَدِ
لا وَاهِنِ القولِ ولا مُفَنَّدِ

وكان القتال في تلك المعركة أشـدّ قتالٍ اقتتلوه قطُّ ، وقد طوىٰ

(١) تاريخ فتوح الشام لمحمد بن عبد الله الأزدي ص٩٦ .

المسلمون جناحَيْ جيش الروم ، ثم انفردوا بعدهما بالقلب حتى تضعضع وقد أظلم الليل ، وانهزم الروم وهم حيارىٰ ، وقد قُتل في هذه المعركة قائدهم « سقلار » والذي يليه « نسطورس » ، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهْنَأَهُ ، وذهب البلاذري إلى أن قتلىٰ الروم كانوا زُهَاءَ عشرة آلاف .

قَتْلُ خالدٍ لِلبطْرِيقِ الرُّومي توذرا :

بعث هرقل بطريقًا يُدعىٰ « توذرا » حتى نزل بمرج دمشق وغربها ، وكان خالد تجاهه ، وباتوا ليلتهم ، فلمّا أصبحوا وجدوا الأرض بلاقع[١] من توذرا ، وعلم خالد أنه قد رحل نحو دمشق ، فتبعه خالد من ليلته في قوةٍ سريعة من الفرسان . وكان يزيد بن أبي سفيان مرابطًا حول دمشق ، فبلغه مسير توذرا إليه فاستقبله ، فاقتتلوا ، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون ، فأخذهم مِن خلفهم ؛ بين قوّاته وقوات يزيد ، وقُتل الروم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وقتل خالدٌ توذرا ، فلم يُفلت منهم إلا الشريد ، واستولى المسلمون على دوابِّهم وركائبهم وأدواتهم وثيابهم ، وعاد خالد إلى أبي عبيدة وهو يقول :

نحـنُ قتلْنـا تَوْذرًا وشَـوْذَرا وقَبْلهمـا قـد قتلْنا حَيْـدَرَا
نحن أزرْنا الغيضةَ الأُكيدرَا

فتح دمشق : خالد لا ينام ولا يُنيم :

حاصر أبو عبيدة بن الجراح بجيشه دمشق من جميع جهاتها أربعة أشهر ، واستولى المسلمون على غوطة دمشق وما حوت عَنْوَةً . نزل أبو عبيدة على باب الجابية غربي المدينة ، ونزل يزيد على الباب الصغير ، إلى باب كيسان ،

(١) يعني خاوية .

أمّا شمالي السور فقد نزل عمرو بن العاص على باب توما ، ونزل شرحبيل على باب الفراديس ، ونزل خالد على الباب الشرقي ، وكان الباب الشرقي وباب الجابية هما أكبر وأهم هذه الأبواب جميعًا . وطال الحصار على أهل دمشق وازداد التوتر بينهم ، فبعث بطريق الروم رجُليْن يندسَّان بين المسلمين ؛ ليتجسسا على جنودهم وأمرائهم ويريا أحوالهم ، وكان رجلان من غسّان دخلا دمشق يتسوَّقان منها قبل حصارها ، فبعث إليهما البطريق ، فأمر أحدهما بالذهاب إلى معسكر المسلمين ليأتيه بخبرهم ثم رجع ، وقيل : كانوا عيونًا فسألهم عمَّا رأوا ، فقالوا : أمّا الليل فطولُ قيامٍ ، وأمَّا النهار فالخير الظّاهِر والحرص على الجهاد ، وإن وجد أحدهم نعلًا أو كبّة شعرٍ أو غزلًا ، دَفَعَهَا إلى صاحب المقسم ، فإذا قال صاحب المقسم : ما هذا ؟ قالوا : لا نستحلّه إلّا بحِلِّه . فلمّا سمع بطريق الروم ذلك قال : ما لنا بهؤلاء طاقةٌ ، ولا لنا في قتالهم خير .

كان أبو عبيدة أَحَبَّ إلى الروم من خالد ، وكان خالدٌ أَفَظَّهما وأغْلَظَهما عليهم ، وكان أبو عبيدة أَلْيَنَهما وأقْرَبَهما استماعًا إليهم ، فكان أحبّ إليهم أن يكون كتاب صُلحهم مع أبي عبيدة . حصر المسلمون دمشق أربعة أشهر حصارًا شديدًا ، وأهلها معتصمون بأسوارها يرجون الغياث ، وهرقل بحمص . وولد لبطريق الروم « نسطاس بن نسطورس » مولودٌ ، فاحتفل بذلك ، وأوْلَمَ وليمةً لحامية المدينة ، فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم من الحراسة والدفاع ، ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين ، إلَّا ما كان من خالد ؛ فإنه كان لا يغمض له جفن ، « ولا ينام ولا يُنيم ، ولا يبيت إلَّا على تَعْبِيَةٍ ، ولا يخفىٰ عليه من أمر عدوّه شيءٌ ، عيونه ذكيّة ، وهو مَعْنِيٌّ بمن يليهم »[1] . وعيونه تأتيه بما وراء الأسوار ،

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٢٦ .

والأبواب مغلقةٌ . وكان خالد قد أعدَّ سلالم من الحبال تنتهي بأوهاق - وهي الحبال في أطرافها أنشوطة[١] - فلمّا أمسى من ذلك اليوم ؛ الأحد الخامس عشر من شهر رجب ١٤ هـ ، وكان يومًا مناسبًا لذلك الاحتفال ، أعلن خالد الاستعداد في جيشه الذي جاء به من العراق ، واقترب بهم من السور ، ثم تقدم هو والقعقاع بن عمرو ، ومذعور بن عدي العجلي وأمثالهم من أبطاله الأشدّاء ، وكانت تعليماته لسائر قوّاته : « إذا سمعتم تكبيرنا فارقَوْا[٢] إلينا ، وانهدوا للباب » . وكان خالد قد أعدَّ أيضًا القِرَب المنفوخة بالهواء ، حملوها على ظهورهم ، وعبروا بها خندقهم سباحةً ، وقذفوا بأوهاق الحبال ، حتى اشتبك منها وهقان بأعلى السور وثبتا فيه ، فتسلَّق عليهما القعقاع ومذعور ، ومعهما باقي السلالم الحبال ، فأثبتاها جميعًا بأعلى السور ، كان هذا المكان الذي اقتحموا منه أَحْصَنَ موقعٍ بدمشق كلها ، أكثره ماءً ، وأعْرَضه خندقًا ، وأشدَّه مدخلًا ، فلم يبق من قوّته كلها أحد إلا تسلَّق السلالم أو اقترب من الباب ، حتى إذا استقرّوا بأعلى السور ، حَدَر أكثرهم داخله ، وانحدر معهم خالد ، وترك من جنده من يحمي ذلك المعبر ، هذا وحامية دمشق في سُكرها ، مشغولة بالطعامِ والشراب والاحتفال بالمولود ، لا يشعرون بشيءٍ ، وأمر خالد مَنْ على السور بالتكبير فكبَّروا ، وانقضَّ من كان ما زال خارجًا على الباب ، وتكاثر المسلمون على سلالم الحبال ، يتسلقونها من الخارج ويهبطون إلى الداخل ، وهاجم خالد بسرعة أوّلَ قوة وجدها ففرغ منها ، وانصبّ إلى الباب فقتل حُرّاسه - وكانوا رجلًا أو رجلَيْن - وثار أهل المدينة ، وفزع الناس ،

---

(١) حلقة .

(٢) أي اصعدوا .

وتسارع كلٌّ منهم إلى مواقفه ، ولا يدرون ما الشأن ، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم ، واستغلّ خالدٌ أثر المفاجأة ، فقطعَ ومَنْ معه أغلاقَ الباب الشرقي بالسيوف وفتحوه ، فتدفَّقتْ قوّاته من خلاله ، ودارت معركة دمشق داخل دمشق تجاه ذلك الباب ، وكان القتال شديدًا مستميتًا يدور في الشوارع ، ومع ذلك لم تبقَ من الروم قوّة في ذلك القطاع ، إلَّا فرغ منها خالد ، وذلك مع طلوع الشمس . وبلغ خبر اقتحام خالد الباب الشرقي إلى حاميات سائر الأبواب ، واتَّخذ الروم قرارهم فورًا بالصُّلح مع قُوّاد المسلمين ، وفوجئ هؤلاء القُوّاد بحامية دمشق تفتح أبوابها ويقبلون شروطهم ، في حين كان خالد يدخل غازيًا ، يعمل السيف في جنود الروم ، وهم يُدافعون ما أمكنهم حتى يدخل الآخرون صلحًا ، فينقذ الصلح الموقف ، ويحفظ عليهم حياتهم وحريتهم . وصارت دمشق صلحًا كلها ، وفُتحت أبواب المدينة ، والتقى خالد بأبي عبيدة عند سوق الزيت بعد أن اقتحم المدينة عَنْوَة ، واستولى على ألف مترٍ طُولًا منها بالقتال ، في حين دخلها أبو عبيدة من غربيِّها ؛ وتقدَّمتْ جنوده صُلحًا مسافة ٥٠٠ - ٥٦٠ مترًا ، بالإضافة إلى المسافة بين معسكرهم وباب الجابية .

فللَّه دَرُّ خالدٍ من بطل .. لا ينام ولا يُنيم .. ولله دَرُّه من فارسٍ يُسابق جنده في تسلُّق الأسوار .. ولله دَرُّه ودرُّ تكبيره الذي يُزلزل الروم ويُرعبهم .

اليرموك .. خالد يشرب من دم الروم :

أرسل هراكليوس « هرقل » إلى بيزنطة عاصمة دولته ، وإلى من كان على دينه من جنوده ، ومن الأهالي في الجزيرة وفي أرمينية ، وكتب إلى عماله أن يحشدوا إليه كل مَنْ أدرك الحلم من أهل امبراطوريته فما فوق ذلك إلى الشيخ الفاني ، في تجنيد إجباري ، كذلك كتب إلى روما عاصمة الإمبراطورية

الرومانية الغربية ، وهي لم تكن تحت سلطانه ، في أكبر محاولةٍ له ، وهو يرمي بآخر سهم في جعبته لدفْع خطر المسلمين الداهم . يقول الرواة : فأقبل إليه من الجموع ما لا تحمله الأرض . وكان عدد الروم مائتي ألف (٢٠٠,٠٠٠) يقودهم أعظم قادة الروم وهو « باهان » ، وكان عدد المسلمين ستة وثلاثين ألفًا (٣٦,٠٠٠) ، منهم ألف رجل من الصحابة ، فيهم مائة بدري . وخطب هرقل في الجيش قبل أن يُوجِّهه إلى اليرموك ، فقال : « يا معشر الروم ، إن العرب قد ظهروا على سورية ، ولم يرضوا بها حتى تعاطوا أقاصي بلادكم ، وهم لا يرضون بالأرض والمدائن والبُرّ والشعير والذهب والفضة ، حتى يَسْبُوا الأخوات والأُمّهات والبنات والأزواج ، ويتّخذوا الأحرار وأبناء الملوك عبيدًا ، فامنعوا حريمكم وسلطانكم ودار مملكتكم » . ثم سيّرهم إلى المسلمين . وأرسل أبو عبيدة إلى عمر بأن « الروم قد توجّهوا إلينا ، وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأُمَّةٍ قطّ كانت قبلنا » . وقال أيضًا في كتاب آخر : « إن الروم نفرت إلى المسلمين برًّا وبحرًا ، ولم يخلِّفوا وراءهم رجلًا يُطيق السلاح ، إلَّا جاشوا به علينا ، وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة ، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع ، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة ، وجاءونا وهم نحوٌ من أربعمائة ألف رجل ، قد جاء المسلمين ما لا قِبَل لهم به ، إلَّا أن يُمدَّهم الله بملائكته ، أو يأتيهم بغياثٍ من قِبَله ، والسلام عليك » . وأرسل عمر إليهم : « يا أهل الإسلام اصدقُوا اللقاء ، وشدّوا عليهم شدّ اللُّيُوث ، واضربوا هامتهم بالسيوف ، وليكونوا أهون عليكم من الذَّرِّ ، فإنا قد كُنّا علمْنا أنكم عليهم منصورون » .

البطل يُؤمِّر نفْسَه :

ولما اجتمع أبو عبيدة مع قادة جيشه بالجابية ، قال خالد : « أرى

والله إن كُنّا إنما نُقاتل بالكثرة والقوة ، هم أكثر منّا وأقوى ، وما لنا بهم إذن طاقة . وإن كُنّا نُقاتلهم بالله ولله ، فما أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعًا ، أنهم تُغني عنهم شيئًا » . ثم غضب وقال لأبي عُبيدة : أتُطيعني أنت فيما آمرك به ؟ قال له أبو عبيدة : نعم . قال خالد : « فولّني ما وراء بابك ، وخَلّني والقوم ، فإني لأرجو أن ينصرني الله عليهم » . قال : قد فعلت . وهكذا تولّى خالد القيادة العامة على جيوش المسلمين في يوم اليرموك . وجمع باهان جنده وقال لهم : « أنتم عدد الحصى والثّرى والذّرّ ، فلا يهولنّكم أَمْرُ هَؤلاءِ القوم ؛ فإن عددهم قليل ، وهم أهل الشقاء والبؤس ، وجلّهم حاسِر جائع ، وأنتم من الملوك وأبناء الملوك ، وأهل الحصون والقلاع والعدّة والقوّة ، والسلاح والكراع ، فلا تبرحوا الميدان وفيكم عين تطْرِف حتى تُهلكوهم أو تهلكوا أنتم » . وعلى اليرموك اجتمع خالد مع باهان قائد الروم بين الصفين فقال باهان [ماهان] : « إنّا قد علمْنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع ، فهلُمّوا إلى أن أُعطي كل رجلٍ منكم عشرة دنانير وكسوةً وطعامًا ، وترجعون إلى بلادكم ، فإذا كان من العام المقبل بعثْنا لكم بمثلها » . فقال خالد : « إنه لم يُخرجنا من بلادنا ما ذكرت ، غير أنّا قومٌ نشرب الدِّماء ، وأنه بَلَغَنَا أنه لا دم أطْيَب من دم الروم ، فجئنا لذلك » . فقال أصحاب ماهان : هذا والله ما كُنّا نتحدّث به عن العرب[١] .

الله الله يا خالد .. عِزُّ الإسلام يتكلّم .. لله دَرُّكَ ، كم خلّدت هذه الكلمة : « أنّا قوم نشرب الدماء ، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم ، فجئنا لذلك » .

(١) البداية والنهاية ٧ / ٩ - ١٠ .

وبعد سنوات سيقول رستم للمغيرة بن شعبة ، قبل معركة القادسية : « كنتم إذا قحطتْ أرضُكم وأصابتْكم السنة ، استغثتم بناحية أرضنا ، فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردّكم ، فأكلتم من طعامنا وشربتم من شرابنا واستظللتم بظلالنا ، فذهبتم فدعوتم أصحابكم ثم أتيتمونا بهم ، وإنَّا ومثلكم مثَلُ رجلٍ كان له حائط من عنب ، فرأى فيه ثعلبًا واحدًا فقال : ما ثعلب واحد . فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى الحائط . فلمّا اجتمعن فيه ، جاء الرجل فَسَدَّ الجحر الذي دخلن منه ، ثم قتلهن جميعًا . وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلَّا ما أصابكم من الجهد في بلادكم ، فارجعوا عنّا عامكم هذا ، فإنكم قد شغلتمونا عن عمارة بلادنا وعن عدونا ، ونحن نوقر[1] لكم ركائبكم قمحًا وتمرًا ، فأنا آمُر لأميركم بكسوةٍ وبغل وألف درهم ، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمرٍ وبثوبين ، وتنصرفون عنّا ، فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم ، فارجعوا عنّا ، عافاكم الله » . فقال له المغيرة فيما قال : « فكان مما رزقنا الله على يديه[2] حبة تنبت في أرضكم هذه ، فلمّا أذقناها عيالنا قالوا : لا صبر لنا عنها ، فجئنا لنُطعمهم أو نموت » .

هكذا يُرَدّ على الصَّلَف بعز الإسلام،لله دَرُّ المغيرة :

حيَّةٌ في الوِجَار أرْبَد لا يَنْفَعُ ... منه السَّليمَ نَفْثُ الرَّاقي

لما جاءت جموع الروم كالسَّيْل والليل ، وهم يجرُّون الشوك والشجر ليصنعوا منها دفاعاتٍ ، ومعهم صُلُبُهم والقسيسون والرهبان والأساقفة والأباطرة . وعبَّأ خالد جيشه في تَعْبِيَةٍ لم تُعَبِّهَا العرب من قبل ، إذ نظم

---

(١) الوقر : الحمل الثقيل .
(٢) أي رسول الله ﷺ .

جيشه في ستة وثلاثين كردوسًا[(١)] إلى الأربعين ، وقال : « إن عدوّكم قد كثُر وطغى ، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس » . ثم جعل للقلب كراديس ، وأقام فيه أبا عبيدة بن الجراح ، وكان على الميمنة معاذ بن جبل ، وعلى الميسرة قبّاث بن أَشْيَم ، وعلى الرَّجَّالة : هاشم بن عتبة ، وكان خالد على الخيل . وقال معاذ بن جبل للناس مُثنيًا على خالد : « أما والله إن أطعتموه ، لتطيعُنّ مباركَ الأمرِ ، ميمون النقيبة ، عظيم الغناء ، حَسَن الحِسبة والنِّيَّة » . وقال معاذ عن خالد : « أما إني لأرجو أن يكون الله قد أعطاه بصيرةً على جهاد المشركين وشدّته عليهم وجهاده إياهم ، مع حُسن بصيرته وحسن نِيَّتِهِ وإعزاز دينه أحسن الثواب ، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملًا » . وكان القاضي أبا الدرداء في هذا اليوم ، والقاصّ الذي يتولّى تحميس المسلمين أبا سفيان ، وعلى الأقباض – وهي الغنائم – عبد الله بن مسعود ، وكان القارئ المقداد ؛ قرأ على الناس الأنفال . وسار خالد في صفوف جنوده يقف على أصحاب كل راية ويقول : « يا أهل الإسلام ، إن الصبر عِزّ ، وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر تُنصرون ، فإن الصابرين هم الأَعْلَوْنَ ، وإنه إلى الفشل ما يحور المُبطِل الضعيف ، وإن المُحِقّ لا يفشل ، يعلم أن الله معه ، وأنه عن حرم الله يَذُبّ وعنه يقاتل ، وأنه إن قدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه ، إنه شاكر يحب الشاكرين » . وجمع خالد فرسان المسلمين ، فقسمها أربع فِرَقٍ ، ودعا قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي ، وكان يساعده ويوافقه ، ويشبهه في جلده وشدّته وشجاعته وبأسه وإقدامه على الأعداء ، فقال له

---

(١) الكردوس : مفرد كراديس ؛ وهو كتلة من الجنود يتألّف من ألف مقاتل . وينقسم الكردوس إلى أجزاء عشرية ، العريف يقود عشرة رجال ، وآمر الأعشار يقود مائة رجل ، ولكل كردوس قائد له راية .

خالد : « أنت فارس العرب ، وقلَّ مَنْ حضرها اليوم يعدلك عندي ، فاخرج معي في هذ الخيل » . وبعث إلى ميسرة بن مسروق وعمرو بن الطفيل ، وجعل كل رجل منهم على ربع ، وخرج خالد في ربع منها في خيل المسلمين . وجندل قيس بطريقًا من بطارقتهم ، فصاح خالد : « ما بعد ما ترون إلّا الفتح ، احمل عليهم يا قيس ، احملوا عليهم ، فوالله لا يفلحون وأوَّلُهم فارسٌ متعفِّرٌ في التراب » . فحمل المسلمون عليهم ، وعلى خيولهم التي تقدَّمتْ أمام صفوفهم كأنها أعراض الجبال ، وانكشفتْ خيولُ الروم حتى لحقت بالصفوف ، وعاد خالد وقد أدرك ما في نفوس الروم من خوفٍ ، فقال للمسلمين : « قد رجعنا عنهم ولنا الظفر وعليهم الدبرة ، فاثبتوا لهم ساعةً ، فإن أقدموا علينا قاتلناهم » . وبعث الروم رجلًا من خيارهم وعظمائهم اسمه جرجة ، فوالله ما إن سمع كلام المسلمين حتى أسلم ، وكان له نجدة ونكاية في المشركين .

« يا خالد ، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا فأعطاكه ؟! » :

كلمات عطرة تحفر من نور في التاريخ قالها جرجة عند إسلامه لخالد : « يا خالد ، اصدُقني ولا تكذبني ؛ فإن الحُرَّ لا يكذب ، ولا تُخادعني ؛ فإن الكريم لا يُخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه ، فلا تسُلَّه على قومٍ إلَّا هزمتهم ؟ » . قال : « لا » . قال : « فَبِمَ سُمِّيتَ سيف الله المسلول ؟ » . فقال له خالد فيما قال : « إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ ، فدعانا فنفرنا عنه ، ونأينا منه جميعًا ، ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذّبه ، فكنت فيمن كذّبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : « أنت سيف من سيوف الله سلَّه على المشركين » ودعا لي بالنصر ، فسُمِّيتُ سيف الله بذلك ، فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين » . قال : ....

« صدقتَني »[١]. ثم أسلم جرجة . وخرج باهان في جيشه وعلى ميسرته الدرنجار ، وزحف الروم إلى المسلمين مثل الليل والسيل يدفّون دفيفًا ، قد رفعوا الصُّلبان . فقال رجل : ما أكْثَرَ الرومَ وأقلَّ المسلمين[٢]. فقال خالد : « ما أقلّ الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثُر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان لا بعدد الرجال . أبالروم تُخوِّفني ! والله لوددتُ أن الأشقر براء من تَوَجِّيه[٣] وأنهم - يعني الروم - أضعفوا في العدد » . وجاء خالد إلى أبي عبيدة فقال له : « إن هؤلاء قد أقبلوا بعددٍ وجِدٍّ وحَدٍّ وزجل ، وإن لهم شدة لا يردّها شيء ، وليست خيلي بالكثيرة ، ولا والله لا قامت خيلي لشدّة خيلهم ورجالهم أبدًا ، قد رأيت أن أُفرِّق خيلي ، فأكون في إحدى الخيلَيْن وقيس بن هبيرة في الخيل الأخرى ، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة ، فإذا حملوا على الناس ؛ فإن ثبت المسلمون ، فالله ثبَّتهم وثبّت أقدامهم ، وإن كانت الأُخرى ، حملْنا عليهم بخيولنا وهي جامّة على ميمنتهم وميسرتهم ، وقد انتهت شدّة خيلهم وقوتها ، وتفرَّقتْ جماعتُهم ونقضوا صفوفهم وصاروا نشرًا ، ثم نحمل عليهم وهم على تلك الحال ، فأرجو عندها أن يُظفرنا الله بهم ، ويجعل دائرة السوء عليهم ، وقد رأيتُ لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا ، وتقف أنت من ورائه بحذائه في جماعة حسنةٍ ، في مائتين أو ثلاثمائة ، فتكونوا رِدْءًا للمسلمين » . وقبل منه أبو عبيدة وقال له : « افعل ما أراك الله ، وأنا فاعلٌ ما أردتَ » .

رضي الله عن خالدٍ ، في معاركه الحاسمة دائمًا ينتظر لحظة حدوث الخَلَل في صفوف عدوه ، فيهجم .

---

(١) الطبري ٣ / ٣٩٨ ، وتهذيب ابن عساكر ١ / ٥٤٧ .
(٢) الطبري ٣ / ٣٩٧ وابن عساكر ١ / ٥٥٠ .
(٣) الأشقر هو فرس خالد ، والتَّوَجِّي أن يشتكي الفرس بطن حافره .

عندما اشتدّ هجوم الروم ، نادى خالد : « يا أهل الإسلام ، لم يَبْقَ عند القوم من الجَلَد والقتال والقوة إلّا ما قد رأيتم ، فالشدّة الشدّة ، فوالذي نفسي بيده ليعطينّكم الله الظفر عليهم الساعة ، إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم » . كان خالد في نصف فرسان المسلمين خلف جناحهم الأيمن ، في حين كان قيس بن هبيرة المرادي في نصفهم الآخر خلف جناح المسلمين الأيسر ، وفي اللحظة الحاسمة التي تضعضعتْ فيها صفوفُ الروم ، زحف خالد في فرسانه إلى الروم حتى تصافحوا بالسيوف ، واعترض خالد الروم وإلى جنبه أكثر من مائة ألفٍ ، فحمل عليهم ، وما هو إلا في نحو ألف فارسٍ ، فما بلغتهم الحملة حتى فضَّ الله جمعهم ذلك . قال عبد الأعلى بن سراقة : « وشددْنا على من يلينا من رجّالتهم فانكشفوا ، وأتبعناهم نقتلهم كيف شئنا ، ما يمتنعون من قبل ميمنتنا بميسرتهم » . ذهل درنجار وقد رأى مصير هجومه الكاسح كيف صار أمره ، واكتسحت فرسانُ خالدٍ مشاةَ الروم ، وقتلتْ منهم ستة آلاف (٦,٠٠٠) في رواية ، أو عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) في رواية أُخرى ، وارتدّ من استطاع منهم في حالةٍ من الذعر والفوضى ، ما يمتنعون من القتل . وقال الدرنجار لأصحابه : « لفّوني بالثياب ، فليت أني لم أُقاتل هؤلاء القوم اليوم » . فلفّوه في الثياب وهو يقول : « لوددتُ أن الله عافاني من حرب هؤلاء ، ولم أرهم ولم يروني ، ولم أنصر عليهم ولم يُنصروا عليَّ ، وهذا يوم سوء » . وبقي ملفوفًا في ثيابه حتى قُتل . وزحف المسلمون إلى الروم رويدًا رويدًا ، حتى إذا دنوا منهم إذا هم ينتفضون من الرعب ، وكان صوت أبي سفيان يكاد يملأ المعسكر : « يا نصر الله اقترب ، الثبات يا معشر المسلمين » . وتراجع الروم ، ودفعهم خالد إلى الواقوصة[1] ، والواقوصة أحد حدوده

---

(١) نهر الرقاد جهة التقائه باليرموك .

لِهْب[1] لاج في الأرض ، حتى هوى فيها المقترنون بالسلاسل وغيرهم ، فتهافت في الواقوصة مائة وعشرون ألفًا (١٢٠,٠٠٠) منهم ثمانون ألفا (٨٠,٠٠٠) مقترنون بالسلاسل ، وأربعون ألفًا (٤٠,٠٠٠) مطلقون ، سوى من قُتل بالمعركة من الخيل والرجال ، وسُمِّيتْ تلك الأهوية التي سقطوا فيها في اليوم الضباب « الواقوصة » ؛ لأنهم وُقِصوا فيها ، وأصبح خالد من تلك الليلة وهو في رواق قائد الروم ، وقُتل صناديد الروم ورؤساؤهم ، وقُتل أخٌ لهرقل اسمه « تيودورس » . فلما أصبح خالد ، خرج في الخيل يتعقّب الفلول الهاربة ، ويقتلهم في كل وادٍ وفي كل شِعْب ، وفي كل جبلٍ وفي كل ناحية ، في مطاردة عميقةٍ حتى انتهى إلى دمشق ، ثم انطلق في آثار الروم ، ومضى يتعقّب أكثرهم حتى أدركهم بثنيَّة العقاب ، وصعد خالد والمسلمون الثنية راكبين حتى هبطوا نحو الشرق ، وأشاعوا النِّكاية في الروم الفارِّين في سائر البلاد ، فعاد يقتلهم في القرى والأودية والجبال والشعاب والسهول ، وفي كل وجهٍ حتى انتهى إلى حمص .

وانتهت قصة الروم في أرض الشام ، أتوْا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد ، وقاتلوا المسلمين قتالًا شديدًا ، ما قُوتل المسلمون مثله في موطنٍ قطُّ ، ورزق الله المسلمين الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، فقتلهم الله في كل قريةٍ وشِعْبٍ ووادٍ وجبل وسهل .

قِنَّسْرين وكلمات خالدٍ الخالدة : « لو كنتم في السحاب لحَمَلَنا الله إليكم أو أنزلكم إلينا » :

بعث أبو عبيدة - رضي الله عنه - خالد بن الوليد إلى قِنَّسْرِين - وكانت على الطريق بين حلب وأنطاكية - فلمّا نزل خالد بالحاضر قاتلوه ،

---

(١) هاوية .

وزحف إليه الروم بقيادة « ميناس » وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل ، فقُتل ميناس ، ومات الروم على دمه حتى أُبيدوا جميعًا ، لم يبق منهم أحد ، ولجأ العرب من تنوخ إلى حصنهم ، فتحصّنوا منه ، فقال لهم خالد : « لو كنتم في السحاب ، لَحَمَلَنَا اللهُ إليكم ، أو لَأَنْزَلَكُم إلينا » . فنظروا في أمرهم ، وذكروا ما لقي أهل حمص ، فطلبوا صُلْحًا مثل صلح حمص . يقول البلاذري : إن أبا عبيدة صالحهم على مثل صلح حمص ، وتقول رواية سيف : إن خالد بن الوليد أبى إلّا أن يُخَرِّب المدينة ، فأَخْرَبَهَا .

وبلغ عمر ما فعل خالد بِقِنَّسْرِين فقال قولته العظيمة : « أَمَّر خالدٌ نَفْسَهُ ، يرحم الله أبا بكرٍ ، هو كان أعلم بالرجال مني ، إني لم أعزله عن ريبة ، ولكنّ الناس عظّموه ، فخشيتُ أن يوكّلوا إليه »(١).

خالد المطيع لقائده :

كان خالد مضيافًا كريمًا ، قصده الأشعث بن قيس فأجازه بعشرة آلاف ، فسمع بذلك عمر ، فكتب إلى أبي عبيدة بعزل خالد ، فجمع أبو عبيدة الناس وجلس لهم على المنبر ، فقام صاحب البريد ، فسأل خالدًا من أين أجاز الأشعث ، فلم يُجبه وأبو عبيدة ساكتٌ لا يقول شيئًا ، فقام بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ فقال : « إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ». ونزع عمامته، فلم يمنعه خالد سمعًا وطاعةً، ووضع قلنسوته، ثم أقامه فَعَقَلَهُ بعمامته ، وقال : « من أين أجزتَ الأشعث ؟ من مالك أجزتَ أم من إصابةٍ أصبتَهَا ؟ » . فقال : « بل من مالي » . فأطلقه ، وأعاد قلنسوته ، ثم عمَّمَهُ بيده وقال : « نسمع ونُطيع لولاتنا ، ونُفخِّم ونخدم ....

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠١ .

موالينا »[١]. ولمّا قاسمه أبو عبيدة بأمر عمر بن الخطاب أمواله قال خالد : « ما أنا بالذي يعصي أمير المؤمنين »[٢].

ولله دَرُّه حين عُزل وهو في المعركة ، وفي أوج انتصاره فما ترك العزلُ في نَفْسِهِ أثرًا ، لا فَرْقَ عنده أن يكون قائدًا عامًّا ، أو قائدًا مرؤوسًا أو رجلًا من المسلمين . هذه والله العظمة الإنسانية في أبهىٰ مشاهدها ، خالد يستلّ النصر من بين أنياب الروم ، وهو ترياق وساوس التَّجبُّر والصَّلَف والبغي عند الروم ، وسيف الله المسلول على قوىٰ التَّعَفُّن والشرك يُفاجأ بالإقالة !! لقد كان مسلكًا بالغ الرَّوعة والعظمة والجلال . يقول الأستاذ خالد محمد خالد في « رجال حول الرسول » (٣٢٥) : « ولا أعرف في حياة خالدٍ كلها موقفًا يُنبئ بإخلاصه العميق وصِدقه الوثيق مثل هذا الموقف » .

خـالد القـائد :

لقد رفع خالد معنويّات المسلمين ، وسَحَقَ معنويات الروم وقَبْلَهم الفرس ، لقد بلغت قيادة خالد في أرض الشام حدَّ الروعة والذّروة ، فكان خالد قائد القادة ومطمح الأنظار ومعقل الآمال ، سواء كان قائدًا عامًّا أو جنديًّا بسيطًا .

ذلك هو مقام الذروة الذي بلغه خالد بجدّه وجهاده .. المقام الذي أصبح فيه فوق المناصب والرُّتَب وفوق الأهواء والنَّزعات .. لقد أصبح أُمَّةً في رجلٍ ، لأنه أصبح يحمل مجد أُمة وبطولة جيلٍ .. لقد أصبح لا يمثل نَفْسَهُ فحسْب ، بل يمثل مجدًا وفكرة ، مجد عبقرية العرب في القيادة ، وفكرة الفتح

---

(١) طبقات ابن سعد ٦ / ٢٢ ، والإصابة ١ / ٥٠ ، وأسد الغابة ١ / ٩٧ .
(٢) الطبري ٢ / ٦٢٥ .

الإسلامي ، وما أعظم وأروع عبقرية القيادة العربية في الحروب ، وما أشرف وأنصع فكرة الفتح الإسلامي في التاريخ .

خالد يحتبس أدراعه وأعتُدَهُ في سبيل الله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أمر رسول الله ﷺ بالصدقة . فقيل : منع ابنُ جميل وخالد بن الوليد وعباس بن عبد المطلب . فقال النبي ﷺ : « ما ينقم ابنُ جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله ورسوله ، وأمّا خالد فإنكم تظلمون خالدًا ، قد احتبس أدراعه وأعْتُدَهُ في سبيل الله ، وأمّا العباس ابن عبد المطلب فَعَمُّ رسول الله ﷺ فهي عليه صدقة ومثلُها معها »[1].

عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه ، أن خالد بن الوليد فَقَدَ قَلَنْسُوَةً له يوم اليرموك ، فقال : اطلبوها . فلم يجدوها ، ثم وُجِدَتْ فإذا هي قلنسوة خَلَقَة ، فقال خالد : اعتمر رسول الله ﷺ ، فحلق رأسه ، فابتدر الناس شعره ، فسَبَقتهُم إلى ناصيته ، فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالًا وهي معي إلّا رُزِقتُ النصر[2].

وعن مولى لآل خالد بن الوليد ، أن خالدًا قال : ما من ليلةٍ يُهدى إلَيّ فيها عروسٌ أنا لها مُحِبٌّ ، أحبّ إلَيّ من ليلةٍ شديدة البرد ، كثيرة الجليد ، في سريةٍ أُصبِّح فيها العدو[3].

وفي رواية : ما من ليلة يُهدىٰ إلَيّ فيها عروس أنا لها مُحِبّ ، أو أُبشَّر فيها بغلامٍ ، أحبّ إلَيّ من ليلةٍ شديدة الجليد ، في سريةٍ من المهاجرين ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه الحاكم ، والطبراني وأبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح . وقال البوصيري : رواه أبو يعلى بسند صحيح .

(٣) أخرجه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .

أُصبِّح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد .

وقال رضي الله عنه : ما أدري من أي يوميَّ أفِرُّ : يوم أراد الله أن يهدي لي فيه شهادة ، أو يوم أراد الله أن يُهدي لي فيه كرامة .

وقال قيس بن أبي حازم : سمعت خالدًا يقول : منعني الجهاد كثيرًا من القراءة ، ورأيتُه أُتي بسُمٍّ ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : سم . قال : باسم الله . وشربه .

قال الحافظ الذهبي : هذه والله الكرامة ، وهذه الشجاعة(١) .

أنتَ خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القَوْ ... مِ إذا ما كُبَّتْ وجوهُ الرِّجالِ

لما حضرتْ خالدًا الوفاةُ قال : لقد طلبتُ القتل مظانَّه ، فلم يُقَدَّر لي إلَّا أن أموت على فراشي ، وما من عملي شيء أرْجَى بعد التوحيد من ليلةٍ بِتُّهَا وأنا مُتَتَرِّس ، والسماء تهلّني ، ننتظر الصبح حتى نُغِيرَ على الكفار . ثم قال : إذا متُّ ، فانظروا إلى سلاحي وفرسي ، فاجعلوه عدّة في سبيل الله ، فلمَّا تُوفي ، خرج عمر على جنازته فذكر قوله : ما على آل الوليد أن يسفحن على خالدٍ من دموعهن ، ما لم يكن نقعًا ولا لقلقة(٢) .

وفي رواية : وما عليهن أن يبكين أبا سليمان .

وقال عمر لخالد في حياته : يا خالد ، والله إنك لكريم عليَّ ، وإنك لحبيبٌ إليَّ . وبعد موته قال عمر : قد ثلم في الإسلام ثلمةً لا تُرتق . وقال فيه أيضًا : كان والله سدَّادًا لنحور العدو ميمون النقيبة .

---

(١) السير ١ / ٣٧٦ .

(٢) ذكره الحافظ في الإصابة ونسبه إلى ابن المبارك في الجهاد ، وإسناده حسن . والنقع : التراب على الرؤوس ، واللقلقة : الصراخ .

وعن أبي العجماء السلمي قال : قيل لعمر : لو عهدتَ يا أمير المؤمنين . قال : لو أدركتُ أبا عُبيدة ثم ولَّيْتُه ثم قدمتُ على ربي ، فقال لي : لِمَ استخلفْتَهُ ؟ لقلتُ : سمعتُ عبدك وخليلك يقول : « لكل أُمَّةٍ أمين ، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة » . ولو أدركت خالدًا ثم ولّيته فقدمتُ على ربي ، لقلتُ : سمعت عبدك وخليلك يقول : « خالدٌ سيف من سيوف الله ، سلّه الله على المشركين »[1].

كلماتٌ عِذابٌ رِطابٌ في الثّناء على خالد من عمر وكَفَىٰ .

« لقد خُلق خالد ليكون قائدًا ، فعاش قائدًا ومات قائدًا ، فغاب جسده ، ولكن بقي حيًّا في النفوس ، وآثاره بقيت خالدة في التاريخ ، وانتصاراته كانت ولا تزال وستبقىٰ معجزة من معجزات تاريخ العرب والإسلام ، بل تاريخ الحرب لكل الأمم في كل مكان »[2].

أشجاعٌ أنت أشجعُ من لَيْـ ـثٍ غَضَنْفَرٍ يذودُ عن أشبالِ
أَجَوَادٌ فأنت أَجْوَدُ من سَيْـ ـلٍ غَامِرٍ يسيل بين الجبالِ

عن أبي الزناد أن خالد بن الوليد لما احتُضِر بكى ، وقال : لقيتُ كذا وكذا زحفًا ، وما في جسدي شِبْرٌ إلَّا وفيه ضربةٌ بسيف ، أو رميةٌ بسهم ، وها أنا أموت حتف أنفي كما يموت العير ، فلا نامت أعْيُنُ الجبناء .

إن رَوْح أبي سليمان وَرَيْحانه ليُوجَدان دائمًا وأبدًا ، حيث تصهل الخيل ، وتلتمع الأسِنَّة ، وتخفق راياتُ التوحيد فوق الجيوش المسلمة .

---

(١) رواه الشاشي في مسنده ، ورجاله ثقات خلا أبا العجماء ، فإنه مختلف فيه ، وثقه ابن معين والدارقطني وابن حبان ، وقال البخاري : في حديثه نظر .
(٢) قادة فتح العراق والجزيرة صـ ٢٣١ .

لكأني بفرسك جاءتْ ، لها صهيلٌ يصدح .. يقودُها عبيرُك وأرِيجك ، هذه التي وَقَفْتَهَا في سَبيل الله .. لكأني بها تسفح من مآقيها دموعًا غزارًا وكبارًا .

« هل سيقدر فارسٌ أن يمتطي صهوتها بعد خالد ؟! وهل ستُذَلِّل ظهرَهَا لأحدٍ سواه ؟! إيه يا بطل كلِّ نَصْر .. ويا فَجْرَ كلِّ لَيْل .. لقد كنت تعلو بروح جيشك على أهوال الزَّحف بقولك لجندِك : « عند الصباح يحمد القوم السُّرى » حتى ذهبت عنك مَثَلًا ... وها أنت ذا قد أتممتَ مسراك .. فلصباحك الحمد ، ولذكراك المجد ، والعطر ، والخلد ، يا خالد »(١) .

حِصانُك في اليرموك يشربُ دَمْعَهُ ... ويا لعـذابِ الخيلِ إذْ تتذكَّرُ
رفاقُكَ في الأنبارِ شدُّوا سُرُوجَهم ... لِفَقْء عيونِ الفُرسِ فالكُلُّ أعْوَرُ
ونهر الدَّمِ يبكيك لون دمائِهِ ... وَنَذْرًا له الأحنافُ صلُّوا وكبَّروا
وقولٌ بِقِنَّسْرِين يشتاقُ ماجدًا ... إلى السُّحْب مرقانًا وللشِّرْكِ نَدْحَرُ
سَلُوا قبقلارَ الروم لِمْ لَفَّ وَجْهَهُ ... وحَـزَّ له الأحنـافُ رأسًا يُنَـدَّرُ
مقــالُك للرُّومــانِ عِزٌّ وَرِفْعَـةٌ ... وكم صيَّر العملاق « ماهان » أحقرُ
وإنا لِشُرْبِ الدَّمِ نشتاقُ دائمًا ... وَطَعْم دماءِ الرومِ أشهىٰ وأعْطَرُ
تُرَدِّدُهَـا الأجيالُ دومًا لخالدٍ ... لآلِـىء عزٍّ تَبْقَى تَبْقَىٰ وتُزْهِـرُ

يحتاج المرءُ إلى سكينٍ
كي يكتُبَ حرفًا عن سيفِ اللهِ المسلول
يحتاجُ إلى إداوةِ دماءٍ
يحتاجُ إلى مقبضِ سيفٍ
كي يملِكَ ناصيةَ الكلمةِ في هذا الزَّمنِ المخبول

(١) رجال حول الرسول صـ ٣٣٢ بتصرف .

أختطفُ حروفًا مِن رَهَجِ الخيلِ
ولا أعرفُ كيف أجُول
يا خالدُ
فاسمح لي وانزِلْ عن فَرَسِك
كي أتملَّاكَ ... وعلِّمْني كيف أصُول

* * *

يا خالدُ
ستظلُّ الكلماتُ بليده
معذرةً .. فأنا أكتُبُ عنكَ
وأنا ألبسُ جِلدًا يُنكرني فيهِ
وأزدَرِدُ الأمجادَ عَنِيدَهْ

* * *

معذرةً تبلغُ حدَّ الجُرْمِ
بإنسانٍ يقترضُ كلامًا من سُوقِ نخاسةِ أهْلِيهْ
أتمنَّى .. لو أكتُبُ عنك بأيّام العَصْفِ وساعاتِ الزَّحفْ
أو أكتبُ فيك ومنك فتنسلّ الكلماتُ شَهِيدهْ
أتمنَّى لو طارتْ عُنقي بسبيلِ اللهِ
كي تُصبحَ عنوانَ قَصِيدهْ

* * *

....

يا خالدُ .. عقلُكَ عقلُكْ[١]
دينُكَ دينُكْ .. دَمُكَ ولحمُكْ
ما مِثلُك يَخْفَىٰ النُّورُ عليهِ
وأنت الفارسُ يعرفُ كيفَ يَرِيشُ السهمَ
وكيف يُحاسِبُ أرضَ اللهِ إذا ما الباطلُ فاخَرَ فيها
وإذا النُّورُ تَلَألأَ
فالقاعدُ شرُّ الناسِ .. وملعونٌ مَنْ كابرَ فيها
يا رافعَ إرْثِ الخيلِ تليدًا .. وعتيدًا
يا جارَ الماحِلِ والمائلِ .. والمنقطعِ
ويا عزَّ المستضْعَفِ فيها

* * *

ودرجتَ بأعتابِ العِزَّةِ
أسمعتَ الأرضَ أناشيدَ رِماحِكْ
وَرَوَيْتَ البيداءَ دماءَ الكفرِ
ولقَّنْتَ فِراشَ الموتِ أغَارِيدَ جِراحِكْ
شوَّقتَ العالَمَ أن يقفَ على حدِّ السيفِ
لكي يسمعَ قصةَ سيفكِ وقوافيها
علَّمتَ خيولَ اللهِ بأن تَحْمِلَ مَنْ
وتطيرَ إلى اللهِ بِمَنْ
أن تَدْفعَ بشَكَائِمِهَا

(١) هو أخوه الوليد بن الوليد الذي سبقه إلى الإسلام ، وقال له : يا خالد ، عقلك عقلك ، سألني عنك رسول الله ﷺ .

وتُنَازِلَ بحوافِرها
وتُهَلِّلَ بنواصيها

* * *

يا خالدُ
رُجحانُ العقلِ تَعَانَق فيك ورجحانُ السيفِ
ورجحانُ المَحْتِدِ
والصَّهوةُ كانت طَوْعَ يَديكْ
يا خالدُ .. اللهَ عليكْ
علّمني كيف هَصَرْتَ غرابيبَ الأرضِ السوداءِ
وكيف ملكتَ العربَ النّكراءَ
وكيف بقرتَ أجاديبَ البيداءِ الموحشةِ
فأضحتْ قِرْبَةَ ماءٍ في كفَّيْكْ
يا خالدُ
لا يُبصِرُ قومٌ وجهكَ .. قلُّوا أم كثُروا إلّا انهزموا عنكَ
فلا أحدٌ أيمنَ طائرَ منكَ
ولم تعرف هذي البيداءُ أحدَّ عليها مِن سيفكَ
فهو السيفُ البازِغُ من فيضِ نبوءاتِ رسولِ اللهِ
وَقدِمَ الرَّكبُ المكّيُّ الفارِغُ في المجدِ إلى مجدِ رسولِ اللهِ
لكي تنبتَ أشجارُ الضوءِ الموغِلةُ .. بِعُمقِ الأرضِ
الباسقةُ إلى عِلِّيِّينْ
فلذاتُ الكَبِدِ القُرَشيَّة عانَقَها ألَقُ الدِّينْ
وحباها الله مِن النُّورِ الأوَّلِ برسولِ اللهِ مناراتٍ للتَّمكِينْ

يا خالدُ
مولودٌ أنت بِظَهْرِ الخيلِ
أخَالُكَ لا تأكُلُ إلَّا بالسيفِ
تلوتَ كتابَ اللهِ على هاماتِ الكفرِ بسيفِك حرفًا حرفا
ودخلتَ الإِسلامَ كبيرًا
وجناحُ الرَّهبةِ فيكَ .. وفي ابنِ العاصِ جناحُ الحِيلةِ
يا جَبَلا أمجادِ قُريشْ
لا طابَ مُقامُكَ دونَ الحقِّ ولا طابَ العيشْ
وكأنّ مكانكَ في الإِسلامِ يُناديكَ
وتنتظِرُكَ ساريةُ الجيشْ
يا خالدُ
يا صاحِبَ «ناصيةِ رسولِ اللهِ»
ويا صانِعَ مِنْ شَعراتِ الخيرِ رِماحًا
تُطلقُها مِن جبهةِ أسَدِ الإِسلامِ وتدفعُها
في صُحبةِ سيفِ اللهِ
هل يعلمُ أجنادُ الأرضِ بأنَّ الشَّعْرَ يصيرُ رِماحًا
وبأنَّ الدعواتِ تُزلزِلُ أوتادَ الأرضِ
وتفتحُ في الكُربةِ ساحًا

* * *

يا خالدُ
أفزَعَكَ سقوطُ قَلَنسُوَتِكَ في اليرموكِ
فَرُحْتَ تُغَرْبِلُ في الميدان وليسَ عَلَيكَ .. أتقعُ على الموتْ

أم يقعُ الموتُ عليكَ
فناصيةُ رسولِ اللهِ ستَقْمَعُ ناصيةَ الرومِ
وقد قمعتْ ناصيةَ الفُرسِ
سترفعُ ناصِيتَكَ حين تمُرُّ إلى الجنّاتِ بإذنِ اللهِ
يا شاهرَ سيفِ الإسلامِ .. ويا فاتحَ أرض اللهِ
وباسطَ ظِلِّ كتابِ اللهِ
لم تَعْهَدْ بعدَك خيلُ الله مليكًا تُسلِّمه سُرُجَ العِزَّةِ
وتطيرُ به في الله إلى مرماهْ
علّمْني أنَّ المَوْلدَ في الموْتِ حياهْ
« لا نامتْ عينُ الجُبنَاء » .. ولا كانَ السيفُ المُغْمَدُ
والجِفْنُ المُغْمَضُ .. لا كان الكفُّ المغلولُ بِعُنُقِ الخوفِ
المُسْتَنْوِقُ في زَيْفِ خطاهْ

* * *

يا خالدُ
مِن طعنةِ رمحكِ أتنزَّى بعضَ الأحْرُفِ
كي أنسبَ يومًا للصَّدأ المعروق على أسْمالِكْ
مِنْ أسْفَلِ أسفلِ بئرِ الخيبةِ
أقتلِعُ كُلَيْماتٍ لاهثةً خلفَ ظِلالِكْ
معذرةً .. ما حيلةُ مَنْ وُلِدَ بِعَتَباتِ الخِزي .. المُنْخَنِسِ الضّائعِ
معذرةً .. ما شرُفَ الميدانُ بحافِرِ خيلِكَ
أو وَطْءِ نِعَالِكْ

* * *

يا خالدُ
هل تأذنُ أنْ أرفعَ بصمةَ حافرِ خيلكَ
لتصيرَ شعارًا لبيانٍ يُلقى في يوم النصرِ المقبِلِ إن شاء اللهْ
هل تأذنُ بإعارة سرجِ جوادِكَ يومًا
كي يعرفَ حاكمُنا المُطَهَّمُ
ما معنى الخيلِ المُسْرَجَةِ لِنُصْرَةِ دينِ اللهْ
يا خالدُ
لو رمحٌ منكَ يمرُّ الآنَ .. لكانتْ رايتُنا أعْلَى
لو سيفٌ منكَ يكرُّ الآنَ .. لكانت حُجَّتُنا أجْلَى
لو سهمٌ منكَ يجيءُ الآنَ .. لكانت كلمتُنا أحلَى
لو كان لدينا وتدٌ مِن خيمتِكَ الآنَ
شكيمةُ فَرَسِكَ .. دِرعُكَ
لو أنَّ لدينا شيئًا ينتسبُ إليكَ الآنَ
لأصبحنا شيئًا آخرَ
ولصِرْنَا بعد هُنَيْهاتٍ عندكْ
لو شوكةُ رمحكِ تبقرُ بطنَ ولاةِ الأمرِ
لهانَ الأمرُ .. وأصبحْنَا من خيرةِ جُندِكْ
يا خالدُ
أنَسَيْتَ الرُّومَ وسَاوِسَهُمْ
وبطونُ النّسوةِ عَقِمَتْ أن تَلِدَ قرينًا لكْ
يا من فَرَّجْتَ عن الصِّدِّيق
وأعلاك الفاروقُ .. وقال : قد أمَّر خالدُ نفسَهْ
وبسيفك
قد فُتِنَ الناسُ وقالوا

في سيفِكَ يسكُنُ سرُّ النَّصرِ
وأعناقُ الجبّارِينَ أبَتْ أن تُقطفَ إلّا بهْ
وتلوتَ على النّاسِ كلامًا يَبْرُقُ كالرَّعدِ
اللهَ عليك .. وأنتَ بِقِنَّسْرِين
إذِ الميدانُ يؤزُّ .. وأضلاعُ الفتنةِ كادتْ تعتصِرُ الجُندَ
وأنتَ تمدُّ حبالَ الثِّقةِ إلى مولاكَ
فتُطلِقُ هذا القولَ سراجًا وَهَّاجًا
أمْضَى من كلِّ سلاحٍ عَرَفَتْهُ الفُرسُ على النِّيرانْ

* * *

يا خالدُ
علَّمَك الله بأنْ تضربَ فوقَ الأعناقِ
وأن تَضرِبَ منهمْ كلَّ بَنَانْ
هل عرفَ العالمُ قبلَكَ هذي الحِكمهْ
« واللهِ .. لو أنَّ عدُوِّي في بطنِ سماواتِ الله
لَيَرْفَعُني الله إليه .. أو يُنزِلهُ الله إليّ »

* * *

اللهَ عليك وأنت بِحِمْصَ تفوحُ كَزَهْرِ الشّامْ
وتحلُو أحلى من فاكهةِ الشّامْ
والناسُ حوالَيْك تَدورُ .. وأنت البدرُ
وقد أعلى ربِّي فيكَ العِزَّةَ والإقدامْ

* * *

اللهَ عليك .. وسيفُك يجتثُّ العُزَّى
ويُحِقُّ الحقَّ ويقطعُ دابِرَ كلِّ هَلُوكْ
يا شامةَ يومِ الفتحِ .. ويا قامعَ مَنْ بَدءُوكْ
أميرًا كنتَ .. وسيفكَ كان أميرا
والرُّمحُ البازغُ مِنْ كفَّيْكَ أميرا
وجوادُك كان أميرا
والقوسُ الرَّائِشُ منك السهم أميرا
يا خالدُ
يا قَصَّابَ الكُفْرِ
ويا قامعَ وسوسةِ الكفرِ على اليرموكْ
« إذا دُعِيَ أجابَ »
« وإن نُودِيَ لَبَّى »
« وإذا سمِعَ الهَيْعَةَ طَارَ إليها »
لكنَّ الطاعةَ والسَّمْعَ جهادٌ
الفتنةُ فيه تفُوقُ القتْلَ
فكنتَ على التَّوِّ السيفَ المُغْمَدَ
في وقتٍ كنتَ عليه السَّيِّدَ
كانَ النصرُ إلى مقبضِ سيفكِ يَحْبُو
وجنودُ الله بدُونِكَ تكبو
في وقتٍ كنتَ تُعِيدُ على العالمِ فيه قراءةَ قولِ اللهْ
﴿ **ومزقناهم كلَّ ممزق** ﴾
وجعلتَ الكفرَ أحاديثَ
وأضحى الباطلُ من طائف طَيْفِكَ يَخْبُو

لكنّك تسمعُ وتطيعُ .. وإن كانَ أميرُكَ عبدًا حبشيًّا
ودروس الطاعةِ ليستْ بالشيءِ الهَيِّنْ
في وقتٍ يتحدَّثُ فيه السيفُ
ولكنَّكَ كُنتَ الفارسَ
وضربتَ مثالًا لجنودِ اللهِ بأرضِ اللهِ إلى يومِ الدِّينْ

* * *

يا خالدُ
ماذا تصنعُ ورجالُكَ معذورونَ إذا فُتِنُوا في هذا السيفِ
فما عهدوا سيفًا مِثْلَكَ ينطقُ بالقولِ الفَصْلِ
ويكتُبُ خاتمةَ الأشياءْ
فَتَغَلْغَلَ في أعماقِ الجندِ يقينٌ يهمسُ
« في خالدٍ .. يسكنُ سرُّ النَّصْرِ »
فخالدُ رجلٌ
ميمونُ السَّاعِدِ
ميمونُ النَّصْلِ ولا يخشى لومةَ لائمْ
فتلا الفاروقُ الدرسَ الغالبَ في التوحيدِ
وَمَنْ يَجرؤُ أن يُمليَ هذا الدَّرْسَ سوى الفاروقِ
وَمَنْ يفهمُ هذا الدرسَ سوى خالدْ
يا صَاحِبَ « نهر الدمِ » وقامِعَ رأسِ « الرِّدَّةِ »
يا قارئَ في كَونِ اللهِ على العادِينْ
﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾
﴿ واجتنبوا قولَ الزور ﴾

يا هادِمَ ما عَبَدَ أبوكْ
وناصِرِ ما هُدِيَ أخوكْ
اللهَ عليكْ .. يا مَنْ أخْلَيْتَ الحاجِبَ ما بين المالكِ والمملوكْ

* * *

وبسيفكَ قُمتَ بِلَمِّ الأرضِ على الإسلامْ
والضوءُ السّابِغُ من هذا البدرِ أنار مَجاهِيلَ الكوكبِ
أخرجَهُ للنُّورِ مِن الإظلامْ
وأحالَ الآياتِ جنودًا تَزْحَمُ عينَ الشَّمسِ
وخيلًا تَهْدِرُ بالإلهامْ

* * *

الله عليكَ وأنت تَمِيدُ على اليرموكِ وقِنَّسْرِينَ
وإذْ بالفاروقِ يُقرِّرُ
أن يُعزلَ خالدُ فورًا
أن يُعقلَ بِعِمامتِهْ
أن تُنْزَعَ عنه قلنْسُوَتُهْ
ذلك حتى يُعْلِمَنَا من أين أجاز الأشعث
هل من مالهْ
أم من مالِ اللهْ
إن كان بمالِ اللهِ فقد خانَ الأُمَّةَ
والخائنُ لا يُؤتَمَنُ على شيءٍ بعدْ
وإذا كان بمالِهْ

فلقد أسْرَفَ
ولسوفَ تُقاسِمُهُ المالَ مُناصَفَةً
حتى نَعْلَيهْ
فابستمَ الناسُ وقالوا : هذا لا يُصلِحُهُ إلا هذا
وبرغم قبولِ الأمرِ بصبرِ المؤمنِ وَثَبَاتِ القائدِ
وَثَبَ بِلالُ إليكَ
ونفَّذَ أمرَ الفاروقِ
وَنَقَضَ عِمامَتكَ الشامةَ واعْتَقَلَكَ فيها
اللهَ عَليكَ
وأنت ذَلُولٌ .. لا تمنعُ مَنْ يصنعُ ذلكَ
بل تبسطُ وجهكَ لبلالَ وتُعربُ
« نسمعُ ونطيعُ ولاةَ الأمْرْ »
وأنتَ الفاقِهُ معنى الطاعةِ
كان جوابُكْ :
ما أنا مِمَّنْ يعصي
فاصنعْ ما يبدو لكْ
يَسَّاقطُ هذا العَدْلُ العُمَرِيُّ ثمارًا تنطقُ
يا خالدُ
« إنكَ لكريمٌ واللهِ عليَّ »
« وإنكَ لحبيبٌ واللهِ إليَّ »
« ولنْ تعتِبَ بعدَ اليومِ عليَّ على شيءٍ أبدًا »
يا تمرًا أيْنَعَ في شجرِ النُّصْرَةِ
والفتحِ الأعظمِ .. يا أملًا في كلِّ تقيٍّ

يا خالدُ
كنتَ جهادًا للإسلامِ بِطُولِ الأرضِ .. وعرضِ الأرضِ
وعُمقِ الأرضِ
وكنتَ بفضلِ الله مَهيبًا
كنت تودُّ بأَنْ تُستشهدَ مِلْءَ جهادِكَ .. فوقَ جوادِكَ
في معمعةٍ تشهدُ أنَّكَ صرتَ أميرًا للشهداءِ
وأن دماءَكَ تقطرُ طِيبًا
ما بقيَ بجسمِكِ موضعُ
إلَّا وَبِهِ طعنةُ رُمحٍ
أو رميةُ سهمٍ
أو ضربةُ سيفٍ
جسدُكَ صار كتابَ جهادٍ يَقْدَحُ في الظُّلماتِ لَهِيبًا
فاهنأْ في عِلِّيِّينَ .. تُرفرفُ روحُكَ
بحواصِلِ طيرٍ خُضرٍ
تَرِدُ مياه الجنَّةِ
تأوِي لقناديلَ معلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ
وتُؤويكَ إلى الله مُنِيبًا

* * *

يا خالدُ
تحمل هذي الكلماتُ إليك .. ذراعًا من كَشْمِيرْ
وبقايا طفلٍ من بورما
وحقيبةَ طفلٍ من لبنانْ

تحملُ عينًا مِن بلغاريا
تحملُ شبحًا من قلبِ بُخارَى
تحملُ مِن بيت المقدسِ نصفَ لسانْ
تحملُ عَصَبًا ينزِفُ فوقَ الثَّلجِ
ويُستشهدُ فوق القرآنْ
تحملُ مِن قلبِ الأزهرِ شيخًا مصلوبًا
مسلوبَ الجُبَّةِ والقفطانْ
مغلولَ السَّاعِدِ .. منزوعَ الأضلُعِ والأسنانْ
تحملُ جاريةً أُسِرتْ في تونسَ ساجدةً
ينقرُ عِفَّتَهَا الغربانْ
تحملُ صورةَ بيتٍ منهوبٍ في وهرانْ
وفتاةٍ أكلوا عُذرِيَّتَهَا
نَهَشُوهَا دَنَسًا
مئذنةً شامخةً من أرضِ البوسنةِ والهرسكْ
يعلوها نَجَسُ الصُّلْبانْ
يا خالدُ
خارِطَتِي فاجعةٌ جدًّا
لا أَذْرُعَ فيها .. لا قلبَ .. ولا سِيقانْ
خارطتي فاقدةُ النطقِ
وفاقدةُ السَّمْعِ
مُسجّاةٌ .. تُحْتَضَرُ الآنْ
قتلانا من غير قبورٍ
أبدانٌ من غير رؤوسٍ .. منبرُنا يرعُفُ بالبُهتانْ

في سيفِك بعضُ البُرْءِ
لا نجدُ لموتانا لحدًا
لا نملكُ ثَمَنَ الأكفانْ

* * *

يا خَالِدُ
يتصبَّبُ لحمي خجلًا وأنا أكتبُ عنكَ
وأختطفُ حروفًا مِن رَهَجِ الخيلِ
ولا أعرفُ كيفَ أصُولْ
سامحني
لا أملكُ شيئًا أبدًا في هذا الزَّمَنِ المشلولْ
لا أعرفُ كيف أُميِّزُ بين القاتلِ والمقتولْ
قد أضحتْ كلُّ خياناتِ الأرضِ بأرضي فاكهةً
سامحني .. نحنُ الفاعلُ والمفعولْ
يا خَالِدُ
في هذا الزمنِ المخبولْ
أتنزَّى بعضَ الأحْرُفِ
كي أنسبَ يومًا للصَّدأ المعروقِ على أسْمالِكْ
مِن أسْفَلِ أسفلِ بئرِ الخيبةِ
أقتلعُ كُلَيْمَاتٍ لاهثةً خلفَ ظِلالِكْ
معذرةً
ما حيلةُ منْ وُلِدَ بِعَتَبَاتِ الخِزْي
المُنْخَنِسِ الضّائعِ

ما شَرُفَ المِيدانُ بحافِرِ خيلِكَ .. أوْ وَطْءِ نِعَالِكْ
فاسْمَحْ لِي
أن أرفعَ بصمةَ حافِرِ خَيلِكَ لتصيرَ شِعَارًا
لبيانٍ يُلقى في يومِ النصرِ المقبِلِ إنْ شاءَ اللهُ[1]

الصحابي المُثَنَّى بن حارثة الشَّيْباني ، البطل الذي جرَّأ المسلمين على قتال الفُرس :

وامُثَنَّاه ! ولا مثنّى اليوم للخيل .. وامُثَنَّاه ! ولا مثنّى للمسلمين اليوم :

يذكر التاريخ للمثنى أنه « كان أول مسلم هاجم الإمبراطورية الفارسية في عقر دارها »[2] ، فحمل عن المسلمين عِبئًا لم يحمله غيره ، وهو الذي جرَّأ المسلمين على محاربة الفرس ، ورفع معنويات العرب وحطّم معنويات الفرس ، وكانت أعماله العسكرية في العراق مقدمةً لفتحه فيما بعد ، وكانت معركة « البويب » تمهيدًا لمعركة « القادسية » وإيذانًا بانهيار الإمبراطورية الفارسية ، وقد كان شجاعًا إلى أقصى حدود الشجاعة ، مقدامًا إلى أقصى حدود الإقدام ، وقد « أبلى في حروب العراق بلاءً لم يُبْلِه أحد »[3].

في حروب الرِّدَّة :

عندما ارتدَّتْ ربيعة وكانت في البحرين ، ثبت المثنى على الإسلام مع من ثبت من قومه ، فكتب العلاء بن الحضرمي إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل - ومنهم المثنى - أن يُعينوه على مكافحة المرتدّين حتى يعودوا إلى الإسلام ، فكان المثنى على رأس الذين أعانوا العلاء في مهمته الشّاقّة ،

---

(١) قصيدة « رسالة إلى سيف الله المسلول » لمحمود خليل - دار الصحوة .
(٢) جمهرة أنساب العرب صـ ٣٠٥ .
(٣) الإصابة ٤ / ٤١ ، وأسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .

وضيّق المثنى الخناق على مَنْ قِبَلَه من المرتدين ، وكان لهم الضربات المميتة ، وأخَذَ الطريق عليهم ، ولم يَكْتَفِ بذلك ، بل تابع السير شمالًا على شاطئ الخليج العربي ؛ ليقاوم دسائس الفرس الذين شجَّعُوا المسلمين في منطقة الخليج على الرِّدَّة ، ويقضي على أنصارهم من القبائل والأبناء[١].

في الفتح :

تقـدَّم المثنّى بقواته شمالًا مـن منطقة البحـرين ، فقضى على الفرس وعمّالهم ممن عاونوا المرتدين في البحرين ، حتى وضع يده على « القطيف » و« هجر » وحتى بلغ في تقدُّمه مَصَبَّ دجلة والفرات في الخليج العربي . وتسـاءل الناس عن هذا القائد الذي يسـير من نصرٍ إلى نصرٍ ، وتساءل الصِّدّيق أبو بكر رضي الله عنه قائلًا : « مَنْ هذا الذي تأتينا وقائعُه قَبْل معرفة نَسَبِه ؟ »[٢]. فأجابه سيد أهل الوبر قيس بن عاصم المنقري : « هـذا رجل غير خامِلِ الذِّكْر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة »[٣].

أمُهَجِّنَ الشجعانِ والمُزْرِي بهمْ ... وتَرُوكَ كلِّ شجاعِ قومٍ عَاتِبَا
شادوا مناقِبَهم وشِدْتَ مناقبًا ... وُجِدَتْ مناقِبُهُمْ بِهِـنَّ مَثالِبَـا
خُذْ من ثنايَ عليكَ ما أسْطِيعُهُ ... لا تُلْزِمَـنِّي في الثَّنَـاءِ الواجِبَا
فَلَقَدْ دَهِشْتُ لما فَعَلْتَ ودُونَهُ ... ما يُدْهِشُ المَلَكَ الحفيظَ الكاتِبَا
قد عسكرتْ مَعَكَ الأُسودُ عساكرًا ... وَتَكَتَّبَتْ معك الرِّجالُ كتائِبَا
أسْدٌ فرائِسُهَا الأسود يقودُها ... أَسَدٌ تصير له الأُسُودُ ثعالِبَا[٤]

---

(١) قوم من العجم سكنوا البلاد العربية ، واختلطوا بالعرب بالمصاهرة فتعلَّمُوا لغتهم .
(٢) الإصابة (٦ / ٤١) .
(٣) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ ، وفتوح البلدان للبلاذري صـ ٢٤٢ .
(٤) من ديوان المتنبي بتصرف .

وجاء المثنى إلى المدينة المنورة لمقابلة الصِّدِّيق رضي الله عنه، وسأله أن يُؤمِّره على رجاله ليُهاجم بهم الفرس في العراق قائلًا: « يا خليفة رسول الله، استعمِلْني على قومي، فإن فيهم إسلامًا، أُقاتِل بهم أهل فارس، وأكفيك أهل ناحيتي من العدو »[١]. فكتب له أبو بكر رضي الله عنه بذلك عهدًا، فهو الذي « أطمع أبا بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - والمسلمين في الفرس، وهوَّن أمر الفرس عندهم »[٢].

لله دَرُّه، فهو بحقٍّ، كما يقول عنه عمر بن الخطاب: « مؤمِّر نَفْسِهِ »[٣].

واستمر المثنى - رضي الله عنه - على مُهاجمة أهل السواد، ثم بعث أخاه مسعودًا إلى أبي بكر يسأله المدد، فأمدّه بخالد بن الوليد، على أن يتولّى خالد القيادة العُليا، فلمَّا وصل خالد العراق، كتب إلى المثنى ليأتيه « فانقضَّ إليه جوادًا حتى لحق به »[٤]. وهكذا تُسارع الرجولة إلى الطاعة!

وعندما وصل خالد إلى العراق، أُعجِبَ بالمثنى ومقدرته الحربية الفائقة، فكان خالد يعتمد على المثنى في حرب العراق كلَّ الاعتماد؛ بصفته من أشجع الرجال أولًا، وبصفته من أعلم الناس بالفرس؛ لأن قبيلته من مواطني العراق أيام الحكم الفارسي، زد على ذلك أن المثنى كان أوَّل من خاض المعارك مع الفرس، فعلم كثيرًا من أحوالهم وأساليبهم ونفسيّاتهم،

---

(١) الإصابة ٦ / ٤١، وأسد الغابة ٤ / ٢٩٩.
(٢) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩.
(٣) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩.
(٤) تاريخ الطبري ٢ / ٥٥٢.

وكان المثنى قبل الإسلام حكيم قومه .

مـع خـالد :

قَاتَلَ المثنى تحت لواءِ خالدٍ في كلّ معاركه التي خاضها في العراق ؛ تارةً تحت قيادة خالد المباشرة ، وتارة قائدًا مستقلًّا . فبعد معركة « كاظمة » التي انتصر فيها المسلمون على الفرس ، أمر خالدٌ المثنى أن يُطارد المنهزمين من الفرس ، فطاردهم المثنى مطاردةً حاسمةً ، كأنّما يريد ألَّا يتركهم قبل أن يبلغ المدائن(١) . وكان رضي الله عنه مع خالد في معركة المزار ، وهو الذي راقب الجيش الفارسي ورصدَ حركاته لخالد . وبعد فتح الحيرة والأنبار ، أرسله خالد لمهاجمة « سوق بغداد » فأغار عليه وهزم المدافعين عنه(٢) . ولمَّا ورد أمْر أبي بكر إلى خالد بالحركة إلى أرض الشام لمقاتلة الروم ، وأن يأخذ نصف الناس ، ويستخلف المثنى على العراق في نصف الناس ، أحضر خالد أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا معه ، واستأثر بهم لنفسه ، تاركًا للمثنى مثْل عددهم ممن لم يكن له مع الرسول ﷺ صُحبة ، واستأثر لنفسه أيضًا بمن كان قدم على النبي ﷺ وافدًا ، فأبى المثنى وقال : « والله لا أُقيم إلَّا على إنفاذ أمر أبي بكر ! وبالله ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبي ﷺ » . فلمّا رأى خالد ذلك أرضاه(٣) .

المثنَّى القائد العام :

الصديق أعطى القوسَ باريها :

كان الموقف العسكري في العراق عند مغادرة خالد له خطيرًا للغاية ؛

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٤٨ .

(٢) الطبري ٢ / ٥٨٤ .

(٣) ابن الأثير ٢ / ١٥٦ ، والطبري ٢ / ٦٠٥ .

فقد كانت قوات المثنى قليلة بالنسبة لقوات فارس ، وكانت خطوط مواصلاته بعيدةً بالنسبة لخطوط مواصلات الفرس ، أمّا المشاكل الداخلية في بلاد الفرس ، فقد أصبحت أقلّ من السابق بعد اتفاق الفرس على رفع « شهر براز ابن أزدشير » إلى العرش ، فلمّا اطمأنّ الأمر له ، كان إجلاء المسلمين عن العراق أوّل ما استقرَّ عليه عزمه . ولعلّ شعور خالدٍ بخطورة الموقف في العراق ، هو الذي دفعه إلى ترحيل النساء والصبيان والضعفاء من الرجال إلى المدينة ، قبل سفره إلى الشام . وبلغ المثنى أنباء حشْد فارس لمهاجمة قواته ، فسار حتى بلغ بابل ، وانتظر هناك عشرة آلاف مقاتل فارسي يقودهم « هرمز جاذويه » .

معركة بابل أواخر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة هجرية ، المثنّى قاتل الفيل :

كتب ملك الفرس « شهر براز » إلى المثنى رسالة قبل المعركة ، تدلّ على كبرياء سخيفة ممقوتة ، تحمل كل معاني الاستخفاف بالمثنى وجيشه ، ونسي أن هذا الجيش ، على قلَّة عدده هو الذي أنْزَلَ أشنع الهزائم بما يقرُب من نصف مليون مقاتل فارسي في معارك متفرِّقة ، وهو في كل معركة لا يزيد على عشرين ألفًا ، فكتب ملك الفرس إلى المثنى : « من شهر براز إلى المثنى ، لقد بعثتُ إليك جندًا من وخش[1] أهل فارس ، إنما هم رُعاة الدّجاج والخنازير ، ولست أُقاتلك إلّا بهم » . فردَّ عليه المثنى : « من المثنى إلى شهر براز ، إنما أنت أحَدُ رجُلَيْن ، إمّا باغٍ ، فذلك شرٌّ لك وخيرٌ لنا ، وإمَّا كاذبٌ ، فأعْظَمُ الكذَّابين عقوبةً وفضيحةً عند الله في الناسِ الملوكُ ، وأمَّا الذي يدلُّنا عليه الرأي ، فإنكم اضطررتم إليه ، فالحمد لله الذي ردَّ

---

(١) أي من أسقاطهم وأراذلهم .

كيدكم إلى رُعاة الدّجاج والخنازير »[١] . وتشاءم الفرس من جواب المثنى وقالوا : إنما أُتي « شهر براز » من شؤم مولده وشؤم منشئه ، وقالوا له : جرّأتَ علينا عدوَّنا ببعْث الكتاب إليه . وجعل المثنى على ميمنة جيشه أخاه المعنّى بن حارثة ، وعلى ميسرته أخاه مسعود بن حارثة ، وكان أكثر جنده من قومه شيبان وبكر بن وائل ، فاستماتوا في القتال . وكان جلُّ اعتماد الفرس لتمزيق صفوف المسلمين على الفيل المدرَّب على القتال ، وبدأت المعركة عنيفةً فاشيةً شديدةً ، وكان الفيل مدرّبًا أحسن تدريب على القتال ، وفرّق صفوف المسلمين ، وكان لا يقف في وجهه شيءٌ ، فخشي المثنى أن يكون لمساندة هذا الفيل لجيش فارس تأثيرٌ سيِّئ خطير على جند الإسلام ، الذي أربك هذا الفيل صفوفه ، فسارع المثنى نفسه وفئة من المغاوير إلى الفيل ، حتى أصابوا من الفيل مقتلًا ، فخسر الفرسُ - والمعركةُ على أشدّها - أهمَّ مُسانِدٍ لهم ضد المسلمين ، ولم يكد الفيل يقع على الأرض حتى جزع الفرس جزعًا شديدًا ، ثم تحوّل جزعهم إلى هزيمةٍ كاملة ، فشرعوا في الهرب وسيوفُ المسلمين تأخذهم من كل جهة . واستطاع المسلمون أن يُبيدوا المشاة عن آخرهم ، أمّا الفرسان من الفرس فقد أركضوا خيلهم هاربين ، فطاردهم فرسان المسلمين ، فصاروا يأسرون ويقتلون مَنْ يقدرون عليه ، وطالت مطاردة المثنى لهم ، حتى وصل في مطاردتهم أبواب المدائن ، وفرَّ « هرمز جاذويه » من الميدان ، وشاع خبر موت الملك « شهر براز » في أثناء هزيمة الفرس ، فزادهم خبالًا على خبال . قال عَبْدَةُ بن الطَّيب عن هذا اليوم :

حلَّتْ خُوَيْلَةُ في حيٍّ عهدتُهُمُ ... دونَ المدائِنِ فيها الدِّيكُ والفيلُ
يُقارِعون رؤوسَ العُجْمِ ضاحيةً ... منهمْ فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤١٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ / ١٦٠ .

وقال الفرزدق مُثنيًا على المثنى :

وبيتُ المُثنّى عاقِرِ الفيلِ عَنْوَةً   بِبَابِلَ إذْ في فَارِسٍ مُلْكُ بابِلِ

وكتب المثنى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه يخبره بانتصاره ، ويستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الرِّدَّة ، بل غادر المثنى العراق إلى المدينة ليُخبر الصِّدّيق خبر المسلمين والفرس ، فوصل إليها قبل موت الصّدّيق بيومٍ واحد ، وأوصى الصِّدّيقُ عمرَ بن الخطاب بأن يندب الناس مع المثنى . ولمَّا مات الصِّدّيق ، أصبح عمر من الليلة التي مات فيها أبو بكر رضي الله عنه ، فاستنفر الناس للانضواء تحت لواء المثنى ، وأحجم الناس عن قتال الفرس ، وكان قتال الفرس من أكره الوجوه إلى العرب ؛ لِمَا عُرفوا به من عنادٍ وصبرٍ في القتال ، ولشدّة سلطانهم وعزِّهم وقوة شوكتهم وقهرهم الأمم . وقام المثنى يهوِّن من أمر الفرس ، فقال في مسجد رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، لا يعظُمَنَّ عليكم هذا الوجه - أي الفرس - فإنَّا قد بَحْبَحْنَا رِيفَ فَارس ، وغلبناهم على شقّي السّواد ، وشاطرناهم ونِلْنا منهم ، واجترأ مَنْ قِبَلنَا عليهم ، ولها ما بعدها إن شاء الله »[1]. فتوالى المتطوِّعون حتى بلغوا ألف رجُلٍ من المدينة المنورة فقط ، وعاد عمر إلى نَدْب الناس إلى العراق قائلًا : « أين الطُّرَّاء المهاجرون عن موعود الله ؟! سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يُورثكموها ؛ فإنه قال : ﴿ **لِيُظهره على الدِّين كله** ﴾ [التوبة : ٣٣] . والله مظهر دينه ومعزّه وناصره ، ومُوَلِّي أهله مواريث الأمم ، أين عبادُ الله الصالحون ؟! » . وهنا قام أبو عبيدة ابن مسعود الثقفي فقال : أنا لها . وقال عمر : « والله لا أُؤمِّر عليكم إلَّا أوَّلهم انتدابًا » . فأمَّر أبا عبيدة على المثنى ومن معه ، فسمع المثنى وأطاع

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٣١ ، والكامل ٢ / ١٦٦ .

بقلبٍ نقيٍّ طاهرٍ صافٍ . قال عمر بن الخطاب : « يرحم الله أبا بكر ، هو كان أعْلَم بالرِّجال مني » . وقد كان عَـزَلَ خالد بن الوليد والمثنى وقال : « إني لم أعزلْهما عن ريبةٍ ، ولكنّ الناس عظَّموهما ، فخشيتُ أن يوكّلوا إليهما »[1] .

كان الصِّدِّيق معجبًا بالمثنى إعجابه بخالد بن الوليد ، وكان يراه لا يقلّ عن خالدٍ في كفاءته الحربية ، وبلغ المثنى الذّروة من المجد وعلوّ الصِّيت ، وكان كخالدٍ ؛ لم ينهزم في معركةٍ واحدة ، ولم تنكَّس له راية .

رجل العراق الأوّل يُفوِّت على الفرس إبادة المسلمين ، وينسحب منه دون علمهم :

وصل إلى المثنَّى من استخباراته أن « رستم » قائد الفرس يؤلِّب أهل العراق والفرس ، من أعالي الفرات إلى مَصَبِّه ، وأن السّواد بعد اشتعال ثورته ضد المسلمين سيطوِّق جيش المسلمين ، ويُبيده بالتعاون مع ثلاثمائة ألف مقاتل من الفرس ، وكان هدف رستم قطْع خطوط الرَّجعة على المسلمين ، واحتلال الحيرة ثم إبادتهم ، ولا سيّما أن قوات المسلمين مبعثرة في نواحي العراق ، وكانت خطة رستم تقضي بالإيعاز إلى أهل كل بلدةٍ أو موقعٍ ، من الفرس أو العرب المُتَنَصِّرة ، بأن يشغبوا ويثوروا على حاميات الإسلام ، وَوَعَدَهم بالمدد السريع من الجيش ليُبيدوا هذه الحاميات ؛ كل حامية على حدةٍ ، ولكن المثنَّى العبقري أفسد على رستم خُطّته ، فقد أرسل البريدَ العاجل خفيةً أمرًا إلى جميع المسالح والحاميات والمواقع وفصائل الاستخبارات خارج الحيرة ، بأن تترك مواقعها وتتحرك بأسرع ما يمكن إلى الحيرة ، ودهش رستم عندما وجد اللّيث الهَصُور والعبقري الخبير « المثنَّى » قد سبقهُ ، وسَحَبَ كل جندي

(١) الكامل ٢ / ١٩١ .

إلى الحيرة ، ثم انسحب من الحيرة بكامل جيشه إلى حدود شبه الجزيرة ، دون أن تعلم مخابرات الفرس إلَّا بعد أن وصلها أن المثنى أنهى انسحابَهُ إلى خفان دون أن يخسر مقاتلًا واحدًا ، فتألّم رستم ، وعلم أنه أمام قائد من أعظم قادة العالم . ولما وصل أبو عبيدة إلى خفان ، وأقرَّ المثنَّى على ما صنع ، عَلِمَ أن الفرس نزلوا « النمارق » فسار إليهم بقوات المسلمين ، وجعل المثنى على الخيل ، فاقتتل الطرفان قتالًا شديدًا ، وانهزم الفرس أمام المسلمين ، ووقع قائدهم « جابان » أسيرًا .

مائة ألف لا يصمدون أمام تسعة آلاف .. يا لله !!

والتقى المسلمون بالفرس بعدها في معركة « السقاطية » فانتصر المسلمون بعد قتالٍ شديد ، فأقام أبو عبيدة بناحية « كسكر » وسرَّح المثنى إلى « باروسما » وسرّح غيره من القادة يُغيرون على تلك النواحي ، ويُخضعونها للمسلمين . والتقى الطرفان في معركة « الجالينوس » فانهزم الفرس أيضًا ، وقدم المثنى الحيرة ، واستقرَّ بها . ووجَّه أبو عبيدة المثنى إلى « زندورد » فوجدهم قد نقضوا فحاربهم وانتصر عليهم .

معركة الجسر ، وتُعرف أيضًا بالمروحة ، والقرقس ، وقس الناطف :

حشد الفرس جيشًا عظيمًا بقيادة « بهمن جاذويه » فعبر إليه أبو عبيدة بجيشه ، مُخالِفًا من كان معه من قادة الجيش ، وقبل نشوب القتال بين الطرفين ، عيَّن أبو عبيدة الأمراء الذين يتولّون قيادة المسلمين من بعده إذا استشهد ، وكان من بين الذين عيَّنهم : المثنَّى ، فلمّا استشهد أبو عبيدة ، واستشهد الذين تعاقبوا على اللواء حَسَب وصيَّته من بعده ، تولَّى المثنى ، وكانت معنويات الناس حينذاك قد انهارت ، فارتدّ كثير منهم إلى الجسر ، يريدون النجاة بأنفسهم ، وغرق في النهر حوالي ألفين استشهدوا كلهم غرقًا . وأقدم عبد الله بن مرثد الثقفي على قطْع الجسر ، وخرَّبه ، ووقف

عند الجسر يمنع المسلمين من محاولة العبور على ما تبقّى من الجسر ، وقال : « أيها الناس ، موتوا على ما مات عليه أُمراؤكم ، أو نظفر » . فضربَهُ المثنى ؛ إذ كان في نسْف الجسر إبادةٌ كاملة لجيش المسلمين . وحدث فعلًا ما يُشبه المعجزة ، وسارع البطل المغوار ، الذي لا تعرف نَفْسُه الجزع « المثنى » ومعه أبطالٌ من المسلمين لإصلاح الجسر ، ومقاتلة الفرس الذين احتشدوا بقصد منْع إصلاحه ، وكان معه : عروة بن مسعود ، وعاصم بن عمرو ، ومذعور بن عدي ، والكلج الضَّبّي ، وعروة بن زيد الخيل ، وسليط بن قيس الأنصاري ، وطَلَبَ المثنى من هؤلاء أن يكونوا إلى جانبه ؛ لمقاتلة الفرس الذين أوكل إليهم « بهمن جاذويه » منْع المسلمين من العبور ، إن هم تمكّنوا من إصلاح الجسر . ونادى المثنى الذين تمكّنوا من العبور إلى الشاطئ الغربي ، أن يأتوا في الحال بخبراء من الفرس ممن هم في ذمتهم وصُلْحهم ؛ لإصلاح الجسر ، فأُحضروا في الحال ، فقام هؤلاء العجم في الحال بإقامة الجسر ، وفي الوقت نفسه كان المثنى ومن معه من الأبطال ، الذين اختارهم حماة له ، يقاتلون الفرس الذين كلَّفهم « بهمن جاذويه » بمنْع المسلمين من العبور ، فقد قاتلهم المثنى ورجاله في شجاعةٍ تفوق الخيال ، فأعملوا فيهم السيوف باستماتةٍ حتى دحروهم ، وأفسحوا المجال للمنسحبين أن يعبروا إلى الشاطئ الغربي ، وسقط كثيرٌ من مفارز الحماية الأبطال ، الذين كانوا يحمون المثنى وهو يُشرف على إصلاح الجسر ، وجرح المثنى نَفْسُه جرحًا مميتًا عند الجسر ، ولكنّه رَبَطَه ، وبرز البطلُ الأسد الهصور الجريح على صهوة جواده عند الجسر كالطّود ، ودمه الطاهر يسيل ، وقف يصيح بالمسلمين ؛ يطلب منهم الانسحاب عبر الجسر : « أيها الناس ، أُناديكم فاعبروا على هيِّنتكم[1] ،

---

(١) على مهلكم .

ولا تدهشوا ، فإنّا لن نُزايل[1] حتى نراكم في الجانب الآخر » . وهكذا بفضل الله ، ثم بشجاعة وثبات وتدبير المثنى ، تمَّتْ عملية عبور الجيش المسلم ، ونجا ستة آلاف من موتٍ كان محقّقًا لو لم يوفِّق اللهُ المثنى لإصلاح الجسر والثبات عنده ، الذي دفع حياته الغالية ثمنًا لإصلاحه والثبات عنده ، فقد مات رضي الله عنه بعد أكثر من شهرين ، متأثِّرًا بجرحه الخطير ، ولكن قبل موته منَّ الله عليه بالنصر وشفى غليله من الفرس .

بعد معركة الجسر ارفضَّ عن المثنى ألفان ، واصلوا هزيمتهم حتىٰ وصلوا المدينة ، وخجل ألفٌ من أبناء البادية ، فاختفوا خجلًا في باديتهم ، وبقي مع البطل الجريح « المثنى » ثلاثة آلاف . وفي اليوم الثاني لمعركة الجسر ، ظنَّ الفرس أن معركة الجسر ساحقة ماحقة ، وما دروا أن الأسد كامِنٌ في مربضه ، وخرج الفرس يتنزَّهون ، ولما علم المثنى بذلك ، خرج في جريدةٍ من الخيل ، في اتّجاه « أُلَّيْس » حيث المكان الذي يتنزّه فيه اثنان من كبار قُوّاد فارس « جابان ومرادنشاه » في حرسهما ، وهجم عليهما المثنى ، فلم يُفيقا من صدمة الدهشة إلَّا وهما أسيران في يد المثنى ، وقتلهما وهو يقول لهما : « أنتما غرّرتُما بأميرنا وكذبتماه واستفززتماه » . وضربَ أعناق حرسهما جميعًا .

معركة البويب ثالث عشر من رمضان ، وقتْل مائة ألف فارسي فيها :

تتابعت على المثنى الإمدادات من المدينة ، وحشد المثنى جيشه في « البويب » وكانت عدَّة الجيش اثني عشر ألفًا ، بينما جَمَعَ « رستم » جيشًا عظيمًا ، جَعَلَ قيادته لمهران بن باذان ، وكان قائدًا محنَّكًا شجاعًا ماهرًا ، وكانت عدّة جيش الفرس مائة ألفٍ من الفرسان ، وخمسين ألفًا من المشاة .

---

(١) أي لن نتحرك من أماكننا حتى نحمي عبوركم .

ونزل ببَسُوسْيَا فقال المثنى : « أكْدَى مهران وهلك ، نزل منزلًا هو البسوس » . وبعث مهران إلى المثنى يقول : « إمّا أن تعبروا إلينا ، وإمّا أن نعبر إليكم ، فقال المثنى : « اعبروا أنتم » . فعبر مهران بجيشه ، وعبّأ المثنى أصحابه ، وكان الوقت رمضان ، فأمرهم بالإفطار ليقووا على عدوهم ؛ فأفطروا وخرج المثنى على فرسه « الشّموس » ، وكان لا يركبه إلا لقتالٍ ، وطاف راكبًا بين الصفوف ؛ يَحُضُّهم ويُحرِّضهم ، ويهزُّهم بأحسن ما فيهم ، فكان يقف عليهم رايةً رايةً ، ويقول : « إني لأرجو ألَّا تُؤتى العرب من قِبَلِكم ، والله ما يسرُّني اليوم شيء لنفسي إلا وهو يسرُّني لعامّتكم »(١). ولقد أنصفهم في القول والفعل ، وخالط الناس في المكروه والمحبوب ، فلم يستطع أحد أن يعيب له قولًا ولا عملًا ، رضي الله عنه وأرضاه .

وقال المثنّى : « إني مكبِّرٌ ثلاثًا ، فَتَهَيَّئُوا ، ثم احملوا مع الرابعة » . ولكنّه ما كاد يكبِّر التكبيرة الأُولى ، حتى أعجل الفرس المسلمين وعاجلوهم وشدُّوا عليهم ؛ فاختلَّتْ بعض صفوف المسلمين من بني عجل ، فأرسل المثنى من يقول لهم : « إن الأمير يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : لا تفضحوا المسلمين اليوم » . فاعتدل بنو عجل ، وهاجموا قوات فارس ، واشتبك الطرفان في قتالٍ مرير ، ففكّر المثنى بأن يحمل بنفسه على قائد الفرس ، فيُزيله عن مكانه أو يقتله ، فحمل على « مهران » حملةً صادقةً حتى دخل ميمنته ، ورأى الفرس ما حدث ؛ فاندفعوا لحماية قائدهم ؛ وعندما انكشف الغبار ، رأى المسلمون تراجُعَ قلبِ الفرس ، فحملت ميمنةُ المسلمين وميسرتُهم ، فسارع الفرس إلى التَّراجُع نحو النهر ؛ خوفًا من التطويق ، يريدون النجاة بأنفسهم .

---

(١) الطبري ٢ / ٦٤٨ ، وابن الأثير ٢ / ١٧٠ .

لقد كان المثنَّى قائدًا عميقًا في علم النفس العسكري ، قبل أن يخُطَّ أي أستاذٍ متخصِّص في هذا العلم بقرون ، فيقول - رحمه الله - لجنده محرِّضًا ، لَمَّا رأى ما رأى من الفرس : « عاداتكم في أمثالهم : انصروا الله ينصركم » . ثم سابَقَ المثنى الفرس المنسحبين إلى الجسر ، فسبقهم إليه وقطعه ، وبذلك قطع خطَّ رجعتهم الوحيد ، وكبّدهم مائة ألف قتيل ، وترك المثنى أخاه مسعود بن حارثة شهيدًا ، فقال المثنى : « أيها الناس ، لا يَرُعْكم مصرعُ أخي ؛ فإن مصارع خياركم هكذا . والله إنه ليهوِّن عليَّ وجْدي أن شهدوا « البويب » . أقْدَمُوا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا ، وإن كان في الشهادة كفّارة لتجوز الذنوب »[١]. وقال المثنى بعد المعركة : « قد قاتلتُ العرب والعَجَم في الجاهلية ، واللهِ لمائةٌ من العجم في الجاهلية ، كانوا أشدَّ عليَّ من ألفٍ من العرب ، ولمائةٌ اليوم من العرب أشدّ عليَّ من ألفٍ من العجم ، إن الله أذْهَبَ بأسهم ووهَّن كيدهم ، فلا يَرُوعَنَّكم زهاء[٢] ترونه ، ولا سوادٌ[٣] ولا قسيّ فجّ ، ولا نبال طوال ، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها ، كالبهائم أينما وجّهتموها اتجهتْ »[٤].

لله دَرّك يا مثنّى وأنت تقول عن الفرس : إنهم « كالبهائم أينما وجّهتموها اتجهت » . لله دَرُّك وأنت تقول لرجالك في المعركة ، لما أتى الفرس وصيحاتهم في المعركة تهدر : « إن الذي تسمعون فشل ، فالزموا الصمت وَأْتَمِرُوا همسًا » .

واستمـرَّتْ مطاردةُ المسلمـين فلولَ المنهزمـين يومًا وليلةً ، وترك

(١) الطبري ٢ / ٦٥٠ ، وابن الأثير ٢ / ١٧٠ .
(٢) منظر .
(٣) كثرة .
(٤) الطبري ٢ / ٦٥٠ - ٦٥١ .

الفرسُ مائة ألفٍ ، حتى صاروا جثثًا « فما كانت بين العرب والعجم وقعة كانت أبقى رمّةً منها . وحدّثني بعض من شهدها : والله إنّا كُنّا لنأتي البويب ، فنرى فيما بين موضع السكون عظامًا تلولًا تلوح من هامهم وأوصالهم يُعْتَبَر بها »[1]. وقال عطية بن الحارث : « وأفعموا جنبتي البويب عظامًا حتى استوى ، وما عفى عليها إلا التراب أزمان الفتنة ، وما يُثار هناك شيء إلا وقعوا منها على شيء » . وأمر المثنى رجاله بالاندفاع في مطاردة الفرس ، ففتحوا السّواد كله حتى بلغوا ساباط ، وقُتل في المعركة قائد الفرس مهران ، وقُتل صاحبُ خيله « شهر براز » .

يقول الأعور العبدي يذكُر معركة البويب :

هاجتِ الأعورَ دارُ الحيِّ أحزانَا ... واستبدلتْ بعدَ عبدِ القيسِ خفَّانا
وقد أرانا بها والشَّمْلُ مجتمِعٌ ... إذْ بالنَّخيلة قتلى جُندِ مهرانَا
أزْمَانَ سار المُثَنَّى بالخيولِ لهمْ ... فَقَتَّلَ الزَّحْفَ من فُرسٍ وجيلانَا
سما لمهرانَ والجيشِ الذي معه ... حتى أبادهموا مثنًى ووُحْدانَا
ما إنْ رأيْنا أميرًا بالعراق مضى ... مِثْلَ المثنَّى الذي من آلِ شَيْبَانَا
إن المُثَنَّى أميرُ القومِ لا كَذِبٌ ... في الحرب أشجعُ من ليثٍ بخفَّانَا

لقد كان نصر المسلمين في البويب ، مثل انتصار المسلمين في اليرموك في الشام ، يعادله تمامًا كما قال ابنُ كثير ، وهو العامل الأكبر الذي أدَّى إلى انتصار المسلمين في القادسية ومهّد له . لقد أدَّى انتصار اثني عشر ألفًا من الأبطال ، وإبادتهم لأكثر من مائة ألفٍ من الفرس ، كلهم تقريبًا من الفرسان - إلى شحن نفوس زعماء الفرس بالاحتقار والحقد للقادة الكبار ، إلى درجة أنهم هدّدوا هؤلاء القادة بعد البويب بقتلهم ،

(١) الطبري ٣ / ٤٦٧ .

إن لم يبدِّلوا أسلوبهم في مُقاتلة المسلمين .

بين البويب والقادسية :

يرى المعلِّقون العسكريون أنه بالنظر من الوجهة العسكرية المجرَّدة ، أن رجال البويب أتوا بأعظم مما أتى به رجال القادسية . فجيش الإسلام يوم البويب كان اثني عشر ألفًا ، ويوم القادسية ثلاثين ألفًا ، دعَّمهم وصول المدد المتعاقِب ، على رأسه هاشم والقعقاع . وكان معظم جيش الفرس في البويب من الفرسان لا المشاة ، وتمكَّن جيش المسلمين من إبادة مائة ألف من الفرس وأكثر في البويب ، بينما في القادسية أبادوا ثلاثين ألفًا .

وممّا أدّى إلى اشتهار القادسية : أنها كانت بقيادة « رستم » الرجل الأوَّل للفرس ، وقُتِل فيها ، وعنفُ المعركة واستمرارها بدون انقطاعٍ ثلاثةَ أيامٍ متوالية ، وتمكُّن العرب بعد القادسية من تطهير العراق العربي نهائيًّا من العنصر الفارسي بعد سقوط المدائن ، ونَقْل المعركة إلى بلاد فارس ، ولم تقُم للفرس قائمة بعد « نهاوند » .

الغارة على أسواق الفرس في الخنافس وبغداد :

كانت الغارة على الأسواق شمالي العراق استغلالًا رائعًا لمعركة البويب ، لم يكن المثنى قد قرأ عن مبدأ المطاردة ، ولكنّه وضع لنفسه المبدأ كقائد ، وبذلك يُعتبر المثنى من واضعي هذا المبدأ في علم الحرب ، وقد استطاع بكفاءته أن ينفِّذه في قوةٍ وعُمقٍ ، بلغ حوالي أربعمائة كيلو مترًا أو يزيد شمالًا ، خلاف ما تبحبحوا به شرقًا وغربًا وجنوبًا .

لقد فتح المثنى على العجم أبعادًا ثلاثة للحرب القائمة بينه وبين الفرس ؛ البُعد الأول هو خطّ المواجهة ، والبعد الثاني هو ما امتدَّ إليه هذا الخط ، فجعله يتَّسِع ويستطيل للحصول على التموين لقواته ، وتشتيت العدو وإرباكه ،

وللتأثير على قادة جيش فارس وشعب فارس . فأغار المثنى في هجومٍ خاطف على هذه الأسواق ، وكان فيها أموال غالية الثمن ، يزيد على ما في خزانة بيت مال كسرى ، وأصاب المسلمون فيها من الذهب والفضة ما كان غَناءً للمسلمين ، وقوّةً لهم على عدوّهم دهرهم . وقال أحد جنود المثنى : ما أسرع القوم في طلبنا ! فقال الرجلُ القمة ، أستاذُ الحروب لأبطاله – بعد أن أغاروا على سوق الخنافس وبغداد وعادوا في يومٍ واحدٍ ، وبعد أن أوغلوا في غاراتهم حتى العُمق ، وكان بينهم وبين المدائن ثلاثون كيلو مترًا – : « تناجوا بالبرّ والتقوى ، ولا تناجَوْا بالإثم والعدوان ، انظروا في الأمور وقدِّروها ثم تكلَّموا ، إنه لم يبلغ النّذير مدينتهم بعدُ ، ولو بلغهم لَحَالَ الرُّعب بينهم وبين طَلَبكم . إن للغارات روعاتٍ تنتشر عليها يومًا إلى الليل ، ولو طلبكم المحامون من رأي العين ، ما أدركوكم وأنتم على الجياد العراب وهم على المقاريف البطاء ، حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتكم . ولو أدركوكم لقاتلتُهم لاثنين : التماس الأجر ، ورجاء النصر . فثِقُوا بالله وأحْسِنُوا به الظَّنّ ، فقد نصركم في مواطن كثيرة وهم أَعَدُّ منكم ، وسأُخبركم عني وعن انكماشي والذي أُريد بذلك ، إن خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر أوصانا أن نقلّل العرجة ، ونُسرع الكرَّة في الغارات ، ونُسرع في غير ذلك الأَوْبَةَ » .

يقول المثنى :

صبَّحْنَا بالخنافسِ جَمْعَ بكرٍ ... وَحَيًّا من قُضاعةَ غير مِيلِ
بفتيانِ الوَغَى من كلِّ حيٍّ ... تَبَارَى في الحوادثِ كلِّ جِيلِ
أبَحْنَا دَارَهُمْ والخيلُ تَرْدَى ... بكلِّ سَمَيْدَعٍ سامي التّلِيلِ

ورأى المثنَّى أن لا يعود إلى مقر قيادته في الحيرة ، إلَّا بعد أن تشمل غاراته شمال العراق ، وأن يؤدِّب بني تغلب في الكباث في شمال العِراق ،

وأكثر المسلمون فيهم القتل . لقد نجح - رضي الله عنه - في غاراته على الشمال ، حتى وصل في فتوحاته إلى ما لم يصل إليه القائد العظيم خالد . وزيادةً في التنكيل بأعداء الله وأولياء الفُرس ، أغار في صفّين على أحياء من عرب تغلب والنمر والنصارى ، فلمّا اقتربوا من صفين هرب أهلها ، فتبعهم المسلمون ، حتى رموا بأنفسهم في مياه الفرات وغرقوا ، فجعل المسلمون يقولون لهم : « تغريقٌ بتحريق » . فصارتْ مَثَلًا .

هذا هو المثنى بطل المعارك ، وبطل حروب الاستنزاف بعد المعارك ، أعظم أساتذة الحرب في العالم - وُلد ونشأ وترعرع في العراب بين مضارب البادية ، على متون الخيل بين المضارب والخيام تعلّم ، ولكنّ أستاذ الحرب البدوي علّم الدنيا بأسرها : وُلد المثنَّى بالبادية ، ومات في البادية ، وطواه لَحْدٌ تحت رمال البادية ، غازيًا للدنيا بسيفه ، عَزُوفًا عنها بقلبه ، ليس له إلَّا « الشموس » جواده ، لا يركبه ويُذلِّله غيرُهُ ، ولا يركبه إلا للغزو

هذا جوادُكَ في الميدانِ مُنطلِقُ ... وبينَ عَينَيْهِ من إصرارِهِ أَلَقُ
صَهيلُهُ نَغَمٌ يُصغي الزَّمانُ له ... وَنَقْعُهُ لحجابِ الشّمسِ يخترِقُ
وَسَرْجُهُ همهماتٌ لا يُخالطها ... زَيْفٌ ولا يَرتمي في حِضْنِهَا نَزَقُ
تشدو حوافِرُهُ لَحْنًا يَهشُّ له ... قلبُ التّرابِ وتسترخي له الطُّرُقُ
يُسابِقُ الرِّيحَ في دَرْبِ الإباءِ وَكَمْ ... خَيل سِوَاهُ إلى الأهواءِ تستبِقُ
هذا شَمُوسُكَ يجري النُّورُ في دمِهِ ... وتَشْرَئِبُ إلى غَارَاتِهِ العُنُقُ
تَكُفُّ عن وجهِهِ الصَّحْرَاءُ ما حملتْ ... من سيفِهَا ويُناغِي رَكْضَةَ الشَّفَقُ
يُقِضُّ مضجعَ كلِّ الصافناتِ إذا ... ثار الغُبَارُ وطارتْ نحوَهُ الحَدَقُ
مسافرٌ والأماني البيضُ لاهِثةٌ ... وراءَهُ وبحارُ الشَّوقِ تصطفِقُ
إذَا تَلَفَّتَ غَنَّى فَجْرُ غُرَّتِهِ ... لَحنَ الضِّياءِ وأرخى طَرْفَهُ الغَسَقُ
وسافر الليلُ مبهورًا وأعقبَهُ ... فَجْرٌ تحفَّزَ لاستقبالِهِ الأُفُقُ

يا مُورِيَ القَدْحِ آمالي بك انبثقَتْ ... يومَ البويبِ والآمالُ تنبثِقُ
مراكبُ الفرس نامتْ وَهْيَ واقفةٌ ... والرّاكبون عليها من أهوالِكَ انسحقوا
يستأسِدُون عليها وَهْيَ واقفة ... لَمَّا ظهرت جَثَوْا وغارتْ منهمُ الحَدَقُ

انسحب المثنى بقواته إلى تُخُوم الجزيرة العربية ، فنزل بذي قارٍ حتى يأتيه سعد بن أبي وقّاص على رأس المدد لمهاجمة الفرس وإبادتهم . ولكنْ عاجلتْه المنيَّة .. وما نسي البطل الصالح العهدَ إلى سعدٍ وتوصيته ، وما أَشبَهَ لحظات المثنى الأخيرة باللحظات الأخيرة لأبي بكر رضي الله عنهما ، كلاهما ترك الدنيا وهو يفكِّر للمسلمين في هذه الفتوح ويوصي بها .

وترك المثنى وصية غالية لسعد : « ألا يقاتل عدوّه وعدوهم من أهل فارس إذا استجمع أمرهم وماؤهم في عقر دارهم ، وأن يُقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنى حجرٍ من أرض العرب ، وأدنى مدرة من أرض العَجَم ؛ فإن يُظهر الله المسلمين ، فلهم ما وراءهم ، وإن كانت الأُخرى ، رجعوا إلى فئةٍ يكونون أعلم بسبلهم وأجرأ على أرضهم ، إن يرد الله الكرَّة عليهم »[1]. وأشار المثنَّى على سعدٍ : « أن يُحارب العدو بين القادسية والعذيب »[1]. ومات المثنى قبل أن يرى سعدًا .

وهكذا انطفأ سراجٌ من أشدّ السّرج توهُّجًا ، وأفلتْ تلك الشمسُ المشرقة التي غمرت العراق دفئًا ونورًا .

كالبدرِ من حيثُ التفَتَّ رأيتَهُ ... يُهدي إلى عَيْنَيْكَ نورًا ثاقبًا
كالبحر يقذفُ للقريبِ جَوَاهرًا ... جُودًا ويبعثُ للبعيدِ سَحائبًا
كالشمسِ في كَبِد السماءِ وَضَوْءُهَا ... يَغْشَى البلادَ مشارقًا ومغاربًا

(١) الطبري ٣ / ١٠ ، وابن الأثير ٢ / ١٧٤ .

ولا غرو عندما حمي الوطيس ، واستكلَبَ الموت على الأبطال في القادسية ، هتفتْ سلمى زوجُ سعدٍ – وكان سعد قد تزوَّجها بعد موت زوجها المثنى – حين لم تجد المثنى يسود الأجناد والفرسان للجلاد ، قائلة: «وامثنّاه! ولا مُثنَّى اليوم للخيل»(١). « وامثنّاه ! ولا مثنَّى للمسلمين اليوم »(٢) ، « القوم أقران ، ولا مثنى لهم »(٣).

ما زال يروي لنا التاريخُ قصَّتَهُ ... فكم حديثٍ على شوقٍ رَوَيْنَاهُ
وكم حديثٍ عن الأحبابِ أطْرَبَنَا ... وزادَنَـا طَـرَبًا لَمَّـا أعَـدْنَاهُ
وَقْـعُ الحوافـر يا بغـدادُ أُغْنِـيَةٌ ... ثـراكِ يُنشـدها والرَّمْـلُ أفـواهُ
وحمحماتُ خيولِ النَّصْرِ تُطربني ... الحــربُ دائــرةٌ والنّاصــرُ اللهُ
صهيلُها في دروبِ الحقِّ يملكني ... فكم أذوبُ به وجْـدًا وأهـواهُ
هذا المثنى يُرَوِّي الأرض من دَمِهِ ... والعينُ في رؤيةِ الأحداثِ عيناهُ
لم يَسْتَعِرِ مُقلةً أُخرى ولا شَفَةً ... أُخرىٰ ولـم تُصغِ للتَّضليلِ أُذْنَاهُ
كيانُكِ الضَّخْمُ يا بغدادُ حصَّنَهُ ... سيفُ المثنى ونورُ الحقِّ جَلَّاهُ
النّورُ فوق ذراعِ الشَّمْس صبَّحَهُ ... والنّورُ فوق ذراعِ البدرِ مسَّاهُ(٤)

القعقاع بن عمرو التميمي فاتح خانقين وحلوان وهمذان :

لا يُهزم جيشٌ فيه مِثْلُ القعقاع . [أبو بكر الصديق] .

الصحابي الجليل ، والفارس المغوار النبيل ، حيدرة الأسود رضي الله عنه .

---

(١) الطبري ٣ / ٥١ .
(٢) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .
(٣) المعارف صـ ١٠٠ .
(٤) من قصيدة : وشم على ذراع بغداد ، من ديوان « يا أمة الإسلام » لعبد الرحمٰن العشماوي – مكتبة العبيكان .

صاحب الخوارق والشجاعة التي يعجز القلم عن وصفها في معارك الفتح الإسلامي .. وما أبْلَغَ وصف أبي بكرٍ للقعقاع : « لصوتُ القعقاع في الجيش خيرٌ من ألف رجل »[1].

قال القعقاع : قال لي رسول الله ﷺ : « ما أعددتَ للجهاد ؟ » . قلتُ : طاعة الله ورسوله ، والخيل . قال : « تلك الغاية » .

مع خالد في العراق :

لما احتاج خالد إلى إمداداتٍ ، كتب إلى أبي بكر يستمدُّه ، فأمدّه بالقعقاع ، فقيل لأبي بكر : أتُمدُّ رجُلًا قد ارفضَّ عنه جنوده برجلٍ ؟ فقال : « لا يُهزم جيش فيه مِثْلُ هذا »[2].

في معركة كاظمة ، لما خرج هرمز للقاء خالد ، أنقذ القعقاع خالدًا في هذه المعركة من الموت ، لما احتضن خالد هرمز ، وشدَّ أهل فارس يريدون الغدر بخالدٍ وقتله ، لم يُمهلهم القعقاع ، وحمل عليهم وانقضَّ كالصقر على الحامية ، فأبادهم جميعًا قبل أن يصلوا إلى خالد .

وكان له أكبر الأثر في كل معركةٍ خاضها المسلمون ، يقول في يوم « الولجة » :

ولم أرَ قومًا مِثْلَ قومٍ رأيتُهم ... على وَلَجَاتِ البرِّ أحْمَى وأنْجَبا
وأقْتَلَ للرّوّاسِ من كلِّ مجمعٍ ... إذا ضَعْضَعَ الدَّهْرُ الجموعَ وكَبْكَبَا

ولما استسلمتِ « الحيرةُ » أرسل خالدٌ قادته ومنهم القعقاع للتَّغلغُل في أرض السواد حتى دجلة ، فنجح القعقاع في مهمته نجاحًا باهرًا . وأصبحت

---

(١) الإصابة ٥ / ٢٤٤ .
(٢) تاريخ الطبري ٢ / ٥٥٤ .

الحيرةُ القاعدةَ المتقدّمة لجيش المسلمين ، ولما أراد خالد فتح الأنبار وعين التمر ودومة الجندل ، استخلف القعقاع على الحيرة ، فحمى القعقاعُ ظهر خالد ، وحافظ على الحيرة قلعة المسلمين المتقدّمة ، وصدَّ هجومًا مقابلًا شنَّته الفرس وحلفاؤهم على المناطق المجاورة للأنبار .

معركة الحصيد ، العاشر من شعبان سنة اثنتي عشرة هجرية :

كان قائد المسلمين القعقاع ، وقائد قوات الحصيد « روزبه » على رأس قوات الفرس وحلفائهم المُتَنَصِّرة ، فهاجمهم القعقاع ، وكان مِثْل خالدٍ ذِكْرُه يُرعِب الأعداء ، وكانت معركة ضارية ، غير أن النصر في النهاية كان حليف المسلمين ، وتوّج القعقاع نصره المؤزَّر بقتْل قائد الفرس زرمهر ، وَقَتَلَ عصمةُ الضبّيّ القائد الثانيَ روزبه ، وقُتِلَ من المجوس وحلفائهم العرب عددٌ كبير . وقال القعقاع :

أَلَا أَبْلِغَا أسماء أن حليلَها ... قضىٰ وَطَرًا من روزمهرِ الأعاجِمِ
غداة أصبْنا في حصيدٍ جموعَهُمْ ... بِهِنْدِيَّةٍ تَفْرِي فراخَ الجماجمِ

وفي « المصيّخ كان القعقاعُ ، وعبدُ بنُ فدكى السعدي ، وأبو ليلىٰ ابن فدكى ، وعروة بن جعد البارقي : هُمُ القادة الذين تولَّوْا تصفيةَ القواتِ الفارسية والعربِ الموالين لهم - ومتى ؟! بالليل ، إي واللهِ ، بالليل بعد منتصفه ..!!

وفي « الفراض » يقول القعقاع :

لَقِينَا بالفِراضِ جموعَ رُومٍ ... وَفُرْسٍ غمَّها طولُ السَّلامِ
أَبَدْنَا جَمْعَهُم لَمَّا التَقَيْنَا ... وَبَيَّتْنَا بجمعِ بني رزامِ

قاتل القعقاعُ تحت لواءِ خالدٍ أيضًا في كلِّ المعارك التي خاضها بعد ذلك ، حتى تحرَّك خالدٌ إلى الشام ، فكان القعقاعُ أحدَ الأبطال الذين

اختارهم خالدٌ ليُعَاونوه في مهمَّته الشَّاقَّة ، وهي فَتْحُ بلاد الشام .

وفي الطريق إلى الشام قَاتَل القعقاعُ تحتَ لواءِ خالدٍ في كافَّة المعارك ، حتى التحقَتْ قواتُ العراق بقواتِ الشام .

وفي « فَحْلٍ » أبلى أعظمَ البلاء ، قال القعقاع :

وغداةَ فحلٍ قد رأوْني مُعْلَمًا[١] والخيلُ تنحطُ[٢] والبلا أطْوارُ
يُفدي بلائي عندها مُتَكَلِّفٌ سَلِسُ المياسِرِ عُودُهُ خَوَّارُ
سَلِسُ المياسرِ ما تسامَى مَاقِطًا[٣] عنـد الرِّهانِ مُعَيّرٌ عيّارُ
ما زالتِ الخيلُ العرابُ تدوسهُمْ في حومِ فحلٍ والهَبَا[٤] موَّارُ
حتى رميْنَ سَراتهم عَنْ أسْرِهم في ردغةٍ ما بعدها استمرارُ
يومَ الرّداغِ بُعَيْدَ فحلٍ ساعةً وخز الرِّماح عليهِمُ مُدرارُ
ولقد أبرْنا[٥] في الرداغِ جموعَهُمْ طُرًّا ونحويَ تشخصُ الأبصارُ

ويقول رحمه الله :

نحنُ الأُولى جُسْنا العراقَ بِخَيْلِنا والشّامَ جُسْنَا في ذُرَى الأشفارِ
كَمْ مِنْ قَمَامِسَةٍ[٦] أَبَرْنا جَمْعَهُم بعدَ العراقِ وبعدَ ذي الأوتارِ

في حِصَارِ دِمشق :

إلى القعقاع ومذعور بن عدي وخالدٍ يعودُ الفضلُ الأكبرُ في إنهاءِ

---

(١) ذو علامةٍ ، شأن الصناديد .
(٢) النحط : صوتُ الخيل من الثِّقَل والإعياء .
(٣) المأقط : المضيق في الحرب .
(٤) الهباء : الغبار شِبه الدخان .
(٥) قتلنا .
(٦) القَمَامِسَة : البطارقة ؛ كبار الضباط في الروم .

حصار دمشق وفتْحها ؛ فالقعقاعُ ومذعورُ : هما اللذان صَعِدَا على سلالمِ الجبال إلى أعلى السُّور ، وأثبتا بقيةَ الحبال في شرف السُّور ، وهاجم خالدٌ برجاله - وعلى رأسهم القعقاعُ - حُمَاةَ أبوابِ المدينة ، فقتلوهم ، وفتحوا الأبواب للفاتحين .

في اليرموك :

كان القعقاعُ بن عمرٍو في القلْب على كُرْدُوسٍ من كَرادِيس أهلِ العراق من جيش خالدٍ ، وكان القعقاعُ أحدَ الأبطالِ الذين اختارهم خالدٌ للتأثير على معنويَّات الروم في ابتداءِ معركة اليرموك ، وكان رضي الله عنه يُهاجِم الرومَ على رأس كُرْدُوسِهِ وهو يرتجزُ ، ضاربًا لرجالِهِ في الشجاعة والإقدام أَرْوَعَ الأمثالِ . ولمّا أراد خالدٌ أن يقوم بهجومِهِ المُضَادِّ ، أمر خالدٌ عكرمةَ والقعقاعَ - وكانا على مجنبتي القلب - فبدأا الهجومَ المضادَّ الشامِلَ ، وارتجز القعقاعُ يقول :

يا ليتني ألقاكِ في الطِّرادِ … قبلَ اعترامِ الجحفَلِ الورّادِ
وأنتِ في حَلْبتك الورادِ

وقال القعقاعُ بعد المعركة :

ألَمْ ترنا على اليرموك فُزْنَا … كما فُزْنَا بأيَّامِ العراقِ
فتحْنَا قَبْلَهَا بصْرَىٰ وكانتْ … مُحَرَّمَةَ الجَنَابِ لدىٰ العناقِ
وَعَذْرَاءُ المدائنِ قَدْ فَتَحْنَا … ومرجُ الصُفّرَيْنِ على العِتَاقِ
قَتَلْنَا مَنْ أَقَامَ لنا وفئْنَا … نهابُهُم بأسيافٍ رِقَاقِ
قتلْنا الرُّومَ حتَّى ما تَسَاوىٰ … على اليرمُوك ثَفْرُوق الوِرَاق
فَضَضْنَا جمعَهُمْ لمّا استحالُوا … على الواقُوصِ بالبُتْرِ الرِّقَاقِ
غداةَ تهافَتُوا فيها فصارُوا … إلى أمْرٍ يُعضّلُ بالذواقِ

في العراق ثانيةً :

(١) في القادِسيَّة : القعقاعُ أفرسُ الناسِ ، بشهادةِ سعدٍ :

كان في مقدِّمة قواتِ هاشمٍ التي جاءت من الشام لِنَجْدةِ سعدٍ ، فعجّل القعقاعُ في مسيرته ، حتى وصل العراقَ في صَبيحةِ اليوم الثاني من أيّامِ القادسية ، وهو يوم « أغواث » ، وقد عَهِدَ إلى أصحابه – وهم ألفُ رجلٍ – أن يكونُوا جماعاتٍ ، كلُّ جماعة مُؤلَّفَةٌ من عَشْرَةِ رجالٍ ، ثم تقدَّم القعقاعُ مع الجماعة الأُولى فَسُرَّ الناسُ بقدومه ، وبشَّرهم القعقاعُ بقدوم الجنود ، قائلًا : « يَٰأَيُّهَا الناسُ ، إني جِئتُكُم في قومٍ – واللهِ – لو كانوا بمكانكم ثم أَحَسوّكم حَسَدُوكم حَظْوَتَهَا ، وحاولوا أن يطيروا بها دُونكم ، فاصنعوا كما أصنع »[١]. ثم تقدّم ، فلمّا كان بين الصَّفَّيْن ، نادىٰ : مَنْ يبارز ؟...

للهِ دَرُّك يا قعقاعُ : تأتي من سفرٍ بعيدٍ مثلِ هذا ، ثم تلتحم لحظةَ وصولِكَ وتبارز ؟! وخرج ذو الحاجب « بَهْمَن » وعرّف القعقاعَ بنفسه ، فقال : إني « بَهْمَن جاذويْه » . ففارَ الدَّمُ في عروقِ القعقاع ، وصاح : « يا لثاراتِ أبي عُبيدٍ وسليطٍ وأصحابِ يوم الجسر ! » ، ثم تبارزا بالسُّيوف ، فقتله القعقاعُ ، وكان « بهمن جاذويْه » – قائدُ قلب المجوس في القادسية ، وقائدُهم يومَ « جِسْرِ المروحة » – أوَّلَ القتلى يومَ « أغواث » . وخرج القعقاعُ مرةً ثانيةً ، وقال : مَنْ يُبارز ؟ فخرجَ إليه « بيْرزان » قائدُ مؤخِّرتهم ، فسدّد إليه القعقاعُ ضربةَ سيفٍ قويةً فوقَ عنقهِ ، أَذْرَتْ برأسه . وبرزتْ فرسانُ المسلمين للمبارزة ، فكان القعقاع يقول لهم : يا معاشرَ المسلمين ، باشروهمْ بالسُّيوفِ ؛ فإنما يحصدُ الناسُ بها . وجعلتْ خيلُ القعقاع تَرِدُ جماعاتٍ ، وما زالتْ تَرِدُ إلى الليل ، فترتفعُ معنوياتُ المقاتلين من المسلمين .

---

(١) الطبري (٣ / ٥٢) .

وَحَمَلَ بَنُو عمٍّ القعقاع بجماعاتٍ مؤلَّفةٍ كلٌّ منها من عَشْرةِ رجالٍ ، على إبلٍ قد ألبسوها ، وهي مجللةٌ مُبرقَعَةٌ ، وأمَرَهم القعقاعُ أن يُهاجموا بها خَيْلَ الفرسِ ، فجفلتْ خيولُ الفرس تَفِرُّ منها ، وركبتْها خيولُ المسلمين ، فلمّا رأى الناسُ ذلك فَرِحُوا أشدّ الفرح ، إذْ لقي الفرسُ من هذه الإبل أعظمَ مما لقي المسلمون من الفِيَلَةِ في اليوم الأوَّل من أيام القادسية ، وَحَمَلَ القعقاعُ يوم ذاك ثلاثين حملةً ، كُلَّما طلعتْ جماعةٌ من جماعاتِهِ حَمَلَ معهم فيها ، فَقَتَلَ وَحدَه يومَهَا من الفرس ثلاثين رجلًا ، وبات القعقاعُ ليلته كُلَّها يُسَرِّب أصحابَه إلى المكان الذي فارقهم فيه من الأمس ، قائلًا لهم : « إذا طلعتْ لكم الشمسُ فأقبلوا مائةً مائة ، كلَّما توارىٰ عنكم مائةٌ فَلْيَتْبَعْهَا مائةٌ ، فإنْ جاءَ هَاشمٌ فذاك ، وإلَّا جدَّدتم للناس رجاءً وجِدًّا »[1] . وقد نفّذ ذلك دون علْم رجال القادسية الآخرين . وأصبح الناس على مواقعهم ، فلما ذرّ قرنُ الشمسِ ، طلعتْ نواصي خيل رجالِ القعقاع ، فكبّر وكبّر المسلمون ، وقالوا : جاءَ المددُ . فلمّا وصل آخِرُ رجالِ القعقاع ، أخذتْ قواتُ هاشمٍ تترارَد .

القعقاعُ .. قَاتِلُ الفيلِ الأبيض :

ولما عادتِ الفيلةُ تُكَبِّد المسلمين خسائرَ فادِحَةً؛ .. هلْ كَانَ للفيل الأبيض الذي يقودُهَا إلا القعقاعُ وأخوه عاصمٌ ، كما ذكرنا من قبل ؟!

قال القعقاع :

لم تَعرفِ الخيلُ العرابُ سواءَنا ... عشيةَ أغواثٍ بجنْبِ القَوادِسِ
عشيةَ رُحْنَا بالرّماحِ كأنَّها ... على القومِ ألوانُ الطيورِ الرَّسارِسِ[2]

---

(١) الطبري ٣ / ٥٩ .

(٢) الخيل العراب : العربية الأصيلة . الرسارس : النشيطة .

وفي ليلة الهرير ، وكان القعقاع يتشوّق للقتال ، ولمّا أصاب سهمُ خالد بن يَعْمُر التميمي ، حَمَل القعقاع بغير إذْنٍ على الجهة التي خرج منها السَّهمُ ، وهو يقول :

فَأَقْسَمتُ لا ينفكُّ سيفي يَحُسُّهُم فإنْ زَحَلَ الأقوامُ لَمْ أَتَزَحَّلِ(١)

فقال سعد : اللهمَّ اغفرها له وانصرْه ، قد أذنتُ له إذْ لم يستأذِنّي ، واتميماهُ ! سائرَ الليلة . وفعَل الناسُ ما فعَل القعقاع ، فاشتدَّ القتالُ ، وَحَمِيَ وَطِيسُهُ كلَّما تقدم الليل ، وما كاد الليل ينتصف ، إلَّا وَسَمِعَ سعدٌ صوتَ القعقاع يهدرُ ، مرتجزًا :

نحـنُ قتلنـا معشـرًا وزائِدا أربعـةً وخمسـةً وواحـدا
نُحسَبُ فوقَ اللّبدِ الأَساودا حتى إذا ماتُوا دعوتُ جاهِدا
اللهَ ربي واحترزتُ عامِدا

وكان صوتُ القعقاع أوَّل ما استدلَّ به سعدٌ على الفتح(٢).

وتنفَّس الصبحُ عن هذه الليلةِ الدامية ، فسار القعقاعُ في الناس يقول : « إنَّ الدائرةَ بعد ساعةٍ لمن بدأ القومَ ، فاصبرُوا ساعةً واحمِلُوا ؛ فإنَّ النصر مع الصبر »(٣).

ولما انهزم الفرس ، طاردَهم القعقاعُ بأمْرِ سعد وأوقع بهم خسائرَ فادِحَةً ، وانتصر المسلمون في القادسية .

كتب عمر بن الخطاب إلى سعدٍ : « أيّ فارسٍ كان أفرسَ في

---

(١) يَحُسُّهم : يقتلهم ، وزحل : يعني هرب .
(٢) الطبري ٣ / ٦٧ .
(٣) ابن الأثير ٢ / ١٨٦ .

القادسية ؟ » فكتب إليه سعدٌ : « إني لم أرَ مثلَ القعقاع بن عمرو ؛ حمَل في يومٍ ثلاثين حَمْلةً ، يقتل في كلِّ حملةٍ بَطَلًا »[1].

(٢) **في المدائِن : القعقاعُ قائدُ الكتيبةِ الخَرْسَاء :**

لما قرَّر سعدٌ عبورَ النهر على ظهور الخيل لفتْح المدائن ، فكان أول من عبَر النهر كتيبةُ الأهوالِ ، على رأْسِهَا عَاصِمٌ ، ثمّ كتيبةُ القَعْقَاعِ ، المسمَّاةُ بالكتيبة الخرساء .

وبعد انتصار المسلمين كان القعقاع على رأس قُوَّاتهم المطارِدَةِ للفُرس ، فوجد فارسيًّا يحمي انسحابَ الفرسِ فقتله ، فإذا مع المقتول أحدَ عشرَ سيفًا ودروعٌ ، بينها سيفُ وَدِرْعُ كِسرى ، وهُرْمُز ، وَهِرقَل ، وخاقَانَ ، والنعمان ، وغيرهم من الملوك والأمراء والقادة ، فغنِمَهَا القعقاعُ[2].

(٣) **في جَلُولاء : قَعْقاعية جديدة ، وقَتْلُهُ لمهرانَ قائدِ الفرس :**

كان القعقاعُ على مقدّمةِ قوات هاشمٍ التي حاصرت القوات الفارسية ، وطال الحصارُ ثمانين يومًا . وَزَحفَ القعقاعُ برجاله ، حتى انتهى إلى بابِ خندق الفُرس ، فدخل الخندقَ واحتلَّ قِسْمًا منه ، وأمَرَ مُناديًا ينادي : يا معاشر المسلمين ، هذا أميركم قد دخل الخندق ، وأخذ به ، فأقبِلُوا إليه ولا يمنعنَّكم مَن بيْنكم وبيْنه مِن دخوله . وقد أمَر القعقاع بذلك ليقوِّيَ معنوياتِ المسلمين ، وفعلًا حَمَلَ المسلمون ، وهم لا يشكُّون أنَّ هاشمًا في الخندق ، فإذا هم بالقعقاعِ قد احتلَّ قِسْمًا من الخندق ، وبذلك انهزَمَ الفرسُ[3] ، ولكن القعقاعَ طاردهم حتى بلغ « خانقين » ، ثم دخل « حُلوان » ، وقصر

---

(١) الإصابة ٥ / ٢٤٤ .
(٢) الطبري ٣ / ١٢٨ ، والإصابة ٥ / ٢٤٥ .
(٣) تاريخ الطبري ٣ / ١٢٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ / ٢٠١ .

« شيرين » . وأثناء المطاردة لَحِقَ القعقاع بمهرانَ القائد الأكبر في « جلولاء »، وقتله في « خانقين » .

إلى الشام ثانيةً :

ولما حشدَ هِرقلُ ملك الروم قواتٍ كبيرةً ، وأقبلت قواتُه من الجزيرة ومن بلاده برًّا ، ومِن الإسكندرية بحرًا ، تحرّك القعقاعُ على رأس أربعةِ آلافِ مُقاتلٍ لنجدة أبي عبيدة ، وفرّ الناسُ ، وبقي الروم وحْدَهم ، فقاتَلهم المسلمون وانتصروا عليهم ، قَبْل أنْ يبلغ القعقاعُ « حمصَ » بثلاثة أيام ، فكتب عمرُ إلى أبي عبيدةَ كَي يُشْرك أهلَ الكوفة في العطاء ، قائلًا : « جزى الله أهلَ الكوفة خيرًا ؛ يَكفون حوزَتَهم ، ويَمدُّون أهلَ الأمصار ! » .

وعاد القعقاعُ بجنوده إلى العراق رافعًا اسمَهم عاليًا بين الفاتحين .

في بلادِ فارس : نهاوندُ فتحُ الفتوح ، وقتْلُ القعقاعِ للفيْرزانَ قائدِ الفُرس : « إن للهِ جنودًا مِن عَسَلٍ »

قاتل القعقاع في معركة « نهاوند » تحت لواء النعمان بن مقرن المُزَني ، وكان له في هذه المعركة أثرٌ أيَّ أثرٍ ! وكان القعقاعُ على المُجرّدة(١) ، وقد خشي المسلمون أن يطول حصارُ المدينة دون جَدْوى ، إذ كان الفرْسُ قد تحصَّنوا داخلها ، فلا يخرجون منها إلَّا إذا أرادوا الخروج . واجتمع النعمانُ بقادة جيشهِ لِيجدَ حلًّا يُعينه على فتْح المدينة ، فاستقرَّ الرأيُ على أن يبعث النعمانُ خيلًا لِيَنْشَبْ القتال ، ثم تنسحب الخيلُ مُظْهِرَةً الفرارَ ، حتى يتعقَّبها الفرس ، وعند ذلك يهاجم المسلمون ، في معركةٍ تدور رَحَاها خارجَ أسوار

---

(١) المجردة : هي القوات المؤلفة من الفرسان التي تتقدم أمام المقدمة لحمايتها ، والمجردة : الذين لا يلبسون الدروع الحديدية .

المدينة الحصينة .

فمَن يقود الخيلَ لِتنفيذِ هذه الخطة بدقةٍ وإتقانٍ واندفاع ؟

أمر النعمانُ القعقاعَ ، فقاد الخيل وأنشب القتالَ ، فلمّا خرج الفرس لقتاله ، نكص ، ثم نكص ، ثم نكص ، وظنَّ الأعاجمُ أنها هزيمةٌ فاغتنموها ، وخرجوا حتى لم يبقَ منهم سِوى مَن يحرسُ الأبواب . وتقهقرَ القعقاعُ بالمسلمين ، حتى انقطعَ الفرسُ عن حصونهم ، ثم أعاد الكَـرَّة عليهم بهجوم مضادٍّ فلما هاجمهم المسلمون في العَراء ، استطاعوا التغلُّبَ عليهم ، وبذلك انتهتِ المعركة - التي أطلق عليها المؤرِّخون : « فتح الفتوح »[(١)] - بنصر المسلمين ، وكان للقعقاع في هذا النصرِ نصيبٌ مرموقٌ . ولما انتهتِ المعركة ، كان القعقاعُ بفرسانه في مقدِّمة من طاردوا الفُلولَ الهاربة ، وانطلق القعقـاع في أثَرِ « فـيرزانَ » قائدِ الفُرس ، حتى أدركه في ثنيَّة همـذان ، وتصادف أنْ كانت الثنيَّةُ مشحونةً بقافلةٍ من البغـال والحمير محمَّلةً بحمولة من العَسَلِ ، فَحَبَسَتْ « فيرزانَ » عن المرور ، فلمَّا رأى القعقاع في أثرِه قد أدْرَكَهُ ، نزل عن جَوادِه وجرى في الجبل ؛ إذْ لَمْ يجدْ سبيلًا يذهـب فيه ، ونزل القعقاع عن جَوادِه أيضًا ، فتبعَه حتى أدركه وقتله . وفي ذلك قال المسلمون مُتفكِّهين : إنَّ لله جنودًا من عسلٍ !

الفارج الكُرَبَ العظامَ بمثلِهَا والتـاركَ المَلِكَ العـزيزَ ذَلـيلا
نَطَقَتْ بسؤْدُدِكَ الحَمامُ تغنّيًا وبما تجشِّمُهَـا الجيادُ صَهيلا
ما كلّ مَن طَلَبَ المعالِيَ نافِذًا فيها ولا كلّ الرجالِ فُحُولا[(٢)]

رحمكَ اللهُ يا قعقاع ... ألم تَقُلْ يا سيدي :

---

(١) البلاذري صـ ٣٠٢ .

(٢) من ديوان المتنبي صـ ١٤٥ - ١٤٨ طبع دار صادر .

ولقد شهدتُ البرقَ برقَ تِهَامةَ   يهـدي المناقِـبَ راكبًا لعيارِ
في جُنْدِ سيفِ اللهِ سيفِ محمَّدٍ   والسابقـينَ لسُنَّـةِ الأحـرارِ

رحمك الله ورضي عنك .. نجدةَ الفوارس ولَيْثَهَا .

يدعـونَ قَعقاعًا لكـلِّ كَريهـةٍ   فيجـيبُ قعقـاعٌ دُعَـاءَ الهـاتِفِ

وسيذكر التاريخ للقعقاعِ أنه ضرب رقمًا قياسيًّا في عدد المعارك التي خاضها في العراق وبلاد الشام وفارس ، وكانت له في كلّ معركةٍ خاضها قصةٌ مُشرِّفةٌ خالدةٌ ... إحدى عشرةَ معركةً كبيرةً : سبعٌ بالعراق ، وثلاثٌ بسورية ، وواحدةٌ في إيران ، فكم معركة صغيرة لم يذكرها له التاريخ ؟!

وسيذكر التاريخ للقعقاع القائد – بطل الإسلام ، وفارس العرب – أنه القائد الوحيدُ الذي قاتل في معاركِ الفتْح الإسلامي الثلاثةِ الحاسمة : القادسية واليرموك ونَهاوند ، وأبلى فيها كلِّها بلاءَه ، بل كان في القادسية قائدَ الميْدان الفعلي وفارسَه .

عَمرُو بنُ العَاصِ السَّهْمِيّ ، فاتحُ فلسطينَ ومصرَ وليبيا :

قال رسول الله ﷺ : « أسلم الناسُ ، وآمن عَمرُو بن العاص »[1].

وقال رسول الله ﷺ : « ابنا العاصِ مُؤْمنان »[2].

وعن عمرو بن العاص ، قال : كان فَزَعٌ بالمدينة ، فأتيتُ على سالمٍ مولى أبي حذيفةَ ، وهو مُحْتَبٍ بحمائِل سيفه ، فأخذتُ سيفًا فاحتَبَيْتُ

---

(١)

(٢) إسناده حسن ، رواه أحمد ، والحاكم ، والنسائي في فضائل الصحابة ، عن أبي هريرة .

بحمائِله ، فقال رسول الله ﷺ : « أيُّهَا الناس ، ألا كان فَزَعُكُم إلى الله وإلى رسوله ؟! » ، ثم قال : « ألا فعلتُم كما فعَل هذانِ الرجلانِ المؤمنانِ ؟! »[1].

لما أسلم هو وخالدٌ ، قال رسول الله ﷺ : « أَلقتْ إليكم مكّةُ أفلاذَ كَبِدِهَا » .

وكان عَمرٌو من فرسانِ قريشٍ وأبطالهم ، مذكورًا بذلك فيهم ، وكان فوق ذلك معروفًا بالدَّهَاءِ وحُسْن التَّصرُّف ، فلما أسلم قال عمرو : ما عَدَل بي رسول الله ﷺ وبخالدٍ بن الوليد أحدًا من أصحابه في حرْبه ، منذ أسلمتُ .

الرَّسول ﷺ يُوَلِّي عَمْرًا القيادةَ في ذاتِ السَّلاسل :

« ولّى رسول الله ﷺ عَمْرًا قيادة سَرِيَّةٍ مُؤلَّفة من ثلاثمائة رجلٍ من أشراف المهاجرين والأنصار ، لِصَدِّ جمعِ « قُضَاعة » الذين يريدون أنْ يهاجموا أطرافَ المدينة المنَوَّرة ، فسار عمرٌو الليلَ وكَمَنَ النهارَ ، فلمّا قرُب مِنَ القوم ، بلغَهُ أنَّ لهم جَمْعًا غفيرًا ، فاستمدَّ رسولَ الله ﷺ ، فبعث إليه أبا عبيدة في مائتيْن وعقَد له لواءً ، وبعث به،معه سراةُ المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وأراد أبو عبيدة أن يؤُمَّ الناس ، فقال عمرٌو : إنما قَدِمْتَ عَلَيَّ مَدَدًا ، وأنا الأميرُ . وما زال عمرو بأبي عبيدة حتى أطاعه ، وسار عمرٌو حتى وَطِئ بلادَ « بَلّي » ودوّخها ، وأتى إلى أقاصي بلادهم وبلاد « عُذرة » و« بَلْقَين » ، ثم لقيَ جمعًا ، فحمل عليهم المسلمون ، فهربُوا في البلاد . وقفَل عمرٌو راجعًا إلى المدينة . ولمّا هَزَمَ المسلمون أعداءَهم طَمِعُوا فيهم ، فأرادوا مطاردتهم ، فحالَ عمرٌو بينهم وبين ذلك ، ثم أرادوا

---

(١) صحيح ، أخرجه أحمد في مسنده ، والنسائي في الفضائل .

أن يُوقدوا نارًا يَصْطَلُون عليها من البرد ، فمنعهم عمرٌو أيضًا ، فشقّ على المسلمين ذلك ، ولم يحتمِلُوا تلك الشِّدَّة ، فشكَوْه إلى رسول الله ﷺ ، فكلّمه في ذلك ، فقال له عمرٌو : كرهتُ أنْ آذنَ لهم أن يُوقدوا نارًا فيرىٰ عدوُّهم قلَّتهم ، وكرهتُ أن يَتْبَعُوهم فيكون لهم مَدَدٌ . فأُعجِبَ به رسولُ الله ﷺ أيَّما إعجابٍ ، وَحَمِدَ له رأيَه »[1].

هَدْمُه لِسُوَاعٍ :

وبعثه النبي ﷺ لهدْم « سُواعٍ » صنمِ هُذيلٍ فهدمَه ، وأسلم سَادِنُه على يد عمرٍو .

في حروب الرِّدَّة :

« لمَّا مات رسول الله ﷺ وعَمرٌو بِعُمانَ ، أقبل حتى نزل بقرَّة بن هبيرة ومعه جيشٌ من بني عامرٍ ، فأكرم قرَّةُ مَثْواه ، فلما أراد عَمرٌو الرحلةَ ، خَلا بِهِ قرَّةُ ، وقال : يا هذا ، إنَّ العربَ لا تَطيبُ لكم نفسًا بالأتاوَة ، فإنْ أعفيْتموها من أخْذ أموالكم ، فتسمع لكم وتُطيع ، وإنْ أبيْتم فلا تجتمع عليكم . فقال عَمرٌو : أكفرتَ يا قرّة ؟! أتخوِّفنا بالعرب ؟! فواللهِ لَأُوطِئنَّ عليك الخيل في حِفْشِ أُمِّكَ »[2].

ولما وصل عمرو المدينة عقد له أبو بكر لواءً ، وأرسله إلى قُضاعةَ لمّا ارتدَّت ، فسار عمرو بجيشه ، فأعمل السيفَ في رقابهم وغلبهم على أمرهم ، فعادوا إلى الإسلام ، وعاد هو إلى المدينة حامِلًا لواءَ النصر .

* * *

(١) السيرة الحلبية ٣ / ٢٧٣ ، وتاريخ الخلفاء صـ ٧٢ .
(٢) الحِفْشُ : بيتٌ تنفرِدُ فيه النُّفَساء .

في أرضِ الشامِ :

لمَّا أراد الصدِّيق إرسالَ الجيوش إلى الشام ، كتب إلى عمرٍو : قد أحببتُ أنْ أُفرّغَكَ لِمَا هو خيرٌ لك في الدنيا والآخرة . فكتب إليه عمرٌو : « إني سَهمٌ من سهامِ الإسلام ، وأنت - بعد الله - الرامي والجامعُ لها ، فانظرْ أشدَّها وأخشاها وأفضلها ، فارمِ به شيئًا إنْ جاءك من ناحيةٍ من النواحي »(١). فعقد أبو بكر لعمرو ، وأمرَه أن ينصرف إلى أرض فلسطين ، وأراد عَمرٌو أن يتولّى قيادة الجيوش في الشام ، فجاء عمرٌو إلى عُمَرَ وقال له : « يا أبا حفص ، أنت تعلم شدَّتي على العدوِّ ، وصبري على الحرب ، فلو كلّمتَ الخليفةَ أن يجعلني أميرًا على أبي عبيدة ... وإني لأرجو أن يفتح الله على يديّ البلاد ويهلك الأعداء » . فقال عمر بن الخطاب : « ما كنتُ بالذي أكلِّمُه في ذلك ؛ فإنه ليس على أبي عبيدة أميرٌ » .

وفي « اليرموك » كان عمرٌو على الميمنة(٢) ، فكان له أثر كبيرٌ في انتصار المسلمين في هذه المعركة ، وفي معركة فتْح دمشق كان عمرٌو على باب توما ، وفي « فحْلٍ » كان عمرٌو وأبو عبيدة على المجَنَبتيْن ، وشهِدَ عمرو مع شُرحبيلَ فتحَ « بَيْسَانَ » و« طبرية » ، وصالحا أهل الأردن .

رَمَيْنَا أرطبونَ الرُّومِ بأرطبون العَرب :

عَلِمَ عَمْرُو بن العاص أنّ الرومَ حشدوا جيوشَهم ، وعلى رأسها قائد فلسطين : أرطبون (أريطيون) في أجنادين ، فسار عمرٌو ومعه شرحبيل ابنُ حَسَنَة واستخْلفَ على الأردن أبا الأعورِ السُّلمي ، وكان الأرطبونُ أدهى

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٥٨٧ - ٥٨٨ ، وابن الأثير ٢ / ١٥٤ .
(٢) الطبري ٢ / ٥٩٣ ، وابن الأثير ٢ / ١٥٨ .

الروم وأبعدَها غَوْرًا ، وكان قد وضع بالرّملة جندًا عظيمًا ، وبإيلياءَ جندًا عظيمًا أيضًا ، فلما بَلَغَ عمرَ بن الخطاب الخبرُ قال : « رَمْينا أرطبونَ الروم بأرطبون العرب - يقصدُ عَمرًا - فانظروا عمّا تنفرج به » وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر على الأرطبون ولا تَشفيه الرسلُ ، وكان رضي الله عنه يُقدِّر قيمة الاستطلاع حقَّ قدْره ، ولذا أقدمَ على مغامرةٍ استطلاعيةٍ فَذَّةٍ ، وهي قيامُه بالاستطلاعِ الشخصي لمَقَرّ قائد الروم ، والذي كاد أن يكلِّفَه حياتَه . سار عمرٌو إلى أرطبون بنفسه ، ودخلَ عليه كأنه رسولٌ ، ففطِنَ به الأرطبونُ ، وقال : لا شكَّ أنَّ هذا هو الأمير أو مَن يأخذ الأميرُ برأيه . فأمر رجلًا أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مرّ به ، وَفَطِنَ عمرو إلى غَدْر الأرطبون ، فقال له : « قد سمعتَ مِنِّي وسمعتُ منك ، وقد وقع قولُك مني موقعًا ، وأنا واحد من عشرةٍ بَعَثَنَا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتِفَه ويُشهدنا أمورَه ، فأرجع آتيك بهمُ الآن ، فإنْ رأوْا في الذي عرضتَ مثلَ الذي أرى ، فقد رآه أهلُ العسكر والأميرُ ، وإن لم يَرَوْه رددتهم إلى مأْمنهم وكنت على رأس أمْرك » . فقال الأرطبون : نعم . وردّ الرجلَ الذي أمَرَه بقتْل عمرٍو ؛ فخرج عمرٌو مِن عند الأرطبون ، فَعَلِمَ الروميُّ بأنَّ عَمْرًا خَدَعَه ، فقال : خدعني الرجل ، هذا أدهى الخلْق !! وبلغتْ خديعتُه عمر ابن الخطاب ، فقال : لله دَرُّ عَمرو ! وعَرَفَ عمرٌو من استطلاعِهِ الشخصي هذا نقاطَ الضَّعف في مواضع الروم فهاجمهم ، واقتتلوا قتالًا شديدًا كقتال اليرموك ، حتى كَثُرَتْ القتلى بَيْنهم ، ولكنَّ أرطبونَ انهزم فأَوَىٰ إلى إيلياء ، ونزل عمرٌو أجنادينَ ، وانضمَّ علقمةُ ومسروقٌ وأبو أيوب إلى عمرٍو بأجنادين .

ولما دخل أرطبون « إيلياء » ، فتح عمرو « غَزَّة » ، و« سبسطِية » و« نابلس » ، و« اللّد » ، و« يُنْبَى » و« عَمْواس » ، و« بيت جبرين » ، و« يافا » و« رفح » ، وحاصر هو وأبو عبيدة « إيلياء » (بيت المقدس) .

لقد كان فَتْحُ أكثر فلسطين على يديْه رضي الله عنه .

فَتحُ مِصـرَ :

كان لحضور عمرٍو إلى مصر في الجاهلية أثرٌ كبيرٌ على معرفتِهِ بأخبار مصر ؛ طرقِهَا وطبيعةِ أرضها ، ومدى اضطهادِ الروم لأهلها ، فلا عجبَ أنْ يُقـدِم عمرٌو على دخول مصر على رأس ثلاثةِ آلافٍ وخمسمائةِ رجلٍ فقط ، إذْ لولا تيسُّرُ المعلومـاتِ الكافية لديه عن مصر وأهلها ، وضعْف حاميتها ، لَمَا كَانَ مِنَ المعقول أنْ يُقْدِمَ على فتْح مصر بمثلِ هذا العدد الضئيلِ مِنَ الرجال .

لمّا كتبَ عمرُ بن الخطاب إلى عمرٍو أنْ يسيرَ إلى مصر في جنده ، خرج فنزل العريش ففتحها ، ثم أتى إلى « الفَرَما » وبها قومٌ مستعدّون للقتال ، فحاربهم عمـرٌو وهزمهم ومضى قُـدُمًا إلى الفسطـاط ، وكان اسمُها : « البونة » ، فنزل « جنانَ الرَّيْحان » ، وقد خندق أهلُ الفسطاطِ ، فحاصرهم عمرٌو حتى ورد عليه الزبير في عشرةِ آلافٍ أو اثني عشر ألفًا ، واستمرَّ الحصارُ حتى فُتِحَتْ ، كما بيّنا في ترجمة الزبير .

ولما فتح عمرو حصنَ « بابليون » ، وجَّه عبدَ الله بن حذافة السَّهمي إلى « عيْن شمس » ، فغلب على أرضها ، وصالحَ أهلَ قُراها على مثلِ صلْح الفسطاط ، كما وجّه خـارجةَ بنَ حـذافة العدوي إلى « الفيُّوم » ، و« الأشمـونين » ، و« إخيم » ، و« البشرودات » ، وَقُرَىٰ الصعيد ، فصالحَهَا على مِثْلِ صلْح الفسطاط ، ووجّه عمـيرَ بنَ وهـبٍ الجُمَحِي إلى « تَنِّيس » و« دمياط » و« تونة » و« دميرة » و« شطا » و« دقهلة » و« بنا » و« بوصير » ، فصالحها على مثلِ صلْحِ الفسطاط ، ووجَّه عُقْبة بنَ عامرٍ - وقيل : وردانَ مولاه - إلى سائرِ قُرَىٰ أسفل الأرض ، ففعل مِثْلَ ذلك ، وبذلك استجمع عمرٌو

فتْح مصرَ ، فصارت أرضُها أرضَ خَراجٍ .

وسار عمرٌو إلى الإسكندرية ، وكان من دون الإسكندرية - الرومُ والقبطُ ، قد تجمَّعُوا له فلقيَهم بـ« الكريون » قُرْبَ الإسكندرية فهزمهم ، وَقَتَل منهم مَقْتلةً عظيمةً ، ثم سارَ عمرٌو حتى انتهى إلى الإسكندرية ، فوجد أهلها قد أعدُّوا العُدَّةَ لِقِتَالِهِ ، لكنَّ القبطَ منهم كان يرغبون في الصُّلْح ، فحاصرها عمرو ، فأرسل إليه « المُقَوْقِسُ » ، يسأله الصُّلْح والمهادنة إلى مُدَّةٍ ، فأبَىٰ عمرٌو ذلك ، وأمَرَ المقوقس النساءَ أَن يقمْنَ على سُور المدينة ، مُقبِلاتٍ بوجُوههنَّ إلى داخله ، وأقام الرجال بالسّلاح مقبلين بوُجوههم إلى المسلمين لِيُرْهبَهم بذلك ، فأرسل إليه عمرٌو : إنا قد رأينا ما صنعت ، وما بالكثرة غَلَبْنَا مَنْ غَلَبْنَا ، فقد لقينا « هِرَقْل » ملكَكُم ، فكان مِن أمْره ما كان . فقال المُقوقِسُ لأصحابه : قد صدق هؤلاء القومُ ؛ أَخْرَجُوا مَلِكَنَا من دارِ مملكته ، حتى أدخلوه « القسطنطينية » ، فنحن أوْلى بالإذعان . فأغلظ له أصحابُه القولَ ، وَأَبَوْا إلَّا القتالَ ، فقاتلَهم قِتالًا شديدًا ، وحصروهم ثلاثة أشهرٍ ، ففتحها عمرو بالسيف ، واستخلف عمرو على الإسكندرية عبدَ الله بنَ حُذافة ، وانصرفَ إلى الفسطاط[1].

فَتْحُ لِيبْيَا :

اخترق عمرٌو الصحراءَ حتى بلغ « بَرْقة » ، فافتتحها عمرو وصالَحَ أهلَها على الجزية ، ووجّه عمرٌو عقبةَ بنَ نافعٍ حتى بلغ « زَويلة » ، وصار ما بين « برقة » و« زويلة » للمسلمين ، ثم سار عمرو حتى نزل « أطرابلس » ، وكانت حصونُها أقوىٰ من حصونِ « برقة » ، وحامِيَتُها أكثر عددًا ، فامتنعتْ عن العَربِ شهرًا واحدًا ، ولكنها استسلمتْ للفاتحين ، وبذلك أنجز عمرٌو

---

(١) البلاذري صـ ٢٢١ - ٢٢٢ ، وابن الأثير ٢ / ٢١٩ .

فتْحَ ليبـيا .

في النّوبة :

أراد عَمرٌو أن يُؤَمِّن مصرَ من الجنوب ، فبعث عقبةَ بنَ نافع الفِهْرِيّ ، فدخلتْ خيولُهم أرضَ النوبة ، فلقي المسلمون بالنوبة قتالًا شديدًا ؛ إذْ كان أهلها ماهرين برمي السِّهام ، فرشقُوا المسلمين بالنَّبْل حتى جُرِح عامَّتُهم ، فانصرفوا بجراحات كثيرةٍ وحدق مفقودة ، فلم يصالحْهم عَمرو ، ولم يزلْ يهاجمهم بَيْنَ حينٍ وآخر .

العَوْدُ إلى قِتالِ الرُّومِ بالإسكندرية :

كتب أهلُ الروم إلى « قُسْطَنْطِينَ » إمبراطورِ الروم ، يهوّنون عليه فَتْحَ الإسكندرية ؛ لقلَّةِ ما بها من حاميةٍ للمسلمين ، فبعثَ رجلًا مِن أصحابه في ثلاثمائةِ مركبٍ مشحونة بالمقاتِلة ، فدخَل الإسكندرية وقتل مَن بها من المسلمين المرابطين ، إلا مَنِ استطاعَ النجاة بنفسه . وَبَلَغَ عمرًا الخبرُ فسار إليهم ، وكان « منويل » قائد الروم قد تقدَّم نحوَ الجنوب ، ورجالُه يَعيثُون في الأرض فسادًا ، حتى وصلُوا « نَقْيُوس » ، حيث اشتبكُوا بالمسلمين - الذين كان عددُهم خمسةَ عشرَ ألفًا - بقتالٍ عنيفٍ في البَرِّ والبحر ، وكَثُرَ الترامي بالنّشَّابِ حتى أصابت فَرَسَ عَمرٍو ، فنزل عنه ، وشدّ المسلمون على الرومِ وقاتلوهم قتالًا مُستميتًا ، حتى غلبوهم على أمْرهم ، فانهزم الروم ، وطاردهم المسلمون ، فتحصَّنَ الرومُ بالإسكندرية ؛ ولكنَّ المسلمين قاتلوهم أشدَّ قتالٍ ، وَنَصَبُوا المجانيقَ حتى دخلها المسلمون عَنْوةً[1] .

ينـادي الأرطبـونُ يا بـلادي أضعْـتِ الهَـدْيَ كنَّا فاتحينا

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٢٢٣ .

فيَا فسطاطَ عَمرِو العاص عُودي ... يعـودُ الطيرُ كمْ نَزَحَ السِّنينا

لك الله يا عمرُو مِن قائدٍ يحارب بِعَقْلِهِ وسيْفه !!

لقد اجتمعتْ في عَمرٍو كلُّ عناصرِ القيادة ؛ من شجاعةٍ وبطولَةٍ ، وإقدام ، ورأْيٍ سديدٍ وعقلٍ راجحٍ ، وفوق هذا : دهاءٌ في موضعه .

« كان عُمر بنُ الخطاب إذا رأىٰ رجلًا يتلجلج ، يقول : أشهدُ أنَّ خَالِقَ هذا ، وخَالِقَ عمرو بن العاص : واحدٌ »[1].

وكان إذا استضعف رجلًا في رأيه وعقله ، قال : « أشهد أن خالِقَك وخالقَ عمرٍو : واحدٌ » ، يريد خالق الأضْدادِ[2].

وكان عمر بن الخطاب إذا نظر إلى عمرٍو يمشي ، يقول : « ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرًا »[3].

فرضي الله عن عَمرٍو بن العاص ، الذي يحتلُّ أنْصَعَ صَفَحَاتِ الفتح الإسلامي في تاريخ العرب والمسلمين ؛ بِفَتْحِهِ لفلسطين ومصر وليبيا ، وهي بلادٌ لم يفتحْ غيرُه من قادةِ العرب أوسعَ منها وأكثرَ خيرًا .

هـذه الأرضُ التي قـد زينـتْ ... بنجومِ المجدِ تحبُو في سَمَاهَا
هاهنـا مـرَّ الزبـيرُ وهاهنـا ... ضمَّخَ ابنُ العاصِ بالطِّيبِ ثَراها

أمَّا واقِعُنَا :

ماذا تبقَّىٰ من ضياء الصُّبح في عينِ الوطنْ

---

(١) الإصابة ٥ / ٢ - ٣ .

(٢) الاستيعاب ٣ / ١١٨٨ .

(٣) الإصابة ٥ / ٢.

والشمسُ تجمعُ ضوءَها المكسورْ
والصبحُ الطريدُ
رفاتُ قِدّيسٍ يفتِّشُ عنْ كَفَنْ
النيلُ بين خرائِبِ الزمنِ اللقيطْ
يسيرُ مُنكسرًا على قدمَيْنِ عاجزتَيْنِ
ثُمَّ يطلُّ في سَأمٍ ويسأل عن سَكَنْ
يتسوَّل الأحلامَ بين الناسِ
يسألهم وقدْ ضاقتْ به الأيامُ
مَنْ منّا تغيَّر ؟..
وجْهُ هـٰذي الأرضِ .. أمْ وجهُ الزمنْ
في كلِّ يومٍ يشطرون النهرَ
فالعينانِ هاربتانِ في فَزَعٍ
وأنفُ النيل يسقط كالشظايا
والفمُ المسجون أطلالٌ
وصوتُ الريحِ يعصفُ بالبَدَنْ
قدمانِ خائرتانِ .. بطنٌ جائعٌ
ويدٌ مُكَبَّلةٌ .. وسيفٌ أخرسُ
باعُوهُ يومًا في المزادِ بلا ثَمَنْ
النيلُ يرفعُ رايةَ العِصيانِ
في وَجْهِ الدمامَةِ ... والتنطُّع ... والعَفَنْ

* * *

ماذا تبقَّىٰ مِنْ ضياءِ الصبحِ

في عَيْن الوطنْ ..
الآن فوقَ شواطئ النهرِ العريقِ
يموتُ ضوءُ الشمسِ
تصمُتُ أُغنياتُ الطيرِ .. ينتحِرُ الشجرْ
خَنقُوا ضياءَ الصُّبحِ في عين الصغارِ
ومَزَّقوا وَجْهَ القمرْ
باعُوا ثيابَ النهرِ في سُوق النِّخاسَةِ
أسكتُوا صوْتَ المَطَرْ ..
في كلِّ شِبْرٍ وَجْهُ ثُعبانٍ بلوْنِ الموتِ
يَنْفُثُ سُمَّهُ بين الحُفَرْ ..
في كلّ عينٍ وَجْهُ جَلّادٍ يُطِلُّ ويختفي
ويعودُ يزأر كالقَدَرْ ..
صَلَبُوا على الطرقاتِ
أمجادَ السنينِ الخُضْرِ
باعُوا كلَّ أوْسِمَةِ الزمانِ البِكْرِ
عُمْرًا .. أو ترابًا .. أو بَشَرْ ..
أترىٰ رأيتم كيفَ يُولد عندنا
طفلٌ وفي فَمِهِ حَجَرْ ؟
لَمْ يَبْقَ شيءٌ للطيورِ علىٰ ضفافِ النيلِ
غيرُ الحزن يَعْصِفُ بالجوانِحْ
زمنُ العصافير الجميلةِ قد مضىٰ
وتحكَّمَتْ في النهرِ أنيابٌ جَوارِحْ
زمنُ القراصِنَةِ الكبارِ

يُطلُّ في حُزْن العيونِ ..
وفي انطفاءِ الحُلمِ ..
في بؤْسِ الملامِحْ ..

* * *

ماذا تَبقّىٰ مِنْ ضياءِ الصُّبحِ في عَيْنِ الوَطَنْ
زمنُ الفوارِسِ قد مضَىٰ ..
قلْ للخُيولِ تَمَهَّلي في السَّيْرِ
فالفُرسانُ تسقُط في الكمائِنْ
قلْ للنوارسِ حاذري في الطيرِ
إنَّ الريحَ تعصِفُ بالسُفائِنْ
قلْ للطيورِ بأَنَّ وجهَ الموتِ قنَّاصٌ
يطوفُ الآنَ في كلِّ الأماكِنْ ..
ويلٌ لماءِ النهرِ حينَ يجيءُ مُنكَسِرًا
وفي فَزَعٍ يُهادِنْ

* * *

ماذا تبقَّىٰ مِن ضياءِ الصُّبحِ في عَيْنِ الوطنْ
والنهر مسجونٌ وطَيْفُ الحلمِ
بين رُبوعِهِ يَجري ويصرخُ في أَلَمْ
لم يبقَ شيءٌ فوق أطلال الشواطىء
غيرُ عصفور كسير كان يشدو بالنَّغمْ
لمْ يبقَ بينَ حدائقِ الأطفالِ

غيرُ فراشةٍ بيضاءَ مَاتَتْ
حينَ حَاصَرَهَا العَدَمْ
لم يَبْقَ غيرُ كَتَائِبِ الجَهْلِ العتيق
تُطِلُّ في خُبْثٍ .. وتَضحكُ في سَأَمْ
مَنْ باعَ للَّيلِ الطَّويلِ عيونَنَا ؟
مَنْ أخْرَسَ الكلماتِ فينا ؟
مَنْ بحدِّ السيفِ ينتهكُ القلمْ ؟

* * *

مَاذَا سَيَبْقَىٰ بعدَ موتِ النهرِ
غيرُ شُجَيْرَةٍ صفراءَ تبحثُ عن كَفَنْ
ماذا سيبقىٰ بعدَ قتْل الفجْرِ
غير سحابةٍ سوداءَ
تَبكي فَوْقَ أطلالِ الوَطَنْ
ماذا سيبقىٰ مِنْ رُفَاتِ الصُّبحِ
غير شراذِمِ الليلِ القبيحِ
تحومُ في وَجْهِ الزمَنْ

* * *

يَـٰأَيـُّهَا الليلُ الطويلُ
ماذا يَضيرُكَ إنْ تركتَ الصبحَ يَلْهُو
فوقَ أعناقِ الحَدائِقْ ..
ماذا يَضيرُك إنْ غَرستَ القمحَ في وطَني

وحَطمتَ المشانِقْ
في كلِّ بيتٍ في مدينتنا سُرَادِقْ
ماذا يضيركَ أن يعودَ العدلُ فينا شامِخًا
ويطوفُ مرفوعًا علىٰ ضَوْءِ البَيَارِقْ
مَاذَا يَضيرُكَ أنْ تعودَ الشمسُ
تسري في العيونِ
وأن يعودَ الفجرُ يقتحمُ الخَنَادِقْ
ماذا يَضيرُكَ أنْ يعودَ النّوْرَسُ المقهورُ
يَصْدَحُ في السماءِ ..
فلا تطارِدُهُ البنادقْ
ماذا يضيرك أنْ تعودَ قوافِلُ الأحلامِ
تسكنُ في العيونْ
ماذا يضيرك أنْ يصِيرَ الحَرْفُ حُرًّا
لا قيودَ .. ولا سياطَ .. ولا سجونْ ..

* * *

يَـٰأَيُّهَا النهرُ الجَليلْ
أنا مِن بلاطِكَ مُستقيلْ ..
أنا لن أغنِّي في سجونِ القَهْرِ
والليلِ الطويلْ
أنا لَنْ أكونَ البُلْبُلَ المسجونَ في قَفَصٍ ذليلْ
أنا لن أكونَ الفارسَ المهزومَ
يجري خلفَ حُلْمٍ مُستحيلْ ..

ما زال دمعُ النيل في عيني
دماءٌ لا تجفُّ .. ولا تسيلْ
الآن أُعْلِنُ .. أنَّ أزْمِنَةَ التنطُّعِ
أخرستْ صوْتي
وأنَّ الخيْلَ مَاتَتْ عندما اختنقَ الصهيلْ ..
يَاأَيُّهَا النهرُ الجليلْ
إنْ جِئْتَ يومًا شامخًا ..
ستعودُ في عَيْنَيَّ .. نِيلْ[1] ...

وفي واقعنا يا عمرو :

كانت نكسةُ « يونيو » .. ووقفتْ « كوكبُ الشَّرْقِ » تُغَنِّي لِلَّيْل ، والخمر ، والحبِّ الضائع ، والدَّمُ البَريءُ يَسِيلُ على كلِّ رابِيَةٍ .. والعارُ الأَسْودُ يجلِّل جِبَاه المُخدَّرين والمُخدَّراتِ ، ممَّن راحتْ تصفعُ وجوهَهم ولا يشعرون : هذه ليلتي ، وحُلْمُ حياتي . وساعَتَها قال صَحَفِيٌّ في مجلة « الصيَّاد » : إني أعرفُ مكانةَ « أُمِّ كلثوم » عند العرب .. وأعرفُ كذلك أنَّ حبَّ الكثيرين لها يوازي حبَّهم لفلسطين .

خذِّريهِمْ يا « كوْكبَ الشَّرْقِ »

« كَوْكَبَ الشَّرْقِ » لا تذوبي غَراما	وَدَلالًا وَحُـــرْقةً وَهَيَامَـــا
لا .. ولا تنفثي الضيَّاعَ قصيدًا	عَبْقَـــرِيًّا أو تُرسِـــلي الأَنْغَـــاما
فَدِمَـاءُ الأحبـابِ في كلِّ بيتٍ	تتــنزَّى وتبعــثُ الآلامـــا
وجراحُ « الأقصى » جراحُ الثكالى	ودموعُ « الأقصى » دموعُ اليَتَامَى

---

(١) قصيدة : « أغنية للوطن » لفاروق جويدة - الأهرام : ٢٥ / ٦ / ١٩٩٥ م .

أيُّهَا الشعبُ خدّرتْه الليالي مُثَقَّلاتٍ تفجَّرتْ آثاما
فعنِ الحقِّ تارةً يتلهّىٰ وَعَنِ النُّورِ تارةً يتعامىٰ
يَتَهَاوَىٰ على ذراعِ طَرُوبٍ أو لَعُوبٍ في حِضْنها يترامىٰ
وإذا الشِّعْرُ بالكُئوسِ تغنَّىٰ « والنُّوَاسِيُّ عانَقَ الخيّاما »
وأنِينُ الكَمَانِ صارَ أذانًا في حِمَىٰ البيتِ .. والنديمُ « إماما »
وإذا « ليلتي » و« حُلْم حياتي » لم نحطِّمْ في فجرها الأصناما
فإلامَ الجهادُ يا « كوكبَ الشَّرْقِ » وما بالُنا نهزُّ الحُسَاما
لا تُغنّي الخيّامَ يا « كوكبَ الشَّرْقِ » وتسقي من راحتَيْهِ المُدَاما
ففلسطينُ لا تحبُّ السّكَارىٰ وَرُبَىٰ القُدْسِ لا تريدُ النِّياما
ولو انَّ الخيّامَ يُبْعَثُ حَيًّا هَوَتِ الكأسُ مِن يديْهِ حُطاما
« كوكبَ الشّرق » ضاعَ قوميَ لمّا تاهَ في حُبِّكِ القطيعُ وهَاما
مَنحوكِ الإعْجَابَ يا وَيْحَ قَوْمي وعلى الصَّدْرِ علّقوك وِسَامَا
خَدّريهمْ باللَّحْنِ يا « كوكبَ الشَّرْقِ» وصُوغي مِنْ لَحْنِكِ اسْتِسْلاما
أيُّهَا السادةُ الكبارُ سلامًا قدْ قتلْتُم في كلِّ نفسٍ سَلاما
وصنعْتُمْ مَجْدًا مِنَ الزَّيْفِ زُورًا فأماطَتْ عَنْهُ الليالي اللّثاما[1]
نَسِيَ الناسُ صهيلَ فرسِ الزبير وزئيرَ ابنِ العاصِ فاقَ الحُساما
ودماء الشهداء الأُلَىٰ فتحُوها في رُبَانَا تَفتَّحَتْ إسلاما

وفي واقعنا .. أصبح المعروفُ مُنكرًا ، والمنكرُ معروفًا .. وتبدَّلتْ الموازينُ وأقدارُ الرجالِ .. ولسانُ الكلِّ ينعِقُ بتقديس التُّرابِ .. قِيَمُ مصر .. ومبادِئُ مصرَ :

---

(١) من قصيدة : « خدِّريهم يا كوكب الشرق » ليوسف العظم – من ديوان : « في رحاب الأقصىٰ » – ط : المكتب الإسلامي .

مجاويشُ اللَّعينةُ سوْفَ تبقَى ... دليلًا فاضحًا للظَّالمِينَا
مجاويشٌ نوادي قومِ لُوطٍ ... وتسخَرُ من تُقَى المُطَّهِّرِينا
تناديهم[1] أيَا قومَ الفراعِنْ ... ويا أحفاد رمسيسَ اللَّعِينا
بأرضِ النيلِ دينُ الجدِّ أحْمُسْ ... أيُتركُ دينُ لُوطٍ والأَمِينا
أتَرْك المسلمينَ لِنَشْرِ طُهْرٍ ... سَيبكي مُوَحِّدُ القُطْرَيْنِ « مِينا »
أنتركُهُمْ لتحريمِ الحرامِ ... وقطْعِ يدٍ لِسَرَّاقٍ خَئونا
وَغَلْقٍ للمصارِفِ يا مُرابي ... وإنَّ رِبا المصارِفِ كَنزُ سِينا
نعودُ إلى البيوتِ .. إلى النِّقَابِ ... إلى لُبْسِ الخيامِ .. ابكِ أمينا[2]
ونغضَبُ يا رفاقَ العمِّ سَام ... بمنْعِ القَمْحِ ما نجدُ الطَّحِينا

* * *

وذكرَى كامبَ دِيفيدَ شَدْوُ عُمْري ... وَبيجِنَ كارْتَرَ المبعوثِ فينا
وآثاري .. وأهرامي .. وسِينا ... و« ميت الكومِ » .. مرّ الناصرينا
وموسيقارُنا عبدُ الوهابِ ... وكوكبُ شرقِنَا نَعَقتْ سنينا
وذاكَ العندِليبُ أخو الغرابِ ... أنتركُهُ لِدَعْوَى الطاهرينا
ورقْصُ الشَّرْقِ ذا فنٌّ تجلَّى ... وذا تسبيحُ عَيْنِ الشَّاكرينا
و« موسَى » صَبرِهم يَعْوي جهارًا ... يَسبُّ الحَبْرَ يَهجُو المسلمينا
و« يُسْرَانا » و« عادِلُنا إمامٌ » ... و« ليلَى » ثم « فيفي » بلْ « لُوسي » طاهرينا
و« غالينا » و« بطرُسُنَا » المُفدَّى ... إمامُ الذَّبحِ للأحنافِ فينا

---

(١) هذا نداء مجاويش .. قرية العُرَاة ، تُذَكِّر العلمانيِّين بمفاخرهم ورموزهم .
(٢) أمينَة السَّعيد .

وَسَمَّوْنا الخوارجَ يا خناسٌ بمصرَ النيل بلْ والمارقينا
ويا « رأسَ العَمَائِمِ » قُلْتَ كُفْرًا وزُورًا بل وَبهتانًا مُبينا
جَعَلْتَ تَعدُّدَ الزوجاتِ ضُرًّا جعلتُ زبالةَ الأذهانِ دِينا
لترضَىٰ عنكمُ « جيهانُ » مصرٍ فما بقيتْ « جيهانُ » وصار طينا
زَعَمْتُمْ أنَّكم أحبارُ عِلْمٍ وتطعنُ في « ابن تيمية » الأمينا
وكلُّكُمُ خُوَاءٌ وهْوَ بَحْرٌ هو الصَّبارُ شيخُ المسلمينا
وذا قولُ الأئِمَةِ مِنْ قديمٍ وما بالطَّعْنِ صار التِّبْرُ طِينا
أنأخذُ عنكُمُ الدينَ النَّدِيَّ وقدْ صِرْتُمْ رُعاةَ الفِسْقِ فينا

* * *

وإخناتونُ للتوحيدِ داعٍ قديمًا قبْلَ كلِّ المُرْسَلِينا
أإخناتونُ عابدُ قُرصِ شمسٍ بزعمِ الكفرِ شيخُ المسلمينا
وكعبتُنَا الحبيبةُ لو أرادُوا لقالُوا إنها كانتْ بـ« سينا »
إلٰهُ القومِ نِيلُهُمُ العتيقُ[1] رسولُهُمُ غدًا طَمْيًا وطينا
حضارةُ سبعِ آلافٍ لِكُفْرٍ وفرعونُ استخفَّ الصاغرينا
أليسَ النيلُ لي ومِصْرُ مِلْكِي ومُوسَىٰ ساحرٌ لَبِثَ السنينا
نربِّيه صغيرًا ثمَّ يدْعُو لدينٍ غيْرِ دينِ السَّاحرينا
فميمُكُمُ وصادُكُمُ وراءٌ غدتْ وثنًا وطاغوتًا لعينا[2]
وَنِسْبَتُكُمْ لأهرامٍ ووثنٍ ونسبتُنا لتوحيدِ الأمينا[3]

---

(١) يقولون : النيل وحّدنا وغرس فينا القيم .. وهو باعث الحياة فينا .
(٢) حضارة مصر وتراب مصر ومبادئ مصرَ وأخلاق مصر ... مصر ...
(٣) هذا القول مُوجَّه للعلمانيين ، لا للمسلمين من أبناء مصر الطيِّبين .

ونسبتُكُمْ لحَتْشِبْسُوتَ كُفْرٌ ... ونسبتُنَا لحُورِ الدَّارِ عِينا
ونسبتُكُمْ لنيرانٍ تلظَّى ... ونسبتُنَا لدارِ المُتَّقِينَا
ونسبتُنَا لعَمرِو العاصِ حُبِّي ... ونسبتُهم لفرعون اللَّعينا
وهذي مساخِرُ الفُسَّاقِ أمي ... فنادى أينَ رَبَّانُ السفينا

أخي :

النيلُ أصبحَ مَرْتعًا
كي تسْتَحِمَّ بِهِ البغالْ
وهو النجاشيُّ المسافرُ في القرونِ
فكم رأى قِصَصًا وقالْ
طهِّرْ مياهَ النيلِ مِلْءَ شطوطِهِ
بحديث عَمْرٍو والرجالْ
دوِّنْ لنا الآياتِ ..
دوِّنْ سِرَّهَا في النيلْ ..
هذا كاتِمُ الأسرارِ في لغةِ المُحَالْ
سنُفَتِّشُ الأمواجَ عَنْ مكنونِهَا
فعطِّر ورْدَهَا بِنَذْرِ(١) الزُّبيرِ
ورَوِّهَا قِصصَ الجلالْ

* * *

انتهى المُجلَّد الثالث ويليه المُجلَّد الرابع
إنْ شاء الله تعالى

---

(١) حين وهب نفسه لله ، لفتْح حِصْن بابليون .

صلاح الأمة

في

علو الهمة

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم

الشيخ عائض القرني

الشيخ محمد عبد المقصود

الشيخ أبو إسحاق الحويني

المجلد الرابع

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

□ السَّيِّدُ الوَلِيُّ .. العلاءُ بن الحَضْرميّ الصَّحَابيّ ، □ فاتِحُ « البَحْرين » وجزيرة « دارين »

خالُ طلحةَ بن عبيد الله أحدِ العَشرة .

يذكر التاريخُ للعلاء سِفارتَه بَيْنَ النبي ﷺ وَمَلِك « البحرين » المنذر ابن ساوَى ، وإسلام مَلِك « البحريْن » وأهلِ « البحريْن » على يديْه . ويذكر له انتصاراته الحاسمة على أهل الرِّدَّة في « البحرين » ، على الرغْمِ من رَصَانة قوَّتِهم ، ومعاونة الفُرْس لهم .. ولهذا قصةٌ سنذكرها .. وفتح العلاءُ أيضًا « أسيافا » مِن « فارِس » .

ويذكر التاريخ للعلاء أنَّه كان أولَ قائدٍ مسلمٍ بعَث قائدًا مسلمًا في البحرِ للفتْح ، وهو « عَرْفَجَة بن هَرْثمَة » الذي فتح بعض جُزُر الخليج العربي ، وبعض مناطق « خوزستان » .

أمَّا قصةُ « دارين » ، واستنقاذ ونجدة العلاء للجارود بن المعلى ، ومَن ثبَتَ على إسلامه من البحرين ، فهذه:إنّ أهلَ « البحرين » لمّا ارتدُّوا عقَد الصِّدِّيقُ لواءَ « البحرين » للعلاء ، فسار إليها على طريق « الدَّهْناء » ، وهي صحراء مخوفة ، خاليةٌ مِنَ الماء والمَرْعَى ، فلاقَى العلاءُ ورجالهُ مَشَقَّاتٍ كثيرةً عند قطْعها ، حتى أصبحتْ حياتُهم في خطرٍ عظيمٍ[١] ، ولكنَّ العلاءَ وَصَحْبَه تحمَّلوا تلك المشقّاتِ بإيمانٍ وَصبرٍ عجيبيْن .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (٦ / ٢٣٢ - ٢٣٤) : « قد كان العلاءُ من ساداتِ الصحابة العلماءِ العُبَّاد مُجَابي الدعوة ، اتَّفق له في

(١) الطبري ٢ / ٥١٩ .

هذه الغزوة أنه نزل مَنْزِلًا ، فلم يستقرَّ الناسُ على الأرض حتى نَفَرتِ الإبلُ بما عليها : من زَادِ الجيش وخيامهم وشَرابِهم ، وبقوا على الأرض ليس معهم شيءٌ ، سِوَىٰ ثيابهم - وذلك ليلًا - ولم يقدروا منها على بعيرٍ واحدٍ ، فركِب الناسَ من الهَمِّ والغَمِّ ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَف ، وجعل بعضُهُم يُوصي إلى بعضٍ ، فنادىٰ مُنادي العلاء ، فاجتمعَ الناسُ إليه ، فقال : أيُّهَا الناسُ ، ألستم المسلمين ؟! ألستمْ في سبيل الله ؟! ألستم أنصارَ الله ؟! قالوا : بلى . قال : فأبشِروا ، فواللهِ لا يَخذلُ اللهُ مَن كان في مِثْلِ حالكم ، ونُودي بصلاة الصبح حين طلع الفجر ، فصلَّى بالناس ، فلمَّا قَضَىٰ الصلاة جَثَا على ركبتَيْه وجثا الناسُ ، ونَصَبَ في الدعاء ورفع يديْه ، وفعل الناس مثلَه ، حتى طلعتِ الشمس ، وجعل الناسُ ينظرون إلى سراب الشمس يلمَعُ مرةً بعد أخرى ، وهو يجتهد في الدعاء ، فلمّا بلغ الثالثةَ إذا قد خلَق اللهُ إلى جانبهم غديرًا عظيمًا من الماء القَرَاح ، فمشى ومشى الناسُ إليه ، فشرِبوا واغتسلوا ، فما تعالى النهارُ حتى أقبلتِ الإبلِ من كلّ فجٍّ بما عليها ، لم يفقدِ الناسُ من أمتعتهم شيئًا ، فسقوا الإبل عَلَلًا بعد نَهَلٍ ، فكان هذا ممّا عايَنَ الناسُ مِن آياتِ الله بهـذه السَّرِيَّة ، ثم لمّا اقترب من جيوش المـرتدَّةِ - وقد حشـدُوا وجمعُوا خلقًا عظيمًا - نزلَ ونزلوا[1]. وباتوا مُتجاورين في المنازل ، فبينما المسلمون في الليل ، إذْ سمِع العلاءُ أصواتًا عاليةً في جيش المرتدين ، فقال : مَنْ رجلٌ يكشفُ لنا خبرَ هؤلاء ؟ فقام عبد الله بن حـذفٍ ، فدخل فيهم فوجدهم سُكَارىٰ لا يعقلون من الشراب ، فرجع إليه فأخبره ، فركِب العلاء مِن فوْرِه والجيشُ معه ، فكبسوا أولئك فقتلوهم قتْلًا عظيمًا ، وقلّ مَن هرب منهم ، واستولى على جميع أموالهم وحواصلهم وأثقالهم ، فكانت غنيمةً عظيمةً جسيمةً ، وكان الحطم بن

(١) أيْ : خندق على قواته ، وخندق الكفارُ على أنفسهم ، في حصارٍ استمرّ شهرًا .

ضبيعة - أخو بني قَيْسِ بن ثعلبة ، مِن سادات القوم - نائمًا ، فقام دَهِشًا حين اقتحم المسلمون عليهم ، فركب جوادَه ، فانقطع رِكابُه ، فجعل يقول : مَن يصلحُ لي ركابي ، فجاء رجلٌ من المسلمين في الليل ، فقال : أنا أُصلحها لك ، ارفع رِجْلَك . فلما رفعها ضربه بالسيف ، فقطعها مع قدمه ، فقال له : أجْهِزْ عليَّ . فقال : لا أفعل . ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين ، يقتلونهم بكلِّ مَرْصَدٍ وطريق ، وذهب مَن فرّ منهم - أو أكثرهم - في البحر إلى « دارين » ، ركبوا إليها السُّفنَ ، ثم شرع العلاء في قسْم الغنيمة ونقْل الأثقال ، وفَرَغَ مِن ذلك ، وقال للمسلمين : اذهبوا بنا إلى « دارين » لِنغزوَ مَن بها من الأعداء ، فأجابوا إلى ذلك سريعًا ، فسار بهم حتى أَتَى ساحلَ البحر لِيركبوا في السفن ، فرأى أنَّ الشُّقةَ بعيدة ، لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهب أعداءُ الله ، فاقتحمَ البحرَ بفرسه وهو يقول : يا أرحمَ الراحمين ، يا حكيمُ يا كريمُ ، يا أحَدُ يا صَمَدُ ، يا حيُّ يا مُحيي ، يا قيُّومُ ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إلـه إلا أنت يا ربّنا . وأمر الجيشَ أن يقولوا ذلك ويقتحموا ، ففعلوا ، فأجاز بهم الخليجَ - بإذن الله - يمشون على مِثْلِ رمْلٍ دَمِثَةٍ ، فوقها ماءٌ لا يَغمِرُ أخفافَ الإبل ، ولا يصل إلى رُكَبِ الخيل ، ومسيرته للسفن يومٌ وليلة ، فقطعه إلى الساحل الآخر ، فقاتَل عَدوَّه وقهرهم ، واحتاز غنائمهم ، ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر ، فعاد إلى موضعه الأول ، وذلك كلُّه في يومٍ ، ولم يتركْ من العدوِّ مخْبرًا ، واستاقَ الذراريَ والأنعامَ والأموال ، ولم يفقدِ المسلمون في البحر شيئًا ، سوى عليقةَ فرسٍ لرجلٍ من المسلمين ، ومع هذا رجعَ العلاءُ فجاءه بها ، ثم قسّم غنائمَ المسلمين فيهم ، فأصاب الفارسُ ألفَيْن ، والراجلُ ألفًا ، مع كثرة الجيش ، وكتب إلى الصِّدِّيق فأعلمَه بذلك ، فبعث الصديقُ يشكره على ما صنع ، وقد قال رجلٌ من المسلمين في مرورهم

في البحر - وهو عفيفُ بنُ المنذر - :

أَلَمْ تَــرَ أَنَّ اللهَ ذَلّلَ بَحْــرَهُ وأنزلَ بالكفار إحدىٰ الجلائلِ

دَعَوْنَا إلى شَقِّ البحارِ فجاءَنا بأعجبَ من فَلْقِ البحارِ الأَوَائلِ »

وذكَرَ العلّامةُ ابنُ كثيرٍ جلائلَ معجزاتِ الأنبياء، فقال: « فمنها نجاةُ نوحٍ في السفينة بالمؤمنين، ولا شكَّ أنَّ حمْل الماءِ للناس مِن غير سفينةٍ أعظمُ مِنَ السُّلوك عليه في السفينة، وقد مشى كثيرٌ من الأولياء على مَتْنِ الماء؛ وفي قصَّةِ العلاء - صاحبِ رسول الله ﷺ - ما يدلُّ على ذلك: روى منجابُ، قال: غَزَوْنَا مع العلاء بن الحضرمي « دارين »، فدعا بثلاثِ دَعَوات، فاستُجيبَتْ له، فنزلنا منزلًا فطلب الماءَ فلم يجدْه، فقام فصلَّى ركعتيْن وقال: اللهمَّ إنا عبيدُك، وفي سبيلك نقاتل عدوَّك، اللهمَّ اسقِنا غَيْثًا نتوضأ به ونشرب، ولا يكون لأحدٍ فيه نصيبٌ غيرنا. فسرنا قليلًا، فإذا نحنُ بماءٍ حين أقلعتِ السماء عنه، فتوضأنا منه وتزوَّدنا، وملأتُ إداوتي وتركتها مكانها حتى أنظر: هل استُجيبَ له أم لا. فسرنا قليلًا ثم قلتُ لأصحابي: نسيتُ إداوتي. فرجعتُ إلى ذلك المكان، فكأنه لم يصبْه ماءٌ قطُّ، ثم سِرْنا حتى أتيْنا « دارين »، والبحرُ بيننا وبينهم، فقال: يا عليُّ يا حكيم، إنا عبيدُك، وفي سبيلك نقاتل عدوَّك، اللهمَّ فاجعلْ لنا إليهم سبيلًا. فدخلنا البحرَ فلم يبلغ الماء لُبودَنا، ومشيْنا على مَتْنِ الماء ولم يبتلَّ لنا شيءٌ ... وذكر بقيّةَ القصة. فهذا أبلغُ من ركوب السفينة؛ فإنَّ حمْل الماء للسفينة معتادٌ، وأبلغُ من فَلْق البحرِ لِمُوسىٰ، فإن هناك انحسرَ الماءُ حتى مَشَوْا على الأرض، فالمُعْجزُ: انحسارُ الماء، وهاهنا صار الماء جسَدًا يمشون عليه كالأرض، وإنما هذا منسوبٌ إلى النبي ﷺ وبَركتِه. انتهىٰ ما ذكره بحروفه فيما يتعلق بنوحٍ عليه السلام. وهذه القصة التي ساقها شيخنا ذكَرَها الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه

« الدلائل » ، مِن طريق أبي بكر بن أبي الدنيا ، عن أبي كُريبٍ ، عن محمد ابن فُضيل ، عن الصَّلت بن مَطر العَجَليّ ، عن عبد الملك ابن أخت سهمٍ ، عن سهم بن منجاب قال : غزونا مع العلاء بن الحضرمي ... فذكره . وقد ذكرها البخاري في التاريخ الكبير من وجهٍ آخر . ورواها البيهقي من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان مع العلاء وشاهد ذلك . وساقها البيهقي من طريق عيسى بن يونس عن عبد الله ، عن عَوْنٍ ، عن أنس بن مالك قال : أدركتُ في هذه الأُمَّة ثلاثًا ، لو كانت في بني إسرائيل لَمَا تقاسَمها الأمم . قلنا : ما هُنَّ يا أبا حمزة ؟ قال : كنا في الصفة عند رسول الله ﷺ ، فأتته امرأةٌ مهاجِرةٌ ومعها ابنٌ لها قد بلغ ، فأضاف المرأة إلى النساء ، وأضافَ ابنها إلينا ، فلم يلبث أنْ أصابه وباءُ المدينة ، فمرِض أيّامًا ثم قُبِضَ ، فغمَّضه النبيُّ ﷺ ، وأمَر بجهازه ، فلما أردنا أن نُغسّله قال : « يا أنسُ ، ائت أمَّه ، فأعْلمها » . فأعلمتُها . قال : فجاءتْ حتى جلست عند قدميْه ، فأخذت بهما ثم قالت : اللهمَّ إني أسلمت لك طوْعًا ، وَخَلَعْتُ الأوثان ، فلا تُحمِّلني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحمله . قال : فوالله ما انقضى كلامُها حتى حرَّك قدميْه ، وألقى الثوبَ عن وجهه ، وعاش حتى قبَضَ اللهُ رسولَه ﷺ ، وحتى هَلَكَتْ أُمُّه . قال أنس : ثم جهَّز عمر بن الخطاب جيشًا ، واستعمل عليهم العلاءَ بن الحضرمي . قال أنس : وكنت في غَزاته ، فأتينا مغازينا ، فوجدنا القوم قد بدروا بنا فعفوا آثار الماء ، والحرُّ شديد ، فجَهَدنا العطشُ ودوابَّنا ، وذلك يوم الجمعة ، فلمّا مالتِ الشمس لغروبها صلى بنا ركعتيْن ، ثم مدَّ يده إلى السماء ، وما نرى في السماء شيئًا . قال : فوالله ما حطَّ يده حتى بعث الله ريحًا ، وأنشأ سحابًا وأفرغتْ ، حتى ملأتِ الغدر والشِّعاب ، فشربنا وسقينا ركابنا واستَقَيْنا . قال : ثم أتينا عدوَّنا وقد جاوَزَ خليجًا في البحر إلى جزيرة ،

فوقف على الخليج وقال : يا عليُّ يا عظيمُ ، يا حليمُ يا كريمُ . ثم قال : أجيزوا بسمِ الله . قال : فأجَزْنا ، ما يبلُّ الماءُ حوافِرَ دوابِّنا ، فلم نلبث إلا يسيرًا فأصبنا العدوَّ عليه ، فقتلْنا وأسرنا وسبيْنا ، ثم أتينا الخليجَ ، فقال مِثلَ مقالتهِ ، فأجزنا ما يبلُّ الماء حوافر دوابنا . ثم ذَكَر موتَ العلاء ودَفْنَهم إيّاه في أرضٍ لا تقبل الموتى ، ثم إنهم حفروا عليه لينقلوه منها إلى غيرها ، فلم يجدوه ثَمَّ ، وإذا اللحدُ يتلألأ نورًا ، فأعادوا الترابَ عليه ثم ارتحلوا . فهذا السياق أتم »[١] .

لله دَرُّكَ أيُّهَا القائد الوليّ ... مُجابَ الدعوةِ عالي الهمة ! لله دَرُّكَ يا علاء .. تحثُّ السيرَ لنجدة إخوانك ممّن ثبتوا على إسلامهم في « جواثا » ، أول قرية أقامت الجمعة مِن أهل الرِّدَّة .. القرية التي حاصرها المرتدُّون وضيَّقوا عليها ، حتى منعُوا المسلمين من الأقْوات وجاعُوا جُوعًا شديدًا ، وقال عبد الله بن حذف - وقد اشتدَّ به الجوع - :

ألا أبْلِغْ أبا بكـرٍ رسـولًا ... وَفِتْـيانَ المـدينة أجْمعينـا
فهـلْ لكم إلى قومٍ كِرامٍ ... قُعود في « جوَاثا » مُحصَرينا
كأنَّ دمـاءَهم في كلِّ فـجٍّ ... شعاعُ الشمس يغشى الناظرينا
توكَّلْنـا على الرحمـٰن إنَّا ... وَجَـدْنَا الصـبرَ للمتوكِّلينـا

لله دَرُّكَ مِن قائدٍ وليٍّ ! يذلل الله له البحرَ كما ذلَّله لنوح النبيِّ .. ويُفاجئ أهلَ الشرك السُّكَارىٰ ، ويُبيّتهم بتكبيره قبل سيفه ..

كم أشرقتْ في سماءِ المَجْدِ راياتُ ... ورُتِّلَتْ في رِحَابِ الخير آياتُ
وكان رَائِدنَا يحـدُو مسيرتنـا ... اللهُ غايتُنـا الرحمـٰنُ لا اللَّاتُ
ودولةُ الحقِّ بالإسلام تحكُمُنا ... والـيومَ تحكُمُنـا ظلمًا دُوَيْلاتُ

---

(١) البداية والنهاية ٦ / ٢٦٤ - ٢٦٥ .

تقــودُ أُمَّتَنَــا للحــربِ غــانيةٌ ... والجيشُ في الزَّحْفِ قد أَلْهَتْهُ مغْنَاةُ
وكمْ لَعُوبٍ تهاوَوْا عند أرجلها ... كما تهاوتْ على نارٍ فراشاتُ
الزِّقُّ والرِّقُّ والمِزْمَارُ عُدَّتُنا ... والخَصـمُ عُـدَّتُه عِـلْمٌ وآلات
وَشِرْعَةُ اللهِ في القرآن نهجُرها ... وَشِرْعَةُ الخَصْمِ تلْمُودٌ وتوْراةُ
وَعُدَّةُ الخَصمِ صاروخٌ وطائرةٌ ... ونحـنُ عُدَّتُنَـا الكـبرىٰ قراراتُ
سفينةُ الناسِ ضلَّتْ لا شراعَ لها ... والشَّعْبُ حار وما للشعبِ مَنجاةُ
وَجيلُنَـا ضـاعَ في تيهٍ يُمـزِّقُهُ ... وَدَرْبُـهُ ضَـلَّ قـد دَكَّتْهُ مأساة
الجهلُ والفقرُ والطغيانُ يَسْحَقُهُ ... والكأسُ والجنسُ مَسْلاةٌ وَمَلْهَاةُ
وباطـنُ الشعــب آلامٌ مُبَرِّحـةٌ ... وظـاهرُ الشعـب أفراح وزينات
قد هدّهُ الجوعُ وانهارتْ عزائمُهُ ... وقـادةُ الشَّعْـبِ بالأكباد تقتاتُ
كم بدّدوا المال هَدْرًا في مباذِلِهِمْ ... وفي ليالي الخنَا ضاعتْ مُروءاتُ
في السلم كأسٌ وسيجارٌ وغانيةٌ ... وساحةُ الحربِ في الهَيْجَا إذاعاتُ
وقادةُ الشَّعْبِ أمواتٌ بلا كَفَنٍ ... فَهَلْ يُحَرِّرُ أرضَ القدسِ أمواتُ
يا سوْأَةَ العمرِ في تاريخ أمَّتِنا ... لقدْ بدَتْ منكمْ للعينِ سَوْءَاتُ
مَنْ يزرع اليومَ شرًّا فالحصادُ غدًا ... وَقُـدرةُ اللهِ للطغيانِ مِذْراةُ(١)

الصحابيُّ الزاهدُ : عتبةُ بنُ غزْوان ، فاتحُ جنوبِ العراق والأهوازِ ، وأوّلُ مَن مَصَّرَ البصرة :

كان رضي الله عنه أحَدَ السابقين إلى الإسلام ، وكان مِن فرسان المهاجرين وفدائيِّيهم ، وقاتَلَ عتبةُ تحتَ لواء النبي في كل غزواته . ويذكر التاريخُ لعُتبة أثَرَه الكبير في إعادة المرتدين من أهل « عُمان » و« مهرة » إلى

---

(١) من قصيدة « باسم الشعب .. ولا يدري » ، من ديوان : « في رحاب الأقصىٰ » ليوسف العظم .

الإسلام ، وقاتل رضي الله عنه تحت لواء سعدٍ في القادسية وفي المعارك الأُخرى ، حتى تمَّ للمسلمين فَتْحُ « المدائن » .

عندما أخذ سعدٌ يجهّز لاحتلال المدائن ، قدّر الخليفة عمرُ أنَّ الفُرْس سيستميتُون في الدفاع عنها ، فقرّر أنْ يعمل على تشتيت طاقاتهم ، ومَنْع وصول الإمدادات ، المتوقع أن يصلهم أكثر من « الأهواز » وناحِية شرقي « شطِّ العرب » . فكلّف عمر سعدًا أن يبعث عتبة بن غزوان إلى المكان الذي أُنشِئَت عليه مدينة البصرة ، وكانوا يسمّونه « أرض الهند » ، وقال عمر عن عتبة : « فإنَّ له مِن الإسلام مكانًا ؛ فقد شَهِدَ بدرًا ، وقد رجوتُ جزءَه من المسلمين »[١] .

القائدُ الفاتِحُ :

« وحين وجّه عمرُ عُتبةَ إلى منطقة البصرة ، أوصاه : « يا عتبة ، إني قد استعملتُك على أرض الهند ، وهي حوْمَةٌ من حَوْمة العدوّ ، أرجو أنْ يكفيَك الله ما حولها ويُعينك عليها ، وقد كتبتُ إلى العلاء بن الحضرمي أن يمدَّك بعَرْفَجةَ بن هَرْثمة ، وهو ذو مجاهدةٍ ومكايدة للعدو ، فإذا قَدِمَ عليك فاستشرْه ، وادعُ إلى الله ، فَمَنْ أجابك : فاقبلْ منه ، وَمَنْ أبى : فالجزية ، وإلَّا : فالسيف »[٢] ، وفوْر وصول عُتبة إلى المكان الذي حدّده عمر ، بَلَغَه تواجد قواتٍ للفرْس تبلغ أربعة آلاف مقاتِلٍ ، ووصل صاحبَ الفرات خبرُ عُتبة ، وقال له جُنده : إنّ هاهنا قومًا معهم راية ، وهم يريدونك . فأقبَلَ في أربعة أساورٍ ، فقال : ما هم إلا ما أرى[٣] ، اجعلوا

---

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ٦ .
(٢) الطبري ٣ / ٩٢ ، وابن الأثير ٢ / ١٨٨ ، والاستيعاب ٣ / ٢٧ - ١ .
(٣) وكان عددُ المسلمين ثمانمائة رجلٍ .

في أعناقهم الحبالَ وائْتوني بهم . هكذا بكل صَلَفٍ وغرورٍ ! فجعل عتبةُ يزجل ، وقال : إني شهدتُ الحربَ مع النبي ﷺ ، حتى إذا زالتِ الشمس قال : احملوا . فحملوا عليهم ، فقتلوهم أجمعين ، فلم يبقَ أحدٌ إلا صاحِبُ الفراتِ ، أخذوه أسيرًا .

هكذا الرجولةُ والفروسيةُ يا عتبة .

وقام الزاهدُ الناسك عتبةُ يخطب في جنده : « إنَّ الدنيا قد تصرّمتْ وولّت حذّاءَ ، ولم يبقَ منها إلا صبابةٌ كصبابةِ الإناء ، ألَا وإنكم منتقِلون منها إلى دار القرار ، فانتقلوا بخير ما بحضْرتكم ، وقد ذُكر لي : لو أنَّ صخرةً أُلقيتْ مِن شفير جهنمَ هوتْ سبعين خريفًا ، ولَتملأنَّه ، أوَ عجبتم ؟! ولقد ذكر لي أن ما بين مصراعيْنِ مِن مصاريعِ الجنة مسيرة أربعين عامًا ، وَلَيَأْتِيَنَّ عليه يومٌ كظيظ بزحام ، ولقد رأيتُني وأنا سابعُ سبعةٍ مع النبي ﷺ ، ما لنا طعامٌ إلا وَرَق السَّمر ، حتى تقرّحتْ أشداقُنا ، والتقطتُ بُرْدَةً فشققتُها بيني وبين سعدٍ ، فما منّا - من أولئك السبعة - مِن أحدٍ إلّا وهو أميرُ مِصرٍ ، وسيُجرِّبون الناس بعدنا » .

نعم ، حَفِظ عتبة وصِيَّة عمر له : « قد صحبتَ رسولَ الله ﷺ فعزَزْتَ به بعد الذّلة ، وقويتَ به بعد الضعف ، حتى صرتَ أميرًا مسلّطًا وَمَلِكًا مطاعًا ، تقول فيُسمع منك ، وتأمر فيطاعُ أمرُك ، فيا لها نعمةً ! إنْ لم ترفعْك فوق قدْرك ، وتبطِّرك على مَنْ دونك ، احتفظْ من النعمة احتفاظَك من المعصية ، وَلَهِيَ أخوفهما - عندي - عليك أن تستدرجك وتخدعك ، فتسقط سقطةً تصير بها إلى جهنم ، أعيذُك بالله ونفسي من ذلك ، إن الناس أسرعوا حين رُفعتْ لهم الدنيا فأرادوها ، فأرِدِ اللهَ ولا تُرِدِ الدنيا ، واتَّقِ مَصَارِعَ الظالمين » . ولقد حفظ عُتبة وصية الخليفة ،

ووعاها ورعاها ، فَهَا هو يختطُّ البصرة ، ولكنه لم يختطَّ لنفسه فيمن اختطَّ من المهاجرين ، فمات رضي الله عنه وهو لا يملك دينارًا ولا دارًا .. ها هو فاتح « الأهواز » يستعفي عمرَ من منصبه ، فيأبىٰ عمر أن يعفيه .

قِتَالٌ آخرُ مِقدارَ جَزْرِ جَزُورٍ :

« استمرَّ تصيُّد المتواجدين من الفرس عند مصبِّ دِجلة وحوْل شطِّ العرب ، حتى لا يدعموا الفرْس ويمدُّوا « المدائن » التي يريد سعد الانقضاضَ عليها . وَبَلَغَ أبا غزوان عتبة أنّ في « الأبلة » خمسمائة مقاتل من سادات الفرس وخيرة محاربيهم وزعمائهم ، وهم الذين يطلق عليهم : « أساورة » ، ففرض عليها عتبةُ الحصار شهرًا ، بعده خرج الأساورة وهاجموا المسلمين ، فناهضهم عتبةُ ، وجعل قطبةَ بن قتادة السدوسي وقسامة بن زهير المازني في عشرة فوارس ، قال لهما : كونا في ظهرنا ، فترُدّانِ المنهزم وتمنعانِ مَنْ أرادنا مِن ورائنا . ثمَّ اقتَتلوا مقدارَ جزْرِ جزورٍ ، وقسمها ، حتى منحهم اللهُ أكتافهم ، وولَّوْا منهزمين حتى دخلوا المدينة ، ورجع عتبة إلى عسْكره »[1] .

كانت « الأبلة » أعظمَ مَسَالح الفرْس البحرية عند مصبِّ النهرْين ، بالإضافة إلى كونها المرفأً الوحيد لكلّ السفن الوافدة من الهند والصين ، وكلّ أقطار الشرق الأقصى ، وبعد أنْ عاد المنهزمون - من الأساورة - إلى مدينة « الأبلة » ، فرض عليها عتبةُ حصارًا شديدًا ، وانتاب حامية « الأبلة » الرعبُ من العرب المحاصِرين لها ، فتسلّلوا منها هَرَبًا ، بعد أن حملوا معهم ما خفّ مِنَ الأموال ، فدخل المسلمون المدينة . ويروي الطبريُّ أن نافع بن الحارث قَتَل يوم « الأبلة » تسعةً مِنَ الفُرْس ، وَقَتَل أبو بكرةَ ستةً ، فعادتِ

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٩٤ .

« الأبلة » إلى المسلمين سنة أربع عشرة من الهجرة ، والمسلمون على أبواب « المدائن » .

وذكر المؤرّخون أنَّ جيش عتبة صار لا يعلمُ بقوةٍ حربيةٍ للفرْسِ في الجنوب ، إلّا وقتلها وفرّق جمعها ؛ فَمِن ذلك أن عُتبة بلغَه أنَّ مرزبان - « دست ميسانَ » ، القريبةِ من الأبلة - لديه جموعٌ من المحاربين الفرْس ، فخشي أن يوجِّههم نحو « المدائن » ، فسارع إليه وهاجمه ، ثم قتله بعد أن دمّر جيشه .

هذا هو عُتبة الزاهد .. وهكذا فليكنِ القادة ... فما أبعدَ الفرْقَ بين أمسِ واليوم !!

اليومَ يقول الفارغون : « كنتُ لي ذنب سألت الله ألا يغفره » ... « الدنيا سيجارة وكأس » .

ويقول ناصرُهم - في رسالة لحسين ، التقطتها الإذاعة الإسرائيلية - : « دمّرنا ثلثي طائراتِ العدو .. طائراتنا فوق تلّ أبيب » ، التوقيع : « سلمي » ...

ويقول مذيعهم أحمد سعيد : « بشرىٰ يا عربُ ، الطائراتُ تتساقطُ كالذباب » . وطائراتُنا مدمرةٌ في المطارات !!

قالت بنت « ديّان » في كتابها « جندي مِن إسرائيل » - الذي طُبع بأكثر من لغة - : « كانت أنباء الجبهة الجنوبية - مصر - تملؤنا رُعبًا ... فلمّا أتانا الحاخام - ومعه نسخة مِنَ التوراة - استحال خوفنا أمنًا ، بينما كانت إذاعة العدو - تعني الإذاعة المصرية - تقول : قَاتِلْ مِن أجل الربيع ... من أجل الحياة ... قاتلْ وأم كلثوم معك في المعركة ... قاتلْ وعبد الحليم معك في المعركة ...!!

كان « لحنُ » الحياةِ فينا أذانًا يتغنّى به الأباةُ الصِّيدُ
يملئون الوجودَ برًّا ونورًا حينَ يصحُو على الأذانِ الوجودُ
وإذا اللَّحنُ صيحةٌ مِن رقيعٍ وإذا الترسُ في المعامعِ « عُودُ »
فَغَدَتْ أمتي معَ « اللَحن » سَكْرَى يُرسِلُ « اللحنَ » فاجرٌ عربيدُ
كان أمسُ الأباة مَشْرِقَ مجدٍ وإذا اليومَ في حِمانا اليهودُ
سادَنا قادةُ الهزيمةِ زُورًا كيفَ نرضى وا ذلّتا أن يسودوا ؟!
ليسَ فيهمْ « قتيبةٌ » أو « صلاحٌ » أو « هشامٌ » وليسَ فيهم « رشيدُ »
هجروا المصحفَ الطهورَ وحارُوا و« ابنُ دايانَ » قادهُ التلمودُ
فأذلّ العدوُّ منّا جباهًا وتلاشى مِن راحتيْنا الحديدُ
واستُبيحتْ ديارُنا لعدوٍّ وسلاحُ الحُكّامِ فينا وُعودُ
مسخُوا الحقَّ والحقيقةَ لمّا صارَ صوتُ الإعلامِ فيهمْ « سعيدُ »[(١)]
يزرعُ البحرَ والهواءَ وُعودًا لا يبالي أن لا يكونَ حصيدُ
شِرْعَةُ الزورِ والضلال « مُذيعًا » أنَّ يومَ الهوانِ والذلِ عيدُ
ووجوهُ الطغاةِ بالشرِّ بيضٌ ووجوهُ الهداةِ بالحقِّ سُودُ
ذَلَّ مَن يزعمُ الهزيمةَ نصرًا تتهاوى مِن راحتيْهِ البنودُ[(٢)]

عَاصِمُ بنُ عمرٍو التميميّ فاتِحُ « سجسْتانَ » ، وقائِدُ كتيبةِ الأهوال ، ومُسَمِّلُ الأفيال :

تُريقُ سُيوفُه مُهَجَ الأعادي وكلّ دمٍ أراقَتْهُ جُبَارُ[(٣)]

قاتل عاصمٌ تحتَ لواءِ خالدٍ في حروب الردة ، وأبلَى فيها بلاءً حسنًا ،

---

(١) إشارة إلى أحمد سعيد ومَدرسته الغوغائية .

(٢) « أمس واليوم » ليوسف العظم .

(٣) الجُبار : الذي لا يُطالب به .

ووجّهه خالد أمام قواته ، على رأس قوةٍ من المسلمين إلى العراق ، وقاتل رضي الله عنه بقيادةِ خالد في العراق ، وَقَتَلَ في معركة المذار « الأنوشجان » ، الساعِدَ الأيمن لقارن ، قائد قوات فارس . وفي معركة دَوْمة الجَنْدل بعثه خالد على رأس مفزرة من الفرسان لأسْر أكيدر بن عبد الملك ، أمير دومة الجندل ، فنجح عاصم في أسره ، وسلّمه إلى خالد ، فقتله جزاءَ غدْره بالمسلمين .

وقاتل عاصم تحت لواءِ أبي عبيد الثقفي وكان قائدًا لقوْمه بني تميم ، وبعد معركة كسكر وجّهه أبو عُبيد إلى نهر « جور » فهزم الفرس[١] .

وفي معركة الجسر حمىٰ المثنَّى وعاصم – مع أشجع أبطال المسلمين – الانسحاب ، حتى عقدوا جسرًا فعبر المسلمون عليه ، وعبر المثنَّى وعاصم وأصحابُهم في آثارهم ، وبذلك أنقذ المثنى وعاصم ورجالُهما أرواح الآلاف من المسلمين .

وتحت لواءِ المثنى ، وفي معركة « البويب » كان عاصم يقود المجرّدة[٢] ، وهو واجب لا يُعهد به إلا لفارسٍ مقدام ، ولمّا انهزم الفرس ، كان عاصم أحد القادة الذين قاموا بالمطاردة ، فكان أول مَن دخل حصن الفرس في « ساباط » هُو عاصم[٣] ، وكان لِتغلْغُله العميق في أرض الفرس أثرٌ بالغ على تحطيم معنويات الفرس ، ورفْع معنويات العرب .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٣٧ .
(٢) الطبري ٢ / ٦٤٥ .
(٣) الطبري ٢ / ٦٥٣ .

في القادسية :

أثناء المسير إلى القادسية كان عاصم قائدًا للساقة ، وكان المسلمون في أشدِّ الحاجة إلى الموادِّ الغذائية ، لذلك أرسل سعد عاصمًا إلى « مَيْسان » في غارةٍ غَنَم فيها بعض الماشية ، فأتى بها إلى سعد ، فقسّمها على الناس ، فأخصبوا أيامًا(١) .

وقُبيل معركة القادسية جرتْ مفاوضات بين رجالاتِ سعد وبين كسرى يزدجرد ، وفي نهاية المفاوضات غَضِبَ كسرىٰ على المفاوضين العرب ، فقال لرجاله : « ائتوني بِوِقْرٍ من ترابٍ ، واحملوه على أشرف هؤلاء » . فتقدم عاصم ليحمل على أصحابه التراب قائلًا : « أنا أشرفهم .. أنا سيّدُ هؤلاء » . ثم حمل التراب على عنقه ، وخرج إلى راحلته فركبها ، وأخذ التراب معه ، وقال لسعد : « أبشرْ ، فوالله لقد أعطانا الله أقاليدَ مُلْكِهم »(٢) . وكانت نتيجة تلك المفاوضات نصرًا معنويًّا للمسلمين على الفرْس ؛ إذْ قال كسرى : « ما كنتُ أرى أنّ في العرب مثلَ رجال رأيتهم دخلوا عليّ !! ما أنتم بأعقلَ منهم ولا أحسنَ جوابًا منهم »(٣) .

وعندما نشب القتال بين المسلمين والفرس في القادسية ، برزَ عاصمٌ في اليوم الأول من أيامها بروزًا جعله سيدَ الموقف بدون منازِع ؛ كان أحدَ ذوي الرأي والنجدة ، الذين أرسلهم سعد لتحريض الناس على القتال ، فقام عاصم في « المجردة » ورجالها أوَّلَ مَن يلاقي العدو ؛ وقال يخاطبهم : « إنّ هذه البلاد قد أحلَّ الله لكم أهلَها ، وأنتم تنالون منهم منذُ ثلاث سنين ما

---

(١) الطبري ٣ / ١٤ .
(٢) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٧٦ .
(٣) تاريخ الطبري ٣ / ١٩ .

لا ينالون منكم ، وأنتم الأعلَوْن ، والله معكم إن صبرتم ، وصدقتموه الضربَ والطعنَ »[١]. ووقف خطيبًا في آخرين ، وقال : « يا معاشر العرب ، إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان العَجَم ، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحوطَ منكم على آخرتكم ، ولا تُحدثوا اليوم أمرًا تكونون فيه شيْنًا على العرب غدًا »[٢].

وكان ممّا قال : « اللهَ اللهَ ... اذكروا الأيامَ وما منحكم اللهُ فيها ... أَوَلا ترون أن الأرض وراءَكم بسابسُ قِفار ، ليس فيها خمرٌ[٣] ولا وزرٌ يُعقل إليه ولا يمتنع به ؟! اجعلوا الآخرة همَّكم » . وخرج عاصم أمامَ مواقع بني تميم وهو يقول :

قد عَلِمَتْ بيضاءُ صفراءُ اللَّبَبْ — مِثْلُ اللُّجَيْنِ إذْ تغشَّاهُ الذَّهَبْ
أني امرؤٌ لا مَنْ يُعينُه السَّبَبْ — مِثلي على مِثلِكِ يُغريهِ العَتَبْ[٤]

فطارد رجلًا من العجم فهرب منه ، وتبعه عاصم حتى خالط صفَّهم ، فالتقى بفارسٍ معه بغلٌ ، فترك الفارسُ البغلَ ، واعتصم بأصحابه فاحتمى بهم ، واستاقَ عاصم البغل والرحْلَ ، وكشَف عن الغنيمة ، فإذا ذلك الرجل كان طبّاخَ رستم ، وإذا ذلك الذي كان معه : طعامُه من الأخبصة والعسل المعقود ، فتغدّى عاصم وَمَنْ معه - يومها - بغداء رستم . وزحف المسلمون ، فحملتِ الفِيَلة على الميمنة والميسرة ، وأحجمتْ خيول المسلمين ،

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤٤ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٤٦ .
(٣) غِطاء .
(٤) بيضاء : يقصد بها فرسه ، ومعنى البيت : ثقتُه بنفسه أنه يدخل بدون وسيلةٍ للقتال ، كلّما عتبوا عليّ في شدتي عليك يُغريني ذلك بكِ .

وبقي المشاة يقاتلون وحدهم ... في ذلك الموقف العصيب أرسل سعد إلى عاصم ، وقال له : يا معشرَ بني تميم ، ألستم أصحاب الخيل والإبل ؟! أما عندكم لهذه الفيلة مِن حيلة ؟! فقال عاصم : بلىٰ والله . ثم نادىٰ عاصم في قومه ، فجمَعَ أفضل مَن في بني تميم من الرماة ، وآخرينَ لهم خفّة ومهارة في القتال ، ووضع خطته على أساس مُشاغَلة ركبانِ الفيلة ، ثم مهاجمتها من الخلف في غفلة منهم . قال لهم : « يا معشر الرماة ، ذُبُّوا ركبانَ الفيلةِ عنهم بالنبل » . وقال : « يا معشرَ أهل الثقافة ، استدبروا الفيلة فقطِّعوا وُضُنَهَا »[1] . وخرج معهم يحميهم ويقودهم ، فَشَقُّوا طريقهم نحو الأفيال التي تهاجم بني أَسَد ، وأقبل رجاله على الفيلة ، فأخذوا بأذنابها وقطّعُوا وضنَهَا ، فارتفع عُـواؤها ، وألقـتْ بركبانها ، وكان كلما سقط صندوقٌ بمن فيه ، هجم عليهم المسلمون فقتلوهم ، فنفسَ عن بني أسد وبجيلة ، وَرَدّتْ تميم هجوم العجم إلى مواقفهم الأولى ، وكان عاصم بن عمرو في ذلك اليوم – بحقٍّ – عادية الناس وحاميهم[2] .

وفي اليوم الثالث من أيام القادسية – لما أعادت فيَلة الفرس هجومها الكاسح ، يقودها الفيل الأبيض – حمل عاصم والقعقاع ، فوضعا رمحيْهما معًا في عيني الفيل الأبيض ، فتراجع الحيوان وطرحَ سائسه ودلّى مِشْفَره ، فضربه القعقاع بالسيف فرمى بمشفره ، ووقع الفيل لجنبه ، فقتلاً مَن معه مِن الفرْس[3] .

فللَّهِ دَرُّ عاصم مُسمل عينِ الفيل !! أيّ شجاعةٍ تفوق هذه الشجاعة ؟!

---

(١) الأحزمة .

(٢) الطبري ٣ / ٥٠ .

(٣) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٨٥ .

ولما هربتِ الفيلة أخذ أبطال المسلمين يضيِّقون الخناق على الفرس ، وكان أبرز هؤلاء الأبطال : عاصم . وفي ليلة « الهرير » : هزم عاصمٌ قائد الفرس الذي كان بإزائه ، وسحَق قواته[١].

ولله دَرُّ مَن قال عن عاصم : كانت له في القادسية مقاماتٌ محمودة وبلاء حسن[٢].

في فتح المدائن :

لما قرَّر سعد أن يعبر النهر بقواته على ظهور الخيل سباحةً ، كان لا بُدَّ له من قوةٍ كافية تعبر النهر أولًا ، لاحتلال رأس جِسْرٍ في الجانب الثاني من النهر ، وبذلك تحمي عبور قوات القسْم الأكبر من قوات المسلمين ، فقال سعد : « مَنْ يبدأ ويحمي لنا « الفِراضَ »[٣] ، حتى نلاحق به الناس ، لكي لا يمنعوهم من الخروج ؟ » . فتطوّع عاصم ، وتطوَّع معه ستمائةٌ من أهل النجدة ، فأمّر سعد عاصمًا عليهم ، فساروا ، حتى إذا بلغوا شاطئَ دجلة ، قال عاصم لأصحابه : « مَنْ ينتدب معي لنكون قبل الناس دخولًا في هذا البحر ، فنحمي الفراض من الجانب الآخر ؟ » فانتدب له ستون فارسًا ، وهم الذين أُطلق عليهم اسم « كتيبة الأهوال » ، فجعلهم نصفَيْن على خيولٍ إناثٍ وذكورٍ ليكون أساس العوْمِ على الخيل ، ثم تقدّمهم هو إلى حافّة النهر ، وهو يقول للذين تردّدوا : « أتخافون مِن هذه النطفة ؟! » ، ثم تلا قوله تعالىٰ : ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا** ﴾ [آل عمران : ١٤٥] ، ثم دفع فرسه واقتحم النهر ، واقتحم زملاؤه معه ، فلما

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٦ .

(٢) الإصابة ٤ / ٦ ، والاستيعاب ٢ / ٧٨٤ .

(٣) الفراض : جمع فرضة ، وهي موضع في الجهة المقابلة مِن النهر .

رآهم الفرس بعثوا فرسانهم ، فاقتحموا النهر أيضًا ، فلقُوا عاصمًا ورجاله في وسط النهر ، فقال عاصم : « الرماحَ الرماح ، اشرعُوها وتوخوا العيون » فالتقوا ، فاطَّعنوا . فولّى الفرْسُ . وَلَحِقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم ، ومَن نجا منهم صار أعورَ من الطعن[1] .

لله دَرُّكَ يا عاصم .. هنا يقف التاريخ ، وبأحْرُفٍ من نور يسجّل لعاصم معجزة عسكرية ، يقف العقل والقلب معًا أمامها وقفةَ إكْبار وإعجاب .

هِمَمٌ بلّغَتْكُـــمُ رُتَبَـــاتٍ ... قَصُرَتْ عن بُلُوغِهَا الأوْهَامُ
ونفــوسٌ إذا انبرتْ لقتـــالٍ ... نَفِدَتْ قبل أن ينفدَ الإقدامُ
وقلوبٌ مُوَطَّناتٌ على الرَّوْ ... عِ كأنَّ اقتحامَهَا استسلامُ
طال غِشيانُك الكريهةَ حتى ... قال فيك الذي أقول الحسامُ
فارسٌ يشتري بِرازَك للْـ ... ـفخرِ بقتلٍ مُعجَّلٍ لا يُلامُ

لله دَرُّكَ يا عاصم ، بطولة نادرة ، مِقدامٌ لا يَهمُّك أوقعْتَ على الموتِ أمْ وقعَ الموتُ عليك .

فتًى لا يضمُّ القلبُ همَّات قلبِهِ ... ولو ضمّها قلبٌ لمَا ضمَّه صَدْرُ

لله دَركَ يا عاصم من فارس قومه .. أعلم الناس بالخيلِ .. كأنك والقعقاع وقومك وُلدتم على صهواتها .. عَرَفُوا الخيلَ وعَرَفتْهم .

الثابتــينِ فروســةً كجُلودهــا ... في ظهرها والطعنُ في لَبّاتِهَا
العارفــين بِهَـا كمـا عَـرَفَتْهُمُ ... والرّاكبـين جـدودهم أُمّاتهـا
فكأنهـا نُتِجَـتْ قيامًا تَحْتَـهُمْ ... وكأنهمْ وُلِدُوا على صَهَواتها
إن الكـرامَ بلا كـرامٍ مِنْهُمُ ... مثلُ القلوبِ بـلا سُوَيْدَاوَاتِها

---

(١) الطبري ٣ / ١٢٠ ، وابن الأثير ٢ / ١٩٨ .

تلكَ النفوسُ الغالباتُ على العُلٰى والمجدُ يغلبها على شَهوَاتها

لله دَرُّكَ يا عاصم ! لَكأنك تصيح بدنيء الهمة مِنْ أمثال من يشتكي منهم عصرُنا .

ولا تحسبَنَّ المجدَ زِقًّا وقَيْنة فما المجدُ إلا السيفُ والفتكةُ البِكرُ
وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وأنْ تُرٰى لك الهَبَوات السّودُ والعسْكَرُ المَجْرُ(١)
وَتَرْكُكَ في الدنيا دَويًّا كأنَّما تَداولَ سَمْعَ المرءِ أنمُلُهُ العَشْرُ
وكَمْ مِن جبالٍ جُبْتُ تشهدُ أنني الْـ ـجِبالُ وبحرٍ شاهدٍ أنني البحرُ

لله دَرُّكَ يا عاصمٍ ! كم كان عميقًا إيمانُك بالقضاء والقدَر وَسِرِّ اللهِ فيه !

في « البصرة » و« فارس » :

سار عاصم في جيشِ عتبة بن غزوان الذي بعث به عتبة ، لإنقاذ جيش العلاء بن الحضرمي ، وَشَهِدَ عاصم كافَّة معارك عتبة بن غزوان في جنوبيّ العراق .

عاصم الفاتح :

بعد فتْح « نهاوند » ، عقد عمر - بنفسه - سبعة ألْوية لسبعةِ قادة ، عَهِدَ إليهم بالانسياح في أرض فارس كلها ، وكان من بين هذه الألوية السبعة لواءُ « سجستان » ، دفعه إلى عاصم ، وأمّره على رأس قوةٍ من أهل البصرة ، وأمدّه برجال من الكوفة ، منهم عبد الله بن عمير ؛ فعسكر عاصم قريبًا من البصرة ، ثم تحرّك إلى « سجستان » ، وهي أعظم من خراسان وأبعد فروجًا ، يقاتل أهلُها « القندهار » وأُممًا ....

(١) الهَبَوات : الغَبَرات . المَجْر : الكثير .

كثيرة[١] ، وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة ، كلّ ذلك يدلّ على أهمية واجب عاصم ، وأن اختياره لهذا الواجب الخطير كان دليلًا على الثقة البالغة بقيادته . والتقى عاصم بحُماةِ « سجستان » على تُخُوم بلادهم ، فلم يثبتُوا للمسلمين ، بل انسحبوا إلى « زَرنج » عاصمةِ ولاية « سجستان » ، فحاصرهم المسلمون فيها ، وبثُّوا كتائبهم تتغلغل في المنطقة بأسْرِها ، ولمّا أيقن المحاصَرون أن طول الحصار لا يُجدِيهم نفعًا ، طلبوا الصُّلح ، على أن تكون مزارع « سجستان » حمًى لا يطؤُها المسلمون[٢]، وبذلك فُتحت ولايةُ « سجستان » .

لله دَرُّكَ يا عاصم !!

ولا تزال منائر « سجستان » رافعةً رؤوسها شامخةً ، تذكر فاتحها عاصمًا التميمي الصحابي الجليل رضي الله عنه .

الأَحنفُ بن قَيْسٍ التميمي فاتحُ « قاشان » و« خراسان » ، أبو بحر ، سيِّدُ أهل المشرق ، المسمَّى بغيْر اسمِهِ :

سيِّدٌ من سادات التابعين ، لمّا وفد على عمر بن الخطاب احتبسه عنده حَوْلًا كاملًا ، ثم قال له : « هل تدري لِمَ حبستُك ؟ إنّ رسول الله ﷺ خوّفنا كلَّ منافقٍ عليم ، ولستَ منهم إن شاء الله » . وقال له : « يا أحنف ، قد بلوتُك وخبّرتك ، فلم أرَ إلّا خيرًا ، ورأيتُ علانيتك حسنة ، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مِثْلَ علانيتك » ..

كان الأحنف سيدَ قومه ؛ قال فيه معاوية : « هذا الذي إذا غَضِبَ

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٢٥٦ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٢٥٦ ، وابن الأثير ٣ / ٧ .

غَضِبَ لغضبه مائةُ ألفٍ من بني تميمٍ ، لا يدرون فيمَ غَضِبَ »[١].

قال فيه الشاعر :

إذَا الأبصارُ أبصَرَتِ ابنَ قيسٍ ظَلَلْنَ مهابةً منْهُ خُشُوعا

ضُرِبَ بحلمه المثلُ ، وكان رحمه الله من دهاةِ العرب ، وكان رحمه الله عاليَ الهمّة ؛ فقد سمع الأحنفُ رجلًا يقول : ما أبالي أمُدحتُ أمْ ذُمِمْتُ ، فقال له : « لقد استرحتَ مِن حيثُ تَعِبَ الكرامُ »[٢]..

لله دَرُّكَ من سيدٍ ينطق بالحكمة !

أشار الأحنفُ على عُمر ، ورغّب إليه الانسياح في بلاد فارسٍ ، فقال الأحنف : « يا أمير المؤمنين ، إنك نهيْتَنَا عن الانسياح في البلاد ، وإنّ مَلِكَ فارس بين أظهرهم ، ولا يزالون يقاتلون ما دام مَلِكُهم فيهم ، ولم يجتمع مَلِكانِ مُتَّفقان حتى يُخرج أحدُهما صاحبَه ، وقد رأيتُ أنَّا لم نُؤْخذ شيئًا بعد شيءٍ إلا بانبعاثهم وغدرهم ، وإنّ ملكهم هو الذي يبعثهم ، ولا يزال هذا دأَبهم حتى تأذن لنا بالانسياح ، فنسيح في بلادهم ونُزيل ملكهم ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس » . فقال عمر : « صدقتني والله » . وَأَذِن في الانسياح في بلاد فارس[٣].

الفـاتح :

عَرَفَ عُمرُ الأحنفَ معرفةً شخصيةً ، فرأى منه عقلًا ودينًا ، كما برز مجاهدًا في الحروب ، فدفع إليه لواءَ « خراسان » حين أذِنَ في الانسياح في

---

(١) وفيات الأعيان ٢ / ١٨٦ - ١٨٧ ، وشذرات الذهب ١ / ٢٨ .
(٢) وفيات الأعيان (٢ / ١٨٨) .
(٣) الطبري ٣ / ١٨٤ - ١٨٥ ، وابن الأثير ٢ / ٢١٣ .

بلاد فارس سنة سبع عشرة من الهجرة ، وقبل أن يتوجّه إلى خراسان شهد مع أبي موسى فتْح « قم » ، ووجّهه أبو موسى إلى « قاشان » ، ففتحها عَنوةً ، ثم لَحِق بأبي موسى الأشعري . وسار إلى خراسان ، وكان « يزدجرد » قد قصد خراسان ، فأتى « مرو » فنزلها وبنى بيتًا للنار ، فدانَ له مَن فيها من الفرس ، فكاتَب الهرمزانَ ، وأثار أهل فارس والجبال ، فسار الأحنف حتى دخل خراسانَ من « الطَبسَين » ، فافتتح « هراة » عَنوة ، وسار نحو « مرو الشاهجان » ، فكتب « يزدجرد » - وهو في « مرْو الرّوذ » - إلى خاقان ملك الترك ، وإلى ملك « الصغد » ، وإلى ملك الصين ، يستمدهم . وخرج الأحنف من مرو الشاهجان ، بعد أن وصلته إمداداتُ أهل الكوفة ، فسار نحو « مرو الروذ » ، فلما سَمِعَ « يزدجرد » سار عنها إلى « بلخ » ، وَقَدِمَ أهل الكوفة إلى « بلخ » وأتبعهم الأحنف ، فالتقى أهل الكوفة بيزدجرد في « بلخ » فهزموه ، فما لَحِقَ الأحنف بأهل الكوفة إلا وقد فَتَحَ الله عليهم . وتتابع أهل « خراسان » - ممن شذّ أو تحصّن - على الصلح ، فيما بين « نيسابور » إلى « طخارستان » ، ممن كان في مملكة كسرى ، وكتب الأحنفُ إلى عمر بن الخطاب بفتح خراسان ، فقال عمر عن الأحنف : « هو سيد أهل المشرق ، المسمّى بغير اسمه » . وخشي عمر أن يتقدم الأحنف بجنوده إلى ما وراء خراسان من أرض المشرق ، فكتب إلى الأحنف : « أما بعد ، فلا تَجُوزَنَّ النهر ، واقتصرْ على ما دونه ، وقد عرفتم بأي شيءٍ دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذي دخلتم به يدمْ لكم النصر ، وإياكم أن تعبروا فتنفضّوا » . وقد كان عمرُ رضي الله عنه حصيفَ الرأي ، بعيدَ النظر ، فقد سار خاقان الترك في جنده ، ويزدجرد معه ، فعبروا النهر إلى « بلخ » ، واضطر جند الكوفة أنْ يتراجعوا منها إلى « مرْو الرّوذ » ، ومِن « بلخ » تقدمتْ قوات « خاقان » وحلفائه باتجاه الأحنف في « مرو الروذ » ، وكان الأحنف قد خرج بقواته ليلًا من المدينة

وعسكر خارجها ، وفي الصباح جمع الناسَ وقال لهم : « إنكم قليل ، وإن عدوَّكم كثير ، فلا يَهُولَنَّكم ؛ فكم من فِئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله ، والله مع الصابرين . ارتحِلُوا من مكانكم هذا ، فاسندوا إلى هذا الجبل ، فاجعلوه في ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوِّكم ، وقاتِلوهم مِن وجهٍ واحد » .

وهذه الفكرة أخذها الأحنف من فَمِ جنوده ليلًا وهو يتسمَّع ، فعمل بها ، فللَّه دَرُّه من قائدٍ ! وكانت قوة الأحنف تُقدَّر بعشرين ألفًا : عشرة آلافٍ من الكوفة ، وعشرة آلافٍ من البصرة . وأقبل الترك ، فكانوا يُناوِشون المسلمين نهارًا ويتنحَّوْن عنهم ليلًا ، فخرج الأحنف بنفسه - ليلةً - طليعةً لأصحابه حتى كان قريبًا من معسكر « خاقان » الترك ، فلمّا تنفّس الصبحُ ، خرج فارسٌ من الترك بطوْقه ، وضرب بطبله ، فَحَمَلَ عليه الأحنف ، فاختلفا ضربَتَيْن ، فطعنه الأحنف وهو يقول :

إنَّ علـى كلِّ رئيـسٍ حقّـا ... أنْ يَخضُبَ الصَّعْدَةَ أوْ تَنْدقّا[١]
إنّ لنـا شيخًـا بهـا مُلَقَّـى ... سيفُ أبي حفصٍ الذي تبقَّى

وخرج فارسٌ تركيٌّ ثانٍ ، فأورده الأحنف حَتْفَهُ بطعنة نجلاءَ ، وهوَ يرتجزُ :

إنّ الرئيـسَ يَرْتـبي ويَطْـلعُ ... ويمنَعُ الخـلّاء إمَّا أربعُوا[٢]

---

(١) الصعدة : الرمح ، والمعنى : واجب كل أمير أن يقاتل حتى يُدمي رمحه أو يتحطمَ من شدَّة القتال .

(٢) يرتبي : يصعد الرابية . الخلّاء : جمع خلّي ، وتميم تقول : خلّا فلان على اللبن واللحم ، إذا لم يأكل معه شيئًا ولا خلط به . رَبَعَ المكانَ : أقام ، يريد : أن واجب الرئيس أن يتحمل عِبْءَ الدفاع عن رجاله وحمايتهم .

وخرج فارس تركيٌّ ثالث ، فأورده الأحنف مْورد صاحبيْه وهو يرتجز :

جرىٰ الشَّمُوسُ ناجِزًا بِنَاجِزْ   مُتحفلًا في جرْيِهِ مُشارِزْ[1]

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره ، وأعدّ رجاله للقتال ، ولكنّ الترك آثروا العودة إلى ديارهم ؛ لأنّ مقامهم لا جَدْوَىٰ فيه ، ولأنّهم تكبّدُوا خسائر فادحةً بالأرواح ، وعَبَر « يزدجرد » معهم إلى بلاد الترك ، وثار عليه الفُرْس لما أراد أنْ يمضي بخزائن فارس إلى أرض الترك ، وفرّ « يزدجرد » إلى « فرغانة » عاصمة الترك ، وأقبل أهل فارس على الأحنف ، فصالحوه وعاهَدوه ، ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله ، فسار الأحنف بجنْد الكوفة من « مرو الروذ » إلى « بلخ » ، فأنزلهم بها ، ثم عاد إلى مَقرِّ قيادته في « مرو الروذ » ، وكتب الأحنفُ إلى عمر بالفتح ، فجمع عُمرُ الناسَ وخطبهم ، وقرأ عليهم كتاب الفتح ، وقال في خطبته : « أَلَا إنّ الله قد أهلك مُلك المجوسية ، وفرّق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبرًا يضرُّ بمسلم ، أَلَا وإنّ الله قد أورثكم أرضَهم وديارهم ، وأموالهم وأبناءَهم لينظر كيف تعملون ، واللهُ بالغٌ أمرَه ، ومنجزٌ وَعْدَه ومُتْبعٌ آخِرَ ذلك أوَّلَه ... » . وكان فتْح الأحنف لخراسان النذيرَ الصادق لانتهاءِ دولة الأكاسرة مِن بني « ساسان » ، ونشْر راياتِ الإسلام في تلك البلاد .

استِعادة فتح خراسان :

ولمّا نكث أهلُ فارس العهد بعد عمر ، استعادَ عبد الله بن عامر فتح بعض أرض فارس ، في أيام عثمان بن عفان ، وغزا خراسان وعلى مقدمته

(١) الشموس : الفرس التي تمنع ظهرها ، مشارز : الشدة والقوة . يعني أنه يزجُّ نفسَه في الحرب بقوة واندفاع كما تندفع الشموس ، لا تلوي على شيءٍ في جريها الشديد .

الأحنف ، فأتى « الطبسَين » ، وهما حِصْنا وبابا « خراسان » ، فصالحه أهلها ، فسار إلى « قهستان » فلقيه أهلها ، وقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم ، فَقَدِمَ عليها عبدُ الله بن عامر وصالَحَ أهلَها . ووجّه ابن عامر الأحنف إلى « طخارستان » ، فأتى إلى حصن « مرو الروذ » ، وله رستاقٌ[1] عظيم يُعرف برستاق الأحنف ، فحصر الأحنف أهله ، فصالحوه على ثلاثمائة ألفِ درهم . ومضى الأحنف إلى « مرو الروذ » ، فصالَحَ أهلها بعد قتالٍ شديد ، وسيّر الأحنف سريةً ، فاستولت على رستاق « بغ » ، وصالَحت أهله . وجمع له أهل « طخارستان » ، فاجتمع أهل « الجوزجان » و« الطالقان » و« الفارياب » ، ومَن حولهم ، فبلغوا ثلاثين ألفًا ، وجاءهم أهل « الصغانيان » ، وهم من الجانب الشرقي من نهر « جيحون » ، فالتقوا ، وقاتل قتالًا شديدًا ، فانهزمَ الفرس وحلفاؤهم ، فطاردهم المسلمون ، وألحقوا بهم خسائرَ فادحةً بالأرواح[2] .

وسيّر الأقرعَ بن حابس إلى « الجوزجان » فهزَم عدوّه ، وفتحوا الجوزجان عَنوةً ، واستعاد الأحنف فتْح « الطالقان » صلحًا ، وفتح « الفارياب » ، ثم سار إلى « بلخ » فصالحه أهلُها . وهكذا استعاد الأحنف فتْح خراسان مرةً ثانيةً .

رضي الله عن الأحنف ؛ فقد كان إمامًا في الحِلم ، إمامًا في الدهاء ، إمامًا في رَجَاحة عقلِه ، إمامًا في وَرَعه ، إمامًا في عبقرية قيادته .. لقد كان رجلًا في أُمَّة ، وأُمَّة في رجل .. إنه سيدُ أهل المشرق ، المسمَّى بغير اسمه ، كما يقول الفاروق رضي الله عنه .

---

(١) مجموعة القرى .

(٢) الطبري ٣ / ٢٥٦ ، والبلاذري ٣٩٧ .

عبدُ الله بنُ سعْد بنِ أبي سَرْحٍ ، الصحابيُّ ، فاتحُ إفريقيَّة (تونس) :

كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح قائدًا لميمنة عَمرو ، منذ توجّه من « قيسارية » إلى أن فرغ من حروبه في مصر ، وكان عَمرو يبعثه إلى أطراف إفريقية غازيًا ، ويمدُّه بالجنود ، فيعود من غزواته ظافرًا غانمًا .

وولّاه عمر بن الخطاب صعيدَ مصر بعد فتْحها ، ولمَّا تولَّى عثمانُ رضي الله عنه الخلافة ، عزلَ عَمْرًا وولّى عبد الله مكانَه على مصر والصعيد .

فتحُ إفريقية :

يذكر التاريخ لعبدِ الله بن سعد فتْحه لإفريقية ؛ فلقد سار إليها في جيش تعداده عشرون ألفًا ، سنة ستٍ وعشرين هجرية ، والتقى مع جيش « جرجير » - البالغ عددُه مائة ألفٍ وعشرون ألفًا - بـ « عقوبة » ، ونشبتْ معركة حامية بين الطرفين .. ذكرنا خبرها في ترجمة عبد الله بن الزبير ، وقتل فيها ابنُ الزبير « جرجيرَ » وأخذ ابنته سَبيَّةً .

فللَّه درُّ جيش العبادلة : ابن عباس ، وابن الزبير ، وابن عمرو ، وابن عمر ، وابن جعفر .

وحاصر ابن سعد « سُبَيْطلة » ، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلافِ دينارٍ ، وسهْمُ الراجل ألف دينار ، وبعث عبد الله جيوشه في البلاد ، فبَلغت « قفصة » ، فسبُوا وغنِموا ، كما سيّر جيشًا إلى حصن « الأجم » ، وقد احتمى به أهل تلك البلاد ، فحصروه ، وفتحه بالأمان ، فصالحه أهل إفريقية على ألفي ألفٍ وخمسمائةِ ألفِ دينار ، وهذا ما يساوي ثلاثمائة قنطارٍ من ذهب ، وأرسل عبدُ الله بن الزبير إلى عثمانَ بالبشارة بفتح إفريقية .

فرضي الله عن عبد الله بن سعد فاتح إفريقية سَهْلِهَا ....

وجَبلِها[١] ؛ فلقد فتح الله على يديْه فتحًا عظيمًا[٢] ، وأذلَّت تلك الواقعةُ الرُّومَ بإفريقية ، وأصابهم رعبٌ شديد[٣]. وكان فتحه لها فتحًا مستدامًا .

فأين الرجال ؟! تولَّوْا ، وبقي « زَيْنُ العابدين » ، واسمه منه بريءٌ.

ألقابُ مملكةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كالهِرِّ يَحكي انْتفاخًا صَوْلَةَ الأسدِ

إي والله ... هذا اسمُهُ ؛ « زين العابدين » :

واستبدَّ البُغاثُ في ذِروة النَّسْرِ ... وقادَ الأُسودَ سِربُ النعامِ
في الجبالِ الشَّمَّاءِ مِن أرضِ تونس ... في البوادي مِن مَوْطني المترامي
عربداتٌ مِن الطِّلَى ورؤوس ... غارقاتٌ في سَكْرة الأحلامِ
وضلالٌ عنِ الهدىٰ وضياعٌ ... وانحرافٌ عن دَرْبِهِ المتسامي
نامَ فيكَ الرعاةُ حتَّىٰ استكانُوا ... فهنيئًا لِعُصْبَةِ النُّوَّامِ
وأقامُوا علىٰ الفجورِ وذُلُّوا ... يا لقومي مِن ضَيْعَةِ الحُكَّامِ
أُمَّةُ الذُّلِّ في ظلامِ الليالي ... ترشُفُ العارَ مِن كئوسِ مدامِ
قسّموها قطعانَ ذلٍّ مَهينٍ ... وَرَمَوْا جَمعَها بِشَرِّ سِهَامِ
فقطيعُ « ميترانَ » يحمي حِمَاهُ ... وقطيعٌ يعتزّ بالعمِّ سامِ
وقطيعٌ باتَ الرغيفُ هَواهُ ... شاردُ اللُّبِّ حائِرُ الأفهامِ
ليسَ يدري مِنْ أمرِهِ غيرَ دُنيا ... مُلِئَتْ بالغِنَاءِ والآثامِ
أمةَ الفسقِ والمهانةِ قُومي ... وعلى الذلِّ والمهانةِ نامي

* * *

(١) النجوم الزاهرة ١ / ٧٩ .
(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١ / ٢٧٠ .
(٣) البيان المُغرب ١/ ٨ .

غَـزْوُه للنُّـوبة :

غزا عبد الله النوبة سنةَ إحدى وثلاثين هجرية ، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالًا شديدًا ، فأصيبتْ عيونُ كثيرٍ من المسلمين ؛ قال الشاعر :

لَمْ تَرَ عيني مثلَ يومِ « دُنْقُلَهْ »[1] والخيـلُ تعـدُو بالدُّروعِ مُثْقَلَهْ

وسـأل أهـل النوبة عبد الله بن سعد الهدنة ، فصالحهم على رقيقٍ يُؤدُّونه ، وبعد دخول جيش المسلمين « دنقلة » و« مقرة » ، بنى على باب مدينة مِلكهم مسجدًا ، وشرط عليهم حفْظه أبدًا ، ثم أسلمتْ النوبة والبجّة كلهم .

في قُبْرُص :

كان لعبد الله فضْل كبيرٌ في فتحها مع فاتحها معاوية بن أبي سفيان ، سنةَ ثمانٍ وعشرين .

في غزوةِ ذاتِ الصَّوارِي :

في سنة أربع وثلاثين هجريةً : غزا عبد الله غزوةَ : « ذات الصواري » في البحر ، من ناحية الإسكندرية ، فلقيَه قسطنطين بن هِرَقل في جمْع لم تجمعِ الرومُ مثلَه مُذْ كان الإسلام ، فخرجوا في خمسمائةِ مركبٍ أو ستمائة ، والمسلمون في مائتي مركبٍ ، وكان في كلّ مركبٍ نصفُ شحنته ، إذْ قد خرج النصف الآخر إلى البر للقتال في منطقة أُخرى ، وَقَدِمَ أهل الشام وعليهم معاويةُ بن أبي سفيان ، وعلى البحر عبد الله بن سعد ، وكانت الريح على المسلمين لمّا شاهدوا الروم ؛ فأرسى المسلمون والروم وَسَكَنَتِ الريحُ ، فقال المسلمون : الأمان بيننا وبينكم . فباتوا ليلتهم ، والمسلمون يقرءون

(١) مدينة كبيرة في بلاد النوبة .

القرآن ويصلّون ، وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا ، فقرّبُوا سفنهم ، وقرّب المسلمون سفنهم ، فربطوا بعضها إلى بعض ، وصفّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن ، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصَّبر ، واقتتل الطرفانِ بالسيوف والخناجر ، فَقُتِلَ مِن الروم بَشَرٌ كثير ، وقُتِلَ من الروم ما لا يُحصىٰ ؛ وصبر المسلمون يومئذٍ صبْرًا لمْ يصبروا مثلَه في مَوْطن قطُّ ، فجُرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في هذه المعركة ، فانهزموا ولم يَنْجُ منهم إلا الشَّريدُ . وفي هذه المعركة تعرضت حياة عبد الله لخطرٍ داهمٍ ؛ فقد قَرَنَ مركبَه بمركبٍ مِن مراكبِ الروم ، فكاد مركب العدو يجرُّ مركبَ عبد الله إليهم ، إلا أنّ أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط المركبيْن بالسيف فقطعها ، وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر . لقد أظهر عبد الله في معركة « ذات الصواري »[(١)] بطولةً فائقة ، تلك الغزوة التي أبعدت خطر الروم ، بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام . ومات القائد ، الذي قضىٰ سبعَ سنواتٍ من مدة حكمه مصر غازيًا ، وثلاث سنوات بين أهله ..

ودعا ابن أبي السرح : « اللهمّ اجعلْ خاتمتي على صلاة الصبح » . فلما طلع الفجر - من يوم وفاته - توضأ ، ثم صلّى الصبح ؛ فقرأ في الركعة الأولىٰ بفاتحة الكتاب و« العاديات » ، والثانية بأم القرآن وسورةٍ ، ثم سلّم عن يمينه ، ثم ذهب ليُسلِّم عن يساره ، فقبض اللهُ رُوحه ، سنةَ ستٍ وثلاثين[(٢)]. فرضي الله عنه ، وما أطيب خاتمته من خاتمةٍ !!

---

(١) سُمِّيت بذلك لكثرة صواري المراكب واجتماعها .

(٢) الروْض الأنُف ٢ / ٢٧٤ ، وتهذيب الأسماء واللغات ١ / ٢٧٠ ، والإصابة ٤ / ١١ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ١١٤ .

القائد الصالح مجابُ الدعوة : عقبةُ بنُ نافعٍ ، فاتحُ « زويلة » و« غدامس » ، وبعض كُور السودان ، و« فزّان » ، وعامّة بلاد البربر و« باغاية » ، وبلاد « الزاب » و« طنجة » ، و« السوس الأدنىٰ » و« السوس الأقصىٰ » ومُختَطُّ « القَيْروان » :

١ - في مصر وليبيا :

شهد عقبةُ فتح مصر تحت لواء عمرو ، وبرزت مواهبُه القياديّة بصورةٍ مبكِّرة حينذاك ؛ بعثه عمرو بن العاص على رأس جيش إلى « زَويلة » ، فافتتحها صُلْحًا وصار ما بين « برقة » و« زويلة » - سلمًا - للمسلمين[١] .

ولقد كان عقبة على رأس حاميةِ برقة ، يحمي الحدود الغربية لمصر ، وحافَظَ عقبة على تلك المنطقة ، حتى في أخطر الظروف والأحوال ، وحَمَاها من الروم ، وأصبحت قاعدةً متقدمة للمسلمين ، ينطلقون منها إلى فتْح إفريقية .

٢ - مِن ليبيا إلى القيْروان :

في سنة إحدى وأربعين هجرية استعمل عمرو بن العاص عقبة على إفريقية ، فانتهىٰ إلى « لُوَاته »[٢] وكانوا قد صُولِحوا ، فنقضُوا عهدَهم زمنَ معاوية بن أبي سفيان ، فغزاهم عقبةُ ، فتنحَّوْا ناحيةَ « أطرابلس » ، فقاتلهم عقبةُ حتى هزمهم ، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم ، فأبىٰ عليهم وقال : « إنه ليس لمشركٍ عهدٌ عندنا ؛ إنَّ الله عز وجل يقول في كتابه : ﴿ **كيفَ يكونُ للمُشركينَ عهدٌ** ﴾ [التوبة : ٧] ، ولكنْ أبايعكم على أنكم تُوفوني ذمّتي ، إنْ شئنا أقررناكم ، وإنْ شئنا بعناكم » .

---

(١) المغرب في حُلىٰ المغرب ١ / ٤٥ ، والطبري ٣ / ٢٢٧ .

(٢) من أشهر قبائل البربر .

وعقد عمرو لعقبة على « هَوّارة »[١] ، فأطاعوهُم و« لواته » ثم كفروا ، فغزاهم عقبة من سنته ، فَقَتَل وسَبَىٰ .

وفي سنة اثنتين وأربعين الهجرية افتتح عقبة « غدامس » ، وقتل وسبى ، وفي سنة ثلاث وأربعين افتتح كور[٢] من السودان ، وافتتح « ودان » ثانية ، وهي من برقة ، وذلك سنة ستٍ وأربعين ، فقد خرج عقبة إلى « ودان » في أربعمائة فارس ، وأربعمائة جمل ، وثمانمائة قِرْبةِ ماءٍ ، على كلِّ جملٍ قربتان ، فلما وصلها ، أبىٰ أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة ، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلدًا بلدًا ، وقبض على ملكهم فجدَع أُذُنَه ، فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟! » فقال عقبة : « فعلتُ هذا بك أدبًا لك ، إذا مَسَسْتَ أذنَك ذكرته فلا تحارب العرب !! »

لله دَرُّكَ يا عقبة ! فهذه عِزّة القائد المسلم .

واستخرج منهم ما كان بُسْر بن أبي أرطاة فرضَه عليهم سنة ثلاثٍ وعشرين هجرية ، ثلاثمائة رأسٍ وستين رأسًا من العبيد ، ولمّا استتبَّ الأمرُ لعقبة في بلاد « ودّان » ، سأل عقبةُ أهلها : « هل من ورائكم مِن أحدٍ ؟ » . فقيل : « جرمة »[٣]. فسار إليها ثمانيَ ليالٍ من « ودّان » ، فلمّا دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام ، فأجابوا ، فنزل منها على ستة أميالٍ ، وخرج ملِكهم يريد عقبة ، فأرسل عقبة خيلًا ، فحالت بين ملكهم وبين موْكبه ، فأمشَوْه راجلًا ، حتىٰ أتىٰ عقبة وقد لَغِبَ - وكان ناعمًا - فجعل يبصُق الدم ، فقال له : « لِمَ فعلتَ هذا بي ؛ وقد أتيتك طائعًا ؟! » . فقال عُقبة :

---

(١) من أشهر قبائل البربر .
(٢) الكورة تطلق على مجموعة من القرىٰ .
(٣) عاصمة بلاد « فزّان » أيام الفتح الإسلامي .

« أدبًا لك ، إذا ذكرته لمْ تحاربِ العرب » . وفرض عليهم ثلاثمائةٍ وستين عبدًا ، ومضى عقبة في فتْحه حتى فتح بلاد « فزّان » ، حتى أتى على آخرها ، ونشر الإسلام في رُبوعها . وهذه أول مرةٍ دخل فيها العرب بلادَ « فزان » فاتِحِينَ . وسأل عقبة أهل فزّان : « هل مِن ورائكم أحد ؟ » . فقالوا : أهل « خاور » . وهو قصرٌ عظيمٌ على رأس المفازة ، في وُعورةٍ على ظهر جبل ، وهو قصبة « كاوار » ، فسار إليه خمسَ عشرةَ ليلةً ، فلما وصل إليه دعا أهلَه إلى الإسلام فأَبَوْا ، وطلب منهم الجزية فامتنعوا بحصْنهم ، فحاربهم ، وأقام على حصارهم شهرًا ، وتقدّم بجيشه جنوبًا لفتح بقية بلاد « كاوار » ، ففتحها حتى أتى على آخرها ، وقبض على ملكهم وقطع إصبعه ، فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟ » . فقال عقبة : « أدبًا لك ، إذا أنتَ نظرتَ إلى أصبعك لم تحارب العرب » ... ثم فرَض عليهم ثلاثمائةٍ وستين عبدًا[(١)].

وأراد عقبة أن يمضي قُدُمًا في مجاهل الصحراء ، فسأل أهل « كاوار » : « هل من ورائكم أحد ؟ » . فقال الدليل : « ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة » . فانصرف عقبة راجعًا ، فمرّ بقصر « خاور » فلم يعرِض له ، ولم ينزل بهم ، ثم سار ثلاثة أيام فأمنوا وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بمكانٍ اسمُه اليوم « ماء فَرَس » ، ولم يكن به ماءٌ فأصابهم عطشٌ شديد ، أشفى منه عقبةُ وأصحابُه على الموت ، فصلّى عقبةُ ركعتيْن ودعا الله ، وجعل فرسُ عقبة يبحث بيديه في الأرض ، حتى كشف عن صَفَاةٍ ، فانفجر الماء منها ، فجعل الفرسُ يمصُّ ذلك الماء ، وأبصره عُقبةُ ، فنادى في الناس « أنِ احتفرُوا » . فحفروا سبعين حسْيًا[(٢)] ، وشربوا

---

(١) فتوح مصر والمغرب صـ ٢٦٣ .

(٢) الحسْي : الحفرة القريبة العُمق .

واستقوا فسُمّي ذلك المكان لذلك : « ماء فرس » . ورجع عقبة إلى « خاور » من غير طريقه التي أقبل منها ، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلًا ، فوجدهم مطمئنِّين قد تمهَّدوا في أسرابهم ، فاستباح ما في المدينة مِن ذُريّاتهم وأموالهم ، وقتل مُقَاتِلَتَهم .

فللّهِ درُّه ! وما أبرع حركته هذه ، وما أحلى مباغتته ! فقد أطبق على « خاور » في وقتٍ لم يتوقعه أهلها . وانصرف عُقبة بعد فتح « خاور » ، حتى نزل بموضع زويلة اليوم ، ثم ارتحل ، حتى قدِم على عسكره بعد خمسةِ أشهر ، وقد جمّت خيولُهم وظهورُهم . وسار عقبة بجيشه إلى المغرب ، وجانَب الطريق الأعظم ، وأخذ إلى أرض « هوارة » فافتتح كل قصر بها ، ومضى إلى « صفر » ، فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلًا إلى « غدامس » فاستعاد فتحها ، وتوجّه إلى « قفصة » فافتتحها ، ثم افتتح « قَسْطِيلية » ، ثم انصرف إلى القيروان .

لقد طهّر عقبة بهذا الفتح كلَّ المقاومات المعادية ، بين « برقة » و« القيروان » ، فأصبحت هذه المنطقة خالصةً للمسلمين ، حَرِيّةً أن تكون قاعدةً رصينة ، تنطلق منها القوات الإسلامية لفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي .

بِنَاءُ عقبة للقيْروان(١)، وما كان فيه من الكَرامات :

« قال عقبة لرجاله : « إنَّ إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام ، فإذا تركها رجع مَن أجابَ منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخّذوا مدينة تكون عِزًّا للإسلام إلى آخر الدَّهر » . فركب إلى موضع « القيروان » ، اليوم ، وكان غيْضةً ، كثيرَ الأشجار ، مأوى

(١) معنى القيروان : المدينة أو المعسكر أو المسلحة ، وموضع اجتماع الناس والجيش .

الوحوش والحيّات ، فقال له رجاله : « إنك أمَرتنا بالبناء في شعارٍ وغِياض لا تُرام ، ونحن نخاف من السباع والحيّات ، وغير ذلك من دوابِّ الأرض » . وكان في عَسْكَرِهِ خمسة عشر رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وسائر ذلك تابعون ، فدعا الله عز وجل ، وجعل أصحابه يؤمِّنون على دعائِه ، ومضى إلى «السنجة» وواديها ونادى : « أَيَّتُهَا الحيّات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله ﷺ ، فارحلوا عنا فإنا نازلون ، ومن وجدْناه بعد ذلك قتلناه » . ونظر الناس بعد ذلك إلى أمرٍ مُعجب ، من أن السباع تخرج من الشعار تحمِل أشبالها ، والذئب يحمل جَرْوَه ، والحيّاتُ تحمل أولادها ، ونادىٰ في الناس : « كُفُّوا عنهم حتىٰ يرتحلوا عنا » . فلمّا خرج ما فيها من الوحوش والهوامّ - وهم ينظرون إليها - نزل عقبة الوادي ، وأمرهم أن يقطعوا الشجر »[١].

وفي السِّيَر : « كان الموضعُ غيْضةً لا يُرام من السباع والأفاعي ، فدعا عليها ، فلم يبقَ فيها شيءٌ ، وهربوا ، حتى إن الوحوش لتحملُ أولادها » .

وعن موسىٰ بن محمد ، عن أبيه قال : نادىٰ : « إنا نازلون فاظعنوا » . فخرجْنَ من جِحَرَتِهن هوارب .

وروى نحوه يحيىٰ بن عبد الرحمن بن حاطب، قال : لمّا افتتح عُقبة إفريقية ، قال : « يا أهلَ الوادي ، إنا حالُّون إنْ شاء الله ، فاظعنوا » . ثلاثَ مراتٍ ، فما رأينا جُحْرًا ولا شجرًا إلا يخرج من تحته دابَّةٌ ، حتى هبطْنَ بطنَ الوادي ، ثم قال للناس : « انزلوا بسم الله » .

---

(١) رياض النفوس ١ / ٦ - ٧ ، والبيان المغرب ١ / ١٣ - ١٤ .

قال مفضل بن فضالة : « كان عقبة بن نافعٍ مجابَ الدعوة »[١].

وأمر عقبة ببناء القيروان سنة خمسين ، وأنجز بناءَها سنة خمسٍ وخمسين ، وكان عقبة في أثناء عِمَارة المدينة يغزو ويُرسل السرايا ، فتغيرُ وتنهب ، ودخل كثير من البربر في الإسلام ، ورسخ الدين ، وصارت القيروان عاصمةَ الإسلام في المغرب ، والقاعدة الأمينة للمسلمين في شمال إفريقية .

مِن القيروان إلى المحيط :

وفي ولايته الثانية خرج عقبة بن نافع من القيروان ، بعد أن استخلف بها زهير بن قيس البلوي ، ودعا عقبة بأولاده قبل مغادرته القيروان ، وقال لهم : « إني قد بعتُ نفسي مِن الله عز وجلّ ، فلا أزال أجاهد مَن كفر بالله »[٢]. ثم وعظهم ووصَّاهم ، ثم قال : « عليكم سلامُ الله ، وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا » . ثم قال : « اللهمَّ تقبّل نفسي في رضاك ، واجعلِ الجهادَ رحمتي ، ودار كرامتي عندك »[٣].

سار عقبة في عسكر عظيم حتى انتهىٰ إلى مدينة « باغاية » ، لا يُدافعه أحدٌ ، والرومُ يهربون في طريقه يمينًا وشمالًا ، فحاصرها ، وقد اجتمعوا بها ، وقاتلهم قتالًا شديدًا ، فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلًا ذريعًا ، وغنَم منهم مغانم كثيرة ، واحتمىٰ المنهزمون داخل أسوار المدينة ، فَكَرِهَ المُقَام عليهم[٤].

---

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٢٤٠ ، وتاريخ ابن عساكر ، وطبقات علماء إفريقية ٨ ، وحسن المحاضرة ٢ / ٢٢٠ - ٢٢١ .
(٢) ابن الأثير ٤ / ٤٢ .
(٣) رياض النفوس ١ / ٢٢ - ٢٣ .
(٤) ابن الأثير ٤ / ٤٢ .

ورحل عقبة إلى « تلمسان » ، وهي من أعظم مدائنهم ، فانضمَّ إليها مَنْ حَوْلَهَا من الروم والبربر ، فخرجوا إليه في جيشٍ ضخم لَجِبٍ ، والتحم القتال ، ووقع الصبر ، حتى ظنَّ المسلمون أنه الفناء ، ولكنهم هاجموا الروم هُجُومًا عنيفًا ، حتى ألجئوهم إلى حصونهم ، فقاتلوهم إلى أبوابها ، وأصابوا منهم غنائم كثيرة .

وسار عقبة إلى بلاد « الزاب » ، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب ، فقيل له : « أَرَبة » ، وهي دار مِلكهم ، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية ، كلّها عامرة ، فامتنع بها مَن هناك من الروم والنصارىٰ ، وهرب بعضهم إلى الجبال ، فاقتتل المسلمون وَمَنْ بالمدينة من النصارىٰ ، ثم انهزم النصارى ، وقُتل كثير من فرسانهم(١) .

ورحل عقبة إلى « تاهرت » ، فاستغاث الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة في الناس خطيبًا ، فحمِد الله وأثنىٰ عليه ، وقال : « أيُّها الناس ، إنَّ أشرافكم وخياركم - الذين رضي الله تعالىٰ عنهم ، وأنزل فيهم كتابه - بايعوا رسول الله ﷺ بيعةَ الرضْوان على مَن كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة ، باعُوا أنفسَهم من رب العالمين بجنَّته بيعةً رابحةً ، وأنتم اليوم في دار غُربة ، وإنما بايعتم ربَّ العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبًا لرضاه وإعزازًا لدينه ، فأبشروا ؛ فكلّما كثر العدوّ كان أخزىٰ لهم وأذلَّ ، إن شاء الله تعالى ، وربُّكم عزّ وجلّ لا يُسْلِمُكم ، فالقُوهم بقلوبٍ صادقة ؛ فإنّ الله عز وجل جعلكم بأسَهُ الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين » . فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدوّ ، ولكنهم انتصروا أخيرًا ، فانهزمَت الروم

---

(١) ابن الأثير ٤ / ٤٢ .

والبربر ، وأخذهم السيف ، وكثُر فيهم القتْل ، وغَنِمَ المسلمون أموالهم وسلاحهم[(١)] .

وسار عقبة حتى نزل طنجة ، فلقيه بِطْرِيقٌ من الروم اسمُه « يليان » ، فنزل على حُكْمه ، وأراد عُقبة فتح الأندلس ، فقال له « يليانُ » : « أتترك كُفّار البربر وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ، ويقطع البحر بيْنك وبين المدد ؟! » . فقال عقبة : « وأين كفار البربر ؟ » . فقال : « في بلاد « السوس » ، وهم أهل نجدة وبأس » . فقال عقبة : « وما دينهم ؟ » . فقال : « ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حقٌّ ، وإنما هُم كالبهائم » . وكانوا على دين المجوسية يومئذٍ . فتوجّه عقبة ، فنزل على مدينة « وَلِيْلى » بإزاء جبل « زرهون » ، وهي يومئذٍ من أكبر مُدن المغرب ، وهي المسمَّاة اليوم : « قصر فرعون » ، فافتتحها عقبة وغَنِمَ وَسَبَى .

وانتهى عقبةُ إلى « السوس الأدنى » ، وهو مغرب طنجة ، فقاتل جموعَ البربر الكثيرة ، وقتل منهم قتْلًا ذريعًا ، وبعث خيله في كل مكانٍ هربوا إليه ، ثم سار حتى وصل إلى « السوس الأقصى » ، وقد اجتمعَ له البربر في عالم لا يُحصى ، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم ، وسار عقبة حتى وصل إلى « مالبان » - أقصى بلاد المغرب - ورأى البحر المحيط ، فقال : « يا رب ، لولا هذا البحر لمضيْتُ في البلاد مجاهدًا في سبيلك »[(٢)] . ثم قال : « اللهمَّ اشهدْ ؛ إني قد بلغتُ المجهود ، ولولا هذا البحرُ لمضيْتُ في البلاد أقاتل من كفر بك ، حتى لا يُعبد أحدٌ دونك »[(٣)] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤ / ٤٢ .
(٢) الكامل لابن الأثير (٣ / ٤٢ - ٤٣) .
(٣) رياض النفوس ١ / ٢٥ .

لله دَرُّ عُقبة وهو يتنقَّل مِن نصرٍ إلى نصرٍ ناشرًا الإسلام ، حتىٰ وصل إلى بلاد « أسَفى »[١] على المحيط الأطلسي ، وأدخل قوائم فرسه في البحر المحيط ، ووقف ساعةً ، ثم قال لأصحابه : « ارفعُوا أيديَكم » . ففعلوا ، فقال : « اللهمَّ إني لم أخرجْ بطرًا ولا أشرًا ، وإنك لَتعلمُ أنّما نطلب السببَ الذي طلبه عبدُك ذو القرنَيْن ، وهو أنْ تُعْبَدَ ولا يُشرك بك شيءٌ ، اللهمَّ إنا معاندون لدينِ الكفر ، ومدافعون عن دين الإسلام ، فكنْ لنا ولا تكن علينا ، يا ذَا الجلال والإكرام » . ثم انصرف راجعًا[٢]. وبعد ذلك سقط البطل شهيدًا في « تهوذة » ، على يد البربر .

لله دَرُّك يا عقبة !! كانت فتوحاتك مَدْعاة للفخر والاعتزاز ، وهي من الناحية العسكرية تستحقُّ كلّ التقدير والإكْبار ؛ لقد انطلق عقبة بكلّ حماسةٍ لتحقيق آماله وأمانيه في فتح إفريقية ، من القيروان حتى المحيط الأطلسي ، وأنجز ذلك في وقتٍ قد لا يصدِّقه العقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحْتة ، ولكنّ هذا هو الذي حدَث فعلًا .

تُرىٰ ، هل يذكر التاريخ عقبة الفاتح الذي أذلَّ ملوك « ودان » و« جرمة » و« فزان » وأدّبهم ؟! أمْ سيذكر التاريخ مَأْفُون الصحراء صاحبَ « الكتاب الأخضر » ؟! وأيُّ ذلٍّ لم نعرفه علىٰ أيدي هؤلاء العبيد ؟!

مُطَأْطَأَ الرأسِ ظلَّ السيفُ يسبقني … وطعنةُ الغدْرِ .. يا للموتِ .. تُلهينا
وأنَّةُ الأرضِ تَبكي في سلاسِلِهَا … والقُدسُ في كَرْبِهِ يدعو المُعزِّينَا
وطارقُ البطْشِ يغدُو في منازِلنا … وفزْعَةُ الموتِ لمْ تَستَبْقِ لي دِينا
والمئذناتُ التي كمْ هبّ ثائِرُهَا … غَابَ الأذانُ بِهَا يا وَيحَ نَادِينَا

(١) بلدة على شاطئ البحر المحيط بأقصىٰ المغرب .
(٢) الاستقصا (١ / ٧٤) .

وأمَّـةُ البَعْـثِ بالأعتـابِ جاثِيَةٌ ... تُقَبِّلُ الأرضَ والأحلامُ تَطْوينا
وصوّحَ العُشبُ والمرعىٰ غَدَا لَهَبًا ... نمشي على جَمْرَةٍ ذلًّا وَتَهْوينا
« اللهُ أكبرُ » كانَ الكونُ يَسمعُهَا ... فيتَّقي بأسَ مَـن قـالوا ويُعْلينا
كَانَ الضُّحَىٰ ماجدًا والأرضُ مَرْحَمَة ... والمُنْتَدَىٰ والنّدىٰ يبكي رَيَاحِينَا
نتلُو على الدهرِ ما تُمْلِيهِ عِزَّتُنَا ... ويسمعُ الكونُ ما يتلُوه رَاوِينَا
« الرعْدُ » في بعْثِنا و« النصرُ » مَوْعِدُنَا ... و« الفجرُ » و« الشمسُ » و« الإسراءُ » حَادِينَا
حَتَّى كَبَتْ خيلُنا في الشوْطِ وانطفأتْ ... مَشَاعِلُ القومِ وانكبّتْ نواصِينا
والمسلمونَ انطوَوْا في الأرضِ وانكسرُوا ... واتَّخمُوا بِطنةً واستطعموا طينا
وبَاحَةُ البيتِ ناحتْ عَلَّ فَارِسَهَا ... لهُ عيونٌ ترىٰ مَنْ جاءَ يُفْنِينا
لكنَّهُ الليلُ أغفىٰ في كَلاكِلِهِ ... وومضَةُ النَّجمِ أغفتْ من غَواشِينا
وغصَّةُ الحزْنِ في الأحشاءِ واحدةٌ ... إنَّ المصائبَ يَجمَعْن المُصَابينا
نَمـدُّ كفًّا بِهَـا للذلِّ مَسْغَبَـةٌ ... وَنُغْمِضُ العَيْنَ شُحًّا مِن تَدَنِّينا
وَنَعْلُكُ البُؤْسَ ممَّا شاءَ راجِمُنَا ... ونشربُ اليأسَ من إبْريقِ سَاقِينَا
وَنُرْسِلُ السَّهْمَ مِن أفياءِ راقصةٍ ... ونُمطرُ العينَ دَمعًا مِن تشاكِينا
ونشربُ الموتَ صَابًا مِن عَلالَتِهِ ... بِئْسَ الشرابُ الذي قد ساءَ غِسْلِينَا
وَنَقْرَعُ الكأسَ تِلوَ الكأسِ في سَفَهٍ ... ونَفتحُ الأرضَ وَهْمًا صارَ يَطْوِينَا
ورَايةُ الحقِّ تَبكي أهلَ نُصْرَتِهَا ... فليسَ في أرضِنَا مَن يَرتجي حِينَا
وأصبحَ القِرْدُ والخنزيرُ يَحكُمُنا ... وارْتجَّ في حَلْقِهِ دَمْعُ المُواسِينا
غُبَارُ خَيْلِ الوَغَىٰ تشتاقهُ رِئتي ... ومقْبَضُ السيفِ يَبكي مِن تجافينا
هـلْ ينـبري فـارسٌ للهِ يَبْعَثُـهُ ... يُحْيي قلوبًا عَتَتْ عَنْ أمْرِ بارِينا
وَيَبْعَثُ الطُّهْرَ نُورًا في أجنَّتِهَا ... ويقتفـي راشـدًا دَرْبَ النَّبِيِّينـا

* * *

موسىٰ بنُ نُصير فاتحُ المغرب الأقصىٰ والأندلس :

« أَمَا واللهِ لو انقادُوا إليَّ لَقُدْتُهم إلى رُوميَّة » ... [موسىٰ بن نصير]

الأمير الكبير أبو عبد الرحمٰن فاتح الأندلس .

استعاد موسى فتح المغرب الأوسط ، وبدأ باستعادة جبل « زغوان » وما حوله ، واستعاد فتح زغوان وسبَىٰ منهم ، ووجّه ابنَه عبد الله بن موسىٰ إلى نواحي إفريقية ، فأتى بمائة ألفٍ من السَّبْي ، ثم وجَّه ابنه مروان فأتىٰ بمثلها ، وبعث ابن أخيه فسبىٰ أيضًا مائة ألفٍ ، فكان الخمس يومئذ ستين ألفًا ، واستطاع موسىٰ القضاء علىٰ جيُوب المقاومة في إفريقية ، واستطاع إخضاع قبائل البربر .

أرسل موسىٰ ألف فارس إلى « هوارة » و« زناتة » ، من قبائل البربر ، فأغاروا عليهم وقتلوا منهم وسبوا ، وصالحهم المسلمون ، وصالحتْه أيضًا قبيلةُ « كتامة » .

وأغار موسىٰ بأربعة آلافٍ من أهل الديوان ، وألفين من المتطوِّعة ومن قبائل البربر ، على « صنهاجة » من البربر ، وهم لا يشعرون ، فقتلهم قتْل الفناء في وادي « مَلْوِية » .

وغزا موسىٰ « سجومة » - في المغرب الأوسط - في عشرة آلافٍ ، واقتتلوا اقتتالًا شديدًا في جبل شديد ، لا يصل إليهم إلا من أبواب معلومة ، واستمر القتالُ ثلاثة أيامٍ ، وانهزم أهل سجومة ، ففتح المدينة وقتل ملوكها ، وأمر أولاد عُقبة بن نافع أن يأخذوا حقَّهم من قاتِل أبيهم ، فقتلوا مِن أهل « سجومة » ستمائة من كبارهم ، ثم قال لهم موسىٰ : « كُفُّوا » . وتتبع موسىٰ قبائل البربر فتبدَّدتِ القبائل أمامه ، فتتبَّعها عبْر « السوس الأدنىٰ » حتىٰ بلاد « سجلماسة » ووادي « درعة » . وسيّر ابنه مروان إلى « السوس

الأقصىٰ » وسيّر قائده زرعة بن أبي مدرك إلى بربر « مصمودة » ، في أطلس العليا ، ونجحت الحملتانِ ، وتأكَّد انتشار الإسلام في بلاد المَصَامِدة ، الذين دخلوا فيه طَوْعًا . واستعاد موسىٰ فتح مدينة « مجانة » التي فتحها من قَبْلُ بُسْر بن أبي أرطاة .

فَتْح طنْجَة :

خرج موسىٰ من القيروان لفتح طنجة ، وجعل على مقدِّمته مولاه طارق ابن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة « طنجة » ، وهي قصبة الولاية وأُمُّ مدائنهم ، فلما دنا من طنجة بثَّ السرايا ، وانتهتْ خيلهُ إلى السوس الأدنىٰ ، فوطئهم وسباهم ، وحاصر طنجة حتىٰ افتتحها ونزلها ، وهو أولُ مَن نزلها ، واختطَّ فيها للمسلمين ، فأسلم أهلها ، واستعمل موسىٰ على أهلها مولاه طارق بن زياد ، وترك عنده تسعة عشر ألفًا من البربر الذين حَسُنَ إسلامهم بالأسلحة والعُدَّة الكاملة ، وترك موسىٰ عندهم خَلْقًا من العرب ، ليُعلِّموا البربر القرآن . وبهذا تم فتْح ولاية طنجة التي كانت تتَّسع في القديم لمسيرة شهرٍ ، وليس المدينة فقط .

وبعد قتالٍ شديد ترك موسىٰ بن نصير « سبتة » ، ثم بعد ذلك عَرَض عليه أميرُها « يوليان » تسليم سبتة ، ودعاه إلى فتح أسبانيا .

لقد فتح موسىٰ بلاد المغرب ، وغنم منها أموالًا لا تعدُّ ولا تُوصف ، وله بها مقاماتٌ مشهورة هائلة[1] ، وأسلم على يديْه أهل المغرب ، وبثَّ فيهم الدينَ والقرآن .



(١) البداية والنهاية ٩ / ١٧١ .

جهادُه في البحر :

ولي غزو البحر لمعاوية ، وعقد موسىٰ لابنه عبد الله بن موسىٰ لواءَ غزوة الأشراف ، وسار عبد الله في المراكب إلى صقليّة ، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غُزِيت في بحر إفريقية « البحر الأبيض المتوسط » ، وافتتح عبد الله مدينة في صقلية ، وبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهبًا ، وكان عدد المسلمين ما بين الألف إلى التسعمائة .

وبعث موسىٰ عيَّاش بن أخيل على مراكب فَشَتَا في البحر ، وأصاب مدينة « سرقوسة » .

وبعث موسىٰ عبد الله بن مرّة إلى « سردانية » في بحر إفريقية فأصابها ، وافتتح مدائنها ، وبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأسٍ ، سوىٰ الذهب والفضة .

وجهَّز موسىٰ ولده عبد الله ، فافتتح جزيرتي « ميورقة » و« منورقة » .

فتْح الأندلس :

كان موسىٰ يتُوق إلى فتح الأندلس ، وبعث موسىٰ رجلًا من البربر – يسمَّىٰ « طريفًا » – في مائة فارسٍ وأربعمائة راجلٍ ، فجاز في أربعة مراكب ، حتىٰ نزل ساحل الأندلس في جزيرة « طريف » وأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء ، وأصاب سَبْيًا ومالًا كثيرًا ورجع سالمًا في سنة إحدىٰ وتسعين هجرية .

وبادَرَ طارق بن زياد مولىٰ موسىٰ بن نصير ، فافتتح الأندلس ، ولحقه موسىٰ لمّا استغاث به طارق ، ولقيه في « طلبيرة » ، على مقربةٍ من « طُليطلة » ؛ عبرَ موسىٰ إلىٰ الأندلس على رأس جيشٍ قوامُه : ثمانية عشر ألفًا ، من قريشٍ والعرب ووجوه الناس ، ودخل الجزيرة الخضراء ، فلما عزم على المسير ،

جمع حوله راياتِ العرب ووجوه الكتائب ، وعددُها يزيد على عشرين راية ، وتفاوض الجميع في الرأي ، وكيف تكون الخطة للفتح ، فأجمعوا على السير إلى « إشبيلية » ، وغزْو ما بقي من غرب الأندلس حتى « أكشونية ».

زحف موسىٰ إلى « شذونة » فافتتحها عَنوةً ، ثم سار إلى « قرمونة » ، ولم يكن بالأندلس أحصن منها ، فدخلها المسلمون عَنوة ، وسار إلى « رعواق » - المعروفة بقلعة « جابو » - فافتتحها . وبهذا أُمِّنتْ خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى « قرطبة » .

لقد كان ترصينُ قواعد الفتح المتقدمة ، وتأمينُ خطوط مواصلات الفتح ، وحمايةُ الجانب الغربي لمنطقة فَتْح طارق - الأهدافَ الحيويةَ الأولى التي حقّقها موسىٰ بعد إنزال قواته الأندلس .

وفتح موسىٰ أشبيلية - وكانت من أعظم قواعد الأندلس - بعد أن حاصرها حصارًا شديدًا ، وبعد أن امتنعتْ عليه أشهرًا .

وفتح « ماردة » بعد أن حاصرها حصارًا شديدًا ، وبعد كثرة قتْلٍ في المسلمين ، على أن تكون أموال القتلىٰ ، وأموالُ الهاربين ، وأموال الكنائس ، وحُليُّها للمسلمين . ولما ثار عَجَمُ إشبيلية على الحامية التي بها ، وجّه موسىٰ ابنه عبد العزيز فاستردَّها ثانيةً ، بعد أن فتحها وقتلَ أهلها ، ونهضَ إلى « لبلة » ففتحها أيضًا .

التقىٰ موسىٰ بطارق بن زياد في موضعٍ يقال له : « تايد » أو « تاتير » ، وخرج طارق مُعظِّمًا له ، ونزل بين يديْه ، فعاتبه موسىٰ على مخالفته لرأيه في تسرُّعه باقتحام الأندلس من الوسط ، فاعتذر إليه طارق ، وقال : « إنما أنا مولاك ، وقائدٌ من قوّادك ، ما فتحته وأصبته إنما هو منسوب إليك » . والتقىٰ موسىٰ وطارق بـ « لذريق » ، عند بلدة « تمامس » ،

وهزم القُوط هزيمة نكْرَاءَ ، ولقي لذريقُ ملك الأندلس حتفَه على يد مروان ابن نصير .

وفُتحت طليطلة ثانيةً على يد موسىٰ ، بعد نقْضهم طاعة المسلمين ، ودخلها موسىٰ دخول المظفّر ، وسلّم طارق إلى موسىٰ الكنوزَ التي غنمَها من الكنائس .

وبعث موسىٰ برسولَيْن إلى الوليد بن عبدالملك يُنْهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختيارُه على التابعيّ الجليل عليّ بن رباح ومغيث الرومي ، فقال علي بن رباح للوليد : « يا أمير المؤمنين ، تركت موسىٰ ابن نصير في الأندلس ، وقد أظهره الله ونصره ، وفتَح على يديه ما لم يُفتح على يد أحد » . ثم دفع الكتاب إلى الوليد ، فقرأه الوليد ، فلمّا أتىٰ علىٰ آخره خرّ ساجدًا .

نعم .. لقد غَنِمَ المسلمون مِن كنوز « طليطلة » الزاخرة التي وجدوها في قصور « القُوط » – في كنيسة « طليطلة » الكبيرة بوجهٍ خاص – ما لا يخطر على بالٍ ، وأسْهبُوا في وصفها ، وسمّوها مائدة سليمان بن داود ، وهي التي حقَّق ابنُ حبان أنها كانت المذبحَ الكنسي ، وكان دُرَّةً من الدُّرر ، مُحلًّى بأثمنِ ما لدىٰ القوط من الذهب الخالص ، وطار الذكرُ مَطارَه عنها ، وكانت مرصَّعةً بفاخر الدُّر والياقوت والزُّمُرد ، لم تَرَ الأعين مثلَها .

فتْح شمالِ الأندلس :

عزم موسىٰ علىٰ متابعة الفتح شمالًا ، لإكمال فتح شبْه جزيرة الأندلس ، ففتح المدينة البيضاء « سرقسطة » ، بعد رعب أهلها منه ، وبعدها فتح « وشقة » و« لاردة » و« طركونة » ، وحين أوْغل موسىٰ وجاوز « سرقسطة » اشتدَّ

ذلك على الناس ، وقالوا : « أين تذهب بنا ؟! حَسْبُنَا ما في أيدينا » . وقال التابعي الجليل « حنش بن عبد الله الصنعاني » : « أيها الأمير ، أين تذهب ؟! تريد أن تخرج من الدنيا ؟! أَوَتلتمس أكثر مما آتاك الله عز وجل ، وأعْرَضَ ممّا فتح الله عليك ودوّخ لك ؟! إني سمعتُ من الناس ما لم تسمع ، وقد مَلئوا أيديَهم وأحبُّوا الدَّعَة » . فقال موسىٰ : « أما واللهِ لو انقادوا إلَّي لقدتُهم إلى روميّة – روما – ثم يفتحها الله علىٰ يديَّ ، إن شاء الله » . واستطاع موسىٰ بعد ذلك أن يُعيد إلى الجنود نشاطَهم وحماستهم للفتح ، وفتحَ « سرقسطة » ، و« قشتالة » ، وحصن « بارو » ، واخترق باب « تارنا » ، وسار متابعًا مجرىٰ نُهَيْر « النالون » ، ثم حَطَّ رِحاله عند قلعة « لُك بأشتوريش » غيرَ بعيدٍ عن « أبيط » ، وما زال بها حتىٰ فتحها ، ثم سار بنفسه حتىٰ بلغ « خيخون » ، وبعث سرية من فرسانه ، أدركت البحر عند صخرة « بلاي » على البحر الأخضر ، فطاعتِ الأعاجم ، ولاذوا بالسَّلْم وبذْل الجزية . وهكذا وصلتْ جيوش موسىٰ حتىٰ البحر المحيط ، واطمأنَّ إلى أنه فتَحَ شبهَ الجزيرة كلها .

وهناك بعض المؤرِّخين يذكرون أنّ موسىٰ بن نصير بعث سراياه إلى « قطالونة » ، فَفَتَحَـتْ « برشلونة » ، ومِـن هناك اخترقتْ جبال البرتات « البرانس » ، وتوغّلتْ في بلاد « غالة » فاستولت على « أربونة »[1] ، وحصن « لودون » بوادي « نهر الرون » ، ووصلت إلى « قرقشونة » بجنوب فرنسا ، كما ذكر المَقَّري[2] . وفتح عبد العزيز بن موسىٰ ما بقي من مدائن الأندلس ، واستكمل فتْح غرب الأندلس « البرتغال » حاليًا .

---

(١) مدينة في الساحل الفرنسي الجنوبي .
(٢) في كتابه : « نَفحُ الطِّيب » ١ / ٢٦٠ .

لله دَرُّ فاتحنا العظيم !! سيسجِّل التاريخ بكلِّ الإكبار فتوحاتِ موسىٰ ابن نصير ، التي وصفها هو نفسه وهَالَتْه ، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك : « إنها ليست الفتوح ، ولكنَّها الحشر »(١).

رجع موسىٰ إلى المغرب وهو راكب على بغله « كوكب » وهو يجرُّ الدنيا بين يديْه ، أمر بالعَجَلِ تجرّ أوْقارَ الذهب والحرير ، وأخذ معه مائة من كُبَراء البربر ، ومائة وعشرين من الملوك وأولادهم ، فقدِم مصر في هيئة ما سمع به .. ووصل إلى دمشق ، وأهانه سليمان الخليفة ، وآثَرَ البطلُ رضا اللهِ ولم يَرَ الخروج ؛ قال رحمه الله : « واللهِ لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي طرفًا ، ولكني آثرت الله ورسوله ، ولم نَرَ الخروج عن الطاعة والجماعة » .

لله دَرُّه مِن عظيم .. يُظهر حلْمَه وعظمته وقد أدخلوه على الخليفة سليمان ، ورأْس ابنه عبد العزيز بن موسىٰ بين يديْه ، فقال له : « أتعرف هذا الرأس يا موسىٰ ؟ » قال : « نعم ، هذا رأْس عبد العزيز بن موسىٰ بين يديك يا أمير المؤمنين ، فرحمةُ الله تعالى عليه ؛ فَلَعَمْرُ اللهِ ما علمتُه نهارَه إلَّا صوّامًا ، وليلَه إلَّا قوّامًا ، شديدَ الرأفة بمن وليه من المسلمين ... هنيئًا له بالشهادة ، قتلتم - واللهِ - صوّامًا قوّامًا »(٢).

وهذا موقفٌ بطوليٌّ آخر لموسىٰ لا يقلُّ روعةً عن مواقفه الأخرىٰ في الفتوح ، وهو موقف الصابر المحتسب ، الذي يصدَعُ بالحقّ غيرَ وَجلٍ ولا هيَّابٍ . قال له الخليفة سليمانُ : « ما الذي كنتَ تفزع إليه في مكان حربك من أمور عدوِّك ؟ » . قال : « التوكُّل والدعاء إلى الله ، يا أمير

(١) نفْح الطيب ١ / ٢٦٦ .
(٢) البيان المغرب ٢ / ٣٢ .

المؤمنين » . قال له سليمان : « هل كنتَ تمتنع في الحصون والخنادق ، أو كنتَ تخندق حولك ؟ » . قال : « كلّ هذا لم أفعلْه » . قال : « فما كنت تفعل ؟ » قال : « كنت أنزل السَّهْل ، واستشعر الخوف والصبر ، وأتحصَّن بالسيف والمِغفر ، وأستعين بالله وأرغب إليه في النصر » . قال له سليمان : « أيُّ الأمم أشدُّ قتالًا ؟ » . قال : « هم أكثر من أن أصف » . قال : « فأخبرني عن الروم » . قال : « أُسدٌ في حصونهم ، عِقبان علىٰ خيولهم ، نساءٌ في مراكبهم ، إنْ رأوا فرصةً انتهزوها ، وإنْ رأَوْا غَلَبَةً ، فأوعالٌ تذهب في الجبال ، لا يَرَوْنَ الهزيمة عارًا » .

وقال رحمه الله : « والله ما هُزِمَتْ لي رايةٌ قطُّ ، ولا بُدِّد لي جمع ، ولا نُكِبَ المسلمون معي ، منذ اقتحمتُ الأربعين إلى أن بلغت الثمانين ، ولقد بعثتُ إلى الوليد بتورٍ[1] زبرجد ، كان يجعل فيه اللبن حتى تُرىٰ فيه الشَّعرة البيضاء ... ». ثم أخذ يُعدّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد ، حتىٰ تحيّر سليمانُ .

وقال مرةً : « يا أمير المؤمنين ، لقد كانت الألفُ شاةٍ تباع بمائة درهم ، وتباع الناقةُ بعشرة دراهم ، وتمرُّ الناسُ بالبقر ، فلا يلتفتون إليها ، ولقد رأيت العِلْجَ الشاطر وزوجتَه وأولادَه يُباعون بخمسين درهمًا »[2].

لله دَرُّ موسىٰ :

النصـرُ يقـدُمُهُ والحَـزْمُ سائِقُهُ   عفُّ الخلائِقِ ماضٍ غيرُ وسنانِ
الحـقُّ نِسْـبَتُهُ والعـدلُ سِيرتُهُ   جَزْلُ المواهبِ مُعْطٍ غيرُ منّانِ

دخـل مرةً على الخليفة سليمان ، فلمّا رآه سليمان قال : « ذهـبَ

---

(١) إناء .
(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٩٩ - ٥٠٠ .

سلطان الشيخ » . فقال له موسىٰ : « أما واللهِ لَئِنْ ذَهَبَ سلطانُ الشيخ ، لقد أثّر الله به في دينه أثرًا حسنًا ، ولقد كنتُ طويلَ الجهاد في الله ، حريصًا على إظهار دين الله حتىٰ أظهره الله ، وكنتُ ممَّن أتمّ الله به موعده لنبيّه ، ولئن أدبر معك ، لقد كان مع آبائك ناضرَ الغصن ميمونَ الطائر » .

نعم واللهِ ؛ لقد نشر الإسلام ، وكان طويل الجهاد ، فتكلّل جهادُهُ بثمرات يانعة من الفتح الضخم ، الذي يضعه في مصافِّ أعظم الفاتحين وأكبر المجاهدين ، ولا غروَ أنْ قال له سليمان بعد ذلك – لما أراد غزو الروم – : « أَشِرْ عليّ يا موسىٰ ؛ فلم تزلْ مُبارَكَ الغزوة في سبيل الله ، بعيدَ الأثر ، طويلَ الجهاد » .

رحم الله موسىٰ بن نصير ، فكمْ كان وَرِعًا تقيًّا ، يحبُّه عمر بن عبد العزيز كلَّ الحُبِّ ، لتقواه وعطائه .

قال جعفر بن الأشتر : « كنتُ فيمن غزا الأندلس مع موسىٰ ، فحاصرْنا حِصنًا من حصونها عظيمًا ، بضعًا وعشرين ليلةً ، ثم لمْ نقدر عليه ، فلمّا طال ذلك عليه ، نادىٰ فينا : « أن أصبحوا على تعْبئةٍ ». وظننَّا أنه قد بلغَه مادّةٌ من العدو ، وقد دَنَتْ مِنَّا ، وأنه يريد التحوُّل عنهم ، فأصبحنا على تعبئةٍ ، فقام فحمِد الله ، ثم قال : « أيُّها الناس ، إني متقدِّم أمام الصفوف ، فإذا رأيتموني قد كبّرتُ وحملت ، فكبّروا واحمِلُوا » . فقال الناس : « سبحان الله ! أترىٰ فقد عقله ، أم عزبَ عنه رأيُه ؟ يأمرنا نحمل على الحجارة وما لا سبيلَ إليه ؟! » . فتقدم بين يدَي الصفوف حيث يراه الناس ، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة ، فأطال ونحن رُكُوب ، منتظرون تكبيرَه ، فاستعددنا ، ثم إنّ موسىٰ كبّر وكبّر الناسُ ، وحمَل وحمل الناسُ »[١].

(١) الإمامة والسياسة ٢ / ٧٩ .

قال الذهبي في السير (٤ / ٤٩٧) : « عمل مع الروم مُصافًا مشهودًا ، ولمّا هَمَّ المسلمون بالهزيمة ، كشف موسىٰ سرادقه عن بناته وحُرَمِه ، وبرز ورفع يديْه بالدعاء والتضرُّع والبكاء ، فكُسرت بين يديه جفونُ السيوف ، وصدقوا اللقاء ، ونزل النصر ، وغَنِموا ما لا يُعبّر عنه » .

« ولما دخل موسىٰ إفريقية ، وجد غَالِبَ مدائنها خالية ، لاختلاف أيدي البربر ، وكان فأمر الناس بالصلاة والصوم والصلاح ، وبرز بهم إلىٰ الصحراء ، ومعه سائر الحيوانات ، ففرّق بينها وبين أولادها ، فوقع البكاء والضجيج ، وبقي إلى الظُّهر ، ثم صلّى وخطب ، فما ذَكَرَ الوليدَ ، فقيل له : « ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ ». فقالوا : « هذا مقامٌ لا يُدعىٰ فيه إلا الله » . فسُقُوا وأُغِيثوا »[١].

لله دَرُّه من قائدٍ تقيٍّ وليّ ! بمثله تنتصر الجيوش .. لا كغيره من قواد الهزيمة :

وَشِسْعُ النَّعْلِ مِن موسىٰ الوليِّ يفـوقُ الهَـامَ منهمْ والجَبِينـا

لله دَرُّ القائد موسىٰ بن نصير !! أيّ همةٍ همتُه ؟!

إني أراكَ من المكارمِ عَسْكَرًا في عسْكرٍ وَمِنَ المعالي مَعَادِنَا

نعم يا سيدي :

أَكَلَتْ مَفَاخِرُكَ المفَاخِرَ وانثَنَتْ عَنْ شأْوِهِنَّ مَطِيُّ وَصْفي ظُلَّعَا[٢]
وَجَرَيْنَ جَرْيَ الشمسِ في أفلاكِهَا فقطعْنَ مغربَهَا وجُزْنَ المَطْلَعَا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٩٨ ، ابن الأثير ٤ / ٢٠٦ ، وفيات الأعيان ٤ / ٤٠٣ .

(٢) الشأو : الغاية ، وظُلّعًا : تمشي كأنَّ بها عَرجًا .

لَوْ نِيطَتِ الدنيا بأخرىٰ مِثْلِهَا لَعَمَمْنَهَا وخشِيْنَ أنْ لا تَقْنَعَا

نعم يا سيدي :

لوِ استفرغْتَ جُهْدَكَ في قتالٍ أتيتَ بهِ على الدنيا جَميعًا
قَدِ استقصَيْتَ في سَلَبِ الأعادي فُردّ لهمْ من السلَبِ الهجُوعَا
إذا ما لمْ تُسِرْ جيشًا إليهمْ أسَرْتَ إلى قلوبهمُ الهُلُوعَا
سَمَوْتَ بهمَّةٍ تسمو فتسمُو فما تُلْفَىٰ بمرتبةٍ قَنُوعَا
وَهَبْكَ سمَحْتَ حتىٰ لا جوادٌ فكيفَ عَلَوتَ حتىٰ لا رفيعَا

لله دَرُّه ! كيف كان طموحه أنْ يقود رجاله إلى « روميّة » ليفتحها ؟! وكيف كان طموحه يذهب به إلى مدًى أبعد من ذلك ، فيقود رجالَه مخترقًا ما بين الأندلس والقسطنطينية ، فاتحًا ما بينهما من أوربا ؟ فقد « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام دروبَه ودروبَ الأندلس ، ويخوض إليه ما بينهما من أُمَم الأعاجم النصرانية ، مجاهدًا فيهم ، مُستلحمًا لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة ، فنمىٰ الخبرُ إلىٰ الوليد بن عبد الملك ، فاشتدَّ قلقُه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أنَّ ما هَمَّ به موسىٰ غرر بالمسلمين ، فبعث إليه بالانصراف ، ففتّ ذلك في عزْم موسىٰ ، وقفل عن الأندلس »[١].

ومات القائد موسىٰ وأغمض البطلُ عينيْه إلى الأبد ، ولكنّ التاريخ لم يُغمض عينيْه عن مآثره الخالدة ؛ ذلك لأنه « كان قد جمع من خِلالِ الخير ما أعانه الله سبحانه به ، على ما بنىٰ له من المجد المشيّد ، والذكر الشهير المخلَّد ، الذي لا يُبليه الليل والنهار ، ولا يُعَفّي جديدَه بِلَىٰ الأعصار »[٢].

---

(١) نفح الطيب ١ / ٢١٨ .
(٢) نفح الطيب ١ / ٢٦٨ .

وفي واقعنا : رَحَل موسىٰ وبقي مَن يَدّعي إمْرةَ المؤمنين .. وأنه قُرشيٌّ ، مَن جمع حوْله أهلَ الغناءِ .. يُرسل بالطائرة الخاصة تحملُ مطربًا يُحيي له عيدَ موْلده !! ويساهم في إنشاء كازينو الليل ... يا أمير المؤمنين .. ما أنت بالحسَن ، يا قُرشيُّ .. ذهبتْ قريشُ التي نعرفها عطرًا وضياءً ومجدًا ، وخالدًا وعمرًا وعقبة .. وأتتْ قريشُ الأردن وقريشُ المغرب ...!! لسانُ حالِكم يقول :

قُريشيُّون لَكِنّا بغير اللهِ نعتصمُ ... ونسْتذْني كلابَ الأرض في المحرابِ تنتظمُ
فبئرُ النِّفْطِ بدّلنا أعاريبًا مُشَرذَمَةً ... وقبلتُه لَهَا نسعىٰ .. وما بِسِوَاهُ نلْتزمُ
قريشيُّون لكِنّا بنا نَسَبٌ يُدَنِّسُنَا ... « مُسَيلمةٌ » جرىٰ فينا ومِن سبأٍ أتىٰ صنمُ
غَدَا الإسلامُ في يدِنَا بَراميلًا ندحْرِجها ... وظَلَّ البيتُ يلعَنُنَا لأنَّا أُمَّةٌ غَنَمُ
عبدْنا اللهَ لَكِنَّا ... نُحبُّ اللاتَ والعُزَّىٰ ... وأصغَيْنا لِقَوْلِ اللهِ يعلُو سمْعَنَا الصَّمَمُ
حملْنَا الإثمَ والعُدوانَ فوقَ البِرِّ والتَّقْوَىٰ ... تواصيْنا بغيرِ الحقِّ ليسَ يضمُّنَا رَحِمُ
وخاصمْنَا كتابَ اللهِ ألقيْناه ظِهْريّا ... وأصبحْنا وأمسيْنا معَ الظُّلماتِ نرتَطِمُ
ونُذْبَحُ دونما ثمنٍ وَنَفْنَىٰ دونما أثرٍ ... ويلعَنُنَا ترابُ الأرضِ يَحْيَا بيننا العَدَم
تبعثرْنا علىٰ الأيام لا ندري لنا شرفًا ... تلاصقْنَا بوَحْلِ الأرضِ لا يعلو لنا قَدَمُ
وشاهتْ كلُّ باسمةٍ تُلوِّثُ طُهْرَهَا يَدُنَا ... وكأسُ عذابِنَا المنكودُ فوقَ الرأسِ ينْحَطِمُ
خرْجنا من فِجاجِ الأرضِ في حَمَأٍ بِهِ نَتَنٌ ... ودينُ اللهِ في الأنحاءِ لا تسمُو به رِمَمُ
وعدْنا مِن غثاءِ السَّيْلِ يأبىٰ الكلُّ قَصْعَتَنَا ... فليسَ جِفَانُنَا المملوءُ بالأقذارِ يُلتهمُ

يا أمير المؤمنين بالاستسلام لليهود ، وبفتح مُدن المملكة لهم ... يا مَرء القيس في أيامنا :

لجميعِ عَبيد رءوسِ العُرْبِ يُشرّفنا هذا الإعلانْ
« سيقومُ سيادةُ مَرءِ القيسِ تُرافقه زُمْرةُ فرسانْ

سيُيَمِّمُ شطرَ البيتِ الأسودِ يقرعُ أبوابَ الرومانْ
سيُعَرِّج مَرْءُ القيس على صنمٍ يطلبُ منهُ استئذانْ
سيعودُ إلينا مَرْءُ القيسِ ليحملَ شِرعةَ جُوستنيانْ
سيعودُ إلينا مَرْءُ القيسِ يُعَبِّئُ جُعْبَتَهُ الإيمانْ
إيمانٌ بسلامٍ عدلٍ وشمولٍ يملأ كلَّ مكانْ
بسلامٍ يقطع ثدْيَ الثَّكلى كي تنسى ألَمَ التَّمْنانْ
بسلامٍ ينشرُ كأسَ الخمرِ ويفتحُ حانًا للسكران
بسلامٍ يعزفُ للتلمودِ ليخنقَ ترتيلَ القرآنْ »[١]

فاتح الأندلس : طارق بن زياد :

مَوْلى موسى بن نصير ، ولكنْ يعْجز السادةُ عن أن يأتُوا بمعشار فتْحه .

جهّز موسى جيشًا من البربر والعرب ، يبلغ سبعة آلاف مقاتل ، بقيادة طارق بن زياد الليثي ، فعبَر البحر من « سبتة » بجيشه تِباعًا ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة ، التي تسمَّى بجبل طارق .

« وفي « تاريخ ابن بشكوال » أنه لمّا ركب البحر رأى - طارق - وهو نائمٌ النبيَّ ﷺ ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلَّدوا السيوفَ وتنكَّبوا القِسِيّ ، فيقول له رسول الله ﷺ : « يا طارق ، تقدَّمْ لشأنك » . ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدّامه ، فهبّ من نوْمه مستبْشِرًا ، وبشَّر أصحابه ، وثابتْ نفسُه بِبُشْراه ، ولم يشكَّ في الظفر »[٢] .

---

(١) قصيدة : « امرؤ القيس » مِن ديوان : « كيف السبيل » لخالد عبد القادر - طبع : مكتبة المنار .
(٢) نفح الطيب ١ / ٢٣١ .

قال طارق :

رَكِبْنَا سفينًا بالمجازِ مُقَيَّرا ... عسىٰ أنْ يكونَ اللهُ مِنَّا قدِ اشترىٰ
نفوسًا وأموالًا وأهلًا بجنَّةٍ ... إذا ما اشتهيْنا الشيءَ فيها تيسَّرا
وَلَسْنَا نبالي كيفَ سالتْ نفوسُنا ... إذا نحنُ أدركْنا الذي كانَ أجْدَرَا[١]

وتوالت انتصارات طارق ؛ ففتح مدينة « قرطاجنة الجزيرة » ، ثم زحف غربًا واستولىٰ على المنطقة المحيطة بها ، وبعد معاركَ مَحليَّةٍ أكمل المسلمون فتح الجزيرة الخضراء ، وكتب عاملُ « لذريق » - « تُدْميرُ » - إليه : « إنه قد نزل بأرضنا قومٌ ، لا ندري أمِنَ السماء هُم أم مِن الأرض » . فزحف « لذريق » لصدِّ المسلمين في نحو مائةِ ألفٍ ذوي عددٍ وقوةٍ ، وكتب طارق إلى موسىٰ بأنه قد زحف إليه « لذريق » بما لا طاقة له به ، فجهّز له وأمدَّه بخمسة آلاف ، فكملوا بمن تقدَّم اثني عشر ألفًا ، وقام طارق في أصحابه ، فحثَّ المسلمين على الجهاد ورغّبهم فيه ، قائلًا : « أيُّهَا الناس ، أين المفرُّ ؟! البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم واللهِ إلَّا الصدق والصبر » . والتقىٰ الجيشان في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنةَ اثنتين وتسعين الهجرية على وادي « برباط » أو وادي « لكة » ، واستمرّت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام ، وانتهت بهزيمة القوط هزيمةً ساحقة ، وأقامت عظامهم بعد ذلك بدهرٍ طويل مُلْبِسةً لتلك الأرض ، وكانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين ، وأحدث انتصار طارق في وادي « لكة » دويًّا هائلًا في المشرق والمغرب ، وتسامَع الناسُ من أهل « برّ العدوة » بالفتح على طارق بالأندلس ، وسَعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه مِن كلّ وجه ، وخرقوا البحر على كلّ

(١) نفح الطيب ١/ ٢٦٥ .

ما قدروا عليه من مركب وقشر[١] ، فلحقوا بطارق .

وبدأ طارق يَجني ثمارَ جهاده وانتصاره في وادي لكة ، ففتح « شذونة » عَنوة ، ثم مضىٰ إلىٰ « المُدُور » ثم عطف على « قرمونة » ، ثم إشبيلية ، فصالحه أهلها على الجزية ، ومنها زحف إلى « إستجة » وكانت تؤلّف المركز الأول للمقاومة ؛ إذ كانت فلول القوط قد تجمّعتْ هناك ، فظفر طارق بصاحب المدينة ، وأرغمه على الصلح ، وفرَض عليهم الجزية ، وعبَرَ طارقٌ الوادي الكبير ، فدخل طليطلة سنة ثلاث وتسعين ، دون مقاومة تُذكر ، وتغلغل طارق تغلغلًا عميقًا في أنحاء الأندلس ، ولم تقفْ هزيمة القوط على موضعٍ ، بل كانوا يُسلّمون ، بلدًا بلدًا ومَعقلًا مَعْقلًا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب مِن طارقٍ ، لمّا رأوْه يُوغِل في البلاد ، وكانوا يحسبونه راغبًا في المَغْنمِ ، عاملًا على القُفُول ، فَسُقِطَ في أيديهم ، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل .

وعبر موسىٰ إلى مولاه طارق ، ولمّا التقيا قال موسىٰ لطارق : « يا طارق، إنه لن يُجازيَك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثَر من أن يمنحَك الأندلس ، فاستبحْه هنيئًا مريئًا » . فقال له طارق : « أيُّهَا الأمير ، والله لا أرجع عن قصدي هذا ، ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط ، أخوض فيه بفرسي » . يعني : البحر الشمالي ، ولم يزل طارق يفتح وموسىٰ معه إلى أن بلغ « جلّيقية » ، وهي على ساحل البحر المحيط[٢]. اهـ .

يا شَذَا ذكْرِ طارقِ بن زيادٍ ضـوّعتْ مِن عبيرِه العَرَصَاتُ
أنتَ فوقَ الأمواجِ تقدُم جيشًا أولًا عيب تستغــير الفــلاةُ

(١) يُراد به : الزّوْرق الصغير .
(٢) نفح الطيب ١ / ٢٤٢ .

كُلّمـــا دقّ للفتـــوح بطَبْـــلٍ مجّـدَتْ وافـدَ الكمـيّ لُغاتُ
جـاءَ أسبانـيا بِمَقْـدِمِ صِـدْقٍ نُشـرتْ في مسـيرهِ هَبَـواتُ
وإذا ما سمِعتَ للسيفِ قوْلًا فهـوَ حـقٌّ وهـلْ يخونُ الثِّقاتُ
والقنـــاةُ التي بكفِّ شُجـــاعٍ صُـوِّبتْ مِن زنادهـا الطَّلَقـاتُ
وإذَا الكفُّ بالقنـــاةِ جبـــانٌ فَمِنَ العَجْز أنْ تُصيبَ القَناةُ(١)

ونحن يا طارق ، يا قابض الجزية من القوط :

صار ميراثُنا بيد الغرباء
نستقي بعد خيل الأجانب من ماء آبارنا
صُوفَ حِمْلاننا
ليس يلتفُّ إلا على مغْزَلِ الجزية
النار لا تتوهّج بين مضاربنا
بالعيون الخفيضة نستقبل الضيف
أبكارنا ثيّبات .. وأولادنا للفِرَاش
فمَن سيروّضُ مُهْرَ الخِيالْ
ومن سيضمّدُ في آخرِ الصيد جُرْحَ الغزالْ
ومن للرجالْ ؟!
إذا قيلَ : ما نَسَبُ القوم ؟
فانسكبتْ في خدود الرمالْ
دموعُ السؤالْ
أبي ظَامِئٌ يا رجالْ

(١) مِن قصيدة : « سيرة الأبطال » للشيخ عائض القرني صـ ٢٠ - طبع : دار جرش للنشر والتوزيع .

أريقوا له الدمَ كي يرتوي
وصبّوا له جَرعةً في الفؤاد الذي يكتوي
عسىٰ دمه المتسرِّب بين عروقِ النباتات ... بين الرمالْ
يعود له قطرةً قطرةً
فيعود له الزمن المنطوي

يا مدريد :

يا مدريد ... قد جاءك طارق وجئناك ، وعندك الخبر اليقين .. فحدّثي :

أرقتُ وليلي مُذ فُجعتُ طويلُ	أَيُلامُ في حِفْظِ الهوىٰ مَتْبولُ
ما زلتُ أرقُبُ في شذاك أحبّتي	فمتى سَيَشفىٰ يا نسيمُ عَليلُ
أشقاني المحرابُ يسأُل عنهُمُ	مُذْ فارقُوا والمنبرُ المثكولُ
والمصحفُ المطوِيُّ يسأُل عنهُمُ	قدْ شاقهُ الترتيلُ والتأويلُ
مَنْ هؤلاءِ القادمونَ ؟ أَعقبةٌ ؟؟	المجدُ في عزَماتِهِ مَوْصولُ
أمْ طارقٌ تشكُو القواربُ مجدَهُ	والفتحُ فوقَ رِكابهِ مَحمولُ
مَنْ هؤلاءِ القادمونَ جلودُهُمْ	سُمْرٌ ولكنْ في القلوبِ شهُولُ
لمْ يستقلُّوا الصافناتِ وإنَّما	رَكِبُوا بغالًا سَعْيُهُنَّ ثقيلُ
وتجرَّدُوا مِن كلِّ أبيضَ صارِمٍ	للمجدِ فيهِ تلألُؤٌ وصَليلُ
جاءُوا يَسوقهُمُ الأعادي عَنوةً	فهُمُو لهُمْ بينَ الأنامِ ذُيولُ
جاءُوا إلى مدريدَ بئسَ مَجيئهُمْ	لا السعيُ محمودٌ ولا مأْمُولُ
جاءُوا ويا بئسَ المجيء مجيئُهم	حُمُرٌ تُساقُ إلى الردىٰ وعُجولُ
جاءُوا وخلْفَهمُ الكرامةُ تشتكي	أسَفًا وجنْبُ المسلمين ذليلُ

يَـٰأَيُّهَا الأقصىٰ الأبيُّ وقد عَلا فـوْقَ المـآذنِ غاصِـبٌ ودَخِيلُ
يَـٰأَيُّهَا الأقصىٰ الأبيُّ وقد جَثَا فَـوْقَ المنـابرِ خـائنٌ وعميلُ

قُتيْبَةُ بنُ مسلمٍ الباهِليّ ، فاتح خوارزم وبُخارىٰ وسمرقند :

قال الذهبي في السير (٤ / ٥٠١ ، ٤١٠) : « كان لقتيبة بن مسلم بالمشرق فتوحات لم يُسمع بمثلها » .

الأمير أبو حفص ، أحدُ الأبطال والشجعان ، ومِن ذوي الحزْم والدهاءِ ، والرأي والغناء ، وهو الذي فتح خوارزم ، وبخارىٰ ، وسمرقند ، وكانوا قد نقضوا وارتدُّوا ، ثم إنه فتح « فرغانة » وبلاد الترك ، في سنة خمسٍ وتسعين .

أرسل عبد الملك بن مروان إلى الحجّاج بن يوسف : « انظر لي رجلًا صارمًا ، ماضيًا لأمرك » . فسمَّى قتيبةَ بن مسلم ، فكتب إليه : « وَلِّهِ » . فأسند إليه إمارة خراسان ، فتسلّمها سنة خمسٍ وثمانين هجرية .

ولمّا قدِمَ قتيبة خراسان ، جمع الناسَ وحضَّهم على الجهاد ، وقال : « أمّا بعد .. إنّ اللهَ أحلّكم هذا المحلّ لِيعزّ دينه ، ويَذبَّ بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المالَ استفاضةً ، والعدوَّ وَقَمًا[1] ، ووعد نبيَّه ﷺ النصرَ ، بحديث صادق ، وكتابٍ ناطق ، فقال : ﴿ **هُوَ الذي أرسلَ رسولَهُ بالهدَىٰ وَدِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ علىٰ الدِّين كلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشْركونَ** ﴾ [الصف : ٩] ، ووعدَ المجاهدين في سبيلِهِ أحسنَ الثواب ، وأعظم الذُّخْر عنده ، فقال : ﴿ **ذٰلِكَ بأنَّهُمْ لا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمصَةٌ في سبيلِ اللهِ ولا يطئونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكفارَ ولا يَنالُونَ مِنْ عدوٍّ نَيْلًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إنَّ اللهَ**

(١) ذُلًّا .

لا يُضِيعُ أجرَ المُحْسِنِينَ وَلَا يُنفِقُونَ نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعونَ واديًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجزيَهم اللهُ أحسنَ ما كانُوا يعملونَ ﴾ [التوبة : ١٢٠ - ١٢١] ، ثم أخبرَ عمَّن قُتل في سبيله أنه حيٌّ مرزوقٌ ، فقال : ﴿ **ولا تَحسَبَنَّ الذينَ قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتًا بَلْ أحياءٌ عندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ، فتنجّزوا موعودَ ربِّكم ، ووطِّنوا أنفسَكم علىٰ أقصىٰ أثرٍ وأمضىٰ ألمٍ ، وإيايَ والهُوَيْنَىٰ »(١) .

لقد اشتُهر في فتح المشرق كثيرٌ من القادة ، كانوا شُهُبًا أضاءت سماءَ المشرق ، وانفتحت أمام عزيمتِهم أبوابُ الدنيا ، وسقطت دولة بني ساسانَ تحت سنابك جندهم ، وعندما جاء قتيبة ، وجد طابورًا خامسًا ممَّن تمرَّسوا قتالَ المسلمين ، وعرفوا أساليبَ حربهم ، ومع هذا أذلّ أنوفَهم ، وهنا يظهر عُلوُّ همّةِ هذا القائد الذي لا يُبارَىٰ ، ولقد فتح رحمه الله أقاليمَ واسعةً ، تزيد على ما فتحه أسلافه كلهم ، ويزيد الأمرَ أهميةً طبيعةُ الأقاليم الصعبة ، ومناخها القاسي ، وطبيعةُ سكّانها المقاتلين الأشدَّاء ، كما عرَفهم تاريخ الحروب منذ زمنٍ بعيدٍ ، ويَكفي شرفًا لقُتيبة شهادةُ « الأصبهبذ » - ملك الترك - له ، عندما علم بِمَصْرعه ؛ فقد قال لرجالٍ كانوا عنده : « يا معشر العرب ، قتلتم قُتيبة ويزيد(٢) ، وهما سيدا العرب ! » . فقيل له : « فأيُّهما كان أعظم عندكم وأهيب ؟ » . قال : « لو كان قتيبة بالمغرب ، بأقصىٰ جحر به في الأرض ، مكبّلًا بالحديد ، ويزيدُ معنا في بلادنا والٍ علينا ، لَكَانَ قتيبةُ أهيبَ في صدورنا وأعظم مِن يزيد »(٣) .

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٤٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٤ / ١٠٥ .
(٢) يزيد بن المهَلّب بن أبي صفرة ، وكان واليًا على خراسان قبل قتيبة .
(٣) « قتيبة بن مسلم الباهلي » لبسّام العسلي صـ ٧٣ - ٧٤ - دار النفائس .

الفتــوح :

لمّا قَدِمَ قتيبة خراسان سنة خمسٍ وثمانين هجرية ، عَرَضَ الجند في السلاح والكُرّاع ، فكان جميعُ ما أحصَوْا مِن الدروع في جند خُراسان ثلاثمائة وخمسين درعًا ، وبعد أن أتمّ تنظيمه غادر مرو ، واستخلف على حرْبها إياس بن عبد الله بن عمرو ، وعلى الخراج عثمان بن السعدي ، وعندما وصل الجيش إلى نهر «جيحون»- المعروف حاليًا باسم «أموداريا»- توقّف في بلخ[1] ؛ لأن بعضَها كان منتقضًا عليه ، وقد ناصَب المسلمين ، فحارَب أهلَها ، ثم إنّ أهل بلخ صالحوا مِن غدِ اليوم الذي حاربهم قتيبة ، فأمر قتيبة بردٍّ السَّبْي ، ثم مضىٰ إلى « الطالقان »[2] بعد أن استقبل دهاقين بلخ ، وبعض عظمائهم الذين ساروا معه ، فلما قطع نهر جيحون تلقّاه ملك « الصغانيان »[3] بهدايا ومفتاحٍ مِن ذهب ، فدعاه إلى بلاده فأتاه ، وأتىٰ « كفتان » بهدايا وأموال ودعاه إلى بلاده ، فمضىٰ إلى الصغانيان ، وكان ملك « أخْرون » و« شومان » - وهما من طخارستان - قد أساء جوار ملك الصغانيان ، فغزا قتيبةُ أخرون وشومان ، فجاءه ملكُها « غيسلشنان » ، فصالحه على فديةٍ أدّاها إليه ، فقبِلها قتيبة ، ثم قفَل فركِب السفن ، فانحدر إلى بلدة « آمل » ، وخلّف الجند بقيادة أخيه صالح بن مسلم ، وتقدّم قتيبة جندَه فسبقهم إلىٰ مرو ، وفتح صالحُ - وهو في طريقه - مدينة « باسارا » ، ثم تابع طريقه إلى بلخ ، فمرو ، وعندما بلَغ الحجاجَ ذلك ، كتب إلى قتيبة يلُومه ، ويُعجّز رأيَه في تخليف الجند ، وكتب إليه : « إذا غزوتَ فكنْ في مقدمِ الناس ،

---

(١) مدينة بخراسان .

(٢) بلد بخراسان بين « مرو الروذ » و« بلخ » .

(٣) ولاية عظيمة فيما وراء نهر « جيحون » متصلة الأعمال بـ« ترمذ » .

وإذا قفلت فكنْ في أُخْرياتهم وساقتهم » .

أمضىٰ قتيبة عام ٨٦ هـ = ٧٠٥ م في تنفيذ هذه العمليات ، التي كانت بمثابة استطلاعٍ مَيْداني للموقف أكثرَ منها عمليات قتالية ، وعندما رجع إلى مقرِّ عملياته ، ومركزِ إدارته لإقليم خراسان ، انصرف إلى إدارة ولايته ، استعدادًا للمرحلة القتالية التالية ، في سنته القادمة .

غَزْو « بيكند »[1] :

علم قتيبة بوجودِ أسرىٰ للمسلمين في قبضة « نيزك » ملك طرخان ، فكتب إليه طالبًا إطلاق سراح الأسرىٰ ، وتهدّده في كتابه ، فخاف نيزك ، فأطلق الأسرىٰ وبعث بهم إلى قتيبة . فوجّه إليه قتيبةُ مَن يدعوه إلى الصلح ، وإلى أن يُؤَمِّنه ، وكتب إليه كتابًا يحلِفُ فيه بالله لئن لم يقدم عليه لَيغزونَّه ، ثم لَيطلبنَّه حيث كان ، لا يقلع عنه حتى يَظفر به ، أو يموت قبل ذلك ، وتوجَّه سفير قتيبة إلى نيزك والكتاب بيده ، وكان يستنصحه ، فقال نيزك للسفير : « ما أظنُّ عند صاحبك خيرًا ، كتب إليّ كتابًا لا يُكْتَبُ إلىٰ مثلي ! » . فقال له السفير : « يا أبا الهياج ، إنَّ هذا رجلٌ شديد في سلطانه ، سهل إذا سُوهل ، صعبٌ إذا عُوسر ، فلا يمنعك مِن غلظة كتابه إليك ، فما أحسنَ حالَك عنده وعند جميع مضر » . فقدِم نيزك مع السفير على قتيبة ، فصالحه أهل « باذغيس » في سنة ٨٧ هـ = ٧٠٦ م على ألا يدخل باذغيس . وبعد أنْ أمِن قتيبة شرَّ نيزك وصالحه ، أقام إلى وقتِ الغزو ، ثم سارَ من مرو وأتىٰ مرو الروذ ، ثم أتىٰ « زم » ، ثم مضىٰ إلى « آمل » ، فقطع نهر جيحون وسار إلى بيكند ، وعندما علم أهل بيكند باقتراب جيش قتيبة ، استنصروا

---

(١) بيكند : أدنىٰ مدائن بُخارىٰ إلى نهر جيحون ، يُقال لها : مدينة التجار ، علىٰ رأس المفازة من بُخارىٰ . « تاريخ الطبري » ٦ / ٤٣٠ .

الصغد ، واستمدّوا مَن حولهم ، فأتوْهُم في جمع كثير ، وأخذوا بالطريق - قطعوا عليهم محاور اتصالهم بالخليفة - فلم ينفَذْ لقتيبة رسول ، ولم يصل إليه رسول ، ولم يجر له خبرٌ شهرين ، وأبطأ خبرُه على الحجاج ، فأشفق الحجاج على الجند ، فأمر الناس بالدعاءِ لهم في المساجد ، وكتب بذلك إلىٰ الأمصار ، وهم يقتتلون كلَّ يوم .

كان لقتيبة جاسوس - عين - يقال له : « تنذر » ، من الفرس العجم ، فأعطاه أهل بخارىٰ الأعلىٰ مالًا على أن يصرف عنهم قتيبة ، فأتىٰ تنذر إلى قتيبة ، وطلب الاجتماع به على انفرادٍ ، فنهض الناسُ وانصرفوا ، واحتبسَ قتيبةُ ضرارَ بن حصين الضَّبِّي حتى يحضر المقابلة ، فقال تنذر : « هٰذا عامل يقدم عليك ، وقد عُزل الحجاج ، فلو انصرفتَ بالناسَ إلىٰ مرو ! » . فدعا قتيبة « سياه » مولاه ، فقال : « اضرب عنقَ تنذر » . فقتله ، ثم قال لضرار : « لم يبقَ أحدٌ يعلم هذا الخبر غيري وغيرك ، وإني أُعطي اللهَ عهدًا : إنْ ظهر هذا الحديثُ مِن أحدٍ حتىٰ تنقضي حربنا هذه لألحقنَّك به ، فاملُكْ لسانك ، فإنَّ انتشارَ هذا الحديث يفتُّ في أعضادِ الناس » . ثم أذِن قتيبة للناس بالدخول عليه ، وعندما دخلوا راعَهم قتلُ تنذر ، فوجموا وأطرقوا ، فقال قتيبة : « ما يروعكم مِن قتل عبدٍ أحانه الله ؟! » . قالوا : « إنا كُنَّا نظنُّه ناصِحًا للمسلمين » . قال : « بل كان غاشًّا ، فأحانه الله بذنبه ، فقد مضىٰ لسبيله ، فاغدُوا على قتالِ عدوِّكم ، والقوهم بغير ما كنتم تلقوْنهم به » . فغدا الناس متأهِّبين ، وأخذوا مصافَّهم ، ومشىٰ قتيبة ، فَحَضَّ أهل الرايات ؛ فكان بين الناس قتالٌ بالرماح ، ثم تزاحفوا والتقَوْا ، وأخذتِ السيوف مأخذها ، وأنزل الله على المسلمين الصبرَ ، فقاتلوهم حتى زالت الشمس ، ثم منح الله المسلمين أكتافهم ، فانهزموا يريدون المدينة ، واتَّبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول ، فتفرَّقوا ، وركبهم المسلمون

قتلًا وأسرًا كيف شاءوا ، واعتصم مَن دخل المدينةَ بالمدينة ، وهم قليلٌ ، فوضع قتيبة الفَعَلة - المهندسين - للعمل في أصلها لِيهدمها ، فسألوه الصلح ، فصالحهم ، واستعمل عليهم رجلًا من بني قتيبة ، ثم ارتحلَ عنهم يريد الرجوع ، فلمّا سار مرحلة أو اثنتين - وكان منهم على خمسة فراسخ (خمسة عشر ميلًا) - نقضوا وكفروا ، فقتلوا العامِلَ وأصحابَه ، وجدَعُوا أنوفَهم وآذانهم ، وبلغ قتيبةَ الخبرُ ، فرجع إليهم وقد تحصنوا ، فقاتلهم شهرًا ، ثم وضع الفَعَلة في أصل المدينة ، فعلّقوها بالخشب ، وهو يريد - إذا فرغ من تعليقها - أن يحرِق الخشب فتنهدم ، فسقط الحائطُ وهم يعلّقونه ، فقتل أربعين مِن الفعلة ، فطلبوا الصلح فأبىٰ ، وقاتلهم حتىٰ ظفر بهم عَنوة ، فقتل مَن كان فيها مِن المقاتِلة ، وكان فيمن أخذوا في المدينة رجلٌ أعور ، كان هو الذي استجاش (استثار) الترك على المسلمين ، فقال لقتيبة : « أنا أفدي نفسي » . وسألوه : « ما تبذل ؟ » . قال : « خمسة آلافِ حريرةٍ صينية ، قيمتُها ألفُ ألفٍ » . فقال قتيبة : « ما ترون ؟ » . قالوا : « نرىٰ أنّ فداءَه زيادةٌ في غنائم المسلمين ، وما عسىٰ أن يبلغ مِن كيْد هـذا ؟! » . قال : « لا والله لا تُرَوَّعُ - لا تُخاف - بك مسلمةٌ أبدًا » . وأمر به فَقُتِلَ .

لما فتح قتيبة « بيكند » ، أصاب المسلمون فيها مِن آنية الذهب والفضة ما لا يُحصىٰ ، وصار في أيدي المسلمين شيءٌ لم يصيبوا مثله بخراسان ، ورجع قتيبة إلى مرو ، وقوي المسلمون فاشتروْا السلاح والخيل ، وجُلبت إليهم الدوابُّ ، وتنافسوا في حُسْن الهيئة والعدّة ، وغالوا بالسلاح ، حتى بلغ الرمح سبعين دينارًا[1] . وكان في الخزائن سلاح وآلة حرب كثيرة ،

(١) ولّى قتيبة لقسمة الغنائم عبدَ الله بن وَأْلان العدوي - أحد بني مَلَكَان ، =

فكتب قتيبة إلى الحجاج يستأذنه في دفْع ذلك السلاح إلى الجند ، فأذن له ، فأخرجوا ما كان في الخزائن مِن عُدّة الحرب وآلة السفر ، فقسمه في الناس ، فاستعدُّوا ، فلما كان أيام الربيع ، ندب الناسَ وقال : « إني أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد ، وأنتقلكم قبل أنْ تحتاجوا إلى الإدفاء - من البرد - فسار في عُدّة حسنة من الدوابّ والسلاح ، فأتى « آمل » ، ثم عبر مِن « زم » إلى « بخارىٰ » ، فأتىٰ « نومشكت » - وهي من بخارىٰ - وذلك بعد أن استخلف على مرو بشار بن مسلم .

كان التحرك المبكّر لقتيبة غير مُتوقَّع ، فبُوغت أهل نومُشَكَت ، مما حملهم على استقبال قتيبة ، وعقد الصلح معه في عام ٨٨ هـ = ٧٠٧ م ، ثم سار قتيبة إلى « راميثنه » ، فصالَحه أهلها أيضًا ، فانصرف عنهم ، وزحف إليه الترْك ، ومعهم « السغد » وأهل « فرغانة » ، فاعترضوا المسلمين

= وكان قتيبة يسميه : الأمين ابنَ الأمين - ومعه إياسَ بن بيْهس الباهلي ، فأَذَابا الآنية والأصنام ، فرفعاه إلى قتيبة ، ورفعا إليه خَبَثَ ما أذابا - من بقية الذهب غير النقي والأوشاب - فوهبه لهما ، فأُعطيا به أربعين ألفًا ، فأعلماه ، فَرَجَعَ فيه وأمرهما أن يذيباه ، فأذاباه ، فخرج منه خمسون ألف مثقال . وفي كثرة غنائم هذا اليوم قال الشاعر الكُمَيْت :

ويومَ بِيكَنْدَ لا تُحصَىٰ عجائبهُ ... وما بُخـارَاءُ ممّا أخطأَ العَـدَدُ

ساعدت وفرة الغنائم قتيبة على شراء اثني عشر ألفًا من جياد الخيل ، واثني عشر ألفَ هجينٍ . ودفع ثمن كل راحِلة أربعة آلاف درهم ، وتعهدها بالرعاية طوال فصل الشتاء ، وعندما أخذ في الاستعداد لغزْو نومشكت وراميثنه ، قيّد الخيولَ وأضْمرها ، حتى تذوبَ شحومُها وتصبح أكثر خفّةً ، لتجاوز الأنهار ، وقفْزِ الحواجز ، والسيْر في المسالك الوعرة . ثم عهد بهذه الخيول إلى أشرف الفرسان الذين يدفعهم في الطلائع (المقدمات) .

في طريقهم ، فلحِقوا عبدَ الرحمـٰن بن مسلم الباهلي ، وهو على الساقة « المؤخرة » ، بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميلٌ واحد ، فلما قربوا منه أرسل رسولًا إلى قتيبة يخبره ، وغَشيهُ الترك ، فقاتلوه ، وأتى الرسول قتيبة فرجع بالناس ، فانتهى إلى عبد الرحمـٰن وهو يقاتلهم ، وقد كاد الترك يُلحقون بهم الهزيمة ، فلمّا رأى الناسُ قتيبة ، ارتفعتْ رُوحهم المعنوية ، وصبروا ، واستمرّ القتال حتى الظهر ، وأبلى يومئذ نيزك - وهو مع قتيبة - بلاءً حسنًا ، فهـزم اللهُ التركَ وفضَّ جمعَهم . ورجع قتيبـة إلى قاعدته (مرو) ، وقطع النهر مِن الترمذ إلى بلخ ثم إلى مرو . وقال الباهليُّون : لقي التركُ المسلمـين - عليهم « كوربفانون » التركي ، ابن أخت ملك الصين - في مائتي ألف ، فأظهر الله المسلمين عليهم .

بدأ قتيبة عملياته في السنة التالية : ٨٩ هـ = ٧٠٨ م ، مع إطْلالة الربيع ، وعبَر نهر جيحون عند « زم » ، وتجمّع بقوات الصُغْد[١] و« كش » و« نسف » ، عند بداية المفازة الصحراوية ، وبعد معركة ضاريةٍ ، انتصر المسلمون على الترك . ومضى قتيبة بالمسلمين حتى نزل بخرقانة السفلى ، عن يمين وردان ، فلقُوه بجمع كبير ، فقاتلهم يوميْن وليلتين ، حتى ظَفِرَ عليهم ، ثمّ إنَّ قتيبةَ غزا « وردان خذاه » ملك بخارى ، فلم يتمكّن من حسْم الصراع معه ، ولم يظفر مِن البلد بشيءٍ ، فرجع إلى مرو ، وكتب إلى الحجَّاج بذلك ، فكتب إليه الحجَّاج : « أن صَوِّرْهَا لي » . فبعث إليه بصُورتها (مخططها) ، فكتب إليه الحجَّاج : « أن كِسَّ بـ« كش » ، وانسفْ « نسّف » ، وَرِدْ « وَرْدان » ، وإيَّاكَ والتحويط ، ودعني مِن بنيات الطريق ، وارجعْ إلى مراغتك ، فتبْ إلى الله مِمّا كان منك ، وأْتِهَا مِن مكانِ

---

(١) ولاية عظيمة ، عاصمتُها : سمرقند ، وهي وعِرة المسالك ، اشتُهر أهلُها بالبطولة والبسالة .

كذا وكذا »[١].

فتح بُخارىٰ (٩٠ هـ = ٧٠٩ م) :

لم تكن أعمالُ السنوات السابقة في حياة قتيبة بن مسلم ، أكثر من غزوات استطلاعية ، ودراسة ميدانية للطبيعة البشرية والطبيعة الجغرافية ، وأساليب القتال الملائمة .

وجاءت رسالة الحجاج ، وفيها انتقاص مِن كفاءة قتيبة ، وتحذيره له من نِقاط ضعْفٍ ، لا يجوز لقائد كقتيبة الوقوع فيها ، فخرج قتيبة لغزاته في عام تسعين هجرية ، وهو أكثر تصميمًا على بلوغ هَدَفِه .

وكان « وردان » ملك بخارىٰ قد استعد لمجابهة احتمال هجوم قتيبة ، فأرسَلَ في طلب الدَّعْم من الصغد والترك ومَن حولهم ، وسَبَق قتيبةُ وصولَ الدعم ، فحصر بخارىٰ ، وطوّق قواتِ وردان .

عندما وصلت قوات الدعم ، خرجت قوّة من المسلمين لقتالها ، فقالت قبيلة الأزد - وقد أرادتْ شَرَفَ مجابهة قوات الدَّعم وحدَها - : « اجعلونا على حِدَة - ناحية - وخلُّوا بيننا وبين قتالِهم » . فوافق قتيبة ،

---

(١) انسفْ : نسف : بمعنى : دَمّرْ بلدة نَسف . وإياك والتحويط : بمعنى : احذرْ من التردُّد أو اللُّجوءِ إلى الأهداف الثانوية ، وركزْ على المواقع الهامّة . وحوِّطْ : بمعنى : طَوِّقْ ، أو ابنِ حوْله حائطًا . وإياك وبنيات الطريق : أي : اسلكِ الطريق المستقيم الذي لا تعريج فيه ، وابتعدْ عن الطرق الفرعية . وارجعْ إلى مراغتك : أي : ارجعْ إلى بخارىٰ واجعلْها هدفًا لك . والمراغة في الأصل : مُتمرغ الدابة . وأراد الحجاج من قتيبة أنْ يفتح بخارىٰ ويجعلَها قاعدةً له ، ويتقلّب فيها كما تتقلّب الدابة في مراغتها . (الطبري ، وابن الأثير - أحداث سنة ٨٩ هـ) .

وتقدّمت قبيلة الأزدْ للقتال - وقتيبة جالسٌ ، عليه رداء أصفر فوق سلاحه - فصبروا جميعًا في معركة طاحنةٍ كان التفوُّق فيها لصالح قوات الدعم ، ولم تلبث هذه القوات أن حطَّموا صمود الأزد ، واندفعوا في تقدّمهم حتى دخلوا معسكر قتيبة ، وجاوزوه إلى منطقة الشئون الإدارية ، ومعسكر النساء ، فخرجتِ النساء المسلمات لمجابهة قوات العدو ، حتى ضرب النساء وجوهَ الخيل ، وعندئذٍ تدخّل قتيبة ، فأمر المَجْنبتين بتطويق قوات الترك وإبادتها ، وأسرع هؤلاءِ بالانسحاب إلى منطقة مرتفعة ، فقال قتيبة : « من يزيلهم لنا عن هذا الموضع ؟ » . فلم يقدُم عليهم أحد ، والأحياء من العرب كلهم وُقُوفٌ ، فمشىٰ قتيبة إلى بني تميم ، وحضَّهم على القتال ، بقوله : « يومٌ كأيامِكم » . وتقدّم وكيعٌ - من تميم - فحمل الراية ، واستثار قومه ، وسلّم الراية لقائد فرسان تميم : هريم بن أبي طلحة المجاشعي ، في حين تولّى وكيع قيادة قوّة المشاة ، ووصلتْ قبيلة تميم بفرسانها ومشاتها إلى نهرٍ واسع ، وتقدّم الفرسان بقيادة هريم ، حتى خاضُوا النهر وعبروه إلى الضفة المقابلة ، فيما كان وكيع يجمع الخشب ، حتى أقام جسرًا على النهر ، وقال لأصحابه : « مَنْ وطَّن نفسه على الموت فلْيعبر ، ومَنْ لا ، فليثبت مكانه هنا » . وعبَرَ الجسر ثمانمائة مقاتل ، وسار بالقوة بعد ذلك ، حتى اقترب من العدو ، فأعطى جنده المشاة فترةَ استراحة قصيرة ، ومضىٰ لتنظيم قواته ، فجعل الخيلَ على مجنبتيْه لحمايتهما ، ثم قال لهريم : « إني مُطاعِنٌ القوم ، فاشغلْهم عنّا بالخيل » . وقال للناس : « شدُّوا » . فحملوا ، فما انثَنَوْا حتى خالطوهم ، وحمل هريم خيلَه عليهم ، فطاعنوهم بالرماح ، فما كفُّوا عنهم حتى حَدَرُوهم عن موقفهم ، ونادى قتيبة : « أمَا تَرَوْن العدوَّ منهزمين ؟ » . فأَتْبعهم الناسُ ، ونادىٰ قتيبة : « مَن جاء برأسٍ فلهُ مائة » . وانطلق الجند يعبرون النهر ، وأسرعتْ قوات الخَصم

بإخلاء ميدان المعركة ، والانسحاب بسرعةٍ قبل أن تصلَهم قوات المسلمين .

كان من نتيجة الهزيمة المنكرة التي نزلت بجيشَي الصغد وبخارىٰ ، وإصابة خاقان الترك وابنه في المعركة ، أن تقدّم ملك السّند « طرخون » ، حتى وصل الضفة المقابلة مِن نهر جيْحون ، وعرض على قتيبة الصلح ، فوافقه قتيبة ، ووقّعا اتفاقية الصلح ، وعندما رجع « طرخون » إلى بلاده ، رفض أهل مملكته قبول الصلح ، وخلعُوه عن الملْك ونَصبُوا ابن أخيه مكانه ، وشعر « طرخون » بالألم لهذا الموقف المتمرّد ، فاتّكأ على سيْفه وانتحَر .

وأرسل الملك الجديد رسولًا يعلن رفضَه لاتفاقية الصلح المعقودة مع عمّه ، وفي الوقت ذاته ، كان قتيبة ينظّم أمور بخارىٰ ، حتىٰ إذا فرغ منها ، رجع إلى مرو ومعه نيزك ، وقد أذهله ما شهِده من فتوح ، وأصبح يخاف بَأْسَ قتيبة . فقال لأصحابه وخاصته : « ... مُتّهَمٌ أنا مع هذا ، ولست آمَنه ، وهو شديد السطوة فاجرٌ ، فلو استأذنتُه ورجعتُ ، كان الرأي » . قالوا : « استأذنْه » . فلما كان قتيبة بآمل ، استأذنه في الرجوع إلى تخارستان ، فأذِن له ، فلما فارق عسْكره متوجّهًا إلى بلخ ، قال لأصحابه : « أغذوا السير » . فساروا سيْرًا شديدًا ، حتى أتوْا النوبهار ، حيث قال لأصحابه : « إني لا أشكّ أن قتيبة قد ندِم حين فارقْنا عسكره على إذنه لي ، وسيقْدم الساعةَ رسوله على المغيرة بن عبد الله يأمره بحبْسي ، فأقيموا ربيئةً – نقطة مراقبة – للنظر ، فإذا رأيتم الرسول قد جاوز المدينة ، وخرج من الباب ، فإنه لا يبلغ « البروقان » ، حتى نبلغ تخارستان ، فيبعث المغيرة رجلًا ، فلا يدركنا حتى ندخل شعب (خُلُم) » . ففعلوا . ولم تمضِ سوى فترة قصيرة ، حتى أقبل رسولٌ مِن قبل قتيبة إلى المغيرة يأمره بحبْس نيزك ؛ فلمَّا مرّ الرسول إلى المغيرة وهو بالبروقان – ومدينة بلخ يومئذ

خراب - ركب نيزك وأصحابه فمضَوا ، وقدِم الرسولُ على المغيرة فركب بنفسه في طلبه ، فوجده قد دخل شِعب « خُلُم » ، فانصرف المغيرة ، وأظهر نيزك الخلْع ، وكتب إلى « إصبهبذ » بلخ ، وإلى « باذام » ملك « مرو الروذ » ، وإلى « سهرب » - أو سهرك - ملك الطالقان ، يدعوهم إلى خلْع قتيبة فأجابوه ، وواعدهم الربيع أنْ يجتمعوا ويغزوا قتيبة .

كان ملك تخارستان - واسمه : جبغويه - ضعيفًا ، فأخذه نيزك ، فقيّده بقيدٍ من ذهبٍ ، مخافة أن يشغب عليه - وجبغويه ملك تخارستان ، ونيزك مِن عبيده ، جعله قائدًا لقواته - فلمّا استوثق منه ، وضع عليه حراسة قوية ، وأخرج عاملَ قتيبة من تخارستان ، وبلَغَ قتيبةَ خلْعُه قبل الشتاء ، وقد تفرّق الجند ، فلم يبقَ مع قتيبة إلا أهل مرو ، فبعث عبد الرحمـٰن أخاه إلى بَلْخ في اثني عشر ألفِ مقاتل ، وكلّفه بالتوجُّه إلى البروقان ، وقال له : « أقمْ بها ، ولا تُحدِث شيئًا ، فإذا حسرَ الشتاء ، فعَسْكِرْ وسِرْ نحو تخارستان ، واعلمْ أني قريبٌ منك » . فسار عبد الرحمـٰن فنزل البروقان ؛ وأمهَلَ قتيبة ، حتى إذا كان آخر الشتاء ، كتب إلى « أبرشهر » ، و« بيورد » ، و« سرخس » ، وأهل « هراة » ، لِيقدموا قبل أوانهم الذي كانوا يَقْدمون عليه فيه للغزو والحرْب .

كان أول من استجابَ لنيزك : طرخان ملك الطالقان ، واتّفق معه على حرب قتيبة ، فلمّا هرَبَ نيزك من قتيبة ودخل شِعبَ خُلم الذي يصل إلى طخارستان ، علم أنه لا طاقة له بقتيبة ، فهرب ، وسار قتيبة إلى الطالقان ، فأوقع بأهلها ، وقتل منهم مقتلةً عظيمة ، وصلّب منهم على امتدادِ أربعة فراسخ - اثني عشر ميلًا - في نظامٍ واحدٍ .

مضىٰ فصل الشتاء ، وجاء العام الجديد (٩١ هـ = ٧١٠ م) ، وقدِم أهل « أبرشهر » ، و « بيورد » ، و« سرخس » ، و« هراة » ، بجيوشهم

على قتيبة ، فسار بالناس إلى « مرو الروذ » ، واستخلف على الحرب حمّاد بن مسلم ، وعلى الخَراج عبد الله بن الأهتم ، وبلغ « مرزبان » مرو الروذ إقبالُه إلى بلاده ، فهرب إلى بلاد الفرس ، وقدِمَ قتيبة مرو الروذ ، فأخذ ابنيْن له فقتلهما وصلبهما ، ثم سار إلى الطالقان ، فقام صاحبُها ولم يحاربه ، فكفَّ عنه ، وفيها لصوصٌ ، فقتلهم قتيبة وصلبهم واستعمل على الطالقان عمرو بن مسلم ، ومضى إلى الغارياب ، فخرج إليه ملكها مُذعِنًا مُقرًّا بالطاعة ، فرضي عنه ولم يقتل بها أحدًا ، واستعمل عليها رجلًا من « باهلة » ، وبلغ صاحب « الجوزجان » خبرهم ، فترك أرضه وخرج إلى الجبال هاربًا ، وسار قتيبة إلى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين ، فقبل منهم ، فلم يقتل فيها أحدًا ، واستعمل عليها عامر بن مالك الحماني ، ثم أتى « بلخ » ، فلقيه الأصبهبذ في أهل بلخ ، فدخلها فلم يُقِمْ بها إلَّا يومًا واحدًا ، ثم مضىٰ قتيبة وهو يتبع أخاه عبد الرحمٰن ، حتى أتى شعب خُلم ، وقد مضى نيزك فعسكر ببغلان ، بعد أن ترك مجموعةً من المقاتلين لحماية مضيق الوادي - فم الشِّعب - وللدفاع عن مداخله وحراستها ، كما وضع نيزك حاميةً من المقاتلين في قلعة حصينة من وراء مضيق الوادي ، فأقام قتيبة أيامًا يقاتلهم عند مدخل الوادي ، دون أنْ ينال منهم أو ينتصر عليهم ، ولم تكن المعلومات المتوافرة لقتيبة تشير إلى وجود محاور للاقتراب سوى طريق الوادي ، وسوى مفازة لا يستطيع المجازفة بدفع الجند لاختراقها ، فوقف في موقعه ، محاولًا إيجاد مخرج من هذا المأزق ، وفي تلك الفترة ، قدم عليه ملك « الروب » و« سمنجان » ، فاستأمنه على أن يدلَّه على مدخل القلعة التي وراء هذا الشعب ، فآمنه - أعطاه الأمان - وبعث معه رجالًا في الليل ، فانتهى بهم إلى القلعة التي مِن وراء مدخل الوادي ، فباغتوهم بالهجوم وأبادوا حامية القلعة ، وهربَ مَن بقي منهم ، ومن كان في الشِّعب -

مدخل الوادي - فدخل قتيبة والناس الوادي ، وأتى القلعة ، ثم مضى إلى سمنجان ، و« نيزك » ببغلان ، عند نَبْعٍ يُعرف باسم : « فنج جاه » ، ولم تكن المفازة بين سمنجان وقرية بَغلان شديدة الوعورة أو صعبة المسالك .

أقام قتيبةُ بسمنجان أيّامًا ، ثم سار إلى نيزك ، وقدَّم أخاه عبد الرحمـٰن ، وبلغ نيزك ذلك ، فارتحل مِن منزله حتى قطع وادي « فرغانه » ، ووجّه ثِقَلَه وأمواله إلى ملك كابول ، ومضى حتى نزل الكرز ، وعبد الرحمـٰن ابن مسلم يتبعه ، فنزل عبد الرحمـٰن وأخذ بمضائق « الكرز » ونزل قتيبة « أسكيمشست » ، بينه وبين عبد الرحمـٰن فرسخان ، فتحصّن نيزك في الكرز ، وليس إليه مسلك إلا مِن وجهٍ واحد ، وكان ذلك الوجه صعبًا لا يمكن للفرسان الوصول إليه ، فحاصره قتيبة مدة شهرين كاملين ، حتى نفد التموين عند نيزك ، وأصاب جندَه الجدري ، وخاف قتيبة الشتاء ، فدعا « سُليمًا الناصح » ، وقال له : « انطلق إلى نيزك ، واحْتَلْ لأن تأتيني به بغير أمان ، فإنْ أعياك وأبىٰ فآمنْهُ ، واعلم أنّي إنْ عاينتُك وليس هو معك صلبتُك ، فاعملْ لنفسك » . فقال سُليم الناصح : « فاكتب لي إلى عبد الرحمـٰن ، لا يخالفني » . قال قتيبة : « نعم » . وكتب إلى عبد الرحمـٰن بذلك ، وعندما وصل سُليم إلى عبد الرحمـٰن ، طلب إليه إرسال مجموعة من الفرسان للتمرْكُز عند مدخل الوادي ، وقال له : « إنّ على هؤلاء الفرسان إعاقَتَنا عن الوصول إلى مدخل الوادي ، إذا ما خرجنا أنا ونيزك » . وبعث عبد الرحمـٰن قوة من الفرسان إلى حيث أمرهم سُليم ، ومضى سُليم وقد حمل معه من الأطعمة ما يكفي أيّامًا ، حتى أتى نيزكًا ، ونصحه بتسليم نفسه إلى قتيبة ومحاولة إزالة غضبه ، وأنّ قتيبة لن يبرح موضعه ، وقد صمّم على قضاء الشتاء في موقعه ، هلَك أو سلِم . وبعد مناقشة طويلة ، استطاع سُليم إقناع نيزك بالتسليم ، لا سيما بعد أن برهن له عن مدى حاجة جنده

للطعام ، عندما عرض ما يحمله عليهم ، وقبل نيزك في النهاية مرافقة سُليم . وتدخّلت قوة الفرسان ، فحالوا بين الأتراك والخروج ، ورافقوا نيزكًا ، حتى قدِموا به إلى عبد الرحمـٰن بن مسلم ، فأرسل رسولًا إلى قتيبة يُعْلِمه ، فأرسل قتيبة بطلبهم ، فقدِم بهم عبد الرحمٰن عليه ، فحَبَس أصحاب نيزك ، ودفع نيزكًا إلى ابن بسّام الليثي ، وكتب إلى الحَجّاج يستأذنه في قتل نيزك ، وفي انتظار ذلك جعل ابنُ بسّام نيزكًا في قبّتِهِ - خيمته - وحفَر حول القبة خندقًا ، ووضع عليه حراسة قوية ، وجاء كتاب الحجَّاج بعد أربعين يومًا ، يأمر بقتل نيزك . عندما جاء أمر الحجاج ، استدعى قتيبة نيزكًا للمثول بين يديه ، وقال له : « هل لك عندي عقْد أو عند عبد الرحمـٰن أو عند سليم ؟ » . قال : « لي عند سليم » . قال : « كذبت » . وقام ، وردّ نيزكًا إلى حبْسه ، ومكث قتيبة ثلاثة أيام لا يظهر للناس ، وقام المهلّب ابن إياس العدوي ، وتكلّم في أمر نيزك ، فقال بعضهم : « ما يحلّ له أنْ يقتله » . وقال بعضهم : « ما يحـلُّ له تركه » . وخـرج قتيبة في اليوم الرابع ، فجلس وأذن للناس ، فقال : « ما ترون في قتْل نيزك ؟ » . فاختلفوا ، فقال قائل : « اقتلْه » . وقال قائل : « أعطيتَه عهدًا فلا تقتلْه » . وقال قائل : « ما نأمنهُ على المسلمين » . ودخل ضرار بن حصين الضّبّي ، فقال : « ما تقول يا ضـرار ؟ » . قال : « إني سمعتُك تقول : أعطيتَ الله عهدًا إنْ أمكنَكَ منه أن تقتله ، فإنْ لم تفعل ، لا ينصرنّك اللهُ عليه أبدًا » . فأطرق قتيبة طويلًا ، ثم قال : « والله لو لم يبقَ من أجَلي إلا ثلاث كلمات ، لقلتُ : اقتلوه ، اقتلوه ، اقتلوه » . وأرسل إلى نيزك فأمر بقتله وقتل أصحابه ، فقال المغيرة بن حبناء كلمة طويلة في مديح عمل قتيبة ، مطلعها :

لَعَمْري لَنِعْمَتْ غَزْوةُ الجندِ غزوةً قَضَتْ نَحْبها مِن نيزكٍ وتعلّتِ

عمل قتيبة بعد ذلك على إعادة تنظيم الإدارة في تخارستان ، وأطلق

سراح ملكها جغبويه ، وأرسله إلى الوليد ، فلم يزل بالشام حتى مات الوليد ، ورجع قتيبة إلى مرو ، واستعمل أخاه عبد الرحمـٰن على بلخ ، وأرسل إلى الحجاج بالخراج وبأخبار الفتح ، فكان ما يردّده الحجاج دائمًا : « بعثتُ قتيبةَ فتًى غِرًّا ، فما زدته ذِراعًا إلا زادني باعًا » .

ما إن استقرّ قتيبة في مرو ، حتى وصله طلب أمان من ملك الجوزجان ، وكان قد هرب عن بلاده تأييدًا لنيزك ، ثم تراجع عن موقفه عندما عَلِمَ بمصرعه ، فآمنه قتيبة على أن يأتيه فيصالحه ، فطلب رهنًا يكونون في يديه ويعطي رهائنَ مقابل ذلك ، فأعطى قتيبةُ حبيبَ بن عبد الله بن عمرو بن حصين الباهلي ، وأعطى ملكُ الجوزجان رهائن من أهل بيته ، فخلَّف ملك الجوزجان حبيبًا بالجوزجان في بعض حصونه ، وقدم على قتيبة فصالحه ، ثم رجع فمات بالطالقان مسمومًا ، وقتل أهل الطالقان حبيبًا ، فما كان من قتيبة إلا أن قتل الرُّهُن الذين كانوا عنده ، وفي ذلك قال نهار بن توسعة :

أراكَ اللهُ في الأتـراكِ حكمًا كحُكْمٍ في قُرَيْظـةَ والنّضيرِ
قضـاءً مـن قتيبـةَ غَـيْرُ جـوْرٍ بِهِ يُشْفَى الغليلُ مِـنَ الصـدورِ
فـإنْ يَـرَ نـيزكٌ خِـزْيًا وَذُلًّا فكمْ في الحربِ حُمقٌ مِنْ أميرِ

غزْو شُومان و « كَسّ » و « نَسَف » سنة إحدىٰ وتسعين هجرية :

أفاد ملك شومان « قيسلشتان » مِنَ الاضطراب الذي أثاره غدْرُ نيزك ، فطرد عامل قتيبة ، ومنع الفدية التي كان قد صالح عليها قتيبة ، فبعث إليه قتيبة رسولًا - وهو : « عيّاش الغَنَوي » - ومعه رجلٌ من نُسّاك أهل خُراسان ، يدعوانِ ملك شومان إلى أنْ يؤدِّي الفِدية على ما صالح عليه قتيبة ، فقدِما البلد ، فخرجوا إليهما فرمَوْهما ، فانصرف الرجل ، وأقام عيّاش الغَنوي . فقال : « أمَا هاهنا مسلمٌ ؟! » . فخرج إليه رجلٌ من المدينة فقال : « أنا

مسلم ، فما تريد ؟ » . قال : « تعينني على جهادهم » . قال : « نعم » . فقال له عيّاش : « كن خَلْفي لتمنعَ لي ظهري » . فقام خلفه ، وكان اسم الرجل : المهلّب ، فقاتلهم عيّاش ، فحمل عليهم ، فتفرّقوا عنه ، وحمل المهلبُ على عياش من خلفه فقتله ، فوجدوا به ستين جراحة ، فغمّهم قتلُه ، وقالوا : « قتلنا رجلًا شجاعًا » . بلغ قتيبةَ ما فعله أهل شومان بسفيرَيْه ، فسار إليهم بنفسه ، ولمّا تكدْ قواته تأخذ قِسْطها من الراحة بعد قتال نيزك ، وأخذ طريقَ بلخ ، بعد أن دفع أخاه عبد الرحمٰن لقيادة مقدمته ، وكان ملك شومان صديقًا لصالح - أخو قتيبة - فأرسل إليه صالح رجلًا يأمره بالطاعة ، ويضمن له رضا قتيبة إنْ رجع إلى الصلح ، فأبى وقال : « ما تُخوّفني به من قتيبة ، وأنا أمنع الملوك حصنًا ؟! أرْمي أعلاه ، وأنا أشدُّ الناس قوْسًا ، وأشدُّ الناس رميًا ، فلا تبلغ نُشّابتُه نصفَ حصني ، فما أخاف من قتيبة » . فمضى قتيبة من بلخ ، فعبر النهر ، ثم أتى شومان وقد تحصّن ملكها ، فوضع عليه المجانيق ، ووضع منجنيقًا كان يسمّيها « الفحجاء » ، فرمى بأول حجر ، فأصاب الحائط ، ورمى بآخر فوقع في المدينة ، ثم تتابعتِ الحجارة ، حتى دمّر الحصن ، وخاف ملك شومان من الوقوع في قبضة قتيبة ، ورأى ما نزل به ، فجمع ما كان عنده من مال وجوهر ، فرمىٰ به في عيْنٍ في وسط القلعة لا يُدرَك قَعْرها ، ثم جمع قواته ، وفتح أبواب القلعة ، وخرج إلى المسلمين فقاتلهم حتى قتل ، ودخل قتيبة القلعة بعد أن فتحها عَنوة ، فقتَل المقاتِلة ، وسَبىٰ الذرية ، ثم رجع إلى « كِس » و« نسف » ، ثم مضى إلى بُخارىٰ ، ثم سار إلى طرخون بالصغد ، ليقبض منه ما كان صالَحه عليه ، فلما أشرف على وادي الصغد ، توقّف هناك ، وقبض من طرخون صلْحه ، وعاد مُتَّبِعًا محور : بُخَارىٰ ، آمل ، مرو .

كانت عمليات السنة التالية سهلة هيِّنة ؛ فقد غزا قتيبة سجستان ، يريد « رُبتيل الأعظم والزابل » ، فلما نزل سجستان ، استقبلتْهُ رُسل رُبتيل بالصلح ، فقبل ذلك وانصرف ، واستعمل عليهم ربّة بن عبد الله بن عمير الليثي ، وعاد إلى مرو .

صلح قتيبة مع ملك خُوارزم شاه ، وفتْح « خام جرد » سنة ثلاث وتسعين هجرية :

كان ملك خوارزم - الآرال حاليًّا - ضعيفًا ، فغلبه أخوه « خرذاذ » على أمره - وخرذاذ أصغر منه - فكان إذا بلغه أنّ عند أحد مِن مواطني مملكته جاريةً أو دابةً أو متاعًا فاخرًا ، أرسل فأخَذَه ، أو بلغَه أنّ لأحدهم منهم بنتًا أو أختًا أو امرأة جميلةً ، أرسل إليه فغصَبَه ، وأخذ ما شاء ، وحبس ما شاء ، لا يمتنع عليه أحد ، ولا يستطيع الملكُ منعَه أو تأديبه ، وكثيرًا ما رفع الناس ظلاماتهم للملك ، فكان يقول : « لا أقوى عليه » . وزاد الأمر على الملك حتى ملأه غيظًا ، فلما طال الأمر عليه ، كتب إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه حتى يسلّمها له ، وبعث إليه بمفاتيح مدائن خُوارزم ، وهي ثلاثة مفاتيح من ذهب ، واشترط عليه أن يدفع إليه أخاه ، وكلَّ مَن يضادُّه أو يقاومه ، ليحكم فيه بما يرى ، وبعث في ذلك رُسلًا ، ولم يُطلع أحدًا من معاونيه ومستشاريه - مرازبته ودهاقينه - على ما كتب به إلى قتيبة ، فقدمتْ رسله على قتيبة في آخر الشتاء ووقْت الغزو ، وقد تهيّأ للحرب واستعدّ لها ، فأظهر قتيبة أنه يريد التوجُّه إلى الصغد ، ورجع سفراءُ خوارزم شاه إليه بما يحبُّ مِن قِبَل قتيبة ، وسار بعد أن استخلف على مرو ثابتًا الأعور مولى مسلم ، وجمع ملك خوارزم ملوكَه ، وأحْباره - كهنته - ومستشاريه ، وخدعهم بقوله « أن المعلومات المتوافرة له تؤكّد أنّ قتيبة يريد الصغد ، ولا يريد الهجوم على خوارزم شاه » ، فانصرف أهل خوارزم عن الاستعداد

للحرب ، ولم يشعروا باقتراب الخطر منهم ، إلّا عندما نزلتْ قوات المسلمين في « هزارسب » ، دون النهر ، واجتمع أصحابُ الملك لمناقشة الموقف ، وطالبوا بالتعرُّض لقتال قتيبة ، ولكنّ الملك قاوم هذا الاتجاه ، عندما قال لهم : « إني لا أرى ذلك ؛ فقد عجز عنه مَن هو أقوى منّا ، وأشد شوكة ، ولكنني أرى أنْ نَصرفه بشيءٍ نؤدّيه إليه ، فنصرفه عامنَا هذا ، ونرى رأينا » . فوافقوه على رأيه ، فأقبل خُوارزم شاه ، فنزل في مدينة الفيل ، من وراء النهر ، « وكانت مدائن خوارزم الرئيسية ثلاثة ، لكنّ « فيل » كانت أكثرَهن منعة وقوةً وتحصينًا » وبقي نهرُ بلخ هو الفاصل بين مواقع قوات قتيبة في هزارسب ، ومكان نزول ملك خوارزم في « فيل » ، وتمّ الصلح على عشرة آلافِ رأسٍ وعيْن ومتاع ، بشرط أن يساعده على مَلِك خام جرد ، وأن يفي له بما كتب إليه ، فقبل ذلك منه قتيبة ، ووفّى له ، إذْ بعث قتيبةُ أخاه إلى ملك خام جرد - الذي كان يُناصب خوارزم شاه العداء - فقاتله ، فقتله عبد الرحمٰن ، واجتاح حدود بلاده ، وقدم منهم على قتيبة بأربعة آلاف أسير ، فقتلهم . ودفع قتيبة إلى خوارزم شاه أخاه ومَن كان يخالفه ، فقتلهم وصادرَ أموالهم ، وبعث بها إلى قتيبة . ودخل قتيبة مدينة « فيل » ، فقبل من خوارزم شاه ما صالحه عليه ، ثم رجع إلى هزارسب .

يومُ سمرقند سنة ثلاث وتسعين هجرية :

ما إنْ أمضى قتيبة الصلح مع حاكم خوارزم - ملكها - حتى تقدّم إليه المجشر بن مزاحم السُّلمي ، وطلب التحدُّث إليه على انفراد ، وعندما تمّ له ذلك ، قال المجشر لقتيبة : « إن أردت السغد يومًا من الدهر ، فالآن ؛ فإنهم آمنون مِن أن تأتيهم من عامك هذا ، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام » . وسأله قتيبة : « هل أشار بهذا عليك أحد ؟ » . وأجابه المجشر بالنفي ، وعاد يسأله : « وهل أعلمتَه أحدًا ؟ » . فأجاب المجشرُ بالنفي أيضًا ، وعندها قال

له قتيبة : « والله لئن تكلّم به أحد لأضربنّ عنقك » . ثم إنّ قتيبة أقام يومه ، فلمّا أصبح من الغدِ ، دعا عبد الرحمٰن فقال : « سِرْ في الفرسان والمُرامية ، وقَدِّمِ الأثقال إلى مَرْو » . ومضى عبدُ الرحمٰن يَتْبعُ الأثقال ، يريد مَرْو يومَه كله ، فلمّا أمسى كتب إليه : « إذا أصبحتَ فوجِّهِ الأثقال إلى مَرْو ، وَسِرْ في الفُرسان والمُرامية نحو السغد ، واكتم الأخبار ، فإني بالأثر أتْبعك » . ولمّا وصلتِ الرسالة ، أمر عبد الرحمٰن أصحاب الأثقال أنْ يمضُوا إلى مَرْوَ ، وسار حيث أمره ، وخطب قتيبة الناس فقال : « إن الله قد فَتَحَ لكم هذه البلدة في وقتٍ الغَزْوُ فيه ممكن ، وهذه السغدُ شاغرةٌ برجلها - رجالها - قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كنّا صالَحْنا عليه طرخون ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله : ﴿ **فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ على نَفْسِهِ** ﴾ [الفتح : ١٠] ، فسيروا على بركة الله ، فإني أرجو أن يكون خوارزم والسغد كالنضير وقريظة . وقال الله : ﴿ **وأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِروا عَلَيهَا قد أحَاطَ اللهُ بِهَا** ﴾ [الفتح : ٢١] . ووصل قتيبة إلى السغد وقد سبقه إليها عبد الرحمٰن بن مسلم في عشرين ألفًا ، وقدم عليه قتيبة في أهل خوارزم وبُخارىٰ ، بعد ثلاثة أيام من نزول عبد الرحمٰن بهم ، فقال : « إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿ **فَسَاءَ صَبَاحُ المُنذَرينَ** ﴾ » . [الصافات : ١٧٧] . وبدأت مرحلة حصار السغد التي استمرّت شهرًا ، حدثت خلاله مجموعةٌ من المعارك والاشتباكات في قطاع واحد .

اشتدّ الحصار على أهل السغد ، وخافوا طول الحصار ، فكتب « غَوْزَك » ملك السغد رسائل إلى ملك الشاش ، وإخشاذ فرغانه وخاقان الترك ، جاء فيها : « إنا نحن دونكم ، فيما بينكم وبين العرب ، إنْ ظفروا بنا عادوا ، فأغاروا عليكم بمثل ما أتونا به ، وأصبحتم أضعف وأذل ؛ فانظروا لأنفسكم ، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها » . واستجاب الملوك لدعوة « غوزك »

ملك السغد ، وطلبوا إليه مقاومة العرب وخِداعهم ، حتى يباغتوا العرب ، واجتمع هؤلاء الملوك ، فقالوا : « إنما نُؤتَى من سفَلتِنَا ، وإنهم لا يجدون لِوَجْدنا ، ونحن معشر الملوك المعنيُّون بهذا الأمر ، فانتخبوا أبناء الملوك ، وأهل النجدة مِن فتيان مُلُوكِكم ، فلْيخرجوا حتى يأتوا عسكر قتيبة مُباغتةً ؛ فإنه مشغول بحصار السغد » . وانتخبوا فرسانًا من أبناء المرازبة ، والأساورة الأشداء الأبطال ، وولّوْا عليهم ابنًا لخاقان ملك الترك ، وأمروهم أن يباغتوا قتيبة بهجومٍ ليليٍّ . وبلغ قتيبة ذلك ، فانتخب أهل النجدة والبأس ، حتى بلغ عددهم أربعمائة ، ثم جمعهم وقال لهم : « إن عدوَّكم قد رأوا بلاء الله عندكم ، وتأييده إياكم في مزاحفتكم ومُكاثرتكم ، كلُّ ذلك يَفلُجكم لِينصركم الله عليهم . فأجمَعُوا على أن يحتالوا عزّتكم وبَياتكم ، ليباغتوكم بهجوم ليلي ، واختاروا دهاقينهم وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ، وقد فضّلكم الله بدينه ، فأبلُوا اللهَ بلاءً حسنًا تستوجبون به الثواب ، مع الذَّبِّ عن أحسابكم » . ووضع قتيبة عيونًا - جواسيس - على العدو ، حتى إذا قربوا منه قدْر ما يصلون إلى عسكره من الليل ، دفع الذين انتخبهم ، بعد أن حضّهم على القتال ، واستعمل عليهم صالح بن مسلم ، فخرجوا من المعسكر عند المغرب ، فساروا ونزلوا على فرسخيْن من العسكر ، عن طريق القوم الذين وصفوا لهم ، ففرّق صالِح خيله ، وأكمن كمينًا عن يمينه ، وكمينًا عن يساره ، وأقام مع مجموعة من الفرسان على قارعة الطريق ، حتى إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه ، جاء العدو باجتماع وإسراع وصمت ، وهم آمِنون في أنفسهم من أنْ يلقاهم أحد دون معسكر قتيبة ، ولم يعلموا بمكان صالح حتى اصطدموا به ، حتى إذا اختلفت الرماح ، واشتدّتِ المعركة ، خرج الكمينان عن يمينٍ وشمالٍ ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ، حتى قال أحد الذين اشتركوا في قوة الكمين : « حصرناهم ، فما رأيتُ

قَطُّ قومًا كانوا أشدّ قتالًا مِن أبناء أولئك الملوك ، ولا أصبر ، فقتلناهم فلم يفلت منهم إلا نفرٌ يسير ، وحَوَينا سلاحهم ، واحتززنا رءوسهم ، وأسَرْنا منهم أسرى ، فسألناهم عمَّن قتلنا ، فقالوا : ما قتلتم إلا ابن مَلِك ، أو عظيمًا من العظماء ، أو بطلًا من الأبطال ، ولقد قتلتم رجالًا إنْ كان الرجل لَيعدِلُ بمائة رجل » . وقال مقاتِلٌ آخر : « إنّا لَنختلفُ عليهم بالطعن والضرب ، إذْ تبيّنت تحت الليل قتيبةَ ، وقد ضربتُ ضربة أعجبتني وأنا أنظر إلى قتيبة ، فقلت : كيف ترى ، بأبي أنت وأمي ؟! قال : اسكت ، دقَّ اللهُ فاك . قال : فقتلناهم ، وأقمنا نحوي - نجمع - الأسلابَ ، ونحتزّ الرءوسَ حتى أصبحنا . ثم أقبلنا على المعسكر ، فلم أرَ جماعة قَطّ جاءوا بمثل ما جئْنا به ، ما منا رجل إلا معلّق رأْسًا معروفًا باسمه ، وأسير في وثاقه ، مع ما سلبْنا من جيّد السلاح وكريم المتاع ومناطق الذهب ودوابَّ فُرَّهَةٍ ، فنفلَنَا قتيبة ذلك كله . وقال : جزاكم الله عن الدين والأعراض خيرًا . وأكرمني قتيبةُ ، من غير أن يكون باحَ لي بشيء ، وقَرن بي - في الصلة والإكرام - حيانَ العدوي وحُليًا الشيباني ، فظننتُ أنه رأى منهما مثل الذي رأى مني ، وكسر ذلك أهلَ السغد ، فطلبوا الصلح وعرضوا الفدية ، فأبى وقال : أنا ثائر بدم طَرْخون ، كان مولاي ، وكان من أهل ذمتي » .

استمرت الحرب ، وأخلص أهل بخارىٰ وأهل خوارزم القتالَ إلى جانب قتيبة ، فأرسل « غوزك » ملك السغد إلى قتيبة ، يقول له : « إنما تقاتلني بإخوتي ، وأهل بيتي من العَجَم ، فأخْرِجْ إليّ العرب » . فغضب قتيبة ودعا الجدلي ، فقال : « اعرض الناس ومَيِّز أهل البأس » . فجمعهم ، ثم جلس قتيبة يعرضهم بنفسه ، ودعا العُرفاءَ ، فجعل يدعو برجلٍ رجلٍ ، فيقول : « ما عندك ؟ » . فيقول : « العريف شجاع » . ويقول : « ما

هذا ؟ » . فيقول : « مختصر » . ويقول : « ما هذا ؟ » فيقول : « جبان » . فسمّى قتيبة الجبناء : الأنتان ، وترك لهم رثّ السلاح ، ثم زحف بهم فقاتلهم بهم فرسانًا ورجالًا ، واستمرّ الصراع بين الفرسان ، في حين برز قتيبة بسريره ، وقعد عليه ليتابع المعركة ، وحمل السغد على المسلمين حملة حطّموهم حتى جازوا عسكرهم ، وقتيبة محتبٍ بسيفه ما حَلّ حَبْوته ، وانطوت مُجنّبتا المسلمين على الذين هزَموا القلب ، فهزموهم حتى ردُّوهم إلى عسكرهم ، وقُتل من المشركين عددٌ كبير ، ودخلوا مدينة سمرقند وتحصّنوا بها ، ورمى قتيبة المدينة بالمجانيق ، فثَلَم ثلْمةً ، فسدّوها بغرائز الدَّخن ، وأطال قتيبة المقام ، واستمرّ في رمْي سمرقند بالمنجنيق ، فثلم فيها ثلمة . وقال قتيبة : « أَلِحُّوا عليها حتى تعبُروا الثلمة » . فقاتلوهم حتى صاروا على ثلمة المدينة ، ورماهم السغدُ بالنشاب ، فوضعوا تُرُسَهم ، فكان الرجل يضع ترْسَه على عينه ثم يحمل ، حتى صاروا على الثلمة ، فقالوا له : « انصرفْ عنا اليوم حتى نصالحك غدًا » . وأجاب قتيبة : « لا نصالحهم إلا ورجالُنا على الثلمة ، ومجانيقنا تخطر على رءوسهم ومدينتهم » . وفشل اقتحام الثغرة (الثلمة) ووقف عليها رجل وهو يشتم قتيبة بالعربية الفصحى ، وأسرع المسلمون نحو الرجل وهو مُلِحٌّ بالشتم ، في حين كان قتيبة مُحتبيًا بشملة ، وهو يردّد - كالمناجي لنفسه -: « حتى متى يا سمرقند يُعشش فيك الشيطان ؟! أمَا واللهِ لئنْ أصبحتُ لأحاولنَّ من أهلك أقصى غاية » . وسمعه أحد القادة ، فانصرف عن قتيبة ، وانضمّ إلى أصحابه ليقول لهم : « كم مِن نفس أبيّة ستموت غدًا منا ومنهم ! » . ثم إنَّ قتيبة الْتفتَ إلى مَن حوله وقال لهم : « اختاروا منكم رجليْن » . فاختاروا ، فقال : « أيُّكما يَرمي هذا الرجل ، فإنْ أصابه فله عشرة آلاف ، وإنْ أخطأه قطعت يده ؟ » . فتلكّأ أحدهما ، وتقدم الآخر ،

فرماه ، فلم يخطئْ عينَه ، وقال هذا الرامي - وهو خالد بن باب مَوْلَى مُسلم بن عمرو - : « كنت في رُماة قتيبة ، فلمّا افتتحنا المدينة صَعِدتُ السُّور ، فأتيت مُقام ذلك الرجل الذي كان فيه ، فوجدتُه ميّتًا على الحائط ، ما أخطأتِ النُّشابة عينَه حتى خرجتْ من قفاه » . ثم أصبح المسلمون مِن غدٍ فرموا المدينة ، فثَلَموا فيها . وقال قتيبة : « ألحوا عليها حتى تعبروا الثلْمَة (الثغرة) » .

وحمل المسلمون بقوة ، فدخلوا مدينة سمرقند ، فصالحهم أهلها ، واشترط قتيبة أنْ يسلّمه أهلُ سمرقند ثلاثين ألفًا ، كرهينةٍ في قبضته ، ليس فيهم صبيٌّ ولا شيخ ولا عيب ، كما اشترط إخلاء المدينة مِن كلّ مقاتِل ، وأنّ يُبنَى له فيها مسجدٌ ، فيدخل ويصلي ، ويُوضع له فيها منبرٌ فيخطب ، ويتغدى ويخرج ، ونفَّذ أهل سمرقند شروط قتيبة ، فقال : « الآن ذلُّوا حين صار إخوانهم وأولادهم في أيديكم » . ودخل قتيبة سمرقند ، فصلّى وخطب ثم تغدَّى ، وأرسل إلى أهل السغد : « مَن أراد منكم أنْ يأخذ متاعَه فلْيأخذه ، فإني لست خارجًا منها ، وإنما صنعتُ هذا لكم ، ولستُ آخذ منكم أكثر مما صالحتكم عليه ، غير أنّ الجندَ يُقيمون فيها » . وبعد ذلك جمع قتيبة ما تحتويه بيوت النيران وحِليةَ الأصنام ، فكانت كالقصر العظيم حين جُمعت ، فأمر بتحريقها ، فقالتِ الأعاجم : « إنّ فيها أصنامًا مَن حَرَقَها هلك » ، فقال قتيبة : « أنا أحرقها بيدي » . ودعا قتيبة بالنار ، وأخذ شعْلةً بيده ، وخرج فكبر ، ثم أشعلها ، وأشعل الناسُ ، فاضطرمتْ ، فوجدوا مِن بقايا ما كان فيها - مِنْ مسامير الذهب والفِضَّة - خمسين ألفِ مثقال ، وتلا قتيبة ﴿ **وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى** ﴾ [النجم : ٥٠ - ٥١] .

ارتحل قتيبةُ راجعًا إلى مرو ، واستخلف على سمرقند عبدَ الله بنَ مسلم ، وخلّف عنده جندًا كثيفًا ، وآلةً من آلات الحرب كثيرة ، وقال : « لا تَدَعنَّ مشركًا يدخل بابًا من أبواب سمرقند إلا مختومَ اليدِ ، وإنْ جَفَّتِ الطينةُ قبل أن يخرج فاقتلْه . وإنْ وجدتَ معه حديدةً أو سكّينًا – فما سواه – فاقتلْه . وإنْ أغلقتَ البابَ ليلًا ، فوجدتَ فيها أحدًا منهم فاقتلْه » .

لله دَرُّكَ يا قتيبة !

ولمّا فتح قتيبة سمرقند ، وقفَ على جبلها ، فنظر إلى الناس متفرّقين في مروج السغد ، فتمثّل قول طَرَفة بن العبد :

وَأَرْتَعَ أقــوام ولولا مَحَلُّنَــا بمخشيةٍ رَدُّوا الجِمَال فَقَوَّضُوا

ودعا قتيبة « نهارَ بن توسعة » حين صالح أهلَ السغد ، فقال : « يا نهار ، أين قولك :

ألا ذَهَبَ الغَزْوُ المُقرِّبُ للغِنَى وماتَ النَّدى وَالجودُ بعد المهلّبِ
أقامَا بِمَرو الرُّوذِ رهنَ ضريحِهِ وقدْ غُيِّبا عَنْ كلّ شرقٍ ومَغربِ

أفغزوٌ هذا يا نهار ؟ » . قال : « لا ، هذا أحسن ؛ إنّ الذي أنت فيه ليس بالغزو ولكنه الحرب ، وأنا الذي أقول :

وَمَا كَانَ مُذْ كُنَّا وَلَا كَانَ قَبْلَنَا ولا هُوَ فِيمَا بعدَنَا كابنِ مُسلمِ
أَعَمَّ لأهلِ التركِ قَتْلًا بسيفِهِ وَأَكْثَرَ فينا مَقْسِمًا بعدَ مَقْسِمِ »

وقال الشاعر :

كلَّ يومٍ يَحــوي قتيبــةُ نَهْبًا ويزيدُ الأمــوال مــالًا جديدَا
باهِـلِيٌّ قَـدْ أُلْبِسَ التــاجَ حَتَّى شـابَ منهُ مَفـارقٌ كُنّ سُودَا
دَوّخ الصَّغْـدَ بالكتـائبِ حَتَّى تركَ الصغـدَ بالعـراءِ قُعـودَا
فَــوليدٌ يبكــي لِفَقْـدِ أبــيه وأبٌ مُــوجَعٌ يُبَكّــي الــوليدَا

كُلّمَا حَلّ بلدةً أوْ أتاهَا ... تركتْ خيلُهُ بِهَا أُخْدودَا[١]

غَزْو الشَّاش وفرغانة سنتَي أربعٍ وتسعين وخمسٍ وتسعين هجرية[٢] :

انطلق قتيبة لمتابعة فتوحاته في بداية فصل الربيع - كعادته - عامَ أربعٍ وتسعين هجرية ، ولمّا أنْ عبر نهر سمرقند ، فرض على أهل بخارىٰ و« كس » و« نسف » وخوارزم ، تقديمَ عشرين ألفِ مقاتلٍ ، ثم سار بهم إلى السغد ودفعهم إلى الشاش ، في حين تابع تقدُّمه بقواته إلى فرغانة ، وعندما وصل « خجندة » ، اصطدم بمقاومةٍ قويةٍ نظّمها أهل « خجندة » ؛ ودارت معارك مستمرة ، كانت قوات المسلمين تخرج كلَّ يومٍ منها بانتصاراتٍ جزئية ، دون الوصول إلى نصر حاسم ، وفرغ الناس من قتالهم ذات يوم ، فركبوا خيولهم وانتشروا في كلّ مكان ، فوصل منهم رجل إلى موقعٍ مرتفع يُشْرف على السهل ، ونظر فيما حوله ، فقال لصاحب له : « تاللهِ ما رأيتُ كاليوم غرّة ، لو كان هيجٌ - قتال - اليوم ونحن على ما أرى مِن الانتشار لكانت الفضيحة » . فقال له صاحبه : « كلا ، نحن كما قال عوفُ بن الجزع :

نَــؤُمُّ البــلادَ لِحُــبِّ اللّقَــا ... وَلَا نَتّقي طـائرًا حيثُ طَـارا
سَنيحًـا ولا جـاريًا بَـارِحًا ... علىٰ كلِّ حالٍ نلاقي النّسارا »

ثم أتى قتيبةُ « كاشان » - مدينة تابعة لفرغانة - وأتاه الجنود الذين وجّههم إلى الشاش ، وقد فتحوها وحرّقوا أكثرها ، وانصرف قتيبة إلى مرو .

كان والي العراق ، الحَجّاج بن يوسف الثقفي يتابع عمليات قادته في أقصىٰ الشرق ، حيث كان محمد بن القاسم الثقفي قد فتح السند -

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٩١ .
(٢) إقليم الشاش : هو الإقليم الذي يقع شمال نهر سيحون ، وأمّا فرغانة : فهو الإقليم الذي يمتدُّ فيما وراء نهر سيحون ، ويُتاخم التركستان .

باكستان - وأخذ في فتح الهند ، وقد عرف الحجّاج أنّ قتيبة في حاجة لمزيد من الدعم ، حتى يستطيع متابعة فتوحاته ، فأرسل الحجاج إلى محمد بن القاسم أمْرًا ، جاء فيه : « وَجِّهْ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ أهل العراق إلى قتيبة ، ووجّهْ عليهم جَهْم بن زَحْر بن قيس ؛ فإنه في أهل العراق خيرٌ منه في أهل الشام » . ومضى جهم بن زَحْر إلى قتيبة ، وأصبحت فتوح قتيبة مِن نصيب أهل العراق ، فيما بقيتْ فتوح السند والهند من نصيب أهل الشام .

وصل جيش العراق بقيادة زَحْر إلى مرو في عام خمسٍ وتسعين هجرية ، وقتيبة يستعدّ لهجومه السنويّ ، وانطلق قتيبة حتى وصل الشاش - أو بكشُمَاهن - وهناك بلَغه موتُ الحجاج ، فَغَمَّهُ ذلك وَقَفَلَ راجعًا ، ووزّع قواتِهِ ، فترك قوةً في بخارىٰ ، ووجَّه قوةً أُخرىٰ إلى كس ونسف ، ثم أتى مرو فأقام بها ، ومكث ينتظر تعليماتِ أمير المؤمنين ، ولم تمضِ سوىٰ فترة قصيرة ، حتى جاءه كتاب الوليد بن عبد الملك ، يحضُّه على متابعة الجهاد ، وفيه : « قد عرَف أميرُ المؤمنين بلاءك وجهادك في قتال أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعُك وصانعٌ بك كالذي يجب لك ، فالْمُمْ مغازيَك ، وانتظرْ ثواب ربّك ، ولا تُغيِّبْ عن أمير المؤمنين كتُبك ، حتى كأني أنظر إلى بلادِك والثغرِ الذي أنت فيه » .

وهكذا أقرّ الوليدُ العمالَ الذين كان الحجاج قد عينهم ، وكان ذلك حافِزًا لقتيبة حتى يتابع فتوحَه .

نهايةُ فُتوحِ قُتيبةَ : فتح « كاشغر » ، وغزوُ الصِّين ، سنة ستٍّ وتسعين هجرية :

غادر قُتيبة بجيشه قاعدةَ عمليّاته في مرو ، وعندما وصل إلى فرغانة ، بلغه مـوت أمير المـؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وانتقال الإمـارة إلى أخيه

سليمان ، فتوجَّس قتيبة شرًّا لوجود بغضاء بينهما ، وقرّر اتخاذ ما هو ضروريّ من تَدَابير لتأمين عائلته ، خوفًا من البطش بهم ، فنقلهم إلى سمرقند ، ووضع على نهر جيحون رجلًا من مواليه ، يقال له : الخوارزمي ، وكلّفه بإقامة مركز مراقبةٍ عند مقطع النهر ، ومنع المرور إلّا لمن يحمل إذنًا بالعبور مِن قِبل قُتيبة ، ثم إنّه أرسل قوة استطلاع ، لارتياد شِعب عصام ، وتمهيد الطريق للتقدُّم نحو كاشغر ، وهي أدنىٰ مدائن الصين ، ومضىٰ قتيبة بعد ذلك فأوغل في تقدُّمه حتى قرب من الصين . فكتب إليه ملك الصين : « أنِ ابعث إلينا رجلًا من أشراف مَنْ معكم يخبرنا عنكم ، ونُسائله عن دينكم » . فانتخب قتيبةُ من عسكره اثني عشر رجلًا من أبناء القبائل ، لهم جمالٌ وأجسام وألْسُن وشعور وبأس ، بعد ما سأل عنهم ، فوجدهم من أفضل الرجال الذين يمكن اعتمادهم ، وتحدّث إليهم ، فتأكّد مِن صحة انتقائهم ، رجولةً ورجاحةَ عقلٍ ، فأمر لهم بعُدّة حسنة من السلاح ، والمتاع الجيّد ، من الخزّ والوَشْي ، واللّين من البياض والرقيق ، والنعال والعطر ، وحمَلهم على خيول مُطَهّمةٍ تُقاد معهم ، ودوابَّ يركبونها ، وكان هبيرة بن المشمرج الكلابي مُفّوهًا ، زَلِق اللسان ، فقال : « يا هبيرة ، كيف أنت صانع ؟ » . قال : « أصلح اللهُ الأمير ! قد كُفيتَ الأدبَ ، وقلْ ما شئتَ أقلْه ، وآخُذ به » . قال : « سيروا على بركة الله ، وبالله التوفيق ، لا تضعوا العمائمَ عنكم حتى تقْدموا البلاد ، فإذا دخلتم عليه ، فأعلموه أني قد حلفتُ ألا أنصرِف حتى أطأ بلادهم ، وأختم ملوكَهم ، وأجبي خراجَهم » .

وانطلق الوفد بقيادة هبيرة بن المشمرج ، فلمّا قدِموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا الحمَّام ، ثم خرجوا فلبسوا ثيابًا بيضاء تحتها الغلائل ، وتطيّبوا بالبخور والعطور وَلَبِسوا النعال الرقيقة . وارتدَوْا الأرْدِيَة ،

ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته ، فجلسوا ، فلم يكلّمهم الملك ولا أحدٌ من جلسائه ، فنهضوا ، فقال الملك لمن حضر المجلس : « كيف رأيتم هؤلاء ؟ » . قالوا : « رأينا قومًا ما هم إلا نِسَاء » . فلما كان الغد أرسَلَ إليهم فَلَبِسوا الوَشْي وعمائم الخز والمطارف ، وغَدَوْا عليه ، فلما دخلوا عليه ، قيل لهم : « ارجعوا » ، فقال لأصحابه : « كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ » . قالوا : « هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال مِن تلك الأولى . وهم أولئك » . فلمّا كان اليوم الثالث أرسل إليهم ، فشدّوا عليهم سلاحهم ، ولَبسوا البيض والمغافِرَ ، وتقلّدوا السيوف ، وأخذوا الرماح وتنكّبوا القِسِيّ ، وركبوا خيولَهم ، وغَدَوْا ، فنظر إليهم صاحب الصِّين ، فرأى أمثال الجبال ، فلما دَنَوْا ركزوا رماحَهم ، ثم أقبلوا نحوهم مشمِّرين وقد أثاروا الفزع ، مما حمَل الصّينيّين على منعهم والطلب إليهم العودة قبل الدخول إلى مجلس المَلِك ، فانصرفوا . وركبوا خيولهم ، واختلجوا رماحهم ، ثم دفعوا خيولهم حتى كأنها تطير بهم ، فقال الملك لأصحابه : « كيف ترونهم ؟ » . قالوا : « ما رأينا مثلَ هؤلاء قطُّ » . فلمّا أمسىٰ ، أرسل إليهم الملك أنِ ابعثوا إليَّ زعيمكم وأفضلَكم ، فبعثوا إليه هبيرة ، فقال له - حين دخل عليه - : « قد رأيتم عِظَم مُلكي ، وإنه ليس أحدٌ يمنعكم مني ، وأنتم في بلادي ، وإنما أنتم بمنزلة البَيْضة في كفِّي ، وأنا سائلك عن أمرٍ ، فإنْ لم تصدقني قتلتُكم » . قال : « سَلْ » . قال ملك الصين : « لِمَ صنعتم من الزّيّ في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ » . قال هبيرة : « أمّا زِيُّنا الأول ، فلباسنا في أهلنا وريحنا عندهم ، وأمّا يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءَنا ، وأما اليوم الثالث فزيُّنا لِعدوّنا ، فإذا هاجنا هَيْجٌ أو فَزَع ، كنا هكذا ... » . قال الملك : « ما أحسن ما دبّرتم دهركم ! فانصرِفوا إلى صاحبكم ، فقُولوا له ينصرف ؛ فإني عَرفتُ حِرْصَه وقلّة أصحابه ، وإلا بعثت عليكم

مَنْ يُهلِككُم ويُهلكه » . قال له هبيرة : « كيف يكون قليلَ الأصحاب من أوّلُ خيلِه في بلادك وآخرها في منابت الزَّيتون ؟! وكيف يكون حريصًا مَن خلّف الدنيا قادرًا عليها وغزاك ؟! وأمّا تخويفُك إيّانا بالقتل ، فإنّ لنا آجالًا إذا حضرتْ فأكرمُها القتل ، فلسنا نكرهُهُ ولا نخافُه » . قال : « فما الذي يُرضي صاحبَك ؟ » . قال : « إنه قد حلف ألا ينصرفَ حتى يطأ أرضكم ، ويختم ملوكَكم ، ويُعطَى الجزية » . قال : « فإنا نُخرجه مِن يمينه ، نبعث إليه بترابٍ مِن تُراب أرضنا فيطؤه ، ونبعث بعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزيةٍ يرضاها » . ثم دعا ملك الصين بصِحافٍ مِن ذهبٍ فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمانٍ من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسنَ جوائزهم ، فساروا ، فقدِموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية ، وختَم الغلمة وردَّهم ، ووطِئَ الترابَ . وأوفد قتيبة هُبيرة للاتصال بأمير المؤمنين في دمشق ، فمات بقريةٍ مِن فارس .

وهل في الهِمَم فوقَ هذا ؟! وهل العزُّ إلّا هذا .. تَعجزُ كلماتُ الدنيا أمام هذا الأرِيجِ الفوّاح الذي لا يُوصَف بلسان .. وفي هذا قال سوادة ابن عبد الله السّلولي :

لا عيبَ في الوفدِ الذين بَعَثْتَهُمْ ... للصينِ إنْ سَلَكُوا طريقَ المنهَجِ
كَسَرُوا الجفونَ على القَذَى خوفَ الرَّدَى ... حَاشَا الكريمَ هبيرةَ بنَ مُشَمْرَجِ
لَمْ يرضَ غَيْرَ الخَتْمِ في أعناقِهِمْ ... ورهائِنٍ دُفِعَتْ بِحَملِ سَمْرَجِ
أدَّى رِسالَتَكَ التي اسْتَرعيْتَهُ ... وأتاكَ من حِنْثِ اليمينِ بمخْرَجِ

لله دَرُّ قتيبةَ ! وأيُّ شأنِهِ لم يكنْ عَجَبًا ؟

كان قتيبة إذا رجع من غزاته كلَّ سنة ، اشترى اثني عشر فرسًا من جياد الخيل ، واثني عشر هجينًا ، فيتركها لمن يرعاها ويعتني بها حتى

موعد الحرب ، فإذا تأهب لذلك ، وأقام معسكره ، قُيِّدَتِ الخيولُ وأُضْمِرَتْ ، فلا يقطع نهرًا بخيلٍ حتى تَخِفَّ لحومُها ، فيحمل عليها مَن يحمله في الطلائع ، وكان يبعث في الطلائع الفرسانَ من الأشراف ، ويبعث معهم رجالًا من العجم ، ممّن يُستنْصَح على تلك الهُجُن - كأدِلَّاء - وكان إذا أمر بطليعةٍ ، أمر بلَوْحٍ فنُقش ، ثم يَشقُّه شَقَّتيْن ، فيعطي شقّةً إلى قائد الطليعة ، ويحتفظُ بالشّقِّ الآخر ، ويأمره أنْ يدفِن الشّقَّ في موضعٍ يحدّده له ، من مخاضة معروفة ، أو تحت شجرة معلومة ، أو خَرِبة مُميّزة ، ثم يبعث بعده مَن يسترجعها ليتأكّد مِن صحّة تنفيذ الطليعة لواجبها الاستطلاعي[1] .

فرحم الله قتيبة وغفرَ له ، مضىٰ إلى ربِّه ، وبقيتْ فتوحاتُه وأيّامُه مناراتٍ تُضيءُ أعماق التاريخ ، وتُرسل بظلالها إلى نهاية التاريخ .

يقول الحافظ ابن كثير - عَن قتيبة - في « البداية والنهاية » (٩ / ١٤٩) : « يُقال : إنه ما كسرت له رايةٌ . وكان من المجاهدين في سبيل الله ، واجتمع له مِن العساكر ما لم يجتمع لغيره » .

ويقول أيضًا في « البداية والنهاية » (٩ / ١٧٥ - ١٧٦) : « كان قتيبة بن مسلم أبو حفص الباهلي مِن ساداتِ الأمراء وخيارهم ، وكان مِن القادة النُّجباء الكُبَراء والشجعان ، وذوي الحروب والفتوحات السعيدة ، والآراء الحميدة ، وقد هدىٰ الله على يديْه خلقًا لا يحصيهم إلَّا الله ، فأسلموا ودانوا لله عز وجل ، وفتَح مِن البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئًا كثيرًا ، واللهُ سبحانه لا يُضيّع سَعْيَهُ ، ولا يخيّب تعبَه وجهادَه .

ولكن زلَّ زلَّةً كان فيها حَتْفُهُ ، وفعل فِعْلةً رَغِمَ فيها أنفُه ، وخلَع

(١) قتيبة بن مسلم لبسّام العسلي ، من صـ ٢٥ - ٢٨ ، مختصرًا .

الطاعة فبادرتِ المنية إليه ، لكِنْ سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفّر الله بها سيئاته ، ويضاعف بها حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه ، ويتقبّل منه ما كان يكابده مِنْ مُناجَزة الأعداء » ، فرحمه الله رحمةً واسعة .

كأنّ أبا حفصٍ قتيبةَ لَمْ يَسِرْ بجيشٍ إلى جيشٍ ولمْ يَعْلُ مِنْبَرا
ولمْ تَخْفِق الراياتُ والقومُ حَوْلَهُ وُقوفٌ وَلَمْ يشهدْ لَهُ الناسُ عَسْكَرَا

رحمة الله على البطل الذي أذلّ ملوكَ الكُفر .

مضَىٰ ابنُ سعيدٍ حيثُ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ ولا مغـربٌ إلَّا لَهُ فيهِ مَـادِحُ
كأنْ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سِوَاكَ وَلَمْ تَقُمْ عَـلَىٰ أحـدٍ إلَّا عَلَيْكَ النَّوائِحُ
لَئِنْ حَسُنَتْ فِيكَ المَرَاثي وذكْرُهَا لقدْ حَسُنَتْ مِنْ قَبْلُ فيكَ المَدَائِحُ

الأَميرُ الضِّرْغامُ ، قائدُ الجيوش ، الجَرَادَةُ الصَّفراءُ ، أبو سعيدٍ مَسْلمةُ بنُ عبدِ المَلِك :

هكذا نعتَه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٥ / ٢٤١) ، وقال أيضًا : « له مواقف مشهودةٌ مع الروم ، وهو الذي غزا القسطنطينيّة ، وكان ميمونَ النقيبةِ .

قال اللَّيْث : وفي سنةِ تسعٍ ومائة غزا مَسْلمة التُّركَ والسند » .

وقال الذهبي أيضًا (٥ / ٢٤١) : « قلت : كان أَوْلَىٰ بالخلافة من سائر إخوتهِ ، وفيه يقول أبو نُخَيْلَةَ :

أمسلمُ إني يا ابنَ خيرِ خليفةٍ ويا فارسَ الهَيْجَاءِ يا جَبَلَ الأرضِ
شكرتُكَ إنَّ الشّكْرَ حَبْلٌ مِنَ التُّقَىٰ وما كلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نعمةً يُقْضِي »

في سنة ستٍ وثمانين : غزا مسلمةُ بلاد الروم ، فقتل وَسَبَىٰ وغنِمَ وَسَلِمَ ، وافتتح حصن « بولق » ، وحصن « الأخرم » ، من أرض الروم .

وفي سنة سبْعٍ وثمانين : غزا مسلمة بلاد الروم ، فقتل منهم خلقًا كثيرًا ، وفتح حصونًا كثيرةً ، وَغَنِمَ غنائمَ جَمَّةً .

وفي سنة ثمانٍ وثمانين : « غزا الصائفةَ مسلمة بن عبد الملك ، وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فافتتحا بمن معهما من المسلمين حِصنَ « طوانة » ، في جمادى من هذه السنة - وكان حصنًا منيعًا - اقتتل الناسُ عنده قتالًا عظيمًا ، ثم حمل المسلمون على النصارىٰ ، فهزمُوهم حتى أدخلوهم الكنيسة ، ثم خرجتِ النصارىٰ فحملوا على المسلمين ، فانهزم المسلمون ، ولم يبقَ أحد منهم في موقفه ، إلَّا العباس بن الوليد ومعه ابن مُحَيْريز الجمحي ، فقال العباس لابن محيريز : أين قُرَّاء القرآن الذين يريدونَ وجهَ الله عز وجل ؟ فقال : نادِهِمْ يأتوك . فنادىٰ : يا أهل القرآن . فتراجع الناسُ فحملوا على النصارىٰ ، فكسروهم ولجئوا إلى الحصن ، فحاصروهم حتى فتحوه »[١].

وفي سنة تسعٍ وثمانين : « غزا مسلمة وابن أخيه العباس بلادَ الروم ، فقتلا خلقًا كثيرًا ، وفتحا حصونًا كثيرة ، منها حصن « سورية » و« عَمورية » و« هرقلة » و« قمورية » ، وغَنِمَا شيئًا كثيرًا وأَسَرَا جَمًّا غفيرًا »[٢].

وفي سنة تسعين من الهجرة : غزا مَسْلَمَة والعباس بلاد الروم ، ففتحا حصونًا ، وقتلا خلقًا من الروم وَغَنِمَا ، وأسرا خلقًا كثيرًا .

وفي سنة إحدى وتسعين : « غزا الصائفةَ مسلمةُ بن عبد الملك وابن أخيه عبد العزيز بن الوليد ، وفيها غزا مسلمة بلادَ الترك ، حتى بلغ البابَ

(١) البداية والنهاية ٩ / ٧٩ .
(٢) البداية والنهاية ٩ / ٨١ .

مِن ناحية أذربيجان ، ففتح مدائن وحصونًا كثيرةً أيضًا »[١] .

وفي سنة اثنتين وتسعين : « غزا مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم ، ففتحا حصونًا كثيرةً وَغَنِمَا شيئًا كثيرًا ، وهربتْ منهم الرومُ إلى أقصى بلادهم »[٢] .

وفي سنة أربع وتسعين : افتتح مسلمة « سندرة » ، مِن أرض الروم .

وفي سنة خمس وتسعين : فتح مسلمة بن عبد الملك مدينةً في بلاد الروم ، ثم حرّقها ، ثم بناها بعد ذلك بعشرِ سنين .

وفي سنة سبعٍ وتسعين : غزا مسلمة بن عبد الملك أرضَ « الوضاحية » ، ففتح الحصن الذي بناه « الوضاح » صاحب الوضاحية ، وفيها غزا مسلمة أيضًا « برجمة » ففتح حصونًا و« برجمة » وحصن « الحديد » و« سررا » ، وشتّى بأرض الروم .

قال ابن كثير : « قال الزبير بن بكّار : كان مَسلمةُ مِن رجال بني أُميّة ، وكان يُلقَّب بالجرادة الصفراء ، وله آثارٌ كثيرة ، وحروبٌ ونِكاية في العدو ، من الروم وغيرهم . قلتُ : وقد فتح حصونًا كثيرة من بلاد الروم . ولمّا وُلّي غزْوِ « أرمينية » ، غزا الترك ، فبلغ بابَ الأبواب ، فهدم المدينة التي عنده ، ثم أعاد بناءَها بعد تسع سنين .

وفي سنة ثمانٍ وتسعين : غزا القسطنطينية فحاصرها وافتتح مدينة الصَّقَالِبَة ، وكَسَرَ ملكهم « البرجان » ، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية ، وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدَّةً عظيمة ، وجاع المسلمون

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٨٦ .

(٢) البداية والنهاية ٩ / ٨٨ .

عندها جُوعًا شديدًا ، فلما وُلّي عمر بن عبد العزيز ، أرسل إليهم البريدَ يأمرهم بالرجوع إلى الشام ، فحلف مسلمة أنْ لا يقلع عنهم حتى يَبْنُوا له جامعًا كبيرًا بالقسطنطينية ، فَبَنَوْا له جامعًا ومنارةً ، فهو بها إلى الآن ، يصلّي فيه المسلمون الجمعة والجماعة . وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومَسَاعٍ مشكورة ، وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصونًا وقلاعًا ، وأحْيَا بعزمه قصورًا وبقاعًا ، وكان في زمانه في الغزوات نظيرَ خالدِ بن الوليد في أيّامه ؛ في كثرة مغازيه ، وكثرة فُتوحه ، وقوّةِ عزْمه ، وشدَّةِ بأسه ، وجوْدة تصرُّفه في نقْضه وإبْرامه . وقد رثاه بعضهم - وهو ابن أخيه : الوليد بن يزيد بن عبد الملك - فقال :

أقـولُ ومَـا البُعْـدُ إلَّا الرَّدَىٰ … أمَسْـلمُ لا تبعِدَنْ مَسْلمهْ
فقدْ كنتَ نورًا لنا في البـلا … دِ مُضيئًا فقد أصبَحَتْ مُظلِمهْ
ونكتُمُ موْتَكَ نَخْشَىٰ اليقيـ … ـنَ فأبدىٰ اليقينُ لنا الجمجُمَهْ »[١]

صَلاحُ الدِّين : سيّدُ المجاهدين ، بَطَلُ حِطِّين ، ومُحَرِّر القُدْس من أَيْدِي الصَّلِيبيِّين :

سلامًا صلاحَ الدينِ يا خير قائِدٍ … بأمجـادِهِ تاجُ الفـتوحِ تَزَيَّنَـا
سلامًا صلاحَ الدينِ إنَّا بحاجةٍ … لِمثلِكَ مَن يُعْلِي علىٰ الحقِّ صَرْحَنَا
بِهِ نُدرِكُ الغـاياتِ طُـرًّا وَإِنَّنَا … على موعدِ الفجرِ الذي قدْ تَأَذَّنَا[٢]

قال العلّامة أبو شامة في كتابه « عيون الرَّوْضتيْن في أخبار الدَّوْلَتيْن »: « قال أبو طيّ حميد النجار : كنتُ بالمَوْصل في سنةِ خمسٍ وخمسين وخمسمائة ،

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٣٤١ - ٣٤٢ .
(٢) « سلامًا صلاحَ الدين » ، من ديوان : « نداء الحق » ، لأحمد محمد الصديق صـ ٢١٠ - ٢١١ - دار الضياء .

فزرتُ الشيخ عمرَ الملّاء ، فدخل إليه رجل ، فقال : أيُّهَا الشيخ ، رأيتُ البارحةَ في النوم كأنّي بأرضٍ غريبة لا أعرفها ، وكأنّها مملوءةٌ بالخنازير ، وكأنَّ رجلًا في يده سيفٌ ، وهو يقتل الخنازير ، والناس ينظرون إليه ! فقلتُ للرجل : هذا عيسىٰ بن مريم ، هذا المهدِي . قال : لا . فقلتُ : مَن هذا ؟ قال : هذا يوسف . ما زادني على ذلك . قال : فتعجَّبتِ الجماعةُ من هذه الرؤيا ، وقالوا : إنه سيقْتُل النصارىٰ رجلٌ يُقال له : يوسف . وحَدَسَتِ الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن ، صاحب المغرب ، وكان المُسْتَنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة ، واسمُه يوسف ، فحَدَس بعض الجماعة عليه . قال : وأُنسِيتُ أنا هذه الواقعة ، فلمّا كانت كسرة « حِطِّين » ذكرتها ، فكان يوسفُ « الملكَ الناصِرَ » ، رحمه الله . قال : وحدّثتني ظِئْرٌ لي من نساء الحَلَبِيِّين ، كانت تداخلُ أختَ السلطان الملك الناصر ، قالت : كانت والدة السلطَان تُخبر أنَّها أُتيتْ في نوْمها - وهي حامِلٌ - بالسلطان . فقيل لها : إنّ في بطنك سيفًا من سيوف الله . رحمة الله عليه ».

استقرّ الأمرُ لصلاح الدين في مصر والشام وكثيرٍ من مدن إقليم الجزيرة ، وقد مرض في إحدىٰ حملاته على إقليم الجزيرة ، فنذَر لَئن شفاه الله ليصرفنَّ كلَّ همّه لقتالِ الفرنجة وفتْح بيت المقدس ، ولَيقتلنَّ صاحبَ الكرك الصليبيَّ بيده ، وكان هذا النذر بإشارةٍ من وزيره القاضي الفاضل : عبد الرحيم البِيْسَاني .

بعد هذا بدأ بحملاتٍ مركَّزةٍ على المدن القريبة ، قبل أن يُظفره الله بالفتح الأعظم ، وهو استرجاعُ بيت المقدس ، فقدِ انتصر على الفرنجة في موقعة « مرج عيون » ، سنة ٥٧٥ هـ ، وموقعة « بانياس » ، وأسر رؤساءهم ، ودمّر حصن « الأحزان » في صفد ، وما زال يناوش الفرنجة حصنًا بعد حصن حتى تجمّع عنده جيش كبير في سهل حطِّين ، حيث كانت الموقعة

الكبرىٰ التي كَسَرت عِظامَ الصَّليبيّين ، ومهَّدتْ لفتح بيت المقدس .

حِطِّينُ مَجْزرة للصّليبيّين :

قال أبو شامة في « عيون الروضتيْن » عن سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة : « وهي سنة كسرة حطين ، وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين ؛ برز السلطان - صلاح الدين - مِن دمشق أوَّلَ المحرَّم في العسكر العَرَمْرَم ، ومضىٰ بأهل الجنة لجهاد أهل جَهَنم ، والتقوا واقتتلُوا إلى الليل ، وقد حيل بين الفرنج وبين الماء ، فباتوا حَيَارىٰ ، ومن العطش سُكارىٰ ، وأصبح يومُ السبت الخامس والعشرين مِن ربيعٍ الآخر ، وهو يوم النصرة ووقوع الكسرة ، وقد برّح بالفرنج العطشُ ، وكان النسيم في وجوههم ، والحشيش تحت أقدامهم ، فرمىٰ بعضُ متطوِّعة المجاهدين النارَ في الحشيش ، وهو هشيمٌ ، فتأجّج عليهم استعارها ، وتوهّج أوارها ، فأوَوْا إلى جبل حطّين ليعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطّين بوارقُ البوار ، ولمّا أحسّ القومص بالكسرة ، هرب بطلبهِ ، وثبت الباقون ، واستقبلوا ، فحطُّوا خيامهم على غارب حطّين ، حين رأوا المسلمين بهم مُحيطين ، فأُعْجِلوا عن ضرْب الخيام بضرب الهام ، وأُحيط بهم مِن حَوَاليهم ، ودارت الدوائر عليهم ، وترجَّوْا خيرًا ، فترجّلوا عن الخيل ، وجرفهم السيف جرْف السيل ، ومُلِكَ عليهم الصليب الأعظم ، وهو صليب الصلبوت ، فأيقنوا بالهلاك ، فما برِحُوا يُؤسَرُون ويُقْتلون ، ووصل إلى مقدّمهم و« إبرنسهم » وملكهم ، فتمَّ أسْر الملك[١] وإبرنس الكرك[٢] ، وأخي الملك جفرىٰ ، و «أوك» صاحب جُبيل ، و « هنفرىٰ بن هنفرىٰ »، وابن صاحب إسكندرونة صاحب مَرَقية ، وأُسِر مَن نجا من القتل ، من

---

(١) الملك جفرىٰ .

(٢) البرنس : أرناط صاحب الشوبك والكرك .

الداويّة ومقدّمها ، والأسبتاريّة ومعظَّمها ، ومِن البارونية مَن أخطأ البوار ، فأصابه الإسار ، وأُسر الشيطانُ وجنوده ، وملك الملك وكنوده ، وجبَر الله الإسلام بأسرهم ، وقُتلوا وأُسروا بأسرهم ، فَمَن شاهَد القَتْلىٰ ، قال : ما هناك أسير . وَمَن عاين الأسرىٰ ، قال : ما هناك قتيل . ومُذِ استولىٰ الفرنج على ساحل الشام ، ما شُفِي للمسلمين كيوم حطّين غليلٌ ، فما أفْلَتَ مِن تلك الآلاف إلَّا آحاد ، وما نجا مِن أولئك الأعداء إلَّا أعداد ، وامتلأ المَلأُ بالأسرىٰ والقتلىٰ »(١) .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٢ / ٣٤٢) : « جاءتِ العساكرُ المصرية وتوافتِ الجيوش المشرقيّة ، وسار السلطان قاصدًا بلاد الساحل ، وكان جملةُ مَن معه مِن المقاتلة اثني عشر ألفًا ، غيرَ المتطوِّعة ، فتسامعتِ الفرنج بقدومه ، فاجتمعوا كلُّهم وتصالحوا فيما بينهم ، وصالَح « قومس » طرابلس ، و« برنس » الكرك الفاجر ، وجاءُوا بحدّهم وحديدهم ، واستصحبوا معهم صليب الصلبوت ، يحمله منهم عبّاد الطاغوت ، وضُلّال الناسُوت ، في خلقٍ لا يَعلم عدّتهم إلا الله عز وجل ، يُقال : كانوا خمسين ألفًا ، وقيل : ثلاثًا وستين ألفًا ، وقد خوّفهم صاحبُ طرابلس من المسلمين ، فاعترض عليه البرنس صاحب الكرك ، فقال له : لا أشكُّ أنَّك تحبُّ المسلمين وتخوّفنا كثْرتَهم ، وسترى غِبَّ ما أقول لك . فتقدّموا نحو المسلمين ، وأقبل السلطان ففتح « طبريّة » ، وحاز البحيرة في حوْزته ، ومنع اللهُ الكفرة أنْ يصلوا منها إلى قَطْرة ، حتى صاروا في عطش عظيم ، فبرز السلطان إلى سطح الجبل الغربي مِن طبريّة ، عند قرية يُقال لها : « حطّين » ، التي

(١) « عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » لأبي شامة صـ ١٣٥ – ١٣٦ – طبع : وزارة الثقافة السورية .

يُقال : إنّ فيها قبر شُعيب عليه الصلاة والسلام ، وجاء العدو المخذول ، وكان فيهم صاحب عَكًّا ، و« كفرنكا » ، وصاحب الناصرة ، وصاحب « صُور » ، وغير ذلك من جميع ملوكهم ، فتواجه الفريقان ، وتقابل الجيشان ، وأسْفَرَ وَجْهُ الإيمان ، واغْبَرَّ وأقْتَمَ وأظلم وجهُ الكفر والطغيان ، ودارت دائرة السَّوْءِ على عبدة الصُّلبان ، وذلك عشية يوم الجمعة ، فبات الناس على مَصافِّهم ، وأصبح صباح يوم السبت ، الذي كان يومًا عسيرًا على أهل الأحد[1] ، وذلك لخمس بَقينَ من ربيع الآخر ، فطلعتِ الشمس على وجوه الفرنج ، واشتدّ الحرُّ ، وقوي بهم العطش ، وكان تحت أقدام خيولهم حشيشٌ قد صار هشيمًا ، وكان ذلك عليهم مشئومًا ، فأمر السلطان النّفّاطةَ أنْ يرموه بالنِّفْط ، فرمَوْه ، فتأجج نارًا تحت سنابك خيولهم ، فاجتمع عليهم حَرُّ الشمس وحرُّ العطش ، وحرّ النار وحرّ السلاح ، وحرُّ رشْق النّبال ، وتبارز الشجعان ، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة ، فحملوا ، وكان النصر من الله عز وجلّ ، فمنحهم اللهُ أكتافهم ، فقُتل منهم ثلاثون ألفًا في ذلك اليوم ، وأُسِرَ ثلاثون ألفًا مِن شجعانهم وفرسانهم ، وكان في جملة مَن أُسِر جميعُ ملوكِهم ، سوىٰ « قومس » طرابلس ؛ فإنّه انهزم في أول المعركة ، واستلبهم السلطانُ صليبَهم الأعظم ، وهو الذي يزعمون أنه صُلب عليه المصلوب ، وقد غلّفوه بالذهب واللآلئ والجواهر النفيسة ، ولم يُسمع بمثل هذا اليوم في عزّ الإسلام وأهله ، ودَمْغِ الباطل وأهله ، حتى ذُكِر أنَّ بعضَ الفلاحين رآهُ بعضهم يقود نيِّفًا وثلاثين أسيرًا من الفرنج ، وقد ربطهم بطُنُبِ خيمةٍ ، وباعَ بعضُهم أسيرًا بنعْلٍ لِيَلْبَسَهَا في رِجلِهِ ، وجرَتْ أمورٌ لم يُسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين ، فللّهِ الحمد دائمًا كثيرًا ، طيّبًا مباركًا » .

---

(١) أي : النصارىٰ .

قال أبو شامة في « عيون الروضتين » (٢ / ١٣٦ - ١٣٩) :

« وامتلأ الملأ بالأسرىٰ والقتلىٰ . قال العماد : وعبرتُ بها فألفيْتُهَا محلّ الاعتبار ، وشاهدتُ ما فَعَلَ أهلُ الإقبال بأهل الإدْبار ، فمن قُتِلَ حَصَرَتِ الألسنة عن حصْره وعدِّه ، ومَن أُسر لم يَكْفِ أطْنَابُ الخِيَم لقيْدِه وشدِّه ، ولقد رأيتُ في الحبل الواحدِ ثلاثين وأربعين يقودهم فارس ، وفي بقعةٍ واحدة مائةً ومائتيْنِ يَحميهم حارس . قال القاضي بهاء الدين بن شدّاد : كان الواحدُ منهم العظيم يخلد إلى الأسْر خَوْفًا على نفسه ، ولقد حكىٰ لي مَن أثِقُ به أنه لقي بـ« حوران » شخصًا واحدًا ومعه طُنُبُ خيمةٍ ، فيه نَيِّفٌ وثلاثون أسيرًا يجرّهم وحده ، لِخُذلانٍ وقع عليهم .

وأمّا مقـدّمو الداويّة والأسبتارية ، فإنَّ السلطان اختار قتْلهم فقُتِلوا كلُّهم ، وأمَّا « البرنس أرناط » صاحب الكرك ، فكان السلطان قد نذر دَمَه إنْ ظفِر به ، وسبب ذلك : أنه كان عبرَ به بـ« الشوبك » قَفَلٌ مِن الدّيار المصرية في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه اللهَ والصلحَ الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفافَ بالنبي ﷺ ، وقال : قولوا لمحمّد : لِمَ لمْ يُخلّصكم ؟! وبَلغ ذلك السلطانَ رحمه الله ، فحمَلَه الدينُ والحميّةُ على أنه نذَر إنْ ظفر به قتلَه ، فلمّا فتح الله عليه بالنصر والظفر ، جلس في دِهْليز الخيمـة ؛ فإنها لم تكنْ نُصبتْ بعـد ، والناس يتقرّبون إليه بالأسارىٰ وبمَن وجدوه مِن المقدّمين ، ونُصبتِ الخيمة وجلس فرِحًا مسرورًا ، شاكرًا لما أنعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك جفرىٰ وأخاه والبرنس أرناط ، وناول الملك شربةً مِن جُلابٍ مبردٍ بثلجٍ ، فشرب منها ، وكان على أشدّ حالٍ من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس ، فقال السلطان للترجمان : قُل للملِك : أنت الذي سُقيتَه وإلّا أنا ما سقيتُه ، وكان على جميل عادة العرب وكريمِ أخلاقهم أنَّ الأسير إذا أكل أو شرب مِن

مال مَن أسَرَه أَمِن ، فقصد السلطان بذلك : الجرْي على مكارم الأخلاق[(١)] ، وأَقْعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس ، وواقفه على ما قال ، ثم قال له : ها أنا أنتصر لمحمد ﷺ[(٢)]. ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل ، فقام إليه وسلّ المجناةَ وضربه بها ، فحلّ كَتِفه ، وتمّم عليه مَن حضر ، ثم رُمي على باب الخيمة » .

وورد إلى بغداد كتابٌ مِن بعض مَن حضر الوقعة ، يقول فيه : « بلغ ثمنُ الأسير بدمشق ثلاثة دنانير ، ويباع الرجلُ وزوجته وأولاده في النداء بيْعةً واحدةً ، ولقد بيعَ بحضوري رجلٌ وامرأته وخمسة أولادٍ لهما – ثلاثة بنين وابنتان – بثمانين دينارًا ، وأُخذ صليب الصلبوت ، وعُلّق على قنطاريّة منكّسًا ، ودُخل به إلى دمشق ، وكلّ يوم نرىٰ من رءوس الفرنج مثلَ البطيخ ، وأُخذ من البقر والغنم والخيل والبغال والحمير ، ما لم يجئْ مَن يشتريه ؛ من كثرة السَّبْي والغنائم . قال : وبلغني أنّ بعض فقراءِ العسْكر باعَ أسيرًا بزربول[(٣)] ، فقيل له في ذلك : فقال : أردتُ أنْ يُقال : بلَغَ مِن كثرتهم وهوانهم أنْ بِيع واحدٌ منهم بزرْبول » .

لله دَرُّكَ يا صلاح !

---

(١) والشرع خلاف ذلك ؛ قال تعالىٰ : ﴿ ما كان لِنبيٍّ أنْ يكونَ لهُ أسْرَىٰ حتَّى يُثْخِنَ في الأرضِ تُريدونَ عَرَضَ الدنيا واللهُ يريدُ الآخرةَ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧] ، فإنّ مَن أطلقهم كانوا أشدّ الناس عليه بعد ذلك في حصاره لعكّا .

(٢) وفي البداية والنهاية ١٢ / : « نعم أنا أنوبُ عن رسول الله ﷺ في الانتصار لأُمّته » .

(٣) الزربول : الحذاء ، وهي لا تزال تُطلق على ما يُلبَس في القدم بين البدو في سورية .

حَطَطْتَ على حطِّينَ قَدْرَ مُلوكِهِمْ ولَمْ تُبقِ مِن أجناسِ كُفرهمُ جِنْسَا
سَبَايا بلاد اللهِ مملوءة بِهَا وقدْ شُريتْ بَخْسًا وقد عُرضَتْ نَخْسَا
يُطافُ بِهَا الأسواقَ لا راغبٌ لَهَا لِكثرتِهَا كَمْ كثرةٍ تُوجِبُ الوَكْسَا
شَكَا يَبَسًا رَأْسُ البرنسِ الذي بِهِ تندّىٰ حُسامٌ حاسِمٌ ذلك اليبْسَا

وقال الجليّاني :

يا وقعةَ التَّلِّ ما أبقيتِ مِن عَجَبٍ جحافلٌ لمْ يَفُتْ مِن جمْعِها بَشَرُ
ويا ضُحىٰ السَّبتِ ما للقومِ قد سَبَتُوا تهوّدُوا أمْ بكأسِ الطعنِ قدْ سَكِرُوا
حطّوا بحطّين مُلّاكًا فيَا عجبًا في ساعةٍ زالَ ذاكَ المُلْك والقدَرُ
أهوىٰ إليهمْ صلاحُ الدينِ مُفترسًا وهوَ الغَضَنْفَرُ أعدىٰ ظُفْرَهُ الظفرُ
أملىٰ عليهمْ فصاروا وسْطَ كِفّتِهِ كَسِرْبِ طيرٍ حَوَاهَا القانِصُ الذَّكرُ
وأنجزَ اللهُ للسلطانِ موْعِدَهُ ونذْرَهُ في كَفُورٍ دينُهُ البَطرُ
وعايَنَ الملكُ الأبرنسَ في دمِهِ فماتَ حيًّا وحيي وهو يعتذر
ما لي أرىٰ ملك الإفرنجِ في قفصٍ أينَ القواضِبُ والعسّالةُ[1] السُّمُرُ
والأسبتارُ إلى الدَّيْويّةِ الْتأمُوا كأنَّهم سدُّ يأجوجٍ إذا اشْتجرُوا
يتلُوهُمُ صلبوتٌ سِيق منتكِسًا وحوْلَهُ كلُّ قسِّيسٍ لهُ دبرُ

وقال أبو الحسن الساعاتي لصلاح الدين :

أدْرتَ على الفرنجِ وقدْ تلاقَتْ جموعُهُمُ عليكَ رَحّى طحُونا
ففي بَيْسَانَ ذَاقُوا منْكَ بُؤْسًا وفي صفدٍ أتوْكَ مُصَفَّدِينَا
لقدْ جرَّدتَ عَزْمًا ناصِريًّا يحدِّث عنْ سنَاهُ طُور سينا
فكنتَ كَيُوسفَ الصِّديق حقًّا لهُ هَوَتِ الكواكبُ سَاجدينا
لقدْ أتعبتَ مَنْ طلبَ المعالي وحاولَ أنْ يَسوسَ المُسْلمينا

---

(١) رمح عسال وعسول : لَدِن مضطرب .

وإنْ تكُ آخِـرًا فخـلاكَ ذمٌّ ... فـإنَّ محمـدًا في الآخِرينـا

« وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان يهنِّئه بهذه الكسرة ؛ فإنّه كان غائبًا بدمشق ، مِن جملة الكِتاب : لِيَهْنِ المولىٰ أنّ الله قد أقام به الدين القيّم ، وأنه كما قيل : أصبحتَ مولاي ومولىٰ كلِّ مسلم ، وأنه قد أسبغ عليه النعمتيْن الباطنة والظاهرة ، وأورثه المُلْكَين : مُلْك الدنيا وملك الآخرة ، كتب المملوك هذه الخدمة ، والرؤوسُ إلى الآن لم تُرفع من سجودها ، والدموعُ لم تُمسح مِن خدودها ، وكلّما فكّر الخادم في أنَّ البِيَع تعود وهي مساجد ، والمكان الذي كان يُقال فيه : إن الله ثالث ثلاثة ، يُقال فيه : إنه هو الواحد ، جدّد لله شكرًا ، تارة يفيض من لسانه ، وتارة يفيض من جفنهِ ، وجزىٰ يوسفَ خيرًا على إخراجه الحقَّ من سجنه ، والمماليك ينتظرون أمْر المولىٰ ، فكلُّ مَن أراد أنْ يدخل الحمّام بدمشق ، قد عوَّل على دخول حمّام طبرية .

تلكَ المكارمُ لا قِعْبانَ مِن لَبَنٍ ... وذلكَ الفتحُ لا سيفَ بنِ ذي يزَنِ

وللألسنة بعدُ في هذا الفتح سبْحٌ طويل ، وقولٌ جليل » .

ولقد فتح صلاح الدين بعد كسرة حطين ، وقبل فتح بيت المقدس ، أكثرَ من خمسين بلدة ومدينة ، ففتح طبرية ثاني يوم الكسرة . « قال القاضي بهاء الدين بن شداد : ثم رحل السلطان طالبًا عكّا فقاتلها بكرةَ الخميس مستهلّ جمادى الأول ، فأخذها واستنقذ مَن كان بها من الأُسارىٰ ، وكانوا زهَاءَ أربعة آلاف نفس ، واستولىٰ على ما فيها من الذخائر والأموال ، والتجاير والبضائع ؛ فإنها كانت مظنّة التجار ، وتفرّقت العساكر في بلاد الساحل ، يأخذون الحصون والقِلاع والأماكن المنيعة ، فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية ، وصفورية والناصرة ، وكان ذلك لخُلوّ الرجال بالقتل والأسر .

وقال العماد : خرج أهل البلد - يعني عكّا - يطلبون الأمان ، فأمّنهم على أنفسهم فقط ، وفتحوا البلد يوم الجمعة ، فجئْنا إلى كنيستها العظمىٰ ، فرتّب بها المنبر والقبلة ، وهي أول جمعة أُقيمتْ بالساحل بعد يوم الفتح[1] ، وفتح العادل حصن « مجدل يابا » ، ومدينة « يافَا » عَنوة . وفُتحت « الفولة » ، وهي قلعة للداويّة حصينة ، وفيها ذخائرهم وأموالهم ، وفتحت « دبوريّة » ، و« جنين » و« زرعين » و« الطور » و« اللّجون » و« بيْسان » و« القيمون » و« مالعكا » و« طبرية » من الولايات ، و« الزيب » و « معليا » و « البعنة » و « إسكندرونة » و « منواث » و « أرسوف » ، واستولى على تلك الشموس والأقمار ، الكُسوف والخُسوف ، وفتح المسلمون « سبسطية » ، وفيها مشهد زكريا عليه السلام ، وقد اتخذه « الأقسا » كنيسةً ، وقد حجبوه وحلّوْه ، ففتح للمسلمين أبوابه ، وأظهر للمصلّين محرابه .

وأرسل السلطان إلى « تبنين » ابنَ أخيه تقيَّ الدين فضايقها ، فراسلوا السلطان وسألوه الأمان ، واستمهلوا خمسة أيام ، فأُمْهلوا ، وأَطلقوا أُسارىٰ المسلمين ، وهذا دأْبه في كلّ بلدٍ يفتحه ، أنه يبدأ بالأُسارى فيفكُّ قيودَها ، ويُعيد بعد عدَمها وجودَها ، فخلّص - تلك السنةَ - من الأسر أكثرَ مِن عشرين ألفِ أسير ، ووقع في أسْره من الكفار مائةُ ألف ، ثم تسلّم السلطان بعد « تبنين » : « صيدا » ، و« صرفند » ، و« بيروت » و« جبيل » ، وكان صاحب جُبيل في الأسر فسلّمها وسَلِم ، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجُبيل ونابلس مسلمين ، فذاقوا العزَّة بعد الذِّلة ، ورفع المسلمون رءوسهم ، وعرَفوا نفوسهم ، وكان كلّ مَن استأمن من الكفار يمضي إلى

---

(١) بعد غياب اثنتين وسبعين سنة .

صُور مَحْمِيّ الذّمار .

ونزل السلطان على عسقلان فحصرها ، وتردّدتْ مراسلاتٌ بين أهلها والملك ، ثم سلّموها يوم السبت سلْخ جمادى الآخرة ، وخرجوا بنسائهم وأموالهم ، وكان السلطان أخذ في طريقه إليها « الرملة » و« تُبنين » و« بيت لحم » و« الخليل » ، وأقام بها حتى تسلّم حصون : الداوية ، غزة ، والنطرون ، وبيت جبريل ، ولدّ ، والداروم ، ولم يبق في الساحل من جُبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور . وكان السلطان رحمه الله ، قد استدعى بالأساطيل من مصر ، فجاءت مع مقدّمها الحاجب لؤلؤ فطفِق يكسر ويكسب ، ويسلّ ويسلب ، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه »[1].

فتْحُ بيْتِ المقدس في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة هجرية :

أرسل شابٌّ من أهل دمشق - كان مأسورًا ببيت المقدس - رقعة إلى صلاح الدين ، فيها هذه الأبيات :

يَاأَيُّهَــا المــلكُ الذي ... لمعــالمِ الصُّلبــانِ نَكَّسْ
جَــاءَتْ إليكَ ظُلامــةٌ ... تسعىٰ مِنَ البيت المقدَّسْ
كلُّ المســاجدِ طُهِّــرَتْ ... وأنا علىٰ شرفي مُنجَّسْ

« قال القاضي شدّاد : لما تسلّم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس ، شمّر عن ساقِ الجد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرّقة ، فنزل عليه يوم الأحد ، خامس عشر رجب ، وكان مشحونًا بالمقاتِلة مِن الخيّالة والرّجّالة ، ولقد تجاوز أهل الخبرة عِدّة مَن كان

(١) عيون الروضتين ٢ / ١٤٨ - ١٥٢ .

فيه من المقاتِلة بما يزيد على ستين ألفًا ، ما عدا النسوان والصبيان .

قال العماد : وكان به مِن مقـدّمي الإفرنج « باليان بن بارزان » والبطرك الأعظم ، والذين أغفلتهم حياطة الفرسان الداويّة والأسبتاريّة ، والبارونية ، وقد حشـروا وحشـدوا ، فكانوا ستين ألفِ مقاتلٍ من فارس وراجل ، من أتباع الشيطان وعبَدة الصُّلبان ، فأقام السلطان بمنزلِهِ - غربيِّ القدس - خمسة أيام ، وسلّم إلى كلّ طائفةٍ من الجيش ناحية من السّور وأبراجه ، ثم تحوّل السلطان إلى ناحية الشام ؛ لأنه رآها أوسع للمجال ، والجلاد والنّزال ، وقاتل الفـرنج دون البلد قتالًا هَائِلًا ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في نصرة دينهم وقمامتهم ، واستُشهد في الحصار بعض أمراء المسلمين ، فحنق عند ذلك كثيرٌ من الأمراء والصالحين ، واجتهدوا في القتال ونصْب المجانيق والعرادات على البلد ، وغنّتِ السيوف والرماح الخطيّات ، والعيون تنظر إلى الصلبان منصوبة فوق الجدران ، وفوق قُبّة الصخرة صليب كبير ، فزاد ذلك أهل الإيمان حَنقًا وشدَّةً للتشمير ، وكان ذلك يومًا عسيرًا على الكافرين غيرَ يسير ، فبادر السلطان إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور ، فنقبها وعلقها ، وحشاها وأحرقها ، فسقط ذلك الجانب ، وخرَّ البرج برُمَّته ، فإذا هو واجِبٌ ، فلما شاهَد الفرنجُ ذلك الحادث الفظيع ، والخطْب المؤلم الوجيع ، قصد أكابرُهم السلطانَ ، وطلب صاحبها باليان الأمانَ ، ليحضر عند السلطان فأمّنه ، فلمّا حضر ترقّق للسلطان ، وذلّ ذُلًّا عظيمًا ، وتشفّع إليه بكلّ ما أمكنه ، فَلَمْ يُجِبْه إلى الأمان لهم ، وكانوا من قَبْلُ يقولون : كلّ واحدٍ منا بعشرين ، وكلُّ عشرة بمائتين ، ودون قمامة تقوم القيامة . فأبىٰ السلطان أن يجيبهم إلى الأمان ، وقال : ما آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدىٰ وتسعين سنة ، فإنّهم حينئذ استباحوا القتل ، فأنا أُفني رجالهم قتلًا ، وأحوي نساءَهم سَبْيًا . فقالوا :

إذا أيسْنا من أمانكم ، قاتلْنا قتالَ الدم ، فلا يُجرَح واحدٌ منا حتى يجرح عَشرة ، وأنّا نحرّق الدور ونخرّب القبة ، ونقلع الصخرة ، ونُعمي عيْن سلوان[١] ، ونخسف المصانع[٢] ، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير ، فنبدأ بقتلهم ، ثم نُهلك الأموال ، ونُعدم النساء والأطفال ، فلا يحصل لكم سبي ولا مال . فشاوَر السلطانُ أصحابه ، فقالوا : الصواب أنْ نُبيعهم نفوسهم ، ونُعمِّم بِصَغَار الجزية رءوسَهم ، ونُدخِل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهم . واستقرّ بعد مراودات ومعاوداتٍ عن كلّ رجلٍ عشرةُ دنانير ، وعن كلّ امرأة خمسة دنانير ، وعن كلّ صغير أو صغيرة ديناران ، ومَن عجز بعد أربعين يومًا عمَّا لَزِمه ، أو امتنع منه ، وما سَلّمَهُ ، ضُرب عليه الرِّقُ . ودخل ابن بارزان والبطرق ومقدّمو الداويّة والأسبتار في هذا الضّمان ، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء ، وسلّموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين مِن رجب ، وكان في القدس أكثر من مائة ألف إنسان ، من رجال ونساء وصبيان ، وأُغلقت دونهم الأبواب ، ورُتّب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النوّاب ، ووكّل بكلّ باب أمير ومقدّم كبير ، وحصّل لبيت المال ما يقارب مائتي ألف دينار ، وبقي مَن بقي تحت رِقّ وإسار »[٣] .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٢ / ٣٤٥ - ٣٤٦) : « كان جملة مَنْ أُسر بهذا الشرط ستةَ عشرَ ألفِ أسيرٍ ، من رجال ونساء ووِلْدان » .

« ولم يتفق للمسلمين صلاة الجمعة يومئذ ، ولكن نظّفوا المسجد

(١) وقفها عثمان بن عفان على ضعفاء بيت المقدس . وكانت في ربض مدينة القدس .
(٢) المصانع : الأبنية . في « لسان العرب » .
(٣) عيون الروضتين ٢ / ١٥٣ - ١٥٥ .

الأقصى مما كان فيه مِن الصلبان والرُّهبان والخنازير ، وخُرّبت دُور الداوية ، وكانوا قد بَنَوْهَا غرب المحراب الكبير ، واتخذوا المحراب مَشْتَّى - لعنهم الله - فنُظِّف ذلك كلّه ، وأُعيد إلى ما كان عليه في الأيام الإسلامية ، وغُسلت الصخرة بالماء الطاهر ، وأعيد غسلها بماء الوَرْد والمسك الفاخر ، وأُبرزت للناظرين ، وقد كانت مستورة مخبوءةً عن الزائرين ، ووضع الصَّليب عن قُبَّتها ، وعادت إلى حُرْمتها . ولمّا تطهّر بيت المقدس ممّا كان فيه من الصلبان ، والنواقيس والرهبان والقساقس ، ودخله أهل الإيمان ، ونُودي بالأذان ، وقرئ القرآن ، ووُحِّد الرحمان - كان أول جمعة أقيمت في الرابع من شعبان ، بعد يوم الفتح بثمان ، فنصب المنبر(١) إلى جانب المحراب ، وبُسطت البُسُط ، وعُلّقت القناديل ، وتُلي التنزيل ، وجاء الحقُّ وبطلت الأباطيل ، وصُفّت السجادات وكثرت السَّجدات ، وتنوّعتِ العبادات ، وارتفعتِ الدعوات ، ونزلتِ البركات ، وانجلتِ الكُربات ، وأُقيمت الصلوات ، وأذنَّ المؤذّنون ، وخرس القسّيسون ، وزال البوس ، وطابت النفوس ، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس ، وعُبد الله الأحد الصمد الذي ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص : ٣ - ٤] ، وكبّره الراكع والساجد ، والقائم والقاعد ، وامتلأ الجامع ، وسالت لِرقّة القلب المدامع ، ولمّا أذّن المؤذنون للصلاة قبل الزوال ، كادتِ القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال »(٢).

وجلس الفقهاء في مجالس الرهبان ، وفتحت بهذا الفتح من بيت الله

---

(١) الذي أعده نور الدين محمود زنكي ، فقد كان يرجو أنْ تُفتح القدس على يديْه ، فعاجله الموت ، عامَلَه الله بحسن نيّته .

(٢) تحت الطبع كتاب لي في فضل القدس وشرفها ، وكتاب آخر في حوادث رجب ، وفيه نصّ خطبة القاضي محيي الدين بن الزكي ، التي قالها في ذلك اليوم .

المقدس أبواب الجِنان ، وتزاحم الخارجون من البلد - من الفرنج والنصارىٰ - في دخـول أبواب النيران ، وصَلّى محارب الدين في المحراب ، ورفع الملائكة ما كان تكاثَف بأنفاس الكفر من الحجاب ، وغُسلت الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون الفائض كغزارة الأمواه ، وقُبّلت بالشفاه ، وبُوشرت بالأفواه ، وطُهّرت بأهل العلم والحلم مِن أدناس الجهل والسِّفاه :

جندُ السماءِ لهذا المَلْكِ أعوانُ ... مَن شكَّ فيهِ فهذا الفتحُ بُرْهَانُ
هذي الفتوحُ فتوحُ الأنبياءِ وَمَا ... لها سِوىٰ الشكْر بالأفعالِ أثمانُ
تسعونَ عامًا بلاد اللهِ تصرخُ والْـ ... إسْـلامُ نُصّـاره صُمٌّ وعُمـيانُ
فالآنَ لبّىٰ صلاحُ الدينِ دعْوتَهُمْ ... بأمْرِ مَنْ هـو للمعـوانِ مِعْوانُ
في نصفِ شهرٍ غدا للشركِ مُصْطَلِمًا ... فطُهِّـرَتْ منهُ أقطـارٌ وبلـدانُ

وقال الجليّاني عن صلاح الدين :

فلوْ رآكَ وقد حُزْتَ العلا عمرُ ... في قُلّةِ التَّلِّ قَضَّى كُنْه عَبْرتِهِ
ولوْ رآكَ وأهلُ القدسِ في وَلَهٍ ... أبو عبيدةَ فـدّىٰ مِن مَسـرَّتِهِ
غداةَ جَزُّوا النواصي في قمامتِهِ ... وأعْوَلُوا بالتّباكي حوْلَ صخْرتِهِ
دارتْ بكَ المِلّةُ الحسْنىٰ فَنحنُ علىٰ ... عَهْدِ الصحابةِ في استمرارِ مرّتِهِ

فُتوحاتٌ بعد فتْح القدس :

كان الجهاد قد غلب على السلطان ، فلم يستقرّ في القدس إلا قليلا ، ثم بدأ جولةً أُخرىٰ من الفتوحات ، فأتمّ فتح صيدا وبيروت ، وجبلة ، واللاذقية ، وحصـن صهيون ، وحصن بغراس ، ورجع بعدها إلى صفد والكرك ففتحها ، ثم قلعة الشقيف . وفي ردة فعْلٍ صليبيةٍ شديدة حاولوا استرجاع عكا ، فحاصروها من جهة البحر ، فأسرع السلطان إليها ووقف بإزائهم ، فكانت الإمدادات تأتي الصليبيين من جهة البحر بشكلٍ دائم ،

فاضطُرّ السلطان والمسلمون لمصابرتهم ستةً وثلاثين شهرًا (رجب ٥٨٥ – شعبان ٥٨٨) ، وفي هذا الحصار ظهرت شخصية صلاح الدين العظيمة ، ثلاث سنوات وهو في حالة قتالٍ وتأهُّب واستعداد .

قال ابن شداد : « كان السلطان يُعاني هذه الأمور بنفسه ، ويصافحها بذاته ، لا يتخلّف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شِدّة حرصه ووفور همّته كالوالدة الثَّكْلَى . ولقد أخبرني بعض أطبّائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد ، لم يتناول من الغذاء إلّا شيئًا يسيرًا لفرْطِ اهتمامه »[١].

فانظرْ إلى الهمّة التي لم يشغلها عن الغزاة شيءٌ .

ولله دَرُّ صلاح الدين وهو في مصافِّه الأعظم على عكا ، وهو يأمر « الجاويش أنْ ينادي في الناس : « يا للإسلام ، وعساكر موحّدين » ، فركب الناس ، وقد باعوا أنفسهم بالجنة »[٢].

ويُورد أبو شامة من عُلوّ همّته : « قال القاضي : وكان لا بد له من أن يطوف حوْل العدو كلَّ يوم مرةً أو مرتين ، إذا كنا قريبًا منهم ، وكان إذا اشتدّ الحرب يطوف بين الصفَّيْن ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، يُرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم ، والوقوف في مواضع يراها ، وكان يُشارف العدوَّ ويجاوره ، ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفّين ، وذلك أني قلتُ له : قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ، وما نُقِل أنه سمع بين الصفّين ، فإنْ رأى المولى أنْ يُؤْثَر عنه ذلك ، كان حسنًا ، فأذِنَ في ذلك ، فأحضر جزءًا هناك من له بسماع ، فقُرئ عليه ، ونحن على ظهور الدّوابّ بين الصفَّيْن ، يمشي تارة ويقف

---

(١) « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » للقاضي بهاء الدين بن شداد صـ ١٠٧ .
(٢) النوادر السلطانية صـ ١٠٩ .

أُخرىٰ ، وما رأيتُهُ استكثر العدو أصلًا ، ولا استعظم أمْرهم قطّ ، وكان مع ذلك يذكر بين يديْه الأقسام كلها في حال الفكر والتدبير ، ويُرتِّب على كل قسمٍ مقتضاه ، من غير حِدَّةٍ ولا غضب يعتريه ، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكا ، حتى القلْب ورجاله ، ووقع الكؤوس والعَلَم ، وهو ثابت القدَم في نفر يسير ، وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردّهم ، ويخجّلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى عكر المسلمون على العدو في ذلك اليوم ، وقُتل منهم زهَاء سبعة آلاف ، ما بين راجل وفارس »[١] .

قال ابن شداد : « وكان رحمه الله من عظماء الشجعان ، قوي النفس شديد البأس ، لا يَهُوله أمر ، ولقد وصل في ليلة واحدة من الإفرنج نيِّف وسبعون مركبًا على عكا ، وأنا أَعُدّها مِن بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو لا يزداد إلّا قوة نفس » . وخلال هذا الحصار الطويل جرت وقعاتٌ كبيرة بينه وبين الفرنجة ، وانتصر فيها ، ولكنّ الإمدادات كانت تتوالى مِن أوربّا عن طريق البحر ، وصابَر الفريقان مصابرة عجيبة ، وكان القتال يتمّ يوميًّا أحيانًا وفي البرّ والبحر ، وفي هذا الحصار استنجد صلاح الدين بملك المغرب أمير دولة الموحِّدين فرفض المساعدة ؛ لأنه لم يذكر في رسالته : « أمير المؤمنين » !! وفي نهاية هذه المعاناة مرض السلطان ، واضطُرّ للصلح مع الإفرنج ، وأخذوا عكا مرة ثانية ، وحاولوا أخْذ يافا ولكنهم لم يفلحوا ، وعاد السلطان إلى القدس يرتّب أمورها ، ويصلح مِن سورها ، « وكان رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته . من الأمكنة البعيدة ، فيقتدي به العسكر »[٢] .

---

(١) عيون الروضتين ٢ / ٣٠٩ - ٣١٠ .
(٢) الكامل لابن الأثير ١٢ / ٧٤ .

شَغَفُـهُ بالجهـاد :

« قال القاضي ابن شداد : كان رحمه الله شديدَ المواظبة على الجهاد ، عظيمَ الاهتمام به ، ولو حلف حالِف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارًا ولا درهمًا إلَّا في الجهاد أو في الإرفاد ، لَصَدَقَ وبرّ في يمينه ، ولقد كان الجهاد وحبُّه والشغَفُ به قد استولى على قلبه ، وسائِرِ جوانحه استيلاءً عظيمًا ، بحيث ما كان له حديث إلَّا فيه ، ولا نظر إلَّا آلَتَهُ ، ولا اهتمام إلَّا برجاله ، ولا ميل إلَّا إلى مَن يذكره ويحثُّ عليه ، ولقد هجر في محبَّة الجهادِ في سبيل الله أهلَه وأولادَه ووطنه ، وسكنَه وسائرَ مَلَاذِّه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظلّ خيمة ، تهبّ بها الرياح يمنةً ويسرةً ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلةٍ ريّحة على مرج عكا ، فلو لم يكن في المرج ، وإلَّا قتلتْهُ ، ولم يزده ذلك إلَّا رغبةً ومصابرة واهتمامًا ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرّب إليه يحثُّه على الجهاد ، أو يذكر له شيئًا من أخبار الجهادِ ، ولقد أُلِّفَ له كتب عدة في الجهاد ، وأنا ممّن جمع له فيه كتابًا ، ولأَحكينَّ عنه ما سمعتُ منه في ذلك : في سنة أربع وثمانين - لمّا ودّع أخاه وعسْكَرَ مصر بعسقلان - سرنا على الساحل طالبينَ عكّا ، وكان الزمان شتاءً عظيمًا ، والبحر هائجًا هيجانًا عظيمًا ، وموجُه كالجبال كما قال الله ، وكنت حديثَ عهدٍ برؤية البحر ، فعظُم أمْرُ البحر عندي ، حتى خُيِّل لي أنني لو قال لي قادر : لوْ جُزْتَ في البحر ميْلًا واحدًا ملّكتُك الدنيا ، لَمَا كنت أفعل ، واستخففتُ رأْي من يركب البحر رجاءَ كسْب دينار أو درهم ، هذا كلّه خطر لي ، لعِظَمِ الهوْل الذي شاهدتُه من حركة البحر وتموُّجِهِ ، فبينا أنا في ذلك ، إذ التفتَ إليّ ، وقال : في نفسي أنّه متى يسّر اللهُ تعالى فتْح بقية الساحل ، قسّمتُ البلاد ، وأوصيتُ وودّعتُ ، وركبتُ هذا البحر إلى جزائره أَتبعهم فيها ، حتى لا أُبقي على وجه الأرض مَن يكفر بالله ، أو أموت . قال :

فعظم وقْع هذا الكلام عندي ، حيث ناقض ما كان يَخطر لي ، وقلتُ له : ليس في الأرض أشجع نفسًا من المولى ، ولا أقوىٰ نيّة منه في نصرة دين الله ، وحكيتُ له ما خطر لي ، ثم قلتُ له : ما هذه إلا نيّة جميلة ، ولكنّ المولى يُسيّر في البحر العساكر وهو سور الإسلام ، ولا ينبغي أنْ يخاطر بنفسه . فقال : أنا أستفتيك ، ما أشرف الميتات ؟ فقلت : الموت في سبيل الله . فقال : « غاية ما في الباب أنْ أموت أشرفَ الميتات » . قال : فانظرْ إلى هذه الطويّة ، ما أطهرها ! وإلى هذه النفس ، ما أشجعها وأجسرها ! اللهمّ إنّك تعلم أنّه بذل جهده في نصرة دينك رجاءَ رحمتك ، فارحمْه »(١) .

ويكتب للخليفة العباسي : « وهذه المقاصد الثلاثة : الجهاد في سبيل الله ، والكفُّ عن مظالم عباد الله ، والطاعة للخليفة : هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ، واللهُ العالمُ أنَّه لا يقاتل لعيْشٍ ألْيَنَ من عيشٍ ولا لِغَضبٍ يملأ العيان »(٢) . وقد ذكرنا كيف أنه كان ينقل الحجارة بنفسه لعمارة سور القدس ، « ولو رأيتَه وهو يحمل حجرًا في حِجْره ، لعلمت أنّ له قلبًا قد حمل جبلًا في فكْره »(٣) . وعندما رجع إلى دمشق وجد وكيل الخزانة قد بنىٰ له دارًا ، فغضب عليه ، وقال : إنّا لم نُخلَق للمقام في دمشق ولا بغيرها ، وإنما خُلِقنا للجهاد .

كتب إليه الأنكتار الملعون صاحب عكا : « إنّ المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخُربتِ البلاد ، وخرجتْ من يد الفريقَيْن بالكليَّة ، وقد تلفتِ

(١) عيون الروضتين ٢ / ٣٠٩ - ٣١١ .
(٢) الروضتين ٢ / ٤٨ .
(٣) الروضتين ٢ / ١٩٦ .

الأموال والأرواح من الطائفتَيْن ، وقد أخذ هذا الأمر حقّه ، وليس هناك حديث سوىٰ القدس والصليب والبلاد ، والقدس فمُتعبّدنا ما ننزل عنه ، ولو لم يبقَ منّا واحدٌ ، وأمّا البلاد فيُعاد إلينا منها ما هو قاطِع الأردن ، وأمّا الصليب فهو خشبة ، لا مقدار له عندكم ، وهو عندنا عظيم ، فيمنّ به السلطان علينا ، ونصْطَلِح ونستريح من هذا العَناء الدائم » . ووقف السلطان رحمة الله عليه على هذه الرسالة ، واستدعى أرباب المشُورة من دولته ، واستشارهم في جواب ذلك ، والذي رآه السلطان رحمه الله في جواب ذلك أنْ قال : « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم ممّا هو عندكم ؛ فإنه مَسْرىٰ نبيِّنا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصوّر أنْ ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفُّظ بذلك بين المسلمين ، وأمّا البلاد فهي لنا أيضًا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئًا عليها ، لضعف مَن كان بها مِن المسلمين في ذلك الوقت ، وما أقدركم الله على عمارة حَجَر منها ما دام الحرب قائمًا ، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به ، وأمّا الصليب فهلاكُه عندنا قربَةٌ عظيمة ، ولا يجوز لنا أنْ نفرّط فيها ، إلا لمصلحةٍ راجعة إلى الإسلام ، هي أوْفىٰ منها »[1].

وكلمات صلاح .. يوسف أحلامنا ، نهديها للأقزام الذين سقطوا في الوَحْل :

بيروتُ في اليمّ ماتَتْ قُدسُنَا انتحرتْ ... ونحنُ في العارِ نسقي وحْلَنا طِينا
أيُّ الحكايا ستُروىٰ عارُنا جَلَلٌ ... نحنُ الهوانُ وذلُّ القُدْسِ يَكْفينا
القدسُ في القيْدِ تَبكي مِن فوارِسِهَا ... دمعُ المنابرِ يشكُو للمُصلِّينَا
حُكّامُنا ضيّعونا حينما فَسَقُوا ... باعُوا المآذنَ والقرآنَ والدِّينا

(١) النوادر السلطانية صـ ١٩٤ .

أعداؤُنَا مَن أضاعوا السَّيفَ مِن يَدِنَا ... وأوْدَعونا سُجونَ اللَّيلِ تطوينا
أقزامُنَا مَن تَوارىٰ صوتُهم فزعًا ... والأرضُ تُسْبىٰ وبيروتٌ تُناديِنا
قُمْ مِن ترابِكَ يا ابنَ العاص في دَمِنا ... ثأْرٌ طويلٌ لهيبُ العار يكْوينا
قُمْ يا بلالُ وأذِّنْ صَمْتُنَا عَدَمٌ ... كلُّ الذي كانَ طُهرًا لم يَعُدْ فينا
هَلْ مِنْ صلاحٍ يُعيدُ السيفَ في يَدِنَا ... أو تبْتُروها فقدْ شُلَّتْ أَيادينا
هَلْ مِنْ صلاحٍ يُداوي جرْحَ أمَّتِهِ ... ويُطلِعُ الصبحَ نارًا مِنْ لياليِنا
هَلْ مِن صَلاحٍ لِشَعْبٍ هدّهُ أَمَلٌ ... ما زالَ رَغْمَ عنادِ الجرْحِ يَشفينا
جرحي عنيدٌ وجرحي أنتَ يا وطني ... جئْنا نُداويك تأبىٰ أنْ تدَاوينا
إنّي أرىٰ القدْسَ في عينَيْكَ ساجِدةً ... تبكي عليْكَ وأنتَ الآنَ تَبكينا
ما زالَ في العَيْنِ طَيْفُ القْدسِ يَجْمَعُنَا ... لا الحلمُ ماتَ ولا الأحزان تُنسينا

صبْرُه واحتسابُه في الجهاد :

يقول القاضي ابنُ شدّاد : « لقد رأيتُه رحمه الله بمرج عكّا ، وهو على غايةٍ مِن مرضٍ اعتراه ، بسبب كثْرة دماميل ، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيْه ؛ بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنّما يكون مُتّكِئًا على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع مِن مدّ الطعام بين يديْه لعجْزه عن الجلوس ، وكان يأمر أنْ يُفَرَّق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبًا من العدو ، وقد رتّب الناسَ ميمنةً وميسرةً وقلبًا؛تعبيةً للقتال ، وكان مع ذلك كلِّه ، يركب من بكْرةِ النهار إلى صلاةِ الظهر يطوف على الأطلاب[1] ، ومن العصر إلى صلاة المغرب ، وهو صابرٌ على شدة الألم وقوّة ضربان

(١) جمع طلب ، وهو لفظٌ فارسي ، معناه : الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويُطلَق كذلك على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام ، أيّامَ صلاح الدين .

الدّمامل ، وأنا أتعجّب من ذلك ، فيقول : إذا ركبتُ يزول عني ألمُها حتى أنزل ، وهذه عناية ربّانيّة .

ولقد مَرِض - رحمه الله - ونحن على الخروبة ، وكان قد تأخر عن « تلّ الحجل » بسبب مرضه ، فبلغ الإفرنجَ ذلك ، فخرجوا طمعًا في أنْ ينالوا شيئًا من المسلمين بسبب مرضه ، وهي نوْبة النهر ، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التلّ ، ثم رحل العدوّ في اليوم الثاني يطلبنا ، فركِب رحمه الله على مَضَضٍ ، ورتّب العسْكر ، وجعل أولاده في القلب ، ونزل هو وراءَ القوم بطلبه ، وكلّما سار العدو يطلب رأس النهر ، سار هو يَستدير إلى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو رحمه الله يسير ساعةً ثم ينزل يستريح ، ويُظَلِّل على رأسه بمِنْديلٍ من شدّة وقعْ الشمس ، ولا يَنصبُ له خيمة حتى لا يُري العدوَّ ضعفًا ، ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قُبالتهم على تلٍّ مُطِلّ عليهم ، إلى أن دخل الليل ثم أمر العسكر أن تعود إلى مَحِلِّ المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخّر هو إلى قمّة الجبل ، وضُربت له خيمة لطيفة ، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرّضه ونُشاغله ، وهو ينام تارةً ويستيقظ أُخرىٰ ، حتى لاحَ الصباح ، ثم ضرب البُوق ، وركِب رحمه الله ، ورَكِبَتِ العساكر ، وفي ذلك اليوم قدّم أولادَه بين يديْه احتسابًا ، الملك الظاهر والمَلِك الظافر وجميع مَن حضره منهم ، ولم يزل يبعث مَن عنده ، حتى لم يبقَ عنده إلَّا أنا والطبيب ، وعارِض الجيش ، والغلمان بأيديهم الأعلامُ والبَيارق لا غير ، فيظن الرائي لها عن بُعد أنّ تحتها خَلْقًا كثيرًا ، وليس تحتها إلا واحد ، بخُلُقٍ عظيمٍ ، رحمه الله .

فانظرْ إلى هذا الصبر والاحتساب ، وإلى أيِّ غاية بلغ هذا الرجل ، اللهمّ إنّك ألهمْتَه الصبر والاحتساب ووفّقتَه له ، فلا تحرمْه ثوابَه ، يا أرحم الراحمين .

ولقد رأيتُه ليلةً على صفد ، وهو يحاصرها ، وقال : لا ننام الليلة حتى تُنصبَ لنا خمسةُ مجانيقَ . ورتّب لكلِّ منجنيق قومًا يتولَّوْن نصْبه ، والرسل تتواصل مُخبرةً بأنه نُصب من المنجنيق الفلاني كذا ، ومن الآخر كذا ، حتى أتى الصباحُ وقد فرَغ منها ، وكانت مِن أطول الليالي ، وأشدِّها بَرْدًا ومطرًا .

وكان رحمه الله شديدَ الشَّغَف والشَّفَقة بأولاده الصغار ، وهو صابرٌ على مفارقتهم ، راضٍ ببعدهم عنه ، وكان صابرًا على مرِّ العيش وخشونته ، مع القدرة التامَّة على غير ذلك ، احتسابًا لله تعالى . اللهمّ إنّه ترك ذلك كلَّه ابتغاءَ مرضاتك ، فارضَ عنه وارحمه »[١] .

قال ابن شدّاد : « ولم يُخلّف السلطان أموالًا ولا أملاكًا ؛ لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم ، حتى إلى أعدائه ، ولم يُخلِّفْ في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعةً وأربعين درهمًا ودينارًا واحدًا ، وكان مُتقلِّلًا في ملْبسه ومأكله ومركبه » .

مات صلاحُ الدين ، « وما مُكِّنوا أنْ يُدخلوا في تجهيزه ما قيمتُه حبةٌ واحدة إلَّا بالقَرْض ، حتى في ثمن التبن الذي يُلَتُّ به الطين » ، وعظُم بكاءُ الناس ، حتى إنّ العاقل يتخيّل أنَّ الدنيا كلها تصيح صوتًا واحدًا ، وغَشيَ الناسَ من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة .

قال القاضي ابن شدّاد عن يَوْم موت صلاح الدين : « كان يومًا لم يُصَبِ المسلمون والإسلام بمثله منذ فُقِدَ الخلفاء الراشدون ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمها إلَّا الله ، وباللهِ لقد كنتُ أسمع من

---

(١) النوادر السلطانية صـ ٢٤ - ٢٧ .

بعض الناس أنّهم يتمنَّوْن فداءَ مَن يعزّ عليهم بنفوسهم ، وما سمعتُ هذا الحديث إلّا على ضرب من التجوُّز والترخُّص إلا ذلك اليوم ؛ فإني علمتُ من نفسي ومن غيري أنّه لو قُبل « الفِدَاءُ » ، لَفُدِي بالنفس »[1].

قال ابن شداد : « وَذُكِرَ أنه دُفن معه سيفُه الذي كان معه في الجهاد ، وكان ذلك برأي القاضي الفاضل . قال : هذا يتوكَّأُ عليه في الجنَّة »[2].

فأينَ صلاح ... « واقدساهُ .. ولا صلاحَ لها » :

أينَ الذي عَنَتِ الفرنجُ لبأْسِهِ ... ذُلًّا ومنها أُدركَتْ ثاراتُهُ
مَنْ في الجهادِ صفاحُهُ ما أُغمدَتْ ... بالنصرِ حتَّى أُغمِدَتْ صَفَحَاتُه
لَذَّ المتاعبَ في الجهادِ ولم تكنْ ... مُذْ عاشَ قطُّ لِذَاتِهِ لَذّاتُهُ
مسعُودَةٌ غَدَواتُهُ محمودةٌ ... رَوْحاتُهُ مَيْمونَةٌ ضحواتُه
في نُصْرَةِ الإسلامِ يسْهَر دائبًا ... لِيطول في روْضِ الجنانِ سُباتُهُ[3]
لا تحسبُوهُ ماتَ شخصٌ واحدٌ ... فمماتُ كلِّ العالَمين مماتُهُ
مَن لليتامىٰ والأرامِلِ راحِمٌ ... متعطِّفٌ مَفْضُوضَةٌ صَدَقاتُهُ
وكعادةِ البيتِ المقدَّسِ يَحْزَنُ الْـ ... ـبيْتُ الحرامُ عليهِ بلْ عَرَفَاتُهُ
بكتِ الصَّوَارِمُ والصواهِلُ إذْ خَلتْ ... مِنْ سَلِّهَا ورُكُوبِها غَزَوَاتُهُ
والقدسُ طامحةٌ إليك عُيُونُهُ ... عَجِّلْ فقد طمحتْ إليه عِداتُهُ

المدنُ والحصونُ التي فتَحها صلاحُ الدينِ مِن ديار الفرنج :

لَممتْ طيوفُ الذكرياتِ بخاطري ... من الدارِ .. منْ أهلٍ .. مِنَ الزَّهَراتِ

(١) النوادر السلطانية صـ ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٢) عيون الروضتين ٢ / ٢٩٠ .
(٣) أي راحته ، فلا نوم في الجنة .

مِنَ الصدقِ موْصولًا مع الدهرِ لُؤْلؤًا حُلّي صلاحٍ أو حلّي كماةِ
نقيًا بأعطافِ الجهادِ مباركًا على السَّاحِ مِن نورٍ ومن نَفَحاتِ
جمعتْ بها التاريخَ قَبْلَ جَفافِهِ وَقَبْلَ ذبولِ العُودِ والغرساتِ
جمعتْ بها التاريخَ ساحًا ومنزِلًا وأزمنةً موصولةَ الحَلَقَاتِ
فواعجبًا للدّارِ كيفَ تقطَّعتْ حدودًا ومادتْ في أسًى وشَتاتِ
أَمُرُّ بها ذكرىٰ فلا الدارُ دارُهَا ولا حُجُراتُ العِزِّ بالحُجُراتِ
فيا وقفةَ التاريخ يَسكبُ دمعَهُ يُودّع مِن ساحاتِهِ الخَضِراتِ
فيا قدسُ هلْ أبقيْتِ دمعًا لنائحٍ حَنانَيْكِ مِن شوْقٍ ومِن عَبَراتِ

قال القاضي ابن شدّاد : « ذكْر المدنِ والحصون التي يسّر اللهُ فتْحها على يديه - رحمة الله عليه - من ديار الفرنج - خَذَلَهم الله - من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ستٍ وثمانين :

(١) طبريّة : على بحر الأردن ، بالسيف (٢) عكا : على البحر الكبير ، بالأمان (٣) حيْفا : على البحر ، بالأمان (٤) الناصرة : التي تنسب إليها النصارىٰ (٥) الرملة (٦) قيسارية : بالسيف (٧) أرسوف : بالأمان (٨) يافا : بالسيف (مدينتها) (٩) عسقلان : بالأمان (١٠) غزّة : بالأمان (١١) الداروم (١٢) صيدا : على البحر (١٣) بيروت : بالأمان (١٤) جُبيل (١٥) هونين (١٦) جبليّة (١٧) تبنين (١٨) أنطرسوس: (دون أخذ بُرْجها) بالسيف (١٩) جبلة: مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان (٢٠) اللّاذقية : مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان (٢١) السرفند (٢٢) مدينة القدس الشريف ، خلّصه الله تعالى (٢٣) نابلس (٢٤) البيرة : بأرض القدس (٢٥) صفورية (٢٦) الطور (٢٧) حصن دُبُوريّة (٢٨) الفُوله (٢٩) حصن عقربلا (٣٠) حصن جينين (٣١) سفسطية (٣٢) كوكب (٣٣) حصن عفري : شماليّ القدس (٣٤) بيت لحم . (٣٥) حصن العازرية : بأرض القدس (٣٦) البرج الأحمر (٣٧) حصن

الخليل عليه السَّلام (٣٨) بيت جبرين (٣٩) تلّ الصافية (٤٠) حصن مجدل (٤١) يابا (٤٢) قلعة الحبيب الفوقاني (٤٣) الحبيب التحتاني (٤٤) النطرون (٤٥) الحصن الأحمر (٤٦) لُدّ : بأرض الرملة (٤٧) قلنوسة (٤٨) يُبنى (٤٩) القاقون (٥٠) القيمون (٥١) قلعة الكرك : بعد حصارٍ سنة ونصف (٥٢) قلعة الشوبك : بعد حصار سنتين (٥٣) قلعة السلع (٥٤) حصن يازور (٥٥) شقيف أرنوف (٥٦) حصن إسكندرونة : بين صُور وعكَّا (٥٧) الوعيرة (٥٨) قلعة الجمع (٥٩) قلعة الطفيلة (٦٠) قلعة الهرمز (٦١) قلعة صفد (٦٢) قلعة أبي الحسن : بأرض صيدا (٦٣) صيدا : أيضًا (حصْن) (٦٤) المرقية (٦٥) حصن يحمور : بأرض عكا (٦٦) بلنياس : بين جبلة والمرقب (٦٧) صهيون (٦٨) بلاطنس (٦٩) حصن الجماهرية (٧٠) قلعة العيذد (٧١) بكّاس (٧٢) الشُّغر (٧٣) بكسرائيل (٧٤) السُّرمانية (٧٥) قلعة بُرزيّة (٧٦) درباك (٧٧) بُغراس : قريبًا من أنطاكية (٧٨) الدانور : بأرض بيروت (٧٩) السوفند : قريبًا من صيدا »[١].

فهلْ دَريْتَ الآنَ حُرْقةَ اللّنبي ... وقد أكلَ صلاحٌ كبدَهُ ؟ وهل دريتَ لِمَ انتشى اللّنبي ، وقال : الآنَ انتهتِ الحروبُ الصليبية ؟ وهل دريتَ لِمَ وقف « غورو » أمامَ قبرِ صلاح ، وركله بقدمه قائلًا : « ها قد عُدْنَا يا صلاحَ الدين » ؟

تكلَّمْ ... كأنَّ الغدرَ يهدرُ مِنْ فمٍ ... وتنطلقُ الأحقادُ مِن كلماتِ
فدوّى هنا يُنهي الصليبُ حروبَهُ ... ويُمضي فُنونَ الموتِ والفَتكاتِ
ويُمضي معَ الأيامِ نَهْجَ إبادةٍ ... وخطةَ تمزيقٍ ووَأْدَ حياةِ
وهذي دمشقٌ والليالي تمدُّها ... مآتمُ أجيالٍ ونَعْيُ كُماةِ

---

(١) النوادر السلطانية صـ ٢٤٨ .

أَعيدي صَدَىٰ « غورو » ووقفةَ فاجرٍ ... جَبانٍ وزيفَ المجدِ والدَّعَوَاتِ
وقفتَ على قبرٍ يضمُّ جدارُهُ ... جلالَ حياةٍ في جلالِ مماتِ
أَراعَكَ هذا القبرُ أَمْ راعَكَ الذي ... يضمُّ مِن الأحداثِ والوَقَعاتِ
حَسِبتَ الذي في القبرِ مَيْتًا .. وإنَّهُ ... شهيدٌ مضىٰ للهِ في وَثَبَاتِ
فهذا شهيدُ البِرِّ والحقِّ والهُدَىٰ ... على جَوْلةٍ للهِ أَوْ خَطَراتِ
صدوقٌ .. إلى الرحمٰنِ صحّ وِثابُهُ ... وصحَّ يقينُ القلبِ والعَزَمَاتِ
يُرَوِّي الثرىٰ .. يمضي ويُسْكِب رَيَّهُ ... مِنَ الصدقِ عطرًا .. ذَابَ في الخَلَجَاتِ
فخانَكَ مِن عزمِ الرجالِ عزيمةٌ ... ورُحْتَ ذليلَ الصوتِ والخُطُوَاتِ[1]
تُنادي صلاحَ الدينِ مهلًا فإنَّهُ ... يُدَوّي دَوِيّ السَّاحِ والحَلَبَاتِ
دَوِيًّا يَهُزُّ الأرضَ تحتَكَ هِزَّةً ... ويـنزعُ مـنْ جنبـيْكَ أيَّ ثَبَاتِ
نداؤُكَ كَيْدُ الظالمين وكِبْرُهُمْ ... وزيْفُ حضاراتٍ وزيْفُ دُعَاةِ
نداءُ جبانٍ جَاوَزَ الكبرُ جُبْنَهُ ... فخرَّ صريعَ الكِبْرِ والسَّكَرَاتِ
هُزِمتَ أمامَ القبرِ شرَّ هزيمةٍ ... كما هُزِمَ الأجدادُ في غَزَوَاتِ
نداءُ « صلاحَ الدين » مِلْءُ حواضر ... ومـلءُ زمـانٍ زاهـرٍ بشُـذَاةِ
أولئكَ إنْ شئْتَ الجدودُ فَسَلْهُمُ ... لعلَّكَ تلقىٰ الصَّدْقَ بَيْنَ رُفَاتِ
جدودُكَ طوّاهُمْ ترابٌ وغيْهَبٌ ... وواراهُمُ التاريـخُ في حُفُـرَاتِ
أولئكَ سَلْهُم عن شِعَارٍ ورايةٍ ... وما زيّفوا مِنْ جَوْهَـرٍ وَسِمَاتِ
أحـريَّةُ الإنسـانِ خنقُ حَنَـاجرٍ ... وزيفُ إخـاءٍ في لهيبِ تِـراتِ
وزيفُ مسـاواةٍ على جـاهليَّةٍ ... مُؤَجَّجـةِ الأهـواءِ والـنَّزَوَاتِ
وَهذَا صلاحُ الدينِ مجدٌ مُؤَثَّلٌ ... على الصدقِ منشورٌ على صَفَحَاتِ

(١) يعني : « غورو » .

حسامُ الدين لُؤْلُؤ العادِلي ، الأسدُ الضِّرْغام : يسير بالقيود إلى الفرنجة قبل لقائهم :

قال عنه الذهبي : « لؤلؤ العادلي الحاجب من أبطال الإسلام ، وهو كان المندوب لحرب فرنج الكرك الذين ساروا لأَخْذ طيبة ، أو فرنج سواهم ساروا في البحر المالح ، فلم يَسِرْ لؤلؤ إلَّا ومعه قيودٌ بعددهم ، فأدركهم عند الفحلتيْن ، فأحاط بهم ، فسلّموا نفوسهم ، فقيّدهم ، وكانوا أكثر من ثلاثمائة مقاتِل ، وأقبل بهم إلى القاهرة ، فكان يومًا مشهودًا »[1].

لله دَرُّك مِن بطل ومن أمير ... تسير إلى أعدائك بقيودك بعددهم ، وأنت على يقين بأسرهم جميعًا !! هذه واللهِ البطولة والرجولة .

قال الذهبي : « خدم مع صلاح الدين ، وعُرِفَ بالشجاعة والإقدام ، وفي آخر أيامه أقبل على الخير والإنفاق في زمن قَحْط مصر ، وكان يتصدّق في كلّ يومٍ باثني عشرَ ألفِ رغيف ، مع عِدَّة قدورٍ من الطعام . وقيل : إن الملاعين التجئوا منه إلى جبل ، فترجَّل ، وصعِد إليهم في تسعة أجناد ، فأُلقي في قلوبهم الرعب ، وطلبوا منه الأمان ، وَقُتِلوا بمصر ، تولّى قتلهم العلماءُ والصالحون »[2]. بل يُرسل منهم مَن يُذبح في مِنًى ... إي والله .

وللأقزام نقول : هذا حال من خدم مع صلاح الدين ... ومن كان أمير بحْرِه ... أصابته عدوىٰ الشجاعة والإقدام . من سيّده ومَوْلاه ... فهل تتطامن منكم الرؤوس الجوْفاء وكبْرها الزائف .. أمامَ خادِمِ صلاح الدين .

يقول العلّامة أبو شامة المقدسي في « عيون الروضتين » (٢ / ٩١ -

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٨٤ - ٣٨٥ .
(٢) السير ٢١ / ٣٨٥ .

٩٥) ، في أحداث سنة ٥٧٩ هـ : « في شوّال مِن هذه السنة : كانت نصرة الأسطول[١] المتوجّه إلى بحر القلزم[٢] لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز ، وذلك أنّ البرنس صاحب الكرك ، لمّا صعُب عليه ما توالى عليه من نِكاية أصحابه المقيمين بقلعة أيلة - وهي في وسط البحر ، لا سبيل عليها لأهل الكفر - أفكر في أسباب احتياله له ، وفتح أبواب اغتياله ، فبنىٰ سُفنًا ، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ، ثمّ ركّب المراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال ، ووقف منها مركبًا على جزيرة القلعة ، فمنع أهلها من استقاء الماء ومضىٰ الباقون في مراكب نحو « عيذاب » ، فقطعوا طريق التجّار ، وشرعوا في القتل والنهب والإسار ، ثم توجّهوا إلى أرض الحجاز ، وتعذّر على الناس وجه الاحتراز ، فعظم البلاء ، وأعضل الداء ، وأشرف أهل المدينة النبويّة منهم على خطر ، ووصل الخبر إلى مصر وبها العادل أخو السلطان ، فأمر الحاجبَ حسام الدين لؤلؤًا ، فعمّر في بحر القلزم مراكبَ بالرجال البحريّة ذوي التجرِبة ، من أهل النخوة للدّين والحميّة ، وسار إلى أيلة ، فظفر بالمركب الفرنجي عندها ، فحرق السفينة وأسر جندها ، ثمّ عدا إلى عيذاب وشاهد بأهلها العذاب ، ودُلّ على مراكب العدوّ ، فتبعها فوقع بها بعد أيّام ، فأوقع بها وواقعها ، وأطلق المأسورين من التجّار ، وردّ عليهم كل ما أُخذ منهم ، ثمّ صعِد إلى البرّ فوجد أعرابًا ، فركب خيلهم وراء الهاربين من الفرنج ، فحصرهم في شعب لا ماء فيه ، فأسرهم بأسرهم ، وكان ذلك في أشهر الحجّ ، فساق منهم أسيرين إلى مِنًىٰ كما يُساق الهدْي ، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارىٰ ، فكتب السلطان إليه بضرْب رقابهم ، وقطْع أسبابهم ، بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ،

---

(١) بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، انظر الروضتين ٢ / ٣٥ .
(٢) أي : البحر الأحمر .

ولا أحد يَخبر طريق ذلك البحر أو يعرف . ومن كتابٍ عن السلطان إلى أخيه العادل بالإنشاء الفاضلي(١) :

« وصل كتابه المؤرّخ بخامس ذي القعدة ، المسفر عن المسفر من الأخبار ، المتبسّم عن المتبسّم(٢) من الآثار ، وهي نعمة تضمّنت نعمًا ، ونصرة جعلت الحرم حرمًا ، وكفاية ما كان الله ليؤخّر معجزة نبيّه ﷺ بتأخيرها ، وعجيبةٌ من عجائب البحر التي تُحُدِّث عن تسييرها وتسخيرها ، وما كان الحاجب لؤلؤٌ فيها إلّا سهمًا أصاب ، وحُمد مُسدِّدهُ ، وسيفًا قطع وشُكر مجرِّدُهُ ، ورسولًا عليه البلاغ ، وإن لم يُجهل ما أثرته يده ، وقد غَبْطناه بأجر جهاده ، ونجْح اجتهاده ، ركب السبيلَيْن برًّا وبحرًا ، وامتطى السابقيْن مركبًا وظهرًا ، وخطا أوسعَ الخطْوَ وغزا ، فأنجح الغزو ، وحبّذا العنان الّذي في هذه الغزوة أطلق ، والمال الذي في هذه الكسرة أنفق » . ومن كتابٍ آخر إلى بغداد(٣) : « كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرًا ، وافتضّوا من البحر بِكرًا ، وعمّروا مراكب حربية ، شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز ، وأثخنوا وأوغلوا

---

(١) الكامل لابن الأثير ١١ / ٤٩٠ - ٤٩١ ، والروضتين ٢ / ٣٦ - ٣٧ .

(٢) تبسّم : هو أقلّ الضّحك وأحسنُه .

(٣) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٣٧ . ولا بدّ لنا من لَفْتِ نظر القارئ إلى أن القاضي الفاضل في كتابه هذا إلى بغداد ، قد عقد مقارنة بين محاولة أبرهة الحبشي الاستيلاءَ على مكة وتدمير الكعبة الشريفة ، وإلى ما أصابه وجيشَه مِن غضب الله تعالى ، وذلك في القرن السادس الميلادي - وبين ما يحصل في القرن الثاني عشر للميلاد ، ومحاولة الصليبيين الاستيلاء على البحر الأحمر والموانئ الهامّة للسيطرة على الموانئ الهامّة على سواحل اليمن والحجاز ، واستباحة الأماكن المقدسة والسيطرة على تجارتها .

في البلاد ، واشتدّت مخافة أهل تلك الجوانب بل أهل القبلة ، لمّا أومض إليهم من خلل العواقب ، وما ظنّ المسلمون إلّا أنّها الساعة ، وقد نُشر مطويُّ أشراطها ، والدنيا قد طُوي منشور بِساطِهَا ، وانتُظِرَ غضب الله لغناء بيته المحرّم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه الأقدم ، وضريح نبيّه الأعظم ﷺ ، ورجوا أن تشحذ البصائرَ آيةٌ كآية هذا البيت ، إذْ قصده أصحاب الفيل ، ووكلوا إلى الله الأمر ، وكان حسبَهم ونعمَ الوكيل ، وكان للفرنج مقصدانِ : أحدهما : قلعة أيلة الّتي هي على فوّهة بحر الحجاز ومداخله ، والآخر : الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله ، وانقسموا فريقين ، وسلكوا طريقين ، فأمّا الفريق الّذي قصد قلعة أيلة فإنّه قدّر أن يمنع أهلها من مورد الماء الّذي به قوام الحياة ، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه ، وأمّا الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن ، فقدّر أن يمنع طريق الحاجّ عن حجّه ، ويحول بينه وبين فَجّه ، ويأخذ تجّار اليمن ، وكارم عدن ، ويلمّ بسواحل الحجاز ، فيستبيح - والعياذ بالله - المحارم ، ويُهيّج جزيرة العرب لعظيمة دونها العظائم ، وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمّر مراكب وفرّقها على الفرقتين ، وأمرهم بأنْ تطوي وراءهم الشقتين ، فأمّا السائرة إلى قلعة أيلة ، فإنّها انقضّت على مُرابطي الماء انقضاضَ الجوارح على بناتِ الماء ، وقذفتها قذفَ شُهُبِ السماء مُسْتَرِقِي سمعَ الظَّلْمَاء ، فأخذت مراكب العدوّ برُمتها ، وقتلت أكثر مُقاتِلتها ، إلّا من تعلّق بهضبة وما كاد ، أو دخل في شعب وما عاد . فإنّ العربان اقتصّوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم ، فلم ينجُ منهم إلّا مَن ينهي عن المعاودة ، ومَن قد علم أنّ أمر الساعة واحدة ، وأمّا السائرة إلى بحر الحجاز ، فتمادتْ في البحر الحجازي إلى رابغ سواحل الحوراء ، فأخذت تجّارًا وأخافت رفاقًا ، ودلّها على عورات البلاد - مِن الأعراب - مَن هو

أشدّ كفرًا ونفاقًا ، وهناك وقع عليها أصحابنا وأُخذت المراكب بأسرها ، وفرّ فرنجها بعد إسلام المراكب ، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك ، ومقاطن المعاطب ، وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلّونهم شلًّا ، ويقتنصونهم أسرًا وقتلًا ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلًا ورجلًا نهارًا وليلًا ، حتى لم يتركوا عنهم مخبرًا ، ولم يُبقوا لهم أثرًا ، ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا** ﴾ [الزمر : ٧١] ، وقِيد منهم إلى مصر مائة وسبعون أسرىٰ » . ا هـ .

السُّلطانُ محمد بن مراد الفاتِحُ .. فاتحُ القسطنطينيّة :

أنْعِم به من فاتح ! المجاهد العظيم محمد بن مراد بن محمد جلبي بن بايزيد ، الذي رفع راية الإسلام فوق أسوار القسطنطينية ، ولمّا يُكْمل الثالثة والعشرين مِن عمره .

مواقفُ بطولةٍ تدكُّ بعزَمَاتِهَا صُروح الجاهلية الصليبية ، تنكِّس راياتهم ، وتهدِّم ناقوسَهم وأحلامهم ، وتزلزلُ الأرض من تحت أقدامهم ...

مَن كان يظنُّ أنَّ هذا الغلام المبارك ، الذي وُلِدَ في ليلة السابع والعشرين مِن رجب عام ٨٣٥ هـ سيفتح القسطنطينية في الثلاثاء الموافِق العشرين من جمادى الأول عام ٨٥٧ هـ .

لقد كان فتح القسطنطينية أملًا يملك على السلطان محمد الفاتح كلَّ مشاعِره منذ كان فتًى ، ولَشدَّ ما كان يُمضي مع أستاذه ومربِّيه العالم الجليل الشيخ أق شمس الدين ساعاتٍ طوالًا ، يذاكره في الحديث الشريف : « لَتُفْتحنَّ القسطنطينية ، فلَنِعم الأمير أميرها ، ولَنعم الجيش جيشها »[(١)].

(١) رواه البخاري في تاريخه والحاكم في المستدرك عن بشر الغنوي ، وضعفه الألباني في الضعيفة رقم ٨٨٢ ، وضعيف الجامع رقم (٤٦٥٨) .

وكان التفكير بفتح القسطنطينية يكبر في نفس الفتى يومًا بيوم ، وأصبح فتْحُ القسطنطينية قمةَ طموحِ الفتى المؤمن ، وفي هذا الصدد يروي إسماعيل حامي « دنشمند » أنّ الفاتح كان يُمضي ساعاتٍ طويلة في كلّ ليلة - منذ أول يوم اعتلى فيه عرش السلطنة - في دراسة خريطة للقسطنطينية توضّح جميع نقاط الدفاع الإستراتيجية للبيزنطيين ، ونقاط الضعف في أسوارها .

وكان السلطان رحمه الله يُحيط جميع خُطَطِه ونواياه بالسِّرِّيَّة المطلقة ، وتراءىٰ للسلطان البَدْءُ في بناء قلعة ضخمة على الشاطئ الأوربّي من البوسفور ، وقام بنفسه باختيار موْقعها ، وشارك بنفسه في أعمال البناء وأطلق عليها اسم « روملي حصار » ، أي : قلعة الروم ، وسيطر بها على مدخلي البوسفور من شاطئيْه : الأسيويّ والأوربي ، وضمن العثمانيون منع وصول أية إمدادات إلى القسطنطينية ، وخاصّةً مِن مملكة ترابزون النصرانية ، وأصبح على كلّ سفينة تريد العبور من البوسفور أن تخضع لتفتيشٍ دقيق ، وأن تدفع رسْمًا مقابل السماح لها بالعبور .

وأَقَضَّ الهَلَعُ مضاجع الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر إمبراطور القسطنطينية ، فبعث يستنجد ببابا روما ودُول أوربا النصرانية ، وبعث برسالةٍ إلى بابا روما يُنْذره فيها بأنه إذا سقطت القسطنطينية في يد المسلمين ، فإنّ هدفهم التالي سيكون روما مركز البابوية . وأبدىٰ الإمبراطور قُسطنطين استعداده للموافقة على توحيد كنيسته الأرثوذكسية بالكنيسة الكاثوليكية تحت زعامة البابا ، مقابل تعهُّد البابا بنجدته ، وبلغ الذُّعر به أنْ جَثَمَ بين يدي الكاردينال « ايزيذور » الكاثوليكي ، طالبًا بركته في القسطنطينية ، مركز الكنيسة الأرثوذكسية .

وأعلن السلطان محمد الفاتح في أحد أيام شهر جمادى الأول سنة ٨٥٦ هـ الحرب على الدولة البيزنطية ، ومنذ ذلك اليوم بدأ السلطان محمد

الفاتح في تشديد حصاره حول القسطنطينية ، وحين تيقَّن أنّ الحصار أصبح مُحْكَمًا ، عاد إلى « أدرنة » لِيمضي فيها موسم الشتاء ، وفي تلك الأثناء كان السلطان يُشرف بنفسه على صنْع مدفع ضخمٍ لم يسبق لأحد أنْ صنع شبيهًا له .

ووضع البيزنطيون السلاسل الحديدية في خليج « إستنبول » ، لمنع السفن الحربية العثمانية من الاقتراب من أسوار القسطنطينية من تلك الجهة .

وفي الخامس والعشرين من شهر ربيعٍ الأول عام ٨٥٧ بدأت طلائع الجيش العثماني بقيادة السلطان محمد الفاتح في الوصول إلى مشارف القسطنطينية ، وكان عدد أفراد ذلك الجيش بين مائةٍ وخمسين ألفِ جنديٍّ كحدٍّ أدنىٰ ، ومائتي ألفِ جنديٍّ كحدٍّ أعلىٰ . وبدأ الجيش زحْفه ، وسيطرت على رجاله فكرة الجهاد في سبيل الله والشهادة ، وألهب مشاعرَ الجنود تكبيرُ المئات من العلماء ، وعلى رأسهم الشيخ أق شمس الدين والشيخ القوراني ، والشيخ خسروي . وكان على الميمنة : إسحاق باشا ، حيث يقع الباب العسكري ، وعلى الميسرة : « دايي كراجا » باشا ، حيث يقع باب أدرنة ، وعلى القلب : السلطان محمد الفاتح باتجاه باب المدفع ، وتمركز « زاغنوس » باشا على رأس قوةٍ فوق المرتفعات المشرِفة على منطقة « قلطة » ، لضمان عدم قيام الجنْويين بنجدة القسطنطينية .

وفي اليوم الثاني من ربيع الآخر ، بدأتِ المدافع العثمانية في دكّ أسوار القسطنطينية ، واستمرّت في ذلك بدون انقطاع لمدة ثمانيةٍ وأربعين يومًا ، ولم تتوقّف إلَّا عندما أزف موعد الهجوم الأخير .

وبدأت السفن الحربية العثمانية بقيادة « بالطا أوغلو سليمان » بك عملياتها العسكرية ، فسيطرت على جزيرة « برينكيبوس » الحصينة .

وفي الثالث عشر من ربيع الآخر فُوجئ المدافعون عن القسطنطينية بأمرٍ لم يكن يخطر لهم على بالٍ أبدًا ؛ فقد كانت حوالي ثمانين سفينة حربية عثمانية تتمركز داخل مياه خليج القسطنطينية ، وظَنَّ قسطنطين وقادته أنّ العثمانيين قد نجحوا في تحطيم السلاسل الحديدية ، التي كانوا قد أغلقوا بواسطتها مدخل الخليج لمنع أيِّ سفينة عثمانية مِن العبور ، ولكنْ سرعان ما جاءتهم الأنباء تؤكّد سلامة السلاسل ، فتملّكتْهم الدهشة ، وانعقدتْ ألسنتهُم من العجب ، ولئن كان الخوف والهَلَع قد عقد ألسنة نصارىٰ القسطنطينية ، وشلّ تفكيرهم ، فجعلهم ينسبون وجود السفن العثمانية داخل الخليج إلى معجزة وهمية - فإنّ حماس السلطان الفاتح ، وصِدْقَ جهاده ، وعلوّ همّته ، قد كشفا عن بصيرته ، وفجّرا كَوَامِن عبقريته ، فابتدع طريقةً لإيصال السفن إلى داخل الخليج ، لا تكاد تخطر على بال ؛ وهل يخطر على بالِ أحد أنَّ السفن يمكن أنْ تمخر عُبَاب « الأرض » مثلما تمخر عباب الماء ؟! ذلك أنَّ السلطان محمد الفاتح - أنعِم به مِن فاتح - قد حطَّم ما ألفه الناس ، وأصرَّ على أنْ تمخر سفُنه عبابَ الأرض لمسافةٍ تزيد على ستة أو ثمانية أميال .

وكانت الطريقة التي اتُّبِعَتْ في تنفيذ تلك الفكرة العبقرية ، تعتمد على رصِّ الآلاف من جذوع الأشجار الضخمة في صفوف منتظمة على طول الطريق ، وسَكْب أطنان من الدهن والزيت فوقها ، لتسهيل عملية انزلاق السفن فوق هذا الجسر الخشبي ، وشارَك بضعةُ آلاف جنديٍّ مسلم في عمليات سَحْبِ السفن فوق الجسر ، وأُوكل إلى مجموعات أُخرىٰ مهمةُ رَبْطِ السفن من جميع جوانبها بحبال متينة ، لضمان توازنها أثناء سحبها ، فإذا مالت أثناء الطريق إلى جهة ، سارع المُمْسكون بالحبال من الجهة المعاكسة بشدِّ حبالهم ، فتستوي السفينة من جديد . وتمكّن المسلمون

في ليلة واحدة من نَقْلِ ثمانين سفينةً ، حتى إذا وصلوا إلى هدفهم ، أنزلوها في مياه الخليجِ ، وامتطَوْها بينما أصواتهم تهدر بالتكبير .

وقام السلطان طوَال يومي ١١ ، ١٢ ربيع الآخر بقصف السفن الحربية البيزنطية المتواجدة في الخليج ، بغية جعلها في حالة من الخراب ، لا تستطيع معه التصدّي للسفن العثمانية عندما يتمّ إنزالها إلى مياه الخليج ، كما قام في نفس الوقت بقصْف أسوار القسطنطينية بكثافة ، وذلك بغية إشغال البيزنطيين طوال الوقت الذي يقوم في أثنائه بسحب السفن ، عبر الطريق البرِّي إلى مياه الخليج ، وأمر السلطان باستعمال مدفعٍ من اختراعه - أطلق عليه اسم « مدفع الهاون » - في قَصْف السفن .

واخترع السلطان بُرْجًا متحرّكًا ، يزيدُ ارتفاعه عن ارتفاع أسوار المدينة ، ويتألَّف مِن عدّة طبقات لدكّ أبراج باب المدفع .

وَصَحَتْ أوربا النصرانية من غفلتها ، وأرسل « هونياد » ملك المجر إلى محمد الفاتح أنّ نصارىٰ المجر سيكونون إلى جانب أبناء دينهم (نصارىٰ القسطنطينية) ، فلم يردَّ السلطان محمد الفاتح إلَّا بأنْ أخذ موفدَهُ إلى مواقع المدافع العثمانية ، وأشار إليها قائلًا : قل لسيدكَ : هذا هو جوابي .

وفي يوم التاسع عشر من جمادى الأول ، بعث السلطان بعشَرات المُنادين ليجُوبوا صفوف الجند ، مُعلنين أنّ السلطان قد أمر بالاستعداد لشنّ الهجوم الفاصل ضدَّ أعداء الإسلام ، وأنه قد أمر برفْع مقام جميع الذين يسبقون إلى اختراق أبواب المدينة إلى داخلها قبل غيرهم ، وأن تسجل أسماءُ هؤلاء السبّاقين إلى اختراقِ المدينة لمنْحهم أُعطياتٍ مُجزية ، تُجْرىٰ على نَسْلهم ما بقي للدولة العثمانية سلطان .

وأصدر السلطان أمره بعد الغروب بإيقاد نيران المشاعل في البر والبحر ، بينما كانت أصوات عشرات الآلاف تتصاعد في السماء ، بالتكبير والتهليل والدعاء والابتهال إلى الله .

وبدأ السلطان في صباح اليوم السابق لدخول القسطنطينية ، فنوى الصيام وندب جنده إلى الصيام ، وبعد الإفطار دعا السلطان مجلس حربه ، وقادة جيشه إلى الاجتماع ، وقال لهم : « إذا أعاننا الله عز وجل ففتح علينا القسطنطينية ، فسيتحقّقُ فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته العظام ، وسيكون من حظِّنا ما تضمّنه حديث رسول الله ﷺ من التقدير والتشريف ، فأبلغوا أبناءَنا العساكر فردًا فردًا أنَّ الظفر العظيم الذي سننجزه ، سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا . ويجب على كلّ جنديٍّ أنْ يجعل تعاليم شريعتنا الغرّاء نصْب عينيْه ، فلا يصدر عن أيّ واحدٍ منهم ما يُنافي هذه التعاليم ، وليتجنَّبوا الكنائس والمعابد ، ولا يمسُّوها بأذًى ، وليدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون .

وفي صباح اليوم التالي ، زحف الجيش الإسلامي يسبقه هديرُ التكبير والتهليل ، وفي مقدِّمته السلطان محمد الفاتح ، ونصب المجاهدون ألفي سُلَّمٍ خشبي ، ليصعدوا إلى أعالي الأسوار والأبراج ، وقذفوا بأكثر من ثلاثين ألف مُجدّلٍ ، لتثبيتها بواسطة الخطاطيف والكلاليب فوق الأسوار ، ليصعدوا بواسطتها لملاقاة جنود النصارى في أعالي الأسوار والأبراج ، وكان تكبير معسكر الترك يتردّد وكأنّه زلزال الحشر ، وكأنّ القوات التركية تريد أن تكسب الدنيا والآخرة في آنٍ واحد . واحتدم القتال ، وبذل المدافعون عن المدينة بقيادة « جوستنيان » الجنويّ غاية جهدهم في صدّ الهجوم الإسلامي ، وانهالت السِّهَامُ والسيوف وقوارير الزَّيْت المغلّي على المسلمين . وطفق القساوسة والرهبان يؤكِّدون للناس أن الملاك الأزرق

لن يسمح للمسلمين بدخول القسطنطينية .

وأمر السلطان بتركيز الهجوم على ثلاث جهات معيَّنة من الأسوار ، كَثُرتْ فيها الفجوات والثغرات التي أحدثها القصْف المدفعي .

وفي يوم الثلاثاء ، العشرين من جمادى الأول من عام ٨٥٧ هـ - وهو يوم فتح القسطنطينية - خطب السلطان فيمن حوله من المجاهدين خطبة ، لم تزد على بضع كلمات ، كما يروي « إسماعيل دنشمند » في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، قال فيها : « يا أبنائي ، ها أنا ذا مستعدٌ للموت في سبيل الله فَمَن رغِب في الشهادة فلْيلحق بي » ، لله دَرُّكَ من فاتح !

وتدافع المجاهدون وراء قائدهم العظيم ، كأنهم السيل العَرِم ، وما هي إلَّا سُويعات حتى كانت حدّة المقاومة الصليبية تتلاشىٰ شيئًا فشيئًا ، واندفع السلطان بجنوده إلى داخل المدينة ، من ثغرةٍ في جهة باب المدفع ، وتمكّن القائد المسلم « قراجا بك » مِن اختراق فجوة في أسوار المدينة من جهة الشمال ، وانهمر المجاهدون من ورائه ، وتمكّن جنديٌّ مسلم من قتل قائد النصارىٰ في تلك الجهة ، فانهارت مقاومة المدافعين وولَّوْا هاربين .

وفي تلك الأثناء تمكّن قائد الأسطول العثماني « حمزة باشا » من إزالة السلاسل الحديدية والدخول بسُفنه ، وانضمَّ بها إلى السفن العثمانية المتواجدة في خليج القرن الذهبي ، واقترب من أسوار المدينة التي تهدّمت بفعل القصف المدفعيّ ، واندفع بجنوده من فوق أنقاضِ الأسوار إلى داخل المدينة من تلك الجهة .

وقُتل « جوستنيان » قائد المدافعين عن المدينة ، وأجهز أحد المجاهدين

على الإمبراطور قسطنطين في المعركة ، ووثب العديد من المجاهدين إلى أعالي الأسوار ، يُزيلون الرايات البيزنطية من فوقها ، ويضعون مكانها الرايات العثمانية ، وقام العشرات برفع أصواتهم بالأذان من فوق أسوار المدينة ، وحين رأى السلطان الفاتح رايات الإسلام تتهادىٰ بِخُيَلاء وشموخ فوق أسوار المدينة ، وعندما سمع صوت الأذان الهادر - خرّ ساجدًا على الأرض شكرًا لله .

ومضىٰ المسلمون في تقدُّمهم من ثلاث جهات إلى مركز المدينة ، حيث تقع كنيسة أياصوفيا ، ولم يواجهوا مقاومة ذات بالٍ ، وكانت شوارع القسطنطينية وأزقّتها شبهَ خالية من الناس ، فقد الْتجأ معظمهم إلى كنيسة أياصوفيا .

ودخل السلطان العثماني المدينة من باب المدفع « توب كابي » ، واتجه مباشرة إلى كنيسة أياصوفيا ، فوجد بها أعدادًا كبيرة من النصارىٰ ، فطمْأنهم وأمّنهم على أرواحهم ، وكان وصول السلطان وقتَ الظُّهر ، فأمر المؤذّن فأذّن لصلاة الظهر ، فصلّى المسلمون الصلاة جماعةً في داخل الكنيسة ، بعد أن أُخليت ممّن كان فيها ، وبعد أن تمّ إزالة ما كان بداخلها من تماثيل ، ومنذ ذلك الوقت تحوّلت كنيسة أياصوفيا إلى مسجد « أياصوفيا » ، وأُقيمت أول صلاةِ جمعةٍ في مسجد أياصوفيا في اليوم الثالث والعشرين من جمادىٰ الأول ، عام ٨٥٧ هـ وفق الأول من حُزيران عام ١٤٥٣ م ، وكان خطيب الجمعة وإمامها العالم المجاهد أق شمس الدين . وهناك رِواية تقول بأنَّ السلطان الفاتح هو الذي ألقىٰ خطبة الجمعة ، وأنّ الشيخ أق شمس الدين أَمَّ الناسَ في الصلاة .

وكان عدد قتلىٰ النصارىٰ أكثر منْ أربعة آلاف قتيل ، بينما بلغ عدد الأسرىٰ أكثر من خمسين ألف مقاتلٍ ، كان أحدهم إذا رأى جنديًّا مسلمًا ،

يركع على الأرض رافِعًا يديه ، فلا يهدأ روعُه إلَّا بعد أنْ يرىٰ الجنديّ المسلم يكتفي بأسره .

وقبل وصول الفاتح إلى كنيسة أياصوفيا ، وعند بلوغه منتصف المدينة ، توقّف عن المسيرة ، وخطب فيمن حوله ، وقرأ عليهم بلغةٍ عربية فُصْحَىٰ البشارةَ النبوية الكريمة ، وعند وصوله إلى الكنيسة ، سجَدَ لله شكرًا .

هَـٰذِي الدِّيَارُ «بَني عُثْمَانَ» كَمْ رَفَعَتْ ... للهِ مِـنْ رَايَـةٍ خَفَّاقَـةِ العَـذَبِ
وَكَمْ تُرَىٰ دَفَعَتْ للهِ مِن عُصَبٍ ... تَمْضِي عَلَىٰ سَاحِهَا مَوْصُولَةَ العُصَبِ
هُنَا السَّلَاطِيْنُ كَانَتْ في مَجَالِسِهَا ... نُورًا مِنَ الحَقِّ أَوْ بَرْقًا مِنَ القُضُبِ
هُنَا الوُفُودُ الَّتي جَاءَتْ مُسَلِّمَةً ... فَأَسْلَمَتْ أَوْ تَلَقَّتْ عِزَّة الأَدَبِ
أَحْلَىٰ الأَمَاني لَدَيْهَا أَنْ تَرَىٰ رَجُلًا ... شَقَّ المَيَادِينَ شَقَّ الفَارِسِ الضَّرِبِ
وَجَمَّعَ النَّصْرَ مِنْ وَادٍ وَمِنْ جَبَلٍ ... وَمِنْ بِحَارٍ وَمِنْ نَهْرٍ وَمِنْ شُعَبِ
حَتَّىٰ أَتَىٰ لِمَضِيقٍ غَيْرِ مُنْفَرِجٍ ... وَزَحْمَةٍ مِنْ عَظِيمِ الهَمِّ والنَّصَبِ
ضَاقَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَىٰ مِنْ جَحَافِلِهِ ... جَحَافِلًا وَرَمَىٰ بِالنَّـارِ بالشُهُـبِ
حَتَّى إِذَا اسْتَغْلَقَ اللَّيْلُ البَهِيمُ وَمَا ... رَأَى بِهِ فُرْجَةً تُنْجِيهِ مِنْ كُرَبِ
تَدَفَّقَ النُّـورُ شَـلَّالًا يُضِيءُ لَهُ ... بُشْرَى مِنَ اللهِ لَمْ تَكْذِب وَلَمْ تَرِبِ
لَتُفْتَحَـنَّ بِلَاد الرُّومِ فَاتِحُهَـا ... نِعْمَ الأَمِيرُ وَنِعْمَ الجَيْشُ فَاقْتَرِبِ
بُشْرَىٰ الرَّسُولِ[١] أَضَاءتْ كُلَّ نَاحِيَةٍ ... وأَشْعَلَـتْ هِمَّـةً مِنْ فِتْيَةٍ نُجُـبِ
وَفَتَّحَتْ سُبُلًا لَانَتْ مَسَالِكُهَا ... لِصَـابِرٍ فِي سَبِيلِ اللهِ مُحْتَسِـبِ
وَأَحْكَمَ الأَمْرَ فَانْسَابَتْ بَوارِجُهُ ... مَا بَيْنَ مُخْتَبِيءٍ مِنْهَا وَمُنْسَرِبِ
حَتَّىٰ أَحَاطَ بِهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ... وَأَحْكَمَ الطَّوْقَ مِنْ بَابٍ وَمِنْ سَرَبِ

---

(١) حديث : « نعم الجيش جيشها ، ونعمْ الأمير أميرها » : « ضعيف » .

فَرُجَّتِ الأَرْضُ مِنْ زَحْفٍ تَمُوجُ بِهِ ... دُنْيَا البُطُولَاتِ إِعْصَارًا بِكُلِّ أَبِي
كَأَنَّمَا الأَرْضُ شُقَّتْ عَنْهُمُ فَعَلَوْا ... أَكْتَافَهَا وَرَمَوْهَا رَمْيَةَ العَجَبِ
وَأَشْرَقَ الفَجْرُ وَالدُّنْيَا تُطِلُّ عَلَىٰ ... بُشْرَىٰ وَآيَةِ نَصْرٍ أَوْ حَدِيثِ نَبِي
بُشْرَىٰ مَعَ الدَّهْرِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... وَلَهْفَةُ الشَّوْقِ مِنْ جُنْدٍ وَمِنْ عُصَبِ
جَالُوا بِهَا فَكَأَنَّ النُّورَ يَغْمُرُهَا ... يَرْوِي وَيَغْسِلُ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْ شُعَبِ
وَأَطْلَقُوا دَعْوَةً للهِ صَادِقَةً ... تُزِيحُ مِنْ ظُلُمَاتِ الجَهْلِ والحُجُبِ
كَأَنَّمَا فَتَّحُوا غُلْفَ القُلُوبِ بِهَا ... فَتْحًا مِنَ اللهِ لَا فَتْحًا مِنَ القُضُبِ
قُسْطَنْطِينِيَّةُ هٰذَا النُّورُ فَانْتَفِضِي ... وَكَبِّرِي وَاسْجُدِي لِلهِ وَاقْتَرِبِي
وَهَلِّلِي يَا رُبَىٰ اسْتَنْبُول وَائْتَلِقِي ... وَزَيِّنِي الدَّارَ مِنْ حلْيٍ وَمِنْ قُشُبِ
وَرَفْرِفِي بِالهُدَىٰ مِنْ كُلِّ رَابِيَةٍ ... مَآذِنًا خَشَعَتْ بالآيِ وَالرَّهَبِ
لَوْلَا فُتُوحُ رَسُولِ اللهِ قُلْتُ هُنَا ... فَتْحُ الفُتُوحِ وَهٰذِي زَهْوَةُ الغَلَبِ
تَسَابَقَ الخُلَفَاءُ المُسْلِمُونَ لَهَا ... عَلَىٰ الزَّمَانِ سِبَاقَ الصَّادِقِ الأَرِبِ
فَلَمْ يَنَلْهَا سِوَىٰ هٰذَا الفَتَىٰ قَدَرًا ... للهِ يُمْضِيهِ فِي تُرْكٍ وَفِي عَرَبِ
مُحَمَّدٌ فَاتِحُ الدُّنْيَا وَمَا طَمِعَتْ ... نَفْسٌ لَهُ بِرَخِيصِ الفَتْحِ وَالسَّلَبِ
يَمْضِي إِلَىٰ اللهِ وَالفِرْدَوْسُ غَايَتُهُ ... وَلَهْفَةُ الشَّوْقِ تُنْجِيهِ مِنَ الرِّيَبِ
كَأَنَّ وَثْبَتَهُ للهِ دَفْقُ هُدَىٰ ... يُفَجِّرُ النُورَ في وَادٍ وَفِي هِضَبِ
كَأَنَّمَا أَنْبَتَتْ أَسْيَافُهُ وَرَوَتْ ... وَرْدًا وَعَضَّتْ عَلَىٰ الأَشْوَاكِ وَالغَرَبِ
وَصَارَتِ الأَرْضُ رَوْضًا مِنْ أَزَاهِرِهِ ... طَلَائِعُ الحَقِّ مِنْ صِيدٍ وَمِنْ نُجُبِ
فَتْحٌ مِنَ اللهِ مَا أَحْلَاهُ مِنْ أَمَلٍ ... بَلَغْتَهُ وَكَرِيمِ السَّعْيِ وَالطَّلَبِ[1]

للهِ درُّ محمد الفاتح مِن فاتح صادق الحبِّ لله ورسوله ، عالي الهمّة في الجهاد والبذْل ...

---

(١) « فتح القسطنطينية » من « ملحمة القسطنطينية » لعدنان النحوي .

كتب رحمه الله إلى سلطان دولة المماليك الشراكسة في مصر « إنيال شاه » : « إنَّ مِن أحسن سنَنِ أسلافنا ، أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لوْمة لائم ، ونحن على تلك السُّنة قائمون ، وعلى تلك الأمنية دائمون ، متمثِّلين بقوله تعالىٰ : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنونَ باللهِ** ﴾ [التوبة : ٢٩] ، ومستمسكين بقوله عليه السلام : « مَن اغبرَّتْ قدماه في سبيل الله ، حرّمه الله على النار » . ولهذا ، فقد همَمنا هذا العام ، مُعْتَصمين بحبلِ اللهِ ذِي الجلال والإكرام ، ومستمسكين بفضل الملك العلّام ، إلى أداء فرض الغزاء (الغزو) الذي فرضه علينا الإسلام ، مُؤْتمرين بأمره تعالىٰ : ﴿ **قَاتِلُوا الذين يَلُونَكُمْ من الكفار** ﴾ ، وجهّزنا عساكر الغزاة المجاهدين من البر والبحر ، لفتْح مدينةٍ مُلِئَتْ فجورًا وكفرًا ، والتي بقيتْ وسط الممالك الإسلامية تُباهي بكفرها فخرًا » .

لله دَرُّ الفاتح من سلطانٍ بلغت الجزية في عصره حوالي ستة وثلاثين ألف دوقية ذهبية ، وهو مبلغ كبيرٌ جدًّا في وقته !! وجُبِيَتْ هذه الجزية على النحو التالي :

مملكة ترابزون : (٢٠٠٠) دوقية ، ومملكة الصِّرب : (١٢٠٠٠) دوقية ، وجمهورية دوبروفنك : (٣٠٠٠) دوقية ، وبلاد المورة : (١٠٠٠٠) دوقية ، ومستعمرة ساكين الجنوية : (٦٠٠٠) دوقية ، ودوقية ميدللي الجنوبية : (٣٠٠٠) دوقية .

ودفع البنادِقَةُ جزيةً سنويةً مقدارها مائتا ألفِ دوقية ذهبية .

لله دَرُّ الفاتح وهو يواجه الحِلْف الصليبيّ الذي عقده ملك المجر « لاديسلاس » ، وملك الصرب « جورج برانكوفيتش » ، فاندفعت قوات المجر بقيادة « هونياد » ، وجيشُ الصرب سنة ٨٥٩ هـ . وانتصر السلطان

محمد الفاتح على هذا التحالف ، واضطُرّ « هونياد » المجَري إلى الفرار داخل المجر ، واضطُرّ « برانكوفيتش » إلى دَفْعِ جزية سنوية ، مقدارها ثلاثون ألف دوقية ذهبية .

ولله دَرُّ الفاتح حين يواجه تحالفًا صليبيًّا آخر من جيش ألبانيا (بلاد الأرناؤوط) ، بقيادة ملكها « إسكندر بك » ، وقوات نابولي الإيطالية بقيادة ملكها ، وتمكّن الفاتح من هزيمة التحالف « الإيطالي الأرناؤوطي » في معركة « بيرات » . واضطُرّ « إسكندر بك » إلى الفرار بعد قَتْل وأسر معظم أفراد جيش التحالف .

ولله دَرُّه وهو يلقّن الأدبَ فرسانَ القدِّيس « يوحنَّا » ، وكانوا خليطًا من الفرنسيّين والطَلْيَان والألمان ، ويُوقع خسائرَ كبيرةً في عديد من جُزُرهم !!

ولله دَرُّه وهو يحاصر بلغراد في التاسع من رجب عام ٨٦٠ هـ ، بل ويدخلها في الثامن عشر من شعبان ، ثم يتراجع عنها ثانية ، وتمكّن مَغاويرُ الإسلام مِن قَتْل القائد المجري هونياد ، وقائد المتطوعين الصليبيين الراهب « كابيسترانو » !!

ولله دَرُّ الفاتح وهو يفتح « أثينا » وبلاد اليونان عام ٨٦٢ هـ ، واستمرّت سيطرة العثمانيين على أثينا ومعظم بلاد اليونان حوالي ٣٧١ عامًا من غير انقطاع !!

ولله دَرُّه حين يكمل السيطرة على جنوب شبه جزيرة المورة عام ٨٦٣ هـ !!

ولله دَرُّه وهو يفتح « سمِندرة » عاصمة مملكة الصِّرب ، ويعلن ضمَّ بلاد الصرب بشكلٍ نهائي ، وجعلِهَا إحدىٰ ولايات الدولة العثمانية !!

ولله دَرُّه وهو يفتح مَحْمِيَّة « أماسرا » التي كان يسيطر عليها الجِنْوِيُّون ،

ثم مقاطعة « سينوب » !!

ولله دَرُّه وهو يُنهي آخر معقل نصراني في بلاد الأناضول ، وهو مملكة « طرابزون » عام ٨٦٥ هـ ، فقد حصّنها النصارىٰ من جميع الجهات ، إلَّا من الجهة المحاذِيَة لسلسلة جبال البلغار ، فلم يكنْ يخطر ببالهم أنْ يستطيع أيُّ جيشٍ اختراقَ تلك الجبال الوَعِرة التي تغطِّيها الغابات العشوائية ، وتكتنِفُهَا الثلوج .

وأصرّ السلطان الفاتح على القيام بتلك المغامرة ، التي لا تقلُّ خطورةً ومشقَّةً عن عملية نقلِهِ ثمانين سفينةً حربيةً ، عبر ثمانيةِ أميال فوق الأرض اليابسة . وفوجئ نصارىٰ « طرابزون » ذات ليلةٍ بهديرِ التكبير والتهليل ينطلق من تلك الجهة التي حسبوها في مأْمَن ، وكان وَقْعُ سقوط مملكة طرابزون النصراينة كوقع الصاعقة على نصارىٰ أوربا ، ففاضتْ بالأحزان نفوسُهم بعد نهاية آخر بَصِيصِ أملٍ لهم .

لله دَرُّه حين يُيَمِّم وجهَه شَطْرَ بلاد الأفلاق (رومانيا) ، وينتصر على أمير الأفلاق « داكول » الملقَّب بالشيطان ، ويفرُّ « داكول » الشيطان إلى المَجَر الذي خشي ملكها من غضب الفاتح ، فيسجن داكول ، ويضمُّ الفاتح رومانيا عام ٨٦٦ هـ إلى الدولة العثمانية !!

ولله دَرُّه وهو يفتح جزيرة « ميديللي » ، ويعدم جميع الجنود البيزنطيين والمرتَزِقَة الصليبيين ، جزاءَ ما اقترفوه من جرائم السَّلْبِ ضد السفن العثمانية !!

لله دَرُّه وهو يؤدِّب ملك البوسنة النصرانية « ستيفان توماشوفش » ، ويقتله ويستولي على مملكته عام ٨٦٧ ، ويضمُّها لملك المسلمين !!

ولله دَرُّه حين يضمُّ « قونية » عاصمة سلطنة « قرمان » السلجوقية إلى الدولة ، عام ٨٧١ هـ لتصبح ولاية عثمانية .

ولله دَرُّ الفاتح وهو يؤدّب ستيفان الرابع (فارس المسيح) ، ويُلحق الهزيمة بالجيش البغداني في ربيع الآخر عام ٨٨١ هـ .

ولله دَرُّه حين تُسلّم له مدينة « إشكودرا » آخر معاقل البنادقة في بلاد الأرناؤوط ، لتستمر سيطرة العثمانيين على جميع بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) ، حوالي ٤٣٣ عامًا .

ولله دَرُّه وهو يؤدِّب الكونت « كينيس » ويُوقعه في الأسر هو وبضعة آلاف من جيشه ، من بينهم أكثر من خمسمائة راهب كانوا في عداد المقاتِلين !!

ولله دَرُّه وهو يؤدِّب الإيطاليِّين ، ويضع أول قدمٍ له في إيطاليا في العشرين من جمادى الأولى عام ٨٨٥ هـ ، ويستولي على ميناء ومدينة « أوترانتو » في جنوب إيطاليا ، بعد حصار دام أربعة عشر يومًا ، ويفرّ أهل نابولي من مدينتهم ، ويدبُّ الرعب في قلب بابا روما ، بعد علْمه بأنّ السلطان يُعِدُّ للاستيلاء على نابولي ، ليصل إلى هدفه الرئيسيّ : روما (التفاحة الحمراء) ، لولا موت محمد الفاتح ، « وفي الليلةِ الظلماءِ يُفْتَقَد البدرُ » .

وَوَصَّىٰ الفاتح ولَدَه « بايزيد » : « يا بُنَيَّ ، ها أنا ذَا أموت ، تاركًا ورائي كلَّ النِّعم الجليلة التي أكرمني بها الله ، إلى نِعَمٍ أكبر وأبقىٰ ، فإنْ رَغِبْتَ في اللِّحاق بي إلى رحاب الله ، فالزمْ طريقي ، واسلك السبيل الذي سلكتهُ مجاهدًا في سبيل الله . يا بُنَيَّ ، إنّ نشرَ الإسلام في الأرض هو واجب الملوك على الأرض ، فاعمل على نشر دين الله حيثما استطعتَ » .

ونختم بقصة رواها المؤرخ التركيُّ إسماعيل حامي « دنشمند » ، في كتابه : « موسوعة التاريخ العثماني » : أن « سارّة خاتون » شاهدتِ السلطان بحالة من الإنهاك والتعب الشديد ، اضطرته إلى الاضطجاع إلى جذْعِ شجرة ، بعد أن بذل جهدًا كبيرًا في مشاركة جنوده في تقطيع الأشجار ، وإزالة

الثلوج لتمهيد الطريق أمام الجيوش ، فاقتربت منه ، وجرى بينهما الحوار التالي :

قالت سارة خاتون : يا بنيَّ ، ما الذي يُجبرك على تَحمُّل هذا العَناء ، من أجل مدينة صغيرة ؟ فأجابها السلطان الفاتح : يا أُمَّاهُ ، هذا العناء كلُّه في سبيل الإسلام ، وهل تَظنِّين أنّنا نكون أهلًا لنُسمَّى بالمجاهدين ، إذا لم نتحمَّل هذا العناء في سبيل الله ! يا أمَّاه ، إنَّ هذه السيوف التي نحملها ليست للزينة والتَّباهِي ، وإنما لِنقاتِل بها في سبيل الله[1] .

○ القَبْـوُ الزُّجَـاجِيُّ ○

أَيُّهَا الفَاتِحُ .. ضَيَّعْنَا مَفَاتِيحَ المدائنْ !!
ونسِينا البحرَ .. والموجَ وتهليلَ السفائنْ !!
ونسينا الخَيْلَ والرمحَ .. وأَسرارَ الكمائنْ
سورةُ الفتحِ هَجَرْناها .. وبدَّدْنَا صَدَاها
وتراءَتْ في حنايانا أنينًا وحنينَا
كلّ أشجار الفتوحاتِ أَرَاهَا
عارياتٍ من رُؤَاها
مِن ثمارِ المجدِ ..
في أوراقها جفَّتْ دماءٌ
كنتَ تُسقِيها شَذَاها
أَيُّهَا الفاتحُ أَقْبِلْ .. أنتَ ما زلتَ فَتَاها

---

(١) انتهى ملخصًا من كتاب : « السلطان المجاهد محمد الفاتح فاتح القسطنطينية » لزياد أبو غنيمة - دار الفرقان .

انْزَعِ السيفَ مِن الغمْدِ فقد تهْنَا وتَاها !!
لم يزلْ سيفُكَ في القَبْو الزجاجيّ سَجينَا
نائمًا في غِمْدِهِ يحرسُ أسيافَ الخلافَهْ !!
وإلى جانبهِ سِيفُ عليٍّ « ذو الفقارْ »
ذلكَ الباتِرُ في كلِّ غزاةٍ : سيرةَ الكفرِ .. صداهُ وشغافُه
انظرِ الآنَ إليهْ ...
ليسَ إلَّا أثرًا يشهدُه « السُّيَّاحُ » من كلّ القِفَارْ !!
وضعوهُ حِلْيةً للزَّهْوِ .. واللّهوِ بأزمانِ الفتوحاتِ الكبارْ !!!
أيُّهَا الفاتحُ .. ضيَّعْنَا مفاتيحَ المدائنْ !!
.. خالدٌ .. في عصرنا يُسْجَن في قبرٍ زجاجي ...
وللفاروقِ والصِّدِّيق ذياكَ المصيرْ !!
... هذه أسيافُهُمْ مَثْلُومَةٌ تَنعى إلينا
حَدَّهَا المغتال في جَوْفِ القبورْ !!
أيُّهَا الفَاتِحُ أمْسَى السيفُ ظِلًّا
ووشاحًا ساكنًا فوقَ الصدورْ !!
إنَّهُ أضحى بقصرِ الحُكْمِ مرسومَ ضيافَهْ
إنَّهُ أصبحَ نَقْشًا فوقَ جُدرانِ الطُّلُولْ
كلُّ مَن يشهدهُ ..
يقرأ في جبهتِهِ عصرَ رواياتِ الأُفولْ
وأنا جئْتُ إلى قصرِكَ ضَيْفًا ما معي إلا الهَوِيَّهْ
إنَّهَا « الله ولا ربَّ سواهْ »
إنَّها « لا إلـهَ إلا الله .. محمدٌ رسولُ اللهْ »
جِئْتُ والقلبُ بأبواب الفتوحات مُعلَّقْ

جئتُ .. لكنْ
بابُ « إسلامبولَ » في وجهيَ مُغْلقْ !!
صَدَّني عن بابِكَ العالي
انْكِشاريٌّ بلا أيِّ هَوِيَّهْ
جاءَ مِنْ أرضِ الشَّتَاتِ الهَمَجِيَّهْ
جاءَ والصربُ تغذِّيهِ .. ويسقي من كُئُوسِ الروسِ نخْبَ البربريهْ !!
... قلتُ إنِّي ..
مِنْ جنودِ الفاتِح القائِدِ حامي أرضِ كلِّ المسلمينْ
قال في القاعةِ لا يُوجدُ إلَّا بعضُ أشلاءَ مِن العهدِ الطعينْ
إنَّهَا رائحةٌ مِن زَمَنٍ
كَانَ .. صُعودًا .. وانحدارًا .. وانكسارًا بين أيدي الخائنينْ !!
إنَّهَا أطلالُ تاريخٍ .. وأشباحُ رجالٍ ...
... سكنُوا القبوَ الرخامِيَّ السجينْ !!
رحلَتْ ذاكرتي في مُدُنِ الشعرِ .....
وأصغتْ لأميرِ الشعراءِ في شرودٍ وعَياءْ
« اللهُ أكبرُ كمْ في الفتحِ مِن عَجَبِ
يا خالدَ التركِ جدِّدْ خالدَ العربِ »
أيُّ فتحٍ .. يا أميرَ الشعرِ في عصرِ الفتوحاتِ العقيمهْ ؟
أيُّ فتحٍ ؟ خالدَ التركِ .. أتاتوركُ ..
... لقدْ ألقى بماءِ النارِ في وجهِ الخلافهْ !!
شوّه الوجهَ السماويَّ الجميلْ
جعَل البسفورَ ملهًى ...
والعرايَا ... فيهِ يسبحْنَ ويعبرْنَ مضيقَ الدردنيلْ !!

سفنُ الفتحِ ...
ويا للفتحِ أحالُوها مواخيرَ السُّكَارَىٰ العابثينْ
والمحاريبُ
فضاءاتُ نحيبٍ .. حوَّمتْ فيها طيورٌ مِن عويلْ
يَنْعِقُ البومُ بأحشاءِ الثُّريَّات المطفأهْ
آهِ قدْ كانتْ لآلافِ المصلِّين مَنارات ...
وللمقرورِ كانتْ مِدْفَأَهْ
وهي كانت بقايا من قناديلِ الفتوحِ المرْجَأهْ ..

* * *

أيُّهَا الفاتحُ ... « إنّا .. قدْ فتحْنا لك فتحًا ..
كانَ - بالحقِّ - مبينًا » ..
وأبو أيُّوبَ فوقَ السُّور ما زالَ يكبِّر
اللهُ أكبرُ ... اللهُ أكبرُ ... اللهُ أكبرْ
غَلَبَ الرومَ ... وأشجارُ الفتوحاتِ تُهَلِّلْ
والنواقيسُ تلاشتْ
والجيادُ الصافِناتُ المؤمناتُ
في ميادينِ الوَغَىٰ تَصْهَلْ .. بالفتحِ تُحمحمْ
وَعَلىٰ الشاطئ تختالُ المآذنْ ...
وتصلِّي وتسلِّمْ
إنَّهُ الماءُ يسبِّحْ
والنُّجَيْمَاتُ تسبِّحْ
وَالفَنَارَاتُ تُسَبِّحْ

والمجاديفُ تسبّحْ
إنَّهُ اللهُ ... فسبِّحْ باسمِ رَبِّكْ
إنَّهُ حامي الحِمَى حارسُ دَرْبِكْ
أيُّهَا الفاتحْ .....
في ظلِّكَ ظلَّ السَّيْفُ مِصْباحًا مُضيئًا
حارسًا شرعةَ ربِّكْ ..
هل أعودُ الآنَ مِن وَهْمِي ..؟ أعودْ .....!!
وأعودُ حامِلًا في القلبِ مشكاةً حزينهْ !!
ضوءها الدُّرِّيُّ مِنْ نيرانِ أشلائيَ يمتاحُ الوقودْ !!!
نَقْشُهَا الساكنُ في القلبِ تواريخُ لأمجادٍ طَعينَهْ
وفضاءَاتُ غماماتٍ وأسرابُ بروقٍ ورعودْ
أيُّهَا الفاتِحُ « إسلامبولَ » يغزوها الجرادْ
وجهُهَا الأبيضُ أَلقَوْا فوْقَهُ قارَ الفَسَادْ
سَلَبُوها العِرْضَ ... والأرضَ وباعُوها جِهارًا في المزادْ
جاءَها من كلّ فَجٍّ أزرقُ النَّابِ ..
وَمَصَّاصُ الدماءْ
أحمرَ الرغبةِ في عينيْهِ أمواجُ الدهاءْ
أصفرَ البسمةِ في خطوَتِهِ ريحُ الفناءْ
أطلقَ الريحَ ... العقيمْ
أياصوفيا في مهبِّ الريحِ شيخُ جذرٍ في الأرضِ موصولٌ بأسبابِ السماءْ
صُورةُ العذراءِ في محرابِهِ تَغْشَى وجوهَ العابدينْ
مُتْحفًا صارَ لأجسادٍ عُرَاهْ ...
يصلبونَ العمرَ إثْمًا في مساءاتِ الجُنونْ

خطفتْني الريحُ ألقتْني « بوَادٍ غيرِ ذي زرعٍ » ..
سَرَاييفو ...
جبَالٌ من جليدٍ ودماءْ ...
وتلالٌ من عِظامٍ وفَناءْ ...
... أيُّهَا الفاتح « إسلامبولَ » يغزوها الجرادْ .
في سراييفو وبيهاتشَ وفي الشيشان في القِرْم
وُحوشُ الصربِ تغتالُ الطفولهْ ...!!
في دماءِ التائبينَ الراكعينَ الساجدينَ الشهداءْ
هُمْ يخوضُونَ ويَلْهونَ بأجسادِ النساءْ
ويُبيدون الرجولهْ !!
يزرعونَ الرَّحِمَ المؤمنَ كُفرًا .. وشياطينَ عذابْ
في خلايا الطُّهْرِ يُلقونَ المنايا ... شكّلتْها نُطَفٌ
تقذِفها في الرَّحِم المؤمنِ أصلابُ الكلابْ !!
والصناديدُ الصِّلابْ
حُرِّقوا في دارِهم .. لا جُرْمَ إلَّا أَنْ يقولوا : ربُّنَا اللهْ ..
حمَلُوا القبرَ على أكتافِهِمْ ...
لا جُرْمَ إلَّا أنْ يقولوا رَبُّنَا اللهْ
أَكَلُوا المَيْتَةَ والعُشْبَ وماتَتْ شَمسُهُمْ
لا جرمَ إلَّا أنْ يقولوا رَبُّنَا اللهْ
شهدوا أعضاءَهم تسقُطُ مِن أجسادِهِم لا جُرْمَ إلَّا أنْ يقولوا رَبُّنَا اللهْ
بالمناشيرِ يُشَقُّون
ويقولونَ ربُّنَا اللهْ
بالوحوشِ الطائراتِ القاصِفاتِ

يُمْطَرون ويقولون رَبُّنا اللهْ ..
بالنُّجُوم المرْسَلاتِ العاصفاتِ يُصْعَقُون وينادُون رَبُّنَا اللهْ
بالجواري الذارياتِ الحامِلاتْ
نُذُرَ التِّيهِ وإشعاعَ المَواتْ
يُنْسَفُون وَيَصيحُونَ رَبُّنَا اللهْ
إنّهم يَحْيَوْنَ في الموتِ الشهادهْ
لهُمُ الحُسْنىٰ خلودًا وزيادهْ

❊ ❊ ❊

أَيُّهَا الفاتِحُ إنِّي طالعٌ مِن هؤلاءْ
إنَّهم مِن شجرِ النارِ يجيئُون ومِنْ شمسِ الهدىٰ والكبرياءْ
إنَّهم ضوْءُ التجلِّي
... والخيولُ العادياتُ المُورياتْ ..
إنْ أَتَىٰ الطوفانُ واجتاحَ النهاراتِ وإيقاعَ البقاءْ
إنَّهم أحفادُكَ الغُرُّ الميامِينْ ...
يقودونَ سِباقَ الشهداءْ
أَيُّهَا الفاتِحُ إنّي ... جَمْرَةٌ مِن هؤلاءْ ..
ماتَ فيَّ الشجرُ اليابِسُ
واستيقظَ فيَّ الفارسُ ... والواحدُ بالألْف ...
... وأَلفيتُ ظِلالَ الوَحْيِ ..... والتوحيدِ تَمتدُّ وتُلْقي
شُهُبَ الحقِّ وأقمارَ الإباءْ

❊ ❊ ❊

أيُّهَا الفاتحُ .. هلْ ضاعتْ مفاتيحُ المدائنْ ؟!
... المحاريبُ فراغاتٌ وأشلاءُ مآذنْ !!
والمصلُّونَ .. يُغَلُّون .. ويَصْلَوْن سعيرًا !!
أتُرَانا
نفتَحُ الآنَ كتابَ الماءِ .. نغتالُ الهَجِيرَا
أتُرَانَا
... نعلنُ الآنَ اكتشافاتِ الفتوحْ
نقبضُ الآنَ علىٰ الجَمْرِ ونغتالُ السُّفُوحْ
أمْ تُرانا ...
لمْ نزلْ نغدُو خِمَاصًا .. وكمَا كُنا نروحْ !!
ومفاتيحُ المدائِنِ
لمْ نزلْ نبكِي عليها ونَنُوحْ
سورةُ الفتْحِ هجرْناهَا ..
ومزّقنْا صدَاها ..
وتراءَتْ في مآقينا دماءٌ وقُروحْ
كلُّ أشجارِ الفتوحاتِ أراها
عارياتٍ مِن رُؤَاهَا
من ثمارِ الفتحِ ...
... في أوراقِهَا جَفّتْ دماءٌ
كنتَ تسقيها شَذاها
أيُّهَا الفاتحُ أقبلْ .. أنتَ ما زلتَ فَتاهَا
انزعِ السيفَ مِن القَبْو الزجاجيّ

فقد تُهْنا وتَاها .....!![1]
وإلى قوّاد جيلنا وفجرنا الآتي مع خَفْقِ البنودْ
وأقولُ للجيل الجديدْ
أقولُ للجيلِ المحصَّنِ بالعقيدةِ والمتَوَّجِ بالصَّباحْ
.. وأقولُ يا جيلَ الكِفاحْ
إنَّا بلَوْنا الليلَ والأشْبَاهَ والموتَ الموجَّلَ والجِراحْ
.. وأقولُ يا جيلَ المصاحِفِ
.. يا خميرَ الأرضِ .. يا طلْقَ الولادهْ
ها أنتَ كاليُنْبُوعِ تَدفَّقُ في صَحَارِينا ..
.. وتمنحُنا الوثيقةَ والشَّهادَهْ ...

* * *

أنتَ الذي سيُبَدِّلُ الأوزانَ والأحزان
.. يزرعُ في العُيونِ نَخيلَها
فلَكَمْ تباطأَ في الرَّحِيلِ عنِ القُرىٰ عامُ الرَّمَادَهْ

* * *

وأقولُ حَيّ علىٰ الفلاحْ
.. أقولُ حيّ علىٰ السلاحْ
فإنَّ فيكَ النبضَ يُورقُ بينَ ترتيلِ الظَّهيرة والمساءْ

---

(١) « القبو الزجاجي » : رسالة إلى « محمد الفاتح » قائد الفتوح الإسلامية في البلقان ، للدكتور : صابر عبد الدايم - جامعة أمّ القرىٰ .

.. وأقولُ يا جيلَ الفداءْ
.. أكلتْ مواسِمَنا الجنادبُ
.. واستبدَّ بنا الحُواةُ
وغَادَرَتْنَا آخِرُ السُّحبِ الحميمةِ في السماءْ

* * *

أنتَ الذي يقتاتُ جَمْرَ المرحلهْ
ها إنَّ أحبارَ اليهودِ تجمَّعُوا .. ها إنّهم حشدُوا لنا
.. فاقرأْ علىٰ تلكَ الرُّؤوسِ « الزلزلهْ »

* * *

اقرأْ علينا باسمِ رَبِّكَ ما تيسَّرَ يا بلالْ
.. الشمسُ في كَبِدِ السماءِ
ونحنُ في وَقَدِ الظهيرهْ
.. كَمْ نتوق إلىٰ الظلالْ
اقرأْ علينا « المؤمنونَ » وشُدَّ قوْسَكَ ..
.. إنَّ قَوْسَكَ لا تَطِيشُ بها النِّبالْ
كَمْ ذَا سألْتَ فلمْ يُجيبوا
.. كَمْ سألْتَ فلمْ يُجيبوا
أنتَ وحدَكَ مَن يُجيبُ عنِ السُّؤالْ ...

* * *

يَـٰأَيُّهَا الجيلُ الجديدُ .. ويا سليلَ الطُّهْرِ ... يا بَرْدَ اليقينْ

كُنْ باسمِ رَبِّكَ قلعةً للخائفينْ .. ومنهلًا للظَّامئينْ
.. وكنْ رَصاصًا .. كُنْ قِصاصًا ..
.. كُنْ جُذورًا .. كُنْ طيورًا
كُنْ كما شاءَتْ لكَ « الأعْرافُ » في الزمنِ العَجِينْ[١]

* * *

يَـٰأَيُّـهَا الجيلُ الجديدُ
وقفتُ مُنْدَهِشًا علىٰ عَتَبَاتِ خُطْوَتِكَ الجديدَهْ
.. وقرأتُ نَبْضَكَ وانطلقتُ بلا عِنانْ
مِن سورة « الإسْراءِ » جئتَ .. وَمِنْ نقاءِ الفَجْرِ
.. والسبعِ المثاني
ورأيتَ مِن خلفِ الدُّخانِ وجوهَهُمْ
.. وَبَلَوْتَ عربدةَ الدُّخانْ
وحملتَ جَرحكَ والهجيرَ
وحملتَ جرحك والعبيرَ
فما الذي حملَتْهُ أغْرِبَةُ الزمانْ[٢] ؟!

* * *

(١) عَجَنَ فلان يَعْجِنُ عَجْنًا : ينهض معتمدًا بيديْه على الأرض كِبَرًا ، أَعْجَنَ : شاخ وأسَنَّ ، العَجِينُ : المُسِنُّ ، والمُخنث ، والأحمق .
(٢) ديوان : « إنها الصحوة .. إنها الصحوة » شعر : محمود مفلح الطبعة الأولىٰ ، القصيدة التاسعة : « جيل الصحوة » ، صـ ٣٧ - ٣٩ .

الفَصْلُ الأَوَّل

عُلوُّ الهِـمَّةِ

في حِفْظِ الوقـتِ

« الفوْتُ أشدُّ مِنَ الموْتِ ؛ لأَنَّ الفوْتَ انقطـاعٌ عن الحقِّ ، والموْتَ انقطاعٌ عن الخلْقِ »

يحيىٰ بنُ معاذ الـرازي

□ عُلوُّ الهمَّةِ في حفْظِ الوقْتِ □

اعلم أنّ « الناس في هذا العالم سفر ، وأوّل منازلهم المهد ، وآخرها اللَّحد ، والوطن هو الجنة أو النار ، والعمر مسافة السَّفر ، فسنوه مراحله ، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطواته، وطاعته بضاعته، وأوقاته رؤوس أمواله ، وشهواته وأغراضه قطّاع طريقه ، وربحه الفوز بلقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك الكبير والنعيم المقيم ، وخسرانُه البعد عن الله مع الأنكال والأغلال ، والعذاب الأليم في دركات الجحيم ، فالغافل في نَفَس مِن أنفاسه حتى ينقضي في غير طاعة تقرّبه إلى الله زلفى،متعرضٌ في يوم التغابن لغبينةٍ وحسرة ما لها منتهى ، ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل ؛ شمَّر الموفَّقون عن ساق الجدّ، وودّعوا بالكلية ملاذ النفس، واغتنموا بقايا العمر »(١).

يقول ابن القيم : « العبدُ مِن حين استقرت قدمُه في هذا الدار فهو مسافر فيها إلى ربّه ، ومدة سفره هي عمره الذي كُتب له ، فالعمر هو مدةُ سفرِ الإنسان في هذه الدار إلى ربّه ، ثم قد جُعلتِ الأيام والليالي مراحلَ لسفره ، فكلُّ يوم وليلة مرحلة من المراحل ، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر ، فالكيِّسُ الفَطِنُ هو الذي يجعل كلَّ مرحلة نُصبَ عينيه ، فيهتمّ بقطْعها سالمًا غانمًا ، فإذا قطعها جعل الأخرى نُصبَ عينيْه ، ولا يطول عليه الأمَد فيقسو قلبُه ويمتد أملُه ، ويحصر بالتسويف والوعد والتأخير والمطْل ، بل يعدّ عمرَه تلك المرحلة الواحدة فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته ؛ فإنه إذا تيقن قِصَرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل ،

(١) الإحياء ٣٩١/١ .

فطوّعت له نفسه الانقياد إلى التزوُّد ، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك ، فلا يزال هذا دأبه حتى يطوي مراحل عمره كلها فيحمد سعيَه ، ويبتهج بما أعدَّه ليوم فاقته وحاجته ، فإذا طلع صبح الآخرة وانقشع ظلام الدنيا فحينئذٍ يحْمَد سرَاهُ ، وينجابُ عنه كَرَاه ، فما أحسنَ ما يستقبلُ يومَه وقد لاح صباحُه واستبان فلاحُه ! »[1] .

قال تعالى : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر** ﴾ .

قال ابن عباس : العصر هو الزمن .

قال الرازي : « أقسمَ الله بالعصر لما فيه من الأعاجيب ؛ ولأن العمر لا يُقوَّم بشيء نفاسةً وغلاءً » .

والزمان من جملة أصول النعم ؛ عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »[3] .

« فالزمن نعمة جُلَّى ومنحة كبرى ، لا يَدريها ويستفيد منها كلَّ الفائدة إلا الموفقون الأفذاذ ، كما أشار إلى ذلك لفظُ الحديث الشريف ، فقال : « مغبون فيهما كثير من الناس » ، فأفاد أن المستفيدين من ذلك قِلّةٌ ، وأن الكثير مُفرطٌ مغبون »[4].

قالت حفصة بنت سيرين : « يا معشر الشباب ، اعملوا فإني رأيت العمل في الشباب » .

---

(١) طريق الهجرتين ١٨٥ - ١٨٦ .
(٢) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي والنسائي .
(٣) رواه البخاري والترمذي ، وابن ماجه .
(٤) « قيمة الزمن عند العلماء » لعبد الفتاح أبي غدة ص٢٣ .

قال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجةٌ ، فنعوذ بالله أن نُعيَّر بطول العمر ﴿ **أو لَمْ نعمرْكم ما يتذكَّرُ فيهِ مَنْ تذكَّر وجاءكم النَّذير فذوقوا فما للظالمينَ مِن نصير** ﴾ [فاطر : ٣٧].

أخي :

ما مضى فات والمؤمَّل غيبٌ ولك الساعةُ التي أنتَ فيهَا

قال يحيى بن معاذ الرازي : « الفوت - وهو ضياع الوقت - أشدُّ من الموت ؛ لأن الفوت انقطاعٌ عن الحقِّ ، والموتَ انقطاعٌ عن الخلْقِ » . فالموت يقطعك عن الدنيا وأهلها ، أما الفوت فإنه يقطعك عن الله وعن الدار الآخرة .

يا هذا ، الأيام ثلاثة : أمسٌ قد مضى بما فيه ، وغدًا لعلك لا تدركه ، وإنما هو يومك هذا فاجتهدْ فيه . فـلله درُّ مَن تنبّه لنفسه ، وتزوّد لرمسه ، واستدرك ما مضى من أمسه قبل طول حبسه .

قال رجل لداود الطائي : أوصني . فدمعتْ عيناه ، وقال : يا أخي ، إنما الليل والنهار مراحل ، ينزلها الناس مرحلةً بعد مرحلة ، حتى ينتهي ذلك إلى آخر سفرهم ، فإن استطعتَ أن تقدم كل يومٍ زادًا لما بيْن يديْك فافعل ؛ فإنَّ انقطاع السفر عن قريب ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزوّد لنفسك ، واقضِ ما أنت قاضٍ ، فكأنك بالأمر قد بغتَكَ ، إني لأقول لك هذا وما أعلم أحدًا أشدَّ تقصيرًا مني . ثم قام وتركه .

لمّا علم الصالحون قصر العمر ، وحثّهم حادي ﴿ **وسارِعُوا** ﴾ طَوَوْا مراحل الليل مع النهار انتهابًا للأوْقات .

قال ابن القيم : « إذا أراد الله بالعبد خيرًا : أعانه بالوقت ، وجعل وقته مساعدًا له ، وإذا أراد به شرًّا جعل وقته عليه ، وناكده وقتَه ، فكلما أراد التأهُّب للمسير لم يساعده الوقت ، والأول : كلما همتّ نفسُه بالقعود

أقامه الوقت وساعده »[١] .

وإن كان قوم يقولون : إن الفقير ابن وقته . فنحن نقول : عالي الهمة ابن وقته .

يقول ابن القيم : « يريدون أن همته لا تتعدى وظيفة عمارته بما هو أولى الأشياء به وأنفعها له ، فهو قائم بما هو مطالبٌ به في الحين والساعة الراهنة ، فهو لا يهتم بماضي وقته وآتيه ، بل يهتم بوقته الذي هو فيه ؛ فإنَّ الاشتغال بالوقت الماضي والمستقبل يضيع الوقت الحاضر ، وكلما حضر وقتٌ اشتغل عنه بالطرفيْن ، فتصير أوقاته كلها فواتًا .

قال الشافعي رضي الله عنه : صحبتُ الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتيْن ، سمعتُهم يقولون : الوقت سيفٌ ، فإنْ قطعتَه ، وإلا قطعك ، ونفسك إن لم تَشغلْها بالحق ، وإلَّا شغلتك بالباطل .

قلت : يا لهما من كلمتيْن ، ما أنفعهما وأجمعهما ، وأدلهما على علوّ همة قائلهما ويقظته ! »[٢] .

الغيرة القاتلة على الوقت عند العابد :

قال الإمام ابن القيم وهو يتحدث عن درجات الغيرة شارحًا لكلام شيخ الإسلام الهروي ، قال : « الدرجة الثانية : غيرة المريد ، وهي غيرةٌ على وقتٍ فات ، وهي غيرة قاتلة ؛ فإن الوقت وَحِيُّ التقضي ، أَبِيُّ الجانب ، بطِيُّ الرجوع .

و « المريدون » هم أرباب الأحوال ، و « العباد » أرباب الأوراد والعبادات ، وكلُّ مريد عابد ، وكلّ عابد مريد ، لكن القوم خصوا أهلَ المحبة وأذواق حقائق الإيمان باسم « المريد » ، وخصّوا أصحاب العمل المجرد باسم « العابد » ، وكل مريد لا يكون عابدًا فزنديق ، وكل عابد لا يكون

---

(١) مدارج السالكين ١٢٩/٣ - ١٣٠ .

(٢) مدارج السالكين ١٢٨/٣ - ١٢٩ .

مريدًا فمُراءٍ . والوقت عند العابد هو وقت العبادة والأوراد ، وعند المريد هو وقت الإقبال على الله ، والجمعية عليه والعكوف عليه بالقلب كلّه .

و « الوقت » أعز شيء يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك ، فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه ألبتة ؛ لأنَّ الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاصّ ، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تدارُكه .

وقوله : « وهي غيرة قاتلة » يعني مضرة ضررًا شديدًا بيّنًا يشبه القتل ؛ لأنّ حسرة الفوت قاتلة ، ولا سيما إذا علم المتحسِّر أنه لا سبيل له إلى الاستدراك .

وأيضًا : فالغيرة على التفويت تفويت آخر ، كما يقال : الاشتغال بالندم على الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر . ولذلك يقال : الوقت سيف ، إن لم تقطعه وإلا قطعك .

ثم بيّن الشيخ السبب في كوْن هذا الغيرة قاتلةً ، فقال : « فإن الوقت وَحِيّ التقضي » أي : سريع الانقضاء ، كما تقول العرب : « الوحا الوحا ، العَجل العجل » ، والوَحْيُ:الإعلام في خفاء وسرعة ، ويقال : جاء فلان وَحيًّا . أي : مَجيئًا مسرعًا ، فالوقت منقضٍ بذاته ، منصرمٌ بنفسه .

فمَن غفل عن نفسه تصـرَّمتْ أوقاته ، وعظم فواته ، واشتدت حسراته ، فكيف حاله إذا علم عند تحقُّقِ الفوت مقدار ما أضاع ، وطلب الرُّجعَىٰ فحيل بينه وبين الاسترجاع ، وطلَب تناولَ الفائت ، وكيفَ يرد الأمس في اليوم الجديد ؟! ﴿ **وأنّى لهُمُ التّناوُشُ مِن مكانٍ بعيد** ﴾ ومُنع مما يحبه ويرتضيه ، وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه ، وحيل بينه وبين ما يشتهيه .

فيا حسراتٍ ما إلى ردٍّ مثلها ... سبيلٌ ولو رُدّتْ لهانَ التحسُّرُ
هي الشهواتُ اللاءِ كانت تحوَّلتْ ... إلى حسراتٍ حين عزَّ التصبُّرُ
فلو أنها ردّتْ بصبرٍ وقوةٍ ... تَحَوَّلْنَ لذّاتٍ وذو اللُّب يُبْصرُ

ويقال : إن أصعب الأحوال المنقطعة انقطاع الأنفاس ؛ فإن أربابها إذا صعِد النَّفس الواحد صعّدوه إلى نحو محبوبهم ، صاعدًا إليه ، متلبسًا بمحبته والشَّوْق إليه ، فإذا أرادوا دفعه لم يدفعوه حتىٰ يُتبعوه نفَسًا آخرَ مثله ، فكل أنفاسهم بالله ، وإلى الله ، متلبّسة بمحبته ، والشوق إليه والأنس به ، فلا يفوتهم نَفَس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم ، وكثير منهم يرى في نومه أنه كذلك ، لالتباس روحه وقلبه ، فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته ، ولا تستنكر هذه الحال ؛ فإنّ المحبة إذا غلبتْ على القلب وملكته أوجبت له ذلك لا محالة .

والمقصود أن الواردات سريعة الزوال ، تمرُّ أسرع من السحاب ، وينقضي الوقت بما فيه ، فلا يعود عليك منه إلا أثره ، وحكمه ، فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك ؛ فإنه عائد عليك لا محالة . لهذا يقال للسعداء : ﴿ **كلوا واشربُوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيّامِ الخالية** ﴾ ويقال للأشقياء: ﴿ **ذلكَ بما كنتمْ تفرحونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ وبما كنْتُمْ تمرحون** ﴾ »[(١)] .

ويقول ابن القيم في الإشفاق ودرجاته : « (الدرجة الثانية : إشفاقٌ على الوقت أنْ يشوبه تفرُّق) . أي يحْذر على وقته أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل »[(٢)] .

قالوا : مِن علامة المقت ، إضاعة الوقت

وكنْ صارمًا كالوقت فالمَقْتُ في عسى وإيـاك علَّ فهي أخطر علَّـةِ[(٣)]

جميع المصالح تنشأ مِن الوقت :

يقول ابن القيم : « أعلى الفِكَر وأجلّها وأنفعها ما كان لله والدار

---

(١) مدارج السالكين ٣/٤٩ - ٥٠ .

(٢) مدارج السالكين ١/٥١٩ .

(٣) قيمة الزمن عند العلماء ص٢٤ .

الآخرة ، فما كان لله فهو أنواع، ....،....،...، النوع الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته ، وجمع الهمِّ[1] كلّه عليه ، فالعارف ابنُ وقته فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحُه كلها ، فجميع المصالح إنما تنشأ مِن الوقت ، فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبدًا »[2].

الناكِصُون على أعقابهم وإضاعة الوقت :

يقول ابن الجوزي : « رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا : إن طال الليل فبحديث لا ينفع ، أو بقراءة كتابٍ فيه غزاةٌ وسمر . وإن طال النهار فبالنوم ، وهم على أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق ، فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم ، وما عندهم خبر ، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود ، فهم في تعبئة الزاد والتأهُّب للرحيل ؛ إلا أنهم يتفاوتون ، وسبب تفاوتهم قلةُ العلم وكثرته بما ينفق في بلد الإقامة ، فالغافلون منهم يحملون ما اتفق ، وربما خرجوا لا مع خفير . فكمْ ممن قد قُطعت عليه الطريق فبقي مفلسًا !.

فاللهَ اللَّهَ في مواسم العمر ، والبدارَ البدارَ قبل الفوات ، واستشهِدُوا العلم، واستدلُّوا الحكمة، ونافسوا الزمان، وناقشوا النفوس، واستظهروا بالزاد . فكأنْ قد حدا الحادي فلم يفهمْ صوته مِنْ وقْع الندم .

وأيُّ دناءة للهمة أسفل مما نراه في عصرنا من شباب هذه الأمة ، اللّاهين الشاردين وراء كلّ ناعق وناعقة ، يضيّعون الأوقات في المسارح وأمام التلفاز وفي الملاهي أو دُور الخيّالة « السينما » ، أو في مشاهدة مباريات كرة القدم التي أصبحت عبادة قلّ مَن ينجو مِن أسرها ..

---

(١) الهمّة والعزم .

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي .

إني لأعجب مِن حاضر أمةٍ شبابُها يجلس أمام التلفاز بثماني ساعاتٍ لمشاهدة كأس العالم في كرة القدم .. وربما طال اللَّعب إلى الفجر .. ويجعلون قدوتهم رِجْلَ « مارادونا » السِّكِّير المقامر الكافر الذي يلبَس طاقية الحاخام ويبكي أمام حائط المبكى قبل ذهابه إلى كأس العالم سنة ١٩٩٠ و سنة ١٩٩٤ ، أَعَلى هذا السكِّير الكافر تُنفق الأعمارُ ؟! .

سبحان من حَبس الناس عن طاعتهم .. وجعل هذا السكِّير يأسرهم بضياع عمرهم في لَعِبِهِ ومحبّته !! هؤلاء ما عاملوا مولاهم ولو بركعتيْن في ظلمات الليالي .

فالناكصون على أعقابهم مِن شباب الأمة أضعافُ أضعافِ مِنَ اقتحم العقبة !

خُذ من الألف واحدًا   واتْرِكِ الكلَّ مِن بعده[1]

رجلٌ بألف ... وألفٌ بخفٍّ !!

واعجبا... تضيع منك حبة فتبكي، وقد ضاع عمرك وأنت تضحك ، تستوفي مكيال هواك وتطفِّفُ في مكيال صلاتك ﴿ **ألا بُعدًا لمدينَ** ... ﴾ غدًا تُوبَّخُ وقتَ عَرْض ألواح ﴿ **أوَ لمْ نعمركم** ... ﴾، بضاعتك أيامُ عمرك وبقية عمر المؤمن لا قيمة له .

يقول ابن رجب الحنبلي : « السعيد مَن اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات وتقرّب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات ، فعسى أن تصيبه نفحةٌ من تلك النفحات ، فيسعد بها سعادةً يأمن بعدها مِن النار وما فيها من اللّفحات » .

وقد خرّج ابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهما مِن حديث أبي هريرة مرفوعًا : « اطلبوا الخير دهرَكم ، وتعرّضوا لنفحات رحمة ربكم ؛ فإن لله

---

(١) مدارج السالكين ٣/١٣١ .

نفحاتٍ من رحمته يصيب بها مَن يشاء من عباده » .

وفي روايةٍ للطبراني مِن حديث محمد بن مسلمة مرفوعًا : « إن لله في أيام الدهر نفحاتٍ ، فتعرضوا لها ، فلعل أحدكم أن تصيبه نفحةٌ فلا يشقى بعدها أبدًا » .

وعن مجاهد قال : ما من يوم إلا يقول : ابنَ آدم ، قد دخلتُ عليك اليوم ولن أرجع إليك بعد اليوم ، فانظر ماذا تعمل فيّ . فإذا انقضى طواه ، ثم يختم عليه فلا يُفكُّ حتى يكون الله هو الذي يفضُّ ذلك الخاتم يوم القيامة .

وعن مالك بن دينار قال : كان عيسى عليه السلام يقول : إن هذا الليل والنهار خزانتانِ ، فانظروا ما تضعون فيهما . وكان يقول : اعملوا الليل لما خُلق له ، واعملوا النهار لما خُلق له .

وعن الحسن قال : ليس يوم يأتي مِن أيام الدنيا إلا يتكلم يقول : يا أيها الناس ، إني يوم جديد ، وإني على ما يُعمل فيّ شهيد ، وإني لو قد غربت الشمس لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة .

وعنه أنه كان يقول : يا ابن آدم ، اليوم ضيفُك ، والضيف مرتحلٌ يحمدك أو يذمُّك ، وكذلك ليلتُك .

وعن بكر المزني أنه قال : ما من يوم أخرجه اللهُ إلى أهل الدنيا إلا ينادي : ابن آدم ، اغتنمني لعله لا يوم لك بعدي ، ولا ليلة إلّا تنادي : ابن آدم ، اغتنمني لعله لا ليلة لك بعدي .

وعن عمر بن ذَرٍّ أنه كان يقول : « اعملوا لأنفسكم - رحمكم الله - في هذا الليل وسواه ؛ فإن المغبونَ مَن غبن خيرَ الليل والنهار ، والمحروم مَن حُرم خيرَهما ، إنما جُعلا سبيلًا للمؤمنين إلى طاعة ربهم ، ووبالًا على الآخرين للغفلة عن أنفسهم ، فأحيُوا لله أنفسَكم بذكره ، فإنما « تحيا القلوب بذكر الله عز وجل » .

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربّه مَثَل الحيّ والميت » .

كَم مِن قائمٍ لله في هذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حفرته ، وكم من نائم في هذا الليل قد ندم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله عز وجل للعابدين غدًا ، فاغتنموا ممرّ الساعات والليالي والأيام رحمكم الله .

قال ابن أبي الدنيا : أنشدنا محمود بن الحسين :

مضي أمسُك الماضي شهيدًا مُعدّلَا ... وأعقبَه يومٌ عليكَ جديدُ
فيومُكَ إنْ أغنيتَهُ عادَ نفعُهُ ... عليكَ وماضي الأمسِ ليسَ يعودُ
فإنْ كنتَ بالأمسِ اقترفتَ إساءَةً ... فَثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ
فلا تُرجِ فعْل الخير يومًا إلى غدٍ ... لعلّ غدًا يأتي وأنتَ فقيدُ

قال تعالى : ﴿ **وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفةً لمَنْ أراد أنْ يذّكّر أوْ أراد شكورا** ﴾ [الفرقان : ٦٢] .

قال قتادة : « فأدُّوا إلى الله مِن أعمالكم خيرًا في هذا الليل والنهار ، فإنهما مطيتان تقحمان الناس إلى آجالهم ، يقرّبان كل بعيدٍ ، ويبليان كل جديد ، ويجيئان بكلّ موعودٍ إلى يوم القيامة »(١).

يقول ابن الجوزي : « ينبغي للإنسان أن يعرف شرفَ زمانه ، وقدْر وقته ، فلا يضيّع منه لحظةً في غير قُرْبةٍ ، ويقدم الأفضل فالأفضل مِن القوْل والعمل. ولتكُنْ نيتُه في الخير قائمةً - من غير فتورٍ - بما يعجز عنه البدن من العمل . وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللحظات :

فنُقل عن عامر بن عبد قيس أن رجلًا قال له : كلِّمني . فقال له :

---

(١) لطائف المعارف ١١ - ١٣ .

أمسك الشمس .

وقال ابن ثابت البناني : ذهبت أُلَقِّنُ أبي ، فقال : يا بني ، دعني ؛ فإني في وِرْدي السادس .

وَدخلوا على بعض السلف عند موته وهو يصلي ، فقيل له ، فقال : الآن تُطوىٰ صحيفتي .

فإذا علم – وإنْ بالغ في الجد – أن الموت يقطعه عن العمل ، عَمِل في حياته ما يدوم له أجره بعد موْته . فإن كان له شيءٌ من الدنيا وقف وقْفًا ، وغرس غرسًا ، وأجرى نهرًا ، ويسعى في تحصيل ذريةٍ تذكر الله بعده ، فيكون الأجر له . أو أن يصنف كتابًا من العلم ، فإنَّ تصنيفَ العالم ولدُه المُخلَّد ، وأن يكون عاملًا بالخير ، عالمًا فيه ، فينقل مِن فعْله ما يقتدي الغيرُ به ، فذلك الذي لم يمت .

قد مات قومٌ وهم في الناس أحياءُ »(١)

قال ﷺ : « سَبعٌ يجري للعبد أجرُهنَّ وهو في قبره بعد موْته : من علّم علمًا ، أوْ أجرىٰ نهرًا ، أو حفر بئرًا ، أو غرس نخلًا ، أو بنى مسجدًا ، أو ورّث مصحفًا ، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موْته » . فهذا من علوّ الهمة في حفْظ الوقت حتى بعد الممات .

ويقول ابن الجوزي رحمه الله : « رأيتُ العاداتِ قد غلبت الناس في تضييع الزمان ، وكان القدماء يحذرون من ذلك :

قال الفضيل : أَعرفُ مَن يُعد كلامه مِن الجمعة إلى الجمعة .

ودخلوا على رجلٍ من السلف فقالوا: لعلنا شغلناك. فقال: أصدقكم؟ كنت أقرأ فتركتُ القراءة لأجلكم .

---

(١) صيد الخاطر ٢٠ – ٢١ .

وجاءَ « سرِيّ السّقطيّ » إلى رجلٍ من المتعبدين فرأى عنده جماعةً فقال : صرتَ مناخَ البطَّالين ! ثم مضى ولم يجلس .

ومتى لانَ المَزُورُ طمِعَ فيه الزائر فأطال الجلوس فلم يسْلَم من الأذى .

وقد كان جماعة قعودًا عند معروف فأطالوا . فقال : إن مَلَك الشمس لا يفتر في سوقها ، أفما تريدون القيام ؟!.

وقيل لكُرْز بن وبرة : لو خرجتَ إلى الصحراء . فقال : يبطل الزوجار .

وكان داود الطائي يستفّ الفتيت ويقول : بين سفِّ الفتيت وأكْل الخبز قراءة خمسين آية .

وكان عثمان الباقلاوي دائم الذكر لله تعالى ، فقال : إني وقت الإفطار أُحسُّ بروحي كأنها تخرج ؛ لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر .

وأوْصى بعضُ السلف أصحابه فقال : إذا خرجتم من عندي فتفرّقوا ، لعلَّ أحدكم يقرأ القرآن في طريقه ، ومتى اجتمعتم تحدثتم .

واعلم أن الزمان أشرفُ من أن يضيّع منه لحظةٌ ؛ فإن في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَن قال : سبحان الله العظيم وبحمده ، غُرست له نخلةٌ في الجنة » . فكم يضيّع الآدمي من ساعاتٍ يفوته فيها الثواب الجزيل !

والذي يعين على اغتنام الزمان : الانفراد والعزلة مهما أمكن ، والاختصار على السلام أو حاجة مُهمَّةٍ لمن يلقى ، وقلة الأكل ، فإن كثرته سببُ النوم الطويل وضياع الليل ، ومَن نظر في سِيَر السلف وآمن بالجزاء بان له ما ذكرتُه[1] .

---

(١) صيد الخاطر ٤٧٩ - ٤٨٠ .

واعجبا مِنْ مضيّع لحظةٍ :

يقول ابن الجوزي : « والله إني لأتخايل دخول الجنة ودوام الإقامة فيها من غير مرضٍ ولا بُصاقٍ ولا نومٍ ولا آفةٍ تطرأ ، بل صحةٌ دائمةٌ وأغراضٌ متصلةٌ لا يعتورها مُنغِّصٌ ، في نعيم متجدد في كلّ لحظة إلى زيادةٍ لا تتناهى - فأطيش ، ويكاد الطَّبع يضيق عن تصديق ذلك لولا أنَّ الشرع قد ضمنه . ومعلوم أن تلك المنازل إنما تكون على قدْر الاجتهاد هاهنا . فواعجبا من مضيع لحظةٍ يقع فيها !! فتسبيحةٌ تُغرس له في الجنة نخلةً أُكُلُها دائمٌ وظلُّها . فكل الآفات والمخافات في نهار الأجل ، وقد اصفرَّت شمسُ العمر ؛ فالبدارَ البدارَ قبل الغروب ، ولا معينَ يرافق على تلك الطريق إلا الفكر إذا جلس مع العقل فتذاكرا العواقب ، فإذا فرغ المجلس فالنظر في سير المجِدِّين ، فإنه يعود مستجلبًا للفكر منها شتَّى الفضائل ، والتوفيق مِن وراء ذلك ، ومتى أرادك لشيءٍ هيَّأك له . فأما مخالطةُ الذين ليس عندهم خبر إلا العاجلة فهو من أكبر أسباب مرض الفهم وعلل العقل . والعزلة عن الشرّ حميةٌ والحمية سببُ العافية »[1] .

إيـاك وقطَّاع الطريق إلى الآخـرة :

مخالطة أهل الدنيا مضيِّعةٌ للوقت قاطعةٌ طريق الآخرة . فالواحد منهم قبرٌ يسعى إلى قبرٍ مثله ، زَمِنٌ يقوده زَمْنَى مثله .. فيا شَرِهُ ، هذا سمٌّ والقرب منه هلاكٌ .. فإن ابتليتَ به فأعطه ظاهرك وترحَّل عنه بقلبك .

وشغلتُ عن فهْم الحديث سوى ... ما كـان عنـك فإنـه شغْلـي
وأديم نحو مُحدثي وجهي ليرى ... أنْ قـدْ عقلـتُ وعنـدكم عقلـي

ويقول الآخر :

واللهِ ما طلعتْ شمسٌ ولا غربتْ ... إلا وحبُّـكَ مقـرونٌ بأنفاسـي

---

(١) صيد الخاطر ص٣٢٩ .

ولا جلستُ إلى قوم أحدِّثهم إلا وأنت حديثي بين جُلّاسي

الخلطة مضيِّعةٌ للوقت مُفسدةٌ للقلب :

يقول ابن القيم : « فأما ما تؤثّره كثرةُ الخلطة : فامتلاء القلب مِن دُخان أنفاس ابن آدم حتى يسودَّ ويوجب له تشتُّتًا وتفرُّقًا ، وهمًّا وغمًّا وضَعْفًا ، وحمْلًا لما يعجز عن حمْله من مُؤْنة قرناء السوء ، وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم ، وتَقَسّم فكرُهُ في أوديةِ مطالبهم وإراداتهم ، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة ؟!

هذا ، وكَمْ جلبتْ خلطةُ الناس من نقمةٍ ، ودفعتْ من نعمةٍ ، وأنزلتْ من محنةٍ ، وعطّلتْ من منحة ، وأحلَّتْ من رزيّة ، وأوقعتْ في بليّة ! وهل آفةُ الناس إلا الناس ؟!

وهل كان على أبي طالب - عند الوفاة - أضرّ من قرناء السوء ؟! لم يزالوا به حتى حالوا بينَه وبيْن كلمةٍ واحدةٍ تجلِب له سعادة الأبد .

والضابط النافع في أمْر الخلطة أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلُّم العلم، والجهاد، والنصيحة، ويعتزلهم في الشرِّ وفضول المباحات ، وإنْ دعتِ الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهدْ أن يقلب ذلك المجلس طاعةً لله إنْ أمكنه ، ويشجع نفسه ويُقوِّي قلبَه ، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك ، بأنَّ هذا رياءٌ ومحبةٌ لإظهار علمْك وحالك ، ونحو ذلك،فليحاربْه وليستعن بالله ، ويُؤثّر فيهم من الخير ما يمكنه ، فإنْ أعجزته المقادير عن ذلك فَلْيَسُلّ قلبه من بينهم كَسَلِّ الشعرة من العجين ، ولْيكنْ فيهم حاضرًا غائبًا ، قريبًا بعيدًا ، نائمًا يقظانَ ، ينظر إليهم ولا يبصرهم ، ويسمع كلامهم ولا يعيه ؛ لأنه قد أخذ قلبه مِن بينهم ، ورقِي به إلى الملأ الأعلى ، يسبح حوْل العرش مع الأرواح العُلْوية الزكيّة ، وما أصعب هذا وأشقَّهُ على النفوس ، وإنه ليسيرٌ

على مَن يسَّرَهُ الله عليه ، فبين العبد وبيْنه أن يَصدُق الله تباركَ وتعالى ، ويُديم اللُّجأ إليه ، ويُلقي نفسَه على بابه طريحًا ذليلًا ، ولا يعين على هذا إلا محبةٌ صادقةٌ ، والذكر الدائم بالقلب »[١].

تَعَوُّذ ابن الجوزي مِن صحبة البطَّالين :

قال ابن الجوزي : « أعوذ بالله من صحبة البطَّالين ؛ لقد رأيتُ خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما اعتاده الناس مِن كثْرةِ الزيارة ، ويسمُّون ذلك التَّردُّدَ خدمةً ، ويُطيلون الجلوس ، ويُجرون فيه أحاديث الناس وما لا يُغني ، ويتخلَّله غِيبةٌ ، وهذا شيءٌ يفعله في زماننا كثيرٌ من الناس ، وربما طلبه المَزور ، وتشوَّق إليه واستوحش مِن الوحدة ، وخُصوصًا في أيَّام التهاني والأعياد ، فتراهم يمشي بعضُهم إلى بعضٍ ، ولا يقتصرون على الهناء والسلام ، بل يمزجون ذلك بما ذكرتُه مِن تضييع الزمان ، فلما رأيت أنَّ الزمان أشرفُ شيءٍ ، والواجب انتهابُه بفعْلِ الخير؛ كرهْتُ ذلك وبقيتُ معهم بين أمريْن : إنْ أنكرتُ عليهم وقعتْ وحشةٌ لمْوضع قطْع المألوف ، وإنْ تقبَّلتُه منهم ضاع الزمان ! فصرت أدافع اللقاء جهدي ، فإذا غُلبت قصَّرت في الكلام لأتعجل الفراق ، ثم أعددتُ أعمالًا لا تمنع مِن المحادثة لأوقات لقائهم ، لئلا يمضي الزمان فارغًا ، فجعلتُ من الاستعداد للقائهم قطْع الكاغد[٢] ، وبرْي الأقلام ، وحزْم الدفاتر ؛ فإن هذه الأشياء لا بد منها ولا تحتاج إلى فكرٍ وحضور قلبٍ ، فأرصدتُها لأوقاتِ زيارتهم لئلَّا يضيعَ شيءٌ مِن وقتي »[٣].

---

(١) مدارج السالكين ١/٤٥٤ - ٤٥٦ .

(٢) قصُّ الورق .

(٣) صيد الخاطر .

« قال ابن مسعود رضي الله عنه : ما ندمتُ على شيءٍ ندمي على يومٍ غربتْ شمسُه ، نقص فيه أجَلي ، ولم يزد فيه عملي .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إن الليل والنهار يعملان فيك فاعملْ فيهما .

وقال الحسن البصري رحمه الله : يا ابن آدم ، إنما أنت أيامٌ ، فإذا ذهب يومٌ ذهبَ بعضُك . وقال أيضًا : أدركتُ أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشدّ منكم حرصًا على دراهمكم ودنانيركم .

وانظرْ إلى سادات الرجال وحفْظهم لأوقاتهم :

فهذا حماد بن سلمة ، يقول عنه تلميذه عبد الرحمن بن مهدي :

« لو قيل لحمّاد بن سلمة : إنك تموت غدًا،ما قدَر أن يزيد في العمل شيئًا .

وقال موسى بن إسماعيل التبوذكي : لو قلت لكم : إني ما رأيتُ حماد بن سلمة ضاحكًا،لَصدقتُ ؛ كان مشغولًا : إما أن يحدّث ، أو يقرأ ، أو يسبّح ، أو يصلي ، وقد قسّم النهار على ذلك .

قال يونس المؤدِّب : مات حماد بن سلمة وهو في الصلاة رحمة الله عليه »[١] .

« كان الخليل بن أحمد الفراهيدي يقول : أثقل الساعات عليّ : ساعةٌ آكُلُ فيها »[٢] .

وانظر - يرحمك الله - إلى الإمام أبي يوسف القاضي صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه ، يباحث - وهو في النّزع والدّماء - بعض عُوّاده في مسألةٍ فقهيةٍ : « قال تلميذه القاضي إبراهيم بن الجراح الكوفي ثم المصري : مرض أبو يوسف فأتيته أعوده فوجدتُه مغمًى عليه ، فلما أفاق قال لي : يا إبراهيم ،

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢٠٢/١ ، وسير أعلام النبلاء ٤٤٧/٧ .

(٢) الحثّ على طلب العلم - لأبي هلال العسكري ص٨٧ .

ما تقول في مسألة ؟ قلت : في مثل هذه الحالة ؟! قال : ولا بأس بذلك ، ندرس لعلّه ينجو به ناجٍ . ثم قال : يا إبراهيم ، أيّما أفضل في رمْي الجمار ، أن يرميها ماشيًا أوْ راكبًا ؟ قلت : راكبًا . قال : أخطأت . قلت : ماشيًا . قال : أخطأت . قلتُ : قُلْ فيها ، يرضى الله عنك . قال : أمّا ما كان يُوقف عنده للدعاء فالأفضل أن يرميه ماشيًا ، وأما ما كان لا يوقف عنده فالأفضل أن يرميه راكبًا . ثم قمت مِن عنده ، فما بلغت باب داره حتى سمعتُ الصراخ عليه ، وإذا هو قد مات رحمة الله عليه »[(١)] .

رحمة الله على أبي حنيفة وتلاميذه ، فهذا محمد بن الحسن الشيباني الإمام ، التلميذ الثاني لأبي حنيفة ، « كان لا ينام الليل وكان يضع عنده دفاتر – يعني كتبًا – فإذا ملّ مِن نوعٍ نظر في آخر ، وكان يزيل نوْمه بالماء ويقول : إن النوم من الحرارة »[(٢)] .

العجب العجابُ عند عُبيد بن يَعيش :

وهذا الإمام الحافظ عُبيد بن يعيش شيخ البخاري ومسلم ، روى عنه عمّار بن رجاء قال : « سمعت عبيد بن يعيش يقول : أقمت ثلاثين سَنةً ما أكلتُ بيدي بالليل ، كانت أختي تلقمني وأنا أكتب الحديث »[(٣)] .

ابن جرير الطبري آية من الآيات في حفْظِ الوقت :

قال القاضي أبو بكر أحمد بن كامل الشجري تلميذ ابن جرير وصاحبه : « كان إذا أكل نام في قميصٍ قصير الأكمام ، ثم يقوم فيصلي الظهر في بيته ، ويكتب في تصنيفه إلى العصر ، ثم يخرج فيصلي العصر ، ويجلس للناس يُقرىء ويُقرأ عليه إلى المغرب ، ثم يجلس للفقه والدرس بين يديه

---

(١) قيمة الزمن عند العلماء ص٢٨ ، ٢٩ نقلًا عن الجواهر المضيّة ١/٧٦ .
(٢) قيمة الزمن ص٣١ نقلًا عن مفتاح السعادة – لطاشكبري زادة ١/٣٦ .
(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع – للخطيب ٢/١٧٨ .

إلى العشاء الآخرة ، ثم يدخل منزله ، وقد قسّم ليله ونهاره في مصلحة نفسه ودينه والخلق كما وفّقه الله عز وجل » .

« وقال الخطيب البغدادي : سمعت السِّمسمي يحكي أن ابن جرير مكث أربعين سنةً ، يكتب في كلّ يوم منها أربعين ورقةً .

وحدّث تلميذه الفرْغاني في كتابه - المعروف بكتاب « الصلة » ، وهو كتاب وصل به « تاريخ ابن جرير » - أن قومًا من تلاميذ ابن جرير ، حصَّلوا أيَّامَ حياته - منذ بلغ الحُلُم إلى أن تُوفّي وهو ابن ستٍّ وثمانين سنة - ثم قسَّموا عليها أوراق مُصنَّفاته ، فصار منها على كلّ يوم أربع عشرة ورقةً ، وهذا شيءٌ لا يتهيَّأ لمخلوق إلا بحسْنِ عنايةِ الخالق .

إذا حَسَبْنا أيام الاثنين والسبعين سنةً وجعلنا لكلِّ يوم منها أربعَ عشرةَ ورقة تصنيفًا ، كان مجموع ما صنفه الإمام ابن جرير نحو ثماني وخمسين وثلاثمائة ألفِ ورقةٍ .

تبارك الله ... ماذا تبلغُ الهمم !! فهو في كثرة تآليفه بمثابة دارٍ للنشر ، وهو فردٌ واحدٌ بنفسه ، يكتب بقلمه لنفسه ويؤلف على ورقه بنفسه ، ويُخرج للناس فكره وعلمه عسلًا مُصفًّى وزبدًا شهيًّا ، وما كان يكون له كل ذلك ، لولا أنه كان يكسب وقته »(١) .

وهذا الإمـام ابن الخياط النحوي ، « يدرس جميع أوقاته حتى في الطريق ، وكان ربما سقط في جُرْفٍ أوْ خبطته دابَّة »(٢) .

وانظر - يرحمك الله - إلى الحاكم الشهيد أبي الفضل محمد بن محمد المروزي القاضي الوزير إمام أصحاب أبي حنيفة ، يقول عنه الحاكم صاحب

---

(١) قيمة الزمن ص٤٣ - ٤٤ .

(٢) قيمة الزمن ص٤٥ - ٤٦ .

« المستدرك » : « لقد حضرتُ عشية الجمعة مجلسَ الإملاء للحاكم أبي الفضل ، ودخل أبو علي بن أبي بكر بن المظفر الأمير ، فقام له قائمًا ولم يتحرَّك من مكانه ، وردّه من باب الصُّفَّة ، وقال : انصرف أيها الأمير ، فليس هذا يومك »(١).

وهذا شيخ المحدّثين الخطيب البغدادي ، « كان يمشي وفي يده جزءٌ يطالعه » ، وما ذلك إلا للحفاظ على الوقت ، وكسْب الزمن أن يذهب فارغًا أثناء المشي دون استفادةٍ به في جنب العلم .

وهذا الإمام سُليم الرازي أحد أئمة الشافعية المُتوفَّى سنة ٤٤٧هـ ، قال عنه التاج السُّبكي : « كان - رحمه الله - مِن الورع على جانبٍ قويٍّ ، يحاسب نفسه على الأوقات ، لا يدع وقتًا يمضي بغير فائدة ، إما ينسخ أوْ يدرس أوْ يقرأ ، وينسخ شيئًا كثيرًا ، قال ابن عساكر : « ولقد حدثني عنه شيخنا أبو الفرج الإسفراييني أنه نزل يومًا إلى داره ورجع ، فقال : قد قرأت جزءًا في طريقي . قال أبو الفرج : وحدثني المؤمّل بن الحسن أنه رأى سُلَيمًا حَفِي عليه القلم ، فإلى أن قَطّه جعل يحرك شَفَتَيْه ، فعلم أنه يقرأ بإزاء إصلاحه القلم ؛ لئلا يمضي عليه زمان وهو فارغ » .

أيْ لما شغلتْ يداه حرّك شفتيْه بذكر الله؛لئلا يذهب الزمان فارغًا ، فللّهِ درُّه .. ما أَعرفَهُ بالغنائم ! »(٢).

ابن عقيل وابن الجوزي ... غاية الغايات في حفْظ الوقت :

انظر - رحمك الله - إلى الإمام أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي وحفظه لوقته ، ومعرفته بنفاسته ، يقول : « إني لا يحل لي أن أضيّع ساعة مِن عمري ، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرةٍ أو مناظرة ، وبصري عن

(١) قيمة الزمن ص٤٦ .
(٢) قيمة الزمن ص٥٠ ، ٥١ .

مطالعة ، أَعملتُ فكري في حالِ راحتي وأنا منطرحٌ ، فلا أنهضُ إلا وقد خطر لي ما أسطّره ، وإني لأجد مِن حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنةً . وأنا أُقصّر بغاية جهدي أوقاتِ أكْلي ، حتى أختار سَفّ الكَعْكِ ، وتحسِّيهِ بالماء على الخبز ؛ لأجل ما بينهما من تفاوُتِ المضْغ ، توفُّرًا على مطالعةٍ ، أو تسطيرِ فائدةٍ لم أدركها فيه ، وإنَّ أجَلَّ تحصيلٍ عند العقلاء - بإجماع العلماء - هو الوقت ، فهو غنيمةٌ تُنتهَزُ فيها الفُرَصُ ، فالتكاليف كثيرةٌ والأوقات خاطفةٌ » .

هذا الإمام العظيم الذي يقول عنه ابن الجوزي : « كان الإمام ابن عقيل دائم الاشتغال بالعلم ، وكان له الخاطر العاطر ، والبحث عن الغوامض والدقائق ، وجعل كتابه المسمَّى بـ « الفنون » مناطًا لخواطره وواقعاته ، وله تصانيف كثيرةٌ في أنواع العلوم ، وأكبر تصانيفه : « الفنون » ، وهو كتاب كبيرٌ جدًّا ، فيه فوائد كثيرةُ جليلةٌ في الوعظ ، والتفسير ، والفقه وأصول الفقه ، وأصول الدين ، والنحو ، واللغة والشعر ، والتاريخ » .

قال الذهبي : « لم يُصنَّف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب ، حدثني مَن رأى منه المجلَّدَ الفلاني بعد الأربعمائة . قال ابن رجب : وقال بعضهم : هو ثمانمائة مجلدة » .

فانظر - رحمك الله - كيف يُثمر حفظ الوقت ودأب النفس في الخير والعلم « ثمانمائة مجلدة » ، أكبر كتاب في الدنيا ، إلى جانب تآليف كثيرةٍ غيره .

يقول ابن عقيل في فاتحة كتابهِ « الفنون » : « أما بعد ، فإنَّ خير ما قُطِع به الوقت وشُغلت به النفس ، فتُقرِّب به إلى الربِّ ، جلَّت عظمته - طلبُ علمٍ أَخرج من ظُلمةِ الجهل إلى نور الشرع ، وذلك الذي شَغلتُ به نفسي ، وقطعت به وقتي ، فما أزال أعلق ما أستفيده من ألفاظ العلماء ،

ومن بطون الصحائف ، ومن صَيْد الخواطر التي تنثرها المناظرات والمقابَسات في مجالس العلماء ، ومجامع الفضلاء طمعًا في أن يعْلق فيَّ طرفٌ من الفضْل ، أبعد به عن الجهل ، لعلِّي أصل إلى بعض ما وصل إليه الرجال قبلي ، ولو لم يكن مِن فائدته عاجلًا إلَّا تنظيف الوقت من الاشتغال برُعُونات الطباع التي تنقطع بها أوقاتُ الرِّعَاع لكفَى ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبي ونِعم الوكيل » .

وانظر إلى الإمام العظيم ابن الجوزي في دُرَرِهِ التي ينصح بها ولده - المسماة بـ « لفتة الكبد في نصيحة الولد » -: « اعلم يا بنيَّ أنَّ الأيام تُبسَطُ ساعاتٍ ، والساعاتُ تُبْسَط أنفاسًا ، وكلُّ نفَس خِزانةٌ ، فاحذرْ أن يذهب نَفَسٌ بغير شيءٍ ، فترى في القيامة خِزانةً فارغةً فتندم ، وانظر كلَّ ساعةٍ مِن ساعاتك بماذا تذهب ، فلا تُودِعْها إلا إلى أشرف ما يمكن ، ولا تهملْ نفسك ، وعَوِّدْها أشرف ما يكون من العمل وأحسنه ، وابعث إلى صُندوقِ القبر ما يسرُّك يوم الوصول إليه » .

فماذا بعث ابن الجوزي إلى صندوق قبره ؟ وكيف كانت همته في حِفْظ وقْتِهِ ؟

فاتني أنْ أرىٰ الديـار بطـرفي   فلعلّي أرىٰ الديار بسَمعي

لقد كانت همة ابن الجوزي في حفظ وقته عَلِيَّة ، تدل عليها تصانيفهُ التي هي زبدة عمره :

قال ابن رجب في ترجمة ابن الجوزي : « لم يترك فنّا من الفنون إلا وله فيه مصنَّف ، وسئل عن عدد تآليفه ، فقال : زيادة على ثلاثمائة وأربعين مُصَنَّفًا ، منها ما هو عشرون مجلّدًا ، ومنها ما هو كرّاسٌ واحد .

وقال الموفَّق عبد اللطيف : كان ابن الجوزي لا يُضيّع مِن زمانه شيئًا ، يكتب في اليوم أربعة كراريسٍ ، ويرتفع له كلُّ سنةٍ من كتابته ما

بين خمسين مجلدًا إلى ستِّين »[١].

« قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : سمعت جدي يقول على المنبر في آخر عُمرِه : كتبت بإصبعَيّ هاتيْن ألفيْ مجلدٍ »[٢].

قال ابن الوردي في « تتمة المختصر في أخبار البشر » : « قيل : إنه جُمعت الكراريسُ التي كتبها أبو الفرج ابن الجوزي وحُسبت مدة عُمُره ، فقسِّمتْ على المدة ، فكان ما خصّ كلَّ يوم منها تسعةُ كراريس » .

ذكر ابن رجب الحنبلي في « ذيل طبقات الحنابلة »[٣] أن الإمام ابن تيمية قال في أجوبته المصرية : كان الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي كثير التصنيف والتأليف ، وله مصنفات في أمور كثيرة ، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألفِ مصنفٍ ، ورأيت بعد ذلك ما لم أرَه .

وقال الذهبي : وما علمت أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل .

ونقل القمي في « الكُنىٰ والألقاب » « أن بُراية أقلام ابن الجوزي التي كتب بها الحديث جُمعتْ فحصُل منها شيءٌ كثيرٌ ، وأوْصىٰ أنْ يُسَخَّن بها الماء الذي يُغسل به بعد موْته ، ففُعل ذلك فكَفَت وفضل منها »[٤] .

فرحمةُ الله على شيخ الإسلام ابن الجوزي .

لا تقعـدنَّ لذكـرنا في ذكْرِهِمْ ... ليْسَ الصحيح إذا مشىٰ كالمُقْعَدِ

شيخ الإسلام ابن تيمية :

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية ، كان لا يُفَوِّت ساعةً مِن وقته دون

---

(١) ذيْل طبقات الحنابلة ٤٠١/١ .

(٢) تذكرة الحفاظ ١٣٤٤/٤ ، وذيل طبقات الحنابلة ٤٠١/١ .

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٤١٥/١ .

(٤) فوات الوفيات ٣٨/١ ، ٤٢ .

تعليم أو تأليفٍ أو عبادة ، حتى بلغتْ مؤلفاته المئات، بل لم يمكن حصْرها للمتتبعين ، حتى ولا للشيخ نفسه ، رحمه الله .

قال ابن شـاكر الكتبي : « إن تصانيفه تبلغ ثلاثمائة مجلدٍ . قال الذهبي : وما يبعد أنّ تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدٍ »[١] .

قال ابن القيم : « وقد شاهدتُ من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه ، وكلامه ، وإقدامه ، وكتابته ، أمرًا عجيبًا فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة أو أكثر »[٢] .

وقال العلامة ابن رجـب الحنبلي : « وأما تصانيفه فقد امتلأت بها الأمصار ، وجاوزت حدَّ الكثرة ، فلا يمكن لأحدٍ حصْرها »[٣].

الفخر الـرازي :

قال الفخر الرازي : « والله إنني أتأسَّف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل ؛ فإن الوقت والزمان عزيز » .

الحافظ الأثري : عبد الغني المقدسي :

قال عنه تلميذه الضياء المقـدسي : « كان لا يضيع شيئًا من زمانه ، كان يصلي الفجر ، ويلقن القرآن ، وربما لقّن الحديث ، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثلاثمائة ركعة بالفاتحة والمعوذتين إلى قُبَيْل الظهر ، فينام نومة فيصلي الظهر ، ويشتغل بالتسميع أو النسخ إلى المغرب ، فيفطر إن كان صائمًا ، ويصلي العشاء ، ثم ينام إلى نصف الليل أو بعده ، ثم يتوضأ ويصلي إلى قريب الفجر ، وربما توضأ سبع مراتٍ أو أكثر ، ويقول : تَطِيبُ لي الصلاة ما

(١) فوات الوفيات ١/٣٨ ، ٤٢ .
(٢) الوابل الصيب ص١٠٨ .
(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٠٣ .

دامت أعضائي رطبة . ثم ينام نومةً يسيرةً قبل الفجر ، وهذا دأبه »[١] .

ابن سُكَيْنة واختصار السلام :

وانظر - يرحمك الله - إلى شيخ الإسلام عبد الوهاب بن علي بن سُكَيْنة البغدادي الشافعي ، « كانت أوقاته محفوظة ، وكلماته معدودة ، فلم تمضِ له ساعةٌ إلا في قراءةِ قرآن ، أو ذكْرٍ ، أو تهجدٍ ، أو قراءةِ الناس عليه ، وكان يمنع الناس من التحديث في مجلسه بلغوٍ أو غيبةِ إنسانٍ ، أو ما لا فائدة فيه . لا يخرج من بيته إلا لحضور جمعةٍ أو عيد أو جنازة ، ولا يحضر دور أبناء الدنيا في هناءٍ ولا عزاء .

قال يحيى بن القاسم مدرس النظامية : كان ابن سُكَيْنة عالمًا عاملًا ، لا يضيّع شيئًا مِن وقتِهِ ، وكنا إذا دخلنا عليه يقول : لا تزيدوا على « سلامٌ عليكم ، مسألة » ؛ لكثرة حرصه على المباحثة وتقرير الأحكام »[٢] .

وهذا والله شيءٌ عجيبٌ إذْ يدعوهم إلى اختصار السلام « سلامٌ عليكم » ، ويمنعهم من التجمُّل بالمجاملات المعتادة ، ويأمرهم أن يدخلوا في المباحثة والمدارسة فوْر سلامهم ، كسبًا للوقت .

شيخ الإسلام مجْد الدين ، أبو البركات ، ابن تيمية :

وعند آل تيمية الدُّرَرُ الغوالي :

فهذا شيخ الإسلام مجْد الدين أبو البركات ، عبد السلام بن عبد الله بن تيمية ، يروي أعجوبةً عنه ابن رجب الحنبلي فيقول : « قال شيخنا أبو عبد الله ابن القيم : حدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن عبد الحليم بن تيمية ، عن أبيه ، قال : كان الجد - مجد الدين - إذا دخل الخلاء يقول

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٥ - ٣٤ .

(٢) ذيل تاريخ بغداد ١/٣٥٤ - ٣٦٨ .

لي : اقرأ في هذا الكتاب ، وارفعْ صوتك حتى أسمع . قلت - ابن رجب -: يشير بذلك إلى قوة حرْصه على العلم ، وحفْظه لأوقاته »(١).

المنذري يَبْلُغ النهاية في حفْظ وقته :

قال التاج السُّبكي عن المنذري : « وقد درّس بالآخرة في دار الحديث الكاملية ، وكان لا يخرج منها إلا لصلاةِ الجمعة ، حتى إنه كان له ولد نجيبٌ محدّث فاضلٌ ، هو رشيد الدين أبو بكر محمد ، تُوفِّي سنة ٦٤٣هـ ، توفَّاه الله تعالى في حياته ليضاعف له في حسناته ، فصلى عليه الشيخ داخل المدرسة ، وشيّعه إلى بابها ، ثم دمعتْ عيناه ، وقال : أودعتُك يا ولدي الله تعالى ، وفارقه »(٢). ولم يخرج من المدرسة .

النَّوويّ :

قال ابن العطار تلميذ النووي : « ذكر لي شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يُضيّع له وقتًا ، لا في ليل ولا في نهار ، إلا في الاشتغال بالعلم حتى في الطريق يكرّر أو يطالع ، وأنه دام على هذا ست سنين ، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق ، وكان لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكْلة بعد عشاء الآخرة ، ويشرب شربة واحدة عند السَّحر ، ويمتنع عن أكْل الفواكه والخيار ، ويقول : أخاف أن يرطب جسمي ويجلب لي النوم .

أعاذلتي على إتْعابِ نفسي ورعْيي في الدّجى روْضَ السُّهادِ
إذا شام الفتى بَرْقَ المَعالي فأهونُ فائتٍ طِيبُ الرُّقادِ(٣)

وقال غيره :

يَهْوَىٰ الدياجي إذا المغرورُ أغْفَلَها كأنَّ شُهْبَ الدياجي أعْينٌ نُجْلُ

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/٢٤٩ ، ٢٥٢ .
(٢) طبقات الشافعية ٨/٢٦٠ .
(٣) البيتانِ لابن نباتة السعدي .

ابن النفيس ونفاسةُ وقته :

أمّا الإمام الفقيه مكتشفُ الدورة الدموية ابن النفيس ، فقال عنه الإمام برهان الدين إبراهيم الرشيدي : « كان العلاء بن النفيس إذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مَبريَّةً ، ويدير وجهه إلى الحائط ، ويأخذ في التصنيف إملاءً من خاطره ، ويكتب مثل السَّيْل إذا انحدر ، فإذا كَلَّ القلم وحَفِيَ رمى به وتناول غيره ، لئلَّا يضيع عليه الزمان في بري القلم »[(١)] .

الإمام : الشمس الأصبهاني ... إمامٌ في حفْظ الوقت :

شمس الدين أبو الثناء الأصبهاني محمود بن عبد الرحمن بن أحمد الشافعي .

قال عنه ابن حجر في « الدرر الكامنة » ، والشوكاني في « البدر الطالع » : « اشتغل في بلاده ، ومهر وتقدَّم في الفنون ، وقدِم دمشق بعد زيارة القدس في صفر سنة ٧٢٥هـ ، فبهرت أهلها فضائِلُه ، وسمع كلامه الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، فبالغ في تعظيمه ، قال مرة : اسكتوا حتى نسمع كلام هذا الفاضل الذي ما دخل البلاد مثله . ثم انتقل إلى القاهرة وفيها توفي .

وممَّا يُحكىٰ عنه مِن حرصه على العلم وشحِّه بضياع أوقاته ، أن بعض أصحابه كان يذكر أنه كان يمتنع كثيرًا من الأكْل ، لئلا يحتاج إلى الشُّرب ، فيحتاج إلى دخول الخلاء ، فيضيع عليه الزمان »[(٢)] .

مَثَلُه مَثَلُ مَن يقول : وددتُ لو أن رزقي نواة أمصُّها ، لقد سئمت مِن كثرة ترددادي إلى الخلاء .

---

(١) الدرر الكامنة ٨٥/٦ .
(٢) البدر الطالع ٢٩٨/٢ .

ابن عساكر حافظ الدنيا :

والإمام مطلقًا ، الحافظ ابن عساكر ، قال عنه ولده المحدّث بهاء الدين القاسم : « كان أبي رحمه الله مواظبًا على الجماعة والتلاوة ، يختم كلّ جمعة ، ويختم في رمضان كلَّ يوم ، ويعتكف في المنارة الشرقية (من جامع دمشق) ، وكان كثير النوافل والأذكار ، يُحيي ليلة النصف والعيدين بالصلاة والذكر ، وكان يحاسب نفسَه على لحظة تذهب ، لم يشتغل منذ أربعين سنةً – أي منذ أذن له شيوخه بالرواية والتحديث – إلا بالجمع والتسميع حتى في نزهته وخلواته »[١] .

ألّف « تاريخ دمشق » الذي قال عنه ابن خلّكان : « قال لي شيخنا الحافظ العلّامة زكيّ الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري حافظ مصر – وقد جرى ذكْر هذا التاريخ ، وأخرج لي منه مجلدًا ، وطال الحديث في أمْره واستعظامه –: ما أظنُّ هذا الرجل إلا عزَم على وضْع هذا التاريخ مِن يوْم عقل على نفسه ، وشرع في الجمع مِن ذلك الوقت ، وإلا فالعمر يقصُر عن أنْ يجمع فيه الإنسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبُّه .

ولقد قال الحق ، ومَنْ وقف عليه عرَف حقيقة هذا القول ، ومتى يتسع للإنسان الوقت حتى يضع مثله ؟! وهذا الذي ظهر – ثمانون مجلدًا – هو الذي اختاره ، وما صحّ له هذا إلا بعد مُسوَّداتٍ ، ما كاد ينضبط حصرها ، وله – غيره – تواليفُ حسنةٌ ، وأجزاء ممتعة »[٢] .

أولئكَ قومٌ شيَّد اللهُ فخرهُم فما فوْقه فخرٌ وإنْ عَظُم الفْخرُ

« هذه لمعاتٌ من سيرة الإمام الفذ الحافظ ابن عساكر الدمشقي ، وفيها ما رأيت من العجائب الغرائب ، والمدهشات المطربات ، ولولا محافظتُه

---

(١) تذكرة الحفاظ ١٣٢٨/٤ .

(٢) وفيات الأعيان ٣٣٥/١ .

على الأوقات ، واغتنامُهُ الدقائق واللحظات ، ما كانت تتأتّى له تلك التآليف الضخمة الجامعة المانعة ، التي تعجز المجامع العلمية اليوم عن طبْعها فضلًا عن تأليف مثلها . فالحِفَاظَ الحِفَاظَ على الأوقات واللحظات ؛ فهي كَنْزُ البركات والخيرات »(١) .

قالت رابعة لسفيان : « إنما أنت أيّامٌ معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضُك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكلُّ ، وأنت تعلم فاعملْ »(٢) .

حياتــك أنفــاسٌ فكلمــا مضى نفسٌ منها انتقُصْتَ به جزءَا

قال الحجاج بن عنبسة : « اجتمع بنو مروان ، فقالوا : لو دخلنا على أمير المؤمنين فعطفناه علينا بالمزاح . فدخلوا ، فتكلم رجلٌ منهم فمزح ، فنظر إليه عمر ، فوصل له رجل كلامه بالمزاح ، فقال : أَلهذا اجتمعتم ؟! لِأَخسِّ الحديث ، ولِمَا يُورث الضغائن ؟! إذا اجتمعتم فأفيضوا في كتاب الله ؛ فإنْ تعديتم ذلك ففي السُّنَّة عن رسول الله ﷺ ، فإنْ تعدَّيتم ذلك فعليكم بمعالي الحديث »(٣) .

أنشد أبو الوليد الباجي :

إذا كنـت أعلـمُ علمًا يقينًا بأنَّ جميعَ حياتي كَسَاعهْ
فلِمْ لا أكـونُ ضنينًا بهـا وأجعلها في صلاحٍ وطاعهْ(٤)

قال الخطيب البغدادي : « والعلم كالبحار المتعذر كيلها ، والمعادن التي لا ينقطع نيْلها ، فاشتغل بالمهمِّ منه ؛ فإنه من شغل نفسه بغير المهم أضرَّ بالمهم » .

---

(١) قيمة الزمن ص١٠٠ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢/٢٨٦ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٣٩ .
(٤) وفيات الأعيان ٢/٤٠٨ - ٤٠٩ .

قال العباس بن الحسن العلوي(١): « اعلمْ أن رأيك لا يتسع لكل شيءٍ ففرّغْه للمهم ، وأنَّ مالك لا يغني الناس كلهم ، فخصّ به أهل الحق ، وأن كرامتك لا تُطبّق(٢) العامة فتوخّ بها أهل الفضل ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإنْ دأبت فيهما ، فأحسنْ قسمتهما بين عملك ودَعَتك من ذلك . فإنَّ ما شغلك مِن رأيك في غير المهمِّ إزراء بالمهم ، وما صرفت من مالك في الباطل ، فقدتَه حين تريده للحقِّ ، وما عمدتَ من كرامتك إلى أهل النقص ، أضـرَّ بك في العجز عن أهل الفضل ، وما شغلتَ من ليْلك ونهارك في غير الحاجة أزرىٰ بك في الحاجة »(٣) .

قال السيوطي في كسْب طالب العلم لوقته :

حـدّثنا شـيخنا الكنـاني عن أبِهِ صاحبِ الخطابهْ
أسـرعْ أخا العلمِ في ثلاثٍ الأَكَل والمشي والكتابهْ(٤)

لفتـة الكبـد :

قال ابن الجوزي في « لفتة الكبد في نصيحة الولد » : « الكسل عن الفضائل بئسَ الرفيق ، وحبُّ الراحة يورث من الندم ما يربو على كلِّ لذة ، فانتبه واتعبْ لنفسك ، واندمْ على ما مضى من تفريطك ، واجتهدْ في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سَعة ، واسقِ غُصنَك ما دامت فيه رطوبة ، واذكرْ ساعتك التي ضاعت ، فكفى بها عِظة ، ذهبت لذة الكسل فيها ، وفاتت مراتب الفضائل ، وإنما تُقصِّر الهمم في بعض الأوقات ، فإذا حُثَّتْ سارت ،

---

(١) ترجم له الخطيب في تاريخ بغداد ١٢٦/١٢ ، أقام في صحبة هارون الرشيد ، وكان عالمًا شاعرًا .
(٢) أي : لا تعمُّهم وتتسع لهم .
(٣) تاريخ بغداد ١٢٦/١٢ .
(٤) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي ٢٢٩/١ .

وما تقف همة إلا لخساستها ، وإلا فمتى علتِ الهمة فلا تقنع بالدُّون .

إذا ما عـلا المـرءُ رام العُلا ويقنع بالدُّونِ منْ كان دُونَا

يقول الشيخ حسن البنا رحمه الله : « يقال : الوقت من ذهب !! وهذا صحيح من حيث القيم المادية للَّذِين لا يقيسون الوجود إلا بها ، ولكن الوقت هو الحياة للذين ينظرون إلى أبعد من ذلك »[(١)].

إذا كانَ رأسُ المالِ عمركَ فاحترزْ عليهِ منَ الإنفاقِ في غير واجبِ

فبين اختلافِ الليل والصبح مَعْرَكٌ يكرُّ علينا جيشُه بالعَجـائبِ[(٢)]

لا عملَ إلا في الشباب :

قال النووي : « ينبغي للمتعلم أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط ، وحالَ الشبابِ وقوةِ البدن ، ونباهة الخاطر ، وقلَّة الشواغل قبل عوارض البطالة »[(٣)].

أترجو أن تكونَ وأنت شيخٌ كما قد كنـت أيـام الشـبابِ

لقدْ كذَبَتْك نفسُك ليسَ ثوبٌ دريـسٌ كالجـديـد من الثيـابِ

أخي : «بادرْ ساعات العمر وهي سانحة ، ولا تتعلق بالغائب المجهول؛ فكل ظرفٍ مملوءٌ بشواغله وأعماله ومفاجآته :

يقولون إنَّ الدهر يومانِ كلُّه فيومُ مَسرَّاتٍ ويومُ مكـارهِ

وَمَا صدقوا والدهر يوم مسرّةٍ وأيامُ مكروهٍ كثير البَدائهِ »[(٤)]

---

(١) منبر الجمعة للشيخ حسن البنا ، إعداد وتقديم : محمد عبد الحكيم خيال ، مقالة : « الوقت هو الحياة » ص٥٣ .

(٢) للشاعر عمارة اليمني – انظر « وفيات الأعيان » ١/٣٧٧ .

(٣) المجموع للنووي ١/٦٩ .

(٤) قيمة الزمن ص١١٧ .

حوائجُ لم تقض ، وآمال لم تُنَلْ ، وأنفسٌ ماتت بحسراتها[١] .

ولم يَتَّفِقْ حتَّى مضىٰ لسبيلِهِ   وكَمْ حسراتٍ في بطونِ المقابرِ

قال الإمام أحمد : «ما شَبَّهتُ الشباب إلا بشيءٍ كان في كُمِّي فسقط»[٢] .

أذانُ المرءِ حينَ الطفلُ يأتي   وتأخيرُ الصَّلاةِ إلى المماتِ
دليلٌ أنَّ محياهُ يسيرٌ   كما بيْنَ الأذانِ إلى الصلاةِ

وقال آخر :

وما بينَ ميلادِ الفتىٰ ووفاتِهِ   إذا نصح الأقوامُ أنفسَهُم عُمْرُ
لأنَّ الذي يأتي شبيهُ الذي مضى   وما هو إلا وقتُكَ الضيِّقُ النَّزْرُ

شبابٌ سبهلل :

قال عمر بن الخطاب : إني لأكره أن أرى أحدكم سَبَهْللًا - أي فارغًا - لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة .

فيالَضياع أمةٍ أعمارُ شبابها عبثٌ ولهوٌ ولغوٌ ، لا يطلبون إلا قتْل الوقت ، كأن الوقت عدوٌّ من أعدائهم .

ويرحم الله الوزير الصالح يحيى بن هبيرة شيخ ابن الجوزي ، إذ يقول :

والوقتُ أنفسُ ما عنيتَ بحفظِهِ   وأراهُ أسهلَ ما عليكَ يضيعُ

الناصحُ لنفسه مقصوده من زمانه كله ربُّه ، ووسيلته إلى الله علمه ، عرف طريقه ودربه .

إذا كان يُؤذيك حَرُّ المصيفِ   ويُبْسُ الخريفِ وبرْدُ الشِّتا
ويُلهيك حسنُ زمانِ الربيعِ   فأخذُكَ للعلم قل لي متى[٣]؟!

---

(١) قولٌ للشريف المحدِّث جعفر بن محمد العباس البغدادي المتوفى سنة ٥٩٨هـ .
(٢) مناقب الإمام أحمد ص١٩٨ .
(٣) للإمام أحمد بن فارس الرازي .

قال شوقي رحمه الله :

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ لهُ إنَّ الحياةَ دقائق وثوانِ
فارفعْ لنفسِكَ بعدَ موْتِكَ ذكرَها فالذكرُ للإنسان عمرٌ ثاني

قال الغزالي : « ويحك يا نفس ، ما لك إلا أيامٌ معدودة ، هي بضاعتك إن اتَّجرتِ فيها ، وقد ضيعتِ أكثرها ، فلو بكيتِ بقيةَ عمرك على ما ضيعتِ منها لكنتِ مقصِّرة في حقِّ نفسك ، فكيف إذا ضيعتِ البقية وأصررتِ على عادتِكِ . ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطتِ من بطن أمك ، فابني على وجه الأرض قصرَك ، فإن بطنها عن قليلٍ يكون قبرك . تفرحين كلّ يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك ! وما نفع مالٌ يزيدُ وعمرٌ ينقُصُ . كم من مستقبِل يومًا لا يستكمله ، وكم من مُؤَمِّل لغدٍ لا يبلغه ! اعملي بقية عمرك في أيامٍ قصارٍ لأيام طوالٍ . ومن كانت مطيتُهُ الليل والنهار ، فإنه يُسار به وإن لم يَسِرْ »(١).

«قيل لداود الطائي: لو سرّحتَ لحيتك. فقال: إني إذًا لفارغٌ»(٢).

« كان سفيان الثوري يقول : عند الصباح يحمد القوم السُّرَى ، وعند الممات يحمد القوم التُّقى .

وقال أحمد بن حرب : يا عجبًا لمن يعرف أن الجنة تُزيَّن فوقه وأن النار تُسعَّر تحته ، كيف ينام بينهما »(٣).

أخي ، إن النهار لن يرجع ، والعمر لا يعود ، والطالب حثيثٌ .

أخي ، « إن كل نفَسٍ من أنفاس العمر جوهرةٌ نفيسة ، لا عوض

(١) إحياء علوم الدين ٤/٤٤٥ - ٤٤٦ .
(٢) الإحياء ٤/٤٣٥ .
(٣) الإحياء ٤/٤٣٥ .

لها ، يمكن أن يُشترى بها كنزٌ من الكنوز ، لا يتناهىٰ نعيمُه أبدَ الآباد . فانقباضُ هذه الأنفاس ضائعةً أو مصروفةً إلى ما يجلب الهلاكَ خُسرانٌ عظيمٌ هائلٌ لا تسمح به نفس عاقلٍ ، فإذا أصبح فليفرِّغ قلبه لمشارطة النفس .

يا نفس ، ما لي بضاعةٌ إلا العمر ، ومهما فني فقد فني رأسُ المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الرِّبْح . وهذا اليوم الجديد قد أمهلَني الله فيه ، وأنسأ في أجلي ، وأنعم عليّ به ، ولو توفاني لكنت أتمنّى أن يرجعني إلى الدنيا يومًا واحدًا حتى أعمل فيه صالحًا ، فاحسبي أنك قد تُوفِّيت ثم رددتِ ، فإياك أن تضيِّعي هذا اليوم ؛ فإنّ كل نفَسٍ جوهرة لا قيمة لها . اجتهدي اليوم في أنْ تعمري خزانتك ، ولا تدعيها فارغةً عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ، ولا تميلي إلى الكسل والدّعَة ، فيفوتك من درجاتِ عِلِّيِّين ما يدركه غيرك ، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة ، فألمُ الغَبَن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار . وقد قال بعضهم : هبْ أن المسيءَ قد عُفي عنه ، أليس قد فاته ثوابُ المحسنين ؟! »[(١)] .

أشار به إلى الغبن والحسرة ، وقال الله تعالى : ﴿ **يوم يجمعكم ليَوْم الجمعِ ذلكَ يومُ التغابن** ﴾ الآية. فهذه وصيته لنفسه في أوقاته .

أخي ، وأخيرًا « سنعرض إحصائيةً دقيقةً تبيِّن أهمية العمر والحرص عليه ، بما يثير الغيرة لدى المسلم عالي الهمة .

فلنفرض أن الإنسان يعيش عمرًا افتراضيًّا مدَّته سبعون سنةً ، فإذا ضيّع الإنسان خمس دقائق يوميًّا فإنَّ هذا يعني أنه أضاع مِن مجموع العمر كلِّه ثلاثة أشهر تقريبًا (٨٨ يومًا) ؛ وهذا الجدول يوضِّح المسألة أكثر وأكثر .

---

(١) الإحياء ٤١٨/٤ - ٤١٩ .

الوقت من اليوم	مجموع الوقت من العمر الافتراضي	النِّسبة المئويَّة
خمس دقائق	ثلاثة أشهرٍ	٠,٣٥٪
عشر دقائق	ستة أشهرٍ	٠,٧١٪
عشرون دقيقة	سنة كاملة	١,٤٢٪
ساعة كاملة	ثلاث سنواتٍ	٤,٢٨٪
عشر ساعاتٍ	ثلاثون سنة	٤٢,٨٥٪

ثم إذا نظرت إلى مجموع الأنشطة التي تستهلك الوقت تجد أنها كثيرة جدًّا ، وهي – وإن كان بعضها ضروريًّا – لكنَّ بعضها الآخر غير مفيد ، وغيرُ فعَّال ؛ وهذا يتضح من الجدول الآتي :

نوْع النشاط	ما يستغرقه بالسنوات	النسبة المئوية من العمر كله
النوم (بمعدل ثمان ساعات يوميًّا)	٢٣	٣٢٪
العمل (من (٧) إلى (٢,٥) يوميًّا)	٢١,٥	٣٠,٧٪

الأكْل والشرب (بمعدل ساعةٍ ونصف يوميًّا)	٤,٥	٦,٤٪
الأعمال المعتادة والمراجعات الحكومية (بمعدل نصف ساعة) .	١,٥	٢,١٤٪
الأعمال المنزلية والرحلات والتنزه (بمعدل ساعة واحدة يوميًّا) .	٣	٤,٢٨٪
اللقاءات الاجتماعية والوُدية بين الأصدقاء (بمعدل نصف ساعة يوميًّا) .	١,٥	٢,١٤٪
التنقل من مكان لآخر (بمعدل نصف ساعة يوميًّا).	١,٥	٢,١٤٪
الاتصالات الهاتفية (بمعدل نصف ساعة يوميًّا) .	١,٥	٢,١٤٪
المجموع	٦١ سنة	٨٧٪
الباقي	٩ سنوات	١٢,٨٥٪

فإذا حذفتَ من ذلك فترة المراهقة وزمن الطفولة ، فكم يا تُرى يبقى من الوقت للمشاريع الطَّمُوحة والأعمال الكبيرة ، والأهداف النبيلة ؟ »[١] .

فاللهَ اللهَ في عمرك ووقتك ... آخر العدد : فراق أهلك ، آخر العدد : دخول قبرك ، آخر العدد : لقاء ربّك .

* * *

(١) مقالة « فن إدارة الوقت » لعبد الله آل سيف ص١١٠ - ١١٢ - مجلة البيان ، العدد ٨٦ ، شوال ١٤١٥هـ .

الفصْلُ الثَّاني

عُلوُّ الهِمَّةِ

في الخَوْفِ والرَّجاءِ

نزفَ البكاءُ دموعَ عينِكَ فاستَعِرْ   عينًا لغيـركَ دَمْعُها مِـدْرارُ
مَن ذا يُعيرُك عينَهُ تبكي بها   أرأيتَ عينًا للدموعِ تُعارُ ؟

«إنْ كان صَغُر في جنْبِ عطائك عملي، فقد كَبُرَ في حُسْن رجائك أملي».

يحيىٰ بن معاذ الرازي

□ علوُّ الهمة في الخوْف والرَّجاء □

إن الرجاء والخوف جَناحانِ بهما يطير المقربون إلى كلّ مقامٍ محمود ، ومطيَّتانِ بهما يقطع من طرَق الآخرة كلَّ عقبةٍ كَئُود ، فلا يقود إلى قرْبِ الرحمٰن وروْح الجنان - مع كونه بعيدَ الأرجاء ، ثقيلَ الأعباء ، محفوفًا بمكاره القلوب ، ومشاقِّ الجوارح والأعضاء - إلّا أزمّة الرجاء ، ولا يصدّ عن نارِ الجحيم والعذاب الأليم- مع كونه محفوفًا بلطائفِ الشهواتِ، وعجائب اللّذات- إلا سِياطُ التخويف ، وسطْواتُ التعنيف[1] .

والخوْف - كما قال أبو القاسم الجنيد -: توقُّع العقوبة على مجاري الأنفاس .

والخوف سوْطُ اللهِ ، يُقوّم به الشاردين عن بابه . والخوف سراجٌ في القلب ، به يُبصر ما فيه من الخير والشرّ .

قال حاتم الأصم : لكلّ شيءٍ زينةٌ ، وزينةُ العبادة : الخوف .

وقال الفضيل : « من خاف الله دلّه الخوفُ على كلّ خير » .

وما فارق الخوف قلبًا إلا خرِب . والناس على الطريق ما لم يزُل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلّوا الطريق . وإذا سكن الخوفُ القلوب أحرق مواضع الشهواتِ منها ، وطرد الدنيا عنها .

فلا يغترّ أحدٌ بمكانٍ صالحٍ ، فلا مكان أصلحُ من الجنة ، ولقي فيها آدم ما لقي . ولا يغترّ أحدٌ بلقاء الصالحين ورؤيتهم ، فلا شخص أصلحُ من النبي ﷺ ، ولم ينتفع بلقائه أعداؤه والمنافقون .

---

(١) تحت الطبع مُؤَلَّف لي، وجُمع بعنوان: «عيْشُ السعداء بيْن الخوْفِ والرجاء».

فإن استطعت يا أخي أن تكون بمنزلة رجلٍ قد احتَوَشتْه السِّباعُ والهوامُّ فهو خائفٌ حَذِرٌ ، يخاف أن يغفل فتفترسه السِّباع ، أو يسهو فتنهشه الهوامُّ ، فهو مذعورُ القلبِ وَجِلٌ ، فهو في المخافة ليلهُ ، وإنْ أَمِنَ المغترّون ، وفي الحزْنِ نهارَه وإن فرح البطّالون ، والظمآن يجزيه من الماء أيسرُه ، والقلب الجامد تنبو عنه كلُّ المواعظِ .

قال أُوَيْسُ القرني : « كُنْ في أمر الله كأنك قتلتَ الناس كلهم » . وفي رواية : « لا تنال هذا الأمر حتى تكون كأنك قتلتَ الناسَ أجمعين »[١] .

وما أنصبَ العبادَ وأضناهم إلا ذكر المقام ، وخوْفُ الحساب ، وروْعةُ النداء بالعرْض على الله ، ولِمَ لا تذوب أبدان العبَّاد والزُّهَّاد والخدّام فزعًا والقيامة أمامهم ، وفي العَرَصَاتِ مقامُهم ، وعلى الصراط جوازهم ، ولهم في يومٍ ما قد عملوا ؟! فمن لك في ذلك الموقف ، ومَن لتحيُّرك وتَلدُّدك ، ولجوعك وعطشك ؟! فوا طول وقفتاه ؟ وا تحيُّراه ! وا ثِقَلَ ظهراه من حمْل الذنوب والمظالم والخطايا وأوساخ العيوب ، أوه من حَمْلها ! أوه مِن ذكْرها ! أوه مِن ثقلها ! أوه مِن إقراري بها !!

نزف البكاءُ دموعَ عينكَ فاستعِرْ ... عينًا لغيركَ دمعها مدرارُ
مَن ذا يُعيرُك عينَهُ تبكي بها ... أرأيتَ عينًا للدُّموع تُعَارُ

والخشية أخصُّ مِن الخوف ؛ فهي خوفٌ مقرونٌ بمعرفةٍ ، قال تعالى : ﴿ **إنما يخشَى اللهَ مِن عبادِه العلماءُ ...** ﴾.

والوجل : رجفان القلب وانصداعه لذكْر مَن يخاف سلطانه وعقوبته .

---

(١) شُعَب الإيمان للبيهقي .

والهيبة : خوفٌ مقارِنٌ للتعظيمِ والإجلال ، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة .

والإجلال: تعظيمٌ مقرونٌ بالحبّ .

«فالخوف لعامّة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبّين، والإجلال للمقرّبين »[(١)].

والخوف على درجاتٍ وأنواع :

الدرجة الأولى : الخوف من العقوبة : وهو الخوف الذي يصحُّ به الإيمان ، وهو خوف العامة ، وهو يتولَّد من تصديق الوعيد ، وذكْر الجناية ، ومراقبة العاقبة . وهذا الخوف علامةُ صحة الإيمان ، وترحُّله من القلب علامة ترحُّل الإيمان منه .

والدرجة الثانية : خوْف المَكْر : فكمْ مِن مغبوطٍ بحاله انعكس عليه الحال ، ورجع من حُسْن المعاملة إلى قبيح الأعمال ، فأصبح يُقلّب كفَّيْه ويضرب باليمين على الشمال ! بينما بدْرُ أحواله مستنير في ليالي التمام ، إذ أصابه الكسوف ، فدخل في الظلام ، فبُدِّل بالأُنْس وحشة ، وبالحضور غيبة ، وبالإقبال إعراضا ، وبالتقريب إبعادا ، كما قيل :

أحسنتَ ظنَّك بالأيامِ إذْ حسُنَتْ ... ولم تخفْ سوء ما يأتي بِهِ القدَرُ
وسالمتْكَ الليالي فاغتررتَ بهَا ... وعند صَفْوِ الليالي يحدثُ الكَدَرُ[(٢)]

أخي ، لقد قطّع قلوب الخائفين طول الخلودَيْنِ : إمَّا في الجنة أو في النار .

وأغلبُ المخاوف خوف الخاتمة :

قال سهل : خوف الصدِّيقين مِن سوءِ الخاتمة عند كلِّ خطْرةٍ وعند

(١) مدارج السالكين ٥١٣/١ .
(٢) مدارج السالكين ٥١٥/١ - ٥١٦ .

كل حركةٍ، وهم الذين وصفهم الله تعالى؛ إذْ قال: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ...﴾ [المؤمنون : ٦٠] .

لما احتضر سفيانُ الثوري جعل يبكي ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، عليك بالرجاء ؛ فإنّ عفو الله أعظم مِن ذنوبك ، فقال : أو على ذنوبي أبكي ؟! لو علمتُ أني أموت على التوحيد لم أبالِ بأنْ ألقى الله بأمثال الجبال مِنَ الخطايا .

وأعلى الأقسام وأدلُّها على كمال المعرفة خوف السَّابقة وما سبق به القضاء في أمِّ الكتاب وعلم الله فينا :

والخوف من عذابه وأخذه ؛ فإنَّ أخذه أليمٌ شديدٌ .

والخوف منه ؛ أعني أن يخافَ العبدُ الحجابَ عنهُ ، ويرجو القربَ منه .

قال ذو النون : خوف النار عند خوف الفراق كقطرةٍ قُطِرتْ في بحرٍ لجِّيٍّ .

سيدُ الخائفينَ رسول الله ﷺ :

عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله ، قد شِبْتَ ! قال : « شيبتني هودٌ وأخواتُها »(١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ، قد شبتَ ! قال : « شيّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمَّ يتساءلون وإذا الشمس كورت »(٢).

وعن عبد الله بن الشخير بن عوف رضي الله عنه : « رأيت رسول الله

---

(١) صحيح : رواه الترمذي.

(٢) صحيح .

ﷺ يصلي وفي صدْره أزيزٌ كأزيزِ الرَّحى مِن البكاء »[١].

بأبي وأمي مَن كان إذا تغيّر الريحُ دخل وخرج ، وعُرِف ذلك في وجهه ... بأبي وأمي مَن كان يبكي حتى يبلّ ثوبه ويبلّ الثرى بدموعه ... بأبي وأمي مَن مرّ بإخوانه وهم حوْل قبر يدفنون رجلًا فبدر مِن بين أيديهم ، ثم واجه القبر حتى بلّ الثرى من دموعه ، وقال : « أيْ إخواني ، لِمثل هذا اليوم فأعِدُّوا »[٢].

خليلُ الرَّحمٰن إبراهيمُ عليه السلام :

قال كعب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إبراهِيمَ لَحلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود : ٧٥] : كان إذا ذكر النار قال : أوه .

قال الشوكاني في « فتح القدير » (٢/٤١١) : « والمطابِق لمعنى الأوّاه – لغةً – أنْ يُقال : إنه الذي يُكثر التأوّهَ مِن ذنوبه .

آدمُ وداودُ عليهما السلام :

قال علقمة بن مرثد : « لو عدل بكاءُ أهل الأرض ببكاءِ داود ما عدَله ، ولو عُدل بكاءُ أهل الأرض ببكاء آدم حين أُهبط إلى الأرض ما عدله » .

وقال ثابت البناني : ما شرِب داود شرابًا بعد المغفرة إلا ونصفُه ممزوجٌ بدموعِ عينَيْه .

وعن مجاهد أن داود نبي الله عليه السلام بكىٰ من خطيئتِهِ حتى هاجَ ما حولَه .

---

(١) إسناده حسن ، أخرجه أبو داود ، والنسائي ، وابن حبان ، وأبو نعيم ، وابن المبارك في الزهد ، والترمذي في الشمائل ، والحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم وأقرّه الذهبي .

(٢) حسن : رواه أحمد في مسنده ، وابن ماجه عن البراء ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٥٩ .

جبريلُ ومِيكائيلُ عليهما السلام :

قال رسول الله ﷺ : « مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بالملأ الأعلى ، وجبريل كالحلس البالي مِن خشية الله تعالى »[١] .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل : « ما لي لا أرى ميكائيلَ يضحك ؟ » قال : ما ضحك ميكائيل منذ خُلقتِ النار[٢] .

وهذا (**عمر بن الخطاب**) رضي الله عنه ، حفرت الدموع خطَّيْنِ أسوَدَيْن في وجهه .

فقل لي بربك : كيف تحفر الدموع مجرى في اللحم .

مَن لمْ يَبِتْ والخوْفُ حشو فؤادِه لم يدرِ كيفَ تُفَتِّتُ الأكبادُ

وكان يمرُّ بالآية من وِرْده بالليل فيمرض حتى يعودَه الصحابة شهرًا .

و (**أبو عبيدة بن الجراح**) رضي الله عنه :

قال قتادة : قال أبو عبيدة بن الجراح : وددتُ أني كنت كبْشًا ، فيذبحني أهلي ، فيأكلون لحمي ويحسون مرقي[٣] .

وكان تحت عيني (**ابن عباس**) رضي الله عنهما مثلُ الشِّراك البالي من كثرة الدموع .

وهذا الصحابي الجليل (**عبد الله بن مسعود**) رضي الله عنه ، يقول : « لوددتُ أن الله عز وجل غفر لي ذنبًا مِن ذنوبي وأني سُمِّيتُ عبدَ الله

---

(١) حسن رواه الطبراني في الأوسط عن جابر ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٦٤ .

(٢) إسناده جيد ، رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين . وقال العراقي في تخريج الإحياء : إسناده جيد .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٨/١ ، وطبقات ابن سعد ٣/١/٣٠٠ .

ابن روثة »[١].

وقال أيضًا : « والذي لا إله غيره لوددتُ أني أنقلب روثةً ، وأني دعيتُ عبد الله بن روثة ، وأن الله غفر لي ذنبًا واحدًا »[٢].

وكان يقول : إن هاهنا رجلًا ودَّ لو أنها قامت ألا يُبْعَث . يعني القيامة .

وهذا الصحابي الجليل (**عبد الله بن عمرو بن العاص**) يقول : « لَأَن أدمع دَمعة مِن خشيةِ الله أحبُّ إليَّ من أنْ أتصدَّقَ بألف دينارٍ »[٣].

و (**شدّاد بن أوس**) صاحب الحذَر والوَرع ، والبكاء والضَّرَع رضي الله عنه ، كان إذا دخل الفراش يتقلّب على فراشه بمنزلةِ القمْحَة في المقلاة على النار ، ويقول : اللهم إنّ النار قد أذهبتْ مني النوم . فيقوم يصلي حتى يُصبح .

يقول عليُّ بن أبي طالب عن الصحابة – وقد علَتْه كآبةٌ –: لقد رأيتُ أصحابَ محمدٍ ﷺ ، فلمْ أرَ اليوم شيئًا يُشْبِهم ، لقد كانوا يُصبحون شُعثًا غُبْرًا ، بين أعينهم أمثالُ رُكَبِ المعزى ، قد باتوا لله سُجّدًا وقيامًا ، يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يَميد الشجر في يومِ الريح ، وهمَلَتْ أعينهم حتى تبلّ ثيابهم ، والله فكأني بالقوم باتوا غافلين . فما رُئيَ بعد ذلك ضاحكًا حتى ضربه ابنُ مُلجم .

---

(١) إسناده صحيح ؛ أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ، وابن أبي شيبة في المصنف وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشُّعَب .

(٢) إسناده حسن ، أخرجه البيهقي في الشُّعَب ، ونحوه أحمد في الزهد .

(٣) إسناده حسن ، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة .

وقالت ابنة (**الربيع بن خُثَيْم**) : « كنت أقول لأبي : يا أبتاه ، ألا تنام ؟! فيقول : يا بُنيّة ، كيف ينام مَن يخاف البيات ؟! .

وعن مالك بن دينار قال : قالت ابنة الربيع بن خُثَيْم : يا أبتاه ، إني أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ قال : يا بنية ، إن أباك يخاف البيات »[1].

ولما رأت أم الربيع بن خُثَيْم ما يلقى الربيع مِن البكاء والسَّهَر نادته فقالت : يا بني لعلك قتلتَ قتيلًا ؟ فقال : نعم يا والدة ، قتلتُ قتيلًا . فقالت : ومَن هذا القتيل يا بني ، نتحمل على أهله فيعفوك ، والله لو علموا ما تلقى من البكاء والسَّهر لقد رحموك ؟ فيقول : يا والدتي ، هي نفسي .

« وآلى[2] (**ربيع بن خراش**) ألا تفترّ أسنانُه ضاحكًا حتى يعلم أين مصيره ، فما ضحك إلّا بعد موته ، وآلى أخوه ربعي بن خراش بعده ألا يضحك حتى يعلم أفي الجنة هو أو في النار .

قال الحارث الغنوي : فلقد أخبرني غاسِلُه أنه لم يزل مبتسمًا على سريره - وكنا نغسِّله - حتى فرغنا منه »[3].

وعن الحسن البصري ، قال : قال (**غزوان الرّقَّاشِيّ**) : لله عليّ أن لا يراني ضاحكًا حتى أعلم أيّ الدارَيْن داري .

قال الحسن : فعزم والله ما رُئِيَ ضاحكًا حتى لحقَ بالله عز وجل[4].

---

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي ٢/٥٧٠ ، والحلية ٢/١١٤ .

(٢) أقسم .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان . وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ، والذهبي في السير ٤/٣٦٠ ، ولم يذكر فيه خبر ربيع .

(٤) شعب الإيمان ، الزهد لأحمد ص٢٥٥ ، صفة الصفوة ٣/٢٥١ .

وسيد البكّائين (**الحسن البصري**) كان إذا تكلّم كأنه يُعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها ، كان إذا بكى فكأن النار لم تُخلق إلا له ، وإذا قدم فكأنما قدِم من دفْن حميمٍ له ، وإذا جلس فكأنما هو أسيرٌ يستعد لضرْب عُنُقه .

قال يونس بن عُبيد : ما رأيت أحدًا أطول حزنًا من الحسن ، كان يقول : نضحك ولعلّ الله قد اطَّلع على أعمالنا فقال : لا أقبلُ منكم شيئًا .

قال الحسن : إن المؤمن يُصبح حزينًا ويُمسي حزينًا ، ولا يسعه غير ذلك ؛ لأنه بين مخافتَيْن : بين ذنبٍ قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه ، وبين أجلٍ قد بقي لا يدري ما يصيب فيه من المهالك .

وقال رحمه الله : إن المؤمن يصبح حزينًا ويُمسي حزينًا ، وينقلب باليقين في الحزن ، ويكفيه ما يكفي العنيزة : الكَفُّ من التمر ، والشربةُ من الماء .

وقال : والله لا يؤمن عبدٌ بهذا القرآن إلا حزِنَ وذَبُلَ ، وإلا نصبَ ، وإلّا ذاب ، وإلا تعِبَ .

أُتي - رحمه الله - بكوزٍ من ماءٍ ليفطر عليه ، فلما أدناه إلى فيهِ بكىٰ ، وقال : ذكرتُ أمنية أهل النار ، وقولهم : ﴿ **أنْ أفيضُوا علينَا مِنَ المَاءِ** ... ﴾ [الأعراف : ٥٠] ، وذكرتُ ما أُجيبُوا ﴿ **إنَّ اللَّهَ حرَّمَهمَا على الكافِرين** ... ﴾ [الأعراف : ٥٠] .

وقال الحسن : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمِنَه إلا منافق .

قال رجلٌ للحسن : يا أبا سعيد ، كيف أصبحتَ ؟ قال : بخيرٍ . قال : كيف حالك ؟ فتبسَّم الحسن ، وقال تسألني عن حالي ؟! ما ظنُّك بناسٍ ركبوا سفينة حتى توسَّطوا البحر فانكسرتْ سفينتُهم ، فتعلق كل إنسان منهم بخشبةٍ ، على أيّ حال يكون ؟ قال الرجل : على حالةٍ شديدةٍ .

قال الحسن : حالي أشدّ من حالهم .

وقال الحسن رحمه الله : يحقّ لمن يعلم أن الموت مورده ، وأن الساعة موعده ، وأن القيام بين يدي الله تعالى مشهده أن يطول حزنه .

قال الحسن : « المؤمن من علم أن ما قال الله كما قال ، والمؤمن أحسن الناس عملًا ، وأشدُّ الناس وجلًا ، فلو أنفق جبلًا من مالٍ ما أمِن دون أن يعاين ، لا يزداد صلاحًا وبرًّا إلا ازداد فَرَقًا ، والمنافق يقول : سواد الناس كثير ، وسيُغفر لي ، ولا بأس عليّ ، فيسيء العمل ويتمنّى على الله »[1] .

عوتب الحسن في شدّة حزنه وخوفه ، فقال : ما يؤمِّنني أن يكون الله تعالى قد اطّلع فيّ على بعض ما يكره فمقتني ، فقال : اذهبْ فلا غفرتُ لك . فأنا أعمل في غير معتمل .

وكان (**طاووس**) يُفرَش له الفرشُ فيضطجع ويتقلّى كما تتقلّى الحبّة في المقلى ، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ، ويقول : « طيّر ذكْر جهنم نومَ الخائفين »[2] .

« قال الحرّ بن أبي الحصين العنبري : مرّ طاووس بروَّاسٍ قد أخرج رأسًا فغُشيَ عليه .

وقال عبد الله بن بشر الرقي : كان طاووس إذا رأى تلك الرؤوس المشويَّة لم يتعشَّ تلك الليلة »[3] .

سفيانُ الثوري :

« قال يوسف بن أسباط : كان سفيان إذا أخذ في ذكْر الآخرة يبول

---

(١) السير ٤/٥٨٦ ، والحلية ٢/١٥٣ .

(٢) الإحياء ٤/١٩٨ .

(٣) السير ٥/٤٠ .

الدم »[١].

وقال ابن مهدي : كنتُ أرمُق سفيان في الليلة بعد الليلة ينهض مرعوبًا ، يُنادي : النارَ النارَ ، شغلني ذكْر النار عن النوم والشهوات[٢].

وعن أبي نعيم قال : كان سفيان الثوري إذا ذكر الموت لا يُنتفَع به أيَّامًا ، فإذا سُئِل عن الشيءِ ، قال : لا أدري ، لا أدري .

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال : مات سفيان الثوري عندي ، فلما اشتد به جعل يبكي ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ، أراك كثير الذنوب ؟ فرفع شيئًا من الأرض ، فقال : والله لذنوبي أهونُ عندي من ذا ، إني أخاف أن أُسْلب الإيمان قبل أن أموت .

وعن أسامة قال : كان مَن يرىٰ الثوري يراهُ كأنه في سفِينةٍ يخاف الغرَق ، أكثر ما تسمعه يقول : يا رب ، سلِّمْ ، سلِّمْ .

وعن عطاء الخفاف قال : ما لقيتُ الثوري إلا باكيًا ، فقلت : ما شأنك ؟ قال : أخاف أن أكون في أمِّ الكتاب شقيًّا .

وعن يحيىٰ بن يمان قال : سمعت سفيان الثوري يقول : لقد خفت الله خوفًا وددت أنه خفّف عني[٣] .

وعن يحيى قال : قال الثوري : خفتُ الله خوفًا عجبتُ أني كيف ما متّ ، إلا أنّ لي أجلًا أنا بالغُهُ .

وعن زيد بن أبي الزرقاء قال : حُمل ماءُ سفيانَ إلى طبيبٍ في عِلَّته ،

---

(١) السير ٧/٢٤٢ .

(٢) السير ٧/٢٧٦ ، والحلية ٧/٦٠ .

(٣) « ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان » ١/٢٥٣ تحقيق : د . عبد الإله الأحمدي – طبع : دار طيبة .

فلما نظر قال : هذا ماء رجلٍ قد أحرق الخوفُ جوْفه[١] .

مسعر بن كِدام :

قال حفص بن عبد الرحمن : أتيتُ مسعر بن كدام ليحدثني ، فكأنه رجل أُقيم على شفيرِ قبرٍ . قال مرة أخرى : على شفيرِ جهنَّمَ لِيُلْقى فيها[٢] .

وعن يحيى بن آدم قال : لما حضرتْ مسعرًا الوفاة دخل عليه سفيان الثوري فوجده جزِعًا ، فقال له : لِمَ تجزع ؟ فوالله لوددتُ أني متُّ الساعة . فقال مسعر : أقعدوني . فأعاد عليه سفيان الكلامَ ، فقال : إنك إذًا لواثقٌ بعملك يا سفيان ، لكني - واللَّهِ - لكأني على شاهقِ جبل ، لا أدري أين أهبط . فبكى سفيان ، فقال : أنت أخوف لله عزّ وجلّ مني[٣] .

مالك بن مغول :

عن ابن زحم قال : جلسَ سفيان الثوري ومالك بن مغول ، فتذاكرا حتى رقَّا ، فقال سفيان : وددتُ أني لا أقوم من مجلسي حتى أموت . فقال مالك : لكني لا أحب ذلك ، معاينة الرسل ! معاينة الرسل ! ثم قام يبكي يخطّ الأرض برجليْه[٤] .

مُطرف بن عبد الله الشّخير :

قال رحمه الله : لو أتاني آتٍ مِن ربي فخيرني بين أن يخبرني أفي الجنة أنا أم في النار ، وبين أن أصير ترابًا ، لاخترتُ أن أصير ترابًا .

وقال رحمه الله : لقد كاد خوْفُ النار أن يحولَ بيني وبين أن أسأل

(١) ثلاث شعب من الجامع ١/٢٥٤ ، والسير ٧/٢٧٠ .
(٢) ثلاث شعب من الجامع ١/٢٥٢ .
(٣) روضة الزاهدين لعبد الملك علي الكليب . طبع : مكتبة ابن تيمية .
(٤) روضة الزاهدين ص٣٢ .

ربي الجنة[١] .

يزيد بن مـرثد :

عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال : قلت ليزيد بن مرثد : ما لي أرىٰ عينك لا تجفّ ؟ قال : وما مسألتك ؟! قلت : لعلّ الله أن ينفع به . قال : إن الله عز وجلّ توعّدني إنْ أنا عصيتُه أنْ يسجنني في النار ، والله لو توعّدني أن يسجنني في الحمّام كنت حريًّا أن لا يجف لي دمعٌ . فقلت : هكذا في خلْوتك ؟ قال : واللهِ إنه لَتُوضع القصعة بين أيدينا فيعرِض لي فأبكي ، ويبكي أهلي ، ويبكي صبيانُنا ، لا يدرون ما أبكانا . واللهِ إني لأسكُن إلى أهلي ، فيعرض لي ، فيحول بيني وبين ما أريد ، فيقول أهلي : يا ويحها ما خصّت به معك من طول الحزن ، ما تقرُّ لي معك عينٌ[٢] !

مـالك بن دينـار :

قال مالك : الحزن تلقيح العمل الصالح[٣] .

وقال رحمه الله : لولا أن يقول الناس : جُنّ مالك ، لَلَبِستُ المَسُوح ، ووضعتُ الرَّماد على رأسي ، أنادي في الناس : مَن رآني فلا يَعْصِ ربَّه[٤] .

وقال رحمه الله : لو استطعت أن لا أنام لم أنمْ ؛ مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم ، ولو وجدتُ أعوانًا لفرّقتُهم ينادون في سائر الدنيا كلها : أيها الناس ، النارَ النارَ .

---

(١) ثلاث شعب من الجامع ١/٢٢٥ ، ٢٥٨ .

(٢) الزهد لابن المبارك ص١٦٦ ، والزهد لأحمد ص٢٥٨ ، والفسوي في المعرفة ٢/٣٧٨ ، والحلية ٥/١٦٤ .

(٣) الهم والحزن لابن أبي الدنيا ص٤/ب ، وثلاث شعب ١/٢١٣ ، وصفة الصفوة ٣/٢٧٧ .

(٤) الزهد لأحمد ص٣٩١ ، وأبو نعيم في الحلية ٢/٣٧١ ، وشعب الإيمان .

وقال مالك : لقد هممتُ إذا أنا متُّ آمرهم أن يقيّدوني ويُغلّوني ، ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما يُنطَلَق بالعبد الآبق إلى سيده(١) .

وقال رحمه الله : « بينما أنا أطوف بالبيت إذْ أنا بجويرية متعبِّدة ، متعلِّقة بأستار الكعبة وهي تقول : يا ربِّ ، كمْ شهوةٍ ذهبتْ لذَّتُها وبقيتْ تبعاتها ! يا رب ، أما كان لك أدبٌ وعقوبة إلا النار ؟! وتبكي ، فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر . قال مالك : فلما رأيتُ ذلك وضعتُ يدي على رأسي صارخًا أقول : ثكلتْ مالكًا أمُّه »(٢).

عطاء السّليمي رحمه الله :

قال عطاء : وجدوا بين يديه نُدُوّةً قدْر ما يتوضأ الرجل ، فأخبروه أن ذلك مِن دموعه .

وكان عطاء السليمي يبكي حتى خشي على عيْنَيْه ، فأُتي بطبيبٍ يداوي عينه ، قال : أداوي ، بشرط أن لا تبكي ثلاثة أيام . فاستكره ذلك ، وقال : لا حاجة لنا فيك .

وقال رحمه الله : بكيتُ على ذنبٍ أربعين سنةً ؛ صِدتُ حمامةً ، وإني أحمد الله إليكم ، تصدقت بثمنها على المساكين ؟ قال البيهقي رحمه الله : وكأنه ارتاب بها ، هل هي مملوكة أو غير مملوكة .

وكان رحمه الله يضرب بيده فزعًا إلى أعضائه ، يحسها؛مخافة أن تكون قد غُيِّرتْ خلقته .

وعن جعفر بن سليمان قال : التقى ثابت البناني وعطاء ثم تفرقا ، فلما كان عند الهاجرة ، جاء عطاء فخرجت الجارية إليه ، ثم دخلت وهو

---

(١) الإحياء ٤/١٩٥ .
(٢) الإحياء ٤/١٩٤ .

يريد القائلة ، فقالت : أخوك عطاء . فخرج إليه ، فقال : يا أخي ، في هذا الحرِّ ؟! قال : ظللتُ صائمًا فاشتد عليّ الحرُّ ، فذكرت حرَّ جهنم ، فأحببتُ أن تعينني على البكاء . فبكيا حتى سَقطا .

وعن أبي سليمان قال : كان عطاء قد اشتد خوفه ، وكان لا يسأل أبدًا الجنة ، فإذا ذُكِرت عنده الجنة قال : نسأل اللهَ العفوَ .

وقيل له في مرضه : ألا تشتهي شيئًا ؟ فقال : إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعًا للشهوة .

قال نعيم بن مورّع : أتينا عطاء السليمي ، فجعل يقول : ليت عطاء لم تلده أمُّه ، وكرّر ذلك حتى اصفرتِ الشمس .

وقال صالح المري : قلت له : يا شيخ ، قد خدعك إبليسُ ، فلو شربتَ ما تقوى به على صلاتك ووضوئك.فأعطاني ثلاثة دراهم وقال : تعاهدْني كلَّ يوم بشربة سُويقٍ . فشرب يومين وترك ، وقال : يا صالح ، إذا ذكرتُ جهنم ، ما يسعني طعامٌ ولا شرابٌ[1] .

بكى رحمه الله حتى عَمِش ، وربما غُشِي عليه عند الموعظة .

هشـام الدّسْتوائي :

« قال عبيد الله العيشي : كان هشام الدستوائي إذا فقد السراج من بيته يتململ على فراشه ، فكانت امرأته تأتيه بالسراج ، فقالت له في ذلك ، فقال : إني إذا فقدتُ السراجَ ذكرتُ ظلمة القبر » .

« قال شاذ بن فيّاض : بكى هشام الدستوائي حتى فسدتْ عينه ، فكانت مفتوحةً وهو لا يكاد يبصر بها »[2].

---

(١) السِّير ٨٧/٦ .

(٢) السير ١٥٢/٧ .

عبـد الله بن المبـارك :

قال نعيم بن حمّاد : « كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق تغيّر ، كأنه ثور منحور - أو بقرةٌ منحورةٌ - من البكاء ، لا يجترىء أحدٌ منا أن يدنو منه أو يسأله عن شيءٍ إلا دفعه »[١] .

قال الفضيل يومًا - وذكر عبد الله -: أما إني لأحبه ؛ لأنه يخشى الله عز وجل .

وقال أبو إسحاق : قيل لابن المبارك : رجلانِ : أحدهما أخوف ، والآخر قُتل في سبيل الله ؟ قال : أحبّهُما إليّ أخوَفُهُما[٢] .

وكان رحمه الله يتقلّب على فراشه من الغمِّ ويقول : مَن يصبر على أخْذ الله ؛ إن أخذه أليمٌ شديدٌ ؟!

وقال رحمه الله : مِن أعظم المصائب للرجل أن يعلم مِن نفسه تقصيرًا ، ثم لا يبالي ولا يحزن عليه[٣] .

وقال رحمه الله : « إن البُصراء لا يأْمنون مِن أربع خصالٍ : ذنب قد مضى لا يدري ما يصنع الربُّ فيه ، وعمر قد بقي لا يدري ماذا فيه من الهلكات ، وفضل قد أعطي لعلةٍ واستدراج ، وضلالةٍ وقد زُيِّنتْ له فيراها هدًى ، ومن زيْغ القلب ساعةً ساعةً ، أسرع من طرْفة عينٍ قد يُسلب دينه وهو لا يشعر »[٤] .

« خرج ابن المبارك يومًا على أصحابه ، فقال : إني اجترأتُ البارحة

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ١٦٦/١٠ ، وصفة الصفوة ١٣٧/٤ ، وشعب الإيمان .
(٢) الجامع لشعب الإيمان .
(٣) الجامع لشعب الإيمان .
(٤) الجامع لشعب الإيمان .

على الله ، سألتُه الجنة »[١].

يا لله ! أئمة ولا يرون أنفسهم أهلًا لسؤال الجنة ! لقد استولى عليهم الخوف من النار ، كحالِ آخر رجلٍ يخرج من النار حَبْوًا ... يقول لربه عز وجل : اصرفْ وجهي عن النار ، لا أسألك شيئًا غير ذلك . وعلى هذا يتنزل كلام السادة أئمة الإسلام .

الفُضَيْلُ بنُ عِياض :

قال هارون الرشيد : ما رأت عيناي مثل الفضيل بن عياض ؛ قال لي وقد دخلتُ عليه : يا أمير المؤمنين ، فرِّغ قلبك للحزن والخوف حتى يسكناه ، فيقطعاك عن معاصي الله، ويباعداك من عذاب النار[٢] .

قال يحيى بن أيوب : « دخلتُ مع زافر بن سليمان على الفضيل بن عياض بالكوفة ، فإذا الفضيل وشيخٌ معه ، قال : فدخل زافرٌ وأقعدني على الباب . قال زافر : فجعل الفضيل ينظر إليّ ، ثم قال : يا أبا سليمان ، هؤلاء أصحاب الحديث ، ليس شيءٌ أحبّ إليهم من قرْب الإسناد ، ألا أخبرك بإسنادٍ لا شكَّ فيه ، رسول الله ﷺ ، عن جبريل عليه السلام ، عن الله تعالى : ﴿**نارًا وَقُودُها الناسُ والحجارةُ عليهَا مَلائكةٌ غِلَاظٌ شِدادٌ...**﴾- قرأ الآية - فأنا وأنت يا أبا سليمان[٣] من الناس . قال : ثم غشي عليه وعلى الشيخ ، وجعل زافر ينظر إليهما . قال : ثم تحرّك الفضيل ، فخرج زافر وخرجتُ معه ، والشيخ مغشّي عليه »[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين ١٩٥/٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٣٨/٨ ، والجامع لشعب الإيمان .

(٣) يعني : زافر بن سليمان .

(٤) « ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان » ٢٦٠/١ .

وعن إبراهيم بن الأشعث قال : كنا إذا خرجنا مع الفضيل في جنازة ، لا يزال يعظ ويذكّر ويبكي ، حتى لكأنه يودّع أصحابه ، ذاهب إلى الآخرة ، حتى يبلغ المقابر فيجلس ، فكأنه بين الموتى جلسَ ، من الحزن والبكاء ، حتى يقوم ولكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها(١) .

وعن إسحاق بن إبراهيم : ما رأيتُ أحدًا أخوف على نفسه ، ولا أرجى للناس من الفُضيل .

وقال الفضيل رحمه الله : ما أَغْبِطُ مَلَكًا مقرّبًا ، ولا نبيًّا مرسلًا يعاين القيامة وأهوالها ، ما أغبِطُ إلا مَن لم يكُنْ شيئًا .

وقال رحمه الله : طوبىٰ لمن استوحش مِن الناس ، وكان الله أنيسَه ، وبكىٰ على خطيئته .

عليُّ بن الفضيل .. قتيلُ القرآن :

قال محمد بن بشر المكّي : كنا يومًا ماضينَ مع علي بن الفضيل ، فمررنا بمجلسٍ بني الحارث المخزومي ومعلِّمٌ يعلم الصبيان ، قال : ويقرأ ﴿ **لِيَجْزِيَ الذينَ أساءُوا بِمَا عملُوا ويَجْزيَ الذينَ أحْسَنُوا بالحُسْنَىٰ** ﴾ [النجم : ٣١] ، فشهِق ابنُ الفضيل شهقةً خرّ مغشيًّا عليه ، فجاء الفضيل فقال : بأبي قتيلَ القرآن . ثم حُمِلَ ، فحدثني بعض من حَملَه أنَّ الفضيلَ أخبره أن عليًّا ابنه لم يُصلِّ ذلك اليوم الظهرَ ، ولا العصر ، ولا المغرب ، ولا العشاء ، فلما كان في جوف الليل أفاق(٢) .

« وقال أبو بكر بن عياش : صلَّيْتُ خلف فضيل بن عياض صلاة المغرب ، وإلى جانبي علِّي ابنه ، فقرأ الفضيل ﴿**أَلهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**﴾ ، فلما بلغ ﴿ **لَترونَّ الجَحِيمَ** ﴾ [التكاثر : ٦] ، سقط علِّي مغشيًّا عليه ، وبقي الفضيل

---

(١) روضة الزاهدين لعبد الملك الكليب ص٣٨ .

(٢) الجامع لشعب الإيمان .

لا يقدر يجاوز الآية ، ثم صلى بنا صلاة خائفٍ ، قال : ثم رابطتُ عليًّا فما أفاق إلا في نصف الليل .

وكان عليٌّ يومًا عند ابن عيينة ، فحدّث سفيانُ بحديثٍ فيه ذكْر النار ، وفي يد عليٍّ قرطاس في شيءٍ مربوط ، فشهق شهْقةً ووقع ، ورمىٰ بالقرطاس أو وقع مِن يده ، فالتفت إليه سفيانُ ، فقال : لو علمتُ أنك هاهنا ما حدّثتُ به . فما أفاق إلا بعد ما شاء الله »[١].

وفي رواية : قال أبو بكر : « فقلت في نفسي : ويحك ، أما عندك من الخوف ما عند الفضيل وعليٍّ ؟! فلم أزل أنتظر عليًّا ، فما أفاق إلى ثلثٍ من الليل بقي » .

« قال الفضيل بن عياض : بكى عليٌّ ابني ، فقلت : يا بني ، ما يُبكيكَ ؟ قال : أخاف ألا تجمعَنا القيامةُ »[٢].

وقال الفضيل : أشرفتُ ليلةً علىٰ عليٍّ ، وهو في صحْن الدار وهو يقول : النار ، ومتى الخلاص مِنَ النار ؟! وقال لي : يا أبَهْ ، سَلِ الذي وهبني لك في الدنيا أن يهبني لك في الآخرة . ثم قال : لم يزلْ منكسرَ القلبِ حزينًا . ثم بكىٰ الفضيل ، ثم قال : كان يساعدني على الحزن والبكاء . يا ثمرة قلبي ، شكَرَ الله لك ما قد علمه فيك[٣].

قال الفضيل : قال لي ابن المبارك : يا أبا عليّ ، ما أحسنَ حالَ مَنِ انقطع إلى الله ! فسمِع ذلك عليٌّ ابني ، فسقط مغشيًّا عليه[٤].

---

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار ص٢١ لابن رجب الحنبلي – طبع : مكتبة الإيمان ، والسير ٨/٤٤٥ .

(٢) الحلية ٨/٢٩٧ ، وطبقات الأولياء ٢٧٠ ، والسير ٨/٤٤٤ .

(٣) الحلية ٨/٢٩٩ ، والسير ٨/٤٤٤ ، ٤٤٥ .

(٤) السير ٨/٤٤٤ .

قال محمد بن ناجية : صليتُ خلف الفضيل ، فقرأ ﴿ **الحاقة** ﴾ في الصبح ، فلما بلغ إلى قوله : ﴿ **خذُوهُ فغُلُّوهُ** ﴾ ، غلبه البكاءُ ، فسقط ابنُه عليٌّ مغشيًّا عليه[1].

« قال الخطيب : مات قبل أبيه بمدَّةٍ ، من آيةٍ سمِعَها تُقْرأ ، فغُشي عليه وتُوفِّي في الحال »[2].

« وقال إبراهيم بن بشار : الآية التي مات فيها عليُّ بن الفضيل في الأنعام : ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا على النارِ فقالوا يا لَيْتَنَا نُرَدُّ** .. ﴾ الآية [الأنعام: ٢٧]، مع هذا الموضع مات، وكنتُ فيمن صلى عليه، رحمه الله »[3].

الموتُ مِن خشية الله :

يالله .. ما أرق هذه الأفئدة . لله درُّك يا ابن الفضيل .. يا مَن ضربتَ – سيدي – أروعَ الأمثلةِ في علو الهمة في الخوف .. يا ثمرة قلب الفضيل ، ويكفيك هذا النعت ، بل يا قتيل القرآن وقتيل جهنم ... وعلى دربك سار أناسٌ مِن قبلك ومِن بعدك !

« فعن يعلى بن حكيم قال : قال سعيد بن جبير : ما رأيتُ أرعى لحُرْمة هذا البيت ، ولا أحرص عليه مِن أهل البصرة ؛ لقد رأيتُ جاريةً ذات ليلةٍ ، تعلّقتْ بأستار الكعبة ، تدعو وتضرع وتبكي حتى ماتت »[4].

وانظر إلى أبي حاجب البصري (**زرارة بن أوفى**) قاضي البصرة :

« قال بهز بن حكيم : أمّنا زرارة بن أوفى في مسجد بني قشير ، فقرأ

---

(١) السير ٨/٤٤٤ .

(٢) السير ٨/٤٤٣ .

(٣) السير ٨/٤٤٦ ، وطبقات الصوفية ٢٧١ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/٣٣٤ ، وقال الذهبي : إسنادها صحيح .

« المدثر » ، فلما انتهى إلى هذه الآية : ﴿ **فإذا نُقِر في الناقور** ﴾ [المدثر : ٨] ، خرّ ميتًا . قال بهز : فكنت فيمن حضره »[(١)] .

وعن إسماعيل بن نصر العبدي قال : نادىٰ مناد في مجلس صالح المرِّي : ليقُمْ الباكون والمشتاقون إلى الجنة. فقام أبو جهث[(٢)]، فقال : اقرأ يا صالح: ﴿ **وقَدِمْنَا إلى مَا عمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فجعلْنَاهُ هَباءً مَنْثُورًا أصحابُ الجنةِ يومئذٍ خيرٌ مستقرًّا وأحسن مَقيلًا** ﴾ [الفرقان : ٢٣ ، ٢٤] ، فقال أبو جهث : ردّدْها يا صالح . فما فرغ من الآية حتى مات أبو جهث[(٣)] .

وقال أبو طارق : شهدتُ ثلاثة رجالٍ أوْ نحوهم ماتوا في مجلس الذكر يمشون بأرجلهم صحاحًا إلى المجالس ، وأجوافهم - والله - قرحة ، فإذا سمعوا الموعظة انصدعتْ قلوبهم فماتوا . قال يحيى بن بسطام : فقلت لابن طارق : مجتمعين ؟ قال : لا ، بل متفرِّقين في المجلس ؛ الرجل والرجلان ، ونحو ذلك[(٤)].

العمىٰ مِن كثرة البكاء :

والعمى كما قال عامر - لما قيل له : تعمى عينك -: تلك إذًا لها شهادة .

وممّن رزقهم الله أعينًا هطّالة بالبكاء حتى عميتْ :

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد عن أبي خباب القصّاب ، وابن سعد في الطبقات ، والحاكم في المستدرك ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن الجوزي في صفة الصفوة ٣/٢٣٠ ، والذهبي في السير ٤/٥١٦ ، وقال : صحّ ، وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين .

(٢) في صفة الصفوة : أبو جهير مسعود الضرير .

(٣) الجامع لشعب الإيمان ، وصفة الصفوة ٣/٣٣٣ .

(٤) ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان ١/٢٤٨ .

العلاء بن زياد :

وكان ربانيًّا تقيًّا قانتًا لله ، بكَّاءً من خشية الله .

قال قتادة : كان العلاء قد بكى حتى غشي بصره . وكان إذا أراد أن يقرأ أو يتكلم جهشه البكاء ، وكان أبوه قد بكى حتى عمي[1].

وعليٌّ بن بكار :

قال يوسف بن مسلم : بكى علي بن بكار حتى عمي ، وكان قد أثَّرتِ الدموع في خدَّيْه[2].

« وعن أبي زكريا الحلقاني الهمداني : كنا عند علي بن بكار ، فمرّت سحابة ، فسألتُه عن شيءٍ ، فقال لي : اسكت ، حتى تَجوزَ هذه السحابة ، أما تخشىٰ أن يكون فيها حجارةٌ نرمىٰ بها ؟! »[2].

والترمذيّ :

« قال عمر بن عَلّك : مات البخاري فلم يخلّف بخُراسَان مثلَ أبي عيسى في العلم، والحفظ، والورع، والزهد. بكى حتى عَمِيَ، وبقي ضريرًا سنين »[3].

الغَشْيُ من كَثرة البُكَاء :

قال حوشب لمالك بن دينار : رأيت كأن مناديًا ينادي : الرحيلَ الرحيلَ ، فما ارتحل إلا محمد بن واسع . فبكى مالكٌ وخرّ مغشيًّا عليه .

وعبد الله بن وهب إمام أهل مصر :

« قال خالد بن خداش : قُرِىء على عبد الله بن وهب كتابُ أهوالِ

---

(١) السير ٤/٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٢) السير ٩/٥٨٥ ، والسير ٩/٥٨٤ .

(٣) السير ١٣/٢٧٣ ، وتذكرة الحفاظ ٢/٦٣٤ ، وتهذيب التهذيب ٩/٣٨٩ ، وفيه : « عمران بن علان » بدلًا من : « عمر بن علك » .

يوم القيامة (تأليفه) ، فخرّ مغشيًّا عليه ، قال : فلم يتكلّم بكلمةٍ ، حتى مات بعد أيام ، رحمه الله تعالى »[(١)].

الشّافعيّ :

« قال سويد بن سعيد : كنتُ عند سفيان ، فجاء الشافعي فسلّم وجلس ، فروى ابن عيينة حديثًا رقيقًا ، فغُشي على الشافعي ، فقيل : يا أبا محمد ، مات محمد بن إدريس . فقال ابن عيينة : إن كان مات ، فقد مات أفضل أهل زمانه »[(٢)].

وسيمُ البلخيّ :

قال خالد بن خداش : كنتُ أقعدُ إلى وسيم البلخي عمٍّ قتيبة – ابن سعيد – وكان أعمى ، وكان يحدّث ويقول : أوه ! القبر وظلمته ، واللحد وضيقه ، كيف أصنع ؟! ثم يُغمى عليه[(٣)].

سعيد بن عبد العزيز :

قال أبو النضر إسحاق بن إبراهيم : كنت أسمع وقْعَ دموعِ سعيد بن عبد العزيز على الحصير في الصلاة[(٤)].

وقال أبو عبد الرحمن الأسدي : قلت لسعيد بن عبد العزيز : ما هذا البكاء الذي يعرض لك في الصلاة ؟ فقال : يا ابن أخي ، وما سؤالك عن ذلك ؟ قلت : لعلّ الله أن ينفعني به . فقال : ما قمتُ إلى صلاةٍ إلّا مُثِّلَتْ لي جهنم[(٥)].

---

(١) « السير » ٩/٢٢٦ ، و « الانتقاء » لابن عبد البر ص٤٩ .
(٢) السير ١٠/١٧ ، ١٨ ، وحلية الأولياء ٩/٩٥ ، وتاريخ ابن عساكر ، ومناقب الرازي ١٧ ، ١٨ .
(٣) الجامع لشعب الإيمان ، وثلاث شعب من الجامع ١/٢٥٦ .
(٤) (٥) السير ٨/٣٤ .

عمر بن عبد العزيز :

عن المغيرة بن حكيم قال : قالت لي فاطمة بنت عبد الملك ، امرأةُ عمر بن عبد العزيز : يا مغيرة ، إنه يكون في الناس مَن هو أكثر صلاةً وصيامًا من عمر ، وما رأيتُ أحدًا قطُّ أشدَّ فَرَقًا مِن ربِّه مِن عمر ؛ كان إذا صلى العشاء قعد في المسجد ، ثم يرفع يديْه ، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عيناه ، ثم ينتبه ، فلم يزل رافعًا يديْه يبكي حتى تغلبه عيناه[١] .

وقال النضر بن عربي : دخلتُ على عمر بن عبد العزيز ، فكان ينتفض أبدًا ، كأنّ عليه حزن الخلق[٢] .

وعن إبراهيم بن عبيد بن رفاعة قال : شهدتُ عمرَ بن عبد العزيز ومحمدُ بن قيس يحدثه ، فرأيت عمر يبكي حتى اختلفتْ أضلاعه[٣] .

وعن ميمون بن مهران أن عمر بن عبد العزيز أتي بسلْقٍ وأقراصٍ فأَكَلَ ، ثم اضطجع على فراشه ، وغطَّى وجهه بطرف ردائه ، وجعل يبكي ويقول: عبدٌ بطيءٌ بطين[٤] يتباطأ ، ويتمنَّى على الله منازل الصالحين[٥]؟!

قال المُفضَّل بن غسَّانَ الغلابي : كان عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله لا يجفّ دمعه من هذا البيت :

ولا خيرَ في عيشِ امرئٍ لم يكنْ لَهُ   مِنَ اللهِ في دارِ القرارِ نَصِيبُ[٦]

---

(١) الزهد لأحمد ص٣٦٣ ، والمعرفة والتاريخ للفسوي ١/٥٧١ ، وأبو نعيم في الحلية ٥/٢٦٠ ، والسير للذهبي ٥/١٣٧ .

(٢) السير ٥/١٣٧ .

(٣) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ١/٥٨٤ .

(٤) البطين : العظيم البطن ، والأكول .

(٥) المعرفة والتاريخ ١/٥٨٥ ، وثلاث شعب من الجامع ١/٢٦٧ .

(٦) سير أعلام النبلاء ٥/١٣٨ .

وعن عبد السلام ، مولى مسلمة بن عبد الملك قال : بكى عمر ابن عبد العزيز ، فبكتْ فاطمة ، فبكى أهل الدار ، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء ، فلما تجلَّى عنهم العَبْر ، قالت له فاطمة : بأبي أنت يا أمير المؤمنين ، مم بكيتَ ؟ قال : ذكرتُ يا فاطمة مُنصَرف القوم مِن بين يدي الله عز وجل ، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير . قال : ثم صرخ وغُشي عليه[١].

الأوزاعي :

قال العباس بن الوليد : كان الأوزاعي إذا أخَذ في ذكْر المعاد ، أقول في نفسي : أتُرى في المجلس قلبٌ لم يبكِ[٢].

وقال أبو مسهر : كان الأوزاعي يُحيي الليلَ صلاةً وقرآنًا وبكاءً ، وأخبرني بعضُ إخواني مِن أهل بيروت أن أمَّه كانت تدخل منزلَ الأوزاعي ، وتتفقَّد موضع مصلَّاه ، فتجدُه رَطبًا مِن دموعه من الليل[٣].

الحسن بن صالح بن حيّ :

قال يحيى بن أبي بكير : قلت للحسن بن صالح : صِفْ لنا غسلَ الميتِ . فما قدَر عليه من البكاء[٤].

وقال الصّلت بن مسعود : خرج الحسن بن صالح بن حي يومًا من بيتي ، فنظر إلى جرادٍ يطير ، فقال : ﴿ **يخْرجُونَ مِنَ الأجْدَاثِ كأنَّهُمْ جَرادٌ مُنتَشِرٌ** ﴾ [القمر : ٧] ، ثم خرّ مغشيًّا عليه[٥].

---

(١) روضة الزاهدين ص٣٦ .
(٢) السير ٧/١١٠ .
(٣) السير ٧/١٢٠ .
(٤) السير ٧/٣٦٨ .
(٥) ثلاث شعب من الجامع ١/٢٣٣ .

« وقال عبيد الله بن موسى : كنتُ أقرأ على عليٍّ بن صالح ، فلما بلغتُ إلى قوله : ﴿ **فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ** ... ﴾[١]، سقط الحسن بن صالح يخور كما يخور الثور ، فقام إليه عليّ فرفعه ، ومسَح على وجهه ، ورشّ عليه الماء ، وأسنده إليه »[٢].

منصورُ بن المُعْتَمِر :

قال زائدة بن قدامة : كان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت : رجلٌ قد أُصيبَ بمصيبةٍ ، ولقد قالت له أمُّه : ما هذا الذي تصنع بنفسك ، تبكي الليل عامَّتَهُ ، لا تكاد أن تسكت ! لعلك يا بُنّي أَصبتَ نفسًا ، أقتلت قتيلًا ؟ فقال : يا أمَّهْ ، أنا أعلم بما صنعتْ نفسي[٣].

الجــوني :

قال أبو عمران الجوني : أرتني أمِّي موضعًا من الدار قد انحفر ، فقالت : هذا موضعُ دموع أبيك .

إمامُ أهل السُّنَّة أحمدُ بن حنبل :

قال ابنه صالح : كنتُ أسمعُه كثيرًا يقول : اللهم سلِّمْ ، سلِّمْ .

« قال المروذي : كان أبو عبد الله إذا ذكر الموت خنقتْه العَبرة ، وكان يقول : الخوف يمنعني أَكْلَ الطعام والشراب ، وإذا ذكرتُ الموت هانَ عليّ كلُّ أمْر الدنيا ، إنما هو طعامٌ دون طعامٍ ، ولباسٌ دون لباسٍ ، وإنها أيام قلائل ، ما أعدلُ بالفقر شيئًا ، ولو وجدتُ السبيل لخرجتُ ، حتى لا يكون لي ذكرٌ »[٤].

---

(١) مريم : ٨٤ وتتمتها : ﴿ إنما نَعُدُّ لهمْ عدًّا ﴾ .
(٢) الكامل لابن عدي ٧٢٤/٢ ، والسير للذهبي ٣٦٤/٧ .
(٣) الهم والحزن لابن أبي الدنيا ، والحلية ٤١/٥ ، والذهبي في السير ٤٠٦/٥ .
(٤) السير ٢١٥/١١ ، ٢١٦ .

قال الإمام أحمد : « لقد رأيتُ قومًا صالحين ، رأيت عبد الله بن إدريس وعليه جُبَّةٌ من لبودٍ قد أتتْ عليها سنون ، رأيت أبا داود الحفري وعليه جُبَّة مُخرَّقةٌ ، قد خرج منها القطن ، وهو يصلي فيترجح من الجوع ، ورأيت أيوب النجار وقد خرج مِن كلِّ ما يملكه ، وكان في المسجد شابٌّ مصفر ، يقال له : العوفي ، يقوم من أول الليل إلى الصباح ، يبكي »[١] .

محمد بن كعب القرظي :

« قالت أمُّ محمد بن كعب القرظي له : يا بُنيَّ ، لولا أني أعرفك طيّبًا صغيرًا وكبيرًا ، لقلت : إنك أذنبتَ ذنبًا موبقًا ؛ لما أراك تصنع بنفسك . قال : يا أمَّاه ، وما يُؤمِّنُني أن يكون اللهُ قد اطّلع عليّ ، وأنا في بعض ذنوبي فمقتني ، وقال : اذهب ، لا أغفر لك »[٢] .

الضَّحَّاك بنُ مُزَاحِم :

قال قيْس بن مسلم : « كان الضَّحّاك إذا أمسىٰ بكىٰ ، فيُقال له ، فيقول : لا أدري ما صعِدَ اليوم مِن عملي » .

محمد بن المُنكَدِر :

قال يحيى بن الفضل الأنيسي : سمعتُ بعضَ مَن يذكر عن محمد بن المنكدر ، أنه بينَا هو ذات ليلةٍ قائمٌ يصلي إذ استبكى ، فكثُر بكاؤه حتى فزع له أهله ، وسألوه فاستعجم عليهم ، وتمادى في البكاء ، فأرسلوا إلى أبي حازم فجاء إليه ، فقال : ما الذي أبكاك ؟ قال : مرتْ بي آيةٌ . قال : وما هي؟ قال: ﴿... **وبَدَا لهم مِنَ اللَّهِ ما لم يكونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ [الزمر: ٤٧] . فبكى أبو حازم ، واشتد بكاؤهما[٣] .

(١) المدهش لابن الجوزي ٣١٢ .
(٢) السير ٥/٦٥ - ٦٦ .
(٣) السير ٥/٣٥٥ .

هارونُ بنُ رِئاب :

« قال جعفر بن سليمان : عُدتُ هارون بنَ رئابٍ وهو يجود بنفسه ، فما فقدتُ وجْهَ رجلٍ فاضل إلا رأيتُه عنده ، فقال محمد بن واسع : كيف تجدك ؟ فقال : هو ذا أخوكم ، يُذهَب به إلى النار ، أو يعفو الله »[(١)].

يحيىٰ بنُ أبي كثير :

« قال ابن حبان : كان مِنَ العباد ، إذا حضر جنازةً لم يتعشَّ تلك الليلة ، ولا يكلِّمه أحدٌ »[(٢)].

يزيدُ بن هارون :

قال الحسن بن عرفة العبدي : رأيتُ يزيد بن هارون بواسط وهو من أحسن الناس عينَيْن ، ثم رأيته بعينٍ واحدةٍ ، ثم رأيتُه وقد ذهبتْ عيناه ، فقلت له : يا أبا خالدٍ ، ما فعلتِ العينانِ الجميلتانِ ؟ قال : ذهب بهما بكاءُ الأسحار[(٣)].

حَمَّادُ بن عبد ربِّه :

« كان رحمه الله إذا جلس ، جلس مُستوفِزًا على قدمَيْه ، فيُقال له : لو اطمأننتَ ؟ فيقول : تلك جلسة الأمن ، وأنا غير آمنٍ ، إذْ عصيت الله تعالى »[(٤)].

حسَّانُ بن أبي سِنانَ :

قال حمّاد بن زيد : كنتُ إذا رأيت حسّان بن أبي سنان كأنه أبدًا

---

(١) السير ٥/٢٦٤ .

(٢) السير ٦/٢٨ .

(٣) تاريخ بغداد ١٤/٣٤١ ، وصفة الصفوة ٣/١٨ .

(٤) الإحياء ٤/١٩٤ .

مريضٌ . قال أبو جعفر : فذكرتُ ذلك لمخلد بن حسين ، فقال : هكذا كان ؛ إذا رأيته كأنه أبدًا ناقةٌ[١] .

قال محمد بن سوقة : إنّ المؤمنَ الذي يخاف الله لا يسمن ، ولا يزداد لونه إلا تغيُّرًا .

وعن أبي هارون موسى قال : كان عون يحدثنا ولحيتُه ترتشُّ بالدموع .

زيادُ بن جَرير :

عن حفص بن حميدٍ قال : قال لي زياد بن جرير : اقرأ عليَّ . فقرأتُ عليه ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَك ووضعْنَا عنكَ وِزْرَكَ الذي أنقضَ ظَهْرَكَ** ﴾ ، فقال : يا ابن أمِّ زياد ، أنقض ظهر رسول الله ﷺ . فجعل يبكي كما يبكي الصبيُّ .

سهْلُ بن عليّ المروزي :

قال عنه أبو حاتم : روى عنه المراوزة كلامَه ، وتأدَّبُوا بِوَرَعِه .

قال حفص بن حميد : رأيتُ سهل بن علي في المسجد يجول كأنه أبْله ؛ من الخوف ، وهو يقول : النار ، النار . وترعد فرائصُه ، حتى أخذني البكاءُ[٢] .

عبد العزيز بنُ سُليمان :

كان رحمه الله إذا ذكَر القيامة صرخ كما تصرخ الثَّكْلَى ، ويصرخ الخائفون مِن جوانب المسجد ، وربما رُفِع الميِّتُ والميِّتانِ مِن جوانب مجلسه[٣] .

---

(١) روض الزاهدين ص٣٥ .

(٢) ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان ١/٢٢٣ .

(٣) الحلية ٦/٢٤٣ ، وصفة الصفوة ٣/٣٧٧ .

عُتبةُ الغلامُ :

قال عنبسة الخوَّاص : كان عتبة الغلام يزورني ، فربَّما بات عندي . قال : فبات عندي ذاتَ ليلةٍ فبكى في السحر بكاءً شديدًا ، فلما أصبح قلت : لقد فزَّعْتَ قلبي منذ الليلة ببكائك ، فيم ذاك يا أخي ؟ فقال : يا عنبسةُ ، واللهِ إني ذكرتُ يوم العرض على الله . ثم مالَ ليسقُط فاحتضنْتُه ، فجعلتُ أنظر إلى عينيْه يتقلبان ، قد اشتدت حمرتُهما ، وجعل يخور ، فناديته : عتبة ، عتبة ، أجبني . قال : فمكث ثلاثًا لا يجيبني . ثم هَذَى[١] ، فناديتُه : عتبة ، عتبة ، فأجابني بصوتٍ خفيٍّ : قطّع ذكْرُ العرض على الله أوصالَ المحبِّين . قال : ثم جعل يحشرج حشْرَجَة الموت ، ويقول : أتراك تعذِّب مُحِبِّيك وأنت الحيُّ الكريم ؟! قال : فلم يزل يردِّدها حتى - والله - أبكاني[٢] .

قال عتبة : لولا ما نُهينا عنه من تمنِّي الموت لتمنَّيتُه . فقال له رياح القيسي : ولِمَ تتمنَّى الموت ؟ قال : لي فيه خُلَّتانِ حسَنتانِ . قلت : وما هما ؟ قال : الراحة من معاشرة الفُجَّار ، ورجاءٌ لمجاورة الأبرار . قال : ثم بكى وقال : أستغفرُ الله ؛ وما يُؤمنني أنْ يُقرن بيني وبين الشيطان في سلسلةٍ من حديدٍ ، ثم يُقذف بي في النار ؟! ثم غُشي عليه[٣] .

عبد العزيز بن أبي روّاد :

قال عبد الله بن مرزوق : قلت لعبد العزيز بن أبي روّاد : ما أفضلُ العبادة ؟ قال : طُول الحزن في الليل والنهار .

السَّريّ السقطيّ :

قال الجنيد بن محمد : سمعت السَّري يقول : إني لأنظر في أنفي كلَّ

---

(١) أي : تكلم بكلامٍ غيرِ مفهومٍ .
(٢) الحلية لأبي نعيم ٢٣٥/٦ ، وصفة الصفوة ٣٧٢/٣ .
(٣) روضة الزاهدين ص٣٧ ، ٣٨ .

يوْم مرارًا ؛ مخافةَ أن يكون وجهي قد اسْودَّ(١).

وقال الجنيد : سمعتُ السري يقول : ما أحبُّ أن أموت حيث أُعْرف ، فقيل له : ولِمَ ذاك يا أبا الحسن ؟ قال : أخاف أن لا يقبلني قبري فأُفْتضح(٢) .

قال السري رحمه الله : شيئانِ مفقودانِ : الخوف المُزْعج ، والشَّوْق المغلق(٣). أو المُقلِق .

وقال رحمه الله : « قلوب الأبرار معلقةٌ بالخواتيم ، وقلوب المقرَّبين معلقة بالسَّوابق ؛ أولئك يقولون : ماذا مِنَ الله سَبق لنا ؟ وهؤلاء يقولون : بماذا يُختم لنا ؟ »(٤).

وكان (**يحيى بن معاذ الرازي**) يقول : يا مَن ذكْرُه أعزُّ عليّ مِنْ كلِّ شيءٍ ، لا تجعلني بين أعدائك غدًا أذلَّ مِن كلِّ شيءٍ .

وقال (**الجُنَيْد**) : ما كان العبد أعلم بالله كان له أشدَّ خوفًا ، والخائفون على طبقاتٍ : خائف من الإجرام ، وخائف من الحسناتِ أن لا تُقبل ، وخائف من العواقب ؛ قال الله تعالى : ﴿ **ولا يخافُ عُقْبَاهَا** ﴾(٥) [الشمس : ١٥].

وقال رحمه الله : مَن كان اللهُ هَمَّه طالَ حزْنُهُ ، فقال الشبلي : لا

---

(١) ، (٢) أبو نعيم في الحلية ١٠/١١٦ ، والذهبي في السير ١٢/١٨٧ ، وابن تغربردي في النجوم الزاهرة ٢/٣٣٩ .

(٣) المغلق : هو الذي يلازم صاحبه . من غلق الرهن : إذا بقي في يد المرتَهِن لا يقدر راهنُه على تخليصه .

(٤) الحلية لأبي نعيم ١٠/١٢ ، وابن الجوزي في صفة الصفوة ٢/٣٧٩ .

(٥) ثلاث شعب من الجامع ١/١٨٥ - ١٨٦ .

يا أبا القاسم ، بل مَن كان الله همَّه زال حزنُه .

قال البيهقي رحمه الله : قوْلُ الجنيد محمولٌ على ذكر الدنيا ، وقوْل الشِّبلي محمولٌ على الآخرة ، وقوْل الجنيْدِ محمولٌ على حزنه عند رؤيةِ التقصير من نفسه في القيام بواجباته ، وقوْل الشبلي محمولٌ على سروره بما أُعطي من التوفيق في الوقت ، حتى جَعل الهمَّ همًّا واحدًا ، والله أعلم .

وقال الكتَّاني : روْعةُ ساعةٍ عند انتباه من غفلةٍ ، وانقطاعٌ من حظِّ النفسانية ، وارتعادٌ مِن خوفِ قطيعةٍ؛ أفضلُ من عبادة الثَّقَليْن .

وقال أحمد بن أبي الحواري ، ريحانة الشام : « أفضلُ البكاءِ : بكاءُ العبدِ على ما فاته من أوْقاته على غيرِ الموافقةِ ، أوْ بكاءٌ على ما سبَق له مِنَ المخالفة .

عمرو بن قيْس الملائي :

قال حفص بن غياث : لما احتضر عمرو بن قيس الملائي بكى ، فقال له أصحابه : عَلامَ تبكي ؛ فوالله لقد كنت غضيضَ العيْشِ أيّامَ حياتك ؟! فقال : والله ما أبكي على الدنيا ، وإنما أبكي خوْفًا مِن أن أُحْرم خيرَ الآخرة[1].

أخي ، قال إبراهيم بن أدهم : الهوىٰ يُردي ، وخوف الله يُشفي ، واعلمْ أنما يزيل عن قلبك هواك إذا خفتَ مَنْ تعْلمُ أنه يراكَ .

أخي ، قال رسول الله ﷺ : « مَن خاف أَدْلَجَ ، ومَن أدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِل ، ألا وإنّ سِلْعَة اللّهِ غاليةٌ ، ألا وإنَّ سلعة اللهِ الجنةُ »[2].

---

(١) ثلاث شعب من الجامع ١/١٩٧ - ١٩٨ ، وصفة الصفوة ٣/١٢٥ ، وفيها : « تبغض » بدلًا من : « غضيض » .

(٢) صحيح : رواه أبو هريرة، وأخرجه الترمذي، والعقيلي في الضعفاء، والحاكم وصححه وأقره الذهبي .

داود الطائي :

قال رحمه الله : إن للخوف حركاتٍ تعْرَفُ في الخائفين ، ومقاماتٍ تُعرَف في المحبِّين ، وإزعاجاتٍ يُعرَف بها المشتاقون ، وأين أولئك ؟! أولئك هم الفائزون[١] .

رأى - رحمه الله - امرأةً تبكي على رأسِ قبر والدها ، وهي تقول : يا أبتاه ، ليتَ شعري ! أيَّ خَدَّيْكَ بدأ به الدُّودُ أوَّلًا ؟! فصعِق داودُ ، وسقَطَ مكانَه[٢] .

« قال شقيق البلخي : ليسَ للعبدِ صاحبٌ خيرًا من الهمّ والخوف : همٍّ فيما مضى من ذنوبه ، وخوفٍ فيما لا يدري ما ينزل به .

وقال سهل بن عبد الله التستري : لا يبلغ حقيقة الخوف ، حتى يخاف مواقع علْم الله فيه ، ويحزن على ذلك »[٣].

فتحٌ المْوصليّ يتقرَّب إلى الله بطول خوْفه وحُزْنه :

خرج فتح الموصلي إلى المصلَّى يوم الأضحى ، قال : فرجع فنظر إلى القتار[٤]، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: إلهي، تقرَّب المتقرِّبون إليك بقربانهم ، وإني متقرِّبٌ إليك بطول حزني يا محبوب . قال : ثم سقط مغشيًّا عليه ، فلما أفاق قال : إلى كمْ تردِّدني في أزِقَّة الدنيا محزونًا[٥]؟!

---

(١) الحلية ٣٣٦/٧ .
(٢) الإحياء ١٩٦/٤ .
(٣) ثلاث شعب من الجامع ٢١٥/١ .
(٤) القتار : دخان ذو رائحة خاصَّةٍ ، ينبعث من الطبخ أوْ الشواء ، أو العظم المحروق .
(٥) الهمُّ والحزن لابن أبي الدنيا ١٢/أ ، وصفة الصفوة لابن الجوزي ١٨٨/٤ .

عابِـدٌ :

قال ابن السّماك : دخلتُ على عابدٍ ، فقالت أمُّه : لا تذكروا لابني شيئًا من أمْرِ جنَّةٍ ولا نارٍ لتقتلوه عليَّ ؛ فليس لي غيره . قال : فلما دخلنا عليه ، فإذا هو مُنكّسُ الرأس ، طويلُ الصَّمت ، فرفع رأسه فنظر إلينا ، ثم قال : إن للناس موقفًا لا بد أن يقفوه . قال : قلت : بيْن يدَيْ مَن ، رحمك الله؟ قال: فشهِق شهْقةً فمات. قال ابن السماك : فجاءت العجوز ، فقالت : قتلتم ابني . قال : فكنتُ فيمن صلَّى عليه ، رحمه الله[1] .

« قال سهل بن عبد الله : المريدُ يخافُ أن يُبْتَلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يُبتَلى بالكفر .

وكان أبو يزيد البسطامي يقول : إذا توجهتُ إلى المسجد ، فكأن في وسطي زنارًا ، أخاف أن يُذهب بي إلى البيعة وبيت النار ، حتى أدخل المسجد ، فينقطع عني الزنار ، فهذا لي في كلّ يومٍ خمس مراتٍ »[2] .

وقال الثوري لما سألوه عن بكائه : بكينا على الذنوب زمانًا ، فالآن نبكي على الإسلام[3] .

محمد بن واسـع ... زيْنُ القرّاء :

قال جعفر : كنتُ إذا وجدتُ من قلبي قسوةً ، نظرت إلى وجه محمد ابن واسع نظرةً ، وكنت إذا رأيتُ وجه محمد بن واسع ، حَسِبْتُ أنّ وجهَهُ وجْهُ ثكْلَى .

---

(١) الحلية ٢٠٨/٨ .
(٢) إحياء علوم الدين ١٨١/٤ .
(٣) الإحياء ١٨٨/٤ .

وكان محمد بن واسع ، رحمه الله يقول : يا إخوتاه ، أتدرون أين يُذهَب بي ؟ يُذهب بي - والله الذي لا إله إلا هو - إلى النار ، أو يعفوَ الله عني .

بِشْرُ بن منصور :

قال عبد الرحمن بن مهدي : قال بشر بن منصور : إني لأذكر الشيءَ مِن أمْر الدنيا ، أُلهي به نفسي عن ذكْر الآخرة ، أخاف على عقلي[(١)].

يحيى البَكّاءُ :

قُرىء عند يحيى البكاء ﴿ **ولوْ ترىٰ إذْ وُقِفُوا على رَبِّهم** ... ﴾ الآية [الأنعام: ٣٠]، فصاح صيحة مكث منها مريضًا أربعة أشهرٍ ، يُعادُ من أطرافِ البصرة[(٢)].

صالحُ المرّيُّ :

قال عبد الرحمن بن مهدي : جلستُ مع سفيان الثوري في مسجد صالح المريّ ، فتكلم صالحٌ ، فرأيت سفيان الثوري يبكي ، وقال : ليس هذا بقاصٍّ ، هذا نذيرُ قومٍ[(٣)].

قال صالح : قرأتُ على رجلٍ من المتعبدين ﴿ **يومَ تُقلّبُ وجُوهُهُمْ في النّارِ يقولونَ يا ليْتَنا أطعْنَا اللّهَ وأطعْنَا الرّسُولَا** ﴾ [الأحزاب : ٦٦] ، فصعِق ثم أفاق ، فقال : زدني يا صالح ؛ فإني أجد غمًّا . فقرأتُ ﴿ **كُلَّمَا أرادُوا أنْ يخْرُجوا منهَا أُعيدوا فيها** ... ﴾ الآية [السجدة : ٢٠] فخرّ ميّتًا[(٤)].

---

(١) روضة الزاهدين ص٣٢ .
(٢) الإحياء ٤/١٩٤ .
(٣) روضة الزاهدين ص٣٧ .
(٤) الإحياء ٤/١٩٦ .

عابِـــدٌ :

قال عَطاء : خرجنا مع عُتْبة الغلام وفينا كُهُولٌ وشُبَّان ، يصلُّون صلاةَ الفجر بطهور العشاء ، قد تورّمتْ أقدامُهم مِن طول القيام ، وغارتْ أعينُهم في رؤوسهم ، ولصقَتْ جلودُهم على عِظامهم ، وبقَيتْ العروقُ كأنها الأوتار ، يُصبحون كأن جلودَهم قشور البطيخ ، وكأنهم قد خرجوا من القبور يُخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين ، فبينما هم يمشون إذْ مرّ أحدهم بمكانٍ فخرّ مَغشيًّا عليه ، فجلس أصحابه يبكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا ، فجاءوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق ، وسألوه عن أمْره ؟ فقال : إني ذكَرْتُ أني كنتُ عصيتُ اللَّهَ في ذلك المكان[1].

قصّة ابنِ السّمّاكِ معَ عابدٍ :

قال ابن السماك : « ذُكر لي رجلٌ بعبادانَ قد رفض الدنيا ، وأقبل على الآخرة جدًّا واجتهادًا ، فأتيتُ « عبادان » فسألت عنه فوصف لي دارُه ... فدخلتُ البيت ، فإذا أنا برجلٍ قد نحل من غير سقمٍ ، وقد احتفر قبرًا عند رجلَيْه ، وقد دلّى رجليْه فيه ، وفي يده خوص يشقُّهُ وهو يتلو هذه الآية ﴿ **أمْ حَسِبَ الذينَ اجترحُوا السَّيِّئاتِ أن نجعلَهُم كالذينَ آمنوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ سواءً محياهُم ومَمَاتُهُم سَاءَ ما يحكُمُونَ** ﴾ [الجاثية : ٢١] بصوتٍ حزينٍ ، فسلّمت عليه ، فردّ عليّ السلام ، وقال : مِن إخواني أنت ؟ قلت : نعم ، ولست من أهل البصرة ، ولا من أهل « عبادان » . قال : فمن أين أنت ؟ قلت : مِن أهل الكوفة . قال : فما اسمك ؟ قلت : محمد بن السماك . قال : لعلك الواعظ ؟ قلت : نعم . قال : فأخذ يديّ بيدَيْه جميعًا ، ثم قال لي : مرحبًا ، وحيّاكَ اللهُ يا أخي بالسَّلام ، ومتّعَنا وإيَّاك في الدنيا بالإخوان . يا أخي ، ما زالتْ نفسي متطلِّعة إلى لقائِك ، تحبُّ

(١) الإحياء ٤/١٩٥ - ١٩٦ .

أن تعرِضَ داءَها على دوائك . أُعلمك يا أخي أنَّ بي جرحًا قديمًا قد أعيَى المعالجين قَبْلَك ، فتأنّاه برفقك ، وألصق عليه ما تعلم أنه يلائمه مِن مراهمك . قال : فعلمت أن الرجل يريد أن أعِظَه ، فقلت : يا أخي ، وهل يداوي مثلي مثلَك ، وجرحي أنغلُ(١) مِن جرحك ، وذنبي أعظم من ذنبك ؟! فقال : سألتك بالله إلا ما وعظتني . فقلت له : يا أخي ، قد علمتَ أن ذنبك الذي أذنبتَ لم يُمْح ، وأن لذاذتك لم تبقَ ، وأنَّ الموت يطلبك صباحًا ومساءً ، وأنك تصير غدًا إلى ضيق اللُّحود ، وظلمة القبور ، ومساءَلةِ منكر ونكير . فلما قلت له ذلك شهق شهقة خرّ في قبره ، يخور كما يخور الثور إذا وُجِيَ في منْحَره ، وأقبلتِ امرأته وابنته يبكيانِ من وراء الحجاب ويقولان : سألناك بالله لا تزدْه شيئًا فتقتلَه علينا . فأفاق ، فقال : يا أخي ، قد وافق دواؤك دائي ، ولصق مرهمك بجرحي . أخي ابن السماك ، زدني . فقلت له : يا أخي ، إن أهلك وولدَك قد حلّفوني أني لا أزيدك شيئًا . فأقبل عليهم وقال : اعلم يا أخي أنه ليس أحدٌ أشدّ عليّ وبالًا ، ولا أعظم جُرْمًا مني ، إذا وقفتُ بين يدي ربي من أهلي وولدي . فقلتُ : يا أخي ، ما بعد ظلمةِ القبور ، وضيقِ اللحود ، ومساءلة مُنكَر ونَكِير إلا الطَّامَّة . قال : وما هي يا ابن السماك ؟ فقلت له : إذا أخذ إسرافيل ، يعني في نفخ الصور ، وبُعثر ما في القبور ، وجئنا نحن بأثقالِنا تُحمَل على الظهور ، فكم يا أخي في ذلك اليوم من منادٍ ينادي بالويل والثبور ! وأعظمُ من ذلك أيضًا توبيخُ الرَّبِّ إيَّانا عند قراءة السِّيئات ، التي قد أحصى عليّ وعليك فيه النقيرَ والفتيلَ والقطميرَ ، وملائكةٌ مُتَّزِرُون بإزار من نارٍ ، غِضَابٌ لغضبِ الرحمن ، ينتظرون ما يُقال لهم بالغضب : ﴿ **خـذُوه فغُلُّوه** ﴾ [الحاقة : ٣٠]، قال : فشهِق شهْقة فخرّ في قبره ، كأنه ثور قد وُجِيَ في

(١) النغل : الفساد . النهاية ٥/٨٨ .

منحـره ، وبال ، فعرفتُ بالبول ذهابَ عقْلِه ، فأقبلت ابنته فاجتذبته ، وأسندتْه إلى صدرها ، ومسحتْ وجهه بكمها ، وهي تقول : بأبي وأمي عينيْنِ طال ما سهرتَا في طاعة الله ! بأبي وأمِّي عينيْن طال ما غضَّتَا عن محارم الله ! وأفاق ، فقال لي : عليك السلام يا ابن السماك ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله . وشهق الثالثة ، فظننتُ مثل الأُولَيَيْنِ ، فحرّكتُه فإذا الرجل قد فارق الدنيا »[(١)] .

للهِ درُّهم ، ودرُّ مَن سبقهم ! فقد حفر الربيع بن خُثَيْم قبرًا كان ينزل إليه في اليوم مراتٍ ، ثم إذا خرج يقول : يا ربيع ، ها قد خرجت ، فاعملْ لقبر إنْ نزلتَ فيه تقول : ﴿ **ربّ ارْجعُون** ... ﴾ [المؤمنون : ٩٩]، إلى يوم القيامة ، ولا تُجاب .

وهاكَ قصةً أخرى نختم بها :

منصـور بن عمّار الواعظ ، وعابدٌ من واسـط :

قال منصور بن عمّار : « قال لي رجل بالشام : يا أبا السري ، عندنا رجلٌ من العُبّاد من أهل واسط العراق ، رجلٌ لا يأكل إلا مِن كَدِّ يديْه ، وقدْ دبرت مِن سفِّ الخُوص والاعتمال صفحةُ يديْه ، ولو رأيته لوقذك النظر إليه ، فهل لك أن تمضي بنا إليه ؟ قال : قلت : نعم ، فأتيناه فدققْنَا عليه بابه ، فخرج إلى الباب ، فسمعته يقول : اللهم إني أعوذ بك ممّن جاءَ ليشغلني عمّا أتلذّذ به من مناجاتك . ثم فتحنا الباب فدخلنا ، وإذا رجلٌ يُرىٰ به الآخرة ، وإذا قبرٌ محفور ، ووصيةٌ قد كتبها في الحائط ، وكساؤه قد أعدّتْ لكفنه ، فقلت : أيّي موقف لهذا الخلق ؟ قال : بين يدي مَن ؟ قال : فصاح ، وخرّ بوجهه ، ثم أفاق من غشْيتِهِ ، فقال له صاحبي : يا أبا عباد ، هذا أبو السريّ منصور بن عمار . فقال لي : مرحبًا يا أخي ،

(١) ثلاث شعب من الجامع ١/٢٣٨ - ٢٤٠ .

ما زلتُ إليك مشتاقًا . قال - وأراه صافحني -: أُعْلِمُك أنّ بي داء قد أعيى المتطبّبين قبلك قديمًا ، فهل لك أن تتأتّى له برِفْقِكَ وتلصق عليه بعض مراهِمِك ، لعلّ الله أن ينفع بك ؟ قال : قلت : وكيف يَعالِجُ مثلي مثلَك ، وجرحي أثقل من جرحك ؟! قال : فقال : وإنْ كان ذاك كذلك ، فإني مشتاقٌ منك إلى ذلك . قال : قلت : أمَا إذْ أبيتَ ، فلئِنْ كنت تمسّكتَ باحتفار قبرك في بيتك ، وبوصيةٍ رسْمتَها بعد وفاتك ، وبكفن أعددتَه ليوم مَنيّتك ، فإنّ لله عبادًا اقتطعهم خوفُه عن النظر إلى قبورهم . قال : فصاح صيحةً ووقع في قبره ، وجعل يفحص برجليْه ، وبال . قال : فعرفتُ بالبولِ ذهاب عقله ، فخرجت إلى طحّان على بابه ، فقلت : ادخلْ ، فأعنّا على هذا الشيخ . فاستخرجناه من قبره وهو في غشْيته ، فقال لي الطحانُ : ويحك ! ما أردت إلى ما صنعتَ بهذا الشيخ ، واللهِ لا يغفر الله لك ما صنعت . فخرجتُ وتركتُه صريعَ فترته ، فلما كان الغد عُدت إليه ، فإذا بسلخٍ في وجهه ، وإذا بشريطٍ قد شدَّ به رأسه لصداعٍ وجده ، فلما رآني قال : يا أبا السّرّي ، المعاودةَ ، يرحمك الله . فقلت : فأين بلغتَ أيُّها المتعبِّد مِن أحزانك ؟! وهل بلغ الخوف ليلة من منامك ؟! فتاللهِ ، لكأني أنظرُ إلى الصابر على خُبْز الشعير يأكل ما اشتهى ، وسُعِي عليه بلحم طيرٍ ، وسُقِي من الرحيق المختوم . قال : فشهق شهقةً ، فحرّكتُه ، فإذا هو قد فارق الدنيا »[١] .

لله درُّهم مِن أرواحٍ طاهرةٍ !!

بهِمْ مِن جَوىٰ الأحزانِ في الصَّدرِ لَوْعةٌ ... تكـادُ لها نفسُ الشَّفِيقِ تَـذُوبُ

فكيف بنفوسهم ؟!

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/٧٧ - ٧٨ .

عن أبي هـريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسـول الله ﷺ : « أسرَفَ رجلٌ على نفسه ، فلما حضره الموتُ أوصىٰ بنيه ، فقال : إذا متُّ فأحرقوني ، ثم اسْحقُوني ، ثمَ ذروني في الريح في البحر ، فوالله ، لئِنْ يقدر عليّ ربي لَيُعذِّبنّي عذابًا ما عذَّبه أحدًا . ففعلوا به ، فقال الله عز وجل للأرض : أدِّي ما أخذتِ . فإذا هو قائمٌ ، فقال : ما حمَلك على ما فعلتَ ؟ قال : خشيتُك يا ربّ . أوْ قال : مَخَافَتك . فغفر له »[1] .

قال ابن حجر في الفتح (٦/٥٢٢ - ٥٢٣) : « وأظهر الأقوال : أنه قال ذلك في حال دهشتِه وغلبةِ الخوف عليه ، حتى ذهب بعقله ؛ لِمَا يقول ، ولم يقلْه قاصدًا لحقيقة معناه ؛ بل في حالةٍ كان فيها كالغافل ، والذاهل ، والناسي الذي لا يُؤاخذ بما يصدر منه » .

الرَّجــاء :

« الرجاء من أجلّ منازل السائرين ، وأعلاها وأشرفها ، وعليه وعلى الحبِّ والخوف مدارُ السيْر إلى الله ، وقد مدح الله تعالى أهله وأثنى عليهم ، فقال : ﴿ **لَقَدْ كانَ لكُمْ في رسولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كانَ يرجُو اللَّهَ واليومَ الآخر وذكَر اللَّهَ كثيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وفي الحديث الصحيح الإلهيّ ، عن النبي ﷺ - فيما يروي عن ربّه عز وجل -: « يا ابنَ آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ، على ما كان منك ، ولا أُبالي » .

وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظنِّ عبدي بي ، وأنا معه ؛ إذا ذكرني في نفسه ، ذكرتُه في نفسي ، وإنْ ذكرني في مَلإ ، ذكرته في مَلَإٍ خيرٍ منهم ، وإن اقترب إلّي شبرًا ، اقتربتُ إليه ذِراعًا ، وإن اقتربَ إلّي ذراعًا ، اقتربتُ إليه باعًا ، وإن أتاني

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجة ، والبيهقي في شعب الإيمان .

يمشي ، أتيته هَرْولةً »[١].

وقد أخبر تعالى عن خواصِّ عباده ، الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقرّبون بهم إلى الله تعالى ، أنهم كانوا راجين لهُ ، خائفين منه ؛ فقال تعالى : ﴿ **قُلِ ادعُوا الذينَ زعمْتُمْ مِن دُونِهِ فلَا يملكُونَ كشْفَ الضُّرِّ عنكُمْ وَلَا تحويلًا أولئكَ الذينَ يَدْعُون يبتغُون إلى ربِّهم الوسيلَةَ أيُّهم أقْرَبُ ويرجُونَ رحمَتَهُ ويخافونَ عذابَهُ إنَّ عذابَ ربِّك كانَ مَحذُورًا** ﴾ [الإسراء : ٥٦ - ٥٧] .

وهو عبوديةٌ ، وتعلُّقٌ بالله من حيثُ اسمه : « المُحْسِنِ البَرُّ » فذلك التعلُّق والتعبُّد بهذا الاسم والمعرفة بالله ، هو الذي أوجب للعبد الرجاء ، من حيث يدري ومن حيث لا يدري ، فقوَّة الرجاء على حسب قوةِ المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ، وغلبةِ رحمتهِ غضبَه . ولولا رَوْحُ الرَّجاء لعُطِّلت عبودية القلب والجوارح ، وهُدِّمت صوامِعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ، ومساجدُ يُذكر فيها اسمُ اللهِ كثيرًا . بل لولا رَوْحُ الرجاء لما تحرّكتِ الجوارح بالطاعة ، ولولا ريحُه الطيبة لَمَا جرت سفُن الأعمال في بحر الإرادات .

ولي من الأبيات :

لولا التعلُّقُ بالرَّجاءِ تقطَّعتْ ... نفسُ المُحبِّ تحسُّرًا وتمزُّقَا
وكذاكَ لولا بَرْدُهُ بحرارةِ الْـ ... أكبادِ ذابتْ بالحجَابِ تحرُّقَا
أيكونُ قطُّ حليفُ حُبٍّ لا يُرَىٰ ... برجائِهِ لحبيبِهِ مُتَعَلِّقَا ؟!
أمْ كُلَّما قَوِيَتْ محبَّتُه لَهُ ... قَوِيَ الرَّجاءُ فزادَ فيهِ تَشَوُّقَا
لَولا الرَّجا يَحدُو المطيّ لَمَا سَرَتْ ... بِحُمُولها لديارِهِمْ ترجو اللِّقَا

وعلى حَسَب المحبةِ وقوَّتها يكون الرجاء ، فكلُّ محبٍّ راجٍ خائفٌ

(١) رواه مسلم .

بالضرورة ، فهو أرجىٰ ما يكون لحبيبه أحبُّ ما يكون إليه ، ورجاؤه ذاتيٌّ للمحبَّة ؛ فإنه يرجوه قبلَ لقائه والوصول إليه ، فإذا لقيَهُ ووصل إليه اشتدَّ الرجاءُ له ؛ لِمَا يحصُل لهُ به ، من حياةِ رُوحه ونعيم قلبه ، من ألطاف محبوبه وبرِّه وإقبالِهِ عليه ، ونَظَره إليه بعيْن الرِّضا ، وتأهيله في محبته ، وغير ذلك مما لا حياةَ للمحبِّ ولا نعيمَ ولا فوزَ إلا بوصوله إليه من محبوبه ، فرجاؤه أعظمُ رجاءٍ ، وأجلُّه ، وأتمُّه .

وبالجملة : فالرجاء ضروريٌّ للمريد السَّالك ، والعارف لو فارقَه لحظه لَتَلَفَ أو كاد ؛ فإنه دائرٌ بين ذنبٍ يرجو غفرانه ، وعيبٍ يرجو إصلاحه ، وعمل صالح يرجو قَبولَه ، واستقامةٍ يرجو حصولَها ودوامَها ، وقربٍ من الله ومنزلةٍ عنده يرجو وصولَهُ إليها ، ولا ينفكُّ أحدٌ من السَّالكين عن هذه الأمور أوْ بعضها »(١) .

والرجاء حادٍ يحدُو القلوب ويُطيبُ لها السير إلى بلاد المحبوب ، وهو على درجاتٍ ، وعالي الهمة من تطلَّع إلى درجاتِه العُلىٰ ، واشرأبَّتْ نفسُه إلى القمة .

قال شيخ الإسلام الهروي : « الرجاء على ثلاثِ درجاتٍ : **الدرجة الأولى** : رجاءٌ يبعث العامِلَ على الاجتهاد ، ويولِّد التلذُّذ بالخدمة ، ويوقظ الطباع للسماحة بترك المناهي » .

قال ابن القيم : « أيْ : ينشِّطهُ لبذْلِ جهدِهِ لِمَا يرجُوه من ثوابِ ربِّه ؛ فإنَّ مَن عرَف قدْرَ مطلوبه هانَ عليه ما يبذُلُ فيه .

وأمَّا توليده للتلذُّذ بالخدمة : فإنه كُلّما طالعَ قلبُه ثمرتَها ، وحُسْن عاقِبَتِها الْتذَّ بها ، وهذا كحالِ مَن يرجو الأرباح العظيمة في سفره ، ويُقاسي مشاقَّ السَّفر لأجلها ، فكلما صَوَّرَها لقلبه هانتْ عليه تلك المشاقُّ والتذّ بها . وكذلك المحبُّ الصادق الساعي في مراضي محبوبه الشاقَّة عليه ، كلما

---

(١) مدارج السالكين ٢/٤١ - ٤٣ .

تأمّل ثمرةَ رضاهُ عنه ، وقَبُوله سعْيَه ، وقربه منه تلذّذ بتلك المَسَاعي ، وكلّما قوي علْمُ العبد بإفضاء ذلك السَّبَبِ إلى المُسَبَّبِ المطلوب ، وقوي علْمُه بقدْر المُسَبَّبِ وقرْب السَّبَبِ منه ، ازداد التذاذًا بتعاطيهِ .

وأما إيقاظُ الطباعِ للسماحة بترك المناهي : فإنَّ الطباعَ لها معلومٌ ورسومٌ تتقاضاها من العبد ، ولا تسمحُ له بترْكها إلّا بعِوضٍ هو أحبّ إليها من معلومِها ورسومها ، وأجلُّ عندها منه وأنفعُ لها ، فإذا قويَ تعلُّقُ الرجاء بهذا العِوَضِ الأفضل الأشرف ، سمحتِ الطباعُ بتركِ تلك الرسوم وذلك المعلوم ؛ فإنَّ النفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوبٍ هو أحبُّ إليها منه »[١] .

قال الهروي : « **الدرجة الثانية** : رجاءُ أربابِ الرِّياضاتِ : أنْ يبلغوا موقفًا تصفو فيه هِمَمُهُم ، برفض الملذوذاتِ ، ولزومِ شروط العلم ، واستقصاء حدود الحميَّة » .

قال ابن القيم : « أرباب الرياضات : هُمُ المجاهدون لأنفسهم بتركِ مألُوفاتها ، والاستبدال بها مألوفاتٍ هي خيرٌ منها وأكمل ، فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودَهم بصفاءِ الوقت والهمةِ من تعلّقها بالملذوذاتِ ، وتجريد الهمِّ عن الالتفات إليها ، وذلك بلزوم شروط العلم ، وهو الوقوف عند حدودِ الأحكام الدِّينية ؛ فإنّ رجاءَهم متعلِّقٌ بحصولِ ذلك لهم . واستقصاءُ حدود الحميَّة بأمريْن : بذْلِ الجهد في معرفتها علمًا ، وأخْذِ النفس بالوقوف عندها طلبًا وقصدًا »[٢] .

قال الهروي : « **الدرجة الثالثة** : رجاءُ أربابِ القلوبِ : وهو رجاءُ لقاءِ الخالقِ ، الباعث على الاشتياق ، المُبغِّض المنغِّص للعيش ، المزهِّد في الخلق » .

---

(١) مدارج السالكين ٥٢/٢ – ٥٣ .
(٢) مدارج السالكين ٥٣/٢ .

قال ابن القيم : « هذا الرجاء أفضلُ أنواع الرجاء وأعلاها ؛ قال الله تعالى : ﴿ **فَمَنْ كانَ يرْجُو لقاءَ ربِّهِ فَلْيعَملْ عملًا صالحًا وَلا يُشرِك بعبادةِ ربِّهِ أحدًا** ﴾ [الكهف : ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ **مَنْ كَانَ يرجُو لِقاءَ اللهِ فإنَّ أجَلَ اللهِ لآتٍ وهو السَّميعُ العليمُ** ﴾ [العنكبوت : ٥] ، وهذا الرجاء هو محضُ الإيمان وزُبْدته ، وإليه شَخصَتْ أبصار المشتاقين ، ولذلك سلّاهُمُ الله تعالى بإتيان أَجَلِ لقائهِ ، وضَرَب لهم أجلًا يُسَكِّن نفوسَهم ويُطمئنُها، ولا ريبَ أنَّ عيْشَ المشتاق مُنغَّصٌ حتى يلقى محبوبَه ، فهناك تقرُّ عينُه ، ويزول عن عيْشهِ تنغيصُهُ ، وكذلك يَزهد في الخلْق غاية التزهيد ؛ لأنَّ صاحبه طالِبٌ للأُنس بالله والقرْب منه ، فهو أزهدُ شيءٍ في الخَلْق ، إلّا مَن أعانه على هذا المطلوب منهم وأوصله إليه ، فهو أحبُّ خلْق اللهِ إليه ، ولا يأنس من الخلْق بغيره ، ولا يسكُن إلى سواه ، فعليكَ بطلب هذا الرفيق جهْدَك ، فإنْ لم تظفرْ به فاتخذِ اللَّهَ صاحبًا ، ودَع الناسَ كُلَّهم جانبًا .

مُتْ بداءِ الهوى وإلّا فخاطِرْ ... واطرقِ الحيَّ والعيونُ نواظِرْ
لا تخفْ وحشةَ الطريقِ إذا جئْـ ... ـتَ وكُنْ في خِفَارةِ الحبِّ سائرْ
واصبرِ النفسَ ساعةً عن سِواهُم ... فإذا لَمْ تُجَبْ لِصبرٍ فصابرْ
وصُم اليوم واجعل الفطرَ يومًا ... فيهِ تَلقَى الحبيبَ بالبشرِ شاكِرْ
وافْطُمِ النفسَ عن سواهُ فكلُّ الْـ ... ـعَيشِ بعدَ الفِطامِ نحوكَ صَائرْ
وتأمّلْ سريرةَ القلبِ واستحـ ... ـي مِن الله يَوْمَ تُبلَى السرائرْ
واجعلِ الهمَّ واحدًا يَكفِكَ اللّـ ... ـهُ هُمومًا شتَّى فربُّك قادِرْ
وانتظرْ يومَ دعوةِ الخلْق إلى اللّـ ... ـهِ ربِّهِمْ مِن بطونِ المَقَابرْ
واستمعْ ما الذي به أنت تُدْعَى ... مِن صفاتٍ تلوحُ وسْطَ المحاضرْ
وسِماتٍ تبدُو على أوْجهِ الخلْـ ... ـقِ عيانًا تُجلَى على كلِّ ناظرْ
يا أخا اللُّبِّ إنما السيْرُ عزْمٌ ... ثمَّ صَبْرٌ مؤيَّدٌ بالبصائرْ
يا لهَا مِن ثلاثةٍ مَنْ يَنَلْها ... يرقَ يوم المزيد فوق المنابرْ

فاجتهدْ في الذي يُقالُ لكَ البُشْـ ـرَى بذَا يومَ ضـربِ البشـائرْ
عملٍ خالـصٍ بميـزانِ وحْـيٍ معَ سِرٍّ هناكَ في القلبِ حاضِرْ »[١]

قال ﷺ : « لو يعلم المؤمن بما عند الله من العقوبة ، ما طمع بجنتِه أحدٌ ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ، ما قنَط من جنَّته أحدٌ »[٢].

قال حيّان أبو النضر : قال لي واثلة بنُ الأسْقع : قُدني إلى يزيد بن الأسود ، فإني قد بلغني أن ألمًا نزل به . قال : فقُدتُه ، فدخل عليه وهو ثقيلٌ ، وقد وُجِّه – يعني : نحو القبلة – وقد ذهب عقله ، قال : نادُوه . فنادَوْه ، فقلتُ : إنَّ هذا واثلة بن الأسقع أخوك . قال : فأبقى الله من عقله أن سمع أنَّ واثلة قد جاء ، فمدّ يده ، فجعل يلتمس بها ، فعلمتُ ما يريد ، فأخذتُ كَفَّ واثلةَ فجعلتها في كفِّه ، وإنما أراد أن يضع يدَه في يد واثلةَ ؛ ذلك لموضِع يدِ واثلةَ مِن يد رسول الله ﷺ ، وجعل يضعها مرّةً على صدره ، ومرةً على وجهه ، ومرة على فِيهِ ، فقال واثلة : ألا تخبرني عن شيءٍ أسـألك عنه ؛ كيف ظنك بالله ؟ قال : اعْتَرَتْني ذنوبٌ لي أشفيْتُ على هَلَكَةٍ ، ولكنْ أرجو رحمة الله . فكبّر واثلةُ ، وكبّر أهلُ البيت بتكبيره ، وقال : الله أكبر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاء »[٣] .

« قال معتمر بن سليمان التيمي : قال لي أبي حين حضرته الوفاة :

---

(١) مدارج السالكين ٢/٥٤ – ٥٥ .
(٢) رواه أبو هريرة ، وأخرجه مسلم ، والبخاري ، والبيهقي في « شعب الإيمان » .
(٣) إسناده حسن ؛ أخرجه أحمد ، وابن المبارك في الزهد ، وعنه الدارمي ، وابن حبان ، وابن أبي الدنيا في كتاب : « حُسْن الظن » ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد، وأقره الذهبي، وليس عند الجميع القصة المذكورة؛ بل الحديث واللفظ هنا للبيهقي في الشُّعَب .

يا معتمر ، حدِّثني بالرُّخَص ، لعلي ألقى الله وأنا أحسن الظنَّ به »[(١)].

« وعن سُرِّيَّة الربيع بن خثيم ، قالت : لما احتضر الربيع بكتْ ابنتُه ، فقال: يا بنية، لا تبكي، ولكن قولي : يا بشرَىٰ ، اليوم لقي أبي الخير »[(٢)].

« قال يحيى بن معاذ الرازي : مُستقَىٰ الخوْف من بحر عدْلِه ، ومُستقَىٰ الرَّجاءِ من بحر فضله ، وقد سبَق القضاءُ أنَّ رحمتَه سبقتْ غضبَه » .

وقال رحمه الله : « إن كان صغُر في جنب عطائك عملي ، فقد كبُر في حُسْن رجائك أملي .

وقال أيضًا : لقد رجوتُ ممَّن ألبسَني بين الأحياءِ ثوْبَ عافيته ، أن لا يعذبني بعد الممات ، وقد عرفتُ جُودَ رأفتِهِ .

إلٰهي ، إنْ كنتُ غيرَ مستأْهِلٍ لما أرجُو من رحمتك ، فأنت أهلٌ أن تجودَ على المذنبينَ بفضل سَعتك .

إلهي ، لولا ما عرفتُ مِن عدْلك ما خفتُ من عذابِك ، ولولا ما عرفتُ من فضلك ما رجوتُ ثوابَك .

إلهي، إن كنتَ لا تعفو إلا لأهل طاعتك، فإلى مَن يفزعُ المذنبون؟! وإن كنتَ لا ترحم إلا أهلَ تقواك ، فبمَن يستغيثُ المُسيئون؟! »[(٣)]. اهـ.

لله درُّك يا يحيى من واعظٍ وطبيبِ قلوب !!

قال البيهقي في « الشُّعَب » : « قال بعضُ الحكماء في مناجاته :

(١) الحلية ٣/٣١ ، وابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » ص٤٥ ، وابن الجوزي في « الثبات عند الممات » ص١٤٨ .

(٢) الحلية ٢/١١٤ ، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/٤٠٠ .

(٣) الجامع لشُعَبِ الإيمان .

إلٰهي ، لو أتاني الخبرُ أنَّك غيرُ قابلٍ دعائي ، ولا سامعٍ شكْوايَ ، ما تركـتُ دعاءَك ما بلَّ ريقي لساني ، أين يذهب الفقيرُ إلا إلى الغنيِّ ، وأينَ يذهبُ الذليل إلّا إلى العزيز ، وأنت أغنى الأغنياء ، وأعزُّ الأعزَّاءِ يا رب ؟! »

« وقال أحمد بن أبي الحواري : سمعتُ أبا سليمان الداراني ، ووقفتُ عليه وهو لا يراني ، فسمعتُه يقول : لئِن طالبتني بذنوبي لَأُطالبنَّك بعفوك ، ولئنْ طالبتَني بتوبتي لأطالبنَّك بسخائك ، ولئنْ أدخلتني النار ، لأخبرنَّ أهل النار أنّي أحبُّك »[١] .

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه : « إنّ الله عزَّ وجلّ خلَق مائة رحمةٍ ، منها رحمةٌ يتراحم بها الخلق ، وتسعٌ وتسعون ليوم القيامة » رواه مسلم .

قال أيوب السختياني - لله درُّه -: « إنَّ رحمة قسمها في دار الدنيا ، وأصابني منها الإسلام ، إني لأرجو مِن تسْعٍ وتسعين رحمةً ما هو أكثرُ من ذلك » .

نعم يا سيّدَ شباب أهل البصرة .. هذه كلمةٌ تُكتب بمدادٍ من نورٍ .. فالإسلام أجلُّ النِّعمِ كان نصيبَ السختياني من الرحمة المقسومة على الخلائق.. فما ظنُّك بما عند الخير من الخير في تسعٍ وتسعين رحمة ؟!

« وقال أبو بكر السهزراوي : كنتُ في مجلسِ أبي القاسم الجُنيد وابنُ عطاءٍ حاضرٌ ، ورجلٌ في المجلس قد غلبتْه شدَّةُ الخوْفِ وهو يرجُف ، فقال له أبو القاسم الجنيدُ : لا ترُعْ ، فما هو إلا أن تبدو عينٌ من عيون الرحمةِ ، فإذا المُسيء قد لحِقَ بالمحسن . قال ابن عطاء : حتى تبدو . فغضب الجنيد وقال : أما والله إنها لباديةٌ ، أما علمتَ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « يقول الله

(١) الحلية ٢٥٤/٩ ، وصفة الصفوة ٢٢٦/٤ ، وشعب الإيمان .

عز وجل : سبقت رحمتي غضبي » ؟! قال : فسكت ابن عطاء »[١] .

قال يحيى بن معاذ الرازي : « كيف أخافك وأنت كريم ، وكيف لا أرجوك وأنت عزيزٌ ؟! فأنا بين خوفٍ يقطعني ، ورجاءٍ يوصلني ، فلا رجائي يدعني أموتُ خوفًا ، ولا خوفي يتركني فأحيا فرحًا »[٢].

« وعن سليمان بن الحكم بن عوانة ، أن رجلًا دعا بعرفاتٍ ، فقال : لا تعذبنا بالنار بعد أن أسكنْتَ توحيدكَ قلوبَنا . قال : ثم بكى وقال : ما إخالُك تفعلُ بعفوك . ثم بكى وقال : لئن فعلتَ فبذنُوبِنَا لتجمعنَّ بيننا وبين قومٍ طالما عاديناهم فيك » .

اللهم ، لا تشمِّتْ مَن كان يشرك بك بمن كان لا يشركُ بك .

وكان عمر بن ذر رحمه الله إذا تلا ﴿ **وأقسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ** ﴾ [النحل : ٣٨]، قال : ونحن نُقسم بالله جَهْد أيمانِنَا ليبعثنَّ اللهُ مَن يموتُ . أتُراك تَجمع بين القَسَمَيْن في دارٍ واحدة؟![٣].

« وعن يحيى بن يَمان قال : قال سفيان الثوريُّ رحمه الله : ما أُحبُّ أنَّ حسابي جُعل إلى والدي ؛ ربي خيرٌ لي مِن والدي »[٤].

لله ما أحلاها كلمةً يجودُ بها علينا الثوريُّ إمامُ البكّائين !!

وقال بعض العُبَّاد : لما علمت أن ربي عز وجل يلي محاسبتي ، زالَ عني حزني ؛ لأنّ الكريمَ إذا حاسَبَ عبدَه تفضَّل .

قال إدريس بن عبد الله المروزي : مرِض أعرابيٌّ فقيل له : إنك تموت . قال : وأين يُذهب بي ؟ قالوا : إلى الله عز وجل . قال : فما كراهتي

---

(١) أخرجه مسلم ، والبخاري ، وأحمد عن أبي هريرة . والقصة في شعب الإيمان .

(٢) شعب الإيمان ، وصفة الصفوة ٩١/٤ .

(٣) « حسن الظن بالله » لابن أبي الدنيا ص٢٧ .

(٤) حُسن الظن بالله ص٤٥ .

أنْ أذهب إلى مَنْ لا أرى الخيرَ إلا منه ؟!

وعن جُندب أن رسول الله ﷺ حدّث « أنَّ رجلًا قال : واللهِ ، لا يغفر الله لفلانٍ . وأنَّ الله قال : مَن ذا الذي تألَّى عليّ أن لا أغفر لفلانٍ ؛ فإني قد غفرتُ لفلانٍ ، وأحبطت عملَك »(١).

قال سعيد بن ثعلبة الوراق : بتنا ليلةً مع رجلٍ من العابدين على الساحل بسيراف ، فأخذ في البكاء ، فلم يزلْ يبكي حتى خِفْنا طلوعَ الفجر ، ولم يتكلم بشيءٍ ، ثم قال : جُرمي عظيمٌ ، وعفوك كبيرٌ ، فاجمعْ بين جرمي وعفوك يا كريم . قال : فتصارخ الناس مِن كلِّ ناحيةٍ .

وقال مسمع : قالت امرأةٌ من العرب ، ذاتُ عقل ودين : سبحانك إلهي ، إمهالُك المذنبينَ أطمعني لهم في حُسْن عفوك عنهم . سبحانك إلهي ، لم يزل قلبي يشهد برضاك لمن نالَ عفوك . سبحانك إلهي ، تفضُّلًا منك وامتنانًا على خلقك !

وعن ابن عونٍ قال : ما رأيتُ أحدًا كان أعظمَ رجاءً لهذه الأمَّة مِن محمد بن سيرين ، وأشدَّ خوفًا على نفسه منه

وقال ابن عون أيضًا : ما رأيت أحدًا كان أعظمَ رجاءً للموحِّدين من محمد ابن سيرين رحمه الله ، كان يتلو هذه الآيات ﴿ **إنّهم كانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ يسْتَكبِرُون** ﴾ [الصافات : ٣٥] ، ويتلو ﴿ **ما سَلَكَكُمْ في سَقَر قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّين وَلَم نَكُ نطعمُ المِسْكِينَ وكُنَّا نخُوضُ مَعَ الخائضين وكُنّا نكذب بيوم الدِّينِ حتَّى أَتَانا اليَقينُ** ﴾ [المدثر : ٤٢ - ٤٧] ، ويتلو ﴿ **لا يَصْلاها إلّا الأَشْقَى الَّذي كذَّبَ وتَولَّى** ﴾(٢) [الليل : ١٥ - ١٦].

---

(١) الحديث إسناده صحيحٌ على شرط مسلم ، أخرجه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » ، وأخرجه مسلم بمثله ، والبغوي في « شرح السنة » ، والطبراني .

(٢) الحلية ٢/٢٧٠ ، وحسن الظن بالله ص٧٧ .

وعن داود بن أبي هندٍ قال : تَمَثَّل معاويةُ عند الموت :

هُوَ الموتُ لا منجا مِنَ الموتِ والذي نُحاذرُ بعدَ الموتِ أدَهٰى وأفظعُ

ثم قال : اللهمَّ فأقِلِ العثْرة ، وعافِ عن الزَّلَّةِ ، وجُدْ بحِلْمك على جهْل مَن لم يَرْجُ ولم يثق إلّا بك ؛ فإنك واسعُ المغفرة ، ليس لذي خطيئةٍ مهربٌ إلا أنت . فلما بلغ القَوْلُ سعيدَ بن المسيِّب قال : لقد رغبَ إلى مَن لا مرغوبَ إليه مثلُه .

وعن أبي المنذر الكوفي ، أن معاويةَ جعل يقولُ وهو في الموت :

إنْ تُناقِشْ يَكُنْ نقاشُك يا ربِّ عذابًا ، لا طوْقَ لي بالعذاب ، أو تجاوِزْ فأنت ربٌّ رحيمٌ عن مُسيءٍ ذنوبُه كالتراب .

وقال الشَّعبي : لقدْ سمعتُ من عبد الملك بن مروان كلامًا على أعواده هذه حسدتُه عليه ؛ سمعتُه يقول : اللهمَّ ، إنَّ ذنوبي عظمتْ فجلّتْ عن الصِّفَة ، وإنها صغيرةٌ في جَنْبِ عفوك ، فاعفُ عني .

وقال أبو عمرانَ السّلميّ :

وإني لآتي الذنبَ أعرفُ قَدْرَهُ وأعلَمُ أنَّ اللهَ يعفو ويغفِرُ

لئنْ عظَّم الناسُ الذنوبَ فإنَّها وإنْ عَظُمَتْ في رحمةِ اللهِ تصغُرُ

قال عبد الله بن مسعود : إن أكبر آية في القرآن فَرَجًا آيةٌ في سورةِ الغُرَفِ ﴿ **قُلْ يا عبادِيَ الذينَ أسْرَفُوا علىٰ أنفُسِهِمْ** ... ﴾ الآية [الزمر : ٥٣] ، فقال مسروق : صدقت[(١)].

وعن أنسِ بن مالكٍ أنَّ النبي ﷺ قال : « يخرجُ مِنَ النَّار أربعةٌ - قالهُ أبو عمران ، وقال ثابت : رجلان - فيعْرَضُون على ربِّهم ، فيأمرُ بهم إلى النار فيلتفِتُ أحدهم ، فيقول : أيْ ربّ ، قد كنتُ أرجو إذْ أخرجتني منها أن لا تعيدَني فيها . قال : فينجِّيه الله منها »[(٢)].

(١) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله ص٧٩ بإسنادٍ رجالُه كلهم ثقات .

(٢) صحيح بمجموع الطرق ، رواه أحمد ، وابن أبي عاصم ، وابن حبان ، =

وعن بكر بن سليمان الصَّوَّاف قال : دخلنا على مالِك بن أنس في العشيَّة التي قُبض فيها ، فقلنا : يا أبا عبد الله ، كيف تجدُك ؟ قال : ما أدري ما أقول لكم ، إلّا أنَّكم ستُعاينُون غدًا من عفو الله ما لم يكن لكم في حسابٍ . قال : ثم ما برِحْنَا حتى أغمضناه[١] .

ولقي مالكُ بن دينار أَبان بن أبي عياش ، فقال مالكٌ : إلى كم تُحدِّث الناس بالرُّخص ؟! فقال : يا أبا يحيىٰ ، إني لأرجو أن ترى من عفو الله عز وجل يومَ القيامة ما تخرقُ له كساءَك هذا من الفَرَح .

بعَيْنِ مولاهُم ما يتحمل المتحمِّلون من أجله ، وما يكابدون في طَلَب مرضاته ، أتراهُ ينسىٰ لهم عملًا ؟! كيف وهو الرحيم بخلقه ؟! لو كان معاجلًا بالعقوبة أحدًا ، أو كانت العقوبةُ مِن شأنه ، لَعاجَل بها القانطين من رحمته ، ولو يرى عبادُه المؤمنون كيف استوهبهم ممَّن ظلموه ، ثم أحكم لمن وهبهم بالخلد المقيم في جواره ، إذًا ما اتهموا فضلَه وكرَمَه .

لو يعلم المُدْبِرُون عنه كيف انتظارُه لهم ، ورحمته إيّاهم لتقطَّعتْ أوصالهم شوقًا إليه ، هذه إرادته في المدْبرين عنه ، فكيف بالمقبلين عليه ؟!

« عن يحيى بن عمر التيمي - مولًى لبني تيْم بن مرَّة - قال : قال لي سفيان بن عيينة ، وكنت طلبتُ الغزْوَ فأخفقتُ وأنفقتُ ما كان معي ، فأتاني حين بلغه خبري ، وقد كان عرفني قبل ذلك بطولِ مجالستِه ، فقال لي : لا تأْسَ على ما فاتك ، واعلم أنَّك لو رُزقتَ شيئًا لأَتاكَ . ثم قال لي : أبشرْ ؛ فإنَّك على خير ، تدري مَن دعا لك ؟ قال : قلت : ومَن دعا لي ؟ قال : دعا لك حَمَلةُ العرش ، ودَعا لك نبيُّ اللهِ نوح ! قال : نعم ،

= وأبو نعيم في الحلية ، والبغوي في شرح السنة ، وابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » ، واللفظ له ، وهو عند مسلم بلفظٍ آخر .

(١) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا ص٩٦ .

ودعا لك خليلُ الله إبراهيم عليه السلام . قال : قلت : دعا لي هؤلاءِ كلهم ؟! قال : نعم ، ودعا لـك محمدٌ ﷺ . قال : قلت : فأينَ دعا لي هؤلاء ؟ قال : في كتاب الله عز وجل ؛ أمَا سمعتَ قوله : ﴿ **الذينَ يحملُونَ العرْشَ ومَنْ حَوْلهُ يسبِّحُون بحمدِ ربِّهم ويُؤْمنون بهِ ويستغفرونَ للذين آمنوا** ... ﴾ [غافر : ٧] قال : قلت : فأين دعا لي نبيُّ اللهِ نوحٌ ؟ قال : أما سمعتَ قوْلَه عز وجل : ﴿ **ربِّ اغفر لي ولوالدَيَّ ولِمَنْ دخل بيتي مُؤمنًا وللمؤمنينَ والمؤمناتِ** ... ﴾ الآية [نوح : ٢٨] ؟! قال : قلت : فأين دعا لي خليل الله إبراهيم عليه السلام ؟ قلت : أمَا سمعتَ قوله : ﴿ **ربَّنَا اغفرْ لي ولوالديَّ وللمؤمنينَ يوْمَ يقومُ الحسابُ** ﴾ [إبراهيم : ٤١] ؟! قال : قلت : فأين دعا لي محمد ﷺ ؟ قال : فهزّ رأسه ، ثم قال : أما سمعتَ إلى قوْلِ الله عز وجل : ﴿ **واستغفِرْ لذَنْبِكَ وللمؤْمنينَ والمُؤْمِنَاتِ** ... ﴾ الآية [محمد : ١٩] ؟! فكان النبي ﷺ أطوعَ لله عز وجل ، وأبرَّ بأمَّته ، وأرأف لها ، وأرحم مِن أن يأمره اللهُ بشيءٍ فلا يفعله »[1] .

« قال ابن السماك : تباركْتَ يا عظيم ، لو كانت المعاصي التي عُصيتَها طاعةً أُطعْتَ فيها ، ما زادَ على النِّعَم التي تُنيلُها ، وإنك لتزيدُ في الإحسانِ إلينا حتى كأنَّ الذي أُتينا من الإساءة إحسانًا ، فلا أنت بكثرة الإساءة منا تدعُ الإحسان إلينا ، ولا نحنُ بكثرةِ الإحسان منك إلينا عن الإساءة نُقلع ، أبيْت إلا إحسانًا وإجمالًا ، وأبينا إلّا إساءةً واجترامًا ، فمَن الذي يُحصي نِعَمك ، ويقوم بأداء شكرك إلّا بتوفيقك ونِعَمِك ، ولقد فكّرتُ في طاعة المطيعين فوجدتُ رحمتَك متقدِّمَة لطاعتهم ، ولولا ذلك لَمَا وصلوا إليها ، فنسألُك بالرحمةِ المتقدمةِ للمطيعين قبل طاعتِهم لَمَا مَنَنْتَ بها على العاصِين بعد معصيتهم » .

---

(١) الحلية ٧/٢٧٩ ، وشعب الإيمان .

اللهم ، إنا لنسْتَحيي منك أن تعلمَ مِن قلوبنا أنَّا ظننَّا أنَّ رحمتك عَجَزتْ عنا .

لله درُّ أحمد بن العباس النمري حين قال :

وإني لأَرجـو اللهَ حتَّى كأنَّني أرَىٰ بجميل الظَّنِّ ما اللهُ صانِعُ

قال ابن المبارك : جئتُ إلى سفيان الثوري عشيَّةَ عرفة وهو جاثٍ على ركبتيْه ، وعيناه تهملانِ ، فقلت له : مَنْ أسوأُ هذا الجمعِ حالًا ؟ قال : الذي يظنُّ أنَّ الله لا يغفر لهم .

ونظر الفضيل بن عياض إلى تسبيحِ الناس وبكائهم عشيَّةَ عرفة ، فقال : أرأيتم لو أنَّ هؤلاء صاروا إلى رجلٍ فسألوه دانقًا - يعني : سُدُس درهم - أكان يردّهم ؟ قالوا : لا . قال : واللهِ ، لَلْمغفرةُ عند الله أهونُ مِن إجابة رجلٍ لهم بدانِقٍ .

وإني لأدعو اللهَ أطلـبُ عفـوَهُ وأعلـمُ أنَّ اللهَ يعـفُو ويغـفرُ
لئِنْ أعظمَ الناسُ الذنوبَ فإنَّها وإنْ عظمتْ في رحمةِ اللهِ تصْغُرُ

وقال إبراهيم بن الأشعث : سمعتُ الفضيل بن عياض رحمه اللهُ يقول : لو أدخلني النارَ فصرتُ فيها ما أَيِسْتُه[(١)].

وقال أبو حازم المديني : مِن أعظم خَصلة ترجى للمؤمن أن يكون أشدَّ الناسِ خوفًا على نفسه ، وأرجاه لكلِّ مسلمٍ .

وكان عمر بن ذر يقول : اللهمَّ ارحمْ قومًا أطاعوك في أحبِّ طاعتك إليك : الإيمانِ بك والتوكُّل عليك ، وارحمْ قومًا أطاعوك في ترْكِ أبْغضِ المعاصي إليك : الشِّركِ بك والافتراء عليك . قال : فكان بعضهم يقول : إنْ كان كلُّ ما عُصِيَ اللهُ به عظيمًا ، فإنه في سَعةِ رحمته صغيرٌ .

(١) حسن الظن بالله ص٩٥ .

وقال أبو شيبةَ الزّبيدي : خفتُ نفسي ورجوتُ ربِّي ، فأنا أُحبُّ أن أُفارق مَن أخافُ إلى مَن أرجوه .

وعن عبد الواحد بن زيدٍ قال : قلتُ لزياد النميريّ : ما منتهى الخوفِ ؟ قال : إجلالُ اللهِ عن مقامِ السَّوْءات . قال : قلت : فما منتهى الرجاء ؟ قال : تأْميلُ اللهِ عز وجلّ على كلِّ الحالات .

قال سليمان التيمي : قال لقمانُ لابنه : أي بُنَيَّ ، عَوِّدْ لسانَك : « اللهمَّ اغفر لي » ، فإن للهِ ساعاتٍ لا يَردُّ فيهنَّ سائِلًا .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله عُتَقَاء مِن النار في كلِّ يومٍ وليلةٍ ، ولكلِّ عبدٍ منهم دعوةٌ مستجابةٌ »[1] .

وعن عطاء بن السائب قال : دخلنا على أبي عبد الرحمن نعوده ، فذهب بعض القوم يُرَجِّيه ، فقال : إني لأرجو ربي ، وقد صمتُ له ثمانين رمضان[2] .

« وقال عوْنُ بن عبد الله : إنّ مِن أغرّ الغُرَّة ؛ انتظار تمام الأماني ، وأنت أيُّها العبد مقيمٌ على المعاصي ، لقد خاب سعي المعرضين عن الله . وقال : ما نُؤَمِّل إلا عفوه . وغلبه البكاء ، فقام »[3] .

قال زيد بن عليّ : إنما سمَّى نفسَه « المؤمن » ؛ لأنه آمَنَهُم من العذاب .

وقال الثوري في قوله تعالى : ﴿ **وأحْسِنُوا إنَّ اللهَ يُحبُّ المحسنينَ** ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، قال : أَحسِنُوا بالله الظَّن .

---

(١) صحيح بشواهده : رواه أحمد ، وأبو نعيم ، والبيهقي في شعب الإيمان ، واللفظ له ، وأورده الألباني في صحيح الجامع ، وذكر له شاهدًا من حديث جابر ، وأشار إلى أن « سمويه » أخرجه في فوائده ٢٣٢/١٢ .

(٢) حسن الظن بالله ص١١٣ .

(٣) حسن الظن بالله ص١١٥ .

قال محمود الورّاق :

حُسْنُ ظنّي بحسْنِ عفوِكَ يا ... ربِّ جميلٌ وأنتَ مالكُ أمري
صُنْتُ سرِّي عنِ القرابة والْـ ... أهلِ جميعًا وكنتَ موضعَ سِرّي
ثقة بالذي لديْكَ مِنَ السَّتْـ ... ـرِ فلا تُخْزِني يومَ نشْري
يومَ هتْكِ السُّتورِ عنْ حُجُبِ الغيـ ... ـبِ فلا تَهْتكنَّ للناس سِتْرِي
لَقِّنِّي حُجَّتي وإنْ لمْ تكُنْ يا ... ربِّ لي حجّة ولا وجْه عُذرِ

وقال :

ما زلتُ أُغرقُ في الإساءَةِ دائبًا ... وتنالُني بالعفوِ والغفرانِ
لم تنتقصْني إذْ أسأتُ وزدْتَني ... حتَّى كأنَّ إساءَتي إحسانُ
تُولي الجميلَ عنِ القبيحِ كأنّما ... يُرضيكَ مِنّي الزُّورُ والبُهْتَانُ

تعاليْتَ مِن عظيمِ حِلْمك بعد علمك ، ورحمتِك قبل غضَبك ..

قال أبو حازم الأعرج لما حضره الموت : أجدني بخيرٍ ، أجدُني راجيًا لله عزَّ وجل حسنَ الظنِّ به ، إنه - واللهِ - لا يستوي مَن غدا وراح يعمرُ عقْدَ الآخرة لنفسهِ ، فيُقدمُها أمامَه قبل أن ينزل به الموتُ حتَّى يقدم عليها ، فيقوم لها وتقوم له ، ومَن غدا وراح في عقْد الدنيا يعمرها لغيره ، ويرجع إلى الآخرة ، لا حظَّ له فيها ولا نصيبَ .

ونختم بما قال فتح الموصلي : « كَبُرت عليّ خطاياي وكثرتْ ، حتى لقد آيَسَتْني من عظيمِ عفو الله . ثم قال : وأنَّى آيَسُ منكَ ، وأنت الذي جُدتَ على السَّحَرة بعد أنْ غَدَوْا كفرةً فجرةً ؟! وأنَّى آيَسُ منك ، وأنت ولِّي كلِّ نعمةٍ وخيرٍ ؟! وأنَّى آيسُ منك ، وأنت المغيثُ عند الكرب ؟! فلم يزلْ يقول : وأنَّى آيس منك . حتى سقط مغشيًّا عليه » .

نضّر الله هذه الأوجُهَ ... ورحِمَ غربتَها ، جزاءَ ما قدَّموا لدينهم ،

وربَّوْا أجيالًا وأجيالًا من بعدهم ، بعاطرِ وصادق مواعِظِهم وكلماتِهم ، ورحمَ اللهُ مَن قال : « كلام السَّلفِ قليلٌ كثيرُ البَرَكَةِ ، وكلامُ الخَلَفِ كثيرٌ قليلُ البركةِ » . « وليستِ النائحةُ الثَّكْلَى كالمُسْتَعَارَة » .



الفَصْلُ الثَّالث

عُلُوُّ الهِمَّةِ

في الزُّهْدِ

« صلاحُ أوَّلِ هٰذِه الأمَّةِ بالزُّهْدِ واليقِين »

(حَديثٌ شريف)

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الزُّهْد □

اعلمْ يا أخي أنّ « الدنيا عدوّةٌ للهِ عز وجل ، بغُرورِها ضَلَّ مَن ضلّ ، وبمكْرِها زلّ مَن زلّ ، فحبُّها رأسُ الخطايا والسّيِّئاتِ ، وبُغْضها والزُّهدُ فيها أُمُّ الطاعاتِ ، وأُسُّ القُرُبات ، ورأْسُ المُنْجيَات »(١) .

قال الله تعالى : ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ** ﴾ [النحل : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولهْوٌ وزينةٌ وتَفَاخُرٌ بيْنَكُمْ وتَكَاثُرٌ في الأَموالِ والأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نباتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فتَرَاهُ مُصْفَرا ثُمَّ يَكُونُ حُطامًا وفي الآخرةِ عَذابٌ شديدٌ وَمَغْفِرةٌ مِنَ اللهِ ورِضْوانٌ وَمَا الحياةُ الدُّنيا إلّا مَتاعُ الغُرُورِ** ﴾ [الحديد : ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ **قُلْ مَتاعُ الدُّنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمن اتَّقَىٰ** ... ﴾ [النساء : ٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياةَ الدُّنيا والآخرةُ خيرٌ وأبْقَى** ﴾ [الأعلى : ١٦ - ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ **ولَا تمُدَّنَّ عيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أزوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنيا لِنَفْتِنهُمْ فيهِ ورِزْقُ رَبِّكَ خيرٌ وأَبْقَىٰ** ﴾ [طه : ٣١] .

« والقرآنُ مملوءٌ من التَّزهيد في الدنيا ، والإخبارِ بخِسَّتِها وقلَّتِهَا ، وانْقِطَاعِهَا وسُرْعَةِ فَنائها ، والترغيبِ في الآخرة ، والإخبارِ بشرَفِهَا ودَوامِها ، فإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيرًا ، أقامَ في قلبه شاهدًا يُعاينُ به حقيقةَ الدنيا والآخرة ، ويُؤْثِر منهما ما هو أوْلَى بالإيثار .

قال الإمامُ أحمد بن حنبل : الزهدُ على ثلاثةِ أوْجُهٍ :

الأول : ترْكُ الحرامِ : وهو زهدُ العوامِّ .

---

(١) الإحياء .

والثاني : تركُ الفضولِ مِنَ الحلال : وهو زهْدُ الخواصِّ .

والثالث : تركُ ما يَشْغَلُ عَنِ اللهِ : وهو زهد العارفين .

وهذا الكلامُ من الإمام أحمد من أجمع الكلام ، وهو يدلُّ على أنّه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحلِّ الأعلىٰ ، وقد شهِدَ الشّافعيُّ رحمه الله بإمامتِه في ثمانيةِ أشياء ، أحدُها : الزهد . وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية — قدّس الله روحه — يقول : الزهدُ : تركُ ما لا ينفعُ في الآخرة ، والوَرَعُ تركُ ما تخاف ضرَرَه .

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في « الزهد والورع » ، وأجمعها .

والذي أجمع عليه العارفون : أنَّ الزهد سفَرُ القلب من وطنِ الدنيا ، وأخْذُه في منازِلِ الآخرة .

وقال ابن المبارك : هو الثِّقة بالله مع حبِّ الفقر . وهو قوْل شقيق ويوسف بن أسباط .

وقال أبو سليمان الداراني : هو ترْك ما يشغلُ عنِ الله .

وقال ذو النون : حقيقته هو الزهد في النفس »[1][2] .

« ومتعلَّقُ الزهدِ ستةُ أشياء ، لا يستحقُّ العبدُ اسمَ « الزهدِ » حتى يزْهَد فيها، وهي: المالُ، والصُّوَر، والرِّياسة، والناس، والنفس، وكلّ ما دون الله . وليس المرادُ رفضَها مِن الملك ، فقد كان سليمانُ وداودُ عليهما السلام من أزهدِ أهلِ زمانهما ، ولهما مِنَ المال والمُلْك والنِّساء ما لهما ، وكان نبُّينا ﷺ مِن أزهد البشر على الإطلاق ، وكان له تِسْعُ نسوةٍ ، وكان عليُّ بن أبي طالبٍ وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان رضي الله عنهم من الزُّهَّاد ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/٩ - ١٢ .

(٢) لي جمع تحت الطبع ، وهو : « رائِقُ الشَّهد منْ حديثِ الزهدِ » ، وفيه تكلَّمنا بالتفصيل عن الزهد وفضله .

معَ ما كان لهم مِنَ الأموال ، وكان الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه من الزهاد ، مع أنَّه كان من أكثر الأمَّة محبةً للنِّساء ونكاحًا لهُنَّ ، وأغناهم . وكان عبد الله بن المبارك مِنَ الأئمة الزُّهادِ ، مع مالٍ كثير . وكذلك اللَّيْثُ ابن سَعدٍ من أئمة الزهاد ، وكان له رأسُ مالٍ ، يقول : لولا هو لَتَمَنْدَل بنا هؤلاءِ .

ومن أحسن ما قيل في الزهد : كلام الحسن البصري ، أوْ غيره : ليس الزهد في الدنيا بتحريمِ الحلال ، ولا إضاعة المال ؛ ولكن أن تكونَ بما في يد الله أوثَقَ منكَ بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة - إذا أُصِبْتَ بها - أرغبَ منك فيها لو لم تُصبْكَ . فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنِه »[١].

قال رسول الله ﷺ : « ازهدْ في الدنيا يُحبَّك الله ، وازهدْ فيما في أيدي الناس يُحبكَ الناسُ »[٢] .

وقال ﷺ : « طوبى لمن هُدي للإسلام ، وكان عيشُه كَفَافًا ، وقَنَعَ به »[٣].

وقال ﷺ : « قد أفلحَ مَن أسْلَمَ ورُزِقَ كَفافًا ، وقنَّعهُ اللهُ بما آتاه »[٤].

وقال ﷺ : « البَذاذَةُ مِنَ الإيمان »[٥].

وقال ﷺ : « صلاحُ أوَّلِ هذه الأمَّةِ بالزهد واليقين ، ويَهْلَكُ آخرُها

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٢ - ١٣ .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجه ، والطبراني في الكبير ، والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن سهل بن سعد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٢٢ .

(٣) صحيح : رواه الترمذي ، وابن حبان ، والحاكم ، عن فضالة بن عبيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٩٣١ .

(٤) صحيح : رواه الإمام أحمد في مسنده ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، عن ابن عمرو .

(٥) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وابن ماجه ، والحاكم ، عن أبي أُمامة الحارثي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٧٩ .

بالبخلِ والأمَلِ »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « مَنْ كانت الآخرة همَّهُ ، جعل الله غِنَاه في قلبه ، وجمع له شَمْلَه ، وأتته الدنيا وهي رَاغِمةٌ ، ومن كانت الدنيا همَّهُ ، جَعل اللهُ فقْرهُ بيْن عيْنَيْه ، وفرّق عليه شمْلَه ، ولم يأتِهِ مِنَ الدنيا إلّا ما قُدِّر له »[٢].

وقال ﷺ : « اللهمَّ أحْيني مِسْكِينًا ، وأَمتْنِي مسكينًا ، واحشرني في زُمْرَةِ المساكين »[٣].

وقال ﷺ : « ربَّ ذي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ له ، لو أقْسَمَ على الله لَأَبرَّهُ ».

وقال ﷺ : « ربَّ أشْعثَ مدفوعٍ بالأبوابِ ، لو أقسمَ على الله لَأَبرَّهُ ».

وقال ﷺ : « يدخل فقراءُ المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصْفِ يوم ، وهو خمسمائة عامٍ »[٤].

وقال ﷺ : « مَنْ أصبح منْكُمْ آمِنًا في سربه ، معافًى في جسده ، عنده قوتُ يومِهِ ، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بِحَذَافِيرها »[٥].

وعالي الهمَّة ينظر إلى كلام الأئمة ، ولا يرضَى بالدُّونِ من درجاتِ الزهد :

قال الهروي عن الزهد : « وهو على ثلاثِ درجاتٍ :

---

(١) حسن : رواه الإمام أحمد في الزُّهْد ، والطبراني في الأوسط ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عمرو ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٨٤٥ .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٥١٠.

(٣) صحيح : رواه عبد بن حميد ، وابن ماجه ، عن أبي سعيد ، ورواه الطبراني في الكبير ، والضياء ، عن عبادة بن الصامت ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٦١ .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٠٧٦ .

(٥) حسن : رواه البخاري في الأدب المفرد ، والترمذي ، وابن ماجه ، عن عبد الله بن محصن ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٤٢ .

الدرجة الأولى : الزهد في الشُّبهة ، بعد تَرْك الحرام ، بالحَذَر من المَعْتَبَة ، والأَنَفَةِ من المَنْقَصَة ، وكراهة مشاركة الفُسَّاق » .

قال ابن القيم : « أمَّا الزهد في الشُّبهة : فهو تَرْكُ ما يَشْتبهُ على العبد : هل هو حلالٌ أمْ حرامٌ ؟ فالشُّبُهات برزخٌ بين الحلال والحرام . ولا يكون تركُ الشبهة إلّا بعد ترك الحرام ، وتركُهُ للشبهة حذرًا مِن توجُّه عَتْبِ الله عليه ، وأنفه لنفسه من نقْصِه عند ربه ، وسقوطه من عينه ، لا أَنَفتِهِ من نقصه عند الناس ، وسقوطه من أعينهم .

« وكراهة مشاركة الفسّاق » : يعني أن الفسَّاق يزدحمون على مواضع الرغبة في الدنيا ، ولتلك المواقف بهم كظيظٌ مِنَ الزِّحام ، فالزاهد يأنُفُ من مشاركتهم في تلك المواقف ، ويرفع نفسَه عنها ، لخِسَّةِ شركائه فيها ، كما قيل لبعضهم : ما الذي زهّدك في الدنيا ؟ قال : قِلَّةُ وفائها ، وكثرةُ جَفَائها ، وخِسَّةُ شركائها .

إذا لَـمْ أتـركِ المـاءَ اتِّقَـاءً   تركـتُ لكثرةِ الشُّرَكَاءِ فيهِ
إذا وقـعَ الذبابُ على طَعَـامٍ   رفعـتُ يدي ونفسـي تشتهيهِ
وتجتَنبُ الأسـودُ وُرُودَ ماءٍ   إذَا كانَ الكلابُ يَلَغْنَ فيهِ »(١)

الدرجة الثانية : « الزهد في الفضول : وهو ما زاد على المُسْكة والبلاغ مِن القوت ، باغتنامِ التفرُّغ إلى عِمَارة الوقت ، وحسْمِ الجأْشِ ، والتحلِّي بحِلْيَة الأنبياء والصِّدِّيقين » .

قال ابن القيم: «(الفضول): ما يفضل عن قدْر الحاجة . و (المُسْكة): ما يُمسك الإنسان من القوت والشراب واللِّباس والمسكن والمَنْكَح ، إذا احتاج إليه . و (البلاغ) : هو البُلْغَةُ من ذلك الذي يَتَبَلَّغُ به المسافر في منازل السفر ، فيزهد فيما وراءَ ذلك ، اغتنامًا لتفرغه لعمارة وقته » .

---

(١) المدارج ٢/١٥ – ١٧ .

قال ﷺ : « إنَّ أمامكم عَقَبةً كَئودًا ، لا يجوزُها المُثْقَلُونَ »(١).

وقال ﷺ : «إنما يكفي أحدَكُم ما كان في الدنيا مثل زادِ الراكب»(٢).

وقال ﷺ : « كُنْ في الدنيا كأنَّك غريبٌ أوْ عابرُ سبيلٍ »(٣).

قال ابن القيم : « الزهدُ لأهلِ هذه الدرجة أعلى وأرفع ، وهو اغتنام الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله ؛ لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا ، فاتَهُ نصيبُه من انتهاز فرصة الوقت ، فالوقت سيفٌ إن لم تقطعْهُ وإلّا قطعك .

وأما حسْمُ الجأش : فهو قطْع اضطرابِ القلب ، المتعلّق بأسباب الدنيا ، رغبةً ورهبةً وحُبًّا وبغضًا وسعيًا ، فلا يصحُّ الزهد للعبد حتى يقطعَ هذا الاضطراب من قلبه ، بأنْ لا يلتفت إليها ، ولا يتعلَّق بها في حالتي مُباشَرَتِهِ لها وترْكِه ، فإنَّ الزهد زهدُ القلب ، لا زهد الترْك من اليد ، فهو تخلّي القلب عنها ، لا خلوّ اليد منها .

وأمَّا التحلّي بحلية الأنبياء والصدِّيقين : فإنهم أهل الزهد في الدنيا حقًّا ؛ إذْ هُمْ مُشمِّرون إلى عَلَم قد رُفع لهم غيرها ، فهم زاهدون ، وإنْ كانوا لها مباشرين » .

والدرجة الثالثة : « الزهد في الزهد : وهو بثلاثة أشياء : استحقار ما زهدتَ فيه، واستواءُ الحالاتِ فيه عندك، والذهاب عن شهودِ الاكتساب ، ناظرًا إلى وادي الحقائق » .

قال ابن القيم : « وقد فسَّر الشيخ مراده بالزهد في الزهد بثلاثة أشياء : أحدها : احتقاره ما زهد فيه: فإنَّ مَنِ امتلأ قلبُه بمحبةِ الله وتعظيمه ، لا يرى أنَّ ما تركه لأجْلِهِ من الدنيا يستحقُّ أن يُجْعَلَ قربانًا ؛ لأنَّ الدنيا

(١) صحيح : رواه الحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي الدَّرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٠٠١ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن خبّاب ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٨٤ .

(٣) صحيح : رواه البخاري عن ابن عمر .

لا تساوي عند الله جَناحَ بعوضةٍ . فالعارف لا يَرى زهده فيها كبير أمرٍ يُعْتدُّ بِهِ ويُحتَفَلُ له ، فيستحي مَنْ صَحّ له الزهدُ أن يجعل لما تركَهُ للهِ قدْرًا يلاحِظ زهْدَه فيه ، بلْ يفنىٰ عن زهْدِه فيهِ كما فَنِيَ عنه ، ويستحي مِن ذكْره بلسانه ، وشهوده بقلبه .

وأمَّا استواءُ الحالاتِ فيه عنده : فهو أنْ يرى ترْكَ ما زهِد فيه وأَخْذَهُ : متساويْين عنده ، إذْ ليس له عنده قدْرٌ ، وهذا مِن دقائق فقْهِ الزهد ، فيكون زاهدًا في حال أخْذِه ، كما هو زاهدٌ في حالِ ترْكه ، إذْ همتُه أعلى عن ملاحظته أخْذًا وتَرْكًا ، لصِغَرِه في عيْنه .

وأمّا الذهابُ عن شهود الاكتساب : فمعناه : أنَّ مَنِ استصغر الدنيا بقلبه ، واستوتْ الحالاتُ في أخْذها ، وتركها عنده ، لم يرَ أنه اكتسبَ بترْكها عند الله درجةً ألبتة ؛ لأنها أصغر مِنْ أن يَرىٰ أنه اكتسب بترْكها الدرجات .

وفيه معنى آخر : وهو أنْ يشاهد تفرُّدَ الله عز وجل بالعطاء والمنْع ، فلا يرى أنه تَرَكَ شيئًا ، ولا أَخَذَ شيئًا ، بل الله وحدَه هو المُعْطِي المانع ، فما أخذه فهو مَجْرًى لعطاءِ الله إيَّاه كمجرى الماء في النهر ، وما تركه لله ، فالله سبحانه وتعالى هو الذي مَنَعَهُ منه ، فيذهب بمشاهدة الفَعَّال وحده عن شهود كَسْبه وترْكه ، فإذا نظر إلى الأشياء بعيْن الجمع ، وسلك في وادي الحقيقة ، غاب عن شهود اكْتِسَابه ، وهو معنى قولِهِ : « ناظرًا إلى وادي الحقائق » ، وهذا أَلْيَقُ المعنَيَيْنِ بكلامه ، فهذا زهْدُ الخاصَّة . قال الشاعر :

إذا زَهَّدَتْني في الهَوىٰ خَشْيَةَ الرَّدَىٰ جَلَتْ لي عن وجهٍ يُزهِّد في الزُّهدِ »[1]

(١) مدارج السالكين ٢/١٩ - ٢٠ .

لله درُّ الغـزالي :

يقول الغزالي رحمه الله : « اعلمْ أن الزهد في نفسه يتفاوت بحَسَبِ تفاوُت قوَّتِه ، على درجاتٍ ثلاثٍ :

الدرجة الأولى ، وهي السفلى منها : أن يزهد في الدنيا وهـو لها مُشْتَهٍ ، وقلبُه إليها مائِلٌ ، ونفسُه إليها مُلْتَفِتَةٌ ، ولكنه يجاهدُهَا ويكُفُّها ، وهذا يسمَّىٰ المُتَزَهِّد ، وهو مبدأ الزهد ، والمتزهِّد على خطرٍ ؛ فإنه رُبَّما تغلبُه نفسه وتجذبُه شهوتُه ، فيعود إلى الدنيا .

الدرجة الثانية : الذي يترك الدنيا طوْعًا لاستحقارِه إيَّاها ، بالإضافة إلى ما طمع فيه ، كالذي يترك درهمًا لأجْل درهمَيْن ؛ فإنه لا يشقُّ عليه ذلك . لكن هذا الزاهدَ يرى لا محالةَ زُهْدَه ويلتفتُ إليه ، فيكادُ يكون معجبًا بنفسه وبزهده ، ويظنُّ في نفسه أنه ترك شيئًا له قدْرٌ لِمَا هو أعظمُ قدرًا منه ، وهذا أيضًا نقصَانٌ .

والدرجة الثالثة ، وهي العليا : أن يزهَدَ طوْعًا ، ويزهد في زهْدِه فلا يرى زهدَه ، إذْ لا يرى أنه ترك شيئًا ، إذْ عرَف أنَّ الدنيا لا شيءَ ، فيكون كمن ترك خزفةً وأخَذ جوهرةً ، فلا يرى ذلك مُعَاوَضَةً ، ولا يرى نفسَه تاركًا شيئًا ، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة ؛ أخَسُّ من خَزَفَةٍ بالإضافة إلى جوهرةٍ ، فهذا هو الكمال في الزهد .

وأمّا انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه ، فهو على ثلاثِ درجاتٍ :

الدرجة السُّفْلى : أن يكون المرغوبُ فيه هو النجاة من النار ، ومن سائر الآلام ، كعذاب القبر ، ومناقشة الحساب ، وخَطَر الصراط ، فهذا زهدُ الخائفين ، وكأنهم رضُوا بالعَدَمِ ؛ فإنَّ الخَلَاصَ من الألم يحصل بمجرَّدِ العَدَمِ .

والدرجة الثانية : أنْ يزْهَدَ رغبةً في ثواب اللهِ ونعيمه ، واللذات الموعودة في جنته ، من الحور والقصور ، وهذا زهْدُ الرَّاجينَ ؛ فإنّ هؤلاءِ ما تركوا الدنيا قناعَةً بالعَدَمِ والخلاص مِنَ الأَلم ، بل طمِعُوا في وجودٍ دائمٍ ونعيمٍ سرمدٍ لا آخِرَ له .

الدرجة الثالثة ، وهي العليا : أنْ لا يكون لهُ رغبةٌ إلا في الله وفي لقائه ، فهو مُستَغرِقُ الهمِّ بالله تعالى ، وهذا زهْدُ المُحِبِّين »[1] .

سيِّدُ الزاهِدِين رسولُ اللهِ ﷺ :

عرَض الله سبحانه الدنيا ، وعرَض مفاتيحَ كُنوزها على أحبِّ الخلق إليه وأكرمِهم عليه ، عبدِه ورسوله محمدٍ ﷺ فلم يُرِدْهَا ولم يَخْتَرْهَا ، ولو آثرها وأرادها ، لكانَ أشكرَ الخلق بما أخذه منها ، بل اختارَ التقلُّلَ منها وصبر على شِدَّة العيش بها .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار ، فرأَتْ فِرَاشَ رسول الله ﷺ عَباءَة مثنيَّةً ، فرجعتْ إلى منزلها ، فبعثتْ إليّ بفراشٍ حَشْوُهُ الصوفُ ، فدخل عليّ رسول الله ﷺ ، فقال : « ما هذا ؟ » فقلتُ : فلانةٌ الأنصارية دخلتْ عليّ ، فرأتْ فراشَك ، فبعثتْ إليّ بهذا . فقال : « رُدّيهِ » فلم أردّه ، وأعجبني أنْ يكونَ في بيتي ، حتى قال ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ ، فقال : « يا عائشة ، رُدِّيه ، واللهِ لو شِئْت ، لأَجْرَىٰ اللهُ معي جبالَ الذهبِ والفضةِ »[2] .

وعرَض عليه مفاتيحَ كُنوزِ الدنيا فلم يأخذْها ، وقال : « بل أجوعُ يومًا ، وأشبَعُ يومًا » .

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٢٣٩ - ٢٤١ .

(٢) صحيح : رواه الإمام أحمد .

وسأل ربّه أنْ يجعل رِزْقَ أهلِه قوتًا ، كما في الصحيحينِ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعلْ رزقَ آلِ محمَّدٍ قوتًا » .

وفيهما عنه ، قال : « والذي نفسُ أبي هريرة بيده ، ما شَبِعَ نبي الله وأهلُه ثلاثة أيَّام تِباعًا من خُبْزِ حِنْطَةٍ ، حتى فارق الدنيا » .

وفي صحيح البخاري ، عن أنسٍ رضي الله عنه : ما أعلم أنَّ رسول الله ﷺ رأى رغيفًا مُرقّعًا ، ولا شاةً سميطًا قطُّ ، حتى لحِقَ بربِّه .

وفي صحيحه أيضًا عنه ، قال : خرج رسول الله ﷺ ، ولم يشبع من خبْز الشعير .

وفي الصحيحين ، عن عائشة رضي الله عنها : « ما شبع آلُ محمدٍ منذُ قدِمَ المدينة من طعامِ البُرِّ ثلاثَ ليالٍ تباعًا ، حتى قُبض » .

وفي صحيح مسلمٍ ، عن عمر رضي الله عنه : « لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يظلّ اليومَ ما يجد دَقَلًا[1] يملأُ بطنَه » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله ﷺ يبيتُ الليالَي المتتابعاتِ طاوِيًا ، وأهلُه لا يجدون عَشاء[2] .

وفي المسندِ ، عن عائشة رضي الله عنها : والذي بعث محمدًا بالحق ، ما رأى منْخَلًا ، ولا أكل خبزًا منخولًا ، منذ بعثه الله عز وجلّ إلى أن قُبِض . قال عروة : فقلت : فكيف كنتم تأكُلُون الشعير ؟ قالت : كُنَّا نقول : أُفْ - أيْ : تنفُخُه - فيطيرُ ما طار ، ونعجنُ الباقي .

وعن أنسٍ رضي الله عنه ، قال : لقد رهَنَ رسول الله ﷺ دِرْعَه بشعيرٍ ، ولقد سمعتُه يقول : « ما أصبح لآلِ محمدٍ صاعٌ ولا أمْسَى ، وإنهم

---

(١) الدَّقل : هو رديء التمر .

(٢) صحيح : رواه أحمد والترمذي .

لِتِسْعَةِ أبياتٍ »[١].

« وعن جابر رضي الله عنه قال : لمّا حفر رسول الله ﷺ الخندقَ ، أصابهم جُهْدٌ شديدٌ ، حتى ربَطَ النبيُّ ﷺ على بطنه حجرًا من الجوع »[٢].

ولقد توفَّاه اللهُ ، وإنَّ دِرْعَه مَرهونَةٌ عند يهوديّ على طعامٍ أخذه لأهله ، وقد فتح الله عليه بلادَ العرب ، وجُبيتِ الأموال ، ومات ولم يترك درهمًا واحدًا ، ولا دينارًا ، ولا شاةً ، ولا بعيرًا ، ولا عبدًا ، ولا أمَةً .

« وعن عروة أنه سمِعَ عائشة تقول : كان يمرُّ بنا هلالٌ وهلالٌ ما يوقد في بيتٍ من بُيوتِ رسول الله ﷺ نارٌ . قلت : يا خالة ، فعلىٰ أيِّ شيءٍ كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودَيْن : التمر والماء » . رواه أحمد .

« ومن حديث مسروقٍ ، قال : دخلتُ على عائشة ، فَدَعتْ لي بطعام ، وقالت : ما أشْبَعُ من طعام ، فأشاء أن أبكي إلا بكيتُ . قال : قلت : لِمَ ؟ قالت : أذكر الحال التي فارق عليها رسولُ الله ﷺ الدنيا ، واللهِ ما أُشبِعَ في يومٍ مَرَّتين من خبزِ البُرِّ ، حتى قُبِض »[٣].

وفي المسنَد ، عنها : ما أُشبعَ رسول الله ﷺ من خبزِ شعيرٍ يوْمَيْن متتابعين ، حتى قُبِض[٤].

« وفي الصحيحين ، عن أبي هريرة : ما شبِعَ رسول الله ﷺ وأهله ثلاثًا أتباعًا مِن خُبْز البُرِّ ، حتى فارق الدنيا » .

وعن أبي طلحة رضي الله عنه قال : شكوْنَا إلى رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري .

(٢) صحيح ، رواه أحمد في مسنده .

(٣) صحيح ، رواه أحمد .

(٤) صحيح ، أخرجه أحمد ، وصححه ابن القيم في « عُدَّة الصابرين » ص١٩٤ .

الجُوعَ ، ورفعنا عن بطوننا حَجَرًا حَجَرًا ، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حَجَرَيْن .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : دخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو مُتَّكِئٌ على رمْل حَصِيرٍ ، فرأيتُ أثَرَهُ في جنْبه[1].

وَرَاوَدَتْهُ الجبالُ الشُّمُّ مِن ذَهَبٍ عَنْ نفسِهِ فأَرَاهَا أَيَّما شَمَمِ

مُوسَىٰ عليه السلام :

قال الحسن البصريُّ : « وأمَّا موسى عليه السلام ، فرُئي خضرة البَقْل مِنْ صِفَاقِ بطنه من هُزاله ، ما سأل الله تعالى يومَ أوَىٰ إلى الظِّلِّ إلّا طعامًا يأكله ، من جوعه ، ولقد جاءتِ الروايات عنه أن الله تعالى أوحى إليه ؛ أن يا موسى ، إذا رأيتَ الفقر مقبلًا ، فقُلْ : مرحبًا بشعار الصالحين ، وإذَا رأيتَ الغِنَىٰ قد أقبل ، فقلْ : ذَنْبٌ عجِّلَتْ عُقُوبَتُه »[2].

« وفي حديث مناجاةِ موسىٰ الذي رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد : ولا تُعجبْكُمَا زينتُه ولا ما مُتِّعَ به ، ولا تمدَّانِ إلى ذلك أعينَكما ؛ فإنها زهرةُ الحياةِ الدنيا ، وزينةُ المترفين ، وإني لو شِئْتُ أنْ أُزيِّنَكُما مِنَ الدنيا بزينة - يعلم فرعون حين ينظر إليها أنَّ مَقْدِرَتَه تعجز عن مِثْل ما أُوتيتما - فعلت ، ولكني أرغب بكما عن نعيمها ذلك ، وأزْوِيه عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائي ، وقديمًا ما خِرْتُ لهم في ذلك ؛ فإني لَأَذُودهم عن نعيمها ورخائها ، كما يَذُود الراعي الشفيقُ غَنَمَه عن مراعي الهلَكَةِ ، وإني لأُجْنِّبُهم سَلْوَتَها وعيشَها كما يجْنُبُ الراعي الشفيقُ إبلَه عن مَبارِك الغِرَّة ، وما ذلك لهَوَانِهم عليّ ، ولكن ليستكملوا نصيبَهم مِن كرامتي سَالِمًا مُوفَّرًا ، لم تَكْلَمْه الدنيا ولم يُطغِهِ الهَوَىٰ . واعلمْ أنه لمْ يتزيَّنْ لي العبادُ بزينةٍ هي أبلغ

(١) صحيح ، أخرجه الترمذي في صفة القيامة ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .
(٢) الحلية ٢/١٣٧ .

من الزهد في الدنيا ، فإنها زينةُ المتقين ، عليهم منها لباسٌ يُعرفون به من السَّكِينة والخشوع ، سِيماهُم في وجوههم مِن أثرِ السجود ، أولئك أوليائي حقًّا ، فإذا لقيتَهم فاخفضْ لهم جناحك وذلِّل لهم قلبَك ولسانَك »(١) .

عِيسى بنُ مريمَ عليه السَّلام :

عن ثابت البناني قال : قِيل لعيسى بن مريم : يا رسولَ الله ، لو اتخذتَ حِمَارًا تركبُه لحاجتك ؟ قال : أنا أكْرَمُ على الله مِن أن يجعل لي شيئًا يَشغلُني به .

وقال : اجعلوا كنوزكَم في السماء ؛ فإنَّ قلب المرءِ عند كَنْزِه .

وقال : اتَّقُوا فضولَ الدنيا ، فإنَّ فضولَ الدنيا عند الله رِجْزٌ .

وقال : يا بني إسرائيلَ ، اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف ، فما لكم في العالم مِن مَنْزِلٍ ، إنْ أنتم إلّا عابري سبيل .

وقال : يا معشرَ الحواريِّين ، أيّكم يستطيع أن يبني على موجِ البحر دارًا ؟ قالوا : يا رُوحَ الله ، مَن يقدر على ذلك ؟! قال : إيَّاكم والدنيا ، فلا تتخذوها قرارًا .

وقال : أَكْلُ الخبز البُرِّ ، وشرْبُ ماءٍ عذبٍ ، ونومٌ على المَزابلِ مع الكلاب ، كثيرٌ لِمَن يريد أن يرث الفِرْدَوْس .

وقال : يا بني إسرائيل ، تهاونُوا بالدنيا تَهُنْ عليكم ، وأَهينوا الدنيا تَكْرُم عليكم الآخرةُ ، ولا تُكْرِمُوا الدنيا تَهُن عليكم الآخرة ؛ فإن الدنيا ليستْ بأهلِ الكرامة وكلّ يومٍ تدعُو إلى الفتنة والخسارة .

« وعن وهبٍ ، قال : قال الحواريُّون : يا عيسى ، مَن أولياءُ الله الذين لا خوْفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُون ؟ قال : الذين نظروا إلى باطِنِ الدنيا حين

---

(١) عُدَّة الصابرين ص٢١٣ .

نظر الناس إلى عاجلِها ، فأماتوا منها ما يخشَوْن أن يُمِيتَهم ، وتركوا ما علموا أنْ سيتركهم ، فصار استكثارُهم منها استقلالًا ، وذكْرهم إيَّاها فواتًا ، وفرحُهم بما أصابوا منها حزنًا ، فما عرضهم مِن نائلها رفضُوه ، وما عارضهم مِن رفعتها بغير الحقِّ وضعوه ، خَلِقَت الدنيا عندهم فليسوا يُجدِّدونها ، وخربت بينهم فليسوا يعمِّرُونها ، وماتتْ في صدورهم فليسوا يحيونها ، يهدمونها فيبنون بها آخرتَهم ، ويَبيعونها فيشترون بها ما بقي لهم ، رفضوها فكانوا بها هُمُ الفَرِحِين ، ونظروا إلى أهلها صرعىٰ قد حَلَّتْ بهم المَثُلات ، فأَحيَوْا ذِكْرَ الموت ، وأماتُوا ذكْر الحياة ، يُحبُّون اللهَ ويُحبُّون ذكرَه ، ويستضِيئُون بنوره ويُضيئون به ، لهم خبرٌ عجيبٌ ، وعندهم الخبرُ العجيبُ ، بهم قام الكتابُ وبه قامُوا ، وبهم نطَق الكتابُ وبه نطقُوا ، وبهم عُلِّم الكتابُ وبه عَمِلُوا ، ليسوا يَرون نائلًا مع ما نالوا ، ولا أمانًا دون ما يرجون ، ولا خوفًا دون ما يحذرون »[(١)].

« وقال في كتابه لعمر بن عبد العزيز - بعد حديثه عن رسول الله وموسى عليهما الصلاة والسلام -: « وإنْ شئْتَ ثلّثْتُه بصاحبِ الرُّوح والكلمة ؛ ففي أمره عجيبةٌ: كان يقول: أَدَمِي: الجوعُ، وشِعاري: الخَوْف، ولباسي: الصوفُ، ودابَّتي: رِجْلي، وسِراجي بالليل: القمرُ، وصلايتي في الشتاء: الشمس، وفاكهتي ورَيْحاني: ما أنبتتِ الأرضُ للسِّباع والأنعام، أَبِيتُ وليس لي شيءٌ ، وليس أحدٌ أغنىٰ منِّي »[(٢)].

يحيىٰ بنُ زَكريَّا عليهما السلام :

قال مجاهدٌ : كان طعامُ يحيىٰ بن زكريَّا عليهما السلام العُشْبَ ، وإنْ كان لَيبكي مِن خشيةِ اللهِ ، ما لو كان القارُّ على عَيْنيْه لَخرقتْه دموعه ، ولقد

---

(١) « عُدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين » لابن قيم الجوزية ص٢١٣ ، ٢١٤ .
(٢) الحلية ٢/١٣٧ .

كانت الدموعُ اتخذتْ مَجْرًى في وجهِهِ[١].

سُلَيْمان بنُ داودَ عليهما السلام :

قال الحسن في كتابه لعمر بن عبد العزيز : « ولو شئْتُ ربّعتُ بسليمان بن داود عليهما السلام ، فليس دُونهم في العجب ؛ يأكل خُبْزَ الشعير في خاصَّته ، ويُطْعِم أهلَه الخشكار[٢] والناسَ الدّرمك ، فإذا جنَّه الليلُ لبِسَ المَسُوحَ ، وغَلَّ اليدَ إلى العنق ، وبات باكيًا حتى يُصبح ، يأكل الخشِنَ مِن الطعام » .

ومن قبله كان داودُ صاحبُ المزامير ، وقارىءُ أهل الجنة ، « يعمل سفائفَ الخُوص بيده ، ويقول لجُلَسائه : أيُّكم يكفيني بَيْعَها ؟ ويأكل قُرْص الشعيرِ مِن ثَمَنِها » .

عُثمانُ بنُ مَظعُون رضي الله عنه ، المتقشِّفُ المخْزُون :

كان إلى الاستجابة للهِ سابقًا ، وبمعالي الأحوالِ لاحقًا ، وفي العبادة ناسِكًا ، لم تنقِصْه الدنيا ، ولم تَحطّهُ عن العَلْيَا . ويكفي في عُلوِّ زهدِه شهادةُ رسول الله ﷺ له بذلك : فعن أبي النضر ، قال : لما مُرَّ بجنازةِ عثمانَ بن مظعون ، قال رسول الله ﷺ : « ذَهَبْتَ ولم تَلَبَّسْ منها بشيءٍ »[٣].

نعم ، ما تلبَّسَ منها بشيءٍ ! ربما لبِس النَّمِرة قد تخلَّلتْ ، فرقَّعَها بقطعةٍ من فروة .. فرضي الله عنك أبا السائب صاحبَ الهِجْرتَيْن .

« عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قبّل عثمانَ بنَ مظعون وهو مَيِّتٌ ،

---

(١) الزهد والرقائق ص١٩٤ .

(٢) الخشكار : رديءُ الدقيق ، والدرمك : الدقيق الحواري .

(٣) أخرجه مالك في الجنائز مرسلًا ، وقال الزرقاني : وصلَه ابنُ عبد البرِّ من طريق يحيى بن سعيدٍ ، عن القاسم ، عن عائشة .

ودموعُهُ تسيلُ على خَدِّ عثمانَ بن مظعون »[١].

العابِدُ الزَّهيدُ ، والقانِتُ الوحيدُ ،أبو ذَرٍّ الغِفَاري :

قال الذهبي عنه : « أحدُ السابقين الأوَّلين ، من نُجَبَاءِ أصحاب محمد ﷺ ... وكان رأْسًا في الزهد والصدق ، والعلم والعمل » .

قال أبو ذرٍّ الغفاري : « ما تُؤيسُنِي رِقّةُ عَظْمي ، ولا بياضُ شَعْري ، أنْ ألقْىٰ عيسى بن مريم »[٢].

وعن ابن سيرين : سألتُ ابنَ أُخْتٍ لأبي ذرٍّ : ما ترك أبو ذرٍّ ؟ قال : ترك أَتانَيْن ، وحمارًا ، وأعنزًا ، وركائب .

قد كان رضي الله عنه من أهلِ الصُّفَّة ، وكان في بداية أمْره ينامُ في المسجد ، لم يكنْ له بيتٌ .

وأرسل إليه عثمانُ ، وقال له : إنما أرسلْنا إليك لِتُجَاوِرَنا في المدينة . قال : لا حاجة لي في ذلك ، ائذَنْ لي إلى « الرَّبذة » . قال : نعم ، ونأمر لك بنعم من نَعَم الصدقة ، تغدو عليك وتروح . قال : لا حاجة لي في ذلك ، يكفي أبا ذرٍّ صُرَيمَتُه[٣]. فلما خرج قال : دونكم معاشر قريش ، دنياكم فاعْذِمُوها[٤]، ودعُونا وربَّنا .

وقال رضي الله عنه : « لَيَوَدَّنَّ صاحبُ هذا المال لو كان عقاربُ في الدنيا تلسعُ السويداءَ مِن قلبه »[٥].

---

(١) حسن بشاهده عند البزار ، أخرجه الترمذي وصححه ، وأبو داود ، وصححه الحاكم ، وسكت عنه الذهبي .

(٢) طبقات ابن سعد ٤/٢٣٠ .

(٣) الصُّرَيمة : تصغير الصرمة : وهي القطيع من الإبل والغنم .

(٤) أي : خذوها ، والعذم : العضُّ والأكل بجفاء .

(٥) إسناده صحيح ، سير أعلام النبلاء ٢/٦٧ - ٦٨ ، وطبقات ابن سعد ٤/٣٣٢.

رضي الله عنه ؛ لقد تعلّق بالأمر الشديد .

« وعن أبي أسماء أنه دخل على أبي ذرٍّ بالربذة ، وعنده امرأة له سوداء مُشعثة ، ليس عليها أثر المجاسد والخَلوق ، فقال : ألا تنظرون ما تأمرني به ؟ تأمرني أن آتي العراق ، فإذا أتيتُها ، مالوا عليّ بدنياهم ، وإنَّ خليلي عهِدَ إليّ : « إنّ دون جسْر جهنم طريقًا ذا دحْضٍ ومزلة » . وإنا أنَّى نأتي عليه وفي أحمالنا اقتدار ، أحرىٰ أنْ ننجو مِن أنْ نأتي عليه ونحن مواقير »(١) .

« وقال ثابت البناني : بنى أبو الدرداء مسكنًا ، فمر عليه أبو ذرٍّ ، فقال : ما هذا ! تعمر دارًا أذن اللهُ بخرابها ؟! لأَن تكون رأيتُك تتمرّغ في عَذِرة ، أحبّ إليّ من أن أكون رأيتُك فيما رأيتُك فيه »(٢) .

وعن أمِّ طلقٍ ، قالت : « دخلتُ على أبي ذرٍّ فرأيتُه شعثًا شاحبًا ، بيده صوف ، قد جُعل عُودَيْن ، وهو يغزل بهما ، فلم أرَ في بيته شيئًا ، فناولتُه شيئًا مِن دقيق وسُوَيْق ، فقال لي : أمَّا ثوابك ، فعلى الله »(٣) .

وعندما مات بالربذة لم يكن عنده ثوبٌ يسعُه كفَنًا ، وكفّنه صحابة مَرُّوا به ، كفّنه فتى مِن الأنصار في عيبته مِن غزل أمِّه(٤) .

مُصْعَب بنُ عُمَير رضي الله عنه :

عن خباب رضي الله عنه قال : « هاجرْنا مع رسول الله ﷺ ، ونحن نبتغي وجه الله ، فوقع أجرُنا على الله ، فمنا مَن مضى لسبيله لم يأكل من أجره شيئًا ؛ منهم مصعب بن عمير قُتل يوم أُحد ، ولم يترك إلا نَمِرة ، كُنَّا إذا غطَّينا رأسه بدتْ رجلاه ، وإذا غطينا رجلَيْه بدا رأسه ، فقال رسول الله

---

(١) أخرجه أحمد وابن سعد ورجاله ثقات .

(٢) ، (٣) السير ٢/٧٤ .

(٤) العيبة : ما تُجعل فيه الثياب ، السير ٢/٧٧ .

ﷺ : « غَطّوا رأسه ، واجعلوا على رجليه من الإذْخَر » . ومنّا مَن أيْنعتْ له ثمرتُه ، فهو يُهَدِّبُها »[١] .

« وعن سعد بن إبراهيم ، سمع أباه يقول : أُتي عبد الرحمن بن عوف بطعامٍ ، جعل يبكي ، فقال : قتل حمزة ، فلم يُوجد ما يُكَفّن فيه إلّا ثوبًا واحدًا ، وقُتل مصعب بن عمير ، فلم يوجد ما يكفّن فيه إلا ثوبًا واحدًا ، لقد خشيتُ أن يكون عُجّلتْ لنا طيباتُنا في حياتنا الدنيا.وجعل يبكي »[٢] .

سَلْمانُ الفارسي :

عن مالك أنَّ سلمان كان يستظل بالفيءِ حيثما دار ، ولم يكن له بيت ، فقيل : ألا نبني لك بيتًا تسكن به ؟ قال : نعم . فلمّا أدْبر القائلُ سأله سلمان : كيف تبنيه ؟ قال : إنْ قمتَ فيه أصابَ رأسك ، وإنْ نِمتَ أصابَ رجلك[٣] .

« قال النعمان بن حُميد : دخلتُ مع خالي على سلمان بالمدائن - وهو أميرٌ عليها - فسمعته يقول : أشتري خُوصًا بدرهم ، فأبيعه بثلاثة دراهم ، فأُعيد درهمًا فيه ، وأنفق درهمًا على عيالي ، وأتصدَّق بدرهم ، ولو أن عمر نهاني عنه ما انتهيت »[٤] .

وقال الحسن : كان عطاء سلمان خمسة آلاف ، وكان على ثلاثين ألفًا من الناس ، يخطب في عباءَة ، يفرش نصفَها ، ويلبَس نصفها ، وكان إذا خرج عطاؤه أمضاه ، ويأكل مِن سفيف يده ، رضي الله عنه[٥] .

---

(١) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي .

(٢) رواه البخاري .

(٣) أخرجه عبد الرزاق ؛ وابن سعد ، وأبو نعيم .

(٤) ابن سعد وأبو نعيم في الحلية ، والإصابة ٤/٢٢٥ ، وأسد الغابة ٢/٤٢٠ والاستيعاب .

(٥) الحلية ١/١٩٨ .

وإنْ تعجبْ لأميرِ المدائن سلمان فاعجبْ :

« قال جرير بن حازم : سمعت شيخًا من بني عبْس يذكر عن أبيه قال : أتيتُ السوق ، فاشتريت عَلفًا بدرهم ، فرأيتُ سلمان - ولا أعرفه - فسخّرتُه ، فحملتُ عليه العلف ، فمرّ بقوم فقالوا : نحمل عنك يا أبا عبد الله ؟ فقلت : مَنْ ذا ؟ قالوا : هذا سلمان صاحب رسول الله ﷺ . فقلت له : لم أعرفك ، ضعْه . فأبى حتى أتى المنزل »(١) .

« وعن أنس رضي الله عنه قال : دخل سعد وابن مسعود على سلمان عند الموت ، فبكى فقيل له : ما يُبكيك ؟ قال : عهدٌ عهِدَه إلينا رسول الله ﷺ لم نحفظه : قال : « لِيكنْ بلاغُ أحدِكم من الدنيا كزاد الراكب » . وأمّا أنت يا سعدُ ، فاتّقِ اللهَ في حكمك إذا حكمت ، وفي قَسْمك إذا قسَمتَ ، وعند همّك إذا هممت . قال ثابت : فبلغني أنه ما ترك إلّا بضعةً وعشرين درهمًا ، نُفَيْقةً كانت عنده »(٢) .

عثمانُ بنُ عفَّان ، رضي الله عنه :

« قال الحسن البصري : رأيتُ عثمان نائمًا في المسجد ، حتى جاءَه المؤذِّن فقام ، فرأيتُ أثر الحَصَى على جنبه »(٣) .

وكان رضي الله عنه - وهو خليفة - يحمِل حِزْمة الحطب على عاتِقِه .

أهل الصُّفّة :

عن فضالة بن عُبيد أن رسول الله ﷺ كان إذا صلَّى بالناس ، يخرّ رجالٌ مِن قامتهم في الصلاة من الخصاصة ، وهمْ أصحابُ الصُّفة ، حتى تقول الأعراب : هؤلاء مجانينُ أو مجانون ، فإذا صَلّى - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) ابن سعد ٦٣/١/٤ .

(٢) صحيح ؛ أخرجه ابن ماجه ، وأبو نعيم في الحلية والطبراني .

(٣) السير ٥٦٨/٤ .

انصرفَ إليهم ، فقال : « لو تعلمونَ ما لكم عند الله ، لأحببتُم أن تزدادوا فاقة وحاجة » . قال فضالة : أنا يومئذٍ مع رسول الله ﷺ(١) .

أبو هـريرة ، رضي الله عنه :

قال أبو هريرة : « لقد رأيتُني وإني لأخِرّ فيما بين منبرِ رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة مَغْشيًّا عليّ ، فيجيءُ الجائي فيضعُ رجله على عنقي ، ويرى أنّي مجنون ، وما بي مِن جُنونٍ ، ما بي إلّا الجوع »(٢) .

عُمَير بنُ سـعد ... نسيجُ وحدِه :

الحافظُ للعهد ، الوافي بالوعد ، اللَّقن الحفيظ ، الخَشن الغليظ ، جمال الوُلاة ، وحُجّة الله على الرعاة .

« قال الذهبي : استعمله عمرُ على حِمص ، وكان من الزُّهاد .

قال عبد الرحمن بن عمير بن سعد الأنصاري : قال لي ابن عمر : ما كان مِن المسلمين رجلٌ مِن الصحابة أفضل من أبيك .

وقال ابن سيرين : كان عُمر من عُجْبه بعُمير بن سعد يُسميه : « نسيج وحدِه » ، وبعثه مرّة على جيش .

وقال المفضل الغلابي : زهّادُ الأنصار ثلاثة : أبو الدرداء ، وشدّاد بن أوس ، وعمير بن سعد »(٣) .

« بعثه عمر بن الخطاب عاملًا على حمص ، فمكث حوْلًا لا يأتيه خبرُه ، فقال عمر لكاتبه : اكتب إلى عُمير ، فواللهِ ما أراه إلا قد خاننا : « إذا جاءك كتابي هذا فأقبلْ ، وأقبلْ بما جبيْتَ مِن فيْء المسلمين ، حين

---

(١) إسناده حسن : رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه ، وقال الأرناؤوط : إسناده حسن .

(٢) رواه البخاري والترمذي .

(٣) السير ٢/١٠٤ – ١٠٥ .

تنظر في كتابي هذا » . فأخذ عُمير جرابه ، فجعل فيه زادَه وقصعتَه ، وعلق إداوته ، وأخذ عنزته ، ثم أقبل يمشي من حمص حتى دخل المدينة . قال : فقدم وقد شحبَ لونُه واغبر وجهُه ، وطالت شعرته ، فدخل على عُمر وقال : السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال عمر : ما شأنك ؟ فقال عمير : ما ترى من شأني ؟! ألستَ تراني صحيح البدن ، طاهرَ الدم ، معي الدنيا أجُرُّها بقرْنها ؟! قال : وما معك ؟ فظن عمر رضي الله عنه أنه قد جاء بمال ، فقال : معي جرابي ، أجعل فيه زادي ، وقَصْعتي آكُل فيها وأغسل فيها رأسي وثيابي ، وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي ، وعَنزتي أتوكَّأ عليها ، وأجاهد بها عدوًّا إن عَرَض ، فوالله ما الدنيا إلا تَبَعٌ لمتاعي . قال عمر : فجئتَ تمشي ؟ قال : نعم . قال : أما كان لك أحدٌ يتبرّع لك بدابّة تركبها ؟ قال : ما فعلوا ، وما سألتُهم ذلك . فقال عمر : بئْس المسلمون خرجت مِن عندهم . فقال له عُمير : اتق اللهَ يا عمر ، قد نهاك اللهُ عن الغيبة ، وقد رأيتُهم يصلّون صلاة الغداة . قال عمر : فأين بعثتُك ؟ وأي شيءٍ صنعتَ ؟ قال : وما سؤالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : سبحان الله ! فقال عمير : أما لولا أني أخشى أن أغمّك ما أخبرتك ، بعثتَني حتى أتيتُ البلد ، فجمعتُ صلحاءَ أهلها ، فولَّيْتُهم جباية فيْئهم ، حتى إذا جمعوه ، وضعتُه مواضعه ، ولو نالك منهُ شيءٌ لأتيتُك به . قال : فما جئتَنا بشيءٍ ؟ قال : لا . قال : جدِّدوا لعُمير عهدًا . قال : إنّ ذلك لشيءٌ ،لا عملتُ لك ، ولا لأحدٍ بعدك ، والله ما سلِمْتُ ، بل لم أسلم ، لقد قلتُ لنصراني : أي أخزاكَ الله ، فهذا ما عرّضتني له يا عمر ، وإنّ أشقىٰ أيامي يومَ خلفتُ معك . فاستأذنه فأذن له ، فرجع إلى منزله . قال : وبينه وبين المدينة أميالٌ ، فقال عمر - حين انصرف عُمير -: ما أراه إلا قد خاننا . فبعث رجلًا يُقال له : الحارث ، وأعطاه مائة دينار ، فقال له : انطلق إلى عمير ، حتى تنزل به كأنّك ضيف ، فإن رأيتَ أثر شيءٍ فأقْبل ،

وإن رأيت حالة شديدةً فادفع إليه هذه المائة الدينار . فانطلق الحارث ، فإذا هو بعميرٍ جالس يفلّي قميصه إلى جانب الحائط ، فسلّم عليه الرجل ، فقال له عمير : انزل ، رحمك الله . فنزل ثم سأله ؛ فقال : من أين جئت ؟ قال : من المدينة . قال : فكيف تركتَ أمير المؤمنين ؟ قال : صالحًا . قال: فكيف تركت المسلمين؟ قال: صالحين . قال: أليس يقيم الحدود ؟ قال : بلى ، ضرب ابنًا له أتى فاحشةً ، فمات من ضربه . فقال عمير : اللهمّ أعِنْ عمر ، فإني لا أعلمه إلا شديدًا حبُّه لك . قال : فنزل به ثلاثة أيام ، وليس لهم إلا قُرْصَةٌ مِن شعير ، كانوا يَخصُّونه بها ويَطْوون ، حتى أتاهم الجهد ، فقال له عمير : إنك قد أجعْتَنا ، فإنْ رأيتَ أن تتحوَّل عنّا فافعلْ . قال : فأَخرج الدنانير ، فدفعها إليه ، فقال : بعَثَ بها إليك أمير المؤمنين ، فاستعن بها . قال : فصاح وقال : لا حاجة لي فيها ، رُدّها . فقالت له امرأته : إن احتجت إليها ، وإلّا فضعْها مواضعها. فقال عمير : واللهِ ما لي شيء أجعلها فيه . فشقّتِ امرأته أسفل دِرْعها ، فأعطته خِرْقة ، فجعلها فيها ، ثم خرج ، فقسّمها بين أبناءِ الشهداء والفقراء ، ثم رجع ، والرسول يظنُّ أنه يُعطيه منها شيئًا ، فقال له عمير : أَقْرِأْ مني أميرَ المؤمنين السلامَ . فرجع الحارث إلى عمر ، فقال : ما رأيت ؟ قال : رأيتُ يا أمير المؤمنين حالًا شديدًا . قال : فما صنع بالدنانير ؟ قال : لا أدري . قال : فكتب إليه عمر : « إذا جاءَك كتابي هذا ، فلا تضعْه من يدك حتى تُقبل » . فأقبل إلى عمر رضي الله تعالى عنه ، فدخل عليه ، فقال له عمر : ما صنعتَ بالدنانير ؟ قال : صنعتُ ما صنعتُ ، وما سؤالك عنها ؟! قال : أُنشد عليك ، لَتُخبرَنِّي ما صنعت بها ؟ قال : قدّمتُها لنفسي . قال : رحمك الله . فأمر له بسُويقٍ من طعام وثوبين ، فقال : أما الطعام فلا حاجة لي فيه ، قد تركتُ في المنزل صاعينِ من شعيرٍ ، إلى أنْ آكلَ ذلك قد جاء الله تعالى بالرزق . ولم يأخذ الطعام ، وأمّا الثوبانِ ، فقال : إنّ أمَّ فلانٍ

عارية . فأخذهما ورجع إلى منزله ، فلم يلبثْ أنْ هلَك رحمه الله ، فبلغ عمر ذلك ، فشقّ عليه وترحّم عليه ، فخرج يمشي - ومعه المشّاءُون - إلى بقيع الغرْقَد ، فقال لأصحابه : لِيَتَمَنَّ كلُّ رجلٍ منكم أمنيةً . فقال رجل : وددتُ يا أمير المؤمنين أنّ عندي مالًا ، فأعتقُ لِوجه الله عز وجل كذا وكذا . وقال آخر : وددتُ يا أمير المؤمنين أنّ عندي مالًا ، فأنفق في سبيل الله . وقال آخر : وددتُ أنَّ لي قوةً ، فأمْتَحُ بدلْوي زمزمَ لحُجَّاج بيت الله . فقال عمر : وددتُ أنَّ لي رجلًا مثلَ عمير بن سعد ، أستعين به في أعمال المسلمين »[١] .

سعيدُ بن عامر الجُمَحي ، رضي الله عنه :

زهِد في الدنيا الفتّانة السحَّارة ، ونظر إلى طُلَّابها بعيْن الحَقارة ، وسلك منهج السابقين بالحثِّ والنِّذَارة ، ورغِب عن الدنيا ، مع تقلُّدِه الولايات ، وقيامه فيها برعايته العهود والأمانات .

قال حسّان بن عطية : لمّا عزَل عمر بن الخطاب رضي الله عنه معاويةَ عن الشام ، بعث سعيد بن عامر بن جُذيم الجمحي . قال : فخرج معه بجارية من قريشٍ نضيرة الوجه ، فما لبث إلّا يسيرًا حتى أصابته حاجةٌ شديدة ، قال : فبلغ ذلك عمر ، فبعث إليه بألف دينار . قال : فدخل بها على امرأته ، فقال : إنّ عمر بعث إلينا مما تَرَيْن . فقالت . لو أنك اشتريتَ لنا أَدَمًا وطعامًا ، وادّخرتَ سائرها . فقال لها : أو لا أدلُّك على أفضلَ من ذلك ؟ نعطي هذا المال من يتجر لنا فيه ، فنأكل مِن ربحها،وضمانها عليه . قالت : فنعم إذن . فاشترى أدمًا وطعامًا ، واشترى بعيريْن ، وغلاميْن يمتارانِ عليهما حوائجَهم ، وفرّقها في المساكين وأهل الحاجة . قال : فما لبث إلّا يسيرًا حتى قالت له امرأته : إنه قد نفد كذا وكذا ، فلو أتيتَ ذلك الرجل فأخذتَ

(١) الحلية ١/٢٤٧ - ٢٥٠ .

لنا من الربح فاشتريتَ لنا مكانه . قال : فسكت عنها . قال : ثم عاودتْه . قال : فسكت عنها حتى آذتْه ، ولم يكن يدخل بيته إلّا من ليلٍ إلى ليلٍ . قال : وكان رجل من أهل بيتـه ممن يدخل بدخوله ، فقال لها : ما تصنعين ، إنك قد آذيْتِيه ؟ وإنه قد تصدّق بذلك المال . قال : فبكتْ أسفًا على ذلك المال ، ثم إنه دخل عليها يومًا ، فقال : على رسلِك ، إنه كان لي أصحاب فارقوني منـذ قريب ، ما أحبّ أني صددتُ عنهم وأنّ لي الدنيا وما فيها ، ولو أن خيرة من خيراتِ الحسان اطّلعتْ من السماء ، لأضاءَت لأهل الأرض ، ولَقَهر ضوءُ وجهها الشمسَ والقمرَ ، ولَنصيفٌ تُكْسى خيرٌ من الدنيا وما فيها ، فلأنت أحرى في نفسي أنْ أدعكِ لهُنّ منْ أن أدعهن لك . قال : فسمحت ورضيت .

« قال خالد بن معدان : استعمل علينا عمر بن الخطاب بحمص سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي ، فلمّا قدِم حمص ، قال : يا أهل حمص ، كيف وجدتم عاملَكم ؟ فشكَوْه إليه . وكان يُقال لأهل حمص : الكُوَيْفة الصغرى ، لِشكايتهم العمال . قالوا : نشكو أربعًا ؛ لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار . قال : أعظِم بها . قال : وماذا ؟ قالوا : لا يجيب أحدًا بليلٍ . قال : وعظيمة . قال : وماذا ؟ قالوا : وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا . قال : عظيمة . قال : وماذا ؟ قالوا : يغنظ الغنظة بين الأيام . يعني : تأخذه موْتة . قال : فجمع عمر بينهم وبينه ، وقال : اللهمّ لا تُفيِّلْ[1] رأيي فيه اليوم ، ما تشكون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار . قال : واللهِ إنْ كنتُ لأكره ذكره ، ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأ ، ثم أخرج

(١) لا تفيل : لا تُخَيِّبْ .

إليهم . فقال : ما تشكون منه ؟ قالوا : لا يُجيب أحدًا بليلٍ . قال : ما تقول ؟ قال : إنْ كنتُ لأكرهُ ذكره ؛ إني جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عز وجل . قال : وما تشكون ؟ قالوا : إنّ له يومًا في الشهر لا يخرج إلينا فيه . قال : ما تقول ؟ قال : ليس لي خادم يغسل ثيابي ، ولا لي ثيابٌ أُبدِّلها ، فأجلس حتى تجفَّ ، ثم أدلكها ، ثم أخرج إليهم مِن آخر النهار . قال : ما تشكون منه ؟ قالوا : يَغْنظ الغَنْظة بين الأيام . قال : ما تقول ؟ قال : شهدت مصْرَعَ خبيب الأنصاري بمكة ؛ وقد بضعتْ قريش لحمَه ، ثم حملوه على جذْعَة ، فقالوا : أتحبُّ أنَّ محمدًا مكانك ؟ فقال : والله ما أحبُّ أني في أهلي وولدي ، وأنّ محمدًا ﷺ شِيكَ بشوْكة . ثم نادى : يا محمد . فما ذكرتُ ذلك اليوم ، وتركي نُصْرته في تلك الحال - وأنا مشركٌ لا أؤمن بالله العظيم - إلا ظننتُ أنّ الله عز وجل لا يغفر لي بذلك الذنب أبدًا . قال : فتصيبني تلك الغَنْظَة . فقال عمر : الحمد لله الذي لم يُفَيِّلْ فراستي . فبعث إليه بألف دينار ، وقال : استعنْ بها على أمرك . فقالت امرأته : الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك . فقال لها : فهل لك في خير من ذلك : أدفعُها إلى من يأْتينا بها أحوجَ ما نكون إليها ؟ قالت : نعم . فدعا رجلًا من أهل بيته يثق به ، فصرّها صُرَرًا ، ثم قال : انطلقْ بهذه إلى أرملة آل فلان ، وإلى يتيم آل فلان ، وإلى مسكين آل فلان ، وإلى مُبتلَى آل فلان . فبقيتْ منها ذُهيْبَة ، فقال : أنفقي هذه . ثم عاد إلى عمله ، فقالت : ألَا تشتري لنا خادمًا ؟ ما فعل ذلك المال ؟ قال : سيأتيك أحوجَ ما تكونين »[(١)].

سعد بن أبي وقّاص :

عن عامر بن سعد ، أنّ أباه سعدًا كان في غَنَمٍ له ، فجاء ابنه عمر ،

---

(١) الحلية ١/٢٤٤ - ٢٤٦ .

فلما رآه قال : أعوذ بالله من شرّ هذا الراكب . فلما انتهى إليه قال : يا أبتِ ، أرضيتَ أنْ تكون أعرابيًّا في غَنَمِك ، والناس يتنازعون في الملْك بالمدينة ؟! فضرب صدر عمر ، وقال : اسكت ؛ فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الله عز وجل يحبُّ العبد التقيَّ الغَنيَّ الخَفِيَّ »[(١)].

عبد الرحمٰن بن عَوْف ، رضي الله عنه :

عن المِسْور قال : لمّا وُلِّي عبد الرحمن بن عوف الشورىٰ ، كان أحبّ الناس إليّ أنْ يَلِيَه ؛ فإنْ تركَ فسعدٌ ، فلحقني عمرو بن العاص فقال : ما ظنُّ خالِك عبد الرحمن بالله ، إنْ ولَّى هذا الأمر أحدًا ، وهو يعلم أنه خير منه ؟! فأتيتُ عبد الرحمن ، فذكرتُ ذلك له ، فقال : واللهِ لَأَنْ تؤخَذْ مديةٌ فتوضع في حلقي ، ثـم ينفذ بها إلى الجانب الآخر ، أحب إليّ من ذلك[(٢)] .

وعن عبد الرحمن بن أزهر أن عثمان اشتكى رُعافًا ، فدعا حُمران فقال : اكتبْ لعبد الرحمن العَهْد من بعدي . فكتب له ، وانطلق حمرانُ إلى عبد الرحمن ، فقال : البُشْرى . قال : وما ذاك ؟ قال : إنَّ عثمان قد كتب لك العهد من بعده . فقام بين القبر والمنبر ، فدعا ، فقال : اللهم إن كان مِن تولية عثمان إيّاي هذا الأمر ، فأَمِتْني قبله . فلم يمكثْ إلا ستة أشهر حتى قبضه الله[(٣)].

قال الذهبي : « مِن أفضل أعمال عبد الرحمن بن عوف : عزلُه نفسه من الأمر وقت الشورى ، واختياره للأمة مَن أشار به أهلُ الحَلِّ والعقْد ، فنهض في ذلك أتمَّ نهوضٍ على جمعِ الأمة على عثمان ، ولو كان محابيًا فيها ، لأخذها

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/٨٧ - ٨٨ ، وابن سعد في الطبقات ٣/١/٩٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/٨٨ .

لنفسه ، أوْ لَوَلّاها ابنَ عمّه وأقرب الجماعة إليه : سعد بن أبي وقاص »[١] .

قال أبو العُبَيْدِيْن لعبد الله بن مسعود : يا أصحابَ محمد ، لا تختلفوا فتشقُّوا علينا . فقال : يرحمك الله أبا العبيدين ، إنما أصحاب محمد ﷺ الذين دُفنوا معه في البُرُد[٢] .

عبد الله بن عمر :

قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيتُ أحدًا أشبَه بأصحاب النبي ﷺ - الذين دُفنوا في النّمار - من عبد الله بن عمر[٣] .

وعن عبد الله بن المبارك قال : حدثنا وهيب أن ابن عمر باع حمارًا ، فقيل له : لو أمسكْته . فقال : لقد كان لنا موافقًا ، ولكنه أذهب بشُعبةٍ من قلبي ، فكرهت أنْ أشغل قلبي بشيءٍ[٤] .

عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنهما :

قال عبد الله بن عمرو : مرّ عليّ رسول الله ﷺ ، ونحن نعالج خُصًّا لنا وهِيَ : فقال : « ما هذا ؟ » . فقلنا : خُصٌّ لنا وَهِيَ فنحن نصلحه . فقال رسول الله ﷺ : « ما أرى الأمر إلا أعجل مِن ذلك »[٥] .

وعنه رضي الله عنه قال : مرّ بي رسول الله ﷺ ، وأنا أُطيّنُ حائطًا

---

(١) السير ١/٨٦ .

(٢) يعني : دُفنوا في برودهم التي كانت على أجسامهم ، لم يجدوا لهم كفنًا لما كانوا فيه من ضيق العيش . انظر الزهد والرقائق ص١٨٤ .

(٣) الحلية ١/٣٠١ .

(٤) الزهد والرقائق ص١٩٤ .

(٥) رواه أبو داود ، وابن ماجه والترمذي ، وصححه الترمذي ، والألباني في صحيح أبي داود رقم ٤٣٦٢ .

لي ، أنا وأمي ، فقال :« ما هذا يا عبد الله ؟ » . فقلتُ : يا رسول الله ، شيء أصلحه . فقال : « الأمر أسرع مِن ذاك »[١].

فضالة بنُ عبيد ، والي مصر :

« رُئي فضالة بن عبيد - وهو والي مصر - أشعثَ حافيًا ، فقيل له : أنت الأمير ، وتفعل هذا ؟! فقال : نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاء ، وأمرنا أن نحتفي أحيانًا »[٢].

عَمرُو بن الأسود العَنْسي :

قال رحمه الله : « لا ألبس مشهورًا أبدًا ، ولا أنام بليلٍ أبدًا على دِثار أبدًا ، ولا أركب على مأثور أبدًا ، ولا أملأ جوْفي من طعامٍ أبدًا » . فقال عمر : « مَن سرّه أن ينظر إلى هدي رسول الله ﷺ ، فلينظر إلى عمرو بن الأسود »[٣].

سُويد بن غَفَلة بن عَوْسجة ، الإمام القدوة :

كان رحمه الله إذا قيل له : أُعطيَ فلانٌ ، ووُلِّي فلانٌ . قال : حسبي كسرتي ومِلْحي .

وعن علي بن المديني رحمه الله : دخلتُ منزلَ أحمد بن حنبل ، فما شبّهته إلّا بما وُصِف مِن بيت سُوَيد بن غَفَلة ؛ من زهدِه وتواضعِه،رحمه الله[٤].

أُوَيْس القرني: سيِّد التابعين، وشيخ الزُّهاد والعابدين، كبيرُ أولياء التابعين، الإمام القدوة :

« قال علقمة بن مَرْثد : انتهى الزهد إلى ثمانيةٍ من التابعين : عامر بن

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم ٤٣٦١ .
(٢) أخرجه أبو داود بإسناد جيد .
(٣) رواه أحمد بإسناد جيد - الإحياء ٤/٢٤٦ .
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/٧١ - ٧٢ .

عبد الله، وأويس القَرْني، وهرم بن حيّان، والربيع بن خُثيم، وأبو مسلم الخولاني، والأسود بن يزيد ، ومسروق بن الأجدع ، والحسن بن أبي الحسن »[١] .

قال علقمة بن مرثد : « وأمّا أويس القرني ، فإنّ أهلَه ظنُّوا أنه مجنون ، فبنَوْا له بيتًا على باب دارهم ، فكانت تأتي عليهم السَّنَة والسنون ، لا يرون له وجهًا ، وكان طعامه ممّا يُلتقَط من النوىٰ ، فإذا أمسى باعه لإفطاره ، وإنْ أصاب حَشَفةً حَبسها لإفطاره ، فلما وُلّي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يا أيُّها الناس ، قوموا بالمَوْسم . فقاموا ، فقال : ألَا اجلسوا ، إلّا من كان من أهل الكوفة . فجلسوا ، فقال : ألَا اجلسوا ، إلّا مَن كان مِن أهل اليمن . فجلسوا ، فقال : ألا اجلسوا ، إلا مَن كان مِن مراد . فجلسوا ، فقال : ألا اجلسوا إلا مَن كان مِن قرن . فجلسوا إلا رجل ، وكان عَمّ أُويس بن أنيس ، فقال له عمر : أقَرنيٌّ أنت ؟ قال : نعم . قال : أتعرف أويْسًا ؟ قال : وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين ؟! فوالله ما فينا أحمق منه ، ولا أجنّ منه ، ولا أحوج منه . فبكى عمر ، وقال : بكَ لا بهِ » .

« وعن أسير بن جابر قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إذا أتى عليه أمدادُ أهل اليمن سألهم : أفيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى عليه أُوَيْس ، فقال : أويسُ بن عامر ؟ قال : نعم . قال : مِن « مراد » ثم مِن « قرن » ؟ قال : نعم . قال : فكان بك بَرَصٌ فبرئْتَ منه إلا موضع درهم ؟ قال : نعم . قال : لك والدة ؟ قال : نعم . قال:رسول الله ﷺ يقول : « يأتي عليكم أويسُ بن عامر مع أمدادِ أهل اليمن مِن مراد ، ثم من قرن ،

(١) زهد الثمانية من التابعين لعلقمة بن مرثد ، رواية : ابن أبي حاتم ص٣٨ تحقيق : د . عبد الرحمن الفريوائي – مكتبة الدار ، بالمدينة المنورة .

كان به بَرَصٌ فبرئ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو برٌّ بها ، لو أقسم على الله لأَبَرَّهُ ... فإنِ استطعتَ أنْ يستغفر لك ، فافعلْ » . فاستغفرْ لي ، فاستغفر له ، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة . قال : ألَا أكتب لك إلى عامِلها ؟ قال : أكون في غَبْراء الناسِ أَحَبُّ إليّ . فلما كان من العام المُقْبل ، حجَّ رجلٌ مِن أشرافهم ، فوافق عمرَ ، فسأله عن أُوَيْس ، قال : تركتُه رثَّ البيت ، قليلَ المتاع . قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول ... ثم ذكر الحديث الذي تقدّم ، فأتى أوَيْسًا ، فقال : استغفر لي . قال : أنت أحدثُ عهدًا بسَفَرٍ صالحٍ ، فاستغفر لي . قال : استغْفِرْ لي . قال : أنت أحدثُ عهدًا بسفرٍ صالحٍ ، فاستغفر لي . قال : لقيتَ عمر ؟ قال : نعم ، فاستغفرَ له . ففطن له الناس ، فانطلق على وجهه ، قال أسير : وكسوتُه بُرْدة ، فكان كلّما رآه إنسانٌ قال : مِن أينَ لأويس هذه البُرْدة »[1] .

وعن أسير بن جابر قال : « كان بالكوفة رجلٌ يتكلم بكلامٍ لا أسمع أحدًا يتكلم به ، ففقدتُه ، فسألت عنه ، فقالوا : ذاك أويس . فاستدللْتُ عليه وأتيته ، فقلت : ما حبسك عنّا ؟ قال : العُرْيُ . قال : وكان أصحابه يسخرون به ويُؤْذُونه . قلت : هذا بُرْدٌ ، فخذْه . قال : لا تفعل ؛ فإنهم إذًا يؤذونني . فلم أزلْ به حتى لبِسَه ، فخرج عليهم ، فقالوا : مَن ترَوْن خدَع عن هذا البرد ؟ قال : فجاء فوضعه ، فأتيتُ فقلتُ : ما تريدون مِن هذا الرجل فقد آذيْتموه ؟ الرجل يَعْرىٰ مرةً ، ويكتسي أخرى ، وآخذتهم بلساني أخذًا شديدًا » ... ثم نحوًا من رواية مسلم ، وفي نهايته : « فلما فشا الحديثُ ، هربَ فذهب »[2] .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/٤ - ٢٤ ، وطبقات ابن سعد ٦١/٦ ، والحلية ٧٩/٢ .

« وعن مغيرة : إن كان أويسُ القرني ليتصدّق بثيابه ، حتى يجلس عُريانًا ، لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة »(١) .

« وعن سعيد بن المسيب قال : نادى عمر بـ « مِنى » ، على المنبر : يا أهل قرن . فقام مشايخ ، فقال : أفيكم مَن اسمه أويس ؟ فقال شيخ : يا أمير المؤمنين ، ذاك مجنون يسكن القِفار ، لا يألفُ ولا يُؤْلَفُ . قال : ذاك الذي أعنيه ، فإذا عُدتم فاطلبوه ، وبلّغوه سلامي وسلام رسول الله ﷺ . قال : عرّفني أميرُ المؤمنين وشهّر باسمي ، اللهمّ صلّ على محمد وعلى آله ، السلام على رسول الله ثم هامَ على وجهه ، فلم يُوقَف له بعد ذلك على أثر دَهْرًا ، ثم عاد في أيام عليٍّ رضي الله عنه ، فاستُشهِد معه بـ « صِفين » ، فنظروا فإذا عليه نيِّف وأربعون جراحة »(٢) .

قال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : « الزهدُ زهدُ أويس ، بلَغ مِن العُرْي أنْ جلس في قَوْصَرة »(٣).

أبو مسلم الخَوْلاني : « سيّدُ التابعين وزاهدُ العصر »(٤):

قال عنه كعب : هذا حكيم هذه الأمة .

عن علقمة بن مَرثد قال : « انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين منهم أبو مسلم الخَوْلاني ، وكان لا يجالس أحدًا قطُّ ، ولا يتكلّم في شيءٍ من أمر الدنيا إلّا تحوّل عنه ، فدخل ذات يوم المسجد ، فنظر إلى نفرٍ قد اجتمعوا ، فرجا أنْ يكونوا على ذكْر خير ، فجلس إليهم ، فإذا بعضهم

---

(١) الحلية ٢/٨٤ .
(٢) السير ٢/٣٢ .
(٣) الإحياء ٤/٢٤٣ .
(٤) هذا قول الذهبي في السير ٤/٧ .

يقول : قدم غلامي فأصاب كذا وكذا . وقال آخر : جهّزتُ غلامي . فنظر إليهم فقال : سبحان الله ! أتدرون ما مَثَلي ومَثَلكم ؟ كرجلٍ أصابه مطرٌ غزيرٌ وابِلٌ . فالتفتَ فإذا هو بمصراعيْنِ عظيميْنِ ، فقال : لو دخلتُ هذا البيت حتى يذهب عني هذا المطر . فدخل ، فإذا البيتُ لا سقْفَ له ، جَلستُ إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على ذكرٍ وخيرٍ ، فإذا أنتم أصحابُ الدنيا »(١).

وعن عطاء قال : « كان أبو مسلم الخَوْلاني إذا انصرف إلى منزله من المسجد ، كبّر على باب منزله ، فتُكبّر امرأتُه ، فإذا كان في صحْن داره كبّر ، فتجيبه امرأته ، فانصرف ذات ليلة فكبّر عند باب داره فلم يجبْه أحد ، وكان إذا دخل بيته ، أخذتِ امرأته رداءَه ونعلَيْه ، ثم أتتْه بطعامه . قال : فدخل البيت ، فإذا البيت ليس فيه سِراج ، وإذا امرأته جالسةٌ في البيت مُنكِسَةٌ تنكُتُ بعُود معها ، فقال لها : ما لكِ ؟ قالت : أنت لك منزلة من معاوية ، وليس لنا خادم ، فلو سألته ، فأخدَمنا وأعطاك . فقال : اللهمّ مَن أفسد عليّ امرأتي فأَعْمِ بصره . قال : وقد جاءتها امرأةٌ قبل ذلك ، فقالت لها: زوجُك له منزلة من معاوية، فلو قلت له يسأُل معاوية، يخدمه ويعطيه ، عِشْتم . قال : فبينا تلك المرأة جالسةٌ في بيتها إذْ أنكرتْ بصَرَها ، فقالت : ما لِسِراجكم طُفِئَ ؟ قالوا : لا ! فعرفت ذنبها ، فأقبلت إلى أبي مسلم تبكي ، وتسأله أن يدعو الله عز وجل لها أنْ يردَّ عليها بصرها . قال : فرحمها أبو مسلم ، فدعا الله لها ، فردّ عليها بصرها »(٢).

صَفْوان بنُ مُحَيْرِيز :

قال الحسن : دخلْنا على صفوان بن محيريز وهو في بيتٍ من قَصَب ،

---

(١) الحلية ٢/١٢٣ .

(٢) الحلية ٢/١٣٠ .

قد مال عليه ، فقيل له : لو أصلحْتَه ؟ فقال : كمْ مِن رجلٍ قد مات ، وهذا قائمٌ على حاله[(١)].

أبو حــازم :

قالت امرأةُ أبي حازم لأبي حازم : هذا الشتاء قد هجم علينا ، ولا بدَّ لنا من الطعام والثياب والحطب . فقال لها أبو حازم : مِن هذا كلِّه بدٌّ ، ولكن لا بدَّ لنا من الموت ، ثم البعث ، ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ، ثم الجنة ، أو النار[(٢)].

راهِبُ العرب : عامرُ بن عبدِ قيْس :

القدوة الولي الزاهد أبو عبد الله .

قال العجلي : كان ثقة من عباد التابعين ، رآه كعب الأحبار ، فقال : هذا راهب هذه الأُمّة .

عن الحسن ، أن عامرًا كان يقول : مَن أُقرىءُ ؟ فيأتيه ناسٌ ، فيُقرئهم القرآن ، ثم يقوم فيصلّي إلى الظهر ، ثم يصلّي إلى العصر ، ثم يُقرِىء الناس إلى المغرب ، ثم يصلّي ما بين العشاءَين ، ثم ينصرف إلى منزله ، فيأكل رغيفًا ، وينام نوْمةً خفيفةً ، ثم يقوم لصلاته ، ثم يتسحَّر رغيفًا ، ويخرج .

قال بلال بن سعد : « وشي بعامر بن عبد قيس إلى زياد ، فقالوا : ها هنا رجلٌ قيل له : ما إبراهيمُ عليه السلام خيرًا منك . فسكَتَ ، وقد ترك النساء . فكتب فيه إلى عثمان ، فكتب إليه : انفِهِ إلى الشام على قَتب[(٣)]. فلمّا جاءه الكتاب ، أرسل إلى عامر ، فقال : أنت قيل لك : ما إبراهيم خيرًا منك فسَكَتَّ ؟! قال : أمَا واللهِ ما سكوتي إلا تعجُّبٌ ،

---

(١) الإحياء ٤/٢٥٠ .
(٢) الإحياء ٤/٢٣٩ .
(٣) الرَّحْل الصغير على قدْر سنام البعير .

ولَوَدِدتُ أني غبارُ قدميْه . قال : وتركتَ النساء ؟ قال : واللهِ ما تركتهنَّ إلّا أني قد علمتُ أنه يَجيءُ الولد ، وتَشَعَّبُ فيَّ الدنيا ، فأحببتُ التخلِّي . فأجْلَاه على قَتَبٍ إلى الشام ، فأنزله معاويةُ معه في الخضراء[١] وبعث إليه بجارية ، وأمرها أنْ تُعلمَه ما حاله . فكان يخرج من السَّحَر ، فلا تراه إلّا بعد العَتَمة ، فيبعث معاوية إليه بطعام ، فلا يعرض له ، ويَجيءُ معه بكِسَرٍ ، فيَبلُّها ويأكل ، ثم يقوم إلى أن يسمع النداء فيخرج ، فكتب معاوية إلى عثمان يذكر حاله ، فكتب : اجعلْه أوَّلَ داخلٍ وآخِرَ خارجٍ ، ومُرْ له بعشرةٍ من الرَّقيق ، وعشرةٍ من الظهْر . فأحضَره وأخبَره ، فقال : إنَّ عليّ شيطانًا قد غلبني ، فكيف أجمع عليّ عشرة . وكانت له بغلة »[٢] .

« وعن ميمون بن مهران ، أن عامر بن عبد قيس بعث إليه أميرُ البصـرة : ما لك لا تَزَوّجُ النساءِ ؟ قال : ما تركتُهنَّ ، وإني لدائبٌ في الخِطبة . قال : وما يمنعك أن تأتي الأمراء ؟ قال : إنَّ لدىٰ أبوابكم طُلَّاب الحاجات ، فادْعوهم واقضوا حاجاتِهم ، ودعُوا مَن لا حاجة له إليكم »[٣] .

لله ما أحلى هـذه الكلمات ! تخرج من فمٍ طاهرٍ ، وتفيض رقّة وعُذوبة ، وزهْدًا في الدنيا ، وإقبالًا على الآخرة ، وسعيًا حثيثًا للزّواج من الحُور العِين ، يترجمها بقوله : « وإني لدائبٌ في الخِطْبة » .

« عن الحسن ، قال عامر بن عبد قيس : العيش في أربع : اللّباس ، والطعام ، والنوم،والنساء ؛ فأمّا النساء ، فواللهِ ما أُبالي : امرأة رأيتُ أو جدارًا ، وأمّا اللباس : فواللهِ ما أبالي ما واريتُ به عوْرتي ، وأما الطعام ،

---

(١) وهي دار الإمارة بدمشق .

(٢) السير ٤/١٦ .

(٣) السير ٤/١٨ .

والنوم : فلقد غلبَاني ، والله لأضارَنَّهُما جهدي . قال الحسن : فأضرّ - واللهِ - بهما .

وفي رواية : الدنيا أربعة أجزاء : المال والنساء ، والنوْم والطعام ؛ أمّا المال والنساء : فلا حاجة لي بهما ، وأما الآخرانِ : فأيْمُ الله ، لأضُرّنَّ بهما . وقال : لأجعلنَّ الهمَّ واحدًا .

وفي رواية : واللهِ لئنِ استطعتُ ، لأجعلنَّ الهمَّ همًّا واحدًا . قال الحسن : ففعلَ وربِّ الكعبة »[١].

قال شيخ الحرم أبو سعيد بن الأعرابي : وهذا على ما قيل في الزهد أن يكون الهمّ همًّا واحدًا لله عز وجل وحده ، وهو غاية الزهد .

مَسرُوق بن الأجْدع :

« غاب رحمه الله عاملًا على السلسلة سنتيْن ، ثم قدم ، فنظر أهلُه في خُرْجه فأصابوا فأسًا ، فقالوا : غِبتَ ثم جئتَنا بفأس بلا عُودٍ . قال : إنا للهِ ؛ استعرناها ، نسينا نردُّها »[٢] .

قال مسروق رحمه الله : « إني أحسن ما أكون ظنًّا ، حين يقول لي الخادم : ليس في البيت قفيزٌ ولا درهم » .

قال الأصمعي : كان مسروق يتمثَّل :

ويَكفيكَ ممَّا أُغلق البابُ دُونَهُ　　وأُرخي عليه السِّتْرُ ملحٌ وجَرْدق
وماءٌ فراتٌ باردٌ ثمَّ تَغْتَدي　　تعارِضُ أصحابَ الثَّريدِ المُلَبَّق
تجشأ إذَا ما همْ تجشَّوْا كأنَّما　　غُذيتَ بألوانِ الطعامِ المُفتَّق[٣]

---

(١) الزهد الكبير ٨٨ - ٨٩ ، والحلية ٢/٨٧ - ٩١ .
(٢) السير ٤/٦٦ .
(٣) الحلية ٢/٩٧ .

الحسـن البصْري : الفقيهُ الزاهد ، المتشمِّر العابد :

كان لفضول الدنيا وزينتها نابذًا ، ولِشهوةِ النفس ونخْوتها واقذًا[(١)] .

وكان رحمه الله إذا ذُكر صاحب الدنيا ، يقول : « والله ما بقيتْ له ولا بقي لها ، ولا سَلِم من تبعَتِها ولا شرِّها ولا حسابها ، لقد أخرج منها في خرق »[(٢)] .

وقال الحسن : رحم الله عبدًا جعل العيْش عيشًا واحدًا . رحم الله رجلًا لبس خَلِقًا ، وأكل كِسرة ، ولصِق بالأرض ، وبكى على الخطيئة ، ودأب في العبادة ، وهرب من العقوبة ابتغاءَ الرحمة ، حتى يأتيه أجلُه وهو على ذلك .

« عن حميد الطويل قال : خطب رجل إلى الحسن ، وكنت أنا السفير بينهما . قال : فكانْ قد رضيه ، فذهبتُ يومًا أُثني عليه بين يديْه ، فقلت : يا أبا سعيد ، وأزيدك أنّ له خمسين ألفِ درهم . قال : له خمسون ألفًا ، ما اجتمعت من حلال . قلت : يا أبا سعيد ، إنه - كما علمتُ - ورِعٌ مسلم . قال : إنْ كان جمَعها من حلال ، فقد ضَنّ بها عن حقٍّ ، لا والله ، لا جَرَىٰ بيننا وبينه صهرٌ أبدًا »[(٣)] .

وقال الحسن رحمه الله : وأيمُ الله ، ما من عبدٍ قُسم له رزقُ يومٍ بيومٍ ، فلم يعلم أنه قد خير له ، إلّا عاجزٌ أو غبيُّ الرأي .

وقال هشام : سمعتُ الحسن يحلف بالله:ما أعزَّ أحدٌ الدرهمَ إلّا أذلّه الله.

---

(١) الوقذ : الضرب حتى يُشرف على الموت .
(٢) الحلية ٢/١٤٤ .
(٣) الحلية ٢/١٥١ .

وعن ابن شَوْذب ، قال : لمّا مات الحجّاج ووَلي سليمان فأقطع الناس الموت ، فجعل الناسُ يَأخذون . فقال ابن الحسن لأبيه : لو أخذنا كمَا يأخذ الناس ؟ فقال : اسكت ، ما يسرّني لو أنّ لي ما بين الجسْرَيْن بزنبيلٍ ترابٍ .

وقال أبو موسى : كنا عند الحسن ، فجاءَ ابنه فقال : أي أَبَهْ ، إنّ هذا السهم قد انكسر . فنظر إليه الحسن ، فقال : الأمر أعجلُ مِن ذلك .

« وقال الحسن : لمّا بعث الله عز وجل محمدًا ﷺ ، يعرفون وجهه ويعرفون نسبه ، قال : هذا نبيٌّ ، هذا خياري ، خذوا من سنته وسبيله ، أما واللهِ ما كان يُغدىٰ عليه بالجفانِ ولا يُراح ، ولا يُغلق دونَه الأبواب ، ولا تقوم دونه الحَجَبَه ، كان يجلس بالأرض ، ويُوضَع طعامُه بالأرض ، ويلبَس الغليظ ، ويركب الحمار ، ويُرْدِف خلفه ، وكان يلعَق يده .

قال الحسن : ما أكثر الراغبين عن سنة نبي الله ﷺ ، وما أكثر التّاركين لها . ثم إنّ عُلوجًا فُسَّاقًا ، أَكَلَة ربًا وغلولٍ – قد شغلهم ربي عز وجل ومَقَتَهم – زعموا أنْ لا بأسَ عليهم فيما أكلوا وشربوا ، وستروا البيوت وزخرفوها . ويقولون : مَن حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ ويذهبون بها إلى غير ما ذهب الله بها إليه ؛ إنما جعل الله ذلك لأولياء الشيطان . الزينةُ ما رُكِبَ ظَهْرُه ، والطيبات ما جعل الله تعالى في بطونها ، فيَعمَد أحدهُم إلى نعمة الله عليه ، فيجعلها مَلاعبَ لبطْنِه وفرجه وظَهْره ، ولو شاء الله – إذْ أعطى العبادَ ما أعطاهم – أباح ذلك لهم ، ولكن تعقَّبها بما يسمعون : ﴿ **وَكُلُوا واشْرَبُوا ولا تسْرفُوا إنَّهُ لا يُحبُّ المُسْرِفين** ﴾ [الأعراف: ٣١]، فمَن أخذ نعمة الله وطُعْمتَهُ، أكل بها هنيئًا مريئًا، ومَن جعلها ملاعبَ لبطنه وفرجه وعلى ظهره ، جعلها وَبالًا يوم القيامة »(١).

(١) الحلية ٢/١٥٣ – ١٥٤ .

وقال رحمه الله : « من رأى محمدًا ﷺ ، فقد رآه غاديًا رائحًا ، لم يضع لَبِنَةً على لبنة ، ولا قصبةً على قصبة ، رُفع له عَلَمٌ فشمّر له . النَّجا النَّجا ، ثم الوَحَا الوَحَا . على ما تعرجون ، وقد أسرع بخياركم ، وذَهب نبيُّكم ﷺ ، وأنتم في كلِّ يومٍ ترذلون ؟ العيانَ العيَانَ »[1] .

وقال رحمه الله : « واللهِ لقد أدركتُ سبعين بدريًّا ، أكثر لباسهم الصوف ، لو رأيتموهم لقلتم : مجانين ، ولو رأوا خياركم ، لقالوا : ما لهؤلاءِ مِن خَلاق ، ولو رأوا شرارَكم ، لقالوا : ما يُؤْمِن بيوم الحساب .. ولقد رأيتُ أقوامًا ، كانت الدنيا أهونَ على أحدهم من التراب تحت قدميْه ، ولقد رأيتُ أقوامًا ، يُمسي أحدهم لا يجدُ عشاءً إلا قوتًا ، فيقول : لا أجعل هذا كلَّه في بطني ، لأجعلنَّ بعضَه لله عز وجل . فيتصدّق ببعضه ، وإنْ كان هو أحوج ممَّن يتصدّق عليه »[2] .

قال رحمه الله : أدركتُ أقوامًا وصحبتُ طوائف ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أَقْبَل ، ولا يأسفون على شيءٍ منها أدبر ، ولَهِيَ كانت في أعينهم أهونَ من التراب : كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة ، لم يُطْوَ له ثوب ، ولم يُنصب له قِدْر ، ولم يَجعل بينه وبين الأرض شيئًا ، ولا أمر في بيته بصنعة طعامٍ قطُّ ، فإذا كان الليل ؛ فقيامٌ على أقدامهم ، يفترشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يُناجون ربَّهم في فِكَاك رقابهم ، كانوا إذا عملوا الحسنة دأَبوا في شُكْرها ، وسألوا الله أنْ يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتْهم ، وسألوا الله أنْ يغفرها لهم ، فلم يزالوا على ذلك ، واللهِ ما سلموا من الذنوب ، ولا نَجوا إلّا بالمغفرة ، رحمة الله عليهم ورضوانه[3] .

---

(١) الحلية ٢/١٥٤ .

(٢) زهد الثمانية من التابعين ص٦٥ - ٦٦ .

(٣) الإحياء ٤/٢٣٩ .

قال سلام بن مسكين : كان الحسن كثيرًا ما يقول : يا معشرَ الشباب ، عليكم بالآخرة فاطلبوها ، فكثيرًا ما رأينا مَن طلب الآخرة ، فأدركها مع الدنيا ، وما رأينا أحدًا طلب الدنيا ، فأدرك الآخرة مع الدنيا .

وكان الحسنُ يقول عن الدنيا : « خَبَاثُ ! كلُّ عيدانِك مضضْنَا ، فوجدنا عاقبته مُرًّا » .

للهِ ما أحلَى هذا الكلام مِن الحسن، الذي يُشبِه كلامُه كلامَ الأنبياء!!.

وقال الحسن : الزاهد : الذي إذا رأى أحدًا ، قال : هذا أفضلُ مني .

إبراهيم التيمي :

قال رحمه الله : كم بينكم وبين القوم ؟! أقبلتْ عليهم الدنيا فهَربوا منها ، وأدبرتْ عنكم فاتّبعتموها[1] .

وقال (**بلال بن سعد**): عباد الرحمن ، أمّا ما وكلكم الله به فتضيّعون ، وأما ما تكفّل الله لكم به فتطْلُبون ، ما هكذا بعث الله عباده المُوقنين . ذوو عقول في طلب الدنيا ، وبُلْه عمّا خُلِقْتم له ؟! فكما ترجون الله بما تُؤَدُّون في طاعته ، فكذلك : أشفقوا من عقاب الله بما تنتهكون من معاصي الله[2] .

نعم العاقل مَن زهِد في الدنيا وطَلَب الآخرة :

« قال أبو الدرداء رضي الله عنه : لئنْ حلفتم لي على رجلٍ منكم أنه أزهدكم ، لَأَحلفنَّ لكم أنه خيركم » .

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك ص١٩٤ .

(٢) الزهد الكبير ص٨٨ .

وقال عبد الله بن مسعود : مَن أراد الآخرة أضرّ بالدنيا ، ومَن أراد الدنيا أضرّ بالآخرة ، يا قوم ، فأضرُّوا بالفاني للباقي .

« ودخل رجل على أبي ذرٍّ ، فجعل يُقلّب بصرَه في بيته ، فقال : يا أبا ذرٍّ ، ما أرى في بيتِك متاعًا ، ولا غير ذلك مِن الأثاث ! فقال : إنّ لنا بيتًا نوجِّه إليه صالِحَ متاعنا . فقال : إنه لا بدَّ لك مِن متاعٍ ، ما دمتَ ها هنا . فقال : إنّ صاحب المنزل لا يَدَعُنا فيه »[١].

عمـر بن عبد العزيـز :

قال مالك بن دينار : يقولون : مالكٌ زاهد ، أيُّ زهدٍ عند مالك ، وله جُبَّة وكِساء ؟! إنما الزاهد : عمر بن عبد العزيز ؛ أتتْه الدنيا فاغرةً فَاهَا ، فتركها[٢] .

وعن عوْن بن المُعمّر ، أنَّ عمر بن عبد العزيز دخل على فاطمة ، فقال : يا فاطمة ، عندكَ درهم أشتري به عِنبًا ؟ قالت : لا . قال : فعندك الفلوس أشتري به عِنبًا ؟ قالت : لا . وأقبلتْ عليه ، فقالت : أنت أمير المؤمنين ، لا تقدر على درهم تشتري به عنبًا ، ولا فلوسٍ تشتري به عنبًا ؟! قال : هذا أهونُ عليّ مِن معالجةِ الأغلال غدًا في جهنَّم[٣] .

نَعَمْ .. عمر بن عبد العزيز هو الزاهد حقًّا ، « فليس مَن زهِد في الدنيا تقذُّرًا ، مثل مَن زهد في الدنيا تصبُّرًا » ، كما قال السَّري .

قال ميمون بن مهران: أقمتُ عند عمر بن عبد العزيز ستّةَ أشهر، ما رأيتُه غيَّر رداءه ، كان يُغسل من الجمعة إلى الجمعة ، ويُبيَّنُ بشيءٍ مِن زعفران[٤].

وعن مسلمة بن عبد الملك قال : دخلتُ على عمر ، وقميصُه وَسِخٌ ،

---

(١) الإحياء ٢٥٢/٤ .
(٢) الزهد الكبير ص١٠٠ .
(٣) الزهد الكبير ص١٠٠ - ١٠١ .
(٤) السير ١٣٢/٥ .

فقلت لامرأته - وهي أخت مسلمة -: اغسلوه . قالت : نفعل ، ثم عُدتُ ، فإذا القميص على حاله ، فقلتُ لها ، فقالت : واللهِ ما له قميصٌ غيره[١] .

لله درُّك يا أشجّ بني أمية ، ومَن أولى منك بهذا ؟!

قَوْمٌ إذا غَسلوا الثيابَ رأيْتَهم لَبِسُوا البيوتَ وزرَّرُوا الأبوابا

صِلةُ بنُ أشيم العَدَويّ :

« قال صلة : طلبتُ الدنيا مَظانَّ حَلالِها[٢]، فجعلتُ لا أصيب منها إلا قُوتًا ، أمّا أنا فلا أُعيل[٣] فيها، وأمّا هي فلا تجاوزني، فلمّا رأيتُ ذلك، قلتُ : أي نفسُ ، جُعل رزقُك كَفافًا ، فاربعي[٤]. قال : فَرَبَعتْ ، ولمْ تكِدّ »[٥].

محمد بن واسِع :

ذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » ، في أحداث سنة ثمانٍ وتسعين (١٨٣/٩) ، في فتح يزيد بن المهلب لجرجان : « قالوا : أصاب يزيد بن المهلب أموالًا كثيرة جدًّا ، فكان من جملتها تاجٌ فيه جواهر نفيسة ، فقال : أترون أحدًا يزهد في هذا ؟ قالوا : لا نعلمه . فقال : واللهِ إني لَأَعلمُ رجلًا ، لو عُرض عليه هذا وأمثاله ، لزهِد فيه . ثم دعا بمحمد بن واسع - وكان في الجيش مغازيًا - فعرض عليه أخْذَ التاج ، فقال : لا حاجة لي فيه . فقال : أقسمتُ عليك لَتأخذنَّهُ . فأخذه ، وخرج به من عنده ، فأمر يزيدُ رجلًا أنْ يتبعَه ، فينظر ماذا يصنع بالتاج ، فمرَّ بسائل ، فطلب منه شيئًا ، فأعطاه التاج بكماله وانصرف ، فبعث يزيد إلى ذلك السائل فأخذ منه التاج ، وعوَّضه عنه مالًا كثيرًا » .

---

(١) السير ١٣٤/٥ .
(٢) يعني : مواضع الحلال .
(٣) لا أعيل فيها : لا أفتقر .
(٤) اقتصري على هذا ، وارْضَي به .
(٥) الزهد الكبير ص١١٠ .

يزيدُ بنُ مَرْثـد ، القدوة ، الزاهـد في الرئاسـة :

عن الـوضين بن عطاء ، قال : « أراد الوليد بن عبد الملك أنْ يُولّي يزيد بن مرثد ، فبلَغ ذلك يزيدَ بن مرثد ، فلبس فروه قد قَلَبه ، فجعل الجلد على ظهره والصوفَ خارجًا ، وأخذ بيده رغيفًا وعِرقًا ، وخرج بلا رداءٍ ، ولا قلنسوةٍ ولا نعل ولا خفٍّ ، وجعل يمشي في الأسواق ، ويأكل الخبز واللحم ، فقيل للوليد : إنّ يزيد بن مرثد قد اختلطَ ، وأُخبر بما فعله ، فتركه »[1] وبعدها شُفي الشيخُ مِن الجنون .

فرضي الله عنك أيُّها البَكَّاء الموجد ، يزيد بن مرثد ! لقد نفعك التلقّي عن أبي الدرداء ، وأبي ذر ، ومعاذ بن جبل .

إبراهيمُ بنُ أدْهَم: القدوة، الإمام، العارِفُ، سيّد الزُّهاد، أبو إسْحاق :

لله درُّ رجلٍ يصفه الذهبي بأنه « الإمام العارف ، سيد الزهاد » . زهِد في الرئاسة والجاه والمنصب ، وهو ابن الملوك .

قال إبراهيم بن أدهم : « كان أبي مِن أهل « بلخ » ، وكان من ملوك خراسان ، وكان من المياسر ، وحُبِّبَ إلينا الصيد ، فخرجتُ راكبًا فرسي ، وكلبي معي ، فبينما أنا كذلك ، فثار أرنبٌ أو ثعلبٌ ، فحركتُ فرسي ، فسمعت نداءً من ورائي : ليس لهذا خُلقتَ ، ولا بذا أُمِرْتَ . فوقفتُ أنظر يَمْنةً ويسْرةً فلا أرى أحدًا ، فقلت : لعَن الله إبليس ، ثم حرّكتُ فرسي ، فأسمعُ نداءً أجهرَ من ذلك : يا إبراهيم ، ليس لذا خلقتَ ، ولا بذا أمرتَ . فوقفتُ أنظر يمنة ويسرة فلا أرى أحدًا ، فقلت : لعن الله إبليس ، ثم حرّكتُ فرسي ، فأسمع نداءً من قربوس سَرْجي : يا إبراهيم ، ما لذا خُلقتَ ، ولا بـذا أمرتَ . فوقفت فقلتُ : أُنْبهتُ ، أنبهتُ ؛ جاءني نذيرٌ من رب

---

(١) حلية الأولياء ٥/١٦٥ .

العالمين ، والله لا عصيت الله بعد يوْمي ذا ما عصمني ربي ، فرجعتُ إلى أهلي فخلّيتُ عن فرسي ، ثم جئتُ إلى رعاةٍ لأبي ، فأخذتُ منه جُبَّة وكساء ، وألقيتُ ثيابي إليه ، ثم أقبلتُ إلى العراق ،أرضٌ ترفعني وأرضٌ تضعني ، حتى وصلتُ إلى العراق ، فعملتُ بها أيّامًا ، فلم يَصْفُ لي منها شيءٌ مِن الحلال ، فسألتُ بعض المشايخ عن الحلال ، فقالوا لي : إذا أردتَ الحلال ، فعليك ببلاد الشام . فصرتُ إلى بلاد الشام ، فصرتُ إلى مدينة يقال لها : المنصورة - وهي المصيصة - فعملتُ بها أيّامًا ، فلم يَصْفُ لي شيءٌ مِن الحلال ، فسألتُ بعض المشايخ ، فقالوا لي : إن أردتَ الحلال الصّافي ، فعليك بطرسوس ؛ فإنَّ فيها المباحات والعمل الكثير ، فتوجَّهتُ إلى طرسوس، فعملتُ بها أيّامًا أنطر[1] البساتين، وأحصد الحصاد »[2].

قال عبد العزيز بن أبي رواد : رحم الله إبراهيم بن أدهم ، لقد لقيتُه بخراسان ، إذا ركِب حضَر بين يديْه نحوٌ من عشرين شاكِريٍّ . ولكنه رحمه الله طلب بحبوحة الجنة[3].

« وقال خلف بن تميم : قال لي إبراهيم بن أدهم : كنتُ في بعض السواحل ، وكانوا يستخدموني ويبعثوني في حوائجهم ، وربما يتبعني الصبيانُ حتى يضربوا ساقي بالحصى ، إذْ جاء قومٌ من أصحابي فأحدقُوا بي فأكرموني ، فلما رأوْا أولئك إكرامهم لي أكرموني ، فلو رأيتموني والصبيان يرموني بالحصى ، وذلك أحلى في قلبي منهم حيث أحدقوا بي »[4].

وقال إبراهيم رحمه الله : أخاف أنْ لا أُؤجَرَ في تركي أطايب الطعام ؛

---

(١) يحرس . فالناطور هو حارس البستان .
(٢) حلية الأولياء ٣٦٨/٧ .
(٣) (٤) الحلية ٣٧١/٧ .

لأني لا أشتهيهِ ، وكان إذا جلس على طعام طيِّب ، قدّم إلى أصحابه ، وقنَع بالخبز والزيتون[(١)] .

« وعن خلف بن تميم قال : دخل إبراهيم الجبل ، واشترى فأْسًا ، فقطع حَطَبًا ، وباعه واشتري ناطفًا[(٢)] ، وقدّمه إلى أصحابه ، فأكلوا ، فقال يُباسِطُهم : كأنّكم تأكلون في رهْن »[(٣)] .

« قال علي بن بكّار : كان إبراهيم من بني عجل ، كريمَ الحَسَب ، وإذا حصد ارتجز ، وقال :

اتخـذِ اللهَ صـاحـبًـا ودعِ النـاسَ جـانـبًـا

وكان يلبَس فروًا بلا قميص ، وفي الصيف شَقَّتَيْن بأربع دراهم ؛ إزار ورداء ، ويصومُ في الحَضَر والسفر ، ولا ينام الليل ، وكان يتفكّر ، ويقبض أصحابُه أجرته ، فلا يمسّـها بيده ، ويقول : كُلُوا بها شـهواتكم . وكان ينطر[(٤)] ، وكان يطحن بيدٍ واحدة مُدَّيْنِ من قمح » .

هذا زهد الرباني إبراهيم بن أدهم ، الذي قال عنه سفيان الثوري : « كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيمَ الخليل ، ولو كان في الصحابة ، لكان رجلًا فاضلًا »[(٥)] .

وقال إبراهيم بن بشار : كنتُ مع إبراهيم بن أدهم ، فأتينا على قبر مُسَنَّمٍ ، فترحَّم عليه ، وقال : هذا قبر حُمَيْد بن جابر ، أمير هذه المدن كلها ، كان غارقًا في بحار الدنيا ، ثم أخرجه الله منها ، بلغني أنه سُرّ ذات

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/٣٩١ - ٣٩٢ .

(٢) الناطف : ضرب من الحلوى ، يُصنع من اللوز والجوز والفستق .

(٣) السير ٧/٣٩٢ .

(٤) كذا عمل بالنطارة سفيان الثوري .

(٥) السير ٧/٣٩٠ .

يوم بشيءٍ ، ونام ، فرأى رجلًا بيده كتابٌ ، ففتحه ، فإذا هو كتابٌ بالذهب : لا تُؤثِرَنَّ فانيًا على باقٍ ، ولا تَغترنَّ بملكِك ، فإنّ ما أنت فيه جسيمٌ ، لولا أنه عديمٌ ، وهو مُلكٌ لولا أنّ بعده هُلكًا ، وفرحٌ وسرورٌ لولا أنه غرورٌ ، وهو يومٌ ، لو كان يُوثق له بغَدٍ ، فسارعْ إلى أمر الله ، فإنَّ الله قال : ﴿ **وَسَارِعُوا إلى مغفرةٍ منْ ربِّكُمْ وجنَّةٍ عرضُها السمواتُ والأرض أُعدَّتْ للمتقين** ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . فانتبَه فَزِعًا وقال : هذا تنبيهٌ من الله وموعظة . فخرج من ملْكه وقصَد هذا الجبل ، فعبَد اللهَ فيه حتى مات[١] .

« قال إبراهيم بن بشّار الصُّوفي : خرجتُ أنا وإبراهيم بن أدهم وأبو يوسف الغسولي ، وأبو عبد الله السنجاري ، نريدُ الإسكندرية ، فمررنا بنهرٍ يقال له: «نهر الأردن»، فقعدنا نستريحُ، وكان مع أبي يوسف كُسَيْراتٌ يابساتٌ، فألقاهنَّ بين أيدينا ، فأكلنا وحمدنا الله ، فقمتُ أسعى أتناول ماءً لإبراهيم ، فبادَر إبراهيم ، فدخل النهر ، حتى بلغ الماءُ ركبتَيْه ، فقال بكفَّيْه في الماء فملأهما ، ثم قال : بسم الله . وشرب ، فقال : الحمد لله . ثم إنه خرج من النهر ، فمدّ رجْلَيه ، قال : يا أبا يوسف ، لو عَلِم الملوك وأبناءُ الملوك ، ما نحن فيه من النعيم والسرور ، لجالدُونا بالسيوف أيام الحياة ، على ما نحن فيه من لذيذ العيش وقلَّة التعب ، فقلت له : يا أبا إسحاق ، طلَب القومُ الراحةَ والنعيم ، فأخطئوا الطريق المستقيم . فتبسم ، ثم قال : من أين لك هذا الكلام ؟ »[٢] .

« وقال إبراهيم بن بشار : أمسينا مع إبراهيم بن أدهم ذاتَ ليلة ، وليس معنا شيءٌ نُفطر عليه ، ولا لنا حيلة ، فرآني مُغتمّا حزينًا ، فقال : يا إبراهيم ابن بشار : ماذا أنعم الله على الفقراء والمساكين ، مِن النعيم والراحة في الدنيا

---

(١) السير ٣٩٥/٧ .

(٢) الحلية ٣٧١/٨ ، وصفة الصفوة ١٢٧/٤ ، والزهد الكبير ص١٠٨ ، واللفظ له.

والآخرة ، لا يسألهم يومَ القيامة عن زكاة ولا حجٍّ ، ولا عن صدقةٍ ، ولا عن صلةِ رحِمٍ ، ولا عن مؤاساة ، وإنما يُسأل ويحاسَبُ على هذا هؤلاء المساكين ، أغنياءُ في الدنيا فقراءُ في الآخرة ، أعزّةٌ في الدنيا أذلّةٌ يوم القيامة . لا تغتمَّ ولا تحزنْ ؛ فرزقُ الله مضمونٌ ، سيأتيك . نحن والله الملوك الأغنياء ، نحن الذين قد تعجّلنا الراحة في الدنيا ، لا نبالي على أيِّ حالٍ – أصبحنا وأمسينا – إذا أطعَمَنا اللهُ . ثم قام إلى صلاته وقمتُ إلى صلاتي ، فما لبثْنا إلّا ساعة ، فإذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفةٍ وتمر كثير ، فوضعه بين أيدينا ، فقال : كُلوا ، رحمكم الله . قال : فسلّم ، ثم قال : كُلْ يا مغموم . فدخل سائلٌ فقال : أطعِمونا شيئًا . فأخذ ثلاثة أرغفةٍ مع تمرٍ، فدفعه إليه، وأعطاني ثلاثة، وأكل رغيفين ، وقال: المؤاساة من أخلاق المؤمنين »[(١)] .

بشر بن الحارث الحافي :

قال عنه الذهبي في السير (١٠/٤٦٩) : « الإمام العالم المُحدِّث الزَّاهد الربَّاني القدوة شيخ الإسلام أبو نصرٍ المروزي » .

وقال أبو نعيم عن بشر : « المكتفي بكفاية الكافي ، اكتفى فاشتَفى » .

قال بشر رحمه الله : « قل لمن طَلَب الدنيا تَهيَّأْ للذُّل » .

وقال رحمه الله : « لو سقطتْ قلنسوةٌ من السماء ، ما سقطتْ إلا على رأس من لا يريدها »[(٢)].

وكان الإمام أحمد إذا سُئل عن الزهد،فيقول : أتسألوني عن الزهد وفيكم بشر ؟!

---

(١) الزهد الكبير ص١٠٨ ، والحلية ٩/٣٧٠ .

(٢) الحلية ٨/٣٥٥ .

« أقام بشر رحمه الله بعبّادان ، يشربُ ماء البحر ، ولا يشرب من حياض السلطان ، حتى أضرَّ بجوفه ، ورجع إلى أخته وجعًا ، وكان يعمل المغازل ويبيعها ، فذاك كسبه »[١] .

وكان رحمه الله يمشي حافيًا ويقول : الأرض بساطة .

« وقيل لأحمد : مات بشر . قال : مات والله وما له نظيرٌ ، إلّا عامر ابن عبدِ قيس ، فإنَّ عامرًا مات ولم يترك شيئًا . ثم قال أحمد : لو تزوج »[٢] .

قال بشر رحمه الله : مساكين أهل الدنيا ، هُمْ والله مَوْضعُ رحمةٍ .

« وقال بشر : ليس الزُّهد في الدنيا ترك الدنيا ، إنما الزهد أن يُزهد في كلِّ ما سوى الله . هذا داود وسليمان عليهما السلام قد مَلَكَا الدنيا ، وكانا عند الله من الزاهدين .

إنْ لم يكن داود النبي زاهدًا فمن يكون ؟! وقد كان مع مُلْكه يَأْكُلُ من عمل يده » .

وقال بشر : قال فضيل بن عياض : يا بشر ، الرِّضاء الأكبر عن الله عز وجل الزهدُ في الدنيا . قال : قلت : كيف هذا يا أبا علي ؟ قال : يكون العطاءُ في قلبك والمنعُ بمنزلةٍ واحدة .

سفيان الثوري :

قال الذهبي في السير (٧/٢٤١) : « قد كان سفيان رأسًا في الزهد ، والتَّألُّه والخوف » .

قال حفص بن غياث : كنا نتعزَّى عن الدنيا بمجلس سفيان .

---

(١) السير ١٠/٤٧١ .

(٢) السير ١٠/٤٧٤ .

وقال سفيان رحمه الله : وجدتُ قلبي يَصْلح بين مكة والمدينة ، مع قوم غرباء أصحاب صوفٍ وعباء[١] .

وقال رحمه الله : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وأول ذلك زهدك في نفسك[٢].

وقال رحمه الله : ما أنفقتُ درهمًا في بناءٍ[٣].

قال يحيى بن يمانٍ : ما رأيت مثل سفيان ! أقبلتِ الدنيا عليه ، فصرف وَجْهَه عنها .

وعن ابن مهدي قال : قدم سفيان البصرة والسلطان يطلبه ، فأجَّر نفسه لحفظ ثماره ، فمرّ به بعض العشّارين ، فقال : من أنت يا شيخ ؟ قال : من أهل الكوفة . قال : أَرُطبُ البصرة أحلى أم رطب الكوفة ؟ قال : لم أذق رطب البصرة . قال : ما أكذبك ! البرُّ والفاجر والكلاب يأكلون الرطب الساعة . ورجع إلى العامل ، فأخبره ليُعجبه ، فقال : ثكلتك أمك ! أَدْرِكْه ، فإن كنت صادقًا ، فإنه سفيان الثوري ، فخُذْه لنتقرَّبَ بِهِ إلى أمير المؤمنين . فرجع في طلبه فما قدر عليه[٤] .

لله دَرُّك يا إمام من زاهدٍ ومن وَرِعٍ .

عن يوسف بن أسباط ، سمعت سفيان يقول : « ما رأيتُ الزهد في شيءٍ أقلّ منه في الرِّئاسة ؛ ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب ، فإن نُوزع الرئاسة حامى عليها وعَادى »[٥].

---

(١) (٢) السير ٢٦٨/٧ ، والحلية ٦٩/٧ .

(٣) السير ٢٥٧/٧ .

(٤) السير ٢٥٨/٧ .

(٥) السير ٢٦٢/٧ .

وعن وكيعٍ قال : قال سفيان الثوري : الزُّهد في الدنيا قِصَرُ الأمل ، ليس بأكل الغليظ ، ولا لبس العبا .

وعن بشر بن الحارث قال : قيل لسفيان الثوري : أيكون الرجل زاهدًا ويكون له المال ؟ قال : نعم . إذا ابتُلَي صبر ، وإذا أُعطَي شكر .

وقال سفيان في قوله تعالى : ﴿ **لِيَبْلُوكُم أيُّكم أحسن عملا** ﴾ : الزهد في الدنيا .

قال بعضهم : قوَّمتُ ثوبْي سفيان ونعليْه بدرهمٍ وأربعة دوانق .

أبو معاوية الأسود :

قال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخِرَقَ من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها . فقلت : إنك تُكسي خيرًا من هذا !! فقال : ما ضرّهم ما أصابهم في الدنيا ، جَبَر الله لهم بالجنة كلَّ مصيبة . فجعل يحيى بن معين يحدِّث بها ويبكي(١) .

اللهَ اللهَ ... ولِمَ لا يبكي يحيى ، رقيق القلب ... وهو يرى قولًا يُصَدقه العملُ ... وهو يرى الزُّهد في كماله ... وجواهرَ الكَلِم تخرج من الأفواه الطَّاهرة لساداتٍ عن الدنيا مسافرة ، ولدارِ الآخرة دومًا راحلة .. وخلَّفوا وراءهم قومًا يرفعون الطين ، ويضعون الدين ، ويهملجون بالبراذين كلاب الأماني .. أصبح دينُ أحدهم لَعْقةً على لسانه ؛ يقول : أومن بيوم القيامة ، وكَذبَ ومَالكِ يوم الدين ..

معروف الكرخي :

عن الفاني مصروف، وبالباقي مشغوف، وبالتُّحَف محفوف، الكرخي أبو محفوظ معروف .

---

(١) الإحياء ٤/٢٤٩ .

قال عنه الذهبي في « السير » (٣٣٩/٩) : « عَلَم الزُّهّاد ، بركة العصر » .

« قال إسماعيل بن شدّاد : قال لنا سفيان بن عيينة : ما فعل ذلك الحَبْر الذي فيكم ببغداد ؟ قلنا : من هو ؟ قال : أبو محفوظ معروف . قلنا : بخير . قال : لا يزال أهل تلك المدينة بخيرٍ ما بقي فيهم »(١) .

قال أبو بكر الزَّجّاج : قيل لمعروف الكرخي في علَّته : أوصِ . فقال : إذا متُّ فتصدّقوا بقميصي هذا ، فإني أحب أن أخرج من الدنيا عريانًا ، كما دخلت إليها عريانًا .

والله هذه الغاية التي تقصر دونها همم الرجال ... فكيف بلغها معروف وطار بسبقها .

وإن كان الزهد هو قصر الأمل ، فقد كان معروف رأسًا في قصر الأمل .

« قال أحمد بن إبراهيم الدورقي : حضرت الصلاة فقال معروف لأبي نوبة : صلِّ بنا ، فقال : إن صلّيتُ بكم هذه الصلاة ، لا أُصلّي بكم غيرها . فقال معروف : وأنت تُحدِّث نفسك أن تصلي صلاةً أُخرى ، نعوذ بالله من طول الأمل ؛ فإنه يمنع خير العمل »(٢) .

الإمام الزاهد شيخ خراسان ، شقيق البَلْخي : الرائد العقيق ، الزاهد الحقيق ، أبو عليٍّ البلخي شقيق :

قال علي بن محمد بن شقيق : كان لجدي ثلاثمائة قرية ، ثم يوم قتل بواشكرد لم يكن له كفن يكفَّن فيه ، قدَّمه كلَّه بين يديه . قال : وقد كان

---

(١) الحلية ٣٦٦/٨ ، وتاريخ بغداد ٢٠١/١٣ ، والسير ٣٤٠/٩ .
(٢) الزهد الكبير ص٢٣٧ .

خرج إلى بلاد الترك لتجارةٍ وهو حَدَث ، إلى قومٍ يقال لهم « الخصوصيّة » وهم يعبدون الأصنام ، فدخل إلى بيت أصنامهم ، وعالمهم فيه حَلَق رأسه ولحيته ، ولبس ثيابًا حمراء أُرجُوانِيَّة ، فقال له شقيق : إن هذا الذي أنت فيه باطل ، ولهؤلاء ولك ولهذا الخلْق خالق وصانع ليس كمثله شيء ، له الدنيا والآخرة ، قادر على كل شيء ، رازق كل شيء . فقال له الخادم : ليس يُوافق قَوْلَك فِعْلُك . فقال له شقيق : كيف ذاك ؟ قال : زعمت أن لك خالقًا رازقًا قادرًا على كل شيء ، وقد تغيَّبتَ إلى هاهنا لطلب الرزق ، ولو كان كما تقول ، فإن الذي رزقك هاهنا هو الذي يرزقك ثمَّ ، فتربح العَنَا . قال شقيق : وكان سبب زهدي كلام التُّركِيّ . فرجع فتصدّق بجميع ما ملك ، وطلبَ العلم(١) .

« وعن شقيق قال : كنتُ شاعرًا فرزقني الله التوبة ، وخرجت من ثلاثمائة ألف درهم ، ولبست الصوف عشرين سنة ، ولا أدري أني مُراءٍ ، حتى لقيت عبد العزيز بن أبي روَّاد ، فقال : ليس الشأن في أكْل الشعير ولُبس الصوف ، الشأن أن تعرف الله بقلبك ، ولا تُشرك به شيئًا ، وأن ترضى عن الله ، وأن يكون بما في يد الله أوْثَق منك بما في أيدي الناس »(٢) .

عن شقيق قال : أخذت لباس الدُّون عن سفيان ، وأخذت الخشوع من إسرائيل ، وأخذت العبادة من عبَّاد بن كثير ، والفقه من زُفَر(٣) .

وقال رحمه الله : سبعة أبواب يُسلك بها طريق الزُّهّاد : الصبر على الجوع بالسرور لا بالفتور ، بالرضا لا بالجزع ، والصبر على العُري بالفرح

---

(١) حلية الأولياء ٨/٥٩ ، والسير ٩/٣١٣ .
(٢) حلية الأولياء ٨/٥٩ ، والسير ٩/٣١٤ .
(٣) السير ٩/٣١٥ .

لا بالحزن ، والصبر على طول الصيام بالتفضل لا بالتَّعسُّف ، كأنه طاعِمٌ ناعِم ، والصبر على الذُّلّ بطيب نفسه لا بالتكرُّه ، والصبر على البؤس بالرضا لا بالسخط ، وطول الفكرة فيما يُودع بطنه من المطعم والمشرب ، ويكسو به ظهره : من أين ، وكيف ، ولعلَّ ، وعسى . فإذا كان في هذه الأبواب السبعة ، فقد سلك صدرًا من طريق الزهاد ، وذلك الفضل العظيم .

وقال رحمه الله : « ثلاث خصال هي تاج الزاهد ؛ الأولى : أن يميل على الهوى ولا يميل مع الهوى . والثانية : ينقطع الزاهد إلى الزهد بقلبه . والثالثة : أن يذكر كلَّما خلا بنفسه كيف مدخله في قبره ، وكيف مخرجه ، ويذكر الجوع والعطش والعري ، وطول القيامة والحساب والصراط ، وطول الحساب والفضيحة البادية ، فإذا ذكر ذلك شَغَلَه عن ذكْر دار الغرور . فإذا كان ذلك ، كان من مُحِبِّي الزُّهّاد ، ومن أحبهم كان معهم » .

وكان رحمه الله يقول : « كما لا يُطالبكم بصلاة غدٍ ، فلا تطلبوا منه رزق غدٍ ، عسى أن لا تصيروا إلى غد »[1] .

« وقال الحاكم : قدم شقيقٌ نيسابور في ثلاثمائةٍ من الزُّهّاد ، فطلب المأمون أن يجتمع به ، فامتنع » .

وهذا (**حاتم الأصمّ**) : « يدخل على محمد بن مقاتل قاضي الرّيّ وهو عليل ، فإذا دار نور ، وأمتعة وستور ، وجمع ، وإذا فُرُشٌ وطيئة ، فقال له : في ما أدَّاه جبريل عن الله ، وأدّاه إلى رسول الله ﷺ ، وأدّاه رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، وأدّاه أصحابه إلى الثقات ، وأدّاه الثقات إليك ،

---

(١) السير ٩/٣١٥ .

هل سمعت في العلم مَنْ كان في داره أمير أو منعة أكثر ، كانت له المنزلة عند الله أكثر ؟ قال : لا . قال : فكيف سمعت من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحبَّ المساكين وقدَّم لآخرته ، كان له عند الله المنزلة أكثر ؟ قال حاتم : فأنت بمن اقتنعتَ ؟ بالنبي ﷺ وأصحابه والصالحين ؟ أم بفرعون ونمرود أوَّل مَنْ بنى بالجصّ والآجُرّ ، يا علماء السوء مِثْلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا ، الراغب فيها ، فيقول : العالم على هذه الحالة ، لا أكون أنا شرًّا منه . وخرج من عنده ، فازداد ابنُ مقاتل مرضًا . فبلغ ذلك أهل الرّيّ ، ما جرى بينه وبين ابن مقاتل ، فقالوا له : يا أبا عبد الرحمن ، إن الطنافسي بقزوين أكثر شيء من هذا . قال : فسار إليه متعمِّدًا فدخل عليه ، فقال له : رحمك الله ، أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني أوّل مبتدأ ديني ومفتاح صلاتي ، وكيف أتوضّأ للصلاة . قال : نعم وكرامة ، يا غلام ، إناء فيه ماء . فأتي بإناءٍ فيه ماء ، فقعد الطنافسي فتوضّأ ثلاثًا ثلاثًا ثم قال : يا هذا ، هكذا تتوضأ . قال حاتم : مكانك - يرحمك الله - حتى أتوضأ بين يديك ، فيكون أوْكَد لما أريد . فقام الطنافسي فقعد حاتم فتوضأ ثلاثًا ثلاثًا ، حتى إذا بلغ غسْل الذراعين ، غسل أربعًا ، فقال له الطنافسي : يا هذا ، أسرفتَ . قال له حاتم : فبماذا ؟ قال : غسلتَ ذراعيك أربعةً . فقال حاتم : يا سبحان الله !! أنا في كفّ من ماءٍ أسرفت ، وأنت في هذا الجمْع كلِّه لم تُسرف ؟!! فعلم الطنافسي أنه أراده بذلك . ولما دخل إلى المدينة المنورة استقبله أهل المدينة ، فقال : يا قوم أيّ مدينةٍ هذه ؟ قالوا : مدينة رسول الله ﷺ . قال : فأين قصر رسول الله ﷺ فأُصلِّي فيه ركعتين ؟ قالوا : ما كان له قصر ، إنما كان له بيت لاطىء. قال : فأين قصور أصحابه بعده ؟ قالوا : ما كان لهم قصور ، إنما كانت لهم بيوت لاطئة . قال حاتم : يا قوم ، هذه مدينة فرعون وجنوده . فذهبوا به إلى السلطان فقالوا : هذا العجمي يقول : هذه مدينة فرعون وجنوده .

قال الوالي : ولم ذاك ؟ قال حاتم : لا تعجل عليَّ ، أنا رجل أعجمي غريب ، دخلتُ المدينة فقلت : مدينة من هذه ؟ قالوا : مدينة رسول الله ﷺ . قلت : فأين قصر رسول الله ﷺ فأصلي فيه ركعتين ؟ قالوا : ما كان له قصر ، إنما كان له بيتٌ لاطيء . قلت : فلأصحابه بعده . قالوا : ما كان لهم قصور ، إنما كانت بيوتهم لاطئة . وقال الله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنةٌ** ﴾ [الأحزاب : ٢١] فأنتم بمن تأسَّيْتم ؛ برسول الله ﷺ وأصحابه ، أو بفرعون أوَّل من بنى بالجصِّ والآجرّ ؟!! فخلّوا عنه وعرفوه »[١] .

فلله دَرُّ حاتم من فقيه دعوةٍ ومربي رجالٍ .

الخليل بن أحمد الفراهيدي :

قال عنه الحافظ الذهبي : « وهو معدود من الزُّهّاد . كان يقول : إني لأُغلق عليّ بابي فما يجاوزه همّي » .

وقيل : كان متقشِّفًا متعبِّدًا .

قال النضر : أقام الخليل في خصٍّ له بالبصرة لا يقدر على فلسين ، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال ، وكان كثيرًا ما ينشد :

وإذا افتقرتَ إلى الذخائرِ لم تجدْ ذُخْرًا يكون كصالح الأعمالِ[٢] .

وقال رحمه الله :

حَسْبُك مِن دهرِكَ هذا القُوتُ ما أَكْثَرَ القوتَ لمَنْ يموتُ[٣] .

الإمام الوليّ أبو داود عمر بن سعد الحفري :

« قال وكيع بن الجرَّاح : « إنْ كان يُدفع بأحدٍ في زماننا ، فبأبي داود

---

(١) الحلية ٨/٨٠ - ٨٢ .

(٢) السير ٧/٤٣٠ ، ٤٣١ .

(٣) الزهد الكبير ص١١٠ .

الحفري » .

أبطأ يومًا في الخروج إلى الجماعة ، ثم خرج فقال : أعتذرُ إليكم ، فإنه لم يكن لي ثوبٌ غير هذا ، صلَّيتُ فيه ، ثم أعطيته بناتي حتى صَلَّيْن فيه ، ثم أخذتُه وخرجتُ إليكم .

قال محمد بن عبد الرحمن الجوهري : « رأيتُ أبا داود الحفري ، وكان لا يُرى أديمُ جسده من الشعر ، وعليه خِرقتان : إزار ورداء فيه عدَّة رِقاعٍ » .

تزوّج أبو داود بامرأةٍ فأصدقها ثلاثة دنانير ، وكان قُوته كلَّ ليلةٍ قرصين وبِفِلْسٍ فجل أو هِنْدِبا .

قال أبو حمدون الطَّيِّب المقرىء : دفنَّا أبا داود الحفري رحمه الله ، وتركنا بابه مفتوحًا ، ما كان في البيت شيء »[1].

الإمام أحمد بن حنبل :

حَمَى نَفْسَهُ الدنيا وقد سنحتْ له   فمنزلُه إلَّا مِنَ القُوتِ مُقْفِرُ

رحم الله إمام أهل السنة وزاهدهم ، القائل : عزيزٌ عليَّ أن تذيب الدنيا أكبادَ رجالٍ وعتْ صدورُهم القرآن[2].

وقال رحمه الله : ما أعدلُ بفضل الفقر شيئًا ، تدري إذا سألك أهلُك حاجةً لا تقدر عليها ، أيّ شيءٍ لك من الأجر[3].

خرج - رحمه الله - وهو إمام الدنيا إلى عبد الرزاق فانقطعتْ به النفقة ؛ فأكْرَى نَفْسَه من بعض الحمّالين إلى أن وافى صنعاء .

وكان رحمه الله ربما احتاج ، فنسخ بأُجرة . وربما احتاج ، فخرج إلى اللّقاط ؛ أي المزارع بعد استئذان أصحابها ؛ ليلتقط السّنبل الذي تخطئه

(١) السير ٩/٤١٦ - ٤١٧ ، وتهذيب الكمال .
(٢) مناقب الإمام أحمد ص٢٥٩ .
(٣) المناقب ص٢٥٧ .

المناجل .

قال رحمه الله : قد خرجت إلى طرسوس على قدمي ، وقد كنّا نخرج في اللّقاط[١] .

ورَهَن إمامُ الدنيا نعلَهُ عند خبّازٍ ، على طعامٍ أخذه منه عند خروجه من اليمن ؛ قال بحر البقّال - وكان من قرية عبد الرزاق -: كان عندنا ها هنا ، فلمّا خرج أصحابه تخلَّف من بعدهم ، فمرَّ بي فقال : يا بحر ، لك عندي درهم ، خُذ هذه النعل ، فإن بعثت إليك من صنعاء بالدرهم ، وإلّا فالنَّعل لك ، أرضيتَ ؟ قلت : نعم . ومضى[٢] .

قال سليمان بن الأشعث : ما رأيت أحمد بن حنبل ذَكَرَ الدنيا قطُّ .

وقال عبد الله بن عبد الرحمن : أحمد بن حنبل صبر على الفقر سبعين سنة .

وقال ابنُ أبي القدور أبو جعفر القطان : كان أيامَ الغلاء يجيئني أبو عبد الله بغزْلٍ ويستره ، أبيعه ، فكنت ربما بعتُه بدرهم ونصف ، وربما بعته بدرهمين ، فتخلّف يومًا ، فلمّا جاء قلت : يا أبا عبد الله ، لم تجيء أمس . فقال : أُمّ صالحٍ اعتلَّتْ.ودفع إليَّ غزلًا ، فبعته بأربعة دراهم ، فجئت بها فأنكر ذلك وقال : لعلّك زِدتَ فيه من عندك ؟ قلت : لا ؛ ما زدتُ فيه من عندي ، كان غزلًا دقيقًا[٣] .

وقال صالح : واشتريتُ جاريةً ، فاشتكتْ إليه أهلي ، فقال : قد كنتُ أكره لهم الدنيا ، وقد بلغني عنك الشيء . فقالت له : يا عمّ ، ومَنْ يكره الدنيا غيرُك . قال لها : فشأنُكِ إذَنْ .

---

(١) المناقب ص٢٨٩ - ٢٩١ .
(٢) المناقب ص٢٩٢ .
(٣) المناقب ص٣١١ .

وقال أبو بكر المروزي : رأيت أحمد بن عيسى المصري ومعه قوم من المحدِّثين ، دخلوا على أبي عبد الله ونحن بالمعسكر ، فقال له أحمد ابن عيسى : ما هذا الغمُّ يا أبا عبد الله ؟! الإسلام حنيفيَّةٌ سمحة ، بيتٌ واسع . فنظر إليهم وكان مضطجعًا ، فلمّا خرجوا قال لي : انظر إلى هؤلاء ، ما أريد أن يدخل عليَّ منهم أحدٌ .

وقال إسحاق بن هانىء النيسابوري : قال لي أبو عبد الله : بكِّر يومًا حتى تعارضني بشيءٍ من الزهد . فبكّرتُ إليه ، وقلت لأُمّ ولده : أعطني حصيرًا ومخدَّة . فبسطتُه في الدّهليز ، فخرج أبو عبد الله ومعه الكتب والمحبرة ، فنظر إلى الحصير والمخدة فقال : ما هذا ؟ فقلت : لتجلس عليه . فقال : ارفعْه ، الزهد لا يحسُن إلَّا بالزهد . فرفعتُه ، وجلس على التراب[1] .

وقال الإمام أحمد لشجاع بن مخلد العطار : يا أبا الفضل ، إنما هو طعامٌ دُونَ طعام ، ولباس دون لباس ، وإنها أيام قلائل .

وقال رحمه الله : أَسَرُّ أيامي إليَّ يوم أُصبح وليس عندي شيء .

أمَّا بيت أحمد ، فكان كبيتِ سويد بن غفلة ، كما قال ابن المديني .

قال عبد الملك الميموني : كان منزل أبي عبد الله ضيِّقًا صغيرًا ، وقد رأيتُ موضع مضجعه ، وفيه شَاذَكونة وبرذعة[2].

وقال الحسن بن محمد بن الحارث : دخلت دار أحمد فرأيت في بهوه حصيرًا خَلِقًا ومسورة ، وكتبه مطروحة حواليه ، وحُبّ خزف .

وقال أبو داود : رأيت لبابِ دار أبي عبد الله سترًا خلقًا ملبّدًا ، ورأيت بقُربه شيئًا نحوًا مما تُعلّق به الأداوى في الأسفار ، عليه عدَّة

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص٣١٢ - ٣١٣ .
(٢) مناقب الإمام ص٣١٦ .

قلال[١] .

وقال محمد بن موسى : كان باب أبي عبد الله بابًا كبيرًا من لبن ، ثم جئت بعدُ وعلى الباب ستر شعر .

وقال أحمد بن الحسن : دخلت على أبي عبد الله غير مرةٍ وهو متربِّع ، بين يديه كانون من طين ، وله ثلاث قوائم فيه جمر ، وتحته لبيدٌ له[٢] .

وقال صالح بن أحمد : كان أبي كثيرًا ما يأتدِم بالخلّ ، وكان يُشترى له شحم بدرهم ، فكان يأكل منه شهرًا[٣] .

وقال أبو بكر المروزي : قال لي النيسابوريُّ - صاحبُ إسحاق بن إبراهيم -: قال لي الأمير : إذا جاءوا بإفطاره فأرنيه . قال : فجاءوا برغيفين خبز وخيارة ، فأريته الأمير ، فقال : هذا لا يُجيبنا[٤] إن كان هذا يُقنعه[٥] .

وقال إمام الزُّهّاد أحمد بن حنبل : قد وجدت البرد في أطرافي ، ما أراه إلّا من إدامي؛أكل الخلّ والملح .

أمَّا لباسه : فقال حميد بن زنجويه : رأيت على أحمد بن حنبل جُبّة خضراء ، فيها رقعة بيضاء من صوف .

وقال حمدان بن علي : رأيت على أبي عبد الله جبة وعليها رقعة بغير لونها .

وقال المروزي : أراد أبو عبد الله أن يرقِّع قميصه ، فلم يكن عنده رقعة ، فقال : أُرقّعه من إزاري . فقطعنا من إزاره فرقّعناه ، ولقد احتاج

---

(١) المناقب ص٣١٦ .
(٢) المناقب ص٣١٧ .
(٣) المناقب ص٣١٨ .
(٤) أي إلى القول بخلق القرآن .
(٥) المناقب ص٣١٨ .

غير مرةٍ إلى خرق ، فكان يقطع من إزاره ، وأعطاني خُفًّا له لأرمّه ، قد لبسه سبع عشرة سنة ، فإذا خمسة مواضع ، أو ستة مواضع ، الخَرْز فيه من بَرًّا .

وقال أبو بكر المروزي : استعمل لأبي عبد الله خُفّ ، فجئته به فبات عنده ليلة ، فلما أصبح قال : تفكّرت في أمر هذا الخفّ – أراه قال : عامَّة الليل – قد شغل عليّ قلبي قد عزم لي أن لا ألبسه ، كم ترى بقي ؟ الذي مضى أكثر مما بقي . فدفع إليَّ خُفًّا له خَلقًا ، فقال : اضرب على هذا الخف ، وسدّد خروقه . ثم قال : تدري منذ كم هذا الخف عندي ؟ نحو من ست عشرة سنة ، وإنما صار إليّ وهو لبيس ، وهذا قد شغل قلبي – يعني الجديد –[١] .

رحم الله ابن حنبل ، وأيّ أمره لم يكن فوق الغريب .

قال حسن بن يسار : دخلت على أحمد بن حنبل وأنا صبيٌّ مع أستاذي ، يُجصِّص له بيتًا ، فقال له أحمد : جصِّصه باليد ولا تمسحه بالمالَج[٢] . ثم فرشناه بالطوابيق ، فلمّا فرغنا استحسنه وقال : هذا نظيف يُصلّي عليه الرجل وليس فيه باريَّة ولا حصير . ودفع إليَّ كفّ تمرٍ[٣] .

قال صالح : قال لي أبي : جاءني أمس رجل كنت أحب أن تراه ، بينا أنا قاعد في نحر الظهيرة ، إذا برجل سلّم بالباب ، فكأن قلبي ارتاح ، ففتحت فإذا أنا برجل عليه فروة ، وعلى رأسه خرقة ، ما تحت فَرْوِه قميص ، ولا معه ركوة ، ولا جراب ولا عكّاز ، قد لوّحَتْهُ الشمس ، فقلت : ادخل . فدخل الدّهليز ، فقلت : من أين أقبلت ؟ قال : من ناحية المشرق

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص٣٢٤ ، ٣٢٥ .
(٢) المالج : الذي يطيّن به .
(٣) مناقب الإمام ص٣١٦ .

أريد الساحل ، ولولا مكانك ما دخلتُ هذا البلد ؛ نويتُ السلام عليك . قلت : على هذه الحال ؟! قال : نعم ، ما الزهد في الدنيا ؟ قلت : قصر الأمل . قال : فجعلت أعجب منه ، فقلتُ في نفسي : ما عندي ذهب ولا فضة . فدخلتُ البيت ، فأخذت أربعة أرغفة ، فخرجت إليه فقال : أوَ يسرُّك أن أقبل ذلك يا أبا عبد الله ؟ قلت : نعم . فأخذها فوضعها تحت حِضنه ، وقال : أرجو أن تكفيني إلى الرَّقَّة ، أستودعك الله . فكان يذكره كثيرًا .

وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي - وذَكَرَ الدنيا - فقال : قليلها يُجزِىء ، وكثيرها لا يُجزىء . وقال أبي - وقد ذُكر عنده الفقر - فقال : الفقر مع الخير .

وقال صالح : ربما رأيت أبي يأخذ الكِسَر ، ينفض الغبار عنها ، ويصيِّرها في قصعةٍ ويصبُّ عليها ماءً ، ثم يأكلها بالملح . وما رأيته اشترى رمّانًا ولا سفرجلًا ، ولا شيئًا من الفاكهة ، إلّا أن تكون بِطِّيخة فيأكلها بخبزٍ،وعنبًا وتمرًا .

وقال أبي : كانت والدتك في الظلام تغزل غزْلًا دقيقًا ، فتبيع الأستار بدرهمين ، أقلّ أو أكثر ، فكان ذلك قُوتنا ، وكنّا إذا اشترينا الشيء نستره عنه كي لا يراه فيوبِّخنا ، وكان ربما خُبز له ، فيجعل في فخّارة عدسًا وشحمًا وتمرات شهريز،فيجيء الصِّبيان فيصوّت ببعضهم فيدفعه إليهم ، فيضحكون ولا يأكلون ، وكان يأتدم بالخل كثيرًا .

قال : وقال أبي : إذا لم يكن عندي قطعة ، أفرح .

رحمك الله يا إمام أهل السنة .. حتى الصِّبيان يعافون أكلك ، ويضحكون أن قدّمتَ لهم مثل هذا الطعام .

« قال صالح : وكان ربما خرج إلى البقّال ، فيشتري الجُرْزة

الحطب والشيء فيحمله بيده »[١] .

قال المروزي : قدم رجل من الزُّهّاد ، فأدخلته على أحمد وعليه فرو خَلَق ، وخُريقة على رأسه ، وهو حافٍ في بردٍ شديدٍ ، فسلّم وقال : يا أبا عبد الله قد جئت من موضعٍ بعيد ، وما أردت إلّا السلام عليك ، وأريد عبادان ، وأريد إن أنا رجعت أُسلّم عليك . فقال : إنْ قُدِّر . فقام الرجل وسلّم وأبو عبد الله قاعد ، فما رأيت أحدًا قام من عند أبي عبد الله حتى يقوم هو إلّا هذا الرجل ، فقال لي أبو عبد الله : ما ترى ، ما أشبهه بالأبدال . أو قال : إني لأذْكُر به الأبدال . وأخرج إليه أبو عبد الله أربعة أرغفة مشطورة بكامَخ وقال : لو كان عندنا شيء لواسيناك[٢] .

قال الإمام أحمد : الزهد في الدنيا قصر الأمل .

وعنه رواية أخرى : أنه عَدَمُ فَرَحِه بإقبالها ، ولا حزنه على إدبارها ، فإنه سُئل عن الرجل يكون معه ألف دينار ، هل يكون زاهدًا ؟ قال : نعم ، على شريطة أن لا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت[٣] .

محمد بن أسلم الطوسي :

قال الحاكم : قام محمد بن أسلم مقام وكيع ، وأفضل من مقامه ؛ لزهده وورعه وتتبُّعه للأثر .

قال محمد بن القاسم : سمعت أبا يعقوب المروزي ببغداد وقلت له : قد صحبتَ محمد بن أسلم وأحمد بن حنبل ، أيّهما كان أرجح وأكبر وأبْصَر بالدين ؟ فقال : يا أبا عبد الله ، لِمَ تقول هذا ؟! إذا ذكرتُ محمدًا في

(١) السير ٢٠٧/١١ - ٢٠٩ .
(٢) السير ٢١٠/١١ .
(٣) مدارج السالكين ١١/٢ .

أربعة أشياء فلا تقرن معه أحدًا : البصر بالدين ، واتّباع الأثر ، والزهد في الدنيا ، وفصاحته بالقرآن والنحو .

وقال محمد بن القاسم : دخلت على ابن أسلم قبل موته بأربعة أيام بنيسابور ، فقال : يا أبا عبد الله ، تعال أُبشِّرك بما صنع الله بأخيك من الخير ، قد نزل بي الموت ، وقد منَّ الله عليَّ أنه ما لي درهم يحاسبني الله عليه . ثم قال : أغْلِق الباب ، ولا تأذن لأحدٍ حتى أموت ، وتدفنون كتبي ، واعلم أني أخرج من الدنيا ، وليس أَدَع ميراثًا غير كسائي ولبدي وإنائي الذي أتوضأ فيه ، وكتبي هذه ، فلا تكلّفوا الناس مُؤْنَة . وكان معه صرّة فيها نحو ثلاثين درهمًا ، فقال : هذا لابني ، أهداه قريبٌ له ، ولا أعلم شيئًا أحلّ لي منه ؛ لأن النبي ﷺ قال : « أنت ومالك لأبيك » ، وقال : « أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإنَّ ولده من كسبه » ، فكفِّنوني منها ، فإن أصبتم لي بعشرة ما يستر عورتي فلا تشتروا بخمسة عشر ، وابسطوا على جنازتي لبدي ، وغطُّوا عليها كسائي ، وأعطوا إنائي مسكينًا .

وقال أيضًا : كان يقول لي : اشتر لي شعيرًا أسود فإنه يصير إلى الكنيف ، ولا تشتر لي إلَّا ما يكفيني يومًا بيوم . واشتريت له مرَّة شعيرًا أبيض ، ونقّيْته وطحنته ، فرآه فتغيّر لونه فقال : إنْ كنتَ تنوّقت فيه ، فأطعمه نَفْسَك ، لعلّ لك عند الله أعمالًا تحتمل أن تُطعم نفسك النقيّ ، وأمَّا أنا ، فقد سرتُ في الأرض ، ودُرتُ فيها ، فبالله ما رأيت نفسًا تُصلِّي أشَرّ عندي من نفسي ، فبما أحتجُّ عند الله إن أطعمتُها النقيّ ، خذ هذا الطعام ، واشترِ لي كلَّ يومٍ بقطعة شعيرًا رديئًا ، واشتر لي رحًى حتى أطحن بيدي وآكل ، لعلّي أبلغ ما كان فيه عليٌّ وفاطمة رضي الله عنهما[1].

(١) السير ١٢/١٩٧ - ٢٠١ .

فرضي الله عن ربّانيّ هذه الأمة - كما قال ابنُ خزيمة - محمد ابن أسلم الطوسي .

أبو سهل الصعلوكي ، شيخ الشافعية :

« قال الذهبي : مناقب هذا الإمام جَمَّة .

قال السلمي : سمعتُ أبا سهل يقول : ما عقدت على شيءٍ قط ، وما كان لي قفل ولا مفتاح ، ولا صررتُ على فضة ولا ذهبٍ قط »(١).

الإمام القدوة العارف ابن خفيف :

قال ابن باكويه : سمعتُ ابن خفيف يقول : ما وجبت عليّ زكاة الفطر أربعين سنة(٢).

الشيخ الإمام القدوة العابد الزاهد شيخ العارفين ، أبو العباس أحمد الرفاعي:

كان يجمع الحطب ويجيء به إلى بيوت الأرامل ، ويملأ لهم بالجرّة .

قيل : أُحضر بين يديه طبق تمر ، فبقي يُنقّي لنفسه الحَشَف يأكله ، ويقول : أنا أحقُّ بالدُّون ، فإني مثله دُون .

وكان لا يجمع بين لُبس قميصيْن ، ولا يأكل إلّا بعد يومين أو ثلاثة أكْلةً ، وإذا غسل ثوبه ينزل في الشّطّ كما هو قائم يفرُكه ، ثم يقف في الشمس حتى ينشف ، وإذا ورد ضيفٌ ، يدور على بيوت أصحابه يجمع الطعام في مئزر(٣).

يوسف بن أسباط :

قال رحمه الله : إني لأشتهي من الله ثلاث خصالٍ : أن أموت حين

---

(١) السير ٢٣٧/١٦ .
(٢) السير ٣٤٦/١٦ .
(٣) السير ٧٩/٢١ - ٨٠ .

أموت وليس في ملكي درهم ، ولا يكون عليَّ دَيْن ، ولا على عظمي لحم . فأُعْطِيَ ذلك كلّه[١] .

القاسم بن مخيمرة :

قال القاسم رحمه الله : لم يجتمع على مائدتي لونان من طعامٍ قطُّ ، وما أغلقتُ بابي قط ولي خَلْفَه هَمٌّ[٢] .

هكذا يكون الزهد :

عن إبراهيم بن شبيب بن شيبة قال : كنّا نتجالسُ في الجمعة ، فأتى رجل عليه ثوب واحد ، مُلتحِف به ، فجلس إلينا ، فألقى مسألة ، فما زلنا نتكلّم في الفقه حتى انصرفْنا ، ثم جاءنا في الجمعة المقبلة ، فأحببناه وسألناه عن منزله فقال : أنزل الحربية . فسألناه عن كُنيته فقال : أبو عبد الله ، فرغبْنا في مجالسته ، ورأينا مجلسنا مجلس فقهٍ ، فمكثنا بذلك زمانًا ثم انقطع عنّا ، فقال بعضنا لبعضٍ : ما حالنا ، قد كان مجلسنا عامرًا بأبي عبد الله ، وقد صار موحشًا . فوعد بعضُنا بعضًا إذا أصبحنا أن نأتي الحربية ، فنسأل عنه ، فأتينا الحربية ، وكُنّا عددًا ، فجعلنا نستحي أن نسأل عن أبي عبد الله ، فنظرنا إلى صبيانٍ قد انصرفوا من الكُتّاب ، فقلنا : أبو عبد الله ؟ فقالوا : لعلّكم تعنُون الصّيّاد ؟ قلنا : نعم . قالوا : هذا وقته ، الآن يجيء . فقعدْنا ننتظره ، فإذا هو قد أقبل مئتزرًا بخرقةٍ وعلى كتفه خرقة ، ومعه أطيار مذبَّحة وأطيار أحياء ، فلمّا رآنا تبسَّم إلينا وقال : ما جاء بكم ؟ فقلنا : فقدْناك ، فقد كنت غمرت مجلسنا ، فما غيّبك عنا ؟ قال : إذن أصْدُقكم ، كان لنا جار ، كنت أستعير منه كل يومٍ ذلك الثوب الذي كنت آتيكم فيه ، وكان غريبًا ، فخرج إلى وطنه ، فلم يكن لي ثوب آتيكم فيه . هل لكم أن تدخلوا

---

(١) الإحياء ٤/٢٣٨ .
(٢) السير ٥/٢٠٣ .

المنزل فتأكلوا مما رزق الله عز وجل ؟ فقال بعضنا لبعض : ادخلوا منزله . فجاء إلى الباب فسلّم ، ثم صبر قليلًا ، ثم دخل فأذن لنا ، فدخلنا ، فإذا هو قد أتى بقطعٍ من البواري ، فبسطها لنا ، فقعدنا ، فدخل إلى المرأة فسلّم إليها الأطيار المذبّحة ، وأخذ الأطيار الأحياء ، ثم قال : أنا آتيكم إن شاء الله عن قريب ، فأتى السوق فباعها واشترى خبزًا ، وقد صنعت المرأةُ ذلك الطير ، وهيَّأته ، فقدّم إلينا خبزًا ولحم طيرٍ ، فأكلْنا ، فجعل يقوم فيأتينا بالملح والماء ، فكلّما قام ، قال بعضنا لبعض : رأيتم مثل هذا ، ألا تُغيِّرون أمره وأنتم سادة أهل البصرة ؟ فقال أحدهم : عليّ خمسمائة . وقال الآخر : عليّ ثلثمائة . وقال هذا وقال هذا ، وضمن بعضهم أن يأخُذ له من غيره ، فبلغ الذي جمعوا في الحساب خمسة آلاف درهم ، فقالوا : قوموا بنا نذهب فنأتيه بهذا ، ونسأله أن يُغيّر ما هو فيه . فقمنا فانصرفنا على حالنا ركبانًا ، فمررنا بالمربد[1] فإذا محمد بن سليمان أمير البصرة قاعد في منظرةٍ[2] له فقال : يا غلام ، ائتني بإبراهيم بن شبيب ابن شيبة من بين القوم . فجئتُ فدخلت عليه ، فسألني عن قصتنا ومن أين أقبلنا ، فصَدَقْتُه الحديث ، فقال : أنا أسبقكم إلى برّه ، يا غلام ، ائتني ببدرة دراهم . فجاء بها ، فقال : ائتني بغلام فرّاش . فجاء ، فقال : احمل هذه البدرة مع هذا الرجل ، حتى تدفعها إلى من أمرناه. ففرحتُ ثم قمت مسرعًا ، فلمّا أتيت الباب سلّمت ، فأجابني أبو عبد الله ، ثم خرج إليّ ، فلمّا رأى الفرّاش والبدرة على عنقه ، كأني سفَّيْتُ[3] في وجهه الرماد ، وأقبل عليَّ بغير الوجه الأول ، فقال : ما لي ولك يا هذا ؟ أتريد أن

(١) من أسواق العرب المشهورة في البصرة .
(٢) ما ارتفع من البناء مُشرفًا على ما تحته « شرفة » .
(٣) ذَرَوْتُ .

تفتنني ؟! فقلت : يا أبا عبد الله ، اقعد حتى أُخبرك أنه من القصة كذا وكذا ، وهو الذي تعلم أحد الجبَّارين - يعني محمد بن سليمان - ولو كان أمرني أن أضعها حيث أرى ، لرجعتُ إليه ، فأخبرته أني قد وضعتها ، فالله الله في نفسك . فازداد عليّ غيظًا ، وقام فدخل منزله ، وأصفق الباب في وجهي ، فجعلت أُقدِّم وأُؤخِّر ، ما أدري ما أقول للأمير ، ثم لم أجد بدًّا من الصدق ، فجئت فأخبرته الخبر ، فقال : حَرُورِيٌّ والله ، يا غلام ، عليَّ بالسيف . فجاء بالسيف ، فقال له : خُذ بيد هذا الغلام حتى يذهب بك إلى هذا الرجل ، فإذا أخرجه إليك ، فاضرب عنقه وائتني برأسه . قال إبراهيم : فقلت : أصلح الله الأمير ، الله الله ، فوالله لقد رأينا رجلًا ما هو من الخوارج ، ولكني أذهب فآتيك به . وما أريد بذلك إلّا افتداءً منه . قال : فضمَّنَنِيه فمضيت حتى أتيت الباب ، فسلّمتُ ، فإذا المرأة تحنُّ وتبكي ، ثم فتحتِ الباب ، وتوارتْ ، فأذنتْ لي ، فدخلتُ ، فقالت : ما شأنكم وشأن أبي عبد الله ؟! فقلت : ما حاله ؟ قالت : دخل فمال إلى الرِّكَى ، فنزع منها ماءً ، فتوضأ ، ثم سمعته يقول : اللهم اقبضني إليك ، ولا تفتنِّي . ثم تمدَّد وهو يقول ذلك ، فلحقتُه ، وقد قُضي ، فهو ذاك ميتٌ ، فقلت : يا هذه ، إن لنا قصةً عظيمة ، فلا تُحدثوا فيه شيئًا . فجئت محمد بن سليمان وأخبرته الخبر فقال : أنا أركب فأُصلِّي على هذا . قال : وشاع خبره بالبصرة ، فشهده الأمير ، وعامّة أهل البصرة ، رحمة الله عليه(١).

عن سلام بن أبي حمزة : قال أيوب : الزهد في الدنيا ثلاثة أشياء ، أحبُّها إلى الله وأعلاها عند الله ، وأعظمها ثوابًا عند الله تعالى : الزهد في عبادةِ مَنْ عُبد دون الله من كلِّ ملكٍ وصنمٍ وحجرٍ ووثنٍ ، ثم الزهد فيما حرّم الله تعالى من الأخذ والإعطاء . ثم يقبل علينا فيقول : زهدكم هذا

---

(١)

يا معشر القُرّاء فهو والله أخسُّه عند الله ، الزهد في حلال الله عز وجل .

وعن عمارة بن غزيّة قال : سمعت رجلًا سأل ربيعة فقال : يا أبا عثمان ، ما رأس الزّهادة ؟ قال : جمع الأشياء من حلِّها ، ووضعها في حقِّها .

وقال سلام بن أبي مطيع : الزاهد على ثلاثة وجوه : واحد:أن تُخلص العمل لله ، والقول ، ولا يُراد بشيءٍ منه الدنيا . والثاني : تركُ ما لا يصلُح ، والعمل بما يصلح . والثالث : الحلال ، وهو أن يزهد فيه ، وهو تطوُّع ، وهو أدناها .

قال سفيان بن عيينة : الزهد في الدنيا الصبرُ ، وارتقاب الموت .

وقال الفضيل : عامّة الزهد : في الناس . يعني إذا لم يحب ثناء الناس عليه ، ولم يُبالِ بمذمَّتهم .

وقال : إن قدرتَ أن لا تُعرف فافعل ، وما عليك إن لم يُثنَ عليك ، وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس إذا كنت عند الله محمودًا .

وقال : من أحبَّ أن يُذكر لم يُذكر ، ومن كره أن يُذكر ذُكِر .

أخي : لو سقطت قلنسوة من السماء ما سقطت إلا على رأس من يقول بها هكذا وهكذا - يعني لا يريدها -.

وقال وهيب بن الورد المكي : الزهد في الدنيا أن لا تأسَى على ما فاتك منها ، ولا تفرح بما آتاك منها .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أنتم أكثر صيامًا وأكثر صلاةً ، وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم كانوا خيرًا منكم . قالوا : لِمَ يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : هُمْ كانوا أزْهَدَ في الدنيا ، وأرْغَب في الآخرة .

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، في مرضه الذي مات فيه : لولا أني أرى أن هذا اليوم آخر يومٍ من الدنيا ، وأوَّل يوم من الآخرة ،

لم أتكلَّم به ، اللهم إنَّك تعلم أني كنت أحبُّ الفقر على الغنى ، وأحب العُزلة على العزّ ، وأحب الموت على الحياة ، حبيبٌ جاء على فاقةٍ ، لا أفلحَ مَنْ ندم . ثم مات رضي الله عنه .

قال الحسن البصري يعظ أصحابه : والله لقد صحبْنا أقوامًا كانوا يقولون : ليس لنا في الدنيا حاجة ، ليس لها خُلِقْنا . فطلبوا الجنة بغدوهم ورواحهم ، نعم والله ، حتى أهراقوا فيها دماءهم ، فأفلحوا ونجوْا ، هنيئًا لهم ، لا يطوي أحدهم ثوبًا ، ولا يفترشه ، ولا تلقاه إلّا صائمًا ذليلًا ، متبائسًا خائفًا ، إذا دخل إلى أهله إن قُرّب إليه شيءٌ أكله ، وإلا سكت، لا يسألهم عن شيء ، ما هذا وما هذا . ثم قال :

ليس مَنْ مات فاستراحَ بمَيْتٍ إنما المَيْتُ ميِّتُ الأحياءِ

داود الطائي :

عن أحمد بن ضرار العجلي قال : أتيتُ داود الطائي وهو في دارٍ واسعةٍ خربة ليس فيها إلَّا بيت ، وليس على بيته باب ، فقال له بعض القوم : أنت في دار وحشة ، فلو اتخذتَ لبيتك هذا بابًا ، أما تستوحش ؟ فقال : حالت وحشةُ القبر بيني وبين وحشةِ الدنيا .

أحمد بن حنبل :

عن علي بن المديني قال : دخلت منزل أحمد بن حنبل ، فما في بيته إلّا بما وُصِف به بيت سويد بن غفلة ، مِن زهده وتواضعه .

طاووس :

عن سفيان بن عيينة قال : جاء ابنٌ لسليمان بن عبد الملك ، فجلس إلى جنب طاووس ، فلم يلتفت إليه ، فقيل له : جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه . قال : أردتُ أن يعلم أن لله عبادًا يزهدون فيما في يديه .

زهدهم في الطعـام :

عن أبي الأبيض المدني رضي الله عنه ، أنه قال : إن أقرَّ أيامي لعينيَّ ، يومَ أرجع إلى أهلي وهم يشكون الحاجة .

وقال عبد الواحد بن زيد : ما للعاملين والبِطْنة ، إنما العامل تجزيه العُلْقَة التي تقوم برَمَقه .

وقال الحسن : والله أدركت أقوامًا ، إنْ كان أحدهم ليأكل غداءً ، فما عسى أن يُقارب شبعه ، فيمسك .

وقال : والله لأن ينبذ رجل طعامه للكلب ، خيرٌ له من أن يأكل فوق شبعه .

قالوا لحكيم : فلانٌ يأكل في اليوم ثلاث مرات . قال : قولوا لأهله يبنوا له معلفًا .

قال (**أبو بكر بن عياش**) : من عظّم صاحبَ دنيا ، فقد أحدثَ حدثًا في الإسلام .

الحسـن :

وعن محمد بن معاوية الأزرق قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : « عظني وأوجز » . فكتب إليه « أن رأس ما هو مصلحك ومصلح به على يديك : الزهد في الدنيا ، وإنما الزهد باليقين ، واليقين بالتفكُّر ، والتفكّر بالاعتبار ، فإذا أنت فكّرت في الدنيا لم تجدْها أهلًا أن تتبع بها نفسك ، ووجدت نفسك أهلا أن تُكرمها بهوان الدنيا ، فإن الدنيا دار بلاءٍ ومنزل قُلْعَة[1] » .

---

(١) أي انقطاع وارتحال .

وكتب الحسن أيضًا إلى عمر : أما بعد ، فإن الدنيا مشغلةٌ للقلب والبدن ، وإن الزهد راحةٌ للقلب والبدن ، وإن الله سائلنا عن الذي نعمنا في حلاله ، فكيف بما نعمنا في حرامه !

وعن الحسن قال : والله لقد أدركتُ أقوامًا ، إن كان أحدهم لتكون به الحاجة الشديدة وإلى جنبه المال الحلال ، لا يأتيه فيأخذ منه ، فيُقال له : رحمك الله ، ألا تأتي هذا ؛ فتستعين به على ما أنت فيه ؟ فيقول : لا ، والله إني أخشى أن يكون فساد قلبي وعملي(١) .

السّـرِيّ :

قال السريُّ : خمسٌ من أخلاق الزُّهّاد : الشكر على الحلال ، والصبر عن الحرام ، ولا يُبالي متى مات ، ولا يُبالي من أكل الدنيا ، ويكون الفقر والغنى عنده سواء(٢) .

الزُّهْـرِي :

قال سفيان بن عيينة : سمعت الزهريَّ ، وقد سأله رجل ، فقال : يا أبا بكر ، مَنِ الزاهد ؟ قال : الذي لا يغلب الحرامُ صبره ، ولا يمنع شكرَهُ . قال ابن عيينة : ما سمعت في الزهد قط شيئًا أحسن من هذا(٣) .

يحيى بن معاذ الرازي :

قال يحيى بن معاذ الرازي : الزهد يُورث السَّخاء بالملك ، والحب يورث السخاء بالرُّوح .

وقال : لا يبلغ أحدٌ حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال : عملٌ بلا علاقة ، وقولٌ بلا طمع ، وعزٌّ بلا رياسة .

---

(١) الزهد الكبير ص٩٥ .

(٢) الزهد الكبير للبيهقي ص٩٧ .

(٣) الزهد الكبير ص٩٧ ، وجامع بيان العلم وفضله ٢/٢٠ .

وقال : الزاهد يُسْعِطك الخلَّ والخَرْدَل ، والعارف يُشِمُّك المسك والعنبر .

وقال رجل ليحيى : متى أدخُل حانوت التَّوكُّل ، وألبس رداء الزاهدين ، وأقعد معهم ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك إلى حدّ لو قطع الله الرزق عنك ثلاثة أيامٍ ، لم تضعف نفسك ، فأمّا ما لم تبلغ إلى هذه الدرجة ، فجلوسك على بساط الزاهدين جهلٌ ، ثم لا آمن عليك أن تفتضح(١) .

قال يحيى : الزاهد الصادق:قُوتُه ما وجد ، ولباسه ما سَتَر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فِكرته ، والقرآن حديثه ، والرَّبُّ أنيسُه ، والذِّكْر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمده ، والتوكُّل حسْبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى(٢) .

وقال رحمه الله : الزهد ثلاثة أشياء : القلة والخلوة والجوع .

فتأسّ يا أخي بنبيك الأطهر ﷺ ، فإن فيه أُسوةً لمن تأسَّى ، وعزاءً لمن تعزَّى ، وأحب العباد إلى الله المُتأسِّي بنبيه والمُقتصّ لأثره .

قَضَم الدنيا قضْمًا و لم يُعِرْها طرْفًا ، كان يأكل على الأرض ، ويجلس جلسة العبد ، ويخصف بيده نعله ، ويرقّع بيده ثوبه ، ويركب الحمار العاري ، ويُردف خَلْفَهُ ، أعرض عن الدنيا بقلبه ، وأمات ذكرها من نفسه ، وأحبّ أن تغيب زينتُها عن عينه ، لكي لا يتّخذ منها رِياشًا ، ولا يعتقدها

(١) المدارج ١١/٢ - ١٢ .
(٢) الإحياء ٢٤٦/٤ .

قرارًا ، ولا يرجو فيها مقامًا ، فأخرجها من النفس ، وأشخصها[(١)] عن القلب ، وغيّبها عن البصر ، وكذلك من أبغضَ شيئًا ، أبغض أن ينظر إليه ، وأن يُذكر عنده .

جاع رسول الله ﷺ مع خاصّته[(٢)] ، وزُويت عنه زخارفُها مع عظيم زلفته ، فلينظر ناظرٌ بعقله : أكرم الله محمدًا ﷺ بذلك أم أهانه ؟ فإن قال : « أهانه » ، فقد كذب وأتى بالإفك العظيم . وإن قال : « أكرمه » ، فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له ، وزواها عن أقرب الناس منه ، فتأسّى مُتأسٍّ بنبيه ﷺ ، واقتص أثره وولج مولجه ، وإلا فلا يأمن الهلكة ، خرج من الدنيا خميصًا ، وورد الآخرة سليمًا ، لم يضع حجرًا على حجر ، حتى مضى لسبيله ، وأجاب داعي ربه .

فما أعْظَمَ منَّة الله عندنا حين أنعم علينا به سَلَفًا نتَّبعه ، وقائدًا عظيمًا نطأ عَقِبَهُ[(٣)] .

قال ذو النون المصري : « تجوَّعْ ، وتخلَّ ، وتفرَّد ، واضجرْ ، ترى العَجَب »[(٤)] .

وقال أيضًا ، رحمه الله : « ما رجع من رجع إلّا من الطريق ، ولو وصلوا إلى الله ما رجعوا ، فازهد يا أخي ترَ العجب »[(٥)] .

---

(١) أبْعَدَها .
(٢) أي مع خصوصيته وفضله عند ربه .
(٣) العقب : مؤخر القدم ، ووطء العقب : مبالغة في الاتّباع والسلوك على طريقه ، نقفوه خطوةً خطوةً ، حتى كأننا نطأ مؤخر قدمه .
(٤) الزهد الكبير ص١٠١ .
(٥) الزهد الكبير ص٨٨ .

ونختم بما قاله علي، رضي الله عنه: والله لقد رقّعت مِدْرَعتي[١] هذه حتى استحييتُ من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت: اغرُب عني، فعند الصباح يحمد القومُ السُّرى.

* * *

(١) المِدْرَعَة: ثوب من صوف.

الفصْلُ الرَّابع

عُلُـوُّ الهِمَّـةِ

في الـورعِ

« فضلُ العلمِ أحبُّ إليَّ من فضلِ العبادةِ ، وخيرُ دينكم الورَعُ »
[حديث شريف]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الورعِ □

فريضة طلب الحلال من بين سائر الفرائض : أعصاها على العقول فهمًا ، وأثقلُها على الجوارح فِعلًا ، ولذلك اندرس بالكُلِّية علمًا وعملًا ، وصار غموض علمه سببًا لاندراس عمله .

قال تعالىٰ : ﴿ **يَاأَيُّهَا الرسل كُلُوا من الطيبات واعملوا صالحًا إني بما تعملون عليم** ﴾ [المؤمنون : ٥١] . فأمر بالأكل من الطيبات قبل العمل .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وثيابَك فطهِّرْ** ﴾ [المدثر : ٤] .

قال قتادة ومجاهد : نفسك فطهِّرْها من الذنب ، فكنَّى عن النفس بالثوب .

وهذا قول إبراهيم النخعي ، والضحاك ، والشعبي ، والزهري ، والمحقِّقين من أهل التفسير .

قال ابن عباس : لا تلبسْها على معصية ولا غدْر .

ونجاسة الباطن تُورث نجاسة الظاهر ، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة ، ويُؤثِّر كلٌّ منهما في الآخر ، وتأثير القلب والنفس في الثياب أمْر خفيٌّ يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها ، حتىٰ إن ثوب البرِّ لَيُعرَف من ثوب الفاجر وليسا عليهما .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كُنْ وَرِعًا تَكنْ أعبدَ الناس »(١).

---

(١) حسن : أخرجه ابن ماجه ، والخرائطي في مكارم الأخلاق ، وأبو نعيم في « الحلية » والبيهقي في « الزهد » وابن أبي الدنيا في « الورع » واللفظ له . قال البوصيري =

وقال رسول الله ﷺ : « فضلُ العلم أحبُّ إليَّ من فضل العبادة ، وخيرُ دينكم الوَرَعُ »[١].

قال ابن القيم في « المدارج » (٢ / ٢١) : « وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة ، فقال : « من حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه » . فهذا يعمُّ التَّرك لما لا يُعنى ؛ من الكلام ، والنظر ، والاستماع ، والبطش ، والمشي ، والفكْر ، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة . فهذه الكلمة شافية في الورع » .

وعن عائشة رضي الله عنها : إنكم لتغفُلُون عن أفضل العبادة ؛ هو الورع .

وقال إبراهيم بن أدهم : ما أدرك مَنْ أدرك إلا مَنْ كان يعقل ما يدخل جوفه .

وقال الحسن في قوله تعالىٰ : ﴿ **يؤتي الحكمة مَنْ يشاء** ﴾ [البقرة : ٢٦٩] ، قال : الورَع .

وعن معاوية بن قُرَّة قال : دخلتُ على الحسن وهو مُتَّكئ على سريره ، فقلتُ : يا أبا سعيد ، أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله ؟ قال : الصلاة في جوف الليل والناس نيام . قلتُ : فأيُّ الصوم أفضل ؟ قال : في يوم صائف . قلتُ : فأيُّ الرِّقاب أفضل ؟ قال : أنفسُها عند أهلها وأغلاها ثمنًا . قلتُ :

= في الزوائد : هذا إسناد حسن .

(١) صحيح : أخرجه البزار والطبراني في الأوسط ، والحاكم في المستدرك عن حذيفة ، والحاكم عن سعد بن أبي وقاص . وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وحسَّن الحديثَ المنذري ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٢١٤) .

فما تقول في الورَع ؟ قال : ذاك رأسُ الأمر كلِّه .

وعن أرطاة بن المنذر قال : قال عيسى بن مريم ﷺ : « لو صلّيتم حتى تصيروا مثل الحنايا ، وصُمتُم حتى تكونوا أمثال الأوتاد ، وجرى من أعينكم الدموع أمثال الأنهار ؛ ما أدركتم ما عند الله إلا بورَع صادق »[(١)].

وقال أبو إسماعيل المؤدّب : جاء رجل إلى العُمَري ، فقال : عظني ، فأخذ حصاة من الأرض ، فقال : زِنة هذه من الورَع يدخل قلبَك ؛ خيرٌ لك من صلاة أهل الأرض . قال : زدني . قال : كما تُحِبُّ أن يكون الله لك غدًا فكنْ له اليوم .

وقال يونس بن عُبيد : لو أعلم موضع درهم من حلال من تجارة لاشتريتُ به دقيقًا ، ثم عجنتُه ، ثم جفَّفتُه ، ثم دققتُه ، أُداوي به المرضى[(٢)].

وقال الضحَّاك : أدركتُ الناس وهم يتعلَّمون الورع ، وهم اليوم يتعلَّمون الكلام . وقال : « لقد رأيتُنا وما يتعلَّم بعضنا من بعض إلا الورَع » .

وقال النضر بن محمد : نُسُكُ الرجل على قدْر ورَعه .

وقال صالح المريّ : المُتورِّع في الفتن كعبادة النبيِّين في الرخاء .

وقال خالد بن معدان : من لم يكن له حلمٌ يضبط به جهْله ، وورَعٌ يحجزه عما حرَّم الله عليه ، وحسْنُ صحابة عمن يصحبه ؛

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة ، وأحمد والطبراني في الكبير عن الحسين بن علي ، والحاكم في « الكنى » عن أبي ذر ، والحاكم في تاريخه عن علي بن أبي طالب ، والطبراني في الصغير عن زيد بن ثابت ، وابن عساكر عن الحارث بن هشام ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٩١١) .

(٢) إسناده حسن إلى أرطاة .

فلا حاجة لله فيه[١].

وقال يحيىٰ بن أبي كثير : يقول الناس : فلانٌ الناسك ، فلان الناسك ، إنما الناسك : الوَرِعُ .

وقال الفُضيل : من عرف ما يدخل جوفه كُتب عند الله صدِّيقًا ، فانظر عند مَنْ تُفطر يا مسكين .

وقال سهل التسْتُري :لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتىٰ يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسُّنَّة ، وأكْل الحلال بالورَع ، واجتناب النهي من الظاهر والباطن ، والصبر على ذلك إلى الموت .

وقال سهل رحمه الله : مَنْ أكل الحرام عصتْ جوارحه شاء أم أبىٰ ، عَلِمَ أو لم يعلم ، وَمَنْ كانت طُعْمته حلالًا أطاعته جوارحه ، ووفِّقتْ للخيرات .

« قال الشبلي : الوَرَع : أن يتورَّع عن كل ما سوىٰ الله .

وقال يحيىٰ بن معاذ : الورَع : الوقوف على حدِّ العلم من غير تأويل .

وقال:الورَع على وجهين : ورَع في الظاهر ، وورَع في الباطن ؛ فورع الظاهر : أن لا يتحرَّك إلا لله ، وورَع الباطن : هو أن لا تُدخِل قلبك سواه .

وقال : مَنْ لم ينظر في الدقيق من الورَع لم يصل إلى الجليل من العطاء .

وقال يونس بن عبيد : الورَع : الخروج من كل شبهة ، ومحاسبة

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١١٧ .

النفس في كل طرفة عين .

وقال الحسن : مثقال ذرَّة من الورَع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة .

وقال أبو هريرة : جلساء الله غدًا أهل الورَع .

وقال بعض الصحابة : كنا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافةَ أن نقع في باب من الحرام »[1] .

قال الهروي : « الورع تَوَقٍّ مُسْتَقْصًى على حَذَرٍ ، وتحرُّجٌ على تعظيم » .

قال ابن القيم في « المدارج » (٢ / ٢٣) : « يعني أن يتوقَّى الحرام والشُّبَه وما يخاف أن يضرَّه أقصىٰ ما يُمكِنُه من التوقِّي . والتوقِّي : فعْل الجوارح ، والحذَر : فعْل القلب . ويكون الباعث على الورَع عن المحارم والشُّبَه : إما حذرُ الوعيد ، وإما تعظيم الربّ جلَّ جلاله ، وإجلالًا له أن يتعرَّض لما نهي عنه ، فقد يتوقَّى العبد الشيء لا على وجه الحذَر والخوف ، ولكن لأمورٍ أُخرىٰ ؛ من إظهار نزاهة ، وعزَّة وتصوُّف ، أو اعتراض آخر ؛ كتوقِّي الذين لا يؤمنون بمعاد ولا جنَّة ولا نار ما يتوقَّونه من الفواحش والدناءة تصوُّنًا عنها ، ورغبةً بنفوسهم عن مواقعتها ، وطلبًا للمحمدة ونحو ذلك » .

قال الهروي : « وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولىٰ : تجنُّب صوْن القبائح ؛ لصون النفس ، وتوفير الحسنات ، وصيانة الإيمان » .

---

(١) تحت الطبع بفضل الله جمعٌ لي عن الزهد والورع بعنوان « رائق الشهد في الورَع والزهد » .

قال ابن القيم في « المدارج » (٢ / ٢٤) : « هذه ثلاث فوائد من فوائد تجنُّب القبائح :

إحداها : « **صَوْن النفس** » : وهو حفْظها وحمايتها عمّا يشينُها ويعيبها ويزري بها عند الله عزَّ وجل وملائكته وعباده المؤمنين وسائر خلقه ؛ فإن مَنْ كرُمت عليه نَفْسُه وكبُرت عنده صانها وحماها ، وزكَّاها وعلَّاها ، ووضعها في أعلى المحالِّ ، وزاحم بها أهل العزائم والكمالات . ومَنْ هانت عليه نَفْسُه وصَغُرت عنده ألقاها في الرذائل ، وأطلق شناقها ، وحلَّ زمامها وأرخاه ، ودسَّاها ولم يصنْها عن قبيح ، فأقل ما في تجنُّب القبائح صوْن النفس .

وأمَّا « **توفير الحسنات** » **فمن وجهين** :

أحدهما : توفير زمانه على اكتساب الحسنات ، فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مُسْتَعِدًّا لتحصيلها .

والثاني : توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها ، بموازنة السيئات وحبوطها ، فتجنُّب السيئات يُوفِّر ديوان الحسنات .

وأما « **صيانة الإيمان** » : فلأن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . وهذه الأمور الثلاثة - وهي : صون النفس ، وتوفير الحسنات ، وصيانة الإيمان - هي أرفع من باعث العامَّة على الورع ؛ لأن صاحبها أرفعُ هِمَّة ، لأنه عاملٌ على تزكية نفسه وصونها ، وتأهيلها للوصول إلى ربِّها ، فهو يصونها عمّا يشينها عنده ، ويحجبها عنه ، ويصون حسناته عما يُسقطها ويضعها ؛ لأنه يسير بها إلى ربِّه ، ويطلب بها رضاه ، ويصون إيمانه بربِّه - من حُبِّه له ، وتوحيده ، ومعرفته به ، ومراقبته إياه - عما يُطفئ نوره ، ويُذهِب بهجته ، ويُوهِن قُوَّته » .

قال الهروي :

« **الدرجة الثانية** : حفْظ الحدود عند ما لا بأس به ؛ إبقاءً على الصيانة والتقوىٰ ، وصعودًا عن الدناءة ، وتخلُّصًا من اقتحام الحدود » .

قال ابن القيم في « المدارج » (٢ / ٢٥ - ٢٦) : « إن مَنْ صعد عن الدرجة الأولىٰ إلى هذه الدرجة من الورَع يترك كثيرًا مما لا بأس به من المباح ؛ إبقاءً على صيانته ، وخوفًا عليها أن يتكدَّر صفوها ، ويُطفَأ نورُها . فإنَّ كثيرًا من المباح يُكدِّر صَفْوَ الصيانة ، ويُذهِب بهجتها ، ويُطفئ نورها ، ويُخلِق حسنتها وبهجتها .

وقال لي يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - في شيء من المباح : هذا يُنافي المراتب العالية ، وإن لم يكن تركْه شرطًا في النجاة ، أو نحو هذا من الكلام .

والفرق بين صاحب الدرجة الأولىٰ وصاحب هذه : أن ذلك يسعىٰ في تحصيل الصيانة ، وهذا يسعىٰ في حفْظ صَوْنها أن يتكدَّر ، ونورها أن يُطْفأ ويذهب .

وأما الصعود عن الدناءة : فهو الرفع عن طرقاتها وأفعالها .

وأما التخلُّص عن اقتحام الحدود : فالحدود : هي النهايات ، وهي مقاطع الحلال والحرام ، فحيث ينقطع وينتهي ؛ فذلك حدُّه ، فمن اقتحمه وقع في المعصية ، وقد نهىٰ الله تعالىٰ عن تعدِّي حدوده وقُربانه ، فقال : ﴿ **تلك حدود الله فلا تقربوها** ﴾ [البقرة : ١٨٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **تلك حدود الله فلا تعتدوها** ﴾ [البقرة : ٢٢٩] ، فإن الحدود يُراد بها أواخر الحلال ، وحيث نهىٰ عن القُربان ؛ فالحدود هناك : أوائل الحرام .

فالورَع يُخَلِّص العبد من قُربان هذه وتعدِّي هذه . وهو اقتحام

الحـدود » .

قال الهروي :

« **الدرجة الثالثة** : التورُّع عن كل داعية تدعو إلى شتات الوقت ، والتعلّق بالتفرُّق ، وعارض يُعارض حال الجمع » .

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » : « الفرق بين شتات الوقت ، والتعلُّق بالتفـرُّق : كالفرق بين السـبب والمسبّب والنفي والإثبات ؛ فإنه يُشتِّت وقته ، فلا يجد بُدًّا من التعلُّق بما سوىٰ مطلوبه الحق ، إذ لا تعطيل في النفس ولا في الإرادة ، فمن لم يكن الله مُراده أراد سواه ، ومن لم يكن هو وحده معبوده عبد ما سواه ، ومن لم يكن عمله لله فلا بدَّ أن يعمل لغيره .

فالمُخلِص يصونه الله بعبادته وحده ، وإرادة وجهه وخشيته وحده ، ورجائه وحده ، والطلب منه ، والذلّ له ، والافتقار إليه وحده .

وإنما كان هـذا أعلىٰ من الدرجة الثانية ؛ لأن أربابها اشتغلوا بحفظ الصيانة من الكدر وملاحظتها ، وذلك عند أهل الدرجة الثالثة : تفرُّقٌ عن الحق ، واشتغالٌ عن مراقبته بحال نفوسهم . فأدبُ أهل هذه أدبُ حضور ، وأدبُ أولئك أدبُ غيبة .

وأما « الورع عن كل حـال يُعارض حـال الجمع » : فمعناه : أن يستغرق العبد شهود فنائه في التوحيد ، وجمعيَّته على الله تعالى فيه عن كل حال يُعارض هذا الفناء والجمعيَّة .

وفوق هذا مقام أرفع منه وأعلىٰ ، وهو الورَع عن كل حظٍّ يُزاحم مراده منك ، ولو كان الحظُّ فناءً أو جمعية ، أو كائنًا ما كان . و« الفناء » و« الجمعية » حظُّ العبد ، وأنّ حقَّ الرب وراء ذلك ، وهو البقاء بمراده

فرقًا وجمعًا به وله .

وعلىٰ هذا فالوَرَع الخالص : الورَع عن كل حال يُعارض حال القيام بالأمر والبقاء به فرقًا وجمعًا . والله المستعان » .

قال أبو سليمان الداراني : الورَع أوَّل الزهد ، كما أنّ القناعة أوَّل الرضا .

فــائدة :

قال ابن القيم : « الخوف يُثمر الورع والاستعانة وقِصَر الأمل . وقوة الإيمان باللقاء تُثمر الزهد . والمعرفة تُثمر المحبة والخوف والرجاء . والقناعة تُثمر الرضاء . والذكْرُ يُثمِر حياة القلب . والإيمان بالقدر يُثمر التوكُّل . ودوام تأمُّل الأسماء والصفات يُثمر المعرفة . والورَع يُثمر الزهد أيضًا . والتوبة تُثمـر المحبة أيضًا ، ودوام الذكْر يُثمـرها . والرضا يُثمر الشكر . والعزيمة والصبر يُثمران جميع الأحوال والمقامات . والفكْر يُثمر العزيمة . والمراقبة تُثمر عمارة الأوقات وحفظ الأيام . والحياء والخشية والإنابة وإماتة النفس وإذلالها وكسْرها يوجب حياة القلب وعِزّه وجبْرَهُ . ومعرفة النفس ومقْتها يوجب الحياء من الله عز وجل ، واستكثار ما منه ، واستقلال ما منك من الطاعات ، ومحو أثر الدعوىٰ من القلب واللسان . وصحَّة البصيرة تُثمر اليقين . وحُسْن التأمُّل لما ترىٰ وتسمع من الآيات المشهودة والمتلُوَّة يُثمر صحَّة البصيرة .

وملاك ذلك كله أمران : أحدهما : أن تنقُل قلبك من وطن الدنيا فتُسكنه في وطن الآخرة . ثم تُقبل به كله على معاني القرآن واستجلائها وتدبُّرها ، وفهْم ما يُراد منه وما نزل لأجله ، وأخْذ نصيبك وحظِّك من كلِّ آية من آياته ، وتُنزلها على داء قلبك .

فهذه طريقة مُختَصرة قريبة سهلة ، مُوصلة إلى الرفيق الأعلىٰ ، آمنة لا يلحق سالكها خوفٌ ولا عطبٌ ، ولا جوعٌ ولا عطشٌ ، ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق ألبتة ، وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم ويدفع عنهم . ولا يعرف قـدْر هذه الطريق إلا من عـرف طُرُقَ الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها . والله المستعان »[١].

درجات الورَع عن الحرام عند الغزالي :

قال الغزالي رحمه الله : « الورع عن الحرام على أربع درجات :

الأولىٰ : ورع العدول : وهو الذي يجب الفسق باقتحامه ، وتسقط العدالة به ، ويثبت اسم العصيان والتعرُّض للنار بسببه ؛ وهو الورع عن كل ما تُحرِّمُه فتاوىٰ الفقهاء .

الثانية : ورع الصالحين : وهـو الامتناع عما يتطرَّق إليه احتمال التحريم ، ولكن المفتي يُرخِّص في التناول بناءً على الظاهر ، فهو من مواقع الشبهة على الجملة .

الثالثة : ورع المتقين : ما لا تُحرِّمه الفتوىٰ ولا شُبهة في حِلِّه ، ولكن يُخاف منه أداؤه إلى مُحَرَّم . وهو تَرْك ما لا بأس به مخافةً مما به بأس . وهذا ورَع المتقين .

أخذ الحسن رضي الله عنه تمرةً من الصدقة - وكان صغيرًا - فقال النبي ﷺ : « كخْ كخْ ، ألقِها »[٢].

« ومن ذلك ما سُئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل يكون في

---

(١) المدارج ٢ / ٢٨ .
(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

المسجد ، يحمل مجمرةً لبعض السلاطين ، ويُبَخِّر المسجد بالعود ، فقال : ينبغي أن يخرج من المسجد ، فإنه لا يُنتفع من العود إلا برائحته . وسُئل أحمد بن حنبل عمّن سقطت منه ورقة فيها أحاديث ، فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردّها ؟ فقال : لا ، بل يستأذن ثم يكتب » .

ومن ذلك : التورُّع عن الزينة ؛ لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها ، وإن كانت الزينة مُباحة في نفسها . وقد سُئل أحمد بن حنبل عن النِّعال السبتية ، فقال : أما أنا فلا أستعملها ، ولكن إنْ كان للطين فأرجو ، وأمَّا مَنْ أراد الزينة فلا .

ومن ذلك ما رُوي عن علي بن معبد أنه قال : كنتُ ساكنًا في بيت بكراء ، فكتبتُ كتابًا ، وأردتُ أن آخذ من تراب الحائط لأُتَرِّبه وأُجفِّفَه ، ثم قلتُ : الحائط ليس لي ، فقالت لي نفسي : وما قدْرُ تراب من حائط ؛ فأخذتُ من التراب حاجتي ، فلما نمتُ إذا أنا بشخص واقف يقول لي : يا علي بن معبد ، سيعلم غدًا الذي يقول : وما قَدْرُ تراب من حائط . ولعلَّ معنى ذلك : أنه يرى كيف يحطُّ من منزلته ، فإن للتقوى درجة تفوت بفوات ورع المتقين ، وليس المراد به أن يستحقَّ عقوبة على فعْله .

وهكذا المباحات كلها إذا لم تُؤخذ بقدر الحاجة في وقت الحاجة ، مع التحرُّزِ من غوائلها بالمعرفة أولًا ، ثم بالحذر ثانيًا ، حتى كره أحمد ابن حنبل تجصيص الحيطان ، وقال : أمَّا تجصيص الأرض فيمنع التراب ، وأما تجصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه ، حتى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها ، واستدلّ بما رُوي عن النبي ﷺ : أنه سُئِلَ أن يكحل المسجد ، فقال : « عرش كعرش موسى ! »(١) ، وقال ﷺ : « عريشًا كعريش موسى ؛

(١) صحيح : أخرجه البيهقي في السنن عن سالم بن عطية مُرسلًا ، وصحَّحه =

ثُمام ، وخُشيبات ، والأمر أعجلُ من ذلك »[١] .

وكره السلف الثوب الرقيق ، وقالوا : مَنْ رَقَّ ثوبه رقَّ دينه . وكل ذلك ؛ خوفًا من سريان اتِّباع الشهوات في المباحات إلى غيرها ، فإن المحظور والمباح تشتهيهما النفس بشهوة واحدة ، وإذا تعوَّدتِ المسامحة استرسلت ؛ فاقتضىٰ خوف التقوى الورَعَ عن هذا كله .

الدرجة الرابعة : ورَع الصِّدِّيقين : ما لا بأس به أصلًا ولا يُخاف منه أن يُؤدِّي إلى ما به بأس ، ولكنه يُتناول لغير الله ، وعلىٰ غير نيّة التقَوِّي به علىٰ عبادة الله .

فالأمر عندهم : كلُّ ما لا تتقدَّم في أسبابه معصية ، ولا يُستعان به على معصية ، ولا يُقصد منه في الحال والمآل قضاءُ وطرٍ ، بل يُتناول لله تعالىٰ فقط ، وللتقوِّي على عبادته ، واستبقاء الحياة لأجله . وهذه رُتبة الموحِّدين المُتجرِّدين عن حظوظ نفوسهم ، المنفردين لله تعالىٰ بالقصد .

فمن ذلك ما رُوي عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء ، فقالت له امرأته : لو تمشّيْت في الدار قليلًا حتى يعمل الدواء ؟ فقال : هذه مشية لا أعرفها ، وأنا أُحاسِب نفسي منذ ثلاثين سنة . فكأنه لم تحضره نيَّة في هذه المشية تتعلَّق بالدِّين ، فلم يجز الإقدام عليها .

ومن هذا ما روي عن ذي النون المصري أنه كان جائعًا محبوسًا ، فبعثت إليه امرأة صالحة طعامًا على يد السجَّان فلم يأكل ، ثم اعتذر وقال :

= الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٩٩٨) ، والصحيحة رقم (٦١٦) .

(١) حسن : أخرجه المخلص في فوائده ، وابن النجار عن أبي الدرداء ، وكذا أخرجه الضياء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٠٠٧) .
والثُّمام : نبات يُشَدُّ به خصاص البيوت .

جاءني على طبق ظالم ؛ يعني أنَّ القوة التي أوصلت الطعام إلَيَّ لم تكن طيِّبة . وهذه الغاية القصوىٰ في الورَع .

ومن ذلك أن بِشرًا رحمه الله كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها الأمراء . فإن النهر سبب لجريان الماء ووصوله إليه ، وإن كان الماء مُباحًا في نفسه ؛ فيكون كالمنتفع بالنهر المحفور بأعمال الأجراء ، وقد أُعطوا الأجرة من الحرام »[١].

عمر بن الخطاب :

لله دَرُّه ! ما كان أشدَّ ورعه عن مال المسلمين !

ورحم الله حافظًا حين قال في عُمريَّته :

فَمَنْ يُجاري أبا حفصٍ وسيرَته ... أمَّن يُحاوِلُ للفاروقِ تشبيها
إذ اشتهتْ زوجُهُ الحلوى فقال لها ... من أين لي ثمنُ الحلوى فأشريها
ما زاد عن قُوتِنا فالمسلمون به ... أولىٰ فقومي لبيتِ المالِ رُدِّيها

« عن عاصم بن عمر عن عمر قال : إنه لا أجده يحلُّ لي أن آكل من مالكم هذا ، إلا كما كنتُ آكل من صُلب مالي : الخبز والزيت ، والخبز والسمن . قال : فكان ربما يُؤتى بالجفنة قد صُنِعت بالزيت ، ومما يليه منها سمنٌ ؛ فيعتذر إلى القوم ويقول : إني رجل عربي ، ولستُ أستمري الزيت »[٢].

أبو الدرداء :

عن معاوية بن قُرَّة قال : « كان لأبي الدرداء جَمَلٌ يُقال له : « الدمون » . فكان إذا استعاره منه رجُلٌ ؛ قال : لا تحملْ عليه إلا طاقته .

---

(١) إحياء علوم الدين بتصرُّف ٤ / ١٠٧ - ١١٠ .

(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١١٤ .

فلما كان عند الموت ؛ قال : يا « دمون » ، لا تُخاصمْني عند ربي ، فإني لم أكن أحمل عليك إلَّا ما كنتَ تُطيق »(١).

عُبادة بن الصامت رضي الله عنه :

« عن عثمان بن أبي العاتكة : أن عُبادة بنَ الصامت مرَّ بقرية « دُمَّر » ، فأمر غُلامَهُ أنْ يقطعَ له سِواكًا من صفصاف على نهر بردَى ، فمضى ليفعلَ . ثم قال له : ارجعْ ، فإنَّه إنْ لا يكنْ بثمن ، فإنَّه يَيْبسُ ، فيعودُ حطبًا بثمن »(٢).

أبو بكرة الثقفي رضي الله عنه :

عن الحكم بن الأعرج قال : « جَلَبَ رجلٌ خشبًا ، فطلَبَهُ زياد ، فأبى أن يبيعَهُ ، فغصَبَهُ إيَّاه ، وبنى صُفَّة مسجدِ البصرة . قال : فلم يُصَلِّ أبو بَكْرَةَ فيها حتى قُلعت »(٣).

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

قال طاووس : ما رأيتُ رجلًا أورع من ابن عمر !

« عن قَزَعَة ، قال : رأيتُ على ابنِ عمر ثيابًا خَشنةً أو جَشبةً ، فقلتُ له : إني قد أتيتُكَ بثوب ليِّن مما يُصنع بخراسان ، وتَقَرُّ عيناي أنْ أراه عليكَ . قال : أرِنيه ، فَلَمَسَه ، وقال : أحريرٌ هذا ؟ قلتُ : لا ، إنه من قُطْن . قال : إني أخاف أنْ ألبَسَه ، أخافُ أكون مُختالًا فَخُورًا ، والله لا يُحِبُّ كُلَّ مُختالٍ فخور »(٤).

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١١٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ١٠ .

(٣) تاريخ ابن عساكر ١٧ / ٣٢٠ / أ ، والسير ٣ / ٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٣٣ ، وحلية الأولياء ١ / ٣٠٢ . والجشب من الثياب : الخشِن الغليظ .

المسور بن مخرمة :

« قالت أمُّ بكر : احتكر المسور طعامًا كثيرًا ، فرأى سحابًا من الخريف فكرهه ، فقال : لا أراني قد كرهتُ ما ينفع المسلمين ، مَنْ جاءني أوليتُه كما أخذتُه . قال : فبلغ ذلك عمر . فقال : مَنْ لي بالمسور ، فأتى عمر . فقال : يا أمير المؤمنين ، إني احتكرتُ طعامًا كثيرًا ، فرأيتُ سحابًا قد نشأ ، فكرهتُها ، فتألَّيتُ أن لا أربح فيها شيئًا . فقال عمر : جزاك الله خيرًا »(١).

« وعن أُمِّ بكر ابنة المسور قالت : كان المسور لا يشرب من الماء الذي يُستقى في المسجد ، ويكرهه ، ويرىٰ أنه صدقة »(٢).

عمرو بن عتبة بن فرقد :

« عن علقمة قال : خرجنا ومعنا مسروق ، وعمرو بن عتبة ، ومعضد ؛ غازين ، فلمّا بلغْنا « ماسندان » ، وأميرها عتبة بن فرقد ؛ قال لنا ابنه عمرو ابن عتبة : إنكم إنْ نزلتم عليه صنع لكم نُزُلًا ، ولعلّه يظلم فيه أحدًا ، ولكن إنْ شئتم قِلنا في ظلِّ هذه الشجرة ، فأكلنا كِسرنا ، ثم رجعنا . ففعلنا »(٣).

عامر بن عبد قيس :

« بعث أمير البصرة إلى عامر بن عبد قيس : ما لَكَ لا تأكل الجبن ؟ قال : إنا بأرض فيها مجوس ، فما شهد مسلمان أنْ ليس فيها ميتة أكلتُه »(٤).

* * *

(١) الورع لأحمد صـ ٤٤ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٤٣ .
(٣) الورع لأحمد صـ ٤٢ .
(٤) السير ٤ / ١٨ ، وفي كتاب الزهد لأحمد : « السمن » ، وكلاهما صحيح .

عبيدة السلماني :

« روىٰ هشامُ بن حسَّان ، عن محمد ، عن عبيدة ، قال : اختلف الناسُ في الأشربة ، فما لي شراب منذ ثلاثين سنة إلَّا العَسَل واللَّبن والماء »(١).

أبو وائل : شقيق بن سلمة :

« قال عاصم بن بَهْدلة : كان أبو وائل يقولُ لجاريته ، إذا جاءَ يحيى - يعني ابنَهُ - بشيءٍ فلا تقبليه ، وإذا جاء أصحابي بشيء فَخُذِيه . وكان ابنهُ قاضيًا على الكُناسة(٢) . قال : وكان لأبي وائل رحمه الله خُصٌّ من قصب ، يكون فيه هو وفرسه ، فإذا غزا ، نَقَضَهُ وتصدَّق به . فإذا رَجَعَ ، أنشأ بناءه .

قلتُ : قد كان هذا السَّيِّد رأسًا في العلم والعمل »(٣).

سعيد بن جُبير :

« قال الأعمش : لمّا جيء بسعيد بن جُبَيْر وطَلْقِ بن حبيب وأصحابهِمَا ؛ دخلتُ عليهم السجن ، فقلتُ : جاء بكم شرطي أو جُلَيْريز من مكَّةَ إلى القتل ، أفلا كَتَّفْتُمُوه وألقَيْتُمُوه في البريَّة ؟! فقال سعيد : فَمَنْ كان يسقيه الماء إذا عَطِشَ ! »(٤).

محمد بن سيرين :

قال الذهبي : « وقد وقف على ابن سيرين دَيْن كثير من أجل زيت

---

(١) السير ٤ / ٤٢ .
(٢) محلة بالكوفة .
(٣) السير ٤ / ١٦١ ، والحلية ٤ / ١٠٣ .
(٤) السير ٤ / ٣٤٠ .

كثير أراقه ؛ لكونه وجد في بعض الظروف فأرة »[١].

رحم الله ابن سيرين ، فلقد كان يركب مثل حدِّ السنان .

قال العلاء بن زياد : « لو كنتُ مُتمنِّيًا لتمنيتُ فقْه الحسن ، وورع ابن سيرين ، وصواب مطرف ، وصلاة مسلم بن يسار .

وعن بكر بن عبد الله قال : مَنْ سرَّه أن ينظر إلى أعلم رجل أدركناه في زمانه ؛ فلينظر إلى الحسن ، فما أدركنا أعلم منه . ومَنْ سرَّه أن ينظر إلى أورع رجل أدركناه في زمانه ؛ فلينظر إلى ابن سيرين ، إنه لَيَدَعُ بعض الحلال تأثُّمًا .

وقال مورق : ما رأيتُ رجلًا أفقه في ورعه ، ولا أورع في فقهه من محمد .

وقال أبو قلابة : اصرفوه كيف شئتم لتجدُنَّه رجُلًا .

وعن هشام قال : كان أنس بن مالك أوصىٰ أن يُغَسِّله محمد بن سيرين ، فلما مات أتى محمد بن سيرين ، فقيل له في ذلك . فقال : أنا محبوس في السجن . قالوا : قد استأذنَّا الأمير فأذن لك . قال : إن الأمير لم يحبسْني ، إنما حبسني الذي له عليَّ الحقُّ .

وعن ابن عون قال : كان محمد يكره أن يشتري بهذه الدنانير المُحدَثة والدراهم التي عليها اسم الله »[٢].

وقال هشام بن حسَّان : ترك محمد بن سيرين أربعين ألفًا فيما لا ترون به اليوم بأسًا .

---

(١) السير ٤ / ٦٠٩ .

(٢) الورع لأحمد صـ ٤١ ، ٤٢ .

الحسن البصري :

قال الحسن : « إن هذه المكاسب قد فسدتْ ، فخذوا منها القوت ؛ أي شبه المضطر »(١).

طاووس :

« عن بلال بن كعب قال : كان طاووس إذا خرج من اليمن إلى مكة لم يشرب إلا من تلك المياه القديمة الجاهلية »(٢).

« وقال المروزي : قلتُ لأبي عبد الله : كان طاووس لا يشرب في طريق مكة إلَّا من الآبار القديمة ؟ قال : نعم . قد بلغني هذا عنه . وقال : طاووس كاسمه ، لقد افتعل ابنه على لسانه كتابًا إلى عمر بن عبد العزيز ، فأعطاه ثلاثمائة دينار ، فباع طاووس ضيعة له ، فبعث بها إلى عمر ، فأُريد طاووس على أن يدخل على ابنه وهو في الموت فأبى ، أو قال : دخل عليه في وقت الموت »(٣).

« قال يوسف بن أسباط : مرَّ طاووس بنهر قد كُرِي ، فأرادتْ بغلتُه أن تشرب ، فأبى أن يدعها ؛ يعني كراة السلطان »(٤).

« قال طاووس : مَثَلُ الإسلام كمثل شجرة ، فأصلُها الشهادة ، وساقُها كذا وكذا ، وورقها كذا - شيء سمّاه - وثمرها الورع ، لا خير في شجرة لا ثمر لها ، ولا خير في إنسان لا ورع له »(٥).

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١١١ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٢٣ .
(٣) الورع لأحمد صـ ٥٣ ، ٥٤ .
(٤) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١١٩ .
(٥) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠٩ .

عمر بن عبد العزيز :

أخرج الإمام أحمد عن « عبد الله بن راشد - صاحب الطِّيب - قال : أتيتُ عمر بن عبد العزيز بالطِّيب الذي كان يُصنع للخلفاء من بيت المال ، فأمسك على أنفه ، وقال : إنما يُنتفع بريحه »[١].

وقال مسلمة بن عبد الملك : « دخلتُ على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه بعد الفجر ، فلا يدخل عليه أحدٌ ، فجاءته جارية بطبق عليه تمرٌ صيحاني ، وكان يُعجبه التمر ، فرفع بكفِّه منه ، فقال : يا مسلمة ، أترىٰ لو أن رجُلًا أكل هذا ثم شرب عليه من الماء - على التمر طيب - أكان مُجزئه إلى الليل ؟ قلتُ : لا أدري . قال : فرفع أكثر منه ، فقال : هذا ؟ قلتُ : نعم يا أمير المؤمنين ، كان كافيه دون هذا حتى ما يُبالي أن لا يذوق طعامًا غيره . قال : فعلامَ يدخل النار ؟ قال مسلمة : فما وقعتْ مني موعظة ما وقعتْ هذه »[٢].

قال فرات بن مسلم : « كنتُ أعرض على عمر بن عبد العزيز كُتُبي في كل جمعة ، فعرضتُها عليه ، فأخذ منها قرطاسًا قدْر أربع أصابع ، فكتب فيه حاجة . قال : فقلتُ : غفل أمير المؤمنين ، فأرسل من الغد أن جئني بكتُبك . قال : فجئتُ بها ، فبعثني في حاجة ، فلما جئتُ قال لي : ما لنا أن ننظر فيها . قلتُ : إنَّما نظرتَ فيها أمس . قال : فاذهب أبعث إليك ، فلما فتحتُ كُتُبي وجدتُ فيها قرطاسًا قدْر القرطاس الذي أخذ »[٣].

* * *

(١) الورع لأحمد صـ ٢٥ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٦٣ .
(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٢٣ .

يونس بن عُبيد :

قال رحمه الله : إنك لَتعرف ورع الرجل في كلامه إذا تكلَّم . وقال : ما أهمَّ رجُلًا كسْبه حتى أهمَّه أين يضع درهمه .

« قال النضرُ بن شُميل : غلا الخزُّ في موضع كان إذا غلا هناك غلا بالبصرة ، وكان يونس بن عُبيد خزَّازًا ، فعلم بذلك ، فاشترىٰ من رجل متاعًا بثلاثين ألفًا . فلما كان بعد ذلك ، قال لصاحبه : هل كنتَ علمتَ أن المتاع غلا بأرض كذا وكذا ؟ قال : لا . ولو علمتُ لم أبع . قال : هَلُمَّ إليَّ مالي ، وخذْ مالك . فردَّ عليه الثلاثين الألف »[1].

كَهْمس :

قال الذهبي في السير ٦ / ٣١٧ : « قيل : إنَّ كهمسًا سقط منه دينار ، ففتَّش ، فلقيه ، فلم يأخذه ، وقال : لعلَّه غيره » .

عطاء بن محمد الحرَّاني :

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله - أحمد بن حنبل - وذكر ورع عطاء بن محمد الحرَّاني . فذكر من ورعه ، قال : كان إذا قدم مكة حمل معه أحمال طعام ، وقال : لا أُنافس أهل مكة في سعرهم ، وكان يتأوَّل هذه الآية ﴿ **ومن يُرد فيه بإلحادٍ بِظُلْم** ﴾ . قال أبو عبد الله : ما بلغني عن أحد أنه نظر في هذا غير هذا »[2].

أيوب بن النجَّار :

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر ورع أيوب بن

---

(١) السير ٦ / ٢٩٣ ، والورع لأحمد صـ ٤٢ .

(٢) الورع لأحمد صـ ٥ .

النجار ، فقال : قد كان خرج من ماله كله ، قد رأيتُه بمكة ومعه رشاءٌ يستقي به من بئر زمزم »[(١)].

أبو السّـوار :

« قال مخلد بن حسين : استسقى إنسان من منزل أبي السّوار ماءً ، فقالت امرأته: ما في الجُبِّ قطرة ، أو ما عندنا قطرة من ماء . قال : فذهب إلى عَكَرِ الجُبِّ أو ما في أسفله . قال : فجاء فصبَّ على رأسها ، وقال : يا أُمَّ السَّوار ، كم هاهنا من قطرة .

قال مخلد : إن أبا السوار العدوي أقبل عليه رجُلٌ بالأذى فسكت ، حتى إذا بلغ منزله أو دخل ؛ قال : حَسبُك إنْ شئت »[(٢)].

فهذا ورع في المنطق !

إبراهيم بن أدهم :

« قال أبو بكر المروزي : قلتُ لأبي عبد الله : قد قال قادم الديلمي : قيل لإبراهيم بن أدهم : ألا تشرب من زمزم ؟ فقال : لو وجدتُ رشًا أو دلوًا لاستقيتُ .

وقيل لوهيب بن الورد : ألا تشرب من زمزم ؟ فقال : بأي دلو .

قال أبو عبد الله : ما ظننتُ أنّ وهيبًا قال هذا ، ولا ظننتُ أن أحدًا نظر في هذا غير أيوب بن النجار .

وقال محمد بن مقاتل : سقطتْ نفقة إبراهيم بن أدهم بمكة ، فمكث

---

(١) الورع لأحمد صـ ٦ .

(٢) الورع لأحمد صـ ٤٤ .

خمسة عشر يومًا يستفُّ الرَّمْل »[١].

سفــيان الثــوري :

قال الذهبي في « السير » (٧ / ٢٦٠) : « قال قتيبة : لولا سفيان لمات الورَعُ » .

« قال الفريابي : قيل لسفيان أو سُئل عن الشرب من زمزم ، فقال : إن وجدت دلوًا فاشرب »[٢].

قال سفيان رحمه الله : « عليك بالزهد يبصِّرْك الله عورات الدنيا ، وعليك بالورع يُخَفِّفِ الله حسابك ، ودعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك ، وادفعْ الشكَّ باليقين يسلمْ لك دينك »[٣].

عثمان بن زائدة :

قال عنه ابن حبان : كان من العُبَّاد المُتقشِّفين ، وأهل الورع الدقيق والجهد الجهيد .

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر ورع عثمان بن زائدة ، فقال أبو عبد الله : قد قيل لسفيان – يعني الثوري – : مَنْ نسأل بعدك ؟ فقال: سلوا عثمان بن زائدة .

وقال عباس العنبري : سمعتُ أبا الوليد يقول : كنتُ مع عثمان بن زائدة ؛ فانطفأ مصباحه ، فذهب غلامه ، فأخذ له نارًا من قوم . فقال له عثمان : من أين هذا ؟ قال : من موضع سمَّاه . قال : فطفأه عثمان وقال :

---

(١) الورع لأحمد صـ ٦ .

(٢) الورع لأحمد صـ ٦ .

(٣) الحلية ٧ / ٢٠ .

لا نستضيء بنارهم . سمعتُ عبّاسًا العنبري يقول : قال لي بشر بن الحارث : انظر أن تكتب لي بأخلاق عثمان بن زائدة »[١].

روىٰ ابن أبي الدنيا في « الورع » : « قيل لسفيان بن عيينة : مَن أورع مَنْ رأيتَ ؟ قال : عثمان بن زائدة .

وقال أبو الوليد : ما سمعتُ عثمان بن زائدة تكلّم بكلمة قطٌّ لا يستثني فيها . وكان يقول : يا أبا الوليد ، إن حدَّث أبا الوليد . وكان يُكلّمني نهارًا طويلًا ، ثم يقول : كلُّ ما جرىٰ بيني وبينك فهو إن كان كذلك ، إن شاء الله »[٢].

من سادات الوَرِعين :

« قال بشر بن الحارث : سمعتُ المُعافىٰ بن عمران يقول : كان عشرة فيمن مضىٰ من أهل العلم ينظرون في الحلال النظر الشديد ، لا يُدخِلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال ، وإلّا استفّوا التراب . ثم عدَّ بشر : إبراهيم ابن أدهم ، وسليمان الخوَّاص ، وعلي بن الفُضيل ، وأبا معاوية الأسود ، ويوسف بن أسباط ، ووهيب بن الورد ، وحذيفة شيخ من أهل حرَّانِ ، وداود الطائي . فعدَّ عشرة كانوا لا يُدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال ؛ وإلا استفّوا التراب »[٣].

يوسف بن أسباط :

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر له رجُلٌ ورَعَ يوسف بن أسباط ، أنه كان ينزل فيما أُقطعوا بطرسوس ، فلما تبايعوا

---

(١) الورع لأحمد صـ ٥ ، ٦ .
(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠١ ، ١٠٢ .
(٣) الورع لأحمد صـ ٩ .

اعتزل يوسف بن أسباط ، وكره مبايعتهم ؛ فاستحسن أبو عبد الله فعْل يوسف رحمه الله .

وسمعتُ شُعيب بن حرب ، وقيل له : يوسف بن أسباط من أين كان يأكل ؟ فقال شعيب : البِرُّ عشرة أجزاء ؛ تسعة في طلب الحلال ، يوسف أحكم التسعة . قال : وسمعتُ علي بن شعيب يقول : لمَّا فارق شعيبٌ يوسف بن أسباط زوَّده طعامًا . فقال شعيب لابنه : طعام يوسف بَقُّوه لي ، وكُلُوا أنتم طعامنا »(١).

محمد بن إدريس :

« قال المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر محمد بن إدريس الذي كان بالثغر ، فقال : كان ذلك رجُلَهم ، ذاك كان يأكل من الأسل ؛ يعني من نتفه .

علي بن شعيب يقول : لمّا قدم شعيب بن حرب على يوسف بن أسباط ؛ رأى عنده شابًّا يُكلِّم يوسف ويغتاظ له ، أو قال : يرفع صوته ، فقال شعيب : ترفعُ صوتك ؟ فقال له يوسف : يا أبا صالح ، إنه محمد بن إدريس ، إنه يدري من أين يأكل .

قال أبو عبد الله : كان محمد بن إدريس رَجُلًا من الثغر . قال شعيب : بأبي أنت وأُمِّي ، وإني نذرت إذا رأيتُك أن أُحدِّثك »(٢).

وهيب بن الورد :

« قال شعيب بن حرب : ما احتملوا لأحد ما احتملوا لوهيب ، وكان

---

(١) الورع لأحمد صـ ٨ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٩ .

يشرب بدلوه »[١] .

قال ابن المبارك : ما جلستُ إلى أحد كان أنفع لي من مجالسة وهيب ، وكان لا يأكل من الفواكه ، وإذا انقضت السَّنة وذهبتِ الفواكه ؛ يكشف عن بطنه وينظر إليها ، ويقول : يا وهيب ، ما أرى بك بأسًا ، ما أرى تَرْكَك للفواكه ضرَّك شيئًا .

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله يقول : وذكر وهيب ابن الورد ، فقال : قد كلّمه ابن المبارك فيما يجيء من مصر ، وإنما أراد ابن المبارك أن يُسهِّل عليه ، ولم يدرِ أنه يُشدِّد عليه ، وكان لا يأكل مما يجيء من مصر إلا الزيت . قال : سمعتُ محمد بن حبيس خادم وهيب يقول : كلَّم إبراهيم بن أدهم وهيبًا فيما يجيء من مصر . قال : فحال الناس بين إبراهيم وبين وهيب من أن يسمع كلامه . قال أبو بكر بن خلَّاد : فقيل لابن حبيس : لو سمع كلامه أيش ترى كان يصنع ؟ قال : كان - والله - لا يأكل إلا زبيب الطائف ، يقتصر عليه حتى يلقى الله عز وجل »[٢] .

« واجتمع الفضيل بن عياض وابن عيينة وابن المبارك عند وهيب ابن الورد بمكة ، فذكروا الرُّطَب . فقال وهيب : هو من أحبِّ الطعام إليَّ ، إلَّا أني لا آكله ؛ لاختلاط رُطَب مكة ببساتين زبيدة وغيرها . فقال له ابن المبارك : إنْ نظرتَ في مثل هذا ضاق عليك الخبز . فقال : وما سببُه ؟ قال : إن أصول الضياع اختلطت بالصوافي . فغُشي على وهيب . فقال سفيان : قتلتَ الرجل . فقال ابن المبارك : ما أردتُ إلا أن أُهوِّن عليه . فلما أفاق قال : لله عليَّ ألَّا آكل خبزًا أبدًا حتى ألقاه . قال : فكان

---

(١) الورع لأحمد صـ ٦ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٥٣ .

يشرب اللبن . قال : فأتته أُمُّه بلبن ، فسألها . فقالت : هو من شاة بني فلان . فسأل عن ثمنها وأنه من أين كان لهم ، فذكرت . فلما أدناه من فيه قال : بقي أنها من أين كانت ترعىٰ ! فسكتتْ ، فلم يشرب ؛ لأنها كانت ترعىٰ من موضع فيه حقٌّ للمسلمين . فقالت أُمُّه : اشرب ؛ فإن الله يغفر لك . فقال : ما أُحبُّ أن يغفر لي وقد شربتُه ، فأنال مغفرته بمعصيته »[١].

« وقال وهيب : ألا حُرٌّ كريم يغضب على الدنيا فيخربها »[٢].

« قال وهيب : هؤلاء الذين يدخلون على الملوك ، إنهم لَأَضرُّ علىٰ الأُمَّة من المُقامرين .

قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله - أحمد بن حنبل - وذكر قومًا من المُترَفين ، فقال : الدنوُّ منهم فتنة ، والجلوس معهم فتنة »[٣].

أبو يوسف الغسولي :

« قال أبو عبد الله - أحمد بن حنبل - : أبو يوسف الغسولي قد خَلَف ابن إدريس ، يريد بذلك : الورع .

سمعتُ علي بن شعيب يقول : قال لي أبي : كنتَ قِلتَ عند فلان . قال : فقال لي : أكلتَ عنده ؟ قلتُ : نعم . قال : احمد ربَّك ، أكلتَ ما لا تُسأل عنه ؛ يعني عن كسبه ، سمعتُ أبا يوسف الغسولي يقول : إنه لَيكفيني في السَّنة اثنا عشر درهمًا ، في كل شهر درهم ، وما يحملني على العمل إلا ألسنة هؤلاء القرَّاء ، يقولون : أبو يوسف من أين يأكل .

---

(١) الإحياء ٢ / ١٠٤ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٤٣ .
(٣) الورع لأحمد صـ ٥٠ .

سمعتُ أبا يوسف الغسولي يقول : أنا أتفقَّه في مطعمي منذ ستين سنة »[١] .

داود بن يحيىٰ بن يمان :

« قال المروزي : سمعتُ أبا عبد الله يقول : قدم داود بن يحيىٰ بن يمان ، وأيش كان ؟! ما كان أنسكه ؟! »[٢] .

حمّاد بن أبي حنيفة :

قال عنه الذهبي في « السير » (٦ / ٤٠٣) : « كان ذا علم ودين وصلاح وورع تامٍّ . لمَّا تُوفِّي والده ؛ كان عنده ودائع كثيرة ، وأهلُها غائبون ، فنقلها حمَّاد إلى الحاكم ليتسلَّمها . فقال : بل دعها عندك ، فإنك أهل . فقال : زِنْها واقبضها حتى تبرأ منها ذِمَّة الوالد ، ثم افعل ما ترىٰ . ففعل القاضي ذلك . وبقي في وزنها وحسابها أيامًا ، واستتر حماد ، فما ظهر حتى أودعها القاضي عند أمين » .

حمزة بن حبيب الزيَّات شيخ القُرَّاء :

قال الذهبي في « السير » (٧ / ٩٠) : « كان يجلِبُ الزَّيْت من الكوفة إلى حُلوان ، ثم يجلِبُ منها الجُبْنَ والجَوْزَ ، وكان إمامًا قَيِّمًا لكتاب الله ، قانتًا لله ، ثَخِينَ الورع ، رفيعَ الذِّكر ، عالمًا بالحديث والفرائض . أصلُه فارسي .

قال حسين الجُعْفي : ربَّما عطِش حمزة ، فلا يَسْتَسقي ؛ كراهية أَنْ يُصَادِف مَنْ قَرَأَ عليه .

---

(١) الورع لأحمد صـ ٩ .

(٢) الورع لأحمد صـ ٩ .

قال ابن فُضَيل : ما أحْسِب أن الله يَدفَعُ البلاءَ عن أهلِ الكوفَةِ إلا بحمزةَ » .

يزيد بن زُريع :

« قال ابن حبَّان : مات سنة اثنتين أو ثلاث وثمانين ، في ثامن شوال . وكان مِن أورع أهلِ زمانه .

مات أبوه ، وكان واليًا على الأُبُلَّة ، فخلَّف خمسمائة ألف ، فما أخذ منها حبَّة ، رحمه الله »(١) .

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر ورَع يزيد بن زُريع ، فقال : قد تنزَّه عن ميراث أبيه . سمعتُ عبد الوهاب يقول : سمعتُ أبا سليمان الأشقر - وكفاك بأبي سليمان - قال : قد تنزَّه يزيد بن زُريع عن خمسمائة ألف من ميراث أبيه فلم يأخذه . وسمعتُ أُميَّة بن بسطام ابن عمِّ يزيد بن زُريع يقول : كان يزيد يعمل الخوص ، وكان يكون في هذا البيت ؛ وأشار إلى بيت لطيف في المسجد . وكان زُريع واليًا »(٢) .

الإمام عبد الله بن المبارك :

« قال الحسن بن عرفة : قال لي ابنُ المبارك : استعرتُ قلمًا بأرض الشَّام ، فذهبْتُ على أن أردَّه ، فلما قدمتُ مرو ؛ نظرتُ فإذا هو معي ، فرجعتُ إلى الشام حتى رددتُه على صاحبه »(٣) .

« قال الحسن بن الربيع : لما احتُضِرَ ابن المبارك في السَّفر قال : أشتهي

---

(١) السير ٨ / ٢٩٩ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٦ - ٧ .
(٣) السير ٨ / ٣٩٥ .

سويقًا ، فلم نجدْه إلا عند رجل كان يعمل للسلطان ، وكان معنا في السفينة ، فذكرْنا ذلك لعبد الله ، فقال : دعوه . فمات ولم يَشْرَبْه »[(١)].

قال أبو بكر المروزي : « سمعتُ أبا عبد الله - أحمد بن حنبل - وذكر ورَع ابن المبارك ، فقال : إنما رفعه الله بمثل هذا » .

علي بن الفُضيل بن عياض :

قال الذهبي في « السِّيَر » (٨ / ٤٤٢ ، ٤٤٣) : « من كبار الأولياء ، ومات قبلَ والده . وكان عليٌّ قانتًا لله ، خاشعًا ، وَجِلًا ، رَبَّانيًّا ، كبيرَ الشأن » .

« عن فضيل ، أنهم اشتَرَوْا شعيرًا بدينار ، وكان الغَلاء ، فقالت أمُّ علي للفضيل : قوِّرْتُه لِكل إنسان قرصين ، فكان عليٌّ يأخذ واحدًا ، ويتصدَّقُ بالآخر ، حتى كاد أن يُصيبه الخَوَاءُ »[(٢)].

وبه ، « أن عليًّا كان يحمِل على أباعِرَ لأبيه ، فنقص الطعامُ الذي حمله ، فحبس عنه الكِرَاء فأتى الفُضيل إليهم ، فقال : أتفعلون هذا بعليٍّ ، فقد كانت لنا شاةٌ بالكوفة ، أكلتْ شيئًا يسيرًا مِن علف أمير ، فما شَرِبَ لها لبنًا بعدُ . قالوا : لم نعلم يا أبا علي أنه ابنُك »[(٣)].

« حمَّاد بن الحسن : حدَّثنا عمر بن بِشْر المكي ، عن الفُضيل قال : أهدىٰ لنا ابن المبارك شاةً فكان ابني لا يشربُ منها ، فقلتُ له في ذلك فقال : إنها قد رعتْ بالعراق »[(٤)].

---

(١) السير ٨ / ٤١١ .
(٢) الحلية ٨ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
(٣) الحلية ٨ / ٢٩٨ .
(٤) السير ٨ / ٤٤٦ .

أبو بكر بن عيَّاش :

« قال يحيىٰ بن سعيد : زاملتُ أبا بكر بن عياش إلى مكة ، فما رأيتُ أورَعَ منه ، لقد أهدىٰ له رَجُلٌ رُطَبًا ، فبلغه أنه من بستانٍ أُخِذَ من خالد ابن سلمَة المخزومي ، فأتى آلَ خالد ، فاستحلَّهم ، وتصدَّق بثمنه »(١).

منصــور :

« عن الحسن بن صالح،عن منصور أنه كان في الديوان ، وكان في الديوان دَنٌّ فيه طين ، فقال له رجل : ناوْلني طينًا أختم به هذا الكتاب . قال : أعطني كتابك حتى أنظر ما فيه »(٢).

أبو جمــيل :

« قال زكريا المروزي : جاء رجل بكتاب إلى أبي جميل ، فقال له : هذا الكتاب تحمله معك . قال : حتىٰ أستأمر الحمَّال . قال : فأتىٰ به عبد الله بن المبارك ، فقال : يا أبا عبد الرحمٰن ، هذا الكتاب تحمله معك . قال : ادفعه إلى الغلام . فقال : إني أتيتُ أبا جميل ، فقال : حتىٰ أستأمر الحمَّال . قال ابن المبارك : ومن يُطيق ما يُطيق أبو جميل ؛ مرَّتين »(٣).

زاذان :

« قال سالم بن أبي حفصة : كان زاذان إذا عرض الثوب ناول ثمن(٤) الطرفين »(٥).

---

(١) السير ٨ / ٤٩٩ .
(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٨٢ .
(٣) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠٢ .
(٤) يعني أردأ الطرفين .
(٥) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠٤ .

مجمـع التيمـي :

« قال سفيان بن مسعر : جاء مجمع التيمي بشاة يبيعها ، فقال : إني أحسب أو أظنُّ في لبنها ملوحة »(١).

عمرو بن قيس :

« قال علي بن يزيد : كان عمرو بن قيس إذا باع الثوب – يعني المقطوع – قال : أبرأ إليك من العرض في الطول ، ومن الطول في العرض ، وما أفسد الحائك والعقد »(٢).

حسَّان بن أبي سنان :

« قال عبد الله : كتب غلام لحسَّان بن أبي سنان إليه من الأهواز ، أنَّ قصبَ السُّكَّر أصابته آفة ، فاشترِ السُّكَّر فيما قِبَلك . قال : فاشتراه من رجل ، فلم يأتِ عليه إلا قليل ؛ فإذا فيما اشترىٰ ربح ثلاثين ألفًا ، فأتىٰ صاحب السُّكَّر ، فقال : يا هذا ، إن غلامي كان كتب إليَّ و لم أُعلِمْك ، فأقلْني فيما اشتريتُ منك . فقال الآخر : فقد أعلمتني الآن وطيَّبته لك . قال : فرجع فلم يحتمل قلبُه . قال : فأتاه ، فقال : يا هذا ، إني لم آتِ هذا الأمر من قِبَل وجهه ، فأُحبُّ أن يُستردَّ هذا البيع . قال : فما زال به حتىٰ ردَّ عليه »(٣).

شُعيب بن حرب :

« قال محمد بن عبد الله : رأيتُ قد بَنَوْا درجة لمسجد شُعيب في الطريق ، فقال : لا وضعتُ رِجْلي عليها حتى تُهْدَمَ .

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠٤ .

(٢،٣) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠٥ .

قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر ورَع شعيب ابن حرب ، فقال : لقد دقَّق ، فقال : ليس لك أن تُطيِّن من خارج ؛ لئلا تخرج في الطريق .

وقال محمد بن عبد الله البزّاز : سمعتُ شعيب بن حرب يقول : لك أن تُطيِّن الحائط من خارج ، وليس لك أن تُجصِّصَه ؛ لعله أن يخرج في الطريق »[١].

ابن عــون :

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر ابنَ عون ، فقال : كان لا يُكري دوره من المسلمين . قلتُ : لأيِّ عِلّةٍ ؟ قال : لئلا يُروِّعَهم »[٢].

« قال أبو الأسود حميد : قال ابن عون لرجل : إني سأُحسن إليك . فأتاه متاع من موضع ، فدعا الرجل ، فقال له : ضعْ عليه صنفًا صنفًا ما أردتَ ، ففعل الرجل . فقال له ابن عون : إن دفعتُه إليك بما وضعتَ أتراني أحسنتُ ؟ قال : نعم . قال : هـو لك ، ثم قال : لا أدري أبلغتُ مبلغ الإحسان أم لا ؟ »[٣].

محمد بن واسع :

« قال الربيع اليحمـدي : رأيتُ محمد بن واسع يبيع حمارًا بسـوق بلخ ، فقال له رجل : أترضاه لي ؟ قال : لو رضيتُه لم أبِعْه »[٤].

---

(١) الورع لأحمد صـ ٦ .

(٢) الورع لأحمد صـ ٤٦ ، ٤٧ .

(٣،٤) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١٠٦ .

وقال محمد بن واسع : يكفي من الدعاء مع الورعِ اليسيرُ منه .

أيوب بن راشد :

« قال رباح بن الجرَّاح : رأيتُ أبا شعيب أيوب بن راشد ، فما رأيتُ أحدًا كان أورع منه ، كان يكنس حيطان بيته ، فإذا وقع شيء من حيطان جيرانه جمعه فذهب به إليهم »(١) .

أبو داود الحَفَري :

قال الجوهري : « رأيتُ أبا داود الحفري وعليه خِرقتان : إزار ، ورِداء فيه عِدَّةُ رِقاع ، وكان إذا أراد أَنْ ينتثر ؛ خرج من المسجد ، وكان مسجدُهُم مُحَصَّبًا ، فقيل : أليس كفَّارتُها دفنَها ؟ فيقولُ : لعلِّي أؤخَذ قبل أَنْ أُكَفِّرَ .

وتزوَّجَ بامرأةٍ ، فأَصْدَقَهَا ثلاثةَ دنانير ، وكان قُوتُه كلَّ ليلةٍ قُرْصَيْن ، وبفلسٍ فجل أو هِنْدَبا .

قال أبو حمدون الطَّيِّبُ المُقرئ : دفنَّا أبا داود الحفري رحمه الله ، وتركنا بابه مفتوحًا ، ما كانَ في البيت شيء »(٢) .

قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتابه « الورع » صـ ٧٧ : « رأيتُ أبا داود الحفري وعليه جُبَّةٌ خَلِقة ، قد خرج القطن منها ، بين المغرب والعشاء يُصلِّي ويترجَّح من الجوع .

وسمعتُ بعض المشيخة يقول : سمعتُ أن أبا داود الحفري سمع رجُلًا

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ١١٥ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٩ / ٤١٥ .

يقول : أكَلْنا كذا وأكَلْنا كذا . فقال له أبو داود : اسكتْ ، لي اليوم ثلاث ، ما أكلتُ إلا بقلًا وخلًّا ولم يُيسَّر خُبزٌ .

وسمعتُ عثمان بن أبي شيبة يقول : سمعتُ أبا داود الحفري يقول : إذا أصبتُ قرصين من شعير عند فطري فعلىٰ مُلك أبي جعفر العفا .

سمعتُ طحَّانًا بالكوفة يقول : كان أبو داود الحفري يأكل النُّخالة ، وكان يجلس إليه ، ثم خلف بعد أبي داود أبو كُريب ، فلا أدري لمن قال أنه كان يأكل النخالة ؛ لأحدهما أو جميعًا » .

زكريا بن عدي بن زُريق :

« قال أبو يحيىٰ صاعِقة : قدم زكريا بنُ عدي ، فكلَّموا له مَن يستعْمِلُه على قَرْيَةٍ في الشَّهْرِ بثلاثين دِرْهَمًا ، فرجَع بعد شَهر ، وقال : ليس أَجدُني أعمل بقدر الأجرة .

واشتكتْ عينه ، فأتاه رجل بكُحْل . فقال : أنت ممّنْ يسمع الحديث مني ؟ قال : نعم . فأبىٰ أن يأخذه »[١] .

شيخ أهل الورَع : بِشْرُ بنُ الحارث الحافي :

« قال أبو بكر بنُ عثمان : سمعتُ بشرَ بن الحارث يقولُ : إني لأشتهي شِوَاءً منذ أربعين سنةً ، ما صفا لي درهمُه .

قال محمدُ بن عبد الوهّاب الفَرَّاء : حدَّثنا عليُّ بن عثَّام ، قال : أقام بشرُ ابن الحارث بعبَّادان يشربُ ماءَ البحرِ ، ولا يشربُ من حياضِ السلطان ، حتى أضرَّ بجوفه ، ورجع إلى أُختهِ وجِعًا ، وكان يعملُ المغازِلَ ويَبيعُها ، فذاكَ كسبُه »[٢] .

---

(١) تاريخ بغداد ٨ / ٤٥٦ ، وسير أعلام النبلاء ١٠ / ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٢) تاريخ بغداد ٧ / ٧٦ .

رضي الله عنك يا بشر ، كم جُعتَ سيدي من أجل ورَعك !!

« قال أبو بكرٍ المروزي : سمعتُ بشرًا يقولُ : الجوعُ يُصفّي الفؤادَ ، ويُميت الهوىٰ ، ويُورِثُ العلمَ الدقيق »(١).

« قال بشر رحمه الله : ما شبعتُ منذ خمسين سنة ؛ يعني من السواد .

وقال رحمه الله : ما ينبغي للرجل أن يشبع اليوم من الحلال ؛ لأنه إذا شبع من الحلال دعتْه نفسه إلى الحرام ، فكيف إلى هذه الأقذار اليوم !

وقال رحمه الله : ينبغي للرجل إذا كان عنده شيء يستطيبه أن يرفعه - أو قال : يتقوَّته - ويتنزّه عن هذه الأقذار »(٢).

« وقال رحمه الله : ينبغي للرجل أن ينظر خُبْزَه من أين هو ، ومسكنَه الذي سكنه ، أصلُه من أيش هو ، ثم يتكلَّم »(٣).

« قال أبو بكر المروزي : أدخلتُ على أبي عبد الله رجُلًا - وهو حطَّاب - فقال : إن لي إخوةً ، وكسبُهم من الشُّبهة ، فربما طبختْ أُمُّنا ، وتسألنا أن نجتمع ونأكل . فقال : هذا موضع بشر ، لو كان لك حيًّا كان موضعًا تسأله ، أسأل الله ألَّا يمقتنا ، ولكن تأتي أبا الحسن عبد الوهاب فتسأله . فقال له الرجل : فتخبرني بما في العلم ؟ قال : قد روي عن الحسن : إذا استأذن والدته في الجهاد فأذنت له وعلم أن هواها في المقام ؛ فليقمْ »(٤).

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٤٧١ .
(٢) الورع لابن حنبل صـ ٧ .
(٣) الورع لأحمد صـ ١٠ .
(٤) الورع لأحمد صـ ٣٣ .

أيُّ فخار وأي تاج يضعه على جبينك يا بشر إمامُ أهل السُّنة حين يقول : « هذا موضع بشر » !! ويقول في حادثة أُخرىٰ لأخت بشر : « من بيتكم خرج الورَعُ » !!

قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل : « سمِعتُ قرابة بشر بن الحارث يقول : قدم بشر بن الحارث من عبَّادان ليلًا - أو قال : من سفر - وهو مُتَّزِرٌ بحصير .

سمعتُ بعض أصحابنا يقول : قال بشر لأُناس : هذا أويس عري حتى قعد في قوصرة .

وقيل لبشر بن الحارث : لو اتخذتَ في مقطوعك لفافة أو نحوها - وذكر له الندىٰ والبرد - فقال : لهذا البرد نهاية وينقطع ؟ قالوا : نعم . قال : فالأمر قريب »[1] .

قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل : إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وإنها أيام قلائل .

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله يقول في ذكْر بشر ابن الحارث ، فقال : رحمه الله ، لقد كان فيه أُنْسٌ . وذُكر له شيء من أمْر الورع ، فقال : يُسأل عن مثل هذا بشر ، لو كان حيًّا كان موضعًا لهذا ، هذا موضع بشر ، وأنا لا ينبغي لي أن أتكلَّم في هذا »[2] .

وقال أحمد بن حنبل : « سمعتُ أبا نصر التمَّار يقول : قال لي بشر ابن الحارث : إني لَأَشتهي الباذنجان منذ عشرين سنة »[3] .

---

(١) الورع لأحمد صـ ٤٤ .
(٢) الورع صـ ٤٦ .
(٣) الورع صـ ٦٣ .

قال أحمد بن حنبل : « سمعتُ عبد الرحمٰن المُتطبِّب يقول : جئتُ بشرًا بقارورة فيها دواء . فقال : قارورتك هذه تُشبه قوارير الملوك . فردَّها ولم يقبلْها »(١).

« كان بشر الحافي رحمه الله من الورعين . فقيل له : من أين تأكل . فقال : من حيث تأكلون ، ولكن ليس مَنْ يأكل وهو يبكي كمن يأكل وهو يضحك . وقال : يدٌ أقصر من يدٍ ، ولقمة أصغر من لقمة ، وهكذا كانوا يحترزون من الشُّبُهات »(٢).

أبو عبد الله الطوسي التروغندي :

« كان لأبي عبد الله الطوسي التروغندي شاةٌ يحملها على رقبته كل يوم إلى الصحراء ، ويرعاها وهو يصلي ، وكان يأكل من لبنها ، فغفل عنها ساعة ، فتناولتْ من ورق كرمٍ علىٰ طرف بستان ؛ فتركها في البستان ولم يستحلَّ أخْذها »(٣).

داود الطائي :

قال أحمد بن حنبل : « كان عندي مولًى لابن المبارك ، فذكر عن ابن المبارك ، قال : الأمر ما كان عليه داود الطائي »(٤).

عيسى بن يونس :

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكر ورَعَ عيسىٰ بن يونس ، فقال : قدم فرُفع في حصن منقوب ، فأمروا له بمائة ألف - أو

(١) الورع لأحمد صـ ٧٧ .
(٢) إحياء علوم الدين ٢ / ١٠٤ .
(٣) الإحياء ٢ / ١٢٥ .
(٤) الورع لأحمد صـ ٧ .

قال : بمال - فلم يقبل ، ويُدرىٰ ابن كم كان عيسىٰ ؟! كأنه أراد به أنه كان حَدَثًا »[١].

أبو العباس الخطَّاب :

« قال ابن أبي خالد الخطَّاب : كنتُ مع أبي العبَّاس الخطَّاب ، وقد جاء يُعزِّي رجلًا ماتت امرأته ، وفي البيت بساط ، فقام أبو العباس على باب البيت ، فقال : أيها الرجل ، معك وارث غيرك ؟ قال : نعم . قال : فما قعودك على ما لا تملك ، أو كلامًا ذا معناه . قال : فتنحَّى الرجل عن البساط »[٢].

الضحَّاك صاحب بشر :

قال الإمام أحمد : « بلغني عن الضحَّاك صاحب بشر بن الحارث ، قال : كان يجيء إلى أخته حين مات زوجها فيبيت عندها ، فيجيء معه بشيء يقعُدُ عليه ، ولم يرَ أن يقعد على ما خلَّف من غَلَّة الورثة »[٣].

عبد الرحمٰن بن مهدي :

« قال موسىٰ بن عبد الرحمٰن بن مهدي : لمّا قُبِضَ عمِّي أُغمي على أبي ، فلما أفاق قال : البساط ! نحُّوه ، أي أدرِجُوه ، لعلَّه للورثة »[٤].

بشر بن منصور السليمي :

قال أبو نعيم في الحلية (٦ / ٢٣٩) : « قال عبد الرحمٰن بن مهدي : أتاني بشر بن منصور مرَّة في حاجة . فقلتُ له : ألا بعثتَ إليَّ حتى آتيك ؟ قال : لا ، الحاجة لي . وعرضتُ عليه دابة يركب يرجع عليها . قال :

---

(١) الورع لأحمد صـ ٨ .

(٢،٣،٤) الورع لأحمد صـ ٢٣ .

أكره أن أُعوِّد نفسي هذه العادة . وبنى عيسى بن جعفر بِرْكَة ، فكان لا يشرب من مائها ، ويبعث إلى النهر جارية له ، فتجيئه بجرَّة ، فقال : لو كنتُ غنيًّا لم يُفطن لي ، كنتُ أُرسل مَنْ يستقي لي على حمار ، ثم تدارك كلمته ، فقال : أستغفر الله ، إني لبخير ، إني لبخير . قال عبد الرحمـٰن : فكان بشر ابن منصور يكره أن يشتري من رجل بنى كُويخًا في غير حقِّه » .

« وقال شقيق العصفري لبشر بن منصور : يسُرُّك أنَّ لك مائة ألف ؟ فقال : لَأَنْ تَنْدَرا - وأشار إلى عينيه - أحبُّ إليَّ من ذاك . قال غسَّان : علَّم بشر بنيه عَمَلَ الخوص » .

شميط :

كان رحمه الله يقول في كلامه : « أبناء دنيا يرضعونها ، لا ينفطمون عن رضاعها » .

وقال رحمه الله : « إن الدينار والدرهم أزِمَّة المنافقين ، بها يُقادون إلى السَّوْءات »[(١)].

وكيع :

« عن عبد الواحد القنطري قال : قال وكيع : نظرتُ في زادي فلم يصحَّ لي ، ونظرتُ في ثوبَيْ إحرامي فلم يصحَّ لي ، فما على رجل أن يخلع ثيابه ويقوم في الماء حتى يرزقه الله »[(٢)].

ورَع إمام أهل السُّنة أحمد بن حنبل :

« كان رحمه الله لا يأخذ من الخلفاء شيئًا ... حتىٰ في سجنه .

---

(١) الورع لأحمد صـ ٤٢ .
(٢) الورع لأحمد صـ ٤٣ .

ولقد صبر رحمه الله على مقدار رُبع سويق - وهو الكيلجة - خمسة عشر يومًا بمعسكر المتوكل ، يعتصم بذلك حتى أتته النفقة من بغداد ، ولا يذوق من مائدة المتوكل »[١].

« ولقد دفع المأمون إلى إسحاق بن موسىٰ الأنصاري مالًا ، وقال : اقسمْه على أصحاب الحديث ، فإنهم ضعفاء ، فما بقي أحدٌ منهم إلا أخذ ؛ إلا أحمد بن حنبل ، فإنه أبىٰ »[٢].

« قال فوران : كنا عند أحمد بن حنبل قبل أن يموت بليلتين ، وكان ثَمَّ غلام أسود لأبي يوسف - يعني عمَّه - اشتراه من هذا المال ، فذهب يُرَوِّح أحمد ؛ فنهاه .

وقال سليمان بن داود الشاذكوني : علي بن المديني يتشبَّه بأحمد ابن حنبل ؟! هٰيهات ما أُشَبِّهُ السَّكَّ باللَّكِّ[٣] ، لقد حضرتُ من ورعه شيئًا بمكة ؛ إنه رهن سطلًا عند فاميٍّ ، فأخذ منه شيئًا يتقوَّته ، فجاء فأعطاه فكاكه ، فأخرج إليه سَطْلَيْن ، فقال : انظر أيهما سطْلُك فخذْه . فقال : لا أدري ، أنت في حِلٍّ منه ومما أعطيتك في حلٍّ ، ولم يأخذه . قال الفامي : والله إنه لَسَطْلُه ، وإنما أردتُ أن أمتحنه فيه »[٤].

« وقال أحمد بن القاسم الطوسي : كان أحمد بن حنبل إذا نظر إلى نصراني غمَّض عينيه ، فقيل له في ذلك ؛ فقال : لا أقدر أنظر إلى مَنِ افترىٰ على الله وكذب ....

---

(١) الورع لأحمد صـ ٥٠ .

(٢) مناقب الإمام أحمد صـ ٣٢٧ .

(٣) السَّكُّ : ضربٌ من الطيب ، واللَّكُّ نبات يصبغ به .

(٤) مناقب الإمام صـ ٣٢٨ .

عليه »[١].

قال علي بن المديني : ليس في أصحابنا أحفظ من أحمد بن حنبل ، وبلغني أنه لا يُحدِّث إلا من كتاب ، ولنا فيه أُسوة حسنة .

وقال أحمد بن محمد التستري : ذكروا أن أحمد بن حنبل أتى عليه ثلاثة أيام ما كان طعم فيها ، فبعث إلى صديق له ، فاستقرض شيئًا من الدقيق ، فعرفوا في البيت شدَّة حاجته إلى الطعام ، فخبزوا له بالعجلة ، فلما وُضع بين يديه قال : كيف خبزتم هذا بسرعة ؟ فقيل له : كان التَّنُّور في بيت صالح مسجورًا ، فخبزنا بالعجلة ، فقال : ارفعوا . ولم يأكل ، وأمر بسدِّ بابه إلى دار صالح .

وقال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله يقول في مرضه الذي مات فيه لأُمِّ ولده : ومَنْ قال لكِ أن تخبزي ثَمَّ شيئًا ، وقد كانت خبزتْ مرَّة غير تلك ، فقال لها : ومَنْ يأكله ؟ فلم يأكل منه شيئًا ؛ يعني بيت صالح ولده .

قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وقال لي ونحن في موضع : ﴿ **وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم** ﴾ ، ثم قال : قد سكنَّا . قال : أو نحن فيها ؟

قال إسحاق بن إبراهيم بن هاني : أعطاني أبو عبد الله يومًا قطعةً ، فقال : اشترِ لي بهذه القطعة باقلَّاء وماءه . وأعطتني أيضًا حُسن أمُّ ولده قطعةً ، فقالت : اشترِ لي بهذه القطعة أيضًا باقلّا ، فقال : اشترِ للصبيان زيتًا وباقلّا ، ففضُل حبةٌ أو حبتان من قِطَع الصبيان ، فقلتُ لصاحب الباقلّا :

(١) مناقب الإمام صـ ٣٢٨ .

أعطني به زيتًا ، فصببتُه على الباقّلا الذي أخذتُه لأبي عبد الله ، فلما جئتُ به وضعتُه بين يديه ، فنظر أثر الزيت ، فقال لي : ما هذا ؟ فقلتُ : فضُل من قِطَع الصبيان حبَّة ، فصببت لك بها زيتًا ، فقال : ارفع يا أحمق ! وَمَنْ أمرك بهذا ؟ متى تعقل ؟ ولم يأكله !

وقال محمد بن علي السمسار : سمعتُ أبا عبد الله يقول لإسحاق ابن إبراهيم النيسابوري : خذْ من أمِّ علي - يعني ابنة أبي عبد الله - ما تُعطيك . فدخل وخرج ومعه دجاجة ، فخرجنا جميعًا ، فقلتُ لإسحاق : ما قال لك ؟ قال : قالت : أبي يُريد أن يحتجم وليس معه شيء ، فقال لي : أعطي إسحاق الدجاجة يبيعها ، فإني محتاج إلى الحجامة . فصرنا بها إلى السوق ، فأُعطي بها درهمًا ودانقَيْن ، فلم يبعها وردَّها ، فلما صرنا إلى القنطرة فإذا عبد الله جالس في دُكَّان ابن بختان ، فدعا إسحاق ، وقال : أيُّ شيء هذه ؟ لمن هذه ؟ فقلتُ : أعطتني أُمُّ علي أبيعُها ، فقال : كَمْ أُعطيتَ بها ؟ قال : درهمًا ودانقيْن ، فقال : بعنيها بدرهم ونصف ، فأعطاه درهمًا ونصفًا وأخذها منه ، فلما صار إلى أبي عبد الله ، قالت أُمُّ علي : بِكَمْ بعتَهَا ؟ قال : بدرهم ونصف . فقالت : بسّ ؟ فقال لها : أعطَوْني في السوق درهمًا ودانقيْن . فقال أبو عبد الله : يا إسحاق ، ممَّنْ بعتَها ؟ قلتُ له: مِن عبد الله . فأخذ الثمنَ من أُمِّ عليٍّ ، وقال : مُرَّ ، رُدَّها . فخرج إسحاق يعدو ، حتى جاء إلى عبد الله ، فقال له : رُدَّها ، فقد صاح عليَّ أبوك . قال : ولِمَ قلتَ له ؟ فردَّها . قال إسحاق : فقال لي أبو عبد الله : مُرَّ بها إلى السوق ، ولا تمرَّ على عبد الله . فبعتُها من غريب بدرهم وثُلُث ، ثم جئتُ إلى أبي عبد الله ، فقال : لعلَّك دفعتَها إلى عبد الله ؟ قلتُ : لا ، بعتُها من رجُل غريب .

وعن صالح قال أن أباه مرض ، فوصف له عبد الرحمـٰن المُتطبِّبُ

قرعة تُشوى ويُسقى ماؤها ، فقال لي : يا صالح ، لا تشوِ في منزلك ، ولا منزل عبد الله ، فسمعتُ أبا بكر المروزي يقول : فمضيتُ بها وشويتُها وجئتُ بها إليه .

وإن تعجبْ فاعجبْ من إمام أهل السنة :

قال محمد بن عياش : أرسلَني أبو عبد الله ، فاشتريتُ له سمنًا بقطعة ، فجئتُ به على ورقة بقل ، فأخذ السمن وأعطاني الورقة ، وقال : رُدَّها .

لله دَرُّك يا إمام ! فقد أتعبتَ الوَرِعين من بعدك .. فكيف بمن خلَّطوا ؟!

قال جعفر بن محمد بن يعقوب : جاء رسول من دار أحمد بن حنبل إليه ؛ يذكر له أن أبا عبد الرحمـن[1] عليل واشتهى الزبد ، فناول رجلًا من أصحابه قطعة وقال : اشترِ له بها زبدًا ، فجاء به على ورق سلق . فلما أن نظر إليه قال : من أين هذا الورق ؟ فقال : أخذتُه من عند البقَّال . فقال : استأذنتَه في ذلك ؟ فقال : لا . قال : رُدَّه .

وقال عبد الله بن أيوب المخزومي : نزل عندنا رَوْح بن عبادة ، فجاء أحمد بن حنبل إليه ، وبات هاهنا وخُبزُه في كُمِّه ، ويشرب من ماء النهر ، وينتظر روحًا حتى خرج ، فجاء يحيى بن أكثم في ضِبنه ، فجلس بين يديْ أحمد ، وجعل يسأله ، وأحمد مُطرِقٌ ، فلما رآه لا يُقبل عليه قام وتركه .

وقال صالح بن أحمد بن حنبل : وُلد لي مولود ، فأهدى لي صديق شيئًا ، ثم أتى على ذلك أشهر ، وأراد الخروج إلى البصرة ، فقال لي : تُكَلِّمُ أبا عبد الله يكتب لي إلى مشايخ بالبصرة . فكلَّمتُه ، فقال : لولا أنه

(١) هو عبد الله بن أحمد بن حنبل .

أهدىٰ إليك كنتُ أكتب له .

وقال عبد الله بن أحمد : كان هاهنا شيخ قال : رأيتُ على أبي عبد الله جَرَبًا ، فجئتُ بدواء ، فقلتُ : ضعْ هذا عليه . فأخذه ثم ردَّه ، فقلتُ له : لِمَ رددتَه ؟ فقال : أنتم تسمعون مني .

لله دَرُّ إمام أهل السُّنة ابن حنبل ! يظهر ورعه بيِّنًا في المسائل التي أجاب عنها !!

« قال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله يقول : أكره الشرب من هذه الآبار التي في الطرقات .

قلتُ لأبي عبد الله : بئر احْتُفِرَتْ ، وقد أوصىٰ مُخنَّثٌ أن يُعان فيها ؛ ترىٰ الشُّربَ منها ؟ قال : لا ، كَسْبُ المُخنَّث خبيثٌ ، يكسبه بالطبل . قلتُ : فإن رُشَّ منها المسجد ترىٰ أن يُتوقَّى ؟ فتبسَّم »[1].

« قال أبو بكر المروزي : قلتُ لأبي عبد الله : إني أُدعىٰ أُغسِّل الميت في يوم بارد ، فيفضُل من الماء الحارِّ ، ترىٰ أن أتوضَّأ منه ؟ قال : لا ، ذاك قد أُسخن بكُلْفة ؛ كأنه ذهب إلى أمْر الورثة »[2].

« قلتُ لأبي عبد الله : إن عيسىٰ الفتاح قال : سألتُ بشر بن الحارث : هل للوالدين طاعة في الشبهة ؟ قال : لا ، فقال أبو عبد الله : هذا سديد »[3].

« قال أبو بكر المروزي : قلتُ لأبي عبد الله : ما تقول في طيرة أنثى جاءت إلى قوم ، فأزوجت عندهم وفرخت ، لمن الفرخ ؟ قال :

---

(١) الورع لابن حنبل صـ ٢١ .
(٢) الورع لابن حنبل صـ ٢٣ .
(٣) الورع لابن حنبل صـ ٣٢ .

يتبعون الأم . وأظن أني سمعتُه يقول في الحمام الذي يرعىٰ في الصحراء : أكره أكْل فراخها ، وكره أن يرعىٰ في الصحراء ، وقال : تأكل طعام الناس »[١].

قال إبراهيم الحربي : لزمتُ أحمد بن حنبل سنتين ، فكان إذا خرج يُحدِّثنا يخرج معه محبرة مُجلَّدة بجلد أحمر وقلمًا ، فإذا مرَّ به سَقْطٌ أَوْ خطأٌ في كتابه ؛ أصلحه بقلمه من محبرته ، يتورَّع أن يأخذ من محبرة أحدنا شيئًا ، وكنا نقول لأحمد في الشيء يحفظه ، فيقول : لا ، إلا في كتاب .

قال إبراهيم : ما خرج إلينا أحمد بن حنبل رحمه الله قطُّ إلا ومعه محبرة وقلم ، يتورَّع أن يأخذ منا مُدَّة[٢] ، فيُصلح بها سينًا أو شكلة .

قال عبد الله بن أحمد : سمعتُ أبي يقول ليحيىٰ بن معين : يا أبا زكريا ، بلغني أنك تقول : حدَّثنا إسماعيل بن عُليَّة . فقال يحيىٰ : نعم ، أقول هكذا . قال أحمد : فلا تقُلْه ، قل : إسماعيل بن إبراهيم ، فإنه بلغني أنه يكره أن يُنسب إلى أُمِّه . قال يحيىٰ لأبي : قد قبلنا منك يا مُعلِّمَ الخير .

وقال أبو فروة يزيد بن محمد الرهاوي : لقيتُ أبا عبد الله أحمد ابن محمد بن حنبل ببغداد ، فقال لي فيما يقول : ما فعل الرجل الذي عندكم بحرَّان (الجوهري) ، عنده علم ؟ فقلتُ له : ما أعرف بحرَّان جوهريًّا يُكتب عنه ، فقال : بلىٰ ، صاحب أبي معبد حفص بن غيلان ؟ قلتُ : ما أعرفه . قال : يغفر الله لك ، له بنون ؟ قلتُ : لعلك تُريد البومة ؟ قال : إياه أعني . اكتب عنه ، فإنه ثقة .

قال ابن الجوزي رحمه الله : هذا الرجل اسمه محمد بن سليمان

---

(١) الورع لابن حنبل صـ ٤٠ .

(٢) المُدَّة بالضم : اسم ما استمدت به من المداد على القلم .

ابن أبي داود ، وَلُقِّبَ بالبومة ؛ فتورَّع الإمام أحمد عن ذكْر لقبه .

○ ***أما عن تورُّعه عن الفُتيا :***

فقال أحمد بن محمد المروذي : سألتُ أحمد بن حنبل ما لا أُحصي عن أشياء ، فيقول فيها : لا أدري .

وقال محمد بن عُبيد اليمامي : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول : ربما مكثتُ في المسألة ثلاث سنين قبل أن أعتقد فيها شيئًا[(١)].

فَيَـٰأَيُّـهَا الساعي لِيُدْرِكَ شأوَه ... رويدك عــن إدراكِهِ ستُقصِّـرُ

ولله دَرُّ القائل :

مناقبُــهُ إن لم تكــنْ عالمًا بها ... فاكشفْ طروس القوم عنهن واسألِ

خلف بن هشام :

وقال : أعـدتُ الصـلاةَ أربعين سَنَةً كنتُ أتناولُ فيها الشـرابَ على مذهب الكوفيين[(٢)].

البربهـــاري :

« ترك ميراث أبيه تورُّعًا ، وكان سبعين ألفًا »[(٣)].

عُقْدَةُ والد الحافظ ابن عُقْدَة :

عن الحافظ أبي بكر ، قال : وإنما لُقِّب والدُ أبي العَبَّاس بعُقْدَةَ ؛ لِعِلْمِهِ بالتَّصريف والنَّحو ، وكان يُورِّق بالكُوفة ، ويُعلِّم القرآنَ والأدبَ ، فأخبرني

---

(١) انتهى ملخَّصًا من مناقب الإمام صـ ٣٢٦ - ٣٣٨ .

(٢) تاريخ بغداد ٨ / ٣٢٧ ، والسير ١٠ / ٥٧٩ .

(٣) طبقات الحنابلة ٢ / ٤٣ ، والسير ١٥ / ٩٠ .

القاضي أبو العلاء ، أخبرنا محمدُ بنُ جعفر بن النَّجَّار ، قال : حَكَىٰ لنا أبو عليّ النقَّار ، قال : سَقَطَت مِنْ عُقْدَةَ دنانيرُ ، فجاء بنخَّالٍ ليطلُبَها . قال عُقْدَةُ : فوجدتُها ، ثم فكَّرتُ ، فقُلتُ : ليس في الدنيا غير دنانيرك ؟ فقلتُ للنَّخَّال : هي في ذِمَّتِكَ ، وَذَهَبْتُ وَتَرَكْتُه .

قال : وكان يؤدِّب ابن هشام الخَزَّاز ، فلمَّا حَذَقَ الصَّبُّي وتَعَلَّمَ ، وَجَّه إليه أبوه بدنانير صالحة ، فردَّها ، فَظَنَّ ابنُ هِشام أنَّها استُقِلَّتْ ، فأضْعَفَهَا له ، فقال : ما رَدَدْتُهَا استِقْلالًا ، ولكنْ سألَني الصبيُّ أنْ أُعَلِّمَه القُرآن ، فاخْتَلَطَ تعليمُ النَّحْوِ بتعليمِ القُرْآن ، ولا أستَحِلُّ أنْ آخذ منه شيئًا ، ولو دَفَعَ إليَّ الدُّنيا[1] .

أبو الحسن الداوودي :

كان ما يأكله يُحمل من بوشنج إلى بغداد احتياطًا .

قال أسعد بن زياد : كان شَيْخُنَا الداوودي بقي أربعين سنةً لا يأكل لحمًا - وَقْتَ تَشويش التُّركمان ، واختلاطِ النَّهب - فأضرَّ بِهِ ، فكان يأكُلُ السمكَ ، ويُصطادُ له مِن نَهْرٍ كبير ، فحُكي له أنَّ بعض الأمراء أكل علىٰ حافة ذلك النهر ونُفِضتْ سُفرتُه وما فَضُلَ في النهر ، فما أكَلَ السمك بعدُ[2] .

« قال السِّلَفي : سألتُ المؤتمن عن الداوودي ، فقال : كان من ساداتِ رجال خُراسان ، تركَ أكل الحيوانات وما يخرج منها منذ دخل التُّركمان ديارهم ، تفقَّه بسَهل الصُّعلوكي ، وبأبي حامد الإسفراييني .

قال ابنُ النجَّار : كان من الأئمة الكبار في المذهب ، ثِقةً ، عابدًا ،

---

(١) تاريخ بغداد ٥ / ١٥ ، والسير ١٥ / ٣٤٤ .
(٢) طبقات الإسنوي ١ / ٥٢٥ ، والسير ١٨ / ٢٢٤ .

مُحقِّقًا ، دَرَّس وأفتىٰ ، وصَنَّفَ ووَعظ »[١].

أبو إسحاق الشيرازي شيخ الشافعية :

« قال السمعاني : دخل أبو إسحاق يومًا مسجدًا ليتغدَّى ، فنسي دينارًا ، ثم ذكَر ، فرجع ، فوجده ، ففكَّر ، وقال : لعله وَقَعَ من غيري . فتركه »[٢].

قال السبكي في طبقات الشافعية (٤ / ٢١٧) : « هذا هو الزهد هكذا هكذا ، وإلا فلا لا ، وهذا هو الورع ، وليكن المرء هكذا ، وإلَّا فلا يؤمِّل من الجنة آمالًا ، وهذا هو خُلاصة الناس ، وهذا هو الحَلْي ، وما يُظنُّ أنه نظيره فذاك هو الوسواس ، وإن كان تُقًى فهذا العمل الأتقىٰ ، وإن كانت هِمَّةٌ فمثل هذه الهِمَم التي لا يتجنَّبُهَا إلا الأشقىٰ » .

المُحَدِّث الزاهد : عطاء بن أبي سعد الهروي الفقاعي :

تلميذ شيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري :

« قال السمعاني : سمعتُ عبد الخالق بن زياد يقول : أمر بعض الأمراء أن يُضرب عطاء الفقاعي – في محنة الشهيد عبد الهادي بن شيخ الإسلام – مائة ، فبُطح علىٰ وجهه ، فكان يُضرب إلى أن ضُرب ستين ، فشكُّوا كم ضُرب ؛ خمسين أو ستين ؟ فقال عطاء : خُذوا بالأقلِّ احتياطًا . وحُبس مع نساء ، وكان في الموضع أترسة ، فقام بجهد من الضرب ، وأقام الأترسة بينه وبينهن ، وقال : نهىٰ رسول الله ﷺ عن الخلوة ....

(١) السير ١٨ / ٢٢٥ .

(٢) السير ١٨ / ٤٥٦ ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ٢ / ١٧٣ ، و« المجموع » ١ / ٢٦ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٤ / ٢١٩ .

بالأجنبية »[١].

نور الدين بن زنكي :

« قال ابن الأثير في « الكامل » (١١ / ٤٠٣) : طالعتُ السِّيَر ، فلم أر فيها بَعْدَ الخُلفاء الراشدين وعُمر بن عبد العزيز أحسنَ من سيرتِه ، ولا أكثر تحرِّيًا منه للعَدْلِ ، وكان لا يأكُل ولا يلبَسُ ولا يتصرَّفُ إلا من مُلك له قد اشتراهُ من سهمِهِ من الغَنيمة ، لقد طلبتْ زوجتُه منهُ ، فأعطاها ثلاثةَ دكاكين ، فاستقلَّتْها ، فقال : ليسَ لي إلا هذا ، وجميعُ ما بيدي أنا فيه خازِنٌ للمسلمين .

قال سبطُ الجوزي[٢] : كان له عجائزُ ، فكان يَخِيطُ الكوافي ، ويعملُ السكاكر ، فَيَبِعْنَهَا له سرًّا ، ويُفْطِرُ على ثمنها[٣].

الحافظ ابن عساكر :

« كان رحمه الله زاهدًا عابدًا وَرِعًا مُنقطعًا إلى العلم والعبادة ، حَسَنَ الأخلاق ، قليلَ الرغبة في الدنيا »[٤].

قال أبو شامة : « كان يتورَّع من المرور في زُقاق الحنابلة ؛ لئلَّا يأثموا بالوقيعة فيه ، وذلك لأن عوامَّهم يبغضون بني عساكر ؛ لأنهم كانوا أعيان الشافعية الأزهرية »[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٥٦ ، وحديث النهي عن الخلوة بالأجنبية رواه البخاري ومسلم وأحمد ، والطيالسي والترمذي وأبو يعلى والحاكم .

(٢) مرآة الزمان ٨ / ١٩٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٥٣٤ - ٥٣٥ ، ٥٣٧ .

(٤) قول أبي المظفر ابن الجوزي في مرآة الزمان ٨ / ٦٣١ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ١٨٨ نقلًا عن « ذيل الروضتين » .

□ الـورَعُ في النظـر □

قال عمرو بن مرة العابد الثقة : « ما أُحِبُّ أنِّي بصير ، كنتُ نظرتُ نظرةً وأنا شابٌّ »(١).

لله دَرُّهُم :

قال أنس بن مالك : « إذا مـرَّت بك امـرأة فغمِّضْ عينيك حـتىٰ تُجاوزك »(٢).

« كان سفيان الثوري قاعدًا بالبصرة ، فقيل له : هذا مساور بن سوار يمرُّ - وكان على شرطة محمد بن سليمان - فوثب فدخل داره ، وقال : أكره أن أرىٰ من يعصي الله ولا أستطيع أن أُغَيِّر عليه .

وقال فُضيل بن عياض : لا تنظروا إلى مراكبهم ، فإنَّ النظر إليها يُطفئ نور الإنكار عليهم »(٣).

وقال سفيان : « لا تنظروا إلى دُورهم ولا إليهم إذا مرُّوا على المراكب .

قال خالد بن الأحمر : سمعتُ وكيعًا يقول : مـررتُ مع سـفيان على دار مشيدة ، فرفعتُ رأسي إليها . فقال : لا ترفعْ رأسكَ تنظر إليها ؛ إنما بَنَوْها لهذا »(٤).

« وقال داود الطائي : كانوا يكرهون فُضُول ....

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٦٢ .

(٢) إسناده حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع صـ ٦٦ .

(٣) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٦٧ .

(٤) الورع لأحمد صـ ٩٦ .

النظر »[١].

« وقد كان السلف رضي الله عنهم يُبالغون في الاحتراز من النظر : كان في دار مجاهد عُلِّية قد بُنيتْ ، فبقي ثلاثين سنة ولم يشعر بها »[٢].

كم من نظرة تحلو في العاجلة ، مرارتها لا تُطاق في الآجلة !

« عن أبي الأديان قال : كنتُ مع أستاذي أبي بكر الدقَّاق ، فمرَّ حَدَثٌ ، فنظرتُ إليه ، فرآني أستاذي وأنا أنظر إليه ، فقال : يا بُنَّي ، لتجدنَّ غِبَّها ولو بعد حين ، فبقيتُ عشرين سنة وأنا أُراعي الغِبَّ ، فنمتُ ليلة وأنا مُتَفَكِّرٌ فيه ؛ فأصبحتُ وقد نسيتُ القرآن كلَّه »[٣].

نَعَمْ ، لرُبَّ نظرة لَأَنْ تلقى الأَسَدَ فيأكلك خيرٌ لك منها .

وأنا الذي اجتلب المنيةَ طرفُه فَمَنِ المُطالَبُ والقتيلُ القاتِلُ

فقلْ للناظرين إلى المُشتهَى في ديارهم ، هذا أنموذج من دار قرارهم ، فإن استعجل أطفال الهوىٰ فدارهم ، وعِدْهم قُرْب الرحيل إلى ديارهم ﴿ **قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم** ﴾ [النور : ٣٠] .

* * *

◻ الورَعُ في السمعِ ◻

« عن نافع قال : كنتُ مع ابن عمر في طريق ، فسمع زُمَّارة راعٍ ، فوضع أصبعيه في أُذُنَيْه ، ثم عدل عن الطريق ، ثم قال : يا نافع ، أتسمع ؟

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٦٢ .

(٢،٣) التبصرة لابن الجوزي ١ / ١٥٨ - ١٦١ .

قلتُ : لا . فأخرج أصبعيه من أُذنيه ، ثم عدل إلى الطريق ، ثم قال : هكذا رأيتُ رسول الله ﷺ صنع »[١] .

فنزِّهْ يا أخي سمْعَك ، واستمعْ إلى ما صحَّ عن محمد بن المنكدر .

قال رحمه الله : « إذا كان يوم القيامة نادىٰ منادٍ : أين الذين كانوا يُنَزِّهون أنفسهم وأسماعهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان ، أسكِنوهم بياض المسك ، ثم يقول للملائكة : أسمِعُوهم تمجيدي وتحميدي »[٢] .

* * *

□ الورَعُ في الشمِّ □

عن محمد بن سعد بن أبي وقَّاص قال : « قدم على عمر مسْكٌ وعنبر من البحرين ، فقال عمر : والله لوددتُ أني وجدتُ امرأة حسنة الوزن تَزِنُ لي هذا الطِّيب حتىٰ أقسمه بين المسلمين ، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد ابن عمرو بن نفيل : أنا جيِّدة الوزن ، فهلُمَّ أزن لك . قال : لا . قالت : لِمَ ؟ قال : إني أخشىٰ أن تأخذيه فتجعلينه هكذا - أدخل أصابعه في صِدْغيْه - وتمسحين به عُنُقك ، فأُصيبُ فضلًا على المسلمين »[٣] .

« وعن يونس بن أبي الفرات ، أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أُتي

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٦٨ .
صحيح : أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والخلال في « الأمر بالمعروف » ، وابن حبان ، والآجُرّي في « تحريم النرد » ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي .
(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٧١ .
(٣) إسناده حسن : أخرجه أحمد في الزهد صـ ١١٩ .

بغنائم مسْك ، فأخذ بأنفه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، تأخذ بأنفك لهذا !! قال : إنما يُنتفع من هذا بريحه ، فأكره أن أجد ريحه دون المسلمين »(١).

* * *

□ الورَعُ في البطـن □

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طَيِّبًا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرسل كلوا من الطيِّبات واعملوا صالحًا** ﴾ [المؤمنون : ٥١] ، وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الذين آمنوا كلوا من طيِّبات ما رزقناكم** ﴾ [البقرة : ١٧٢] ، ثم ذكر العبد يُطيل السفر ، أشعثَ أغبرَ ، رافعًا يديْه : يا ربِّ يا ربِّ ؛ مطعمه حرام ، ومشربُه حرام ، وملبسُه حرام ، وغُذِّيَ بالحرام ، فَأَنَّى يُستجابُ لهذا »(٢).

وعن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من استطاع منكم ألا يجعل في بطنه إلا طيِّبًا فليفعل ، فإنَّ أول ما ينتُنُ من الإنسان بطنُهُ »(٣).

« عن أبي صالح الحنفي قال : دخلتُ على أُمِّ كلثوم ، فقالت : ائتوا أبا صالح بطعام . فأتوني بمرقة فيها جنوب ، فقلتُ : أتُطعموني هذا وأنتم

---

(١) إسناده حسن : انظر الورع لابن أبي الدنيا صـ ٧٤ .

(٢) إسناده حسن : أخرجه أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، وقال الترمذي : حسن غريب .

(٣) صحيح : أخرجه الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » ، وابن أبي الدنيا في « الورع » واللفظ له .

أمراء ؟! قالت : كيف لو رأيتَ أمير المؤمنين عليًّا ، وأُتي بأتْرُجٍّ ، فأخذ الحسن أو الحسين منها أترُجَّة لصبيٍّ لهم ، فانتزعها من يده ، وقسمها بين المسلمين[1] .

قال أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٦٩) : « يا شقيق - البلخي - لم ينبُل عندنا مَنْ نبُل بالحجِّ ولا بالجهاد ، وإنما نبُل عندنا مَنْ نَبل ، مَنْ كان يعقل ما يدخل جوفه - يعني الرغيفين - من حِلِّه » .

* * *

□ الورَع في المسعىٰ □

« قال قتادة : كان المؤمن لا يُرىٰ إلا في ثلاثة مواطن : في مسجد يعمُره ، أو بيت يستُره ، أو حاجة لا بأس بها .

وعن شُبيل بن عوف : ما اغبَرَّتْ رجلاي في طلب دنيا ، ولا جلستُ في مجلس إلا مُنتظرًا لجنازة أو لحاجة لا بُدَّ منها »[2] .

رضي الله عن تلك الأنفس !!

عن العبَّاس بن سهم ، أنّ امرأةً من الصالحات أتاها نَعْيُ زوجها وهي تعجن ، فرفعتْ يديها من العجين ، وقالت : هذا طعام قد صار لنا فيه شريكٌ .

* * *

(١) إسناده حسن : رواه ابن أبي الدنيا في الورع صـ ٩١ .
(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٩٥ ، ٩٧ .

□ الـوَرَع في الفـرْج □

« قال سفيان بن عُيَيْنة : لو أنّ رَجُلًا لعب بغـلام بين أصبعـين من أصابع رِجله ، يُريد بذلك الشهوة ؛ لكان لواطًا »(١).

* * *

□ الـوَرَع في اللســان □

« قال الحسن بن حيّ : فتَّشتُ الورَع ، فلم أجده في شيء أقلّ منه في اللسان .

وعن ابن أبي رزمة قال : سُئل عبد الله - يعني ابن المبارك - : أيُّ الورَع أشدُّ ؟ قال : اللسان .

وعن أبي حيَّان التيمي قال : كان يُقال : ينبغي للعاقل أن يكون أحفظَ للسانه منه لموضع قدمه »(٢).

« قال عبد الكريم الجزري : ما خاصَم وَرِعٌ قَطُّ ؛ يعني في الدِّين »(٣).

« وقال إسحاق بن خلف : الوَرَع في المنطق أشدُّ منه في الذهب والفضة ، والزهدُ في الرياسة أشدُّ منه في الذهب والفضة ؛ لأنهما يُبذلان في طلب الرياسة »(٤).

« ذكروا عند الربيع بن خُثيم رجلًا فقال : ما أنا عن نفسي براضٍ فأتفرَّغ من ذمِّها إلى ذمِّ الناس ، إن الناس خافوا الله في ذنوب العباد وأمِنوه

---

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع صـ ٩٤ .
(٢) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٧٧ .
(٣) الورع لابن أبي الدنيا صـ ٥٩ .
(٤) مدارج السالكين ٢/٢٢ .

علىٰ ذنوبهم .

وعن بكر بن ماعز قال : جاءت ابنة الربيع بن خُثيم ، فقالت : يا أبتِ ، أذهبُ ألعب ؟ قال : فلما أكثرتْ عليه ، قال بعض جلسائه : لو أمرتَهَا فذهبتْ . قال : لا يُكتب عليَّ اليوم أني أمرتُها باللَّعب »[1] .

بأبي أنت وأُمِّي يا ابن خُثيم .. تحرص علىٰ ألا يضمَّ كتابُك حتىٰ كلمة (اللَّعب) .. مُجرَّد التلفُّظ بها لبُنيَّة ! فما ظنُّك بِمَنْ طولَ عمرهم يلعبون ، وفي سكرتهم يعمهون !!

« عن إبراهيم بن بشّار قال : سُئِلَ إبراهيم بن أدهم : بِمَ يتمُّ الوَرَعُ ؟ قال : بتسوية كل الخلق من قلبك ، واشتغالك عن عيوبهم بذنبك ، وعليك باللفظ الجميل من قلبٍ ذليلٍ لربٍّ جليل ، فَكِّرْ في ذنبك ، وَتُبْ إلىٰ ربِّك ؛ يثبت الوَرَعُ في قلبك ، واحسم الطمعَ إلا من رَبِّك »[2] .

* * *

---

(١) الورع لأحمد صـ ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) الحلية ٨ / ١٦ .

الفصْلُ الخَامِس

عُلُـوُّ الهِمَّـةِ

في الصَّـبْرِ

« لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَىٰ أَحَدٌ ،
وَأُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ..... »

« حديثٌ صَحيحٌ » : رواه أحمد ، والترمذي ،
وابن ماجه ، وابن حِبَّان ، عن أنسٍ .

□ علو الهمة في الصَّبْرِ □

« إنَّ اللهَ سبحانه جعل الصبر جوادًا لا يكْبُو ، وصارمًا لا ينبو ، وجندًا لا يُهزَم ، وحصنًا لا يُهدَم ، ولا يُثْلَم ، فهو والنصر أَخوان شقيقان ، وهو أنصرُ لصاحبه مِن الرجال بلا عُدَّة ولا عَدَدٍ ، ومحلُّه مِنَ الظَّفَر محلُّ الرأسِ مِنَ الجسد .

وللصابرين مَعِيَّةٌ مع الله ، ظفروا بها بخير الدنيا والآخرة ، وفازوا بها بنِعَمِهِ الظَّاهرة والباطنة ، وجعل اللهُ سبحانه الإمامة في الدين مَنُوطَةً بالصبر واليقين ؛ فقال تعالىٰ – وبقوْله اهتدىٰ المُهتَدُونَ – : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة : ٢٤] .

قال ابن تيمية : إنما تُنَالُ الإمامةُ في الدين بالصبر واليقين .

وقال ابن عيينة : « لمَّا أخذوا برأس الأمر ، صارُوا رؤوسًا » .

وأخبرَ سبحانه أنَّ الصبر خيرٌ لأهلِهِ مؤكِّدًا باليمين ، فقال تعالىٰ : ﴿ **وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصابِرِينَ** ﴾ [النحل : ١٢٦] .

وأخبر عن محبَّته للصابرين ، ولقد بشَّر الصابرين بثلاثٍ ، كلٌّ منها خيرٌ ممَّا عليه أهل الدنيا يتحاسدون ، فقال تعالىٰ : ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن ربِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٥ – ١٥٧] .

وأوصىٰ عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ** ﴾ [البقرة : ٤٥] .

وَجَعَلَ الفوزَ بالجنةِ والنجاةَ مِنَ النَّارِ لا يحظَىٰ بِهِ إلَّا الصابرون ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١١١] .

وأخبر أنَّ الصبر والمغفرةَ من العزائم ، التي تجارةُ أربابها لا تَبُور ؛ فقال تَعَالَىٰ : ﴿ **وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ [الشورىٰ : ٤٣] .

وفي الصحيح عن رسولنا ﷺ : « وما أُعطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ مِن الصبر » . وأخبر ﷺ أنَّ الصبر ضياءٌ .

قال عمر رضي الله عنه : « أفضلُ عيشٍ أدركناه بالصبر ، ولو أنَّ الصبر كان من الرجال كان كريمًا » .

وقال عليُّ بنُ أبي طالب : الصبر مَطِيَّةٌ لا تَكْبُو .

وقال الحسن : الصبرُ كَنْز مِن كنوز الجنة ، لا يُعطيهِ اللهُ إلا لعبدٍ كريمٍ عنده .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما أنعمَ اللهُ على عبدٍ نعمةً فانتزعَهَا منه فعاضه مكانها الصبر ، إلَّا كان ما عوَّضه خيرًا ممّا انتزعه .

وقال ميمون بن مهران : ما نال أحدٌ شيئًا مِن ختْم الخير فما دونه إلَّا الصبر .

وقال سليمان بن القاسم : كلّ عملٍ يُعرَف ثوابُه إلَّا الصبر ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **إنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِساب** ﴾ ، قال : كالماء المُنْهمر »[١] .

---

(١) عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم صـ ٦٤ ، ٩٠ - ٩١ .

قال ابن القيم : « الإنسان منّا إذا غلب صبرُه باعِثَ الهوىٰ والشهوة ، الْتحَق بالملائكة ، وإن غلب باعِثُ الهوىٰ والشهوة صبرَه،الْتحق بالشياطين ، وإنْ غلب باعثُ طبْعه - من الأكل والشرب والجماع - صبرَه ، الْتحق بالبهائم . قال قتادة : خلَق الله سبحانه الملائكة عقولًا بلا شهوات ، وخلق البهائم شهواتٍ بلا عقول ، وخلق الإنسان وجعل له عقلًا وشهوة ، فمَن غلب عقلُه شهوَته فهو مع الملائكة ، ومن غلبتْ شهوتُه عقلَه فهو كالبهائم »[1] .

أنواع الصبر :

والصبر نوعان : اختياري واضطراري ، والاختياريُّ أكمل من الاضطراري ، أو صبرٌ على ما يتعلق بالكسب ، وصبرٌ على ما لا كسب للعبد فيه .

أو بلفظٍ آخر : هو على ثلاثة أنواع : صبرٌ على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على امتحان الله .

والصبر المتعلق بالتكليف - وهو الأمر والنهي - أفضل من الصبر علىٰ مجرَّد القَدَر ، فإنَّ هذا الصبر يأتي به البَرُّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ، فلا بدّ لكلّ أحدٍ من الصبر على القَدَر اختيارًا أو اضطرارًا .

فأما الصبر على الأوامر والنواهي - الصبرُ عن المعصية والصبر علىٰ الطاعة - فهو صبرُ أتْباعِ الرُّسل ، وأعظمهم اتّباعًا أَصبرُهم في ذلك .

والصبر على الاضطراري - وهو الصبر على الامتحان والقَدَر - مع عِظَم جزائه فهو أقلُّ رتبةً من الصبر عن المعصية .

قال ابن تيمية - قدَّس اللهُ روحه -: « كان صبرُ يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكملَ من صبره على إلْقاءِ إخوته له في الجُبِّ ،

---

(١) عدة الصابرين صـ ١٨ .

وبيْعه ، وتفريقهم بينه وبين أبيه ؛ فإنَّ هذه أمورٌ جرتْ عليه بغير اختياره ، لا كسبَ له فيها ، ليس للعبد فيها حِيلةٌ غير الصبر ، وأمَّا صبره عن المعصية : فصبر اختيار ، ومحاربةٌ للنفس »(١).

قال ابن القيم في المدارج (٢ / ١٦٩) : « الصبر على طاعته ، والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على أقداره ؛ فإنَّ الصبر فيها صبر اختيارٍ وإيثارٍ ومحبّة ، والصبر على أحكامه الكونية صبرُ ضرورة ، وبينهما مِن البَوْن ما قد عرَفتَ . وكذلك كان صبر نوحٍ وإبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام ، على ما نالهم في الله ، باختيارهم وفعْلهم ومقاومتهم قَوْمَهم - أكملَ من صَبْرِ أيوب علىٰ ما ناله في الله ، من ابتلائه وامتحانه بما ليس مُسَبَّبًا عن فعْله .

وكذلك كان صبر إسماعيل الذَّبيح ، وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر اللهِ - أكملَ من صبرِ يعقوب على فَقْدِ يوسف » .

وكان ابن تيمية رحمه الله يقول : « الصبر على أداءِ الطاعات أكملُ من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ؛ فإنَّ مصلحة فعْل الطاعة أحبُّ إلى الشارع من مصلحة ترْك المعصية ، ومفسدة عدْم الطاعةِ أبْغَضُ إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية »(٢).

وهو أيضًا علىٰ ثلاثةِ أنواع : صبرٌ بالله ، وصبر لله ، وصبر مع الله :

فالأول : الاستعانة به ، ورؤيته أنَّه هو المصبِّر ، وأنَّ صبرَ العبد بربِّه لا بنفسه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ** ﴾ [النحل : ١٢٧] .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٥٦ .
(٢) المدارج ٢ / ١٥٧ .

والصبر بالله : بقاء ؛ لأنَّ العبد إذا كان بالله هان عليه كلُّ شيءٍ ، ويتحمَّل الأثقال ولم يجدْ لها حِمْلًا ؛ فإنه إذا كان بالله لا بالخلق ولا بنفسه ، كان لقلبهِ وروحه وجودٌ آخر وشأن آخر ، غير شأنه إذا كان بنفسه وبالخلق ، وبهذا الحال لا يجد عَناء الصبر ولا مرارته ، وتنقلب مشاقُّ التكليف له نعيمًا وقُرَّةَ عين ، كما قال ثابت البناني : « عالجتُ قيامَ الليل عشرين سنةً ، وتنعَّمتُ به عشرين سنة » . ومن كانت قرة عينه في الصلاة لم يجدْ لها مشقَّة وكُلْفَةً .

والثاني : الصبر لله : وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبَّة الله ، وإرادة وجهه ، والتقرُّب إليه ، لا لإظهار قوة النفس ، والاستحماد إلى الخلْق ، وغير ذلك من الأعراض .

« والصبر لله فوقَ الصبر بالله ، وأعلى درجةً منه وأجلّ ؛ فإنَّ الصبرَ للهِ متعلّق بإلـٰهيَّته ، والصبر به متعلِّق بربوبيَّته ، وما تعلَّق بإلـٰهيته أكملُ وأعلىٰ ممَّا تعلق بربوبيّته . ولأنَّ الصبرَ له : عبادةٌ ، والصبرَ به : استعانةٌ ، والعبادة : غايةٌ ، والاستعانة : وسيلة ، والغاية : مُرَادَةٌ لنفسها . ولأنّ الصبرَ له : صبرٌ فيما هو حقٌّ له ، محبوبٌ له مَرْضِيٌّ له ، والصبر به قد يكون في ذلك وقد يكون فيما هو مسخوطٌ له ، وقد يكون في مكروه أو مباح،فأين هذا مِن هذا ؟! » .

والثالث : الصبر مع الله : وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه ، ومع أحكامه الدينية ، صابرًا نفسه معها ، سائرًا بسيْرها ، مُقيمًا بإقامتها ، يتوجَّه معها أين توجَّهت ركائبها ، وينزل معها أين استقلَّتْ مضاربُها ، فهو قد جعل نفسه وقْفًا على أوامره ومحابِّه . وهذا أشدُّ أنواعِ الصبر وأصعبها ، وهو صبر الصِّدِّيقين .

قال الجنيد : « السَّيْر من الدنيا إلى الآخرة سَهْلٌ هَيِّن على المؤمن ، وَهُجْران الخلْق في جنْبِ الله شديد ، والمسير من النفس إلى الله صَعْبٌ شديد ، والصبر مع الله أشدُّ » .

والصبر مع الله وفاء ، لا يُزيغ القلبَ عن الإنابة ، ولا الجوارحَ عن الطاعة ، فتُعْطَى المعية حقّها مِن التوفية ، كما قال تعالى : ﴿ **وإبراهيمَ الذي وَفَّى** ﴾ [النجم : ٣٧] ، أي وَفَّى ما أُمر به ، بصبْره مع الله على أوامره .

مَراتِبُ الصبر :

قال ابن القيم في المدارج (٢ / ١٦٩ - ١٧٠) : « المراتب أربعة :

إحداها : مرتبة الكمال : وهي مرتبة أُولي العزائم ، وهي الصبر لله وبالله . فيكون في صبره مبتغيًا وجهَ الله صابرًا به ، متبرِّئًا مِن حوْله وقوّته . فهذا أقوى المراتبِ وأرفعُها وأفضلها .

الثانية : أنْ لا يكون فيه لا هذا ولا هذا . فهو أَخسُّ المراتب ، وأردأُ الخلق ، فهو جديرٌ بكلِّ خُذْلانٍ وبكلِّ حِرْمَانٍ .

الثالثة : مرتبة مَن فيه صبرٌ بالله ، وهو مستعينٌ متوكِّل على حوْله وقوّته ، ولكنّ صبره ليس لله ، إذْ ليس صبرُه فيما هو مراد الله الديني منه ، فهذا يُنال مطلوبُه ، ولكن لا عاقبة له ، وربما كانت عاقبتُه شرَّ العواقب ، وفي هذا المقام خفراء الكفار وأربابُ الأحوال الشيطانية ؛ فإنَّ صبرهم بالله ، لا لله ، ولا في الله .

الرابعة : مَن فيه صبرٌ لله ، لكنَّه ضعيفُ النصيب من الصبر به ، والتوكُّل عليه ، والثقة به ، فهذا له عاقبة حميدة ، ولكنه ضعيفٌ عاجزٌ مخذولٌ في كثيرٍ مِن مطالبه ، لضعفِ نصيبه مِن ﴿ **إيَّاكَ نعبُدُ وإيَّاكَ نستعينُ** ﴾ ، فنصيبُه مِن الله أقوى مِن نصيبه بالله ، فهذا حالُ المؤمن الضعيف .

صابرٌ بالله ؛ لا لله : حال الفاجر القويّ ، وصابرٌ لله وبالله : حال المؤمن القوي ، والمؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف . فصابِرٌ لله وبالله : عزيزٌ حميد ، ومَن ليس لله ولا بالله مذمومٌ مخذول ، ومن هو بالله ، لا لله : قادرٌ مذموم ، ومَن هو لله لا بالله عاجزٌ محمود » .

الصَّبر علىٰ البَلاء :

الصبر علىٰ البلاءِ بضاعة الصِّدِّيقين ؛ فإنَّ ذلك شديدٌ على النفس ، ولذلك قال ﷺ : « أسألك مِن اليقين ما تُهوِّن عليَّ به مصائب الدنيا »(١). فهذا صبر مستندُه حُسْن اليقين .

والصبر من آكَدِ المنازل في طريق المحبة وألزمها للمحبِّين ، وهم أحوج إلى منزلته من كلِّ منزلة ، وهو مِن أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبْيَنِهَا . وبهذا الصبر يُعْلَم صحيحُ المحبَّة من معلولها ، وصادقُها من كاذِبها ؛ فإنَّ بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يُعلم صحةُ محبّته .

ومن هاهنا كانت محبَّة أكثر الناس كاذبة ؛ لأنّهم كلهم ادّعوْا محبة الله تعالىٰ ، فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة ، ولم يثبت معه إلّا الصابرون ، فلولا تحمُّل المشاقّ ، وتجشُّم المكاره بالصبر ، لَمَا ثبتَتْ صحة محبتهم ، وقد تبيَّن بذلك أنَّ أعظمهم محبَّةً أشدُّهم صبرًا .

ولهذا وصف الله تعالىٰ بالصبر خاصة أوليائِه وأحبابه ، فقال عن حبيبه أيُّوب : ﴿ **إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا** ﴾ ثمَّ أثنىٰ عليه فقال : ﴿ **نِعْمَ العبدُ إنَّه أوَّابٌ** ﴾ [صٓ : ٤٤] ، فصلَّى اللهُ على نبيّه أيُّوب ، فكمْ كانَ صبرُه حتى

---

(١) جزءٌ من حديث أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصحّحه من حديث ابن عمر ، وحسّنه الترمذي .

ضُرب به المثل ، وكم كان أدبه في صبره إذْ قال تعالىٰ : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، فقال : مسَّني ، ولم يقلْ : هَدَّني .

قال رسول الله ﷺ : « أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ، ثم الصالحون ؛ لقد كان أَحدُهم يُبتلىٰ بالفقر حتَّى ما يجدُ إلا العباءة ، يجوبها[١] ، فيلبسها ، ويُبتلىٰ بالقمْلِ حتىٰ يقتله ، وَلَأَحدُهم كان أشدَّ فرحًا بالبلاءِ من أحدكم بالعطاء »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « لَيودَّنَّ أهلُ العافية يوم القيامة أنَّ جلودَهم قُرِضَتْ بالمقاريض ، ممَّا يَرَوْنَ من ثواب أهل البلاء »[٣] .

المرأة السَّوْداء التي كانت تصْرَع :

« عن عطاء : قال لي ابن عباسٍ : أَلَا أُريك امرأةً من أهل الجنة ؟! هذه المرأة السوداء ، أتتْ إلى رسول الله ﷺ ، فقالت له : يا رسول الله ، إني أُصرع ، فادْعُ اللهَ لي . فقال : « إنْ شِئْتِ ، صبرتِ ولكِ الجنة ، وإنْ شئْتِ ، دعوتُ الله أنْ يعافيكِ » . فقالت : أصبر . ثم قالت : يا رسول الله ، إني أتكشَّفُ فادعُ الله لي أن لا أتكشَّف . فدعا لها » . فرضي اللهُ عنها ، صبرتْ على الصَّرَع ونالت الجنة ، فما أعقلها وما أصبَرَها !!

---

(١) أي : يقطع وسطها ليلبسها .

(٢) صحيح ، رواه ابن ماجه وأبو يعلى في مسنده ، والحاكم في المستدرك عن أبي سعيد ، وكذا رواه ابن سعد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣١ .

(٣) حسن ، رواه الترمذي والضياء عن جابرٍ ، ورواه الخطيب وابن عساكر ، والطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٨٤ ، والصحيحة ٢٢٠٦ .

الأحْنف بن قيْس :

« قال مغيرة : ذهبتْ عيْنُ الأحْنف ، فقال : ذهبتْ من أربعين سنة ، ما شكوتُها إلى أحد »[١] . فَرَضِيَ اللهُ عن سيّد أهلِ المشرق ... لسانُ حاله يقول :

وَإِذَا شَكَوتَ إلى ابنِ آدَمَ إنَّمَا … تشكُو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُكْ

قال ابن تيمية : « الصبر الجميلُ هو الذي لا شكوىٰ فيهِ ولا مَعَهُ » .

عروة بن الزبير :

قال ابن القيم : « قَدِمَ عروة بن الزبير علىٰ الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد ، وكان من أحسن الناس وجهًا ، فدخل يومًا على الوليد في ثيابِ وشي ، وله غديرتان وهو يضرب بيده ، فقال الوليد : هكذا تكون فتيان قريش . فعانه[٢] ، فخرج من عنده متوسّنًا ، فوقع في إصطبل الدوابِّ ، فلم تزل الدوابُّ تطؤه بأرجلها حتىٰ مات ، ثم إنَّ الأكلة وقعتْ في رِجْل عروة ، فبعث إليه الوليدُ الأطباء ، فقالوا : إنْ لم تقطعْها ، سَرَتْ إلى باقي الجسد فتهلك . فعزم على قطْعها ، فنشروها بالمنشار ، فلمَّا صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة ، فَغُشِيَ عليه ، ثم أفاق والعَرَق يتحدَّر على وجهه وهو يهلِّل ويكبّر ، فأخذها وجعل يقبِّلها في يده ، ثم قال : أمَا والذي حَمَلني عليكِ ، إنه لَيَعلم أني ما مَشَيْتُ بكِ إلى حرام ، ولا إلى معصية ، ولا إلى ما لا يُرضي اللهَ . ثم أمر بها ، فغسِّلَتْ وطيِّبتْ وكُفِّنت في قطيفة ، ثم بُعِثَ بها إلى مقابر المسلمين ، فلمّا قدِم مِن عند الوليد المدينة ، تلقّاهُ أهلُ بيته وأصدقاؤه يُعزّونه ، فجعل يقول : ﴿ **لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا**

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٩٢ .

(٢) أي : أصابه بعينه ، حسَده .

هذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف : ٦٢] ، ولم يزدْ عليه .

قال ابن القيم : ولمّا أرادُوا قطع رجله ، قالوا له : لو سَقَيْنَاك شيئًا كي لا تشعر بالوجع . فقال : إنما ابتلاني لِيَرىٰ صبري ، أفأعارض أمرَه ؟! »[١].

إنْ سلبتَ فلَطالما أعطيتَ ، وإنْ أخذتَ فطالما أبقيتَ ، وأبقيتَ لنا فيكَ الأملَ ، يا بَرُّ يا وَصُول .

وأصيبَ (**مُطَرِّف بنُ عبد الله**) في ابنٍ له ، فأتاه قومٌ يُعَزُّونه ، فخرج إليهم أحسن ما كان بِشْرًا ، ثم قال : « إنِّي لَأَسْتحيي من الله أنْ أتضعضعَ لمصيبةٍ »[٢] .

وكان الإمام أحمد يَئِنُّ في مرضه ، فلمّا أخبروه أنَّ طاووسًا يقول : إنَّ أنينَ المريض شكوىٰ ، فما أنَّ حتى مات ، رحمه الله .

الإمامُ إبراهيم الحربيّ وصَبْره علىٰ الجوعِ والفقر :

قال رحمه الله : « قميصي أَنْظَفُ قميصٍ ، وإزاري أوسَخُ إزارٍ ، ما حدّثتُ نفسي أنهما يستويانِ قطُّ ، وفردُ عقبي[٣] صحيح والآخر مقطوع ، ولا أحدّث نفسي أنْ أصلحَهما ، ولا شكوتُ إلى أهلي وأقاربي حُمَّىٰ أجدها ، لا يغمُّ الرجل نفسه وعياله ، ولي عشرُ سنين أُبصر بِفَرْدِ عَيْنٍ ، ما أخبرتُ به أحدًا ، وأفنيتُ من عُمري ثلاثين سنة برغيفَيْن ، إنْ جاءَتْني بهما أُمّي أو أختي ، وإلَّا بقيتُ جائعًا إلى الليلة الثانية ، وأفنيتُ ثلاثين سنةً برغيفٍ في اليوم والليلة ، إنْ جاءتني امرأتي أو بناتي به ، وإلَّا بقيتُ جائعًا ، والآنَ

(١) عُدَّة الصابرين صـ ٩١ - ٩٢ .
(٢) عُدَّة الصابرين صـ ٩٤ .
(٣) العقب هنا : النعل على سبيلِ المجاز .

آكُل نصف رغيف وأربعَ عشرة تمرةً ، وقام إفطاري في رمضان هذا بدرهم ودانِقَيْن ونصف » .

وقال رحمه الله : « ما كنا نعرف من هذه الأَطْبخةِ شيئًا ، كنتُ أجيءُ من عَشي إلى عَشي ، وقد هيَّأت لي أُمّي باذنجانة مشويَّة ، أو لَعْقَة بِنٍّ[١] ، أو باقة فجْل »[٢] .

للهِ دَرُّه ... جوعٌ قليل وعُري قليل ، ثم بعد ذلك الجنة !!

ما ضرهم ما أصابهم ... جَبَرَ اللهُ لهم بالجنةِ كلَّ مصيبة .

أبو قلابَةَ الإمامُ صاحبُ ابنِ عبَّاسٍ وَصَبْرُهُ الجَميل :

« قال أيُّوب السختياني - وذكر أبا قلابة - : كان - والله - من الفقهاء ذوي الألباب ، إني وجدتُ أعلم الناس بالقضاء أشدَّهم منه فرارًا ، وأشدَّهم منه فَرَقًا ، وما أدركتُ بهذا المِصر أعلمَ بالقضاء من أبي قلابة .

وعن مسلم بن يَسَار قال : لو كان أبو قلابة مِن العَجَم ، لَكَان مَوبَذ موبذان . يعني : قاضي القضاة .

يُروىٰ أنَّ أبا قلابة عَطِشَ وهو صائم ، فأكرمه اللهُ لمّا دعا ، بأن ظلَّلتْه سحابة وأمطرتْ على جسده ، فذهبَ عطشُه »[٣] .

قال الذهبي في السير : « إنَّ أبا قلابة ممَّن ابْتُلِيَ في بدنه ودينه ، أُرِيدَ على القضاء ، فهرب إلى الشام ، فمات بعريض مصر سنة أربع ، وقد ذهبتْ يداه ورجلاه وبصرُه ، وهو مع ذلك حامدٌ ....

(١) البن : الطبقة مِن الشحم .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٦٧ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٦٨ - ٤٧٥ .

شَـاكِرٌ »[١].

وقد روىٰ ابن حبان قصة صبره الكريم الجميل النبيل : قال ابن حبان : « حدَّثني بقصَّةِ موتهِ محمدُ بن المنذر بن سعيد ، قال : ثني يعقوب بن إسحاق بن الجراح ، قال : ثني الفضل بن عيسىٰ ، عن بَقيَّة بن الوليد ، حدثني الأوزاعي ، عن عبد الله بن محمد ، قال : خرجت إلى ساحل البحر مرابطًا وكان رابطُنا يومئذ عريش مصر . قال : فلمّا انتهيتُ إلى الساحل فإذا أنا ببطيحة ، وفي البطيحة خيمة ، فيها رجل قد ذهبَ يداه ورجلاه ، وَثَقُل سمْعه وبصره ، وما له من جارحةٍ تنفعه إلَّا لسانه ، وهو يقول : « اللهمَّ أَوْزِعني أن أحمدك حمدًا ، أكافئ به شكرَ نعمتك التي أنعمتَ بها عليَّ ، وفضَّلتني على كثيرٍ ممّن خلقتَ تفضيلًا » . قال الأوزاعي : قال عبد الله : قلتُ : واللهِ لآتينَّ هذا الرجل ، وَلأَسألنَّه أنّى له هذا الكلام ، فَهْمٌ أمْ عِلمٌ أم إلْهامٌ أُلهِمَ ؟ فأتيتُ الرجل فسلّمتُ عليه ، فقلت : سمعتُك وأنت تقول : « اللهم ..... تفضيلًا » ، فأيّ نعمة مِن نِعَم الله عليك تحمده عليها ، وأيُّ فضيلةٍ تفضّلَ بها عليك تشكرُه عليها ؟ قال : وما ترىٰ ما صنع ربّي ؟! واللهِ لو أرسـل السمـاء عليَّ نارًا فأحرقتْـني ، وأمر الجبال فدمَّرتْني ، وأمر البحار فأغرقتني ، وأمر الأرض فبلعتني ، ما ازددتُ لِربّي إلَّا شكرًا ، لِمَا أنعم عليّ من لساني هذا ، ولكن يا عبد الله إذْ أتيتني ، لي إليك حاجة ، قد تراني على أيّ حالة أنا ، أنا لستُ أقدر لنفسي علىٰ ضُرٍّ ولا نفْع ، ولقـد كان معي بنيٌّ لي يتعاهدني في وقت صـلاتي ، فيوضّيني ، وإذا جعتُ أطعمني ، وإذا عطشتُ سقاني ، ولقد فقدتُه منذ ثلاثة أيام ، فتحسَّسْه لي رحمك الله . فقلتُ : واللهِ ما مشىٰ خلقٌ في حاجةِ

---

(١) السير ٤ / ٤٧٥ .

خلقٍ ، كان أعظم عند الله أجرًا ممَّن يمشي في حاجةِ مثلك . فمضيتُ في طلب الغلام ، فما مضيتُ غيرَ بعيدٍ ، حتى صرتُ بين كثبان من الرمل ، فإذا أنا بالغلام قد افترسه سَبُعٌ وأكل لحْمه ، فاسترجعْتُ وقلت : أنّىٰ لي وجْهٌ رقيقٌ آتي به الرجل ؟! فبينما أنا مُقْبل نحوه ، إذْ خطر علىٰ قلبي ذكْرُ أيُّوب النبي ﷺ ، فلمَّا أتيتهُ سلَّمتُ عليه ، فردّ عليَّ السلام ، فقال : ألستَ بصاحبي ؟ قلت : بلىٰ . قال : ما فعلتَ في حاجتي ؟ فقلت : أنت أكرمُ على الله أمْ أيُّوبُ النبي ؟ قال : بل أيُّوب النبي . قلت : هل علمتَ ما صنع به ربُّه ؟ أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده ؟ قال : بلىٰ . قلتُ : فكيف وَجَدَه ؟ قال : وجده صابرًا شاكرًا حامدًا . قلتُ : لمْ يَرضَ منه ذلك حتىٰ أوحشَ مِن أقربائه وأحبّائه ؟ قال : نعم . قلت : فكيف وجدَه ربُّه ؟ قال : وجدَه صابرًا شاكرًا حامدًا . قلتُ : فلمْ يَرْضَ منه بذلك حتىٰ صيّره عَرَضًا لمارّ الطريق ، هل علمتَ ؟ قال : نعم . قلتُ : فكيف وجدَه ربُّه ؟ قال : صابرًا شاكرًا حامدًا ، أوجِزْ رحمك الله . قلتُ له : إنَّ الغلام الذي أرسلتَني في طَلَبه وجدتُه بين كثبان الرمل ، وقد افترسه سبعٌ فأكل لحمه ، فأعظم اللهُ لكَ الأجرَ وألهمَكَ الصبر . فقال المبتلىٰ : الحمد لله الذي لم يخلقْ من ذرِّيتي خلقًا يعصيه ، فيعذِّبه بالنار . ثم استرجَعَ ، وشَهِقَ شهقةً فمات ، فقلتُ:إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، عظُمت مصيبتي ، رجلٌ مثل هذا إنْ تركتُه أكلَتْهُ السباع ، وإنْ قعدتُ ، لم أقدر على ضرٍّ ولا نفْع . فسجَّيْتُه بشمْلةٍ كانتَ عليّ ، وقعدتُ عند رأسه باكيًا ، فبينما أنا قاعدٌ إذْ تهجَّم عليّ أربعة رجال ، فقالوا : يا عبدَ الله ، ما حالك ؟ وما قصَّتُك ؟ فقصصْتُ عليهم قصَّتي وقصَّته ، فقالوا لي : اكشفْ لنا عن وجهِهِ ، فعسىٰ أنْ نعرفه . فكشفتُ عن وجهه ، فانكبَّ القوم عليه ، يقبِّلون عينيْه مرةً ، ويديْه أُخرىٰ ، ويقول : بأبي عَيْنٌ طالما غُضّتْ عن محارم الله ، وبأبي جِسْمٌ طالَمَا كان

ساجدًا والناس نِيَام . فقلتُ : مَن هذا يرحمكم الله ؟ فقالوا : هذا أبو قلابة الجرمي ، صاحب ابن عباس ، لقد كان شديدَ الحبِّ لله وللنبيّ ﷺ . فغسَّلناه وكفّنّاه بأثواب كانت معنا ، وصلَّينا عليه ودفنّاه . فانصرف القوم وانصرفتُ إلى رباطي ، فلمّا أنْ جَنَّ عليّ الليلُ ، وضعت رأسي ، فرأيتُه فيما يَرَىٰ النائم في روضةٍ من رياض الجنة ، وعليه حُلّتانِ من حُلَل الجنة ، وهو يتلُو الوحي : ﴿ **سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾ [الرعد : ٢٤] ، فقلتُ : ألستَ بصاحبي ؟ قال : بلىٰ . قلتُ : أنَّىٰ لك هذا ؟ قال : إنَّ للهِ درجاتٍ لا تُنالُ إلَّا بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرَّخاء ، مع خشية الله عز وجل في السرِّ والعلانية »(١) .

وهذه همّة إمامٍ تستمطرُ الدمع ... لسانُ حالهِ يقول : « إذا علمتَ أنَّ لُطْفَ اللطيف لا ينفكُّ عنه أبدًا ، وأنَّ اللطيف لطيفٌ على الدَّوام ، صار المنع عَيْنَ العطاء » .

صَبْرُ امرأةٍ تَفْضُلُ مَلايينَ الرِّجالِ :

« هذه زوجة فتْحٍ المَوْصلي ، انقطعتْ إصبعها ، فضحكتْ ، فقال لها بعض مَن معها : أتضحكين ، وقد انقطع إصبعك ؟! فقالت : أخاطبك على قدْر عقلك ، حلاوة أجْرِها أنستْني مرارةَ قطْعها » .

قال ابن القيم : « إشارةً إلى أنَّ عقله لا يحتمل ما فوق هذا المقام ، مِن ملاحظة المبتلي ، ومشاهدة حسْن اختياره لها في ذلك البلاء ، وتلذُّذها بالشكر له والرضا عنه ، ومقابلة ما جاء من قِبَله بالحمد والشكر ، كما قيل :

لَئِنْ سَاءَني أنْ نِلتَني بمساءَةٍ   فقدْ سرَّني أنّي خطرتُ ببالِكَا »(٢)

---

(١) « الثقات » لابن حبان ٥ / ٢ - ٥ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ١٦٧ - ١٦٨ .

لله دَرُّهَا مِن عابدةٍ وَلِيَّةٍ تقيَّة !! وكيف لا ، وهي زوجة فتْحٍ الموصليّ ، ولّي مِن كبار أولياء هذه الأمة ؟!

قال أبو بكر المروزي : « ذكرتُ لأبي عبد الله – أحمد بن حنبل – الفضل وعرْيه ، وفتح الموصلي وعرْيه وصبره ، فتغَرْغَرَتْ عينه ، وقال : رحمهم الله ، كان يُقال : عند ذكْر الصالحين ، تنزل الرحمة »(١).

وزوجُهَا صبرُهُ يَفُوقُ الخَيَال :

قال إبراهيم بن عبد الله : « صدع فتح الموصلي ، فقال : يا ربِّ ، ابتليتني ببلاءِ الأنبياء ، فشُكْرُ هذا أنْ أصلي الليلة أربعمائة ركعة »(٢).

وقال بشر بن الحارث : « بلغني أنّ بِنتًا لفتْح الموصلي عَرِيت ، فقيل له : ألا تطلب مَن يكسوها ؟ فقال : لا ، أدعها حتى يرىٰ الله عز وجلّ عُرْيها وصبري عليها . قال : وكان إذا كان ليالي الشتاء ، جمع عياله وقام بكسائه عليهم ، ثم قال : اللهمَّ أفقرتني وأفقرت عيالي ، وجوّعتَني وجوّعتَ عيالي ، وأعريتَني وأعريتَ عيالي ، بأيّ وسيلةٍ توسلتُها إليك ، وإنما تفعل هذا بأوليائك وأحبابِك ، فهل أنا منهم حتى أفرح ؟ »(٣).

والله لَأَخْبَارُ فَتْحٍ وزوجه أعطرُ من أريجِ الزهور .. بل بطيبها تطيبُ المجالس !

إبراهيمُ بنُ أدهمَ أستاذُ الشيوخ ، وصبرُه العجيب :

أمّا إبراهيم بن أدهم ... فهو لا يجارىٰ ولا يبارىٰ ..

عن حذيفة المرعشيّ قال : دخلنا مكة مع إبراهيم بن أدهم ، فإذا

---

(١) « الورع » لأحمد صـ ٤٦ .

(٣،٢) الحلية ٨ / ٢٩٢ .

شقيق البلخيّ قد حجَّ في تلك السنة ، فاجتمعنا في شقّ الطواف ، فقال إبراهيم لشقيق : علىٰ أيّ شيءٍ أصّلْتم أصلكم ؟ قال : أصّلْنا أصلنا علىٰ أنّا إذا رُزقنا أكلنا ، وإذا مُنِعْنا صبرنا . فقال إبراهيم : هكذا تفعل كلابُ « بلخ » . فقال له شقيق : فعلىٰ ماذا أصّلتم ؟ قال : أصّلنا علىٰ أنّا إذا رزقنا آثرنا ، وإذا مُنعنا شكرنا وحمدنا . فقام شقيق فجلس بين يدي إبراهيم ، فقال : يا أستاذ ، أنت أستاذنا »[1]... وفي رواية : « إنَّا قومٌ نصبر عند الرخاء ، ونشكر عند البلاء » .

لله دَرُّه ، فهذا واللهِ صبر الملوك !! وله أسوة ؛ فقد قال رسولنا ﷺ : « وَلَأَحَدُهم كان أشدَّ فرحًا بالبلاءِ من أحدِكم بالعطاء » ... لا يتمنّىٰ البلاء ، فإن نزل به فَرِحَ ... لله دَرُّه ... أما قال ذلك عبد الرحمـٰن بن عوف : « ابْتُلِينَا بالضراء فصبرنا ، وابتُلينا بالسرَّاء فلم نصبر »[2] .

لله دَرُّ امرأةِ فَتْح !! لله دَرُّ فَتْح الموصلي زوجها !! لله دَرُّ أستاذ الشيوخ الكبار إبراهيم بن أدهم !! وما أعطر ذوقه السَّنّي !!

شربنا شرابًا طيِّبًا عندَ طيِّبٍ ... كذاك شرابُ الطَّيِّبينَ يَطِيبُ
شربنا وأَهْرقنا على الأرضِ فَضْلَهُ ... وَللأَرْضِ مِنْ كأسِ الكرامِ نَصِيبُ

يقول الهروي في درجات الصبر : « الدرجة الثالثة : الصبر في البلاء ، بملاحظة حسْن الجزاء ، وانتظار روح الفرج ، وتهوين البليّة بِعَدِّ أَيَادِي المِنَن ، وبذكْر سوالِف النِّعَم » .

قال ابن القيم : « هذه ثلاثة أشياء تبعث المتَلبِّسَ بها علىٰ الصبر في البلاء :

---

(١) الحلية ٨ / ٣٧ .
(٢) انظر كلام ابن القيم في عدّة الصابرين صـ ٢١٠ .

إحداها : « ملاحظةُ حسْن الجزاء » : وعلىٰ حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته ، يخفُّ حمْل البلاء لشهود العِوَض ، وما أقدم أحدٌ علىٰ تحمُّل مشقَّةٍ عاجلة إلَّا لثمرة مؤجَّلة ، فالنفسُ موكّلة بحبِّ العاجل ، وإنّما خاصّة العقل : تَلمُّحُ العواقب ، ومطالعة الغايات . وأجمع عقلاء كلّ أمّة علىٰ أنَّ النعيم لا يُدرك بالنعيم ، وأنَّ مَنْ رافَقَ الراحة فارق الراحة ، وحصل علىٰ المشقة وَقْتَ الراحة ، **فإنَّه على قَدْر التعب تكون الراحة** .

علىٰ قدْر أهلِ العَزْمِ تأتي العَزَائِمُ   وَتأتي علىٰ قَدْرِ الكريمِ الكرائِمُ
ويكبرُ في عَيْنِ الصغيرِ صَغيرُهَا   وتصْغُرُ في عَيْنِ العظيمِ العظائِمُ

والقصد : أنَّ ملاحظة حُسْن العاقبة تُعين علىٰ الصبر فيما تتحمّله باختيارك وغير اختيارك .

والثاني : « انتظار روح الفرج » : يعني راحته ونسيمه وَلَذّته ، فإنَّ انتظاره ومطالعته وترقُّبه يخفِّفُ حمل المشقّة ، ولا سيّما عند قوّة الرجاء ؛ فإنّه يجد في حشْو البلاء مِن روح الفرج ونسيمه وراحته ، ما هو مِن خفيّ الألطاف ، وما هو فرج معجّل ، وبه وبغيره يُفهم معنىٰ اسمه:اللطيف » .

وكــمْ لِلهِ مــنْ لُطْـفٍ خَفِـيّ   يَـدِقُّ خَفَـاهُ عـن فَهْم الذَّكِيّ

والثالث : « تهوين البليّة » بأمريْن :

أحدهما : أنْ يَعِدّ نِعَمَ الله عليه وأياديه عنده ، فإذا عجَز عن عَدِّها ، وأَيِس من حصْرها ، هـان عليه ما هو فيه مِن البلاء ورآه – بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه – كقطرةٍ من بَحْر .

الثاني : تذكُّر سـوالِف النِّعم التي أنعم الله بها عليه ، فهـذا يتعلّق بالماضي . وتعـداد أيادي المنن : يتعلّق بالحال . وملاحظة حسن الجزاء ، وانتظار روح الفرج : يتعلق بالمستقبل ، وأحدهما في الدنيا ، والثاني يوم

الجزاء »[١] .

عن يونس بن يزيد قال : « سألتُ ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن : ما منتهى الصَّبر ؟ قال : أن يكون يومَ تُصيبُه المصيبةُ مثلَه قبل أنْ تُصيبه » .

« وقال قيْس بن الحجاج في قول الله تعالىٰ : ﴿ **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا** ﴾ [المعارج : ٥] ، قال : أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُعرَف مَن هو » .

ملكتُ دموع العين حتىٰ رددتها   إلى ناظري فالعين في القلب تدمعُ

الصَّبْر عنِ المَعْصية :

قيل لوهيب بن الورد : هل يذوق حلاوة الإيمان مَن عصىٰ ؟ قال : لا ، ولا مَنْ همّ .

« قال ميمون بن مهران : الصبرُ صبران : فالصبر علىٰ المصيبة حسن ، وأفضل منه الصبر عن المعصية »[٢] .

وقال ابن القيم : « مَشَقَّة الصبر بحسب قوة الداعي إلى الفعل وسهولته علىٰ العبد ، فإذا اجتمع في الفعل هذانِ الأمرانِ ، كان الصبر عنه أشقّ شيءٍ على الصابر . ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم ، وصبر الشابِّ عن الفاحشة ، وصبر الغني عن تناول اللذات والشهوات - عند الله بمكان . ولذلك استحقّ **المذكورون** في الحديث ، الذين يظلُّهم الله في ظلِّ عَرْشه ، لكمال صبرهم ومشقّته ؛ فإنّ صبر الإمام المتسلّط علىٰ العدل في قسْمه وحكْمه ورضاه وغضبه ، وصبر الشابِّ على عبادة الله ومخالفة هواه ، وصبر الرجل على ملازمة المسجد ، وصبر المتصدِّق علىٰ إخفاء الصَّدقة حتىٰ عن

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) عدة الصابرين صـ ٦٨ .

بعضِهِ ، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعي ومنصبه ، وصبر المتحابين في الله على ذلك في حال اجتماعهما وافتراقهما ، وصبر الباكي مِن خشية الله على كتمانِ ذلك وعدم إظهاره للناس - من أشقِّ الصبر . ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني والملِك الكذّاب والفقير المختال أشدَّ العقوبة ، لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرّمات عليهم ، لضعْف دواعيها في حقِّهم ، فكان تركُهم الصبر عنها مع سهولته عليهم دليلًا علىٰ تمرُّدهم على الله وعُتوّهم عليه . ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر »[1].

الكريمُ بنُ الكريمِ بنِ الكريمِ بن الكريم : يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ ابنِ إبراهيمَ ، عليهم السلام :

قال ابن القيم رحمه الله : « سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : كان صبرُ يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز علىٰ شأنها ، أكملَ من صبره على إلقاء إخوته له في الجُبِّ ..... فصبره عن المعصية صبرُ اختيار ورضًى ومحاربة للنفس ، ولا سيّما مع الأسباب التي تقوىٰ معها دواعي الموافقة :

فإنّه كان شابًّا ، وداعيةُ الشباب إليها قويّة . وعَزَبًا ليس له ما يعوِّضه ريردُّ شهوته . وغريبًا : والغريبُ لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه مَنْ بين أصحابه ومعارفه وأهله . ومملوكًا : والمملوك أيضًا ليس له وازعُه كوازعِ الحرّ . والمرأة جميلة ، وذات منصب ، وهي سيِّدته . وقد غاب الرقيب . وهي الداعية له إلى نفسها ، والحريصة علىٰ ذلك أشدَّ الحرص ، ومع ذلك توعَّدته إنْ لم يفعل : بالسجن والصَّغار . ومع هذه الدواعي

(١) عدّة الصابرين صـ٦٦ - ٦٧ .

كلِّها : صبرَ اختيارًا ، وإيثارًا لِمَا عند الله ، وأين هذا مِن صبره في الجُبِّ علىٰ ما ليس مِن كسْبه ؟! »(١).

يوسف الصِّدِّيق المحْسِن ما وقَع منهُ همٌّ بالمعصية ألبتةَ ، لعُلوِّ قَدْره وهمّته :

قال تعالىٰ : ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

اختيار الشيخ أبي حَيَّان : أنَّ يوسف لم يقع منه همٌّ - بالمعصية - أصلًا . قال الشَّنْقِيطي : « هذا الوجه الذي اختارَهُ أبو حيان وغيره هو أجْرَىٰ الأقوال على قواعد اللغة العربية ؛ لأنَّ الغالِب في القرآن وفي كلام العرب أنَّ الجواب المحذوف يُذكَر قبله ما يدلُّ عليه ، كَقَوْله : ﴿ **فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ** ﴾ [يونس : ٨٤] ، أي : إنْ كنتم مسلمين فتوكَّلوا عليه . فمعنىٰ الآية : وهمَّ بها لولا أنْ رأى بُرهانَ رَبِّه . أي : لولا أنْ رآه ، هَمَّ بها .

ونظيرُ ذٰلك قولُه تعالىٰ : ﴿ **إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا** ... ﴾ الآية [القصص : ١٠] ، أي : لولا أنْ ربطنا على قلبها لَكادتْ تُبدي به » .

إنَّ الذي يستلِفتُ النظرَ كثرةُ تَكْرار الإحسان عند يوسف ، فكان محسنًا مع ربِّه وأيضًا مع الناس :

وقد سمّىٰ الله قصّته ﴿ **أحسنَ القَصَص** ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذٰلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٢] .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٥٦ .

ووصفهُ السُّجَناءُ بذٰلِكَ : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٣٦] .

وبه مكّنه الله تعالىٰ في الأرض ﴿ وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦] .

وقال له إخوتُه وَهُمْ لا يعرفونه : ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٧٨] .

وقال عن نفسه وأخيه : ﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] .

ثم أثنىٰ علىٰ رَبِّه بإحسانه إليه : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .. فيوسف عليه السلام وصفه الله بأنَّه مِنَ المُخلَصين والمخلِصين ، وهؤلاءِ ليس للشيطان عليهم سلطان ألبتة ، ووصفه الله بأنَّه من المحسنين ، والإحسان أنْ تعبد الله كأنّك تراه ، فكيف يهمُّ بالمعصية مَن كان هذا حاله ونَعْته ؟!

فللّهِ ما أعلىٰ همّته وصبرَه .. شهد الله لصبره عن المعصية ، وشهدتِ امرأة العزيز والنِّسوة ، حتىٰ إبليس أقرّ بطهارةِ يوسف ، فهو مِن سادات المخلصين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجمعينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُم الْمُخْلَصِين ﴾ [صۤ : ٨٢ ، ٨٣] ، فأقرّ بأنَّه لا يُمكنه إغواء المخلصين .

يقول الهروي في المنازل : « الصبر عن المعصية بمُطالعة الوعيد : إبقاءً علىٰ الإيمان ، وحَذَرًا من الحرام ، وأحسنُ منها : الصبر عن المعصية حياءً » .

قال ابن القيم : « ذَكَرَ للصبر عن المعصية سببيْن وفائدتيْن :

أمَّا السَّبَبَان : فالخوف من لحُوق الوعيد المترتّب عليها . والثاني : الحياء من الربِّ تبارك وتعالىٰ أن يُستعان على معاصيه بِنِعَمِه ، وأنْ يُبَارَز بالعظائم .

وأمَّا الفائدتان : فالإبقاء على الإيمان ، والحذَر من الحرام .

فأمَّا مطالعة الوعيد ، والخوف منه ، فيبعث عليه قوة الإيمان بالخبر ، والتصديق بمضمونه .

وأمّا الحياء : فيبعث عليه قوة المعرفة ، ومشاهدة معاني الأسماء والصفات . وأحسن من ذلك : أن يكون الباعث عليه وازِع الحُبِّ ، فيترك معصيته محبةً له كحال الصُّهَيْبيين .

ولمّا كان « الحياء » من شِيَم الأشراف ، وأهل الكَرَم والنفوس الزكيّة ، كان صاحبه أحسن حالًا مِن أهل الخوف . ولأنّ في الحياء من الله ما يدلّ علىٰ مراقبته وحضور القلب معه ، ولأنَّ فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف .

فمَن وازعُه الخوف : قلبُه حاضرٌ مع العقوبة ، ومَن وازعه الحياء : قلبُه حاضرٌ مع الله ، والخائف مُراعٍ جانبَ نفسه وحمايتها ، والمستحيي مراعٍ جانبَ ربِّه وملاحِظٌ عظمته ، وَكِلَا المقامَيْنِ : من مقاماتِ أهل الإيمان ، غيرَ أنَّ الحياء أقربُ إلى مقام الإحسان ، وأَلْصَقُ به ، إذْ أنزل نفسه منزلةَ مَن كأنّه يَرَىٰ الله ، فنبعتْ ينابيعُ الحياء من عيْنِ قلبه ، وتفجرت عيونُها » .

راودَت امرأةٌ رجلًا ، فقال لها : إنّ رجلًا يبيعُ جنةً عَرْضُها الأرضُ والسمٰوات بفِتْر ما بَيْنَ رجليْك ، لعديمُ البَصَر بالمساحة .

وراودَ رجلٌ امرأةً عن نفسها ، وقال لها : لا يَرانا إلَّا الكواكبُ . فقالت له : فأين مُكَوْكِبُهَا ؟!

تَقْويةُ باعثِ الدِّين والهمّةِ في الصَّبرِ عن المعصية :

ويكون ذلك بأمور :

أحدها : إجلال الله تبارك وتعالىٰ أنْ يُعصىٰ وهو يَرىٰ ويَسمع ، ومَن قام بقلبه مشهدُ إجلالِهِ ، لم يطاوعْه قلبُه لذلكَ ألبتة .

الثاني : مشهد محبَّته سبحانه ، فيترك معصيته محبةً له ، وأفضل التَّرك ترْك المحبِّين ، كما أنَّ أفضل الطاعة طاعةُ المحبِّين ، فبيْن ترْك المحبِّ وطاعته ، وترْك مَن يخاف العذابَ وطاعته بوْنٌ بعيد .

الثالث : مشهد القهْر والظفر ؛ فإنّ قهْر الشهوة والظفر بالشيطان : له حلاوة ومسرّة وفرحة عند مَن عَلَتْ همّته ، أعظمَ من الظفر بعدوّه من الآدميِّين ، وأحلىٰ موقعًا وأتمَّ فرْحةً .

الرابع : أنْ يُعوّد باعِثُ الدين ودواعيه مصارعةَ داعي الهوىٰ ، ومقاومته علىٰ التدريج قليلًا قليلًا ، حتىٰ يُدْرك لَذَّة الظفر ، فتقوىٰ حينئذٍ همَّتُهُ ؛ فإنَّ مَن ذاق لَذَّة شيءٍ قَوِيتْ همَّتُه في تحصيله ، ومَن ترك المجاهدة بالكُلِّيَّة ضَعُفَ فيه باعثُ الدين وقوي فيه باعث الشهوة ، ومتىٰ عوّد نفسه مخالفة الهوىٰ ، غلبهُ متى أرادَ .

الخامس : أنْ يعلم العبدُ بأنّ فيه جاذبيْن متضادَّيْن ، ومحنتُه بين الجاذبيْن ، فجاذِبٌ يجذبُه إلى الرفيق الأعلىٰ من أهل عِلِّيِّين ، وجاذبٌ يجذبه إلى أسفل سافلين ، فكلّما انقاد مع الجاذب الأعلىٰ ، صَعِدَ درجةً حتىٰ ينتهي إلى حيثُ يَليق به من المَحَلِّ الأعلى ، وكُلّما انقاد إلى الجاذِب الأسفل نزل ... ومتىٰ أراد أنْ يعلم هلْ هو مع الرفيق الأعلىٰ أو الأسفل ، فلْينظرْ أين روحُهُ في

هذا العالم ، قال تعالىٰ : ﴿ **قُلْ كُلٌّ يَعملُ علىٰ شاكِلَتِهِ** ﴾ [الإسراء : ٨٤] ، فالنفوس العُلويّة تنجذبُ بذاتها وهمّها وأعمالها إلى أعلىٰ ، والنفوس السافلة إلى أسفل .

الصبر علىٰ الطاعة وهو الصبر الأعلىٰ :

وأكملُ الناس صبرًا علىٰ الطاعة أولو العزم من الرسل ، ولذا أمر رسوله ﷺ أن يصبر صبرهم ، فقال تعالىٰ : ﴿ **فاصبرْ كَمَا صبرَ أولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسلِ** ﴾ ، [الأحقاف : ٣٥] ، ونهاه أن يتشبّه بصاحب الحوت ، حيث لم يصبر صبْر أولي العزم ، فقال تعالىٰ : ﴿ **فاصبرْ لحكمِ رَبِّك ولا تكنْ كَصَاحِبِ الحوتِ إذْ نَادَىٰ وَهو مَكْظُوم** ﴾ ، [القلم : ٤٨] .

صَبْرُ خليل الرحمٰن :

لقد كان صبر خليل الرحمٰن عليه الصلاة والسلام أوفىٰ صبْر ، وقد صبر علىٰ طاعة الله ، وصابر ورابط ، وفيه قال الله تعالىٰ : ﴿ **وإبراهيمَ الذي وفَّىٰ** ﴾ [النجم : ٣٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وإذ ابتلىٰ إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهُنَّ قال إنِّي جاعِلُك للناسِ إمامًا قال ومِن ذُريَّتي قالَ لا ينالُ عهدي الظَّالمِين** ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

قال ابن عباس : ما قام أحدٌ بدينِ الله كلِّه إلَّا إبراهيم عليه السَّلام ، قدَّم بدنَه للنيران ، وطعامَه للضيفان ، وولدَه للقُرْبان ...

بأبِي وَأُمِّي خليل الرحمٰن ، وَمَن يصبرُ صبرَه ؟! يأمُره اللهُ تبارك وتعالىٰ بجعْل ولدِه وزوجِهِ في مكانٍ قَفْرٍ ويُطيع ، ويأمُره بذبح ولده وهو الشيخُ الطَّاعنُ في السِّن فيُطيع ، وَيُلْقَىٰ في النَّار فيصبر ، وسَلِمَ قلبُه من كلِّ الأغيار ، وأتَى ربَّه بقلبٍ سليمٍ ، ابتلاهُ ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهن ، وكسَّر الأصنامَ غيرةً لربِّه مِنْهُنَّ ، فلمَّا أُجِّجَتِ النارُ ذهبت بلطْف الله حرارتُهنّ ،

وغُرِس شجرُ الجنة في سواء الجحيم ، ﴿ **قلنا يا نارُ كوني بَرْدًا وسلامًا علىٰ إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

صبر نوحٍ عليه السلام :

مرَّ بنا في علوّ الهمة في الدعوة إلى الله صبرُ نوح النَّبيل الكريم في الدعـوة . وهي من أعلىٰ الطاعات ، ألف سنة إلَّا خمسـين عامًا .. يُوقِفُ أنفاسه علىٰ الدعوة إلى الله ... في أطْول صبر عرفه تاريخ البشرية ... وأكْرَم صـبر .

صبر إسماعيل عليه السلام :

قال تعالىٰ : ﴿ **فلمَّا بلغ معه السَّعْيَ قال يا بُنيَّ إنِّي أرىٰ في المنام أنِّي أذبحك فانظرْ ماذا ترىٰ قال يا أبتِ افعلْ ما تُؤْمَر ستجدُني إنْ شاء اللهُ من الصَّابرين فلمَّا أسلمَا وتلَّه للجبين وناديْناه أن يا إبراهيمُ قدْ صدَّقتَ الرؤيا إنَّا كذٰلِكَ نجزي المحسنين** ﴾ [الصافات : ١٠٢ - ١١١] .

حادث فريد عظيم ، تعجزُ الكلماتُ أن تصوّر روْعته ، وصبرٌ بل ورضًا ونُبْل طاعةٍ ، وروعة إيمان وعظمة تسليم ، وراء كلّ ما يتعارف عليه بنو الإنسان ... رضًا هادئ وصبر جميل مُستبشر ، متذوّقٌ للطاعة وطعْمها العذْب ، يبقىٰ منارةً ...

فللَّهِ درُّ إبراهيم الخليل في عزمه وخُلَّته لربِّه ! ولله صبْر إسماعيل ... قَبِلَ الله منه هذا الصبر وفدّاه ، وأكرمه كما أكرم أباه !

قال شيخ الإسلام الأنصاري : « الصبر علىٰ الطاعة ؛ بالمحافظة عليها دوامًا ، وبرعايتها إخلاصًا،وبتحسينها علمًا » .

قال ابن القيم : « إنَّ الطاعة تتخلف من فوات واحدٍ من هذه الثلاثة ،

فإنَّ العبد إنْ لم يحافظ عليها دوامًا عطَّلها ، وإنْ حافظ عليها دوامًا عَرَض لها آفتان :

إحداهما : تَرْك الإخلاص فيها ، فحفْظها مِن هذه الآفة برعاية الإخلاص .

الثانية : ألَّا تكون مطابقة للعلم ، بحيث لا تكون على اتباع السنَّة ، فحفظها من هذه الآفة بتجريد المتابعة .

سيِّد المؤذِّنين ، المشهود له بالجنة على التعْيين ، بلالُ بن رباح :

« عن زرّ ، عن عبد الله قال : أول مَن أظهر إسلامه سبعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمُّه سُميَّة ، وبلال ، وصهيب ، والمقداد ، فأمَّا النبي ﷺ وأبو بكر : فمنعهما الله بقوْمهما ، وأمّا سائرهم : فأخذهم المشركون ، فألبسوهم أدراع الحديد ، وصهروهم في الشمس ، فما منهم أحدٌ إلا وأتاهم على ما أرادوا إلا بلال ؛ فإنّه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه ، فأعطوه الولدان ، فجعلوا يطوفون به في شِعاب مكة ، وهو يقول : أحدٌ أحد »[1] .

لقد نالتْ سِيَاطُ الكفر دَوْمًا بمكـةَ مِـن ظهـور الصالحينـا
فَمَهْـلًا يا طغـاةَ الشِّـرْكِ مَهْـلًا فطعـمُ السَّـوْطِ أحلى ما لقينـا
ومـا عِبْنَـا عليه سـوى جـراحٍ تُصيبُ الجسمَ دون الرُّوحِ فينا

وهذا عمار يُعَذَّب حتى لا يدري ما يقول ، وخبّاب ما ينطفئ وَهَجُ الحديدَ المحمي الذي يضعونه عليه إلَّا بما يسيل من وَدَك ظهره ، وخُبيب بن عَدِيّ يردّد حداءَه الجميل :

ولستُ أُبالي حين أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلٰـه وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

---

(١) السير ١ / ٣٤٧ - ٣٤٨ ، وإسناده حسن .

فأين أنت يا مخنَّث العزم والطريق طويل ، تعب فيه آدم،وناح فيه نوح ، وأُلقي في النَّار إبراهيم ، واضطجع للذبح إسماعيل ، وَشُقَّ بالمنشار زكريا ، وَذُبِحَ السيدُ الحصور يحيىٰ ، عاش مع الوحوش عيسىٰ ، قاسىٰ الضُّرَّ أيُّوبُ ، زاد على المقدار في البكاء داود ، اتُّهم بالسحر والجنون نبيُّ الله الكريم ؛ كُسِرَت رباعيَّته وشُجَّ رأسه ووجهه ، ولله جنود السمٰوات والأَرض ، قُتل ذو النورين وعليّ ، وَطُعن عمر ، وقُتل الحسين ، وسعيد ابن جبير ، وعُذِّب ابن المسيب ومالك ، فرفعهما الله بعد محنتهما ؟!

الإمام الكبير الشهيد أحمد بن نصرٍ الخُزاعّي :

« كان رحمه الله أمَّارًا بالمعروف ، قوّالًا بالحقّ .

حُمل إلى سامرّاء مقيَّدًا ، وجلس الواثق له ، وقال لأحمد : دَعْ ما أُخذت له ، ما تقول في القرآن ، قال : كلامُ الله . قال : أفمخلوق هو ؟ قال : كلامُ الله . قال : فترىٰ ربَّك في القيامة ؟ قال : كذا جاءتِ الرواية . قال: ويْحَك! يُرىٰ كما يُرَىٰ المحدود المُتجسِّم، ويحويه مكانٌ ويحاصره ناظر ؟! أنا كفرتُ بِمَنْ هذه صفته ، ما تقولون فيه ؟ فقال قاضي الجانب الغربيّ : هو حلالُ الدَّم . ووافقه فقهاء ، فأظهر أحمد بن أبي دؤاد أنّه كارهٌ لقتْله ، وقال : شيخٌ مُختلٌّ ، تغيّر عقْله ، يُؤَخَّر . قال الواثق : ما أُراه إلا مُؤَدِّيًا لكفره قائمًا بما يعتقده ، ودعا بالصَّمصامة ، وقام . وقال : أحتسب خطاي إلى هذا الكافر . فضَرب عنقه بعد أنْ مدُّوا رأسَه بحبلٍ وهو مقيّد ، ونُصب رأسُه بالجانب الشرقيّ .

كان جعفر بن محمد الصائغ يقول : رأيتُ أحمد بن نصر حين قُتل ، قال رأسُه : لا إلٰه إلَّا الله .

قال المروذي : سمعتُ أحمد بن حنبل ذكر أحمد بن نصر ، فقال :

رحمه الله ، لقد جادَ بنفسه .

ونُقل عن الموكَّل بالرأس ، أنه سمعه في الليل يقرأ : ﴿ يسٓ ﴾ ، وصح أنهم أقعدوا رجلًا بقصبة ، فكانت الريح تُدير الرأسَ إلى القبلة ، فيديره الرجل .

« قال السراج : سمعتُ خلف بن سالم يقول بعد ما قُتل ابن نصر ، وقيل له : ألَا تسمع ما الناس فيه،يقولون : إنّ رأس أحمد بن نصر يقرأ ؟! فقال : كان رأس يحيىٰ يقرأ » .

بقي الرأسُ منصوبًا ببغداد ، والبدن مصلوبًا بسامرَّاء ستَ سنين ، إلى أنْ أُنْزِلَ ، وجُمع في سنة سبع وثلاثين ، فَدُفِنَ رحمةُ الله عليه »[1].

إمامُ أهلِ السُّنَّةِ يُعطي المجهودَ مِن نفسهِ في المِحْنَة :

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قال لي أبي : يا بُنَيَّ ، لقد أعطيتُ المجهود من نفسي .

وقال أبو غالب ابن بنت معاوية : ضُرِبَ أحمد بن حنبل بِالسِّيَاط في الله ، فقامَ مَقَامَ الصِّدِّيقين ، في العشر الأواخر مِن رمضان سنة عشرين ومائتين .

عن أنسٍ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتي على الناس زمان ؛ الصابرُ فيهم على دينه كالقابِض على الجمر »[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١ / ١٦٧ - ١٦٩ .

(٢) صحيح ، رواه الترمذي وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٨٧٩) ، والصحيحة (رقم ٩٥٥) .

مِن ورائكم زمان صبر ، للمتمسِّك فيه أجرُ خمسين شهيدًا منكم »[١] .

وقال الشافعي : أسَدُّ الأعمال ثلاثة : الجُود من قِلّة ، والوَرَع في خُلْوة ، وكلمة الحقِّ عند مَن يُرجىٰ ويُخَاف .

أُخِذَ أحمد بن حنبل في محنة خلْق القرآن أيّام المأمون ، ليُحمَل إلى المأمون ببلاد الروم ، وأُخذ معه أيضًا محمد بن نوحٍ مقيَّدَيْن ، ومات المأمون قبل أن يلقاه أحمد ، فَرُدَّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح في أقيادهما ، فمات محمد بن نوح في الطريق ، وَرُدَّ أحمد إلى بغداد مقيَّدًا .

ودخل على الإمام أحمد بعضُ حُفاظ أهلِ الحديث بالرقة وهو محبوس ، فجعلوا يُذاكرونه ما يروىٰ في التقيَّة من الأحاديث ، فقال أحمد : وكيف تصعنون بحديث خبّاب : « إنَّ مَن كان قبلكم كان يُنشر أحدهم بالمنشار ، ثم لا يصدُّه ذلك عن دينه » ؟! فيئسوا منه .

قال أحمد : لستُ أبالي بالحبس ؛ ما هو ومنزلي إلا واحد ، ولا قتلًا بالسيف ، إنّما أخاف فتنة السَّوْط ، وأخاف أنْ لا أصبر . فسمعَه بعضُ أهل الحبس وهو يقول ذلك ، فقال : لا عليك يا أبا عبد الله ، فما هو إلَّا سوطان ، ثم لا تدري أين يقع الباقي ، فكأنَّه سُرِّي عنه .

قال الإمام أحمد : كنتُ أُصَلّي بأهل السجن وأنا مقيَّد .

ولما مات المأمون ، رُدّ أحمد إلى بغداد فسُجن ، إلى أن امتحنه المعتصم .

« قال أبو بكر المروزي : لمّا سُجن أحمد بن حنبل ، جاء السَّجَّان ،

---

(١) صحيح ، رواه الطبراني في المعجم الكبير ، وصححه الألباني في الصحيحة (رقم ٤٩٤) وصحيح الجامع رقم (٢٢٣٠) .

فقال له : يا أبا عبد الله ، الحديث الذي رُوي في الظَّلَمَة وأعوانهم ، صحيح ؟ قال : نعم . قال السّجّان : فأنا من أعوان الظَّلَمَة ؟ قال أحمد : فأعوان الظلمة مَنْ يأخذ شَعْرَك ، ويغسل ثوبك ، ويُصلح طعامك ، ويَبيع ويشتري منك ، فأمّا أنت فَمِنْ أنفسِهم »[1] .

لله دَرُّ ابن حنبل ، وضعُوا في رجْله أربعةَ قيود ، وهو إمام أهل السنة !!

ولمّا أمر المعتصم بحمْل أحمد إليه - وكان قد سجنوه في رمضان سنة تسع عشرة ، في دار إسحاق بن إبراهيم - دخل عليه إسحاق ، فقال : يا أحمد ، إنها والله نفسك ، إنه لا يقتلك بالسيف ، إنه قد آلىٰ إنْ لم تجبْه أنْ يضربَك ضربًا بعد ضربٍ ، وأنْ يُلقيَك في موضع لا ترىٰ فيه الشمس ، وجيء إلى أحمد بدابّة ، فَحُمِلَ عليها وعليه الأقياد ، وكاد غيرَ مرَّة أنْ يخرّ على وجهه ؛ لِثِقَل القيود ، فجيءَ به إلى دار المعتصم ، وأدخلوه في حجرة ، وأدخلوه إلى بيت ، وأقفل الباب عليه ، وذلك في جوْف الليل ، وليس في البيت سِراج ، فلمّا كان الغَدُ ، أخرجوه إلى الخليفة ليناظره أحمد بن أبي دؤاد ، والمعتصم يقول : واللهِ لَئِنْ أجابني لأُطلقن عنه بيدي ، وَلَأَركبنّ إليه بجندي ، وَلَأَطأن عقبَهُ . ثم قال : يا أحمد ، واللهِ إني عليك لشفيقٌ ، وإني لأُشفق عليك كشفقتي على هارونَ ابني ، ما تقول ؟ فأقول : أعطوني شيئًا مِن كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله . ومرةً أُخرىٰ يقول المعتصم لأحمد : ما كنت تعرف صالحًا الرشيدي ؟ قال أحمد : قد سمعتُ باسمه . قال : كان مُؤَدِّبي ، وكان في ذلك الموضع جالسًا - وأشار إلى ناحية من الدار - فسألْتُه عن القرآن ، فخالفني ، فأمرتُ

(١) مناقب الإمام أحمد صـ ٣٩٧ .

به فَوُطِئَ وَسُحِبَ . وبعد ثلاثة أيام من المناظرة والإمام أحمد يُفحم المبتدعة ، قال المعتصم : العقابين والسياط . فجيء بهم .

قال إبراهيم البوشنجي : ذكروا أنَّ المعتصم رقَّ في أمر أحمد ، لمَّا عُلِّقَ في العقابين ، ورأىٰ ثبوته وتصميمه ، وصلابته في أمره ، حتىٰ أغراه ابن أبي دؤاد ، وقال له : إنْ تركتَه قيل : إنّك تركتَ مذهب المأمون ، وسخِطتَ قولَه . فهاجه ذلك على ضرْبه .

« قال صالح : قال أبي : لمّا جيء بالسياط ، نظر إليها المعتصم ، فقال : ائْتوني بغيرها . فأُتي بغيرها ، ثم قال للجلَّادين : تقدّموا . فجعل يتقدّم إليَّ الرجلُ فيضربني سَوْطَيْن ، فيقول له - يعني المعتصم - : شُدَّ ، قطع اللهُ يدك ! ثم يتنحَّى ، ثم يتقدَّم الآخر فيضربني سَوْطَيْن ، وهو في كلِّ ذلك يقول لهم : شدُّوا ، قطع اللهُ أيديكم ، فلمّا ضُرِبتُ تسعة عشر سوطًا ، قام إليَّ - يعني : المعتصم - فقال : يا أحمد ، علامَ تقتل نفسَك ؟! إني والله عليك شفيق . قال : فجعل عُجيف ينخسني بقائم سيفه ، وقال : أتريد أنْ تغلب هؤلاء كلَّهم ؟ وجعل بعضهم يقول : ويلك ! الخليفةُ على رأسك قائم . وجعل عبد الرحمٰن يقول : ويْحك يا أحمد ! مَن صنع مِن أصحابك في هذا الأمر ما تصنع ؟! قال : وجعل المعتصم يقول : ويحك يا أحمد ! أجبني إلى شيء لك فيه أدنىٰ فَرَج ، حتى أُطلق عنك بيدي . قال : فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل ، أو سنة رسوله حتى أقول به . قال : فرجع فجلس ، فقال للجلّادين:تقدَّموا . فجعل الجلّاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحّىٰ ، وهو في خلال ذلك يقول : شُدَّ ، قطع اللهُ يدك . قال أبي : فذهب عقلي ، فأفقتُ بعد ذلك ، فإذا الأقياد قد أُطلقتْ عني ، فقال لي رجل ممّن حضر : إننا كَبَبْنَاك على وجهك ، وطرحنا على ظهرك باريَّة ، ودُسناك . قال أبي : فما شعرتُ

بذلك ، وأتوْني بسُويقٍ فقالوا لي : اشربْ وتقيّأْ . فقلت : لستُ أُفطر . ثم جِيءِ بي إلى دار إسحاقَ بن إبراهيم ، فحضرتْ صلاة الظهر ، فتقدم ابن سماعة فصلّى ، فلمّا انفتل من الصلاة ، قال لي : صلَّيْتَ والدمُ يسيل في ثوبك ؟! فقلتُ : قد صلّى عمر وجُرْحه يثغب دمًا »[1]. ثم خُلّي عنه فصار إلى منزله ، فمكث في السجن منذ أُخذ وحمل ، إلى أنْ ضرب وخُلّي عنه : ثمانيةً وعشرين شهرًا . قال بعض الجلّادين الذين ضربوا الإمام أحمد : لقد بطل أحمدُ الشُّطّار ، واللهِ لقد ضربتُه ضربًا ، لو أُبرِكَ لي بعيرٌ فضربتُه ذلك الضرب ، لنقبتُ عن جوْفه .

وقال شاباص التائب : لقد ضربتُ أحمد بن حنبل ثمانين سوْطًا ، لو ضربتُه فيلًا لهدَّتْه .

يرحم الله إمام أهل السنة ، لله دَرُّه ودرّ أُمٍّ أنجبتْه ، لقد كاد أن يكون إمامًا وهو في بطنها !!.

قال محمد بن إبراهيم بن مصعب - وهو على الشُّرَط للمعتصم ، خليفة إسحاق بن إبراهيم - : ما رأيتُ أحدًا لم يداخل السلطان ولا خالَط الملوك ، أثبتَ قلبًا من أحمد يومئذٍ ، ما نحن في عينه إلّا كأمثال الذُّباب .

لمّا أُخرج رحمه الله إلى المعتصم يومَ ضُرب ، قال له العوْن الموكّل به : ادعُ علىٰ ظالِمك . فقال : ليس بصابرٍ مَن دعا على ظالم .

قال ابن الجوزي : هذا رجل هانت عليه نفسه في الله تعالى فبذلها ، كما هانت على بلالٍ نفسه . وقد روينا عن سعيد بن المسيب أنَّه كانت نفسه عليه في الله تعالى ، أهونَ مِن نفس ذباب ، وإنما تهون عليهم أنفسُهم

---

(١) مناقب الإمام أحمد صـ ٤٠٥ - ٤٠٧ .

لِتَلمُّحهم العواقب ، فعيونُ البصائر ناظرةٌ إلى المآل لا إلى الحال ، وشدّة ابتلاء أحمد دليل على قوّة دينه ؛ لأنّه قد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال : « يبتلٰى الرجلُ على حسب دينه » . فسبحان مَن أيّده وبصّره ، وقوّاه ونصره !!

« قال ابن الجوزي : وما زال الناس يُبْتَلَوْن في الله تعالٰى ويصبرون ، وقد كانت الأنبياء تُقتل ، وأهل الخير في الأمم السابقة يُقتلون ويحرّقون ، ويُنشر أحدهم بالمنشار ، وهو ثابت على دينه . وقد سُمّ نبيُّنا ﷺ ، وسُمَّ أبو بكر ، وقتل عمر وعثمان وعلي ، وسمّ الحسن ، وقتل الحسين بن علي ، وابن الزبير ، والضحّاك بن قيس ، والنعمان بن بشير ، وصُلب خُبيب ابن عَدِيّ .

وقَتل الحجاجُ عبدَ الرحمٰن بن أبي ليلٰى ، وعبدَ الله بن غالب الحداني ، وسعيدَ بن جُبيْر ، وأبا البختري الطائي ، وكميلَ بن زياد ، وحطيطًا الزيّات ، وماهانَ الحنفي؛صلبَهُ ، وصلبَ قبله ابنَ الزبير .

وقتلَ الواثقُ أحمد بن نصرْ الخزاعي وصلبه .

فأمّا مَن ضُرب من كبار العلماء :

فعبد الرحمٰن بن أبي ليلٰى : ضربَه الحجَّاج أربعمائة سَوْط ، ثم قتله .

وخُبيبُ بن عبد الله بن الزبير : ضربَه عمر بن عبد العزيز بأمْر الوليد مائة سوط ، فكان عمر إذا قيل له : أبشرْ . قال : كيف بخُبيبٍ على الطريق ؟!

وأبو الزناد : ضربه بنو أُمية .

وأبو عمرو بن العلاء : ضربه بنو أمية خمسمائة سوط .

وربيعة الرأي : ضربه بنو أمية .

وعطية العوفي : ضربه الحجَّاجُ أربعمائة سَوْط .

ويزيد الضبِّي : ضربه الحجّاجُ أربعمائة سوط .

وثابت البناني : ضربه ابن الجارود خليفة ابن زياد .

وعبد الله بن عوْن : ضربه بلال بن أبي بردة سبعين سوطًا .

ومالك بن أنس : ضربه المنصور سبعين سوطًا في يمينِ المُكْرَه ، وكان مالك يقول : لا تلزمُه اليمين .

وأبو السّوار العدوي ، وعقبة بن عبد الغافر : ضُرِبَا بالسياط .

وَلِأحمدَ بن حنبل في هؤلاء الأئمة أسوةٌ »[1].

« دخل الحارث بن مسكين على الإمام أحمد ، فقال له : أخبرَني يوسف بن عمر بن يزيد ، عن مالك بن أنس : أن الزهريّ سُعي به حتى ضُرِبَ بالسياط ، فقيل لمالك بعد ذلك : إنّ الزهريّ قد أُقيم للناس وَعُلِّقَتْ كتبُه في عنقه . فقال مالك : قد ضُرِب سعيد بن المسيب بالسياط ، وَحُلِقَ رأسُه ولحيتُه ، وَضُرب أبو الزناد بالسياط ، وَضُرِبَ محمد بن المنكدر وأصحابٌ له في حمّامٍ بالسياط . قال : وقال عمر بن عبد العزيز : لا تغبِطوا أحدًا لم يصبْه في هذا الأمر أذًى . فأُعجبَ أحمد بقوْل الحارث »[2] .

قيل للشافعي : يُبتلىٰ الرجلُ خيرٌ له أم يُمَكَّن ؟ قال : لا يُمَكَّنُ حتىٰ يُبتلىٰ .

ضربُوا ابنَ حنبل بالسياطِ بظُلْمهم ... بغْيًا فثُبِّتَ بالثباتِ الأنْورِ
قال المُوَفَّقُ حينَ مُدِّد بينهمْ ... مدّ الأديم معَ الصعيدِ القرْقرِ
إني أموتُ ولا أبوءُ بِفَجْرَةٍ ... تصلىٰ بوائقُها محلَّ المفتري

لله دَرُّه !!

---

(١) مناقب الإمام أحمد صـ ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٢) مناقب الإمام أحمد صـ ٤٢١ - ٤٢٢ .

هانتْ عليه نفسُهُ في دِينهِ ... فَفَدَىٰ الإمامُ الدينَ بالجُثْمَانِ
للهِ مَا لَقِيَ ابنُ حنبلَ صابرًا ... عزمًا وينصرُهُ بلا أعوانِ

قال بشر الحافي رحمه الله : إنّ ابنَ حنبل طار بحظّها وغنائها في الإسلام .

قال إسحاق بن راهَوَيْه : لولا أحمد بن حنبل وبذلُ نفسِهِ لِمَا بذلها له ؛ لذهَبَ الإسلام .

« وعن أبي هيْثم العابد قال : كنتُ عند بشْر بن الحارث ، فجاءه رجلٌ فقال : قد ضُرب أحمد بن حنبل إلى السّاعة سبعةَ عشرَ سوطًا ، قال : فمدَّ بشرٌ رجله ، وجعل ينظر إلى ساقيْه ويقول : ما أقبحَ هذا الساقَ أنْ لا يكون القيدُ فيه نصْرة لهذا الرجل » .

وقالوا لبشر : ألَا صنعتَ كما صنع ابن حنبل . فقال : تريدون مني مرتبةَ النبوة ، لا يقوىٰ بدني على هذا ، حَفِظَ الله أحمد ؛ مِن بين يديْه ومن خلفه ، ومن فوقه ومن تحته ، وعن يمينه وعن شماله .

« وقال بشرٌ : أُدخلَ أحمدُ الكِيرَ ، فخرج ذهبًا أحمرَ . قال علي ابن خشرم : فبلغ ذلك أحمد ، فقال : الحمد لله الذي رَضَّىٰ بشْرًا بما صنعنا »[1] .

وما أروع ما كتب مصطفى صادق الرافعي ، بقلمه النيّر - لله دَرُّه - : « كنتُ لا أزال أَعجب من صبْر شيخنا أحمد بن حنبل ، وقد ضُرب بين يدي المعتصم بالسياط حتى غُشي عليه ، فلم يتحوَّل عن رأيه ، فعلمتُ الآنَ أنّه لم يجعل في نفسه للضرب معنىٰ الضرب ، ولا عرف

(١) مناقب الإمام صـ ١٥٧ .

للصبر معنىٰ الصبر الآدمي ، ولو هو صبَر على هذا صَبْرَ الإنسانِ لَجَزِعَ وتحوّل ، ولو ضُرب ضرْب الإنسان لتألَّم وتغيّر ، ولكنه وضع في نفسه معنىٰ ثبات السنة وبقاء الدين ، وأنّه هو الأمّة كلُّها لا أحمد بن حنبل ، فلو تحـوّل لتحـوّل الناس ، ولو ابتدع لابتدعوا ، فكان صبره صبر أمَّة كاملة ، لا صبر فرْد ، وكان يُضرب بالسياط ونفسُه فوق معنىٰ الضرب ، فلو قرضوه بالمقاريض ونشروه بالمناشير ، لَمَا نالوا منه شيئًا ؛ إذْ لم يكن جسمُه إلَّا ثوبًا عليه ، وكان الرجل هو الفكْر ليس غيْر .

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل ، ولكنهم يرونها أمانات قد ائتُمِنوا عليها من الله ، لتبقىٰ بهم معانيها في هذه الدنيا ، فهم يُزْرعون في الأمم زرعًا بيد الله ، ولا يملك الزرع غير طبيعته ، وما كان المعتصم - وهو يريد شيخنا علىٰ غير رأيه وعقيدته - إلَّا كالأحمق ، يقول لشجرة التفاح : أثمري غير التفاح »[١،٢] .

أسلم أبو جندل بن سُهيل ، فقيّده أبوه ، لمّا نزل رسول الله ﷺ الحديبية ، خرج أبو جندل يرسُفُ في قيوده ، فدخل في الصحابة ، فقال سُهيل : وهذا أول مَـنْ أُقاضيك عليه . فاستغاث أبو جندل : يا معشـرَ المسلمين ، أُرَدّ إلى المشركين فيفتنوني عن ديني . فقال الرسول : « لا بدّ من الوفاء » . فرُدَّ إليهم ، فقدِم يسعىٰ نحوهم ، وقلبه يجهز جيوش الحِيَل في الخلاص .

أنذرَتْـني أمُّ سعـدٍ أنَّ سعـدًا ... دونهـا يَنْهَـد لي بالشـرِّ نَهْـدَا
وعلىٰ ما صفحـوا أوْ نَقمُـوا ... ما أرىٰ لي منك يا ظبينُ بُدَّا

---

(١) مجلة الأسرة العدد ٢٣ صفر ١٤١٦ هـ صـ ٤٣ .
(٢) تحت الطبع رسالة لي عن « الصبر والرضا » .

لمّا أسلم مصعب بن عمير حبسه أهلُه ، فأُفلتَ إلى الحبشة ، ثم قدِم مكة فدخل على رسول الله ﷺ ، فأرسلتْ إليه أمُّه : يا علق ، أتدخل بلدًا أنا فيه ولا تبدأ بي ؟! فقال : ما كنتُ لِأَبدأً بأحدٍ قبل رسول الله ﷺ . فأرادتْ حبسه ، فقال : واللهِ لئنْ حبستني ، لأحرِّضنَّ على قتْل مَن يتعرّضُ لي . فتركتْه .

وعاذِلينَ لحُوبي في مودَّتكمْ يا ليْتَهُمْ وجدُوا مثلَ الذي أَجِدُ
لمَّا أطالوا عِتابي فيك قلتُ لهمْ لا تُفرطوا بعض هذا اللَّوْمِ واقتصدُوا

جمع حبس التعذيب بين بلالٍ وعمَّار ، مصادَرين على بذل الدين ، فزوَّروا نطْق عمّار ، على خطّ قلبه ، فلم يعرفوا التزوير ، وأصرّ بلال على دعوىٰ الإفلاس ، فسلّموه إلى صبيانهم في حديده ، يَصهرونه في حرّ مكة ، ويضعون على صدْره - وقتَ الرمضاء - صخرة ، ولسان محبته يقول :

بعينيْك ما يلقىٰ الفؤادُ وما لقي وللشّوْق ما لم يبقَ مني وما بقي

واعجبًا ! يُلام ذو حِسٍّ على عشْق يوسف ؟! قدِم الطُّفَيْل بن عمرو الدوْسيّ مكة ، فقالت قريشٌ : لا تَدْنُ من محمد ؛ فإنّا نخاف أنْ يفتنك . فسدَّ أُذنيْه بقطنتيْن ، ثم تفكّر وقال : والله ما يخفىٰ عليَّ الحسَنُ من القبيح . فانطلَقَ فسمع من رسول الله ﷺ ، فأسلم .

وما كنتُ ممَّن يدخلُ العشقُ قلبَهُ ولكنّ مَنْ يُبصر جفونَكَ يعشَقُ

قطعتْ قريشٌ لحْمَ خُبيب ، ثم حملوه إلى الجذْع لِيُصلب ، فقالوا : أتحبُّ أنّ محمدًا مكانَك ؟ فقال : واللهِ ما أحب أنِّي في أهلي وولدي ، وأنَّ محمدًا شِيكَ بشوْكة . ثم نادىٰ : وامحمَّداه .

إنَّ في الأَسْرِ لَصَبًّا ومعهُ في الخدّ صَبُّ
هـو بالـروم مُقِـيمٌ ولهُ بالشَّـامِ قَلْـبُ

لمّا توعَّد فرعون السحرة بالصَّلْب ، أنساهم أملُ لقاءِ الحبيب مرارةَ الوعيد ، ﴿ **إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ** ﴾ يا فرعون ، غايةُ ما تفعل أنْ تحرق الجسم ، والرَّكْبُ قد سَرىٰ ، ﴿ **لَا ضَيْرَ** ﴾ .

فرعونُ عَقلُكَ لمْ يزلْ مَخْدُوعَا ... وزمانُ حكْمِكَ لمْ يزلْ مَقْطُوعَا
ما زلت يا فرعونُ غرًّا تابعًا ... وتظنُّ نفسَك قائدًا متبوعَا
فرعونُ أنتَ الرمزُ سُمُّكَ لم يزلْ ... يَجري بأفئدةِ الطُّغاة نَقيعَا
خضِّبْ يمينَكَ بالدماءِ وقلْ لنا ... إنّي أنفِّذُ أمرِيَ المشروعا
اسرقْ غذاءَ الجائعينَ وقلْ لنا ... إنّي أحاربُ في البلادِ الْجوعا
قطِّعْ رؤوسَ المصلحينَ فإنَّهُمْ ... يبغونَ منكَ إلىٰ الإلٰهِ رُجوعَا
واملأْ سجونَكَ ثمَّ قلْ إنّي هُنا ... لأُحاربَ الإرهابَ والتَّطْبيعا
طَارِدْ بجندِكَ كلَّ صاحبِ مبدإٍ ... يأبىٰ لقانونِ الضَّلالِ خُضوعَا
واركضْ وراءَ شبابِ مصرَ لأَنَّهُمْ ... رفعُوا الجباهَ وحاربوا التطبيعَا
همْ يصعَدون إلى السماءِ وأنتَ في ... أوْحالِ وَهْمِكَ ما تزالُ وَضِيعَا
همْ يَلجئون إلى الإلٰهِ وأنتَ لَا ... يُرضيكَ إلَّا أنْ تسوقَ قطيعَا
هـمْ ينظـرونَ بأعْـينٍ مجلُوّةٍ ... فـيرَوْنَ فَلَّكَ في العبادِ شَنِيعَا
عَرَفُوا حقيقةَ سحْرِ مَنْ جمَّعْتَهُمْ ... ورأَوْا عصَا موسىٰ تُخيفُ جموعَا
ورأَوْا جِباهَ الساحرينَ تعفَّرتْ ... سجدُوا لربِّ العالمينَ خُشوعَا
ورأَوْكَ تَستبقي النساءَ رهائنًا ... وتُديرُ قتْلًا في الرجالِ فظيعَا
نظرُوا إليكَ فأنكروكَ لأَنَّهمْ ... عرفوكَ في طُرُقِ الخداعِ ضَليعَا
لكَ كلَّ يوم قَوْلَةٌ تلْغي بِهَا ... ما قلتَ أمسِ وتُحسنُ الترقيعا
ما مصرُ يا فرعونُ إلَّا حُرَّةٌ ... تأْبىٰ إلى غيرِ العفافِ نُزوعَا
لكنَّها سُلِبتْ عباءَةَ طُهْرِهَا ... وخلعْتَ أنتَ حجابَها لِتَضيعَا
وأكلْتَ أصنافَ الطعامِ ومصرُ في ... ضَنْكٍ شديدٍ لا تنالُ ضريعَا

عجبًا متى تَبني لنفسك منزلًا ... في الحقِّ تملأُ مُقْلَتَيْكَ دمُوعَا
أتظنُّ هامانَ الذي استنجَدْتَهُ ... ما زالَ يُوقدُ للولاءِ شُمُوعَا
أتظنُّهُ ما زالَ يَبني صَرْحَهُ ... حتّى تُطيق إلى السماءِ طُلوعَا
أنسِيتَ قارونَ الذي زرعَ الهوىٰ ... في قلبِهِ حتى استطالَ فُروعَا
ضيفتْ بِهِ الأَرضُ التي أبدىٰ لهَا ... خُيَلاءَهُ وغدا بها مخْدُوعَا
ضاعتْ مفاتيحُ الخزائنِ واختفىٰ ... قارونُ لم يَرَ في العبادِ شَفِيعَا
سلْ عنهُ أرضَكَ حينَ لمْ تتركْ لَهُ ... أثـرًا ولا للصوتِ منهُ سَميعَا
أنسيتَ يا فرعونُ أنَّكَ غارِقٌ ... في اليَمِّ تعصِرُ قلبَكَ المَفْجوعَا
أنسيتَ رَهْوَ البحرِ حينَ وَلِجْتَهُ ... فرأيتَ نفسَكَ في الخِضَمِّ صَريعَا
شَرِّقْ وَغَرِّبْ كيفَ شئتَ فإنَّنا ... لا نجهلُ التطبيلَ والتلْمِيعَا
أبشِرْ فإنَّ الفجرَ سوفَ يُريق من ... كأسِ الظلام شرابَك المنقُوعَا
ولَسوفَ تفتحُ مصرُ صفحةَ عِزِّهَا ... وَلَسوفَ يغدو رأسُها مَرفوعَا
فرعونُ لا يخدعْكَ وَهْمُكَ إنّني ... أبصرتُ طِفلًا في حِمَاكَ رضيعَا(١)

ومن علوّ الهمّة: المصابرةُ والمرابطةُ ، قال تعالىٰ : ﴿ **يَٰأَيُّهَا الذينَ آمنُوا اصبرُوا وصابرُوا ورابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لعلَّكُمْ تُفلِحون** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، فالصبرُ مع نفسك ، والمصابرةُ بينك وبين عدوّك ، والمرابطةُ الثباتُ وإعداد العُدّة . وكما أنّ « الرِّباطَ » لزومُ الثَّغْرِ لئلّا يهجم منه العدو ، فكذلك الرباط أيضًا لزومُ ثغْر القلب ، لئلّا يهجم عليه الشيطان ، فيمْلِكه أو يُخربه أو يُشعثه .

---

(١) « رسالة إلى فرعون » : قصيدة لعبد الرحمٰن العشماوي – الرياض ٢٩ / ٩ / ١٤١٣ هـ .

صبرُ الكِرَام لا صبْر اللِّئام :

« قال بعض العقلاء : « مَن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم » .
أمّا اللئيم فإنَّهُ يصبر اضطرارًا ؛ فإنّه يحوم حوْل ساحة الجَزَع ، فلا يراها تُجدي عليه شيئًا ، فيصبر صبرَ الموثق للضرب ، وأيضًا فالكريم يصبر في طاعة الرحمٰن ، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان ، فاللئام أصبرُ الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم ، وأقلّ الناس صبرًا في طاعة ربِّهم ، فيصبر على البذْل في طاعة الشيطان أتمَّ صبرٍ ، ولا يصبر على البذل في طاعة الله في يُسْر شيءٍ ، ويصبر على تحمُّل المشاق لِهَوىٰ نفسه في مرضاة عدوّه ، ولا يصبر على أدنىٰ المشاقّ في مرضاة ربّه ، ويصبر على ما يُقال في عِرْضه في المعصية ، ولا يصبر على ما يُقال في عرضه إذا أُوذيَ في الله ، بل يفرُّ مِن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خشيةَ أن يُتكلَّمَ في عرضه في ذات الله ، ويبذلُ عرضَه في هوىٰ نفسه ومرضاته صابرًا على ما يُقال فيه ، وكذلك يصبر على التبذُّل بنفسه وجاهه في هوىٰ نفسه ومُراده ، ولا يصبر على التبذُّل لله في مرضاته وطاعته ، فهو أصبر شيءٍ على التبذُّل في طاعة الشيطان ومُراد النفس ، وأعجزُ شيءٍ عن الصبر على ذلك في الله ، وهذا أعظمُ اللُّؤْم ، ولا يكون صاحبه كريمًا عند الله ، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودي بهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، ليعلم أهلُ الجَمْع مَنْ أوْلىٰ بالكرم اليوم ، أينَ المتّقون ؟ »[1] .



(١) عدّة الصابرين صـ ٤٩ .

الفصْلُ السَّادس

عُلُـوُّ الهِمَّـةِ في التَّوَكُّـل

« لَوْ أَنَّكُمْ توكَّلتُمْ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ توكُّلِهِ ،
لَرَزَقَكُمْ كَمَا يرزقُ الطير ، تغدو خِمَاصًا ،
وترُوح بِطانًا »   [حديثٌ صحيحٌ]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ فِي التوكُّل □

اعلمْ يا أخي أنّ التوكُّل هو من أجلّ السُّبُل عند الخاصّة وأعظمها قدرًا ، وقد أمرَ اللهُ رسوله بذلك ، وحضَّه عليه هو والمؤمنين ، فقال تعالىٰ لرسوله : ﴿ **قُلْ هو الرحمٰنُ آمنَّا بِهِ وعليهِ توكَّلْنا فستعلمُونَ مَن هُو في ضلالٍ مُبينٍ** ﴾ [الملك : ٢٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **فتوكَّلْ علىٰ اللهِ إنَّكَ على الحقِّ المبين** ﴾ [النمل : ٧٩] ، وقال له : ﴿ **وتوكَّلْ علىٰ اللهِ وكفىٰ باللهِ وكيلًا** ﴾ [النساء : ٨١] ، وقال له : ﴿ **وتوكَّلْ علىٰ الحيِّ الذي لا يموتُ وسبِّحْ بحمدِه** ﴾ [الفرقان : ٥٨] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **فَإذَا عزمْتَ فتوكَّلْ علىٰ اللهِ إنَّ اللهِ يحبُّ المتوكِّلين** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وقال عن أنبيائه ورسله : ﴿ **وما لنا ألَّا نتوكَّلَ علىٰ اللهِ وقدْ هدانا سُبُلَنا وَلَنصْبِرَنَّ علىٰ ما آذيْتُمونا وعلىٰ اللهِ فلْيتوكَّلِ المتوكِّلُون** ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

وقال تعالىٰ عن أصحاب نبيِّه : ﴿ **الذينَ قالَ لَهُمُ الناسُ إنَّ الناسَ قدْ جمعُوا لكمْ فاخْشَوْهُمْ فزادهُمْ إيمانًا وقالُوا حسبُنا اللهُ ونعْمَ الوكيل** ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

وقال تعالىٰ عن أوليائه : ﴿ **ربَّنا عليكَ توكَّلْنا وإلَيْكَ أَنبْنَا وإليكَ المصيرُ** ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقال تعالىٰ للمؤمنين : ﴿ **وعلىٰ اللهِ فتوكَّلُوا إنْ كُنتمْ مؤمنين** ﴾ [المائدة : ٢٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وعلىٰ الله فلْيتوكَّلِ المؤمنون** ﴾ [إبراهيم : ١١] .

ولم يخاطب الله بالتوكُّل في كتابه إلَّا خواصَّ خلقه ، وأقربهم إليه ، وأكرمهم عليه ، وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكّلين ، والمعلَّقُ علىٰ الشرط

يعدم عند عدمه ، وهذا يدلُّ على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكُّل ، فمَن لا توكُّلَ له لا إيمانَ له .

وقال تعالىٰ : ﴿ **إنما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ وَإِذَا تُليتْ عليهِمْ آياتُهُ زادتْهم إيمانًا وعلىٰ ربِّهم يتوكَّلون** ﴾ [الأنفال : ٢] . وهذا يدلُّ علىٰ انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة .

وأخبر تعالىٰ عن رسله بأنّ التوكُّل مَلْجَؤُهُم ومعاذُهم ، وأمَرَ به رسولَه في أربعةِ مواضعَ من كتابه ، وقال : ﴿ **وقال موسىٰ يا قوم إنْ كنتمْ آمنتمْ باللهِ فعليهِ توكَّلوا إنْ كنتمْ مؤمنينَ * فقالُوا علىٰ اللهِ توكَّلْنا ربَّنا لا تجعلْنا فتنةً للقومِ الظالمينَ** ﴾ [يونس : ٨٤ - ٨٥] .

والتوكل مِن أصعبِ منازل العامّة عليهم ، لأنَّ العامّة لم يَخرجوا عن نفوسهم ومألوفاتهم ، ولم يشاهدوا الحقيقة التي شهدها الخاصّة ، وهي التي تشهد التوكيل ، فهم في رِقِّ الأسباب ، فيصعب عليهم الخروج عنها ، وخُلُوُّ القلب منها ، والاشتغال بملاحظة المسبِّب وحده .

واللهُ تبارك وتعالىٰ يُوكّل العبد ويُقيمه في حفْظ ما وَكَّله فيه ، والعبدُ يوكل الربَّ ويعتمد عليه .

فأما وكالة الربِّ عبدَه : ففي قوله تعالىٰ : ﴿ **فإنْ يَكْفُرْ بها هؤلاءِ فقدْ وكَّلْنا بِها قومًا ليسُوا بها بكافرين** ﴾ [الأنعام : ٨٩] . قال قتادة : وكّلنا بها الأنبياءَ الثمانيةَ عشرَ الذين ذكرناهم . يعني : قبل هـذه الآية . وقال أبو رجاء العطاردي : معناه : إنْ يكفر بها أهل الأرض ، فقد وكّلنا بها أهل السماء ، وهم الملائكة . وقال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار أهل المدينة .

والصواب : أنّ المراد مَن قام بها إيمانًا ودعوةً وجهادًا ونُصرةً ، فهؤلاء

هم الذين وكّلهم الله بها .

فإن قلتَ : فهل يصحُّ أنْ يقال : إنَّ أحدًا وكيل الله ؟

قلتُ : لا ؛ فإنّ الوكيل مَن يتصرف عن موكِّله بطريق النيابة ، والله عز وجل لا نائبَ له ، ولا يَخلُفه أحد ، بل هو الذي يُخلِفُ عبدَه ، كما قال النبي ﷺ : « اللهمّ أنت الصاحبُ في السفر ، والخليفةُ في الأهل » . علىٰ أنّه لا يمتنع أنْ يُطلق ذلك باعتبارِ أنّه مأمورٌ بحفظ ما وكّله فيه ، ورعايته والقيام به .

وأما توكيل العبدِ ربَّه : فهو تفويضُه إليه ، وعزْل نفسه عن التصرف ، وإثباته لأهله ووليّه . ولهذا قيل في التوكل : إنه عزْل النفس عن الربوبية ، وقيامها بالعبودية . وهذا معنى كوْن الربِّ وكيلَ عبده ، أي : كافيه ، والقائم بأموره ومصالحه ؛ لأنَّه نائبُه في التصرف . فوكالة الربِّ عبدَه أمرٌ وتعبُّدٌ وإحسان له ، وخُلعة منه عليه ، لا عن حاجة منه ، وافتقارٍ إليه كموالاته .

وأما توكيل العبدِ ربَّه : فتسليمٌ لربوبيته ، وقيامٌ بعبوديته .

معنىٰ التوكُّل :

قال الإمام أحمد : التوكُّل عمل القلب . ومعنىٰ ذلك : أنه عمل قلبي ، ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس : مَن يجعله من باب المعارف والعلوم ، فيقول : هو علم القلب بكفاية الربّ للعبد .

ومنهم : من يفسّره بالسكون ، وخمود حركة القلب . فيقول : التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب ، كانطراح الميت بين يدي الغاسل ، يُقلبه كيف يشاء . وهو ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجاري الأقدار .

قال سهل : التوكل:الاسترسال مع الله مع ما يريد .

ومنهم : من يفسّره بالرضا ، فيقول : هو الرضا بالمقدور .

قال بشر الحافي : يقول أحدهم : توكلتُ على الله . يكذب على الله ، لو توكَّل على الله ، رضي بما يفعل الله .

وسُئل يحيٰى بن معاذ : متىٰ يكون الرجل متوكّلًا ؟ فقال : إذا رضي بالله وكيلًا .

ومنهم : من يفسره بالثقة بالله ، والطمأنينة إليه ، والسكون إليه .

قال ابن عطاء : التوكل:أن لا يظهر فيك انزعاجٌ إلى الأسباب ، مع شِدّة فاقَتِك إليها ، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحقّ مع وقوفك عليها .

قال ذو النون : هو ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة ، وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أنَّ الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه .

وقال بعضهم : التوكل : التعلّق بالله في كلّ حال .

وقيل : التوكل:أنْ ترِد عليك موارد الفاقات ، فلا تسمو إلَّا إلى مَن إليه الكفايات .

وقيل : نفي الشكوك ، والتفويض إلى مالك الملوك .

وقال ذو النون : خلْع الأرباب ، وقطع الأسباب . يريد قطْعها من تعلُّق القلب بها ، لا من مُلابَسة الجوارح لها .

ومنهم : من جعله مُرَكَّبًا من أمريْن أو أمور .

فقال أبو سعيد الخراز : التوكّل : اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب . يريد : حركة ذاته في الأسباب بالظاهر والباطن ، وسكون

إلى المسبِّب ، وركون إليه ، ولا يضطرب قلبه معه ، ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلى رضاه .

وقال أبو تراب النَّخْشَبي : هو طرْح البدن في العبودية ، وتعلُّق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ؛ فإن أُعْطِيَ شكر ، وإن مُنع صبر .

فجعلَه مركّبًا من خمسة أمور : القيام بحركات العبودية ، وتعلُّق القلب بتدبير الرب ، وسكونه إلى قضائه وقدَره ، وطمأنينته وكفايته له ، وشكْره إذا أُعطي ، وصبره إذا مُنع .

وأجمع القوم على أنَّ التوكل لا ينافي القيام بالأسباب . فلا يصحُّ التوكل إلا مع القيام بها،وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد .

قال سهل بن عبد الله : مَن طَعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان .

فالتوكل حالُ النبي ﷺ ، والكسْب سنَّته ، فمن عمل علىٰ حاله فلا يتركنّ سنتَه ، وهذا معنى قوْل أبي سعيد : « هو اضطرابٌ بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب » . وقول سهلٍ أبين وأرفع .

وقيل : التوكل:قطْع علائق القلب بغير الله .

وسئل سهل عن التوكل ، فقال : قلب عاش مع الله بلا عَلاقة .

وقيل : التوكل:هجْر العلائق ، ومواصلة الحقائق .

وقيل: التوكل: أنْ يستوي عندك الإكثار والإقلال . وهذا مِن موجباته وآثاره ؛ لأنه حقيقته .

ومنهم : من جعل التوكل بداية ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية .

قال أبو علي الدقَّاق : التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ،

ثم التفويض . فالمتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضىٰ بحكمه . فالتوكل بداية ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية . فالتوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحّدين . التوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواصّ ، والتفويض صفةُ خاصّة الخاصّة . التوكل صفة الأنبياء ، والتسليم صفة إبراهيم الخليل ، والتفويض صفة نبيّنا محمد ﷺ وعليهم أجمعين .

هذا كلّه كلام الدقّاق ، ومعنىٰ هذا التوكل : اعتماد علىٰ الوكيل ، وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوْعٍ اقتراحٍ عليه ، وإرادةٍ وشائبةِ منازَعَةٍ ، فإذا سلّم إليه زال عنه ذلك ، ورضي بما يفعله وكيله ، وحال المفوّض فوق هذا ، فإنّه طالب مريد ممّن فوّض إليه ، ملتمسٌ منه أن يتولّى أموره ، فهو رضًا واختيار ، وتسليمٌ واعتماد . فالتوكل يندرج في التسليم ، وهو والتسليم يندرجان في التفويض ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وكلٌّ أشار إلى واحد أو اثنين أو أكثر مِن حال؛ رُكِّب التوكّلُ من مجموعها .

التوكُّل علىٰ اللهِ حقَّ التَّوكُّل :

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنّكم توكّلتم علىٰ الله عزّ وجل حقَّ توكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُم كما يرزق الطير ، تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا »[(١، ٢)].

---

(١) خماصًا : أي ضامرة البطون من الجوع . وبطانًا : أي ممتلئة البطون .

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والطيالسي في مسنده ، والترمذي ، والنسائي في الكبرىٰ ، وأبو نعيم في الحلية ، والبغوي في شرح السنة ، وأخرجه أحمد في المسند ، والفسوي في المعرفة ، وابن حبان ، والحاكم ، وصححه ، ووافقه =

عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكَّلت ، وإليك أنَبْتُ ، وبك خاصمتُ ، أعوذ بعزَّتك ، لا إلـٰه إلَّا أنت ، الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون »[1].

قال شيخ الإسلام ابن القيم : « إن التَّوكُّل حالٌ مركَّبة من مجموع أمورٍ ، لا تتمّ حقيقة التوكل إلَّا بها .

فأوَّل ذٰلك معرفةٌ بالرَّبِّ وصفاته : من قدرته ، وكفايته ، وقيُّومِيَّتِهِ ، وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته . وهذه المعرفة أول درجةٍ يضع بها العبد قدمه في مقام التوكُّل . قال شيخنا رضي الله عنه : ولذلك لا يصحُّ التوكل ولا يُتصوَّر من فيلسوف ، ولا من القَدَرِيّة النُّفاة ، القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء . ولا يستقيم أيضًا من الجَهْمِيّة النّفاة لصفات الرب جل جلاله . ولا يستقيم التوكُّل إلا من أهل الإثبات .

فأيّ توكُّلٍ لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيّات العالم سُفليّه وعلويّه ، ولا هو فاعل باختياره ، ولا له إرادة ومشيئة ، ولا يقوم به صفة ؟! فكلُّ مَنْ كان بالله وصفاته أعْلَمَ وَأَعْرَفَ ، كان توكُّلُهُ أصحَّ وأقوىٰ . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

والتوكل من أعَمِّ المقامات تعلُّقًا بالأسماء الحسنىٰ ؛ فإن له تعلُّقًا خاصًّا بعامَّة أسماء الأفعال ، وأسماء الصفات . فله تعلُّق باسم الغفّار ، والتّوّاب ،

= الذهبي ، والبيهقي في الشعب ، وأخرجه أحمد وابن ماجه ، وأبو نعيم في أخبار أصفهان ، وصححه المناوي في التيسير ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٢٥٤) والصحيحة (رقم ٣١٠) .

(١) أخرجه أحمد ، ومسلم بلفظ : « ... لا إلـٰه إلا أنت أن تُضلني ، أنت الحيّ ... » . وأخرجه البخاري مختصرًا . التوكل على الله عز وجل ، ابن أبي الدنيا ، صـ ٣٦ .

والعَفُوّ ، والرَّءوف ، والرَّحيم . وتعلُّق باسم الفتّاح ، والوهّاب ، والرّزّاق ، والمعطي ، والمُحِسن . وتعلُّق باسم المُعِزّ ، المُذِلّ ، الحافظ ، الرّافع ، المانع ، من جهة توكُّله عليه في إذلال أعداء دينه ، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر . وتعلُّق بأسماء القدرة ، والإرادة . وله تعلُّق عامّ بجميع الأسماء الحسنى . ولهذا فسَّره مَنْ فسَّره من الأئمة بأنه المعرفة بالله . وإنما أراد أنه بحَسَبِ معرفة العبد ، يصحُّ له مقام التّوكُّل . وكلما كان بالله أَعْرَفَ ، كان توكُّلُه عليه أقوىٰ .

الدرجة الثانية : إثبات في الأسباب والمسببات : فإن مَنْ نفاها فتوكُّلُه مدخول . وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي : أن إثبات الأسباب يَقْدَح في التَّوكُّل ، وأن نَفْيها تمام التّوكُّل . فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكُّل ألبتّة ؛ لأن التّوكُّل من أقوىٰ الأسباب في حصول المتوكَّل فيه ، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببًا في حصول المدعو به . فإذا اعتقد العبد أن توكُّله لم ينصبه اللهُ سببًا ، ولا جَعَلَ دعاءه سببًا لنيلِ شيءٍ ، فإن المتوكَّل فيه المدعو بحصوله : إن كان قد قُدِّر ؛ حَصَلَ ، توكَّلَ أو لم يتوكَّلْ ، دعا أو لم يَدْعُ . وإن لم يُقَدَّرْ ؛ لم يحصُلْ ، توكَّلَ أيضًا أو تَرَكَ التّوكُّلَ . وصرَّح هؤلاء : أن التوكل والدعاء عبوديّة محضة ، لا فائدة لهما إلا ذلك . ولو تَرَكَ العبد التّوكُّلَ والدعاء ، ما فاتَهُ شيء مما قُدِّر له . وَمِنْ غُلاتهم مَنْ يجعل الدعاء بعَدَم المؤاخذة على الخطإ والنسيان ، عديمَ الفائدة ، إذ هو مضمون الحصول . ورأيتُ بعض متعمِّقي هؤلاء – في كتابٍ له – لا يُجوِّز الدعاء بهذا ، وإنما يجوِّزه تلاوةً لا دعاءً . قال : لأن الدعاء به يتضمَّن الشَّكَّ في وقوعه ؛ لأن الداعي بين الخوف والرجاء ، والشّكّ في وقوع ذلك : شكٌّ في خبر الله . فانظر إلى ما قاد إنكار الأسباب من العظائم ، وتحريم الدعاء بما أثنىٰ الله علىٰ عباده وأوليائه بالدعاء به وبطلبه ،

ولم يزل المسلمون - من عهد نبيهم ﷺ وإلى الآن - يدعون به في مقامات الدعاء ، وهو من أفضل الدعوات . وجواب هذا الوهم الباطل ، أن يقال : بقي قسمٌ ثالث غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه ، وهو الواقع ؛ وهو أن يكون قُضي بحصول الشيء عند حصول سَبَبِهِ من التَّوكُّل والدعاء ، فنصب الدعاء والتَّوكُّل سَبَبَيْن لحصول المطلوب ، وقضىٰ الله بحصوله إذا فَعَلَ العبدُ سببه ، فإذا لم يأتِ بالسبب ، امتنع المسبَّب . وهذا كما قضي بحصول الولد إذا جامع الرجل مَنْ يُحبلها ، فإذا لم يُجامع لم يُخلق الولد . وقضي بحصول الشِّبَع إذا أكل ، والرِّيّ إذا شرب ، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يُروَ . وقضي بحصول الحجّ والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق . فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة . وقضي بدخول الجنة إذا أسلم وأتىٰ بالأعمال الصالحة ، فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات ، لم يدخلها أبدًا . وقضي بإنضاج الطعام بإيقاد النار تحته . وقضي بطلوع الحبوب التي تزرع بشقّ الأرض ، وإلقاء البذر فيها ، فما لم يأتِ بذلك لم يحصل إلا الخيبة .

فوزان ما قاله منكرو الأسباب : أن يترُك كلٌّ مِن هؤلاء السببَ الموصِّلَ ، ويقول : إن كان قُضي لي وسبق في الأزل حصول الولد والشِّبَع والرِّيّ والحجّ ونحوها ، فلا بد أن يصل إليَّ ، تحرَّكتُ أو سكنتُ ، وتزوَّجت أو تركت ، سافرت أو قعدت . وإن لم يكن قد قُضي لي ، لم يحصُل لي أيضًا ، فعلتُ أو تركت . فهل يعُدُّ أحَدٌ هذا من جملة العقلاء ؟! وهل البهائم إلَّا أفْقَه منه ؟! فإن البهيمة تسعىٰ في السبب بالهداية العامة .

فالتَّوكُّل من أعظم الأسباب التي يحصُل بها المطلوب ، ويندفع بها المكروه . فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التّوكُّل . ولكنْ مِن تمام التّوكُّل : عدم الرُّكُون إلى الأسباب ، وقطْع علاقة القلب بها ، فيكون حال

قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بَدَنِهِ قيامه بها . فالأسباب محلّ حكمة الله وأمره ودينه ، والتَّوكُّل متعلِّق بربوبيته وقضائه وقدره . فلا تقوم عبودية الأسباب إلَّا على ساقِ التّوكّل ، ولا يقوم ساق التّوكّل إلَّا علىٰ قَدَم العبودية . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

الدرجة الثالثة : رسوخ القلب في مقام توحيد التَّوكُّل : فإنه لا يستقيم توكُّل العبد حتى يصحّ له توحيده . بل حقيقة التّوكُّل : توحيد القلب . فما دامت فيه علائق الشرك ، فتوكُّلُه معلولٌ مدخولٌ ، وعلى قدْر تجريد التوحيد ، تكون صحَّة التّوكّل ، فإن العبد متىٰ التفتَ إلى غير الله ، أخَذَ ذلك الالتفاتُ شُعبةً من شُعَب قلبه ، فنقص من توكُّله على الله بقدْر ذَهاب تلك الشُّعبة ، ومن هاهنا ظنَّ مَنْ ظنّ ، أن التَّوكُّل لا يصحُّ إلا برفض الأسباب ، وهذا حقٌّ . لكنَّ رَفْضها عن القلب لا عن الجوارح ، فالتوكل لا يتمّ إلا برفض الأسباب عن القلب ، وتعلُّق الجوارح بها ، فيكون منقطعًا منها متَّصِلًا بها . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله ، واستناده إليه ، وسكونه إليه : بحيث لا يبقىٰ فيه اضطراب من تشويش الأسباب ، ولا سكونٌ إليها . بل يخلع السكونَ إليها من قلبه ، ويُلبسه السكونَ إلى مسبِّبها . وعلامة هذا : أنه لا يُبالي بإقبالها وإدبارها ، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها ، وإقبال ما يكره ؛ لأن اعتماده علىٰ الله ، وسكونه إليه ، واستناده إليه ، قد حصَّنه من خوفها ورجائها ، فحاله حالُ مَنْ خرج عليه عدوٌّ عظيم لا طاقة له به ، فرأى حِصنًا مفتوحًا ، فأدخله ربُّه إليه ، وأغلق عليه باب الحصن . فهو يشاهد عدوَّه خارج الحِصن ، فاضطرابُ قلبِه وخوفُه من عدوّه في هذه الحال ، لا معنىٰ له . وكذٰلك من أعطاه ملكٌ درهمًا ، فسُرق منه ، فقال له الملك : عندي أضعافه فلا تهتمَّ ، متىٰ جئتَ إلَيَّ أعطيتُك من

خزائني أضعافه . فإذا علم صحة قوْل الملك ، وَوَثِقَ به واطمأنَّ إليه ، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك - لم يُحزِنه فَوْتُهُ . وقد مثَّل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه ، وطُمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره ، وليس في قلبه التفاتٌ إلى غيره ، كما قال بعض العارفين : المتوكِّل كالطفل ، لا يعرف شيئًا يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكِّل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه .

الدرجة الخامسة : حُسن الظن بالله عز وجل : فعلىٰ قدر حسن ظنِّك بربك ورجائك له ، يكون توكُّلُك عليه ، ولذلك فَسَّر بعضهم التوكل بحُسن الظن بالله . والتحقيق : أن حُسن الظَّنّ به يدعوه إلى التوكُّل عليه . إذ لا يتصوَّر التّوكُّل على من ساء ظنُّك به ، ولا التّوكُّل علىٰ من لا ترجوه . والله أعلم .

الدرجة السادسة : استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلِّها إليه ، وقطع منازعاته : وبهذا فسَّره من قال : أن يكون العبد بين يدي الله ، كالميِّت بين يدي الغاسِل ، يُقلِّبه كيف أراد ، لا يكون له حركة ولا تدبير . وهذا معنىٰ قول بعضهم : التَّوكُّل إسقاط التدبير . يعني الاستسلام لتدبير الرب لك ، وهذا في غير باب الأمر والنهي ، بل فيما يفعله بك ، لا فيما أمرك بفعله . فالاستسلام كتسليم العبدِ الذليل نَفْسَهُ لسيِّده ، وانقياده له ، وتَرْك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ولله دَرُّ القائل :

لا تُدبِّـرْ لك أمْــرا ... فَأُولُو التَّدْبيرِ هَلْكَىٰ
سَلِّمِ الأَمْـرَ تَجِدْنَـا ... نحـنُ أَوْلَىٰ بِكَ مِنْكَـا

الدرجة السابعة : التفويض : وهو رُوح التَّوكُّل ولُبُّهُ وحقيقته . وهو إلقاء أمورِهِ كلِّها إلى الله ، وإنزالها به طَلَبًا واختيارًا ، لا كُرْهًا واضطرارًا ،

بل كتفويضِ الابن العاجز الضعيف المغلوب علىٰ أمره ، كلَّ أموره إلى أبيه ، العالم بشفقته عليه ورحمته ، وتمام كفايته ، وحُسن ولايته له ، وتدبيره له ، فهو يرىٰ أن تدبير أبيه له ، خيرٌ من تدبيره لنفسه ، وقيامه بمصالحه وتولِّيه لها ، خيرٌ من قيامه هو بمصالح نفسه وتولّيه لها ، فلا يجد له أصْلَح ولا أرْفَق من تفويضه أموره كلّها إلى أبيه ، وراحته من حَمْل كُلَفِها وثقل حِمْلها ، مع عجزه عنها ، وجهله بوجوه المصالح فيها ، وعلمه بكمال علْم من فوّض إليه ، وقدرته وشفقته . فإذا وضع قَدَمه في هذه الدرجة ، انتقل منها إلى :

درجة الرضا : وهي الدرجة الثامنة : وهي ثمرة التَّوكُّل . ومن فسَّر التّوكُّل بها ، فإنما فسّره بأجَلِّ ثمراته وأعظم فوائده ، فإنه إذا توكَّل حقَّ التّوكُّل ، رضي بما يفعله وكيلُه . وكان شيخنا - رضي الله عنه - يقول : المقدور يكتنفه أمران : التّوكُّل قَبْلَه والرضا بعده ، فمن توكَّل علىٰ الله قَبْل الفعل ، ورضي بالمقضي له بعد الفعل ، فقد قام بالعبودية . أو معنىٰ هذا . قلت : وهذا معنىٰ قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة : « اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأسْتَقْدِرُكَ بقُدْرتك ، وأسألك من فضلك العظيم » . فهذا توكُّل وتفويض . ثم قال : « فإنك تعلم ولا أعلم ، وتقدر ولا أقدر ، وأنت علَّام الغيوب » . فهذا تبرُّؤ إلى الله من العلْم والحوْل والقُوَّة ، وتوسُّلٌ إليه - سبحانه - بصفاته التي هي أحبُّ ما توسّل إليه بها المتوسِّلون . ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحتُه عاجلًا أو آجِلًا ، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مَضَرَّتُه عاجلًا أو آجلًا ، فهذا هو حاجته التي سألها . فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له ، فقال : « وَٱقْدرْ لِي الخَيْرَ حيثُ كَانَ ، ثم رَضِّنِي به » . فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلـٰهية ، والحقائق الإيمانية ، التي من جملتها : التَّوكُّلُ والتفويض قَبْلَ وقوعِ المقدور . والرضا

بعده ، وهو ثمرة التّوكُّل . والتفويض علامةُ صحّتِهِ . فإن لم يَرْضَ بما قُضِيَ له ، فتفويضه معلولٌ فاسد .

فباستكمال هذه الدرجات الثمان ، يستكمل العبد مقام التَّوكُّل ، وتثبُت قدمُه فيه . وهذا معنىٰ قول بشرٍ الحافي : يقول أحدهم : توكَّلتُ على الله . يكذبُ علىٰ الله ؛ لو توكَّلَ على الله لرضي بما يفعله الله به . وقول يحيىٰ بن معاذ وقد سُئل : متى يكون الرجل متوكِّلًا ؟ فقال : إذا رضي بالله وكيلًا »[1].

اشتباه المحمود الكامل من التَّوكُّل بالمذموم الناقص :

يقول شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية : « وكثيرًا ما يشتبه في هذا الباب : المحمودُ الكامل بالمذموم الناقص . فيشتبه التفويض بالإضاعة ، فيضيِّع العبد حظَّه ، ظنًّا منه أن ذلك تفويضٌ وتوكُّل . وإنما هو تضييعٌ لا تفويض ؛ فالتضييع في حقِّ الله ، والتفويض في حقِّك .

ومنه : اشتباه التوكل بالراحة ، وإلقاء حمل الكَلِّ . فيظنُّ صاحبه أنه متوكِّل ، وإنما هو عاملٌ علىٰ عدم الراحة . وعلامة ذلك : أن المتوكِّل مجتهدٌ في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد ، مستريحٌ مِنْ غيرها لتعبه بها . والعامل على الراحة آخِذٌ من الأمر مقدارَ ما تندفع به الضرورة ، وتسقُط به عنه مُطالَبَة الشرع . فهذا لون ، وهذا لون .

ومنه : اشتباه خَلْع الأسباب بتعطيلها . فخلعُها توحيد ، وتعطيلُها إلحاد وزندقة . فخلْعُهَا عَدَم اعتماد القلب عليها ، ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها . وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١١٧ - ١٢٣ .

ومنه : اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز . والفَرْق بينهما : أن الواثق بالله قد فَعَلَ ما أمره الله به ، ووثق بالله في طلوع ثمرته ، وتنميتها وتزكيتها ، كغارس الشجرة ، وباذر الأرض . والمغترُّ العاجز : قد فرط فيما أمر به ، وزعم أنه واثق بالله . والثقة إنما تصحُّ بعد بذْل المجهود .

ومنه : اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه ، بالطمأنينة إلى المعلوم ، وسكون القلب إليه . ولا يميِّز بينهما إلَّا صاحب البصيرة ، كما يُذكر عن أبي سليمان الداراني : أنه رأى رجلًا بمكة لا يتناول شيئًا إلا شَرْبَةً من ماء زمزم ، فمضىٰ عليه أيام ، فقال له أبو سليمان يومًا : أرأيت لو غارت زمزم ، أيّ شيءٍ كنت تشرب ؟ فقام وقبَّل رأسه ، وقال : جزاك الله خيرًا ، حيث أرشدْتني ، فإني كنت أعبد زمزم منذ أيامٍ . ثم تركه ومضىٰ .

وأكثَر المتوكِّلين سكونُهم وطُمأْنينتُهُم إلى المعلوم ، وهم يظنون أنه إلى الله . وعلامة ذلك : أنه متى انقطع معلومُ أحَدِهم ، حَضَرَه هَمُّه وَبَثُّه وخوفه ، فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن إلى الله .

ومنه : اشتباه الرضا عن الله بكل ما يفعل بعبده - مما يحبه ويكرهه - بالعزْم على ذلك ، وحديث النفْس به . وذلك شيءٌ ، والحقيقة شيءٌ آخر ، كما يُحكىٰ عن أبي سليمان أنه قال : أرجو أن أكون أُعطِيت طرفًا من الرضا ، لو أدخلني النار لكنت بذلك راضيًا . فسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : هذا عزمٌ منه علىٰ الرضا وحديثُ نفسٍ به . ولو أدْخَلَهُ النار ، لم يكن من ذلك شيءٌ . وَفَرْقٌ بين العزم علىٰ الشيء وبين حقيقته .

ومنه : اشتباه عِلْم التَّوكُّل بحال التّوكّل . فكثيرٌ من الناس يعرف التّوكُّل وحقيقته وتفاصيله ، فيظنّ أنه متوكِّل ، وليس من أهل التوكل . فحال التّوكّل : أمرٌ آخر مِنْ وراء العلم به . وهذا كمعرفة المحبة والعلم

بها وأسبابها ودواعيها . وحال المحبّ العاشق وراء ذلك . وكمعرفة علم الخوف ، وحال الخائف وراء ذلك . وهو شبيهٌ بمعرفة المريض ماهيَّة الصحة وحقيقتها ، وحالُهُ بخلافها .

فهذا الباب يكثر اشتباهُ الدَّعاوى فيه بالحقائق ، والعوارِض بالمطالب ، والآفات القاطِعة بالأسباب الموصلة . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم »[١] .

توكُّل العاجِز القاصِر الهمَّة المغبون في توكُّله :

يقول شيخ الإسلام ابن القيم : « كثيرٌ من المتوكِّلين يكون مغبونًا في توكُّله ، وقد توكَّلَ حقيقةَ التّوكّلِ وهو مغبون ؛ كمن صَرَفَ توكُّلَه إلى حاجةٍ جزئيّة استفرغَ فيها قوةَ توكُّله ، ويمكنه نيلُها بأيسر شيءٍ ، وتفريغُ قلبه للتّوكّل في زيادة الإيمان والعلم ، ونصرة الدين ، والتأثير في العالم خيرًا . فهذا توكُّل العاجز القاصر الهمَّة ، كما يصرف بعضهم همَّتَهُ وتوكُّلَه ودعاءَهُ إلى وَجَع يمكن مداواته بأدنى شيء ، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيفٍ أو نصفِ درهم ، أو نصرٍ على عدوّ أو زوجة أو ولد ، ونحو ذلك ، ويَدَع صرْفه إلى نُصرة الدين ، وقمْع المبتدعين ، وزيادة الإيمان ، ومصالح المسلمين . والله أعلم .

ودون هؤلاء من يتوكَّل عليه في حُصُول الإثم والفواحش ، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبًا إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه ، بل قد يكون توكُّلهم أقوى من توكّل كثيرٍ من أصحاب الطاعات ؛ ولهذا يُلقون أنفسهم في المتالف والمهالك ، معتمدين على الله أن يسلِّمهم ، ويظفرهم بمطالبهم » .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٢٣ - ١٢٥ .

فالتَّوكُّل أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معمورة بالنَّازِلين ، لسعة متعلَّق التّوكّل ، وكثرة حوائج العالمين ، وعموم التّوكّل ، ووقوعه من المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار ، والطير والوحش والبهائم . فأهل السمٰوات والأرض - المكلَّفون وغيرهم - في مقام التَّوكُّل ، وإن تبايَنَ متعلّق توكُّلهم .

درجات التَّوكُّل :

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » شارحًا كلام شيخ الإسلام الأنصاري : « قال : « وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : التَّوكُّل مع الطَّلَب ، ومعاطاة السبب على نِيَّة شغل النفس بالسبب مخافة ، ونفْع الخلْق ، وتَرْك الدَّعوى » .

يقول : إن صاحب هذه الدرجة يتوكل على الله ، ولا يترك الأسباب ، بل يتعطاها على نيَّة شغل النَّفْس بالسبب ، مخافةَ أن تفرغ فتشتغل بالهوىٰ والحظوظ . فإن لم يشغل نفسه بما ينفعها شغلتْه بما يضرُّه ، لا سيما إذا كان الفراغ مع حدَّة الشباب ، وملْك الجِدَة ، وميْل النفس إلى الهوىٰ ، وتوالي الغفلات ، كما قيل :

إن الشبابَ والفراغَ والجِدَهْ مَفْسَـدَةٌ للمـرء أيّي مفسـدهْ

ويكون أيضًا قيامه بالسبب على نيَّة نفْع النفس ، ونفع الناس بذلك ، فيحصل له نفع نفسه ونفع غيره .

وأمَّا تضمُّن ذلك لترك الدعوىٰ : فإنه إذا اشتغل بالسبب تخلَّصَ من إشارة الخلْق إليه ، الموجِبة لحُسن ظنّه بنفسه ، الموجِب لدعواه . فالسبب ستْرٌ لحاله ومقامه ، وحجابٌ مُسْبَل عليه .

ومن وجهٍ آخر ، وهو أن يَشْهَد به فقره وذُلَّه ، وامتهانه امتهانَ العبيد

والفَعَلَة . فيتخلَّص من رعونةِ دعوىٰ النفس ، فإنه إذا امتهن نفسه بمعاطاة الأسباب ، سَلِمَ من هذه الأمراض .

فيقال : إذا كانت الأسباب مأمورًا بها ، ففيها فائدةٌ أجلُّ من هذه الثلاث ، وهي المقصودة بالقصد الأول ، وهذه مقصودة قصد الوسائل . وهي القيام بالعبودية والأمر الذي خُلق له العبد ، وأُرسلت به الرسل ، وأُنزلت لأجله الكتب ، وبه قامت السمٰوات والأرض ، وله وُجدت الجنة والنار . فالقيام بالأسباب المأمور بها : مَحْضُ العبودية ، وحقُّ الله على عبده الذي توجَّهت به نحوه المطالب ، وترتَّب عليه الثواب والعقاب . والله سبحانه أعلم .

قال : « **الدرجة الثانية** : التَّوكُّل مع إسقاط الطلب ، وغَضّ العين عن السبب ؛ اجتهادًا لتصحيح التّوكّل ، وقمعًا لشرف النفس ، وتفرُّغًا إلى حِفْظ الواجبات » .

قوله : « مع إسقاط الطلب » ؛ أي من الخلْق لا من الحق ، فلا يطلب من أحدٍ شيئًا . وهذا من أحْسَن الكلام وأنْفَعه للمريد ؛ فإن الطَّلَب من الخلْق في الأصل محظورٌ ، وغايته أن يُباح للضرورة ، كإباحة الميتة للمضطرّ ، ونصَّ أحمد على أنه لا يجب . وكذلك كان شيخنا يُشير إلى أنه لا يجب الطلب والسؤال . وسمعتُهُ يقول في السؤال : هو ظُلم في حقِّ الربوبية ، وظلم في حق الخلْق ، وظلم في حق النفس .

أمّا في حق الربوبية ؛ فَلِمَا فيه مِن الذُّلّ لغير الله ، وإراقة ماء الوجه لغير خالقه ، والتَّعوُّض عن سؤاله بسؤال المخلوقين ، والتَّعرُّض لمقته إذا سأل وعنده ما يكفيه يومه . وأمّا في حق الناس : فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال ، واستخراجه منهم . وأبغض ما إليهم : مَنْ يسألهم ما في أيديهم . وأحبُّ ما إليهم :

من لا يسألهم ؛ فإن أموالهم محبوباتهم ، ومن سألك محبوبك فقد تعرَّض لمقتك وبغضك . وأمَّا ظلم السائل نفسه : فحيثُ امْتَهَنَهَا وأقامها في مقام ذُلِّ السؤال ، ورضي لها بذُلِّ الطلب ممن هو مِثْلُه ، أو لعل السائل خير منه وأعلى قَدْرًا ، وتَرَكَ سؤال مَنْ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . فقد أقام السائل نفسه مقامَ الذُّلّ ، وأهانها بذلك ، ورضي أن يكون شحَّاذًا مِن شحّاذٍ مثله ، فإن من تشحذه فهو أيضًا شحّاذ مثلك ، والله وحده هو الغني الحميد . فسؤال المخلوق للمخلوق : سؤال الفقير للفقير . والرب تعالىٰ كلَّما سألتَهُ كَرُمْتَ عليه ، ورضي عنك ، وأحبَّك . والمخلوق كلما سألته هُنت عليه وأبغضَك ومَقَتَك وَقَلَاكَ ، كما قيل :

الله يغضبُ إن تركتَ سؤالَهُ وَبنيُّ آدَمَ حينَ يُسألُ يغضبُ

وقبيحٌ بالعبد المريد : أن يتعرَّض لسؤال العبيد ، وهو يجد عند مولاه كلّ ما يريد . وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه ، قال : كُنّا عند رسول الله ﷺ تسعة - أو ثمانية ، أو سبعة - فقال : « ألا تُبايعون رسول الله ؟ » . وكنّا حديثي عهدٍ ببيعةٍ ، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، ثم قال : « ألا تُبايعون رسول الله ؟ » . فبسطْنا أيدينَا وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نُبايعك ؟ فقال : « أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئًا ، والصلوات الخمس - وأسرَّ كلمةً خفيَّةً - ولا تسألوا الناس شيئًا » . قال : ولقد رأيت بعضَ أولئك النَّفر يسقط سَوْطُ أحَدِهم ، فما يسأل أحدًا أن يُناوله إياه .

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مُزْعة لحمٍ » .

وفيهما أيضًا عنه ، أن رسول الله ﷺ قال - وهو على المنبر ، وَذَكَرَ الصَّدَقة والتَّعفُّف عن المسألة - : « واليَدُ العليا خيرٌ من اليدِ السفلى » .

واليد العليا : هي المنفقة . والسفلى : هي السائلة .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من سأل الناس تكثُّرًا ، فإنما يسأل جَمْرًا ، فَلْيَسْتَقِلّ أو لِيَسْتَكْثِرْ » .

وفي الترمذي عن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المسألة كَدٌّ يَكُدُّ بها الرجل وَجْهَهُ ، إلا أن يسأل الرجلُ سلطانًا ، أو في الأمر الذي لا بُدَّ منه » . قال الترمذي : حديث صحيح .

وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا : « مَنْ أصَابَتْهُ فاقةٌ ، فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقته ، ومَنْ أنزلها بالله فيوشِكُ الله له برزقٍ عاجِل أو آجِل » .

وفي السنن والمسند عن ثوبان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من تكفَّل لي أن لا يسأل الناس شيئًا ، أتكفَّل له بالجنة » . فقلت : أنا . فكان لا يسأُل أحدًا شيئًا .

وفي صحيح مسلم عن قبيصة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : « إن المسألة لا تحلُّ إلَّا لأحَدِ ثلاثةٍ : رَجُل تحمَّل حمالةً ، فحلَّتْ له المسألةُ حتى يُصيبها ، ثم يُمسك . ورجلٌ أصابتْهُ جائحةٌ اجتاحتْ مالَهُ ، فحلّتْ له المسألة حتى يُصيب قوامًا مِنْ عيشٍ - أو قال : سدادًا من عيش - . ورَجُل أصابَتْهُ فاقةٌ حتى يقولَ ثلاثةٌ من ذوي الحِجَا من قومه : لقد أصابت فلانًا فاقةٌ . فحلَّتْ له المسألةُ حتى يُصيب قوامًا من عيشٍ - أو قال : سدادًا من عيش - . فما سواهُنَّ من المسألة يا قبيصة ، فَسُحْتٌ يأكُلُهَا صاحبها سُحْتًا » .

فالتَّوكُّل مع إسقاط هذا الطَّلَب والسؤال ، هو مَحْضُ العبودية .

قوله : « وغضّ العين عن التَّسبُّب ، اجتهادًا في تصحيح التَّوكُّل » .

معناه : أنه يُعرض عن الاشتغال بالسبب ، لتصحيح التّوكّل بامتحان النفس . لأن المتعاطي للسبب قد يظنّ أنه حَصَّل التّوكُّل ، ولم يُحصِّله لثقته بمعلومه ، فإذا أعرضَ عن السبب ، صحَّ له التَّوكُّل .

وهذا الذي أشار إليه : مذهب قومٍ من العُبَّاد والسالكين ، وكثير منهم كان يدخل البادية بلا زاد ، ويرى حمل الزاد قدْحًا في التّوكّل ، ولهم في ذلك حكايات مشهورة ، وهؤلاء في خفارة صدقهم ، وإلَّا فدرجتُهم ناقصةٌ عن العارفين ، ومع هذا فلا يُمكن بشرًا ألبتة تَرْك الأسباب جملةً . فهذا إبراهيم الخوَّاص كان مجرَّدًا في التّوكّل يُدقِّق فيه ، ويدخل البادية بغير زاد ، وكان لا تفارقه الإبرة والخيط والركوة والمقراض ، فقيل له : لِمَ تحمل هذا ، وأنت تمنع من كل شيء ؟ فقال : مثل هذا لا ينقص من التّوكُّل ؛ لأن لله علينا فرائض ، والفقير لا يكون عليه إلا ثوبٌ واحد ، فربما تخرَّق ثوبه ، فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته ، فتفسد عليه صلاته ، وإذا لم يكن معه ركوة فسدت عليه طهارته ، وإذا رأيت الفقيرَ بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط ، فاتَّهِمْه في صلاته .

أفلا تراه لم يستقم له دينه إلا بالأسباب ؟ أو ليست حركة أقدامه ونَقْلها في الطريق والاستدلال على أعلامها – إذا خفيت عليه – من الأسباب ؟ فالتَّجرُّد من الأسباب جملةً : ممتنعٌ عقلًا وشرعًا وحسًّا . نعم، قد تعرض للصادق أحيانًا قوة ثقةٍ بالله ، وحالٌ مع الله ، تحمله على ترك كلِّ سببٍ مفروض عليه ، كما تحمله على إلقاء نفسه في مواضع الهلكة ، ويكون ذلك الوقت بالله لا به ، فيأتيه مددٌ من الله على مقتضى حاله ، ولكن لا تدوم له هذه الحال ، وليست في مقتضى الطبيعة ؛ فإنها كانت هجمة هجمتْ عليه بلا استدعاء فحمل عليها ، فإذا استدعى مِثْلَها وتكلَّفها ، لم يُجَب إلى ذلك ، وفي تلك الحال : إذا تَرَكَ السبب يكون معذورًا ؛ لقوة

الوارد وعجزه عن الاشتغال بالسبب ، فيكون في وارده عونٌ له ، ويكون حاملًا له ، فإذا أراد تعاطي تلك الحال بدون ذلك الوارد ، وقع في المحال . وكل تلك الحكايات الصحيحة التي تُحكى عن القوم ، فهي جزئيَّة حصلت لهم أحيانًا ، ليست طريقًا مأمورًا بسلوكها ، ولا مقدورة ، وصارت فتنة لطائفتين ؛ طائفة ظنتها طريقًا ومقامًا ، فعملوا عليها ، فمنهم من انقطع ، ومنهم من رجع ولم يمكنه الاستمرار عليها ، بل انقلب على عقبيه . وطائفة قدحوا في أربابها ، وجعلوهم مخالفين للشرع والعقل ، مدَّعِين لأنفسهم حالًا أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه ، إذ لم يكن فيهم أحَدٌ قطُّ يفعل ذلك ، ولا أخلَّ بشيءٍ من الأسباب ، وقد ظاهَرَ رسول الله ﷺ بين درعيْن يوم أُحُد ، ولم يحضر الصَّفّ قطُّ عُريانًا ، كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة ، واستأجر دليلًا مشركًا على دين قومه ، يدلُّه على طريق الهجرة ، وقد هدىٰ الله به العالمين ، وعصمه من الناس أجمعين ، وكان يدَّخِر لأهله قُوتَ سنةٍ وهو سيِّد المتوكِّلين ، وكان إذا سافر في جهادٍ أو حجٍّ أو عمرةٍ ، حَمَلَ الزاد والمزاد .

قوله : « وقمعًا لشَرَف النفس » .

يريد : أن المتسبِّب قد يكون متسبِّبًا بالولايات الشريفة في العبادة ، أو التِّجارات الرفيعة ، والأسباب التي له بها جاهٌ وشرف في الناس ، فإذا تَرَكَهَا ، يكون تركها قمعًا لشرف نفسه ، وإيثارًا للتواضع .

وقوله : « وتفرُّغًا لحفظ الواجبات » .

أي يتفرّغ بتركها لحفظ واجباتها التي تُزاحمها تلك الأسباب . والله أعلم .

قال : « **الدرجة الثالثة** : التَّوكُّل مع معرفة التّوكّل ، النازعة إلى الخلاص

من عِلَّة التّوكّل . وهي أن يعلم أن مِلْكَةَ الحقِّ تعالىٰ للأشياء هي مِلْكة عِزَّة ، لا يُشاركه فيها مُشارِك ، فَيَكِل شركتَهُ إليه ؛ فإنَّ مِنْ ضرورةِ العبوديةِ : أن يعلم العبد أن الحقَّ سبحانه هو مالك الأشياء وَحْدَه » .

يريد أن صاحب هذه الدرجة ، متى قَطَعَ الأسباب والطَّلَب ، وتعدَّى تينك الدرجتيْن ، فتوكُّله فوقَ توكُّلِ مَنْ قَبْلَهُ . وهو إنما يكون بعد معرفته بحقيقة التّوكُّلِ ، وأنه دون مقامه ، فتكون معرفته به وبحقيقته نازِعة - أي باعثة وداعية - إلى تخلُّصِه من علَّة التّوكُّل ، أي لا يعرف علَّة التّوكُّل حتى يعرف حقيقتَهُ ، فحينئذٍ يعرف التَّوكُّل المعرفةَ التي تدعوه إلى التخلُّص من علّته .

ثم بيَّن المعرفة التي يعلم بها علَّة التَّوكُّل فقال : « أن يعلم أن مِلْكَة الحقِّ للأشياء مِلْكة عزَّة » ؛ أي مِلْكة امتناع وقوة وقهر ، تمنع أن يشاركه في مُلْكِهِ لشيءٍ من الأشياء مُشارِك ، فهو العزيز في مُلْكه ، الذي لا يُشاركه غيره في ذرَّةٍ منه ، كما هو المنفرد بعزَّته التي لا يُشاركه فيها مشارك .

فالمتوكِّل يرى أن له شيئًا قد وكَّل الحق فيه ، وأنه سبحانه صار وكيله عليه . وهذا مخالفٌ لحقيقة الأمر ؛ إذ ليس لأحدٍ من الأمر مع الله شيء ، فلهذا قال : « لا يُشاركه فيه مُشارِك ، فَيَكِلُ شركته إليه » ، فلسان الحال يقول لمن جعل الرب تعالى وكيله : في ماذا وكَّلتَ ربَّك ؟ أفي ما هو له وحده ؟ أو لك وحدك ؟ أو بينكما ؟ فالثاني والثالث ممتنع بتفرُّده بالملك وحده . والتوكيل في الأول ممتنع ، فكيف توكّله فيما ليس لك منه شيء ألبتة ؟!

فيقال : هاهنا أمران : توكُّل ، وتوكيل . فالتَّوكُّل : محض الاعتماد والثقة ، والسكون إلى مَنْ له الأمر كلُّه . وعِلْم العبد بتفرُّد الحقِّ تعالىٰ

وحده بملك الأشياء كلِّها ، وأنه ليس له مُشارِك في ذَرَّةٍ من ذرَّات الكون : من أقوىٰ أسباب توكُّلِهِ وأعظم دواعيه . فإذا تحقَّق ذلك علمًا ومعرفةً ، وباشر قلبه حالًا ، لم يجد بُدًّا من اعتماد قلبه على الحقِّ وحده وثقته به ، وسكونه إليه وحده ، وطمأنينته به وحده ؛ لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته ، وجميع مصالحه كلها ، بيده وَحْدَهُ لا بيدِ غيرِهِ ، فأين يَجِد قلبه مناصًا من التَّوكُّل بعد هذا ؟!

فَعِلَّة التوكل حينئذٍ : التفات قلبه إلى مَنْ ليس له شركة في ملك الحق ، ولا يملك مثقال ذرةٍ في السمٰوات ولا في الأرض . هذه علَّة توكُّلِهِ ، فهو يعمل على تخليص توكُّله من هذه العلّة .

نعم ، ومن علَّةٍ أُخرىٰ ، وهي رؤيةُ توكُّله ، فإنه التفاتٌ إلى عوالم نفسه .

وعلة ثالثة : وهي صَرْفه قوة توكُّله إلى شيءٍ : غيرُهُ أحبُّ إلى الله منه .

فهذه العِلَل الثلاث هي علُل التوكيل .

وأمَّا التَّوكُّل : فليس المراد منه إلَّا مجرَّد التَّفْوِيض . وهو من أخصِّ مقامات العارفين ، كما كان النبي ﷺ يقول : « اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك ، وَفَوَّضْتُ أمري إليك » . وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون : ﴿ **وأُفوِّض أمري إلى الله إن الله بصيرٌ بالعباد** ﴾ فكان جزاء هذا التفويض قوله : ﴿ **فوقاه الله سيئاتِ ما مكروا** ﴾ [غافر : ٤٤ ، ٤٥] . فإن كان التَّوكُّل معلولًا بما ذكره ، فالتفويضُ أيضًا كذلك . وليس ، فليس .

ولولا أن الحق لله ورسوله ، وأن كل ما عدا الله ورسوله ، فمأخوذٌ من قوله ومتروك ، وهو عُرضة الوهم والخطأ ، لما اعترضْنا على من لا نلحق

غُبارهم ، ولا نجري معهم في مضمارهم ، ونراهم فوقنا في مقامات الإيمان ، ومنازل السائرين ، كالنجوم الدراري . ومن كان عنده علم فليُرشدنا إليه ، ومن رأى في كلامنا زيغًا ، أو نقصًا وخطأً ، فليُهدِ إلينا الصواب ، نشكر له سعيه ، ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم . والله أعلم ، وهو الموفِّق »[١].

□ أعلى التَّوكُّل توكُّل الأنبياء وَوَرَثَتِهم □ في فتح بصائر القلوب

لا يستوي في شرفه وهمَّته مَنْ تَوكَّلَ على الله في رغيف ، ومن توكَّل على الله في نُصرة دينه .

فالتَّوكُّل على الله في معلومِ الرزق المضمون ، والاشتغال به عن التَّوكُّل في نصرة الحقّ والدِّين من أوْهَى المنازل . والناس بعدُ في التَّوكُّل على حَسَب هِمَمِهم ومقاصدهم .

فأفضلُ التَّوكُّل : التّوكّل في الواجب - أعني واجب الحق ، وواجب الخلْق ، وواجب النفس - وأوسعه وأنْفَعُه : التَّوكُّل في التأثير في الخارج في مصلحةٍ دينية ، أو دفْع مفسدةٍ دينية ، وهو توكُّل الأنبياء في إقامة دين الله ودفْع فساد المفسدين في الأرض ، وهذا توكُّل ورثتهم .

توكل الخليلين : إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم :

في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . قالها إبراهيم ﷺ ، حين أُلقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٣٠ - ١٣٧ .

له : ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

إبراهيم الخليل الأنموذج المثالي للمتوكِّلين :

قال أبو يعقوب النهرجوري : « التَّوكُّل على كمال الحقيقة وَقَعَ لإبراهيم خليل الرحمٰن في تلك الحال ، إلى أن قال لجبريل عليه السلام : أمَّا إليك فلا . لأنه غائب عن نفسه بالله ، فلم يَرَ مع الله غير الله ، وكان ذهابه بالله من الله إلى الله بلا واسطة وهو من عاليات التوحيد ، وإظهار القُدرة لنبيه إبراهيم عليه السلام » .

اعترضه وتعرَّض لحوائجه المَلَك ، حين قطع بَيْدَاءَ الهَوَىٰ وسَلَكَ ، فقال له بلسان الحال : مَعِي مَنْ مَلَك ، إيَّاك والتعريض بما ليس لَك ، فلمَّا لم يتعلَّق بخلْقٍ دون الله إذ أُضيم ﴿ قُلنا يا نارُ كُوني بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

تعرّضت له الأمْلاك فكفَّها كَفّا ، فلمَّا رآه ربُّه لا يمدُّ إلى غيره كَفّا ، مَدَحه ويكفي في مدْحه له ﴿ الذي وفَّىٰ ﴾ [النجم : ٣٧] ، واجتمع الخلائق صَفّا ، ينظرون مَنْ صَفَّى ، فلمَّا أتى ربَّهُ بقلبٍ سليم ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم ﴾ .

تنحّ يا جبريل، فما ذا موضعُ زحمة ، وخلّني وخليلي فإليه الرحمة ، وهل بذلت له إلَّا لحمة تَبْلى أو شحْمة ، فلمَّا وطَّنَ نَفْسَه علىٰ أن يصير فحمة ، وحُوشي من ذلك الكريم ﴿ قُلنا يا نار كوني بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم ﴾ .

وعلىٰ طريقة الهِمَّة العالية في التَّوكُّل ، سار رَكْبُ النبيين صلوات الله وسلامه عليهم .

منارة التَّوكُّل :

توكُّل نبينا ﷺ ، درسٌ عظيم من أُحُد :

قبل الخروج لأُحدٍ شاور رسول الله ﷺ أصحابه ، وبعد الشورىٰ كان الدرس الرباني النبوي للأُمَّة : ﴿ **فإذا عزمت فتوكَّل علىٰ الله إن الله يحب المتوكلين** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . التّوكُّل على الله وإسلام النفس لقدره . والتوكل على الله خلَّة يحبها الله ويحب أهلها ، وهي الخلة التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمنون ، بل هي التي تميِّز المؤمنين .

« والتوكل على الله ، ورَدُّ الأمر إليه في النهاية ، هو خطُّ التوازن الأخير في التَّصور الإسلامي وفي الحياة الإسلامية ، وهو التَّعامُل مع الحقيقة الكبيرة : حقيقة أن مردّ الأمر كلّه لله ، وأن الله فعّال لما يريد .

لقد كان هذا درسًا من دروس « أُحُد » الكبار .. هو رصيد الأُمَّة المسلمة في أجيالها كلِّها ، وليس رصيد جيلٍ بعينه في زمن من الأزمان .

ولتقرير حقيقة التَّوكُّل على الله وإقامتها على أصولها الثابتة ، يمضي السياق فيقـرِّر أن القوة في النصر والخـذلان ، هي قوة الله ، فعندها يُلتمس النصر ، ومنها تُتَّقىٰ الهزيمة ، وإليها يكون التَّوجُّه ، وعليها يكون التَّوكُّل .

﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلىٰ الله فليتوكّل المتوكِّلون** ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

وبذلك يخلُص تصور المسلم من التماس شيءٍ من عند غير الله ، ويتصل قلبه مباشرةً بالله ، فينفض يده من كلِّ الأشباح الزائفة ، والأسباب الباطلة للنُّصرة والحماية والالتجاء ؛ ويتوكَّل على الله وحده في إحداث النتائج ، وتحقيق المصاير ، وتدبير الأمر بحكمته،وتقبُّل ما يجيء به قدر الله في اطمئنانٍ ، أيًّا كان .

إنه التوازن العجيب الذي لا يعرفه القلب البشري إلَّا في الإسلام »[١].

الرسول ﷺ يُعلِّم أصحابه الدرس الثاني بعد أحد :

التَّوكّل أبهَىٰ صُوَر العقيدة :

قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٧٢ - ١٧٤] .

لله ما أحلىٰ هذا الدرس : كان يوم « أُحُد » يوم السبت النصف من شوال ، فلمَّا كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذَّن مؤذِّن رسول الله ﷺ في الناس يطلب العدوّ ، وأذّن مؤذّنه أن لا يخرجنّ معنا أحدٌ إلَّا من حضر يومنا بالأمس . دعاهم الرسول ﷺ إلى الخروج معه كرَّةً أُخرىٰ غداة المعركة المريرة ، وهم مثخنون بالجراح ، وهم ناجون بشقِّ الأنفس من الموت أمس في المعركة ، وهم لم ينسوا بعد هوْل الدَّعْكة ومرارة الهزيمة وشدَّة الكرب ، وقد فقدوا من أعزَّائهم من فقدوا ، فقلّ عَدَدُهم ، فوق ما هم مثخنون بالجراح ! لقد دعاهم الرسول ﷺ ، ودعاهم وحدهم ، وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابةٍ ، تحمِلُ إيحاءاتٍ شتَّى ، وتُومئ إلى حقائق كبرىٰ ؛ لعلَّ رسول الله ﷺ شاء أن يُشْعر المسلمين ، وأن يُشعر الدنيا كلَّها من ورائهم ، بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وُجدت في هذه الأرض ... حقيقة أن هناك عقيدةً هي كلّ شيء في نفوس أصحابها ، ليس لهم من أربٍ في الدنيا غيرها ، وليس لهم من غاية في حياتهم

(١) الظلال ١ / ٥٠٣ - ٥٠٤ بتصرف .

سواها ، عقيدة يعيشون لها وحدها ، فلا يبقىٰ لهم في أنفسهم شيء بعدها ، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقيةً في أنفسهم لا يبذلونها لها ، ولا يُقدِّمونها فداها .

لقد كان هذا أمرًا جديدًا في هذه الأرض في ذلك الحين ، ولم يكن بُدٌّ أن تشعر الأرض كلها – بعد أن يشعر المؤمنون – بقيام هذا الأمر الجديد ، وبوجود هذه الحقيقة الكبيرة . ولم يكن أقوىٰ في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة : صورة التَّوكُّل على الله وحده ، وعدم المُبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمْع قريشٍ لهم – كما أبلغهم رُسُل أبي سفيان – وكما هوَّل المنافقون في أمر قريش . هذه الصورة الرائعة الهائلة ، كانت إعلانًا قويًّا عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة ، وكان هذا بعض ما تُشير إليه الخُطَّة النبويّة الحكيمة . بهذا يسجل الله لهم في كتابه الخالد ، وفي كلامه الذي تتجاوب به جوانب الكون كله ، صورتهم هذه ، وموقفهم هذا ، وهي صورة رفيعة ، وهو موقفٌ كريم لنفوسٍ كبيرة لا تعرف إلَّا الله وكيلًا ، وترضىٰ به وحده وتكتفي ، وتزداد إيمانًا به في ساعة الشِّدَّة ، وتقول في مواجهة تخويف الناس لهم بالناس : ﴿ **حسبُنا الله ونعم الوكيل** ﴾ [آل عمران : ١٧٣] . هذا هو الدرس الجميل العالي ، الذي علَّمه سيِّد المتوكِّلين لأصحابه ، وأخرجوه هم إلى عالم الواقع .

أنبياء الله قِمَمٌ عالية في التَّوكُّل :

قال الله تعالىٰ : ﴿ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَىٰ اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [إبراهيم : ١١] .

يطلقها الرسل حقيقة دائمة ... فعلىٰ الله وحده يتوكّل المؤمن ، لا يلتفت قلبه إلى سواه ، ولا يرجو عونًا إلَّا منه ، ولا يرتكن إلا إلى حماه . ثم يواجهون الطغيان بالإيمان ، ويواجهون الأذىٰ بالثبات .

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

إنها كلمة المُطمئِنّ إلى موقفه وطريقه ، المالئ يديه من وليِّه وناصره ، المؤمن بأن الله الذي يهدي السبيل لا بدّ أن ينصر ويعين ، وماذا يهمّ حتىٰ ولو لم يتمّ في الحياة الدنيا نصرٌ ، إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل والقلب الذي يحسّ بأن عناية الله سبحانه تقود خطاه ، وتهديه السبيل ، هو قلب موصول بالله لا يخطئ الشعور بألوهيته القاهرة المسيطرة ، وهو شعور لا مجال معه للتَّردُّد في المضيّ في الطريق ، أيًّا كانت العقبات في الطريق ، وأيًّا كانت قوى الطاغوت التي تتربَّص في هذا الطريق ، ومن ثَمَّ هذا الرَّبْط في ردّ الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - بين شعورهم بهداية الله لهم ، وبين توكُّلهم عليه في مواجهة التهديد السافر من الطواغيت ، ثم إصرارهم على المضي في طريقهم في وجه هذا التهديد .

وهذه الحقيقة - حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله ، وبين بديهيّة التّوكُّل عليه - لا تستشعرها إلا القلوب التي تُزاول الحركة في مواجهة الطواغيت ، والتي تستشعر في أعماقها رحمته وعنايته وهي تفتح لها كُوَىٰ النور ، فتبصر الآفاق المشرقة ، وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة ، وتحسّ الأُنس والقربىٰ .. وحينئذٍ لا تحفل بما يتوعَّدها به طواغيت الأرض ، ولا تملك أن تستجيب للإغراء ولا للتهديد ، وهي تحتقر طواغيت الأرض وما في أيديهم من وسائل البطش والتنكيل .. وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو ؟! وماذا يُخيفه من أولئك العبيد ؟!

﴿ **وما لنا ألَّا نتوكَّل على الله وقد هدانا سُبُلنا ولنصبرنَّ علىٰ ما آذيتمونا** ﴾ لنصبرنّ ، لا نتزحزح ولا نضعف ولا نتراجع ولا نَهِن ، ولا نتزعزع ولا نشُكُّ ، ولا نُفرِّط ولا نحيد ﴿ **وعلىٰ الله فليتوكّل المتوكلون** ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

مشهد باهر في علوّ الهمَّة في التَّوكُّل لنبي الله هود ﷺ :

بعد أن قصَّ الله ما بذل هود من النُّصح لقومه ، وبعد أن تودَّد إليهم وهو يدعوهم غاية التَّودُّد ، يسجِّل القرآن موقفًا باهرًا في الاستعلاء بالحق والثقة بالله ، وتحدِّيًا سافرًا وحسمًا كاملًا ومُفاصَلَةً ، قَذَفَ بها في وجوه قومه ، فقال تعالىٰ : ﴿ .. **قال إني أُشهد الله واشهدوا أني بريءٌ مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعًا ثم لا تُنظرون * إني توكَّلت على الله ربي وربّكم ما من دابَّةٍ إلَّا هو آخذ بناصيتها إن ربي علىٰ صراط مستقيم** ﴾ [هود : ٥٤ – ٥٥].

إن أصحاب الدعوة إلى الله في كلِّ مكانٍ وفي كلّ زمانٍ ، في حاجةٍ إلى أن يقفوا طويلًا أمام هذا المشهد الباهر ؛ رجل واحد ، لم يؤمن معه إلا قليل ، يواجه أعتىٰ أهل الأرض ، وأغنىٰ أهل الأرض ، وأكثر أهل الأرض حضارةً ماديَّةً في زمانهم : ﴿ **أتبنون بكلِّ ريعٍ آية تعبثون * وتتَّخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾ [الشعراء : ١٢٨ – ١٣٠] .

هؤلاء هم الذين واجههم هود – عليه السلام – هذه المواجهة ، في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه ، وفاصَلَهم هذه المُفَاصَلَة الحاسمة الكاملة – وهم قومه – وتحدَّاهم أن يكيدوه بلا إمهال ، وأن يفعلوا ما في وسعهم ، فلا يُباليهم بحال !

لقد وقف هود هذه الوقفة الباهرة؛ لأنه يجد الفهم كلَّ الفهم لمعنىٰ التَّوكُّل في أبهىٰ صُوَره ، ويُوقن أن أولئك الجبَّارين العُتاة المتمتِّعين المتبطِّرين ،

إنما هم من الدواب ! وهو مُستيقن أنه ما من دابّةٍ ، إلا وربُّه آخِذٌ بناصيتها ، ففيم يحفل إذن هؤلاء الدوابّ ؟! وأن ربَّه هو الذي أعطاهم ما أعطاهم للابتلاء لا لمطلق العطاء ، وأن ربَّه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء ، ولا يضرّونه شيئًا ، ولا يردُّون له قضاءً ، ففيم إذن يَهُولُه شيء ممَّا هم فيه ، وربّه هو الذي يُعطي ويسلب حين يشاء كيف شاء .. عموم قدرة ، وكمال ملك ، وتمام حكمة وعدل وإحسان ، في خلقه ، وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، وقضائه وقدره ، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وإفقاره وإعزازه ، وإذلاله وإنعامه ، وانتقامه وثوابه ، وإحيائه وإماتته . وهذه المعرفة بالله لا تكون إلا للأنبياء وورثتهم .. وعلىٰ قدْر هذه المعرفة يكون قدْر التَّوكُّل في قلب العبد .

إن أصحاب الدعوة إلى الله لا بُدّ أن يجدوا هذه الحقيقة في نفوسهم علىٰ هذا النحو ، حتىٰ يملكوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قُوَى الجاهلية الطاغية من حولهم ، وهم مستيقنون أن ربَّهم آخِذٌ بناصية كلِّ دابَّة ، وأن الناس – كل الناس – إن هم إلا دوابّ من الدوابّ !

ويوم تتمّ هذه المفاصلة ، يتحقَّق وعد الله بالنصر لأوليائه ، والتدمير علىٰ أعدائه ، في صورةٍ من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال .

وخطيبُ الأنبياءِ شُعيب ﷺ قمَّةٌ سامية :

قال تعالىٰ على لسانه : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت علىٰ بينة من ربي ورزقني منه رزقًا حسنًا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلَّا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكّلتُ وإليه أُنيب** ﴾ [هود : ٨٨] .

فخطيب الأنبياء شعيب ﷺ لا يبغي كسبًا شخصيًّا ، إنما يريد إصلاحًا

عامًّا للمجتمع ، ويتوكَّل على الله في المقصد الشريف والغاية النبيلة العظيمة .

أُمّ إسماعيل وعلوّ توكُّلها :

إذَنْ لا يُضَيِّعنا :

في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : جاء إبراهيم بأُمِّ إسماعيل وبابنها إسماعيل ، حتى وضعها عند البيت ، عند دَوْحَةٍ فوق زمزم في أعلىٰ المسجد ، وليس بمكة يومئذٍ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء ، ثم قفَّىٰ[1] إبراهيم منطلقًا ، فَتَبِعَتْه أُمُّ إسماعيل فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ، الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء ؟ فقالت له : آللّه أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يُضيِّعنا . ثم رجعتْ .

إيه يا جبال فاران ... موضع مكة الآن ، حدِّثي عن توكُّل أم إسماعيل وتفويضها في أعلىٰ وأغلىٰ قمم التّوكّل وصوره . وفي سمع الأيام يبقىٰ صوت أم إسماعيل : « إذن لا يُضيِّعنا » وهي لا ترىٰ إلَّا حَرَّةً ملتهبة ، وعطشًا منهكًا ، وجهدًا يهدّ ، ورضيعًا يتلوَّى .

وقالتْها لجبريل حين قال لها : مَنْ أنتِ ؟ قالت : أنا هاجر . أو : أُمّ ولد إبراهيم . قال : فإلى من وكلكما ؟ قالت : إلى الله . قال : وكلكما إلى كافٍ .

موقف أم إسماعيل وتوكُّلها يعجز عنه الرجال ... لكأن كل قطرةٍ من هذا الماء تحكي قصةً تُروىٰ ، وتحوي ظلًّا وديعًا لطيفًا يُروِّي هجير دنيانا بثمرة توكُّل أم إسماعيل . وصدق رسول الله ﷺ حين قال ، عن السعي

---

(١) أي ولّىٰ راجعًا .

بين الصفا والمروة : « هذا ما أورثتكموه أُمُّ إسماعيل » .. ورث الصحابة منها أعلىٰ التّوكُّل .

هِمَمُ الصحابة في التَّوكُّل أعلىٰ الهِمَم :

قال ابن القيم عن الصحابة : « هم أُولو التَّوكُّل حقًّا ، وأكمل المتوكِّلين بعدهم : هو من اشتمَّ رائحة توكُّلهم من مسيرةٍ بعيدة ، أو لحق أثرًا من غُبارهم . فحالُ النبي ﷺ وحال أصحابه محكُّ الأحوال وميزانها ، بها يُعلم صحيحها من سقيمها ؛ فإن هممهم كانت في التّوكّل أعلىٰ مِنْ همم مَنْ بَعْدَهم ، فإن توكُّلهم كان في فتح بصائر القلوب ، وأن يُعبد الله في جميع البلاد ، وأن يُوحِّده جميع العباد ، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد ، فَمَلَئُوا بذلك التوكُّلِ القلوبَ هُدًى وإيمانًا ، وفتحوا بلاد الكفر ، وجعلوها دار إيمانٍ ، وهبَّتْ رياحُ روح نسماتِ التّوكّل علىٰ قلوب أتباعهم ، فملأتْها يقينًا وإيمانًا . فكانت همم الصحابة - رضي الله عنهم - أعلىٰ وأجلّ من أن يصرف أحَدُهم قوةَ توكُّلِهِ واعتماده على الله في شيءٍ يحصُل بأدنىٰ حيلةٍ وسعي ، فيجعله نصب عينيه ، ويحمل عليه قويّ توكُّله »[1].

عكاشة بن محصن المتوكِّل حقًّا :

عن هشيم بن بشير ، عن حصين قال : كنا جلوسًا مع سعيد بن جبير ذات غداةٍ ، فقال لنا : أيّكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة[2] ؟ قال :

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٣٥ .

(٢) فائدة : أخرج أحمد والحاكم بسندٍ صحيح ، عن محمد بن سيرين قال : كُنَّا مع أبي قتادة على ظهر بيتنا ، فرأىٰ كوكبًا انقضَّ فنظروا إليه ، فقال أبو قتادة : إنَّا قد نُهينا أن نُتبعه أبصارنا . صححه الحاكم ووافقه الذهبي . وقال الهيثمي في المجمع : ورجاله رجال الصحيح . ا هـ . وقوله : « نُهينا » مرفوع إلى =

قلت : أنا. قال : ثم استدركت نفسي ، فقلت : إن سهري لم يكن في صلاةٍ ، ولكنْ لدغتني عقربٌ فسهرتُ . فقال سعيد بن جبير : كيف صنعتَ ؟ قلت : صنعت أنِ استرقيتُ . قال : وما حملك على ذلك ؟، قال : قلت : حديثٌ حدَّثنيه الشعبي . قال : وما حدَّثكم ؟ قال : قلت : حدثنا الشعبي ، عن بريدة بن الحصيب الأسلمي ، أنه قال : لا رُقيَة إلَّا من عينٍ أو حُمة[1]. فقال سعيد بن جبير : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع . ثم قال سعيد ابن جبير : حدَّثنا ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « عُرِضَت عليَّ الأُمم[2] ، فرأيت النبي يمرُّ ومعه الرَّهط ، والنبي يمرّ ومعه الثلاثة والاثنان ، والنبي يمرّ ومعه الرجل الواحد ، والنبي يمرّ وليس معه أحد ، إلى أن رُفِعَ لي سوادٌ عظيم فقلت : هذه أُمَّتي . قيل : ليس بأُمّتك ، هذا موسى وقومه . إلى أن رفع لي سواد عظيم.قد سدَّ الأفق ، فقيل : هذه أُمّتك ، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب » . قال : ثم دخل النبي - ﷺ - فخضنا في أولئك السبعين ، وجعلنا نقول : من الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب ؟ أهم الذين صحبوا النبي ﷺ ؟ أم هم الذين وُلدوا في الإسلام ولم يُشركوا بالله شيئًا ؟ إلى أن خرج النبي ﷺ فقال : « ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه ؟ » . قال : فأخبروه ،

= النبي ﷺ على الصحيح الذي قاله الجمهور . انظر التوكل على الله عز وجل ، ابن أبي الدنيا صـ ٧٣ هامش (١) .

(١) الحُمَة : بالتخفيف : السُّم ، وقد يُشدَّد ، وقد روي هذا الأثر مرفوعًا عن النبي ﷺ من حديث عمران بن حصين بسندٍ جيِّد . انظر التوكل ، ابن أبي الدنيا صـ ٧٤ هامش (٢) .

(٢) في رواية الترمذي والنسائي - وهي صحيحة - أن عرْض الأمم كان ليلة الإسراء . التوكل ، ابن أبي الدنيا صـ ٧٤ ، هامش (٣) .

فقال : « هم الذين لا يَسْتَرْقُون ولا يكتوون ، وعلى ربِّهم يتوكَّلُون » .
فقام عكاشة بن محصن فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : « أنت منهم » .
وقام رجل آخر من المهاجرين فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : « سبقك بها عكاشة »[(١)].

ما أبقيتَ لأهلك يا أبا بكر ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله :

سُئل الأستاذ أبو سهل محمد بن سليمان ، عن قول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : « ما أبقيتَ لأهلك ؟ » قال : الله ورسوله .

قال : هو تجريد لله بالكليَّة ، وإدخال الرسول ﷺ فيه ؛ لمكان الإيمان وحقيقة التعلُّق بالسبب في الوصول إلى المسبّب ، لا على أن إليه انقطاعه . فإذا كمل توكُّل المتوكِّل ، وتحقَّق فيه ، أخبر إن شاء عن السبب ، وإن شاء عن المسبب ؛ لأن الكلَّ عنده واحدٌ ؛ لتعلُّق الفروع في الكلِّ بالأصل .

* * *

(١) أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومن طريقه البغوي في شرح السنة ، ومسلم ، والترمذي وقال : حسن صحيح . والنسائي في الكبرى - كما في تحفة الأشراف - والطبراني في الكبير ، والبيهقي في الشعب من طرقٍ عن حصين بن عبد الرحمن به ، واللفظ لأحمد ومسلم والبيهقي ، واقتصر الباقون على المرفوع منه .
وأخرجه الطيالسي ومن طريقه القشيري في الرسالة ، وأحمد ، وابن حبان بسند حسن ، وحسنه العراقي في تخريج الإحياء .
وأخرجه عبد الرزاق في المصنف ، والحاكم وصححه وأقره الذهبي ، وأبو نعيم في الحلية .
وصححه ابن كثير في تفسيره ، والحافظ في الفتح ، وقال الهيثمي في المجمع : وأحد أسانيد أحمد والبزار رجاله رجال الصحيح . انظر التوكل ، ابن أبي الدنيا ، هامش ٣٩ صـ ٧٣ ، ٧٤ ، صـ ٧٣ - ٧٦ .

عمر بن الخطاب يوضِّح الطريق :

عن معاوية بن قرَّة ، أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لقي ناسًا من أهل اليمن فقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكِّلون . قال : بل أنتم المُتَّكِلُونَ ، إنما المتوكِّل من يُلقي حَبَّهُ في الأرض ويتوكّل على الله عزَّ وجل(١) .

عن المعرور بن سويد ، عن عمر رضي الله عنه ، أنه قال : يا معشر القُرَّاء ، ارفعوا رؤوسكم ، ما أوضح الطريق ، فاستبقوا الخيرات ، ولا تكونوا كَلًّا على المسلمين(٢) .

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

عن مغيرة بن سعد بن الأخرم ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود قال : والذي لا إلٰه غيره ، ما يضرُّ عبدًا يصبح على الإسلام ويُمسي عليه ، ماذا أصابه من الدنيا(٣) .

عبد الله بن سلام وسلمان :

عن سعيد بن المسيب ، قال : التقى عبد الله بن سلام وسلمان ، فقال أحدهما لصاحبه : إن متَّ قبلي فالقني فأخبرني ما لقيتَ من ربِّك ، وإن أنا متُّ قبلك لقيتُك فأخبرتُك . فقال أحدهما للآخر : أوَ يلقى الأموات الأحياء ؟! قال : نعم ، أرواحهم تذهب في الجنة حيث شاءتْ . قال : فمات فلان فلقيه في المنام فقال : توكَّل وأبْشِر ، فلم أرَ مِثْلَ التَّوكُّل قطُّ ، توكَّلْ وأبشر ، فلم أرَ مثل التّوكّل قط(٤) .

---

(١) التوكل لابن أبي الدنيا صـ ٤٨ . وإسناده صحيح . انظر تحقيق الدوسري .
(٢) إسناده حسن . ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان ٢ / ١٣٦ .
(٣) إسناده صحيح . الجامع لشعب الإيمان .
(٤) إسناده صحيح . التوكل لابن أبي الدنيا صـ ٤٨ .

قال سعيد بن جبير : التَّوكُّل على الله - عز وجلّ - جماعُ الإيمان .

أبو حازم سلمة بن دينار :

قال رحمه الله : « وجدت الدنيا شيئين : شيء هو لي ، وشيء هو لغيري . فأمَّا الذي هو لي ، فلو طلبتُه قبل أجله بحيل السمٰوات والأرض ، لم أقدر عليه ، وأمَّا الذي هو لغيري ، فلم أُصِبْه فيما مضىٰ ، ولم أرجُهُ فيما بقي ، يُمنع رزقي من غيري ، كما يُمنع رزق غيري مني ؟ ففي أي هذين أُفني عمري ؟! .

وقيل له ، رحمه الله : ما مالُك ؟ قال:خير مالي ثقتي بالله تعالىٰ ، وإياسي مما في أيدي الناس »[1].

عامر بن عبد قيس :

قال عامر رحمه الله : « ثلاث آياتٍ من كتاب الله عز وجل اكتفيتُ بهنَّ عن جميع الخلائق ؛ أوَّلُهن : ﴿ **وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلا هو وإن يُرِدك بخيرٍ فلا رادَّ لفضله** ﴾ [يونس : ١٠٧] .

والآية الثانية : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا مُمسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾ [فاطر : ٢] .

والثالثة : ﴿ **وما من دابَّة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرَّها ومستودعها كلٌّ في كتابٍ مبين** ﴾[2] [هود : ٦] .

أبو الصهباء صلة بن أشيم :

قال صلة : طلبتُ الرزق مظانّه ، فأعياني إلَّا رزق يوم بيوم ، فعلمتُ

(١،٢) الجامع لشعب الإيمان .

أنه خير لي ، وإن امرأً جعل رزقه يومًا بيوم ، فلم يعلم أنه خيرٌ له لعاجز الرَّأي .

قال الحليمي رحمه الله : وفي المسألة وجه ثالث ؛ وهو أن من كان قويّ العزم ، يقدر على تجريد الصبر وترك مجاوزته إلَّا إلى الدعاء ، وكان إذا تصبّر مدَّةً فلم ينكشف عنه ضرُّه ؛ لم يَعُد إلى التَّسبُّب ولم يندم على اختياره التَّصبُّر عليه ، أو لم يكن في عامَّة أوقاته شاكًّا في أن الصبر الذي آثره أعْوَدُ عليه ، أو التَّسبُّب ؛ فالصبر له أفْضَل . ومن كان ضعيف العزم ، وكان لا يصبر إلَّا متكلِّفًا ، ولا يزال - خلالَ الصبر - شاكًّا في أن ذلك كان أوْلَى به ، أو التَّسبُّب ، وكان إذا صبر وقتًا ، لم يثبت على صبره وعاد إلى التَّسبُّب ؛ فينبغي له أن يكون مع المتسبِّبين ، وجعْل نظير ذلك الاستكثار من نوافل الصيام والصلاة ، إذا لم يتبرَّم بها ولم يستثقلها . وعلى هذا أكثر أهل المعرفة .

الحسـن البصـري :

عن معتمر بن سليمان ، عن عبد الجليل قال : سمعت الحسن يقول : إن من توكُّل العبد أن يكون الله - عز وجل - هو ثقته .

وعن أبي رجاء العطاردي قال : سُئل الحسن عن التَّوكُّل ، فقال : الرضا عن الله عز وجل .

وقال رحمه الله : ابن آدم ، لا تحملْ همَّ سنةٍ على يومٍ ، كفىٰ يومك بما فيه ، فإن تكُن السنة من عمرك ، يأتِكَ الله فيها برزقك ، وإلَّا تكُن من عمرك ، فأراك تطلب ما ليس لك .

سفيان الثوري :

وعن سفيان الثوري : ﴿ **إنه ليس له سلطانٌ علىٰ الذين آمنوا وعلىٰ**

ربِّهم يتوكَّلُون ﴾ [النحل : ٩٩] ، قال : أن يحملهم على ذنبٍ لا يُغفر[١].

إبراهيم بن أدهم :

قال رحمه الله : لا تجعل فيما بينك وبين الله عليك منعمًا ، وَاعْدُد النعمة عليك من غير الله مغرمًا .

قال علي بن بكّار : شكا رجل إلى إبراهيم بن أدهم كثرة عياله ، فقال له إبراهيم : يا أخي ، انظر كلّ من في منزلك ليس رزقه على الله ، فحوِّلْهُ إلى منزلي .

الفضيل بن عياض :

قال الفضيل : التوكُّل قوامُ العبادة .

أخي ، قد قال الجواد عزَّ وجل : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ [الذاريات : ٢٢] ، ثم أقسم على ذلك : ﴿ **فوربِّ السماء والأرض إنه لحقٌّ مِثْلَ ما أنكم تنطقون** ﴾ [الذاريات : ٢٣] . فيا سبحان الله ! من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ؟! أفلم يُصدِّقوه - سبحانه - بقوله حتى ألجَئُوه إلى اليمين ؟!.

طلق بن حبيب :

وكان طلق بن حبيب يقول : أسألك خوف العالمين بك ، وعلمَ الخائفين لك ، وتوكُّل الموقنين بك ، ويقين المتوكِّلين عليك ، وإنابة المُخبتين إليك ، وإخبات المنيبين إليك ، وصبر الشاكرين لك ، وشكر الصابرين لك وإلحاقًا بالأحياء المرزوقين عندك[٢].

---

(١) التوكل لابن أبي الدنيا صـ ٦٠ .

(٢) التوكل . لابن أبي الدنيا صـ ٦٩ .

معروف الكرخيّ :

عن حماد بن محمد بن المبارك ، قال : قال رجل لمعروف - يعني معروفًا الكرخي - : أوصني . قال : توكَّل على الله عز وجل حتى يكون جليسَك وأنيسَك وموضعَ شكواك ، وأكثِرْ ذكْر الموت حتى لا يكون لك جليس غيره ، واعلم أن الشفاء لما نزل بك كتمانه ، وأن الناس لا ينفعونك ولا يضرُّونك ولا يُعطونك ولا يمنعونك[١].

بشر بن الحارث :

قال رحمه الله : أما تستحي أن تطلب الدنيا ممَّن طَلَبَ الدنيا ؟! اطلب الدنيا ممَّن بيده الدنيا[٢].

يحيىٰ بن معاذ الرازي :

قال رحمه الله : مَنْ طلب الفضل من غير ذي الفضل ، غرم ، وإن ذا الفضل هو الله عز وجل : ﴿ **إن الله لذو فضل على الناس** ﴾ [البقرة : ٢٤٣][٣].

أحمد بن حنبل رحمه الله :

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ : وجملة التوكل : تفويضُ الأمر إلى الله جلَّ ثناؤه والثقة به[٤].

سليمان الخوَّاص :

عن أبي قدامة الرَّمْلي قال : قرأ رجلٌ هذه الآية : ﴿ **وتوكَّلْ على الحيِّ**

---

(١) التوكل . لابن أبي الدنيا صـ ٧١ .

(٢،٣) الجامع لشعب الإيمان .

(٤) كتاب : ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان ٢ / ٧٢ .

الذي لا يموت وسَبِّحْ بحمده وكفىٰ به بذنوب عباده خبيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٨] . فأقبل عليَّ سليمانُ الخوَّاص فقال : يا أبا قدامة ، ما ينبغي لعبدٍ بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحدٍ بعد الله في أمره ، ثم قال : انظر كيف قال الله – تبارك وتعالىٰ – : ﴿ وتوكلْ على الحيِّ الذي لا يموت ﴾ فأعلمك أنه لا يموت ، وأنَّ جميع خلقه يموتون ، ثم أمرك بعبادته فقال : ﴿ وسبحْ بحمده ﴾ ثم أخبرك بأنه خبير بصير ، ثم قال : والله يا أبا قدامة ، لو عَامَل عبدٌ اللهَ بحُسْن التوكل وصِدْق النية له بطاعته ؛ لاحتاجت إليه الأمراء فمن دُونَهم ، فكيف يكون هذا محتاجًا ومَوْئله ومَلْجَؤُهُ إلى الغني الحميد ؟!(١) .

جوامع الغِنَىٰ في التوكل :

اجتمع حذيفة المرعشي وسليمان الخواص ويوسف بن أسباط ، فتذاكروا الفقر والغِنى ، وسليمان ساكت ، فقال بعضهم: الغَنيُّ: من كان له بيت يُكِنُّهُ ، وثوبٌ يستره ، وسداد من عيش يكفُّه عن فضول الدنيا . وقال بعضهم : الغنيُّ: من لم يَحْتَجْ إلى الناس . فقيل لسليمان : ما تقول أنت يا أبا أيوب ؟ فبكىٰ ثم قال : رأيت جوامع الغنىٰ في التوكل ، ورأيت جوامع الشَّرِّ في القنوط ، والغنيُّ حق الغنىٰ : من أسكن قلبه إلى الله من غناه يقينًا ، ومن معرفته توكُّلًا ، ومن عطائه وقسمته رضًا ، فذلك الغنيُّ حق الغنىٰ ، وإن أمسىٰ طاويًا ، وأصبح معوزًا . فبكىٰ القوم جميعًا من كلامه .

عن جعفر بن محمد الخلدي قال : « سمعت إبراهيم الخواص يقول : أدبُ التوكل ثلاثة أشياء : صحبة القافلة بالزَّاد ، والجلوس في الزَّوْرق بالزاد ، والجلوس في المجلس بالزاد »(٢) .

---

(١) التوكل لابن أبي الدنيا صـ ٧٠ .
(٢) ثلاث شعب من الجامع ٢ / ١٦٩ .

وسُئل رحمه الله عن التوكل ، فأطرق ساعةً ثم قال : إذا كان المعطي هو المانع فمن يُعْطي ؟!

أبو يعقوب النهرجوري :

قال أبو يعقوب النهرجوري : « أدنى التوكل تركُ الاختيار .

قال : ولا يتوكَّل على الله إلا من عُرف بالولاية والكلاية والكفاية . فلا تتعرَّضوا لأهل التَّوكُّل ، فإنهم صفوة الله وخاصَّته ؛ استضافوه فأضافهم ، ونزلوا عليه فأحسن نُزُلَهم ، وتوكَّلوا عليه فكفاهم ، فهم أغنياء بفقرهم ، وغيرهم فقراء بغناهم ، فمن أنكر التوكل على الله نُسب إلى قِلَّة العلم »[1].

شقيق البلخي :

المتوكِّل على الله قد وَجَدَ الاسترواح :

قال شقيق رحمه الله : « لكل واحدٍ مقام ؛ فمتوكِّل على ماله ، ومتوكل على نفسه ، ومتوكل على لسانه ، ومتوكل على سيفه ، ومتوكل على سَلْطنته ، ومتوكل على الله عز وجل . فأما المتوكل على الله عز وجل فقد وجد الاسترواح ، نوَّه الله به ، ورفع قدره ، وقال : ﴿ **وتوكَّلْ على الحي الذي لا يموت** ... ﴾ الآية [الفرقان : ٥٨] ، وأما مَنْ كان مستروحًا إلى غيره ، يوشك أن ينقطع به فيشقى »[2].

قال رحمه الله : التوكل طمأنينةُ القلب بموعود الله عز وجل .

* * *

---

(١) ثلاث شعب من الجامع ٢ / ١٨١ .

(٢) الجامع لشعب الإيمان .

حـاتم الأصَـمّ :

رِزْقِي لا يَأْكُلُه غَيْرِي :

قيل لحاتم الأصم : عَلَامَ بنيتَ أمرك هذا من التوكل ؟ قال : على أربع خلال : علمتُ أن رزقي لا يأكله غيري ، فلست أهتم به . وعلمت أن عملي لا يعمله غيري ، فأنا مشغولٌ به . وعلمت أن الموت يأتيني بغتةً ، فأنا أُبادِرُه . وعلمتُ أني بعين الله في كل حال ، فأنا مُسْتحٍ منه[1] .

قال رجـل لحاتم الأصم : مـن أين تأكل ؟ فقال : ﴿ **ولله خزائن السمٰوات والأرض ولكنّ المنافقين لا يفقهون** ﴾ [المنافقون : ٧] .

الجُنيد رحمه الله :

قال رحمـه الله : ليس التوكل الكَسْب ولا تَرْك الكسب ، التوكلُ الشيءُ في القلوب .

وقال : إنما هو سكون القلب إلى موعود الله عز وجل .

أبو عثمان الحِيري :

قال رحمه الله في مواعظه : « يا عَبْدَ اللهِ ، في ماذا تُتعب قلبك ، وتنازع إخوانك ، وتعادي على طلب الرِّئاسة والعز أَشْكالك وأَخْدَانك ، وتعمل في هلكة حَسَناتك بالحسد لمن هو فوقك ، كأنك لم تؤمن بما أخبر أنه يُعزُّ من يشاء ، ويُذلُّ من يشاء ، ويؤتي الملك من يشاء ، ويَنْزِعُ الملك ممن يشاء ، فاستعملِ العلمَ في ظاهرك ، إن كنت تاجرًا أو كاسبًا أو زارعًا ، وأَجْمِلْ في الطَّلب ، واترك الحرام والشبهات جميعًا ، فإن نفسًا لن تموت حتىٰ تستوفي رزقها وحظَّها من عِزِّها ورياستها ورزقها . لو هرب العبد من رزقه

(١) الجامع لشعب الإيمان .

لأدركه رزْقُه ، كما لو فرَّ من الموت لأدركه الموت . قال : واليقين لا يمنع المُوقنين من طلب الحظِّ الوافي من الدنيا ، وإنما يدل على تَرْك الفضول رضًا بالقليل ، وزهدًا في الكثير ، اتباعًا لرسول رب العالمين ﷺ ولأصحابه ؛ فإنهم أئمة المتوكِّلين والزَّاهدين ، مع ما وصفنا من الأَمْن بما لَكَ ، والإياس مما ليس لك ، وأنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ومن زعم أن اليقين يمنع طلب القوت والكفاف فقد جهل اليقين ، وخالف سنن السَّلف الصالحين ، فقد تقدَّم في ذلك - مع صدق التوكل - الأنبياء وأتباعهم ، وخلافهم خلاف الحق ، وموافقتهم موافقة الحق ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

البوشـنجي :

قال أبو الحسن علي بن أحمد البوشنجي ، لمَّا سُئِل عن التوكل : « التَّبرئة من حَوْلِك وقوتك ، وحولِ مِثْلك وقوة مثلك »[1].

الكتـاني :

قال الكتاني : التوكل في الأصل اتِّباع العلم ، وفي الحقيقة استعمال اليقين .

أسـود بن سـالم :

الثِّقَةُ الوَرِع الفاضل . روى عن سفيان بن عيينة وحماد بن زيد . كان رحمه الله يشتمر ، فإذا أصاب نصف دانقٍ ، قام وانصرف .

ابن الفرغاني أبو بكر الواسطي :

سئل عن ماهية التَّوكُّل ، فقال : الصبر على طوارق المحن ، ثم التفويض ،

---

(١) ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان للبيهقي صـ ١٧٣ تحقيق د / عبد الإله ابن سلمان الأحمدي .

ثم التسليم ، ثم الرضا ثم الثقة .

وأمَّا صدق التَّوكُّل : فهو صدق الفاقة والافتقار ؛ يعني إلى الله عز وجل .

أبو علي الرّوذباري ومرقاة التَّوكُّل :

قال رحمه الله : مرقاة التوكل ثلاث درجات :

الأول منها : إذا أُعطي شكر ، وإذا مُنِع صبر .

والثاني : المنع والعطاء عنده واحد .

والثالث : المنع مع الشكر أحبُّ إليه بعلمه باختياره ذلك له .

عبد الله بن إدريس بن يزيد :

قال : عجبتُ ممَّن ينقطع إلى رجلٍ ولا ينقطع إلى من له السمٰوات والأرض .

النهرجوري :

قال : المتوكِّل على الحقيقة والصِّحة قد رفع مُؤْنته عن الخلق، فلا يشكو ما به ، ولا يذُمُّ مَنْ منعه ؛ لأنه يرىٰ المَنْع والعطاء من الله عز وجل .

شميط بن عجلان :

قال رحمه الله : إن المؤمن يقول لنفسه : إنما هي ثلاثة أيام ، فقد مضىٰ أمس بما فيه ، وغدًا أملٌ لعلَّك لا تدركه ، إنك إن كنت من أهل غدٍ فإن غدًا يجيء برزقِ غدٍ ، دون غدٍ يومٌ وليلة ، تُخْترمُ فيها أنفسٌ كثيرة ، ولعلَّك المُخْتَرَم فيها ، كفىٰ كلّ يوم همَّه .

إبراهيم بن شيبان :

قال إبراهيم بن شيبان : حُسْن الظن بالله:هو الإياس عن كل شيءٍ

سوىٰ الله عز وجل .

السَّــرِيّ :

عن الجنيد بن محمد قال : سمعتُ السّرِيَّ يذمُّ الجلوس في المسجد ، ويقول : جعلوا مسجد الجامع حوانيتَ ليس لها أبواب .

سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ :

قال سهل رحمه الله : التَّوكُّل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميِّت بين يدي الغاسل يُقلِّبه كيف يريد .

يجول الغِنَى والعِزُّ في كلِّ موطنٍ ليستوطنا قلب المرء إن توكَّلا
وَمَنْ يتوكَّلْ كان مولاه حَسْبَهُ وكان له فيما يُحاول معقلا
إذا رَضِيتْ نفسي بمقدور حظِّها تعالتْ وكانت أفضلَ الناس منزلَا[(١)]

عن عون بن عبد الله قال : بينا رجل في بستان بمصر ، في فتنة ابن الزبير ، مكتئبًا معه شيء ينكُت به في الأرض، إذ رفع رأسه فسنح[(٢)] له صاحب مسحاةٍ[(٣)] ، فقال له : يا هذا ، ما لي أراك مكتئبًا حزينًا ؟ قال : فكأنه ازدراه[(٤)] ، فقال : لا شيء . فقال صاحب المسحاة : أللدنيا ؟! فإن الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منه البرُّ والفاجر ، والآخرة أجَلٌ صادق ، يحكم فيها ملكٌ قادر ، يفصل بين الحق والباطل ؛ حتى ذَكَرَ أن لها مفاصل كمفاصل اللحم ، من أخطأ شيئًا أخطأ الحقّ . فلما سمع ذلك منه كأنه أعجبه ، قال : فقال : لما فيه المسلمون . قال : فإن الله - عز وجل - سيُنجِّيك بشفقتك

(١) التوكل على الله عز وجل ، ابن أبي الدنيا صـ ٥٠ .
(٢) أي : عرض له .
(٣) المسحاة : المجرفة من الحديد .
(٤) أي : احتقره واستصغر شأنه .

على المسلمين ، وسَلْ ، فمن ذا الذي سأل الله - عز وجل - فلم يُعطه ، ودعاه فلم يُجبه ، وتوكَّل عليه فلم يَكْفِهِ ، أو وثق به فلم يُنَجِّه ؟! قال : فَعَلِقت[١] الدعاء : اللهم سلِّمْنِي وسلِّم مِنِّي . فتجلت[٢] ولم تُصب منه أحدًا[٣].

بعض أهل العلم :

« عن محمد بن صالح التيمي ، قال : كان بعض أهل العلم إذا تلا : ﴿ **ومن يتوكَّل علىٰ الله فهو حسبه** ﴾[٤] ، قال : اللَّهمَّ إني سمعتك في كتابك تندب عبادك إلى كفايتك ، وتشترط عليهم التوكُّل عليك ، اللهم وأجد سبيل تلك الندبة سبيلًا قد انمحت دلالتها ، ودُرست ذكراها ، وتلاوة الحجَّة بها ، وأجد بيني وبينك مشبهات تقطعني عنك ، وعوقات تُقعدني عن إجابتك ، اللهم وقد علمتُ أن عبدًا لا يرحل إليك إلا ونالك ؛ فإنك لا تحتجب عن خلقك ، إلا أن تحجبهم الآمالُ دونك ، وعلمت أن أفضل زاد الراحل إليك صبرٌ على ما يؤدِّي إليك ، اللهم وقد ناجاك بعزم الإرادة قلبي ، وأفهمتني حجتك بما تبيَّن لي من آياتك ، اللهم فلا أتحيَّرنَّ دونك وأنا أُؤمِّلك ، ولا أختلجنَّ عنك وأنا أتحرَّاك ، اللهم فأيِّدني منك بما تستخرج به فاقة الدنيا[٥] من قلبي ، وتُنعشني[٦] من مصارع أهوائها ، وتسقيني بكأس للسُّلْوَة[٧]

---

(١) أي : فاغتنمته .
(٢) أي : انكشفت .
(٣) التوكل علىٰ الله عزَّ وجلَّ ، ابن أبي الدنيا صـ ٥٢ . وإسناده صحيح .
(٤) الطلاق : ٣ .
(٥) أي الحاجة إليها .
(٦) أي تنقذني .
(٧) أي : لنسيانها .

عنها ، حتى تستخلصني لأشرف عبادتك ، وتورثني ميراث أوليائك الذين ضربت لهم المنار[١] على قصدك ، وحثثتَهُم حتى وصلوا إليك . آمين رب العالمين »[٢].

حكيم :

قال بعض الحكماء : التوكل على ثلاث درجاتٍ ؛ أوَّلها : تَرْك الشكاية . والثانية : الرضا . والثالثة : المحبة . فترْك الشكاية درجةُ الصبر ، والرضا سكون القلب بما قسم الله عز وجل له ، وهي أرفع من الأولى ، والمحبة أن يكون حبه لما يصنع الله عز وجل به،فالأولى للزاهدين ، والثانية للصادقين ، والثالثة للمرسلين[٣].

وعن السَّرِيّ بن يحيى ، عن **وهيب بن الورد** : أن رجلين كُسر بهما في البحر[٤] فوقعا في الأرض ، فأتيا بيتًا مبنيًّا من شجر فكانا فيه ، فبينما هما ذات ليلة ، أحدهما نائم والآخر يقظان ، إذ جاءت امرأتان فوقفتا على الباب ، بهما من قُبح الهيئة شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل ، فقالت إحداهما للأُخرى : ادخلي . فقالت : ويحك ، إني لا أستطيع . قالت : ويحك ، لِمَهْ ؟ قالت : أوَ ما ترين ما في الباب ؟ فإذا لوح في البيت فيه كتاب[٥] : حسبي الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس من وراء الله مرمى[٦،٧].

---

(١) أي العلامات .

(٢) كتاب التوكل ، ابن أبي الدنيا ، صـ ٨٢ ، هامش ٤٤ .

(٣) التوكل لابن أبي الدنيا صـ ٨٤ .

(٤) كسر بهما سفينة في البحر .

(٥) أي مكتوب فيه .

(٦) في الحلية : منتهى .

(٧) التوكل ، لابن أبي الدنيا صـ ٦٨ وإسناده حسن .

زُهيْر البابّي :

عن ابن أبي الدنيا قال : قال زهير البابي : ما أقدرُ أنْ أقول : توكَّلتُ علىٰ الله .

وفي الحلية : « لا أعلم أني توكَّلْتُ علىٰ الله ساعةً قطُّ » . أي : ما صحَّ له التوكل .

وعن الشعبي قال: تجالَس شتير ومسروق، فقال شتير: سمعت عبد الله- هو ابن مسعود رضي الله عنه - يقول : إنَّ أشدَّ آيةٍ في القرآن تفويضًا : ﴿ **وَمَنْ يتوكَّلْ علىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُه** ﴾ [الطلاق : ٣] ، فقال مسروقٌ : صدقتَ[١] .

وأنشد سعيدُ بن محمد بن سعيد العاقري من قوله :

« صدقَ الكذوبُ و لم يكنْ بصدوقِ ... ما الحرْصُ إلَّا مِنْ طريقِ الموقِ
قد قدَّر اللهُ الأمورَ بعلْمِهِ ... فيها علىٰ المحروم والمرزوقِ
فإذَا طلبتَ فلا إلىٰ متطلّبٍ ... وإذا اتّكَلْتَ فلا علىٰ مخلوقِ
فإذَا اتكلتَ فكنْ بربِّك واثقًا ... لا ما تحصَّل عندكَ الموثوقِ »[٢]

وعن عُقبة بن أبي زينب ، قال : مكتوبٌ في التوراة : « لا توكَّلْ علىٰ ابن آدم ؛ فإنَّ ابن آدم ليس له قوام ، ولكنْ توكلْ علىٰ الله الحيِّ الذي

---

(١) كتاب « التوكل » لابن أبي الدنيا ، صـ ٨٧ ، وإسناده جيد ، وأخرجه الطبراني في الكبير من طريق سعيد بن مسروق عن الشعبي به مطوّلًا ، ولفظُه : أشدُّ آيةٍ في كتاب الله تفويضًا : ﴿ **ومنْ يتّقِ اللهَ يجعلْ لَهُ مَخْرجًا** ... ﴾ الآية [الطلاق : ٢] ، وإسناده صحيح . « كتاب التوكل » لابن أبي الدنيا ، صـ ٨٧ ، هامش ٥٠ .

(٢) « التوكل » لابن أبي الدنيا صـ ٨٨ .

لا يموت »[١].

عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : « الطِّيَرة مِن الشرك ، ولكنَّ اللهَ عز وجلّ يُذهبها بالتوكّل »[٢].

عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « الطِّيَرة شرك - ثلاثًا - وما منّا إلا ولكنّ الله يُذهبه بالتوكل »[٣].

عن العقار بن المغيرة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنِ استرقى واكتوى فقد بَرِئ من التوكُّل »[٤].

---

(١) إسناده جيد ، كتاب التوكل لابن أبي الدنيا صـ ٦٤ .

(٢) أخرجه الطيالسي ، وأحمد ، وابنه عبد الله في السنة ، والطحاوي في المشكل ، وفي شرح المعاني ، والحاكم ، وابن بشران في الأمالي ، والبيهقي في السنن ، والبغوي في شرح السنة من طريق شعبة به ، وإسناده صحيح ، وقد أخرجه المزي في التهذيب من طريق المصنف ، وقال الحاكم : صحيحٌ سندُه ، ورواته ثقات ، وأقرَّه الذهبي . انظرْ كتاب التوكل ، ابن أبي الدنيا صـ ٧٨ هامش ٤١ .

(٣) أخرجه أحمد ، والبخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود ، والترمذي وقال : حسن صحيح . وابن ماجه ، والطحاوي في المشكل ، والبيهقي في السنن وفي الشعب ، والمزي في التهذيب من طريق سفيان به ، وإسناده صحيح ، والحديث صحَّحه العراقي في أماليه ، كما في الفيض ، والمناوي في التيسير .
واعلم أنَّ قوله : « وما منا إلّا ولكنّ اللهَ يُذهبه بالتوكل » - من كلام ابن مسعود - مدرجٌ في الحديث غير مرفوع ، كما نصَّ على ذلك جماعة من الأئمة الكبار ، وهم : سليمان بن حرب ، شيخ البخاري ، والمنذري وابن القيم والهيثمي والحافظ ابن حجر والسيوطي . انظر : « التوكل » لابن أبي الدنيا ، صـ ٧٩ ، هامش ٤٢ ، الجامع لشعب الإيمان ، للبيهقي ، ٨٤ / ٢ .

(٤) إسناده ضعيف ، ومع ذلك فقد حسّن الحديث البغوي ، وصحّحه المناوي في التيسير ، انظر : كتاب التوكل ، لابن أبي الدنيا صـ ٨٠ ، ٨١ ، هامش ٤٣ ، =

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أُلقي إبراهيم ﷺ في النار ، قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقال محمد ﷺ مثلها[١].

وعن أنسِ بن مالكٍ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قال : بسم الله ، توكّلتُ علىٰ الله ، لا حول ولا قوّة إلَّا بالله ، فيُقال له حينئذٍ : كُفيتَ ووُقيتَ ، وتنحّىٰ له الشيطان »[٢].

وعن مجاهدٍ قال : كان يُقال : إذا خرج الرجل من المسجد فلْيَقُلْ : بسم الله ، توكلتُ علىٰ الله ، اللهمَّ إني أعوذُ بكَ مِن شرِّ ما خرجتُ إليه[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « لنْ يَلِجَ الدرجاتِ العُلَىٰ مَن تكهَّن ، أو استقسم ، أو رجع من سَفَرٍ تطيُّرًا »[٤].

= الجامع لشعب الإيمان .

(١) أخرجه البخاري واللفظ له، ومن طريقه البغوي في تفسيره، والنسائي في الكبرىٰ وعمل اليوم والليلة ، والحاكم ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، انظر : التوكل علىٰ الله عز وجل ، ابن أبي الدنيا صـ ٦٦ .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي في عمل اليوم والليلة ، وابن حبان ، وقال الترمذي : حديث صحيح حسن غريب ، لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه ، وقد ذكر الحافظ في تخريج الأذكار له شاهدًا مرسلًا ، من حديث عوْن بن عبد الله . وقال عنه : (قوي الإسناد) فلعلّه يتقوىٰ به ، والله أعلم ، انظر : التوكل على الله عز وجل ، ابن أبي الدنيا ، صـ ٥٥ .

(٣) إسناده صحيح ، وانظر أذكارًا أُخرىٰ في « الأذكار » و« الكلم الطيب » ، التوكُّل على الله عز وجل ، ابن أبي الدنيا ، صـ ٥٧ .

(٤) حسن ، رواه الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء ، ورواه تمام ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم ١١٦١ ، وصحيح الجامع رقم (٥١٠٢) .

التوكُّل أوسعُ وأعلىٰ مِن التفويض :

يرىٰ شيخ الإسلام الهروي أنَّ التفويض أعلىٰ من التوكل ؛ فإنَّ التوكّل بعد وقوع السبب ، والتفويض قبل وقوعه وبعده ، وهو ألطف إشارةً وأوسعُ معنًى من التوكل .

والتفويضُ هو عين الاستسلام ، والتوكّل شعبة منه .

والتفويضُ براءةٌ من الحوْل والقوة ، وتسليم الأمر كلِّه إلى مالكه ، فالمفوِّض يتبرَّأ من الحول والقوة ، ويفوِّض الأمر إلى صاحبه من غير أن يقيمه مقام نفسه في مصالحه ، بخلاف التوكل ؛ فإنَّ الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقام الموكّل .

ويرىٰ شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية أن التوكّل أوسع وأعلىٰ من التفويض ، فإنْ كان التفويض براءةً من الحول والقوة، «كذلك التوكل أيضًا ، وما قدحْتُمْ به في التوكّل ، يردّ عليكم نظيره في التفويض سواء ، فإنّك كيف تفوّض شيئًا لا تملكه ألبتة إلى مالكه ؟! وهل يصحّ أنْ يفوّض واحد من آحاد الرعيّة المُلك إلى مَلِك زمانه ؟!

فالعلّة إذنْ فِي التفويض أعظمُ منها في التوكّل ، بل لو قال قائل : التوكّل فوق التفويض ، وأجلّ منه وأرفع ، لَكَانَ مصيبًا . ولهذا كان القرآن مملوءًا به أمْرًا ، وإخبارًا عن خاصّة الله وأوليائه ، وصفوة المؤمنين ، بأنّ حالَهم التوكلُ . وأمر الله به رسوله في أربعة مواضعَ مِن كتابه[1] ، وسماه

---

(١) بل أكثر من ذلك ؛ قال الله : ﴿ **فإذا عَزَمْتَ فتوكَّلْ علىٰ اللهِ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وقال : ﴿ **فأعرِضْ عنهُمْ وتوكَّل علىٰ اللهِ وكفىٰ باللهِ وكيلًا** ﴾ [النساء : ٨١] . وقال : ﴿ **وإنْ جَنَحُوا للسَّلْم فاجْنَحْ لها وتوكَّل علىٰ اللهِ** ﴾ [الأنفال : ٦١] . وقال : ﴿ **وتوكَّلْ علىٰ العزيزِ الرَّحِيمِ** ﴾ [الشعراء : =

« المتوكّل » ، كما في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « قرأتُ في التوراة صفة النبي ﷺ : محمد رسول الله ، سَمَّيْتُهُ المتوكل ، ليس بِفظٍّ ، ولا غليظ ، ولا سَخَّاب بالأسواق » .

وأخبر عن رسله بأنّ حالَهم كان التوكّل ، وبه انتصروا علىٰ قومهم . وأخبر النبي ﷺ عن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حسَابٍ ، « أنهم أهل مقامِ التوكل » .

ولم يجيء التفويض في القرآن إلّا فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون ، من قوله : ﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ** ﴾ [غافر : ٤٤] ، وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يتّخذه وكيلًا . فقال : ﴿ **ربُّ المشرقِ والمغربِ لا إلـٰهَ إلّا هُو فاتّخِذْهُ وكيلًا** ﴾ [المزمل : ٩] ، وهذا يُبطل قوْل مَن قال مِن جهلة القوم : إنّ توكيلَ الربِّ فيه جَسَارة علىٰ الباري ؛ لأنّ التوكُّل يقتضي إقامة الوكيل مقام الموكّل ، وذلك عيْن الجسارة .

قال : ولولا أنّ الله أباح ذلك وندَب إليه ، لمَا جاز للعبد تعاطيه .

وهذا من أعظم الجهل ؛ فإن اتخاذه وكيلًا هو محضُ العبودية ، وخالص التوحيد ، إذا قام به صاحبه حقيقةً .

ولله دَرُّ سيد القوم ، وشيخ الطائفة سهل بن عبد الله التستري ، إذْ يقول : العلم كلّه بابٌ من التعبُّد ، والتعبُّد كلُّه باب من الورَع ، والورع

= ٢١٧] وقال : ﴿ **فتوكّلْ علىٰ اللهِ إنَّكَ علىٰ الحقِّ المُبِينِ** ﴾ [النمل : ٧٩] . وقال : ﴿ **وتوكّلْ علىٰ اللهِ وكَفَىٰ باللهِ وكيلًا** ﴾ [الأحزاب : ٣] وقال : ﴿ **ودعْ أَذاهُمْ وتوكَّلْ علىٰ اللهِ وكفىٰ باللهِ وكيلًا** ﴾ [الأحزاب : ٤٨] . وقال : ﴿ **فاعبدْهُ وتوكّلْ عليه** ﴾ [هود : ١٢٣] وقال : ﴿ **وتوكلْ علىٰ الحي الذي لا يموتُ** ﴾ [الفرقان : ٥٨] .

كلّه باب من الزهد ، والزهد كله باب من التوكل .

فالذي نذهب إليه : أنّ التوكل أوسع من التفويض ، وأعلىٰ وأرفع .

قوله : « فإنَّ التوكّل بعد وقوع السبب ، والتفويض قبل وقوعه وبعده » .

يعني بالسبب : الاكتساب . فالمُفوِّض قد فوّض أمْره إلى الله قبل اكتسابه وبعده ، والمتوكّل قد قام بالسبب ، وتوكّل فيه علىٰ الله ، فصار التفويض أوسع .

فيقال : والتوكّل قد يكون قبل السبب ومعه وبعده ، فيتوكل علىٰ الله أنْ يقيمَه في سببٍ يُوصله إلى مطلوبه ، فإذا قام به توكّل علىٰ الله حال مباشرته ، فإذا أتمّه توكّل علىٰ الله في حصول ثمراته ، فيتوكل على الله قبله ، ومعه ، وبعده .

فعلى هذا : هو أوسع مِن التفويض على ما ذُكر »[1] .

قال أبو سليمان الداراني : إذا بلغ العبد الغاية مِن الزهد ، أخرجه ذلك إلى التوكّل .

ونختم بقوْل رسولنا ﷺ : « لو أنَّ ابنَ آدم هرَب مِن رزقِهِ كما يهرَب من الموت ، لَأَدركه رزقُه كما يُدركه الموت »[2] .

ولله دَرُّ القائل :

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٣٨ - ١٤١ .

(٢) حسن ؛ رواه أبو نعيم في الحلية عن جابر ، وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٩٥٠ ، وصحيح الجامع رقم ٥١١٦ .

ويَزْعُمُ أنَّهُ منَّا قريبٌ وأنَّا لا نُضَيِّعُ مَنْ أَتانَا
ويَسأَلُنا علىٰ الإقتار جُودًا كأنّا لا نراهُ ولا يَرانا

الثِّقَةُ باللهِ تعالىٰ :

ومن علو الهمّة في التوكّل : الثقة بالله تعالىٰ ، فالثقة سواد عيْن التوكل ، ونقطةُ دائرة التفويض ، وسُويداء قلب التسليم .

والثقة خلاصةُ التوكّل ولبُّه ، كما أنّ سواد العين أشرف ما في العين .

والثقة هي النقطة التي يدور عليها التفويض ، فلو كان التفويض قلبًا ، لَكَانت الثِّقة سويداءَه ، ولو كان عينًا لَكانت سوادَها . والثقة هي رُوح التوكل ، ونسبتها إلى التوكل كنسبة الإحسان إلى الإيمان .

وعنوانها : أَمْن العبد من فَوْتِ المقدور ، وانتقاض المسطور ، فيظفر بروح الرضا ، وإلا فبعين اليقين ، وإلَّا فبلطْف الصبر .

وذلك أنَّ مَن تحقّق بمعرفة الله ، وأنّ ما قضاه الله : فلا مردّ له ألبتة ؛ أَمِن من فوْت نصيبه الذي قسّمه الله له ، وأمِن أيضًا من نقصان ما كتبه الله له ، وسطّره في الكتَاب المسطور ، فيظفر بروح الرضا ، أي براحته ولَذَّته ونعيمه ؛ لأنّ صاحب الرضا في راحة ولَذَّة وسرور ، كما في حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : « إنّ الله - بعدْله وقسطه - جعل الرَّوْح والفرَح في اليقين والرضا ، وجعل الهمَّ والحزَن في الشَّكِّ والسخط » . فإن لم يقدر العبد علىٰ « روح الرضا » ، ظفر « بعين اليقين » ، وهو قوة الإيمان ، ومباشرته للقلب . فإن لم يحصل له هذا المقام ، حصل على « لطْف الصبر » وما فيه من حسْن العاقبة .

فإنِ استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، فإنْ لم تستطع ، فإنَّ في الصبر على ما تكره النفس خيرًا كثيرًا .

وخير مثال على الثقة بالله تعالىٰ وعلوّ الهمة فيها : أُمُّ موسىٰ رضي الله عنها ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [القصص : ٧] . قال ابن القيم : « فإن فعْلَها هذا هو عيْن ثقتها بالله تعالىٰ ، إذْ لولا كمال ثقتها بربِّها ، لَمَا ألقتْ بولدها وفلِذَة كبدها في تيار الماء ، تتلاعب به أمواجه ، وجَرَيَانه إلى حيث ينتهي أو يقف »(١).

لله ما أشرفَ هذا المقام وأحلاه وأعلاه .. إنّ الأُمَّ إذا خافت على ولدها ، ضمَّته إلى صدرها ... ولكنّ أمَّ موسىٰ يُلهمها اللهُ تعالىٰ أن تُلقي بولدها إلى النهر .. ثقةً منها بربِّها ... ويتهادىٰ التابوتُ بالرضيع حتىٰ يصل إلى تحت قصر فرعون .. لتكون المعركة على أرضه .. إنّك تُرسل المئات والآلاف بحثًا عن الرضيع ، وتُذبّح من أجْلِهِ الآلاف من الرجال ، وتستحيي النساء ... فها هو الآنَ في قصرك ... وأطلَّتْ آسيَةُ علىٰ الجمال المُوسَوِيّ الذي زكّي صاحبه بقوله تعالىٰ : ﴿ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** ﴾ [طه : ٣٩] ، فألقىٰ اللهُ محبَّته في قلبِها ، فقالت : ﴿ **قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ** ﴾ [القصص : ٩] ، لِهَوان فرعونَ على الله ، لم يُرسل اللهُ تعالىٰ مع موسىٰ لِحفْظه طائفةً من الملائكة ، وإنما حَمَاه بأَرَقِّ شيءٍ .. سِتْر رقيق من المحبَّة يُغلّف قلبَ آسية ... ونفّذ فرعونُ أمْر آسية . فانظرْ كمْ قتلَ فرعونُ للظفر بموسىٰ ، ولسانُ القدر يقول له : « لا نربِّيه إلَّا في حِجْرك »... ويُحرِّم اللهُ علىٰ موسىٰ المراضعَ ، لِتُرْضِعَه أُمُّه ، ليكون الرَّدُّ كاملًا ﴿ **إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ** ﴾ [القصص : ٧] ... فانظرْ جزاءَ الثقةِ بالله تعالىٰ ... الطمأنينة ﴿ **رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا** ﴾ [القصص : ١٠] ... بعد أنْ كانت تُرضع ولدها علىٰ

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٤٣ .

خَوْف من فرعون وملَائه ، فالآنَ تُرضع بأمْر فرعون ... وثِقَتْ بربِّها ... فكانت تُرضع ولدَها وتأخذ أجْرها ... وما كان هذا أبدًا لأُمٍّ غيرها ...

وردَّ الله إليها ولدها ... وأنعم عليه بالنبوة ، فإنَّ الهديَّة إذا جاءتْ من عند الملك تُضمَّخُ بطِيبِهِ ...

ومن قبلها أُمُّ إسماعيل ، تَثِقُ بربها « إذن لا يضيِّعُنا » . فيرسل الله سيد ملك السماء جبريل ، ليحفُر لها زمزم .

فهلَّا وثقتَ بربِّك ، وملأتَ قلبك فرحًا به ... ولم تترك في قلبك مكانًا خاليًا لمحبَّة سواه ، وردَّدتَ ما قال القائل :

وملأتَ قلبي منكَ حتَّى لم تدعْ ... مني مكانًا خاليًا لِسِوَاكَا
والقلبُ فيكَ هَيَامُه وغرامُهُ ... والروحُ لا تَنفكُّ عَنْ ذِكْراكَا

□ علوُّ الهمَّة في التَّسْلِيم □

« وهو نوعان : تسليم لحكمه الديني الأمري ، وتسليم لحكمهِ الكوني القَدَري .

فأمَّا الأول : فهو تسليم المؤمنين العارفين ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **فلا وربِّكَ لا يُؤمنونَ حتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَينهمْ ثمَّ لا يَجدُوا في أنفسِهِمْ حَرَجًا ممَّا قضيتَ ويسلِّمُوا تسليمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] . فهذه ثلاث مراتب : التحكيم ، وسَعَة الصدر بانتفاء الحَرَج ، والتسليم .

وأما التسليم للحكم الكوني : فمزلّة أقدام ، ومَضَلّة أفهام ، حيّر الأنام ، وأوقع في الخصام . وهي مسألة الرضا بالقضاء .

والتسليم للقضاء يُحمَد إذا لم يُؤمر العبد بمنازعته ودفْعه ، ولم يقدر

علىٰ ذلك ، كالمصائب التي لا قُدرة له على دفعها .

وأمّا الأحكام التي أُمر بدفْعها : فلا يجوز له التسليم إليها ، بل العبودية : مدافعتها بأحكامٍ أُخَر ، أحبَّ إلى الله منها »(١).

إيَّاك وعِلَّةَ التَّسْليم :

يقول الهروي : « وفي التسليم والثقة والتفويض : ما في التوكُّل مِن العلل » .

ويقول ابن القيم شارحًا : « يعني أنّ العلل التي في « التوكل » من معاني الدعوىٰ ، ونسبتُه الشيء إلى نفسه أولًا ، حيث زعم أنه وَكَّل ربَّه فيه ، وتوكَّل عليه فيه ، وجعله وكيله القائم عنه بمصالحه التي كان يحصّلها لنفسه بالأسباب والتصرفات ، وغير ذلك من العلل .

وليس في التسليم إلا علّة واحدة : وهي أن لا يكون تسليمُه صادرًا عن محْض الرضا والاختيار ، بل يَشُوبه كُرْهٌ وانقباض ، فيلسم على نوعِ إغماض . فهذه علة التسليم المؤثّرة . فاجتهد في الخلاص منها »(٢).

أَوَّلُ التَّسْلِيم :

« وأولُ التسليم : أنْ لا تطلب على الحقِّ دليلًا ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصّلت : ٥٣] . فكيف تُحوِج وليَّك وحبيبك إلى أنْ يُقيم لك الدليل علىٰ التوحيد والمعرفة ، بحيث لا تسير إليه حتى يقيمَ لك دليلًا علىٰ وجوده ووحدانيته ، وقدرته ومشيئته ؟! ولو أنّ رجلًا دعاك إلى داره ، فقلتَ للرسول : لا آتي معكَ حتى تُقيم لي الدليل

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٤٦ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ١٤٧ .

علىٰ وجود مَن أرسلك ، وأنَّه مُطاع ، وأنَّه أهلٌ أنْ يُغشىٰ بابُه . لَكُنْتَ في دعوىٰ الفُتوَّة زنيمًا . فكيف بمن وجودُه ووحدانيَّته وقدرته ، وربوبيّته وإلٰهيَّته ، أظهرُ من كلِّ دليل تطلبه ؟! فما مِن دليلٍ يُستدل به ، إلَّا ووحدانيّة الله وكماله أظهر منه ، فإقرارُ الفِطَرِ بالربِّ سبحانه خالق العالم ، لم يُوقفها عليه مُوقِف ، ولم تحتجْ فيه إلى نظر واستدلال ، ولهذا لم تدعُ الرسلُ قطُّ الأممَ إلى الإقرار بالصانعِ سبحانه وتعالىٰ ، وإنما دعَوْهم إلىٰ عبادته وتوحيده ، وخاطَبوهم خطابَ مَن لا شبهة عنده قطّ في الإقرار بالله تعالىٰ ، ولا هو محتاجٌ إلى الاستدلال عليه ، ولهذا ﴿ **قالتْ لهمْ رسلُهُمْ أَفِي اللهِ شكٌّ فَاطِرِ السمٰوَاتِ والأرض** ... ﴾ الآية [إبراهيم : ١٠] ، وكيف يصحُّ الاستدلال علىٰ مدلولٍ هو أظهرُ من دليله ؟! حتىٰ قال بعضهم : كيف أطلب الدليل علىٰ مَن هو دليلٌ على كلِّ شيء ؟! فتقْييد السائر بالدليل وتوقُّفه عليه دليلٌ على عدم يقينه ، بل إنما يتقيّد بالدليل الموصّل له إلى المطلوب بعد معرفته به ؛ فإنه يحتاج بعد معرفته إلىٰ دليل يُوصله إليه ويدلّه على طريق الوصول إليه ، وهذا الدليل هو الرسول ﷺ ، فهو موقوف عليه يتقيَّد به ، لا يخطو خطوةً إلَّا وراءه ﷺ ، فيكون علْمُه ويقينه ونورُ بصيرته ، مغنيًا له عن كثيرٍ من الأدلّة التي يتكلّفها المتكلّفون وأرباب القَال ؛ فإنه مشغول عنها بما هو أهمُّ منها ، وهو الغاية المطلوبة .

مثاله : أنَّ المتكلّمَ يُفني زمانه في تقرير حدوث العالَم ، وإثبات وجود الصانع ، وذلك أمْر مفروغ منه عند السالك الصادق ، صاحب اليقين . فالذي يطلبه هذا بالاستدلال الذي هو عُرضة الشُّبَه والأسئلة والإرادات ، التي لا نهاية لها ؛ هو كشفٌ ويقين للسالك ، فتقييده في سلوكه بحالِ هذا المتكلِّم انقطاعٌ وخروج عن الفتوّة .

وهـذا حقٌّ لا يُنازِع فيه عـارف ، فترىٰ المتكلم يبحث في الزمان

والمكان ، والجواهر والأعراض والأكوان ، وهمّته مقصورة عليها لا يعدوها ، ليصل منها إلى المكوّن وعبوديته .

والسالك قد جاوزها إلى جمْع القلب علىٰ المكون وعبوديته ، بمقتضىٰ أسمائه وصفاته ، لا يلتفتُ إلى غيره ، ولا يشتغل قلبه بسواه .

فالمتكلّم متفرّقٌ مُشتغِل في معرفة حقيقة الزمان والمكان . والعارف قد شحّ بالزمان أنْ يذهب ضائعًا في غير السَّيْر إلى ربِّ الزمان والمكان . فصاحب التسليم لا يتعلّق في سيره بدليل » .

الشُّبهات والشَّهَوات سببُ الانقطاع :

تمامُ التَّسْلِيم :

« وتمام التسليم بالخلاصِ من شُبهة تُعارِض الخبر ، أو شهوة تعارِض الأمر ، أو إرادة تُعارِض الإخلاص ، أو اعتراضٍ يُعارِض القدَر والشرع . وصاحب هذا التخلُّص : هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلَّا مَن أتىٰ الله به ، فإنَّ التسليم ضدُّ المنازَعة .

والمنازَعة : إمَّا بشبهة فاسدة ، تُعارض الإيمان بالخبر عمّا وَصَفَ اللهُ به نفسه من صفاته وأفعاله ، وما أخبر به عن اليوم الآخر ، وغير ذلك . فالتسليم له : تَرْكُ منازعته بشبهات المتكلّمين الباطلة .

وإمّا بشهوةٍ تعارِض أمْر الله عز وجل : فالتسليم للأمر بالتخلُّص منها .

أو إرادة تُعارِض مراد الله من عبده ، فتعارضه إرادة تتعلَّق بمراد العبد من الربّ . فالتسليم : بالتخلّص منها .

أو اعتراضٍ يُعارض حِكْمته في خلقه وأمره ، بأنْ يظنَّ أنَّ مقتضىٰ الحكمة خلافُ ما شرعَ ، وخلاف ما قضىٰ وقدّر . فالتسليم : التخلُّص من

هذه المنازعات كلّها .

وبهذا يتبيّن أنه مِن أجَلّ مقامات الإيمان ، وأعلىٰ طرق الخاصة ، وأنَّ « التسليم » هو مَحْضُ الصِّدِّيقية التي هي بعد درجة النبوة ، وأنَّ أكملَ الناس تسليمًا أكملُهم صِدِّيقية »[1] .

أكملُ التسليمِ تسليمُ الخليلِ وولَدِهِ إسماعيل صلىٰ الله عليهما وسَلَّم :

قال اللهُ مُثنيًا علىٰ خليله إبراهيم ﷺ : ﴿ **إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الصافات : ٨٤] ، سليم ممّا سوىٰ الله عز وجل .. سلّم لربّه كلَّ شيءٍ .. يأمره الله عز وجل بوضْع ولده وزوجته في صحراء ، لا مكان فيها لقطرة ماء أو طعام أو إنسٍ ، فيُسَلِّم ، ويشبُّ ولده النجيب الذي أُعطيه علىٰ الكبر وهو الشيخ الطاعن في السن ، المهاجر من الأهل والقرابة والدار ، فيأمره بذبحه بإشارة في المنام ، وليس أمرًا صريحًا في اليقظة ، فيُسَلِّم ، حتىٰ ولو كان الأمر منامًا ، فكيفي أنه من الله ليسلّم ، ويريد إبراهيم أن يذوق ابنُه جَمَالَ التسليم وحلاوة الرضا ، فيقول لابنه : ﴿ **يا بُني إنّي أرىٰ في المنامِ أنّي أَذْبَحُكَ فانظرْ ماذا ترىٰ** ﴾ فماذا يكون من إسماعيل الحليم ابن الخليل ؟

وهل يُنبتُ الخطِّيَّ إلَّا وشيجُه ... ويُزرَعُ إلَّا فـي مَنَابِتِـهِ النخـلُ

﴿ **قالَ يا أبتِ افعلْ ما تُؤمرُ ستجدُني إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصابرينَ فلمَّا أسلمَا وتلَّهُ للجبين وناديْناهُ أنْ يا إبراهيمُ قدْ صدَّقْتَ الرُّؤْيَا إنَّا كذلكَ نَجزِي المحسنينَ إنَّ هذا لهو البلاءُ المبينُ وفدَيْناهُ بذبحٍ عظيمٍ وتركْنا عليه في الآخرينَ سلامٌ علىٰ إبراهيمَ** ﴾ [الصافات : ١٠٢ - ١٠٩] .

ويبقىٰ هذا الحادث الوحيد الفريد منارةً للتسليم وجماله ، والرضا

---

(١) تهذيب مدارج السالكين صـ ٣٤٨ - ٣٤٩ لعبد المنعم صالح العلي - مكتبة لينة .

ومذاقه الطيِّب ، استحقَّ به إبراهيمُ وولدُه سلامَ الله عز وجل ، يُرقم في السِّجلِّ الخالد ، وكتابهِ المرقوم .

ومن علوّ الهمّة في التسليم : « تسليمُ العلْم إلى الحال . ولا يُراد تحكيمُ الحال علىٰ العلم ، وإنما الانتقال من الوقوف عند صُوَر العلم الظاهرة ، إلى معانيها وحقائقها الباطنة ، وثمراتها المقصودة منها ، مثل الانتقال من محْض التقليد والخبر إلى العيان واليقين ، حتىٰ كأنّه يرىٰ ويشاهد ما أخبر به الرسول ﷺ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ويرىٰ الذينَ أُوتُوا العلمَ الذي أُنزلَ إليكَ من ربِّكَ هُوَ الحقّ** ﴾ [سبأ : ٦] . وقال تعالىٰ : ﴿ **أفمنْ يعلمُ أنَّ مَا أُنزِلَ إليكَ مِن ربِّكَ الحقُّ كَمَنْ هوَ أعمىٰ** ﴾ [الرعد : ١٩] ، فينتقل من العلم إلى اليقين ، ومن اليقين إلى عين اليقين ، ومن علْم الإيمان إلى ذوق طعم الإيمان ووجدان حلاوته ، فإن هذا قدْرٌ زائد على مجرّد علمه ، ومن عِلْم التوكّل إلى حاله ، وأشباه ذلك . فيسلّم العلْمُ إلى الحال الصحيح ، فإنّ سلطان الحال أقوىٰ من سلطان العلم ، فإذا كان الحال مخالِفًا للعلم فهو مَلِكٌ ظالم ، فلْيخرج عليه بسيف العلْم وليُحكّمه فيه .

ومن أعلىٰ التسليم : تسليمُ ما دون الحقِّ إلى الحقّ ، مع السلامة من رؤية التسليم ، بمعاينة تسليم الحقِّ إيَّاك إليه ، أي : ينكشف لك - حين تسلّم ما دون الحقِّ إلى الحقِّ ، وتضمحلُّ الخلائق عند شهود الحقِّ - أنَّ الحقَّ تعالىٰ هو الذي سلّم إلى نفسه ما دونه ، فالحق تعالىٰ هو الذي سلّمك إليه ، فهو المسلِّم وهو المسلَّم إليه ، وأنت آلةُ التسليم ، فمن شهد هذا المشهد وجد ذاته مسلَّمة إلى الحقّ ، وما سلّمها إلى الحقّ غير الحقّ ، فقد سَلِمَ العبد من دعوىٰ التسليم »(١).

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٥٢ .

لا تدبّــرْ لكَ أمــرًا **فأُولو التدبير هلكىٰ**
سَـلِّمِ الأمـرَ تجِدْنَـا نحــنُ أوْلىٰ بِكَ مِنْكَـا

* * *

الفصْلُ السَّابِع

عُلُوُّ الهِمَّةِ

في الرِّضَا

« الرضا مِنْ أعْمَالِ القلوبِ ، نظيرُ الجهادِ مِن أعمالِ الجوارح ، فإنّ كلَّ واحدٍ منهما ذروةُ سنَامِ الإيمان »

[ابن قيّم الجوزية] .

□ علوُّ الهِمَّة في الرِّضا □

الرضا ثمرةٌ من ثمار المحبّة ، وهو من أعلىٰ مقامات المقرّبين ، وحقيقته غامضة علىٰ الأكثرين . وهو باب الله الأعظم ، ومستراحُ العارفين ، وجنة الدنيا ، فجدير بمن نصح نفسه أنْ تشتدّ رغبتُه فيه ، وأن لا يستبدل بغيره منه .

ورضا الله عن العبد أكبرُ من الجنة وما فيها ؛ لأنَّ الرضا صفة الله والجنة خلقُه ، قال تعالىٰ : ﴿ ورِضوانٌ مِنَ اللهِ أكبر ﴾ [التوبة : ٧٢] ، بعد قوْله : ﴿ وعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها ومساكنَ طيبةً في جناتِ عَدْنٍ ورضوان من الله أكبر * ذلكَ هُو الفوزُ العظيم ﴾ . وهذا الرضا جزاءٌ علىٰ رضاهم عنه في الدنيا ، ولمّا كان هذا الجزاء أفضل الجزاء ، كان سببُه أفضل الأعمال .

والسخط باب الهمِّ والغمِّ والحزن وشتات القلب ، وكَسْف البال ، وسُوء الحال، والظنّ بالله خلاف ما هو أهلُه ، والرضا يخلّصه من ذلك كلّه ، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة . فالرضا يُوجب له الطمأنينة وبَرد القلب وسكونه وقراره ، والسخط يُوجب اضطراب قلبه ، وريبته وانزعاجه ، وعدم قراره .

والسُّخط يُوجب تلوُّن العبد ، وعدم ثباته مع الله ، فإنه لا يرضىٰ إلَّا بما يلائم طبعه ونفسه ، والمقادير تجري دائمًا بما يلائمه وما لا يلائمه ، وكلّما جرىٰ عليه منها ما لا يلائمه أسخطه ، فلا تثبُتْ له قدم علىٰ العبودية ، فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات ، استقرَّت قدمُه في مقام العبودية ، فلا يُزيل التلوُّن عن العبد شيءٌ مثلُ الرضا .

والرضا يفرّغ القلب لله ، والسُّخط يُفرّغ القلب من الله ، فإنَّ مَن

ملأ قلبه من الرضا ، ملأ الله صدره غنًى وأمنًا وقناعة ، وفرّغ قلبه لمحبّته والإنابة إليه والتوكُّل عليه ، ومَن فاته حظُّه من الرضا امتلأ قلبه بضدِّ ذلك ، واشتغل عمّا فيه سعادته وفلاحه .

الرضا ذِرْوة سَنام أعمالِ القلوب :

والرضا مِن أَعمال القلوب ، نظير الجهاد من أعمال الجوارح ؛ فإنّ كلَّ واحد منهما ذروةُ سَنام الإيمان . قال أبو الدرداء : « ذروة سَنام الإيمان : الصبر للحكْم ، والرضا بالقدر »(١) .

وبداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من جملة المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال وليست مكتسبة ، فأوَّله مقامٌ ونهايته حالٌ .

وقد مدح الله أهله وأثنىٰ عليهم وندبهم إليه ، فدلَّ ذلك علىٰ أنّه مقدور لهم . وقد قال رسول الله ﷺ: « ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَن رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمدٍ رسولًا »(٢).

وقال رسول الله ﷺ : « مَن قال حين يَسمع المؤذّن : وأنا أشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وَحدَه لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمدًا عبدهُ ورسوله ، رضيتُ بالله ربًّا ، وبمحمد رسولًا ، وبالإسلام دينًا . غفر الله له ما تقدّم من ذنوبه »(٣) .

« وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين ، وإليهما ينتهي . وقد تضمّنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته ، والرضا برسوله ، والانقياد له .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢١٤ .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، عن العباس بن عبد المطلب .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن سعد .

والرضا بدينه ، والتسليم له . ومَن اجتمعت له هذه الأربعة ، فهو الصديق حقًّا ، وهي سهلة بالدعوىٰ واللسان ، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان ، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوىٰ النفس ومرادَها ، من ذلك تبيّن أن الرضا كان لسانه به ناطقًا ، فهو علىٰ لسانه لا علىٰ حاله .

فالرضـا بإلهيته : يتضمن الرضا بمحبته وحده ، وخوفه ، ورجائه ، والإنابة إليه ، والتبتُّل إليه ، وانجذاب قوىٰ الإرادة والحبّ كلها إليه . فعل الراضي بمحبوبه كلّ الرضا . وذلك يتضمّن عبادته والإخلاص له .

والرضا بربوبيّته : يتضمّن الرضا بتدبيره لعبده ، ويتضمّن إفراده بالتوكل عليه ، والاستعانة به ، والثقة به ، والاعتماد عليه . وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به .

فالأول : يتضمن رضاه بما يُؤْمر به ، والثاني : يتضمّن رضاه بما يُقدَّر عليه .

وأما الرضا بنبيّه رسولًا : فيتضمّن كمال الانقياد له ، والتسليم المطلق إليه ، بحيث يكون أولىٰ به من نفسه ، فلا يتلقّىٰ الهدىٰ إلا من مواقع كلماته ، ولا يحاكم إلا إليه ، ولا يحكّم عليه غيره ، ولا يرضىٰ بحكم غيره ألبتة ، لا في شيء من أسماء الربّ وصفاته وأفعاله ، ولا في شيءٍ من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته ، ولا في شيءٍ مِن أحكامِ ظاهره وباطنه ، لا يرضىٰ في ذلك بحكم غيره ، ولا يرضىٰ إلا بحكمه ، فإنْ عجز عنه كان تحكيمُه غيرَه من باب غذاءِ المضطر إذا لم يجد ما يقيتُهُ إلا مِن الميتة والدم ، وأحسن أحواله : أن يكون من باب التراب ، الذي إنما يُتيمَّم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور .

وأما الرضا بدينه : فإذا قال ، أو حكم ، أو أمر ، أو نهى : رضي كل الرضا ، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه ، وسَلَّم له تسليمًا ، ولو كان

مخالفًا لمراد نفسه أو هواها ، أو قوْل مُقلِّده وشيخه وطائفته .

وهاهنا يوحشك الناسُ كلهم إلا الغرباء في العالم ، فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرُّد ، فإنّه واللهِ عينُ العزّة ، والصحبة مع الله ورسوله ، وروح الأنس به ، والرضا به ربًّا ، وبمحمد ﷺ رسولًا ، وبالإسلام دينًا .

بل الصادق كُلّما وجد مسَّ الاغتراب ، وذاق حلاوته ، وتَنَسَّمَ روحه ، قال : اللهمّ زدني اغترابًا ، ووحشة مِن العالم ، وأُنسًا بك ، وكلّما ذاقَ حلاوة هذا الاغتراب وهذا التفرُّد ، رأىٰ الوحشة عيْنَ الأنس بالناس ، والذلَّ عينَ العزِّ بهم ، والجهلَ عينَ الوقوفِ مع آرائهم ، وزِبالة أذهانهم ، والانقطاعَ عينَ التقيد برسومهم وأوضاعهم ، فلم يُؤْثِر بنصيبهِ مِن الله أحدًا من الخلق ، ولم يَبِعْ حظَّه من الله بموافقتهم فيما لا يُجْدِي عليه إلا الحرمان . وغايته : مودَّةَ بينهم في الحياة الدنيا ، فإذا انقطعتِ الأسباب . وَحَقَّتِ الحقائق ، وبُعثِر ما في القبور ، وَحُصِّلَ ما في الصدور ، وبُليتِ السرائر ، ولم يجد مِن دون مولاه الحقّ مِن قوة ولا ناصر : تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران ، وما الذي يَخفُّ أو يرجح به الميزان ، والله المستعان ، وعليه التُّكلان »[1].

« فالرضا كسْبيٌّ باعتبار سببه ، موهبيٌّ باعتبار حقيقته ، فيمكن أنْ يُقال بالكسب لأسبابه ، فإذا تمكّن من أسبابه وغرَس شجرتَه ، اجتنىٰ منها ثمرة الرضا ، فإن الرضا آخر التوكّل ، فمَن رسخ قدمه في التوكّل والتسليم والتفويض ، حصل له الرضا ولا بدّ ، ولكنْ لعزَّته وعدم إجابة أكثَر النفوس له ، وصعوبته عليها - لم يُوجبه الله على خلقه ، رحمة بهم ، وتخفيفًا عنهم ، لكنْ ندبهم إليه ، وأثنىٰ علىٰ أهله ، وأخبر أنّ ثوابَه رضاه عنهم ،

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٧٢ - ١٧٣ .

الذي هو أعظم وأكبر وأجلّ من الجِنان وما فيها ، فمن رضي عن ربِّه رضي الله عنه ، بل رضا العبدِ عن الله من نتائج رضا الله عنه ، فهو محفوف بنوعيْن من رضاه عن عبده : رضًا قبله ، أوجب له أن يرضىٰ عنه ، ورضًا بعده ، هو ثمرة رضاه عنه . ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العارفين ، وحياة المحبّين ، ونعيم العابدين ، وقُرّة عيون المشتاقين .

ومن أعظم أسباب حصول الرضا : أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه ، فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولا بدّ .

قيل ليحيىٰ بن معاذ : متىٰ يبلغ العبد إلى مقام الرضا ؟ فقال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يُعامل به ربَّه ، فيقول : إن أعطيتَني قبلتُ ، وإنْ منعتَني رضيتُ ، وإنْ تركتني عبدتُ ، وإن دعوتَني أجبتُ .

وقال الجنيد : الرضا هو صحّة العلْم الواصل إلى القلب ، فإذا باشَر القلب حقيقة العلم ، أدّاه إلى الرضا .

وليس « الرضا والمحبة » كالرجاء والخوف ؛ فإنّ الرضا والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة ، لا يفارقان المتلبِّس بهما في الدنيا ، ولا في البرزخ ، ولا في الآخرة ، بخلاف الخوف والرجاء ، فإنّهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه ، وأمّنهم مما كانوا يخافونه ، وإن كان رجاؤهم لما ينالون مِن كرامته دائمًا لكنّه ليس رجاءً مشوبًا بشكٍّ ، بل هو رجاءٌ واثق بوعد صادق ، من حبيب قادر ، فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون .

وقال ابن عطاء : الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنَّه اختار له الأفضل ، فيرضىٰ به .

قلت : وهذا رضًا بما منه ، وأما الرضا به : فأعلىٰ من هذا وأفضل ، ففرقٌ بينَ مَن هو راضٍ بمحبوبه ، وبين من هو راضٍ بما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه . والله أعلم »[1].

الهمَّةُ العاليةُ شِيمَتُهَا الرِّضا :

قال ابن القيم رحمه الله : « وطريق الرضا طريق مختصرة ، قريبة جدًّا ، موصّلة إلى أجَلِّ غايةٍ ، ولكن فيها مشقّة ، ومع هذا فليست مشقّتُها بأصعبَ من مشقةِ طريق المجاهدةِ ، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها ، وإنما عقبتها همّة عالية ، ونفسٌ زكيّة ، وتوطين النفس علىٰ كلّ ما يرِد عليها من الله .

ويسهِّل ذلك على العبد : علمُه بضعفه وعَجْزه ورحمته به ، وشفقته عليه ، وبرّه به ، فإذا شهد هذا وهذا ، ولم يطرحْ نفسَه بين يديه ، ويرضىٰ به وعنه ، وتنجذب دواعي حبِّه ورضاه كلها إليه ؛ فنفسه نفسٌ مطرودة عن الله ، بعيدة عنه ، ليست مؤهّلَةً لقرْبه وموالاته ، أو نفس ممتحَنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن .

فطريق الرضا والمحبة : تُسَيِّر العبدَ وهو مستلقٍ على فراشِهِ ، فيصبح أمام الرَّكْب بمراحل .

وثمرة الرضا : الفرح والسرور بالربّ تبارك وتعالىٰ .

ورأيتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية – قدَّس الله روحه – في المنام ، وكأني ذكرتُ له شيئًا من أعمال القلب ، وأخذت في تعظيمه ومنفعته – لا أَذْكرُه الآن – فقال : أمّا أنا فطريقتي : الفرح بالله ، والسرور به ، أو نحو هذا من العبارة .

---

(١) مدارج السالكين ١٧٤ – ١٧٥ .

وهكذا كانت حاله في الحياة ، يبدو ذلك على ظاهره ، ويُنادي به عليه حالُه .

لكن قد قال الواسطي : استعملِ الرضا جهدَك ، ولا تدعِ الرضا يستعملك ، فتكون محجوبًا بلذّته ورؤيته عن حقيقة ما تُطالع .

وهذا الذي أشار إليه الواسطي هو عقبة عظيمة عند القوم ، ومقطع لهم ، فإنَّ مُساكنة الأحوال ، والسكون إليها ، والوقوف عندها ؛ استلذاذًا ومحبة : حجابٌ بينهم وبين ربهم بحظوظهم عن مطالعة حقوق محبوبهم ومعبودهم ، وهي عقبة لا يجوزها إلَّا أولو العزائم .

وكان الواسطي كثير التحذير من هذه العقبة ، شديد التنبيهِ عليها . ومن كلامه : إياكم واستحلاء الطاعات ، فإنها سموم قاتلة .

فهذا معنى قوله : « استعملِ الرضا جهدك ، ولا تدعِ الرضا يستعملك » . أي : لا يكون عملك لأجلِ حصول حلاوة الرضا ، بحيث تكون هي الباعثة لك عليه ، بلِ اجعْله آلةً لك وسببًا موصِّلًا إلى قصدك ومطلوبك ، فتكون مستعملًا له ، لا أنه مستعملٌ لك .

وهذا لا يختصُّ بالرضا ، بل هو عامٌّ في جميع الأحوال والمقامات القلبية ، التي يسكن إليها القلب ، حتى إنه أيضًا لا يكون عاملًا على المحبّة لأجْل المحبة ، وما فيها من اللذة والسرور والنعيم به ، بل يستعمل المحبة في مرضاة المحبوب ، لا يقف عندها ، فهذا من عِلل المحبة .

وقال ذو النون : ثلاثة من أعلام الرضا : تركُ الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحبّ في حشو البلاء .

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما : إنّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه يقول : الفقر أحبُّ إليّ من الغنى ، والسقم أحبُّ إليّ من الصحة . فقال :

رحِمَ الله أبا ذر ، أمَّا أنا ، فأقول : مَن اتّكل على حُسْن اختيار الله له ، لم يتمنَّ غير ما اختار الله له .

وقال الفضيل بن عِياض لبشْر الحافي : الرضا أفضل من الزهد في الدنيا ؛ لأن الراضي لا يتمنىٰ فوق منزلته .

وسئل أبو عثمان عن قوْل النبي ﷺ : « أسألك الرضا بعد القضاء » . فقال : لأنَّ الرضا قبل القضاء عزمٌ على الرضا ، والرضا بعد القضاء هو الرضا .

وقيل : الرضا ارتفاع الجزَع في أيِّ حكمٍ كان .

وقيل : رفع الاختيار . وقيل : استقبال الأحكام بالفرح .

وقيل : سكونُ القلب تحت مجاري الأحكام .

وقيل : نظرُ القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، وهو ترك السخط .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسىٰ رضي الله عنهما : « أما بعد ، فإنّ الخير كلّه في الرضا ، فإنِ استطعتَ أنْ ترضىٰ ، وإلَّا فاصبر » .

وقال أبو عليّ الدقَّاق : الإنسان خزف ، وليس للخزف من الخطر ما يعارض فيه حكم الحقِّ تعالىٰ .

وقال أبو عثمان الحيري : منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حالٍ فكرهتُه ، وما نقلني إلى غيره فسخطتُه .

والرضا ثلاثة أقسام : رضا العوامِّ بما قسَمه الله وأعطاه . ورضا الخواصِّ بما قدّره وقضاه ، ورضا خواصِّ الخواصِّ به بدلًا من كلّ ما سواه »[1].

* * *

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٧٥ - ١٧٧ .

الرِّضا خروجٌ عن الحُظوظ ، ووُقوفٌ صادقٌ مع مُراد اللهِ :

قال تعالىٰ : ﴿ **يَٰأَيَّتُهَا النفسُ المطمئنةُ ارجعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً فَادْخُلِي في عِبَادي وادْخلي جَنَّتِي** ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

اعلم يا أخي أنَّ أولَ الرضا خروجٌ عن الحظوظ ، والرضا هو الوقوف الصادق مع مراد الله تبارك وتعالىٰ الديني حقيقةً ، من غير تردُّد في ذلك ولا معارضة ، وهـذا مطلوب القوم السابقـين ، وهو الوقوف الصادق مع محابِّ الربِّ تعالىٰ ، من غير أنْ يشوبَ ذٰلك تردُّدٌ ، ولا يزاحمه مراد .

يقف العبد حيثما وقفه ربُّه ، لا يطلب تقدُّمًا ولا تأخُّرًا ، وهذا إنما يكون فيما يَقِفه فيه من مراده الكوني الذي لا يتعلَّق بالأمر والنهي ، وأمَّا إذا وقَفه في مراد ديني ، فكماله بطلب التقدُّم فيه دائمًا ، فإنّه إنْ لم تكن همّته التقدُّم إلى الله في كلِّ لحظة ، رجع من حيث لا يدري ، فلا وقوف في الطريق ألبتة ، ولكن إذا وقف في مقامٍ - من الغنىٰ والفقر ، والراحة والتعب ، والعافية والسقم ، والاستيطان ومفارقة الأوطان - يقف حيث وقفه ، لا يطلب غير تلك الحالة التي أقامه الله فيها ، وهذا لتصحيح رضاه باختيار الله له ، والفناء به عن اختياره لنفسه .

أرفعُ الرِّضا : الرِّضا باللهِ ربًّا ، وهو أعلىٰ مِنَ الرِّضَا عن الله :

الرضا بالله ربًّا ، وتسخّط عبادة ما دونه : قَطْبُ رحىٰ الإسلام .

الرضا بالله ربًّا: أنْ لا يتخذ رَبًّا غير الله تعالىٰ يسكن إلى تدبيره ، ويُنزل به حوائجه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبغي رَبًّا وَهوَ ربُّ كلِّ شيءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما : « سَيِّدًا وإلـٰهًا » . يعني : فكيف أطلب رَبًّا غيره ، وهو ربُّ كلّ شيءٍ ؟! وقال في أول السورة : ﴿ **قُلْ أَغيرَ اللهِ أتخذُ وليًّا فاطرِ السمٰوات والأرضِ** ﴾ [الأنعام : ١٤] .

يعني معبودًا وناصرًا ومُعينًا ومَلجأً . وهو من الموالاة التي تتضمَّن الحبّ والطاعة . وقال في وسطها : ﴿ **أَفغيرَ اللهِ أَبتَغِي حَكَمًا وهو الذي أنزلَ إليكُمُ الكتابَ مُفَصَّلًا** ﴾ [الأنعام : ١١٤] . أي : أفغير الله أبتغي مَنْ يحكم بيني وبينكم ، فنتحاكَمُ إليه فيما اختلفنا فيه ؟! وهذا كتابه سيّد الحكّام ، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه ، وقد أنزله مفصَّلًا ، مبينًا كافيًا شافيًا ؟!

وأنت إذا تأملتَ هذه الآيات الثلاث حقَّ التأمُّل ، رأيتَها هي نفس الرضا بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا ، ورأيتَ الحديث يترجم عنها ، ومشتقٌّ منها ، فكثير من الناس يرضىٰ بالله ربًّا ، ولا يبغي ربًّا سواه ، لكنّه لا يرضىٰ به وحدَه وليًّا وناصرًا ، بل يُوالي من دونه أولياء ، ظنًّا منه أنهم يقرّبونه إلى الله ، وأنَّ موالاتهم كموالاة خواصّ الملك ، وهذا عيْنُ الشِّرْك . بل التوحيد : أن لا يتخذ من دونه أولياء ، والقرآن مملوء من وَصْف المشركين بأنهم اتخذوا مِن دونه أولياء .

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله ، وعباده المؤمنين فيه ؛ فإنَّ هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته ، فموالاة أوليائه لوْن ، واتخاذ الوليّ مِن دُونه لوْن ، ومَن لم يفهمِ **الفُرقان** بينهما ، فليطلبِ التوحيد من أساسه ، فإنّ هذه المسألة أصلُ التوحيد وأساسه .

وكثير من الناس يبتغي غيرَه حَكَمًا ، يتحاكَم إليه ، ويخاصم إليه ، ويرضىٰ بحكمه ، وهذه المقامات الثلاث هي أركانُ التوحيد : أن لا يتخذ سواه رَبًّا ، ولا إلـٰهًا ، ولا غيره حَكَمًا .

وتفسير الرضا بالله رَبًّا : أنْ يسخط عبادةَ ما دونه . هذا هو الرضا بالله إلـٰهًا ، وهو من تمام الرضا بالله ربًّا ، فمن أعطىٰ « الرضا به رَبًّا » حَقَّهُ ، سَخِطَ عبادةَ ما دونه قطعًا ؛ لأنَّ الرضا بتجريد ربوبيّته يستلزم تجريد عبادته ،

كما أنّ العلم بتوحيد الربوبيّة يستلزم العلم بتوحيد الإلٰهية .

ومدارُ رحىٰ الإسلام علىٰ أنْ يرضىٰ العبد بعبادة ربِّه وحده ، وأن يسخطَ عبادة غيره .

قال الهروي : « وهو يصحُّ بثلاثة شروط : أنْ يكون الله عز وجل أحبَّ الأشياءِ إلى العبد ، وأوْلَىٰ الأشياء بالتعظيم ، وأحقَّ الأشياءِ بالطاعة » .

قال ابن القيم : « يعني أنّ هذا النَوْعَ من الرضا إنما يصحُّ بثلاثة أشياء أيضًا :

أحدها : أن يكون الله عز وجلَّ أحبَّ شيءٍ إلى العبد . وهذه تُعرف بثلاثةِ أشياء أيضًا :

أحدها : أن تَسبق محبَّتهُ إلى القلب كلَّ محبة ، فتتقدَّم محبّته المحابَّ كلّها .

الثاني : أن تَقْهر محبَّته كلَّ محبَّة . فتكون محبّته إلى القلب سابقة قاهرة ، ومحبّة غيره متخلّفة مقهورة مغلوبة منطوية في محبَّته .

الثالث : أن تكون محبّة غيره تابعةً لمحبته . فيكون هو المحبوب بالذات ، والقصد الأول ، وغيره محبوبًا تبعًا لحبه ، كما يُطاع تبعًا لطاعته ، فهو في الحقيقة المَطاع المحبوب .

وهذه الثلاثة في كونه أولىٰ الأشياء بالتعظيم والطاعة أيضًا .

فالحاصل : أن يكون الله وحده المحبوب المعظّم المطاع ، فمن لم يحبَّه ، ولم يطعْه ، ولم يعظِّمه : فهو متكبِّر عليه . ومتىٰ أحبَّ معه سواه ، وعظَّم معه سواه ، وأطاع معه سواه : فهو مشرك . ومتىٰ أفرده وحده بالحبِّ والتعظيم والطاعة: فهو عبد موحِّد . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

والرضا بالله أعلىٰ شأنًا وأرفعُ قدرًا من الرضا عن الله في أحكامه

وأقضيته ؛ فإنّها مختصّة ، والرضا عن الله مشترك ، فإنّ الرضا بالقضاء يصحّ من المؤمن والكافر ، وغايته التسليم لقضاء الله وقدره ، فأينَ هذا من الرضا به ربًّا وإلـٰهًا ومعبودًا ؟!

والرضا به ربًّا فرضٌ ، بل هو من آكَدِ الفروض باتِّفاق الأُمَّة ، فمن لم يرضَ به ربًّا ، لم يصحَّ له إسلامٌ ولا عملٌ ولا حال .

وأما الرضا بقضائه : فأكثر الناس على أنه مستحبٌّ وليس بواجب ، وقيل : بل هو واجب . وهما قولانِ في مذهب أحمد .

فالفرق بين الدرجتيْن فرقُ ما بيْن الفرضِ والنَّدْب . وفي الحديث الإلـٰهي الصحيح: « يقول الله عز وجل : ما تقرّب إليَّ عبدِي بمثل أداء ما افترضتُ عليه » . فدلَّ علىٰ أنَّ التقرُّب إليه سبحانه بأداء فرائضه أفضل وأعلىٰ من التقرُّب إليه بالنوافل .

وأيضًا : فإنّ الرضا به ربًّا يتضمَّن الرضا عنه ويستلزمه ؛ فإنّ الرضا بربوبيته : هو رضا العبد بما يأمره به وينهاه عنه ، ويقسّمه له وَيُقَدِّره عليه ، ويُعطيه إياه ويمنعه منه . فمتىٰ لم يرضَ بذلك كلّه ، لم يكن قد رضي بالله ربًّا من جميع الوجوه . وإن كان راضيًا به ربًّا من بعضها . فالرضا به ربًّا من كلّ وجهٍ : يستلزم الرضا عنه ، ويتضمَّنه بلا ريبٍ .

وأيضًا : فالرضا به ربًّا متعلّق بذاته وصفاته وأسمائه ، وربوبيته العامّة والخاصّة . فهو الرضا به خالقًا ومدبِّرًا ، وآمرًا وناهيًا ، وملِكًا ومعطيًا ومانعًا ، وحكمًا ، ووكيلًا ووليًّا ، وناصرًا ومعينًا ، وكافيًا وحسيبًا ورقيبًا ، ومبتليًا ومعافيًا ، وقابضًا وباسطًا ، إلى غير ذلك من صفات ربوبيّته .

وأما الرضا عنه : فهو رضا العبد بما يفعله به ، ويُعطيه إياه . ولهذا لم يجئ إلا في الثواب والجزاء ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **يَـٰأَيَّتُهَا النفسُ المطمئنةُ** ﴾

ارجعي إلىٰ ربِّك راضيةً مَرْضيةً ﴾ [الفجر : ٢٧ ، ٢٨] . فهذا برضاها عنه لِمَا حصل لها من كرامته ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **خالدينَ فيهَا أبدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عنهُ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ [البينة : ٨] .

والرضا به : أصل الرضا عنه ، والرضا عنه : ثمرة الرضا به .

وسرُّ المسألة : أنّ الرضا به متعلّق بأسمائه وصفاته ، والرضا عنه : متعلّق بثوابه وجزائه .

وأيضًا : فإنَّ النبي ﷺ علّق ذوْق طعْم الإيمان بمَن رضي بالله ربًّا ، ولم يعلِّقه بمَن رضي عنه ، كما قال ﷺ : « ذاقَ طعمَ الإيمان مَن رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا » . فجعل الرضا به قرينَ الرضا بدينه ونبيّه ، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام ، التي لا يقوم إلا بها وعليها .

وأيضًا : فالرضا به ربًّا يتضمَّن توحيده وعبادته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، وخوفه ورجاءه ومحبته ، والصبر له وبه . والشكر على نعمه : يتضمَّن رؤية كلّ ما مِنْهُ نعمةً وإحسانًا ، وإن ساء عبدَهُ . فالرضا به يتضمَّن « شهادة أن لا إلٰه إلا الله » ، والرضا بمحمد رسولًا يتضمَّن « شهادة أن محمدًا رسول الله » ، والرضا بالإسلام دينًا : يتضمَّن التزام عبوديته ، وطاعته وطاعة رسوله . فجمعت هذه الثلاثة الدين كلَّه .

وأيضًا : فالرضا به ربًّا يتضمَّن اتخاذه معبودًا دون ما سواه ، واتخاذه وليًّا ومعبودًا ، وإبطال عبادة كل ما سواه . وقد قال تعالىٰ لرسوله : ﴿ **أفغيرَ اللهِ أبتغي حَكَمًا** ﴾ [الأنعام : ١١٤] . وقال : ﴿ **أَغيرَ اللهِ أتخذُ وليًّا** ﴾ [الأنعام : ١٤] . وقال : ﴿ **قُلْ أغيرَ اللهِ أبغي ربًّا وهُو ربُّ كلِّ شيءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٦٤] . فهذا هو عين الرضا به ربًّا .

وأيضًا : فإنّه جعل حقيقة الرضا به رَبًّا : أن يسخط عبادة ما دونه . فمتىٰ سخط العبد عبادة ما سوىٰ الله من الآلهة الباطلة ، حبًّا وخوْفًا ، ورجاءً وتعظيمًا ، وإجلالًا – فقد تحقّق بالرضا به ربًّا ، الذي هو قطْب رحىٰ الإسلام .

وإنما كان قطبَ رحىٰ الدين ؛ لأنَّ جميع العقائد والأعمال ، والأحوال : إنما تنبني علىٰ توحيد الله عز وجل في العبادة ، وسخْط عبادة ما سواه ، فمَن لم يكنْ له هذا القطْب ، لم يكنْ له رَحَىٰ تدور عليه ، ومَن حصل له هٰذا القطْب ، ثبتتْ له الرحىٰ ، ودارت علىٰ ذلك القطب ، فيخرج حينئذ مِن دائرة الشرك إلى دائرة الإسلام ، فتدور رحىٰ إسلامه وإيمانه على قطْبها الثابت اللازم .

وأيضًا : فإنّه جعل حصول هذه الدرجة مِن الرضا موقوفًا علىٰ كون المرضيِّ به ربًّا – سبحانه – أحبَّ إلى العبد مِن كلّ شيء ، وأولىٰ الأشياء بالتعظيم ، وأحقَّ الأشياء بالطاعة ، ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية ، وينتظم فروعها وشُعَبها .

ولمّا كانت المحبّةَ التامّة ميلَ القلب بكلّيّته إلى المحبوب ، كان ذلك الميل حامِلًا على طاعته وتعظيمه ، وكلّما كان الميْلُ أقوىٰ ، كانت الطاعة أتمَّ ، والتعظيم أوفرَ . وهذا الميل يُلازم الإيمان ، بل هو رُوح الإيمان ولُبُّه ، فأي شيءٍ يكون أعلىٰ من أمرٍ يتضمَّن أنْ يكون الله سبحانه أحبَّ الأشياء إلى العبد ، وأولىٰ الأشياء بالتعظيم ، وأحقَّ الأشياء بالطاعة ؟!

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان ؛ كما في الصحيح عنه ﷺ ، أنه قال : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجدَ حلاوة الإيمان : مَن كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما ، ومَن كان يحبّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، ومَن كان يكره

أن يرجع إلى الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقىٰ في النار » .

فعلّق ذوق الإيمان بالرضا بالله ربًّا ، وعلّق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه ، ولا يتمّ إلا به ، وهو كونه سبحانه أحبَّ الأشياء إلى العبد هو ورسولُه .

ولمّا كان هذا الحبُّ التامّ ، والإخلاص - الذي هو ثمرته - أعلىٰ من مجرَّد الرضا بربوبيته سبحانه ، كانت ثمرته أعلىٰ ، وهي وَجْد حلاوة الإيمان . وثمرة الرضا : ذوْق طعْم الإيمان ، فهذا وَجْدُ حلاوة ، وذلك ذوْق طعمٍ . والله المستعان .

وإنما ترتّب هذا وهذا علىٰ الرضا به وحده ربًّا ، والبراءة من عبودية ما سواه ، ومَيْل القلب بكلّيّتهِ إليه ، وانجذاب قُوَىٰ المحبِّ كلِّها إليه . ورضاه عن رَبِّه تابعٌ لهذا الرضا به . فمن رضي بالله ربًّا ، رضيه اللهُ له عبدًا . ومن رضي عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته ، لم ينل بذلك درجة رضا الرب عنه ، إن لم يرضَ به ربًّا ، وبنبيّه رسولًا ، وبالإسلام دينًا . فإن العبد قد يرضىٰ عن الله ربِّه فيما أعطاه وفيما منعه ، ولكن لا يرضىٰ به وحده معبودًا وإلـٰهًا . ولهذا إنما ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضي به ربًّا . كما قال النبي ﷺ : « مَنْ قال كلَّ يوم : رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد نبيًّا ، إلَّا كان حقًّا علىٰ الله أنْ يُرضيه يوم القيامة »(١) .

وبالرِّضا نَطَقَ التنزيل :

قال تعالىٰ : ﴿ **هذا يومُ ينفع الصادقين صدقهم لهم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز**

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٨١ - ١٨٧ .

العظيم ﴾ [المائدة : ١١٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربَّه** ﴾ [البينة : ٨] .

فتضمَّنتْ هذه الآياتُ جزاءَهم على صدقهم وإيمانهم ، وأعمالهم الصالحة ، ومجاهدة أعدائه ، وعَدَم ولايتهم ، بأن رضي الله عنهم فأرضاهم ، فرضوا عنه . وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به ربًّا ، وبمحمد ﷺ نبيًّا ، وبالإسلام دينًا .

الرضا بالله ، والرضا عن الله ، والرضا بقضاء الله :

الرضا به فَرْض ، والرضا عنه ، وإن كان من أجَلِّ الأمور وأشرف أنواع العبودية ، فلم يُطالب به العمومَ لعجزهم ومشقَّته عليهم ، وأوجبتْهُ طائفةٌ ، كما أوجبوا الرضا به . والرضا بالقضاء من مقامات الصِّدِّيقين ، وفيه تفصيلٌ ، فاختيار الرب تعالىٰ لعبده نوعان ؛ أحدهما : اختيار ديني شرعي . فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سَيِّدُه . قال تعالىٰ : ﴿ **وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضىٰ الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ...** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . فاختيار العبدِ خلافَ ذلك ، مُنافٍ لإيمانه وتسليمه ، ورضاه بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا . النوع الثاني : اختيارٌ كونيٌّ قَدَرِيّ ، لا يسخطه الرب ، كالمصائب التي يبتلي الله بها عبده ، فهذا لا يضرُّه فِراره منها إلى القَدَر الذي يرفعها عنه ، ويدفعها ويكشفها . وليس في ذلك مُنازَعة للربوبية ، وإن كان فيه

منازعة للقَدَر بالقَدَر . فهذا يكون تارةً واجبًا ، وتارةً يكون مستحبًّا ، وتارة يكون مباحًا مستوي الطرفيْن ، وتارة يكون مكروهًا ، وتارة يكون حرامًا . وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه ، مثل قَدَر المعائب والذنوب ، فالعبد مأمور بسخطها ، ومنهيٌّ عن الرضا بها . وهذا هو التفصيل الواجب في الرضا بالقضاء .

وقد اضطرب الناس في ذلك اضطرابًا عظيمًا ، ونجا منه أصحاب الفَرْق والتفصيل .

والذي يكشف هذه الغمة ، ويُبصِّر من هذه العماية ، ويُنجِّي من هذه الورطة إنما هو التفريقُ بين ما فرَّق الله بينه ، وهو المشيئة والمحبة ، فإنهما ليسا واحدًا ، ولا هما متلازميْن ، بل قد يشاء ما لا يحبه ، ويحب ما لا يشاء كوْنه . فالأول : كمشيئته لوجود إبليس وجنوده ، ومشيئته العامّة لجميع ما في الكون ، مع بغضه لبعضه . والثاني : كمحبَّته إيمان الكفار ، وطاعات الفُجّار ، وعدْل الظالمين ، وتوبة الفاسقين . ولو شاء ذلك ، لوجِد كلُّه، وكان جميعُه ، فإنه ما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكُن. فإذا تقرَّر هذا الأصل ، وأن الفِعْلَ غيرُ المفعول ، والقضاءَ غيرُ المقضيّ ، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه – زالت الشبهاتُ وانحلَّتِ الإشكالاتُ ، ولله الحمد . ولم يبق بين شَرْع الرَّبِّ وقَدَره تناقض ، بحيث يُظنّ إبطالُ أحدهما للآخر ، بل القَدَر ينصرُ الشَّرْع ، والشرع يُصَدِّق القدر ، وكلٌّ منهما يُحقِّق الآخر . إذا عُرف هذا ، فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجبٌ ، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان ، فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرجٍ ولا منازعة ، ولا معارضةٍ ولا اعتراض . قال الله تعالىٰ : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويُسلِّموا تسليمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] .

فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكِّموا رسوله ﷺ ، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حُكمه ، وحتى يُسلِّموا لحُكمه تسليمًا . وهذا حقيقة الرضا بحُكمه .

فالتحكيم : في مقام الإسلام . وانتفاء الحرج : في مقام الإيمان . والتسليم : في مقام الإحسان .

ومتىٰ خالطَ القلبَ بشاشةُ الإيمان ، واكتحلتْ بصيرتُه بحقيقة اليقين ، وحيي برُوح الوحي ، وتمهَّدتْ طبيعتُه ، وانقلبت النفسُ الأمَّارةُ مطمئنةً راضية وادعة ، وتلقَّى أحكام الرَّبِّ تعالىٰ بصدرٍ واسع منشرح مسلِّم - فقد رضي كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله . والرضا بالقضاء الكوني القدري ، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه - من الصحة ، والغنىٰ ، والعافية ، واللَّذَّة - أمرٌ لازم بمقتضىٰ الطبيعة ؛ لأنه ملائم للعبد ، محبوبٌ له ، فليس في الرضا به عبودية ، بل العبودية في مُقابلته بالشُّكر ، والاعتراف بالمنَّة ، ووضْع النعمة مواضعها التي يحب الله أن تُوضع فيها ، وأن لا يعصي المنعم بها ، وأن يرىٰ التقصير في جميع ذلك . والرضا بالقضاء الكوني القدري ، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته ، مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره - مستحبٌّ . وهو من مقامات أهل الإيمان ، وفي وجوبه قولان . وهذا كالمرض والفقر ، وأذَى الخلْق له ، والحر والبرد ، والآلام ونحو ذلك . والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره ، مما يكرهه الله ويسخطه ، وينهىٰ عنه ، كأنواع الظلم والفسوق والعصيان - حرامٌ يُعاقب عليه ، وهو مخالفة لربه تعالىٰ ؛ فإن الله لا يرضىٰ بذلك ولا يحبه ، فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه ؟! فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء[1] .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٨٧ - ١٩٣ .

الرضا عن الله يصحُّ بثلاثة شروط :

الأول : استواء النعمة والبليَّة عند العبد ؛ لأنه يشاهد حُسن اختيار الله له .

الثاني : سقوط الخصومة عن الخلْق ، إلَّا فيما كان حقًّا لله ورسوله ، فالراضي لا يُخاصم ولا يُعاتب إلَّا فيما يتعلّق بحق الله ، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ ، فإنه لم يكن يخاصم أحدًا ولا يُعاتبه إلَّا فيما يتعلَّق بحق الله ، كما أنه كان لا يغضب لنفسه ، فإذا انتُهكتْ محارمُ الله لم يقُم لغضبه شيءٌ حتى ينتقم لله . فالمخاصمة لحظِّ النَّفْس تُطفئ نور الرضا وتُذهب بهجته ، وتُبدِّل بالمرارة حلاوته ، وتُكدِّر صَفْوه .

والشرط الثالث : الخلاص من المسألةِ للخلْق والإلحاح . قال تعالى : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياءَ من التَّعفُّف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا** ﴾ [البقرة : ٢٧٣] . قال ابن عباس : إذا كانَ عنده غداء لم يسأل عشاءً ، وإذا كان عنده عشاء لم يسأل غداءً .

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ ، فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : « يا حكيم ، إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلوة ، فمن أخذه بسخاوةِ نَفْسٍ ، بُورك له فيه . ومن أخذه بإشرافِ نفسٍ ، لم يُبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع . واليدُ العُلْيا خيرٌ من اليد السُّفلى » . قال حكيم : فقلت : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ، لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أُفارق الدنيا . وكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيمًا إلى العطاء ، فيأبى أن يقبله منه . ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه ، فأبى أن يقبل منه شيئًا ، فقال عمر : إني أُشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم : أني أعرضُ عليه حقَّه من هذا الفيء ، فيأبى أن يأخذه .

فلم يَرْزأ حكيم - رضي الله عنه - أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي . متفق على صحته .

وعن أبي مسلم الخَوْلاني رضي الله عنه قال : حدَّثني الحبيب الأمين - أمّا هو : فحبيب إليَّ ، وأمّا هو عندي : فأمين ؛ عوف بن مالك الأشجعي - رضي الله عنه قال : « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة - أو ثمانية ، أو سبعة - فقال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » . وكنا حديثي عهدٍ ببيعته ، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله . ثم قال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » . فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله . ثم قال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » . قال : فبسطنا أيدينا ، وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلامَ نبايعكَ ؟ قال : « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، والصلوات الخمس ، وتطيعوا الله - وأسَرَّ كلمةً خفيَّة - ولا تسألوا الناس شيئًا ». فلقد رأيتُ بعض أولئك النفر يسقط سوْط أحدهم ، فما يسأل أحدًا يناوله إيّاه » . رواه مسلم .

وعن ثوبانَ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن يتقبّل لي بواحدة ، وأتقبل له بالجنة ؟ » قلت : أنا . قال : « لا تسألِ الناس شيئًا » . فكان ثوبان يقعُ سوطه ، وهو راكب ، فلا يقول لأحد : ناولنيه . حتى ينزل هو فيتناوله . رواه الإمام أحمد وأهل السنن .

تَذْكِرة لعُلاة الهمَّة :

مراتب الرضا عن الله،والرحمة عند المصائب :

قد تنزل بالإنسان مصيبة كموت ولدٍ ، فيبكي رحمةً للصَّبِّي ، وهذا لا يُنافي مقام الرضا ، فقد بكى رسول الله ﷺ يوم مات ابنه إبراهيم ، وأخبر أن القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول إلَّا ما يُرضي الرَّبّ .

والرسول ﷺ في أعلى مقامات الرضا . وأقل منه درجة الفضيل بن

عياض ، لما مات ابنه رُئِيَ في الجنازة ضاحكًا ، فقيل له : أتضحك وقد مات ابنك ؟ فقال : إن الله قضىٰ بقضاءٍ ، فأحببت أن أرضىٰ بقضائه .

والتحقيق : أن قلب رسول الله ﷺ اتّسع لتكميل جميع المراتب ، من الرضا عن الله ، والبكاء رحمةً للصبي ، فكان له مقام الرضا ، ومقام الرحمة ورقَّة القلب . والفضيل لم يتَّسع قلبه لمقام الرضا ومقام الرحمة ، فلم يجتمع له الأمران . والناس في ذلك على أربع مراتب : أحدها : من اجتمع له الرضا بالقضاء ورحمة الطفل ، فدمعت عيناه رحمةً والقلب راضٍ . الثاني : من غَيَّبه الرضا عن الرحمة ، فلم يتَّسِع للأمرين ، بل غيَّبه أحدُهما عن الآخر . والثالث : من غيَّبتْه الرحمة والرِّقّة عن الرضا فلم يشهدْه ، بل فني عن الرضا . الرابع : من لا رضا عنده ولا رحمة ، وإنما يكون حزنه لفوات حظِّه من الميِّت . وهذا حال أكثر الخلْق ، فلا إحسان ، ولا رضا عن الرحمٰن . والله المستعان .

فالأول في أعلى مراتب الرضا . والثاني دونه . والثالث دون الثاني . والرابع هو الساخط .

يقول ابن القيم في مدارج السالكين ٢ / ٢١١ - ٢١٢ : « إن الرضا معقد نظام الدين ظاهره وباطنه ، فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع ، فتنقسم قسمين : دينية ، وكونية . وهي مأمورات ، ومنهيات ، ومباحات ، ونعم مُلذَّة ، وبلايا مؤلمة . فإذا استعمل العبد الرضا في ذلك كله ، فقد أخذ بالحظِّ الوافر من الإسلام وفاز بالقدح المُعَلَّى » .

الرضا مقام رفيع يليق بعالي الهمَّة :

إن النبي ﷺ كان يندب إلى أعلىٰ المقامات ، فإن عجز العبد عنه ، حطَّهُ إلى المقام الوسط ، كما قال : « اعبد الله كأنك تراه » . فهذا مقام

المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان ، ثم قال : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . فحطَّهُ عند العجز عن المقام الأول إلى المقام الثاني ، وهو العلم باطِّلاع الله عليه ورؤيته له ، ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء . وكذا الحديث الآخر : « إن استطعتَ أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل . فإن لم تستطع ، فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا » . فرفعه إلى أعلىٰ المقامات ، ثم ردَّه إلى أوسطها إن لم يستطع الأعلى . فالأول : مقام الإحسان . والذي حطَّه إليه : مقام الإيمان . وليس دون ذلك إلا مقام الخسران .

كما أنه ﷺ أثنىٰ على الراضين بمُرِّ القضاء ، بالحكم والعلم والفقه والقُرب من درجة النبوة ، كما في حديث الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ . فقال « ما أنتم ؟ » . فقالوا : مؤمنون . فقال : « ما علامة إيمانكم ؟ » . فقالوا : الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمُرِّ القضاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء . فقال : « حكماء علماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » . والرضا آخِذٌ بزمام مقامات الدِّين كلها ، وهو رُوحُها وحياتها ، فإنه روح التَّوكُّل وحقيقته ، وروح اليقين ، وروح المحبة ، وصحة المُحِبّ ، ودليل صدق المحبة ، وروح الشكر ودليله .

قال الربيع بن أنس : علامة حب الله : كثرة ذكره ؛ فإنك لا تحب شيئًا إلا أكثرتَ من ذكْره . وعلامة الدِّين : الإخلاص لله في السر والعلانية. وعلامة الشكر : الرضا بقَدَرِ الله والتسليم لقضائه .

وقال أحمد بن أبي الحواري : ذاكرتُ أبا سليمان في الخبر المرويّ : « أول مَنْ يُدْعَىٰ إلى الجنة الحمَّادون » . فقال : ويحك ، ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك يتعصَّى عليك ، إذا كنت كذلك فارجع إلى

الصابرين ، إنما الحمد : أن تحمده وقلبك مسلِّم راضٍ .

فصار الرضا كالروح لهذه المقامات ، والأساس الذي تنبني عليه ، ولا يصحّ شيء منها بدونه ألبتة . والله أعلم .

والرضا يقوم مقام كثير من التَّعبُّدات التي تشقّ على البدن ، فيكون رضاه أسهل عليه ، وألذَّ له ، وأرفع في درجته . وقد ذُكر في أثر إسرائيلي : أن عابدًا عبد الله دهرًا طويلًا ، فأُرِيَ في المنام : أن فلانة الراعية رفيقتك في الجنة . فسأل عنها ، إلى أن وجدها ، فاستضافها ثلاثًا لينظر إلى عملها ، فكان يبيت قائمًا وتبيت نائمة ، ويظلّ صائمًا وتظلّ مفطرة ، فقال لها : أما لك عمل غير ما رأيت ؟ قالت : ما هو والله غير ما رأيت - أو قالت : إلَّا ما رأيت - لا أعرف غيره . فلم يَزَل يقول لها : تذكَّري . حتى قالت : خُصَيْلة واحدة هي فيَّ ، وذلك أني إن كنتُ في شدَّةٍ ، لم أتمنّ أني في رخاء . وإن كنتُ في مرضٍ ، لم أتمنّ أني في صحةٍ . وإن كنت في الشمس ، لم أتمنّ أني في الظِّلّ . قال : فوضع العابد يده على رأسه . وقال : أهذه خصيلة ؟! هذه والله خصلةٌ عظيمة يعجز عنها العُبَّاد .

وفي وصية لقمان لابنه : « أوصيك بخصالٍ تقرِّبك من الله ، وتُباعِدك من سخطه : أن تعبد الله لا تشرك به شيئًا . وأن ترضىٰ بقدر الله فيما أحببت وكرهت » .

وقال بعض العارفين : مَنْ يتوكَّلْ على الله ، ويَرْضَ بقدر الله ، فقد أقام الإيمان ، وفرغ يديه ورجليْه لكسْب الخير ، وأقام الأخلاق الصالحة التي تُصلح للعبد أمره .

والرضا يفتح باب حُسن الخلق مع الله تعالىٰ ومع الناس ، فإن حُسن الخلق من الرضا ، وسوء الخلق من السخط . وحسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم ، وسوء الخلق يأكُل الحسناتِ كما تأكل النار الحطب .

والرضا يُثمِر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور ، وَطِيبَ النفس وسكونها في كلِّ حال ، وطُمأنينة القلب عند كل مفزعٍ مُهْلِع من أمور الدنيا ، وبرد القناعة ، واغتباط العبد بقَسْمه من ربه ، وفرحه بقيام مولاه عليه ، واستسلامه لمولاه في كل شيء ، ورضاه منه بما يُجريه عليه ، وتسليمه له الأحكام والقضايا ، واعتقاد حسن تدبيره ، وكمال حكمته ، ويُذهب عنه شكوى ربّه إلى غيره وتبرُّمه بأقْضِيَتِهِ ، ولهذا سمَّى بعضُ العارفين الرضا : حسن الخلق مع الله ؛ فإنه يُوجِب تَرْك الاعتراض عليه في ملكه ، وحذْف فضول الكلام التي تقدح في حُسن خُلقه ، فلا يقول : ما أحوج الناس إلى مطر . ولا يقول : هذا يومٌ شديد الحرّ ، أو شديد البرد . ولا يقول : الفقر بلاء ، والعيال هَمٌّ وَغَمّ . ولا يُسَمِّي شيئًا قضاه الله وقَدَّره باسمٍ مذمومٍ إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالى ، فإن هذا كلَّه يُنافي رضاه .

قال ابن أبي الحواري - أو قيل له - : إن فلانًا قال : وددت أن الليل أطول مما هو . فقال : قد أحسن ، وقد أساء ؛ أحسن حيث تمنَّى طُولَهُ للعبادة والمناجاة ، وأساء حيث تمنَّى ما لم يُرِده الله ، وأحبَّ ما لم يحبّه الله .

« وقال عمر بن الخطاب يومًا لامرأته عاتكة - أُختِ سعيد بن زيد - وقد غضب عليها : والله لأَسُوأَنَّكِ . فقالت : أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام ، بعد إذ هداني الله له ؟ قال : لا . فقالت : فأي شيءٍ تسوءني به إذًا ؟! ». تريد أنها راضية بمواقع القدر ، لا يسوءها منه شيء إلَّا صَرْفها عن الإسلام . ولا سبيل له إليه .

وقال الثوري يومًا عند رابعةَ : اللهمَّ ارْضَ عنَّا . فقالت : أما تستحي أن تسأله الرضا عنك ، وأنت غير راضٍ عنه ؟ فقال : أستغفر الله . ثم قال لها جعفر بن سليمان : متى يكون العبد راضيًا عن الله ؟ فقالت : إذا كان

سروره بالمصيبة مِثْل سروره بالنعمة .

ما لأولياء الله والهمّ بالدنيا ؟! إن الهمَّ بالدنيا يُذهب حلاوة المناجاة من قلوبهم . أولياء الله أرْضَىٰ عنه من أن يسألوه أن ينقلهم إلى معيشةٍ حتى يكون هو الذي يختار لهم .

والرغبةُ إلى الله عز وجل ولوازمُها : صفةُ أهل الهمَّة ، وهذه الرغبة ولوازمها لا تتمّ إلا باليقين والرضا عن الله ، ولهذا قال سهل : حظُّ الخلْق من اليقين على قدْر حظِّهم من الرضا ، وحظُّهم من الرضا على قدْر رغبتهم في الله .

ومما يدل على علوّ قدر الرضا ، وأنه بأهل الهمم العالية : « أن النبي ﷺ سأل الله الرضا بالقضاء ، كما في المسند والسنن : « اللهم بعِلْمِك الغيبَ ، وقُدْرَتِكَ على الخلْق ، أحْيِني إذا كانت الحياة خيرًا لي ، وتوفَّنِي إذا كانت الوفاة خيرًا لي . وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة . وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا . وأسألك القصْد في الفقر والغنى . وأسألك نعيمًا لا ينفد . وأسألك قُرَّة عينٍ لا تنقطع . وأسألك الرضا بعد القضاء . وأسألك بَرْد العيش بعد الموت . وأسألك لَذَّة النظر إلى وجهك الكريم . وأسألك الشوق إلى لقائك ، في غير ضَرَّاءَ مُضِرَّة ، ولا فتنة مُضِلَّة . اللهم زَيِّنَا بزينة الإيمان . واجعلنا هُداةً مهتدين »[1] . فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدَّس الله روحه – يقول : سأله الرضا بعد القضاء ؛ لأنه حينئذٍ تبيَّن حقيقة الرضا . وأمَّا الرضا قبله : فإنما هو عزْم على أنه يرضى إذا أصابه . وإنما يتحقَّق الرضا ....

(١) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن عمار بن ياسر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٣٠١) .

بعــده »[١].

يا عالي الهِمَّة ، ليس لأعمال القلوب نهاية :

قال شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية : « إن أعمال الجوارح تُضاعَف إلى حدٍّ معلومٍ محسوبٍ ، وأمَّا أعمال القلوب ، فلا ينتهي تضعيفها ؛ وذلك لأن أعمال الجوارح لها حَدٌّ تنتهي إليه وتقف عنده ، فيكون جزاؤها بِحَسَب حدِّها ، وأمَّا أعمال القلوب ، فهي دائمةٌ مُتَّصِلة ، وإن تَوَارَى شهود العبد لها . مثاله : أن المحبة والرضا حال المحبِّ الراضي ، لا تُفارقه أصلًا ، وإن توارَى حُكمها ، فصاحبها في مزيدٍ مُتَّصِل . فمزيد المحب الراضي : متّصل بدوام هذه الحال له ، فهو في مزيدٍ ، ولو فَترتْ جوارحه ، بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيدِ كثيرٍ من أهل النَّوافل بما لا نِسْبَةَ بينهما ، ويبلُغ ذلك بصاحبه إلى أن يكون مزيدُه في حال نومه ، أكْثَرَ من مزيدِ كثيرٍ من أهل القيام ، وأكْلُه أكْثَر من مزيدِ كثيرٍ من أهل الصِّيام والجوع . فإن أنكرتَ هذا ، فتأمَّلْ مزيد نائمٍ بالله ، وقيام غافلٍ عن الله . فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب والهمم والعزائم ، لا إلى صُوَر الأعمال . وقيمةُ العبد : همَّتُه وإرادته . فمن لا يُرضيه غير الله ، ولو أُعطي الدنيا بحذافيرها ، له شأنٌ . ومن يُرضيه أدنَىٰ حظٍّ من حظوظها ، له شأن . وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة . وقد تكون أعمال المُلتفِت إلى الحظوظ أكثر وأشق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وقد اختلف أرباب هذا الشأن في مسألةٍ ، وهي : هل للرضا حدٌّ ينتهي إليه ؟ فقال أبو سليمان الداراني : ثلاث مقاماتٍ لا حدَّ لها : الزهد ، والورع ، والرضا . وخالفه سليمانُ ابنُهُ – وكان عارفًا ، حتى إن من الناس من كان

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٢٣ .

يُقدِّمه على أبيه – فقال : بل مَنْ تورَّع في كل شيءٍ ، فقد بلغَ حدَّ الورع . ومَنْ زهد في غير الله ، فقد بلغَ حدَّ الزهد . ومن رضي عن الله في كل شيء ، فقد بلغَ حدَّ الرضا »(١) .

أهل الرِّضا وعلوّ همَّتهم :

الخليل إبراهيم عليه السلام :

عن أبي رجاء محمد بن سيف قال : سمعت الحسن يقول في قوله : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ** ... ﴾ . قال : « ابتلاه بالكوكب فرضي عنه ، وابتلاه بذبح ابنه فرضي عنه ، وابتلاه بالهجرة فرضي عنه ، وابتلاه بالنار فرضي عنه ، وابتلاه بالختان »(٢) .

سعد بن أبي وَقَّاص :

« لمَّا قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة ، وقد كان كُفَّ بصره ، جاءه الناس يهرعون إليه ، كلّ واحدٍ يسأله أن يدعو له ، فيدعو لهذا ولهذا ، وكان مجاب الدعوة . قال عبد الله بن السائب : فأتيته وأنا غلام ، فتعرَّفت عليه فعرفني وقال : أنت قارئ أهل مكة ؟ قلت : نعم . فذكر قصةً قال في آخرها : فقلت له : يا عمّ ، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك ، فردَّ الله عليك بصرك ! فتبسَّم وقال : يا بُنَيَّ ، قضاء الله سبحانه عندي أحْسَنُ من بصري »(٣) .

عمران بن حُصَين :

« عن مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير قال : « أتيت عمران بن حصين

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٢٨ – ٢٢٩ .
(٢) صحيح وإسناده حسن . انظر الرضا عن الله لابن أبي الدنيا .
(٣) الإحياء ٤ / ٣٦٨ ، ومدارج السالكين ٢ / ٢٢٧ .

يومًا ، فقلت له : إني لأدع إتيانك لِمَا أراك فيه ، ولما أراك تَلْقَىٰ . قال : فلا تفعل ، فوالله إن أَحَبَّهُ إليَّ أحبّه إلى الله »[١].

« كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنُه ، فبقي مُلقًى على ظهره ثلاثين سنةً ، لا يقوم ولا يقعد ، قد نُقِب له في سريرٍ من جريدٍ كان عليه - موضعٌ لقضاء حاجته ، فدخل عليه مطرّف وأخوه العلاء ، فجعل يبكي لما يراه من حاله ، فقال : لم تبكي ؟ قال : لأني أراك على هذه الحالة العظيمة . قال : لا تبكِ ، فإن أَحَبَّهُ إلى الله تعالىٰ ، أحبّه إليَّ . ثم قال : أُحدِّثك حديثًا لعلَّ الله أن ينفعك به ، واكْتُمْ عليَّ حتى أموت ، إن الملائكة تزورني فآنَسُ بها ، وتُسلِّم عليَّ فأسمع تسليمها ، فأعلمُ بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبةٍ ، إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة ، فمن يشاهد هذا في بلائه ، كيف لا يكون راضيًا به ؟! »[٢].

أبو الدرداء رضي الله عنه :

عن سعيد بن مرثد الهمداني ، أن أبا الدرداء قال : « ذروة الإيمان أربع خلالٍ : الصبر للحُكم ، والرضا بالقدر ، والإخلاص للتّوكُّل ، والاستسلام للرَّبِّ عزَّ وجل »[٣].

* * *

(١) الرضا عن الله صـ ٩٢ ، ٩٣ .
(٢) الإحياء .
(٣) إسناده صحيح : وأخرجه ابن المبارك ١٢٣ ، كما في زوائد نعيم بن حماد ، وزاد : « ولولا ثلاث خلالٍ ، صلُح الناس : شحٌّ مطاع ، وهوًى مُتَّبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .
انظر الرضا عن الله صـ ٩١ تحقيق مجدي السيد إبراهيم - مكتبة القرآن .

عمر بن عبد العزيز :

عن يحيىٰ بن سعيد قال : قال عمر بن عبد العزيز : « ما لي في الأمور هوًى سوىٰ مواضع قضاء الله عز وجل فيها » . وفي رواية : « ما لي هوًى في شيءٍ سوىٰ ما قضىٰ الله عزّ وجل »(١).

وقال سليمان بن حبيب: «لمَّا مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز(٢)، دخل عليه سليمان بن الغاز فعزَّاه ، فقال عمر : وأنا أعوذ بالله أن يكون لي محبَّةٌ في شيءٍ من الأمور يخالف محبة الله ؛ فإن ذلك لا يصلح لي في بلائه عندي ، وإحسانه إلَّي »(٣).

وعن عبد العزيز بن سبرة عن أبيه عن جده قال : « لمَّا هلك عبدُ الملك ابن عمر بن عبد العزيز ، وسهلُ بن عبد العزيز ، ومزاحمٌ مولى عمر ، في أيامٍ متتابعة ، دخل عليه الربيع بن سبرة فقال : عظَّم الله أجرك يا أمير المؤمنين ، ما رأيت أحدًا أُصيب بأعظم من مصيبتك في أيامٍ متتابعة ، والله ما رأيت مِثْل ابنك ابنًا ، ولا مثْل أخيك أخًا ، ولا مثل مولاك مولًى قطُّ . فطأطأ رأسَهُ ، فقال لي رجل معه على الوساد : لقد هيَّجتَ عليه . قال : ثم رفع رأسه فقال : كيف قلتَ لي يا ربيع ؟ فأعدتُ عليه ما قلت أولًا ، فقال : لا ، والذي قضىٰ عليه – أو قال : عليهم – الموت ، ما أُحبّ أن شيئًا كان من ذلك لم يكن »(٤).

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : « لقد تركتني هؤلاء الدعوات ،

---

(١) إسناده صحيح ، والرواية الأخيرة للبيهقي في شعب الإيمان .

(٢) كان من الزاهدين ، ومات قبل أبيه .

(٣) الرضا عن الله صـ ١١٢ .

(٤) إسناده لا بأس به .

وما لي شيءٍ من الأمور كلها أربٌ إلّا في مواقع قَدَر الله . وكان كثيرًا ما يدعو : اللهم رضِّني بقضائك ، وبارك لي في قدرك ، حتى لا أحبّ تعجيل شيءٍ أخَّرتَهُ ، ولا تأخير شيءٍ عجَّلتَهُ »[1] .

أبـو العاليـة :

قال سيار بن سلامة : « دخل رجل على أبي العالية في مرضه الذي مات فيه ، فقال : إن أحبَّه إليّ ، أحبُّه إلى الله عزَّ وجل »[2] .

أبو معاوية الأسود :

قال عمرو بن أسلم العابد : « سمعت أبا معاوية الأسود يقول في قوله : ﴿ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيِّبةً** ﴾ [النحل : ٩٧] . قال : الرضا والقناعة »[3] .

الربيع بن خثيم :

عن الأعمش بن عمرو بن مرة قال : « كان الربيع بن خثيم قد أصابه فالج ، قال : فسال من فيه ماء فجرى على لحيته ، فرفع يده فلم يستطع أن يمسحه ، فقام إليه بكر بن ماعز فمسحه عنه ، فلحظَهُ ربيعٌ ثم قال : يا بكر ، والله ما أُحبُّ أن هذا الذي بي بأعتى الدَّيْلم[4] على الله »[5] .

وكان الربيع – رحمه الله – يقول في شدَّة مرضه : ما أُحبّ أن الله نقصني منه قُلامة ظفر .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٢٥ .

(٢) الرضا عن الله صـ ٧٤ .

(٣) إسناده حسن . وبنفس القول قال علي بن أبي طالب وابن عباس وعكرمة ومجاهد ، ومحمد بن كعب القرظي .

(٤) أي بأشد الأعداء . وفي الحلية : « بأغنى الديلم » . الرضا عن الله صـ ١٠٧ .

(٥) الرضا عن الله صـ ١٠٦ ، ١٠٧ .

سويد بن مثعبة :

عن أبي حيّان التيمي قال : « دخلوا على سويد بن مثعبة ، وكان من أفاضل أصحاب عبد الله وأهله ، يقول له : نفسي فداؤك ، أما نُطعمك ؟ أما نسقيك ؟ قال : فأجابه بصوتٍ له ضعيف : دَبِرَت الحراقفُ وطالت الضَّجعة ، والله ما يسرُّني أن الله نقصني منه قَدْر قُلامة »(١).

أم الأسود بن يزيد :

عن إبراهيم النَّخَعيّ : « أن أم الأسود قُعدت من رجليها ، فجزعتْ ابنة لها ، فقالت : لا تجزعي ، اللهم إن كان خيرًا فزِدْ »(٢).

محمد الباقر :

عن سفيان بن عيينة ، عن رجل ، عن محمد بن علي بن الحسين أبي جعفر الباقر : « أن بعض أهله اشتكى فوجد عليه ، ثم أخبر بموته فسُرِّي عنه ، فقيل له ، فقال : ندعو الله فيما نُحبُّ ، فإذا وقع ما نكره ، لم نُخالف الله فيما أحبَّ »(٣).

الحسن البصري :

قال سفيان : قال الحسن : « من رضي بما قسم الله له ، وَسِعَهُ ، وبارك الله له فيه ، ومن لم يرضَ لم يَسَعْهُ ، ولم يبارك له فيه »(٤).

* * *

(١) صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ١٠٨ .
(٢) إسناده صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ٩٤ ، ٩٥ .
(٣) صحيح . الرضا عن الله صـ ١١٦ .
(٤) إسناده حسن . الرضا عن الله صـ ١٢٢ ، ١٢٣ .

سفـيان :

عن الحسن ، عن سفيان قال : « سمعت المفسِّرين من كل جانب يقولون في قوله : ﴿ **أغنىٰ** ﴾ [النجم : ٤٨] : أرضىٰ . قال سفيان : لا يكون غنيًّا أبدًا حتى يرضىٰ بما قسم الله له ، فذلك الغِنَىٰ »(١).

وعن مصعب بن ماهان ، عن سفيان ، في قوله : ﴿ **وبشّر المخبتين** ﴾ [الحج : ٣٤] قال : المطمئنّين ، الراضين بقضائه ، المستسلمين له .

الفضيل بن عياض :

قال الفضيل : « إن لم تصبر على تقدير الله ، لم تصبر على تقدير نفسك »(٢) .

قال الفضيل بن عياض لبشرٍ الحافي : « الرضا أفضل من الزهد في الدنيا ؛ لأن الراضي لا يتمنّى فوق منزلته »(٣) .

قال إبراهيم بن الأشعث : سمعت الفضيل يقول : « الراضي لا يتمنّى فوق منزلته » .

وهيب بن الورد :

اجتمع وهيب بن الورد ، وسفيان الثوريّ ، ويوسف بن أسباط ، فقال الثوري : قد كنت أكره موت الفُجَاءَة قبل اليوم ، وأمَّا اليوم فوددتُ أني مَيِّتٌ . فقال له يوسف بن أسباط : وَلِمَ ؟ فقال : لِمَا أتخوَّف من الفتنة . فقال يوسف : لكني لا أكره طُول البقاء . فقال الثوري : ولِمَ تكره الموت ؟

---

(١) إسناده حسن . انظر الرضا عن الله صـ ١٢٣ .

(٢) الإحياء ٤ / ٣٦٥ .

(٣) مدارج السالكين ٢ / ١٧٧ .

قال : لعلِّي أصادِفُ يومًا أتوب فيه وأعملِ صالحًا . فقيل لوهيب : أيّ شيءٍ تقول أنت ؟ فقال : أنا لا أختار شيئًا ، أَحَبُّ ذلك إليَّ أَحَبّهُ إلى الله . فقبَّل الثوريُّ بين عينيْه . وقال : روحانيةٌ وربِّ الكعبة[(١)].

وكان وهيب - رحمه الله - له المقام العالي من الرضا وغيره .

عبد اللَّــه بن المبــارك :

عن حفص بن حميد قال : كنت عند عبد الله بن المبارك بالكوفة ، حين ماتت امرأتُه ، فسألتُه : ما الرضا ؟ قال : « الرضا : لا يتمنَّى خلاف حاله »[(٢)].

مالك بن دينار ومحمد بن واسع :

قال ابن شوذب : « اجتمع مالك بن دينار ، ومحمد بن واسع فتذاكرا العيش ، فقال مالكٌ : ما شيءٌ أفضل من أن يكون للرجل غلَّة يعيش فيها . وقال محمد : طوبى لمن وجد غداءً ولم يجد عشاء ، ووجد عشاء ولم يجد غداءً ، وهو عن الله - عز وجل - راضٍ . أو فقال : والله عنه راضٍ »[(٣)]. وزاد أبو نعيم : فانصرف القوم وهم يَرَوْن أن محمدًا أقوى الرجلين .

ونظر رجل إلى قرحة في رِجْل محمد بن واسع ، فقال : إني لأرحمك من هذه القرحة . فقال : « إني لأشكرها منذ خرجتْ إذ لم تخرج في عيني »[(٤)].



(١) مدارج السالكين ٢ / ٢١٥ .
(٢) الرضا عن الله صـ ٥٧ ، ٥٨ .
(٣) صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ٥٢ ، ٥٣ ، والحلية .
(٤) الإحياء ٤ / ٣٦٥ .

بشـير الطـبريّ :

عن أبي عمرو الكِنْدِي قال : « أغارت الروم على جواميس لبشير الطبري نحوًا من أربعمائة جاموس . قال : فاستركبني ، فركبت معه أنا وابنٌ له . قال : فَلَقِيَنَا عبيده الذين كانوا مع الجواميس ، معهم عِصِيّهم ، قالوا : يا مولانا ، ذهبتِ الجواميسُ . فقال : وأنتم أيضًا فاذهبوا معها ، فأنتم أحرارٌ لوجه الله . فقال له ابنه : يا أباه ، أَفْقَرْتَنا ؟ فقال : اسكت يا بُنَيَّ ، إن ربي عز وجل اختبرني ، فأحببتُ[1] أن أزيده »[2].

يبكي مع استشهاد ابنه :

قال أبو عبد الرحمٰن حاتم الجرجاني : بلغني : « إن لله تبارك وتعالى عبادًا ، إلا أن بعضهم أرفع من بعض ، ذهبت أُعزِّي رجلًا ، وقد قتلتِ التُّرْكُ ابنَهُ ، فبكى حيثُ رآني ، فقلت : ما يبكيك ، وقد قُتل ابنك في سبيل الله ؟ قال : يا أبا عبد الرحمٰن ، أنت تظنُّ أني أبكي لقتله ؟! إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله حيث أخذتْه السيوف »[3].

أبو عبد الله البراثي :

عن حكيم بن جعفر قال : سمعت أبا عبد الله البراثي يقول : « لن يَرِدَ الآخرة أرْفَع درجاتٍ من الرَّاضِين عن الله عزَّ وجل على كلِّ حال » .

وزاد أبو نعيم في حلية الأولياء وابن الجوزي في صفة الصفوة : « ومن وُهب له الرضا ، فقد بلغَ أفضلَ الدرجات ، ومن زهد على حقيقة كانت

---

(١) في صفة الصفوة : « فأردت » مكان « فأحببت » .

(٢) الرضا عن الله صـ ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) الرضا عن الله صـ ١٠٤ .

مُؤْنَتُه خفيفة ، ومن لم يعرف ثواب الأعمال ثَقُلتْ عليه في جميع الأحوال »(١) .

أبو عبد الله النِّباجيّ :

قال أبو عبد الله النباجيّ : « إن في خلْق الله خلقًا يستحيون من الصبر ، لو يعلمون أقداره تلقَّفُوها تلقُّفًا »(٢) .

ميمون بن مِهْران :

قال ميمون بن مهران : « من لم يرضَ بالقضاء ، فليس لحُمقه دواء »(٣) .

عبد العزيز بن أبي روَّاد :

قال عبد العزيز بن أبي روّاد : « ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخلّ ، ولا في لُبس الصوف والشعر ، ولكنّ الشأن في الرضا عن الله عز وجل »(٤) .

أعـــرابي :

قال الحسن بن علي البصري : أصبح أعرابيٌّ وقد مات له أباعر(٥) كثير ، فقال :

لا والذي أنا عَبْدٌ في عبادته ... لولا شماتةُ أعـادِيهِ أظـنِ
ما سرَّني أنَّ إبْلي في مباركها ... وأنَّ شيئًا قضاه الله لم يكُنِ(٦)

---

(١) الرضا عن الله صـ ٦٠ .
(٢) الرضا عن الله صـ ٧٢ .
(٣) الإحياء ٤ / ٣٦٥ .
(٤) الإحياء ٤ / ٣٦٥ .
(٥) جمع بعير .
(٦) إسناده حسن . انظر الرضا عن الله صـ ٤٨ .

شقيق البلخيّ :

قال شقيق البلخيّ : « مـن يرى ثوابَ الشـِّدَّة ، لا يشتهي الخروج منها »[١].

يونس بن عبيد :

قال يونس بن عبيد : ما تمنَّيت شيئًا قطُّ[٢].

غيلان بن جرير :

قال سعيد الراسبي : قال غيلان بن جرير : « من أُعطي الرضا ، والتَّوكُّل ، والتفويض ، فقد كُفي »[٣].

الربيع بن أنس :

قال الربيع بن أنس : « علامة حُبِّ الله : كثرةُ ذِكْره ؛ فإنك لا تحبّ شيئًا إلَّا أكثرتَ من ذِكْره . وعلامة الدِّين : الإخلاص لله في السِّرِّ والعلانية . وعلامة الشكر : الرضا بقدَر الله والتسليم لقضائه »[٤].

أبو سليمان الدارانيّ :

عن أحمد بن أبي الحواريّ قال : سمعتُ أبا سليمان الدارانيّ قال : « أرجو أن أكون قد رُزقت من الرضا طرفًا ، لو أدخلني النار لكنتُ بذلك راضيًا »[٥] .

---

(١) الإحياء ٤ / ٣٦٧ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ٢٢٥ .

(٣) إسناده صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ١٢٦ .

(٤) مدارج السالكين ٢ / ٢١٨ .

(٥) صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ٥٠ .

وعنه أيضًا قال : سمعت أبا سليمان يقول : « إذا سلا العبدُ عن الشهوات ، فهو راضٍ »(١).

وقال أبو سليمان الداراني : « قد نلت من كل مقامٍ حالًا ، إلّا الرضا فما لي منه إلّا مَشامّ الرّيح . وعلى ذلك لو أدخل الخلائقَ كلَّهم الجنة ، وأدخلني النار ، كنتُ بذلك راضيًا »(٢). قال ابن تيمية : هذا عَزْمٌ منه على الرضا .

عن الحسن قال : « كان رجل بالمصيصة ذاهب النِّصف الأسفل ، لم يبقَ منه إلّا روحه في بعض جسده ، ضريرٌ على سرير مثقوب ، فدخل عليه داخل فقال له : كيف أصبحتَ يا أبا محمد ؟ قال : مَلِك الدنيا ، منقطعٌ إلى الله ، ما لي إليه من حاجةٍ إلّا أن يتوفّاني على الإسلام »(٣).

قال محمد بن أبي القاسم مولى بني هاشم : « وعظَ عابدٌ جبّارًا ، فأمر به فقُطعت يداه ورِجْلاه ، وحُمل إلى متعبَّده ، فجاءه إخوانُه يُعَزُّونه فقال : لا تُعَزُّوني ، ولكن هَنِّئوني بما ساق الله إليّ . ثم قال : إلـٰهي ، أصبحتُ في منزل الرَّغائِب ، أنظرُ إلى العجائب . إلـٰهي ، أنت تودَّد بنعمتك إلى مَنْ يُؤذيك ، فكيف تودُّدك إلى من يُؤذَى فيك ؟! »(٤).

وهب بن مُنَبِّه :

عن عبد الصمد بن معقل ، عن وهب بن منبه قال : « وجدتُ في زبور داود : يا داود هل تدري مَنْ أسْرَعُ الناس مرًّا على الصراط ؟ الذين

---

(١) صحيح . انظر الرضا عن الله صـ ٥٤ .
(٢) الإحياء ٤ / ٣٦٨ .
(٣) الرضا عن الله صـ ٩٧ ، ٩٨ .
(٤) الرضا عن الله صـ ٩٧ ، ٩٨ .

يرضُون بحُكمي ، وألسنتهم رطبةٌ من ذكْري »[(١)].

فتح الموصليّ :

عن الحسين بن عليّ بن يزيد قال : قال رجلٌ لفتح الموصليّ : ادْعُ الله . فقال : « اللهمَّ هِبْنا عطاءَك ، ولا تكشف عنَّا غطاءَك ، وأرضنا بقضائك »[(٢)].

قال أبو العباس بن عطاء : الفرح في تدبير الله لنا ، والشقاء كله في تدبيرنا .

وقال سفيان بن عيينة : من لم يصلُح على تقدير الله ، لم يصلح على تقدير نفسه .

وقال بعض العارفين : أصل العبادة ثلاثة : لا تُرُدّ من أحكامه شيئًا ، ولا تسأل غيره حاجةً ، ولا تدَّخِر عنه شيئًا .

وسُئل ابن شمعون عن الرضا ؟ فقال : أن ترضى به مُدبِّرًا ومختارًا ، وترضى عنه قاسِمًا ومُعطيًا ومانعًا ، وترضاه إلـٰهًا ومعبودًا وربًّا .

وقيل : الرَّاضي من لم يندم على فائتٍ من الدنيا ، ولم يتأسَّف عليها .

ولله در القائل :

العبدُ ذو ضَجَرٍ والرَّبُّ ذو قدرٍ والدَّهْرُ ذو دُوَلٍ والرِّزقُ مقسومُ
والخيرُ أجمعُ في ما اختار خالقُنا وفي اختيارِ سِوَاهُ اللَّوْمُ والشُّومُ

* * *

---

(١) إسناده حسن . انظر الرضا عن الله صـ ٧٣ .

(٢) إسناده حسن . انظر الرضا عن الله صـ ١١٥ .

لَوْم المقادير لومٌ لمُقدِّرها ، وهو مُنافٍ للعبودية :

فمن لم يرضَ بالقدر ، وقع في لوم المقادير ومقدِّرها ، إما بقالبه وإمَّا بقلبه وحاله .

عن أنس رضي الله عنه : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي لشيءٍ فعلتُه : لِمَ فعلتَهُ ؟ ولا لشيءٍ لك أفْعَلْه : ألا فعلتَهُ ؟ ولا قال لي لشيءٍ كان : ليته لم يكن ، ولا لشيءٍ لم يكن : ليته كان . وكان بعض أهله إذا لامني يقول : « دعوه ، فلو قُضي شيءٌ ، لكان » . فهذا كمال المُوافقة ، يرضى ما رضيه له ربُّه في الحالين .

قال بعض العارفين : ذنبٌ أذنبْتُه ، أنا أبكي عليه ثلاثين سنة . قيل : وما هو ؟ قال : قلت لشيءٍ قضاه الله : ليته لم يَقْضِهِ . أو : ليته لم يكُن .

وقال بعض السلف : لو قُرض لحمي بالمقاريض ، كان أحبَّ إليَّ من أن أقول لشيءٍ قضاه الله : ليته لم يقضه .

احذر أن تكون معاملتك مدخولة :

وقيل لعبد الواحد بن زيد : هاهنا رجل قد تعبَّد خمسين سنة . فقصده فقال له : حبيبي ، أخبرني عنك ، هل قنعتَ به ؟ قال : لا . قال : فهل أنستَ به ؟ قال : لا . قال : فهل رضيتَ عنه ؟ قال : لا . قال : فإنما مزيدُك منه الصوم والصلاة ؟ قال : نعم . قال : لولا أني أستحي منك ، لأخبرتك أنَّ معاملَتَك خمسين سنة : مدخولةٌ .

يعني أنه لم يُقَرِّبه فيجعله في مقام المقرَّبين ، فيوجده مواجيد العارفين ، بحيث يكون مزيده لديه أعمال القلوب ، التي يستعمل بها كلَّ محبوب مطلوب ؛ لأن القناعة حالُ الموفَّق ، والأُنسَ به مقامُ المحبِّ ، والرضا وَصْفُ المتوكِّل . يعني أنت عنده في طبقات أصحاب اليمين ، فمزيدُك عنده مزيدُ العموم

من أعمال الجوارح .

وقوله : « إن معاملته مدخولة » ، يحتمل وجهين ؛ أحدهما : أنها ناقصة عن معاملة المقرَّبين التي أوجبت لهم هذه الأحوال . الثاني : أنها لو كانت صحيحة سالمة ، لا علَّة فيها ولا غشَّ ، لأثمرتْ له الأُنس والرضا والمحبَّة ، والأحوال العَلِيَّة . فإن الرب تعالىٰ شكور ، إذا وصل إليه عمل عبده جَمَّل به ظاهره وباطنه ، وأثابه عليه من حقائق المعرفة والإيمان بحَسَب عمله . فحيث لم يجد له أثرًا في قلبه ، من الأُنس والرضا والمحبة ، استدلَّ على أنه مدخول ، غير سالم من الآفات .

لله دَرُّك يا سفيان :

قال سفيان الثوري : « مَنْعُهُ عَطَاءٌ » . وذلك أنه لم يمنع عن بخلٍ ولا عُدْم . وإنما نظر في خير عبده المؤمن ، فمنعه اختيارًا وحُسن نظر . وهذا كما قال ؛ فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاءً ، إلا كان خيرًا له ، ساءه ذلك القضاءُ أو سرَّه . فقضاؤه لعبده المؤمن المَنْعَ عطاءٌ ، وإن كان في صورة المنع ، ونعمةٌ وإن كانت في صورة محنة ، وبلاؤه عافيةٌ وإن كان في صورة بليَّة . ولكنْ لجهل العبد وظُلمه ، لا يعدّ العطاء والنعمة والعافية ، إلَّا ما التذَّ به في العاجل وكان ملائمًا لطَبْعِه ، ولو رُزق من المعرفة حظًّا وافرًا ، لعَدَّ المنع نعمة ، والبلاء رحمة ، وتلذَّذ بالبلاء أكثر من لذّته بالعافية ، وتلذَّذ بالفقر أكثر من لذّته بالغِنَى ، وكان في حال القلَّة أعْظَم شُكرًا من حال الكثرة . وهذه كانت حال السلف[1].

سُسْنا كيفَ شئتَ يا إلٰهي :

نختم بما قال ذو النون المصري :

---

(١) أغلب النقل في الرضا عن كتاب : مدارج السالكين « مقام الرضا » .

إذا ارتحل الكرامُ إليك يومًا ... لِيَلْتَمِسُوكَ حالًا بعد حالِ
فإنَّ رحالنا حطتْ لترضَى ... بحلمكَ عن حلولٍ وارتحالِ
أَنَخْنَا في فِنائك يا إلٰهي ... إليك مُعَرَّضِينَ بلا اعتلالِ
فَسُسْنَا كَيفَ شئتَ ولا تَكِلْنا ... إلى تدبيرنا يا ذا المعالي[1]

* * *

(١) الحلية ٩ / ٣٤٤ - ٣٤٥ .

الفصْلُ الثَّامن

عُلُوُّ الهِمَّةِ في مُحَاسَبَةِ النفْسِ والمُجَاهَدَةِ والمُعَاتَبَةِ

« احذرْ نفْسَك علىٰ نفسِك »

[ضَيْغَمُ بن مالك]

□ علوُّ الهمَّةِ في مُحَاسَبَةِ النفسِ □ والمجاهَدَةِ والمُعَاتَبَة

اعلم يا أخي أنَّ « اللهَ قائمٌ علىٰ كلّ نفسٍ بما كسبتْ ، محاسبٌ علىٰ النقيرِ والقِطْمِير ، والقليل والكثير من الأعمال ، وإنْ خَفيَتْ .

وأربابُ البصائر عرفوا أنّ الله تعالىٰ لهم بالمرصاد ، وأنهم سيُناقَشون في الحساب ، ويُطالبون بمثاقيل الذَّرِّ من الخَطَرَات واللّحَظَات ، وتحقَّقوا أنه لا يُنجيهم إلَّا لُزوم المحاسبة ، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات .

فَمَن حاسب نفسه قبل أن يُحاسب ، خفَّ في القيامة حسابُه ، وحضر عند السؤال جوابُه ، وحسن منقلبه ومآبه ، ومَن لم يحاسب نفسه دامتْ حسراتُه ، وطالت في عَرَصات القيامةِ وَقَفَاته ، وقادتْه إلى الخِزْي والمَقْتِ سيِّئاته .

دَرَجَـاتُ المُرَابَطَـة :

فلمّا انكشف لهم ذلك عَلِمُوا أنه لا يُنجيهم منه إلَّا طاعة الله ، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة ، فقال عزّ مِن قائل : ﴿ **يَٰأَيُّهَا الذين آمنُوا اصبِرُوا وصابِرُوا ورابِطُوا** ... ﴾ الآية [آل عمران : ٢٠٠] ، فرابطوا أنفسهم أوَّلًا : بالمشَارَطة ، ثُمّ بالمراقَبَة ، ثم بالمحاسَبة ، ثم بالمعاقَبَة ، ثم بالمجاهَدَة ، ثمّ بالمعاتَبَة . فكانت لهم في المرابطة ستُّ مقاماتٍ »[١].

(١) إحياء علوم الدين ٤ / ٤١٧ - ٤١٨ .

المقام الأوَّل من المرابطة : المُشَارَطَة :

العقل هو التاجر في طريق الآخرة ، ومَطْلبه وربْحُه : تزكية النفس ؛ لأنَّ بذلك فلاحَها ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس : ٩ - ١٠] ، وفلاحُها إنّما يكون بالأعمال الصالحة ، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة ، إذْ يستعملها ويستسخرها فيما يزكّيها ، كما يستعين التاجر بشريكه وغُلامه الذي يتَّجِر في ماله ، وكما أنّ الشريك يَصير خصْمًا منازِعًا يُجاذبه في الرِّبح ، فيحتاج إلى أنْ يُشارِطه أولًا ، ويراقبه ثانيًا ، ويحاسبه ثالثًا ، ويعاقبه أو يعاتبه رابعًا ، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارَطة النفس أوَّلًا ؛ فيوظف عليها الوظائف ، ويشترط عليها الشروط ، ويرشدها إلى طريق الفلاح ، ويحزم الأمر بسلوك تلك الطُرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها ، لم يَر منها إلَّا الخيانة ، وتضييع رأس المال كالعبد الخائن . ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ، فإنّ هذه تجارة ربحها بالفردوس الأعلىٰ وبلوغ سِدرة المنتهىٰ مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس : أهمُّ كثيرًا من تدقيقه في أرباح الدنيا ، مع أنها مُحْتَقَرَة ، ومصيرها إلى التصرُّم والانقضاء ، ولا خيرَ في خيرٍ لا يدوم .

فَحتْمٌ على كلّ ذي حَزْم أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها في حركاتها وسَكَناتها ، وخطراتها وخطواتها ، فإنّ كلّ نَفَس من أنفاس العمر جوهرةٌ نفيسة يمكن أن يشتري بها كَنْزٌ من الكنوز لا يتناهىٰ نعيمُه أبدَ الآباد ، فانقباض هذه الأنفاس ضائعةً خسرانٌ عظيم لا تسمح به نفْس عاقل .

فإذا أصبح العبد وفرغ من صلاة الصبح ، ينبغي أنْ يفرّغ قلبه ساعةً لمشارطة النفس ، كما أنّ التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرّغ المجلس لمشارطته ، فيقول للنفس : ما لي بضاعة إلّا العمر ، ومهما فني

رأسُ المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلَبِ الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ، وأنسأ في أَجَلي وأنعم عليَّ به ، ولو توفاني لكنتُ أتمنّى أنْ يُرجعني إلى الدنيا يومًا واحـدًا حتى أعمل فيه صالحًا ، فاحسَبي أنّك قد تُوُفِّيتِ ، ثم قد رُدِدتِ ، فإيّاك ثم إيَّاكِ أن تضيّعي هذا اليوم ، اجتهدي اليوم في أنْ تُعمـري خزانتك ، ولا تدعيها فارغةً من كنوزك ، ولا تميلي إلى الكسل والدَّعَة والاستراحة ، فيفوتكِ من درجات عِلِّيين ما يدركه غيرُك ، وتبقى عندك حسـرةٌ لا تفارقكِ وإنْ دخلتِ الجنة ، فألَمُ الغبْن وحسرتُه لا يُطاق ، وإن كان دُون ألم النار ، وقد قال بعضهم : هَبْ أنَّ المسيء قد عُفي عنه ، أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟! أشار به إلى الغبْن والحسـرة ، وقال الله تعـالى : ﴿ **يومَ يجمعُكُمْ لِيومِ الجَمْعِ ذٰلِكَ يومُ التغابُن** ... ﴾ الآية [التغابن : ٩] . فهذه وصيّته لنفسه في أوقاته .

ثم ليستأنفْ لها وصية في أعضائه السبعة ، وهي : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسليمها إليها ، فإنها رَعَايا خادمة لنفسه في هذه التجارة .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الأعضاء التي تتكرّر عليه في اليوم والليلة ، ثم النوافل التي يقدر عليها ، ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتّب لها تفصيلها ، وكيفيّتها ، وكيفية الاستعداد لها بأسبابها . وهذه شروط يفتقر إليها في كلّ يوم ، ولكنْ إذا تعوّد الإنسان شرْطَ ذٰلك على نفسه أيامًا ، وطاوعتْه نفسه في الوفاء بجميعها ، استغنى عن المشارطة فيها ، وإن أطاعتْ في بعضها بقيتْ الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ، وعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيما يمرّ به ، والانقياد للحقّ في مجاريها ، ويحذّرها مَغبَّة الإهمال ويعظها ، فإن النفْسَ بالطبع متمرّدة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ، ولكنّ الوعْظ يؤثر فيها ؛ قال تعالى : ﴿ **وذكِّرْ فإنَّ الذكْرىٰ تنفعُ**

المؤمنين ﴾ [الذاريات : ٥٥] ، فهذه محاسبةٌ قبل العمل ، كما قال تعالىٰ : **﴿ واعلموا أنَّ اللهَ يَعلمُ ما في أنفسكم فاحذرُوه ﴾** [البقرة : ٢٣٥] ، وهذا للمستقبل .

المرابطة الثانية : المراقبة :

وهذه سنُفرد لها الفصل التالي .

سُئل ذو النونِ : بِمَ ينال العبدُ الجنة ؟ قال : بخمسٍ : استقامة ليس فيها زَوَغَان ، واجتهادٌ ليس معه سَهْوٌ ، ومراقبة الله تعالىٰ في السرِّ والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهُّب له ، ومحاسبة نفسك قبل أنْ تُحاسَب .

المرابطة الثالثة : مُحَاسَبَةُ النفس :

قال تعالىٰ : **﴿ يَـٰأَيُّهَا الذينَ آمنُوا اتقُوا اللهَ ولْتنظرْ نفْسٌ ما قدَّمتْ لِغدٍ واتقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون ﴾** [الحشر : ١٨] .

قال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٣٤٢) : « قوله : **﴿ ولْتنظرْ نفْسٌ ما قدَّمتْ لِغدٍ ﴾** ، أي : حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وانظروا ماذا ادّخَرْتُم لأنفسكم مِن الأعمال الصالحة ليوم معادكم ، وعرْضكم على ربّكم » .

« فإذا كان العبد مسئولًا ومحاسَبًا على كلّ شيء ، حتىٰ على سمعه وبصره وقلبه ، كما قال تعالىٰ : **﴿ إنَّ السمْعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئِك كَانَ عنهُ مَسئولًا ﴾** [الإسراء : ٣٦] - فهو حقيقٌ أنْ يحاسِب نفسَه قبل أن يُناقَش الحساب »[١] .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن

---

(١) إغاثة اللهفان ١ / ١٠١ .

تُحاسَبوا ، وزِنُوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا ، فإنه أهونُ عليكم في الحساب غدًا أن تحاسِبوا أنفسكم اليوم ، وتزيّنوا للعرض الأكبر ، يومئذٍ تُعرضون لا تخفىٰ منكم خافية »[1].

حَاسِبْ نَفْسَكَ لنفسك ؛ فإن غيرها من الأَنْفُس عليها حسيب غيرك .

ويحدثك عالي الهمة ، والحادي لمعارج القمّة ابن قيم الجوزية عن المحاسبة في أعلىٰ صورها فيقول : وجماع ذلك أن يحاسب نفسه على الفرائض ، فإنْ تذكّر فيها نقصًا تداركه ؛ إما بقضاءٍ أو إصلاح .

ثم يحاسبها على المناهي ، فإذا عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه ؛ بالتوبة والاستغفار ، والحسنات الماحية .

ثم يحاسب نفسه على الغفلة ، فإنْ كان قد غفل عما خُلِق له ، تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى .

ثم يحاسبها بما تكلّم به ، أو مشت إليه رجلاه ، أو بطشتْ يداه ، أو سمعتْه أذناه ، ماذا أردت بهذا ؟ ولمن فعلته ؟ وعلى أي وجهٍ فعلته ؟ ويعلم أنه لا بدّ أن ينشر لكلّ حركة وكلمةٍ منه ديوانين : لمن فعلته ؟ وكيف فعلته ؟ فالأول : سؤال عن الإخلاص ، والثاني : سؤال عن المتابعة .

طريقة محاسبة النفس :

يقول ابن القيم : « محاسبة النفس : نوعان : نوعٌ قبل العمل ، ونوعٌ بعده :

---

(١) إسناده صحيح موقوف ؛ أخرجه أحمد في الزهد ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن الجوزي في صفة الصفوة .

النوع الأول :

هو أنْ يقف عند أول همِّه وإرادته ، ولا يبادر بالعمل حتى يتبيّن له رجحانه على تركه .

قال الحسن رحمه الله : رحم اللهُ عبدًا وقف عند همّه ، فإن كان لله : مضىٰ ، وإن كان لغيره : تأخَّر .

وشرح هذا بعضهم ، فقال : إذا تحرّكتِ النفس لعمل من الأعمال وهمّ به العبد ، وقف أولًا ، ونظر : هل ذلك العمل مقدور له ، أو غير مقدورٍ ولا مستطاع ؟ فإن لم يكن مقدورًا لم يُقدم عليه ، وإن كان مقدورًا ، وقف وقفةً أُخرىٰ ونظر : هل فعْله خيرٌ له من ترْكه ، أو تركه خيرٌ له من فعْله ؟ فإن كان الثاني : تَرَكَه ولم يقدم عليه ، وإنْ كان الأول ، وقفَ وقفة ثالثة ونظر : هل الباعث عليه إرادةُ وجْه الله عز وجلّ وثوابه ، أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق ؟ فإن كان الثاني لم يُقدم ، وإن أفضىٰ به إلى مطلوبه ، لئلَّا تعتاد النفس الشرك . وإن كان الأول ، وقف وقفة أُخرىٰ ، ونظر : هل هو معان عليه ، أم لا ؟ فإن لم يكن له أعوانٌ أمسك عنه ، كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار . وإن وجده معانًا عليه فليقدم عليه فإنه منصور .

فهذه أربع مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل .

النوع الثاني :

محاسبة النفس بعد العمل ، وهو ثلاثة أنواع :

أحدها : محاسبتها على طاعة قصّرت فيها من حقّ الله تعالىٰ ، فلم تُوقِعْها على الوجه الذي ينبغي .

وحقُّ الله في الطاعة ستةُ أمور ، وهي : الإخلاص في العمل ، والنصيحة لله فيه ، ومتابعة الرسول فيه ، وشهود مشهد الإحسان فيه ، وشهود منّة الله عليه ، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله .

الثاني : أن يحاسب نفسه على كلّ عمل ترْكُه خيرٌ له من فعْله .

الثالث : أن يحاسب نفسه على أمْرٍ مباح ، أو معتاد : لِمَ فعَله ؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة ، فيكون رابحًا ، أو أراد به الدنيا وعاجلها ، فيخسر ذلك الربح ، ويفوته الظفر به ؟ انتهى »(١) .

يا عاليَ الهمَّة ، هذه أركانُ المحاسبة :

وللمحاسبة ثلاثة أركان :

أحدها : أن تقايس بين نعمة الله وجنايتك :

حين تقايس بين ما مِنَ الله وما منك ، فحينئذ يظهر لك التفاوت ، وتعلم أنه ليس إلّا عفوه ورحمته ، أو الهلاك والعطْب .

وبهذه المقايسة تعلم حقيقة النفس وصفاتها ، وعظمة جلال الربوبية ، وتفرُّد الربِّ بالكمال والإفضال ، وأنت قبل هذه المقايسة جاهلٌ بنفسك ، وبربوبية فاطرِها وخالقها ، فإذا قايستَ ظهر لك أنها منبعُ كلّ شرٍّ ، وأساس كل نَقْصٍ ، وأن حدّها : الجاهلة الظالمة ، وأنه لولا فضلُ الله ورحمته بتزكيته لها ، ما زكتْ أبدًا ، فكما أنها ليس لها مِن ذاتها وجود ، فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود ، فليس لها من ذاتها إلّا العدم ؛ عدم الذات وعدم الكمال ، فهناك تقول حقًّا : « أَبوءُ لك بنعمتك عليَّ ، وأَبُوءُ بذنبي » .

ثم تقايس بين الحسنات والسيئات ؛ فتعلمْ بهذه المقايسة : أنهما أكبر

(١) إغاثة اللهفان [١ / ٩٧ - ٩٨] .. بتصرُّف .

وأرجح قدرًا وصِفةً . وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما مِنْك خاصّة .

وهذه المقايسة تشقُّ علىٰ مَن ليس له ثلاثة أشياء :

الأول : نُور الحكمة الذي نّور الله به قلوب أتباع الرسل ؛ فبقدْره ترىٰ التفاوت ، وهو العلْم الذي يميّز العبد به بين الحقّ والباطل ، والكامل والناقص ، ومراتب الأعمال ؛ راجحها ومرجوحها ، ومقبولها ومردودها ، وكلّما كان حظُّه من هذا النور أقوىٰ ، كان حظُّه من المحاسبة أكملَ وأتمَّ .

الثاني : سوء الظنّ بالنفس ؛ فحسن الظنِّ بالنفس يمنع من كمال التفتيش ، ويلبّس عليه ، فيرىٰ المساوئ محاسن ، والعيوب كمالًا .

فَعَيْنُ الرضا عن كلّ عيْبٍ كليلةٌ كما أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبدي المَسَاوِيَا

مَن أحسن ظنَّه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه .

الثالث: تمييز النعمة من الفتنة؛ فليفرّق بين النعمة التي يرىٰ بها الإحسان واللطف ، وبين النعمة التي يرىٰ بها الاستدراج ، فكم مِن مُستدرَج بالنعم وهو لا يشعر ، مفتون بثناء الجهال عليه ، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه .

فإذا كملتْ هذه الثلاثة فيه ، عرَف حينئذٍ أنّ ما كان من نعم الله عليه يجمعُه على الله فهو نعمةٌ حقيقيّة ، وما فرّقه وأخذه عنه فهو البلاء في صورة النعمة ، والمحنة في صورة المنحة ، فلْيحذرْ .

فكلّ علْم صَحِبَه عمل يُرضي اللهَ سبحانه فهو مِنّة ، وإلّا فهو حُجَّة ؛ وكلّ قوّةٍ ظاهرةٍ وباطنة صحبها تنفيذٌ لمرضاته وأوامره فهو مِنّة ، وإلّا فهو حجّة .

وكلّ حال صَحِبَه تأثير في نصرة دينه ، والدعوة إليه فهو منّة ، وإلَّا فهو حجّة .

وكلّ مالٍ اقترن به إنفاقٌ في سبيل الله وطاعته ، لا لطلب الجزاء والشكور ، فهو منّة ، وإلَّا فهو حجَّة .

وكل فراغٍ اقترن به اشتغال بما يريد الربُّ مِن عبده فهو مِنّة عليه ، وإلَّا فهو حجة .

وكلّ قبول في الناس ، وتعظيمٍ ومحبةٍ له ، اتصل به خضوع للربِّ وذلٍّ وانكسارٌ ، ومعرفة بعيْب النفس والعمل ، وبذل النصيحة للخلق ؛ فهو منّة ، وإلَّا فهو حجَّة .

وكلّ بصيرة وموعظةٍ وتذكير وتعريف من تعريفات الحقّ سبحانه إلى العبد اتصل به عِبرةٌ ، ومزيدٌ في العقل ، ومعرفةٌ في الإيمان ؛ فهي منّة ، وإلَّا فهي حجة .

وكلّ حال مع الله تعالىٰ ، أو مقام اتصل به السير إلى الله ، وإيثار مراده على مراد العبد ؛ فهو منّة من الله ، وإنْ صحبَه الوقوف عندَه والرضا به ، وإيثار مقتضاه ، من لذّة النفس به ، وطمأنينتها وركونها إليه ؛ فهو حجّة .

فليتأمَّل العبد هذا الموضع العظيم الخطير ، ويميّز بين مواقع المنن والمِحن ، والحُجَجِ والنعم ، فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواصّ الناس وأرباب السلوك .

الرُّكن الثاني مِن أركان المُحَاسَبة :

أنْ تميّز ما للحقّ عليك ؛ من وجوب العبودية والتزام الطاعة ، واجتناب المعصية ، وبين ما لك وما عليك . فالذي لك : هو المباح الشرعي . فعليك

حق ، ولك حقٌّ . فأدِّ ما عليك يؤتِكَ ما لك .

الركن الثالث :

« أن تعرف أنَّ كلَّ طاعة رضيتَها منك فهي عليك ، وكلّ معصية عيّرتَ بها أخاك فهي إليك » .

فرضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنِّه بنفسه ؛ وجهله بحقوق العبودية .

فجهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله ، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به ؛ يتولّد منهما رضاه بطاعته ، وإحسان ظنّه بها ، ويتولّد من ذلك - من العجب والكبر والآفات - ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة ؛ من الزنا وشرب الخمر والفرار من الزحف .

فالرضا بالطاعة من رُعونات النفس وحماقتها ، وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عُقَيْبَ الطاعات ، لشهودهم تقصيرهم فيها ، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه .

فبعد الصلاة لأرباب العزائم استغفارٌ ؛ ففي الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفرَ ثلاثًا ، ثم قال : « اللهمَّ أنت السلامُ ، ومنك السلامُ ، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام » .

وبعد صلاة الليل استغفار ؛ قال تعالى : ﴿ **والمستغفرينَ بالأسْحار** ﴾ الآية [آل عمران : ١٧] .

وبعد إفاضتهم مِن عرَفاتٍ استغفارٌ ؛ قال تعالى : ﴿ **فإذَا أفضْتُمْ مِن عرَفاتٍ فاذكُروا اللهَ عندَ المَشْعَرِ الحرامِ واذْكُروهُ كمَا هداكُمْ وإنْ كنتُمْ مِن قبلهِ لَمِنَ الضالِّينَ * ثمَّ أفيضُوا مِن حيثُ أفاضَ الناسُ واستغفرُوا اللهَ**

إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ [البقرة : ١٩٨ - ١٩٩] .

وخاتمة الوضوء استغفار ؛ « سبحانك اللهمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إلـه إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، اللهمَّ اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » .

وبعد أداء الرسالة والقيام بأعبائها أمر الله رسولنا ﷺ بالاستغفار ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ [النصر : ١ - ٣] .

فهذا شأن مَن عرف ما ينبغي لله ، ويليق بجلاله من العبودية وشرائطها ، لا جهلَ أصحاب الدعاوي وشطحاتهم .

وقال بعض العارفين : متىٰ رضيتَ نَفْسَكَ وعملَكَ لله ، فاعلمْ أنه غير راضٍ به ، ومَن عرف أن نفسه مأوىٰ كلِّ عيب وشرٍّ ، وعمله عُرْضة لكلّ آفة ونقْص ، فكيف يرضىٰ لله نَفْسه وعمله ؟!

ولله دَرُّ الشيخ أبي مَدْيَنَ حيث يقول : مَنْ تحقّق بالعبودية نظر أفعاله بعيْن الرياء ، وأحواله بعيْن الدعوىٰ ، وأقواله بعين الافتراء .

وكلّما عظم المطلوب في قلبك ، صغُرَتْ نفسك عندك ، وتضاءَلَتْ القيمة التي تبذلها في تحصيله ، وكلّما شهدتَ حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية ، وعرفتَ الله وعرفت النفسَ ، وتبيَّن لك أن ما معك مِن البضاعة لا يصلح للمَلِك الحقّ ، ولو جئتَ بعمل الثقلَيْن خشيتَ عاقبته ، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضُّله ، **ويُثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضله .**

قال ابن القيم : « التوبة بين محاسبتَيْن ، محاسبةٍ قبلها تقتضي وجوبها ،

ومحاسبةٍ بعدها تقتضي حفْظها »[1].

صفحاتٌ عَطِرَة في أقوال السلف عن المحاسَبَة وعلوِّ همَّتهم فيها :

عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا وخرجتُ معه ، حتى دخل حائطًا ، فسمعتُه يقول - وبيني وبينه جدار ، وهو في جوف الحائط - : عمرُ بن الخطاب أميرُ المؤمنين ! بَخٍ[2] ! واللهِ لَتتقينّ اللهَ ابنَ الخطّاب ، أو لَيعذبنّكَ[3].

أبو الدرْدَاء رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : « لا يفقه الرجل كلّ الفقهِ حتى يمقُتَ الناس في جَنْب الله ، ثم يرجع إلى نفسه ، فيكون لها أشدَّ مقتًا »[4].

وفي الزهد لأحمد : قال أبو الدرداء : « إنك لا تفقهُ كلَّ الفقه حتى ترىٰ للقرآن وجوهًا ، وإنك لا تفقه كلّ الفقه حتى تمقُتَ الناسَ في جنبِ الله ، ثم ترجع إلى نفسك ، فتكون لها أشدَّ مقتًا منك للناس » .

الأَحْنَفُ بنُ قَيْس :

عن سلمة بن منصور ، عن مولًى لهم ، كان يصحب الأحنف بن قيس ، قال : « كنتُ أصحبه ، فكان عامّة صلاته الدعاء ، وكان يجيء

---

(١) مدارج السالكين ١ / ١٦٩ - ١٧٦ بتصرف .

(٢) اسمُ فعل يُقال عند الرضا بالشيء .

(٣) إسناده صحيح متصل ، موقوف على عمر رضي الله عنه ، أخرجه أحمد في الزهد ، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس .

(٤) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا صـ ٤٦ ، تحقيق : مجدي السيد إبراهيم - مكتبة القرآن .

بالمصباح ، فيضع أصبعه فيه ، ثم يقول : حَسْ . ثم يقول : يا حنيف ، ما حملك على ما صنعتَ يوم كذا ؛ ما حملك على ما صنعتَ يوم كذا ؟ »[١].

رحمك الله أبا بحر ، ولله دَرّ مَن قال فيك : ما رأيتُ أحدًا أعظم سلطانًا على نفسه منه .

الحَسَـن البَصْـريّ :

قال الحسن في قوله تعالىٰ : ﴿ **ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوّامَة** ﴾ [القيامة : ٢] : « لا تَلقىٰ المؤمنَ إلّا يُعاتب نفسه : ماذا أردتُ بكلمتي ؟ ماذا أردتُ بأكْلتي ؟ ماذا أردتُ بشرْبتي ؟ والعاجز يمضي قُدُمًا ، لا يعاتب نفسه » .

وقال رحمه الله : رحمَ اللهُ عبدًا وقَفَ عند همِّه ؛ فإنْ كان لله مضىٰ ، وإن كان لغيره تأخَّرَ .

وقال رحمه الله : « المؤمن قوّام على نفسه ، يُحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خفَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم حاسَبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر مِن غير محاسَبة .

إنّ المؤمن يفجأه[٢] الشيء ويعجبه ، فيقول : والله إني لأشتهيك ، وإنك لَمِن حاجتي ، ولكن واللهِ ما من صلة إليك ، هيهاتَ ! حِيل بيني وبينك . ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه ، فيقول : هيهات ! ما أردتُ إلى هذا ، وما لي ولهذا ؟! ما أردتُ إلى هذا ، وما لي ولهذا ؟! والله ما أُعْذَر بهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبدًا إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلَكَتهم . إنّ المؤمن

---

(١) صفة الصفوة ٣ / ١٩٩ ، والإحياء ٥ / ٣٩٢ ، ومحاسبة النفس صـ ٣٦ .
(٢) يفجأه الشيء : يأتيه على بَغْتة وغفلة .

أسير في الدنيا ، يسعى في فِكَاك رقبته ، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذ عليه في ذلك كلّه »(١).

وقال رحمه الله : « حادثوا هذه القلوب ؛ فإنها سريعة الذنوب ، واقرعوا هذه الأنفُس ؛ فإنها طلعة ، وإنها تنازع إلى شرِّ غايةٍ ، وإنكم إن تعاونوها لا تُبقي لكم من أعمالكم شيئًا ، فَتَصَبَّرُوا وتَشَدَّدُوا ؛ فإنما هي أيام قلائل ، وإنما أنتم رَكْب وُقُوف ، يوشك أن يُدعَى الرجل منكم فيجيب ولا يَلْتَفُّ، فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم »(٢).

وقال : « ابنَ آدم ، عن نفسك فكايسْ ؛ فإنك إنْ دخلتَ النار لم تَنْجَبِرْ بعدها أبدًا » .

وقال : المؤمن في الدنيا كالغريب ، لا ينافس في عزّها ، ولا يجزَع مِن ذلِّها ، للناس حال وله حال ، الناس منه في راحة ، ونفسه منه في شغل .

وقال : إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله تبارك وتعالى(٣).

قَتَادَةُ رحمه الله :

قال قتادة في قول الله تعالىٰ : ﴿ **وكانَ أمرُهُ فُرُطًا** ﴾ الآية [الكهف : ٢٨] : « أضاع أكبر الضيعة ، أضاع نفسه ، وعسى مع ذلك أن تجده

---

(١) محاسبة النفس صـ ٣٨ - ٣٩ ، وصفة الصفوة ٣ / ٢٣٤ ، والإحياء ٥ / ٩٣٢ ، وإغاثة اللهفان ١ / ٩٥ ، والحلية ٢ / ١٥٧ .
(٢) الحلية ٢ / ١٤٤ ، وصفة الصفوة ٣ / ٢٣٦ ، ومحاسبة النفس صـ ٦٢ .
(٣) الحلية ٢ / ١٥٧ .

حافظًا لماله ، مُضَيِّعًا لدينه »(١) .

مَيْمُون بنُ مهْران :

قال رحمه الله : « لا يكون الرجل تقيًّا حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبةً مِن الشريك لشريكه »(٢) .

وقال رحمه الله : « التقيُّ أشدُّ محاسبة لنفسه من سلطانٍ عاصٍ ، ومن شريك شحيح »(٣) .

مالِكُ بنُ دِينار :

قال رحمه الله : « رحم اللهُ عبدًا قال لنفسه النفيسة : ألستِ صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمّها ، ثم خطَمها ، ثم ألزمها كتاب الله ، فكان لها قائدًا »(٤) .

« وكان – رحمه الله – يقول لنفسه : إني والله ما أريدُ بك إلّا الخير. مرتين »(٥) .

إبراهيمُ التيْمي :

« أنت في الأمنية فاعملي » :

« قال سفيان بن عُيينة : قال إبراهيم التيمي : مثّلتُ نفسي في الجنة

---

(١) محاسبة النفس ٢ / ٣٢ .
(٢) الحلية ٤ / ٨٩ ، ومحاسبة النفس ٣٣ .
(٣) محاسبة النفس صـ ٣٤ ، والإحياء ٥ / ٣٩٢ ، وإغاثة اللهفان ١ / ٩٥ .
(٤) الإحياء ٥ / ٣٩٢ ، وإغاثة اللهفان ١ / ٩٦ ، ومحاسبة النفس صـ ٣٤ .
وخطَمَها : أي قادها بكتاب الله ، فالخطام : هو الحبل الذي يُقاد به البعير .
(٥) محاسبة النفس صـ ٦٣ .

آكلُ مِن ثمارها ، وأشرب مِن أنهارها ، وأعانق أبكارها ، ثم مثلتُ نفسي في النار آكل من زقّومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلتُ لنفسي : أي نفسي ، أيَّ شيءٍ تريدين ؟ قالت : أريد أن أُردّ إلى الدنيا ، فأعملُ صالحًا . قال : فقلتُ : فأنتِ في الأمنية فاعملي »[1].

الحجّاج الثقفي :

« ما زال يقول : امرءًا . حتى أبكاني » :

قال مالك بن دينار : « سمعتُ الحجّاج يخطبُ ويقول : امرءًا وزَن نفسه ، امرءًا اتخذ نفسه عدوًّا ، رحم الله امرءًا حاسَب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، امرءًا آخذٌ بعنان عمله ، فنظر أين يريد ؟! امرءًا نظر في مكياله ، امرءًا نظر في ميزانه . فما زال يقول : امرءًا . حتى أبكاني » .

ويا ليت الحجّاج عمل بهذا .. فقد مضىٰ إلى لحْده وإلى ربّه سفَّاكًا غشومًا جبّارًا ظالمًا ، لو تخابثتِ الأمم ، فجاءت كلّ أمّة بخبيثها وجئْنا به ، لَفُقْناهم .

خطب الحجّاج يومًا فقال : « يَٰأَيُّهَا الرجل ، وكلُّكم ذلكَ الرجل ، ذمُّوا أنفسكم واخطموها ، وخذوا بأزمَّتها إلى طاعة الله ، وكفوها بخطمها عن معصية الله » .

وقال : « رجل خطَم نفسه وذمّها ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وعنجها[2] بزمامها عن معاصي الله » .

---

(١) الزهد لأحمد ٤٣٤ ، والحلية ٤ / ٢١١ ، ومحاسبة النفس صـ ٣٤ .

(٢) أي : جذبها وشدّها إلى طاعة الله ، بعيدًا عن المعاصي ، انظر : محاسبة النفس صـ ٣٧ .

وَحِكْمة مِن آل داود :

« وساعةٍ يُحاسِب فيها نفْسَه » :

عن وهب بن منبّهٍ قال : « مكتوب في حكمة آل داود : حقٌّ على العاقل أن لا يغفل عن أربعِ ساعاتٍ : ساعةٍ يُناجي فيها ربّه ، وساعةٍ يحاسب فيها نفسه ، وساعةٍ يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويَصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلو فيها بين نفسه ، وبين لذّاتها ، فيما يحلّ ويحمد ، فإنّ في هذه الساعة عوْنًا على تلك الساعات ، وإجمامًا للقلوب[1].

وحقٌّ على العاقل أن لا يُرى ظاعِنًا[2] إلا في ثلاث : زادٍ لميعاد ، أو مرمةٍ لمعاش[3] ، أو لذّة في غير محرّم .

وحقٌّ على العاقل أنْ يكون عارفًا بزمانه ، حافظًا للسانه ، مقبلًا على شأنه »[4].

الأسْود بنُ كُلثوم :

قال حميد بن هلال : كان الأسود بن كلثوم إذا مشى نظر إلى قدميْه . قال : ودور النساء إذ ذاك فيها تواضع ، فعسى أن يفجأ النسوة ، فيقول بعضُهن لبعض : كلّا ، إنه الأسود بن كلثوم ، إنه لا ينظر ، فلما قرب غازيًا ، قال : اللهم إن هذه النفس تزعم في الرخاء أنها تحبّ لقاءك ، فإن كانت صادقةً فارزقْها ذاك ، وإن كانت كاذبة فاحملها عليه ، وإن كرهتْ فاجعلْ ذلك

---

(١) إجمامًا للقلوب : يعني ترويحًا وتخفيفًا لها .
(٢) ظاعنًا : يعني مسافرًا ومرتحلًا .
(٣) يعني : جلب ما يقتات به ، ويعيش عليه من طعام وشراب وملبس .
(٤) محاسبة النفس صـ ٣٦ .

قتلًا في سبيلك ، وأطعمْ لحمي سباعًا وطيرًا . قال : فانطلق في طائفة مِن ذلك الجيش الذي خرج فيه ، حتى دخلوا حائطًا فيه ثلْمة[١]، وجاء العدو حتى قام على الثلمة ، فنزل عن فرسه ، وضرب وجهه فانطلق غايرًا ، ثم عمد إلى ماء في الحائط ، فتوضأ منه وصلّى . قال : تقول العجم : هكذا استسلام العرب . فلما قضى صلاته قاتلهم حتى قُتل ، وعظم الجيش ذلك على الحائط ، وفيهم أخوه ، فقيل لأخيه : ألا تدخل الحائط ، فتنظر ما أصبتَ من عظام أخيك ، فتجبه[٢] ؟ قال : ما أنا بفاعل شيئًا دعا به أخي[٣] ، فاستجيب له[٤] .

ورجلٌ من الصالحين يقول لنفسه : لَأَعرضنَّكِ على اللهِ : أَخذَك أو تركَكِ :

قال عبد الله بن قيس أبو أمية الغفاري : « كنا في غزوة لنا ، فحضر عدوُّهم ، فصيح في الناس ، فهم يثوبون إلى مَصَافِّهم ، وفي يومٍ شديدِ الريح ، إذا رجل أمامي ، رأس فرسي عند عجز فرسه ، وهو يخاطب نفسه ، فيقول : أي نفسُ ، ألم أشهد مشهد كذا وكذا ؟ فقلتِ لي : أهلك وعيالك ، وأطعتُكِ فرجعتُ ؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا ، فقلتِ لي : أهلك وعيالك . فأطعتُكِ فرجعتُ ؟ والله لأعرضنَّك اليوم على الله عزَّ وجل ، أخذكِ أو تركَكِ . فقلتُ : لأرمقنّه اليوم ، فرمقتُه ، فحمل الناسُ على عدوّهم ، فكان في أوائلهم ، ثم إنَّ العدو حَمَل على الناس ، فانكشفوا ، وكان في حُمَاتهم ، ثم حملوا على عدوهم ، فكان في أوائلهم ، ثم حمل العدو ، وانكشف الناس ، فكان في حُمَاتهم . قال : فوالله ، ما زال ذلك دأبه حتى رأيتُه صريعًا ،

---

(١) يعني : ثغرة .
(٢) يعني : تحضر ما بقي من جسده .
(٣) وهو أن يطعم الله لحمه للسباع والطير .
(٤) الزهد لأحمد ٢٥٦ ، وصفة الصفوة ٣ / ٢٩١ ، ومحاسبة النفس صـ ٤٦ .

فعددتُ به وبدابّتهِ ستين ، أو أكثر من ستين طعنةً »[١].

ابنُ رَوَاحَة وشدَّةُ محاسبته لنفسه :

لما قُتِلَ جعفر بن أبي طالب ، دعا الناسُ : يا عبد الله بن رواحة ، يا عبد الله بن رواحة . وهو في جانب العسكر ، ومعه ضِلْع جملٍ منهشة[٢] ، ولم يكن ذاق طعامًا قبل ذلك بثلاث ، فرمىٰ بالضِّلع ، ثم قال : وأنت مع الدنيا ؟! ثم تقدّم فقاتل ، فأصيبت أصبعه ، فارتجز ، فجعل يقول :

هَـلْ أنت إلَّا أصبعٌ دميتِ … وفي سبيلِ اللهِ ما لقِيتِ
يا نفسُ إلَّا تُقْتلي تموتي … هذا حياضُ الموتِ قد صليتِ
ومـا تمنيتِ فقـد لقـيتِ … إنْ تفعلي فِعْلها هـديتِ
وإن تأخرتي فقدْ شقيتي

ثم قال : يا نفسي ، إلى أي شيءٍ تتشوقين ؟ إلى فلانة ، فهي طالق ثلاثًا ، وإلى فلان وفلان - غلمان له - وإلى معجف - حائط له - فهو لله ولرسوله .

يا نفسُ مالك تكرهينَ الجنَّهْ … أُقْسِـمُ باللَّـه لَتنـزِلنَّهْ
طائعـةً أو لتُكْـرهِنَّـهْ … فطالَ ما قدْ كُنْتِ مطمئنَّهْ
هَلْ أنتِ إلَّا نطفةٌ في شَنَّهْ … قد أجلبَ النَّاسُ وشدُّوا الرنَّهْ[٣]

عابدةٌ لا ترىٰ قدمَيْها أهلًا للطَّوافِ حوْلَ الكعبة :

قال وهيب بن الورد : « بينما امرأةٌ في الطواف ذاتَ يوم وهي تقول :

---

(١) محاسبة النفس صـ ٤٥ .

(٢) يعني : جمل قليل اللحم ، والضلع من الحيوان : هي عظام الجنبَين .

(٣) محاسبة النفس صـ ٤٣ ، والحلية ١ / ١٢٠ - ١٢١ .

يا رب ، ذهبتِ اللذات وبقيت التبِعات . يا رب ، سبحانك وعزَّتك إنَّك لأرحمُ الراحمين . يا ربّ ، ما لك عقوبة إلا النار ! فقالت صاحبة لها كانت معها : يا أُخيَّة ، دخلتِ بيتَ ربِّكِ اليوم . قالت : والله ما أرىٰ هاتَين القدمَين - وأشارت إلى قدميها - أهلًا للطواف حول بيت ربي ، فكيف أراهما أهلًا أطأُ بهما بيتَ ربي ، وقد علمتُ حيث مشيَتَا ، وإلى أين مشيتا »[(١)].

عطـاء السـليمي :

عن إبراهيم بن أدهم قال : « كان عطاء السليمي إذا استيقظ قال : ويحك يا عطاء ، ويحك يا عطاء ، وأبيك يا عطاء ، وأمك يا عطاء . حتَّى يصبح »[(٢)].

ضَيْغَم بن مالك :

« احذر نفسَك على نفسِك » :

قال أبو أيوب مولى ضيغم بن مالك : « قال لي أبو مالك يومًا : يا أبا أيوب ، احذر نفسَك على نفسِك ؛ فإني رأيتُ هموم المؤمنين في الدنيا لا تنقضي ، وايمُ الله ، لئنْ لم تأتِ الآخرة المؤمن بالسرور ، لقد اجتمع عليه الأمران ؛ همُّ الدنيا ، وشقاءُ الآخرة . قال : قلتُ : بأبي أنت وأمِّي ، وكيف لا تأتيه الآخرة بالسرور ، وهو ينصب لله في دار الدنيا ويدأب ؟! قال : يا أبا أيوب ، فكيف بالقبول ؟ وكيف بالسلامة ؟ قال : ثم قال : كم من رجل يرىٰ أنه قد أصلح شأنه ، وقد أصلح قُربانه ، قد أصلح همته ، قد أصلح عملَهُ ؛ يُجمع ذلك يوم القيامة ثم يُضرب به وجهُه »[(٣)].

---

(١) الحلية ٨ / ١٥٠ ، ومحاسبة النفس صـ ٥٠ .
(٢) محاسبة النفس صـ ٦٨ .
(٣) صفة الصفوة (٣ / ٣٦٠) ، ومحاسبة النفس صـ ٦٨ - ٦٩ .

وهْـب بن منبّـه :

عن وهب بن منبّه قال : الإيمان قائد ، والعمل سائق ، والنفس بينهما حرون[١] ، فإذا قاد القائد ولم يسُقِ السائق ، لم يُغنِ ذلك شيئًا . وإذا ساق السائق ولم يقدِ القائد ، لم يغنِ ذلك شيئًا . فإذا قاد القائد وساق السائق ، اتبعته النفس طوعًا وكرهًا وطابَ العمل[٢] .

قال عبد الرحمٰن بن زامرد الأزرق العدني - وكان عابدًا - :

ويلي وويحي مِن تَتابُعِ جُرْمي | لو قد دعاني للحسابِ حسيبي
والويلُ لي ويلٌ أليمٌ دائمٌ | إنْ كنتُ في الدنيا أخذتُ نصيبي
واستيقِظي يا نفسُ ويحكِ واحذري | حذرًا يُهيِّجُ عَبْرَتي ونحيبي[٣]

وقال الفُضَيْل بنُ عِياض في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ... ﴾ الآية [النساء : ٢٩] : لا تغفلوا عن أنفسكم ، ثم قال : مَن غفل عن نفسه فقد قتلها .

عمرُ بنُ عبد العزيز :

عن عطاء قال : دخلتُ على فاطمة بنت عبد الملك ، بعد وفاة عمر ابن عبد العزيز ، فقلت لها : يا بنت عبد الملك ، أخبريني عن أمير المؤمنين . قالت : أفعل ، ولو كان حيًّا ما فعلت ، إنَّ عمر رحمه الله كان قد فرَّغ نفسه وبدنه للناس ؛ كان يقعد لهم يومه ، فإن أمسىٰ وعليه بقيّة من حوائج يومه وصله بليله ، إلى أنْ أمسىٰ مساء وقد فرغ من حوائج يومه ، فدعا بسراجه الذي كان يُسرج له من ماله ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم .....

---

(١) أي : واقفةٌ بينهما .
(٢) حلية الأولياء ٤ / ٣٠ ، وصفة الصفوة ٢ / ٢٩٥ .
(٣) محاسبة النفس صـ ٧٢ - ٧٣ .

أقعى[(١)] واضعًا رأسه على يده ، تسايل دموعُه على خدّه ، يشهق الشهقة ، فأقول : قد خرجتْ نفسه ، وانصدعتْ كبدُه . فلم يزل كذلك ليلتَه ، حتى برق له الصبح ، ثم أصبح صائمًا . قالت : فدنوتُ منه فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، لشيءٍ ما كان قبل الليلة ما كان منك ؟ قال : أجل ، فدعيني وشأني وعليك بشأنك . قالت : فقلت له :إني أرجو أن أتّعِظ . قال : إذًا أخبرُكِ ؛ إني نظرتُ إليّ ، فوجدتُني قد وُلّيتُ أمر هذه الأمة ؛ صغيرها وكبيرها وأسودها وأحمرها ، ثم ذكرتُ الغريب الضايع ، والفقير المحتاج ، والأسير المفقود ، وأشباههم ، في أقاصي البلاد وأطراف الأرض ، فعلمتُ أن الله مسائلي عنهم ، وأن محمدًا ﷺ حجيجي فيهم ، فخفتُ أن لا يثبت لي عند الله عذر ، ولا يقوم لي مع رسول الله ﷺ حجّة ، فخفتُ على نفسي خوفًا دمعتْ له عيني ، ووجِلَ له قلبي ، فأنا كلما ازددتُ لها ذكرًا ازددتُ لهذا وَجَلًا ، وقد أخبرتكِ فاتعظِي الآن أو دعي[(٢)].

عامرُ بنُ عبدِ قيْسٍ :

« قومي يا مأوىٰ كلِّ سُوءٍ » :

كان عامر بن عبد قيسٍ إذا صلّى العصر جلس ، وقد انتفخت ساقاه من طول القيام ، فيقول : يا نفسُ ، بهذا أُمرتِ ، ولهذا خُلِقتِ ، يوشك أن تذهب الغيابق[(٣)].

وكان يقول لنفسه : قومي يا مأوى كلّ سوء ، فوعزّة ربي لأزحفنَّ بكِ زَحْفَ البعير ، وإن استطعتُ أن لا يمسَّ الأرض من ....

---

(١) تساند إلى ما وراءه .

(٢) محاسبة النفس صـ ٧٤ - ٧٥ .

(٣) في صفة الصفوة : يوشك أن يذهب العناء .

زهمك[١] ، لأفعلنَّ . ثم يتلوّى كما يتلوى الحبُّ على المقلىٰ ، ثم يقوم ، فينادي : اللهمَّ إن النار قد منعتني من النوم ، فاغفر لي[٢] .

وتعبّد رجل ببيت شعرٍ سمِعَه :

لِنفسي أبكي لستُ أبكي لغيرِهَا ... لنفسي في نفسي عنِ الناسِ شاغلُ

مسروق بن عبد الرحمٰن :

قيل لمسروق : لو أنك قصّرت عن بعض ما تصنع . أي : من العبادة ، فقال : « والله لو أتاني آتٍ من ربي ، فأخبرني أن الله لا يعْذبني ، لاجتهدتُ في العبادة . قيلَ : وكيف ذاك ؟ قال : حتى تعذرني نفسي ، إنْ دخلتُ جهنم لا ألومها ، أمَا بلغكَ في قول الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ **ولا أُقسمُ بالنَّفْسِ اللَّوّامةِ** ﴾ [القيامة : ٢] ، إنما لاموا أنفسهم ، حتى صاروا إلى جهنم واعتنقتْهم الزبانية ، وحِيل بينهم وبين ما يشتهون ، وانقطعت عنهم الأماني ، ورُفعت عنهم الرحمة ، وأقبل كلُّ امرئ منهم يلوم نفسه »[٣].

يزيدُ الرقّاشي :

قال يزيد الرقاشي : « ابنَ آدم ، إنك رقيقٌ على الناس ، غليظٌ بعضُك على بعض لو نُعي إليك بعضُ أهلك بكـيتَ ، وأنت كلَّ يومٍ تُنعَىٰ إليك نفسُك لا تبكيها » .

ولله دَرُّ القائل :

فيبكي على مَيْتٍ ويغفلُ نفسَهُ ... كأنَّ بكفَّـيْه أمـانًا مِـن الرَّدَىٰ

---

(١) الزّهم : يطلق على الشحم من الجسم .
(٢) الحلية ٢ / ٨٩ ، وصفة الصفوة ٣ / ٢٠٢ ، ومحاسبة النفس صـ ٧٧ .
(٣) صفة الصفوة ٣ / ٢٥ ومحاسبة النفس صـ ٨٠ – ٨١ .

وما الميّتُ المقبورُ في صَدْرِ يومِهِ أحقُّ بأنْ يَبكِيهِ مِن مَيّتٍ غدَا

قال أبو الحجاج المهدي : مَن جعل شهوته تحتَ قدمَيْه ، فَرَق الشيطانُ من ظِلِّهِ .

عابدٌ يحتسب غفلتَه في نفسه وتقصيره في حظِّه :

قال كلاب بن جري رأيتُ شابًّا ببيت المقدس ، قد عَمِشَ من طول البكاء ، فقلت له : يا فتى ، كم تكون العين سليمة على هذا البكاء ؟ قال : فبكى ، ثم قال : كم شاءَ ربي فلتكن ، وإذا شاء سيدي فلْتذهبْ ، فليستْ بأكرمَ عليّ من بدني ، إنما أبكي رجاء السرور والفرح في الآخرة ، وإن تكن الأُخرى ، فهو والله شقاء الدهر ، وحزن الأبد ، والأمر الذي كنتُ أخافه وأحذره على نفسي ، وإني أحتسب على الله غفلتي في نفسي ، وتقصيري في حظّي . ثم غُشي عليه .

إني أرقتُ وذكرُ الموتِ أرّقني فقلتُ للدمعِ أَسعدْني فأسعدَني
إنْ لم أبكِ لنفسي مشعرًا حزنًا قبلَ المماتِ ولمْ أرقَّ لها فَمَنِ
يا مَنْ يموتُ ولم تحزِنْهُ ميتتُهُ ومَنْ يموتُ فمَا أولاهُ بالحَزَنِ
إني لأرْقعُ أثوابي ويخلِقُها جدبُ الزمانِ لها بالوَهْنِ والعَفَنِ
لِمَنْ أثمِّرُ أموالي وأجمعُهَا لمن أروحُ لِمَنْ أَغدو لِمَنْ لِمَنِ
لمنْ سيوقِعُ بي لَحْدي ويتركُني تحتَ الثرىٰ تَرِبَ الخَدَّيْنِ والذَّقْنِ

وقال سوّار أبو عبيدة : قالتْ لي امرأة عطاء السليمي : عاتِبْ عطاء في كثرة البكاء . فعاتبتُه ، فقال لي : يا سوار ، كيف تعاتبني في شيء ليس هو إليَّ ، إني إذا ذكرتُ أهل النار وما ينزل بهم من عذاب الله عز وجل وعقابه ، تمثّلتْ لي نفسي بهم ، فكيف لنفسٍ تغلّ يدَها إلى عنقها ، وتسحب في النار ؛ أن لا تصيح وتبكي ؟! وكيف لنفسٍ تُعذَّب أن لا تبكي ؟! ويحك

يا سوار ! ما أقلّ عناء البكاء عن أهله ، إن لم يرحمهم الله عز وجل .

وقال أبو سليمان الداراني : وصفتُ لأختي « عبدة » قنطرةً من قناطر جهنم ، فأقامت ليلة ويومًا في صيحةٍ واحدةٍ ، ما تسكت ، ثم انقطع عنها بعدُ ، فكلما ذكرتُ لها صاحتْ صيحة واحدة ، ثم سكتت ، قلت : مِن أيّ شيءٍ كان صياحها ؟ قال : مثّلت نفسها على القنطرة وهي تكفأ بها .

وكتب أبو الأبيض العابد إلى بعض إخوانه : أمّا بعد ، فإنك لم تُكلّف من الدنيا إلّا نَفْسًا واحدة ، فإن أنت أصلحتَهَا ، لم يضرّك فساد من فسد بصلاحها ، وإن أنت أفسدتها لم ينفعْك صلاح مَن صلح بفسادها ، واعلم أنك لا تسْلَم من الدنيا حتى لا تبالي من أكْلها ، من أحمَر أو أسود .

أخي ، إنَّ النفوس رهائن يُكسبونها ، فاعملْ ؛ فإن **فكاكهنَّ الدَّأبُ**.

زياد بن أبي زيادٍ يُخَاصِمُ نَفْسَه :

قال محمد بن المنكدر : « إنِّي خلَّفتُ زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش ، وهو يخاصم نفسه في المسجد ، يقول : اجلسي ، أين تُريدين ؟ أين تذْهبين ؟! أتخرجين إلى أحسن من هذا المسجد ؟! انظري إلى ما فيه ، تريدين أن تبصري دار فلان ودار فلان ؟ قال : وكان يقول لنفسه : وما لك من الطعام يا نفس إلا هذا الخبز والزيت ، وما لك من الثياب إلَّا هذان الثوبان ، وما لك من النساء إلا هذه العجوز ، أفتحبّين أن تموتي ؟ فقالت : أنا أَصبر على هذا العيش »[١].

توبةُ بنُ الصّمّة يحاسب نفسه ، فيُغْشَى عليه ويموت :

« كان توبة بن الصّمّة بالرقة ، وكان محاسبًا لنفسه ، فحسب فإذا

(١) محاسبة النفس ٩٣ - ٩٤ .

هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها ، فإذا هي واحدٌ وعشرون ألف وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال : يا ويلتىٰ ، ألقىٰ الملك بواحدٍ وعشرين ألف ذنب ، كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ؟! ثم خرَّ مغشيًّا عليه ، فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلًا يقول : يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلىٰ »[١].

لله دَرُّه !! ما أعلىٰ همته !!

أُثَامِنُ بالنفسِ النفيسةِ ربَّها   وليس لها في الخَلْقِ كلِّهم ثمنْ
بها تُمْلَكُ الدنيا فإنْ أنا بِعْتُها   بشيءٍ مِنَ الدنيا فذلكمُ الغبنْ
لئن ذهبتْ نفسي بدنيا أصبتُها   لقدْ ذهبتْ نفسي وذهب الثمنْ

قال الحسن رحمه الله : « أيسرُ الناس حسابًا يوم القيامة ، الذين يحاسبون أنفسهم في الدنيا ، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم ؛ فإن كان الذي همّوا به لهم مَضَوْا ، وإن كان عليهم أَمسكوا . قال : وإنما ثَقُلَ الأمرُ يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا ؛ أخذوها من غير محاسبة فوجدوا الله عزّ وجلّ قد أحصىٰ عليهم مثاقيلَ الذَّرّ ، وقرأ ﴿ **مَا لِهَذَا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إلَّا أحْصَاهَا** ﴾ »[٢].

أخي ، كيف لا يُحاسِبُ عالي الهمّة العاقل نفسَه ، فيما يتعلّق به خطَرُ الشقاوة والسعادة أبدَ الآباد .

وينبغي أنْ يتقي غبينةَ النَّفْسِ ومكرَها ؛ فإنها خدّاعةٌ مُلبّسةٌ مكّارة ، فليطالبها أولًا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلّم به طول نهاره ، وليتكفّل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره وأفكاره ، وقيامه وقعوده ، وأكْله وشربه ونومه ، حتى عن

(١) محاسبة النفس صـ ٦٧ .
(٢) محاسبة النفس صـ ٩٤ .

سكوته أنه لِمَ سكت ؟ وعن سكونه لم سكَن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس ، وصحّ عنده قدر ، أدىٰ الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبًا له ، فيظهر له الباقي على نفسه ، فليثبته عليها ، وليكتبه على صحيفة قلبه ، كما يكتب الباقي الذي علىٰ شريكه على قلبه ، وفي جريدة حسابه .

ثم النفْسُ غريمٌ يمكن أن يستوفى منه الديون ؛ أمَّا بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها بردّ عيْنه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولا يمكن شيء من ذلك إلَّا بعد تحقيق الحساب ؛ وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ، ثم ينبغي أن يحاسب النفْس على جميع العمر ؛ يومًا يومًا ، وساعةً ساعة،في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ، كما نُقِلَ عن توبة بن الصمة ، فهكذا ينبغي أنْ يُحَاسِبَ نفسه على الأنفاس ، وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ، ولو رمىٰ العبدُ بكلِّ معصية حجرًا في داره ، لامتلأتْ دارُه في مدَّة يسيرة قريبةٍ مِن عمره ، ولكنَّه يتساهل في حفْظ المعاصي ، والملَكَان يحفظان عليه ذلك ، ﴿ **أحْصَاهُ اللهُ ونَسُوه** ... ﴾ الآية [المجادلة : ٦] .

إزراؤهم علىٰ أنفسهم :

إذا ما اشتدَّ الصالحون في محاسبة أنفسهم ؛ مقتوا أنفسَهم ، ونظروا إليها بعين النقص .

قال مطرّف بن عبد الله وهو بعرفة : اللهمّ لا تردّ الجميع من أجلي .

وقال بكر بن عبد الله المزني بعرفة : ما أحلىٰ هذا الجمع ، لولا أني فيهم .

وكان بكر رحمه الله إذا رأىٰ شيخًا قال : هذا خير مني ، هذا عبد الله قبلي . وإذا رأىٰ شابًّا قال : هذا خير مني ، ارتكبتُ مِن الذنوب أكثر مما ارتكب .

وقال مالك بن دينار : إذا ذُكر الصالحون ، فأُفٍّ لي وتُفٍّ .

وقال أيوب السختياني : إذا ذكر الصالحون ، كنتُ عنهم بمعزِل .

وقال سفيانُ الثوري : جلست ذات يوم أحدّث ومعنا سعيدُ بن السائب الطائفي ، فجعل سعيد يبكي حتى رحمتُه ؛ فقلت : يا سعيد ، ما يُبكيك وأنت تسمعني أذْكُر أهلَ الخيرِ وفعالهم ؟ قال : يا سفيان ، وما يمنعني من البكاء ، وإذا ذكر مناقبُ أهل الخير ، كنتُ منهم بمعزِلٍ . قال سفيان : حُقَّ له أن يبكي .

وقال يونس بن عبيد : إني لأعدّ مائة خصلة من خصال الخير ، ما أعلم أن في نفسي واحدة منها .

وقال صلةُ بنُ أشيم : اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار ، أوَ مثلي يجترئ أنْ يسألك الجنَّة ؟!.

وقال محمد بن واسع : لو كان للذنوب ريحٌ ، ما قدر أحد أن يجلسَ إليَّ ، أو لو كانت للذنوب رائحة ، ما استطاع أحد أن يجالسني من نَتَن رائحتي . ورأى رحمه الله ابنًا له وهو يخطر بيده ، فقال : ويحك ! تعالَ ، أتدري مَن أنت ؟ أُمُّك اشتريتُها بمائتي درهم ، وأبوك ! فلا أكثر الله في المسلمين ضرْبَه . أو قال نحوه .

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بطيئًا بطينًا . متلوِّثًا مِنَ الخطايا ، أتمنَّى على الله الأماني(١) .

ولقي مالك بن دينار ثابتًا البناني ، فقال له ثابت : يا أبا يحيى ، كيف بك ؟ قال : كيف بمن هو ظاهرُ العيوب كثيرُ الذنوب ، مستورٌ على

---

(١) الحلية ٥ / ٢٨٧ .

غير استحقاق ، فكيف بك يا أبا محمد ؟ قال : فكتف ثابت يده ، ومدَّ عنقه ، وخفض رأسه ، وقال : هذا عذرُ الخطَّائين الأشراء[١] . وأقبلا يبكيان حتى سقطا[٢] .

المرابطة الرابعة : معاقبةُ النفسِ علىٰ تقصيرها :

مهما حاسَب نفسه ، فلم تسلم عن مُقَارفة معصية ، وارتكاب تقصير في حقّ الله تعالىٰ ، فلا ينبغي أن يهملها ، فإنه إنْ أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي ، وأَنِسَت بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سببَ هلاكها ، بل ينبغي أن يعاقبها ، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوةِ نَفْسٍ ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير مَحْرم ينبغي أن يعاقب العين بمنْع النظر ، وكذلك يعاقب كلَّ طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته ، هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة .

حَسَّان بن أبي سنان :

عن عبد الجبار بن النضر السلمي قال : مرَّ حسان بن أبي سنان بغرفة فقال : متىٰ بُنيتْ هذه ؟ ثم أقبل على نفسه ، فقال : تسألين عمّا لا يَعنيك ؟! لأعاقبنَّك بصوم سنةٍ . فصامها[٣] .

رياح القيْسي :

« قال مالك بن ضيْغم : جاء رياح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر ،

---

(١) الأشراء جمع شرير كأشرار .

(٢) محاسبة النفوس صـ ٥٤ - ٥٥ .

(٣) حلية الأولياء ٣ / ١١٥ ، ومحاسبة النفس صـ ٤٢ ، وصفة الصفوة ٣ / ٣٣٩ ، والإحياء ٥ / ٣٩٣ .

فقلنا: إنه نائم، فقال: أنوم هذه الساعة؟! أهذا وقت نوم؟! ثم ولّى منصرفًا، فأتبعناه رسولًا ، فقلنا : قل له : ألا نوقظه لك ؟ قال : فأبطأ علينا الرسول ، ثم **جاء وقد غربتِ** الشمس ، فقلنا : أبطأتَ جدًّا ، فهل قلت له ؟ قال : هو أشغل من أن يفهم عني شيئًا ؛ أدركتُه وهو يدخل المقابر ، وهو يعاتب نفسه ، وهو يقول : أقلتِ : أنومٌ هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليكِ ؟ ينام الرجل متى **يشاء . وقلتِ : هذا وقت نوم ؟ وما يُدريكِ أنَّ هذا ليس** وقت نوم ؟ تسألين عما لا يعنيك ، وتَكلَّمين بما لا يَعنيك ؟! أمَا إن لله عليَّ عهدًا لا أنقضه أبدًا ؛ لا أُوسدُكِ الأرض لنوم حَوْلًا ، إلا لمرضٍ جاء بكِ ، أو لذهاب عقل زائلٍ ، سوءةً لك ، **سوءةً لك ، أما تستحين ، كم** توبّخين ؟! وعن غيّك لا تنتهين ! قال : وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني ، فلما رأيتُ ذلك ، انصرفتُ وتركتُه »[1].

وعن **محمد** بن المنكدر ، عن أبيه أنّ تميمًا الداريّ نام ليلة ، لم يقمْ يتهجد فيها حتى أصبح ، فقام سنة لم ينم فيها ، عقوبةً للذي صنع[2].

عَابِدٌ يحلفُ أنْ لا ينامَ علىٰ فراشٍ أبدًا :

قالَ طلق بن معاوية : قدِم رجل منّا - يُقال له : هند بن عوف - من سفر ، فمهّدتْ له امرأتُه فراشًا ، وكانت له ساعة من الليل يقومُها ، فنام عنها حتى أصبح ، فحلف أن لا ينام علىٰ فراش أبدًا .

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل : كيف تصنع بنفسك في شهواتها ؟ فقال : ما على وجه الأرض نفسٌ أبغضُ إليَّ منها ، فكيف أعطيها شهواتها ؟!

---

(١) الحلية ٦ / ١٩٢ ، ومحاسبة النفس صـ ٥٧ - ٥٨ ، وصفة الصفوة ٣ / ٣٦٨ .

(٢) صفة الصفوة ١ / ٧٣٩ ، ومحاسبة النفس صـ ٥٨ .

داود الطائي : سَجَن نفسَه قبلَ أنْ يُسجن :

« دخل ابن السماك على داود الطائيِّ حين مات ، وهو في بيتٍ على التراب ، فقال داود : سجنتَ نفسك قبل أن تُسجن ، وعذّبتَ نفسك قبل أن تُعذَّب ، فاليومَ ترىٰ ثواب مَن كنتَ له تعمل »(١).

هذا الطائيُّ الصالح الذي قال : « إنما نتبلّغ بستره بين خلقه ، ولو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ، ما ذلَّ لنا لسانٌ أن نُذْكَر بخيرٍ أبدًا » .

وقال : تركْنا الذنوب ، وإنا لنستحيي من كثير من مجالسة الناس .

« وقال : ما نعوّل إلَّا على حُسن الظنّ بالله تعالىٰ ، فأما التفريط فهو المستولي على الأبدان » .

وقال : « اليأس سبيل أعمالنا هذه ، ولكنّ القلوب تحنُّ إلى الرجاء » .

هذا حال الصادق الذي لو كان في الأمم الغابرة لقصّ الله علينا من أنبائه وخَبَره ، فكيف بالكذابين من أمثالنا ؟!

مجمــع :

وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح ، فوقع بصره على امرأة ، فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء ما دام في الدنيا(٢).

فكذا كانت عقوبة أولي الحزْم لأنفسهم ، والعجب أنك تعاقب عبدك وأَمَتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلُق وتقصير في أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزتَ عنهم ، لخرج أمرُهم عن الاختيار وبغوا عليك ،

---

(١) محاسبة النفس صـ ٦٠ ، والإحياء ٤ / ٤٣١ .
(٢) الإحياء ٤ / ٤٣٢ .

ثم تُهمل نفسك ، وهي أعظم عدوٍّ لك وأشدَّ طغيانًا عليك ، وضررُك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإنّ غايتهم أن يشوّشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلتَ لَعلمتَ أن العيش عيش الآخرة ، وأنّ فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ، ونفسك هي التي تنغّص عليك عيش الآخرة ، فهي بالمعاقَبَة أولى من غيرها .

فإذا حاسَب المرءُ نفسه فرآها قد فارقتْ معصية ، فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت ، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو وِرْد من الأوراد ، فينبغي أن يؤدِّبها بتثقيل الأوراد عليها ، ويُلزمها فنونًا من الوظائف ، جبرًا لِمَا فات منه وتدارُكًا لما فرط ، فهكذا كان يعمل عُمّال الله تعالىٰ ، فقد عاقَب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة . بأن تصدّق بأرضٍ كانت له ، قيمتُها مائتا ألف درهم .

وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة جماعة أحيا تلك الليلة . وأخَّر ليلةً صلاةَ المغربِ حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتَين .

وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة .

عن فضالة بن عُبيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المجاهدُ مَن جاهد نفسه في الله »(١).

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلمُ مَن سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر مَن هجَر ما نهىٰ الله عنه »(٢).

---

(١) صحيح ؛ رواه الترمذي ، وابن حبان ، وأحمد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٦٧٩ .

(٢) رواه البخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، وأحمد ، والدارمي ، والطيالسي .

وقال عمر بن عبد العزيز : أفضلُ الأعمال ما أُكرِهتْ عليه النفوس .

إنَّ فتنةَ النَّفس والشهوة ، وجاذبية الأرض والدَّعَة والاطمئنان ، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه ، مع المعوّقات والمُثبِّطات في أعماق النفس - هي الفتنة الكبرىٰ .

والنفس تَصْهرها المجاهدة ، فتنفي عنها الخَبَث ، وتستجيش كامِنَ قواها المذخورة فتستيقظ . ويكفي قول الله عز وجل : ﴿ **والذينَ جاهدوا فينا لَنَهْدِينَّهم سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المحسنين** ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

قال أبو يزيد البسطامي : « إن في الطاعات من الآفات ما لا تحتاجون معه إلى أن تطلبوا المعاصي .

وقال : عملتُ في المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدتُ شيئًا أشدّ عليَّ من العلم ومتابعته .

وقال : عالجتُ كلَّ شيءٍ ، فما عالجتُ أصعب من معالجة نفسي ، ما شَيءٌ أهون عليَّ منها .

وقال : دعوتُ نفسي إلى الله ، فأبتْ عليّ **واستصعبت** ، فتركتُها ومضيتُ إلى الله »(١).

المرابطة الخامسة : مجاهدة النفس :

ومجاهدة النفس قد تشقّ ، ولكنها طريقٌ أكيدٌ وفريدٌ لعلوِّ النفس وشرفها ، وقد يطول بك الأمر فاصبرْ ، وسبيلُك في ذلك كَأَنْ تُسمعها ما ورد في الأخبار من فضْل المجتهدين .

---

(١) الحلية ١٠ / ٣٦ .

ومن أنفع أسباب العلاج : أن تطلب صُحبة عبدٍ من عباد الله مجتهِد في العبادة ، فتلاحظَ أقوالَهُ وتقتدي به .

وكان بعضُهم يقول : كنتُ إذا اعترتْني فترة في العبادة ، نظرتُ إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده ، فعملتُ على ذلك أسبوعًا ، إلَّا أنَّ هذا العلاج قد تُعُذِّب ، إذْ قد فُقِدَ في هذا الزمان مَن يجتهد في العبادة اجتهاد الأوَّلين ، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع ، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم ، وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضىٰ تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فما أعظم ملكهم ، وما أَشدَّ حسرة من لا يقتدي بهم ، فيمتع نفسه أيامًا قلائل بشهوات مكدّرة ، ثم يأتيه الموت ، ويُحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد ! نعوذ بالله تعالىٰ من ذلك .

قيل لفتح الموصليّ : بالله يا فتح ، لِمَ بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنَّك حلّفْتَني بالله ما أخبرتك ؛ بكيتُ الدموعِ على تخلُّفي عن واجب حقِّ الله تعالىٰ ، وبكيتُ الدمَ على الدموع ؛ لئلَّا يكون ما صحَّت لِي الدموع .

والعينُ لها دَمٌ وَدَمْعٌ سَحٌّ ذا يكتبُ شجوَهُ وهذا يَمْحو

كان الثوري يقول : عند الصباح يحمدُ القوم السُّرىٰ ، وعند الممات يحمدُ القوم التُّقىٰ .

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها ، فمهما تمرّدتْ نفسك عليك ، وامتنعت من المواظبة على العبادة ؛ فطالع أحوال هؤلاء ، فإنه قد عزّ الآن وجود مثلهم ، ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب ، وأبعث على الاقتداء ، فليس الخبر كالمعاينة ، وإذا عجزْتَ عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء . فإن

لم تكن إبلًا فمعزى ، وخيِّر نفسَك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم - وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين - وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ، ولا ترضَ لها أن تنخرط في سلك الحمقَىٰ ، وتقنعَ بالتشبُّه بالأغبياء ، وتؤثر مخالفة العقلاء . فإن حدَّثَتْكَ نفسُك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يُطاق الاقتداء بهم ، فطالِعْ أحوال النساء المجتهدات ، وقل لها : يا نفسُ ، لا تستنكفي أن تكوني أقلَّ من امرأة ، فأَخْسِسْ برجل يقصر عن امرأة في أمْرِ دينها ودنياها !

فعليك - إنْ كنتَ من المرابطين المراقبين لنفسك - أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين ؛ لينبعث نشاطك ويزيد حرصك ، وإيّاك أنْ تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك إنْ تطع أكثر من في الأرض يُضلُّوك عن سبيل الله .

وحكايات المجتهدين غير محصورة ، وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر ، وإن أردتَ مزيدًا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب : « حلية الأولياء » ؛ فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم ، وبالوقوف عليه ؛ يستبين لك بُعْدُك وبُعْدُ أهل عصرك من أهل الدين ، فإن حدّثتْكَ نفسُكَ بالنظر إلى أهل زمانك وقالت : إنما تيسَّر الخير في ذلك الزمان ؛ لكثرة الأعوان ، والآن : فإنْ خالفتَ أهلَ زمانِك ، رأَوْكَ مجنونًا وسَخِروا بك ، فوافِقْهم فيما هم فيه وعليه ؛ فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم ، والمصيبة إذا عمَّت طابت . فإياكَ أن تتدلَّى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها ، وقلْ لها : أرأيتِ لو هجم سيْل جارف يُغرقُ أهل البلد ، وثبتوا على مواضعهم ، ولم يأخذوا حِذْرهم لجهلهم بحقيقة الحال ، وقدرتِ أنتِ على أن تفارقيهم ، وتركبي في سفينة تتخلَّصين بها من الغرق ، فهل يختلجُ في نفسِكِ أن المصيبة إذا عمَّت طابت ؟ أم تتركين موافقتهم ، وتستجهلينهم في صنيعهم ،

وتأخذين حِذرك مما دَهاكِ ، فإذا كنتِ تتركين موافقتهم ؛ خوفًا من الغرق ، وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة ، فكيف لا تهربين من عذاب الأبد ، وأنت متعرِّضَةٌ له في كلّ حال ؟! ومن أن تطيب المصيبةُ إذا عمَّت ، ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ؟! ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم ؛ حيث قالوا : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف : ٢٢] . فعليك إذا اشتغلتَ بمعاتبة نفسك وحمْلها على الاجتهاد فاستعصتْ ، أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها ، وتعريفها سوء نظرها لنفسها ، فعساها تنزجِر عن طغيانها .

المرابطة السادسة : توبيخ النفس ومعاتبتها :

اعلمْ أنَّ أعدىٰ عدوِّك : نفسك التي بين جنبيك ، وقد خُلِقت أمَّارةً بالسوء ، ميَّالةً إلى الشرِّ ، فرَّارةً من الخير ، وأُمِرتَ بتزكيتها وتقويمها ، وقَوْدها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذَّاتها ، فإن أهملتَها جمحتْ وشردتْ ، ولم تظفرْ بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعـذْل والملامة ؛ كانت نفسك هي النفس اللّوامة التي أقسم الله بها ، ورجوتَ أن تصير النفسَ المطمئنةَ ، المدعوةَ إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضيةً مرضيةً ، فلا تغفلنَّ ساعةً عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلنَّ بوعظ غيرك ، ما لم تشتغل أولًا بوعظ نفسِك ، فعظْ نفسَك ، فإنِ اتعظت فعظِ الناس ، وإلَّا فاستحي من الله ؛ قال تعالىٰ : ﴿ **وذكِّرْ فإنَّ الذِّكرَى تَنْفَعُ المؤمنينَ** ﴾ [الذاريات : ٥٥] . وسبيلُك أن تُقبل عليها فتقرّر عندها جهْلها وغباوتها ، وأنَّها أبدًا تتعزَّز بفطنتِها وهدايتها ، ويشتدُّ أنَفُها واستنكافها إذا نُسِبَتْ إلى الحمق ، فتقول لها :

« **يا نفسُ ، ما أعظمَ جَهْلَكِ !** » :

تدّعين الحكمة والذكاء والفطنة ، وأنت أشدَّ الناس غباوة وحمقًا!

أمَا تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ؟! فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخَطْب الجسيم ؟! وعساكِ اليوم تُختَطَفين أو غدًا ، فأراكِ ترين الموتَ بعيدًا ، ويراه الله قريبًا ! أمَا تعلمين أنّ كلّ ما هو آتٍ قريب ، وأنَّ البعيد ما ليس بآت ؟! أمَا تعلمين أن الموت يأتي بغتةً من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ؟ وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ، ولا في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ، ولا في نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصِّبا دون الشباب ، ولا في الشباب دون الصبا ، بل كلّ نفَس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة ، فيكون المرض فجأة ، ثم يفضي إلى الموت ، فما لك لا تستعدّين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب ؟! أما تتدبرين قوله تعالىٰ : ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنبياء : ١ - ٣] ؟!

ويحكِ يا نفس ، إن كانت جرأتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك ! فما أعظم كفرَك ؟! وإن كان مع علْمك باطلاعه عليك ، فما أشدَّ وقاحتَك ! وأقلَّ حياءك ! ويحكِ يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخٌ من إخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه ومقتك له؟ فبأي جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه ، وشديد عقابه ؟ أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟! هيهات هيهات ! جرّبي نفسك ! إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس ، أو في بيت الحمام ، أو قرّبي أصبعك من النار ليتبين قدرُ طاقتك . أم تغترين بكرم الله وفضله ، واستغنائه عن طاعتك وعبادتك ؟ فما لك لا تعوّلين على كرم الله تعالىٰ في مهمّات دنياك ؟!

فإذا قصدك عدوٌّ لِمَ تستنبطين الحِيل في دفعه ، ولا تَكِلينه إلى كرم الله تعالىٰ ؟! وإذا أرهقتْكِ حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم ، فما لك تنزعين الروْحَ في طلبها ، وتحصيلها من وجوه الحِيَل ، فلا تعوّلين على كرم الله تعالىٰ ، حتى يعثر بك على كَنْز ، أو يسخّر عبدًا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ؟! أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا ! وقد عرفتِ أن سنة الله لا تبديل لها ، وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعىٰ .

ويحك يا نفس ! ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة ! فإنك تدّعين الإيمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لك سيدك ومولاك : ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا** ﴾ [هود : ٦] ؟! وقال في أمر الآخرة : ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ** ﴾ [النجم : ٣٩] ، فقد تكفّل لك بأمر الدنيا خاصَّة ، وصرَفك عن السعي فيها فكذّبتهِ بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالُب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ! ما هذا من علامات الإيمان ، لو كان الإيمان باللسان فَلِمَ كان المنافقون في الدرْك الأسفل من النار ؟!

ويحك يا نفس ! كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وتظنين أنك إذا متِّ انفلتِّ وتخلَّصتِ ، وهيهات ! أتحسبين أنك تُتركين سُدًى ! ألم تكوني نطفة من مَنيٍّ يُمنىٰ ، ثم كنتِ علَقة فخلق فسوىٰ ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتىٰ ؟! فإن كان هذا من إضمارك ، فما أكفرك وأجهلك ! أما تتفكَّرين أنه ممَّاذا خَلَقَكِ ؛ من نطفة خلقكِ فقدّرك ، ثم السبيل يسركِ ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذّبينه في قوله ؟! ثم إذا شاء أنشركِ . فإن لم تكوني مكذّبة فما لك لا تأخذين حذرك ؟ ولو أن يهوديًّا أخبرك في ألذّ أطعمَتِكِ بأنه يضرك في مرضك ، لَصبرت عنه وتركتهِ وجاهدتِ نفسكِ فيه ، أفكان

قول الأنبياء المؤيَّدين بالمعجزات ، وقول الله تعالىٰ في كتبه المنزلة أقلّ عندكِ تأثيرًا من قول يهوديٍّ يخبرك عن حدْسٍ وتخمينٍ وظنٍّ ، مع نقصان عقل وقصور علم ؟! والعجب أنه لو أخبركِ طفل بأن في ثوبك عقربًا ، لرميتِ ثوبَك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان ! أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافّة الأولياء أقلَّ عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ! أم صار حَرُّ جهنم وأغلالها وأنكالها ، وزقومها ومقامعها وصديدها ، وسمومها وأفاعيها وعقاربها ، أحقرَ عندك من عقربٍ لا تُحسِّين بألمِها إلَّا يومًا أو أقلَّ منه ! ما هذه أفعال العقلاء ، بل لو انكشف للبهائم حالُك لضحِكوا منك وسخروا من عقلك ، فإن كنتِ يا نفس قد عرفتِ جميع ذلك وآمنتِ به ، فما لكِ تُسوّفين العمل ، والموتُ لك بالمرصاد ؟! ولعلّه يختطفك من غير مهلة ، فبماذا أمِنْتِ استعجال الأجل ؟! وهبكِ أنك وُعِدتِ بالإمهال مائة سنة ، أفتظنّين أن من يطعم الدابّة في حضيض العقبة يُفلح ويقدر على قطّع العقبة بها ؟! إن ظننتِ ذلك فما أعظم جهلك !

أرأيتِ لو سافر رجل ليتفقّه في الغربة ، فأقام فيها سنين متعطِّلًا بطّالًا ، يعد نفسَه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ، هل كنتِ تضحكين من عقله ، وظنِّه أن تفقيهَ النفسِ مما يُطْمَع فيه بمدّة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تُنال من غير تفقُّه ، اعتمادًا على كرم الله سبحانه وتعالى ! ثم هبي أن الجهد في آخر العمر نافع ، وأنه موصّل إلى الدرجات العلا فلعلّ اليومَ آخرُ عمركِ ، فَلِمَ تشتغلين فيه بذلك ؟! فإنْ أوحىٰ إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادَرة ؟ وما الباعث لك على التسويف ؟ هل له سبب إلا عجْزك عن مخالفة شهواتك ، لِمَا فيها من التعب والمشقة ؟! أفتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه ؛ فلا تكون الجنة قطّ إلا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكارة

قطّ خفيفة على النفوس ، وهذا مُحَالٌ وجوده ، أما تتأمّلين مذ كم تَعدين نفسَكِ وتقولين : غدًا غدًا ؟ فقد جاء الغد وصار يومًا ، فكيف وجدتِهِ ؟ أما علمتِ أن الغد الذي جاء وصار يومًا كان له حكم الأمس ، لا بل الذي تعجزين عنه اليوم ، فأنت غدًا عنه أعجز وأعجز ؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبّد العبد بقلْعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخّرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شابٌّ قوي ، فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدّة يزيد الشجرة قوة ورسوخًا ، ويزيد القالع ضعفًا ووهنًا ، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قطُّ في المشيب ، بل من العَناء : رياضةُ الهَرم ، ومن التعذيب : تهذيب الذيب ، والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جفَّ وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك ، فإذا كنتِ أيـتُّها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجليّة وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدّعين الحكمة ؟ وأيّة حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟!

ولعلَّكِ تقولين : ما يمنعني عن الاستقامة إلَّا حرصي على لذَّة الشهوات ، وقلَّة صبري على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتكِ وأقبحَ اعتذارك ! إنْ كنتِ صادقة في ذلك ، فاطلبي التنعُّم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبدَ الآباد ، ولا مطمَعَ في ذلك إلا في الجنة ، فإن كنتِ ناظرة لشهوتكِ ، فالنظر لها في مخالفتها ، فَرُبَّ أكْلة تمنع أكلات ، وما قولكِ في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ، ليصحَّ ويهنأ بشُرْبِهِ طول عمره ، وأخبره أنه إنْ شرب ذلك مَرِضَ مرضًا مزمنًا ، وامتنع عليه شربُه طول العمر ، فما مقتضى العقل في قضاء حقّ الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ، أم يقضي شهوته في الحال خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام ؛ حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد - الذي هو مدّة نعيم أهل الجنة ، وعذاب

أهل النار - أقلُّ من ثلاثة أيام ، بالإضافة إلى جميع العمر ، وإن طالتْ مدّته . وليتَ شِعْرِي ! ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة ، أو ألم النار في دركات جهنم ؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟! ما أراكِ تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خَفِيٍّ ، أو لحمق جَلِيّ .

أما الكفر الخفي : فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلّة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب .

وأما الحمق الجلي : فاعتمادك على كرم الله تعالىٰ وعفوه ، من غير التفاتٍ إلى مَكْره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق ، بل تتوصّلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل ، وبهذا الجهل تستحقّين لقب الحماقة . فالأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني .

ويحكِ يا نفس ! لا ينبغي أن تغرّك الحياة الدنيا ، ولا يغرّنّك بالله الغرور ، فانظري لنفسك ؛ فما أمْرُك بمهمٍّ لغيرك ، ولا تضيّعي أوقاتك فالأنفاس معدودة ؛ فإذا مضىٰ منك نفَس فقد ذهب بعضك ، فاغتنمي الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والغنىٰ قبل الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدّي للآخرة على قدر بقائك فيها .

يا نفس ، أما تستعدّين للشتاء بقدر طول مدته ؛ فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك البرد من غير جُبّةٍ ولبدٍ وحطبٍ وغير ذلك ؛ فإنه قادر على ذلك ، أفتظنين أيّتها النفس أن زمهرير جهنم أخفُّ بَرْدًا

وأقصر مدّةً من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟! كلا أن يكون هذا كذلك ، أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدَّة والبرودة ؟ أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي ؟ هيهات ! كما لا يندفع بردُ الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب ، فلا يندفع حَرّ النار وبردُها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات ، وإنما كرمُ الله تعالىٰ في أن عرَّفكِ طريق التحصُّن ، ويسّر لك أسبابه ، لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه ؛ كما أن كرم الله تعالىٰ في دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر ، حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك ، وإنما تشترينه لنفسك ؛ إذْ خَلَقَه سببًا لاستراحتك ، فطاعاتك ومجاهداتك أيضًا هو مستغنٍ عنها ، وإنما هي طريق إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها ، والله غنيٌّ عن العالمين .

ويحك يا نفس ! انزعي عن جهلك ، وقيسي آخرتك بدنياك ، ﴿ **مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ [لقمان : ٢٨] ، و﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ** ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] ، و﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وسنة الله تعالىٰ لا تجدين لها تبديلًا ولا تحويلًا .

ويحكِ يا نفس ! ما أراك إلا ألفتِ الدنيا وأنستِ بها ، فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكّدين في نفسك مودّتها ، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنتِ مؤمنة بالموت المفرِّق بينك وبين محابّك ، أفترين أن مَن يدخل دار ملِك ليخرج من الجانب الآخر ، فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر - لا محالة - إلى مفارقته ، أهو معدود من العقلاء ، أم من الحمقىٰ ؟ أما تعلمين أن الدنيا دار لمِلك الملوك ، وما لك فيها إلا مجاز ،

وكلّ ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ؟ ولذلك قال سيد البشر ﷺ : « أتاني جبريل فقال لي : يا محمد ، عِشْ ما شئتَ ، فإنك ميّت ، وأحببْ من شئتَ ، فإنك مفارِقه ... » الحديث .

ويحك يا نفس ! أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذّ الدنيا ويأنس بها ، مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزوّد من السُّمِّ المهلك وهو لا يدري ؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا ، كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ؟ وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤمّلون ما لا يُدركون ؟ يبني كل واحد قصرًا مرفوعًا إلى جهة السماء ، ومقرّه قبر محفور تحت الأرض ، فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينًا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعًا ! أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ، واحسبي أنك لستِ ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبُّه والاقتداء ، فقيسي عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبّين على الدنيا ، واقتدي من الفريقين بمن هو أعْقل عندك ، إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء .

يا نفس ، ما أعجب أمرك وأشدّ جهلك وأظهر طغيانك ! عجبًا لك ! كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ! ولعلّكِ يا نفس أسكَرَكِ حبُّ الجاه وأدهشكِ عن فهمها ، أو ما تتفكّرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبي أنَّ كل مَنْ على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحدٌ ممن على وجه الأرض ، ممَّن عَبَدَكِ وسجد لكِ ، وسيأتي زمان لا يبقى ذِكْرُكِ ولا ذكْرُ مَنْ ذَكَرَكِ ، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ،

فـ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٦٨] . فكيف تبيعين يا نفسُ ما يبقىٰ أبدَ الآباد ، بما لا يبقى أكثر من خمسين سنةً ، إن بقي ؟! هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنتْ لك الرقاب ، وانتظمتْ لك الأسباب ، كيف ويأبىٰ إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلّتك ، بل أمر دارك فضلًا عن محلّتك ؟ فإن كنتِ يا نفس لا تتركين الدنيا رغبةً في الآخرة ، لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفُّعًا عن خسّة شركائها ، وتنزُّهًا عن كثرة عنائها ، وتوقِّيًا من سرعة فنائها ؟! أم ما لك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهدَ فيكِ كثيرُها ؟! وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتْكِ فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها ، فأُفٍّ لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخِسَّاء ! فما أجهلَكِ وأخسَّ همَّتَك وأسْقَطَ رأيَكِ ؛ إذْ رغبتِ عن أن تكوني في زُمْرة المقرَّبين ، من النبيّين والصِّدّيقين في جِوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكوني في صفّ النِّعال من جملة الحمقىٰ الجاهلين أيامًا قلائل !! فيا حسرة عليك إن خسرتِ الدنيا والدين ! فبادري ويحك يا نفس ، فقد أشرفتِ على الهلاك ، واقترب الموت ، وورد النذير ، فمَن ذا يصلّي عنك بعد الموت ، ومَن ذا يصوم عنك بعد الموت ، ومن ذا يترضَّىٰ عنك ربَّك بعد الموت ؟!

ويحك يا نفس ! ما لك إلا أيام معدودة ، هي بضاعتك إن اتَّجرتِ فيها ، وقد ضيَّعْتِ أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيّعتِ منها ، لكنتِ مقصِّرة في حق نفسك ، فكيف إذا ضيَّعتِ البقية وأصررتِ على عادتك ؟! أما تعلمين يا نفس ، أنَّ الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك ؟! أما علمت يا نفس ، أنَّ عسكر الموتىٰ عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلَوْا على أنفسهم

كلهم بالأيمان المغلَّظة ، أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ؟! أما تعلمين يا نفس ، أنهم يتمنّون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارُك ما فرط منهم ، وأنت في أمنيَّتهم ، ويوم من عمرك لو بِيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروْه لو قدروا عليه ، وأنت تضيِّعين أيامك في الغفلة والبطالة ؟!

ويحك يا نفس ، أما تستحيين ؛ تُزيِّنين ظاهرك للخلْق ، وتُبارزين الله في السر بالعظائم ، أفتستحيين من الخلْق ولا تستحيين من الخالق ؟! ويحك ، أهو أهون الناظرين عليك ؟! أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطِّخة بالرذائل ، تَدْعِين إلى الله وأنت عنه فارَّة ، وتُذكِّرين بالله وأنت له ناسية ؟! أما تعلمين يا نفس أنّ المذنب أَنْتَنُ من العذرة ، وأن العذرة لا تطهِّر غيرها ؟! فَلِمَ تطمعين في تطهير غيرك ، وأنت غير طَيِّبةٍ في نفسك ؟! ويحك يا نفس ، لو عرفت نفسك حقَّ المعرفة ، لظننتِ أن الناس ما يُصيبهم بلاء إلا بِشُؤْمِك ! ويحك يا نفس ، قد جعلتِ نفسك حمارًا لإبليس ، يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك ، وفيه من الآفات ما لو نجوتِ منه رأسًا برأس لكان الربح في يديكِ ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك ، وقد لعن الله إبليس بخطيئةٍ واحدة بعد أن عَبَدَهُ مائتي ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيِّه وصفيِّه ؟!

ويحك يا نفس ، ما أَغْدَرَكِ ! ويحك يا نفس ، ما أَوْقَحَكِ ! ويحك يا نفس ، ما أَجْهَلَكِ وما أَجْرَأَكِ على المعاصي !! ويحك ، كم تعقِدين فتنقُضين ! ويحك ، كم تعهدين فتغدرين ! ويحك يا نفس ، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك ، كأنك غير مرتحلة عنها ؟! أما تنظرين إلى أهل القبور ، كيف كانوا جمعوا كثيرًا ، وَبَنوْا مَشِيدًا ، وأَمَّلُوا بعيدًا ، فأصبح

جمْعهم بورًا ، وبنيانهم قبورًا ، وأملُهم غرورًا ؟! ويحك يا نفس ، أما لكِ بهم عِبْرة ! أما لك إليهم نظرة ! أتظُنِّين أنهم دُعُوا إلى الآخرة ، وأنت من المُخلَّدين ؟! هـيهات هـيهات ساء ما تتوهَّمين ! ما أنت إلا في هدْم عمركِ منذ سقطتِ من بطن أُمِّك ، فابني على وجه الأرض قصركِ ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك ! أما تخافين إذا بلغت النفس منك التَّراقي ، أن تبدو رُسُل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان ، وكلح الوجوه ، وبُشرى بالعذاب ؟! فهل ينفعكِ حينئذٍ الندم ، أو يُقبل منك الحزن ، أو يُرحم منك البكاء ؟! والعَجَب كلّ العجب منك يا نفس ، أنك مع هذا تدَّعِين البصيرة والفِطنة ، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك ! وما نفع مالٍ يزيد وعمرٌ ينقص ؟! ويحك يا نفس ، تُعرضين عن الآخرة وهي مقبلةٌ عليك ، وتُقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ! فكم من مستقبلٍ يومًا لا يستكمله ، وكم من مؤمِّلٍ لغدٍ لا يبلغه ، فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك ، فترين تحسُّرهم عند الموت ، ثم لا ترجعين عن جهالتك ؟!

فاحذري أيتها النفس المسكينة يومًا آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدًا أمَرَهُ في الدنيا ونهاهُ ، حتى يسأله عن عمله دقيقهِ وجليلهِ سرِّه وعلانيتِهِ ، فانظري يا نفس بأي بدنٍ تَقِفِين بين يدي الله ، وبأي لسانٍ تُجيبين ، وأعِدِّي للسؤال جوابًا ، وللجواب صوابًا ، واعملي بقية عمرك في أيامٍ قصار لأيامٍ طوال ، وفي دار زوالٍ لدار مقامةٍ ، وفي دار حزنٍ ونَصَبٍ لدار نعيمٍ وخلودٍ ، اعملي قبل أن لا تعملي ، اخرجي من الدنيا اختيارًا خروجَ الأحرار ، قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فربّ مسرورٍ مغبون ، ورب مغبونٍ لا يشعر ، فويلٌ لمن له الويلُ ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل

ويشرب ، وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار ، فليكن نَظَرُكِ يا نفس إلى الدنيا اعتبارا ، وسَعْيُك لها اضطرارًا ، ورفْضُك لها اختيارًا ، وطَلَبُك للآخرة ابتِدارًا ، ولا تكوني ممن يعجز عن شُكر ما أُتي ، ويبتغي الزيادة فيما بقي ، وينهى الناس ولا ينتهي ، واعلمي يا نفس أنه ليس للدِّين عِوَض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيَّته الليل والنهار ، فإنه يُسار به وإن لم يَسِر .

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلي هذه النصيحة ، فإنّ من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار ، وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة ، فاستعيني عليها بدوام التَّهجُّد والقيام ، فإن لم تزل ، فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم يُزِل ، فبقِلَّة المُخالطة والكلام ، فإن لم تُزِل ، فَبِصِلَةِ الأرحام واللُّطف بالأيتام ، فإن لم تُزِل ، فاعلمي أنّ الله قد طَبَعَ على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطِّني نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلًا ، وخلق النار وخلق لها أهلًا ، فكلٌّ ميَسَّر لما خُلِقَ له ، فإن لم يبقَ فيك مجالٌ للوعظ ، فاقنطي من نفسك - والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك - فلا سبيل لك إلا القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طُرُق الخير عليك ، فإن ذلك اغترارٌ وليس برجاء ، فانظري الآن ، هل يأخُذُكِ حزنٌ على هذه المصيبة التي ابتُلِيتِ بها ، وهل تسمح عينُك بدمعةٍ رحمةً منكِ على نفسكِ ، فإن سمحت - فمُسْتَقَى الدَّمْعِ من بحرِ الرحمة - فقد بقي فيك موضعٌ للرجاء ، فواظبي على النِّياحة والبكاء ، واستعيني بأرحم الراحمين ، واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمني الاستغاثة ، ولا تملِّي طُول الشِّكاية ، لعله أن يرحم ضعفك ويُغيثك ، فإن مصيبتك قد عظُمت ، وبليَّتك قد تفاقمتْ ،

وتَمَادِيك قد طال ، وقد انقطعتْ منك الحِيَل ، وراحت عنك العِلَل ، فلا مذهب ولا مَطْلَب ، ولا مُستغاث ولا مَهْرب ، ولا ملجأ ولا منجا ، إلا إلى مولاك ، فافزعي إليه بالتَّضرُّع ، واخشعي في تضرُّعك على قَدْرِ عِظَم جهلك وكثرة ذنوبك ؛ لأنه يرحم المتضرِّع الذليل ، ويُغيث الطالب المتلهِّف ، ويجيب دعوة المضطرّ ، وقد أصبحتِ إليه اليوم مضطرّة وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقتْ بكِ السُّبُل ، وانسدَّت عليك الطرق ، وانقطعتْ منك الحِيَل ، ولم تنجعْ فيك العظات ، ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ، والمسئول جواد ، والمستغاث به برٌّ رءُوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل ، وقولي : يا أرحم الراحمين، يا رحمٰن يا رحيم ، يا حليم يا عظيم يا كريم ، أنا المذنِبُ المُصِرُّ ، أنا الجريء الذي لا أُقلع ، أنا المُتمادِي الذي لا أستحي ، هذا مقام المتضرِّع المسكين والبائس الفقير ، والضعيف الحقير والهالك الغريق ، فعجِّل إغاثتي وفَرَجي ، وأرني آثار رحمتك ، وأذِقْنِي بَردَ عفوك ومغفرتك ، وارزقني قوّة عظمتك ، يا أرحم الراحمين . اقتداءً بأبيك آدم عليه السلام ؛ فقد قال وهب بن منبِّه : لمَّا أهبطَ الله آدمَ من الجنة إلى الأرض ، مكث لا ترفأ له دمعةٌ ، فاطَّلَع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكّسٌ رأسه ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه : يا آدم ، ما هذا الجهد الذي أرىٰ بك ؟ قال : يا ربّ ، عظُمتْ مصيبتي ، وأحاطت بي خطيئتي ، وأُخرجتُ من ملكوت ربي ، فصرتُ في دار الهوان بعد الكرامة ، وفي دار الشقاء بعد السعادة ، وفي دار النَّصَب بعد الراحة ، وفي دار البلاء بعد العافية ، وفي دار الزَّوال بعد القرار ، وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء ، فكيف لا أبكي على خطيئتي ؟! فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه : يا آدم ، ألم أصْطَفِكَ لنفسي ، وأحللتُك داري ، وخَصَصْتُك بكرامتي ، وحذَّرتُك سخطي ، ألم أخلقك بيدي ، ونفخت فيك من روحي ، وأسجدتُ لك ملائكتي ، فعصيتَ أمري ،

ونسيتَ عهدي ، وتعرَّضتَ لسخطي ، فوعزَّتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالًا كلّهم مِثْلك يعبدونني ويسبِّحونني ، ثم عصوْني ، لأنزلتُهم منازل العاصين . فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلاثمائة عام .

وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء ، يقول في بكائه طول ليله : إلٰهي ، أنا الذي كلَّما طال عمري زادت ذنوبي ، أنا الذي كلما هممتُ بترْك خطيئةٍ عرضت لي شهوةٌ أُخرىٰ . واعبيداه ! خطيئةٌ لم تَبْلَ وصاحبها في طَلَب أُخرىٰ ! واعبيداه ! إن كانت النار لك مقيلًا ومأوىٰ ! واعبيداه !! إن كانت المقامع لرأسك تُهَيّأ ! واعبيداه ! قضيت حوائج الطالبين ولعلَّ حاجتك لا تقضى .

وقال منصور بن عمَّار : سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابدًا يناجي ربه ، وهو يقول : يا ربّ ، وعزَّتك ما أريد بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتُك - إذ عصيتُك - وأنا بمكانك جاهلٌ ، ولا لعقوبتك متعرِّض ، ولا لنظرك مستخفّ ، ولكنْ سوَّلتْ لي نفسي ، وأعانني على ذلك شقوتي ، وغرَّني سَتْرُكَ المُرخى عليَّ ، فعصيتك بجهلي وخالفتُك بفعْلي ؛ فمِنْ عذابك الآن مَنْ يستنقذني ، أو بحبلِ مَنْ أعتصم إن قطعتَ حبلَكَ عني ؟! واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدًا ، إذا قيل للمخفّين : جوزوا ، وقيل للمثقلين : حطّوا ، أمع المخفِّين أجُوزُ ، أم مع المثقلين أحطّ ؟ ويلي ، كلما كَبرتْ سِنِّي كثُرت ذنوبي ! ويلي ، كلما طال عمري كثرت معاصيّ ! فإلى متى أتوب وإلى متى أعود ؟! أما آن لي أن أستحي من ربي ؟!

معاتبة نفْس ونَفَثات صدر :

هذي معاتبة نفس ... نفثات صدر ، وأشجان قلبٍ يمَّم وجهه شطر الدار الآخرة مستراح العابدين ، يبثُّها في خشوعٍ وصدْقٍ تابعيٌّ جليل ، من القرون الخيريَّة ، من تلامذة الصحابة ، تربَّىٰ وصُنع على أعينهم .. شرب

من سلسبيل القرآن والسنة ، وكحَّل أجفان قلبه بهما . فانظر إليه كيف يستمطر الدمع حين يقول في مناجاته . يقول عون بن عبد الله بن عُتبة :

« ويحي ، بأي شيءٍ لم أعْصِ ربي .. ويحي ، إنما عصيته بنعمته عندي .. ويحي من خطيئةٍ ذهبت شهوتُها وبقيت تبعتُها عندي ، في كتابٍ كتبَهُ كُتَّابٌ لم يغيبوا عني .. واسوأتاه ، لم أستحيهم ولم أُراقب ربي .. ويحي ، نسيت ما لم ينسوا مني .. ويحي ، غفلت ولم يغفلوا عني ، لم أستحيهم ولم أراقب .. واسوأتاه ، ويحي ، حفظوا ما ضيّعتُ مني .. ويحي ، طاوعت نفسي وهي لا تطاوعني .. ويحي ، طاوعتها فيما يضرُّها ويضرّني .. ويحها ، ألا تطاوعني فيما ينفعها وينفعني .. أريد إصلاحها وتريد أن تفسدني .. ويحها ، إني لأُنصفها وما تُنصفني ، أدعوها لأُرشدها وتدعوني لتُغويني .. ويحها ، إنها لعدوٌّ لو أنزلتها تلك المنزلة مني .. ويحها ، تريد اليوم أن تُردِيني ، وغدا تُخاصمني .

ويحي ، كيف أفرّ من الموت وقد وكِّل بي .. ويحي ، كيف أنساه ولا ينساني ؟! ويحي ، إنه يقصُّ أثري ، فإن فررتُ لقيني ، وإن أقمتُ أدركني .. ويحي ، هل عسى أن يكون قد أظلَّني فمسّاني وصبّحني ، أو طَرَقني فَبَغَتَني .. ويحي ، أزعم أن خطيئتي قد أقرحتْ قلبي ، ولا يتجافى جنبي ولا تدمع عيني ولا تسهر لي ، ولا يسهر ليلي .. ويحي ، كيف أنام على مثلها ليلي .. ويحي ، هل ينام على مثلها مثلي .. ويحي ، لقد خشيت ألا يكون هذا الصدق مني ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .

ويحي ، كيف لا توهن قوتي ولا تعطش هامتي ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .. ويحي ، كيف لا أنشط فيما يطفيها عني ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .. ويحي ، كيف لا يُذهِبُ ذِكْرُ خطيئتي كسلي ، ولا يبعثني إلى ما يُذهبها عني ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .. ويحي ، لا تناهى

الأُولى من خطيئتي عن الآخرة ، ولا تذكِّرني الآخرة من خطيئتي بسوء ما ركبتُ من الأُولى ، فويلي ثم ويلي إن لم يتم عفو ربي .. ويحي ، لقد كان لي فيما استوعبتُ من لساني وسمعي وقلبي وبصري اشتغال .. فويل لي إن لم يرحمني ربي .

ويحي إن حُجبتُ يوم القيامة عن ربي ، فلم يزكِّني ، ولم ينظر إليَّ ، ولم يكلِّمني ، فأعوذ بنور وجهه من خطيئتي ، وأعوذ به أن أُعطىٰ كتابي بشمالي أو وراء ظهري ، فيسود به وجهي ، وتَزْرَق به مع العمىٰ عيني ، بل ويلي إن لم يرحمني ربي .. ويحي ، بأي شيء أستقبل ربي ؟! بلساني أم بيدي أم بسمعي أم بقلبي أم ببصري ، ففي كل هذا له الحُجَّة والطِّلْبةُ عندي ، فويل لي إن لم يرحمني ربي .. كيف لا يشغلني ذكْر خطيئتي عما لا يعنيني ؟! ويحك يا نفسُ ، ما لكِ تنسين ما لا يُنسى ؟! وقد أُوتيتِ ما لا يُؤتَى ، وكل ذلك عند ربي يُحصىٰ ، في كتابٍ لا يَبيد ولا يَبْلىٰ .. ويحك ، لا تخافين أن تُجزَيْ فيمنْ يُجْزَىٰ ، يوم تُجزىٰ كل نفسٍ بما تسعىٰ ، وقد آثرتِ ما يفنىٰ على ما يبقىٰ .

يا نفس ويحك ، ألا تستفيقين مما أنت فيه ، إن سقمتِ تندمين ، وإن صححت تأثمين ، ما لك إن افتقرتِ تحزنين ، وإن استغنيت تُفتنين ، ما لك إن نشطتِ تزهدين ، فَلِمَ إن دُعِيتِ تكسلين ؟! أراك ترغبين قبل أن تنصبي ، فلم لا تنصبين فيما ترغبين .. يا نفس ويحك ، لِمَ تُخالفين ؟! تقولين في الدنيا قَوْلَ الزاهدين ، وتعملين فيها عمل الراغبين .. ويحك ، لِمَ تكرهين الموت ؟! يا نفس ويحك ، أترجين أن تَرْضَيْ ولا تُراضين ، وتُجَانبين وتَعْصين .. ما لك إن سألتِ تُكثرين ، فلم إن أنفقت تُقتِّرين ؟! أتريدين الحياة ، تعظمين في الرهبة حين تسألين ، وتقصرين في الرغبة حين تعملين ، تريدين الآخرة بغير عمل ، وتُؤخِّرين التوبة لطُول الأمل .. لا تكوني

كَمَنْ يقال : هو في القول مُدِلّ ، ويستعصب عليه الفعل .

ويح لنا ما أغَرَّنا ، ويح لنا ما أغفلنا ، ويح لنا ما أجْهَلَنا .. ويح لنا لأيّ شيءٍ خُلقنا ، أللجنة أم للنار .. ويح لنا أيّ خطرٍ خَطَرْنا ، ويح لنا من أعمال قد أخطرتْنا .. ويح لنا ممّا يراد بنا ، ويح لنا كأنما يعني غيرنا .. ويح لنا إن خُتم على أفواهنا ، وتكلَّمتْ أيدينا ، وشهدتْ أرْجُلُنا .. ويح لنا حين تفتش سرائرنا ، ويح لنا حين تشهد أجسادنا .. ويح لنا مما قصَّرنا ، لا براءة لنا ولا عُذر عندنا ، ويح لنا ما أطْوَلَ أملنا .. ويح لنا حيث نمضي إلى خالقنا ، ويح لنا ولنا الويل الطويل إن لم يرحمنا ربنا ، فارحمنا يا ربنا .

ويحي ، كيف أغفل ولا يُغفل عني ، أم كيف تَهْنَؤُنِي معيشتي واليوم الثقيل ورائي ؟! أم كيف لا يطول حزني ولا أدري ما يُفعل بي ؟! أم كيف تَهْنَؤُنِي الحياة ولا أدري ما أجلي ، أم كيف تعظُم فيها رغبتي والقليل منها يكفيني ؟! أم كيف آمن ولا يدوم فيها حالي ؟! أم كيف يشتدّ حبي لدارٍ ليست بداري ؟! أم كيف أجمع لها وفي غيرها قراري ؟! أم كيف يشتدّ عليها حرصي ولا ينفعني ما تركت فيها بعدي ؟! أم كيف أوثرها وقد أضرَّتْ بمن آثرها قبلي ؟! أم كيف لا أبادر بعملي قبل أن يغلق باب توبتي .. أم كيف يشتدّ إعجابي بما يزايلني وينقطع عني ؟! أم كيف أغفل عن أمر حسابي وقد أظلَّني واقترب مني ؟! أم كيف أجعل شغلي فيما قد تُكفِّل به لي ؟!

أم كيف أعاود ذنوبي وأنا معروضٌ علي عملي ؟! أم كيف لا أعمل بطاعة ربي وفيها المنجاة مما أحذر على نفسي ؟! أم كيف لا يكثر بكائي ولا أدري ما يُراد بي ؟ أم كيف تقرّ عيني مع ذِكْر ما سلف مني ؟! أم كيف أعرِّض نفسي لما لا يقوىٰ له هوائي ؟! أم كيف لا يشتدّ هَوْلي

مما يشتدّ منه جزعي ؟! أم كيف تطيب نفسي مع ذكْر ما هو أمامي ؟! أم كيف يطول أملي والموت في أثري ؟! أم كيف لا أراقب ربي وقد أحسن طلبي ؟! ويحي ، فهل ضرَّت غفلتي أحدًا سوائي ؟! أم هل يعمل لي غيري إن ضيَّعت حظِّي ؟! أم هل يكون عملي إلا لنفسي ؟ فَلِمَ أدَّخِر عن نفسي ما يكون نفعه لي ؟!

ويحي ، كأنه قد تَصرَّم أجلي ثم أعاد ربي خلْقي كما بدأني ، ثم أوقفني وسألني وسأل عني وهو أعلم بي ، ثم أُشهِدتُ الأمر الذي أذهلني عن أحبابي وأهلي ، وشُغلت بنفسي عن غيري ، وبُدِّلَتِ السمٰوات والأرض ، وكانت تطيعان وكنت أعصي .. وسُيِّرت الجبال وليس لها مثل خطيئتي .. وجُمِع الشمس والقمر وليس عليهما مثل حسابي .. وانكدرت النجوم وليست تُطلب بما عندي .. وحُشرت الوحوش ولم تعمل بمثل عملي .. وشاب الوليد وهو أقل ذنبًا مني .. ويحي ، ما أشدَّ حالي وأعظم خطري ، فاغفر لي » .

ومُعاتَبَة أُخرىٰ أعْطَر من أريج الزهور :

يا نفس ، ما لي أراك مطمئنّة ، والغالب عليك الفرح والسرور ، وشواهد المقت باديةٌ عليك ، ودلائل الغضب بيِّنة فيك في كثيرٍ من أحوالك ؟! قد اطمأنَنْتِ وسكنتِ ، وكثيرًا ما يغلب عليك الفرح والسرور في أكثر الأحوال ، وأنت ترين فيك من الله دلائل الغضب ، وشواهد المقت ، ثم لا تبكين ، ولا لذلك تكترثين .. كأنك لغضب الله تطيقين ، ولعذابه تجهلين .. هيْهات هيْهات .. إنك عن دون الله لتضعفين .. ومِنْ أَقَلِّ أذى الدنيا تجزعين .. فكيف بشدَّة غضب الله وأليم عذابه ؟! ولكن عقوبات الله منعتْك من أن تجزعي .. فكيف يصنع الله بمن لا يجزع من غضبه ، ولا يتوجَّع من أليم عذابه ، ولا يصلح على آدابه ، ولا يُقبل عليه بالإقلاع ، شكرًا

لدوام نعمائه ، ولا ينحاش ولا يهرب إليه لما يرى من سوءِ آثار عقوباته في الدنيا خاصَّة دون معاشه في نفسه وعياله .

ويحك يا نفس ، ألم تري أن مولاك قد أبعدك عمَّا كان يتعاهد به قلبك من هيجان التَّيقُّظ ، وقوَّة التَّنبُّه والدَّوام على ذكْره ، والجَزَع من نسيانه ، وشدّة عذابه ؟! لقد رغَّب الله قلبك في أوَّل أمرك .. وتأديبًا كانت بليَّة الله فيك .. وتقريبًا منه إليك .. وتحنُّنًا منه عليك .. فنبَّهَ قلبَكِ عن الغفلات .. ومنَّ عليك بجُود الحلاوة عند الطاعات .. وشدّة التّلذُّذ بالمناجاة .. فأصبحتِ وأمسيتِ مُباعَدَةً من الله .. مطرودةً عن بابه .. منحَّاةً من قُربه .. قد حلَّ بك منه الخذلان .. تتمادين في الغفلات فلا يوقظك ، ويدوم منك النسيان فلا يُنبِّهك ، وتكون منك الزَّلَّة بعد الزّلّة ، فلا يدوم لك الحزن ، ولا يطول بك الغَمُّ ، بل قد قَلَبَ التَّنبُّهَ فيك ، فصار لا ينبِّهك ولا يذكِّرك .. ثم يحجبك بالعقوبة عن استعمال التَّذكُّر وطاعة التَّنبُّه .. فصرت في شرِّ حال ، ويليه منزلتان : طُول الغفلة ودوام النسيان لنظر الجليل العظيم ، ثم شهوتك لترْك استعمال التَّذكُّر وطاعة التَّنبُّه .. فالحال الأُولى : طول غفلة لِقِلَّة المُبالاة بأن يطَّلع وينظر . والحال الثانية : جُرأةٌ وإقدام عليه ، مع التَّذكير والتَّنبيه ، إلى أن صار ذلك يُباعِد منه ، ويحرم الخلودَ في جواره .

فهل سمع السامعون بأسوأَ منك حالًا ؟! وهل عرف العارفون بأَشَرَّ من منزلتك ؟ ثم مع ذلك الحزن عنك زائل ، والغَمُّ لك مُباين ، والتَّوجُّع لك غيرُ لازِم ، وقد رآك مولاك في أسباب الدنيا بأَضداد ذلك كله ، شُغلك بطَلَبها دائم .. لا تملّين .. تنشطين وتقوين إذا رأَيتِ الزيادات في معاشك .. وتنكسرين إذا رأيت النقصان فيه .. ولا يكون ذلك فيما بينك وبين ربِّك إلَّا في أقلّ الأوقات .. فقد أصبحتِ عند الله مُفتَضَحة .. ومن البعد منه غير مكترثة .. لقد أصبحتِ وأمسيتِ وهو عليك غير مُقبِل ، ولك غيرُ

مُقرِّب ، مُقصَاةٌ منه مُباعدَةٌ عنه ، ولولا تفضُّله عليك بالعفو ، لَسَلَبَكِ نعمةَ الدِّين كلّها ، ولكنّه يُبقي من العقوبة تفضُّلًا وإحسانًا .. مِنْ أجْلِ ذلك ، وجب حُبُّه على المطيعين والعاصين جميعًا .

ويحك ، ما لك في الجهل مفعمة مغموسة .. وفي البلايا متلوِّثة .. ويحك ، هل عقلتِ مَنْ تعصين ؟! بل هل عقلت من تعوقين ؟! ويحك .. تتمادين في الغفلات فلا يُوقظك ، ويدوم منك النسيان فلا يُنبِّهك .. فكيف لا يغلب ذلك عليك ، وأنت كل يوم في نقصان ، وكلّ يوم لا تفرّين من العصيان ؟! إن تُبت لم تلبثي أن ترجعي عن توبتك ، وعاودت في تخبُّطك ، وإن عزمتِ لم تُقلعي ، وإن فعلت ما عزمت عليه فمن الآفات لم تسلمي ؛ عن حبِّ محمدةٍ أو عُجْب بما عملتِ .. تُعاهدين فتغدُرين ، وتعدين فتُخلفين ، وتحلفين بالله ثم لا تَفِين ، فلو كنت جاهلة كان أخَفّ للحُجَّة عليك ، وكان أبْعَد لك عن الجُرأة على مولاك .. ولكن عظُمت عليك الحُجّة ، ودامت منك الجرأة ، إذ كنت للآثار طالبة ، وللقرآن حافظة ، وفي الدقائق من الحكمة مُناظِرة ، وبِحُسْن العظات ناطقة ، تدعين إلى الله وأنت منه فارَّة ، وتذكِّرين بالله وأنت له ناسية ، تُعظِّمين الله بالقول وأنت بالفِعْل غير معظِّمة .

ويحك ، أنت اليوم مهملة .. والله لك مُنْظِر .. وعن قليلٍ تنقطع المدّة ، وتزول النَّظِرة .. ولو قد تغشَّاكِ الموت وسياقه ، فلقد حضركِ العدم ، فأَعطيتِ النّيّةَ الصحيحةَ حيث لا يُقبل .. ويحك ، أتدرِين عمَّا ينكشف الغطاءُ ؟! أما تخافين لو بلغت منك النفس التَّراقي ، أن تبدو رسل الله منحدرة من السماء بسواد الألوان ، وكلح الوجوه ، وبُشرىٰ العذاب ، فهل ينفعك حينئذٍ الندم ، أو يُقبل منك الحزن ، أو يُرحم منك البكاءُ ؟! ويحك ، بادري حلول الأجل بالتوبة .. واغتنمي عيش كل ساعة ..

فإنك في السَّيْر مُجِدَّة .. وفي كل وقت من لقاءِ الله تقربين .

ويحك ، تكلَّفي الحزن واطلبيه ؛ لعلَّك من الحزن الأكبر تنجين .. ويحك ، كدِّري الفِكر فيما سلف منك من الذنوب ، وعوِّدي البكاءَ عينًا بالدموع ، قبل سيلها في نار جهنم .. ويحك ؛ استعيني بأرحم الراحمين .. واشتكي إلى أكرم الأكرمين .. وأديمي الاستغاثة ، ولا تملِّي طُول الشِّكاية ، لعلّه أن يرحم ضعفك ويُغيثك .. فإن مصيبتك قد عظُمت .. وبليَّتك قد تفاقمت .. وتماديك قد طال .. قد انقطعت منك الحِيَل ، وانزاحتْ إليك العِلَل ، فلا مَهْرب ولا مَطْلب ، ولا استغاثة ولا ملجأ ولا منجا ، إلَّا إلى مولاك .. فاضرعي إليه .. واخشعي في تضرُّعك على قدْرِ عظيمِ جُرمِك ، وكثرة ذنوبك ؛ لأنه يرحم المتضرِّع الذَّليل ، ويُغيث الطالب المتلهِّف ، ويُجيب دعوة المضطرّ ، فقد - والله - أصبحتِ إليه مضطرَّة ، وإلى رحمته محتاجة ، فألِحِّي بالطلب للفَرج ، واشتكي لعِظَم المصيبة ، فإن المطلوب إليه كريم ، والمسئول إليه جواد ، والمستغاث به رءُوف .

فأديمي الاستغاثة فإنه يُغيثك .. وإن من إغاثته لك أن منَّ عليك بالاستغاثة ، فإن أدَمْتِ ، أتمَّ ما منَّ به عليك ، وأجاب الدعوة ، وعجَّل الإغاثة ، فقد - والله - ضاقت بك السُّبُل ، وانسدَّتِ الطرق ، وانقطع منك الحبل ، ولم تنفع فيك العظات ، ولم يكسرك التوبيخ .. فليَرَك مولاك في مقام المضطرّين الحيارى الملهوفين ، لأنه إن آخذَكِ بعظيمِ جُرمِك ، لم يُغِثك ، وإن صفحَ بجُوده - أن يُؤاخذك - أسْرعَ إجابتَكِ .

فادعي دعاء من لا يستأهل أن يُجاب ولا يُغاث ، طامِع من الجواد ألَّا يُناقَش بالسيئات ، ولا يُؤاخَذ بالخطايا ، ويُغيث من يدعو ، وهو عند نفسه لا يستأهل أن يُجاب ، ولكن حَمَلَه على التَّضرُّع ، معرفتُه بكرم المسئول وجُودِ المطلوب ورحمةِ المستغاث .

فاعقلي ما فاتك من طاعة ربك ، وما أفنيتِ من عمرك في غير التَّقرُّب إليه .. فيا أسفاه على طاعته .. ويا حُزناه على رضاه .. ويا خَجَلاه ممَّا اطَّلع عليه .. ويا طُول كمدِك إنِ حَرَمَك جِوارَهُ في الآخرة .. كما حرمك صدْق معاملته في دنياك .. ويا تَقَلْقُلَك في حرِّ جهنم إن لم يعفُ عنك .. ويحك ، اذكري ما يحلّ بأهل عذابه من اشتعال النار في جميع أجسامهم ، ووصولها إلى أحداقهم ، ودخولها في أجوافهم .. ويحك ، كيف ترين وجعَ قلبِ عبدٍ دخلت النار في عينه ، ونفذت إلى جميع بدنه ؟! بل كيف بنارٍ تأكل أمعاءَه وكبدَهُ ؟! بل كيف بلسانٍ من نار يدخل في جوف قلبه ، ثم يلتهب في جميع أعضاءِ جسده ؟!

ويحك ، أتأمنين أن يكون هذا - غدًا - نَعْتَكِ وَصِفَتَكِ ، وهذه حالك ؟! ويحك ، ارحمي ضعف جسمك ، ولا تُخاطري به ، ورِقِّي لقلَّة صبرك ، ولا تغترّي .. إذا لم ترحمي بَدَنَكِ من النار ، فمن ترحمين ؟! وإذا لم ترِقّي له فعلى من تَرِقِّين ؟! والله لو تُبتِ وأنَبْتِ وأطعت ، لم آمن عليك أن يُردّك ولا يُقيلك ، فاستقيليه عسىٰ ألَّا يُردَّك ، ولا تنالين ذلك إلَّا به ، فافزعي إليه فَزَع الهالك ، وتضرَّعي إليه تضرُّع الغريق ، واستغيثي به استغاثة العَطِب ؛ فإن المستغيث مأذونٌ له في الاستغاثة ، والله الداعي موفِّق للدعاء .. فما كان الكريم يَمُنُّ بالاستغاثة ، ويُهيِّج على الطَّلَب ، وهو لا يريد ممن فعل به ذلك ألَّا يُجيبه .. ولكن ليُكثر المتفضَّل عليه بالدعاء على مقدار نقمته ، وليُلحّ بالطلب على قدْر مسكنته ، فلتقصيرٍ في ذلك ردّ أكْثَر المستغيثين .

فأَمَّا مَنْ فتحَ الله عليه بابَ الاستغاثة ، ومَنَّ عليه بالتَّضرُّع إليه ؛ فعظَّم مِنَّتَهُ بذلك ؛ وعلم أنه أُعطي ما لم يستأهله ، ثم داومَ وواظبَ على الطَّلَب ، فلن يخيِّب الله دَعوتَهُ ، ولن يُمسك إجابته .. أبىٰ الجوادُ بكرمه وجوده ،

أن يَرُدّ مَنْ أراده فاشتكٰي إليه .. فداومي ولا تملّي ، فمن كان في مِثْل حالك لا يملّ دوام التَّضرُّع ، لشدَّة مسكنته .. ولعظيم مصيبته .

ويحك ، إن لم تخافي العذاب ، ولم ترحمي جسدك ، أما تشتاقين أن يحلّ بك من الله الرضا ، وينظر إليك بالحظوة ؟!! ويحك ، أما تحِنِّين إلى طِيب جوار الله في جنته ، في روحٍ لا يزول ، ونعيمٍ لا يبيد ، وقرَّة عينٍ لا تنقطع ، فوق الأماني ممَّا تشتهيه الأَنفس ، مع البقاء واليقين بالرضوان ؟!! وأعظم من ذلك تشتاقين إلى أن تزوري مولاك ، وتسمعي كلامه لك بالترحيب ، ويكشف الحجاب فتنظري إلى من لا يشبهه شيءٌ في جلاله ؟

ويحك ، في هذه الدار وَجَبَ ذلك كلُّه للعُمَّال ، وفي هذه حلَّ الحرمانُ كلُّه على الجُهَّالْ ، فعيشُك غنيمة ، وبقيَّة عمرك إقالة ، فافرحي واشكري مولاك أن يكون الموت عاجَلَكِ ، فحال بينكِ وبين الرجوع ، وقطعَ بك عن النُّزوع ، وفاتك طيب جِوار الله الجليل العظيم .

ويحك لا تزهدي في القرب من النار ، ولا تستهيني بطيب الجوار ، ولا تُعرضي عن الرغبة في رضوان الله ، إني لأَقول لك هذا ، ولا أدري أيّ حال عند الله حالُك ؟ بماذا ينظر إليك في ساعتك هذه ؟ بالمحبة والرضوان ؟ أم بالغضب والسخط والحرمان ؟ وأيُّ الدارَيْن دارُك ؟ وأيُّ القرارَيْن قرارك ؟ وأيُّ العيش عيشُك ؟ فَكِلا الدارَيْن قد امتلأ بسكّانها ، ووصل كل واحدة منها أهلها ، فأطلع بقلب فارغ إلى الجنة ، وقد ثوٰى فيها سُكّانها ، إلى انفساح سعتها ، وبَرْد طيب نسيمها ، وإلى طيب ما يفوح من روائحها ، وإلى حُسْن بناءِ قصورها ، وبهجة حليها وحريرها ، وتلألؤ نورها على أَسِرَّتها وحجالها ، وحسن وجوه أهلها ، ونَضْرة أثر النعيم في وجوههم ، وقربهم من مليكهم ، ويقينهم برضا الله عز وجل

عنهم ، واختلاف الملائكة رُسُلًا من الله إليهم ، وتردُّد الولدان كاللؤلؤ في لذّاتهم ، واضطرار أنهارها على جنادل ياقوتها ، وقد تضمَّنت من أصناف البهجة في عَرَصاتها .

ثم أشرفي بوجهِكِ على دار الهون والخزي ، فانظري ببصر قلبك إلى شدة ضيقها ، وتكاثُف ظلمتها ، وانطباق أبوابها ، مسودّة بالعمد عليهم ، ووهج النيران فيها ، **ثم انظري إلى قبيح صُوَر المعذبين فيها** ، وإلى شِدّة نتَن دارهم ، وتهتُّك أجسامهم ، ونتَن مقطعات ما بهم ، وإلى النيران ملتهبة من فوق رؤوسهم وأسافل أقدامهم ، وإلى حِياض الحميم تفور ، معدّة بشدّة عطشهم ، وتجاوُب أصواتهم بالويل والثبور ، وإلى تضرُّعهم إلى « مالك » والخزنة ، وندائِهم الأقرباء بالاستغاثة ، ثم دعائهم إلى ربّهم فأخسأهم ، فانقطعت أصواتهم ، والتحمت أفواههم ، وحُبِست أنفاسهم ، وبقوا بالغمِّ والكرب لا يتنفّسون إلى حلول غضب الله عليهم ، وانقطاع رجائِهم منه ، وتوهَّمي ما تضمنتْه حواشيها من صنوف الهوان والألوان من العذاب ؛ فإنك إنْ نظرتِ في ساعتك هذه إلى كلّ واحدة منها وعظيم ما فيها ، ثم لم تأمني حرمان جوار الله ، والخلود في دار عذابه - أشفقْتِ ، وإن أشفقتِ حذرتِ ، وإن حذرتِ أيقنتِ بكلّ ما يتوعّد به ، فتبتِ وأنَبْتِ ، ومِن كلّ ما يُكْرَه تطهّرتِ . فانظري وتوهمي إلى عواقب من أطاع واتقىٰ ، وعواقب من عصىٰ الله وأساءَ ، ولا ترضي بأن تخاطري فيما إنْ وقعتِ فيه لم تُقلي ، ولا إلى الدنيا تُرَدِّين .

ويحك إنّ الدنيا دار نجاة الآخرة ، بقدر ما تحملين فيها من المكروه لله تُعَوَّضِين ، وبقدر ما تتركين من ملاذِّها تُجْزَين .

إن الجامعين بذلوا الأحزان في الدنيا ، فورثوها في الآخرة دوامَ السرور ، أطالوا البكاءَ في الدنيا ، فدام في الآخرة فرحُهم ، تَعِبُوا ونصبوا ،

فورثوا راحة الأبد ، رفضوا لله الشهوات ، فرجوا الجواري القاصرات ، وتنادموا بالخمور ، وصاروا إلى منية وغاية من اللّذّات ، ويحك ، فلا تدَعي معاملة مولاك في دار العمل ، فتخسري الدنيا والآخرة .

ويحك يا نفس ، ابكي علىٰ ما مضىٰ من سوالف الذنوب ؛ فإن المنقطع به يستعين بالبكاءِ إلى من يستغيث به ، رجاءَ أن يُرحم ، فخذي في البكاء والعويل ، والنوْح والضجيج ، لعلّه أن يرحم منك العَبْرة ، فيقيلك العَثْرة ، ويعجل لك النقلة ؛ فإنْ رَحِم اللهُ بكاءَك ، وسمع شكواك ، وعلم منك النوح والعويل - إذْ عرف عظيمَ سيئك - رجوتِ أن يعجّل لك الفرج ، وينقلك إلى مقام من تولَّاه ، ورحم تضرُّعه وشكواه ؛ فخذي في النوح والعويل ، والشكوىٰ والتعديد ، طلبًا لجَبْرِ المصيبة .

أنا العاصي في دنياي ، وأنا المفلس المسلوب ، بل الموقر بالخطايا والذنوب ، بل أنا العليل الدائم علىٰ ميل للسقوط ، كأني مقيم علىٰ أسباب مهلكتي ، فالويل لي إن كان قد سخِط عليّ ربي ، والخيبة لي إن مقتُ اللهِ حلّ بِي ، والحسرة لي إن كان الله أوجب ألَّا أجاوره في جنته ، والويل والعويل إن كان أغلق الباب عني ، فلا ترفع لي السماء دعوة ، ولا يصعد لي عمل .

فيا طولَ حزني وغمّي ! ويا طول جهدي وكمدي إن كان الله قد قطع ما بيني وبينه ، فلو محىٰ جميع أهل السماوات والأرض لعظيم مصيبتي ، لكانت أعظم من محْي ربهم رحمةً لي .

ويحي وتأويلي ! لعلي من أعداء الله وأنا لا أدري ، ولعلّه أوجب علىٰ نفسه أن لا يقيلني دون أن يجعل النار من الدنيا مُنْقلبي ، فما بيني وبين الهوان والذلّ الطويل والحزن إن لم يعفُ عني ؟ إلى أن تنقطع أيام

أجلي ، فيحضر وقت منيتي ، ويكشف لي عن الغطاءِ ، ويأتيني الخبر اليقين .

فيا جهدي وضعفي ، ويا ذلّ استحيائي ، ويا شدّة حسرتي وعظم ندامتي ، لقد خبتُ إذْ ردّ دعائي ولم يرحم شكواي ، فكيف يُغيث مَن غَضِب عليه ؟! وكيف يرحم من سخط عليه ؟! فأنا الجريء الذي لا يقلع ، وأنا المتمادي الذي لا يستحي .

ويحك يا نفس ، أين تلاوة القرآن ؟ وأين معاني الآثار ، وأين الشكر لمن لا تعرفين منه إلَّا الإحسان ؟ رضيتِ بأحوال الجاهلين ، ومنازل الغافلين ، وأعمال الفاسقين ؟! ويحك يا نفس ، أليس قد انقطع عنك كلّ لذة ، وزالت عنك كلّ رفاهية ، وانقضت الساعات والأيام ، وما كان فيها من التخليط والذنوب ، وبقيَتْ عليك الأوزار ؟! هذا ما قد قضىٰ وذهب .. وبقي السؤال !! فهكذا تستقبلي أيامك ، ما يكون منها وما يبقىٰ عليك من التَّبِعات ، فتحوّلي عمَّا ينقضي ويبقىٰ سوء عاقبته ، والله فما ينفعك معه رزق ولا أجل ، ولا يفارقك حسن عاقبتك في دنياك وآخرتك .

ويحك ، فنادي ربَّك بصوت محزون من قلب محتدمٍ مغموم ، واسبلي الدموع واستغيثي استغاثةَ المكروب ، فقولي : يا ربّ ، هذا مقام المتضرّع المسكين ، البائس الفقير ، الهالك الغريق ، فعجِّلْ إغاثتي وفرجي ، وأَرِني آثار رحمتك ، وأَذْقني بَرْد عفوك ومغفرتك ، وارزقني قوة عظمتك ولذَّة إقبالك عليَّ ، وترويح زوال عقوبتك ، وسرور القلب منك ، وأُنْس الحبِّ لك ، فبدّل أحوالي ، واقلبْ همّتي ، وحوِّلْ لذَّتي ، حتىٰ يصير ذلك في صدق معاملتك ، وحلاوة مناجاتك ، وراحة الثقة بك .

يا نفس ، فادعيه وأنت منه مستحية ، فقد طال قلَّة حيائك منه ،

ويحك ؛ تستحين من الخلق من المؤمنين والكافرين أن يروا فيك ما يعيبونك به ، ولا تستحين ممن يطّلع علىٰ كثرة ما عندك من ذنوبٍ وسوءِ ضميرك ؟!

ويحك ، إذ حملتِ وِعاءً من أوعية الشرّ ، فإنك ترتعدين خوفًا أن يبدو للناس شيء ممَّا فيه من الشر ، فمتىٰ تُصلحي ما بينك وبين الله ؟ هٰيهات ! اذكري الموت كالعبد السوءِ الذي لا يستحيي من مولاه ، ولا يرجع عن مساوئه ، ولا يعرف إحسانه إليه إلَّا عند الحساب والعقاب ، واذكري الموت وما بعد الموت ، ما ظنُّك بمن يكره أن يطّلع الناس منه علىٰ ما يكره الله ، ولا يستحيي أن يطّلع الله منه علىٰ ما يكره ، سوءَة لك .. وعجبًا لك !! حيث تتركي وتضيّعي الفرض ، وتركبي من الأشياء ما كره الله ، ثم تتقرّبي إلى الله بما لم يفرضه عليك ، وتتعاطي النوافل ، وتأمري وتنهي ، وتدعي الناس - بزعمك - إلى الله ، وتأْبقي منه ، وتأمري ولا تعملي ، وتنهي ولا تنتهي ، سوءَة لك ! فمِن ذلك ينبغي أن تستحي .

فادعي علىٰ تفقُّد لُطْف مولاك ، لعلك أن تستحي منه ؛ فإن لطفه باطن وظاهر مع إساءَةٍ منك باطنةٍ وظاهرةٍ ، فهو يُديم إحسانه بأضعاف الإحسان ، مع دوامك علىٰ الإساءَة بصنوف من الإساءَة .

ويحك ، أَوَ كافرةٌ أَنتِ ؟! أما شاكَّة في الله أنت ؟! ويلك ، والويل لك ، ما أسوأَ حالك ! مهلكة وأنت تعلمين ! مع ذلك في السرور تتقلَّبين ، وبالله لا تبالين ! من خلقه تستحين ومنه لا تستحين !! ويلك ، علىٰ الغضب منه تستقدرين !! أما تستدلّين ؟ فأَنت لا تكترثين ولا تحزنين ، كل ذلك غرّة بالله وجرأَة عليه ؟! فقد تحيَّرتُ يا نفس في أمركِ !! وتبدّلتُ في التأني لكي ؛ أُعاتبك ولا تغيثيني ، وأعظك ولا تتعظين ولا تنكسرين ، وأعيّرك فلا تستحين ، وأشكوك إلى من علمك فلا تداني أهلًا للجواب ، وأَستغيث منك فلا تغيثيني !! فما أَدري !! كيف حيلتي ؟! ولمن أستغيث ؟! وممن

أستعين ؟! علىٰ ربي ؛ لعلَّه له عنده جاهًا فيطلب لي فيشفعه ويفرج عني ، فما أَجد حيلة إن لم يُجب دعوتي : مولاي ؛ ولا مطلب للفرج إلَّا بتكرار الإغاثة ودوام الشكوىٰ ، لعله يرحم ضعفي ، ويكشف ضرّي ، ويزيل سقمي ، وينعش صرعتي ، وينقذني من غرقي ، فأنا – والله – الكذّاب المستور عند العباد ، وأنا الهالك الفَرِح ، وأنا الغريق المسرور .

ويحك يا نفس ، كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وتظنّين أنك إذا متِّ انفلتِّ وتخلَّصتِ ، وهيهات ، أَتحسبين أنك تُتْركين سدًى ؟! ألم تكوني نطفة من منيٍّ يُمْنَىٰ ، ثم علقة فخلق فسوَّى ، أَليس ذلك بقادر علىٰ أن يحيي الموتىٰ ؟! فإن كان هذا من إظهارك ، فما أكفرَكِ وأجهلَكِ !! أمَا تتفكّرين أنه ممّاذا خلقكِ ؟ مِن نطفةٍ خَلَقكِ فقدّرك ، ثم السبيلَ يسَّرك ، ثم أماتكِ فأقبرك ، أَفتكذّبينه في قوله : ﴿ **ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَه** ﴾ ؟! فإن لم تكوني مكذّبة ، فما لكِ لا تأخذين حِذْركِ ؟! ولو أن يهوديًّا أخبرك في أَلذّ أطعمتك بأنه يضرُّك في مرضك ، لَصبرتِ عنه وتركتِه ، وجاهدتِ نفسك فيه ، أَفكان قول الأَنبياء عندك أقلَّ تأثيرًا من قول يهودي ؟!

أَمَا تعلمين يا نفسُ أَن الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك ، والدود أَنيسك ، والفزَع الأَكبر بين يديْك ؟! فاحذري يا نفسُ يومًا آلىٰ الله منه علىٰ نفسه أَن لا يترك عبدًا في الدنيا أَمَره ونهاه حتىٰ يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سرّه وعلانيته .

فانظري يا نفس بأَي بدنٍ تقفين بين يدي الله ، وبأيّ لسان تجيبين ، وأَعِدّي للسؤال جوابًا ، وللجواب صوابًا ، واعملي بقيّة عمرك في أيام قِصار لأَيام طِوال ، وفي دار زوال لدار مقامة ، وفي دار حزن ونصَب لدار نعيم وخلود ، اعملي قبل أن تُعملي ، اخرجي من الدنيا اختيارًا خروجَ الأَحرار ، قبل أن تخرجي منها علىٰ الاضطرار ، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات

الدنيا ، فرُبّ مسرور مغبون ، ورُبَّ مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، قد حقَّ له في كتاب الله أنه من وقود النار .

فلْيكن نظرُك يا نفس إلى الدنيا اعتبارًا ، وسعيُك لها اضطرارًا ، وفضلك لها اختيارًا ، وطلبك للآخرة ابتدارًا ، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي ، ويبتغي الزيادة فيما بقي ، وينهى الناس ولا ينتهي .

ويحك عما بداخلك غدًا بين يدي مولاك ، فلا تغربي عنه صَفْحًا ، ولا تشاغلي عن ذكره ، ولا تَدَعي العُدَّة بتهيئة الجواب له بصدق ما كنتِ عليه في الدنيا ، فلأَن تجيبي بالصدق أرْفَهُ لقلبك من أَن تجيبي بالكذب .

والله ما قامت العقول من الصادقين عند جوابه حتى ذهلتْ ، ثم ردّها إليهم لإقامة الحجّة على المسخوط عليهم أَن يدخلهم في عذابه ، وهم له عاذِرون ، ولأَنفسهم لائمون ، إذْ قدرهم بما ضيَّعوا من حقّه ، واجتروا عليه في ركوب نهْيه ، وليستخرج من الصادقين صدق الجواب فيقبله منهم ، ويؤمّنهم ما كانوا به خائفين ، ويسرهم بقبوله منهم عوضًا مما كانوا في الدنيا من رَدِّه مشفقين ، ولكن لا بدّ - إذا أَرادوا أن يقرءوا كتبهم ، ويبتدئ الله في مساءلتهم - أن تزهقهم الهيبة العظمى ، والمخافة الكبرى .

هذا ابن مريم عليه السلام ، يقول له الجليل يوم القيامة : ﴿ ... **أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ** ... ﴾ الآية [المائدة : ١١٦] . فرُوي في الحديث أَنه يزول كل معضل منه على حبالة ، ومما يدلّ على صدق الحديث في ذلك قوله : ﴿ **إِنْ كُنتُ قلتُهُ فقدْ عَلِمْتَهُ** ﴾ ، هذا جواب ذاهل ، لا يدري ما يجيب ، قال أبو ميسرة : لم يدرِ لعلَّه قاله ، فقال : ﴿ **إِن كنتُ قلتُهُ فقدْ عَلِمْتَهُ** ﴾ ، ثم بدا إليه عقله ، فقال : ﴿ **مَا قلتُ لهمْ إلَّا مَا**

أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ .

وهذه جماعة الرسل يقول الله لهم : ﴿ **ماذا أُجِبْتُمْ** ﴾ ؟ فيقولون : ﴿ **لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أنت عَلّامُ الغيوبِ** ﴾ . [المائدة : ١٠٩] .

فيا نفس ويحك ، اعملي علىٰ أنه قد رحم شكواك ، فيقللكِ عن بلائك ، أين توارين - ما دمتِ في الدنيا - من نظره ، مع ما يَعلم من قبائحك التي سلفتْ منك ؟! وأين تزوغين ، وأين تحيدين غدًا عن العرض عليه ، وتراه جميع مساوئك ، واستماع كلامك بذكر فضائحك ؟

ويحك ، فلا تعيشي في الدنيا إلا بحمده ، ولا تتقلّبي في أَحوالك إلَّا حسرة ، ولا تصبحي ولا تمسي إلا خَجِلة من توقُّعك للمتقلّب إلى الوقوف بين يديه ، والسؤال منه إليك مع - والله - أَحوالك قبل السؤال منه في يوم النشور . فأَين قلبك حينئذ يا جاهل ؟ وأَين فؤادك يا غافل ؟ لو يقع المنىٰ أن لا تكوني من المخلوقين ، أَو إذا كنتِ خُلقتِ أن لا تكوني من المبعوثين ، لَكنتِ إلى ذلك تروحين ، وإليه تفزعين .

أخي ، مَن كرُمَتْ نفسه عليه ، لم يكن للدنيا عنده قدْر .

إنَّ الله جعل الجنة بمثابة لأنفسنا فلا نبيعها بغيرها ، وأعظم الناس قدرًا مَن لم يرِد الدنيا كلها لنفسه خطرًا .

قال مسعر بن كِدام : مَن أهمّته نفسه ، تبيَّن ذلك عليه .

يا نفسُ ويحكِ طالَ ما ... أبصرتِ موعظةً ومَا
نفعتكِ فاخشَي وانتهي ... وعليكِ بالتقوىٰ كما
فعَل الأُناسُ الصالحو ... ن وبادري فلربَّما
سَلِمَ المبادِرُ واحذري ... يا نفسُ مِن سوفَ فمَا
خُدِعَ الشقِيُّ بمثلِهَا ... إيّاكِ منها كلما

ناجتْ مكايدُها ضميـ ـرَكِ إنَّمـا هي إنَّمـا
خطرتْ وكمْ قتَلَتْ وأهْـ ـلكَـتِ النفـوسَ وقلَّمـا
تُغـني أمانيهـا إذَا حضَـرَ الردىٰ فكأنَّمـا
لـم يحيَ مَنْ لاقىٰ مَنِـيَّـتَهُ فيـا عجبًا أمَـا
في ذاكَ مُعْتَـبَرٌ ولا شـافٍ يُبَصِّـرُ مِـن عَمَـىٰ
يا ذَا المُنَىٰ يا ذَا المُنَىٰ عشْ مـا بـدا لكَ ثمَّ مَـا

يا سكرانَ الهوىٰ ، أمَا آن الصحو ؟ يا ساطرًا قبحَ الخلاف ، أمَا حان المحو ؟ وقلْ : يا نفس ، الهوىٰ عليّ وليس لي ، فَلِمَ أريد حياتكِ وتريدين مقتلي ؟!

ما حَظِي الدينارُ بِنقْشِ اسمِ الملِك ، حتىٰ صَبرتْ سبيكتُه علىٰ التردُّد إلى النار ، فنفتْ عنها كلّ كَدَر ، ثم صَبرتْ علىٰ تقطيعها دنانيرَ ، ثم صبرتْ علىٰ ضربها على السِّكّة ، فحينئذ ظهرَ عليها رقم النقش ﴿ **كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

كَمْ أحملُ في هواكَ ذلًّا وعَنَا كَمْ أصبرُ فيكَ تحتَ سقَمٍ وضَنَا
لا تطردني فليسَ لي عنكَ غِنَا هـٰذي نفسي إذا أردتَ الثمنا

من طلب الأنْفَسَ هجر الألَذَّ ، مَنِ اهتمَّ بالجوهر نسي العَرض ، يا صفراء يا بيضاء ، غُرّي غيري .

مِن أجلِ هواكمْ عشقتُ العِشْقَا قلبي كَلِفٌ ودمعتي ما تَرْقا
في حُبِّكم يهونُ ما قـدْ ألقىٰ ما يحصلُ بالنعيمِ مَن لا يشقىٰ

أخي ، حالتْ غمايمُ الهوىٰ بيننا وبين شمس الهدىٰ ، وغدا ما في يومنا يُنسينا غدًا ، حتىٰ كأنّ الرحيل حديث خُرافة ، أو كأَنَّ الزاد يفضل عن المسافة .

اسمع يا مقهورًا بغلبة النفس ، صلِّ عليها بسوْط العزْم ؛ فإنها إنْ علمتْ جدَّك استأثرتْ لك ، امنعْها ملذوذ مباحها ، ليقع الصلح علىٰ ترْك الحرام ، فإذا ضجّت لطلب المباح ﴿ **فإمَّا منًّا بَعْدُ وَإمَّا فداءً** ﴾ [محمد : ٤] ، الدنيا والشيطان خارجيّان : خارجان عليك ، خارجان عنك ، فالنفس عدوٌّ مباطن .

ومن آداب الجهاد : ﴿ **قاتِلُوا الذينَ يَلُونَكم** ﴾ [التوبة : ١٢٣] ... ليس مَن بارَز بالمحاربة كَمَنْ كَمَنَ ، ما دامت النفس حيّةً تسعىٰ ، فهي حيّةٌ تسعىٰ ، أقلُّ فعلٍ لها تمزيق العمر بكفّ التبذير ، كالخرقاء وجدتْ صوفًا ... اخْلُ بها في بيت الفكر ساعة ، وانظر : هل هي معك أو عليك ؟... نادِها بلسان التذكرة : يا نفسُ ، ذهب عرش بلقيس ، وبلي جمال شيرين ، وتمزّق فرش بوران ، وبقي نسكُ رابعة ؛ يا نفسُ ، صابري عطشَ الهجير ؛ يحصل الصوم ، وتحزَّمي تحزُّم الأجير ؛ فإنما هو يوم .

جدّ في الجدّ قدْ تولّىٰ العمرُ ... كمْ ذَا التفريطُ قدْ تدانَىٰ الأَمْرُ
أقبلْ فعسىٰ يُقبَلُ منكَ العذرُ ... كمْ تبني كمْ تنقُضُ كمْ ذَا الغَدْرُ

أخي ، الشهوات تغرّ وتعرّ ، وتمرّ عيشَ العواقب وتَمُرّ ، وتبكي عين الندم أضعاف ما تسرّ ، ألَا يقظٌ ؟ أَلَا حَذرٌ ؟ أَلَا حرٌّ ؟

يا صبيانَ التوبة ، الطفل لا يصبر عن الرضاع ساعة ، فإذا صار رجلًا صبَر عن الطعام يوميْن .

يا هذا ، إذا صُبّ في القنديل ماء ، ثم صُبَّ عليه زيتٌ ، صَعِدَ الزيتُ فوق الماء ، فيقول الماء : أنا ربّيتُ شجرتَك ، فأين الأدب ؟ لِمَ ترتفع عليّ ؟ فيقول الزيت : أنت في رضراض الأنهار ، تجري علىٰ طريق السلامة ، وأنا صبرتُ علىٰ العصْر ، وطحْن الرَّحَىٰ ، وبالصبر يرتفع القدْر . فيقول الماء : إلَّا أني أنا

الأصل . فيقول الزيت : استْر عيبك ؛ فإنك لو قارنتَ المصباحَ انطفأ .

يا بعيدًا عن المجاهدة ، قد اقتسم الرعيل الأول النفل ، أما ترىٰ أسلاب الهوىٰ ، كيف يبيعها أربابُها في سوق الافتخار بالنضّ ؟[1] ﴿ ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِي لَمْ أَخُنْهُ بالغيبِ ﴾ [يوسف : ٥٢] .

وفـؤادي كلّمـا عاتبتُـهُ ... في مدىٰ الهجرانِ يبغي تَعَبي
مـا أراهُ الدهـرَ إلّا لاهيًا ... في تمـاديهِ فقـدْ بـرّحَ بي
يا قرينَ السُّوءِ ما هذَا الصّبا ... فـني العمـرُ كـذا في اللهِ
نفسي ما كنتِ ولا كانَ الهوىٰ ... راقـبي اللهَ وخـافي وارْهَـبي

أيّتها النفس ، أقلعي عن الجُنَاح وتوبي ، وارجعي إلى الصلاح وأوبي .
أيتها النفس ، قد شان شاني عيوبي . أيّتها الجاهلة ، تكفيني ذنوبي .

يا ويحَ نفسي مِن تتابُعِ حَوْبتي ... لو قد دعاني للحسابِ حسيبي
فاستيقظي يا نفسُ ويحَكِ واحذري ... حـذرًا يهـيّجُ عَـبْرتي ونحيـبي
واستدرِكي ما فاتَ منكِ وسابقي ... سطَواتِ موتٍ للنفوسِ طَلُوبِ
وابكي بكاءَ المستغيثِ وأَعْولي ... إعـوالَ عـانٍ في الوَثاقِ غـريبِ
هذا الشبابُ قدِ اعتللتُ بلهوِهِ ... أفليسَ ذا يا نفسُ حينَ مشيبي
هـذا النهـارُ يكـرُّ ويحكِ دائبًا ... يجري بصرْفِ حوادثٍ وخُطوبِ
هـذا رقيبٌ ليسَ عني غـافلًا ... يُحصي عليّ ولو غفلتُ ذنوبي
أوَ ليسَ مِـن جَهْـلٍ بأني نائمٌ ... نومَ السـفيهِ ومـا ينـامُ رَقيـبي

قال أبو يزيد : رأيتُ الحقَّ في المنام ، فقلت : يا ربّ ، كيف أجدك ؟ قال : فارِقْ نفسك وتعالَ .

جاء رجل إلى أبي عليّ الدقّاق ، فقال : قد قطعتُ إليك مسافة .

---

(١) القليل .

فقال : ليس هذا الأمر بقطع المسافات ؛ فارِق نفسَك بخطوة ، وقد حصل لك مقصودك ، لو عرفتْ منك نفسُك التحقيق لَسارتْ معك في أصعب مضيق ، لكنها ألفت التفاتَك ، فلما طلبتَ قهرَها فاتَك ، هلّا شددتَ الحيازم ، وقمتَ قيام حازم ، وفعلتَ فِعْلَ عازم ، وقطعتَ علىٰ أمر جازم ، تقصد الخير ، ولكن ما تلازم .

ويعرفُ أخلاقَ الجبانِ جوادُهُ   فيجهــدُهُ كَـرًّا ويُرهِبُـهُ ذُعْـرَا
ومَن يحل تطلابَ المعالي بصدرِهِ   يجدْ حُلْوَ ما يُعطاهُ مِنْ غيرِهَا مُرًّا

حريم العزم الصادق حرامٌ على المتردّد ... متىٰ تحزم العزم هزم ، لو رأيتَ صاحب العزم وقد سرىٰ - حين رقدتِ السراحِينُ - بهمّةٍ تحلّ فوق الفرقد ، فلنفسه نفاسة ، ولأنفه أنفة ... سهمُ الشهمِ **مُفوَّق** فوق عرضة الغَرَض .

كان « الفضيل » ميّتًا بالذنوب ، و« ابن أدهم » مقتولًا بالكبْرِ ، و« السبتيُّ » هالكًا بالملْك ، و« الجُنَيْد » من جيّد الجنْد ، فنُفِخ في صور المواعظ ، فدبَّتْ أرواح الهدىٰ في موْتىٰ الهوىٰ ، فانشقّتْ عنهم قبور الغفْلة ، وصاح إسرافيل الاعتبار : ﴿ **كَذٰلِكَ يُحيي اللهُ الموتىٰ** ﴾ ، إنما سمع **الفضيل آية ، فذلَّتْ نفسُه لها واستكانت ، وهي : (كانت) ، إنما زُجِر** ابن أدهم بكلمة كلَمَتْ قلبَه فانقلبَ ، هايفٌ[١] عاتَبه ولَام ، أخرجه من بلخ إلى الشام ، كانت عقدة قلوبهم بأنشوطةٍ ومَسَد[٢] ، قلبك كله عقد ، **لاحَت** للقوم جادّة السلوك ، فقالوا : ﴿ **ربُّنا اللهُ ثم استقامُوا** ﴾ ، **هٰيهات** منك غبارُ ذاك الموكب ، ركبوا سفين العزم ، فهبّت لهم رياحُ العوْن ،

(١) العطشان الذي لم يصبر علىٰ العطش .
(٢) حبل من ليف .

فقطعوا بالعلم لُجَجَ الجهل ، فوصلوا إلى إقليم أرض الفَهْم ، فأرسلوا علىٰ ساحل بلد الوصل . إذا استصلح القدَر أرضَ قَلْبٍ ، قَلَبها بمحراث الخوف ، وبذر فيها حَبّ المحبّة ، وأدار لها دولاب العين ، وأقام ناطور المراقبة ، فتربّى زرع التقَىٰ علىٰ سُوقه ؛ أصفهم لمن ؟! أصفهم عند من ؟ أنثُر الدرّ علىٰ من ؟!

بلّغْ سلامي بالغويرِ جيرةً   قلبي وإنْ حالُوا إليهمْ تائِقْ
فارقتُهم كَرْهًا وليتَ انني   للروحِ منْ دُونهمُ مُفَارِقْ
ولستُ أنساهمْ وإنْ تقطَّعَتْ   بالبعدِ فيما بيننا عَلايِقْ

يا نفس ، عند ذكر الصالحين تبكين ، وعند شرح جدّهم تئنِّين ، وإذا تصوَّرت طيبَ عيشهم تحنّين ، فإذا عرفتِ قيامَهم بالخدمة تنكّبين !

أمِن خُفوق البرْقِ تُرزمينا   حنّي فمَا أمنعُكِ الحنينَا
سيري يمينًا وسراك شامةٌ   فضلة ما تتلفّتينا
نعمْ تشتاقينَ وأشتاقُ لَهُ   ونُعلنُ الوجدَ وتكتُمِينا
فأينَ منّا اليومَ أو منكِ الهوىٰ   وأينَ نجدٌ والمغورينا

لقي بعض الجند إبراهيم بن أدهم في البريَة ، فقال له : أين العمران ؟ فأومأ بيده إلى المقابر ، فضربه فشجَّ رأسَه ، فقيل له : هذا ابن أدهم . فرجع يعتذر إليه ، فقال له إبراهيم : الرأسُ التي يحتاج إلى اعتذارك تركتُه ببلخ .

ومرّ رجل بابن أدهم وهو ينطر[1] كُرْمًا ، فقال : ناولني من هذا العنب . فقال : ما أذِنَ لي صاحبه . فقلب السوط وضرب رأسه ، فجعل يطأطئ رأسه ويقول : اضرب رأسًا طالَمَا عصىٰ الله .

---

(١) أي : يحرس أشجار عنب .

وأسفاه من حيوةٍ علىٰ غرور ، وموت علىٰ غفلة ، ومنقلَب إلى حسرة ، ووقوف يوم الحساب بلا حجّة .

يا هذا ، مثّلْ نفسَكَ في زاوية من زوايا جهنم ، وأنت تبكي أبدًا ، وأبوابها مغلَقة ، وسقوفها مطبَقَة ، وهي سوداء مظلمة ، لا رفيق تأنس به ، ولا صديق تشكو إليه ، ولا نوم يريح ، ولا نفس .

يا هذا ، استوطأتَ مهاد الكسل ، وإبَرَ النحل دون العسل ؟

قيل لبعض أهل الرياضة : كيف غلبتَ نفسك ؟ فقال : قمتُ في صفّ حربها بسلاح الجد ، فخرج مرحب الهوىٰ يدافع ، فعلاه عليُّ العزْم بصارم الحزم ، فلم تمضِ ساعة حتى ملكتُ خَيْبَر .

وقيل لآخر : كيف قدرتَ علىٰ هواك ؟ فقال : خدعتُه حتىٰ أسرته ، واستلبتُ عُوده فكسرتُه ، وقيدتُه بقيْد العزْلة ، وحفرتُ له مطمور الخمول في بيت التواضع ، وضربتُه بسياط الجُوع فَلَانَ ، يا فلانُ ، ألك في مجاهدة النفس نيّة ، أم النيّة نيّة ؟ أتعبتَني وأنت أنت .. إلى متىٰ تجول في طلب هجول[1] ؟! ما عزّ يوسف إلا بترك ما ذلّ به « ماعِز » .

أخي ، الهوىٰ مطمورة ضيقة في حبس وَعِر ، ومذْ خُلق الهوىٰ خُلق الهوان ... لا يتصرف الهوىٰ إلا بَرَبْعِ قلبٍ فارغ من العلم . الجهلُ خندق يحول بين الطالب والمطلوب ، والعلمُ يدلّ علىٰ القنطرة ... كتابة العلم في ليلِ الجهل تفتقر إلى مصباح فطنة ، ودُهْن الذِّهنِ غالٍ ... ما قدر لصٌّ قطٌّ علىٰ فَطِن ... ومتىٰ نام حارس الفكْر انتبه لصُّ الهوىٰ ... مَن ثبت قلبه في حرْب الشهوات ، لم يتزلزل قدمه ... أولُ ما ينهزم من المهزوم عقله ...

---

(١) جمع هجل : وهي المفازة الواسعة .

ما دمتَ في حرب العدو فلا تبالِ بالجراح ؛ فإنه قد يصاب الشجاع ، إنما المهادنة دليل الذلّ .

أين عزيمة توبة « ماعِز » ، لا عزيمة « توبة »[1] ؟! وأين همّ « أويس » من غمّ « قيس »[1] ؟!

يا أطيار القلوب ، إلى كم في مزبلة الحبس ؟ اكسري بالعزم قفصَ الحِرْص ، واخرجي إلى فضاء القدس ، روحي خماصًا من الهوىٰ تعودي بِطانًا من الهدىٰ ... بين أبي الحركة وأُمِّ القصد : ينتج ولد الظفر ... لا يُنال الجسيمُ بالهُوَيْنَىٰ ... حمْل النفس علىٰ حمْل المشاقّ مدرجة إلى الشرف ... واعجبًا مِن توقُّف الكسالىٰ والدرُّ يُنثر ، أشهودٌ كغيابٍ ؟! أَكانونٌ في آب ؟! الحرب خصام قائم ، وأنت غلام نائم ، ادخلْ بسلامتك ، لابسَ لامتِك ... ليس في سلاح المحارب أحد من نبلة عزم ... أجرأ الليوث أجرُّها للصيود ...

ليسَ عزمًا ما مرضَ العزمُ فيهِ ليسَ همًّا ما عاقَ عنهُ الظلامُ

مَن أراد من العمال أنْ يعرف قدره عند السلطان ، فلينظر ماذا يُوليه من العمل ، وبأيّ شغل يشغله ... الأرواح في الأشباح ، كالأطيار في الأبراج ، وليس ما أعد للاستفراخ ، كما هي للسباق ... ما أظنُّ الضعف إلَّا في الوضع ... ضعف عيْن الخفّاش ليس برمَد ، وحِدّة ناظر الهدهد خلقة ... مصابيح القلوب الطاهرة – في أصل الفطرة – منيرة قبل الشرائع ، يكاد زيتُها يضيء ... وحّد قُسٌّ ولم يَر الرسول ، وكفر ابن أُبيّ وقد صلّىٰ معه ... مع الصبّ ريٌّ يكفيه ولا ماء ، وكم من عطشان في الموجة ...

---

(١) هو : توبة الحميري صاحب ليلىٰ الأخيلية ، وهذا قيس بن الملوّح صاحب ليلىٰ العامرية .

إذا سبق الإنعام في القِدم ، فذلك غِنَىٰ الأبد ... ارحموا مَن طلوعُ الشمس عنده ليلٌ ...

إخواني ، ذُودوا هممكم عن مرعىٰ المنىٰ ؛ فإنه يزيدها عجفًا ، ولا تُولّوا الهوىٰ علىٰ ميدان الأبدان ؛ ﴿ **إني أخافُ أن يبدِّلَ دينَكُمْ أَوْ أنْ يُظْهِرَ في الأرضِ الفَسَادَ** ﴾ [غافر : ٢٦] . الهوىٰ وثن ينصب في جاهلية الشباب ، فإن صحَّ إيمان العزم ، جعل أصنام الشهوات جُذَاذًا .

يا معشر الشباب ، زنوا حُلوَ المشتهىٰ بمُرِّ العقاب ، يَبِينُ لكم التفاوُت .

كم اصْطبارٌ علىٰ ضَيْم ومنقَصَة ... وكَمْ علىٰ الذلِّ إقرارٌ وإذعانُ
ثوروا لها ولْتَهُن فيها نفوسُكُمُ ... إنَّ المناقبَ للأرواحِ أثمانُ

لّما عرَف القوم قدْر الحياة ، أماتوا فيها الهوىٰ فعاشوا ، انتهبوا بأكفّ الجدّ من الزمن ما نثره زمن البطالة .

وركْبٍ سَرَوْا والليلُ فلقُ رواقِهِ ... علىٰ كلّ مغبرِّ الطوالِعِ قاتمِ
حَدَوْا عَزَمَاتٍ ضاقتِ الأرضُ بينها ... فصَارَ سراهُمْ في ظهورِ العزائمِ
تُريهِمْ نجومُ الليلِ ما يبتغونَهُ ... علىٰ عاتقِ الشّعْرِ وهامِ النعائمِ
إذا طرَّدوا في معْركِ الجدّ قصَّفُوا ... رماحَ العطايا في صدورِ المكارِمِ

هان عليهم طول الطريق لعلمهم أين المقصد ، وحلَتْ لهم مرارات البِلىٰ حبًّا لعواقب السلامة ، فيا بشراهم يوم ﴿ **هـٰذَا يومُكُمْ** ﴾ .

قِفْ بالديارِ فهـذي آثارُهُـمْ ... تبكي الأحبَّةَ حَسْرةً وتشـوُّقَا
كَمْ قدْ وقفْتُ بها أُسائل مخبِرًا ... عن أهلِها أو صادِقًا أو مُشْفِقَا
فأجابني داعي الهوىٰ في رسْمها ... فارقتَ مَن تهوىٰ فعَزّ الملتَقَىٰ

يا رُبوع الأحباب ، أين سُكَّانُك ؟ يا موطن الألباب ، أين قُطّانُك ؟ يا جواهر الآداب ، أين خزّانُك ؟ واأسف المتقاعد عنهم ، واحسرة البعيد منهم !

أول قدم في الطريق ، بذْل الروح ، هذه الجادّة فأين السالِك ؟ هذا قميص يوسف ، فأين يعقوب ؟ هذا طور سيناء ، فأين موسىٰ ؟ يا جنيد ، احضر ، يا شبليُّ ، اسمع .

بِدَمِ المُحِبِّ يُباعُ وَصْلُهُمُ فمـنِ الذي يَبْتَـاعُ بالثمـنِ

يا مَنْ نيّتك في الخير نيّة ، لو أنضجتْها نيرانُ خوف أو شوق ، لَانتفعتَ بها ، لو قد طلعتْ شمسُ العزيمة في نهار اليقظة ، لانبعث عالم النشاط في صحراء المجاهَدة ، واعجبًا لهمّتك ! أيَسأل عن الهلال ابنُ أمّ مكتوم ؟! ويُستملَىٰ الفصاحة من باقل ؟! وينتظر الوفاء من عرقوب ؟!

يا مَن أخذ الهوىٰ بأزمّته ، وأمسك الردىٰ بلمّتِهِ ، يا رهينَ ديونٍ تعلّقتْ بذمّته ، هذا أوانُ جدّك إنْ كنتَ مجدًّا ، هذا زمان استعدادك إن كنت مستعِدًّا ، رُضْ مُهْرَ النفس ، يتأتَّ ركوبُه ، تلمّحْ فجر الأَجْر ، يَهُن ظلامُ التكليف . رحلْتَ رحلة ﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ ، ومطرودُ النوم في حَبْس الرقاد ، فما فكّ عنه السجّان قيد الكَرَىٰ ، حتىٰ استقرّ بالقوم المنزل ، فقام يتلمّحُ الآثار بباب الكوفة ، والأحباب قد وصلوا إلى الكعبة .

مـن يَطَّـلعْ شَـرفًا هـل روّح الرعـيانُ بالإبلِ
أمْ قَعْقَعتْ عمُدُ الخيامِ أمِ ارْ تفعـتْ قبـابُهُمُ علىٰ البـذْلِ
أمْ غـرَّدَ الحـادي بقـافيةٍ منهـا غُـرابُ البيْنِ يَستمـلي
ما مرّ ذو شجنٍ يُكتّمُهُ إلّا أقـولُ متـيّمٌ مِثْـلي

أخي ، يا مَنْ قدْ أخذ الهوىٰ بأزمّته ، وأمسك الردىٰ بلمّتِهِ ، يا رهين ديونٍ تعلّقتْ في ذمّته ، هـذا أوان جدّك إنْ كنت مُجدًّا ، هـذا زمان استعدادِك إنْ كنتَ مستعدًّا .

يا نفسُ قدْ عزّ المرادُ فخُذي إنْ كنتِ يومًا تأخذينَ أوْ ذَرِي

نهزة مجدٍ كنتِ في طِلابِها   لمثلِها ينصفُ ساقِي مِئْزَرِي
عمرُ الفتىٰ شبابُهُ وإنّما   آونةُ الشيبِ انقضاءُ العُمْرِ

رُضْ مُهْرَ النفسِ يتأتَّ زكوبُه ، أمِتْ زئبقَ الطبع يمكن استعماله .

ويحك ، إنما يكون الجهاد بين الأمثال ، ولذلك منع من قتْل النساء والصبيان ، فأيّ قدْر للدنيا ، حتىٰ يحتاج قلبك إلى محاربةٍ لها ؟! أما علمتَ أن شهواتها جِيَفٌ ملقاة ؟! أفيحسن بباشق الملك أن يطير عن كفِّه إلى ميتةٍ ؟! مهلًا ، ﴿ **لا تمدَّنَّ عينيْكَ** ﴾ ... لو علمتَ أن لذَّة قهْر الهوىٰ أطيبُ من نيْله ، لَمَا غلَبَكَ ، أما ترىٰ الهرّة تتلاعب بالفأرة ولا تقتلها ، ليبين أثر اقتدارِها ؟! وربّما تغافلتْ عنها ، فتُمْعن الفأرة في الهرب ، فتثبُ ، فتدركها ولا تقتلها ، إيثارًا للذَّة القهْر علىٰ لذَّة الأكل ... مَن ذبح حنجرةَ الطمع بخنجر اليأس ، أعتق القلب من أسر الرِّقِّ ... مَن ردَم خندق الحرص بسكر القناعة ، ظفر بكيمياء السعادة ... مَن تدرّع بدرْع الصدق علىٰ بدن الصبر ، هزم عسكر الباطل ... من حصَد عشب الذنوب بمنجل الورَع ، طابتْ له روضة الاستقامة ... من قطع فضول الكلام بشفرة الصمت ، وجد عذوبة الراحة في القلب ... مَن ركب مركب الحذر ، مرّت به رخاء الهدىٰ إلى رجاء النجاة ... مَن أرسىٰ علىٰ ساحل الخوف ، لاحتْ له بلاد الأمن ... ألَا عزيمة عُمَرية ؟! ألا هجرة سلمانية ؟!

ولي قوادمُ لو أني جُذِبتُ بها   لأنهضتْني ولكنْ أفرُخي زَغبُ

غمّضْ عينَيْك علىٰ الدواء يعمل ، وافتحْها لرؤية الهدىٰ تُبصر ... حجّرْ المعصية تطحطح إناء القلب ... وضبة التوبة شعاب ... يا مَن عزمُه في الإنابة جزر بلا مدٍّ ، وقفتْ سفينة نجاتك ... ليلُ كَسَلِكَ قد طبقَ آفاق الترددُّ ، وقد طلبتْ فيه أطيار الهمّة أوكارَ الدعة ، فلو قد طلعت شمس العزيمة

في نهار اليقظة ، لانبثّ عالم النشاط في صحراء المجاهدة ... يا صبيان التوبة ، تزوَّدوا للبادية ، تأهَّبوا لحاجر ، انعلوا الإبل قبل زرود ، ولا تنسوا - وقتَ تناوُل الزادِ - جِمالَكم .

والنفسُ كالطفلِ إنْ تُهمِلْهُ شبّ علىٰ حبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تفطِمْهُ يَنْفَطِمِ

أخي ، اتركِ الهوىٰ محمودًا قبل أن يتركك مذمومًا .

مرّ الجنيدُ برجلٍ يقول :

منازلٌ كنتَ تَهْواهَا وتألفُهَا أيَّامَ أنتَ علىٰ الأيامِ مَنصورُ

فبكىٰ الجنيدُ بكاءً شديدًا ، وقال : « ما أطيبَ منازلَ الأُلفة والأُنْس ، وأوحشَ مقاماتِ المخالفة ، لا أزال أحنُّ إلىٰ أول بدْء إرادتي وجدّة سعْيي » .

فلو شريتُ بعمري ساعةً سَلَفَتْ مِنْ عيشتي معكُمْ ما كانَ بالغالي

يا هذا ، مرعىٰ المشتهىٰ هشيمٌ ، والعجْز شريك الحرمان ، والتفريط مضارب الكسل ، ديجورُ الجهل مُعْتِمٌ ، وسُؤْر الهوىٰ مغرق ، روْضُ اللهو وَبِيٌّ ، وغديرُ اللذات غدْر .

يا هذا ، المجاهدة حرب ، لا يصلح لها إلَّا بطل .

مـوْتُ النفـوسِ حياتُهَـا مَـنْ شـاءَ أَنْ يَحْـيَا يمـوتْ

يا هذا ، إذا هممتَ بخير فبادرْ ؛ لئلَّا تُغلب ، وإذا هممتَ بشرٍّ فسوِّفْ هواك ؛ لعلّك تَغْلِب ، ثَقِّفْ نفسك بالآداب قبل صحبة الملوك ؛ فإن سياسة الأخلاق مراقي المعالي .

يا أطفالَ الهوىٰ ، أين أنتم والرجال ؟! .

قال أبو يزيد : كنتُ اثنتي عشرة سنةً حدّادَ نفسي ، وخمسين سنة مرآةَ قلبي ، ولقد أحببتُ الله حتىٰ أبغضتُ نفسي .

وقال : ما زلتُ أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي ، حتىٰ سقتُها وهي تضحك .

ما زلتُ أُضحك إبْلي كُلَّما نظرتْ … إلى مَنِ اختُضِبَتْ أخفافُها بدمِ
من اقتضىٰ بسوىٰ الهنديّ حاجتَهُ … أجابَ كلَّ سؤالٍ عن هلْ بِلَمِ

يا بعيدًا عنهم ... يا مَن ليس منهم ، ألكَ نيّة في لحاقهم ؟ اسرجْ كميتَك ، واجرر زمامَك ، يقف بك علىٰ المرعىٰ ، يا من يستهول أحوال القوم ، تنقّل في المراقي تَعْلُ .

بانُوا وخُلّفتُ أبكي في ديارِهِمْ … قُلْ للديارِ سقاكِ الرائحُ الغادِي
وقلْ لأظعانِهِمْ حُيِّيتِ من ظَعْنٍ … وقلْ لَوادِيهم حيّيتَ من وَادِ
أنا العبدُ الذي كَسَبَ الذُّنُوبَا … وَصَدَّتْهُ الأماني أنْ يَتُوبَا
أنا العبدُ الذي أضحىٰ حزينًا … علىٰ زلَّاتِهِ قَلِقًا كئِيبَا
أنا العبدُ الذي سُطِرَتْ عليهِ … صحائِفُ لم يَخَفْ فيها الرَّقِيبا
أنا العبدُ المسيءُ عصيتُ سِرًّا … فما لي الآنَ لا أُبدي النحيبا
أنا العبدُ المفرِّطُ ضاعَ عُمْرِي … فلمْ أَرْعَ الشبيبةَ والمَشِيبَا
أنا العبدُ الغريقُ بِلُجّ بحرٍ … أصيحُ لَرُبَّما ألقىٰ مُجيبَا
أنا العبدُ السقيمُ مِنَ الخطايا … وقدْ أقبلتُ أَلتمسُ الطبيبا
أنا العبدُ المُخلَّفُ عن أناسٍ … حَوَوْا من كلّ معروفٍ نصيبًا
أنا العبدُ الفقيرُ مَدَدْتُ كفّي … إليكمْ فادفَعُوا عني الخُطُوبا
أنا الغدّارُ كمْ عاهدتُ عهدًا … وكنتُ علىٰ الوفاء بهِ كَذوبَا
أنا المقطوعُ فارحمْني وصِلْني … ويَسِّرْ منكَ لي فَرَجًا قريبًا
أنا المضطرُّ أرجو منكَ عَفْوًا … ومَن يرجُو رضاكَ فلنْ يَخِيبَا
فيا أسفىٰ علىٰ عُمرٍ تَقضَّىٰ … ولمْ أكسبْ بهِ إلَّا الذُّنُوبَا
وأحذرُ أنْ يعاجلني مَمَاتٌ … يحيّر هَوْلُ مصرَعِهِ اللَّبِيبَا

ويا حزناهُ مِن حشْري ونشْري ... بيوم ٍ يجعلُ الولدانَ شِيبَا
تفطَّرَتِ السماءُ بهِ ومارَتْ ... وأصبحتِ الجبالُ بهِ كَثِيبَا
إذَا ما قمتُ حَيْرانًا ظَمِيئًا ... حَسيرَ الطرْفِ عُريَانًا سَليبًا
ويا خَجَلاهُ مِن قُبْحِ اكتسابي ... إذَا مَا أبدَتِ الصُّحُفُ العُيُوبَا
وَذِلَّة موقفٍ وحساب عَدْلٍ ... أكونُ بهِ على نفسي حَسيبَا
ويا حذَراهُ من نارٍ تلظَّى ... إذَا زفرتْ وأقلقتِ القُلوبَا
تكادُ إذَا بدتْ تنشقُّ غَيْظًا ... على مَن كان ظلَّامًا مُريبَا
فيا مَنْ مَدّ في كَسْبِ الخطايا ... خُطاهُ أمَا آنَ الأوان لِأَن تتوبَا



الفصْلُ التَّاسِع

علوّ الهمَّة

في تحرِّي الحقِّ والثَّبات عليه

« إن الحق ما زالَ مصونًا عزيزًا ، نفيسًا كريمًا ، لا يُنال مع الإضراب عن طلبه وعدم التشـوُّف والتشـوُّق إلى سببه » . [السيد مرتضى اليماني]

□ علوّ الهمَّة في تحرِّي الحقِّ والثَّبات عليه □

طلب الحق أحلى في النفوس الأبيَّة من الشمس في رائعة النهار ، وقطب تدور عليه همم الأخيار ، وعبابٌ تنصبّ منه جداول شمائل الأطهار ، ومتى علتِ الهمَّة في طلب الحق ، حملتْ على مفارقة العوائد وطلب الأوابد ، « فإن الحق في مثل هذه الأعصار قلَّما يعرفه إلَّا واحد ، وإذا عظُم المطلوب قل المساعد ، فإن البدع قد كثُرت ، وكثرت الدُّعاة إليها ، والتعويل عليها ، وطالب الحق - اليوم - شبيهٌ بطُلَّابه في أيام الفَتْرة ، وهم سلمان الفارسي وزيد بن عمرو بن نفيل وأضرابهما ، رحمهما الله تعالى ، فإنهم قدوة للطالب الحق ، وفيهم له أعظم أُسوة ، فإنهم لمَّا حرصوا على الحق ، وبذلوا الجهد في طلبه ، بلغهم الله إليه ، وأوقفهم عليه ، وفازوا من بين العوالم الجمَّة ، فكم أدرك الحقَّ طالبُهُ في زمن الفترة ! وكم عمي عنه المطلوب له في زمن النُّبوَّة ! فاعتبرْ بذلك ، واقْتَدِ بأولئك ، فإن الحق ما زال مصونًا عزيزًا ، نفيسًا كريمًا ، لا يُنال مع الإضراب عن طلبه ، وعدم التشوُّف والتشوّق إلى سببه ، ولا يهجم على المُبطلين المُعرضين ، ولا يُفاجيء أشباه الأنعام الغافلين ، ولو كان كذلك ما كان على وجه الأرض مُبطل ولا جاهل ، ولا بطَّال ولا غافل »[1] .

زيد بن عمرو بن نفيل الذي يُبعَث أُمَّة وحده ، أنموذج جليل لتحرِّي الحق :

قال الذهبي : « كان زيد بن عمرو ممن فرّ إلى الله من عبادة الأصنام ، وساح في أرض الشام يتطلب الدين القيِّم ، فرأى النصارى واليهود فكَرِه

(١) إيثار الحق على الخلق . للسيد مرتضى اليماني صـ ٢٤. مطبعة الآداب والمؤيد .

دينهم وقال : اللهم إني على دين إبراهيم . ولكن لم يظفر بشريعة إبراهيم عليه السلام كما ينبغي ، ولا رأى من يُوقفه عليها . وهو من أهل النجاة ، فقد شهد له النبي ﷺ بأنه يُبعث أُمّةً وحده ، وهو ابن عم الإمام عمر ابن الخطاب ، رأى النبيَّ ﷺ ، ولم يعش حتى بُعث ، فنقل يُونس بن بكير ، وهو من أوعية العلم بالسير ، عن محمد بن إسحاق قال : قد كان نفر من قريش : زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحارث بن أسد ، وعُبيد الله بن جحش ، وأُميمة ابنة عبد المطلب حضروا قريشًا عند وثنٍ لهم، كانوا يذبحون عنده لعيدٍ من أعيادهم، فلمَّا اجتمعوا، خلا أولئك النفر بعضهم إلى بعض ، وقالوا : تصادقوا وتكاتموا . فقال قائلهم: تعلمنَّ والله، ما قومكم على شيءٍ، لقد أخطئوا دين إبراهيم وخالفوه، فما وثن يُعبد ولا يضرّ ولا ينفع ، فابتغوا لأنفسكم . قال : فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض ، يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل كلّها يتطلّبون الحنيفية ، فأمَّا ورقة فتنصَّر ، واستحكم في النصرانية ، وحصّل الكتب ، وعلم علمًا كثيرًا ، ولم يكن فيهم أعْدَل شأنًا من زيد ، اعتزل الأوثان والملل إلَّا دين إبراهيم ، يوحِّد الله تعالى ، ولا يأكل من ذبائح قومه ، وكان الخطاب عمه قد آذاه ، فنزح عنه إلى أعلى مكة ، فنزل حراء، فوكَّل به الخطاب شبابًا سفهاء لا يَدَعونه يدخل مكة، فكان لا يدخلها إلَّا سرًّا ، وكان الخطاب أخاه أيضًا من أُمّه ، فكان يلومه على فراق دينه ، فسار زيد إلى الشام والجزيرة والموصل يسأل عن الدين »(١) .

قال ابن عمر : إن زيد بن عمرو بن نُفيل خرج إلى الشام ، يسأل عن الدين ويتَّبعه ، فلقي عالمًا من اليهود ، فسأله عن دينهم فقال : إني لعلِّي أن أدين دينكم، فأخبرني. فقال: إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ١٢٦ - ١٢٧ .

من غضب الله . قال زيد : وما أفرّ إلّا من غضب الله تعالى ، ولا أحمل من غضب الله شيئًا ، ولا أستطيعه ، فهل تدلّني على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلّا أن تكون حنيفًا . قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم عليه السلام ، لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ، ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد ، فلقي عالمًا من النصارى فذكر مثله فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله . فقال زيد : وما أفرّ إلّا من لعنة الله ، فهل تدلّني على غيره ؟ قال: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفًا. قال: وما الحنيف ؟ قال: دين إبراهيم ، لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ، ولا يعبد إلا الله . فلمَّا رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج ، فلمَّا برز رفع يديه فقال : اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم . قال الليث : كتب إليَّ هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر ، قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مُسنِدًا ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش ، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري . وكان يُحيي الموءُودة ، ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها ، أنا أكفيك مؤنتها . فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئتَ دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتُك مؤنتها . انتهى ما ذكره البخاري .

وقد قال النبي ﷺ قبل البعثة لزيد لمَّا رآه : « ما لي أرى قومك قد شَنَفوا لك ؟ » أي أبغضوك . قال : أما والله إن ذلك مني لغير نائلةٍ كانت مني إليهم ، ولكني أراهم على ضلالةٍ ، فخرجتُ أبتغي الدين ، حتى قدمت على أحبار أيلة ، فوجدتهم يعبدون الله ويُشركون به ، فدُلِلتُ على شيخٍ بالجزيرة ، فقدمت عليه ، فأخبرتُه ، فقال : إن كلَّ من رأيت في ضلالةٍ ، إنك لتسأل عن دينٍ هو دين الله وملائكته ، وقد خرج في أرضك نبيٌّ ، أو هو خارجٌ ، ارجع إليه واتَّبعه . فرجعتُ ، فلم أُحسّ شيئًا .

ومات زيد قبل المبعث، فقال رسول الله ﷺ: «يأتي أُمَّةً وحده»[١].

ولمَّا علم بخبر رسول الله ﷺ أقبل يريده ، فقتلَه أهلُ ميفعة بالشام.

وقال ابن إسحاق : قُتل ببلاد لخم .

قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢ / ٢٢٤ : « مات بأرض البلقاء من الشام ، لمَّا عدا عليه قومٌ من بني لخم ، فقتلوه بمكان يقال له:ميفعة . والله أعلم » .

عن جابر قال : سُئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نُفيل ، أنه كان يستقبل القبلة في الجاهلية ويقول : إلهي إلهُ إبراهيم ، وديني دينُ إبراهيم . ويسجد ، فقال رسول الله ﷺ : « يُحشر ذاك وَحْدَهُ بيني وبين عيسى بن مريم »[٢] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « دخلتُ الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين »[٣] .

أورد له ابن إسحاق من شعره في خلق السماء والأرض والشمس والقمر :

إلى الله أُهدي مِدْحَتِي وثنائيَا ... وقولًا رَضِيًّا لا يَنِي الدَّهْرَ باقيا

إلى المِلِك الأعلى الذي ليس فوقَهُ ... إلهٌ ولا ربّ يكـون مُدانِيـا

---

(١) إسناده حسن : ذكره الحافظ في « المطالب العالية » ونسبه إلى أبي يعلى . وذكره الهيثمي في المجمع ونسبه إلى أبي يعلى والبزار والطبراني ، وقال : أحد أسانيد الطبراني رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة ، وهو حسن الحديث .

(٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢ / ٢٢٤ : إسناده جيد حسن .

(٣) إسناده جيد ، ذكره ابن الباغندة ، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/٢٢٤ : إسناد جيد وليس هو في شيء من الكتب .

ألا أيّها الإنسان إيّاك والرَّدَى فإنّك لا تُخفي من الله خافيا
وإياك لا تجعل مع الله غيرَهُ فإن سبيل الرُّشدِ أصبح بادِيا
حنانَيْكَ إن الجنَّ كانت رجاءهم وأنـت إلهـي ربُّنـا ورجـائيـا
رضيتُ بك اللَّهمَّ ربًّا فلن أُرَى أدِيـنُ إلهـًا غيـرك الله ثانيـا
وأنت الذي منْ فضل مَنٍّ ورحمةٍ بعثتَ إلى موسى رسولًا مُنادِيا
فقُلْتَ له يا اذهبْ وهَارونَ فادْعُوَا إلى الله فرعونَ الذي كان طاغيا
وقـولا لـه آأنـت سـوَّيْتَ هـذهِ بلا وَتِدٍ حتى اطمأنَّتْ كما هِيا
وقـولا له آأنـت رفَّعـتَ هـذهِ بلا عمدٍ أرْفِقْ إذَنْ بـك بانِيا
وقـولا له آأنت سوّيتَ وَسْطها منيـرًا إذا ما جنَّهُ الله هـاديَا
وقولا له مَنْ يرسلُ الشمس غُدْوَةً فيُصبحَ مَا مسَّتْ من الأرض ضاحِيا
وقولا له مَنْ يُنبتُ الحبَّ في الثَّرى فيُصبحَ منه البَقْلُ يهتزُّ رَابيا
ويُخرج منه حبَّهُ في رؤوسهِ وفي ذاك آياتٌ لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نَجَّيْتَ يُونُسًا وقد بات في أضعافِ حوتٍ لياليا
وإنّي لو سبَّحتُ باسمك ربَّنا لَأُكثـرُ إلّا مـا غفـرتَ خطـائيا
فَرَبَّ العبادِ ألْق سَيْبًا ورحمةً عليَّ وبـارِك فـي بَنِيَّ ومـاليـا[1]

وقال رحمه الله :

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ له الأرضُ تحمل صَخْرًا ثِقالَا
دحاها فلمَّا استوتْ شدَّها سواءً وأرسى عليها الجبالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ له المُزْنُ تحملُ عَذْبًا زُلالا
إذا هـي سِيقتْ إلى بَلْـدَةٍ أطاعتْ فصبَّتْ عليها سِجالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ له الرِّيحُ تُصرفُ حالًا فحالَا

---

(١) البداية والنهاية ١ / ٣٢ - ٣٣ .

وقال رحمه الله :

أربٌّ واحدٌ أم ألفُ ربٍّ ... أدِينُ إذا تقسَّمَتِ الأمورُ
عزلتُ اللَّاتَ والعُزَّى جميعًا ... كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصَّبُورُ
عزلتُ الجِنَّ والجِنَّانَ عني ... كذلك يفعل الجَلْدُ الصبورُ
فلا العُزَّى أدينُ ولا ابنتَيْها ... ولا صنمَيْ بني طَسْمٍ أدِيرُ[1]
ولا غَنْمًا أدينُ ....[2] ... لنا في الدَّهر إذْ حِلْمِي يسيرُ
عجِبْتُ وفي الليالي مُعْجَبَاتٌ ... وفي الأيام يعرفها البصيرُ
بأن الله قد أفْنَى رجالًا ... كثيرًا كان شأنهُمُ الفجورُ
وأبْقَى آخرين ببرِّ قومٍ ... فَيَرْبُلُ[3] منهم الطِّفْلُ الصغيرُ
وبَيْنَا المرءُ يعثُرُ ثابَ يومًا ... كما يتروَّحُ الغُصْنُ النَّضِيرُ
ولكنْ أعبدُ الرحمن ربي ... ليغفرَ ذنبيَ الرَّبُّ الغفورُ
فتَقْوَى الله ربِّكمُ احفظوها ... متى ما تحفظوها لا تبوروا
تَرَى الأبرارَ دارُهمُ جِنانٌ ... وللكُفارِ حاميةٌ سعيرُ
وخِزْيٌ في الحياة وإنْ يموتوا ... يُلاقوا ما تضيق به الصدورُ

فرضي الله عن الرجل ، بل الرجال ، بل الأُمَّة زيد بن عمرو ، الذي قال فيه ورقة :

رَشدتَ وأنْعَمْتَ ابن عمرو وإنَّما ... تجنَّبْتَ تَنُّورًا من النارِ حامِيَا
لدِينِكَ ربًّا ليس ربٌّ كمِثْلِهِ ... وتَرْكِكَ جِنَّانَ الجبال كما هِيَا

---

(١) وعند ابن إسحاق :

فلا العُزَّى أدينُ ولا ابنتيْها ... ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزُورُ

(٢) عند البغوي :

.... وكان رَبًّا ... . إذ حلمي صغيرُ

(٣) أي يربو . وهي عند البغوي : فيربو .

سلمان ابن الإسلام سابِقُ الفرس ، المنارة الشامخة لطَلَب الحق :

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : عليٍّ ، وعمّار ، وسلمان »[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كان الإيمان عند الثُّريَّا ، لتناوَلَهُ رجالٌ من فارس »[٢] .

وعند مسلم من رواية أبي هريرة : « لو كان الإيمان عند الثُّريَّا ، لذَهَبَ به رجلٌ من أبناء فارس ، حتى يتناوله » .

ومن أولى بذلك من سلمان !

سئل علي عن سلمان فقال : « أدرك العلم الأول ، والعلم الآخر ، بحرٌ لا يُدرَك قعره ، وهو منّا أهل البيت »[٣] .

وقصة إسلام سابق الفرس وتحرِّيه وطَلَبه للحق ، آفاقٌ ومنارةٌ لا يُدرك شأوُها ، لسانُ حاله يقول :

تـركْنا البحـارَ الزاخـراتِ وراءنـا   فمن أين يدري الناسُ أَنَّى توجَّهْنا

عن ابن عباس قال: حدثني سلمانُ الفارسيُّ قال: كنتُ رجلًا فارسيًّا من أهل أصبهَانَ، مِن أهلِ قرية منها يُقال لها : «جيّ»[٤]، وكان أَبي دِهْقانَها، وكنتُ أحبَّ خلق الله إليه ، فلم يزل بي حبُّه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبسُ الجارية ، فاجتهدتُ في المجوسية ، حتى كنت قاطِنَ النار الذي يُوقدها ، لا يتركها تخبو ساعةً . وكانت لأبي ضَيْعَةٌ عظيمةٌ ، فشُغِلَ في بنيانٍ

---

(١) حسن : رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٥٩٨) والمشكاة (رقم ٦٢٢٥) .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٣) رجاله ثقات .

(٤) جَيّ ، بالفتح والتشديد: مدينة ناحية أصبهان القديمة .

له يومًا، فقال لي: يا بُنيَّ، إني قد شُغِلْتُ في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطْلَعْها . وأمرني ببعض ما يُريد ، فخرجت ، ثم قال : لا تحتبس عليَّ ، فإنك إن احتبستَ عليَّ ، كنت أَهمَّ إلي من ضيعتي ، وشغلتَني عن كل شيءٍ من أمري . فخرجتُ أريد ضيعته ، فمررتُ بكنيسةٍ من كنائس النصارى ، فسمعتُ أصواتَهم فيها وهم يُصلّون ، وكنتُ لا أدري ما أَمرُ الناسِ بحبس أبي إياي في بيته ، فلمَّا مررتُ بهم ، وسمعتُ أصواتهم ، دخلتُ إليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتُهم أعجبتْني صلواتُهم ، ورغبت في أمرهم ، وقلت : هذا والله خيرٌ من الدين الذي نحن عليه . فوالله ما تركتُهم حتى غربت الشمسُ ، وتركت ضيعةَ أَبي ولم آتِها ، فقلت لهم : أين أَصْلُ هذا الدين ؟ قالوا : بالشام . قال : ثم رجعتُ إلى أبي ، وقد بعثَ في طلبي وشغلتُه عن عمله كلِّه ، فلمَّا جئتُه قال : أيْ بُنَيَّ ، أين كنتَ ؟ أَلم أَكن عهدتُ إليك ما عهدت ؟ قلت : يا أبتِ ، مررتُ بناسٍ يُصلّون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيتُ من دينهم ، فوالله ما زلتُ عندهم حتى غربت الشمسُ . قال : أيْ بُني ، ليس في ذلك الدين خير ، دينُك ودين آبائك خيرٌ منه . قلت : كلا والله ! إنه لخيرٌ من ديننا . قال : فخافني ، فجعل في رجلي قيدًا ، ثم حبسني في بيته . قال : وبعثتُ إلى النصارى فقلت : إذا قَدِمَ عليكم ركبٌ من الشام تُجَّارٌ من النصارى ، فأخبروني بهم . فقدم عليهم ركب من الشام . قال : فأَخبروني بهم ، فقلت : إذا قضوا حوائجهم، وأَرادوا الرجْعة، فأَخبروني. قال : ففعلوا . فألقيتُ الحديد من رِجلي ، ثم خرجتُ معهم حتى قدمتُ الشام ، فلمَّا قدمتُها ، قلت : مَنْ أَفضلُ أهلِ هذا الدِّين ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة . فجئتُه ، فقلت : إني قد رغبتُ في هذا الدين، وأَحببتُ أن أَكون معك أخدمك في كنيستك، وأَتعلَّم منك ، وأُصلّي معك . قال : فادخل . فدخلتُ معه ، فكان رجلَ سوءٍ يأمُرهم بالصدقة ويُرغِّبهم فيها ، فإذا جمعُوا إليه منها شيئًا اكتنزه

لنفسه ، ولم يُعطه المساكين ، حتى جمع سبعَ قِلالٍ من ذهبٍ ووَرِقٍ ، فأبغضتُه بغضًا شديدًا ؛ لِمَا رأيتُه يصنع . ثم مات ، فاجتمعتْ إليه النصارى ليدفنوه ، فقلتُ لهم : إن هذا رجل سوءٍ ، يأمركم بالصدقة ، ويُرغِّبكم فيها ، فإذا جئتم بها ، كنزها لنفسه ، ولم يُعط المساكين . وأريتُهم موضعَ كنزه سبع قِلال مملوءةً ، فلمَّا رأوْها قالوا : والله لا ندفِنُه أبدًا . فصلبُوه ثم رَمَوْه بالحجارة ، ثم جاءوا برجلٍ جعلوه مكانه ، فما رأيتُ رجلًا - يعني لا يُصلِّي الخمس - أرى أنه أفْضَلُ منه ، أَزْهَد في الدنيا ، ولا أَرْغَب في الآخرة ، ولا أَدْأَب ليلًا ونهارًا ، ما أَعلمني أحببتُ شيئًا قطُّ قَبْلَه حُبَّه ، فلم أَزل معه حتى حضرتْه الوفاةُ ، فقلت : يا فلان ، قد حضرك ما ترى مِن أَمر الله ، وإني والله ما أَحببت شيئًا قطّ حُبَّك ، فماذا تأمرني وإلى مَنْ توصيني ؟ قال لي : يا بُنيَّ والله ما أَعلمه إلا رجلًا بالمَوْصِلِ ، فأْتِهِ ، فإنك ستجده على مثل حالي . فلمَّا مات وغُيِّبَ ، لحقت بالموصل ، فأتيتُ صاحبها ، فوجدتُه على مثل حاله من الاجتهاد والزهد ، فقلت له : إن فلانًا أَوصاني إليك أَن آتيَك وأَكونَ معك . قال : فأقم أيْ بُنيَّ . فأَقمت عنده على مثْل أَمر صاحبه حتى حضرتْه الوفاة ، فقلت له : إن فلانًا أوصى بي إليك،وقد حضرك من أَمر الله ما ترى ، فإلى من تُوصي بي ، وما تأمرني به ؟ قال : والله ما أَعلم ، أي بُنَي ، إلا رجلًا بنصيبين . فلمَّا دفنّاه ، لحقت بالآخر ، فأَقمتُ عنده على مثل حالهم حتى حضره الموت ، فأَوصى بي إلى رجلٍ من أَهل عَمُّورِيَّة بالروم، فأَتيتُه فوجدتُه على مثْل حالهم، واكتسبتُ حتى كان لي غُنيمة وبُقيرات . ثم احْتُضِرَ ، فكلَّمتُه ؛ إلى مَنْ يوصي بي ؟ قال : أيْ بُنَيَّ ، والله ما أَعلمُه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمركَ أن تأتيه ، ولكن قد أظلَّك زمانُ نبيٍّ يُبعث من الحرم ، مهاجرهُ بين حرَّتيْن إلى أرض سبخة ذاتِ نخلٍ ، وإنَّ فيه علامات لا تَخْفَى ، بينَ كتفيْه خاتَمُ النبوة ، يأكل الهدية ولا يأكلُ الصدقة ، فإن استطعت أن تخلُصَ إلى تلك

البلاد فافعل ، فإنه قد أَظلّك زمانُه . فلمّا واريناه ، أَقمتُ حتى مرَّ بي رجالٌ من تُجّار العرب من كلب ، فقلت لهم : تحملوني إلى أرض العرب ، وأعطيكم غنيمتي وبقراتي هذه ؟ قالوا : نعم . فأعطيتُهم إياها وحملوني ، حتى إذا جاءوا بي وادي القرى ، ظلموني ، فباعوني عبدًا من رجلٍ يهودي بوادي القرى ، فوالله لقد رأيتُ النخل ، وطمعتُ أن يكون البلد الذي نَعَتَ لي صاحبي . وما حقَّت عندي حتى قَدِمَ رجلٌ من بني قُريظة واديَ القرى ، فابتاعني مِن صاحبي ، فخرج بي حتى قَدِمْنا المدينةَ ، فوالله ما هو إلا أَن رأَيتُها، فعرفتُ نَعْتَها. فأقمتُ في رِقّي، وبعث الله نبيه ﷺ بمكة، لا يُذكر لي شيءٌ من أَمره مع ما أنا فيه من الرِّقّ ، حتى قَدِمَ رسولُ الله ﷺ قُباء ، وأنا أَعمل لِصاحبي في نخلة له ، فوالله إني لفيها إذ جاءه ابنُ عمٍّ له ، فقال : يا فلان ، قاتلَ الله بني قَيْلة ، والله إنهم الآن لفي قُباء ، مجتمعون على رجلٍ جاء من مكة ، يزعمون أنه نبي . فوالله ما هو إلا أَن سمعتُها ، فأَخذتْني العُرَواء - يقول : الرِّعدة - حتى ظننتُ لأسقطنّ على صاحبي ، ونزلتُ أقول : ما هذا الخبر ؟ فرفع مولاي يده فلكمني لكمةً شديدة ، وقال : ما لك ولهذا ، أَقْبِلْ على عملك . فقلتُ : لا شيء ، إنما سمعتُ خبرًا ، فأَحببتُ أَن أَعلمه . فلمّا أمسيتُ ، وكان عندي شيء من طعام ، فحملتُه وذهبتُ إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء، فقلتُ له : بلغني أَنك رجل صالح، وأن معك أَصحابًا لك غرباء ، وقد كان عندي شيءٌ من الصدقة فرأيتُكم أَحقَّ مَنْ بهذه البلاد، فهاك هذا، فَكُلْ منه. قال: فأمسك، وقال لأصحابه: « كُلُوا ». فقلت في نفسي : هذه خَلَّةٌ ممّا وَصَفَ لي صاحبي.ثم رجعتُ ، وتحوّل رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فجمعتُ شيئًا كان عندي ثم جئتُه به فقلتُ : إني قد رأيتُك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية . فأكل رسول الله ﷺ وأكل أَصحابُه ، فقلت : هذه خلتان . ثم جئتُ رسول الله ﷺ وهو يتبع جنازة وعلي شملتان لي وهو في أصحابه ، فاستدرت أَنظر إلى

ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف، فلمَّا رآني استدبرتُه، عرفَ أنِّي أستثبتُ في شيءٍ وُصِفَ لي ، فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فانكببتُ عليه أقبِّله وأبكي ، فقال لي : « تحوَّلْ ». فتحوَّلتُ ، فقصصتُ عليه حديثي كما حدثتُك يا ابن عباس ، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمعَ ذلك أصحابُه .

ثم شغل سلمانَ الرِّقُّ حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدرٌ وأُحُد . ثم قال رسول الله ﷺ: «كاتِبْ يا سلمان». فكاتبتُ صاحبي على ثلاثمائة نخلة أُحييها له بالفَقِير وبأربعين أوقية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أَعينوا أَخاكم ». فأعانوني بالنخل : الرَّجُلُ بثلاثين وَدِيَّة[1]، والرجُل بعشرين ، والرجل بخمس عشرة، حتى اجتمعت ثلاثمائة وديَّة، فقال: «اذهب يا سلمان، ففقِّرْ لها ، فإذا فرغتَ فَأْتِني أَكون أَنا أضعُها بيدي ». ففقَّرتُ لها وأعانني أَصحابي ، حتى إذا فرغت منها ، جئتُه وأخبرته ، فخرج معي إليها نقرِّب له الوَدِيّ ، ويضعه بيده ، فوالذي نفسُ سلمانَ بيده ، ما ماتت منها وديَّةٌ واحدة ، فأدَّيتُ النخل ، وبقي عليَّ المال . فأُتي رسول الله ﷺ بمثل بيضةِ دجاجةٍ من ذهب من بعض المغازي، فقال: «ما فَعَلَ الفارسيُّ المُكاتَب » ؟ فدُعِيتُ له ، فقال : « خُذها فأدِّ بها ما عليك ». قلت : وأين تقع هذه يارسول الله مما عليَّ ؟ قال : « خذها ، فإن الله سيؤدِّي بها عنك ». فأخذتُها فوزنتُ لهم منها أربعين أوقية ، وأَوفيتُهم حقَّهم وعَتَقْتُ ، فشهدتُ مع رسول الله ﷺ الخندق حُرًّا ، ثم لم يَفُتْني معه مشهدٌ[2] .

---

(١) الوَدِيَّة : صغار الفَسِيل . الجمع : وَدِيّ .

(٢) رجاله ثقات ، وإسناده قوي ، فقد صرّح ابن إسحاق بالتحديث عند أحمد وابن هشام وابن سعد، وأخرجه أحمد وابن سعد، والجزري ، وابن هشام ، والطبراني في الكبير والخطيب في التاريخ .

وروى الحاكم عن زيد بن صوحان ، أَن رجُلَيْن مِن أَهل الكوفة كانا له صديقيْن ، فأتياه ليكلِّم لهما سلمان ، ليحدِّثهما حديثه ، فأقبلا معه ، فلقوا سلمان بالمدائن أَميرًا ، وإذا هو على كرسيٍّ ، وإذا خُوصٌ بين يديه وهو يرتُقُه . قالا : فسلَّمْنا عليه وقعدْنا ، فقال له زيد : يا أَبا عبد الله ، كيف كان بَدْءُ إسلامك؟ قال: كنت يتيمًا مِن رَامَهُرْمُز، وكان ابنُ دِهقانها يختلِف إلى معلِّمٍ يعلِّمه ، فلَزِمْتُه لأكون في كَنَفه ، وكان لي أَخ أَكبر مني ، وكان مستغنيًا بنفسه ، وكنتُ غلامًا ، وكان إذا قام مِن مجلسه تفرَّق من يحفِّظهم ، فإذا تفرَّقوا ، خرج فقنع رأسه بثوبه ، ثم صَعِد الجبلَ . كان يفعل ذلك غير مرَّةٍ متنكِّرًا ، فقلت له : إنك تفعل كذا وكذا ، فلم لا تذهبُ بي معك ؟ قال : أَنت غلامٌ ، وأَخاف أَن يظهرَ منك شيء . قلتُ : لا تخف . قال : فإن في هذا الجبلِ قومًا في بِرطيل[1]، لهم عبادة وصلاح، يزعمون أَنَّا عبدةُ النيران وعبدةُ الأوثان ، وأَنَّا على غير دينهم . قلت : فاذهب بي معك إليهم . قال : لا أَقدِرُ على ذلك حتى أَستأمِرَهم ، أَخافُ أَن يظهر منك شيء ، فيُعلم ، أَو فيُقتل القومُ ، فيكون هلاكُهم على يدي . قلت : لن يظهر مني ذلك ، فاستأمْرهم . فقال : غلامٌ عندي يتيم أَحبّ أن يأتِيكم ويسمَعَ كَلَامكم . قالوا : إن كنت تثق به . قال : أَرجو . قال : فقال لي : ائتني في الساعة التي رأيتني أَخرج فيها ، ولا يعلم بك أَحد . فلمَّا كانت الساعة تبعتُه ، فصعِد الجبل ، فانتهينا إليهم . قال علي بن عاصم : أَراه قال : وهم ستة أَو سبعة . قال : وكأَنَّ الروح قد خرج منهم مِن العبادة ، يصومون النهار ، ويقومون الليل ، ويأكلون عند السَّحَر ما وجدوا . فقعدْنا إليهم ، فتكلَّموا ، فحمدوا الله ، وذكروا مَنْ مضى مِن الأنبياء والرسل ، حتى خلصوا إلى ذكْر عيسى ، فقالوا : بعث الله عيسى رسولًا ، وسخَّر له ما

---

(١) القلَّة والصومعة ، وهي سريانية معربة .

كان يفعل من إحياء الموتى ، وخَلْقِ الطير ، وإبراء الأكْمَهِ والأبرص . وكَفَر به قوم ، وتبعه قوم ، وإنما كان عَبْدَ الله ورسولَهُ ابتَلَى به خلْقَه . وقالوا قبل ذلك : يا غلامُ، إن لك لَرَبًّا ، وإن لك لَمَعادًا ، وإن بينَ يديك جنَّةً ونارًا إليها تصيرُ ، وإنَّ هؤلاء الذين يعبدون النيرانَ ، أَهلُ كفرٍ وضلالة ، ليسوا على دين. فلما حَضَرَت الساعة التي ينصرف فيها المُعلِّم ، انصرفتُ معه ، ثم غدونا إليهم، فقالوا مثل ذلك وأَحسن، ولزمتُهم. فقالوا لي: يا سلمان، إنك غلام، وإنك لا تستطيع أَن تصنع كما نصنع، فصلِّ ونَمْ وكُلْ واشربْ . فاطّلع الملكُ على صنيع ابنه ، فركب في الخيل حتى أَتاهم في برطيلهم فقال: يا هؤلاء، قد جاورتموني، فأحسنتُ جوارَكم، ولم تَرَوْا مني سوءًا ، فعمدتُم إلى ابني ، فأفسدتموه عليَّ ، قد أَجَّلْتكم ثلاثًا ، فإن قدرت بعدها عليكم ، أحرقتُ عليكم برطيلكم . قالوا : نعم . وكفَّ ابنه عن إتيانهم ، فقلت له : اتَّقِ الله ، فإنك تعرف أن هذا الدينَ دينُ الله ، وأَن أَباك على غيرِ دينٍ ، فلا تَبِعْ آخرتك بدُنْيا غيرك . قال : هو كما تقول ، وإنما أَتخلَّفُ عن القوم بُقْيًا عليهم . قال : فأتيتهم في اليوم الذي أَرادوا أَن يرتحِلوا ، فقالوا : يا سلمان ، قد كُنَّا نَحْذَر ما رأيت ، فاتَّقِ الله ، واعلم أَن الدين ما أوصيناك به ، فلا يخدعنَّك أَحدٌ عن دينك . قلت : ما أنا بمفارقكم . قالوا : فخُذ شيئًا تأكله ؛ فإنك لا تستطيع ما نستطيع نحن . ففعلتُ ، ولقيتُ أَخي ، فعرضتُ عليه بأَني أمشي معهم ، فرزق الله السلامة حتى قدمنا المَوْصِلَ ، فأتينا بيعةً ، فلمَّا دخلوا أُحفوا بهم وقالوا : أينَ كنتم ؟ قالوا : كنا في بلادٍ لا يذكرون الله تعالى ، بها عَبَدَة النيران ، فطُردنا ، فقدمنا عليكم . فلمَّا كان بعدُ ، قالوا : يا سلمان ، إن هاهنا قومًا في هذه الجبال هم أَهلُ دين ، وإنا نُريدُ لقاءهم ، فكن أنتَ هاهنا . قلت : ما أَنا بمفارقكم . فخرجوا وأَنا معهم ، فأَصبحوا بين جبال ، وإذا ماءٌ كثير وخبزٌ كثير ، وإذا صخرة ، فقعدنا عندها ، فلمَّا طلعت الشمسُ ، خرجوا

مِن بين تلك الجبال ، يخرج رجُلٌ رجلٌ مِن مكانه ، كأن الأرواحَ قد انتُزِعَتْ منهم ، حتى كثُروا فرحَّبوا بهم وحفّوا ، وقالوا : أين كنتم ؟ قالوا : كنا في بلاد فيها عَبَدَةُ نيران . فقالوا : ما هذا الغلامُ ؟ وطفقوا يُثنون عليَّ ، وقالوا : صَحِبَنا من تلك البلاد . فوالله إنهم لكذلك إذ طلعَ عليهم رجل من كهف، فجاء فسلم، فحفُّوا به، وعظَّمه أصحابي، وقال: أينَ كنتم ؟ فأخبروه ، فقال : ما هذا الغلامُ ؟ فأثنوا عليَّ . فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر رسله ، وذكر مولدَ عيسى ابن مريم ، وأنه وُلِد بغير ذكر ، فبعثه الله رسولًا ، وأجرى على يديه إحياء الموتى ، وأنه يخلُق مِن الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه ، فيكون طيرًا بإذن الله ، وأنزل عليه الإنجيل ، وعلَّمه التوراة ، وبعثه رسولًا إلى بني إسرائيل ، فكفر به قوم ، وآمن به قوم . إلى أن قال : فالزموا ما جاء به عيسى ، ولا تُخالِفوا ، فيُخالَف بكم . ثم قال : من أراد أن يأخذ مِن هذا شيئًا ، فليأخُذ . فجعل الرجل يقومُ فيأخذ الجرَّة مِن الماء والطعام والشيء ، فقام إليه أصحابي الذين جئتُ معهم ، فسلَّموا عليه ، وعظَّموه ، وقال لهم : الزموا هذا الدين وإياكم أن تفرَّقوا ، واستوصُوا بهذا الغلام خيرًا. وقال لي: يا غلام، هذا دينُ الله الذي تسمعني أقوله ، وما سواه الكفر . قلت : ما أنا بمفارقك . قال : إنك لا تستطيعُ أن تكون معي ، إني ما أخرج من كهفي هذا إلا كُلَّ يومِ أحد . قلت : ما أنا بمفارقك . قال له أصحابه : يا أبا فلان ، إن هذا لَغلامٌ ويُخاف عليه . قال لي : أنت أعلم . قلتُ : فإني لا أفارقك . فبكى أصحابي لفراقي ، فقال : يا غلامُ ، خُذ من هذا الطعام ما يكفيك للأحد الآخر ، وخذ من الماء ما تكتفي به . ففعلتُه ، فما رأيته نائمًا ولا طاعمًا إلا راكعًا وساجدًا إلى الأحد الآخر . فلمَّا أصبحْنا قال : خذ جرَّتك هذه وانطلق . فخرجت أتَّبِعه حتى انتهينا إلى الصخرة ، وإذا هم قد خرجوا مِن تلك الجبال ينتظرون خروجه ، فَعَدَوْا ، وعاد في حديثه وقال : الزموا هذا الدينَ ، ولا تفرَّقوا ،

واذكروا الله ، واعلموا أن عيسى كان عبدًا لله أنعم عليه . فقالوا : كيف وجدتَ هذا الغلام ؟ فأثنى عليَّ . وإذا خبْز كثير وماء كثير ، فأخذوا ما يكفيهم وفعلتُ . فتفرَّقوا في تلك الجبال ، ورجعْنا إلى الكهف ، فلَبِثْنا ما شاء الله، يخرج كُلَّ أَحدٍ ويحفُّون به. فخرج يومًا فحمد الله تعالى ووعظَهم، ثم قال : يا هؤلاء ، إنه قد كَبَرَ سِنِّي ، ورقَّ عَظْمي ، واقترب أَجَلِي، وإنه لا عهدَ لي بهذا البيت مُذْ كذا وكذا ، ولا بُدَّ من إتيانه ، فاستوصوا بهذا الغلام خيرًا ، فإني رأيتُه لا بأس به . فجزع القومُ ، وقالوا : أنت كبير ، وأَنت وحدَك ، فلا نأمن أَن يُصيبك الشيء ولسنا عندك ، ما أَحْوَجَ ما كنا إليك . قال : لا تُراجعوني . فقلت : ما أَنا بمفارقك . قال : يا سلمان ، قد رأيتَ حالي وما كنت عليه، وليس هذا كذلك، أَنا أَمشي أَصوم النهار، وأَقوم الليل ولا أَستطيع أن أحمل معي زادًا ولا غيره ، وأنت لا تقدرُ على هذا . قلتُ : ما أَنا بمفارقك . قال : أَنت أَعلم . وبكوا وودَّعوه ، واتبعتُه يذكر الله ولا يلتفتُ ، ولا يقفُ على شيءٍ ، حتى إذا أَمسينا قال : صَلِّ أَنت ، ونَمْ ، وقُم ، وكُلْ ، واشربْ ، ثم قام يُصلِّي حتى إذا انتهينا إلى بيت المقدس ، وكان لا يرفع طرفَه إلى السماء ، فإذا على باب المسجد مُقعد ، فقال : يا عبد الله ، قد ترى حالي ، فتصدَّقْ عليَّ بشيءٍ. فلم يلتفت إليه ، ودخل المسجد ، فجعل يتبع أَمكنةً يُصلي فيها ، ثم قال : يا سلمان ، لم أَنَمْ مُذ كذا وكذا ، فإن أَنت جعلت أَن توقظني إذا بلغ الظِّلّ مكان كذا وكذا ، نمتُ ، فإني أحب أن أنام في هذا المسجد ، وإلا لم أَنَمْ . قلت : فإني أَفعل . فنام . فقلت في نفسي : هذا لم ينم منذ كذا وكذا ، لأدعنَّه ينام . وكان لمَّا يمشي وأنا معه ، يُقبل عليَّ فيعظني ويخبرني أَنّ لي ربًّا ، وأن بين يديّ جنةً ونارًا وحسابًا ، ويُذكرني نحو ما كان يذكِّر القوم يوم الأحد ، حتى قال : يا سلمان ، إن الله سوف يبعث رسولًا اسمُه أحمد يخرج بِتهامة - وكان رجلًا أَعجميًّا لا يُحسن أَن يقول « محمد » -

علامته أنه يأكلُ الهدية ، ولا يأكلُ الصدقة ، بينَ كتفيه خاتم النبوة ، وهذا زمانُه الذي يخرج فيه قد تقارب ، فأمَّا أنا فإني شيخٌ كبير ، ولا أَحسبني أدركه ، فإن أَنت أَدركتَهُ ، فصدِّقْه واتَّبعْه . قلت : وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه . قال : نعم ، فإنَّ رضا الرحمنِ فيما قال . فلم يمض إلا يسير حتى استيقظ فزعًا يذكُر الله تعالى، فقال : يا سلمان ، مضى الفْيءُ من هذا المكان ولم أَذكر الله ، أين ما كنتَ جعلتَ على نَفْسِك ، قلت : لأنك لم تَنَمْ منذ كذا وكذا ، فأحببتُ أَن تستوفيَ من النوم . فحمد الله وقام وخرج ، فتبعتُه فمرَّ بالمُقْعَدِ ، فقال : يا عَبدَ الله ، دخلتَ وسألْتُك فلم تُعطني ، وخرجتَ فسألْتُك فلم تُعطني . فقام ينظر هل يرى أَحدًا ، فلم يَرَ ، فدنا منه ، وقال له : ناوِلْني يَدك . فناوله ، فقال : باسم الله . فقام كأنه نشطَ من عقالٍ ، صحيحًا لا عيبَ فيه . فانطلق ذاهبًا ، فكان لا يلوي على أحدٍ ، ولا يقومُ عليه . فقال لي المُقعد : يا غلام ، احمِلْ عليَّ ثيابي حتى أنطلق وأُبشِّر أهلي . فحملت عليه ثيابَهُ ، وانطلق لا يلوي عليَّ ، فخرجتُ في أَثره أَطلبه ، فكلَّما سألتُ عنه ، قالوا : أمامك . حتى لقيني ركْب من كلب فسألْتهم، فلما سمعوا لغتي أناخ رجلٌ منهم بعيره، فجعلني خلفه حتى أَتَوْا بي بلادهم ، فباعوني ، واشترتْني امرأةٌ من الأنصار فجعلتني في حائطٍ لها . وقدم رسول الله ﷺ فأُخْبِرتُ به ، فأخذتُ شيئًا مِن تمر حائطي وأتيتُه فوجدتُ عنده ناسًا ، وإذا أبو بكر أقربُ الناس إليه ، فوضعتُه بين يديه ، فقال : ما هذا ؟ قلتُ : صدقة . فقال : « كُلُوا » . ولم يأكل . ثم لبثتُ ما شاء الله ، ثم أَخذتُ مثل ذلك وأَتيتُه به ، فوجدتُ عنده ناسًا ، فوضعتُه بين يديه ، فقال : ما هذا ؟ قلت : هدية . فقال : « باسمِ الله » . وأَكَلَ ، وأكلَ القومُ . فقلت في نفسي : هذه من آياته .

كان صاحبي رجلًا أَعجميا ، لم يُحسن أَن يقول:تهامة ، فقال : تهمة . قال : فدُرتُ مِن خلفه ، ففطن لي فأَرخى ثوبَهُ ، فإذا الخاتم في

ناحية كتفه الأيسر ، فتبيَّنْته ، ثم درتُ حتى جلستُ بينَ يديه ، فقلتُ : أشهد أَن لا إله إلا الله ، وأَنك رسولُ الله . قال : « من أَنتَ ؟ ». قلت : مملوكٌ . وحدَّثته حديثي ، وحديث الذي كنت معه ، وما أَمرني به . قال : « لمن أنت ؟ » . قلت : لامرأةٍ من الأنصار جعلتْني في حائطٍ لها . قال : « يا أبا بكر » . قال : لبَّيْك . قال : « اشتَرِهِ » . فاشتراني أبو بكر ، فأعتقني ، فلبثتُ ما شاء الله ، ثم أَتيتُه ، فسلَّمتُ عليه ، وقعدتُ بين يديه فقلت : يا رسول الله ، ما تقول في دين النصارى ؟ قال : « لا خَيْرَ فيهم ولا في دِينِهِمْ». فدَخَلَنِي أمرٌ عظيم، وقلت في نفسي: الذي أَقام المُقْعَد، لا خير في هؤلاء ولا في دينهم !! فانصرفتُ وفي نفسي ما شاء الله، وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ **ذلك بأَنَّ منهم قِسِّيسينَ ورُهْبَانًا وأَنَّهم لا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٨٢]. فقال النبيُّ ﷺ: «عليَّ بسلمان». فأَتاني الرسول وأَنا خائف ، فجئته فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **ذلك بأَنَّ مِنْهُم قِسِّيسينَ** ﴾ » . ثم قال : « يا سلمانُ ، إنَّ الذين كنت معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى ، إنما كانُوا مسلمين » . فقلتُ : والذي بعثك بالحق ، لهو الذي أَمرني باتِّباعك ، فقلت له : وإن أَمرني بترك دينك وما أَنتَ عليه ؟ قال : نعم ، فاتركه فإنه الحق[1] .

قال الذهبي : هذا حديث جيد الإسناد ، حكمَ الحاكمُ بصحته .

لَمَّا قُضيتْ في القِدَم سلامةُ سلمان ، أقبل يُناظر أباه ، في دينٍ قد أباه ، فلم يعرف أبوه جوابا إلا القيد ، وهذا الجواب المرذول ، قديم من يوم ﴿ **حرِّقوه** ﴾، فنزل به ضيف ﴿ **ولنبلونَّكم** ﴾، فنال بإكرامه مرتبةَ

---

(١) أخرجه الحاكم وقال : حديث صحيح عالٍ ولم يخرجاه . وأخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ، وهو عند الذهبي في تاريخ الإسلام وقال : إسناده جيد . سير أعلام النبلاء ١ / ٥٠٦ - ٥١١ ، ٥٢٥ - ٥٣٣ .

« سلمان منَّا »، سمع أن ركْبًا على نيَّة السَّفَر ، فسرق نفسه من حِرز أبيه ، ولا قطع، فوقف نفسه على خدمة الأدِلَّاء ، وقوفَ الأذِلَّاء ، فلمَّا أحسّ الرُّهبان بانقطاع دولتهم ، سلموا إليه أعلام الإعلام على علامات نبيِّنا ، وقالوا : إن زمنه قد أظَلّ ، فاحْذَر أن تَضِلّ ، وإنه يخرج بأرض العرب ، ثم يهاجر إلى أرضٍ بين حرَّتين ، فلو رأيتموه قد فلى الفلا ، والدليل شَوْقُه ، وخلَّى الوطن خلا ، يُزعجه تَوْقُه .

وأبغضتُ فيك النَّخْلَ والنخلُ يانعٌ وأعجبني من حَبِّك الطَّلْحُ والضّالُ
وأهوى لجراك السماوةَ والغَضَا ولـو أنَّ ضيفيْهِ وُشـاةٌ وعُـذَّالُ

رحل مع رفقةٍ لم يرفُقوا ﴿ **فشروه بثمنٍ بخسٍ** ﴾ فابتاعه يهودي بالمدينة ، فلمَّا رأى الحرَّتيْن ، توقد حرُّ شـوقه ، وما علمَ المنزل ، بوجْدِ النازل .

أيدري الـرَّبْعُ أيّ دمٍ أراقا وأي قلوبِ هذا الرَّكْبِ شاقَى
لنـا ولأهْـلِهِ أبـدًا قلـوبٌ تُلاقي في جسـومٍ ما تَلاقَى

فبينا هو يُكابِدُ ساعاتِ الانتظار ، قَدِم البشير ، بقدوم البشير ، وسلمان في رأس نخلة ، فكاد القَلَق يُلقيه ، لولا أنّ الحزْم أمسكه ، كما جرى يوم ﴿ **إن كادت لتبدي به** ﴾ ، ثم عجل النزول ، ليلقَى رَكْب السَّيَّارة .

خليليَّ من نجدٍ قِفا بي على الرُّبَى فقد هبَّ من تلك الرُّسومِ نسيمُ

فصاح به المالك : ما لك ولهذا ؟ انصرف إلى شغلك . فأجاب لسان وجْدِه :

* كيف انصرافي ولي في داركمْ شُغُلُ *

فأخَذَ يضربه ، فأخذ لسان حاله يترنَّم - لو سمعَ الأطروش -:

خـليليَّ لا والله مـا أنـا منكمـا إذا عَلَـمٌ مِنْ آلِ ليلى بـدا ليا

فلما لقي الرسول ، عرضَ نُسخة الرهبان ، بكتاب الأصْل ، فوافق ووافق . يا محمد ، أنت تريد أبا طالب ، ونحن نريد سلمان . أبو طالب إذا

سُئل عن اسمه ، قال : عبد مناف ، وإذا انتسب افتخر بالآباء ، وإذا ذُكِرت الأموالُ عَدَّ الإبل . وسلمان إذا سئل عن اسمه ، قال : عبد الله . وعن نسبه ، قال : ابن الإسلام . وعن لباسه ، قال : التواضع . وعن طعامه ، قال : الجوع. وعن شرابه ، قال : الدموع . وعن وساده ، قال : السهر . وعن فخره ، قال : « سلمان منا » . وعن قصْده ، قال : ﴿ **يريدون وجهه** ﴾ .

إن بيتـًا أنت سـاكِنُـه … غيرُ محتاجٍ إلى السُّـرُجِ
وعليـــلًا أنت زائــرهُ … قـد أتاه الله بالفَـــرَجِ
وَجْهُك المأمولُ حُجَّتُنا … يومَ يَأتي الناس بالحُجَجِ

وأبو ذرّ ، ثالث الربَّانيِّين على الطريق :

« عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما بلغ أبا ذرٍّ مبْعثُ النبي ﷺ بمكة ، قال لأخيه أُنيس : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي عِلْم هذا الرجل ، الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء ، فاسمع من قوله ، ثم ائتني ، فانطلق أنيس حتى قدم مكَّة وسَمِع من قوله ، ثم رجَع إلى أبي ذر ، فقال : رأيته يأمُر بمكارم الأخلاق ، وسمعته يقول كلامًا ما هو بالشعر . فقال أبو ذرّ : ما شفيتني فيما أردت . فَتزوَّد أبو ذرّ وحَمَل شنَّةً له فيها ماء ، حتى قدِم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس النبيّ ﷺ ، وهو لا يعرفه ، وكره أنْ يسأل عنه ، حتى أدركه الليل فاضطجع ، فرآه علي بن أبي طالب فعرف أنه غريب ، ودعاه إلى منزله فتبعه ، فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبَه عن شيءٍ حتى أصبح ، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد ، وظلَّ ذلك اليوم ولا يرى النبيّ ﷺ حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمرَّ به عليٌّ فقال : ما آن للرجل أنْ يعلم منزله ؟ فأقامه فذهب به معه ، ولا يسأل واحدٌ منهما صاحبَه عن شيءٍ ، حتى إذا كان يوم الثالث فَعَل مثل ذلك ، فأقامه علي معه ، ثم قال : ألا تحدِّثني ما الذي أقْدمك ؟ قال : إنْ أعطيتني عهدًا وميثاقًا لَتُرشدني فعلتُ . ففعل ، فأخبره ، فقال : فإنه حقٌّ وهو رسول الله ﷺ ،

فإذا أصبحت فاتبعني ، فإن رأيتُ شيئًا أخاف عليك ، قمتُ كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي . ففعل ، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه »[(١)] .

وفي حديث أبي ذرّ ، الذي رواه مسلم من طريق عبد الله بن الصامت الغفاري - ابن أخي أبي ذرّ -: « قد صلَّيت يا ابن أخي قبل أنْ ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين . قلتُ : لمن ؟ قال:لله . قلتُ : فأين توجَّهُ ؟ قال : أتوجَّهُ حيث يوجِّهني ربِّي ، أصلّي عشاء حتى إذا كان من آخر الليل ، أُلقيت كأني خِفاء[(٢)] . حتى تعلوني الشمس . فقال أُنَيْس : إن لي حاجة بمكة فاكْفِني . فانطلق أنيس حتى أتى مكة ، فراث[(٣)] عليّ ، ثم جاء فقلتُ : ما صنعت ؟ قال : لقيتُ رجلًا بمكة على دينك ، يزعم أن الله أرْسلَه . قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر . وكان أنيس أحد الشعراء ، قال أنيس : لقد سمعت قوْل الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء[(٤)] الشعر ، فما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر ، والله إنه لصادقٌ وإنهم لكاذبون . قال : قلت : فاكْفِني حتى أذهب فأنظُر . قال : فأتيتُ مكة فتضعَّفْتُ رجلًا منهم ، فقلت : أين هذا الذي تدعونه الصابئ ؟ فأشار إليّ فقال : الصابئ. فمال عليَّ أهل الوادي بكل مَدَرَةٍ[(٥)] وعَظْمٍ ، حتى خررتُ مغشيًّا عليّ . قال : فارتفعتُ حين ارتفعتُ ، كأني على نُصُب أحمر . قال : فأتيتُ زمزم ، فغسلتُ عني الدماء وشربتُ من مائها ، ولقد لبثتُ يا ابن أخي

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحه واللفظ له .
(٢) هو الكساء ، وجمعه أخفية .
(٣) أي : أبطأ عليّ .
(٤) طرقه وأنواعه .
(٥) المَدَر : هو الطين المتلبِّد .

ثلاثين بين ليلة ويوم ، ما كان لي طعام إلَّا ماء زمزم ، فسمنتُ حتى تكسَّرتْ عُكَنُ بطني ، وما وجدتُ على كبدي سَخْفةَ جوع . قال : فبينا أهل مكة في ليلة قمراء إِضحِيان[(١)] ، إذ ضُرِب على أسمِخَتهم ، فما يطوف بالبيت أحد ، وامرأتان منهم تدعوان إسافًا ونائلة . قال : فأتتا عليّ في طوافهما ، فقلتُ : أنكحا أحدَهما الأخرى . قال : فما تناهتا عن قولهما . قال : فأتتا عليّ ، فقلت : هَنٌ مثل الخشبة ، غير أني لا أَكْني . فانطلقتا تُولولان وتقولان : لو كان ها هنا أحد من أنفارنا . قال : فاستقبلهما رسول الله ﷺ وأبو بكر ، وهما هابطان ، قال : « ما لكما ؟» قالتا : الصابئ بين الكعبة وأستارها . قال : « ما قال لكما ؟ » قالتا : إنه قال لنا كلمة تملأ الفَمَّ . وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر ، وطاف بالبيت هو وصاحبُه ، ثم صلَّى ، فلما قضى صلاته ؛ قال أبو ذر : فكنتُ أول من حيَّاه تحيَّة الإسلام ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله . فقال : « وعليك ورحمة الله » . ثم قال : « من أنت ؟ » قال : قلتُ : من غفار . قال : فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته . فقلت في نفسي: كره أن انتميتُ إلى غفار . فذهبتُ آخُذ بيده ، فَقَدَعَني صاحبُه - وكان أعلم به مني - ثم رفع رأسه ، ثم قال : « متى كنت ها هنا ؟ » قال : قلت : قد كنتُ ها هنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم . قال : « فمن كان يطعمك ؟ » قال : قلت : ما كان لي طعام إلَّا ماء زمزم ، فسمنتُ حتى تكسَّرت عُكَن بطني ، وما أجد على كبدي سخفة جوع ، قال : « إنها مباركة ، إنها طعامُ طُعم » . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ائذن لي في طعامه الليلة . فانطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر وانطلقتُ معهما ، ففتح أبو بكر بابًا فجعل يقْبض لنا من زبيب الطائف ، وكان ذلك أول طعام أكَلْته بها » .

---

(١) الإضحيان : هي المضيئة . ليلة أضحيان ، وأضحيانه وضحياء ، ويوم ضحيان .

أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط : أول مَن هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبيّ ﷺ :

لله درُّها ، أبوها شيطان من شياطين الإنس ، وهي رضي الله عنها كانت ممَّن أسلم قديمًا وبايعتْ وخرجت إلى المدينة مُهاجرة تمشي ، فتبعها أخواها عمارة والوليد ليردَّاها ، فلم ترجع .

قال ابن سعد : « هي أول مَن هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبي ﷺ ، ولا نَعْلم قرشيَّة خرجتْ من بين أبويها مسلمة مهاجرة إلى الله ورسوله إلَّا أمّ كلثوم . خرجتْ من مكة وحدها ، وصاحبت رجلا من خزاعة حتى قدمتْ في الهدنة ، فخرج في أثرها أخواها ، فقدما ثاني يوم قدومها ، فقالا : يا محمد ، شرطنا أوْف به . فقالت أمّ كلثوم : يا رسول الله - ﷺ - أنا امرأة ، وحال النساء إلى الضعف ، فأخشى أن يفتنوني في ديني ولا صَبْر لي . فنقض الله العهد في النساء ، وأنزل آية الامتحان ، وحكم في ذلك بحُكم رضوا به كلُّهم ، فامتحنها رسول الله ﷺ ، والنساءَ بعدها : « ما أخرجكنّ إلَّا حبُّ الله ورسوله والإسلام ، لا حبَّ زوج ولا مال ؟ » فإذا قلن ذلك لم يُرددن .

هاجرت رضي الله عنها ولم يكن لها زوج بمكة ، فتزوجها زيد ثم الزبير ، ثم عبد الرحمن بن عوف ، ثم عمرو بن العاص فماتت عنده »(١).

فانظر كيف تصنع العقيدة وطلَبُ الحقّ بامرأةٍ عظيمة ، كان والدها شيطان قريش ، فتخرج ماشية إلى رسول الله ﷺ ... والله إن هذا الموقف تعجز عن تصويره الكلمات ... امرأة ليس لها زوج ، تعاني حرَّ هجير جبال مكة الكالح ووحشتها ، تفرُّ بدينها ، ويلحقها أخواها فلا ترجع ، وينزل الله رحمتها من السماء .

أمّا الثباتُ على الحق : فآسِية زوْج فرعون مثالٌ عالٍ وغالٍ لكلِّ جِيل :

فالأنموذج المثالي يقصُّه الله علينا في القرآن الكريم : ﴿ **وضَرَب الله مثلًا**

---

(١) الطبقات لابن سعد ٠ / ٢٣٠ .

للذين آمنوا امرأةَ فرعون إذ قالتْ ربِّ ابن لي عندك بيتًا في الجنَّة ونجِّني من فِرعون وعَملِه ونجِّني مِنَ القومِ الظالمين ﴾ [التحريم : ١١] .

قال الحافظ : ومن فضائل آسية امرأة فرعون : اختارت القَتْل على المُلْك ، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه .

وروى ابن جرير بسنده ، عن سليمان التيمي : كانت امرأة فرعون تُعذَّب في الشمس ، فإذا انصرفَ عنها أظلَّتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتَها في الجنة .

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كَمُل من الرجال كثير ، ولم يكمُل من النساء إلّا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإنَّ فضْل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » . رواه البخاري .

قال ابن جرير : كانت امرأة فرعون تسأل : مَن غلب ؟ فيقال : غلب موسى وهارون . فتقول : آمنت بربِّ موسى وهارون . فأرسل إليها فرعون ، فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإن مضتْ على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي . فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء ، فأبصرت بيتها في الجنة ، فمضت على قولها ، وانتُزعت روحُها .

انظر رحمك الله ، ها هي ذي امرأة فرعون ، لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون ، عن طَلَب النجاة وحدها ، وقد تبرَّأت من قصر فرعون ، طالبة إلى ربِّها بيتًا في الجنَّة . وتبرَّأت من صِلتها بفرعون ، فسألت ربَّها النجاة منه . وتبرَّأت من عمله ؛ مخافة أن يلحقَها من عمله شيءٌ ، وهي ألصق الناس به . وتبرَّأت من قوم فرعون ، وهي تعيش بينهم .

موقف آسية ، مَثَلٌ للاستعلاء على عَرَض الحياة الدنيا في أزهى صوره ؛ فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأةٌ ما تشتهي ، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان ، ولم تُعْرِض عن هذا العَرَض فحسب ، بل اعْتبرته شرًّا ودَنَسًا وبلاءً ؛ تستعيذ بالله منه ، وتتفلَّت

من عقابيله ، وتطْلُب النجاة منه ، وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قويَّة ، وهذا فَضْلٌ آخر عظيم ؛ فالمرأة أشدُّ شعورًا وحساسيةً بوطأة المجتمع وتصوُّراته ، ولكنَّ هذه المرأة وحدها ، في وَسَط ضَغْط المجتمع، وضغْط القصر ، وضَغْط المِلك ، وضغْط الحاشية ، والمقام الملوكي ، في وَسَط هذا كلِّه ، رفعتْ رأسها إلى السماء وحدها في خِضمّ هذا الكفر الطاغي ، وهي نموذج عالٍ في التجرُّد لله من كل هذه المؤثِّرات ، وكل هذه الأواصر ، وكلّ هذه المعوِّقات ، وكلِّ هذه الهواتف ؛ ومنْ ثمَّ استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد ، الذي تتردَّد كلماته في جَنَبات الكون ، وهي تتنزَّل من الملأ الأعلى .

وإفراد امراة فرعون بالذِّكْر مع مريم ابنة عمران ، يدلُّ على المكانة العالية ، التي جعلتها قرينة مريم في الذِّكْر ، بسبب ملابسات حياتها .

ذو النُّوريْن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه : قمَّةٌ شامخةٌ في الثَّبات على الحقِّ حتى القَتْل :

لله درُّه وهو الشيخُ الطاعنُ في السنِّ ، يريده المنافقون على خلْع قميص ألبسه الله إيَّاه ، فلا ينزعُه ، ويصبر تنفيذًا لوصيَّة رسول الله ﷺ ، ويُضَحِّي بنفسه ثمنًا لثباته حتى يُسال دمُه الطاهر . فلله دَرُّ أُمٍّ أَوْحَدَتْ به !

ابن المسيِّب سيِّدُ التابعين ؛ يصْدع بالحقّ ، ويُضْرب ، ويُطاف به في الطرقات :

وهذا سيِّد التابعين يصْدَع بالحق ولا يأبه ، ويُطاف به ويُضرب . فلله درُّه من سيد !

ومحمدُ بن أسْلَم الطوسيّ ، أمْرُه سماوي :

« قال محمد بن قاسم : سمعتُ إسحاق بن راهويْه ذات يوم ، روى في ترجيع[1] الأذان أحاديث كثيرة ، ثم روى حديث عبد الله بن زيد

---

(١) الترجيع : هو العَوْد إلى الشهادتين مرتين مرتين برفع الصوت ، بعد قولها مرتين مرتين بخْفض الصوت ، وهو ثابت في حديث أبي محذورة عند مسلم ، وأحمد ، وأبي داود ، والدارقطني ، والبيهقي ، وابن حبان ، وابن خزيمة .

الأنصاري[١] ، ثم قال : يا قوم ، قد حدَّثتُكم بهذه الأحاديث في الترجيع ، وليس في غير الترجيع إلَّا حديث واحد : حديث عبد الله بن زيد ، وقد أمَرَ محمدُ بن أسلم الناسَ بالترجيع ، فقلتم : هذا مبتدع ، عامة أهل بلده بالكورة غوغاء . ثم قال : احذروا الغوغاء ، فإنهم قتلة الأنبياء . فلما كان الليل ، دخلت عليه ، فقلت : يا أبا يعقوب ، حدَّثتَ بهذه الأحاديث بالترجيع ، فما لك لا تأمر مؤذِّنك بالترجيع ؟ فقال : يا مغفَّل ، ألم تسمع ما قُلت في الغوغاء ، إنما أخافُ الغوغاء ، فأمَّا أمْر محمد بن أسلم ، فإنه سماوي ، كلما أَخَذ في شيء تمَّ له ، ونحن عبيدُ بطوننا ، لا يتمُّ لنا أمْرٌ نأْخُذ فيه ، نحن عند محمد بن أسلم مثل السُّرَّاق » .

إمام أهل السنة أحمد بن حنبل : أعزَّ الله به الإسلام يوم الفتنة :

لولا سياطٌ على ظهْر ابن حنبل ، ما كان إمامَ أهل السُّنَّة ؛ ثَبَتَ ابن حنبل في محنة خَلْق القرآن ، فثبَّت الله بثباته الأمة بأسْرها .. ويذكُر التاريخ بأحْرفٍ من نور وشذا عطر أرقٍّ من الورود هذا الموقف الفذّ لشيخ الإسلام الفذّ حين تزلزلتْ وتضعضعت الجبالُ الرواسي .

وشيخه أبو نعيم الفَضْل بن دُكَيْن ، جَبَل شامخ :

يقول أبو نعيم للوالي – لمَّا امتحنه في خلق القرآن –: « أدركتُ الكوفة وبها أكثر من سبعمائة شيخ ؛ الأعمش فَمَن دونه،يقولون : القرآن كلام الله . وعنقي أهون من زِرِّي هذا . فقام إليه أحمد بن يونس ، فقبَّل رأسه – وكان بينهما شحناء – وقال : جزاك الله من شيخ خيرًا »[٢] .

---

(١) أخرجه أبو داود ، وأحمد ، وابن ماجه ، والبيهقي ، وإسناده صحيح ، وصحَّحه ابن حبان وابن خزيمة والبخاري فيما نقله عنه الترمذي في العلل الكبير .

(٢) السير ١٠ / ١٤٩ ، ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي صـ ٤٨١ .

ونعيم بن حماد أوْصى أن يُدفن في قيوده ، وقال : إني مخاصِم :

« أُخِذَ رحمه الله في أيام المحنة سنة ثلاث أو أربع وعشرين ومائتين ، وألقوه في السجن بسامراء فلم يزل محبوسًا بها ، حتى مات في السجن سنة ثمان وعشرين ومائتين ، فجُرَّ بأقياده وأُلقي في حفرة ، ولم يُكفن ولم يُصلَّ عليه ، وكان رحمه الله أوْصى أن يُدفن في قيوده وقال : إني مخاصم »[١] .

وشيخ الإسلام الأنصاري ، طوْدٌ أشمٌّ في السُّنة :

« كان شيخ الإسلام الهروي طودًا راسيًا في السُّنّة ، لا يتزلزل ولا يلين ، وقد امْتُحن مرات ، وأُوذِيَ ، ونُفي من بلده .

قال ابن طاهر : سمعته يقول : عُرِضْتُ على السيف خمس مرات ، لا يُقال لي : ارجع عن مذهبك . لكن يقال لي : اسكت عمن خالفك . فأقول : لا أسكت »[٢] .

أولئك آبائي فَجِئني بمثلهم إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المجامعُ

* * *

انتهى المُجلَّد الرابع ويليه المُجلَّد الخامس

إن شاء الله تعالى

---

(١) السير ١٠ / ٦١٠ ، ومناقب الإمام أحمد صـ ٤٨٣ .

(٢) السير ١٨ / ٥٠٩ .

صلاح الأمة في علو الهمة

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم

الشيخ عائض القرني

الشيخ محمد عبد المقصود

الشيخ أبو إسحاق الحويني

المجلد الخامس

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الرسالة

الفصل الأول

عُلُوُّ الهِمَّةِ في الاسْتِقامة

« أعظمُ الكرامة لزومُ الاستقامة »

« إني إلى الآن أُجدِّد إسلامي كلَّ وقتٍ »

ابن تيمية

□ علوُّ الهمَّة في الاستقامة □

اعلم يا أخي أنَّ الاستقامة روحٌ تحيا به الأحوال ، وزكاة تربو عليها الأعمال ، فلا زكاء للعمل ، ولا صحَّة للحال بدونها .

قال الله تعالى : ﴿ **إنّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكة ألَّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنَّة التي كُنتم تُوعَدُون** ﴾ [فصلت : ٣٠].

وقال تعالى : ﴿ **إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحابُ الجنَّة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ [الأحقاف : ١٣ - ١٤] .

وقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **فاستَقِم كما أُمِرتَ ومَن تابَ معك ولا تَطْغَوْا إنَّه بما تعملونَ بصير** ﴾ [هود : ١١٢] .

وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مثلُكم يُوحىٰ إليَّ أنَّما إلٰهُكم إلهٌ واحدٌ فاستقيموا إليه واستغفروه ....** ﴾ الآية . [فصلت : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ **وأنْ لو استقاموا على الطريقة لأسْقيناهم ماءً غَدَقًا لنفتنهم فيه ....** ﴾ الآية . [الجن : ١٦] .

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولًا ، لا أسأل عنه أحدًا غيرك . قال : « قل : آمنتُ بالله . ثم استَقِم » .

وفيه عن ثوبان رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « استقيموا ولن تُحْصُوا ، واعلموا أنّ خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلّا مؤمن » .

والمطلوب من العبد الاستقامة ، وهي السداد ، فإن لم يقدر عليها ، فالمقاربة . فإن نزل عنها ، فالتفريط والإضاعة . كما في صحيح مسلم من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سدّدوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحدٌ منكم بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلّا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفَضْل » . فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها ؛ فأمَر بالاستقامة ، وهي السداد ، والإصابة في النيَّات والأقوال والأعمال . وأخبر في حديث ثوبان : أنهم لا يُطيقونها ، فنقَلهم إلى المقاربة ، وهي أنْ يقرُبوا من الاستقامة بحسَب طاقتهم ؛ كالذي يرمي إلى الغرض ، فإن لم يُصبْه يُقاربه . ومع هذا أخْبرَهم أنَّ الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة ؛ فلا يَركن أحدٌ إلى عمله ، ولا يعجب به ، ولا يرى أنَّ نجاتَه به ، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله .

فالاستقامة كلمةٌ جامعة ، آخِذةٌ بمجامع الدّين ، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصّدق ، والوفاء بالعهد .

الاستقامة على مَحْض التوحيد :

ولقد سُئل صدِّيق الأُمَّة وأعظمها استقامةً – أبو بكر الصديق رضي الله عنه – عن الاستقامة ، فقال : أن لا تشرك بالله شيئًا . فأراد بها الاستقامة على مَحْض التوحيد .

قال مجاهد : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله ، حتى لحقوا بالله .

قال شيخ الإسلام الهروي : ﴿ **فاستقيموا إليه واستغفروه** ﴾ . إشارةٌ إلى عين التفريد .

قال ابن القيم : يريد أنه أرشدَهم إلى شهود تفريده ، وهو أن لا يَرَوْا غيرَ فردانيَّته . وتفريدُه نوعان ؛ تفريدٌ في العِلْم والمعرفة والشهود ، وتفريدٌ في الطَلَب والإرادة ، وهما نوعا التوحيد .

ومَن استقام على مَحْض التوحيد الصّادق الذي يدين به الصدّيق ، واستقام له توحيدُه على العِلم الصادق بأسماء الله وصفاته ، وآثارها في الأنفس والآفاق – استقام في كلِّ شأنه على الصراط المستقيم ، فاستقام له كلُّ عمل وكلُّ حالٍ .

الاستقامة على الأمْر والنهي :

وفسَّرها الفاروق بالاستقامة على الأمْر والنهي :

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الاستقامة : أن تستقيم على الأمر والنهي ، ولا تروغ روغان الثعالب .

قال الشاعر :

كـلَّ يـوم تتلـوَّنْ غير هذا بك أجْمَلْ

قال أرباب الإشارات : لا يكن حال الرجل كحال الكلب ؛ يأتي إلى السَّبُع ويقول : ياملك الغابة ، غَيِّر لَي اسمي ؛ فإن « كلب » اسمٌ قبيح . فيقول له السبع : إذن فاحتفظ بقطعة اللحم هذه إلى الليل ، فإن احتفظتَ بها غيَّرنا لك الاسم . فإذا كان عند الظهيرة واشتدّ به الجوع ، نظر إلى قطعة اللحم وقال : كلب كلب ، إنّ « كلب » اسم جميل . ثم التهم قطعة اللحم ، فلمّا كان الليل أتى إلى الأسد فقال له : غيِّر لي اسمى . فقال له السبع : ائتمنَّاك بعض يوم على قطعة من اللحم فلم توفِّ ، فكيف نأتمُنك على الاسم الجميل ؟!!

قال علي بن أبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهما : استقاموا : أدَّوْا الفرائض .

قال الحسن : استقاموا على أمْر الله ؛ فعملوا بطاعته ، واجتنبوا معصيته .

الاستقامة هي الإخلاص :

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : استقاموا : أخلصوا العمل لله .

الاستقامة على المحبّة :

وفسَّرها ابن تيمية بالاستقامة على المحبَّة .

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢/١٠٤) : « سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّسْ الله روحه - يقول : استقاموا على محبَّته وعبوديَّته ، فلم يلتفتوا عنه يَمْنةً ولايَسْرة .

والاستقامة تتعلَّق بالأقوال ، والأفعال ، والأحوال ، والنيات . فالاستقامة فيها : وقوعها لله ، وبالله ، وعلى أمْر الله .

قال بعض العارفين : كن صاحب الاستقامة ، لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحرِّكة في طَلَب الكرامة ، وربُّك يطالبك بالاستقامة .

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول : أعظم الكرامة لزومُ الاستقامة »(١) .

لله درُّ ابن تيمية ، فالاستقامة شَرَفٌ وعِزٌّ ... والكرامة حَيْضُ الرجال .

والاستقامة هي الاعتدال ، وردُّ الجهالات إلى السُّنَّة ، والمتابعة في مسائل الاعتقاد ومسائل العمل والعبادة .

يقول ابن تيمية : « الرأي المُحْدَث في الأصول ، وهو الكلام المحدَث . وفي الفروع ، وهو الرأي المحدَث في الفقه . والتعبد المحدث ؛ كالتصوُّف المُحدَث ، والسياسة المُحدَثة »(٢) .

درجات الاستقامة :

قال شيخ الإسلام الهروي : « وهي على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد ، لا عاديًا رَسْم العِلْم ، ولا متجاوزًا حَدَّ الإخلاص ، ولا مخالفًا نهجَ السُّنَّة » .

قال ابن القيم : « هذه درجة تتضمَّن ستة أمور ؛ عملا واجتهادًا فيه : وهو بَذْل المجهود . واقتصادًا : وهو السلوك بين طرفي الإفراط ؛ وهو الجوْر على النفوس ، والتفريط بالإضاعة . ووقوفًا مع ما يرسمه العلم ، لا وقوفًا مع داعي الحال . وإفراد المعبود بالإرادة : وهو الإخلاص . ووقوع الأعمال على

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٠٥ .

(٢) الاستقامة لابن تيمية ١/ ٣ ، تحقيق د . محمد رشاد سالم ، طبع مؤسسة قرطبة .

الأمْر : وهو متابعة السنة .

فبهذه الأمور الستة ، تتمُّ لأهل هذه الدرجة استقامتهم ، وبالخروج عن واحد منها ، يخرجون عن الاستقامة ؛ إمّا خروجا كليّا ، وإمّا خروجًا جزئيًّا .

والسّلف يذكرون هذين الأصلين كثيرًا – وهما الاقتصاد في الأعمال ، والاعتصام بالسنة – فإن الشيطان يَشُمُّ قلْب العبد ويختبره ؛ فإن رأى فيه داعية للبدعة ، وإعراضًا عن كمال الانقياد للسُّنة ؛ أخرجه عن الاعتصام بها . وإن رأى فيه حرصًا على السنة ، وشدَّة طَلَب لها ؛ لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها ، فأمَره بالاجتهاد ، والجوْر على النفس ، ومجاوزة حدّ الاقتصاد فيها ، قائلا له : إن هذا خيرٌ وطاعة ، والزيادة والاجتهاد فيها أكْمل ، فلا تفتر مع أهْل الفتور ، ولا تنم مع أهل النوم . فلا يزال يحثُّه ويحرِّضه ، حتى يُخرجه عن الاقتصاد فيها ، فيخرج عن حدِّها ، كما أنَّ الأول خارج عن هذا الحد ، فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر . وهذا حال الخوارج الذين يَحْقِر أهل الاستقامة صلاتَهم مع صلاتِهم ، وصيامَهم مع صيامِهم ، وقراءتهم مع قراءتهم .

وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة ، ولكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة ، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف .

وقال بعض السلف : ما أمر الله بأمْر إلا وللشيطان فيه نزغتان ؛ إمّا إلى تفريط ، وإمَّا إلى مجاوزة ؛ وهي الإفراط ، ولا يبالي بأيهما ظفر ؛ زيادة أو نقصان .

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : « ياعبد الله ابنَ عمرو ، إن لكلِّ عاملٍ شِرَّة ، ولكلِّ شِرَّةٍ فتْرة ؛ فمن كانت فترته إلى سنة أفْلَح ، ومَن كانت فتْرته إلى بدعة خاب وخسر » . قال له ذلك حين أمَره بالاقتصاد في العمل .

فكل الخير في اجتهادٍ باقتصاد ، وإخلاص مقرون بالاتباع ، كما قال بعض الصحابة : اقتصاد في سبيل وسُنَّة ، خير من اجتهاد في خلافِ سبيلٍ وسنّة ، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء - عليهم السلام - وسنتهم .

وكذلك الرياء في الأعمال يُخرجه عن الاستقامة ، والفتور والتواني يخرجه عنها أيضًا » .

قال الهروي :« **الدرجة الثانية** : استقامة الأحوال ؛ وهي شهود الحقيقة لا كَسْبًا ، ورفْض الدعوى لا علمًا ؛ والبقاء مع نور اليقظة لا تحفُّظًا » .

قال ابن القيم : « يعني أنَّ استقامة الحال بهذه الثلاثة ، أما« شهود الحقيقة » : فالحقيقة حقيقتان ؛ حقيقة كونيَّة ، وحقيقة دينية ، يجمعهما حقيقة ثالثة ، وهي مصدرهما ومنشؤهما وغايتهما .

وأكْثر أرباب السلوك مِن المتأخِّرين إنما يريدون بالحقيقة : الحقيقة الكونية . وشهودها : هو شهودُ تفرُّد الربّ بالفِعْل ، وأنَّ ما سواه محلُّ جريان أحكامه وأفعاله ؛ فهو كالحفير الذي هو محلٌّ لجريان الماء حسب . وعندهم أنَّ شهودَ هذه الحقيقة والفناءَ فيها ، غاية السالكين . ومنهم : مَن يشهد حقيقة الأزليَّة والدوام وفناء الحادثات وطيَّها ، في ضِمْن بساط الأزليَّة والأبديّة وتلاشيها في ذلك ؛ فيشهدها معدومة ، ويشهد تفرُّد موجدها بالوجود الحقِّ بالحقّ ، وأن وجود ما سواه رسومٌ وظلالٌ .

فالأول : شَهد تفرّدَه بالأفعال ، وهذا : شهد تفرُّده بالوجود . وصاحبُ الحقيقة الدينية في طَوْرٍ آخر ؛ فإنه في مشهد الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، والموالاة والمعاداة ، والفَرْق بين ما يحبّه الله ويرضاه ، وبين ما يبغضه ويسخطه ؛ فهو في مقام الفرْق الثاني الذي لا يحصلُ للعبد درجة الإسلام - فضلًا عن مقام الإحسان - إلّا به .

فالمعرض عنه صفحًا لا نصيب له في الإسلام ألبتة ، وهو كالذي كان

الجنيد يوصي به أصحابه ، فيقول : « عليكم بالفرْق الثاني » . وإنما سُمِّي ثانيًا ؛ لأن الفَرْق الأول : فرقٌ بالطبع والنفس ، وهذا فَرْق بالأمْر .

والجمع أيضا جمعان : جَمْعٌ في فرْق ، وهو جمع أهل الاستقامة والتوحيد . وجمع بلا فَرْق ، وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد .

فالناس ثلاثة : صاحبُ فرْقٍ بلا جَمْع ، فهو مذموم ناقص مخذول . وصاحب جمْعٍ بلا فرْق وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد ؛ فصاحبه مُلْحد زنديق . وصاحب فرْق وجمْع ، يشهد الفرْق في الجمع ، والكثرة في الوحدة ، فهو المستقيم الموحِّد الفارق . وهذا صاحب الحقيقة الثالثة ، الجامعة للحقيقتين الدينية والكونية ؛ فشهودُ هذه الحقيقة الجامعة : هو عينُ الاستقامة .

وأما شهودُ الحقيقة الكونية – أو الأزليّة – والفناء فيها ، فأمْرٌ مُشتَرك بين المؤمنين والكفار ؛ فإن الكافر مقرٌّ بقَدَر الله وقضائه ، وأزليَّته وأبديَّته ، فإذا استغرق في هذا الشهود وفني به عن سواه ، فقد شَهِد الحقيقة .

وأما قوله : « لا كسْبًا » . أي : يتحقق عند مشاهدة الحقيقة ، أن شهودها لم يكن بالكسْب ؛ لأن الكسْب من أعمال النفس ، فالحقيقة لا تبدو مع بقاء النفس ؛ إذ الحقيقة فردانيّة أحديّة نورانيّة ، .فلا بدّ من زوال ظلمة النفس ، ورؤية كسْبها ، وإلَّا لم يشْهد الحقيقة .

وأمّا « رفْض الدعوى لا علمًا »: فـ « الدعوى » : نسبة الحال وغيره إلى نفسك وإنِّيَّتك . فالاستقامة لا تصحّ إلّا بتَرْكها ، سواء كانت حقا أو باطلا ، فإن الدعوى الصادقة تطفئ نور المعرفة ، فكيف بالكاذبة ؟!

وأما قوله : «لا علمًا» . أي : لا يكون الحامل له على تَرْك الدعوى ، مجرّد علمه بفساد الدعوى ومنافاتها للاستقامة ؛ فإذا تَركها يكون تَرْكها لكون العِلْم قد نهى عنها ، فيكون تاركا لها ظاهرًا لا حقيقة ، أوْ تاركا لها لفظًا ، قائمًا بها حالا ؛ لأنه يرى أنه قد قام بحق العِلْم في تَرْكها ، فيتركها تواضعًا ، بل يتركها حالا وحقيقة ، كما يترك من أحبَّ شيئًا تضرُّه محبَّته حُبَّه حالا وحقيقة .

وإذا تحقَّق أنه ليس له من الأمر شيء - كما قال الله عز وجل لخير خلقه على الإطلاق : ﴿ **ليس لك مِن الأمْرِ شيءٌ** ﴾ - تَرَكَ الدعوى شهودًا وحقيقة وحالا .

وأمّا « البقاء مع نور اليقظة » : فهو الدوام في اليقظة ، وأن لا يطفئ نورها بظلمة الغفلة ، بل يستديم يقظته ، ويرى أنه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه حفظًا من الله له ، لا أنّ ذلك حَصَل بتحفُّظه واحترازه .

فهذه ثلاثة أمور ؛ يقظة ، واستدامة لها ، وشهود أن ذلك بالحق سبحانه لا بك ، فليس سبب بقائه في نور اليقظة بحِفْظه ، بل بحِفْظ الله له .

وكأنَّ الشيخ يشير إلى أن الاستقامة في هذه الدرجة ، لا تحصُل بكسْب وإنما هو مجرّد موهبة من الله ، فإنه قال في الأولى : « الاستقامة على الاجتهاد » . وفي الثانية : « استقامة الأحوال ، لا كسبًا ولا تحفُّظًا » . ومنازعتُه في ذلك متوجّهة ، وأن ذلك مما يمكن تحصيله كسْبًا ، بتعاطي الأسباب التي تهجم بصاحبها على هذا المقام .

نعم الذي يُنْفَى في هذا المقام : شهود الكسْب ، وأن هذا حصل له بكسبه . فَنفْي الكسْب شيءٌ ، ونفي شهوده شيءٌ آخر .

ولعلَّ أن نشبع الكلام في هذا فيما يأتي ، إن شاء الله تعالى » .

قال الهرويُّ : « **الدرجة الثالثة** : استقامة بترك رؤية الاستقامة ، وبالغيبة عن تطلُّب الاستقامة بشهود إقامة وتقويمه الحق » .

قال ابن القيم : « هذه الاستقامة معناها : الذهول بمشهوده عن شهوده ، فيغيب بالمشهود المقصود - سبحانه - عن رؤية استقامته في طلبه ، فإن رؤية الاستقامة ، تحجبه عن حقيقة الشهود .

« وأما الغيبة عن تطلُّب الاستقامة » : فهو غيبته عن طلبها بشهود إقامة الحق للعبد ، وتقويمه إياه ؛ فإنه إذا شَهِد أن الله هو المقيم له والمقوِّم ، وأن

استقامته وقيامه بالله ، لا بنفسه ولا بطلبه - غاب بهذا الشهود عن استشعار طلبه لها . وهذا القدْر من موجبات شهود معنى اسمه « القيُّوم » ، وهو الذي قام بنفسه ، فلم يحتج إلى أحد ، وقام كلُّ شيءٍ به فكلُّ ما سواه محتاج إليه بالذات ، وليست حاجته إليه معلّلة بحدوث كما يقول المتكلِّمون ، ولا بإمكان كما يقول الفلاسفة المشَّاءون ؛ بل حاجته إليه ذاتيَّة ، وما بالذَّات لا يعلَّل » .

أبو سفيان بن الحارث الصحابي الجليل ، لم يتنَطَّف بخَطِيئَة منذ أسلم إلى أن مات :

لله درُّه من سيِّد ، أبو سفيان المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي ، كان أخا النبي ﷺ من الرضاعة .

قال أبو إسحاق السبيعي : « لما احْتُضر أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، قال : لا تبكوا عليَّ ، فإني لم أتنطَّف[١] بخطيئة منذ أسلمت »[٢] .

لله درُّه ، ثنتا عشرة سنة لم يفعل خطيئة ، وحياتُه كلُّها طاعة .

« كان يصلِّي في الصيف نصف النهار حتى تُكره الصلاة ، ثم يصلِّي من الظهر إلى العصر »[٣] .

الربيع بن خثيم : أنموذج مثاليّ في الاستقامة :

عن مسلم البطين: «أنَّ الربيع بن خثيم –أو خيثم – جاءته ابنته ، فقالت : يا أبتاه ، أذهب ألعب ؟ قال : اذهبي فقولي خيرًا »[٤] .

لا ينطق أبدًا بكلمة اللعب ... فما بال أقوام لا يفيقون من اللهو واللعب.

قيل له رحمه الله : « ألا تتمثَّل ببيت شعر ، فقد كان أصحابُك يتمثَّلون ؟

---

(١) أي لم أتلطَّخ بها .

(٢) السير ٢٠٤/١ ، والطبقات لابن سعد ٣٧/١/٤ ، والاستيعاب ٢٩١/١١ - ٢٩٢ .

(٣) السير ٢٠٥/١ .

(٤) الحلية ١١٥/٢ .

قال : ما من شيء يُتمثَّل به إلا كُتِبَ ، وأنا أكره أنْ أقرأ في إمامي بيتَ شعر يوم القيامة »[١] .

وقال رجل : صَحِبْنا ربيع بن خثيم عشرين سنة ، فما تكلَّم إلّا بكلمة تصْعد . وعن رجل من بني تيم : جالستُ الربيع عشر سنين ، فما سمعتهُ يسأل عن شيء من أمْر الدنيا إلّا مرتين ؛ قال مرة: والدتك حيَّة ؟ وقال مرة: كم لك مسجدا ؟ وقال بعضهم : صحبتُ الربيع عشرين عامًا ، ما سمعت منه كلمة تُعاب .

ويوم قُتِل الحسين بن علي رضي الله عنه ، قال رجل : « إن لم أستخرج اليوم سيئة من الربيع لأحدٍ ، لم أستخرجها أبدًا . قال : قلت : يا أبا يزيد ، قتل ابن فاطمة عليهما السلام . قال : فاسترجع ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **قل اللهمَّ فاطرَ السمواتِ والأَرْضِ عالمَ الغَيْبِ والشهادة أنت تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ [الزمر : ٤٦] . قال : قلت : ما تقول ؟ قال : ما أقول ؟! إلى الله إيابُهم ، وعلى الله حسابُهم »[٢] .

فرحم الله الربيعَ تلميذَ عبد الله بن مسعود ، فقد كان – والله – من معادن الصدق والاستقامة .

وهب بن منبّه : لم يسبَّ شيئا فيه الروح أربعين سنة :

قال المثنى بن الصباح : « لبث وهب بن منبّه أربعين سنة لم يسبَّ شيئا فيه الروح ، ولبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءًا .

وعن عبد المنعم بن إدريس ، عن أبيه ، قال : كان وهب يحفظُ كلامَه كلَّ يوم ، فإن سلم أفطر ، وإلا طوى »[٣] .

---

(١) الحلية ١١٣/٢ .
(٢) الحلية ١١١/٢ .
(٣) السير ٥٤٧/٤ .

عبد الله بن عون بن أرطبان : عالم البصرة ، القدوة ، الإمام :

قال خارجة بن مصعب : صحبت ابن عون أربعًا وعشرين سنة ، فما أعلم أنَّ الملائكة كتبت عليه خطيئة .

وعن سلام بن أبي مطيع قال : كان ابن عون أملكهم للسانه .

وعن معاذ بن معاذ : حدَّثني غير واحد من أصحاب يونس بن عُبيد أنه قال : إني لأعرف رجلا منذ عشرين سنة ، يتمنَّى أنْ يَسْلَم له يومٌ من أيام ابن عون ، فما يقدر عليه[١] . رحم الله سيِّد القراء في زمانه : عبد الله بن عون .

عن مكي بن إبراهيم ، قال : « كنَّا عند عبد الله بن عون ، فذكروا بلال ابن أبي بُردة ، فجعلوا يلعنونه ، ويقعون فيه - يعني لجوره وظلمه - قال : وابن عون ساكت ، فقالوا له : إنما نذكره لما ارتكب منك . فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة ؛ لا إله إلا الله ، ولعن الله فلانًا .

وعن ابن المبارك قال : قيل لابن عون : ألا تتكلَّم فتُؤجر ؟ فقال : أما يرضى المتكلِّم بالكفاف »[٢] .

قال الذهبي في السير : « كان ابن عون عديم النظير في وقته ؛ زهدًا وصلاحًا ، وقد كان ابن عون قد أوتي حلمًا وعلمًا ، ونفسًا زكيَّة تُعِين على التقوى ، فطوبى له »[٣] .

قال بكَّار بن محمد السِّيريني : ما رأيتُ ابن عون يُماري أحدًا ولا يُمازحه ،

---

(١) السير ٣٦٦/٦ .

(٢) السير ٣٦٩/٦ .

(٣) السير ٣٦٩/٦ ، ٣٧٥.

ما رأيتُ أملك للسانه منه . وكان إذا جاءه إخوانُه ، كأنّ على رؤوسهم الطير ، لهم خشوع وخضوع ، وما رأيته مازح أحدًا ، ولا ينشدُ شعرًا ، كان مشغولًا بنفسه . وكان له ناقة يغزو عليها ويحجُّ ، وكان بها معجبًا ، فأمر غلامًا له يستقي عليها ، فجاء بها وقد ضربها على وجهها ، فسالتْ عينُها على خدِّها ، فقلنا : إن كان من ابن عون شيءٌ ، فاليوم . قال : فلم يلبث أن نزل ، فلما نظر إلى الناقة ، قال: سبحان الله ، أفلا غيرَ الوجه ، بارك الله فيك ، **اخرج عني، اشهدوا أنه حُرّ**(١) .

الإمامُ الحجَّة يونس بن عُبيد بن دينار : ما حَضَر حقٌّ لله ، إلّا وهو متهيِّئٌ له :

عن سلام بن مطيع ، قال : ما كان يونس بأكثرهم صلاة ولا صومًا ، ولكن لا والله ما حَضَر حق لله ، إلّا وهو متهيئٌ له(٢) .

وقال سلمة بن علقمة : جالستُ يونس بن عبيد ، فما استطعت أنْ آخُذ عليه كلمة(٣) .

طبيب القلوب ، الوَرِعُ التقيّ ، وهيب بن الورد المكِّي : « لا يجدُ طعْمَ العبادة مَن همّ بمعصيةٍ » :

كان سفيان الثوريّ إذا حدّث الناس في المسجد الحرام وفرغ من الحديث ، قال : قوموا إلى الطبيب ؛ يعني : وهيبًا(٤) .

قال وهب رحمه الله : إن استطعتَ أن لا يشغلك عن الله تعالى أحدٌ ، فافعل .

وعن محمد بن يزيد قال : حَلَف وهيب أن لا يراه الله ولا أحدٌ من خَلْقه ضاحكًا ، حتى يأتيه الرسل من قِبَل الله عند الموت فيخبرونه بمنزله عند الله . **قال : وكانوا يرون له الرؤيا أنه من أهل الجنة ، فإذا أُخبر بها اشتدَّ بكاؤه،**

---

(١) السير ٦/٣٧١

(٢) السير ٦/٢٩١

(٣) السير ٦/٢٨٩

(٤) الحلية ٨/١٤٠

وقال : قد حسبتُ أن يكون هذا من الشيطان .

عن عبد الله بن المبارك قال : قيل لوهيب بن الورد : أيجدُ طعم العبادة من يعصي الله ؟ قال : لا ، ولا مَن همَّ بمعصيةٍ[١] .

وقال رحمه الله : لا يكون همُّ أحدكم في كثرة العمل ، ولكن ليكن همُّه في إحكامه وتحسينه ؛ فإن العبد قد يصلِّي وهو يعصي الله في صلاته ، وقد يصوم وهو يعصي الله في صيامه .

وقال رحمه الله : لَأن أدَع الغيبة ، أحبُّ إليّ من أن يكون لي الدنيا – منذ خُلِقت إلى أن تفنى – فأجعلها في سبيل الله ، ولأن أغضّ بصري ، أحبُّ إليّ من أن تكون لي الدنيا – منذ خُلقت إلى أن تفنى – فأجعلها في سبيل الله ، ثم تلا : ﴿ **قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارِهم ويحفظوا فروجهم ...** ﴾ .

ولله ما أجمل قوله في تَرْك ظاهر الإثم **وباطنه ، قال** : « اتَّقِ الله أن تسبَّ إبليس في العلانية ، وأنت صديقُه في السِّر »[٢] .

بشر بن الحارث الحافي : ما عُرف له غيبةٌ لمسلم :

إمام الناس ، الذي قال عنه الإمام أحمد يومَ بَلَغه موته : مات رحمه الله ، و لم يكن له نظير في هذه الأُمَّة ، إلَّا عامر بن عبد قيس ، ولو تزوَّج كان قد تمَّ أمره ، وما ترك بعده مثلَه .

قال عنه تلميذه إبراهيم الحربي : ما أخرجتْ بغدادُ أتمَّ عقلًا منه ، ولا أحْفَظ للسانه من بشر،ما عُرف له غِيبةٌ لمسلم .

وقال الخطيب البغدادي: كان بشر ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد، وتفرّد بوفور العقل ، وأنواع الفضْل ، وحُسْن الطريقة ، واستقامة المذهب ، وعُزوف النفس .

---

(١) الحلية ٨/١٤٤ ، والسير ٧/١٩٩

(٢) الحلية ٨/١٥٤ .

قال محمد بن المثنى : قلتُ لأحمد : ما تقول في هذا الرجل ؟ فقال لي : أي الرجال ؟ قلت : بشر . فقال لي : ما مثله عندي إلَّا مثل رجل ركَّز رُمحًا في الأَرض ، ثم قعَد منه على السِّنان ، فهل تَرَكَ لأحدٍ موضعا يقعد فيه ؟

سعى بعدهم قومٌ لكي يدركوهمُ   فلم يفعلوا ولم يُلاموا ولم يَألوا

قال ابن كثير : وحين مات بشر ، اجتمع في جنازته أهلُ بغداد عن بكرة أبيهم ، فأُخرج بعد صلاة الفجر ، فلم يستقرَّ في قبره إلّا بعد العتمة ، وكان النهار نهارًا صائفًا فيه طُول .

قال يحيى بن عبد الحميد الحمّاني: رأيتُ أبا نصر التمَّار وعليّ بن المديني في جنازة بشر ، يصيحان في الجنازة : هذا والله شَرَفُ الدنيا قبل شرف الآخرة .

داود الطائي : « هذه خُطًى لا أدري كيف تُكتب » :

قال ابن المبارك : وهل الأمر إلّا ما كان عليه داود الطائيُ .

قال سهل بن بكَّار : قالت أختٌ لداود الطائي : لو تنحيتَ من الشمس إلى الظِّل قال : هذه خُطًى لا أدري كيف تُكتب .

هذا والله منتهى علوّ الهمَّة في الاستقامة .

وكيعُ بن الجرّاح :

ووكيع بن الجراح كان كلامه نزرًا جدًّا في الرجال . قال الفلّاس : ما سمعتُ وكيعًا ذاكرًا أحدًا بسوءٍ قطّ[١] .

وعن مُليح بن وكيع قال : لما نزل بأبي الموت ، أخرج يديه ، فقال : **يا بني**، ترى يديّ ؛ ما ضربتُ بهما شيئا قط . قال مليح : فحدّثت بهذا داود بن يحيى بن يمان ، فقال : رأيت رسول الله ﷺ في النوم ، فقلت : **يا رسول الله،**

---

(١) السير ٩/ ١٥٨ ، ١٥٩ .

مَنِ الأبدال ؟ قال : « الذين لا يضربون بأيديهم شيئا ، وإنَّ وكيعًا منهم »[١] .

الإمامُ الكبير ، يحيى بن سعيد القطان :

قال بندار : « اختلفتُ إلى يحيى بن سعيد أكثر من عشرين سنة ، ما أظنّه عصى الله قط ، لم يكن في الدنيا في شيءٍ »[٢] .

فرحم الله هذا العبد الصالح ، الذي كان يدعو لألف إنسان كلَّ يوم .

سيِّد الحفَّاظ ، عبد الرحمن بن مهدي :

« قال رحمه الله : ما تركتُ حديث رجل ، إلّا دعوتُ الله له وأُسمِّيه .

ورُوي عنه أنه قال : لولا أني أكره أن يُعصى الله ، لتمَّنيتُ أنْ لا يبقىٰ **أحدٌ في المصر إلَّا اغتابني ؛ أيّ شيء أهنأ من حسنة يجدها الرجل في صحيفته لم يعمل بها ؟! »**[٣] .

إمام الدنيا ، أحمد بن حنبل :

قال إبراهيم الحربي : يقول الناس : أحمد بن حنبل . بالتوهُّم ، والله ما **أجد لأحد من التابعين عليه مزيَّة ، ولا أعرف أحدًا يُقْدَر قَدْره ، ولا يُعرف** لأحدٍ من الإسلام محلَّه ، ولقد صحبته عشرين سنة صيفًا وشتاءً ، وحرًّا وبردًا ، وليلًا ونهارًا ، فما لقيته لقاةً في يوم ، إلّا وهو زائد عليه بالأمس . **ولقد كان يقْدُمُ** أئمة الإسلام العلماء من كلِّ بلد ، وإمام كلّ مصر ، فهم بجلالتهم ما دام الرجل منهم خارجًا من المسجد ، **فإذا دخل المسجد صار غلامًا متعلِّمًا**[٤] .

---

(١) السير ٩/١٥٨ ، ١٥٩ .
(٢) السير ٩/١٧٨ .
(٣) السير ٩/١٩٥ – ١٩٦ .
(٤) مناقب الإمام أحمد ص ١٨٢ .

قال أبو داود السجستاني : لم يكن أحمد بن حنبل يخوض في شيءٍ ، مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا ، فإذا ذُكِر العلمُ تكلَّم .

ناصُر السُّنَّة ، الإمام الشافعي :

قال حرملة : سمعت الشافعي يقول : ما حلفتُ بالله صادقًا ولا كاذبًا[1] .

شيخ الإسلام ، الذُّهلي محمد بن يحيى :

قال أبو العباس الأزهري : سمعتُ خادمة محمد بن يحيى ، وهو على السرير يُغسَّل ، تقول : خدمته ثلاثين سنة ، وكنت أضع له الماء ، فما رأيتُ ساقه قطّ ، وأنا مِلْكٌ له[2] !!

شيخ خراسان القدوة الرباني ؛ أبو حفص النيسابوري :

قال رحمه الله : من لم يزن أحوالَه كلَّ وقْت بالكتاب والسنة ، ولم يَتَّهم خواطرَه ، فلا تعُدَّه .

ولله درُّه ، وما أعلى استقامته حين يقول : « حرستُ قلبي عشرين سنة، ثم حرسني عشرين سنة ، ثم وردتْ علي وعليه حالةٌ صرنا محروسَيْن جميعا »[3].

أيّ أناسٍ كان هؤلاء السادة ؟! وأيّ أمْر أبي حفص لم يكن بعجيب ؟! هذا الإمام الذي أنفَذ - في يوم واحد - بضعةَ عشر ألف دينار يَفْتكُّ بها أسرى ، فلما أمسى لم يكن له عشاء .

أمير المؤمنين في الحديث : البخاري ؛ لا يكون له خَصْمٌ في الآخرة :

قال بكر بن منير : سمعتُ أبا عبد الله البخاري يقول : أرجو أن ألقى الله

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١/٥٤ ، وتوالي التأسيس ص ٦٧ .
(٢) السير ١٢/٢٧٩ .
(٣) السير ١٢/٥١٠ - ٥١٣ .

ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا .

قال الذهبي في « السير » (١٢/٤٣٩ - ٤٤١) : « صدق رحمه الله ، ومن نَظَر في كلامه في الجرح والتعديل ، علم ورعه في الكلام في الناس ، وإنصافه فيمن يضعِّفه ؛ فإنه أكثر ما يقول : مُنكَرُ الحديث ، سكتوا عنه ، فيه نظر . ونحو هذا ، وقلَّ أن يقول : فلانٌ كذَّاب ، أو كان يضع الحديث . حتى إنه قال : إذا قلتُ فلان في حديثه نظر ، فهو مُتَّهم واهٍ . وهذا معنى قوله : لا يحاسبني الله أنِّي اغتبتُ أحدًا . وهذا هو والله غاية الورع .

قال محمد بن أبي حاتم الورَّاق : سمعته - يعني البخاري - يقول : لا يكون لي خَصْم في الآخرة . فقلت : إنَّ بعض الناس ينقمون عليك في كتاب « التاريخ » ، ويقولون : فيه اغتياب الناس ، فقال : إنما روَيْنا ذلك روايةً ، لم نقُلْه من عند أنفسنا ، قال النبي ﷺ : « بئس مولى العشيرة ... » يعني : حديث عائشة[(١)] .

الإمام الحافظ المقرئ : أبو الحسين الحجَّاجي محمد بن محمد :

قال الحاكم : كان أبو الحسين الحجّاجي من الصالحين المجتهدين بالعبادة ، صحبتُه نيِّفًا وعشرين سنة بالليل والنهار ، فما أعلم أن الملَك كتب عليه خطيئة[(٢)] .

الحافظ ابن عساكر :

قال ابنه القاسم : كان يحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة .

وقال أبو المواهب : لم أر مثله ، ولا مَن اجتمع فيه ما اجتمع مِن لزوم

---

(١) أخرجه مالك ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وأحمد .

(٢) السير ١٦/٢٤١ .

طريقة واحدة مدَّة أربعين سنة[١] .

الحافظ ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن محمد بن إدريس : لا يُعرَف له ذنب :

كان رحمه الله بحرًا لا تكدِّره الدِّلاء .

قال عنه أبوه أبو حاتم : « **ومَن يقوى على** عبادة عبد الرحمن ؟! لا أعرف لعبد الرحمن ذنبًا »[٢] .

وقال علي بن أحمد الفرضي : ما رأيت أحدًا ممن عَرَف عبد الرحمن ذَكَر عنه جهالةً قطّ .

وقال علي بن محمد البصري – وهو في جنازة ابن أبي حاتم – : قلنسوة عبد الرحمن من السماء ، وما هو بعجب ؛ رجلٌ منذ ثمانين سنة على وتيرةٍ واحدة ، **لم ينحرف عن الطريق**[٣] .

قال علي بن إبراهيم الرازي : كان ابن أبي حاتم قد كساه الله بهاءً ونورًا يسرُّ مَن ينظر إليه . دخل محمد بن مهرويه الرازي عليه يومًا ، وهو يقرأ على الناس كتاب الجرح والتعديل ، فحدَّثه بقول يحيى بن معين : « إنَّا لنطعن على أقوام ، لعلَّهم قد حطّوا رحالَهم في الجنة من أكثر من مائتي سنة[٤] » . فبكى ، وارتعدتْ يداه ، حتى سقط الكتاب ، وجعل يبكي ويستعيده الحكاية .

الإمام الجليل أبو الطيِّب الطبري ، طاهر بن عبد الله بن طاهر : « ما عصى الله بجارحةٍ قطّ » :

اشتهر اسمه، فملأ الأقطار. وشاع ذكْره، فكان أكثر حديث السمَّار. وطاب

---

(١) السير ٥٦٢/٢٠ ، ٥٦٥ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٨٣٠/٣ ، والسير ٢٦٥/١٣ .

(٣) طبقات السبكي ٣٢٥/٣ .

(٤) قال الذهبي في السير ٢٦٨/١٣ : لعلّها من مائة سنة .

ثناؤه ، فكان أحسن من مِسْك الليل وكافور النهار .

«قال القاضي أبو بكر الشامي: قلت للقاضي أبي الطيب شيخنا- وقد عُمّر-: لقد مُتِّعْتَ بجوارحك . فقال : لم لا ، والله ما عصيتُ الله بواحدة منها قط »[١] .

وعن القاضي أبي الطيب، أنه رأى النبي ﷺ في المنام، وقال له: «يا فقيه» وأنه كان يفرح بذلك ، ويقول : سمَّاني رسول الله ﷺ فقيهًا

رُكْنُ الإسلام ، الشيخ أبو محمد الجويني : عبد الله بن يوسف بن حَيُّوَيه

والد إمام الحرمين ، أوحد زمانه عِلْمًا ، ودينًا وزهدًا ، وتقشُّفًا زائدا ، وتحرِّيًا في العبادات .

« قال أبو سعيد بن أبي القاسم القشيري : كان أئمتنا في عصره والمحقّقون من أصحابنا ، يعتقدون فيه من الكمال والفضْل والخصال الحميدة ، أنه لو جاز أن يبعث الله نبيًّا في عصره ، لما كان إلّا هو ؛ من حُسْن طريقته وزهده وكمال فضْله .

قال شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني : لو كان الشيخ أبو محمد في بني إسرائيل ، لنُقل إلينا شمائله ولافتخروا به »[٢] .

الإمام القدوة ابن دقيق العيد ، محمد بن عليّ بن وهْب :

كان حافظًا للسانه ، مقبلًا على شانه ، وقَفَ نفسَه على المعالي وقصَرها ، ولو شاء العادُّ أن يحصر كلماته لحصرها .

قال ابن دقيق العيد رحمه الله : « ما تكلَّمتُ كلمـة ، ولا فعلتُ فِعْلًا ، إلّا وأعددتُ له جوابًا بين يدي الله عز وجل »[٣] .

---

(١) طبقات السبكي ١٥/٥ .
(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٧٤/٥ .
(٣) طبقات الشافعية ٢١٢/٩ .

الإمام تقي الدين ، أبو عمرو بن الصلاح عثمان بن عبد الرحمن :

« قال رحمه الله : ما فعلتُ صغيرةً في عمري قطّ »[(١)] .

وهذا فضل من الله عليه عظيم ... لم يكن ابن الصلاح ، بل هو والله الصلاح ذاته ؛ يعيد زمان السالفين استقامة وجدًّا .

الإمام الزاهد العماد المقدسي ، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد :

قال عنه الإمام موفَّق الدين ابن قدامة : ما نقدر نعمل مثل العماد .

وقال عنه الإمام محاسن بن عبد الملك التنوخي: كان الشيخ العماد جوهرة العصر .

قال الضياء المقدسي : سمعت خالي الموفق يقول : من عمري أعرفه – يعني العماد – ما عرفت أنه عصى الله معصية[(٢)] .

ومع هذا كان دعاؤه المشهور : اللهم اغفر لأقسانا قلبًا ، وأكبرنا ذنبًا ، وأثقلنا ظهرًا ، وأعظمنا جُرْمًا ... يا دليل الحيارى ، دلّنا على طريق الصادقين ، واجعلنا من عبادك الصالحين .

ولما جاءه الموت جعل يقول : يا حيُّ يا قيوم ، لا إله إلا أنت ، برحمتك أستغيث . واستقبل القبلة وتشهّد .

وختام المسْك : شيخ الإسلام ابن تيمية : « إني إلى الآن أُجدِّد إسلامي كلَّ وقْت »

انظر إلى هذا الجبل الربَّاني ، الذي يقول قولًا تتضاءل كلُّ الأقوال إلى جانبه : والله إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كلَّ وقْت وما أسْلمتُ بعدُ إسلامًا جيِّدًا .

---

(١) طبقات الشافعية ٣٢٧/٨ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٥٠/٢٢ .

الفصل الثاني

عُلُوُّ الهِمَّةِ في الصِّدْقِ

وإذا الأمورُ تزاوجتْ فالصدقُ أكرمُها نِتَاجَا
الصدقُ يعقدُ فوقَ رأْ سِ حليفهِ بالصدقِ تاجا
والصدقُ يقدحُ زِنْدُهُ في كلِّ ناحية سراجَا

□ عُلُوُّ الهمَّةِ في الصِّدْقِ □

وهي منزلة القوم الأعظم ، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين . والطريق الأقوم الذي من لم يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين . وبه تميَّز أهل النفاق من أهل الإيمان ، وسُكَّان الجنان من أهل النيران . وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِعَ على شيء إلا قطعه ، ولا واجه باطلا إلا أرْداه وصَرعه ، مَنْ صال به لم تُردَّ صولتُه . ومن نطق به عَلَتْ على الخصوم كلمتُه . فهو روح الأعمال ، وَمَحَكُّ الأحوال ، والحامل على اقتحام الأهوال ، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال . وهو أساس بناءِ الدِّين ، وعمود فسطاطِ اليقين ، ودرجته تالية لدرجة « النبوة » التي هي أرفع درجات العالَمين . ومن مساكنهم في الجنات : تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصِّدِّيقين . كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مددٌ متصلٌ وَمَعين .

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين ، وخصَّ المنعَم عليهم بالنبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين ؛ فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وقال تعالى : ﴿ **ومَن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصِّدِّيقين والشهداءِ والصالحين** ﴾ [النساء : ٦٩] ، فهم الرفيقُ الأعلى ﴿ **وَحَسُنَ أولئك رفيقًا** ﴾ ، ولا يزال الله يُمِدُّهُم بأنعمه وألطافه ومزيدِه إحسانًا منه وتوفيقًا . ولهم مرتبة المعيَّة مع الله ؛ فإن الله مع الصادقين . ولهم منزلة القرب منه ؛ إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين .

وأخبر تعالى أن مَنْ صَدقَه فهو خير له ؛ فقال : ﴿ **فإذا عَزَمَ الأَمْرُ فلو صدقوا الله لَكان خيرًا لهم** ﴾ ، [محمد : ٢١] .

وأخبر تعالى عن أهل البرّ، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم- من الإيمان، والإسلام ، والصدقة ، والصبر - بأنهم أهل الصدق ، فقال : ﴿ **ولكنَّ البِرَّ مَن آمن بالله واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيين وآتى المالَ على حُبِّه ذوي القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلين وفي الرقابِ وأقام الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفُون بعهدِهم إذا عاهدوا والصابرينَ في البأساء والضرَّاء وحينَ البأسِ أولئك الذين صدقوا وأولئك هُمُ المتقون** ﴾ [البقرة : ١٧٧]، وهذا صريح في أن « الصدق » بالأعمال الظاهرة والباطنة ، وأن « الصدق » هو مقام الإسلام والإيمان .

- وقسّم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق ؛ فقال : ﴿ **ليجزيَ الله الصادقين بصدقهم ويعذِّبَ المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم** ﴾ ، [الأحزاب : ٢٤].

والإيمان أساسه الصدق ، والنفاق أساسه الكذب ، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر .

وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد ويُنجيه من عذابه إلا صدقُه ؛ قال تعالى : ﴿ **هذا يومُ ينفعُ الصادقينَ صدقُهُم لهمْ جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدينَ فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضُوا عنه ذلك الفوز العظيم** ﴾ ، [المائدة: ١١٩].

وقد أمر الله رسوله أن يسأله أن يجعل مُدْخَله ومُخْرَجَه على الصدق ؛ فقال تعالى : ﴿ **وقلْ ربِّ أدخلْني مُدْخلَ صِدْقٍ وأخرجني مُخْرجَ صِدْقٍ واجعل لي من لدُنكَ سلطانًا نصيرًا** ﴾ ،[الإسراء : ٨٠] .

وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ أنه سأله أن يهب له لسانَ صِدقٍ في الآخرين ، فقال تعالى : ﴿ **واجعلْ لي لسانَ صِدقٍ في الآخرين** ﴾ ، [الشعراء : ٨٤] .

وبشَّر عبادَه بأنَّ لهم قدَمَ صِدْق، ومَقْعَدَ صدْق؛ فقال تعالى: ﴿ **وبشِّر الذين آمنوا أنَّ لهم قدَمَ صدقٍ عند ربهم** ﴾ الآية [يونس : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ **إنَّ**

المتقين في جنات ونَهَرٍ في مقْعدِ صدقٍ عند مليك مُقْتدِر ﴾ ، [القمر : ٥٤ – ٥٥] .

ــ وحقيقة الصدق في هذه الأشياء : هو الحق الثابت المتصل بالله ، والموصل إلى الله . وهو ما كان به وله ؛ من الأقوال والأعمال ، وجزاء ذلك في الدنيا وفي الآخرة .

ــ فمُدْخَل الصدق ، ومُخْرج الصدق أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله ، وفي مرضاته . كمخرجه ﷺ هو وأصحابه يوم بدر ، وكذلك مُدخله ﷺ المدينة كان **مُدْخل صدق بالله ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد والظفر** والنصر ، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة .

فكلُّ مُدخل ومخرج كان بالله ولله ، فصاحِبه ضامِن على الله ، فهو مخرج صدق مدخل صدق .

وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلى السماء ، وقال : « اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجًا لا أكون فيه ضامنًا عليك » .

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه – أو مدخلًا آخر – إلا بصدق أو بكذب ؛ فمخرج كل واحد ومدخله لا يعدو الصدق والكذب . والله المستعان .

قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسلِه أولئك هم الصدّيقون ﴾ .

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال : **« إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغُرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُّرّيّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ؛ لتفاضل ما بينهم » . قالوا : يا رسول الله ،** تلك منازل الأنبياء ، لا يبلغها غيرهم !! قال : « والذي نفسي بيده ، رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسَلين » .

وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن تصْدق الله يصدقْكَ » .

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال : « أَفلح إنْ صدَق » .

وقال رسول الله ﷺ : « أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنة لمن ترك المِراءَ وإن كان مُحِقًّا ، وببيت في وسط الجنة لِمَن ترك الكذِبَ وإن كان مازِحًا ، وببيتٍ في أعلى الجنة لمن حسَّن خُلقه »[١] .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن الصدق يهدي إلى البرِّ ، وإن البِرّ يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل لَيَصدق حتى يُكتَب عند الله صِدِّيقًا . وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل لَيكذب حتى يُكتَب عند الله كذَّابًا » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : « إن الرجل ليَصدق حتى يُكتَب عند الله صِدِّيقًا ، ويتحرّى الصدق حتى ما يكون للفجور في قلبه موضع إبرة يستقرُّ فيه . وإن الرجل لَيكذب ويتحرَّى الكذب حتى ما يكون للبِرِّ في قلبه موضع إبرة يستقرُّ فيه » .

وقال الصِّدِّيق رضي الله عنه : عليكم بالصدق ؛ فإنه مع البِرِّ ، وهما في الجنة .

وقال إبراهيم الخوَّاص : الصادق لا تراه إلَّا في فرْض يؤدِّيه ، أو فضلٍ يعمل فيه.

وقيل : ثلاث لا تُخطِئ الصادق : الحلاوة والملاحة والهيْبة .

وقال يوسف بن أسباط : لَأَنْ أَبيت ليلة أعاملُ الله بالصدق ، أَحبُّ إليَّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله .

وقال الحارث المُحَاسِبي : الصادق هو الذي لا يُبالي لو خرج كلُّ قدْرٍ له في قلوب الخلْق ؛ من أجل صلاح قلبه ، ولا يحبُّ اطلاع الناس على مثاقيل الذَّرِّ من حُسْن عمَلِه .

---

(١) رواه أبو داود ، الأدب : ٧ .

وقال بعضهم : مَن لم يُؤدِّ الفرض الدائم ، لم يُقبلْ منه الفرْض المؤقَّت .

قيل : وما الفرض الدائم ؟ قال : الصدق .

وقيل : مَنْ طلب الله بالصدق أعطاه مرآةً يُبصر فيها الحقَّ والباطل .

وقال سهل بن عبد الله : أول خيانة الصِّدِّيقين : حديثهم مع أنفسهم .

وقال أبو تراب النخشبي : إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله ، فإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت عمله . كأنس بن النضر رضي الله عنه ؛ وجد ريح الجنة قبل أن يُقاتل .

وقال محمد بن سعيد المروزي : إذا طلبتَ الله بالصدقِ ، آتاك الله تعالى مرآةً بيدك ، تُبصر كلَّ شيء من عجائب الدنيا والآخرة .

وقال محمد بن كعب:إنما يكذب الكاذب من مهانة نفسه عليه .

- الصادق يتقلَّب في اليوم أربعين مرَّة :

قال الجُنَيد : « الصادق يتقلَّب في اليوم أربعين مرة ، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة » .

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢/٢٧٤ - ٢٧٦) : « مراد الشيخ أبي القاسم صحيح غير هذا ؛ فإن المعارضات والواردات التي تردُ على الصادق لا تردُ على الكاذب المرائي ، بل هو فارغ منها ؛ فإنه لا يردُ عليه من قِبَل الحقِّ موارد الصادقين على الكاذبين المرائين ، ولا يُعارضهم الشيطان كما يُعارض الصادقين ؛ فإنه لا أرَبَ له في خَربةٍ لا شيءَ فيها ، وهذه الواردات تُوجب تقلُّب الصادق بحسب اختلافها وتنوُّعها، فلا تراه إلا هاربًا من مكان إلى مكان، ومن عمل إلى عمل ، ومن حال إلى حال ، ومن سبب إلى سبب ؛ لأنه يخاف في كلِّ حال يطمئن إليها ، ومكان وسبب أن يقطعه عن مطلوبه ، فهو لا يساكن حالة ولا شيئًا دون مطلوبه ، فهو كالجوَّال في الآفاق في طلب الغِنَىٰ الذي يفوق به الأغنياء .

والأحوال والأسباب تتقلَّب به ، وتُقيمه وتُقعده ، وتحرِّكه وتُسكنه ، حتى يجد فيها ما يُعينه على مطلوبه ، وهذا عزيز فيها ؛ فقلبه في تقلب وحركه شديدة بحسب سَعة مطلوبه ، وعظمته وهمَّته أعلى من أن يقف دون مطلبه على رسم أو حالٍ ، أو يساكن شيئًا غيره ، فهو كالمحبِّ الصادق ، الذي همته التفتيشُ على محبوبه ، وكذا حال الصادق في طلب العلم ، وحال الصادق في طلب الدنيا ، فكلُّ صادق في طلب شيء لا يستقرُّ له قرار ، ولا يدوم على حالة واحدة .

وأيضًا : فإن الصادق مطلوبه رضا ربِّه وتنفيذ أوامره وتتبُّع محابِّه ، فهو **متقلِّب فيها يسير معها أين توجَّهتْ ركائبُها، ويستقلُّ معها أين استقلت مضاربُها،** فبينا هو في صلاة ، إذْ رأيتَه في ذِكْر ثم في غزو ، ثم في حجّ ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفْع ، ثم في أمْر بمعروف أو نهي عن منكر ، أو في قيام بسببٍ فيه عمارة الدين والدنيا ، ثم في عيادة مريض أو تشييع جنازة ، أو نصْر مظلوم إن أمكن ، إلى غير ذلك من أنواع القُرَب والمنافع . فهو في **تفرُّق دائم لله ، وجمعيَّة على الله ، لا يملكه رسمٌ ولا عادةٌ ولا وضع ،** ولا يتقيد بقيْدٍ ولا إشارة ، ولا بمكان معيَّن يصلّي فيه لا يصلي في غيره ، وزِيٍّ معيَّن لا يلبس سواه ، وعِبادة معيَّنة لا يلتفت إلى غيرها ، مع فضل غيرها عليها ، أو هي أعلى من غيرها في الدرجة ، وبُعْد ما بينهما كبعدِ ما بين السماء والأرض .

فإن البلاء والآفات ، والرياء والتصنُّع ، وعبادة النفس وإيثار مرادها والإشارة إليها ، كلها في هذا الأوضاع والرسوم والقيود ، التي حبسَتْ أربابها عن السيْر إلى قلوبهم ، فضلًا عن السيْر من قلوبهم إلى الله تعالى ، فإذا خرج أحدهم عن رسْمِه ووضعه وزِيِّه وقيْده وإشارته - ولو إلى أفضل منه - استهجن ذلك ، ورآه نقصًا وسقوطًا من أعين الناس ، وانحطاطًا لرتبته عندهم ، وهو قد انحطَّ وسقط من عيْن الله .

وقد يحسُّ أحدهم ذلك من نفسه وحاله ، ولا تدعه رسومه وأوضاعه وزيُّه وقيوده ، أن يسعى في ترميم ذلك وإصلاحه . وهذا شأن الكذّاب المرائي الذي يُبدي للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه ، العامل على عمارة نفسه ومرتبته ، وهذا هو النفاق بعينه ، ولو كان عاملًا على مراد الله منه وعلى الصدق مع الله؛ لأَثقلتْه تلك القيود، وحبستْه تلك الرسوم ، ولرأى الوقوفَ عندها ومعها عيْنَ الانقطاع عن الله لا إليه ، ولَمَا بالَى : أيَّ ثوب لبِسَ ، ولا أيَّ عملٍ عَمِل ، إذا كان على مراد الله من العبد .

فكلام أبي القاسم الجنيد حقٌّ ، كلامُ راسخ في الصدق ، عالمٍ بتفاصيله وآفاته ، ومواضيع اشتباهه بالكذب .

ـــ وأيضًا فحمْل الصدق كحمل الجبال الرواسي لا يُطيقه إلا أصحاب العزائم ، فهم يتقلَّبون تحته تقلُّب الحامل بحمْله الثقيل . والرياء والكذب خفيف كالريشة ، لا يجد له صاحبه ثقلًا ألبتة ، فهو حامل له في أيِّ موضع اتفق ، بلا تعب ولا مشقَّة ولا كُلْفة ، فهو لا يتقلَّب تحت حمْله ، ولا يجد ثقلَه » .

قال بعضهم : لا يشمُّ رائحةَ الصدق عبدٌ داهَنَ نفسَه أو غيره .

الصِّدْقُ مِفْتاحُ الصِّدِّيقيَّة :

كما جاء في الحديث : « وإن الرجل لَيصدُق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقًا » .

فالصدق مفتاح الصِّدِّيقيَّة ومبدؤها وهي غايته ، فلا ينال درجتَها كاذبٌ ألبتة ، لا في قوله ، ولا في عمله ، ولا في حاله ، ولا سيَّما كاذب على الله في أسمائه وصفاته ، ونفي ما أثبته ، أو إثبات ما نفاه عن نفسه ، فليس في هؤلاء صِدِّيق أبدًا .

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرْعه بتحليل ما حرَّمه ، وتحريم ما لم

يُحرِّمه ، وإسقاط ما أوجبه ، وإيجاب ما لم يُوجبه ، وكراهة ما **أحبَّه، واستحباب** ما لم يحبَّه . كل ذلك منافٍ للصِّدِّيقيَّة .

وكذلك الكذب معه في الأعمال ؛ بالتحلِّي بحلية الصادقين المخلصين ، والزاهدين المتوكِّلين ، وليس في الحقيقة منهم .

قالوا لنا أرضُنا أرضٌ مباركةٌ ... فيها الهدىٰ والتُّقىٰ والوحيُ والرُّسُلُ
ما لي أراها وبحرُ الزورِ يُغْرِقُها ... وأكبرُ الأمرِ في أرجائها دَجَلُ
لم يَبْرحِ الدمُ في يومٍ مشانِقَها ... **حتى المشانِقُ قد ضاقتْ بمَن قُتِلُوا**
يا لعنةَ الدم مَنْ يومًا يُطهِّرُها ... فالزورُ في أهلها دِينٌ لهُ مِلَلُ
في أيِّ شيءٍ أمامَ الله قد عدَلُوا ... وكلُّهمْ كاذبٌ قالوا وما فعَلُوا
هذا جبانٌ وهذا باعَ أُمَّتَهُ ... وكلُّهمْ في حِمَىٰ الشيطان يَبتهلُ
مِن يومِ أنْ مزَّقوا أحكامَ ملَّتهمْ ... وثوبُنا الخِزْيُ والبُهْتانُ والزلَلُ
عارٌ على الأرضِ كيفَ الزورُ ضاجَعَها ... كيفَ استوىٰ عندها الكذَّاب والرجُلُ
يا وصمةَ العارِ هُزِّي جِذْعَ نخلَتِنا ... يَسَّاقطُ القهْرُ والإرهابُ والدَّجَلُ
ما زالَ في القلبِ يدمى جرْحُ قرْطبةٍ ... ومسجدٌ في كُهوفِ الصمْتِ يبتهلُ
فكمْ بكَيْنا علىٰ أطلال قرطبةٍ ... وقُدْسُنا لم تزلْ في العار تغتسِلُ
في القدس تبكي أمام الله مِئذنةٌ ... ونهرُ دمعٍ علىٰ المحراب ينهمِلُ
وكعبةٌ تشتكي لله غُرْبتَها ... وتنزفُ الدمعَ في أعتابِ مَن رحَلُوا
كانوا رجالًا وكانوا للورىٰ قبَسًا ... وجَذْوةً مِن ضميرِ الصدقِ تشتعِلُ
لم يَبْقَ شيءٌ لنا من بعد ما غربتْ ... شمسُ الرجال تساوَىٰ اللصُّ والبطلُ
لم يَبْقَ شيءٌ لنا مِن بعد ما سقطتْ ... كلُّ القلاع تساوىٰ السَّفْحُ والجَبَلُ
في ساحةِ الملكِ أصنامٌ مزركشةٌ ... **عصابةٌ مَن رَمَادِ الصبحِ تكتحلُ**
من أين تأتي لوجْهِ الزورِ مَكْرُمةٌ ... **وأنْهُرُ الملحِ هلْ ينمو بها الشجَرُ**
القاتلُ الوغدُ لا تحميهِ مِسبَحَةٌ ... حتى إذا قام وسْطَ البيتِ يعتمرُ
في صفقةِ العمرِ دجَّالٌ وسيِّدُهُ ... وأُمَّةٌ في مزادِ الموتِ تنتحرُ

يعقـوبُ لا تبتئسْ فالـذئبُ نعـرفُهُ ... مِن دمِ يوسفَ كلُّ الأهلِ قَدْ سَكِرُوا
أسمـاءُ تبكي أمـامَ البيتِ في ألـمٍ ... وابنُ الزبير على الأعنـاقِ يحتضـرُ
يا فارسَ الشِّعْرِ قُلْ للشِّعْرِ معـذرةً ... لنْ يسمعَ الشِّعرَ مَن بالوحي قد كَفَرُوا
وصِحْ على القبرِ هـذي أمةٌ رحلتْ ... لـم يَبْـقَ مـن أهلِهـا ذِكْـرٌ ولا أثَرُ

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها ستأتي على الناس سنون خدّاعة ، يصدَّق فيها الكاذب ، ويُكذَّب فيها الصادِق ؛ ويُؤْتَمنُ فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة » . قيل : وما الرويبضة ؟ قال : « السفيه يتكلَّم في أمر العامَّة »[(١)] .

أعلىٰ مراتبِ الصِّدْقِ : الصِّدِّيقيَّة ، وأعلىٰ مراتبِ الصِّدِّيقيَّة لأبي بَكْرٍ رضي الله عنه :

قال تعالى : ﴿ **والذي جاء بالصدقِ وصدَّقَ به أولئكَ همُ المتقون** ﴾ [الزمر : ٣٣] .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : والذي نفسي بيده ، إن الله سمَّى أبا بكر في السماء صِدِّيقًا .

فالذي جاء بالصدق : مَن هو شأنه الصدق في قوله وعمله وحـاله . فالصدق : في هذه الثلاثة .

فالصدق في الأقوال : استواء اللسان على الأقوال ، كاستواء السنبلة على

(١) إسناده جيد : رواه أحمد في مسنده ، وقال ابن كثير : إسناده جيد . وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده حسن .

والرَّابض : هو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور وقعد عن طلبها ، فهو التافه الخسيس الحقير .

ساقها . والصدق في الأعمال : استواء الأفعال على الأمر والمتابعة ، كاستواء الرأس على الجسد . والصدق في الأحوال : استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص ، واستفراغ الوسع ، وبذل الطاقة ؛ فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صِدِّيقيته ، ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه : ذروة سَنام الصديقية ، سُمي : «الصِّدِّيق» على الإطلاق . و «الصِّدِّيق» أبلغ من الصدوق ، والصدوق أبلغ من الصادق .

فأعلى مراتب الصدق : مرتبة الصِّدِّيقيَّة ؛ وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ ، مع كمال الإخلاص للمرسِل .

قال ابن القيم في « المدارج » ، (٣٩/١ - ٤٠) : « قال شيخنا : والصِّدِّيق أكمل من المُحَدَّث ؛ لأنه استغنى بكمال صِدِّيقيَّته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف ؛ فإنه قد سلَّم قلبَه كلَّه وسِرَّه وظاهره وباطنه للرسول ، فاستغنى به عمَّا منه .

قال : وكان هذا المحدَّث يعرض ما يُحَدَّث به على ما جاء به الرسول ؛ فإنْ وافقه قبِلَه ، وإلا ردَّه ، فعُلِمَ أنَّ مرتبة الصِّدِّيقية فوق مرتبة التحديث .

قال : وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : (حدَّثني قلبي عن ربي) . فصحيح أن قلبه حدَّثه ، ولكن عمَّن ؟ عن شيطانه ، أو عن ربِّه ؟ فإذا قال:(حدثني قلبي عن ربي) ؛ كان مسندًا الحديث إلى من يَعلم أنه حدَّثه به ، وذلك كذِب » .

والفهم عن الله ورسوله عُنوانُ الصديقية ، ومنشور الولاية النبوية ، وفيه تفاوتت مراتب العلماء ، حتى عُدَّ ألفٌ بواحدٍ .

صِدِّيق الأنصار سعْدُ بن معاذ ؛ قمَّةٌ سَامِقةٌ في علوِّ الهمَّة في الصدْق بعد الصِّدِّيق الأكبر رضي الله عنه :

قال سعد بن معاذ رضي الله عنه: « ثلاثة أنا فيهنَّ قوي ، وفيما سواهنَّ ضعيف:

ما صليتُ صلاة منذ أسلمتُ فحدَّثتُ نفسي حتى أفرغ منها .

ولا شيَّعتُ جنازةً فحدّثتُ نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقولٌ لها ، حتى يُفرَغ من دفنها .

وما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول ، إلَّا علمتُ أنه حقٌّ » .

فقال ابن المسيِّب : ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلَّا في النبي ﷺ .

درجاتُ الصِّدْق :

قال الهروي : « وهو على ثلاثِ درجات :

الدرجة الأولى : صدق القصد . وبه يصحُّ الدخول في هذا الشأن ، ويتلافى به كلّ تفريط ، ويتَدارَكُ به كلّ فائتٍ ، ويعمر به كلّ خراب .

وعلامة هذا الصادق : أن لا يتحمل داعية تدعو إلى نقْضِ عهد ، ولا يصبر على صحبة ضِدّ ، ولا يقعُد عن الجدِّ بحال » .

قال ابن القيم في « المدارج » ، (٢/٢٧٩ - ٢٨٠) : « يعني **بصدق القصْد** : كمال العزْم ، وقوة الإرادة ؛ بأن يكون في القلب داعية صادقة إلى السلوك ، وميل شديد يقهر السرَّ على صحَّة التوجُّه . فهو طلب لا يمازجه رياء ولا فتور ، ولا يكون فيه قسمة بحال ، ولا يصحُّ الدخول في شأن السفر إلى الله والاستعداد للقائه ، إلَّا به .

« **ويتلافى به كلّ تفريط** » : فإنه حامل على كل سبب ينال به الوصولَ ، وقطْعِ كلِّ سبب يحول بينه وبينه ، فلا يترك فرصة تفوته ، وما فاته من الفُرصِ السابقة تَدَاركها بحسب الإمكان . فيصلح من قلبه ما مَزَّقتْه يدُ الغفلة والشهوة ، ويُعَمِّر منه ما خرّبتْه يد البطالة ، ويُوقد فيه ما أطفأته أهْويةُ النفس ، وَيَلُمُّ منه ما شعَّثتْه يد التفريط والإضاعة ، ويستردُّ منه ما نهبتْه أَكُفُّ اللصوص والسُّرَّاق ، ويزرع منه ما وجده بُورًا من أراضيه ، ويقلَع ما وجده شوكًا وشِبْرَقًا في نواحيه ،

ويستفرغ منه ما ملأته موادُّ الأخلاط الرديئة الفاسدة المترامية به إلى الهلاك والعَطَب ، ويُداوي منه الجراحات التي أصابتْه من عَبَرات الرياء ، ويغسل منه الأوساخ والحوْبات التي تراكمتْ عليه على تقادُم الأوقات ، حتى لو اطلع عليه لأحزنه سوادُه ووسخُه الذي صار دِباغًا له ، فيطهِّره بالماء البارد من ينابيع الصدق الخالصة من جميع الكَدُورات ، قبل أن يكون طهوره بالجحيم والحميم ؛ فإنه لا يجاور الرحمٰن قلبٌ دَنِسٌ بأوساخِ الشهوات والرياء أبدًا . ولا بدَّ من طهور ، فاللبيب يُؤْثر أسهلَ الطهورَيْن وأنفعَهما . والله المستعان .

وقوله : « **وعلامة هذا الصادق : أن لا يتحمَّل داعيةً تدعو إلى نقْضِ عهْدٍ** » : يعني أن الصادق حقيقة : هو الذي قد انجذبتْ قوى رُوحه كلها إلى إرادة الله وطَلَبه ، والسير إليه ، والاستعداد للقائه . ومن تكون هذه حاله : لا يحتمل سببًا يدعوه إلى نقضِ عهده مع الله بوجْهٍ .

تضيقُ بنا الدنيا إذا غِبْتمُ عنَّا ... وتزهقُ بالأشواقِ أرواحُنا منَّا
بعادُكمُ موتٌ وقربكمُ حَيا ... ولوْ غبتمُ عنَّا ولو نفَسًا مِتْنا
نعيشُ بذكراكُمْ ونحيا بقربكمْ ... ألَا إنَّ تذكارَ الأَحبَّةِ يُنعشنَا

وقوله : « **ولا يصبر على صحبة ضِدٍّ** » : الضدُّ عند القوم : هم أهل الغفلة ، وقُطَّاع طريق القلب إلى الله . وأضرُّ شيء على الصادق : صحبتهم ، بل لا تصبر نفسُه على ذلك أبدًا ، إلّا جمْعَ ضرورة . وتكون صحبتهم له في تلك الحال بقالبه وشَبَحِه دون قلبه وروحه .

وشُغلتُ عن فهْمِ الحديثِ سوىٰ ... ما كان عنكَ فإنَّهُ شُغلي
وأُديمُ نحوَ مُحدِّثي وجهي ليَرىٰ ... أنْ قدْ عقلتُ وعندكمْ عقلي

فإنَّ هذا لما استحكمت الغفلة عليه كما استحكم الصدقُ في الصادق ، أحسَّت رُوحه بالأجنبيَّة التي بينه وبينهم بالمضادَّة ، فاشتدت النّفرة ، وقوي الهَرَب. وبحسب هذه الأجنبية وإحساس الصادق بها : تكون نفْرته وهربه عن الأضداد ؛

فإن هذا الضدَّ إن نطق أحسَّ قلب الصادق أنه نطق بلسان الغفلة والرياء ، والكبر وطلب الجاه . ولو كان ذاكرًا أو قارئًا ، أو مصلِّيًا أو حاجًّا ، أو غير ذلك ، فنفر قلبه منه . وإن صمت أحسَّ قلبه أنه صمت على غير حضور وجمعيَّة على الله ، وإقبال بالقلب عليه ، وعكوف السرِّ عليه ، فينفر منه أيضا ؛ فإن قلب الصادق قوي الإحساس ، فيجد الغيرية والأجنبية من الضدِّ ، ويشمُّ القلبُ القلبَ كما يشمُّ الرائحة الخبيثة ، فيزوى وجهُهُ لذلك ويعتريه عبوس ، فلا يأنس به إلّا تكلُّفًا ، ولا يصاحبه إلّا ضرورة ، فيأخذ من صحبته قدْر الحاجة ؛ كصحبةِ مَن يشتري منه أو يحتاج إليه في مصالحه ، كالزوجة والخادم ونحوه .

قوله : « **ولا يقعد عن الجدِّ بحال** » : يعني أنه لما كان صادقًا في طلبه مستجمِعَ القوة ، لم يقعد به عزمُه عن الجد في جميع أحواله ؛ فلا تراه إلا جادًّا ، وأمره كلّه جدٌّ » .

« **الدرجة الثانية** : أن لا يتمنَّى الحياة إلّا للحقِّ ، ولا يشهد مِن نفسه إلا أثر النقصان ، ولا يلتفت إلى تَرْفيه الرُّخَص » .

قال ابن القيم : « أي : لا يحبُّ أن يعيش إلَّا ليشبعَ من رضا محبوبه ، ويقوم بعبوديته ، ويستكثر من الأسباب التي تُقرِّبه إليه وتُدنيه منه ، لا لعلّة من علل الدنيا ولا لشهوة من شهواتها ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لولا ثلاثٌ لَمَا أحببتُ البقاء : لولا أن أحمل على جِياد الخيل في سبيل الله ، ومكابدة الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايبَ الكلام ، كما يُنْتقى أطايبُ التمر » .

يريد رضي الله عنه : الجهاد ، والصلاة ، والعلم النافع . وهذه درجات الفضائل ، وأهلها هم أهل الزلْفى والدرجات العليا .

وقال معاذ رضي الله عنه عند موته : « اللهم إنك تعلم أنِّي لم أكن أحبُّ البقاء لجَرْي الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولا لنكح الأزواج ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الليل ، ومُزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حلق الذكْر » .

وقوله : « **ولا يَشْهد من نفسه إلا أثرَ النقصان** » : يعني لا يرى نفسه إلا مقصِّرًا ، والموجب له لهذه الرؤية : استعظام مطلوبه ، واستصغار نفسه ومعرفته بعيوبها ، وقلّة زاده في عينه . فمن عرف الله وعرف نفسه ، لم يرَ نفسه إلا بعين النقصان .

وأما قوله : « **ولا يلتفت إلى ترفيهِ الرخص** » : فلأنه - لكمال صدقه ، وقوة إرادته ، وطلبه للتقدُّم - يحمل نفسه على العزائم ، ولا يلتفت إلى الرفاهية التي في الرُّخَص .

وهذا لا بدَّ فيه من التفصيل ؛ فإن الصادق يعمل على رضا الحق تعالى ومحابّه . فإذا كانت الرُّخَص أحبَّ إليه تعالى من العزائم ، كان الْتفاته إلى ترفيهها ، وهو عيْن صِدْقه؛ فإذا أفطر في السفر ، وقَصَرَ وجمع بين الصلاتين عند الحاجة إليه ، وخفَّف الصلاة عند الشغْل ، ونحو ذلك من الرُّخص التي يحبُّ الله تعالى أن يُؤْخَذَ بها ، فهذا الالتفات إلى ترفيهها لا ينافي الصدق . بل هاهنا نكتة ؛ وهي أنه فرَّق بين أن يكون التفاته إليها تَرَفُّهًا وراحة ، وأن يكون متابَعةً وموافَقةً ، ومع هذا فالالتفات إليها ترفُّهًا وراحةً لا ينافي الصدق ؛ فإن هذا هو المقصود منها ، وفيه شهود نعمة الله على العبد ، وتعبُّده باسمه : « البَرُّ ، اللطيف ، المحسن ، الرفيـق» ؛ فإنه رفيقٌ يحبُّ الرفْق . وفي الصحيح:« ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمريْن ، إلَّا اختار أيسرَهما ؛ ما لم يكن إثمًا » لِمَا فيه من روح التعبُّد باسم : « الرفيق ، اللطيف » ، وإجمام القلب به لعبودية أخرى ؛ فإن القلب لا يزال يتنقَّل في منازل العبودية ، فإذا أخذ بترفيه رخصةِ محبوبه ، استعدَّ بها لعبودية أخرى . وقد تَقْطعه عزيمتُها عن عبودية هي أحبُّ إلى الله منها ، كالصائم في السفر الذي ينقطع عن خدمة أصحابه ، والمُفطِر الذي يضرب الأخبية ، ويسقي الركاب ، ويضم المتاع . ولهذا قال فيهم النبي ﷺ : « ذهب المفطرون اليومَ بالأجر » .

أما الرُّخص التأويلية ، المستندة إلى اختلاف المذاهب والآراء التي تُصيب

وتخطئ : فالأخذ بها عندهم عين البطالة ، منافٍ للصدق » .

الدرجة الثالثة : « الصدق في معرفة الصدق ؛ فإن الصدق لا يستقيم - في علم أهل الخصوص - إلّا على حرف واحد ، وهو أن يتفق رضا الحق بعمل العبد أو حاله أو وقته ، وإيقان العبد وقصده : بكون العبد راضيًا مرضيًا ، فأعماله إذن مُرضية، وأحواله صادقة، وقصوده مستقيمة. وإنْ كان العبد كُسي ثوبًا مُعَارًا ، فأحسن أعماله : ذنب ، وأصدق أحواله : زُور ، وأصفى قصوده : قُعود » .

قال ابن القيم: «يعني أن الصدق المتحقّق إنما يحصل لمَن صدق في معرفة الصدق، فكأنه قال : لا يحصل حال الصدق إلا بعد معرفة علْم الصدق .

ثم عَرَّف حقيقة الصدق ، فقال:« لا يستقيم الصدْق - في علم أهل الخصوص - إلَّا على حرف واحد ، وهو أن يتفق رضا الحق بعمل العبد ، أو حاله ، أو وقته ، وإيقانه ، وقصده » . وهذا مُوجب الصدق وفائدته وثمرته .

فالشيخ ذكَر الغاية الدالَّة على الحقيقة التي يُعرف انتفاء الحقيقة بانتفائها ، وثبوتها بثبوتها ؛ فإن العبد إذا صدق الله ، رضي الله بعمله وحاله ويقينه وقصده ، لا أن رضا الله نفس الصدق ، وإنما يعلم الصدق بموافقة رضاه سبحانه ، ولكن مِن أين يعلم العبد رضاه ؟!

فمن هاهنا كان الصادق مضطرًّا - أشدَّ ضرورة - إلى متابعة الأمر ، والتسليم للرسول ﷺ ، في ظاهره وباطنه ، والاقتداء به والتعبد بطاعته في كل حركة وسكون ، مع إخلاص القصد لله عز وجل ؛ فإن الله تعالى لا يرضيه من عبده إلا ذلك ، وما عدا هذا ففوتُ النفس، ومجرَّد حظِّها واتباع أهوائها ، وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات والخَلَوات ما كان . فإن الله سبحانهُ وتعالى أبى أن يقبل من عبده عملًا أو يرضى به ، حتى يكون على متابعة رسوله ﷺ ، خالصًا لوجهه سبحانه .

ومن هاهنا يفارق الصادق أكثر السالكين ، بل يستوحش في طريقه ، وذلك لقلّة سالكها ؛ فإن أكثرهم سائرون على طُرُق أذواقهم ، وتجريد أنفاسهم لنفوسهم ، ومتابعة رسوم شيوخهم . والصادق في وادٍ ، وهؤلاء في واد .

وقوله : « **فيكون العبد راضيًا مرضيًّا** » : لأنه قد رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا . فرضي الله به عبدًا . وأعمالُه إذن مَرضية لله ، وأحواله صادقة مع الله ، وقصوده مستقيمة على متابعة أوامر الله عز وجل .

وقوله : « **وإن كان العبد كُسِيَ ثوبًا معارًا ، فأحسن أعماله : ذنب ، وأصدق أحواله : زور ، وأصفى قصوده : قعود** » : هذا يُراد به أمران :

أحدهما : أن يُكسى حِلْية الصادقين ، ويلبس ثيابهم على غير قلوبهم وأرواحهم ، فثَوب الصدق عارية له ، لا مِلْكٌ له، فهو كالمتشبع بما لم يُعْطَ. فإنه كلابس ثوبي زُور ، فهذا أحسن أعماله : ذنب يُعاقبُ عليه ، كما يعاقب : المقتول في الجهاد ، والقارئ القرآن المتنسِّك ، والمتصدِّق ، ويكونون أوَّل مَن تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة ، لمَّا لبسوا ثياب الصادقين على قلوب المرائين . وهذا معنًى صحيح ...... »[(١)] .

معاني الصدق وعلوُّ الهمَّة فيها :

الصدق الأول : الصدق في القول :

قال الجنيد : « حقيقة الصدق : أن تصدُق في موطن لا يُنجيك منه إلا الكذب » .

وقالوا : عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرُّك ؛ فإنه ينفعك ، ودَع الكذب حيث ترى أنه ينفعك ؛ فإنه يضرُّك .

(١) مدارج السالكين ٢/٢٧٩ - ٢٨٤ .

قال ابن مسعود : لا يصلح الكذب في هزل ولا جدّ ، ولا أن يَعِدَ أحدُكم حبيبَه شيئًا ثم لا يُنجزه به .

قال إسماعيل بن عُبيد الله المخزومي : أمرني عبد الملك بن مروان أن أعلِّم بنيه الصدقَ كما أعلِّمهم القرآن ، وأن أجنِّبهم الكذب وإن كان فيه القتل .

عمر بن عبد العزيز :

كلَّم عمر بن عبد العزيز الوليد في شيءٍ ، فقال له : كذبتَ . فقال عمر : ما كذبتُ مذْ علمتُ أن الكذبَ يَشين صاحبَه .

وقال مطرَّف بن طريف : ما أحبُّ أني كذبتُ وأنَّ لي الدنيا وما فيها .

إياس بن معاوية :

قال إياس رحمه الله : ما يسرُّني أني كذبتُ كَذبة فغفرها الله عز وجل لي وأُعطى عليها عشرة آلاف درهم ، ويعلم بها أبي معاوية بن قرَّة . يعني إجلالًا لأبيه لا يطلع عليه .

قال الفُضيل بن عياض : ما من مضغة أحبُّ إلى الله من لسان صدوق ، وما من مضغة أبغض إلى الله من لسان كذوب .

وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مَطِيَّتك ، والحقَّ سيفَك ، والله تعالى غايةَ طلْبتك .

وقال أيضا : مَن كان الصدق وسيلته ، كان الرضا من الله جائزته .

وقال ذو النون المصري : الصدق سيف الله في أرضه ، ما وُضِع على شيء إلا قطعَه .

ولهذا الصدق كمالات :

منها : الاحتراز عن المعاريض .

ومنها : أن يُراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربَّه ، كقوله :

﴿ وجَّهتُ وجهيَ للذي فطر السمواتِ والأَرض ﴾ ؛ فإن كان قلبه منصرفا عن الله مشغولًا بأماني الدنيا وشهواتها ، فهو كذب . وكقوله : ﴿إيَّاك نعبدُ﴾. فإذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله ، لم يكن كلامُه صِدقًا ، فكان عبْدًا لنفسه ، أو عبدًا للدنيا أو عبدًا لشهواته ؛ وفي الحديث : « تعِسَ عبدُ الدرهم ، تعِسَ عبدُ الدينار .. » . فسمَّى كلَّ مَن تقيَّد بشيء فهو عبدٌ له . فالعبد الحقُّ من أُعتق أوّلًا من غير الله فصار حرًّا ، فتحلُّ في قلبه العبودية لله . فالعبد الحق الذي وجوده لمولاه لا لنفسه ؛ وهذه درجة الصِّدِّيقين ، « عبد ذاهب عن نفسه » ، كما قال الجنيد : الحرية عن غير الله .

الإمامُ القدوةُ ، الوليُّ الربَّاني ، أبو مريم الغَطَفاني : ربعيُّ بنُ حِراش ؛ بلَغ الغايَةَ في الصِّدْق فيُنجِّي الله ولَدَيْه بصدْقه :

كان ربعي من « أشجع » ، زعم قومه أنه لم يكذبْ قطُّ[(١)] .

« قال الأصمعي : أتى رجلٌ الحجَّاجَ ، فقال : إن ربعيَّ بن حِراش زعموا لا يكذب ، وقد قدِم ولداه عاصِيَيْن . قال : فبعث إليه الحجاج ، فقال: ما فعل ابناك ؟ قال : هما في البيت ، والله المستعان . فقال له الحجَّاج بن يوسف : هُما لك . وأعجبه صِدْقه »[(٢)] .

فلله درُّه من صادقٍ وفَّى بصدْقِهِ إلى الممات !!

عن الحارث الغنوي ، قال : « آلى ربعي بن حراش أن لا تفترَ أسنانُه ضاحكًا ، حتى يعلم أين مصيره . قال الحارث : فأخبرَ الذي غسَّله أنه لم يزل متبسِّمًا على سريره ونحن نغسِّله ، حتى فرغنا منه . رحمة الله عليه »[(٣)] .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٦/١٠١ ب .
(٢) السير ٤/٣٦٠ .
(٣) السير ٤/٣٦١ .

الربيعُ بن حِراش : العبد الصالحُ الذي تكلَّم بعد الموت :

«عن عبد الملك بن عُمير عن ربعي قال : كنَّا أربعة إخوة ، فكان الربيع أكثرنا صلاةً وصيامًا في الهواجر ، وإنه تُوفِّي ، فبينا نحن حَوْله قد بعثنا من يبتاع له كَفَنًا ؛ إذْ كشف الثوب عن وجهِهِ ، فقال : السلام عليكم . فقال القوم : عليكم السلام يا أخا عيسى ، أبعْدَ الموت ؟ قال:نعم ، إني لقيتُ ربي بعدكم ، فلقيتُ ربًّا غيرَ غضبانَ ، واستقبلني بروحٍ وريحان وإستبرقٍ ، ألا وإن أبا القاسم ينتظر الصلاة عليّ فعجِّلوني . ثم كان بمنزلة حصاة رُمي بها في طسْتٍ »[1] .

وفي رواية : « ....وَعَدتُ رسولَ الله ﷺ أن لا يذهبَ حتى أُدركَه . قال : فما شبَّهتُ خروجَ نفسِهِ إلَّا كحصاة ألقيتْ في ماءٍ فَرَسَبتْ » .

الجيلاني : يتوبُ على يديْه وهو طفلٌ قُطَّاعُ الطريقِ بِصدْقِه :

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله : بنيتُ أمري على الصدق ؛ وذلك أني خرجتُ من مكة إلى بغداد أطلب العلم ، فأعطتني أمي أربعين دينارًا ، وعاهدتْني على الصدق . ولمّا وصلنا أرض (همدان) خرج علينا عربٌ ، فأخذوا القافلة ، فمرَّ واحد منهم ، وقال : ما معك ؟

قلتُ : أربعون دينارًا ، فظنَّ أني أهزأ به ، فتركني . فرآني رجلٌ آخر ، فقال : ما معك ؟ فأخبرتُه ، فأخذني إلى أميرهم ، فسألني فأخبرتُه ، فقال : ما حَمَلَك على الصدق ؟

قلتُ : عاهدتْني أمي على الصدق ؛ فأخاف أن أخون عهدها . فصاح باكيًا ، وقال : أنت تخاف أن تخون عهدَ أمِّك ، وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله !! ثم أمَر بَرَدِّ ما أخذوه من القافلة ، وقال : أنا تائبٌ لله على يديْك . فقال مَن معه : أنت كبيرُنا في قطْعِ الطريق ، وأنت اليوم كبيرنا في التوبة . فتابوا جميعًا

---

(١) الحلية ٤/٣٦٧ ، ٣٦٨ والسير ٤/٣٦١، ورجالُ إسنادِه ثقات، ورواه عن عبد الملك غيرُ واحد .

ببركة الصدق وسببه .

الصدقُ الثاني : الصِّدْق في النيَّةِ والإِرَادَة :

وذلك يرجع إلى الإخلاص ، وهو أن يكون لا باعثَ له في الحرَكات والسَّكَنات إلّا الله تعالى ، فإنْ مازجه شوْبٌ من حظوظ النفس بطل صِدق النية ، وصاحِبُه يجوز أن يُسمَّى كاذبًا . ففي حديثِ (أولُ من تُسَعَّر بهم النار) : « كذبتَ ، بل أردتَ أن يُقال : فلان عالم » . فإنه لم يكذبْه و لم يقلْ له : لمْ تعمل . ولكن كذَّبه في إرادته ونيَّته ، قال تعالى عن المنافقين : ﴿ **والله يشهدُ إنهم لَكاذبون** ﴾ .

فمن شهد في إخلاصه الإخلاصَ ، احتاج إخلاصُه إلى إخلاص .

الصدقُ الثالث : الصدقُ في العَزْمِ :

فإنَّ الإنسان قد يقدِّم العزمَ على العمل ، فيقول مثلًا في نفسه : إنْ رزقني الله مالًا تصدَّقتُ بجميعه . وهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه ، وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوعُ ميْلٍ وتردُّدٍ وضعْفٍ يُضادُّ الصدق في العزيمة .

والصادق في عزْمه : هو الذي تصادِف عزيمته في الخيرات كلها قوةً تامَّةً ليس فيها ميْل ولا ضعف ولا تردُّد ، بل تسخو نفسه أبدًا بالعزْم المصمِّم الجازم على الخيرات ، وهو كما قال عمر رضي الله عنه : « لَأَنْ أقدَّم فتُضْرَب عُنقي ، أحبُّ إليَّ من أنْ أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه » .

ومراتب الصِّدِّيقين في العزائم تختلف ؛ فقد يصادف العزْم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ، ولكن إذا خُلِّي ورأيه لم يقدّم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه ، بل في الصادقين والمؤمنين مَنْ لو خُيِّر بين أن يُقتَل هو أو أبو بكر ، كانت حياته أحبَّ إليه من حياة أبي بكر الصديق .

الصِّدْق الرابعُ : الصدقُ في الوفاءِ بالعَزْم :

فإن النفسَ قد تسخو بالعزمِ في الحالِ ؛ إذ لا مشقَّة في الوعد والعزم ، فإذا حُقَّت الحقائق ، وهاجت الشهوات ، انحلَّتِ العزيمة ولم يتحقَّق الوفاء بالعزم .

قال تعالى : ﴿ **مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليهِ فمنهمْ مَن قضىٰ نحْبَهُ ومنهمْ من ينتظر وما بدلوا تبديلًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : « عمِّي أنس بن النضر - سُمِّيتُ به - لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ ، فكبُر عليه ، فقال : أول مشهد قد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه !! أما والله ، لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ، لَيرينَّ الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحدٍ ، من العام المقبِل ، فاستقبله ، فقال : يا أبا عمرو ، إلى أين ؟ قال : واهًا لريح الجنة !! أجدها دون أُحد . فقاتل حتى قُتِل ، فوُجد في جسده بضعٌ وثمانون ؛ من بين ضربةٍ وطعنةٍ ورميةٍ . قالت عمَّتي الرُبيِّع بنتُ النضْر : فما عرفتُ أخي إلَّا ببَنَانِه . ونزلتْ هذه الآية : ﴿ **رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبَه ومنهم من ينتظرُ وما بدلوا تبديلًا** ﴾[1] .

لله درُّه من صادق ربانِّي !! يجد حلاوة العمل قبل الشروع فيه ، يجد ريح الجنة قبل أن يقاتل ! وما هذا إلَّا لصدقه في الوفاء بالعزم !!

وعن نعيم بن هبار ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الشهداء الذين يُقاتلون في سبيل الله في الصف الأول ، ولا يلتفتون بوجوههم حتى يُقتلُوا ، فأولئك يُلقوْن في الغُرَف العُلا من الجنة ، يضحك إليهم ربُّك ، إن الله تعالى إذا ضحِك

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي في « جامعه » في كتاب التفسير ، وقال : حسن صحيح . والنسائي في « الكبرى » ، وصححه الألباني في « صحيح » الترمذي رقم ٢٥٥٧ ، وهو عند البخاري مختصرًا : أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر ، وهو عند مسلم أيضًا.

إلى عبده المؤمن فلا حسابَ عليه »[١] .

الصدقُ الخامس : الصدق في الأعمال :

مخالفة الظاهر للباطن عن قصْد هي الرياء ، وإن كانت عن غير قصْدٍ ، يفوت بها الصدقُ ؛ فقد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفًا بذلك الوقار ، فهذا غير صادق في عمله ، وإن لم يكن مرائيًا .

قال يزيد بن الحارث: إذا استوتْ سريرةُ العبد وعلانيتُه فذلك النَّصْفُ ، وإذا كانت سريرتُه أفضلَ من علانيته فذلك الفضل ، وإن كانت علانيتُه أفضل من سريرته فذلك الجوْر .

وقال عبد الواحد بن زيد : كان الحسن إذا أَمَرَ بشيء كان من أعمل الناس به ، وإذا نهى عن شيء كان من أترَكِ الناس له ، و لم أرَ أحدًا قطُّ أشبَهَ سريرةً بعلانيةٍ منه .

وكان أبو عبد الرحمٰن الزاهد يقول : إلهي ، عاملتُ الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة ، وعاملتُك فيما بيني وبينك بالخيانة . ويبكي .

وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق موافقة الحقِّ في السر والعلانية .

فمساواة السريرة للعلانية أحدُ أنواع الصدق .

الصدقُ السادس : الصدقُ في مقامَاتِ الدِّين:

ومنها :

أ - الصدق في المحاسبة والمجاهدة والتوبة :

قال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيرَه كما لم

(١) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط ، وأحمد ، وأبو يعلى وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » رقم ٣٧٤٠ .

يخترْ عليك غيرَك ؛ قال تعالى : ﴿ **هو اجتباكُمْ** ﴾ .

وقد مرَّ بك في المحاسبة والمجاهدة قولُ ابن الصمَّة ، وموته من جرَّاء المحاسبة .

أما التوبة :

فالصدق وعلو الهمة فيها : أن تكون توبةً نصُوحًا، لا يعودُ إلى الذنب مرةً ثانية حتى يعودَ اللبنُ في الضرْع ، ويخاف أنه لم يؤدِّها على الوجه المطلوب ، وأنه ما وفَّاها حقَّها و لم يبذلْ جهده في صحتها ، وأنها توبة علة وهو لا يشعر ، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله فتاب للحال ، لا خوفًا من ذي الجلال ، أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكدِّ في تحصيل الذنب ، أو اتقاءَ ما يخافه على عِرْضهِ ومالهِ ومنصبه ، **أو لضعفِ داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته. وإنما يتوب تعظيمًا لله** ولحرماته وإجلالًا له ، وخشيةً من سقوط المنزلة عنده ، ومن البعد والطرْد عنه ، والحجاب عن رؤيةِ وجهه في الدار الآخرة . **ولا يتوب لعزّ التوبة وإنما للتقوى، وإنْ علم أن العزَّ يحصل له بالتوبة والطاعة .**

توْبة رجل من بني إسرائيل قَتَل مائةَ نفس :

روىٰ البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كان في بني إسرائيل رجلٌ قَتَل تسعةً وتسعينَ إنسانًا ، ثم خرج يسأل ، فأتى راهبًا فسأله ، فقال له : أَلي توبة ؟ قال : **لا. فقتله، فجعل** يسأل ، فقال له رجل : ائْتِ قريةَ كذا وكذا . **فأدركه** الموت فنأىٰ بصدره نحوها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله إلى هذه : **أن تقرَّبي، وأوحى الله إلى هذه: أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما. فوجداه** إلى هذه أقرب بشبرٍ ، **فغُفِرَ له** » .

ماعز والغامدية :

عن بريدة رضي الله عنه قال : جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، طهِّرني . فقال: «ويحك !!! ارجعْ فاستغفر الله وتبْ إليه ». قال: فرجع غيرَ بعيد ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ، طهِّرني . فقال رسول الله ﷺ : « ويحك !!! ارجعْ فاستغفر الله وتبْ إليه » . قال: فرجع غيرَ بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله، طهِّرني. فقال النبي ﷺ مثلَ ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: « فيمَ أُطهِّرك ؟ ». فقال: من الزنى . فسأل رسول الله ﷺ : « أبِهِ جنون ؟ » . فأُخبر أنه ليس بمجنون . فقال : « أشَرب خمرًا ؟ » . فقام رجل فاستنكهه[1] ، فلم يجد منه ريحَ خمر . قال : فقال رسول الله ﷺ : « أزنيتَ ؟ » فقال : نعم . فأمر به فرُجم ، فكان الناس فيه فرقتَيْن : قائل يقول : لقد هلَك . لقد أحاطت به خطيئته . وقائل يقول : ما توبة أفضل من توبة ماعز ؛ إنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده ، ثم قال : اقتلني بالحجارة . قال : فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس ، فسلَّم ثم جلس ، فقال : « استغفروا لماعز بن مالك » . قال : فقالوا : غفر الله لماعز بن مالك . قال : فقال رسول الله ﷺ : « لقد تاب توبة لو قُسِمَتْ بين أمَّة لوسِعَتْهم » .

وفي حديث مسلم عن الغامدية وشأنها : « فجاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله، إني قد زنيت فطهِّرني. وأنه ردَّها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله ، لِمَ تردُّني ؟ لعلَّك أن تردَّني كما رددتَ ماعزًا ، فوالله إني لَحُبْلى . قال : « إمَّا لا فاذهبي حتى تلدي » . فلمَّا ولدتْ أتته بالصبي في خرقة ، قالت : هذا قد ولدتُه . قال : « فاذهبي فأرضعيه حتى تَفطميه » . فلما فطمتْه أتته بالصبي في يده كِسْرة خبز، فقالت: هذا يا نبيَّ الله قد فطمتُه، وقد أكل الطعام.

---

(١) أي شمَّه .

فدفعَ الصبيَّ إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحُفر لها إلى صدْرها ، وأمر الناس فرجموها ، فيُقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها ، فتنضَّح الدم على وجهِ خالد فسبَّها ، فسمع نبيُّ الله ﷺ سبَّه إيَّاها ؛ فقال : « مهلًا يا خالد، **فوالذي نفسي بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكسٍ[1] لَغُفر له**. ثم أمر بها فصلى عليها ودُفنتْ » .

وفي الحديث : الحرص التامُّ من ماعز والغامدية على تعجيل الطهارة ؛ إذ في إقامة الحدِّ حصولُ البراءة بطريق متيقَّن دون ما يتطرَّقُ إليه احتمال .

توْبةُ كعبِ بن مالك مثلٌ للتوبة النصوح :

عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، أنَّ عبد الله بن كعب كان قائد كعب من بنيه حين عَمِيَ . قال : سمعتُ كعب بن مالك يحدِّث حديثه حين تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قال كعب بن مالك : لم أتخلفْ عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطُّ إلَّا في غزوة تبوك ، غير أني قد تخلَّفتُ في غزوة بدرٍ و لم يعاتِبْ أحدًا تخلَّف عنه ، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيرَ قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعاد ، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبُّ أنَّ لي بها مشهدَ بدرٍ ، وإن كانت بدر أذكرَ في الناس منها ، وكان من خبري حين تخلَّفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك : أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيْسَر مني حين تخلفتُ عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعتُ قبلها راحلتيْن قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ ، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا ، واستقبل عدوًّا كثيرًا ، فجلا للمسلمين أمرَهم ليتأهَّبوا أهبة غزْوهم ، فأخبرهم بوجههم الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد بذلك الديوان) . قال كعب : فقلَّ رجلٌ يريد

(١) المكْس : الجِباية .

أن يتغيَّب يظنُّ أن ذلك سيخفىٰ له ما لم ينزلْ فيه وحيٌ من الله عز وجل . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر ، فتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معه ، فأرجع ولم أقضِ شيئًا ، وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردتُ . فلم يزلْ ذلك يتمادىٰ بي حتى استمرَّ بالناس الجدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جهازي شيئًا ، ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقضِ شيئًا ، فلم يزلْ ذلك يتمادىٰ بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممتُ أن أرتحل ، فأدركهم ، فيا ليتني فعلتُ ، ثم لم يُقدَّر ذلك لي ، فطفِقتُ إذا خرجتُ في الناس بعدَ خروج رسول الله ﷺ ، يُحزنني أني لا أرى لي أسوةً إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق ، أو رجلًا ممَّن عذَرَ الله من الضعفاء، ولم يذكرْني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » . قال رجل من بني سَلَمة : يا رسول الله ، حبَسَه بُرْداهُ والنظرُ في عطفيه . فقال له معاذ بن جبل : بئسَ ما قلتَ ! والله يا رسول الله ، ما علمنا عليه إلَّا خيرًا . فسكتَ رسول الله ﷺ ، فبينما هو على ذلك رأى رجلًا مبيضًا يزول به السراب ، فقال رسول الله ﷺ : « كنْ أبا خيثمة » . فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري ، وهو الذي تصدَّق بصاعِ التمر حين لمزَه المنافقون . قال كعب بن مالك : فلمَّا بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلًا من تبوك، حضرني بثي ، فطفقتُ أتذكَّر الكذبَ ، وأقول : بمَ أخرج من سُخْطه غدًا ؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي ، فلما قيل لي : إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادمًا ، زاحَ عني الباطل حتى عرفتُ أني لن أنجوَ منه بشيء أبدًا ، فأجمعتُ صدِقَه ، وصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان إذا قدِم من سفرٍ بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتيْن . ثم جلس للناس ، فلمَّا فَعل ذلك جاءَه المخلَّفون وطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا ، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم؛ ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئتُ، فلمَّا سلَّمتُ تبسَّمَ تبسُّم المغضَب ، ثم قال: «تعال». فجئتُ أمشي حتى

جلست بين يديه ، فقال لي : « ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظهرَك ؟ » .
قال: قلتُ: يا رسول الله، إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا، لَرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أُعطِيتُ جدلًا ، ولكني والله لقد علمتُ لَئِن حدثتُك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني ، لَيوشكنَّ الله أن يُسخِطَك عليَّ ، ولئِنْ حدَّثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ عَلَيّ فيه ، إني لَأرجو فيه عُقبى الدار ، والله ما كان لي عذرٌ ، والله ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلَّفتُ عنك .
قال رسول الله ﷺ : « أمَّا هذا فقد صدق ، فقمْ حتى يقضيَ الله فيك » .
فقمتُ وثار رجالٌ من بني سَلَمة فاتَّبعوني ، فقالوا لي : والله ما عَلِمناك أذنبتَ ذنبًا قبل هذا ، لقد عجزتَ في ألا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلَّفون ؛ فقد كان كافيَكَ ذنبَكَ استغفارُ رسول الله ﷺ لك . قال : فوالله ، ما زالوا يؤنِّبونني حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأُكذب نفسي .
قال : ثم قلتُ لهم : هل لقي هذا معي من أحدٍ ؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان قالا مثلَ ما قلتَ ، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك . قال : قلتُ : مَنْ هما ؟ قالوا : مرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لي رجلَيْن صالحَيْن قد شهِدا بدرًا ، فيهما أسوة . قال : فمضيتُ حين ذكروهما لي .
قال : ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامِنا أيها الثلاثة من بين مَن تخلَّف عنه . قال : فاجتنَبَنا الناسُ . وقال : تغيَّروا لنا حتى تنكرتْ لي في نفسي الأَرض ، فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً ، فأمَّا صاحبايَ فاستكانا وقعدا في بُيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدَهم ، فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأُسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتَيْه بردِّ السلام أم لا ؟ ثم أصلِّي قريبًا منه وأسارقُه النظرَ ، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظرَ إليَّ ، وإذا التفتُ نحوَه أَعرَضَ عني ، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين ، مشيتُ حتى تسوَّرتُ جدارَ حائطِ أبي قتادة وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إليَّ فسلَّمتُ عليه ، والله ما ردَّ عليَّ السلام ، فقلتُ له : يا أبا

قتادة، أنشُدكَ بالله، هل تعلمني أني أحبُّ الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، فعدتُ فناشدتُه فسكت ، فعدتُ فناشدتهُ ، فقال : الله ورسوله أعلم . ففاضتْ عيناي ، وتولَّيتُ حتى تسوَّرتُ الجدار ، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة ، إذا نَبَطِيٌّ - من نبطِ أهل الشام ممَّن قدِم بالطعام يبيعه بالمدينة - يقول : مَن يدلُّ على كعب بن مالك ؟ قال : فطفِقَ الناسُ يُشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إليَّ كتابًا من مَلِك غَسَّان ، وكنت كاتبًا فقرأتهُ ، فإذا فيه : أمَّا بعد ؛ فإنه قد بلغنا أنَّ صاحبَك قد جفَاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالْحَقْ بنا نُواسِك . قال: فقلتُ حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء !! فتيامَمْتُ بها التَّنُّورَ فسجرتُها بها ، حتى إذا مضتْ أربعون من الخمسين واستلبث الوحي ، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمُرك أن تعتزلَ امرأتك. قال: فقلتُ: أطلِّقها أم ماذا أفعل؟ قال : لا ، بل اعتزلْها فلا تَقْربنَّها . قال : فأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك . قال : فقلتُ لامرأتي : الحقي بأهلِك ، فكوني عندهم حتى يقضيَ الله في هذا الأمر . قال : فجاءتِ امرأةُ هلال بن أُميَّة رسولَ الله ﷺ فقالت له : يا رسول الله ، إن هلال بن أُمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكرَه أن أخدمَه ؟ قال : « لا ، ولكن لا يَقربنَّك » . فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك ؛ فقد أذِن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلتُ : لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يُدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنتُه فيها وأنا رجلٌ شابٌ ؟ قال : فلبثتُ بذلك عشرَ ليالٍ ، فكمل لنا خمسون ليلةً من حين نهي عن كلامنا . قال:ثم صلَّيتُ صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلةً على ظهر بيتٍ من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا : قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحُبتْ ، سمعتُ صوتَ صارخٍ

أوفى على « سلْع »[1] ، يقول بأعلى صوته : ياكعب بن مالك ، أبشرْ . قال : فخررتُ ساجدًا ، وعرفتُ أنْ قد جاء فرج . قال:فآذنَ رسولُ الله ﷺ الناسَ بتوبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشِّروننا ، فذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشِّرون ، وركَضَ رجلٌ إليَّ فرسًا ، وسعى ساعٍ من « أسلم » قِبلي ، وأوفى الجبلَ فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلمَّا جاءني الذي سمعتُ صوتَه يبشِّرني ، فنزعتُ له ثوبَيَّ . فكسوتهما إيَّاه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبيْن فلبستُهما ، فانطلقتُ أتأمَّم رسولَ الله ﷺ ، يتلقَّاني الناسُ فوْجًا فوجًا ، يُهنِّئوني بالتوبة ويقولون : لِتهنئك توبة الله عليك . حتى دخلتُ المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد وحوله الناس ، فقام طلحة بن عُبيد الله يُهرول حتى صافحني وهنّأني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة . قال كعب : فلمَّا سلَّمتُ على رسول الله ﷺ وهو يبرقُ وجهُه من السرور ويقول : « ابشرْ بخير يوم ٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أُمُّك » . قال : فقلتُ : أمن عندك يا رسول الله ، أم من عند الله ؟ فقال : « لا ، بل من عند الله » . وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُهُ ، كأنَّ وجهَه قطعة قمر . قال : وكنا نعرف ذلك . قال : فلمَّا جلستُ بين يديْه قلتُ : يا رسول الله ، إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي ، صدقةً إلى الله وإلى رسوله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : **« أمسكْ بعض مالك فهو خير لك »** . قال : فقلتُ : فإني أُمسِكُ سهمي الذي بخيبر . قال : فقلتُ : يا رسول الله ، إن الله إنما أنجاني بالصدق ، وإنَّ من توبتي ألَّا أُحدث إلَّا صِدقًا ما بقيتُ . قال : فوالله ما علمتُ أنَّ أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث ، منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، أحسنَ مما أبلاني الله به . والله ما تعمدتُ كذبةً منذ قلتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: فأنزل الله عزَّ وجل : **﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار**

(١) سلْع : جبل في المدينة .

الذين اتبعوهُ في ساعةِ العُسْرةِ منْ بعد ما كادَ يَزيغُ قلوبُ فريقٍ منهمْ ثمَّ تابَ عليهم إنه بهم رءوف رحيم وعلى الثلاثةِ الذين خُلِّفُوا حتَّى إذا ضاقتْ عليهم الأرضُ بما رحُبَتْ وضاقت عليهم أنفسهم .. ﴾ حتى بلغ **﴿ يأيها الذينَ آمنوا اتقوا الله وكونوا معَ الصادقين ﴾** [التوبة :١١٧ - ١١٩] .

قال كعب : والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قطُّ ، بعد إذ هداني الله للإسلام ، أعظمَ في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألَّا أكونَ كذبتُه فأهلِك كما هلَك الذين كذبوا . إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد؛ فقال الله: **﴿ سيحلفونَ بالله لكمْ إذا انقلبْتمْ إليهم لِتعرضوا عنهم فأَعرِضُوا عنهم إنهم رِجْسٌ ومأواهم جهنَّم جزاءً بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لِترضَوْا عنهمْ فإنْ ترضوا عنهمْ فإنَّ الله لا يرضىٰ عن القوم الفاسقين ﴾** [التوبة : ٩٥ - ٩٦] .

قال كعب : كنا خُلِّفنا أيَّها الثلاثة عن أمْرِ أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلَفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمْرَنا حتى قضىٰ الله فيه ، فبذلك قال الله عزَّ وجل : **﴿ وعلىٰ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا ﴾** [التوبة : ١١٨] وليس الذي ذكر الله ممَّا خُلِّفْنا تخلُّفَنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيَّانا ، وإرجاؤه أمْرنا عمَّن حلَف له واعتذر إليه فقَبل منه » رواه مسلم(١) .

توْبةُ أبي محمد حبيب العجمي :

عن أبي نُعيم الحافظ ، قال : كان سببَ إقبال حبيب أبي محمد على الآجلة وانتقاله عن العاجلة ، حضوره مجلس الحسن ، فوقعتْ موعظتُه في قلبه ، فخرج عما كان يتصرَّف فيه ، ثقة بالله ومُكتفيًا بضمانه ، فاشترى نفسه من الله ، فتصدَّق بأربعين ألف درهم في أربع دَفْعاتٍ ، تصدَّق بعشرة آلاف درهم في أول النهار ، فقال : يا ربّ ، قد اشتريتُ نفسي منك بهذا . ثم أَتْبَعَها بعشرة آلافٍ

(١) صحيح مسلم ، جـ ٤ ، كتاب التوبة .

أخرى ، وقال : هذه شكرًا لما وفَّقْتني له . ثم أخرج عشرة آلافٍ أخرى ؛ وقال : يا ربّ ؛ إن لم تقبلْ مني الأولى والثانية ، فاقبلْ مني هذه . ثم تصدَّق بعشرة آلافٍ أخرى، فقال: يا ربّ، إنْ قبلت مني الثالثة، فهذه شكرًا لها[1] .

تَوْبَةُ الفُضَيْل بنِ عِيَاض :

كان الفضيل يقطع الطريق وحدَه ، فخرج ذاتَ ليلة ليقطعَ الطريق ، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلًا ، فقال بعضهم لبعض : اعدلوا بنا إلى هذه القرية ، فإن أمامنا رجلًا يقطع الطريق ، يُقال له : الفُضيل . فسمع الفضيل فأرعَدَ ، فقال: يا قوم، أنا الفضيل، جُوزوا، والله لأجتهدنَّ أن لا أعصي الله أبدًا. فرجع عمَّا كان عليه .

ورُوي من طريق أخرى : أنه أضافهم تلك الليلة ، وقال : أنتم آمِنون من الفضيل . وخرج يرتاد لهم علَفًا ثم رجع ، فسمع قارئًا يقرأ : ﴿ **أَلَمْ يأْنِ للذينَ آمنُوا أنْ تخشعَ قلوبُهم لذكْرِ الله** ﴾ [الحديد : ١٦] . قال : بلى والله ، قد آن . فكان هذا مبتدأَ توبتِه[2] .

تَوْبَةُ بِشْر بنِ الحَارث الحَافي :

كان بشر في زمن لَهْوه في داره ، وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون ، فاجتاز بهم رجل من الصالحين فدقَّ الباب فخرجتْ إليه جاريةٌ ، فقال : صاحب هذا الدار حُرٌّ أمْ عبدٌ ، فقالت : بل حرٌّ . فقال : صدقتِ ؛ لو كان عبدًا لاستعملَ أدب العبودية وترَكَ اللهو والطرب . فاستمع بشرٌ محاورتهما ، فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا ، وقد ولَّى الرجل ، فقال للجارية : ويحكِ ! من كلَّمك على الباب ؟ فأخبرتْه بما جرى ، فقال : أيّ ناحية أخذ الرجل ؟ فقالت : كذا . فتبعه

(١) التوابين ٢٠١ .

(٢) التوابين ص ٢٠٧ - ٢٠٨

بشر حتى لَحِقَه ، فقـال له : يا سيدي ، أنت الذي وقفتَ بالبـاب وخاطبْتَ الجارية ؟ قال : نعم . قال : أعِدْ عليَّ الكلام . فأعاده عليه ، فمرَّغ بشرٌ خدَّيْه على الأرض ، فقال : بل عبدٌ . ثم هام على وجهه حافيًا حاسرًا حتى عُرِف بالحَفَاءِ ، فقيل له : لِمَ لا تلبسُ نعلًا ؟ قال : لأني ما صالحني مولايَ إلَّا وأنا حافٍ ، فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات[1] .

ب - الصِّدْقُ في التوكُّل :

وقد مرَّ .

أن ترِدَ عليك موارد الفاقات ، فلا تسمو إلّا إلى مَن إليه الكفايات ، والاستسلام لتدبير الربِّ لك فيما يفعله بك ، لا فيما أَمَرك بفعله ، وأن تُنزل أمورَك كلها بالله طلبًا واختيارًا ، لا كرها واضطرارًا .

قال رسول الله ﷺ : « إن رجلًا مِن بني إسرائيلَ سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار ، فقال ائتني بالشهداء أُشهدهم . فقال : كفى بالله شهيدًا . قال : فأتني بالكفيل. قال كفى بالله كفيلًا. قال: صدقتَ: فدفعَها إليه إلى أجل مسمًّى ، فخرج في البحر فقضى حاجته ، ثم التمسَ مركبًا يركبها يُقدِم عليها للأجل الذي أجَّله ، فلم يجد مركبًا ، فأخذ خشبة ، فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار ، وصحيفةً منه إلى صاحبه ، ثم زجَّ[2] موضعَها ، ثم أتى بها إلى البحر ، فقال : اللهم إنك تعلم أني تسلَّفتُ فلانًا ألف دينار ، فسألني كفيلًا فقلتُ : كفى بالله كفيلًا ، وسألني شهيدًا فقلتُ : كفى بالله شهيدًا . فرضي بك ، وإني جَهِدتُ أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أجد ، وإني أستودعُكَهَا . فرمى بها إلى البحر ، حتى وَلَجتْ[3] فيه ، ثم انصـرف ، فخرج الرجل الذي كـان

---

(١) التوابين صـ ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) زجّ : أي سوّى موضع النقر وأصلحه .

(٢) وَلجَ : دخل .

أسلفه ، ينظر لعلَّه يجد مركبًا قد جاء بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حَطَبًا ، فلمَّا نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدِم الذي كان أسلفه ، فأتى بالألف دينار ، وقال : والله ما زلتُ جاهدًا في طلب مركبٍ لآتيك بمالك ، فما وجدتُ مركبًا قبل الذي أتيتُ فيه . قال : كنتَ بعثتَ إليَّ شيئًا ؟ قال أُخبرك أني لم أجدْ مركبًا قبل الذي جئتُ فيه . قال : فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثتَ في الخشبة . فانصرفَ بالألفِ دينار راشدًا[1] .

جـ - الصدقُ في الخوْف :

وقد مرّ علو هِمَّة زرارة بن أوفى وعليٍّ زين العابدين وعلي بن الفُضيَل ؛ إذا مرّوا بآيةٍ فيها ذكْر النار فكأنَّ زفيرها في آصال آذانهم .. قد براهم الخوْف بَرْيَ القِداح ، ويقال : قد خُولِطوا . وما خُولطوا ؛ ولكنه الخوْف !!

د ـ الصدقُ في الرضا :

وقد مرَّ .

هـ - الصدق في الاستقامة :

وقد مرَّ .

يقول الشاعر :

أردْناكمُ صِرْفًا فلمَّا مُزِجتُم ... بعُدْتُمْ بمقدار الْتفاتكمُ عَنَّا
وقلْنا لكمْ لا تُسْكِنوا القلْبَ غيرَنا ... فأسكنتمُ الأغيارَ ما أنتمُ مِنَّا

لو غفل عنه مولاه لحظة ، فأيّ شيء يعوِّض خسارته فيما فاته ؟ !

قال الشاعر :

كلُّ شيءٍ لكَ مغفُو ... رٌ سوى الإعراض عنا
قدْ غفرْنا لك ما فا ... ت بقي ما فات مِنَّا

(١) رواه أحمد (٢/٣٤٨) ، البخاري (٢/١٥٩) ، (٣/١٢٤) .

وصدق في الدعاء .

وصدق في تعظيم حُرُمات الله .

وصدق في الحياء والحبِّ والشوْق إلى الله .

أمَّا في عصرنا :

يُباح كلُّ شيء ... لمن ؟

لكـاتبٍ أقـلامُـهُ مشـدودةٌ بحبالِ صـوتِ جـلالةِ الأُمـراءِ
ولثائر يرنـو إلى الحرية الْـ حمـراءِ عَبْرَ الليلةِ الحمـراء
ويعومُ في عَرَقِ النضالِ ويحتسي أنخـابَـهُ في صحَّـةِ الأشـلاءِ
للموثِقين على الرِّباطِ رباطنـا والصانعينَ النصرَ في صنعـاءِ
ممّنْ يَرصُّون الصكوكَ بزحْفِهمْ ويُنـاضلـونَ بـرايـةٍ بيضـاءِ
ويُسافحونَ قضيةً من صُلبهـمْ ويُصافحونَ عـداوةَ الأعـداءِ
ويُخلِّفـون هـزيمةً لـمْ يعتـرفْ أحـدٌ بهـا مِنْ كثـرةِ الآبـاءِ
المُعْلنين من القصور قصورَهمْ واللاقطـينَ لقيطةَ اللُّقطــاءِ

وفي عصْــرِنا :

في كلِّ يوم يرتعُ الكَذِبُ الرَّخيص
على ضفاف الأُمَّةِ الثكْلَى
فترقصُ موْجةُ المذياع
تزهو الشاشة الصفراء
تنبت في أيادي الناس
مزبلة نسمِّيها صَحِيفه
في كل يوم يخرجُ المذياعُ والصحفُ اللَّقيطهْ
تُعلن البشرىٰ لشعبٍ ماتَ من زمنٍ
ويبدو في سَواد الليل كالعِفْريتِ أشباحًا مخيفهْ

وفي عصـــرنا :

الصـدقُ مليكٌ مطـرودٌ
لا جاهَ لديهِ ولا سلطـانْ
سَجنـوه دوامًـا في قفصٍ
سـرَقوا الأوسِمَةَ مَعَ التِّيجـانْ
صلَبـوا أجنحةَ الطيـرِ
وبـاعُـوا المـوتىٰ والأكفـانْ
قطعـوا أوردة الصـدقِ
ونصَبـوا سـرْكًا للبهتـانْ

* * *

الفصل الثالث
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
اليَقِينِ

مَعَ اللهِ طوعًا مع الله سوْقًا   هداةٌ دعاةٌ إلى ما أمَرْ
مع الله والفيْضُ مِن قُدْسِهِ   يُنير بصيرتَنا والبَصَرْ
ويدفعُ أعماقَ إيمانِنا   فرارًا إليهِ ونِعمَ المفَرْ
ونحيَا بهِ ثمَّ نحيا لهُ   ونحيا ونحيا ونحيا الدهرْ

[الأميري]

« اليقينُ : الإيمانُ كلُّه »

[الشعْبي]

□ عُلُوُّ الهمَّة في اليقين □

« اعلم يا أخي أن اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، وبه تفاضَل العارفون وفيه تنافسَ المتنافسون ، وإليه شمَّر العاملون ، وعمَلُ القوم إنما كان عليه وإشاراتُهم كلُّها إليه ، وإذا تزوَّج الصبر باليقين : وُلِد بينهما حصول الإمامة في الدين . قال الله تعالى – وبقوله يهتدي المهتدون – : ﴿ **وجعلنا منهمْ أئمةً يهدونَ بأمرِنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يُوقِنون** ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وخصَّ سبحانه أهلَ اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين ، فقال – وهو أصدق القائلين – : ﴿ **وفي الأرضِ آياتٌ للموقنين** ﴾ [الذاريات : ٢٠] .

وخصَّ أهلَ اليقين بالهدى والفلاح من بين العالَمين ، فقال : ﴿ **والذين يُؤْمنونَ بما أُنزلَ إليكَ وما أنزلَ مِنْ قبْلِكَ وبالآخرةِ هُمْ يُوقنونَ * أولئك على هدى من ربِّهم وأولئكَ هُمُ المُفلحون** ﴾ [البقرة : ٤ – ٥] .

وأَخبر عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهلِ اليقين ، فقال تعالى : ﴿ **وإذا قيلَ إنَّ وعد الله حق والساعةُ لا ريبَ فيها قلتمْ ما ندري ما الساعةُ إنْ نظنُّ إلَّا ظنًّا وما نحنُ بمستيقنين** ﴾ [الجاثية : ٣٢] .

فاليقين روح أعمال القلوب التي هي روح أعمال الجوارح ، وهو حقيقة الصِّدِّيقية ، وهو قُطْب هذا الشأن الذي عليه مدارُه »[1] .

التوكُّل ثمَرَةُ اليقينِ :

و« التوكُّل ثمرتُه ونتيجتُه ، ولهذا حسُن اقترانُ الهدى به ؛ قال تعالى : ﴿ **فتوكَّلْ علىٰ الله إنَّكَ على الحقِّ المبين** ﴾ ، [القصص : ٧٩] . فالحقُّ هو اليقين ،

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٧

وقالت رسُل الله : ﴿ **وما لنا ألَّا نتوكَّلَ على الله وقد هدانا سُبُلَنا** .. ﴾ الآية [إبراهيم : ١٢] . ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا ، وانتفى عنه كلُّ ريْب وشكٍّ وسُخْط ، وهمٍّ وغمٍّ ، فامتلأ محبَّةً لله وخوفًا منه ، ورضًا به وشكرًا له ، وتوكُّلًا عليه وإنابةً إليه ؛ فهو مادَّة جميع المقامات والحامل لها .

قال رسول الله ﷺ : « صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرُها بالبخل والأمل »[(١)].

وقال ﷺ : « نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخِرُها بالبخل والأمَل»[(٢)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدَّعوات لأصحابه : « اللهمَّ اقسمْ لنا مِن خشيتك ما يحولُ بيننا وبين معاصِيك ، ومن طاعتِك ما تبلِّغنا به جنتَكَ ، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا ، ومتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييْتَنا ، واجعلْه الوارث منَّا ، واجعلْ ثأرنا على مَن ظَلمنا ، وانصرْنا على من عادانا ، ولا تجعلْ مصيبتَنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ، ولا مبلغَ عِلْمِنا ، ولا تسلِّطْ علينا من لا يرحمنا »[(٣)].

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : « عليكم بالصدقِ فإنه معَ البر ، وهما في الجنة ، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور ، وهما في النار ، وسَلُوا الله المعافاة ؛ فإنه لم يُؤْتَ أحدٌ شيئًا بعدَ اليقين خيرٌ من المعافاة ، ولا تَقَاطَعوا، ولا تدابروا،

---

(١) حسن : أخرجه أحمد في « الزهد » والطبراني في « الأوسط » ، والبيهقي في « شُعب الإيمان » عن ابن عمرو ، وحسَّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم ٣٨٤٥ .
(٢) حسن : رواه ابن أبي الدنيا في « العقل وفضله واليقين » ، عن ابن عمرو ، وحسَّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم ٦٧٤٦ .
(٣) إسناده حسن : أخرجه الترمذي في الدعوات ، والحاكم بلفظ قريب منه ، وصحَّحه ووافقه الذهبي وأورده البغوي في « شرح السنة » وابن أبي الدنيا في اليقين ، وحسَّنه الألباني في« صحيح الجامع » رقم ١٢٧٩ ، والشيخ شعيب الأرناؤوط .

ولا تحاسدوا ، وكونوا عبادَ الله إخوانا »[١] .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : « ياحبَّذا نوم الأكياس وإفطارهم ، كيف يعيبون سهر الحمقى وصيامَهم ؟! ولَمثقال ذرَّةٍ من برٍّ ، من صاحب تقوى ويقين ، أفضل وأرجح وأعظم ، من أمثال الجبال عبادةً من المغْترين »[٢] .

قال أبو السريّ الباهليّ : « كان يُقال : الاهتمام بالعمل يُورث الفكرة ، والفكرة تُورث العِبْرة ، والعِبرة تُورث الحَزْم ، والحزم يُورث العزْم ، والعزْم يُورث اليقين ، واليقين يُورث الغِنى ، والغِنى يُورث الحبَّ ، والحبُّ يُورث اللِّقاء » .

وصحَّ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إنَّ الروح والفرَج في اليقين والرضا ، وإنَّ الغمَّ والحزن مِن الشَّكِّ والسُّخْط » .

وكان عطاء الخراساني لا يقوم من مجلسه حتى يقول : « اللهمَّ هَبْ لنا يقينًا بك حتى تهونَ علينا مصيباتُ الدنيا ، وحتى نعلم أنه لا يصيبنا إلّا ما كُتِب علينا ، ولا يأتينا من هذا الرزق إلّا ما قسَمْتَ لنا به » .

وقال بلال بن سعد: «عبادَ الرحمن، اعلموا أنكم تعملون في أيام قصار لأيَّام طِوال ، في دار زوال لدار مقام ، ودار حزن ونصَبٍ لدار نعيم وخُلدٍ ، ومَن لم يعملْ على اليقين فلا يغْترَّ » . وفي رواية : « فلا يتعنَّ » .

وقال رحمه الله : « كأنَّا قومٌ لا يعقلون ، وكأنَّا قومٌ لا يُوقنون » .

وقال رحمه الله : « عباد الرحمٰن ، أمَّا ما وكَّلكم الله به فتضيِّعونه ، وأمَّا ما تكفَّل لكم به فتطلبونه ، ما هكذا بعث الله عبادَه الموقنين . أَذَوُو عقولٍ في

---

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن ماجه ، وأحمد في مسنده ، وابن حبان ، والبخاري في الأدب المفرد .

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ١٧١ ، وأبو نعيم في الحلية ٢١١/١ .

طلب الدنيا ، وبُلْهٌ عمَّا خُلقتم له ؟! فكما ترجون رحمة الله بما تؤدُّون من طاعة الله عزَّ وجلَّ ، فكذلك أشفِقُوا من عذابِ الله بما تنتهكون من معاصي الله عزَّ وجلَّ »[1] .

وقال الحسن البصري : « ما رأيتُ يقينًا لا شكَّ فيه ، أشبهَ من شكٍّ لا يقين فيه ، من أمْرنا هذا » .

نعم ، كلُّنا قد أيقن بالموت ولا نرى له مستعِدًّا ، وكلُّنا قد أيقن بالجنة ولا نرى لها عاملًا ، كلُّنا قد أيقن بالنار ولا نرى لها خائفًا. أُمَّتُنا آخر الأمم ، ورسولنا ﷺ آخر الرسل ، وقد أُسرِع بخيارنا ، فما ننتظر إلَّا المعاينة ؟!

قال الجُنيد : اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغيَّر في القلب .

قال مالك بن دينار : أشهدكم أن يقيني شبكور[2] .

وقال : قد مشى رجال باليقين على الماء ، ومات بالعطش من هو أفضل منهم يقينًا .

وقال ابن عطاء : على قدْرِ قرْبهم من التقوى ، أدركوا من اليقين .

قال ابن القيم : وأصل « التقوى » مباينة النهي ، وهو مباينة النفس ، فعلى قدْر مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين .

وقالوا : اليقين لا يساكن قلبًا فيه سكون إلى غير الله .

وقال السّريُّ : اليقينُ سكونك عند جولان الموارد في صدرك ، لتيقُّنك أن حركتك فيها لا تنفعك ، ولا تردُّ عنك مَقضيًّا .

وقال أبو بكر الورَّاق : اليقينُ مِلاك القلب ، وبه كمال الإيمان ، وباليقين عُرف الله ، وبالعقل عُقل عن الله .

وقال ابن خفيف : هو تحقُّق الأسرار بأحكام المغيَّبات .

وقال أبو بكر بن طاهر : العلم تعارضه الشكوك ، واليقين لا شكَّ فيه .

وقال ذو النون : اليقين يدعو إلى قِصَر الأمل ، وقِصَرُ الأمل يدعو إلى الزهد ،

---

(١) صفة الصفوة ٢١٨/٤ - ٢١٩ ، والحلية ٣٣١/٥

(٢) الشبكرة : هي العشي ، والشبكور هو الذي لا يبصر بالليل .

والزهد يُورث الحكمة ، وهي تُورث النظر في العواقب .

اليقينُ : هلْ هوَ كَسْبيٌّ ، أو مَوْهِبي ؟

قال ابن القيِّم : « واختُلِفَ فيه : هل هو كسبيٌّ أو موهبيٌّ ؟

فقيل : هو العلم المستودَع في القلوب . يُشير إلى أنه غير كسبيّ .

وقال سهل : « اليقين من زيادة الإيمان » . ولا ريب أن الإيمان كسبيٌّ .

والتحقيق : أنه كسبيٌّ باعتبار أسبابه ، موهبيٌّ باعتبارِ نفسه وذاته ».

اليقينُ أَوَّلُهُ المكاشَفَة ، ثمَّ المُعَاينة والمشَاهَدَة :

قال ابن القيم : « قيل : اليقين هو المكاشفة . وهو على ثلاثة أوجه : مكاشفة في الأخبار .. ومكاشفة بإظهار القدرة . ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان .

ومراد القوم بالمكاشفة : ظهور الشيء للقلب ، بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئيِّ إلى العين ، فلا يبقى معه شكٌّ ولا ريب أصلًا . وهذا نهاية الإيمان . وهو مقام الإحسان .

وقد يريدون بها أمرًا آخرَ ، وهو ما يراه أحدهم في برزخ بين النوم واليقظة ، عند أوائل تجرُّد الروح عن البدَن .

ومَن أشار منهم إلى غير هذين ، فقد غلط ولُبِّس عليه .

قال سهل : ابتداؤه : المكاشفة ، كما قال بعض السلف : « لو كُشِف الغطاء ما ازددتُ يقينًا » . ثم المعاينة والمشاهدة »[(١)] .

اليقينُ علىٰ ثلاثةِ أوْجُهٍ : يقين خَبَرٍ ، ويقين دلالةٍ ، ويقين مُشاهَدَة :

قال ابن القيم : « قال أبو بكر الوراق : اليقينُ على ثلاثةِ أوجه : يقين خبرٍ ، ويقين دلالةٍ ، ويقين مشاهدةٍ .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

يريد بيقين الخبَر : سكون القلب إلى خبَر المخبِر وتوثُّقه به .

وبيقين الدلالة : ما هو فوقه ، وهو أن يُقيم له – مع وثوقه بصدْقه – الأدلَّة الدالَّة على ما أُخبِر به .

وهذا كعامَّة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن ؛ فإنه سبحانه – مع كونه أصدقَ الصادقين – يُقيم لعباده الأدلَّة والأمثال والبراهين على صدق أخباره ، فيحصل لهم اليقين من الوجهين ؛ من جهة الخبر ، ومن جهة الدليل ، فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة ، وهي : « يقين المكاشفة » ؛ بحيث يصير المخبَر به لقلوبهم كالمرئيِّ لعيونهم . فنسبة الإيمان بالغيْب حينئذٍ إلى القلب : كنسبة المرئي إلى العين ، وهذا أعلى أنواع المكاشَفَة ، وهي التي أشار إليها عامر بن عبد قيس في قوله : « لو كُشف الغطاءُ ما ازددتُ يقينًا » . وليس هذا من كلام رسول الله ﷺ ، ولا من قول عليٍّ ، كما يظنه من لا علم له بالمنقولات .

وقال بعضهم : رأيتُ الجنة والنار حقيقة . قيل له : وكيف ؟ قال : رأيتُهما بعيْني رسول الله ﷺ ، ورؤيتي لهما بعينيه : آثَرُ عندي من رؤيتي لهما بعينَي ؛ فإن بصري قد يطغَى ويَزيغ ، بخلاف بصره ﷺ .

و« اليقين » يحمله على الأهوال وركوب الأخطار ، وهو يأمر بالتقدُّم دائمًا ، فإن لم يقارنْه العلم ، حَمَلَ على المعاطب .

والعلمُ يأمُر بالتأخُّر والإحجام ، فإن لم يصحبه « اليقين » ، قعَد بصاحبه عن المكاسب والمغانم . والله أعلم »(١) .

اليقينُ والحُضُور :

قال ابن القيم في « المدارج » (٢/٣٩٩ - ٤٠٠) : « وقد اختُلف في

(١) مدارج السالكين ٢/٤٠٠ - ٤٠١

تفضيل اليقين على الحضور والحضور على اليقين .

فقيل :الحضور أفضل ؛ لأنه وَطَنات ، واليقين خطرات .

وبعضهم رجَّح اليقين ، وقال:هو غاية الإيمان .

والأول رأى أن اليقين ابتداء الحضور ، فكأنه جعل اليقين ابتداءً ، والحضور دوامًا .

وهذا الخلاف لا يتبيّن ؛ فإن اليقين لا ينفكُّ عن الحضور ، ولا الحضور عن اليقين ، بل في اليقين من زيادة الإيمان ، ومعرفة تفاصيله وشعبه ، وتنزيلها منازلها ؛ ما ليس في الحضور،فهو أكمل منه في هذا الوجه .

وفي الحضور من الجمعيَّة ، وعدم التفْرِقة ، والدخول في الفناء ؛ ما قد ينفكُّ عنه اليقين ، فاليقين أخصُّ بالمعرفة ، والحضور أخصُّ بالإرادة . والله أعلم » .

قال النهرجوري : إذا استكمل العبدُ حقائقَ اليقين ، صار البلاء عنده نعمةً ، والرخاءُ عنده مصيبة .

أخي ، العلم ما استعملك ، واليقين ما حملك . اليقينُ مركبٌ يركبُهُ السائرُ إلى الله ؛ فإنه لولا اليقينُ ما سار ركْبٌ إلى الله ، ولا ثبتَ لأحدٍ قدمٌ في السلوك إلّا به .

أعْلامُ اليقين :

قال ذو النون : « ثلاثة من أعلام اليقين :

قلة مخالطةِ الناس في العشْرة .

وترْك المدْح لهم في العطيَّة .

والتنزُّه عن ذمِّهم عند المنْع .

وثلاثة من أعلامه أيضًا :

النظر إلى الله في كلِّ شيء .
والرجوعُ إليه في كلِّ أمْر .
والاستعانة به في كلِّ حال »[1] .

درجَاتُ اليقين :

قال شيخ الإسلام الهروي ، الأنصاري : « وهو على ثلاث درجات .

الدرجةُ الأولى : علْمُ اليقين :

وهو قَبُول ما ظهر من الحقِّ ، وقبول ما غاب للحقِّ ، والوقوف على ما قام بالحق » .

قال ابن القيِّم في « المدارج » ، (٢/٤٠١ - ٤٠٣) : « ذكَر الشيخُ في هذه الدرجة ثلاثةَ أشياء ، هي متعلّق اليقين وأركانه :

الأول : قبُول ما ظهر من الحقِّ تعالى :

والذي ظهر منه سبحانه : أوامره ونواهيه وشرعه ، ودينه الذي ظهر لنا على ألْسنة رُسُله ، فنتلقَّاه بالقبول والانقياد ، والإذعان والتسليم للربوبية ، والدخول تحت رقِّ العبودية .

الثاني : قبول ما غاب للحقِّ :

وهو الإيمان بالغيب الذي أخبر به الحقُّ سبحانه على لسان رسله ؛ من أمور المعاد وتفصيله والجنة والنار . وما قبل ذلك ؛ من الصراط والميزان والحساب . وما قبل ذلك ؛ من تشقُّق السماء وانفطارها، وانتثار الكواكب ، ونسْف الجبال ، وطَيِّ العالم ، وما قبل ذلك ؛ من أمور البرزخ ، ونعيمه وعذابه . فقبول هذا

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٨

كله - إيمانًا وتصديقًا وإيقانًا - هو اليقين ، بحيث لا يخالج القلبَ فيه شبهةٌ ولا شك ، ولا تناسٍ ولا غفلةٌ عنه ؛ فإنه إنْ لم يُهلِكْ يقينه أفسده وأضعفه .

الثالث : الوقوف على ما قام بالحقِّ سبحانه :

من أسمائه وصفاته وأفعاله : وهو علْم التوحيد ، الذي أساسه : إثبات الأسماء والصفات ، وضدُّه : التعطيل والنفي والتجَهُّم . فهذا التوحيد يقابله التعطيل .

وأما التوحيد القصدي الإرادي ، الذي هو إخلاص العمل لله ، وعبادته وحده : فيقابله الشّرْك . والتعطيلُ شرٌّ من الشرك ؛ فإن المعطِّل جاحِد للذات أو لكمالها . وهو جحدٌ لحقيقة الإلهية ؛ فإن ذاتًا لا تسمع ولا تُبصر ، ولا تتكلم ولا ترضى ، ولا تغضب ولا تفعل شيئًا ، وليست داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة ، ولا مجانبة له ولا مباينة له ، ولا مجاورة ولا مجاوزةً ، ولا فوق العرش ولا تحت العرش ، ولا خلفه ولا أمامه ، ولا عن يمينه ولا عن يساره - سواءٌ هي والعدم .

والمشرك مُقِرٌّ بالله وصفاته ، لكنْ عَبدَ معه غيرَه ، فهو خير من المعطِّل للذات والصفات .

فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحقِّ ؛ من أسمائه وصفاته ، ونعوت كماله ، وتوحيده . وهذه الثلاثة أشرف علوم الخلائق : علم الأمْر والنهي ، وعلم الأسماء والصفات والتوحيد ، وعلم المعاد واليوم الآخر . والله أعلم » .

قال شيخ الإسلام الهروي :

« الدرجة الثانية : عَيْنُ اليقين :

وهو المُغني بالاستدلال عن الاستدلال ، وعن الخبر بالعِيان ، وخرَق الشُّهودُ حجابَ العلْم » .

قال ابن القيم : « الفرق بين علْم اليقين وعيْن اليقين كالفرق بين الخبر الصادق والعيان . وحقُّ اليقين فوق هذا .

وقد مثَّلتُ المراتب الثلاثةَ بمَن أخبرَك: أنَّ عنده عسلًا، وأنت لا تشكُّ في صِدْقه ، ثم أراك إيَّاه ، فازددتَ يقينًا ، ثم ذُقْتَ منه . فالأول : علْم اليقين ، والثاني : عيْن اليقين ، والثالث : حقُّ اليقين .

فعلْمُنا الآنَ بالجنة والنار : علْم يقين . فإذا أُزلفتِ الجنة في الموقف للمتقين وشاهدها الخلائق ، وبُرِّزت الجحيم للغاوين وعاينها الخلائق ، فذلك عين اليقين . فإذا أُدخل أهل الجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ؛ فذلك حينئذ حقُّ اليقين .

قوله : « هو المغني بالاستدلال عن الاستدلال » : يريد بالاستدلال : الإدراك والشهود ؛ يعني : صاحبه قد استغنى به عن طلب الدليل . فإنه إنما يطلب الدليل ليحصل له العلم بالمدلول ، فإذا كان المدلول مشاهَدًا له ، وقد أدركه بكشْفه ، فأي حاجة به إلى الاستدلال ؟!

وهذا معنى : « الاستغناء عن الخبَر بالعِيان » .

وأما قوله : « وخرَق الشُّهودُ حجابَ العلْم » : فيريد به : أنَّ المعارف التي تحصل لصاحب هذه الدرجة ، هي من الشهود الخارق لحجاب العلم ؛ فإن العلم حجابٌ عن الشهود . ففي هذه الدرجة يرتفع الحجاب ويُفضي إلى المعلوم ، بحيث يُكافِح بصيرتَه وقلبَه مكافحةً » .

قال شيخ الإسلام الهروي :

« **الدرجة الثالثة : حَقُّ اليَقين** :

وهو إسفار صُبْح الكشف ، ثم الخلاص من كُلْفة اليقين ، ثم الفناء في حقِّ اليقين » .

قال ابن القيم في المدارج ، (٢/٤٠٤ - ٤٠٦) « اعلمْ أنَّ هذه الدرجة لا تُنال في هذا العالَم إلَّا للرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؛ فإن نبينا ﷺ رأى بعينه الجنة والنار ، وموسى عليه السلام سمِعَ كلامَ الله - منه - إليه بلا واسطة ، وكلَّمه تكليمًا ، وتجلّى للجبل وموسى ينظر ، فجعله دَكًّا هشيمًا .

نعم ، يحصل لنا حقُّ اليقين من مرتبة ، وهي ذوْق ما أخبر به الرسول ﷺ من حقائق الإيمان ، المتعلِّقة بالقلوب وأعمالها ؛ فإن القلب إذا باشرها وذاقها صارت في حقِّه حقَّ يقينٍ .

وأما في أمور الآخرة والمعاد ، ورؤية الله جهرةً عِيانًا ، وسماع كلامه حقيقة بلا واسطة ، فحظُّ المؤمن منه في هذه الدار : الإيمان وعلم اليقين . وحقُّ اليقين يتأَخَّر إلى وقت اللقاء .

ولكنْ لمَّا كان السالك عنده ينتهي إلى الفناء ، ويتحقَّق شهود الحقيقة ، ويصل إلى عين الجمع ، قال : « حقُّ اليقين : هو إسفار صبح الكشْف » .

يعني: تحقُّقه وثبوته، وغَلَبة نوره على ظلْمة ليل الحجاب ، فينتقل من طوْر العلم إلى الاستغراق في الشهود ، بالفناء عن الرسم بالكلية .

وقوله : « ثم الخلاص من كُلْفة اليقين » : يعني أنَّ اليقين له حقوق يجبُ على صاحبه أن يُؤدِّيها ويقوم بها ، ويتحمَّل كُلَفها ومشاقَّها . فإذا فني في التوحيد ، حصل له أمور أخرى رفيعة عالية جدًّا ، يصير فيها محمولا بعد أن كان حاملًا ، وطائرًا بعد أن كان سائرًا ، فتزول عنه كُلْفة حمل تلك الحقوق ، بل يبقى له كالنفس وكالماء للسمك . وهذا أمْرٌ التحاكُم فيه إلى الذوق والإحساس[1] . فلا تسرعْ إلى إنكاره .

(١) قال الشيخ حامد الفقي : « بشرط أن يكون خاضعًا كل الخضوع لهدي رسول الله ﷺ ، وجاريًا على هدي رسالته متحريًا الاقتداء به وبأصحابه على عِلْم وبصيرة ، فليس كلّ ذوْق وإحساس . فما وقع مَن وقع في الهاوية إلَّا بتحكيمِ الذوْق والإحساس » .

وتأملْ حال ذلك الصحابي[1] الذي أخذ تمْراتِه ، وقعد يأكلها على حاجة وجوع وفاقة إليها ، فلمَّا عايَن سُوقَ الشهادة قامتْ ، ألقى قُوتَه من يده ، وقال: «إنها لَحياة طويلة، إن بقيتُ حتى آكل هذه التمرات». وألقاها من يده، وقاتل حتى قُتِل ، وكذلك أحوال الصحابة رضي الله عنهم ، كانت مطابقة لما أشار إليه .

لكنْ بقيتْ نكتة عظيمة ، وهي موضع السجْدة ، وهي أنَّ فناءَهم لم يكن في توحيد الربوبية ، وشهودِ الحقيقة التي يشير إليها أرباب الفناء ، بل في توحيد الإلهية ، ففنوا بحبِّه تعالى عن حبِّ ما سواه ، وبمراده منهم عن مرادهم وحظوظهم ، فلم يكونوا عاملين على فناء ، ولا إلى استغراق في الشهود ؛ بحيث يفْنُون به عن مراد محبوبهم منهم ، بل قد فنوا بمراده عن مرادهم ؛ فهم أهل بقاء في فناء ، وفرْق في جمْع ، وكثرة في وَحدة ، وحقيقة كونية في حقيقة دينية .

هُم القومُ لا قوم إلَّا هُمُ ولولاهُمُ ما اهتدينا السبيلَا

فنسبة أحوال مَن بعدَهم – الصحيحة الكاملة – إلى أحوالهم ، كنسبة ما يَرْشَح من الظرف والقِرْبة إلى ما في داخلها .

وأما الطريق المنحرفة الفاسدة : فسبيل غير سبيلهم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

الغِنىٰ هو اليقين :

اجتمع حُذيفة المرعشي وسليمان الخوَّاص ، ويوسف بن أسباط ، فتذاكروا الفقر والغِنىٰ، وسليمان ساكت، فقال بعضُهم: الغنيُّ من كان له بيت يُكِنُّه ، وثوب يستره ، وسدَاد من عيش يكفُّه عن فضول الدنيا . وقال بعضهم : الغنيُّ مَن لم يحتَجْ إلى الناس . فقيل لسليمان : ما تقول أنت يا أبا أيوب ؟ فبكى ، ثم قال : رأيتُ جوامع الغِنىٰ في التوكُّل ، ورأيتُ جوامع الشرِّ من

---

(١) الصحابي هو عُمير بن الحمام ، في بدر.

القنوط ، والغنيُّ حقُّ الغنى : من أسكن الله قلبَه مِن غناه يقينًا ، ومن معرفته توكُّلا ، ومن عطاياه وقسْمه رضًا ، فذاك الغنيُّ حقُّ الغني ، وإن أمسىٰ طاويًا وأصبح مُعوِزًا . فبكى القوم جميعًا من كلامه .

أَمثلةٌ عَطِرةٌ علىٰ عُلُوِّ الِهمَّة في اليقينِ والثقةِ باللهِ :

يزخر التاريخ بأمثلة عَطِرة على عُلُو الهِمَّة في اليقين والثقة بالله، نُوردها على عُجالة :

نوحٌ عليهِ السَّلام :

قال تعالى : ﴿ **واتلُ عليهمْ نبأ نوحٍ إذْ قالَ لقومهِ يا قوم إنْ كانَ كبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآياتِ الله فعلىٰ الله توكَّلتُ فأجمعُوا أمْرَكم وشركاءَكم ثمَّ لا يكنْ أمرُكم عليكمْ غُمَّةً ثمَّ اقضوا إلَيَّ ولا تُنظرون** ﴾ [يونس : ٧١] .

بعد الصبر الجميل والعَناء الكريم ، والإنذار الطويل والتذكير الطويل ، وبعد التكذيب الطويل ، كانت حلْقة التحدِّي الأخير ، وهو تحدٍّ صريحٌ مثير ، ليسَ غرورًا ، وليس كذلك تهوُّرًا ، وليس انتحارًا ، إنما هو تحدِّي القوة الحقيقية الكبرىٰ للقوىٰ الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان .

لقد كان مع نوح : الإيمانُ واليقينُ الذي يتضاءل أمامه الكثرة ، ويعجز أمامه التدبير . لقد كان معه الله الذي لا يدع أولياءَه لأولياء الشيطان .

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله .. وإنه لَينبغي لهم أن تمتلئ قلوبُهم بالثقة حتى تفيض ، وإن لهم أن يتوكَّلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أيًّا كان . ثم تكون الغلبة للمؤمنين . هذه سنة الله في الأرض ، وهذا وعده لأوليائه فيها ، فإذا طال الطريق على العُصْبة المؤمنة مرَّة ، فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق ، وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء ، وهي ماضية في الطريق .. والله لا يخدع أولياءه - سبحانه - ولا يعجز عن نصرهم بقوته ، ولا يسلِّمهم كذلك لأعدائه ، ولكنه يعلِّمهم ويدربهم ويزوِّدهم بزادِ الطريق .

هودٌ عليهِ السلام :

يقصُّ اللهُ مَقالة قومه له وردَّه عليهم : ﴿ **قالوا يا هودُ ما جئتَنا ببيِّنةٍ وما نحنُ بتاركي آلهتِنا عن قولِكَ وما نحنُ لكَ بمؤمنين إن نقولُ إلّا اعتراكَ بعضُ آلهتِنا بسُوءٍ قال إني أُشهدُ الله واشهدوا أني بريءٌ ممّا تشركون من دُونِهِ فكيدوني جميعًا ثمَّ لا تُنظرون إني توكَّلتُ على الله ربِّي وربِّكمْ ما مِن دابَّةٍ إلَّا هو آخذٌ بناصيتِها إنَّ ربّي على صراطٍ مستقيم** ﴾ [هود : ٥٣ - ٥٦].هذه ثقة الإيمان ويقينُه واطمئنانه ، وهذه عِزَّة الإيمان واستعلاؤه .

إنَّ الإنسان لَيدهَشُ لرجلٍ فردٍ يواجه قومًا غِلاظًا شدادًا حمقى ، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أنَّ هذه المعبودات الزائفة تمَسُّ رجلًا فيهذي ، ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هَذَيانًا من أثرِ المسِّ !! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة ، فيسفه عقيدَتهم ويقرعهم عليها ويؤنِّبهم ؛ ثم يُهيج ضراوتهم بالتحدي ، ولا يطلب مهْلة ليستعدَّ استعدادهم ، ولا يدعهم يتريَّثون فيفثأ غضبهم !! ولكن الدهشة تزول حين يتدبَّر العامِلَ والسبَبَ.. إنه اليقين والثقة.. اليقين الذي يَغمرُ القلب ، والثقة بوعده ، واليقين الذي يخالط القلب ، فإذا وعْدُ الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشكُّ فيها لحظة، وحاضر واقع تتملّاه العين والقلب ... ويبلغ الغاية من اليقين بقوله : ﴿ **إنَّ ربي على صراطٍ مستقيم** ﴾ .

خليلُ الرحمٰن إبراهيم ﷺ : أُنموذجٌ عَطِرٌ وعالٍ لليقين بالله :

وأيُّ موقف من مواقف الخليل لم يكن عُلُوَّ همة في اليقين ؟! بل والله إنه اليقين الذي يمشي على الرِّجْل ، وإنْ شئتَ فقلْ : كان خلُقُه اليقين في محاجَّته لقومه : ﴿ **وحاجَّهُ قومُه قالَ أتحاجُّونِّي في الله وقد هدانِ ولا أخافُ ما تُشركونَ به إلا أنْ يشاءَ ربي شيئًا وسِعَ ربِّي كلَّ شيءٍ عِلمًا أفلا تتذكَّرون وكيف أخافُ ما أشركتمْ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لمْ ينزِّل بِهِ عليكمْ سلطانًا فأيُّ الفريقَيْن أحقُّ بالأمْنِ إنْ كنتمْ تعلمون الذين آمنوا ولمْ يَلبِسوا إيمانَهمْ بظلمٍ أولئكَ**

لهُمُ الأمنُ وهمْ مهتدون ﴾ [الأنعام : ٨٠ - ٨٢] .

وهكذا واجه إبراهيمُ - الذي مِلْؤه اليقين، الذي يُحسُّ بعناية الله له ونعمه عليه في قلبه وعقله ، وفي الوجود كلِّه مِن حوله - قُوى الشَّرِّ . كيف يخاف مَن عنده هذا اليقين ؟! كيف يخاف مَن وجد الله ؟ وماذا يخاف ؟! ومَن ذا يخاف ؟!

وقوله لقومه : **﴿ أفرأيتمْ ما كنتمْ تعبدونَ أنتمْ وآباؤكُمُ الأقدمونَ فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يُطعمني ويسقين وإذا مرضتُ فهو يشفين والذي يُميتني ثم يُحيين والذي أطمعُ أنْ يغفر لي خطيئتي يومَ الدين ﴾** [الشعراء : ٧٥ - ٨٢] .

يجاهر بعدائه لآلهتهم ، ثم يُثني على ربِّه ، ويأخذ في صفته ، وصلته به في كلِّ حالٍ وفي كلِّ حين ، فنجد اليقين كلَّ اليقين ، والقربى الوثيقة ، والصلة النديَّة ، والشعور بقدرة الله وآلائه في كلِّ حركة ونأمة ، وفي كلِّ حاجة وغاية . ونستشعر من صفة إبراهيم لربه ، أنه يعيش بكيانه كلِّه مع ربه ، وأنه يتطلع إليه في ثقة ، ويتوجه إليه في حبٍّ .. يقين يملأ على إبراهيمَ قلبَه ومشاعره وجوارحه .. واستسلام مطلَق في طمأنينةٍ وراحةٍ ويقين .

وقوله لقومه : **﴿ وقالَ إنَّما اتخذتُمْ من دُون الله أوثانًا مودة بينكم في الحياةِ الدنيا ثمَّ يومَ القيامةِ يكفُرُ بعضُكمْ ببعضٍ ويلعنُ بعضُكمْ بعضًا ومأواكُمُ النارُ وما لكمْ مِن ناصرين ﴾** ، [العنكبوت : ٢٥] .

ويبدو هذا اليقين في هذه الآيات : **﴿ وتاللهِ لأَكيدَنَّ أصنامَكُمْ بعدَ أنْ تولُّوا مُدبرينَ * فجعَلَهُمْ جُذاذًا إلَّا كبيرًا لهم لعلَّهمْ إليهِ يَرجعون ﴾** ، [الأنبياء : ٥٧ - ٥٨] .

ثم استهزاؤه بأوثانهم يدلّ على يقينه بربِّه : **﴿ قالوا ءَأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم قالَ بلْ فعلَهُ كبيرُهم هذا فاسْألوهم إنْ كانوا ينطقون ﴾** ، [الأنبياء : ٦٢ - ٦٣] .

ويتجلّى الموقف الأكبر ليقينه وتوكُّله وثقته على ربِّه ، حينما يُلقونه في النيران ؛ يبدو له جبريل ويقول له : ألك حاجة ؟ فيلقاه : أما إليك فلا . ثم يردِّد نشيده العُلوي : « حَسبنا الله ونعم الوكيل » .. كل موقف من مواقف الخليل ملؤه اليقين والثقة والتوكُّل ... إلقاء طفله الرضيع وزوجه في البريَّة .. همُّه بذبْح ولده .. فلله درُّه ! وصلوات ربي وسلامه عليه .

كليمُ الله موسىٰ ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ **فَلمَّا ترآءا الجمعان قالَ أصحابُ موسى إنَّا لَمُدرَكُون * قال كلَّا إنَّ معيَ ربي سَيَهْدين** ﴾ ، [الشعراء : ٦١ - ٦٢] .

دلائل الحال كلها : أنْ لا مفرَّ والبحرُ أمامَهم والعدوُّ خلفَهُم ، وبلغ الكرْب مداه ، وإنْ هي إلا دقائقُ تمرُّ ثمَّ يهجم الموت ولا مناصَ ولا مُعينَ ، ولكنَّ موسى الذي تلقَّى الوحي من ربِّه ، لا يشكُّ لحظة،ومِلْءُ قلبه الثقة بربه واليقين بعوْنه ، والتأكُّد من النجاة ، وإن كان لا يدري كيف تكون ، فهي لا بدَّ كائنة ، والله هو الذي يوجِّهه ويرعاه . ﴿ **كلَّا** ﴾ : في شِدَّة وتوكيد ، كلَّا لن نكون مُدْرَكين . كلَّا لن نكون هالكين . كلّا لن نكون مفتونين . كلّا لن نكون ضائعين : ﴿ **كلَّا إن معيَ ربي سيهدين** ﴾ بهذا الجزم والتأكيد واليقين .

وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرْب ، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون .

رسولُ الله ﷺ القمَّة في عُلُوِّ الهمَّة :

ومَن كرسولِ الله ﷺ ، حينما يَشتدُّ الكرْب يبدو يقينُه مثالًا يُحتذىٰ ... ولا كرْب أشدُّ من ساعة الهجرة ؛ قال تعالى : ﴿ **إلَّا تنصروه فقدْ نصره الله إذْ أخرجه الذين كفروا ثانيَ اثنَيْنِ إذ هما في الغار إذْ يقولُ لصاحبِهِ لا تحزن إنَّ الله معنا فأنزل الله سكينتهُ عليه وأيَّده بجنود لم تروْها وجعَلَ كلمة الذين كفروا السُّفْلَى وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

يقول الصِّدِّيق وهو مَنْ هو : لو أن أحدهم نظر إلى قدمَيْه لَأبصَرَنا ، والرسول ﷺ يهدِّئُ من روعِهِ ويُطَمْئِنُ من قلبه ، فيقول له : « يا أبا بكر ما ظنك باثنَيْن الله ثالثهما ؟! » .

وفي أُحُدٍ لمَّا انكشف صفُّ المسلمين في نهاية المعركة ، يَصيح أبو سفيان : « اعلُ هُبَل » . ويأمر الرسول صحابته أن يُجيبوه : « الله أعلى وأجلّ » . فيصيح أبو سفيان :« لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم » . ويأمر الرسول ﷺ صحابته أن يجيبوه : « الله موْلانا ولا موْلى لكم » .

وفي حُنين يقول : « أنا النبيُّ لا كَذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

ويُسطِّرُ في القرآن الكريم اليقينُ العظيم لرسولنا ﷺ ﴿ ... **قل ادعوا شركاءَكم ثم كِيدُونِ فلا تنظرون * إنَّ وليِّيَ الله الذي نزَّلَ الكتابَ وهَو يتولَّى الصالحين** ﴾ ، [الأعراف : ١٩٤ - ١٩٥] .

تحدَّى بها رسول الله ﷺ المشركين في زمانه وآلهتهم المُدَّعاة ، في لهجة الواثق المطمئن إلى السند الذي يرْتكن إليه، ويحتمي به من كيدهم جميعًا، وإنها لَكلمةُ صاحبِ الدعوة إلى الله ، بعد رسول الله ﷺ ، في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمان .

إنه لا بدَّ لصاحب الدعوة إلى الله أن يتجرَّد من أسناد الأرض ، وأن يستهينَ كذلك بأسناد الأرض .

صاحب الدعوة إلى الله يرتكن إلى الله ، فما هذه الأسناد الأخرى إذن ؟! وماذا تساوي في حسِّه ؟! حتى لو قدَرَتْ على أذاه ؟! إنما تقدر على أذاه بإذن ربِّه الذي يتولَّاه ، لا عجزًا من ربِّه ولا تخلِّيًا منه سبحانه عن نصرة أوليائه .. إنما ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص .

« إن صاحب الدعوة إلى الله في كلِّ زمان وفي كل مكان ، لن يبلغ شيئًا إلَّا بمثل هذه الثقة ، وإلّا بمثل هذه العزيمة ، وإلَّا بمثل ذلك اليقين ... ومهما أسفر

الباطل من تعدٍّ ، وأطلق على الدعاة تهديده ، وبغى في وجه كلمة الحقِّ الهادئة ، وعرْبَد في التعبير والتفكير ... ينبغي على الدعاة أن يَمضوا في الطريق ، وأن يحملوا الواجب المُلْقى على عاتقهم »(١) .

وانظرْ إلى يقينه ﷺ بربِّه ، بعد أن جرَى له ما يَشيب لذكْره الولْدان في الطائف حين يقول لملك الجبال : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم مَن يعبد الله لا يشرك به شيئًا » . فهل بعد هذا اليقين يقين ؟!

سَحَرةُ فرْعونَ ويقينُهم العَالي الغالي :

قال تعالى : ﴿ **فأُلقِيَ السَحَرةُ ساجدينَ * قالوا آمنَّا بربِّ العالمين * ربِّ موسى وهارون * قال ءامنتمْ لهُ قبلَ أنْ آذنَ لكمْ إنهُ لكبيرُكُمُ الذي علَّمَكُمُ السِّحْرَ فلَسَوْف تعلمون لأُقطِّعنَّ أيديَكمْ وأرجلَكمْ من خلافٍ ولَأُصلبنَّكمْ أجمعين * قالوا لا ضيْرَ إنَّا إلى ربنا مُنقلِبون * إنَّا نطمَعُ أن يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا أنْ كنَّا أوَّلَ المؤمنين** ﴾ [الشعراء : ٤٦ - ٥١] .

إنها كلمة الفئة المؤمنة التي رأتِ النور وملأ اليقين قلبها ، كلمة القلب الذي وجدَ الله فلم يعُدْ يَحْفل ما يفقد بعد هذا الوجدان ، القلب الذي اتصل بالله فذاقَ طعْمَ العزَّة ، فلم يعد يحفل بالطغيان ، القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمُّه من أمرْ هذه الدنيا قليل ولا كثير ... لا ضيْر في تقطيع الأيدي والأرجُل من خِلاف .. لا ضير في التعذيب والتصليب ، لا ضير في الموت والاستشهاد.. ﴿ **لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ .. وليكنْ في هذه الأرض ما يكون .

يا لله !! يا لَروعة الإيمان !! إذْ يشرق في الضمائر، وإذْ يفيض على الأرواح، وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس ، وإذ يرتفع بسُلالة الطين إلى أعلى عِلِّيِّين ، وإذْ يملأ القلوب بالغِنَى والذّخر والوَفر ، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد . يا لجلال المشهد ويا للروعة الغامرة !!

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن لأحمد فايز .

وقال تعالى في الأعراف : ﴿ **وأُلقيَ السَّحَرَةُ ساجدين قالوا آمنَّا بربِّ العالمين ربِّ موسى وهارون** ﴾ ، [الأعراف : ١٢٠ - ١٢٢] . إنها صَوْلة الحقِّ واليقين في الضمائر ، ونور الحقِّ في المشاعر ، ولَمْسَة الحقِّ للقلوب المهيَّأة لتلقِّي الحقِّ والنور واليقين . تحوّل السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق ، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين . ولكنَّ الطواغيت المتجبِّرين لا يدركون كيف يتسرّب النور إلى قلوب البشر ، ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان ، ولا كيف تَلمَسُها حرارة اليقين ، فما كان من فرعون إلَّا أن قال : ﴿**آمنتمْ له قبلَ أنْ آذن لكمْ** ﴾ !! كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق ، أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم، أو يستأذنوه في أن تُشرق أرواحهم !! أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت في الأعماق ، أو يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار ، أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شِعاب اليقين !!

ولكنه الطاغوت جاهل غبيٌّ مطموس ، وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبِّر مغرور .

ولكن هيهات ؛ فقد جاء اليقينُ قلوبَ السحَرَة ، وتفتَّحتْ لهذه القلوب آفاقٌ مشرقة وضيئة ، لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عَرَض زائل ، ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافهٍ .

إن النفس البشرية حين تشِفُّ وترِقُّ باليقين ، وحين تستعلن فيها حقيقة الإيمان ؛ تستعلي على قوىٰ الأرض ، وتستهين ببأسِ الطغاة ، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة ، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم . إنها لا تقف لتسأل ماذا ستأخذ وماذا ستدع ؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع ؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب ؟ وماذا ستلقىٰ في الطريق من صِعابٍ وأشواك وتضحيات ؟ لأن الأفق المشرق الوضيّ أمامها هناك ، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق .

إنها لمسَة اليقين في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون ، وتعدُّ

القربى منه مغنمًا يتسابق إليه المتسابقون ، فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة ، وترخّص مُلْكه وزُخْرُفَه وجاهَهُ وسلطانه ؛ ﴿ **قالوا لن نُؤْثرك على ما جاءنا من البيِّنات والذي فطرنا**﴾؛ فهي علينا أعزُّ وأغلى، وهو- جلّ شأنه- أجلُّ وأعلى: ﴿ **فاقض ما أنتَ قاضٍ إنما تقضي هذهِ الحياةَ الدنيا إنَّا آمنَّا بربِّنا لِيغفرَ لنا خطايانا وما أكرهتَنَا عليه من السِّحْر والله خيرٌ وأبقى** ﴾ [طه : ٧٢ - ٧٣] ؛ خيرٌ قسمةً وجوارًا ، وأبقى مغنمًا وجزاءً .

﴿ **قالوا إنا إلى ربِّنا منقلبونَ وما تنقمُ منَّا إلّا أنْ آمنَّا بآياتِ ربِّنا لمَّا جاءتْنا ربَّنا أفرغْ علينا صبْرًا وتوفَّنا مسلمين** ﴾ . [الأعراف : ١٢٥ - ١٢٦] . إنه اليقين الذي لا يفزَعُ ولا يتزعزع ، كما أنه لا يخضع ولا يخنع ، اليقين الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها ، ويستيقن من الرجعة إلى ربِّه فيطمئن إلى جواره .

وهزأت القلوب الموقنة بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهتْه بكلمة الإيمان القوية ، وباستعلاء الإيمان الواثق ، وبتحذير الإيمان الناصع ، وبرجاء الإيمان العميق .

ويقف الطغيان عاجزًا أمام اليقين ، وماذا يملك الطغيان إذا رغبتِ القلوب في جوار الله ؟! وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمتِ القلوب بالله ؟! وماذا يملك السلطان إذا رغبتِ القلوب عمَّا يملك السلطان ؟!

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلانًا لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض ، وعلى الطمع في المثوبة والخوف من السلطان . وما يملك القلب البشريُّ أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلّا في ظلال اليقين .

إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية ، هذا الذي كان بين فرعون ومَلَئِهِ ، والمؤمنين من السَّحَرة السابقين .

إنه موقفٌ حاسمٌ في تاريخ البشرية ؛ بانتصار العقيدة على الحياة ، وانتصار العزيمةِ على الألم ، وانتصار الإنسان على الشيطان .

إنه موقفٌ حاسمٌ في تاريخ البشرية بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية ، فما الحرية إلّا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبِّرين وطغيان الطغاة ، ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب ، فقد وُلِدتِ الحرية الحقيقيَّة في هذه القلوب .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية ؛ فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوْز ، وتمنَّى بالقُرْب من السلطان ، هي ذاتها التي تستعلي على فرعون ، وتستهين بالتهديد والوعيد ، وتُقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب ؛ وما تغيَّر في حياتها شيء ، ولا تغيَّر من حولها شيء ، إنما وقع الحقُّ واليقين في القلوب واستقرَّ وثبت ، وتسمَّع الضميرُ أصداء الهداية ، وتلقَّت البصيرة إشراقاتِ النور ، فرفعتِ الإنسانَ من عالَمِ الواقع إلى الآفاق التي لم يكن يطمحُ إليها الخيال .

ويذهب التهديد ، ويتلاشى الوعيد ، ويمضي الإيمان في طريقه ، لا يتلفَّتُ ولا يتردَّد ولا يحيد . ويُقدِمُ أهلُ الإيمان على الموت مستهينين ؛ ليقينهم بأنهم هم المؤمنون بربِّ العالمين ، وأنَّ عدوَّهم على غير دينهم ، يُنكر ربوبية ربِّ العالمين . وما كان أن يمضي المؤمنون في طريق الدعوة إلى رب العالمين على ما ينتظرهم من التعذيب والتنكيل ؛ إلَّا بمثل هذا اليقين بشقَّيْه : أنهم هم المؤمنون وأن أعداءهم هم الكافرون ، وأنهم إنما يحاربونهم على الدين ، ولا ينقمون منهم إلا هذا الدين .

فلله ما أروعه من مشهد نعجز عن القول فيه !! وتعجز البشرية !! ولا يصوِّره بصدْقٍ إلَّا القرآن الكريم !!

نماذجُ مِنْ الجيلِ السامِق الذي تَربَّى بالقرآن ، وصنِع على عَيْنِ النبي ﷺ :

ابن مسعود رضي الله عنه :

تناوله المشركون بالأذى ، لأنه أسمعهم القرآن في ناديهم إلى جوار الكعبة ،

حتى تركوه وهو يترنَّح لا يصلب قامته ، فكان يقول بعد هذا الأذى المنكر الفاجِر الذي ناله : « والله ما كانوا أهونَ عليَّ منهم حينذاك » !! .

كان يستيقن أنَّ الذي يحادُّ الله مغلوبٌ هيِّنٌ على الله ، فينبغي أن يكون مَهينًا عند أولياءِ الله .

ابنُ مَظْعُون رضي الله عنه :

وهذا عثمان بن مظعون يردُّ جِوار عُتبة بن ربيعة ، ويضربه المشركون ، وآذوه حتى خسروا عينه ، فدعاه عُتبة إلى جواره ، فقال لعتبة : « لَأَنا في جوارِ مَن هو أعز منك » !! ولمَّا قال له عتبة : « يا ابن أخي ، لقد كانت عينُكَ في غنى عمَّا أصابها » . فقال : « لا والله ، ولَلْأُخرى أحقُّ لما يُصلحُها في سبيل الله » .

كان يعلم أنَّ جوار ربِّه أعزُّ من جوار العبيد ، وكان يستيقن أنَّ ربه لا يتخلَّى عنه ، ولو تركه يُؤذَىٰ في سبيله هذا الأذىٰ ، لترتفع نفسه إلى هذا الأفق العجيب : « لا والله ، ولَلأُخرى أحقُّ لِمَا يُصلحها في سبيل الله » .

لقد احتملوا الأذىٰ بثقة في الله لا تتزعزع ، وبعزمةٍ في الله لا تلين .

وللأَنصار يقينٌ أَغْربُ من الخيالِ وأطيبُ من المِسْك :

كان للأنصار يقينٌ كامل ، وثقة سامية بالله ورسوله ﷺ ؛ وخذْ على هذا مثالًا :

في يوم العَقَبة الْتقىٰ رسول الله ﷺ بالوفد الثاني للأنصار ، وكان من أمْرهم كما قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري : « يا معشر الخزرج ، هل تدرون علامَ تُبايعون هذا الرجل ؟ قالوا: نعم ! قال: إنكم تبايعونه على حرْب الأحمر والأسود من الناس ؛ فإن كنتم ترَون أنكم إذا أُنهكتْ أموالكُمْ مُصيبة وأشرافكم قتلًا ، أسلمتموه ؟ فمِن الآن ، فهو - والله - إن فعلتم خزيُ الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترَوْن أنكم وافون له بما دعوتموه على نهكة الأموال وقتل الأشراف ،

فخذوه ؛ فهو - والله - خيرُ الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتْل الأشراف » .

وعند الإمام أحمد من حديث بيعة العقبة : « فقلنا - أي الأنصار - : يا رسول الله، نبايعك ؟ قال : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومةَ لائمٍ ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمتُ عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجَكم وأبناءكم ، ولكم الجنة ؟ » . قال: فقمنا إليه فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم، فقال: رويدًا يا أهل يثرب ؛ فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل ، إلَّا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ ، وإن إخراجَه اليومَ مفارقةُ العرب كافَّة ، وقتْل خياركم وتعضُّكم السيوف ، فإمَّا أنتم قوم تصبرون على ذلك ؛ وأجركم على الله ، وإمَّا أنتم قوم تخافون مِن أنفسكم جبينةً ، فبيِّنُوا ذلك ؛ فهو أعذر لكم عند الله ، قالوا : أَمِطْ عنَّا يا أسعد ؛ فوالله لا ندع هذه البَيْعة أبدًا ولا نسلبها أبدًا »[1] .

« وهذه امرأة من بني عبد الدار عرفت معنى اليقين والثقة ، فعبَّرت عنها بكلمات بقيتْ تُزينُ صدر التاريخ ، وأصبحت أمانة في عنق كلِّ مسلمة ؛ وذلك عندما أُخبرتْ باستشهاد زوجها وأخيها وأبيها ، قالت : ماذا صنع رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : هو بخير . قالت : كلُّ مصيبة بعدك يا رسول الله جلل[2] »[3] .

---

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي ، وقال ابن كثير : وهذا إسناد جيّد على شرط مسلم . وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٢٢/٧) : رواه أحمد بإسناد حسن .

(٢) جلَل : هينة .

(٣) الرسول القائد : لمحمود شيت خطاب .

وفي هذا الجيلِ السامِق نزلت آياتٌ :

قال تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول مِن بعد ما أصابَهُمُ القَرْحُ للذينَ أَحسنـوا منهم واتقَـوْا أجرٌ عظيمٌ * الذين قال لهُمُ الناسُ إنَّ الناسَ قـد جمَعُوا لكمْ فاخشوهُمْ فزادهم إيمانًا وقالوا حسبُنا الله ونعْمَ الوكيل * فانقلبُوا بنعمةٍ من الله وفضْلٍ لم يمسَسْهمْ سُوءٌ واتبعوا رضوانَ الله والله ذو فضلٍ عظيمٍ ﴾ ، [آل عمران : ١٧٢ - ١٧٤] .

لله درُّ هؤلاءِ النفرِ من الصحابة !! دعاهم رسول الله ﷺ إلى الخـروج معه كرَّةً أخرى في « حمراء الأسد » غدَاة المعركة المريرة ، وهم مُثْخَنُون بالجراح ، وهم ناجون بشِقِّ الأنفس من الموت أمسِ في المعركة ، وهم لم ينسوا بعدُ هـوْلَ الدعْكَة ومرارة الهزيمة وشِدَّة الكرْبِ ، وقد فقدوا من أعزَّائهم مَن فقدوا ، فَقـلَّ عددهم ، فوق ما هم مُثْخَنون بالجراح ، ولقد دعاهم رسول الله ﷺ ، ودعاهم وحدهم فاستجابوا لدعوته ... لليقين الذي يغمر قلوبَهم ، وليُعْلِموا الدنيا أن هناك عقيدةً هي كلُّ شيء في نفوس أصحابها، ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها، وليس لهم من غاية في حياتهم سواها ، عقيدة يعيشون لها وحدها ، فلا يبقىٰ لهم في أنفسهم شيء بعدها، ولا يستَبْقون هم لأنفسهم بقيَّة في أنفسهم لا يبذلونها لها ، ولم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة ، من خروج هؤلاء الـذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أَصابهم القَرْح ، ومن خروجهم بهذه الصورة الرائعة الناصعة الهائلة ؛ صورة التوكُّل على الله وحده ، واليقين به .

وقال تعالى : ﴿ ولمَّا رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هـذا ما وعـدَنا الله ورسولُهُ وصدق الله ورسولهُ وما زادهم إلّا إيمانًا وتسليمًا ﴾ ، [الأحزاب : ٢٢]. مع الزلزلة ، وزوَغان الأبصار ، وكرْب الأنفاس ؛ صِلَةٌ لا تنقطع بالله، وإدراك لا يضلُّ عن سنن الله ، وثقة لا تتزعزع بثبات هذه السنن ، ويقين لا يخالجه الشكُّ بربِّهم ، وارتباط بالعروة الوثقىٰ يشدُّهم إلى الله ويجدد فيهم الأمل .. يتخـذون

من الزلزال بشيرًا بالنصر ، وكانوا بهذا نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية ، لم يُعرَف له نظير .

الصِّدِّيقُ الأكبرُ رضي الله عنه ويقينُه الكبيرُ يومَ موْتِ رسول الله ﷺ :

مَن شاء أن يرىٰ يقين أبي بكر في أحفل ساعاته ، من شاء أن يرىٰ اليقين العُلْوِيَّ الموصول بقيُّوم السموات والأرض ، فلْيرَ هذا اليقين يومَ دُعي الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، فأجاب ورحل عن الحياة والأحياء ، يومئذٍ تكشَّف هذا الجوهر ... يقين لا يضعف بل يتفوَّق ، ولا يجزع بل يحتشد ، ولا ينوء تحت وقْع الضربة ، بل ينهض أيِّدًا رشيدًا ثابتًا ليحمل مسئولياته وتبِعاته !!

وقف يقين أبي بكر يومَ وفاة الرسول ﷺ وقفة ما كان يقدر عليها سواه ، يومَ أن قال عمر : « إنَّ رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات ، وإنه والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عمران ... والله لَيرجعنَّ رسول الله ، فلَيقطِّعنَّ أيديَ رجال زعموا أنه مات » ... « ألا ، لا أسمع أحدًا يقول : إن رسول الله مات ، إلّا فَلَقْتُ هامَتَهُ بسيفي هذا » .

وأقبل أبو بكر يكلِّم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء ، ودخل على رسول الله ﷺ وهو مسجًّى في ناحية البيت ، عليه بُرْدُ حَبَرَة ، فكشف عن وجهه ثم قبَّله ، وقال : « بأبي أنت وأمي ، طبتَ حيًّا وميِّتًا ، إن الموتة التي كتبها الله عليك قد مِتَّها » . ثم ردَّ الثوب على وجه الرسول ﷺ ، ثم خرج وأقبل على الناس يكلِّمهم ، فلما سمِعوه أقبلوا عليه منصتين ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيُّها الناس ، مَن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومَن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت » . ثم تلا هذه الآية ﴿ **وما محمد إلّا رسول قد خلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُل أفإنْ مات أو قُتِلَ انقلبتُم على أعقابكم ومَن ينقلب على عقبَيْه فلن يضرَّ الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] . فوالله لَكأنَّ الناسَ يسمعون هذه الآية لأوَّلِ مرة ... أما عمر فقد وقع على الأرض حين علم من كلمات أبي بكر أنه الموت حقًّا .

وهكذا كان يقين أبي بكر يُشبه عيْنَ الصقْر ، يقع في أقلّ مِن لمْح البصر على كلمة السِّرِّ التي ستردُّ الهمَمَ المنْسَحِقَةَ تحت وطأة الفاجعة ، إلى وعْيٍ قدير يستقبل تبعاته الجِسَام ، ويَعبُر أزمة الموت بسلام !!

إذن يا خيلَ الله اركبي ... ويارايةَ الله ارتفعي ... ويا حَمَلة هذه الراية قوموا ... انهضوا ... واصلوا رحلة الشمس المشرقة .

لقد فعل يقين أبي بكر في الصحابة ما فعل واستقبلوا الأمر بالعزْم الأَيِّد.. .

ومِن قبلُ قالَها ثابتُ بنُ الدَّحْدَاحَةِ وأنسُ بنُ النضر رضي الله عنهما :

لما نادىٰ الشيطان يومَ أُحُد : « ألا إن محمدًا قد مات » . أُسقِطَ في أيدي نفَر من الصحابة ، فَماذا تمَّ ؟

في « الاستيعاب » (١/١٩٥) ، وعند الواقدي ، عن عبد الله بن عمَّار الخطمي قال : « أقبل ثابت بن الدحْدَاحَة رضي الله عنه يومَ أُحد والمسلمون أوزاع ؛ قد سُقِط في أيديهم ، فجعل يَصيح :يا معشر الأنصار ، إليَّ إليَّ ، أنا ثابت بن الدحداحة ، إن كان محمد ﷺ قد قُتِل ، فإن الله حيٌّ لا يموت ، فقاتِلوا عن دينكم ؛ فإنَّ الله مُظهِركم وناصِرُكم ، فنهض إليه نَفَرٌ من الأنصار ، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين ، وقد وقفتْ له كتيبةٌ خشناءُ فيها رؤساؤهم : خالد ابن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعِكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، فجعلوا يناوشونهم ، وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه فأنفذه ، فوقع فيها ، وقُتل مَن كان معه من الأنصار » .

وفي « البداية » ، (٣٤/٤) ، عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخي بني عدي بن النجار ، قال:انتهى أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله ، في رجالٍ من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم ، وقد ألقوا أيديهم ، فقال : فما يجلسكم ؟ قالوا : قُتِل رسولُ الله ﷺ . قال فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا ، فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ . ثم

استقبل القوم ، فقاتل حتى قُتل .

قال ابن كثير في « تفسيره » (٢/١٠٩) : « قال ابن أبي نجيح ، عن أبيه : أنَّ رجلًا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار ، وهو يتشحَّط[١] في دمه ، فقال له : يا فلان ، أشعرتَ أن محمدًا ﷺ قد قُتِل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قُتل فقد بلَّغ ، فقاتِلوا عن دينكم . فنزل : ﴿ **وما محمد إلَّا رسول قد خلتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُل** ﴾ » .

يا سبحان الله الذي أعلى هِمَمَ الصحابة ويقينهم بدينهم ، ودعوتهم الضاربة في جذور الزمن ، العميقة في منابت التاريخ ، المبتدِئة مع البشرية ، تحدو لها بالهدىٰ والسلام مِن مطالع الطريق . وهي أكبر من الداعية وأبقى من الداعية ، وتبقىٰ هي على الأجيال والقرون .

علَّمهم الرسول ووصلَهم مباشرة بالعروة الوثقى ... ويقينهم الكبيرُ أنَّ النبع لم يفجِّره محمد ﷺ ، ولكن جاء فقط لِيُومئ إليه ، ويدعو البشر إلى فَيْض هذا الدين المتدفِّق ، كما أَوْمَأَ إليه من قبله الرسلُ ، ودعوا القافلة إلى الارتواء منه .

اليقينُ السَّامِق لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه :

عن أبي سعيد ، قال : بينا النبي ﷺ يقسِم ، جاء عبد الله بن ذي الخُوَيْصِرة التميمي ، فقال : اعدل يا رسول الله . فقال : « ويلك !! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ » . قال عمر بن الخطاب : دعني أضرب عنقه . قال : « دعه ؛ فإنَّ له أصحابًا يحقر أحدُكم صلاتَه مع صلاته[٢] وصيامه مع صيامِه[٢] ، يمرقون من الدين كما يمرُق السهمُ من الرمِيَّةِ ، يُنظر في قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر إلى نصْلِهِ فلا يُوجد فيه شيء ، ثم يُنظر إلى رِصافِه فلا يُوجد فيه شيء ، ثم يُنظر

(١) أي يتخبط فيه ويتمرَّغ .

(٢) وفي رواية للبخاري أيضًا:« صلاتهم .. صيامهم » .

في نِضِيِّه فلا يُوجد فيه شيء ، قد سبق الفرْث والدَّمَ . آيتُهم : رجلٌ إحدى يديْه - أو قال : ثدْيَيْه - مثل ثدي المرأة . أو قال : مثل البضعة تَدَرْدَرُ[1] يخرجون على حين فُرقة من الناس » .

قال أبو سعيد : أشهد سمعتُ من النبي ﷺ ، وأشهد أن عليًّا قتلهم وأنا معه ؛ جيءَ بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ قال : فنزلتْ فيه : ﴿ **ومنهمْ مَن يلمزُك في الصدقات** ﴾[2] . رواه البخاري .

وآية الخوارج ، كما جاء في رواية علي عند مسلم : « فيهم رَجُلٌ مُخْدَج اليد أو مودن اليد أو مثدون اليد » .

وفي رواية أخرى عند مسلم لعليٍّ : « وغاية ذلك أن فيهم رجلًا له عَضُد ليس له ذراع ، على رأس عَضُده مثل حَلَمة الثدي عليها شعرات بيض » .

ولما خرجت الخوارج علىٰ عليٍّ وكانوا ثمانية آلافٍ من قُرَّاء الناس ، ونزل بحروراء فناظرهم علي ، فرجع منهم أربعة آلاف فيهم عبد الله بن الكواء ، فبعث عليٌّ إلى الآخرين أن يرجعوا فأبوا ، فأرسل إليهم : كونوا حيث شئتم ، وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا ، ولا تقطعوا سبيلًا ولا تظلموا أحدًا ، فإن فعلتم نبذتم إليكم الحرب .

قال عبد الله بن شدَّاد : فوالله ما قتلهم حتى قطعوا السبيل ، وسفكوا الدم الحرام ، وذلك بقتلهم عبد الله بن خباب بن الأرت ، وبقروا بطن سُرِّيَّتِهِ .

« وفي « الأوسط » للطبراني : عن جندب بن عبد الله البجَلي ، قال : لما فارقت الخوارجُ عليًّا ، خرج في طلبهم ، فانتهينا إلىٰ عسكرهم ، فإذا لهم دَوِيٌّ كدويِّ النحل من قراءة القرآن ، وإذا فيهم أصحاب البرانِس . أي الذين كانوا معروفين بالزهد والعبادة . قال : فدخلني من ذلك شِدَّة ، فنزلتُ عن فرسي.

---

(١) تَدَرْدَر : أي تتدردر ، ومعناه تتحرَّك وتذهب وتجيء .

(٢) رواه البخاري في كتاب : « استتابة المرتدين » باب : مَن ترَك قتال الخوارج للتألف .

وقمتُ أصلي ، فقلتُ : اللهمَّ إنْ كان في قتال هؤلاء القوم لك طاعة فائذنْ لي فيه . فمرَّ بي عليٌّ ، فقال لمَّا حاذاني : تعوَّذْ بالله من الشكِّ يا جندب . فلما جئتُه أَقبل رجلٌ على بِرْذَوْنٍ يقول : إنْ كان لك بالقوم حاجة ، فإنهم قد قطعوا النهر . قال : ما قطعوه . ثم جاء آخر كذلك ، ثم جاء آخر كذلك . قال : لا ، ما قطعوه ، ولا يقطعونه ، ولَيقتلنَّ مَن دُونه عهدٌ من الله ورسوله . قلتُ : الله أكبر . ثم ركبنا فسايرته ، فقال لي : سأبعث إليهم رجلًا يقرأ المصحف يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيهم ، فلا يُقبل علينا بوجهه حتى يرشقوه بالنبْل ، ولا يقتل منا عشرة ولا ينجو منهم عشرة . قال : فانتهينا إلى القوم ، فأرسل إليهم رجلًا فرماه إنسان ، فأقبل علينا بوجهه فقعد ، وقال عليّ : دونكم القومَ . فما قُتل منَّا عشرة ولا نجا منهم عشرة » .

وفي رواية زيد بن وهب : « فقال عليٌّ : الْتمسوا فيهم المخْرج . فالتمسوه فلم يجدوه ، فقام عليٌّ بنفسه حتى أتى ناسًا قد قُتل بعضُهم على بعضٍ ، قال:أَخِّروهم . فوجده ممَّا يلي الأرض ، فكبَّر ، ثم قال : صدَقَ الله وبلَّغ رسولهُ » .

وفي رواية عبيد الله بن أبي رافع : « فلمَّا قتلهم عليٌّ قال : انظروا . فنظروا ، فلم يجدوا شيئًا ، فقال : ارجعوا ؛ فوالله ما كُذِبتُ ، ولا كَذبتُ . مرتين أو ثلاثًا ، ثم وجدوه في خَرِبة ، فأتوا به حتى وضعوه بين يديْه » . أخرجها مسلم .

وفي رواية للطبري من طريق زيد بن وهب : « فقال عليٌّ : اطلبوا ذا الثدية . فطلبوه فلم يجدوه ، فقال : ما كُذبتُ ولا كَذبتُ ، اطلبوه . فطلبوه ، فوجدوه في وَهْدةٍ من الأرض ، عليه ناس من القتلى ، فإذا رجل على يده مثل سبلات السِّنَّور ، فكبَّر عليٌّ والناس ، وأعجَبَه ذلك »[1] .

---

(١) فتح الباري ١٢/٣١٠ - ٣١١ .

وفرح الناس حين رأوه واستبشروا ، وذهب عنهم ما كانوا يجدونه ، ورحمهم الله بيقين عليٍّ .

اليقين الغالي لشيخ الإسلام ابن تيمية ذي القدْر العَالي :

في الليلة التي سبقتْ مناظرتَه للبطائحيَّة وشيوخهم أمام نائب السلطنة ، استخار ربَّه واستعانه واستنصره واستهداه ، قال : « وسلكتُ سبيلَ عباد الله في مثل هذه المسالك ، حتى ألقي في قلبي أنْ أَدخُل النار عند الحاجة إلى ذلك ، وأنها تكون بَردًا وسلامًا على مَنِ اتَّبع ملَّةَ الخليل ، وأنها تحرق أشباه الصابئة ، أهل الخروج عن هذه السبيل ، وبين الصابئة ومَن ضلَّ من العباد المنتسبين إلى هذا الدين ، نسبٌ يعرفه مَن عرف الحقَّ المبين » .

ولمَّا حضر ابن تيمية والرفاعية وشيوخهم أمام نائب السلطان ؛ قال ابن تيمية : « هم يزعمون أن لهم أحوالًا يدخلون بها النار ، وأن أهل الشريعة لا يقدِرون على ذلك ، ويقولون : لنا هذه الأحوال التي يعجزُ عنها أهلُ الشرع ، ليس لهم أن يعترضوا علينا ، بل يُسلم إلينا ما نحن عليه ، سواء وافق الشرعَ أو خالَفه . وأنا قد استخرتُ الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخُلُ أنا وهم ، ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنةُ الله ، وكان مغلوبًا ، وذلك بعد أن نغسِل جُسومنا بالخلِّ والماء الحارِّ . فقال الأمير : ولِمَ ذاك ؟ قلتُ : لأنهم يَطلُون جُسومَهم بأدوية يصنعونها من دُهن الضفادع ، وباطِن قِشْر النارنج ، وحَجَر الطلْق ، وغير ذلك من الحِيَل المعروفة لهم ، وأنا لا أطلي جِلدي بشيء ، فإذا اغتسلتُ أنا وهم بالخلِّ والماء الحارِّ ، بطلتِ الحِيلة وظهر الحق . فاستعظم الأمير هجومي على النار ، وقال : أتفعل ذلك ؟ فقلتُ له : نعم ، قد استخرتُ الله في ذلك ، وأُلقي في قلبي أنْ أفعله ، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداءً ؛ فإن خوارق العادات إنما تكون لأُمة محمد ﷺ المتَّبعين له باطنًا وظاهرًا لحجَّة أو حاجة ؛ فالحجَّة لإقامة دين الله ، والحاجة لما لا بدَّ منه من النصر والرزق ، الذي به يقوم دين الله ، هؤلاء إذا أظهروا ما يسمُّونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تُبطل دين الله وشرعه ، وجب علينا أن ننصر الله ورسوله ﷺ ، ونقوم في نصر دين الله وشريعته ، بما نقدر

عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا ، فلنا حينئذ أن نعارض ما يُظهرونه من هذه المخاريق ، بما يؤيّدنا الله به من الآيات ، وليُعْلَمْ أن هذا مثل معارضة موسى للسَّحرة ؛ لمَّا أظهروا سِحْرهم أيَّد الله موسى بالعصا التي ابتلعتْ سِحْرَهم . فجعل الأمير يخاطب مَن حضره من الأُمراء على السِّمَاط بذلك ، وفرح بذلك ، فلما حضروا تكلَّم منهم شيخٌ - يقال له : حاتم - بكلامٍ ، مضمونُه طلبُ الصلح والعفو عن الماضي والتوبة ، وإنا مجيبون إلى ما طلب - أي شيخ الإسلام - مِن ترك هذه الأغلال وغيرها من البِدع ، ومُتَّبِعون للشريعة »[١] .

ومِسْكُ الخِتام :

قال الإمام أحمد بن عاصم الأنطاكي : « يسيرُ اليقينِ يُخرِج كلَّ الشكِّ من القلب » .

وقال شيخ الإسلام الحافظ محمد بن منصور الطوسي : رأيتُ النبيَّ ﷺ في النوم ، فقلتُ : مُرْني بشيء حتى ألزَمَهُ . قال : « عليك باليقين » .

صيْحَةُ عُمير بن الحَمَامِ رضي الله عنه : منارةٌ مِن مناراتِ اليقينِ بالله :

« فهذا عُمير بن الحمام ؛ لمّا سمع رسول الله ﷺ يقول لأصحابه يوم بدر : « قوموا إلى جنة عرضُها السموات والأرض » ، قال : يا رسول الله ، جنة عرضها السمٰوات والأرض ؟ قال : « نعم » . قال : بخٍ بخٍ . فقال رسول الله : « ما يحملك على قولك : بخٍ بخٍ ؟ » . قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاءةَ أن أكون من أهلها . قال : « فإنك من أهلها » . فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهنَّ ، ثم قال : لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه ... إنها لحياةٌ طويلة . قال : فرمىٰ بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قُتِل »[٢] .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/٤٤٥ - ٤٧٥ . تقرأ كاملة .

(٢) رواه مسلم .

فهذه صيحة من الأعماق ، نقتبس منها جذوة تُنير الطريق وترسم المعالم ، ثقة بالله ويقينًا به في كلِّ حركة ، وفي كل سَكَنة .

حَيْوةُ بن شُرَيْح :

قال ابن وهب : كان حيوة يأخذ عطاءه في السنة ستين دينارًا ، فلم يطلع إلى منزله حتى يتصدّق بها ، ثم يجيء إلى منزله فيجدها تحت فراشه . وبلغ ذلك ابنَ عمٍّ له فتصدَّق به كلَّه وجاء إلى تحت فراشه فلم يجد شيئًا ، فشكا إلى حَيْوة فقال : أنا أعطيت ربي بيقين وأنت أعطيتَه تجربةً[١] .

محمدُ بنُ إسماعيل البخاري :

وكان هجِّيراه[٢] من الليل إذا أتيتَه في آخر مقدمه من العراق : ﴿ **إنْ ينصرْكمُ الله فلا غالِبَ لكمْ وإنْ يخذلْكُمْ فمنْ ذا الذي ينصرُكُمْ مِن بعده** ﴾[٣] .

عليُّ بن أبي طاهر : الإمام الأوْحدُ ، والثقةُ الحافظ :

لمَّا رحل إلى الشام وكتب الحديث ، جعل كُتُبَه في صندوق وقَيَّرَهُ وركب البحر ، فاضطربتِ السفينة وماجت ، فألقى الصندوق في البحر ثم سكنت السفينَة ، فلمَّا خرج منها أقام على الساحل ثلاثًا يدعو الله ، ثم سجد في الليلة الثالثة وقال : إنْ كان طلبي ذلك لوجهك وحبِّ رسولك ، فأغثني بردِّ ذلك . فرفَعَ رأسَه فإذا بالصندوق مُلقى عنده ، فقدم وأقام بُرْهةً ، ثم قصدوه لسماع الحديث ، فامتنع منه . قال : فرأيتُ النبي ﷺ في منامي ومعه علي رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ : « يا علي ، مَن عامَلَ الله بما عاملك به على شط البحر ؟! لا تمتنعْ من رواية أحاديثي » . قال : فقلتُ : قد تبت إلى الله . فدعا لي وحثَّني على الرواية[٤] .

---

(١) السير ٦/٤٠٤ - ٤٠٦ .

(٢) هِجِّيراه : كلامه ودأبه وشأنه .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/٣٩١ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٤/٨٧ - ٨٨ .

أبو عبد الله مردنيش : الزاهد المجاهد ، أبو عبد الله ، محمد الجذامي المغربي :

قال الذهبي : فمن عجيب ما صحَّ عندي من مغازيه - يقول ذلك اليسَع ابن حزْم - أنه أغار يومًا ، فغنم غنيمةً كثيرةً واجتمع عليه من الروم أكثر مِن ألف فارس ، فقال لأصحابه - وكانوا ثلاثمائة فارس - : ما ترون ؟ فقالوا : نشغلهم بترْك الغنيمة . قال : ألم يقل القائل : ﴿ **إن يكنْ منكم عشرون صابرونَ يغلِبُوا مائتين** ﴾ ؟! قال له ابن مورين : يا رئيس ، الله قال هذا . فقال : الله يقول هذا ، وتقعدون عن لقائهم ؟! قال : فثبَتُوا ، فهزموا الروم[(1)] .

الشيخُ عبدُ القادر ؛ الشيخُ الإمامُ ، العالمُ الزاهدُ ، شيخُ الإسلامِ الجيلانيُّ :

قال رحمه الله : وتَرِدُ عليّ الأثقال التي لو وُضعتْ على الجبال تفسَّختْ ، فأضع جنبي على الأرض وأقول : إن مع العسر يسرًا ، إن مع العسر يسرًا . ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني[(2)] .

أبو عثمان الحِيري ؛ الشيخُ الإمام ، شيخُ الإسلام : سعيد بن إسماعيل الحيري :

قال الحاكم : وسمعتُ أبي يقول : لمَّا قَتَلَ أحمد بن عبد الله الخجستاني - الذي استولى على البلاد - الإمامَ حكيان بن الذهلي ، أخذ في الظلم والعسْف ، وأمر بحَرْبة رُكزت على رأس المربعة ، وجمَع الأعيانَ وحلَف إن لم يصبُّوا الدراهمَ حتى يغيب رأس الحربة فقد أحلُّوا دماءهم ، فكانوا يقتسمون الغرامة بينهم ، فخُصَّ تاجرٌ بثلاثين ألف درهم ، فلم يكن يقدر إلَّا على ثلاثة آلاف درهم ، فحملها إلى أبي عثمان وقال : قد حلف هذا كما بلغك ، ووالله لا أهتدي إلَّا إلى هذا . قال : تأذن لي أن أفعل فيها ما ينفعك ؟ قال : نعم . ففرَّقها أبو عثمان وقال للتاجر :

(١) السير ٢٠/ ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(٢) السير ٢٠/٤٣٩ .

امكثْ عندي . فما زال أبو عثمان يتردَّد بين السِّكَّة والمسجد ليلَته حتى أصبحَ ، وأذَّن المؤذِّن ، ثم قال لخادمه : اذهبْ إلى السوق وانظرْ ماذا تسمع . فذهب ورجع ، فقال : لم أر شيئًا . قال : اذهب مرة أخرى . وهو في مناجاته يقول : وحقِّك لا أقمتُ ما لم تفرِّج عن المكروبين . قال : فأتى خادمه الفرغاني يقول : ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال**﴾، شُقَّ بطْنُ أحمد بن عبد الله . فأخذ أبو عثمان في الإقامة .

قال الذهبي : بمثل هذا يُعَظَّمُ مشايخ الوقت[1] .

وقد مرَّ مثلُها من سفيان الثوري مع أبي جعفر المنصور .

يقول عصام العطَّار : « إذا عرفتم الله صغُر عندكم مَن سواه وما سواه ، بل ذاب في أعينكم وفني في قلوبكم كلُّ ما عداه ، ولم يعُدْ يستأهل الطلب والنصَب إلَّا قربه ورضاه ، وإذا استشعرتم رابطتكم بربِّكم وعونه لكم ، وأيقنتم أنه معكم ، رأيتم أنفسكم أقوى من كلِّ قوى الشيطان والطغيان !! وهكذا يُولد المسلم ولادَةً جديدة ، من عقيدته لا من رحم أمِّه ، وينبعث بمعرفتِهِ بالله وحرارة إيمانه به .. ولقد أحسَّ جند الله المؤمنون المخلصون الذين فرَغوا من أنفسهم ووهبوا حياتهم - كلَّ حياتهم - لربهم ، فلم يتحرَّكوا ولم يقفوا ، ولم يُعطوا ولم يمنعوا ، ولم يُحبُّوا ولم يُبغضوا ، ولم يحاربوا ولم يُسالموا ، إلَّا به وفيه ومن أجله عز وجل ، لقد أحسُّوا أنهم قدَرٌ من قدَرِ الله الغلّاب ، لا تصدُّه ولا تردُّه قوة في الأرض ، إلا أن يشاء الله »[2] .

ولله درُّ سيد قطب حين يقول :

وإنْ طوَّقتْني جيوشُ الظلام فإني على ثقة بالصباحِ
وإني على ثقةٍ من طريقي إلى الله ربِّ السَّنا والشروقِ
فإن عاقني الشوْقُ أو عقَّني فإني أمينٌ لعهدي الوثيقِ

---

(١) السير ١٤/٦٢ - ٦٦ .

(٢) « أزمة روحية » لعصام العطار .

أخي أخـذوكَ علـى إثْـرنـا ... وفـوْج على إثْرِ فوْجٍ جـديدِ
فـإنْ أنـا مـتُّ فـإني شهيـدٌ ... وأنـتَ ستمضـي بنصـرٍ مجيـدِ
قـد اختـارنـا اللهُ في دعـوتِـهْ ... وإنَّـا سنمضـي عـلـى سنتـهْ
فمنَّـا الـذينَ قضـوا نحْبَهـمْ ... ومنَّـا الحفيـظُ عـلـى ذِمَّتـهْ
أخي فـامضِ لا تلتفتْ للوراءْ ... طـريقُكَ قـد خضبَّتْهُ الـدمـاءْ
ولا تلتفـتْ هـاهنـا أوَ هنـاك ... ولا تتطلـعْ لـغيـرِ السمـاءْ

ولله درُّ القائل الموقن بوعد ربِّه في الدنيا قبل الآخرة :

لا تُهيِّـئْ كفنـي يـا عـاذلـي ... فأنا لي معَ الفجرِ مواثيق وعهـدُ

ولله درُّ عبد الرحمن العشماوي وهو يهدِر بها :

تمـوتُ المبـادئ في مهـدِهَـا ... ويبقـى لنـا المبـدأُ الخـالـدُ
مـراكـبُ أهـل الهـوى أُتخِمَـتْ ... نـزولًا ومـرْكِبُنـا صـاعـدُ
سـوانـا يلـوذ بعـرَّافـةٍ ... وأُسطـورةٍ أصلُهـا فـاسـدُ
يُحـدِّثنـا الليـلُ عـن نفسـهِ ... وفيـهِ علـى نفسِـهِ شـاهـدُ
إذا عـدَّدَ النـاسُ أربَـابَهُـمْ ... فنحـنُ لنا ربُّنـا الـواحِـدُ[١]

ولله درُّ الدكتور النحوي وهو يقول في ملحمته :

سيجمعُ الغرباءَ الساحُ في لَهَبٍ ... وتهتدي فطنةُ الألبابِ بالحِكَمِ
وعِزَّةُ النهْجِ في أفياءِ موهبةٍ ... منَ التُّقى وجلال المْوكب العَمَمِ[٢]
سندفعُ الخطوَ فوقَ الدرْب وَقْدَ لظًى ... ولفحةُ الشوْقِ إعصارُ الفتي القَرِمِ
علَى محاجِرنا أطيافُ ملحمةٍ ... وبين أكبادِنا أشواق كُلِّ كَمي
ومن سَواعِدِنا هدَّارةٌ عَصَفَتْ ... هُوجُ الأعاصيرِ جازتْ ظلْمة التُّخُمِ

---

(١) قصيدة : « موقف » ، من ديوان : شموخ في زمن الانكسار ، لعبد الرحمن العشماوي ، ص ٥ - مكتبة الأديب .

(٢) العمم : الاجتماع والكثرة ، والتامُّ من كلِّ شيء ، ومن الرجال : الذي يعمُّ خيره .

وفي مباسِمِنا إشراقةٌ طلَعَتْ تُعيدُ من عبقريِّ اللحن والنغَمِ
الله أكبرُ دارُ الخلدِ فامضِ لهَا معَ الميامينِ مِن غُرٍّ ومنْ بُهَمِ (١)

ولله درُّ وليد الأعظمي وهو يقول :

واهتفْ بهِمْ : أنا من جُنودِ محمدٍ بايعتُه فيما يُريحُ ويُتعِبُ
راياتُها خفَّاقةٌ وسُيُوفُها صفَّاقةٌ وجنودُها لا تُغْلَبُ
واهتزتِ الدنيا لصوتِ محمَّدٍ الله أكبرُ شرقُها والمغرِبُ

نعم يا أخي :

يقينٌ تنوءُ بهِ الراسياتُ ويكبرُ عنْ قبضةِ المجرم
وإخوتي .... يا مناطَ العُلا ويا صيحةَ الحقِّ ملْءَ الفمِ
ويا جرحَ آمالنا الغاليات توهَّجَ كالشَّررِ المضْرَمِ
ويا صحوة الفكرِ .... أرواحُنا بغيرِ البطولاتِ لمْ تحْلُمِ
يُجلجلُ فينا نداءُ السماءِ ويجأرُ كالقدَرِ المُبْرَمِ
يُحيِّي الرجالَ ذوي العَزمَاتِ ويُهدي الضِّياء لعيْنِ العَمِي
يُحيلُ المشاعرَ نارًا ونورًا يشقُّ سُجوفَ الدُّجَى المظلِمِ
ويشرحُ للدهرِ معنى الثباتِ على الحقِّ في نهجِهِ القيِّمِ (٢)

ولله درُّه حين يقول :

الموقنونَ الصادقونَ مشاعلٌ خَلَلَ الظلامِ تُسَلْسِلُ الأضواءَا

(١) البُهَم : جمع بهْمة ؛ يُقال : فلان بهْمة من البُهم ، أي الشجاع الذي لا يُهتدى مِن أين يُؤتى .

من قصيدة : الخاتمة ، من ديوان : ملحمة الغرباء . للدكتور عدنان النحوي ص١٥١ - ١٥٢ ، دار النحوي للنشر والتوزيع .

(٢) التحدي ؛ من ديوان : نداء الحق ، لأحمد محمد الصديق ص ٨٣ ، ٨٤ - دار الضياء للنشر والتوزيع .

سَيُنَشِّئُون علـى المحجَّـة فِتيـةً ... ورجالَ صدقٍ في الورىٰ أُمناءَا
هـي دعـوةٌ لله أقبـلَ فجـرُهَـا ... بالنـورِ يخفِقُ مُشـرقـًا وَضَّـاءا
ضربتْ بأعماقِ النفوس جُذورُهَا ... وسمَتْ منارًا للهـدىٰ ولـواءَا
وسيُزهِرُ الحلمُ الذي نصبو لَهُ ... أرضًا تُعانِقُ في الـوجودِ سَمَـاءَا
يا للعزائمِ حيـنَ تنهضُ حُـرَّةً ... وتحطِّـم النَّيـرَ البغيـضَ هَبَـاءَا
تمشي عَلى هام النجوم عـزيـزةً ... تُـذْكِي النفـوسَ تـوثُّبًـا ومَضَـاءَا

ولله درُّه حين يقول :

يا أيها النسرُ المشوق إلى الـذُّرى ... يطـوي الفضـاءَ بلهفـةٍ وحَنَـانِ
قُـمْ وانتفضْ يا ابنَ العلاءِ مبشِّرًا ... بتفتُّـحِ النِّسْـرين والـرَّيْحـانِ
ولتركبِ الريحَ الغضوبَ يهيجُها ... قـدرٌ ويُطلِقُهـا بغيـر عِنـانِ
واحمـلْ إلـى الآفـاقِ مُـزْعةَ رايـةٍ ... سقطتْ وتـأبىٰ ذِلَّـةَ القيعـانِ
مَغْمـوسةً بجـراحِنـا منسـوجةً ... بيقيننـا بالصـدقِ والإيمـانِ
مِن عمْقِ هاتيكَ الجراح شموسُنا ... وُلِدَتْ وتُسقىٰ بالطَّهـور القـاني
وتفتَّقتْ خُضْرُ البراعِمِ في الضُّحىٰ ... وتـألَّقتْ شُهُبًـا بكـلِّ مكـانِ
قـد أبـرمـتْ بيقينهـا وثبـاتهـا ... عهْدًا يـدومُ غـدًا مـعَ الـرحمٰنِ
ولهـا معَ الأمجـادِ وعـدٌ صـادقٌ ... قـد سُطِّـرتْ بُشْـراه في القـرآنِ
وإذا الـرجـالُ على العقيـدةِ بايَعُوا ... يا صدقَ أحلامٍ لهمْ وأماني(١)

ولله درُّ القائل :

يـا أُمَّتي وأقـولُ اليـومَ في ثقـةٍ ... إنـي اليقيـنُ فـلا شيءٌ يُـزعْـزِعُني
إنِي العقيـدةُ والإقـدامُ فَيْصَلُهـا ... وليـسَ غيـرُ نـداءِ الله يُسحـرنـي
أذودُ عنهـا وفيهـا عـلَّ خـاتمتي ... تكـونُ في ظلِّهـا يـومًـا فتقبَلنـي

---

(١) من قصيدة : « عودة النسر » . بتصرف ، من ديوان : قادمون مع الفجر ، لأحمد محمد الصدِّيق ص ٦٦ - ٦٨ . دار الضياء ، الأردن .

فالليلُ يعقبُهُ فجرٌ ومئذنةٌ « واللهُ أكبرُ » نِبْراسٌ على الزمنِ
الهوْلُ في خطوي والنور في دربي وأظَلُّ أسمعُ صوتَ الحقِّ في أُذني

وختامًا : أبدًا نمضي باليقين معَ الله :

معَ الله طوْعًا معَ الله سَوْقًا هداة دعاة إلى ما أمرْ
معَ الله والفيضُ من قُدْسِهِ يُنير بصيرتنا والبَصَرْ
ويدفعُ أعماقَ إيمانِنَا فرارًا إليهِ ونِعْم المَفَرّْ
فنُبصرُهُ جلَّ من خالقٍ بآلائهِ البارعاتِ الغُرَرْ
ونحيا بهِ ثمَّ نحيَا لهُ ونحيا ونحيا ونحيا الدَّهرْ[1]

* * *

(١) « مع الله » من ديوان : صفحات ونفحات ، لعمر بهاء الدين الأميري ص٥٤ - ٥٥ .

الفصل الرابع
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الدُّعَاءِ

« احشرْني إليكَ مِن حواصل الطيْرِ وبُطونِ السِّباع »

[عُتبةُ الغلام]

« اللهمَّ لا تجعلْ نعْشِي فوقَ أعناقِ الرجال »

□ عُلُوُّ الهمَّة في الـدُّعَـاءِ □

اعلم يا أخي أنَّ الله جعل من الدعاء عبادة وقُربى ، وأمر عباده المؤمنين بالتوجُّه إليه لينالوا عنده منزلة رفيعةً وزُلْفى . أمَر بالدعاء ، وجعله وسيلة الرجاء ، فكلُّ مَن خَلَقَه يفزَعُ في حاجته إليه ، ويُعوِّل عند الحوادث والكوارث عليه .

« سبحانه من لطيفٍ لم تَخْفَ عليه مضمَراتُ القلوب ، فيفصح له عنها بنطْقِ بيان ، ولم تَسْتَتِرْ دُونه مضمَّناتُ الغيوب ، فيُعَبَّر له عنها بحركةِ لسان ، لكنه أنطق الألسُن بذكْره ، لتستمرَّ على وَلَهِ العبوديَّة ، وتظهر به شواهدُ الربوبية .

وحقيقته : إظهارُ الافتقار إليه ، والتبرُّؤ من الحوْل والقوة . وهو سِمَة العبودية ، واستشعار الذلَّة البشريَّة ، وفيه معنى الثناء على الله ، وإضافة الجُود والكرم إليه »[(١)] .

قال تعالى : ﴿ **وإذا سألَكَ عبادي عنِّي فإني قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ فلْيستجيبُوا لي ولْيؤمنوا بي لعلَّهم يَرشُدون** ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

أيَّةُ رقةٍ ، وأيُّ انعطافٍ !! وأيَّةُ شفافية ، وأيُّ إيناس فوق هذا !! ألفاظٌ رقَّافة شفَّافة تُنير .. آيةٌ تسكبُ في قلبِ المؤمنِ النداوةَ الحُلْوة ، والوُدَّ المؤْنِس ، والرضا المطمئن ، والثقة واليقين ، يعيش منها المؤمن في جَنابٍ رَضيٍّ وقربى نديَّة ، وملاذ أمين وقرار مكين ، وهو يدعو سيِّدَ الساداتِ الذي ليس له مِثْلٌ ولا نظير .

ولو لم يكن في الدعاء إلّا رقَّة القلب ، لكفى ؛ ﴿ **فلولا إذْ جاءَهم بأْسُنا**

---

(١) « شأن الدعاء » للحافظ الخطابي ١ - ٤ ، تحقيق : أحمد يوسف الدقَّاق - دار المأمون للتراث .

تضرَّعوا ولكنْ قسَتْ قلوبُهم وزيَّن لهمُ الشيطانُ ما كانوا يعملون ﴾ ، [الأنعام : ٤٣] . ولو لم يكن في فضله إلَّا هذه الآية ، لكفى ؛ ﴿ **قُلْ ما يعبأ بكمْ ربِّي لولا دعاؤكم ...** ﴾ الآية ، [الفرقان : ٧٧] .

قال رسول الله ﷺ : « أفضل العبادة : الدعاء »[1] . فالدعاء تذلُّل وخضوع ، وإخبات وانطراح على سُدَّةِ الكريم . قال ﷺ : « الدعاء هو العبادة »[2] .

قال الخطَّابي : (معناه : أنه معْظَمُ العبادة ، أو أفضل العبادة ؛ كقولهم : الناس بنو تميم ، والمال الإبل ... وكقول النبي ﷺ : « الحجُّ عرَفة ») .

وقال رسول الله ﷺ: « إنَّ أبخل الناس مَن بخل بالسلام ، وأعجزَ الناس مَن عجز عن الدعاء »[3] .

وقال رسول الله ﷺ : « ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء »[4] .

وقال ﷺ : « مَن سرَّه أن يستجيبَ الله له عند الشدائد والكُرَب ، فلْيكثرِ الدعاء في الرخاء »[5] .

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ، وابن عدي عن أبي هريرة ، وابن سعد عن النعمان بن بشير ، وصحَّحه الحاكم ، وأقرَّه الذهبي ، وصحَّحه السيوطي ، والألباني في صحيح الجامع رقم ١١٢٢ .

(٢) رواه أحمد وابن أبي شيبة ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن حبان عن النعمان بن بشير ، وأبو يعلى عن البراء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٤٠٧ .

(٣) صحيح : رواه أبو يعلى في مسنده عن أبي هريرة ، ورواه ابن حبان ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥١٩ .

(٤) حسن : رواه أحمد والبخاري في الأدب ، والترمذي ، والحاكم عن أبي هريرة وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ٥٣٩٢ .

(٥) حسن : رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٩٠ .

ومِن عُلُوِّ الهمَّة في الدعاء : أن يحافظ المرءُ على آدابه :

فيترصَّد لدعائه الأوقاتِ الشريفة ؛ كيوم عرفة من السَّنَة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السَّحَر من ساعات الليل .

وأن يغتنم الأوقات والأحوال التي يُسْتجاب فيها الدعاء ، كوقت التنزُّل الإلهي ، وفي السجود ، وأن يبيتَ على ذِكْر ، فيتعارَّ من الليل فيدعو ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وعند نزول المطر ، وعند التقاء الجيوش ، وعند الإقامة ، وآخر ساعة من نهار الجمعة ، ودعاء الأخِ لأخيه بظهْر الغيْب ، ودعوة المسافر والمظلوم ، ودعوة الصائم والوالد لولده ، وعدم العجَلة ، ودعاء رمضان[1] .

وأن يدعو مستقبلَ القبْلة ويرفع يديه ، وألَّا يتكلَّف السجْعَ في الدعاء ، وأن يتضرَّع ويخشع عند الدعاء ؛ قال تعالى : ﴿ **ادعوا ربَّكمْ تضرُّعًا وخفْيَة** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **إنهم كانوا يُسارِعون في الخيرات ويدعوننا رَغَبًا وَرَهَبًا** ﴾ ، [الأنبياء : ٩٠] .

وأن يخفض الصوت ؛ فإنه أعظم في الأدب والتعظيم ، ولهذا لا تُخاطَب المَلوكُ ولا تُسأَل برفْع الأصوات ، ولله المَثَلُ الأعلىٰ .

ولأنه أبلغ في التضرُّع والخشوع الذي هو رُوح الدعاء ولبُّه ومقصوده ؛ فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألةَ مسكينٍ ذليلٍ ، قد انكسر قلبُه وذلَّت جوارحُه ، وهذه الحالة لا يتأتَّى معها رفْع الصوت بالدعاء أصلًا .

ولأنه أبلغ في الإخلاص ، وأبلغ في جمعيَّة القلب على الله في الدعاء ؛ فإنَّ رفْعَ الصوت يُفرِّقه ويُشتِّته ، فكلَّما خفض الصوت ، كان أبلغ في حمده وتجريد

(١) ذكرتُ أدلَّة ذلك بالتفصيل في كتابي : « نداء الريَّان في فقه الصوْم وفضل رمضان » ، فصل « رمضان شهر الدعاء المستجاب » ١/٢٦٤ - ٢٦٧ طبعة أولى .

همَّته وقصْده للمدعو سبحانه وتعالى .

ولأنه دالٌّ على قرْب صاحبه من الله ، فيسأله مسألةَ القريب للقريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد ، وهذا من النكَت السِّرِّيَّة البديعة جدًّا ، ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله : ﴿ **إذْ نادىٰ ربَّه نداءً خفيًّا** ﴾ [مريم : ٣] .

ولأن ذلك أدعى إلى دوام الطلب والسؤال ، وإخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوِّشات والمُضْعِفات ، وأحفظ لهذه النعمة العظيمة التي ما مثلها نعمة من عيْن حاسد .. وهذا باب عظيمُ النفع ، وإنما يعرفه أهله ، وهذه فائدة شريفة نافعة .

مَن سارَرُوهُ فأبدَىٰ السِّرَّ مجتهدًا ... لمْ يأمنوهُ على الأسرارِ ما عاشا
وأبعدوه فلمْ يظفَرْ بقرْبِهِمُ ... وأبدلوهُ مكانَ الأنسِ إيحاشا
لا يأمنونَ مذيعًا بعضَ سِرِّهِمُ ... حاشا ودادهم منْ ذلكمْ حاشا[1]

ومن عُلوِّ الهمَّة في الدعاء : أن يفتتح الدعاء بذكر الله والثناء عليه وأن يختمه بالصلاة على رسول الله ﷺ :

فقد قال رسول الله ﷺ : «كلُّ دعاءٍ محجوبٌ حتى يُصلَّى على النبي ﷺ»[2] .

« والأدب الباطن – وهو الأصل في الإجابة – التوبة وردُّ المظالم ، والإقبال على الله عزَّ وجل بكُنْه الهِمَّة ؛ فذلك هو السبب القريب من الإجابة » . كما يقول الغزالي . بل وتطييب المطْعَم بأكْل الحلال .

ومن عُلوِّ الهمَّة في الدعاءِ : أن يجزِمَ بهِ ويُوقِنَ بالإجابة ويصدقَ رجاءَه فيه :

قال رسول الله ﷺ : « ادعوا الله وأنتمْ مُوقِنونَ بالإجابة ، واعلموا أن

---

(١) انتهى ملخَّصًا بتصرُّف من « التفسير القيم » ٨٧ – ٨٨ .

(٢) حسن : رواه الديلمي في « مسند الفردوس » عن أنس ، والبيهقي في شعب الإيمان عن عليٍّ موقوفًا ، ورواه ابن حبان عن مُعَاذ ، وابن مخلد عن عليّ مرفوعًا ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ٤٥٢٣ .

الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافل لاهٍ »[(١)] .

وقال ﷺ : « إذا دعا أحدُكم فلا يقلْ : اللهمَّ اغفر لي إنْ شئْتَ . ولْيعزِمِ المسألة ، ولْيعظمِ الرغبة ؛ فإنَّ الله لا يعظُمُ عليه شيء أعطاه »[(٢)] .

وقال ﷺ : « لا يقلْ أحدُكُم إذا دعا : اللهمَّ اغفر لي إن شئتَ ، اللهمَّ ارحمني إن شئتَ . فلْيعزمِ المسألة ؛ فإنه لا مُكرِهَ له »[(٣)] .

وعند البخاري ومسلم وأحمد ، عن أنس : « إذا دعا أحدُكم فلْيعزمِ المسألة ، ولا يقلْ : اللهم إن شئتَ فأعطني ؛ فإنَّ الله لا مُستكرِه له » .

قال سُفيان بن عُيينة : لا يمنعنَّ أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه ؛ فإن الله عزَّ وجلَّ أجاب دعاءَ شرِّ الخلْقِ إبليس لعنه الله ؛ ﴿ **قال ربِّ فأنظِرْني إلى يوم يبعثون قال فإنَّك من المنظَرين** ﴾ . [الحجر : ٣٦ - ٣٧] .

ومِن عُلُوِّ الهمَّةِ : أنْ يُلِحَّ في الدعاءِ ويكرِّره ثلاثًا :

قال ابن مسعود : « كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثًا ، وإذا سأل سأل ثلاثًا »[(٤)] .

وفي صحيح مسلم ، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ ما زال يهتف بربِّه ، مادًّا يديْه ، مستقبلَ القبلة ، حتى سقط رداؤه عن مِنْكبَيْه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ، فألقاه على منكبيْه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبيَّ الله ، كفاكَ مناشدتُكَ ربَّك ، فإنه سيُنجِزُ لك ما وعدك .

---

(١) حسن : رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٤٥ .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة ، والبخاري في الأدب عن أبي سعيد .

(٣) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .

(٤) رواه مسلم ، وأصله متفق عليه .

« وهذا نبي الله يعقوب ﷺ ، ما زال يدعو ويدعو ، فذهب بصره واشتدَّ روعه ، وأُلقي ولدُه في الجُبّ ولا يدري عنه شيئًا ، وأُخرج الولدُ من الجُبِّ ، ودخل قصرَ العزيز ، إلى أن شبَّ وترعرع ، ثم راودته المرأة عن نفسها فأبى وعصَمَهُ الله ، ثم دخل السجن فلبث فيه بِضْعَ سنين ، ثم أُخرج من السجن ، وكان على خزائن الأرض ، ومع طول هذا الوقت كلِّه ويعقوبُ يقول لبنيه : ﴿ **يا بَني اذْهبُوا فتحسَّسوا من يُوسف وأخيه ولا تَيأسوا من رَوْح الله إنه لا ييأسُ من رَوْح الله إلا القومُ الكافرون** ﴾ »(١) .

ومن عُلوِّ الهمَّةِ في الدعاء : أنْ يُعظِّمَ المسألة :

قال رسول الله ﷺ : « إذا تمنَّى أحدُكُم فلْيُكثر ؛ فإنما يسأل ربَّه »(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا سأل أحدُكُم فلْيكثر ؛ فإنما يسأل ربَّه »(٣) .

قال المناوي : « إذا تمنَّى أحدُكم خيرًا من خير الدارَيْن ، فلْيُكثر الأماني ؛ فإنما يسأل ربَّه الذي ربَّاه وأنعم عليه وأحسنَ إليه ، فيعظم الرغبة ويوسِّع المسألة ، ويسأله حتي شسْعَ النعل ؛ فإنه إن لم ييسّره لا يتيسَّر ، فينبغي للسائل إكثار المسألة ولا يختصر ولا يقتصر ؛ فإن خزائن الجُود سحَّاء الليلَ والنهارَ ، ولا يُفنيها عطاءٌ وإنْ جلَّ وعظُم ، فعطاؤه بين الكاف والنون ، وليس ذا بمناقِضٍ لقوله سبحانه : ﴿ **ولا تتمنَّوا ما فضَّل الله بِهِ بعضَكم على بعضٍ** ﴾ [النساء : ٣٢] .

---

(١) « من فقه الدعاء » . لمصطفى العدوي ص ٣٥ - ٣٦ . دار السنة .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن عائشة ، ورمز السيوطي لحسنه ، قال المناوي ١/٣٢٠ : « وهو تقصير أو قصور ، وحقُّه الرمز لصحَّته ؛ فقد قال الهيثمي وغيره : رجالُه رجال الصحيح » . وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٣٧ .

(٣) صحيح : رواه ابن حبان في صحيحه عن عائشة ، وصَحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩١ .

فإن ذلك نهي عن تمنّي ما لأخيه بغيًا وحسدًا ، وهذا تمنى على الله خيرًا في دينه ودنياه ، وطلب من خزائنه ، فهو نظيرُ : ﴿ **واسألوا الله من فضلِه** ﴾ » .

وقد ذمَّ الله من دعا ربَّه الدنيا فقط ، فقال تعالى : ﴿ **فمِنَ الناسِ من يقولُ ربَّنا آتِنا في الدنيا وما له في الآخرة مِن خلاقٍ** ﴾ [البقرة : ٢٠٠] ، وأثنى سبحانه وتعالى على الداعين بخيري الدنيا والآخرة ، فقال تعالى : ﴿ **ومنهم مَنْ يقولُ ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النارِ أولئك لهم نصيبٌ ممَّا كسبوا والله سريعُ الحِسَاب** ﴾. [البقرة : ٢٠١ - ٢٠٢] .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة مائة درجة ، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتَيْن كما بين السماءِ والأرضِ ، فإذا سألتُم الله فاسألوه الفرْدوس ؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة - أراه قال : وفوقه عرشُ الرحمن - ومنه تفجَّرُ أنهار الجنة » .

ومِن عُلوِّ الهمَّة في الدعاء : الدعاءُ باسمِه الأعظمِ الذي إذا دُعي بهِ أجابَ :

وأن يُسبَقَ الدعاءُ بحمدِ الله والثناء عليه وتمجيده ، والصلاة على النبي ﷺ ، ثم يدعو بما يريد ، وأن يشفع الدعاءَ بأسماءِ الله الحسنى تارة ، وبالتوسُّل إلى الله بفضله وسابِق رحمته ، أو بصالح عمله ، تارةً أُخرى .

عن بُريدة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقول : « اللهمَّ إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد و لم يُولد و لم يكن له كُفُوًا أحد » ، فقال : « لقد سألْتَ الله بالاسمِ الذي إذا سُئل به أَعطى ، وإذا دُعي به أجاب »[1] .

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود واللفظ له ، والترمذي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : حديث حسن . وصحَّحه سليم الهلالي في كتاب : « صحيح كتاب الأذكار وضعيفه » ٢/٩٤٠ ، ٩٤١ .

وفي رواية : « لقد سألتَ الله باسمه الأعظم » .

وعن أنسٍ رضي الله عنه ؛ أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ، ورجلٌ يصلّي ، ثم دعا : اللهمَّ إني أسألك بأنَّ لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنَّان ، بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، ياحيُّ يا قيُّوم . فقال النبيُّ ﷺ : « لقد دعا الله تعالى باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعِيَ به أجاب ، وإذا سُئِل به أعطى »[1] .

ومن عُلُوِّ الهِمَّة في الدعاء : حِرْصُ الرجل على الدعاءِ بالأدعية الواردة في القرآن الكريم :

﴿ رَبَّنا تقبَّل منَّا إنكَ أنتَ السميعُ العليمُ ربَّنا واجعلْنا مسلمَيْن لكَ ومِن ذرِّيتنا أُمَّةً مسلمةً لكَ وأرِنَا مناسِكَنَا وتُبْ علَيْنا إنك أنت التوَّاب الرحيم ﴾ [البقرة : ١٢٧ - ١٢٨] .

وقوله تعالى في أواخر سورة البقرة التي نزل بها مَلَكٌ ما نـزل إلى الأرض قطُّ ، وفُتِح لها بابٌ مِن السماء ما فُتح قبل يوم نزولها قطُّ : **﴿ ربَّنا لا تُؤَاخذْنا إنْ نسينا أو أخطأْنا ربَّنا ولا تحملْ علينا إصرًا كما حملتَه على الذين من قبلنا ربَّنا ولا تحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لنا به واعفُ عنا واغفرْ لنا وارحمْنا أنت مولانا فانصرنا على القومِ الكافرين ﴾** [البقرة : ٢٨٦] .

﴿ ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذابَ النار ﴾ [البقرة : ٢٠١] . وهي أكثر دعاء رسول الله ﷺ ، فمِن عُلُوِّ الهمَّة : الحرصُ عليها .

﴿ ربنا لا تُزِغْ قلوبَنا بعدَ إذْ هديتَنا وهبْ لنا من لدنْك رحمةً إنك أنت الوهّاب ﴾ [آل عمران : ٨] .

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائيُّ وأحمد والحاكم وابن حبان .

﴿ **ربَّنا إنَّنا آمنَّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذابَ النار** ﴾ [آل عمران : ١٦] .

﴿ **ربَّنا آمنَّا بما أنزلتَ واتبعْنا الرسولَ فاكتبْنا مع الشاهدين** ﴾ . [آل عمران : ٥٣] .

ودعاء الخليل : ﴿ **ربِّ اجعلني مقيمَ الصلاةِ ومِن ذرِّيَّتي ربَّنا وتقبَّلْ دعاءِ ربَّنا اغفرْ لي ولوالدَيَّ وللمؤمنين يومَ يقوم الحِسَاب** ﴾ [إبراهيم : ٤٠ - ٤١] .

وأيُّ دعاء أعظم مِن دعاء يُعَلِّمه الله لنبيِّه : ﴿ **ربِّ أدخلني مُدْخَلَ صدقٍ وأخرجني مُخْرجَ صِدقٍ واجعلْ لي من لدنكَ سلطانًا نصيرًا** ﴾ [الإسراء : ٨٠] .

ومِن دعاء عُلاة الهِمَم من عباد الرحمن : ﴿ **ربَّنا هبْ لنا من أزواجنا وذرِّيَّاتنا قُرَّة أَعيُن واجعلْنا للمتقين إمامًا** ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

ودعاء نبيِّ الله موسى : ﴿ **ربِّ اشرحْ لي صدْري * ويَسِّرْ لي أمْري * واحللْ عُقدةً من لساني * يفقهوا قولي** ﴾ [طه : ٢٥ - ٢٨] .

وقوله تعالى : ﴿ **ربَّنا أتمِمْ لنا نورَنا واغفرْ لنا إنك على كلِّ شيءٍ قدير** ﴾ [التحريم : ٨] .. وغيرها[1] .

عالي الهِمَّة يحرصُ على هذا الدعاء الذي علَّمه الله لنبيِّه محمد ﷺ :

وهو جزء مِن حديث اختصام الملأ الأعلى ، الذي صحَّحه ابن رجب والألباني : « يا محمد ، إذا صلَّيتَ فقل : اللهم إني إسألك فعْلَ الخيرات ، وتركَ المنكرات ، وحُبَّ المساكين ، وأن تغفر لي وترحَمني وتتوبَ علَيَّ ، وإذا أردتَ بعبادِك فتنةً فاقبضْني إليكَ غيرَ مفتون » .

(١) راجع الآيات (الكهف : ١٠) ، (الفرقان : ٦٥) ، (الحشر : ١٠) ، (الممتحنة:٤ - ٥) ، (الأنبياء : ٨٩) ، (المؤمنون : ٩٧ - ٩٨) ، (النمل : ١٩) ، (آل عمران : ١٦ ، ١٤٧ ، ١٩٣ ، ١٩٤) ، (الأعراف : ٢٣ ، ٨٩) ، (يونس : ٨٥ - ٨٦) ، (هود : ٤٧) ، (البقرة : ٢٥٠) .

وعالي الهِمَّة يحرِص على حديثٍ يُعلِّمه النبيُّ ﷺ للصِّدِّيق الأكبر أبي بكر رضي الله عنه :

روى البخاري ومسلم ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ؛ أنه قال لرسول الله ﷺ : علِّمني دعاء أدعو به في صلاتي . قال : « قل : اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا ، ولا يغفر الذنوب إلَّا أنت ، فاغفرْ لي مغفرة من عندك وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

وأمْره ﷺ لعائشة رضي الله عنها أن تدعو بهذا الدعاء : « اللهمَّ إني أسألك من الخير كلِّه ، عاجِله وآجِله ، ما علمتُ منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنَّة وما قرَّب إليها من قوْل أو عمل ، وأعوذُ بك من النار وما قرَّب إليها من قوْل أو عمل ، وأسألك من خير ما سألك عبدُك ورسولُك محمد ﷺ ، وأعوذ بك من شرِّ ما استعاذ بك منه عبدُك ورسولُك محمد ﷺ ، وأسألك ما قضيْتَ لي من أمر أن تجعل عاقبتَه رُشْدًا »[١] .

وعن ربيعة بن عامر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : « أَلِظُّوا[٢] بـ : يا ذا الجلال والإكرام »[٣] .

ويلزم الأدعيةَ المأثورة عن رسول الله ﷺ ؛ فإنه ﷺ أعلى الناس هِمَّة وأدبًا في دعائه لربِّه ، وهي كثيرة ، ومنها :

« اللهمَّ اجعلْ أوسعَ رزقك عليّ عند كِبَر سنِّي ، وانقطاع أمري »[٤] .

---

(١) إسناده صحيح : أخرجه ابن ماجه ، وابن حبان ، وأحمد ، والحاكم .
(٢) أي : الزموها وداوموا عليها .
(٣) إسناده صحيح : أخرجه أحمد ، والبخاري في التاريخ الكبير ، والحاكم .
(٤) حسن : رواه الحاكم عن عائشة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع ١٢٥٥ .

« اللهمَّ اجعلْ في قلبي نورًا ، وفي لساني نورًا ، وفي بصري نورًا ، وفي سمْعي نورًا ، وعن يميني نورًا ، وعن يساري نورًا ، ومِن فوقي نورًا ، ومن تحتي نورًا ، ومن أمامي نورًا ، ومِن خلْفي نورًا ، واجعلْ لي في نفسي نورًا، وأعظِمْ لي نورًا »[١] .

« اللهمَّ احفظْني بالإسلام قائمًا ، واحفظْني بالإسلام قاعدًا ، واحفظْني بالإسلام راقدًا ، ولا تُشْمِتْ بي عدوًّا حاسدًا ، اللهم إني أسألك من كلِّ خير خزائنه بيدك ، وأعوذ بِك من كلِّ شرٍّ خزائنه بيدك »[٢] . « اللهمَّ أحيني مسكينًا ، وأمتني مسكينًا ، واحشرني في زمْرة المساكين »[٣] . « اللهمَّ أصلحْ لي ديني الذي هو عِصْمة أمري ، وأصلحْ لي دنياى التي فيها معاشي ، وأصلحْ لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياةَ زيادةً لي في كل خير ، واجعل الموتَ راحة لي من كلِّ شرٍّ »[٤] .

« اللهم اغفر لي خطيئتي وجهْلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلمُ به مني ، اللهم اغفر لي خطئي وعَمْدي ، وهزْلي وجدِّي ، وكلّ ذلك عندي ، اللهمَّ اغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ؛ أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر ، وأنت على كلِّ شيء قدير »[٥] .

« اللهم اغفرْ لي ذنوبي وخطاياي كلَّها ، اللهم أنعشني واجبرْني ، واهدني لصالح الأعمال والأخلاق ؛ فإنه لا يَهدي لصالحها ولا يصرف سيِّئها إلا أنت »[٦] .

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس .
(٢) حسن : رواه الحاكم عن ابن مسعود ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٦٠ .
(٣) صحيح : رواه عبد بن حميد وابن ماجه عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير ، والضياء عن عبادة بن الصامت ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٦٠ .
(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة .
(٥) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى .
(٦) حسن : رواه ابن السني ، والطبراني في الأوسط والصغير ، والحاكم ، عن أبي أيوب ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٦٦ .

« اللهمَّ اقسمْ لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك ، ومن اليقين ما يهوِّن علينا مصيبات الدنيا ، ومتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتَنا ، واجعلْه الوارث منا ، واجعلْ ثأرنا على مَن ظَلَمنا ، وانصرْنا على مَن عادانا ، ولا تجعلْ مصيبتَنا في ديننا ، ولا تجعلِ الدنيا أكبرَ هَمّنا ولا مبْلَغَ علْمنا ، ولا تسلِّطْ علينا من لا يرحمنا »[١] .

« اللهم إني أسألك من الخير كلِّه عاجِله وآجِله ، ما علمتُ منه وما لم أعلمْ ، وأعوذ بك من الشر كلِّه عاجله وآجله ، ما علمتُ منه وما لم أعلم . اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيُّك ، وأعوذ بك من شرِّ ما عاذ به عبدُك ونبيُّك ، اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قوْل أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قوْل أو عمل ، وأسألك أن تجعل كلَّ قضاء قضيتَه لي خيرًا »[٢] .

« اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك ؛ فإنه لا يملكها إلا أنت »[٣] .

« اللهم إني أعوذ بك من العجْز والكسل ، والجبْن والبخل والهرَم ، والقسوة والغفلة والعَيْلة ، والذلة والمسكنة ، وأعوذ بك من الفقر والكفر ، والفسوق والشقاق والنفاق ، والسمعة والرياء ، وأعوذ بك من الصَّمَم والبكَم والجنون ، والجُذام والبرَص وسيِّىء الأسقام »[٤] .

« اللهم آتِ نفسي تقواها ، وزكِّها أنت خير من زكَّاها ، أنت وليُّها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علْم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفسٍ

---

(١) حسن : رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمر ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٦٨ .

(٢) رواه ابن ماجه عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٧٦ .

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٧٨ .

(٤) صحيح : رواه الحاكم والبيهقي في « الدعاء » عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٨٥ .

لا تشبع ، ومن دعوةٍ لا يُستَجاب لها »[١] .

« اللهم إني أعوذ بك من علْمٍ لا ينفع ، وعمل لا يرفع ، ودعاء لا يُسمع»[٢] .

« اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يُسمع ، ومن نفْس لا تشبع ، ومن علْم لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع »[٣] .

« اللهم إني أعوذ بك من منكَرات الأخلاق والأعمال ، والأهواء والأدواء »[٤].

« اللهم إني أعوذ بك من يومِ السُّوء ، ومن ليلة السوءِ ، ومن ساعة السوءِ ، ومن صاحب السوءِ ، ومن جار السوء في دار المقامة »[٥] .

« اللهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ومحمدٍ ﷺ ، نعوذ بك من النار »[٦].

« اللهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وربَّ إسرافيل ، أعوذ بك من حرِّ النار ومن عذاب القبر »[٧] .

---

(١) جزء من حديث صحيح : رواه أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، والنسائي ، عن زيد ابن أرقم .

(٢) صحيح:رواه أحمد ، وابن حبان ، والحاكم عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع ١٢٩٥ .

(٣) صحيح : رواه الترمذي والنسائي عن ابن عمرو ، وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة ، والنسائي عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٩٧ .

(٤) صحيح : رواه الترمذي ، والطبراني في الكبير ، والحاكم عن عمِّ زياد بن علاقة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٩٨ .

(٥) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٩٩ .

(٦) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم عن والد أبي المليح ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٠٤ .

(٧) حسن : رواه النسائي عن عائشة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٠٥

« اللهم حبِّبْ إلينا لقاءك ، وسهِّلْ علينا قضاءك ، وأقلِلْ لنا من الدنيا » .

« اللهمِ بعلْمِكَ الغيبَ ، وقدرتِكَ على الخلْقِ ، أحيني ما علمتَ الحياةَ خيرًا لي ، وتوفَّني إذا علمتَ الوفاة خيرًا لي . اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الإخلاص في الرِّضا والغضب ، وأسألك القصْدَ في الفقر والغِنى ، وأسألك نعيمًا لا ينفد ، وأسألك قرَّة عيْنٍ لا تنقطع ، وأسألك الرضا بالقضاء ، وأسألك بردَ العيش بعد الموت ، وأسألك لَذَّة النظر إلى وجهك ، والشوْقَ إلى لقائك ، في غير ضرَّاء مُضِرة ، ولا فتنةٍ مضلَّة ، اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان ، واجعلنا هُدَاة مهتدين »[١] .

« اللهم يا وليَّ الإسلامِ وأهلِه ، مَسِّكني بالإسلام حتى ألقاك عليه »[٢] .

عُلُوُّ هِمَّة الكَلِيمِ مُوسىٰ عليهِ السَّلام في سُؤالِهِ ودعائه النبوةَ لأخيهِ هارون عليه السلام من ربِّه عزَّ وجلَّ :

لله دَرُّ الكليم !! وصلوات ربي وسلامه عليه .. يدعو الكريم عز وجل أن يَمُنَّ على أخيه بالنبوة ، واستجاب الله دعاءه ؛ قال تعالى : ﴿ **ووهبْنا لهُ مِن رحمتنا أخاهُ هارونَ نبيًّا** ﴾ [مريم : ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ **وأخي هارونُ هو أفصحُ منِّي لسانًا فأرسلْه معيَ رِدْءًا يصدِّقني إني أخاف أن يكذِّبون** ﴾ [القصص : ٣٤] ، وقال تعالى في دعاء موسى : ﴿ **واجعلْ لي وزيرًا من أهلي هارونَ أخي اشددْ به أزري وأشركْه في أمري** ﴾ [طه : ٢٩ - ٣٢] .

« عن عروة ، عن عائشة أنها خرجتْ فيما كانت تعتمر ، فنزلت ببعض الأعراب ، فسمعتْ رجلًا يقول : أيُّ أخٍ كان في الدنيا أنفعَ لأخيه ؟ قالوا : ما ندري . قال : والله أنا أدري . قالت : فقلتُ في نفسي : في حلفه لا يستثني ؛ إنه لَيعلم أيَّ أخٍ في الدنيا كان أنفعَ لأخيه ؛ قال : موسى حين سأل لأخيه النبوة

(١) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن عمَّار بن ياسر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٠١ .

(٢) صحيح .

فقلتُ : صدق والله . قلتُ : وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام : ﴿ وكان عندَ الله وَجِيهًا ﴾ »[١] .

نماذجُ مِن دُعاءِ عُلَاة الهِمَم :

العلاءُ الحضرميُّ رضي الله عنه يدعو ربَّه ، فيسير بجيش المسلمينَ بأكْمَله على صَفْحةِ الماء :

وأي همَّة في الدعاء أعلىٰ من هذا ؟! يسير بجيش المسلمين على صفحة الماء ، ولما عطشوا و لم يجدوا ماءً لوضوئهم ، دعا ربَّه ، فهطلتِ السماء كأفواه القِرَب ، ثم دعا ربَّه النصرَ للمسلمين ، وأن يُخفيَ عليهم مكان قبره ، واستجاب الله لدعائه ..

وقد مرَّ الدعاء سابقًا فليراجَعْ .

شأني أنَّ الله بعَثَ لي حماري :

عن الشعبي : أن قومًا من المهاجرين خرجوا متطوِّعين في سبيل الله ، فنفق حمار رجل منهم ، فأرادوه على أن ينطلق معهم فأبى ، فانطلق أصحابُه مرتحلين وتركوه ، فقام فتوضَّأ وصلَّى ، ثم رفع يديْه فقال : اللهمَّ إني خرجتُ من الدفينة[٢] مجاهِدًا في سبيلك وابتغاءَ مرضاتك ، وأشهد أنك تُحيي الموتي وتبعث مَن في القبور . اللهمَّ فأحي لي حماري . ثم قام إلى الحمار ، فضربه ، فقام الحمار ينفض أذنَيْه ، فأسْرَجه وألجمه ثم ركبه ، فأجراه حتى لحِقَ بأصحابه ، فقالوا له : ما شأنك ؟ قال : شأني أنَّ الله بعَث لي حماري[٣] .

البَراءُ بنُ مالك ، مجابُ الدعوة : يسأل ربَّه النصرَ للمسلمين ، ولنفسه الشهادة :

« لقي البراءُ المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين ، فقالوا له :

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٧٧/٥ ، وتفسير ابن أبي حاتم .
(٢) مكان بين مكة والبصرة .
(٣) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص ٨٥ ، تحقيق : مجدي السيد – مكتبة القرآن .

يا براء ، إن رسول الله ﷺ قال : « إنك لو أقسمتَ على الله لأَبرَّك » ، فأقسِمْ على ربِّك . قال : أُقسم عليك يا ربّ لَمَا منحتنا أكتافهم ، وألحقتَني بنبيِّك . فمُنِحوا أكتافَهم ، وقُتل البراء شهيدًا »[1] .

دعاءُ النعمانِ بن مُقرن بالشهادة :

وفي يوم « نهاوند » قال النعمان بن مقرن رضي الله عنه : « اللهمَّ إني أسألك أن تُقِرَّ عيني اليوم ، بفتحٍ يكون فيه عِزُّ الإسلام وذلٌّ يذلُّ به الكفار ، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة . أَمِّنوا رَحِمَكمُ الله » . قال جُبير : فأمَّنا وبكينا .

رحمك الله ورضي عنك من قائد جيش !!

وفي رواية معقل بن يَسَار : قال النعمان : « إني أدعو الله عزَّ وجلَّ بدعوة ، فعزمتُ على كلِّ امرئ منكم لَمَا أمَّن عليها : اللهمَّ أعطِ اليوم النعمانَ الشهادةَ في نصْر المسلمين ، وافتحْ عليهم » . ثم حَمَلَ فكان أوَّلَ صريعٍ .

لله درُّ عبدِ الله بن جحْشٍ ، ما أعلى هِمَّته :

أخرج الطبراني عن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه : أن عبد الله بن جحش رضي الله عنه قال له يوم أُحد : ألا تدعو الله ؟ فخلَوْا في ناحيةٍ ، فدعا سعد فقال : يا ربّ ، إذا لقيتُ العدوَّ فلقِّني رجلًا شديدًا بأسُه ، شديدًا حرده ، أقاتله ويقاتلني ، ثم ارزقني الظفَر عليه ، حتى أقتله وآخذَ سَلَبَه . فأمَّن عبد الله بن جحش ، ثم قال : اللهمَّ ارزقني رجلًا شديدًا حردُه ، شديدًا بأسهُ ، أقاتله فيك ويقاتلني ، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ، فإذا لقيتُك غدًا قلتَ : من جَدَع أنفَكَ وأُذُنك ؟ فأقول : فيك

---

(١) صحيح:رواه أبو نعيم والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

وفي رسولك ﷺ . فتقول : صدقتَ . قال سعد : يا بُنَيَّ ، كانت دعوة عبد الله ابن جحش خيرًا من دعوتي ، لقد رأيتُه آخر النهار ، وإنّ أنفَهُ وأذنه لمعلَّقان في خيْط[1] .

وأخرجه الحاكم : عن سعيد بن المسيب قال : قال عبد الله بن جحش رضي الله عنه : « اللهمَّ إني أقسم عليك أن ألقى العدوَّ غدًا فيقتلوني ، ثم يبقروا بطني ، ويجدعوا أنفي وأذني، ثم تسألني: بِمَ ذاك؟ فأقول: فيك». قال سعيد بن المسيب: إني لَأرجو أن يبرَّ الله آخرَ قسَمِه كما برَّ أوَّلَه[2] .

وانظرْ إلى عظمِ دُعاءِ الفاروقِ رضي الله عنه :

أخرج البخاري عن أسلم ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اللهمَّ ارزقني شهادةً في سبيلك ، واجعلْ موتي في بلدِ رسولك ﷺ .

وأخرجه الإسماعيلي « عن حفصة رضي الله عنها : قالت : سمعتُ عمر رضي الله عنه يقول : اللهمَّ قتْلًا في سبيلك ، ووفاةً ببلدِ نبيِّك ﷺ . قالت : فقلتُ : وأنّى يكون هذا ؟ قال : يأتي به الله إذا شاء »[3] .

فانظرْ رحمك الله إلى عُلُوِّ هِمَّة الفاروق في دعائه ، وحسْن ظنِّه بربِّه .

مِن دَعاءِ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

كان رضي الله عنه إذا أصبح قال : « اللهمَّ اجعلني من أعظم عبادك نصيبًا في كلِّ خير تقسِمه الغداة ، ونورًا يهدي ، ورحمةً تنشرها ، ورزقًا تبسُطه،وضرًّا تكشفه ، وبلاء تَرفعه ، وفتنة ....

(١) أخرجه الطبراني ، وقال الهيثمي (٣٠٣/٩) : رجاله رجال الصحيح . وكذا أخرجه البغوي كما في الإصابة (٢٨٧/٢) ، وابن وهب ، والبيهقي ، وأبو نعيم ، واقتصر على دعاء عبد الله .

(٢) قال الحاكم : حديث صحيح على شرط الشيخين ، لولا إرسالٌ فيه . قال الذهبي : مرسل صحيح .

(٣) فتح الباري ٧١/٤ .

تصرفها »[1]

ومن دعائه على الصفا :

« اللهمَّ اعصمني بدينك ، وطاعتك وطاعة رسولك . اللهمَّ جنِّبني حدودك . اللهمَّ اجعلني ممن يحبُّك ، ويحب ملائكتك ، ويحبُّ رسلك ، ويحبُّ عبادك الصالحين . اللهمَّ يسّرني لليُسرىٰ ، وجنّبني العُسرىٰ ، واغفر لي في الآخرة والأولى ، واجعلني من أئمة المتقين . اللهمَّ إنك قلت : ﴿ **ادعوني استجبْ لكم** ﴾ ، وإنك لا تخلف الميعاد ، اللهمَّ إذ هديتني للإسلام ، فلا تنزعْني منه ، ولا تنزعه مني ، حتى تقبضني وأنا عليه »[2] .

ومن دعاءِ ابنِ مسعود رضي الله عنه :

عن عبد الله : أن رسول الله ﷺ مرَّ بين أبي بكر وعمر ، وعبد الله قائم يصلِّي ، فافتتح سورة النساء يسجِّلها[3] ، فقال ﷺ : « مَن أحبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل ، فليقرأ قراءة ابن أمِّ عبد » . فأخذ عبد الله في الدعاء ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « سلْ تُعْطَ » . فكان فيما سأل : « اللهمَّ إني أسألك إيمانًا لا يرتدُّ ، ونعيمًا لا ينفدُ ، ومرافقة نبيِّك محمد ﷺ في أعلىٰ جِنان الخلْد » . فأتى عمرُ عبدَ الله يبشِّره ، فوجد أبا بكر خارجًا قد سبقه ، فقال : إنك لَسبَّاق بالخير .

وعن القاسم بن عبد الرحمٰن : أن ابنَ مسعود كان يقول في دعائه : خائف مستجير ، تائب مستغفر ، راغب راهب .

« وعن أبي الأحوص قال : سمعتُ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يدعو بهذا الدعاء : « اللهمَّ إني أسألك بنعمتك السابغة التي أنعمتَ بها ، وبلائك الذي ابتليتني ، وبفضلِك الذي أفضلتَ عليَّ ؛ أن تدخلني الجنة . اللهمَّ أدخلني الجنة

---

(١) أخرجه الطبراني ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٨٤ : رجاله رجال الصحيح . وذكره أبو نعيم في الحلية ١/٣٠٤ .

(٢) الحلية (١/٣٠٨) .

(٣) أي : يقرؤها قراءة مفصَّلة .

بفضلِك ومنِّك ورحمتك »[1] .

ومِن دعاءِ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما :

عن سعيد بن جبير قال : كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : « اللهمَّ إني أسألك بنور وجهك الذي أشرقتْ له السموات والأرض ؛ أن تجعلني في حِرْزِك وحِفْظك ، وجوارك وتحت كَنَفِك »[2] .

وعامر بن عبد قيْس : يسأل ربَّه أن ينزع شهوةَ النساءِ من قلبه :

قال قتادة : كان عامر بن عبد قيْس يسأل ربَّه أن ينزع شهوة النساء من قلبه ، فكان لا يُبالي:أذكرًا لقيَ أمْ أنثي[3] .

والربيع بن خُثيم يدعو بدعاءٍ يُدمي القلوبَ :

قال الفُضيل بن عِياض : كان الربيع بن خُثيم يقول في دعائه : « أشكو إليك حاجة لا يَحسُن بثُّها إلَّا إليك ، وأستغفر منها وأتوب إليك »[4] .

وابن المسيِّب يسأل ربَّه السلامة :

عن عبد الرحمن بن حرْملة : كان سعيد يُكثر أن يقول في مجلسه : اللهمَّ سلِّمْ سلِّمْ .

ومن دعاء المذنبين :

قال الشعبي : خطَب عبد الملك ، فقال : اللهمَّ إنَّ ذنوبي عِظام ، وهي

---

(١) رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في المجمع (١٠/١٨٥) .
(٢) رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٨٤) .
(٣) ترجمته في السير ٤/١٥ – ١٩ .
(٤) الحلية ٢/١٠٩ .

صِغار في جنبْ عفوك يا كريم ، فاغفرْها لي .

ومن دعاء سعيد بن جُبَيْر :

عن سعيد بن جبير قال : التوكُّل على الله جِماع الإيمان . وكان يدعو : اللهمَّ إني أسألك صِدْق التوكُّل ، وحسنَ الظنِّ بك .

ومُطَرّف بن عبد الله : يسأل ربَّه الرِّضا :

كان رحمه الله يقول : اللهمَّ ارضَ عنَّا ، فإن لم ترضَ عنَّا فاعفُ عنا ؛ فإن المولى قد يعفو عن عبده وهو عنه غير راضٍ .

وكان رحمه الله يقول : « اللهمَّ إني أعوذ بك من شرِّ السلطان ، ومن شرِّ ما تجري به أقلامهم ، وأعوذ بك أن أقول بحقٍّ أطلب به غيرَ طاعتك ، وأعوذ بك أن أتزيَّن للناس بشيءٍ يَشينُني عندك ، وأعوذ بك أن أستعين بشيء من معاصيك على ضُرٍّ نزل بي ، وأعوذ بك أن تجعلني عِبْرة لأحد من خلقك ، وأعوذ بك أن تجعل أحدًا أسعدَ بما علمته مني ، اللهمَّ لا تخْزني فإنك بي عالم ، اللهمَّ لا تعذِّبني فإنك عليَّ قادر »[1] .

ومحمد بن واسع يدعو ربَّه :

عن حمَّاد بن زيد قال : « كنا نجلس إلى محمد بن واسع ، فكان يقول : اللهمَّ إنَّا نعوذ بك من كلِّ رزْقٍ يُباعدنا منك ، طهِّرْنا من كلِّ خبيث ، ولا تسلِّط علينا الظَّلَمَة »[2].

وبكر بن عبد الله المزني لا يَدَعُ هذا الدعاءَ :

عن المبارَك بن فُضالة قال : سمعتُ بكر بن عبد الله المزني يدعو بهذا الدعاء -

---

(١) الحلية ٢/٢٠٧ .

(٢) الحلية ٢/٣٥٣ .

لا يَدَعُه - : اللهمَّ افتحْ لنا من خزائن رحمتك رحمة لا تعذِّبنا بعدها أبدًا في الدنيا والآخرة ، ومن فضلك الواسع رزقًا حلالًا طيِّبًا لا تُفقرنا بعدَه إلى أحدٍ سِواك أبدًا ، تزيدنا لك بهما شكرًا وإليك فاقةً وفقرًا ، وبك عمَّن سواك غنًى وتعفُّفًا[١] .

والجرَّاح مقدّمُ الجيوش ، وفارسُ الكتائب : يدعو الله له ولإخوانه بالشهادة ، فنالوها جميعًا :

لله درُّكَ أبا عقبة الجرَّاح الحكمي !!

« قال سليم بن عامر : دخلتُ على الجرَّاح ، فرفع يديه ، فرفع الأُمراء أيديهم ، فمكث طويلًا ، ثم قال لي : يا أبا يحيى ، هل تدري ما كنَّا فيه ؟ قلتُ : لا ، وجدتُكم في رغبة ، فرفعتُ يدي معكم . قال : سألنا الله الشهادة . فوالله ما بقي منهم أحدٌ في تلك الغزاة حتى استُشهد »[٢] .

أبو معاوية الأسود : والعجَبُ العُجَاب في قصَّته ودعائه :

هذا الوليُّ الذي قال عنه الذهبي في السير (٧٨/٩) : « مِن كبار أولياء الله . صحِبَ سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم ، وغيرهما ، وكان يُعَدُّ من الأبدال .

قيل : إنه ذهب بصرُه ، فكان إذا أراد التلاوة في المصحف أبصر بإذن الله .

قال أحمد بن فضيل العكي : غزا أبو معاوية الأسود ، فحضر المسلمون حصنًا فيه عِلْجٌ لا يرمي بحجَرٍ ولا نشَّاب إلا أصاب ، فشكوا إلى أبي معاوية ، فقرأ: ﴿ **وما رميتَ إذْ رميْتَ ولكنَّ الله رمىٰ** ﴾ [الأنفال : ١٧]،استُروني منه . فلمَّا وقف قال : أين تريدون بإذن الله ؟ قالوا : المذاكير . فقال : أي ربِّ ،

(١) الحلية ٢٢٥/٢ .

(٢) السير ١٨٩/٥ - ١٩٠ .

قد سمعتَ ما سألوني فأعطِني ذلك . بسم الله . ثم رمى المذاكير فوقع » .

لله درُّك من وليٍّ ... ترمي وأنت ضرير،فتصيب من عدوِّك المذاكير .

أبو بكر بن عيَّاش ودعاؤه الجميل :

عن بِشْر بن الحارث : سمع أبا بكر بن عيّاش يقول : « يا مَلَكَيَّ ادْعُوَا الله لي ، فإنكما أطوعُ لله مني » ..

ولجمالها لا تحتاج إلى تعليق !!

زين العابدين علي بنُ الحسين رضي الله عنهما ، ودعاءٌ من بيت النبوَّة :

كان زيْن العابدين يقول : « اللهمَّ إني أعوذ بك أن تُحسِّن في لوائح العيون علانيتي وتقبِّح في خفيَّات العيون سريرتي . اللهمَّ كما أسأتُ وأحسنتَ إليّ ، فإذا عُدتُ فعُدْ عليَّ » .

قال زيد بن أسلم : كان من دعاء عليّ بن الحسين : « اللهمَّ لا تكِلْني إلى نفسي فأعجز عنها ، ولا تكلْني إلى المخلوقين فيضيِّعوني » .

الوليُّ النَّباجِيُّ مجابُ الدعوة ، القدوة العابد الربَّاني ؛ أبو عبد الله سعيد بن بريد :

« له كلام شريف ومواعظ .

عنه قال : لو جُعلَتْ لي دعوة مجابَة ما سألتُ الفردوس ، ولَكنتُ أسأل الرضا ، فهو تعجيل الفردوس .

قال ابن بكر : سمعتُ النباجي يقول : ينبغي أن نكون بدعاء إخواننا أوثق منَّا بأعمالنا ، نخاف في أعمالنا التقصير ، ونرجو أن نكون في دعائهم لنا مُخلصين »[1].

---

(١) السير ٩/٥٨٦ .

طلقُ بنُ حبيب ودعاؤُهُ العجيب :

كان رحمه الله يقول في دعائه : « اللهمَّ إني أسألك علْمَ الخائفين منك ، وخوْفَ العالمين بك ، ويقينَ المتوكِّلين عليك ، وتوكُّل الموقنين بك ، وإنابة المُخْبتين إليك ، وإخبات المُنيبين إليك ، وشكْرَ الصابرين لك ، وصبرَ الشاكرين لك ، ولحاقًا بالأحياء المرزوقين عندك »[١] .

أيُّوب السّختياني : يدعو الله مرافقةَ نبيِّه ﷺ :

كان رحمه الله يدعو بدعاء القرآن ، ويؤمِّن مَن خلفَه ، وآخر ذلك يصلِّي على النبي ﷺ ويقول : اللهمَّ استعملْنا بسنَّةِ نبيِّنا ، وتوفَّنا على مِلَّته ، وأوزعْنا بهدْيه ، وارزقنا مرافقته ، وعَرِّفْنا وجهه في رضوانك والجنة . اللهمَّ خذْ بنا سبيله وسنته ، نعوذ بك أن نُخالف سبيلَه وسُنَّته . اللهمَّ أقرَّ عينه بمن يتبعه مِن أُمَّته ، واجعلنا منهم ، وأورِدْنا حوْضه ، واسقنا مشربًا رويًّا لا نظمأ بعده أبدًا . اللهمَّ ألحقْنا بنبيِّنا غير خَزايا ولا نادمين ، ولا خارجين ولا فاسقين ، ولا مبدِّلين ولا مرتابين ، واجعلنا من الذين أنعمتَ عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء ، وحسُن أولئك رفيقًا .

وكان من دعائه في تطوُّع رمضان : « اللهمَّ أسألك الإيمان وحقائقه ووثائقه ، وكريم ما امتننتَ به من الأخلاق والأعمال ، التي نالوا بها منك حسْنَ الثواب ، اللهمَّ اجعلني ممن يتقيك ويخافك ، ويستحييك ويرجوك ، اللهمَّ استرْنا بالعافية » .

عطاء السليميّ :

كان رحمه الله يقول في دعائه : « اللهمَّ ارحمْ غربتي في الدنيا ، وارحم

---

(١) السير ٤/٦٠٢ .

مصرعي عند الموت ، وارحم قيامي بين يديك »[(١)] .

موسى الكاظِمُ رحمه الله ؛ الإمام القدوة السيد :

« دخل - رحمه الله - مسجد رسول الله ﷺ ، فسجد سجدة في أول الليل ، فسُمِع وهو يقول في سجوده : عظُمَ الذنب عندي فلْيَحْسُن العفو من عندك ، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة.فجعل يردِّدها حتى أصبح »[(٢)] .

عُتْبةُ الغلامُ : يدعو ربَّه أنْ يحشرَه مِن حواصل الطُّيُور ، واستجاب الله دعاءَه :

قال رياح القيسي : بات عندي عتبة الغلام ، فسمعته يقول في سجوده : « اللهمَّ احشرْ عتبة من حواصل الطيرْ وبطونِ السِّبَاع » .

لله درُّه من غلامٍ رَهَّاب ؛ « إذا جنَّ الليلُ لِبسَ المَسُوحَ ، وغلَّ نفسَه ، وناجىٰ مولاه قائلًا : احشرني من حواصل الطيور . فاستجاب الله دعاءَه ، ولقيَ ربَّه شهيدًا ، وأكلتِ الطيورُ لحمَه »[(٣)] .

وعوْن بن عبد الله بن عتبة : عالي الهِمَّة في الدعاء :

كان يقول في دعائه : « اجعلْ طاعتك همِّي ، وقوِّ عليها جسدي . وسَخِّ نفسي عن الدنيا واشغلني بما ينفعني ، وباركْ لي في قواها حتى ينقضي مني حالي . وامنُنْ عليَّ وارحمني ، حين تُعيد بعدَ اللّقا خلْقي . ومن سوء الحساب فعافني ، يوم تبعثني فتحاسبني . ولا تُعرضْ عني ، يومَ تعرضني بما سلف من ظلْمي وجرْمي . وآمني يومَ الفزَع الأكبر ، يوم لا تهمُّني إلا نفسي . وارزقني نفْعَ عمل ، يومَ لا ينفعني عملُ غيري . وكما مننتَ عليَّ بالإسلام فامنن عليّ بطاعتك ، وبترْك معاصيك أبدًا ما أبقيتَني. ولا تفضحني بسرائري ، ولا تخذلْني بكثرة فضائحي .

---

(١) السير ٦/٨٦ .

(٢) السير ٦/٢٧٠ .

(٣) صفة الصفوة ٤/٢٠٠ .

سبحانك خالقي ، أنا تائب إليك فاقبل توبتي واستجبْ دعائي ، وارحمْ شبابي ، وأقلني عَثْـرتي ، وارحمْ طولَ عَبْرتي ، ولا تفضحني بالذي قد كان منـي . سبحانك خالقي ، أنت غِياث المُسْتغيثين ، وقرَّة أعين العابدين ، وحبيب قلوب الـزاهـدين ، فإليك مستغاثي ومنقطعي ، فارحمْ شبابي ، واقبلْ توبتي ، واستجـبْ دعوتي ، ولا تخذلْني بالمعاصي التي كانت مني . ولا تجعلني لنـار جَهنَّـمَ وقودًا ، بعد توحيدي وإيماني بك » .

ورادُ العجليّ ودعاؤه في السَّحَر :

كان رحمه الله يبكي في مجلس وعْظ ابن ذرٍّ ، فيقول له ابن ذرٍّ : ما الذي قصّر بنا ؟ وكَلَمَ قلبَه حتى أبكاه ، والله إنْ هذا يا أخا بني عجلٍ إلّا من صفاء قلبك وتراكم الذنوب على قلوبنا .

« قالت أختُه : كان إذا كان السَّحَر – أو قريب من طلوع الفجر – سجد ثم بكى ، ثم قال : (مولاي ، عبدك يحبُّ اجتناب سُخْطك ، فأعنه على ذلك بمنّك أيُّها المنَّان . مولايَ ، عبدك عظيم الرجاء لخيرك ، فلا تقطعْ رجاءه يوم يفرح الفائزون).فلا يزال كذلك حتى يصبح »[(١)] .

شعوانةُ وعُلُوُّ هِمَّتها في الدعاء :

« كانت – رحمها الله – تقول : إلهي ، ما أشوقني إلى لقائك ، وأعظم جزائي لجزائك ، وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ، ولا يبطل عندك شوْق المشتاقين . إلهي ، إن كان دنا أجلي و لم يُقَرِّبني منك عملي ، وقد جعلتُ الاعتراف بالذنب وسائل عللي ، فإن عفوتَ فمَن أولى منك بذلك ؟! وإن عدلت فمَن أعدلُ منك هُنالك ؟! إلهي ، قد جرتُ على نفسي بالنظر لها ، وبقي لها حسن نظرك ، فالويل

---

(١) صفة الصفوة ١٦٢/٣ .

لها إن لم تُسْعِدها . إلهي ، إنك لم تزلْ بي بَرًّا أيَّام حياتي ، فلا تقطع عني بِرَّك بعد مماتي ، ولقد رجوتُ ممَّن تولَّاني في حياتي بإحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه . إلهي ، كيف أيأس من حسْن نظرك بعد مماتي ، ولم تولِّني إلا الجميل في حياتي . إلهي ، إن كانت ذنوبي قد أخافتني ؛ فإنَّ محبَّتي لك قد أجارتني ، فتولَّ من أمري ما أنت أهلُه ، وعُدْ بفضلك على من غرَّه جهلُه . إلهي ، لو أردتَ إهانتي لَمَا هديتَني ، ولو أردتَ فضيحتي لم تسترْني ، فمتعْني بما له هديتَني ، وأدمْ لي ما بِهِ سترتَني »[1] .

الواعظُ البرُّ عمرُ بنُ ذرٍّ :

قال كثير بن محمد : « سمعتُ عمر بن ذرٍّ يقول : اللهمَّ إنا أطعناك في أحبِّ الأشياء إليك أن تطاع فيه : الإيمان بك والإقرار بك ، و لم نعصِكَ في أبغض الأشياء أن تُعصىٰ فيه : الكفر والجحْد بك . اللهمَّ فاغفرْ لنَا بينهما ، وأنت قلتَ : ﴿ **وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانِهم لا يَبعث الله مَن يموت** ﴾ [النحل : ٣٨] ، ونحن نُقسِمُ بالله جَهْدَ أيْماننا لَتَبْعَثنَّ مَن يموت ، أفتراك تجمع بين أهل القَسَمَيْن في دار واحدة »[2] .

عبدُ الله بنُ المبَارَك : يدعو الله للحَسَنِ بن عيسىٰ أن يُسْلِمَ ، فاستجاب الله له :

قال الحاكم : « حدَّثنا الحافظ أبو علي النيسابوري عن شيوخه : أن ابن المبارك نزل مرة برأس سكة عيسىٰ ، وكان الحسن بن عيسىٰ يركب فيجتاز به وهو في المجلس ، وكان مِن أحسن الشباب وجهًا ، فسأل ابنُ المبارك عنه ، فقيل : هو نصراني . فقال : اللهمَّ ارزقْه الإسلام . فاستُجيب له .

قال أبو العباس السرَّاج : حدَّثنا الحسن بن عيسىٰ موْلى عبد الله بن المبارك ،

---

(١) عودة الحجاب للشيخ محمد إسماعيل ٢/٣٠١ .
(٢) السير ٦/١٨٥ .

وكان عاقلًا : عُدَّ في مجلسه بـ « باب الطاق » اثنا عشر ألف محبرة »[(١)] .

هذه دعوة ابن المبارك المباركة .. يُسْلِم على أثرها الإمام المحدِّث ، الثقة الجليل : أبو علي الحسَن بن عيسىٰ بن ماسَرْجس .

يحيىٰ بنُ معاذ الواعِظ :

كان رحمه الله يقول في مناجاته في الليل : « اللهمَّ إن خطيئتي تُعذِّبني ، وتوبتي تُذوِّبني ، فعيشتي طولَ دهري بين تعذيبٍ وتذويب » .

وكان يقول : « واسَوْأتاه منك ، إذا شاهدتَني وهمَّتي تسبق إلى سواك ، أم كيف لا أضنى في طلب رضاك »[(٢)] .

وكان يقول : « يا منْ أقام لي غرْس ذكري ، وأجرىٰ لي أنهارًا تجري ، وجعل لي أيام عيدٍ في اجتماع الورىٰ ، وأقام لي فيهم أسواق التقوى ؛ أقبلتُ إليك معتمدًا عليك ، ممتلئَ القلب من رجائك ، ورطْبَ اللسان من دعائك ، في قلبي من الذنوب زَفَرات ، ومعي عليها ندامات ، إن أعطيتَني قبلتُ ، وإن منعتَني رضيتُ ، وإن تركتَني دعوتُ ، وإن دعوتَني أجبتُ ، فأعطني إلهي ما أريد ، فإن لم تُعطني ما أريد ، فصبِّرْني على ما تريد »[(٣)] .

وقال رحمه الله : « طوبىٰ لعبد أصبحتِ العبادة حِرْفته ، والفقر مُنْيَته ، والعزْلة شهوتَه ، والآخرة هِمَّته ، وطلبُ العيش بُلْغَته ، وجعَلَ الموتَ فِكْرتَه ، وشغل بالزهد نيَّته ، وأمات بالذلِّ عزَّتَه ، وجعل إلى الربِّ حاجته ، يذكر في الخلَوات خطيئته ، وأرسل على الوَجْنة عَبرته ، وشكا إلى الله غُرْبته ، وسأله بالتوبة رحمته ، طوبىٰ لمن كان ذلك صفتَه ، وعلى الذنوب ندامته ، جَئَّار الليل والنهار ،

(١) السير ١٢/٢٧ .
(٢) الحلية ١٠/٥٦ .
(٣) الحلية ١٠/٦٦ .

وبكّاء إلى الله بالأسحار ، يناجي الرحمٰن ، ويطلب الجِنان ، ويخاف النيران »[١] .

الواعظُ الزاهدُ : عَزيزِي بنُ عبدِ الملكِ بن منصور ؛ أبو المعالي ، الملقَّبُ بـ : « شَيْذَلَه »[٢] :

قالت شُهدة بنت أحمد بن الفرج : سمعتُ القاضي الإمام عزيزي بن عبد الملك من لَفظه - في سنة تسعين وأربعمائة - يقول : « اللهمَّ يا واسعَ المغفرة ، ويا باسطَ اليديْن بالرحمة ، افعلْ بي ما أنت أهلُه . إلهي ، أذنبتُ في بعض الأوقات ، وآمنتُ بك في كلِّ الأوقات ، فكيف يغلب بعضُ عمري مُذنبًا جميعَ عمري مؤمنًا ؟! إلهي ، لو سألتَني حسناتي لَجعلتُها لك مع شِدَّة حاجتي إليها ، وأنا عبد ، فكيف لا أُرجو أن تهَبَ لي سيئاتي مع غِناك عنها ، وأنت ربٌّ ؟! فيا مَن أعطانا خير ما في خزائنه ، وهو الإيمان به قبل السؤال ، لا تمنعْنا أوسعَ ما في خزائنك ، وهو العفو مع السؤال . إلٰهي ، حُجَّتي حاجتي ، وعُدّتي فاقتَي ، فارحمني . إلٰهي ، كيف أمتنع بالذنب من الدعاء ، ولا أراك تمتنعُ مع الذنب من العطاء ؟! فإنْ غفرتَ فخيرُ راحم أنت ، وإن عذَّبتَ فغيرُ ظالمٍ أنت . إلٰهي ، أسألك تذلُّلا ، فأعطني تفضُّلا »[٣] .

الإمامُ الزاهدُ ، مجابُ الدعْوَةِ : العمادُ المقدِسيُّ :

قال عنه الضياء المقدسي : « كان إذا دعا كأن القلب يشهدُ بإجابة دعائه ؛ من كثرةِ ابتهاله وإخلاصه » .

ومن دعائه المشهور : « اللهمَّ اغفرْ لأَقْسَانا قلبًا ، وأكبرِنا ذنبًا ، وأثقلنا ظَهْرًا ، وأعظمنا جرْمًا » .

---

(١) الحلية ١٠/٥٨ .
(٢) ترجمته في السير ١٩/١٧٤ - ١٧٥ .
(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٥/٢٣٧ .

وكان يدعو : « يا دليل الحيارىٰ ، دُلَّنا على طريق الصادقين ، واجعلْنا من عبادك الصالحين »(١) .

الزاهد القدوة : الشيخ عبد العزيز بن أحمد الدّميريّ الدِّيرينيّ :

كان من دعائه ومناجاته رحمه الله : « إلٰهي ، عرَّفتَنا بربوبيتك ، وغرَّقْتَنا في بحار نعمتك ، ودعوتَنا إلى دار قُدْسك ، ونعَّمتَنا بذكْرِكَ وأُنسِك . إلٰهي ، إن ظلمة ظُلْمِنا لأنفسنا قد عمَّتْ ، وبحارَ الغفلة على قلوبنا قد طمَّتْ ، فالعجز شامل ، والحصر حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم . إلهي ، ما عصيناك جهْلًا بعقابك ، ولا تعرُّضًا لعذابك ، ولكن سوَّلتْ لنا نفوسُنا ، وأعانتْنا شقْوَتُنا ، وغرَّنا سترُك علينا ، وأطمعنا في عفوك برُّك بنا ، فالآن مِن عذابك مَن يستنقذُنا ؟! وبحبل مَن نعتصمُ إن قطعتَ حَبْلَك عنَّا ؟! واخجلتَنا من الوقوف غدًا بين يديْك !! وافضيحتنا إذا عُرضتْ أعمالنا القبيحة عليك !! اللهمَّ اغفر ما علمتَ ، ولا تهتكْ ما سترتَ . إلهي ، إن كنَّا عصيناك بجهْل ، فقد دعوناك بعقل ؛ حيث علمنا أنَّ لنا ربًّا يغفر الذنوب ولا يُبالي »(٢) .

شيْخُ الدِّيَار المصرية الزاهدُ ؛ أبو الفيْضِ ذو النُّونِ المصريُّ : أُنموذَجٌ عَطِرٌ لعُلُوِّ الهِمَّةِ في الدُّعَاء والمُنَاجَاة :

كان رحمه الله يقول في دعائه ومناجاته : « إلٰهي ، وسيلتي إليك : نعمُكَ عليَّ، وشفيعي إليك : إحسانُك إليَّ . اللهمَّ إليك تُقصد رغبتي ، وإيَّاك أسأل حاجتي ، ومنك أرجو نجاح طلْبتي ، وبيدك مفاتيحُ مسألتي ؛ لا أسأل الخيرَ إلَّا منك ، ولا أرجوه من غيرك ، ولا أيأس من رَوْحِك بعد معرفتي بفضلك . يا مَن جمَع كلَّ شيءٍ حِكْمته ، ويا مَن نفذ في كلِّ شيءٍ حُكْمُه ، يا مَن الكريمُ

(١) ترجمته في السير ٢٢/٤٧ - ٥٢ .
(٢) طبقات الشافعية ٨/٢٠٠ .

اسمُه ؛ لا أحدَ لي غيرك فأسأله ، ولا أثق بسواك فآمله ، ولا أجعل لغيرك مشيئة من دونك أعتصم بها ، وأتوكَّل عليه ، فمَن أسأل إنْ جهلتُك ؟! وبمَن أثِقُ بعد إذْ عرفتُك ؟! اللهمَّ إنَّ ثقتي بك ، وإنْ ألهتْني الغفلاتُ عنك وأبعدتْني العَثَرات منك بالاغترار . أنا نعمة منك أجري في نِعَمِك ، لا أزداد على سابقةِ عِلْمك ، ولا أنتقصُ من عزيمة أمْرك ، فأسألك يا منتهى السؤالات ، وأرغبُ إليك يا موضع الحاجات ، سؤال مَن قد كذَب كلّ رجاء إلَّا منك ، ورغبة مَن رغِب عن كلِّ ثقة إلَّا عنك - أن تهبَ لي إيمانًا أقدمُ به عليك ، وأوصلُ به عِظم الوسيلة إليك ، وأن تهب لي يقينًا لا تُوهِنُه بشبهةِ إفْكٍ ، ولا تهنه خَطْرة شكٍّ ، تُرحب به صدري ، وتُيسِّر به أمري ، ويأوي إلى محبَّتك قلبي ، حتى لا ألهو عن شكْرك ، ولا أنعم إلا بذكْرك . يا من لا تملُّ حلاوةَ ذكْرِه ألسنُ الخائفين ، ولا تكِلُّ من الرغَبات إليه مدامِعُ الخاشعين ، أنت منتهى سرائر قلبي في خفايا الكَتم ، وأنت موضع رجائي بين إسراف الظلْم ، مَن ذا الذي ذاق حلاوة مناجاتك فلَها بمرضاةِ بَشَرٍ عن طاعتك ومرضاتك؟! يا من يُعصى ويُتاب إليه ، فيرضى كأنه لم يُعصَ ، بكرمٍ لا يُوصَف ، وتحنُّنٍ لا يُنعَت . يا حنَّانُ بشفقته ، يا متجاوزًا بعظمته ، لم يكن لي حوْل فأنتقل عن معصيتك إلا في وقتٍ أيقظتني فيه لمحبَّتك . خضعتُ لك وخشعتُ لك -إلهي- لِتُعِزّني بإدخالي في طاعتك ، ولِتنظرَ إليَّ نظرَ مَن ناديتَه فأجابك ، واستعملتَه بمعونتك فأطاعك . يا قريبُ ، لا تبعدْ عن المغترِّين . يا وَدود ، لا تعجلْ على المذنبين » .

« وقال محمد بن يوسف : كان ذو النون يقول في مناجاته : يا واهبَ المواهب ومجزِلَ الرغائب ، أعوذ بك من النزول بعد الوصول ، ومن الكَدَر بعد الصَّفَا ، ومن الشوْق بعد الأُنس ، ومن طائف الحسرة لعارض الفترة ، ومِن تغيُّر الرضا ، ومن التخلُّف عن الحادي لحظةً ، أو الإيمان دون العلم ، ومن موقعِ حَذَر يُوجب للعقل بطئًا - ياربّ - حتى تكملَ النعمُ عندي ، ورقِّ في ذُرى الكرامة مُهجتي ، ونضِّر اللهـمَّ بالكمال لديك بَهجتي ، وعزِّفني عن

الـدون ، ووارِ عِلْمي عن الخاطر . يا مَن منَح الأصفياءَ منـازلَ الحقِّ ومـدى الغايات ، أصْفِ هدايتي من دَنَس العارض واحسمْ عدوِّي عن ملاحظتي ، وأخلصني بكمال رغبتي وبما لا يبلغه سؤالي ؛ إنك رحيم ودود »(١) .

« وعن سعيد بن عثمان قال : سمعتُ ذا النون يدعو : اللهمَّ متِّعْ أبصارنا بالجوَلَان في جلالك ، وَسهِّرْنا عَمّا نامت عنه عيونُ الغافلين ، واجعلْ قلوبنا معقودة بسلاسل النور ، وعلِّقْها بأطناب التفكُّر ، ونزِّه أبصارنا عن سرِّ مواقف المتحيِّرين ، وأطلقْنا من الأسر لِنجولَ في خدمتك مع الجوَّالين . اللهمَّ اجعلنا من الذين استعملوا ذكر قطْع اللذَّات ، وخالَفوا متاع الغرَّة بواضحات المعـرفـة . اللهمَّ اجعلْنا من الذين لخدمتك في أقطار الأرض لهم طُلَّابا ، ولخصائص أصفيائك أصحابًا ، وللمريدين المعتكفين ببابك أحبابًا . اللهمَّ اجعلْنا من الذين غسَلوا أوعية الجهل بصفو ماءِ الحياة في مسالك النعيم ، حتى جالتْ في مجالسِ الذكْر مع رطوبة ألسنةِ الذاكرين . اللهم اجعلْنا من الذين رتعوا في زهرة ربيع الفهْم حتى تسامت أسنية الفكرة فوق سموِّ السموِّ ، حتى تسامىٰ بهم نحو مسامِّ العلويين براحات القلوب ، ومستنبطات عيوب الغيوب بطول استعفار الوجوه في محاريب قدْسِ رهبانية الخاشعين ، حتى لاذت أبصار القلوب بجواهر السماء ، وعبرت أفنية النوَّاحين من مَصافِّ الكروبيِّين ومجالسة الروْحانيِّين ، فتوهَّموا أنْ قدْ قرب احتراقٌ بالقلوب عند إرسال الفكرة في مواقع الأحزان بين يديك ، فأحرقتْ نارُ الخشية بصائرَ مناقبِ الشهوات من قلوبهم ، وسكنتْ خوافي ضلوعِ مضايقِ الغَفَلات من صدورهم ، فأنبتَ ذكْرُ الصلوات رُقادَ قلوبهم »(٢) .

« وقال سعيد بن عثمان : سمعتُ ذا النون يقول : إلٰهي ، إن كان صغر في جنْب طاعتك عملي ، فقد كبُر في جنب رجائك أملي . إلهي ، كيف.أنقلبُ مِن

(١) الحلية ١٠/٣ .
(٢) الحلية ٩/ ٣٥٨ - ٣٥٩ .

عندك محرومًا وقد كان حسْن ظنِّي بك منوطًا ؟! إلٰهي ، فلا تُبطلْ صِدْقَ رجائي لك بين الآدميِّين . إلٰهي ، سمِع العابدون بذكْرك فخضعوا ، وسمِع المذنبون بحسْن عفوك فطمعوا . إلٰهي ، إن كانت أسقطَتْني الخطايا من مكارم لُطْفك ، فقد آنسني اليقين إلى مكارم عطْفك . إلهي ، إن أمَّنتْني الغفْلة من الاستعداد للقائك ، فقد نبَّهتْني المعرفة لكرِم آلائك . إلهي ، إن دعاني إلى النار أليمُ عقابك ، فقد دعاني إلى الجنة جزيلُ ثوابك »[١] .

وقال ذو النون رحمه الله : « اللهم اجعلْنا من الذين استظلُّوا تحت رواق الحزن ، وقرءوا صحف الخطايا،ونشروا دواوين الذنوب ، فأورثهم الفِكَرَ الصالحةَ في القلب . اللهمَّ واجعلْنا من الذين أدَّبوا أنفسَهم بلذَّة الجوع ، وتزيَّنوا بالعلم ، وسكنوا حظيرة الورَع ، وغلَّقوا أبواب الشهوات ، وعرفوا مسيرَ الدنيا بموقناتِ المعرفة ، حتى نالوا عُلُوَّ الزهد فاستعذبوا مذلَّة النفوس ، فظفروا بدار الجلال ، وتواسوا بينهم بالسلام . واجعلْنا من الذين فتقْتَ لهم رتْقَ غواشي جفونِ القلوب ، حتى نظروا إلى تدبير حكمتك وشواهد حُجَجِ تبيانك ، فعرفوك بموصولِ فِطَن القلوب ، فرقيتْ أرواحُهم عن أطراف أجنحة الملائكة ، فسمَّاهم أهلُ الملكوت : زُوَّارًا ، وأهلُ الجبروت : عمَّارًا . وتردَّوا في مصافِّ المسبِّحين ، ولاذوا بأفنية المقدسين ، فتعلَّقوا بحجاب العزَّة ، وناجَوْا ربَّهم عند مُطارفة كلِّ شهوة ، حتى نظروا بأبصار القلوب إلى عِزِّ الجلال ، إلى عظيم الملكوت ، فرجعتِ القلوب إلى الصدور على الثيابِ بمعرفةِ توحيدك ؛ فلا إله إلا أنت »[٢] .

« وقال أبو عثمان سعيد بن عثمان : سمعتُ ذا النون أبا الفيض يقول : اللهمَّ اجعلْنا من الذين تفكَّروا فاعتبروا ، ونظروا فأبصروا ، وسمعوا فتعلَّقتْ قلوبهم بالمنازَعة إلى طلب الآخرة ، حتى أناخت وانكسرت عن النظر إلى الدنيا وما فيها ،

---

(١) الحلية ٣٨٥/٩ .
(٢) الحلية ٣٨٣/٩ .

ففتقوا بنور الحكم ما رتقهُ ظلْم الغفلات ، وفتحوا أبواب مغاليق العمىٰ بأنوار مفاتيح الضياء ، وعمَّروا مجالس الذاكرين بحسْن مواظبة استيدام الثناء . اللهمَّ اجعلْنا من الذين تراسلت عليهم سُتورُ عِصْمة الأولياء ، وحَصَّنتَ قلوبَهم بطهارة الصفاء ، وزيَّنْتَها بالفهم والحياء ، وطيَّرتَ هموَمهم في ملكوت سمواتك حجابًا حتى تنتهيَ إليك ، فرددتَها بظرائف الفوائد . اللهمَّ اجعلْنا من الذين سهُل عليهم طريقُ الطاعة ، وتمكَّنوا في أزمَّة التقوى ، ومُنحوا بالتوفيق منازلَ الأبرار ، فزُيِّنوا وقُرِّبوا وكُرِّموا بخدمتك .

وسمعتُه يقول : لك الحمد يا ذا المنِّ والطَّوْل والآلاءِ والسَّعَة . إليك توجَّهنا ، وبفنائك أنخنا ، ولمعروفك تعرَّضنا ، وبقُرْبك نزلنا . يا حبيبَ التائبين ، ويا سرورَ العابدين ، ويا أنيسَ المنفردين ، ويا حِرْزَ اللَّاجِّين ، ويا ظهْرَ المنقطعين ، ويا مَن حبَّبَ إليه قلوب العارفين ، وبه أُنستْ أفئدة الصِّدِّيقين ، وعليه عطفَتْ رهبةُ الخائفين . يا من أذاق قلوبَ العابدين لذيذَ الحمْد ، وحلاوة الانقطاع إليه . يا مَن يقبل مَن تاب ويعفو عمَّن أناب ، ويدعو المُولِّين كرَمًا ويرفع المقبلين إليه تفضُّلًا . يا مَن يتأنَّى على الخاطئين ، ويحلُم عن الجاهلين ، ويا من حلَّ عقدة الرغْبة من قلوب أوليائه ، ومحا شهوة الدنيا عن فكْر قلوبِ خاصَّته وأهل محبَّته ، ومنحهم منازلَ القرْب والولاية . ويا من لا يُضَيِّع مطيعًا ، ولا ينسىٰ صبيًّا . يا مَن منح بالنوال ، ويا مَن جادَ بالاتِّصال ، يا ذا الذي استدرك بالتوبة ذنوبَنا ، وكشف بالرحمة غُمومَنا ، وصفح عن جُرْمنا بعد جهْلنا ، وأحسن إلينا بعد إساءتنا ، يا آنسَ وحشتنا ويا طبيبَ سقمنا ، يا غِياث مَن أُسقِطَ بيده ، وتمكَّن حبْلُ المعاصي وأسفر خِدْرُ الحيا عن وجهه ، هبْ خدودَنا للتراب بين يديْك ، يا خيرَ مَن قدَر ، وأرأف مَن رحِم وعفا »[1] .

(١) الحلية ٩/٣٣٥ - ٣٣٦ .

« وقال سعيد بن عثمان : سمعتُ ذا النون يقول : أسألك باسمك الذي ابتدعتَ به عجائبَ الخلْق في غوامض العلم ، بجود جلال جمالٍ وجهك في عظيم عجيب تركيب أصنافِ جواهر لغاتها ، فخرَّتِ الملائكة سُجَّدًا لهيبتك من مخافتك ؛ أن تجعلَنا من الذين سرحت أرواحُهم في العلى ، وحطَّتْ هِمَمُ قلوبهم في مغلبات الهوى ، حتى أناخوا في رياض النعيم ، وجَنَوْا من ثمار التسليم، وشربوا بكأس الحب، وخاضوا لُجَج السرور ، واستظلُّوا تحت فناء الكرامة . اللهمَّ اجعلْنا من الذين شربوا بكأس الصَّفَا ، فأورثهم الصبر على طول البَلَا ، حتى تولَّيْتَ قلوبهم في الملكوت ، وجالت بين سرائر حُجُب الجبروت ، ومالت أرواحُهم في ظلِّ بردِ نسيمِ المشتاقين ، الذين أناخوا في رياض الراحة ومعدن العزِّ وعَرَصَات المخلَّدين »[1] .

ومناجاةٌ لذي النُّونِ تُكْتَبُ بأحرُفٍ من نورٍ :

« قال عبد القدُّوس الشاشي : سمعتُ ذا النون المصري يقول : إلٰهي ، ما أُصغي إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ، ولا ترنُّم طائر ولا تنعُّم ظلٍّ ولا دوي ريح ولا قعقعة رعد ؛ إلَّا وجدتُها شاهدةً بوحدانيتك ، دالَّةً على أنه ليس كمثلك شيء ، وأنك غالب لا تُغلَب ، وعالم لا تجهل ، وحليم لا تَسْفَه ، وعدلٌ لا تجور ، وصادق لا تكذب . إلهي ، فإني أعترف لك اللهمَّ بما دلَّ عليه صُنعُك ، وشهد لك فعْلُك ، فهبْ لي اللهمَّ تطلُّبَ العزيمة إليك ؛ لأنَّ مَن لم يُشبعه الوُلوعُ باسمك ؛ ولم يروه من ظَمَئِهِ وُرودُ غُدرانِ ذكْرك ، ولم يُنسِهِ جميعَ الهموم رضاهُ عنك ، ولم يُلهِهِ عن جميع الملاهي تعداد آلائك ، ولم يقطعه عن الأنس بغيرك مكانه منك - كانت حياته مِيتةً ، وميتَتُه حسرةً ، وسروره غُصَّة ، وأنسه وحشة . إلٰهي ، عرِّفْني عيوبَ نفسي ، وافضحْها عندي لأتضرعَ

---

(١) الحلية ٩/٣٣٦ .

إليك في التوفيق للتنزُّه عنها ، وأبتهل إليك بين يديك خاضعًا ذليلًا في أن تغسلني منها ، واجعلني من عبادك الذين شَهِدَتْ أبدانُهم وغابت قلوبهم ؛ تجول في ملكوتك وتتفكَّر في عجائب صُنْعك ، ترجع بفوائد معرفتك وعوائد إحسانك ، قد ألبستَهم خُلَعَ محبتك ، وخلعتَ عنهم لباس التزيُّن لغيرك . إلٰهي ، لا تتركْ بيني وبين أقصى مرادك حجابًا إلَّا هتكتَه ، ولا حاجزًا إلَّا رفعتَه ، ولا وَعرًا إلا سهَّلته ، ولا بابًا إلَّا فتحتَه ، حتى تقيم قلبي بين ضياء معرفتك ، وتُذيقني طعْمَ محبَّتك ، وتُبرد بالرضا منك فؤادي وجميع أحوالي ، حتى لا أختار غير ما تختاره ، وتجعل لي مقامًا بين مقامات أهل ولايتك ، ومضطربًا فسيحًا في ميدان طاعتك . إلهي ، كيف أسترزق مَن لا يرزقني إلَّا من فضلك ؟! أم كيف أسخطك في رضا مَن لا يقدر على ضرِّي إلَّا بتمكينك ؟! فيا من أسأله إيناسًا به وإيحاشًا مِن خلقه ، ويا من إليه التجائي في شدَّتي ورجائي ، ارحمْ غربتي ، وهبْ لي من المعرفة ما أزداد به يقينًا ، ولا تكلْني إلى نفسي الأمارةِ بالسُّوء طَرْفة عيْن »(١) .

لله درُّ الخليفة العباسي القادر بالله ، الذي يعرف مقادير الرجال حين يقول عن ذي النون المصري : « إذا ذُكِرَ الصالحون ، فحيَّهَلا بذي النون » .

« وقال – رحمه الله – : إلٰهي ، لك تسبِّحُ كلُّ شجرة ، ولك تقدِّس كلُّ مدَرَة ، بأصوات خفية ، ونَغَماتٍ زكيَّة . إلهي ، قد وقفتُ بين يديك قدمي ، ورفعتُ إليك بصري ، وبسطتُ إلى مواهبك يدي ، وصرخ إليك صوتي ، وأنت الذي لا يُضجره النِّدَا ، ولا تُخَيِّبُ مَن دعاك . إلهي ، هبْ لي بصرًا يرفعه إليك صِدْقه ؛ فإنَّ من تعرَّف إليك غيرُ مجهول ، ومَن يلوذ بك غير مخذول ، ومن يبتهج بك مسرور ، ومَن يعتصم بك منصور »(٢) .

---

(١) الحلية ٩/٣٤٢ – ٣٤٣ .

(٢) الحلية ٩/٣٤٩ .

« وقال - رحمه الله - : إلٰهي ، إن أهل معرفتك لما أبصروا العافية ، ولمحوا بأبصارهم إلى منتهى العاقبة ، وأيقنوا بجودك وكرمك وابتدائك إيَّاهم بنعمك ، ودللتَهم على ما فيه نفعُهم دونك ، إذ كنتَ متعاليًا عن المضارِّ والمنافع - استقلُّوا كثير ما قدَّموا من طاعتك ، واستصغروا عظيم ما اقترفوا من عبادتك ، واستلانوا ما استوعَرَه غيرُهم ، بذلوا المجهود في طلب مرضاتك ، واستعظموا صِغر التقصير في أداء شُكْرك ، وإن كان ليس شيءٌ من التقصير في طاعتك : بذْلُ المجهود صغيرًا كان عندهم ، فنحلتْ لذلك أبدانُهم ، وتغيَّرت ألوانهم ، وخلَتْ من غيرك قلوبهم ، واشتغلتْ بذكرك عقولُهم وألسنتُهم ، وانصرفت عن خلقك إليك همومهم ، وأنِست وطابت بالخلوة فيك نفوسُهم ، لا يمشون بين العباد إلّا هوْنًا ، وهم لا يسعَوْن في طاعتك إلا رَكْضًا . إلهي ، فكما أكرمتَهم بشرف هذه المنازل ، وأبحتَهم رِفْعةَ هذه الفضائل ؛ اعقدْ قلوبنا بحبْل محبَّتك ، ثم حوِّلنْا في ملكوتِ سمٰواتك وأرضك ، واستدرجْنا إلى أقصىٰ مرادك درجةً درجةً ، واسلُكْ بنا مسلك أصفيائك منزلةً منزلةً ، واكشفْ لنا عن مكنون علمِكَ حجابًا حجابًا ، حتى تنتهي إلى رياض الأُنْس ، وتجتني من ثمار الشوْق إليك ، وتشرب من حِياضِ معرفتك ، وتتنزَّه في بساتين نشْر آلائك ، وتستنقع في غدران ذكر نعمائك ، ثم اردُدْها إلينا بطرف الفوائد ، وامددْها بتُحَف الزوائد ، واجعلِ العيون منا فوَّارة بالعَبَرات ، والصدور منا محشوَّة بالحرقات ، واجعلْ قلوبَنا من القلوب التي سافرت إليك بالجوع والعطش ، واجعلْ أنفسنا من الأنفس التي زالتْ عن اختيارها لهيْبتك ، أحينا على طاعتك ، وتوفَّنا إذا توفيتَنا على مِلَّتك ، راضِين مرضيِّين ، هُداةً مهدِيِّين مهتدين ، غيرَ مغضوب علينا ولا ضالِّين »[1] .

ونختم بما قال - رحمه الله - : « إلٰهي ، لو أصبتُ موئلًا في الشدائد غيرك ،

(١) الحلية ٩/٣٦٧ - ٣٦٨ .

أو ملجأ في المنازل سواك ، لَحقّ لي أن لا أُعرض إليه بوجهي عنك ، ولا أختاره عليك ؛ لِقديم إحسانك إليَّ وحديثِهِ ، وظاهرِ مِنَّتك عليَّ وباطِنها ، ولو تقطَّعتُ في البلاد إربًا إربًا ، وانصبَّتْ عليَّ الشدائد صبًّا صبًّا ، ولا أجد مشتكًى غيرك ، ولا مفرِّجًا لما بي عني سواك ، فيا وارث الأرض ومن عليها ، ويا باعث جميعِ مَن فيها ، ورِّثْ أملي فيك مُنى أَمَلي ، وبلِّغْ همِّي فيك منتهى وسائلي »(١) .

* * *

(١) الحلية ٩/٣٥١ .

الفصل الخامس
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الإِرَادَةِ

﴿ ولا تطردِ الذينَ يَدعُونَ ربَّهمْ بالغَداةِ والعَشِيِّ يُريدونَ وَجْهَهُ ﴾

[الأنعام : ٥٢]

« لا يكنْ همُّك همَّ النفسِ والطبْع ....
أين همُّ القلب .... همُّك ما أهمَّك .
فليكنْ همُّك ربَّك عزَّ وجلَّ وما عنده »

[الجيلاني]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الإِرَادَةِ □

قال الله تعالى : ﴿ **ولا تطردِ الذينَ يدعونَ ربَّهم بالغداةِ والعَشِيِّ يُريدون وجهَه ....** ﴾ الآية [الأنعام : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وإنْ كُنتنَّ تُرِدْنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإنَّ اللهَ أعدَّ للمُحسناتِ منكنَّ أجرًا عظيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ **وما لأحدٍ عندهُ من نعمةٍ تُجزىٰ إلَّا ابتغاءَ وجهِ ربِّه الأعلىٰ ولَسوف يرضىٰ** ﴾ [الليل : ١٩ - ٢١] .

وصدَّر شيخُ الإسلام الهرويّ الأنصاري هذا البابَ بقول الله تعالى : ﴿ **قلْ كلّ يعملُ على شاكِلَتِه فربُّكم أعلمُ بمن هو أهدىٰ سبيلًا** ﴾ [الإسراء : ٨٤] .

قال ابن القيم معلِّقًا في « المدارج » (٣٧١/٢) : « في تصديره الباب بهذه الآية : دلالة على عِظم قدره ، وجلالة محلِّه من هذا العلم ؛ فإن معنى الآية : كلٌّ يعمل على ما يشاكله ، ويُناسبه ، ويَليق به ؛ فالفاجر يعمل على ما يليق به ، وكذلك الكافر والمنافق ، ومريد الدنيا وجيفَتِهَا : عامل على ما يناسبه ، ولا يليق به سواه . ومحبُّ الصُّوَر : عامل على ما يناسبه ويليق به .

فكـلُّ امـرئٍ يهفـو إلى مـا يحبُّـهُ   وكـلُّ امرئ يصبو إلى ما يناسبهْ

فالمريد الصادق المحبُّ لله : يعمل ما هو اللائق به والمناسب له ، فهو يعمل على شاكلةِ إرادته ، وما هو الألْيق به ، والأنسب لها » .

قال ابن القيم : « وقد أشكل على المتكلِّمين تعلُّق الإرادة بالله ، وكون وجهه تعالى مرادًا ؛ قالوا : الإرادة لا تتعلَّق إلَّا بالحادث ، وأما بالقديم : فلا ؛ لأنَّ القديم لا يُراد . وأوّلوا « الإرادة » المتعلِّقة به بإرادة التقرُّب إليه . ثم إنه لا يُتصوَّر عندهم التقرُّب إليه . فأوّلوا ذلك بإرادة طاعته الموجِبة لجزائه .

هـذا حاصل ما عندهم . وحجابهم في هـذا الباب غليظ كثيف ، مِن أغلظ الحُجُب وأكثفها ، ولهذا تجدهم أهلَ قسْوة ، ولا تجد عليهم روح السلوك ، ولا بهجة المحبَّة » .

« وقد تنوَّعتْ عبارات القوم عنها ، وغالبهم يُخبر عنها بأنها ترْك العادة . ومعنى هذا : أنَّ عادة الناس غالبًا التعريجُ على أوطان الغفلة ، وإجابة داعي الشهوة ، والإخلاد إلى أرض الطبيعة . والمريد منسلِخٌ عن ذلك ، فصار خروجه عنه : أمَارةً ودِلالةً على صحَّة الإرادة ؛ فسُمِّي انسلاخُه وترْكُه : إرادة .

وقيل : نهوض القلب في طلب الحقِّ .

ويُقال : لوعة تهوِّن كلَّ روْعة .

قـال الـدقَّـاقي : الإرادة لوْعة في الفؤاد ، لَذْعة في القلب ، غَرام في الضمير ، انزعاج في الباطن ، نيرانٌ تأجَّجُ في القلوب .

وقيل : من صفات المريد : التحبُّب إلى الله بالنوافل ، والإخلاص في نصيحة الأمـة ، والأنس بالخلْوة ، والصبر على مقاساة الأحكام ، والإيثـار لأمْره ، والحياء مِن نظره ، وبذْل المجهود في محبوبه ، والتعرُّض لكلِّ سبب يُوصـل إليـه ، والقناعة بالخمول ، وعدم قرار القلب حتى يصل إلـى وليِّـه ومعبوده .

وقال حاتم الأصمُّ : إذا رأيتَ المريد يريد غيرَ مراده ، فاعلمْ أنه أظهرَ نذالتَه .

وقيل : من حِكَم المريد : أن يكون نومُه غَلَبة ، وأكْلُه فاقة ، وكلامه ضرورة .

وقال بعضهم : نهاية الإرادة : أن تشير إلى الله ، فتجده مع الإشارة . فقيل له : وأين تستوعبه الإشارة ؟ فقال : أن تجد الله بلا إشارة .

وهذا كلام متين فإن المراتب ثلاثة :

أعلاها : أن يكون واجدًا لله في كلِّ وقت ، لا يتوقف وجودُه له على الإشارة منه ولا من غيره .

الثاني : أن يكون له مَلَكَة وحالٌ وإرادة تامَّة ، بحيث إنه متى أُشير له إلى الله ، وجدَه عند إشارةِ المشير .

الثالث : أن لا يكون كذلك ، ويتكلَّف وجْدانَه عند الإشارة إليه .

فالمرتبة الأولى : للمقرَّبين السابقين . والوسطى : للأبرار المقتصدين . والثالثة : للغافلين .

وقال أبو عثمان الحِيري : مَن لم تصحَّ إرادتُه ابتداء ، فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدبارًا .

وقال : المريد إذا سمِع شيئًا من علوم القوم فعمل به ، صار حكمةً في قلبه إلى آخر عمْره ينتفع به . وإذا تكلَّم انتفع به مَن سمِعه . ومَن سمع شيئًا من علومهم ولم يعمل به ، كان حكايةً يحفظها أيامًا ثم ينساها .

وقال الواسطي : أول مقام المريد : إرادة الحقِّ بإسقاط إرادته .

وقال يحيى بن معاذ : أشدُّ شيءٍ على المريد : معاشرة الأضداد .

وسئل الجُنيد : ما للمريد حظٌّ في مجازات الحكايات ؟ فقال : الحكايات جند من جند الله يثبِّت الله بها قلوبَ المريدين . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **وكُلًّا نقُصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** ﴾ [هود : ١٢٠] » .

دفاعُ ابنِ القيِّم عن الجُنَيْد :

ذُكر عن الجُنيد – سيِّد الطائفة – في الإرادة كلمةٌ مجمَلة تحتاج إلى تفسير ، ففسَّرها ابن القيم مدافعًا عن الجُنيد ومكانتِه :

قال الجُنيد : « المريدُ الصادق غنيٌّ عن العلماء » .

قال ابن القيم : « قلتُ : إذا صدق المريد ، وصحَّ عقْد صِدْقه مع الله ؛

فتح الله على قلبه ببركة الصدْق ، وحسْن المعاملة مع الله : ما يُغنيه عن العلوم التي هي نتائج أفكار الناس وآرائهم ، وعن العلوم التي هي فضْلةٌ ليستْ مِن زادِ القبر ، وعن كثير من إشارات الصوفية وعلومهم ، التي أفنوا فيها أعمارهم ؛ من معرفة النفس وآفاتها وعيوبها ، ومعرفة مفسدات الأعمال ، وأحكام السلوك . فإن حال صدقه ، وصحَّة طلبه : يُريه ذلك كلَّه بالفعل .

ومثال ذلك : رجل قاعد في البلد يدأب ليلَه ونهارَه في علْم منازل الطريق وعقباتها وأوديتها ، ومواضع المتاهات فيها ، والموارِد والمفاوز . وآخرُ : حمَلَه الوجْدُ وصِدقُ الإرادة على أنْ ركب الطريق وسار فيها ، فصدْقُه يُغنيه عن علْم ذلك القاعد ، ويُريه إياها في سلوكه عِيانًا .

وأما أن يُغنيه صدْق إرادته عن علْم الحلال والحرام ، وأحكام الأمر والنهي ، ومعرفة العبادات وشروطها وواجباتها ومبطلاتها ، وعن علْم أحكام الله ورسوله على ظاهره وباطنه ؛ فقد أعاذ الله مَن هو دُون الجُنيد من ذلك ، فضلًا عن سيد الطائفة وإمامها . وإنما يقول ذلك قُطَّاع الطريق ، وزنادقة الصوفية ومَلاحِدتهم ، الذين لا يروْن اتِّباع الرسول شرطًا في الطريق .

وأيضًا فإنَّ المريد الصادق يفتح الله على قلبه ، وينوِّره بنورٍ مِن عنده ، مضاف إلى ما معه مِن نور العلم ، يعرف به كثيرًا من أمْر دينه ، فيستغني به عن كثير من علْم الناس ؛ فإن العلم نور ، وقلب الصادق ممتلئ بنور الصدق ، ومعه نور الإيمان ، والنور يهدي إلى النور . والجُنيد أَخبرَ بهذا عن حاله . وهذا أمر جزئيٌّ ليس على عمومه ، بل صدقه يُغنيه عن كثير من العلم . وأما عن جملة العلم : فكلام أبي القاسم الثابت عنه في ضرورةِ الصادِق إلى العلم ، وأنه لا يفلح مَن لم يكن له علْم ، وأن طريق القوْم مقيَّدة بالعلم ، وأنه لا يحلُّ لأحد أن يتكلَّم في الطريق إلا بالعلم - فمشهور معروف ، قد ذكرنا فيما مضى طرَفًا منه ؛ كقوله : « من لم يحفظِ القرآنَ ويكتبِ الحديثَ ، لا يُقتدىٰ به في هذا

الأمر ؛ لأنَّ علْمَنا مقيَّد بالكتاب والسنة » .

وأيضًا فإن علم العلماء الذين أشار إليهم : هو ما فهموه واستنبطوه من القرآن والسنة .

والمريد الصادق : هو الذي قرأ القرآن وحفِظ السنة ، والله يرزقه ببَرَكَة صِدْقه وَنور قلبه فهْمًا في كتابه وسُنَّة رسوله ﷺ ، يُغنيه عن تقليد فهْم غيره »[1] .

والمريد الصادق لا يقصرُ هِمَّته على ظاهر العبادة دون أرواح المعارف ودون حقائق الإيمان ، وروح المحبَّة وأعمال القلوب .

فالبَوْن شاسِعٌ بين من يسير بالقلوب والأرواح ، ومَن يسير بمجرَّد القوالب والأشباح .

والمريد لله بصدْقٍ:إذا أراد الله به خيرًا ؛ أوْقعه على طائفة يهذِّبون أخلاقه ، وَيَدلُّونه على تزكية نفسه ، وإزالة أخلاقها الذميمة ، والاستبدال بالأخلاق الحميدة ، ويعرِّفونه منازل الطريق ومفازاتِها وقواطعها وآفاتها . لا مَن يدُقُّك بالعبادة ولا يذيقك شيئًا من حلاوة أعمال القلوب وتهذيب النفوس .

والبصير الصادق يضرب في كلِّ غنيمة بسهْم ، ويُعاشر كلَّ طائفة على أحسن ما معها ، ولا يتحيَّز إلى طائفة ، وينأى عن الأخرى بالكلِّيَّة : أن لا يكون معها شيء من الحقِّ ، فهذه طريقة الصادقين . ودعوى الجاهلية كامنة في النفوس .

ولا أعني بذلك أصغريهمْ ... ولكني أُريد بهِ الذُّوَيْنا

ولا يذوق العبد حلاوة الإيمان وطعْمَ الصدق واليقين ، حتى تخرج الجاهلية كلُّها من قلبه .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٦٦ - ٣٦٨ .

عِلْمُ السُّلوك مَبنيٌّ على الإرادة :

قال الهرويُّ : « الإرادة من قوانين هذا العلم وجوامع أبنيته » .

قال ابن القيم : يريد أنَّ هذا العلم مبنيٌّ على الإرادة ، فهي أساسه ومجمع بنائه ، وهو مشتمِل على تفاصيل أحكام الإرادة ، وهي حركة القلب ، كما أن علْم الفقهِ يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح .

فالفقيه : ينظر في تلك الحركات من جهةِ موافقتها لأمْرِ الشرع ونهيه ، وإذنه وكراهته ، ومتعلِّقات ذلك .

والمريد : ينظر في تلك الحركات من جهة كوْنها موصلة له إلى مراده أو قاطعة عنه ، ومفسدة لقلبه أو مصحِّحة له .

لا بدَّ للسالِكِ مِن ثلاثةِ أشياء :

ولا بد في ذلك من ثلاثة أشياء :

نفس مستعِدَّة قابلة لا تعوز إلا الداعي .

ودعوة مستَمَعَة .

وتخلية الطريق مِن المانع .

فما انقطع مَنِ انقطع إلَّا من جهةٍ من هذه الجهات الثلاث .

الدرجةُ الأُولى في الإرادة : « ذَهابٌ عن العاداتِ بصحَّة العلم ، مع صدْق القصد ، وخلْع كلِّ شاغلٍ » :

هذا يُوافق مَنْ حَدَّ « الإرادةَ » بأنها : مخالَفةُ العادة . وهي ترك عوائد النفس ، وشهواتها ، ورعوناتها وبطالاتها . ولا يمكن ذلك إلَّا بهذه الأشياء التي أشار إليها ؛ وهي : صحبة العلم ومعانقته ؛ فإنه النور الذي يُعَرِّف العبد مواقع ما ينبغي إيثار طلبه ، وما ينبغي إيثار ترْكه . فمَن لم يصحبْه العلم ، لم تصحَّ له

إرادة ، باتفاق كلمة الصادقين . ولا عِبرةَ بقطّاع الطريق .

وقال بعضهم : متى رأيتَ الصوفي الفقير يقدح في العلم ، فاتهمْه على الإسلام .

وصدْق القصْد يكون بأمرَيْن :

أحدهما : توحيده . **والثاني** : توحيد المقصود .

فلا يقع في قصْدك قسْمَة ، ولا في مقصودك .

وممَّا يُعين على الإرادة وترْك العادة : ترْك الموانع والقواطع العائقة عن السلوك ؛ من صحبة الأغيار ، والتعلُّق بالأوطان ، التي أَلِف فيها البِطالةَ والنذالةَ ؛ فليس على المريد الصادق أضرُّ من عُشَرَائه ووطنه ، والقاطعين له عن سيره إلى الله تعالى . فلْيغتربْ عنهم بجهْده .

قال بعضهم : انظرْ كلَّ ما يقطعك عن الله فاقطعْهُ .

الدرجَةُ الثانية : « **تقطُّعٌ بصحبةِ الحال ، وترويحُ الأنْس ، والسَّيْرُ بين القبْضِ والبَسْطِ** » :

إذا صحَّت له الدرجةُ الأولى أسلمتْه إلى هذه الدرجة العالية ، فينتقل مِن رسوم الأعمال إلى مقام حقائقها وأذواقها ، ومواجيدها ، وأحوالها ؛ فيترقَّى من الإسلام إلى الإيمان ، ومن الإيمان إلى الإحسان . فإن السالك في أول الأمر يجد تعَبَ التكاليف ومشقَّة العمل ؛ لعدم أُنس قلبه بمعبوده ، فإذا حصل للقلب روح الأُنس زالتْ عنه تلك التكاليف والمشاقُّ ، فصارت قرَّةَ عيْنٍ له ، وقوَّةً ولذَّةً ؛ فتصير الصلاة قرة عيْنِه ، بعد أنْ كانت عملًا عليه . ويستريح بها ، بعد أن كان يطلب الراحة منها . فله ميراثٌ مِن قوله ﷺ : « أرِحْنا بالصلاة يا بلال » ، « وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة » ؛ بحسب إرادته ، ومحبَّته ، وأُنْسه بالله سبحانه وتعالى ، ووحشته مما سواه .

وأمَّا « السيْر بين القبْضِ والبسْط » :

فـ « القبض » و« البسْط » : حالتان تَعرِضَان لكلِّ سالكٍ ، يتولَّدان من الخوْف تارةً ، والرجاء تارة ، فيقبضه الخوف ويَبْسُطه الرجاء .

ويتولَّدان من الوفاء تارة والجفاء تارة ؛ فوفاؤه : يُورثه البسْطَ ، وجفاؤه يُورثه القبْض .

وقد يهجم على قلْب السالك قبْضٌ لا يدري ما سببه ، وبسْط لا يدري ما سببه . وحكم صاحب هذا القبْض أمران :

الأول : التوبةُ والاستغفار ؛ لأن ذلك القبْض نتيجةُ جِنَايةٍ أو جفْوة ، ولا يشعر بها .

والثاني : الاستسلام حتى يمضيَ عنه ذلك الوقت ، ولا يتكلَّف دفْعَهُ ، ولا يستقبل وقتَهُ مغالبةً وقهْرًا ، ولا يطلب طلوع الفجْر في وسَط الليل ، ولْيَرْقُد حتى يمضيَ عامَّة الليل ، ويحين طلوعُ الفجر وانقشاعُ ظلْمة الليل ، بل يصبر حتى يهجم عليه المَلَكَ . فالله يقبض ويبسط .

وكذلك إذا هجَم عليه وارِدُ البسْط : فلْيحذرْ كلَّ الحذَرِ من الحركة والاهتزاز ، ولْيحرزْه بالسكون والانكماش . فالعاقل يقف على البِساط ، ويحذر من الانبساط ؛ وهذا شأن عقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم ؛ إذا ما ورد عليهم ما يسرُّهم ويَبسُطهم ويهيج أفراحهم ؛ قابلوه بالسكون والثبات والاستقرار ، حتى كأنه لم يهجمْ عليهم .

وقال كعْب بن زُهَيْر في مدْح المهاجرين :

ليسوا مفاريحَ إنْ نالتْ رماحُهُمُ قومًا وليسوا مجازيعًا إذا نِيلُوا

فلا يخرجه البسْطُ عن استقامته ، وملازمَتِهِ رعاية حقوق سيِّده ، مع التأدُّب بآدابه . ولا عن الوقوف بالأدب بين يديه .

ونختمُ بما قال شيخ الإسلام عبد القادر الجيلاني لغلامه : « يا غلامُ ، لا يكنْ همُّك ما تأكل وما تشرب ، وما تلبَس وما تنكِح ، وما تسكن وما تجمع ؛ كلّ هذا : همُّ النفس والطبْع ، فأين همُّ القلب ؟! همُّك ما أهمّك ، فليكنْ همّك ربّك عزَّ وجل وما عنده »[1] .



(١) إحياء فقه الدعوة للراشد ، مجلة المجتمع ص ١٣٦ .

الفصل السادس
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الرِّعَايَةِ

« ذمَّ الله سبحانه مَن لمْ يرعَ قُرْبةً ابتدَعها للهِ حقَّ رعايتها ، فكيفَ بمَنْ لمْ يرْعَ قُرْبةً شرعَهَا الله لعبادِهِ وأذِنَ بها وحثَّ عليها ؟! »

[ابن قيِّم الجوزيّة]

□ عُلُوُّ الهِمَّة في الرِّعـايةِ □

و « الرعاية » : منزلةٌ من منازل ﴿ **إيَّاكَ نعبُدُ وإيّاكَ نستعين** ﴾ .

قال ابن القيم : « وهي مراعاة العلْم وحفْظُه بالعمل ، ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص ، وحفظه من المُفسدَات ، ومراعاة الحال بالموافقة ، وحفظه بقطع التفريق . فالرعاية صيانة وحفْظ .

ومراتب العلْم والعَمَلِ ثلاثة :

« رواية » : وهي مجَرَّد النقل وحمْل المرويّ .

و« دِرَاية » : وهي فهْمُهُ وتعقُّل معناه .

و« رعاية » : وهي العمل بموجَب ما علمه ومقتضاه .

فالنَّقَلَة هِمَّتهم الرواية ، والعلماء هِمَّتهم الدراية ، والعارفون همتهم الرعاية .

وقد ذمَّ الله مَن لم يرْعَ ما اختاره وابتدَعَه من الرهبانية حقَّ رعايته ؛ فقال تعالى : ﴿ **وجعلنا في قلوبِ الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيَّةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلَّا ابتغاءَ رِضوانِ الله فما رعوْها حقَّ رعايتها** ﴾ [الحديد : ٢٦] .

فالله سبحانه وتعالى ذمَّ مَن لم يَرْع قرْبةً ابتدعها لله تعالىٰ حقَّ رعايتها ، فكيف بمَن لم يرْعَ قُرْبةً شرَعَها الله لعباده ، وأذِن بها وحثَّ عليها ؟! »[(١)] .

قال شيخ الإسلام الهروي الأنصاري : « الرعاية : صوْنٌ بالعناية . وهي على ثلاثِ درجات :

الدرجة الأولى : رعايةُ الأعمال .

والثانية : رعايةُ الأحوال .

والثالثة : رعايةُ الأَوْقات »..

---

(١) مدارج السالكين ٢/٦٠ - ٦١ .

الدرجة الأولى : رعَاية الأعمال :

« فأمَّا رعاية الأعمال : فتوفيرها بتحقيرها ، والقيام بها مِن غير نظَرٍ إليها ، وإجراؤها على مجرى العلم ، لا على التزيُّن بها » .

قال ابن القيِّم : « قوله : « أمَّا رعاية الأعمال : فتوفيرها بتحقيرها » :

فالتوفير : سلامة مِن طرَفي التفريط بالنقص ، والإفراط بالزيادة على الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها .

وأما تحقيرها : فاستصغارها في عينه واستقلالها ، وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبوديته أمرٌ آخر ، وأنه لم يُوَفِّه حقَّه ، وأنه لا يرضى لربه بعمله ، ولا بشيء منه .

وقد قيل : علامة رضا الله عنك : إعراضك عن نفسك . وعلامة قبول عملك : احتقاره واستقلاله ، وصغره في قلبك ، حتى إنَّ العارف لَيستغفر الله عقيبَ طاعته ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم من الصلاة ، استغفرَ الله ثلاثًا . وأمَر الله عباده بالاستغفار عقيبَ الحجِّ . ومدَحهم على الاستغفار عقيبَ قيام الليل . وشرع النبي ﷺ عقيبَ الطهور التوبةَ والاستغفار .

فمن شهِد واجب ربِّه ، ومقدار عمله ، وعيْبَ نفسه : لم يجدْ بُدًّا من استغفار ربِّه منه ، واحتقارِه إيَّاه واستصغاره .

وأمَّا « القيام بها » : فهو توفيتُها حقَّها ، وجعْلُها قائمة ؛ كالشهادة القائمة ، والصلاة القائمة ، والشجرة القائمة على ساقها التي ليست بساقطة .

وقوله : « مِن غير نظَر إليها » : أي من غير أن يلتفتَ إليها ويعدِّدها ويذكرها؛ مخافة العجْب والمِنَّة بها ، فيسقط من عيْن الله ، ويحبَط عمله .

وقوله : « وإجراؤها على مجرى العلم » : هو أن يكون العمل على مقتضى العلم المأخوذ من مِشكاة النبوة ، إخلاصًا لله وإرادةً لوجهه وطَلَبًا لمرضاته ، لا على

وجْهِ التزيُّن بها عند الناس .

الدرَجَةُ الثانيةُ : رِعَايةُ الأحوال :

« أنْ يَعدَّ الاجتهادَ مراءَاةً ، واليقينَ تشبُّعًا ، والحالَ دعوىٰ » :

قال ابن القيِّم : أي يتهم نفسه في اجتهاده : أنه راءَى الناس ، فلا يطغىٰ به ، ولا يسكن إليه ، ولا يعتدُّ به .

وأما عدُّه اليقينَ تشبُّعًا : فالتشبُّع : افتخار الإنسان بما لا يملكه ، ومنه قول النبي ﷺ : « المتشبِّع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبي زُور » .

وعدُّ اليقينِ تشبُّعًا : يحتمل وجهيْن :

أحدهما : أن ما حصل له من اليقين لم يكن به ، ولا منه ، ولا استحقَّه بعِوَض ، وإنما هو فضل الله وعطاؤه ، ووديعته عنده ، ومجرَّد منَّته عليه . فهو خلعة خلَعها سيِّده عليه ، والعبد وخِلْعته ملْكُه وله . فما للعبد في اليقين مدخل ، وإنما هو متشبِّع بما هو مِلْك لله وفضله ومِنَّته على عبده .

والوجه الثاني : أن يتهم يقينه ، وأنه لم يحصل له اليقين على الوجه الذي ينبغي ، بل ما حصل له منه هو كالعارية لا المِلْك المستقرّ ، فهو متشبِّع بزعْم نفسه بأن اليقين ملْكُه وله . وليس كذلك . وهذا لا يختص باليقين ، بل بسائر الأحوال ؛ فالصادق يعدُّ صدقه تشبُّعًا ، وكذا المخلص يعدُّ إخلاصه ، وكذا العالم ؛ لاتهامه لصدْقه وإخلاصه وعلْمه وأنه لم ترسخ قدمه في ذلك ، ولم يحصل له فيه مَلَكَة . فهو كالمتشبِّع به .

ولمَّا كان « اليقين » روح الأعمال وعمودها ، وذروة سنامها ، خصَّه بالذكْر ، تنبيهًا على ما دونه .

والحاصل : أنه يتهم نفسه في حصول اليقين ، فإذا حصل فليس حصوله به ولا منه ، ولا له فيه شيء ، فهو يذمُّ نفسه في عدم حصوله ، ولا يحمدها عند حصوله .

وأما عدُّ الحال دعوىٰ : أي دعوى كاذبة ، اتهامًا لنفسه ، وتطهيرًا لها من رعونة الدعوى ، وتخليصًا للقلب مِن نصيب الشيطان ؛ فإنَّ الدعوى من نصيب الشيطان ، وكذلك القلب الساكن إلى الدعوى مأوى الشيطان . أعاذنا الله من الدعوى ومن الشيطان .

الدرجة الثالثة : رعاية الأَوْقات :

« أنْ يقف معَ كلِّ خطوة .

ثم أن يغيب عن حضوره بالصفاء من رسْمه .

ثم أن يذهب عن شهود صفوِ صفوه » .

قال ابن القيم : « أي يقف مع حركة ظاهره وباطنه بمقدار تصحيحها ، نيةً وقصدًا وإخلاصًا ومتابعة ؛ فلا يخطو هجْمًا وهمَجًا ، بل يقف قبل الخطوِ حتى يصحِّحَ الخطوة ، ثم ينقل قدَم عزْمِه ، فإذا صحَّت له ونقل قدمَه انفصل عنها ، وقد صحَّت الغيبة عن شهودها ورؤيتها ، فيغيب عن شهود تقدُّمه بنفسه ؛ فإن رسمه هو نفسُه . فإذا غاب عن شهود نفسه وتقدُّمه بها في كلِّ خطوة ، فذلك عيْن الصفاء من رسْمه الذي هو نفسه ، فعند ذلك يشاهد فضْلَ ربه .

ولما كانتِ النفس محلَّ الأكدار ، سُمِّي انفصاله عنها : صفاءً . وهذه الأمور تستدعي لطفَ إدراكٍ ، واستعدادًا من العبد ، وذلك عيْن المنَّة عليه .

وأما ذَهابه عن شهود صفوه : أي لا يستحضره في قلبه ، ويشهد ذلك الصفو المطلوب ، ويقف عنده ؛ فإن ذلك من بقايا النفس وأحكامها ، وهو كدَر ، فإذا تخلص من الكَدَر لا ينبغي له الالتفات والرجوع إليه ، فيصفو من الرسْم ويغيب عن الصفو ، بمشاهدة المطلب الأعلى ، والمقصد الأَسْنىٰ » .

* * *

الفصـل السابع

عُلُـوُّ الهِـمَّـةِ

فـي

التعْظِيــم

□ عُلُوُّ الهِمَّة في التعْظِيم □

اعلْم يا أخي أنه على قدْر المعرفة يكون تعظيم الربِّ تعالى في القلب . وأعرفُ الناس بِهِ : أشدُّهم له تعظيمًا وإجلالًا . وقد ذمَّ الله تعالى من لم يعظِّمه حقَّ عظمته ، ولا عَرَفه حقَّ معرفته ، ولا وصفه حقَّ صفته . وأقوالهم تدور على هذا ؛ فقال تعالى : ﴿ **ما لكم لا ترجونَ لله وقارًا** ﴾ [نوح : ١٣] . قال ابن عباس ومجاهد : لا ترجون لله عظمة . وقال سعيد بن جُبير : ما لكم لا تعظِّمون الله حقَّ عظمته ؟! وقال الكلبي : لا تخافون لله عظمة .

وروح العبادة : هو الإجلال والمحبَّة . فإذا تخلَّى أحدهما عن الآخر فسدت ، فإذا اقترن بهذين الثناءُ على المحبوب المعظَّم ، فذلك حقيقة الحمد . والله سبحانه أعلم .

درَجاتُ التعْظِيم :

الأولى : تعظيم الأمر والنهْي :

« وهو أن لا يُعارَضَا بترخُّص جافٍ ، ولا يُعرَّضا لتشدُّد غالٍ ، ولا يُحمَلا على عِلَّة تُوهِن الانقياد » .

هاهنا ثلاثة أشياء تُنافي تعظيم الأمر والنهي :

أحدها : الترخُّص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال .

والثاني : الغلوُّ الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي .

فالأول : تفريط . والثاني : إفراط .

وما أمر الله بأمرٍ إلَّا وللشيطان فيه نزغتان : إما إلى تفريط وإضاعة ، وإما إلى إفراط وغلوٍّ . ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه ، كالوادي بين

جبلَيْن ، والهدىٰ بين ضلالتَيْن ، والوسط بين طرفين ذميمين . فكما أن الجافي عن الأمر مضيِّع له ، فالغالي فيه مضيِّع له ؛ هذا بتقصيره عن الحدِّ ، وهذا بتجاوزه الحدَّ .

وقد نهى الله عن الغلو بقوله : ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غيرَ الحقِّ** ﴾ [المائدة : ٧٧] .

و« الغلوُّ » نوعان : نوع يُخرجه عن كونه مطيعًا ؛ كمن زاد في الصلاة ركعة ، أو صام الدهر مع أيام النهي ، أو رمىٰ الجمَرات بالصخرات الكبار التي يُرمىٰ بها في المنجنيق ، أو سعىٰ بين الصفا والمروة عشْرًا ، أو نحو ذلك عمْدًا .

وغلو يُخَافُ منه الانقطاع والاستحسار ؛ كقيام الليل كلِّه ، وسَرْد الصيام الدهرَ أجمع ، بدون صوْم أيام النهي ، والجوْر على النفوس في العبادات والأوراد ، الذي قال فيه النبي ﷺ : « إن هذا الدين يُسْرٌ ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلَّا غَلَبه . فسدِّدوا وقاربوا ويَسِّروا ، واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحَة ، وشيءٍ من الدُّلْجَة ».يعني : استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة ؛ فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسَّيْر فيها .

وقال ﷺ : « لِيُصلِّ أحدُكم نَشاطَه ، فإذا فَتَر فلْيرْقد » . رواهما البخاري .

وفي صحيح مسلم : عنه ﷺ أنه قال : « هلَكَ المتنطِّعون – قالها ثلاثًا – وهم المتعمِّقون المتشدِّدون » .

وفي صحيح البخاري : عنه ﷺ : « عليكم من الأعمال ما تُطيقون ؛ فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تَملُّوا » .

وفي السنن : عنه ﷺ أنه قال : « إن هذا الدِّين متين ، فأوغِلْ فيه برِفْق ، ولا تُبَغِّضَنَّ إلى نفسك عبادةَ الله ».أو كما قال .

وقوله : « ولا يُحْمَلا على علَّة توهِن الانقياد » : يريد : أنْ لا يتأوَّل في الأمر والنهي علَّة تعود عليهما بالإبطال ، كما تأوَّل بعضُهم تحريم الخمر بأنه معلَّل

بإيقاع العداوة والبغضاء ، والتعرُّض للفساد . فإذا أمن من هذا المحذور منه جاز شربه ؛ كما قيل :

أدرْها فما التحريمُ فيها لذاتِها ولكنْ لأسبابٍ تضمَّنَها السُّكْرُ
إذا لم يكنْ سُكْرٌ يُضِلُّ عنِ الهدىٰ فسِيَّانَ ماءٌ في الزجاجةِ أوْ خَمْرُ

وقد بلَغ هذا بأقوام إلى الانسلاخِ من الدين جملةً ،وقد حمل طائفةً من العلماء أن جعلوا تحريم ما عدا شراب خمر العنب معلَّلًا بالإسكار ، فله أن يشرب منه ما شاء ، ما لم يُسكر .

ومن العلل التي تُوهن الانقياد : أن يعلّل الحكم بعلَّة ضعيفة ، لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر ، فيضعف انقياد العبد إذا قام عنده أنَّ هذه هي علَّة الحكم ، ولهذا كانت طريقة القوم : عدَم التعرُّض لعلل التكاليف ؛ خشيةَ هذا المحذور .

وفي بعض الآثار القديمة : « يا بَني إسرائيل ، لا تقولوا : لِـمَ أمـرَ ربُّنا ؟ ولكن قولوا : بِمَ أمَرَ ربنا؟ » .

وأيضًـا فإنه إذا لم يمتثِلِ الأمرَ حتى تظهرَ له علَّتُه ، لم يكن منقادًا للأمر ، وأقل درجاته : أن يضعف انقياده له .

وأيضًا فإنه إذا نظر إلى حِكَمِ العبادات والتكاليف مثلًا ، وجعل العلَّة فيها هي جمعيَّة القلب والإقبال به على الله ؛ فقال : أنا أشتغل بالمقصود عن الوسيلة . فاشتَغَلَ بجمعيَّته وخلوته عن أوراد العبادات ، فعطَّلها ، وترَك الانقياد بحمْله الأمْر على العلَّة التي أذهبتِ انقياده .

وكلُّ هذا مِن ترْك تعظيم الأمْر والنهي . وقد دخل من هذا الفساد على كثير من الطوائف ما لا يعلمه إلا الله . فما يدري ما أَوْهنتِ العللُ الفاسدة من الانقياد إلى الله ، فكم عطَّلتْ لله من أمر ، وأباحت مِن نهْي ، وحرَّمت من مباح ؟! وهي التي اتفقت كلمة السلف على ذمِّها .

وهذه الدرجة تتضمَّن تعظيمَ الحكم الديني الشرعي .

وخواصُّ خلْقِه ممَّن يعظِّمون أمْره ونهيه ، يريدونه ويريدون ثوابه ؛ قال الله تعالى : ﴿ **وإنْ كنتنَّ تردْنَ الله ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإنَّ الله أعدَّ للمحسنات منكنَّ أجرًا عظيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٩] . فهذا خطابه لخير نساءِ العالمين ؛ أزواج نبيِّه ﷺ .

وقال الله تعالى : ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعْيَها وهو مؤمن فأولئك كان سعيُهم مشكورًا** ﴾ [الإسراء : ٩] ، فأخبر أنَّ السعْي المشكور : سعيُ مَن أراد الآخرة . وأصرحُ منها : قوله لخواصِّ أوليائه - وهم أصحاب نبيِّه ﷺ ورضي عنهم - في يوم أُحُد : ﴿ **منكم مَنْ يريد الدنيا ومنكم مَن يريد الآخرة** ﴾ [آل عمران : ١٥٢] فقسّمهم إلى هذيْن القِسْمين اللذَيْن لا ثالثَ لهما .

وقد غلط من قال : فأين مَن يريد الله ؟ فإنَّ إرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله تعالى وثوابه ، فإرادة الثواب لا تنافي إرادة الله .

والجنة ليست اسمًا لمجرَّد الأشجار والفواكه ، والطعام والشراب والحُور العِين ، والأنهار والقصور . وأكثر الناس يغلطون في مسمَّى الجنة ؛ فإن الجنة اسم لدار النعيم المطْلَق الكامل ، ومِن أعظم نعيم الجنة : التمتُّع بالنظر إلى وجه الله الكريم ، وسَماع كلامه ، وقرَّة العيْن بالقرْب منه وبرضوانه ، فلا نسبة للذَّةِ ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصُّوَر ؛ إلى هذه اللذَّة أبدًا ، فأيسرُ يسير من رضوانه أكبر من الجِنان وما فيها من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **ورضوانٌ من الله أكبرُ** ... ﴾ الآية [التوبة : ٧٢] ، وأتى به منكَّرًا في سياق الإثبات . أيُّ شيءٍ كان من رضاه عن عبده ؛ فهو أكبر من الجنة .

قليلٌ منك يكفيني ولكنْ قليلُك لا يُقال له قليلُ

وفي الحديث الصحيح - حديث الرؤية - : « فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى وجهِهِ » . وفي حديث آخر : أنه سبحانه إذا تجلَّى لهم ،

ورأوا وجهه عِيانًا نسوا ما هم فيه من النعيم وذهلوا عنه ، ولم يلتفتوا إليه . ولا ريب أن الأمر هكذا ، وهو أجل مما يخطر بالبال ، أو يدور في الخيال ، ولا سيما عند فوْز المحبِّين هناك بمعيَّة المحبّة ، فإن المرء مع مَن أحبَّ ولا تخصيصَ في هذا الحكم ، بل هو ثابتٌ شاهدًا وغائبًا .

فأيُّ نعيم ، وأيُّ لذة ، وأيُّ قرَّة عيْن ، وأيُّ فوْز يُداني نعيمَ تلك المعيَّة ولذَّتها ، وقرة العين بها ؟! وهل فوق نعيم قرَّة العيْن بمعيَّة المحبوب الذي لا شيء أجلَّ منه ولا أكمل ولا أجمل - قرة عيْن ألبتة ؟!

وهذا - والله - هو العلم الذي شمَّر إليه المحبُّون ، واللواء الذي أَمَّهُ العارفون ، وهو روح مسمَّى « الجنة » وحياتها ، وبه طابتِ الجنة وعليه قامت .

وخواصُّ خلْق الله ، والكُمَّل من عباده : وسط بين طرفَيْن :

الأول : مَن يريد مِنَ الله ولا يريد الله ؛ فهذا ناقصٌ غاية النقص ، وهو حال الجاهل بربِّه ، الذي سمع أن ثَمَّ جنةً ونارًا ، فليس في قلبه غير إرادة نعيم الجنة المخلوق ، لا يخطر بباله سِواه ألبتة ، بل هذا حال أكثر المتكلِّمين ، المنكرين رؤية الله تعالى ، والتلذذ بالنظر إلى وجهِهِ في الآخرة ، وسماع كلامه ، وحبِّه ، والمنكرين على من يزعم أنه يحبُّ الله ، وهم عبيد الأجرة المحضة ، فهؤلاء لا يريدون الله تعالى وتقدَّس ، وهم منكرون لإرادة الله غاية الإنكار ، وأعلى الإرادة عندهم : إرادة الأكل والشرب ، والنكاح واللباس في الجنة ، وتوابع ذلك .

وهؤلاء من أكثف الناس حِجابًا ، وأغلظهم طباعًا ، وأقساهم قلوبًا ، وأبعدهم عن روح المحبَّة والتألُّه ، ونعيم الأرواح والقلوب . وهم يكفِّرون أصحاب المحبَّة والشوق إلى الله ، والتلذُّذ بحبِّه ، والتصديق بلَذَّة النظر إلى وجهه ، وسماع كلامه منه بلا واسطة .

جهلتْ هذه الطائفة أن النفوس العليَّة الزكيَّة تعبده ؛ لأنه أهل أن يُعبَد ، ويُجَلّ ويُحَبّ ويُعظَّم ، فهو لذَاتِه مستحقٌّ للعبادة .

ومع إرادة النعيم المخلوق في الجنة فهناك نعيم أعلى ، وهو نعيم القرْب من

المُطَاعِ ؛ قال تعالى في حقِّ نبيِّه داود ﷺ : ﴿ **وإنَّ له عندنا لزُلْفى وحُسْنَ مآب** ﴾ [ص : ٤٠] ؛ فالزلفى : منزلة القرْب ، وحسْن المآبُ : حسن الثواب والجزاء .

وقال تعالى : ﴿ **للذين أحسَنوا الحسنىٰ وزيادة** ... ﴾ الآية [يونس : ٢٦] ، فالحسنى : الجزاء،والزيادة : منزلة القرْب ، ولهذا فُسِّرتْ بالنظر إلى وجه الله عزَّ وجل .

فالخواصُّ والكُمَّلُ عملهم على المنزلة والدرجة ، وهؤلاء العُمَّال عملهم على الثواب والأجرة ، وشتَّانَ ما بينهما!!

والثاني : مَن يريد الله ولا يريد منه ؛ فهذا هو الذي يزعمُ هؤلاءِ أنه مطلوبهم ، وأنَّ مَن لم يصل إليه ففي سَيْره علَّة ، وأن العارف ينتهي إلى هذا المقام ، وهو أن يكون الله مرادَه ، ولا يريد منه شيئًا ؛ كما يُحكىٰ عن أبي يزيد أنه قال : قيل لي : ما تريد ؟ فقلتُ : أريد أن لا أريد .

وأصحاب هذه المنزلة ينكرون على الطرَف الآخر ، ولا يعدُّونهم من البَشَر إلا بالصورة ، ومرتبتهم عندهم قريبة من مرتبة الجماد والحيوان البهيم ، وهم عندهم في حجابٍ كثيفٍ عن معرفة نفوسهم وكمالها ، ومعرفة معبودهِم وسِرِّ عبوديته .

وهذا في التحقيق عيْنُ المحال الممتنع ، عقلًا وفِطْرةً ، وحِسًّا وشرعًا ؛ فإن الإرادة من لوازم الحيِّ ، وإنما يعرض له التجرُّد عنها بالغيْبة عن عقله وحِسِّه ، كالسُّكْر والإغماء والنوْم ، وهذه حالة عارضة غير دائمة ، وليست غاية مطلوبة للسالكين ، ولا مقدورة للبشر ، ولا هي أعلى المقامات فيُؤمر باكتساب أسبابها .

ونحن لا ننكر التجريد عن إرادة ما سواه من المخلوقات التي تزاحم إرادتُها إرادتَه ، أفليس صاحب هذا المقام مريدًا لقرْبه ورضاه ودوام مراقبته والحضور

معه ؟! وأيُّ إرادة فوق هذه؟!

وحال الطائفتَيْن عجَبٌ لمن اطلع عليه ، وخير الهدي هديُ محمد ﷺ . وما سجَّله القرآن من قوْل آسية : ﴿ ربِّ ابنِ لي عندَكَ بيتًا في الجنة ... ﴾ الآية [التحريم : ١١] ، فطلبت جوار الرحمٰن وعنديَّته والقرْب منه في الجنة ، وهي التي كملتْ من النساء .

فهذا فصل الخطاب في هذا الموضع . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الدرَجة الثانية : تعظيمُ الحكْمِ الكَوْنيّ القَدَريِّ بأن لا يُبغَىٰ له عِوَجٌ ، ولا يُرضىٰ بعِوَض :

أما الأول : « أن لا يُبغَىٰ له عِوَج » ؛ أي يُطلَب له عوج ، أو يُرىٰ فيه عِوَج ، بل يراه كلَّه مستقيمًا ؛ لأنه صادرٌ عن عين الحكمة ، فلا عِوَج فيه .

وهذا موضع قد أشكل على الناس جدًّا ؛ « فقال نُفاة القدَر : ما في خلْق الرحمٰن مِن تَفاوُتٍ ولا عِوج ، والكفر والمعاصي مشتمِلَة على أعظم التفاوت والعِوَج ، فليست بخلْقِهِ ولا مشيئَتِه ولا قدَره .

وقالت فرقة تقابلهم : بل هي من خلْق الرحمٰن وقدَره ، فلا عِوج فيها ، وكلُّ ما في الوجود مستقيم .

والطائفتان ضالَّتان منحرفتان عن الهدى ، وهذه الثانية أشدُّ انحرافًا ؛ لأنها جعلت الكفرَ والمعاصي طريقًا مستقيمًا لا عِوجَ فيه . وعدم تفريق الطائفتين بين القضاء والمقضي ، والحكم والمحكوم به ، هو الذي أوقعهم فيما أوقعهم فيه .

وقول سلف الأُمَّة وجمهورها : إن القضاء غير المقضي ؛ فالقضاء : فعْله ومشيئته وما قام به ، والمقضيُّ : مفعوله المباين له المنفصل عنه ، وهو المشتمل على الخير والشرِّ ، والعِوج والاستقامة .

فقضاؤه كلُّه حقٌّ ، والمقضي : منه حقٌّ ، ومنه باطل . وقضاؤه كلُّه

عدل ، والمقضيُّ : منه عدل ، ومنه جور . وقضاؤه كلُّه مرضي ، والمقضي : منه مرضي ، ومنه مسخوط . وقضاؤه كلُّه مسالم ، والمقضي : منه ما يُسالَم ، ومنه ما يحارَب .

وهذا أصل عظيم تجب مراعاته ، وهو موضع مزلَّة أقدام كما رأيتَ ، والمنحرف عنه : إما جاهل للحكْمة ، أو القدرة ، أو للأمر والشرع ولا بدَّ . وعلى هذا يُحمل كلام صاحب « المنازل » رحمه الله : « أن لا يُبتَغىٰ للحكم عِوَج » .

« ولا يُرضىٰ بعِوَض » : أي إن صاحب « مشهد الحكم » قد وصل إلى حدٍّ لا يطلب معه عوضًا . ولا يكون ممَّن يعبد الله بالعوض ؛ فإنه يشاهد جريان حكم الله عليه ، وعدم تصرُّفه في نفسه ، وأن المتصرف فيه حقًّا هو مالكه الحقُّ ؛ فهو الذي يُقيمه ويُقعده ، ويقلِّبه ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال . وإنما يطلب العِوضَ من غاب عن الحكم وذهَلَ عنه ، وذلك منافٍ لتعظيمه ؛ فمِن تعظيمه : أن لا يرضى العبدُ بعِوَض يطلبه بعمله ؛ لأن مشاهدة الحكم وتعظيمه يمنعه أن يرى لنفسه ما يعاوَض عليه . فهذا الذي يمكن حمْل كلامه عليه من غير خروج عن حقيقة الأمر . والله سبحانه أعلم »[1] .

« الدرجة الثالثة : أعظم التعظيم ؛ تعظيمُ الحقِّ سبحانه ، وهو أن لا يجعل دونه سببًا ، ولا يرى عليه حقًّا ، أو لا يُنازِع له اختيارًا » :

هذه الدرجة تتضمَّن تعظيم الحاكم سبحانه ، صاحب الخَلْق والأمْر ، والتي قبلها تتضمَّن تعظيم قضائه لا مقضيّه ، والأُولى : تتضمَّن تعظيم أمْره .

وذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء :

---

(١) مدارج السالكين ٢/٤٩٩ - ٥٠٠ .

أحدها : « أن لا تجعل دونه سببًا » : أي : لا تجعل للوصلة إليه سببًا غيره ، بل هو الذي يُوصل عبدَه إليه ، فلا يُوصِل إلى الله إلا اللهُ ، ولا يقرِّب إليه سواه ، ولا يُدْني إليه غيره ، ولا يُتوصَّل إلى رضاه إلا به ، فما دلَّ على الله إلا اللهُ ، ولا هدىٰ إليه سواه ، ولا أدنىٰ إليه غيره ؛ فإنه سبحانه هو الذي جعل السبب سببًا ، فالسبب وسببيَّته وإيصاله : كلُّه خلقه وفعله .

الثاني : « أن لا يرى عليه حقًّا » أي : لا ترى لأحد من الخلق – لا لك ولا لغيرك – حقًّا على الله ، بل الحق لله على خلقه . وأما حقوق العبيد على الله تعالى ؛ من إثابته لمطيعهم ، وتوبته على تائبهم ، وإجابته لسائلهم ؛ فتلك حقوقٌ أحقَّها الله سبحانه على نفسه ، بحكْم وعدِه وإحسانه ، لا أنها حقوق أحقُّوها هم عليه . فالحقُّ – في الحقيقة – لله على عبده ، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده وبره ، وإحسانه إليه بمحْض جُوده وكرمه . هذا قول أهل التوفيق والبصائر . وهو وسط بين قولَيْن منحرفَيْن قد تقدَّم ذكْرهما مِرارًا. والله سبحانه أعلم .

الثالث : « أو لا ينازِع له اختيارًا » : إذا رأيتَ الله عز وجل قد اختار لك أو لغيرك شيئًا – إما بأمْره ودينه ، وإما بقضائه وقدره – فلا تنازع اختياره ، بلِ ارضَ باختيار ما اختاره لك ؛ فإن ذلك من تعظيمه سبحانه .

ولا يردُّ عليه قدره من المعاصي ؛ فإنه سبحانه – وإن قدَّرها – لكنه لم يختَرْها له ، فمنازعتها غير اختياره من عبده ، وذلك من تمام تعظيم العبد له سبحانه . والله أعلم »[1] .

ومن عُلُوِّ الهِمَّة في التعْظِيم : تعظيم حُرمات الله عزَّ وجل:

« قال تعالى : ﴿ **ومَن يعظِّمْ حرماتِ الله فهو خيرٌ له عند ربِّه** ﴾ [الحج : ٢٢] ، قال جماعة من المفسِّرين : « حُرُمات الله » هاهنا : مغاضبه وما نهى

---

(١) مدارج السالكين ٢/٥٠٠ – ٥٠١ .

عنه ، وتعظيمُها : ترْك ملابستها .

قال الليث : حُرُمات الله : ما لا يحلُّ انتهاكها .

وقال قوم : الحرمات : هي الأمْر والنهي . وقال الزجَّاج : الحرْمة ما وجب القيام به ، وحرّم التفريط فيه . وقال قوم : الحُرُمات هاهنا المناسك ومشاعر الحج ، زمانًا ومكانًا .

والصواب : أن « الحرمات » تعمُّ هذا كلَّه ، وهي جمع « حُرْمة » ، وهي ما يجب احترامه وحفظه ؛ من الحقوق والأشخاص ، والأزمنة والأماكن .

فتعظيمها : توفيتها حقَّها ، وحفظُها من الأضاعة »[1] .

فمن الأشخاص : رسول الله ﷺ ، والصحابة ، وأهل بيته .

ومن الأزمنة : الأشهر الحُرُم وبخاصة عشْر ذي الحجة ، ورمضان وعشْره الأُخَر .

ومن الأماكن : مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ...

قال الهروي في « منازل السائرين » : « الحرْمة هي التحرُّج عن المخالفات والمجاسرات » .

قال ابن القيم : أراد أنَّ الحرْمة هي الخروج من حَرَجِ المخالفة وجسارة الإقدام عليها .

ومن تعظيمِ الحُرُمات : تعظيم وحفْظ حرْمة نصوص الأسماء والصفات :

قال صاحب « المنازل » بعد ذكْره للدرجة الأولى وهي « تعظيم الأمر والنهي »:

---

(١) مدارج السالكين ٢/٧٤ .

« **الدرجة الثانية** : إجراء الخبر على ظاهره ؛ وهو أن تبقى أعلام توحيد العامَّة الخبرية على ظواهرها ، ولا يتحمَّل البحث عنها تعسُّفًا ، ولا يتكلَّف لها تأويلًا ، ولا يتجاوز ظواهرها تمثيلًا ، ولا يدَّعي عليها إدراكًا أو توهُّمًا »[1] .

قال ابن القيم : « يشير الشيخ - رحمه الله وقدّس روحه - بذلك إلى حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات بإجراء أخبارها على ظواهرها ؛ وهو اعتقاد مفهومها المتبادِر إلى أذهان العامَّة . ولا يعني بالعامَّة الجهَّال ، بل عامَّة الأُمَّة .

والعصمة النافعة في هذا الباب : أن يُوصف الله بما وصَف به نفْسَه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ، ولا تمثيل ، بل نثبتُ له الأسماء والصفات وننفي عنه مشابهة المخلوقات . فيكون إثباتُك منزَّهًا عن التشبيه ، ونفيُك منزَّهًا عن التعطيل ، فمَن نفىٰ حقيقة « الاستواء » فهو معطِّل ، ومَن شبَّهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثِّل ، ومَن قال : ليس كمثْلِه شيءٌ ؛ فهو الموحِّد المنزِّه .

وفي قوله : « لا يتجاوز ظاهرها تمثيلًا » : إشارة لطيفة ؛ وهي أن ظواهرها لا تقتضي التمثيل ، كما تظنُّه المعطِّلة النُّفَاة .

وأما قوله : « ولا يدِّعي عليها إدراكًا » : أي لا يدَّعي عليها استدراكًا ولا فهمًا ولا معنًى غيرَ فهم العامَّة ، كما يدَّعيه أرباب الكلام .

وقوله : « ولا توهمًا » : أي لا يعدِل عن ظواهرها إلى التوهُّم .

و« التوهُّم » نوعان :

توهُّمُ كيفيَّة : لا تدلُّ عليه ظواهرها .

أو توهم معنًى غير ما تقتضيه ظواهرها . وكلاهما توهُّمٌ باطل ، وهما توهم

---

(١) مدارج السالكين ٢/٨٥ .

تشبيهٍ وتمثيلٍ ، أو تحريفٍ وتعطيلٍ .

وهـذا الكلام من شيخ الإسلام يُبيِّن مرتبته من السنة ، ومقداره في العلم »[١] .

« **والدرجة الثالثة** : « صيانة الانبساط أن تشوبَه جُرْأة ، وصيانة السرور أن يداخلَه أَمْنٌ » : فيحذر من شائبة الجـرأة ؛ وهي ما يخرجه عن أدب العبودية ، ويُدخله في الشَّطح ، كشطح من قال : « سبحاني » . وهو أبو يزيد البسطامي ، وهو القائل أيضًا : « ما الجنة؟! إنها لعبة صبيان » . وقوله عن « النار » : « ما النار ؟! أستطيع أن أبصق عليها فأطفئها » . وكقول دجَّال الصوفية الحلَّاج :

أَلَا أبـلـغْ أحبَّـائي بـأنـي ركبتُ البحرِ وانكسَرَ السفينةْ
على دينِ الصليبِ يكونُ مـوتي فلا البطحَـا أُريـدُ ولا المدينـةْ

وهذه الشطحات المعروفة المخرِجة عن أدب العبودية والتي نهاية صاحبها أن يُعذر بزوال عقله ، وغلَبَة سُكْر الحال عليه ، وقد تُفضي بصاحبها إلى الردَّة ، كما هو حال الحلَّاج الذي أفتى علماءُ المسلمين بزندقته وردَّته وقتلوه .

« فلا بدَّ من مقارنة التعظيم والإجلال لبسط المشاهدة ، وإلَّا وقع في الجرأة ولا بدَّ ، فالمراقبة تصونه عن ذلك .

وينبغي لصاحب الانبساط والمشاهدة أن لا يأمن في حال سروره المكْرَ ، بل يصون سرورَه وفرحه عن خطفات المكْرِ بخوْفِ العاقبة المطويِّ عنه علمُ غيْبِها ، ولا يغترّ »[٢] .

* * *

(١) مدارج السالكين ٢/٨٥ - ٨٧ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٨٩ .

الفصل الثامن
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الغَيْرَةِ

« غيْرةُ العبدِ من نفسهِ أهمُّ مِن غيْرتِهِ من غيره ؛ فإنك إذا غرْتَ من نفسك صحَّتْ لك غيرتُك لله من غيْرك ، وإذا غرتَ له من غيرِك ولم تغِرْ من نفسك ، فالغيرة مدخولة معلولة ولا بدَّ »

[ابن قيِّم الجوزيّة]

□ عُلُوُّ الهِمَّـةِ في الغيْـرَة □

اعلمْ يا أخي أنَّ الغَيْرَة بحسب قوَّة المحبَّة ، وأصلُها الحميَّة والأَنَفَة .

قال شيخ الإسلام الهرويّ : « الغيرة : سقوط الاحتمال ضنًّا ، والضيقُ عن الصبر نفاسة » .

قال ابن القيم : « أي عجْز الغيُور عن احتمال ما يشغله عن محبوبه ، ويحجبه عنه ؛ ضنًّا به – أي بُخْلًا به – أن يعتاض عنه بغيره ، وهذا البخل : هو محْضُ الكرَم عند المحبِّين الصادقين .

وأمَّا « الضيق عن الصبر نفاسة » : فهو أن يضيق ذرْعُه بالصبر عن محبوبه ، وهذا هو الصبر الذي لا يُذمُّ من أنواع الصبر سواه ، أو ما كان من وسيلته . والحامل له على هذا الضيق : مغالاته بمحبوبه ، وهي النفاسة ؛ فإنه – لمنافسته ورغبته – لا يسامح نفسه بالصبر عنه . والمنافسة هي كمال الرغبة في الشيء ومنع الغير منه إن لم يُمدح في المشاركة ، والمسابقة إليه،إن مُدِحتْ فيه المشاركة ؛ قال تعالى : ﴿ **وفي ذلكَ فلْيتنافسِ المتنافِسون** ﴾ [المطفِّفين : ٢٦] »(١) .

وقد قال الله تعالى – حاكيًا عن نبيِّه سليمان عليه السلام – : ﴿ **رُدُّوها عليَّ فطفِقَ مسحًا بالسُّوقِ والأعناق** ﴾ [ص : ٣٣] . فقد كان « سليمان عليه السلام يحب الخيْل ، فشغله استحسانُها ، والنظر إليها – لمَّا عُرضت عليه – عن صلاة النهار ، حتى توارتِ الشمس بالحجاب ، فلحقتْه الغيرة لله من الخيل ، إذ استغرقه استحسانها والنظر إليها عن خدمة مولاه وحقِّه ، فقال : ﴿ **ردُّوها عليَّ** ﴾ ؛ فطفِق يضرب أعناقها وعراقيبَها بالسيف غيرةً لله »(٢) .

« والغيرة نوعان : غيرة للمحبوب ، وغيرة عليه .

---

(١) ، (٢) مدارج السالكين ٣/٤٧ – ٤٨ .

فأما الغيرة له : فهي الحميَّة له والغضَب له إذا استُهين بحقِّه وانتُقِصت حرمته ، فيغضب له المحبُّ ويَحمىٰ ، وتأخذه الغَيْرة له بالمبادرة إلى التغيير ومحاربة مَن آذاه ، فهذه غيْرة المحبِّين حقًّا ، وهي من غيرة الرسل وأتباعهم لله ، ممَّن أشرك به واستحلَّ محارمه وعصىٰ أمْره .

وهذه الغيرة هي التي تحمِلُ على بذْل نفسِ المحبِّ ومالِه وعِرضْه لمحبوبه ؛ حتى يزول ما يكرهه ، فهو يغار لمحبوبِهِ أن تكون فيه صفة يكرهها محبوبُه ويمقته عليها ، أو يفعل ما يُبغضه عليه ، ثم يَغار له بعد ذلك أن يكون في غيره صفة يكرهها ويُبغضها . والدِّين كلُّه في هذه الغيرة ، بل هي الدين .

وما جاهد مؤمنٌ نفسَه وعدوَّه ، ولا أمر بمعروف ولا نهىٰ عن منكر إلَّا بهذه الغيْرة ، ومتى خَلَتْ من القلب خلا من الدين ، فالمؤمن يغار لربِّه من نفسه ومن غيره إذا لم يكن له كما يحبُّ ، والغيرة تصفِّي القلب وتُخرج خبَثه كما يُخرج الكِيرُ خبَثَ الحديد »[1] .

قال ابن القيم : « (الغيرة) منزلة شريفة عظيمة جدًّا ، جليلة المقدار ، ولكن الصوفية المتأخِّرين منهم من قلَبَ موضوعَها ، وذهب بها مذهبًا آخر باطلًا سمَّاه « غيرة » ، فوضعها في غير موضعها ، ولُبِّس عليه أعظم تلبيس ، كما ستراه .

أنواع الغَيْرة :

« والغيرة » نوعان : غيرة من الشيء ، وغيرة على الشيء .

والغيرة من الشيء : هي كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك .

والغيرة على الشيء : هي شدَّة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك في الفوز به .

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية ص ٣٠١ - ٣٠٢ ، تحقيق : د . السيد الجميلي - نشر : دار الكتاب العربي .

و« الغيرة » أيضًا نوعان : غيرة العبد من نفسه على نفسه ، كغيرته من نفسه على قلبه ، ومن تفرُّقه على جمعيَّته ، ومن إعراضه على إقباله ، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة . وهذه الغيرة خاصيَّة النفس الشريفة الزكيَّة العلوية . وما للنفس الدنيَّة المهينة فيها نصيبٌ . وعلى قدر شرف النفس وعلوِّ هِمَّتها تكون هذه الغيرة .

ثم « الغيرة » أيضًا نوعان : غيرة الحقِّ تعالى على عبده . وغيرة العبد لربِّه لا عليه ؛ فأما غيرة الربِّ على عبده : فهي أن لا يجعله للخلق عبدًا ، بل يتخذه لنفسه عبدًا ، فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين ، بل يُفرده لنفسه ويضنُّ به على غيره ، وهذه أعلى الغيرتَيْن .

وغيرة العبد لربِّه ، نوعان أيضًا : غيرة من نفسه ، وغيرة من غيره ؛ فالتي من نفسه : أن لا يجعل شيئًا من أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه ؛ والتي من غيره: أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهِكون ، ولحقوقه إذا تهَاون بها المتهاوِنون .

وغيرة العبد من نفسه : أهمُّ من غيرته من غيره ، فإنك إذا غِرْتَ من نفسك صَحَّت لك غيرتك لله من غيرك ، وإذا غِرْتَ له من غيرك ، ولم تغرْ من نفسك ، فالغيرة مدخولة معلولة ولا بدَّ . فتأمَّلْها وحقِّقِ النظر فيها »[1] .

الغيرةُ مِن صفاتِ الله عزَّ وجلَّ :

قال ابن القيم : « الغيرة من صفات الله عزَّ وجلّ ، والأصل فيها قوله تعالى : ﴿ **قل إنما حرَّم ربيَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطَن** ... ﴾ الآية [الأعراف : ٣٣] .

ومن غيرته تعالى لعبدِهِ وعليه : يحميه مما يضرُّه في آخرته ؛ كما في الترمذي

(١) مدارج السالكين ٣/٤٣ - ٤٤ .

وغيره مرفوعًا : « إن الله لَيحمي عبدَه المؤمنَ من الدنيا كما يحمي أحدُكم مريضه من الطعام والشراب » .

ولفظ أحمد عن محمود بن لبيد مرفوعًا : « إن الله لَيحمي عبدَه المؤمن من الدنيا وهو يحبُّه ، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب ؛ تخافون عليه »(١) .

وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال في خطبة الكسوف : « والله يا أمة محمد ، ما أحد أغيَرَ من الله أن يزني عبدُه أو تزني أَمَتُه » . وفي ذكرِ هذا الذنْب بخصوصه في خطبة الكسوف سِرٌّ بديع ، فغضُّ البصر يُورث نورًا في القلب ، ولهذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الأمر به وبين ذكر آية النور ، فجمع الله سبحانه بين نور القلب بغضِّ البصر ، وبين نوره الذي مثَّله بالمشكاة لتعلُّق أحدهما بالآخر،فجمع النبي ﷺ بين ظلْمة القلب بالزنا وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس ، وذكَر أحدَهما مع الآخر .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس شيءٌ أغْيَرَ من الله ، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدحُ من الله ، من أجل ذلك أثنى على نفسه ، ولا أحد أحبّ إليه العذْر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل » .

وفي الصحيح عنه من حديث أبي هريرة : « إن الله يغارُ والمؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حَرَّم عليه »(٢) .

وعند مسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن يغار والله أشد غيْرًا » .

---

(١) صحيح : رواه أحمد والحاكم ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨١٠

(٢) رواه الشيخان وأحمد والترمذي .

ومِن غيرةِ الله على عبْدِه :

والله سبحانه وتعالى يَغار عَلَى قلب عبده أن يكون مُعَطَّلًا من حبِّه وخوْفه ورجائه ، وَأن يكون فيه غيرُه ؛ فالله سبحانه وتعالى خلَقه لنفسه واختاره من بين خلقه ، كما في الأثر الإلٰهي : « ابنَ آدم،خلقتُك لنفسي وخلقتُ كلَّ شيءٍ لك ، فبحقِّي عليك ، لا تشتغلْ بما خلقتُه لك عن ما خلقتُك له » . وفي أثر آخر : « خلقتُك لنفسي فلا تلعبْ ، وتكفَّلتُ لك برزقك فلا تتعبْ . يا ابنَ آدم ، اطلبني تجدْني ، فإن وجدتَني وجدتَ كلَّ شيء ، وإن فُتُّكَ فاتك كلُّ شيء ، وأنا خيرٌ لك من كل شيء » . ويغار على لسانه أن يتعطَّل من ذكره ويشتغلَ بذكر غيره ، ويغار على جوارحه أن تتعطّل من طاعته وتشتغل بمعصيته ، فيقبح بالعبد أن يغار مولاه الحقُّ على قلبه ولسانه وجوارحه ، وهو لا يغار عليها .

وإذا أراد الله بعبده خيرًا سلَّط على قلبه – إذا أَعرض عنه واشتغل بحبِّ غيره – أنواع العذاب حتى يرجع قلبه إليه ، وإذا اشتغلتْ جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاءِ ؛ وهذا من غيرته سبحانه وتعالى عَلَى عبده ، وكما أنه سبحانه وتعالى يغار عَلَى عبده المؤمن فهو يغار له ولحُرْمته ، فلا يُمكِّن المفسدَ أن يتوصَّل إلى حُرمته ، غيرةً منه لعبده ؛ فإنه سبحانه وتعالى يدفع عن الذين آمنوا ، فيدفع عن قلوبهم ، وجوارحهم ، وأهلهم ، وحريمهم ، وأموالهم ، يتولّى سبحانه الدفْع عن ذلك كلّه ؛ غَيْرَةً منه لهم كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم . والله تعالى يغار عَلَى إمائه وعَبيده من المفسدين شرعًا وقَدَرًا ، ومن أجل ذلك حَرَّم الفواحش وشرَّع عليها أعظمَ العقوبات وأشنعَ القَتَلَاتِ ؛ لشدَّة غَيْرته على إمائه وعبيده ، فإن عُطِّلت هذه العقوباتُ شرعًا أجراها سبحانه قَدَرًا .

غيرةُ الله علىٰ توحيدِه وكلامِه :

ومن غَيْرَته سبحانه وتعالى : غَيْرَتُه عَلَى توحيده ودينه وكلامه أن يحظى

به مَن ليس مِن أهلِه ، بل حالَ بينهم وبينه غيرةً عليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام : ٢٥]،ولذلك ثبَّط سبحانه أعداءه عن متابعة رسوله واللَّحاق به غَيْرَةً ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة : ٤٦ - ٤٧] ، فغار سبحانه عَلَى نبيِّه ﷺ وأصحابه أن يخرج بينهم المنافقون فيسعَوْا بينهم بالفتنة فثبطهم وأقعدهم عنهم .

قال تعالى : ﴿ وإذا قرأتَ القرآنَ جعلْنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] ؛ « قال السري لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ حجاب الغيرة . ولا أحد أغير من الله ؛ إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلًا لفهْم كلامه ، ولا أهلًا لمعرفته وتوحيده ومحبَّته ، فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجابًا مستورًا عن العيون ، غيرة عليه أن يناله من ليس أهلًا له »[(١)] .

نوْعٌ لطيفٌ من غيرة الربِّ سبحانه وتعالى :

قال ابن القيم : « وهاهنا نوع من غيرة الربِّ سبحانه وتعالى لطيف ، لا تهتدي إليه العقول ؛ وهو أن العبد يُفْتَحُ له بابٌ من الصفاء والأنس والوجود ، فيساكنه ويطمئنّ إليه وتلتذُّ به نفسُه ، فيشتغل به عن المقصود ، فيغار عليه مولاه الحقُّ فيخلِّيه منه ، ويَرُدُّه حينئذ إليه بالفقر والذِّلَّة والمسكَنة ، ويُشهده غايةَ فقره وإعدامه ، وأنه ليس معه من نفسه شيء ألبَتَّة ، فتعود عزَّةُ ذلك الأُنْس والصفاء والوجود ذِلةً ومسكنة وفقرًا وفاقه ، وذرَّةٌ مِن هذا : أحبُّ إليه سبحانه وتعالى ، وأنفعُ للعبد من الجبال الرواسي ، من ذلك الصفاء والأنس المجرَّد

---

(١) هذا قوله في مدارج السالكين ٤٣/٣ ، وفي روضة المحبين ص ٣١١ نسبة إلى الشبلي .

عن شهود الفقر والذلَّة والمسكنة . وهذا بابٌ لا يتسع له قلب كلِّ أحَدٍ »[١] .

الغيرة علىٰ دقيقِ العلْمِ أن يُذكَر لمَن لا يفهمه :

« ومن الغَيْرة : الغَيْرة على دقيق العلْم وما لا يدركه فَهْمُ السامع أن يُذْكر له ؛ ولهذه الغيرة قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : حدِّثُوا الناسَ بما يعرفون ، أتحبُّون أن يُكذَّب الله ورسوله ؟! وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ما أنت بمحدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم ، إلَّا كان لبعضهم فتنةً . فالعالم يغار على علمه أن يَبْذُلَه لغير أهلِه ، أو يضَعه في غير محلِّه ، كما قال عيسى بن مريم ﷺ : يا بني إسرائيل ، لا تمنعوا الحكمة أهلَهَا فتظلموهم ، ولا تبذلوها لغير أهلها فتظلموها .

وسُئِل ابنُ عباس رضي الله عنهما عن تفسير قوله تعالى : ﴿ **اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ﴾ [الطلاق : ١٢] ؛ فقال للسائل : وما يُؤَمِّنُك أني إنْ أخبرتُك بتفسيرها كفرتَ ؟ فإنك تكذِّب به ، وتكذيبُك بها كفرُك بها .

فالمسألة الدقيقةُ اللطيفة التي تُبْذَلُ لغير أهلها ، كالمرأة الحسناء التي تُهْدَى إلى ضريرٍ مُقْعَد ؛ كما قيل :

خودٌ تُزَفُّ إلى ضريرٍ مُقعَدٍ   يا محنةَ الحسناءِ بالعميانِ »[٢] .

ويرحم الله الشافعي حين يقول :

* أأنثر درًّا بين سارِحةِ الغنم *

ومن قال : « لا تقلِّدوا الحكمة أعناقَ الخنازيرِ فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلَها فتظلموهم » .

---

(١) روضة المحبين ص ٣١١ .

(٢) روضة المحبين ص ٣١٢ .

ويرحم الله مَن قال :

عليَّ نحْتُ المعاني من معادنها وما عليَّ إذا لم تفهَمِ البقرُ

ثم يحجب هذا المعاني غيرة عليها من البقر .

وكان أبو علي إذا وقع شيءٌ في خِلال مجلسه من تشويش الوقت ، يقول : هذا من غيرة الحقِّ . يريد أن لا يجري ما يجري من صفاء الوقت .

نعم .. هناك من الناس من يكون جافيًا جِلفًا غليظًا بليدَ الفهم ، كحال الأعرابي الذي بايعه رسول الله ﷺ فرسًا ، فاستقاله الأعرابيُّ فأقاله ، فقال له الأعرابيُّ : عمَّرك الله،فمن أنت ؟ فقال له النبي ﷺ : « امرؤٌ من قريش » . فقال له بعض الحاضرين : كفاك جفاء أن لا تعرف نبيَّك !! فأحبَّ النبيُّ ﷺ أن يعرِّفه جفاءَه وجَلافتَه بطريقٍ لا يبكِّته بها ، ويعرف من نفسه أنه أهلٌ لذلك . فكأنه يقول بلسان الحال : كفاك جفاءً أن تجهلني فتسألني من أنا !! فلما فهِم الصحابي ذلك بلطف إدراكه ودِقَّة فهمه ، فباداه به وقال : كفاك جفاءً أن لا تعرف نبيَّك !!

كلامٌ حسنٌ :

ذكر القشيري عن الشِّبْلِي أنه قال : « غيرة الإلٰهية على الأنفاس أن تُضيَّع فيما سوىٰ الله » .

قال ابن القيم : وهذا كلام حسن(١) .

وقال السَّريُّ لرجل عارفٍ : بي علَّةٌ باطنةٌ فما دواؤُها ؟ قال : يا سَريّ ، الله غيّورٌ ؛ لا يراك تُساكن غيرَه فتسقط من عينه . فهذه غَيْرة صحيحة .

سُنَّةُ الحقِّ مع أوليائِه أنْ يَغار على قلوبهم إذا ساكَنتْ غيرَه :

قال ابن القيم : « مِن سنة الحقِّ مع أوليائه : أنهم إذا ساكنوا غيرًا ، أو

---

(١) روضة المحبّين ص ٣١٦ .

لاحظوا شيئًا ، أو صالحوا بقلوبهم شيئًا يشوِّش عليهم ذلك ، فيغار على قلوبهم بأن يُعيدها خالصةً لنفسه فارغةً ؛ كآدم عليه السلام : لمَّا وطَّن نفسه على الخلود في الجنة أخرجه من الجنة ، وإبراهيم الخليل عليه السلام : لمَّا أعجبه إسماعيل أمَره بذبْحه حتى أخرجه من قلبه ، فلما أسلما وتلَّه للجبين وصفَّى سرَّه منه ، أمره بالفِداء عنه .

وقال بعضهم : احذروه ؛ فإنه غيُور لا يحبُّ أن يرى في قلب عبده سواه .

وقيل : الْحقُّ تعالى غيُورٌ ، ومن غَيْرته أنه لم يجعل إليه طريقًا سواه »[١] .

لطيفةٌ :

« ومِلاك الغَيرة وأعلاها ثلاثة أنواع : غيْرةُ العبد لربِّه أَن تُنْتَهكَ محارِمُهُ وتُضَيَّعَ حدودُه . وغَيرتُه عَلَى قلبه أن يسكن إلى غيره وأن يأْنس بسواه . وغيرتُه عَلَى حُرْمَتِه أن يتطلَّع إليها غيرُه . فالغيرةُ التي يحبُّها الله ورسوله دارت عَلَى هذه الأنواع الثلاثة ، وما عداها فإنها مِن خِدَع الشيطان »[٢] .

غيْرةُ العبدِ علىٰ حُرْمتِهِ وحُرُمَات المسلمين :

عن سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله ، أرأيتَ إنْ وجدتُ رجلًا مع امرأتي،أُمهله حتي آتي بأربعة شهداء ؟ فقال النبي ﷺ : « نعم » . فقال : والذي بعثك بالحقِّ ، إن كنتُ لَأُضربه بالسيف غير مُصْفحٍ[٣] . فقال النبي ﷺ : « أتعجبون من غَيْرَة سعد ؟! لأنا أغْيَرُ منه ، والله أغير مني »[٤] .

---

(١) روضة المحبين ص ٣١٦ .

(٢) روضة المحبين ص ٣٢٠ .

(٣) صفح بالسيف فلانًا : إذا ضربه بعرْضه لا بحدِّه .

(٤) رواه الشيخان .

غيْرة عمر بن الخطابِ رضي الله عنه :

كان عمر رضي الله عنه شديدَ الغَيرَة ، وكانت امرأته تخرُج فتشهد الصلاة فيكره ذلك ، فتقول : إن نهيتَني انتهيتُ . فيسكت ؛ امتثالًا لقول رسول الله ﷺ : « لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ » ، وهو الذي أشار على النبي ﷺ أن يَحْجُب نساءه ، وكان عادة العرب أن المرأة لا تحتجب ؛ لنزاهتهم ونزاهة نسائهم ، ثم قام الإسلام على ذلك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو حجبتَ نساءَك ؛ فإنه يدخل عليهنَّ البَرُّ والفاجر ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ آية الحجاب .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « بينما أنا أسير في الجنة فإذا أنا بقصر ، فقلتُ : لمن هذا يا جبريل ؟! ورجوتُ أن يكون لي . قال:قال : لعمر . قال : ثم سِرتُ ساعة ، فإذا أنا بقصرٍ خيرٌ من القصر الأول . قال : فقلتُ : لمن هذا يا جبريل ؟ ورجوتُ أن يكون لي . قال : قال : لعمر . وإنَّ فيه لَمن الحُور العِين يا أبا حفص . وما منعنى أن أدخله إلّا غيرتُك » . قال : فاغرورقتْ عينا عمر ، ثم قال : أما عليك فلم أكن لِأُغار[1] .

ورُفِعَ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل قد قتل امرأته ومعها رجلًا آخر ، فقال أولياءُ المرأة : هذا قتل صاحبتَنا . وقال أولياءُ الرجل : إنه قد قتل صاحبنا . فقال عمر رضي الله عنه : ما يقول هؤلاء ؟ قال : ضرب الآخر فَخِذَي امرأته بالسيف ؛ فإن كان بينهما أحدٌ فقد قتلته . فقال لهم عمر : ما يقول ؟ فقالوا : ضرب بسيفه فقطع فَخِذَي المرأة فأصاب وسط الرجل فقطعه باثنتين . فقال عمر رضي الله عنه : إن عادوا فَعُدْ . ذكره سعيد بن منصور في سننه . وأخذ بهذا جماعة من الفقهاء منهم الإمام أحمد وأصحابه رحمهم الله تعالى ؛ قالوا : لو وجد رجلًا يزني بامرأته فقتلهما فلا قصاص عليه ولا

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد ، وأبو يعلى ، وابن أبي عاصم مختصرًا في السنة .

ضمان ، إلَّا أن تكون المرأة مُكْرَهَة فعليه القصاص بقتلها ، ولكن لا يُقبل قولُ الزوج إلا بتصديق الولي أو بيّنة . واختلفت الرواية عن الإمام أحمد في عدد البيِّنة؛فرُوِيَ عنه : أنها رجلان . ويروى عنه : لا بدَّ من أربعة .

وذكر سعيد بن منصور عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه : أنه سُئل عن رجل دخل بيتَه ، فإذا مع امرأته رجلٌ ، فقتلها وقتله ، فقال عليّ رضي الله عنه : إن جاء بأربعة شُهَداء وإلَّا دُفع برُمَّتِه[١] .

ووجهُ رواية الاكتفاء باثنين : أن البينةَ ليست على إقامة الحدّ ، ولكن عَلَى وجوب السبب المانع من القصاص ؛ فإن الزوج كان له أن يقتل المتعدّيَ عَلَى أهله ، ولكن لما أنكر أولياء القتيل ، طُولِبَ القاتلُ بالبيِّنة فاكتُفِيَ برجلين .

ورُفع إلى عمر رضي الله عنه رجلٌ قد قتل يهوديًّا فسأله عن قصته فقال : إن فلانًا خرج غازيًا وأوصاني بامرأته ، فبلغني أن يهوديًا يختلف إليها فكمنتُ له حتى جاء ، فجعل ينشد ويقول :

وأبيضَ غرَّه الإسلام مِنِّي ... خَلَوْتُ بعِرْسِهِ ليلَ التَّمامِ
أبيتُ عَلَى ترائبها ويُمسي ... عَلَى جَرْدَاءَ لاحقةِ الْحِزَامِ
كأنَّ مواضعَ الرَّبلاتِ منها ... فِئامٌ ينهضونَ إلى فِئَامِ

فقمتُ إليه فقتلتُه . فأهدر عُمَر دَمَهِ .

وليس في هذَيْن الأمْرَيْن مطالبة عُمَر رضي الله عنه القاتل بالبيِّنة ؛ إذْ لعلَّه تيقَّن ذلك أو أقرَّ به الوليُّ . والصواب : أنه متى قام عَلَى ذلك دلالةٌ ظاهرةٌ لا تحتمل الكذب،أغنتْ عن البيِّنة .

وذكر سفيان بن عُيَيْنَةَ عن الزهري ، عن القاسم بن محمد ، عن عبيد ابن عُمَير : أن رجلًا أضاف إنسانًا من هُذَيل ، فذهبتْ جاريةٌ لهم تحتطب ،

(١) الرمّة : هي قطعة الحبل يُوثق بها الأسير أو القاتل إذا اقتيد للقتْل .

فأرادها عن نفسها ، فرمته بِفِهْرٍ فقتلته ، فرُفع ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ذاك قتيلُ الله ، لا يُودى أبدًا .

وذكر حَمَّاد بن سَلَمة عن القاسم بن محمد : أن أبا السيَّارة أولع بامرأة أبي جُنْدَب يراودها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل ؛ فإن أبا جُنْدَب إن يعلمْ بهذا يَقْتُلْك . فأبى أن يَنْزِع ، فكلَّمتْ أخا أبي جُندب ، فكلَّمه فأبى أن يَنْزِع ، فأخبرت بذلك أبا جُندب ، فقال أبو جُندب : إني مخبر القوم أني أذهب إلى الإبل ، فإذا أظلمتْ جئتُ فدخلتُ البيت ، فإن جاءك فأدخليه عليَّ . فودَّع أبو جُندب القوم وأخبرهم : إني ذاهبٌ إلى الإبل . فلما أظلم الليل جاء فكمن في البيت ، وجاء أبو السيَّارة وهي تطحن في ظلِّها ، فراودها عن نفسها ، فقالت : وَيْحَك ! أرأيتَ هذا الأمر الذي تدعوني إليه هل دعوتُك إلى شيء منه قطُّ ؟ قال : لا ، ولكن لا أصبر عنك . قالت : ادخلِ البيت حتى أتهيَّأ لك . فلما دخل البيتَ أغلق أبو جُندب الباب ، ثم أخذه فدقَّه من عنقه إلى عَجْبِ[1] ذَنَبه ، فذهبت المرأة إلى أخي أبي جُندب فقالت : أَدرِكِ الرجلَ ؛ فإن أبا جُندب قاتلهُ . فجعل أخوه يُناشده فتركه ، وحمله أبو جُندب إلى مدْرَجةِ الإبل فألقاه ، فكان إذا مرَّ به إنسان قال له : ما شأنك ؟ فيقول : وقعتُ من بَكْرٍ[2] فحطَّمني . وبلغ الخبرُ عُمَرَ رضي الله عنه،فأرسل إلى أبي جُندبٍ فأخبره بالأمر على وجهه ، فأرسل إلى أهل المرأة فصدَّقوه ، فجلد عمر أبا السيارة مائة جلدة وأبطل دِيَتَه .

وذكر العباس بن هشام الكلبيّ،عن أبيه أنَّ عمرو بن حُمَمَةَ الدَّوْسِيّ أتى مكة حاجًّا ، وكان من أجمل العرب ، فنظرتْ إليه امرأةٌ فقالت : لا أدري : وجهُهُ أحسن أم فرسه ؟ وكانت له جُمَّةٌ[3] تُسمَّى : الزينة ، فكان إذا جلس

---

(١) العجب:مؤخر كلِّ شيء ، وعَجْب الذَّنَب : هو جزء في أصل الذنب عند رأس العُصْعُص .

(٢) البكر : يُطلق على الفتي من الإبل ، والجمع : أبكر وبكران ، كما يُقال للأنثى : بكرة .

(٣) الجمَّة : مجتمع رأس الشعر .

مع أصحابه نشَرَها ، وإذا قام عَقَصَهَا[١] ، فقالت له المرأة : أين منزلك ؟ قال : نجْد . قالت : ما أنت بنجديٍّ ولا تِهاميٍّ ، فاصدقْني . فقال : رجلٌ من أهل السَّراة فيما بين مكة واليمن . ثم أشار إليها : ارْتَدفي خلفي . ففعلت ، فمضى بها إلى السَّراة وتبعها زوجُها ، فلم يلحقها فرجع ، فلما استقرَّت عنده ، قطَع عروقَها وقال : والله لا تتبعين بعدي رجلًا أبدًا . ثم ردَّها إلى زوجها عَلَى تلك الحال .

غيْرة الزبير بن العوَّام رضي الله عنه :

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت : تزوَّجني الزبير رضي الله عنه ، وما له في الأرض مالٌ ولا مملوك ولا شيء غير فرسه . قالت : فكنتُ أعلف فرسه وأكفيه مئونته وأسُوسُه ، وأدقُّ النوى للناضحة ، وأعلفه وأسقيه الماء ، وأخرز غربه ، وأعجن ، ولم أكن أُحسن أُخبزُ ، فكان يخبز لي جاراتٌ من الأنصار ، وكنَّ نسوةَ صدق . قالت : وكنت أنقل النوىٰ من أرض الزبير التي أقطعَهُ رسولُ الله ﷺ على رأسي ، وهي على ثُلُثَي فرسخ . قالت : فجئتُ يومًا والنوىٰ على رأسي ، فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نفرٌ من أصحابه فدعا لي ، ثم قال « أخ أخ » ؛ ليحملَني خلفه ، فاستحييتُ أن أسير مع الرجال ، وذكرتُ الزبير وغيرتَه . قالت : وكان مِن أغيَر الناس . قالت : فعرف رسولُ الله ﷺ أني قد استحييتُ فمضىٰ ، فجئتُ الزبير فقلتُ : لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوىٰ ، ومعه نفر من أصحابه ، فأناخ لأركبَ معه ، فاستحييتُ وعرفتُ غيرتك ، فقال : والله لحملُك النوى كان أشدَّ عليَّ مِن ركوبك معه !! قالت : حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم ، فكفتْني سياسة الفرس ، فكأنَّما أعتقني[٢] .

---

(١) عقَص الشعر : ضفره ولواه على رأسه .

(٢) حياة الصحابة للكاندهلوي ٢/٦٩١ .

غيْرة مُعاذ بن جبَل رضي الله عنه :

ذكر الخرائطيُّ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : أنه كان يأكل تُفَّاحًا ومعه امرأته ، فدخل عليه غلامٌ له،فناولتْه تفَّاحةً قد أكلت منها،فأوجَعَها معاذٌ ضرْبًا[١] .

غيرة عبدِ الله بن عُمَر رضي الله عنهما :

« ذكر حمَّاد بن زيد عن أيُّوب ، عن ابن أبي مُلَيْكة : أن ابن عمر رضي الله عنهما،سمع امرأته تكلِّم رجلًا من وراء جِدارٍ ، بينها وبينه قَرابةً لا يعلمها ابنُ عمر ، فجمع لهَا جرائد[٢] ثم ضربهَا حتى أضبَّتْ حسيسًا »[٣] .

ولله درُّ من قال عن نسوة الصالحين :

يعزُّ علىٰ مَن يطرقُ البابَ لفظُها ... جوابًا فلا عقْـدًا تراه ولا حَلَّا
يُطيلُ وُقوفًا لا يُجَابُ مُحَرَّمًا ... عليهـا كـلامُ الأجنبيِّ وإنْ قلَّا

ويرحم الله مَن قال في غيرته على زوجته :

أغـارُ عليـكِ مِـن نفسي ومنّي ... ومنكِ ومـن مكانِـكِ والزمـانِ
ولـوْ أني خبـأْتُـك فـي عيـوني ... إلـى يـومِ القيـامـةِ مـا كفـاني

ولله درُّ عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهَه !! لمّا رأى فاطمةَ رضي الله عنها تستاكُ ؛ غارَ عليها مِن أن يمسَّ السِّواكُ ثغْرَها فأنشأ يقول :

لقد فُزتَ يا عُودَ الأراكِ بثغْرِها ... وما خفتَ ياعودَ الأراكِ أَرَاكَا
لو كنتَ مِن أهلِ القتالِ قتلتُكَ ... ومـا لي يـا سـواكُ سِـواكـا

وفي واقعنا : « طولُ السُّهاد وقرْبُ الوسادِ » :

في قصـور الكُبَـراء – بل في خراباتهم – ما أكثر الخدم والحشَم مـن الرجال ، مِن سائـق وخادم وطبَّاخ .... يخلو الواحـد بسيِّداتِ البيـوت ، وصاحب البيت لاهٍ في أمور دنياه .... لا يفكر فيما تفكِّر فيه النساء ولا فيما

(١) روضة المحبين ص ٣٠٦ .
(٢) الجرائد : جمع جريدة ، وهي قضبان النخل – يجرّد ويُقلمُ عنها السَّعَف .
(٣) الحسيس : الصوت الخفي ، وأضبَّ الشيء : أخفاه . روضة المحبين ص ٣٠٦ .

يفكّر فيه الخادم ... وكأنَّ نساءَه معصومات ، ولا يدري أنه « ما خلا رجل بامرأة إلا وثالثهما الشيطان » ، وأنَّ النساء حبائِل الشيطان ، وأنَّ لذَّة الرجل عندهنَّ ولذاتهنَّ عند الرجال ، لا يخالف في ذلك إلا معتوه .

إن امرأة العزيز لم تسأَل عن شرفها وكرامتها ، ولا شرف زوجها ، بل داستهما ببغل الشهوة دوْسًا .

إن الله لم يذكر قصَة امرأة العزيز إلَّا ليحترس الرجال على نسائهم من الخَدَم .

قالوا لامرأة شريفة راودت خادمها حتى فعل معها الفاحشة : لِمَ هذا ؟ قالت: طول السُّهَاد وقرْبُ الوساد !! فاحذرْ .

فالحافظاتُ الغيْب منهـنَّ التي قد أصبحت فردًا مِنَ النسـوانِ
أمَّا جميلاتُ الوجوهِ فخائنـا تُ بُعُـولِهـنَّ وهُـنَّ لـلأخـدانِ

نفيسةٌ هامَّةٌ :

قال ابن القيم في « روضة المحبِّين » (٣٢٠ - ٣٢١) : « فإن قيل : فمِن أيِّ الأنواع تَعُدُّون غيْرةَ فاطمة رضي الله عنها ابنةِ رسول الله ﷺ على عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، لمَّا عزم عَلَى نكاح ابنةِ أبي جهل ، وغيْرةَ رسول الله ﷺ لها ؟ قيل : من الغَيرة التي يُحبُّها الله ورسوله ، وقد أشار إليها النبي ﷺ بأنها بُضْعةٌ[1] منه ، وأنه يُؤْذيه ما آذاها ، ويُريبه ما أرابها[2] ، ولم يكن يَحْسنُ ذلك الاجتماعُ ألبَتَّة ؛ فإن ابنةَ رسول الله ﷺ لا يَحْسُن أن تجمع مع ابنة عدوِّه عند رجلٍ ؛ فإن هذا في غاية المنافرة ، مع أن ذكر النبي ﷺ صِهْرَه الذي حدَّثه فصدَّقه ووعدَه فوفَّى له ؛ دليلٌ على أن عليًّا رضي الله عنه كان مشروطًا عليه في العَقد،إما لفظًا وإما عُرْفًا وحالًا،أن لا يُريب فاطمة ولا يُؤْذيهَا

---

(١) البضْعة : الجزء : وهي قطعة اللحم .

(٢) أرابها : أقلقها .

بـل يُمسكهـا بالمعروف ، وليس من المعروف أن يَضُمَّ إليها ابنـة عـدوٍّ الله ورسوله ويغيظَها بها ، ولهذا قال النبي ﷺ : « إِلَّا أَنْ يُـرِيدَ ابْنُ أبي طـالبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي وَيَتَزَوَّجَ ابْنَةَ أبي جَهْلٍ »[١] . والشرط العُرْفي الحالي كالشرط اللفظي عند كثيرٍ من الفقهاء ؛ كفقهاء المدينة وأحمد بن حنبل وأصحابه رحمهم الله تعالى . على أن رسول الله ﷺ خاف عليها الفتنة في دينها باجتماعها وابنة عدوّ الله عنده ، فلم تكن غَيْرتُه ﷺ لمجرد كراهيَة الطبْع للمشاركة ، بل الحاملُ عليها حُرْمةُ الدِّين . وقد أشار إلى هذا بقوله : « إِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَنَ فِي دينها » . والله أعلم بالصواب » .

درجات الغيْرة عند شيخ الإسلام الهَرَويِّ :

قال رحمه الله في « منازل السائرين » : وهي على ثلاث درجات :

« **الدرجة الأولى : غيْرة العابد على ضائع يستردُّ ضياعه ، ويستدرك فواته ، ويتدارك قُواه** »[٢] :

وشرَح هذا الكلامَ وبيَّنهُ ابنُ القيم ، فقال : « العابد » هو العامل - بمقتضى العلم النافع - للعمل الصالح . فغيْرته على ما ضاع عليه من عمل صالح ، فهو يستردُّ ضياعه بأمثاله ، ويجبُر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب بفعْل أمثالها ، من جنْسها وغير جنسها ، فيقضي ما ينفع فيه القضاء ، ويعوِّض ما يقبل العِوضَ ، ويجبُر ما يمكن جَبْرُه .

وقوله: « ويستدرك فواتَه »: الفرق بين استرداد ضائعه ، واستدراك فائِتِهِ. أن الأول : يمكن أن يُستردَّ بعيْنه ؛ كما إذا فاته الحجُّ في عامٍ تمكَّن منه ، فأضاعه في ذلك العام ؛ استدرَكه في العام المُقبل ، وكذلك إذا أَخَّر الزكاة عن وقت وجوبها ؛ استدرَكها بعد تأخيرها ، ونحو ذلك .

---

(١) وهذه القصة رواها الشيخان والترمذي .

(٢) مدارج السالكين ٤٨/٣ .

وأما الفائت : فإنما يستدرك بنظيره ؛ كقضاء الواجب المؤقَّت إذا فات وقته . أو يكون مرادُه باسترداد الضائع ، واستدراك الفائت : نوعَي التفريط في الأمر والنهي ، فيستردُّ ضائع هذا بقضائه وفعْل أمثاله ، ويستدرك فائتَ هذا - أي سالفه - بالتوبة والندم .

وأما « تدارُك قواه » : فهو أن يتدارك قوته ببذْلها في الطاعة قبل أن تتبدَّل بالضعْف ، فهو يغار عليها أن تذهب في غير طاعة الله . ويتدارك قُوىٰ العمل الذي لحقه الفتور عنه ، بأن يكسوه قوةً ونشاطًا ، غيْرة له وعليه .

فهذه غيرة العباد على الأعمال . والله أعلم .

« **الدرجة الثانية : غيْرة المريد ؛ وهي غيْرة على وقتٍ فاتَ ، وهي غيْرة قاتلة ؛ فإن الوقت وَحِيُّ التقضّي ، أبيُّ الجانب ، بطيُّ الرجوع** » :

تكلَّمنا عنها في « عُلُوّ الهِمَّة في حفظ الوقت » في المجلد الرابع من كتابنا هذا،من ص ١٥٤ إلى ١٥٦ .

« **الدرجة الثالثة : غيْرة العارف على عيْنٍ غطَّاها غَيْنٌ ، وسرٍّ غشيَه رَيْنٌ ، ونفَسٍ علِقَ برجاءٍ أو الْتفتَ إلى عطاءٍ** » :

قال ابن القيم شارحًا هذه الدرجة العليَّة : « أي يغار علي بصيرةٍ غطَّاها سِتْرٌ أو حجاب ؛ فإن « الغيْن » بمنزلة الغطاء والحجاب ، وهو غطاء رقيق جدًّا ، وفوقه « الغَيْم » وهو لعموم المؤمنين ، وفوقه « الريْن ، والران » وهو للكفَّار .

وقوله : « وسرٍّ غَشِيَه ريْن » : أي حجاب أغلظ من الغيْم الأول . « والسر » هاهنا : إما اللطيفة المدرَكة من الروح ، وإما الحال التي بين العبد وبين الله عز وجل ؛ فإذا غشيه ريْنُ النفس والطبيعة استغاثَ صاحبه ، كما يستغيث المعذَّب في عذابه ، غيْرةً على سرِّه من ذلك الريْن .

وقوله : « ونَفسٍ عَلِق برجاء ، والتفت إلى عطاء » : يعني : أن صاحب النفَس يَغار على نفَسه إذا تعلَّق برجاءٍ من ثواب منفصل ، ولم يتعلَّق بإرادة الله ومحبَّته ؛ فإن بين النَفَسَيْن كما بين متعلَّقهما .

وكذلك قوله : « أوِ التفتَ إلى عطاء » : يعني : أنه يلتفت إلى عطاءٍ من دونِ الله فيرضىٰ به ، ولا ينبغي أن يتعلَّق إلا بالله ، ولا يلتفت إلا إلى المعطي الغني الحميد ، وهو الله وحدَه . والله أعلم » .

الغَيْرة على الله أعظمُ الجهْلِ وأبطلُ الباطل :

قال ابن القيم : « وأما الغيْرة على الله : فأعظم الجهل وأبطل الباطل ، وصاحبها من أعظم الناس جهلًا ، وربما أدَّت بصاحبها إلى معاداته وهو لا يشعر ، وإلى انسلاخه من أصل الدين والإسلام ، وربما كان صاحبها شرًّا على السالكين إلى الله من قُطَّاع الطريق ، بل هو من قُطَّاع طريق السالكين حقيقةً ، وأخرج قَطْع الطريق في قالَبِ الغيرة . وأين هذا من الغيْرة لله التي توجب تعظيم حقوقه ، وتصفية أعماله وأحواله لله ؟ فالعارف يغَار لله ، والجاهل يغار على الله ، فلا يُقال : أنا أغار على الله . ولكن : أنا أغار لله .

كما حُكي عن واحد من مشهوري الصوفية ، أنه قال : لا أستريح حتى لا أرى مَن يذكر الله . يعني غيْرة عليه من أهلِ الغفلة وذكْرهم . والعجب أنَّ هذا يعدُّ من مناقبه ومحاسنه . وغاية هذا : أن يُعذَر فيه ؛ لكونه مغلوبًا على عقله ، وهو من أقبح الشطحات . وذكْر الله على الغفلة وعلى كل حال : خيرٌ من نسيانه بالكليَّة ، والألسن متى تركت ذكر الله - الذي هو محبوبها - اشتغلت بذكر ما يُبغضه ويَمقُت عليه . فأيُّ راحة للعارف في هذا؟! وهل هو إلَّا أشقُّ عليه ، وأكره إليه ؟!

وقولُ آخرَ : لا أحبُّ أن أرى الله ولا أنظر إليه . فقيل له : كيف ؟

قال : غيْرةً عليه من نظر مثلي .

فانظر إلى هذه الغيْرة القبيحة ، الدالَّة على جهْلِ صاحبها ، مع أنه في خفارة ذُلِّه وتواضعه وانكساره واحتقاره لنفسه .

ومِن هذا : ما يُحكَى عن الشبِّلي : أنه لما مات ابنه دخل الحمَّام ونَوَّر لحيته ، حتى أذهب شعرَها كلَّه . فكل منِ أتاه معزِّيًا ، قال : أيش هذا يا أبا بكر ؟ قال : وافقتُ أهلي في قَطْع شعورهم . فقال له بعض أصحابه : أخبرني : لِمَ فعلتَ هذا ؟ فقال : علمتُ أنهم يعزُّونني على الغفْلة ، ويقولون : آجرَك الله . ففديتُ ذكْرهم لله على الغفلة بلحيتي .

فانظر إلى هذه الغيرة المحرَّمة القبيحة ، التي تضمَّنت أنواعًا من المحرَّمات : حلْق الشعر عند المصيبة ، وقد قال رسول الله ﷺ : « ليس منا مَن حلَق وسَلَق وخرق » . أي حلَق شعره ، ورفع صوته بالندب والنياحة ، وخرق ثيابه .

ومنها : حلْق اللحية ، وقد أمر رسول الله ﷺ باعفائها وتوفيرها .

ومنها : منْع إخوانه من تعزيته ونيْل ثوابها .

ومنها : كراهته لجريان ذكْر الله على ألسنتهم بالغفْلة ، وذلك خير - بلا شكٍّ - من ترْك ذكْره .

فغاية صاحب هذا : أن تغفر له هذه الذنوب ويُعفى عنه . وأما أنْ يُعدَّ ذلك في مناقبه ، وفي الغيرة المحمودة ؛ فسبحانك ، هذا بهتان عظيم !!

ومن هذا : ما ذُكِرَ عن أبي الحسين النوري : أنه سمع رجلًا يؤذِّن . فقال : طعنه ، وسمّ الموت . وسمِع كلبًا ينبح ، فقال : لبيك وسعديك . فقالوا له : هذا ترك للدين!!

وصدقوا والله ؛ يقول للمؤذِّن في تشهدُّه : طعنه ، وسمّ الموت . ويلبي نباح الكلب!! فقال : أما ذاك فكان يذكر الله عن رأسِ الغفلة ، وأما الكلب : فقد قال تعالى : ﴿ وإنْ مِنْ شيءٍ إلَّا يسبّح بحَمْدِه ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

فبالله !! ماذا ترى رسول الله ﷺ يواجه هذا القائل لو رآه يقول ذلك ، أو عمر بن الخطاب ، أو من عَدَّ ذلك في المناقب والمحاسن ؟!

وسمِع الشبليُّ رجلًا يقول : جَلَّ الله . فقال : أحبُّ أن تجلّه عن هذا . وأذّن مرةً ، فلمَّا بلغ الشهادتين ، قال : لولا أنك أمرتَني ، ما ذكرتُ معك غيرك . وقال بعض الجهَّال من القوم : « لا إله إلا الله » من أصل القلب ، و« محمد رسول الله » من القرط .

ونحن نقول : محمد رسول الله ، من تمام قول : لا إله إلا الله . فالكلمتان تخرجان من أصل القلب ، من مشكاة واحدة ، لا تتمُّ إحداهما إلا بالأخرى »[(١)].

« قال القُشَيري : والواجب أن يُقال : الغَيْرةُ غَيْرتان : غَيْرَة الحقِّ على العبد ، وهو أن لا يَجعَله للخلق فيَضِنَّ به عليهم . وغَيْرة العبد للحقّ ، وهو أن لا يجعل شيئًا من أحواله وأنفاسه لغير الحقِّ سبحانه ، فلا يُقال : أنا أغار عَلَى الله . ولكن يُقال : أنا أغار لله . قال : فإذَن الغَيْرة على الله جهل ، وربما تؤدي إلى ترك الدين .

قال القُشَيْري : وقيل لبعضهم : أتحبُّ أن تراهم ؟ قال : لا . قيل : ولِمَ ؟ قال : أُنزِّهُ ذلك الجمالَ عن نظرِ مثلي . وفي معناه أُنشدوا

إني لأحسُدُ ناظريّ عليكا حتى أغُضَّ إذا نظرتُ إليكا
وأراكَ تخطُر في شمائلكَ التي هي فِتْنتي فأغارُ منكَ عليكا

قلتُ : وهذه غيْرةٌ فاسدة ، وغاية صاحبها أن يُعْفَى عنه وأن يعدَّ ذلك في شَطَحاته المذمومة ، وأما أن تُعَدَّ في مناقبه وفضائله : أن يُقال : أتحبُّ أن ترى الله فيقول : لا . ورؤيتُه أعلى نعيمِ أهلِ الجنة ، وهو سبحانه وتعالى يحبُّ

(١) مدارج السالكين ص ٣/٤٥ - ٤٧ .

من عبده أن يسأله النظر إليه ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان من دعائه : « اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلَى وَجْهِكَ ، وَالشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ » . وقول هذا القائل : (أُنزّه ذلك الجمالَ عن نظر مثلي) : من خِدَع الشيطان والنفس ، وهو يشبه ما يُحْكىٰ عن بعضهم أنه قيل له : ألَا تذكره ؟ فقال : أُنـزِّهه أن يجري ذكرُه على لساني . وطَرْدُ هذا التنزيه الفاسد؛أن ينزّهه أن يجري كلامُه على لسانه،أو يخطُرَ هو أيضًا على قلبه . وقد وقع بعضهم في شيء من هذا فلاموه ، فأنشد :

يقولونَ زُرْنا واقضِ واجبَ حقِّنا   وقدْ أَسقطتْ حالي حقوقَهمْ عنِّي
إذا هم رأَوْا حالي ولم يأْنَفوا لها   ولـم يأْنُفـوا منّي أَنِفْتُ لهـمْ منِّي

وطَرْدُ هذه الغيرة أن لا يزور بيتَه غيرةً على بيته أن يزوره مثلُه . ولقد لُمْتُ شَخْصًا مرَّةً على ترك الصلاة فقال لي : إني لا أرى نفسي أهلًا أن أدخل بيتَه .فانظرْ إلى تلاعب الشيطان بهؤلاء!!

وسمِع الشبليُّ مرةً رجلًا يقول : جلَّ الله . فقال : أحب أن تُجِلَّه عن هذا . ويا عجبًا ممَّن يَعُدُّ هذا في مناقب رجلٍ ، ويجعله قدوةً ، ويزيِّن به كتابه !! وهل شيءٌ أشدُّ على قلب المؤمن وأمرُّ عليه من أن لا يَرىٰ لربِّه ذاكرًا ؟! وهـل شيء أقرُّ لعينه من أن يَرىٰ ذاكرين لله بكلِّ مكان ؟! وعذرُ هذا القائل : أنه لا يرى ذاكرًا لله بحقِّ الذكْر ، بل لا يرى ذاكرًا إلَّا والغفلة والسهوةُ مستوليَةٌ على قلبه ، فيذكر ربَّه بلسانٍ فارغٍ من القلب وحضوره في الذكر ، وذلك ذكرٌ لا يليق به ، فيغار محبُّه أن يُذكَر بهذا الذكر،فيحبُّ أن لا يَسمع أحدًا يذكُره هذا الذكْر . ولمَّا اشترك الناس في هذا الذكر ، أخبر أن راحته أن لا يرىٰ له ذاكرًا . هذا أَحسنُ ما يُحْمَل عليه كلامه ، وإلَّا فظاهرُه إلى العداوة أقربُ منه إلى المحبَّة ، وليس هذا حال الشبليّ رحمه الله تعالى ؛ فإن المحبَّة كانت تغلب عليه ، ومع ذلك فهو من شطحاته التي يُرجىٰ أنْ تُغْفَر له بصدْقِه ومحبَّته وتوحيده ، لا أنها ممَّا يُحْمَدُ عليه ويُقتدىٰ به فيها .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يذكروه على جميع أحوالهم . وإن كان

ذكرهم إيَّاه مراتبَ ؛ فأعلاها : ذكرُ القلب واللسان مع شهود القلب للمذكور وجمعيَّته بكليّته بأحبِّ الأذكار إليه ، ثم دُونه : ذكر القلب واللسان أيضًا وإن لم يشاهد المذكور ، ثم ذكْر القلب وحدَه ، ثم ذكْر اللسان وحده . فهذه مراتب الذكر وبعضها أحبُّ إلى الله من بعض »[1] .

* * *

(١) روضة المحبين ص٣١٢ - ٣١٤ .

الفصل التاسع
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الرَّغبَة

« تَشَرُّفٌ يصحبهُ تقيَّة ، تحمله عليها هِمَّة
نقيَّة ، لا تُبقي معه من التفرُّقِ بقيَّة »

[شيخ الإسلام الهروي]

□ عُلُوُّ الهِمَّـة في الـرغْبَـة □

اعلـمْ يا أخي أنَّ الرغبةَ ثمرةُ الرجاء ، وهي منه بالحقيقـة ، والـرجاء طمَعٌ ، والرغبة طلبٌ ، فمَن رجا الشيءَ طلبَه ورغبَ فيه ، وكلُّ راجٍ راغبٌ ، وكلُّ خائف هاربٌ .

وقد أثنى الله على زكريَّا - عليه السلام - وبَيْتِهِ بها ، فقـال تعالـى : ﴿ ... **إنهمْ كانوا يُسارعُون في الخيراتِ ويدعُوننا رَغَبًا ورَهَبًا وكـانـوا لنـا خاشعين** ﴾ الآية [الأنبياء : ٩٠] .

درجاتُ الرغْبَة :

قال شيخ الإسلام الهروي[١] : والرغبة على ثلاث درجات :

« **الدرجة الأولى : رغبةُ أهل الخبر : تتولَّدُ من العِلْم ، فتبعثُ على الاجتهادِ المَنُوطِ بالشُّهودِ ، وتصون السالِكَ عن وهْنِ الفَتْرة ، وتمنعُ صاحبَها مِـنَ الرجوع إلى غَثَاثَةِ الرُّخص** » :

وهي رغبة أهل الإيمان المتولِّد مِن العلم والخَبر ، المتصل والمشرف على منزلة الإحسان .

وشهودُ هذا المقام الرفيع : أن تعبدَ الله كأنَّك تراه ، ولا مشهد للعبـد في الدنيا أعلى من هذا .

وتحقيق مقام الإحسان : هو الفَنَاء المحمود ، وهو أن يَفْنى العابـد بحـبِّ الله وخوفه ورجائه ، والتوكُّل عليه وعبادته ، والتبتُّل إليه عن غيره . وليس فوق

(١) مدارج السالكين ٢/٥٦ .

ذلك مقام يُطلَب،إلَّا ما هو من عوارض الطريق .

وهذه الرغبة تحفظ السالك عن وهْن فُتوره وكَسَله،الذي سبَّبه عدم الرغبة أو قلّتها .

قال ابن القيم : « وقوله : « تمنع صاحبها من الرجوع إلى غَثَاثَة الرُّخَص » : أهل العزائم بِناءُ أمرهم على الجدِّ والصدق ، فالسكون منهم إلى الرُّخَص رجوعٌ وبطالة . وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل ليس على إطلاقه ؛ « فإنَّ الله يحبُّ أن يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ كما يُحبُّ أن يُؤْخذ بعزائمه »[(١)] . وفي المسند مرفوعًا إلى النبي ﷺ : « إن الله يحبُّ أن يُؤخَذ برخصه كما يكره أن تُؤتىٰ معصيته »[(٢)] ؛ فجعل الأخذ بالرخص قُباله إتيان المعاصي . وجعل حظَّ هذا : المحبَّة ، وحظَّ هذا : الكراهية . « وما عَرَض للنبيِّ ﷺ أمران ، إلَّا اختار أيسَرَهما ، ما لم يكن إثمًا » . والرخصة أيسر من العزيمة ، وهكذا كان حاله في فطره وسفره ، وجمْعِه بين الصلاتين ، والاقتصار من الرباعية على ركعتين ، وغير ذلك . فنقول : الرخصة نوعان :

النوع الأول : الرخصة المستقرَّة المعلومة من الشرع نصًّا :

كأكْل الميتة والدم ولحم الخنزير عند الضرورة ، وإن قيل لها : عزيمة ؛ باعتبار الأمر والوجوب ، فهي رخصة باعتبار الإذن والتوسعة ؛ وكفطْر المريض

---

(١) أخرج أحمد في مسنده، والبيهقي في سننه ، عن ابن عمر ، وما أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم ؛ قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يحبُّ أن تُؤتىٰ رُخصُه كما يحبُّ أن تؤتى عزائمه » . صحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٨١) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد ، وابن حبان ،والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ؛ قال رسول الله ﷺ :« إن الله تعالى يحبُّ أن تُؤتىٰ رُخَصُه ، كما يكره أن تؤتى معصيته » . وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٨٢) .

والمسافر ، وقصْر الصلاة في السفر ، وصلاة المريض إذا شقَّ عليه القيام قاعدًا ، وفطْر الحامِل والمُرْضع خوفًا على ولديْهما ، ونكاح الأَمة خوفًا من العنَت ونحو ذلك ، فليس في تعاطي هذه الرُّخص ما يُوهن رغبته ولا يردُّ إلى غَثاثةٍ ، ولا يُنقص طلبه وإرادته ألبتة ؛ فإن منها ما هو واجب ، كأكْل الميتة عند الضرورة ، ومنها ما هو راجح المصلحة ، كفطر الصائم المريض ، وقصر المسافر وفطره ، ومنها ما مصلحته للمترخّص وغيره . ففيه مصلحتان : قاصرة ومتعدِّية ، كفطر الحامل والمرضع . ففعْلُ هذه الرخص أرجح وأفضل من ترْكها .

النوع الثاني : رُخصُ التأويلات ، واختلاف المذاهب :

فهذه تَتَبُّعُها حرامٌ يُنقص الرغبة ، ويُوهِن الطلب ، ويَرجع بالمترخِّص إلى غثاثة الرخص . فإنَّ من ترخَّصَ بقول أهل مكة في الصَّرْف ، وأهل العراق في الأشربة ، وأهل المدينة في الأطعمة ، وأصحاب الحِيَل في المعاملات ، وقوْل ابن عباس في المُتْعة ، وإباحة لحوم الحُمُر الأهلية ، وقول مَن جوَّز نِكاح البغايا المعروفات بالبِغاء ، وجوَّز أن يكون زوجَ قحْبة ، وقوْل مَن أباح آلاتِ اللَّهو والمعازف ؛ من اليراع والطنبور والعُود والطبل والمزمار ... وقول من أَباح الغناء ، وقول من جوّز استعارة الجواري الحِسَان للوطْءِ ، وقول من جوَّز للصائم أكل البَرَد ، وقال : ليس بطعام ولا شرابٍ ، وقول من جوَّز الأكْل ما بين طُلوع الفجر وطلوع الشمس للصائم ، وقوْل من صحَّح الصلاة بـ ﴿ مُدْهامَّتان ﴾ بالفارسية ، وركَع كلحظة الطرْف ، ثم هوى من غير اعتدال ، وفصل بين السجدتين كَحَدِّ السَّيْف ، ولم يصلِّ علىٰ النبي ﷺ ، وخرج من الصلاة بحَبْقة ، وقول مَن جوَّز وطءَ النساء في أعجازهنَّ،ونكاح بنته المخلوقة مِن مائه ، الخارجة من صلبه حقيقة ، إذا كان ذلك الحمْل مِن زِنا .. وأمثال ذلك من رُخَص المذاهب وأقوال العلماء – فهذا : الذي تنقص بترخُّصه

رغبتُه ، ويُوهن طلبه ، ويلقيه في غثاثة الرُّخَص . فهذا لوْنٌ والآخر لوْنٌ »(١) .

« الـدرجـة الثـانيـة : رَغْبةُ أربابِ الحال ؛ وهي رغبة لا تُبقي مِـنَ المجهـودِ مبذولًا ، ولا تدَعُ للهِمَّة ذُبولًا ، ولا تتركُ غير القصْدِ مأمولًا » :

قال ابن القيم : « يعني : أنَّ الرغبة الحاصلة لأرباب الحال فوق رغبة أصحاب الخبر ؛ لأن صاحب الحال كالمضطر إلى رغبته وإرادته ، فرغبته لا تدعُ منه مجهودًا مقدورًا إلَّا بَذَلَه ، ولا تدَعُ لِهمَّته وعزيمته فتْرةً ولا خمودًا ، وعزيمتُه في مزيد بِعَدَدِ الأنفاس ، ولا تترك في قلبه نصيبًا لغير مقصوده ؛ وذلك لغَلَبة سلطان الحال .

وصاحب هذا الحال لا يقاومه إلا حالٌ مثل حاله أو أقوى منه ، ومتى لم يصادفْه حالٌ تُعارضه ، فله من النفوذ والتأثير بحسب حاله » .

« الدرجة الثالثة : رغبةُ أهل الشُّهُود ؛ وهي تشرُّفٌ يصحَبُه تقيَّة ، تحمله عليها هِمَّة نقيَّة ، لا تبقي معه من التفرُّق بقيَّة » :

وهو أن يفنىٰ لمولاه بحبِّه وخوْفه ورجائه وعبادته والتبتُّل إليه عن غيره ، يحمِلُه عليها هِمَّة نقيَّة من أدناس الالتفات إلى ما سوى الحقِّ ، بحيث لا يبقىٰ معه بقيَّة من تفْرقٍ ، بل قد اجتمع شاهدُه كلُّه وانحصر في مشهوده . وأراد بالشهود هاهنا : شهود الحقيقة .

والتشرُّف هاهنا : تشرُّف عن التفاته إلى ما سوى مشهوده .

و« التقيَّة » التي تصْحَب هذا التشرُّف : يحتمل أن يريد بها التقيَّة من إظهار الناس على حاله ، واطِّلاعهم عليها ؛ صيانةً لها وغيْرةً عليها . ويحتمل أن يريد بها الحذَرَ من التفاته في شهوده إلى ما سوى حَضْرةِ مشهوده ، فهي تتقي ذلك الالتفاتَ وتحْذَره كلَّ الحذَر .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٥٧ - ٥٨ .

ثم ذكَر الحامِلَ له على هذه الرغبة ، وهي اللطيفة المدْرِكة المريدة ، التي قد تطهَّرت قبل وصولها إلى هذه الغايةِ ، وهي : الهِمَّة النقيَّة . ولو لم يحصل لها كمال الطهارة ، لَبقيتْ عليها بقيَّة منها تمنعها من وصولها إلى هذه الدرجة . والله سبحانه وتعالى أعلم »[١] .

❋ ❋ ❋

(١) مدارج السالكين ٢/٥٩ .

الفصل العاشر
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
التهْذِيبِ والتصْفِيَة

□ عُلُوُّ الهِمَّة في التهذيبِ والتصْفِيَة □

قال ابن القيِّم عن هذه المنزلة من منازل العبودية : « هو سبْك العبودية في كِيرِ الامتحان ، طلبًا لإخراج ما فيها من الخبَث والغشِّ ، وهو صعب على المبتدِئ ؛ فهو له كالمحنة ، وطريقة للمرْتاض الذي قد مرَّن نفسه ، حتى اعتادت قبوله وانقادت إليه » .

درجاتُ التهذيبِ والتصْفِيَة :

قال صاحبُ « المنازل » شيخ الإسلام الهرويُّ الأنصاريُّ : وهو على ثلاث درجات :

« الدرجة الأولى : تهذيبُ الخِدْمَة ؛ أنْ لا يخالجها جَهالةٌ ، ولا يَشُوبها عادة ، ولا يقف عندها هِمَّة » :

قال ابن القيم شارِحًا ومبيِّنًا هذه الدرجة : « أي : تخليص العبودية وتصفيتها من هذه الأنواع الثلاثة ، وهي : مخالجة الجهالة ، وشوْب العادة ، ووقوفُ همَّةِ الطالب عندها .

النوع الأول : مخالجة الجهالة :

فإن الجهالة متى خالطتِ العبودية ، أوردها العبد غيرَ موْردها ، ووضعها في غير موضعها،وفعَلَها في غير مستحقِّها ، وفعَل أفعالًا يعتقد أنها صلاح ، وهي إفساد لخدمته وعبوديته ، بأن يتحرَّك في موضع السكون ، أو يسكن في موضع التحرُّك ، أو يفرّق في موضع جمْع ، أو يجمع في موضع فرْق ، أو يطير في موضع سفوف ، أو يُسفَّ في موضع طيران ، أو يُقْدِمَ في موْضِع إحجامٍ ،

أو يُحْجِم في موضع إقدام.، أو يتقدَّم في موضع وُقوف ، أو يقف في موضع تقدُّم ، ونحو ذلك من الحركات التي هي حقُّ الخدمة ، كحركات الثقيل البغيض في حقوق الناس .

فالخدمة ما لم يصحبْها علْمٌ ثانٍ بآدابها وحقوقها ، غير العلم بها نفسِها ؛ كانت مظنَّةَ أنْ تُبعِدَ صاحبَها ، وإنْ كان مراده بها التقرُّب . ولا يلزم حُبوط ثوابها وأجْرها ، فهي إنْ لم تُبعده عن الأجر والثواب ، أبعدتْه عن المنزلة والقرْبة ، ولا تنفصل مسائل هذه الجملة إلَّا بمعرفةٍ خاصَّة بالله وأمْره ، ومحبَّة تامَّةٍ له ، ومعرفةٍ بالنفس وما منها .

النوْع الثاني : شوْب العادة :

وهو أن يُمازِج العبوديةَ حكمٌ من أحكام عوائد النفس تكون مُنْفِذة لها ، مُعينة عليها ، وصاحبها يعتقدها قُرْبةً وطاعةً ، كَمَنِ اعتاد الصوم – مثلًا – وتمرَّن عليه ، فألِفَتْه النفس ، وصار لها عادة تتقاضاها أشدَّ اقتضاء ، فيظنّ أن هذا التقاضي محضُ العبودية ، وإنما هو تقاضي العادة ؛ وعلامةُ هذا : أنه إذا عَرَض عليها طاعة دون ذلك وأيسر منه وأتمَّ مصلحة ؛ لم تُؤْثِرها إيثارها لِمَا اعتادته وأَلِفَتْه ، كما حُكِي عن بعض الصالحين قال : حَجَجْتُ كذا وكذا حَجَّة على التجريد ، فبان لي أنَّ جميع ذلك كان مشوبًا بحظِّي ؛ وذلك : أن والدتي سألتني أن أستقى لها جَرْعةَ ماء،فثقل ذلك على نفسي ، فعلمتُ أن مطاوعة نفسي في الحجَّات كان بحظِّ نفسي وإرادتها ، إذْ لو كانت نفسي فانية ، لم يَصعُبْ عليها ما هو حقُّ الشرع .

النوع الثالث : وقوفُ هِمَّته عند الخدمة :

وذلك علامةُ ضعْفها وقصورها ؛ فإنَّ العبد المحْض لا تقفُ هِمَّته عند خدمة ، بل هِمَّته أعلى من ذلك ؛ إذْ هي طالبة لرضا مخدومه ، فهو دائمًا مستصغِرٌ خدمته له ، ليس واقفًا عندها ، والقناعة تُحمَد مِن صاحبها إلَّا في هذا المَوْضع ، فإنها عيْن الحرمان ، فالمحبُّ لا يقنع بشيءٍ دون محبوبه ، فوقوف

هِمَّةِ العبد مع خدمتها وأجرتها : سُقوط فيها وحرمان »[(١)] .

« الدرجة الثانية : تهذيبُ الحال ؛ وهو أنْ لا يَجْنح الحالُ إلى عِلْم ، ولا يخضع لرَسْمٍ ، ولا يلتفت إلى حظٍّ » :

قال ابنُ القيِّم شارحًا وموضِّحًا للمبهَمات من الألفاظ : « أمَّا (جُنوح الحال إلى العلم) ؛ فهو نوعان : ممدوح ، ومذموم ؛ فالممدوح : التفاته إليه ، وإصغاؤه إلى ما يأمر به ، وتحكيمه عليه . فمتى لم يجنحْ إليه هذا الجنوح ، كان حالًا مذمومًا ناقصًا مبعِدًا عن الله ، فإنَّ كلَّ حال لا يصحبه علم : يُخاف عليه أن يكون من خدَع الشيطان . وهذا القدْر هو الذي أفسد على أرباب الأحوال أحوالهم ، وعلى أهل الثغور ثغورَهم ، وشرَّدهم عن الله كلَّ مشردٍ ، وطردهم عنه كلَّ مطردٍ ، حيث لم يحكِّموا عليه العلمَ ، وأعرضوا عنه صفْحًا ، حتى قادهم إلى الانسلاخ من حقائق الإيمان وشرائع الإسلام .

وهم الذين قال فيهم سيِّد الطائفة الجُنَيْد بن محمد ، لمَّا قيل له : أهل المعرفة يَصِلُون إلى تَرْك الحركات من باب البر والتقرُّب إلى الله ؟ فقال الجنيد : إن هذا كلام قومٍ تكلَّموا بإسقاط الأعمال عن الجوارح ، وهو عندي عظيمة ، والذي يزني ويسرق أحسنُ حالًا من الذي يقول هذا ؛ فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألفَ عام ، لم أُنقص من أعمال البرِّ ذرَّةً ؛ إلَّا أن يُحَال بي دونها .

وقال : الطُّرق كلُّها مسدودة على الخلْق ، إلَّا مَنِ اقتفىٰ أثَر الرسول ﷺ .

وقال : مَن لم يحفظِ القرآن ويكتب الحديث ، لا يقتدىٰ به في طريقنا هذا ؛ لأن طريقنا وعلْمنا مقيَّد بالكتاب والسنة .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٩٨ - ٩٩ .

وقال : عِلْمنا هذا مشيَّد بحديث رسول الله ﷺ .

والبليَّة التي عرضتْ لهؤلاء : أنَّ أحكام العلْم تتعلَّق بالعلْم وتدعو إليه ، وأحكام الحال تتعلَّق بالكشْف ، وصاحب الحال تردُ عليه أمورٌ ليست في طَوْر العلم ، فإنْ أقام عليها ميزانَ العلم ومعيارَه ، تعارَضَ عنده العلمُ والحال ، فلم يجد بُدًّا من الحكْم على أحدهما بالإبطال . فمَن حصلت له أحوال الكشْف ، ثم جنَحَ إلى أحكام العلْم ، فقد رجَعَ القهقرَىٰ ، وتأخَّر في سيره إلى وراء .

فتأمَّلْ هذا الوارد ، وهذه الشبهة التي هي سمٌّ ناقع : تُخرج صاحبها من المعرفة والدين،كإخراج الشعْرة من العجين .

واعلمْ أن هذه المعرفة الصحيحة هي رُوح العلم ، والحالُ الصحيح هو روح العمَل المستقيم ، فكلُّ حال لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقًا للعلم : فهو بمنزلة الروح الخبيثة الفاجرة ، ولا يُنكر أن يكون لهذه الروح أحوال ، لكن الشأن في مرتبة تلك الأحوال ومنازلها ، فمتى عارَض الحالَ حكْمٌ من أحكام العلم فذلك الحال إمَّا فاسد ، وإمَّا ناقص ، ولا يكون مستقيمًا أبدًا .

فالعلم الصحيح والعمل المستقيم : هما ميزانُ المعرفة الصحيحة والحال الصحيح ، وهما كالبدَنَيْن لرُوحَيْهما .

فأحسن ما يُحمَل عليه قولُه : « أن لا يَجْنَح الحالُ إلى العلم » : أنَّ العلم يدعو إلى التفرقة دائمًا ، والحالُ يدعو إلى الجمعيَّة ، والقلب بين هذيْن الداعيَيْن ، فهو يُجيب هذا مرةً وهذا مرةً .

فتهذيبُ الحال وتصفيتُه : أن يُجيب داعيَ الحال لا داعيَ العلم ، ولا يلزم من هذا إعراضُه عنِ العلم ، وعدَمُ تحكيمه والتسليم له ، بل هو متعبِّد

بالعلم ، محكِّمٌ له ، مستسلم له ، غيرُ مجيب لداعيه من التفْرقة ، آخذ من العلم ما يصحِّح له حالَه وجمعيَّته ، غيرُ مستغرقٍ فيه استغراقَ مَن هو مُطَّرِحٌ هِمَّته وغاية مقصده ، لا مطلوبَ له سواه ، ولا مرادَ له إلَّا إيَّاه . فالعلم عنده آلةٌ ووسيلة ، وطريقٌ توصِّله إلى مقصده ومطلوبه ، فهو كالدليل بين يديْه ، يدعوه إلى الطريق ويدلُّه عليها ، فهو يُجيب داعِيَه للدلالة ومعرفةِ الطريق . وما في قلبه من ملاحظة مقصده ، ومطلبه من سيْره وسفره ، وباعثُ هِمَّته على الخروج من أوطانه ومربَّاه ومن بين أصحابه وخُلَطائه ، الحامل له على الاغتراب والتفرُّد في طريق الطلب - هو المسيِّر له والمحرِّك والباعث ، فلا يجنح عن داعيه إلى اشتغاله بجزئيَّات أحوال الدليل ، وما هو خارج عن دلالته على طريقه .

فهذا مقصد شيخ الإسلام - إن شاء الله تعالى - لا الوجه الأول . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ولا يخضع لرَسْمٍ :

وأما قوله : « ولا يخضع لرسمٍ » : أي لا يستولي على قلبه شيء من الكائنات ؛ بحيث يخضع له قلبه ؛ فإنَّ صاحب الحال إنما يطلب الحيَّ القيُّوم ، فلا ينبغي له أنْ يقفَ عند المَعَاهد والرُّسوم .

ولا يلتفت إلى حظٍّ :

وأما قوله : « ولا يلتفت إلى حظٍّ » : أي إذا حصَل له الحال التامُّ ، لم يشتغل بفرحه به وحظِّه منه واستلذاذه ؛ فإن ذلك حظٌّ من حظوظ النفْس ، وبقيَّة من بقاياها »(١) .

« الدرجة الثالثة : تهذيبُ القصْد ؛ وهو تصفيتُه مِن ذُلِّ الإكراه ، وتحفُّظه مِن مرضِ الفُتور ، ونُصْرته على منازَعَات العلْم » :

قال ابن القيِّم : « هذه أيضًا ثلاثة أشياء تُهذِّب قصدَه وتصفِّيه :

---

(١) مدارج السالكين ٢/٩٩ - ١٠١ .

أحدها : « تصفيتُه من ذلّ الإكراه » : أي لا يسوق نفسَه إلى الله كرهًا كالأجير المسخَّر المكلَّف ، بل تكون دواعي قلبه وجواذِبُه منساقة إلى الله طوْعًا ومحبَّةً وإيثارًا ، كجريان الماء في منحدره ، وهذه حال المحبِّين الصادقين ، فإن عبادتهم طوْعًا ومحبَّة ورضًا ، ففيها قرَّة عُيونهم وسرور قلوبهم ، ولَذَّة أرواحهم ، كما قال النبي ﷺ : « وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة » . وكان يقول : « يا بلال ، أرحنا بالصلاة » . فقرة عيْن المُحِبِّ ولذَّته ونعيم رُوحه في طاعة محبوبه ، بخلاف المطيع كرهًا ، المتحمِّل للخدمة ثِقلًا .

وفي قوله : « ذلّ الإكراه » لطيفةٌ ؛ وهي أنَّ المطيع كرهًا يرى أنه لولا ذلُّ قهْره وعقوبة سيِّده له ، لَمَا أطاعه ، فهو يتحمَّل طاعته كالمكره الذي قد أذلَّه مُكْرِهُهُ وقاهِرُه ، بخلاف المحبِّ الذي يعدُّ طاعة محبوبه قوَّة ونعيمًا ولذَّةً وسُرورًا ، فهذا ليس الحامِل له ذلُّ الإكراه .

الثاني : « تحفُّظُه من مَرَض الفتور » : أي توقِّيه من مَرَض فُتور قصده ، وخمود نار طلَبِه ؛ فإن العزم هو روح القصد ، ونشاطه كالصحَّة له ، وفتوره مرض من أمراضه ، فتهذيب قصْده وتصفيته : بحِمْيَته من أسباب هذا المرض الذي هو فتوره ، وإنما يتحفَّظ منه بالحِمْية من أسبابه وهو أن يلهو عن الفضول من كلِّ شيء ، ويحرِص على ترْك ما لا يعنيه ، ولا يتكلّم إلّا فيما يرجو فيه زيادة إيمانه وحاله مع الله ، ولا يصحب إلَّا مَن يُعينه على ذلك ، فإنْ بُلي بمَن لا يُعينه ، فلْيدرأْه عنه ما استطاع ويدفعه دفْعَ الصائل .

الثالث : « نصرة قصده على منازعات العلم » : ومعنى ذلك نصرة خاطر العبودية المحْضة ، والجمعيَّة فيها والإقبال على الله فيها بكليَّة القلب ، على جواذب العلم ، والفكرة في دقائقه وتفاريع مسائله وفَضَلاته .

فتهذيب القصْد وتجريدُه : أن قصده وعبوديته محبَّةٌ لله بلا علَّة ، وأن

لا يحبُّ الله لِمَا يُعطيه ويحميه منه ، فتكون محبَّته لله محبَّةَ الوسائل ، ومحبَّته بالقصد الأول لِمَا يَناله من الثواب المخلوق ، فهو المحبوب له بالـذَّات ، بحيث إذا حصل له محبوبه تسلَّى به عن محبة من أعطاه إيَّاه ، فإن من أحبَّك لأمرٍ وَالَاك عند حصوله ، ومَلَّكَ عند انقضائه »[1] .

فلا يجعل محبوبه تعالىٰ وسيلةً له إلى غيره ، بل يجعل ما سواه وسيلةً له إلى محبوبه .



(١) مدارج السالكين ٢/١٠٢ - ١٠٣ .

الفصل الحادي عشر
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
التحلِّي بحُسْنِ الخُلُقِ

قالت عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ : « كان خُلُقه القرآن »
[رواه الشيخان]

« كُنْ مع الحقِّ بلا خَلْق ،
ومعَ الخلْقِ بلا نَفْسٍ »
[الجيلاني]

□ عُلو الهِمَّة في التحلِّي بحُسْن الخُلُق □

اعلمْ - هدانا الله وإيَّاك - أنَّ « الخُلُق الحسَن صفة سيِّد المرسلين ، وأفضل أعمال الصِّدِّيقين ، وهو على التحقيق شطْر الدين ، وثمرة مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين .

والأخلاق السيئة هي السمومُ القاتلة ، والمهلكات الدامغة ، والمخازي الفاضِحة ، والرذائل الواضحة ، والخبائث المبعِدة عن جِوار ربِّ العالمين ، المنخرِطة بصاحبها في سلك الشياطين ، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة التي تطلِع على الأفئدة ، كما أنَّ الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجِنان ، وجوار الرحمن . والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب ، وأسقام النفوس ، إلّا أنَّه مَرَض يُفوِّت حياة الأبد ، وأين منه المرضُ الذي لا يُفوِّت إلّا حياة الجَسَد ؟! ومهما اشتدَّتْ عناية الأطبَّاء بضبْط قوانين العلاج للأبدان ، وليس في مرضها إلّا فوْت الحياة الفانية ، فالعناية بضبْط قوانين العلاج لأمراض القلوب - وفي مرضها فوْت حياة باقية - أولى ، وهذا النوع من الطبِّ واجب تعلُّمه على كلِّ ذِي لُبٍّ ؛ إذ لا يخلو قلبٌ من القلوب عن أسقام ، لو أهملتْ تراكمتْ ، وترادفت العلل وتظاهرتْ ، فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها ، ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها ، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى : ﴿ **قد أفلح مَن زكَّاها** ﴾ [الشمس : ٩] ، وإهمالها هو المراد بقوله : ﴿ **وقد خاب مَن دسَّاها** ﴾[١] [الشمس : ١٠] .

وتزكية النفوس - بالتحلِّي بالأخلاق الحسَنة ، والتخلِّي عن سيِّئها - مطلب عظيمٌ وربْع الرسالة المحمدية[٢] ، ولذا أقسَم الله عز وجل أحدَ عشر

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٥٣ .

(٢) لقوله تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياتِهِ ويزكِّيهم ويعلِّمهُم الكتاب والحكمة ﴾ .

قسَمًا متتاليًا - لم تأت إلّا في موضع واحد من القرآن الكريم - على أنَّ الفلاح مَنوط بتزكية النفوس ؛ قال تعالى : ﴿ **والشمسِ وضُحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلّاها والليل إذا يغشاها والسماءِ وما بناها والأرض وما طحاها ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلَح مَن زكَّاها وقد خاب من دسَّاها** ﴾ [الشمس : ١ - ١٠] . وقال سبحانه : ﴿ **قد أفلح مَن تزكّى وذكر اسمَ ربِّه فصلَّى** ﴾ [الأعلى : ١٤ - ١٥] .

وتزكية النفوس ملاك دعوة الرسل بعد التوحيد ؛ فهذا موسى عليه السلام يقول لفرعون : ﴿ **هل لكَ إلى أن تزكّى وأهديَك إلى ربِّك فتخشىٰ** ﴾ [النازعات : ١٨ - ١٩] ؛

وتزكية النفوس سببُ الفوز بالدَّرجات العلىٰ والنعيم المقيم ، كما قال عز وجل : ﴿ **ومَن يأْتِهِ مؤمنًا قد عمِل الصالحاتِ فأولئكَ لهمُ الدرجاتُ العُلىٰ جناتُ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء مَن تزكّى** ﴾ [طه : ٧٥ - ٧٦] .

وكان مِن دعائه ﷺ : « اللهمَّ آتِ نفسي تقواها ، وزكِّها أنتَ خير مَن زكَّاها ، أنتَ وليُّها وموْلاها »(١) .

وجعل النبي ﷺ تزكيَة النفس إحدىٰ الخصال الموجبة لذوْقِ طعْم الإيمان ، وفسَّر التزكية بإحدىٰ مراتب الإحسان ، وهو أعلى مقامات الدين ، وهو أنْ يعلمَ أن الله عزَّ وجل معه حيث كان ؛ قال رسول الله ﷺ : « ثلاث مَن فعَلَهُنَّ فقد ذاق طعْمَ الإيمان : مَن عبَدَ الله عز وجل وحده بأنه لا إله إلا هو . وأعطى زكاةَ ماله طيِّبة بها نفسُه في كلِّ عام ، ولم يُعط الهَرِمة ، ولا الدرنة ، ولا المريضة ، ولكن مِن أواسط أموالكم ؛ فإن الله عز وجل لم يسألكم خيرها ، ولم يأمركم بشرها . وزكّى نفسَه » . فقال رجل : وما تزكية النفس ؟ فقال : « أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث.........................

(١) أخرجه مسلم .

كان »[١] .

تزكيةُ النفوسِ مُسلَّم إلى الرسل :

قال ابن القيم:« إن تزكيةَ النفوس مُسَلَّم إلى الرسل ، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولَّاهم إياها ، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليمًا ، وبيانًا وإرشادًا ، لا خلقًا ولا إلهامًا ؛ فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم ، قال الله تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا مِن قبل لَفي ضلال مبين** ﴾ [الجمعة : ٢].وقال تعالى : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكِّيكم ويعلِّمكم الكتابَ والحكمةَ ويعلِّمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكرْكُم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] .

وتزكية النفوس أصعبُ مِن علاج الأبدان وأشدُّ ؛ فمَن زكَّى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة ، التي لم يجئ بها الرسل ؛ فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه،وأين يقع رأيه مِن معرفة الطبيب ؟! فالرسل أطبَّاء القلوب ، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا مِن طريقهم ، وعلى أيديهم ، وبمحْض الانقياد ، والتسليم لهم،والله المستعان »[٢] .

وقال: « الأبدان الزاكية هي التي زكَتْ بطاعة الله ، ونبتَتْ على أكْل الحلال ، فمتىٰ خلصت الأبدان مِن الحرام وأدناس البشرية التي ينهىٰ عنها العقل والدين والمروءة ، وطهرت الأنفسُ مِن علائق الدنيا ؛ زكَتْ أرض القلب ، فقبلتْ بذرَ العلوم والمعارف ؛ فإنْ سُقيت بعد ذلك بماءِ الرياضة الشرعية - وهي التي لا تخرج عن علْم ، ولا تبعد عن واجب ، ولا تُعطِّل سنة - أنبتت

---

(١) صحيح : أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ، والبيهقي في السنن ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ١٠٤٦ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٣١٥ .

من كلِّ زوجٍ كريمٍ ، مِن علْمٍ وحكمةٍ وفائدةٍ »[1] .

وَقَفاتٌ مع قوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وإنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ :

رضي الله عن ابن عباس حين قال مفسرًا هذه الآية : « لعلى دين عظيم ، لا دين أحبُّ إليَّ ولا أرضىٰ عندي منه ، وهو دين الإسلام » . فجعل الدين كلَّه خلقًا ، فمن زاد عليك في الخُلُق ، فقد زاد عليك في الدين .

وقال الحسن رضي الله عنه : هو آداب القرآن .

وقال ابن القيم : إنك لعلىٰ الخلق الذي آثرك الله به في القرآن .

وفي الصحيحيْن : أن هشام بن حكيم « سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلُقه القرآن . فقال : لقد هممتُ أن أقوم ولا أسأل شيئًا » .

هكذا « تجيء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم : ﴿ **وإنك لعلىٰ خلق عظيم** ﴾ [القلم : ٤] ، وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم ﷺ ، ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود . ويعجز كلُّ قلمٍ ، ويعجز كل تصوُّر عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من ربِّ الوجود ، وهي شهادة من الله ، في ميزان الله لعبد الله ، يقول له فيها : ﴿ **وإنك لعلىٰ خلُق عظيمٍ** ﴾ . ومدلول الخلُق العظيم هو ما هو عند الله ، ممَّا لا يبلغ إلى إدراك مداه أحدٌ من العالمين !

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ ، تبرز من نواحٍ شتَّى :

تبرز من كوْنها كلمة من الله الكبير المتعال ، يسجّلها ضميرُ الكون ، وتثبت في كيانه وتتردَّد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٥ . انظر كتاب : معالم في السلوك وتزكية النفوس لعبد العزيز بن محمد العبد اللطيف – دار الوطن .

وتبرز من جانب آخر ، من جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقِّيها ، وهو يعلم مَنْ ربُّه هذا ، قائل هذه الكلمة ؛ ما هو ؟ ما عظمته ؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم مَن هو إلى جانب هذه العظمة المطلَقة ، والتي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين .

إن إطاقة محمد ﷺ لتلقِّي هذه الكلمة من هذا المصدر ، وهو ثابت لا ينسحق تحت ضغطها الهائل ، ولو أنها ثَناء ، ولا تتأرجح شخصيته تحت وقْعِها وتضطرب .. تلقِّيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن – هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كلِّ دليل .

ولقد رُويت عن عظمة خُلُقه في السيرة وعلى لسان أصحابه : رواياتٌ متنوِّعة كثيرة ، وكان واقِعُ سيرته أعظم شهادة من كل ما رُوي عنه ، ولكنّ هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كلِّ شيءٍ آخر .. أعظم بصدورها عن العليِّ الكبير ، وأعظم بتلقِّي محمد ﷺ لها وهو يعلم مَنْ هو العلي الكبير ، وبقائه بعدها ثابتًا راسخًا مطمئنًا ، لا يتكبَّر على العباد ، ولا ينتفخ ولا يتعاظم ، وهو الذي سمِع ما سمِع من العلي الكبير !

والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وما كان إلّا محمد ﷺ – بعظمة نفسه هذه – مَن يحمل الرسالة الأخيرة بكلِّ عظمتها الكونية الكبرى ، فيكون كُفئًا لها ، كما يكون صورة حيَّة منها .

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال ، والعظمة والشموخ ، والصدق والحقِّ ؛ بحيث لا يحملها إلّا الرجل الذي يُثني عليه الله هذا الثناء ، فتُطيق شخصيته كذلك تلقي هذا الثناء ، في تماسُكٍ وفي توازنٍ ، وفي طمأنينة القلب الكبير ، الذي يسع حقيقةَ تلك الرسالة وحقيقة هذا الثناء العظيم .

إن حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة ، وإن عظمة هذه النفس

من عظمة هذه الرسالة ، وإن الخلُق المحمدي - كالحقيقة الإسلامية - لأبعدُ مِن مدى أي مجهرٍ يملكه بَشَرٌ ، وقصارىٰ ما يملكه راصدٌ لعظمة هذه الحقيقة أن يراها ولا يحدِّد مَداها ، وأنْ يُشير إلى مسارها الكوني دون أن يحدِّد هذا المسار .

ومرةً أخرىٰ أجد نفسي مشدودًا للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقِّي رسول الله ﷺ لهذه الكلمة من ربِّه ، وهو ثابت راسخ متوازِنٌ مطمئنٌّ الكيان .. لقد كان - وهو بشرٌ - يُثني على أحد أصحابه ، فيهتزُّ كيان صاحبه هذا وأصحابه ، من واقع هذا الثناء العظيم ، وهو بَشَرٌ ، وصاحبه يعلم أنه بشر ، وأصحابه يدركون أنه بَشَر . إنه نبيٌّ .. نعم ، ولكن في الدائرة المعلومةِ الحدود ، دائرة البشرية ذات الحدود ، فأمّا هو فيتلقَّى هذه الكلمة من الله ، وهو يعلم مَنْ هو الله ، هو بخاصَّةٍ يعلم مَن هو الله ، هو يعلم منه ما لا يعلمه سواه ، ثم يصطبر ويتماسك ، ويتلقَّى ويسير .. إنه أمر فوق كلِّ تصوُّر وفوق كل تقدير !! إنه محمد ﷺ وحدَه هو الذي يرقىٰ إلى هذا الأفْقِ مِن العظمة ، إنه محمد ﷺ .. وحده هو الذي يبلغ قمَّة الكمال الإنساني .إنه محمد ﷺ وحدَه هو الذي يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية ، حتى لتتمثَّل في شخصهِ حيَّة ، تمشي على الأرض في إهابِ إنسان .. إنه محمد ﷺ وحده الذي علِم الله منه أنه أهل لهذا المقام ، والله أعلمُ حيثُ يجعل رسالته ، وأعلَنَ في هذه أنه على خُلُقٍ عظيم ، وأعلن في الأخرى أنه جلَّ شأنه ، وتقدَّستْ ذاته وصفاته - يصلّي عليه هو وملائكته »[1] .

أصَالَةُ العنْصرِ الأخلاقِّي في الإسلام :

قال الشيخُ سيِّد قطب رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ **وإنَّك لَعَلىٰ خلُقٍ عظيم** ﴾:« إن لهذه اللَّفتةِ دلالتَها على تمجيد العنصر الأخلاقي في ميزان الله ،

(١) الظلال ٦/٣٦٥٦ - ٣٦٥٧ .

وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الإسلامية . والناظر في هذه العقيدة كالناظر في سيرة رسولها ﷺ،يجد العنصر الأخلاقي بارزًا أصيلًا فيها ، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبيَّة على السَّوَاء ؛ الدعوة الكبرىٰ في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة ، والأمانة والصدق ، والعدل والرحمة ، والبرِّ وحفْظ العهد ، ومطابقة القول للفعل ، ومطابقتهما معًا للنيَّة والضمير ، والنهي عن الجور والظلم ، والخداع والغشِّ ، وأكل أموال الناس بالباطل والاعتداء على الحرمات والأعراض ، وإشاعةِ الفاحشة بأيَّة صورة من الصور.والتشريعاتُ في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي ؛ في الشعور والسلوك ، وفي أعماق الضمير ، وفي واقع المجتمع ، وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء . والرسول الكريم ﷺ يقول : « إنما بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق » ؛ فيلخِّص رسالته في هذا الهدَف النبيل ، وتتوارد أحاديثه تترىٰ في الحضِّ على كلّ خلُقٍ كريم ، وتقوم سيرته الشخصية مثالًا حيًّا وصفحة نقية ، وصورة رفيعة تستحقُّ من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد : ﴿ **وإنك لعَلىٰ خلُقٍ عظيم** ﴾ ، فيمجِّد بهذا الثناء نبيَّه ﷺ كما يمجِّد به العنصر الأخلاقي في منهجه ، الذي جاء به هذا النبي الكريم ﷺ ، ويشدّ به الأرض إلى السماء ، ويعلِّق به قلوب الراغبين إليه سبحانه ، وهو يدلُّهم على ما يحبُّ ويرضىٰ من الخلُق القويم .

وهذا الاعتبار هو الاعتبار الفذُّ في أخلاقيَّة الإسلام ، فهي أخلاقية لم تنبع من البيئة ، ولا من اعتبارات أرضية إطلاقًا ، وهي لا تُستمدُّ ولا تعتمد على اعتبار من اعتبارات العُرْف أو المصلحة أو الارتباطات التي كانت قائمة في الجيل ، إنما تُستمدُّ من السماء وتعتمد على السماء .. تستمدّ من هُتاف السماء للأرض لكي تطّلع إلى الأفق ، وتستمدّ من صفات الله المطلقة ليحقِّقها البَشَر في حدود الطاقة ، كي يحقِّقوا إنسانيَّتهم العليا ، وكي يصحبوا أهلًا لتكريم الله لهم واستخلافهم في الأرض ، وكي يتأهَّلوا للحياة الرفيعة الأخرى في مقعَدِ صِدْق عند مليكٍ مُقْتدِر ، ومِن ثَمَّ فهي غير مقيَّدة ، ولا محدودة بحدود ، من

أي اعتبارات قائمة في الأرض ، إنما هي طليقة ترتفع إلى أقصى ما يُطيقه البشر ؛ لأنها تتطلَّع إلى تحقيق وظهور آثار صفات الله الطليقة من كلّ حدٍّ ومن كلِّ قيد . ثم إنها ليست فضائل مفردة ؛ صدق وأمانة وعدل ورحمة وبرّ ، إنما هي منهج متكامل تتعاون فيه التربية التهذيبيَّة مع الشرائع التنظيميَّة ، وتقوم عليه فكرة الحياة كلّها واتجاهاتها جميعًا ، وتنتهي في خاتمة المطاف إلى الله ، لا إلى أيِّ اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة .

وقد تمثَّلت هذه الأخلاقية الإسلامية- بكمالها وجمالها ، وتوازنها واستقامتها ، واطِّرادها وثباتها- في محمد ﷺ ، وتمثَّلت في ثناء الله العظيم ، وقوله : ﴿ **وإنك لعلى خلُقٍ عظيم** ﴾ »[(١)].

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى : ﴿ **خذِ العفو وأْمُرْ بالعُرْف وأعرضْ عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف : ١٩٩]. قال جعفر بن محمد : أمَرَ الله نبيَّه ﷺ بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال :

أحدها : أمْرهم ونهيُهم بما فيه مصلحتهم .

الثاني : أخْذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة .

الثالث : أن الناس معه قسمان : موافقٌ له موالٍ ، ومعادٍ له معارض .

وعليه في كل واحد من هذه واجب :

فواجبه في أمرهم ونهيهم : أن يأمر بالمعروف ، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم ، وينهاهم عن ضدِّه .

وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة : أن يأخذ منهم ما سهل عليهم ، وطوَّعت له به أنفسهم ، سماحةً واختيارًا، ولا يحملهم على العَنَت والمشقَّة فيُفْسِدهم .

---

(١) ظلال القرآن ٦/٣٦٥٧ - ٣٦٥٨ .

وواجبه عند جهْل الجاهلين عليه : الإعراض عنهم ، وعدم مقابلتهم بالمِثْل والانتقام منهم لنفسه ؛ فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **خذِ العفو وأْمُرْ بالعُرْف وأعرِض عن الجاهلين** ﴾ .

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : أَمَر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس .

وقال مجاهد : يعني خُذِ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس ، مثل : قبول الأعذار ، والعفو والمساهلة ، وترك الاستقصاء في البحث ، والتفتيش عن حقائق بواطنهم .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : خذْ ما عفا لك من أموالهم . وهو الفاضل عن العيال ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قلِ العفو** ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

ثم قال تعالى : ﴿ **وأمر بالعرف** ﴾ ، وهو كل معروف . وأعْرَفُه : التوحيد ، ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد .

ثم قال تعالى : ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ يعني إذا سفه عليك الجاهلُ ، فلا تقابله بالسَّفَه ؛ كقوله تعالى : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، وعلى هذا فليست بمنسوخة ، بل يُعرض عنه مع إقامة حقِّ الله عليه ، ولا ينتقم لنفسه .

وهكذا كان خلُقه ﷺ ؛ قال أنس رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا » . وقال : « ما مسستُ ديباجًا ولا حريرًا ألْيَنَ من كفِّ رسول الله ﷺ ، ولا شممتُ رائحة قطُّ أطيب من رائحة رسول الله ﷺ . ولقد خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي قطُّ : أُفٍّ ؛ ولا قال لشيء فعلتُه : لِمَ فعلْتَهُ ؟ ولا لشيء لم أفعلْه : ألا فعلتَ كذا ؟ » . متفق عليهما .

وأخبر رسول الله ﷺ « أن البرَّ : هو حسن الخلق » .

وفي صحيح مسلم عن النوَّاس بن سمعان رضي الله عنه قال : « سألتُ رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم ، فقال : البرّ حسْنُ الخُلق ، والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

فقَابلَ البر بالإثم ، وأخبر أن البر حُسْن الخلُق ، والإثمَ حوازُّ الصدور . وهذا يدل على أنَّ حسن الخلق : هو الدين كله ، وهو حقائق الإيمان ، وشرائع الإسلام ؛ ولهذا قابله بالإثم .

وفي حديث آخر : « البر ما اطمأنَّت إليه النفس ، والإثم ما حاك في الصدر » . وقد فسر حسن الخلق بأنه البرُّ ، فدلّ على أنَّ حسْنَ الخلق : طمأنينة النفس والقلب ، والإثم : حواز الصدور ، وما حاك فيها واسترابتْ به . وهذا غيرُ حسْن الخلق وسوئه في عرْف كثير من الناس ؛ كما سيأتي في الصحيحيْن عن رسول الله ﷺ : « خياركم : أحاسنكم أخلاقًا » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عنه ﷺ : « أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَض الجنة لمن ترك المِرَاء وإن كان محقًّا ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازِحًا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسُن خلُقه » . رواه الطبراني . وإسناده صحيح .

فجعل البيت العلويَّ جزاءً لأعلى المقامات الثلاثة ، وهي حُسْن الخلُق . والأوسط لأوسطها ، وهو ترك الكذب . والأدنى لأدناها ، وهو ترك المماراة وإن كان معه حقٌّ . ولا ريبَ أن حسن الخلق مشتمِل على هذا كلِّه .

أحاديثُ عَطِرَة في الحثِّ على حُسْن الخُلق :

قال رسول الله ﷺ : « اتقِ الله حيثما كنتَ ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمْحُها ، وخالقِ الناسَ بخُلق..........................

حسن »[١] .

وقال ﷺ : « أثقلُ شيءٍ في الميزانِ : الخُلُقُ الحسنُ »[٢] .

وقال ﷺ : « أثقلُ شيءٍ في ميزانِ المؤمنِ خلُقٌ حسنٌ ؛ إنَّ الله يُبغضُ الفاحشَ المتفحِّش البذيَّ »[٣] .

وقال ﷺ : « أحبُّ عبادِ الله إلى الله أحسنهمْ خلقًا»[٤] .

وقال ﷺ : « استقِمْ وليْحسُنْ خُلقُكَ للناسِ »[٥] .

وقال رسول الله ﷺ : « أفضلُ المؤمنينَ أحسنُهمْ خلقًا »[٦] .

وقال ﷺ : « أقربكم مني مَجلسًا يومَ القيامةِ : أحسنكم خُلقًا »[٧] .

وقال ﷺ : « أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهم خُلقًا »[٨] .

---

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي ذرٍّ ، وأحمد والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ ، وابن عساكر عن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٦ .

(٢) رواه ابن حبان عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٣ .

(٣) رواه البيهقي في السنن عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٤ .

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن أسامة بن شريك ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٧ .

(٥) رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٦٢ .

(٦) رواه ابن ماجه ، والحاكم في المستدرك عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٣٩ .

(٧) رواه ابن النجار عن علي ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٨٧ .

(٨) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان ، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٤١ .

وقال ﷺ : « أكملُ المؤمِنينَ إيمانًا أحسنُهمْ خُلقًا ، الموطئون أكْنافًا ، الَّذينَ يأْلفُونَ ويُؤلَفونَ ، ولا خيرَ فِي مَنْ لا يأْلَفُ ولا يُؤلَفُ »[١].

وقال ﷺ : « أكمل المؤمِنينَ إيمانًا أحسنُهمْ خُلقًا ، وخِيارُكمْ خِيارُكمْ لِنسائِهمْ »[٢] .

وقال ﷺ : « إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرةِ مجالِسَ أحاسنُكمْ أخلاقًا ، وإنَّ أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرةِ أسوأُكم أخلاقًا ، الثرثارُونَ المتفيهقونَ المتشدِّقون »[٣] .

وقال ﷺ : « إنَّ أقربَكمْ مني مَنزِلًا يومَ القيامة : أحاسنُكمْ أخلاقًا في الدُّنيا »[٤] .

وقال ﷺ : « إنَّ أكمل المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهمْ خُلقًا ، وإن حُسنَ الخُلقِ لَيبلُغُ درجة الصوْم والصلاة »[٥] .

وقال ﷺ : « إن الرجلَ ليدرِكُ بحسنِ خلقِهِ درجاتِ قائمِ الليلِ ، صائمِ النَّهار »[٦] .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٤٢ .

(٢) رواه الترمذي وابن حبان عن أبي هريرة وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٤٣ .

(٣) رواه أحمد وابن حبان ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي ثعلبة الخشني ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٣١ . والمتفيهقون : أي المتكبِّرون .

(٤) رواه ابن عساكر عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٦٩ .

(٥) رواه البزار عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٧٤ .

(٦) رواه أحمد ، والحاكم في المستدرَك عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦١٧ .

وقال ﷺ : « إنَّ الرجلَ لَيُدرك بحسْن خلقِه درجةَ القائمِ بالليلِ الظامئ بالهواجر »[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال ، ويحبُّ معاليَ الأخلاقِ ، ويكرهُ سفسافَها »[٢] .

وقال ﷺ : « إنَّ الله تعالى يحِبُّ معاليَ الأمورِ وأشْرافَها ، ويكرهُ سَفْسافها »[٣] .

وقال ﷺ : « إنَّ المؤمنَ لَيُدركُ بحسْنِ الخُلقِ درجةَ القائمِ الصائم »[٤] .

وقال ﷺ : « إنَّ المسلمَ المُسَدَّدَ[٥] ليُدركُ دَرَجةَ الصَّوَّامِ القوَّامِ بآياتِ الله ، بحسْنِ خلُقه وكرمِ ضريبتِه[٦] »[٧] .

وقال ﷺ : « إنَّ النَّاسَ لمْ يُعطَوْا شيئًا خيرًا منْ خلُقٍ حسَنٍ »[٨] .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦١٧ .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن جابر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٣٩ .

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن الحسين بن علي ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٨٦ .

(٤) رواه أبو داود وابن حبان عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٢٨ .

(٥) المسدد : أي المستقيم على أمر الله .

(٦) كرَمَ ضريبته : أي حُسْن طبيعته وسجيته .

(٧) رواه أحمد والطبراني في الكبير عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٤٥ .

(٨) رواه الطبراني في الكبير عن أسامة بن شريك ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٧٣ .

وقال ﷺ : « إنَّ لله تعالى آنيةً من أهلِ الأرض ، وآنيةُ ربِّكم قلوبُ عباده الصالحين ، وأحبُّها إليه ألينُها وأرقُّها »[1] .

وقال ﷺ : « إنّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إلَيَّ أحسنَكُمْ أخلاقًا »[2] .

وفي سنن الترمذي ، وصحَّحه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ سُئل عن أكثر ما يُدْخل الناس الجنة ، فقال : « تقوى الله ، وحسن الخُلق » . وسُئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : « الفم والفرج »

وقال ﷺ : « إنَّ منْ أَحَبكُمْ إلَيَّ وأقرَبكُمْ منِّي مَجلسًا يومَ القيامةِ : أحاسِنَكُمْ أخلاقًا ، وإنَ أبغَضَكُمْ إلَيَّ وأبعَدَكُمْ منِّي يومَ القيامةِ : الثَّرثارُونَ ، والمتشدِّقون ، والمتَفيهِقونَ » . قالوا : يا رسولَ الله ، ما المُتَفيهِقونَ ؟ قال : « المتكبِّرون »[3] .

وقال رسول الله ﷺ : « إنّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صالحَ الأخلاق »[4] .

وقال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ لأتمِّمَ صالحَ الأخلاقِ »[5] .

وقال رسول الله ﷺ : « خِيارُكمْ أحاسِنكم أخلاقًا »[6] .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن أبي عنبسة وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٥٩ .

(٢) رواه البخاري عن ابن عمرو .

(٣) رواه الترمذي عن جابر ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٩٧ .

(٤) رواه ابن سعد ، والبخاري في الأدب ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٤٥ .

(٥) رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٣٠ .

(٦) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي عن ابن عمرو .

وقال ﷺ : « خِيارُكمْ أحاسِنُكمْ أخلاقًا ، المُوطئُونَ أكنافًا ، وشِرارُكمْ الثّرثارون ، المُتفيهِقونَ ، المُتشدِّقونَ »[١] .

وقال ﷺ : « خيرُ الناسِ أحسنهم خُلقًا »[٢] .

وقال ﷺ : « خيرُكم مَن يُرجى خيرُهُ ، ويُؤمَنُ شرُّهُ ، وشرُّكم مَنْ لا يُرجى خيْرهُ ولا يُؤمَنُ شرُّهُ »[٣] .

وقال ﷺ : « خيرُكمْ إسلامًا أحاسنُكمْ أخلاقًا إذا فقِهُوا »[٤] .

وقال ﷺ : « خيرُ ما أُعطيَ الناسُ خُلقٌ حَسنٌ »[٥] .

وقال ﷺ : « عليكَ بحسنِ الخُلقِ ، وطولِ الصَّمْتِ ؛ فوَالَّذِي نفسي بيدِهِ ، ما تَجَمَّلَ الخلائقُ بمِثلِهما »[٦] .

وقال ﷺ : « ليسَ شيءٌ أثقلَ في الميزانِ من الخُلُق الحسن »[٧] .

وقال ﷺ : « ما شيءٌ أثقل في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ من خلُقٍ حسنٍ ؛ فإنَّ الله تعالى يُبغضُ الفاحِشَ البذيَّ »[٨] .

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢٥٥ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢٨٢ .

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده عن أنس ، وأحمد والترمذي عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣١٥ .

(٤) رواه البخاري في الأدب ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٠٧ .

(٥) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه ، والحاكم في المستدرك عن أسامة بن شريك ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣١٦ .

(٦) رواه أبو يعلي في مسنده عن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٩٢٧ .

(٧) رواه أحمد عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٢٦٦ .

(٨) رواه الترمذي عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٠٨ .

وقال ﷺ : « ما من شيء يُوضع في الميزان أثقلَ من حسْن الخلق ، وإنَّ صاحب حسن الخلق لَيبلُغ به درجةَ صاحب الصَّوم والصَّلاةِ »[1] .

وقال ﷺ : « مَن كان سَهلًا هيِّنًا ليِّنًا ، حرَّمه الله على النَّار »[2] .

وقال ﷺ : « المؤمنونَ هيِّنونَ ليِّنونَ ، كالجملِ الأَنِفِ[3] ، إنْ قِيدَ انقادَ ، وإذا أُنيخَ على صخرةٍ استناخ[4] »[5] .

وقال ﷺ : « يا عائشة ، إن شِرار الناس الذين يُكرَمون اتقاءَ شرِّهم »[6] .

« قال يحيى بن معاذ : في سَعة الأخلاق كُنوزُ الأرزاق .

وقال رحمه الله : سُوءُ الخلُقِ سيِّئة لا تَنفع معها كثرة الحسنات ، وحُسْن الخلُق حسنة لا تضرُّ معها كثرة السيئات .

وقال الجنيد : أربع ترفَعُ العبد إلى أعلى الدرجات وإن قلَّ عمله وعِلْمُه : الحِلْم والتواضع والسخاء وحسْن الخلُق ، وهو كمال الإيمان .

وقال الفضيل : لَأنْ يصاحِبَنى فاجرٌ حَسَنُ الخلُق أحبُّ إليَّ من أن يصحبَني عابد سيئُ الخلُق »[7] .

---

(١) رواه الترمذي عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٦٠٢ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٦٠ .

(٣) أي : الذلول المنقاد .

(٤) أي : إذا مال به صاحبه علي صخرة ، انقاد له .

(٥) رواه ابن المبارك عن مكحول مرسلًا ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٥٤٥ .

(٦) رواه أبو داود عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٠٠ .

(٧) إحياء علوم الدين ٣/٥٧ .

قال الحسن : حسْن الخلُق : بسطُ الوجه ، وبذْلُ الندىٰ ، وكفُّ الأذىٰ .

وقال أبو عثمان : هو الرضا عن الله تعالى .

وقال سهل التستري : أدْناه : الاحتمال ، وترْك المكافأة ، والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه .

وقال : أن لا يتهم الحقَّ في الرزق ، ويثقَ به ويسكن إلى الوفاء بما ضمِن ، فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه ، وفيما بينه وبين الناس .

وقيل : حُسْن الخُلُق : بذل الجميل وكفُّ القبيح .

وقيل : التخلّي من الرذائل ، والتحلي بالفضائل .

أمَّهاتُ محَاسِنِ الأخلاقِ وأركانُ حُسْن الخُلُق عند ابن القيّم :

قال ابن القيم في « المدارج » (٢/٣٠٨ - ٣١١):وحسن الخلُق يقوم على أربعة أركان ، لا يُتصوَّر قيام ساقه إلّا عليها : الصبر ، والعفّة ، والشجاعة ، والعدْل .

فالصبر : يحمله على الاحتمال وكظْم الغيظ ، وكفِّ الأذىٰ ، والحلْم والأناة والرفْق ، وعدم الطيش والعجلة .

والعِفَّة : تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل . وتحمله على الحياء وهو رأس كلّ خير . وتمنعه من الفحشاء ، والبخل ، والكذب ، والغيبة والنميمة .

والشجاعة : تحمله على عزَّة النفس ، وإيثار معالي الأخلاق والشِّيم ، وعلى البذْلِ والندىٰ ، الذي هو شجاعة النفس وقوَّتها على إخراج المحبوب ومفارقته . وتحمِله على كظْم الغيْظ والحلْم ؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يُمسك

عنانها ، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطْش ؛ كما قال النبي ﷺ : « ليس الشديدُ بالصُّرَعَة ، إنما الشديد : الذي يملك نفسه عند الغضب » . وهو حقيقة الشجاعة ، وهي ملكة يقْتَدِرُ بها العبد على قهر خَصْمه .

والعدلُ : يحمله على اعتدال أخلاقه ، وتوسُّطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط ، فيحمله على خلُق الجود والسخاء الذي هو توسُّطٌ بين الذلِّ والقِحَةِ . وعلى خلق الشجاعة ، الذي هو توسُّط بين الجبن والتهوُّر . وعلى خلُق الحلْم ، الذي هو توسُّط بين الغضَب والمهانة وسقوط النفس .

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة .

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان : الجهل ، والظلم ، والشهوة ، والغضب .

فالجهل : يُريه الحسَن في صورة القبيح ، والقبيحَ في صورة الحسن ، والكمالَ نقصًا،والنقصَ كمالًا .

والظلم : يحمِله على وضْع الشيءِ في غير موضعه ؛ فيغضب في موضع الرضا ، ويرضى في موضع الغضب ، ويجهل في موضع الأَناة ، ويبخل في موضع البذْل ، ويبذُل في موضع البخْل ، ويُحجم في موضع الإقدام ، ويُقدِم في موضع الإحجام ، ويَلين في موضع الشِّدَّة ، ويشتدُّ في موضع اللِّين ، ويتواضع في موضع العِزَّة ، ويتكبَّر في موضع التواضع .

والشهوة : تحمله على الحِرْص والشحِّ والبخل ، وعدم العفَّة والنَّهمة والجَشَع ، والذلِّ،والدناءات كلِّها .

والغضب : يحمله على الكِبْر والحِقْد والحَسَد ، والعدوان والسَّفَه .

ويتركب من بين كل خُلُقيْن من هذه الأخلاق : أخلاقٌ مذمومة .

وملاك هذه الأربعة أصلان : إفراط النفس في الضعْف ، وإفراطها في

القوة ؛ فيتولَّد من إفراطها في الضعف : المهانة والبخل ، والخِسَّة واللُّؤْم ، والذلُّ والحرص ، والشحّ،وسَفْساف الأمور والأخلاق .

ويتولَّد من إفراطها في القوة : الظلم ، والغضب ، والحِدَّة ، والفحْش ، والطيْش .

ويتولَّد مِن تزوُّج أحدِ الخلُقَيْن بالآخر : أولاد غيَّة كثيرون ؛ فإن النفس قد تجمع قوَّة وضعفًا ، فيكون صاحبها أجْبَرَ الناس إذا قَدَر ، وأذلَّهم إذا قُهر . ظالم عنوف جبار ؛ فإذا قُهِر صار أذلَّ من امرأة . جبانٌ عن القوي ، جريء على الضعيف .

فالأخلاق الذميمة : يولِّد بعضُها بعضًا ، كما أن الأخلاق الحميدة : يولِّد بعضها بعضًا وكلّ خلُق محمود مُكْتَنَفٌ بخُلُقَيْن ذميمَيْن ، وهو وسط بينهما ، وطرفاه خلقان ذميمان ؛ كالجود : الذي يكتنفه خُلُقَا البخلِ والتبذير . والتواضُع : الذي يكتنفه خلُقا : الذلّ والمهانة ، والكبر والعلو .

فإن النفس متى انحرفتْ عن « التوسُّط » ، انحرفتْ إلى أحد الخلُقين الذميميْن ولا بدَّ ؛ فإذا انحرفتْ عن خلُق « التواضع » ، انحرفتْ : إمَّا إلى كبْرٍ وعُلُّو ، وإما إلى ذلٍّ ومهانة وحقارة . وإذا انحرفت عن خلُق « الحياء » ، انحرفت : إما إلى قِحَة وجرأة ، وإما إلى عجْزٍ وخَوَر ومهانة ، بحيث يُطمِع في نفسه عدوه ، ويفوته كثير من مصالحه ، ويزعم أن الحامِل له على ذلك الحياء ، وإنما هو المهانة والعجْز ، وموْت النفس .

وكذلك إذا انحرفتْ عن خلُق « الصبر المحمود » ، انحرفتْ : إما إلى جزع وهلَع وجشَع وتسخُّط ، وإما إلى غلْظَةِ كَبِدٍ ، وقسوة قلبٍ ، وتحجر طبْع . كما قال بعضهم :

تبكي علينا ولا نبكي على أحدٍ فنحنُ أغلظُ أكبادًا من الإبلِ

وإذا انحرفت عن خلُق « الحلم » ، انحرفت : إمَّا إلى الطيش والترَف

والحِدَّة والخفَّة ، وإما إلى الذلِّ والمهانة والحقارة . ففرقٌ بين مَن حلْمُه حلْمُ ذلٍّ ومهانة وحقارة وعجز ، وبين من حلمه حلْم اقتدار وعزَّة وشَرف . كما قيل :

كـلُّ حلـمٍ أتـىٰ بغيْـرِ اقتـدارٍ حجَّـةٌ لاجـئٌ إليهـا اللئـامُ

وإذا انحرفتْ عن خلُق « الأَناة والرفق » ، انحرفت : إما إلى عجَلَة وطيْش وعُنْف ، وإما إلى تفريط وإضاعة . والرفق والأناة بينهما .

وإذا انحرفتْ عن خلُق « العزة » التي وهبَها الله للمؤمنين ، انحرفت : إما إلى كبْر ، وإما إلى ذلٍّ . والعزة المحمودة بينهما .

وإذا انحرفتْ عن خلق « الشجاعة » ، انحرفتْ : إما إلى تهوُّر وإقدامٍ غير محمود ، وإما إلى جبْن وتأخُّر مذموم .

وإذا انحرفت عن خلُق « المنافسة في المراتب العالية والغِبْطة » ، انحرفتْ : إما إلى حسَد ، وإمّا إلى مهانة وعجزٍ وذلٍّ ، ورضًا بالدُّون .

وإذا انحرفتْ عن « القناعة » ، انحرفت : إما إلى حرص وكَلَبٍ ، وإما إلى خِسَّة ومهانة وإضاعة .

وإذا انحرفتْ عن خلق « الرحمة » ، انحرفت : إما إلى قسوة ، وإما إلى ضعف قلب وجبْن نفْسٍ ؛ كمن لا يقدم على ذبْح شاة ، ولا إقامة حدٍّ ، وتأديبِ ولد ، ويزعم أنَّ الرحمة تحمله على ذلك ، وقد ذبح أرحمُ الخلْقِ ﷺ بيدِه في موضعٍ واحدٍ ثلاثًا وستين بَدَنة ، وقطع الأيدي من الرجال والنساء ، وضرب الأعناق ، وأقام الحدود ، ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم . وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم .

وكذلك طلاقَة الوجْه ، والبِشْر المحمود ؛ فإنه وسَطٌ بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخدِّ ، وطي البشْر عن البَشَر ، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد ، بحيث يُذهب الهيْبة ، ويُزيل الوقار ، ويطمع في الجانب ، كما

أن الانحراف الأول يوقع الوَحْشة والبغضة والنفْرة في قلوب الخلْق .

وصاحب الخلُق الوسَط : مهيبٌ محبوب ، عزيزٌ جانبُه ، حبيب لقاؤه . وفي صفة نبينا ﷺ : « من رآه بديهةً هابَه ، ومن خالطه عِشْرةً أحبَّه » . والله أعلم .

أركانُ حُسْنِ الخُلُقِ ثلاثةٌ عندَ الهروي :

قال الهروي : « جميعُ الكلام فيه يدور على قطْبٍ واحد ، وهو بـذْلُ المعروف ، وكفُّ الأذىٰ . وإنما يُدرَك إمكان ذلك في ثلاثة أشياء :

في العلم ، والجُود ، والصبر »[1] .

فأركان حسْنِ الخُلُق عند شيْخ الإسلام الهروي ثلاثة :

١ - العلم . ٢- الجود . ٣- الصبرِ .

قال ابن القيم : « فـ « العلم » يُرشده إلى مواقع بذْل المعروف ، والفرقِ بينه وبين المنكر ، وترتيبه في وضعه مواضعه ؛ فلا يضع الغضب موضع الحلم ، ولا بالعكس ، ولا الإمساك موضع البذل ، ولا بالعكس ، بل يعرف مواقع الخير والشرِّ ومراتبها ، وموضع كلِّ خلُق : أين يضعه ، وأين يحسن استعماله .

و« الجود » يبعثه على المسامحة بحقوق نفسه ، والاستقصاء منها بحقوق غيره . فالجود هو قائد جيوش الخير .

و« الصبر » يحفظ عليه استدامة ذلك ، ويحمله على الاحتمال ، وكظم الغيظ ، وكف الأذى ، وعدم المقابلة . وعلى كلِّ خير ، كما تقدم . وهو أكبر العون على نيْل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة . قال الله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ وإنها لَكَبيرةٌ إلّا على الخاشعين** ﴾ [البقرة : ٤٥] .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٦ - ٣١٧ .

فهذه الثلاثة أشياء : بها يدرَك التصوفُ ، والتصوُّف : زاوية من زوايا السلوك الحقيقي ، وتزكية النفس وتهذيبها ، لتستعدَّ لسيْرها إلى صحبة الرفيق الأعلى ، ومعيَّة مَن تحبُّه ؛ فإن المرء مع مَن أحبَّ . كما قال سمنون : ذهب المحبُّون بشرف الدنيا والآخرة ؛ فإن المرء مع من أحب . والله أعلم »[1] .

أمهاتُ محاسِنِ الأخلاقِ وأركانُ حُسْنِ الخُلُق عند الغزالي أربعة :

ذهب الغزالي إلى أنّ حُسْن الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال الجميلة المحمودة شرعًا وعقلًا ، بسهولة ويُسْر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة . فهاهنا أربعة أمور :

أحدها : فعْل الجميل .

والثاني : القدرة عليه .

والثالث : المعرفة به .

الرابع : هيئة للنفس ، بها تميل إلى الحسن ويتيسر عليها .

وليس الخلُق عبارة عن الفعل ، فربَّ شخصٍ خلُقه السخاء ولا يبذل ؛ إمَّا لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلُقه البخل وهو يبذل ؛ إما لباعث أو لرياء .

وليس هو عبارة عن القوة ؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء واحد ، وكل إنسان خُلِق بالفطرة قادرًا على الإعطاء والإمساك .

وليس هو عبارة عن المعرفة ؛ فإن المعرفة تتعلَّق بالجميل والقبيح جميعًا على وجه واحدٍ ، بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، فالخُلُق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة .

يقول الغزالي رحمه الله : « في الباطن أربعة أركان لا بدّ من الحسن في

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٧ .

جميعها ، حتى يتمَّ حسن الخُلُق ، فإذا استوتِ الأركان الأربعة واعتدلتْ وتناسبتْ ، حصل حُسْن الخلق ؛ وهي :

١ - قوة العلم . ٢ - وقوة الغضب . ٣ - وقوة الشهوة .

٤ - وقوة العدْل بين هذه القوى الثلاث .

أمَّا قَوَّةُ العلم : فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يَسهُل بها درْك الفرْق بين الصدق والكَذِب في الأقوال ، وبين الحقِّ والباطل في الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح في الأفعال ، فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحِكْمَة ، والحكمة رأس الأخلاق الحَسَنة ، وهي التي قال الله فيها : ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتي خيرًا كثيرًا ...** ﴾ الآية [البقرة : ٢٦٩] »[1] .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : « إن مِن فقه الرجل أن يعلم نزغَات الشيطان ؛ متى تأتيه ؟ ومن أين تأتيه ؟ » .

وقال الحسن البصري رحمه الله : « لا يزال العبد بخير ما علم الذي يُفسِد عليه عمله »[2] .

وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله : « اعلم أن الباب الأعظم الذي يدخل منه إبليس على الناس هو الجهل ، فهو يدخل منه على الجُهَّال بأمان ، وأمَّا العالم فلا يدخل عليه إلّا مسارَقَة ، وقد لبّس إبليس على كثير من المتعبِّدين بقلّة علْمهم ؛ لأن جمهورهم يشتغل بالتعبُّد ، ولم يحكِّم العلم »[3] .

قال الغزالي : « **وأمَّا قوة الغضب** : فحُسْنُها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حدِّ ما تقتضيه الحكمة . **وكذلك الشهوة** ؛ حُسْنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة ؛ أعني إشارة العقل والشرع .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٥٨ .

(٢) الزهد لابن المبارك ص ٥٢٨ ، والزهد لأحمد ص٢٧٨ .

(٣) تلبيس إبليس ص ١٤٩ .

وأمَّا قوة العدل : فهو ضبْط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع .

فمن استوتْ فيه هذه الخصال واعتدلتْ ، فهو حسَنُ الخلُق مطلقًا ، ومن اعتدل فيه بعضُها دون البعض ، فهو حسَنُ الخلُق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصَّة ، كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض .

وحُسْن القوة الغضبية واعتدالها يُعبّر عنه بالشجاعة . وحُسْنُ قوة الشهوة واعتدالها يعبّر عنه بالعفّة .

فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرَف الزيادة ، تُسمَّى تهوُّرًا . وإن مالت إلى الضعف والنقصان ، تسمَّى جُبْنًا وخوَرًا . وإن مالت قوة الشهوة إلى طرَف الزيادة تسمَّى شَرَهًا . وإن مالت إلى النقصان تسمَّى جمودًا .

والمحمود هو الوسَط وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان مذمومتان ، والعدل إذا فات فليس فيه طرفَا زيادةٍ ونقصان ، بل له ضدٌّ واحد ومقابل ، وهو الجوْر .

وأمَّا الحكمة فيسمَّى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة : خبْثًا وجربزة ، ويسمَّى تفريطها بَلَهًا ، والوسَطُ هو الذي يختصُّ باسم الحكمة .

فإذن ، أُمَّهاتُ الأخلاق وأصولها أربعة :

١ – الحكمة . ٢ – الشجاعة . ٣ – العفَّة . ٤ – العدل .

فمِنَ اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلُّها .

إذ من **اعتدال قوة العقل** : يحصل حسن التدبير وجودة الذهن ، وثَقَابة الرأي وإصابة الظنِّ ، والتفطُّن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس .

ومن إفراطها : تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء .

ومن تفريطها : يصدر البلَهُ والغمارة والحمق والجنون .

وأمَّا خلق الشجاعة : فيصدر منه الكرم ، والنجدة ، والشهامة ، وكسْرُ النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والوقار ، والتودُّد ... وأمثالها ، وهي أخلاق محمودة .

وأما إفراطها ، وهو التهوُّر : فيصدر منه الصَّلَف والبذخ والاستشاطة والتكبُّر والعجْب .

وأمَّا تفريطها : فيصدر منه المهانة والذلَّة والجزَع ، والخساسة وصغر النفس ، والانقباض عن تناوُل الحقِّ الواجب .

وأما خلُق العِفَّة : فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة ، والورَع واللَّطَافة والمساعدة والظَّرْف وقلّة الطمع .

وأمَّا ميلها إلى الإفراط أو التفريط : فيحصُل منه الحرص والشَّره ، والوقاحة والخبث ، والتبذير والتقتير ، والرياء والهتكة ، والمجانة والعبَث ، والملَق والحسد ، والشماتة ، والتذلُّل للأغنياء ، واستحقار الفقراء وغير ذلك .

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة ؛ وهي : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . والباقي فروعها »[1] .

كمالُ الاعتدالِ في هذه الأربع لرسول الله ﷺ :

قال الغزالي : « ولم يبلغْ كمالَ الاعتدال في هذه الأربع إلَّا رسولُ الله ﷺ ، والناس بعده متفاوتون في القرْب والبعد منه . فكلُّ من قرب منه في هذه الأخلاق ، فهو قريب من الله تعالى بقدْر قرْبه من رسول الله ﷺ ، وكلّ من جمع كمال هذه الأخلاق استحقَّ أن يكون بيْن الخلْق ملِكًا مطاعًا ، يرجع الخلق كلُّهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال . ومَنِ انفكَّ عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها ؛ استحقَّ أن يخرج من بين البلاد والعباد ؛ فإنه قد قرُب من الشيطان اللَّعِين المُبْعَد .

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين ، فقال تعالى :

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٥٧ - ٥٩ .

﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسولِه ثمَّ لمْ يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك همُ الصادقون** ﴾ [الحجرات : ١٥] . فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين ، وهو ثمرة العقل ، ومنتهى الحكمة . والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب ، على شرط العقل وحدِّ الاعتدال ؛ فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال : ﴿ **أشدَّاء على الكفَّارِ رُحَمَاءُ بينهم** ﴾ [الفتح : ٢٩] ، إشارة إلى أنَّ للشِّدَّة موضعًا ، وللرحمة موضعًا ، فليس الكمال في الشدَّة بكل حال ، ولا في الرحمة بكل حال ، فهذا بيان معنى الخلُق وحُسْنه وقُبحه ، وبيان أركانه وثمراته وفروعه »[١] .

الخُلق يمكنُ اكتسابُه :

قال ابن القيم في « المدارج » : « فإن قلتَ : هل يمكن أن يقع الخُلُق كسبيًّا ، أو هو أمر خارج عن الكسب ؟

قلت : يمكن أن يقع كسبيًّا بالتخلُّق والتكلُّف ، حتى يصير له سَجية وملَكة ؛ وقد قال النبي ﷺ لأشجّ عبد القيس رضي الله عنه : « إن فيك لخُلُقيْن يحبُّهما الله : الحلم ، والأناة » . فقال : أخلُقين تخلَّقْتُ بهما ، أم جَبَلني الله عليهما ؟ فقال : « بل جبَلك الله عليهما » . فقال : الحمد لله الذي جبَلني على خُلُقيْنِ يحبُّهما الله ورسوله . متفق عليه .

قد دلَّ على أن من الخلُق : ما هو طبيعة وجِبِلَّة ، وما هو مكتسب . وكان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح : « اللهمَّ اهدني لأحسنِ الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرفْ عنِّي سيِّئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت » . فذكر الكسْب والقَدَر . والله أعلم »[٢] .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٦٠ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٣١٥

قال الغزالي رحمه الله في بيان السبب الذي به يُنال حُسْن الخلق :

« **أحدهما** : جُودٌ إلهي وكمال فِطْري ، بحيث يُخلق الإنسانُ ويُولد كامل العقل حسَن الخلُق ، قد كُفي سلطانَ الشهوة والغضب ، فيصير مؤدَّبًا بغير تأديب .

والثاني : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وحمْل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلُق المطلوب »(١) .

فالأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة ، وهي تكلّف الأفعال الصادرة عنها ابتداءً ، لتصير طبعًا انتهاء ؛ قال رسول الله ﷺ : « إنما العلم بالتعلُّم ، وإنما الحلْمُ بالتحلُّم ، ومَن يتحرَّ الخير يُعطَه ، ومَن يتق الشرَّ يُوَقَّه »(٢) .

وطالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسَنة لا يَنالها بعبادة يوم ، ولا يُحرم عنها بعصيان يوم .

والثالث :بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم ، وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، إذِ الطبع يسرق من الطبْع . الشرَّ والخير جميعًا ، فمَن تظاهرت في حقِّه الجهات الثلاث ، حتى صار ذا فضيلة طبعًا واعتيادًا وتعلُّمًا ، فهو في غاية الفضيلة . ومن كان رَذِلًا بالطبع واتفق له قرناءُ السُّوء فتعلّم منهم ، وتيسَّرت له أسباب الشرِّ حتى اعتادها ؛ فهو في غاية البعد من الله عز وجل ، وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات ، ولكلٍّ درجة في القرْب والبعد بحسَب ما تقتضيه صورته وحالته .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٦٣ - ٦٤ .

(٢) حسن : أخرجه الدارقطني في الأفراد ، والخطيب في تاريخه عن أبي هريرة ، والخطيب في تاريخه عن أبي الدرداء ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٢٤

نفائسُ ولطائفُ من كُنوزِ البرِّ والمعرفة مِنْ طبيبِ القلوبِ وحاديها ابنِ القيِّم :

قال رحمه الله في « مدارج السالكين » (٢/٣١١ - ٣١٥) :

فصل :

نافع جدًّا ، عظيم النفع للسالك ، يوصله عن قريب ، ويسيِّره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتها ؛ فإن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية : تغيير الأخلاق التي طُبعت النفوس عليها ، وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقَّة إنما عمِلوا عليها ، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها . لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها ، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز ؛ كسر جيوش الرياضة وشتَّتها ، واستولى على مملكة الطبع .

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق ، ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها ، ويكون سيْره أقوى وأجلّ وأسرع من سير العامل على إزالتها .

ونقدِّم قبل هذا مثلًا نضربه ، مطابقًا لما نريده ، وهو : نهرٌ جارٍ في صَبَبِه ومُنْحَدَرِه ، وَمُنْتَهٍ إلى تغريق أرض وعمرانٍ ودُورٍ ، وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يُخَرِّبَ دُورهم ، ويُتلف أراضيهم وأموالهم ، فانقسموا ثلاثَ فرق :

فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سَكْره وحَبْسه وإيقافه ، فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمْر ؛ فإنه يُوشك أن يجتمع ثم يَحْمِل على السكْر ، فيكون إفساده وتخريبه أعظم .

وفرقة رأتْ هذه الحالة ، وعلمت أنه لا يغني عنها شيئًا ، فقالت : لا خلاص من محذوره إلا بقطْعه من أصل الينبوع ، فرامت قطْعَه من أصله ، فتعذّر عليها ذلك غاية التعذُّر ، وأبتِ الطبيعة النهرية عليهم ذلك أشدَّ الإباء ، فهم دائمًا في قطع الينبوع ، وكلَّما سدُّوه من موضع نَبعَ من موضع ، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرْس الأشجار .

فجاءت فرقة ثالثة ، خالفت رأي الفرقتيْن ، وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم ، فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمران ، فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه ، ولا يتضرَّرون به ، فصرفوه إلى أرض قابلة للنبات ، وسقوها به ، فأنبتتْ أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف ، فكانت هذه الفرقة همْ أصوبَ الفِرق في شأن هذا النهر .

فإذا تبيَّن هذا المثل ، فالله سبحانه قد اقتضتْ حكمتُه : أن ركَّب الإنسان - بل وسائر الحيوان - على طبيعة محمولةٍ على قوَّتيْن : غضبية ، وشهوانية ، وهي الإرادية ، وهاتان القوَّتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها ، وهما مركوزتان في جِبِلَّة كل حيوان ؛ فبقوَّة الشهوة والإرادة : يجذِب المنافع إلى نفسه ، وبقوة الغضب : يدفع المضارَّ عنها . فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه ؛ تولَّد منها الحرص . وإذا استعمل الغضب في دفع المضرَّة عن نفسه ؛ تولَّد منه القوة والغيْرة . فإذا عجز عن ذلك الضارِّ ؛ أورثه قوَّة الحقد . وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه ، ورأى غيره مستبدًّا به ؛ أورثه الحسد . فإن ظفر به ؛ أورثتْه شدَّة شهوته وإرادته خلُق البخل والشحِّ ، وإن اشتدَّ حرصُه وشهوتُه على الشيء ، ولم يمكنه تحصيله إلّا بالقوة الغضبية ، فاستعملها فيه ؛ أورثه ذلك العدوان والبغي والظلم ، ومنه يتولَّد الكبر والفخر والخيلاء ؛ فإنها أخلاق متولِّدة من بين قوَّتَي الشهوة والغضب ، وتزوّج أحدهما بصاحبه .

فإذا تبيَّن هذا ؛ فالنهر مثال هاتيْن القوتين ، وهو منصبٌّ في جدول الطبيعة ومجراها إلى دُور القلب وعمرانه وحواصله ، يخربها ويُتلفها ولا بدّ ؛ فالنفوس الجاهلة الظالمة تركتْه ومجراه ، فخرَّب ديار الإيمان ، وقلع آثاره ، وهدم عمرانه ، وأنبت موضعها كلَّ شجرة خبيثة ، من حَنْظل وضَريع وشوك

وزَقُّوم ، وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد .

وأما النفوس الزكيَّة الفاضلة : فإنَّها رأتْ ما يؤول إليه أمر هذا النهر ، فافترقوا ثلاث فرق :

فأصحاب الرياضات والمجاهدات ، والخَلَوات والتمرينات : راموا قطْعَه من ينبوعه ، فأبتْ عليهم ذلك حكمةُ الله تعالى ، وما طبَع عليه الجِبِلَّة البشرية ، ولم تَنْقَدْ له الطبيعة ، فاشتدَّ القتال ، ودام الحرب ، وحميَ الوطيس ، وصارت الحرب دُوَلًا وسِجالًا . وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات .

وفرقة أعرضوا عنها ، وشغلوا نفوسهم بالأعمال ، ولم يُجيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم إيّاها على مجراها ، لكن لم يمكِّنوا نهرها من إفساد عمرانهم ، بل اشتغلوا بتحصين العمران ، وإحكام بنائه وأساسه ، ورأوا أن ذلك النهر لا بد أن يصل إليه ؛ فإذا وصل وصل إلى بناء محكم فلم يهدمْه ، بل أخذ عنه يمينًا وشمالًا . فهؤلاء صرفوا قوَّة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة ، وإحكام البناء . وأولئك صرفوها في قطْع المادة الفاسدة مِن أصلها ، خوْفًا من هدْم البناء .

وسألتُ يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه المسألة ، وقطْعِ الآفات ، والاشتغال بتنقية الطريق وبتنظيفها ؛ فقال لي جملة كلامه : النفسُ مثل الباطوس - وهو جُبّ القذَر - كلَّما نبشتَه ظهر وخرج ، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبُره وتجُوزه ، فافعلْ ، ولا تشتغلْ بنبشِه ؛ فإنك لن تصل إلى قراره ، وكلما نبشتَ شيئًا ظهَر غيره .

فقلتُ : سألتُ عن هذه المسألة بعض الشيوخ ، فقال لي : مثال آفات النفس مثال الحيَّات والعقارب التي في طريق المسافر ؛ فإن أقبل على تفتيش

الطريق عنها ، والاشتغال بقتلها ؛ انقطَع ، ولم يمكنه السفر قطُّ ، ولكن لتكنْ همتك المسير ، والإعراض عنها ، وعدم الالتفات إليها ، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله ، ثم امضِ على سيْرك . فاستحسَنَ شيخ الإسلام ذلك جدًّا ، وأثنى علىٰ قائله .

إذا تبيَّن هذا ، فهذه الفرقة الثالثة : رأتْ أن هذه الصفات ما خُلقت سُدًى ولا عبثًا ، وأنها بمنزلة ماءٍ يُسْقى به الورد والشوك والثمار والحطَب ، وأنها صِوان وأصداف لجواهر منطوية عليها ، وأن ما خاف منه أولئك هو نفْسُ سبب الفلاح والظفر ، فرأوا أن الكِبْر نهْرٌ يُسقىٰ به العلوُّ والفخر ، والبطرُ والظلم والعدوان ، ويسقىٰ به علو الهمة ، والأَنَفَة ، والحميَّة ، والمراغمة لأعداء الله ، وقهْرهم والعلوّ عليهم ، وهذه درَّة في صدفته . فصرفوا مجراه إلى هذا الغراس ، واستخرجوا هذه الدرَّة من صدفته ، وأبقوه على حاله في نفوسهم ، لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع ، وقد رأى النبي ﷺ أبا دُجانة يتبختر بين الصفَّين ، فقال : « إنها لَمِشْية يُبغضها الله ، إلَّا في مثل هذا الموضع » .

فانظر كيف خلَّى مجرى هذه الصفة وهذا الخلُق يجري في أحسن مواضعه .

وفي الحديث الآخر – وأظنه في المسند – : « إن من الخيلاء ما يحبُّها الله ، ومنها ما يُبغضها الله ، فالخيلاء التي يحبُّها الله : اختيالُ الرجل في الحرب ، وعند الصَّدَقَة » .

فانظرْ كيف صارتِ الصفة المذمومة عبودية ؟ وكيف استحال القاطع مُوصِلًا ؟

فصاحب الرياضات ، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات ، والخلوات :

هيهاتَ هيهاتَ ، أنْ يوقعه ذلك في الآفات ، والشبهات ، والضلالات ؛ فإن تزكية النفوس مُسَلّم إلى الرسل ، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية ، وولَّاهم إيَّاها وجعلها على أيديهم دعوة وتعليمًا ، وبيانًا وإرشادًا ، لا خلقًا ولا إلهامًا » .

درجات حُسْن الخلُق ومراتبه :

١ - تحسين الخلُق مع الخَلْق .

٢ - تحسين الخلُق مع الحقِّ عز وجل .

٣ - تصفية الخلق ، ثم الصعود عن تفرقة التخلُّق ، ثم التخلُّق بمجاوزة الأخلاق .

قال الهروي : « وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن تعرف مقامَ الخَلْق :

وأنهم بأقدارهم مربوطون ، وفي طاقتهم محبوسون ، وعلى الحكم موْقوفون ، فتستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء : أمْن الخلْق منك ، حتى الكلب . ومحبّة الخلق إياك . ونجاة الخلْق بك »[١] .

قال ابن القيم : « فبهذه الدرجة : يكون تحسين الخُلُق مع الخلق في معاملتهم ، وكيفية مصاحبتهم .

يقول : إذا عرفتَ مقام الخلق ومقاديرهم ، وجريان الأحكام القدرية عليهم ، وأنهم مقيَّدون بالقدر ، لا خروج لهم عنه ألبتة ، ومحبوسون في قدرتهم وطاقتهم ، لا يمكنهم تجاوزها إلى غيرها ، وأنهم موقوفون على الحكم الكوني القدَري لا يتعدّونه - استفدتَ بهذه المعرفة ثلاثة أشياء :

أمْن الخلق منك : وذلك أنه إذا نظر إليهم بعيْن الحقيقة ؛ لم يطالبهم بما

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٧ .

لا يقدرون عليه ، وامتثل فيهم أمرَ الله تعالى لنبيه ﷺ بأخذ العفو منهم ، فأمِنُوا من تكليفه إياهم ، وإلزامه لهم ما ليس في قواهم وقدرهم .

وأيضًا فإنهم يأمنون لائمتَه ؛ فإنه في هذه الحال عاذِر لهم فيما يجري عليهم من الأحكام ، فيما لم يأمر الشرع بإقامته فيهم ؛ لأنهم إذا كانوا محبوسين في طاقتهم فينبغي مطالبتهم بما يطالب به المحبوس ، وعذْرهم بما يعذر به المحبوس ، وإذا بدا منهم في حقِّك تقصيرٌ أو إساءة ، أو تفريط ؛ فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم ، بل اغفرْ لهم ذلك واعذرهم ؛ نظرًا إلى جريان الأحكام عليهم ، وأنهم آلة . وهاهنا ينفعك الفناء بشهود الحقيقة عن شهود جناياتهم عليك ، كما قال بعض العارفين لرجل تعدَّى عليه وظلمه : إنْ كنتَ ظالمًا فالذي سلَّطك عليَّ ليس بظالم »[1] .

مشاهِدُ العبد فيما يُصيبه مِن أذىٰ الخلْقِ ، وتفاوُتُ الناسِ في ذلك :

قال ابن القيم : « للعبد أحدَ عشر مشهدًا فيما يصيبه من أَذىٰ الخلْق وجنايتهم عليه .

المشهد الأول : مشهد « القدر » :

هو المشهد الذي ذكره الشيخ رحمه الله ، وهو مشهد « القدَر » ، وأن ما جرى عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره فيراه ، كالتأذِّي بالحرِّ والبرْد ، والمرض والألم ، وهبوب الرياح وانقطاع الأمطار ؛ فإنَّ الكل أوجبتْه مشيئة الله ، فما شاء الله كان ووجب وجوده ، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده ، وإذا شهد هذا : استراح ، وعلم أنه كائن لا محالة ؛ فما للجزع منه وجه ، وهو كالجزع من الحرِّ والبرْدِ والمَرَض والموت »[2] .

---

(١) ،(٢) مدارج السالكين ٣١٨/٢ .

قال ابن القيم رحمه الله : « فتعْذرهم بالقدر في حقِّك ، لا في حق ربِّك ، فهذا حق ، وهو من شأن سادات العارفين ، وخواصِّ أولياء الله الكُمَّل ، يفنىٰ أحدُهم عن حقِّه ، ويستوفي حقَّ ربِّه . ينظر في التفريط في حقِّه ، وفي الجناية عليه إلى القَدَر ، وينظر في حقِّ الله إلى الأمر ، فيطلب لهم العذْر في حقِّه ، ويمحو عنهم العذْر ويطلبه في حقِّ الله .

وهذه كانت حال نبينا ﷺ ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : « ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قطُّ ، ولا نيل منه شيءٌ فانتقم لنفسه ، إلّا أن تُنتهك محارمُ الله ، فإذا انتُهكت محارم الله لم يَقُمْ لغضبه شيء حتى ينتقم لله » .

وقالت عائشة رضي الله عنها : « ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادِمًا ، ولا دابَّة ولا شيئًا قطُّ ، إلّا أن يجاهد في سبيل الله » .

وقال أنس رضي الله عنه : « خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين ، فما قال لي لشيء صنعتُه : لِمَ صنعتَه ؟ ولا لشيءٍ لمْ أصنعْه : لِمَ لَمْ تصنعْه ؟ وكان إذا عاتبني بعضُ أهلِه يقول : دعوه . فلو قُضي شيءٌ لَكان » .

فانظر إلى نظره إلى القدَر عند حقِّه ، وقيامه بالأمر ، وقطع يد المرأة عند حقِّ الله ، ولم يقل هناك : القدر حكم عليها .

وكان رسول الله ﷺ أعرفَ بالله وبحقِّه من أن يحتجَّ بالقدَر على ترْك أمره ، ويقبلَ الاحتجاجَ به من أحد ، ومع هذا فعذَر أنسًا بالقدَر في حقِّه وقال : « لو قُضي شيءٌ لكان » . فصلواتُ ربي وسلامه عليه »[1] .

المشهد الثاني : مشهد « الصبر » :

« فيشهده ، ويشهد وجوبه ، وحُسْن عاقبته وجزاء أهله ، وما يترتب عليه من الغِبْطة والسرور ، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام ؛ فما انتقم أحد لنفسه

---

(١) مدارج السالكين ١/١٩٦ ، ١٩٧ .

قطُّ إلّا أعقبه ذلك ندامة ، وعلم أنه إن لم يصبر اختيارًا على هذا - وهو محمود - صبرَ اضطرارًا على أكبر منه وهو مذموم »[١] .

قال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصُّرعة ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » .متفق عليه .

وعن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وسيِّدًا وحَصُورًا ﴾ [آل عمران : ٣٩] قال : السيد الذي لا يغلبه الغضب .

وقال رسول الله ﷺ : « مَن كظَم غيْظًا وهو قادر على أن يُنْفذه ، دعاه الله على رؤوس الخلائق ، حتى يخيِّره من الحُور العين ، يزوِّجه منها ما شاء »[٢] .

شتم رجلٌ سلمانَ الفارسيّ ، فقال له : « إن خفَّتْ موازيني فأنا شرٌّ مما تقول ، وإنْ ثقُلتْ موازيني لم يضرَّني ما تقول » .

وشتم رجلٌ الربيعَ بنَ خثيم ، فقال له : يا هذا ، قد سمِع الله كلامك ، وإنَّ دون الجنة عَقَبَة ، إن قطعتُها لم يضرَّني ما تقول ، وإن لم أقطعْها فأنا شرٌّ مما تقول .

وقالت امرأة : يا مرائي . فقال : ما عرفني غيرُك .

وقال علي بن زيد : أغلظَ رجلٌ من قريش لعمرَ بن عبد العزيز القول ، فأطرق عمر زمانا طويلًا ثم قال : أردتَ أن يستفزَّني الشيطان بعزِّ السلطان ، فأنال منك اليوم ما تنالُه مني غدًا .

---

(١) مدارج السالكين ٣١٩/٢ .

(٢) حسن : رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وأحمد ، والطبراني في الصغير عن معاذ بن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٩٨ .

المشهد الثالث : مشهد « العفو والصفْح والحِلم » :

فإنه متى شِهد ذلك وفضْلَه وحلاوته وعزَّته ؛ لم يعدل عنه إلّا لعشى في بصيرته ؛ فإنه « ما زاد الله عبدًا بعفو إلّا عزًّا » ، كما صحَّ ذلك عن النبي ﷺ ، وعُلِمَ بالتجرِبة والوجود . وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلَّ .

هذا ، وفي الصفح والعفو والحلم ؛ من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس ، وعزها ورفعتها عن تشفِّيها بالانتقام : ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام .

ولله درُّ من قال :

لن يُدرك المجدَ أقوامٌ وإن كرُموا حتَّى يذلُّوا وإنْ عزُّوا لأقوامِ
ويُشتَموا فترى الألوان مسفرةً لا صفحَ ذلٍّ ولكنْ صفْح أحلامِ[1]

الأحنف بن قيْس سيِّد أهل المشرق ، المسمَّى بغير اسمه ، ومن يُضرب به المثَلُ في الحلْم :

قال الأحنف رحمه الله : « وجدتُ الحلْم أنصر لي من الرجال » . وقال له رجل : علِّمني الحلْمَ يا أبا بحر . فقال : هو الذلُّ يا ابن أخي ، أتصبر عليه ؟!

وقال رحمه الله : « لستُ حليمًا ولكنني أتحالم »[2] .

ومن أخبار حلْمه : أنَّ رجلًا شتمه فسكت عنه ، وأعاد الرجل فسكت عنه ، وأعاد فسكت عنه ، فقال الرجل : « والهْفاه !! ما يمنعه من أن يردَّ عليّ إلَّا هواني عنده »[3] .

وشتمه رجل وجعل يتبعه حتى بلغ حيَّهُ ، فقال الأحنف : « يا هذا ، إن كان بقي في نفسك شيءٌ فهاتِهِ وانصرفْ ؛ لا يسمعك بعضُ سفهائنا فتلقى ما

(١) لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ ص ٣٢٤ ، تحقيق : أحمد شاكر – دار الكتب السلفية .
(٢) العقد الفريد ١/٢٨٧ .
(٣) عيون الأخبار ١/٢٨٣ .

تكره » .

وكان رحمه الله يقول : « مَن لم يصبر على كلمة سمع كلمات ، ورُبَّ غيظٍ قد تجرَّعْته مخافةَ ما هو أشدُّ منه »[١] .

قيس بن عاصم المنقري : وحلمه العجيب الذي يتعلَّمه الأحنف :

قال عنه رسول الله ﷺ : « هذا سيد أهل الوبر » .

قال الأحنف بن قيْس : « ما تعلَّمتُ الحلمَ إلّا من قيس بن عاصم المنقري ؛ لأنه قتلَ ابنُ أخٍ له بعضَ بنيه ، فأُتي بالقاتل مكتوفًا يُقاد إليه ، فقال : ذَعَرْتُم الفتى ! ثم أقبل على الفتى فقال : بئس ما فعلتَ !! نقصتَ عددَكَ ، وأوْهنتَ عَضُدك ، وأشمتَّ عدوَّك ، وأسأتَ بقومك ، وأثمتَ بربِّك ، وقطعتَ رحمك ، ورميتَ نفسك بسهمِك . خلُّوا سبيله ، واحملوا إلى أمِّ المقتول دِيتَه ؛ فإنها غريبة ! ثم انصرف القاتل وما حلَّ قيسٌ حَبْوته ولا تغيَّر وجهه »[٢] .

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لِيَلِني منكم ذوو الأحلام والنهى ... » . الحديث . رواه مسلم .

قال الحسن : اطلبوا العلم وزيِّنوه بالوقار والحِلْم .

قال معاوية رضي الله عنه : لا يبلغ الرَّجُلُ مبلغ الرأي حتى يغلب حلمُه جهلَه وصبرُه شهوتَه ، ولا يبلغ ذلك إلَّا بقوَّة العلم .

وقال معاوية لعمرو بن الأهتم : أيُّ الرجال أشجع ؟ قال : مَن ردّ جهلَه بحلمه .

وقال أنس بن مالك في قوله تعالى : ﴿ **فإذا الذي بينَك وبيْنَه عداوة كأنَّه وليٌّ حميم** ﴾ : هو الرجل يشتمه أخوه فيقول : إنْ كنتَ كاذبًا فغفر الله

---

(١) عيون الأخبار ٢٨٤/١ ، ٢٨٧ .

(٢) وفيات الأعيان ١٨٨/٢ ، والبداية والنهاية ٣٢٧/٨ ، وقادة فتح بلاد فارس ص ٢٣٣ .

لك ، وإن كنتَ صادقًا فغفر الله لي .

وقال رجل لمالك بن دينار : بلغني أنك ذكرتَني بسوء ؟! قال : أنتَ أكرم عليّ من نفسي ، إني إذا فعلتُ ذلك أهديتُ لك حسناتي .

وقال رجل لبعض الحكماء : والله لأسبَّنّك سبًّا يدخل معك في قبرك . فقال : معك يدخل لا معي .

وضرب رجل قدمَ حكيم فأوجعه ، فلم يغضب ، فقيل له في ذلك ، فقال : أقمتُه مقام حجَرٍ تعثرتُ به ، فذبحتُ الغضب .

وقال محمود الوراق :

سأُلزِمُ نفسي الصفْحَ عن كلِّ مذنبٍ ... وإن كثرتْ منهُ عليَّ الجرائمُ
وما الناسُ إلّا واحدٌ من ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاومُ
فأمَّا الذي فوقي فأعرفُ قدْرَهُ ... وأتبعُ فيهِ الحقَّ والحقُّ لازمُ
وأمَّا الذي دُوني فإنْ قالَ صنتُ عنْ ... إجابتهِ عِرضي وإنْ لامَ لائمُ
وأمَّا الذي مِثْلي فإنْ زلَّ أو هَفَا ... تفضَّلْتُ إنَّ الفضلَ بالحلْم حاكمُ

أمَّا العفو : فقد قال بعضهم : إذا أراد الله أن يُتحفَ عبدًا ، قيَّض له مَن يظلمه .

وقال بعضهم : ليس الحليم مَن ظُلِم فحَلَم ، حتى إذا قدَر انتقم ، ولكنَّ الحليم مَن ظُلِم فحلَم ، حتى إذا قدَر عفا . قال الله تعالى : ﴿ **وأنْ تعفُوا أقربُ للتقوى** ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

وإخوة يوسف باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم ، فلمّا كمل له أمره ، وجمع أهله ، قال : ﴿ **لا تثريبَ عليكمُ اليوم يغفرُ الله لكمْ وهو أرحمُ الراحمين** ﴾ [يوسف : ٩٢] .

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : أشهد أنك من الفاسقين . قال : ليس تُقبل شهادتك .

المشهد الرابع : مشهد « الرضا » :

وهو فوق مشهد « العفو والصفح » ، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة ، سيَّما إن كان ما أصيبتْ به سببه القيامُ لله ، فإذا كان ما أصيب به في الله وفي مرضاته ومحبته ؛ رضيتْ بما نالها في الله . وهذا شأن كل محبٍّ صادق ، يرضىٰ بما يناله في رضا محبوبه من المكاره ، ومتى تسخَّط به وتشكَّى منه ، كان ذلك دليلًا على كذبه في محبته . والواقع شاهد بذلك ، والمحبُّ الصادق كما قيل :

مِنْ أجلِكَ جعلتُ خَدِّى أرضًا   للشامتِ والحسودِ حتى ترضىٰ

ومن لم يرضَ بما يصيبه في سبيل محبوبه ، فلينزل عن درجة المحبة ، ولْيتأخرْ ؛ فليس من ذا الشأن .

المشهد الخامس : مشهد « الإحسان » :

وهو أرفع مما قبله . وهو أن يُقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان ؛ فيحسن إليه كلَّما أساء هو إليه ، ويهوِّن هذا عليه علمُهُ بأنه قد ربح عليه ، وأنه قد أهدى إليه حسناته ، ومحاها من صحيفته ، وأثبتها في صحيفة مَن أساء إليه ، فينبغي لك أن تشكره ، وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك .

وهاهنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبةِ الثوابَ ، وهذا المسكين قد وهبك حسناته . فإن كنتَ من أهل الكرم فأثِبْه عليها ، لتثبتَ الهبة ، وتأمن رجوع الواهب فيها . وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم ، وأهل العزائم .

ويهوِّنه عليك أيضًا : علمُك بأن الجزاء من جنس العمل ؛ فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك عفوتَ عنه وأحسنتَ إليه ، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلِّك . فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك ، يقابلها بما قابلتَ به إساءة عبدِه إليك . فهذا لا بدَّ منه ، وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأمَّلها .

ومقابلة الإساءة بالإحسان من فضائل أعمال المقرَّبين ، واختيار الصدِّيقين ، ومنتهى درجات الصالحين .

فهذا الصدِّيقُ أبو بكر رضي الله عنه ؛ لمَّا حلف أن لا ينفق على مِسْطَح - وكان قريبه - لكونه تكلَّم في واقعة الإفك ؛ نزل قوله تعالى : ﴿ **ولا يأتَلِ أولو الفضل منكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ [النور : ٢٢] ، فقالَ أبو بكر : بلى ، نحبُّ ذلك . وعاد إلى الإنفاق عليه[(١)] .

« وسبَّ رجلٌ ابنَ عباس رضي الله عنهما ، فلمَّا فرغ قال : يا عكرمة ، هل للرجل حاجة ، فتقضيها ؟ فنكسَ الرجل رأسه واستحى .

وعن عليّ بن الحسين بن عليٍّ رضي الله عنهم أنه سبَّه رجل ، فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فقال بعضُهم : جُمع له خمس خصال محمودة : الحلم ، وإسقاط الأذى ، وتخليص الرجل مما يُبعد عن الله ، وحمْله على الندَم والتوبة ، ورجوعه إلى المدح بعد الذم ؛ اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير »[(٢)] .

« قال إبراهيم التيمي : إن الرجل ليظلمني فأرحمه . وهذا إحسان وراء العفو ؛ لأنه يشتغل قلبه بتعرُّضه لمعصية الله تعالى بالظلم ، وأنه يُطالب يوم القيامة ، فلا يكون له جواب .

وقال الفضيل : ما رأيتُ أزهد من رجل من أهل خراسان جلس إليّ في المسجد ، ثم قام ليطوف فسُرقتْ دنانير كانت معه ، فجعل يبكي ، فقلت : أعلى الدنانير تبكي ؟ فقال : لا ، ولكن مثَّلتُني وإيَّاه بين يدي الله عز وجل ، فأشرف عقلي على إدحاض حجَّته ، فبكائي رحمة له !! »[(٣)] .

---

(١) حديث : « لما حلف أبو بكر ... » ، متفق عليه من حديث عائشة .
(٢) الإحياء ٣/١٩٠ .
(٣) الإحياء ٣/١٩٥ ، ١٩٦

الربيعُ بن خُثيم يدعو لسارقه :

« اشترى الربيع رحمه الله فرسًا بثلاثين ألفًا فغزا عليها ، ثم أرسل غلامه « يسار » يحتشُّ وقام يصلّي ، وربط فرسَه ، فجاء الغلام فقال : يا ربيع أين فرسُك ؟ قال : سُرقت يا يسار . قال : وأنت تنظر إليها ؟! قال : نعم يا يسار ؛ إني كنتُ أناجي ربي عز وجل فلم يشغلني عن مناجاة ربي شيء ، اللهمَّ إنه سرقني و لم أكن لأسرقه ، اللهمَّ إن كان غنيًّا فاهْدِه ، وإن كان فقيرًا فأغْنه . ثلاث مرات »[1] .

لله درُّك يا أبا يزيد !! والله إن الكلمات لَتعجز عن تصوير جلال هذا المشهد ؛ « أَمَا والله لو رآك محمد ﷺ يا ربيع ، لَفَرِح بك » . هكذا قال أستاذك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قال عُبيد بن غاضرة العنبري :

إنَّا وإنْ كنَّا أَسِنَّةَ قَوْمِنَا   وكانَ لنا فيهمْ مَقامٌ مقدَّمُ
لَنصفحُ عنْ أشياءَ منهم تُرِيبُنا   ونصدِفُ عن ذي الجهْل منهمْ ونحلمُ
ونمنحُ منهمْ معْشرًا يحسدوننا   هَنِيَّ عطاءٍ ليسَ فيهِ تندُّمُ
ونكلؤُهُم بالغيب منَّا حفيظةً   وأكبادُنا وجْدًا عليهمْ تَضَرَّمُ
فليسَ بمحمودٍ لدىٰ الناسِ مَن جزىٰ   بسَيِّءِ ما يأتي المُسِيءُ المُلَوَّمُ
سأحملُ عنْ قومي جميعَ كلُومِهمْ   وأدفع عنهم كلَّ غُرْمٍ وأغرمُ[2] .

المشهد السادس : مشهد « السلامة وبرد القلب » :

وهذا مشهد شريف جدًّا لمن عرَفه وذاق حلاوته ، وهو أن لا يشتغل

---

(١) الزهد لابن حنبل ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، ومختصر قيام الليل للمقريزي ص ٢٧ .
(٢) لباب الآداب لابن منقذ ص ٣٢٤ - ٣٢٥

قلبه وسرُّه بما ناله من الأذى ، وطلب الوصول إلى درْك ثأره وشفاء نفسه ، بل يُفَرِّغ قلبه من ذلك ، ويرى أن سلامته وبرده وخلوَّه منه أنفع له ، وألذُّ وأطيب ، وأعون على مصالحه ؛ فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهمُّ عنده ، وخير له منه ، فيكون بذلك مغبونًا . والرشيد لا يرضى بذلك ، ويرى أنه من تصرُّفات السفيه ، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغلِّ والوساوس ، وإعمال الفكْر في إدراك الانتقام ؟!

المشهد السابع : مشهد « الأمْن » :

فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام ، أمِن ما هو شرٌّ من ذلك ، وإذا انتقم واقَعَهُ الخوف ولا بدَّ ؛ فإن ذلك يزرع العدواة ، والعاقل لا يأمن عدوَّه ولو كان حقيرًا . فكم مِن حقيرٍ أردىٰ عدوَّه الكبير !! فإذا غفر ولم ينتقم ولم يقابل ؛ أمِن من تولُّد العداوة أو زيادتها ، ولا بدَّ أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوِّه ، ويكفُّ من جزَعه ، بعكس الانتقام ، والواقع شاهد بذلك أيضًا .

المشهد الثامن : مشهد « الجهاد » :

وهو أن يشهد تولُّد أذىٰ الناس له من جهاده في سبيل الله ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وإقامة دين الله ، وإعلاء كلماته .

وصاحب هذا المقام : قد اشترى الله منه نفسه وماله وعِرْضَه بأعظم الثمن ، فإن أراد أن يُسَلَّم إليه الثمن ، فليسلِّم هو السلعة ليستحقَّ ثمنها . فلا حقَّ له على من آذاه ، ولا شيء له قِبَله ، إن كان قد رضي بعقْد هذا التبايُع ؛ فإنه قد وجب أجرُه على الله .

وهذا ثابت بالنصِّ وإجماع الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنى مكة - أعزَّها الله - ولم يَرُدَّ على أحد منهم داره

ولا ماله الذي أخذه الكفار ، ولم يضمنهم دية مَن قتلوه في سبيل الله .

ولما عزم الصدِّيق رضي الله عنه على تضمين أهل الردَّة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم ؛ قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه- بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم - : « تلك دماء وأموال ذهبتْ في الله ، وأجورها على الله ، ولا دية لشهيد » . فأصفق الصحابة على قول عمر ، ووافقه عليه الصديق .

فمن قام لله حتى أوذي في الله ؛ حرَّم الله عليه الانتقام ، كما قال لقمان لابنه : ﴿ **وأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾ . [لقمان : ١٧] .

المشهد التاسع : مشهد « النِّعْمة »:

وذلك في وجوه :

أحدها : أن يشهد نعمة الله عليه في أنْ جعله مظلومًا يترقَّب النصر ، ولم يجعله ظالما يترقَّب المقْت والأخْذَ . فلو خُيِّر العاقل بين الحالتينْ - ولا بدَّ من إحداهما - لَاخْتار أن يكون مظلومًا .

ومنها : أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك مِن خطاياه ؛ فإنه ما أصاب المؤمنَ هَمٌّ ولا غمٌّ ولا أذًى إلَّا كفَّر الله به من خطاياه ، فذلك في الحقيقة دواء يُستخرج به منه داء الخطايا والذنوب ، ومَن رضي أن يلقى الله بَأدوائه كلها وأسقامه ، ولم يداوِه في الدنيا بدواء يُوجب له الشفاء ؛ فهو مغبون سفيه . فأذى الخلْق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشْفِق عليك ، فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومَن كان على يديه ، وانظرْ إلى شفقة الطبيب الذي ركَّبه لك ، وبعثَه إليك على يدي مَن نَفعَك بمضرَّته .

ومنها: أن يشهد كوْن تلك البليَّة أهون وأسهل من غيرها؛ فإنه ما من محنة

إلَّا وفوْقها ما هو أقوى منها وأَمَرُّ ، فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال ، فلينظرْ إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده ، وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهيِّنة ، وأنها في الحقيقة نعمة ، والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين .

ومنها : توفية أجْرها وثوابها يوم الفقر والفاقة ، وفي بعض الآثار : أنه يتمنَّى أناسٌ يوم القيامة لو أنَّ جلودَهم كانت تُقْرَض بالمقاريض ، لِمَا يرون من ثواب أهل البلاء .

هذا، وإن العبد لَيشتدُّ فرحُه يوم القيامة بما له قِبَلَ الناسِ من الحقوق في المال والنفس والعِرْض ، فالعاقل يعدُّ هذا ذُخرًا ليوم الفقر والفاقة ، ولا يُبطله بالانتقام الذي لا يُجدي عليه شيئًا .

حبس أحدُ السلاطين رجلًا ، فكتب إليه بعض إخوانه الصالحين : اشكر الله . ثم ضُرب ، فكتب إليه : اشكرِ الله . ثم قُيِّد هو ومجوسي مبطون بقيْدٍ واحد ؛ فكان المجوسي يقوم بالليل لقضاء الحاجة مرَّاتٍ ، وكلَّما ذهبَ ذهبَ معه الرجل ، فيقف على رأسه حتى يقضيَ حاجته ، فكتب إليه صاحبه : اشكر الله . فقال : على ماذا أشكر الله ؟! وأيُّ بلاء فوقَ ما أنا فيه ؟! فكتب إليه : لو جُعل الزنار الذي في وسَطه في وسَطك كما جعل القيْد في رِجْلك ، ما كنت تصنع ؟ فاشكرِ الله على سلامة الدين .

المشهد العاشر : مشهد « الأُسْوَة » :

وهو مشهد شريف لطيف جدًّا ؛ فإن العاقل اللبيب يرضىٰ أن يكون له أسوة برسُل الله وأنبيائه ، وأوليائه وخاصَّته من خلقه ؛ فإنهم أشدُّ الخلْق امتحانًا بالناس ، وأذى الناس إليهم أسرع من السيْل في الحُدُور ، ويكفي تدبُّر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم ، وشأن نبينا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يُؤْذَه مَنْ قبلَه . وقد قال له وَرَقة بن نوفل : « لَتُكَذَّبنَّ ، ولَتُخْرَجَنَّ ، وَلتُؤْذَيَنَّ » . وقال له : « ما جاء أحد بمثل ما جئتَ به إلا عُودي » . وهذا

مستمرٌّ في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ . أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلْق الله ، وخواصِّ عباده ؛ الأمثل فالأمثل ؟!

ومَن أحبَّ معرفة ذلك فليقفْ على مِحَنِ العلماء ، وأذى الجهَّال لهم . وقد صنف في ذلك ابن عبد البر كتابًا سمَّاه « محنُ العلماء » .

المشهد الحادي عشر : مشهد « التوحيد » :

وهو أجلُّ المشاهد وأرفعها . فإذا امتلأ قلبه بمحبَّة الله ، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرُّب إليه ، وقرَّة العيْن به ، والإنس به ، واطمأنَّ إليه ، وسكن إليه ، واشتاق إلى لقائه ، واتخذه وليًّا دون مَن سواه ، بحيث فوَّض إليه أموره كلها ، ورضي به وبأقضيته ، وفني بحبَّه وخوْفه ورجائه وذكْرِه والتوكُّل عليه ، عن كلِّ ما سواه - فإنه لا يبقى في قلبه متَّسع لشهود أذى الناس له ألبتة ، فضلًا عن أن يشتغل قلبه وفكْره وسِرُّه بتطلُّب الانتقام والمقابلة ؛ فهذا لا يكون إلّا مِن قلبٍ ليس فيه ما يُغنيه عن ذلك ويعوِّضه منه ، فهو قلبٌ جائع غير شبعان ؛ فإذا رأى أيَّ طعام رآه هَفَتْ إليه نوازعه ، وانبعثتْ إليه دواعيه . وأما مَنِ امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها ؛ فإنه لا يلتفت إلى ما دونها . وذلك فضْل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فمَن عامَل الخلْقَ بهذه المعاملة ؛ « من إقامة أعذارهم ، والعفو عنهم ، وترْك مقابلتهم ؛ استوتْ كراهتُهم ومحبتهم له ، وكان ذلك سببًا لنجاتهم الأخروية أيضًا ؛ إذ يرشدهم ذلك إلى القبول منه ، وتلقِّي ما يأمرهم به وينهاهم عنه أحسنَ التلقِّي . وهذه طباع الناس »[(١)] .

« **الدرجة الثانية : تحسينُ خُلُقك مع الحقِّ ؛ وتحسينه منك : أنْ تعلم أنَّ كلَّ ما يأتي منك يُوجب عُذرًا ، وأنَّ كل ما يأتي من الحقّ يوجب شكرًا ،**

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٢٤

وأن لا ترىٰ له من الوفاء بُدًّا » .

لله درُّك يا شيخ الإسلام الهروي !! ما أطيب وأعطر هذا القول منك !!

قال شيخ الإسلام ابن القيِّم شارحًا : « هذه الدرجة مبنيَّة على قاعدتيْن :

إحداهما : أن تعلم أنك ناقص : وكلُّ ما يأتي من الناقص ناقص ، فهو يُوجب اعتذاره منه لا محالة ، فعلى العبد أن يعتذر إلى ربِّه من كلِّ ما يأتي به من خير وشرٍّ ؛ أما الشرُّ : فظاهر ، وأما الخير : فيعتذر من نقصانه ، ولا يراه صالحًا لربِّه ، فهو – مع إحسانه – معتذر في إحسانه ، ولذلك مدَح الله أولياءه بالوَجَل منه مع إحسانهم،بقوله : ﴿ **والذين يُؤْتون ما آتوا وقلوبُهم وَجِلة** ﴾ [المؤمنون : ٦٠] وقال النبي ﷺ : « هو الرجل يصوم ويتصدق ، ويخاف أن لا يُقْبَل منه » . فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى . والحامل له على هذا الاعتذار أمران :

أحدهما :شهود تقصيره ونقصانه .

والثاني :صدق محبَّته : فإن المحبَّ الصادق يتقرب إلى محبوبه بغاية إمكانه ، وهو معتذر إليه ، مُسْتَحْيِي منه : أن يواجهه بما واجهه به ، وهو يرى أن قدْرَه فوقه وأجلُّ منه ، وهذا مشاهد في محبَّة المخلوقين .

القاعدة الثانية : استعظام كل ما يصدر منه سبحانه إليك : والاعتراف بأنه يُوجب الشكر عليك ، وأنك عاجز عن شكره ، ولا يتبين هذا إلّا في المحبَّة الصادقة ؛ فإن المحبَّ يستكثر من محبوبه كل ما يناله ، فإذا ذكره بشيء وأعطاه إياه ؛ كان سروره بذكْره له ، وتأهيله لعطائه : أعظم عنده من سروره بذلك العطاء ، بل يغيب بسروره بذكْره له عن سروره بالعطيَّة ، وإن كان المحبُّ يسرُّه ذكْر محبوبه له ، وإن ناله بمساءة . كما قال القائل :

لئـنْ سـاءني أنْ نلتَني بمسـاءةٍ لقدْ سرَّني أني خطرتُ ببالِكَا

فكيف إذا ناله محبوبه بمسرَّة ، وإن دقَّتْ ؟! فإنه لا يراها إلا جليلة خطيرة .

فكيف هذا مع الربِّ تعالى الذي لا يأتي أبدًا إلّا بالخير ؟! ويستحيل خلافَ ذلك في حقِّه . كما يستحيل عليه خلاف كماله . وقد أفصح أعرف الخلْق بربّه عن هذا بقوله : « والشرُّ ليسَ إليك » . أي لا يضاف إليك ، ولا ينسب إليك ، ولا يصدر منك ؛ فإن أسماءه كلها حسنىٰ ، وصفاته كلها كمال ، وأفعاله كلها فضْل وعدْل ، وحكمة ورحمة ومصلحة ، فبأي وجه ينسب الشرُّ إليه سبحانه وتعالى ؟! فكل ما يأتي منه فله عليه الحمد والشكر ، وله فيه النعمة والفضل .

قوله : « وأن لا يرى من الوفاء بدًّا » :

يعني : أن معاملتك للحقِّ سبحانه بمقتضى الاعتذار من كل ما منك ، والشكر على ما منه : عقدٌ مع الله تعالى ، لازم لك أبدًا ، لا ترى من الوفاء به بدًّا . فليس ذلك بأمر عارض ، وحال يحول ، بل عقد لازم عليك الوفاء به إلى يوم القيامة »(١) .

« الدرجة الثالثة : التخلُّق بتصفية الخُلُق ، ثم الصعود عن تفرقة التخلُّق ، ثم التخلُّق بمجاوزة الأخلاق » :

« هذه الدرجة ثلاثة أشياء :

أحدها : تصفية الخُلق بتكميل ما ذُكِر في الدرجتين قبله ؛ فيصفِّيه من كل شائبة وقذًى ومشوش ، فإذا فعلتَ ذلك صعدتَ من تفرقته إلى جمعيَّتك على الله ؛ فإن التخلُّق تهذيب واستعداد للجمعية ؛ وإنما سمَّاه تفرقة لأنه اشتغال بالغير ، والسلوك يقتضي الإقبال بالكلِّية ، والاشتغال بالربِّ وحده عمَّا سواه .

ثم يصعد إلى ما فوق ذلك ، وهو مجاوزة الأخلاق كلها بأنْ يغيب عن

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٢٤ - ٣٢٦

الخلق والتخلُّق . وهذه الغيبة لها مرتبتان :

إحداهما : الاشتغال بالله عن كلّ ما سواه .

والثانية : الفناء في الفردانية التي يسمُّونها « حضرة الجمع » ، وهي موهبية لا كسبيَّة ، لكن العبد إذا تعرَّض وصدَق في الطلب ، رُجي له الظفر بمطلوبه . والله أعلم » انتهى كلام ابن القيم .

كنْ مع الحقِّ بلا خَلْقٍ ، ومع الخَلْق بلا نفْس :

قال ابن القيِّم : « ومدار حسْنِ الخُلُق مع الحقِّ ، ومع الخلْق : على حرفيْن ، ذكرهما عبد القادر الجيلاني ؛ فقال : « كنْ مع الحقِّ بلا خَلْق ، ومع الخلْق بلا نفس » .

فتأمَّلْ ، ما أجلَّ هاتيْن الكلمتيْن ، مع اختصارهما ، وما أجمعهما لقواعد السلوك ولكل خلُق جميل !! وفساد الخلُق إنما ينشأ من توسُّط الخلق بينك وبين الله تعالى ، وتوسُّط النفْس بينك وبين خلْقه ، فمتى عزلتَ الخلْق ، حالَ كونك مع الله تعالى ، وعزلتَ النفس ، حال كونك مع الخلق ، فقد فزتَ بكلِّ ما أشار إليه القوم ، وشمَّروا إليه ، وحاموا حوْله . والله المستعان » .

نفائسُ وأمثلةٌ عَطِرةٌ مِن حُسْن خُلُقِ سَلَفِنا :

الإمام ابنُ منده وحُسْن خلُقه : « مَن كتَب عني حديثًا فأنا له عبد » :

قال يحيى بن منده : كان عمي سيْفًا على أهل البدع ، وهو أكبر من أن يُثني عليه مثلي ، كان - والله - آمرًا بالمعروف ، ناهيًا عن المنكر ، كثير الذكر ، قاهرًا لنفسه ، عظيم الحلم كثيرَ العلم ؛ قرأتُ عليه قول شعبة : مَن كتبت عنه حديثًا فأنا له عبد ؛ فقال عمي : من كتب عني حديثًا فأنا له عبد[1] .

---

(١) انظر ترجمته في السير ١٨/٣٤٩ - ٣٥٤ .

الإمام أبو إسحاق الشيرازي وحُسْن خُلُقه :

قال خطيب الموصل أبو المفضَّل : حدَّثني أبي قال : توجَّهتُ من المَوْصل سنة ٤٥٩هـ إلى أبي إسحاق ، فلمَّا حضرتُ عنده ، رحَّبَ بي وقال : من أين أنت !؟ فقلتُ : من المَوْصل . قال : مرحبًا ؛ أنت بلديِّي . قلتُ : يا سيِّدَنا ، أنت من فيروزآباد ؟! قال : أمَا جمعتْنا سفينة نوح ؟! فشاهدتُ من حُسْن أخلاقه ولطافته وزهده ، ما حبَّب إليَّ لزومه ، فصحبتُه إلى أن مات(١) .

وقيل : إن أبا إسحاق نزع عمامته - وكانت بعشرين دينارًا - وتوضَّأ في دجلة ، فجاء لصٌّ فأخذها وترك عمامةً رديئة بَدَلها ، فطلع الشيخ فلبسها ، وما شعر حتى سألوه وهو يدرِّس ، فقال : لعلَّ الذي أخذها محتاج(٢) .

إبراهيمُ بنُ أدهمَ أستاذُ الأُستاذِين في حُسن الخُلُق :

« خرج رحمه الله إلى بعض البراري ، فاستقبله رَجل جنديٌّ ، فقال : أنت عبد ؟ قال : نعم . فقال له : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فقال الجندي : إنما أردتُ العمران !! فقال : هو المقبرة . فغاظه ذلك فضرب رأسَه بالسوط فشجَّه ، وردَّه إلى البلد فاستقبله أصحابه ، فقالوا : ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندي ما قال له ، فقالوا : هذا إبراهيم بن أدهم !! فنزل الجندي عن فرسه وقبّل يديْه ورجليْه ، وجعل يعتذر إليه ، فقيل بعد ذلك له : لِمَ قلتَ له : أنا عبد ؟ فقال : إنه لم يسألني : عبدُ من أنت ، بل قال : أنت عبد ؟ فقلتُ : نعم ؛ لأني عبد الله ، فلمَّا ضرب رأسي سألتُ الله له الجنة . فقيل : كيف وقد ظلمك ؟ فقال : علمتُ أنني أُؤْجَر على ما نالني منه ، فلم أُرِدْ أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبُه مني الشرَّ »(٣) .

---

(١) ، (٢) انظر الترجمة في السير ١٨/ ٤٥٢ - ٤٦٤ .

(٣) الإحياء ٣/ ٧٦

شيْخ الإسلام أبو عثمان الحِيري يعلِّمنا حُسْن الخلُق : « إنّ مَنِ استحقَّ النارَ فصُولح على الرماد ، لم يجُزْ له أن يغضب » :

« اجتاز رحمه الله يومًا في سكَّة ، فطرحت عليه إجانة رماد ، فنزل عن دابَّته فسجد سجدة الشكر ، ثم جعل ينفُض الرماد عن ثيابه ، ولم يقلْ شيئًا ، فقيل : ألا زبرتهم ؟ فقال : إنَّ من استحقَّ النارَ فصُولح على الرَّماد ، لم يجُزْ له أن يغضب .

ودُعي أبو عثمان الحيري إلى دعوة ، وكان الداعي قد أراد تجربته ، فلمَّا بلغ منزله قال له : ليس لي وجه . فرجع أبو عثمان ، فلمَّا ذهب غيرَ بعيد ، دعاه ثانيًا فقال له : يا أستاذ ، ارجعْ . فرجع أبو عثمان ، فقال له مثل مقالته الأولى فرجع ، ثم دعاه الثالثة وقال : ارجعْ على ما يُوجب الوقت . فرجع ، فلمَّا بلغ الباب ، قال له مثل مقالته الأولى ، فرجع أبو عثمان ، ثم جاءه الرابعة فردَّه ، حتى عامله بذلك مرَّات وأبو عثمان لا يتغيّر من ذلك ، فأكبَّ على رجليْه وقال : يا أستاذ ، إنما أردتُ أن أختبرك ، فما أحسن خلُقَك !! فقال : إن الذي رأيتَ مني هو خلُق الكلْب ؛ إن الكلب إذا دُعي أجاب وإذا زُجرَ انزجر »[(١)] .

« من أين تعلمتَ الحِلْم ؟ » :

« وقيل للأحنف بن قيس : مِن أين تعلَّمتَ الحِلْم ؟ فقال : من قيس ابن عاصم . قيل : وما بلغ حلمه ؟ قال : بينما هو جالس في داره ، إذ أتته جارية له بسَفُود عليه شِواء ، فسقط من يَدها ، فوقع على ابنٍ له صغير فمات ، فدُهِشَتِ الجارية ، فقال لها : لا روعَ عليك ؛ أنت حرَّة لوجه الله تعالى »[(٢)] .

---

(١) الإحياء ٣/٧٦

(٢) الإحياء ٣/ ٧٧

« إنْ كان ولا بُدَّ ، فارموني بالصِّغَار » :

« وقيل : إن أُويسًا القرني كان إذا رآه الصبيان يرمُونه بالحجارة ، فكان يقول لهم : يا إخوتاه ، إن كان ولا بدَّ فارموني بالصِّغَار ؛ حتى لا تُدموا ساقي ، فتمنعوني عن الصلاة »(١) .

« يا هذه ، وجدتِ اسمي الذي أضلَّه أهلُ البصرة » :

« وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله : يا مرائي . فقال : يا هذه ، وجدتِ اسمي الذي أضلَّه أهل البصرة »(٢) .

« لأتعلَّم الحلْم عليه » :

« وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلامُ سوءٍ ، فقيل له : لِمَ تُمْسِكه ؟ فقال : لأتعلَّمَ الحلْمَ عليه »(٣) .

علامة حُسْن الخُلُق :

قال يوسف بن أسباط : علامة حُسْن الخلق عشرُ خصالٍ :

١ - قلّة الخلاف . ٢ - وحسْن الإنصاف . ٣ - وترْك طلب العثرات .

٤ - وتحسين ما يبدو من السيئات . ٥ - والْتماس المعذرة . ٦ - واحتمال الأذى .

٧ - والرجوع بالملامة على النفس . ٨ - والتفرُّد بمعرفة عيوب نفسِه دون غيره .

٩ - وطلاقة الوجه للصغير والكبير . ١٠ - ولطْف الكلام لمن دُونه ولمن فوْقه .

---

(١) ، (٢) ، (٣) الإحياء ٧٧/٣ .

وسُئل سهل عن حسن الخلُق فقال : « أدناه احتمال الأذى ، وتـرْك المكافأة ، والرحمة للظالم والاستغفار له ، والشفقة عليه »(١) .

ونمضي مع قافلة النور وركْب السادة :

« كان الفُضَيل بن عِياض رحمه الله إذا قيل له : إن فلانًا يقع في عِرْضك ؛ يقول : والله لأغيظنَّ من أمره . يعني إبليس ، ثم يقول : اللهمَّ إن كان صادقًا فاغفرْ لي ، وإن كان كاذبًا فاغفر له .

وقد كان أبو معاوية الأسود يدعو لمن نال منه .

وشتـم رجل بكر بن عبد الله المزني رحمه الله ، وبالَـغ في شتْمه وهـو ساكت ، فقيل له : ألَا تشتمه كما شتمك ؟! فقال : إني لا أعرف له شيئًا من المساوي حتى أشتمه به ، ولا يحلُّ لي أن أرميَه بالكذب .

وقال رجل لثور بن يزيد رحمه الله : يا قدَري ، يا رافضي . فقال له : إن كنتُ كما قلتَ لي ، فأنا رجلُ سوءٍ ، وإن كنتُ على خلافِ ذلـك فـأنتَ في حلٍّ مني .

وقد قال رجل مرةً لسالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم : يا شيخ السوء : فقال له سالم : ما أراك أبعدتَ يا أخي »(٢) .

لطيفة :

الحلْمُ على خمسة أقسام :

قال السريّ السقطي : الحلم على خمسة أقسام :

---

(١) الإحياء ٣/٧٧ .

(٢) تنبيه المغترين للشعراني ص ٧١ - ٧٢ - طبع : عيسى الحلبي .

الأول : حلم غريزي : وهو هبة من الله تعالى للعبد ، به يعفو عمَّن ظلمه ، ويعطي من حرمه ويصل به رحمه وإن قطَعَه .

والثاني : حلم تحالم : وهو أن يكظم العبدُ غيظه رجاءَ الثواب ، وفي القلب كراهة .

الثالث : حلم مذموم : وهو حلْم العبد على مَن جنىٰ عليه ، رياءً وسمعة ؛ يعني يرائي به جلساءَه وهو حاقد ساكت .

الرابع : حلم كِبْر : وهو أن الشخص لا يراه أهلًا بأن يجاوبه .

الخامس : حلْم مهابة ومذلَّة[1] . اهـ .

فاعلمْ ذلك ؛ فإنه نفيس جاءَك به السريُّ .

« مدحوا عند الفضيل بن عياض رجلًا ، وقالوا : إنه لا يأكل الخبيص . فقال : وما ترْكُ أكْل الخبيص ؟! انظروا كيف صلتُه للرحم !! انظروا كيف كظمُه للغيظ !! انظروا كيف عطْفُه على الجار والأرملة واليتيم !! انظروا كيف حسن خلقه مع إخوانه !!

وكان حاتم الأصمُّ يقول : قد قلَّتْ أخلاق الرجال في ثلاث : تعظيم أخلاق الإخوان ، وستْر معايبهم ، واحتمال أذاهم »[2] .

محمد بن واسع يُحسْن إلى شاةٍ صَحِبَتْه :

« كان محمد بن واسع يقول : لا يبلغ العبد مقام الإحسان حتى يُحسن إلى كلِّ مَن صَحِبَه ولو ساعة . وكان إذا باع شاة يوصي بها المشتري ويقول : قد كان لها معنا صُحْبَة »[3] .

---

(١) تنبيه المغترين ص ٧٢ .

(٢) ، (٣) تنبيه المغترين ص ٣١ .

ومسْكُ الختامِ : حديثُ عُلبة بن زيد بن حَارثة الأنصاري الأوْسي ، صاحبِ الخُلُق التمام :

لله درُّه من صحابي جليل !!

روى ابن منده بإسناده : « كان علبة بن زيد بن حارثة رجلًا من أصحاب النبي ﷺ ، فلما حضَّ على الصدقة ، جاء كلُّ رجل منهم بطاقتِه وما عنده ، فقال علبة بن زيد : اللهم إنه ليس عندي ما أتصدَّق به ؛ اللهم إني أتصدَّق بعِرْضي على مَن ناله مِن خلْقِك . فأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى : أين المتصدِّق بعرضه البارحة ؟ فقام عُلبة ، فقال : « قد قُبِلتْ صدقتُكَ » .
وفي زاد المعاد : فقال النبي ﷺ : « أبشرْ ؛ فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ، لقد كُتِبَتْ في الزكاة المتقبَّلة » .

هذه نفوس قد ذُلِّلتْ بالمجاهدة ، فاعتدلتْ وطابت أخلاقُها ، ونُقِّيت من الغشِّ والغلِّ بواطنُها فأثمرت الأطايب ، فظهرت العلامات على ظواهرهم ، فمَن لم يصادفْ من نفسه هذه العلامات ، فلا ينبغي أن يغترَّ بنفسه فيظنَّ بها حُسْن الخُلُق ؛ فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلّا المقرَّبون والصِّدِّيقون .



الفصل الثاني عشر
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الفُتُوَّةِ « مكارم الأخلاق »

«إنما بُعثت لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق »
[حديث صحيح]
« مَن لم يتفتَّى لم يُحسن يتقرَّا »
[تقرَّا : تنسَّك وتورَّع]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الفُتُوَّةِ « مكارم الأخلاق » □

اعلم يا أخي أن الفُتُوَّة إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخَلْق ، وهذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس ، وكفّ الأذى عنهم واحتمال أذاهم . فهي استعمال حُسْن الخُلُق معهم . فهي في الحقيقة نتيجة حُسْن الخلق واستعماله .

المروءة والفُتُوَّة :

قال ابن القيم : « والفرق بينها وبين المروءة : أن المروءةَ أعمُّ منها ؛ فالفتوة نوع من أنواع المروءة . فإن المروءة استعمال ما يَجمُل ويزين مما هو مختصٌّ بالعبد ، أو متعدٍّ إلى غيره ، وتَرْك ما يدنس ويشين مما هو مختصٌّ أيضًا به ، أو متعلِّق بغيره »[1] .

المنازل ثلاثة : التخلُّق وحُسْن الخُلُق ، ثم الفُتُوَّة،ثم المروءة :

قال ابن القيم : « هي ثلاثة منازل : منزلة التخلُّق وحُسْن الخُلُق ، ومنزلة الفتوة ، ومنزلة المروءة .

وهذه منزلة شريفة لم تعبّر عنها الشريعة باسم « الفتوة » ، بل عبَّرت عنها باسم « مكارم الأخلاق » ، كما في حديث عن النبيِّ ﷺ : « إنما بُعِثت لأتمِّم مكارمَ الأخلاق »[2] .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٤٠ .

(٢) صحيح : رواه من حديث أبي هريرة : البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣) ، وابن سعد في الطبقات (١/١٩٢) ، والحاكم ، وأحمد ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبي ، وصحَّحه ابن عبد البر .

ولم يجئ اسم « الفتوة » في القرآن ولا السُّنَّة ولا في لسان السلف ، وإنما استعمله مَنْ بعدهم في مكارم الأخلاق. وأصلها عندهم : أن يكون العبد أبدًا في أمر غيره .

وأقْدَم مَن علمتُه تكلَّم في « الفتوة » : جعفر بن محمد ، ثم الفضيل ابن عياض، والإمام أحمد ، وسهل بن عبد الله ، والجنيد ، ثم الطائفة .

فيُذكَر أن جعفر بن محمد سُئل عن الفتوة ، فقال للسائل : ما تقول أنت ؟ فقال : إن أُعطيتُ شكرت ، وإن مُنعت صبرت . فقال : الكلاب عندنا كذلك . فقال السائل : يا ابن رسول الله ، فما الفتوة عندكم ؟ فقال : إن أُعطينا آثرنا ، وإن مُنعنا شكرنا .

وقال الفضيل بن عياض : الفتوة : الصفحُ عن عثرات الإخوان .

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه، في رواية ابنه عبد الله عنه، وقد سُئل عن الفتوة ، فقال : تَرْكُ ما تهوى لما تخشى .

ولا أعلم لأحدٍ من الأئمة الأربعة فيها سواه »[1] .

« وقال سفيان الثوري : « من لم يتفتّى لم يُحسن يتقرَّا » .

وذُكرت الفتوة عند سفيان رحمه الله ، فقال : ليست بالفسق ولا بالفجور ؛ ولكن الفتوة كما قال جعفر بن محمد : طعامٌ موضوع ، وحجابٌ مرفوع ، ونائلٌ مبذول ، وبِشْرٌ مقبول ، وعفافٌ معروف ، وأذى مكفوف .

وقال آخر :

وليس فتى الفتيانِ مَن راح واغتدى لشُرْب صَبوحٍ أو لشُرْبِ غَبُوقِ
ولكن فتى الفتيانِ مَن راح واغتدى لضرّ عدوٍّ أو لنفْعِ صديقِ »[2] .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٤١ .

(٢) بهجةُ المجالس ، وأنس المجالس ، وشَحْذ الذاهن والهاجس لابن عبد البر القرطبي ١ / ٦٤٥ - ٦٤٧ . طبع مكتبة ابن تيمية .

كمال هذا الخلق :

وقال الدقّاق : هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ ؛ فإن كلَّ أحدٍ يقول يوم القيامة : نفسي نفسي ، وهو يقول : « أُمَّتي أُمَّتي » .

وقال سهل : هي اتِّباع السنة .

وقيل : هي الوفاء والحفظ .

وسُئل الجنيد عن الفتوة ، فقال : لا تُنافر فقيرًا ، ولا تُعارض غنيًّا .

وقال أيضا : الفتوة : كفُّ الأذى ، وبَذْل الندى .

وقال الحارث المحاسبي : الفتوة : أن تَنصِف ولا تنتصف .

وقال عمر بن عثمان المكّي : الفتوة : حُسْن الخلق .

وقال محمد بن علي الترمذي : الفتوة : أن تكون خَصْمًا لربِّك على نفسك .

وقيل : الفتوة : أن لا ترى لنفسك فضلًا على غيرك .

وقيل : الفتوة : كسْر الصنم الذي بينك وبين الله تعالى ؛ وهو نفسك ؛ فإن الله حكى عن خليله إبراهيم عليه السلام : أنه جعل الأصنام جُذاذًا ، فكسر الأصنام له . فالفتى من كسر صنمًا واحدًا في الله .

وقيل : الفتوة : أن لا تكون خصمًا لأحد ، يعني في حفظ نفسك . وأمَّا في حق الله، فالفتوة: أن تكون خصمًا لكل أحد، «ولو كان الحبيب المصافيا».

وقال الترمذي : الفتوة : أن يستوي عندكم المقيم والطارئ .

وقيل : ليس الفتوة أن تَرْبح على صديقك .

وقيل : فضيلة تأتيها ، ولا ترى نفسك فيها . وقيل : أن لا تحتجب ممَّن قصدك .

وقيل : أن لا تهرب إذا أقبل العافي ، يعني طالب المعروف . وقيل : إظهار النعمة وإسرار المحنة .

وقيل : أن لا تدَّخِر ولا تعتذر .

فُتُوَّة يوسف عليه السلام مع إخوته :

انظر رحمك الله إلى ما قاله الله تعالى حاكيًا على لسان يوسف : ﴿ **ورفع أبويه على العرش وخرُّوا له سُجَّدًا وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤيايَ مِن قَبْلُ قد جعلها ربِّي حقًّا وقد أحسنَ بي إذْ أخْرَجني من السِّجن وجاءَ بكم من البدوِ من بَعْدِ أن نزغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي إنَّ ربِّي لطيفٌ لما يشاء إنه هو العليمُ الحكيمُ** ﴾ . [يوسف : ١٠٠] .

قال ابن القيم : « لم يقل : (أخرجني من الجُبِّ) ؛ حفظًا للأدب مع إخوته ، وتفتّيًا عليهم : أن لا يُخجلهم بما جرى في الجبِّ .وقال : ﴿ **وجاء بكم من البدو** ﴾ ولم يقل : (رفع عنكم جهد الجوع والحاجة) أدبًا معهم . وأضاف ما جرى إلى السبب ، ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه ، فقال : ﴿ **من بعد أن نزغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي** ﴾ ، فأعطى الفُتُوَّة والكرم والأدب حقّه ، ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم »[1] .

كمال الفُتُوَّة في بيت النُّبُوَّة :

قال ابن القيم : « ومن الفتوة التي لا تُلْحق : ما يُذْكر أن رجلًا نام من الحاج في المدينة ، ففقد هميانًا فيه ألف دينار ، فقام فزعًا ، فوجد جعفر بن محمد ، فعلِق به وقال : أخذتَ همياني ؟ فقال : أيّ شيء كان فيه ؟ قال : ألف دينار. فأدخله داره ووزن له ألف دينار، ثم إن الرجل وجد هميانه ، فجاء إلى

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٠ - ٣٨١ .

جعفر معتذرًا بالمال ، فأبى أن يقبله منه ، وقال : شيء أخرجته من يدي لا أستردُّه أبدًا . فقال الرجل للناس : مَن هذا ؟ فقالوا : هذا جعفر بن محمد رضي الله عنه »(١) .

لله درُّهم من أهل بيتٍ ، لسان حالهم يقول :

تركنا البحارَ الزَّاخِراتِ وراءنا   فمن أين يدري الناس أنَّى توجَّهنا

من فُتُوَّة رجل مع امرأته : « سبقتَ الفتيان » :

« وقيل : تزوّج رجل بامرأة ، فلما دخلت عليه رأى بها الجدري، فقال: اشتكيت عيني . ثم قال : عميت . فبعد عشرين سنة ماتت ، ولم تعلم أنه بصير ، فقيل له في ذلك ، فقال : كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها . فقيل له : سبقتَ الفتيان .

مِثْلُك يخدم الفتيان :

وقدم جماعة فتيان لزيارة فتى،فقال الرجل : يا غلام قدِّم السفرة . فلم يقدِّم ، فقالها ثانيًا وثالثًا ، فلم يقدِّم ، فنظر بعضُهم إلى بعض ، وقالوا : ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل مَن يتعاصى عليه في تقديم السفرة كلّ هذا . فقال الرجل : لِمَ أبطأت بالسفرة ؟ فقال الغلام : كان عليها نمل . فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلى الفتيان مع النمل ، ولم يكن من الفتوة إلقاء النمل وطردهم عن الزاد ، فلبثتُ حتى دبَّ النمل . فقالوا : يا غلام ، مثلك يخدم الفتيان .

واستضاف رجُلٌ جماعةً من الفتيان ، فلما فرغوا من الطعام ، خرجت جارية تصبُّ الماء على أيديهم ، فانقبض واحد منهم ، وقال : ليس من الفتوة أن تصبَّ النسوانُ الماء على أيدي الرجال . فقال آخر منهم : أنا منذ سنين أدخل

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٤٣ .

إلى هذه الدار ، ولم أعلم أن امرأة تصبُّ الماء على أيدينا أو رجلًا »[1] .

لله درُّك .. فقد سار على دربك الربيع بن خثيم ، تلميذُ ابن مسعود رضي الله عنه ، والذي تردَّد على بيته السنين الطويلة ، ومن كثرة غضّ طرفه ، كانت الجارية تظنُّه أعمى ... فإذا طرق الباب دخلت على ابن مسعود ، وقالت له : « صاحبك الأعمى أتى » .

« نكتة الفتوة : أن لا تشهد لك فضلًا ، ولا ترى لك حقًّا » :

يقول ابن القيم – شارحًا كلام شيخ الإسلام الهروي – : « يقول : قلب الفتوة ، وإنسان عينها : أن تفنى بشهادة نقصك وعيبك عن فضلك ، وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم .

والناس في هذا مراتب ؛ فأشرفها : أهل هذه المرتبة ، وأخسُّها : عكسهم . وهم أهل الفناء في شهود فضائلهم عن عيوبهم ، وشهود حقوقهم على الناس عن شهود حقوق الناس عليهم .

وأوسطهم : من شهد هذا وهذا ؛ فيشهد ما في العيب والكمال ، ويشهد حقوق الناس عليه وحقوقه عليهم .

درجات الفُتُوَّة :

قال الهروي : « وهي على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : تَرْك الخصومة ، والتغافل عن الزلَّة ، ونسيان الأذيَّة » :

«هذه الدرجة من باب الترك والتخلي، وهي أن لا يخاصم أحدًا ؛ فلا ينصب نفسه خصمًا لأحدٍ غيرها ، فهي خَصْمُه .

---

(١) مدارج السالكين ٣٤٣/٢ .

وهذه المنزلة أيضا ثلاث درجات :

أ - لا يُخاصم بلسانه .

ب - ولا ينوي الخصومة بقلبه .

ج - ولا يخطرها على باله . هذا في حقِّ نفسه .

وأما في حقِّ ربِّه : فالفتوة : أن يخاصم بالله وفي الله ، ويحاكم إلى الله ، كما كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح : « وبك خاصمت ، وإليك حاكمت » . وهذه درجة فتوة العلماء الدعاة إلى الله تعالى .

فُتُوَّة التغافل أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية :

وأمَّا « التغافل عن الزلَّة » : فهو أنه إذا رأى من أحد زَلَّة ، يوجب عليه الشرع أخذه بها ؛ أظهر أنه لم يرها ؛ لئلا يعرِّض صاحبها للوحشة ، ويريحه من تحمُّل العذر .

وفتوة التغافل : أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية .

قال أبو علي الدقَّاق : جاءت امرأة فسألت حاتمًا عن مسألة ، فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة، فخجلت ؛ فقال حاتم : ارفعي صوتك . فأوهمها أنه أصم ، فَسُرَّت المرأة بذلك ، وقالت : إنه لم يسمع الصوت . فلُقِّب بحاتم الأصم . وهذا التغافل هو نصف الفتوة .

نسيانُ الأذيَّة :

وأما « نسيان الأذيَّة » : فهو بأن تنسى أذيَّة من نالك بأذى ؛ ليصفو قلبك له ، ولا تستوحش منه .

قلت : وهنا نسيان آخر أيضًا ، وهو من الفتوة ؛ وهو نسيان إحسانك إلى من أحسنت إليه ، حتى كأنه لم يصدر منك ، وهذا النسيان أكمل من الأول ، وفيه قيل :

ينسـى صنـائعه والله يُظهـرهـا إن الجميلَ إذا أخفيتَه ظهرا »[(١)]

«الدرجة الثانية: أن تُقرِّب مَن يقصيك ، وتكرم من يؤذيك ، وتعتذر إلى من يجني عليك ؛ سماحةً لا كظمًا ، ومودَّةً لا مصابرةً » .

قـال ابـن القيم : « هذه الدرجة أعلى مما قبلها وأصعب ؛ فإن الأولـى تتضمن ترك المقابلة والتغافل ، وهذه تتضمن الإحسان إلى من أساء إليـك ، ومعاملته بضدِّ ما عاملك به ؛ فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خِطَّتين ؛ فخطتُك : الإحسان ، وخطته : الإساءة . وفي مثلها قال القائل :

إذا مـرضنـا أتينـاكـم نعـودُكُمُ وتُـذنبـونَ فنـأتيكُـم ونعتَـذِرُ

ومن أراد فَهْم هذه الدرجة كما ينبغي ، فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ مـع الناس ، يجدها هذه بعينها ، ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحدٍ سواه ، ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة » .

ابـن تيميـة مِـن سـادات الفتيـان : « وددتُ أنـي لأصحابي مثله لأعـدائـه وخصـومـه » :

قال ابن القيم : « وما رأيتُ أحدًا قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - وكان بعض أصحابه الأكابر يقول : وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه .

وما رأيته يدعو على أحدٍ منهم قط ، وكان يدعو لهم .

وجئتُ يومًا مبشِّرًا له بموت أكبر أعدائه وأشدِّهم عداوة وأذى لـه ، فنهرني وتنكَّر لى واسترجع ، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزَّاهم ، وقال : إني لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتُكم

(١) مدارج السالكين ٢/٣٤٤ - ٣٤٥ .

فيه . ونحو هذا من الكلام ، فسرُّوا به ودعوا له ، وعظموا هذه الحال منه ، فرحمه الله ورضي عنه . وهذا مفهوم » .

الاعتذار إلى مَن يجني عليك :

قال ابن القيم : « وأما « الاعتذار إلى من يجني عليك » : فإنه غير مفهوم في بادئ الرأي ؛ إذ لم يصدُر منك جناية توجبُ اعتذارًا ، وغايتك : أنك لا تؤاخذه ، فهل تعتذر إليه من تَرْك المؤاخذة ومعنى هذا : أنك تُنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه ، والجاني خليقٌ بالعذر .

والذي يُشهدك هذا المشهد ، وأنك تعلم أنه إنما سُلِّط عليك بذنب ، كما قال تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبتْ أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ [الشورى : ٣٠] . فإذا علمتَ أنك بدأتَ بالجناية فانتقم الله منك على يده ؛ كنت في الحقيقة أولى بالاعتذار .

والذي يُهَوِّنُ عليك هذا كلَّه ، مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدمة ، فعليك بها ؛ فإن فيها كنوز المعرفة والبِرِّ .

وقوله : « سماحة لا كظمًا ، ومودةً لا مصابرةً » :

يعني : اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحة وطيبة نفس وانشراح صدر ، لا عن كظْمٍ وضيقٍ ومصابرةٍ ؛ فإن ذلك دليل على أن هذا ليس في خُلُقِك ، وإنما هو تكلُّف يوشك أن يزول ، ويظهر حكم الخلق صريحا؛ فتُفتَضح . وليس المقصود إلا إصلاح الباطن والسر والقلب .

وهذا الذي قاله الشيخ لا يمكن إلا بعد العبور على جِسْر المصابرة والكظم ؛ فإذا تمكن منه أفضى به إلى هذه المنزلة بعون الله ، والله أعلم » .

« الدرجةُ الثالثةُ : أن لا تتعلَّق في السير بدليل ، ولا تشوب إجابتك بعوض ، ولا تقف في شهودك على رسم » :

قال ابن القيم : هذه ثلاثة أمور اشتملت عليها هذه الدرجة :

أمّا عدم تعلُّقه في السير بدليل : فقد بيَّن مراده به في آخر الباب ، إذ يقول : « وفي علمِ الخصوص : مَن طلب نور الحقيقة على قدم الاستدلال ، لم يحلَّ له دعوى الفُتُوَّة أبدًا ». وهذا موضع عظيم يحتاج إلى تبيين وتقدير .

والمراد : أن السائر إلى الله يسير على قدم اليقين ، وطريق البصيرة والمشاهدة ؛ فوقوفه مع الدليل : دليل على أنه لم يَشُمَّ رائحة اليقين . والمراد بهذا : أن المعرفة عندهم ضرورية لا استدلالية ، وهذا هو الصواب ؛ ولهذا لم تدع الرسلُ قط الأممَ إلى الإقرار بالصانع سبحانه وتعالى ، وإنما دعَوْهم إلى عبادته وتوحيده ، وخاطبوهم خطاب من لا شبهة عنده قط في الإقرار بالله تعالى ، ولا هو محتاج إلى الاستدلال عليه ؛ ولهذا : ﴿ **قالت رُسُلُهم أفي الله شكٌّ فاطرِ السموات والأرض** ﴾ . وكيف يصحُّ الاستدلال على مدلول هو أظهر من دليله ؟ حتى قال بعضهم : كيف أطلب الدليل على من هو دليلٌ على كلِّ شيء ؟ فتقيُّد السائر بالدليل وتوقُّفه عليه ، دليلٌ على عدم يقينه . بل إنما يتقيَّد بالدليل الموصِّل له إلى المطلوب بعد معرفته به ؛ فإنه يحتاج - بعد معرفته - إلى دليل يوصِّله إليه ، ويدلُّه على طريق الوصول إليه ، وهذا الدليل هو الرسول ﷺ ، فهو موقوفٌ عليه يتقيَّد به ، ولا يخطو خطوة إلا وراءه .

وأيضًا فالقوم يشيرون إلى الكشف ومشاهدة الحقيقة ، وهذا لا يمكن طلبه بالدليل أصلًا . ولا يقال : ما الدليل على حصول هذا ؟ وإنما يحصُل بالسلوك في منازل السير ، وقطعها منزلة منزلة ، حتى يصل إلى المطلوب . فوصوله إليه بالسير لا بالاستدلال ، بخلاف وصول المستدل ؛ فإنه إنما يصل إلى العلم ، ومطلوب القوم وراءه . والعلم منزلة من منازلهم - كما سيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى - ولهذا يسمُّون أصحاب الاستدلال : أصحاب القال . وأصحاب الكشف : أصحاب الحال . والقوم عاملون على الكشف الذي يحصل بنور العيان ، لا على العلم الذي يُنال بالاستدلال والبرهان .

وهذا موضع غلط واشتباه ؛ فإنَّ الدليل في هذا المقام شرط ، وكذلك العلم ، وهو باب لا بد من دخوله إلى المطلوب ، ولا يوصل إلى المطلوب إلا من بابه ، كما قال تعالى : ﴿ وَأْتُوا البيوت من أبوابها ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

ثم إنه يُخافُ على مَن لا يقف مع الدليل ما هو أعظم الأمور وأشدّها خطرًا ، وهو الانقطاع عن الطلب بالكلية ، والوصول إلى مجرَّد الخيال والمحال ؛ فمن خرج عن الدليل ضلَّ سواء السبيل .

فإن قيل : تعلُّقه في المسير بالدليل ، يفرِّق عليه عزمَه وقلبه ؛ فإن الدليل يفرِّق والمدلول يجمع . فالسالك يقصد الجمعية على المدلول ، فما له ولتفرقة الدليل ؟ .

قيل: هذه هي البلية التي لأجلها أعرضَ مَنْ أعرضَ مِن السالكين عن العلم ونهى عنه ، وجُعلت علَّة في الطريق ، ووقع هذا في زمن الشيوخ القدماء العارفين فأنكروه غاية الإنكار ، وتبرَّءُوا منه ومِن قائله ، وأوصَوْا بالعلم ، وأخبروا أن طريقهم مقيَّدةٌ بالعلم ؛ لا يفلح فيها مَن لم يتقيَّد بالعلم . والجنيد كان من أشدّ الناس مبالغة في الوصية بالعلم ، وحثًّا لأصحابه عليه .

والتفرُّق في الدليل خيرٌ من الجمعية على الوهم والخيال ؛ فإنه لا يعرف كون الجمعية حقًّا إلا بالدليل والعلم . فالدليل والعلم ضروريان للصادق ، لا يُستغنىٰ عنهما .

نعم،يقينُه ونور بصيرته وكشفه ، يغنيه عن كثير من الأدلة التي يتكلَّفها المتكلِّفون ، وأرباب القال ؛ فإنه مشغول عنها بما هو أهم منها ، وهو الغاية المطلوبة .

مثاله : أن المتكلِّم يُفني زمانه في تقرير حدوث العالم ، وإثبات وجود الصانع . وذلك أمرٌ مفروغ منه عند السالك الصادق صاحب اليقين ؛ فالذي يطلبه هذا بالاستدلال – الذي هو عرضة الشُّبه والأسئلة والإيرادات

التي لا نهاية لها - هو كشفٌ ويقين للسالك . فتقيُّده في سلوكه بحال هذا المتكلم انقطاعٌ ، وخروجٌ عن الفتوة . وهذا حقٌّ لا يُنازع فيه عارف ، فترى المتكلِّم يبحث في الزمان والمكان، والجواهر والأعراض، والأكوان ، وهِمَّته مقصورة عليها لا يعدوها ليصل منها إلى المكوِّن وعبوديته . والسالك قد جاوزها إلى جمع القلب على المكوِّن وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته ، لا يلتفتُ إلى غيره ، ولا يشتغل قلبه بسواه .

فالمتكلِّم متفرِّق مشتغل في معرفة حقيقة الزمان والمكان ، والعارف قد شح بالزمان أن يذهب ضائعًا في غير السير إلى ربِّ الزمان والمكان .

وبالجملة : فصاحبُ هذه الدرجة لا يتعلَّق في سيره بدليل ، ولا يمكنه السير إلا خلف الدليل ، وكلاهما يجتمع في حقِّه . فهو لا يفتقر إلى دليل على وجود المطلوب . ولا يستغني طرفة عين عن دليل يوصِّله إلى المطلوب . فسَيْر الصادق على البصيرة واليقين والكشف ، لا على النظر والاستدلال .

وأما قوله : « ولا تشوب إجابتك بعوض » :

أي : تكون إجابتك لداعي الحق خالصة ، إجابة محبة ورغبة ، وطلب للمحبوب ذاته ، غير مشوبة بطلب غيره من الحظوظ والأعواض ؛ فإنه متى حصل لك؛ حصل لك كلُّ عوض وكلُّ حظٍّ به وكل قسم. كما في الأثر الإلهي: « ابن آدم ، اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كلَّ شيء ، وإن فُتُّك فاتك كلُّ شيء ، وأنا أحبُّ إليك من كلِّ شيء » .

فمن أعرض عن طلب ما سوى الله ، ولم يَشُب طلبه له بعوض ، بل كان حُبًّا له ، وإرادة خالصة لوجهه ؛ فهو في الحقيقة الذي يفوز بالأعواض والأقسام والحظوظ كلِّها . فإنه لمَّا لم يجعلها غاية طلبه ، توفَّرت عليه في حصولها ، وهو محمودٌ مشكورٌ مقرَّب ، ولو كانت هي مطلوبة لنقصت عليه بحسب اشتغاله بطلبها وإرادتها عن طلب الرب تعالى لذاته وإرادته .

فهذا قلبه ممتلئ بها والحاصل له منها نَزْرٌ يسير ، والعارف ليس قلبه متعلِّقًا بها وقد حصلت له كلها ؛ فالزهد فيها لا يُفيتكها ، بل هو عينُ حصولها . والزهد في الله هو الذي يُفيتكه ويُفيتك الحظوظ . وإذا كان لك أربعة عبيد ؛ أحدهم : يريدك ولا يريد منك ، بل إرادته مقصورة عليك وعلى مرضاتك . والثاني : يريد منك ولا يريدك ، بل إرادته مقصورة على حظوظه منك . والثالث : يريدك ويريد منك . والرابع : لا يريدك ولا يريد منك ، بل هو متعلِّق القلب ببعض عبيدك ؛ فله يريد ، ومنه يريد – فإنَّ آثر العبيد عندك ، وأحبَّهم إليك ، وأقربهم منك منزلة ، والمخصوص من إكرامك وعطائك بما لا يناله العبيد الثلاثة ؛ هو الأول . هكذا نحن عند الله سواء .

وأمّا قوله : « ولا تقف في شهودك على رسم » :

فيعني : أن لا يكون منك نظر إلى السوى عند الشهود ، كما تقدَّم مرارًا . وهذا عند القوم غير مكتسب ؛ فإن الشهود إذا صحَّ محا الرسوم ضرورة في نظر الشاهد ، فلا حاجة إلى أن يشرط عليه عدم الوقوف عليها . والشهود الصحيح ماحٍ لها بالذات ، لكن أوله قد لا يستغني عن الكسب ، ونهايته لا تقف على كسْب .

نفيسة :

قال : « واعلم أنَّ مَن أحوج عدوَّه إلى شفاعة ، ولم يخجل من المعذرة إليه ؛ لم يشمَّ رائحة الفتوة » .

يعني أن العدوَّ متى علم أنك متألِّم من جهة ما نالك من الأذى منه ، احتاج إلى أن يعتذر إليك . ويُشَفِّع إليك شافعًا يزيل ما في قلبك منه . فالفتوة كلُّ الفتوة : أن لا تحوجه إلى الشفاعة ، بأن لا يظهر له منك عتْب ولا تغيُّر عما كان له منك قبل معاداته ، ولا تطوي عنه بِشْرك ولا بِرَّك . وإذا لم تخجل

أنت من قيامه بين يديك مقام المعتذر ، لم يكن لك في الفتوة نصيب .

ولا تستعظم هذا الخُلُق ، فإن للفتيان ما هو أكبر منه . ولا تستصعبه فإنه موجود في كثير من الشطار والعشراء ، الذين ليس لهم في حال المعرفة ولا في لسانها نصيب ، فأنت أيها العارف أولى به .

قال : « وفي علم الخصوص : مَن طلب نور الحقيقة على قدم الاستدلال ؛ لم يحلّ له دعوى الفتوة أبدًا » .

كأنه يقول : إذا لم تحوج عدوك إلى العذر والشفاعة ، ولم تكلّفه طلب الاستدلال على صحة عذره ؛ فكيف تحوج وليَّك وحبيبك إلى أن يقيم لك الدليل على التوحيد والمعرفة ، ولا تشير إليه حتى يقيم لك دليلًا على وجوده ووحدانيته ، وقدرته ومشيئته ؟ فأين هذا من درجة الفتوة ؟! وهل هذا إلا خلاف الفتوة من كل وجه؟!

ولو أن رجلا دعاك إلى داره ، فقلت للرسول : لا آتي معك حتى تقيم لي الدليل على وجود من أرسلك ، وأنه مطاع ، وأنه أهل أن يُغشى بابه ؛ لكنتَ في دعوى الفتوة زنيما . فكيف بمن وجوده ، ووحدانيته ، وقدرته وربوبيته وإلهيته ؛ أظهر من كل دليل تطلبه ؟ فما من دليل يستدل به ، إلا ووحدانية الله وكماله أظهر منه ؛ فإقرار الفِطَر بالرب سبحانه خالق العالم لم يوقفها عليه موقف ، ولم تحتج فيه إلى نظر واستدلال : ﴿ **أفي الله شكٌّ فاطر السموات والأرض** ﴾ [إبراهيم : ١٠] . فأبعدُ الناس من درجة الفتوة : طالب الدليل على ذلك .

وليس يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليل

ومن الفُتُوَّة العفو مع الإحسان ، وهاك أمثلة :

صفية بنت حُيي أمّ المؤمنين رضي الله عنها :

قال أبو عمر بن عبد البر : روينا أنَّ جاريةً لصفيَّة أتت عمر بن الخطاب

فقالت : إن صفية تُحبُّ السبت ، وتصل اليهود . فبعث عمر يسألها فقالت : أما السبت فلم أُحبَّه منذ أبدلني الله به الجمعة ، وأمَّا اليهود فإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها . ثم قالت للجارية : ما حملكِ على ما صنعتِ ؟ قالت : الشيطان . قالت : فاذهبي فأنت حرَّة[١] .

عبد الله بن عون رحمه الله :

عن بكَّار بن محمد السيريني ، قال : وكان – فيما حدثني بعضُ أصحابنا– لابن عون ناقة يغزو عليها ويحجّ، فكان بها معجبًا، قال: فأمر غلامًا له يستقي عليها ، فجاء بها وقد ضربها على وجهها ، فسالت عينُها على خدِّها ، فقلنا : إن كان من ابن عون شيءٌ فاليوم . قال : فلم يلبث أن نزل فلما نظر إلى الناقة قال : سبحان الله ! أفلا غير الوجه ، بارك الله فيك، اخرج عني، اشهدوا أنَّه حرٌّ[٢] .

أحمد بن حنبل إمام أهل السُّنَّة :

قال الإمام أحمد : كلُّ من ذكرني ففي حلٍّ ، إلا مبتدعًا . وقد جعلت أبا إسحاق – يعني : المعتصم – في حلٍّ ؛ قد رأيتُ الله يقول : ﴿ **وليعفوا وليصفحوا ألا تحبُّونَ أن يغفرَ الله لكم** ﴾ . وأمر النبي ﷺ أبا بكر بالعفو في قصة مسطح . قال أبو عبد الله : وما ينفعُك أن يعذِّب الله أخاك المسلم في سببك[٣] .

وهذه صورٌ من عُلُوِّ الهِمَّة في المواساة ، وهي من الفُتُوَّة روحها :

(١) السير ٢/٢٣٣ ، والاستيعاب ١٣/٦٥ .
(٢) السير ٦/٣٧١ .
(٣) السير ١١/٤٦١ .

أبو بَرْزة الأسلمي رضي الله عنه :

قيل : كانت لأبي بَرْزة الأسلمي جَفنة من ثريد غدوةً ، وجفنةٌ عشيةً للأرامل واليتامى والمساكين .

حكيم بن حزام رضي الله عنه :

قال شعبة : لمّا تُوفِّي الزبير لقي حكيم عبدَ الله بنَ الزبير فقال : كم ترك أخي من الدَّيْن ؟ قال : ألف ألف . قال : عليَّ خمسمائة ألف[1] .

سعيد بن العاص رحمه الله :

قال ابن عيينة : « كان سعيد بن العاص إذا قصده سائل وليس عنده شيءٌ قال : اكتب عليَّ سجلًّا بمسألتك إلى الميسرة » .

رحمه الله،فهو من قوم إذا أقبل عليهم السائل يفرحون به ، ويقولون : مرحبًا بمن جاء يحملُ أزوادنا إلى الآخرة بغير أجرة ، ويُقلُّ عنا ما يشغلنا عن عبادة ربِّنا سبحانه وتعالى .

وذكر عبد الأعلى بن حماد أن سعيد بن العاص استسقى من بيت فسقوه ، واتفق أن صاحب المنزل أراد بيعه لديْنٍ عليه ، فأدَّى عنه أربعة آلاف دينار[2] .

زيد بن أسلم رحمه الله :

قال أبو الأعرج : لقد رأيتُنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيهًا ، أدنى خصلة فينا التواسي بما في أيدينا ، وما رأيتُ في مجلسه محاربيْن ولا متنازعيْن في حديث لا ينفعُنا[3] .

---

(١) انظر ترجمته في السير ٣/٤٤ - ٥١ .
(٢) انظر السير ٣/٤٤٤ -٤٤٩ .
(٣) السير ٥/٣١٦ - ٣١٧ .

بقي بن مخلد رحمه الله :

مشى رحمه الله مع ضعيف في مظلمة إلى « إشبيلية » ، ومشى مع آخر إلى « إلبيرة » ، ومع امرأة ضعيفة إلى « جيّان »[١] .

القاضي الخياط : أبو عبد الله محمد بن علي المروزي :

عُرف بالخياط ؛ لأنه كان يخيط على الأيتام والمساكين حِسْبَةً .

« قال الحاكم : سمعت أبي يقول : كان القاضي محمد بن علي المروزي طول أيامه يسكن دار ابن حمدون بحذاء دارنا، وكنت أعرفه يخيط - بالليل ، وإذا تفرَّغ بالنهار - للأيتام والضعفاء ، ويعدُّها صَدَقَةَ »[٢] .

ابن أبي ذهل :

« قال الحاكم : صحبته حَضرًا وسفرًا ، فما رأيتُ أحسن وضوءًا ولا صلاةً منه ، ولا رأيتُ في مشايخنا أحسنَ تضرُّعًا وابتهالًا منه ، قيل لي : إن عُشْر غلَّته تبلغ ألف حمل . وحدثني أبو أحمد الكاتب أن النسخة بأسامي من يمونهم تزيد على خمسة آلاف بيت ، وقد عُرضت عليه ولايات جليلة فأبى »[٣] .

الإمام أحمد الرفاعي رحمه الله :

أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ، والحافظ الذهبي في السير (٢١/٧٨ - ٨٠) .

كان رحمه الله يجمعُ الحطب ويجيء به إلى بيوت الأرامل، ويملأ لهم بالجرَّة .

* * *

---

(١) السير ١٣/٢٨٥ - ٢٩٦ .
(٢) السير ١٤/٥٦٤ - ٥٦٥ .
(٣) السير ١٦/٣٨١ - ٣٨٢ .

ومن الفُتُوَّة : التَّذمُّم للصاحب والأخ :

« عن الأعمش ، أن سعد بن عبيدة خرج عليه جُعْل مائتي درهم ، فحُبِس بها ، فمرّ عليه عمارة بن عمير فسأل ، فأخبروه ، فعمد إلى مكاتبٍ له ، فصالحه على مائتي درهم يعجِّلها ، فأعطاها ، فأُخْرج و لم يعلمه ، فلمَّا خرج قال : من أخرجني ؟ قالوا : عمارة .

وقال العلاء بن المسيب : كان خيثمة يحمل صُررًا ، وكان موسرًا ، فيجلس في المسجد فإذا رأى رجلًا من أصحابه في ثيابه رثاثة ، اعترض له فأعطاه .

وقال سفيان بن عيينة : سمعتُ مساورًا الورَّاق يقول : ما كنتُ لأقول لرجل: إني أحبُّك في الله عز وجل، فأمنعه شيئًا من الدنيا. وحُدِّثت عن ضمرة ابن ربيعة ، عن عمرو بن عبد الرحمن ، قال : جاءت يزيدَ بن عبد الملك بن مروان غلَّةٌ من عَمَلته ، فجعل يصررها ويبعث بها إلى إخوانه ، فقال : إني أستحيي من الله عز وجل أن أسأل الجنة لأخ من إخواني ، وأبخل عنه بدينارٍ أو درهم .

وعن أبي منصور ، عن إبراهيم أنه انتهى معه إلى زقاقٍ ، فقال له إبراهيم : تقدَّم . فأبى أن يتقدَّم ، فتقدَّم إبراهيم ، ثم قال : لو كنتُ أعلمُ أنك أكبر مني بيوم ما تقدَّمتُك .

وقال أبو إياس : إذا اصطحب الرجلان فتقدَّم أحدُهما صاحبَه ، فقد أساء الصحبة .

وعن مالك بن مغول ، عن طلحة قال : أخذت معه في زقاق ، فقال طلحة : لو كنت أعلمُ أنك أكبر مني بيوم ، ما تقدَّمتُك .

وقال عبد الله بن قيس : من حق الصاحب على صاحبه ، إذا بالت دابَّته أن يقف له .

وقال محمد بن مناذر : كنتُ أمشي مع الخليل بن أحمد فانقطع شِسْعي ،

فخلع نعله ، فقلت : ما تصنع ؟ قال : أواسيك في الحفاء .

وقال بكر بن عبد الله : إذا كنتَ مع صاحبٍ لك فتخلَّف يبول ، فلم تقم عليه حتى يقضي بوله ، فلستَ له بصاحب . وإذا ما انقطع شِسْعُه فقام يصلحه ، فلم تقم عليه ، فلستَ له بصاحب .

وقال الحسن بن كثير : شكوتُ إلى محمد بن علي الحاجة وجفاء إخواني ، فقال : بئس الأخ ، أخ يرعاك غنيًّا ويقطعك فقيرًا . ثم أمر غلامه فأخرج كيسًا فيه سبعمائة درهم ، فقال : استنفق هذه ، فإذا نفدت فأعلمني .

وقال الفضل بن دلهم : كان الحسن إذا فقد الرجل من إخوانه أتى منزله ؛ فإن كان غائبًا وصل أهله وعياله ، وإن كان شاهدًا سأله عن أمره وحاله ، ثم دعا بعضَ ولده من الأصاغر فأعطاهم الدراهم ووهب لهم ، وقال : أبا فلان ، إن الصبيان يفرحون بهذا .

وقال عبَّاد بن الوليد القرشي : كان الحسن إذا فقد الرجل من إخوانه ، أتاه فسلَّم عليه فسأله عن حاله ، فإذا خرج من عنده دعا الخادم فأعطاها صرَّةً فيها دراهم فقال : ادفعيها إلى مولاتِك وقولي : استنفقيها ، ولا تُعلمي سيِّدك بها .

وعن جميل بن مُرَّة قال : مسَّتنا حاجة شديدة ، فكان مورق العجلي يأتينا بالصُّرَّة فيقول : امسكوا لي هذه عندكم . ثم يمضي غير بعيد فيقول : إن احتجتُم إليها فأنفقوها .

وقال سفيان : قيل لمحمد بن المنكدر : ما بقي ممَّا تستلذ ؟ قال : الإفضال على الإخوان .

وقال بسطام التيمي : كان حمّاد بن أبي سليمان يزورني ، ويقيم عندي سائر نهاره ولا يطعم شيئًا ، فإذا أراد أن ينصرف قال : انظر الذي تحت الوسادة ، فمُرهم ينتفعون به . قال : فأجد الدراهم الكثيرة .

وعن أبي الرباب أن زبيدًا قدم من سفر ، فأهدى له طلحة سلال خبيص ، فجمع عليها إخوانه فأكلوا ، وكساهم ثوبًا ثوبًا .

وعن سلام بن النجاشي قال : لقي الحسنُ بن أبي الحسن البصري بعضَ إخوانه ، فلمّا أراد أن يفارقَه خلع عمامته فألبسه إياها ، وقال : إذا أتيتَ أهلك فبعها واستنفق ثمنها .

وعن فضالة الشحَّام قال : كان الحسن إذا دخل عليه إخوانه أتاهم بما يكون عنده ، ولربما قال لبعضهم : أخرج السلة من تحت السرير . فيخرجها فإذا فيها رطب ، فيقول : ادّخرتُه لكم .

وعن زياد بن أبي زياد قال : ما دخلت على عبد الرحمن بن أبي ليلى قط ، إلّا حدّثني بحديثٍ حسن ، وأطعمني طعامًا طيِّبًا .

وعن ضمرة ، عن ابن شوذب قال : كان أبان بن أبي عيَّاش يدعو إخوانه فيصنع لهم الطعام ، ويُجيزهم بالدراهم .

وعن غسَّان بن المفضل قال : كنت أرى بشر بن منصور إذا زاره الرجل من إخوانه ، قام معه حتى يأخذ بركابه . قال : وفعل ذلك بي كثيرًا .

وعن يونس ، عن الحسن قال : إنْ كان الرجل ليخلف أخاه في أهله بعد موته أربعين سنة »[1] .

عمرو بن قيس الملائي : يخلف منصور بن المُعْتمر في النفقة على أهله بعد موته :

« قال هُريم بن سفيان : كان عمرو بن قيس المُلائي يمرُّ بنا في كل جمعة ، ومعه هديَّة قد حملها ، يأتي بها منزل منصور بن المُعْتمر قال : وذلك بعد موت منصور بما شاء الله ، فلم يزل على ذلك حتى مات . قال : فبلغني أن أهله كانت تعاهدهم بنحو من ذلك بعدما مات عمرو .

---

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص ٧١ -٧٨ .

وعن بسطام التيمي قال : رأيت طلحة بن مصرِّف يخرج من زقاقٍ ضيِّق في التيم ، فقلتُ : من أين يجيء طلحة ؟ قالوا : يأتي أمَّ عمارة بن عمير يبرها بالنفقة والكسوة والصِّلة . قال : وذاك بعد موت عمارة ببضع عشرة سنة . قال : وكانت أمُّ عمارة أعجمية .

قال السري السقطي رحمه الله تعالى : « ذهب المعروف ، وبقيت التجارة ؛ يعطي أحدهم لأخيه الشيء لأجل أن يعطيه نظيره » .

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول : « لقد أدركنا الناس وأحدهم يدخل دار أخيه وهو غائب ، فيرى السَّلة مملوءة فاكهة فيأخذها يأكل منها ويفرق منها بغير إذن ، فإذا جاء أخوه وأُخبِر ، فرح بذلك » .

عبد الله بن عون والحسن البصري :

« قال معاذ بن معاذ : سمعت ابن عون يقول : ما بقي أحد أبطن بالحسن منا ، والله لقد أتيتُ منزله في يوم حار ، وليس هو في منزله ، فنمتُ على سريره ، فلقد انتبهتُ وإنه ليروِّحني .

وكان لمحمد بن سيرين - رحمه الله تعالى - بغل مربوط في دهليزه فكان كلُّ من احتاج إلى ركوبه أخذه وركبه من غير استئذان ؛ لما يعلمون من طيب نفسه بذلك .

ودخل جماعة من إخوان سفيان الثوري دارَه وهو غائب ، فأخذوا ما يأكلون ، وجلسوا يأكلون ويتحدَّثون في صلاح سفيان ، فبينما هم كذلك إذ أقبل سفيان ، فوجدهم على تلك الحالة فبكى ، فقالوا له : ما يُبكيك ؟ قال : كيف لا أبكي وقد ذكرتموني بأحوال السلف الصالح ، وعاملتموني بأخلاق الصالحين ، ولست منهم ؟!

وكان بقية بن الوليد - رحمه الله - يدخل دار صديقه في غيبته ، ويأخذ القدر من على النار ، ويضعه على باب الدار ، فيأكل منه ويفرِّق على الفقراء والمساكين ، فإذا جاء أخوه فرح بذلك ، وقال : جزاك الله من أخ صالح خيرًا ،

قدَّمت لنا ليوم معادنا .

وقد كان جعفر بن محمد رضي الله عنهما يقول : بئس الأخ من لا يتجرأ أخوه أن يفتح كيسه في غيبته ويأخذ منه ما يحتاج إليه بغير إذنه »[١] .

قال الشعراني في « تنبيه المغترِّين » (٨٩) : « كان عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - يشترط على من يريد أن يصحبه في السفر ، أن يكون عبد الله هو الذي ينفق عليه ، وأن يكون خادمًا ومؤذنًا .

وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول : عجبًا للرجل اللئيم ؛ يبخل بالدنيا على أصدقائه ، ويسخى بالجنة لأعدائه !! » .

وعن سلمى مولاة أبي جعفر محمد بن علي قالت : كان يدخل عليه إخوانه ، فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطيِّب ، ويكسوهم الثياب الحسنة ، ويهب لهم الدراهم . قالت : فأقول له : بعض ما تصنع ؟! فيقول : يا سلمى ، ما نؤمِّل في الدنيا بعد المعارف والإخوان ؟!

وعن حماد بن أبي حنيفة ، قال : كان أبو جعفر محمد بن علي يدعو نفرًا من إخوانه كل جمعة ؛ فيطعمهم الطعام الطيِّب ، ويُطيِّبهم ، ويُجمرهم ، ويروحون إلى المسجد من منزله .

وعن منصور قال : قال رجل للحسن : يا أبا سعيد ، الرجل يشتري الشاة فيصنعها ويدعو عليها نفرًا من إخوانه ؟ قال : وأين أولٰئك ؟ ذهب أولٰئك .

وعن مجاهد قال : صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه ، فكان هو الذي يخدمني[٢] .

مواقف أعطر من المسك ، وأغرب من الخيال :

« قال ابن عمر رضي الله عنهما : لقد رأيتنا وما أحدنا بأحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم .

---

(١) تنبيه المغترين للشعراني صـ ٩٢ .

(٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا صـ ٧٨ - ٧٩ .

وقال الحسن : كنا نعدّ البخيل الذي يُقْرِض أخاه !! .

وقال : ليس من المروءة أن يربح الرجل على صديقه »(١) .

ولبيت النبوة القَدَحُ المُعَلَّى في ذلك :

« قال أبو جعفر الباقر لأصحابه : هل يُدخِل أحدكم يده في كُمِّ صاحبه ، فيأخذ منه ما يريد ؟ قالوا : لا . قال : فلستم بإخوان .

وقد كان بعضهم يتلطَّف في إيصال البرِّ إلى إخوانه ؛ فيأتي بالصُّرَّة فيها الأربعمائة والخمسمائة فيودعها أحدهم ، ثم يلقاه بعد فيقول : انتفعوا بها فهي لكم .

وكان الرجل إذا أراد شَيْن أخيه ، طلب حاجته من غيره .

وجاء رجل من السلف إلى بيت صديق له ، فخرج إليه فقال : ما جاء بك ؟ قال : على أربعمائة درهم . فدخل الدار فوزنها ، ثم خرج فأعطاه ، ثم عاد إلى الدار باكيا ، فقالت زوجته : هلّا تعلَّلت عليه ، إذا كان إعطاؤه يشقّ عليك ؟ فقال : إنما أبكي لأني لم أتفقَّد حاله ، فاحتاج أن يقول لي ذلك !! »(٢) .

وعند عيسى التمَّار وفتح الموصلي أطيبُ الطِّيب :

« عن رباح بن الجرَّاح قال : جاء فتح الموصلي إلى منزل صديق له ، يقال له : عيسى التمَّار . فلم يجده في المنزل ، فقال للخادم : أخرجي لي كيسَ أخي . فأخرجته ، ففتحه فأخذ منه درهمين ، وجاء عيسى فأخبرته الخادم ، فقال : إن كنتِ صادقةً فأنت حُرَّة . فنظر فإذا هي صادقة ، فعُتِقت »(٣) .

أهكذا يُؤاخي الأكابر ؟!

« قال أبو سليمان الداراني : كان لي أخ في الله عز وجل ، فقلت له يومًا : أعطني دراهم . فقال : كم تريد ؟ فسقط من عيني ، وخرجت أُخُوَّتُه من قلبي بقوله : كم تريد »(٤) .

(١،٢) التبصرة لابن الجوزي ٢ / ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٣،٤) التبصرة ٢/ ٣٠٢ - ٣٠٣ .

فداء الأخ بالنفس :

وإذا علت الهمم ، وقع فداء الأخ بالنفس .

« عن محمد بن داود قال : سمعت أبا بكر القرطبي ، وأبا عمرو الآدميّ يقـولان :- وكانا يتآخيان في الله تعالى - خرجنا من بغداد نريد الكوفة ، فلمَّا سِرْنا في بعض الطريق ، إذا نحن بِسبعَيْن رابضيْن على الطريق ، فقال أبو بكر لأبي عمرو : أنا أكبر منك سنًّا فدعني أتقدَّمك ، فإن كان حادثة اشتغلا بي عنك ، وجُزْت أنت . فقال له أبو عمرو : نفسي ما تسامحني بهذا ، ولكن نكون جميعًا في مكانٍ واحد ، فإن كانت حادثة كنا جميعًا . فجازا جميعًا بين السبعيْن ، فلم يتحرَّكا ومرَّا سالمَيْن »[1] .

ومن الفتوة : التذمم للجار :

« قال الحسن : كان الرجل في الجاهلية يقول : والله ، لا يُؤذَى كلب جاري . هذا في الجاهلية فكيف في الإسلام !!

عن داود بن أبي عبد الرحمن جار مالك بن دينار - وكان ثقة - قال : كان لبعض جيران مالك بن دينار كلب ضعيف ، فكان مالك يُخرج له كل يوم طعامًا فيُلقيه إليه .

وعن هشام قال : كان حسان بن أبي سنان بن ثابت ، تدخل العَنْزُ إلى منزله فتأخذ الشيء ، فإذا طُرِدت قال لهم : لا تطردوا عَنْزَ جاري ، دعوها تأخذ حاجتها .

وقال عبيد الله بن الشميط : جاءت امرأة إلى الحسن تشكو الحاجة ، فقالت : إني جارتك . قال : كم بيني وبينك ؟ قالت : سبع دور . أو قالت : عشر . فنظر تحت الفراش فإذا ستة دراهم أو سبعة ، فأعطاها إياها ، وقال : كدنا نهلك .

---

(١) التبصرة ٢ / ٣٠٢ - ٣٠٣ .

وعن القعقاع بن عمرو قال : صعِد الأحنف بن قيس فوق بيته ، فأشرف على جاره، فقال: سَوْءَة ! سَوْءَة ! دخلت على جاري بغير إذن ، لا صعدتُ فوق هذا البيت أبدًا »(١) .

لله درُّك أبا حمزة السُّكري :

« قال عباس الدوري : كان أبو حمزة من الثقات ، وكان إذا مرض عنده من قد رحل إليه ينظر إلى ما يحتاج إليه من الكفاية ، فيأمر بالقيام به ، ولم يكن يبيع السكر ، وإنما سُمِّي السُّكري لحلاوةِ لكلامه .

وعن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق قال : أراد جار لأبي حمزة السكري أن يبيع داره ، فقيل له : بكم ؟ قال : بألفين ثمن الدار ، وبألفين جوار أبي حمزة السكري ، فبلغ ذلك أبا حمزة فوجَّه إليه بأربعة آلاف وقال : لا تبع دارك »(٢) .

لله درُّك ودرُّ من قال فيك : أبو حمزة السكري هو الجماعة .

والمكافأة بالصنائع من الفتوة :

« عن عبد الرحمن بن عبد الله – أحد بني عدي بن كعب – قال : أقبل سعيدُ بن العاص يومًا يمشي وحده في المسجد ، فقام إليه رجل من قريش فمشى عن يمينه ، فلما بلغا دار سعيد ، التفت إليه سعيد فقال : ما حاجتك ؟ قال : لا حاجة لي ، رأيتُك تمشي وحدك فوصلتُك . فقال سعيد لقهرمانه – أبي كعب –: ماذا لنا عندك ؟ قال : ثلاثون ألْفًا . قال : ادفعها إليه .

وعن إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز قال : خرجتْ لأبي جائزته ، فأمرني أن أكتب خاصته وأهل بيته ففعلتُ ، فقال لي : تذكَّر ، هل بقي أحدٌ أغفلناه ؟

---

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا صـ ٨٠ – ٨٧ .

(٢) السير ٧ / ٣٨٥ – ٣٨٧ .

قلت : لا . قال : بلى ، رجل لقيني فسلم عليَّ سلامًا جميلًا ، صفته كذا وكذا ، اكتب له عشرة دنانير .

وعن محمد بن الصمّة المُهلّب قال : خرج أبو عيينة بن المُهلَّب ذات يوم ، فتبعه مروان بن الحكم الأُسَيِّدي بكوز ماء ، فلمَّا فرغ من وضوئه التفت ، فإذا هو برجل قائم ، قال : ما حاجتك ؟ قال : جئتُك بكوزٍ من ماء . قال : سبحان الله ! فأمر له بثلاثمائة جَريب »[1] .

قال ابن رجب في « لطائف المعارف » : « كان كثير من السلف يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم؛ اغتنامًا لأجر ذلك؛ منهم: عامر بن عبد قيس، وعمرو بن عتبة بن فرقد ، مع اجتهادهما في العبادة في أنفسهما ، وكذلك كان إبراهيم بن أدهم يشترط على أصحابه في السفر ، الخدمة والأذان .

وكان رجل من الصالحين يصحب إخوانه في سفر الجهاد وغيره ، فيشترط عليهم أن يخدمهم ، فكان إذا رأى رجلًا يريد أن يغسل ثوبه ، قال له : هذا من شرطي . فيغسله ، وإذا رأى من يريد أن يغسل رأسه ، قال : هذا من شرطي . فيغسله ، فلمَّا مات نظروا في يده ، فإذا فيها مكتوب : « من أهل الجنة » . فنظروا إليها ، فإذا هي كتابة بين الجلد واللحم .

وكان ابن المبارك يُطعم أصحابه في الأسفار أطايب الطعام وهو صائم ، وكان إذا أراد الحج من بلده ، مرَّ وجمع أصحابه وقال : من يريد منكم الحج ؟ فيأخذ منهم نفقاتهم ، فيضعها عنده في صندوق ويقفل عليه ، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة ، ويطعمهم أطيب الطعام ، ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتُّحف ، ثم يرجع بهم إلى بلده ، فإذا وصلوا صنع لهم طعامًا ثم جمعهم عليه ، ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم فردَّ إلى كل واحد نفقته »[2] .

---

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا صـ ٩٠ - ٩١ .

(٢) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي صـ ٢٥٩ ، ٢٦٠ . طبع مؤسسة الريان ، ودار ابن حزم .

ونختم هذا الفصل بأريج وشذا من بستان إبراهيم بن أدهم :

« كلُّك لأخيك إلا ما حرَّمه الله ورسوله .. » ، « ولن تكتمل الصحبة حتى تقول لأخيك : يا أنا » .

خرج إبراهيم بن أدهم- رحمه الله- في سفر ومعه ثلاثة نفر، فدخلوا مسجدًا في بعض المفاوز ، والبرد شديد ، وليس للمسجد باب ، فلمّا ناموا قام إبراهيم ، فوقف على الباب إلى الصباح ، فقيل له : لِمَ لَمْ تنم ؟ فقال : خشيت أن يصيبكم البرد ، فقمت مقام الباب(١) .

وخبر إبراهيم بن أدهم نُهديه إلى شباب الحركة الإسلامية قائلين: « ما أُكِلتُ إلَّا يوم أُكِل الثور الأبيض » فكم فرَّقتنا النَّعرات المُنتنة ... وقد جمعنا الإسلام .

يا مَنْ تنهشُ في أحشائي
يا مَنْ مِني يا مَنْ جزءًا من أجزائي
يا مَنْ تبدو للجهَّال كأنَّك دائي
إني أعلم أنك حتمًا فيك شفائي
إنك مني ... أنت كأني لستُ أُرائي
أنت كأنّي حين شقائي
حين جهلتُ طريق إلٰهي
من عند الألف إلى الياء
حين تصوَّرتُ الدنيا
حِسِّي وغذائي وكسائي
إنك مني .. أنت كأنِّي لستُ أُرائي
إنك مسلم .. تشهد أنَّ إلهكَ واحدْ

---

(١) التبصرة لابن الجوزي ٢/ ٣٠١ - ٣٠٢ .

إنك فيها من شركائي
لكنك دومًا تطعنني .. من خلفي وفي كَعْب حذائي
حين أراك تقوم بهذا
يغرقني خجلي وحيائي
ابغ العِزَّةَ عند إلهك
ليس العزّ دمي وبكائي
وغدًا من قوّاك يُميتُكْ
إن أنتَ أهملتَ ندائي
يا من تَنْهشُ في أحشائي
يــا أنــا



الفصل الثالث عشر

عُلُوُّ الهِمَّـة
في
المُـــروءَة

تلَذُّ له المروءةُ وهْي تُؤذي ... ومَن يعشقْ يلَذُّ له الغرامُ

[المتنبي]

« لو علمتُ أنَّ الماء البارد يثْلمُ مروءتي ، لَمَا شربتُه ، ولو كنتُ اليوم ممَّن يقول الشعر ، لَرَثيتُ المروءة » . [الشافعي]

□ عُلوُّ الهمَّة في المروءة □

« المروءة سجيَّة جُبلت عليها النفوس الزكيَّة ، وشِيَمٌ طُبعت عليها الهمم العليّة ، وضعُفَت عنها الطباع الدنيَّة ، فلم تُطِقْ حمْلَ أشراطها السنيَّة » .

« اعلمْ أنَّ من شواهد الفضل ودلائل الكرم : المروءة التي هي حِلْية النفوس ، وزينة الهمم . فالمروءة : مراعاة الأحوال إلى أن تكون على أفضلها ، حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ، ولا يتوجَّه إليها ذمٌّ باستحقاق »[١] .

و « (المروءة): فعولة من لفظ المرء ، كالفتوَّة من الفتى ، والإنسانية من الإنسان . ولهذا كان حقيقتها : اتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوانَ البهيمَ ، والشيطانَ الرجيمَ . فإن في النفس ثلاثة دواعٍ متجاذبة :

داعٍ يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشيطان ؛ من الكبر ، والحسد ، والعلوِّ ، والبغي ، والشر ، والأذى ، والفساد ، والغشِّ .

وداعٍ يدعوها إلى أخلاق الحيوان ، وهو داعي الشهوة .

وداعٍ يدعوها إلى أخلاق الملَك ؛ من الإحسان ، والنصح ، والبر ، والعلم ، والطاعة .

فحقيقة المروءة : بُغْضُ ذَيْنَكِ الداعيْين ، وإجابة الداعي الثالث . وقلَّة المروءة وعدمها : هو الاسترسال مع ذينك الداعيين ، والتوجُّه لدعوتهما أين كانت .

فالإنسانية ، والمروءة ، والفتوّة : كلها في عصيان الداعيْين ، وإجابة الداعي الثالث . كما قال بعض السلف : خلق الله الملائكة عقولًا بلا شهوة ، وخلق البهائم شهوة بلا عقول ، وخلَق ابن آدم وركَّب فيه العقل والشهوة

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي صـ ٣٩٢ .

فمَن غلب عقلُه شهوتَه ، الْتحق بالملائكة . ومن غلبتْ شهوتُه عقلَه ، الْتحق بالبهائم .

ولهذا قيل في حدِّ المروءة : إنها غلَبَة العقل للشهوة .

وقال الفقهاء في حدِّها : هي استعمال ما يُجمل العبد ويُزيِّنه ، وترْك ما يُدنِّسه ويَشينه .

وقيل : المروءة استعمال كلّ خلُق حسن ، واجتناب كلِّ خُلُق قبيح .

وحقيقة « المروءة » تجنُّبٌ للدنايا والرذائل ؛ من الأقوال ، والأخلاق والأعمال .

فمروءة اللسان : حلاوته وطِيبه ولِينه ، واجتناء الثمار منه بسهولة ويُسْر .

ومروءة الخُلُق : سَعَتُه وبسْطه للحبيب والبغيض .

ومروءة المال : الإصابة ببذله مواقعه المحمودة عقلًا وعرفًا وشرعًا .

ومروءة الجاه : بذله للمحتاج إليه .

ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه . فهذه مروءة البذْل .

وأما مروءة الترْك : فترْك الخصام ، والمعاتبة ، والمطالبة والمماراة ، والإغضاء عن عيْب ما يأخذه من حقِّك . وترْك الاستقصاء في طلبه ، والتغافل عن عَثَرات الناس ، وإشعارهم أنَّك لا تعلم منهم عثرة ، والتوقير للكبير ، وحفظ حُرْمة النظير ، ورعاية أدب الصغير »[1] .

في صحيح مسلم : من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » .

قال النووي في « شرح صحيح مسلم » (١٥ / ١٣٥) : « معناه : أن أصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا ، فهم

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٥١ - ٣٥٣ .

خيار الناس » .

وقال ﷺ : « أقيلوا ذوي الهيئات عثراتِهم ، إلَّا الحدود »[١] .

قال الشافعي : « وذوو الهيئات الذين يُقالون عَثَراتهم : الذين ليسوا يُعرفون بالشرِّ ، فيزلُّ أحدهُم الزَّلة » . وهم أهل المروءات .

رُفِع إلى عمر بن الخطاب رجل في جُرْم ؛ فأراد أن يُعاقبه ، فأُخْبِر أن له مروءة ؛ فقال : «استوهبوه من صاحبه» . كذا في « بهجة المجالس » (٢/٦٤٣).

قالوا عن المروءة :

قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن : « للسَّفر مروءة ، وللحضَر مروءة ؛ فأما مروءة السفر : فبذل الزاد ، وقلَّة الخلاف على الأصحاب ، وكثرة المزاح في غير مساخط الله . وأما المروءة في الحضر : فالإدمان إلى المساجد ، وتلاوة القرآن ، وكثرة الإخوان في الله عز وجل »[٢] .

وفي رواية أخرى عنه : « فأمَّا التي في السفر : فبذْل الزاد ، وحسن الخُلق ، ومداعبة الرفيق . وأما التي في الحضر : فتلاوة القرآن ، ولزوم المساجد ، وعفاف الفرجْ »[٣] .

لله درُّك من إمام !!...

« كان أبو اللَّيْث الطرسوسي يُعزّى ، فقيل له : ما شأنه ؟ قالوا : فاتتْه صلاة الجماعة »[٤] .

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود والطحاوي في « مشكل الآثار » وأحمد ، وأبو نعيم ، وابن عدي والبيهقي وصحَّحه الألباني من حديث عائشة في السلسلة الصحيحة (رقم ٦٣٨) .

(٢) روضة العقلاء لابن حبان صـ ٢٣٢ ، والتمهيد لابن عبد البر ٢٣ / ١٧٨ .

(٣) بهجة المجالس لابن عبد البر ٢ / ٦٤٥ .

(٤) تاريخ واسط صـ ١٧٤ لبحشل .

« وعن نعيم بن حمَّاد ؛ قال : جاء ضمام بن إسماعيل إلى المسجد ، وقد صلَّى الناس وفاتته الصلاة ، فجعل على نفسه ألَّا يخرج من المسجد حتى يلقى الله . قال : فجعلَه بيته حتى مات »[1] .

وسُئل سفيان الثوري عن المروءة : ما هي ؟ قال : « الإنصاف من نفسك والتفضُّل : قال الله تعالى : ﴿**إنَّ الله يأمُرُ بالعدْل**﴾ وهو الإنصاف ، ﴿**والإحسان**﴾ وهو التفضُّل ، ولا يتمُّ الأمر إلَّا بهما ؛ ألا تراه لو أعطى جميع ما يملك و لم يُنصف من نفسه ، لم تكن له مروءة ؟! لأنه لا يريد أن يُعطي شيئًا إلا أن يأخذ من صاحبه مثله ، وليس مع هذا مروءة »[2] . ونحوه عن سفيان بن عيينة .

وقيل لسفيان بن عُيينة : قد استنبطت من القرآن كلَّ شيء ، فأين المروءة فيه ؟ فقال : في قوله تعالى : ﴿**خُذ العفوَ وأمُرْ بالعُرْف وأعرضْ عنِ الجاهلين**﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، ففيه المروءة ، وحُسْن الأدب ، ومكارم الأخلاق ، فجمع في قوله: ﴿**خُذِ العفوَ**﴾ صلَة القاطعين ، والعفو عن المذنبين ، والرفْق بالمؤمنين ، وغير ذلك من أخلاق المطيعين . ودخل في قوله : ﴿ **وأمُرْ بالعُرْف** ﴾ : صلةُ الأرحام ، وتقوى الله في الحلال والحرام ، وغضُّ الأبصار ، والاستعداد لدار القرار . ودخل في قوله ﴿**وأعرضْ عن الجاهلين**﴾ : الحضُّ على التخلُّق بالحلْم ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتنزُّه عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجهَلة والأغبياء ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة ، والأفعال الرشيدة .

وقال الله عز وجل حكاية عن قوم قارون : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبَك من الدنيا وأحسنْ كما أحسَنَ الله إليك ولا تبغ الفساد**

---

(١) العلل لأحمد بن حنبل رقم ٥٠٣٣ .

(٢) مكارم الأخلاق للخرائطي رقم ١٦٧ .

في الأرض .. ﴾ الآية . [القصص : ٧٧] ، وفيها عيْن المروءة وحقيقتها[١] .

وعن عمرو بن عثمان المكي قال : «المروءة : التغافل عن زَلَل الإخوان» .

قال الشعبي : « تَعامَل الناسُ بالدِّين زمانًا طويلًا ، حتى ذهب الدينُ ، ثم تعاشروا بالمروءة حتى ذهبت المروءة ، ثم تعاشروا بالحياء ، ثم تعاشروا بالرغبة والرهْبَة ، وأظنُّه سيأتي بعد ذلك ما هو شرٌّ منه »[٢] .

وقال إبراهيم النخعي : «من المروءة أن يُرىٰ في ثوب الرجل وشفته مداد»!

وقال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين : « كمال المروءة : الفقه في الدين ، والصبر على النوائب ، وحسن تدبير المعيشة »[٣] .

وقال علي بن أبي طالب : مروءة الرجل حيث يضع نفسه .

وقال ميمون بن ميمون : أول المروءة:طلاقة الوجه ، والثاني:التودُّد ، والثالث : قضاء الحوائج .

وقال سَلم بن قتيبة : « المروءة الصبر على الرجال » . أي الصبر على المكاره في معاشرتهم وقضاء مآربهم .

وقال سَلْم أيضًا : « لا تتمُّ مروءة الرجل حتى يصبر على مناجاة الشيوخ الدُّرْد[٤] » .

وقال ابن سلام : حدُّ المروءة : رعْيُ مساعي البِرِّ ، ودفْع دواعي الضرّ ، والطهارة من جميع الأدناس ، والتخلُّص من عوارض الالتباس ؛ حتى لا يتعلق بحاملها لوْم ، ولا يلحق به ذمّ ، وما من شيء يَحْمل على صلاح الدين والدنيا ، ويبعث على شرف الممات والمحيا ؛ إلَّا وهو داخل تحت المروءة .

---

(١) عيْن الأدب والسياسة ، وزيْن الحسب والرياسة . لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل صـ ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢) آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي رقم ٨٢ ، والحلية ٤ / ٣١٢ .

(٣) الإلماع للقاضي عياض صـ ١٧٣ .

(٤) الدرْد : مفردها أدرد ، وهو مَن ذهبت أسنانُه .

وقالوا : المروءة : إنصاف الرجل مَنْ هو دُونه ، والسموُّ إلى مَن هو فوقه ، والجزاء بما أُتي إليه .

قال ابن العربي : ضبطُها مما عسُر على العلماء .. والضابط: أن لا يأتي أحدٌ منكم ما يعتذر منه ، مما يبخسه عن مرتبته عند أهل الفضل .

وقال بعض العلماء: اتقِ مصارعَ الدنيا بالتمسُّك بحبْل المروءة ، واتقِ مصارع الآخرة بالتعلُّق بحبْل التقوى ؛ تفُزْ بخير الداريْن ، وتحلَّ أرفع المنزلتيْن .

وقال بعضهم : إذا طلب رجلان أمرًا ظفِر به أفضلهما مروءةً ، فإذا استويا في المروءة ؛ فأمضاهما رأيًا وأشدُّهما ساعدًا .

إذا المرءُ أعيتْهُ المروءة ناشئًا ... فمطْلَبُها كهْـلًا عليهِ شـديدُ

وقال الأحنف :

فلوْ مُدَّ سَرْوي بمالٍ كثيرٍ ... لَجُدتُ وكـنـتُ لـه باذِلَا
فإنَّ المـروءة لا تُستطاعُ ... إذا لم يكنْ مالُها فاضـلَا

وقال أبو بكر الإسماعيلي :

وإذا جلستَ وكان مثلُك قائمًا ... فمِن المروءةِ أن تقوم وإنْ أبَى
وإذا اتكأتَ وكان مثلُك جالسًا ... فمِن المروءةِ أن تُزيلَ المتَّكا
وإذا ركبتَ وكان مثلكَ ماشيًا ... فمن المروءة أنْ مشيتَ كما مشىٰ

وقال الشاعر :

كفىٰ حَزَنًا أنَّ المروءة عُطِّلَتْ ... وأنَّ ذوي الألبابِ في الناس ضُيَّعُ
وأنَّ ملوكًا ليسَ يحظىٰ لديهمُ ... مِنَ الناسِ إلَّا مَن يغنِّي ويُصْفَعُ

وقال أمير الشعراء :

إني لَتُطربني الخـلالُ كريمـةً ... طَرَبَ الغـريبِ بأوبةٍ وتلاقـي
وتهُزّني ذكرىٰ المُروءةِ والندىٰ ... بينَ الشَمائلِ هـزَّةَ المشـتاقِ

وقال الشاعر :

مررتُ علىٰ المُروءةِ وهْيَ تبكي ... فقلتُ عـلامَ تنتحبُ الفتـاةُ

فقالتْ كيفَ لا أبكي وأهلي جميعًا دونَ خَلْق الله ماتـوا

وقال الشاعر :

تعـالَ إلينا فالمروءَاتُ أَقْفَرَتْ ومَوْطنُ آبائي زجاجٌ مُكَسَّرُ

وقال الشاعر :

وأستحيي المـروءةَ أن تراني قتلتُ منافسي جلدًا وقهْـرًا

« سُئل الفضيل عن الرجل الكامل التامِّ المروءة ، فقال : الكامل : مَن برّ والديْه ، ووصل رحمه ، وأكرم إخوانه ، وحسّن خُلُقه ، وأحرز دِينَه ، وأصلح ماله،وأنفق من فضله ، وحسُن لسانه ، ولزم بيته .

وقال الشاعر :

وإذا الفتى جمـعَ المـروءة والتُّقى وحوى مع الأدب الحياء فقدْ كمُلْ»[(١)]

قال جعفر بن محمد : لا دين لمن لا مروءة له . .

وقال بعض البلغاء : مِن شرائط المروءة : أن يتعفَّف عن الحرام ، ويتصلَّف[(٢)] عن الآثام ، وينصف في الحكم ، ويكفَّ عن الظلم ، ولا يطمع فيما لا يستحقُّ ، ولا يستطيل على مَن لا يسترقُّ ، ولا يُعين قويًّا على ضعيف ، ولا يُؤْثر دَنِيًّا على شريف ، ولا يُسِرُّ ما يُعقِبُه الوزْر والإثم ، ولا يفعل ما يقبِّح الذكْرَ والاسم .

العقل والمروءة :

« وسُئِل بعض الحكماء عن الفرْق بين العقل والمروءة ، فقال : العقل يأمرك بالأنفع ، والمروءة تأمرك بالأجمل والأرفع . ولن تجد الأخلاق – على ما وصفنا – من جدِّ المروءة منطبعة ، ولا عن المراعاة مستغنية ، وإنما المراعاة هي المروءة ، لا ما انطبعتَ عليه من فضائل الأخلاق ؛ لأن غرور الهوى ونازع الشهوة يصرِفان النفسَ أن تركَب الأفضل من خلائقها، والأجمل من طرائقها، وإن سلِمْتَ منها، وبعيد أن تَسْلَم

(١) بهجة المجالس لابن عبد البر ١ / ٦٤٤ .
(٢) يترفَّع .

إلَّا لمن استكمل شرف الأخلاق طبعًا ، واستغنى عن تهذيبها تكلفا وتطبُّعًا»[(١)].

« من أولئك الذين ينقادون للمروءة ؟ » :

« من حقوق المروءة وشروطها ، ما لا يُتوصَّل إليه إلا بالمعاناة ، ولا يُوقَفُ عليه إلا بالتفقُّد والمراعاة ..

فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها هي المروءة ، وإذا كانت كذلك ، فليس ينقاد لها مع ثِقَل كلفِها إلَّا مَن تسهَّلت عليه المشاقُّ رغبة في الحمْد ، وهانتْ عليه الملاذُّ حذَرًا من الذّم . ولذلك قيل : سيد القوم أشقاهم . وقال أبو تمام الطائيّ :

والحمدُ شَهْدٌ لا يُرى مُشْتَارُهُ   يَجنِيه إلَّا مِنْ نَقِيعِ الحَنْظَلِ
غُلٌّ لحامِلِهِ ويَحْسَبُه الذي   لم يُوهِ عاتِقَهُ خفيفَ المَحْمَلِ

وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله :

لولَا المشقةُ سادَ الناسُ كلُّهمُ   الجودُ يُفقرُ والإقدامُ قتَّالُ

وله أيضًا :

وإذا كانت النفوسُ كبارًا   تعبتْ في مرادِها الأجسامُ »[(٢)]

« قال ابن عائشة القرشي : « لولا أنَّ المروءة متصعَّب محلُّها ؛ لَمَا ترَك اللئامُ للكرامِ منها بيتة ليلةٍ »[(٣)] .

هامٌّ :

دواعي طَلَب المروءة : علوُّ الهمَّة وشرَف النفْس :

والداعي إلى استسهال ذلك شيئان :

أحدهما : علو الهمة ، والثاني : شرف النفس .

(١،٢) أدب الدنيا والدين صـ ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، والمشتار : الذي يجمع العسل .

(٣) عيْن الأدب والسياسة صـ ١٣٢ .

أما علوُّ الهمَّة : فلأنه باعث على التقدُّم ، وداع إلى التخصيص ، أنفَةً من خمول الضّعة ، واستنكارًا لمهانة النقْص !!

ولذلك قال النبي ﷺ : « إن الله يحبُّ معالي الأمور وأشرافها ، ويكره سفسافها » .

ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه قال : لا تصغُرنَّ همُمُكم ، فإني لم أرَ أقعدَ عن المكرُمَات مِن صِغَر الهمم .

وقال بعض الحكماء : الهمَّة راية الجدِّ .

وقال بعض البلغاء : علوُّ الهمم بذرُ النِّعَم .

وقال بعض العلماء : إذا طلب رجلان أمرًا ، ظفِرَ به أعظمُهما مروءة .

وقال بعض العلماء : مَن ترَك الْتماس المعالي بسوء الرجاء ، لم يَنلْ جُسيمًا .

وأما شرف النفس : فإنَّ به يكون قبول التأديب ، واستقرار التقويم والتهذيب ؛ لأن النفس ربَّما جمحتْ عن الأفضل وهي به عارفة ، ونفرت عن التأديب وهي له مستحسِنة ؛ لأنها عليه غير مطبوعة ، وله غير ملائمة ، فتصير منه أنفر ، ولضدِّه الملائم آثر . وقد قيل : ما أكثر مَن يعرف الحق ولا يطيعه !!

وإذا شرُفَتِ النفس كانت للآداب طالبة ، وفي الفضائل راغبة ، فإذا مازَجَهَا صارت طبعًا ملائمًا ، فنما واستقرَّ .

فأما من مُنِي[1] بخُلُوِّ الهمة ، وسُلِب شرفَ النفس ، فقد صار عُرضةً لأمر أعوزتْه آلته ، وأفسدتْه جهالته ، فصار كضرير يروم تعلُّم الكتابة ، وأخرس يُريد الخُطْبة ، فلا يزيده الاجتهاد إلا عجزًا ، والطلبُ إلَّا عوَزًا .

قيل لبعض الحكماء : مَن أسوأُ الناس حالًا ؟ قال : مَنْ بعدت همَّته ، واتسعت أمنيته ، وقصُرت آلتهُ ، وقلّتْ قدرته .

وقال بعض الحكماء : تجنَّبوا المُنَى ؛ فإنها تذهب ببهجة ما خُوِّلتم ،

---

(١) مُنِيَ : أُصيب .

وتستصغرون بها نعمة الله عليكم .

وقيل في منثور الحكم : المُنٰى من بضائع النوْكٰى ، فإن صادف بهمَّته حظًّا نال به أملًا ، كان فيما ناله كالمغتصِب ، وفيما وصل إليه كالمتغلِّب ؛ إذ ليس في الحظوظ تقدير لحقٍّ ولا تمييز لمستحَقٍّ ، وإنما هي كالسحاب قد يُمسك عن منابت الأشجار إلى مغاوص البحار ، وينزل حيث صادف من خبيثٍ وطيِّب ؛ فإن صادف أرضًا طيبة نفَع ، وإن صادف أرضًا خبيثة ضرَّ ، كذلك الحظُّ ؛ إن صادف نفسًا شريفة نفَع ، وكان نعمة عامَّة ؛ وإن صادف نفسًا دنيَّةً ضرَّ ، وكان نقمة طامَّة .

لا قيمةَ للشرف مع الخمُول :

فأمَّا شرف النفس إذا تجرَّد عن علوِّ الهمَّة ، فإن الفضل به عاطل ، والقدْر به خامل ، وهو كالقوة في الجلْد الكَسِل ، والجبان الفشِل ، تضيع قوته بكَسَله ، وجلَدُه بفشله . وقد قيل في منثور الحِكَم : مَن دام كسلُه ، خاب أملُه . وقال بعض الحكماء : نكَحَ العجز التواني فخرج منهما الندامة ، ونكح الشؤْمُ الكسلَ فخرج منهما الحرمان .

وقال بعض الشعراء :

إذا أنتَ لم تعرفْ لنفسك حقَّها ... هوانًا بها كانت على الناسِ أهونَا
فنفسكَ أكرمْها وإن ضاقَ مسكنٌ ... عليكَ لها فاطلبْ لنفسِكَ مسكنَا
وإيَّاكَ والسكنٰى بمنزلِ ذلَّةٍ ... يُعدُّ مسيئًا فيهِ مَن كان محسِنَا

« وشرف النفس مع صغر الهمَّة أولى من الهمة مع دناءة النفس ؛ لأنَّ من علَتْ همته مع دناءة نفسه ، كان متعدِّيًا إلى طلب ما لا يستحقُّه ، ومتخطِّيًا إلى الْتماس ما لا يستوجبه ، ومَن شرفَتْ نفسه مع صِغر همته ، فهو تارك لما يستحقّ ، ومقصرٌ عمَّا يجب له ، وفضلُ ما بين الأمْريْن ظاهر ، وإن كان لكل واحد منهما من الذمِّ نصيب .

وقد قيل لبعض الحكماء : ما أصعبُ شيء على الإنسان ؟ قال : أن يعرف نفسه ، ويكتم الأسرار .

فإذا اجتمع الأمران ، واقترن بشرف النفس علوُّ الهمة ، كان الفضل بها ظاهرًا ، والأدب بهما وافرًا ، ومشاقُّ الحمد بينهما مسهلة ، وشروط المروءة بينهما متينة . وقد قال الحُصين بن المنذر الرقَّاشي :

إنَّ المروءة ليسَ يُدركها امرؤٌ ورِثَ المكارمَ عن أبٍ فأضاعها
أمَرَتْهُ نفسٌ بالدناءةِ والخنَا ونهتْه عن سُبُل العلا فأطاعها
فإذا أصابَ مِنَ المكارمِ خُلَّةً يَبني الكريمُ بها المكارمَ باعَهَا»[1]

نعم ..

فإذا أصاب مِن الأمور عظيمةً يبني الكريمُ بها المروءة باعَها

قال الحسين بن أحمد البغدادي :

ليسَ الكريمُ بمَن يُدَنِّسُ عِرضَهُ ويرىٰ مُروءَتَهُ تكون بمَن مضىٰ
حتى يَشيدَ بناءَه ببَنائِهِ ويَزينَ صالحَ ما أتوه بما أتىٰ

وقال : « ما رأيتُ أحدًا أخسر صفقةً ، ولا أظهرَ حسْرةً ، ولا أخيَبَ قصدًا ولا أقلَّ رشدًا ، ولا أحمقَ شعارًا ، ولا أدنسَ دِثارًا - من المفتخر بالآباء الكرام ، وأخلاقِهم الجِسَام ، مع تعرِّيه عن سلوك أمثالهم ، وقصْد أشباههم ، متوهِّمًا أنهم ارتفعوا بمَن قبلهم ، وسادوا بمَن تقدَّمهم ، وهَيْهات ، أنَّىٰ يسُود المرءُ على الحقيقة إلا بنفسِه ؟! وأنَّى ينبل في الدارَيْن إلَّا بكدِّه ؟! » .

عالي الهمَّة يعلَمُ حقوقَ المروءَة ويرعاها :

حقوقُ المروءة وشروطها[2] :

واعلمْ أن حقوق المروءة أكثر مِن أن تُحصى ، وأخفىٰ من أن تُظهر ؛

---

(١) أدب الدنيا والدين صـ ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٢) تلخيصًا من « أدب الدنيا والدين » .

لأنَّ منها ما يقوم في الوهْم حِسًّا ، ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدْسًا[1] ، ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل ، فلذلك أَعْوَزَ[2] استيفاءُ شروطها ، إلا جملًا يتنبَّه الفاضل لها ليقظته، ويستدلُّ العاقل عليها بفطرته. وإنما نذكر هنا الأَشْهَر من قواعدها وأصولها ، والأظهر من شروطها وحقوقها ، محصورًا في تقسيمٍ جامع . وهو ينقسم قسميْن :

أحدهما : شروط المروءة في نفسه : وهي : العفة ، والنزاهة ، والصيانة .

والثاني : شروط المروءة في غيره : المعاونة (المؤازرة) ، والمياسرة ، والإفضال .

شروط المروءة في النفس :

فأما شروطها في نفْسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه ، فيكون بثلاثة أمور ، وهي العفَّة ، والنزاهة ، والصيانة .

(١) العفَّة :

فأما العفَّة فنوعان : أحدهُما : العفَّة عن المحارم ، والثاني : العفَّة عن المآثم.

(أ) فأمَّا العفَّة عن المحارم : فنوعان :

أحدهما : ضبْط الفرْج عن الحرام . **والثاني** : كفُّ اللسان عن الأَعراض .

(ب) وأما العفَّة عن المآثم : فنوعان :

أحدهما : الكفُّ عن المجاهرة بالظلم ، **والثاني** : زجْر النفس عن الإسرار بخيانة .

(٢) النَّزاهَة :

وأما النزاهة فنوعان :

---

(١) تخمينًا .

(٢) انعدم .

أحدهما : النزاهة عن المطامع الدنيَّة .

والثاني : النزاهة عن مواقف الرِّيبة .

ومَن كانت الدنيا مناهُ وهمُّهُ سَبَتْهُ المُنىٰ واستعبدَتْهُ المطامِعُ

وليس لمن كان المال عنده أجلَّ ، ونفسُه عليه أقلَّ : إصغاءٌ لتأنيب ولا قبولٌ لتأديب .

وحسْمُ هذه المطامع شيئان : اليأسُ والقناعة .

أما النزاهة عن مواقف الريبة ، فهذا رسول الله ﷺ ، وهو أبعد خلْق الله من الرِّيب ، وأصونُهم من التهَم .. وقَفَ مع صفية أم المؤمنين – زوجته – ذات ليلة على باب المسجد يحادثها ، وكان معتكِفًا ، فمرَّ به رجلان من الأنصار ، فلمَّا رأَيَاه أسرعا ، فقال لهما : «على رِسْلِكُما[1] ؛ إنها صفية» . فقالا: سبحان الله !! أَوَفيك شكٌّ يا رسول الله ؟! فقال : « مَـهْ[2] ؛ إن الشيطان يجري من أحدِكم مجرىٰ لحْمِه ودَمه ، فخشيتُ أن يقذف في قلبيْكما سوءًا » .

فكيف مَن تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظُّنون ؟ فهل يعرى في مواقف الريب من قادِح محقِّق ، ولائم مصدِّق ؟! فإذا استعمل الحزْم ، وغلَّب الحذَر ، وترك مواقف الريب ، ومظانَّ التهم ؛ لم يختلجْ في نزاهته شكٌّ ، ولم يقدح في عِرضه إفكٌ .

(٣) الصِّيانة :

نوعان :

(أ) **أحدهما** : صيانة النفْس بالْتِماس كفايتها وتقدير مادَّتها .

(ب) **والثاني** : صيانتها عن تحمُّل المِنَن ، والاسترسال في الاستعانة بهم .

---

(١) على رِسْلكما : تمهَّلا .

(٢) مَهْ : اسم فِعْل بمعنى : اكْفُف .

أما الْتماس الكفاية: فلأنَّ المحتاج إلى الناس كَلٌّ مُهْتَضَم ، وذليل مستَثْقل ، وعليه بطلب كفايته ، وسدِّ خلته ، وعليه في طلبه ثلاثة شروط :

أحدها : استطابته من الوجوه المباحة .

والثاني : طلبه من أحسن جهاته ، التي لا يلحقه فيها غضٌّ ، ولا يتدنَّسُ له بها عِرْضٌ ، فإنَّ المال يُراد لصيانةِ الأعراض ، لا لابتذالها ، ولِعزِّ النفوس لا لإذلالها .

والثالث : أن يَتأنَّى في تقدير مادَّته وتدبير كفايته ؛ فإنَّ يسيرَ المال مع حسن التقدير وإصابة التدبير : أجدى نفعًا وأحسن موقعًا ، من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير .

قال محمد بن عليٍّ بن الحسين : الكمال في ثلاثة : العفَّة في الدين ، والصبر على النوائب ، وحسن التدبير في المعيشة .

وقد كان ذوو الهمم العَلِيَّة والنفوس الأبيَّة ، يرون ما وصل إلى الإنسان كسْبًا أفضل ممَّا وصل إليه إرْثًا ؛ لأنه في الإرث في جدوىٰ غيره، وبالكسب مُجْدٍ إلى غيره ، وفَرْقُ ما بينهما في الفضْل ظاهر . قال كشاجم :

لا أَستلذُّ العيْشَ لم أَدْأَبْ لهُ ... طلبًا وسعيًا في الهواجر والغَلَسْ
وأرى حرامًا أنْ يُواتيني الغِنىٰ ... حتى يحاولَ بالعـناءِ ويُلتمَسْ
فاصْرِفْ نوالك عن أخيك موفَّرًا ... فالليْثُ ليسَ يَسيغُ إلا ما افترسْ

فإن كان ممَّن مُنِيَ بعلوِّ الهمم ، وتحرّكتْ فيه أريحيَّة الكرم ، وآثر أن يكون رأسًا مُقدَّمًا ، وأن يكون في النفوس معظمًا ومفخمًا ، فالكفاية لا تقلُّه حتى يكون مالُه فاضلًا ونائلهُ فائضًا ؛ فقد قيل لبعض العرب : ما المروءة فيكم ؟ قال : طعام مأكول ، ونائل مبذول ، وبِشْرٌ مقبول .

وأمَّا صيانتها عن تحمُّل المِنَنِ : فلأنَّ المنَّة استرقاقُ الأحرار ، فإن استطعتَ ألَّا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافْعَلْ ، ولا تكنْ عبدَ غيرك وقد جعلَكَ الله حرًّا .

شروط مُروءَةِ المَرْء في غيْره ثلاثة : المؤازَرَة ، والمُيَاسَرَة ، والإفضال :

(٤) المؤازرة (المعاونة) :

بالجاه ، والمال ، والبدَن .

أما المؤازرة فنوعان :

(أ) **أحدهما** : الإسعاف بالجاه .

(ب) **والثاني** : الإسعاف في النوائب .

أما الإسعاف بالجاه : فهو ألطف الصنائع موقعًا ، وربما كان أعظم من المال نفعًا ؛ قال بعض البلغاء : من علامَة الإقبال : اصطناع الرجال .

وقال بعض الأدباء : بذْلُ الجاه أحد الحباءيْن(١) .

والجاه هو الظلُّ الذي يلجأ إليه المضطرون ، فإنْ أوْطَأَهُ(٢)، اتَّسَعَ بكثرة الأنصار والشيِّع ، وإن قبضَه ، انقطع بنُفُور الغاشية والتَّبع ؛ فهو بالبذل ينمو ويزيد ، وبالكفِّ ينقص ويَبيد ، ومَن بخِل بجاهه ، أضاعه بالشحِّ ، وبدَّده بالبخل ، وحرَم نفسه غنيمة مكنتِهِ ، وفرصةَ قدرتِهِ ، فلم يُعقبه إلَّا ندمًا على فائت ، ومقتًا يستحكم في النفوس ، فاصنع الخير عند إمكانك ، يبق لك حمدُه عند زواله ، وأحْسِنْ والدولةُ لك ، يُحسن لك والدولة عليك ، واجعلْ زمانَ رخائكَ عُدَّة لزمانِ بلائك .

وعلى مَن أُسعِدَ بجاهه ثلاثة حقوق :

١ - أن يستسهل المعونة مسرورًا ، ولا يستثقلها كارهًا .

٢ - مجانبة الاستطالة ، وترْك الامتنان ، فأضيقُ الناسِ طريقًا وأقلُّهم صَدِيقًا ؛ مَن عاشر الناسَ بعُبوس وجهه ، واستطال عليهم بنفسه .

---

(١) الحباءيْن : العطاءيْن .

(٢) مهَّده وسهَّله .

٣ - ألَّا يقرن بمشكورِ سعْيِه تقريعًا بذنب ، ولا توبيخًا على هفوةٍ .

الإسعاف في النوائب والمسارعة بالعطاء :

نوعان : واجب ، وتبرُّع .

فأما الواجب : فما اختُصَّ بثلاثة أصناف ، وهم : الأهل والإخوان والجيران .

أما الأهل : فلمُمَاسَّة الرَّحم وتعاطُف النَّسَب . وقد قيل : لم يَسُدْ من احتاج أهلُه إلى غيْره . قال حسان بن ثابت :

وإن امْرَأً نَالَ المُنَى لم ينلْ بِهِ قريبًا ولا ذا حاجةٍ لَزهيدُ

وأما الإخوان : فلمُسْتَحكم الوُدِّ ومتأكَّد العهْد . سُئل الأحنف بن قيْس عن المروءة ، فقال : صدْق اللسان ، ومواساة الإخوان ، وذكْر الله في كلِّ مكان .

ورأى بعض الحكماء رجليْن يصطحبان لا يفترقان ، فسأل عنهما .. فقيل : هما صديقان . فقال : ما بال أحدهما فقير والآخر غنيٌّ ؟!

وأما الجار : فلدُنوِّ داره ، واتصال مزاره . ومَن أحسَنَ إلى جاره ، فقد دلَّ على حسن نِجاره[1] .

فيجب في حقوق المروءة ، وشروط الكَرم في هؤلاء الثلاثة : تحمُّل أثقالهم ، وإسعافهم في نوائبهم ، ولا فسْحة لذي مروءة عند ظهور المكْنة أن يَكِلَهم إلى غيره ، أو يُلْجِئَهم إلى سؤاله ، ولْيكن السائلُ عنهم كرَمَ نفسه ؛ فإنهم عيالُ كرَمِه ، وأضياف مروءته ، فكما أنه لا يحسن أن يُلجِئ عياله وأضيافه إلى الطلب والرغبة ، فهكذا مَن عالَه كرمُه ، وأضافته مروءته . وقال بعض الشعراء :

حقٌّ على السيِّدِ المرجوِّ نائلُهُ والمستجار به في العُرْبِ والعَجَمِ

(١) حسْن أصله .

أَلَّا يُنيل الأقاصِي صوْبَ[(١)] راحَتِهِ حتى يَخُصَّ بِهِ الأدنى مِنَ الخدَمِ
إنَّ الفراتَ إذا جاشتْ غَوارِبُهُ[(٢)] روَّى السواحلَ ثمَّ امتدَّ في الأُمَمِ

وأما التبرُّع : ففيمن عدا هؤلاء الثلاثة من البعداء الذين لا يُدْلون بنَسب ، ولا يتعلَّقون بسبب ، فإن تبرَّع بفضلِ الكرم وفائض المروءة ، فنهض في حوادثهم ، وتكفَّل بنوائبهم ؛ فقد زاد على شروط المروءة ، وتجاوَزَها إلى شروط الرياسة . وقيل لبعض الحكماء : أيُّ شيء مِن أفعال الناس يُشبه أفعال الإِلٰه ؟ قال : الإحسان إلى الناس .

وإن كفَّ تشاغلًا بما لزَم فلا لوْم ، ما لم يلجأ إليه مضطرٌّ ؛ لأن القيام بالكلِّ مُعْوِز ، والتكفُّل بالجميع متعذِّر ، فهذا حكم المؤازرة .

(٥) المُيَاسَرة :

فأما المياسرة فنوعان :

أحدهما : العفْوُ عن الزلَّات .

والثاني : المسامحة في الحقوق .

فأمَّا العفو عن الهفَوات :

فلأنه لا مُبَرَّأً من سهْو وزَلَلٍ ، ولا سليم من نقصٍ أو خللٍ ، ومَن رام سليمًا من هفْوَة ، والْتمسَ بريئا من نبْوَة ، فقد تعدَّى على الدهر بشَطَطِهِ ، وخادَعَ نفسه بغلَطِه ، وكان من وجود بُغْيته بعيدًا ، وصار باقتراحه فردًا وحيدًا .

وقد قالت الحكماء : لا صديقَ لمن أراد صديقًا لا عيْب فيه .

وقيل لأحدهم : هل مِن أَحد لا عيْبَ فيه ؟ قال : مَن لا موتَ له .

وقال بعض الأدباء : ثلاث خصال لا تجتمع إلَّا في كريم : حسْن المحْضر ، واحتمال الزلّة ، وقلَّة الملال . وقال ابن الرومي :

---

(١) الصوب : المطر ، والمراد به العطاء .

(٢) الغوارب : جمع غارب ، وهي الأمواج العالية .

فعذرُك مبسوطٌ لذنبٍ مقدَّمٍ ووُدُّكَ مقبولٌ بأهلٍ ومرحبِ
ولو بلَّغَتْني عنْكَ أُذني أقمتُها لديَّ مقامَ الكاشح(١) المتكذِّبِ
فلستُ بتقليبِ اللسانِ مُصارِمًا خليـلًا إذا ما القلبُ لم يتقلَّبِ

وإذا كان الإغضاء حتْمًا ، والصفحُ كرَمًا ، ترتَّب بحسب الهفْوة وتنزَّلَ بقدْر الذنب .

والهفواتُ نوعان : صغائر ، وكبائر .

فالصغائر : مغفورة ، والنفوس بها معذورة ؛ لأنَّ الناسِ مع أطوارهم المختلفة، وأخلاقهم المتفاضلة لا يسْلمون منها، فكان الوجد فيها مطَّرَحًا، والعتبُ مستقبَحًا .

وأما الكبائر فنوعان :

الأول : أن يهفو بها خاطئًا ، ويزلَّ بها ساهيًا ، فالحَرَج فيها مرفوع ، والعتْب عليها موضوع ؛ لأن هفوة الخاطئ هدَر ، ولوُمه هذَر . وقال بعض الحكماء : لا تقطع أخاك إلا بعد عجْز الحِيلة عن استصلاحه .

وقال الأحنف بن قيس : حقُّ الصَّدِيق أن تحمِلَ له ثلاثًا : ظُلْم الغضَب ، وظلم الدَّالَّة(٢) ، وظلْم الهفْوة .

وقيل : التثبُّت نصفُ العفو . وقال بعض الحكماء : لا يفسدك الظنُّ على صديقٍ أصلحك اليقينُ له .

والثاني: أن يعتمد ما اجترم من كبائره ، ويقصد ما اجترح من سيئاته ... ولا يخلو فيما أتاه من أربع أحوال :

فالحال الأولى : أن يكون موتورًا ، قد قابل على ترَةٍ ، وكافأ على مساءة ، فاللائمة على مَن وتره عائدة ، وإلى البادئ بها راجعة ؛ لأن المكافئ أعذر ، وإن

---

(١) العدو المتبغض .
(٢) الدالَّة : ما تدلُّ به على صديقك - يُقال : له عَليّ دالة ؛ أي فضل ومنزلة .

كان الصفح أجمل ، والإغضاء عن هذا أوجب . وإن لم تكن المكافأة ذنبًا . ومَنْ كنتَ السببَ لبلائه ، وجَبَ عليك التلطُّف له في علاجه من دائه .

والحال الثانية : أن يكون عدوًّا قد استحكمتْ شَحْناؤه ، واستوعرتْ سرَّاؤه ، واستخشنتْ ضرَّاؤه ، فهو يتربَّص بدوائر السوء انتهاز فُرَصه ، ويتجرَّع لمهانة العجْز مرارة غُصَصِه ، فإذا ظَفِر بنائبةٍ ساعدَها ، وإذا شاهد نعمة عاندها ، فالبعد منه حَذَرًا أسلمُ ، والكفُّ عنه متاركةً أغنم ؛ فإنه لا يُسْلَم من عواقب شرِّه ، ولا يُفْلَت من غوائل مكْره . وقد قالت الحكماء : لا تعرضنَّ لعدوٍّك في دوْلَته ، فإذا زالتْ كُفِيتَ شرَّه . وقال لقمان لابنه : يا بنَّي ، كذَب مَن قال : إن الشرَّ بالشرِّ يُطفأ . فإن كان صادقًا فليوقِدْ نارَيْن ، ولْينظرْ : هل تُطفِئُ إحداهُما الأخرى ؟ وإنما يطفئُ الخيرُ الشرَّ ، كما يطفئ الماءُ النارَ . وقال جعفر ابن محمد : كفاك من الله نصرًا أن ترىٰ عدوَّك يعصي الله فيك . وقال بعض الحكماء : بالسيرة العادلة يُقْهر المعادي . وقال البحتري :

وأُقسمُ لا أُجزيكَ بالشرِّ مثلَهُ ... كفىٰ بالذي جازيتَني لكَ جازِيَا

والحال الثالثة : أن يكون لئيمَ الطبْع ، خبيثَ الأصل ، قد أغراه لؤم الطبْعِ على سُوءِ الاعتقاد ، وبعثَهُ خبيثُ الأصل على إيثار الفساد ، فهو لا يستقبح الشرَّ ، ولا يكفُّ عن المكروه ... فهذه الحال أعظم ؛ لأنَّ الإضرار بها أعمُّ ، ولا سلامة من مثله إلَّا بالبعد والانقباض ، ولا خلاصَ منه إلا بالصفْح والإعراض ؛ فإنه كالسَّبُع الضاري في سَوَارِحِ الغنَم، وكالنار المتأجِّجَة في يابس الحَطَب ، لا يَقْربها إلَّا تالِف ، ولا يدنو منها إلا هالِك .

أخي : أعداؤك داؤك ، وفي البُعْد عنهم شِفاؤك . وقيل : شرف الكريم : تغافله عن اللئيم .

والحال الرابعة : أن يكون صديقًا قد استحدث نَبْوة وتغيُّرًا ، أو أخًا قد استجدَّ جَفْوةً وتنكُّرًا ، فأبدى صفحةَ عقوقِه ، واطَّرح لازِم حقوقه ، وعدَل

عن بِرِّ الإخاءِ إلى جفْوة الأعداء . فهذا قد يعرض في المودَّات المستقيمة ، كما تعرِض الأمراض في الأجسام السليمة ، فإن عُولجتْ أَقلعتْ ، وإن أُهمِلَتْ أَسقَمَتْ ثم أَتلفتْ . ولذلك قالت الحكماء : دواء المودَّة كثْرَة التعاهُد .

ولا تكنْ كامرئ قابلَ على الجفوة ، وعاقب على الهفوة ، واطَّرَحَ سالف الحقوق ، وقابَلَ العقوقَ بالعقوق ، فلا بالفضل أخَذَ ، ولا إلى العفو أخلد . وقد علم أنَّ نفسه قد تطغىٰ عليه فتُرديه ، وأنَّ جسمَه قد يسقم عليه فيؤلمه ويُؤْذيه ، وهما أخصُّ به وأحنىٰ عليه من صديق قد تميَّز بذاته ، وانفصل بأدواته ، فيريد من غيره لنفسه ما لا يجده من نفسه لنفسه . هذا عيْن المحال ومحْضُ الجهل .

فلا تتخذ عدوًّا واحدًا والواحد كثير ، واتخذْ ألفَ صديقٍ والألفُ قليل .

واعلمْ أن العفو والعقوبة بمنزلة الجود والبخل ، فتمسَّكْ بأيِّهما شئتَ .

فإذا كان الأمر على ما وصفتُ ، فمِن حقوقِ الصفْح : الكشْفُ عن سبب الهفوة ، ليعرفَ الداء فيعالجه ، ولا يخلو حال السبب من أن يكون لمَلَلٍ أو زلَلٍ ؛ فإن كان لملَلٍ ، فمودَّاتُ المَلُول ظلُّ الغمام ، وحلْم النيام ، ورغبتك فيمن يزهد فيك ذلٌّ ، وَزهْدُك فيمن يرغب فيك صِغَرُ هِمة .

وإن كان لسبب لُوحِظَتْ أسبابه ؛ فإن كان لها مدخل في التأويل ، وشبهة تؤول إلى جميل ، حمَله على أجمل تأويل ، وصرَفه إلى أحسن جهَةٍ .

مرَّ على خالد بن صفوان صديقان له ، فعرَّج عليه أحدهما ، وطواه الآخر ، فقيل له في ذلك ، فقال : نعم ، عرَّج علينا هذا بفضله ، وطوانا هذا بثقته بنا .

فإن لم يكن لزلله في التأويل مدخل ، نظر حالَه بعد زلله ، فإن ظهر ندمُه ، وبان خجَلُه ؛ فالندم توبة والخجل إنابة ، ولا ذنب لتائب ، ولا لوم على مُنيب ، ولا يُكلَّف عذرًا عمَّا سلف ، فيلجأ إلى ذلِّ التحريف ، أو خجل التعنيف .

قال بعض الحكماء : شفيع المذنب إقرارُه ، وتوبتُه اعتذاره .

ومَن لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ، ومَن لم يُحسن إلى التائب قبُحت إساءته ، والكريم من أوسع بالمغفرة ، إذا ضاقت بالذنب المعذرة .

وإنْ عجَّل العذْر قبل توبته ، وقدّم التنصُّل قبل إنابته ؛ فالعذْرُ توبة ، والتنصُّـل إنابة ، فـلا يكشف عن باطن عـذره ، ولا يُعنَّف بظاهـر عذره . وشافِعُ المذنب خضوعه إلى عذْره .

اقبلْ معاذيرَ مَن يأتيكَ معتذِرًا ... إنْ بَرَّ عندكَ فيما قالَ أو فَجَرا
فقدْ أطاعَكَ مَنْ يُرضيكَ ظاهِرُهُ ... وقدْ أجلَّكَ مَن يَعصِيكَ مُستَتِرَا

وإن ترَك نفسه في زلَلِه ، ولم يتداركْه بعذْرِه وتنصُّله ، فلا ينفكُّ حاله عن أمور ثلاثة :

أحدها : أن يكون قد كفَّ عن سيِّئ عمله ، وأقلع عن سالف زَلله ، فالكفُّ إحدى التوبتيْن ، والإقلاع أحد العذرَيْن ، فكنْ أنت المعتذر عنه بصفحك ، والمتنصِّل له بفضلك ، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : المحسن على المسيء أمير .

والثاني : أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلله ، غيرَ تارك ولا متجاوز ، فوقوف المرض أحد البرأيْن ، وكفُّه عن الزيادة إحدى الحُسْنَيَيْن ، وقد استبقى بالوقوف عن التجاوُز أحدَ شِطْريه ، فعوِّلْ به على صلاح شطره الآخر ، وإيَّاك وإرجاءَه ؛ فإنَّ الإرجاء يُفسد شطر صلاحه ، والتلافي يُصلح شطرَ فساده ، فإنَّ مَن سَقم مِن جسمه ما لم يعالجه ، سرى السقم إلى صحته ، وإن عالجه سرَتْ الصحة إلى سَقَمِه .

والثالث : أن يتجاوز مع الأوقات ، فيزيد فيه على مرور الأيام . فهذا هو الداء العضال ، فإن أمكن استدراكه وتأتَّى استصلاحه - وذلك باستنزاله عنه إن علا ، وبإرغابه إن دنا ، وبعتابه إن ساوى - فذاك ، وإلَّا فآخرُ الداء العياءِ : الكَيُّ . ومن بلغت به الأعذار إلى غايتها ، فلا لائمةَ عليه .

المسامحة في الحقوق :

لأن الاستيفاء موحش ، والاستقصاء منفِّر ، ومَنْ أراد كلَّ حقّ من النفوس المستصعبة بشحٍّ أو طمَع ، لم يصل إليه إلا بالمنافرة والمشاقَّة . والأَلْيَق لأمور المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة ، وتألُّفها بالمقاربة والمساهلة ، فمَن عاشر إخوانه بالمسامحة دامت له مودَّاتُهم .

وإذا أخذت عفو القلوب زكا رِيعُك ، وإن استقصَيْتَ أكديتَ .

والمسامحة نوعان : (أ) في عقود . (ب) في حقوق .

فأما العقود : فهو أن يكون فيها سهْلَ المناجَزَة ، قليلَ المحاجَزَة ، مأمونَ الغيْبَة ، بعيدًا من المكر والخديعة .

حكى ابن عوْن : أنَّ عمر بن عبد الله اشترى للحسن البصري إزارًا بستة دراهم ونصف ، فأعطى التاجرَ سبعة دراهم ، فقال : ثمنه ستة دراهم ونصف . فقال : إني اشتريتُه لرجل لا يقاسم أخاه درْهمًا .

وأما الحقوق : فتتنوَّع المسامحة فيها نوعيْن :

أحدهما : في الأحوال . **والثاني** : في الأموال .

فأما المسامحة في الأحوال : فهي اطِّراح المنازعة في الرتب ، وترْك المنافسة في التقدُّم ؛ فإن مشاحَّة النفوس فيها أعظم ، والعناد عليها أكثر ، فإنْ سامح فيها ولم ينافس ، كان مع أخذه بأفضلِ الأخلاق ، واستعماله لأحسن الآداب : أوقعَ في النفوس من إفضاله برغائب الأموال ، ثم هو أزيد في رتبته ، وأبلغ في تقدُّمه ، وإن شاحَّ فيها ونازَع ، كان مع ارتكابه لأخشنِ الأخلاق ، واستعماله لأهجنِ[1] الآداب : أنكى في النفوس من حدِّ السيْف وطعْن السنان ، ثم هو أخفض للمرتبة ، وأمنع من التقدُّم .

---

(١) أهجن : أقبح .

وأما المسَامحة في الأموال : فتتنوَّع ثلاثة أنواع :

(أ) مسامحة إسقاطٍ لعُدْم(١) .

(ب) ومسامحة تخفيف لعجزٍ .

(جـ) ومسامحة إنكار لعُسْرة .

وهي مع اختلاف أسبابها تفضُّلٌ مأثور ، وتألُّف مشكور .

وإذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده ، وينفذُ فيه تصرُّفه ؛ كان أولى أن يجود بما خرج عن يده فطاب نفسًا بفراقه ، وقد تصل المسامحة في الحقوق إلى من لا يقبل البرَّ ويأبىٰ الصلة ، فيكون أحسن موقعًا وأزكىٰ محلًّا .

(٦) الإفْضَال :

وأما الإفضال فنوعان : إفضال اصطناع . وإفضال استكفاف ودفاع .

فأما إفضال الاصطناع : فنوعان :

أحدهما : ما أسداه جودًا في شكور .

والثاني : ما تألَّف به نَبْوةَ نفورٍ . وكلاهما من شروط المروءة ؛ لما فيها من ظهور الاصطناع ، وتكاثُر الأشياع والأتباع .. ومَن قلَّت صنائعه في الشاكرين ، وأعرض عن تألُّف المنافِرين ؛ كان فردًا مهجورًا ، وتابعًا محقورًا ، ولا مروءة لمتروكٍ مُطَّرح ، ولا قدْرَ لمحقور مهتَضَم . وقال عمر بن عبد العزيز : ما طاوعني الناس على شيء أردتُه من الحق ، حتى بسطتُ لهم طرَفًا من الدنيا .

وقال بعض الحكماء : أقلُّ ما يجب للمنعم بحق نعمته ألَّا يتوصَّل بها إلى معصيته .

قال بعض الأعراب :

من جمعَ المالَ و لم يَجُدْ بهِ وجمَّعَ المالَ لعام جدبهِ
هانَ على الناسِ هوانَ كلْبهِ

---

(١) فقر .

فإن ضاقتْ به الحال عن الاصطناع بماله ، فقد عدِم من آلة المكارم عمادَها ، وفَقَدَ من شروط المروءة سنادَها ، فليؤاسِ بنفسه مؤاساة المسعف ، ولْيسعدْ بها إسعاد المتألّف .

قال المتنبي :

لا خيْلَ عندكَ تُهديها ولا مالُ   فلْيُسعدِ النطقُ إنْ لم يُسعدِ الحالُ

وأما إفضال الاستكفاف : فلأن ذا الفضل لا يعدِم حاسدَ نعمة ، ومعاندَ فضيلة ، يعترِيه الجهل بإظهار عناده ، ويبعثه اللُّؤْم على البِذَاء بسَفَهِه ، فإن غفل عن استكفاف السفهاء ، وأعرض عن استدفاع أهل البذاء ، صار عِرْضه هدفًا للمثالب ، وحاله عُرْضةً للنوائب ، وإذا استكفَّ السفيهَ ، واستدفعَ البذيءَ ، صان عرضَهُ ، وحمى نعمتَه .

قالت عائشة رضي الله عنها : « ذُبُّوا بأموالكم عن أعراضكم » .

ولاستكفاف السفهاء بالإفضال شرطان :

أحدهما : أن يُخفيَه ، حتى لا تنتشر فيه مطامعُ السفهاء ، فيعمدون إلى اجتدائه بسببه ، وإلى ماله بثلْبه .

والثاني : أن يتطلب له في المجاملة وجهًا ، ويجعل في الإفضال عليه سببًا ؛ لئلَّا يرى أنه على السَّفَهِ واستدامةِ البذاء .

واعلمْ أنك ما حييتَ ملحوظُ المحاسن ، محفوظُ المساوئ ، ثم مِن بعد ذلك حديثٌ منتشِرٌ ، لا يراقبك صديق ، ولا يحامي عنك شقيق ... فكنْ أحسن حديث يُنشَر ، يكن سعيُك في الناسِ مشكورًا ، وأجرُك عند الله مذخورًا .

ونختم حقوق المروءة وشروطَها ، بما ثبت عن الشافعي رحمه الله ؛ قال : «للمروءة أربعةُ أركان : حُسْن الخلُق ، والسخاء ، والتواضع ، والشكر»[1] .

---

(١) توالي التأسيس لابن حجر صـ ٧٢ .

عالي الهِمَّة بعيدٌ كلَّ البعدِ عن الخصال التي تخْرِمُ المروءة :

والخصال التي تخرِم المروءة كثيرة ، وعالي الهمة يأبى أن يلْطَخ نفسه بأيِّ خصلة منها ، ولذا تجده أبعدَ الناس عنها . وهذه الخصال أتت متفرِّقة في بطون الكتب ، ولقد تعِب في جمْعها رجل من أهل الحديث ، وتلميذ نجيب من تلامذة محدِّث الدنيا الشيخ الألباني ... ألا وهو الشيخ الحبيب إلى القلوب : « مشهور حسن آل سلمان» في كتابه القيِّم : «المروءة وخوارمها» .. مدّ الله في عمره .. وجعله من سادات الربَّانيِّين . وهذه الخصال نلخصها هنا . وباقتراف الفرد لخصلة منها تُثْلَم مروءَتُه ، وتسقط عدالته . وهذه الخصال هي :

(١) اتباع الهوىٰ :

قال ابن القيم : «إن أغزر الناس مروءة أشدُّهم مخالفة لهواه . قال معاوية : المروءة ترْك الشهوات وعصيان الهوى ؛ فاتباع الهوى يُزمن المروءة ، ومخالفته تُنعشها » .

وقال قبل ذلك : « والهوى يُعمي صاحبه من ملاحظتها ، والمروءة والدين والعقل ينهىٰ عن لذَّة تُعقِبُ ألمًا ، وشهوةٍ تُورث ندَمًا ، فكلّ منهما يقول للنفس إذا أرادت ذلك : لا تفعلي . والطاعة لمن غلب » .

ثم قال : « ومَن لا دين له ؛ يُؤْثر ما يهواه ، وإن أدَّاه إلى هلاكه في الآخرة ، لضعْف ناهي الدين ، ومن لا مروءة له ؛ يُؤْثر ما يهواه ، وإن ثُلِمَ مروءته أو عُدِمَها ؛ لضعف ناهي المروءة ؛ فأين هـذا من قول الشافعي رحمه الله تعالى : لو علمتُ أن الماءَ البارِدَ يثْلَمُ مروءتي ، لما شربتُه ؟! »[١] .

قال عمرو بن العاص : اللَّذة طرْحُ المروءة .

قال الجاحظ : « وقد صدَق عمرٌو ؛ ما تكون الزّماتة والوقار إلَّا بحمْل على النفس شديد ، ورياضة متعِبَة »[٢] .

---

(١) روضة المحبين لابن القيم صـ ٤٢٢ ، ٤٢٨ .

(٢) رسائل الجاحظ ١ / ١٤٦ .

(٢) أخْذُ العِوَض على إطعامِ وسُقيا الأسير .

(٣) أخْذ العِوَض على تعليم القرآن والتحديث من غير حاجة :

قال ابن الصلاح : « أخْذ العوض على التحديث شبيه بأخْذ الأجرة على تعليم القرآن ونحوه ، غير أن هذا من حيث العرْف خَرْمٌ للمروءة ، والظنُّ يُساء بفاعله إلا أن يقترن ذلك بعذرٍ ينفي ذلك عنه »[١] .

والمشارطة على أخْذ الأجرة على الحديث أبلغ في الدناءة من الأكل على الطريق ، وهو جارٍ مجرى اشتراط الأجرة على صلاة النافلة .

(٤) أخْذ نثار العرْس بفضل قوّة أو بفضل قلّة حياء[٢] .

(٥) إخراجُ الريح بصوت وهو يقدر على خلافه :

وفي حديث عبد الله بن زَمْعة عند البخاري : أنه سمع النبي ﷺ يخطب ... وفيه : ثم وعظهم في ضَحِكِهم من الضرْطة ، وقال : « لِمَ يضحكُ أحدُكم ممَّا يفعل ؟! » .

وعدّه ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢/٣٥٣) من خوارم المروءة .

(٦) إخراجُ اليديْن من تحت الجبَّة بين الناس لغير حاجة :

في حديث المغيرة بن شعبة في « صحيح مسلم » : « خرج رسول الله ﷺ ليقضي حاجته ، فلمَّا رجع تلقَّيتُه بالإدواة ؛ فصببتُ عليه ، فغسل يديه ثم غسل وجهه ، ثم ذهب ليغسل ذراعيْه فضاقت الجبّة ، فأخرجهما من تحت الجبّة » .

قال النووي في « شرح صحيح مسلم » (٣ /١٦٩) : « فيه جواز مثل هذا للحاجة وفي الخلوة ، وأما بين الناس ؛ فينبغي أن لا يُفعل لغير حاجة ؛ لأن فيه إخلالًا بالمروءة .

---

(١) علوم الحديث لابن الصلاح صـ ٢٣٥ ، ومحاسن الاصطلاح للبلقيني صـ ٢٣٥ ، وتوضيح الأفكار للصنعاني ٢ / ٢٥٤ .

(٢) أومأ القليوبي إلى أنه من الخوارم في « حاشيته على شرح المحلَّى على المنهاج » ٣/٢٩٩.

(٧) إدامة تأخير الصلاة[1] .

(٨) إدامة ترْك تسبيحات الصلاة[2] .

(٩) الادِّهانُ عند العطَّار :

عن ابن سيرين قال : « ثلاثة ليست من المروءة : الأكل في الأسواق ، والادِّهان عند العطار ، والنظر في مرآة الحجَّام »[3] .

(١٠) استخدام الضيف :

« قال رجاء بن حَيْوة : سمرتُ عند عمر بن عبد العزيز ذاتَ ليلة ، فعشا السراج ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، ألَا أنبِّه هذا الغلام يُصلِحه ؟ فقال : لا ، دعْه ينام ؛ لا أحب أن أجمع عليه عملَيْن . فقلتُ : أفلا أقوم أُصلحه ؟ فقال : لا ، ليس من المروءة استخدامُ الضيف . ثم قام بنفسه فأصلحه وصبَّ فيه زيْتًا ، ثم جاء وقال : قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز ، وجلستُ وأنا عمر بن عبد العزيز »[4] .

(١١) الاستخفافُ بالناس والتشهير[5] **بهم ، وخاصَّة العلماء والدُّعاة :**

جاء في « عيون الأخبار » : « قد استدللتَ على كثرة عيوبك بما تُكثر من عيْب الناس ؛ لأن الطالب للعُيُوب إنما يطلبها بقدْر ما فيه منها »[6] .

والمبالغة والتهويل في نقد الغير غفلة عن عيْب النفْس .

(١،٢) بغية المسترشدين صـ ٢٨٢ .

(٣) روضة العقلاء لابن حبان صـ ٢٣٣ ، و « الظرف والظرفاء » للوشّاء صـ ٨٧ .

(٤) « الإمتاع والمؤانسة » لأبي حيَّان التوحيدي ٦٨/٢، وابن كثير في « البداية والنهاية » (٩ / ٢١١) .

(٥) التحرير لابن الهمام ٣ / ٤٦ ، والرسائل الزينية لابن نجيم ٢٥٦ ، والعتر في منهج النقد ٨٠ .

(٦) عيون الأخبار ٢ / ٤ .

قال ابن القيم : « من قواعد الشرْع والحكمة أيضًا : أنَّ مَن كثرت حسناته وعظُمتْ ، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر ؛ فإنه يُحتمل منه ما لا يُحتمل لغيره،ويُعفىٰ عنه ما لا يعفىٰ عن غيره ؛ فإنَّ المعصية خبَثٌ ، والماء إذا بلغ قُلتيْنِ لم يحملِ الخبث ، بخلاف الماء القليل ، فإنه لا يحتمل أدنى خبثٍ»[١] .

(١٢) الاستمناء أو جَلْد عَمِيرة[٢] :

قال ابن العربي : « قال بعض العلماء : إنه – أي الاستمناء – كالفاعل بنفسه ، وهي معصية أحدثها الشيطان ، وأجراها بين الناس ، صارت قِيلةً ، ويا ليتها لم تُقل ،ولو قام الدليل على جوازها ، لكان ذو المروءة يُعرض عنها لدناءتها » . ثم قال : « ... ولكنَّ الاستمناء ضعيف في الدليل ، عارٌ بالرجل الدنيء ، فكيف بالرجل الكبير ؟! »[٣] .

وقال الشوكاني عن الاستمناء : « لا شكَّ أن في هذا العمل هجنة ، وخِسَّة ، وسقوط نفس ، وضياع حِشْمة ، وضعْف هِمَّة »[٤] .

والاستمناء حرام عند جمهور العلماء .

فإن كان الاستمناء بيد الحليلة ؛ فجائز بإجماع .

وإن كان بيد أجنبية ، أو أُدخل الأَجنبيُّ أصبعه في فرج امرأة ؛ فحرام اتفاقًا .

فإن فعله الرجل للتلَذُّذ واستبدله بالزوجة والأَمَة ؛ فحرام .

---

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ١٧٦ .

(٢) في القاموس المحيط صـ ٥٧٢ : « وأبو عمير : كنية الذَّكَر ، وجَلْد عَمِيرة : كناية عن الاستمناء باليد » ، وأفاد الزبيدي في « التاج » أنَّ عميرة مستعار للكفّ .

(٣) أحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي ٣ / ١٣١٠ .

(٤) بلوغ المنىٰ في حكم الاستمنىٰ للشوكاني . تحقيق : مشهور حسن آل سلمان صـ ٨٤ .

فإن فعَله ليكسر حِدَّة شهوته ، وشِدَّة شَبَقِهِ فحسْب ؛ فحرام . فإن كان هذا الفعل لدفْع مضرَّة الزنى أو اللواط التي باتت - أو كادت - متحقِّقة في حقّه ؛ فهو مباح بعد أن يجرّب الصيامَ ويجاهد نفسه .

(١٣) اعتياد البوْل قائمًا بلا ضرورة ، أو في الماء :

عدَّ السخاوي في « فتح المغيث » (١ / ٢٩١) : من خوارم المروءة : « البول قائمًا - يعني في الطريق - وبحيث يراه الناس، وفي الماء الراكد».

(١٤) الإعلان بالفسْق :

قال السرخسي : « ولا مروءة لمن يكون معلِنًا بفسْقٍ شرعًا » .

(١٥) إفساد المال .

(١٦) إكثار المضايقة في اليسير الذي لا يُسْتَقْصَىٰ فيه .

(١٧) الأكْل في الطريق والأسواق :

بات عليُّ بن المديني عند عبد الله بن داود - الخريبي - بالخُرَيبة ، فدخل حانوت بقّال يتعشَّىٰ ؛ فقال له عبد الله : « لو صبرتَ ليلةً واحدة كنتَ تموت ؟! أين الدِّين ؟! أين المروءة ؟! ما لك مروءة ، ولا فيك خير ؟! »[1].

وعدّه من الخوارم : ابنُ سيرين ، والسرخسي ، والفخْر الرازي ، والغزالي ، وابن عقيل ، والمجد ابن تيمية ، والعيني ، والنووي ، وزكريا الأنصاري ، والآمدي ، والسخاوي ، والشيرازي[2] .

والأكل في الأسواق والطرقات يكون من خوارم المروءة بالشروط التالية :

---

(١) تاريخ دمشق : ترجمة عبد الله بن داود الخريبي .

(٢) انظر:أصول السرخسي ١ / ٣٥٠ ، المحصول للرازي ٤ / ٣٩٩ ، المستصفىٰ للغزالي ١ / ١٥٧،المحرر ٢ / ٢٦٨ للمجد ابن تيمية ، روضة الطالبين ٢٣٢/١١ ، فتح الباقي لزكريا الأنصاري ١ / ٢٩٤ ، فتح المغيث للسخاوي ١ / ٢٩١ ، شرح اللمع للشيرازي ٢ / ٦٣١ .

أولًا : أن يكون بمرأًى من الناس ، أمَّا إذا أكَلَه في السوق وهو خالٍ من الناس كالليـل مثلًا ، أو أكله مستترًا في داخل الدكّان ؛ فلا يقدح ذلك في المروءة .

ثانيًا : أن يكون الأكل كثيرًا بأن يضع مائدة في السوق ، فلو أكل قليلًا فلا يقدح ، والكثرة والقِلَّة يحدِّدها العُرْف .

ثالثًا : أن يكون الشخص من غير أهل السوق ، فإن كان من أهل السوق ، أو ممَّنِ اعتاد الأكْل هناك ، فإنه لا يقدح في المروءة .

رابعًا : أن يكون الشخص مختارًا أكْلَه ، فلو أكل مضطرًّا أو لعُذر - كغَلَبة جُوع ، أو إرضاءً لصديق - فلا تقدح في مروءته .

وأكْل العِلْك « اللبان » للرجال ، ما لم يكن للتداوي ؛ لما فيه من التشبُّه بالنساء ، وكذا في حقِّ النساء إن كان عند الرجال الأجانب .

(١٨) الأكْل من موضع يد صاحبه ومِن غير ما يليه :

أخرج مسلم في « صحيحه » ؛ عن عمرو بن أبي سلمة قال : كنتُ غلامًا في حِجْر رسول الله ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصَّحْفة ، فقال لي : « يا غلام ، سمِّ الله ، وكُلْ بيمينك ، وكُلْ مما يليك » .

قال النووي في « شرحه » (١٣ / ١٩٣) : « لأنَّ أكْله من موضع يد صاحبه سوءُ عِشْرة وترْكُ مروءة » .

(١٩) الألْعاب :

قرَّر ابن قدامة في « المغني » (١٢/٣٧-٣٨) : أن الأصل في اللعب : الإباحة ، وما كان فيه دناءة يترفَّع عنها ذوو المروءات ؛ مَنع الشهادة إذا فعَله ظاهرًا وتكرَّر منه .

ونحوه عند الدردير في « الشرح الصغير » (٥ / ٢٨) ؛ فقال في معْرِض حديثه عمَّا يُخلُّ بالمروءة : « وكذا سائر اللعب ، إلَّا ما استثناه الشارع ؛

كالمسابقة ، واللَّعِب مع الزوجة والطفل ، إذا لم يَكْثُر . والكلام في اللعب بما ذُكر إنما هو إذا أدمن ذلك .

قال الأبهري في الفرق بين الإدمان وعدمه : إن الإنسان لا يَسْلَم من يسير اللهو .

كان عروة بن الزبير يقول لولده : يا بَنِيَّ ، العبوا ؛ فإن المروءة لا تكون إلَّا بعد اللعب »[(١)] .

(٢٠) المداومة على إنشاد الشعر والتكسُّب به :

«فلا تُقبل شهادةُ شاعرٍ مُفْرِطٍ بالمدح بإعطاء ، أو بالذمِّ بعَدَمِه ، ولا مُشَبِّب بمدْحِ خمرٍ أو بمرد أو بامرأة معينة محرَّمة ، ويُفسَّق بذلك »[(٢)] .

(٢١) البول على قارِعة الطريق المسلوكة وفي الأماكن العامَّة :

قال ابن الهمام : « ومثله الذي يكشف عورته ليستنجي من جانب بركة والناس حُضُور »[(٣)] .

وعدّه من خوارم المروءة : السرخسيُّ والرازي والغزالي ، وابن الإخوة والقاضي عياض والسبكي .

(٢٢) التَّجَشُّؤ بصوتٍ مزعجٍ ما وجد إلى خلافه سبيلًا :

في الحديث الحسَن : أن رجلًا تجشَّأ عند النبي ﷺ ، فقال : « كُفَّ عنَّا جشاءَك ؛ فإن أكثرهم شِبَعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة » .

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١ / ٤١٢ .

(٢) انظر : مغني المحتاج للخطيب الشربيني ٤٣٢/٤، وحاشية الروض المربع ٤٢٥/٣ ، وروضة الطالبين ٢٣٠/١١ .

(٣) انظر:فتح القدير لابن همام ٤١٤/٧ ، وبُغية الرائد للقاضي عياض صـ ٤٠ ، ومعالم القربة لابن الإخوة صـ ٣١٤ ، والمستصفى ١ / ١٥٧ ، والمحصول ٤ / ٣٩٩ ، وأصول السرخسي ١ / ٣٥٠ .

وعدَّه ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢ / ٣٥٣) من خوارم المروءة .

(٢٣) تحديث الناس بمُباضَعَة وجِمَاع الزوجة :

عدَّه ابن قدامة في « المغني » ، ومجد الدين ابن تيمية ، وابن النجار في « منتهى الإرادات »،من خوارم المروءة .

قال ابن نُجيم:« وذِكْر ما يجري من امرأته في الخلوة ومهازلتها ، حيث يسمع غيره » .

(٢٤) التحيَّة العسكرية :

قال الشيخ حمُّود التويجري : «وإذا عُلِمَ فضل السلام، وأنه تحية المسلمين في الدارَيْن ، فليُعلمْ أيضًا أنه لا أسْفهَ رأيًا ممَّن رَغِب عن ذلك ، واستبدل عنه بإشارات الإفرنج ، وضرْبهم بالأرجل شبه البغال والحمير إذا أحسّت بشيء يدبُّ على أرجلها ... بل ضرب الشُّرط بأرجلهم أفحشُ وأنكرُ من ضرب البغال والحمير بأرجلها ، وكفى بالتحية العسكرية مهزأة ومنقصة عند كلِّ عاقل سليم مِن أمراض المدنية الإفرنجية وأدناسها »[1] .

(٢٥) ترْكُ الزاني يزني ، وتمكينه من ذلك :

لا يليق بذوي المروءات . قاله ابن العربي .

(٢٦) ترْك الوتر :

قال أحمد بن حنبل : « مَن ترك الوتر عمدًا ؛ فهو رجلُ سوءٍ ،ولا ينبغي أن تُقبَل له شهادة » .

(٢٧) التصريح بأقوال الخنَا وما يُسْتَبْشَع في الملأ من غير حاجة ولا ضرورة :

من قوادح المروءة - كما قال الدردير في « الشرح الصغير » -: « الهزْلُ

---

(١) الإيضاح والتبيين للشيخ حمود التويجري صـ ١٦٩ .

الخارج عن عُرْف أهل الكمال ، من المجون والدعابة »[١] .

وعرَّفه الدسوقي بقوله : «قوله بأن لا يُبالي بما يقع منه من الهزْل ؛ أي كإخراج الصوت من فِيه ، وكالنطق بألفاظ الخنا في الملأ : مما يُستبْشع النطق به »[٢] .

والتصريح بما يُستحيا من التلفُّظ به من أنواع الرَّفَث في القول ، من أجل الحاجة الملجئة لذلك : مشروع[٣] ، وما عدا ذلك:من خوارم المروءات .

(٢٨) تعاطي الإنسان ما لا يحسنه ، ودعواه معرفة ما لا يعرفه :

قال ابن الوزير عنه : «من عادات السفهاء ، ومَن لا حياء له ولا مروءة»[٤] .

(٢٩) تقبيل الرجل زوجَه عند الناس :

أو وضع يده على موضع الاستمتاع منها من صَدْر ونحوه .

روى الخطيب البغدادي في ترجمة : « القاضي أبي بكر موسى بن إسحاق الخطمي » ، قال : « تقدَّمت امرأة ، فادَّعى وليُّها على زوجها خمسمائة دينار مهرًا ، فأنكر ، فقال القاضي : شهودك . قال : قد أحضرتُهم . فاستدعى بعضَ الشهود أنْ ينظر المرأة ليشيرَ إليها في شهادته ، فقام الشاهد ، وقالوا للمرأة : قومي . فقال الزوْج : تفعل ماذا ؟ قال الوكيل : ينظرون إلى امرأتك وهي مُسْفرة لتصحَّ عندهم معرفتُها . فقال الزوج : فإني أُشهد القاضي أنَّ لها عليَّ هذا المهْر الذي تدَّعيه ، ولا تُسْفر عن وجهها . فرُدَّت المرأة ، وأُخبرت بما كان من زوجها . فقالت المرأة : فإني أشهد القاضي أني قد وهبتُ له هذا المهْر ، وأبرأْتُه منه في الدنيا والآخرة . فقال القاضي : يُكتب هذا في مكارم الأخلاق »[٥] .

---

(١) الشرح الصغير للدردير ٥ / ٢٨ .
(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير ٤ / ١٦٦ .
(٣) انظر فتح الباري ١٢ / ١٢٥ .
(٤) الروض الباسم لابن الوزير ١ / ١٥٨ ، طبع : دار الإفتاء .
(٥) تاريخ بغداد ١٣ / ٥٣ .

(٣٠) تكتيفُ اليديْن على الدُّبر :

قال الشيخ حمُّود التويجري : « وهذا الفعل السخيف من أفعال الإفرنج وأضرابهم من أعداء الله تعالى ، كما حدّثنا بذلك مَن خالطهم كثيرًا ، ورأى ذلك منهم ، وقد تلقَّى ذلك عنهم كثير من سفهاء المسلمين » . ثم قال عنه : « إنه فعْل مُستَقْبَح عند ذوي المروءات والشيَم ، وكيف لا يكون ذلك قبيحًا بالرجل أن يضع يدهَ على دُبُره ثم يمشي بين الناس ، وهو على ذلك الوضع المسْتَهْجَن المزْرِي بالصبيان الصغار ، فضلًا عن الرجال الكبار .

فينبغي للعاقل أن يسمو إلى معالي الأمور التي تجمِّله وتُزيِّنه ، ويبعد عن سفاسف الأمور التي تدنِّسه وتَشينه . والله الموفِّق »[1] .

(٣١) تكرُّر حضورِ وليمةِ غيرِ نحوِ سلطانٍ ، بلا طلب ولا ضرورة ، ولا استحلال صاحبها ؛ لالتقاط العشار :

قال ابن قدامة : « ولا تُقبَلُ شهادة الطفيلي ، وهو الذي يأتي طعام الناس من غير دعوة ، وبهذا قال الشافعي ، ولا نعلم فيه مخالِفًا ».وعلَّل ذلك بقوله : « لأنه يأكل محرَّمًا ، ويفعل ما فيه سَفَهٌ ودَنَاءة وذَهابُ مروءة ، فإن لم يتكرَّر هذا منه ، لم تُرَدَّ شهادته ؛ لأنه من الصغائر »[2] .

(٣٢) التوسُّع في المأكل والمشرب والرفاهية ، بحيث يقع بسببه قصور في الطاعات أو النفقة على مَن يَعُول :

---

(١) الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين.للشيخ التويجري صـ ١٨٧ ، ١٨٩ .

(٢) المغني ٤٩/١٢ ، والطفيلي : نسبة إلى رجل يُقال له : « الطفيل » من بني عبد الله من غطَفان ، أكثر من الإتيان إلى الولائم من غير دعوة ؛ فسُمِّي « طفيلي العرائس » فضرب به المثل في الطمع ، والطفيْلي هو أيضًا في اللغة الإمَّعة ، وهو أيضًا الوارش ، وهو الذي يدخل على القوم في طعام لم يُدْعَ إليه .

نومُ الغداةِ وشرْبٌ بالعشيَّاتِ   موكّـلانِ بتهْـديمِ المـروءَاتِ

(٣٣) الجَشَع عند الأكل ، سواء كان وحدَه أو بين الناس :

عدّه ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/٢٥٣) من خوارم المروءة .

(٣٤) جعْلُ النفسِ مسخرة ، بحيث يُضْحك به في كلامه أو لباسه :

عدّه ابن الإخوة في « معالم القربة » من خوارم المروءة . وعدّ الرازي ، والغزالي في « المستصفى » ، والآمدي في « الإحكام » ، مما يقدح في المروءة : إفراط المزاح[١] .

وذهب القاضي أبو بكر الطرطوشي إلى أن من خوارمها : الحكاية المضحكة . نقل ذلك القاضي عياض في « بغية الرائد » صـ ٢٣٩ - ٢٤١ .

قال ابن قدامة في « المغني » (١٢ / ٣٣) مع « الشرح الكبير » : « وأما المروءة ؛ فاجتناب الأمور الدنيئة المزرية به » . ثم مثَّل عليه بقوله : « أو يتمسْخَر بما يضحك الناس به » .

وقال ابن مفلح : « وكذا مثَّل غيرُ واحد من الأصحاب - أي على الخوارم - بحكاية ما يضحك منه الناس ، ونارنجيات وتعزيم »[٢] .

وذكره صاحب « العباب » من الأحناف ، فعدَّ من جُملة الخوارم : « وجعْل نفسِه ضحْكَةً » ، و « إكثار حكايات مضحكة » . نقله ابن نجيم في « الرسائل الزينية »[٣] .

وعدّ المجد ابن تيمية في « المحرر » ، وابن النجار في « منتهى الإرادات »

---

(١) انظر : معالم القربة صـ ٣١٤ ، والمحصول ٤ / ٣٩٩ ، والمستصفى ١ / ١٥٧ ، والإحكام ٢ / ١٠٩ .

(٢) النكت والفوائد السنية لابن مفلح ٢ / ٢٦٨ .

(٣) انظر:الرسائل الزينية ، لابن نجيم صـ ٢٥٧ ، وروضة الطالبين ١١ / ٢٣٢ ، وفتح الباقي لزكريا الأنصاري ١ / ٢٩٤ .

(٢ / ٦٦١) ، وابن ضويان في « منار السبيل » (٢ / ٤٨٨) ، والبهوتي في « الروض المرْبع » (٤٨٤) من الخوارم : المُتَمَسْخِر .

قال العنقري في « حاشيته » : هو الذي يأتي بما يُضحك الناس ؛ من قول أو فعْل .

قال الشيخ تقي الدين : « وتحرُم محاكاة الناس للضحك ، ويعزَّر هو ومن يأمره ؛ لأنه أذى »(١) .

يُعلم بهذا أن (المهرِّجين) و (الممثِّلين) ، ولا سيما على (المسارح) فيما يسمَّى بـ (الكوميديا) : مخرومو المروءة ، وكذا من يقومون بإصدار «النِّكات» و «المضحكات» في مجامع الناس العامَّة في «السيرك» وغيره ، بمناسبة أو دونها .

(٣٥) الجلوسُ على الطرقات :

ذكَره ضمْن المباحات القادحة في المروءات : أبو القاضي بن الطيب ، نقله عنه القاضي عياض في « بغية الرائد » (٤١) .

قال عبد الملك بن عُمير : « إن من مروءة الرجل جلوسَه ببابه »(٢) .

والجلوس في الطرقات وفي حوانيت الناس للحديث ، ليس من المروءة .

وفي ترجمة أبي الجوزاء الربعي : أنه « لم يجلس على دكاكينَ قطُّ »(٣) .

(٣٦) الحِرْص :

عدَّه الوشاء من خوارم المروءة(٤) .

(٣٧) الحَسَد :

أعداء المروءة بنو عمِّ السوء ؛ إنْ رأَوْا خيْرًا ستروه ، وإنْ رأوْا شرًّا أذاعوه .

---

(١) حاشية الروض المربع ٣ / ٤٢٤ .
(٢) عيون الأخبار ١ / ٤١٢ .
(٣) طبقات ابن سعد ٧ / ٢٢٤ .
(٤) الظرف والظرفاء للوشاء صـ ٩٤ .

(٣٨) حَلق اللِّحْية :

عدَّها ابن عابدين من خوارم المروءة في « العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية »[(١)] .

(٣٩) حمْلُ الفلوس في الكُمِّ :

قال الصحابي الجليل ، طلحة بن عبيد الله : « جلوسُ الرجل ببابه من المروءة ، وليس من المروءة حمْل الكِيس في الكُمِّ »[(٢)] .

(٤٠) حمْلُ المتاع بُخلًا بأجْرة حمَّال يحملُه له :

عدَّه ابن الإخوة في « معالم القربة » من خوارم المروءة[(٣)] ، ونقل ابن نجيم في « الرسائل الزينية » عن « العباب » : أنَّ من خوارم المروءة « ... كابتذال رجلٍ معتبرٍ نفسَه ، بنقلِ الماء والطعام إلى بيته شُحًّا ، لا تواضعًا واقتداءً بالسَّلَف ، مِن ترْك التكَلُّف » .

(٤١) الخروجُ عن مستوى الجلوس بلا عُذر :

عدّه ابن النجَّار من الخوارم[(٤)] .

(٤٢) خِضابُ اللحية بالسَّوَاد :

عن ابن عباس مرفوعًا : « يكون قوم يخضِبون بالسَّوَاد كحواصل الحمام ، لا يريحون رائحة الجنة »[(٥)] .

---

(١) العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية لابن عابدين ١ / ٣٢٩ ، وانظر نهاية المحتاج ٨ / ٢٩٩ .

(٢) بهجة المجالس لابن عبد البر ٢ / ٦٤٤ ، الآداب الشرعية لابن مفلح ٢ / ٢٣٢ .

(٣) انظر : معالم القربة صـ ٣١٤ ، والرسائل الزينية لابن نجيم صـ ٢٥٧ .

(٤) منتهى الإرادات لابن النجار ٢ / ٦٦٢ .

(٥) إسناده صحيح : رواه أحمد ، وقال الساعاتي في « الفتح الرباني » (١٧ / ٣١٩) : إسناده صحيح . وهو عند أبي داود والنسائي بلفظ : « يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام ، لا يريحون من رائحة الجنة » . صححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨٠٠٩) .

وعدَّه السخاوي في « فتح المغيث » من خوارم المروءة .

(٤٣) دخول الحمَّام بغيْر مِئزَر ، وكشْفُ عورته فيه :

عدَّه المجد ابن تيمية في « المحرَّر » من الخوارم ، وعبارته : « أو يدخل الحمَّام بغيْر مِئْزرٍ » .

وقال بهاء الدين المقدسي : « ولا تجوز شهادة مَن لا مروءة له : كالمُسَخِّرة ، وكاشِف عوْرته للناظرين في الحمَّام »(١) .

(٤٤) ذكْر الأهل بالسُّخْفِ من غير حاجة :

قال النووي في « روضة الطالبين » (١١ / ٢٢٩) : « والصحيح أن تُرَدَّ شهادتُه إذا ذكَر جاريته أو زوجته بما حقُّه الإخفاء ؛ لسقوط مروءته » .

وفي « مغني المحتاج » (٤ / ٤٣١) : « ولو شبَّبَ بزوْجته أو أَمَتِه ممَّا حقُّه الإخفاء ، رُدَّتْ شهادتُه لسقوط مروءته ، وكذا لو وصف زوجته أو أمَته بأعضائها الباطنة » .

وذكره أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي من ضمن ما يُسقط المروءة .

(٤٥) الربْح على الإخوان والأصدقاء :

قال أبو قلابة : « ليس من المروءة أن يربح الرجل على صديقه » .

(٤٦) الرَّطَانة بالأعجمية من غير حاجة أو ضرورة :

ثبت في الحديث : « لا تتعلموا رطانة الأعاجم »(٢) .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « ما تكلَّم رجل بالفارسية إلا خبَّ ، ولا خبَّ إلَّا نقصت مروءته »(٣) .

---

(١) العدة شرح العمدة لبهاء الدين المقدسي صـ ٦٥٢ .

(٢) إسناده صحيح : رواه عبد الرازق في مصنَّفه ، والبيهقي في السنن الكبرى ، وقال ابن كثير في « مسند الفاروق » (٢ / ٤٩٤) : إسناده صحيح .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٩ / ١١ ، وتاريخ جرجان للسهمي صـ ٤٢٦ .
وخبَّ : أي صار خدَّاعًا .

وقال رضي الله عنه : تعلَّموا العربية ؛ فإنها تزيد في المروءة[(١)] .

قال ابن تيمية: «أما اعتياد الخطاب بغير اللغة العربية ، حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله، أو لأهل الدار، أو للرجل مع صاحبه، أو لأهل السوق ؛ أو للأمراء ، أو لأهل الديوان ، أو لأهل الفقه - فلا ريب أن هذا مكروه ؛ فإنه من التشبُّه بالأعاجم » .

وقال الأصمعي : « ثلاثة تَحكُمُ لهم بالمروءة حتى يُعرَفوا : رجل رأيتَه راكبًا ، أو سمعتَه يعرب ، أو شممتَ منه رائحة طيِّبة . وثلاثة تَحكُمُ عليهم بالدناءة حتى يُعرفوا : رجل شممت منه رائحة نبيذٍ في مَحفَلٍ ، أو سمعتَه يتكلم في مصر عربي بالفارسية ، أو رأيتَه على ظهر الطريق تَنَازَع في القدَر »[(٢)] .

(٤٧) الرقْصُ والغِناءُ والصفْقُ بالأكُفِّ :

قال السيوطي : «ومِن ذلك ما أُحدِثَ من السماع والرقْص والوَجْد ، وفاعل ذلك ساقِطُ المروءة ، مردود الشهادة ، عاصٍ لله ورسوله ، وهو محظور»[(٣)] .

قال النووي في مبحث ردِّ الشهادة : «ومَن لا مروءة له كالرّقاص»[(٤)] .

سئل الروذباري عمَّن يسمع الملاهي ويقول : هي حلال لي ؛ لأني قد وصلتُ إلى رتبة لا يُؤثِّر فيه اختلاف الأحوال ؟ قال : نعم ، قد وصل ، ولكن إلى سَقَر »[(٥)] .

ونقل عن ابن عبد السلام قوله في الرقص والتصفيق : « خِفَّة ورعونة مشبهة لرعونة الإناث ، لا يفعلهما إلا أرعنُ أو متصنِّعٌ كذَّاب »[(٦)] .

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب ، وأنساب الأشراف للبلاذري صـ ٩٩ .
(٢) عيون الأخبار (١ / ٤١٢ - ٤١٣) .
(٣) الأمر بالاتِّباع للسيوطي صـ ٩٩ ، تحقيق : مشهور حسن آل سلمان .
(٤) المجموع للنووي (٢٠ / ٢٥٠) .
(٥) الحلية ١٠ / ٣٥٦ ، والسير ١٤ / ٥٣٦ .
(٦) الإيضاح والتبيين للتويجري صـ ١٨٠ – ١٨٦ .

وذكر الشاطبي صعْق الصوفية ، فقال : « هذه اللّعب القبيحة المسقِطَة للأدب والمروءة »[١] .

(٤٨) الزنا :

قال الشيرازي : « ثم يَعفُّ فرجه عن مقارفة الزنا ، وذلك أصل العفاف ، وتمام المروءة ، وحصانة الدين »[٢] .

(٤٩) سُرْعة المشي بانْزعاجٍ واضطراب :

عدّه النخعي من الخوارم :

« وقد كان رسول الله ﷺ إذا مشى كأنما يهوي في صَبَبٍ ، وكان ﷺ إذا مشى تقلّع »[٣] .

قال ابن القيم : « التقلُّع : الارتفاع من الأرض بجملته ، كحال المنحطّ من الصبب ، وهي مشية أولي العزم والهمَّة والشجاعة ، وهي أعدل المشيات ، وأروحها للأعضاء ، وأبعدها عن مشية الهَوج والمهانة والتماوُت »[٤] .

(٥٠) سؤال الناس :

قال ابن قدامة في « المغني » (٤٩/١٢) فيمن كان أكثر عمره سائلًا ، أو يَكْثُر ذلك منه ، فينبغي أن تُردَّ شهادته ؛ لأن ذلك دناءة وسقوط مروءة .

وقبيح بالعبد المريد أن يتعرَّض لسؤال العبيد ، وهو يجد عند مولاه كلَّ ما يريد .

وفي الصحيحين : عن رسول الله ﷺ : « واليدُ العليا خير من اليد السفلى ».

---

(١) الاعتصام للشاطبي ١ / ٣٥٣ - ٣٥٤ ، ط : ابن عفان .
(٢) المنهج المسلوك في سياسة الملوك للشيرازي صـ ٣٣٥ .
(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى عن علي ، والحديث صحيح صحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٧٨٤ .
(٤) زاد المعاد ١ / ١٦٧ .

واليد العليا هي المنفقة ، والسفلى : هي السائلة .

والدَّيْن من المسألة ؛ فلا يجوز إلَّا للحاجة والاضطرار .

وسؤال الناس ظلْم للنفس .

قال ابن القيم : « وأما ظلمه لنفسه ؛ فإنه أراق ماءَ وجهه ، وذلّ لغيْر خالقه ، وأنزل نفسه أدنى المنزلتيْن ، ورضي لها بأبخسِ الحالتيْن ، ورضي بإسقاط شرف نفسه ، وعزَّة تعفُّفه ، وراحة قناعته ، وباع صبره ورضاه ، وتوكُّله وقناعته بما قُسم له ، واستغناءه عن الناس بسؤالهم ، وهذا عيْن ظلمه لنفسه ؛ إذ وضعها في غير موضعها ، وأخمل شرفها ، ووضع قدْرها ، وأذهب عِزَّها ، وصغَّرها وحقَّرها ، ورضي أن تكون نفسه تحت نفس المسئول ويدُه تحت يده ، ولولا الضرورة لم يُبَحْ ذلك في الشرع »[(١)] .

وفي صحيح مسلم: عن عوْف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه؛ قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة - أو ثمانية، أو سبعة - فقال : « ألا تُبايعون رسول الله ﷺ ؟ » وكنا حديثي عهد ببيعة ، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله . ثم قال : « ألا تبايعون رسول الله - ﷺ - ؟ » . فبسطنا أيديَنا وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك ؟ فقال : « أنْ تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، والصلوات الخمس » وأسرّ كلمة خفيّة : « ولا تسألوا الناس شيئًا » . قال: ولقد رأيتُ بعضَ أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدًا أن يناوله إياه.

قال سعيد بن المسيب : « مَن لزِم المسجد، وقبل كلَّ ما يُعطى ، فقد ألْحَف في المسألة» .

ولله درُّ السريِّ السَّقطي حين قال : « جعلوا مسجدَ الجامع حوانيتَ ليس لها أبواب » . يعني يتعرَّضون بذلك للسؤال .

قال الغزالي : « وسخاء النفس بما في أيدي الناس أكبر من سخائها بالبذْل

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٣٢ - ٢٣٣ .

ومروءة القناعة ، والرضا أكبر من مروءة العطاء ، وأكبر من ذلك كلِّه : السخاءُ بالحكمة »[١] .

وقال ابن القيم : « سؤال الناس : عيْب ونقص في الرجل ، وذلَّة تنافي المروءة إلا في العلم ؛ فإنه عيْن كماله ومروءته وعزّه . كما قال بعض أهل العلم : خير خصال الرجل : السؤال عن العلم »[٢] .

(٥١) سُوء العشْرة مع الأهل أو الجيران أو المعامِلين ، والتضييق في التافِهِ اليسير الذي لا يُستَقْصىٰ فيه :

عدَّه النووي في « روضة الطالبين » (١١/٢٣٢ - ٢٣٣) من خوارم المروءة ، وذكر في « شرح صحيح مسلم » (١٥ / ٢١٤) عند حديث أم زرع : أنَّ حسْن عشرة الزوجة من المروءة وكرم الخلق .

(٥٢) شتْمُ الناسِ أو الدَّوَابِّ :

قال ابن الهمام : قال نصير بن يحيى : « من يشتمْ أهلَه ومماليكَه كثيرًا في كلِّ ساعة لا تُقبل شهادته ، وإن كان أحيانًا تُقبَل»[٣]. وكذا الشتّام للحيوان ، كدابتّه .

وقد كان « أبو الجوزاء الربعي لا يلعن شيئًا قطُّ ، و لم يأكل شيئًا لُعِن قطُّ . قال : حتى إنه كان ليرشو الخادم في الشهر الدرهمَ والدرهميْن ، حتى لا يلعن الطعام إذا أصابها حرُّ التنور »[٤] .

قال القاضي عياض : « أفتى مالك لبعض الشعراء بما لا يُوافقه ، فقال : يا أبا عبد الله ، أتظنُّ الأمير لم يكن يعرف هذا القضاء الذي قضيتَه ؟! بلى ،

---

(١) روضة الطالبين وعمدة السالكين للغزالي صـ ١١٧ .
(٢) مفتاح دار السعادة ١ / ١٦٨ .
(٣) فتح القدير لابن الهمام (٧ / ٤١٥) .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٧ / ٢٢٣ .

وإنما أرسلنا إليك لتُصلح بيننا فلم تفعل ، بالله لأقطعنَّ جلدك هجاء . فقال له مالك : يا هذا ، أتدري ما وصفت به نفسك ؟ وصفْتَها بالسَّفه والدناءة ، وهما اللذان لا يعجز عنهما أحد ، فإن استطعت ، فأتِ غيرهما مما تنقطع دونه الرقابُ ، من الكرم والمروءة »[١] .

(٥٣) شرْب الدُّخان والجلوس على القهاوي « بيوت القهوات » :

قال عنه الشبراملسي : « يخلُّ بالمروءة » . ويجتمع الأسافل والأراذل هذه الأيام في القهاوي ، ولا يدخلها مَن كان ذا مروءة وخلُق ودين . كما قال القاسمي[٢] .

أمَّا القهوة في حدِّ ذاتها فهي حلال . أما جلوس الرجل على مصاطبها[٣] : فهو من خوارم المروءة .

واحذرْ دخولك للقهواتِ إنّ بها ... جلَّ الفواحشِ مِنْ كذبٍ وغيباتِ
كمْ قهوةٍ أصبحتْ للَّهوِ جامعةً ... وكمْ بلايا بها لأهـل الدِّياناتِ
كمحنةٍ شغلتْهمْ عن بُيوتهمُ ... وعن صلاةٍ وأولادٍ وطاعاتِ

(٥٤) الشرب مِن سقايةِ سُوقٍ بلا غَلَبَة جُوع وعطش :

قاله صاحب «العباب» من الحنفية ، ونقله ابن نجيم في «الرسائل الزينية» .

إلا أن يكون سوقيًّا أو غَلَبَهُ العطش ، وكذا قال النووي في « روضة الطالبين » .

ويرحم الله الشافعي ؛ حيث قال لابنه عثمان : « والله ؛ لو أعلم أنَّ الماء البارد يثْلَم مروءتي ، ما شربتُ إلا حارًّا »[٤] .

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض ١ / ١٩٠ .
(٢) حاشية الشبراملسي على نهاية المحتاج (٢٩٩/٨) ، و «قاموس الصناعات الشامية» للقاسمي صـ ٣٩٨ .
(٣) المصطبة : مكان اجتماع الغرباء ، كما قاله الكفوي في « الكليات » ٨٢٨ .
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ١٨٨/٢، وآداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم الرازي.

وعند البيهقي في مناقبه : « والله الذي لا إله إلا هو ، لو علمتُ أن شرب الماء البارِد يُنقص من مروءتي ما شربتُه ، ولو كنتُ اليوم ممَّن يقول الشعر لَرثيتُ المروءة »[١] .

قيل لعبد الملك بن مروان : كان مصعب بن الزبير يَشرب الطلا ؟ فقال : لو علم مصعب أن الماء يُفسد مروءته ما شربه .

(٥٥) صُحْبة الأراذل :

ذكَره الفخر الرازي في « المحصول » ، والغزالي في « المستصفى » ، والصنعاني في « توضيح الأفكار » .

« سأل ربيعة الإمام مالكًا : مَن السفَلةُ يا مالك ؟ قال : الذي يأكل بدينه . قال لي : فمَن سَفَلَةُ السَّفَلة ؟ قلتُ : الذي يأكل غيرُه بدينه »[٢] .

(٥٦) عدم الإفضال بالماء والطعام ، والمساعدة بالنفس والجاه :

عدَّه السخاوي في « فتح المغيث » من خوارم المروءة .

وقديمًا قالوا : كان الرجل إذا أراد أن يَشين جارَه طلب الحاجة إلى غيره .

« وقال أعرابي : منَ قَبِل صِلَتَك ، فقد باعك مروءتك »[٣] .

(٥٧) القَهْقَهَة :

عدَّها ابن عقيل في « الفنون » من خوارم المروءة ، ونقلها عنه ابن مفلح في « النكت والفوائد السنية » .

(٥٨) كثرة الالتفات في الطريق :

قال إبراهيم النخعي : «ليس من المروءة كثرة الالتفات في الطريق»[٤].

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢ / ١٨٧ .

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض ١ / ١٢٩ .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٦٥ .

(٤) بهجة المجالس لابن عبد البر ٦٤٤/٢، الآداب الشرعية لابن مفلح (٤١٢/١).

(٥٩) كشفُ العوْرة إذا خلا من غير حاجة :

عدَّه ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣٥٣/٢) ، والسخاوي في « فتح المغيث » (٢٩١/١) ؛ من خوارم المروءة .

قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٣٢/٤) : «وأما كشف الرجل عورته في حال الخلْوة بحيث لا يراه آدمي ؛ فإن كان لحاجة جاز ، وإن كان لغير حاجة ؛ ففيه خلافُ العلماء في كراهته وتحريمه ، والأصحّ عندنا أنه حرام».

وإن جاز للرجل الاغتسال عريانًا في الخلوة ، فالتسترُّ أفضل ، والله أحقُّ أن يُسْتَحْيا منه .

(٦٠) كشفُ ما جرتْ العادة بتغطيته من بدنه ؛ كصدره ، وظهره وبطنه :

عدَّه ابن قدامة ، وابن مفلح ، وابن النجار ، وابن ضويان : من خوارم المروءة[1] .

(٦١) الكلامُ ممَّا يُعتَذَر منه :

صحَّ نهيُ النبي ﷺ عن هذه الخَصلة ، وعدَّه عمرو بن العاص من الخوارم .

(٦٢) اللَّعبُ بالأُرجوحة للكبار :

عدَّه ابن النجار في « منتهى الإرادات » (٦٦١/٢) من الخوارم ؛ قال : « واللاعبُ بكلِّ ما فيه دناءة حتى في أُرجوحة » .

قال ابن عقيل في « الفنون » : « الأرجوحة والتعلُّق عليها والترجيح فيها مكروه ، نهى عنه السلف ، وقيل : إنها لعبة الشيطان ، فلا تُقبَل شهادة المُدِمن لها » .

---

(١) انظر المغني (٣٣/١٢) ، النكت والفوائد السنية لابن مفلح ٢٦٨/٢ ، ومنتهى الإرادات لابن النجار ٦٦٢/٢ ، منار السبيل لابن ضويان ٤٨٩/٢ .

وعند الخطابي في «معالم السنن» (١٢٥/٤) : مشروعية اتخاذ الأرجوحة للجواري الصغار .

(٦٣) اللَّعِبُ بالحَمَام :

رأى النبي ﷺ رجلًا يتبع حمامًا ، فقال : «شيطانٌ يتْبَع شيطانة»[1].

عدَّ اللعبَ بالحمامِ من خوارم المروءة : ابنُ الهمامُ وابن نجيم ، وابن قدامة ، والنووي ، والمجد ابن تيمية ، وابنُ النجار ، وأحمد الدردير .

قال ابن قدامة في المغني (٣٧/١٢) : « واللاعبُ بالحمام يُطيِّرها : لا شهادة له ، وهذا قول أصحاب الرأي ، وكان شريح لا يُجيز شهادة صاحب حَمَام ولا حمَّام ؛ وذلك لأنه سَفَه ودناءة وقلَّة مروءة » .

(٦٤) اللَّعب بالسيجة ، والطَّاب ، والنرْد ، والدمينو ، و (الكوتشينة) ، وغيرها .

(٦٥) اللَّعِب بالشطرَنْج :

عدَّه النووي ، والشربيني ، والحطَّاب ، وأحمد الدردير ، والآبي؛من قوادح المروءة[2] .

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية في مواطن كثيرة من « مجموع الفتاوى » وابن القيم في « الفروسية » إلى تحريمه .

(٦٦) المتزيي بزيٍّ يُسخر منه :

ذكَرَه ابن النجار ، والبهوتي ، وابن ضويان من خوارم المروءة[3] .

---

(١) إسناده حسن : أخرجه أبو داود ، والبخاري في الأدب المفرد ، وأحمد في السنن ، وابن ماجه .

(٢) انظر : روضة الطالبين ٢٢٥/١١، ٢٣٠، ٢٣٣، ومغني المحتاج للشربيني ٤٣٢/٤ ومواهب الجليل للحطاب ١٥٣/٦، وجواهر الإكليل للآبي ٢٣٣/٢ .

(٣) منتهى الإرادات لابن النجار ٦٦١/٢، والروض المربع للبهوتي صـ ٤٨٤ ، ومنار السبيل لابن ضويان ٤٨٩/٢ .

ومَن أبشع وأشنع وأقبح ما يُلبس من لباس : « بابا نويل » ؛ فهو بالإضافة إلى أنه زِيٌّ يُسخر منه ، فهو لباس له علاقة بعقيدة النصارىٰ .

(٦٧) المجون :

قال الحطاب في « مواهب الجليل » (١٥٢/٦) : « الماجِن هو القليل المروءة الذي يُكثِرُ الدعابة والهزل في أكثر الأوقَات » .

وفي « المبسوط » : «المجون نوعُ جنون» ، وعدّه من الخوارم : الشيرازي في « شرح اللمع » .

(٦٨) محاسبة الابن - أو مَن يعول - في النفقة في الحجِّ ونحوه ، والتقتير في باب الخير .

(٦٩) مخاطبة المرأة أو الجارية أو غيرهما بحضْرة الناس بالخطاب الفاحش :

عدّه ابن قدامة في «المغني» وابن النجار في «منتهى الإرادات» من خوارم المروءة .

(٧٠) المخاطرة بالنفْس كالملاكمة من حيث الاحتراف والممارسة .

(٧١) مخالطة تارك الصلاة ومرتكب باقي الكبائر :

يُعدُّ المخالِطُ مخرومَ المروءة ، ولا تُقْبل له شهادة إذا كان له قدرة على تغيير المنكر أو البعد عنه ، وإلَّا فلا .

(٧٢) المداومة على ترْك السُّنَن الراتبة ومستحبَّات الصلاة لتهاون مرتكبها بالدين ، وإشعاره بقلَّة مبالاته بالمهمات :

ومحلُّ هذا - كما قال الأذرعي - في الحاضر ، أما من يُديم السفر كالملَّاح والمُكَاري وبعضُ التجار، فلا . كذا في « مغني المحتاج » (٤٣٣/٤) ، ونحوه في « روضة الطالبين » (١١/٢٣٣-٢٣٤) .

(٧٣) مدُّ الرِّجْليْن في مَجمعِ الناسِ من غير حاجة وضرورة وعُذْر :

عدّه الطرطوشي ، وابن قدامة ، وابن الهمام ، والبهوتي ، وابن النجار ،

ومجد الدين ابن تيمية ، وابن عقيل ، وابن ضويان ، والنووي ، وابن نجيم ، من خوارم المروءة إذا كان بحضرة مَن يحتشمه .

(٧٤) المزاح معَ السفهاء واللِّئام :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عُمَّاله : امنعوا الناسَ من المزاح ؛ فإنه يُذهب المروءة ويُوغر الصدْر .

(٧٥) مشارَطة أجْر الحجَّام :

عدَّه محمد بن الحسن من الخوارم ، نقله عنه أبو الليث السمرقندي[١] .

(٧٦) المشي عُريانًا :

عدَّه ابن جُزَيّ في « القوانين الفقهية » من خوارم المروءة .

(٧٧) المشي في السوق بالسراويل وحده :

عدّه ابن الهمام في « فتح القدير » (٤١٤/٧) ، وابن نجيم في « الرسائل الزينية » من خوارم المروءة .

وقد عمَّت البلوىٰ في هذه الأيام بلُبْس البنطال .

(٧٨) مُصارعة الثيران وصِراع الديكة :

وفي « مغني المحتاج » (٣١٢/٤) ، و « مجموع الفتاوى » (٢٥٣/٣٢) تنصيصٌ على حرمة المناقرة بين الديوك ، والنطاح بين الكباش .

وذكر الدردير في « الشرح الصغير » (٢٨/٥) ؛ أنَّ مِن خوارم المروءة : اللَّعِبُ بتُيوس الغنم .

وذكر ابن مفلح في « النكت والفوائد » (٢٦٨/٢) ، أن مِن خوارم المروءة : « تحريشُ البهائم والجوارح » .

---

(١) انظر « بستان العارفين » لأبي الليث السمرقندي صـ ٣٠ .

(٧٩) **مُصارَعة النساء .**

(٨٠) **المماكسة في البيْع والشراء :**

عدَّه ابن خلدون في « مقدمته » من الخوارم ؛ قال : « خُلُق المماكسة بعيدة عن المروءة التي تتخلَّق بها الملوك والأشراف »[١] .

« كان الحسن البصري رحمه الله إذا اشترىٰ السلْعَة بدرهم يَنقُصُ دانقًا كمَّله درهمًا ، أو بتسعة ونصف كمَّلها عشرة ، مروءةً وكرمًا » . قال : « وقال عبد الأعلىٰ السمسار : قال الحسن : يا عبدَ الأعلى ، أمَا يبيع أحدكم الثوب لأخيه فينْقُص درهمين أو ثلاثة ؟ قلت : لا والله ، ولا دانق واحد . فقال الحسن : إن هذه الأخلاق ، فما بقي من المروءة إذن ؟ قال : وكان الحسن يقول : لا دين إلَّا بمروءة »[٢] .

(٨١) **منْع العارية والماعون ، ومنْع إعارة المتاع من غير ضرورة :**

نقله الشوكاني عن « الكشاف » (٤ / ٢٣٧) ، قال في إعارة المتاع والعارية : « تكون واجبة عند الاضطرار ، وقبيح في غير الضرورة؛ مروءة».

(٨٢) **مَن يصفع غيرَه أو مَن يمكِّنه من قَفاه فيصْفَعه :**

عدّه البهوتي والعنقري من الخوارم[٣]. قال البهوتي : «لا شهادة لمصافع»[٤].

وقال ابن النجار : « لا تُقبل شهادة لمصافع »[٥] .

(٨٣) **المنازَعَة على قارعة الطريق :**

عدَّه الأصمعي من الأعمال الدنيئة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون صـ ٣٩٥ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٩ / ٢٨١ .

(٣) حاشية الروض المربع للعنقري ٣ / ٤٢٤ .

(٤) الروض المربع للبهوتي صـ ٤٨٤ .

(٥) منتهى الإرادات لابن النجار ٢ / ٦٦١ .

(٨٤) المُناهدة[(١)] مع الابن في السَّفَر :

عدَّه الموصلي في « الاختيار » (١٤٨/٢) من خوارم المروءة .

(٨٥) نتْفُ اللّحية عَبَثًا ، ونتْفُ الإبط والأنف عند الناس :

نقل ابن نُجيم عن صاحب « العباب » أنه من خوارم المروءة .

وعدَّه باعلوي في « بغية المسترشدين » من الخوارم ، فقال : « ونتْف إبطٍ وأنف ، وتكرُّر نتْف لحيةٍ عَبَثًا وغيرها »[(٢)] .

وقال السخاوي في الخوارم : « وما قبح من الفعل الذي يلهو به ويُستقبح بمعرَّته ؛ كنتف اللحية »[(٣)] .

(٨٦) نظَرُ الرجل في بيت الحائك .

(٨٧) النظر في مرآة الحجَّام :

عدَّ هذه الخصلة من الخوارم ابنُ سيرين .

قال محمد بن الحسن الشيباني : « ثلاثة أشياء من الدناءة : مشارطة أجر الحجَّام ، والنظر في مرآة الحجَّامين ، واستقراض الخبز موازَنة »[(٤)] .

(٨٨) النفْخُ في الطعام والشراب :

أفاد القاضي عياض في « الشفا » أنه من خوارم المروءة[(٥)] .

(٨٩) النومُ بيْنَ جالسَيْن :

عدّه ابن النجار والبهوتي من خوارم المروءة[(٦)] .

---

(١) المناهدة والتناهُد : إخراجُ كلِّ واحد من الرِّفقة نفقةً على قدر نفقةِ صاحبه ، كما في اللسان ٣ / ٤٣٠ .

(٢) بغية المسترشدين لباعلوي صـ ٢٨٢ .

(٣) فتح المغيث ١ / ٢٩١ .

(٤) بستان العارفين لأبي الليث السمرقندي صـ ٣٠ .

(٥) الشفاء للقاضي عياض ٢٧٧/١ - ط : الفارابي .

(٦) منتهى الإرادات (٦٦٢/٢) لابن النجار ، والروض المربع للبهوتي صـ ٤٨٤ .

(٩٠) النومُ بعدَ الفجْر :

سُئل مسعر بن كدام عن المروءة، فقال: التفقُّه في الدين ، ولُزوم المسجد إلى أن تطلع الشمس .

(٩١) المشْيُ أمام الناس مكشوفَ الرأس :

اعتبره غير واحد من الفقهاء من خوارم المروءة ، ويتحصل من مجموع كلامهم أنَّ هذا الفعل يُسقِط المروءة بالشروط التالية :

١ - أن يكون الشخص غير مُحرم بنُسك : حجّ أو عُمرة .

٢ - أن يكون أمام الناس[١] .

٣ - أن يكون بلا عذر من مرض أو عمل يقتضي ذلك .

٤ - أن يكون ممن لا يليق بمثله ، وهذا يختلف بالنسبة للأعمار ومكانة الشخص الاجتماعية[٢] .

٥ - أن يكون في موضعٍ يُعدُّ فعلُه خِفَّة وسوء أدبٍ وقلَّة حياء[٣] .

٦ - أن يكون الفاعل رجلًا .

قال الشيخ حسنين محمد مخلوف : « لم ينقل إلينا ولا عُرِف عنه ﷺ أنه جلس بين أصحابه ، أو مشى في الطريق ، أو خطب ، أو استقبل الوُفود ، أو غزا ؛ وهو حاسرُ الرأس دون عمامة أو قُلُنْسُوة ، ومَنِ ادعى شيئًا من ذلك فعليه البرهان »[٤] .

قال أبو بكر بن العربي : إن العمائم سُنَّة المرسَلِين .

---

(١) فتح المغيث ٢٩١/١ ، النكت والفوائد السنية ٤٦٨/٢ .

(٢) معالم القربة صـ ٢١٥، وبغية الرائد للقاضي عياض صـ ٤١، وروضة الطالبين ٢٣٢/١١، والرسائل الزينية لابن نجيم صـ ٢٥٧ .

(٣) فتح القدير ٤١٤/٧ ، والرسائل الزينية ٢٥٦ .

(٤) الأدلة الشرعية في مسائل فقهية للشيخ حسنين محمد مخلوف ، صـ٣٤ وما بعدها .

قال الشيخ مشهور حسن آل سلمان : « هديُ السلف الصالح : الحرصُ على غطاء الرأس ، ولم يثبتْ عن واحد منهم أنه كان يسيرُ حاسرًا . وخير الهـدي هدي محمد ﷺ ؛ فقد لبس العمامة والقلنسوة، فهـذا هديه فاحرص عليه »(١) .

« ولبس العمامة عادة عربية قديمة ، وسنة نبوية قويمة .. وتقليد إسلامي متوارَث ، وعنوان على المروءة والشرف ، فإذا كان مطلوبًا من المسلم أن يحافظ على هذه العادة والسنة في عامَّة الأحوال ، لا جرم يكون المحافظة عليها في الصلاة آكد وألزم ؛ لتأكُّد الأدب فيها مع الله تعالى أكثر من غيرها . ولا شكَّ أن النبي ﷺ لا يختار لنفسه من الأحوال والأفعال والصفات والهيئات إلَّا أشرفها وأفضلها وأعزها وأكرمها . وبعد أن عُرف عنه لُبسها في سلْمه وحربه ، وفي مجلسه وعلى منبره أن يدعها في صلاته ، ولو جازت الصلاة بدونها ؛ لأن الجواز مرتبة ، والكمال والتأدُّب مرتبة أعلى وأعظم،وللرسول أرفع المراتب وأجلها » .

فينبغي أن يُعلم أنَّ مناطَ الأفضلية تغطيةُ الرأس بأي غطاء متعارَفٍ ، لما في كشْفها من سوء الأدب ، وإن كانت الصلاة جائزة ، سواءً أكانت الرأس مغطَّاة أم مكشوفة ؛ فمَن صلَّى مغطَّى الرأس فقد فعَل الأكمل ، ومن صلَّى عاري الرأس ؛ جازت صلاته ولكن مع القصور عن مزية الكمال . والله أعلم .

لطيفة :

ذكَر ابن عبد البر في «التمهيد» في غسْل النبي ﷺ عند موته، قال: «ورُوي من وجه آخر أنَّ العباس كان بالباب لم يحضر الغسل ، يقول : لم يمنعْني أن أحضره إلَّا أني كنتُ أراه ﷺ يستحيي أن يراني أراه حاسرًا .

(١) المروءة وخوارمها للشيخ مشهور بن حسن آل سلمان صـ ١٧٠ - طبع : دار ابن عفان .

وصلوات الله وسلامه عليه ، ورضي الله عن جميع صحابته وأزواجه وسلم تسليمًا »[١] .

اكتمال وُجوه المروءة في الأنبياء عليهم السلام :

إن «للمروءة وُجوهًا وآدابًا لا يحصرها عدد ولا حساب ، وقلَّما اجتمعت شروطها قطُّ في إنسان ، ولا اكتملت وجوهُها في بَشَر ، فإنْ كان ؛ ففي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم دون سائرهم ، وأما الناس فيها ؛ فعلى مراتب بقدر ما أحرز كُلُّ واحد منهم من خصالها ، واحتوى عليها من خلالها »[٢] .

قال القاضي عياض عن رسول الله ﷺ : « ومن مروءته ﷺ : نهيُه عن النفْخ في الطعام والشراب ، والأمر بالأكْل مما يلي ، والأمر بالسواك ... واستعمال خصال الفطرة »[٣] .

بل كان ﷺ هو المروءة .. كما كان خلقه القرآن ...

والأنبياء عليهم السلام لا يفعلون شيئًا يتضمَّن نقْصَ المروءة .

ممَّا يُعين على المروءة : الزوجة الصالحة ، ومجالسة أهل المروءات :

قال مسلمة بن عبد الملك : « ما أعان على مروءة المرء كالمرأة الصالحة ، قال الشاعر :

إذا لم يكَنْ في منزلِ المرءِ حُرَّةٌ   مدبِّرةٌ ضاعـتْ مـروءةُ دارهِ

وقال آخر : « مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلب صدأ الذنوب ، ومجالسة ذوي المروءات تدلُّ على مكارم الأخلاق ، ومجالسة العلماء تُذكي القلوب»[٤].

---

(١) انتهى التلخيص لخصال خوارم المروءة من الكتاب القيم : « المروءة وخوارمها » من صـ ٨٣ - ١٨٢ .

(٢) عين الأدب والسياسة صـ ١٣٢ .

(٣) الشفا ١ / ٢٧٧ .

(٤) روضة العقلاء صـ ٢٣٤ .

ومكارم الأخلاق لا توجد إلا في ذوي المروءات ، ولذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «كرم المؤمن تقواه ، ودينه حَسَبه ، ومروءته خلقه» .

وقال ابن عبد البر : «لا تكاد ترى حَسَن الخلق إلا ذا مروءة وصبر»(١) .

وقال معاوية بن أبي سفيان : « آفة المروءة إخوان السوء » .

أَمْحِضْ مودتك الكَريمَ فإنَّما ... يرىٰ ذوي الأحساب كلَّ كريمِ
وإخاءُ أشرافِ الرجالِ مروءة ... والموت خيرٌ مِنْ إخاءِ لئيمِ

درجات المروءة :

قال ابن القيم : « وهي علىٰ ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : مروءة المرءِ معَ نفْسِه :

وهي أن يحملها قَسْرًا على ما يُجَمّل ويزيِّن ، وترْك ما يدنِّس ويَشين ، ليصير لها ملَكَة في العلانية . فمَن أَرَاد شيئًا في سرِّه وخلْوته : ملكه في جهره وعلانيته ، فلا يكشف عوْرتَه في الخلوة ، ولا يتجشَّأ بصوتٍ مزعج ما وجَد إلى خلافه سبيلًا ، ولا يُخرِج الريحَ بصوتٍ وهو يقدِر على خلافه ، ولا يَجْشَعْ وَيَنْهَم عند أكْله وحده .

وبالجملة : فلا يفعلْ خاليًا ما يستحي مِن فعْله في الملأ، إلَّا ما لا يحظْره الشرع والعقل ، ولا يكون إلَّا في الخلوة ؛ كالجماع والتخلي ونحو ذلك .

الدرجة الثانية : المروءة مع الخَلْق :

بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء ، والخُلق الجميل ، ولا يُظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه ، ولْيتَّخذِ الناسَ مرآة لنفسه . فكل ما كرهه ونفر عنه ؛ من قول أو فعل أو خُلق ، فلْيجتنبْه . وما أحبَّه من ذلك واستحسنه فليفعلْه .

---

(١) الاستذكار لابن عبد البر ١٤ / ٢٥٣ .

وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكلٍّ من خالطه وصاحبه من كامل وناقص ، سيئ الخلُق وحَسَنِه ، وعديم المروءة وغزيرها .

وكثير من الناس : يتعلَّم المروءة ، ومكارم الأخلاق من الموصوفِين بأضدادها ، كما رُوي عن بعض الأكابر : أنه كان له مملوك سيئ الخلُق ، فَظٌّ غليظ ، لا يُناسبه ، فسئل عن ذلك ؟ فقال : أدرس عليه مكارم الأخلاق .

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضدِّ أخلاقه ، ويكون بتمرين النفْس على مصاحبته ومعاشرته ، والصبر عليه .

الدرجة الثالثة : المروءة مع الحقِّ سبحانه :

بالاستحياء مِن نظره إليك ، واطلاعه عليك في كل لحظة ونَفَس ، وإصلاح عيوب نفْسك جهدَ الإمكان ؛ فإنه قد اشتراها منك ، وأنت ساعٍ في تسليم المبيع ، وتقاضي الثمن ، وليس من المروءة : تسليمه على ما فيه من العيوب ، وتقاضي الثمن كاملًا ، أو رؤية مِنَّتِهِ في هذا الإصلاح ، وأنه هو المتولي له لا أنت ، فيُغنيك الحياء منه عن رسوم الطبيعة ، والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلى عيب غيرك ، وشهودُ الحقيقة عن رؤية فعْلك وصلاحك .

وكل ما تقدَّم في منزلة «الخلق» و «الفُتوَّة»، فإنه بعيْنه في هذه المسألة»[١] .

جَنَّة المروءات في أفعال العباد والسَّادَات :

الأحنف بن قيس :

قال ابن المبارك : قِيل للأحنف : بِمَ سُوِّدُدُك ؟ قال : لو عاب الناس الماء لم أشربْه[٢] .

قال الأحنف : مَن أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه ما لا يعلمون .

وعنه سئل : ما المروءة ؟ قال : كتمان السرِّ ، والبعد عن الشرِّ .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ .

وعنه : الكامل مَن عُدَّت سقطاته[١] .

وقيل : كان الأحنف إذا أتاه رجل ، وسَّع له ، فإن لم يكن له سَعة ، أراه كأنه يوسّع له[٢] .

وعنه - أي الأحنف - قال : جنبِّوا مجالسنا ذكْر النساء والطعام ، إني أبغِض الرجل يكون وصَّافًا لفرجه وبطنه[٣] .

مُورّق العجلي :

عن جميل بن مرّة قال : كان مورق رحمه الله يجيئنا فيقول : أمسكوا لنا هذه الصرَّة ، فإن احتجتم فأنفقوها . فيكون آخرَ عهده بها[٤] .

عمر بن عبد العزيز :

عن عبد العزيز بن عمر قال : قال لي رجاء بن حَيْوة : ما أكملَ مروءة أبيك !! سَمَرتُ عنده ، فعشا السراجُ ، وإلى جانبه وصيفٌ نائمٌ . قلتُ : ألا أنبهه ؟ قال : لا ، دعْه . قلت : أنا أقوم . قال : لا ، ليس من مروءة الرجل استخدامُه ضيفه . فقام إلى بطةِ الزيت وأصلح السراج ، ثم رجع وقال : قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعتُ وأنا عمر بن عبد العزيز[٥] .

الخليل بن أحمد الفراهيدي :

قال أيُّوب بن المتوكِّل : كان الخليل إذا أفاد إنسانًا شيئًا لم يُرِه بأنه أفاده ، وإنِ استفاد مِن أحد شيئًا ، أراه بأنه استفاد منه[٦] .

عبد الله بن المبارك :

عن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق : سمعت أبي قال : كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو ، فيقولون : نصحبك .

(١،٢،٣) سير أعلام النبلاء ٤ / ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ .

(٤) السير ٤ / ٣٥٤ .

(٥) السير ٥ / ١٣٦ .

(٦) السير ٧ / ٤٣١ .

فيقول : هاتوا نفقاتكم . فيأخذ نفقاتِهم فيجعلها في صندوق ويقفل عليها ، ثم يكتري لهم، ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم ويُطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلوى ، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زِيٍّ وأكمل مروءة ، حتى يصِلُوا إلى مدينة الرسول ﷺ ، فيقول لكل واحد : ما أمَرَك عيالُك أن تشتري لهم من المدينة من طُرَفها ؟ فيقول : كذا وكذا . فيشتري لهم ، ثم يُخرجهم إلى مكة ، فإذا قضوا حجَّهم قال لكل واحد منهم : ما أمرك عيالُك أن تشتري لهم من متاعِ مكة ؟ فيقول : كذا وكذا . فيشتري لهم ، ثم يخرجهم من مكة ، فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو ، فيجصِّص بُيوتهم وأبوابهم ، فإذا كان بعد ثلاثة أيام ، عمل لهم وليمة وكساهم فإذا أكلوا وسُرُّوا ، دعا بالصندوق ، ففتحه ودفع إلى كلِّ رجلٍ منهم صُرَّته عليها اسمُه[1] .

الشافعي :

قال الربيع : كان الشافعي مارًّا بالحذائين فسقط سوطهُ ، فوثب غلام ومسحه بكمِّه وناوله ، فأعطاه سبعة دنانير[2] .

أحمد بن مهدي ؛ ومروءته التي لا تصوِّرها في علوِّها كلُّ الكلمات :

قال أحمد بن مهدي : جاءتني امرأة ببغداد ليلةً ، فذكرتْ أنها من بنات الناس وأنها امتُحِنت بمحنة . وأسألك بالله أن تسترني ؛ فقد أُكرهت على نفسي وأنا حُبْلى ، وقلت أنك زوجي فلا تفضحني ، فنكَّبتُ عنها ومضيتُ ، فلم أشعر حتى جاء إمام المحلَّةِ والجيران يهنِّئوني بالولد الميمون ، فأظهرتُ التهليل ، ووزنتُ في اليوم الثاني للإمام دينارين ، وقلت : أعطِها نفقة ؛ فقد فارقتُها .

---

(١) السير ٨ / ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ٢/١٣/١٥ ، والسير ١٠ / ٣٧ .

وكنت أعطيها في كلِّ شهر دينارَيْن ، حتى أتى على ذلك سنتان ، فمات الطفل ، وجاءني الناس يعزُّونني ، فكنت أُظهر لهم التسليم والرضا،فجاءتْني بعد أيام بالدنانير ، فردَّتْها ودعت لي ، فقلتُ : هذا الذهب كان صلةً للولد ، وقد ورثتيه ، وهو لك[1] .

محمد بن جرير الطبري :

كان ربَّما أُهدىٰ إليه بعضُ أصدقائه الشيء فيقبله ويكافئه أضعافًا ، لِعظَمِ مروءته[2] .

عن يحيىٰ بن منده ؛ قال : سمعتُ أبي يقول : أفطرنا في رمضان ليلةً شديدة الحرِّ فكنَّا نأكل ونشرب ، وكان أخي عبد الرحمن يأكل ولا يشرب ، فخرجتُ وقلتُ : إن من عادة أخي أنه يأكل ليلة ولا يشرب ، ويشرب ليلة أخرى ولا يأكل . قال : فما شرب تلك الليلة ، والليلة الآتية كان يشرب ولا يأكل ألبتة ، فلمَّا كان في الليلة الثالثة قال : يا أخي لا تلعب بعد هذا ؛ فإني ما اشتهيتُ أن أكذبك[3] .

وأخيرًا :

إذا كانت المروءة تقتضي الإعراض عن كثير من اللذات ، فإن في المروءة نفسها لذَّة تفوق كلَّ نعيم الحياة . إن المروءة غاية سامية ، وراحة ولذَّة تُنسي المرء وتعوضه عن كلِّ مشقَّة ، ولا يبقى معها للتعب بقيَّة ؛ قال المتنبي :

تَلَذُّ له المروءةُ وهي تُؤْذِي ... ومَن يعشقْ يَلَذُّ لهُ الغرامُ

ولذَّة المروءة في شعور النفس ببلوغها كمال الرجوليَّة أو قربه منها ، ولا ينهض بها إلَّا ذو صبر كريم ؛ قال أبو عبد الله الكاتب : « الصبر على حقوق

---

(١) السير ١٢ / ٥٩٨ ، والوافي بالوفيات ٨ / ١٩٩ .
(٢) السير ١٤ / ٢٧٢ .
(٣) السير ١٨ / ٣٥٣ .

المروءة أشدُّ من الصبر على ألم الحاجة » .

ولله درُّ مَن قال : « ذو المروءة يُكْرَم وإن كان معدِمًا ؛ كالأسد يُهاب وإن كان رابضًا ، ومن لا مروءة له ، يُهان وإن كان موسِرًا ؛ كالكلب يُهان وإن طُوِّق وحُلِّي بالذهب » .

* * *

الفصل الرابع عشر

عُلُوُّ الهِمَّـــة

في

الصَّمْتِ وحِفْظِ اللِّسَـــان

« عليكَ بحسْن الخُلق وطولِ الصمتِ ، فوالذي نفسي بيده ، ما تجمَّل الخلائق بمثلهما » .

□ عُلوُّ الهِمَّة في الصَّمْت وحِفْظ اللِّسَان □

اعلمْ - رحمنا الله وإيَّاك - « أنَّ اللسان من نِعَم الله العظيمة ولطائف صنْعه الغريبة ؛ فإنه صغيرٌ جِرْمُه ، عظيمٌ طاعتُهُ وجُرْمُه ؛ إذْ لا يستَبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللِّسان ، وهما غاية الطاعة والعصيان ، ثم إنه ما من موجود أو معدوم ، خالق أو مخلوق ، متخيَّل أو معلوم ، مظنون أو موهوم ، إلَّا واللسان يتناوله ويتعرَّض له بإثبات أو نفي ، فإن كلَّ ما يتناوله العِلْم يُعْرِب عنه اللسان ، إمَّا بحق أو باطل ، ولا شيء إلَّا والعلم متناوِل له ، وهذه خاصيَّة لا توجد في سائر الأعضاء ؛ فإن العيْن لا تصل إلى غير الألوان والصُّوَر ، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات ، واليد لا تصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء .

واللسان رحْبُ المَيْدان ، ليس له مَرَدٌّ ، ولا لمجاله منتهى وحدّ ، له في الخير مجال رحْب ، وله في الشرِّ ذيْل سحب ، فمَن أطلق عَذْبة اللسان ، وأهمله مرخيَّ العَنان ، سلك به الشيطان في كلِّ ميْدان ، وساقه إلى شفا جُرُفٍ هارٍ ، إلى أن يَضطره إلى البوار ، ولا يكبُّ الناسَ في النار على مناخِرهم إلا حصائد ألسنتهم ، ولا ينجو من شرِّ اللسان إلَّا مَن قيَّده بلجام الشرع ، فلا يُطلقُه إلَّا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ، ويكفُّه عن كلِّ ما يخشى غائِلَتَه في عاجله وآجله . وعِلْم ما يُحمَدُ فيه إطلاق اللسان أو يُذَمُّ : غامِض عزيز ، والعمل بمقتضاه على مَن عرفه ثقيل عسير . وأعصى الأعضاء على الإنسانِ اللِّسانُ ، وقد تساهل الخلْق في الاحتراز عن آفاته وغوائله ، والحذَرِ من مصائده وحبائله ، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان »[(١)] .

قال الله تعالى : ﴿ **قد أفلحَ المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللَّغو معرضون** ﴾ [المؤمنون : ١ - ٣] .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣ / ١١٨ .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا مرُّوا باللَّغو مرُّوا كِرَامًا** ﴾ [الفرقان : ٧٢] .

مِلاكُ الخيْر: كفُّ اللسان:

عن معاذ رضي الله عنه قال: كنتُ مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحتُ يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلتُ: يا رسول الله، أخبرني بعملٍ يُدخلُني الجنة ويُباعدني من النار؟ قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه لَيسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه؛ تعبدُ الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت». ثم قال: «ألا أدلُّك على أبواب الخير؟ الصومُ جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل». قال: ثم تلا: ﴿**تتجافى جُنوبهم عن المضاجع**﴾ حتى بلغ ﴿**يعملون**﴾ ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟» قلتُ: بلى يا رسول الله. قال: «رأس الأمر الإسلام، وعمودُه الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». ثم قال: «أَلَا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلتُ: بلىٰ يا نبيَّ الله. فأخذ بلسانه وقال: «كفَّ عليك هذا». فقلتُ: يا نبيَّ الله، وإنَّا لَمُؤَّاخذون بما نتكلَّم به؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّك[1] يا معاذ؛ وهل يكبُّ الناس في النارِ على وجوههم- أو على مناخرهم- إلَّا حصائدُ ألسنتهم»[2].

أطايبُ الكلام تُورث سكنىٰ أعالي الجنان ، وهي من رضوان الله تعالى :

عن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة غُرَفًا يُرىٰ ظاهرُها من باطنها ، وباطنُها من ظاهِرها ، أعدَّها الله تعالى لمن أطعم الطعام ، وأَلَانَ الكلام ، وتابَع

---

(١) فقدتْكَ ، وفي « النهاية » : « ويجوز أن يكون مِن الألفاظ التي تجري على ألسنة العرب ، ولا يُراد بها الدعاء ، كقولهم : تَرِبَتْ يداك ، وقاتَلَكَ الله » .
هذا وإن كان دعاءً ؛ فهو طهور وزكاة ، وقربة له من الله تعالى يوم القيامة ؛ كما في حديث مسلم : « فأيُّما أحد دعوتُ عليه من أمتي بدعوة ليسَ لها بأَهْل ؛ أن يجعلها له طهورًا وزكاة وقربة يقرِّبه بها منه يوم القيامة » .

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وصحَّحه الألباني في إرواء الغليل برقم (٤١٣)، وصحيح سنن الترمذي برقم (٢١١٠)، وصحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٢٠٩).

الصيام ، وصلَّى بالليل والناسُ نِيام »[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَطِبِ الكلام ، وأَفْشِ السلامَ ، وصِلِ الأرحام ، وصلِّ بالليل والناس نيام ، ثم ادخلِ الجَنَّة بسلام »[٢] .

وقال ﷺ : « إن الرجل لَيتكلَّم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت ، يكتُبُ الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة من سُخط الله ، ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها سُخطه إلى يوم يلقاه »[٣] .

وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلتُ : يا رسول الله ، حدِّثني بأمرٍ أعتصمُ به قال : « قُلْ : ربيَ الله . ثم استَقِمْ » . قلت : يا رسول الله ، ما أخوفُ ما تخاف عليّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : « هذا »[٤] .

ومِن عُلوِّ الهِمَّة طُول الصَّمْتِ إلَّا عن خيْر :

قال رسول الله ﷺ : «عليك بُحسْن الخُلُق ، وطول الصمْت ، فوالذي نفسي بيده ، ما تجمَّل الخلائق بمثْلِهما »[٥] .

---

(١) حسن : رواه أحمد ، وابن حبان ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي مالك الأشعري ، والترمذي عن علي ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١١٩ .

(٢) صحيح : رواه ابن حبان ، وأبو نعيم في الحلية ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٣٠ ، والصحيحة رقم ٥٦٩ ، ١٤٦٦ .

(٣) صحيح : أخرجه مالك ، والترمذي ، وابن ماجه ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة برقم ٨٨٨ .

(٤) صحيح : رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

(٥) حسن : أخرجه أبو يعلى عن أنس ، وابن أبي الدنيا ، والبزار ، والطبراني في الأوسط ، والبيهقي في شعب الإيمان أيضًا عن أنس ، وأبو الشيخ عن أبي ذرٍّ وأبي الدرداء ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٩٢٧ .

عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال : قلتُ : يا رسول الله ، أيُّ المسلمين أفضل ؟ قال : « مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده». متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « المسْلِم مَن سَلمَ المسلمون من لسانه ويده » . رواه البخاري ومسلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألتُ رسول الله ﷺ ، فقلتُ : يا رسول الله ، أيُّ الأعمال أفضل ؟ قال : « الصلاة على ميقاتها » . قلت : ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : « أن يسلم المسلمون مِن لسانك »(١) .

وعن البَرَاء بن عازب رضي الله عنه قال : جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، علِّمني عملًا يُدخلني الجنَّة . قال : « إنْ كنتَ أقصرتَ الخُطبة لقد أعرضتَ المسألة ؛ أَعْتِقِ النسمة ، وفُكَّ الرقبة ، فإن لم تُطِقْ ذلك ، فأطعمِ الجائع ، واسقِ الظمآن ، وأْمُرْ بالمعروف ، وإنْه عن المنكر ، فإن لم تُطِقْ ذلك ، فكُفَّ لسانك إلَّا عن خير »(٢) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قلتُ : يا رسول الله ، ما النجاة ؟ قال : « أمسِكْ عليكَ لسانَك ، وَلْيَسَعْكَ بيتُك ، وابْكِ على خطيئتك »(٣) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبُه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جارُهُ بوائقَه »(٤) .

وعن معاذ بن جبَل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنك

---

(١) إسناده صحيح : رواه الطبراني ، وصدْرُه في الصحيحين ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

(٢) صحيح : رواه أحمد وغيره ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد والترمذي ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة ، رقم (٨٩٠) .

(٤) صحيح : رواه أحمد وغيره ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

لن تزال سالمًا ما سكتَّ ، فإذا تكلَّمتَ كُتِبَ لكَ أو عليك »[١] .

وعن معاذٍ رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، أوصنِي . قال : « اعبدِ الله كأنَّك تراه ، واعددْ نفسَك في الموتى ، وإنْ شئْتَ ، أنبأتُكَ بما هو أمْلَك بك من هذا كله » . قال : « هذا » . وأشار بيده إلى لسانه[٢] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أصبح ابنُ آدم فإن الأعضاء كلها تُكفِّر اللسانَ ؛ فتقول : اتَّقِ الله فينا ، فإنما نحن بك ، فإنِ استقمتَ استقمْنا ، وإن اعوجَجْتَ اعوجَجْنا »[٣] .

وأخرج البخاري عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن يضمنُ لي ما بين لَحْيَيْه[٤] وما بين رِجليه ، أضمنُ له الجنة ؟ » .

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « ليس شيء من الجسد إلَّا يشكو ذَرَبَ اللسانِ[٥] على حِدَّته »[٦] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « مَن صمَتَ نجا »[٧] .

---

(١) صحيح : صحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيِّد ، كما قال المنذري .

(٣) صحيح : أخرجه الترمذي ، ورواه الترمذي موقوفًا على عمَّار بن زيد ، وقال : هذا أصحُّ . وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب .

(٤) هو اللسان . واللَّحيان : العظمَان اللذانِ يَنْبُت عليهما الأسنان ، وما بين رجلَيْه : أي الفرْج .

(٥) ذَرَبُ اللسان : حِدّته ، يُقال:ذرَب لسانُ الرجل يذرَب إذا فسد ، وقيل : الذَّرِبُ اللسان : هو الحادُّ اللسان .

(٦) وفي رواية : «ليس شيء من الجسد إلَّا يشكو إلى الله اللِّسانَ على حِدّته». رواه أبو يعلىٰ في مسنده ، وابن السني في عمل اليوم والليلة ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٥٣٥ .

(٧) صحيح : رواه أحمد والترمذي ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٥٣٥ ، وصحيح الجامع رقم ٦٢٤٣ .

وصح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « والذي لا إله غيره ؛ ما على ظهْر الأرض من شيء أحوج إلى طول سجنٍ من لسان » .

وعن أسلم ؛ أن عمر رضي الله عنه دخل يومًا على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يجبذُ لسانه ، فقال عمر : مَه ، غفر الله لك . فقال له أبو بكر : إن هذا أوْرَدَني بِشرِّ الموارد .

أقسَامُ الكَلام :

« ويدلُّك على فضْل الصَّمْت أمْرٌ ، وهو أن الكلام أربعة أقسام :

١ - قسم هو ضَررٌ محْض . ٢ - وقسم هو نفع محْض .

٣ - وقسم هو ضَررٌ ومنفعة . ٤ - وقسم ليس فيه ضررٌ ولا منفعة .

أمَّا الذي هو ضرر محْض فلا بدَّ من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر .

وأمَّا ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فُضُول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عيْن الخسران ، فلا يبقىٰ إلا القسم الرابع ؛ فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقيَ رُبع ، وهذا الربع فيه خطَرٌ ؛ إذ يمتزجُ بما فيه إثمٌ ؛ من دقيق الرياء والتصنُّع والغيبة وتزْكِيَة النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجًا يخفىٰ دركُه ، فيكون الإنسان به مخاطِرًا . ومَن عرَف دقائق آفاتِ اللسان ، عَلِمَ قطْعًا أن ما ذكره ﷺ هو فصلُ الخطاب ؛ حيث قال: «مَن صمَت نجا». فلقد أُوتي - والله - جواهرَ الحِكَم، وجوامِعَ الكَلِم، ولا يعرِفُ ما تحت آحاد كلماتِه من بحار المعاني إلا خواصُّ العلماء »(١).

الصمتُ يُتعَلّمُ : وهاكَ أمثلةً من حياة الطيِّبين :

مورِّق العجْلي :

قال رحمه الله : تعلَّمتُ الصمتَ في عشر سنين ، وما قلتُ شيئًا قطُّ

---

(١) الإحياء ١٢١/٣ .

إذا غضبتُ ، أندمُ عليه إذا زال غضبي[١] .

« قيل : أقام المنصور بن المعتزّ لمْ يتكلّم بكلمةٍ بعد العشاء الآخرة ، أربعين سنة »[٢] .

إبراهيمُ بن أدهم :

قال أبو إسحاق الفزاري : كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يُطيل السكوت ، فإذا تكلّم ربّما انبسط . قال : فأطال ذات يومٍ السكوت ، فقلتُ : لو تكلّمتَ ؟ فقال : الكلام على أربعة وُجوه : فمِن الكلام كلامٌ ترجو منفعته ، وتخشىٰ عاقبته ، والفضل في هذا : السلامة منه . ومن الكلام كلامٌ لا ترجو منفعته ولا تخشىٰ عاقبته، فأقَلُّ ما لك في ترْكه خِفَّة المؤْنَة على بدنك ولسانك. ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته وتأمن عاقبته ، فهذا قد كفِيَ العاقلُ مُؤْنته . ومن الكلام كلام ترجو منفعته وتأمن عاقبته ، فهذا الذي يجب عليك نشرهُ . قال خلف بن تميم : فقلتُ لأبي إسحاق : أرَاهُ قد أسقط ثلاثة أرباع الكلام ؟ قال : نعم[٣] .

عن أمِّ حبيبة زوج النبي ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : « كل كلام ابن آدم عليه لا له ، إلَّا أمرٌ بمعروف ، أو نهيٌ عن منكر ، أو ذكْر الله »[٤].

وقال محمد بن النضر الحارثي: كان يُقال: كثرة الكلام تذهب بالوقار.

وعن بكر بن ماعز ، عن الربيع بن خُثيم رحمه الله قال : يا بكر بن ماعز ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٥٣/٤ - ٣٥٥ .

(٢) الإحياء ١٢١/٣ .

(٣) الصمت وحفْظُ اللسان لابن أبي الدنيا- تحقيق : د . محمد أحمد عاشور ، ص٥٠- دار الاعتصام .

(٤) صحيح : رواه الترمذي وابن ماجه وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ، وصحيح الترمذي ، وصحيح ابن ماجه .

اخزنْ عليك لسانك ، إلَّا مما لك ولا عليك .

الربيعُ بن خُثيْم : لا يتكلَّم بكلامِ الدنيا عشرين سنة :

قال إبراهيم التيْمي : أُخْبَرَني مَن صحِبَ الربيع بن خُثيم عشرين سنة ، فلم يتكلَّم بكلام لا يصعد[1] .

وعن أبي حيَّان التيمي ، عن أبيه قال : ما سمعتُ الربيع بن خثيم يذكر شيئًا مِن أمر الدنيا قطُّ .

قال الغزالي : « قيل : ما تكلَّم الربيع بن خُثيم بكلامِ الدنيا عشرينَ سنة ، وكان إذا أصبح وضَع دواة وقِرطاسًا وقلمًا ، فكلُّ ما تكلَّم به كتَبَه ، ثم يحاسب نفسه عند المساء »[2] .

إبراهيم التيمي : لا يَخوض في شيء من أمْر الدنيا :

قال العوَّام بن حوشب : ما رأيتُ إبراهيم التيمي رافعًا رأسه إلى السماء في الصلاة ولا في غيرها ، ولا سمعتُه قطُّ يخوض في شيء من أمر الدنيا[3].

« وعن أبي عبيدٍ قال : ما رأيتُ رجلًا قطُّ أشدَّ تحفُّظًا في مَنْطقهِ من عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه .

وقال رجل من « تيْم الله » ، وكان قد جالَس الشعبي وإبراهيم ، قال : ما رأيتُ أحدًا أمْلَكَ للسانه من طلحة بن مُصَرِّف .

وقال ميمون بن سياه : ما تكلَّمتُ بكلمة منذ عشرين سنة ، لم أتدبرها قبل أن أتكلَّم بها ، إلَّا ندمتُ عليها ، إلّا ما كان من ذكْر الله .

---

(١) الصمت لابن أبي الدنيا ص٥٠ .

(٢) الإحياء ٣/١٢١ .

(٣) الصمت وحفظ اللسان ص٢١٩ .

وقال كعب : قلَّة المنطق حُكم عظيم ، فعليكم بالصمتِ ؛ فإنه رعةٌ حَسَنة ، وقلَّة وزر ، وخِفَّة من الذنوب »[(١)] .

عبد الملك بن أبجر :

قال عنه الثوري : هو من الأبرار . وعدَّه في خمسة بالكوفة يزدادون كلَّ يوم خيرًا .

« قال الصلت بن بسطام التيمي : قال لي أبي : الزمْ عبدَ الملك بنَ أبجر ، فتعلَّمْ من توقِّيهِ للكلام ، فما أعلمُ بالكوفة أشدَّ تحفظًا للسانه منه .

وقال أبو خالد الأحمر عن مِسعر بن كِدام : لم يكن في أترابه أطول صمْتًا منه . يعني مسعرًا .

وقال سفيان بن عيينة : طول الصمت مفتاح العبادة .

وقال أرطأة بن المنذر : تعلَّم رجلٌ الصمتَ أربعين سنة ، بحصاة يضعها في فِيهِ ، لا ينزعها إلَّا عند طعام أو شراب أو نوْم .

وقال الفُضَيل بنُ عياض : كان بعضُ أصحابنا يَحْفَظ كلامه من الجمعة إلى الجمعة .

وعن حسَّان بن عطية قال : كان شدَّاد بن أوس في سفر ، فنزل منزلًا ، فقال لغلامه : ائتنا بالسُّفرة نعبثُ بها ، فأنكرتُ عليه ، فقال : ما تكلَّمتُ بكلمة منذ أسلمتُ إلَّا وأنا أُخطِمُها وأزمها ، إلَّا كلِمَتي هذه ، فلا تحفظوها عليّ .

وقال جارٌ لضيغم بن مالك : ما سمعتُ أبا مالك يذكر من الشّعْر إلَّا

---

(١) الصمت ص٢٢٠ - ٢٢١ ، ورعة : مأخوذة من الورَع وهو الكفُّ عن القبْح وسوءِ الأدب .

بيتًا واحدًا :

قدْ يَخْزن الوَرِعُ التقيّ لسانَهُ   حذَرَ الكلامِ وإنه لمُفَوَّهُ »[١]

« قال مالك بن دينار : لو كُلِّف الناس الصحف ، لأَقلُّوا المنطق .

وقال الحسن بن حُيي بن صالح : إني لأَعرف رجلًا يَعُدُّ كلامه . وكانوا يرون أنه هو .

وقال محارب : صحبنا القاسم بن عبد الرحمن ، فغَلَبَنا بطول الصمت ، وسخاء النفس ، وكثرة الصلاة .

وعن الأعمش ، عن إبراهيمَ قال : كانوا يجلسون ، فأطولهم سكوتًا : أفضَلُهم في أنفسهم .

وقال فضيل بن عِياض رحمه الله : ما حجّ ، ولا رباطٌ ، ولا اجتهاد ، أشدَّ من حبس اللسان ، ولو أصبحتَ يُهِمُّكَ لسانُك ، أصبحتَ في غمٍّ شديد .

وقال رحمه الله : سجْن اللِّسانِ سجن المؤمن ، وليس أحد أشدَّ غمًّا ممَّن سجَن لسانه .

وعن عمر بن عبد العزيز قال : إذا رأيتم الرجل يُطيل الصمْتَ ويهرب من الناس ، فاقتربوا منه ؛ فإنه يُلَقَّن الحكمة .

وقيل لداود المديني - من أهل مرو -: لِمَ لا تتكلَّم ؟ فسكت طويلًا ، ثم رفع رأسه ، كأنه غائب ، فقيل له : ألا تتكلم ؟ قال : أنتظر رسولَ ربِّ العالمين ، وأنا مفكِّر في الجواب ، فالذي يكون مشغولًا بذلك كيف يقدر أن يتكلَّم ؟!

وقال رجلٌ لعبد الله بن المبارك - رحمه الله -: ربَّما أردتُ أنْ أتكَلَّمَ بكلام حسن ، أو أُحدِّث بحديث فأسكتُ ، أريد أن أُعوِّد نفسي السكوت . قال : تُؤْجَرُ في ذلك وتَشْرُف به »[٢].

---

(١) الصمت ص٢٢٠ - ٢٢٥ .

(٢) الصمت وحفظ اللسان لابن أبي الدنيا ص٢٨١، ٢٨٣، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٠٢، ٣٠٣ .

وقال عبد الله بن أبي زكريا : « عالجتُ الصمتَ عشرين سنة ، فلم أقدر منه على ما أريد »[(١)] .

« وعن مسلم بن زياد قال : كان عبد الله بن أبي زكريا ، لا يكاد أن يتكلَّم ، حتى يُسْأل ، وكان من أَبشِّ الناس وأكثرهم تبسُّمًا .

وعن الوليد بن سليمان بن السائب : كان عبد الله بن أبي زكريا إذا خاض جلساؤه في غير ذِكْر الله ، رأيته كالساهي ، فإذا خاضوا في ذِكْر الله ، كان أحسن الناس استماعًا »[(٢)] .

قال الحكماء : الصمتُ على خمْس : على علْمٍ ، وحِلْمٍ ، وعِيٍّ ، وجهلٍ ، وعظيمة !!

وقال سعيد بن عبد العزيز : كان عبد الرحمٰن أخو أبي مخرمة يمكث أربعة أشهر لا يُكلم الناسَ ، وإذا أرادَ حاجَةً كتب إلى أهلِهِ : افعلوا كذا وكذا[(٣)].

وعن خاقان بن عبد الله قال : سمعتُ ابن المبارك ، وسُئل عن قوْل لقمان لابنه : « إنْ كانَ الكلامُ مِن فضَّة ، فإنَّ الصمتَ مِن ذَهَب ؟ » ، فقال عبد الله : لو كان الكلام بطاعة الله من فضة ؛ فإن الصمت عن معصية الله من ذهب .

عبد الله بن عَوْن :

قال خارجة بن مصعب : « صحبتُ ابن عوْن ثنتي عشرة سنة ، فما رأيتُه تكلَّم بكلمة كتبَها عليه الكِرَامُ الكاتِبون »[(٤)] .

وعند الذهبي في السير (٣٦٦/٦) : قال خارجة بن مصعب : صحبتُ

---

(١) الحلية ١٤٩/٥ .
(٢) الصمت ص٣٠٥ .
(٣) الصمت ص٣٠٨ .
(٤) الصمْت وحفظ اللسان ص٣١٢ .

ابن عون أربعًا وعشرين سنة ، فما أعلم أنَّ الملائكة كتبتْ عليه خطيئة .

وعن سلام بن أبي مطيع قال : كان ابن عون أملكَهم للسانه .

كَفُّ اللِّسانِ عنْ حصائده وآفَاتِهِ من أفضل الجهاد :

عن عبد الله بن مسعود قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « أكثر خطايا ابن آدم في لسانه »(١) .

وعن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : « المجاهدُ مَن جاهَد نفسه في طاعة الله »(٢) .

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد أنْ تجاهد نفسك وهواكَ في ذات الله عزَّ وجلَّ »(٣) .

وقال ﷺ : « أفضل المؤمنين إسلامًا : مَن سلم المسلمون من لسانه ويده ، وأفضل المؤمنين إيمانًا : أحسنهم خُلُقًا ، وأفضل المهاجرين : من هجَر ما نهىٰ الله تعالى عنه ، وأفضل الجهاد : مَن جاهد نفسه في ذات الله عز وجل »(٤) .

واللسان مَجْمَع الأهواء ، وجهاده من أشقِّ الجهاد ، وجهاد النفس أصعب من جهاد البدَن ؛ لأن البدَن مأمور ، والنَّفْس أمَّارة بالسوء .

---

(١) صحيح : جزء من حديث أخرجه الطبراني وابن عساكر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٣٤ .

(٢) جزء من حديث صحيح أخرجه أحمد وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٤٩ .

(٣) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية والديلمي ، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٤٩٦ .

(٤) صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير وابن نصر نحوه في « الصلاة » وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٤٩١ .

قال محمد بن واسع لمالك بن دينار : يا أبا يحيىٰ ، حفظ اللسان أشدُّ على الناس مِن حفظِ الدينار والدِّرهم .

عَالي الهِمَّة مُطهِّرٌ لسانه عن حصادِه وآفاتِه :

وعالي الهمَّة في حفظ لسانه .. يعرف آفاتِ اللِّسان جليلَها ودقائقها .. يعرف حصادَ الألسُن فيطهِّر لسانَه منه .. ويُباعد لسانه عنها بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب .

عالي الهِمَّة لا يتكلَّم فيما لا يَعنيه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مِن حُسْن إسلام المرء تَرْكُهُ ما لا يَعنيه »[1] .

« وقال الأوزاعي : « كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أمَّا بعد ؛ فإنَّ مَن أَكْثَر ذِكْرَ الموت ، رضي من الدنيا باليَسير ، ومَن عَدَّ كلامه مِن عمله قلَّ كلامُه إلّا فيما يَعنيه » .

فقد يتكلَّم المرْءُ فيما هو مباح لا ضرر عليه فيه ، ولا على مسلم أصلًا ، إلَّا أنه يتكلَّم بما هو مستغنٍ عنه ولا حاجة به إليه ، فهو بهذا مضيِّع به زمانَه ، وهو محاسبٌ على عَمَل لسانه ، ومستبدلٌ الذي هو أدنىٰ بالذي هو خيْر ؛ لأنه لو صرف زمان الكلام إلى الفكر ، ربَّما كان ينفتح له من نفحاتِ رحمة الله عند الفكر ما يعظِّم جَدْواه ، ولو هلّل اللهَ سبحانَه وذكَرَهُ وسبّحه ، لَكان خيرًا له ، فكم من كلمة يبني بها قصرًا في الجنة ، واللِّسان شبَكة يقدر أن يقتنص

---

(١) صحيح : رواه الترمذي . وابن ماجة عن أبي هريرة ، وأحمد ، والطبراني في الكبير عن الحسين بن علي ، والحاكم في الكنىٰ ، عن أبي بكر الشيرازي وعن أبي ذرٍّ ، والحاكم في تاريخه عن علي ، والطبراني في الصغير عن زيد بن ثابت ، وابن عساكر عن الحارث بن هشام ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٧٨٧ .

بها الحُورَ العِين ، فإهماله ذلك وتضْييعهُ : خُسْرانٌ مُبين ، ومَن قَدَر على أن يأخذ كَنْزًا مِن الكنوز فأخذ مكانه مدرًا لا ينتفع بها، كان خاسِرًا خُسْرانًا مبينًا.

وحدُّ الكلام فيما لا يَعنيك : أن تتكلَّم بكلامٍ لو سكتَّ عنه ، لمْ تأثم ولم تستضرّ به في حالٍ ولا مآلٍ .

مثاله : أن تجلس مع قوم ، فتذكر لهم أسفارك وما رأيتَ فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنتَه من الأطعمة والثياب ، فأنت إذا بالَغتَ في الجهاد حتى لا يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ، ولا تزكية نفس - فأنت مع ذلك مضيِّع لزمانك ، وأنّى تسلَمُ من الآفات ؟! .

ومِن جملتها : أن تسأل غيرك عما لا يعنيك ؛ فأنت بالسؤال مضيِّع وقتَكَ ، وقد ألجأْتَ صاحبَك بالجواب إلى التضييع ، هذا إذا كان الشيء مما يتطرّق إلى السؤال عنه آفة ، وأكثر الأسئلة فيها آفات ؛ فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلًا ، فتقول له : هل أنت صائم ؟ فإن قال : نعم . كان مظهِرًا لعبادته ، فيدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخلْ سقطتْ عبادتُهُ من ديوان السرِّ ، وعبادة السرِّ تفضُل عبادة الجهْر بدرجات . وإن قال : لا . كان كاذِبًا ، وإن سكَتَ كان مستحقرًا لك وتأذَّيْتَ به ، وإنِ احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتَعَبٍ فيه ، فقد عرّضْتَه بالسؤال : إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفْع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته »[(١)] .

«عن مجاهد قال: سمعتُ ابن عباس يقول: خمسٌ؛ لهنَّ أحسن من الدُّهم المُوقَفَة : لا تتكلَّم فيما لا يَعنيك ، فإنه فضْلٌ ، ولا آمَنُ عليك الوزر . ولا تتكلَّمْ فيما يَعْنيـك حتى تجد له موضعًا ؛ فإنه رُبَّ متكلِّمٍ في أمرٍ يَعنيه ، قد وضَعَه في غير موْضعه فيعنت . ولا تمارِ حليمًا ولا سفيهًا ؛ فإن الحليم يَقْليكَ ،

(١) الإحياء ص١٢٢ ، ١٢٣ .

وإن السفيه يُؤْذيك . واذكرْ أخاك إذا تغيَّبَ عنك بما تحبُّ أن يذكُرَكَ به ، واعْفِهِ عمَّا تحبُّ أن يَعفيَك منه . واعملْ عمل رجلٍ يرىٰ أنه مُجازًىٰ بالإحسان ، مأخوذ بالإجرام »(١) .

وقال مُوَرِّق العجْلي : « أمرٌ أنا أَطلُبه منذ عشر سنين ، لم أقدر عليه ، ولستُ بتاركٍ طلَبه .. قالوا : ما هو يا أبا المعتمِر ؟ قال : الصَّمْتُ عمَّا لا يَعنيني »(٢) .

« وقال أبو جعفر محمد بن علي : كفىٰ عيبًا أن يُبصِرَ العبدُ من الناس ، ما يعمىٰ عليه من نفسه ، وأن يُؤذي جليسَه فيما لا يَعنيه .

وعن زيد بن أسلم قال : دُخِل علىٰ ابن أبي دُجانة وهو مريض ، ووجهه يتهلَّل ، فقال : ما من عملي شيءٌ أوثق في نفسي من اثنتين : لم أتكلَّم فيما لا يَعنيني ، وكان قلبي للمسلمين سليمًا »(٣) .

وعالي الهِمَّة لا يَخوضُ في فُضولِ الكلام :

قال تعالى : ﴿ **لا خيرَ في كثيرٍ من نجْواهم إلَّا مَن أمَرَ بصدَقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين الناس ...** ﴾ [النساء : ١١٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « طوبىٰ لمن أمسَكَ الفضلَ من لسانه ، وأنفق الفضل من ماله »(٤).

---

(١) الصمت وحفظ اللسان ص٧٥ .

(٢) الزهد لأحمد ص٣٠٥ ، وأبو نعيم في الحلية ٢/٢٣٥ بلفظ : « أن أقولَ ما لا يعنيني » . والصمت ص٧٧ .

(٣) الصمت صـ ٧٥ ، ٧٧ .

(٤) حسن : أخرجه البغوي وابن قانع في معجمي الصحابة ، والبيهقي من حديث ركْب المصريِّ ، وقال البغوي : لا أدري : أسمع من النبي ﷺ أم لا . وقال ابن منده : مجهول لا نعرف له صحبه . وقال ابن عبد البر : إنه حديث حسن .

وفضول الكلام مذموم ، وهذا يتناول الخوْضَ فيما لا يَعني ، والزيادة فيما يعنى على قدْر الحاجة ، فإنَّ مَن يعنيه أمرٌ يُمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ومهما تأدَّى مقصوده بكلمةٍ واحدةٍ فذكر كلمتين فالثانية فضول ، أي فضْل عن الحاجة ، وهو أيضًا مذموم ، وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر .

وقال عطاء بن أبي رباح لمحمَّد بن سُوقة وجماعة : « يا بَنِي أخي ، إنَّ مَن كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ، ما عدا كتاب الله ، أن تقرأه ، أو تأمر بمعروف ، أو تنهى عن منكر ، أو تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بدَّ لك منها ، أتنكرون : ﴿ **وإنَّ عليكم لحافظين كِرامًا كاتبين** ﴾ [الانفطار : ١٠ ، ١١] ، ﴿ ... **عن اليمين وعن الشمال قَعيدٌ * ما يلفِظ من قول إلَّا لديه رقيب عتيد** ﴾ [ق : ١٧ - ١٨] ؟! أمَا يستحي أحدكم ، أنه لو نشرتْ عليه صحيفته التي أملى صدرَ نهاره ، كان أكثر ما فيها ، ليس من أمْر دينه ، ولا دُنياه » .

وقد مرَّ بنا حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عنه بلال بن الحارث : « إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة .... » الحديث . وكان علقمة يقول : كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث رضي الله عنه .

وعن الحسن قال : « يا ابن آدم ، بُسطَتْ لك صحيفة ، ووُكِّل بك ملَكَانِ كريمانِ يكتبانِ عمَلَكَ ، فأكْثِرْ ما شئتَ أو أقِلَّ » .

وكان رحمه الله يقول : « من كثر ماله كثرت ذُنُوبه ، ومن كثر كلامه كثر كَذِبُه ، ومن ساءَ خلقُه عَذَّب نفسه » .

وكان طاووس يعتذر مِن طول السكوت ، ويقول : إني جَرَّبتُ لساني فوجدتُه لئيمًا راضِعًا[1].

---

(١) قال ابن الأعرابي : الراضِع والرضيع : الخسيس من الأعراب ، الذي إذا نزل به الضيف رضَع بفيه شاته ؛ لئلَّا يسمعه الضيف فيطلب اللبن .

وعن الشعبي قال : ما من خطيب يخطب ، إلّا عُرِضَتْ عليه خطبتُه يوم القيامة .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنه لَيمنَعُني من كثير الكلام ، مخافَةُ المباهاة .

وكان الربيع بن خُثيم يقول : لا خير في الكلام إلَّا في تسْع : تهليل ، وتكبير ، وتسبيح ، وتحميد ، وسؤالك من الخير ، وتعوُّذُك من الشرِّ ، وأمرُك بالمعروف ، ونهيك عن المنكر ، وقراءتك للقرآن .

وقال إبراهيم التيمي : المؤمنُ إذا أراد أن يتكلَّم نظر ، فإن كان كلامه له تكلَّم ، وإلّا أمسك عنه ، والفاجر إنما لسانه رِسْلًا رِسْلًا(١) .

عالي الهِمَّة لا يخوض في الباطل :

قال الله تعالى حكاية عن أهل النار : ﴿ **وكنَّا نخوضُ مع الخائضين** ﴾ [المدثر : ٤٥] .

وقال تعالى : ﴿ **فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره إنكم إذًا مثلُهم** ... ﴾ الآية [النساء : ١٤٠] .

وقال ﷺ : « إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة يُضحِكُ بها جلساءَه يهوي بها أبعد من الثريَّا »(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل لَيَتَكَلَّم بالكلمة لا يرى بها بأسًا ،يهوي بها سبعين خريفًا في النار »(٣).

---

(١) أي : كان الكلام على لسانه سهلًا ومتهاونًا فيه .

(٢) سنده حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة ، وحسَّن سنده العراقي في تخريج الإحياء .

(٣) أخرجه الشيخان والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل »[١] .

« والخوض في الباطل هو الكلام في المعاصي؛ كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفُسَّاق ؛ فإنَّ كلَّ ذلك مما لا يحلُّ الكلام فيه وهو حرام . وأنواع الباطل لا يمكن حصْرُها لكثرتها وتفنُّنها ، وفي هذا الجنس تقعُ كلمات يَهلك بها صاحبها وهو يستحقرها . ويدخل فيه الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وما جرىٰ من قتال الصحابة ، على وجه يُوهم الطعْن في بعضهم .

قال ابن سيرين : كان رجلٌ من الأنصار يمرُّ بمجلسٍ لهم فيقول لهم : توضَّئوا ؛ فإن بعضَ ما تقولون شرٌّ من الحَدَث »[٢] .

وعالي الهِمَّة أبعدُ الناسِ عنِ المِرَاء والجِدَال :

عن أبي أُمَامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنة لمن ترَك المِرَاءَ وإن كان مُحِقًّا ، وببيتٍ في وسَطِ الجنة لمن ترَك الكذِب وإن كان مازِحًا ، وببيتٍ في أعلىٰ الجنة لمن حَسُن خُلُقه »[٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما ضلَّ قوم بعد هدًى كانوا عليه ، إلا أُوتوا الجدَل »[٤].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني موقوفًا على ابن مسعود بسندٍ صحيح ، كما قال العراقي في تخريج الإحياء .

(٢) الإحياء ٣/١٢٥ .

(٣) صحيح : رواه أبو داود والضياء عن أبي أمامة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٤٧٧ ، وصحَّحه في السلسلة الصحيحة رقم ٢٧٣ .

(٤) حسن : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي أمامة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٠٩ .

وقال ﷺ : « المراءُ في القرآنِ كُفْرٌ »[١] .

وقال أبو الدرداء : كفىٰ بكَ إثمًا أن لا تزال مماريًا .

وقال عمر بن عبد العزيز : من جعل دينَه عُرْضَةً للخصومات أكثر التنقُّل .

وحدُّ المراء هو : كلُّ اعتراضٍ على كلام الغيْر بإظهار خلَلٍ فيه ؛ إمَّا في اللفظ ، وإمَّا في المعنىٰ ، وإمَّا في قصْد المتكلِّم ، وترْك المراء بترْك الإنكار والاعتراض ، فكلُّ كلام سمعتَه ؛ فإنْ كان حقًّا فصدق به ، وإن كان باطلًا أو كَذِبًا ولم يكن متعلِّقًا بأمور الدين ، فاسكُتْ عنه .

وأمَّا المجادَلة ؛ فعبارة عن قصد إفحام الغيْر وتعجيزه وتنقيصه .

قال أبو حنيفة لداود الطائيِّ : لِمَ آثرتَ الانزواءَ ؟ قال : لأجاهد نفسي بترْك الجدال . فقال : احضرِ المجالس واستمع ما يُقال ، ولا تتكلَّم . قال : ففعلتُ ذلك ، فما رأيتُ مجاهدة أشدَّ عليَّ منها .

وعن محمد بن واسع قال : رأيتُ صفوانَ بنَ مُحرِز في المسجد ، وقريبًا منه ناس يتجادلون ، فرأيتُه قام فنفض ثيابه ، وقال : إنما أنتم جَرَبٌ ، إنما أنتم جَرَب .

وقال عمر بن عبد العزيز : إذا سمعتَ المراء فاقصدْ .

وسمع الربيع بن خثيم رجلًا يُلاحي رجلًا ، فقال : مَهْ !! لا تَلفِظْ إلَّا بخير ، ولا تقلْ لأخيك إلَّا ما تحبُّ أن تسمعه من غيرك ؛ فإن العبد مسئول عن لفظه محصًى عليه ذلك كلُّه ؛ ﴿ **أحصاه الله ونسُوه** ﴾ [المجادلة : ٦] .

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « خرجتُ لأخبرَكم بليلةِ القدْر ، فتلاحىٰ فلانٌ وفلانٌ فرُفعتْ ، وعسى أن

(١) رواه أبو داود وابن حبان والحاكم ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب وصحيح الجامع رقم ٦٥٦٣ .

يكون خيرًا لكم ، فالتمسُوها في التاسعة والسابعة والخامسة » . رواه البخاري .

وعالي الهِمَّة لا يخاصِمُ :

والخصومة وراء الجدال والمراء ، وهي لجاجٌ في الكلام ليُستوفَى به مالٌ أو حقٌّ مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداءً وتارة يكون اعتراضًا ، والمراء لا يكون إلّا باعتراضٍ على كلام سبَق .

قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « إن أبغضَ الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ » . رواه البخاري .

وقال أبو جعفر محمد بن علي : إياكم والخصومة ؛ فإنها تمْحقُ الدين .

وقال رحمه الله : لا تجالسوا أصحاب الخصومات ؛ فإنهم يخوضون في آياتِ الله .

وعن فضيل ؛ قال إبراهيم : ما خاصمتَ ؟ قلتُ : لا .. قال : قطٌّ ؟ قلتُ : قطٌّ .

وأقلُّ ما يفوته في الخصومة طيبُ الكلام ، والله تعالى يقول : ﴿ **وقولوا للناس حُسْنًا** ﴾ .

قال ابن عباس : لو قال لي فرعون خيرًا ، لَرددتُ عليه .

والكلام اللَّيِّن يغسل الضغائن المستكنَّة في الجوارح .

قال بعض الحكماء : كلُّ كلام لا يُسخِطُ ربَّك إلا أنك تُرضي به جليسَك ، فلا تكنْ به عليه بخيلًا ؛ فإنه لعلَّه يعوِّضك منه ثواب المحسنين(١) .

وعالي الهِمَّة أبعدُ الناس عن التقعُّرِ في الكلامِ والتشدُّق فيه وتكلُّف السَّجْع :

عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « هلَك المتنطِّعون » .

---

(١) الصمت وحفظ اللسان ص٩٧ ، ٩٩ .

قالها ثلاثًا . رواه مسلم .

والمتنطِّعون هُمُ المبالغون في الأمور ، المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم . وقال رسول الله ﷺ : « سيكون قومٌ يأكلون بألسنتهم ، كما تأكل البقرةِ من الأرض »(١) .

وقال ﷺ : « إن الله عز وجل يُبغِض البليغَ من الرجال ، الذي يتخلَّل بلسانه تخلُّلَ البقرة بلسانها »(٢) .

وعن جابر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أحبِّكم إليَّ وأقربكم منّي مجلسًا يومَ القيامة ؛ أحاسنكم أخلاقًا ، وإن أبغضكم إليَّ ، وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة ؛ الثرثارون والمتشدِّقون والمتفيهقون » . قالوا : قد علمنا الثرثارون والمتشدِّقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبِّرون » .

وقال ﷺ : « إن من شرار أمتي الذين غُذُّوا بالنعيم ، الذين يطلبون ألوانَ الطعامِ وألوان الثياب ، يتشدَّقون بالكلام »(٣) .

وعَالي الهِمَّة ليسَ بالفاحِش ولا بالبذيّ :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ليس المؤمن بالطعَّان ، ولا باللَّعَّان ، ولا بالفاحش ، ولا بالبذيّ »(٤) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما كان الفحش في شيء إلا شانه ، وما كان الحياء في شيء إلا زانه »(٥) .

(١) صحيح : أخرجه أحمد ، والترمذي وغيرهما ، وهو في الصحيحة برقم ٤٢٠ .
(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي وغيرهما ، وهو في الصحيحة برقم ٤٢١ .
(٣) أخرجه أحمد في « الزهد » ، وابن أبي الدنيا ، والبيهقي في الشعب من حديث فاطمة ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة برقم ١٨٩١ .
(٤) رواه البخاري والترمذي والحاكم وابن حبان .
(٥) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، والبخاري في الأدب ، وابن =

وعن أنس رضي الله عنه قال : « ما مسستُ ديباجًا ولا حريرًا ، ألين من كفِّ رسول الله ﷺ ، ولا شممتُ رائحة قطُّ ، أطيبَ من رائحة رسول الله ﷺ ، ولقد خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي قطُّ : أفٍّ ، ولا قال لشيء فعلتُه : لِمَ فعلتَه ؟ ولا لشيء لمْ أفعله : ألا فعلْت كذا !! » . متفق عليه .

وعند الترمذي : « وكان رسول الله ﷺ مِن أحسن الناس خُلُقًا ، وما مسستُ خزًّا قطُّ ولا حريرًا ولا شيئًا ، كان ألْيَن من كفِّ رسول الله ﷺ ، ولا شممتُ مِسْكًا قطُّ ولا عطْرًا ، كان أطيب من عَرَقِ رسول الله ﷺ » .

وعن أبي عبد الله الجدلي قال : سألتُ عائشة عن خلُق رسول الله ﷺ ، فقالت : « لم يكن فاحشًا ولا متفحِّشًا ، ولا صَخَّابًا في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح »[(١)] .

لم يكن فاحشًا : أي ذا فحش . ولا متفحِّشًا : أي متكلِّفًا فيه ومتعمِّدًا .

قال القاضي : نفَتْ عنه تولِّي الفحش والتفوُّه به ، طبْعًا وتكلُّفًا .

وقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله تعالى يُبغض الفاحِشَ المتفحِّش »[(٢)].

عن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه قال : كنتُ عند النبي ﷺ قاعدًا وأبي أمامي ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الفُحْشَ والتفحُّش ليسَا من الإسلام في شيء ، وإنَّ أحسنَ الناس إسلامًا أحاسِنُهم أخلاقًا »[(٣)].

= حبان عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٣١ .

(١) صحيح : رواه الترمذي في سننه وفي الشمائل ، والطيالسي ، وابن حبان ، وأحمد ، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم ١٦٤٠ .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن أسامة بن زيد ، وأحمد وابن حبان عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٧٣ ، والإرواء ٢١٩٢ .

(٣) إسناده صحيح : رواه أحمد في مسنده ٨٩/٥ ، وابن أبي الدنيا في الصمت ، =

وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوإ الداء : اللسانُ البذيء ، والخلُق الدنيء .

فهذه مذمَّة الفُحْش .

فأمَّا حدُّه وحقيقتُه : فهو التعبير عن الأمور المستقبَحَة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلّق به ؛ فإن لأهل الفساد عباراتٍ صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشَوْن عنها ، بل يُكنون عنها ويدلُّون عليها بالرموز ، فيذكرون ما يقاربها ويتعلَّق بها .

قال ابن عباس : إن الله حَيِيٌّ كريم يعفو ويكنو ؛ كنىٰ باللمس عن الجماع .

فالمسيس واللَّمْس والدخول والصُّحْبة : كناياتٌ عن الوقاع ، وليست بفاحشة . وليس يختصُّ هذا بالوقاع ، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط ، أولى من لفظ التغوُّط والخراء ، فإن هذا أيضًا ممَّا يخفىٰ ، وكلُّ ما يخفىٰ يُستحيَا منه ، فلا ينبغي أن تُذكر ألفاظه الصريحة ؛ فإنه فُحْش .

وكذلك يُستحسَن في العادة الكناية عن النساء ، فلا يُقال : قالت زوجتك كذا ، بل يُقال : قيل في الحجرة ، أو مِن وراء السِتْر ، أو قالت أمُّ الأولاد ؛ فالتلطُّف في هذه الألفاظ محمود ، والتصريح فيها يُفضي إلى الفحْش .

وكذلك مَن به عيوب يُستحيا منها ، فلا ينبغي أن يُعبّر عنها بصريح لفظها ، كالبَرَص والقرع والبواسير ، بل يُقال : العارض الذي يشكوه ، وما يجري مجراه ، فالتصريح بذلك داخل في الفُحْش ، وجميع ذلك من آفات اللسان .

= وقال العراقي في تخريج الإحياء : إسناده صحيح .

«قال العلاء بن هارون: كان عمر بن عبد العزيز يتحفّظ في منطقه ، فخرج تحتَ إبطِهِ خُراجٌ ، فأتيناه نسأله لنرىٰ ما يقول ؟ فقال : مِن أين خرج ؟ فقال : من باطن اليد »[(١)] .

وعالي الهِمَّة أبعدُ الخلْقِ عنِ السَّبِّ واللَّعْنِ :

أمَّا السَّبُّ :

قال رسول الله ﷺ : « مَن سبَّ أصحابي ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ **والذين يُؤْذون المؤمنين والمؤمناتِ بغير ما اكتسبوا فقدِ احتملوا بُهتانًا وإثمًا مبينًا** ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سباب المسلم فُسوق وقتالُه كفر » . متفق عليه .

وفي الحديث: «... وإنِ امرؤٌ سبَّكَ بما يعلم فيك ، فلا تسبَّه بما تعلم فيه ، فإن أجرَه لك ، ووَباله على مَن قاله »[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أُتي النبي ﷺ برجلٍ قد شَرِب[(٤)] قال : « اضربوه » . قال أبو هريرة : فمنَّا الضارِب بيده ، والضارب بنعْله ، والضارب بثوْبه ، فلمَّا انصرفَ ، قال بعضُ القوم : أخزاك الله . قال : « لا تقولوا هذا ، لا تُعينوا الشيطانَ عليه » . رواه البخاري .

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أربىٰ

---

(١) الإحياء ص١٣١ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني ، وأبو نعيم في الحلية ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٢٣٤٠ .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد ، وصحَّحه الألباني كما في السلسلة الصحيحة برقم ١٣٥٢ .

(٤) أي الخمر .

الرِّبَا : شتْمُ الأعراض »(١) .

وعن البراء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الربا اثنان وسبعون بابًا ، أدناها مثل إتيان الرجل أمَّه ، وإنَّ أربى الربا استطالةُ الرجل في عِرض أخيه »(٢) .

انظرْ إلى أدنى الرِّبا وأعلاه .. واتقِ اللهَ .. ما عسى يكون الأكبر إذا كان الأدنى بمثل هذه الصورة المستقْذَرة ؟!!.

وقال ﷺ : « سابُّ المسلم كالمُشْرِف على الهَلَكَة »(٣).

وقال ﷺ : « لا تُؤذوا مسلمًا بشتْم كافر »(٤).

وقال ﷺ : « لا تسبُّوا الأموات ؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدَّموا »(٥).

وقال ﷺ : « المستبَّان شيطانان ، يتهاتران ويتكاذبان »(٦).

بل ولسان عالي الهمَّة مطهَّر عن السبِّ مطلقًا ؛ سبِّ الدَّابَّة ، وسبِّ الرِّيح ، وسبِّ الديك ، وسبِّ الدهر ، وسبِّ الحُمَّى ، بل وسبِّ الشيطان ،

(١) صحيح : رواه الهيثم بن كليب عن سعيد بن زيد ، ورواه عبد الرزاق في الجامع ، والبيهقي في الشعب عن عمرو بن عثمان مرسلًا ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٨٥ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٤٣٣ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ١٨٧١ ، وصحيح الجامع رقم ٣٥٣١ .

(٣) حسن: رواه البزار عن ابن عمرو، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٨٦.

(٤) صحيح: رواه الحاكم والبيهقي في السنن عن سعيد بن زيد، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧١٩١.

(٥) رواه أحمد والبخاري والنسائي عن عائشة .

(٦) صحيح : رواه أحمد والبخاري في الأدب عن عياض بن حمار، وصحَّحه الألباني في « الإيمان » لأبي عبيد، وصحيح الجامع رقم ٦٦٩٦ .

وسبِّ آلهة الزُّور .

عن عمران بن الحُصين رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، وامرأة من الأنصار على ناقة ، فضجِرتْ فلعنتْها ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : « خذوا ما عليها ودعوها ؛ فإنها ملعونة » . قال عمران : فكأني أراها الآن تمشي في الناس ، ما يَعرِض لها أحدٌ . رواه مسلم .

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : بينما جارية على ناقة عليها بعض متاع القوم ، إذْ بُصَرتْ بالنبي ﷺ وتضايق بهم الجبل ، فقالت : حَلْ[1]، اللهمَّ الْعَنْها . فقال النبي ﷺ : « لا تصاحبْنا ناقةٌ عليها لعنة » . رواه مسلم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الريح من روحِ الله ، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبُّوها ، واسألوا اللهَ خيرَها ، واستعيذوا بالله من شرِّها »[2] .

وعن زيد بن خالد رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبُّوا الديك ؛ فإنه يُوقظ للصلاة »[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تَسبُّوا الدهرَ ، فإن اللهَ هو الدهر »[4] . رواه مسلم .

---

(١) حَلْ : كلمة تُقال لزجْر الإبل .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود ، وابن ماجه ، وهو في الكلم الطيب برقم ١٥٣ ، صحَّحه الألباني .

(٣) صحيح : رواه أبو داود ، وإسناده صحيح ، صحَّحه الألباني في المشكاة برقم ٤١٣٦ .

(٤) قال النووي في شرح مسلم : « أي : لا تسبُّوا فاعل النوازل ؛ فإنكم إذا سببتم فاعِلَها ، وقَع السبُّ على الله تعالى ؛ لأنه هو فاعلها ومنزِّلها ، وأما الدهر الذي هو =

وعن جابر رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ دخَل على أمِّ السائب - أو أم المسيَّب - فقال : « ما لك يا أمَّ السائب - أو يا أمَّ المسيب - تزفزفين(١)؟ ». قالت : الحُمَّى ، لا بارك اللهُ فيها . فقال : « لا تسبِّي الحُمَّى ؛ فإنها تُذهب خطايا بني آدم كما يُذهِب الكِيرُ خبَثَ الحديد »(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « لا تسبُّوا الشيطان ، وتعوَّذوا بالله من شرِّه »(٣) .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولا تسبُّوا الذينَ يدعونَ مِنْ دُون اللهِ فيسبُّوا اللهَ عَدْوًا بغيْر علْمٍ ...** ﴾ الآية [الأنعام : ١٠٨] .

وثبت عن علي رضي الله عنه ؛ أنه سُئل عن قول الرجل للرجل : « يا فاسق » ، « يا خبيث » ، قال : « هُنَّ فواحشُ ، فيهنَّ تعزير ، وليس فيهنَّ حدٌّ »(٤) .

وأمَّا اللَّعْنُ :

فقد قال رسول الله ﷺ : « إني لم أُبعَثْ لعَّانًا »(٥) .
وقال ﷺ : « إني لم أُبعثْ لعَّانًا ، وإنما بُعِثْتُ رحمة »(٦) .

= الزمان فلا فعل له ، بل هو مخلوق من جمْلَة خلْق الله ، ومعنى : « فإن اللهَ هو الدهر » : أي فاعل النوازل والحوادث ، وخالق الكائنات . والله أعلم » .

(١) تزفزفين : أي ترتعدين .

(٢) رواه مسلم ، والبخاري في « الأدب المفرد » .

(٣) صحيح : رواه المخلص ، والديلمي ، وتمَّام في فوائده ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٢٤٢٢ ، وصحيح الجامع رقم ٧١٩٥ .

(٤) أخرجه البيهقي ، انظر : إرواء الغليل رقم ٢٣٩٣ .

(٥) صحيح: رواه الطبراني في الكبير عن كريز بن أسامة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٠١ .

(٦) صحيح:رواه مسلم، والبخاري في الأدب عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « لا يكون المؤمن لعَّانًا »[١] .

وقال ﷺ : « أوصيك أن لا تكون لعَّانًا »[٢] .

وقال ﷺ : « لعْنُ المؤمنِ كقتْله »[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لِصدِّيق أن يكون لعَّانًا » . رواه مسلم .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبدَ إذا لعَن شيئًا صعِدت اللَّعْنة إلى السماء ، فتُغْلَق أبواب السماء دُونها ، ثم تهبط إلى الأرض ، فتُغلَقُ أبوابُها دونها ، ثم تأخذ يمينًا وشمالًا ، فإذا لم تجدْ مَسَاغًا ؛ رجَعتْ إلى الذي لُعِن ؛ فإن كان لذلك أهلًا ، وإلّا رجعتْ إلى قائلها »[٤] .

« واللعْن : إما لحيوان أو جماد أو إنسان ، وكلُّ ذلك مذموم .

والصفات المقتضِية للَّعن ثلاثة : الكفر ، والبدعة ، والفِسْق . وللَّعن في كلٍّ واحدة ثلاث مراتب :

الأولى : اللَّعْنُ بالوصف الأعمِّ ؛ كقولك : لعنةُ الله على الكافرين والمبتدعين والفَسَقَة .

الثانية : اللعْنُ بأوصاف أخصَّ منه ؛ كقولك : لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس . وعلى القدَرِيَّة والخوارج والرافضة ، أو على الزُّناة والظَّلَمة

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والبخاري في الأدب عن ابن عمر، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٧٧٤ .

(٢) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في التاريخ، والطبراني في الكبير عن جرموز بن أوس وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٤٢ .

(٣) جزءٌ من حديثٍ ، متفق عليه ، عن ثابت بن الضحَّاك .

(٤) صحيح : رواه أبو داود ، وروى أحمد نحوه ، وصحَّحه الألباني في « صحيح سنن أبي داود » برقم ٤٠٩٩ .

وآكِلي الربا . وكل ذلك جائز .

الثالثة : اللعْنُ للشخْص المعيَّن ؛ وهذا فيه خطَرٌ ؛ كقولك : زيدٌ لَعَنَهُ الله ، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع .

والتفصيل فيه أنَّ كلَّ شخصٍ ثبتتْ لعنتهُ شرعًا فتجوز لعنته ، كقولك : فرعون لعنه الله ، وأبو جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر ، وعُرف ذلك شرعًا . وأما شخصٌ بعينه في زماننا ؛ كقولك : زيد لعنه الله – وهو يهودي مثلًا – فهذا فيه خطرٌ ؛ لأنه ربما يُسْلِمُ فيموت مقرَّبًا عند الله ، فكيف يُحكم بكونه ملعونًا ؟!

فإن قلتَ : يُلعن لكونه كافرًا في الحال ، كما يُقال للمسلم : رحمه الله ؛ لكونه مسلمًا في الحال ، وإن كان يُتصوَّر أن يرتدَّ .

فاعلمْ أن معنى قولنا : رحمه الله ؛ أي ثبَّته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة ، وعلى الطاعة ، ولا يمكن أن يُقال : ثبّت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة ؛ فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر ، بل الجائز أن يُقال : لعنه الله إن مات على الكفر ، ولا لعنه الله إن مات على الإسلام . وذلك غيب لا يدرىٰ، والمطلق متردِّدٌ بيْنَ الجهتيْن، ففيه خطر، وليس في ترك اللَّعْن خطر . وإذا عرفت هذا في الكافر ، فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى ، فلعْن الأعيان فيه خطر ؛ لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلَّا مَن أعْلَمَ به رسول الله ﷺ ، فإنه يجوز أن يَعلم مَن يموت على الكفر ، ولذلك عيَّن قومًا باللعن ، فكان يقول في دعائه على قريش : « اللهمَّ عليك بأبي جهل بن هشام وعُتبة ابن ربيعة »(١) . وذكر جماعةً قتلوا على الكفر ، حتى إنّ مَن لم يعلمْ عاقبته كان يلعنه ، فنُهِيَ عنه ؛ إذ إنَّه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في

---

(١) متفق عليه ، من حديث ابن مسعود .

قنوته شهرًا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ **ليسَ لك مِن الأمْرِ شيءٍ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنَّهم ظالمون** ﴾[1] . يعني أنهم ربما يُسْلِمون ، فمِن أين تعلم أنهم ملعونون ؟!

كذلك مَن بان لنا موته على الكفر جاز لعنه، وجاز ذمُّه إن لم يكنْ فيه أذًى على مسلم، فإن كان؛ لم يَجُزْ ... شَرِب نعمانُ الخمرَ فحُدَّ مرَّاتٍ في مجلس رسول الله ﷺ ، فقال بعض الصحابة : لعنه الله ، ما أكثر ما يُؤتَى به !! فقال ﷺ : « لا تكن عوْنًا للشيطان على أخيك » . فنهاه عن ذلك[2] ، وهذا يدلُّ على أن لعْن فاسق بعينه غير جائز .

وعلى الجملة : ففي لعن الأشخاص خطرٌ فلْيُجتنَبْ ، ولا خطرَ في السكوتِ عن لعْنِ إبليسَ مثلًا ، فضلًا عن غيره .

والمؤمن ليس بلعَّان، فلا ينبغي أن يُطِلق اللسان باللعنةِ إلَّا على من مات على الكفر أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم ، دون الأشخاص المعيَّنين .

---

(١) حديث : أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرًا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ ليسَ لك مِن الأمر شيء ﴾ أخرجه الشيخان من حديث أنس : دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحابَ بئر معونة ثلاثينَ صباحًا .. الحديث . وفي رواية لهما : « قنتَ شهرًا يدعو علىٰ رعلٍ وذكوان .. » .. الحديث . ولهما من حديث أبي هريرة : « وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ، يكبِّر ويرفع رأسَه ... : « اللهمَّ الْعَنْ لحيان ورعلا .. » الحديث . وفيه : « ثم بلغنا أنه ترَك ذلك لما أنزل الله ﴿ ليس لكَ من الأمْرِ شيء ﴾ » . لفظ مسلم .

(٢) للبخاري من حديث عمر : أن رجلًا على عهد رسول الله ﷺ كان اسمُه عبد الله ، وكان يلقَّب : حمارًا ، وكان يُضحك رسول الله ﷺ ، وكان قد جلده في الشراب ، فأُتي به يومًا ، فأمر به فجُلِدَ ، فقال رجل مِن القوم : اللهم الْعنْه ؛ ما أكثر ما يُؤْتى به !! فقال النبي ﷺ : « لا تلعنوه ، فوالله ما علمتُ إلَّا أنه يحبُّ الله ورسوله » .

قال مكي بن إبراهيم : كُنا عند ابن عون ، فذكروا بلال بن أبي بردة ، فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه ، وابن عون ساكت ، فقالوا : يا ابن عون ، إنما نذكره لِمَا ارتكب منك . فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة : لا إله إلا الله ، ولعَنَ الله فلانًا ؛ فلَأنْ يخرُجَ مِن صحيفتي : لا إله إلا الله ، أحبُّ إلي مِن أن يخرجَ منها : لعَنَ الله فلانًا .

ويقرب مِنَ اللَّعْن : الدعاءُ على الإنسان بالشرِّ ، حتى الدعاء على الظالم ، كقوْل الإنسان مثلًا : لا صحّح الله جسْمَه ، ولا سلّمه . وما يجري مجراه ؛ فإن ذلك مذموم [١] .

وعَالي الهِمَّة ينْدُر منه المزَاحُ ، ويتَّبعُ هديَ رسول الله ﷺ فيه :

لقد كان رسول الله ﷺ يمزح ، لكنَّه لا يقول إلّا حقًّا ، ولا ينطق إلّا صدقًا ، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله ، إنك تُداعبُنا ؟ قال : « نعم ، غير أني لا أقول إلا حقًّا »[٢] .

ولكنْ هذا على سبيل الندرة ، فقد كان النبي ﷺ كما وصفه جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه : « كان طويلَ الصمْتِ ، قليلَ الضَّحِك »[٣] .

وكثرة المزاح والإفراط فيه تؤدِّي إلى كثرة الضحك ، وقد قال ﷺ : « لا تُكثرِ الضَّحك ؛ فإن كثْرة الضحِكِ تُميت القلبَ »[٤] .

---

(١) الإحياء ٣ / ١٣٢ - ١٣٥ .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » ، وصحّحه الألباني في مختصر الشمائل المحمدية برقم ٢٠٢ .

(٣) حسن : رواه أحمد في مسنده عن جابر بن سمرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٦٩٨ .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، وصحّحه الألباني في الصحيحة رقم ٥٠٦ .

أما المزاح الكثير ، فلا وألف لا ؛ فقد شاب عليه الناس ، وكأنهم قد رضعوه في المهد ، وفي مصائب الأمَّة ما يُغني عنه .

«فإن قلت: قد نُقِل المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه، فكيف يُنهىٰ عنه ؟

فأقول : إن قَدَرْتَ على ما قدَر عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه ، وهو أن تمزح ولا تقول إلَّا حقًّا ، ولا تُؤذي قلبًا ، ولا تفرّط فيه ، وتقتصر فيه أحيانًا على الندور - فلا حَرَجَ عليك ، ولكن مِن الغلَطِ العظيمِ أَنْ يتَّخذ الإنسان المزاحَ حرفَةً يواظب عليه ويُفْرِطُ فيه ، ثم يتمسَّك بفعْل رسول الله ﷺ ، وهو كمن يدور نهارَه مع الزُّنُوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ، ويتمسَّك بأن رسول الله ﷺ أذِنَ لعائشة في النظر إلى رقْص الزنوج في يوم عيد ، وهو خطأ ؛ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، ومِن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار ، فلا ينبغي أن يغفل عن هذا »(١) .

قال خالد بن صفوان : المُزاح سِباب النَّوْكَىٰ . قال : وكان يُقال لكل شيء بذْر ، وبذْرُ العداوة المزاحُ .

وعن محمد بن المنكدر قال : قالت لي أمي : لا تمازِحِ الصبيان ، فتهونَ عليهم .

وقال الأحنف بن قيْس : مَن كثر كلامه وضحِكُه ومزاحه ، قلَّت هيبتُه .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : مَن مَزح ، استُخِفَّ به .

وصدَق رسول الله ﷺ ؛ إذ يقول : « لو تعلمون ما أعلم لَبكيْتُم كثيرًا ولَضحِكتم قليلًا »(٢) .

---

(١) الإحياء ٣ / ١٣٨ .

(٢) متفق عليه من حديث أنس وعائشة .

وعَالي الهِمَّةِ متطهِّرٌ تمامًا عن بقيَّةِ حصائد الألسُن[١]:

عالي الهمَّة لا يقْرَب هذه الحصائد ويطهِّر لسانه عنها . ومِن هذه الحصائد :

١ - اليمينُ الكاذبة عمْدًا . **٢** - شهادة الزور . **٣** - القذف .

٤ - عدَمُ السَتْر على المسلم . **٥** - البهتان والافتراء :

فلقد نظر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يومًا إلى الكعبة ، فقال : ما أعظَمَكِ وأعظَمَ حُرْمَتَكِ ، والمؤمنُ أعظمُ حرمةً منك .

٦ - الكذب . **٧** - النميمة . **٨** - الغِيبة :

قال خُصيف ، وعبد الكريم بن مالك : أدركْنَا السَّلَف ، وهم لا يرون العبادةَ في الصوْم ولا في الصلاة ، ولكن في الكفِّ عن أعراض الناس .

وقال الحسن : والله لَلْغِيبةُ أسرعُ في دين المؤمن من الأَكَلَة في جَسَدِه .

وقال عون بن عبد الله : ما أحسب أحدًا تفرَّغ لعيوب الناس ، إلَّا من غفلة غفلَها عن نفسه .

وكان سيِّدُ القرَّاء ميمون بن سياه لا يغتابُ ، ولا يدع أحدًا عنده يغتاب ؛ ينهاه ، فإذا انتهى وإلَّا قام[٢] .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلتُ للنبي - ﷺ -: حسبُك من صفية - زوج النبي ﷺ - كذا وكذا - تعني أنها قصيرة - فقال النبي ﷺ : « لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجتْ بماءِ البحرِ لَمَزَجَتْه »[٣] .

---

(١) وقد أوردها وأحسَن وأطَالَ وأطيَبَ : الشيخ حُسين العوايشة ، التلميذ النجيب لمُحدِّث العصر شيخِنا الألباني ، في كتابه القيم : « حصائد الألسن » فلْتُراجَعْ.

(٢) الصمت لابن أبي الدنيا صـ ١٣٨ .

(٣) صحيح : أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما ، وصحَّحه الألباني في تخريج أحاديث =

٩ - إفشاء السِّرِّ . **١٠** - النفاق العملي لا الاعتقادي :

وهو أن يشابه عملُ المسلم عمَلَ المنافقين من غير استحلال له ، وما في ظاهره من نفاق ليس في باطنه ؛ إذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصَم فجَر ، وإذا وعد أخلف .

لما حضرتْ عبدَ الله بن عمر الوفاة قال : إنه كان خطب إليّ ابنتي رجلٌ من قريش ، وقد كان مني شبهُ الوعْد ؛ فوالله ؛ لا ألقى الله بثُلثِ النفاق ؛ أشهدكم أني قد زوَّجته ابنتي .

١١ - السخرية والاستهزاء والتنابُز بالألقاب :

« قال عمرو بن شرحبيل:لو رأيتُ رجلًا يرضع عنْزًا فضحكت منه ، لَخَشِيتُ أن أصنع مثلَ الذي صنَع » .

وعن عبد الله بن مسعود : البلاء موكّل بالقوْل ، لو سخِرتُ من كلْبٍ ، لَخشيت أن أحوَّل كلبًا[١] .

قال ﷺ: « ما أحب أني حكيتُ إنسانًا ، وأن لي كذا وكذا »[٢] .

قال المناوي : « (ما أحبُّ أني حكيْتُ إنسانًا) : أي فعلتُ مثل فعْله ، أو قلتُ مِثل قوله ، منقصًا له . يقال : حكاه وحاكاه . قال الطيبي : وأكثر ما تُستعمل المحاكاة في القبيح » .

١٢ - مقاطعة الكلام :

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إذ قلتَ

= الحلال والحرام ، برقم ٤٢٧ .

(١) القرطبي ٩ / ٦١٤٥ .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود والترمذي عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود ، رقم ٤٠٨٠ .

للناسِ : أنصتوا . وهم يتكلَّمون ؛ فقد ألغيتَ على نفسك »[(١)] .

قال الألباني: «وفي هذا الحديث تحذير من الإخلال بأدب رفيع من آداب الحديث والمجالسة ، وهو أن لا يقطَعَ على الناس كلامهم ، بل يُنصِت هو حتى ينتهي كلامهم » .

١٣ – الغناء .

١٤ – أن يتحلَّى أو يتشبَّع بما لم يُعْطَ :

قال تعالى : ﴿ **لا تحسبَنَّ الذين يفرحون بما أتوا ويُحبُّون أن يُحمَدُوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازةٍ من العذاب ولهمْ عذاب أليمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٨٨] .

وفي حديث أسماء : قال رسول الله ﷺ : « المتشبِّع بما لم يُعطَ ، كلابس ثَوبَي زُورٍ »[(٢)] .

والتشبُّع بما لم يُعْطَ في أمور الآخرة أشدُّ ذنبًا وأكثر إثمًا ، كالإفتاء بغير علْمٍ ، ليظهِرَ أنه عالم وأن علمه غزير .

١٥ – أن يخطب على خطبة أخيه حتى يَذَر . **١٦** – البيْعُ على بيْع أخيه . **١٧** – طلب الولاية ؛ فنِعْمَ المرضِعَة وبئْستِ الفاطمة . **١٨** – التعيير والتوبيخ . **١٩** – الدعاء على النفس والأولاد والأموال . **٢٠** – الخيانة في النصيحة . **٢١** – احتقار المسلمين . **٢٢** – قوْل العبد : هذا من أهل الجنة ، وهذا من أهل النار ؛ والتألِّي على الله تعالى . **٢٣** – الطعْن في الأنساب . **٢٤** – الفخْر بالأنساب . **٢٥** – أن يدّعي المرءُ إلى غير أبيه أو ينتمي إلى غير

---

(١) رواه أحمد ، وسنده صحيح على شرط الشيخين ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة برقم ١٧٠ .

(٢) متفق عليه .

مواليه . **٢٦** - الاستغفار للمشركين والكفار . **٢٧** - الفجور عند الخِصام. **٢٨** - القول : إني بريء من الإسلام. **٢٩** - المنّ بالعطية . **٣٠** - الهزل بالنكاح والطلاق والرجْعة والعِتْق . **٣١** - سبُّ الأموات . **٣٢** - النياحة على الميِّت . **٣٣** - القول : تعالَ أقامرْك . **٣٤** - القيل والقال. **٣٥** - البؤس والتَّباؤس. **٣٦** - مخاطبة المنافق بسيِّد ونحوه . **٣٧** - المدْحُ في الوجْـه . **٣٨** - التزكِيَة . **٣٩** - العوْدة في الصدَقة . **٤٠** - لفظة « لو » . **٤١** - الحَلِف في البيْع .

٤٢ - التحدُّث بتلعُّب الشيطان في المنام :

قال ﷺ : « لا يحدِّثنَّ أحدُكم بتلعُّب الشيطان به في منامه »(١) .

٤٣ - قول : تَعِسَ الشيْطانُ . **٤٤** - التحلُّم كاذبًا . **٤٥** - النذر في معصية الله . **٤٦** - قول : خبُثَتْ نفسي . **٤٧** - تسمية العنبِ كَرْمًا . **٤٨** - التكلُّم والإمام يخطب الجمعة . **٤٩** - نشْدُ الضالة والبيْعُ في المسجد . **٥٠** - قول : شاهنشاه ، للسلطان .

هذه بعضُ حصائد الألسن التي يبتعد عنها عالي الهمَّة ، ويطهِّر لسانَه منها ، فضلًا عن :

٥١ - الفتوى بغيْر علْم . **٥٢** - والنذْر لغير الله تعالى . **٥٣** - دعاء غير الله تعالى . **٥٤** - الاستسقاء بالأنواء . **٥٥** - كفْر النعمة . **٥٦** - سؤال الكُهَّان والعرَّافين . **٥٧** - الحَلِف بغير الله . **٥٨** - الاستعاذة بغير الله . **٥٩** - قول : ما شاء الله وشاء فلان . **٦٠** - الحَلِف بالله كاذبًا . **٦١** - إنكارُ اسم من أسماء الله تعالى . **٦٢** - إنكار القدَر . **٦٣** - القول بالبدع(٢).

---

(١) رواه مسلم .

(٢) انظر إلى : حصاد الألسن لحسين العوايشة - طبع : دار ابن عفان .

٦٤ - الخوْض في علْم الكلام وصفات الله على طريقة المتكلِّمين .

ورحم الله الجُنَيْد حيث قال : « إنكارُ العيبِ حيثُ يستحيلُ العيْبُ : عيبٌ » .

فطريقة أهل السنة في الإثبات والنفي في الأسماء والصفات ، هي طريقة الذين جاءوا بكمال الأدب مع الله عز وجل .

* * *

الفصل الخامس عشر

عُلُــوُّ الهمَّــة

فــي

الإخبـــــات

«أَمَا والله لو رآك محمد ﷺ يا ربيع؛ لفرح بك».

قالها ابن مسعود للربيع بن خثيم

سيِّد المخبتين في التابعين

□ عُلُوُّ الهمَّة في الإخبات □

قال الله تعالى : ﴿ **وبشِّر المخبتين** ﴾ [الحج : ٣٤] . ثم كشف عن معناهم . فقال : ﴿ **الذين إذا ذُكر اللهُ وَجِلَت قلوبُهم والصابرينَ على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وممَّا رزقناهم ينفقون** ﴾ [الحج : ٣٥] . وقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أُولٰئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ [هود : ٢٣] .

كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى الربيع بن خثيم - رحمه الله - يقول له : ﴿ **وبشِّر المخبتين** ﴾ . وكان رضي الله عنه يقول له أيضًا : « أمَا والله لو رآك محمدٌ ﷺ يا ربيع ؛ لفرح بك » .

« و (الْخَبْت) في أصل اللغة : المكان المنخفض من الأرض . وبه فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظ : ﴿ **المخبتين** ﴾ وقالا : هم المتواضعون . وقال مجاهد : المخبت : المطمئن إلى الله عز وجل . قال : والخبت : المكان المطمئن من الأرض . وقال الأخفش : الخاشعون . وقال إبراهيم النخعي : المصَلُّون المخلصون . وقال الكلبي : هم الرقيقة قلوبهم . وقال عمرو بن أوس : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظُلموا لم ينتصروا .

وهذه الأقوال تدور على معنيين : التواضع ، والسكون إلى الله عز وجل . ولذلك عُدِّي بإلى ؛ تضمينًا لمعنى الطمأنينة ، والإنابة والسكون إلى الله .

قال صاحب المنازل : « هو من أول مقامات الطمأنينة » ؛ كالسكينة ، واليقين ، والثقة بالله ونحوها . فالإخبات : مقدمتها ومبدؤها .

قال : « وهو ورود المأمَنِ من الرجوع والتردُّد » .

لما كان « الإخبات » أول مقام يتخلَّص فيه السالك من التردُّد - الذي

هو نوع غفلة وإعراض - والسالك مسافر إلى ربِّه ، سائر إليه على مدى أنفاسه ، لا ينتهـي مسيره إليه ما دام نَفَسُه يصحبه - شَبَّه حصول الإخبات له بالماء العذب الذي يَرِدُه المسافر على ظمأ وحاجة في أول مناهله ؛ فيرويه مورده ، ويزيل عنه خواطر تردُّده في إتمام سفره ، أو رجوعه إلى وطنه لمشقة السفر . فإذا ورد ذلك الماء زال عنه التردُّد ، وخاطِرُ الرجوع . كذلك السالك إذا ورد مورد « الإخبات » تخلَّص من التردُّد والرجوع ، ونزل أول منازل الطمأنينة بسفره ، وجَدَّ في السير .

درجات الإخبات :

قال شيخ الإسلام الهروي : وهو على ثلاث درجات :

« **الدرجة الأولى : أن تستغرق العصمةُ الشهوةَ ، وتستدرك الإرادةُ الغفلةَ ، ويستهوي الطلبُ السلوةَ** » :

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » - شارحًا هذه الدرجة -: المريد السالك ؛ تعرض له غفلةٌ عن مراده ، تُضعِف إرادته . وشهوةٌ تُعارض إرادته ، فتصده عن مراده . ورجوعٌ عن مراده ، وسلوة عنه .

فهذه الدرجة من الإخبات تحميه عن هذه الثلاثة ؛ **فتستغرق عصمتُه شهوتَه** : و « العصمة » : هي الحماية والحفظ . و « الشهوة » : الميل إلى مطالب النفس . والاستغراق للشيء : الاحتواء عليه والإحاطة به .

يقول : تغلب عصمتُه شهوتَه وتقهرها ، وتستوفي جميعَ أجزائها ؛ فإذا استوفت العصمة جميع أجزاء الشهوة ، فذلك دليلٌ على إخباته ودخوله في مقام الطمأنينة ، ونزوله أول منازلها ، وخلاصه في هذا المنزل من تردُّد الخواطر بين الإقبال والإدبار ، والرجوع والعزم ، إلى الاستقامة والعزمِ الجازم ، والجدُّ في السير . وذلك علامة السكينة .

وتستدرك إرادتُه غفلته : و « الإرادة » عند القوم : هي اسم لأول منازل القاصدين إلى الله . و « المريد » : هو الذي خرج من وطن طبعه ونفسه ، وأخذ في السفر إلى الله ، والدار الآخرة . فإذا نزل في منزل « الإخبات » أحاطت إرادته بغفلته فاستدركها ، واستدرك بها فارطها .

وأمّا استهواء طلبه لسلوته : **فهو قهْر** محبته لسلوته ، وغلبتها له ؛ بحيث تهوي السلوة وتسقط ، كالذي يهوي في بئر . وهذا علامة المحبة الصادقة : أن تقهر فيه وارد السلوة ، وتدفنها في هُوَّة لا تحيا بعدها أبدًا .

فالحاصل : أن عصمته وحمايته تقهر شهوته ، وإرادته تقهر غفلته ، ومحبته تقهر سلوته .

« الدرجة الثانية : أن لا ينقض إرادتَه سببٌ ، ولا يُوحش قلبَه عارضٌ ، ولا يقطع عليه الطريق فتنةٌ » :

قال شيخ الإسلام ابن القيم : هذه ثلاثة أمور أخرى تعرض لصادق الإرادة : سبب يعرض له ينقض عزمه وإرادته . ووحشة تعرض له في طريق طلبه ، ولا سيما عند تفرُّده . وفتنة تخرج عليه ، تقصد قطْع الطريق عليه .

فإذا تمكَّن من منزل « الإخبات » اندفعت عنه هذه الآفات ؛ لأن إرادته إذا قويت ، وَجَدَّ به السير ؛ لم ينقضها سبب من أسباب التخلُّف .

و « **النقض** » : هو الرجوع عن إرادته ، والعدول عن جهة سفره .

ولا يوحش أنسه بالله في طريقه عارض من العوارض الشواغل للقلب ، والجواذب له عمن هو متوجِّه إليه .

و « **العارض** » : هو المخالف . كالشيء الذي يعترضك في طريقك ، فيجيء في عرضها . ومن أقوى هذه العوارض عارض وحشة التفرُّد ، فلا يلتفت إليه ، كما قال بعض الصادقين : انفرادك في طريق طلبك ؛ دليل على صدق الطلب . وقال آخر : لا تستوحش في طريقك من قِلَّة السالكين ، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين.

وأما « الفتنة » التي تقطع عليه الطريق : **فهي** الواردات التي ترد على القلوب ، تمنعها من مطالعة الحق وقصده . فإذا تمكَّن من منزل « الإخبات » وصحَّة الإرادة والطلب ، لم يطمع فيه عارض الفتنة .

وهذه العزائم لا تصحُّ إلا لمن أشرق على قلبه أنوارُ آثارِ الأسماء والصفات ، وتجلَّت عليه معانيها ، وكافَحَ قلبَه حقيقةُ اليقين بها .

وقد قيل : من أخذ العلم من عين العلم ثبت ، ومن أخذه من جريانه أخذته أمواج الشُّبَه ومالت به العبارات ، واختلفت عليه الأقوال .

قال : « **الدرجة الثالثة : أن يستوي عنده المدح والذم ، وتدوم لائِمتُه لنفسه ، ويعمَى عن نقصان الخلق عن درجته** » :

اعلم أنه متى استقرَّت قدم العبد في منزلة « الإخبات » ، وتمكَّن فيها ؛ ارتفعت هِمَّته ، وعَلَت نفسه عن خطفات المدح والذم ؛ فلا يفرح بمدح الناس ، ولا يحزن لذمِّهم . هذا وصف من خرج عن حظِّ نفسه ، وتأهَّل للفناء في عبودية ربِّه ، وصار قلبه مَطْرَحًا لأشعة أنوار الأسماء والصفات ، وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه .

والوقوف عند مدْح الناس وذمهم علامة انقطاع القلب وخلُوِّه من الله وأنه لم تباشره روح محبّته ومعرفته ، ولم يَذُق حلاوة التعلّق به والطمأنينة إليه .

وأما قوله : « **وأن تدوم لائمته لنفسه** » : **فهو** أن صاحب هذا المنزل لا يرضى عن نفسه ، وهو مُبغِضٌ لها مُتمنٍّ لمفارقتها .

والمراد بالنفس عند القوم : ما كان معلولًا من أوصاف العبد ، مذمومًا من أخلاقه وأفعاله . سواء كان ذلك كَسْبيًّا أو خَلْقيًّا ؛ فهو شديد اللائمة لها . وهذا أحد التأويلَيْن في قوله تعالى : ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾ [القيامة : ٢] . قال سعيد بن جبير وعكرمة : تلوم على الخير والشر ، ولا تصبر على السـرَّاء ،

ولا على الضرَّاء .

وقال قتادة : اللوامة : هي الفاجرة .

وقال مجاهد : تندم على ما فات ، وتقول : لو فعلتُ ، ولو لم أفعل .

وقال الفراء : ليس من نفس بَرَّةٍ ولا فاجرةٍ إلا وهي تلوم نفسها ؛ إن كانت عملت خيرًا قالت : هَلَّا زدت ؟ وإن عملت شرًّا قالت : ليتني لم أفعل .

وقال الحسن : هي النفس المؤمنة ، إن المؤمن - والله - ما تراه إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلمة كذا ؟ ما أردتُ بأكلة كذا ؟ ما أردت بكذا ؟ ما أردتُ بكذا ؟ ، وإن الفاجر يمضي قُدُمًا قُدُمًا ، ولا يُحاسب نفْسه ولا يُعاتبها .

وقال مقاتل : هي النفس الكافرة ، تلوم نفسها في الآخرة على ما فرَّطت في أمر الله في الدنيا .

والقصد : أنَّ مَن بذل نفسه لله بصدْقٍ كره بقاءه معها ؛ لأنه يريد أن يتقبلَها مَنْ بُذِلت له ، ولأنه قد قَرَّبها له قُرباناً . ومَن قَرَّب قُرْبانًا فتُقُبِّل منه ، ليس كمن رُدَّ عليه قربانه ؛ فبقاء نفسه معه دليل على أنه لم يُتقبَّل قربانه .

وأيضًا فإنه من قواعد القوم المجمَع عليها بينهم ، التي اتفقت كلمة أولهم وآخرهم ، ومحقِّهم ومُبْطِلِهم عليها : أن النفس حجابٌ بين العبد وبين الله ، وأنه لا يصل إلى الله حتى يقطع هذا الحجاب ، كما قال أبو يزيد : رأيتُ ربَّ العِزَّة في المنام ، فقلت : يا رب ، كيف الطريق إليك ؟ فقال : خَلِّ نفسك وتعال .

فالنفس جبل عظيم شاقٌّ في طريق السير إلى الله عز وجل ، وكُلُّ سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل ، فلا بد أن ينتهي إليه ، ولكن منهم من هو شاق عليه ، ومنهم من هو سَهل عليه ، وإنه ليسير على مَن يسَّره الله عليه .

وفي ذلك الجبل أوديةٌ وشعوب ، وعقباتٌ ووهود ، وشوكٌ وعوسج ، وعُلَّيقٌ وشِبْرق ، ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين ولا سيما أهل الليل

المدلجين ؛ فإذا لم يكن معهم عُدَدُ الإيمان ، ومصابيح اليقين تتَّقد بزيت الإخبات ؛ وإلَّا تعلَّقت بهم تلك الموانع ، وتشبَّثت بهم تلك القواطع ، وحالت بينهم وبين السير ؛ فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم ، لمَّا عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته . والشيطان على قُلّة ذلك الجبل ، يحذِّر الناس من صعوده وارتفاعه ، ويخوِّفهم منه . فيتَّفق مشقة الصعود ، وقعود ذلك المخوِّف على قُلّته ، وضعْف عزيمة السائر ونيَّته ؛ فيتولد من ذلك : الانقطاع والرجوع . والمعصوم مَن عصمه الله .

وكلّما رقي السائر في ذلك الجبل ؛ اشتدَّ به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه ، فإذا قطعه وبلغ قُلَّته ؛ انقلبت تلك المخاوف كلّهن أمانًا . وحينئذ يَسهُل السير ، وتزول عنه عوارض الطريق ومشقَّة عقباتها ، ويرى طريقًا واسعًا . آمنًا يُفضي به إلى المنازل والمناهل ، وعليه الأعلام ، وفيه الإقامات قد أُعدَّت لركْب الرحمن .

فبين العبد وبين السعادة والفلاح : قُوَّة عزيمة ، وصبر ساعة ، وشجاعة نفس، وثبات قلب. والفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قال ابن القيم : وقوله : « ويعمى عن نقصان الخلق عن درجته » :

يعني أنه وإن كان أعلى ممَّن هو دونه من الناقصين عن درجته ، إلَّا أنه لاشتغاله بالله ، وامتلاء قلبه من محبَّته ومعرفته ، والإقبال عليه ؛ يشتغل به عن ملاحظة حال غيره ، وعن شهود النسبة بين حاله وأحوال الناس ، ويرى اشتغاله بذلك والتفاته إليه نزولًا عن مقامه ، وانحطاطًا عن درجته ، ورجوعًا على عقبيه .

فإن هجم عليه ذلك بغير استدعاء واختيار ، فليُداوِه بشهود المِنَّة ، وخوْف المكْر ، وعدم علمه بالعاقبة التي يوافي عليها . والله المستعان »[1] .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣ - ٨ .

الفصل السادس عشر

عُلُـــوُّ الهِمَّــةِ

فـــي

التَّـــوَاضُـــعِ

« إنَّكم لَتَغْفِلون أفضل العبادة : التواضع »

[أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها]

« لنْ يبلغَ العبدُ ذُرى الإيمان حتى يكون التواضعُ أحبَّ إليه من الشَّرَف »

[معاذ بن جبل رضي الله عنه]

□ عُلُوُّ الهِمَّة في التواضُع □

اعلم يا أخي أنَّ الكِبْر والعُجْب داءَانِ مُهْلكان ، والمتكبِّر والمعجب سقيمان مريضان ، وهما عند الله ممقوتان بغيضان .

والله عز وجلَّ الجبار المتكبِّر العلي الذي لا يَضَعُه عن مجْدِه واضِع ، الجبّار الذي كلُّ جبَّار له ذليل خاضع ، وكل متكبِّر في جَناب عِزِّه ، مسكين متواضع ، هو القهَّار الذي لا يدفعه عن مراده دافع ، الغني الذي ليس له شريك ولا مُنازِع ، القادر الذي بَهَر أبصار الخلائق جلالُه وبهاؤه ، وقهَر العرْش المجيد استواؤه واستعلاؤه ، وحصر ألسنَ الأنبياءِ وصفُه وثناؤه ، وارتفع عن حدِّ قدرتِهم إحصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجْز عن وصف كنْهِ جلاله ملائكتُه وأنبياؤه ، وكسر ظهورَ الأكاسرة عزُّه وعلاؤه ، وقصر أيديَ القياصرة عظمتُه وكبرياؤه ، فالعظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه ، ومَن نازعه فيهما قصَمَه بداءِ الموت ، فأعجز دواؤه .

وقد أمر الله نبيه ﷺ بالتواضُع لمن آمن به من المؤمنين ؛ فقال عز وجل : ﴿ **واخفضْ جَناحَك لِمَنِ اتَّبعك من المؤمنين** ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

قال أبو حيان : « من اتبعك مؤمنًا فتواضَعْ له »[١] .

وقال الإمام القرطبي : « أي أَلِنْ جانبك لمن آمن بك ، وتواضع لهم »[٢] .

« ورسولنا ﷺ كان يقول : « اللهمَّ أحْيني مسكينًا ، وأمتْني مسكينًا

---

(١) تفسير البحر المحيط ٤٦/٧ .

(٢) تفسير القرطبي صـ ٣٦٧٣ – طبعة : الشعب .

واحشرني في زمرة المساكين »[١] . تنويهًا بشرَف هذا المقام وفضله »[٢] .

قال ابن الأثير : « أراد به التواضع والإخبات ، وأن لا يكون من الجبَّارين المتكبِّرين »[٣] .

قال ابن تيمية : « فالمسكين المحمود هو المتواضع الخاشع لله ، ليس المراد بالمسكنة عدم المال ، بل قد يكون الرجل فقيرًا من المال وهو جبَّار .. فالمسْكَنة خُلُق في النفس ، وهو التواضُع والخشوع ، واللِّين ضدُّ الكبر ، كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ وبرًّا بوالدتي ولم يجعلْني جبَّارًا شقيًّا﴾ » [مريم: ٣٢][٤] .

وقال السبكي مخبرًا عن والده : « وكان رحمه الله يقول في قوله ﷺ : « اللهم أحيني مسكينًا » : إن المراد به استكانةُ القلب »[٥] .

فمن استكان قلبُه لله عز وجل وانكسَر له ، وتواضع لجلاله وكبريائه ، وعظمته وخشيته ، ومحبته ومهابته - جبره الله .

---

(١) حسن : أخرجه الترمذي ، والبيهقي في سننه والشُّعَب عن أنس ، وأخرجه ابن ماجه وعبد بن حُميد في مسنده ، والرافعي في « تاريخ قزوين » ، والخطيب في تاريخه ، وأبو بكر بن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري ، والطبراني في « الدعاء » ، وابن عدي في الكامل ، وأخرجه تمَّام في « فوائده » ، عن عبادة بن الصامت، والشيرازي في « الألقاب » عن ابن عباس .
وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٣٠٨ ، ثم رجع عن تصحيحه واكتفى بتحسينه فقط في إرواء الغليل ٣/٣٦٣ .
وحسَّنه تلميذه النجيب علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي في « التعليقة الأمنية » ، في طُرق حديث : « اللهم أحيني مسكينًا » - مكتبة : ابن القيم . المدينة المنورة .

(٢) الخشوع في الصلاة لابن رجب صـ١٠ .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/٣٨٥ .

(٤) مجموع الفتاوى ١٨/٣٨٢ .

(٥) طبقات الشافعية ٣/١٣٤ .

ومدَحَ اللهُ عبادَه عبادَ الرحمن ، وجعل أول صفاتهم التواضع ؛ فقال تعالى : ﴿ **وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

قال ابن القيم في « المدارج » (٣٢٧/٢) : « أي سكينة ووقارًا متواضعين ، غير أشِرِين ولا مرحين ولا متكبِّرين . قال الحسن : علماء حلماء . وقال محمد ابن الحنفية : أصحاب وقار وعفَّة لا يسفهون ، وإن سُفِه عليهم حلموا .

والهَوْن - بالفتح - في اللغة : الرفْق واللِّين ، والهُون - بالضّم -: الهَوَان . فالمفتوح منه : صفة أهل الإيمان ، والمضموم : صفة أهل الكفران . وجزاؤهم من الله النيران » .

قال ابن كثير في تفسيره عن هذه الآية : « أي بسكينة ووقار ، من غير جبرية ولا استكبار » .

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي : « ذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ، ونعوتهم أفضل النعوت ، فوصفهم بأنهم ﴿ **يمشون على الأرض هونًا** ﴾ أي ساكنين متواضعين لله وللخلق ، فهذا وصْف لهم بالوقار والسكينة ، والتواضع لله ولعباده »[١] .

والتواضع علامة حبِّ الله للعبد :

قال تعالى : ﴿ **يأيُّها الذين آمنوا مَن يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه أذلّة على المؤمنين أعزَّة على الكافرين** ... ﴾ الآية [المائدة : ٥٤] .

قال ابن كثير: «هذه صفات المؤمنين الكُمَّل؛ أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليِّه ، متعزِّزًا على خصمه وعدوِّه »[٢] .

---

(١) تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ٤٩٣/٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ٧٣/٢ .

وقال ابن القيم : « لما كان الذلُّ منهم ذُلَّ رحمة وعطف وشفقة وإخبات ، عدّاه بأداة « على » تضمينًا لمعاني هذه الأفعال ؛ فإنه لم يُرد به ذل الهوان الذي صاحِبُه ذليل، وإنما هو ذلُّ اللِّين والانقياد الذي صاحبُه ذلول، فالمؤْمن ذَلُولٌ، كما في الحديث: «المؤمن كالجمل الذَّلُول، والمنافق والفاسق ذليل». وأربعة يعشقهم الذلُّ أشدَّ العشْقِ : الكذَّاب ، والنمَّام ، والبخيل ، والجبَّار .

وقوله : ﴿ **أعزَّة على الكافرين** ﴾ : هو مِن عزَّة القوة والمنَعَة والغَلَبَة . قال عطاء رضي الله عنه: «لِلْمؤمنين كالوالدِ لولده، وعلى الكافرين كالسَّبُع على فريسته » . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ **أشدَّاء على الكفار رحماءُ بينهم** ﴾ . وهذا عكس حال منْ قيل فيهم :

كِبْرًا علينا وجُبنًا عن عدوِّكُمُ لَبِئْستِ الخلَّتانِ : الكبْرُ والجبْنُ »[1]

والعلو كلُّ العلوِّ في الداريْن للمتواضعين ؛ قال تعالى : ﴿ **تلك الدارُ الآخرةُ نجعلها للذين لا يريدون عُلوًّا في الأرضِ ولا فسادًا والعاقبةُ للمتقين** ﴾ [القصص : ٨٣] .

قال ابن كثير : « يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، ﴿**الذين لا يريدون عُلوًّا في الأرض**﴾ أي ترفُّعًا على خلْق الله، وتعاظُمًا عليهم، وتجبرًا عليهم، ولا فسادًا فيهم»[2] .

وقد وردت أحاديثُ عَطِرة في التواضع في السنة المطهَّرة :

فقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله أوحى إلي: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد »[3] .

---

(١) مدارج السالكين ٣٢٧/٢ - ٣٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٢/٣ .

(٣) أخرجه مسلم وابن ماجه وأبو داود وأبو نعيم عن عياض بن حمار .

وقال ﷺ : « إنَّ الله تعالى أوحى إليَّ : أن تواضعوا ، ولا يبغي بعضُكم على بعض »[(١)] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما مِن آدميّ إلَّا في رأسه حَكَمَة[(٢)] بيد مَلَك ، فإذا تواضع قيل للمَلَك : ارفعْ حَكَمته . وإذا تكبّر قيل للملك : دعْ حَكَمتَه »[(٣)] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما استكبَر مَن أكَلَ معه خادمُه، وركب الحمارَ بالأسواق، واعتقل[(٤)] الشاةَ فحلبها »[(٥)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلّا عِزًّا ، وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله » . رواه مسلم .

قال النووي: (« وما تواضع أحدٌ لله إلَّا رفعه الله » : فيه وجهان :

أحدهما : يرفعه الله في الدنيا ، ويُثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس ، ويُجلُّ مكانَه .

والثاني : أن المراد ثوابه في الآخرة ، ورَفعْه فيها بتواضعه في الدنيا)[(٦)].

---

(١) حسن : أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، وابن ماجه عن أنس ، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٥٧٠ ، وصحيح الجامع رقم ١٧٢٢ .

(٢) الحَكَمَة : الحديدة في اللجام تكون على أنف الفرس وحَنَكِه ؛ تمنعه عن مخالفة راكبه .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، والبزار عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٥٣٥ ، وصحيح الجامع رقم ٥٥٥١ .

(٤) أي : حلبها .

(٥) حسن : رواه البخاري في الأدب المفرد ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والديلمي عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم ٢٢١٨ ؛ وصحيح الجامع رقم ٥٤٠٣ .

(٦) شرح مسلم للنووي ١٦/١٤٣ .

قال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه : وجدْنا الكَرَمَ في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع .

وقال عروة بن الورْد : التواضُع أحد مصائد الشرف ، وكلُّ نعمة محسودٌ عليها صاحبها إلّا التواضع .

وقال إبراهيم بن شيبان : الشرف في التواضع ،والعزُّ في التقوى ، والحرية في القناعة .

وقال مصعب بن الزبير : التواضع مصايد الشرف .

درجاتُ التواضُع :

قال شيخ الإسلام الهروي : وهو على ثلاث درجات :

« **الدرجة الأولى : التواضعُ للدِّين : وهو أنْ لا يُعارضَ بمعقولٍ منقولًا ، ولا يتهم للدِّين دليلًا ، ولا يرى إلى الخلاف سبيلًا** » :

قال ابن القيم : « **التواضع للدين** » : هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ ، والاستسلام له ، والإذعان . وذلك بثلاثة أشياء :

● **الأول** : أن لا يعارض شيئًا مما جاء به بشيءٍ من المعارضات الأربعة السارية في العالم ؛ المسمَّاة بـ : المعقول ، والقياس ، والذوق ، والسياسة .

فالأول : للمنحرفين أهل الكِبْر من المتكلّمين ، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة ، وقالوا : إذا تعارَض العقل والنقل ؛ قدَّمنا العقل وعزلْنا النقل ؛ إما عزْلَ تفويض ، وإما عَزْل تأويل .

والثاني : للمتكبِّرين من المنتسبين إلى الفقه ؛ قالوا : إذا تعارض القياس والرأي والنصوص ؛ قدَّمنا القياس على النصِّ ، ولم نلتفتْ إليه .

والثالث: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوُّف والزهد . فإذا تعارض عندهم الذوْق والأمر ؛ قدموا الذوْق والحال ، ولم يعبئوا بالأمر .

والرابع : للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين . إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة ؛ قدَّموا السياسة ، و لم يلتفتوا إلى حكم الشريعة .

فهؤلاء الأربعة : هم أهل الكبر . والتواضع : التخلُّص من ذلك كلِّه .

● **الثاني** : أن لا يتهم دليلًا مِن أدلَّة الدين ، بحيث يظنُّه فاسد الدلالة ، أو ناقص الدلالة أو قاصرها ، أو أنَّ غيره كان أولى منه . ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهمْ فهْمَه ، ولْيعلمْ أن الآفة منه ، والبلية فيه ، كما قيل :

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا ... وآفتُه مِنَ الفهم السقيمِ
ولكنْ تأخذُ الأذهانُ منه ... على قدْرِ القرائحِ والفهومِ

وهكذا الواقع في الواقع حقيقة: أنه ما اتهم أحدٌ دليلًا للدِّين إلَّا وكان المتهِم هو الفاسد الذهْن، المأفون في عقله وذِهنه . فالآفة من الذهن العليل ، لا في نفس الدليل .

وإذا رأيتَ من أدلَّة الدين ما يشكُل عليك، وينبو فهمُك عنه ، فاعلمْ أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك ، وأن تحته كَنْزًا مِن كُنوز العلم ، ولم تُؤْتَ مفتاحه بعدُ . هذا في حقِّ نفسك .

وأما بالنسبة إلى غيرك : فاتهمْ آراء الرجال على نصوص الوحي ، ولْيكنْ ردُّها أيسرَ شيءٍ عليك للنصوص ، فما لم تفعلْ ذلك فلستَ على شيءٍ . ولو .. ولو .. وهذا لا خلاف فيه بين العلماء .

قال الشافعي - قدَّس الله روحه -: أجمع المسلمون على أن مَنِ استبانت له سنة رسول الله ﷺ ؛ لم يحلَّ له أن يدَعَها لقول أحد .

● **الثالث** : أن لا يجد إلى خلاف النصِّ سبيلًا ألبتة ؛ لا بباطنه ولا بلسانه ، ولا بفعله ولا بحاله . بل إذا أحسَّ بشيءٍ من الخلاف : فهو كخلاف الْمُقْدِمِ على الزنا وَشُرْب الخمر وقتْل النفس ، بل هذا الخلاف أعظم عند الله

من ذلك ، وهو داعٍ إلى النفاق ، وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم.

واعلمْ أن المخالف للنصِّ لقول متبوعه وشيخه وَمُقَلَّده ، أو لرأيه ومعقوله وذوْقه وسياسته ؛ إن كان عند الله معذورًا - ولا والله ما هو بمعذور - فالمخالف لقوله لنصوص الوحْي أولى بالعُذْر عند الله ، ورسوله ، وملائكته ، والمؤمنين من عباده .

فواعجبًا إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذْر مَن خالفها تقليدًا ، أو تأويلًا ، أو لغير ذلك !! فكيف ضاق عن عذْر مَن خالف أقوالهم ، وأقوال شيوخهم لأجل موافقة النصوص ؟! وكيف نصبوا له الحبائل، وبغوه الغوائل ، ورموه بالعظائم ، وجعلوه أسوأ حالًا من أرباب الجرائم ، فرموه بدائهم وانسلُّوا منه لِوَاذًا ، وقذفوه بمصابهم وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذًا لهم ومعاذًا ؟! والله أعلم .

قال : « ولا يصحُّ ذلك إلا بأن يعلم أن النجاة في البصيرة والاستقامة بعد الثقة ، وأن البينة وراء الحجَّة » .

يقول : إنَّ ما ذكرناه من التواضع للدين : بهذه الأمور الثلاثة :

الأول : علْمُه أن النجاة من الشقاء والضلال ، إنما هي في البصيرة ؛ فمن لا بصيرة له : فهو مِن أهل الضلال في الدنيا والشقاء في الآخرة .

والبصيرة نور يجعلُه الله في عيْن القلب ، يفرِّق به العبد بين الحقِّ والباطل ، ونسبته إلى القلب : كنسبة ضوء العيْن إلى العيْن .

وهذه « البصيرة » وهبية وكسبية ؛ فمن أدار النظر في أعلام الحقِّ وأدلَّته ، وتجرَّد لله من هواه ؛ استنارت بصيرته ، ورُزق فرقانًا يفرِّق به بين الحق والباطل .

الثاني : أنْ يعلم أنَّ الاستقامة إنما تكون بعد الثقة ؛ أي لا يتصوَّر حصول الاستقامة في القول والعمل والحال ، إلّا بعد الثقة بصحَّة ما معه مِن العلم . وأنه

مُقتبَس من مشكاة النبوة . ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة .

الثالث : أن يعلم أن البينة وراء الحجَّة ؛ و « البينة » مراده بها : استبانة الحقِّ وظهوره ، وهذا إنما يكون بعد الحجة إذا قامتْ استبان الحق وظهر واتضح .

وفيه معنًى آخر ، وهو : أن العبد إذا قبل حجَّة الله بمحْض الإيمان والتسليم والانقياد ؛ كان هذا القبول هو سبب تبيُّنها وظهورها وانكشافها لقلبه . فلا يصبر على بينة ربِّه إلَّا بعد قبول حُجَّته .

وفيه معنًى آخر أيضًا : أنه لا يتبيّن له عيب عمله مِن صحَّته إلَّا بعد العلم الذي هو حجَّة الله على العبد ، فإذا عرف الحجَّة اتضح له بها ما كان مشْكَلًا عليه من علومه ، وما كان معيبًا من أعماله .

وفيه معنًى آخر أيضًا : وهو أن يكون « وراء » بمعنى أمام ؛ والمعنى : أن الحجَّة إنما تحصل للعبد بعد تبينها ، فإذا لم تتبيَّن له لم تكن له حجَّة ؛ يعني فلا يقنع من الحجة بمجرَّد حصولها بلا تبيُّن؛ فإن التبيُّن أمام الحجة. والله أعلم .

الدرجة الثانية : « أنْ ترضي بما رضيَ الحقُّ به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا ، وأن لا تردَّ على عدوِّك حقًّا ، وأن تقبلَ من المعتذِر معاذيره » :

قال شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله : « يقول : إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا ، أفلا ترضى أنت به أخًا ؟! فعدم رضاك به أخًا – وقد رضيه سيِّدك الذي أنت عبدُه ، عبدًا لنفسه – عيْنُ الكِبْر . وأيُّ قبيح أقبح من تكبُّر العبد على عبد مثله ، لا يرضى بأخوته ، وسيده راض بعبوديته ؟!

فيجيء من هذا : أن المتكبِّر غيرُ راضٍ بعبودية سيِّده ؛ إذ عبوديته تُوجب رضاه بأخوَّة عبدِه ، وهذا شأن عبيد الملوك ؛ فإنهم يرون بعضهم خُشْداشيةَ بعضٍ ، ومَن ترفَّع منهم عن ذلك ؛ لم يكن مِن عبيد أستاذهم .

قوله : « وأن لا تردَّ على عدوِّك حقًّا » : أي لا تصحّ لك درجة « التواضع » حتى تَقبلَ الحق ممَّن تحبُّ وممَّن تُبغض ، فتقبله من عدوِّك كما تقبله من وليِّك ، وإذا لم تردَّ عليه حقّه ، فكيف تمنعه حقًّا له قِبَلَك ؟! بل حقيقة «التواضع»: أنه إذا جاءك قَبِلْتَه منه، وإذا كان له عليك حقٌّ أدَّيتَه إليه، فلا تمنعك عداوته من قبول حقِّه، ولا من إتيانه إياه .

وأمَّا « قبولك من المعتذر معاذيره » : فمعناه : أن من أساء إليك ، ثم جاء يعتذر من إساءته ؛ فإن « التواضُع » يوجب عليك قبول معذرته ، حقًّا كانت أو باطلًا ، وتكِلُ سريرته إلى الله تعالى ، كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلَّفوا عنه في الغزو، فلمَّا قَدِم جاءوا يعتذرون إليه ؛ فقبل أعذارهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى .

وعلامة الكرم والتواضع : أنك إذا رأيتَ الخلَلَ في عذْره لا تُوقفْه عليه ولا تحاجَّه ، وقل : يمكن أن يكون الأمرُ كما تقول . ولو قضي شيءٌ لَكَان ، والمقدور لا مدفع له . ونحو ذلك » .

الدرجة الثالثة : « أن تَتَّضعَ للحقِّ ، فتنزل عن رأيك وعوائدك في الخدمة ، ورؤية حقِّك في الصحْبة ، وعن رَسْمك في المشاهدة » :

قال ابن القيم رحمه الله : « يقول : « التواضع » بأن تخدم الحقَّ سبحانه وتعبده بما أمرك به ، على مقتضى أمره لا على ما تراه من رأيك ، ولا يكون الباعث لك داعي العادة ، كما هو باعث مَن لا بصيرة له ، غير أنه اعتاد أمرًا فجرى عليه ، ولو اعتاد ضدَّه لكان كذلك .

وحاصلُه : أنه لا يكون باعثه على العبودية مجرَّد رأي ، وموافقة هوى ، ومحبة وعادة . بل الباعث مجرَّد الأمر ، والرأيُ والمحبَّة والهوى والعوائد : منفذة تابعة ، لا أنها مطاعة باعثة . وهذه نكتة لا يتنبَّه لها إلّا أهلُ البصائر .

وأما : « نزوله عن رؤية حقّه في الصحبة » : فمعناه : أن لا يرىٰ لنفسه حقًّا على الله لأجل عمله ؛ فإن صحبته مع الله : بالعبودية والفقر المحْض ، والذل والانكسار. فمتى رأى لنفسه عليه حقًّا فسدت الصحبة، وصارت معلولة وخِيف منها المقت ، ولا ينافي هذا ما أحقَّه سبحانه على نفسه ، من إثابة عابديه وإكرامهم ؛ فإن ذلك حقٌّ أحقَّه على نفسه بمحْض كرمه وبرِّه وجوده وإحسانه ، لا باستحقاق العبيد ، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم .

فعليك بالفرقان في هذا الموضع الذي هو مفترَق الطرق . والناس فيه ثلاث فرق : فرقة رأت أن العبد أقلّ وأعجز من أن يُوجب على ربِّه حقًّا . فقالت : لا يجب على الله شيء ألبتة . وأنكرت وجوبَ ما أوجب على نفسه .

وفرقة رأت أنه سبحانه أوجب على نفسه أمورًا لعبده ، فظنَّت أن العبد أوجبها عليه بأعماله ، وأن أعماله كانت سببًا لهذا الإيجاب . والفرقتان غالطتان .

والفرقة الثالثة : أهل الهدى والصواب ، قالت : لا يستوجب العبد على الله بسعْيه نجاة ولا فلاحًا . ولا يُدخل أحدًا عملُه الجنة أبدًا ، ولا يُنجيه من النار . والله تعالى - بفضله وكرمه ، ومحض جوده وإحسانه - أكد إحسانه وجوده وبرَّه بأنْ أوجب لعبده عليه سبحانه حقًّا بمقتضى الوعد ؛ فإن وعْد الكريم إيجاب ، ولو بـ « عسىٰ ، ولعلَّ » .

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : « عسى » : من الله واجب .
ووعْد اللئيم خلْف ، ولو اقترن به العهد والحلف .

والمقصود : أن عدم رؤية العبد لنفسه حقًّا على الله ، لا ينافي ما أوجبه الله على نفسه ، وجعله حقًّا لعبده ، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : « يا معاذ ، أتدري ما حقُّ الله على العباد ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . قال:« حقه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا . يا معاذ ، أتدري ما حقُّ

العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » . قلتُ : الله ورسوله أعلم . قال : « حقُّهم عليه أن لا يعذبهم بالنار » .

فالربُّ سبحانه ما لأحدٍ عليه حقٌّ . ولا يضيع لديه سعي ، كما قيل :

ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبُ   كلا ولا سعْي لديهِ ضائِعُ
إن عُذِّبوا فبعدْله أو نُعموا   فبفضله وهو الكريمُ الواسِعُ

وأما قوله : « وتنزل عن رسْمك في المشاهدة » :

أي من جملة التواضع للحق : فَناؤك عن نفسك ؛ فإن رسْمه هي نفسه ، والنزول عنها : فَناؤه عنها حين شهوده الحضرة ، وهذا النزول يصحُّ أن يُقال : كسبيٌّ باعتبار ، وإن كان عند القوم غير كسبي ؛ لأنه يحصل عند التجلي ، والتجلي نور ، والنور يقهر الظلمة ويبطلها ، والرسم عند القوم ظلمة ، فهي تنفر من النور بالذات ، فصار النزول عن الرسْم حين التجلى ذاتيًّا .

ووجه كونه كسبيًّا : أنه نتيجة المقامات الكسبية ، ونتيجة الكسبي : كسبيّ .

وثمرته ، وإن حصلت ضرورة بالذات : لم يمتنع أن يُطلق عليها : كونها كسبية باعتبار السبب . والله أعلم » .

عُلُوُّ همَّة سيِّدِ ولدِ آدمَ ﷺ في التواضع :

لقد كان رسول الله ﷺ أشدَّ الناس تواضعًا ؛ ويَبرز ذلك واضحًا جليًّا في :

تواضُعه مع ربِّه عزَّ وجل :

لقد اختار رسول الله ﷺ أن يكون عبدًا رسولًا عن أن يكون ملِكًا نبيًّا ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جلس جبريل إلى النبي ﷺ ، فنظر إلى السماء فإذا مَلَك ينزِل ، فقال جبريل : إن هذا المَلَكَ ما نزل منذ يوم خُلِق قبل الساعةِ ، فلمّا نزل قال : يا محمد ، أرسَلني إليك ربُّك قال : أفمَلِكًا نبيًّا

يجعلك ، أو عبدًا رسولًا ؟ قال جبريل : تواضَعْ لربِّك يا محمد . قال : « بل عبدًا رسولًا »[(١)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، لو شئتُ لسارتْ معي جبال الذهب ، جاءني مَلَكٌ ، إنَّ حُجْزته لتُساوي الكعبةَ ، فقال : إن ربَّك يقرأ عليك السلام ويقول : إنْ شئتَ نبيًّا عبدًا ، وإن شئتَ نبيًّا ملِكًا . فنظرت إلى جبريل عليه السلام ، فأشار إليَّ أن ضعْ نفسك . قال : فقلتُ : نبيًّا عبدًا . قالت : وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا، يقول : آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد »[(٢)] .

تواضعه ﷺ مع الناس :

عن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ « كان يمرُّ على الصبيان فيسلِّم عليهم »[(٣)] .

وعن جرير رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ : « كان يمرُّ بنساءٍ فيسلِّم عليهنَّ »[(٤)] .

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : « كانت الأَمَة تأخذ بيده ﷺ ، فتنطلق به حيث شاءت »[(٥)] .

---

(١) صحيح : قال الهيثمي في المجمع ٩/١٩ : « رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأوَّلَيْن رجال الصحيح ، ورواه أبو يعلى بإسناد حسن » .

(٢) صحيح لغيره : رواه البغوي في شرح السنة .

(٣) رواه البخاري ومسلم والدارمي .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن جرير ، وأخرجه ابن السني ، والطبراني في الكبير ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود والترمذي عن أسماء الأنصارية وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٨٩١) .

(٥) رواه البخاري .

وعن أنس رضي الله عنه : أنَّ امرأةً جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له : إن لي إليك حاجة . فقال : « يا أُمَّ فلان ، اجلسي في أي طُرُق المدينة شئْتِ ، أجلسْ إليك »[١] .

وفي رواية لمسلم : « فخلا معها في بعض الطريق حتى فرغت من حاجتها » .

وعن سهل بن حنيف قال : «كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاءَ المسلمين ويزورهم ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنائزهم »[٢] .

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : « كان ﷺ يُردِف خلفه ، ويضع طعامه على الأرض ، ويُجيب دعوة المملوك ويركب الحمار »[٣] .

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال : كان ﷺ يركب الحمار ، ويخصف النعل ويرقع القميص ، ويلبس الصوف ، ويقول : « مَن رغِب عن سنتي فليس مني »[٤] .

عن الحسن البصري رحمه الله أنه ذُكر رسول الله ﷺ فقال : « لا والله ، ما كانت تُغلق دونه الأبواب ، ولا يقوم دونه الحجاب ، ولا يُغدى عليه بالجِفان ، ولا يروح عليه بها ، ولكنه كان بارزًا ، من أراد أن يلقى نبيَّ الله لقيَه ، وكان يجلس بالأرض ، ويُوضع طعامُه بالأرض ، يلبس الغليظ ، ويركب الحمار ، ويُردِف عبدَه ويَعلِف دابَّته بيده »[٥] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) صحيح : رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٢١١٢ .

(٣) صحيح : رواه الحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١٢٥ .

(٤) حسن : أخرجه ابن عساكر عن أبي أيوب ، وأخرجه أبو الشيخ ، والسهمي وابن سعد عن الحسن البصري مرسلًا ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٨٢٢ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٢١٣ .

(٥) صفة الصفوة ١/١٦٨ - ١٦٩ .

وعن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ « كان يزور الأنصار ، ويسلِّم على صبيانهم ، ويمسح رؤوسهم »[(١)] .

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال : إنْ كان رسول الله ﷺ لَيُخالطنا حتى يقول لأخٍ لي صغير : « يا أبا عُمير ، ما فعَل النُّغَيْر ؟ »[(٢)] .

وفي رواية البخاري : كان أحسن الناس خلقًا ، وكان لي أخٌ يُقال له : أبو عُمير، وهو فطيم، كان إذا جاءَنا قال: « يا أبا عُمير ، ما فعل النُّغَيْر ؟ » . لنُغر كان يلعب به .

وعن أنس رضي الله عنه قال : لم يكن شخص أحبَّ إليهم من رسول الله ﷺ ، قال : وكانوا إذا رأوه لم يقوموا ؛ لما يعلمون من كراهته لذلك[(٣)] .

وعن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ « كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه ، قام معه فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه ، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ، ناوله إياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه ، وإذا لقي أحدًا من أصحابه فتناول أذنه ، ناوله إياها ، ثم لم ينزعْها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه »[(٤)] .

وعن ابن أبي أوفى رضي الله عنه ، أنه ﷺ « كان يُكثر الذكر ، ويُقلُّ اللَّغْوَ ، ويُطيل الصلاة ويقصر الخطبة ، وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد ، حتى يقضي له حاجته »[(٥)] .

---

(١) صحيح : أخرجه النسائي ، والطحاوي ، وأبو نعيم في الحلية ، والخطيب في تاريخه ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١٢٧٨ ، وصحيح الجامع رقم ٤٨٢٣ .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي واللفظ له ، وأبو عمير : أخٌ لأمٍّ لأنس ، وهو ابن أبي طلحة. النُّغَيْر: تصغير النُّغَر، بضمِّ النون وفتح الغين، وهو عصفور صغير .

(٣) صحيح : رواه الترمذي والبخاري في الأدب المفرد .

(٤) حسن : أخرجه ابن سعد وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٦٥٦ .

(٥) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن ابن أبي أوفى ، والحاكم عن أبي سعيد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٨٨١ .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُطروني كما أطرتِ النصارى عيسى بن مريم ؛ إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله »(١) .

وعن أنس أنَّ رجلًا قال : يا محمد أَيَا سيدنا وابنَ سيدنا ، وخيْرنا وابنَ خيرنا ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أيُّها الناس ، عليكم بتقواكم ، ولا يستهوينَّكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، أنا عبد الله ورسوله ، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله »(٢) .

وعن جابر رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يتخلَّف في المسير ، فيزجي الضعيف ، ويردف ، ويدعو لهم »(٣) .

وعن أبي رفاعة تميم بن أُسيد رضي الله عنه ، قال : انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب ، فقلتُ : يا رسول الله ، رجل غريب جاءَ يسأل عن دينه ، لا يدري ما دينه ؟ فأقبَلَ عليَّ رسول الله ﷺ وتَرَك خطبته ، حتى انتهى إليّ ، فأُتي بكرسيٍّ حسبتُ قوائمه حديدًا ، فقعد عليه ، وجعل يعلِّمني ممَّا علَّمه الله ، ثم أتى خطبته فأتمَّ آخرها(٤) .

تواضعه معَ أهلِهِ وبيته :

عن الأسود بن يزيد قال: «سُئِلَتْ عائشة: وما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ؛ بدء الخلق ، باب قوله تعالى : ﴿ **واذكرْ في الكتاب مريم** ﴾ .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ١٥٧٢ : إسناده على شرط مسلم .

(٣) صحيح : رواه أبو داود والحاكم ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١٢٠ .

(٤) رواه مسلم .

قالت : كان يكون في مهنة أهله ، فإذا حضرتِ الصلاة ، قام إلى الصلاة »[(١)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه ، أدَمًا حَشْوه ليفٌ »[(٢)] .

وعن أبي موسى رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ، ويلبس الصوف ، ويعتقل الشاة ، ويأتي مراعاة الضيف[(٣)] .

وعن ثابت قال : أخرَجَ إلينا أنس بن مالك قدَحَ خشبٍ غليظًا مُضبَّبًا بحديد ، فقال : يا ثابت ، هذا قدَحُ رسول الله ﷺ[(٤)] .

وعن أنس قال : إنَّ خيّاطًا بالمدينة دعا النبي ﷺ لطعامه . قال : فإذا خبز شعيرٍ بإهالةٍ سنخة ، وإذا فيها قرْعٌ . قال : فرأيتُ النبي ﷺ يُعجبه القرْع . قال أنس : لم يزل يُعجبني القرْعُ منذ رأيتُ رسول الله ﷺ يُعجبه[(٥)] .

وعن عمرو بن حريث قال : رأيتُ رسول الله ﷺ يصلي في نعليْن مخصوفتين[(٦)] .

وعن أنس قال : كان ﷺ يُؤتى بالتمر فيه دُود ، فيفتِّشه ، يُخرج السُّوسَ منه[(٧)] .

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) رواه مسلم .

(٣) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، وصحّحه ووافقه الذهبي ، وتابعه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥/١٥٥ .

(٤) صحيح : رواه الترمذي في الشمائل ، وصحّحه الألباني رقم ١٦٧٦ .

(٥) سنده صحيح : رواه أحمد . والإهالة : هي مما يؤتدم به من الادِّهان . والسنخة : المتغيِّرة الرائحة .

(٦) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي في الشمائل ، واللفظ له . والنعلان المخصوفتان : أي المخروزتان أو المرقّعتان .

(٧) صحيح : رواه أبو داود وابن ماجه مختصرًا ، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١١٣ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلتُ: يا رسول الله ، الوضوءُ من جرٍّ جديد مُخمَّر ؛ أحبُّ إليك أم من المطاهر ؟ قال : « لا ، بل من المطاهر ؛ إنَّ دين الله يسْرٌ ، الحنيفيّة السَّمْحة » .

قال[1] : كان يبعث إلى المطاهر ، فيؤتى بالماءِ فيشربه ، يرجو بركة أيـدي المسلمين[2] .

وعن عبَّاد بن تميم ، عن عمِّه ؛ أنه رأى النبي ﷺ مستلقيًا في المسجد واضعًا إحدى رجليْه على الأخرى[3] .

وعن أنسٍ : أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا أكل طعامًا ، لعقَ أصابعه الثلاث[4] .

وعنه أيضًا قال : ما علمتُ النبي ﷺ أكل على سُكُرُّجة قطّ ، ولا خُبز له مرقَّق قط ، ولا أكَل على خِوان قطُّ .

قيل لقتادة : فعلامَ كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر[5] .

---

(١) أي : ابن عمر .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية ، وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١١٨ . والمطاهر ، جمع المطهرة : كلُّ إناء يتطهَّر منه ؛ كالإبريق والركوة وغيرها .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي في الشمائل واللفظ له .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه البخاري . قال الشيخ الألباني : « الخوان - بكسْر الخاء ويُضمُّ -: وهو مرتفع يهيَّأ ليُؤْكَل الطعام عليه . والسكرجة بضم السين والكاف والراء المشدَّدة المضمومة : هي إناء صغير يُوضع فيه الشيء القليل المشهي للأكل ؛ كالسلطة والمخلل . والسُّفر : جمع سفرة ، وهي أخصُّ من المائدة ، وهي ما يمدُّ ويُبْسط ليُؤكل عليه ، سواء كان من الجلد أو الثياب » . اهـ . من : مختصر الشمائل المحمدية صـ ٨٨ .

تواضع موسى عليه السلام :

قال أبو سليمان الداراني : « إن الله عز وجل اطَّلع على قلوب الآدميِّين ، فلم يجد أشدَّ تواضعًا من قلب موسى عليه السلام ، فخصَّه من بينهم بالكلام »(١) .

تواضعُ الصِّدِّيق رضي اللهُ عنه(٢) :

قال الصديق رضي الله عنه : وددتُ أني شعرةٌ في جنْب عبد مؤمن(٣) .

قال هذا رضي الله عنه وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « في « المسند » مِن وجهيْن عن النبي ﷺ : أن النبي ﷺ وُزِن بالأُمَّة فرَجَحَ ، ثم وُزِن أبو بكر بالأُمّة فرجَحَ ، ثم وُزن عمر بالأُمة فرجح »!!!(٤)

هذا الصديق العظيم الذي كان يحلب للضعفاء أغنامهم .

تواضع الفاروق رضي الله عنه :

عن حزام بن هشام ، عن أبيه ، قال : رأيتُ عمر بن الخطاب رضي اللهُ عنه مرَّ على امرأةٍ وهي تعصد عصِيدة لها، فقال: ليسَ هكذا يُعْصد. ثم أخذ المسوط فقال : هكذا . فأَرَاها(٥) .

عن أسلمَ ، قال : « قدِم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشامَ على بعير ، فجعلوا يحدِّثون بينهم ، فقال عمر : تطمح أبصارهم إلى مراكبَ مَن لا خَلاق له !! »(٦) .

---

(١) إحياء علوم الدين .

(٢) سيأتي في علو همَّة الخلفاء والملوك .

(٣) الزهد لأحمد صـ١٠٨ .

(٤) الإيمان لابن تيمية – الطبعة الثانية ، المكتب الإسلامي .

(٥) طبقات ابن سعد ، وحياة الصحابة للكاندهلوي ٢/٥٥٠ .

(٦) أخرجه ابن عساكر وابن المبارك .

يعيب عليهم أمنيتهم مراكب المتكبِّرين .

وعن محمد بن عمر المخزومي، عن أبيه قال: نادى عمر بن الخطاب: الصلاةُ جامعة . فلمَّا اجتمع الناس وكثروا صعِد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيِّه ﷺ ثم قال: أيُّها الناس، لقد رأيتُني أرعى على خالاتٍ لي من بني مخزوم ، فيقبضْنَ لي القبضة من التمر والزبيب فأظلّ يومي وأيّ يوم . ثم نزل ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين ، ما زلت على أن قمِئْتَ[1] نفْسَك ؟! فقال : ويْحَك يا ابن عوْف !! إني خلوتُ فحدَّثتْني نفسي ، فقالت : أنت أمير المؤمنين ؛ فمن ذا أفضل منك ؟! فأردتُ أن أعرِّفها نفْسها[2] .

وعن الحسن قال : خرج عمر بن الخطاب في يوم حارٍّ واضعًا رداءَه على رأسه ، فمرَّ به غلام على حمار ، فقال : يا غلام ، احملني معك . فوثب الغلام عن الحمار ، وقال اركبْ يا أمير المؤمنين . قال : لا ، اركبْ وأركبُ أنا خلفك . تريد تحملني على المكان الوطيء ، وتركبُ أنت على الموضع الخَشِن !! فركب خلف الغلام ، فدخل المدينة ، وهو خلفه والناس ينظرون إليه[3] .

« وعن أبي محذورة قال : كنت جالسًا عند عمر رضي الله عنه ، إذ جاء صفوان بن أُمَيَّة بجَفْنَة يحملها نفرٌ في عباءة، فوضعوها بين يدي عمر، فدعا عمر ناسًا مساكينَ وأرِقَّاء من أرقَّاء الناس حوْله ، فأكلوا معه ، ثم قال عند ذلك : فعَلَ الله بقوم – أو قال : لحى[4] الله قومًا – يرغبون عن أرقائهم أن

---

(١) قمئْتَ : أي : عِبْت .

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٢٩٣) .

(٣) حياة الصحابة ٢/٥٥١ .

(٤) أي : قبحهم الله ولعنهم .

يأكلوا معهم !! فقال صفوان : أمَا واللهِ ، ما نرغب عنهم ، ولكنَّا نستأثر عليهم ، لا نجد - واللهِ - من الطعام الطيِّب ما نأكل ونُطعمهم »[١] .

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما : « رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتِقِه قربة ماء ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، لا ينبغي لك هذا . فقال : لمَّا أتاني الوفود سامعين مطيعين ، دخلتْ نفْسي نخوةٌ ، فأردتُ أن أكسرها »[٢] .

وعن سنان بن سلمة الهُذلي قال : خرجتُ مع الغلمان ونحن نلتقط البلح ، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه معه الدِّرَّة، فلمَّا رآه الغِلمانُ تفرَّقوا في النَّخْل. قال : وقمتُ وفي إزاري شيءٌ قد لقطتُه ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، هذا ما تُلقي الريح . قال : فنظر إليه في إزاري فلم يضربني ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، الغلمان الآن بين يديَّ ، وسيأخذون ما معي . قال : كلا ، امشِ . قال : فجاء معي إلى أهلي[٣] .

وقسَّم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم حُلَلًا ، فبعث إلى معاذ حُلَّة ثمينة ، فباعها ، واشترى بثمنها ستة أعبد وأعتقهم ، فبلغ ذلك عمر ، فبعث إليه بعد ذلك حُلَّة دونها ، فعاتبه معاذ ، فقال عمر : لأنك بعت الأولى . فقال معاذ : وما عليك ؟! ادفع لي نصيبي ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك . فقال عمر رضي الله عنه : رأسي بين يديْك ، وقد يُرفق الشابُّ بالشيخ[٤] .

---

(١) صحيح الإسناد : رواه البخاري في الأدب المفرد ، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد صـ٩٣ : صحيح الإسناد .
(٢) مدارج السالكين ٢/٣٣٠ .
(٣) حياة الصحابة ٢/٥٥١ .
(٤) مدارج السالكين ٢/٣٣٠ .

لله درُّك يا ابن الخطاب !! فكل حياتك مواقف تعجزُ عن وصفها الكلمات .

تواضعُ ذي النوريْن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه :

عن ميمون بن مهران قال : أخبَرَني الهمداني أنه رأى عثمان بن عفان رضي الله عنه على بغلة ، وخلفه عليها غلامه نائل وهو خليفة[(١)] .

وقال أيضًا : رأيتُ عثمان نائمًا في المسجد في مِلحفة ، ليس حوْلَه أحد وهو أمير المؤمنين .

تواضع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

عن عمرو بن قيْس : أن عليًّا رضي الله عنه رُئيَ عليه إزار مرقوع ، فعُوتِب في لبوسه ، فقال : يقتدي به المؤمن ، ويخشع له القلب[(٢)] .

تواضع عبد الرحمن بن عوْف رضي الله عنه :

عن سعد بن الحسن التميمي ، قال : كان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرَف مِن بين عبيده . يعني : من التواضع في الزِّيِّ .

رضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ الذين علموا فعمِلوا .. علموا قول رسولهم ﷺ : « البذاذةُ من الإيمان »[(٣)] . والبذاذةُ: اللباسُ دون اللباس والتواضع ، ورَثَاثة الثياب في الملبس والمفرش . وقد قال ﷺ : « مَن ترك اللباس تواضعًا لله ، وهو يقدر عليه ؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ،

---

(١) الزهد لأحمد صـ١١٧ .

(٢) إسناده صحيح : أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ، وهنَّاد بن السريّ في الزهد ، وابن سعد في الطبقات ، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول .

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود وابن ماجه، والبخاري في تاريخه ، والطبراني في المعجم الكبير ، والحاكم في المستدرك وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وصحَّحه الألباني .

حتى يخيِّره من أي حُلَلِ الإيمان شاء يلبسها »[١] .

ولله درُّ القائل :

لَيسَ الجمالُ بمِئْزَرٍ ... فاعلمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

إنَّ الجمالَ معادِنٌ ... ومحاسنٌ أَوْرثنَ مجْدَا

عن نبي الله عيسى بن مريم قال : جوْدةُ الثياب خُيَلاءُ القلب .

«وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرَّة، فكان يحمل حُزْمةَ الحطب على ظهره ويقول : طرِّقوا للأمير .

وركِب زيد بن ثابت مرة ، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مَهْ يا ابن عمِّ رسول الله !! فقال : هكذا أُمِرْنا أن نفعل بكبرائنا . فقال: أَرني يدَكَ ، فأخرجها إليه فقبلها، فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ .

ومرَّ الحسن على صبيانَ معهم كِسرُ خُبز ، فاستضافوه فنزل ، فأكل معهم ثم حملهم إلى منزله ، فأطعمهم وكساهم ، وقال : اليدُ لهم . لأنهم لا يجدون شيئًا غير ما أطعموني ، ونحن نجدُ أكثر منه .

ويُذكر أن أبا ذرٍّ رضي الله عنه عَيّر بلالًا رضي الله عنه بسواده، ثم ندِم ، فألقى بنفسه ، فحلف : لا رفعت رأسي حتى يطأ بلالٌ خَدِّي بقدمه . فلم يرفع رأسه حتى فعَل بلال »[٢] .

عن فُضيل بن عياض قال : رئِيَ على سلْمَان جُبَّةٌ من صوف ، فقيل له : لو لبِستَ أليَنَ من هذا ؟ قال : إنما أنا عبد ، ألبسُ كما يلبَسُ العبد ، فإذا عُتِقْتُ لبستُ ثيابًا لا تبْلَى حواشيها[٣] .

---

(١) حسن : رواه الترمذي ، والحاكم في المستدرك عن معاذ بن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٢١ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٣٣٠ .

(٣) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا صـ١٧١ - طبع : دار الاعتصام .

وعن سلامة العجلي قال : جاء ابن أُختٍ لي من البادية ، يُقال له : قدامة ، فقال لي : أحبُّ أن ألقى سلمان الفارسي رضي الله عنه فأُسلِّم عليه ، فخرجنا إليه فوجدناه بالمدائن وهو يومئذ على عشرين ألفًا ، ووجدناه على سرير يسفُّ خوصًا ، فسلَّمنا عليه ، قلتُ : يا أبا عبد الله ، هذا ابن أخت لي قدِم عليَّ من البادية فأَحَبَّ أن يسلِّم عليك . قال : وعليه السلام ورحمة الله . قلتُ : يزعم أنه يحبُّك . قال : أحبَّه الله[1] .

وعن هريم قال : رأيتُ سلمان الفارسيَّ على حمارٍ عري ، وعليه قميص سنيلاني قصير ضيِّق الأسفل ، وكان رجلًا طويلَ الساق كثير الشَّعْر ، وقد ارتفع القميص حتى بلغ قريبًا من ركبتَيْه . قال : ورأيتُ الصبيان يحضرون خلفه ، فقلتُ : ألا تَنَحَّون عن الأمير ؟ فقال : دعهمْ ؛ فإنما الخير والشرُّ فيما بعد اليوم[2] .

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه مرَّ في السوق وعليه حزمة من حطب ، فقيل له : ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عن هذا ؟ قال : أردتُ أن أدفع الكبْرَ ؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة مَن في قلبه خردلة من كِبْرْ »[3] .

وفي الصحيح من حديث (احتجاج الجنة والنار) : « أنَّ النار قالت : ما لي لا يدخلني إلَّا الجبَّارون والمتكبِّرون ؟! وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟! » .

---

(١) حياة الصحابة ٥٥٥/٢ . ويسفُّ خوصًا : أي ينسج سَعف النخل .
انظر التواضع وأثره في حياة الأُمَّة لسيف النصر علي عيسى - مكتبة الحرمين .
(٢) حياة الصحابة ٥٥٧/٢ .
(٣) إسناده حسن : رواه الطبراني .

قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بمن تحرُم عليه النار غدًا ؟ على كلِّ هيِّن ليِّن ، قريبٍ سهل »[١] .

الصحابي الجليل عمَّار بن ياسر رضي الله عنه :

قال عبد الله بن أبي الهذيل : رأيتُ عمارًا اشترى قتًّا[٢] بدرهم ، وحَمله على ظهره وهو أمير الكوفة .

صاحب السرِّ : حذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

عن ابن سيرين: أن عمر كتب في عهد حذيفة على المدائن : « اسمعوا له وأطيعوا ، وأعطوه ما سألكم » . فخرج من عند عمر على حمار مُوكَف ، تحته زاده ؛ فلمَّا قدم استقبله الدهاقينُ وبيده رغيف ، وعَرْق من لحم[٣] .

وعن أبي رافع قال : كان مروان ربما استخلف أبا هريرة على المدينة ، فيركب حمارًا ببرذعة ، وفي رأسه خُلْبة من ليف ، فيسير ، فيلقى الرجل ؛ فيقول : الطريق ؛ قد جاء الأمير .

تواضعُ التابِعينَ ومَن بَعْدَهم :

قال طاووس : إني لأغسل ثوبيَّ هذيْن فأنكر نفسي .

وقال شيخ من همدان : بعثني قومي في الجاهلية بخَيْل أهدَوْها لذي الكلاع ،

(١) صحيح : رواه أبو يعلى عن جابر ، ورواه الترمذي ، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وأخرجه أحمد ، وابن حبان ، والطبراني في الأوسط ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٠٦ .

(٢) القت : الفصفصة ، وهي الرطبة من علف الدوابِّ . انظر الترجمة في السير ١/٤٠٦ - ٤٢٨ .

(٣) انظرالسير ٢/٣٦١ - ٣٦٩ . وموكف : أي قد وضع عليه الإكاف ، وهو بمنزلة السرج للحصان . والدهاقين : رؤساء القرى أو التجار .

فأقمتُ ببابه سَنَة لا أصلُ إليه ، ثم أشرفَ إشرافةً على الناس من غرْفة له ، فخرُّوا له سجودًا ، ثم جلس فلقيتُه بالخيل فقبلها ، ثم لقد رأيتُه بحمْص - وقد أسلم - يحمل الدرهم اللحم ، فيبتدره قومُه فيأخذونه منه فيأبى تواضعًا ، وقال :

أفٍّ لذي الدنيا إذا كانتْ كذا أنا منها كلَّ يومٍ في أذَى
ولقد كنتُ إذا ما قيل مَنْ أنعم الناسِ معاشًا قيلَ ذا
ثم بُدِّلتُ بعيشٍ شقوة حبَّذا هذا شقاء حبَّذَا

وذو الكلاع رحمه الله هو أسميفيع بن ناكور ، أبو شراحبيل ، أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره . أعتق أربعة آلاف ، سأله عمر في بيعهنَّ فأبى ، فقال : لأني أذنبتُ ذنبًا عظيمًا ، فعسى أن يكون ذلك كفَّارةً ، وذلك أني تواريتُ مرة ثم أشرفتُ فسجَدَ لي مائة ألف . وشهد رحمه الله وقعة اليرموك وفتح دمشق .

وعن طريف قال : رأيتُ الربيع بن خُثيم يحمل عرقة إلى بيت عمته[1] .

وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال : رأيتُ أمَّ الدرداء مع نساء المساكين جالسةً ببيت المقدس .

وعن حمَّاد بن زيد قال: ما رأيتُ محمد بن واسع إلَّا وكأنه يبكي، وكان يجلس مع المساكين والبكَّائين[2] .

ورأى ابنُ واسع رحمه الله ابنًا له يمشي مشية منكرة ، فقال : « تدري بكم شريتُ أُمَّكَ ؟ بثلاثمائة درهم ، وأبوك - لا كثَّر اللهُ في المسلمين مثله - أنا ،

---

(١) العَرَقة : هي القفَّة المنسوجة بالخوص .
(٢) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا صـ١٥١ .

وأنت تمشي هذه المشية[١] ؟!

وبلغ عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن ابنًا له اشترى خاتمًا بألف درهم ، فكتب إليه عمر : بلغني أنك اشتريتَ فصًّا بألف درهم ، فإذا أتاك كتابي ، فبع الخاتم وأشبع به ألف بطنٍ ، واتخذ خاتمًا بدرهمَيْن ، واجعل فصَّهُ حديدًا صينيًّا ، واكتبْ عليه : « رحم الله ، امَرَأً عرف قدْرَ نفسه » .

وقال رجاء بن حيوة : قوّمت ثياب عمر بن العزيز رضي الله عنه – وهو يخطب – باثني عشر درهمًا ، وكانت قباء وعمامة وقميصًا وسراويل ورداء وخُفَّيْن وقلنسوة .

ودخل على عمر بن العزيز واحد من أقربائه فهَالَهُ ما رأى ؛ لقد رآه لائذًا بركْنِ شمسٍ عن داره ، متدثِّرًا بإزار ، فحسِبَه مريضًا فسأله : ما الخطب يا أمير المؤمنين ؟ فأجابه عمر : لا شيء .. إني أنتظر ثيابي حتى تجفَّ ، فعاد الزائر يسأل الخليفة : وما ثيابك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : قميص ورداء وإزار . قال الزائر : ألا تتخذ قميصًا آخر ورداءً أو إزارًا ؟ فأجابه : قد كان لي ذلك ثم تمزقت . قال : ألا تتخذ سواها ؟ فيطرق عمر ، ويجهش بالبكاء ، ويردِّد قول الله تعالى : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلوًّا في الأرضِ ولا فسادًا والعاقبةُ للمتقين** ﴾ [القصص : ٨٣] .

الإمامُ القدوةُ مفتي دمشق سعيد بن عبد العزيز :

قال عبد الله بن زيد : كنَّا نجلس إلى مكحول ، ومعنا سعيد بن عبد العزيز ، فكان يسقي الماء في مجلس مكحول[٢] .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٣١ .

(٢) السير ٨/٣٢ – ٣٨ .

وقال ابن جابر : أقبَل يزيد بن عبد الملك إلى مجلس مكحول ، فهممنا أن نوسِّع له ، فقال : دعوه يتعلَّم التواضع .

تواضعُ إمامِ أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل رحمه الله :

« وعن المروزي قال : لم أرَ الفقير في مجلس أعزَّ منه في مجلس أبي عبد الله ؛ كان مائلًا إليهم مقصِرًا عن أهل الدنيا ، وكانَ فيه حلم ، ولم يكن بالعجول ، وكان كثير التواضع ، تعَلوه السكينة والوقار ، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يُسأل ، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدَّر ، يقعد حيث انتهى به المجلس »[1] .

وكان رحمه الله ربما خرج إلى البقَّال ، فيشتري الجُزْرة الحطب والشيء فيحمله بيده .

«قال محمد بن طارق البغدادي: كنتُ جالسًا إلى جنْب أحمد بن حنبل ، فقلتُ : يا أبا عبد الله ، أستمدّ من محبرتك ؟ فنظر إليّ وقال : لم يبلغ ورعي وورعك هذا . وتبسّم .

وقال يحيى بن معين : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل !! صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيءٍ ممَّا كان فيه مِن الصلاح والخير .

وكان الإمـام أحمد رحمه الله يقول : نحن قوم مساكين .

وقال إسماعيل بن إسحاق الثقفي : قلت لأبي عبد الله أولَ ما رأيتُه : يا أبا عبد الله ، ائذنْ لي أن أُقبِّل رأسك . فقال : لم أبلغْ أنا ذاك .

وقال أبو بكر المروذي : قلتُ لأبي عبد الله : الرجل يُقال له في وجهه : أحيَيْتَ السنة ؟ قال : هذا فساد لقلب الرجل .

---

(١) ترجمة الإمام أحمد من : تاريخ الإسلام صـ٣١ .

وقال خراسانيٌّ للإمام أحمد : الحمد لله الذي رأيتك . فقال له : اقعدْ ، أيُّ شيءٍ ذا ؟! من أنا ؟!

وقال أحمد بن الحسين بن حسَّان : دخلنا على أبي عبد الله ، فقال له شيخ من أهل خراسان : يا أبا عبد الله ، الله الله ؛ فإن الناس يحتاجون إليك ، قد ذهب الناس ؛ فإن كان الحديث لا يمكن ، فمسائل ؛ فإن الناس مضطرون إليك . فقال أبو عبد الله : إليَّ أنا ؟ واغتمَّ من قوله وتنفَّس صعداء ، ورأيتُ في وجهه أثر الغمِّ .

وقيل لأبي عبد الله : جزاك الله عن الإسلام خيرًا . فقال : لا ، بل جزى الله الإسلام عني خيرًا . ثم قال : ومَن أنا ؟! وما أنا ؟

ودُفع إلى أبي عبد الله كتاب من رجل يسأله أن يدعو الله له ، فقال : فإذا دعونا لهذا نحن ؛ مَن يدعو لنا ؟!

وقال محمد بن أحمد بن واصل : سمعتُ أبا عبد الله غيرَ مرة يقول : مَن أنا حتى تجيئون إليّ ؟! من أنا حتى تجيئون إليّ ؟! اذهبوا اطلبوا الحديث .

وقال أبو بكر المروذي : سمعتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل وذكَر أخلاق الورعين ، فقال : أسأل الله أن لا يمقتنا ، أين نحن من هؤلاء ؟!

وقلتُ لأبي عبد الله : ما أكثر الداعين لك !! فتغرغرتْ عينُه وقال : أخاف أن يكون هذا استدراجًا ، أسأل الله أن يجعلنا خيرًا ممَّا يظنون ويغفر لنا ما لا يعلمون .

قلتُ لأبي عبد الله : إن بعض المحدِّثين قال لي : أبو عبد الله لم يزهد في الدراهم وحْدَها ؛ قد زهد في الناس . فقال أبو عبد الله : ومَن أنا حتى أزهد في الناس ؟! الناس يريدون يزهدون فيَّ .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : رأيتُ أبي إذا جاءه الشيخ والحدَث من قريش أو غيرهم من الأشراف ، لا يخرج من باب المسجد حتى يُخرجهم ،

فيكونوا هم يتقدمونه ، ثم يخرج بعدهم .

وقال أحمد بن علي الأبار : سمعتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل ، وسأله رجل : حلفتُ بيمينٍ ما أرى أيّ شيء هي ؟ فقال : ليتَ أنك إذا دريتَ دريتُ أنا .

وقال أبو عثمان الشافعي لأبي عبد الله أحمد بن حنبل : لا يزال الناس بخير ما منَّ الله عليهم ببقائك . وكلام من هذا النحو كثير ، فقال له : لا تقلْ هذا يا أبا عثمان ؛ لا تقلْ هذا يا أبا عثمان ، ومَن أنا في الناس ؟!

وقال علي بن عبد الصمد الطيالسي : مسحتُ يدي على أحمد بن حنبل ، ثم مسحتُ يدي على بدني وهو ينظر ، فغضب غضبًا شديدًا ، وجعل ينفض يدَه ويقول : عمَّن أخذتم هذا ؟! وأنكره إنكارًا شديدًا .

وقال خطاب : وسألته عن شيء من الورَع ، فرأيتهُ قد أظهر الاغتمام ، وتبيَّن عليه في وجهه؛ إزراءً على نفسه، واغتمامًا بأمره، حتى شقَّ عليّ، فقلتُ لرجل كان معي حين خرجنا : ما أراه ينتفع بنفسه أيامًا ؛ جدَّدنا عليه غمًّا »[1] .

بهذا صار مالكٌ مالكًا :

قال مالك بن دينار : لو أنَّ مناديًا ينادي بباب المسجد : ليخرجْ شرّكم رجلًا . واللهِ ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلّا رجلًا بفضل قوّة أو سعْي . قال : فلمّا بلغ ابنَ المبارك قولُه ، قال : بهذا صارَ مالكٌ مالكًا .

وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلزلة وريح حمراء ، فذهبتُ إلى محمد بن مقاتل ، فقلتُ : يا أبا عبد الله ، أنت إمامنا فادعُ الله عزَّ وجلّ لنا .

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي صـ٣٣٤ - ٣٤٧ .

فبكى ثم قال : ليتني لم أكن سببَ هلاككم . قال : فرأيتُ النبي ﷺ في النوم ، فقال : « إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل » .

وقال المغيرة : كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبة الأمير ، وكان يقول : إن زمانًا صرتُ فيه فقيهَ الكوفة لَزَمَان سوءٍ .

الإمام القدوة العابد أحمد الرفاعي :

جاء في ترجمته في « السير » (٢١/٧٧ - ٨٠) : كان رحمه الله يجمع الحطب ، ويجيء به إلى بيوت الأرامل ، ويملأ لهم بالجَرَّة .

أُحضر بين يديْه طبقُ تمرٍ ، فبقي ينقِّي لنفسه الحشَفَ يأكله ، ويقول : أنا أحقُّ بالدُّون ؛ فإني مثله دون .

وكان رحمه الله يقول : أقرب الطريق : الانكسار والذل والافتقار ؛ تعظّم أمْرَ الله ، وتشفق على خلْق الله ، وتقتدي بسنة رسول الله ﷺ .

مِن مظاهر التواضع وصفات المتواضعين :

كراهيتهم مشْي الناسِ خلفهم :

عن شعيبِ بن محمد بن عبد الله بن عمرو ، عن أبيه قال: ما رئي رسول الله ﷺ يأكل متكئًا ولا يطأ عقبه رجلانِ[1] .

قال أبو الدرداء : لا يزال العبد يزداد من الله بعدًا ما مُشي خلفه .

سار قوم خلفَ عبد الله بن مسعود ، فنظر إليهم غاضبًا وقال لهم : ارجعوا ؛ فإنها فتنةٌ للمتبوع ، وذلَّة للتابع .

ومن صفات المتواضعين : زيارتُهم لغيرهم :

قدم سفيان الثوري « الرملة » ، فبعث إليه إبراهيم بن أدهم : أن تعال فحدِّثْنا .

---

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا في : التواضع والخمول ، وأبو الشيخ في : أخلاق النبي ، والبيهقي في : الزهد .

فجـاء سفيان ، فقيل له : يا أبا إسحاق ، تبعث إليه بمثل هـذا ؟! فقال : أردتُ أن أنظر كيفَ تواضعه .

ولا يستنكفون من جلوس غيرهم إلى جوارهم :

قال ابن وهب : جلستُ إلى عبد العزيز بن أبي روّاد فمسّ فخِذي فخِذَه ، فنحَّيتُ نفسي عنه ، فأخذ ثيابي فجرَّني إلى نفسه وقال لي : لِمَ تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة ، وإني لا أعرف رجلًا منكم شرًّا مني ؟!

ومن صفاتهم : عدم أَنَفَتهم من حْمل أمتعتهم الخاصَّة :

قـال علي رضي الله عنه : لا يُنقِص الرجل الكامل من كماله ما حَمل مِن شيء إلى عياله .

وعن الأصبغ بن نباتة قال : كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلِّقًا لحْمًا في يده اليسرى ، وفي يده اليمنى الدِّرَّة ، يدور في الأسواق حتى دخل رَحْلَه .

ومن صفاتهم : جلوسهم إلى المساكين :

عن مسعر قال : مرَّ الحسين بن علي رضي الله عنه على مساكين وقد بسطوا كساءً وبين أيـديهم كِسَرٌ ، فقالوا : هلمَّ يا أبا عـبد الله ، فحوَّل وِرْكَهُ وقرأ ﴿ **إنه لا يحبُّ المستكبرين** ﴾ [النحل : ٢٣] ، فأكل معهم ، ثم قال : قد أجبتُكم فأجيبوني . فقال للرباب - يعني امرأته -: أَخْرِجي ما كنتِ تدَّخرين[١] .

ومن التواضع : معرفة قدْر النفس ، وأن لا تجعل لنفسِكَ قدرًا مع العلماء الربانيين :

« فلا ينظر الشابُّ المبتدئ إلى نفسه على أنه نِدٌّ لهذا العالِم أو ذاك ويقول :

---

(١) التواضع والخمول صـ١٥١ .

هم رجال ونحن رجال .. بل - والله - حالنا وحالهم كما يقول القائل : العلماء نسور في السحاب ونحن نحبو أُغَيْلِمة على التراب .

ولربما رأيت طويْلبَ علمٍ لا يحفظ من القرآن إلَّا اليسير ، ولا يكاد يحفظ حديثًا من البخاري أو مسلم بحروفه ، فضلًا عن سنَدِه ومعناه .. ومع هذا يقف أمام جهابذة العلماء وكأنه أبو حنيفة أو الشافعي !! وهِجِّيراهُ أن يقول : أرى . وأنا . وقلتُ . وعندي ...!!

يقولونَ هذا عندنا غيرُ جائز ومَنْ أنتُمُ حتى يكونَ لكمْ عِندُ

ومن التواضع : أن يتواضع المرءُ مع أقرانه :

فربما استعلى الإنسان على قرينه ، وربما فرِح بالنيْل منه ، والحطِّ من قدْره وشأنه ، وعيَّبه بما ليس فيه ، أو تضخيم ما فيه ، وقد يظهر ذلك بمظهر النصيحة والتقويم وإبداء الملاحظات ، ولو سمَّى الأمور بأسمائها الحقيقية ، لَقال : الغيْرة .

والعجب أنْ يَغار الداعية من اجتماع ألفٍ أو ألفيْن في مجلس علْمٍ أو دعوة ، لكنَّه لا ينفعل لو سمع أن حفلًا غنائيًا أو مباراة رياضية حضَرَها عشرون أو ثلاثون ألفًا . وهذا والله من البُؤْس ، حتى لو كنتَ لا ترضى من أخيك بعض الأمر ، يَكفيك أن يدعو إلى الله ، ويعلِّم الناس الدين ، وهو على الجادَّة إجمالًا .

ومَن ذا الذي تُرضَى سجاياهُ كلُّها كفى المرءَ نُبْلًا أن تُعدَّ معايبُهْ

ومن التواضع : التواضع مع من هو دونك :

فإذا وجدتَ أحدًا أصغر منك سنًّا ، أو أقلّ منك قدرًا فلا تحقرْه ؛ فقد يكون أسلمَ منك قلبًا ، أو أقلَّ منك ذنبًا ، أو أعظم منك إلى الله قرْبًا ، حتى لو رأيتَ إنسانًا فاسقًا وأنت يظهر عليك الصلاح ، فلا تستكبرْ عليه ، واحمدِ الله

على أن نجَّاك ممَّا ابتلاه به ، وتذكَّرْ أنه ربما يكون في عملك رياء أو عجب يُحبطه ، وقد يكون عند هذا المذنب مِن الندم والانكسار والخوف من خطيئته ، ما يكون سببًا في غفران ذنبه .

ومن التواضع :

أن لا يعظم في عينيك عملك ؛ إن عملتَ خيرًا ، أو تقرَّبتَ إلى الله بطاعة ، فإنَّ العمل قد لا يُقبل، و ﴿**إنما يتقبَّل الله مِن المتقين** ..﴾ [المائدة : ٢٧] . ولهذا قال بعض السلف : لو أعلم أن الله قبل مني تسبيحة لَتمنيتُ أن أموتَ الآن »[1] .

ومن التواضع :

« أن يتواضع بالاحتمال إذا سُبَّ وأوذي وأُخذَ حقّه ؛ فذلك هو الأصل »[2] .

ومن التواضع : أن لا يتوقى من مجالسة المرْضى والمعلولين كِبْرًا منه وترفُّعًا :

فعن جابر بن عبد الله قال : أخذ رسول الله ﷺ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصْعَة ، وقال : « كُلْ باسمِ اللهِ ، ثقةً بالله ، وتوكُّلًا على الله »[3] .

ومن التواضع: إجابة الدعوة ، ولو إلى أيسرِ شيءٍ :

كان ﷺ يعود المرضى، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد .

---

(١) من أخلاق الداعية لسلمان فهد العودة صـ٣٣ - ٣٦ بتصرُّف يسير .
(٢) إحياء علوم الدين ٣/٣٧٦ .
(٣) إسناده حسن : أخرجه الترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجه وابن حبان ، والبغوي في شرح السنة ، وابن أبي الدنيا في : التواضع والخمول .

قال ﷺ : « لو دُعيتُ إلى ذراع - أو كُراع - لَأجبتُ ، ولو أُهديَ إليَّ ذراعٌ - أو كراع - لَقَبلتُ »[١] .

أقوالٌ عَطِرةٌ في التواضع :

سُئِل الفضيل عن التواضع ، فقال : يخضع للحق ، وينقاد له ، ويقبله ممَّن قاله . قال الفضيل : « لو سمعته من صبيٍّ قبلتُه منه ، ولو سمعتُه من أجهل الناس ، قبلتُه منه » .

وقيل : التواضع أن لا ترى لنفسِك قيمة ؛ فَمْنَ رأى لنفْسِهِ قيمة فليس له في التواضع نصيب .

وهذا مذهب الفضيل وغيره .

وقال الجنيد بن محمد : هو خفْض الجناح ، ولِين الجانب .

وقال أبو يزيد البسطامي : هو أن لا يرى لنفسه مقامًا ولا حالًا ، ولا يرى في الخلْق شرًّا منه .

وقال ابن عطاء : هو قبول الحقِّ ممن كان . والعزُّ في التواضع . فمَن طلبه في الكبر فهو كتطلُّب الماء من النار .

وقال حمدون القصَّار : التواضُع أن لا ترى لأحدٍ إلى نفسك حاجة ، لا في الدين ولا في الدنيا .

قال صاحب « المنازل » شيخ الإسلام الهروي : « التواضع : أن يتواضع العبد لصوْلة الحقِّ » .

قال ابن القيم : « يعني : أن يتلقَّى سلطان الحق بالخضوع له ، والذلِّ ، والانقياد ، والدخول تحت رِقِّه ، بحيث يكون الحقُّ متصرِّفًا فيه تصرُّف المالك في مملوكه . فبهذا يحصل للعبد خُلُق التواضع ؛ ولهذا فسر النبي ﷺ الكبْر بضدِّه ، فقال : « الكبْرُ بَطْر الحقِّ ، وغَمْص الناس » . فبطر الحق : رَدُّه وجَحْده ،

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة .

والدفع في صدره ، كدفع الصائل . و غمص الناس : احتقارهم ، وازدراؤهم . ومتى احتقرهم وازدراهم ؛ دفَع حقوقهم ، وجحدها ، واستهان بها .

ولمَّا كان لصاحب الحق مقال وصوْلة ؛ كانت النفوس المتكبِّرة لا تُقِرُّ له بالصولة على تلك الصَوْلة التي فيها ، ولا سيما النفوس المبطلة ، فتصول على صولة الحق بكبْرها وباطلها . فكان حقيقة التواضع : خضوع العبد لصولة الحق ، وانقياده لها ، فلا يقابلها بصولته عليها »[١] .

وقال يوسف بن أسباط: يجزئ قليل الورع مِن كثير العمل ، ويجزئ قليل التواضع من كثير الاجتهاد .

رأسُ التواضع :

قال ابن المبارك : رأسُ التواضع أن تضعَ نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا ، حتى تُعْلِمَه أنْ ليس لك بدنياك عليه فضل ، وأن ترفع نفسَك عمَّن هو فوقك في نعمة الدنيا حتى تعلِمَهُ أنه ليس له بدنياه عليك فضل[٢] .

قال يحيى بن كثير : رأس التواضع ثلاث : أن ترضى بالدُّون من شرف المجلس ، وأن تبدأ من لقيتَه بالسلام ، وأن تكره المدحة ، والسمعة ، والرياء بالبِرِّ .

قال يحيى بن أبي العاص لعبد الملك بن مروان : أي الرجال أفضل ؟ قال : مَن تواضع عن رِفعةٍ ، وزهد على قدْرة، وترك النصرة على قومه .

المتواضع في شَرَفِهِ يُكتب من خالص الله عزَّ وجل :

دخل ابن السمَّاك على هارون الرشيد، فقال: يا أمير المؤمنين، والله لَتواضُعُك

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٣٣ .

(٢) التواضع والخمول صـ١٤٢ .

في شرَفك أشرفُ لك من شرفك . فقال : ما أحسن ما قلتَ !! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن امرأً آتاه الله عز وجلّ جمالًا في خَلقه وموضعًا في حسَبه ، وبسَطَ له في ذات يده ؛ فعفَّ في جماله ، وواسى في ماله ، وتواضَعَ في حَسَبه - كُتب في ديوان الله عز وجل من خالص الله عز وجل . قال : فدعا هارون بدواة وقرطاسٍ وكتَب هذا الكلام بيده[1] .

فطوبى للمتواضعين في الدنيا !! هم أصحاب المنار يوم القيامة .

وقالوا : « إن الزرْع يَنبُت في السهل ولا ينبُتُ على الصَّفَا ، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ، ولا تعمل في قلب المتكبر ، ألا ترون أنَّ مَن شمخ برأسه إلى السقف شجَّه ، ومَن طأطأ أظلَّه وأكنَّه ؟! » .

فهذا مثَلٌ ضربه للمتكبرين وكيف أنهم يُحرمون الحكمة .

خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع ؛ فقال لهم الحسن : أتدرون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلمًا إلَّا رأيت له عليك فضلًا .

وقال زياد النمري : الزاهد بغيْر تواضع كالشجرة التي لا تثمر .

وقال الشبلي : ذلِّي عطَّل ذلَّ اليهود .

ويقال : مَن يرى لنفسه قيمة ، فليس له من التواضع نصيب .

وقال أبو سليمان : لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه .

وقال أيضًا : لو اجتمع الخلْق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ، ما قدروا عليه .

وقال أبو يزيد : ما دام العبد يظن أنَّ في الخلْق من هو شرٌّ منه فهو متكبِّر

---

(١) التواضع والخمول صـ١٤٤ - ١٤٥ .

فقيل له : فمتى يكون متواضعًا ؟ قال : إذا لم يرَ لنفسه مقامًا ولا حالًا .

وقالوا : ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء ، رغبةً منهم في ثواب الله !! وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء ثقةً منهم بالله عزَّ وجلَّ .

وقال يحيى بن معاذ : التكبُّر على ذي التكبُّر عليك بماله : تواضعٌ .

وقال مقدام العلماء معاذ بن جبل رضي الله عنه : « لن يبلغ العبد ذُرى الإيمان حتى يكون التواضع أحبَّ إليه من الشرف ، وما قلَّ من الدنيا أحبَّ إليه مما كثر ، ويكون مَن أحبَّ وأبغضَ في الحقِّ سواء ، يحكمُ للناس كما يحكم لنفسه »[1] .

وقال عبد الله بن عمر : « رأسُ التواضع أن ترضى بأدون المجالس ، لا لحظ نفسٍ ، فقد يجلس أحدهم عند النعال ومعه من الكِبْر ما الله به عليم ، وما حمله على مجلسه ذلك إلّا ليُقال : إنه متواضع » .

وكان يقول : مِن علامة تواضعك أن تكره ذِكْرَك بالبر والتقوى بين الناس .

وقالوا : الشرِيف إذا تنسَّك تواضع ، والسفيه إذا تَنسَّك تعاظم .

وقالت الحكماء : ثلاثة من أحسن الأشياء : جُود لغير ثواب ، ونصَبٌ لغيْر دنيا ، وتواضع لغير مذلَّة .

وقال ذو النون المصري : علامة السعادة ثلاث : متى ما زِيدَ في عمره نقص مِن حرْصه، ومتى ما زيد في ماله زيد في سخائه، ومتى ما زيد في قدره زِيدَ في تواضعه .

وقال أبو حاتم البستي : التواضع يرفع المرء قدرًا ، ويعظم له خطرًا ،

---

(١) الزهد لابن المبارك صـ٥٢ .

ويزيده نُبلًا .

ولله درُّ الشاعر إذ يقول :

تواضع تكنْ كالنجمِ لاحَ لناظرٍ على صفحَاتِ الماءِ وهْوَ رفيعُ
ولا تكُ كالدُّخانِ يعلو بنفسهِ إلى طبقاتِ الجوِّ وهْوَ وضيعُ

وقال الشاعر :

تواضعْ إذا ما نلْتَ في الناسِ رفعةً فإنَّ رفيعَ القومِ مَن يتواضعُ

وقال يوسف بن أسباط :

وكفى بمُلْتمِسِ التواضعِ رِفْعةً وكفى بمُلْتمِسِ العلوِّ سِفالَا

وقال الشاعر :

وأحسنُ مقرونيْنِ في عيْنِ ناظرٍ جلالةُ قَدْرٍ في خمولِ تواضعِ

وقال الشاعر :

تواضع إذا ما كان قدرُك عاليًا فإنَّ اتضاعَ المرءِ مِن شيَمِ العقلِ

وقال الشاعر :

إنَّ التواضعَ مِن خصالِ المتقي وبهِ التقيُّ إلى المعالي يرتقي

وفي الصحيح الموقوف على عائشة رضي الله عنها ، قالت : « إنكم لتغفلون أفضلَ العبادة : التواضع » .

فللَّه درُّها ودرُّ أبيها !!

ونختم بما صحَّ عن رسولنا ﷺ ؛ حيث قال : « انتسبَ رجلانِ على عهدِ موسى ؛ فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان – حتى عدَّ تسعةً – فمن أنت لا أُمَّ لك ؟ قال : أنا فلان بن فلان بن الإسلام . فأوحى الله إلى موسى : أن

قل لهذيْن المنتسبَيْن : أمَّا أنت أيُّها المنتسب إلى تسعةٍ في النار ، فأنت عاشرهم في النار . وأما أنتَ أيُّها المنتسب إلى اثنين في الجنة ، فأنت ثالثهما في الجنة »[١] .

* * *

(١) صحيح : رواه النسائي ، والبيهقي في الشعب ، والضياء وأحمد ، والطبراني في الكبير عن أبيّ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٠٤ ، والصحيحة رقم ١٢٧٠ .

الفصل السابع عشر

عُلُوُّ الهِمَّة في الشُّكر

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً علّيَّ له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف وقوع الشكر إلّا بفضله وإن طالتِ الأيامُ واتّصل العمرُ

« محمود الورّاق »

أَوْليتني نِعَمًا أبوحُ بِشكْرها وكفيتني كلَّ الأمور بأسْرها
فلأشكرنّك ما حييتُ وإنْ أمُتْ فلتشكرَنّك أعظُمي في قبرها

□ عُلُوُّ الهِمَّة في الشُّكر □

يا مَن عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة ، قد رُفع لك علم فشمّرْ إليه فقد أمكن التشمير ، واجعل سيْرَك بين مطالعةِ منَّته ومشاهدة عيْب النفس والعمل والتقصير ، فما أبقى مشهد النعمة والذنب للعارف من حسنة،يقول : هذه مُنجيتي من عذاب السعير . ما المعوَّل إلّا على عفوه ومغفرته ؛ فكلُّ أحدٍ إليها فقير . أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي .

ما تساوي أعمالك – لو سَلِمَتْ ممَّا يُبطلها – أدنى نَعِمه عليك ، وأنت مُرتهن بشكرها من حين أرسل بها إليك ، فهل رعيتها بالله حقَّ رعايتها وهي في تصريفك وطوْع يديك ؟! فتعلَّق بِحَبْل الرجاء ، وادخل من باب العمل الصالح ؛ إنه غفور شكور .

نهج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها ، وعرَّفه طُرُق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها ، وحذَّره من وبال معصيته وأشهده على نفسه وعلى غيره شؤمها وعقابها ، وقال : إن أطعت فبفضلي وأنا أشكر ، وإن عصيت فبقضائي وأنا أغفر ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

أزاح عن العبد العلل ، وأمره أن يستعيذ مِن العجز والكسل ، ووعده أن يشكر له القليل من العمل ، ويغفر له الكثير من الزَّلل ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفور شكور** ﴾ .

أعطاه ما يُشكر عليه ، ثم يشكُرُه على إحسانه إلى نفسه لا على إحسانه إليه ، ووعده على إحسانه لنفسه أن يُحسن جزاءَه ويقرِّبه لديه ، وأن يغفر له خطاياه إذ تاب منها ولا يفضحَه بين يديه ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها ، وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها ، وخرقت السَّبْعَ الطِّباق دعواتُ التائبين والسائلين فسمِعَها ، ووسع الخلائق عفوُه ومغفرتُه ورزقُه ؛ فما من دابة في الأرض إلّا على الله رزقُها ويعلمُ مستقرَّها ومستودَعَها ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

يجودُ على عبيده بالنوافل قبل السؤال ، ويُعطي سائله ومؤمِّله فوق ما تعلَّقت به منهم الآمال ، ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبُه عدد الأمواج والحصىٰ والتراب والرمال ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها ، وأفرحُ بتوبة التائب من الفاقد لراحلته – التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة – إذا وجدها ، وأشكرُ للقليل من جميع خلقه ؛ فمَن تقرَّب إليه بمثقال ذرَّة من الخير شكرها وحمدها ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

تعرَّف إلى عباده بأسمائه وأوصافه ، وتحبَّب إليهم بحلمه وآلائه ، ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه ؛ ﴿ **إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾.

السعادةُ كلُّها في طاعته ، والأرباحُ كلُّها في معاملته ، والمِحَن والبلايا كلُّها في معصيته ومخالفته ، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

أفاض على خلقه النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وضمن الكتاب الذي كتبه : أنَّ رحمته تغلب غضبه ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

يُطاع فيشكر وطاعته من توفيقه وفضله ، ويُعصى فيحلُم ومعصية العبد من ظلمه وجهله ، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له ، حتى كأنه لم يكن قطُّ من أهله ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكور** ﴾ .

الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عددٍ ولا حسبان ، والسيئة عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران ، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكور** ﴾ .

بابه الكريم مناخ الآمال ومحطُّ الأوزار ، وسماء عطاه لا تقلع عن الغيث بل هي مدرار ، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سحَّاء الليل والنهار ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكور** ﴾ .

الله عز وجل هو الشكور على الحقيقة :

« والله عز وجل أولى بصفة الشكر من كلِّ شكور ، بل هو الشكور على الحقيقة ؛ فإنه يعطي العبد ويوفِّقه لما يشكره عليه ، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقلّه أن يشكره ، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعافٍ مضاعفة ، ويشكر عبده بقوله بأن يُثني عليه بين ملائكته وفي مَلَئه ، ويُلقي له الشكر بين عباده ويشكره بفعله ، فإذا ترك له شيئًا أعطاه أفضل منه ، وإذا بذل له شيئًا ردَّه عليه أضعافًا مضاعفة ، وهو الذي وفَّقه للترك والبذل وشكره على هذا وذاك .

ولمَّا عقر نبيُّه سليمان الخيل غضبًا له إذ شغلتْه عن ذكره ، فأراد أن لا تشغله مرة أخرى ؛ أعاضه عنها متْن الريح. ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته ؛ أعاضهم عنها أن ملَّكهم الدنيا وفتحها عليهم .

ولمَّا احتمل يوسف الصديق ضيق السجن ؛ شكر له ذلك بأن مكَّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء .

ولمَّا بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزَّقها أعداؤه ؛ شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيرًا خضرًا أقرَّ أرواحهم فيها ؛ تَرِدُ أنهارَ الجنة ، وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث ، فيردُّها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه .

ولما بذل رُسُله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبُّوهم ؛ أعاضهم من ذلك بأن صلَّى عليهم هو وملائكته ، وجعل لهم أطيب الثناء في سماواته وبين خلقه ، فأخلصهم بخالصةٍ ذكرى الدار .

ومن شكره سبحانه : أنه يجازي عدوَّه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا ، ويخفِّف به عنه يوم القيامة ؛ فلا يُضيِّع عليه ما يعمله من الإحسان ، وهو من أبغض خلقه إليه !!

ومن شكره : أنه غفر للمرأة البغيّ بسقْيها كلبًا كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى ، وغفر لآخر بتنحيته غصْن شوكٍ عن طريق المسلمين .

فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه ، والمخلوق إنما يشكرُ من أحسن إليه . وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يُحسن به إلى نفسه ، وشكره على قليله بالأضعاف المضاعفة التي لا نسبة لإحسان العبد إليها . فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر . فمَن أحقُّ باسم الشكور منه سبحانه ؟!

ومن شكره سبحانه : أنه يُخرج العبد من النار بأدنى ذرَّة من خير ، ولا يُضيِّع عليه هذا القدْر .

ومن شكره سبحانه : أن العبد من عباده يقوم له مقامًا يُرضيه بين الناس ؛ فيشكر له ، ويُنَوِّه بذكره ، ويُخبر به ملائكته وعباده المؤمنين . كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام ، وأثنى عليه ، ونوَّه بذكره بين عباده . وكذلك شكره لصاحب يسٓ مقامه ودعوته إليه ، فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك »[1].

---

(١) عُدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص٢٧٩ - ٢٨٠ .

فمن علم أن الربّ شكور تنوَّع في معاملته ، ومن عرف أنه واسع المغفرة تعلّق بأذيال مغفرته ، ومَن تعلّق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تُدخله عليه ، ومن سار إليه بأسمائه الحسنىٰ وصل إليه ، ومن أحبَّه أَحبَّ أسماءه وصفاته وكانت آثر شيء لديه .

ولمَّا كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة ؛ كان أحبَّ خلْقه إليه من اتَّصف بصفة الشكر .

فهلُمُّوا إلى سيِّدكم ومولاكم ؛ فحياة القلوب في معرفته ومَحَبَّته . وكمال الجوارح في التقرُّب إليه بطاعته ، والقيام بخدمته . والألسنة بذكره ، والثناء عليه بأوصاف مدحته . فأهل شكره أهل زيادته ، وأهل ذكره أهل مُجالسته ، وأهل طاعته أهل كرامته ، وأهل معصيته لا يُقنِّطهم من رحمته ؛ إن تابوا فهو حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم ؛ يبتليهم بأنواع المصائب ؛ ليُكفِّرَ عنهم الخطايا ويُطهرهم من المعائب .

فالحمد لله ربِّ العالمين ، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه ، كما يحبُّ ربُّنا ويرضى ، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله ، حَمدًا يملأُ السموات والأرض وما بينهما، وما شاء ربُّنا من شيءٍ بعد بمجامع حمده كلِّها، ما علمنا منها وما لم نعلم ، على نعمه كلِّها ، ما علمنا منه وما لم نعلم ، وعدد ما حمد الحامدون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، وعدد ما جرى به قلمه ، وأحصاه كتابه ، وأحاط به علمه .

فضـــل الشكـــر :

منزلة الشكر من أعلى المنازل ، وهي فوق منزلة « الرضا » وزيادة ، وأيُّ مقام أرفع من الشكر ، الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان ، حتى المحبة والرضا والتوكُّل ؟! فإنَّ الشكر لا يصحُّ إلا بعد حصولها . وتالله ليس لخواصِّ

أولياء الله وأهل القُرْب منه سبيلٌ أرفع من الشكر ولا أعلى .

فقد قرن الله تعالى ذكره بالشكر مع أنه قال : ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾. وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر ، فقال تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم وأشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان ، فقال تعالى : ﴿ **ما يفعل اللهُ بعذابكم إن شكرتُم وآمنتم ...** ﴾ الآية . [النساء : ١٤٧] .

وأخبر بقلّة أهله في العالمين ، الدالَّة على أنهم هم خواصُّه ، كما قال تعالى : ﴿ **وقليلٌ من عبادِيَ الشكور** ﴾ [سبأ : ١٣] .

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنَّته عليهم من بين عباده ، فقال : ﴿ **وكذلك فتنَّا بعضَهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنَّ اللهُ عليهم مِن بيننا أليس اللهُ بأعلمَ بالشاكرين** ﴾ [الأنعام : ٥٣] .

وقسَّم الناس إلى شكورٍ وكَفُورٍ ، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله ، وأحبُّ الأشياء إليه الشكر وأهله ، قال تعالى: ﴿**إنَّا هديناه السَّبيلَ إمَّا شاكرًا وإمَّا كفورًا** ﴾. [الدهر : ٣] .

وقال نبيُّه سليمان : ﴿ **هذا من فضل ربِّي ليَبْلُوَني أأشكرُ أم أكفر ومَن شكر فإنما يشكرُ لنفسه ومَن كفر فإن ربِّي غنيٌّ كريمٌ** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وإذ تأذَّن ربُّكم لئن شكرتُم لأزيدنكم ولئن كفرتُم إن عذابي لشديد** ﴾. [إبراهيم : ٧] . وقال تعالى : ﴿ **إنْ تكفروا فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنكم ولا يرضىٰ لعباده الكفر وإنْ تشكروا يرضَهُ لكم** ﴾. [الزمر : ٧] .

وقد قطع الله بالمزيد مع الشكر وأطلق و لم يستثن فقال تعالى : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنّكم** ﴾ [إبراهيم : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ **وسنجزي الشاكرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٥] ، وقال تعالى: ﴿**وسيجزي الله الشاكرين**﴾ [آل عمران : ١٤٤] ،

واستثنى في خمسة أشياء ؛ في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة ، فقال تعالى : ﴿ **فسوف يُغنيكُم اللهُ من فضله إن شاء** ﴾ . [التوبة : ٢٨] ، وقال : ﴿ **فيكشفُ ما تدعونَ إليه إن شاء** ﴾ . [الأنعام : ٤١] ، وقال تعالى : ﴿ **ويرزقُ من يشاء بغير حساب** ﴾ . [آل عمران : ٣٧]، وقال تعالى : ﴿ **ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾. [النساء : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ **ويتوبُ اللهُ على مَن يشاء** ﴾. [التوبة : ١٥] .

وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ، فقال تعالى : ﴿ **وقالوا الحمدُ لله الذي صدقنا وعده** ﴾. [الزمر : ٧٤] ، وقال : ﴿ **وآخر دَعْواهم أن الحمدُ لله ربِّ العالمين** ﴾ [يونس : ١٠] .

ولما عرف إبليس اللعين قَدْر مقام الشكر ، وأنه من أجَلِّ المقامات وأعلاها ؛ جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال: ﴿**ثم لآتينهم منْ بين أَيْديهم ومنْ خلْفهم وعنْ أَيْمانهم وعنْ شمائلهم ولا تَجِدُ أَكْثرهمْ شاكرين**﴾ [الأعراف:١٧].

وقد أخبر سبحانه أنما يعبده مَن شكره ، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته ، فقال : ﴿ **واشكروا لله إن كنتم إيَّاه تعبدون** ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

وأوَّل وصيَّةٍ وصَّى بها الإنسان بعد ما عقل عنه : الشكر له وللوالدين ، فقال : ﴿ **ووصَّينا الإنسان بوالدَيْه حملته أُمُّه وهنًا على وهْنٍ وفِصالُه في عامينِ أنِ اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير** ﴾. [لقمان : ١٤] .

وأخبر أن رضاه في شكره ، فقال تعالى : ﴿ **وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾ .

والشكر هو الغاية من خَلْق الله وأمره ، بل هو الغاية التي خلق عبيدَه لأجلها ؛ ﴿ **واللهُ أخرجكم من بطون أُمَّهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلَّكم تشكرون** ﴾ [النحل : ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿ **ولقد نصركمُ الله ببدرٍ وأنتم أذلَّة فاتَّقوا اللهَ لعلَّكم تشكرون** ﴾. [آل عمران: ١٢٣].

وأخبر سبحانه بأنه غاية إرساله الرسول ، فقال تعالى : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلِّمُكم الكتاب والحكمة ويعلِّمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ .

وأخبر رسوله ﷺ أن القلب الشاكر خير ما اكتنز الناس ، فقال ﷺ : « قلبٌ شاكر ، ولسانٌ ذاكر ، وزوجةٌ صالحة تُعينُك على أمر دنياك ودينك - خير ما اكتنز الناس »[1].

قواعد الشكر وأركانه :

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢/٢٤٤) : « الشكر مبنيٌّ على خمس قواعد :

خضوعُ الشاكر للمشكور . وحبُّه له . واعترافُه بنعمته . وثناؤه عليه بها . وأن لا يستعملها فيما يكره .

فهذه الخمس هي أساس الشكر ، وبناؤه عليها ؛ فمتى عُدِم منها واحدة ، اختلَّ من قواعد الشكر قاعدة . وكُلُّ من تكلَّم في الشكر وحَدّه ، فكلامه إليها يرجع ، وعليها يدور » .

١ - أما معرفتها :

فهو إحضارها في الذهن ، ومشاهدتها ، وتمييزها .

فمعرفتُها : تحصيلها ذهنًا كما حصلت له خارجًا ؛ إذ كثير من الناس تُحسن إليه وهو لا يدري ، فلا يصحُّ من هذا الشكر .

---

(١) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة ، وأخرجه الترمذي ، وابن ماجه عن ثوبان ، وعبد الرزاق في الجامع ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٢٨٥) .

٢ - وقبولها :

هو تلقِّيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها ، وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه . قال الجنيد : « الشكر : أن لا ترى نفسك أهلًا للنعمة » .

وهذا معنى قول حمدون – وما ألطفه –:وشكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليًّا.

٣ - الثناء بها على المنعم :

نوعان : عامٌّ وخاصٌّ .

فالعام : وصفه بالجود والكرم والبر والإحسان وسعة العطاء .

والخاصُّ : التحدُّث بنعمته ، والإخبار بوصولها إليه من جهته ، والدعوة إلى الله ، وتبليغ رسالته ، وتعليم الأمة ، كما قال تعالى : ﴿ **وأما بنعمة ربِّك فحدِّث** ﴾ . [الضحى : ١١] .

قال ﷺ : « التحدُّث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، ومَن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير »(١).

ومِن الرَّزيَّة أن شكريَ صامتٌ عمَّا فعلتَ وأن برّك ناطقُ
وأرى الصنيعةَ منك ثم أُسِرُّها إني إذًا لندىٰ الكريم لسارقُ

الشكر علمٌ وحالٌ وعمل :

قال الغزالي : « الشكر ينتظم من علم وحال وعمل ؛ فالعلم هو الأصل ، فيورث الحال ، والحال يورث العمل .

فأمّا العلم : فهو معرفة النعمة من المنعم .

والحال : هو الفرح الحاصل بإنعامه .

والعمل : هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ، ويتعلّق ذلك العمل

(١) حسن : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن النعمان بن بشير ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٠١٤) ، والسلسلة الصحيحة رقم (٦٦٧) .

بالقلب وبالجوارح واللسان .

الأصل الأول : التقديس والتوحيد والعلم بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة ، وبذات المنْعِم عزَّ وجلَّ :

فكمال القدرة والانفراد بالنعم كلِّها لله ، فهو وحده المنْعِم .

قال موسى عليه السلام : إلهي خلقت آدم بيدك ، وفعلتَ وفعلتَ ، فكيف شكَرك ؟ فقال الله عز وجل : علم أنَّ كلّ ذلك مني ، فكانت معرفته شُكرًا .

فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف بأن الكلَّ منه ، فإن خالَجَك ريب في هذا ، لم تكن عارفًا لا بالنعمة ولا بالمنعم ؛ فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره ، فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح ، وبنقصان فرحك ينقص عملك .

الأصل الثاني : الحال المستمدَّة من العلم ، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع :

وأعلى الفرح أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى ، من حيث إنَّه يقدر بها على التوصُّل إلى القرب منه والنزول في جواره والنظر إلى وجهه ، لا أن يفرح بالنعمة من حيث إنها نعمة فقط ولا حظَّ له في الملك، ولا من يفرح بالنعمة لكونها تدلُّ على عناية المِلك به ، فكم من فرْق بين مَن يريد المِلك للفرس ، ومَن يريد الفرس للملك . وكم من فرق بين مَن يريد الله ليُنْعِم عليه ، وبين من يريد نِعم الله ليصل بها إليه .

الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح . وهذا العمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح :

أمّا بالقلب : فقصد الخير وإضماره لكافة الخلْق . وأما باللسان : فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالَّة عليه . وأما بالجوارح : فاستعمال نعم الله

في طاعته ، والتوقّي من الاستعانة بها على معصيته »[١].

الشكر يتعلّق بالقلب واللسان والجوارح ؛ فالقلب للمعرفة والمحبة ، واللسان للحمد والثناء . والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور ، وكفّها عن معاصيه .

أفادتكم النعماء مني ثلاثةً   يدي ولساني والضمير المحجَّبا

الكمال في الشكر : أن تشهد النعمة والمنعم :

قال بعضهم : الشكر:الفناء برؤية المنعم عن رؤية نِعَمِه .

وقال آخرون : بل أن لا تحجبه رؤية نعمه ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها . وهذا أكمل .

قال ابن القيم : « والكمال أن تشهد النعمة والمنعم ؛ لأن شكره بحسب شهود النعمة ، فكلما كان أتم كان الشكر أكمل . والله يحبُّ من عبده أن يشهد نعمه ، ويعترف له بها ، ويُثني عليه بها ، ويحبّه عليها ، لا أن يفنى عنها ، ويغيب عن شهودها » .

شُكْر الخاصة وشُكْر العامة :

قال إبراهيم الخواص رحمه الله « شكْر العامة على المطعم والملبس والمشرب ، وشكْر الخاصة على واردات القلوب »[٢].

قال ابن القيم : « شكْر العامة : على المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان ، وشكر الخاصة على التوحيد والإيمان وقوت القلوب » .

وقال أبو عثمان : شكْر العامة على المطعم والملبس ، وشكر الخواصّ على ما يرد على قلوبهم من المعاني .

---

(١) إحياء علوم الدين بتصرُّف يسير ٨٦/٤ - ٨٩ .

(٢) إحياء علوم الدين ٨٩/٤ .

الفرق بين الحمد والشكر :

قال ابن القيم : « تكلَّم الناس في الفرق بين « الحمد » و « الشكر » أيهما أعلى وأفضل ؟ والفرق بينهما : أن « الشكر » أعمُّ من جهة أنواعه وأسبابه ، وأخصُّ من جهة متعلّقاته . و « الحمد » أعمّ من جهة المتعلّقات ، وأخصّ من جهة الأسباب .

ومعنى هذا : أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة ، وباللسان ثناءً واعترافًا ، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا . ومتعلقه : النعم ، دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه . وهو المحمود عليها ، كما هو محمود على إحسانه وعدله . والشكر يكون على الإحسان والنعم ؛ فكلُّ ما يتعلَّق به الشكر يتعلّق به الحمد من غير عكس ، وكلُّ ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ؛ فإن الشكر يقع بالجوارح ، والحمد يقع بالقلب واللسان »[(١)] .

وقال رحمه الله : « الشكر أخصُّ بالأفعال ، والحمد أخصُّ بالأقوال ، وسبب الحمد أعمُّ من سبب الشكر ، ومتعلّق الشكر وما به الشكر أعمُّ مما به الحمد ، فما يُحمد الربُّ تعالى عليه أعمُّ مما يُشكر عليه ؛ فإنه يُحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونِعمه ، ويُشكر على نِعَمه . وما يُحمد به أخصُّ ممّا يشكر به ؛ فإنه يُشكر بالقلب واللسان والجوارح ، ويُحمد بالقلب واللسان »[(٢)] .

الشّكر على الشكر أتمُّ من الشكر :

قال ابن القيم : « يُقال : الشكر على الشكر أتم من الشكر ؛ وذلك أن

(١) مدارج السالكين ٢/٢٤٦ .

(٢) عُدَّة الصابرين ص١٤٥ .

ترى شكرك بتوفيقه ، وذلك التوفيق من أجلِّ النعم عليك . تشكر على النعم ، ثم تشكره على الشكر » .

الاعتراف بالعجز عن الشكر : شكر :

قال داود عليه السلام : يا رب ، كيف أشكرك ؟ وشكري لك نعمة عليَّ من عندك تستوجب بها شكرًا . فقال : الآن شكرتني يا داود[١].

والاعتراف بالعجز عن الشكر بيانه من وجوه :

الأول : أن شكر النعمة مشروط بمعرفة تلك النعمة ، ومعرفة نعم الله تعالى غير حاصلة ؛ يقول الله تعالى : ﴿ **وإنْ تَعُدّوا نعمةَ اللهِ لا تحصوها** ﴾. [النحل : ١٨]،فإذا كانت معرفة النعم غير حاصلة ؛ كان الشكر غير ممكن ، وعجز الإنسان عن شكره .

الثاني : شُكْرُ النعمة مخلوق من المنْعِم ، وذلك الشكر أعظم قدرًا من تلك النعمة ، فكيف يُعقَل شكر نعمته من غير نعمته .

الثالث : أن الله يُعطي على هذا الشكر نعمة زائدة ، فإن وقع هذا الشكر في مقابلة النعمة السابقة ؛ بقيت النعمة اللاحقة بلا شكر . وإن وقع الشكر في مقابلة اللاحقة ؛ بقيت النعمة السابقة بلا شكر . وعلى التقديرين لا يفي شكر العبد بنعمة الرب .

الرابع : أن الله يُعطيك مع استغنائه عنك ، وأنتَ تشكره مع افتقارك إليه ، فكيف يقع هذا الشكر الصادر عن الحاجة والضرورة في مقابلة الإنعام الذي هو محض التفضُّل والإحسان .

ولله درُّ محمود الورَّاق إذ يقول :

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجب الشكْرُ

(١) مدارج السالكين ٢/٢٤٥ .

فكيف وقوع الشكر إلّا بفضْله وإنْ طالت الأيام واتَّصل العمْرُ
إذا مسَّ بالسرَّاء عمَّ سرورها وإن مسَّ بالضرَّاء أعقبها الأجْرُ
وما منهما إلّا له فيه مِنَّةٌ تضيق بها الأوهامُ والبرُّ والبحْرُ

وقال الشاعر أحمد مخيمر :

لك الحمدُ إذْ أنت الشكور على الذي تجودُ به والشكر أولى به العبدُ
وشكْرُك للخير الذي أنت صانع وجلّ بنا ما يصنع الصمدُ الفردُ

درجات الشكر :

قال شيخ الإسلام الهروي : وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الشكر على المحابِّ :

قال ابن القيم : « إذا علمتَ حقيقة « الشكر » ، وأن جزء حقيقته الاستعانة بنعم المنعِم على طاعته ومرضاته ؛ علمتَ اختصاص أهل الإسلام بهذه الدرجة ، وأن حقيقة الشكر على المحابِّ ليست لغيرهم .

نعم لغيرهم منها بعض أركانها وأجزائها ؛ كالاعتراف بالنعمة ، والثناء على المنعم بها . فإن جميع الخلق في نعم الله ، وكلّ من أقر بالله ربًّا ، وتفرُّده بالخلق والإحسان ، فإنه يضيف نعمته إليه . لكن الشأن في تمام حقيقة الشكر ، وهو الاستعانة بها على مرضاته . وقد كتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية رضي الله عنه : « إن أقلَّ ما يجبُ للمنعِم على مَن أنعم عليه ، أن لا يجعل ما أنعم عليه سبيلًا إلى معصيته » .

وقد عُرف مراد الشيخ ، وهو أن هذا الشكر مشترك ، وهو الاعتراف بنعمه سبحانه ، والثناء عليه بها ، والإحسان إلى خلقه منها . وهذا بلا شكٍّ يُوجب حفظها عليهم والمزيد منها . فهذا الجزء من الشكر مشترك ، وقد تكون ثمرته في الدنيا بعاجل الثواب . وفي الآخرة بتخفيف العقاب ؛ فإن النار دركات

في العقوبة مختلفة »[١] .

الدرجة الثانية : الشكر في المكاره :

قال الهروي : « الدرجة الثانية : الشكر في المكاره . وهذا ممّن تستوي عنده الحالات ؛ إظهارًا للرضا . وممّن يُميِّز بين الأحوال ؛ لكظْم الغيظ ، وستْر الشكوى ، ورعاية الأدب ، وسلوك مسلك العلم . وهذا الشاكر أول مَن يُدعَىٰ إلى الجنة » .

قال ابن القيم : « يعني أن الشكر على المكاره أشدُّ وأصعب من الشكر على المحابِّ ؛ ولهذا كان فوقه في الدرجة ، ولا يكون إلا من أحد رجلين :

إمَّا رجل لا يُميِّز بين الحالات ، بل يستوي عنده المكروه والمحبوب ؛ فشكْر هذا إظهارٌ منه للرضا بما نزل به ، وهذا مقام الرضا .

الرجل الثاني : مَن يُميِّز بين الأحوال ؛ فهو لا يحبُّ المكروه ، ولا يرضى بنزوله به . فإذا نزل به مكروه شكر الله تعالى عليه ، فكان شكره كظْمًا للغيظ الذي أصابه ، وستْرًا للشكوى ، ورعايةً منه للأدب ، وسلوكًا لمسلك العلم . فإن العلم والأدب يأمران بشكر الله على السرَّاء والضرَّاء . فهو يسلك بهذا الشكر مسلك العلم ؛ لأنه شاكر لله شكر من رضي بقضائه ، كحال الذي قبله . فالذي قبله أرفع منه .

وإنما كان هذا الشاكر أول مَن يُدعى إلى الجنة ؛ لأنه قابل المكاره التي يُقابلها أكثر الناس بالجزع والسخط ، وأوساطهم بالصبر ، وخاصَّتهم بالرضا - فقابلها هو بأعلى من ذلك كلِّه ، وهو الشكر ، فكان أسبقهم دخولًا إلى الجنة ، وأول مَن يُدعى منهم إليها .

(١) مدارج السالكين ٢/٢٥٣ .

وقسَّم أهلَ هذه الدرجة إلى قسمين : سابقين ، ومُقَرَّبين . بحسب انقسامهم إلى مَن يستوي عنده الحالات من المكروه والمحبوب ، فلا يؤثر أحدهما على الآخر ، بل قد فني بإيثاره ما يرضى له به ربُّه عما يرضاه هو لنفسه . وإلى مَن يُؤثر المحبوب ، ولكن إذا نزل به المكروه قابله بالشكر »[1] .

قال الثوري : كان يُقال : ليس بفقيه مَن لم يعدَّ البلاء نعمة ، والرخاء مصيبة .

الدرجة الثالثة : أن لا يشهد العبد إلا المنعم :

قال الهروي : « فإذا شهد المنعم عبوديةً ؛ استعظم منه النعمة . وإذا شهده حبًّا ، استحلى منه الشدة . وإذا شهده تفريدًا ؛ لم يشهد منه نعمة ولا شدَّة » .

قال ابن القيم : « هذه الدرجة يستغرق صاحبها بشهود المنعم عن النعمة . فلا يتَّسع شهوده للمنعِم ولغيره .

وقسَّم أصحابها إلى ثلاثة أقسام ؛ أصحاب شهود العبودية ، وأصحاب شهود الحب ، وأصحاب شهود التفريد . وجعل لكل منهم حكْمًا هو أولى به .

فأما شهوده العبودية: فهو مشاهدة العبد للسيد بحقيقة العبودية والملك له ؛ فإن العبيد إذا حضروا بين يدي سيدهم فإنهم ينسون ما هم فيه من الجاه والقرب الذي اختُصُّوا به عن غيرهم باستغراقهم في أدب العبودية وحقها ، وملاحظتهم لسيدهم ؛ خوفًا أن يشير إليهم بأمر فيجدهم غافلين عن ملاحظته . وهذا أمر يعرفه من شاهد أحوال الملوك وخواصّهم .

فهذا هو شهود العبد للمنعِم بوصف عبوديته له ، واستغراقه عن الإحسان

---

(١) مدارج السالكين ٢/٢٥٤ .

بما حصل له منه من القرب الذي تميَّز به عن غيره .

فصاحب هذا المشهد : إذا أنعم عليه سيِّده في هذه الحال - مع قيامه في مقام العبودية - يُوجب عليه أن يستصغر نفسه في حضرة سيده غاية الاستصغار ، مع امتلاء قلبه من محبَّته . فأيّ إحسان ناله منه في هذه الحالة رآه عظيمًا . والواقع شاهد بهذا في حال المحبِّ الكامل المحبَّة ، المستغرق في مشاهدة محبوبه إذا ناوله شيئًا يسيرًا ؛ فإنه يراه في ذلك المقام عظيمًا جدًّا ، ولا يراه غيره كذلك .

القسم الثاني : يشهد الحق شهود محبة غالبة قاهرة له ، مستغرق في شهوده كذلك ؛ فإنه يستحلي في هذه الحال الشدة منه ؛ لأن المحبَّ يستحلي فعْل المحبوب به :

وأقلُّ ما في هذا المشهد : أن يَخِفَّ عليه حمل الشدائد ، إن لم تسمح نفسه باستحلائها . وفي هذا من الحكايات المعروفة عند الناس ما يغني عن ذكرها؛ كحال الذي كان يُضرب بالسياط ولا يتحرَّك، حتى ضُرب آخر سوط، فصاح صياحًا شديدًا ، فقيل له في ذلك ، فقال : العين التي كانت تنظر إليَّ وقْت الضرب كانت تمنعني من الإحساس بالألم ، فلما فقدتُها وجدتُ ألم الضرب .

وهذه الحال عارضة ليست بلازمة ، فإن الطبيعة تأبى استحلاء المنافي كاستحلاء الموافق .

نعم قد يقوى سلطان المحبة حتى يستحلي المحبُّ ما يستمِرُّه غيره ، ويستخف ما يستثقله غيره ، ويأنس بما يستوحش منه الخَلِّي ، ويستوحش مما يأنس به ، ويستلين ما يستوعره . وقوة هذا وضعفه بحسب قهْر سلطان المحبة ، وغلبته على قلب المحب .

القسم الثالث : أن يشهده تفريدًا ؛ فإنه لا يشهد معه نعمةً ولا شدَّة :

يقول : إن شهود التفريد يفني الرسم . وهذه حال الفناء المستغرَقِ فيه ، الذي لا يشهد نعمة ولا بليَّة ؛ فإنه يغيب بمشهوده عن شهوده له ، ويفنى به عنه . فكيف يشهد معه نعمة أو بلية ؟ كما قال بعضهم في هذا : من كانت مواهبه لا تتعدَّى يديه ، فلا واهب ولا موهوب .

وذلك مقام الجمع عندهم ، وبعضهم يُحرِّم العبارة عنه .

وحقيقته : اصطلام يرفع إحساس صاحبه برسمه فضلًا عن رسم غيره ؛ لاستغراقه في مشهوده وغيبته به عما سواه . وهذا هو مطلوب القوم .

وقد عرفت أن فوقه مقامًا أعلى منه ، وأرفع وأجلّ ؛ وهو أن يصطلم بمراده عن غيره ، فيكون في حال مشاهدته واستغراقه مُنَفِّذًا لمراسيمه ومراده ، ملاحظًا لما يلاحظ محبوبه من المرادات والأوامر .

فتأمل الآن عبدين بين يدي ملك من ملوك الدنيا ، وهما على موقف واحد بين يديه ، أحدهما مشغول بمشاهدته ؛ فإن استغراقه في ملاحظة الملك ليس فيه مُتَّسع إلى ملاحظة شيءٍ من أمور الملك ألبتة. وآخر مشغول بملاحظة حركات الملك وكلماته، وأيش أمره ولحظاته وخواطره ؛ ليرتِّب على كل من ذلك ما هو مرادٌ للملك .

وتأمل قصة بعض الملوك الذي كان له غلام يخصُّه بإقباله عليه وإكرامه ، والحظوة عنده من بين سائر غلمانه - ولم يكن الغلام أكثرهم قيمة ، ولا أحسنهم صورة - فقالوا له في ذلك ، فأراد السلطان أن يُبَيِّن لهم فضْل الغلام في الخدمة على غيره ، فيومًا من الأيام كان راكبًا في بعض شئونه ، ومعه الحشم ، وبالبعد منه جَبلٌ عليه ثلج ، فنظر السلطان إلى ذلك الثلج وأطرق ، فركض الغلام فرسه ، ولم يعلم القوم لماذا ركض ، فلم يلبث أن جاء ومعه شيءٌ من الثلج ، فقال السلطان : ما أدراك أني أريد الثلج ؟ فقال الغلام : لأنك نظرت

إليه ، ونظر الملوك إلى شيء لا يكون عن غير قصْد . فقال السلطان : إنما أخصَّه بإكرامي وإقبالي ؛ لأن لكلٍّ واحد منكم شغلًا ، وشغله مراعاة لحظاتي ، ومراقبة أحوالي . يعني في تحصيل مرادي .

وسمعتُ بعض الشيوخ يقول : لو قال ملِك لغلاميْن له بين يديه ، مستغرقيْن في مشاهدته والإقبال عليه : اذهبا إلى بلاد عدوِّي ، فأوصلا إليهم هذه الكتب ، وطالِعاني بأحوالهم ، وافعلا كيت وكيت . فأحدهما : مضى من ساعته لوجهه ، وبادر ما أمره به ، والآخر قال : أنا لا أدع مشاهدتك ، والاستغراق فيك ، ودوام النظر إليك ، ولا أشتغل بغيرك . لكان هذا جديرًا بمقْت الملك له ، وبغضه إياه ، وسقوطه من عينه ؛ إذ هو واقف مع مجرَّد حظِّه من الملِك ، لا مع مراد الملك منه . بخلاف صاحبه الأول .

وسمعتُه أيضًا يقول : لو أن شخصيْن ادَّعيا محبَّة محبوب ، فحضرا بين يديه ، فأقبل أحدهما على مشاهدته والنظر إليه فقط ، وأقبل الآخر على استقراء مراداته ومراضيه وأوامره ليمتثِلَها ، فقال لهما : ما تريدان ؟ فقال أحدهما : أريد دوام مشاهدتك ، والاستغراق في جمالك . وقال الآخر : أريد تنفيذ أوامرك ، وتحصيل مراضيك ؛ فمرادي منك ما تريدُه أنت مني ، لا ما أريده أنا منك . والآخر قال : مرادي منك تمتُّعي بمشاهدتك - أكانا عنده سواء ؟ . فمن هو الآن صاحب المحبَّة المعلولة المدخولة ، الناقصة النفسانية ، وصاحب المحبة الصحيحة الصادقة الكاملة ؟ أهذا أم هذا ؟.

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يحكي عن بعض العارفين أنه قال : الناس يعبدون الله ، والصوفية يعبدون أنفسهم .

أراد هذا المعنى المتقدِّم ، وأنهم واقفون مع مرادهم من الله ، لا مع مراد الله منهم . وهذا عين عبادة النفس . فليتأمل اللبيب هذا الموضع حقَّ التأمُّل ؛ فإنه

محكٌّ وميزان ، والله المستعان »[١] .

عُلُوُّ همَّة نوح عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ **ذريَّة من حملنا مع نوح إنه كان عبدًا شكورًا** ﴾. [الإسراء : ٣] .

قال ابن القيم في « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » (ص١١٣) : « قد أثنى الله سبحانه وتعالى على أوّل رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر ، وفي تخصيص نوح هاهنا بالذِّكر وخطاب العباد بأنهم ذريَّته ؛ إشارة إلى الاقتداء به فإنه أبوهم الثاني ؛ فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلًا إلا من ذريَّته ، كما قال تعالى : ﴿ **وجعلنا ذريَّته هم الباقين** ﴾. [الصافات : ٧٧] فأمر الذريَّة أن يتشبَّهوا بأبيهم في الشكر ، فإنه كان عبدًا شكورًا .

عن مجاهد ، في قوله تعالى : ﴿ **إنه كان عبدًا شكورًا** ﴾؛ قال : لم يأكل شيئًا إلا حمد الله عليه ، ولم يشرب شرابًا قط إلا حمِدَ الله عليه ، ولم يبطش بشيءٍ قط إلا حمد الله عليه ؛ فأثنى الله عليه أنه كان عبدًا شكورًا .

وقال محمد بن كعب : « كان نوح إذا أكل قال : الحمد لله ، وإذا شرب قال : الحمد لله ، وإذا لبس قال : الحمد لله ، وإذا ركب قال : الحمد لله ؛ فسمَّاه الله عبدًا شكورًا » .

فصلواتُ ربِّي وسلامه على مَن حدَّث بنعمة ربِّه عليه ، دعوة إليه وتبليغًا لرسالته ألف سنة إلا خمسين عامًا .. فما أعظم شكره .

إبراهيم الخليل عليه السلام : الشاكر لأنعم ربِّه :

قال ابن القيم : « أثنى الله سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال : ﴿ **إن إبراهيم كان أمَّة قانتًا لله حنيفًا ولم يكُ من المشركين شاكرًا لأنْعُمه اجتباه**

---

(١) مدارج السالكين ٢/٢٥٥ - ٢٥٨ .

وهداه إلى صراطٍ مستقيم ﴾. [النحل : ١٢١] ، فأخبر عنه سبحانه بأنه أمّة ، أي قدوة يُؤتم به في الخير ، وأنه قانتٌ لله ، والقانت : هو المطيع المقيم على طاعته . والحنيف : هو المقبل على الله ، المعرض عما سواه . ثم ختم له هذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه ، فجعل الشكر غاية خليله »[١] .

موسىٰ عليه السلام : من سادات الشاكرين :

قال ابن القيم : « أمر الله عبده موسى أن يتلقَّى ما آتاه من النبوَّة والرسالة والتكليم بالشكر ، فقال تعالى : ﴿ **يا موسى إني اصطفيتُك على الناسِ برسالاتي وبكلامي فخُذ ما آتيتك وكُن من الشاكرين** ﴾. [الأعراف : ١١٤] .

عن أبي الجلد قال : قرأتُ في مسألة موسى عليه السلام أنه قال : « يا رب ، كيف لي أن أشكرك وأصغر نعمةٍ وضعتها عندي من نعمك ، لا يُجازي بها عملي كلّه . قال : فأتاه الوحي : أن يا موسى ، الآن شكرتني »[٢] .

داود عليه السلام :

عن أبي الجلد قال : قرأت في مسألة داود عليه السلام ربَّه أنه قال : « أي ربِّ ، كيف لي أن أشكرك ، وإني لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك . قال : فأتاه الوحي : أن يا داود ، أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني ؟ قال : بلى يا رب . قال : فإني أرضى بذاك منك شكرًا »[٣] .

« قال ثابت البناني: كان داود عليه السلام قد جزَّأ ساعات الليل والنهار على أهله ، فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلِّي

(١) عُدَّة الصابرين ص١١٣ – ١١٤ .
(٢) الشكر لابن أبي الدنيا ص١٧ . دار ابن كثير .
(٣) الشكر لابن أبي الدنيا ص٦٧ .

فيها ، قال . فعمَّهم تبارك وتعالى في هذه الآية ﴿ **اعملوا آل داود شكرًا وقليلٌ مِن عبادي الشكور** ﴾. [سبأ : ١٣][1] .

وعن سعيد بن عبد العزيز قال : « كان من دعاء داود : سبحان مستخرج الشكر بالعطاء ، ومستخرج الدعاء بالبلاء »[2] .

وعن الحسن قال : قال نبي الله داود : « إلهـي لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبّحانك الليل والنهار والدهر ، ما وفَّيتُ حقَّ نعمةٍ واحدة »[3] .

سليمان بن داود عليه السلام :

هذا النبي الصالح ابن النبي الصالح ، عليهما السلام ، ما شغله الملك - الذي ما آتاه أحدًا من العالمين قبله ولا بعده - عن الشكر والتحدُّث بنعم الله عليه .

قال تعالى : ﴿**وورث سليمان داود وقال يأيُّها الناسُ عُلِّمنا منطِقَ الطير وأُوتينا من كلِّ شيءٍ إن هذا لهو الفضلُ المبين وحُشِر لسليمانَ جنودُه من الجنِّ والإنس والطير فهم يُوزعون حتى إذا أتَوْا على وادي النمل قالت نملةٌ يأيها النملُ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنَّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسَّم ضاحكًا من قولها وقال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين** ﴾.

[النمل : ١٦ - ١٩].

ولما حُمل إليه عرش بلقيس قال : ﴿ **هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكرُ لنفسه ومن كفر فإنَّ ربي غنيٌّ كريم** ﴾.

[النمل : ٤٠].

---

(١)،(٢) عُدَّة الصابرين ص١٢٠ .

(٣) عُدَّة الصابرين ص١٢١ .

سيِّد الشاكرين : رسول الله ﷺ :

قال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ **بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾. فكان ﷺ سيِّد الشاكرين .

عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى قام حتى تفطَّر رجلاه . قالت عائشة : يا رسول الله ، أتصنع هذا وقد غُفِر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ؟ فقال : « يا عائشة ، أفلا أكون عبدًا شكورًا »(١)؟!

وعن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ صلَّى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : أتكلَّف هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ؟! فقال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا »(٢).

وعند البخاري : أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه ، فقالت عائشة : لم تصنع هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « أفلا أحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا » .

وكان من دعائه ﷺ : « ربِّ ، أعنِّي ولا تُعِن عليّ ، وانصرني ولا تنصر عليَّ ، وامكر لي ولا تمكر عليّ ، واهدني ويسِّر هداي إليّ ، وانصرني على من بغى عليّ .

اللهم اجعلني لك شاكرًا ، لك ذاكرًا ، لك راهبًا ، لك مطواعًا ، إليك مخبتًا ، إليك أوَّاهًا منيبًا .

ربِّ تقبَّل توبتي ، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبِّت حُجَّتي ، واهد قلبي ، وسدِّد لساني ، واسلل سخيمة قلبي »(٣).

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم واللفظ له .
(٢) رواه البخاري ، ومسلم واللفظ له ، والترمذي ، والنسائي .
(٣) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي ، وابن ماجه والحاكم وابن =

وفي رواية : « اجعلني لك شكّارا » .

وانظر إلى وصيته لمن يحبُّه :

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، إني والله لأحبُّك ، أوصيك يا معاذ : لا تدعنَّ في دُبُر كلِّ صلاةٍ أن تقول : اللهم أعنِّي علي ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »[1].

عن أبي هريرة قال : دعا رجل من الأنصار - من أهل قباء - النبيَّ ﷺ ، فانطلقنا معه ، فلما طَعِمَ وغسل يده - أو قال : يديه - قال : « الحمد لله الذي يُطْعِم ولا يُطْعَم ، مَنَّ علينا فهدانا ، وأطعمنا وسقانا ، وكل بلاءٍ حسنٍ أبلانا . الحمد لله غير مودَّع ربي ولا مكافأً ولا مكفور ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذي أطعم الطعام ، وسقى من الشراب ، وكسا من العُرْي ، وهدى من الضلالة ، وبصَّر من العَمَى ، وفضَّل على كثير ممن خلقه تفضيلا ، الحمد لله ربِّ العالمين »[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفُجاءة نقمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وجميع سخطك »[3].

= أبي عاصم عن ابن عباس ، وصحَّحه الحاكم والذهبي ، والألباني في صحيح الجامع رقم (٣٤٧٩) .

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم في المستدرك وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٨٤٦) .

(٢) حسن : رواه ابن أبي الدنيا في الشكر ، وابن السني ، وخرجه الحافظ من طرق وحسَّنه كما قال ابن علان في الفتوحات الربَّانيَّة على الأذكار النوويّة (٥/٢٣٠) .

(٣) رواه مسلم .

الصديق يسأل تمام النعمة :

قال عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون : حدَّثني من أُصدِّقه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقول في دعائه : « اللهم أسألك تمام النعمة في الأشياء كلِّها، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا ، والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع مُيسَّر الأمور كلِّها لا معسورها يا كريم »[(١)].

عثمان ذو النورين النبيل :

« دُعي عثمان رضي الله عنه إلى قوم على ريبة فانطلق ليأخذهم فتفرَّقوا قبل أن يبلغهم ، فأعتق رقبة ؛ شكرًا لله أن لا يكون جرى على يديه خزي مسلم »[(٢)].

لله درُّه .. ما أنبل هذا .. بل والله هذا هو النُّبل والشفافية ورقَّة القلب في أعظم مظاهرها .

علي بن أبي طالب :

كان علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده ، وقال : يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها[(٣)].

وعن علي – رضي الله عنه – أنه قال لرجل من أهل همدان: «إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر متعلِّق بالمزيد ، وهما مقرونان في قرنٍ ؛ فلن ينقطع المزيد من الله عز وجل حتى ينقطع الشكر من العبد »[(٤)].

---

(١) عُدَّة الصابرين ص١٢٦ .
(٢) عُدَّة الصابرين ص١٢٨ .
(٣) عُدَّة الصابرين ص١٢٢ .
(٤) الشكر لابن أبي الدنيا .

النجاشي وتواضعه شكرًا لربِّه :

« ذكر عبد الله بن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه ، فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان جالس على التراب ، قال جعفر : فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ، فلمّا رأى ما في وجوهنا ، قال : إني أبشِّركم بما يسرُّكم ؛ إنه جاءني من نحو أرضكم عينٌ لي ، فأخبرني أن الله قد نصر نبيَّه ﷺ ، وأهلك عدوَّه . وأُسِرَ فلان وفلان ، وقُتِل فلان وفلان ؛ التقوْا بوادٍ يُقال له : بدر . كثير الأراك ، كأني أنظر إليه ، كنتُ أرعى به لسيدي ؛ رجل من بني ضمرة . فقال له جعفر : ما بالك جالسًا على التراب ، ليس تحتك بساط، وعليك هذه الأخلاق ؟! قال: إنّا نجد فيما أنزل الله على عيسى ﷺ: أن حقًّا على عباد الله أن يُحْدِثوا لله تواضعًا عندما أحدث الله لهم من نِعَمِه ؛ فلمَّا أحدث الله لي نَصْر نبيِّه ، أحدثتُ لله هذا التواضع »[(١)] .

عمر بن عبد العزيز :

عن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز قال : ما قلَّب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله عز وجل بها عليه إلّا قال : اللهم إني أعوذ بك أن أُبدِّل نعمتك كفرًا ، أو أكفرها بعد معرفتها ، أو أنساها فلا أُثني بها[(٢)].

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : قيِّدُوا نعم الله عز وجل بالشكر لله تعالى .

علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه :

« كان علي بن الحسين – رضي الله عنه – بمنى ، فظهر من دعائه أن

---

(١) عُدَّة الصابرين ص١٢٩ .

(٢) عُدَّة الصابرين ص١١٨ .

قال : « كم من نعمة أنعمتَها عليَّ قلَّ لك عندها شكري ، وكم من بليَّةٍ ابتليتني بها قلَّ لك عندها صبري ؛ فيا مَن قلَّ شكْري عند نعمته فلم يحرمني ، ويا مَن قلَّ صبري عند بلائه فلم يخذُلني ، ويا مَن رآني على الذنوب العظام فلم يفضحني ولم يهتك ستري ، ويا ذا المعروف الذي لا ينقضي ، ويا ذا النعم التي لا تَحُولُ ولا تَزُول ؛ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ ، واغفر لنا وارحمنا » .

ولمَّا حُمَّ عباية بن كليب الكوفي – أبو غسَّان – بنيسابور ، قال : دعوتُ بهذا الدعاء ، فذهب عني »[(١)] .

الحسن البصري سيد عباد البصرة :

كان الحسن يقول – إذا ابتدأ حديثه –: « الحمد لله ، اللهم ربنا لك الحمد كما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلَّمتنا وأنقذتنا وفرَّجت عنا ، لك الحمد بالإسلام والقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة ؛ كبتَّ عدوَّنا ، وبسطتَّ رزقنا ، وأظهرت أُمّتنا ، وجمعتَ فُرْقتنا ، وأحسنتَ معافاتِنا ، ومن كلِّ – والله – ما سألناك ربَّنا أعطيتنا ، فلك الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا . لك الحمد بكلِّ نعمة أنعمتَ بها علينا في قديمٍ أو حديث ، أو سرٍّ أو علانية ، أو خاصَّةٍ أو عامَّة ، أو حيٍّ أو ميِّت ، أو شاهدٍ أو غائب . لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيتَ »[(٢)]. وزاد في رواية ابن أبي الدنيا : « فلك الحمد كثيرًا كما تُنْعِمُ كثيرًا ؛ أعطيتَ خيرًا كثيرًا ، وصرفتَ شرًّا كبيرًا . فَلِوجْهك الجليل الباقي الدائم : الحمد ، الحمدُ لله ربِّ العالمين » .

وعن روح بن القاسم قال : تنسَّك رجلٌ فقال : لا آكل الخبيص ؛ لا

(١) الشكر لابن أبي الدنيا ص٨٥ ، ١٠٥ .
(٢) الشكر لابن أبي الدنيا ص١٤٦ ، وعُدَّة الصابرين ص١٢٢ .

أقومُ بشكره . فقال الحسن : هذا أحمق ، وهل يقومُ بشكر الماء البارد[(١)]؟

قال هشام بن سلمان : كنت قاعدًا عند الحسن وبكر بن عبد الله المزني ، فقال له الحسن : هات يا أبا عبد الله دعوات لإخوانك . فحمد الله وأثنى عليه ، وصلَّى على النبي ﷺ ، ثم قال : والله ما أدري أيّ النعمتين أفضل عليَّ وعليكم ؛ أنعْمةُ المسلك أم نعمة المخرج ، إذ أخرجه الله منَّا ؟! قال الحسن : لقد قلتَ عجبًا يا بكر ، إنها لمن نِعَمه العظام[(٢)] .

عن الحسن قال : يا لها من نعمة !! تُؤْكَلُ لذَّةً وتخرج سُرحًا[(٣)]؛ لقد كان مِلِك من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانه يأتي الحُبَّ فيكتاز[(٤)] منه ، ثم يُجَرْجرُ قائمًا ، فيقول : يا ليتني مثلك . ما يشرب حتى يقطع عَيْفَة العطش ، فإذا شرب كان له في تلك الشربة موتات ، يا لها من نعمة !! تُؤْكَلُ لذَّةً ، وتخرجُ سُرُحًا .

عن الحسن قال : أكثروا ذكْر هذه النعمة ؛ فإن ذكرها شكرها .

وقال الحسن : من لا يرى لله عليه نعمة إلا في مطعمٍ أو مشربٍ أو لباس ، فقد قصر علْمُه وحضر عذابه[(٥)].

عن الحسن قال : إنَّ الله عز وجل لَيُمَتِّع بالنعمة بما شاء ، فإذا لم يُشكر ؛ قَلَبها عليهم عذابًا .

---

(١) عدة الصابرين ص١١٨ .

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا ص١٦١ ، ١٦٢ .

(٣) السرح: إدرار البول بعد احتباسه، وتخرج سرحًا أي سهلًا سريعًا. ويا لها من نعمة: يعني الشَّربة من الماء .

(٤) يكتاز أي يغترف بالكوز ، والحب : الجرة والخابية ، وكان بهذا الملك احتباس بول فتمنى حال غلامه .

(٥) عدة الصابرين ص١٣٩ .

أنتَ عندي أفْقَهُ من الحسن ، فالزَمْ ما أنت عليه :

عن إبراهيم بن عبد الله المديني قال : قيل للحسن : هاهنا رجلٌ لم نره قطّ جالسًا إلى أحد ، ولا رأينا أحدًا جالسًا إليه ، إنما هو أبدًا خلف ساريةٍ وحده ، فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبروني به . قال : فمرُّوا به ذات يوم ومعهم الحسن فأشاروا إليه ، فقالوا : ذلك الرجل الذي أخبرناك به . فقال : امضوا حتى آتيه . فلمّا جاءه قال : يا عبد الله ، أراك قد حُببَ إليك العزلة ، فما يمنعك من مخالطة الناس ؟ قال : ما أشغلني عن الناس !! قال : فتأتي ذا الرجل الذي يقال له : الحسن . فتجلسَ إليه . قال : ما أشغلني عن الحسن وعن الناس !! قال له الحسن: ما الذي شغلك - رحمك الله - عن الناس وعن الحسن ؟ قال : إني أُصبح وأمسي بين ذنبٍ ونعمة ؛ فرأيت أن أُشغل نفسي عن الناس بالاستغفار من الذنب وأشكر الله على النعمة . فقال له الحسن : أنت عندي يا عبد الله أفْقَه من الحسن فالزَمْ ما أنت عليه[(١)] .

بكـر بن عبد الله المُـزني :

« عن بكر بن عبد الله أنه قال : ما قال عبدٌ قطّ : الحمد لله . إلّا وجبت عليه نعمة بقوله: الحمد لله. قلت: فما جزاء تلك النعمة ؟ قال: جزاؤها أن يقول: الحمد لله. فجاءت نعمة أخرى، فلا تنفدُ نعم الله عز وجل » .

وكان رحمه الله يقول : يا ابن آدم ، إن أردتَ أن تعلمَ قدْر ما أنعم الله عليك ، فغمِّض عينيك .

الحمَّال فيها أفقهُ من بكـر المـزني :

« عن بكر بن عبد الله أنه لحقَ حمَّالًا عليه حِمْلُهُ وهو يقول : الحمد لله ،

(١) الشكر ص١٦٣ - ١٦٤ .

وأستغفر الله . قال : فانتظرتُهُ حتى وضع ما على ظهره ، وقلت له : أما تُحسن غير ذي . قال : بلى أُحْسن خيرًا كثيرًا ؛ أقرأ كتابَ الله ، غير أنَّ العبدَ بين نعمةٍ وذنب ؛ فأَحْمَدُ اللهَ على نعمائِه السابغة ، وأستغفر لذنوبي . فقلتُ : الحمَّال فيها أفْقَهُ من بكر »[(١)] .

يُونس بن عُبَيْد :

جاء رجل إلى يونس بن عُبَيْد ، يشكو ضيق حاله ، فقال له يُونس : أيَسُرُّك ببصرك هذا الذي تبصر به مائة ألف درهم ؟ قال الرجل : لا . قال : فبيديك مائة ألف ؟ قال الرجل : لا . قال : فبرجليك ؟ قال الرجل : لا . قال : فذكَّره نِعَم الله عزَّ وجلَّ . فقال يونس : أرى عندك مئين الألوف ، وأنت تشكو الحاجة[(٢)]؟! .

فضيل بن عياض وابن عيينة يتذكران النعَمَ إلى الصباح :

عن ابن أبي الحواري قال : جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلةً إلى الصباح يتذكران النعم ، فجعل سفيان يقول : أنعم الله علينا في كذا ، أنعم الله علينا في كذا ، فعل بنا كذا ، فعل بنا كذا[(٣)] .

أبو حازم - رحمه الله - وفِطْنته وعِلْمُه وشكره :

« قال رحمه الله : نعمةُ الله فيما زُوِيَ عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها ، إني رأيتُه أعطاها قومًا فهلكوا ، وكلّ نعمةٍ لا تقرب من الله فهي بليَّة ، وإذا رأيتَ اللهَ يُتابِع عليك نِعَمه وأنتَ تعصيه فاحذَرْه »[(٤)] .

---

(١) الشكر .
(٢) عُدَّة الصابرين ص١٢٥ ، والشكر .
(٣) الشكر ، وعُدَّة الصابرين ص١٢٧ .
(٤) عُدَّة الصابرين ص١٢٧ .

« وقال رجل لأبي حازم : ما شكْرُ العينين يا أبا حازم ؟ قال : إن رأيتَ بهما خيرًا أعلنته ، وإن رأيت بهما شرًّا سترته . قال : فما شكْر الأذنين ؟ قال : إن سمعتَ بهما خيرًا وعيْته ، وإن سمعتَ بهما شرًّا أخفيته . قال : ما شكْرُ اليدين ؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لهما ، ولا تمنع حقًّا لله هو فيهما . قال : ما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله طعامًا وأعلاه علمًا . قال : ما شكر الفرج ؟ قال : كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غيرُ ملومين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فأولئك هم العادون** ﴾. [المؤمنون : ٧] . قال : فما شكر الرِّجْلين ؟ قال : إن رأيتَ حيًّا غبطته ؛ استعملتَ بهما عمله ، وإن رأيتَ ميّتًا مقتَّه ؛ كففتهما عن عمله وأنت شاكرٌ لله .

وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه ، فمثله كمثل رجل له كساء ، فأخذ بطرفه ولم يلبسه ، فلم ينفعه ذلك من الحرِّ والبرد والثلج والمطر(١) .

قال مطرِّف بن عبد الله : لَأَن أُعافى فأشكُر ، أحبُّ إليَّ مِن أن أُبتلى فأصبر .

وعن محمد بن منصور الطوسي الإمام الحافظ أبي جعفر،سُئل : إذا أكلتُ وشبعت فما شكر تلك النعمة ؟ قال : أن تصلِّي حتى لا يبقى في جوفك منه شيءٌ(٢) .

وكان المزني إذا فرغ من تبييض مسألة وأودَعَها مُختصرَه ، صلَّى لله ركعتين(٣) .

(١) الشكر ص١٣٠ ، وعُدَّة الصابرين . ص١٢٨ - ١٢٩ .
(٢) السير ١٢/ ٢١٢ - ٢١٤ .
(٣) السير ١٢/ ٤٩٢ - ٤٩٧ .

قال عبد الرحمن بن زيد : الشكر يأخذ بحزم الحمد وأصله وفرعه . ينظر في نعم الله ؛ في بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجْليه وغير ذلك ، ليس من هذا شيءٌ إلَّا فيه نعمة من الله ، حقٌّ على العبد أن يعمل في النعمة – التي هي في بدنه – لله في طاعته ونعمة أخرى في الرزق ، وحقّ عليه أن يعمل لله فيما أنعم عليه به من الرزق بطاعته. فمن عمل بهذا كان قد أخذ بحزم الشُّكر وأصله وفرعه[1] .

لله درُّ محمد بن واسع ... ما أفقهه وما أعظم شكره :

قال عبد العزيز بن أبي داود : رأيتُ في يد محمد بن واسع قُرْحَةً ، فكأنَّه رأى ما شقَّ عليّ منها ، فقال لي : أتدري ماذا لله عليّ في هذه القرحة من نعمة ، حين لم يجعلها في حَدَقتي ، ولا طَرَف لساني ، ولا على طَرَف ذكرتي . فهانت عليَّ قرحتُه[2] .

جلساء الرحمٰن : أهل الشكر :

قال أبو سليمان الداراني : جلساء الرحمن يوم القيامة مَن جُعل فيه خصال الكرم والسخاء ، والحلم والرأفة ، والشكر والبِرّ ، والصبر[3] .

أقلُّ نعمة لا تهتدي لشكرها العقول :

قال أحمد بن أبي الحواري : قالت لي مؤمنة المتعبِّدة[4]: أنا في شيءٍ قد

(١) عُدَّة الصابرين ص١٣٩ ، والشكر ص١٦٠ .
(٢) الشكر ص١٤٠ ، وعُدَّة الصابرين ص١٣٤ .
(٣) الشكر ص١٥٩ ، وعُدَّة الصابرين ص١٣٨ .
(٤) هي مؤمنة بنت بُهلول : عابدة من عابدات بغداد ، كما جاء في أعلام النساء (٣/ ١٥١٢) .

شغل قلبي . قلت : ما هو ؟ قالت : أُريد أن أعرف نعمة الله عليَّ في طرفة عين ، أو أعرف تقصيري عن شكر النعمة عليّ في طرفة عين ؟! قلت لها : أنت تريدين ما لا تهتدي إليه عقولنا !! .

وقال أحمد بن أبي الحواري : قلتُ لأبي معاوية الأسود : يا أبا معاوية ، ما أعظم النعم علينا في التوحيد،نسألُ الله ألا يسلُبناه . قال : يحقّ على المنعِم أن يُتِمَّ على مَن أنعم عليه .

وقال يمان – أبو معاوية الأسود –: سمعتُ أخي سفيان الثوري يقول : ما كان الله لِيُنعم على عبد في الدنيا فيفضحه في الآخرة ، وحقّ على المنعم أن يتمَّ على مَن أنعم عليه(1) .

الشكر : أن لا تعصي اللهَ بنِعَمِه :

قال الجُنَيد : كنتُ بين يدي السريّ ألعب – وأنا ابن سبع سنين – وبينا جماعة يتكلَّمون في الشكر . فقال لي : يا غلام ، ما الشكر ؟ فقلتُ : أن لا تعصي الله بنعمه . فقال : يُوشك أن يكون حظُّك من الله لسانك . فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السريّ(2) .

شكْرُ الله على أعظم النعم : توحيده :

« عن مجاهد : ﴿ **وأسبغ عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطنةً** ﴾ . قال : لا إله إلا الله .

عن سفيان بن عيينة قال: ما أنعم الله عزَّ وجلَّ على العباد نعمة أفضل من أن عرَّفهم أن لا إله إلا الله . قال : وإن « لا إله إلا الله » لهم في الآخرة كالماء

---

(1) الشكر ص١٣٦ ، ١٣٧ .

(2) عُدَّة الصابرين ص١٤٤ .

في الدنيا »[١] .

قال ابن القيم : « حبس السلطان رجلًا فأرسل إليه صاحبه : اشكر الله . فضُرب ، فأرسل إليه : اشكر الله . فجيء بمحبوس مجوسي مبطون ، فقيِّد وجعل حلقة من قيده في رجْله وحلقة في الرجل المذكور ، فكان المجوسي يقوم بالليل مرات ، فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفرغ ، فكتب إليه صاحبه : اشكر الله . فقال له : إلى متى تقول : اشكر الله ، وأيُّ بلاءٍ فوق هذا ؟ فقال: ولو وُضِع الزِّنَّار الذي في وسطه في وسطك، كما وُضِع القيد الذي في رِجْله في رجْلك ماذا كُنت تصنع ؟ فاشكر الله .

ودخل رجل على سهل بن عبد الله فقال : اللصُّ دخل داري وأخذ متاعي . فقال : اشكر الله ، فلو دخل اللصُّ قلبَك – وهو الشيطان – وأفسد عليك التوحيد ، ماذا كنت تصنع ؟ »[٢] .

تمام النعمة : أن تضع رِجْلًا في الجنة :

وسئل أبو بكر بن أبي مريم : ما تمام النعمة ؟ قال : أن تضع رِجْلًا على الصراط ورِجْلًا في الجنة[٣] .

شكْر الله على البعد عن المعصية :

قال سفيان بن عيينة : عمل رجل من أهل الكوفة بخُلُقٍ دنيء ، فأعتق جاريةً له ، إذْ عافاه الله من ذلك الخُلُق .

قال : وأُمْطِر أهل مكة مطرًا تهدَّمتْ منه البيوت ، فأعتق ابن أبي رَوّاد

---

(١) الشكر لابن أبي الدنيا .

(٢) عُدَّة الصابرين ص١٤٤ – ١٤٥ .

(٣) عُدَّة الصابرين ص١٣٨ .

جاريةً له ؛ شكرًا لله إذْ عافاه الله من ذلك[١] .

ومن دقيق النعم التي تستحقُّ الشكر :

قال شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية : « من دقيق نِعَم الله على العبد التي لا يكاد يفطن لها أنه يُغلق بابه، فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئًا من القوت ؛ ليعرِّفه نعمته عليه » .

« وقال سلام بن أبي مطيع : متى شئتَ أن ترى من النعمة عليك أكثر منها عليه ، رأيته .

قال سلّام : إنك والله إنْ أغلقتَ عليك بابك ، جاءك من يدقّ عليك بابك يسألك ، ليعرِّفك الله نعمته عليك .

وقال سلام : دخلتُ على مريض أعوده ، فإذا هو يئنُّ ، فقلتُ له : اذكر المطروحين في الطريق ، اذكر الذين لا مأوىٰ لهم ، ولا لهم مَن يخدمهم . قال : ثم دخلتُ عليه بعد ذلك فلم أسمعه يئنُّ . قال : وجعل يقول : اذكر المطروحين في الطريق ، اذكر من لا مأوى له ، ولا له مَن يخدمه »[٢] .

ربُّك المُحْسن قديمًا وحديثًا إليك ، فأحرىٰ أن تُدْئب نفسك في أداء شكره :

«عن عبد الله بن أبي نوح قال: قال لي رجل على بعض السواحل : كم عاملتَه تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحبُّ ؟ قلتُ : ما أُحْصي ذلك كثرةً . قال : فهل قصدتَ إليه في أمر كرْبك فخَذَلَك ؟ قلت : لا والله ، ولكنه أحسن إليَّ فأعانني . قال : فهلْ سألته شيئًا قط فأعطاك ؟ قلتُ : وهل منعني شيئًا سألته ؟ ما سألتُه شيئًا قطّ إلا أعطاني ، ولا استغثتُ به إلا أغاثني . قال : أرأيت

(١) الشكر ص١٥٧ .
(٢) الشكر ١٣٤ - ١٣٥ .

لو أن بعض بني آدم فعل بك هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك ؟ قلت : ما كنتُ أقدر له على مكافأة ولا جزاء . قال : فربُّك أحقُّ وأحرى أن تُدئِبَ نفسك له في أداء شكر نعمته عليك ، وهو المحسن قديمًا وحديثًا إليك ، واللهِ لَشكْره أيسرُ من مكافأة عباده ؛ إنه تبارك وتعالى رضي بالحمد من العباد شُكْرًا »[1] .

لله على أهل النار مِنَّة :

قال ابن شوذب:قال عبد الله - يعني ابن مسعود[2] رضي الله عنه -: إن لله على أهل النار مِنَّة ؛ لو شاء أن يعذِّبهم بأشدّ من النار لعذَّبهم[3] .

من نِعَم الله السابغة : أن يزوي الدنيا عنك :

قال صالح بن مسمار : نعمة الله عليّ فيما زُوي عني من الدنيا ؛ أفضل من نعمته فيما أعطاني[4].

قال مسعر : كان عبد الأعلى التيمي يقول : أكْثِروا سؤال الله العافية ؛ فإن المُبْتلَى - وإن اشتدَّ بلاؤه - ليس بأحقّ بالدعاء من المُعافَى الذي لا يأمن البلاء ، وما المُبْتلَوْن اليوم إلّا من أهل العافية بالأمس ، وما المُبْتَلون بعد اليوم إلّا من أهل العافية اليوم ، إنه رُبَّ بلاءٍ قد أجهد في الدنيا وأجزى في الآخرة ، فما يؤمن مَن أطال المقام على معصية الله ، أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهد في الدنيا ، ويفضحه في الآخرة . ثم يقول عند ذلك : الحمد لله الذي إنْ نعدّ نِعَمَه لا نُحصيها ، وإن ندأب له عملًا لا نُحْرمها ، وإن

---

(١) الشكر ص١٣٥ - ١٣٦ ، وعُدَّة الصابرين ١٣١ - ١٣٢ .
(٢) هذا قول ابن القيم ، وأظنُّه عبد الله بن القاسم يروي عن ابن المسيب ، ويروي عنه ابن شوذب . والله تعالى أعلم .
(٣) عُدَّة الصابرين ص١٣٨ .
(٤) الشكر ١٢٨ - ١٢٩ .

نعمر فيها لا نبليها .

قال عباءة بن كُليب : كتب إليّ ابن السمَّاك : أما بعد ، فإني كتبتُ إليك وأنا مسرورٌ مستورٌ ، وأنا بهما مغرورٌ ، ذنبٌ ستره عليّ فقد طابت النفس به كأنه مغفور ، ونِعَمٌ أبلاها فأنا بها مسرور ، كأني فيها على تأدية الحقوق ، فليت شعري ما عواقب هذه الأمور ؟! .

نعمتان لا أدري أيّتهما أفضل ؟

قال يونس بن عُبيد : قال رجل لأبي تميمة : كيف أصبحتَ ؟ قال : أصبحتُ بين نعمتين لا أدري أيّتهما أفضل ؛ ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيِّرني بها أحد ، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي[1] .

وكتب بعض الحكماء إلى أخ له : أما بعد يا أخي ، فقد أصبح بنا من نِعَم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه ، فما ندري أيها نشكر ؛ أجميل ما ظهر أم قبيح ما ستر ؟!! .

كان بعض العلماء يقول إذا تلا : ﴿ **وإن تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحصوها** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] : سبحان مَن لم يجعل في أحد من معرفة نِعَمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها ، كما لم يجعل في أحد من إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدركه ؛ فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكرًا ، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيمانًا ، علمًا منه أن العباد لا يتجاوزون عن ذلك .

عالي الهمَّة يَجِدُّ في شكْر الشكور ولا يفْتُر :

قال القشيري : « من آداب من عرف أنه عز وجل الشكور أن يجِدَّ في شكره ولا يفتُر ، ويواظب على حمده ولا يقصر .

(١) الشكر ص١٢٨ ، وعُدَّة الصابرين ص١١٩ .

والشكر على أقسام : بالبدن : وهو أن لا تستعمل جوارحك في غير طاعته ، وشكْرٌ بالقلب: وهو ألّا تشغل قلبك بغير ذكره ومعرفته ، وشكْرٌ باللسان : وهو أن لا تستعمله في غير ثنائه ومدحه ، وشكْرٌ بالمال : وهو ألّا تنفقه في غير رضاه ومحبّته »[1] .

من منازل الشكر :

« يقال : الشكر ثلاث منازل : لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإفضال عليه »[2] .

قال الجنيد : « الشكر : أن لا ترى نفسك أهلًا للنِّعمة »[3].

« قيل : خمسة أشياء ضائعة ؛ سراجٌ يُوقد في شمس ، ومطرٌ جَوْد في سبخة ، وحسناء تُزفّ إلى عِنِّين ، وطعامٌ استُجيد وقُدِّم إلى سكران ، ومعروف صُنع إلى مَن لا شكر له »[4] .

وقال بعض الحكماء : « من أُعطي أربعًا ، لم يُمنع أربعًا : مَن أُعطي الشكر ؛ لم يُمنع المزيد . ومَن أُعطي التوبة ؛ لم يُمنع القبول . ومَن أُعطي الاستخارة ؛ لم يُمنع الخِيَرة . ومَن أُعطي المشورة ؛ لم يُمنع الصواب » .

عن معاذ أن رسول الله ﷺ أتى على رجل وهو يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمة . فقال : « يا ابن آدم ، وهل تدري ما تمام النعمة ؟ » . قال : يا رسول الله ، دعوةٌ دعوتُ بها أرجو بها خيرًا . فقال : « إن من تمام النعمة

---

(١) التحبير في التذكير للقشيري ص٥٨ ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ١٦٧/٣ .
(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٢٦٦/٢ .
(٤) عيون الأخبار ١٦٩/٣ .

فوزًا من النار ، ودخولًا إلى الجنة »[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا كان في سفر فبدا له الفجر قال : « سمع سامع بحمد الله ونعمته وحسن بلائه علينا ، ربنا صاحبنا فأفْضِل علينا ، عائذًا بالله من النار » . يقول ذلك ثلاث مرات ، ويرفع بها صوته[٢] .

وعن ابن غنام - عبد الله - عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يُصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحدٍ من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر ؛ إلّا أدّى شكر ذلك اليوم »[٣] .

علو همّة الجن في الشكر :

قال رسول الله ﷺ للصحابة : « لمَّا قرأتُها - يعني سورة الرحمن - على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردودًا منكم ؛ كنتُ كلما أتيتُ على قوله : ﴿ **فبأي آلاء ربِّكما تُكذِّبان** ﴾ . قالوا : ولا بشيءٍ من نِعَمِك ربّنا نُكَذِّبُ ، فلك الحمد »[٤] .

---

(١) حسن : رواه أحمد في المسند ، والترمذي رقم (٣٥٢٤) في الدعوات باب رقم (٩٩) ، وحسّنه عبد القادر الأرناؤوط في تخريج كتاب الشكر لابن أبي الدنيا ص١٤٣ .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، وصحّحه ووافقه الذهبي ، ورواه مسلم في صحيحه دون قوله : « يقول ذلك ثلاث مرات ، يرفع بها صوته » . ورواه أبو داود في الأدب .

(٣) حديث حسن : أخرجه أبو داود ، وابن حبان في صحيحه ، والنسائي في الكبرى ، وابن السني في عمل اليوم والليلة ، وابن أبي الدنيا في الشكر واللفظ له ، وقال ابن علان في « الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية » ٣ / ١٠٧ : « قال الحافظ ابن حجر : حديث حسن » .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجه عن أنس ، ورواه ابن السني ، والخرائطي ، والضياء في المختارة ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٥٦٣) .

قال الثوري : ما أنعم الله على عبد في حاجة أكثر من تضرُّعه إليه فيها .

وقال أبو حازم : نعم الله فيما زُوي عني من الدنيا ، أعظم من نعمته فيما أعطاني منها .

وقال ﷺ : « ما أنعم الله على عبْدٍ نعمة فقال : الحمد لله . إلّا كان الذي أعطي ، أفضل مما أخذ »[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمة فحمد الله عليها ؛ إلَّا كان ذلك الحمد أفضل من تلك النعمة »[2].

وعن عبد الله بن محصن قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن أصبح منكم آمنًا في سِرْبه ، معافًى في جسده ، عنده قوت يومه ؛ فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها »[3].

عن أبي علي قال : كنتُ أسمع جارًا لي يقول في الليل : « اللهم خيرك إلَيَّ نازل، وشرِّي إليك صاعد، وكم من ملك كريم قد صعِد إليك بعملٍ قبيح . أنت مع غناكِ عني تتحبَّب إليَّ بالنعم ، وأنا مع فقري إليك وفاقتي أتمقَّتُ إليك بالمعاصي ، وأنت في ذلك تجيرني وتسترُني وترزقُني » .

عن أبي الحجراء قال : كنا ندخل على المغيرة - أبي محمد - فنقول :

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجه عن أنس ، ورواه ابن السني والخرائطي والضياء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٥٦٣) .

(٢) حسن : رواه ابن السني ، والخرائطي ، والضياء عن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٥٦٢) .

(٣) حسن : رواه البخاري في الأدب المفرد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٠٤٢) .

كيف أصبحتَ يا أبا محمد ؟ قال : أصبحنا مُغْرَقين في النعم مقَصِّرين في الشكر ، يتحبَّب إلينا ربُّنا عز وجل وهو غنيٌّ عنا ، ونتمقَّت إليه ونحن إليه محتاجون .

عن سفيان قال : كان يقال : ليس بفقيه مَن لم يعدَّ البلاء نعمة والرخاء مصيبة .

عن أبي يحيى الباهلي قال : قال لي سليمان التيمي : إن الله أنعمَ على العباد على قدره ، وكلَّفهم الشكرَ على قَدْرهم .

عن خالد بن معدان قال : « سمعتُ عبد الملك بن مروان يقول : ما قال عبدٌ كلمة أحبّ إليه ، وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول : الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا إلى الإسلام » .

أنشد أحمد بن موسى الثقفي :

وكم من مدخلٍ لو متُّ فيه ... لكنتُ به نكالًا في العشيرهْ
وُقِيتُ السوءَ والمكروهَ فيه ... ورُحتُ بنعمةٍ فيه سَتِيرَهْ
وكم من نعمةٍ لله تُمسي ... وتُصبح ليس تعرفها كبيرهْ

قال ابن المنكدر لأبي حازم : ما أكثر مَن يلقاني فيدعو لي بالخير ، ما أعرفُهم ، وما صنعتُ إليهم خيرًا قطّ !! فقال له أبو حازم : لا تَظنَّ أن ذلك من قِبَلك ، ولكن انظر إلى الذي جاءك ذاك من قِبَلِه فاشكُرْه . وقرأ ابن زيد : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سَيجعلُ لهم الرحمنُ وُدًّا** ﴾ . [مريم : ٩٦] .

مِن جميل الصبر وجليل الشكر :

دخل ابن عروة بن الزبير اصطبله ، فَرَفَسَتْهُ دابَّةٌ فقتلته ، فما سُمع من عروة في ذلك شيءٌ حتى قدم المدينة فقال : « اللهم إنه كان لي أطرافٌ أربعة

أخذت واحدًا وأبقيتَ لي ثلاثة فلك الحمد ، وكان لي بنون أربعة فأخذتَ واحدًا وأبقيتَ لي ثلاثة فلك الحمد ؛ وأيم الله لئن أخذتَ لقد أبقيت ، وإن ابتليتَ لطالما عافيتَ ، وأبقيت لنا فيك الأمل يا بَرُّ يا وصول » .

محارب بن دثار قاضي الكوفة عالي الهمَّة في الشكر :

عن عنبسة بن الأزهر قال : كان محارب بن دثار - قاضي أهل الكوفة - قريب الجوار مني ، فربما سمعتُه في بعض الليل يقول ويرفع صوته : « أنا الصغير الذي ربَّيته فلك الحمد ، وأنا الضعيف الذي قوَّيته فلك الحمد ، وأنا الفقير الذي أغنيتَه فلك الحمد ، وأنا الغريب الذي وصَّيته فلك الحمد ، وأنا الصُّعلوك الذي موَّلْته فلك الحمد ، وأنا العزب الذي زوَّجته فلك الحمد ، وأنا الساغب[1] الذي أسبغته فلك الحمد ، وأنا العاري الذي كسْوته فلك الحمد ، وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد ، وأنا الغائب الذي أدَّيته فلك الحمد ، وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد ، وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد ، وأنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد ، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد ؛ فلك الحمد ربَّنا ، حمدًا كثيرًا على حمدي لك »[2].



(١) الجائع .

(٢) الشكر ص١٦٦ .

الفصل الثامن عشر

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
المُرَاقَبَة

كأنَّ رقيبًا منكَ يرعىٰ خواطري   وآخرَ يرعىٰ مُهْجَتي ولساني

« مَن تحقَّقَ في المراقبةِ ، خافَ علىٰ فواتِ حظِّهِ من ربِّه لا غير » .

[الجُنَيد]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في المُرَاقَبَةِ □

اعلمْ يا أخي أنَّ « (المراقبة) دوامُ علْمِ العبد وتيقُّنه باطِّلاع الحقِّ سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه ؛ فاستدامتُه لهذا العلم واليقين ، هي « المراقبة » ، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ، ناظِرٌ إليه ، سامع لقوله ، وهو مطَّلِع على عمله كلَّ وقت وكل لحظة ، وكل نَفَس وكلَّ طرْفةِ عيْن . والغافل عن هذا بمعزِل عن حال أهل البدايات ، فكيف بحال المريدين ؟! فكيف بحال العارفين ؟! »[1] .

« مَن حفِظ مع الله تعالى الأنفاس ، وراقَب اللهَ في عموم أحواله ، فيعلم أنَّه سبحانه عليه رقيب ، ومِن قلبه قريب ، يعلم أحواله ، ويرى أفعاله ، ويسمع أقواله ، ومن تغافَلَ عن هذه الجملة ، فهو بمعزِل عن بداية الوصلة ، فيكف عن حقائق القُرْبة ؟! »[2] .

قال تعالى : ﴿ وكانَ اللهُ على كلِّ شيءٍ رقيبًا ﴾. [الأحزاب : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ وهو معكمْ أيْنَما كنتمْ ﴾. [الحديد : ٤] . وقال تعالى : ﴿ ألم يعلمْ بأنَّ اللهَ يرىٰ ﴾. [العلق : ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ واصبرْ لحكمْ ربِّك فإنَّك بأعْيننا ... ﴾. الآية [الطور : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ واعلموا أنَّ اللهَ يعلم ما في أنفسكم فاحْذَروه ﴾. [البقرة : ٢٣٥] .

وفي حديث جبريل عليه السلام : أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان ؟ فقال : « أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ ، فإنْ لم تكن تراه ، فإنَّه يراك » .

---

(١) مدارج السالكين ٦٥/٢ .

(٢) الرسالة القشيرية للقشيري ٤٠٥/١ .

« قال زيد بن أسلم : مرَّ ابن عمر براعٍ ، فقال : هل من جزْرةٍ ؟ فقال : ليس هاهنا ربُّها ، قال ابن عمر : تقول له : أكَلَها الذئبُ . قال : فرفع رأسه إلى السماء ، وقال : فأين الله ؟! فقال ابن عمر : أنا والله أحقُّ أن أقول : أين الله ؟! واشترى الراعي والغنم ، فأعتقه وأعطاه الغنم »[1] .

قال الجنيد : مَن تحقَّق في المراقبة ، خافَ على فوات حظِّه من ربِّه لا غير .

لله ما أحلاها من كلمة !!

وقال ذو النون : علامة المراقبة : إيثار ما أنزل الله ، وتعظيم ما عظَّم الله ، وتصغير ما صغَّر الله .

وقال الجريري : مَن لم يحكِّم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة ، لم يصلْ إلى الكشْف والمشاهَدة .

وقيل لأبي الحسين بن هنْد : متىٰ يَهُشُّ الراعي غنمَهَ بعصا الرعاية عن مراتع الهَلَكَة ؟ فقال : إنْ علم أنَّ عليه رقيبًا .

وقيل : مَن راقب اللهَ في خواطره ، عصَمَه في حركات جوارحه .

وقيل : الرجاء يحرِّك إلى الطاعة ، والخوف يُبعد عن المعاصي ، والمراقبة تُؤدِّيك إلى طريق الحقائق .

وقيل : المراقبةُ مراعاة القلب لملاحظة الحقِّ مع كلِّ خطْرة وخطْوة .

وقال الجريري : أمْرُنا هذا مَبنٌّي على فصلَيْن : أن تُلزِم نفسَك المراقبة لله ، وأن يكون العلْم على ظاهرك قائمًا .

وقال إبراهيم الخوَّاص : المراقبة خلوص السرِّ والعلانية لله عز وجل .

---

(١) إسناده جيد : رواه الذهبي في العلو ، وقال الألباني في مختصر العلو (١/١٢٧) : « إسناد جيد ؛ رجاله رجال الشيخيْن ، غيرَ عبد الله بن الحارث الجمحي ، وهو الحاطبي ، صدوق كما في التقريب » .

وقيل : أفضل ما يُلزِم الإنسانُ نفسَه في هذه الطريق : المحاسبة والمراقبة ، وسياسة عمله بالعلم .

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري : إذا جلستَ للناسِ فكنْ واعظًا لقلبك ونفسك، ولا يغرنَّك اجتماعُهم عليك؛ فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله يراقب باطنك .

وأربابُ الطريق مُجمِعون على أنَّ مراقبة الله تعالى في الخواطر : سببٌ لحفظها في حركات الظواهر ؛ فمن راقب الله في سرِّه ، حفِظَه الله في حركاته في سرِّه وعلانيته .

قال المرتعش : المراقبة : مراعاة السرِّ بملاحظة الغيْب مع كلِّ لحظة ولفظة .

وسُئل ابن عطاء: ما أفضل الطاعات؟ فقال: مراقبة الحقِّ على دوام الأوقات.

وقال إبراهيم الخوّاص : المراعاة تُورث المراقبة ، والمراقبة تُورث خلوصَ السرِّ والعلانية لله تعالى .

وقال الواسطي : أفضل الطاعات حفظُ الأوقات ، وهو أن لا يطالع العبدُ غيرَ حدِّه ، ولا يراقب غيرَ ربِّه ، ولا يُقارن غير وقته .

« قال أبو سليمان الداراني : كيف يخفىٰ عليه ما في القلوب ، ولا يكون في القلوب إلّا ما يُلقي فيها ؟! أفيخفى عليه ما هو منه ؟!

وقال الحسن بن علي الدامغاني : عليكم بحفْظِ السرائر ؛ فإنه مطَّلِع على الضمائر .

قال الجُنيد : قال لي إبراهيم الآجُرِّي رحمه الله : يا غلام ، لأَنْ تردَّ من همِّكَ إلى الله ذرَّة ، خيرٌ لك ممَّا طلعت عليه الشمس »[1] .

---

(١) اللُّمَع للطوسي ص٨٢ – طبع : دار الكتب الحديثة بمصر .

ولله درُّ إمام أَهْلِ السنةِ أحمد بن حنبل وهو يقول :

إذا ما خلوتَ الدهرَ يومًا فلا تَقُلْ خلوتُ ولكنْ قلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ولا أنَّ ما تخفي عليه يغيبُ
لهَوْنا عنِ الأيَّامِ(١) حتى تتابَعَتْ ذنوبٌ علىٰ آثارِهنَّ ذُنوبُ
فيا ليتَ أنَّ اللهَ يغفرُ ما مضىٰ ويأذَنُ في توباتِنا فنتوبُ
إذا ما مضى القرنُ الذي أنتَ فيهم وخُلِّفتَ في قرْنٍ فأنتَ غريبُ(٢)

المَراقبةُ تعبُّدٌ بأسمائه الحُسْنىٰ :

اعلمْ يا أخي أنَّ المراقبة هي التعبُّد بأسمائه : « الرقيب ، الحفيظ ، السميع ، العليم الخبير، البصير، الشهيد، والمحصي»؛ فمن عقل هذه الأسماء وتعبَّد بمقتضاها، حصلتْ له المراقبة .

الرَّقيبُ :

فالله هو الرقيبُ ، يعْلَم أحوال عباده ، ويعدُّ أنفاسهم ، حفيظ لا يغفل ، وحاضِر لا يغيب ؛ قال تعالى في قول عيسى لربِّه : ﴿ **فلمَّا توفَّيْتني كُنت أنتَ الرقيبَ عليهم وأنت على كلِّ شيءٍ شهيد** ﴾ [المائدة : ١١٧] .

« وقد ذكر الرازي أن أحد الشيوخ كان له جمع من التلاميذ ، وكان قد خَصَّ واحدًا منهم بمزيد من العناية ، فسألوه قائلين : ما السبب في ذلك ؟ فقال الشيخ : سأُبيِّنه لكم . وبعد حين أعطى كلَّ واحد من التلاميذ طائرًا ، وقال لكلٍّ منهم : اذبحْ هذا الطائر حيثُ لا يراك أحد . فمضى كلٌّ منهم إلى جِهَة ، ثم رجع إلى شيخه وقد ذبح الطائر ، ما عدا ذلك التلميذ ، فقد رجع إلى شيخه والطائر في يده ، فسأله الشيخ : هل ذبحتَ هذا الطائر ؟ فأجابه تلميذه : أنت أمرتَني أن أذبح الطائر حيث لا يراني أحد ، ولم أجد موضعًا لا

---

(١) وفي رواية : لهونا عن الأعمال .

(٢) مناقب الإمام أحمد ص٢٦٥ ، ٢٦٦ .

يراني الله فيه . فالتفت الشيخ إلى بقيَّة التلاميذ وقال : من أجل هذا خصصْته بمزيدٍ من العناية »[١] .

فالمراقبة أن يصير الغالِبُ على العبد ذكْره بقلبهِ أنَّ الله مطلع عليه على الدوام ، فيخاف سطوات عقوبته في كلِّ نَفَس ، ويهابه في كلِّ وقت .

سُئل بعضُهم : بِمَ يستعين الرجل على غضِّ بصَرِه عنِ المحظورات ؟ قال : بعلْمه أن رؤية الله تعالى سابقة على نظره ذلك المحظور .

ومن أدب المؤمن مع الرقيب : أن يعلم أنَّ الله رقيبُه وشاهده في كلِّ شيء ، ويعلم أن نفسه عدوَّة له ، وكذلك الشيطان اللعين ، وهما ينتهزان منه كلَّ فرصةٍ ليحملاه على الغفلة والمخالفة .

وغفْلَةُ قلْبِ المرْءِ بُعْدٌ وحَسْرَةٌ ... فما نالَ عُقْبىٰ ربِّه غافِلُ القلْبِ
لقدْ ذلَّ في يومِ القيامةِ غافلٌ ... تأخَّرَ في يومِ الجهادِ عنِ الركْبِ

ولله درُّ مَن قال :

فرَوْحي وريحاني إذا كنتَ حاضرًا ... وإنْ غبْتَ فالدنيا عليَّ محابسُ
إذا لم أنافسْ في هواكَ ولمْ أغرْ ... لِحُبِّي ففيمَنْ ليْتَ شِعْري أُنافسُ

ومَن غَفَل عنِ اللهِ نَسِيَهُ · وهذا عيْن الطرْد والحِرْمان .

فكيفَ يصنعُ مَن أقصاهُ مالِكُهُ ... فليسَ ينفعُهُ طِبُّ الأطبَّاءِ
مَن غُصَّ داوَىٰ بشُرْب الماءِ غُصَّتَهُ ... فكيف يصنعُ مَن قدْ غُصَّ بالماءِ

ومن أدب المؤمن أن يراقب نفسه وحِسَّه ، ويتيقَّظ لأنفاسه ؛ قال عبد الله ابن المبارك لرجل : راقبِ الله تعالى . فسأله عن تفسير ذلك ، فقال : كُنْ أبدًا كأنَّك ترىٰ اللهَ .

---

(١) له الأسماء الحسنى ١/٢٣٨ .

قال إسماعيل صبري :

اذكُر اللهَ ما خلوتَ كثيرًا فهْوَ أزكى ما يكتُبُ المَلَكَانِ
واخْشَهُ إنْ لهوتَ فهْوَ رقيبٌ وقريبٌ للقلبِ والشِّرْيانِ
هذِّبِ النفسَ لا تُطِعْ ما تمنَّتْ وتمسَّكْ بشِرْعةِ القرآنِ
لا تقلْ إنْ خلوتَ إني وحيدٌ فمعَ اللهِ أنتَ في كلِّ شانِ
إنَّ عيْنَ الإلٰهِ ما غابَ عنها أيُّ حيٍّ في عالمِ الأكوانِ
ترقُبُ الخلْقَ في جلالٍ وحكمٍ واقتدارٍ ورحمةٍ وحنانِ

سبحانه وتعالى :

رقيبٌ على كلِّ الوجودِ مهيمِنٌ علىٰ الفلكِ الدوَّارِ نجمًا وكوكبًا
رقيبٌ علىٰ كلِّ النفوس وإنْ تَلُذْ بصمْتٍ ولم تجهرْ بسرٍّ تغيبًّا
رقيبٌ تعالىٰ مالكُ الملْكِ مبصرٌ بِهِ كلّ شيءٍ ظاهرًا أو مُحجَّبًا

الحفيظ :

قال تعالى : ﴿ **وربُّك على كلِّ شيءٍ حفيظ** ﴾ [سبأ : ٢١].

وقال تعالى : ﴿ **إنَّ ربِّي على كلِّ شيءٍ حفيظ** ﴾ [هود : ٥٧].

فمن علم أنّ ربّه حفيظ ، حفظ جوارحه وقلبه ، وحفظ دينه عن سطوة الغضب ، وخلابة الشهوة ، وخداع النفس ، وغرور الشيطان . ومَن حفظ جوارحه ، حفِظَ الله عليه قلبه . ومَن حفِظ لله حقَّه ، حفظ الله له حقَّه .

العَلِيم :

« ومَن علِم أنه سبحانه وتعالى عالم بكلِّ شيء حتى بخطرات الضمائر ، ووساوس الخاطر؛ فعليه أن يراقبه ويستحي منه ويكفَّ عن معاصيه، ولا يغترّ بجميل ستْره ، ويخشى بغتات قهْره ، ومفاجآت مكره ؛ قال تعالى : ﴿ **يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يستخفون مِنَ الله وهو معهم** ﴾. وقال تعالى : ﴿ **وأسرُّوا**

قولَكم أو اجْهَروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾. وقال تعالى : ﴿ **ألا يعلمُ مَن خَلَقَ وهو اللطيف الخبير** ﴾ [الملك : ١٤] » .

الشـهيـد :

هو العليم الحاضر ؛ قال تعالى : ﴿ **قلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً قل الله** ﴾ [الأنعام : ١٩] . وقال تعالى : ﴿ **وما تكون في شأنٍ وما تتلو منه مِن قرآنٍ ولا تعملون من عمل إلَّا كنَّا عليكم شهودًا إذْ تُفيضون فيه وما يَعزُبُ عن ربِّك مِن مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماءِ ولا أصغر مِن ذلك ولا أكبر إلّا في كتابٍ مبين** ﴾ [يونس : ٦١] .

وإذا عَلِم أن الله تعالى شهيد يعلم أفعاله ، ويرى أحواله ؛ هان عليه ما يعانيه لرضاه . وأهل المعرفة لم يطلبوا مؤنِسًا سواه ، ولا طلبوا شيئًا غيره .

فإنْ تكلَّمتُ لـمْ ألفِـظْ بغيرِكُـمُ ... وإنْ سكتُّ فأنتمْ عِقْدُ إضْماري

السميعُ البَصِيرُ :

سبحانه يسمَعُ السرَّ والنجوىٰ ، ويُبصر ما تحت الثرى .

قال القشيري : « فمَن عرَف أنه بهذه الصفة : كان من أدبه دوامُ المراقبة ، ومطالبة النفس بدقيق المحاسَبة .

سمعتُ بعض الفقراء يقول : إن بعض الملوك كان له عبد يُقبِل عليه أكثر ممَّا يُقبل على أمثاله ، و لم يكن أحسن منهم صورة ، ولا أكثر منهم قيمة، فكانوا يتعجَّبون من ذلك ، فركِب الملك يومًا إلى الصحراء ومعه أصحابه وعبيده ، ونظر إلى جبل بعيدٍ عليه قطعة ثلْجٍ نظرةً واحدةً ، ثم أطرق ، فركض ذلك العبْدُ بفرسِهِ قبل أن يَنْظُر الملك إليه ، و لم يعلمِ الجماعة بشيءٍ ، وما لبث إلَّا ساعة حتى عاد ومعه شيء من الثلج ، فقال له الملك : وما أدراك أني أردتُ الثلج ؟ فقال الغلام : لأنك نظرتَ إليه ، ونظرُ الملوك إلى شيءٍ لا يكونُ عبثًا .

فقال الملك : إنما أخصُّه بإكرامي ونوالي ، وأقرِّبُه وأقدِّمه عليكم ؛ لأن لكلِّ أحدٍ منكم شغلًا ؛ إنكم مشغولون بأنفسكم ، وهو مشغول بمراقبة أحوالي .. شغله مراعاةُ لحَظَاتي ، ومراقبة أحوالي »[1].

قلبي يحبُّكَ لا يُومِي إلى أحدٍ   تكـادُ همَّـتهُ تلقـاكَ بالخبَـرِ

المُحْصِـي :

قال تعالى : ﴿ **إنَّا نحنُ نُحيي الموتىٰ ونكتُبُ ما قدَّموا وآثارَهم وكلَّ شيءٍ أحصيْناه في إمام مبين** ﴾ [يس : ١٢] . وقال تعالى : ﴿ **وكلّ شيءٍ أحصيْناه كتابًا** ﴾. [النبأ : ٢٩] .

« وحظُّ العبدِ من اسم « المحصي » : أنه متى علِم أن الربَّ تعالى يُحصي عليه الكلّيَّات والجزئيَّات ، فهو أيضًا يُحصيها على نفسه ، ويراقب أنفاسه في الدخول والخروج »[2] .

ومن « آداب مَن عَلِم أنه – سبحانه وتعالى – يُحصي أنفاسه ، ويرعى له حواسَّه ؛ أن يعلم أنه قريب وعليه رقيب ، ويعلم أنه يتكلَّف عدَّ نِعَمِه عليه ، مع علْمه أنه لا يُحصيها إلّا هو ؛ كما قال تعالى : ﴿ **وإنْ تعُدُّوا نعمة الله لا تُحصوها** ﴾ ، ليزجي وقته بذكْر إنعامه وشكْر أقسامه ، فيستوجب المزيد من مواهب إحسانه »[3].

كلُّ معلومٍ ففي علْمِكَ كَانَا   أنتَ مُحصيهِ زمانًا ومكانَا
أنتَ سبحانَك أدرىٰ بالذي   فيهِ ذرَّاتٌ دقاقًا وكَيَانَا

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٤٠٦ ، والتحبير في التذكير ص٤٩ .
(٢) موسوعة : له الأسماء الحسنى للدكتور أحمد الشرباصي ١/٣١٠ – طبع : دار الجيل .
(٣) التحبير في التذكير للقشيري ص٧٣ – طبع : دار الكاتب العربي .

أنتَ محصيها وهادِيها إلى ... نشوةِ التسبيح قلبًا ولسانًا[(١)]

درجاتُ المراقبةِ عندَ الغزالي :

قال الغزالي رحمَه الله : « المراقبة حالةٌ للقلب يثمرها نوعٌ مِن المعرفة ، وتُثمر تلك الحالة أعمالًا في الجوارح وفي القلب :

أمَّا الحالة : فهي مراعاة القلب للرقيب ، واشتغاله به والْتفاتُه إليه ، وملاحظته إيَّاه وانصرافه إليه .

وأمَّا المعرفة التي تُثْمِرُ هذه الحالة : فهي العلم بأنَّ الله مطَّلِع على الضمائر ، عالم بالسرائر ، رقيب على أعمال العباد ، قائم على كلِّ نفس بما كسبَتْ ، وأن سرَّ القلب في حقِّه مكشوف ، كما أن ظاهر البشْرة للخلْق مكشوف ؛ بل أشدُّ من ذلك .

فهذه المعرفة إذا صارت يقينًا - أعني أنها خلَتْ عن الشكِّ - ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرتْه ، فربَّ علمٍ لا شكَّ فيه لا يغلب على القلب ، كعلم الموت ، فإذا استولتْ على القلب استجرَّتِ القلبَ إلى مراعاة جانب الرقيب وصرْفِ همّه إليه ، والموقِنون بهذه المعرفة هم المقرَّبون ، وهم ينقسمون إلى الصدِّيقين ، وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبتهم على درجتيْن :

الدرجة الأولى : مراقبةُ المقرَّبين مِنَ الصدِّيقين :

وهي مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرِقًا بملاحظة ذلك الجلال ، ومنكسِرًا تحتَ الهيْبة ، فلا يبقى فيه مُتَّسع للالتفات إلى الغيْر أصلًا ، وهذه مراقبة تتعطل فيها الجوارح عن التلفُّت إلى المباحات فضلًا عن المحظورات . وإذا تحرَّكت بالطاعات كانت كالمستعمَلة بها ، فلا تحتاج إلى تدبير

---

(١) موسوعة : له الأسماء الحسنى ص ٣١١ .

وتثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسدّد الرعية من مُلْك الراعي ، والقلب هو الراعي ، فإذا صار مستغرقًا بالمعبود صارت الجوارح مستعملةً جارية على السداد والاستقامة من غير تكلُّف ، وهذا هو الذي صار همُّه واحدًا ، فكفاه الله سائرَ الهموم »[(١)] .

وقد مرّ بك سابقًا أنَّ رسول الله ﷺ مِن شُغْله بالدعوة وبما قاله أهل الطائف ؛ انطلَق مهمومًا على وجهه ، فما أفاق إلّا بـ « قَرْن الثعالب » .

قال الغزالي : « ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلْق ، حتى لا يبصر مَن حضر عنده ، ولا تستبعد هذا ، فإنك تجد نظيرَ هذا في القلوب المعظِّمة لملوك الأرض ، حتى إن خدَم الملك قد لا يُحسُّون بما يجري عليهم في مجالس الملوك ؛ لشدَّة استغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلبُ بمُهمّ حقير من مهمَّات الدنيا ، فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي ، فربما يجاوز الموضع الذي قصَدَه ، وينسىٰ الشغلَ الذي نهض له .

قيل لعبد الواحد بن زيد : هل تعرف في زمانك هذا رجلًا قد اشتغلَ بحاله عن الخلْق ؟ فقال : ما أعرفُ إلَّا رجلًا سيدخل عليكم الساعة ! فما كان إلَّا سريعًا حتى دخل عُتبةُ الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد : من أين جئت يا عتبة ؟ فقال : من موْضع كذا . وكان طريقه على السوق . فقال : مَن لقيتَ في الطريق ؟ فقال : ما رأيتُ أحدًا .

وحُكي عن بعضهم أنه قال : مررتُ بجماعة يترامَوْن وواحد جالسٌ بعيدًا منهم ، فتقدمتُ إليه ، فأردتُ أن أكلِّمه فقال : ذكْرُ الله تعالى أشهَىٰ . فقلتُ : وحدَك ؟! فقال: معي ربِّي وملَكَايَ. فقلتُ: مَنْ سَبَق من هؤلاء ؟ قال: مَن غفَر الله له . فقلتُ : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء ، وقام ومشى ، وقال :

(١) إحياء علوم الدين ٤/٤٢٢ - ٤٢٣ .

أكثرُ خلْقِك شاغِل عنك .

فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى ، لا يتكلَّم إلَّا منه ولا يسمع إلا فيه » .

قومٌ تخلَّلهمْ زهْوٌ بسيِّدهمْ ... والعبدُ يزهو على مقدارِ مَوْلاهُ
تاهُوا بهِ عمَّن سواهُ لهُ ... يا حُسْنَ رؤيتِهِمْ في حُسْنِ ما تاهوا

يقول قائلهم :

وشُغلتُ عن فهْمِ الحديث سوىٰ ... ما كانَ عنكَ فإنَّه شغْلي
وأديمُ نحو محدِّثي عقلي ليرىٰ ... أنْ قد عقلتُ وعندكم عقلي

ويقول قائلهم :

لمّا علمتَ بأنَّ قلبيَ فارغٌ ... ممَّنْ سواك ملأتَه بهواكا
والقلْبُ فيكَ هيامُه وغرامُه ... والرّوحُ لا تنفكُّ عن ذكْراكا

ويقول قائلهم :

أُخلي فؤادي لهُ منْ كلِّ شائبةٍ ... إنْ عشتُ أو متُّ أعضائي توحِّدهُ

« قال أبو عبد الله بن خفيف : خرجتُ من مصر أريد « الرملة » للقاء أبي علي الرّوذباري ، فقال لي عيسى بن يونس المصري - المعروف بالزاهد -: إنَّ في « صُور » شابًّا وكهْلًا قد اجتمعا على حالِ المراقبة ، فلو نظرت إليهما نظرةً لعلّك تستفيد منهما ؟ فدخلتُ « صور » وأنا جائع عطشان ، فدخلتُ المسجد ، فإذا بشخصيْن قاعديْن مستقبلي القبلة ، فسلمتُ عليهما فما أجاباني ، فسلَّمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب ، فقلت : نشدتُكما بالله إلَّا رددتُما عليَّ السلام فرفع الشابُّ رأسَه فنظر إليَّ وقال : يا ابن خفيف ، الدنيا قليل وما بقي من القليل إلَّا القليل ، فخُذْ من القليل للكثير . يا ابنَ خفيف ، ما أقلَّ شغْلكَ حتى تتفرَّغ إلى لقائنا !! قال : فأخذ بكلِّيَّتي ، ثم طأطأ رأسه في المكان ، فبقيتُ عندهما حتى صلَّينا الظهر والعصر ،

فذهب جوعي وعطشي وعنائي ، فلمّا كان وقت العصْر قلتُ : عِظْني . فرفع رأسه إليّ وقال: يا ابن خفيف، نحن أصحاب المصائب، ليس لنا لسانُ العِظَة. يا ابن خفيف، عليك بصُحبة من يذكِّرُك بالله رؤيتُه، وتقع هيبتُه على قلبك، يعظك بلسان فعْله ولا يعظك بلسان قوله. والسلام. قُم عنا».

فهذه درجة المراقبين ، الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم ، فلم يبق فيهم متَّسع لغير ذلك .

الدرجة الثانية : مراقبة الوَرِعِين مِنْ أصحابِ اليَمين :

« وهم قومٌ غلب يقينُ اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم ، وعلى قلوبهم ، ولكن لم تَدْهشْهمْ ملاحظة الجلال ، بل بقيتْ قلوبُهم على حدِّ الاعتدال ، متسعة للتلفُّت إلى الأحوال والأعمال ، إنها مع ممارسة الأعمال لا تخلُو عن المراقبة ؛ نعم ، غلب عليهم الحياءُ من الله ، فلا يُقدمون ولا يُحجمون إلَّا بعد التثبت فيه ، ويمتنعون عن كلِّ ما يُفْتَضَحُون به في القيامة ؛ فإنهم يرون اللهَ في الدنيا مطَّلِعًا عليهم ، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة »[1].

ابنُ عُمَر سيِّدٌ من ساداتِ المراقبين لله :

قال عروة بن الزبير : « خطبتُ إلى عبد الله بن عمر ابنته ونحن في الطواف ، فسكت ولم يجبْني بكلمة ، فقلتُ : لو رضي لَأجابني ، والله لا أُراجعه فيها بكلمة أبدًا ، فقُدِّرَ له أن صَدَر إلى المدينة قبلي ، ثم قدِمتُ فدخلتُ مسجد الرسول ﷺ ، فسلَّمتُ عليه وأدَّيتُ إليه من حقِّه ما هو أهلُه ، فأتيتُه ورحَّب بي ، وقال : متى قدمتَ ؟ فقلتُ : هذا حينُ قدومي . فقال : أكنتَ ذكرتَ لي سَودَة بنت عبد الله ونحن في الطواف نتخايلُ اللهَ عز وجل بين أعيُننا ، وكنتَ قادرًا أن تلقاني في غير ذلك المَوْطن ؟ فقلتُ : كان أمرًا قُدِرَ . قال :

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٤٢٣ - ٤٢٤ .

فما رأَيُك اليوم ؟ قلتُ : أحرَص ما كنتُ عليه قطُّ . فدعا ابنيْه سالمًا وعبدَ الله فزوَّجني »(١) .

قال الغزالي في الفرْق بين الدرجتيْن الأولى والثانية :

« وتعرف اختلاف الدرجتيْن بالمشاهدات ؛ فإنك في خَلْوتك قد تتعاطى أعمالًا ، فيحضركَ صبيٌّ أو امرأة ، فتعلم أنه مطَّلِع عليك فتستحي منه ، فتُحسِن جلوسك وتراعي أحوالك ، لا عن إجلال وتعظيم بل عن حَيَاء ؛ فإنَّ مشاهدته وإنْ كانت لا تدهشك ولا تستغرقُك ، فإنها تهيج الحياء منك ، وقد يدخل عليك مَلِكٌ من الملوك أو كبيرٌ من الأكابر ، فيستغرقُك التعظيمُ حتى تترك كلَّ ما أنت فيه ؛ شغلًا به ، لا حياءً منه ، فهكذا تختلف مراتبُ العباد في مراقبة الله تعالى »(٢) .

مراقبة الوَرِعِين : مراقبةٌ قبلَ العمل ، ومراقبة في العمل :

قال الغزالي عن الدرجة الثانية من درجات المراقبة : « ومَن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته ، وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران : نظرٌ قبل العمل ، ونظر في العمل :

أمَّا قبلَ العَمَل :

فلينظرْ أن ما ظهر له وتحرَّك بفعْله خاطرُه : أهو لله خاصَّة أم هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان ؟ فيتوقَّف فيه ويتثبت ، حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله تعالى أمضاه ، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكفَّ عنه ، ثم لام نفسَه على رغبته فيه وهمّه به وميْله إليه ، وعرّفها سوءَ فعْلِها وسعيها

(١) حلية الأولياء ٣٠٨/١ .

(٢) إحياء علوم الدين ٤٢٤/٤ .

في فضيحتها ، وأنها عدوَّة نفْسِها إنْ لم يتداركْها اللهُ بعصْمته ، وهذا التوقُّف في بداية الأمور إلى حدّ البيان واجبٌ محتوم ، لا محيصَ لأحد عنه .

قال الحسن : كان أحدهُم إذا أراد أن يتصدَّق بصدقة ، نظر وتثبَّت ؛ فإن كان لله أمضاه .

وقال الحسن : رحم اللهُ عبدًا وقف عند همِّه ؛ فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخَّر .

وقال محمد بن علي : إنَّ المؤمن وقَّافٌ متأنٍّ ، يقف عند همِّه ، ليس كحاطب ليْلٍ .

فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ، ولا يُخلِّص مِن هذا إلَّا العلمُ المتينُ ، والمعرفةُ الحقيقةُ بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان ، فمتى لم يعرفْ نفسَه وربَّه وعدوَّه إبليس ، ولم يعرف ما يوافق هواه ، ولم يميّز بينه وبين ما يحبُّه الله ويرضاه في نيَّته وهِمَّته وفكرته وسكونه وحركته - فلا يسلمْ في هذه المراقبة .

فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسَه عند همِّه بالفعْل وسعْيه بالجارحة ، فيتوقَّف عن الهمِّ وعن السعْي ، حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيُمضيه ، أو لهوىٰ النفسِ فيتَّقيه ، ويزجر القلب عن الفكْر فيه والهمِّ به ، فإن الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تُدْفَع ، أَوْرثت الرغبة ، والرغبة تُورث الهمَّ ، والهمّ يُورث جزْمَ القصْد ، والقصد يُورث الفعْل ، والفعل يُورث البَوار والمقْت . ومعرفة آفات الأعمال قد اندرسَتْ في هذه الأعصار .

عند الشُّرُوعِ في العمل :

النظر الثاني للمراقبة : عند الشروع في العمل ؛ وذلك بتفقُّد كيفيَّة العمل ليقضي حقَّ الله فيه ، ويُحسن النيَّة في إتمامه ، ويكمل صورته ويتعاطاه على

أكمل ما يمكنه ، وهذا ملازم له في جميع أحواله ؛ فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون ، فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك ، قدَر على عبادة الله تعالى فيها بالنيَّة وحُسْن الفعْل ومراعاة الأدَب . فإن كان قاعدًا مثلًا فينبغي أنْ يستقبل القبلة ، ولا يجلس متربِّعًا ؛ إذْ لا يُجالِس الملوكَ كذلك ، وملكُ الملوك مطَّلع عليه ؛ قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : جلستُ مرَّة متربِّعًا ، فسمعت هاتفًا يقول : هكذا تجالس الملوك ؟! فلم أجلسْ بعد ذلك متربِّعًا .

فإذن ، لا يخلو العبد ؛ إمَّا أن يكون في طاعة ، أو في معصية ، أو في مباح .

فمراقبته في الطاعة : بالإخلاص ، والكمال ، ومراعاة الأدب ، وحراستها عن الآفات .

وإن كان في معصيته : فمراقبته بالتوبة ، والندم ، والإقلاع ، والحياء ، والاشتغال بالتفكُّر .

وإن كان في مباح : فمراقبته بمراعاة الأدب ، ثم بشُهود المْنعِم في النعم ، وبالشكر عليها .

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بليَّةٍ لا بدّ له من الصبر عليها ، ونعمة لا بدَّ له من الشكْر عليها ، وكل ذلك من المراقبة .

بل لا ينفكُّ العبد في كلِّ حالٍ من فرْضٍ لله تعالى عليه ؛ إمَّا فعْل يلزمه مباشرته ، أو محظور يلزمه ترْكه ، أو ندْب حثَّ عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله ، أو مباح فيه صلاحُ جسمه وقلبه ، وفيه عون له على طاعته . ولكل واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ **ومَن يتعدَّ حدودَ الله فقدْ ظلَمَ نفسَه** ﴾ [الطلاق : ١]. فينبغي أن يتفقَّد العبدُ نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة، فإذا كان فارغًا من الفرائض وقدرَ

على الفضائل ، فينبغي أن يلتمسَ أفضل الأعمال ليشتغل بها ، فإنَّ مَن فاته مزيدُ ربْح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تُنال بمزايا الفضائل ، فبذلك يأخذ العبدُ من دنياه لآخرته ؛ كما قال تعالى : ﴿ **ولا تنسَ نصيبَك مِنَ الدنيا** ﴾. [القصص : ٧٧]. وكلُّ ذلك إنما يمكن بصبْر ساعة واحدة ، وهي الساعة الراهنة ، فيكون ابنَ وقتِه كأنَّه في آخر أنفاسه ، فلعلَّه آخر أنفاسه وهو لا يدري ، ولا يطوِّل أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها .

وفي الساعة التي هو فيها مشغول بالجوارح ، بالطعام والشراب ، لا ينبغي أنْ يخلو عن عَمَلٍ هو أفضل الأعمال ، وهو الذكْر والفكْر ؛ فإن الطعام الذي يتناوله مثلًا فيه من الغجائب ما لو تفكَّر فيه وفطِن له ، كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح .

فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال »[1] .

درجاتٌ أخرىٰ للمراقبةِ عند شيْخ الإسلام الهَرَوي وابن القيم :

قال الهروي صاحب « المنازل » : المراقبة : دوامُ ملاحظةِ المقصود . وهي على ثلاث درجات :

الدرجة الأولىٰ : مراقَبَةُ الحقِّ تعالىٰ في السَّيْر إليه علىٰ الدَّوَام ، بين تعظيمٍ مُذْهِلٍ ، ومداناةٍ حامِلةٍ ، وسرورٍ باعث :

قال ابن القيم : « قوله : (بيْن تعظيمٍ مذهِلٍ) : فهو امتلاءُ القلب من عظمة الله عز وجل ، بحيث يُذهِلُه ذلك عن تعظيم غيره ، وعن الالتفات إليه ، فلا ينسىٰ هذا التعظيم عند حضور قلبه مع الله ، بل يستصحبه دائمًا ؛ فإن الحضور مع الله يُوجب أُنسًا ومحبَّةً ، إن لم يقارنْهما تعظيم ، أورثاه خروجًا

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٤٢٤ - ٤٢٨ .

عن حدود العبودية ورُعونةً ، فكل حبّ لا يُقارنه تعظيم المحبوب.: فهو سبب للبعد عنه ، والسقوط من عَيْنِهِ .

فقد تضمَّن كلامُه خمسةَ أمور : سيْرٌ إلى الله ، واستدامة هذا السيْر ، وحضور القلب معه ، وتعظيمه ، والذهول بعظمته عن غيره .

وأما قوله : (ومداناة حاملة) : فيريد دنوًا وقربًا حاملًا على هذه الأمور الخمسة ، وهذا الدنوُّ يحمله على التعظيم الذي يُذهله عن نفسه وعن غيره ؛ فإنه كلما ازداد قُربًا مِن الحقِّ ازداد له تعظيمًا وذُهولًا عن سواه ، وبعدًا عن الخلْق .

وأما (السرور الباعث) : فهو الفرحة والتعظيم ، واللَّذَّة التي يجدها في تلك المداناة ؛ فإن سرور القلب بالله وفرحه به ، وقرَّة العيْن به ؛ لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبتة ، وليس له نظير يُقاس به ، وهو حال من أحوال أهل الجنة ، حتى قال بعض العارفين : إنه لَتمرُّ بي أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنَّهم لَفي عيش طيِّب .

ولا ريب أنَّ هذا السرور يَبعثُه على دوام السيْر إلى الله عز وجل ، وبذْلِ الجهد في طلبه ، وابتغاء مرضاته ، ومَن لم يجد هذا السرور ، ولا شيئًا منه ، فَلْيَتَّهِمْ إيمانه وأعماله ؛ فإن للإيمان حلاوة ، مَن لم يَذُقْها فليرجعْ ، وليقتبسْ نورًا يجد به حلاوة الإيمان . وقد ذكر النبي ﷺ ذوْق طعم الإيمان ووَجْدَ حلاوته ؛ فذكر الذوْق والوجْد ، وعلَّقه بالإيمان ، فقال : « ذاق طعْمَ الإيمان مَن رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمَّد رسولًا » . وقال : « ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجدَ حلاوة الإيمان : مَن كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ومَن كان يحبُّ المرء لا يحبُّه إلا لله ، ومَن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يُلقَى في النار » .

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله رُوحه - يقول : إذا

لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا ، فاتهمْه ؛ فإن الرَّب تعالى شكور .

يعني أنه لا بدَّ أن يُثيب العامل على عمله في الدنيا ، مِن حلاوة يجدها في قلبه ، وقوَّة انشراح وقرَّة عين . فحيث لم يجد ذلك فعملُه مدخول .

والقصد : أن السرور بالله وقرْبِه ، وقرَّةِ العين به ، تبعث على الازدياد من طاعته ، وتحثُّ على الجدِّ في السيْر إليه »(١) .

الدرجة الثانية : مُراقَبَة نظَرِ الحقِّ برفْضِ المعارضة ، بالإعراض عن الاعتراضِ ، ونقْضِ رُعونة التعرُّض :

قال ابن القيم : « هذه مراقبة لمراقبة الله لك ، فهي مراقبة لصفة خاصَّة معيَّنة ، وهي تُوجب صيانة الباطن والظاهر ؛ فصيانة الظاهر : بحفظ الحركات الظاهرة ، وصيانة الباطن : بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة ، التي منها رفْض معارضة أمره وخبره فيتجرَّد الباطن من كلّ شهوة وإرادة تُعارِض أمره ، ومن كلّ إرادة تعارض إرادته . ومن كلّ شبهة تعارض خبره ، ومن كلّ محبَّة تزاحم محبته ، وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلّا مَن أتى اللهَ به ، وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين، وكل تجريد سوى هذا فناقِصٌ . وهذا تجريد أرباب العزائم .

ثم بَيَّن الشيخ سبب المعارضة ، وبماذا يرفضها العبد ؛ فقال : « بالإعْراض عن الاعتراض » ؛ فإن المعارضة تتولَّد من الاعتراض ، و « الاعتراض » ثلاثةُ أنواع سارية في الناس ، والمعصوم مَن عصمه اللهُ منها :

النوع الأول : الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشُّبه الباطلة ، التي يسمِّيها أربابها قواطع عقلية ، وهي في الحقيقة خيالات جهْلية ، ومُحالات ذِهنية ، اعترضوا بها على أسمائه وصفاته عز وجل، وحكموا بها عليه، ونفوا لأجْلها ما أثْبَتَهُ لنفسه، وأثبتَه له رسوله ﷺ ، وأثبتوا ما نفاه ، ووالَوْا بها أعداءه ، وعادَوا بها أولياءه ،

---

(١) مدارج الساكين ٢/٦٦ - ٦٨ .

وحرَّفوا بها الكَلِم عن مواضعه ، ونسوا بها نصيبًا كثيرًا مما ذُكِّروا به وتقطَّعوا لها أمرَهم بينهم زُبُرًا ، كلُّ حزبٍ بما لديهم فرِحون .

والعاصِم من هذا الاعتراض : التسليم المحْض للوحي ، فإذا سلم القلب له ؛ رأى صحة ما جاء به ، وأنه الحقُّ بصريح العقل والفِطرة ، فاجتمع له السمع والعقل والفطرة ، وهذا أكمل الإيمان . ليس كمَنِ الحربُ قائمٌ بين سمعه وعقله وفطِرته .

النوع الثاني : الاعتراضُ على شرْعه وأمره . وأهل هذا الاعتراض ثلاثة أنواع :

أحدها : المعترِضون عليه بآرائهم وأقيستهم ، المتضمِّنة تحليل ما حرَّم الله سبحانه وتعالى ، وتحريم ما أباحه ، وإسقاط ما أوجبه ، وإيجاب ما أسقطه ، وإبطال ما صحَّحه ، وتصحيح ما أبطله ، واعتبار ما ألغاه ، وإلغاء ما اعتبره ، وتقييد ما أطلقه ، وإطلاق ما قيَّده . وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبةً على ذمِّها والتحذير منها ، وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض ، وحذَّروا منهم ، ونفروا عنهم .

الثاني : الاعتراض على حقائق الإيمان والشرْع بالأذواق والمواجيد والخيالات ، والكشوفات الباطلة الشيطانية ، المتضمِّنة شرْعَ دينٍ لم يأذنْ به الله وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله ، والتعوّض عن حقائق الإيمان بخدَعِ الشيطان ، وحظوظ النفوس الجاهلة .

والعجب أنَّ أربابها يُنكرون على أهل الحظوظ ، وكلّ ما هم فيه فحظٌّ ، ولكن حَظُّهم متضمِّن مخالفة مراد الله ، والإعراض عن دينه ، واعتقاد أنه قربة إلى الله . فأين هذا من حظوظ أصحاب الشهوات ، المعترفين بذمِّها ، المستغفرين منها ، المقرِّين بنقصهم وعيْبهم ، وأنها منافية للدين ؟!.

وهؤلاء في حظوظم اتخذوها دينًا ، وقدَّموها على شرْع الله ودينه ،

واغتالوا بها القلوب ، واقتطعوها عن طريق الله ، فتولَّد من معقول أولئك ، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة ، وأذواق هؤلاء : خرابُ العالم ، وفساد الوجود ، وهدْمُ قواعد الدين . وتفاقَم الأمر وكاد ، لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به مَن يحفظُه ، ويبيِّن معالمه ، ويحميه من كيْد مَن يكيد .

الثالث : الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة ، التي لأرباب الولايات التي قدَّسوها على حكم الله ورسوله ، وحكموا بها بين عباده ، وعطَّلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده .

فقال الأوَّلون : إذا تعارَض العقل والنقل : قدَّمنا العقل .

وقال الآخرون : إذا تعارَض الأثرُ والقياس : قدَّمنا القياس .

وقال أصحاب الذوْق والكشْف والوجْد : إذا تعارض الذوْق والوجد والكشف وظاهر الشرع ؛ قدَّمنا الذوق والوجد والكشف .

وقال أصحاب السياسة : إذا تعارضتِ السياسة والشرع ، قدَّمنا السياسة . فجعلتْ كل طائفة قُبالةَ دينِ الله وشرعه طاغوتًا يتحاكمون إليه ؛ فهؤلاء يقولون : لكم النقل ، ولنا العقل . والآخرون يقولون : أنتم أصحاب آثار وأخبار ، ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار . وأولئك يقولون : أنتم أرباب الظاهر ، ونحن أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع ، ولنا السياسة . فيا لها من بليَّة ، عَمَّتْ فأعْمَتْ ، ورزيّة رَمَتْ فأصْمَت ، وفتنةٍ دعت القلوب فأجابها كلُّ قلب مفتون ، وأهوية عصفَت فصُمَّتْ منها الآذان ، وعميتْ منها العيون ، عُطِّلتْ لها - والله - معالم الأحكام ، كما نُفيتْ لها صفات ذي الجلال والإكرام ، واستند كلُّ قوم إلى ظلْمٍ وظلماتِ آرائهم ، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم ، وصار لأجْلها الوحيُ عُرْضَةً لكلِّ تحريف وتأويل ، والدين وقْفًا على كل إفساد وتبديل .

النوع الثالث : الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدَره . وهذا اعتراض

الجُهَّال . وهو ما بين جليّ وخفيّ ، وهو أنواع لا تُحصى ، وهو سارٍ في النفوس سريان الحمَّى في بدَن المحموم ، ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله ، لَرَأى ذلك في قلبه عيانًا ، فكلُّ نفسٍ معترضة على قَدَر الله وقَسْمه وأفعاله ، إلّا نفْسًا قد اطمأنت إليه ، وعرفتْه حقَّ المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها ، فتلك حظُّها التسليم والانقياد ، والرضا كل الرضاء .

وأما « نقْصُ رعونة التعرُّض » : فيشير به إلى معنى آخر ، لا تتمُّ المراقبة عنده إلّا بنقْضه ، وهو إحساس العبد بنفسه وخواطره وأفكاره حال المراقبة والحضور مع الله ؛ فإنَّ ذلك تعرُّض منه لحجاب الحقِّ له عن كمال الشهود ؛ لأن بقاء العبد مع مداركه وحواسِّه ومشاعره ، وأفكاره وخواطره ، عند الحضور والمشاهدة : هو تعرُّض للحجاب ، فينبغي أن تتخلَّص مراقبة نظر الحقِّ إليك من هذه الآفات . وذلك يحصل بالاستغراق في الذكر ، فتذْهَلُ به عن نفسك وعمَّا منك ، لتكون بذلك متهيئًا مستعدًّا للفناء عن وجودك ، وعن وجود كلِّ ما سوى المذكور سبحانه .

وهذا التهيُّؤ والاستعداد : لا يكون إلّا بنقْضِ تلك الرعونة ، والذكْرُ يُوجب الغيبة عن الحِسِّ ، فمن كان ذاكرًا لنظَرِ الحق إليه من إقباله عليه ، ثم أحسَّ بشيء من حديث نفسه وخواطره وأفكاره : فقد تعرَّض واستدعى عوالم نفسه ، واحتجاب المذكور عنه ؛ لأن حضْرة الحقِّ تعالى لا يكون فيها غيره .

وهذه الدرجة لا يقدِر عليها العبد إلا بمَلَكَة قويّة من الذكْر ، وجمع القلب فيه بكليَّته على الله عز وجل »[1] .

الدرجة الثالثة : مراقبة الأزَلِ ، بمطالعة عيْن السَّبْق ، استقبالًا لعَلَم التوحيد:

قال ابن القيم : « قوله : (مراقبة الأزل) : أي شهود معنى الأزل ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/٦٨ - ٧٢ .

وهو القدم الذي لا أول له .

(بمطالعة عيْن السبْق) : أي بشهود سبق الحقِّ تعالى لكلّ ما سواه ؛ إذْ هو الأول الذي ليس قبله شيء فمتى طالَع العبد عيْن هذا السبق، شهِد معنى « الأزل » ، وعرف حقيقته ، فبدا له حينئذ عَلَمُ التوحيد ، فاستقبله كما يستقبل أعلام البلد ، وأعلام الجيش ، ورُفع له فشمَّرَ إليه . وهو شهود انفرادِ الحق بأزليَّته وحْدَه ، وأنه كان ولم يكن شيء غيره ألبتة ، وكل ما سواه فكائن بعد عدَمِه بتكوينه . فإذا عدِمت الكائناتُ من شهوده ، كما كانت معدومة في الأزل ؛ فطالعَ عيْن السبق ، وفني بشهودِ مَن لم يزلْ عن شهودِ مَن لم يكن ؛ فقدِ استقبل عَلَمَ التوحيد . ويشهد تنوُّع الأسماء والصفات ، وتعلُّقها بأنواع الكائنات وارتباطها بجميع الحادثات ، وإعطاء كلِّ اسم منها وصفةٍ حقَّها ؛ من الشهود والعبودية ، والنظر إلى سَرَيان آثارها في الخلْق والأمر ، والعالم العلوي والسفلي ، والظاهر والباطن ، ودار الدنيا ودار الآخرة .

فهذا الشهود المتعلِّق بأسمائه وصفاته ، وتقدُّمِ علْمه بالأشياء ووقوعها في الأبد مطابقةً لعلْمه الأزلي ؛ فهذا الشهود يُعطي إيمانًا ومعرفةً ، وإثباتًا للعلْم والقدرة ، والفعل والقضاء والقدَر .

درجةٌ عاليةٌ رفيعةٌ شريفةٌ من المراقبة :

مراقبة مواقع رضا الربِّ ، ومساخِطه في كلِّ حركةٍ ، والفناءُ عمَّا يُسخِطُه بما يحبُّ ، والتفرُّق له وبه وفيه ، ناظرًا إلى عيْن جمْع العبودية ، فانيًا عن مراده من ربِّه ، مهْمَا علا بمراد ربه منه . والله سبحانه وتعالى أعلم »[1] .

* * *

(١) مدارج السالكين ٢/٧٤ .

أخي ، لله درُّ مَن قال :

كأنَّ رقيبًا منكَ يرعىٰ خواطري ... وآخر يرعىٰ مهْجَتي ولساني
فخاطبتُ موجودًا بغيْرِ تكلُّمٍ ... ولاحظتُ مَوْجُودًا بغيرِ عِيانِ

وقالت ميمونة :

قلوبُ العارفين لها عُيُونٌ ... ترىٰ ما لا يراهُ الناظرُونَا
وألسنةٌ بسرٍّ قد تناجىٰ ... تغيبُ عن الكرامِ الكاتبينا
وأجنحةٌ تطير بغيْرِ ريشٍ ... إلى ملكوتِ ربِّ العالمينا
فتسقيها شرابَ الصدقِ صِرْفًا ... وتشربُ من كؤوس العارفينا

أخي :

« حالُ الكبراء من أهل المراقبة أنهم يُراقبون اللهَ تعالى ، ويسألونه أن يراعيهم فيها؛ لأنه - عز وجل - قد خصَّ نجباءه وخاصتَّه بألَّا يَكِلَهم في جميع أحوالهم إلى أحد ، وهو الذي يتولّى أمرهم ؛ فقال عز وجل : ﴿ **وهو يتولّى الصالحين** ﴾ [الأعراف : ١٩٦] » .

« **مراقبة مخلوق لمخلوقٍ ، فكيف مراقبةُ العبد لسيِّده ؟** » :

« قال أبو علي الدقَّاق : كان لبعض الأمراءِ وزير ، وكان بين يديْه يومًا ، فالتفت إلى بعض الغلمان الذين كانوا وُقُوفًا ، لا لريبة ، ولكن لحركة أو صوتٍ أحسَّ به منهم ، فاتفق أن ذلك الأميرَ نظَر إلى هذا الوزير في تلك الحالة ، فخاف الوزير أن يتوهَّم الأمير أنه نظَرَ إليهم لريبةٍ ، فجعل ينظر إليه كذلك ، فبعد ذلك اليوم كان هذا الوزير يدخل على هذا الأمير أبدًا وهو ينظر إلى جانب ، حتى توهّم الأمير أنَّ ذلك خلْقةٌ وحَوَلٌ فيه .

فهذه مراقبة مخلوق لمخلوق ، فكيف مراقبة العبد لسيِّده ؟! » . انتهى .

أخي : « ما تطالعه بقلبك هباءٌ في جنْب ما تراقب في سِرِّك ، فراقِبِ الله

تعالى في سرِّك وعلانيتك » .

المراقبة تُوصلك إلى القُرْب :

والمراقبة تقتضي حالَ القرْب ، وحال القرْب لعبدٍ شاهَد بقلْبِه قُرْب الله منه ، فتقرَّب إلى الله تعالى بطاعته ، وجمعَ همَّه بيْن يدي اللهِ بدوامِ ذِكْره في علانيته وسرِّه .

قال عامر بن عبد قيس : ما نظرتُ إلى شيءٍ إلَّا رأيتُ اللهَ تعالى أقرب إليه منّي .

قال الجنيد : اعلمْ أنه عز وجل يقرب من قلوب عباده على حسبِ ما يرى من قرْب قلوبِ عباده منه ، فانظرْ ماذا يقرب من قلبك .

قيل للجنيد رحمه الله : قلْ : لا إله إلّا الله . فقال : ما نسيتُه فأذكره .

حاضرٌ في القلبِ يعمرُهُ   لستُ أنساهُ فأذكرُهُ
فهو مولاي ومعتمَدِي   ونصيبي منه أوْفَرُهُ(١)

قال محمد بن علي الترمذي : « اجعلْ مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعلْ شكرَكَ لمن لا تنقطع نِعَمُه عنك ، واجعلْ طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعلْ خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه » .

ونختم بما ثبتَ من عصر الطيِّبين في زمن الفاروق رضي الله عنه : كان هناك رجل يؤمُّ قومًا ، فإذا قُضيتِ الصلاة ذكَّر نفسه ببعض أبياتٍ من الشعر ، فأتى الناس إلى عمر رضي الله عنه فقصُّوا له حكايته ، فقال : قلْها يا رجل ، فإنْ كانت حسنة رَدَّدتُها معك ، وإلّا زجرتُك . فقال :

وفؤادي كلَّما عاتبتُهُ   في مدى الهجرانِ يبغي تَعَبي

---

(١) كتاب : نشأة التصوف الإسلامي للدكتور إبراهيم بسيوني ص٢٦٨ - طبْع : دار المعارف،نقلًا عن الرسالة القشيرية ص١٥٢ .

لا أراهُ الدهرَ إلّا لاهيًا ... في تماديهِ فقد برَّح بي
يا قرينَ السُّوءِ ما هذا الصبّا ... فني العمرُ كذا في اللَّعِبِ
نفسِ ما كنتِ ولا كان الهوىٰ ... راقبي اللهَ وخافي وارهبي

فقال الفاروق رضي الله عنه :

نفسِ ما كنتِ ولا كان الهوىٰ ... راقبي اللهَ وخافي وارهبي

* * *

الفصل التاسع عشر

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الحَيَاء[1]

« تركتُ الذنوبَ حياءً أربعينَ سنةً » .

[مقدّم الجيوش : الجرَّاح]

« العلمُ الأكْبَر : الهيْبة والحياء »

[ابنُ عطاء]

□ عُلُوُّ الهِمَّة في الحَيَاء □

اعلمْ - رحمك الله - أنه على حسَبِ حياة القلب ، يكون خُلُق الحياء ، وقلَّة الحياء من موت القلب والروح ، فكلَّما كان القلب أحيا كان الحياء أتمَّ .

قال تعالى : ﴿ **ألم يعلمْ بأنَّ الله يرىٰ** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلمُ ما توسوس به نفْسُه ونحن أقرب إليه من حبْل الوريد** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **فلَنقصَّنَّ عليهم بعلمٍ وما كنا غائبين** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وما تكون في شأنٍ وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلّا كنا عليكم شهودًا إذ تُفيضون فيه وما يَعْزُبُ عن ربِّك من مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسْمع سرَّهم ونجواهم بلىٰ ورسلُنا لديهم يكتبون** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **ألَا إنه بكلِّ شيءٍ محيط** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وكان اللهُ على كل شيءٍ رقيبًا** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **والله على كل شيءٍ شهيد** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **واللهُ بصير بما تعملون** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وأسِرُّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور** ﴾ . وقال تعالى : ﴿**ألا إنَّهم يَثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرُّون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور** ﴾ .وقال تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور** ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من فعَلَهنَّ فقد طَعِم طعْمَ الإيمان: مَن عَبَدَ الله وحده ، وأنه لا إله إلّا الله ، وأعطىٰ زكاة مالهِ طيِّبةً بها نفسه رافدة[1] عليه كل عام . ولا يُعطي الهَرِمَة ولا الدَّرِنة[2]، ولا المريضة ، ولا

(١) رافدة : فاعلة من الرفد ، وهو الإعانة أي تعينه نفْسُه على أداء الزكاة .

(٢) الدرنة : الجرباء .

الشَّرَط[1] اللئيمة[2]، ولكنْ من وسط أموالكم ؛ فإن الله لم يسألكمْ خيره ، ولم يأمرْكم بشرِّه »[3] .

زاد البيهقي في روايته : « وزكّى نفسَه » . فقال رجل : وما تزكية النفس ؟ فقال : « أن يعلم أنَّ الله عز وجل معه حيث كان » .

قال الإمام محمد بن يحيىٰ الذهلي : « يريد أن الله علْمُه محيط بكلِّ مكان ، والله على العرْش » .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « لا يجد عبدٌ صريحَ الإيمان حتَّى يعلم بأن الله تعالى يراه ، فلا يعمل سرًّا يُفْتضح به يوم القيامة » .

ولله درُّ الجنيد حين يقول : « الحياء : رؤية الآلاء ورؤية التقصير ، فيتولَّد بينهما حالة تسمَّى الحياء . وحقيقته : خلُقٌ يبعث على ترْك القبائح ، ويمنع من التفريط في حقِّ صاحب الحق » .

قال رسول الله ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحِ فاصنع ما شئتَ »[4] .

وقال ﷺ : « آخر ما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحِ فاصنع ما شئتَ »[5].

وقال ﷺ : « إن لكل دين خلقًا ، وإن خُلُقَ الإسلام ....

---

(١) الشرط : قال أبو عبيد : هو صغار المال وشراره . وقال الخطابي : رذالة المال .

(٢) اللئيمة : البخيلة باللبن .

(٣) صحيح : رواه أبو داود بسند فيه انقطاع ، ووصَلَه الطبراني في الصغير ، والبيهقي في السنن ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ١٠٤٦ .

(٤) رواه البخاري وأحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن مسعود ، وأحمد عن حذيفة .

(٥) صحيح : رواه ابن عساكر في تاريخه عن أبي مسعود البدري ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢ .

الحياء »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « الحياء خيرٌ كلُّه »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « الحياء لا يأتي إلَّا بخير »[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « الحياء من الإيمان »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « إن الحياء والإيمان قُرِنَا جميعًا ، فإذا رُفِع أحدهما رُفِع الآخر »[٥].

وقال رسول الله ﷺ : « الإيمانُ بضعٌ وستُّون شعبة ، والحياء شعبة مِن الإيمان »[٦].

وقال رسول الله ﷺ : « الحياء من الإيمان ، والإيمان في الجنة ، والبذاء[٧] من الجفاء ، والجفاء في النار »[٨].

---

(١) حسن : رواه ابن ماجه عن أنس وابن عباس،وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٤٥ .

(٢) رواه مسلم وأبو داود عن عمران بن حصين .

(٣) رواه البخاري ومسلم عن عمران بن حصين .

(٤) رواه مسلم والترمذي عن ابن عمر .

(٥) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٩٩ .

(٦) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٧) البذاء : إظهار الفحْش من القول .

(٨) صحيح : رواه الترمذي والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هـريرة ، والبخاري في الأدب وابن ماجه والحاكم ، والبيهقي عن أبي بكرة ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي عن عمران بن حصين ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٩٤ .

وقال ﷺ : « الحياء والعِيُّ[١] شعبتان من الإيمان ، والبذاء والبيان[٢] شعبتان من النفاق »[٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما كان الفحْشُ في شيءٍ قطُّ إلَّا شانه ، ولا كان الحياء في شيء قطُّ إلَّا زانه »[٤] .

اللهُ تعالىٰ حَيِّي يُحبُّ الحياءَ :

عن سلمان رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الله حييٌّ كريم ، يستحيي أن يرفعَ الرجل إليه يديه أن يردَّهما صِفرًا خائبتين »[٥] .

وعن يعلىٰ بن أُميَّة رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى حييٌّ سِتِّيرٌ يحبُّ الحياء والستْر ، فإذا اغتسَلَ أحدكم فلْيستترْ »[٦] .

قال شيخ الإسلام ابن القيم : « وأمَّا حياءُ الربِّ تعالى من عبده ، فذاك نوعٌ آخر ، لا تدركه الأفهام ، ولا تكيِّفه العقول ؛ فإنه حياءُ كَرم وبِرٍّ وجودٍ وجلالٍ ؛ فإنه تبارك وتعالى حَيِّي كريم ، يستحيي من عبده ، إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صفرًا ، ويستحيي أن يعذِّب ذا شيْبة شابت في ....

(١) العِي : سكوت اللسان خشية الوقوع فيما لا يحل .

(٢) فصاحته وإن كان بغير حقّ .

(٣) صحيح : رواه أحمد والترمذي ، والحاكم عن أبي أمامة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٩٦ .

(٤) صحيح : رواه أحمد ، والبخاري في الأدب ، والترمذي وابن ماجه عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٣١ .

(٥) صحيح : أخرجه أبو داود ، والترمذي ، وصحَّحه الألباني في:صحيح الترمذي ١٧٩/٣ ، وصحيح ابن ماجه ٣٣١/٢ ، وصحيح سنن أبي داود .

(٦) صحيح : أخرجه أبو داود ، والنسائي ، والبيهقي ، والإمام أحمد ، وصحَّحه الألباني في:الإرواء ٣٦٧/٧ ، وصحيح النسائي ٨٧/١ .

الإسلام »[(١)] .

قال المباركفوري : « قوله : (إنَّ الله حييٌّ) : فعيل من الحياء ، أي كثير الحياء ، ووصْفه تعالى بالحياء يُحمَل على مَا يليق له ، كسائر صفاته ، نؤمن بها ولا نُكيِّفها »[(٢)] .

فاللَّه عز وجل مع كمال غِناه عن الخلْق كلِّهم ، من كرمه يستحيي من هتْكِ العاصي ، وفضيحته ، وإحلال العقوبة به ، فيستره بما يقيِّض له من أسباب الستر ، ويعفو عنه ، ويغفر له ، ويتحبَّب إليه بالنعم ، ويستحيي ممن يمدُّ يديه إليه سائلًا متذلّلًا أن يردَّهما خاليتيْن خائبتيْن .

قال المناوي : « قال التوربشتي : وإنما كان الله يحبُّ الحياء والستْر ؛ لأنهما خصْلتان يُفضيان به – أي بالعبد – إلى التخلُّق بأخلاق الله »[(٣)] .

قال الإمام المحقِّق ابن قيِّم الجوزيَّة رحمه الله تعالى : « مَن وافق الله في صفةٍ من صفاته ، قادتْه تلك الصفة إليه بزمامها ، وأدخلتْه على ربِّه ، وأدْنَتْه وقرَّبتْه من رحمته ، وصيَّرتْه محبوبًا له ؛ فإنه سبحانه رحيم يحبُّ الرحماء ، كريم يحبُّ الكرماء ، عليمٌ يحبُّ العلماء ، قويٌّ يحبُّ المؤمن القويَّ ، وهو أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف ، حييٌّ يحب أهل الحياء ، جميل يحبّ أهل الجمال ، وترٌ يحبُّ أهل الوتر »[(٤)(٥)] .

أقسامُ الحياءِ عشَرَةُ أوْجُه :

قال شيخ الاسلام ابن القيم: «وقد قُسِّم «الحياء» على عشرة أوجه :

---

(١) مدارج السالكين ٢/٢٦١ .
(٢) تحفة الأحوذي ٩/٥٤٤ .
(٣) فيض القدير ٢/٢٢٨ .
(٤) الجواب الكافي ص٧٧ .
(٥) الحياء خلُق الإسلام ص٢٠ – ٢٢ .

حياء جِناية . وحياء تقصير . وحياء إجلال . وحياء كرم . وحياء حشمة . وحياء استصغار للنفسِ واحتقارٍ لها . وحياء محبَّة . وحياء عبودية . وحياء شرفٍ وعزَّةٍ . وحياء المُسْتَحْيي مِن نفسه »[1] .

١ - حياءُ الجنايَة :

منه : حياء آدم عليه السلام لمَّا فرَّ هاربًا في الجنة ، قال الله تعالى : أفرارًا مني يا آدم ؟! قال : لا يا ربِّ ؛ بل حياءً منك .

ومنه حياء الأنبياءِ في عرَصَات القيامة ، وليس عندهم ما يُزري بمراتبهم العالية السامية .

روى قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع اللهُ الناس يومَ القيامة ، فيهتمُّون لذلك ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربِّنا ، حتى يُريحنا من مكانِنا هذا ؟ قال : فيأتون آدم ، فيقولون : أنت آدم أبو الخلْق ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدُوا لك ، اشفعْ لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيقول : « لستُ هُناكم » . فيذكر خطيئته التي أصاب ، فستحيي ربَّه منها .. « ولكن ائتوا نوحًا : أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض » . قال : فيأتون نوحًا ، فيقول : « لستُ هناكم » . فيذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحيي ربَّه منها ... « ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلًا » . فيأتون إبراهيم ، فيقول : « لستُ هناكم » . وذكَر خطيئته التي أصاب ، فيستحيي ربَّه منها . « ولكن ائتوا موسىٰ الذي كلمه الله ، وأعطاه التوراة » . قال : فيأتون موسىٰ ، فيقول : « لستُ هناكم » . ويذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحيي ربَّه منها ... « ولكن ائتوا عيسىٰ روحَ الله وكلمته » . فيأتون عيسى روح الله وكلمته ، فيقول : « لستُ هناكم ، ولكن ائتوا محمدًا ؛

(١) مدارج السالكين ٢/٢٦١ ، والرسالة القشيرية ٢/٤٥٤ - ٤٥٩ .

عبدًا غفرَ الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر » . قال : قال رسول الله ﷺ : فيأتونني ، فأستأذن على ربِّي، فيُؤْذَن لي ، فإذا أنا رأيتُه وقعتُ ساجدًا، فيدعني ما شاء الله ، فيُقال : يا محمد ، ارفعْ ؛ قلْ يُسمَع ، سلْ تعطَهْ ، اشفع تشفَّع »[١] .

وعن محمد بن حاتم قال : قال **الفُضَيْل بن عياض** : لو خُيِّرتُ بين أن أُبعَثَ فأدخل الجنة ، وبين أن لا أُبعث ؛ لاخترتُ أن لا أُبْعث » . قيل لمحمد ابن حاتم : هذا من الحياء ؟ قال : نعم ، هذا من طريق الحياء مِن الله عز وجل .

وشهِد الفضيل رحمه الله الموقف الأشرف في عرفات ، فرفع رأسه إلى السماء ، وقد قبض على لحيته ، وهو يبكي بكاءَ الثكْلىٰ ، ويقول : « واسوأتاه منك ، وإن عفوتَ !! » .

يا خجلةَ العبدِ مِن إحسانِ سيِّدِهِ ... يا حسْرَةَ القلبِ من أَلْطافِ معناهُ
فكمْ أسأتُ وبالإحسانِ قابلني ... واخجلتي واحَيائي حينَ ألقاهُ
يا نفسُ كمْ بخفيِّ اللُّطْف عامَلني ... وقد رآني على ما ليسَ يرضاهُ
يا نفسُ كمْ زلَّةٍ زلّتْ بها قدمي ... وما أقالَ عِثاري ثَمَّ إلَّا هو
يا نفسُ توبي إلى مولاكِ واجتهدي ... وصابِري فيه إيقانًا برؤياهُ

الأسود بن يزيد :

ولمّا احتُضر الأسود بن يزيد بكىٰ ، فقيل له : ما هذا الجزَعُ ؟ قال : ما لي لا أجزعُ ؟! ومن أحقُّ بذلك مني ؟! والله لو أُتيتُ بالمغفرةِ من الله عز وجل لأهمَّني الحياء منه مما قد صنعتُ ؛ إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه ، ولا يزالُ مستحييًا منه .

يا حسرةَ العاصينَ عند معادِهِمْ ... هذا وإنْ قدِموا علىٰ الجنَّاتِ

(١) رواه البخاري ومسلم .

لو لم يكنْ إلّا الحياء مِنَ الذي ستر القبيحَ فيا لها الحسـراتِ

قال الحسن : « لو لم نبكِ إلّا للحياء من ذلك المقام ، لكان ينبغي لنا أن نبكي فنُطيل البكاء » .

إمـام أهلِ السنة أحمد بن حنبل :

دخل عليه أبو حامد الخلقاني فأنشده هذه الأبيات :

إذا مـا قـالَ لي ربِّـي أمَـا استحيْيـتَ تعصيني
وتُخفي الذنبَ مِن خَلْقي وبالعِصْيـانِ تـأتيـني
فمـا قـولـي لـهُ لـمَّا يُعـاتبـني ويُقْصِينـي

فأمره أحمد بإعادتها ، فأعادها عليه ، فدخل أحمد داره ، وجعل يردِّدها ويبكي .

٢ - حـياءُ التقصِـير :

كحياء الملائكة الذين يسبِّحون الليل والنهار لا يفتُرون ، فإذا كان يوم القيامة قالوا : سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك .

٣ - حـياءُ الإجْـلال :

هو حياء المعرفة ، وعلى حسَب معرفة العبد بربِّه يكون حياؤه منه .

ومنه حياء عمرو بن العاص رضي الله عنه ؛ كان يقول : « والله ، إن كنتُ لأشدّ الناس حياءً من رسول الله ﷺ ، فما ملأتُ عينيَّ من رسول الله ﷺ ، ولا راجعتُه بما أُريد ، حتى لحِقَ بالله عز وجل ؛ حياءً منه »[1].

وفي رواية : « إنه لم يكن شخص أبغضَ إليَّ منه - يعني النبي ﷺ - فلمَّا أسلمتُ لم يكن شخصٌ أحبَّ إليَّ منه ، ولا أجلَّ في عينيَّ منه ، ولو سُئلت

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٢٠٤ .

أن أصِفَه لكم لما أطقتُ ، لأني لم أكن أملأ عينيَّ إجلالًا له » .

أشتاقهُ فإذا بدَا أطرقتُ من إجلالِهِ
لا خيفةً بل هيْبةً وصيانةً لجمالـهِ
الموتُ في إدبارِهِ والعيْشُ في إقبالـهِ
وأصدُّ عنه إذا بدَا وأَرومُ طيْفَ خيالِهِ

ومنه : حياءُ ابن عمر إجلالًا لكبار الصحابة ممَّن هم أسنُّ منه : فعن عبد الله ابن عمر ؛أن رسول الله ﷺ قال : « إن من الشجر شجرة لا يسقُط ورقُها ، وهي مَثَلُ المسلم ، حدِّثوني ما هي ؟ » فوقع الناس في شجر البادية ، ووقع في نفسي أنها النخلة . قال عبد الله : فاستحييتُ ، فقالوا : يا رسول الله ، أخبرْنا بها . فقال رسول الله ﷺ : «هي النخلة » . قال عبد الله : فحدَّثتُ أبي بما وقع في نفسي ، فقال : لَأَنْ تكون قلتَها أحبُّ إليّ من أن يكون لي كذا وكذا[1] .

وكان الإمام الجليل سفيان الثوري رحمه الله شديدَ الحياء ، وقال الإمام ابن مهدي رحمه الله : « ما كنتُ أقدر أن أنظر إلى سفيان استحياءً وهيبةً منه » . ومع ذلك فكان في مواقع الحميَّة والغضب لدين الله عز وجل لا يعرف الاستحياء في الحق ، حتى قال يحيى بن أبي غنية : « ما رأيتُ رجلًا قطُّ أصفق وجهًا في الله عزَّ وجل[2] من سفيان الثوري » .

وأنكر مرة على المهدي بعض الأمور ، واشتدَّ في الإنكار ، حتى قال له وزير المهدي : « شططتَ ؛ تكلِّم أمير المؤمنين بمثل هذا ؟! » . فقال له سفيان : « اسكتْ ، ما أهلك فرعونَ إلّا هامانُ » . فلمَّا ولَّى سفيان ، قال أبو عبيد الله : «يا أمير المؤمنين ، ائذنْ لي أضرب عنقه». فقال له: « اسكتْ ،

(١) رواه البخاري .
(٢) أصفق وجهًا : أي لا يجامل ولا يداري .

ما بقي على وجه الأرض من يُستحيا منه غير هذا » .

٤ - حياءُ الكَرَم :

كحياءِ النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب ، وطوَّلوا الجلوسَ عنده ، فقام واستَحْيا أن يقول لهم : انصرفوا ، فقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **ولا مستأنسينَ لحديثٍ** ﴾. [الأحزاب : ٥٣] .

٥ - حياءُ الحشْمَة :

كحياء عليٍّ بن أبي طالب أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي ، لمكان ابنته منه : عن علي رضي الله عنه قال : كنتُ رجلًا مذَّاءً ، فأمرتُ المقداد أن يسأل النبي ﷺ فسأله ، فقال : « فيه الوضوء » . ولفظه في رواية أخرى : كنتُ رجلًا مذاءً ، فأمرتُ رجلًا أن يسأل النبي ﷺ - لمكان ابنته - فسأل ، فقال: « توضَّأ واغسلْ ذَكَرَك »[1] .

٦ - حياء الاستحقار واستصغار النفس :

كحياء العبد من ربِّه عز وجل حين يسأله حوائجه ، احتقارًا لشأن نفسه، واستصغارًا لها . وفي أَثَرٍ إسرائيلي: « أَنَّ موسى عليه السلام قال : يا ربِّ إنه لَتَعْرِض لي الحاجة من الدنيا ، فأستحيي أن أسألك إياها يا ربِّ . فقال الله تعالى : سلْني ... حتى ملحَ عجينتك ، وعَلَف شاتك » .

وقد يكون لهذا النوع سببان :

أحدهما : استحقار السائل نفسه واستعظام ذنوبه وخطاياه .

الثاني : استعظام مسئولِهِ .

وكحال مَن قال : إني لَأَستحيي أن أسأل ربي الدنيا وهو مالكها ،

---

(١) رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن خزيمة .

فكيف أسألها غير مالكها .

٧ - حياءُ المحبَّة :

هو حياء المحبّ من محبوبه ، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته ؛ هاجَ الحياء من قلبه وأحسَّ به في وجهه ولا يدري ما سببه ، وكذلك يعرض للمحبِّ عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له : روعةٌ شديدة . ولا ريب أن للمحبَّة سلطانًا قاهرًا للقلب أعظم من سلطان مَن يقهر البدَن ، فأين مَن يقهر قلبك وروحك إلى من يقهر بدنك ؟! ولذلك تعجبتِ الملوك والجبابرة من قهْرهم للخلْق وقهْرِ المحبوبِ لهم ، وذلّهم له ، فإذا فاجأ المحبوب محبَّه ، ورآه بغتةً ؛ أحسَّ القلب بهجوم سلطانه عليه ، فاعتراه روعة وخوف .

يقول الشاعر :

فما هو إلَّا أنْ أراها فجاءةً ... فأُبهَتُ حتى ما أكادُ أُجيبُ
وإني لَتَعْروني لذِكْراك هِزَّةٌ ... لها بينَ جلْدي والعظامِ دَبيبُ

أو كما قال الشاعر :

فيعثرُ ما بينَ الكلامِ ورجْعِهِ ... لساني بِكُمْ حتَّى ينمَّ بحالي

٨ - حياءُ العبودية :

هو حياء ممتزَج من محبَّة وخوف ، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده ، وأن قدْرَه أعلى وأجلّ منها ، فعبوديته له تستوجب استحياءه منه، لا محالة .

٩ - حياء الشرَف والعِزَّة :

أما حياء الشرف والعزَّة : فَحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها ؛ من بذْلٍ أو عطاء وإحسان ؛ فإنه يستحيي - مع بذله - حياءَ شرفِ نفسٍ وعزة ؛ وهذا له سببان :

أحدهما : هذا . **والثاني** : استحياؤه من الآخِذ ، حتى كأنه هو الآخِذ السائل ؛ حتى إن بعض أهل الكرم لا تُطاوعه نفسه بمواجهته لمن يُعطيه حياءً منه ، وهذا يدخل في حياء التلوُّم ؛ لأنه يستحيي من خجلة الآخِذ .

١٠ - حياءُ المرءِ مِن نفسه :

وأما حياء المرء من نفسه : فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقْص ، وقناعتها بالدُّون ، فيجد نفسه مُسْتَحْيِيًا من نفسه حتى كأن له نفْسيْن ، يستحيي بإحداهما من الأخرى ، وهذا أكمل ما يكون من الحياء ؛ فإن العبد إذا استْحيا من نفسه ، فهو بأن يستحيي من غيره أجدر(١) .

درجاتُ الحياءِ :

قال صاحب « المنازل » : « وهو على ثلاثِ درجات :

الدرجة الأولى : حياءٌ يتولَّد مِن علْمِ العبدِ بنَظَرِ الحقِّ إليه ؛ فيجذبه إلى تحمُّل هذه المجاهدة ، ويحمله على استقباحِ الجناية ، ويُسْكِتهُ عن الشكوى »:

قال ابن القيم في شرح هذه الدرجة : « يعني : أن العبد متي علم أن الربَّ تعالى ناظر إليه ، أورثه هذا العلم حياءً منه ، يجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة ؛ مثل العبد إذا عمل الشغل بين يدي سيِّده ؛ فإنه يكون نشيطًا فيه محتملًا لأعبائه ، ولا سيَّما مع الإحسان من سيده إليه ، ومحبته لسيده ؛ بخلاف ما إذا كان غائبًا عن سيده . والرب تعالى لا يغيب نظرُه عن عبده ، ولكن يغيب نظَرُ القلْب والتفاتُه إلى نظَرِه سبحانه إلى العبيد ؛ فإن القلب إذا غاب نظرُه ، وَقَلَّ التفاته إلى نظر الله تبارك وتعالى إليه ؛ تولَّد من ذلك قلة الحياء والقِحَة .

---

(١) انظر : مدارج السالكين ٢/٢٦١ - ٢٦٣ .

وكذلك يحمله على استقباح جنايته ، وهذا الاستقباح الحاصل بالحياء قدْرٌ زائد على استقباح ملاحظة الوعيد ، وهو فوقه .

وأرفع منه درجةً : الاستقباحُ الحاصل عن المحبَّة . فاستقباح المحبِّ أتمُّ من استقباح الخائف. ولذلك فإن هذا الحياء يكفُّ العبد أن يشتكي لغير الله ، فيكون قد شكا اللهَ إلى خلقه ، ولا يمنع الشكوىٰ إليه سبحانه ؛ فإن الشكوى إليه سبحانه فقر وذلَّة ، وفاقة وعبودية، فالحياء منه في مثل ذلك لا يُنافيها »(١).

« الدرجة الثانية : حياء يتولَّد مِن النظر في علْمِ القُرْب ، فيدعوه إلى رُكوب المحبَّة ، ويربطه بروح الأُنْس ، ويُكرِّهُ إليه ملابسة الخلْق » :

قال ابن القيم : « النظر في علم القرْب : تحقق القلب بالمعيَّة الخاصَّة مع الله ؛ فإن المعية نوعان :

عامَّة : وهي: معيَّة العلم والإحاطة ؛ كقوله تعالى : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ [الحديد : ٤] . وقوله : ﴿ **ما يكون من نجوىٰ ثلاثةٍ إلَّا هو رابعهم ولا خمسةٍ إلَّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلَّا هو معهم أينما كانوا** ﴾ . [المجادلة : ٧] .

وخاصّة : وهي معيَّة القرْب ؛ كقوله تعالى : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ [النحل : ١٣٨] . وقوله : ﴿ **إن الله مع الصابرين** ﴾ [البقرة : ١٥٣] . وقوله : ﴿ **وإن الله لَمَعَ المحسنين** ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

فهـذه معيَّة قُـرْبٍ تتضمن الموالاة والنصر والحِفظ ، وكلا المعنييْن مصاحبة منه للعبد ، لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة ، وهذه مصاحبة موالاة

(١) مدارج السالكين ٢/٢٦٤ - ٢٦٥ .

ونصر وإعانة . فـ « مع » في لغة العرب : تفيد الصحبة اللائقة ، لا تُشعر بامتزاج ولا اختلاط ، ولا مجاورة ولا مجانبة . فمن ظنَّ منها شيئًا من هذا فمن سُوءِ فهْمه أُتي .

وأما القرْب : فلا يقع في القرآن إلَّا خاصًّا ؛ وهو نوعان : قربه من داعيه بالإجابة . وقربه من عابده بالإثابة .

فالأول : كقوله تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الدَّاعِ إذا دعانِ** ﴾ [البقرة : ١٨٦]. ولهذا نزلت جوابًا للصحابة رضي الله عنهم . وقد سألوا رسول الله ﷺ : ربُّنا قريب فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

والثاني : قوله ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وأقرب ما يكون الربُّ من عبده : في جوف الليل » . فهذا قربه من أهل طاعته .

وفي الصحيح : عن أبي موسى رضي الله عنه ، قال : « كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فارتفعت أصواتنا بالتكبير ، فقال : « يا أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم ؛ إنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائبًا ، إن الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عُنق راحلته » .

فهذا قرب خاصٌّ بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد ، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الربِّ لخلْقه ، واستواءه على عرشه . بل يجامعه ويلازمه ؛ فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض ؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ، ولكنه نوع آخر ، والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جدًّا من محبوبٍ بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي ، ويجده أقرب إليه من جليسه . كما قيل :

ألا رُبَّ مَن يدنو ويزعُمُ أنَّهُ يحبُّك والنائي أحبُّ وأقربُ

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحبَّاؤه ، الذين هو عندهم

أولى بهم من أنفسهم ، وأحبُّ إليهم منها : يجدون نفوسَهم أقرب إليه ، وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة . والمحبُّون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومَن حولها . هذا مع عدم تأتِّي القرْب منها ، فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يشاء ، وهو مستوٍ على عرشه . وأهل الذوق لا يلتفتون في ذلك إلى شبهةِ معطِّل بعيد من الله ، خَليٍّ من محبَّته ومعرفته .

والقصد : أن هذا القرب يدعو صاحبه إلى ركوب المحبَّة ، وكلما ازداد حبًّا ازداد قربًا ، فالمحبَّة بين قربيْن : قرب قبلها ، وقرب بعدها . وبين معرفتين : معرفة قبلها حمَلَت عليها ، ودعَتْ إليها ، ودَلَّت عليها . ومعرفة بعدها ، هي من نتائجها وآثارها .

وأما ربطه بروح الأُنس : فهو تعلُّق قلبه بروح الأنس بالله ، تعلُّقًا لازمًا لا يفارقه ، بل يجعل بين القلب والأنس رابطة لازمة ، ولا ريب أن هذا يُكَرِّه إليه ملابسة الخلْق ، بل يجد الوحشة في ملابستهم بقدْر أُنسه بربِّه ، وقرَّة عيْنه بحبِّه وقربه منه ، فإنه ليس مع الله غيره ؛ فإن لابسهم لابسهم برسمه دون سِرِّه ورُوحه وقلبه ، فقلبه وروحه في ملإ ، وبدنه ورسْمه في ملإ .

« الدرجة الثالثة : حياءٌ يتولَّد من شُهود الحضْرة ، وهي التي لا تشوبها هيْبَة ، ولا تقارنها تفرِقة ، ولا يُوقف لها على غاية » :

قال ابن القيم : « شهود الحضرة : انجذاب الروح والقلب من الكائنات ، وعُكوفه على ربِّ البريَّات ؛ فهو في حضرة قرْبه مشاهدًا لها ، وإذا وصل القلبُ إليها غَشِيتْه الهيبةُ وزالت عنه التفرقة ؛ إذ ما مع الله سواه ، فلا يخطر بباله في تلك الحال سوى الله وحده ، وهذا مقام الجمعيَّة .

وأما قوله : « ولا يُوقف لها على غاية » : فيعني أن كلَّ مَن وصل إلى مطلوبه وظفر به ؛ وصل إلى الغاية ، إلّا صاحب هذا المشهد ؛ فإنه لا يقف

بحضرة الربوبية على غاية ، فإن ذلك مستحيل ، بل إذا شهد تلك الروابي ، ووقف على تلك الربوع ، وعايَن الحضرة التي هي غاية الغايات ، شارَفَ أمرًا لا غاية له ولا نهاية . والغايات والنهايات كلها إليه تنتهي ﴿ **وأن إلى ربك المنتهى** ﴾ [النجم : ٤٢] فانتهت إليه الغايات والنهايات . وليس له سبحانه غاية ولا نهاية ؛ لا في وجوده ، ولا في مزيد جوده ؛ إذ هو « الأول » الذي ليس قبله شيء ، و « الآخر » الذي ليس بعده شيء . ولا نهاية لحمده وعطائه ، بل كلما ازداد له العبد شكرًا زاده فضلًا ، وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة ، وكلَّما ازداد منه قربًا لاحَ له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك .. وهكذا أبدًا لا يقف على غاية ولا نهاية . ولهذا جاء : « إن أهل الجنة في مزيد دائم بلا انتهاء » ؛ فإن نعيمهم متصل ممن لا نهاية لفضْلِه ولا لعطائه ، ولا لمزيده ولا لأوصافه . فتبارك الله ذو الجلال والإكرام ؛ ﴿ **إن هذا لرزقُنا ما له من نفَاد** ﴾ [ص : ٥٤] (يا عبادي ، لو أن أَوَّلَكُمْ وَآخِركم وإنسَكُم وَجِنَّكُمْ قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيتُ كل إنسان مسألته : ما نقص ذلك ممَّا عندي إلَّا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أُدخل البحر) »[(١)] .

عالي الهمَّة مَن استْحيا من الله ومن الملائكة ، ومن نفسه ومن الناس :

عالي الهمة من كمُل حياؤه باستحيائه من الله عز وجل ، ثم الملائكة ، والناس ، ونفسه .

الاستحياءُ من الله عز وجل :

من استحيا من الناس أن يروه بقبيح ، دَعَاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربِّه أشدَّ ، فلا يضيِّع فريضة ، ولا يرتكب خطيئة ، لعلمه بأنَّ الله يرى ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٦٥ - ٢٦٨ .

وأنه لا بدَّ أن يقرِّره يوم القيامة على ما عمله ، فيخجل ويستحي من ربه .

عن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه : « استحيوا مِن الله حقَّ الحياء » . قالوا : إنا نستحيي يا رسول الله . قال : « ليس ذاكم(١) ، ولكن من استْحيا من الله حقَّ الحياء ؛ فليحفظِ الرأس وما وعىٰ ، ولْيحفظِ البطنَ وما حوىٰ ، وليذكرِ الموت والبِلىٰ ، ومَن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا . فمَن فعَل ذلك قدِ استْحيا مِنَ الله حقَّ الحياء »(٢) .

يحفظ الرأس وما وعىٰ : بجميع حواسِّه الظاهرة والباطنة ، فلا يستعملها إلا فيما يحلُّ .

ويحفظ البطن وما حوى : ما جمعه جوفه باتصاله به من القلب والفرْج واليديْن والرِّجليْن ، فلا يستعمل منها شيئًا في معصية الله عز وجل .

وليذكر الموت والبِلىٰ : فمن ذكَر الموت هانَ عليه ما فاته من اللَّذَّات العاجلة ، وأهمَّه ما يلزمه من طلب الآجلة ، وعمل على إجلال الله وتعظيمه .

ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا : فمَن أراد الله تعالى فليرفض جميع ما سواه ، استحياءً منه ، بحيث لا يرىٰ إلا إيَّاه .

يا مَـن يُشيرُ إليهـمُ المتكلِّـمُ ... وإليـهـم يتـوجَّـه المتظلِّـمُ
وشغلتمُ كَلمي بِكُمْ وجوارحي ... وجوانحي أبـدًا تحنُّ إليكُـمُ
وإذا نظرتُ فلسْتُ أنظر غيرَكُم ... وإذا سمعتُ فمنكـمُ أو عنكـمُ

---

(١) قال البيضاوي : « ليس حقّ الحياء من الله ما تحسبونه ، بل أن يحفظ نفسه بجميع جوارحه عمَّا لا يرضاه من فعْل وقول » .

(٢) حسن : رواه أحمد (١/ ٣٨٧) ، والترمذي (٢٥٨٨) ، وقال : « هذا حديث غريب » . والحاكم (٤/٣٢٣) ، وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وحسّنه الألباني في صحيح الترمذي ٢/٢٩٩ .

وإذا نطقتُ ففي صفاتِ جمالكمْ وإذا سألتُ الكائناتِ فعنكمُ
وإذا رَويتُ فمِنْ طَهُور شرابِكُمْ وبذكْرِكُـمْ في خَلْوتي أترنَّـمُ

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، عوراتنا ما نأتي منها وما نذرُ ؟ قال : « احفظْ عورتَك إلّا من زوجتك أو ما ملكتْ يمينُك » . قلت : يا رسول الله ، إذا كان القوم بعضهم في بعض ؟ قال : « إن استطعتَ أن لا يرينَّها أحد ، فلا تُرِيَنَّها أحدًا » . قلت : يا رسول الله ، إذا كان أحدنا خاليًا ؟ قال : « اللهُ أحقُّ أن يُستحيا منه من الناس »(١) .

فإذا حَرَّض ﷺ على الستر في الخلوة تأدُّبًا مع الله عز وجل واستحياءً منه وهو أمر مختَلَف في وجوبه أو استحبابه - فكيفَ ينبغي أن يكون حياء الإنسان منه تعالى إذا فقده حيث أمره ، أو رآه حيث نهاه ؟!

فعالي الهمَّة أبعد الناس عن الذنوب ، لتيقُّنه بنظر الله عز وجل من فوق عرشه إليه ، وعلْمه أنَّ أيَّ ذنبٍ يفعله الإنسان دائر بيْن أمريْن : كفر وانسلاخ من الدين ، إن لم يؤمن بنظر الله إليه واطلاعه عليه . أو قلَّة الحياء ، إن أقدم على الذنب وهو يعلم نظر الله إليه .

قال أحد عبَّاد السلف : « يا ربّ ، أتراك ترحم مَن لم تقرَّ عيناه بالمعاصي حتى علم أن لا عيْن تراه غيرك » . نعم « لِمَ جعلته أهون الناظرين إليك ؟! » .

وقال بلال بن سعد : « لا تنظر إلى صغَر الخطيئة ، ولكن انظر إلى كبرياء مَن واجهْته بها » .

خلا رجل بامرأة فأرادها على الفاحشة ، فقالت له : انظرْ هل يرانا مِن

(١) حسن : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي وحسّنه ، والحاكم وصحّحه ، ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي ، وحسَّنه الألباني في آداب الزفاف ص١١٢ . وهو محمول على الندْب والكمال ، وليس على ظاهره المفيد الوجوب . والله أعلم . اهـ . من : الحياء خلق الإسلام ص٤٩ .

أحد ؟ فقال لها : ما يرانا إلَّا الكواكب.فقالت له : فأين مكوكبها ؟! .

الاستحياءُ مِنَ الملائكة :

« الحياء من أخلاق الملائكة ، كما يبين عنه حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مرفوعًا : « ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة ؟! » . وعنها رضي الله عنها : أن جبريل عليه السلام امتنع من دخول بيت النبي ﷺ استحياءً منها ، فناداه بصوتٍ خَفِيٍّ ، وأجابه النبي ﷺ بصوت خفي ، ثم قال ﷺ : « ولم يكن لِيدخُل عليكِ ، وقد وضعتِ ثيابَكِ ، وظننتُ أن قد رَقَدتِ ، فكرهْتُ أن أوقظك .. »(١). الحديث .

قال الإمام المحقِّق ابن قيم الجوزية رحمه الله : قال بعض الصحابة رضي الله عنهم : (إن معكم مَن لا يفارقكم ، فاستحيوا منهم ، وأكرموهم) . ولا ألأم ممَّن لا يستحيي من الكريم العظيم القدر ، ولا يُجِلُّه ولا يوقره ، وقد نبَّه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ﴿ **وإن عليكم لحافظين * كرامًا كاتبين * يعلمون ما تفعلون** ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢] . أي : استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام ، وأكرموهم ، وأجِلُّوهم أن يَرَوْا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه مَن هو مثلكم ، والملائكة تتأذَّى مما يتأذى منه بنو آدم ، فإذا كان ابن آدم يتأذَّى ممن يفجُر ويعصي بين يديه ، وإن كان قد يعمل مثل عمله ، فما الظنُّ بأذى الملائكة الكرام الكاتبين ؟! والله المستعان »(٢)(٣). اهـ .

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى في قوله تعالى : ﴿ **وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائق وشهيد** ﴾ [ق :٢١] ، قال : ما على أحدكم إذا خلا أن يقول : « اكتبْ ؛

---

(١) أصل الحديث أخرجه مسلم والنسائي وأحمد .

(٢، ٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص١٢٧ - ١٢٨ ، و « الحياء » للشيخ محمد إسماعيل ص٣٣ .

رحمك الله ».فيملي خيرًا ؟! .

وكان أحدهم إذا خلا يقول : أهلًا بملائكةِ ربي .. لا أعدمكم اليوم خيرًا ، خذوا على بركة الله ... ثم يبدأ في ذكره : سبحان الله ، والحمد لله ...

الاستحياء من النَّفْس :

من اسْتحْيا من الناس ، ولم يستحي من نفسه ؛ فنفسه أَخَسُّ عنده من غيره ؛ لأنه يراها أحقرَ من أن يَستحيي منها . ومن اسْتحْيا منها ، ولم يستحي من الله ، فلعدم معرفته بالله عز وجل ، فمِن ثَمَّ قال رسول الله ﷺ للرجل الذي استوصاه : « أُوصيك أن تستحييَ من الله كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك »[(١)] .

فحقُّ الإنسان إذا هَمَّ بقبيح أن يتصور أحدًا من نفسه كأنه يراه ، فالإنسان يستحيي ممن يكبرُ في نفسه ، ولذلك لا يستحيي من الحيوان ، ولا من الأطفال ، ولا من الذين لا يميِّزون ، ويستحيي من العالِم أكثر مما يستحيي من الجاهل ، ومن الجماعة أكثر مما يستحيي من الواحد ، وينبغي على الإنسان إذا كبرتْ عنده نفسُه ، أن يكون استحياؤه منها أكثر من استحيائه من غيره ، ومن ثَمَّ قال بعض السلف : « من عمل في السِّرّ عملًا يَسْتَحْيي منه في العلانية ، فليس لنفسِهِ عنده قدْرٌ » .

---

(١) إسناده جيد : رواه أحمد في : الزهد ص٣٦ ، والخرائطي في مكارم الأخلاق ؛ من حديث سعيد بن يزيد ، وقال الألباني : « إسناده جيد ، رجاله كلهم ثقات . على خلاف في صحبة سعيد بن يزيد ، وهو ابن الأزور ، وقد أثبتها له أبو الخير هذا – يعني مرثد الراوي عن سعيد – وهو أدرى بها من غيره » . اهـ . من : الصحيحة رقم ٧٤١ .

الاستحياء من الناس :

الحياء من الناس خلُق حسَن جميل ، يمنع من المعايب ، ويشيع الخير والعفاف ، ويُعوّد النفس ركوب الخصال المحمودة .

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : « لا خير فيمن لا يستحيي من الناس » .

وقال بعضهم : « أَحْيِ حياءك بمجالسةِ مَن يُسْتَحْيَا منه » .

وقال مجاهد : « لو أن المسلم لم يصِبْ من أخيه إلّا أنَّ حياءَه منه يمنعه من المعاصي لَكفاه » .

فلا أحد من الفسقة إلا وهو يستحيي من عمل القبيح على أعين أهل الصلاح وذوي الهيئات والفضل أن يراه وهو فاعله ، والله مطَّلع على جميع أفعال خلقه ، فالعبد إذا استحيا من ربه استحياءه من رجل صالح من قومه ، تجنَّب جميع المعاصي ، فيا لها من وصية ما أبلغها ! وموعظة ما أجمعها !! .

وقد نصَّب النبي ﷺ هذا الحياء حَكَمًا على أفعال المرء ، وجعله ضابطًا وميزانًا ؛ فعَنْ النَّواس بن سمعان رضي الله عنه ، أنه سأل رسول الله ﷺ عن البِرّ والإثم ، فقال رسول الله ﷺ : « البِرُّ : حسن الخُلُق ، والإثم : ما حاك في صدرك[١] ، وكرِهتَ أن يطَّلِعَ عليه الناس »[٢] .

وقال ﷺ : « ما كرهت أن يراه الناس ، فلا تفعلْه إذا خلوت »[٣] .

وأعظم الناس قدْرًا عند عالي الهمَّة : رسول الله ﷺ ، فيستحي الرجل

---

(١) تحرّك فيه وتردَّد ، ولم ينشرح له الصدر .

(٢) أخرجه مسلم والترمذي وأحمد .

(٣) حسن : رواه ابن حبان في : روضة العقلاء ص٢٦ ، والضياء في : المختارة (١/ ٤٤٩) وغيرهما ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم (١٠٥٥) .

أن يفعل ما يَشين وهو ينتسب إلى من زيَّن البشرية ﷺ ، وإلّا فالموعد الحوْض ... ويا له من موقف يقطع نياط القلوب الطاهرة قبل الوجوه .

عن جعفر الصائغ قال : « كان في جيران أبي عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل رجلٌ ممَّن يمارس المعاصي والقاذورات ، فجاء يومًا إلى مجلس أحمد يسلِّم عليه ، فكأنَّ أحمد لم يردّ عليه ردًّا تامًّا وانقبض منه ، فقال له : يا أبا عبد الله ، لِمَ تنقبض مني ؟! فإني قد انتقلتُ عمّا كنت تعهدني ، برؤيا رأيتُها . قال : وأيّ شيءٍ رأيتَ ؟ قال : رأيتُ النبي ﷺ في النوم كأنَّه على علوٍّ مِنَ الأرض وناسٌ كثير أسفلَ جلوسٌ . قال : فيقوم رجل رجل منهم إليه ، فيقول : ادعُ لي . فيدعو له ، حتى لم يبقَ مِن القوم غيري . قال : فأردتُ أن أقوم فاستحييتُ من قبيح ما كنتُ عليه ، قال لي : يا فلان ! لِمَ لا تقومُ إليّ فتسألني أن أدعوَ لك ؟ قال : قلتُ : يا رسول الله ، يقطعني الحياءُ لقبيح ما أنا عليه . فقال : إنْ كان يقطعك الحياء فقمْ فسلني أدعُ لك ؛ فإنك لا تسبّ أحدًا من أصحابي . قال : فقمتُ فدعا لي ، فانتبهتُ وقد بغَّضَ الله إليّ ما كنتُ عليه . قال : فقال لنا أبو عبد الله : يا جعفر ، يا فلان ، حدِّثوا بهذا واحفظوه ؛ فإنه ينفع »[١] .

وعالي الهمَّة يستحي من صالحي الأمة ، وله في حكايات التوابين إشارات :

قال أبو الفتح بن مخرق : « تعلَّق رجل بامرأة من بنات الشام ، فتعرّض لها وبيده سكِّين، لا يدنو منه أحد إلا عَقَرَه ، وكان الرجل شديدَ البدن ، فبينا الناس كذلك ، والمرأة تصيح من يده ، إذْ مرّ بشْرُ بن الحارث الحافي ، فدنا منه وحكَّ كَتِفه بكتف الرجل ، فوقع الرجل إلى الأرض ، ومضى بِشْرٌ ، فدنوْا

---

(١) كتاب التوابين لابن قدامة ص٢٦٤ - ٢٦٥ .

من الرجل وهو يرشح عرقًا كثيرًا ، ومضتِ المرأة بحالها ، فسألوه : ما حالك ؟ فقال : ما أدري ، ولكني حاكّني شيخٌ وقال : إن الله ناظر إليك وإلى ما تعمل ؛ فضعفتْ لقوله قدميَّ وهِبْتُهُ هيبة شديدة ، لا أدري مَن ذاك الرجل . فقالوا له : ذاك بشر بن الحارث . فقال : واسوءَتاه !! كيف ينظر إليّ بعد اليوم ؟! وحُمَّ الرجل من يومه ، ومات اليوم السابع »[(١)] .

نهايةُ الحياءِ وكمالُه أن لا تستحيي من الحقِّ :

قال سفيان بن عيينة رحمه الله : « إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر ، وعليه تعرض الأشياء ، على خُلُقه وسيرته وهدْيه ، فما وافقها فهو الحق ، وما خالفها فهو الباطل » .

وقال القرطبي رحمه الله : « قد كان المصطفى ﷺ يأخذ نفسه بالحياء ويأمر به ، ويحثُّ عليه ، ومع ذلك فلا يمنعه الحياء من حقٍّ يقوله ، أو أمر ديني يفعله ، تمسُّكًا بقوله : ﴿ **واللهُ لا يستحيي من الحقِّ** ﴾ [الأحزاب : ٥٣] . وهذا هو نهاية الحياء وكماله ، وحُسْنه واعتداله ؛ فإن مَن فرطَ عليه الحياءُ حتى منعه من الحق ، فقد ترك الحياء من الخالق ، واسْتحْيا من الخلْق ، ومن كان هكذا حُرِم منافعَ الحياء ، واتصف بالنفاق والرياء . والحياء من الله هو الأصل والأساس ، فإن الله أحقُّ أن يُسْتَحْيا منه ، فليُحْفظ هذا الأصل ، فإنه نافع »[(٢)] .

« إن ترك الحياء في النصح والأمر والنهي الشرعيّين : من النعوت الإلهية ؛ قال تعالى : ﴿ **والله لا يستحيي من الحق** ﴾ . والذي يتهيَّب تقريع المبطلين لا يُعتبر حَييًّا ، ففي موقف الانتصار للحقّ ، وفضح العقائد الفاسدة ، والتهوين

---

(١) كتاب التوابين ص٢١٣ .

(٢) نقله عنه المناوي في فيض القدير ٤٨٧/١ .

من شأن الآلهة المزيَّفةِ؛قال تبارك وتعالى : ﴿ **يأيُّها الناسُ ضُرِبَ مثَلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لنْ يخلقُوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإنْ يَسْلُبهم الذبابُ شيئًا لا يستنقذوه منه ضعُفَ الطالبُ والمطلوب** ﴾ [الحج : ٧٣] . وبعد أن حقَّر آلهتهم ، وفضح عجزها عن خلْق ذبابةٍ ، بل عن حماية نفسها إذا هاجمتْها ذبابة؛قال تبارك وتعالى : ﴿ **إنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها** ﴾ [البقرة : ٢٦].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يمنعنَّ رجلًا هيبةُ الناسِ أن يقولَ بحقٍّ إذا عَلِمَه ، أو شهده ، أو سمعه »(١) .

وقال عُبيد بن عمير : « آثروا الحياءَ من الله على الحياءِ مِن الناس » .

أبو أيوب الأنصاري وفهْمُه السليمُ لكمال الحياء :

عن سالم بن عبد الله قال : « أعرستُ في عهد أبي ، فآذن أبي الناس ، وكان أبو أيوب فيمن آذنَّا ، وقد ستروا بيتي بنجادٍ(٢) أخضر ، فأقبل أبو أيوب فدخل ، فرآني قائمًا ، واطَّلع فرأى البيت مستترًا بنجادٍ أخضر ، فقال : يا عبد الله ، أتسترون الجُدُر ؟! قال أبي - واسْتَحْيا -: غلبَنَا النساء أبا أيوب !! فقال : مَن كنتُ أخشى أن تغلبنَّه النساء ، فلم أكن أخشى عليك أن تغلبنَّك !! ثم قال : لا أطعم لكم طعامًا ، ولا أدخل لكم بيتًا . ثم خرج رحمه الله »(٣) .

---

(١) صحيح : أخرجه ابن ماجه والحاكم وأحمد ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٦٨ .

(٢) النجاد بكسر النون : جمع (نجْد) وهو ما يزيَّن به البيت من البُسطِ والوسائد والفُرُش .

(٣) آداب الزفاف للألباني ص٢٠١ .

وإلى هذا المقام - ترك الاستحياء من الحقِّ - قال الشاعر :

تـرْكُ الحياءِ تحـقُّقٌ وتخلُّـقٌ   جاءتْ به الآياتُ في القرآنِ
فله النفاسـةُ والنزاهـةُ عندنا   إذْ لا نخاف بمنزلِ العـدوانِ
فهوَ الكمالُ لمَن تحقَّقَ حالةَ الْـ   إسلامِ والإيمانِ والإحسـانِ
هٰذي هيَ الدنيا وأنت إمامُها   وعبيدُها بالنقصِ والرجـحَانِ

أمثلةٌ عَطِرة في عُلُوِّ الهمَّة في الحياء :

حياءُ كليمِ اللهِ موسىٰ عليه السلام :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسىٰ كان رجلًا حييًّا ستِّيرًا ، لا يُرَى من جلْده شيء ، استحياءً منه »[١].

وقد كان الحياء شريعة الأنبياء ؛ فعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنّ ممَّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحِ ، فاصنعْ ما شئتَ »[٢] .

حياءُ رَسـولِ اللهِ ﷺ :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خِدْرها ، فإذا رأىٰ شيئا كِرهَهُ ، عرفناه في وجهه »[٣].

---

(١) رواه البخاري وأحمد والترمذي .

(٢) رواه البخاري ، والبغوي في : شرح السنة ، وعبد الرزاق .

(٣) رواه البخاري ومسلم . « والخِدر : ناحية البيت يُلْقىٰ عليه سِتْر ، فتكون فيه الجارية البكر ، والعذراءُ إذا كانت متربية في ستْرها ؛ تكون أشدَّ حياءً ؛ لتستُّرها حتى عن النساء ، بخلاف الداخلة الخارجة . والمراد بالحديث : الحالة التي تعتريها عند دخول أحد عليها فيه » . اهـ . من رسالة : الحياء صـ : ٢٤ . للشيخ محمد إسماعيل المقدّم حفِظه الله .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « سألتِ امرأةٌ النبي ﷺ : كيف تغتسل من حيضتها ؟ قالت : فذكرتْ أنّه علَّمها كيفَ تغتسل ، ثم تأخذ فِرْصَةً من مِسْك فتطهّرَ بها . قالت : كيف أتطهَّر بها ؟ قال : تطهَّري بها ، سبحان الله !! » . واستتر بيده على وجهه . قالت عائشة : واجتذبتُها إليّ ، وعرفتُ ما أراد النبي ﷺ ، فقلتُ : تتبَّعي بها أثَر الدم[1].

لقد « كان حياءُ رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه ، وكان إذا كرِه شيئًا لا يتكلَّم به ؛ لحيائه ﷺ ، بل يتغيّر وجهه ، فيفهم الصحابة رضي الله عنهم كراهته . فما أكرمَ خلُقه ﷺ !! »[2].

أمّا حياؤه من ربّه :

فما رواه مالك بن صَعصعة رضي الله عنه : من تردُّد النبي ﷺ بين ربِّه وبين موسى عليه السلام وسؤاله ربَّه التخفيفَ حتى جعلها خمسًا ، فقال له موسى عليه السلام : « ارجع إلى ربِّك فاسأله التخفيفَ لأمتك » . قال : « سألتُ ربي حتى استحييتُ ، ولكن أرضىٰ وأُسلِّم »[3].

قال أبو دهبل الجمحي يمدح رسول الله ﷺ :

إنَّ البيوتَ معادنٌ فنِجارُهُ ... ذَهَبٌ وكُلُّ بُيوتِهِ ضَخْمُ
عَقِمَ النساءُ فلنْ يلدنَ شبيهَهُ ... إنَّ النساءَ بمثلِهِ عُقْمُ
مُتَهَلِّلٌ بـ «نَعَمْ» بـ «لا» متباعدٌ ... سِيَّان منهُ الوفْرُ والعُدْمُ
نَزْرُ الكلامِ من الحياءِ تخالُهُ ... سَقِمًا وليسَ بجسمِهِ سُقْمُ[4]

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الحياء للشيخ محمد إسماعيل المقدم ص٢٤ - ٢٥ ، دار الدعوة السلفية .

(٣) انظر : البخاري ٥/٦٦ ، وشرح النووي ٢/٢٠٩ - ٢١٥ .

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام ٢/٥٢٤ - طبع : الهيئة العامة لقصور الثقافة .

حَيَاءُ الصَّحابة رضي الله عنهم :

حيَاءُ عثمان ذي النورين ، أميرُ البَرَرة وقتيل الفَجَرة ، رضي الله عنه :

لقد اختصَّ الله عز وجل عثمان بن عفان رضي الله عنه بمزية خاصَّة في هذا الخُلق الكريم .

عن عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي ، كاشفًا عن فخِذَيْه ، أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر ، فأذن له ، وهو على تلك الحال ، فتحدَّث ، ثم استأذن عمر فأذن له ، وهو كذلك، فتحدَّث، ثم استأذن عثمان ، فجلس رسول الله ﷺ ، وسوَّى ثيابه[1]، فدخل فتحدَّث ، فلمَّا خرج قالت عائشة رضي الله عنها : دخل أبو بكر فلم تَهْتشَّ له ، ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتشَّ له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلستَ وسوَّيتَ ثيابك !! فقال : « ألا أستحي من رجل تستحِي منه الملائكة ؟! »[2] وفي رواية : أنه قال ﷺ : « إن عثمان رجل حييٌّ ، وإني خشيتُ ، إن أذِنتُ له على تلك الحال ، أن لا يبلغ إليّ في حاجته » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : « الحياءُ من الإيمان، وأحْيَى أمتي : عثمان »[3] .

وذكر الحسن البصري عثمانَ رضي الله عنه وحياءَه ؛ فقال : « إنْ كان لَيكون في البيت ، والباب عليه مُغْلَق ، فما يضع عنه الثوْب ليفيض عليه الماء ، يمنعه الحياءُ أن يُقيم صُلْبه » .

---

(١) قال محمد – أحد الرواة –: ولا أقول : ذلك في يومٍ واحد .

(٢) رواه مسلم .

(٣) صحيح : رواه ابن عساكر ، وصحّحه الألباني في : الصحيحة رقم ١٨٢٨ .

الصِّدِّيق رضي الله عنه :

خطب الصديق في المسلمين فقال : « أيُّها الناس ، استحيُوا من الله ؟ فوالله ما خرجتُ لحاجة منذ بايعتُ رسولَ الله ﷺ أريد الغائط ، إلّا وأنا مُقَنِّع رأسي حياءً من الله »[١] .

الفاروق رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : « مَن قَلَّ حياؤه قَلَّ ورَعه ، ومَن قَلّ ورعه مات قلبه » . وقال : « من استحيا استخفى ، ومَنِ استخفى اتقى ، ومن اتقى وُقي »[٢] .

أبو موسى الأشعري رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : « إني لأغتسل في البيت المظْلِم ، فما أقيم صلبي حتى آخذ ثوبي ، حياءً من ربي عز وجل » .

وعن قتادة قال : كان أبو موسى إذا اغتسل في بيت مظلم تجاذَب ، وحنى ظهْرَه ، حتى يأخذ ثوبه ، ولا ينتصب قائمًا .

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه إذا نام لبِسَ ثيابًا عند النوم مخافة أن تنكشِف عوْرته .

وعن عبادة بن نسي قال : رأى أبو موسى قومًا يقفون في الماء بغير أُزُر ، فقال : « لَأَنْ أموتَ ثم أُنشَرَ ، ثم أموت ثم أنشَرَ ، ثم أموتَ ثم أنشَرَ ؛ أحبُّ إليّ من أن أَفعل مثلَ هذا »[٣] .

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسْجد والنَّاسُ معه؛ إذْ أقبل ثلاثةُ نَفَرٍ ، فأقْبل اثْنان إلى رسول الله ﷺ

---

(١) ، (٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص٢٠ .

(٣) الحياء للشيخ محمد أحمد إسماعيل ص٢٩ .

وذهب واحد ، قال : فوقَفَا على رسول الله ﷺ ؛ فأمَّا أحدهما : فرأى فُرْجة في الحلْقة فجلس فيها ، وأما الآخر : فجلس خلفهم ، وأما الثالث : فأدبر ذاهبًا ، فلما فرَغ رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم : فأوى إلى الله فآواه ، وأما الآخر : فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر : فأعرض فأعرض الله عنه »[1].

قال أبو عبد الله الأنطاكي : أفضل الأعمال : تَرْك المعاصي الباطنة . فقيل له : ولِمَ ذلك ؟ قال : « لأنَّ الباطنة إذا تركَتْ كان صاحبها للمعاصي الظاهرة أتْرَكَ » .

وكان أحد الزهاد يقول : « يا ويحي !! عاملتُ الناس بالأمانة ، وعاملتُ ربي بالخيانة ، فليتني عكستُ » . ثم يبكي .

محمد بن الفضل رحمه الله :

قال محمد بن الفضل : « ما خطوتُ أربعين سنة خطوةً لغير الله ، وأربعين سنة ما نظرتُ في شيء أستحسِنُه حياءً من الله » .

عامر بن عبد قيس رحمه الله :

قال الذهبي في « السير » (١٧/٤) : قال أبو عمران الجوني : قيل لعامر ابن عبد قيس : إنك تبيتُ خارجًا ، أمَا تخاف الأسد ؟ قال : إني لأستحيي من ربي أن أخاف شيئًا دونه .

وروى همَّام عن قتادة مثله .

أبو مسلم الخولاني رحمه الله :

قال أبو مسلم الخولاني : « من نعمة الله عليّ : أنني منذ ثلاثين سنة

---

(١) رواه البخاري وغيره .

ما فعلتُ شيئًا يُستحْيا منه ، إلَّا قربي من أهلي » .

محمد بن سِيرين رحمه الله :

وعن محمد بن سيرين أنه رحمه الله قال : « ما غشيتُ امرأةً قطُّ ؛ لا في يقظة ولا في نوم غيرَ أمِّ عبد الله ، وإني لَأَرى المرأة في المنام ، فأعلم أنها لا تحلُّ لي ، فأصرف بصري » .

قال بعضهم : « ليتَ عقلي في اليقظة كعقل ابن سيرين في المنام » .

يَقَظاتُهُ ومنامُه شَرَعٌ   كُلٌّ بكُلٍّ فهْوَ مشتَبِهُ
إنْ همَّ في حُلْمٍ بفاحشةٍ   زجَرَتْهُ عِفّتُهُ فينتبِهُ

مقدّم الجيوشِ وفارسُ الكتائب : الجرَّاح :

أبو عقبة الجراح بن عبد الله ، الحَكَمي ، وكان بطلًا شجاعًا ، مهيبًا طُوالًا ، عابدًا قارئًا ، كبيرَ القدْر .

قال رحمه الله : « تركتُ الذنوب حياءً أربعين سنة ، ثم أدركني الوَرَع »(١) .

والله لكأنه أولى الناس بقول ليلى الأخْيَلِيَّة :

فتىً كانَ أحيا مِن فتاةٍ حَيِيَّةٍ   وأشجعَ من لَيْثٍ بخفَّانَ(٢) خادِرِ

عمرو بن عُتْبة بن فرقد : مَثَلٌ رائع في عُلُوِّ الهمَّة في الحياء :

لله درُّه : « كان يخرج إلى العدو مع الناس فلا يتحارس الناس ؛ لكثرة صلاة عمرو .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨٩/٥ - ١٩٠ .

(٢) خفان : موضع قرب الكوفة ، وهي مأسدة . والأسد الخادر : المقيم في عرينه وهو خدره .

رأوه ليلةً يصلي ، فسمعوا زئير الأسد فهربوا ، وهو قائم يصلّي فلم ينصرف ، فقالوا له : أما خِفْتَ الأسد ؟ فقال : إني لأستحي من الله أن أخاف شيئًا سواه »[١] .

ابنةُ الرجلِ الصالحِ الذي استضاف موسى عليه السلام :

مثال عالٍ في الحياءِ والطُّهْر للمرأة المسلمة .. ابنة رجل صالح ، تنحدر من بيت كريم ينضحُ بالعفاف والطهارة ، والصيانة وحسن التربية ، وكفاها علوّ همّةٍ في حيائها أن أثنىٰ عليها الله عز وجل ؛ قال تعالى : ﴿ **وجاءتْه إحداهما تمشي على استحياءٍ قالتْ إن أبي يدعوك ليَجزيكَ أجر ما سقيتَ لنا فلما جاءه وقصَّ عليه القصَصَ قال لا تخفْ نجوتَ من القوم الظالمين** ﴾ [القصص : ٣٥] .

قال عمر رضي الله عنه : « ليستْ بسلفع[٢] من النساء خرّاجة ولّاجة ، ولكن جاءت مستترة ، قد وضعت كُمَّ دِرْعها على وجهها استحياءً »[٣] .

وفي رواية : « جاءت تمشي على استحياء ، قائلةً بثوبها على وجهها ، ليست بسلْفَع من النساء خرَّاجة ولَّاجة »[٤] .

« تمشي على استحياء مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة حين تلقىٰ

---

(١) الحلية ٤/١٥٦ ، ١٥٧ ، ورهبان الليل ١/٣٦٦ .

(٢) امرأة سلفع : سليطة جريئة قليلة الحياء .

(٣) أخرجه الفريابي ، وابن أبي شيبة في « المصنف » ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، عن عمر رضي الله عنه ، كما في : الدر المنثور ٥/١٢٤ .

(٤) صحيح : ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم ، وصححه في تفسير القرآن العظيم ٦/٢٣٨ .

الرجال .. « على استحياء » : في غير ما تبذُّل ولا تبرُّج ولا تبجُّح ، ولا إغواء ، جاءته لتُنهي إليه دعوة في أقصر لفظٍ وأخصره وأدلِّه »[1].

ولله درُّ القائل :

قصـيرةُ ألفـاظٍ قصـيرةُ بيتِهـا ومَن حفِظَتْه في مغيبٍ ومشْهَدِ

مِثْلُها قليلات .. فالمرأة الصالحة الحيِيَّة كالغراب الأعْصَمِ لا تكاد توجد .

يعزُّ على مَن يطرِقُ البابَ لفظُهَا جوابًا فلا عَقـدًا تـراهُ ولا حـلَّا
يُطيل وُقوفًا لا يُجابُ محرَّمٌ عليها كلامُ الأجنبي وإن قـلَّا

حياءُ أمِّ أبيها فاطمةَ رضي الله عنها بنتِ رسول اللهِ ﷺ :

أتتْ فاطمة رضي الله عنها رسول الله ﷺ تسأله خادمًا ، فقال : « ما جاء بك يا بُنيّة ؟ » . فقالت : جئتُ أسلم عليك . واستحيَتْ ، حتى إذا كانت القابلة ، أتتْه فقالت مثلَ ذلك ... وفي بعض روايات هذه القصة : « أن رسول الله ﷺ جاءها وعليًّا ، وقد أخذا مضاجعهما ..» الحديث ، وفيه : « فجلس عند رأسها ، فأدخلتْ رأسَها في اللفاع ، حياءً من أبيها »[2] .

وعن أنس رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ أتى فاطمة بعبدٍ قد وهبه لها ، قال : وعَلَى فاطمة رضي الله عنها ثوب ، إذا قنَّعتْ به رأسها ، لم يبلغ رجلَيْها ، وإذا غطَّتْ به رجليْها ، لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلامك »[3].

---

(١) الظلال للشيخ سيد قطب تفسير سورة القصص : ٢٥ .
(٢) رواه البخاري .
(٣) صحيح : أخرجه أبو داود ، والبيهقي ، وصححه الألباني في « الإرواء » ٦/٢٠٦ .

والله لهي أولى الناس بقول مَن قال :

كأنَّ لها في الأرض نسيًا[١] تقصُّهُ[٢] على أَمِّهـا وإنْ تحدثْـكَ تَبْلـتِ

أي لا ترفع رأسها كأنها تطلب شيئًا في الأرض .

حياء الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما :

« عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : كنتُ أدخل البيت الذي دُفن فيه رسول الله ﷺ وأبي رضي الله عنه،واضعةً ثوبي ، وأقول : إنما هو زوجي وأبي . فلما دُفن عمر رضي الله عنه ، فوالله ما دخلتهُ إلّا مشدودةً عليّ ثيابي حياءً من عمر رضي الله عنه »[٣] .

لله درُّك أم المؤمنين !! حياءً حتى من الأموات .. هذا الحياء والله لا يكون إلا لأمِّ المؤمنين عائشة حبيبة رسول الله ﷺ .

فاطمةُ بنتُ عتبةَ رضي الله عنها :

جاءت فاطمة بنت عتبة رضي الله عنها تبايع رسول الله ﷺ ، فأخذ عليها : ﴿ **أن لا يشركْنَ بالله شيئًا ولا يسرقْنَ ولا يزنين** ﴾ [الممتحنة : ١٢]. فوضعت يدها على رأسها حياءً ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة رضي الله عنها : أقرّي أيتها المرأة ؛ فوالله ما بايعناه إلّا على هذا . قالت : فنعم إذن . فبايعها بالآية[٤] .

---

(١) النّسْي : ما أضلّه أهلُه فيُطلب .

(٢) أي : تتبعه .

(٣) صحيح : رواه بنحوه الحاكم في : المستدرك ٤/٧ ، وصححه على شرط الشيخين ، وسكت عنه الذهبي .

(٤) رواه أحمد في : المسند ٦/١٥١ .

أقوالٌ عَطِرةٌ في الحياء :

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : الحياء رأس مكارم الأخلاق[1] .

« قال ابن عطاء : العلْم الأكبر : الهيْبة والحياء ؛ فإذا ذهبتِ الهيبة والحياء ، لم يبقَ فيه خير ؛ أي في القلب .

وقال ذو النون : الحياء وجود الهيْبة في القلب ، مع وحْشَةِ ما سبق منك إلى ربك تعالى .

وقال رحمه الله : الحُبُّ يُنطِق ، والحياء يُسكِت ، والخوف يُقلِق .

وقال أبو عثمان : من تكلم في الحياء ولا يستحي من الله عز وجل فيما يتكلّم به ؛ فهو مستَدْرَج .

وقال أبو العباس المؤدّب : قال السري : إنَّ الحياء والأنس يطرقان القلب ، فإن وجدا فيه الزهد والورع : حطَّا ، وإلَّا رَحَلَا .

وقال الجريري : تعامَلَ القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدِّين حتى رقَّ الدين ، ثم تعامَل القرنُ الثاني بالوفَاءِ حتى ذهب الوفاء ، ثم تعامَل القرن الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرغْبة والرهبة .

وقال يحيى بن معاذ : سبحان مَن يُذنبُ العبدُ فيستحي منه !!

وقال الفضيل : خمس من علامات الشقاء : القسْوة في القلب ، وجمود العيْن ، وقلّة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل .

وقالوا : الحياء ، ذَوَبان الحشا لاطِّلاع المولى .

وقال الواسطي : لم يَذُقْ لذَعَاتِ الحياء مَن لا بَسَ خرْقَ حدٍّ أو نقْضَ عهدٍ .

---

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص١٦ ، وبهجة المجالس لابن عبد البر ٥٩٠/١ .

وقال أبو علي الدقَّاق : الحياءُ ترْك الدعوىٰ بين يدي الله عز وجل .

وقال أبو بكر الوراق : ربما أصلّي لله تعالى ركعتين ، فأنصرف عنهما وأنا بمنزلة من ينصرف عن السرقة ؛ من الحياء »[(١)] .

أي بمنزلة السارق والزاني الذي يراه الناس .

قال الشاعر :

إنَّ الحياءَ من الإيمانِ جاءَ بـهِ ... لفـظُ النبي وخيـرٌ كلُّـه فبـهِ
فليتصفْ كلُّ مَن يرىٰ مشاهدهُ ... وليسَ يعرفُ هذا غيرُ مُنْتبهِ
مستيقظٌ غيرُ نوّامٍ ولا كَسِلٍ ... مـراقـبٌ قلبـه لـدىٰ تقلُّبِهِ
إنَّ الحيَّ من اسماءِ اللهِ وقـدْ ... جاءَ التخلُّق بالأسماءِ فاحظَ بِهِ

وقال أعرابيٌّ من طَيِّئ :

فلا وأبيكَ ما في العيـش خيرٌ ... ولا الدنيا إذا ذهـب الحيـاءُ
يعيشُ المرءُ مـا اسـتحيا بخيرٍ ... ويبقـىٰ العُـودُ ما بقي اللِّحـاءُ

وقال وهب بن منبّه : الإيمان عريان ، ولباسُه التقوى ، وزينتُه الحياء .

وقال الحسن : الحياءُ والتكرُّم خصلتان من خِصال الخير ، لم يكونا في عبد إلّا رفعه الله بهما .

وقال الشاعر :

إني لأسـترُ ما ذو العقل ساتِرُهُ ... مِن حاجةٍ وأُميتُ السرَّ كِتمانَا
وحاجةٍ دون أخرى قدْ سمحتُ بها ... جعلتُها للتي أخفيتُ عُنـوانَا
إني كأني أرىٰ مَن لا حياءَ لهُ ... ولا أمانة وسْطَ القومِ عُريانَا

وقالوا : كفى بالحياء على الخير دليلًا ، وعن السلامة مخبِرًا ، ومن الذمِّ مجيرًا .

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٥٤ - ٤٥٩ .

وقالوا : الحياء تمام الكرم ، وموطن الرضا ، وممهِّد الثناء ، وموفِّر العقل ، ومعظِّم القدْر ، وداع إلى الرغبة .

وقال الشاعر حبيب بن أوس :

إذا لم تخشَ عاقبة الليالي ولم تستحْي فاصنع ما تشاءُ
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ويبقى العودُ ما بقيَ اللِّحاءُ
وما في أنْ يعيشَ المرءُ خيرٌ إذا ما الوجهُ فارَقَهُ الحياءُ

وقال الشاعر :

إنَّا أناسٌ من سجيَّتِنا صدْقُ الحديثِ وَوأْيُنا[1] حتْمُ
لَبِسوا الحياءَ فإنْ نظرتَ حسبْتَهُمْ سَقِمُوا ولم يَمْسسْهُمُ سُقْمُ

وقال الشاعر طرفة بن العبد :

حياؤك فاحفظْهُ عليكَ فإنَّما يدلُّ على فضْلِ الكريمِ حياؤهُ
إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قلَّ حياؤُهُ ولا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤهُ

وقال آخر :

وربَّ قبيحةٍ ما حال بيني وبين رُكوبِها إلّا الحياءُ
إذا رُزِق الفتى وجهًا وِقاحًا تقلَّب في الأمورِ كما يشاءُ

وقال محمد بن حازم :

وإني ليُثنيني عن الجهلِ والخَنَا وشتْمِ ذوي القربى خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلامٌ وتقوى وأنَّني كريمٌ ومثلي قد يضرُّ وينفعُ[2]

وقال الشاعر :

إيَّاكَ أنْ تزدري الرجالَ فما تعلمُ ما يجنُّهُ الصَّدَفُ

---

(١) وفي رواية : ووعدنا ؛ وهما بمعنًى واحد .
(٢) وذكرها صاحب الأغاني لأبي الأسود الدؤلي .

نفسُ الجوادِ الكريمِ باقيةٌ فيهِ وإن كانَ مَسَّهُ عَجَفُ[(١)]
والحرُّ حرٌّ وإن ألَمَّ بهِ الضُّـرُّ وفيهِ الحياءُ والأَنَفُ[(٢)]

وقال الشاعر:

كريمٌ يَغُضُّ الطرْفَ فضلُ حيائهِ ويدنو وأطرافُ الرماحِ دواني

وقال العَرْجِيُّ:

إذا حُرِمَ المرْءُ الحياءَ فإنَّه بكلِّ قبيحٍ كانَ منهُ جديرُ
لهُ قِحَةٌ في كلِّ شيءٍ وسِرُّهُ مُباحٌ وخِدْناهُ خَنًا وغرورُ
يرىٰ الشَّتم مَدْحًا والدناءةَ رِفعةً وللسَّمْع منه في العظاتِ نُفورُ
وَوَجْهُ الحياءِ مُلْبَسٌ جِلدَ رِقَّةٍ بغيض إليه ما يَشين كثيرُ
لهُ رغبةٌ في أمْرِهِ وتجرُّدٌ حليمٌ لدىٰ جهْلِ الجهُولِ وقورُ
فَرَجٌ الفتىٰ ما دامَ يَحيَا فإنَّهُ إلى خيرِ حالاتِ المنيبِ يصيرُ[(٣)]

و « في التفسير: ﴿ ولباسُ التقوىٰ ﴾ [الأعراف: ٢٦] قالوا: الحياء. والحياء نظام الإيمان، فإذا انحلَّ النظامُ ذهب ما فيه.

وقالوا: الوقار من الله عزَّ وجل، فمن رزقه الله الوقار فقد وسَمَه بسيماء الخير.

قال الحسن: أربعٌ مَن كنَّ فيه كانَ كاملًا، ومَن تعلَّق بواحدة منهن كان من صالحي قومه: دِين يرشده، وعقل يُسدِّده، وحسَب يصونه، وحياء يقوده.

قال الشاعر:

ما إنْ دعاني الهوىٰ لفاحشةٍ إلّا نهاني الحياءُ والكرَمُ

(١) العَجَف: ذهاب السمن، وبقاءُ الهُزال من الجوع، ويريد هنا أنَّ الهزال يُدركه من الجوع تعفُّفًا عن السؤال.
(٢) الأَنَف: كالأنَفَة؛ وهما الحميَّة والإباء.
(٣) لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ ص٢٨٤ - ٢٨٧. دار الكتب السلفية.

ولا إلى مَحْرَمٍ مددتُ يـدي ولا مشـتْ بي لريبـةٍ قـدَمُ

وقال أبو دُلفِ العِجلي :

إذا لم تَصُن عِرضًا ولم تَخْشَ خالقًا ولم تَرْعَ مخلوقًا فما شِئْتَ فاصـنع

قال الأصمعي : سمعتُ أعرابيًّا يقول : مَن كساه الحياء ثوْبه ، خفي عنِ الناسِ عيبُه »[1].

أخي :

إنَّ الرقيبَ لَزيـمٌ حيثُ كانَا لذاكَ يُحفظُ أعيانًا وأكـوانَا
وليسَ يخفىٰ عليهِ من مُراقبِهِ شيءٌ وإنْ جلَّ ذاكَ الأمر أو هانَا

أخي :

فمَنْ راقب الحقَّ الرقيبَ بعينهِ فذاكَ الرقيبُ الحقُّ والمِثْلُ والكُفْءُ

قال حميد الطويل لسليمان بن علي : عِظني . فقال : « لئن كنتَ إذا عصيتَ خاليًا ظننتَ أنه يراك ؛ لقد اجترأتَ على أمْر عظيم . ولئن كنتَ ظننتَ أنه لا يراك فقد كفرتَ » .

وعن محمد بن واسع قال : كان لقمان عليه السلام يقول لابنه : « يا بني ، اتق الله ، ولا تُرِ الناسَ أنك تخشىٰ الله عز وجل ، ليُكرموك بذلك وقلبُك فاجر » .

وقال بلال بن سعد : لا تكنْ وليًّا لله عز وجل في العلانية وعدوَّه في السرِّ .

وقال فرقد : « إن المنافق ينظر ، فإذا لم يرَ أحدًا دخل مدخل السوء ، وإنما يراقب الناس ولا يراقبُ الله تعالى » .

وقال الشاعر :

مَن عـامَـلَ اللهَ بتقـواهُ وكـانَ في الخَلَواتِ يخشاهُ
سقاهُ كأسًا من لذيذ المنىٰ يغنـيهِ عـنْ لذَّاتِ دنيـاهُ

استوصىٰ رجل بعض السلف ، فقال : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ،

(١) بهجة المجالس ، وأنس المجالس لابن عبد البر ١/٥٨٩ - ٥٩٣ - مكتبة ابن تيمية .

وتذكَّر قوله عز وجل : ﴿ وهو الذي يتوفَّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ [الأنعام : ٦٠] .

أخي :

استح مِنَ اللهِ في خلَواتك ، ولا تكنْ الجرأةُ على محارم الله في الخَلْوةِ صفتَك :

عن أبي عامر الألهاني رضي الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « لأَعلمَنَّ أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال تِهامة بِيضا ، فيجعلُها اللهُ هباءً منثورًا » . قال ثوبانُ : يا رسول الله ، صِفْهم لنا ، جَلِّهمْ لنا ؛ ألّا نكون منهم ونحن لا نعلم . قال : « أمَا إنهم إخوانكم ، ومن جلْدتكم ، ويأْخذون من اللَّيلِ كما تأْخذون، ولكنَّهم أقْوامٌ إذا خلوْا بمحارمِ اللهِ انتهكوها »[١].

وكمْ ذي معاصٍ نالَ منهنَّ لذَّةً ... وماتَ فَخلَّاها وذَاقَ الدَّواهِيَا
تصرَّمُ لذاتُ المعاصي وتنقضي ... وتبقَى تباعاتُ المعاصي كما هِيَا
فَيَاسَوْأَتا واللهُ راءٍ وسامِعٌ ... لعبدٍ بعيْنِ اللهِ يَغشَى المعاصِيَا[٢]

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « يا صاحب الذنب ، لا تأمننَّ من سوءِ عاقبته . ولَمَا يتبع الذنب أعظمُ من الذنب إذا عملتَه ؛ قلَّة حَيائكَ ممَّن على اليمين والشمال – وأنت على الذنب – أعظم من الذنب الذي عملته . وضَحِكُكَ – وأنت لا تدري ما الله صانعٌ بك – أعظم من الذنب . وفرحك بالذنب – إذا ظفرتَ به – أعظم من الذنب . وحزنك على الذنب – إذا فاتك – أعظم من الذنب إذا ظفرتَ به . وخوفك من الريح إذا حرَّكت ستْرَ بابك– وأنت على الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظَر الله إليك– أعظم من الذنب إذا

---

(١) صحيح : أخرجه ابن ماجه ، وصححه المنذري في الترغيب ، والبوصيري في الزوائد ٣/٣٠٦ .

(٢) الحياء خلق الإسلام ص٥٤ – ٥٦ .

عملته »[1] .

أخي :

قال ميمون بن مهران : علانية بغيْر سريرة : مثل كنيف مُزَخْرَف من خارجه ، ومن داخله النتن والخبْثُ .

أخي :

كنْ مِن هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ **ولمَن خاف مقامَ ربِّه جنتان** ﴾ [الرحمٰن : ٤٦] .

قال مجاهد : هو الرجل يخلو بمعصية الله ، فيذكرُ مقامَ اللهِ فيدعُها فَرَقًا من الله .

وقال ابن الجوزي : « الرجل - واللهِ - مَن إذا خلا بما يُحبُّ من المحرّم وقدَرَ عليه ، وتقلقلَ عطَشًا إليه ؛ نظرَ إلى نظَرِ الحقِّ إليه ، فاستْحيا من إجالة همِّه فيما يكرهه ، فذهب العطَشُ » .

ولله درُّ القائل :

وإذا خلوت بريبةٍ في ظلمةٍ ... والنفْسُ داعيةٌ إلى الطغيانِ
فاستْحيِ مِن نظَرِ الإلٰهِ وقلْ لها ... إنَّ الذي خلَقَ الظلامَ يراني

* * *

---

(١) الحلية ١/٣٢٤ .

الفصل العشرون

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
التَّبَتُّلِ

﴿ واذكُرِ اسْمَ ربِّكَ وتَبَتَّلْ إليهِ تبْتيلًا ﴾ [المزمل : ٨]

□ عُلُوُّ الهمَّةِ في التبَتُّلِ □

قال الله تعالى : ﴿ **واذكرِ اسمَ ربِّك وتَبَتَّلْ إليه تبتيلًا** ﴾ [المزمل : ٨].

و « التبتل » : الانقطاع . وهو تفعُّل من البَتْل ، وهو القطْع . وسميت مريمُ « البتولَ » ؛ لانقطاعها عن الأزواج ، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها ، ففاقت نساء الزمان شرفًا وفضلًا ، وقُطعت منهنَّ . ومصدر « بتَّل » : « تبتُّلًا » ، كالتعلُّم والتفهُّم ، ولكن جاء على التفعيل – مصدر تفعَّل – لسرٍّ لطيف ؛ فإن في هذا الفعل إيذانًا بالتدريج والتكلُّف والتعمُّل والتكثُّر والمبالغة ، فأتى بالفعْل الدالِّ على أحدهما ، وبالمصدر الدالِّ على الآخر ، فكأنه قيل : بَتِّلْ نفسَك إلى الله تبتيلًا ، وتبتَّلْ إليه تبتُّلًا . ففُهِمَ المعنيان من الفعْل ومصدره ، وهذا كثير في القرآن . وهو من أحسن الاختصار والإيجاز .

قال صاحب « المنازل » : « التبتُّل : الانقطاع إلى الله بالكليَّة . وقوله عز وجل : ﴿ **له دعوة الحقِّ** ﴾ [الرعد : ١٤] أي : التجريد المحْض » .

ومراده بالتجريد المحض : التبتُّل عن ملاحظة الأعواض ؛ بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلّا لأجْل الأجْرة ؛ فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر ، بخلاف العبد ؛ فإنه يخدم بمقتضى عبوديته لا للأجرة ، فهو لا ينصرف عن باب سيِّده إلّا إذا كان آبِقًا ، والآبِق قد خرج من شرَف العبودية ، و لم يحصل له إطلاق الحرية ، فصار بذلك مركوسًا عند سيده وعند عبيده . وغاية شرف النفس : دخولُها تحت رِقِّ العبودية طوْعًا واختيارًا ومحبَّة ، لا كرهًا وقهرًا . كما قيل :

شرفُ النفوسِ دخولُها في رِقِّهِمْ   والعبدُ يحوي الفخرَ بالتمليكِ

والذي حَسَّن استشهاده بقوله : ﴿ **له دعوة الحق** ﴾ في هذا الموضع :

إرادةُ هذا المعنى ، وأنه تعالى صاحبُ دعوة الحقِّ لذاته وصفاته ، وإن لم يُوجب لداعيه بها ثوابًا ، فإنه يستحقُّها لذاته ؛ فهو أهل أن يُعبد وحدَه ، ويُدعىٰ وحدَه ، ويقصد ويُشكر ويُحْمد ، ويُحبّ ويُرجىٰ ويُخاف ، ويُتوكَّل عليه ويستعان به ، ويستجار به ويلجأ إليه ، ويُصمد إليه ، فتكون الدعوة الإلهية الحقُّ له وحده .

ومن قامَ بقلبِهِ هذا - معرفةً وذوْقًا وحالًا - صحَّ له مقام التبتُّل ، والتجريد المحْضِ . وقد فسَّر السلفُ « دعوة الحق » بالتوحيد والإخلاص فيه والصِّدْق . ومرادهم هذا المعنى .

فقال علي رضي الله عنه : دعوةُ الحق : التوحيد . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « شهادة أن لا إله إلا الله » . وقيل : الدعاء بالإخلاص . والدعاء الخالص لا يكون إلا لله . ودعوة الحقّ دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها .

درَجاتُ التبتُّل :

قال شيخ الإسلام الهروي : « وهو على ثلاثِ درجات :

الدرجةُ الأُولىٰ : تجريدُ الانقطاعِ عن الحظوظ واللُّحُوظِ إلى العالَم ، خوفًا أو رجاءً ، أو مبالاةً بحالٍ » :

قال شيخ الإسلام ابن القيِّم شارحًا : « قلتُ : « التبتُّل » يجمع أمرين : اتصالًا وانفصالًا ، لا يصح إلّا بهما :

فالانفصال : انقطاع قلبه عن حظوظ النفْس المزاحمة لمراد الربِّ منه ، وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله ، خوفًا منه أو رغبة فيه ، أو مبالاةً به أو فكرًا فيه بحيث يشغل قلبه عن الله .

والاتصال : لا يصحُّ إلّا بعد هذا الانفصال . وهو اتصالُ القلب بالله ،

وإقبالهُ عليه ، وإقامة وجهه له ، حُبًّا وخوفًا ورجاءً وإنابة وتوكُّلا .

ثم ذكَر الشيخ ما يُعين على هذا التجريد ، وبأيِّ شيء يحصل . فقال : « بحسْم الرجاء بالرضا ، وقطْع الخوف بالتسليم ، ورفْض المبالاة بشهود الحقيقة » .

يقول : إن الذي يحسم مادَّة رجاء المخلوقين من قلبك : هو الرضا بحكم الله عز وجل وقَسْمه لك . فمن رضي بحكم الله وقَسْمه ؛ لم يبقَ لرجاء الخلْقِ في قلبه موضع .

والذي يحسم مادَّة الخوف: هو التسليم لله؛ فإن من سلَّم لله واستسلم له ، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له – لم يبقَ لخوْف المخلوقين في قلبه موضع أيضًا ؛ فإن نفْسَه التي يخاف عليها قد سلَّمها إلى وليِّها ومولاها ، وعلِم أنه لا يصيبها إلّا ما كُتب لها ، وأن ما كُتب لها لا بدّ أن يصيبها . فلا معنى للخوف من غير الله بوجه .

وفي التسليم أيضًا فائدة لطيفة : وهي أنه إذا سلَّمها اللهَ فقد أودعها عنده ، وأحرزها في حِرْزه ، وجعلها تحت كنَفِه . حيث لا تنالها يَدُ عَدوٍّ عادٍ ولا بَغْي بَاغٍ عاتٍ .

والذي يحسم مادَّة المبالاة بالناس : شهودُ الحقيقة : وهو رؤية الأشياء كلها من الله وبالله ، وفي قبضته وتحت قهْره وسلطانه . لا يتحرَّك منها شيء إلّا بحوْله وقوَّته ، ولا ينفع ولا يضرُّ إلّا بإذنه ومشيئته . فما وجه المبالاة بالخلْق بعد هذا الشهود ؟! »[١].

(١) مدارج السالكين ٢/٣٠ – ٣١ .

« الدرجة الثانية : تجريدُ الانقطاعِ عن التعريج على النفْس ؛ بمجانبة الهوى ، وتنسُّم رَوْح الأُنْسِ ، وشَيم برْقِ الكشْف » :

قال ابن القيم : « الفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها : أنَّ الأولى انقطاعٌ عن الخلْق ، وهذه انقطاع عن النفس . وجعَلَه بثلاثة أشياء :

أولها : مجانبة الهوىٰ ومخالفته ، ونهي نفْسِهِ عنه ؛ لأنَّ اتباعه يصدُّ عن التبتُّل .

وثانيها :- وهو بعد مخالفة الهوى - تنسُّم رَوْح الأُنْس بالله ، والرَّوح للرُّوح كالرُّوح للبدن ، فهو رُوحها وراحتها . وإنما حصل له هذا الرَّوح لمَّا أعرض عن هواه ، فحينئذ تنسَّم روح الأنس بالله ، ووجد رائحته ؛ إذ النفس لا بدَّ لها من التعلُّق ، فلما انقطع تعلُّقها من هواها وجدَتْ رَوح الأُنس بالله ، وهَبَّت عليها نسماته ، فريَّحتْها وأحْيَتْها .

وثالثها : شَيْم برق الكْشف : وهو مطالعته واستشرافه والنظر إليه ، ليعلم به مواقع الغيْث ومساقط الرَّحمة .

وليس مراده بالكشْف هاهنا: الكشْف الجزئي السفلي، المشترك بين البَرِّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ، كالكشْف عن مخبآت الناس ومستورهم . وإنما هو الكشْف عن ثلاثة أشياء ، هنَّ منتهى كشفُ الصادقين أرباب البصائر :

أحدها : الكشف عن منازل السيْر .

والثاني : الكشف عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ومفسداتها .

والثالث : الكشْف عن معاني الأسماء والصفات ، وحقائق التوحيد والمعرفة .

وهذه الأبواب الثلاثة : هي مجامع علوم القوْم ، وعليها يحومون ، وحولها يدندنون ، وإليها يشمِّرون ، فمنهم مَن جُلُّ كلامه ومعظمه : في السيْر وصفة

المنازل . ومنهم من جُلُّ كلامه : في الآفات والقواطع . ومنهم من جُلُّ كلامه : في التوحيد والمعرفة ، وحقائق الأسماء والصفات .

والصادق الذكي يأخذ من كلٍّ منهم ما عنده من الحقِّ ، فيستعين به على مطلبه ، ولا يردُّ ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر ، ويهدره به . فالكمال المطلق لله رب العالمين ، وما من العباد إلّا له مقام معلوم »[١] .

« الدرجة الثالثة : تجريد الانقطاع إلى السبْق ؛ بتصحيح الاستقامة ، والاستغراق في قصْدِ الوصول ، والنظر إلى أوائل الجمع » :

قال ابن القيم : « لما جعل الدرجة الأولى انقطاعًا عن الخلْق ، والثانية انقطاعًا عن النفس ؛ جعل الثالثة طلبًا للسبْق ، وجعله بتصحيح الاستقامة : وهي الإعراض عما سوى الحقّ ولزوم الإقبال عليه ، والاشتغال بمحابه . ثم بالاستغراق في قصد الوصول : وهو أن يشغله طلب الوصول عن كلِّ شيء ، بحيث يستغرق همومه وعزائمه وإراداته وأوقاته. وإنما يكون ذلك بعد بُدُوّ برق الكشْف المذكور له .

وأما النظر إلى أوائل الجمع : فالجمع هو قيام الخلْق كلهم بالحقِّ وحده ، وقيامه عليهم بالربوبية والتدبير .

والنظر إلى أوائل ذلك : هو الالتفات إلى مقدماته وبداياته ، وهي العقبة التي يَنْحدر منها على وادي الفناء .

وقد قيل : إنها وقْفة تعترض القاطِع لأوْدية التفرقة قبل وصوله إلى الجمع . ومنها يُشرف عليه .

وهذه الوقفة تعترض كل طالب مُجِدٍّ في طلبه ، فمنها يرجع على عقبه ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١ - ٣٢ .

أو يصل إلى مطلبه . كما قيل :

لا بدَّ للعاشـق من وقفـةٍ ما بين سلوانٍ وبينَ غرامِ
وعندهَا ينـقلُ أقـدامَـهُ إمَّا إلى خلْفٍ وإمَّا أمامِ

والذي يظهر لي من كلامه: أن أوائل الجمع: مباديه ولوائحه وبوارقه»[1].

قال ابن القيم بعد إيراده للثلاث درجات للهروي :

« الدرجة الرابعة: الانقطاع عن مراده من ربِّه، والفناءُ عنه إلى مراد ربِّه منه ، والفناءُ به » :

« وبعد هذا درجة رابعة ، وهي الانقطاع عن مراده من ربه ، والفناء عنه إلى مراد ربِّه منه ، والفناء به . فلا يريد منه ، بل يريد ما يريده ، منقطعًا به عن كل إرادة ، فينظر في أوائل الجمع في مراده الديني الأمري الذي يحبُّه ويرضاه »[2] .

كلامٌ نفيسٌ لابن القيم في أنَّ كمال العبودية بإعطاء الجمْعِ والفرْقِ حقَّهما في « إيَّاك نعبُد » و « إياك نستعين » :

قال ابن القيم : « وأكثر أرباب السلوك عندهم « إياك نعبد » : فرق ، و « إياك نستعين » : جمع ، ثم منهم مَن يرى أن ترك الجمْعْ : زندقة وكفر ، فهو يعرض عن الجمع إلى الفرق . ومنهم من يرى : أن مقام « التفرقة » ناقص مرغوب عنه، ويرى سوء حال أهله وتشتُّتهم، فيرغب عنه عاملًا على الجمع، يتوجه معه حيث توجَّهت ركائبُه . والمستقيمون منهم يقولون : لا بدَّ للعبد السالك من جمع وفرق ، وقيام العبودية بهما . فمن لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جَمْع له لا معرفة له ولا حال .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٢ - ٣٣ .
(٢) مدارج السالكين ٢/٣٣ .

فـ « إياك نعبد » : فرق ، و « إياك نستعين » : جمع .

والحقُّ أن كلًّا من مشهديْ « إياك نعبد » و « إياك نستعين » : متضمِّن للفرق والجمع ، وكمال العبودية بالقيام بهما في كل مشهد .

ففرْقُ « إياك نعبد » : تنوُّع ما يُعبد به ، وكثرة تعلُّقاته وضروبه .

وجمْعُه : توحيد المعبود بذلك كلِّه ، وإرادة وجهه وحده ، والفناء عن كلِّ حظٍّ ومراد يُزاحم حقَّه ومراده .

فتضمَّن هذا المشهد فرقًا في جمْع ، وكثرةً في وحدة ، فصاحِبه يتنقّل في منازل العبودية من عبادة إلى عبادة ، ومعبوده واحد ؛ لا إله إلا هو .

وأما فرْقُ « إياك نستعين » : فشهود ما يستعين به عليه ، ومرتبته ومنزلته ، ومحلّه من النفْع والضرّ ، وبدايته وعاقبته ، واتصاله بل وانفصاله وما يترتب عليه من هذا الاتصال والانفصال .

ويشهد مع ذلك ، فقر المستعين وحاجته ونقْصه ، وضرورته إلى كمالاته التي يستعين ربَّه في تحصيلها ، وآفاته التي يستعين ربَّه في دفعها ، ويشهد حقيقة الاستعانة وكفاية المستعان به ، وهذا كلُّه فرْقٌ يُثمر عبودية هذا المشهد .

وأمَّا جمْعُه : فشهود تفرُّده سبحانه بالأفعال ، وصدور الكائنات بأَسْرِها عن مشيئته ، وتصريفها بإرادته وحكمته .

فغيبته بهذا المشهد عما قبله من الفرق ؛ نقص في العبودية ، كما أن تفرُّقه في الذي قبله دون ملاحظته : نقصٌ أيضًا . والكمال : إعطاءُ الفرق والجمْع حقَّهما في هذا المشهد والمشهد الأول .

فتبيّن تضمُّن « إياك نعبد » و « إياك نستعين » للجمْع والفرق . والله المستعان »(١).

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٣ - ٣٤ .

أخي ، مَن صحَّ فراره إلى الله ، صحَّ قراره مع الله ، ومَن انقطع إلى الله أغناه عمَّن سواه .

هذه مريم البتول انقطعتْ إلى الله ؛ فآثرها الله على نساء العالمين ، وأجرى لها من الكرامة ما أجرى ؛ ﴿ **كلَّما دخل عليها زكريا المحرابَ وجد عندها رزقا** ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وهذه آسية انقطعتْ إلى الله وآثرته على المُلْك والجاه ، فآثرها الله بالقرْب منه في جنَّته ودار علاه .

أخي ، شتَّانَ بين عبدٍ منقطع إلى ربِّه يخدمه ، وآخرَ منقطع لخدمة الخلْق يعبدهم ، وكم بين عبدٍ منقطِعٍ عن الناس ، وبين عبد موصول به الوسواس !!

شتان بين عبد منقطِع بالشوْق إلى المولى ، وبين عبد منقطع بالهوىٰ معانِق للدنيا، هذه مقامات المقرَّبين بالحسنىٰ، وأضدادها مقامات المبعدين بالسوء .

* * *

الفصل الحادي والعشرون

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الخُشُوعِ

« خشعَ سمْعي وبصري ، ومخِّي وعظمي وعَصَبي ،
وما استقلَّتْ بهِ قدمي ، للهِ ربِّ العالمين » .
[حديثٌ صحيحٌ]

« إنَّ أولَ ما يُرفعُ مِن الناسِ : الخشوعُ » .
[حديثٌ صحيح]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الخُشُوع □

اعلم – رحمنا الله وإياك – أن الخشوع قيامُ القلب بين يدي الربّ بالخضوع والذلِّ والجمعيَّة عليه ، ورقَّة القلب وسكونه وانكساره وحُرْقته .

والخشوع : خمود نيران الشهوة ، وسكون دُخَان الصدور ، وإشراق نور التعظيم في القلب ، واستحضار عظمة الله وهيبته وجلاله .

والخشوع قاسَمٌ مشترك بين الأخلاق والعقيدة والعمل ، يغذوها بخشية الله ، فتؤدِّي مقصودها في النفس والقلب معًا .

الخشوع معنًى شرعيّ وسلوكٌ سُنِّي ، فيه كلّ الانقياد لله ربِّ العالمين .

قال الجنيد : الخشوع تذلُّل القلوب لعلّام الغيوب .

والقلب أمير البدن ، فإذا خشَع القلب ، خشع السمع والبصر والوجه وسائر الأعضاء وما ينشأ عنها ، حتى الكلام .

الخشوع يقظة دائمة لخلَجَات القلب وخفقاته ولفتاته حتى لا يتبلد ، وحذَرٌ من هواجسه ووساوسه ، واحتياط من سهواته وغفَلاته ودفعاته ، خشية أن يزيغ وتعتريه القساوة .

والخشوعُ عِلمٌ نافع يُباشر القلب ، فيوجب له السكينة والخشية ، والإخباتَ والتواضعَ والانكسارَ لله ، وكلُّ أولئك رشْحٌ من فيْض الخشوع[١] .

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه ؛ أنَّ النبي ﷺ كان يقول : « اللهمَّ

---

(١) انظر رسالة : الخشوع وأثره في بناء الأمة . لسليم بن عيد الهلالة – دار ابن الجوزي . والخشوع في الصلاة ، لابن رجب الحنبلي . تعليق : علي حسن عبد الحميد – طبع : دار عمار .

إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا تُستجاب »[(١)] .

والخشوع أولُ علمٍ يُرفع مِن بين هذه الأمة :

عن شداد بن أوس : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول ما يُرفع من الناس : الخشوع »[(٢)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أول شيءٍ يُرفع من هذه الأمة الخشوع ، حتى لا ترى فيها خاشعًا »[(٣)] .

وقال حذيفة رضي الله عنه : « أول ما تفقدون من دينكم : الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم : الصلاة »[(٤)] .

وقد مدح الله في كتابه الخاشعين المنكسرين لعظمته ؛ فقال تعالى : **﴿ إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعوننا رَغبًا ورَهَبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾** [الأنبياء : ٩٠] .

وقال تعالى : **﴿ إنَّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدِّقين والمتصدِّقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات**

---

(١) رواه مسلم .

(٢) صحيح : أخرجه الطبراني في الكبير ، والبخاري في خلْق أفعال العباد ، والنسائي في الكبرى ، والبيهقي في المدخل ، والحاكم وابن حبان ، والبزار والخطيب في اقتضاء العلم العمل ، والطبراني في الأوائل ، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٥٤٣ ، وصحيح الجامع رقم ٢٥٦٩ .

(٤) مدارج السالكين ٥٢١/١ .

والذاكرين الله كثيرًا والذكرات أعدَّ الله لهم مغفِرة وأجرًا عظيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

فأُولى المنازل التي يحطُّ فيها الخاشعون رِحالَهم : مغفرةٌ من الله تمحق السيئات وتُربي الحسنات والأجر العظيم ؛ قال تعالى : ﴿ **وإنَّ من أهل الكتاب لَمن يُؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أُنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا أولئك لهم أجرهم عند ربِّهم إن الله سريع الحساب** ﴾ [آل عمران: ١٩٩] .

وللخاشعين البشرىٰ مِن ربِّهم :

قال تعالى : ﴿ **فإلٰهكم إله واحد فله أسلِموا وبشِّرِ المخبتين** ﴾ [الحج : ٣٤] .

ووصَفَ الله المؤمنين بالخشوع في أشرف عبادتهم وهي الصلاة ، وبيَّن أن الخشوعَ طريقُ الفلاح في الدنيا والآخرة ؛ يحُسُّه المؤمن بقلبه ، ويجد مصداقه في واقع حياته ، وعدٌ من الله بالفلاح الذي لا يخطر على قلب بَشَر . قال تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتِهم خاشعون** ﴾ [المؤمنون : ١ - ٢] .

ووصف الله الذين أوتوا العلم بالخشوع حين يسمعون كلامه ؛ فقال : ﴿ **إنَّ الذينَ أُوتوا العلْمَ مِن قبله إذا يُتلى عليهم يخرُّون للأذقان سُجَّدًا ويقولون سبحان ربِّنا إنْ كان وعدُ ربِّنا لمفعولًا ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩] .

والخشوع طريقٌ إلى أعالي الفردوس :

قال تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ [هود : ٢٣] . وقال تعالى : ﴿ **أولئك هم**

الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ [المؤمنون : ١٠ - ١١] .

والخشوع ثباتٌ على منهج الله :

قال تعالى : ﴿ **وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحقُّ من ربِّك فيؤمنوا به فتُخبِتَ له قلوبُهم وإنّ الله لهادِ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم** ﴾ [الحج : ٥٤] .

والقلب الخاشع بعيد عن الشيطان :

قال سهل : « مَن خشع قلبُه لم يقْرب منه الشيطان »(١) .

عِتابٌ من اللهِ تعالى واستبطاءٌ للصحابة ، يدلُّ على عِظمِ منزلةِ الخشوع :

ولولا عظم منزلة الخشوع وعُلوّها ، لَمَا عاتَب الله الصحابة أفضلَ القرون ، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة السامية التي يريدها الله لهم بعد بضع سنين واستبطأهم .

قال تعالى: ﴿**ألَمْ يأنِ للذينَ آمنوا أن تخشعَ قلوبهم لذكْر الله وما نزل من الحقِّ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلُ فطال عليهم الأمَدُ فقسَتْ قلوبهم وكثير منهم فاسقون اعلموا أنَّ الله يُحيي الأرضَ بعد موتها قد بيَّنَّا لكم الآياتِ لعلّكم تعقلون** ﴾ [الحديد : ١٦ - ١٧] .

قال ابن مسعود : « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبهم لذكر الله** ﴾ ، إلّا أربع سنين » . رواه مسلم .

رنَّة عتاب للمؤمنين الذين لم يبلغوا قمَّة الخشوع الذي يرضاه الله للعُصْبة المؤمنة الأولى التي حملتِ المنهج الرباني . عتاب لجيل القدوة الذي استوى على

---

(١) مدارج السالكين ١/٥٢٢ .

سوقه في أحضان النبي الأُسوة ﷺ .

« عتاب من المولى الكريم الرحيم ، واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله ، عتاب فيه الوُدُّ ، وفيه الحضُّ ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله ، والخشوع لذِكْره ، وتلقِّي ما نزل من الحقِّ بما يليق بجلال الحقِّ من الروْعة والخشية والطاعة والاستسلام .. إن هذا القلب البشري سريع التقلُّب ، سريع النسيان ، وهو يشفُّ ويُشرف فيَفيض بالنور ، ويرفُّ كالشعاع ، فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكُّرٍ تبلَّد وقسًا ، وانطمست إشراقاته ، وأظلم وأعْتَمَ . فلا بدَّ من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع ، ولا بدَّ من الطرْقِ عليه حتى يرفَّ ويشفَّ ، ولا بدَّ من اليقظة الدائمة كَيْ لا يصيبه التبلُّد والقسَاوة .

ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلّد ؛ فإنه يمكن أن تدبَّ فيه الحياة ، وأن يُشرق فيه النور ، وأن يخشع لذكْر الله ؛ فالله يحيي الأرض بعد موتها فتنبض بالحياة ، وتزخر بالنبْت والزهر ، وتمنح الأُكُل والثمار ، وكذلك القلوب حين يشاء الله ... »[1]، يحييها بعد قسوتها ، ويهدي الحيارى بعد ضلَّتها ، ويفرِّج الكروب بعد شدَّتها ، كما يُحيي الأرض الخاشعة المجدبة الهامدة بالغيْث الهتان الوابل .. والقرآن ربيعُ قلب المؤمن ، كما أن الغيث ربيعُ الأرض .

قال ابن عباس : « إن الله استبطأ قلوب المؤمنين ، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن »[2].

---

(١) الظلال ص٣٤٨٩ .

(٢) مدارج السالكين ١/٥٢٠ .

آيةُ الخشوعِ سببٌ في توْبةِ وخشوع الجَبَلَيْن : عبدِ الله بنِ المبارك ، والفُضَيل ابن عِياض :

قال القرطبي : « هذه الآية : ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبُهم لذكْر الله** ﴾ [الحديد : ١٦] . كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وابن المبارك رحمهما الله :

قال الحسن بن داهر : سُئل عبد الله بن المبارك عن بدْءِ زهْده ، قال : كنتُ يومًا مع إخواني في بستانٍ لنا ، وذلك حين حملتُ الثمار من ألوان الفواكه ، فأكلنا وشربنا حتى الليل ، فنِمْنا ، وكنتُ مُولَعًا بضرْب العُود والطنبور ، فقمتُ في بعضِ الليل ، فضربتُ بصوتٍ يُقال له : راشين السَّحَر ، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة ، والعودُ بيدي لا يجيبني إلى ما أريد ، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان - يعني العُود الذي بيده - ويقول : ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكْر الله وما نزل من الحق** ﴾ . قلتُ : بلى والله . وكسرتُ العُود ، وصرفتُ مَنْ كان عندي ، فكان هذا أول زُهدي وتشميري .

وأمَّا الفضيل بن عياض : فكان سبب توبته أنه عَشق جارية فواعدته ليلًا ، فبينما هو يرتقي الجدران إليها ، إذْ سَمِع قارئًا يقرأ ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾. فرجع القهقرى وهو يقول : بلى والله قد آن ، فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة ، وبعضهم يقول لبعض : إن فُضيلًا يقطع الطريق . فقال الفضيل : أوّاه !! أراني بالليل أسعى في معاصي الله ، وقومٌ من المسلمين يخافونني !! اللهمَّ إني قد تبتُ إليك ، وجعلتُ توبتي إليك جَوار بيتك الحرام »[١].

وفي رواية : أنه قال للقافلة : يا قوم ، أنا الفضيل ، جُوزوا ؛ والله لأجتهدنَّ

---

(١) القرطبي ٩/٦٤٢١ .

أن لا أعصي الله أبدًا . فرجع عمَّا كان عليه .

أما خشوع ابن المبارك : فهو أشهر من أن يُذكر ؛ كان إذا قرأ في كتابه «الرقائق» فكأنه بقرة منحورة ، من كثرة البكاء ، وكذا كان الفضيل في خشوعه .

قال سعد بن زنبور : « كنا على باب الفضيل بن عياض ، فاستأذنَّا عليه فلم يُؤْذن لنا ، فقيل لنا : إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن . قال : وكان معنا رجل مؤذِّن وكان صيِّتًا[1]، فقلنا له اقرأ : ﴿ **أَلهاكم التكاثر** ﴾ ، ورفع بها صوته ، فأشرف علينا الفضيل ، وقد بكى حتى بلَّ لحيته بالدموع ، ومعه خِرْقَة ينشِّف بها الدموع من عينيه ، وأنشأ يقول :

بلغتُ الثمانينَ أو جُزتها فماذا أؤمِّلُ أو أنتظرْ
أتى لي ثمانون من مولدي وبعد الثمانينَ ما يُنتَظرْ
علَتْني السنونَ فأبليْنَني ....

قال : ثم خنقتْه العَبرة ، وكان معنا علي بن خشرم فأتمَّه لنا ، فقال :

علَتْني السنونَ فأبليْنَني فرقّتْ عظامي وكَلَّ البصرْ »[2]

الخشوعُ ينتظم جوارحَ العبدِ جميعًا :

كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة : « ... اللهمَّ لك ركعتُ ، وبك آمنتُ ، ولك أسلمتُ ، خشع لك سمعي وبصري ومخِّي وعظمي وعصبي ... » .

عالي الهِمَّة في الخشوع : مَنِ اجتمعتْ فيه هٰذه الصِّفاتِ :

١ - الخوْف مِنَ الله :

قال تعالى : ﴿ **فإلٰهكم إلٰه واحد فله أسلِمُوا وبشِّرِ المخبتين الذين إذا**

(١) أي : شديد الصوت .
(٢) صفة الصفوة ٢/٢٣٩ .

ذُكِر الله وَجلتْ قلوبُهم ... ﴾ الآية [الحج : ٣٤ - ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ **اللهُ نزَّل أحسنَ الحديثِ كتابًا متشابهًا مثانيَ تقشعِرُّ منه جلودُ الذين يخشون ربَّهم** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

٢ - البكاءُ مِن خشيةِ الله :

قال تعالى : ﴿ **قُلْ آمِنُوا به أو لا تؤمنوا إنَّ الذين أُوتوا العلْمَ مِن قبله إذا يُتلى عليهم يخرُّون للأذقان سُجَّدًا ويقولون سبحان ربِّنا إنْ كان وعْد ربِّنا لمفعولًا ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٧] .

تهتزُّ المشاعر ، وتلين القلوب ، ولا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم من إحساسٍ عظمةِ الله ، فإذا الدموعُ تنطلقُ مُعبّرةً عن ذلك التأثُّر الغامر ، الذي تعجْز الألفاظ عن تصويره .

٣ - الصبر على ما أصابهم .

٤ - إقام الصلاة .

٥ - إيتاء الزكاة .

قال تعالى : ﴿ **وبشِّر المخبتين الذين إذا ذُكِر الله وجِلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وممَّا رزقناهم ينفقون** ﴾ [الحج : ٣٤ - ٣٥].

٦ - اليقين بِلِقَاءِ الله والرُّجوعِ إليه :

قال تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاةِ وإنها لَكَبيرةٌ إلّا على الخاشعين الذين يظنُّون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون** ﴾ [البقرة : ٤٥ - ٤٦] .

٧ - تعظيمُ شعائر الله :

لن يعظِّم شعائر الله إلا خاشع لله ؛ لا يخطو خطوة ولا يتحرَّك حركة

إلَّا وهو ينظر فيها إلى الله ؛ فإنه إنْ لم يكن يراه فإن الله يراه ، فيَجِيش قلبه فيها بتقواه ، ويتطلع فيها إلى وجهه ورضاه .

قال تعالى : ﴿ **وإنَّ من أهل الكتاب لمَن يُؤْمن بالله وما أنزل إليكم وما أُنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا أولئك لهم أجرهم عند ربِّهم إن الله سريع الحساب** ﴾ [آل عمران : ١٩٩] .

الخُشوعُ في الصَّلاة :

قد شرع الله لعباده من العبادات ما يظهر فيه خشوع الأبدان ، الناشئ عن خشوع القلب وذُلّه وانكساره ، ومن أعظم ذلك الصلاة ، حين تستشعر قلوبُ الصالحين رهبة المْوقف في الصلاة بين يدي الله ، فتسكُن وتخشع ، فيسري الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات ، ويغشى أرواحهم جلالُ الله في حضْرته ، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل ، ولا تشتغل بسواه ، وهم مستغرقون في الشعور به ، مشغولون بنجواه ، ويتوارى عن حِسِّهم كل ما حولهم وكل ما بهم ، فما يضمُّون جوانحهم على شائبة مع جلال الله .

قال ابن كثير في « تفسيره » (٥/٤٥٦) : « والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمَن فرَّغ قلبه لها ، واشتغلَ بها عمَّا عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذٍ تكون راحةً له وقُرَّةَ عيْن ؛ كما قال النبي ﷺ ؛ في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن أنس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حُبِّبَ إليَّ الطِّيبُ والنساءُ ، وجُعلتْ قرَّة عيني في الصلاة »[1] .

قال تعالى : ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ [المؤمنون : ٢] .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : خائفون ساكنون . وهو قول مجاهد والحسن وقتادة والزهري .

---

(١) صحيح .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الخشوعُ : خشوعُ القلب . وكذا قال إبراهيم النخعي .

قال ابن سيرين : كانوا يقولون : لا يجاوز بصرُه مصلَّاه » .

« وعن سعيد بن جُبير رحمه الله: ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ يعني : متواضعين ؛ لا يعرف مَن عن يمينه ولا مَنْ عن شماله ، ولا يلتفت ؛ من الخشوع لله عزَّ وجلَّ .

وعن مجاهد : ﴿ **وقُومُوا لله قانتين** ﴾ [البقرة : ٢٣٨] : قال : القنُوت : الركون والخشوع ، وغضُّ البصر وخفْض الصوت .

قال : وكان العلماء إذا قام أحدهم في الصلاة ، هابَ الرحمٰن عزّ وجلَّ عنْ أن يشِذَّ نظرُه أو يلتفت ، أو يقلِّب الحصىٰ أو يعبث بشيءٍ ، أو يُحدِّث نفسه من أمر الدنيا إلّا ناسيًا ، ما دام في صلاته .

وعن مجاهد رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ **سِيمَاهم في وُجوههم من أثر السجود** ﴾ [الفتح : ٢٩] ؛ قال : الخشوع في الصلاة »[1].

ولله درُّ القائل :

أَلَا في الصلاةِ الخيرُ والفضلُ أجمعُ ... لأنَّ بها الآرابَ لله تخضعُ
وأوَّلُ فرْضٍ من شريعةِ ديننا ... وآخر ما يبقىٰ إذا الدين يُرفَعُ
فمَن قامَ للتكْبيرِ لاقته رحمة ... وكان كعبدٍ بابَ مولاهُ يقْرَعُ
وصارَ لربِّ العرشِ حينَ صلاتِهِ ... نجيًّا فيا طُوباه لو كان يخشعُ

والخشوع واجب في الصلاة ، وهذا أرجح الأقوال :

قال القرطبي : « اختلف الناسُ في الخشوع : هل هو من فرائض الصلاة ، أو مِنْ فضائلها ومكمِّلاتها ؟ على قولَيْن ؛ والصحيح : الأول ، ومحلُّه القلب » .

---

(١) الخشوع في الصلاة لابن رجب ص٢٢ ، ٢٣ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : « قال الله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ [البقرة : ٤٥] . وقال تعالى : ﴿ **كبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾ [الشورى : ١٣] .

فقد دلَّ كتاب الله - عز وجل - على مَن كبُر عليه ما يحبُّه الله ، وأنه مذموم بذلك في الدين ، مسخوط منه ذلك . والذمُّ والسُّخط لا يكون إلّا لترْك واجب أو فعْل محرَّم . وإذا كان غير الخاشعين مذمومين ؛ دلَّ ذلك على وجوب الخشوع .

ويدلُّ على وجوب الخشوع في الصلاة : أن النبي ﷺ توعَّد تاركيه ؛ كالذي يرفع بصره إلى السماء ، فإنه حرَّكه ورفعه ، وهو ضدُّ حال الخاشع .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بالُ أقوامٍ يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم ؟! » . فاشتدَّ قولهُ في ذلك ، فقال : « لينتهُنَّ عن ذلك أو لتخطَفَنَّ أبصارهم »[١] .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد ، وفيه ناس يُصلُّون رافعي أبصارهم إلى السماء ، فقال : « لينتهِيَنَّ رجالٌ يَشْخَصون أبصارهم إلى السماء، أو لا ترجع إليهم أبصارهم »[٢]. اهـ»[٣] باختصار.

وذهب إلى الوجوب أيضًا : الحافظُ العراقي في كتابه القيم « طَرْح التثريب في شرح التقريب » ، في ردِّه على النووي[٤].

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه مسلم .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٥٣/٢٢ - ٥٧٢ .

(٤) طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي ٣٧٢/٢ .

« لو ترك العبد واجبًا مِن واجبات الصلاة عمدًا ، لَأَبطَلَها تَرْكُه . وغايتُه أن يكون بعضًا من أبعاضها ، بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المُعْتَق في الكفَّارة، فكيف إذا عدمت رُوحها ولبّها ومقصودها (الخشوع)، ؟! وصارت بمنزلة العبد الميِّت ؟! إذا لم يُعتدَّ بالعبد المقطوع اليد بعتْقِه تقرُّبًا إلى الله تعالى في كفَّارة واجبة ؛ فكيف يُعتدُّ بالعبد الميت ؟! .

وقال بعض السلف : الصلاة كجاريةٍ تهدَىٰ إلى مَلِك من الملوك ، فما الظنُّ بمَن يُهدي إليه جارية شلَّاء أو عوراء أو عمياء ، أو مقطوعة اليد والرجل أو مريضة ، أو دميمة أو قبيحة ، حتى يُهدي إليه جارية ميتة بلا روح ، وجارية قبيحة ، فكيف بالصلاة التي يُهديها العبد ، ويتقرَّب بها إلى ربه تعالى ؟! والله طيِّب لا يقبل إلّا طيِّبًا ؛ وليس من العمل الطيِّب : صلاة لا روح فيها ، كما أنه ليس من العِتْق الطيِّب : عتْق عبد لا روح فيه .

وتعطيلُ القلب عن عبودية الحضور والخشوع : تعطيلٌ لمَلِك الأعضاء عن عبوديته ، وعزْلٌ له منها . فماذا تعني طاعة الرعيَّة وعبوديتها ، وقد عُزِل مالكُها وتعطَّل ؟! »[1] .

وعالي الهِمَّة في خُشوعه في صلاته يظهر ذلك منه في أفعال الصلاة :

١ - وضْعُ اليمين على الشمال في حال القيام :

قال العلّامة ابن رجب الحنبلي : « وممَّا يظهر فيه الخشوع والذلُّ والانكسار من أفعال الصلاة : وضْع اليديْن إحداهما على الأخرى في حال القيام ، وقد رُوي عن الإمام أحمد رحمه الله : أنه سُئل عن المراد بذلك ، فقال : هو ذلٌّ بين يدَيْ عزيز .

(١) مدارج السالكين ٥٢٦/١ - ٥٢٧ .

قال علي بن محمد المصري الواعظ رحمه الله تعالى : ما سمعتُ في العلم بأحسن من هذا : عن أبي صالح السمَّان رحمه الله تعالى قال : يُبعَث الناس يوم القيامة هكذا . ووضع إحدى يديْه على الأخرى .

وملاحظة هذا المعنى في الصلاة يُوجب للمصلِّي أن يتذكَّر وُقوفَه بين يدي الله تعالى للحساب .

وكان ذو النون - رحمه الله تعالى - يقول في وصْف العُبَّاد : لو رأيتَ أحدَهم وقد قام إلى صلاته ، فلمّا وقف في محرابه[١] ، واستفتح كلام سيده ؛ خطر على قلبه أن ذلك المقام هو المقام الذي يقوم الناس فيه لربِّ العالمين ، فانخلَع قلبه وذهل عقله »[٢] .

٢ - إقبالُ المصلّي عالي الهِمَّة على الله - عز وجل - وعدم التفاته :

قال ابن رجب : (ومِن ذلك إقباله على الله عز وجلّ وعدم التفاته إلى غيره ؛ وهو نوعان :

أحدهما : عدم التفات قلبه إلى غير ما هو مباح له ، وتفريغ القلب للربّ عز وجل .

عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ؛ أنه قال في فضل الوضوء وثوابه ، ثم قال : « فإنْ هو قام وصلّى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ومجّده بالذي هو أهلُه ، وفرّغ قلبه لله ؛ انصرف من خطيئته كيوم ولدتْه

---

(١) قال الأخ علي حسن عبد الحميد الحلبي : « أي : موضع صلاته ، وليس المحراب المعروف اليوم ، وهو التجويف الذي يكون في الحائط ، فقد نصَّ العلماء على أنه بدْعة مُحدَثة ، وللإمام السيوطي رحمه الله رسالة : إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب » . اهـ . من : التعليق على « الخشوع في الصلاة » ص٢٤ .

(٢) الخشوع في الصلاة ص٢٣ - ٢٤ .

أمُّه »[١] .

الثاني : عدم الالتفات بالنظر يمينًا وشمالًا ، وقصْر البصَر على موضع السجود ، وهو من لوازم خشوع القلب وعدم التفاته .

عن عائشة رضي الله عنها : سألتُ النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة ، فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد »[٢])[٣] .

قال ابن قيم الجوزية : « قوله في الحديث : « ... وآمركم بالصلاة ، فإذا صلَّيتم ، فلا تلتفتوا ؛ فإن الله ينصب وجهَهُ لوجه عبده في صلاته ، ما لم يلتفت »[٤]؛ والالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان :

أحدهما : التفات القلب عن الله – عز وجل – إلى غير الله تعالى .

والثاني : التفاتُ البصر .

وكلاهما منهيٌّ عنه .

ولا يزال الله مقبِلًا على عبده ما دام العبد مقبلًا على صلاته ، فإذا التفت بقلبه أو بصَره ؛ أعرض الله – تعالى – عنه ... ومَثَلُ مَن يلتفت في صلاته ببصره أو قلبه : مَثَلُ رجل قد استدعاه السلطان فأوقفه بين يديه ، وأقبل يُناديه ويخاطبه ، وهو في خلال ذلك يلتفتُ يمينًا وشمالًا ، وقد انصرف قلبه عن السلطان ، فلا يفهم ما يخاطبه به ؛ لأنَّ قلبَه ليس حاضرًا معه . فما ظنُّ هذا

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخاري .

(٣) الخشوع في الصلاة ص٢٤ .

(٤) صحيح . جزء من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ : « أن الله أمَر يحيىٰ ابن زكريا بخمس كلمات .... » الحديث . رواه أحمد والترمذي والطيالسي ، وهو صحيح .

الرجل أنْ يفعل به السلطان ؟! أفليس أقلّ المراتب في حقّه أن ينصرف مِن بين يديه ممقوتًا مُبْعَدًا، قد سقط من عينيه ؟! فهذا المصلِّي لا يستوي والحاضر القلبِ ، المقبل على الله تعالى في صلاته ، الذي قد أشعر قلبه عظمةَ مَن هو واقف بين يديه ، فامتلأ قلبه من هيبته ، وذلّتْ عنقه له ، واسْتحْيا من ربِّه تعالى أن يُقبل على غيرِه أو يلتفت عنه . وبين صلاتيهما ؛ كما قال حسَّان ابن عطية : « إن الرجلَيْن ليكونان في الصلاة الواحدة ، وإن ما بينهما في الفضْل كما بين السماء والأرض » . وذلك أن أحدَهُما مقبلٌ بقلبه على الله - عز وجل - والآخر ساهٍ غافل .

فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله وبينه وبينه حجاب ؛ لم يكن إقبالًا ولا تقريبًا ، فما الظنُّ بالخالقِ عز وجل ؟! وإذا أقبل على الخالق - عز وجل - وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس ، والنفس مشغوفة بها ، ملأى منها - فكيف يكون ذلك إقبالًا وقد ألهتْه الوساوس والأفكار، وذهبتْ به كلَّ مذهب ؟!

فإن الصلاة إنما تكفِّر سَيئات مَن أدَّى حقَّها ، وأكمل خشوعها ، ووقَفَ بين يدي الله تعالى بقلبه وقالَبه . فهذا ، إذا انصرف منها ؛ وجد خِفَّة من نفسه ، وأحسَّ بأثقال قد وُضعت عنه ، فوجد نشاطًا وراحة وروْحًا ، حتى يتمنَّى أنه لم يكن خرج منها ؛ لأنها قرَّة عينيه ، ونعيم روحه ، وجنَّة قلبه ، ومستراحه في الدنيا ، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها ، فيستريح بها لا منها . فالمحبون يقولون : نصلِّي فنستريح بصلاتنا . كما قال إمامهم وقدوتُهم ونبيهم ﷺ : « يا بلال ، أرحْنا بالصلاة » ، ولم يقل : أرحنا منها . وقال ﷺ : « جُعلت قرّة عيني في الصلاة » . فمن جُعلت قرَّة عينه في الصلاة ؛ كيف تقرُّ عينه ﷺ بدونها ؟! وكيف يُطيق الصبر عنها ؟!

فصلاة هذا الحاضر بقلبه ، الذي قرَّة عينه في الصلاة ، هي التي تصعد

ولها نور وبرهان ، حتى يستقبل بها الرحمن عز وجل ...

والصلاة المقبولة أن يصلِّي العبد وقلبه متعلِّق بالله عز وجل، ذاكرًا لله عز وجل على الدوام . فأعمال هذا العبد تُعرَض على الله عز وجل حتى تقف قبالتَهُ ، فينظر الله عز وجل إليها ، فإذا نظر إليها ، رآها خالصةً لوجهه مرضيَّة ، وقد صدرت عن قلب سليم مخلص محبٍّ لله عز وجل متقرِّب إليه - أحبَّها ورضيها وقبلها .

وإثابته : رضا الله العمل لنفسه ، ورضاه عن معاملة عامِلِه ، وتقريبه منه ، وإعلاء درجته ومنزلته ؛ فهذا يُعطيه بغير حساب .

والناس في الصلاة على مراتبَ خمسة :

أحدها : مرتبة الظالم لنفسه ، المفرِّط ؛ وهو الذي انتقص من وضوئها ، ومواقيتها ، وحدودها وأركانها .

الثاني : مَن يحافظ على مواقيتها وحدودها ، وأركانها الظاهرة ووضوئها ، لكن قد ضيَّع مجاهدة نفسه في الوسوسة ، فذهب مع الوساوس والأفكار .

الثالث : مَن حافظ على حدودها وأركانها ، وجاهَد نفسه في دفع الوساوس والأفكار ، فهو مشغول بمجاهدة عدوِّه ؛ لئلَّا يسرق صلاته ؛ فهو في صلاة وجهاد .

الرابع : مَن إذا قام إلى الصلاة أكْمَل حقوقها ، وأركانها ، وحدودها ، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها ، لئلَّا يضيِّع شيئًا منها ، بل هَمُّه كلُّه مصروف إلى إقامتها كما ينبغي ، وإكمالها وإتمامها . قد استغرقَ قلبَهُ شأنُ الصلاة وعبوديةُ ربِّه - تبارك وتعالى - فيها .

الخامس : مَن إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ، ولكن مع هذا قد أخذ قلبَه ووضَعه بين يدي ربِّه عز وجل ، ناظرًا بقلبه إليه، مراقبًا له، ممتلئًا مِن محبَّته وعظمته ، كأنه يراه ويشاهده ، وقد اضمحلَّت تلك الوساوس

والخطرات ، وارتفعت حُجُبُها بينه وبين ربه . فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضلُ وأعظم ممَّا بين السماء والأرض . وهذا في صلاته مشغولٌ بربِّه عز وجل ، قرير العيْن به .

فالقسم الأول مُعاقَب ، والثاني محاسَب ، والثالث مكفَّرٌ عنه ، والرابع مثاب ، والخامس مقرَّب من ربه ؛ لأنَّ له نصيبًا ممن جُعلت قرَّة عينه في الصلاة . فمن قرَّت عينه بصلاته في الدنيا ، قرَّت عينه بقرْبه من ربه – عز وجل – في الآخرة ، وقرَّت عينه أيضًا به في الدنيا ، ومَن قرَّت عيْنه بالله ؛ قرَّت به كلُّ عيْن ومَن لم تقرَّ عينه بالله تعالى ، تقطَّعت نفسه على الدنيا حسرات »[١] .

٣ - الركوع :

ومن الهيئات التي يظهر فيها الخشوع : الركوع .

قال ابن رجب : « ومن ذلك : الركوع ؛ وهو ذلٌّ بظاهر الجسد . ولهذا كانت العرب تأنف منه ولا تفعله ؛ حين بايَع بعضُهم النبي ﷺ أن لا يَخِرّ إلَّا قائمًا[٢]؛ يعني يسجد من غير ركوع ، كذلك فسَّره الإمام أحمد رحمه الله تعالى والمحقِّقون من العلماء .

وتمام الخضوع في الركوع : أن يخضع القلب لله ويذلَّ له ، فيتمّ بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله عز وجل ، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: «خشع لك سمعي وبصري ومخِّي وعظمي، وما استقلَّت به قدمي»[٣]. إشارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه، ومن أعظمها القلب

(١) الوابل الصيب لابن قيم الجوزية ص٢٥ – ٢٩ . بتصرُّف .

(٢) وهو حكيم بن حزام ؛ أخرجه النسائي عنه بسندٍ حسن ، والطبراني في الكبير ، والطحاوي في مشكل الآثار .

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم .

الذي هو مَلِك الجوارح ، والأعضاء كلها تبَع له ولخشوعه »(١) .

٤ - السُّجُود :

« ومن ذلك : السجود ؛ وهو أعظم ما يظهر فيه ذلُّ العبد لربه عز وجل؛ حيث جعل العبد أشرف أعضائه وأعزَّها عليه وأعلاها عليه حقيقةً -أوضعَ ما يُمكنه ، فيضعه في التراب مُتعفِّرًا ، ويتْبع ذلك انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله عز وجل »(٢) .

٥ - وصْفُ اللهِ بصفات الكمال ونُعوت الجلال :

« ومِن تمام خشوع العبد لله عز وجلّ وتواضعه له في ركوعه وسجوده : أنه إذا ذلّ لربه بالركوعِ والسجود وصَفَ ربَّه حينئذٍ بصفات العِزِّ والكبرياء والعظمة والعلوّ ، فكأنه يقول : الذلُّ والتواضع وصْفي ، والعلوُّ والعظمة والكِبْرياء وصفُك »(٣) .

قال الحسن رحمه الله : « إذا قمتَ إلى الصلاة قانتًا ؛ فقمْ كما أمَرك الله ، وإيَّاك والسهوَ والالتفاتَ . إيَّاك أن ينظر الله إليك وتنظر إلى غيره ، وتسأل الله الجنة وتعوذ به من النار ، وقلبُك ساهٍ لا تدري ما تقولُ بلسانك »(٤) .

عالي الهمَّة الخاشِع في صلاته يذكر الموت فيها :

قال رسول الله ﷺ : « اذكرِ الموت في صلاتك ؛ فإن الرَجل إذا ذكر الموت في صلاته ، لَحريٌّ أن يُحسن صلاته . وصلِّ صلاة رجل لا يظن أنه يصلي صلاة غيرها ، وإياك وكلَّ أمر يُعْتَذر منه »(٥).

---

(١)، (٢)، (٣) الخشوع في الصلاة ص٢٦ - ٢٨ .

(٤) الخشوع في الصلاة ص٢٩ .

(٥) إسناده حسن : أخرجه الديلمي في مسند الفردوس . عن أنس مرفوعًا .

وقال ﷺ : « إذا قمتَ في صلاتك ، فصلِّ صلاة مودِّعٍ ، ولا تتكلَّمْ بكلام تعتذر منه ، وأجْمِعِ اليأسَ عمَّا في أيدي الناس »(١).

سادات الخاشعين في صلواتهم :

مرّ بك من قبل في « علو الهمة في الصلاة » : صلاةُ سادات الخاشعين ، ومنهم : عبد الله بن الزبير ، وعامر بن عبد قيس ، وزاذان ، وعلي زيْن العابدين ، ومسلم بن يسار ، وإبراهيم التيمي ، وعاصم بن أبي النجود ، والأوزاعي ، ووكيع بن الجراح ، ويزيد بن هارون ، ويعقوب الحضرمي ، والبخاري ، ومحمد بن نصر المروزي . وغيرهم .

« كان خلف بن أيُّوب لا يطردِ الذباب عن وجهه في الصلاة ، فقيل له : كيف تصبر ؟ قال : بلغني أن الفُسَّاق يتصبَّرون تحتَ السِّياط ليُقال : فلان صبور ؛ وأنا بين يدَي ربي ، أفلا أصبر على ذباب يقع عليّ ؟! »(٢).

فيا مصيبتاه على ترْك الخشوع :

« قال حاتم الأصمُّ : فاتتني صلاة الجماعة ، فعزّاني أبو إسحاق البخاري وحده ، ولو مات لي ولد لعزَّاني أكثر مِنْ عشرة آلاف ؛ لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا »(٣) .

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، وأحمد ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » عن أبي أيوب . وللحديث شواهد تدل بمجموعها على ثبوته : حديث عبد الله بن عمر عند الضياء ، وحديث سعد بن أبي وقَّاص عند الحاكم ، وحديث أنس السابق في « مسند الفردوس » .

(٢) المستطرف ١/٧ .

(٣) المستطرف ١/٨ .

الخشوع عند سمَاع القرآن والعِلْم :

العلم النافع هو ما باشر القلوب ، فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله والتواضع والانكسار، وإذا لم يباشر القلبَ ذلك العِلْمُ وإنما كان على اللسان، فهو حجَّة لله على ابن آدم تقوم على صاحبه وغيره ؛ كما قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: أن أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم .

ولكن إذا وقع في القلب يرسخ فيه نفع صاحبه . وقال الحسن رحمه الله تعالى : العلم علمان : علم باللسان وعلم بالقلب ؛ فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجَّة الله على ابن آدم .

قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ **أمَّن هو قانتٌ آناءَ الليل ساجدًا وقائمًا يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة ربِّه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكَّر أولو الألباب** ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ **فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلالٍ مبين اللهُ نزَّل أحسن الحديثِ كتابًا متشابهًا مثاني تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربَّهم ثم تلينُ جلودهم وقلوبهم إلى ذكْر الله ...** ﴾ الآية [الزمر : ٢٢ - ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لَرأيتَه خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله ...** ﴾ الآية [الحشر : ٢١] .

قال أبو عمران الجَوْني : والله ، لقد صرف إلينا ربُّنا في هذا القرآن ما لو صرفه إلى الجبال لمحاها ودحاها .

وكان مالك بن دينار رحمه الله يقرأ هذه الآية ثم يقول : أُقسم لكم ، لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صُدِّع قلبه .

وقال الحسن : يا ابن آدم ، إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة ، أو حدَّثْتَ

بها نفسك ؛ فاذكر عند ذلك ما حمّلك الله من كتابه ، ممَّا لو حملتْه الجبالُ الرواسي لخَشَعتْ وتصدَّعْت ، أما سمعتَه يقول : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن** ... ﴾ الآية [الحشر : ٢١] .

الخشُوع في الدعاء :

« من أنواع العبادات التي يظهر فيها الذلُّ والخضوع لله عز وجل : الدعاءُ ؛ قال تعالى : ﴿ **ادعوا ربكم تضرُّعًا وخُفية** ﴾ [الأعراف : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ **إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعوننا رغَبًا ورهَبًا وكانوا لنا خاشعين** ﴾ [الأنبياء : ٩٠] .

فمما يظهر فيه من الذلِّ : رفْعُ اليدين . وقد صحَّ عن النبي ﷺ رفعُ يديْه في الدعاء في مواطن كثيرة ، وأعظمها في الاستسقاء ؛ فإنه كان يرفع يديه حتى يُرىٰ بَيَاضُ إبطيه .

وقد كان بعضُ الخائفين يجلس بالليل ساكنًا مُطْرِقًا برأسه ، ويمدُّ يديْه كحال السائل ، وهذا من أبلغ صفات الذلِّ ، وإظهار المسكنة والافتقار .

ومنه : افتقار القلب في الدعاء وانكساره لله عز وجل ، واستشعاره شدَّة الفاقة إليه والحاجة لديه ، وعلى قدْر الحُرْقة والفاقة تكون إجابة الدعاء .

ومن ذلك : إظهار الذلّ باللسان في نفْس السؤال والدعاء ، والإلحاح فيه ؛ قال الأوزاعي رحمه الله تعالى : كان يُقال : أفضل الدعاء : الإلحاح على الله والتضرُّع إليه .

وقال طاووس رحمه الله تعالى : دخل علي بن الحسين **رحمه الله تعالى** ذاتَ ليلة الحُجرة فصلّى ، فسمعتُه يقول في سجوده : عبدُك بفنائك ، فقيرك بفنائك ، مسكينك بفنائك . قال طاووس : فحفظتُهنَّ ، فما دعوتُ بهنَّ في كرْب إلا فُرِّج عني .

وقال ابن باكَوَيْه رحمه الله تعالى : إن بعضَ العُبَّاد حجَّ ثمانين حَجَّة على

قدميْه ، فبينما هو في الطواف وهو يقول : يا حبيبي ؛ وإذا بهاتف يهتف : أليس ترضى أن تكون مسكينًا حتى تكون حبيبًا ؟ قال : فغُشي عليّ ، ثم كنتُ بعد ذلك أقول : مسكينُك ؛ وأنا تائب عن قولي : حبيبي .

فالدعاء تضرُّع وتذلُّل وخشوع وتمسكُن وانكسار .

ولله ما أحلىٰ قوْل القائل : اسألك بعزِّك وذلِّي إلا رحمتَني . أسألك بقوَّتك وضعْفي ، وبغناك عني وفقْري إليك . هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك . عبيدك سواي كثير ، وليس لي سيِّد سواك . لا ملجأ ولا منجا منك إلّا إليك . أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضِع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعتْ لك رقبتُه ، ورَغِم لك أنفُه ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ لك قلبه .

يا من ألوذ به فيما أؤمِّلهُ ... ومَن أعوذ به ممَّا أحاذرهُ
لا يجبر الناسُ عظمًا أنتَ كاسِرُهُ ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره »[1]

هكذا يكون دعاءُ الخاشِع ، وإلَّا فكما قال سيد البشر ﷺ : « ادعوا الله وأنتم مُوقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله لا يستجيب دعاءً مِن قلبٍ غافل لاهٍ »[2] .

عالي الهِمَّة مَنِ استوفىٰ دَرَجاتِ الخشوع :

وعالي الهمَّة مَن كملتْ فيه درَجات الخشوع واستوفاها ؛ وهي :

١ - وَجَلُ القلب :

إنها الارتعاشة التي تنتاب القلب الخاشع الموصول بالله ، فتغشاه جلالته ،

---

(١) مدارج السالكين ١/١٨٧ .

(٢) حسن بشواهده : رواه الترمذي ، والحاكم عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٤٥ ، والصحيحة رقم ٥٦٤ .

وتتمثَّل عظمة الله ومهابته إلى جانب تقصيره وذنبه . قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وَجِلت قلوبهم** ﴾ [الأنفال : ٢] . وقال تعالى : ﴿ **وبشِّر المخبتين الذين إذا ذكر الله وَجِلت قلوبهم** ﴾ [الحج : ٣٤ - ٣٥] .

٢ - قشعريرة الجلْد :

ثم تسري هذه الشحنة الإيمانية في الجسَد المؤمن ، فيقشعرُّ جلده ؛ قال تعالى : ﴿ **الله نُزَّل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

٣ - البكاء :

ثم تفيض أعينهم بالدمع ؛ قال تعالى : ﴿ **وإذا سمِعُوا ما أُنزِل إلى الرسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ...** ﴾ الآية [المائدة : ٨٣] . وقال عز وجل : ﴿ **ويخِرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٩] .

٤ - لِينُ القلب والجلْد جميعًا :

ويتزوَّد الخاشع ببرد اليقين ، ويُحس بثلج الإيمان ؛ قال تعالى : ﴿ **اللهُ نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلينُ جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدىٰ الله يهدي به مَن يشاء ومَن يضلل الله فما له من هادٍ** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

٥ - السَّكِينة :

وهي الوقار والسكون الذي يُنزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدَّة المخاوف ، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ، ويُوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات . والسكينة إذا نزلت على القلب ؛ سكن بها وخشعت

إليها الجوارح ، واكتسبتِ الوقار ، ولذلك فهي تجمع قوة وروحًا ، يسكن إليه الخائف ، ويتسلَّى به الحزين والضَّجِر ، فإذا باشرتْ قلبه ؛ سكَّنتْ خوفه ، وسلّتْ حزنه ؛ فإنها لا حزن معها ، فهي سلوة المحزون ، ومُذهِبَةُ الهمومِ والغموم ، وكذلك أذهبتْ وَخْمَ ضجرِه ، وبعثت نشوة العزم .

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب .

كيوم الهجرة ؛ إذ هو وصاحبه في الغار ، والعدوُّ فوق رؤوسهم ، لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميْه ، رآهما ؛ قال تعالى : ﴿ **إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيَّده بجنودٍ لم تروها** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وكيوم الحديبية ؛ حين اضطربت قلوبهم من تحكُّم الكفَّار عليهم ، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس . وحسبك بضعْف عمر رضي الله عنه عن حملها - وهو عمر - حتى ثبَّته الله بالصدِّيق رضي الله عنه . قال تعالى : ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا** ﴾ [الفتح : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميَّة حميَّة الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ [الفتح : ٢٦] .

وكيوم حُنَيْن ؛ حين ولَّوا مدبرين من شدَّة بأس الكفار ، لا يلوي أحدٌ منهم على أحد ، قال تعالى : ﴿ **لقد نصركم الله في مواطنَ كثيرة ويوم حُنينٍ إذ أعجبتْكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحُبَتْ ثم ولَّيتم مُدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودًا لم تروها وعذَّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين** ﴾ [التوبة : ٢٥ - ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ **هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا**

إيمانًا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا ﴾
[الفتح : ٤] .

قال ابن عباس : كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة ، إلَّا التي في سورة البقرة .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : رأيتُ النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق ، حتى وارىٰ الترابُ جلدةَ بطْنِه ، وهو يرتجز بكلمة عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه :

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّيْنا
فأنزلنْ سكينةً علينا وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقيْنا
إنَّ الأُلىٰ قدْ بغوْا علينا وإن أرادوا فتنةً أبيْنا[1]

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة : « إني باعثٌ نبيًّا أُمِّيًّا ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ، ولا صخّاب في الأسواق ، ولا متزيِّن بالفحْش ، ولا قوّال للخنا . أُسدِّده لكل جميل ، وأهبُ له كلَّ خلُقٍ كريم ، ثم أجعل السكينة لباسَه ، والبرَّ شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة معقوله ، والصدقَ والوفاء طبيعته ، والعفوَ والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحقَّ شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملَّته ، و « أحمدَ » : اسمَه »[2] .

قال الهروي عن هذه السكينة : « هي التي نزلت على قلبِ النبي ﷺ وقلوب المؤمنين ، وهي شيءٌ يجمع قوَّةً ورُوحًا ، يسكن إليه الخائف ، ويتسلَّى به الحزين والضَّجِر ، ويسكن إليه العَصِيُّ والجريء والأبيُّ »[3] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) مدارج السالكين ٥٠٤/٢ .
(٣) مدارج السالكين ٥٠٧/٢ .

قال ابن القيم شارحًا : « هذا من عيون كلامه وغرره الذي تُثنَىٰ عليه الخناصر ، وتُعقد عليه القلوب ، وتظفر به عن ذوقٍ تامٍّ .

فذكر أن هذا الشيء الذي أنزله الله في قلب رسوله ﷺ وقلوب عباده المؤمنين ، يشتمل على ثلاثة معانٍ : النور ، والقوة ، والروح .

وذكر له ثلاث ثمرات : سكون الخائف إليه ، وتسلّي الحزين والضَّجِر به ، واستكانة صاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليه .

فبالروح الذي فيها : حياة القلب . وبالنور الذي فيها : استنارته وضياؤه وإشراقه . وبالقوة : ثباته وعزمه ونشاطه .

فالنور : يكشف له عن دلائل الإيمان وحقائق اليقين ، ويميز له بين الحقِّ والباطل ، والهدى والضلال ، والغيِّ والرشد ، والشك واليقين .

والحياة : تُوجب كمال يقظته وفِطنته ، وحضوره وانتباهه من سِنَة الغفلة ، وتأهُّبه للقائه .

والقوة : توجب له الصدق ، وصحَّة المعرفة ، وقهْر داعي الغيّ والعنَت ، وضبْط النفس عن جَزَعها وهلعها، واسترسالها في النقائص والعيوب. ولذلك ازداد بالسكينة إيمانًا مع إيمانه .

والإيمان : يُثمر له النور والحياة والقوة . وهذه الثلاثة تثمره أيضًا وتُوجب زيادته ، فهو محفوف بها قبلها وبعدها .

فبالنور : يكشف دلائل الإيمان . وبالحياة : ينتبه من سِنَة الغفلة ، ويصير يقظانًا . وبالقوة : يقهر الهوىٰ والنفس والشيطان » .

وتلكَ مواهبُ الرحمٰن ليستْ — تُحصَّلُ باجتهادٍ أو بكسْبِ
ولكنْ لا غِنىٰ عنْ بذْلِ جهدٍ — بإخلاصٍ وجِدٍّ لا بلعبِ
وفضْلُ اللهِ مبذولٌ ولكنْ — بحكمتِهِ وعن ذا النصِّ يُنْبي

فما من حكمةِ الرحمٰن وضْعُ الْـ كواكبِ بينِ أحجارٍ وتُـرْبِ
فشـكرًا للـذي أعطـاك منـهُ فلو قَبِـلَ المَحَلُّ لَزَاد ربـي

سَكِينة الوقارِ والخُشوع :

أَنْزَلَها الله في قلـوب أهلها ونعتَهمْ بها . وهي ضياء تلك السكينة التي ذكرناها وثمرتُها،وعنها نشأت . ولما كان النور والحياة والقوة مما يُثمر الوقار ، كانـت سكينة الوقار كالضياء لتلك السكينة ؛ إذ هو علامة حصولها ، ودليل عليها كدلالة الضياء على حامله .

قال الهروي عن سكينة الوقار : « وهي على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : سكينة الخشوع عند القيام للخدمة ؛ رعايةً وتعظيمًا وحضورًا » .

قال الإمام ابن قيـم الجـوزية : « يريد به الوقار والخشوع الذي يحصل لصاحب مقام الإحسان .

ولمّا كان الإيمان موجِبًا للخشوع وداعيًا إليه قال الله تعالى : ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكْر الله وما نزل من الحقِّ** ﴾ [الحديد : ١٦] ، دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان ؛ يعني : أمَا آنَ لهم أن يصلُوا إلى الإحسان بالإيمان ؟! وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكْره الذي أنزله إليهم .

وهذه ثلاثة أمور تحقِّق الخشوع في الخدمة ؛ وهيَ :

الأول : رعاية حقوقها الظاهرة والباطنة ؛ فليس يضيِّعها خشوع ولا وقار .

الثاني : تعظيم الخدمة وإجلالها ؛ وذلك تَبَعٌ لتعظيم المعبود وإجلاله ووقاره ؛ فعلى قدْر تعْظيمه في قلب العبد وإجلاله ووقاره ، يكون تعظيمه لخدمته وإجلاله ورعايته لها .

والثالث : الحضور : وهو إحضار القلب فيها ومشاهدة المعبود كأنه يراه .

فهذه الثلاثة تُثمر له « سكينة الوقار » . والله سبحانه أعلم »[(١)] .

٦ - الإخبات :

وقد أفردنا له فصلًا سابقًا .

٧ - الطمأنينة :

« وهي نهاية الإخبات ، ولذلك فهي سكونُ القلب والنفْس مع قوَّة الأمن الصحيح الذي لا يكون أمنَ غرور ؛ لأن الغرور قد ينزل القلب والنفْس ، ولكن هيهات أن تطمئنَّ به النفس أو يطمئنَّ به القلب ؛ لأنه سرعانَ ما يتركه ، ولكن الطمأنينة لا تفارق صاحبها ؛ لأنه في مقام الرجوع إلى الله ، حيث لا يبقى معه شيء من مخاوف الظنون والأوهام ، وكأنه ينظر إليه نظر العيْن ، فيأمن به اضطرابَ قلبه وقلق نفسه ؛ قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكْر الله ألَا بذكر الله تطمئنُّ القلوب** ﴾ [الرعد : ٢٨] . وقال جلَّ شأنه : ﴿ **يا أيَّتها النفسُ المطمئنَّة ارجعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً فادخلي في عبادي وادخلي جنَّتي** ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

وفي هذا دليل أن الطمأنينة طريق الرجوع إلى الله ؛ فإن النفس لا ترجع إلى ربِّها ، إلّا إذا كانت مطمئنة ، فهناك ترجع إليه ، وتدخل في عباده الآمِنِين الذين لا خوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون . وهكذا يتبيّن لك أيُّها العبد الخاشع الراجع إلى ربِّه ؛ أن الخشوع سبعُ درجات طباقًا ، مَنِ ارتقى فيها بسُلَّم الإخلاص ، وتوكَّأ على عصا الاتِّباع - ورَدَ مَعِينَ الفلاح »[(٢)] .

درجات الخشوع عند الهروي :

قال شيخ الإسلام الهروي : « وهو على ثلاث درجات :

---

(١) مدارج السالكين ٢/٥٠٩ - ٥١٠ بتصرف .

(٢) الخشوع لسليم الهلالي ص٦١ - دار ابن الجوزي .

الدرجة الأولى : التذلُّل للأمْر ،والاسْتسْلام للحكْم، والاتِّضاع لنظَرِ الحقِّ»:

قال شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية : « **التذلُّل للأمر** : تلقِّيه بذِلَّةِ القبول ، والانقياد والامتثال ، ومواطأة الظاهر الباطن ؛ معَ إظهارِ الضعْف ، والافتقار إلىٰ الهداية للأمر قبل الفعْل ، والإعانة عليه حالَ الفعْل ، وقبوله بعد الفعْل .

وأمّا الاستسلام للحكم : فيجوز أن يريد به : الحكمِ الديني الشرعي ؛ فيكون معناه : عدم معارضته برأي أو شهوةٍ . ويجوز أن يريد به : الاستسلام للحكم القدري ، وهو عدم تلقِّيه بالتسخُّط والكراهة والاعتراض .

والحق : أن « الخشوع » هو الاستسلام للحكمين ، وهو الانقياد بالمسكنة والذلّ لأمْر الله وقضائه .

وأمَّا الاتضاع لنظَر الحقِّ : فهو اتضاع القلب والجوارح ، وانكسارها لنظر الربِّ إليها ، واطِّلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح .

وهذا أحد التأويلَيْن في قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربِّه جنّتان** ﴾ [الرحمن : ٤٦] ، وقوله : ﴿ **وأمَّا مَن خاف مقامَ ربِّه ونهى النفْسَ عن الهوىٰ** ﴾ [النازعات : ٤٠] . وهو مقام الربِّ على عبيده بالاطلاع والقُدْرة والربوبية .

فخوفه من هذا المقام يُوجب له خشوع القلب لا محالة ، وكلَّما كان أشدَّ استحضارًا له ، كان أشدَّ خشوعًا . وإنما يفارق القلب إذا غفل عن اطِّلاع الله عليه ، ونظره إليه .

والتأويل الثاني : أنه مقام العبد بين يدي ربِّه عند لقائه .

فعلى الأول : يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل .

وعلى الثاني – وهو أليق بالآية –: يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف . والله أعلم »[1].

---

(١) مدارج السالكين ١/٥٢٢ – ٥٢٣ .

« الدرجة الثانية : ترقُّبُ آفات النفْس والعمَل ، ورُؤية فضْلِ كلِّ ذي فضْلٍ عليك » :

قال ابن القيم : « يريد : انتظار ظهور نقائص نفسك وعمَلِك وعيوبهما لك ؛ فإنه يجعل القلب خاشعًا لا محالة لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما ؛ من الكِبْر والعجب ، والرياء وضعْف الصدق ، وقلّة اليقين وتشتُّت النيّة ، وعدم تجرُّد الباعث من الهوىٰ النفْساني ، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي ترضاه لربِّك ، وغير ذلك من عُيوب النفْس ومفسدات الأعمال .

وأما رؤية فضْل كلِّ ذي فضْل عليك : فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤدِّيها ، ولا ترىٰ أنَّ ما فعلوه : من حقوقك عليهم : فلا تعاوضهم عليها ؛ فإن هذا من رُعونات النفْس وحماقاتها. ولا تطالبهم بحقوق نفسك . وتعترف بفضل ذي الفضل منهم ، وتنسىٰ فضل نفسك .

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية – قدّس اللهُ روحه – يقول : العارفُ لا يرى له على أحدٍ حقًّا ، ولا يشهد له على غيره فضلًا ؛ ولذلك لا يعاتِب ، ولا يطالِب ، ولا يضارِب .

والخشوع سببٌ موصِّل إلى الفناء الحقِّ ، الفاضل لا المفضول » .

« الدرجة الثالثة : حفْظُ الحرمة عند المكاشَفة ، وتصفية الوقت من مراءاة الخلْقِ ، وتجريد رؤية الفضْل » :

قال ابن القيم : « **وأما حفْظ الحرْمة عند المكاشفة** : فهو ضبْط النفْس بالذلِّ والانكسار ، عن البسْطِ والإدلال ، الذي تقتضيه المكاشفة ؛ فإن المكاشفة تُوجب بسطًا ، ويخاف منه شطْح ، إن لم يصحبه خشوع يحفظ الحرمة .

وأمَّا تصفية الوقت من مراءاة الخلق : فلا يريد به أنه يصفِّي وقته عن

الرياء ؛ فإن أصحاب هذه الدرجة أجلُّ قدْرًا وأعلىٰ من ذلك .

وإنما المراد : أنه يُخفي أحوالَه عن الخلْق جُهْدَه ؛ كخشوعه وذلِّه وانكساره ؛ لئلّا يراها الناس فيُعْجبهُ اطّلاعُهم عليها ورؤيتهم لها ، فيفسَدُ عليه وقته وقلبه وحاله مع الله ، وكم قد اقتطع في هذه المفازة مِن سالِك ! والمعصوم من عصمه الله . فلا شيء أنفع للصادق من التحقُّق بالمسْكَنَة والفاقة والذل ، وأنه لا شيء ، وأنه ممن لم يصحَّ له بعْدُ الإسلامُ حتى يدعي الشرَفَ فيه .

ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه - من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره ، وكان يقول كثيرًا : ما لي شيء ، ولا مني شيء ، ولا فيَّ شيء . وكان كثيرًا ما يتمثَّل بهذا البيت :

أنا المكَدِّي وابن المكدّي ... وهكذا كان أبي وجدّي

وكان إذا أُثنيَ عليه في وجهه يقول : والله ، إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كلَّ وقت ، وما أسلمتُ بعدُ إسلامًا جيِّدًا .

وبعث إليّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطِّه ، وعلى ظهرها أبياتٌ بخطِّه مِن نظْمه :

أنا الفقيرُ إلى ربِّ السماواتِ ... أنا المُسَيْكينُ في مجموع حالاتي
أنا الظَّلومُ لنفسي وهْي ظالمتي ... والخير إنْ يأتِنا مِن عنده ياتي
لا أستطيعُ لنفسي جلْبَ منفعةٍ ... ولا عنِ النفسِ لي دفْعُ المضرَّاتِ
وليسَ لي دونَه مولى يدبِّرني ... ولا شفيعٌ إذا حاطتْ خطيئاتي
إلّا بإذنٍ مِنَ الرحمٰنِ خالقِنا ... إلى الشفيعِ كما قد جاء في الآياتِ
ولستُ أملِكُ شيئًا دُونه أبدًا ... ولا شريكٌ أنا في بعضِ ذرَّاتِ
ولا ظهيرَ له كي يستعينَ بهِ ... كما يكونُ لأربابِ الولاياتِ
والفقرُ لي وصْفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغِنىٰ أبدًا وصْفٌ له ذاتي

وهذه الحالُ حالُ الخلْقِ أجمعِهِمْ ... وكلّهم عنده عبدٌ له آتي
فمَنْ بغىٰ مَطلبًا من غيرِ خالقِهِ ... فهْوُ الجهولُ الظلومُ المشرِكُ العاتي
والحمدُ للهِ مِلْءَ الكونِ أجمعِهِ ... ما كان منهُ وما منْ بعدُ قد ياتي

وأما تجريد رؤية الفضل : فهو أن لا يرىٰ الفضل والإحسان إلا من الله ، فهو المانُّ به بلا سبب منك ؛ ولا شفيع له تقدم إليه بالشفاعة ، ولا وسيلة سبقت منك توسَّلتَ بها إلى إحسانه .

والتجريد : هو تخليصُ شهود الفضْل لوليِّه ، حتى لا ينسبه إلى غيره ، وإلّا فهو في نفسه مجرَّدٌ عن النسبة إلى سواه . وإنما الشأن في تجريده في الشهود ليطابق الشهود الحق في نفس الأمر . والله أعلم »[(١)] .

تفاوُتُ الخشوع في القلوب ، ولعالي الهِمَّة أعلاه :

«متى تكلَّف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه ، مع فراغ قلْبه من الخشوع وخُلوِّه منه- كان ذلك خشوع نفاق ، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه .

قال أبو الدرداء : استعيذوا بالله من خشوع النفاق . قالوا : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسَدَ خاشعًا والقلب ليسَ بخاشع .

ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعتْ له ، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع ؛ فمِنْ خاشعٍ لقوَّة مطالعته لقرْب الله مِن عبده ، واطِّلاعه على سرِّه وضميره ، المقتضي للاستحياء من الله ومراقبته في الحركات والسَّكَنات . ومِن خاشعٍ لمطالعته لكماله وجماله المُقتضي للاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته . ومِن خاشع لمطالعته شدَّةَ بطشِهِ وانتقامه وعقابه ، المقتضي للخوف منه . وهو سبحانه

---

(١) مدارج السالكين ١/٥٢٤ - ٥٢٥ .

جابر المنكسرةِ قلوبُهم من أجْلِه ، وهو سبحانه وتعالى يتقرَّب ممن يُناجيه في الصلاة ويعفِّر وجهه في التراب بالسجود ، كما يتقرب مِن عباده الداعين له ، السائلين له ، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار ، ويُجيب دعاءهم ، ويعطيهم سؤالهم ، ولا جبرَ لانكسار العبد أعظم من القرْب والإجابة »[1] .

وَصْفُ الحسَنِ البصري للخاشعين :

قال الحسن البصري : « إن المؤمنين لمَّا جاءتهم هذه الدعوة من الله ؛ صدّقوا بها وأفضى يقينُها إلى قلوبهم ، وخشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم . وكنتُ والله إذا رأيتُهم ، رأيتُ قومًا كأنهم رأيَ عيْنٍ ، فوالله ما كانوا بأهل جدَلٍ ولا باطل ، ولا اطمأنوا إلا إلى كتاب الله ، ولا أظهروا ما ليس في قلوبهم ، ولكن جاءهم عن الله أمرٌ فصدّقوا به ، فنعتهم الله تعالى في القرآن أحسنَ نعْتٍ ، فقال : ﴿ **وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٣] . قال : حلماء لا يجهلون ، وإذا جُهل عليهم حَلموا . يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكَر ليلَهم ، خير ليل ؛ فقال : ﴿ **والذين يَبيتون لربِّهم سجّدًا وقيامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٤] ، تجري دموعهم على خدودهم فرَقًا من ربِّهم .

وقال رحمه الله : لأمرٍ ما سهِروا ليلَهم ، لأمرٍ ما خشعوا نهارهم ؛ قال : ﴿ **والذين يقولون ربّنا اصرفْ عنّا عذابَ جهنَّم إنَّ عذابها كان غرامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٥] . قال : وكلّ شيء يُصيب ابن آدم ثم يزول عنه فليس بغرام ، إنما الغرام الملازم له ما دامت السماوات والأرض . قال : صدق القومُ - والله الذي لا إله إلا هو - فعَمِلوا ، وأنتم تتمنّون ؛ فإياكم وهذه الأماني - رحمكم الله - فإن الله لم يُعطِ عبدًا بأمنيته خيرًا قطُّ في الدنيا والآخرة . وكان يقول :

(١) الخشوع في الصلاة ص١٣ - ١٤ .

يا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة »(١) .

علوُّ خشوعِ النجاشيِّ وأصحابِه يقودُهم إلى الإحسان وأعالي الجِنان :

قال الله تعالى : ﴿ **لَتجدنَّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ولَتجدنَّ أقربهم مودَّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارىٰ ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسين ورُهبانًا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترىٰ أعينَهم تفيضُ مِن الدمعِ مما عرفوا من الحقِّ يقولون ربَّنا آمنا فاكتبْنا مع الشاهدين وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقِّ ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القومِ الصالحين فأثابهم اللهُ بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاءُ المحسنين** ﴾ [المائدة : ٨٢ - ٨٥] .

عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه : ﴿ **وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترىٰ أعينهم تفيضُ من الدمع ممَّا عرفوا من الحقِّ يقولون ربَّنا آمنَّا فاكتبْنا مع الشاهدين** ﴾ .

عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أنهم كانوا كرابين - يعني فلّاحين - قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن ، آمنوا وفاضت أعينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لعلّكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم » . فقالوا : لن ننتقل عن ديننا .

﴿ **فاكتبْنا مع الشاهدين** ﴾ . قال ابن عباس : أي معَ محمد ﷺ ، وأمته هم الشاهدون ؛ يشهدون لنبيِّهم أنه قد بلّغ ، وللرُّسل أنهم قد بلّغوا . قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ولم يخرِّجاه .

قال ابن كثير : « وهذا الصنف من النصارىٰ هم المذكورون في قوله : ﴿ **وإنَّ من أهل الكتاب لمَن يُؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين**

(١) الخشوع في الصلاة ص٢٠ - ٢١ .

لله ... ﴾ الآية [آل عمران : ١٩٩] . وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يُؤمنون وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا إنَّا كنا من قبله مسلمين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لا نبتغي الجاهلين** ﴾ [القصص : ٥٢ - ٥٥] . ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ **فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهار** ﴾ ، فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحقِّ ﴿ **جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ ؛ أي ساكنين فيها أبدًا لا يحولون ولا يزولون ؛ ﴿ **وذلك جزاء المحسنين** ﴾ : أي في اتباعهم الحقَّ وانقيادهم له حيث كان ، وأين كان ، ومع مَن كان »(١).

« قال الطبري : عن سعيد بن جُبير : ﴿**ذلك بأنَّ منهم قسِّيسين ورهبانًا**﴾؛ قال : بعَث النجاشي إلى النبي ﷺ خمسين - أو سبعين - من خيارهم ، فجعلوا يبكون ، فقال : هم هؤلاء .

قال سعيد بن جُبير : هم رسل النجاشي ، الذين أرسل بإسلامه وإسلامِ قومه ، كانوا سبعين رجلًا ، اختارهم الخيِّر فالخيِّر ، فدخلوا على رسول الله ﷺ فقرأ عليهم:﴿ **يس والقرآن الحكيم** ﴾ ، فبكوْا وعرفوا الحق ، فأنزل الله فيهم:﴿ **ذلك بأنَّ منهم قسِّيسين ورُهبانًا وأنهم لا يستكبرون** ﴾ . وأنزل فيهم ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يُؤْتون أجرَهم مرتيْن بما صبروا** ﴾ .

فهم لا يعدون من المؤمنين ؛ لتواضُعهم للحقِّ إذا عرفوه ، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبيَّنوه ؛ لأنهم أهل دينٍ واجتهاد فيه ، ونصيحة لأنفسهم في ذات الله .

عن عروة بن الزبير ، في قوله تعالى : ﴿ **ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾ . قال : ذلك في النجاشي .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/١٥٩ .

قال ابن إسحاق : سألتُ الزهريَّ عن الآيات ﴿ **ذلك بأن منهم قسِّيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمِعُوا ما أُنزل إلى الرسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع** ... ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾ ؛ قال : ما زلت أسمع علماءنا يقولون : نزلت في النجاشي وأصحابه .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ **وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقِّ ونطمع أن يُدخلنا ربُّنا مع القوم الصالحين** ﴾ : أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى رسول الله محمد ﷺ من كتابه ، آمَنوا به ، وصدقوا كتابَ الله ، وقالوا : ما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونحن نطمع بإيماننا بذلك أن يُدخلنا ربُّنا مع القومِ الصالحين ... نطمع أن يدخلنا ربُّنا مع أهل طاعته مداخلهم من جنته يوم القيامة ، ويُلحق منازلنا بمنازلهم ، ودرجاتِنا بدرجاتهم في جنَّاته . فجزاهم الله بقولهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، خالدين فيها ، دائمًا فيها مُكْثُهم ، لا يخرجون منها ولا يحولون عنها ، وذلك جزاء المحسنين ، جزاءُ كلِّ محسن في قيله وفعْله . وإحسان المُحسِن في ذلك : أن يوحِّد الله توحيدًا خالصًا محْضًا لا شرْك فيه ، ويقرّ بأنبياء الله ، وما جاءت به من عند الله من الكتب ، ويؤدِّي فرائضه ، ويجتنب معاصيه ، فذلك كمالُ إحسان المحسنين الذين قال الله تعالى : ﴿**جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها**﴾ [آل عمران: ١٥] »(١) .

أورد القرطبي في تفسيره : « وهذه الآية نزلتْ في النجاشي وأصحابه ... لمّا كانت وقعة بدر وقتل اللهُ فيها صناديدَ الكفَّار ، قال كفّار قريش : إن ثأركم بأرض الحبشة ، فأهدوا إلى النجاشي ، وابعثوا له برجليْن من ذوي رأيكم ؛ يُعطيكم مَن عنده ، فتقتلونهم بمَن قُتل منكم ببَدر . فبعث كفار قريش عمرو

(١) تفسير الطبري ٥ / ٤ -٧ .

ابن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بهدايا ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك ، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أميّة الضمري وكتب معه إلى النجاشي ، فقدم على النجاشي ، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين ، وأرسل إلى الرهبان والقسِّيسين فجمعهم ، ثم أمَر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ سورة مريم ، فقاموا تفيض أعينهم من الدمع ؛ فهم الذين أنزل الله فيهم : ﴿ **ولَتجِدنَّ أقربهم مودَّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارىٰ** ﴾ وقرأ إلى ﴿ **الشاهدين** ﴾ » .

كلماتٌ للحياة ، يدبِّجها يراعُ فقيدِ الإسلام سيد قطب ، طيّب اللهُ ثراه ، وأعلىٰ في الجنة مثواه :

قال رحمه الله : « هذا مشهدٌ حيٌّ يرتسم لهذه الفئة من الناس ، إنهم إذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول من هذا القرآن ؛ اهتزَّت مشاعرهم ، ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع ، تعبيرًا عن التأثُّر العميق العنيف بالحقِّ الذي سمعوه ، والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاءً من التعبير إلّا الدمع الغزير ؛ وهي حالة معروفة في النفْس البشرية ، حين يبلغ بها التأثُّر درجة أعلى من أن يفي بها القول ، فيفيض الدمع ، ليؤدِّي ما لا يؤديه القول ، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثُّر العميق العنيف .

ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ، ولا يقفون موقفًا سلبيًّا من الحقّ الذي تأثَّروا به هذا التأثُّر عند سماع القرآن ، والشعور بالحقِّ الذي يحمله ، والإحساس بما له من سلطان .. إنهم لا يقفون موقف المتأثِّر الذي تفيض عيناه بالدمع ، ثم ينتهي أمْره مع هذا الحق ، إنما هم يتقدَّمون ليتخذوا من هذا الحقّ موقفًا إيجابيًّا صريحًا .. موقف القبول لهذا الحق ، والإيمان به ، والإذعان لسلطانه ، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قويَّة عميقة صريحة .

إنهم أولًا يُعلنون لربِّهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه ، ثم يَدْعُونه -

سبحانه - أن يضمَّهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق ، وأن يسلكهم في سلْك الأمة القائمة عليه في الأرض - الأمة المسلمة - التي تشهد لهذا الدين بأنه الحقّ ، وتؤدِّي هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها ، لإقرار هذا الحق في حياة البشر .

ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوِّق عن الإيمان بالله ؛ أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به ، ولا يأملوا - بهذا الإيمان - أن يقبلهم ربهم ويرفع مقامهم عنده ، فيدخلهم مع القوم الصالحين .

فهو موقف صريح قاطِع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله من الحق .. موقف الاستماع والمعرفة .. ثم التأثُّر الغامر ، والإيمان الجاهز ، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة .

لقد علم الله صِدْق قلوبهم وألسنتهم ، وصِدْق عزيمتهم على المُضي في الطريق ، وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه ؛ ولهذا الصفِّ المسلم الذي اختاروه ، واعتبارهم أن أداء هذه الشهادة - بكل تكاليفها في النفس والمال - مِنَّةٌ يمُنُّ الله بها على من يشاء من عباده ، واعتبارهم كذلك أنه لم يعدْ لهم طريق يسلكونه إلا هذا الطريق الذي أعلنوا المضي فيه، ورجاءهم في ربِّهم أَنْ يُدخِلَهم مع القوم الصالحين .. لقد علم الله منهم هذا كله ، فقبل منهم قولهم ، وكتب لهم الجنة جزاءً لهم ، وشهِد لهم سبحانه بأنهم محسنون ، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين ، والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام والله جل جلاله قد شهد لهذا الفريق من الناس أنه من المحسنين »[1] .

* * *

---

(١) الظلال ٢/٩٦٢ - ٩٦٣ .

الفصل الثاني والعشرون

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الأَدَب

« نحنُ إلى قليلٍ مِنَ الأدبِ أَحوجُ مِنَّا إلى كثيرٍ مِنَ العِلْم » .

[ابن المبارك]

« كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث ، تأدَّب وتعبَّد قبل ذلك بعشرين سنة » .

[سفيان الثوري]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الأَدَب □

« اعلم - رحمَكَ الله - أنَّ الأدب إن تطمّعت(١) به نجع ، وإن تعطَّرت به سطع ، وإن تردَّيْت به نفَع » . وأن مَنِ اكتسب أدبًا اكتسب نسبًا ، وأن الأدب سبب لِملْكِ الأرب ، ولقطات الأدب قرضات الذهب ، وأن حُلِيّ الرجال ما يُحسِنونه ، وحُلِيّ النساء ما يلبسونه .

فيا لائمي دعني أُغالي بقيمتي ... فقيمةُ كلِّ الناسِ ما يُحسنونهُ

فذكِّ عقلك بالأدب ، كما تذكّي النار بالحطب . واعلمْ أن الأدب أقرب الطرق إلى الله ، فلله طرائق بعَدَدِ الأنفاس ، وأقرب الطُّرُق إلى الله : طريق الذلِّ والانكسار ، وهما من خصال الأدب .

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم نارًا** ﴾ [التحريم: ٦] .

قال ابن عباس : أدِّبوهم وعلِّموهم .

وهذه اللفظة مُؤْذِنة بالاجتماع ؛ فالأدب : اجتماع خصال الخير في العبد فهو كما قال محمد بن علي القصَّاب . أخلاق كريمة ، ظهرت في زمان كريم ، مع قوم كرام ومنه : المأدُبة ، وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس ، ولا يتكامل الأدب في العبد إلّا بتكامُل مكارم الأخلاق .

قال يوسف بن الحسين : بالأدب يُفهم العلم ، وبالعلم يصحُّ العمل ، وبالعمل تُنال الحكمة ، وبالحكمة يُقام الزهد ، وبالزهد تُترك الدنيا ، وبترك الدنيا يُرغب في الآخرة ، وبالرغبة في الآخرة تُنال الرتبة عند الله .

---

(١) رغبت في الشيء شهوة له .

قال أبو عثمان : إذا صحَّتِ المحبَّة ، تأكَّدت على المحبِّ ملازمة الأدب .

وقال ذو النون : إذا خرج المريد عن استعمال الأدب ، فإنه يرجع من حيث جاء .

واعلم يا أخي أنّ مَن لم يتأدَّب للوقت ، فوقتُه مقْتٌ .

قال الجنيد : مَن أعان نفسَه على هواها ، فقد أشرك في قتْل نفسه ؛ لأن العُبودة ملازمة الأدب ، والطغيان سوء الأدب .

فالْزَم الأدب ظاهرًا وباطنًا ، فما أساء أحدٌ الأدبَ ظاهرًا إلّا عُوقِب ظاهرًا ، وما أساء أحدٌ الأدب باطنًا إلّا عُوقب باطنًا .

ولله درُّ شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك حين يقول : أدَبُ الخدمة أعزُّ من الخدمة . ويقول : طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدِّبون . ويقول : نحن إلى قليل من الأدب أحوجُ منَّا إلى كثير من العلم .

ولِمكانةِ الأدبِ ، تجدُ كتُبَ التراجم مشحونةً به والنصّ عليه :

قال مخلد بن الحسين – وذكَرَ عتبة الغلام وصاحبه يحيىٰ الواسطي –: « كأنما ربَّتهم الأنبياء »[(١)].

وقال أبو عاصم : سمعتُ سفيان الثوري يقول : « كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث ، تأدَّب وتعبَّد قبل ذلك بعشرين سنة »[(٢)].

« قيل : لمّا ورد أبو حفص العراق جاء إليه الجنيد ، فرأى أصحاب أبي حفص وُقوفًا على رأسه يأتمرون لأمره ، لا يُخطئ أحد منهم ، فقال :

---

(١) الحلية ٦/٢٣٥ .

(٢) الحلية ٦/٢٦١ .

يا أبا حفص ، أدّبتَ أصحابك أدب الملوك . فقال : لا يا أبا القاسم ، ولكن حسن الأدب في الظاهر عنوانُ الأدب في الباطن .

قال أنس بن مالك : الأدب في العمل علامةُ قبول العمل .

وقال عبد الله بن المبارك : مَن تهاون بالأدب عُوقب بحرمان السنن ، ومن تهاون بالسنن عُوقب بحرمان الفرائض ، ومَنْ تهاون بالفرائض عُوقب بحرمان المعرفة .

وقال ابن عطاء : النفْس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، والنفس تجري بطباعها في ميدان المخالفة ، والعبد يردُّها بجهْده إلى حسن المطالبة ؛ فمَن أعرض عن الجهد ، فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية ، ومهما أعانها فهو شريكها .

ولله درُّ القائل في وصف عالي الهمة في الأدب :

إذا تَرقَّتْ بهِ عزائمُهُ   إلى الثريا رسا به الأدَبُ

قال شيخ الإسلام الهروي : « الأدب حفظُ الحدِّ بين الغلوِّ والجفاءِ ، بمعرفة ضَرَرِ العدوان » .

قال ابن القيِّم : « هذا من أحسن الحدود ؛ فإن الانحراف إلى أحدِ طرفي الغلوِّ والجفاء هو قلَّة الأدب ، والأدب : الوقوفُ في الوسط بين الطرَفيْن ، فلا يُقصِّر بحدود الشرع عن تمامها ، ولا يتجاوز بها ما جُعلت حدودًا له ؛ فكلاهما عُدوان ، والله لا يحبّ المعتدين ، والعدوان هو سُوء الأدب .

وقال بعض السَّلَف : دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه .

فإضاعة الأدب بالجفاء : كمَن لم يُكمل أعضاء الوضوء ومن لم يوفِّ الصلاةَ آدابها التي سنّها رسول الله ﷺ وفعَلها ، وهي قريب من مائة أدب ؛ ما بين واجب ومستحبّ .

وإضاعته بالغلوِّ : كالوسوسة في عقْد النية ورفْع الصوت بها ، والجهْر بالأذكار والدعوات التي شُرعت سِرًّا ، وتطويل ما السنةُ تخفيفُه وحذفه ؛ كالتشهُّد الأول والسلام الذي حذفُه سنَّة. وزيادة التطويل على ما فعَله رسول الله ﷺ ، لا على ما يظنُّه سُرَّاق الصلاة النقَّارون لها .. ويشتهونه ؛ فإن النبي ﷺ لم يكن ليأمر بأمر ويُخالفه ، وقد صانه الله من ذلك . وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمُّهم بالصافات ، ويأمرهم بالتخفيف وتُقامُ صلاةُ الظهر، فيذهب الذاهب إلى البقيع فيقضي حاجته ويأتي أهله ويتوضَّأ ويُدرك رسولَ الله ﷺ في الركعة الأولى . فهذا هو التخفيف الذي أمَر به لا نقْرَ الصلاة وسرقها ؛ فإن ذلك اختصار ، بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم ، ويُسمَّى به مصليًا ، وهو كأكل المضطر في المخمصة ما يسدُّ به رمَقَه ، فليته شبع على القول الآخر . وهو كجائع قُدِّم إليه طعام لذيذ جدًّا ، فأكل منه لقمةً أو لقمتيْن ، فماذا يُغنيان عنه ؟! ولكن لو أحسَّ بجوعه لَمَا قام من الطعام حتى يشبع منه ، وهو يقدر على ذلك . لكنَّ القلب شبعان من شيء آخر .

ومثال هذا التوسُّط في حقِّ الأنبياء عليهم السلام : ألا يغلو فيهم كما غلت النصارىٰ في المسيح ، ولا يجفو عنهم كما جَفَتِ اليهود ؛ فالنصارىٰ عبدوهم واليهود قتلوهم وكذَّبوهم . والأُمة الوسَط آمنوا بهم وعزَّروهم ونصروهم واتبعوا ما جاءوا به .

ومثال ذلك في حقوق الخلْق : ألّا يفرِّط في القيام بحقوقهم ، ولا يستغرق فيها ؛ بحيث يشتغل بها عن حقوق الله أو عن تكميلها أو عن مصلحة دينه وقلبه ، وألَّا يجفو عنها حتى يعطِّلها بالكلِّيَّة ؛ فإن الطرفيْن من العدوان الضارِّ .

وعلى هذا الحدِّ فحقيقة الأدب هي العدْل . والله أعلم »[١].

---

(١) مدارج السالكين ٤٠٨/٢ - ٤٠٩ . طبعة : دار الحديث .

صاحبُ الأدَبِ العالي مَنِ استكملَ درجاتِ الأدبِ وأنواعه :

اعلم يا أخي أن عالي الهمَّة في الأدب : مَنْ تحقَّقت فيه أنواع الأدب ، وبلغ الكمال فيها ، ومَن ترقَّى في درجات الأدب مِن درجة إلى أخرى .

أنــواع الأدب :

[والأدب ثلاثة أنواع: أ - أدب مع الله سبحانه . ب - وأدب مع رسوله ﷺ . جـ - وأدب مع خلْقِه .

أ - الأدبُ معَ الله :

والأدب مع الله ثلاثة أنواع :

أحدها : صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصة .

الثاني : صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره .

الثالث : صيانة إرادته أن تتعلَّق بما يمقتك عليه .

قال أبو علي الدقَّاق : مَن صاحَب الملوكَ بغير أدب ، أسلمه الجهل إلى القتل .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : إذا ترك العارف أدبه مع معروفه ، فقد هلك مع الهالكين .

وقال أبو علي : ترْك الأدب يُوجب الطرد ، فمن أساء الأدب على البساط رُدّ إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب ردّ إلى سياسة الدوابِّ .

وقال يحيى بن معاذ : من تأدَّب بأدب الله ، صار من أهل محبَّة الله .

وسُئل الحسن البصري رحمه الله عن أنفع الأدب ، فقال : التفقُّه في الدين ، والزهد في الدنيا ، والمعرفة بما لله عليك .

وقال سهل : القوم استعانوا بالله على مراد الله ، وصبروا لله على آداب الله .

وقال أبو علي الدقّاق : العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة ، ويصل بأدبه في طاعته

إلى الله .

وقال رحمه الله : رأيتُ مَن أراد أن يمدَّ يده في الصلاة إلى أنفه ، فقبض على يده .

وقال عبد الله بن المبارك : الأدبُ للعارف كالتوبة للمستأنف .

وقال أبو نصر السرّاج : الناس في الأدب على ثلاث طبقات :

أما أهل الدنيا : فأكبر آدابهم : في الفصاحة والبلاغة ، وحفظ العلوم ، وأسمار الملوك ، وأشعار العرب .

وأما أهل الدين : فأكثر آدابهم : في رياضة النفوس ، وتأديب الجوارح ، وحفظ الحدود ، وترك الشهوات .

وأما أهل الخصوصية : فأكبر آدابهم : في طهارة القلب ، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر ، وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب .

وقال ابن عطاء : الأدب : الوقوف مع المستَحْسنات.فقيل له : وما معناه ؟ فقال : أن تعامِله سبحانه بالأدب سِرًّا وعَلَنًا . ثم أنشد :

إذا نطقتْ جاءتْ بكلِّ ملاحَةٍ   وإنْ سكتَتْ جاءتْ بكلِّ مليحِ

وقال سهل : من قهَر نفْسَه بالأدب ، فهو يعبد الله بالإخلاص .

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر الناس القول في « الأدب » ، ونحن نقول : إنه معرفة النفس ورُعُوناتها ، وتجنُّب تلك الرعونات .

وقال بعضهم : الانبساط بالقوْل مع الحقِّ ترْكٌ للأدب .

وقال أبو عثمان : إذا صحّتِ المحبَّة ، تأكَّدت على المحبِّ ملازمة الأدب .

الأنبياءُ أكملُ الناسِ أدبًا مع الله :

قال ابن القيِّم : وتأمَّلْ أحوالَ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله وخطابهم وسؤالهم كيفَ ؛ تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به .

أَدبُ آدمَ عليه السلام :

قال آدم عليه السلام : ﴿ **ربَّنا ظلمْنَا أنفُسنا وإنْ لم تغفرْ لنا وترحمنا لَنكونَنَّ من الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٢٣]. ولم يقلْ : ربِّ قدرتَ عليَّ ، وقضيْتَ علي .

أدبُ الخليلِ عليه السلام :

قال الخليل عليه السلام : ﴿ **الذي خلَقَني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويَسقين وإذا مرضتُ فهو يشفين** ﴾ [الشعراء : ٧٨ - ٨٠] . ولم يقلْ: «وإذا أمرضني » ؛ حفظًا للأدب مع الله .

أدب أيُّوب عليه السلام :

قال أيُّوب عليه السلام : ﴿ **مسَّني الضُّرُّ وأنتَ أرحم الراحمين** ﴾ [الأنبياء : ٨٣] . ولم يقلْ : « فعافني واشفني » .

أَدبُ يُوسُف عليه السلام :

قال يوسف عليه السلام لأبيه وإخوته : ﴿ **هذا تأويلُ رؤياي مِن قبلُ قد جعَلَها ربّي حقًّا وقد أحسن بِي إذْ أخرجني من السجن** ﴾ [يوسف: ١٠٠]. ولم يقلْ : « أخْرجني من الجُبِّ » ؛ حفظًا للأدب مع إخوته ، وتفتّيًا عليهم ألّا يُخجِلَهم بما جرىٰ في الجُبِّ .

وقال : ﴿ **وجاء بكم من البدو** ﴾ . ولم يقلْ : « رفع عنكم جهْد الجوع والحاجة » ؛ أدبًا معهم . وأضاف ما جرىٰ إلى السبب ولم يُضفه إلى المباشِر ، الذي هو أقرب إليه منهم ؛ فقال : ﴿ **من بعد أن نزَغ الشيطان بيني وبين إخوتي** ﴾ . فأعطى الفُتُوَّةَ والكرَم والأدبَ حقَّه .

ولهذا لم يكن كمال هذا الخُلُق إلّا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

أدبُ الخَضِرِ عليه السلام :

قال الخضر في السفينة : ﴿ **فأردتُ أن أَعيبها** ﴾ [الكهف : ٧٩] . ولم يقلْ : « فأراد ربُّك أن يعيبها » . وقال في الغلاميْن : ﴿ **فأراد ربُّك أن يبلُغا أشدَّهما** ﴾ [الكهف : ٨٢] .

أدب موسىٰ عليه السلام :

قال موسى عليه السلام : ﴿ **ربِّ إني لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقير** ﴾ [القصص : ٢٤] . ولم يقل : « أطعمني » .

أدب عيسىٰ عليه السلام :

قال المسيح عليه السلام : ﴿ **إنْ كنتُ قلْتُه فقد علمتَه** ﴾ [المائدة : ١١٦] . ولم يقل : « لم أقله » ؛ وفرْقٌ بيْن الجوابيْن في حقيقة الأدب . ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسرِّه ؛ فقال : ﴿ **تعلمُ ما في نفسي** ﴾ . ثم برَّأ نفسه عن علْمه بغيْب ربِّه وما يختصُّ به سبحانه ، فقال : ﴿ **ولا أعلم ما في نفسك** ﴾. ثم أثنى على ربِّه ووصفه بتفرُّده بعلم الغيوب كلها ؛ فقال : ﴿ **إنك أنت علَّام الغيوب** ﴾ . ثم نفىٰ أن يكون قال لهم غير ما أمَره ربُّه به – وهو محْض التوحيد – فقال : ﴿ **ما قلتُ لهم إلّا ما أمرتني به أنِ اعبدوا اللهَ ربِّي وربّكم** ﴾ . ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم ، وأنه بعدَ وفاته لا اطلاع له عليهم ، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم ، فقال : ﴿ **وكنتُ عليهم شهيدًا ما دمتُ فيهم فلمَّا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم** ﴾ .

ثم وصفه بأن شهادته سبحانه وتعالى فوق كل شهادة وأعمُّ ، فقال : ﴿ **وأنت على كل شيء شهيد** ﴾ . ثم قال : ﴿ **إنْ تعذِّبْهم فإنهم عبادك** ﴾ . وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام ، أي : شأنُ السيد رحمةُ عبيده

والإحسان إليهم ، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك ، فإذا عذَّبتَهم - مع كونهم عبيدك - فلولا أنهم عبيدُ سوءٍ من أبخس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له ؛ لم تعذبهم ؛ لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته فلماذا يعذِّب أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظمُ المحسنين إحسانًا : عبيدَه ؟! لولا فَرْط عُتُوّهم وإباؤهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب .

وقد تقدَّم قوله : ﴿ **إنك أنت علّام الغيوب** ﴾ أي : هم عبادك وأنت أعلم بسرِّهم وعلانيتهم ؛ فإذا عذَّبتهم عذَّبتَهم على علْمٍ منك بما تعذِّبهم عليه ، فهم عبادك وأنت أعلم بما جَنَوْه واكتسبوه فليس في هذا استعطاف لهم كما يظنُّه الجُهَّال . ولا تفويض إلى محْض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة ، كما تظنُّه القدرية ، وإنما هو إقرار واعتراف ، وثناءٌ عليه سبحانه بحكمته وعدْله ، وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب . ثم قال : ﴿ **وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ولم يقل : « غفور رحيم » . وهذا من أبلغ الأدب مع الله سبحانه وتعالى ؛ فإنه قاله في وقتِ غَضَبِ الربِّ عليهم والأمر بهم إلى النار ، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة ، بل مقام براءة منهم ؛ فلو قال : « فإنك أنت الغفور الرحيم » ؛ لأَشْعَرَ باستعطافه ربَّه على أعدائه الذين قد اشتدَّ غضبه عليهم . فالمقام مقام موافقة للربِّ في غضبه على مَن غضِب الربُّ عليهم ، فعدل عن ذكر الصفتين اللَّتين يسأل بهما عَطْفه ومغفرته ورحمته إلى ذكْر العزَّة والحكمة ، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم .

والمعنى : إن غفرتَ لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ، ليست عن عجْز عن الانتقام منهم ، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم ؛ وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجْزه عن الانتقام منه ، ولجهله بمقدار إساءته إليه ، والكمال هو مغفرة القادر العالم ، وهو العزيز الحكيم . وكان ذكْر هاتين الصفتين في

هذا المقام عيْنَ الأدب في الخطاب](١) .

سيِّد البَشَرِ ﷺ أكمَلُ الأنبياء أدبًا :

قال تعالى في وصف أدبه ﷺ : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ أفق وضيء طليق مرفرف ، عاش فيه قلب رسولنا ﷺ وبصرُه .. لحظات خُصَّ بها القلب المصفَّى ، وأدب من بصر رسول الله ﷺ لم يتجاوز رتبته وكلّه شوْق ، فأعطاه الله ما لم يعط أحدًا غيره .

قال ابن القيم : « إن هذا وصْف لأدبه ﷺ في ذلك المقام ؛ إذْ لم يلتفتْ جانبًا ، ولا تجاوز ما رآه ، وهذا كمال الأدب . والإخلال به أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله ، أو يتطلَّع أمام المنظور ، فالالتفات زيْغ ، والتطلُّع إلى ما أمام المنظور : طغيان ومجاوَزَة ؛ فكمالُ إقبال الناظر على المنظور : أن لا يصرف بصرَه عنه يمنة ولا يسرةً ، ولا يتجاوزه .

وهذا معنى ما حصَّلْته عن شيْخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه .

وفي هذه الآية أسرار عجيبة ، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البَشَر ﷺ ؛ تواطأ هناك بصرُه وبصيرته ، وتوافَقَا وتصادقَا فيما شاهده بصرُه ، فالبصيرة مواطئة له ، وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حقٌّ مشهود بالبصر ، فتواطأ في حقِّه مشهد البصر والبصيرة .

ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ ما كذب الفؤادُ ما رأى أفتمارونه على ما يرىٰ ﴾ [النجم : ١١ - ١٢] أي ما كذب الفؤادُ ما رآه ببصره .

ولهذا قرأها أبو جعفر : « ما كذّب الفؤاد ما رأى » . بتشديد الذال ؛ أي : لم يكذِّب الفؤادُ البصر ، بل صدقَه وواطأه ؛ لصحة الفؤاد والبصر ، أو لاستقامة البصيرة والبصر ، وكوْن المرئي المشاهَد بالبصر والبصيرة حقًّا .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٧٦ - ٣٨١ . بتصرُّف .

وقرأ الجمهور ﴿ ما كذَب الفؤاد ﴾ بالتخفيف ، وهو متعدٍّ وما رأى مفعوله ؛ أي ما كذّب قلبُه ما رأته عيناه ؛ بل واطأه ووافقه ، فلمواطأة قلبه لقالَبه ، وظاهره لباطنه ، وبصره لبصيرته ؛ لم يكذب الفؤادُ البصرَ ، و لم يتجاوز البصر حدَّه فيطغىٰ ، و لم يَمِلْ عن المَرْئي فيزيغ ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئي ، ما جاوزه ولا مال عنه ، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله والإعراض عمّا سواه ؛ فإنه أقبل على الله بِكُلِّيَّتِـهِ .

وللقلب زيْغ وطغيان ، كما للبصر زيْغ وطُغيان ، وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره ، فلم يزِغْ قلبه الْتفاتًا عن الله إلى غيره ، و لم يطغَ بمجاوزته ، وهذا غاية الكمال والأدب مع الله ، الذي لا يلحقه فيه سواه.فإن عادة النفوس إذا أُقيمتْ في مقام عالٍ رفيع : أن تتطلَّع إلى ما هو أعلى منه وفوقه ؛ ألا ترى أن موسىٰ ﷺ لمّا أُقيم في مقام التكليم والمناجاة طلبت نفسه الرؤية ؟! ونبينا ﷺ لمّا أُقيم في ذلك المقام ، وفّاه حقَّه ، فلم يلتفتْ بصرُه ولا قلبُه إلى غير ما أُقيم فيه ألبتة ؟! ولأجل هذا ما عاقَه عائق ، ولا وقف به مراد ، و لم تقفْ به دون كمال العبودية هِمَّة. ولهذا كان مركوبه في مَسراه يسبق خطوه الطرْفَ، فيضع قدمه عند منتهى طرْفه ، مُشـاكِلًا لحال راكبه وبُعْدِ شأوه ، الذي سبق العالم أجمع في سيْره ، فكان قدمُ البُراقِ لا يختلف عن موضع نظَرِه ، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخَّر عن محلِّ معرفته .

فلم يزلْ ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه ، وتكميل مراتب عبوديته له ، حتى خرَق حُجُب السموات ، وجاوز السبْعَ الطباق ، وجاوز سِدْرة المنتهى ، ووصل إلى محلٍّ من القرْب سبَق به الأوَّلين والآخرين ، فانصبّتْ إليه هناك أقسامُ القرْب انصبابًا ، وانقشعت عنه سحائب الحجُبِ - ظاهرًا وباطنًا - حجابًا حجابًا ، وأُقيم مقامًا غبطَهُ به الأنبياءُ والمرسلون . فإذا كان في المعاد ، أقيم مقامًا من القرْب ثانيًا ، يغبطه به الأولون والآخرون . واستقام

هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله ، ما زاغ البصر عنه وما طغى ، فأقامه في هذا العالم على أقوم صراطٍ من الحقّ والهدى ، وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم ، فقال تعالى : ﴿ **يسٓ والقرآن الحكيم إنك لمن المرسَلِين على صراط مستقيم** ﴾ ، فإذا كان يوم المعاد ، أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته ،حتى يجوزوه إلى جنات النعيم ، وذلك فضْل الله يؤتيه مَنْ يشاء والله ذو الفضل العظيم »[1].

وكلّ الآداب تُتَلَقَّى من رسول الله ﷺ ؛ فإنه عليه السلام مَجْمعُ الآداب ظاهرًا وباطنًا .

قال ابن القيم : « الأدب مع الله : حُسْن الصحبة معه ، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء ، كحال مجالس الملوك ومصاحبهم »[2] .

أدب الجريري :

قال الجريري : منذ عشرين سنة ما مددتُ رجلي في الخلوة ؛ فإن حُسْن الأدب مع الله أحسن وأولى .

عائشة المكِّيَّة تعظ أبا عُبيد القاسم بن سلام ، وتُوصيه بالأدب :

قال أبو عُبيد القاسم بن سلام : دخلتُ مكَّة ، فكنتُ ربما أقعد بحذاء الكعبة ، وربما كنتُ أستلقي وأمدُّ رجْلي ، فجاءتني عائشة المكِّيَّة ، فقالت لي : «يا أبا عُبَيد، يُقال : إنك من أهل العلم ؛ اقبلْ مني كلمة: لا تجالسْهُ إلا بأدب، وإلّا فيمحى اسمُك من ديوان القرْب . قال أبو عبيد : وكانت من العارفات »[3].

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٢ - ٣٨٤ .
(٢) مدارج السالكين ٢/٣٧٧ .
(٣) عوارف المعارف ص١٩٨ .

أدب السري السقطي :

« قال سريّ : صلَّيتُ وِرْدي ليلة من الليالي ومددتُ رِجْلي في المحراب ، فنودِيتُ : يا سري ، هكذا تجالس الملوك ؟ فضممتُ رجلي ثم قلتُ : وعِزَّتك ، لا مددتُ رُجلي أبدًا . قال الجنيد : فبقي سِتين سنة ما مدَّ رجلَه ليلًا ولا نهارًا .

وسُئِل السري رحمه الله عن مسألةٍ في الصبْر فجعل يتكلَّم فيها ، فدبَّ على رجله عقْرب ، فجعلتْ تضربه بإبرتها ، فقيل له : ألا تدفعها عن نفسك ؟! قال : أستحي من الله أن أتكلَّم في حالٍ ثم أخالف ما أعلم فيه » .

أدب مؤمني الجِنِّ :

قال مؤمنو الجنِّ : ﴿ **وأنا لا ندري أَشَرٌّ أُريد بمن في الأرض** ﴾ [الجن : ١٠] . ولم يقولوا : « أراده بهم ربهم » . ثم قالوا : ﴿ **أم أراد بهم ربُّهم رَشَدًا** ﴾[(١)] .

ومن الأدب مع الله : أمْرُ النبي ﷺ الرجلَ أن يستُر عورته وإن كان خاليًا لا يراه أحد ؛ أدبًا مع الله ؛ على حسب القرْب منه وتعظيمه وإجلاله ، وشدَّة الحياء منه ومعرفة وقاره .

قال بعضهم : الْزَمِ الأدب ظاهرًا وباطنًا ؛ فما أساء أحدٌ الأدب في الظاهر إلَّا عُوقب ظاهرًا ، وما أساء أحد الأدب باطنًا إلَّا عُوقب باطنًا .

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : مَن تهاون بالأدب ، عُوقب بحرمان السنن ، ومَن تهاون بالسنن عُوقب بحرمان الفرائض ، ومَن تهاون بالفرائض عُوقب بحرمان المعرفة .

وقيل : الأدب في العمل : علامة قبول العمل .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٠ .

قال ابن القيم : « وحقيقة الأدب » : استعمالُ الخلُق الجميل ، ولهذا كان الأدب : استخراج ما في الطبيعة من الكمال ، من القوة إلى الفعل .

ولقد خصّ الله بالفلاح مَن زكّى نفسه فنمّاها وعلّاها ، ورفعها بآدابه التي أدَّب بها رسله وأنبياءه وأولياءه .

« الأدب » هو الدِّين كُلُّه :

قال ابن القيم : « والأدب هو الدين كله ؛ فإنَّ ستْر العوْرة من الأدب ، والوضوء وغسْل الجَنَابة من الأدب ، والتطهُّر من الخَبَث من الأدب ، حتى يقف بين يدي الله طاهرًا ، ولهذا كانوا يستحبُّون أن يتجمّل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه ، وكان لبعض السلف حُلَّة بمبلغٍ عظيم من المال ، وكان يَلبسها وقتَ الصلاة ويقول : ربي أحقُّ مَن تجمَّلتُ له في صلاتي .

ومن الأدب :

« نهْيُ النبي ﷺ المصلي أن يرفع بصَرَه إلى السماء » . فسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه - يقول : هذا من كمال أدب الصلاة ؛ أن يقف العبد بين يدي ربِّه مطرقًا ، خافضًا طرْفه إلى الأرض، ولا يرفع بصرَه إلى فوق .

قال : والجهمية لمّا لم يفقهوا هذا الأدب ولا عرفوه ؛ ظنُّوا أن هذا دليل أنَّ الله ليس فوق سماواته على عرشه ، كما أخبر به عن نفسه واتفقت عليه رُسُله وجميعُ أهل السُّنَّة . قال : وهذا من جهلهم ، بل هذا دليل لمن عقَل عن الرسول ﷺ ، على نقيض قوْلهم ؛ إذ من الأدب مع الملوك : أنَّ الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض ، ولا يرفع بصرَه إليهم ، فما الظنُّ بملك الملوك سبحانه ؟! .

ومن الأدب مع الله :

أن لا يستقبل بيْته ولا يستدْبره عند قضاء الحاجة ؛ كما ثبت عن النبي ﷺ

في حديث أبي أيُّوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم ، رضي الله عنهم . والصحيحُ : أن هذا الأدب يعمّ الفضاء والبُنيان .

ومن الأدب مع الله : في الوقوف بين يديْه في الصلاة :

وضْع اليمنى على اليسرىٰ حالَ قيام القراءة ؛ ففي الموطَّأ عن سهل بن سعد : « أنه من السنة » و « كان الناس يُؤمَرون به » .

ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء ، فعظيمُ العظماء أحقُّ به .

ومنها : السكون في الصلاة ؛ وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ **والذين هُمْ على صلاتهم دائمون** ﴾ [المعارج : ٢٣] . فالدوام هو سكون الأطراف والطمأنينة .

وأدبه في استماع القراءة : أن يُلقي السمْعَ وهو شهيد .

وأدبه في الركوع : أن يستوي ، ويعظِّم الله تعالى ؛ حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه ، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه حتى يكون أقلّ من الهباء .

والمقصود : أن الأدب مع الله تبارك وتعالى : هو القيام بدينه ، والتأدُّب بآدابه ظاهرًا وباطنًا .

ولا يستقيم لأحدٍ قطُّ الأدبُ مع الله ، إلَّا بثلاثة أشياء :

معرفته بأسمائه وصفاته .

ومعرفته بدينه وشرعه ، وما يحبُّ وما يكره .

ونفس مستعدَّة قابلة ليِّنة ، متهيئة لقبول الحقِّ عِلْمًا وعَمَلًا وحالًا والله المستعان »[1].

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٤ .

الأدب معَ الرسـول ﷺ :

«وأمّا الأدب مع الرسول ﷺ : فالقرآن مملوء به . فرأس الأدب معه : كمال التسليم له ، والانقياد لأمره ، وتلقّي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن يحمِّله معارضة خيال باطل يسمِّيه معقولًا ، أو يحمِّله شبهةً أو شكًّا ، أو يقدِّم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم . فيوحِّده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان . كما وحّد المرسِل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذلّ ، والإنابة والتوكُّل ؛ فلا يحاكم إلى غير الرسول ﷺ ، ولا يرضىٰ بحكْم غيره ، ولا يقف تنفيذَ أمره ، وتصديق خبره ؛ على عرْضِه على قوْل شيخه وإمامه ، وذوي مذهبه وطائفته ، ومَنْ يعظّمه ؛ فإن أذنوا له نفَّذَه وقبِل خبرَه ، وإذن فإنْ طلَبَ السلامة أعرَضَ عن أمْره وخبره وفوّضه إليهم ، وإلّا حرَّفه عن مواضعه ، وسمَّى تحريفَه تأويلًا وحمْلًا ، فقال : نؤوِّله ونحمله .

فلأَنْ يلقىٰ العبدُ ربَّه بكلِّ ذنب علي الإطلاق - ما خلا الشرك بالله - خيرٌ له من أن يلقاه بهذه الحال .

فكمال التسليم والانقياد له هو أدبُ الخواصِّ معه ﷺ ، لا مخالفة أمره والشرك به ، ورفع الأصوات ، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم ، وعزل كلامه عن اليقين ، وأن يُستفاد منه معرفة الله، أو يُتلقى منه أحكامه . بل المعوّل في باب معرفة الله : على العقول المنهوكة المتحيِّرة المتناقضة ، وفي الأحكام : على تقليد الرجال وآرائها . والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبرُّكًا ، لا أن نتلقَّى منهما أصول الدين ولا فروعه . ومَن طلَب ذلك ورامه ، عاديناه وسعَيْنا في قطْع دابره ، واستئصال شأْفته ، ﴿ **بل قلوبهم في غمْرةٍ من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذابِ إذا هم يجأرون لا تجأروا اليومَ إنكم منَّا لا تُنصرون قد كانت آياتي تُتلىٰ عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرًا تهجرون أفلم يدبَّروا القولَ**

أم جاءهم ما لم يأتِ آباءهم الأولين أم لم يعرفوا رسولَهم فهم له منكرون أم يقولون به جِنَّة بل جاءهم بالحقِّ وأكثرهم للحقِّ كارهون ولو اتبع الحقُّ أهواءَهم لَفسدت السمواتُ والأرض ومَن فيهنَّ بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكْرهم معرضون أم تسألهم خرْجًا فخراج ربِّك خير وهو خير الرازقين وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لَناكبون ﴾ [المؤمنون : ٦٣ - ٧٤] . والناصح لنفسه ، العامل على نجاتها : يتدبّر هذه الآيات حق تدبُّرها ، ويتأمَّلها حقَّ تأمُّلها ، ويُنزلها على الواقع فيرىٰ العجَب ، ولا يظنُّها اختصَّت بقومٍ كانوا فبانوا ، « فالحديث لك ، واسمعي يا جارة » . والله المستعان .

ومِنَ الأدب مع الرسول ﷺ :

أن لا يتقدَّم بين يديه بأمر ولا نهي ، ولا إذن ولا تصرُّف ، حتى يأمر هو وينهىٰ ويأذن ؛ كما قال تعالى : **﴿يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي اللهِ ورسولِهِ﴾** [الحجرات : ١] وهذا باقٍ إلى يوم القيامة ولم يُنسخ ، فالتقدُّم بين يديْ سنته بعد وفاته : كالتقدُّم بين يديْه في حياته ، ولا فرْق بينهما عند ذي عقل سليم .

ومن الأدب معه : أن لا تُرفع الأصوات فوق صوته ؛ فإنه سببٌ لحُبوط الأعمال ، فما الظنُّ برفْع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به ؟! أترى ذلك مُوجِبًا لقبول الأعمال ، ورفع الصوت فوق صوته مُوجبًا لحبوطها ؟!

ومن الأدب معه : أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره ؛ قال تعالى : **﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا ... ﴾** الآية [النور : ٦٣] . وفيه قولان للمفسِّرين :

أحدهما : أنكم لا تدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضًا ، بل قولوا :

يا رسول الله . يا نبيَّ الله . فعلىٰ هذا : المصدر مضاف إلى المفعول : أي دعاءَكم الرسول .

الثاني : أنَّ المعنى:لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا ؛ إن شاء أجاب وإن شاء ترَك ، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بدٌّ من إجابته ، و لم يسعْكم التخلُّف عنها ألبتة . فعلى هذا : المصدر مضاف إلى الفاعلِ ، أي دعاؤه إيَّاكم .

ومن الأدب معه : أنهم إذا كانوا معه على أمْرٍ جامع – من خطبة ، أو جهاد ، أو رباط – لم يذهب أحدٌ منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه ؛ كما قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذنوه** ﴾ [النور : ٦٢] فإذا كان هذا مذهبًا مقيَّدًا بحاجة عارضة ، لم يوسع لهم فيه إلّا بإذنه ؛ فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين ؛ أصوله وفروعه ، دقيقه وجليله ؟! هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه ؟ ﴿ **فاسْألوا أهلَ الذِّكْر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ [النحل : ٤٣] .

ومن الأدب معه : أن لا يُستشكل قوْلُه ، بل تُستشكل الآراء لقوله ، ولا يُعارض نصُّه بقياس ، بل تُهدر الأقيسة وتُلقىٰ لنصوصه ، ولا يُحرَّف كلامه عن حقيقته لخيال يسمِّيه أصحابه معقولًا ؛ نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ، ولا يُوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحدٍ ، فكلُّ هذا من قلَّة الأدب معه ﷺ ، وهو عيْن الجرأة »[1] .

أدبُ الصِّدِّيق رضي اللهُ عنه :

«يتجلَّىٰ في كلِّ موقف للصِّديق .. وأبرز ذلك: موقفه مع النبي ﷺ، لمّا مرض النبي ﷺ وأمَّ أبو بكر الناسَ في الصلاة ، فلمَّا أحسَّ بقدوم النبي ﷺ ما استطاع أن يتقدَّم بين يديْه أدبًا منه وقال : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٧ - ٣٩٠ .

أن يتقدَّم بين يدي رسول الله ﷺ .

فانظر إلى أدب الصِّدِّيق كيف أورثه مقامه ، والإمامة بعدَه فكان ذلك التأخُّر إلى خلفه – وقد أومأ إليه أنِ اثبتْ في مكانك – جَمْزًا ، وسعْيًا إلى قُدَّام .

فبكلِّ خطوة إلى وراء مراحل إلى قدّام تنقطع فيها أعناق المَطيِّ . والله أعلم »[(١)] .

أدب عمـر رضـي الله عنه :

« ورَد أنَّ عمر رضي الله عنه عمد إلى ميزاب للعباس على ممر الناس فقلَعَه ، فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ هو الذي وضعه في مكانه . فأقسم عمر : لتصعدن علىٰ ظهري ولتضعنَّه موضعه »[(٢)] .

أدَبُ أبي أيُّـوب الأنصـاري :

عن أبي رهم ؛ أنَّ أبا أيوب حدَّثه أن رسول الله ﷺ نزل في بيتنا الأسفل ، وكنتُ في الغرفة ، فأهريق ماءٌ في الغرفة ، فقمتُ أنا وأمُّ أيُّوب بقطيفةٍ لنا نتتبَّعُ الماء ، ونزلتُ فقلتُ : يا رسول الله ، لا ينبغي أن نكون فوقك ، انتقل إلى الغرفة . فأمَرَ بمتاعه فنُقل ومتاعه قليل . قلت : يا رسول الله ، كنتَ ترسل بالطعام فأنظر فإذا رأيتُ أثر أصابعك ، وضعتُ فيه يدي[(٣)] .

أدبُ أمين الأُمَّة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه :

قال الصِّديق : « كنتُ أول من فاءَ يوم أحد ، فرأيتُ رجلًا يقاتل في

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩١ – ٣٩٢ .

(٢) السير ٢/٥٠١ ، وتهذيب ابن عساكر ٢/٣٩٨ .

(٣) إسناده صحيح : رواه أحمد والطبراني والحاكم ، والذهبي في السير ، وأخرجه بنحوه مسلم .

سبيل الله دونه ، وأراه قال : حميَّة . قال : فقلتُ : كنْ طلحة حيث فاتني ما فاتني . فقلتُ : يكون رجلًا من قومي أحبّ إليَّ . وبيني وبين المشركين رجلٌ لا أعرفه ، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطِف المشي خطْفًا لا أخطفه ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وقد كُسِرَتْ رباعيَّته ، وشُجَّ في وجهه ، وقد دخل في وجْنَته حلقتان من حلق المِغْفَر . قال رسول الله ﷺ : « عليكما صاحبَكما » يريد طلحة . وقد نزف ، فلم نلتفت إلى قوله . قال : وذهبتُ لأنزِعَ ذلك من وجهه ، فقال : أُقسم عليك بحقِّي لمَا تركتَني . فتركتُه ، فكره تناولهما بيده ، فيؤذي رسول الله ﷺ ، فأزمَّ عليها بفيهِ ، فاستخرج إحدى الحلقتيْن ، ووقعت ثنْيته مع الحلقة ، وذهبتُ لأصنع ما صنع فقال : أقسمتُ عليك بحقِّي لما تركتَني . قال : ففعل مثلما فعَل في المرة الأولى ، فوقعتْ ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة رضي الله عنه من أحسن الناس هتما »[1] .

فانظر - رحمك الله - كيف بلغ الأدب بأبي عُبيدة ؛ لا ينزع حلقتي المغفر بيده ؛ لئلَّا يؤذي رسول الله ﷺ ، بل يزمُّهما بفمه حتى سقطت ثنيتاه .

أدب طلحة الخير : طلحة بن عبيد الله :

يظهر ذلك جليًّا أثناء انسحاب رسول الله ﷺ من أُحد ؛ قال ابن إسحاق : نهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ليعلوها ، وكان قد بدَّن[2] وظاهَر بين دِرْعَين ، فلما ذهب لِينهض لم يستطع ، فجلس تحته طلحة ابن عبيد الله حتى استوى عليها .

---

(١) السير ١/٨ ، والبداية والنهاية ٥/٣١ .
(٢) ضعُف وأسنّ .

لقد أصاب العَرَجُ إحدىٰ رجْلَي طلحة رضي الله عنه ، أثناء دفاعه عن النبي ﷺ ، ولمّا حمل طلحة النبي ﷺ تكلّف استقامة المشي أدبًا مع رسول الله ﷺ ، لئلّا يشقّ على النبي ﷺ ، فاستوتْ رجلُه العرجاء لهذا التكلُّف ، فشُفي من العَرَج .

أدب صدِّيق الأنصار سعد بن معاذ رضي الله عنه :

لمّا وصل سيد الأوس سعد بن معاذ إلى مقرِّ قيادة النبي ﷺ في بني قريظة ؛ قال له النبي ﷺ : « احكمْ فيهم يا سعد » . فقال : إن رسول الله ﷺ أحقُّ بالحكم . فقال النبي ﷺ : « قد أمَرَكَ الله أن تحكم فيهم » .. غير أن سعدًا - وقد علم حرص قومه الأوْس على التساهُل في الحكم على حلفائهم اليهود - أحبَّ أن يستوثق من الجميع ، ويأخذ عليهم العهد - الأوس وبني قريظة - بأنَّ حكمه إذا صدر يكون غير قابل للنقْض أو النقاش . ووقف سعد ابن معاذ في المعسكر النبوي ، ووجّه حديثه إلى قومه الأوس خاصَّة ، وإلى مَنْ في المعسكر عامَّة قائلًا : عليكم بذلك - عهد الله وميثاقه - أن الحكم كما حكمتُ ؟ قالوا : نعم . ثم اتجه إلى النبي ﷺ وأشار إلى الناحية التي هو فيها ، ثم قال وهو مُعْرِض عن رسول الله ﷺ إجلالًا وإكبارًا : وعلى مَنْ هاهنا ؟ وأشار إلى الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام : « نعم »[١] . ثم أشار إلى بني قريظة المحجوزين جانبًا في المعسكر ؛ ليستوثق منهم قائلًا : أترضون بحكمي ؟ قالوا : نعم . فحكم أن تُقتل المقاتِلة ، وأن تُسبىٰ النساء والذُّرِّيَّة ، وأن تقسَّم أموالهم . ولمَّا نطق سعد بن معاذ بالحكم ، قال له النبي ﷺ : « حكمتَ فيهم بحكم اللهِ مِن فوق سبع سماوات » .

فانظر إلى أدب سعد أثناء الحكم ، وإشارته إلى خيمة رسول الله ﷺ

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٤٠) .

وهو معرض عنها ؛ إجلالًا لرسول الله ﷺ .

أدب خطيب الأنصار ثابت بن قيس رضي الله عنه :

انظر إلى أدب خطيب الأنصار ؛ ثابت بن قيس بن شِماس رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ ، لمّا نزل قوْل الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ...** ﴾ الآية [الحجرات : ٢] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمَه . فأتاه فوجده في بيته منكّسًا رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شرٌّ . كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار . فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ ، فأخبره أنه قال كذا وكذا . قال موسى بن أنس : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارةٍ عظيمةٍ فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لستَ من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة »[1].

وروى الإمام أحمد ، عن أنس رضي الله عنه : لمَّا نزلت هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ...** ﴾ الآية [الحجرات : ٢] . وكان ثابت بن قيس الشماس رفيعَ الصوت ، فقال : أنا الذي كنتُ أرفع صوتي على رسول الله ﷺ ، حبطَ عملي ، أنا من أهل النار . وجلس في أهله حزينًا ، ففقده رسول الله ﷺ ، فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : فقدَك رسول الله ﷺ ؛ ما لَكَ ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول ؛ حبط عملي ، أنا من أهل النار . فأتَوا النبي ﷺ ، فأخبروه بما قال ، فقال : « لا ، هو من أهل الجنة » .

قال أنس : فكنا نراه يمشي بين ظهرانينا ، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ،

---

(١) رواه البخاري .

فلما كان يوم اليمامة ، كان فينا بعضُ الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس بن شماس ، وقد تحنَّط ولبس كَفَنَه ، فقال : بئسما تعوّدون أقرانكم !! فقاتلهم حتى قُتل .

وروى البخاري عن ابن أبي مُليكة قال : كاد الخيِّران أن يهلِكَا ؛ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، رفعَا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجلٍ آخر - قال نافع بن عمر : لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلّا خلافي . قال : ما أردتُ [خلافك] . فارتفعتْ أصواتهما في ذلك، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقوْل كجهْر بعضكم لبعض ...** ﴾ الآية . قال ابن الزبير : « فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ، [حتى يستفهمه] . ولم يَذكرْ ذلك عن أبيه . يعني أبا بكر رضي الله عنه »(١).

ثم روى البخاري عن ابن أبي مُليكة : أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركْبٌ من بني تميم على النبي ﷺ ، فقال أبو بكر : أمِّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمِّر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردتَ إلى - أو إلّا - خلافي . فقال عمر : ما أردتُ خلافك . فتمارَيَا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزلت في ذلك : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ حتى انقضت الآية .

وعن أبي بكر الصديق قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ ، قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلِّمك إلّا كأخي السِّرار(٢).

---

(١) انفرد به البخاري دون مسلم .

(٢) قال ابن كثير : « رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده ، وحُصين بن عمر هذا =

الأدب معَ الخَلْق :

« أمَّا الأدب مع الخلْق : فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم ، فلكلٍّ مرتبة أدب . والمراتب فيها أدَبٌ خاصٌّ :

فمع الوالدين : أدب خاصٌّ ، وللأب منهما أدب هو أخصُّ به .

ومع العالم : أدب آخر .

ومع السلطان : أدب يليق به .

وله مع الأقران : أدب يليق بهم .

ومع الأجانب : أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه .

ومع الضيف : أدب غير أدبه مع أهل بيته .

ولكل حال أدب : فللأكل آداب ، وللشرب آداب ، وللركوب والدخول ، والخروج والسفر ، والإقامة ، والنوم : آداب ، وللبول آداب ، وللكلام آداب ، وللسكوت والاستماع آداب[1] .

وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه ، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره ، فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثْل الأدب ، ولا استُجلب حرْمانُها بمثل قِلَّة الأدب .. فانظر إلى الأدب مع الوالدين : كيف نجَّى صاحبه من حبْس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة !! والإخلال به مع الأم - تأويلًا وإقبالًا على الصلاة - كيف امتحن صاحبَه بهدْم صومعته ، وضرْب الناس له ، ورميه

= وإن كان ضعيفًا . لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمٰن بن عوف ، وأبي هريرة ، بنحو ذلك . والله أعلم » . اهـ . من تفسير ابن كثير ٣٤٦/٧ .

والسِّرار : المساررة ؛ أي كصاحب السرار ، أو : كمَثَل المساررة لخفْض صوته .

(١) لي تحت الطبع مجلّد بعنوان : « حسن الطلب في بيان الأدب » يسَّر اللهُ بمنّه وفضْله إخراجَه قريبًا .

بالفاحشة !! وتأمَّلْ أحوال كلِّ شقيٍّ ومغترٍّ ومُدْبر : كيف تجد قلَّة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان !! »(١) .

عُلوُّ الهِمَّة في الأدب مع الوالدَيْن :

قال تعالى : ﴿ **وقضىٰ ربُّك ألّا تعبدوا إلا إياه وبالوالديْن إحسانًا إمَّا يبلغَنَّ عندك الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تقلْ لهما أُفٍّ ولا تنهرْهما وقلْ لهما قولًا كريمًا واخفض لهما جَناحَ الذلِّ من الرحمة وقل رَبِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيرًا** ﴾ [الإسراء : ٢٣ - ٢٤] .

قال سعيد بن المسيب : « ﴿ **وقل لهما قولًا كريمًا** ﴾ : قول العبد المتذلِّل للسيد الفظِّ . ﴿ **واخفضْ لهما جَناح الذلِّ من الرحمة** ﴾ : تعبير يَشف ويلطُف ، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان ، فهي الرحمة ترقُّ وتلطف ، حتى لَكَأنها الذُّلُّ الذي لا يرفع عينًا ، ولا يرفض أمرًا » .

نبيُّ الله إسماعيل الأنموذج العالي لبرِّ الوالدين :

يقصُّ اللهُ علينا في القرآن الكريم موقف الذبيح مع أبيه خليل الرحمٰن إبراهيم عليهما السلام : ﴿ **فلمّا بلغ معه السعْيَ قال يا بُني إني أرىٰ في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترىٰ قال يا أبت افعلْ ما تُؤمر ستجدني إنْ شاء الله من الصابرين** ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

يا أبت .. يا أبت ، في مودَّة وقُربى ، وشبحُ السِّكِّين لا يُزعجه ولا يُفزعه ، ولا يُفقده رشدَه ، بل لا يفقده أدَبه ومودته !!

وحارثة بن النعمان مَثَلٌ سَامِقٌ للبِرِّ :

عن عائشة أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « دخلتُ

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٠ - ٣٩١ .

الجنة فسمعتُ قراءةً ، فقلتُ : مَنْ هذا ؟ فقيل : حارثة بن النعمان » ، فقال رسول الله ﷺ : « كذلكم البر . كذلكم البر » . وزاد عبد الرزاق في رواية : « وكان أبرَّ الناس بأُمِّه »(١).

«وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبرَّ مَن كان في هذه الأُمّة بأُمِّهما : عثمان بن عفان ، وحارثة بن النعمان رضي الله عنهما ؛ أمَّا عثمان : فإنه قال : ما قدرتُ أتأمَّل وجْهَ أمي منذ أسلمتُ . وأمَّا حارثة : فكان يُطعمها بيده ، ولم يستفْهمها كلامًا قطُّ تأمُر به ، حتى يسأل مَنْ عندها بعد أن يخرج : ماذا قالتْ أمي ؟ »(٢) .

أبو هُرَيْرة لم يحجَّ حتى ماتت أُمُّه ؛ لصُحْبتها :

قال أبو هريرة : « إن أمي كانت مشركة ، وكنتُ أدعوها إلى الإسلام ، وكانت تأبى عليّ ، فدعوتُها يومًا فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيتُ رسول الله ﷺ وأنا أبكي ، فأخبرته ، وسألتُه أن يدعو لها ، فقال : « اللهمَّ اهْدِ أُمَّ أبي هريرة » . فخرجتُ أعدو أبشِّرها ، فأتيتُ فإذا الباب مجاف ، وسمعتُ خضخضة الماء ، وسَمِعَتْ حِسِّي ، فقالت : كما أنت . ثم فتحتْ ، وقد لبستْ دِرْعَها ، وعجلتْ عن خمارها ، فقالت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . قال : فرجعت إلى رسول الله ، أبكي من الفَرَح كما بكيتُ من الحزْن ، فأخبرته وقلت : ادعُ الله أن يحبِّبني وأمِّي إلى عباده المؤمنين . فقال : « اللهمَّ حَبِّبْ عُبيْدَك هذا وأُمَّه إلى عبادك المؤمنين ، وحبِّبْهم

---

(١) إسناده صحيح : رواه أحمد ، والبغوي في شرح السنة ، وعبد الرزاق في المصنف ، والحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ في الإصابة ٦١٨/١ : إسناده صحيح .

(٢) التبصرة ١٨٧/١ - ١٨٨ .

إليهما »[١] .

«ويشتدُّ الألم به من الجوع مرَّة ، فيخرج من بيته إلى المسجد ، لا يخرجه إلّا الجوع ، فيجد نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فيقولون : يا أبا هريرة ، ما أخرجك هذه الساعة ؟ فيقول : ما أخرجني إلّا الجوع . فيقول أبو هريرة : فقمنا ، فدخلنا على رسول الله ﷺ فقال : « ما جاء بكم هذه الساعة ؟ ». فقلنا : يا رسول الله جاء بنا الجوع . قال : فدعا رسول الله ﷺ بطبق فيه تمر ، فأعطى كل رجل منا تمرتيْن ، فقال : « كُلُوا هاتين التمرتين ، واشربوا عليهما من الماء ، فإنهما ستجزيانكم يومكم هذا » . قال أبو هريرة : فأكلتُ تمرةً ، وخبَّأتُ الأخرى ؛ فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة ، لم رفعتَ هذه التمرة ؟ » . فقلتُ : رفعتُها لأُمِّي . فقال : « كلْها ، فإنّا سنعطيك لها تمرتيْن » . فأكلتُها فأعطاني لها تمرتيْن »[٢] .

وعن أبي مُرَّة : « أن أبا هريرة كان يستخلفه مروان ، وكان يكون بـ « ذي الحُلَيْفة » ، فكانت أمُّه في بيت ، وهو في آخر . قال : فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها ، فقال : السلام عليك يا أُمَّتاه ورحمة الله وبركاته . فتقول : وعليك يا بُني ورحمة الله وبركاته . فيقول : رحِمَكِ الله كما ربَّيْتني صغيرًا . فتقول : رحمك الله كما بَرَرْتَني كبيرًا ، ثم إذا أراد أن يدخل ، صنع مثله »[٣] .

«ولازَم أبو هريرة أُمَّه ، ولم يحجَّ حتى ماتت ؛ لصحبتها »[٤] .

---

(١) حسن : أخرجه أحمد ، ومسلم في فضائل الصحابة ، وحسَّنه الذهبي في سير أعلام النبلاء ٥٩٣/٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥٩٢/٢ - ٥٩٣ ، وطبقات ابن سعد .

(٣) الأدب المفرد للبخاري ، وأحمد في مسنده .

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخه ٥١٦/٤٧ - ٥١٧ ، كذا عزاه د . محمد عجاج الخطيب في كتابه : أبو هريرة راوية الإسلام . ص١٢٠ .

أُوَيْس القرني : يشهدُ له النبي ﷺ ببرِّه لِأُمِّه وأدَبِهِ معها :

قال رسول الله ﷺ : « إن خير التابعين رجلٌ يقال له : أُويس ، وله والدة هو بها بَرٌّ ، لو أقسم على الله لأبرَّه ، وكان به بَيَاض ، فمُرُوه فليستغفر لكم »[1] .

وكان عمر رضي الله عنه إذا أتى أمدادُ اليمنِ ، يسألهم : فيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى علىٰ أُوَيس بن عامر . قال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم . قال : كان بك بَرَصٌ فبرأتَ منه ، إلّا موضع درهم ؟ قال : نعم . قال : ألك والدة ؟ قال : نعم . قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قَرَن ، كان به أثَرُ بَرَص فبرأ منه إلّا موضع درهم ، له والدة هو بارٌّ بها ، لو أقسم على الله لأبرَّه ، فإن استطعتَ أن يستغفر لك فافعلْ » فاستغفِرْ لي . فاستغفَرَ له ، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة . قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال : أكون في غبراءِ الناس أحبُّ إليَّ .

لقد منع أويس من القدوم على النبي ﷺ برُّه بأمه . فهل فوق هذا أدب وبِرٌّ ؟! يمنعه البر من شَرف الصُّحْبة مع رسول الله ﷺ .

أبو حنيفةَ النعمانُ مَثَلٌ يُحتذَىٰ في الأَدب مع الأُمِّ :

« كان رحمه الله بارًّا بوالديْه ، وكان يدعو لهما ويستغفر لهما مع شيخه حمَّاد ، وكان يتصدّق كلَّ شهر بعشرين دينارًا عن والديه »[2] .

« قال أبو يوسف : كان أبو حنيفة يحمل والدته على حماره إلى مجلس عمر بن ذرٍّ ؛ كراهةَ أن يردّ قوْلها .

---

(١) رواه مسلم عن عمر .

(٢) أبو حنيفة النعمان للشيخ : وهبي غاوجي الألباني ص١٠٢ .

وقال أبو حنيفة : ربما ذهبتُ بها إلى مجلسه ، وربما أمرتْني أن أذهبَ إليه وأسأله عن مسألة ، فآتيه وأذكرها له ، وأقول له : إنَّ أمي أمَرتْني أن أسألك عنها . فيقول : وأنت تسألني عن هذا ؟ فأقول : هي أمرتْني . فيقول : قل لي : كيف هو - يعني الجواب - حتى أخبرك . فأخبره بالجواب ، ثم يخبرني به ، فآتيها وأخبرها عنه بما قال . ونظير ذلك : أنها استفتتْ عن شيء ، فأفتيتُها فلم تقبله ، وقالت : لا أقبلُ إلا بقول زُرعة القاصّ- أي الواعظ- فجاء بها إليه ، وقال له : إن أمِّي تستفتيك في كذا ، فقال : أنت أعلم وأفقه ، فأفْتِها . قال : أفتيتُها بكذا . فقال زرعة : القوْل ما قال أبو حنيفة . فرضيتْ وانصرفتْ »[1] .

وعن يحيى بن عبد الحميد قال : كان الإمام يخرج كلَّ يوم من السجن فيُضْرَب ليدخلَ القضاء ، فيأبى ، فلمَّا ضُرِب رأسُه وأثَّر ذلك في وجهه بكىٰ ، فقيل له في ذلك ، فقال : إذا رأتْه أُمِّي بكتْ واغتمَّتْ ، وما عليَّ شيء أشدُّ من غمِّ أُمِّي .

« وعن يحيى الحماني ، عن أبيه قال : كان أبو حنيفة يُضرب على أن يليَ القضاء فيأبىٰ ، ولقد سمعتُه يبكي وقال : أبكي غمًّا على والدتي »[2] .

« وكان **حُجْر بن عدي بن الأدبر** يلتمس فراش أمِّه بيده ، **فيتَّهم** غلظ يده ، فينقلب عليه على ظهره ، فإذا أَمِن أن يكون عليه شيء أضْجَعَها .

وكان **ظبيان بن علي** مِن أبرِّ الناس بأمِّه ، فباتتْ ليلة وفي صدرها عليه شيء ، فقام على رجلَيْه قائمًا يكرهُ أن يوقظها ، ويكره أن يقعد .

---

(١) من أخلاق العلماء للشيخ محمد سليمان ص٧٩ .
(٢) مناقب الإمام أبي حنيفة للذهبي ص١٥ ، ١٦ .

ابن عـون :

نادت أمُّ عبد الله بن عون عبدَ الله فأجابها ، فعلا صوته على صوتها فأعتق رقبتَيْن .

« قال بشر الحافي : الولد يقرب من أُمِّه بحيث يُسمِع أُمّه : أفضل مِنَ الذي يضرب بسيفه في سبيل الله ، والنظر إليها أفضل من كل شيء .

وقال محمد بن مُحيْريز : من مشى بين يدي أبيه فقد عقّه ، إلّا أنْ يمشي فيُميط الأذى عن طريقه . ومَن دعا أباه باسمه أو بكُنْيته ، فقد عقَّه ، إلّا أن يقول يا أبت »(١) .

إني لها بَعيرُها المُذَلَّل :

« حدّث أبو بُردة بن أبي موسى الأشعري أن ابنَ عمر شهد رجلًا يمانيًّا يطوف بالبيت ، حمل أُمَّه وراء ظهرِهِ يقول :

إنـي لهـا بعيـرُهـا المـذلَّـلْ   إنْ أُذعِرتْ ركابُها لم أُذْعَرْ

اللهُ ربي ذو الجلالِ الأكبرْ

حملتُـها أكثـرَ مـمَّا حملـتْ   فهل ترىٰ جازيْتُها يا ابنَ عمرْ

ثم قال : يا ابن عمر ، أتراني جزيتُها ؟ قال : لا ، ولا بزفرة واحدة »(٢).

صورة طيبة من الأدب والبرِّ :

عن ابن عمر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « بينما ثلاثة نفر

---

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/١٨٨ .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وابن المبارك في البر والصلة ، والبيهقي في شعب الإيمان . والزَّفْرة : المرة من الزفير ، وهو تردُّد النفَس حتى تختلف الأضلاع ، وهذا يعرض للمرأة عند الحمل .

يتماشَوْن ، أخذهم المطر ، فمالوا إلى غارٍ في الجبل ، فانحطتْ على فم غارهم صخرةٌ من الجبل ، فأطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالًا عملتموها لله صالحة ، فادعوا الله بها لعلّه يفرِّجها . فقال أحدهم : اللهمَّ إنه كان لي والدان شيخان كبيران ، ولي صِبْيَة صغار كنتُ أرعىٰ عليهم ، فإذا رجعتُ عليهم فحلبتُ ، بدأتُ بوالدي أسقيهما قبل ولدي ، وإنه قد نأى بي الشجر[1] ، فما أتيتُ حتى أمسيتُ ، فوجدتُهما قد ناما ، فحلبتُ كما كنت أحلب ، فجئتُ بالحِلاب ، فقمتُ عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما ، وأكره أن أبدأ بالصِبية قبلهما ، والصبية يتضاغَوْن[2] عند قدمي ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ، فافرُجْ لنا فرجة نرى منها السماء . ففرّج اللهُ لهم حتى يروْن السماء ... »[3] الحديث .

وأخـــرى :

« كان الفضل بن يحيىٰ أبرَّ الناس بأبيه ، بلغ مِن برِّه إيّاه أنهما كانا في السجن ، وكان يحيىٰ لا يتوضأ إلا بماءٍ سُخن ، فمنعهما السجَّان من إدخال الحطب في ليلة باردة ، فلما نام يحيى ، قام الفضل إلى قمقمة وملأها ماءً ، ثم أدناه من المصباح ، ولم يزلْ قائمًا - وهو في يده - حتى أصبح »[4] .

كَهْمسُ الدَّعَّاءُ وأدبُه العالي :

« عن أبي عبد الرحمٰن الحنفي قال : رأى كهمس بن الحسن عقربًا في

---

(١) نأى بي الشجر : بَعُد المرعىٰ .
(٢) يتضاغَوْن : يُصوِّتون باكين .
(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن حبان .
(٤) بر الوالدين للطرطوشي ص٧٨ .

البيت ، فأراد أن يقتلها ، أو يأخذها ، فسبقتْه إلى جُحْرها ، فأدخل يده في الجُحْرِ يأخذها ، وجعلَتْ تضربه ، فقيل له : ما أردت إلى هذا ؟ لِمَ أدخلتَ يدك في جحرها تُخرجها ؟ قال : إني أحمد ؛ خفتُ أن تخرج من الجحْر فتجيء إلى أمي فتلدغها . وكان يمينه الذي يحلف به : إني أحمد وأحمد »[١].

وعن الحسن بن نوح قال : « كان كهمس يعمل في الجصّ كل يوم بِدَانِقيْن ، فإذا أمسى اشترى به فاكهة فأتى بها إلى أُمِّه »[٢] .

« وكان كهمس الدَّعَّاءُ يكسح البيت ، ويخدم أُمّه ، فأرسل إليه سليمان ابن علي الهاشمي بصُرَّةٍ ، وقال : اشترِ بها خادمًا لأُمِّك . لأنه كان مشغولًا بخدمتها ، وكان أبرَّ شيء بأمِّه ، وأراده على أن يقبلها فأبى ، فألقاها في البيت ومضى ، فأخذها كهمس ، وخرج يتبعه حتى دفعها إليه »[٣] .

« وكان عمرو بن عُبيد يأتي كهمسًا يسلّم عليه ، ويجلس عنده هو وأصحابه ، فقالت له أمه : إني أرى هذا وأصحابه وأكرههم، وما يعجبوني فلا تجالسْهم.قال : فجاء إليه عمرو وأصحابه فأشرف عليهم ، فقال : إن أمِّي قد كرهتك وأصحابك ، فلا تأتوني »[٤] .

محمد بن سيرين لا يكلِّم أُمّه إلَّا وهو يتضرَّع :

كان محمد بن سيرين لا يكلِّم أمَّه إلا كما يكَلِّمُ الأمير الذي لا يُنتَصَف منه .

وعن بعض آل سيرين قال : ما رأيتُ محمد بن سيرين يكلِّم أمَّه قطُّ إلّا وهو يتضرّع .

وعن ابن عون قال : « دخل رجل على محمد بن سيرين وهو عند أمه ،

---

(١) حلية الأولياء ٦/٢١١ .

(٢) ، (٣) ،(٤) الحلية ٦/٢١٢ .

فقال : ما شأن محمد ، أيشتكي شيئًا ؟ قالوا : لا ، ولكن هكذا يكون إذا كان عند أمه »[١] .

وزيْن العابدين بلغ من أدبه مع أمه أنه لا يأكل معها في صحفة :

«وكان زيْنُ العابدين بن الحسين رضي الله عنهما كثير البرِّ بأمه ، حتى قيل له : إنك من أبرِّ الناس بأُمِّك ، ولسنا نراك تأكل معها في صحفة ؟ فقال : أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقتْ إليه عينها ، فأكون قد عقَقْتُها »[٢] .

وطلقُ بن حبيب لا يمشي فوق ظهر بيْته وأُمُّه تحته :

وكان طلق بن حبيب من العُبَّاد والعلماء ، وكان يُقبِّل رأس أمه ، وكان لا يمشي فوق ظهر بيتٍ وهي تحته ؛ إجلالًا لها[٣] .

ابنُ القاسم لله درُّه :

« حُكي عن ابن القاسم : أنه كان يُقرأ عليه « الموطأ » ؛ إذ قام قيامًا طويلًا ثم جلس ، فقيل له في ذلك ، فقال : نزلتْ أمي فسألتْني حاجة فقامت ، فقمتُ لقيامها ، فلمَّا صعِدت جلستُ »[٤] .

حيْوة بن شريح يترُك الدرس لعَلَف الدجاج :

« وكان حَيْوَةُ بن شُرَيح – وهو أحد أئمة المسلمين – يقعد في حلقته يعلِّم الناس ، فتقول له أمُّه : قم يا حيوة ، فألقِ الشعير للدجاج ، فيقوم ، ويترك التعليم »[٥] .

---

(١) المرأة وحقوقها في الإسلام للشيخ مبشِّر الطرازي ٢٧٣/٢ .
(٢) عيون الأخبار ٩٧/٣ .
(٣ ، ٤) برّ الوالدين للطرطوشي ص٧٨ .
(٥) بر الوالدين للطرطوشي ص٧٩ .

الهُذَيْل وأمُّه حفصة بنت سيرين :

« وعن هشام بن حسان قال : كان الهُذَيْل بن حفصة يجمع الحطب في الصيف ، فيقشُره ، ويأخذ القصب فيفلقُه . قالت حفصة : وكنتُ أجد قرَّة[١]، فكان إذا جاء الشتاء ، جاء بالكانون فيضعه خلفي وأنا في مصلّاي ، ثم يقعد فيُوقد بذلك الحطَب المقشَّر ، وذلك القصب المفلَّق وقودًا لا يؤذي دخانهُ ، ويُدفئني ، نمكث بذلك ما شاء الله . قالت : وعنده من يكفيه لو أراد ذلك . قالت : وربما أردتُ أنصرف إليه ، فأقول : يا بُني ، ارجع إلى أهلك . ثم أذكر ما يريد فأدعه »[٢].

قال هشام : « وكانت له لِقْحة[٣]، قالت حفصة : كان يبعث إليَّ بحَلْبةٍ بالغداة ، فأقول : يا بنيَّ ، إنك لَتعلم أني لا أشربه ، أنا صائمة . فيقول : يا أمَّ الهذيل ، إنَّ أطيب اللبن ما بات في ضروع الإبل ؛ اسقيه مَن شئت »[٤] .

محمد بن المُنْكدر :

« كان يضع خدَّه على الأرض ، ثم يقول لأُمِّه : قومي ضعي قدمك على خدِّي »[٥] .

« قال سعيد بن عامر : قال ابن المنكدر : بات أخي عمر يصلِّي وبتُّ أغمز قدم أمي ، وما أُحبُّ أن ليلتي ....

(١) القِرّة : ما أصابك من القُرِّ ، أي البرد .
(٢) صفة الصفوة ٢٥/٤ .
(٣) أي:ناقة حلوب غزيرة اللبن .
(٤) صفة الصفوة ٢٥/٤ - ٢٦ .
(٥) السير ٣٥٦/٥ .

بليلته »[١] .

منصـور بن المعتمـر :

« حدّثنا الأخنسي : سمعت أبا بكر يقول : كنتُ مع منصور جالسًا في منزله ، فتصيح به أُمّه - وكانت فظَّةً عليه - فتقول : يا منصور، يريدك ابن هُبيرة على القضاء فتأبى !! وهو واضعٌ لحيته على صدره ما يرفع طرْفه إليها »[٢] .

بـنـدار :

« قال عبد الله بن جعفر المروزي : سمعتُ بندار يقول : أردتُ الخروج - يعني الرحلة - فمنعتني أُمي ، فأطعتها فبُورك لي فيه »[٣] .

جمع حديثَ البصْرة و لم يرحل ؛ بِرًّا بأُمِّه،ثم رحل بعدها[٤] .

ومِسْعَر بن كِـدام في أدَبِه إمـامٌ :

« قال محمد بن سعد : كانت لمسعر بن كدام أُمٌّ عابدة ، فكان يحمل لها لِبْدًا ، ويمشي معها حتى يُدخلها المسجد ، فيبسط لها اللبد ، فتقوم فتصلِّي ، ويتقدَّم هو إلى مقدم المسجد فيصلِّي ، ثم يقعد ، ويجتمع إليه مَن يريد فيحدِّثهم ، ثم ينصرف إليها ، فيحمل لِبدَها وينصرف معها »[٥] .

ذرُّ بن عمر بن ذرّ : ما ارتقى سقْفًا كان والدُه تحته :

« ولمّا مات ذرٌّ - وكان من الأولياء - قال أبوه عمر بن ذرّ : اللهم

---

(١) السير ٥/٣٥٩ .
(٢) السير ٥/٤٠٥ .
(٣) ، (٤) السير ١٢/١٤٥ ، تاريخ بغداد ٢/١٠٢ .
(٥) صفة الصفوة ٤/٢٥ - ٢٦ .

إني قد غفرتُ له ما قصَّر فيه من واجب حقِّي ، فاغفر له ما قصَّر فيه من واجب حقِّك . فقيل له : كيف كان عشرتُه معك ؟ قال : ما مشى معي قطُّ في ليل إلّا كان أمامي ، ولا مشى معي في نهار إلّا كان ورائي ، ولا ارتقى قطُّ سقْفًا كنتُ تحته »[(١)] .

عامر بن عبد الله بن الزبير : بعد موت أبيه يمكث عامًا لا يدعو إلا بالمغفرة له :

قال عامر بن عبد الله بن الزبير : « مات أبي ، فما سألتُ الله - حَوْلًا - إلّا العفوَ عنه »[(٢)] .

عُروة بن الزبير وبرُّه :

كان رحمه الله يقول في صلاته وهو ساجد : اللهمَّ اغفرْ للزبير بن العوام ، وأسماء بنت أبي بكر . يعني : والديه رضي الله عنهما[(٣)] .

وأبو يوسف على الطريق :

وكان أبو يوسف القاضي يقول عُقيْبَ صلاته : اللهمَّ اغفرْ لأبويّ ولأبي حنيفة[(٤)] .

الأبَّار :

« قال جعفر الخلدي : كان الأبار من أزهد الناس ؛ استأذن أُمَّه في الرحلة إلى قتيبة فلم تأذن له ، ثم ماتت فخرج إلى خُراسان ، ثم وصل إلى بلخ وقد مات قتيبة ، فكان يُعزُّونه على هذا ، فقال : هذا ثمرة العلم ؛ إني اخترتُ رضا

(١) بر الوالدين للطرطوشي ص٧٦ .
(٢) عيون الأخبار ٩٨/٣ .
(٣) بر الوالدين للطرطوشي ص٧٧ .
(٤) السابق .

الوالدة »[١] .

الحافظ ابن عساكر صاحب « تاريخ دمشق » :

« قال ابن النجار : قرأتُ بخطِّ معمر بن الفاخر في « معجمه » : أخبرني أبو القاسم الحافظ إملاءً بمنى ، وكان من أحفظ مَن رأيتُ ، وكان شيخنا إسماعيل بن محمد الإمام يفضِّله على جميع من لاقيْناهم ، قدم أصبهان ونزل في داري ، وما رأيتُ شابًّا أحفظَ ولا أورع ولا أتقن منه ، وكان فقيهًا أديبًا سنيًّا ؛ سألتُه عن تأخره عن الرحلة إلى أصبهان ؛ قال : استأذنتُ أمي في الرحلة إليها فما أذِنَتْ »[٢] .

أمثلةٌ عَطِرة في عُلُوِّ الهِمَّة في الأدب :

أدب الفاروق عمر رضي الله عنه :

« قال عمر : أبو بكر سيدنا أعتقَ بلالًا سيدنا »[٣] .

« عن يحيى بن سعد قال : ذكر عمر فضل أبي بكر ، فجعل يصف مناقبه ... ثم قال : وهذا سيدنا بلال حَسَنَةٌ من حسناته »[٤] .

« وعن عمر أنه لم يلقَ أسامة قط إلّا قال : السلام عليك أيُّها الأمير ورحمة الله . تُوفي رسول الله ﷺ وأنت عليَّ أمير »[٥] .

« عن ابن أبي الهذيل قال : دعا عمر زيد بن صوحان ، فضَفَنَه على الرَّحْل كما تَضْفِنُون أمراءكم ، ثم التفتَ إلى الناس فقال : اصنعوا هذا بزيد

---

(١) السير ٤٤٣/١٣ ، تذكرة الحفاظ ٦٣٩/٢ .
(٢) السير ٥٦٧/٢٠ ، تذكرة الحفاظ ١٣٣٣/٤ .
(٣) السير ٣٥٩/١ .
(٤) السير ٩٦/٢ ، وابن سعد ٢٠/٤ .
(٥) السير ٥٢٧/٣ ، وطبقات ابن سعد ١٢٤/٦ .

وأصحابِ زيد »[١].

أدب معاذِ بن جبـل :

عن معاذ قال : ما بذقت على يميني منذ أسلمتُ[٢] .

أدب العباس بن عبـد المطَّلب :

عن أبي رزيق قال : قيل للعباس : أنت أكبر أو النبي ؟ قال : هو أكبر وأنا وُلِدْتُ قبلَه[٣] .

أدبُ عليٍّ رضي الله عنه :

عن صُهَيْب مولى العباس ، قال : رأيتُ عليًّا يقبِّل يد العباس ورِجْله ويقول : يا عمّ ، ارضَ عني .

قال الذهبي في « السير » (٢/٩٤) : « إسناده حسن » .

أدبُ ابنِ عبَّاس :

« عن أبي سَلَمَة أن ابن عباس قام إلى زيد بن ثابت فأخذ له بركابه ، فقال تنحَّ يا ابن عمِّ رسول الله ﷺ . فقال : هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا »[٤] .

أدب عِمـران بن حُصَيْن رضـي الله عنه :

« عن عمران بن حُصين قال : ما مسستُ ذكري بيميني منذ بايعتُ رسول الله ﷺ »[٥].

---

(١) السير ١/٤٥٥ .

(٢) السير ٢/٨٠ ، ومجمع الزوائد ٩/٢٧٠ .

(٣) السير ٢/٩٧ .

(٤) السير ٢/٤٣٧ ؛ إسناده حسن : أخرجه ابن سعد ٢/٣٦٠ وصحّحه الحاكم وأقرّه الذهبي .

(٥) السير ٢/٥٠٩ ؛ رجاله ثقات ، وصحّحه الحاكم وأقرّه الذهبي .

أدب عَدِيّ بن حاتِمٍ رضي الله عنه :

عن مغيرة قال : خرج عدي وجرير البجلي وحنظلة الكاتب من الكوفة ، فنزلوا « قَرْقيسياء » وقالوا : لا نقيم ببلدٍ يُشتمُ فيها عثمان[١].

أدب ابنِ عُمَر رضي الله عنه :

عن مجاهد قال : ربَّما أخذَ ابن عمر لي بالرِّكَاب[٢].

أدب زرّ بن حبيش :

عن عاصم ، قال : كان أبو وائل عثمانيًّا ، وكان زرُّ بن حبيش عَلَوِيًّا ، وما رأيتُ واحدًا منهما قطُّ تكلَّم في صاحبه حتى ماتا ، وكان زرّ أكبر من أبي وائل ، فكانا إذا جلسا جميعًا لم يحدِّث أبو وائل مع زرٍّ . يعني يتأدّب معه لسِنِّه[٣] .

أدب أبي العالية :

عن أبي العالية قال : ما مسست ذَكَري بيميني منذ ستين أو سبعين سنة[٤] .

أدب سعيد بن المسيِّب :

قال سعيد : لا تقولوا : مُصيْحف . ولا مُسيْجد ؛ ما كان لله فهو عظيم ، حسن جميل[٥].

---

(١) السير ١٦٥/٣ ، تاريخ بغداد ١٩١/١ .
(٢) السير ٤٥٢/٤ .
(٣) السير ١٦٨/٤ .
(٤) السير ٢١٠/٤ ، الحلية ٢١٩/٢ .
(٥) السير ٢٣٨/٤ ، طبقات ابن سعد ١٣٧/٥ .

علي بن الحُسَيْن :

قيل : كان عليُّ بن الحُسيْن إذا سار في المدينة على بغلته ، لم يقلْ لأحدٍ : الطريق . ويقول : هو مشترك ؛ ليس لي أن أُنحي عنه أحدًا[١].

أدبُ الحَسَن البصري :

قال سفيان بن عُيينة : إن الحسن البصري لمّا مات مسلم بن يسار ، قال : وامعلِّماه[٢] .

أدب عطاء بن أبي ربَاح :

عن ابن جُريج ، عن عطاء قال : إن الرجل لَيحدِّثني بالحديث فأُنصِت له كأني لم أسمعْه ، وقد سمعتُه قبل أن يُولد[٣].

أدب عمر بن عبد العزيز :

عن أيُّوب قال : قيل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، لو أتيتَ المدينة ، فإنْ قضى الله موتًا، دُفِنتَ في موضع القبر الرابع مع رسول الله ﷺ. قال: والله لَأَنْ يعذِّبني الله بغير النار، أحبُّ إلي من أن يعلم من قلبي أني أراني لذلك أهلًا[٤].

أدب أبي وائل :

قال عاصم بن أبي النجود : ما قدمتُ على أبي وائل من سَفَر إلا قبَّل كَفِّي[٥] .

---

(١) السير ٣٩٨/٤ .
(٢) السير ٥١٣/٤ ، وتاريخ ابن عساكر ٢٤٩/١٦أ .
(٣) السير ٨٦/٥ .
(٤) السير ١٤١/٥ ، وطبقات ابن سعد ٤٠٤/٥ .
(٥) السير ٢٥٧/٥ .

قتـادة :

قال قتادة : لقد كان يستحبُّ ألّا تقرأ الأحاديث التي عن رسول الله ﷺ إلّا على طهارة[١] .

الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة :

« قال أبو مصعب : كان مالك لا يُحدِّثُ إلّا وهو على طهارة ، إجلالًا للحديث »[٢] .

كان مالك بن أنس إمام دار الهجرة لا يركب دابَّة بالمدينة ، ويقول : أوقر أرضًا دُفِنَ فيها رسول الله ﷺ .

« قال أبو مصعب : كانوا يزدحمون على باب مالك حتى يقتتلوا من الزحام ، وكنا إذا كنا عنده لا يلتفت ذا إلى ذا قائلون برؤوسهم هكذا ، وكانت السلاطين تهابه ، وكان يقول : لا . ونعم . ولا يُقال له : مِن أين قلتَ ذا ؟ » .

« وقال ابن وهب : ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلَّمنا من علمه »[٣] .

قال ابن القاسم : قيل لمالك : لِمَ لمْ تأخذ عن عمرو بن دينار ؟ قال : أتيتُه ، فوجدتُه يأخذون عنه قيامًا ، فأجْللتُ حديث رسول الله ﷺ أن آخذه قائمًا[٤] .

الإمـام المبـارك : عبد الله بن المبـارك :

قال يحيى بن يحيى اللَّيْثي : كنا عند مالك فاستُؤذن لعبد الله بن المبارك

---

(١) السير ٥/٢٧٤ .
(٢) ، (٣) انظر ترجمة مالك في السير ٨/٤٨ - ١٣٥ .
(٤) السير ٨/٦٧ .

بالدخول فأُذن له ، فرأينا مالكًا تزحزح له في مجلسه ، ثم أقعده بلصقه ، وما رأيتُ مالكًا تزحزح لأحد في مجلسه غيره ، فكان القارئ يقرأ على مالك ، فربما مرّ بشيء فيسأله مالك : ما مذهبكم في هذا ؟ أو : ما عندكم في هذا ؟ فرأيتُ ابن المبارك يجاوبه ، ثم قام فخرج فأُعجِب مالك بأدبه ، ثم قال لنا مالك : هذا ابن المبارك فقيهُ خراسان .

وسُئل ابن المبارك بحضور سفيان بن عيينة فقال : إنَّا نُهينا أن نتكلَّم عند أكابرنا[1] .

قال حبيب الجلّاب : سألتُ ابن المبارك : ما خيرُ ما أعطي الإنسانُ ؟ قال : غريزةُ عقل . قلتُ : فإن لم يكن ؟ قال : حُسْن أدب . قلتُ : فإن لم يكن ؟ قال : أخٌ شفيق يستشيره . قلتُ : فإن لم يكن ؟ قال : صمتٌ طويل . قلتُ : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل[2] .

« قال إسماعيل الخطبي : بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حمَّاد بن زيد ، فقال أصحاب الحديث لحمَّاد : سلْ أبا عبد الرحمن أنْ يحدثنا . فقال : يا أبا عبد الرحمن ، تحدِّثهم ؟ فإنهم قد سألوني . قال : سبحان الله يا أبا إسماعيل !! أحدِّث وأنت حاضر ؟! قال : أقسمتُ عليك لَتفعلنَّ . فقال : خذوا ؛ حدَّثنا أبو إسماعيل حمَّاد بن زيد ... فما حدّث بحرف إلا عن حمَّاد »[3] .

سفيان بن عُيَيْنة شيخُ الحِجَاز :

قال إبراهيم بن الأشعث : رأيتُ سفيان ابن عُيينة يقبِّل يَدا الفضيل مرَّتيْن[4] .

---

(١) السير ٨/٤٢٠ .
(٢) السير ٨/٣٩٧ .
(٣) السير ٨/٣٨٢ ، وتاريخ بغداد ١٠/١٥٥ .
(٤) السير ٨/٤٣٨ .

وقال موسى بن داود : كنتُ عند ابن عيينة ، فجاء حسين الجعفي ، فقام سفيان وقبّل يده[1] .

أدب الأوزاعي :

قال عطاء الخفاف : كنتُ عند الأوزاعي ، فأراد أن يكتب إلى أبي إسحاق الفزاري ، فقال لكاتبه : ابدأ به ؛ فإنه والله خير مني[2] .

قال العباس بن الوليد : فما رأيتُ أبي يتعجَّب من شيء في الدنيا تعجُّبه من الأوزاعي ، فكان يقول : سبحانك تفعل ما تشاء !! كان الأوزاعي يتيمًا فقيرًا في حِجْر أُمِّه ، تنقله من بلد إلى بلد وقد جرىٰ حُكْمُك فيه أن بلَّغتَه حيث رأيتُه . يا بني ، عجزتِ الملوك أن تؤدِّب أنفسَها وأولادها أدبَ الأوزاعي في نفسه ، ما سمعتُ منه كلمةً قطُّ فاضلة إلّا احتاج مستمعُها إلى إثباتها عنه ، ولا رأيتُه ضاحكًا قطُّ حتى يُقهقه ، ولقد كان إذا أخذَ في ذكْر المعاد أقول في نفسي : أترى في المجلس قلبٌ لم يبكِ[3] .

أدبُ سفيان الثوري مع الأوزاعي وابن أدهم :

قال عثمان بن عاصم : « رأيتُ سفيان الثوري بمكة آخِذًا بزمام ناقة الأوزاعي وهو يقول : كُفّوا عنا يا معشر الشباب حتى نُسَلّل الشيخ »[4] .

وقال عثمان بن عاصم أيضًا : « رأيتُ شيخًا بين الصفا والمروة على ناقة

---

(١) السير ٩/٣٩٧ - ٤٠١ .
(٢) انظر السير ٨/٥٤٢ .
(٣) انظر السير ٧/١٠٧ - ١٣٤ .
(٤) الجرح والتعديل ١/٢٠٧ ، ونسلل : أي نخرجه من الزحام .

وشيخًا يقوده ، واجتمع أصحاب الحديث عليه ، فجعل الشيخ الذي يقود الشيخ يقول : يا معشر الشباب ، كفُّوا حتى نسلَّ الشيخ : فقلتُ : من هذا الراكب ؟ قالوا : هذا الأوزاعي . قلتُ : فمن هذا الذي يقوده ؟ قالوا : سفيان الثوري .

وقال رجل من ولد الأحنف بن قيس : بلغني أن سفيان الثوري بلغه مقدم الأوزاعي ، فخرج حتى لقيه بـ « ذي طوىٰ » . قال : فحلَّ سفيان رأس البعير ووضعه على رقبته ، فكان إذا مرَّ بجماعة قال : الطريق للشيخ .

وقال سلمة بن كلثوم : جاء سفيان الثوري فدخل على الأوزاعي ، فجلسا من الأولىٰ إلى العصر ، قد أطرق كل واحد منهما ؛ توقيرًا لصاحبه[1] .

وقال يحيى بن يمان : كان سفيان إذا قعد مع إبراهيم تحرَّز من الكلام[2] .

أدب إبراهيم بن أدهم وعطْفه على الأصاغر :

كان إبراهيم بن أدهم في الحصاد ، وكان يُطعم الأصحاب ، وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام ، وكان رحمه الله ربَّما يتأخَّر في بعض الأيام في العمل ؛ فقالوا ليلة : تعالَوا نأكل فطورَنا دُونه ، حتى يعود بعد هذا يُسرع ، فأفْطروا وناموا ، فرجع إبراهيم فوجدهم نيامًا ، فقال : مساكين ؛ لعلهم لم يكن لهم طعام . فعمد إلى شيء من الدقيق فعجنه ، فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعًا محاسنه على التراب ، فقالوا له في ذلك ، فقال : قلتُ : لعلَّكم لم تجدوا فطورًا فنمتم . فقالوا : انظروا بأي شيء عاملناه ، وبأي شَيْءٍ يعاملنا .

---

(١) الجرح والتعديل ١/٢٠٨ .

(٢) السير ٧/٣٩٣ .

أدب الشـافعي :

عُوتب رحمه الله على تواضعه للعلماء ، فقال :

أهين لهمْ نفسـي فهـمْ يُكـرمونها ولنْ تُكرَمَ النَّفْسُ التي لا تُهينها[١]

وقال الشافعي رحمه الله : كنتُ أقلب الصفحة بين يدي مالك صفحًا رقيقًا ؛ هيبة له ؛ لئلَّا يسمع ورقها[٢] .

قال ابن جماعة الكناني : « ليعلم طالبُ العلم أنَّ ذلَّه لشيخه عزٌّ ، وأن خضوعه له فخرٌ ، وتواضعه له رِفعة ، وعلى طالب العلم أن ينظر شيخه بعين الإجلال ؛ فإنَّ ذلك أقرب إلى نفْعِه به ، وكان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه تصدَّق بشيء ، وقال : اللهمَّ استر عيْب شيخي عني ، ولا تُذهب بركة علْمه مني »[٣] .

وكيـع بـن الجـرَّاح :

قال سَلْمُ بن جُنادة : جالَستُ وكيعًا سبع سنين ، فما رأيتُه بزق ، ولا مسَّ حصاةً ، ولا جلس مجلسًا فتحرَّك ، وما رأيتُه إلا مستقبلَ القبلة ، وما رأيتُه يحلف بالله[٤] .

يحيٰى بن يحيٰى بن كثير ؛ الإمام المالكي الكبير :

قال الذهبي : بلغَنَا أنَّ يحيٰى بن يحيٰى اللَّيْثي كان عند مالك بن أنس رحمه الله ، فمر على باب مالكٍ الفيلُ ، فخرج كلُّ مَن كان في مجلسه لرؤية الفيل ،

---

(١) فضل العلم لمحمد سعيد رسلان ص١٢٩ - ١٣٠ .
(٢) المجموع ٣٦/١ .
(٣) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة الكناني ص٨٧ .
(٤) انظر سير أعلام النبلاء ١٤٠/٩ - ١٦٨ .

سوى يحيى بن يحيى فلم يقمْ ، فأُعجب به مالك وسأله : مَن أنت ؟ وأين بلدك ؟ ثم لم يزلْ بعدُ مكرِمًا له .

وعن يحيىٰ بن يحيى قال : أخذتُ بركاب الليث ، فأراد غلامه أن يمنعني ، فقال الليث : دعْه . ثم قال لي : خدَمَكَ العلْمُ . قال : فلم تزلْ بي الأيام حتى رأيتُ ذلك[1] .

أدَبُ الربيع بن سليمان المرادي مع شيْخه الشافعي :

قال الربيع بن سليمان : والله ما اجترأتُ أن أشرب الماء ، والشافعي ينظر ؛ هيبةً له[2] .

أدب إمام أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل :

لله درُّ من قال في إمام أهل السنة :

يَزينك إمَّا غابَ عنكَ فإنْ دنا ... رأيتَ له وجْهًا يسرُّك مُقبِلَا
يُعَلِّمُ هذا الخلْقَ ما شذَّ عنهُمُ ... من الأدبِ المجهولِ كَهْفًا ومَعْقِلَا
وإخوانُه الأدنَوْنَ كُلُّ مُوَفَّقٍ ... بصيرٍ بأمْرِ الله يسمو على العلا[3]

أمّا أدبه مع شيوخه : فقد كان فوق الوصف ، وكان ابن حنبل آية في الأدب .

« قال أحمد بن سعيد الرباطي : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول : أخذنا هذا العلمَ بالذُّلِّ ، فلا ندفعه إلا بالذُّلِّ[4] .

قال أحمد بن حنبل : لزمتُ هشيمًا أربع سنين - أو خمسًا - ما سألته

---

(١) السير ٥٢١/١٠ .
(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢٢٦/١ .
(٣) السير ٢٠١/١١ .
(٤) السير ٢٣١/١١ .

عن شيء إلَّا مرتين ؛ هيبةً له[١] .

« وقال عمرو الناقد : كنا عند وكيع ، وجاء أحمد بن حنبل فقعد ، وجعل يصف من تواضعه بين يديه ، قال عمرو : فقلت : يا أبا عبد الله ، إن الشيخ يُكرمك فما لك لا تتكلّم ؟ قال : وإن كان يكرمني ، فينبغي لي أن أجلَّه .

وقال قتيبة بن سعيد : قدمتُ بغداد وما كانت لي همّة إلا أن ألقىٰ أحمد ابن حنبل ، فإذا هو قد جاءني مع يحيىٰ بن معين فتذاكرنا ، فقام أحمد بن حنبل وجلس بين يديّ ، وقال : أَمْلِ عليَّ هذا . ثم تذاكرنا ، فقام أيضًا وجلس بين يديّ ، فقلتُ : يا أبا عبد الله ، اجلسْ مكانك . فقال : لا تشتغلْ بي ، إنما أريد أن آخذ العلم على وجهه .

وقال إسحاق الشهيد : كنتُ أرى يحيىٰ القطّان يصلّي العصر ، ثم يستند إلى أصل منارة مسجد ، فيقف بين يديْه : عليُّ بن المديني ، والشاذكوني ، وعمرو بن علي ، وأحمد بن حنبل ، ويحيىٰ بن معين ، وغيرهم ، يستمعون الحديث ، وهم قيام على أرجلهم ، إلى أن تحين صلاة المغرب ، لا يقول لأحد منهم : اجلسْ ؛ ولا يجلسون هيبةً وإعظامًا .

وقال خلف : جاءني أحمد بن حنبل يسمع حديث أبي عُوانة ، فاجتهدتُ أن أرفعه فأبى وقال : لا أجلس إلَّا بين يديك ، أُمِرْنا أن نتواضع لمن نتعلَّم منه[٢] .

قال الحسن بن إسماعيل : سمعتُ أبي يقول : كان يجتمع في مجلس أحمد زهاءَ خمسةِ آلافٍ أو يزيدون ، أقل من خمسمائة يكتبون ، والباقون يتعلَّمون

---

(١) السير ٨/٢٩٠ .

(٢) مناقب الإمام أحمد ٨٢ - ٨٣ .

منه حُسْن الأدب وحسن السَّمْت[١].

وقال إبراهيم الحربي : كان أحمد بن حنبل كأنه رجل قد وُفِّق للأدب ، وسُدِّد بالحلْم ، ومُلِئ بالعلم ، أتاه رجل يومًا فقال له : عندك كتاب زندقة ؟ فسكت ساعةً ثم قال له : إنما يُحرز المرء قبره[٢].

قال الميموني : قال لي أحمد : يا أبا الحسن ، إياك أن تتكلّم في مسألة ليس لك فيها إمام[٣] .

وقال أبو بكر بن المُطَّوِّعي : اختلفتُ إلى أبي عبد الله ثنتي عشرة سنة ، وهو يقرأ « المسند » على أولاده ، فما كتبتُ عنه حديثًا واحدًا ، إنما كنتُ أنظر إلى هدْيه وأخلاقه[٤].

وعن ابن المنادي ، عن جده أبي جعفر قال : كان أحمد من أحيا الناس وأكرمهم ، وأحسنهم عشرةً وأدبًا ، كثيرَ الإطراق ، لا يُسمَع منه إلا المذاكرة للحديث وذِكْر الصالحين في وقارٍ وسكون ولفظ حسن ، وإذا لقيه إنسان بشَّ به وأقبل عليه ، وكان يتواضع للشيوخ شديدًا ، وكانوا يعظِّمونه ، وكان يفعل بيحيى بن معين ما لم أره يعمل بغيره ، من التواضع والتكريم والتبجيل . كان يحيى أكبر منه بسبْعِ سنين[٥].

وقال حنبل : رأيتُ أبا عبد الله إذا أراد القيام ، قال لجلسائه : إذا شئتم .

« ومن آدابه : قال عبد الله بن أحمد : رأيتُ أبي يأخذ شعرةً من شعر

(١) مناقب الإمام أحمد ص٢٧١ .

(٢) مناقب الإمام أحمد ص ٢٨٧ .

(٣) السير ١١/٢٩٦ .

(٤) السير ١١ / ٣١٦ .

(٥) السير ١١/٣١٧ - ٣١٨ .

النبي ﷺ ، فيضعها على فيه ويقبّلها ، وأحسب أني رأيتُه يضعها على عينه ، ويغمسها في الماء ويشربه ، يستشفي به .

ورأيتُه أخذ قصعة النبي ﷺ ، فغسَلَها في حُبِّ الماء ثم شرب فيها .

قال الذهبي : قلتُ : أين المتنطِّع المنكر على أحمد ... أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع »[1] .

وقال الميموني : قال لي القاضي محمد بن محمد بن إدريس الشافعي : قال لي أحمد : أبوك أحد السِّتة الذين أدعو لهم سحَرًا[2] .

وقال أحمد رحمه الله : « ما مسَّ أحدٌ بيده محبرة إلّا وللشافعي في عنقه مِنَّة » .

وقال رحمه الله : كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن ، فانظر : هل عن هذيْن من عِوَض ؟ .

قال ابن حنبل : « ما صلَّيتُ صلاةً منذ أربعين سنة ، إلّا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله .

قال المروزي : رأيتُ أبا عبد الله إذا كان في البيت ؛ عامّة جلوسه متربِّعًا خاشِعًا ، فإذا كان بَرًّا ، لم يتبيَّن منه شدَّة خشوع .

قال أبو زُرعة : كنتُ عند أحمد بن حنبل ، فذكر إبراهيم بن طهمان - وكان متَّكئًا من عِلَّة - فجلس وقال : لا ينبغي أن يُذكَر الصالحون فيُتَّكأ »[3] .

---

(١) السير ٢١٢/١١ .
(٢) السير ٢٢٧/١١ .
(٣) السير ٣٨١/٧ .

أدب يحيىٰ بن سعيد القطّان :

انظرْ إلى أدبه مع إخوانه وأقرانه :

قال يحيى بن سعيد القطان رحمه الله: «ما صلَّيتُ صلاةً منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي؛ لِما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفَّقه للسداد فيه»(١).

الإمام مسلم بن الحجَّاج وأدبُه مع شيخه البخاري :

قال محمد بن حمدون بن رستم : سمعتُ مسلم بن الحجاج ، وجاء إلى البخاري فقال : دعني أُقبِّل رجليْك يا أُستاذ الأُستاذِين ، وسيِّد المُحَدِّثين ، ويا طبيب الحديث في عِلَلِه .

أبو عُمر محمد بن يوسف القاضي وأدبه مع إبراهيم الحربي :

لمّا دخل شيخ الإسلام أبو إسحاق إبراهيم الحربي على إسماعيل القاضي ؛ بادَر أبو عمر محمد بن يوسف القاضي إلى نعْلِهِ ، فأخذها فمسحها من الغبار ، فدعا له ، وقال : أعزَّك الله في الدنيا والآخرة . فلمّا تُوفي أبو عمر ، رُئِي في النوم ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : أعزَّني في الدنيا والآخرة بدعوة الرجل الصالح(٢) .

أدبُ العلماء مع شيخ الإسلام البوشنجي :

قال أبو زكريا العنبري : شهدتُ جنازة الحسين القبّاني ، فصلَّى بنا عليه أبو عبد الله البوشنجي ، فلمّا أرادوا الانصراف ؛ قُدِّمتْ دابَّة أبي عبد الله ، وأخذ أبو عمرو الخفاف بلجامه ، وأخذ إمام الأئمة بركابه ، وأبو بكر الجارودي ، وإبراهيم بن أبي طالب يُسوِّيان عليه ثيابه ، فلم يمنع واحدًا منهم

(١) إحياء علوم الدين ١/٤٥ .

(٢) السير ١٣/٣٥٧ - ٣٥٨ .

ومضى[١] .

وقال البوشنجي رحمه الله : مَن أراد العلم والفقه بغير أدب ؛ فقد اقتحم أن يكذب على الله ورسوله[٢] .

الحافظ السِّلَفي :

قال عنه عبد القادر الحافظ : كان أبو طاهر - السلفي - لا تبدو منه جفوة لأحد ، ويجلس للحديث فلا يشرب ماء ، ولا يبزق ولا يتكلّم ، ولا يتورَّك ، ولا تبدو له قدم وقد جاوز المائة[٣] .

أسدُ الشام ، الشيخ الزاهد العابد : عبد الله اليونيني :

حكى الشيخ عبد الصمد قال : والله مذ خدمتُ الشيخ عبد الله ، ما رأيتُه استند ولا سعلَ ولا بصَق[٤] .

أبو علي الدقَّاق :

قال أبو القاسم القشيري : « كان الأستاذ أبو علي لا يستند إلى شيء ، فكان يومًا في مجمع ، فأردتُ أن أضع وسادةً خلف ظهْره ؛ لأني رأيتُه غيرَ مستند ، فتنحى عن الوسادة قليلًا ، فتوهَّمتُ أنه توقى الوسادة ؛ لأنه لم يكن عليها خِرْقة أو سَجَّادة ، فقال : لا أريد الاستناد . فتأمَّلتُ بعد ذلك أنه لا يستند إلى شيء أبدًا » .

أبو بكر الكتاني :

« قال أبو بكر الكتاني : صحبني رجلٌ وكان على قلبي ثقيلًا ، فوهبتُ

---

(١) السير ١٣/٥٨٢ - ٥٨٣ .
(٢) السير ١٣/٥٨٦ .
(٣) السير ٢١/٥ - ٣٩ .
(٤) السير ٢٢/١٠٢ - ١٠٣ .

له شيئًا بنيَّة أن يزول ثِقَلُه مِن قلبي فلم يَزُلْ ، فخلوتُ به يومًا وقلتُ له : ضعْ رِجْلَك على خدِّي فأبى ، فقلتُ له : لا بدَّ من ذلك ، ففعلَ ذلك فزال ما كنتُ أجده في باطني .

قال الرقي : قصدتُ من الشام إلى الحجاز حتى سألتُ الكتَّاني عن هذه الحكاية »(١) .

أبـو عبـد الله بن خفيف :

« ورد عليّ بن بندار على أبي عبد الله بن خفيف زائرًا ، فتماشَيَا فقال له أبو عبد الله : تقدَّمْ . فقال : بأيِّ عذر ؟ فقال : بأنك لقيتَ الجنيد وما لقيتُه »(٢) .

درجـات الأدب :

وعالي الهمَّة هو مَن استكمل درجات الأدب ، وترقَّى فيها درجة بعد درجة . وهذه الدرجات ذكَرَها شيخ الإسلام الهروي في « منازل السائرين » ، وشرحها ابن القيم في شرحه المبارك « مدارج السالكين » .

قال الهروي : « وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى :مَنْعُ الخوف أن يتعدَّى إلى اليأس ، وحبْسُ الرجـاء أن يخرجَ إلى الأمْن ، وضبْطُ السرور أن يضاهئ الجرأة » :

قال ابن القيم : « يريد : أنه لا يدع الخوف يُفضي به إلى حدٍّ يُوقعه في القنوط ، واليأس من رحمة الله ، فإن هذا الخوف مذموم .

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : حدُّ الخوْف ما حجزك عن معاصي الله ، فما زاد على ذلك ، فهو غير محتاج إليه .

---

(١) ، (٢) عوارف المعارف للسهروردي ص٢٨٣ .

وهذا الخوف الموقع في الإياس : إساءة أدب على رحمة الله التي سبقتْ غضَبَه،وجهلٌ بها .

وأما حبْس الرجاء أن يخرج إلى الأمن : فهو أن لا يبلغ به الرجاء إلى حدٍّ يأمن معه العقوبة ؛ فإنه لا يأمن مكرَ الله إلّا القوم الخاسرون . وهذا إغراق في الطَرَفِ الآخر . بل حدُّ الرجاء : ما طيَّب لك العبادة ، وحملك على السير ، فهو بمنزلة الرياح التي تُسيِّر السفينة ، فإذا انقطعتْ وقفتِ السفينة ، وإذا زادت ألقتْها إلى المهالك ، وإذا كانت بقدَرٍ أوصلتْها إلى البُغية .

وأمّا ضبْط السرور أن يخرج إلى مشابهة الجرأة : فلا يقدر عليه إلّا الأقوياء أرباب العزائم ، الذين لا تستفزُّهم السَّرَّاء فتغلب شكْرَهم ، ولا تُضعفهم الضرَّاء فتغلب صبرهم . كما قيل :

لا تغلب السراءُ منهمْ شُكرهُمْ　　　كلَّا ولا الضرّاءُ صبْرَ الصابرِ

والنفس قرينة الشيطان ومصاحِبتُه ، وتشبهه في صفاته . ومواهب الربِّ تبارك وتعالى تنزل على القلب والرُّوح ، فالنفس تسترِقُ السمْع ، فإذا نزلت على القلب تلك المواهب ؛ وثَبَتْ لتأخذ قِسطًا منها ، وتصيِّره من عُدَّتها وحواصلها ، فالمسترسِل معها ، الجاهل بها : يدَعُها تستوفي ذلك . فبينا هو في موهبة القلب والروح وعدَّةٍ وقوّةٍ له ؛ إذ صار ذلك كلّه من حاصل النفس وآلتها وعددها ، فصالتْ به وطغت ؛ لأنها رأت غناها به . والإنسان يطغىٰ أن رآه استغنى بالمال ، فكيف بما هو أعظم خطرًا ، وأجلُّ قدْرًا من المال ، بما لا نسبة بينهما ؛ من علمٍ أو حال ، أو معرفة أو كشف ؟! فإذا صار ذلك من حاصلها ؛ انحرف العبد به - ولا بد - إلى طرَف مذموم ؛ من جرأة ، أو شطْح ، أو إدلال ، ونحو ذلك .

فوالله ِكم هاهنا من قتيل وسليب وجريح ، يقول : مِن أين أُتيتُ ؟ ومن أين دُهِيتُ ؟ ومن أين أُصبتُ ؟ وأقلُّ ما يُعاقَب به من الحرمان بذلك : أن

يغلق عنه باب المزيد . ولهذا كان العارفون وأرباب البصائر إذا نالوا شيئًا من ذلك ؛ انحرفوا إلى طَرَف الذلّ والانكسار ومطالعة عيوب النفس ، واستدعَوْا حارس الخوف ، وحافظوا على الرباط بملازمة الثغْر بين القلب وبين النفس ، ونظروا إلى أقرب الخلْق من الله ، وأكرمهم عليه ، وأدناهم منه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهًا ، وقد دخل مكّة يوم الفتح وذقْنُه تمسُّ قُربوسَ سَرْجِه ؛ انخفاضًا وانكسارًا ، وتواضعًا لربِّه تعالى في مثل تلك الحال ، التي عادة النفوس البشرية فيها : أن يملكَها سرورُها ، وفرحُها بالنصر والظفر والتأييد ، ويرفعها إلى عنان السماء .

فالرجل : مَن صان فتْحَهُ ونصيبَه من الله ، وواراه عن استرقاق نفسه ، وبخِلَ عليها به . والعاجز : مَن جاد لها به . فيا له من جُود ما أقبحه !! وسماحة ما أسْفَهَ صاحبها !! والله المستعان »[1] .

الدرجة الثانية : « الخروج من الخوف إلى ميدان القبْض ، والصُّعُود مِن الرجاء إلى ميدان البسْط ، ثم الترقِّي من السرور إلى ميدان المشاهدة » :

قال ابن القيم : « ذكَر في الدرجة الأولى : كيف يحفظ الحدّ بين المقامات ، حتى لا يتعدَّى إلى غلوٍّ أو جفاء ، وذلك سوء أدب .

فذكر مع الخوف : أن يخرجه إلى اليأس ، ومع الرجاء : أن يُخرجه إلى الأمن ، ومع السرور : أن يخرجه إلى الجرأة .

ثم ذكر في هذه الدرجة : أدبَ الترقِّي من هذه الثلاثة إلى ما يحفظه عليها ، ولا يضيِّعها بالكلِّيَّة . كما أنَّ في الدرجة الأولى : لا يبالغ به ، بل يكون خروجه من الخوْف إلى القبْض ؛ يعني : لا يزايل الخوْف بالكلِّية ، فإن قبضه لا يُؤْيسُه ولا يقنطه ، ولا يحمله على مخالفة ولا بطالة .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٣ - ٣٩٥ .

وكذلك رجاؤه : لا يقعد به عن ميدان البسْط ، بل يكون بين القبْض والبسْط ، وهذه حال الكُمَّل ، وهي السيْر بين القبْض والبسط .

وسروره : لا يقعد به عن ترقِّيه إلى ميدان مشاهدته ، بل يرْقىٰ بسروره إلى المشاهدة ، ويرجع من رجائه إلى البسْط ، ومن خوْفه إلى القبْض .

ومقصوده : أن ينتقل من أشباحِ هذه الأحوال إلى أرواحها ؛ فإن الخوف شَبحٌ والقبْض رُوحه ، والرجاء شبح والبسْط روحه ، والسرور شبح والمشاهدة روحه ، فيكون حظُّه من هذه الثلاثة : أرواحها وحقائقها ، لا صُوَرها ورسومها »(١) .

الدرجة الثالثة: «معرفة الأدب، ثم الفَناء عن التأدُّب بتأديب الحقِّ ، ثم الخلاص مِن شهود أعباءِ الأدب » :

قال ابن القيم : « قوله : « معرفة الأدب » : يعني لا بد من الاطِّلاع على حقيقته في كل درجة ، وإنما يكون ذلك في الدرجة الثالثة ، فإنه يُشرِف منها على الأدب في الدَّرجتين الأُولَيَيْن، فإذا عرفه وصار له حالًا؛ فإنه ينبغي له أن يفنىٰ عنه ، بأن يُغَلِّب عليه شهودَ مَن أقامه فيه ، فينسبَهُ إليه تعالى دون نفسه ، ويَفنَى عن رُؤية نفسه وقيامها بالأدب ؛ بشهود الفضل لمَن أقامها فيه ومِنَّته . فهذا هو الفناء عن التأدُّب بتأديب الحق »(٢) .

فيا له من مقام ، يُجمّل العبادة ، وينظِّم كلَّ الحياة ، وتُوزَن به الأحوال والمقامات !!

* * *

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٣٩٦ .

الفصل الثالث والعشرون

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
طَلَبِ الجَنَّةِ

« مَن خاف أدلج ، ومَن أدلج بلغ المَنزِل ، ألا إنَّ سِلْعَة اللهِ غالية ، إلا إن سِلْعَة اللهِ : الجنة » .

[حديث صحيح]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في طلبِ الجنَّة □

قال تعالى : ﴿ **وفي ذلك فلْيتنافَسِ المتنافسون** ﴾ .
مطلبٌ يستحقُّ المنافسة ، أُفقٌ يستحقُّ السباق ، وغايةٌ تستحقُّ الغلاب .

والذين يتنافسون في شيء من أشياء الأرض – مهما كبر وجلَّ وارتفع وعظم – إنما يتنافسون في حقير فانٍ قريب . والدنيا لا تزن عند الله جَنَاح بعوضة ، هزيلة زهيدة ، فهوّنْ من شأنها ، وارفع نفسَك عنها ... لَعِبٌ ولهوٌ وزينة وتفاخر وتكاثر .

فليس السباق إلى إحراز اللَّهْو واللعب والتفاخر والتكاثر : بسباقٍ يليق بمن شَبُّوا عن الطَّوْق ، وتركوا عالَم اللَّهْو واللَّعب للأطفال والصغار ، إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك المُلْك العريض ﴿ **وجنةٍ عَرْضُها كعرضِ السماءِ والأرض** ﴾ [الحديد : ٢١] .

مَن رضي بالحظِّ الخسيس مِن عاجل الدنيا ؛ بقي عن نفيس الآخرة .

إن الحياة للأرض حياة تليقُ بالديدان والزواحف ، والحشرات والهوامِّ ، والوحوش والأنعام ، فأمّا الحياة الآخرة فهي الحياة اللائقة بذلك الإنسان الكريم على الله ، الذي خلقه فسوَّاه ، وأودع رُوحه الإيمان الذي ينزع به إلى السماء ، وإن استقرَّت على الأرض قدماه .

إن من شاء التفاوتَ الحقَّ ، والتفاضُلَ الضخم ؛ فهناك في الآخرة ، هنالك في الرقعة الفسيحة ، والآماد المتطاولة التي لا يعلم حدودها إلّا الله ، وفي ذلك فليتنافسِ المتنافسون ، لا في متاع الدنيا القليل الهزيل !! .

الآخـرة ثقيلة في ميـزان الله :

والتنافس في أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعًا ، بينما التنافس

في أمْر الدنيا ينحطُّ بهم جميعًا .

التنافس في الآخرة يرفع الأرواح إلى آفاقٍ أرفع وأطهر من المستنقع الآسِن .

إن مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف ، ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود ؛ فأين مجالٌ من مجال ؟ وأين غاية من غاية ؟ .

ألا إن السباق إلى هناك :

« فهلمَّ إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام ، بلا نصَبٍ ولا تعَبٍ ولا عناء ، بل من أقرب الطرق وأسهلها ، وذلك أنك في وقت بين وقتيْن ، هو في الحقيقة عمرك ، وهو وقتك الحاضر ، بين ما مضى وما يُستقْبَل ؛ فالذي مضى تُصلحه بالتوبة والندم ، وهو عمل قلبٍ ، وما يُستَقبَل تُصلحه بالعزْم والتوبة »[1] .

إن مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام .. ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب .

أخي ، إيَّاك أن تكون ممن قال فيهم يحيى بن معاذ الرازي : « عملٌ كالسَّراب ، وقلب من التقوى خراب ، وذنوب بعَدَد الرَّمْل والتراب ، ثم تطمع في الكواعب الأتراب ؟! هيهات ؛ أنت سكران بغير شراب . ما أكملك لو بادرتَ أمَلَكَ ! ما أجلَّك لو بادرتَ أجلك ! ما أقواك لو خالفت هواك ! »[2] .

يا هذا ، لقد أعظمتَ المَهْرَ وأسأت الخِطبة .

إنَّها الجنة :

التي حولها دندن رسول الله ﷺ وأنبياءُ الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١) الفوائد لابن القيم .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦/١٦٧ .

إنَّها الجنة :

بأنفاسها الرضية النديَّة ، تتجلى عليها طلْعة الرحمٰن الجليلة البهيَّة .

إنها الجنة التي اشتاق إليها الصالحون مِن هذه الأمة :

فهذا (**عُمَيْر بن الحمام**) الصحابي الجليل ، في يوم بدر يسمع رسول الله ﷺ يقول : « قوموا إلى جنة عرضُها السموات والأرض » . يقول عمير ابن الحمام الأنصاري : يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : « نعم » . قال : بَخٍ بخٍ . فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قول : بخٍ بخٍ ؟ » . قال : لا والله يا رسول الله ، إلَّا رجاء أن أكون من أهلها . قال : « فإنك من أهلها » . قال : فأخرج تمْرَاتٍ من قرنه فجعل يأكل منهنَّ ، ثم قال : لئنْ حَيِيتُ حتى آكل تمراتي هذه ؛ إنها لَحَياةٌ طويلة . قال : فرمىٰ ما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قُتل . رَحِمَه الله[(١)] .

وذكَر ابن جرير أن عُمَيرًا قاتل وهو يقول - رضي الله عنه -:

رَكْضًا إلى اللهِ بغيرِ زادِ   إلّا التُّقَى وعَمَلَ المعَادِ

وهذا سيد بني سَلَمَة (**عمرو بن الجموح**) رضي الله عنه ؛ « لمّا كان يوم أُحد قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى جنة عَرْضُها السموات والأرض أُعدَّت للمتقين » . فقام وهو أعرج ، فقال : والله لأقحزنَّ[(٢)] عليها في الجنة . فقاتل حتى قُتل »[(٣)] .

إنها الجنة :

فسلوا عنها السيِّد الشهيد (**جعفرَ الطَّيَّار**) رضي الله عنه :
الذي قال شوقًا إليها في يوم مُؤْتَة :

---

(١) رواه أحمد ومسلم .
(٢) أي : لأثِبَنَّ . والقحزُ : الوَثْبُ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١/٢٥٣ .

يا حبَّذا الجنةُ واقْتِرابُها طيِّبةٌ وبـاردٌ شـرابُهـا

إنها الجنة :

الجزاءُ الرفيعُ الخالص الفريد .. الجزاء الذي تتجلَّى فيه ظلال الرعاية الخاصَّة ، والإعزاز الذاتي ، والإكرام الإلـٰهي ، والحفاوة الربَّانيَّة بهذه النفوس ؛ ﴿ **فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهـم من قرَّة أَعْيُنٍ جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ [السجدة : ١٧] ؛ تعبير عجيب يَشي بحفاوة الله سبحانه ، وتولِّيه بذاته العليَّة إعدادَ المذخور لهم عنده ؛ من الحفاوة والكرامة مما تَقَرُّ بِهِ العيون.. هذا المذخور الذي لا يطَّلع عليه أحد سواه ، والذي يظلُّ عنده خاصَّة مستورًا ، حتى يُكشَف لأصحابه عند يوم لقائه ، عند لُقياه ؛ وإنها لَصورة وضيئة لهذا اللقاء الحبيب الكريم في حضرة الله .

يا الله !! كم ذا يُفيض الله على عباده من كرمه !! وكم ذا يغمرهم سبحانه بفضله !! ومَن هم حتى يتولَّى اللهُ جلَّ جلاله إعدادَ ما يدَّخره لهم من جزاء ، في عناية ورعاية ووُدٍّ واحتفال ، لولا أنه فضل الكريم المنَّان !! فضل الله الكريم حتى يفتح أبواب رحمته الواسعة ، أبواب الجنان .

إنها الجنة :

التي غرَسَ غراسَها الرحمـٰن بيده ؛ فرحم الله أقوامًا عظَّموا مَن غرسَها ، وقدَروا قدْرَ الغرس .

وفي الحديث الصحيح : « قال : يا ربِّ ، أخبرني بأعلاهم منزلةً . قال : أولئك الذين أردتُ ، وسوف أُخبرك ؛ غرستُ كرامتهم بيدي وختمتُ عليها ... » . فقد أَخبر أنه غرَس جنَّتهم بيده سبحانه .

ومن حديث ابن عمر موقوفًا : « خلَق اللهُ أربعة أشياء بيده : العرش ،

والقلَم ، وعدْن ، وآدم عليه السلام »[١] .

إنها الجنة :

التي لا يُسأل بوجْهِ اللهِ العظيم غيرُها ، لكرامتها على الله .

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**أنسَ بن النضْر**) رضي الله عنه :
يقول لسعد بن معاذ : « واهًا لريح الجنة !! أجده دون أُحُد »[٢] .
وفي « أُسْد الغابة » : « أي سعد ، هذه الجنة وربِّ أنس ، أجد ريحها دون أُحد »[٣] .

يا ابن النضر ، طال شوقكم إلى الجنة ، وطهَّرتْ منكم الأقوالَ والأعمالَ والأجساد ، فشَمَمْتُم عبير الجنة !! ونحن زُكمتْ أُنوفنا بعِطْر الكاسيات العاريات وبجيف الدنيا ، فلم تجد الجنة فيها موضعًا .

إنها الجنة :

خُذْني إلى بيتي أرِحْ خدِّي على عتباتهِ
وأبوس مقبضَ بابهِ
خذْني إلى وطنٍ أموتُ مشرَّدًا
إن لم أُكحِّلْ ناظري بتُرابِهِ

إنها الجنة :

دار كرامة الرحمٰن ؛ فهل مِن مشمِّرٍ لها ؟

---

(١) رواه الدارمي في : الردّ على بشْر المريسي ، والبيهقي في : الأسماء والصفات ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد . ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .
(٢) البداية والنهاية ٦/٣٣ .
(٣) أسد الغابة ١/١٥٥ .

نحـنُ اعتصرْنَا غيْمَ كلِّ خرائطِ الدنيا
وأشـعار الحنين إلى الوطنْ
لا ماؤها يروي ولا أشعارها تكوي
ولا تُنسي عــدنْ

إنها الجنة :

فاعمل لها بقدْرِ مقامك فيها .

إنها الجنة :

فاعمل لها بقدْر شوقك إليها .

يقول ابن القيم : « لمّا علم الموفَّقون ما خُلقوا له وما أريد بإيجادهم ؛ رفعوا رؤوسهم ، فإذا علَمُ الجنة قد رُفع لهم فشمَّروا إليه ، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه ، ورأوا من أعظم الغبْن بيْعَ ما لا عيْن رأت ، ولا أُذن سمِعَتْ ، ولا خطر علىٰ قلب بَشَر ، في أبدٍ لا يزول ولا ينفد ، بصبابة عيْش إنما هو كأضغاث أحلام ، أو كطيْف زار في المنام ، مشوب بالنغص ، ممزوج بالغُصَص ، إن أضحَكَ قليلًا أبكىٰ كثيرًا ، وإن سرَّ يومًا أحْزَنَ شهورًا ؛ آلامه تزيد على لَذَّاته ، وأحزانه أضعاف مَسـرَّاته ، أوَّله مخاوِف ، وآخره مَتَالِف .. فيا عجبًا من سفيه في صورة حليم ، ومعتوه في مسلاخ عاقل ، آثرَ الحظَّ الفاني على الحظِّ الباقي النفيس . وباع جنة عَرْضها الأرض والسمٰوات ، بسجنٍ ضيِّق بين أرباب العاهات والبليَّات . ومساكن طيِّبة في جنات عدْن تجرى من تحتها الأنهار ؛ بأعطان ضيقةٍ آخرها الخراب والبوار . وأبكارًا عُرُبـًا أترابًا كأنهنَّ الياقـوت والمَرْجان، بِقَذِراتٍ دَنِسَاتٍ سيِّئات الأخلاق ، مُسَافِحاتٍ أو متَّخذاتِ أَخْدان . وحورًا مقصوراتٍ في الخيام ، بخبيثاتٍ مسيَّباتٍ بين الأنام . وأنهارًا من خمْرٍ لَذَّةٍ للشاربين ، بشرابٍ نَجِسٍ مُذهِبٍ للعقل ، مُفسد

للدنيا والدين. ولَذَّة النظر إلى وجْه العزيز الرحيم، بالتمتُّع برؤية الوجْه القبيح الدميم. وسَمَاعَ الخطابِ من الرحمٰن، بسماعِ المعازف والغناء والألحان. والجلوس على منابرِ اللؤلؤ والياقوتِ والزَّبرجدِ يوم المزيد بالجلوس في مجالس الفسوق مع كلِّ شيطان مَرِيد. ونداء المنادي: يا أَهل الجنة، إنَّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا، وتحيَوْا فلا تموتوا، وتقيموا فلا تظعنوا، وتشِبُّوا فلا تهرموا؛ بغناء المغنِّين.

وقَفَ الهوىٰ بي حيثُ أنتَ فليسَ لي ... متأخَّرٌ عنهُ ولا متقدَّمُ
أجدُ الملامةَ في هواكَ لذيذةً ... حبًّا لذكْرِكَ فلْيَلُمْني اللُّوَّمُ

وإنما يظهر الغبْن الفاحش في هذا البيع يوم القيامة، وإنما يتبيَّن سَفَهُ بائعه يوم الحسرة والندامة؛ إذا حُشر المتقون إلى الرحمٰن وفدًا، وسيق المجرمون إلى جهنَّم وِرْدًا، ونادىٰ المنادي على رؤوس الأَشْهادِ: ليَعْلمنَّ أهْلُ الموقفِ مَنْ أَوْلى بالكرمِ مِنْ بين العباد. فلو توهَّم المتخلِّف عن هذه الرُّفْقَة ما أعدَّ الله لهم من الإكرام، وادَّخر لهم من الفضل والإنعام، وما أخفى لهم من قُرَّة أعْيُنٍ لم يقعْ على مثِلها بصَرٌ، ولا سمِعتْهُ أُذُنٌ ولا خطَر على قلب بشر- لعَلِمَ أيَّ بضاعةٍ أضاع، وأنَّه لا خيرَ له في حياته وهو معدود من سقَطِ المتاع، وعلِم أنَّ القوم قد توسَّطوا ملكًا كبيرًا لا تعتريه الآفات، ولا يلحقه الزوال، وفازوا بالنعيم المقيم في جوار الكبير المتعال: فهم في روضاتِ الجنَّة يتقلَّبون، وعلى أسِرَّتِها تحتَ الحِجال يجلسون، وعلى الفُرشِ التي بَطَائِنُها مِن إستبرقٍ يتَّكِئُون، وبالحُور العِين يتنعَّمون، وبأنواع الثمار يتفكَّهُون، و ﴿**يطوف عليهم ولدان مخلَّدون بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من معين لا يُصدَّعون عنها ولا يُنزفون وفاكهة ممَّا يتخيَّرون ولَحمِ طيْرٍ مما يشتهون وحُور عِينٍ كأمثال اللُّؤلؤ المكنون جزاءً بما كانوا يعملون**﴾.

﴿**يُطاف عليهم بصحافٍ من ذهَبٍ وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعْيُن وأنتمْ فيها خالدون**﴾.

تالله لقد نُودي عليها في سُوق الكَسَاد، فما قلَّب ولا استام إلّا أفرادٌ من العِبَاد، فواعجبًا لها كيفَ نام طالبُها، وكيف لم يسمحْ بمَهْرِها خاطبُها؟!

وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها ؟! وكيف قرَّ للمشتاقِ القَرَارُ دون معانقة أبكارها ؟! وكيف قَرَّتْ دونها أعْين المشتاقين ؟! وكيف صبرَتْ عنها أنفس الموقنين ؟! وكيف صدَفت عنها قلوبُ أكثرِ العالَمين ؟! وبأيِّ شيءٍ تعوَّضَتْ عنها نفوس المُعْرِضين ؟! »[1] .

قال رسول الله ﷺ : « مَن خاف أدلج ، ومَن أدلَجَ بلغَ المنزل ، ألَا إنَّ سِلْعَةَ الله غالية ، ألَا إن سلعة اللهِ الجنة »[2].

وفي الصحيح : « إن الله عز وجلَّ يقول لآدم عليه السلام : يا آدمُ ، اذهبْ فأخرج بعْثَ ذرِّيَّتك إلى النار؛ فيخرج من كلِّ ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعين » .

يا سلعة الرحمٰن ، هل ينالُك في عُلاك إلّا كلُّ عالي الهمة غير مُخلِدٍ إلى الأرض والحطامِ الفاني ؟!

يا سلْعةَ الرحمٰن لستِ رخيصةً ... بلْ أنتِ غاليةٌ على الكَسْلانِ
يا سلعةَ الرحمٰنِ ليسَ ينالُها ... في الألفِ إلّا واحدٌ لا اثنانِ
يا سلعةَ الرحمٰنِ ماذا كُفْؤُها ... إلّا أولو التقوىٰ مع الإيمانِ
يا سلعةَ الرحمٰنِ سُوقُكِ كاسِدٌ ... بين الأراذِلِ سفلةِ الحيوانِ
يا سلعةَ الرحمٰنِ أين المُشترِي ... فلقدْ عُرِضْتِ بأيْسر الأثمانِ
يا سلعةَ الرحمٰنِ هلْ منْ خاطبٍ ... فالمهرُ قبلَ الموتِ ذو إمكانِ
يا سلعةَ الرحمٰنِ كيف تَصبّر الْـ ... ـخُطَّاب عنكِ وهمْ ذوو إيمانِ

---

(١) حادي الأرواح ص٦ - ٧ .

(٢) صحيح : رواه الترمذي ، والحاكم وصححه عن أبي هريرة ، ورواه عبد بن حُميد ، والعقيلي في « الضعفاء » وأبو نعيم ، والقضاعي ، والحاكم عن أُبيّ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٩٨ .

يا سلعةَ الرحمٰنِ لولا أنَّها   حُجبَتْ بكلِّ مكارِهِ الإنسانِ
ما كان عنها قطُّ مِن متخلِّفٍ   وتعطَّلتْ دارُ الجزاءِ الثاني
لكنَّها حُجِبَتْ بكلِّ كريهةٍ   لِيُصَدَّ عنها المُبطِلُ المتواني
وتنالُها الهممُ التي تسمو إلٰى   ربِّ العُلٰى بمشيئةِ الرحمٰنِ
فاتعبْ ليوم معادِكَ الأدنى تجدْ   راحاتِهِ يومَ المعادِ الثاني
وإذا أبتْ ذا الشان نفسُكَ فاتَّهِمْـ   ـها ثمَّ راجِعْ مَطْلَعَ الإيمان
فإذا رأيتَ الليلَ بَعْدُ وصبحَهُ   ما انشقَّ عنهُ عمودُه لأَذَانِ
والناسُ قد صلّوا صلاةَ الصبحِ وانـ   ـتظروا طلوعَ الشمسِ قُرْبَ زمانِ
فاعلمْ بأنَّ العيْنَ قد عَمِيَتْ فنا   شِدْ ربَّك المعروفَ بالإحسانِ
واسْأَلْهُ إيمانًا يُباشرُ قلبَكَ الْـ   ـمحجوبَ عنهُ لِتنظرَ العينانِ
واسألْهُ نورًا هاديًا يَهديكَ في   طُرُق المسيرِ إليهِ كلَّ أَوَانِ

إنها الجنَّة :

لله قومٌ نهضتْ بهم عزائمهم نحو الجنة فسَرَوْا إليها مدلجين ، لم ينزلوا بشيء من منازل الطريق مستريحين ، ولكنهم واصلوا السيْر إلى غايتهم مُعرضين عن هذا الخزف الخسيس مُؤْثرين عليه الذَهَبَ النَّفِيس، ساروا إليها تَحْدُوهم أشواقهم قاصدين إليها غير متعثِّرين ولا مُعْوجِّين ، ولا وانين ولا متخلِّفين ، حتى وصلوا إلى غايتهم سالمين .. ما ضرَّهم في الدنيا ما أصابهم ، جبرَ الله لهم بالجنة كلَّ مصيبة .

وأخو البصائرِ حاضرٌ متيقظٌ   متفرِّدٌ عن زمرةِ العُمْيانِ
يسمو إلٰى ذاكَ الرفيقِ الأرفعِ الْـ   أعلى وخَلَّى اللَّعبَ للصبيانِ
والناسُ كلُّهمُ فصبيانٌ وإنْ   بَلغُوا سِوىٰ الأفراد والوجدانِ
وإذا رأىٰ ما يشتهيهِ قالَ مَوْ   عِدُكَ الجنانُ وجدَّ في الأثمانِ
وإذا أَبَتْ إلّا الجِمَاحَ أعاضَها   بالعلْمِ بعدَ حقائقِ الإيمانِ

تاللهِ ما عقلَ امرؤٌ قد باع ما ... يبقى بما هو مضمحلٌّ فانِ
هذا ويُفتي ثم يقضي حاكمًا ... بالحجرِ من سَفَهٍ لذا الإنسانِ
إذْ باعَ شيئًا قدْرُهُ فوقَ الذي ... يعتاضُه مِن هذه الأثمانِ
فمَن السَّفيهُ حقيقةً إنْ كنتَ ذا ... عقل وأنَّى العقلُ للسَّكْرانِ

إنها الجنة :

دار الموقنين بوعد الله .

تسعى بهم أعمالُهُمْ سَوْقًا إلى الـ ... ـدَّارين سَوْقَ الخيلِ بالرُّكْبَانِ
صبروا قليلًا فاستراحوا دائمًا ... يا عزَّةَ التوفيقِ للإنسانِ
حمدوا التُّقى عند المماتِ كذا السُّرى ... عندَ الصباحِ فحبَّذا الحَمْدانِ
وحَدَتْ بهِمْ عزمَاتُهمْ نحوَ العُلا ... وسَرَوا فما نزلوا إلى نعمانِ
باعُوا الذي يفنى من الخزَف الخسيـ ... ـسِ بدائمٍ من خالصِ العقْيانِ
رُفِعَتْ لهم في السَّيرِ أعلامُ السَّعَا ... دَةِ والهدى يا ذلَّةَ الحيرانِ
فتسابَقَ الأقوامُ وابْتَدروا لها ... كتسابُقِ الفرسانِ يوم رهانِ
وأخو الهُوَيْنَى في الدِّيارِ مُخَلَّف ... معَ شكْلِهِ يا خيْبَةَ الكسلانِ

إنها الجنة :

فسلوا عنها الصحابيَّ الجليل (**حرام بن ملْحان**) رضي الله عنه :

عن أنس بن مالكٍ قال : لمّا طُعِن حرام بن ملحان - وكان خالَ أنسِ بن مالك - قال : فزْتُ وربِّ الكعبة . رواه البخاري .

وفي رواية : أنه نثَر الدمَ على رأسِه وقال : فزتُ وربِّ الكعبة .

إنها الجنة :

فسلُوا عنها الصحابيَ الجليل (**عامر بن فُهيرة التيمي**) :

« لمّا طَعن جبَّارُ بنُ سُلمى عامرَ بن فُهيرة يومَ بئر معونة ، فقال عامر :

فزتُ وربِّ الكعبة ، ورُفِع من رُمْحه ، فلم تُوجد جثته ، فأسلم جبّارٌ لذلك وحسن إسلامه »[١] .

«لمّا قتل عامر يومَ بئر معونة، وأُسر عمرو بن أمية، فقال له عامر بن الطفيل : من هذا ؟ وأشار إلى قتيلٍ ، فقال له عمرو بن أمية : هذا عامر بن فهيرة . فقال : لقد رأيتُه بعد ما قُتل رُفع إلى السماء ، حتى إني لأَنظر إلى السماء بينه وبين الأرض »[٢] .

« وروى البخاري من طريق أبي أسامة ، عن هشام : أن عامر بن الطفيل سأل عمرو بن أمية عن ذلك »[٣] .

قال الزهري : بلغني أنهم التمسوا جسَدَ عامر بن فهيرة ، فلم يقدروا عليه .

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**سعد بن خيْثَمة بن الحارث**) رضي الله عنه :

« استَهَمَ يومَ بدرٍ خيثمة بن الحارث وابنُه سعد ، فخرج سهمُ سعد ، فقال له أبوه : يا بُنيّ ، آثِرْني اليومَ . فقال له سعد : يا أبتِ ، لو كان غير الجنة ؛ فعلْتُ . فخرج سعد إلى بدرٍ فقُتِل بها . وما زال أبوه خيْثمة يتطلّع إلى الجنة حتى كان يوم أحد ، فقتل يومَ أحد »[٤].

---

(١) الإصابة في تراجم الصحابة لابن حجر العسقلاني ٢٢١/١ . رواها ابن إسحاق والواقدي ، ونقلها عنهما ابن حجر .

(٢) الحلية ١١٠/١ .

(٣) الإصابة ٢٤٧/٢ .

(٤) الإصابة ٢٤/٢ ، وقفات مع الأبرار للدكتور محمد لطفي الصباغ . ص٢٠٢ - المكتب الإسلامي .

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**عبد الله بن غالب**) رحمه الله :

رآه مالك بن دينار في إحدى المعارك ، و « سمِعَه يقول - وقد تلاحمت الصفوف -: إني أرى ما ليس عليه صَبْرٌ .. روِّحوا بنا إلى الجنة ... ثم كَسَر جفن سيفه وتقدَّم فقاتلَ حتى قُتل »(١) .

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**كثير بن مُرَّة**) :

قال : « إن مِن المزيد في الجنة : أن تمرَّ السحابةُ بأهل الجنة فتقول : ماذا تريدون أن أُمطركم ؟ فلا يتمنَّون شيئًا إلا أُمطروا . قال كثير : لئن أشهدَني اللهُ ذلك ، لأقولَنَّ : أمطرينا جواريَ مزيَّنات » .

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**أبا سليمان الداراني**) :

قال لأحمد بن أبي الحواري: «بينما أنا ساجد إذ ذهب بي النوم، فإذا أنا بالحَوْراءِ قد ركضتْني برجلها، فقالت: يا حبيبي، أترقد عيناك والملكُ يقظان ينظر إلى المتهجدين في تهجُّدهم؟! بؤسًا لعيْن آثرت لذَّة نومٍ على مناجاة العزيز، قمْ فقد دنا الفراغ ولقي المحبُّون بعضهم بعضًا؛ فما هذا الرقاد؟! حبيبي وقرَّة عيني، أترقد عيناك وأنا أُربَّى لك في الخدور منذ كذا وكذا؟! فوثبْتُ فزِعًا وقد عَرَقْتُ استحياءً من توبيخها إياي، وإنَّ حلاوة مَنْطِقِها لَفي سمعي وقلبي»(٢).

وأنشدتُه شعرًا حفِظ منه:

أتطلبُ مثلي وعنّي تنامُ ... ونومُ المحبِّين عنا حرامُ
لأنَّا خُلقنا لكلِّ امرئ ... كثير الصلاةِ بَراهُ القيامُ

إنها الجنة:

فسلوا عنها (**عطاء السليمي**):

قال عطاء السليمي لمالك بن دينار: يا أبا يحيى، شوِّقنا. قال: يا عطاء،

---

(١) الموعد الله لخالد محمد خالد ص١٢٤- مكتبة الزهراء.

(٢) صفة الصفوة ٢٢٥/٤ .

إن في الجنة حوراء يتباهى أهل الجنة بحُسْنها ، لولا أن الله كتب على أهل الجنة ألّا يموتوا ؛ لَمَاتوا من حُسْنها . فلم يزل عطاء كَمِدًا من قول مالك .

يا خاطب الحُورِ الحسانِ وطالبًا ... لِوِصالهنَّ بجنة الحيوانِ
لو كنتَ تدري مَن خطبتَ ومَن طَلَبْـ ... ـتَ بذلتَ ما تحوي من الأثمانِ
أو كنتَ تدري أين مسكنُها جعلْـ ... ـتَ السَّعْيَ منك لها علىٰ الأجفانِ

إنها الجنة :

فسَلُوا عنها (**عبد الواحد بن زيد**) :

نام عبدُ الواحد بن زيد عن وِرْده، فإذا هو بجاريةٍ لم يَرَ أحسنَ منها وجهًا ، عليها ثيابُ حريرٍ خُضْر: « وهي تقول : يا ابن زيد ، جِدّ في طلبي، فإني في طلبك . ثم جعلت تقول :

مَن يشتريني ومَنْ يكن سكني ... يأمنْ في ربحِهِ من الغبنِ

فقلتُ : يا جارية،ما ثمنك ؟ فأنشأت تقول :

تـودُّدٌ للهِ مـعْ محبَّتِـهِ ... وطولُ فكر يُشابُ بالحزنِ

فقلتُ : لمن أنتِ يا جارية ؟ فقالت :

لمالكٍ لا يردُّ لي ثمنًا ... مِن خاطبٍ قد أتاه بالثَّمَنِ»

فاخطب الحوراء من سيدها ومولاها ، وقدّم مهرها ما دمت ذا إمكان .

أتلهو بالكَرىٰ عن طِيب عيشٍ ... مـعَ الخيراتِ في غُرَفِ الجِنانِ
تعيشُ مُخلَّدًا لا موتَ فيهِ ... وتنعمُ في الجِنان مع الحسانِ
تيقّظْ مِن منامك إنَّ خيرًا ... مِن النومِ التهجُّدُ بالقرانِ

إنها الجنة :

قال مجاهد : إن أدنى أهل الجنة منزلًا لَمَنْ يسيرُ في مُلكه ألفَ سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ؛ وأرفعهم الذي ينظر إلى ربِّه بالغداة والعَشِي[(١)] .

---

(١) إحياء علوم الدين ٥٧٧/٤ .

قال يحيى بن معاذ : تَرْك الدنيا شديد ، وفوت الجنة أشدُّ ، وتَرْك الدنيا مهْرُ الآخرة .

وقال رحمه الله : في طلب الدنيا ذلُّ النفوس ، وفي طلب الآخرة عزُّ النفوس ، فيا عجبًا لمن يختار المذلَّة في طلب ما يفنىٰ ، ويترك العزَّ في طلَبِ ما يبقى !! .

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**عمر بن عبد العزيز**) :

قال لرجاء بن حَيْوة : يا رجاء ، إن لي نفسًا توّاقة ، تاقت إلى فاطمة بنتِ عبد الملك فتزوجتُها ، وتاقتْ إلى الإمارة فوُلِّيتُها ، وتاقت إلى الخلافة فأدركتُها ، وقد تاقت إلى الجنة ، فأرجو أن أدركها ، إن شاء الله عز وجل[1] .

إنها الجنة : يُغشىٰ على الصالحين من خوْفِ فواتها :

وسلوا (**مالك بن دينار**) :

قال رجل لمالك بن دينار : « رأيتُ فيما يرى النائم مناديًا ينادي : الرحيلَ الرحيلَ . فما رأيتُ أحدًا يرتحل إلا محمد بن واسع ، فصاح مالك وغُشي عليه ، ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ [الواقعة : ١٠] » .

إنها الجنة : يموت الصالحون شوقًا إليها :

عن يزيد الرقاشي قال : بلغني أن نورًا سطع في الجنة ، لم يبقَ موضع في الجنة إلّا دخل من ذلك النور فيه : فقيل . ما هذا ؟ قال : حوراء ضحِكَت في وجْه زوجها . قال صالح المرِّي : فشهِقَ رجلٌ من ناحية المسجد ، فلم يزل

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٠١/٢ ، وصفحات مشرقة من حياة السابقين لنذير محمد مكتبي - دار البشائر الإسلامية .

يشهق حتى مات .

أنا ما حسدت الكافرين وقد غَدَوا في أَنْعُمٍ ومواكبٍ وقصورِ
بلْ مِحنتي أنْ لا أرى في أمَّتي عملًا أقدِّمه صَدَاق الحُورِ

ويومَ القيامة سيعلمُ الجمْع من أولى وأحقُّ بالخيِّرات الحسَان .. فكيف تغفلُ عنهنَّ ؟! مثِّل بفكرِك أين يعشْنَ ، وما يأكلْن ، وما يشربنَ .

دَع المصوغاتِ من ماءٍ وطِينِ واشغَلْ هواكَ بحُورٍ عينِ

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**يحيىٰ بن معاذ**) الواعظ :

كان رحمه الله يقول : « لست أبكي علىٰ نفسي إن ماتت ، إنما أبكي على حاجتي إن فاتت »[(١)] .

« وقال رحمه الله : يا ابن آدم طلبتَ الدنيا طَلَبَ مَن لا بدَّ له منها ، وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له إليها ، والدنيا قد كفيتَها وإن لم تطلبها ، والآخرة بالطَّلَب منك تنالُها ، فاعقلْ شأنك .

وقال رحمه الله : لو سمع الخلْق صوتَ النياحة على الدنيا في الغيْب من ألسنة الفناء ؛ لتساقطتِ القلوب منهم حُزْنًا . ولو رأتِ العقول بعُيون الإيمان نزهةَ الجنة ؛ لَذابتِ النفوسُ شوْقًا . ولو أدركتِ القلوب كُنْه المحبَّة لخالقها ؛ لَانخلعتْ مفاصلها وَلَهًا ، ولَطارت الأرواح إليه من أبدانها دهشًا . سبحان من أغفل الخليقة عن كُنْه هذه الأشياء ، وألهاهم بالوصف عن هذه الأنباء !! .

وقال رحمه الله : الدنيا خراب ، وأخربُ منها قلبُ مَن يعمِّرها . والآخرة دار عمران ، وأعمر منها قلبُ مَن يطلبها »[(٢)].

---

(١) السير ١٣/١٥ - ١٦ .
(٢) صفة الصفوة ٤/٩٣ - ٩٥ .

وقال : « سبحان من طيَّب الدنيا للعارفين بمعرفته ، وسبحان مَن طيَّب لهم الآخرة بمعذرته ، فتلذَّذوا أيَّام الحياة بالذكْر في مجالس معرفته ، وغدًا يتلذَّذون في رياض القدْس بشراب مغفرته ، فلهم في الدنيا زرْعُ ذِكْرٍ ، ولهم في الآخرة ربيعُ بِرٍّ . ساروا على المطايا مِن شكْره حتى وصلوا إلى العطايا من ذخره ؛ فإنه مَلِكٌ كريم »[1] .

وقال : سبحان من يبيع الحبيبةَ بالبغيضة !! يعني الدنيا . الجنة حبيبةُ المؤمن يبيعها منه بالبغيضة يعني الدنيا .

وقال : قد دعاك إلى دار السلام ؛ فانظر مِن أين تُجيبه ؟ أَمِنَ الدنيا أم مِنْ قبْرك ؟ إنك إن أجبتَه من دنياك دخلتَها ، وإن أجبتَه من قبرك مُنِعتَها .

وقال : إن كنتَ ذا قلبيْن ، فدونك اجعلْ أحدهما للدنيا وأحدهما للآخرة ، وإن كنتَ ذا قلب واحد فاجعلْه لأَوْلى الدارَيْن بالنعيم والمقام ، والإبقاء والإنْعام

وقال : اعلموا أن القرآن قد ندبكم إلى وليمة الجنة ودعاكم إليها ؛ فأسرعُ الناس إليها: أتركُهم لدنياه ، وأوجدهم لذَّةً لطعم تلك الوليمة : أشدُّهم تجويعًا لنفسه ومخالفةً لها .

وقال : « طوبى لعبدٍ أصبحتِ العبادةُ حرفَته ، والفقرُ منيتَه ، والعزْلة شهوتَه ، والآخرة هِمَّتَه ، وطَلَبُ العيْش بُلْغَتَه . وجعل الموت فكرتَه ، وشغل بالزهد نيّته ، وأمات بالذلِّ عزَّته ، وجعل إلى الربِّ حاجته . يذكر في الخلوَاتِ خطيئته ، وأرسل على الوجْنَةِ عَبْرته ، وشكا إلى الله غُربته ، وسأله بالتوبة رحمته . طوبى لمن كان ذلك صفتَه ، وعلى الذنوب ندامته ؛ جئّارٌ الليلَ والنهارَ ، وبكّاءٌ إلى الله بالأسحار ، يُناجي الرحمٰن ، ويطلب الجنان ويخاف ....

---

(١) الحلية ١٠/٥٧ - ٥٨ .

النيران »[١] .

قال عطاء بن ميسرة : إني لا أوصيكم بدنياكم ، أنتم بها مستوصون ، وأنتم عليها حُرَّاص ، وإنما أوصيكم بآخرتكم ، فجدُّوا في دار الفناء لدار البقاء .

وقال أحمد بن حرب : أحدنا يُؤْثِر الظلَّ على الشمس ، فما بالنا لا نُؤْثِر الجنة على النار .

إنها الجنة : فيها جوارُ الرحمٰن وأنبيائه :

﴿ **للذين أحسنوا الحسنىٰ وزيادة** ﴾ [يونس : ٢٦] . ﴿ **وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربِّها ناظرة** ﴾ [القيامة : ٢٢] . وانظر إلى مَن كمُلَتْ من النساء : آسية .. تقول : ﴿ **ربِّ ابنِ لي عندك بيتًا في الجنة** ﴾ [التحريم : ١١] قبل الدار طلبت الجار .

عبد الله بن أبي زكريا وشوقه إلى أهل الجنة :

« عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر : أن عبد الله بن أبي زكريا كان يقول : لو خُيِّرتُ بين أن أُعمر مائة سنة من ذي قبل في طاعة الله ، أو أنْ أُقبَضَ في يومي هذا أو في ساعتي هذه ؛ لَاخْترتُ أن أُقبض في يومي هذا أو في ساعتي هذه ؛ تشوُّقًا إلى الله وإلى رسوله ﷺ وإلى الصالحين من عباده »[٢] .

خالد بن معدان :

« عن عبدة بنت خالد بن معدان ، عن أبيها قالت : قلَّ ما كان خالد يأوي إلى فِراشِ مَقِيلِهِ ، إلّا وهو يذكر فيه شوقَه إلى رسول الله ﷺ ، وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار ، ثم يُسمِّيهم ويقول : هُمْ أصْلي وفَصْلي ، وإليهم يحنّ قلبي ، طال شوقي إليهم ، فعجِّلْ ربي قبضي إليك .. حتى يغلبه النوم وهو

(١) الحلية ١٠/٥٨ .

(١) روضة الزاهدين لعبد الملك الكليب ص٩٣ – مكتبة ابن تيمية .

في بعض ذلك »[1].

فاللهمَّ يا واهبَ المواهب ومجزلَ الرغائبِ ، نضِّرِ اللهمَّ بالكمالِ لديك بهجتَنا ، بالنظر إليك في دار رحمتك .

يا من منح الأصفياء منازل الحق ومدى الغايات ، أخلصْنا بكمال رغبتنا ، وبما لا يبلغه سؤالنا . اللهمَّ أورثنا الغُرَف وجوارَ النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين ، وحسُن أولئك رفيقًا .

قالت أمُّ البنين أختُ عمر بن عبد العزيز : البخيل كلّ البخيل : مَن بخِلَ عن نفسه بالجنَّة .

« وقال رجل لابن السمَّاك : عِظني . فقال : احذرْ أن تُقْدِم على جنة عَرْضها السمٰوات والأرض وليس لك فيها موضعُ قدَمٍ »[2].

* * *

(١) روضة الزاهدين ص٩٤ .

(٢) مجموعة الأخلاق والحكم لابن أبي الدنيا ص١٨ .

الفصل الرابع والعشرون

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
حبِّ اللهِ والشَّوْقِ إليهِ

أَروحُ وقدْ ختمت علىٰ فؤادي ... بحبِّكَ أنْ يحلَّ بهِ سِواكَا
فلو أني استطعتُ غضضتُ طرْفي ... فلمْ أنظر بهِ حتى أراكَا
أُحبُّك لا ببعضي بل بكُلِّي ... وإن لم يُبقِ حبُّك لي حِراكَا

« أسألك بردَ العيْش بعد الموت ، وأسألك لذَّة النَّظَرِ إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك » .

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في حُبِّ اللهِ والشَّوْقِ إليه □

« المحبَّة هي المنزلة التي فيها تنافَسَ المتنافسون ، وإليها شخَصَ العاملون ، وإلى عَلَمِها شمَّر السابقون ، وعليها تفانى المحبُّون ، وبرَوْح نسيمها ترّوح العابدون ؛ فهي قُوت القلوب وغذاء الأرواح وقرَّة العيون ، وهي الحياة التي مَن حُرِمها فهو من جملة الأموات ، والنور الذي مَن فقده فهو في بحار الظلمات ، والشفاء الذي مَن عُدِمه حَلَّتْ بقلبه جميعُ الأسقام ، واللَّذَّة التي من لم يظفر بها فعيْشه كله هموم وآلام . وهي روح الإيمان والأعمال ، والمقامات والأحوال ، التي متى خلتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه . تحمِل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلّا بشِقِّ الأنفس بالغيها ، وتوصِّلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها ، وتُبَوِّئُهُـم من مقاعد الصِّدْق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها . وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب ، وطريقهم الأقوم الذي يبلِّغهم إلى منازلهم الأولى من قريب .

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ؛ إذْ لهم من معيَّة محبوبهم أوفر نصيب .

وقد قضىٰ الله ، يوم قدّر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة ؛ أن المرء مع من أحبَّ ، فيالها من نعمة على المحبِّين سابغة !!

تالله لقد سبق القوم السعاة ، وهم على ظهور الفرش نائمون ، وقد تقدَّموا الركْبَ بمراحل ، وهم في سيرهم واقفون .

مَـن لـي بمثْلِ سـيْرِك المـدلَّلِ … تمشـي رويـدًا وتجي في الأوَّلِ

أجابوا منادي الشوْقَ إذ نادىٰ بهم : حيَّ على الفلاح . وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم ، وكان بذلُهم بالرضا والسماح ، وواصلوا إليه

المسير بالإدلاج والغدو والرواح .

تالله لقد حمدوا عند الوصول سُراهم ، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم . وإنما يحمَدُ القومُ السُّرىٰ عند الصباح .

أول نقدة من أثمان المحبَّة بذْلُ الروح ، فما للمفلِسِ الجبان البخيل وسوْمَها ؟!

بدَمِ المحبِّ يُباعُ وصْلُهُمُ فمنِ الذي يبتاعُ بالثمَنِ

تالله ما هزلت فيستامها المفلسون ، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المُعسِرون . لقد أُقيمتْ للعرْض في سُوق مَن يزيد فلم يرضَ لها بثمن دون بذل النفوس ، فتأخَّر البطَّالون وقام المحبُّون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمنًا ؟ فدارتْ السلعة بينهم ووقعت في يد ﴿ **أذلّةٍ على المؤمنين أعزَّة على الكافرين** ﴾ [المائدة : ٥٤] . لمّا كثر المدَّعون للمحبَّة طُولبوا بإقامة بيِّنة على صحَّة الدعوى ، فلو يُعطى الناس بدعواهم ؛ لادَّعىٰ الخليُّ حرْقَة الشجيّ . فتنوَّع المدَّعُون في الشهود ، فقيل : لا تُقبل هذه الدعوى إلّا ببيِّنة ؛ ﴿ **قلْ إن كنتم تحبُّون الله فاتبعوني يحببْكم اللهُ** ﴾ [آل عمران : ٣١] . فتأخر الخلْق كلهم ، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه ، فطُولبوا بعدالة البيِّنة بتزكية ﴿ **يجاهدون في سبيل اللهِ ولا يخافون لوْمة لائم** ﴾ [المائدة : ٥٤] فتأخر أكثر المحبِّين ، وقام المجاهدون ، فقيل لهم : إن نفوس المحبِّين وأموالهم ليستْ لهم ، فهلمُّوا إلى بيعة ﴿ **إنَّ اللهَ اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة** ﴾ [التوبة : ١١١] . فلمّا عرفوا عظمة المشتري وفضل الثمن ، وجلالة من جرى على يديه عقْد التبايُع ؛ عرفوا قدْر السِّلْعة وأن لها شأنًا ، فرأوا من أعظم الغبْن أن يبيعوها لغيره بثمنٍ بَخْس ، فعقدوا معه بيْعة الرضوان بالتراضي من غير ثبوت خيار ، وقالوا : « والله لا نقيلك ولا نستقيلك » . فلمّا تمَّ العقْد وسلَّموا المبيع ، قيل لهم : مُذْ صارت نفوسكم وأموالكم لنا ؛ رددناها عليكم أوفرَ ما

كانت ﴿ **ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩ - ١٧٠] .

وإذا غُرستْ شجرةُ المحبَّة في القلب ، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب ؛ أثمرتْ أنواع الثمار ، وآتت أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ، أصلها ثابت في قرار القلب ، وفرعها متصل بسدْرة المنتهى .

لا يزال سعي المحبِّ صاعدًا إلى حبيبه لا يحجُبُه دونه شيء ﴿ **إليه يصعد الكلمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ [فاطر : ١٠] »[1] .

قال الله تعالى : ﴿ **قلْ إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتُكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ومنَ الناسِ من يتخذ من دون اللهِ أندادًا يحبُّونهم كحبِّ اللهِ والذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله** ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا مَن يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي اللهُ بقومٍ يحبُّهم ويحبُّونهم أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لوْمة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وفي « الصحيحيْن » : عن أنسٍ ، عن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم ، حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

وفي « الصحيحين » أيضًا : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، والله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلّا من نفسي . فقال :

---

(١) مدارج السالكين ٣/٦ - ٩ .

« لا يا عمر ، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك » . فقال : والله لأنت أَحبُّ إليَّ من نفسي . فقال : « الآن يا عمر » .

ومعلوم أن محبة الرسول تابعة لمحبَّة الله عز وجل ، فما الظنُّ بمحبَّة الله عز وجل ؟! .

وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهنَّ فإنْ علمتموهنَّ مؤمناتٍ فلا ترجعوهنَّ إلى الكفَّار** ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

قال ابن عباس في هذه الآية : كانت المرأة إذا أتتِ النبي ﷺ لتُسْلِم ؛ حلّفها بالله ما خرجت من بغض زوج إلّا حبًّا لله ورسوله .

« وفي الصحيحين » : عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله ، كما يكره أن يُقذف في النار » .

وعن معاذ - في حديث اختصام الملأ الأعلى - عن النبي ﷺ قال : « أتاني ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة ؛ يعني في المنام » فذكر الحديث ، وقال في آخره : « قال : سل . قلتُ : اللهمَّ إني أسألكَ فعْل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبَّ المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردتَ بقوم فتنةً فتوفَّني إليك غير مفتون ، وأسألك حبَّك ، وحبَّ مَن يحبُّك ، وحبَّ كلِّ عمل يقرِّبني إلى حبِّك » . فقال رسول الله ﷺ : « إنها حقٌّ فادرسوها ، ثم تعلموها »(١) .

---

(١) حديث صحيح : أخرجه أحمد ، والترمذي وقال : حسن صحيح . وخرَّجه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد . وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي رقم ٢٥٨٢ .

وفي « الصحيحين » : عن أنس : أن رجلًا سأل النبيَّ ﷺ ، قال : متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : « ما أعددتَ لها ؟ » . قال : ما أعددتُ لها من كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنِّي أحبُّ الله ورسوله . فقال رسول الله ﷺ : « أنت مَع من أحببتَ » .

وفي رواية للبخاري : فقلنا : ونحن كذلك ؟ قال : « نعم » . قال أنس : ففرِحْنا يومئذ فرحًا شديدًا .

وفي رواية لمسلم : قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشدَّ من قوله : « أنت مع من أحببتَ » .

قال أنس : فأنا أُحبُّ الله عز وجل ورسوله ﷺ ، وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

قال بعض العارفين : يكفي للمحبِّين شرفًا هذه المعيَّة .

وقال سمنون : « ذهب المحبُّون بشرف الدنيا والآخرة ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « المرءُ مع مَن أحبَّ »[1] . فهم مع الله في الدنيا والآخرة » .

الأسباب الجالِبة للمحبَّة المقوِّية لها :

« الأسباب الجالبة للمحبَّة والمقوِّية لها كثيرة ؛ منها :

الأول : قراءة القرآن بالتدبُّر والتفهُّم لمعانيه وما أريد به . قال رسول الله ﷺ : « مَن سرَّه أن يحبَّ الله ورسوله ، فليقرأ في المصحف »[2] .

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائيُّ عن أنس ، ورواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود .

(٢) حسن : رواه البيهقي في سننه ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن شاهين ، وابن عدي في « الكامل » عن ابن مسعود ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٦٥ .

الثاني : التقرُّب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ؛ فإنها توصِّله إلى درجة المحبوبيَّة بعد المحبَّة ؛ كما جاء في الحديث القدسي : « ... ولا يزال عبدي يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه » .

الثالث : دوام ذكْرِه على كلِّ حال ؛ باللسان والقلب والعمل والحال . فنصيبه من المحبَّة على قدْر نصيبه من الذِّكْر .

قال ذو النون : مَن شغل قلبَه ولسانَه بالذِّكْر ؛ قذف اللهُ في قلبه نور الاشتياق إليه . وقال إبراهيم بن الجُنيد : كان يُقال : من علامة المحبَّة لله : دوام الذكر بالقلب واللسان ؛ وقلّما ولع المرء بذكْر الله عز وجل إلّا أفاد منه حبَّ الله عز وجل .

وقال إبراهيم بن أدهم : أعلى الدرجات أن يكون ذكْر الله عندك أحلى من العسَل ، وأشهى من الماء العذْب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف .

وقال مالك بن دينار : ما تلذَّذ المتلذِّذون بمثل ذكْر الله عز وجل .

يا مـن يذكِّـرُني بعهْـدِ أحبَّتي ... طابَ الحديثُ بذكرهمْ ويطيبُ
أعِدِ الحديثَ عليَّ من جنباته ... إنَّ الحديثَ عن الحبيبِ حبيبُ
ملأَ الضلوعَ وفاضَ عنْ أجنابها ... قلبٌ إذا ذُكِرَ الحبيبُ يـذوبُ
ما زالَ يخفِقُ ضاربًا بجَناحِهِ ... يا ليتَ شعري هلْ تطيرُ قلوبُ؟!

وقال الشاعر :

خطراتُ ذكْري تستثيرُ مودَّتي ... وأحسُّ منها في القلوبِ دبيبَا
لا عضـوَ لي إلّا وفـيهِ محبَّةٌ ... فكأنَّ أعضـائي خُلِقنَ قلـوبَا

الرابع : إيثارُ محابّه على محابِّك عند غَلَبَات الهوىٰ ، والتسنُّم إلى محابِّه وإن صعُب المرتقىٰ .

الخامس : مطالعة القلْب لأسمائه وصفاته ، ومشاهدتها ومعرفتها ، وتقلُّبه في

رياض هذه المعرفة ومباديها ، فمَن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبَّه لا محالة .

عن عائشة : أنَّ رسول الله ﷺ بعث رجلًا على سرية[١]، فكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ ﴿ **قُلْ هو الله أحد** ﴾ ، فلمَّا رجعوا ذكَروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « سلوه : لأيِّ شيء يَصنع ذلك ؟ » . فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمٰن ؛ فأنا أحبُّ أن أقرأ بها . فقال رسول الله ﷺ : « أخبِروه أن الله يحبُّه »[٢] .

السادس : مشاهدة برِّه وإحسانه وآلائه ، ونعمه الظاهرة والباطنة .

السابع – وهو من أعجبها –: انكسار القلب بين يدي الله تعالى ، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات .

قال الفضل الرقاشي : والله لو جُمع للعابدين جميعُ لذَّات الدنيا بحذافيرها ؛ لكانَ امتهانُ أنفسهم لله بطاعته ألذَّ وأحلى عندهم من ذلك .

الثامن : الخلوة به وقتَ النزول الإلٰهي ، لمناجاته وتلاوة كلامه . والوقوف بالقلب والتأدُّب بأدب العبودية بين يديه ، ثم ختْمُ ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع : مجالسة المحبِّين والصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما يُنتقى أطايبُ الثمر ، ولا تتكلّم إلّا إذا ترجَّحت مصلحة الكلام ، وعلمتَ أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك .

العاشر : مباعدة كلِّ سببٍ يحول بين القلب وبين الله عز وجل . فمن هذه الأسباب العشرة وصَل المحبُّون إلى منازل المحبَّة ، ودخلوا على الحبيب ... ومِلاك ذلك كلِّه أمران :

---

(١) السرية : هي القطعة من الجيش ، سُمِّيت سرية ؛ لأنها تسري في خُفْيَة .

(٢) متفق عليه .

١ - استعداد الروح لهذا الشأن :

بدمِ المحبِّ يُباعُ وصْلُهُمُ فمنِ الذي يبتاعُ بالثَّمَنِ

أو كما قالوا :

أنتَ القتيلُ بكلِّ من أحْبَبْتَهُ فاخترْ لنفسِكَ في الهوىٰ مَن تصطفي

٢ - وانفتاح عيْن البصيرة . وبالله التوفيق »[1].

الحادي عشر : قطْع علائق الدنيا ، وإخراج حبِّ غير الله من القلب ؛ فإن القلب مثل الإناء لا يتسع للخلِّ مثلًا ما لم يخرج منه الماء ؛ ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبيْن في جوفه** ﴾ [الأحزاب : ٤] وكمال الحبِّ في أن يحبَّ اللهَ عز وجل بكل قلبه ، وما دام يلتفت إلى غيره فزاويةٌ من قلبه مشغولة بغيره . فبقدر ما ينشغل بغير الله ينقص منه حبُّ الله .

الثاني عشر : قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها ؛ يجري مجرىٰ وضْع البذْر في الأرض بعد تنقيتها ، ثم يتولَّد من هذا البذر شجرة المحبَّة والمعرفة . ولا يُوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب ، إلا بالفكْر الصافي والذكر الدائم ، والجدِّ البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله ، وفي صفاته وفي ملكوتِ أسمائه وسائر مخلوقاته .

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى :

الأقوياء : ويكون أول معرفتهم بالله تعالى ، ثم به يعرفون غيره ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **أو لم يكفِ بربِّك أنه على كلِّ شيء شهيد** ﴾ [فصلت: ٥٣] ، وبقوله تعالى : ﴿ **شهِد الله أنه لا إله إلا هو** ﴾ [آل عمران : ١٨] . وقول الصالح : « عرفتُ ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفتُ ربي » .

---

(١) مدارج السالكين بتصرُّف ، ١٧/٣ - ١٨ .

والضعفاء : ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقّون منها إلى الفاعل . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحقُّ** ﴾ [فصلت : ٥٣] وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرآن ، عند الأمر بالتدبُّر والتفكُّر والاعتبار .

والمعرفة بحْرٌ لا ساحل له ، فلا جَرَم أنَّ تفاوت أهل المعرفة في الحب لا حصْرَ له .

قال بديل بن ميسرة : من عرَف ربَّه أحبَّه ، ومن عرَف الدنيا زهِد فيها .

وقال عبيد الله بن محمد التيمي : التفكُّر في نِعَم الله أفضل العبادة .

« وقال الحسن : أوصيكم بتقوىٰ الله عز وجل ، وإدمان التفكُّر ؛ فإنه مفتاح خِلال الخير كله ، وبه يخصُّ اللهُ كلَّ موفَّق . واعلموا أن خير ما ظفر به مدرك من تفكَّر بخالصة الله ، وشرب كأس حبِّه ، وإنّ أحباءَ اللهِ هُمُ الذين ظفروا بطيب الحياة ، وذاقوا لذَّة نعيمها ، بما وصلوا إليه من مناجاة حبيبهم ، وما وجدوا من حلاوة حبِّهِ في قلوبهم ، ولا سيما إذا خطر على بال أحدهم ذكْر مشافهته ، وكشْف ستور الحُجُب عنه في المقام الأمين ، والسرور الدائم ، وأراهم جلاله ، وأسمعهم لذَّة منطقه ، وردَّ عليهم جواب ما ناجَوه به أيّام حياتهم ، إذْ قلوبهم به مشغوفة ، وإذ مودَّتهم إليه معطوفة ، وإذْ هم له مُؤْثِرون ، وإليه منقطِعون ، فليُبْشر المصفُّون له وُدَّهم ، بالمنظر العجيب بالحبيب ، فوالله ما أراه يحلُّ لعاقلٍ ولا يجمُل به أن يستوعبه حبُّ أحدٍ سوىٰ حبِّ الله عز وجل »[1] .

لو تفكَّر الإنسان في قول مخلوق لمخلوق :

وكنتُ أرى أنْ قدْ تناهىٰ بيَ الهوىٰ ⁂ إلىٰ غايـة مـا فـوْقَـها لـي مـطلَـبُ

---

(١) استنشاق نسيم الأُنس ص٥٦ .

فلمَّا تلاقَيْنا وعايَنْتُ حُسْنَها ... تيقَّنتُ أني إنما كنتُ ألعَبُ

فكيف بالخالق الملك ، الحقِّ العظيم ، الذي لا يُقدَّر حقّ قدره ، ولا يحيط خلْقُه بهِ عِلْمًا ، ولا يُحصون ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه .

أمَا يكفينا قولُ ربِّنا لملائكته الذين يلتمسون مجالس الذكر : « فكيف لو رأوني ؟ » . فيقولون : لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة ، وأشدَّ لك تمجيدًا وتحميدًا ، وأكثر لك تسبيحًا .

السبب الثالث عشر : معاملة الله بالصدق والإخلاص ومخالفة الهوىٰ .

قال بِشْر الحافي : قال فتح الموصلي : مَن أدام النظر بقلبه ، ورَّثه ذلك الفرح بالمحبوب . ومَن آثره على هواه ورّثه ذلك حبَّه إياه . ومَن اشتاق إليه وزهد فيما سواه ، ورعىٰ حقَّه وخافه بالغيب ، ورَّثه ذلك النظرَ إلى وجهه الكريم .

السري السقطي من سادات المحبِّين الصادقين :

انظر رحمك الله إلى صدْق السري السقطي مع الله ، وكيف ورَّثه ذلك الحبَّ لله . فقد كان للسري دكّان فاحترق السوق الذي فيه الدكَّان ، و لم يحترق دكانه ، فأُخبر بذلك ، فقال : الحمد لله . ثم تفكَّر في ذلك ، فرأى أنه قد سُرَّ بعطبِ الناس وسلامته ، فتصدَّق بما في دكَّانه ، فشكر اللهُ له ذلك ورقّاه إلى درجة المحبَّة .

سئل رحمه الله عن حاله فأنشد :

مَن لم يبِتْ والحبُّ حشوُ فؤادِه ... لم يدرِ كيفَ تفتُّتُ الأكبادِ

« وبلغ من أمره أنه لمّا مرض رفع ماؤه إلى الطبيب ، فلمّا رآه الطبيب ، قال : هذا عاشق.فصُعق حامِل الماء ، وغُشي عليه .

ونظروا إلى جسده مرة وكان سقيمًا مضنيًا ، فقال : لو شئتُ أن أقول :

هذا كله من محبته ؛ لَقلتُ »[١] .

درجـاتُ المـحبَّة :

قال الهروي : « وهي على ثلاث درجات :

المحبة الأولى: محبَّة تقطعُ الوساوس، وتَلِذُّ الخدمة، وتُسَلّي عن المصائب»:

قال ابن القيم : « إن الوسواس والمحبَّة متناقضان . فإنَّ المحبَّة تُوجب استيلاء ذكْر المحبوب على القلب . والوساوس تقتضي غيبته عنه ، حتى توسوس له نفسُه بغيره . فبيْن المحبَّة والوساوس تناقُضٌ شديد ، كما بين الذكْر والغفلة ، فعزيمة المحبة : تنفي تردُّد القلب بن المحبوب وغيره ، وذلك سبب الوساوس . وهيهات أن يجد المحبُّ الصادق فراغًا لوسواس الغيْر ، لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه . وهل الوسواس إلّا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى ؟ ومن أين يجتمع الحبُّ والوسواس ؟!

لا كـان مَن لسـواكَ فيهِ بقـيّةٌ ... فيهـا يُقَـسِّـمُ فكـرَهُ ويسـوسُ

والمحبُّ يلتذُّ بخدمة محبوبه ، فيرتفع عن رؤية التعب الذي يراه الخلّي في أثناء الخدمة ، وهذا معلوم بالمشاهدة .

والمحبُّ يجد في لذَّة المحبة ما يُنسيه المصائب ، ولا يجد مِن مسِّها ما يجد غيره ، حتى كأنه قدِ اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلْق ، بل يقوى سلطان المحبَّة ، حتى يلتذّ المحبُّ بكثير من المصائب التي يُصيبه بها حبيبه أعظم من الْتذاذِ الخلي بحظوظه وشهواته ، والذوْق والوجود شاهد بذلك . والله أعلم »[٢].

قال الهروي : « وهي محبَّة تَنبتُ من مطالعة المنَّة ، وتثبت باتباع السُّنَّة ، وتنمو على الإجابة بالفاقة » .

---

(١) استنشاق نسيم الأُنس ص٥٥ .

(٢) مدارج السالكين ٣/٣٦ .

قال ابن القيم عنها: « تنشأ من مطالعة العبد منّة الله عليه ، ونعمه الباطنة والظاهرة ، فبقدْر مطالعته ذلك تكون قوة المحبة ؛ فإن القلوب مجبولة على حبٍّ من أحسن إليها ، وبُغْضِ مَن أساء إليها ، وليس للعبد قطُّ إحسان إلّا من الله ، ولا إساءة إلّا من الشيطان .

ومن أعظم مطالعة منّة الله على عبده : تأهيلُه لمحبَّته ومعرفته ، وإرادة وجهه ومتابعة حبيبه . وأصل هذا : نورٌ يقذفه الله في قلب العبد ؛ فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته ، أشرقت ذاته ، فرأى فيه نفسه ، وما أُهِّلَتْ له من الكمالات والمحاسن ، فعلَتْ به همته ، وقويت عزيمته ، وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه، فرقيتْ الروح حينئذٍ بين الهيْبة والأنس إلى الحبيب الأول .

نقِّلْ فؤادَك حيثُ شئْتَ مِنَ الهوىٰ ... ما الحبُّ إلّا للحبيب الأوَّلِ
كمْ منزلٍ في الأرضِ يألفهُ الفتىٰ ... وحنينُهُ أبدًا لأوّلِ منزلِ

وهذا النور كالشمس في قلوب المقرَّبين السابقين ، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين ، وكالنجم في قلوب عامَّة المؤمنين . وتفاوتهم فيه كتفاوت ما بين الزهرة والسُّهى .

وثبات هذه المحبة إنما يكون بمتابعة الرسول ﷺ في أعماله وأقواله وأخلاقه . فبحسب هذا الاتباع ؛ يكون منشأ هذه المحبَّة وثباتها وقوتها . وبحسب نقصانه يكون نقصانها . وهذا الاتباع يُوجب المحبَّة والمحبوبية معًا ، ولا يتمُّ الأمر إلا بهما . فليس الشأن في أن تحبَّ الله ، بل الشأن في أن يحبَّك اللهُ ، ولا يحبُّك الله إلّا إذا اتبعتَ حبيبه ظاهرًا وباطنًا ، وصدَّقته خبَرًا ، وأطعْتَه أمْرًا ، وأجبْته دعوة ، وآثرته طوْعًا ، وفنيت عن حكْمِ غيره بحكمه ، وعن محبَّة غيره من الخلْق بمحبَّته ، وعن طاعة غيره بطاعته ؛ وإن لم يكن ذلك فلا تتعنَّ ، وارجعْ من حيث شئتَ فالتمسْ نورًا ؛ فلستَ على

شيء . وتأمَّلْ قوله : ﴿ **فاتبعوني يحببْكُمُ الله** ﴾ [آل عمران : ٣١] أي الشأن في أن الله يحبُّكم ، لا في أنكم تحبُّونه ، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب ﷺ .

« وتنمو على الإجابة بالفاقة » : أن يجيب الدَّاعي بموفور الأعمال ، وهو خالٍ منها كأنه لم يعملها ، بل يجيب دعوته بمجرَّد الإفلاس والفقر التامِّ ؛ فإن طريقة الفقر والفاقة تأبى أن يكون لصاحبها عمل أو حال أو مقام ، وإنما يدخل على ربه بالإفلاس المحْض والفاقة المجرّدة ، ولا ريب أن المحبَّة تنمو على هذا المشهد ، وهذه الإجابة . وما أعزّه من مقام ، وأعلاه من مشهد ، وما أنفعه للعبد ، وما أجلبَه للمحبَّة . والله المستعان »[1] .

« **الدرجة الثانية : محبَّة تبعثُ على إيثار الحقِّ على غيره ، وتُلهِج اللسانَ بذكْره ، وتُعَلِّق القلب بشهوده ، وهي محبَّة تظهر من مطالعة الصفات ، والنظر إلى الآيات ، والارتياض بالمقامات** » :

قال ابن القيم : « هذه الدرجة أعلى ممَّا قبلها ، باعتبار سببها وغايتها . فإنَّ سبب الأولى : مطالعة الإحسان والمنّة ، وسبب هذه : مطالعة الصفات ، وشهود معاني آياته المسموعة ، والنظر إلى آياته المشهودة ، وحصول الملكة في مقامات السلوك ، وهو الارتياض بالمقامات ، ولذلك كانت غايتها أعلى من غاية ما قبلها .

ولكمالها وقوتها فإنها تقتضي من المحبِّ أن يترك لأجل الحقِّ ما سواه ، فيؤْثِره على غيره ، ولا يُؤْثر غيره عليه ، ويجعل اللسان لهِجًا بذكْره ، فإن مَن أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره ، وتعلَّق القلب بشهوده لفرْطِ استيلائه على القلب وتعلُّقه به حتى كأنَّه لا يشاهد غيره .

---

(١) مدارج السالكين ٣/٣٦ - ٣٨ .

وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات بإثباتها أولًا ، ومعرفتها ثانيًا ، ونفي التحريف والتعطيل عن نصوصها ثالثًا ، ونفي التمثيل والتكييف عن معانيها رابعًا . فلا يصحُّ له مطالعة الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة ، إلّا بهذه الأمور الأربعة ، وكلما أكثر قلبُه من مطالعتها ، ومعرفة معانيها ، ازدادت محبَّته للموصوف بها . ولذلك كانت الجهميَّة قُطَّاع طريق المحبَّة ، بين المحبِّين وبينهم السيْفُ الأحمر .

وقوله : « النظر إلى الآيات » : أي نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة ، وفي آياته المسموعة ؛ وكلّ منهما داعٍ قويٌّ إلى محبَّته سبحانه ؛ لأنها أدلة على صفات كماله ، ونعوت جلاله ، وتوحيد ربوبيَّتِهِ وإلٰهيته ، وعلى حكمته وبرِّه ، وإحسانه ولطفه ، وجوده وكرمه ، وسَعة رحمته وسبوغ نعمته ، فإدامة النظر فيها داعٍ - لا محالة - إلى محبّته .

وكذلك الارتياض بالمقامات ؛ فإنَّ مَن كانت له رياضة ومَلَكَة في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان ؛ كانت محبته أقوى ؛ لأن محبَّة الله له أتمُّ . وإذا أحبَّ الله عبدًا أنشأ في قلبه محبته »[1] .

وتوحيد المحبة والبقاء أكمل من توحيد الفناء ، وأعلى مقامًا وأجلُّ مشهدًا ، وهو مقام الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وخواصّ المقرَّبين . ولسان المحبة أتمُّ ، ومقامها أكمل ، وحالها أشرف ، وصاحبها من أهل الصَّحْو لا السُّكْرِ ، والتمكين لا التلوين ، والبقاء لا الفناء ، ولسانه نائب عن كلِّ لسان ، وبيانه وافٍ بكل ذوق ، ومقامه أعلى من كل مقام ، فهو أمين على كل مَن دونه من أرباب المقامات ؛ لأنَّ مقامه أميرٌ على المقامات كلِّها .

أمينٌ أمينٌ عليه الندىٰ   جوادٌ بخيلٌ بأنْ لا يجودا

(١) مدارج السالكين ٣/٣٨ - ٣٩ .

العبوديَّة مرتبةٌ عظيمةٌ من مراتبِ المحبَّة :

العبودية : مرتبة عظيمة من مراتب المحبَّة . قال ابن القيم رحمه الله : « حقيقة العبودية : الحبُّ التامُّ مع الذلِّ التامّ والخضوع للمحبوب . والعبد هو الذي ملك المحبوبُ رقّه ، فلم يبق له شيء من نفسه ألبتة ، بل كله عبدٌ لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا . وهذه هي حقيقة العبودية ، ومَن كمَّل ذلك فقد كمَّل مرتبتها . ولمَّا كمَّل سيد ولد آدم ﷺ هذه المرتبة ؛ وصفه الله بها في أشرف مقاماته :

مقام إنزال الكتاب عليه : ﴿ **تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده** ... ﴾ [الفرقان: ١] . وقال تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب** ... ﴾ [الكهف : ١] .

ومقام الإسراء : كقوله : ﴿ **سبحان الذي أسرىٰ بعبده** ... ﴾ الآية [الإسراء : ١] .

ومقام الدعوة : كقوله : ﴿ **وأنه لمّا قام عبد الله يدعوه** ... ﴾ الآية [الجن : ١٩] .

ومقام التحدي : كقوله : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزَّلْنا على عبدنا** ..﴾ الآية [البقرة : ٢٣] .

وبذلك استحقَّ التقديمَ على الخلائق في الدنيا والآخرة . وكذلك يقول المسيح عليه السلام إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : « اذهبوا إلى محمد ؛ عبد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر » .

سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه - يقول : فحصلتْ له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى ، وكمال مغفرة الله له » . اهـ .

فلا طريق أقرب إلى الله من العبودية ، ولا حجابَ أغلظ من الدعوى ، ولا ينفع مع الإعجاب والكِبْر عمل واجتهاد ، ولا يضرُّ مع الذلِّ والافتقار بطالة

بعد عمل الفرائض . « ومَن أراد السعادة الأبديَّة فليلزمْ عتبة العبودية » كما قال ابن تيمية .

مرتبة الخُلَّةِ أعلىٰ مقامات المحبَّة ، وهي للخليليْن محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم :

« الخلَّة » : هي المحبَّة التي تخلّلتْ روحَ المحبِّ وقلبَه ، حتى لم يبقَ فيه موضع لغير المحبوب ، كما قيل :

قدْ تخلّلْت مسلَكَ الروحِ مني وبِذا سُمِّي الخليلُ خليلَا

وهذه المرتبة انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، كما صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «لو كنتُ متخذًا من أُمتي خليلًا دون ربي ، لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلًا ، ولكن الله اتخذ صاحبَكم خليلًا »(١) .

وقال ﷺ : « لو كنتُ متخذًا من أمتي خليلًا دون ربي ، لاتخذتُ أبا بكر خليلًا ، ولكن أخي وصاحبي »(٢) .

وقال ﷺ : « لو كنتُ متخذًا من أهل الأرض خليلًا ، لاتخذتُ ابنَ أبي قحافة خليلًا ، ولكن صاحبكم خليلُ الله »(٣) .

وقوله ﷺ : « إنَّ الله اتخذني خليلًا ، كما اتخذ إبراهيمَ خليلًا »(٤) .

ولهذه الخلَّة شأن عظيم ، وهي السرُّ الذي لأجله - واللهُ أعلم - أُمر الخليلُ بذبْح ولده وثمرة فؤاده وفلذة كبده ؛ لأنه لمّا سألَ الولدَ فأعطيه ، تعلَّقت به شعبة من قلبه ، و « الخلَّة » مَنصبٌ لا يقبل الشركة والقسمة ، فغار الخليل على خليله أن يكون في قلبه موضعٌ لغيره ، فأمره بذبْح الولد ، ليُخرِجَ

---

(١) رواه مسلم عن ابن مسعود .
(٢) رواه البخاري ، وأحمد في مسنده عن ابن الزبير ، والبخاري عن ابن عباس .
(٣) رواه مسلم عن ابن مسعود .
(٤) رواه مسلم والحاكم في المستدرك عن جندب بن سمرة .

المزاحِمَ من قلبه ، فلمَّا وطَّن نفسه على ذلك ، وعزم عليه عزمًا جازمًا حصل مقصود الأمر ، فلم يبقَ في إزهاق نفس الولد مصلحة ، فحال بينه وبينه ، وفداه بالذبْح العظيم ، وقيل له : ﴿ **يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ [الصافات : ١٠٤ - ١٠٥] نجزي مَن بادر إلى طاعتنا ، فنقرُّ عيْنَه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا ، وإبقاء الولد وسلامته ، ﴿ **إنَّ هذا لهوَ البلاءُ المبين** ﴾ .

وهذه الدعوة إنما دعا إليها بها خواصَّ خلْقه ، وأهل الألباب والبصائر منهم ، فما كلُّ أحدٍ يجيب داعيها ، ولا كل عين قريرة بها .

فما كلُّ عيْن بالحبيبِ قريرةٌ … ولا كلُّ مَن نُودي يُجيبُ المناديا
ومَن لا يُجِبْ داعي هُداكَ فخلِّهِ … يُجِبْ كلَّ مَن أضحىٰ إلى الغيِّ داعيا
وقلْ للعيونِ الرمْدِ إياكِ أنْ تريْ … سنا الشمسِ فاستغشي ظلام اللياليا
وسامِحْ نفوسًا لم يهبْهَا لحُبِّهمْ … ودعْها وما اختارت ولا تكُ جافيا
وقلْ للذي قد غاب يكفي عقوبةً … مغيبُكَ عنْ ذا الشانِ لو كنتَ واعيا
وواللهِ لو أضحىٰ نصيبك وافرًا … رحمتَ عدوًّا حاسِدًا لكَ قاليا
ألمْ ترَ آثارَ القطيعةِ قدْ بدتْ … على حالِه فارحمْهُ إنْ كنتَ رائيا
خفافيشُ أعشاها النهارُ بضوْئِهِ … ولاءمها قطْعٌ من الليلِ باديا
فجالتْ وصالتْ فيه حتى إذا النها … ر بدا استخفتْ وأعطتْ تواريا
فيا محنةَ الحسناءِ تهدىٰ إلى امرئ … ضريرٍ وعِنِّينٍ من الوجْدِ خاليا
إذا ظُلْمةُ الليلِ انجلتْ بضيائها … يعودُ لعيْنيه ظلامًا كما هيا
فضِنَّ بها إنْ كنتَ تعرفُ قدرها … إلى أن ترىٰ كُفؤًا أتاك موافيا
فما مَهْرُها شيءٌ سوىٰ الروحِ أيُّها الْـ … ـجبانُ تأخّرْ لستَ كُفُؤًا مساويا
فكنْ أبدًا حيثُ استقلَّتْ ركائبُ الْـ … ـمَحَبَّة في ظهْرِ العزائمِ ساريا
وأَدْلجْ ولا تخشَ الظلامَ فإنَّهُ … سَيكفيكَ وجهُ الحِبِّ في الليل هاديا
وسُقْها بذكراهُ مطاياكَ إنهُ … سيكفي المطايا طِيبُ ذكراهُ حادِيا

وعِدْها بِرُوحِ الوصْلِ تُعطيكَ سيرَها فما مَشِيتْ واستَبْقِ العظامَ البواليا
وأقدِمْ فإمَّا مُنيةٌ أو منيَّةٌ تريحكَ من عيْشٍ بهِ لسْتَ راضيا
فما ثَمَّ إلّا الوصْلُ أو كَلَفٌ بهمْ وحسبُكَ فوْزًا ذاكَ إنْ كنتَ واعيا
ولمّا ادَّعيتُ الحبَّ قالتْ : كذبتَني فما لي أرى الأعضاءَ منك كواسيا
فلا حبَّ حتى يلصقَ القلبُ بالحشا وتذبُل حتى لا تجيب المناديا
وتنحلَ حتى لا يبقِّي لكَ الهوىٰ سوىٰ مقلةٍ تبكي بها وتناجيا

نعمْ .. إمَّا أنْ تموتَ بدائك ، وإما أن تصل إلى دوائك .

أطيبُ الحياةِ أنْ تكونَ مُحِبًّا لله محبوبًا :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : مَن عادىٰ لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب ، وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضتُه عليه ، ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليّ بالنوافل حتى أُحبَّه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يُبصر به ، ويده التي يَبطِشُ بها ، ورِجْلَه التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذ بي لأُعيذنَّه ، وما تردَّدتُ عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفْس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته »[1] .

قال ابن القيم : « أطيب الحياة : حياة هذا العبد ؛ فإنه محبٌّ محبوب ، متقرِّب إلى ربه ، وربُّه قريب منه ، قد صار له حبيبَه لفرط استيلائه على قلبه ، ولهجه بذكْره ، وعكوف همته على مرضاته ، بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله ، وهذه آلات إدراكه وعمله وسعيه ؛ فإنْ سمِع سمِع بحبيبه ، وإنْ أبصرَ أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به .

فإن صعب عليك فهْمَ هذا المعنى ، وكوْن المحب الكامل المحبَّة يسمع

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » . كتاب الرقائق . باب التواضع .

ويبصر ويبطش ويمشي بمحبوبه ، وذاته غائبة عنه ؛ فاضربْ عنه صفْحًا ، وخلِّ هذا الشأن لأهله .

خلِّ الهوىٰ لأناس يُعرَفونَ بِهِ قدْ كابَدُوا الحُبَّ حتى لانَ أصعَبُهُ

فإنّ السالِك إلى ربِّه لا تزال همَّته عاكفة على أمريْن : استفراغ القلب في صدق الحبِّ ، وبذْل الجهد في امتثال الأمر ، فلا يزال كذلك حتى يبدو على سرِّه شواهد معرفته ، وآثار صفاته وأسمائه ، ولكن يتوارى عنه ذلك أحيانًا ، ويبدو أحيانًا ؛ يبدو مِنْ عيْن الجود ، ويتوارىٰ بحكم الفتْرة . والفترات أمرٌ لازم للعبد، فكل عامل له شرَّة، ولكل شرّة فتْرة، فأعلاها فترة وهي للأنبياء ، وفترة الحال الخاصِّ للعارفين ، وفترة الهمّة للمريدين ، وفترة العمل للعابدين . وفي هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة ، والتعرُّفات الإلٰهية ، وتعريف قدر النعمة ، وتجديد الشوق إليها ، ومحض التواجد إليها وغير ذلك .

ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد حتى تستقرّ ، وينصبغ بها قلبه ، وتصير الفترة غير قاطعة له ، بل تكون نعمة عليه وراحة له ، وترويحا وتنفيسًا عنه .

فهمَّة المحبِّ إذا تعلَّقت روحه بحبيبه ، عاكفًا على مزيد محبَّته وأسباب قوتها ، فهو يعمل على هذا ، ثم يترقَّى منه إلى طلب محبَّة حبيبه له ، فيعمل على حصول ذلك ، ولا يعدم الطلب الأول ولا يفارقه ألبتة ، بل يندرج في هذا الطلب الثاني ، فتتعلَّق همَّته بالأمريْن جميعًا ؛ فإنه إنما يحصل له منزلة « كنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به » بهذا الأمر الثاني وهو كونه محبوبًا لحبيبه ؛ كما قال في الحديث : « فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه وبصره ... » إلخ . فهو يتقرّب إلى ربِّه حِفظًا لمحبته له ، واستدعاءً لمحبَّة ربِّه له .

فحينئذٍ يشدُّ مِئزر الجدِّ في طلب محبَّة حبيبه له ، بأنواع التقرُّب إليه ؛ فقلبه للمحبَّة والإنابة والتوكُّل والخوف والرجاء ، ولسانه للذكر وتلاوة كلام حبيبه ، وجوارحه للطاعات ؛ فهو لا يفتر عن التقرُّب من حبيبه .

وهذا هو السير المفضي إلى هذه الغاية التي لا تُنال إلا به . ولا يُتوصَّل إليـها إلّا مِن هـذا الباب وهـذه الطريق ، وحينئذ تُجمع له في سيره جميعُ متفرقات السلوك ؛ من الحضور ، والهيبة ، والمراقبة ، ونفي الخاطر ، وتخلية الباطن .

فإنَّ المحبَّ يشرع - أولًا - في التقربات بالأعمال الظاهرة ، وهي ظاهر التقرُّب ، ثم يترقَّى من ذلك إلى حال التقرُّب ، وهو الانجذاب إلى حبيبه بكلِّيَّته ، بروحه وقلبه ، وعقله وبدنه ، ثمَّ يترقّى من ذلك إلى حال الإحسان ، فيعبد الله كأنه يراه ، فيتقرَّب إليه حينئذٍ من باطنه بأعمال القلوب ؛ من المحبة والإنابة والتعظيم والإجلال والخشية ، فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذْل الروح ، والجود في محبَّة حبيبه بلا تكلف ، فيجود بروحه ونفسه ، ونَفَسه وإرادته ، وأعماله لحبيبه ، حالًا لا تكلُّفًا . فإذا وجد المحبُّ ذلك فقد ظفِر بحال التقرُّب وسرِّه وباطنه . وإنْ لم يجده فهو يتقرّب بلسانه وبدنه وظاهره فقط ، فليدُمْ على ذلك ، وليتكلَّفِ التقرُّب بالأذكار والأعمال على الدوام ، فعسَاه أن يحظَى بحال القرْب .

ووراء هذا « القرب الباطن » أمر آخر أيضًا ، وهو شيء لا يُعبَّر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلْق إلى الله ؛ رسول الله ﷺ عن هذا المعنى ؛ حيث يقول حاكيًا عن ربِّه تبارك وتعالى : « مَن تقرَّب منِّي شبرًا تقربتُ منه ذراعًا ، ومَن تقرّب مني ذراعًا تقربتُ منه باعًا ، ومَن أتاني يمشي أتيتُه هَرْولةً » . فيجد هذا المحب في باطنه ذوْق معنى هذا الحديث ذوقًا حقيقيًّا .

فذكر مِن مراتب القرْب ثلاثة ، ونبّه به على ما دونها وما فوقها ، فذكر

تقرُّب العبد إليه بالبِّر ، وتقرُّبه سبحانه إلى العبد ذراعًا ، فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرُّب انتقل منه إلى تقرُّب الذراع ، فيجد ذوق تقرُّبِ الربِّ إليه باعًا ، فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثاني ؛ أسرَع المشي حينئذٍ إلى ربّه ، فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولةً ، وهاهنا منتهى الحديث . منبِّهًا على أنه إذا هرول عبده إليه كان قربُ حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه . فإمَّا أن يكون قد أمسَكَ عن ذلك لعظيمِ شاهدِ الجزاء ، أو لأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بَشَر ، أو إحالةً على المراتب المتقدِّمة . فكأنه قيل له : وقِسْ على هذا . فعلى قدْر ما تبذل منك متقرِّبًا إلى ربِّك يتقرَّب إليك بأكثر منه . وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور في مراتبه ؛ أي : مَن تقرَّب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه ، وإرادته وأقواله وأعماله ؛ تقرَّب الربُّ منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرُّب عبده إليه .

ولله درُّ القائل :

ما زلتُ أُنزلُ مِنْ ودادِكَ منزلًا   تتحيَّرُ الألبابُ عندَ نزولِهِ

وليس القرْب في هذه المراتب كلِّها قرْبَ مسافة حِسِّيَّة ولا مُماسَّة ، بل هو قرب حقيقي ، والربُّ تعالى فوق سماواته على عرشه والعبد في الأرض ، وهذا الموضع هو سرُّ السلوك وحقيقة العبودية .

وملاك هذا الأمر : هو قصد التقرُّب أولًا ، ثم التقرُّب ثانيًا ، ثم حال القرْب ثالثًا وهو الانبعاث بالكليَّة إلى الحبيب .

وحقيقة هذا الانبعاث : أن تفنى بمراده عن هواك ، وبما منه عن حظِّك ، بل يصير ذلك هو مجموع حظِّك ومرادك ، وقد عرفت أنَّ من تقرَّب إلى حبيبه بشيء جُوزي على ذلك بقرْبٍ هو أضعافه . وعرفتَ أن أعلى أنواع التقرُّب : تقرُّب العبدِ بجملته - بظاهره وباطنه - وبوجوده إلى حبيبه . فمن فعَل ذلك فقد تقرَّب بكلِّه ، ولم تبقَ منه بقيَّة لغير حبيبه ؛ كما قيل :

لا كان من لسواك فيهِ بقيةٌ   يجدُ السبيلَ بها إليه العُذَّلُ

وإذا كان المتقرَّب إليه بالأعمال يعطي أضعاف أضعافِ ما تُقُرِّب به ، فما الظنُّ بمن أُعطي حالَ التقرُّب وذوْقه ووجده ؟! فما الظنُّ بمن تقرّب إليه بروحه ، وجميع إرادته ، وهمته وأقواله وأعماله ؟! .

وهذه الحياة : هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة ، فمن فقدها ففقْده لحياته الطبيعيَّة أولى به .

هٰذي حياة الفتى فإن فُقِدتْ ففقْدُهُ للحياةِ أليقُ بِهِ

فلا عيش إلا عيش المحبِّين الذين قرَّت أعينهم بحبيبهم ، وسكنت نفوسهم إليه ، واطمأنت قلوبهم به ، واستأنسوا بقرْبهِ ، وتنعَّموا بحبِّه ، ففي القلب فاقة لا يسدُّها إلّا محبة الله والإقبال عليه والإنابة إليه ، ولا يلمُّ شعثهُ بغير ذلك ألبتة . ومن لم يظفر بذلك فحياتهُ كلها همومٌ وغمومٌ ، وآلامٌ وحسَرات . فإنه إن كان ذا همة عالية تقطَّعت نفسه على الدنيا حسَرات ؛ فإن همته لا ترضىٰ فيها بالدُّون ، وإن كان مهينًا خسيسًا فعيْشُه كعيْشِ أخسِّ الحيوانات . فلا تقرُّ العيون إلّا بمحبَّة الحبيب الأول .

أبو بكر الصِّدِّيق يسبقُ الأمَّة بحبِّه لله :

عن بكر المُزَني قال : ما فاق أبو بكر أصحابَ محمدٍ ﷺ بصومٍ ولا صلاةٍ ؛ ولكن بشيءٍ وقَر في قلبه .

قال إبراهيم : بلغني عن ابن علية أنه قال في عقيب هذا الحديث : الذي كان في قلبه الحبُّ لله عز وجل والنصيحة لخلقه[1] .

ابن عمر يسأل اللهَ حبَّه :

كان ابن عمر يدعو على الصفا والمروة وفي مناسكه : « اللهمَّ اجعلني

(١) استنشاق نسيم الأُنس ص١٣ لابن رجب الحنبلي - المكتب الإسلامي .

ممَّن يحبُّك ، ويحبُّ ملائكتك ، ويحبُّ رُسُلَك ، ويحبُّ عبادك الصالحين . اللهمَّ حبِّبْني إليك وإلى ملائكتك ، وإلى رُسُلك وإلى عبادِك الصالحين »[1] .

حكيـم بن حِـزام سيِّدٌ شعارُه الحبُّ :

كان رضي الله عنه يطوف بالبيت ويقول : لا إله إلا الله ، نِعْمَ الرب ونِعْمَ الإله ، أحبُّه وأخشاه[2] .

« وقال هرم بن حيَّان : المؤمن إذا عرف ربَّه عز وجل أحبَّه ، وإذا أحبَّه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعيْن الشهوة ، و لم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تُحسِّره في الدنيا وتروِّحه في الآخرة .

وقال أبو سليمان الداراني : إنَّ من خلْقِ الله خلْقًا ما يشغلهم الجِنانُ وما فيها من النعيم عنه ، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟! »[3] .

العبَّاسُ يُوصي ابنَه حبْرَ القرآن بحبِّ الله :

« عن عبد الله بن إبراهيم القرشي قال : لما نزل بالعباس بن عبد المطلب الموت ، قال لابنه عبد الله : إني موصيك بحبِّ الله وحبِّ طاعته ، وخوف الله وخوف معصيته ، وإنك إذا كنتَ كذلك لم تكره الموت متى أتاك »[4] .

سيروا إلى ربِّكم سيْرًا جميلًا :

قال خليد العصري : يا إخوتاه : هل منكم من أحد لا يحبُّ أن يلقىٰ حبيبه ؟ ألا فأحِبُّوا ربَّكم عز وجل وسيروا إليه سيرًا جميلًا ، لا مصعدًا ولا

---

(١) المصدر السابق ص٤١ .
(٢) استنشاق نسيم الأنس ص١٢٩ .
(٣) إحياء علوم الدين ٣١٣/٤ .
(٤) استنشاق نسيم الأنس ص١٢٨ .

مميلًا[1].

قال أبو سليمان الداراني : مَن كان اليوم مشغولًا بنفسه ، فهو غدًا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولًا بربِّه ، فهو غدًا مشغول بربه .

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني لغلامه : « يا غلام ، لا يكن همك ما تأكل وما تشرب وما تلبس ، وما تنكح وما تسكن وما تَجمع ، كل هذا همُّ النفس والطبع ، فأين همُّ القلب ؟! همُّك ما أهمَّك فليكنْ همّكَ ربّك عز وجلّ وما عنده » .

ولله درُّ القائل :

كانتْ لقلبيَ أهواءٌ مفرَّقَةٌ ... فاستجمعتْ مُذْ رآكَ القلبُ أهوائي
فصارَ يحسُدني مَن كنتُ أحسُدُهُ ... وصرتُ مولَى الورىٰ مُذْ صرتَ مولائي
تركتُ للناسِ دنياهمْ ولهوَهُمُ ... شُغلًا بحبِّك يا دِيني ودنيائي

وقال الشاعر :

أروحُ وقد ختمتَ على فؤادي ... بحبِّكَ أنْ يحلَّ به سواكا
فلو أني استطعتُ غضضْتُ طرْفي ... فلمْ أنظر به حتى أراكا
أُحبُّك لا ببعضي بل بكلِّي ... وإن لم يُبقِ حبُّك لي حِراكا
وفي الأحباب مختصٌّ بوجْدٍ ... وآخر يدَّعي معهُ اشتراكا
وكلٌّ يدَّعي حبًّا لربي ... وربي لا يُقرُّ لهم بذاكا
إذا اشتبكتْ دموعٌ في خدودٍ ... تبيَّنَ مَن بكىٰ ممَّن تباكىٰ
فأمَّا مَن بكىٰ فيذوبُ وجْدًا ... وينطقُ بالهوىٰ مَن قد تباكىٰ

---

(١) استنشاق نسيم الأنس ص١٢٧ ، حلية الأولياء ٢/٢٣٢ ، وصفة الصفوة ٣/ ٢٣٧ .

النفسُ المطمئنَّة هي المُحِبَّة لربِّها ، عندَ الحسَن البصري :

قال الحسن في قوله تعالى : ﴿ يأيَّتها النفسُ المطمئنة ﴾ [الفجر : ٢٧] : « النفس المؤمنة اطمأنت إلى الله واطمأنَّ إليها ، وأحبَّتْ لقاء اللهِ وأحبَّ لقاءَها ، ورضيتْ عن الله ورضي عنها ، فأمَر بقبْضِ روحها ، فغفر لها وأدخلها الجنة ، وجعلها من عباده الصالحين » .

همـمُ الأبـرار متصلَة بمحبَّة الرحمٰن :

وقال نعيم بن صبيح السعدي : همم الأبرار متصلة بمحبَّة الرحمٰن ، وقلوبهم تنظر إلى موضع العزِّ من الآخرة بنور أبصارهم .

طوبىٰ لقُلُوبٍ ملأتْها محبَّة الله :

وقال مسمع بن عاصم : سمعتُ عابدًا من أهل البحرين يقول في جوف الليل : قرَّة عيني وسرور قلبي !! ما الذي أسقطني من عينك يا مانح العصم .. ثم صرخ وبكىٰ ، ثم نادى : طوبى لقلوبٍ ملأتها خشيتُك ، واستولت عليها محبَّتك ، فمحبتك مانعة لها من كلِّ لذَّة غير مناجاتك والاجتهاد في خدمتك ، وخشيتك قاطعة لها عن سبيل كلِّ معصيةٍ خوفًا لحلول سُخْطك . ثم بكىٰ وقال : يا إخوتاه ، ابكوا على فوْت خَيْر الآخرة ؛ حيث لا رجعة ولا حيلة .

ضيْغَمُ بنُ مالكٍ المحبُّ الخائف :

قال ضيغم يومًا لمولًى له : « منعني - والله - حبُّ الله من الاشتغال بحبِّ غيره . ثم سقط مغشيًّا عليه »[١] .

« وكان رحمه الله يقول وهو ساجد : إلٰهي ، كيف عزَفَتْ قلوبُ الخليقة عنك ؟! وربما أصابتْه الفترة ، فإذا وجدَ ذلك اغتسَل ، ثم دخل بيتًا فأغلق بابه

---

(١) استنشاق نسيم الأنس ص١٣٣ .

وقال : إلٰهي ، إليك جئتُ .. فيعود إلى ما كان من الركوع والسجود .

قالت له أمه ذات يوم : ضيْغم .. قال : لبيكِ يا أماه . قالت : كيف فرحُك بالقدوم على الله ؟ فصاح صيحة لم يسمعوه صاحَ مثلَها قطُّ ، وسقط مغشيًّا عليه ، فجلسَتِ العجوز تبكي عند رأسه وتقول : بأبي أنت !! ما تستطيع أن نذكُر بين يديك شيئًا من أمْرِ ربك »(١) .

وكان كلاب بن جري العابد يقول في سجوده : وعزَّتِكَ ، لقد خالَطَ قلبي من محبَّتك ما يكلُّ لساني عمَّا أجد منه في نفسي .

دواءُ المحبِّين في الجبالِ لم يَنْبُت :

وقدِمتْ شعوانةُ العابدة وزوجها مكَّة ، فجَعَلا يطوفان ويصلِّيان ، فإذا كَلَّا وأعييا جلس وجلست خلفه ، فيقول في جلوسه : أنا العطشان من حبِّك ولا أُرْوَى . وتقول هي بالفارسية : يا سيدي ، أنبتَّ لكلِّ داءٍ دواءً في الجبال ، ودواءُ المحبِّين في الجبال لم ينبت .

ودخلوا على عابدٍ في البصرة وهو يجود بنفسه وهو يقول : أنا عطشانُ لم أروَ من حبِّ ربي ، وجائع لم أشبع من حبِّ ربي .

وفتح الموصلي من سادات المحبِّين :

وقال المعافى بن عمران : كلَّمتُ فتْحًا المَوْصلي في شيء ، فقال : لم تترك المحبَّة لله في قلوب أوليائه موضعًا لمحبة غيره .

عُتبةُ الغلام القائل : تُراكَ مولاي تعذِّب محبِّيك وأنت الحيُّ الكريم :

« قال سليم النحيف : رمقتُ عُتبة ذاتَ ليلة ، فما زاد ليلته تلك على

(١) صفة الصفوة ٣/٣٥٩ - ٣٦٠ .

هذه الكلمات : إنْ تعذِّبْني فإني لك محبٌّ ، وإن ترحمني فإني لك محبٌّ . فلم يزلْ يردِّدها ويبكي حتى طلع الفجر .

وقال محمد بن فهد المديني : كان عتبة يصلِّي هذا الليل الطويل ، فإذا فرغ رفَع رأسَه فقال : سيِّدي ، إن تعذِّبْني فإني أُحبُّك ، وإنْ تعفُ عني فإني أحبُّك .

وقال عنبسة الخوَّاص : بات عندي عُتبةُ ذات ليلة ، فبكى من السَّحَر بكاءً شديدًا ، فلمَّا أصبح قلتُ له : قد فزعتَ قلبي الليلة ببكائك ، ففيم ذاك يا أخي ؟ قال : يا عنبسة ، إني والله ذكرتُ يوم العرْض على الله . ثم مال ليسقط فاحتضنتُه ... فناديتُه:عتبة عتبة ، فأجابني بصوتٍ خَفيٍّ : قطَّع ذكْرُ يومِ العرْض على الله أوصالَ المحبِّين . قال : ويردِّده ، ثم جعل يحشرج البكاء ويردِّده حشرجةَ الموت ويقول : تُراك مولاي تعذِّب محبِّيك وأنت الحيُّ الكريم ؟! قال : فلمْ يزلْ يردِّدها حتى والله أبكاني .

وقال عُتبة رحمه الله : من سكن حبُّه قلبَه لم يجدْ حَرًّا ولا برْدًا . قال عبد الرحيم بن يحيىٰ الديبلي : يعني من سكن حبُّ الله قلبَه ، شغَله حتى لا يعرف الحرَّ من البرد ، ولا الحُلو من الحامض ، ولا الحارَّ من البارد .

وقال عتبة رحمه الله : مَن عرف الله أحبَّه ، ومن أحبَّ الله أطاعه ، ومن أطاع الله أكرمه ، ومَن أكرمه أسكنه في جواره ، ومن أسكنه في جواره فطوباه وطوباه ، وطوباه وطوباه . فلم يزل يقول : وطوباه.حتى خرَّ ساقِطًا مغشيًّا عليه .

وكان رحمه الله يقول : سبحان جبَّارِ السماءِ ، إن المحبَّ لفي عناء »[1] .

---

(١) حلية الأولياء ٦/٢٣٤ - ٢٣٦ .

يحيىٰ بن معاذ الرازي المحبُّ :

قال رحمه الله : « اللهمَّ لا تجعلنا ممن يدعو إليك بالأبدان ، ويهرب منك بالقلوب ، يا أكرم الأشياء علينا ، لا تجعلنا أهون الأشياء عليك » .

قال رحمه الله : « لو أدركتِ القلوب كنْه المحبَّة لخالقها ، لانخلعت مفاصلها وَلَهًا ، ولَطارت الأرواح إليه من أبدانها دهشًا . سبحان من أغفل الخليقَة عن كنْهِ هذه الأشياء ، وألهاهم بالوصف عن حقائق هذه الأنباء » .

وكان رحمه الله يقول : « يا من رجّاني في الطريق بنعمه ، وأشار لي في الورود إلى كرَمِه ، معرفتي بك دليلي عليك ، وحبِّي لك شفيعي إليك » .

وكان رحمه الله يقول : « هذا سروري بك خائفًا ، فكيف سروري بك آمنًا ؟! هذا سروري بك في المجالس ، فكيف سروري بك في تلك المجالس ؟! هذا سروري بك في دار الفناء ، فكيف سروري بك في دار البقاء ؟! » .

وانظر إلى هذا السيد المحبّ يحيىٰ بن معاذ ؛ كيف يستمطر الدمع حين يقول :

أموتُ بدائيَ لا يُصابُ دوائيا ... ولا فَرَجٌ ممَّا أرى في بلائيا
يقولونَ يحيىٰ جُنَّ من بعد صحَّةٍ ... ولا يعلم العُذّالُ ما في حشائيَا
إذا كان داء المرءِ حبّ مليكِهِ ... فمَن غيرَه يرجو طبيبًا مداويَا
ذروني وشأني لا تزيدوا كربتي ... وخلُّوا عناني نحو مولىٰ المواليا
ألا فاهجروني وارغبُوا في قطيعتي ... ولا تكشفوا عمَّا يجنُّ فؤاديا
كِلوني إلى المولـى وكُفُّوا ملامتي ... لآنسَ بالمولىٰ على كلِّ ما بيا

وقال رحمه الله : « عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟! ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبُّه ؟! وحبُّه يُدْهش العقول فكيف وُدُّه ؟! ووُدُّه يُنسي ما دونه فكيف لطفه ؟!

وقال رحمه الله : مثقال خرْدلة من الحُبّ أحبُّ إليَّ من عبادة سبعين سنة بلا حبٍّ .

وقال رحمه الله : إلٰهي ، إني مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك ، صغيرًا أخذتَني إليك ، وسربلتَني بمعرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتَني في الأحوال ، وقلّبْتني في الأعمال سترًا وتوبة وزهْدًا ، وشوقًا ورضًا وحبًّا ، تسقيني من حياضك ، وتهملني في رياضك ، ملازمًا لأمرك ، ومشغوفًا بقولك ، ولمَّا طَرَّ شاربي ولاح طائري ، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرًا ، وقد اعتدْتُ هذا منك صغيرًا ، فلي ما بقيتُ حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ؛ لأني محبٌّ ، وكلُّ محبّ بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف »[1] .

وكان رحمه الله يقول : إلٰهي ، ذنبي إلى نفسي فأنا معناه ، وحبِّي لك هو لك فأنت معناه ، والحبُّ أعتقده لك طائعًا ، والذنبُ آتيه مني كارهًا ، فهَبْ كراهة ذنبي لطواعية حبي إنك أرحم الراحمين[2] .

وكان رحمه الله يقول : واسوأتاه منك إذا شاهدتَني وهمَّتي تسبق إلى سواك ، أم كيف لا أضني في طلب رضاك !!

وقال رحمه الله ، قلب المحبِّ يهيم بالطيران ، وتكلمه لدغاتُ الشَّوْق والخفقان .

وقال رحمه الله : « لو لم يسكنهم ببلواهُ لَطارت بهم نُعَماه ، ولم يصل إليه من لم يرضَ بقسْمه ، ولم يعرفه من لم يتمتع بنعمه ، ولم يحبه مَنْ لم يتِهْ في كرمه .

---

(١) الإحياء ٣١٣/٤ .

(٢) حلية الأولياء ٥١/١٠ - ٥٢ .

وقال : حين خاطروا بالنفوس اقتربوا ، وهذا طعْم الخبَر فكيف طعْم النظر ؟!

وقال : أولياؤه أُسراءُ نِعَمه ، وأصفياؤه رهائنُ كرمه ، وأحبَّاؤه عبيد مِنَنِهِ ، فهم عبيد محبَّةٍ لا يُعتقون ، ورهائن كرَمٍ لا يُفكُّون ، وأسراء نعم لا يُطلَقُون .

وقال رحمه الله في وصف المحبّين : قوم على فرش من الذِّكْر ، في مجلس من الشَّوْق ، وبساتين من المناجاة ، بين رياض الأطراب ، وقُصور الهيْبة وفناء مجلس الأنس ، معانقي عرائس الحكمة بصدور الأفهام ، مناعي زفرات الوجد وجوه الآخرة بفنون الأفراح ، تعاطوا بينهم كأس حبِّه ، سقاهم فيها ، وغَوَتْهم على شرْبها فرقان الشجي ، تجري في الأكباد تُديم عليهم ذكْر الحبيب ، ويلبلهم معها هيمان الوجود .

طرب الحبّ على الحبِّ مع الحبِّ يدومْ
عجبًا لمن رأينا ه على الحبِّ يلومْ
حوْلَ حبِّ اللهِ ما عشـ ـتُ معَ الشوْقِ أحومْ
وبه أقعُدُ ما عشْـ ـتُ حياتي وأقومْ

وقال أيضًا رحمه الله :

نفسُ المحبِّ إلى الحبيبِ تَطلَّعُ وفؤادُه مِن حبِّه يتقطَّعُ
عزَّ الحبيبُ إذا خلا في ليلهِ بحبيبه يشكو إليه ويضرَعُ
ويقومُ في المحرابِ يشكو بثَّهُ والقلبُ منه إلى المحبَّةِ ينزعُ »[1]

سمنون بن حمزة الخوَّاص :

قال ابن رجب : « كان سمنون شديد المحبَّة . ويُقال : إنه تكلَّم يومًا في

(١) انظر ترجمة يحيى في الحلية ، ١٠/٥١ - ٧٠ .

المحبَّة فاصطفقتْ[١] قناديلُ المسجد حتى تكسَّرت ، وأنه تكلَّم يومًا فيها فجاء طائر يضرِبُ بمنقاره الأرض حتى مات »[٢] .

وكان رحمه الله يقول :

يا مَنْ فـؤادي عليـهِ مـوقـوفُ ... وكـلُّ هـمِّي إليـهِ مـصـروفُ
يا حسـرتي حسـرة أمـوتُ بهـا ... إنْ لـم يكنْ لـي لديـكَ معروفُ

وقال رحمه الله :

كأنَّ رقيبًا منكَ يرعىٰ خواطري ... وآخـر يرعىٰ ناظري ولسـانيا
فما خطرَتْ من ذكْرِ غيركَ خطرةٌ ... على القلبِ إلّا عـرَّجا بعنانيا[٣]

وقال :

لقدْ كانَ يسبي القلبَ في كلِّ ليلةٍ ... ثمانون بلْ تسعون نفْسًا وأرجحُ
يهيمُ بهـذا ثـمَّ يألـفُ غيـرَهُ ... ويسـلُوهُمُ من فوْرهِ حين يُصبحُ
وقد كان قلبي خاليًا[٤] قبلَ حُبِّكُمْ ... وكان بحبِّ الخلْق يلهـو ويمـرحُ
فلمَّا دعا قلبي هـواك أجابَـهُ ... فلسـتُ أراهُ عن حيائـك يبـرحُ
حُرِمتُ منايَ منك إن كنتُ كاذبًا ... وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرحُ
وإنْ كان شيءٌ في الوجود سـواكمُ ... يَقَرُّ بهِ القلـبُ الجريـحُ ويفـرحُ
إذا لعبتْ أيدي الهوىٰ بمُحبِّكُـمْ ... فليسَ لهُ عنْ بابِكـمْ مُتَزَحْـزَحُ
فإنْ أدركتْهُ غـرْبةٌ عنْ ديارِكُـم ... فحبُّكمْ بينَ الحشَا ليـسَ يَبـرحُ
وكمْ مشترٍ في الخلْقِ قد سامَ قلبُهُ ... فلـمْ يـرَهُ إلّا لحبِّـك يَصلـحُ
هوىٰ غيركُمْ نارٌ تلظَّىٰ ومَحْبـس ... وحُبُّكُمُ الفردوسُ بلْ هو أفسـحُ

(١) أي : اضطربتْ .
(٢) استنشاق نسيم الأنس ١٣٤ - ١٣٥ .
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٩/٢٣٥ .
(٤) وفي أخرى : ضائعًا .

فيا ضيْم قلب قدْ تعلَّق غيرَكُمْ ويا رحمةً مما يجولُ ويكدحُ

« وقال له بعض الخلفاء : يا سمنون ، كيف وصلتَ إليه ؟ قال : ما وصلتُ حتى عملتُ ستَّة أشياء : أمَتُّ ما كان حيًّا وهو النفْس ، وأحييتُ ما كان ميتًا وهو القلب ، وشاهدتُ ما كان غائبًا وهو الآخرة ، وغيَّبتُ ما كان شاهدًا وهي الدنيا ، وأبقيتُ ما كان فانيًا وهو المراد ، وأفنيتُ ما كان باقيًا وهو الهوىٰ ، واستوحشتُ ممَّا تستأنسون ، وأنِسْتُ مما تستوحشون .

رُوحي إليك بكلِّها قدْ أَجْمعتْ لو أَنَّ فيك هَلاكَها ما أَقْلعتْ
تبكي عليكَ بكُلِّها في كلِّها حتى يُقالَ مِنَ البكاءِ تقطّعتْ

وله أيضًا :

لطائفُ برِّك ما تنقضي وطاعاتُ خلْقِكَ ليستْ تضِي
تقاضَوْك بَرًّا فأوفيتَهُمْ ولم يقتضُوا لكَ ما يقتضي
وما تُبصرُ العَيْنُ يا سيِّدي سوىٰ ما تحبُّ وما ترتضي

وقال :

حرامٌ على قلبٍ تحرمَ بالهوىٰ يكونُ لغيْرِ الحقِّ فيهِ نصيبُ
تفرَّدَ فيهِ فانفردتُ بحبِّهِ فصارَ عليَّ شاهد ورقيبُ

وقال :

بين المحبِّين سرٌّ ليسَ ينسبهُ قولٌ ولا قلمٌ في الخلْق يحكيهِ

وقال :

الحبُّ شيءٌ لطيفٌ ليسَ يُدركُهُ عقلٌ لإدراكه عزٌّ وتدبيرُ
لكنَّه في مجاري السرِّ يعرفُهُ أهلُ الإشارةِ لا كيْفٌ وتقديرُ

وقال :

ألستَ لي عوضًا مني كفىٰ شرفًا فما وراءَكَ لي حظٌّ ومطلوب »[1]

---

(١) عقلاء المجانين للحسن بن حبيب النيسابوري ص١٠٩ - ١١١ . دار البصائر .

* لا تُخْدَعَنَّ فلِلْحبيبِ دلائلُ *

علاماتُ المحبِّ عالي الهِمَّة :

وحتى لا يدَّعي الخلي حُرْقةَ الشجيّ ، فما أسهل الدعوىٰ وما أعزَّ المعنى ؛ فالمحبَّة شجرة طيبة أصلُها ثابتٌ وفرْعُها في السماء ، وثمارها تظهر في القلب واللّسان والجوارح .

قيل للبيضاءِ بنتِ الفضْل : هلْ للمحبِّ للهِ دلائلُ يُعرفُ بها ؟ فقالت : والمحبُّ للسيِّد لا يخفىٰ ، لو جهد المحبُّ للسيِّد أن يخفىٰ ما خَفِي . فقيل لها : صِفيه . قالت : لو رأيت المحبَّ لله - عز وجلَّ - لرأيت عجبًا ؛ من والهٍ ما يقرُّ على الأرض ، طائر مستوحِش ، أُنْسُه في الوحدة ، قد مُنِع الراحة ، طعامه الحُبُّ عند الجُوع ، وشرابُه الحُبُّ عند الظمأ ، لا يملُّ من طول الخدمة لله تعالى .

قال أبو تراب النخشبي :

لا تُخْدَعَنَّ فللحبيبِ دلائلُ ... ولديهِ من تُحَفِ الحبيبِ وسائلُ
منها تنعُّمُهُ بمرِّ بلائِهِ ... وسروره في كلِّ ما هو فاعلُ
فالمنْعُ مِنهُ عطيَّةٌ مقبولةٌ ... والفقرُ إكرامٌ وبِرٌّ عاجِلُ
ومِنَ الدلائل أنْ ترىٰ مِن عزمِهِ ... طوْعَ الحبيبِ وإنْ ألحَّ العاذِلُ
ومِن الدلائل أن يُرىٰ متبسِّمًا ... والقلبُ فيهِ مِنَ الحبيبِ بلابلُ
ومِن الدلائل أنْ يُرى متفهِّمًا ... لكلامِ مَن يحظىٰ لديهِ السائلُ
ومن الدلائل أنْ يُرىٰ متقشِّفًا ... متحفِّظًا من كلِّ ما هو قائلُ

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أنْ تراه مُشَمِّرًا ... في خِرقتيْن على شطوط الساحلِ
ومن الدلائل حزنُهُ ونحيبُه ... جوْفَ الظلامِ فما لهُ من عاذِلِ
ومن الدلائل أن تراهُ مسافِرًا ... نحوَ الجهادِ وكلِّ فعْلٍ فاضلِ

ومنَ الدلائلَ زهدُه فيما يرىٰ   من دار ذل والنعيم الزائلِ
ومن الدلائل أنْ تراهُ باكيًا   أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراهُ مُسَلِّمًا   كلَّ الأمور إلى المليكِ العادلِ
ومن الدلائل أنْ تراهُ راضيًا   بمليكِهِ في كلِّ حكْمٍ نازِلِ
ومن الدلائل ضحكُهُ بين الورَىٰ   والقلبُ محزونٌ كقلْبِ الثاكِلِ

« قال الله تعالى : ﴿ **يأيُّها الذين آمنوا مَن يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي اللهُ بقومٍ يحبُّهم ويحبُّونه أذلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل اللهِ ولا يخافون لوْمةَ لائم ذلك فضْل اللهِ يُؤْتيهِ مَن يشاءُ واللهُ واسع عليم** ﴾ [المائدة : ٥٤].

وقال تعالى : ﴿ **قلْ إنْ كنتمْ تحبُّون اللهَ فاتبعوني يحببْكم اللهُ ويغفر لكم ذنوبَكم واللهُ غفور رحيم** ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فوصَفَ اللهُ سبحانه المحبِّين لهُ بخمسةِ أوصاف :

أحدها : الذلَّة على المؤمنين ، ولين الجانب ، وخفْضُ الجناح ، والرحمة والرأفة للمؤمنين. فالمحبُّ يذلُّ لمحبوبه ومحبوب محبوبه .

لِعَيْنٍ تفدَّىٰ ألفُ عينٍ وتتَّقىٰ   ويُكْرَمُ ألفٌ للحبيبِ المكرَّمِ

الثاني : العزَّة على الكافرين والشدَّة والغلْظَة عليهم ؛ سئلَ المرتعش : بِمَ تُنالُ المحبَّة ؟ قال : بموالاة أولياء اللهِ ، ومعاداة أعدائه .

الثالث : الجهادُ في سبيل الله ومجاهدة أعدائه باليد واللسان ؛ وذلك من تمام معاداة أعداء الله الذي تستلزمه المحبَّة . ودعاء الخلق إلى الله وردُّهم إليه .

قال إبراهيم بن أدهم : سمعت رجليْن من الزُّهَّاد يقول أحدهما للآخر : يا أخي ، ما ورث أهلُ المحبَّة من محبَّتهم ؟ قال : فأجابه الآخر : ورثوا النظر بنور الله ، والعطف على أهل معاصي الله . قال : فقلتُ له : كيف يعطفُ على

قوم قد خالفوا أمْر محبوبه ؟ فقال : مقتَ أعمالَهم ، وعطف عليهم ، ليزيلهم بالمواعظ عن فِعالهم ، وأشفق على أبدانهم من النار . لا يكون المؤمن مؤمنًا حقًّا حتى يرضى للناس ما يرضاه لنفسه .

الرابع : لا يخافون في الله لوْمة لائم ؛ والمراد أنهم يجتهدون فيما يَرضىٰ به الله من الأعمال ، ولا يبالون بلوْم مَن لامهم في شيء منه ، إذا كان فيه رضا ربِّهم .. ولله درُّ القائل :

وقفَ الهوىٰ بي حيث أنتَ فليسَ لي ... مُتَأَخَّرٌ عنه ولا مُتَقَدَّمُ
أجدُ الملامَة في هَواك لذيذةً ... حبًّا لذكْرك فلْيلمْني اللُّوَّمُ

الخامس : متابعة الرسول ﷺ وطاعته واتباعه في أمره ونهيه ، وليس الشأن أن تُحِبَّ إنما الشأن أن تُحَبَّ ، ولن يحبَّك الله حتى تتَّبعَ رسوله ﷺ .

وقال إبراهيم بن الجنيد : يُقال:علامة المحبِّ علىٰ صِدْق المحبَّة ستُّ خصال :

أحدُها : دوام الذكْر بقلْبِهِ بالسرور بمولاه .

والثانية : إيثاره محبَّة سيِّده على محبَّة نفسه .

والثالثة : الأنس به والاستثقال لكلِّ قاطع يقطعه عنه ، أو شاغل يشغله عنه .

والرابعة : الشوق إلى لقائه والنظر إلى وجهه .

والخامسة : الرضا عنه في كلِّ شدَّة وضُرٍّ ينزل به .

والسادسة : اتباع رسوله ﷺ .

قال سهل بن عبد الله التستري : من علامات حبِّ الله حبُّ القرآن ، وعلامة حبِّ الله وحبِّ القرآن حبُّ النبي ﷺ ، وعلامة حبِّ النبي ﷺ حبُّ السُّنَّة ، وعلامة حبِّ السنة حبُّ الآخرة ، ومن علامة حبِّ الآخرة بُغْضُ الدنيا ، وعلامة بُغْض الدنيا أنْ لا يأخذ منها إلا زادًا يبلّغه الآخرة .

ومِن علامة المحبَّة : أنَّ مَن أحبَّ الله تعالى لم يكن شيء عنده آثر من هواه ، ومَن أحبَّ الدنيا لم يكن شيءٌ عنده آثر من هوىٰ نفسه . والمحبَّة منتهىٰ القرْبة والاجتهاد ، ولن يسأم المُحِبُّون من طُول اجتهادهم لله عز وجل ، يحبُّونه ويحبُّون ذِكْره ، ويُحبِّبونه إلى خلقه ، ويمشون بين عباده بالنصائح ، ويخافون عليهم من أعمالهم يوم تبدو الفضائح ، أولئك أولياء الله وأحبَّاؤه وأهل صفوته ، أولئك الذين لا راحة لهم دون لقائه .

والعمل على المحبَّة لا يدخله الفُتُور :

قال أَحد العُبَّاد : إذا سَئم البطَّالون من بطالتهم ، فلنْ يسأمَ محبُّوك من مناجاتك وذِكْرك .

وعن جعفر المحوبي قال : وَليُّ اللهِ المحبُّ لله لا يخلو قلبُه من ذكْر ربِّه ، ولا يسأم من خدمته ، فإذا أعرض أعرض عنه ، وإذا أقبل إلى الله أقبل عليه الله برأفته ورحمته .

وقال الفضيلُ بن عِياض : الحبُّ أفضل من الخوف ؛ ألا ترى إذا كان لك عبدان أحدهما يحبُّك والآخر يخافك ، فالذي يحبُّك منهما ينصحك شاهدًا كنتَ أو غائبًا ؛ بحبِّه لك . والذي يخافُك عسىٰ أن ينصحك إذا شهدتَ ؛ لمَا يخاف ، ويغشُّك إذا غبتَ ولم ينصحك .

وعن ابن زرارة قال : سمعتُ كلاب بن جري يقول لرجل من الطغاوة وهو يُوصيه بطرائق البرِّ ؛ فقال له فيما يقول :

وكنْ لربِّك ذا حبٍّ لتخدِمَهُ إنَّ المحبِّين للأحباب خُدَّامُ

قال : فصاح الطغاوي صيحة ، فخرَّ مغشيًا عليه .

وعن أبي عبد الرحمن المغازلي قال : لا يعطىٰ طريقَ المحبَّة غافلٌ ولا ساهٍ . المحبُّ لله عز وجلَّ طائرُ القلب ، كثيرُ الذِّكْر ، متسبِّبٌ إلى رضوانه بكلِّ سبيل يقدر عليه من الوسائل والنوافل ، ذوبًا ذوْبًا وشوْقًا شوْقًا .

وعن محمد بن النضر الحارثي قال : ما كاد يملُّ القربة إلى الله عز وجل محبٌّ لله عز وجل،ولا يكاد يسأم من ذلك .

وقال محمد بن نعيم الموصلي : إنَّ القلب الذي يحبُّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ التعَبَ والنصب لله ، إنه لنْ ينال حبَّ الله بالراحة .

وقال بعض العارفين لرجل : أفْشِ فعْلَ الخيرات ، وتوصَّلْ إلى الله بالحَسنات ؛ فإني لم أرَ شيئًا قطُّ أرضىٰ للسَّيِّد مما يحبُّ ؛ فبادِرْ في محبَّته يُسرع في محبتك . ثم بكى ، فقال له : زدني رحمك الله . قال : الصبر على محبَّة الله وإرادته رأسُ كلِّ برّ . أو قال : كلِّ خير .

واجتمع أحمد بن أبي الحواري وقاسم الجوعي ، وجماعة من الصالحين بعد صلاة العَتَمة ، وقد خرجوا من المسجد إلى بيت رجلٍ قد دعاهم إلى طعام صَنَعه لهم ، فأنشدهم رجلٌ قبل دخول الباب :

علامةُ صِدْقِ المستخصِّين بالحبِّ بلوغُهُمُ المجهودَ في طاعةِ الرَّبِّ
وتحصيلُ طيبِ القوتِ مِن مُجْتنائِهِ وإنْ كانَ ذاكَ القوتُ في مُرتقى صعبِ

فلم يزلْ يردِّده وهم قيام حتى أذَّن مؤذِّن الفجر ، ورجعوا إلى المسجد ..

وقد رويت بيتين آخرين مع هذين البيتين ، وهما :

وإمساكُ سوءِ اللفظ عن وَلهِ جِنْسِهِم وإن ظلموا فالعفو من ذاك بالخطْبِ
أولئكَ بالرحمنِ قرَّتْ عيونُهُمْ وحلُّوا مِنَ الإخلاصِ بالمنزِلِ الرحْبِ

وقال مطر : اجتمعنا ليلةً على الساحِلِ ، ومعنا مسلم أبو عبد الله ؛ فقال رجل من الأزْد :

ما للمُحبِّ سوىٰ إرادةِ حُبِّهِ إنَّ المُحِبَّ بكلِّ برٍّ يضْرَعُ

قال : فبكى مسلم حتى خشيتُ والله أن يموت .

وقال أحمد بن أبي الحواري : سمعتُ ابن عيينة يقول : لا تبلغون ذرْوَة هذا الأمر حتى لا يكون شيءٌ أحبَّ إليكم من الله عز وجل ، فمَن أحبَّ القرآن فقد أحبَّ الله عز وجل »[١] .

ومِنَ علاماتِ المحبِّ عالي الهمَّة : حبُّ لقاءِ الحبيبِ في دار السَّلام :

قال الثوري وبشر الحافي : لا يكره الموت إلا مريب ؛ لأنَّ الحبيبَ على كلِّ حالٍ لا يكره لقاءَ حبيبه .

وقال البويطي لبعضِ الزهَّاد : أتحبُّ الموتَ ؟ فكأنه توقّف ، فقال : لو كنتَ صادقًا لأحببتَه . وتلا قوله تعالى : ﴿ **فتمنَّوا الموت إن كنتم صادقين** ﴾ [البقرة: ٩٤]. فقال الرجل : فقد قال النبي ﷺ : « لا يتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ »[٢] . فقال : إنما قاله لِضُرٍّ نزَل به ؛ لأن الرضا بقضاء الله أفضل من طلب الفرار منه .

قال ابن رجب : « هِمَمُ العارفين المحبِّين متعلِّقة من الآخرة برؤية الله ، والنظر إلى وجهه في دار كرامته والقرب منه » .

وقال الحسن : لو علِمَ العابدون أنهم لا يرون ربَّهم يوم القيامة ، لمَاتوا . وفي رواية : لذابتْ أنفسُهم .

وقال إبراهيم الصائغ : ما سرَّني أنَّ لي نصفَ الجنة بالرؤية . ثم تلا : ﴿ **كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومئذ لمَحجُوبون** ﴾ [المطففين : ١٥].

وقال عبد الله بن وهب : لو خُيِّرتُ بين دخول الجنة والنظر إلى ربي عزَّ وجل ؛ لَاخترتُ النظر إليه سبحانه وتعالى .

وقال غزوان الرقَّاشي : في قوله تعالى : ﴿ **ولَدَينا مزيد** ﴾ [ق : ٣٥]،

---

(١) استنشاق نسيم الأنس ص٥٧ – ٦٨ .
(٢) « لا يتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ لضرٍّ نزل به » . الحديث متفق عليه من حديث أنس .

قال : ما يسرُّني بحظِّي من المزيد الدنيا جميعُها .

وقال أبو سليمان الداراني : لو لم يكن لأهل المعرفة إلّا هذه الآية الواحدة؛ لَاكتفوا بها ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضِرة إلى ربِّها ناظرة﴾ [القيامة : ٢٣] .

وكان رحمه الله يقول : أهل المعرفة دعاؤهم غيرُ دعاء الناس ، وهِمَمُهم من الآخرة غير هِمَمِ الناس .

قال مسمع بن عاصم :

اجتمع بعض العُبّاد على امرأةٍ من بني عَديٍّ ، يُقال لها : أَمَةُ الجليل بنتُ عمرو ، وكانت منقطِعَة جدًّا من طول الاجتهاد ، فأتوها فقالت : ساعاتُ الوليِّ ساعاتُ شُغُل عن الدنيا ، ليس للوليِّ المستحقِّ في الدنيا من حاجة . ثم أقبلت على كلاب بن جري[1] فقالت : مَن حدَّثك أو أخبرك أنَّ وليَّه له همٌّ غيره ، فلا تصدِّقه .

قال مسمع : فما كنتُ أسمع إلّا التصارُخ من نواحي البيت .

وقال ضيْغم لكلاب : إن حبَّه شغَل قلوب مريديه عن التلذُّذ بمحبَّة غيره ، فليسَ لهم مع حبِّه لذَّة تداني محبَّته ، ولا يكون في الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجهه .. فسقط كلاب عند ذلك مغشيًّا عليه .

وكان عبد العزيز بن سليمان العابد يقول في كلامه : أنت أيُّها المحبُّ تزعم أن محبَّتك لله تحقيق ، أما والله لو كنتَ كذلك لضاقت عليك الأرض بما رحُبَتْ حتى تصل إلى رضا حبيبك ، وإلى النظر إلى وجهه في دار كبريائه وعِزِّه .

وقال حبيب الفارسي ليزيد الرقَّاشي : بأي شيءٍ تقرُّ عيون العابدين في

---

(١) انظر ترجمته في صفة الصفوة ٣/٣٨١ .

الدنيا ؟ وبأيِّ شيءٍ تقرُّ عيونهم في الآخرة ؟ فقال : أمَّا الذي تقرُّ عيونُهم به في الدنيا ، فما أعلم شيئًا أقرَّ لعيون العابدين من التهجُّد في ظلمة الليل . وأمَّا الذي تقرُّ أعينُهم به في الآخرة ، فما أعلم شيئًا من نعيم الجنان وسرورها ألذّ عند العابدين ، ولا أقرَّ لعيونهم ؛ من النظر إلى ذي الكبرياء العظيم ، إذا رُفعَتْ تلك الحُجُب ، وتجلَّى لهم الكريم . فصاح حبيبٌ عند ذلك وخرَّ مغشيًّا عليه .

وقال ذو النون : ما طابت الدنيا إلا بذكْره ، ولا طابت الآخرة إلّا بعفوه ، ولا طابت الجنان إلا برؤيته .

قال محمد بن يحيىٰ الموصلي : سمعتُ نافعًا - وكان من عُبَّاد الجزيرة - يقول : ليتَ ربي جعل ثوابي من عملي نظرةً مني إليه ، ثمَّ يقول لي : يا نافع ، كُنْ ترابًا .

وحُرْمَة الوُدِّ ما لي عنكمُ عِوَضُ ... وليسَ لي في سواكمْ سادتي غَرَضُ
وقد شرطتُ علي قومٍ صحبتهُمُ ... بأنَّ قلبي لكم مِنْ دونهم فَرَضُوا
ومن حديثي بكمْ قالوا به مرضٌ ... فقلتُ لا زال عني ذلكَ المرضُ

ومن علاماتِ المحبِّ : أن يكون مُؤْثِرًا ما أحبَّ اللهُ تعالى على ما يحبُّه ، في ظاهره وباطنه :

فيلزم مشاقَّ العمل ، ويجتنبُ اتباع الهوىٰ ، ويُعرض عن دَعة الكَسَل ، ولا يزال مواظبًا على طاعة الله ومتقرِّبا إليه بالنوافل ، وطالبًا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحبّ مزيد القرب في قلب محبوبه . والحبُّ إذا غلب قمع الهوى ، فلم يبقَ له تنعُّمٌ بغيْر المحبوب .

قال ابن المبارك :

تعصي الإلهَ وأنت تُظهِرُ حُبَّهُ ... هذا لَعمري في الفعالِ بديعُ
لو كانَ حبُّك صادِقًا لَأَطعْتَهُ ... إنَّ المحبَّ لمنْ يحبُّ مُطيعُ

قال سهل : « علامة الحبِّ إيثارُه على نفسِك » . وليس كل من عمل بطاعة الله عزَّ وجل صار حبيبًا ، وإنما الحبيبُ مَن اجتنبَ المناهي .

قال الفضيل : إذا قيل لك : أتحبُّ الله تعالى ؟ فاسكت ، فإنك إن قلتَ : لا . كفرتَ ، وإن قلتَ : نعم.فليسَ وصفك وصْف المحبِّين فاحذرِ المقْتَ .

ومنها : أن يكون مستَهْتَرًا (مُولَعًا) بذكْر الله تعالى ، لا يفترُ عنه لسانُه ولا يخلو عنه قلبُه :

فمن أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره وذكْرِ ما يتعلَّق به .

قال أحمد بن أبي الحواري : سمعتُ ابن عيينة يقول : لا تبلغون ذروة هذا الأمر حتى لا يكون شيءٌ أحبَّ إليكم من الله عز وجل ، فمن أحبَّ القرآن فقد أحبَّ الله .

وقال عروة البارقي : حبُّ الله عز وجل : حبُّ القرآن ، وحبُّ رسول الله ﷺ : العمل بسُنَّته .

إنْ كنتَ تزعُمُ حبِّي ... فلِمْ هجَرتَ كتابي
أمَا تأمَّلْتَ ما فيـ ... ـهِ من لذيذِ خطابي

بعيني مَن تلذَّذ بكلامي :

« قال أحمد بن أبي الحواري : دخلتُ على أبي سليمان فرأيتُه يبكي ، فقلتُ : ما يُبكيك ؟ قال : ويحك يا أحمد ! إذا جَنَّ الليل ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه ، افترش أهل المحبَّة أقدامَهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وأشرف الجليل جلَّ جلاله عليهم ، وقال : بعيني مَن تلذَّذ بكلامي ، واستروح إلى مناجاتي ، وإني مطلع عليهم في خَلَواتهم أسمع أنينَهم ، وأرى بكاءهم وحنينَهم . يا جبريل ، نادِ فيهم : ما هذا البكاءُ الذي أراه منكم ، هل أخبرَكم مخبِرٌ أنَّ حبيبًا يعذِّب أحبابه بالنار ، بل كيف يجمل أن أعذِّب قومًا إذا جنَّهم الليلُ تملَّقوني

فبي حلفتُ إذا وردوا القيامة عليَّ أن أُسفرَ لهم عن وجهي ، وأمنَحهم رياض قدْسي »[١].

قال ذو النون : لو رأيت أحدهم وقد قام إلى صلاته وقراءته ، فلمَّا وقف في محرابه ، واستفتح كلام سيِّده ، خطر على قلبه أنَّ ذلك المقام هو المقام الذي يقوم الناسُ فيه لربِّ العالمين ، فانخلع قلبه ، وذهَل عقلُه ، فقلوبهم في ملكوت السماوات معلَّقة ، وأبدانهم بين يدي الخالق عارية ، وهمومهم بالفِكْر دائمة .

قال ذو النون في وصْف المحبِّين : يتلذَّذون بكلامِ الرحمٰن ، يَنوحون به على أنفسهمِ نَوْحَ الحمام ، فَرِحين في خَلَواتهم ، لا تفترُ لهم جارِحَةٌ في الخلوات ، ولا يستريحُ لهم قدم تحت ستور الظلُمَات .

ومن علامات المحبِّ عالي الهمَّة : أن يكون أُنْسُهُ بالخلْوَة ومناجاته لله تعالى ومواظبته على التهجُّد :

فأقل درجات الحبِّ:التلذُّذ بالخَلْوة بالحبيب والتنعُّم بمناجاته ، فمن ذاق من خالِص محبَّة الله ؛ شغله ذلك عن طلب الدنيا ، وأوحشه من جميع البَشَر .

قال مطرِّف بن أبي بكْر : المحبُّ لا يسأم من حديثِ حبيبه . وقيل لإبراهيم بن أدهم – وقد نزل من الجبل –: من أين أقبلتَ ؟ قال : من الأُنْس بالله . كانت ريحانةُ إذا قامتِ الليلَ تقول :

قـام المحبُّ إلى المـؤمَّل قومةً كـادَ الفؤادُ من السـرور يطيرُ

فلمَّا كان جوفُ الليل سمعتُها تقول أيضًا :

لا تأنسَنَّ بمَنْ توحِشكَ نظرتُهُ فتُمنَعَنَّ مِنَ التـذكار في الظُّلَـمِ
واجهدْ وكدَّ وكنْ في الليل ذا شجَنٍ يَسقيكَ كأسَ وِدادِ العزِّ والكرمِ

(١) استنشاق نسيم الأُنْس ص٨٧ – ٨٨ .

ثم تنادي : واحزناه ، واسلباه ، فقلتُ : ممَّ ذا ؟

وتقول :

ذهبَ الظلامُ بأُنْسِهِ وبإلْفِهِ   ليتَ الظلامَ بأُنْسِهِ يتجدَّدُ

وكانت عابدةٌ في عبد القيس متعبِّدة ؛ إذا جاء الليل تحزَّمت ثم قامت إلى المحراب ، وكانت تقول : المحبُّ لا يسأم مِن خدمة حبيبه .

قال مسلم بن يسار : ما تلذَّذَ المتلذِّذون بمِثْل الخلْوة بمناجاةِ الله عز وجل . عجبتُ للخليقَةِ كيف أُنِسَتْ بسواك !! بل عجبتُ للخليقة كيفَ استنارت قلوبُهم بذكْر سواك .

وكان أبو محمد حبيب العجمي يخلو في بيته ثم يقول : من لم تقرَّ عينه بك ، فلا قرَّتْ ، ومن لم يأنس بك ، فلا أَنِسَ .

قال عابد باليمن : سرور المؤمن ولذَّته في الخلْوة بمناجاة سيِّده عزَّ وجل .

وقال إبراهيم بن أدهم : اتخذِ اللهَ صاحبًا ، ودعِ الناسَ جانبًا .

وقال غزوان : إني أصبتُ راحة قلبي في مجالسة من لديه حاجتي .

وقيل : لعبد العزيز بن سليمان الراسبي سيِّد العابدين : ما بقي ممّا يُتلذَّذ به ؟ قال : سرداب أخلو بربِّي فيه .

وقال مسلم العابد : ما يجد المطيعون لله لذَّة في الدنيا أحلى من الخلْوة بمناجاة سيدهم ، ولا أحسب لهم من الآخرة من عظيم الثواب أكبرَ في صدورهم وألذَّ في قلوبهم ؛ من النظر إلى الله عز وجل.ثم غُشِي عليه .

وقال الفضيل : طوبى لمنِ استوحش من الناس ، وكان الله أنيسَه .

وقال أبو سليمان : لا أَنَّسَني الله عز وجلَّ إلّا به أبدًا .

وقال رجل لمعروفٍ الكرْخي : أَوْصِني . قال : توكَّلْ على الله حتى يكون جليسَك وأنيسَك ومَوْضع شكواك .

قال ذو النون : إنَّ من علامات المحبِّين لله : تَرْكُ كلِّ ما يشغله عن الله ، حتى يكون الشغلُ بالله وحده . ثم قال : إنَّ من علامات المحبِّين لله أن لا يأنسوا بسواه ، ولا يستوحشوا معه . ثم قال : إذا سكن حبُّ الله القلبَ أَنِسَ بالله ؛ لأن الله أَجَلُّ في صدور العارفين من أن يُحبُّوا سواه .

وكانت رابعة العدوية تنشد هذيْن البيتيْن :

ولقدْ جعلتُكَ في الفؤادِ مُحَدِّثي وأبحتُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسمُ مني للجليسِ مؤانِسٌ وحبيبُ قلبي في الفؤادِ أنيسي

فعجبًا لمن عرف الطريق إلى الله !! كيف يعيش مع غيره ؟!

ومن علامات المحبِّ : أن يتنعَّم بالطاعة ولا يستثقِلَها ويسقطَ عنه تعبها :

كما قال ثابت البناني : كابدتُ الليلَ عشرين سنةً وتنعَّمتُ به عشرين سنة .

وقال الجُنيد : علامَة المحِبِّ دوامُ النشاط ، والدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه .

وقال بعض العلماء : والله ما اشتفى محبٌّ لله من طاعته ، ولو حلَّ بعظيم الوسائل .

قيل لبعض المحبِّين - وقد كان بذَلَ نفسه وماله حتى لم يبقَ له شيء -: ما كان سبب حالِك هذه في المحبَّة ؟ فقال : سمعتُ يومًا محبًّا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول : أنا والله أحبُّك بقلبي كلِّه ، وأنت معرِض عني بوجهك كلِّه ؟ فقال له المحبوب : إنْ كنتَ تحبُّني فأيش تنفق عليّ ؟ قال : يا سيدي ، أُمَلِّكُكَ ما أَمْلِكُ ، ثم أنفق عليك روحي حتى تهلِكَ . فقلت : هذا خَلْقٌ لِخَلْقٍ وعبدٌ لعبدٍ ، فكيف بعبيدٍ لمعبود ؟!

ومن علامات المحبِّ : أن يكون في حبِّه خائفًا متضائلًا تحت الهَيْبة والتعظيم :

ولخصوص المحبِّين مخاوف في مقام المحبَّة ليستْ لغيرهم ، وبعض مخاوفهم أشدُّ من بعض ، فأولها : خوف الإعراض ، وأشدُّ منه خوف الحِجَاب ، وأشدُّ منه خوف الإبعاد ، وهذا المعنى في سورة هود هو الذي شيّب سيِّدَ المحبِّين رسول الله ﷺ؛ إذْ سمع قوله تعالى: ﴿**أَلَا بُعْدًا لثمود**﴾، ﴿**أَلَا بعدًا لمدْين كما بعِدَتْ ثمود**﴾ . وإنما تعظُم هيْبَة البعْد وخوْفه في قلبِ من أَلِفَ القرْب وذاقه وتنعَّم به ، فحديث البعْد في حقِّ المبعدين يُشيِّبُ سماعُه أهلَ القرْب في القرب .

ثم خوف الوقوف وسلْب المزيد .

كُلُّ شيءٍ لكَ مغفو ... رٌ سوىٰ الإعراضِ عنَّا

قدْ غفرْنا لكَ ما فا ... تَ بقِي ما فات منَّا

ثم خوْف السُّلُوِّ أو أنْ يغترَّ بحسْنِ النظر أو غلَبَة الغفلة .

ولله درُّ مَن قال في وصْفِ المحبِّ عالي الهمة :

قريبُ الوجدِ ذو مرمًى بعيدِ ... عنِ الأحرارِ منهم والعبيدِ

غريبُ الوصفِ ذو علْمٍ غريبٍ ... كأنَّ فؤادَه زبرُ الحديدِ

لقد عزَّتْ معانيهِ وجلَّتْ ... عنِ الأبصار إلّا للشهيدِ

يرىٰ الأعياد في الأوقاتِ تجري ... لهُ في كلِّ يومٍ ألفُ عيدِ

وللأحباب أفراحٌ بعيدٍ ... ولا يجدُ السرور لهُ بعيدِ

ومن علامات المحبِّ عالي الهمَّة : كتمان الحبِّ واجتناب الدعوىٰ :

والتوقِّي من إظهار الوجْد والمحبَّة ؛ تعظيمًا للمحبوب وإجلالًا له ، وهيبةً منه وغيْرةً على سِرِّه .

ولله درُّ ذي النون حين ذُكر عنده الكلام في المحبَّة ، فقال : « اسكتوا عن هذه المسألة ؛ لا تسمعها النفوس فتدَّعيها » .

قال الجنيد :

سَرَتْ بأناسٍ في الغيوبِ قلوبُهُمْ فحلُّوا بقُرْبِ الماجِدِ المتفضلِ
عِراصًا بقربِ اللهِ في ظلِّ قُدْسِهِ تجولُ بهِمْ أرواحُهُمْ وتنقَّلُ
مواردُهم فيها على العزِّ والنُّهىٰ ومصدرهمْ عنها لِمَا هو أكملُ
تروحُ بعزٍّ مفردٍ منْ صفاتِهِ وفي حُلَلِ التوحيدِ تَمشي وترفُلُ
ومِنْ بعد هذا ما تدِقُّ صفاتُهُ وما كتْمُهُ أولىٰ لديهِ وأعدلُ
سأكْتُمُ منْ علمي بهِ ما يصونُهُ وأبذل منه ما أرىٰ المنْعَ يفضُلُ
على أنَّ للرحمٰنِ سِرًّا يصونُهُ إلى أهلِهِ في السِّرِّ والصَّوْنُ أجْمَلُ

ومنها : أن لا يتأسَّف على ما يفوته ممَّا سوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويعظُمُ تأسُّفه على فوت كلِّ ساعة خلَت عنْ ذكْر الله وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغَفَلات بالاستعطاف والتوبة .

قال أحدُ الصالحين : إنَّ لله عبادًا أحبُّوه واطمأنُّوا إليه ، فذهب عنهم التأسُّف على الفائت ، فلم يتشاغلوا بحظِّ أنفسهم ، إذْ كان مُلْك مليكِهم تامًّا ، وما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم ، وما فاتهم فبحُسْن تدبيره لهم . قال تعالى : ﴿ **وعسىٰ أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم** ﴾ [البقرة : ٢١٦].

كلُّ محبوبٍ سوىٰ اللهِ سَرَفْ وهمومٌ وغمومٌ وأَسَفْ
كلُّ محبوبٍ فمنهُ لي خلَفْ ما خلا الرحْمٰنَ ما منْهُ خلَفْ
إنَّ للحبِّ دلالاتٍ إذا ظهرتْ مِن صاحبِ الحبِّ عُرِفْ
صاحبُ الحبِّ حزينٌ قلبُهُ دائمُ الغُصَّةِ مغمومٌ دَنَفْ
همُّه في اللهِ لا في غيرِهِ ذاهبُ العقلِ وباللهِ كَلِفْ
أشعثُ الرأسِ خميصٌ بطنُهُ أصفرُ الوجْهِ والطرْفُ ذَرِفْ
دائمُ التَّذكارِ من حبِّ الذي حُبُّهُ غايةُ غاياتِ الشَّرَفْ
فإذا أمْعَنَ في الحبِّ لهُ وعلاهُ الشوْقُ ممَّا قدْ كُشِفْ

باشَرَ المحرابَ يشكو بثَّهُ ... وأمامَ اللهِ مولاهُ وَقَفْ
قائمًا قُدَّامَهُ منتصِبًا ... لَهِجًا يتلو بآياتِ الصُّحُفْ
راكِعًا طوْرًا وطوْرًا ساجدًا ... باكيًا والدمعُ في الأرضِ يَكِفْ
أوْرَدَ القلبَ علىٰ حبِّ الذي ... فيهِ حبُّ اللهِ حقًّا فعُرِفْ
ثم جالتْ كفُّه في شجرٍ ... يُنبِتُ الحُبَّ فسَمَّىٰ واقتطَفْ
إنَّ ذا الحُبَّ لمنْ يُعنىٰ بهِ ... لا بدارٍ ذاتِ لَهْوٍ وترَفْ

وقال بعضهم :

قليلُ العزاء كثيرُ الندمْ ... طويلُ النحيبِ علىٰ ما اجترمْ
جرىٰ دمعُهُ فبكىٰ جَفنُهُ ... فصارَ البكاءُ بدمْعٍ وَدَمْ
يخافُ البيَاتَ لهجْمِ الممات ... وفقْدُ الحياةِ يضرُّ السّقمْ
ويُخفي محبَّةَ ربِّ العلا ... فتُظهِرُ أنفاسُهُ ما اكتتمْ
وأسْبَلَ من طرْفهِ عَبْرةً ... علىٰ الصَّحْن من خدِّهِ فانسَجَمْ
وباتَ محاربَ محرابِهِ ... ولمَّا تزلْ قدمٌ عنْ قَدَمْ
فلمَّا تفتتَ أحشاؤُهُ ... منَ الشَّوْقِ رقَّ عليهِ الألَمْ
وكمْ ليلةٍ رامَ فيها المنام ... فصاحَ بِهِ حُبُّهُ لا تَنَمْ
وناحَ علىٰ جسَدٍ ناحِلٍ ... أطالَ النحولُ بهِ فانهَدمْ
أنابَ إلى اللهِ مستغفِرًا ... فصارَ لهُ من أعزِّ الخدَمْ

الجُنَيْدُ تاجُ العارفين وسيِّد المحبِّين في عصره :

قال الكتاني : جرتْ مسألة في المحبَّة بمكَّة أيام الموسم ، فتكلَّم فيها الشيوخ ، وكان الجُنَيد أصغرهم سنًّا ، فقالوا : هاتِ ما عندك يا عراقي . فأطرق رأسه ودمعَتْ عيناه ، ثم قال : « عبدٌ ذاهِب عن نفسه ، متصل بذكْر ربِّه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوارُ هيبته ، وصفا شربه

من كأسِ وُدِّه ، وانكشف له الجبَّار من أستار غيْبِهِ ، فإنْ تكلَّم فباللَّه ، وإن نطق فعنِ الله ، وإنْ تحرَّك فبأمْرِ الله ، وإن سكت فمع الله ؛ فهو باللهِ ولله ومع الله» . فبكى الشيوخ وقالوا : « ما على هذا مزيد ، جبَرَك الله يا تاجَ العارفين » .

* * *

□ الشَّوْقُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ □

أحِنُّ بأطرافِ النهارِ صبابةً ... وفي الليلِ يدعوني الجَوىٰ فأُجيبُ
وأيَّامُنا تَفنَى وشوقيَ زائِدٌ ... كأنَّ زمانَ الشوْقِ ليسَ يغيبُ

« **أيُّ طيرانٍ يكون أبهىٰ مِن قلوبٍ تطيرُ إلى سيِّدها** » :

للهِ قومٌ صعَّدوا أنفاسهم إلى محبوبهم ، لا يخرج ويصعَد نَفَس منها إلا مُتَلَبِّسًا بمحبَّته والشوق إليه ، فإذا أرادوا دفْعَه لم يدفعوه حتى يُتْبِعوه نفَسًا آخر مثله ، فكل أنفاسِهم بالله وإلى الله ، فلا يفوتهم نَفَس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم .

الشَّوْقُ في الكتابِ والسُّنَّة :

فالشوق يا أخي إلى الله – عز وجل – نسيمٌ يهُبُّ على القلوب يُطيِّب لها السيْر إلى بلاد المحبوب ، إلى الله وإلى الدار الآخرة .

قال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [العنكبوت : ٥] .

قال أبو عثمان الحيري : هذا تعزيَةٌ للمشتاقين ؛ معناه : إني أعلـمُ أنَّ اشتياقَكُم إليَّ غالِب ، وأنا أَجَّلْتُ للقائكم أجلًا ، وعن قريب يكون وصولُكم إلى ما تشتاقون إليه .

وقال تعالى : ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى** ﴾ [طه : ٨٤] .

معناه : شوقًا إليك ، فسَتَرُه بلفْظِ الرضا .

وقال ﷺ : « اللهمَّ بعلْمِكَ الغيب ، وقُدرتِكَ على الخلْق ؛ أحيني ما عَلمْتَ الحياةَ خيرًا لي ، وتوفَّني إذا عَلمتَ الوفاةَ خيرًا لي . اللهـمَّ وأسأَلُك خشيتكَ في الغيب والشهادة ، وأسأَلُك كلمةَ الإخلاص في الرِّضا والغضَب ،

وأسألك القَصْدَ في الفقر والغِنَى ، وأسألك نعيمًا لا ينفَدُ ، وأسألك قُرَّةَ عَيْنٍ لا تنقطع ، وأسألك الرِّضا بالقضاء ، وأسألك بردَ العيشِ بعدَ الموت ، وأسألك لذَّةَ النظرِ إلى وجهك والشَّوْقَ إلى لقائكَ ، في غير ضَرَّاءَ مضرَّةٍ ، ولا فتنةٍ مضلَّة . اللهمَّ زيِّنَّا بزينةِ الإيمان واجعلْنا هُدَاةً مُهتدين »[1] .

وقد كان رسول الله ﷺ يفرح بالمطر ويتلقاه بثوبه ، ولمَّا يُسأل في ذلك يقول : « إنه حديث عهْدٍ بربِّه » . وفي هذا من الشوْق إلى المولى عزَّ وجلَّ ما فيه .

قال بعض الصالحين : قلوب العاشقين مُنَوَّرَة بنور الله ، فإذا تحرَّك اشتياقهم أضاء النورُ ما بين السماء والأرض ، فيعرضهم الله على الملائكة ، فيقول : هؤلاء المشتاقون إليَّ ، أُشهدكم أنِّي إليهم أشْوَقُ .

قال معاذ بن جبل حين الوفاة : اخنقْ خنْقَك ، فوَعزَّتك إني أحبُّك ، مرحبًا بالموت ، زائر مُغِبٌّ جاء على فاقة .

وإذا كان الشوْق هو سَفَر القلب في طلبِ محبوبِه ونُزوعه إليه ، فهو من أشرفِ المقامات وأجلّها وأعلاها ، ومَن أنكر الشَّوْق فقد أنكر المحبَّة ؛ لأن المحبَّة تستلِزُّ الشوْقَ ، فالمحبُّ دائمًا مشتاقٌ إلى لقاءِ محبوبه ، لا يهدأ قلبه ولا يقرُّ قراره إلا بالوصول إليه . وشوْق المحبِّ لله عز وجل ناتجٌ عن معرفته بالله ؛ فمن عرف الله اشتاق إليه . وإذا كانت المعرفة لا نهاية لها فشوْق المحبِّ لا نهاية له ، وإذا كان القلب حاضرًا عند ربِّه وهو غير غائب عنه ، لم يوجب له هذا أنْ لا يكون مشتاقًا إلى رؤيته ولقائه ، بل هذا يكون أتمَّ لشوْقه وأعظمَ .

---

(١) حديث صحيح : رواه النسائي والحاكم عن عمَّار بن ياسر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٣١٢) .

نـوْعَـا الشَّـوْقِ :

والشوْق نوعان :

الشوق إلى اللقاء (الشوق إلى الجنة) : فهذا يزول باللقاء .

وشوق في حال اللقاء : وهو تعلُّق الروح بالمحبوب تعلُّقًا لا ينقطع أبدًا ، فلا تزال الروح مشتاقةً إلى مزيد هذا التعلُّق ، ولذا يشتدُّ .

ما يرجِعُ الطرْف عنهُ عندَ رؤيتِهِ حتى يعودَ إليهِ الطرْفُ مُشتاقَا

ويقول القائل :

وأعظَمُ ما يكونُ الشوقُ شوْقًا إذا دنتِ الخيامُ مِنَ الخيامِ

ويقول الشاعر :

ومنْ عجَبٍ أني أحنُّ إليهِمُ وأسأَلُ شوقًا عنهمُ وهُمُ معي
وتبكيهُمُ عيني وهمْ في سَوادِها ويشكو النَّوىٰ قلبي وهُمْ بينَ أضلعي

مراتِبُ الشَّوْق :

وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : شوْق العابد إلى الجنة ، ليأمن الخائف ، ويفرح الحزين ، ويظفر الآمل .

الدرجة الثانية : شوْقٌ إلى الله – عز وجل – زرعه الحبُّ الذي يَنبُت على حافات المِنَنِ ، فعلِق قلبه بصفاته المقدَّسة ، فاشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات برِّه وأعلام فضله .

والشوق إلى الله لا ينافي الشوق إلى الجنة ، فإن أطيَبَ ما في الجنة : قرْبُه ورؤيته ، وسماع كلامه ورضاه . نعَمْ الشوْقُ إلى الأكل والشرب والحور العين في الجنة ناقص جدًّا ، بالنسبة إلى شوْق المحبين إلى رؤية الله تعالى ، بل لا نسبةَ له ألبتة .

وهذا الشوْقَ يَثبُتُ على حافَات المِنَنِ ومطالعةِ إحسان الله ونعمه ، فيعلَقُ

القلبُ بالصفاتِ المختصَّة بالمنن والإحسان ، كالبَرِّ والمنَّانِ والمحسن ، والجواد والمعطي والغفور . هذا الشوْق مشحون بالبِرِّ مغشيٌّ به ، وهو إما برُّ القلب وكَثْرة خيْره ، فهذا القلب أكثر القلوب خيرًا ، فيفعل البِرَّ تقرُّبًا إلى مَن هو مشتاقٌ إليه ، فهو يجيش بأنواع البِرِّ ، وهذا من فوائد المحبَّة ؛ أنَّ قلبَ صاحبِها ينبع منه عيون الخير وتتفجَّر منه يَنابيع البِرِّ .

الدرجة الثالثة : نار أضْرَمها صفوُ المحبَّة ، فنغَّصتِ العيش ، وسكبت السلوة ، ولم يُنَهْنِهْا مَغزًى دون اللقاء .

قال يحيى بن معاذ : عَلامة الشوق فطَام الجوارح عن الشهوات .

وقال أبو عثمان : علامته حبُّ الموت مع الراحة والعافية ، كحال يوسف لما أُلقي في الجُبِّ لم يقل : « توفَّني » . ولما أُدخل السجن لم يقلْ : « توفَّني » . ولمَّا تم له الأمر والأمْن والنعمة قال : ﴿ **توفَّني مسلمًا** ﴾ .

والشوق لا يزول بالمشاهدة ؛ فإنه لا مشاهدة أكمل من مشاهدة أهل الجنة ، وهم إلى يوم المزيد أشْوَق ، وكذلك هم أشْوَقُ شيءٍ إلى رؤية مولاهم وسَمَاع كلامه تعالى وهُمْ في الجنة .

كانت عجوز مُغيبة : فقدِم غائبها من السَّفر ، ففرِحَ بهِ أهلُه وأقاربه ، وقعدَتْ هي تبكي ، فقيل لها : ما يُبكيكِ ؟ قالت : ذكَّرني قُدومُ هذا الفتىٰ يومَ القُدْوم على الله عزَّ وجلَّ .

يا من شكا شوْقَهُ مِنْ طُولِ فرْقَتِهِ اصبرْ لعلَّك تلقىٰ مَن تحبُّ غدَا

وقال أحدُ الصالحين : « سبحانَ من أخرج قلوبَ المشتاقين في رياض الطاعة بين يديه ، سبحانَ مَن أوصل الفهْمَ إلى عُقُول ذوي البصائر ، فهي لا تعتمِد إلّا عليه ، سبحانَ من أوْردَ حياضَ المودَّة نفوسَ أهلِ المحبة ؛ فهي لا تحنُّ إلا إليه » .

وقال أحدهم : « إن لله - عز وجل - عبَّادًا قَدَحَ في قلوبِهِمْ زَنَدَي الشوْقِ والموْقِ(١)، فأرواحهم تسرح في الملكوت ، وتنظر ما ذُخِر لها في حُجُب الجبروت؛أولئك قوم آووا إلى كَنَفِ محبته ورحمته » .

إلٰهي ، عجبًا للخليقة كيف أنست بسواك .

للهِ ما أحلىٰ زمانًا تسعى فيه أقدامُ الطاعةِ علىٰ أرضِ الاشتياق .

بـدمِ المُحـبِّ يُباع حبُّهُـمُ　　　فـمَـنِ الذي يـبتاعُ بالثَّمَـنِ

يا أخي ، إمَّا أن تحرق قلبك بنارِ النَّدم على التقصير والشوق إلى لقاء الحبيب ، وإلَّا فسيُصَاح بك : ﴿ **كلَّا إنَّهم عنْ ربِّهم يومئذٍ لَمحجوبون** ﴾.

شـجَاكَ الفـراقُ فـما تصـنعُ　　　أتصـبرُ للبَـيْـنِ أم تجْـزَعُ

إذا كنـتَ تبكـي وهـمْ جيرةٌ　　　فكيـفَ تكـونُ إذا ودَّعـوا ؟!

أخي ، اعلمْ أن أرواح المحبِّين خرجتْ بالعبادة من أبدان العادات ، وهي في حواصل طيْر الشوْق ، ترفرف على أطلال الوجد ، وتسرح في رياض الألسن . هؤلاء عندهم شغل عن كل شيء سوى محبوبهم ، ما ترىٰ عيونُهم إلا « فبي يسمعُ وبي يُبصر » .

وقال داود الطائي : « إلٰهي ، همُّك عطَّل عليَّ الهموم ، وشوقي إلى النظرِ إليك أَوْثَقَ مني اللَّذَّات ، فأنا في سجنك أيُّها الكريم مطلوب » .

قال ذو النون - رحمه الله -: « إن لله عبادًا ملأ قلوبَهم مِن صفاءِ محْضِ محبَّتِهِ ، وهيَّج أرواحهم بالشوْق إلى رؤيته ، فسبحان من شوَّق إليه أنفسهم ، وأدنى منه هِمَمَهم ، وصفَتْ له صدورهم ، سبحان مَوفِّقهم ومُؤْنسِ وحشَتِهِمْ وطبيبِ أسقامهم . إلٰهي ، لك تواضعتْ أبدانهم منك إلى الزيادة ، انبسطت أيديهم إلى ما طيَّبتَ به عيْشَهم وأدمْتَ به نعيمهم . بك أنِسَتْ محبَّة المحبِّين ، وعليك معوَّل شوْق المشتاقين » .

(١) الحبُّ .

هم الذين خدموه خدمة الأبرار الذين تدفَّقت قلوبهم ببرِّه وعاملوه ببرِّه .

ذهبتِ الآلام عن أبدانهم لمَّا أذاقهم من حلاوة مناجاته ، ولمَّا أفادهم من ظرائف الفوائد من عنده .

ويقول - رحمه الله - عن المشتاقين : « هاموا بالشوْق فلا يحطُّون رحالَ الهَمِّ إلا بفِنَاءِ محبوبِهمْ ، فلو رأيتَهم لَرأيتَ أقوامًا أزعجهم الهَمُّ عن أوطانهم ، فهِمَمُهم إلى مولاهم سائرة ، وقلوبهم إليه من الشوْق طائرة .

فداخَل همومَ القومِ للخلْقِ وحْشةٌ ... فصاحَ بهم أُنْسُ الجليلِ إلىٰ الذِّكْرِ
فأجسادهُمْ في الأرضِ هوْنًا مقيمةٌ ... وأرواحهم تسري إلى مَعْدِن الفخرِ
فهذا نعيمُ القومِ إنْ كنتَ تبتغي ... وتعقِلُ عن موْلاك آدابَ ذوي القدْرِ

سيدي ومولاي :

إذا كانت تحنُّ لكَ المطايا ... فماذا يفعلُ القلبُ المشوقُ ؟

* * *

ما عنكَ يشغلني مالٌ ولا ولدٌ ... نسيتُ باسمِكَ ذكْر المالِ والولدِ
فلو سفكْتَ دمي في التربِ لانكتَبَتْ ... بهِ حروفُكَ لم تنقُصْ ولم تَزِدِ

* * *

ارحمْ حَشاشةَ نفْسٍ فيكَ قدْ ذهبتْ ... قبلَ المماتِ فهٰذا آخرُ الرَّمَقِ
ولو مضىٰ الكلُّ مني لمْ يكنْ عجبًا ... وإنَّما عجبي للبعضِ كيفَ بقِي ؟!

* * *

اشتقْ إلى خيامِ اللؤلؤ في الجنةِ .. إلى غرفٍ يُرىٰ ظاهرُها مِن باطنها وباطنها مِن ظاهرها .

تحنُّ الكرامُ لأوطانِها ... حنينَ الطيورِ لأوكارِها

وتذكُر فيها عهودَ الصِّبا فتزدادُ شوْقًا بتَذْكَارِها

اللهمَّ ارزقنا الشوْق إلى جنتك وإلى لقائك .

* * *

للهِ ما أشدَّ شوقَ المشتاقين إلى ديارهم التي طُرِد أبوهم منها :

مَحَتْ بعدَكُمْ تلكَ العيونَ دموعُها فهلْ مِنْ عيونٍ بعدَها نستعيرُها ؟
رحلْنا وفي سرِّ الفؤادِ ضمائرٌ إذا هبَّ نجديُّ الصَّبا يستثيرُها
أتنسىٰ رياضَ الغورِ بعدَ فراقها وقد أخذَ الميثاقَ منكَ غديرُها
يجعِّدُهُ مَرُّ الشمالِ وتارةً يغازِلُهُ كرُّ الصِّبَا ومرورُها
فيا مسرعينَ السيرَ باللهِ بلِّغوا رسالةَ مشتاقٍ حواهُ سطورُها
إذا كتبتْ أنفاسُه بعضَ وجْدِها علىٰ صفحةِ الذكرىٰ محاهُ زفيرُها
ترفَّقْ رفيقي هلْ بَدتْ نارُ أرضِهِمْ أمِ الوجدُ يُذْكي نارَهُ ويُثيرُها ؟
أعِدْ ذكْرَهُمْ فهو الشفاءُ وربَّما شفىٰ النفسَ أمرٌ ثم عاد يَضيرُها
سقىٰ اللهُ أيَّامًا مضَتْ وليالِيًا تَضوّعَ رياها وفاحُ عبيرُها

ويقول آخر :

وما تلوَّم جسمي عنْ لقائكُمُ إلّا وقلبي إليكمْ شَيِّقٌ عَجِلُ
وكيفَ يقعُدُ مشتاقٌ يحرِّكُهُ إليكُمُ الحافزانِ : الشوْقُ والأملُ
فإن نهضْتُ فما لي غيركمْ وطرٌ وإنْ قعدتُ فما لي غيركمْ شُغلُ
وكمْ تعرَّضَ لي الأقوامُ بعدكُمُ يستأذنونَ علىٰ قلبي فما وصلوا

أبو الدرداء المشتاقُ إلى ربِّه :

« كان رضي الله عنه يقول : أحبُّ الموت اشتياقًا إلى ربي ، وأحبُّ الفقرَ تواضعًا لربي ، وأحبُّ المرض تكفيرًا لخطيئتي » .

وعبد الله بن زكريا[١]: يتمنّى الموتَ شوْقًا إلى ربِّه :

قال رحمه الله : لو خُيِّرتُ بين أنْ أعيشَ مائةَ سنة في طاعة الله، أَوْ أُقبَضَ في يومي هذا أو في ساعتي هذه ؛ لَاخترتُ أن أُقْبضَ في يومي هذا أو في ساعتي هذه ؛ شوقًا إلى الله وإلى رسوله ﷺ ، وإلى الصالحين من عباده .

وقال محمد بن زياد : اجتمع رجالٌ من الأخيار - أو قال : من العلماء والعُبَّاد - وذكروا الموت ، فقال بعضهم : لو أتاني آتٍ ، أو ملكُ الموت ، فقال : أيُّكم سَبق إلى هذا العمودِ ، فوضَع يدَه عليه ؛ لمَات - لرجوتُ ألَّا يسبقني إليه أحدٌ منكم؛شوْقًا إلى الله جلَّ وعلا .

وكان (**أبو عبد ربِّ الزاهد**) يقول : لو أنه قيل : مَن مسَّ هذا العمودَ لَمات ؛ لَسرَّني أنْ أقوم إليه ؛ شوقًا إلى لقاء الله ورسوله .

وقال أبو عتبة الخولاني : كان إخوانُكم لقاءُ اللهِ أحبُّ إليهم من الشَّهْد .

قال سفيان : كان بالكوفة رجلٌ متعبِّد من همذان ، فذكروا عنه أنه كان يقول : إذا ذكرتُ القدومَ على الله كنتُ أشدَّ اشتياقًا إلى الموت من الظمآن الشديد ظمؤه ، في اليوم الحارِّ الشديدِ حرُّه ، إلى الشراب البارد الشديد بردُه .

وقال عبيد الله بن محمد التيمي : سمعتُ امرأةً من المتعبِّدات تقول : واللهِ ، لقد سئمتُ من الحياة ، حتى لو وجدتُ الموتَ يُباعُ لاشتريته ؛ شوْقًا إلى لقاء الله وحبًّا للقائه . قال : فقلت لها : أَفَعَلَى ثقةٍ أنتِ من عملك ؟ قالت : لا ، ولكن لحبِّي إيَّاه ، وحُسْن ظني به ؛ أَفَتَراهُ يعذِّبني وأنا أحبُّه ؟! .

وكان (**أبو عبد الله النباجي**) يقول في مناجاته : « إنك لَتعلم أنَّك

---

(١) عبد الله بن أبي زكريا ، وقيل : « ابن زكريا الخزاعي ؛ ثقة صاحبُ غزوٍ ، وكان من فقهاء دمشق ، روى عن أمِّ الدرداء وعبادةَ بن الصامت » .

لو خيَّرتني بين أن تكونَ لي الدنيا منذُ خُلقَتْ أتنعَّمُ فيها حلالًا ، ولا أُسأل عنها يوم القيامة ، وبين أن تخرج نفسي الساعة - لَاخترتُ أن تخرج نفسي الساعة . ثم قال : إلا تحبّ أن تلقى مَن تطيع ؟! » .

الفتح بن شخروف : طال شوْقي إليك فعجّلْ قدومي عليك :

صحِبَ رجلٌ الفتح بن شخروف بن داود ثلاثين سنة . قال : فلمْ أره رفع رأسه إلى السماء ، إلّا مرَّة واحدة ؛ رفع رأسه وفتح عينيه ونظر إلى السماء ، ثم قال : قد طال شوْقي إليك ، فعجِّلْ قدومي عليك .

فتح الموصِلي : المشتاقُ الصادِق :

وقال فتح الموصلي في يومِ عيد أضحى: قد تقرَّب المتقرِّبون إليك بقربانهم، وأنا أتقرَّب إليك بطول حزْني . يا محبوب ، لِمَ تتركني في أزقَّة الدنيا محزونًا ؟ ثم غُشي عليه ، وحُمِل فدُفِن بعد ثلاثٍ ، رحمه الله تعالى .

وقال عبد الواحد بن زيد : يا إخوتاه،ألا تبكون شوْقًا إلى الله عز وجل ؟ ألا مَنْ بكى شوْقًا إلى سيِّده ، لم يَحرمه النظر إليه .

وكان أبو عبيدةَ الخوَّاص يمشي في الأسواق ويقول : واشوقاه إلى من يراني ولا أراه !!

للهِ ما أرفعها وأعلاها من درجة .. الشوق إلى الله !! وما أعلى همَّة صاحبها !!

قال حبيب بن عبيد[1]: «كان دليجة إذا مشى طاشت قدَماه من العبادة، فقيل له: ما شأنك؟ قال: الشوْق. فقيل له: أَبْشِرْ؛ فإنَّ الأَمير قد بعث إلى شيوخ المسلمين ليأْذن لهم. فيقول: ليسَ شوقي إلى ذلك؛ إن شوقي إلى مَن يحثُّها».

(١) انظر ترجمته في الحلية ٦/١٠٢ .

وقال (**عثمان بن صخر العتكي**): طوبى لمحبي الربِّ الذين عبدوه بالفرَح والسرور ، والأنس والطمأنينة ، فصاروا الصفوة من الخلْق ، والخاصَّة من البريّة ، يحنُّون إليه حنين الولْهان ، ويشتاقون إليه شوْقَ مَن لا صبرَ لهم عنه ، قد كُسروا بالخوف ، وروَّحوا بالظفر .

وكانت امرأة من العابداتِ بمكَّة تقول : أو ليس عجبًا أن أكون حيَّة بين أظهُرِكُمْ ، وفي قلبي مِن الاشتياق إلى ربي مثل شُعَل النارِ التي لا تُطفأ ، حتى أصيرَ إلى الطبيب الذي عنده بُرءُ دائي وشفائي ؟!

ورأى أحدهم داودَ الطائيَ منامًا ، فسمعه يقول :

مـا نالَ عبدٌ مـنَ الرحمـٰن منزلةً   أعلىٰ مِنَ الشوقِ إنَّ الشوْق محمودُ

وقال ذو النون : إذا استحكَمتْ معاني المحبَّة في قلب المؤمن ، سكن بعدها الشوق ، فإذا اشتاقَ أدَّاه الشوْقُ إلى الأُنس بالله ، فإذا أنس بالله اطمأنَّ إلى الله ، فإذا اطمأنَّ كان ليلَه في نعيم ، ونهارَه في نعيم ، وسرّه في نعيم ، وعلانيته في نعيم .

إبراهيم بن أدهم يرى ربّه منامًا :

« قال إبراهيم بن أدهم : قلتُ يومًا : اللهمَّ إن كنتَ أَعطيتَ أحدًا من المحبِّين لكَ ما أسكنتَ به قلوبهم قبل لقائك ؛ فأعطني ذلك ، فلقد أضرَّ بي القلق . قال : فرأيتُه تبارك وتعالى في النوم ، فوقَفني بين يديه ، وقال لي : يا إبراهيم ، أمَا استحييتَ مني ؟ تسألني أن أُعطيك ما يَسكُنُ به قلبُك قبل لقائي ، وهل يسكُن قلبُ المشتاق إلى غير حبيبه ؟! أم هل يستريح المحبُّ إلى غير من اشـتاق إليه ؟! قال : فقلتُ : يا ربِّ ، تهتُ في حبِّك فلمْ أدرِ مـا أقول »[1].

(١) استنشاق نسيم الأنس ص١٠٣ .

يا مَنْ شكا شوقه من طُول فُرقتِهِ اصبرْ لعلَّكَ تلقىٰ مَنْ تُحِبُّ غدَا
وسِرْ إليه بنارِ الشوْقِ مجتهـدًا عسَاك تلقىٰ على نارِ الغرامِ هدىٰ

« قال الجنيد سمعتُ السري يقول : الشوقُ أجلُّ مقامِ العارف ، إذا تحقَّق فيه . وإذا تحقَّق بالشـوقِ ؛ لها عن كلِّ ما يشغله عمَّن يشتاق إليه »[1] .

قال ابن القيم : الشوقُ إلى لقاءِ الله : رأس مال العبد ، وملاك أمْره ، وقوام حياته الطيبة ، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه ، وقرَّة عينه .

والراغبون ثلاثة أقسام : راغبٌ في الله ، وراغبٌ فيما عند الله ، وراغبٌ عن الله ؛ فالمحبُّ راغب فيه ، والعامل راغبٌ فيما عنده ، والراضي بالدنيا من الآخرة راغب عنه ، ومَن آثر الله على غيره آثره الله على غيره . ﴿ **فإذا فرغتَ فانصبْ وإلى ربِّك فارغبْ** ﴾ [الشرح : ٧ ، ٨]، وقال تعالى : ﴿ **ولو أنهم رضُوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون** ﴾ [التوبة : ٥٩].

قال يحيىٰ بن معـاذ : « يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطَرَه من شيْئيْن : بكاؤه على نفسه ، وشوقه إلى ربِّه » .

عليُّ بن سهل المدائني : أنتَ العليمُ أنَّ الشوْق قد برَّح بي :

« كان علي بن سهل المدائني – رحمه الله – يقوم إذا هدأتِ العيون،فينادي بصوت له محزون : يا من اشتغلتْ قلوب خلْقِه عنه ، بما يُعقبهم عند لقائه ندمًا . ويا من سهت قلوب عباده عن الاشتياق إليه ، إذ كانت أياديه إليهم قبل معرفتهم به . ثم يبكي حتى تبكي لبكائه جيرانه ، ثم يُنادي : ليتَ شعري !! سيدي ،

(١) روضة المحبِّين لابن القيم ص٤٣٧ .

إلى متى تحبسني ؟! ابعثني سيِّدي إلى حُسْن وعدك ، وأنت العليم أنَّ الشوق قد برَّح بي ، وطال عليّ الانتظار . ثم يخرُّ مغشيًّا عليه ، فلا يزال كذلك حتى يُحرَّك لصلاة الصبح »(١) .

والحارِثُ بنُ عُمَير مشتاقٌ إلى لقاءِ سيِّده :

« وكان الحارث بن عمير - رحمه الله - يقول إذا أصبح : « أصبحتُ ونفْسي وقلبي مُصِرٌّ على حبِّك سيِّدي ، ومشتاق إلى لقائك ، فعجِّل بذلك قبل أن يأتيني سواد الليل » . فإذا أمسىٰ قال مثل ذلك ، فلم يزل على مثل هذا الحال ستين سنة »(٢).

قلوبُ العارفينَ لها عُيونُ ... ترىٰ ما لا يراهُ الناظرونا
وأجنحة تطيرُ بكلِّ شوْقٍ ... فتأوي عند ربِّ العالمينا

« فبؤْسًا وتعْسًا للنفوس الوضيعة الدنيئة ، التي لا يهزُّها الشوق طرَبًا ، ولا تتَّقد نارُ إرادتها لذلك رغَبًا ، ولا تبعد عمَّا يصدُّ عن ذلك رهَبًا . تجول حول الحُشِّ ، إذا جالت النفوسُ العُلويَّة حول العرش ، وتندسُّ في الأحجار إذا طارت النفوس الزكيَّة إلى أعلى الأوكار .

فلمْ ترَ أمثالَ الرجالِ تفاوتوا ... إلى الفضلِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحِدِ »

أخي ، أبدان المحبِّين عند أهل الدنيا وقلوبهم عند الحبيب .

وترحل وتحدث عجبًا ... أن قلبًا سار عن جسمٍ أقامَا

ولله ِدرُّ ذي النون وهو يقول :

أموتُ وما ماتتْ إليكَ صبابتي ... ولا رَوِيتْ مِن صدقِ حُبِّك أوطاري

---

(١) ، (٢) الطريق إلى الله . أو كتاب الصدق لأبي سعيد الخرّاز ص١١٨، ١١٩ تحقيق : د . عبد الحليم محمود - الناشر : دار الإنسان .

مناي المنىٰ كـلُّ المنـىٰ أنت لي مُنىٰ   وأنت الغِنىٰ كلُّ الغنىٰ عند إقتاري
وأنـتَ مـدىٰ سُـؤلي وغـايـة رغـبتي   وموضع شـكواي ومكنونُ إضماري

فارزقنا اللهمَّ صِدْقَ محبَّتك والشوق إليك .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

فِقْهُ مَرَاتِب الأعمال وبدعةُ القشْرِ واللُّباب

« إن في الأعمال والأقوال سيِّدًا ومسودًا ، ورئيسًا ومرءوسًا ، وذروة وما دونها »

[ابن قيِّم الجوزية]

« إن الفقه – كلَّ الفقه – أن تُبصر أهمَّ الواجباتِ فتقدِّمه ، وتعرف خيْر الخيْرَيْن فتتَّبعه ، وشرَّ الشَّرَّيْن فتدْفعه »

[محمد إسماعيل المقدِّم]

□ فقهُ مراتبِ الأعمالِ وبدعةُ القشْر واللُّباب □

« مما ينبغي للحاذق الفَطِن مراعاته : التوسُّط بين الحقوق والواجبات ، بإعطاء كلِّ ذي حق حقَّهُ ، وتقديم فرائض الأعمال على مستحبَّاتها لينجو من الوزْرِ ، وفاضِلِها على مفضولها لِيسلم من الغبْن ؛ فإنَّ الفقه - كلَّ الفقه - أن تبْصر أهمَّ الواجبات فتقدِّمه ، وتعرِف خيْر الخيْرَيْن فتتَّبعه ، وشرَّ الشَّرَّيْن فتدفعه »[(١)] .

فقهُ مراتب الأعمال : فقه عُلاةِ الهمم وخاصَّةِ العلماء :

وفقه مراتب الأعمال هو من أنواع الفقه التي يجب أن يتعلَّمها المسلم ويهتَّم بها .

وهو يعني : العلم بفاضل الأعمال ومفضولها ، وأرجحها ومرجوحها ؛ فإن كانت الأعمال طاعةً ، عَلِمَ أيُّها أحبُّ إلى الله وأكثرها أجرًا وثوابًا . وإن كانت معصية ، عَلِم أيُّها أبْغَضُ إلى الله وأكثرها وزرًا وعقوبةً . وإن كانت الأعمال وسيلة إلى أهداف معيَّنة - المقاصد الشرعية مثلًا - عَلِم أيُّها أقدرُ على تحقيق هذه الأهداف ، وأيُّها أولى بذلك . وإن كان الإنسانُ أَمَّ بدائلَ متعددةً من خير أو شرٍّ ، علم خير الخيْريْن وشرَّ الشَّرَّيْن . وإذا جهل المسلم أيّ الأعمال أفضل وأولى ؛ لا شكَّ يُنفق وقته وجُهْده وماله في أجرٍ أقلَّ ، ويفوّت ما هو أجلُّ وأعظم ، وأنه إنِ اختلطتْ لديه مراتبُ الأعمال ، واختلَّ لديه توازنها ؛ قد يصل إلى عكس مقصود الشَّرْع ، فيأثم من حيث يريد أن يغنم ، أو إلى عكس مقصوده في الواقع ؛ فيُفْسِد من حيث يريد أن يُصلح .

---

(١) من كلام الشيخ محمد إسماعيل - حفظه الله - في مقدمة كتابي : رهبان الليل ص٨ .

القرآنُ الكريمُ ومراتبُ الأعمال :

وقد وردت آيات عديدة في كتاب الله عز وجل ، تُبيِّن أنَّ الأعمال ليستْ كلّها في درجة واحدة ، بل تختلف درجاتها في الخير ، كما تختلف دركاتها في الشرِّ .

ومن ذلك : قوله تعالى : ﴿ **إنْ تبدوا الصَّدقات فنِعِمَّا هي وإنْ تُخفوها وتُؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفِّر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير** ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

قال ابن كثير : « فيه دلالة على أن إسرار الصَّدقة أفضل من إظهارها »[(١)].

ومن ذلك أيضًا : قوله تعالى : ﴿ **أجعلتم سِقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام كَمَن آمن بالله واليومِ الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ [التوبة : ١٩] . ففاضلت الآية بين أمرَيْن كلاهما طاعة وقربة ، وبيّنت أنهما لا يستويان عند الله تعالى .

وفي قوله تعالى : ﴿ **ليلةُ القدْر خيرٌ من ألْفِ شهر** ﴾ [القدر : ٣] : دليلٌ على أن عبادة وقيام ليلةِ القدْر خير من عبادة ألفِ شهر .

كما بيَّن القرآن الكريم في آيات أخرى : أن المحرَّمات منها الكبائر والصغائر ؛ فقال تعالى : ﴿ **إنْ تجتنبُوا كبائر ما تُنهون عنه نكفِّر عنكم سَيِّئَاتِكم ونُدخلْكم مدخلًا كريمًا** ﴾ [النساء : ٣١] .

وقال سبحانه مادحًا عباده المحسنين : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلَّا اللَّمم** .. ﴾ الآية [النجم : ٣٢] ، فدلتِ الآيتان على أن المنهيَّات

---

(١) قال ابن كثير بعدها : « لأنه أبعد عن الرياء إلا أنْ يترتَّب على الإظهار مصلحة راجحة ؛ من اقتداء الناس به ، فيكون أفضل من هذه الحيثية » .

قسمان : كبائر ، وأخرى دونها ؛ سُمِّيت في الآية الأولىٰ : سيِّئات ، وفي الثانية : لَمَمًا . قال ابن كثير : « لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقَّرات الأعمال » .

السُّنَّة النبوية ومراتبُ الأعمال :

والسنة النبوية زاخرة بالنماذج والأمثلة لتفاضل الأعمال والتكاليف الشرعية ، التي يجب على المسلم مراعاتها في عبادته وحركته في الحياة ، وربّما يكون أجْمَعَ حديثٍ في ذلك حديثُ أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « الإيمان بِضْعٌ وسبعون - أو بضع وستُّون - شعبة ؛ فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »(١) .

وقد سُئل الرسول ﷺ مِرارًا : أي الإسلام أفضل ؟ أو : أيُّه خير ؟ فأجاب ، وإنما المقصود : أي أعمال المسلم أفضل أو أخْير ؟ ولذلك بوّب الإمام النووي لأحاديثَ رواها مسلم في « صحيحه » من ذلك النوع ، فقال : « باب بيان تفاضل الإسلام ، أو أي أموره أفضل » .

عن عبد الله بن عمرو أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ : أي الإسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على مَن تعرف ومَنْ لم تعرف »(٢) .

وعن يزيد بن أبي حبيب ، عن أبي الخير أنه سمِع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : إن رجلًا سأل رسول الله ﷺ : أيّ المسلمين خير ؟ قال : « من سَلِم المسلمون من لسانه ويده »(٣) .

وعن أبي الزبير قال : سمعتُ جابرًا يقول : سمعتُ النبي ﷺ يقول :

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم .

« المسلم مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده »[(١)] .

قال النووي : « قال العلماء رحمهم الله : قوله : (أيُّ الإسلام خير ؟) : معناه : أيُّ خصالِه وأموره وأحواله ؟ قالوا : وإنما وقع اختلاف الجواب في خير المسلمين ؛ لاختلاف حال السائل والحاضرين ، فكان في أحد الموضعَيْن الحاجة إلى إفشاء السلام وإطعام الطعام أكثر وأهمَّ ؛ لِمَا حصل من إهمالهما والتساهُل في أمورهما ونحو ذلك ، وفي الموضع الآخر إلى الكفّ عن إيذاء المسلمين .

وقوله ﷺ : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » : معناه : من لم يُؤْذِ مسلِمًا بقوْلٍ ولا فعل ، وخصَّ اليدَ بالذِّكْر لأن معظم الأفعال بها .

وقوله ﷺ: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»: قالوا: معناه المسلم الكامل ، وليس المراد نفي أصل الإسلام عن من لم يكن بهذه الصفة . ثم إنَّ كمال الإسلام والمسلم متعلِّق بخصال أُخَرَ كثيرة ، وإنما خصَّ ما ذكر لِمَا ذكرناه من الحاجة الخاصَّة . والله أعلم »[(٢)] .

وفي المقابل بيَّنَتْ أحاديثُ عديدة كوْنَ الذنوب أنواعًا ومراتب ؛ فعن أبي بكْرَةَ ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبِّئكم بأكْبر الكبائر ؟ » . قلنا: بلى يا رسول الله. قال- ثلاثًا-: «الإشراك بالله، وعقوقُ الوالدين» . وكان متَّكئًا فجلس فقال : « ألا وقوْل الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور »[(٣)] .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قلتُ : يا رسول الله ، أيُّ الذنوب أعظم ؟

---

(١) رواه مسلم .

(٢) شرح النووي لمسلم - باب : بيان تفاضل الإسلام ١/٢١٤ .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي .

قال : « أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك » . قلتُ : ثم أيّ ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك »[١] .

علم « أصول الفقه » يضعُ القواعد :

وانطلاقًا ممَّا مرَّ ، فقد اتفقتِ الأمة على أن الأحكام الشرعية التي كُلِّف بها المسلم : أنواعٌ ومراتب ، وليست على ميزان واحد ، كما اتفق جمهور العلماء على انقسام مأمورات الشرع إلى واجبات ومستحبَّات ، وانقسام منهيَّاته إلى مكروهات ومحرمات . يقول مجد الدين ابن تيمية في « المسودّة » : « اتفق الفقهاء والمتكلِّمون على أنَّ أحكام الشرع تنقسم إلى : واجب ومندوب ومحرَّم ومكروه ومباح » .

ولأن الواجب على المسلم أن يضع كلَّ أمرٍ شرْعي موْضِعَه ، ولا يخلط بين أنواع الأحكام أو يتعامل معها كيفما اتفق ؛ فقد قرَّر العلماء - والأصوليون منهم بالخصوص - أنه لا يجوز أن يُسوِّي بين الواجب والمندوب ، « لا في القول ، ولا في الفعل ، ولا في الاعتقاد »[٢] ، ولا يسوِّي بين الحرام والمكروه ، ولا بين المباح وبين المندوب والمكروه . يقول الشاطبي : « الواجبات لا تستقرُّ واجباتٍ إلّا إذا لم يسوَّ بينها وبين غيرها من الأحكام ، فلا تُترك ولا يُسامَح في ترْكها ألبتة ، كما أن المحرَّمات لا تستقرُّ كذلك ، إلّا إذا لم يسوّ بينها وبين غيرها من الأحكام فلا تُفعل ، ولا يُسامح في فعلها » .

والمصالح الشرعية مقسَّمة إلى ضروريَّات ، وحاجيَّات ، وتحسينيَّات ؛ وهي مرتَّبة هذا الترتيب ؛ فإن الأوامر المتعلِّقة بالأمور الضرورية - كما يقول الشاطبي -: « ليست كالأوامر الشرعيَّة المتعلِّقة بالأمور الحاجيَّة ولا التحسينية ،

---

(١) رواه البخاري .

(٢) الموافقات للشاطبي ٣/٣٣١ .

ولا الأمور المكمِّلة للضروريات كالضروريات أنفسها ، بل بينهما تفاوت معلوم . بل الضروريات ليست في الطلب على وزان واحد ؛ كالطلب المتعلِّق بأصل الدين ، ليس في التأكيد كالنفْس ، ولا النفْسُ كالعقل ... إلى سائر أصناف الضروريات . والحاجيات كذلك ... »(١) .

إذن لا يكفي المسلم أن يعلمَ ما أَمَر به الشرع أو ما نهىٰ عنه ، بل عليه أن يعلم أيضًا درجة الأمر أو النهي ، وأن يُنزِل كلَّ ذلك مرتبته دون إفراط ولا تفريط .

فقْهُ مراتب الأعمال : خاصَّةُ العلماءِ بهذا الدين :

وقد وصف الإمام ابن تيمية فقه مراتب الأعمال بأنه حقيقة الدين ، وحقيقةُ العمل بما جاءت به الرسل ، وبأنه خاصَّةُ العلماء بهذا الدين ؛ يقول : « فتَفَطَّنْ لحقيقة الدين ، وانظرْ ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد ، بحيث تعرِف ما ينبغي من مراتب المعروف ومراتب المنكر ، حتى تقدِّم أهمَّها عند المزاحمة ؛ فإن هذا حقيقة العمل بما جاءت به الرسل ، فإنَّ التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر ، وجنس الدليل وغير الدليل : يتيسَّر كثيرًا . فأمَّا مراتب المنكر ، ومراتب الدليل ، بحيث تقدّم عند التزاحم أعْرَفَ المعروفَيْن فتدعو إليه ، وتُنكر أنْكَرَ المُنْكَرَيْن ، وترجّح أقوى الدليلَيْن ؛ فإنه هو خاصَّة العلماء بهذا الدين »(٢) .

أما تلميذه ابن القيِّم : فقدِ اعتبر انشغال الإنسان بالأعمال المفضولة عن الفاضلة من عقبات الشيطان ، التي لا يتجاوزها المسلم إلّا بفقهٍ في الأعمال

---

(١) الموافقات ٣ / ٢٠٦ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٨ .

ومراتبها . إن الشيطان في هذه العقبة يأمر الإنسان ويُحَسِّن له الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات ، ويُريه ما فيها من الفضل والرِّبْح ، ليشغله بها عمَّا هو أفضل وأعظم كسْبًا وربحًا ؛ « لأنه لمَّا عجَز عن تخسيره أصْلَ الثواب ، طمع في تخسيره كماله وفضْلَه ، ودرجاته العالية ، فشغله بالمفضول عن الفاضل ، وبالمرجوح عن الراجح ، وبالمحبوب لله عن الأحبِّ إليه ، وبالمرضي عن الأرضىٰ له » .

ثم قال ابن القيم : « فإنْ نجا منها بفقهٍ في الأعمال ، ومراتبها عند الله ، ومنازلها في الفضل ، ومعرفة مقاديرها ، والتمييز بين عاليها وسافلها ، ومفضولها وفاضلها ، ورئيسها ومرءوسها ، وسيدها ومسودها ؛ فإنَّ في الأعمال والأقوال سيِّدًا ومسودًا ، ورئيسًا ومرءوسًا ، وذروة وما دونها ... ولا يقطعُ هذه العقبة إلَّا أهلُ البصائر والصدق من أولي العلم ، السائرين على جادَّة التوفيق ، قد أنزلوا الأعمال منازلها ، وأعطوا كلَّ ذي حقّ حقَّه ، فإذا نجا منها لم يبقَ هناك عقبةٌ يطلبه العدوُّ عليها سوىٰ واحدةٍ لا بدَّ منها »[1] .

غيابُ حِسِّ الأوْلويَّات :

[لقد كان لعدم الاهتمام بتعليم المسلم هذا الفقه الجليل آثارٌ، قد تكون بعيدة المدى وشديدة الضَّررِ دنيا وآخرة . ومن تلك النتائج :

١ - ضياعُ الأجْر :

فالجاهل بمراتب الأعمال يهتمُّ بالعمل قليلَ الأجر على حساب كثير الأجر ، ويضيِّع الجهد الكبير للحصول على حسناتٍ قليلة ؛ وتروي لنا السُّنَّة من ذلك أمثلة كثيرة :

فعن أنسٍ قال : كنا مع النبي ﷺ ؛ فمنا الصائم ومنَّا المفطر . قال : فنزلنا منزلًا في يوم حارٍّ ، أكثرُنا ظِلًّا صاحبُ الكساء ، ومنا من يتقي الشمسَ

---

(١) مدارج السالكين ١/٢٢١ .

بيده . قال : فسقط الصُّوَّام ، وقام المفطرون ، فضربوا الأبنية ، وسقَوا الرِّكَاب ، فقال رسول الله ﷺ : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر »[1] .

وقد يصل الأمر إلى حدٍّ تضييع أصل الأجْرِ نفسِه ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ؛ إن فلانة يُذكَر مِن كثرة صلاتها وصيامها ، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها . قال : « هي في النار » . قال : يا رسول الله ، فإن فلانة ... يُذكر من قلَّة صيامها ، وصدقتها وصلاتها ، وأنها تصدَّق بالأثوار من الأقط[2] ، ولا تُؤذي جيرانها . قال : « هي في الجنة »[3] .

كما أن ابن الجوزي قد ذكَر أمثلةً متعدِّدة لدىٰ العُبَّاد بالخصوص ، كلها ناتج عن قلّة الفقه بمراتب الأعمال ؛ قال مثلًا : « وقد لبَّس إبليس على جماعة من المتعبِّدين ، فأكثروا من صلاة الليل ، وفيهم مَن يسهره كلَّه ، ويفرح بقيام الليل وصلاة الضحىٰ أكثر ممّا يفرح بأداء الفرائض ، ثم يقع قُبيل الفجر فتفوته الفريضة ، أو يقوم فيتهيَّأ لها فتفوته الجماعة ، أو يُصبح كسلانَ فلا يقدر على الكسْب لعائلته »[4] .

٢ - سُوءُ فهْمِ الشريعة :

إن الجهل بمراتب الأعمال عندما يكون عامًّا ، يؤدِّي إلى فوضىٰ فكرية عارمة ، تشوِّه الشريعة وتُخِلُّ بتوازنها . لقد أرسىٰ الشرع بين المأمورات والمنهيات توازنًا لا يجوز الإخلال به ، تمامًا كَنِسَبِ الدواء الواحد ، قد يؤدِّي تغييرُها إلى إفساده وإلغاء خصائصه ، إن لم ينقلب إلى سُمٍّ قاتِل ، ومن ذلك

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم واللَّفظُ له ، والنسائي .

(٢) أي : بالقِطَع من اللَّبَن المجفَّف .

(٣) صحيح الإسناد : أخرجه أحمد والبزار ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٤) تلبيس إبليس ص١٤١ .

أنَّ المسلم اليوم مثلًا قد أضحىٰ عنده ترتيب جديد لأوامر الشرع ، يجعل الشعائر التعبُّدية « فرائضَ ومستحبَّاتٍ » أعلى مرتبة من سائر الواجبات والفرائض الأخرى ، وأوكد من ترْك منهيَّات الشرع « محرَّماتٍ ومكروهاتٍ » .

٣ - غِيابُ حِسِّ الأَوْلويَّات في الدعوة :

فسُوءُ فهْمِ الشريعة يؤدِّي إلى عجْز الدُّعاة عن البَدْءِ بما يجب البدءُ به ؛ فإذا كان في أحكام الدين واجب ومستحبٌّ ، وفاضل ومفضول ؛ فإن الدعوة إلى الواجب والفاضل مقدَّم على الدعوة إلى ما دونها ، لكننا نرىٰ من بين شباب الصحوة الإسلامية ودُعاتها مَن ينشغل بالمسائل المرجوحة والأحكام الخلافية ، وتُبدِّد الجهود والطاقات فيها ، والأَوْلى البدءُ بالدعوة إلى أصول العقيدة والشريعة ، وبذْل الجهد في معالجة القضايا المصيرية الكبرىٰ للأمة . وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بدَّ من اعتبار درجة المعروف ودرجة المنكر ، حتى لا يُفسد الإنسان بدَلَ أن يُصلح ، وحتى لا ينفِّر بدَل أن يُبشِّر . ولذلك اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه « إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر ، بحيث لا يفرِّقون بينهما ، بل إمَّا أن يفعلوهما جميعًا أو يتركوهما جميعًا ؛ لم يَجُزْ أن يُؤمروا بمعروف ولا أن يُنهوا عن منكر ، بل يُنظر ؛ فإن كان المعروف أكثر : أُمر به وإن استلزم ما هو دونه من المنكر ، ولم يُنه عن منكر يَستلزم تفويت معروفٍ أعظم منه ، بل يكون النهْيُ حينئذٍ من باب : الصد عن سبيل الله ، والسعْي في زوال طاعته وطاعة رسوله وزوال فعْل الحسنات . وإن كان المنكر أغلب : نُهي عنه وإن استلزم ما هو دونه من المعروف ، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه ، أمرًا بمنكَر وسعيًا في معصية الله ورسوله »[١].

---

(١) الحِسْبة لابن تيمية ص٣٨ - ٣٩ .

إن هذا النصّ تطبيقٌ رائع لفقْه مراتب الأعمال وتقديم الراجح منها . وقد صاغ الأُصوليُّون ذلك في قواعد تشريعيَّة هادية مثل : دفْعُ أشدِّ المفسدتيْن بأخفِّهما . والإتيان بأعظم المصلحتيْن وتفويت أدناهما . وتقديم المصلحة الراجحة على المفسدة الخفيفة . وعدمُ ترْك المصلحة الغالبة ، خشيةَ المفسدة النادرة .

ولا يستقيم عمل دَعَوِيٌّ إلّا بفقه هذه الأصول والقواعد ، والالتزام بها ، فعسىٰ أن يُوفَّق أبناءُ الصحوة الإسلامية وشبابُها إلى ذلك . والحمد لله ربِّ العالمين][1] .

بِدْعَةُ تقسيمِ الدِّين إلى قِشْرٍ ولُباب :

فقه مراتب الأعمال شيءٌ ، وتقسيم الدين إلى قشرٍ ولباب شيء آخر ؛ فمصطلح (القشْر واللُّب) : « قناع نفاقيٌّ قبيح ، وإنه مِن لحن قول العالمانيِّين الذين يتخذونه قنطرةً يهربون عليها من الالتزام بشرائع الإسلام ، دون أن يُخدَشَ انتماؤهم إليه ، فهو عند المنافقين الحريصين على اقتلاع شجرة الإسلام من جذورها ، مجرَّد مدخل إلى نبْذِ اللُّب والقشْر معًا »[2] .

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

قال ابن كثير : « يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين به المصدِّقين برسوله ، أن يأخذوا بجميع عُرىٰ الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترْك جميع

---

(١) فقه مراتب الأعمال . مقالة للدكتور سعد الدين العثماني بمجلة « البيان » العدد ٩٧ ، ص٩٤ - ٩٧ بتصرُّف يسير .

(٢) انظر كتاب : تبصير أولي الألباب ببدعة تقسيم الدين إلى قشْرٍ ولباب للشيخ محمد أحمد إسماعيل ص٦ - طبع . دار طيبة . بمكة .

زواجره ما استطاعوا من ذلك »[١]. اهـ .

قال ابن عباس : ﴿ **ادخلوا في السلم** ﴾ يعني الإسلام ، ﴿ **كافة** ﴾ ؛ يعني : جميعًا .

وقال مجاهد : « أي اعملوا بجميع الأعمال ووُجوه البِرِّ » .

قال الألوسي : « والمعنىٰ : ادخلوا في الإسلام بكلِّيَّتكم ، ولا تدَعُوا شيئًا مِن ظاهركم وباطنكم إلّا والإسلامُ يستوعبُه ؛ بحيث لا يبقى مكان لغيره »[٢] .

وقال أيضًا : « وقيل : الخطاب للمسلمين الخُلّص . والمراد من « السِّلْم » ، شُعَب الإسلام .

والمعنى : ادخلوا أيُّها المسلمون المؤمنون بمحمد ﷺ في شعب الإيمان كلها ، ولا تُخِلُّوا بشيء من أحكامه » .

ويقول الشيخ محمد إبراهيم شقرة - حفظه الله - في ردِّه على الذين لا يهتمون ببعض الشرائع الظاهرة ، ويسمُّونها «شكليات» أو «قشورًا» ويُدندنون فقط حولَ التمسُّك باللباب : [لقد صارت هذه المقولة المُغْرِضة شعارًا ، له أنصار ودُعاة ، وأقلام وصحف ، ومناهج وعقول . وبالرغم من هذا الحشْد الذي الْتفَّ حول هذا الشعار ؛ فإننا لم نجد حتى الآن ترجمة واضحة له ، أو تحديدًا دقيقًا لمعناه ؛ فإن القائلين بهذه المقولة الحادثة ، رغم تأكيدهم عليها ، والإكثار من الحديث عنها ؛ فإنهم لم يضعوا تعريفًا أو حدًّا لِمَا سَمَّوه : قِشْرًا ، أو لِمَا يُسمَّى : لُبَابًا ، ينتهي إليه الراغب في العمل باللباب وحدَه دون القِشْر .

وما ذاك إلا لأنها مقولة حادثة مبتدَعَة ، لم يعرفها سلَفُ الأمة ومَن تبعهم بإحسان ، وإنما هي من نتاج أفكار المنهزمين المستعبَدين للشرق أو للغرب .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٦١ .

(٢) رُوح المعاني للألوسي ٢/٩٧ .

وإذا حاولنا أن نضع حـدًّا تقريبيًّا ، فلنقل : « اللبابُ في المأمورات الشرعية : هو ما يدخل تحت الحكم الواجب ، والقشر : هو ما جاوز دائرة الحكم الواجب . واللباب في النواهي : هو ما يدخل تحت الحكم الحرام ، والقشر : هو ما لم يتناوله الحرام الصريح في النواهي » .

وعلى ذلك : فالقشور في المأمورات : كلُّ مندوب أو مباح . وفي النواهي : المكروهات ، وبناءً عليه يجتمع لدينا من القشور ما يزيد على نصف الدين ، ويبقى من لُبابه أقلُّ من النصف ، فهل يُعقل أن ندعَ أكثر من نصف الدين قشورًا لنأخذ أقلَّ من نصفه لبابًا ؟! وأين سيضعون المسائل المختلَف عليها بين الواجب والمندوب كصلاة الوتر مثلًا ؟! أضِفْ إلى ذلك أنه ليس شيء من القشور أو اللباب – على حدِّ تعبيرهم – إلّا ويدخل تحتَ حُكْم الله وخطابه المتعلق بأفعال المكلَّفين ، على سبيل التخيير أو الطلب تركًا أو فعلًا ، وبالتالي لا يصحُّ تسميته : قشرًا على سبيل الاصطلاح الذي افترضناه ، ولا على سبيل التهوين والغضِّ من شأنه .

وجميع الأحكام من المندوبات أو المباحات أو الواجبات ، وسواءً كانت من المكروهات أو من المحرَّمات ؛ هي شعب الإيمان التي قال فيها عليه الصلاة والسلام : « الإيمان بِضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطةُ الأذى عنِ الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »(١) . فأيّما شعبة نقصَت منها كانت نقصًا من الإيمان ، وأيّما شعبة التزمها المسلم كانت زيادة في إيمانه ؛ لأن الإيمان يزيد وينقص بالقول والعمل ، وهذا من شعائر أهل السنة ، وهو مذهب السواد الأعظم من الأمة ، قال رسول الله ﷺ :

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه . رواه البخاري بلفظ : « الإيمان بضع وستون شعبة » . وعند ابن ماجه في المقدمة : « الإيمان بضع وستون – أو سبعون – بابًا » .

« لَتُنْقَضَنّ عرى الإسلام عُروةً عروة ، فكلّما انتقضت عروة تشبثَّ الناس بالتي تليها ، فأولهنَّ نقْضًا الحكم ، وآخرهن الصلاة »[1]][2] .

قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتُكم بأمْرٍ فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتُكم عنه فاجتنبوه »[3] .

فزجر ﷺ عن النواهي مطلقًا ، ولم يفرِّق بين قِشْر ولُبٍّ ، وعلّق امتثال الأوامر على الاستطاعة ، ولم يعلِّقه بكوْنها قشْرًا أو لبًّا على زعمهم .

ونقل ابن الحاجِّ عن الغزالي رحمه الله قوله في « كتاب الأربعين » : « اعلمْ أن مفتاح السعادة : في اتباع السُّنَّة ، والاقتداء برسول الله ﷺ في جميع مصادره وموارده ، وحرَكَاته وسَكَنَاته ، حتى في هيئة أَكْلِه وقيامه ، ونومه وكلامه ، لستُ أقول ذلك في آدابه فقط ؛ لأنه لا وجه لإهمال السنة الواردة فيها ، بل ذلك في جميع أمور العادات ، فبه يحصل الاتباع المطلق ، كما قال تعالى : ﴿ **قلْ إنْ كنتم تُحبُّون الله فاتبعوني يحبْكم الله** ﴾ [آل عمران : ٣١] . وقال تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ [الحشر : ٧] . فلا ينبغي التساهلُ في امتثال ذلك ، فتقول : « هذا مما يتعلّق بالعادات ، فلا معنى للاتباع فيه » ؛ فإن ذلك يغلق عنك بابًا عظيمًا من أبواب السعادات »[4] .

« وقسمةُ الدين إلى قشْرٍ ولُبٍّ تُؤثّر في قلوب العوامِّ أسوأ تأثير ، وتورثهم الاستخفاف بالأحكام الظاهرة ، وينتج عنها الإخلال بهذه الأمور التي سُمِّيت

---

(١) صحيح : رواه من حديث أبي أمامة الإمام أحمد ، والحاكم وقال : إسناده صحيح . ولم يخرجاه . وابن حبان وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع ١٥/٥ .

(٢) « تنوير الأفهام لبعض مفاهيم الإسلام » للأستاذ محمد إبراهيم شقرة ص٣٥ - ٤٤ . ملخَّصًا .

(٣) رواه البخاري ، ومسلم واللفظ له ، والنسائي ، وابن ماجة .

(٤) المدخل لابن الحاجّ ١٤٣/١ ، ١٤٤ .

قشورًا ، فلا تلتفت قلوبهم إليها ، فتخلو من أضعف الإيمان ، ألا وهو الإنكار القلبي الذي هو فرْضُ عيْنٍ على كلِّ مسلم تجاه المنكرات .

والتفريط في محقَّرات الأعمال يؤدِّي إلى التفريط في عظائمها ؛ لأنَّ استمرار هذا التفريط يتحوَّل مع الزمن إلى عادة تنتهي بصاحبها إلى قلّة الاكتراث بأمور دينه والتهاون بها .

ومن هذا القبيل : تقسيم الدين إلى أصول وفروع ، فإن العلماء الذين فعلوا ذلك لا يُظنُّ بهم أنهم قصدوا بذلك التقسيم إيجاب الاتفاق على الأصول ، ثم التسامح مطلقًا في الفروع ، كما يظن بعضُ متفقِّهة هذا الزمان »[١] .

والمحافظة على الهدي الظاهر ليست مجرَّد شكلٍ ومظهر؛ فكم بين الظاهر والباطن من ارتباط وثيق !! وأفرد العلماء المؤلَّفات في حُرْمة التشبُّه بالكفَّار في أحوالهم الظاهرة ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيم « اقتضاء الصراط المستقيم » ؛ قال رحمه الله : « إذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تُورث المحبَّة والموالاة ، فكيف بالمشابهة في أمور دينية ؟! فإنَّ إفضاءَها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشدُّ ، والمحبَّة والموالاة لهم - أي الكفار - تُنافي الإيمان ، قال تعالى : ﴿ **لا تجدُ قوْمًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه** ... ﴾ الآية [المجادلة : ٢٢] ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يوجد مؤمن يوادُّ كافرًا ، فمَن وادَّ الكفار فليس بمؤمن ، فالمشابهة الظاهرة مظنَّة المودة ، فتكون محرَّمة »[٢].

---

(١) تبصير أولي الألباب ص١٢ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص٢٢١ ، ٢٢٢ .

والمشاركة في الهدي الظاهر تُورث تناسُبًا وتشاكُلًا بين المتشابهيْن يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال ، وهذا أمر محسوس ؛ « فلا يُشبه الزيُّ الزِّي حتى يُشبِهَ القلبُ القلبَ » .

والمخالفة في الهدي الظاهر تُوجب مباينة ومفارقةً تُوجب الانقطاع عن موجبات الغضب ، وأسباب الضلال ، والانعطاف إلى أهل الهدىٰ والرضوان . وكلَّما كان القلب أتمَّ حياةً وأعرفَ بالإسلام الذي هو الإسلام ؛ كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنًا أو ظاهرًا أتمَّ ، وبُعْدُه عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشدّ .

« ومشاركة اليهود والنصارى في الهدي الظاهر تُوجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التمييز ظاهرًا بين المهديِّين المرضيِّين ، وبين المغضوب عليهم والضالين ، إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية . هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلّا مباحًا محْضًا ، لو تجرَّد عن مشابهتهم ، فأمَّا إنْ كان مِن موجبات كفرهم ؛ فإنه يكون شعبة من شُعَب الكفر ، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم . فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له »[(١)] .

تركيا ولا « عاطفَ اسكلفي » لها :

« الشيخ عاطف اسكلفي صاحب كتاب « قرانك مقلدلغى » - بالتركيّة - يتناول تحريم التشبُّه بالكفَّار ، وأفتى فيه بتحريم ارتداء « القُبَّعة » . ولمّا قام أتاتورك بالانقلاب الأثيم حُوكم الشيخ عاطف بعد الانقلاب بسنتيْن ؛ لتأليفه هذا الكتاب ، ولمَّا مثُلَ الشيخُ أمام القاضي رئيس محكمة الاستقلال ؛ خاطبه القاضي قائلًا : « إنكم أيُّها الشيوخ مُغْرَقُون في السفسطة الفارغة ، رجل يرتدي عمامة يكون مسلمًا ، فإذا ما ارتدى قبَّعة صار فاسقًا ، وهذه قماش

---

(١) المصدر السابق .

وهذه قماش !! » . فأجابه الشيخ الجليل : « انظر أيها القاضي إلى هذا العَلَم المرفوع خلْفَك - أي عَلَمُ تركيا - استبدلْه بعَلَم انكلترا مثلًا ؛ فإن قبلتَ ، وإلَّا فهي سفسطة منك ؛ إذ هذا قماش وذاك قماش » . فبُهتَ القاضي ، ومع ذلك حكَمَ على الشيخ بالإعدام،رحمه الله رحمةً واسعة »[1] .

« قال العلّامة المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني - حفظه الله تعالى ، في سياق ردِّه على مَنِ ادَّعى أنَّ الإسلام لا يهتمُّ بكل المظاهر الشكليَّة ومنها اللِّحية -: « .. ومع أنها دعوىٰ عارية عن الدليل ؛ فإنها منقوضة أيضًا بأحاديث كثيرة .. أقول : هذا الزعم باطل قطعًا ، لا يشكُّ في ذلك أي مُنصِفٍ متجرِّد من اتِّباع الهوىٰ ، بعد أن يقف على الأحاديث الآتية ، وكلُّها صحيحة :

١ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ المتشبِّهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال » .

٢ - وعن عائشة رضي الله عنها : أنَّ جارية من الأنصار تزوَّجت ، وأنها مرضت ، فتمعَّط شعْرُها ، فأرادوا أن يَصِلُوهُ ، فسألوا النبي ﷺ ، فقال : « لعَنَ اللهُ الواصلة والمستوصلة » .

٣ - عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: « لَعَنَ اللهُ الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتنمِّصات ، والمتفلِّجات للحسن ، المغيِّرات خَلْقَ الله » .

٤ - عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : رأى رسول الله ﷺ عليّ ثوبيْن معصفريْن ، فقال : « إن هذه من ثياب الكفار ، فلا تلبَسْها» .

أخرج هذه الأحاديث الشيخان في « صحيحيْهما » ، إلّا الأخير منها ، فتفرَّد به مسلم .

وفي الباب أحاديث كثيرة جدًّا ، وهي مادة كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، فليراجعْهُ مَن شاء .

---

(١) تبصير أولي الألباب ص٦٠ - ٦١ .

فهذه نصوص صريحة تبيِّن أن الإسلام اهتم بالمظاهر الشكلية اهتمامًا بالغًا إلى درجة أنه لعَن المخالِف فيها ، فكيف يسوغ مع هذا أن يُقال : إن كل المظاهر لا يهتم بها الإسلام ؟ »[١] .

وبقاء الدين ظاهرًا خَفَّاقةً رايتُهُ : مرهون بمخالفة المسلمين كفَّار أهل الكتاب ، وبقاءِ أمة التوحيد متميِّزة ربّانيّة ؛ لا شرقية ولا غربية .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « لا يزال الدين ظاهرًا ما عجَّل الناس الفطر ؛ لأن اليهود والنصارىٰ يؤخِّرون »[٢] .

الشـريعة كلُّها لُبـابٌ :

قال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى : « لا يجوز التعبير عن الشريعة بأنها قشْر ، من كثرة ما فيها من المنافع والخير ، وكيف يكون الأمر بالطاعة والإيمان قِشْرًا ، وإنَّ العلم الملقَّب بعلْم الحقيقة جزء من أجزاء علم الشريعة ؟! ولا يُطلقُ مثْلَ هذه الألقاب إلّا غبيٌّ شقيٌّ قليل الأدب !! ولو قيل لأحدهم : « إن كلام شيخك قشور » لأنكر ذلك غاية الإنكار ، ويُطلقُ لفظَ القشور على الشريعة ؟!! وليست الشريعة إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ فيعزّر هذا الجاهل تعزيرًا يليق بمثل هذا الذنب »[٣] .

وقال تقي الدين السُّبكي رحمه الله : « وقولهم : (من أهل القشور) : إنْ أراد به ما الفقهاء عليه من العلم ومعرفة الأحكام ؛ فليس من القشور ، بل من اللُّب ، ومن قال عليه : (إنه من القشور) ؛ استحقَّ الأدب . والشريعة

---

(١) تمام المنَّة في التعليق على فقه السنة للشيخ الألباني ص٨١ - ٨٢ بتصرُّف يسير .

(٢) حسن : رواه أبو داود ، وابن حبان ، والحاكم ، وصحّحه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وحسَّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم ٧٥٦٦ .

(٣) فتاوى سلطان العلماء ص٢٤ - ٢٥ - تحقيق : مصطفى عاشور - مكتبة القرآن .

كلُّها لُباب »(١) .

النُّخالة في المبتَدِعين .. لا في سَلَف الأُمَّةِ الطَّيِّبين :

يقول فضيلة الشيخ أبو الفرج محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدِّم - حفظه الله -: « ينبغي أن نَذُبَّ عن هدي رسول الله ﷺ ، الذي هو لبابٌ كلُّه لا قشورَ ولا نخالةَ فيه ، ونقول : إنما القشور فيما خالف هدْيه ، وإنما النخالة في المبتدعين الذين عظّموا ما حقَّره ، واستصغروا ما كبّره ، وأهدروا ما اعتبره ، واعتبروا ما أهدره ، ووضعوا ما رفعه ، ورفعوا ما وضعه . ولْيكنْ لنا أُسوة في الأصحاب رضي الله عنهم أُولي الألباب ، الذين لم يعرفوا هذه البدْعة المحْدَثة ، ولم ينقسموا إلى أهل جوهر ولباب ، وأهل قشور ونخالة ؛ كما زعم أصحاب الجهالة .

دخل عائذ بن عمرو - وكان من صالحي أصحاب النبي ﷺ - على الخبيث الجريء عُبيد الله بن زياد ، فقال : إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « شرُّ الرِّعاء : الحُطَمة » ؛ فإياك أن تكون منهم . فقال : اجلسْ ؛ إنما أنت من نُخالة أصحاب محمد ﷺ . قال : وهل كان لهم - أو فيهم - نخالة ؟! إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم »(٢) .

* * *

انتهى المجلَّد الخامس ويليه المجلَّد السادس إن شاء الله تعالى

---

(١) ملحق بكتاب « كشف الغطاء عن حكم سمَاع الغناء » لابن القيم ص٢٥ .

(٢) رواه مسلم في الإمارة ، والإمام أحمد ٦٤/٥ ، والبيهقي ١٦١/٨ .
انظر كتاب : تبصير أولي الألباب ص٦٢ .

صَلاحُ الأُمَّة

في

عُلوِّ الهِمَّة

تأليف

الدكتور سيّد بن حسين العفاني

قدّم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدّم | الشيخ عائض القرني

الشيخ محمد عبد المقصود | الشيخ أبو إسحاق الحويني

المجلّد السادس

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

عُلُوُّ هِمَّةِ الرسولِ ﷺ

وله كمالُ الدينِ أعلى همَّةً   يعلُو ويسمُو أنْ يُقاسَ بثاني
لمَّا أضاءَ على البريَّةِ زانَهَا   وعَلا بها فإذا هُو الثقَلانِ
فوجدتُ كلَّ الصيّد في جوْفِ الفِرا   ولَقِيتُ كلَّ الناسِ في إنْسَانِ

□ عُلُوُّ همَّةِ الرسولِ ﷺ □

لله درُّ أمهاتِ المؤمنين حين يصِفْنَ علوَّ همَّةِ نبينا ﷺ للصحابة !! تقول إحداهن : « وأيُّكم يُطيق ما كان يطيق ؟ » . وتقول الأخرى : « ما لكم وصلاته ﷺ ؟! » .

فأيُّ همَّة كانت همَّة سيِّد البشر ؟! هذا المترَع عظمةً وعلوَّ همةٍ وسمّوًا !!

ألَا إن الذين بهرتهم عظمته لَمعذورون ..

بأبي وأمي رسول الله إلى الناسِ في قيْظ الحياة ..

أيُّ سرٍّ توفّر له فجعل منه إنسانًا يُشرِّف بني الإنسان ...؟

وبأيَّة يدٍ طولى ، بسَطها شطْرَ السماء ، فإذا كلُّ أبواب رحمتها ، ونعمتها وهُداها ، مفتوحةٌ على الرحاب ؟

أيُّ إيمان ، وأيُّ عزْم ؟ وأيُّ مضاءٍ ؟!

أيُّ صدق ، وأيُّ طهْر ، وأي نقاءٍ ..؟!

أي تواضع ... أيُّ حُبٍّ ، أيُّ وفاء ؟! أيُّ احترام للحياة وللأحياء ؟!

ومهما تتبارَ القرائحُ والإلهام والأقلام متحدثةً عنه ، عازفة أناشيدَ عظمته ؛ فستظلُّ جميعًا كأنْ لم تَبْرَحْ مكانها ، ولم تحرِّك بالقوْل لسانها .

ولهُ كمالُ الدينِ أعلى همَّةً ... يعلُو ويسمُو أن يُقاسَ بثاني
لمَّا أضاءَ على البريَّة زانَها ... وعلا بها فإذا هو الثقلانِ

فوجدتُ كلَّ الصيْدِ في جوْف الفِرا ولقيتُ كلَّ الناسِ في إنسانِ

ومهما سطرتِ المجلداتُ في علو همته ، فليست غيرَ « بنان » تومئ على استحياء إلى بعض ما فيه .

وعلـى تفنُّـنِ مادحيـهِ بـوصْفِـهِ يَفنى الزمانُ وفيهِ ما لم يُوصَف

فلِعُلُوِّ همته ﷺ في السير فهو المفرد السابق ، فلسبقه لم يُوقف له على أثر في الطـريق .. والمشمِّر بعدَه قد يرى آثارَ نيرانه على بعْـدٍ عظيم ، كمـا يرى الكواكب ، ويَسْتخبرُ ممَّن رآهم : أين رآهم ؛ فحالُه كما قيل :

أُسائلُ عنكمْ كـلَّ غـادٍ ورائحٍ وأُومي إلى أوطانكمْ وأسلِّمُ

ولله درُّ حسَّانَ حين يصف رسول الله ﷺ ومَن ربَّاهم الرسول ﷺ من قومه على عيْنه !! يقول :

لو كانَ في الناسِ سبّاقونَ بعدَهُمُ فكلُّ سبْقٍ لأدنى سَبْقِهِمْ تَبَعُ

يقـول ابـن القيـم فـي « مـدارج السـالكين » (٣/١٤٧ - ١٤٨) :
« انظر إلى همَّة رسول الله ﷺ ، حين عُرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأباها . ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربِّه تعالى ، فأبتْ له تلكَ الهمةُ العالية أن يتعلَّق منها بشيء مما سوى الله ومَحابِّه ، وعُرض عليه أن يتصرَّف بالمُلْك فأباه .. واختار التصرُّف بالعبودية المحْضَة . فلا إله إلا الله خالقُ هذه الهمة ، وخالقُ نفْسٍ تحملها ، وخالق هِمِم لا تعدو همَمَ أخسِّ الحيوانات !! » .

أعلى الهمم : همَّةٌ اتصلت بالحق سبحانه وتعالى طلبًا وقصدًا ، وأوصلت الخلْقَ إليه دعوةً ونُصحًا ، وأعلى الهمة : همَّةُ من دعا الثقلَيْن من الإنسِ والجنِّ إلى الله .. وأوْقف كل نَفَسٍ من أنفاسه على هذه الغاية .

وإن كان موسى عليه والسلام في مظهر الجلال ، وشريعته شريعة جلال

وقهر ، وكان من أعظم خلْق الله هيبةً ووقارًا ، وأشدِّهم بأسًا وغضبًا لله ، وبطْشًا بأعداء الله وكان لا يُستطاع النظر إليه ، وعيسى عليه السلام كان في مظهر الجمال ، وكانت شريعته شريعة فضلٍ وإحسان ، وكان لا يقاتل ولا يحارب ، وليس في شريعته قتالٌ ألبتةَ - فإن نبيَّنا ﷺ كان في مظهر الكمال ، الجامع لتلك القوة والعدْل والشِّدَّة في الله ، ولهذا اللِّين والرأفةِ والرحمةِ . وشريعتُه أكملُ الشرائع ، فهو نبيُّ الكمال ، وشريعتهُ شريعة الكمال ، وأمته أكمل الأمم ؛ وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات ، وجعَلَهم خيرَ أمة أُخرجتْ للناس ، وكمَّل لهم من المحاسن ما فرَّقه في الأمم قبلَهم ، كما كمَّل نبيَّهم ﷺ من المحاسن بما فرَّقه في الأنبياء قبله ، وكمَّل كتابه بالمحاسن التي فرَّقها في الكتب قبلَه ، وكذلك في شريعته .

وتفصيل تفضيل النبي ﷺ وأمته وخصائصه يستدعي سفرًا ، بل أسفارًا ؛ فهم ضنائن الله وهم المجتبَوْن الأخيار ، وذلك فضل الله يُؤْتيه مَن يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

رأى الناسُ رأْيَ العيْن علوَّ همَّتِهِ التي لا تدانيها هِمَّة :

رأوا طهْره وعفَّته ، وأمانته واستقامته وشجاعته . رأوا سموَّه وحنانه .. رأوا عقلَه وبيانه .. رأوا الشمس تتألّق تألّق صِدْقه وعظمةِ نفسه .. سمِعوا نموَّ الحياة يسري في أوصال الحياة ، عندما بدأ رسول الله ﷺ يَفيض عليها من وحي يومه وأمسه .. رأوا الكمال البشري وعلو الهمة ملْءَ كلِّ عيْن وأُذن وقلب .

يروحُ بأرواح المحامِدِ حُسْنها　　فيرقى بها في ساميات المفاخرِ
وإن فُضَّ في الأكوانِ مسْكُ خِتامِها　　تَعطَّر منها كلُّ نجدٍ وغائرِ

لقد كان رسول الله ﷺ سيد الأوَّابين العابدين المتبتِّلين ، لم تتخلَّف نفْسه عن أغراض حياته العظمى قيْدَ شعْرة ، ولم يُخْلف موعده مع الله في عبادةٍ ولا في جهاد .

لقد كانت السّنون الأُولى لرسالته سنواتٍ قلّما نجد لها في تاريخ الثبات والصدق والعظمة نظيرًا . وتلك سنوات كشفتْ أكثر من سواها عن كل مزايا معلِّم البشرية وهاديها !! وتلك سنوات كانت فاتحة الكتاب الحي ؛ كتابِ حياته وبطولاته ، بل كانت - قبلَ سواها وأكثرَ من سواها - مَهْدَ معجزاته .

لقد جهَرَ رسول الله ﷺ - وهو الوحيد الأعْزَل - بدعوة الحق ، وقام بدين الله والدعوة إليه ما لم يقُمْ به أحد ، وأُوذي في الله ما لم يُؤْذَ أحدٌ قبله ، مخلصًا أمينًا ، وهذا لا يقدِر عليه إلّا أولو العزْم من الأبرار والمرسلين . بلغ وبَلّغ في غير مداجاة وفي غير هروب . واجه الشرك ورؤوسه من اللحظة الأولى بجوْهر الرسالة ولُباب القضية ، من اللحظة الأولى واجههم بكلمات التوحيد المبيِّنة المُسْفِرة ، وواجه قومَه بدعوة تتصدَّع من هوْل وقْعِها الجبال .. وتخرج الكلمات من فؤاده وفمه صادعةً رائعة ، كأنما احتشدتْ فيها كلُّ قوى المستقبل وتصميمه .. كأنها قَدَرٌ يُذيع بيانَه .

ولقَّن رسول الله ﷺ قوى الشرك أولَ دروسه في أستاذيَّةٍ خارقة ، وتفانٍ عجيب ، وكانت صورة المشهد تملأ الزمان والمكان ، بل والتاريخ. وذوو الضمائر الحيَّة في مكة يَطربون ويَعجبون من علو همَّته .. رأوا رجلًا شاهقًا عليًّا .. لا يدرون : هل استطال رأسه إلى السماء فلامَسَها ... أم اقتربت السماء من رأسه فتوَّجته ؟

رأوا تفانيًا وصمودًا وعظمة ، ويقينًا ناهضًا فوق منصة الأُستاذيَّة ، يلقي على البشرية كلّها أبلغ الدروس ، ويلقِّنها أمضى مبادئها .

سَلُوا رجالَ مكة .. وسَلُوا الطائف عن سيِّد الرجال .. لقد كانت كلماتُه رجالًا ..

أيُّ ولاء هذا الذي يحملُه الرسولُ ﷺ لدعوته !!

فرْدٌ أعزل .. تواجهه المكائد أينما ولّى وسار !!

ليسَ هناك من أسباب الحياة الدنيا ما يشدُّ أزره ، ثم هو يحمل كلَّ هذا الإصرار ، وكل هذا الصمود والولاء ؟! .

بأبي وأمي رسول الله ﷺ !! مَن ينطلق مهمومًا من أجل الدعوة بعد عودته من الطائف فلم يستفقْ إلا وهو بـ « قَرْن الثعالب » .. بأبي هو وأمي .

وكيفَ يُسامى خيرَ من وطئ الثرى ... وفي كلِّ باعٍ عن عُلاهُ قُصورُ
وكلُّ شريفٍ عندهُ متواضِعٌ ... وكلُّ عظيمِ القريتيْنِ حقيرُ

نعم ..

فلقد سرتْ مسرى النجومِ هُمومُهُ ... ومضتْ مُضِيَّ الباتراتِ عزائمُه

نعم ..

فاقَ أهلَ المعالي ... وعَلا مَن عَلَاها

قال رسول الله ﷺ : « مَثَلي في النبيين كَمثَل رجلٍ بنى دارًا ، فأحسنها وأكْمَلَها وأجْمَلَها ، وترَك فيها موضع لَبِنةٍ لم يضعْها ، فجعل الناسُ يطوفون بالبنيان ويَعْجَبون منه ، ويقولون : لَوْ تَمَّ موضع هذه اللبنة ، فأنا في النبيين موضع تلك اللَّبِنة »(١) .

« لقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم علْمَ اليقين أنه جاء الحياة الإنسانية ليُغيِّرها ، وأنه ليس رسولًا إلى قريش وحدها ، ولا إلى العرب وحدهم .. بل رسول الله إلى الناس كافَّة .

وقد فتح الله – سبحانه – بصيرتَه على المدى البعيد الذي ستَبْلُغُه دعوتُه ، وتخفق عنده رايتُه .

ورأى رأيَ اليقين مستقبل الدين الذي بشَّر به . ورغم ذلك كلِّه ، لم

(١) رواه أحمد والترمذي عن أبيّ ، وأحمد والبخاري ومسلم عن جابر ، وأحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة ، وأحمد ومسلم عن أبي سعيد .

يَرَ في نفسه ، ولا في دينه ، ولا في نجاحه الذي لن تشهد الأرضُ له مثيلًا - أكثر من « لبنة » في البناء ..!!

كل هذه الحياة التي عاشها ... كل جهادِه وبطولاته .. كلُّ عظمته وطهْره .. كل هذا الفوز الذي حقَّقه دينُه في حياته ، الفوز الذي كان يعلم أنه سيبلغه بعد مماته .. كل ذلك ليس إلّا « لبنة » !! لبنة واحدة في بناء شاهِق عريق ....!!

وهو الذي يُعلن هذا ويقوله ، ويُصِرُّ على توكيده !! ثم هو لا ينتحل بهذا القول تواضعًا ، يغذّي به جُوعًا إلى العظمة في نفسه ، بل هو يؤكِّد هذا الموقف باعتباره حقيقة تشكِّل مسئولية تبليغها وإعلانها ، جزءًا من جوهر رسالته .

ذلك أن التواضع ، على الرغم من أنه خلُق من أخلاق الرسول ﷺ الأصيلة ؛ لم يكن الدليل الذي يدلُّ على عظمته ويُشير إليها ؛ فإن عظمة الرسول بلغتْ من التفوق والأصالة ما جعلها آيةَ نفسِها ، وبرهانَ ذاتِها ... » .

فَرْدُ التواضعِ فَرْدُ الجُودِ مكرمةً   فَرْدُ الوجود عنِ الأشباه والنُّظَرَا
أعلى العلا في العُلا قدْرًا وأمنعُهُمْ   دارًا وجارًا واسمًا في السماءِ ذُرَا

وإذا كان التوحيد هو الغاية المطلوبة من جميع مقامات الإيمان والأعمال والأحوال ، وهو أول دعوة الرسلِ وآخرها ، وإذا كان أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم - علمًا ومعرفةً وحالًا - تفاوتًا لا يُحصيه إلا الله - فأكمل الناس توحيدًا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، والمرسَلون منهم أكمل في ذلك ، وأولو العزم من الرسل أكمل توحيدًا ، وأكملهم توحيدًا الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما ؛ فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقمْ به غيرهما ؛ علمًا ومعرفة وحالًا ، ودعوةً للخَلْق وجهادًا ، فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل ، ودعَوا إليه ، وجاهدوا الأمم عليه ؛ ولهذا أمَر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقتدي بهم فيه .

ولمَّا فاق رسول الله ﷺ النبيين والمرسَلِين، وقام بحقيقة التوحيد علْمًا وعملًا ودعوةً وجهادًا ؛ جعله اللهُ إمامًا للخلْق ورسولًا للناس كافَّة ، بل

وللثقلَيْن من الجنِّ والإنس . وتوحيده جُعل أعلى توحيدٍ ، وخاصَّة الخاصَّةِ ، مَن رَغِب عنه فهو من أسفه السفهاء ..

رسولُ اللهِ ﷺ أعلى الناسِ همَّةً في جميع مقاماتِ الدين :

وما من مقام من مقامات الدين سردناه من أول جمْعِنا هذا - « علو الهمة » - إلّا وزيَّنّاه بعلوِّ همَّة رسول الله ﷺ ؛ فقد كان رسول الله ﷺ سيد المجاهدين والعابدين ، والصابرين والصائمين . كان أعلى الناس توكُّلًا ، وأوفر الناس نصيبًا من الرضا والحمد ، والدعاء والشكر والتبتُّل ، وأعلى الناس يقينًا . وكان أشجع الناس ، وأرحم الناس ، وأشدّ الناس حياءً ، وكان أحسن الناس خُلقًا ومروءة وتواضعًا ، وأكثرَ الناس مراقبةً لربه ، وأعلى الناس خشوعًا ، وأشدَّ الناس عبادة لربِّه ، وكان أطول الناس صلاةً .

وكُتبُ الشمائل المحمدية للترمذي وغيره ؛ مملوءة بالأحاديث التي تكشف عن هذا النور الذي أرسله الله ليضيءَ للبشرية طريقًا .ﷺ .

خُلُقٌ أرقُّ مِنَ النسيمِ ونفحةٌ ... تُغني العديمَ وتُنجدُ المجهودَا
وسريرةٌ مَرْضيَّةٌ وعزيمةٌ ... عُلْويَّة سمَتِ السماءَ صُعُودَا
ذا البحرُ عِلْمًا ذا النجومُ طلائعًا ... ذا الصخْرُ حِلْمًا ذا الغمامةُ جُودَا

ولله درُّ شوقي حين يقول فيه ﷺ :

وإذا رحمْتَ فأنتَ أمٌّ أو أبٌ ... هذانِ في الدنيا همَا الرُّحَماء

رسول الله ﷺ أحسنُ الناسِ عطفًا ووُدًّا :

يقول العقاد : « إذا كان الرجلُ مُحِبًّا للناس ، أهلًا لحبِّهم إياه ، فقد تمَّتْ له أداةُ الصداقةِ من طرَفَيْها . وإنما تتمُّ له أداة الصداقة بمقدار ما رُزق من سَعَة العاطفة الإنسانية ، ومن سلامة الذوْق ، ومتانة الخلُق ، وطبيعة الوفاء . وقد كان محمد ﷺ في هذه الخصال جميعًا مثلًا عاليًا بين صفوة خلْق الله .

كان عطوفًا يرأم مَن حوْله ويودّهم ويدوم لهم على المودَّة طولَ حياته .. وليس

في سجلّ المودة الإنسانية أجملُ ولا أكرم من حنانه على مرضعته « حليمة » ، ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين ؛ فيلقاها هاتفًا بها : أُمِّي . أُمِّي . ويفرش لها رداءَه ، ويُعطيها من الإبل والشاءِ ما يُغنيها في السَّنَة الجَدْباء .

ولقد وفدتْ عليه « هوازن » وهي مهزومةٌ في وقعة « حُنين » ، وفيها عمٌّ له من الرضاعة ؛ لأجل هذا العمِّ من الرضاعة تشفَّع النبي إلى المسلمين أن يردُّوا السبْيَ من نساءٍ وأبناء ، واشترى السبْيَ ممَّن أبَوْا ردَّه إلا بمال .

وحضنتْه في طفولته جارية عجماء ، فلم ينسَ لها مودَّتها بقيَّة حياته .

وشغله أن ينعم بالحياة الزوجية ما يشغلُ الأبَ من أمر بناته ورَحِمِه ، فقال لأصحابه : « مَن سرَّه أن يتزوَّج امرأة من أهل الجنة فليتزوَّجْ أمَّ أيمن » .. وما زال يُناديها : يا أُمَّهْ . يا أُمَّهْ ؛ كلما رآها وتحدَّث إليها ، وربما رآها في واقعة قتالٍ تدعو الله وهي لا تدري كيف تدعو بلكنتها الأعجمية ، فلا تنسيه الواقعة الحازبةُ أن يُصغي إليها ويعطف عليها .

وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء كافَّة ، فـ « كان يُصغي للهرَّة الإناءَ فتشرب ، ثم يتوضأ بفضلها »[١] .

وكان يواسي في موت طائر يلهو به أخو خادمه[٢] ، ويُوصي المسلمين بالدوابِّ ، وكرَّر الوصاية بها .

بل شمل عطفه الأحياء ، والجمادَ كأنَّه من الأحياء ؛ فكانت له قَصْعَة يُقال لها : « الغرّاء » ، وكان له سيْف محلّى يسمى : « ذا الفقار » ، وكانت له درْع موشّحة بنحاس تُسمَّى « ذات الفضول » ، وكان له سرْجٌ يسمَّى « الداج » ،

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية عن عائشة ، ورواه أبو داود وابن ماجة والطحاوي ، والدارقطني في الأفراد ، والبيهقي في السنن ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٨٣٤ .

(٢) « يا أبا عمير ، ما فعَل النغير ؟ » .

وبساط يسمَّى « الكز » ، وركْوة تسمَّى « الصادر » ومرآة تسمَّى « المدلة » ، ومقراض يسمّى « الجامع » ، وقضيب يسمَّى « الممشوق » .

وفي تسميته تلك الأشياء بالأسماء معنَى الألفة ، التي تجعلها أشبَهَ بالأحياء المعروفين ، ممن لهم السمات والعناوين ، كأن لها « شخصية » مقربة تميزها بين مثيلاتها ، كما يتميَّز الأحباب بالوجوه والملامح والكُنَى والألقاب .

وكان له ﷺ مع هذه العاطفة الجيَّاشة والرحمة الشاملة : ذوقٌ سليم يُضارعها رفعةً ونبلًا في رعاية شعور الناس أتمَّ رعاية وأدلها على الكرَمَ والجود ؛ « كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه ؛ قام معه ، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه . وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ، ناوَله إيَّاها ، فلم ينزِع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع منه ... وكان إذا ودَّع رجلًا أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يدعُ يده » .

« وانظرْ إلى زيد بن حارثة الذي خُطِف من أهله وهو صغير ، ثم اهتدى إليه أبوه واهتدى هو إلى أبيه على لهْفَةِ الشوقِ بعد يأس طويل ، فلما وجب أن يختار بين الرجْعة إلى آله وبين البقاء مع رسول الله ﷺ ، اختار البقاء مع السيِّد على الرجْعة مع الوالد »[1] .

لقد اعتلى رسول الله ﷺ الذروة السامية في السماحة ، بسماحة الكريم ، وما أحد أرحم ممَّن يرحم المفترين على سُمْعة أهله وهناءة بيته وأمانِ سِرْبه .

ولقد كان رسول الله ﷺ خير الناس لأهله وزوجاته أمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ .

---

(١) عبقرية محمد للعقاد من صـ٩٠ - ٩٤ بتصرُّف - دار الكتب الحديثة .

بأبي هو وأمِّي رسول الله ﷺ حين تتسع نواحي العظمة . وهو الذي يحمل همَّ دعوةِ الثقلَيْن إلى الله عز وجل .. لا يشغله شأن عن شأنٍ حتى يسابِق زوجاته . واللهِ ، هذه فُتوة الرُّوح قبل فُتوةِ الأوصال .

الرسولُ ﷺ قُدوةٌ للرجل المهذَّب في كلِّ زمان ومكان :

لقد كان رسول الله ﷺ أسلمَ الناسِ طبْعًا ، وأحسَنَ الناس ذوْقًا ؛ وهُما الخصلتان اللَّتان كان عليه الصلاة والسلام قدوةً فيهما لكلِّ رجل مهذَّبٍ في كلِّ أمة وفي كل زمان ؛ فلم يكن يهفو في حقِّ أحدٍ ، ولم يكن أحدٌ يشكو من محضره بإنصاف . وذلك هو مِلاك التهذيب الكامل في أصدق معانيه .

وخلاصة سَمْتِه وآدابه أنها سماحة في الأنظار وسَماحة في القلوب ؛ فالسماحة هي الكلمة الواحدة التي تجمع هذه الخصال من أطرافها ، والسماحة هي الصفة التي ترقَّتْ في محمد ﷺ إلى ذِروةِ الكمال .

بأبي وأمي رسول الله ﷺ !!

ليس للنوع البشري أصلٌ من أصول الفضائل يرمي إلى مقصد أسمَى وأنبلَ من تقديس تلك المناقب ، التي كان رسول الله ﷺ قدوةً فيها للمقتدين .

أما في الزهد وعزيمة الإيمان : فقد كان رسول الله ﷺ في المقام الأول بين الرجال ؛ في المقام الأول بخلقته ، وفي المقام الأول بنيَّته ، وفي المقام الأول بعَمَله ؛ وفي المقام الأول بالقياس إلى المُشْبِهين له في دعوته .

لقد زَهِد رسول الله ﷺ شحْذًا للعزيمة ، وإعذارًا إلى الله فيما تجرَّد له من إصلاحٍ لقد كانت هداية الناس إلى الله عز وجل هي جملة أمانيه وغاية آماله في دار الدنيا . لقد كان رسول الله ﷺ رجلًا لا كمثله الرجال .

فمبْلَغُ العلْمِ فيهِ أنَّهُ بشَرٌ وأنه خير خلْقِ اللهِ كُلِّهِمُ

رسول الله ﷺ في التاريخ :

إن التاريخ كلّه بعد رسول الله ﷺ متصل به مرهون بعمله ... كان التاريخ شيئًا فأصبح شيئًا آخر ... لقد كان لعلّو همَّته أثر في الأحداث العِظام في تاريخ بني الإنسان .. بمقدار ما في هذه الأحداث من فتوح الرُّوح ، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان ، لقد تفتحت للإنسان آفاقٌ جديدة في عالم الضمير ، ارتفع بها فوق طباق الحيوان السائم ، ودنا به مرتبةً إلى الله .

لقد كانت فتوح رسول الله ﷺ فتوحَ إيمان ، وكانت قوته قوة إيمان ، وما من سِمَةٍ لعمله أوضحُ من هذه السِّمَة .

لقد حكم التاريخ لرسول الله ﷺ أنه كان في نفسِه قدوةَ المهذّبين ، وكان في عمله أعظمَ الرجال أثرًا في الدنيا ، وكان في عقيدته أفضلَ الناس إيمانًا ، وصاحبَ الدين الحقِّ ، الذي يبقى ما بقي في الأرض دين .

سيطلع في الأفقِ هلالٌ ويَغيب هلال ، وتُقبل السَّنَة القمرية بعد السنة القمرية بمَعْلَم من معالم السماء ، يُومئ إلى بقعة من الأرض هي غارُ يوم الهجرة ، ويومئ إلى يومٍ لرسول الله ﷺ هو أجمل أيامه ؛ لأنه أدلُّ الأيام على عُلوِّ همَّته ، وأخلصُها لعقيدته ورجاء سريرته .. يومَ أن تَرك رسول الله وراءه كلَّ شيءٍ من أجل دينه ودعوته .

إنَّ من سَعة نفْسه ﷺ ، وآفاق نفْسِه الواسعة : أنها شملت كلَّ ناحية من نواحي العاطفة الإنسانية ، وهي المقياس الذي يُبدي من العظمة ما يُبديه الجدُّ في أعظم الأعمال .. لقد نهض رسولُنا ﷺ بأعظم الأمور ؛ وهو إقامة دين الله وإصلاح الثقلَيْن وتحويل مجرى التاريخ ، ثم يَطيب نفسًا في مزاحٍ مع إخوانه أو مع أولاده أو مع عبيده ، فكان المثالَ الفذَّ في كلِّ هذا .. وأريحية لا تدانيها أريحية تدلُّ على منتهى نقاءِ السريرة في بني الإنسان .

عظمةُ العظماتِ عند رسولنا ﷺ :

لقد تمَّت لرسول الله ﷺ معجزتُه التي لم يصارعْه فيها أحد قبله .. لقد ربّى رسول الله ﷺ نُخبةً من ذوي الأقدار تجمع بين عظمة الحسَبِ وعظمة الثـروة وعظمة الرأي وعظمة الهمة ، وكلٌّ منهم ذو شأن في عظمتـه تقوم عليه دوله وتنهـض به أُمّة ؛ كما أثبت التاريخ من سِيَر أبي بـكر وعمر وعثمان وعلي ، وأبي عبيدة وسعد والزبير وطلحة ، وخالد وأسامة وابن العاص ، وسائر الصحابة الأوَّلِين .

أئمَّةٌ شرَّفَ اللهُ الوجـودَ بهـمْ سامُوا العلا فسَمَوْا فوقَ العلا رُتَبَا

ربما عَظُم الرجُل في مزيَّة من المزايا ، فأحاط به الأصدقاء والمريدون من النابغين في تلك المزيَّة ، كإحاطة الحكماءِ بسقراطَ .. بل ربَّما أحاط الصالحون بالنبي العظيم كما أحاط الحواريُّون بالمسيح عليه السلام ، وكلهم من معدِنٍ واحد وبيئة واحدة . أمَّا عظمة العظمات فهي تلك التي تجذب إليها الأصحاب النابغين في كلِّ معدِنٍ وكلِّ طراز ، بل تربّي الأصحاب وتستشفُّ قدرات كلّ منهم وتؤهِّله لإبراز هذه المزيَّة .. تربيةً تُخرِج رجالًا يتفاوتون في مزاياهم مثل التفاوت الذي بين أبي بكر وعمر ، وبين عثمان وعلي ، وبين خالد ومعاذ ، وأسامة وابن العاص ؛ كلهم عظيم ، وكلهم مع ذلك مخالِف في وصْف العظمة لسواه .

تلـك هي العظمة التي اتسعت آفاقها وتعدَّدت نـواحيها ، حتـى أصبحت قُطبًا جاذِبًا لكلِّ معدِن ، وأصبحت تجمع في تربيتها لأصحابها بين البأس والحِلْم ، وحِنْكَةِ المُسِنِّ وحَمِيَّة الشباب .

ولله درُّ مَن قال :

يبني الرجالَ وغيرُهُ يبني القُرَى شَتَّـانَ بين قُـرًى وبيـن رجـالِ

لقد كان رسول الله ﷺ أصفى الناسِ بصيرةً ، فاستخرج مكنونات وذخائر

الصحابة كلٌّ على قَدْرِه ؛ صِدْقُ الصِّدِّيق ، وحياءُ عثمان ، وصراحة الفاروق وهيبته وشِدَّته ، وزُهْد عليٍّ ، وشجاعة الزبير ، وأمانة أبي عبيدة ، وسخاء طلحة ، وتواضُع أبي ذَرٍّ ، وحكمة أبي الدرداء ، وعِلْم معاذ ، وإيمان عمَّار ، وعُلُوّ همة سلْمان ، وتبتُّل ابن مظعون ، وصِدْق سعد بن معاذ ، وصلاح وجُود ابن الزبير ... وكلُّ خصلة من هذه الخصال خير من الدنيا وما فيها . ربّاهم الرسول ﷺ وهو أدرى الناسِ بالرجال ، فظهر منهم الجيلُ القرآني الفريد ؛ « ما كان حديثًا يُفترى ، ولا فُتُونًا يتردَّد ، ذلك الحديث الذي رَوىَ به التاريخ أنباء أعظم ثُلَّة ظهرتْ في دنيا العقيدة والإيمان !! فالعظمة الباهرة لأولئك الرجال الشاهقين من أصحاب رسول الله ﷺ ليستْ أساطير ، وإن بدَت من فرْطِ إعجازها كالأساطير !!! .

إنها عظمةُ ما غرسَه رسول الله ﷺ فيهم لتسمو وتتألَّق ، لا بقدر ما يريد لها الكُتَّاب والواصفون ، بل بقدْر ما أراد لها أصحابُها وذَووها ، وبقدْر ما بذَلوا في سبيل التفوق والكمال ؛ مِن جهد خارق مبرور . ولا يزعم أيُّ إنسان لنفسِهِ القدرة على تقديم هذه العظمة كاملة .. إذ حسْبُه أن يُومي إلى علو هِمَّتهم وسمات عظمتهم ، ويتطلَّع إلى سمائها .

لم يشهدِ التاريخ ولنْ يشهد رجالًا مِثل صحابة رسول الله ﷺ ، رباهم نبيُّهم ومعلِّمُهم ﷺ على غاياتٍ تناهتْ في العدالة والسموِّ ، وعقدوا على ذلك عزْمَهم ونواياهم ، ونذروا لها حياتَهم على نسَقٍ تناهى في الجسارة والتضحية ، والبذْل ومكارم الأَخلاق .

لقد جاء رسول الله ﷺ الحياة وجاءوا معه في أوانهم المرْتَقَب ، ويومهم الموعود . لقد كان أصحاب محمد ﷺ ذخائر الله من خلْقه ، وخيرَ قرون هذه الأُمة ..

كيف أَنجَزَ رسول الله ﷺ بهم ومعهم ما أنجزه في بِضْع سنين ؟!

كيفَ دمدموا على العالم بإمبراطوريَّاته وصولجانه ، وحوّلوه إلى كثِيبٍ مهيل ؟!

كيف شادوا بالقرآن - كلمات الله - عالمًا جديدًا ، يهتز نضْرةً ويتألَّقُ عظمة ويتفوق اقتدارًا ؟!

وقبل هذا كله ، وفوق هذا كلِّه : كيف استطاعوا في مِثْل سرعة الضوء أن يُضيئوا الضمير الإنساني بحقيقة التوحيد ، ويكنسوا منه إلى الأبد وثنية القرون ؟!

تلك هي معجزة نبيهم ﷺ وكراماتهم الحقَّة ..

إن معجزة المعجزات تتمثَّل في تلك التربية التي ربَّاهم نبيُّهم ﷺ عليها وصاغ بها فضائلهم ، واعتصموا هُمْ بإيمانهم على نحو يَجِلُّ عن النظير !!

على أن كلَّ معجزاتهم التي حقَّقوها ، لم تكن سِوى انعكاسٍ متواضع للمعجزة الكبرى التي أهلَّت على الدنيا يومَ أذِن الله لقرآنه الكريم أن يتنزَّل ، ولرسوله الأمين ﷺ أن يبلِّغ ؛ ولموْكب الإسلام أن يبدأ على طريق النور خُطاه !!

لقد ربَّى الأمين - كلّ الأمين - ﷺ أولئك الرجال الأبرار ، لنستقبل فيهم أروع نماذج البشرية الفاضلة وأبهاها .. ولنرى تحتَ الأسمال المتواضعة أسمى ما عرفتِ الدنيا من عظمة ورُشد .. فللَّه درُّهم من كتائب حقّ طوْتِ العالم بإيمانها ، زاحمة جوَّ السماء براياتها تُعلِن للكونِ كلِّه .. كمْ كانت همَّة مَن ربَّاهم ﷺ عاليةً .. وكم كانت شمائله غالية ، وكمْ كانت حياته سامية ، وكم كانت أمانته زاهية !!

بأبي هو وأُمي !! كم علَتْ همَّته في البذْل الذي بذل ، والهول الذي

احتمل ؛ لتحـرير البشرية من وثنية الشرك والضمير ، وضيـاع المصير ..فجزاه الله خير ما جزى نبيًّا عن أُمته .. وجعله أعلى النبيين درجة ، وأقربهم منه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاها ، وتوفَّانا على ملَّته ، وعرَّفَنا وجهه في رضوانه والجنة ، وحشَرَنا معه غير خزايا ولا نادمين ، ولا شاكِّين ولا مبدِّلين ولا مرتابين » .



الفصل الثاني

عُلُوّ هِمَّة الخلفاء والملوك

« هذان السمع والبصر » يعني أبا بكر وعمر

حدِّثْ عن القومِ فالألفاظ ساجدةٌ　　　خلفَ المحارِيبِ والأوزانُ تبتهلُ

□ علوّ همَّة الخلفاء والملوك □

اعلم يا أخي أن السلطان زمام الأُمور ، ونظام الحقوق ، وقِوَام الحدود ، والقطب الذي عليه مدار الدنيا ، وهو حِمَى الله في بلاده ، وظلّه الممدود على عباده ، به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم .

وفي حديث أبي هريرة الذي ذكرناه من قبل ، قال رسول الله ﷺ : « سبعة يُظلُّهم الله في ظلّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظلّه : إمام عادل ..... » الحديث .

وعن سلمان قال : « سبعةٌ يُظلُّهم الله في ظلِّ عرشه يوم القيامة : رجلٌ إذا ذَكَرَ الله خاليًا فاضتْ عيناه ، ورجلٌ أفنى شبابَهُ ونشاطَهُ في عبادةِ الله ، ورجلٌ قلبُهُ معلَّق بالمساجد من حُبِّها ، ورجل تصدَّق بيمينه ، وكان يُخفيها من شماله ، ورجلان التقيا ، فقال كلُّ واحدٍ منهما : إني أحبُّك في الله . تصادرا على ذلك . ورجل أرسلت إليه امرأةٌ ذات منصبٍ تدعوه إلى نفسها ، فقال : إني أخاف الله . وإمام مقتصد »(١).

ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص يبلغ به النبي ﷺ قال : « إن المُقسطين عند الله يوم القيامة ، على منابر من نور ، عن يمين العرش ، هم الذين يعدلون في حُكمهم وأهليهم وما وُلُّوا »(٢).

وقال ﷺ : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتُصلُّون عليهم ويُصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم

---

(١) إسناده حسن : حسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٢ / ٤٤ ، أخرجه سعيد بن منصور في سننه .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي .

ويلعنونكم »[١] .

قالت الحكماء : إمامٌ عادل ، خير من مطرٍ وابِل ، وإمامٌ غشوم ، خيرٌ من فتنةٍ تدوم ، ولَمَا يَزَعُ الله بالسلطان أكْثَرُ مما يزع بالقرآن .

فحقّ على من قلَّده الله أزِمّة حُكمه ، وملّكه أُمور خلْقه ، واختصَّهُ بإحسانه ، ومكَّن له في سلطانه ، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيَّته ، والاعتناء بمرافق أهل طاعته ، بحيث وضعه الله عز وجل من الكرامة ، وأجرى له من أسباب السعادة ، قال الله عز وجل : ﴿ **الذين إن مكَّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوْا عن المنكر ولله عاقبة الأُمور** ﴾ [الحج : ٤١] .

قال كعب الأحبار : مَثَلُ الإسلام والسلطان والناس ، مَثَلُ الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد ؛ فالفسطاطُ:الإسلامُ ، والعمود : السلطان ، والأطناب والأوتاد : الناس ، ولا يصلح بعضها إلا ببعضٍ .

لا يصلُحُ الناسُ فوضى لا سَرَاةَ لهمْ ... ولا سَـراة إذا جُهَّالُهم سـادوا
والبيت لا يُبْتَـنَى إلَّا له عَمَـدٌ ... ولا عمـادَ إذا لم تُرْسَ أوتـادُ
فـإن تجمَّـعَ أوتادٌ وأعمـدةٌ ... يومًا فقد بلغوا الأمر الذي كادُوا

وصلاح الرعية بصلاح الإمام .

قالت الحكماء : الناس تَبَعٌ لإمامهم في الخير والشر .

وقال ابن القيم : أعمالكم عُمَّالكم ، فإن وُلَاتنا من جنس أعمالنا .

وقال أبو حازم الأعرج : الإمام سوق ، فما نفَقَ عنده جُلِب إليه .

وقالوا : إذا صلُحتِ العينُ صلحتْ سواقيها .

---

(١) رواه مسلم عن عوف بن مالك .

ولا سلطان إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل .

وتواضُع الإمام في شرفه أكبرُ من شرفه ، وأفضلُ الرجال - كما قال عبد الملك بن مروان - من تواضَعَ عن رِفعة ، وزهد عن قُدرة ، وأنصفَ عن قوة .

قالت الحكماء : أسْوَسُ الناس لرعيَّته ، من قاد أبدانها بقلوبها ، وقلوبها بخواطرها ، وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة .

والملك والعدل أخَوان لا غِنَى بأحدهما عن الآخر ، فالمُلْك أُسٌّ والعدل حارس ، والبناء ما لم يكن له أُسّ فمهدوم ، والملك ما لم يكن له حارس فضائع .

وخير الملوك من إذا ولي لم يُطابق بين جفونه ، وأرسل العيون على عيونه ، فهو غائبٌ عنهم شاهدٌ معهم ، فالمحسن راجٍ والمسيء خائف .

ولا يصلح لهذا الأمر إلا اللَّيِّن من غير ضَعْف ، والقويّ من غير عنف .

قال سعيد بن سُويد بحمص : أيُّها الناس ، إن للإسلام حائطًا منيعًا ، وبابًا وثيقًا ، فحائط الإسلام الحقّ وبابُه العدل ، ولا يزال الإسلام منيعًا ما اشتدّ السلطان ، وليست شدَّة السلطان قَتْلًا بالسيف ولا ضرْبًا بالسوط ، ولكن قضاءً بالحقّ وأخْذًا بالعدل .

كتب عُمرُ بن عبد العزيز - رضي الله عنه - لمَّا وَلِي الخلافةَ إلى الحسن بن أبي الحسن البَصريّ ، أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله : اعلم يا أمير المؤمنين ، أن الله جعل الإمام العادل قِوَامَ كلّ مائِل ، وَقَصْدَ كلِّ جائر ، وَصَلَاحَ كلّ فاسد ، وقُوَّة كلّ ضعيف ،

ونَصَفَة كلِّ مظلوم ، ومَفْزَع كلّ مَلْهُوف . والإمامُ العَدْل – يا أمير المؤمنين – كالراعي الشَّفيق على إبله ، الرفيق بها ، الذي يرتاد لها أطْيَبَ المراعي ، ويذودها عن مَراتع الهَلَكَة ، ويحميها من السّباع ، ويُكنُّها من أذى الحَرِّ والقُرِّ . والإمام العَدْل – يا أمير المؤمنين – كالأب الحاني على ولده ، يَسعى لهم صِغارًا ، ويُعَلِّمُهم كبارًا ؛ يكتسب لهم في حياته ، ويدَّخر لهم بعد مماته . والإمام العَدْل – يا أمير المؤمنين – كالأُمّ الشفيقة البرَّة الرفيقة بولدها ، حَمَلَتْه كُرْهًا ، ووضعته كُرْهًا ، وربَّتْه طِفْلًا ، تسهر بِسَهَرِه ، وتَسْكُن بسُكونه ، تُرضعه تارةً وتَفْطِمه أُخرى ، وتَفْرح بعافيته ، وتَغْتَمُّ بشِكايَتِه . والإمام العدْل – يا أمير المؤمنين – وَصِيُّ اليتامى ، وخازِن المساكين ، يُربِّي صغيرَهم ، ويَمُون كبيرَهم . والإمام العدل – يا أمير المؤمنين – كالقَلْب بين الجوارح ، تَصْلُح الجوارح بصلاحه ، وتَفْسُد بفساده . والإمام العدْل – يا أمير المؤمنين – هو القائم بين الله وبين عباده ، يَسْمع كلام الله ويُسْمعهم ، وينظُر إلى الله ويُريهم ، وينقاد إلى الله ويقُودهم . فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك الله عزّ وجلّ كعَبْدٍ ائتمنه سيّدهُ ، واستحفَظَهُ مالَه وعيالَه ، فبدَّد المال وشرَّد العيال ، فأفقر أهلَهُ وفرَّق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين ، أنَّ الله أنزل الحُدود ليزجُرَ بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها مَن يَلِيها ؟! وأنَّ الله أنزل القِصاصَ حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم مَن يَقْتصّ لهم ؟! واذكر يا أمير المؤمنين الموتَ وما بعده ، وَقِلَّة أشياعك عنده ، وأنصارِك عليه ، فتزوَّدْ له ولما بعده من الفَزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أنّ لك منزلًا غيرَ منزلك الذي أنت فيه ، يطُول فيه ثواؤك ، ويُفارقك أحبّاؤك ، يُسلِمونك في قَعْرِه فريدًا وحيدًا ، فتزوَّد له ما يَصْحبك ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ** ﴾ [عبس : ٣٤ - ٣٦] . واذكر يا أميرَ المؤمنين ﴿ **إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا**

﴿ فِي الصُّدُورِ ﴾ [العاديات : ٩ ، ١٠] . فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحْصاها . فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مَهَل قَبْل حُلول الأجَل ، وانقطاع الأمل ؛ لا تحكُمْ يا أمير المؤمنين في عباد الله بحُكم الجاهلين ، ولا تَسْلُك بهم سبيل الظالمين ، ولا تُسلِّط المُستكبرين على المُستَضْعَفِين ؛ فإنهم لا يَرْقُبون في مُؤمنٍ إلًّا وَلَا ذِمَّة ، فَتَبُوء بأوْزَارِك وأوزارٍ مع أوزارك ، وتَحْمِل أثقالك وأثقالًا مع أثقالك . ولا يغُرَّنَّك الذين يَتَنَعَّمون بما فيه بؤسُك ، ويأكلون الطَّيِّبات في دُنْياهم بإذهاب طَيِّباتك في آخرتك . ولا تنظُر إلى قُدْرتك اليومَ ، ولكن انظُر إلى قدرتك غدًا وأنت مَأسُور في حَبائل الموت ، ومَوْقوف بين يدَي الله في مجمعٍ من الملائكة والنبيِّين والمرسلين ، وقد عَنَتِ الوجوه للحيّ القيّوم . إني يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلُغ بعظتي ما بلغه أُولو النُّهَى من قَبْلي ، فلم آلُك شفقةً ونُصحًا ، فأنزلْ كتابي إليك كمُداوي حبيبِهِ ، يسقيه الأدويةَ الكريهة ، لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) العِقْد الفريد صـ ٣٥ - ٣٦ .

□ الصِّدِّيق « ثاني اثنين » رضي الله عنه □

عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليس في الناس أحدٌ أَمَنّ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر بن قحافة ، ولو كنتُ مُتَّخِذًا من الناس خليلًا لَاتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلًا ، ولكنْ خُلَّة الإسلام أفْضَل ، سدُّوا كلَّ خَوْخَةٍ في هذا المسجد غير خَوْخةِ أبي بكر »[(١)] .

وهو أحبُّ الناس إلى رسول الله ﷺ وأخْيَرُ الناس ، بشهادة عليٍّ - رضي الله عنه - والصحابةِ .

عن محمد بن الحَنَفِيَّة قال : قلتُ لأبي : أيّي الناس خيرٌ بعد رسول الله ﷺ ؟ قال : أبو بكر . قلت : ثم مَنْ ؟ قال : ثم عمر . وخشيتُ أن يقول : عثمان ، قلتُ : ثم أنت ؟ قال : ما أنا إلا رجُلٌ من المسلمين .

وقد واسى الصّدّيق رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ بماله ونفسه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما نفعني مالٌ قطُّ ما نفعني مال أبي بكر » . فبكى أبو بكرٍ وقال : هل أنا ومالي إلا لك ، يا رسول الله[(٢)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجًا - أو قال : زوجيْن - من ماله - أراه قال : - في سبيل الله ، دعتْهُ خزنةُ الجنة : يا مسلم ، هذا خيرٌ ، هلُمَّ إليه » فقال أبو بكر : هذا رجلٌ لا تودى عليه . فقال رسول الله ﷺ : « ما نفعني مالٌ قطُّ إلا مال أبي بكر » . قال :

---

(١) رواه البخاري وأحمد والنسائي في فضائل الصحابة وابن أبي عاصم .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد وابن ماجه وابن أبي عاصم وابن أبي شيبة في المصنف والنسائي في فضائل الصحابة .

فبكى أبو بكر وقال : وهل نفعني الله إلا بك ؟! وهل نفعني الله إلا بك ؟! وهل نفعني الله إلا بك !(١).

وهو السَّبَّاق إلى الخيرات كما ذُكر في علوّ الهمَّة في الصدقة ، حتى أتى بكل ما عنده ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيتَ لأهلك ؟ » . قال : أبقيت لهم الله ورسوله . فقال عمر : لا أُسابقك إلى شيءٍ أبدًا .

وهو الذي ذَبَّ عقبة شيطان قريش عن رسول الله ﷺ ، وَدَفَعَهُ عن النبي ﷺ وقال : ﴿ **أتقتُلون رجلًا أن يقول ربي الله** ﴾ . [غافر : ٢٨] .

وهو ثاني اثنين .

ولعلوّ مكانته ، وقد سبقت له من ربِّه الحُسنى ، اختاره الرسول ﷺ لصُحبته في الهجرة .

قال تعالى : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ...** ﴾ الآية . [التوبة : ٤٠] .

قال الشعبي : عاتب اللهُ أهلَ الأرض جميعًا في هذه الآية ، غير أبي بكر .

قال رسول الله ﷺ لأبي بكر : « إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة » . قالت عائشة : فقال أبو بكر : الصُّحبة يا رسول الله ؟ قال : « الصُّحبة » . قالتْ : فوالله ما شعرتُ قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح ، حتى رأيت أبا بكرٍ يومئذٍ يبكي .

هذا والله بكاء الرجال . لقد كانت تحفة « ثاني اثنين » مُدَّخرة للصِّدِّيق .

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد في المسند ، وفي فضائل الصحابة .

قال ابن حجر في الفتح (٧ / ١٢) : « فُضِّل أبو بكر ؛ لأنه انفرد بهذه المَنْقَبَةِ ، حيث صاحَبَ رسول الله ﷺ في تلك السَّفْرة ، ووقاه بنفسه » .

« فهو الثاني في الإسلام ، وفي بَذْل النفس ، وفي الزهد ، وفي الصُّحبة ، وفي الخلافة ، وفي العُمر ، وفي سبب الموت ؛ لأن الرسول ﷺ مات من أثر السم ، وأبو بكر مات ؛ سُمّ فمات . وقد كان الصديق رضي الله عنه ، ثانيَ اثنين في العريش يوم بدر .

وقد جمع الله بينهما في التربة ، كما جمع بينهما في الحياة .

فانظر إلى سر الاقتران ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ [التوبة : ٤٠] . لفظًا وحُكمًا ومعنًى ، إذ يقال : رسول الله ، وصاحب رسول الله . فلمَّا مات قيل : خليفة رسول الله . ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته ، فقيل : أمير المؤمنين »[1].

ولما وفّى الصِّدِّيق حُلى الإيمان ، فيدعى يوم القيامة من كل أبواب الجنان .

قال ابن القيم :

هذا وأُمَّة أحمدٍ سبَّاقُ با — قي الخلْقِ عندَ دخولهم بجنانِ
وأحقُّهم بالسَّبق أسبقُهم إلى الْـ — إسلام والتَّصديقِ بالقرآنِ
وكذا أبو بكرٍ هو الصِّدِّيقُ أسْـ — ـبقُهم دخولًا قولَ ذي بُرهانِ

وقال ابن القيم عن أبواب الجنة :

ولسوف يُدعى المرءُ مِنْ أبوابها — جمعًا إذا وفَّى حُلَى الإيمانِ

---

(١) الفوائد لابن القيم صـ ٧٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٤ /١٨ .

منهم أبو بكرٍ هو الصِّدِّيقُ ذا ... كَ خليفةُ المبعوثِ بالقرآنِ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أنفق زوجيْن من شيءٍ من الأشياء في سبيل الله ، دُعي من أبوابٍ - يعني الجنة - يا عبد الله ، هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دُعِيَ من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الصيام وباب الرَّيَّان » . فقال أبو بكر : ما على هذا الذي يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة . وقال : هل يُدعى منها كلّها أحدٌ يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر »(١).

قد يُدعى المرء من أبواب الجنة كلِّها إذا وفّى جميع شُعَب الإيمان ، ومِنْ هؤلاء صِدِّيقُ هذه الأُمّة ، وأفضل الناس جميعًا بعد النبيِّين : أبو بكرٍ رضي الله عنه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصبح منكم اليوم صائمًا ؟ » . قال أبو بكر : أنا . قال : « فمن تَبِع منكم اليوم جنازةً ؟ » . قال أبو بكر : أنا . قال : « فمن أطعمَ منكم اليوم مسكينًا ؟ » . قال أبو بكر : أنا . قال : « فمن عادَ منكم اليوم مريضًا ؟ » . قال أبو بكر : أنا . فقال رسول الله ﷺ : « ما اجْتَمَعْنَ في امرئ ، إلا دخل الجنة »(٢).

أنا مولايَ إمامٌ ضحكتْ ... من ثنايَ فَضْلِهِ آيُ الزُّمَرْ

---

(١) صحيح : رواه البخاري ومسلم والترمذي ، وعزاه المزي في الأطراف للنسائي ، وأخرجه أحمد ، وابن أبي شيبة .

(٢) رواه مسلم .

صـدَّقَ المُرْسَلَ إيمانًا به ولَحَا في اللهِ مَنْ كان كَفَرْ
ثمَّ بالغـــار له مَنْقَبَـــةٌ خَصَّـهُ اللهُ بهـا دُونَ البَشَـرْ
ثانيَ اثنينِ وَقَوْلُ المصطفى معنـا اللهُ فلا تُبدي الحَذَرْ

لله دَرُّهُ ، وما أعلى منزلتَهُ في الجنة .. منزلته على قدْر همّته :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « إن أهل الدرجات العُلَى ليروْن مَنْ فوقهم كما تروْن الكوكبَ الدُّرِّيَّ في أُفُقِ السماء ، وإن أبا بكرٍ وعمر منهم وأنْعَمَا »[(١)].

رضي الله عن الصديق الذي قال فيه الفاروق - حين ذَكَر البيعةَ - : « وليس فيكم مَنْ تُقطع إليه الأعناق مِثْل أبي بكرٍ »[(٢)].

ولله دَرُّه .. ما أعلى وَرَعَهُ :

عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان لأبي بكر غلامٌ يُخرِج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يومًا بشيءٍ ، فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام : أتدري ما هذا ؟ فقال أبو بكر : وما هو ؟ قال : كنتُ تكهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهلية ، وما أُحسِن الكهانة ، إلَّا أني خدعتُهُ ، فأعطاني بذلك ، فهذا الذي أكلتَ منه . فأدخل أبو بكر يدَهُ فقاءَ كلَّ شيءٍ في بطنه[(٣)].

وانظر إلى القمة التي لا تُدَانى في الوقوف عند كتاب الله :

عن عائشة : لما أنزل الله في براءتي ، قال أبو بكر الصديق رضي الله

---

(١) حسن لغيره : أخرجه أحمد في المسند ، وفي فضائل الصحابة ، وله شاهد عند الترمذي .

(٢) موقوف صحيح : أخرجه ابن سعد في الطبقات .

(٣) رواه البخاري .

عنه - وكان يُنفق على مِسْطَح بن أثاثة ، لقرابته منه وفقره - : والله لا أُنفق على مسطحٍ شيئًا أبدًا ، بعد الذي قال لعائشة ما قال . فأنزل الله : ﴿ **ولا يَأْتَلِ أُولو الفضل منكم والسَّعة أن يُؤتوا أُولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبُّون أن يغفر الله لكم والله غفورٌ رحيمٌ** ﴾ [النور : ٢٢] . قال أبو بكر : بلى والله ، إني لأُحبُّ أن يغفر الله لي . فرجع إلى النفقة التي كان يُنفِق عليه ، وقال : والله لا أنزعها أبدًا . رواه البخاري .

« هنا نَطَّلِع على أُفُقٍ عالٍ من آفاق النفوس الزَّكيَّة ، التي تطهَّرتْ بنور الله ، أُفق يُشرق في نفس أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، أبي بكر الذي مسَّه حديث الإفك في أعماق قلبه ، والذي احتمل مرارة الاتِّهام لبيته وعِرْضه ، فما كاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ، وما كاد يلمس وجدانَهُ ذلك السؤال المُوحي ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ ؟ حتى يرتفع على الآلام ، ويرتفع على مشاعر الإنسان ، ويرتفع على منطق البيئة ، وحتى تشفّ رُوحُه وترفّ وتُشرق بنور الله ، فإذا هو يُلَبِّي داعيَ الله في طمأنينةٍ وَصِدْقٍ ، يقول : بلى والله ، إني لأُحبُّ أن يغفر الله لي . ويُعيد إلى مسطحٍ النفقةَ التي كان يُنفق عليه ، ويحلف : والله لا أنزعها منه أبدًا . ذلك في مقابل ما حلفَ : والله لا أنفعه بنافعةٍ أبدًا .

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ، ويغسله من أوضار المعركة ، ليبقى أبدًا نظيفًا طاهرًا زكيًّا مشرقًا بالنور »[1].

قال ابن كثير معلِّقًا : « فلهذا كان الصِّدّيق هو الصّدّيق »[2].

---

(١) الظلال ٤ / ٢٥٠٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٦ / ٣١ .

الصِّدِّيق أعزّ الله به الدِّين يومَ الرِّدَّة :

لله دَرُّ الصِّدّيق .. لقد لاقى - حين ارتدَّ العرب - ما تضعضع له الجبال الرّواسي .. لله دَرُّه وهو يجهِّز جيش أُسامة ويبعثه ، والعرب من كلِّ حدبٍ وصوبٍ تكاد تفتك بأهل المدينة ... لله دَرُّه وهو يقول : « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يُؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ ، لَحَاربتُهم على مَنْعِهِ » . وبعدها قال الفاروق : « لو أطاعنا أبو بكرٍ لَكَفَرْنا » .

إن الله أعزَّ الإسلام برجُلَيْن لا ثالث لهما : أبو بكر يوم الرِّدَّة .. وأحمد ابن حنبل يوم المحنة .

كانت فضائله الباطنة مستورةً بنقابٍ « ما سَبَقَكُمْ أبو بكرٍ بصومٍ ولا صلاةٍ ، ولكنْ بشيءٍ وَقَرَ في صدره » . فهي مُجانسة لمنقبة ﴿ **فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾ [النجم : ١٠] .

جَمَعَ يومَ الرِّدَّة شَمْلَ الإسلام بعد أن نعق غراب البَيْن ، وجهَّز عساكر العَزْم ، فمرّتْ على أحسن زيْن ، وصاح لسان جدِّه فارتاع مَنْ بَيْن الصَّفَّيْن ، فقال : أُقاتلهم ولو بابْنَتَيَّ هاتَيْن .

عاد به روض العُلَا مُنَضَّرًا ... من بعد ما كان العُلا قد اضمحلّْ
سائلْ به يوم بني حنيفةٍ ... والبيضُ في بيضِ الرُّءُوسِ تنتضلْ
كم خَلَلٍ رمَّ ولولا عزمُهُ ... ما رُمَّ في الإسلامِ هذاك الخَلَلْ
وكم له مِنْ نائلٍ يسير ما ... بينَ الأنامِ ذِكْرُهُ سَيْرَ مَثَلْ
سكينةُ الله عليه أُنْزِلَتْ ... وَفَضْلُه في سورةِ الفَتْحِ نَزَلْ
أُقْسِمُ باللهِ يمينًا صادقًا ... لوْ فَاضَلَ الأمْلاكَ بالصِّدْقِ فَضَلْ

مَنْ نَهض كنهضته يوم الرِّدَّة، ومَن عانى مِن القوم تلك الشِّدَّة ، وأيّ إقدامٍ يُشبِه تلك الحِدَّة .

« إن العظائم كُفؤها العظماء » .

ولقد اختار القَدَرُ هذا العظيمَ ليُواجِه جلائل الأُمور وعظائم المستقبل .

قال ابن مسعود رضي الله عنه ، عن يوم الرِّدَّة : « لقد قُمنا بعد رسول الله ﷺ مقامًا كِدْنَا نهلك فيه ، لولا أن منَّ الله علينا بأبي بكر » .

لله من خلْقه رجالٌ تتحوّل المِحَن بين أيديهم إلى مِنَح ، والكوارث إلى ربيعٍ تملؤه روح الحياة !! وأبو بكر سيِّد هؤلاء الرجال .. أمَا قال عمر : « أبو بكرٍ سيِّدُنا أعْتَقَ بلالًا سيِّدَنا » .

« فخلال هذه المحنة الصاهرة التي ألمَّت بالإسلام ، تكشَّفتْ كلُّ جوانب الضعف في البناء البشري للإسلام ، وهبّ الرجل الحكيم القويّ من فوره ، فَرَأَبَ الصّدْع .. وكانت حظوظ الإسلام وافية ، ومقاديره سعيدة ، إذ جاءتْه هذه المحنة وأبو بكرٍ حاملُ الراية وقائدُ الأُمة .. وبفضلٍ من الله ورحمةٍ ، تفوَّقَ الرجل الكبير ، والخليفة المؤمن ، على أخطارٍ كانت حَرِيَّةً بأن تُدَاعي بناءِ إمبراطوريةٍ شامخةٍ راسخةٍ ، فما البال بدينٍ ناشئٍ غضٍّ جديدٍ ؟!

وكانت تلك الأيام المُزَلْزِلة أعظم أيام الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، وأخصبها وأكثرها بركةً عليه ، وخيرًا لمصيره .. لقد تمزَّقَ المرتَدُّون بددًا كبقايا زوبعةٍ ضالّةٍ ، وولَّوْا أمام الحق نائحين بشعرٍ :

ألا فاسقياني قَبْلَ خَيْلِ أبي بكرٍ　　لعلَّ منايانا قريبٌ ولا ندري

« خيل أبي بكر » ؟!! لقد صارت هذه العبارة كقعقعة الهَوْل في أسماع الذين أرادوا أن يُخضعوا الحقَّ للباطل »[1].

---

(١) خلفاء الرسول لخالد محمد خالد صـ ٧٨ - ٨٠ ، دار الجيل .

همَّة أغرب من الخيال ، تُقرِّب الصَّعْب وتُحقِّق المحال :

هذه هي همَّـة الصِّدِّيق رضي الله عنه : كيف استطاع في أقلّ من سنتين أن يُدمِّر جيوش المرتدِّين ، بعد أن كانت مُحاصِرَةً للمدينة ، وقد نهاه كبار الصحابة قبلها عن حربه ، فكيف يقوم في وجه العرب كلِّهم ، وبعد هذا لم يمت إلا وجيوشه تُحاصِر أعظم إمبراطوريتيْن في ذلك الوقت ، وتُنزل بهما أفظع الهزائم .. فهذه همَّةٌ عالية ، استطاع بها أن يُنجز ما ظنَّه الناسُ خيالًا لا يُنجَز .

خليفة رسول الله ﷺ الهاضِم لنفسه :

بعد أن صَعِدَ أبو بكرٍ منبر رسول الله ﷺ ، الذي غاب عنه فَيْصَلُهُ ورُبَّانُهُ ، قال : « أيُّها الناس ، إني قد وُلِّيتُ عليكم ، ولستُ بخَيْركم . إن أحسنتُ فأعينوني ، وإن أسأتُ فقوِّموني . ألا إن الضعيف فيكم قويٌّ عندي ، حتى آخُذَ الحقَّ له .. ألا وإن القويّ فيكم ضعيفٌ عندي ، حتى آخُذَ الحقَّ منه .. أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسوله ، فإذا عصيتُ فلا طاعةَ لي عليكم » .

كلماتٌ مُعجزات وضَّاءةٌ ، وما أَرْوَعَها من بدايةٍ ، ومن أجْدَر من الصِّدِّيق بهذه الكلمات ، ومن أحقّ من أبي بكرٍ وأوْلَى بهذا الموقف ... موقف الحاكم الذي يدرك أنه لن يكون عظيمًا إلا بقَدْر ما تكون أُمَّته عظيمة ، ولن يكون حُرًّا إلا بقدْر ما تكون أُمّته حُرّة ، ولن يكون آمنًا إلا بقدر ما يكون شعبه آمنًا .

ابنٌ مباركٌ عظيمٌ ، لا للإسلام وَحْدَه .. بل للحياة كلِّها .. حاكمٌ هاطِلٌ يملأ حياة الناس عافيةً ورحمةً ، وروعةً وأمْنًا .

ولله ما أعلى همَّتَهُ حين يمتنع عن إعطاء فاطمة بنت رسول الله ﷺ -

وهي أعزُّ عنده وأغلى من دمه وعَيْنَيْهِ - ميراثها فيقول : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نُورّث ، ما تركناه صدقةٌ » . وإني والله لا أَدَعُ أمرًا رأيتُ رسول الله ﷺ يَصْنَعُهُ ، إلَّا صنعْتُهُ ؛ إني أخشى إن تركتُ شيئًا من أمره ؛ أن أزيغ .

هذا رجلٌ لا يحمل إيمان العوامّ .. بل إيمان العباقرة عُلاة الهمَّة .

وانظر إلى عظمته السامقة :

حالِبُ الشياهِ للعجائز ، والعاجِن بيديه خُبز الأيتام :

قال ابن الجوزي في التبصرة (١ / ٤٠٠) : « إنه لمَّا استُخلف - أي الصِّدِّيق - أصبح غاديًا إلى السوق ، وكان يحلب لِلْحَيِّ أغنامهم قبل الخلافة ، فلمَّا بُويع ، قالت جاريةٌ من الحيّ : الآن لا يُحلَب لنا . فقال : بلى لَأَحْلِبَنَّهَا لكم ، وإني لأرجو ألا يُغيِّرني ما دخلتُ فيه » .

إنسان انتهى إليه كلُّ ما في الإسلام من حنانٍ ونجدةٍ وعطفٍ ، خُلِق هكذا .. وخُلق لهذا .

قالت عائشة رضي الله عنها : « أعتق أبو بكر - رضي الله عنه - سبعةً ممَّن كان يُعذَّب في الله عز وجلّ ، منهم بلال وعامر بن فهيرة »[1] .

لقد أتعبْتَ مَنْ بَعْدَكَ :

بعد أن وُلِّي الخلافة أراد أن يمضي إلى السوق ، فعارضَهُ الصحابةُ ، وقال له عمر : وماذا تصنع بالسوق وقد وُلِّيت أمر المسلمين ؟! وفرضوا له الكفاف : بعض شاةٍ كُلَّ يوم ، ومائتي دينار وخمسين في العام ، زيدت بعد ذلك إلى شاةٍ كلَّ يوم ، وثلثمائة دينارٍ في العام .. وما كان يأكل وأهله

---

(١) صحيح : أخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي .

إلَّا جريش الطعام .. وما كان يلبس إلَّا خَشِن الثياب ، فلمَّا أدركه الموت دعا الصِّدِّيقة عائشة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها ، وقال لها : « انظري ما زاد في مالِ أبي بكر منذ ولِيَ هذا الأمر ، فُردِّيه على المسلمين » .. وبكى عمر حين رأى ما تحمله أُمُّ المؤمنين تنفيذًا لوصيَّة أبيها « بعير كان يستقي عليه الماء !! ومِحْلب كان يحلب فيه اللبن !! وعباءة كان يستقبل فيها الوفود !! » ، فانفجر عمر باكيًا وقال : « يرحم الله أبا بكر .. لقد أتْعَبَ كلَّ الذين يجيئون بعده » .

هذا نهج الصديق ... نَهْجٌ في السلوك والورع تَنَاهَى في العظمة ، بحيث يُضني بلوغه ومضاهاته كلَّ خليفةٍ يأتي على أثره . رجل افتدى الإسلام بماله كلِّه .. وخليفة تنثال في أيامه خيرات الشام والعراق .

يا سُكَّان أرضنا وكوكبنا ، هل عندكم لهذا الأُنموذج الطاهر الغالي العالي من نظير .. هذا العظيم الشامخ ، الذي اختاره الله لتكون أيامه السطور الأُولى في نَعْي إمبراطوريَّتي الروم وفارس .. في جسد أبي بكرٍ النحيف وجدت العظمة منزلًا لها ومقامًا .

« هذا هو الصِّدِّيق !! لا يرفع الكاتبون من قدْره بما يسطرون عنه وعن فضائله ، إنما يرفعون من أقدار أنفسهم حين يُؤهِّلونها للحديث عن هذا الطَّوْد الشامخ العظيم »[١].

سبقتَ والله سبقًا بعيدًا :

« عن أُسيد بن صفوان ، قال : لمَّا قُبض أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وسُجِّي عليه ، ارتجَّتِ المدينةُ بالبكاء كيومِ قُبِضَ رسول الله ﷺ .

---

(١) خلفاء الرسول صـ ١٠٤ .

قال : فجاء علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - مستعجلًا مسرعًا مُسترجِعًا ، وهو يقول : اليوم انقطعتِ النُّبوَّة . حتى وقف على البيت الذي فيه أبو بكر فقال : رحمك الله يا أبا بكر ، كنتَ إِلْفَ رسول الله ﷺ وأنيسَهُ ومُستَرَاحه ، وثقتَهُ وموضِعَ سرِّه ومشاورته ، وكنت أوَّلَ القوم إسلامًا ، وأخلصهم إيمانًا ، وأشدَّهم لله يقينًا ، وأخْوَفَهُم لله ، وأعظمهم غناءً في دين الله عز وجل ، وأحْوَطهم على رسول الله ﷺ ، وأحْدَبَهم على الإسلام ، وأحسنهم صُحبةً ، وَأَكْثَرَهُمْ مناقِبَ ، وأفضلهم سوابِقَ ، وأرفعهم درجةً ، وأقربهم وسيلةً ، وأشبههم برسول الله ﷺ هَدْيًا وسَمْتًا ، وأشرفهم منزلة ، وأرفعهم عنده ، وأكرمهم عليه ، فجزاك الله عن رسوله وعن الإسلام أفضل الجزاء . صَدَّقْتَ رسولَ الله حين كَذَّبه الناس ، وكنتَ عنده بمنزلة السمع والبصر ، سمَّاك الله في تنزيله صِدِّيقًا فقال : ﴿ **والذي جاء بالصِّدْق وصدَّق به** ﴾ [الزمر : ٣٣] . وآسَيْتَهُ حين بخلوا ، وقُمتَ معه في المكاره حين قعدوا ، وصحبتَهُ في الشدَّة أكْرَمَ الصُّحبة ، ثاني اثنين ، صاحِبه في الغار ، والمُنَزَّل عليه السَّكِينة ، ورفيقه في الهجرة ، وخَلَفْتَهُ في دينِ الله وأُمَّتِهِ أحْسَنَ الخلافة حين ارتدّوا ، فقمتَ بالأمر ما لم يقُم به خليفةُ نبيٍّ ، نهضتَ حين وَهَنَ أصحابُه ، وبرزتَ حين استكانوا ، وقويتَ حين ضعفوا ، ولزمتَ منهاج رسوله إذْ وهنوا ، كنتَ خليفةً حقًّا لن تُنازع ولن تُضارع ، برغم المنافقين وكبْت الحاسدين ، قُمتَ بالأمر حين فشلوا ، فاتَّبعوك فهُدُوا ، وكنتَ أخْفَضَهم صوتًا وأعلاهم فَوْقًا ، وأقَلَّهم كلامًا ، وأصدقهم مَنْطِقًا ، وأطولهم صمتًا ، وأبلغهم قولًا وأكرمهم رَأْيًا ، وأشجعهم نفسًا ، وأشرفهم عملًا ، كنت واللهِ للدِّين يَعْسُوبًا[1] ؛ أوَّلًا حين نفرَ عنه الناس ، وآخِرًا حين أقبلوا . كنتَ للمؤمنين أبًا رحيمًا ، صاروا عليك عيالًا ،

(١) أمير النحل .

حملتَ أثقال ما عنه ضَعُفوا ، ورَعَيْتَ ما أهملوا ، وعلمتَ ما جهلوا ، وشمَّرتَ إذ ظلعوا[١] ، وصبرت إذ جزعوا ، وأدركتَ أوتار ما طلبوا ، وراجَعُوا بِرَأْيِكَ رشدهم فظفروا ، ونالوا برأْيك ما لم يحتسبوا . كنتَ على الكافرين عذابًا صبًّا ولَهَبًا ، وللمؤمنين رحمةً وأُنسًا وحِصنًا ، طِرتَ والله بعنائها ، وفُزت بِحِبائها ، وذهبتَ بفضائلها ، وأدركتَ سوابقها ، لم تُفْلَلْ حُجَّتك ، ولم تضعُف بصيرتُك ، ولم تجبُن نَفْسُك ، ولم يزُغ قلبك ، فلذلك كنتَ كالجبال ؛ لا تحرِّكها العواصف ولا تزيلها القواصف ، كنتَ كما قال رسول الله ﷺ ، أمنَّ الناس عليه في صُحبتك وذاتِ يدك ، وكنت - كما قال - ضعيفًا في بدنك قويًّا في أمر الله تعالى ، متواضعًا في نفسك ، عظيمًا عند الله ، جليلًا في أعيُن الناس ، كبيرًا في أنْفُسهم ، لم يكن لأحدهم فيك مغمز ، ولا لقائلٍ فيك مهمز ، ولا لمخلوقٍ عندك هوادة ، الضعيف الذليل عندك قويٌّ حتى تأخُذ بحقِّه ، القريب والبعيد عندك سواء ، وأقْرَبُ الناس عندك أطْوَعُهم لله عز وجل وأتقاهم ، شأنُك الحقُّ والصِدْقُ والرِّفْقُ ، قولُك حُكم وحَتْم ، وأمرك حِلم وحَزْم ، ورأيك عِلمٌ وعَزْم ، اعتدلَ بك الدِّين ، وَقَوِيَ بك الإيمان ، وَظَهَرَ أمر الله ، فسبقتَ والله سَبْقًا بعيدًا ، وأتعبتَ مَنْ بعدك إتعابًا شديدًا ، وفُزت بالخير فوزًا مبينًا ، فَجَلَلْتَ عن البكاء وعظُمت رَزِيَّتُك في السماء ، وهدَّتْ مصيبتُك الأنام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، رضينا عن الله عز وجل قضاءَه وسلَّمْنا له أمره . والله لن يُصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بِمِثْلك أبدًا ، كنت للدِّين عزًّا وحِرزًا وكهفًا . فألْحَقَك الله عز وجل بنبيك محمدٍ ﷺ ، ولا حَرَمَنا أجرك ، ولا أضلَّنا بَعْدَكَ .

---

(١) أي ضعفوا .

فسكت الناس حتى قضى كلامه ، ثم بكوْا حتى علت أصواتُهم ، وقالوا : صدقت يا ختن رسول الله ﷺ »[١].

أبي وما أُبيَّهْ ! أبي والله لا يُعْطَوْهُ الأَبَد :

ولله دَرُّ أُمِّ المؤمنين عائشة حين تتكلَّم عن أبيها أبي بكر « فقد بلغها أن أقوامًا يتناولون أبا بكر فأرسلت إلى أزْفِلة[٢] منهم ، فلمَّا حضروا أسدلتْ أستارها ، ثم دنتْ فحمدتِ الله تعالى وصلَّتْ على نبيِّه محمد ﷺ وَعَذَلَتْ وقَرَّعَتْ ثم قالت : أبي وما أُبَيَّهْ ! أبي والله لا يُعْطَوْهُ[٣] الأبد ، ذاك طَوْدٌ مُنِيف وفرعٌ مديد ، هيهات ، كذبتِ الظُّنون ! أنْجحَ إذ أكْدَيْتُم[٤] ، وسَبَقَ إذ وَنَيْتُم[٥] ، سبْق الجواد إذا استولى على الأمد[٦]. فتى قريشٍ ناشئًا ، وكهفُها كهلًا ، يفُكُّ عانِيَها ، ويَريش مُمْلِقَها[٧] ، ويَرْأَب شَعْبَها[٨] حتى حلبتْه قلوبها ، ثم استشرى[٩] في الله ، فما برحتْ شكيمتُه وَحَمِيَّتُه في ذاتِ الله تعالى ، حتى اتَّخذ بفنائه مسجدًا يُحيي فيه ما أمات المُبطلون . وكان - رحمه الله - غزيرَ الدَّمْعَةِ ، وَقِيذَ[١٠] الجوارح ، شجيَّ النَّشيج[١١] ، فانقضَّتْ إليه نسوانُ مكة وولدانُها يسخرون منه ويستهزئون به ﴿ **الله يستهزئ بهم ويمُدُّهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ [البقرة : ١٥] فأكبرت ذلك رجالات قريش ، فحَجَنَتْ له قِسِيَّها ، وفوَّقَتْ له سهامَها ، وانْتَثَلُوه[١٢] غَرَضًا ، فما فلُّوا[١٣] له

---

(١) التبصرة ١ / ٤٠١ - ٤٠٣ .
(٢) جماعة .
(٣) ينالوه .
(٤) خِبتم .
(٥) فَتَرْتم .
(٦) الأمد : الغاية .
(٧) المُملِق : الفقير .
(٨) يرأب : يجمع ، وشعبها : مُتفرِّقها .
(٩) احتدَّ وانكمش .
(١٠) الوقيذ : العليل .
(١١) الشجيّ : الحزين .
(١٢) أيْ جعلوه ومثّلوه غرضًا للرَّمْي .
(١٣) كسروا .

صَفَاةً[١] ولا قصفوا له قناةً ، ومرَّ على سِيسَائِهِ[٢] ، حتى إذا ضرب الدين بِجرانِهِ[٣] ، وألقى بَرْكَهُ ، ورستْ أوتادُه ، ودخل الناسُ فيه أفواجًا ومِنْ كلِّ فرقةٍ أرْسالًا وأشتاتًا ، اختار الله لنبيِّه ما عنده ، فلمَّا قبض الله تعالى نبيَّه ﷺ ، نَصَبَ الشيطانُ رُواقَهُ ومدّ طُنُبه ونَصَبَ حبائِلَهُ ، وظن رجالٌ أن قد تحقَّقتْ أطماعُهم ، ولاتَ حين الـذي يرجون ، فأنَّى والصِّدِّيق بين أظهُرِهم !! فقام حاسِرًا مشمِّرًا ، فجمعَ حاشيَتَهُ ، ورفعَ قُطْرَيْه[٤] فردَّ نَشْزَ الإسلام على غِرَّةٍ[٥] ، ولمَّ شَعَثَهُ بِطبِّه[٦] ، وأقام أوْدَهُ[٧] بِثِقَافِهِ[٨] ، فابْذَقَرَّ[٩] النفاق بوَطْأَتِهِ ، وانتاشَ[١٠] الدِّين فَنَعَشَـهُ[١١] ، فلمَّا أزاحَ الحقَّ إلى أهله وقرَّر الرءوس على كواهلها ، وحَقَنَ الدماء في أُهُبها[١٢] ، أتَتْهُ مَنِيَّته ، فسَدَّ ثُلْمته بنظيره في الرحمة ، وشقيقِهِ في السِّيرة والمَعْدِلة ، ذاك ابنُ الخطَّاب ، للهِ دَرُّ أُمٍّ حملتْ به ودَرَّتْ عليه ، فقد أوْحَدَتْ[١٣] به ، فَفَنَخَ[١٤] الكفرةَ ، وديَّخها[١٥] ، وشرد الشِّرْكَ شَذَرَ مَذَر[١٦] ، ونَفَجَ الأرض ، ونَخَعَهـا[١٧] فأقامت أُكُلها[١٨] ، ولفظتْ حبَّها ، تَرْأَمُه[١٩] ويَصْدِف عنها ، وَتَصَدَّى له

---

(١) الصخْرة الملساء .
(٢) أي على حَدِّه .
(٣) الجِرَان : الصَّدْر ، وهو البَرْك .
(٤) أي تحزَّم للأمر وتأهَّب . والقطر : الناحية .
(٥) غِرَّة : ظنة .
(٦) الطِّبّ : الدواء .
(٧) الأَوْد : العَوَج .
(٨) الثِّقاف : تقويم الرِّماح .
(٩) ابْذَقَرَّ : تفرَّق .
(١٠) أزال عنه ما يخاف عليه .
(١١) رفعه .
(١٢) الأُهُب : جمع إهاب ، وهو الجِلْد .
(١٣) أوحدتْ : أي جاءت به منفردًا لا نظير له .
(١٤) أذلَّها .
(١٥) ديَّخها : أي دوَّخها .
(١٦) شَذَر مَذَر : التفريق .
(١٧) نخع ونفج : أي شقَّ .
(١٨) الخير .
(١٩) تَرْأَمُهُ : تعطف عليه .

ويأباها ، ثم زرع فيها وودَّعها كما صحبها ، فأروني ما تَريبون ، أيّ يومٍ تَنْقِمـون : أيوم إقامتِهِ إذْ عَـدَلَ فيكم ؟! أم يوم ظَعْنِه فقـد نَظَرَ لكم ؟! أستغفر الله لي ولكم » .

قال رسول الله ﷺ : « هذانِ السمع والبصر » يعني أبا بكر وعمر[(١)].

وقال ﷺ : « هذان سيِّدا كهول أهل الجنة ؛ من الأوَّلين والآخِرين إلَّا النبيِّين والمرسلين ، لا تُخْبرهُما يا عليّ » . يعني أبا بكر وعمر[(٢)].

أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

إنه الفاروق الذي قال الرسول ﷺ في همَّته وعبقريته : « أُرِيتُ في المنام أني أنْزِعُ بدلو بَكْرَةٍ على قليبٍ ، فجاء أبو بكر فنَزَعَ ذَنُوبًا[(٣)] أو ذنوبَيْن نزعًا ضعيفًا ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت[(٤)] غَرْبًا[(٥)] ، فلم أَرَ عبقريًّا[(٦)] يَفْرِي فَرْيَهُ[(٧)] حتى رَوِيَ الناسُ وضربوا بعَطَن[(٨)] »[(٩)] .

---

(١) صحيح رواه الترمذي ، والحاكم في المستدرك عن عبد الله بن حنطب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٠٠٤) والصحيحة رقم (٨١٤) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أنس وعلي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٠٠٥) والصحيحة رقم (٨٢٢) .

(٣) الذنوب : هي الدلو المملوءة بالماء .

(٤) استحالت : أي صارت وتحوَّلتْ . قاله النووي .

(٥) غَرْبًا: قال الحافظ في الفتح (٧ / ٣٩) : أي دلوًا عظيمًا .

(٦) العبقري : هو السَّيِّد . قاله النووي (٥ / ٢٥٣) .

(٧) في بعض روايات الصحيح : « فلم أرَ عبقريًّا ينزع نَزْع عمر » . وهي تفسِّر « يفري فريه » .

(٨) قال النووي : (٥ / ٢٥٣) : ومعنى « ضرب الناس بعطن » : أي أرووا إبلهم ثم آووها إلى عطنها ، وهو الموضع الذي تُساق إليه بعد السقي لتستريح .

(٩) رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمر .

وهو عمر الذي قال النبي ﷺ في دينه : « بَيْنَا أنا نائمٌ ، رأيتُ الناس عُرِضـوا عليّ وعليهم قُمُص ، فمنها ما يبلغ الثَّدْيَ ، ومنها ما يبلغ دون ذلك ؛ وَعُرِضَ عليَّ عُمَر وعليه قميص اجترَّه »(١). قالوا : فما أوَّلته يا رسول الله ؟ قال : « الدِّين »(٢).

إنه عمر عالي الهمَّة الذي يأخذ نفسه بالجدّ دومًا .

قال أسلم : « سألني ابن عمر عن بعض شأنه - يعني عمر - فأخبرته فقال : ما رأيت أحدًا قطُّ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - من حين قُبض - كان أجدَّ وأجْوَد حتى انتهى ؛ من عمر » . رواه البخاري .

إنه عمر الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « إن الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه »(٣).

إنه عمر عالي الهمَّة الذي يَفْرَق الشيطان منه .

قال رسول الله ﷺ : « إيهًا يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ، ما لَقِيَكَ الشيطان سالكًا فجًا ، إلَّا سَلَكَ فجًّا غير فجِّك »(٤).

وقال فيه : « إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجنّ قد فرُّوا من عمر »(٥).

إنه عمر الذي دعا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ربَّه أن يُعزّ

---

(١) ولا يلزم منه أن عمر أفضل من الصِّدّيق ، ويرفع هذا الإشكال تخصيصُ أبي بكر من عموم قوله : « عُرِض عليَّ الناس » .
(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو يعلى وابن أبي عاصم عن أبي سعيد الخدري .
(٣) صحيح لغيره : رواه الترمذي عن ابن عمر .
(٤) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم والنسائي عن سعد بن أبي وقَّاص .
(٥) حسن : جزء من حديث رواه الترمذي عن عائشة .

الإسلام به .

فعن ابن عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم أعِزّ الإسلام بأحَبِّ هذين الرجُلَيْن إليك ؛ بأبي جهلٍ ، أو بعمر بن الخطاب » . قال : وكان أحَبّهما إليه عمر(١) .

إنه عمر الذي قال فيه عبد الله بن مسعود : ما زلنا أعزَّةً منذ أسلم عمر .

إنه عمر الذي قال فيه ابن عباس : كان وقَّافًا عند كتاب الله .

إنه عمر الذي قالت فيه عائشة رضي الله عنها : إذا شئتم أن يطيب المجلسُ ، فعليكم بذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

تحدَّثْ ولا تخرُجْ بكلِّ عجيبةٍ … عن البحرِ أو تلك الخلالِ الزَّواهِرِ
ولا عيبَ في أخلاقه غَيْرَ أنَّها … فَرائِدُ دُرٍّ ما لها من نظائِرِ
يُقِرُّ لها بالفضلِ كلُّ منازِعٍ … إذا قيل يومَ الجَمْعِ هَلْ من مُفَاخِرِ

« قويت شدَّة عمر في الدِّين فصلُبَتْ عزائمُهُ ، فلمَّا حانتِ الهجرةُ ، تسلَّلُوا تسلل القَطَا ، واختال عمر في مِشية الأسد ، فقال عند خروجه : ها أنا أخرُج إلى الهجرة ، فمن أراد لقائي فليَلْقَنِي في بطن هذا الوادي .

لما ولي الخلافة شمَّر عن ساق جِدّه فكَظَمَ على هوى نفسه ، وحملَ في الله فوق طَوْقه .

متيقِّظ العَزَماتِ مُذ نهضتْ به … عَزَمَاتُهُ نحو العُلا لم يقعُدِ
ويكاد من نورِ البصيرةِ أن يَرَى … في يومه فِعْلَ العواقبِ في غَدِ »(٢) .

---

(١) صحيح لشواهده : أخرجه الترمذي وأحمد وابن حبان وعبد بن حميد .
(٢) التبصرة ١ / ٤١٩ - ٤٢٠ .

إنه عمر الذي قال له علي رضي الله عنه : « لقد أذللتَ الخلفاء من بعدك يا أمير المؤمنين » .

إنه عمر الذي قال : لو مات جَدْيٌ بِطَفِّ[1] العراق ، لخشيتُ أن يُحاسِب الله به عمر .

وقال : والله لئن بقيتُ ، ليأتينَّ الراعيَ بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال وهو يرعى مكانه .

كلَّ يومٍ مجدٌ وفخرٌ يُشاد   وطريفٌ[2] من المُنَى وتِلادُ
وكرامٌ من المساعي حِسانٌ   عجزتْ عن طِلابِها الحُسَّادُ
هِمَمٌ دونَها الكواكبُ تتلو   عَزَماتٍ للنار فيها اتِّقادُ
كلَّما قيل قد دَجَا ليلُ خَطْبٍ   فلِرَأْيِ الفاروقِ فيه زِنَادُ
مُغْرَمٌ بالمكارمِ الغُرِّ لَمَّا   ضمَّ أبكارَها إليهِ الولادُ
ساهِر العينِ بالعزائم يَقْـ   ـظانٌ وقد قيَّدَ العيونَ الرُّقادُ
قد كفتْهُ المناقِبُ المَدْحَ إلَّا   مَدْحنا من صفاتِهِ يُستفادُ

إنه عمر الذي قال فيه طارق بن شهاب : كُنَّا نتحدَّث أن عمر بن الخطاب ينطق على لسانه مَلَك[3].

لله دَرُّه من جبلٍ لا يراه شيطان إلا خرَّ لِمَنْخرَيْهِ ، المَلَك بين عينيْه ، ورُوح القدس ينطق على لسانه .

إنه عمر الذي قال فيه مجاهد : كُنَّا نتحدَّث – أو نحدَّث – أن

---

(١) الطَّفّ : الشَّطّ .
(٢) الطريف : الجديد . والتلاد : القديم .
(٣) موقوف صحيح : أخرجه أحمد في فضائل الصحابة .

الشياطين كانت مصفَّدة في إمارة عمر ، فلمَّا أُصِيب بُثَّتْ .

إنه عمر الذي حمل الدِّرَّة يؤدِّب بها ، وقيل بعده : لَدِرَّةُ عُمَرَ أهْيَبُ من سيفِكم .

إنه عمر الذي أذلَّ وديّخ كسرى الفرسِ وهرقل الرومِ ... قال عنه رستم قائد الفرس : « قاتل الله عمر .. لقد أَكَلَ كبدي .. إنه عمر الذي يكلِّم الكلاب فيُعلِّمهم العقل » .. لله ما أحلاها من كلمة .

إنه عمر أبو الفتوح العظيمة « فتح العراق كلَّه ، السَّواد والجبال وأذربيجان وكُور[1] البصرة وأرضها ، وكور الأهواز وفارس ، وكور الشام كلَّها ما خلا أجنادين ، فإنها فُتحت في خلافة أبي بكر ، وفتح عمر كور الجزيرة والموصل ، ومصر والإسكندرية ، وقُتل - رضي الله عنه - وخيلُه على الرَّيّ قد فتحوا عامَّتها »[2].

إنه عمر الذي كانت جيوشه تُديل مظالم الروم والفرس وتدُكُّها دكًّا ، بينما هو يسير في طُرُقات المدينة لابسًا ثوبًا به إحدى وعشرون رقعة ... ويُبطئ عن المسلمين يومًا في صلاة الجمعة ، ثم يعتذر إليهم حين يصعد المنبر قائلًا : « حبسني قميصي هذا ؛ لم يكن لي قميصٌ غيره !! » .

إن مسئولياته المباركة دفعتْه إلى نهايات الطُّرُق ، وقمم المُثُل ، فجاءت تصرُّفاتُه كلُّها تمثِّل أقصى ما يستطيع الكمال الإنساني أن يبلُغه .

* * *

(١) الكُورَة : المدينة والصُّقْع . جمعه : كُوَر .

(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، لابن الجوزي صـ ٦١ - ٦٢ تحقيق : د . زينب القاروط - دار الكتب العلمية .

علوّ همَّته في تفقُّده لرعيَّته :

« ثكلتْك أُمُّك يا طلحة ، أعثرات عُمَرَ تتبع ؟! » :

خرج رضي الله عنه في سواد الليل ، فرآه طلحة رضي الله عنه ، فذهب عمر فدخل بيتًا ثم دخل بيتًا آخر ، فلمَّا أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت ، وإذا بعجوزٍ عمياء مُقْعَدة ، فقال لها : ما بال هذا الرجل يأتيكِ ؟ قالت : إنه يتعاهدني ، منذ كذا وكذا يأتيني بما يُصلحني ويُخرج عني الأذى . فقال طلحة : ثكلتك أُمّك يا طلحة ، أعثرات عمر تتبع ؟!

« ماذا تقول لربِّك غدًا ؟ » :

عن الأحنف بن قيس قال : كنت مع عمر بن الخطاب ، فَلَقِيَه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، انطلِقْ معي فأعْدِني على فلانٍ ؛ فقد ظلمني . فرفع عمر دِرَّتَهُ ، وخَفَق بها رأس الرجل ، وقال له : تَدَعُون أمير المؤمنين وهو معرضٌ لكم ، مُقْبِلٌ عليكم ، حتى إذا شُغِلَ بأمرٍ من أُمور المسلمين أتيتموه : أعْدني ، أعدني . فانصرف الرجل غضبان أسفًا ، فقال عمر : عليَّ بالرجل . فلمَّا عاد ناوَلَهُ مخْفقتَهُ وقال له : خُذ واقتصّ لِنَفْسِك مني . قال الرجل : لا واللهِ ، ولكنّي أدَعُها لله . وانصرف ، وعُدتُ مع عمر إلى بيته ، فَصَلَّى ركعتين ثم جلس يُحاسب نفسه : « ابن الخطاب ، كنتَ وضيعًا فرفعك الله ، وكنت ضالًّا فهداك الله ، وكنت ذليلًا فأعزَّك الله ، ثم حَمَلَكَ على رقاب الناس ، فجاءك رجلٌ يستعديك ، فضربْتَهُ ، فماذا تقول لربِّك غدًا إذا أتيته ؟! » .

لله دَرُّكَ من إنسانٍ باهرٍ عظيم .

لا تنامُ إلَّا غِبًّا ، ولا تأكل إلَّا تقوُّتًا ، ولا تَلْبَسُ إلَّا خَشِنًا .. يقظان دائمًا .

كان يَنْعَس وهو قاعد ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، ألا ترقد ؟ ألا تَنَام ؟

قال : « إن نمت بالنهار ضيَّعتُ مصالح الرَّعيَّة ، وإن نمتُ بالليل ضيَّعتُ حظِّي مع الله » .

خرج يومًا إلى السوق ، فرأى إبلًا سِمانًا فقال : إبل مَنْ هذه ؟ قالوا : إبل عبد الله بن عمر . قال : عبد الله بن عمر !! بَخٍ بَخٍ يا ابن أمير المؤمنين . وأرسل في طلبه ، فلمّا أتاه قال له : ما هذه الإبل يا عبد الله ؟ فقال عبد الله : إنها إبل أنضاء اشتريتها بمالي ، وبعثت بها إلى الحِمَى أُتاجِر فيها ، وأبتغي ما يبتغي المسلمون . فقال عمر : ويقول الناس حين يرونها : ارعُوا إبل ابن أمير المؤمنين .. اسْقُوا إبل ابن أمير المؤمنين .. وهكذا تسمنُ إبلُك ، ويربو ربحُك يا ابن أمير المؤمنين . ثم صاح به : يا عبد الله ، خُذ رأس مالك ، واجعل الربح في بيت مال المسلمين .

يا خالق عمر ، سبحانك !!!

يقول لأقاربه : « إني قد نهيْتُ الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ، فإن وقعتم وقعوا ، وإن هبتم هابوا ، وإني والله لا أُوتَى برجُلٍ منكم ، وقع فيما نهيتُ الناس عنه ، إلَّا ضاعفتُ له العذاب ؛ لمكانِهِ مني ، فمن شاء منكم فليتقدَّم ، ومن شاء فليتأخَّر » .

رضي الله عنك يا عمر ، تُحمِّل أهلك كلَّ مغارم الحكم ؛ وتحرمهم من كلِّ مغانمه !!

علو همَّة تحيِّر العقول وتَبْهَر الأفئدة :

انظر رحمك الله إلى مسئوليته تجاه مال المسلمين :

قال عبد الله بن عامر بن ربيعة : « صحبتُ عمر بن الخطاب من

المدينة إلى مكة في الحج ، ثم رجعنا ، فما ضُرب له فسطاطٌ ولا خِباء ، ولا كان له بناء يستظلّ به ، إنما يُلقي كساءً على شجرةٍ ، فيستظلّ تحته » .

وقال رضي الله عنه لبشار بن نمير : كم أنفقْنا في حجَّتنا هذه ؟ فقال بشار : خمسة عشر دينارًا . فقال : لقد أسرفنا في هذا المال .

لله دَرُّه .. يذوق وَقْدَة الحرِّ ، وَقَيْظ الجبال المستعرة ، ويُنفق خلال رحلته كلها خمسة عشر دينارًا ، ثم يقول : لقد أسرفنا !! وتحت عتبة خزائنه وُضعت أموال كسرى وقيصر .

وعدا وهَرْوَلَ وراء بعيرٍ أفْلَتَ من مَعْطِنه ، فَلَقِيَهُ عليٌّ بن أبي طالب فقال له : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟ فقال : بعيرٌ نَدَّ من إبل الصدقة أطْلُبُه . فقال عليٌّ : لقد أتعبتَ الذين سيجيئون من بعدك .

« وقدم الأحنف بن قيس على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في وفدٍ من العراق ، قدموا عليه في يومٍ صائفٍ شديد الحرّ ، وهو مُعتَجِرٌ بعباءةٍ يَهْنَأُ[١] بعيرًا من إبل الصدقة ، فقال : يا أحنف ، ضَعْ ثيابك وهَلُمَّ ، فأعِنْ أمير المؤمنين على هذا البعير ، فإنه من إبل الصدقة ، فيه حقُّ اليتيم والأرملة والمسكين . فقال رجلٌ من القوم : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، فهلَّا تأمر عبدًا من عبيد الصدقة فيكفيك ؟ فقال عمر : وأيّ عبدٍ هو أعْبَدُ مني ومن الأحنف ؟! إنه من ولي أمر المسلمين : يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيِّده في النصيحة وأداء الأمانة »[٢].

....

(١) الاعتجار : لفُّ العمامة على الرأس . وهَنَأْتُ البعير أهْنَؤُه : إذا طليْتُهُ بِالهِنَاء ، وهو القَطِران .

(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صـ ٧٣ .

وَقَبَّضَ المَحْـلَ بِبَسْطِ رَاحِـهِ أعْـدَى الجَهَـامَ جُودُهَـا فَهَتَّنا[١]
أوصافُـه تُمْلي على مُدَّاحِـهِ مـا سَطَّـرَ المجـدُ له وَدَوَّنا
إذا رواهـا الدَّهْـرُ في أبياتِـهِ طـرَّبَ إعجابًا بهـا وَلَحَّنَـا
وإنْ بهـا وَرْقَـاء ليلٍ غَـرَّدَتْ مـدَّ إليهـا كلُّ غُصْـنٍ فَنَنَـا

عن ابن عمر قال : « قدمت رفقةٌ من التجار ، فنزلوا المصلَّى ، فقال عمر لعبد الرحمـٰن بن عوف : هل لك أن نحرسهم الليلة من السَّرق . فباتا يحرسانهم ويصلِّيان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبيٍّ ، فتوجَّه عمر نحوه ، فقال لأُمّه : اتَّقِ الله وأحْسِنِي إلى صَبِيِّك . ثم عاد إلى مكانه ، فلمَّا كان من آخِرِ الليل ، سمع بكاءَهُ ، فأتى أُمَّه فقال : ويحكِ ، إني لأراكِ أُمَّ سوءٍ ، ما لي أرى ابنك لا يَقرُّ منذ الليلة ؟ قالت : يا عبد الله ، قد أبرمْتَنِي[٢] منـذ الليلة ، إني أُرِيغُه عن الفِطام . قال : وَلِمَ ؟ قالت : لأن عمر لا يَفْرِض للفطيم . قال : وكم له ؟ قالت : كذا وكذا شهرًا . قال : ويحكِ ، لا تُعجليه . فصلَّى وما يَسْتَبِين الناس قراءته من غَلَبَةِ البكاء ، فلمَّا سلَّم قـال : يا بُؤْسا لعمر ، كم قَتَلَ من أولاد المسلمين . ثـم أمر مناديًـا فنادى : أن لا تُعجلوا صِبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولودٍ في الإسلام . وكتب بذلك إلى الآفاق أن يُفرض لكلِّ مولودٍ في الإسلام »[٣] .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : خرجْنا مع عمر بن الخطاب إلى حَرَّةِ واقم[٤] ، حتى إذا كنا ....

---

(١) المحل : الجَدْب ، والجَهام : السحاب الذي لا ماء فيه ، وهَتَّنا : انصبّ ماؤه .
(٢) أي أضجرتني .
(٣) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .
(٤) واقم : أُطُم من آطام المدينة .

بِصِرار[١] إذا نارٌ ، فقال : يا أسلم ، إني أرى هاهنا رَكْبًا قد ضربهم الليل والبرد ، انطلِقْ بنا . فخرجنا نهرول حتى دَنَوْنَا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان ، وَقِدْر منصوبة على نار ، وصبيانها يَتَضَاغَون[٢] ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء . وَكَرِهَ أن يقول : يا أصحاب النار . فقالت : وعليكم السلام . فقال : أدنو ؟ فقالت : ادْنُ بخيرٍ ، أو دَعْ . فدنا منها فقال : ما بالكم ؟ قالت : ضَرَبَنا الليلُ والبرد . قال : وما بال هؤلاء الصِّبية يتضاغون . قالت : الجوع . قال : أيّ شيءٍ في هذا القدر ؟ قالت : ماء أُسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر . قال : أيْ رحمك الله ، وما يُدري عمر بكم ؟ قالت : يتولَّى أمرنا ثم يغفل عنا ؟! قال : فأقبل عليّ ، فقال : انطلِقْ بنا . فخرجْنا نُهَرْوِل ، حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عِدْلًا من دقيق وكُبَّة من شَحْمٍ ، فقال : احْمِلْه عليَّ . فقلت : أنا أحمله عنك . فقال : أنت تحمل وزري يوم القيامة ؟! لا أُمَّ لك . فحملْتُهُ عليه ، فانطَلَقَ وانطلقتُ معه إليها نُهرول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئًا ، فجعل يقول لها : ذُرِّي عليّ وأنا أُحرِّك لكِ ، وجعل ينفخ تحت القِدْر ، ثم أنزلها . فقال : ابْغِيني شيئًا . فأَتَتْهُ بِصَحْفَةٍ ، فأفرغها فيها ، فجعل يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم . فلم يَزَل حتى شبعوا ، وترك عندها فَضْل ذلك . وقام وقُمتُ معه ، فجعلتْ تقول : جزاك الله خيرًا ، كُنتَ أوْلى بهذا الأمْر من أمير المؤمنين . فيقول : قُولي خيرًا ، إذا جئتِ أميرَ المؤمنين ، وجدْتِنِي هناك إن شاء الله . ثم تنحَّى ناحيةً عنها ، ثم استقبلها فَرَبَضَ مَرْبِضًا ، فقلت : لك شأنٌ غير هذا ؟ فلا يكلِّمني ، حتى

---

(١) الصِّرار : الأماكن المرتفعة لا يعلوها الماء . وصرار : اسم جبل .

(٢) التَّضاغي : الصّياح والبكاء .

رأيتُ الصِّبية يصطرعون ، ثم ناموا وهدءوا ، فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببتُ أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت[(١)].

يا أمير المؤمنين ، بشِّر صاحِبَك :

عن أنس بن مالك قال : بَيْنَا عمر رضوان الله عليه يعسُّ بالمدينة ، إذ مرَّ بَرَحْبَةٍ من رحابها ، فإذا هو ببيتٍ من شعر ، لم يكن بالأمس ، فدنا منه ، فسمع أنين امرأةٍ ، ورأى رجلًا قاعدًا ، فدنا منه فسلَّم عليه ثم قال : مَنِ الرَّجُل ؟ فقال : رجل من أهل البادية ، جئتُ إلى أمير المؤمنين أُصيب من فضله . فقال : ما هذا الصوت الذي أسمعه في البيت ؟ فقال : انطلِقْ - رحمك الله - لحاجتك . قال : عليَّ ذلك ، ما هو ؟ قال : امرأةٌ تُمخَّض . قال : هل عندها أحد ؟ قال : لا . قال : فانطَلَقَ حتى أتى منزلَهُ ، فقال لامرأته أُمّ كلثوم بنت علي - رضي الله عنهما - : هل لك في أجرٍ ساقه الله إليكِ ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة غريبة تُمخَّض ، ليس عندها أحد . قالت : نعم ، إن شئتَ . قال : فَخُذِي معكِ ما يُصلِح المرأة لولادتها من الخِرَق والدُّهن ، وجيئيني بِبُرْمَةٍ[(٢)] وشحمٍ وحبوب . قال : فجاءت به ، فقال لها : انْطَلِقِي . وحمل البُرمة ، ومشتْ خلفه ، حتى انتهى إلى البيت ، فقال لها : ادخُلي إلى المرأة . وجاء حتى قعد إلى الرجل فقال له : أوقِدْ لي نارًا . فأوقَدَ تحت البُرمة حتى أنْضَجَهَا ، وولدت المرأةُ ، فقالت امرأتُه : يا أمير المؤمنين ، بَشِّرْ صاحبَك بغلامٍ . فلمَّا سمع بأمير المؤمنين كأنه هابَه ، فجعل يتنحَّى عنه ، فقال له : مكانَكَ كما أنت . فَحَمَلَ البُرمة فوضعها على الباب ، ثم قال : أشْبِعِيها . ففعلتْ ، ثم أخرجتِ البُرمةَ فوضعتْها على الباب ،

---

(١) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي صـ ٦٩ - ٧٠ .

(٢) قِدْر من حجارة .

فقام عمر رضي الله عنه ، فأخذها فوضعها بين يدي الرجل ، فقال : كُلْ ويحكَ ؛ فإنك قد سهرتَ من الليل . فَفَعَلَ ، ثم قال لامرأته : اخْرُجِي . وقال للرجل : إذا كان غدًا ، فأتِنَا نأمُر لك بما يُصلحك . ففعل الرجل فأجازَهُ وأعطاه[١] .

إنه العَجَب العُجاب ! أمير المؤمنين الذي تفتَّحتْ لأعلامِهِ الخافقاتِ أقطارُ الدنيا ، واستقبل الناسُ جيوشَهُ كأنها البُشْرَيَات ، تدكُّ جيوشُه معاقل كسرى وقيصر ، ويحرس قافلة ، يُؤرِّقُه بكاءُ طفلٍ ويُزلزله ، حتى يشرق بالدُّموع وهو يُصَلِّي بالناس ، تتولَّى زَوْجُه في الهزيع الأخير من الليل أمر سيِّدةٍ غريبةٍ أدركها المخاضُ ، ويجلس هو خارج الكوخ يُنضج لها الطعام ويُوقد تحت البُرمة .

هذا عمر ! منارة الله في الدنيا وهديَّتُهُ إلى الحياة .. على مائدة سيرته أطايبُ العَظَمة .. عبقريٌّ صحَّحَ مفاهيم الحياة ، وأفرغ عليها نورًا من رُوحه ، وكساها عظمةً من سلوكه ، وكان للمتقين إمامًا .

أعظم آيات التَّفوُّق الإنساني ، ونبوغ النفس ، وبطولة الرُّوح ، وإعجاز السلوك ، وعلوّ الهمّة .. هنا نرى ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذنٌ سمعتْ ، ولا يكاد يخطر على قلب بشر .. هنا العظائم تتفوّق على نفسها ، ويَزْحَم بعضُها بعضًا ، هنا : « عمر » .. رضي الله عن عمر .. حاكم يحمل مسئولياته على نمطٍ فذٍّ ، ويُعطي البشرية جميعًا - إلى آخر لحظةٍ في الأبد - درسًا في القُدوة ، أيّ درسٍ .

موقفه من نفسه ، من أهله ، من الضعيف ، من القويّ ، من وُلَاتِهِ ،

---

(١) مناقب عمر بن الخطاب صـ ٨٤ - ٨٥ .

من أموال الأُمَّة .. مواقفه هذه المُترعة بإجلالٍ منقطع النظير لمسئوليته تجاه عمله وتجاه أمانة الحُكم .

عام الرَّمَادَة .. وعمر الذي أوْحَدَتْ به أُمُّه :

عن أسلم قال : كنا نقول : لو لم يرفع الله سبحانه وتعالى المَحْل(١) عام الرَّمَادَة ، لَظَنَنَّا أن عمر يموت همًّا بأمر المسلمين .

وعن أسلم : كان عمر رضي الله عنه يصوم الدهر ، فكان عام الرَّمادة إذا أمسى وأُتي بخُبزٍ ، أثْرَدَ بالزيت ، إلا أنه نحر يومًا من الأيام جَزُورًا ، فأطعمها الناس ، وغرفوا له طَيِّبها ، فأُتي به ، فإذا قَدْر من سَنَامٍ ومن كَبِد ، فقال : أنَّى هذا ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، من الجَزُور التي نَحْرنا اليوم . فقال : بَخٍ بَخٍ ، بئس الوالي أنا إن أكلتُ طيِّبها وأطعمت الناس كراديشها ، ارفع هذه ، هات لنا غير هذا الطعام . فأُتي بخبز وزيت ، فجعل يَكْسِر ويُثْرِد في ذلك الزيت ، قال : ويحك يا يَرْفَأ(٢) ، احْمِلْ هذه الجَفْنَة حتى تأتي بها أهل بيت بِثَمْغ(٣) ، فإني لم آتِهم منذ ثلاثة أيامٍ ، وأحسبُهم مُقفِرين ، فَضَعْها بين أيديهم .

وقال ابن سعد : نظر عمر عام الرَّمادة إلى بِطِّيخةٍ في يد بعض ولده ، فقال : بَخٍ بَخٍ يا ابن أمير المؤمنين ، تأكل الفاكهة وأُمَّة محمدٍ هَزْلَى ؟!! فخرج الصبيُّ هاربًا وبكى ، فقالوا : اشتراها بكفٍّ نَوَى .

قال عياض بن خليفة : رأيت عمر عام الرَّمادة ، وهو أسود اللون ،

---

(١) الجدب .

(٢) مولى عمر بن الخطاب .

(٣) بالمدينة .

ولقد كان أبيض ، كان رَجُلًا عربيًّا ، يأكل السمن واللبن ، فلمَّا أَمْحَلَ الناسُ ، حرَّمهما ، فأكل الزيت حتى غيَّر لونَهُ ، وجاع فأكثر .

ما أكل السمن في عام الرمادة وقال : ما أنا بذائقه حتى يحْيا الناس .

وفي أيام المجاعة ونقْص اللحم والسمن ، أدمن ابن الخطاب أكل الزيت حتى أَنَّتْ أمعاؤه وقرقرتْ ، وجعل يمسح على بطنه ويقول : « والله لتموتنَّ أيتها البطن على الخبز والزيت ، ما دام السمن يُباع بالأواقي » .

وهكذا يحمل حظَّه من الخَصَاصة والضَّنْك ... عدل في ذُراه العالية التي تتقطّع الأنفاس دون بلوغها .

يُرسل إليه عتبة بن فرقد مع رسولٍ حلوى يصنعها أهل أذربيجان ، فقال عمر للرسول : أَكُلّ المسلمين هناك يَطْعَمون هذا ؟ قال الرجل : لا ، وإنما هو طعامُ الخاصَّة . فقال عمر للرجل : أين بعيرك ؟ خُذ حِمْلك هذا ، وارجع به لعتبة وقل له : عمر يقول لك : اتَّقِ الله ، وأشبع المسلمين ممَّا تشبع منه !!

علوّ همَّته في مُلاحظته لعُمَّاله ووُلَاته :

يُلزِمهم صراطًا مستقيمًا أحَدَّ من الشَّفْرة وأدَقَّ من الشَّعْرة .

عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال : كان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، إذا استعمل عاملًا ، كتب عليه كتابًا ، وأشهد عليه رهطًا من الأنصار « أن لا يركب بِرْذَوْنًا ، ولا يأكل نَقِيًّا ، ولا يلبس رقيقًا ، ولا يُغلق بابه دون حاجات المسلمين » ، ثم يقول : اللهم اشهد .

وهو يريد من عُمَّاله أن يتفوّقوا على الناس بأناقة النفس ، لا بأناقة اللباس ، وبمحامد الأفعال لا بالمظاهر الكاذبة ، والغُبار الباطل !!! فيقول :

« أريد رجلًا إذا كان في القوم وليس أميرًا لهم ، بدا وكأنه أميرهم ، وإذا كان فيهم وهو أميرهم ، بدا وكأنه واحدٌ منهم !! » .

يا لبهاء عقلك وذكاء رُوحك .. هذا ما يريده عمر تمامًا : أمراء في أخلاقهم وتواضُعهم ، وليس في تَبَذُّخهم وعلوِّهم .

وفي الحجّ يقف في الناس خطيبًا : « أيُّها الناس ، إني والله لا أبعث عُمَّالي إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنْ أبعثهم ليعلِّموكم دينكم وسُنَّة نبيِّكم ، فمن فُعِلَ به سوى ذلك فليرفعْه إليَّ .. فوالذي نفسي بيده لأُمكِّننَّه من القصاص » .

وكان عبد الله بن قرط من خير عُمّاله إلَّا أنه بنى دارًا فارهةً ، فقال له عمر : استعملتُك وشرطت عليك شروطًا ، فتركتَ ما أمرتُك به ، وانتهكتَ ما نهيتُك عنه ، أما والله لأعاقِبنَّك عقوبةً أبلُغ إليك فيها ، إيتوني بِدُرَّاعَةٍ من كساءٍ وعصا ، وثلاثمائة شاةٍ من شاءِ الصدقة . ثم قال له : البس هذه الدّرّاعة ، وقد رأيت أباك ، وهذه خير من دُرّاعته ، وهذه خير من عصاه ، اذهب بهذه الشاءِ ، فارعها في مكان كذا وكذا ، وذلك في يومٍ صائِفٍ ، ولا تمنع السائل من ألبانها شيئًا ، واعلم أنّا آل عمر لم نُصِب من شاء الصدقة ومن ألبانها ولحومها شيئًا . فلمّا أمْعَنَ ردَّه ، قال : أفهمت ما قلت لك ؟ وردَّد عليه الكلام ثلاثًا ، فلمَّا كان في الثالثة ، ضرب بنفسه الأرض بين يديه ، وقال : ما أستطيع ذلك ، فإن شئتَ فاضرب عنقي . قال : فإن رددْتُك فأيّ رجلٍ تكون ؟ قال : لا ترى إلا ما تحبُّ . فردَّه ، فكان خير عاملٍ(١).

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صـ ١١٩ - ١٢٠ ، و« خلفاء الرسول » لخالد محمد خالد صـ ١٦٦ .

بل لما وصلتْ إليه شكوى من سعد بن أبي وقّاص ، وهو يتهيَّأ لمُنازلةِ جيوش الفرس في نهاوند ، وأنه قد اتَّخذ دون قصره بابًا ، فيرسل محمد بن مسلمة يطوف بسعد على الناس ، يسألهم رَأْيَهُم فيه ، فلا يقولون إلا خيرًا ، ويحرق محمد بن مسلمة الباب بأمرٍ من عمر حتى لا يحول بين الناس وبين خال النبي ﷺ .

هل ما نسطُر أسطورة .. بل لو كانت أسطورة لَصَعُبَ تصديقُها ، ولكنّ عمر لم يكن أُسطورة ، بل كان حقيقةً ملأتِ الزمان والمكان .. وكان هُدًى من الله ، يقول للناس : هكذا حاوِلُوا أن تكونوا .

عن الحسن البصري قال : « قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه : لئن عشتُ إن شاء الله ، لأسيرنَّ في الرَّعيَّة حَوْلًا ، فإني أعلم أن للناس حوائج تُقطع عني ، أمَّا هم فلا يصلون إليَّ ، وأمَّا عُمَّالهم فلا يرفعونها إليَّ ، فأسير إلى الشام ، فأُقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر ، فأُقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأُقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأُقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأُقيم بها شهرين »(١) .

وكان يقول : « لئن سلّمني الله لَأَدَعَنَّ أرامل العراق لا يَحْتَجْنَ إلى رَجُلٍ بعدي »(٢) فما أتت عليه رابعة حتى أُصيب .

وإن تَعْجَبْ فاعْجَب « لمَّا طُعن عمر قال لابن عباس : اخْرُج يا ابن عباس ، فَسَلْ : مَنْ قتلني ؟ قال ابن عباس : فخرجت فسألتُ : مَنْ طَعَنَ أمير المؤمنين ؟ قالوا : طَعَنَهُ عدوُّ الله أبو لؤلؤة ، غلامُ المغيرة بن شعبة . قال : فدخلتُ ، فإذا عمر يُبْدي فيّ النظر ، يستأني خبر ما بعثني إليه ،

(١) مناقب عمر صـ ١٢١ .
(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر صـ ١١٤ .

فقلت : أرسلني أمير المؤمنين لأسألَ مَنْ قتلَهُ ، فكلَّمتُ الناس ، فزعموا أنه طعنَهُ عدوّ الله أبو لؤلؤة ، غلام المغيرة بن شعبة ، ثم طَعَنَ معه رهطًا ، ثم قتل نَفْسَهُ . فقال : الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجّني عند الله بسجدةٍ سجدها له قطُّ ، ما كانت العرب لتقتلني »[1].

هذا عمر الذي لما طُعن ، اجتمع إليه البدريُّون ؛ المهاجرون والأنصار ، فقال لابن عباس : اخرج إليهم فسلهم : عن ملأٍ منكم ومشورةٍ كان هذا الذي أصابني ؟ قال : فخرج ابن عباس ، فسألهم ، فقال القوم : لا والله ، ولَوَدِدْنَا أن الله زاد في عمره من أعمارنا[2].

هـذا الجبل الذي طلب المـوت وتمنَّى الشهادة خوفَ العجزِ عن الرَّعيَّة ، فقال : « اللهم كبرتْ سِنِّي ، وضعفت قوّتي ، وانتشرتْ رعيَّتي ، فاقبضني إليك غير مضيِّعٍ ولا مُفَرِّطٍ » . قالها لمَّا نفر من مِنى ، فما انسلخ ذو الحجة حتى طُعِنَ فمات .

جزى اللهُ خيرًا من إمامٍ وباركتْ ... يدُ اللهِ في ذاك الأديمِ المُمَزَّقِ
قضيتَ أُمُورًا ثم غادرتَ بعدها ... بَـوَائِقَ في أكمامهـا لم تُفَتَّـقِ
وكنتَ تَشُوبُ العَدْلَ بالبِرِّ والتُّقَى ... وكنتَ صَلِيبَ الدِّينِ غيرَ مُزَوَّقِ
فَمَنْ يَسْعَ أو يركبْ جَنَاحَيْ نَعَامَةٍ ... لِيُدْرِكَ ما قـدَّمتَ بالأمسِ يُسْبَقِ

ذو النُّورَيْن عثمان ، أميرُ البَرَرَة وقتيل الفَجَرَة :

العظيم الذي حَمَلَ مسئوليته في عزمٍ مجيد ورشيدٍ .. وحين لم يجد ما يحمي به مسئولياته سوى حياته ، جاد بها في سماحٍ منقطع النظير !!

---

(١) مناقب أمير المؤمنين صـ ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) طبقات ٣ / ٣٤١ ، ومناقب أمير المؤمنين صـ ٢١٦ .

وذات يومٍ ، وقد ضاقت الدنيا لصموده ، امتطتْ رُوحُه زورقَ الأبدِيَّة ، مُبحِرةً إلى ربِّها الودود المجيد ، فوق ثَبَجٍ من دمائه الغالية الزَّكيَّة .

عثمان المهاجر وأوَّل المهاجرين .. مهاجر الهجرتين .. بل المهاجر بقلبه ، وبروحه وبضميره ، حتى اللحظة التي لقي ربَّه صابرًا محتسبًا .

عثمان المعطاء ، والمموِّل الوحيد للأُمَّة الجديدة ، والدِّين الجديد ، وسلُوا جيش العُسْرة ... وسلوا بئر رومة ، واسمعوا دعاء النبي ﷺ له : « غفر الله لك يا عثمان ما أسررتَ وما أعلنت » .

يقوم عثمان بتجهيز جيش العُسرة كلِّه ، حتى لم يتركه بحاجةٍ إلى خِطام أو عِقال . قال ابن شهاب : « قدَّم عثمان لجيش العُسرة في غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيرًا وستين فرسًا ، أتمَّ بها الألف » .. إنه عثمان المهاجر من ماله ومن جاهه .. إنه البذْل السَّخيّ والعطاء المِدْرار .

عثمان الزاهد الأوَّاب الرحيم :

قال شرحبيل بن حسنة : كان عثمان يُطعم الناس طعام الإمارة ، ويدخل بيته فيأكل الخلَّ والزيت .

وقال الحسن : رأيت عثمان بن عفان يَقِيل في المسجد وهو يومئذٍ خليفةٌ ، ويقوم وأثر الحصى بجَنْبِهِ ، فنقول : هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين[١] .

وقال عبد الله بن شدَّاد : « رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة وعليه ثوبٌ قيمته أربعة دراهم ، وإنه يومئذٍ لأمير المؤمنين !! » وهو أكثر قومه مالًا وثراءً ونعمةً في الجاهلية والإسلام .

---

(١) التبصرة ١ / ٤٣٠ .

إنه العابد الأوَّاب ، الذي أضْوَى شهوة الطعام لَدَيْهِ حتى « بَشِمَتْ » بالصيام ، ومن أيّ النواحي جئتَهُ ، أَلْفَيْتَ جلال العابد يَبْهَر مُحَيَّاك .

يغضب على خادمٍ له يومًا ، فيَعْرُك أُذُنَه حتى يُوجعه .. ثم سرعان ما يدعو خادمَهُ ، ويأمره أن يقتصَّ منه فيعرك أذنَهُ .. ويأبى الخادم ، ويأمره عثمان في حزمٍ ، فيُطيع : « اشدُدْ يا غلام ، فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة » .

إنه عثمان الذي يقرأ القرآن في ركعةٍ ، وفيه نزل قولُ الله تبارك وتعالى : ﴿ **أمَّن هو قانتٌ آناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربِّه** ... ﴾ الآية [الزمر : ٩] . عبادة صافية مُثابِرة ، أُتْرِعت وازدانت بها حياةُ عثمان منذ عرف الله إلى أن لَقِيَهُ شهيدًا مجيدًا .

عثمان الرحيم الذي تشيع الرحمة في حياته ، وتكون نبراسًا لكلِّ تصرُّفاته العادية ، والتي يتوقَّف عليها أمر الحياة والموت .. كانت الرحمة نبراس هاتيك التَّصرُّفات جميعها .

عثمان الخليفة الطاعن في السِّنّ ، الذي يرفض أن يُوقظ أحدًا من خَدَمِه كي يُعِدّ له وضوءه ، ويتحامل على شيخوخته المجهدة في إحضار الماء وإسباغ الوضوء .

ولما اشتدَّ حصار الثُّوّار لداره ، قال للصحابة الذين تجمَّعُوا حول داره ليُواجهوا الثُّوَّار بالسلاح : « إن أعظمكم عني غَنَاءً ، رجلٌ كفَّ يده وسلاحه !! » .

ويقول لأبي هريرة وقد جاء شاهرًا سلاحه مُدافعًا عنه : « أما إنك والله لو قتلتَ رجلًا واحدًا ، لكأنَّما قتلتَ الناس جميعًا » .

ويقول للحسن والحسين وابن عمر وعبد الله بن الزبير ، وشباب الصحابة الذين أخذوا مكانهم لحراسته : « أُناشدُكم الله وأسألكم به ، ألّا تُراق بسببي مِحْجَمَة دمٍ » .

قال ابن عمر : جاء عليٌّ إلى عثمان يوم الدار ، وقد أغلق الباب ومعه الحسن بن عليّ وعليه سلاحه ، فقال للحسن : ادخُل إلى أمير المؤمنين ، وأقرئه السلام ، وقُل له : إنما جئتُ لنُصرتك ، فمُرْني بأمرك . فدخل الحسن ثم خرج ، فقال لأبيه : إن أمير المؤمنين يُقرئك السلام ، ويقول لك : لا حاجة لي في قتالٍ وإهراق الدماء . قال : فنزع عليٌّ عمامةً سوداءَ فرمى بها بين يدي الباب ، وَجَعَلَ يُنادي : ﴿ **ذلك ليعلم أني لم أَخُنْهُ بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين** ﴾[1]. [يوسف : ٥٢] .

لله دَرُّكَ يا عثمان .. رحمةٌ جامعة تغطِّي بعطائها المقسط جلائل الأحداث وصغارها ، فللخادم منها حظُّه وحقُّه في أن ينعم براحة النوم ، وإن أضنى الخليفةُ نَفْسَه وشيخوخته في ظُلمة الليل البهيم ... ولقطراتِ الدَّم حظُّها وحقُّها في أن تنعم بالسلام والعافية ، وإن كان بديل ذلك أن تَزْهَق رُوحُ الخليفة الشيخ بيدِ مُعتدٍ أثيم ، وَغَادِرٍ زنيم .. توغَّلتِ الرحمةُ في حياته وفي سلوكه ، حتى اقتضتْهُ آخر الأمر حياتَهُ نَفْسها ، فجاد بها .

ولقد كان من الطبيعيّ لرجلٍ وسعتْ رحمتُه الناس جميعًا ، أن تغطِّي رحمتُه ذوي قُرباه ؛ قال علي رضي الله عنه : « أوْصَلُنا للرَّحِم عثمان » . لقد كان عثمانُ في ذلك نَسِيجَ وَحْدِهِ .

*	*	*

---

(١) التبصرة ١ / ٤٣١ .

الفتوح في عهد عثمان كماءٍ منهمر :

لله دَرُّ الخليفة الكهل ، الذي بلغ السابعة والسبعين من عمره ، يوم يُفكِّر ويُقَدِّر ويُخطِّط ، ويعزم ويحزم ، وكأنما قد حلَّ داخل إهابه شبابُ التاريخ !!

هذا الخليفة العظيم الكهل ، الذي يَبْهَر بِمَضَاءِ عزمه ، حتى يجهِّز الجيوش للبحر ، وركبَ جنودُه ثَبَج البحر مِثْل الملوك على الأسِرَّة في غزو قبرص ، وفي غزوة ذات الصَّواري ...

وسارتْ جيوشُ الخليفة تحت راياتها المنتصرة إلى كل مكان :

فمعاوية يُوغِل في بلاد الروم حتى يقرع أبواب « القسطنطينية » ذاتها . وإلى فارس ، وكرمان ، وسجستان ، ومرو ، يزحف ابنُ عامر ، والأحنفُ بن قيس ، والأقرع بن حابس . ومُهِّدت الأرض لزحف المسلمين ، حتى بلغوا السودان والحبشة في الجنوب ، والهند والصين في المشرق . وخلال عهده رضي الله عنه بلغتِ الفتوحاتُ أبعدَ الآماد ، وأَرْحَبَ الآفاق .

عثمان رضي الله عنه يجمع المسلمين على مصحفٍ واحد :

وأدرك عثمان رضي الله عنه الأُمَّة قبل أن تختلف في كتابها ، كما اختلف الذين من قبلهم في كتبهم ، وجمع الأُمَّةَ على مصحفٍ واحدٍ جامعٍ ، يلتقي المسلمون حول آياته المباركات عبر القرون تلو القرون .

هكذا أعطى عثمان عزمه الرشيد لمسئولياته الجسام .. وملأ بصدْقه وباقتداره وبإقدامه فراغًا كان يمكن أن يتحوَّل إلى هوَّةٍ فاغرةٍ ، تشدّ إلى قيعانها الغائرة البعيدة ، كثيرًا من مُقدَّرات الدِّين ومصاير المسلمين .



إن أرادك المنافقون على خَلْع قميصك ، فلا تَخْلَعْه حتى تلقاني :

وَمَنْ للعظائم غيرُ العظيم .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عثمان ، إن الله مُقَمِّصُك قميصًا ، فإن أرادك المنافقون على خَلْعِهِ ، فلا تَخْلَعْهُ حتى تلقاني »(1) .

لله دَرُّه في محنته .. محنةٌ هبطتْ بها شراسةُ المُتآمرين إلى السَّفْح ، وارتفع بها تسامُحُ الخليفة إلى القمَّة .

قال رسول الله ﷺ : « إذا مشتْ أُمَّتي المُطَيْطَاء ، وَخَدَمَهَا أبناءُ الملوك ؛ أبناء فارس والروم ، سُلِّطَ شرارُها على خيارها »(2) .

مؤامرة يتولَّاها ويُعدُّ لها النّاقمون على الإسلام كله : الدِّين والدولة والأُمَّة .

لقد سيطر على رُوع الخليفة واجب - وهو يرى المدَّ المتآمر - بدا له - يومئذٍ - أنه أهمّ الواجبات وأقدسها ؛ ذلكم هو « المحافظة الكاملة على هيبة الدولة وسلطانها » . فهذه الفتنة المخرِّبة ، والتَّمرُّد الآبِق ، يهدفان إلى هدْم كيانها ودحْر قِيَمِهَا ، واعتصامُ الدولة بكبريائها وسلطانها ، يُصبح واجبها الأول ومسئوليتها المقدسة . لقد وعى خليفتُنا عهدَ رسول الله إليه ببصرٍ ثاقبٍ ، وَحَمَلَ مسئوليته بعزمٍ مجيدٍ .

---

(1) صحيح : أخرجه أحمد والترمذي ، وابن ماجه والحاكم ، وابن حبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٩٤٧ .

(2) صحيح : أخرجه الترمذي عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٠١ .

من شاء أن يُبصر علوّ الهمَّة في الاستمساك ، في أجلّ وأرْوَعِ وأبهى صُوَرِه ، لا للفوضى ، حتى ولو كان فيها قَتْلُه : تُواتيه فرصة قتال الثُّوّار وقتْلهم ، فيرفضها .

ومع هذا ، حين أخرج الثُّوّار ورقتهم الأخيرة ، ورفعوا عقائرهم في جُرأةٍ ضاريةٍ : « إمّا اعتزال عثمان ، وإمّا قَتْلُه » . في ثباتٍ مُذْهِلٍ يرفض الخليفة أن يعتزل .

أيمكن لرجلٍ جاوز الثمانين ، أن يستبدّ به طموحُ المنصب ومجدُه وجاهُه ، والأخطار والمهالك على هذا النحو المُزلزِل الرهيب .

لقد رفض عثمان أن يعتزل ؛ لأنه « رجل مسئوليات » من طرازٍ فريد .

وهذا الخلق كان مخبوءًا تحت ستار تواضُعه وحيائه ، وما كُنّا سنراه متألِّقًا كالشمس في رائعة النهار ، إلَّا في أزمةٍ كهذه .. ومحنةٍ كهذه .. وموقفٍ كهذا الموقف الزاخر العظيم . أفيرضخ ويُسلِّم مصاير الإسلام ، وكرامة الدولة ، لعصابةٍ مفتونة ؟ لا ، وألف لا .

قال له ابن عمر : « لا تَسُنّ هذه السُّنّة في الإسلام ، ولا تخلع قميصًا ألبسكه الله » .

منعوه زُوَّارَهُ ، ومنعوه الماء .. الذي تتفجَّر به بئر رومة التي اشتراها من خالص ماله وأهداها للمسلمين .

سبحان الله ! ما أعلى هذه الهمة ... صبر على حقن الدماء ولو سالت دماؤه ... وحفاظ على هيبة الدولة ولو ذُبح .

حاصروه أربعين يومًا ، وعنده في الدار من المهاجرين والأنصار قريبٌ من سبعمائة ، وخَلْقٌ من مواليه ، ولو تَرَكَهُم لَمَنَعُوه ، فقال لهم : أُقسِم

على مَن لي عليه حقّ ، أن يَكُفَّ يده ، وأن ينطلق إلى منزله . وقال لرقيقه : مَنْ أَغْمَدَ سيفَهُ فهو حُرّ .

عن نافع عن ابن عمر ، أن عثمان رضي الله عنه أصبح يحدِّث الناس ، قال : رأيت النبي ﷺ في المنام فقال : « يا عثمان ، أفطِرْ عندنا » . فأصبح صائمًا وقُتل من يومه[1].

واستسلم عثمان لأمر الله رجاءَ موعوده ، وشوقًا إلى رسوله ﷺ ، ليكون خيرَ ابْنَيْ آدم : ﴿ **إني أُريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين** ﴾ . [المائدة : ٢٩] .

كان عثمان أكثر الناس يقينًا بصدْق رؤياه .. سينطلق في عُرسه العظيم إلى رحاب الله وجوار محمدٍ ﷺ ورحلة الخلود .

ولما أصابوا كَفَّهُ قال : « والله إنها لأول يدٍ خطَّتِ المُفصَّل وكتبتْ آيَ القرآنِ » .. وسال الدم على قوله تعالى : ﴿ **فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم** ﴾ . [البقرة : ١٣٧] .

لقد كان همُّه ألا تسقط راية الخلافة من يمينه .. وألا يلقى الله - حين يلقاه - وعلى يديه قطرةٌ واحدة من دماء مسلمة .

وحين تمدَّد جثمانُهُ الطّهور ، كان كتاب الله لصيقَهُ وصديقَهُ .. ومَنْ أولى بذلك منه ؟! وهو الذي وحَّده ، وحفظه وافتداه .

ضَحَّوْا بأَشْمَطَ عنوانُ السجودِ به يُقَطِّعُ الليلَ تسبيحًا وقرآنًا

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٧ / ١٩٠ .

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه :

إن حياة أبي السِّبطيْن وأبي تراب عليٍّ بن أبي طالبٍ ، تتفجَّر عظمةً وجلالًا وإعجازًا ، فمن عظمة نفسه وعلوّ همَّته ، تنداح رحابٌ ليس لها أبعاد ، تتلألأ عليها بطولاتٌ وتضحيات ، عظائمُ وأمجاد ، تكاد تحسبها – لولا صِدْق التاريخ – أحلامًا وأساطير .. مسلم عظيم ، يفجّرُ الدنيا من حواليه ذمَّةً ، واستقامةً ، وطُهرًا ، وذُرًا سامقة وغاياتٍ بعيدة . عظمة لن تكُفَّ عن توكيد ذاتها ما دام صاحبها حيًّا ، يُمارس العظائم ، ويصوغ المَكْرمَات .

يقول ضرار بن ضمرة الكناني في وصف عليٍّ : « كان بعيدَ المَدَى ، شديد القُوَى ... يقول فَصْلا ، ويحكُم عدلًا ... يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ... كان غزير الدمعة ، طويل الفِكرة ، يقلِّب كَفَّيْهِ ويُخاطب نفسه ، يُعجبه من اللباس ما خشُن ، ومن الطعام ما جشب .. لا يطمع القويُّ في باطله ، ولا ييأس الضعيفُ من عدله .. وأشهد ، لقد رأيتُه في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليلُ سُدُولَه ، وغارتْ نجومُه ، وقد مَثَل في محرابه ، قابضًا على لحيته ، يتململ تململُ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، فكأني أسمعه وهو يقول : يا دنيا ، يا دنيا ، إليَّ تعرَّضتِ ، أم إليّ تشوَّقْتِ ؟ هٰيهات هٰيهات غُرِّي غيري ، قد أَبَنْتُكِ ثلاثًا لا رجعة فيها !! فعمرُكِ قصير ، وعيشُكِ حقير ، وخَطَرُكِ كبير ، آهٍ من قلة الزّاد وبُعد السفر ، ووحشة الطريق » .

كان رضي الله عنه يُخرج كلَّ ما كان في بيت المال لمستحِقِّيه ، حتى إذا فرغ بيت المال ، يأمر الإمامُ أن تُنضح أرضُه ويُغسَل بالماء ، حتى إذا تمَّ ذلك ، قام فصلَّى فوق أرضه المغسولة ركعتين !!

كانت هذه الصلاة في بيت المال ، بعد أن نضح أرضه بالماء ، رمزًا

لمعنًى جليل ، كان إيذانًا بعهدٍ جديدٍ ، تُسيطر فيه الآخرة على الدنيا ، ويستردّ الورع والتُّقَى نفوذهما على الدولة ، وعلى المجتمع ، وعلى الأنفس والأفئدة جميعًا .

دُعِيَ لينزل قصر الإمارة .. قصر كبير ترتفع هامتُه في شموخٍ وفتنة .. فلا يكاد يُبصره حتى يولِّي مدبرًا وهو يقول : « قصر الخَبَال هذا ، لا أسكنه أبدًا » .

ويرتدي جلبابًا اشتراه من السوق بثلاثة دراهم ، ويركب حمارًا ويقول : « دَعُوني أُهِن الدنيا » .

« خطب رضي الله عنه الناس فقال : أيها الناس ، والله الذي لا إلٰه إلا هو ، ما زريتُ من مالكم قليلًا ولا كثيرًا ، إلَّا هذه . وأخرج قارورةً من كُمِّ قميصه فيها طيب ، فقال : أهداها إليَّ الدُّهْقان . ثم أتى بيت المال فقال : خذوا . وأنشأ يقول :

أفْلَحَ مَنْ كَانَتْ له قَوْصَرَهْ[1] يأكُلُ منها كلَّ يومٍ تمرهْ

لله دَرُّه وهو يقول : « أأقنع من نفسي بأن يُقال : أمير المؤمنين ، ثم لا أشارك المؤمنين في مَكَارِهِ الزمان ؟! والله لو شئتُ لكان لي من صفْو هذا العسل ، ولباب هذا البُرِّ ، ومناعم هذه الثياب ، ولكنْ هيهات أن يغلبني الهوى ، فأبيت مِبطانًا وحولي بطونٌ غَرْثَى وأكبادٌ حرَّى » .

فعليٌّ رضي الله عنه مقيمٌ لم يرحل .

يجد عصرنا هذا في نهجه وحُكمه أستاذًا ومعلِّمًا وهاديًا .. يعلِّم الحُكّام في كلِّ جيلٍ وعصرٍ أن الولاء للحقّ يعني رَفْض إغراء الدنيا ، ورفض

---

(١) وعاء من قصب يُجعل فيه التمر .

غرور السلطان .

قال الإمام أحمد بن حنبل : إن عليًّا ما زانَتْهُ الخلافةُ ، ولكنْ هو زانَها .

ما زانه المُلْكُ إذ حواه　　　بل كلُّ شيءٍ به يُزانْ
جرى ففاتَ الملوكَ سَبْقًا　　　فليس قُدّامَهُ عَنّانْ
نالتْ يَداهُ ذُرا مَعالٍ　　　يعجِزُ عن مِثْلِها العِيانْ

رضي الله عن أبي ترابٍ :

ولم يَرَ إلَّا الكدَّ راحةَ نَفْسِهِ　　　وَنَيْل المُنى يُنسي الفتى تَعَبَ الكَدِّ
إذا لاحَظَ الغاياتِ عادتْ فريسةً　　　مقيَّدةً من ناظِرِ الأسدِ الوَرْدِ

رضي الله عنه :

ما باتَ إلَّا على هَمٍّ ولا اغْتَمَضَتْ　　　عيناهُ إلَّا على عَزْمٍ وإزْماعِ
يذوقُ بالعينِ طَعْمَ النَّوْمِ مضمضةً　　　إذا الجبانُ ملا عينًا بِتَهْجَاعِ

منازل عُلا في الزهد يُحلِّق فيها البطل الزاهد الأوَّاب ، لقد كانت هوايته الكبرى : إهانة الدنيا وإذلال مغرياتها الهائلة ؛ بأن يرفع في وجهها يدًا لا تهتزُّ ولا تختلِج ، تقول لتلك المغريات : لا .

قال سفيان الثوريُّ : ما بنى عليٌّ لَبِنَةً ، ولا قَصَبَةً على لبنةٍ ، وإن كان لَيُؤتى بحبوبه من المدينة في جِرابٍ .

وعن مجمع بن سمعان التيمي قال : خرج علي بن أبي طالب بسيفه إلى السوق ، فقال : من يشتري مني سيفي هذا ؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشتري بها إزارًا ، ما بِعْتُه .

وكان - رضي الله عنه - معه دِرَّةٌ له ، يمشي بها في الأسواق ،

ويأمر الناس بتقوى الله وحُسن البيع ، ويقول : أوفُوا الكيْل والميزان . ويقول : لا تنفخوا اللحم .

وخرج ذات يومٍ وعليه بُرْدان ، مُتَّزِرٌ بأحدهما ، مُرْتَدٍ بالآخر قد أرخى جانب إزاره ورفع جانبًا ، وقال : إنما ألبس هذيْن الثوبيْن ليكونا أبعد لي من الزَّهْو ، وخيرًا لي في صلاتي ، وسُنَّة للمؤمن .

قال عمر بن عبد العزيز : أزهدُ الناس في الدنيا عليٌّ بن أبي طالب .

وقال الحسن : رَحِمَ اللهُ عليًّا ، إن عليًّا كان سهمًا لله صائبًا في أعدائه ، وكان في مَحَلَّةِ العلم أشرفها وأقربها إلى رسول الله ﷺ ، وكان رَهْبانيّ هذه الأُمَّة ، لم يكن لمال الله بالسَّرُوقَة ، ولا في أمر الله بالنُّوَمَة ، أعطى القرآن عزائِمَهُ وعملَهُ وعِلْمَهُ ، فكان منه في رياضٍ مُونِقَةٍ ، وأعلامٍ بيِّنة ، ذاك عليّ بن أبي طالب .

علوّ همَّةِ عليٍّ - رضي الله عنه - للمُتَأَوِّلين والمارقين من الخوارج :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : كُنَّا جلوسًا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج علينا من بعض بيوت نسائه . قال : فقُمنا معه ، فانقطعت نعلُه ، فتخلَّف عليها عليٌّ يخصفها . فمضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومضيْنا معه ، ثم قام ينتظره وقمنا معه ، فقال : « إن منكم من يُقاتل على تأويل هذا القرآن ، كما قاتلت على تنزيله » . فاستشرفْنا ، وفينا أبو بكر وعمر ، فقال : « لا ، ولكنَّه خاصِف النَّعْل » . قال : فجئنا نبشِّره . قال : وكأنَّه قد سَمِعَهُ[١] .

وقال علي رضي الله عنه في الخوارج : « لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم

---

(١) حديث حسن : رواه أحمد في المسند .

ما قُضي لهم على لسان نبيِّهم صلى الله عليه وآله وسلم ، لاتَّكَلُوا عن العمل » . رواه مسلم .

وقال فيهم علي رضي الله عنه : « فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتْلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة » . رواه البخاري .

الحسن بن عليّ ، السَّيِّد الذي أصلح اللهُ به بين طائفتيْن :

الحسن بن علي رضي الله عنه : سِبْط النبي ﷺ ، وريحانتُهُ ، وآخِر الخلفاءِ بنصِّه ﷺ .

أخرج البخاري عن أبي بكرة قال : سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنْبه ، ينظر إلى الناس مرَّة وإليه مرَّة ، ويقول : « إن ابني هذا سَيِّدٌ ، ولعلَّ الله أن يُصلح به بين فئتيْن من المسلمين » .

خرج - رضي الله عنه - عن ماله لله مرَّتيْن ، وقاسم الله ماله ثلاث مرّات ، حتى إنه كان يُعطي نعلًا ويُمسِك نعلًا ، ويُعطي خُفًّا ويُمسك خُفًّا .

وروى الحاكم بسنده ، عن جبير بن نفير قال : قلتُ للحسن : إن الناس يقولون : أنَّك تريد الخلافة . فقال : قد كان جماجم العرب في يدي يُحاربون مَنْ حاربتُ ، ويُسالمون من سالمتُ ، فتركتُها ابتغاءَ وجهِ الله وحقْن دماءِ أُمّةِ محمدٍ ﷺ ، ثم ابتزَّها بأتياس أهل الحجاز .

رضي الله عن ذلكم السيد الذي يتنازل عن الخلافة لحقْن دماء المسلمين ... وهذه والله همَّةٌ تتقاصرُ دونها الهمَم .

لمَّا مات رضي الله عنه ، بكى مروان في جنازته ، فقال له الحسين : أتبكيه وقد كنت تُجرِّعه ما تجرِّعه ؟ فقال : إني كنت أفعل ذلك إلى أحْلَمَ

من هذا . وأشار بيده إلى الجبل .

أمير المؤمنين ملكُ الإسلام معاوية بن أبي سفيان ، أعْدَل الملوك وأحْلَمُهم ، خالُ المؤمنين وكاتب وحي ربِّ العالمين :

قال الذهبي في السير (٣ / ١٥٩) : ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عَدْلُهم على ظُلمهم ، وما هو ببريءٍ من الهنات ، والله يعفو عنه .

قال أبو إسحاق السَّبيعي : كان معاوية ، وما رأينا بعده مِثْله .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : ما رأيت أحدًا بعد عثمان أقْضَى بحقٍّ من صاحب هذا الباب ؛ يعني معاوية .

قال المدائني : كان عمر إذا نظر إلى معاوية ، قال : هذا كسرى العرب .

قال رضي الله عنه على المنبر : « لقد أردتُ نفسي على عمل أبي بكرٍ وعمر ، فلم أجِدْها تقوم بذلك ، ووجدتُها عن عمل عمر أشدَّ نفورًا ، وحاولتها على مِثْل سُنَيّات عثمان ، فأبتْ عليّ ، وأين مثل هؤلاء ؟! هيهات أن يُدْرَك فضلُهم ... فإن لم تجدوني خَيْرَكم ، فأنا خيرٌ لكم ، والله لا أحمل السيف على مَنْ لا سيف له » .

وقال رضي الله عنه : « إني لستُ بِخَيْرِكم ، وإن فيكم مَنْ هو خيرٌ مني : ابن عمر ، وعبد الله بن عمرو وغيرهما ، ولكنّي عسيتُ أن أكون أنكاكم في عدوِّكم ، وأنْعَمكم لكم ولايةً ، وأحْسَنكم خُلُقًا » .

قال ابن عمر : ما رأيتُ أحدًا أسْوَدَ من معاوية .

وقال ابن عباس : ما رأيتُ رجلًا كان أخْلَقَ للمُلْك من معاوية ، كان الناس يَرِدُون منه على أرجاءِ وادٍ رَحْبٍ ، لم يكن بالضَّيِّق العُصْعُص[1]

(١) أي الصعب الأخلاق .

المتغصِّب . يعني ابن الزبير .

وقال كعب بن مالك : لن يملك أحدٌ هذه الأُمَّة ما مَلَكَ معاوية .

ولله دَرُّه وعلوّ همَّته في التَّحلِّي بمكارم الأخلاق ، وكان حلمه يُضرب به المَثَل .

عن قبيصة بن جابر قال : صحبتُ معاوية ، فما رأيتُ رجُلًا أثْقَلَ حِلمًا ، ولا أبْطأَ جهلًا ، ولا أبْعَدَ أناةً منه .

قال رحمه الله : « إني لأرفع نَفْسي أن يكون ذنبٌ أوْزَنَ من حِلْمي » .

لله دَرُّكَ ، ورضي الله عنك .

قال ابن عون : كان الرجل يقول لمعاوية : والله لتستقيمنَّ بنا يا معاوية ، أوْ لنُقَوِّمَنَّك ، فيقول : بماذا ؟ فيقولون : بالخُشُب[1]. فيقول : إذن أستقيم .

قال عروة : أخبرني المسور بن مخرمة أنه وَفَدَ على معاوية ، فقضى حاجته ، ثم خلا به ، فقال : يا مِسْوَر ، ما فعل طَعْنُك على الأئمة ؟ قال : دَعْنا من هذا ، وأحْسِن . قال : لا ، والله لَتُكَلِّمني بذات نَفْسِك بالذي تعيب عليَّ . قال مسور : فلم أترُك شيئًا أعِيبُهُ عليه إلا بيَّنتُ له . فقال : لا أبرأ من الذنب ، فهل تعدُّ لنا يا مسور ما نَلِي من الإصلاح في أمر العامَّة ، فإن الحسنة بعشرِ أمثالها ، أم تعدّ الذنوب ، وتترك الإحسان ؟! قال : ما تُذكر إلا الذنوب . قال معاوية : فإنا نعترف لله بكل ذنبٍ أذنبناه ، فهل لك يا مسور ذنوبٌ في خاصَّتك تخشى أن تُهْلِكَك إن لم تُغفر ؟ قال :

---

(١) ابن عساكر ١٦ / ٣٦٨ / ب . والخُشُب جمع خَشيب : وهو السيف الصقيل .

نعم . قال : فما يجعلك لله برجاء المغفرة أحقّ منّي ، فوالله ما ألي من الإصلاح أكْثَر ممَّا تلي ، ولكنْ والله ، لا أُخيَّر بين أمريْن ؛ بين الله وبين غيره ، إلا اخترتُ الله على ما سواه ، وإني لعلى دينٍ يُقبل فيه العمل ، ويُجزى فيه بالحسنات ، ويُجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها . قال : فخَصَمَني . قال عروة : فلم أسمع المِسْور ذَكَرَ معاوية ، إلَّا صلَّى عليه[1] .

قال رضي الله عنه : « رَحِمَ الله مَنْ دعا لي بالعافية ، فوالله لئن عتبَ عليَّ بعضُ خاصَّتكم ، لقد كنت حَدِبًا على عامَّتكم » .

ولما احْتُضِرَ رحمه الله ، قال : « اللهم أَقِلِ العَثْرَة ، واعْفُ عن الزَّلَّة ، وتجاوز بحِلْمِك عن جَهْل من لم يَرْجُ غَيْرَك ، فما وراءك مذهبٌ » .

ولقد بلغ معاويةُ الغاية من الحِلْم ، وعَلَتْ به همَّتُه في هذا الخُلُق ، فقد خاطر رجلٌ رجلًا أن يقوم إلى معاوية إذا سجد ، فيضع يَدَهُ على كَفَلِهِ ويقول : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، ما أشْبَهَ عجيزتَك بعجيزة أُمِّك هند . فَفَعَلَ ذلك ، فلمَّا انْفَتَلَ معاويةُ عن صلاته قال : لا يا ابن أخي ، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أمْيَل ، فَخُذ ما جعلوا لك . فأخَذَهُ[2] .

رضي الله عن معاوية ، قال فيه أبو الجهم العدوي :

ونُغضِبُه لنَخْبُرَ حالَتَيْهِ فَنُخْبَرَ منهما كرمًا ولِينَا
نمِيلُ على جوانبه كأنَّا نَمِيلُ إذا نَمِيلُ على أبِينَا

قال رحمه الله ورضي عنه : إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أنَّ بيني وبين الناس شعرةً ،

---

(١) رجاله ثقات . وهو في المصنف (٢٠٧١٧) ، وتاريخ بغداد ١ / ٢٠٨ .
(٢) العقد الفريد ١ / ٥٣ .

ما انقطعت أبدًا . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : كنتُ إذا مدُّوها أرخَيْتُها ، وإذا أرْخَوْها مَدَدْتُهَا[(١)] .

ولله ما أحْلَى كلمته في كراهته للظُّلم : « إني لأستحي أن أظْلِمَ مَنْ لا يجد عليَّ ناصرًا إلا الله »[(٢)] .

وقال رضي الله عنه : إني لأستحيي أن يكون ذنبٌ أعْظَمَ من عَفْوي ، أو جهلٌ أكْبَر من حِلْمي ، أو أن تكون عورةٌ لا أُواريها بستْري .

وقال رضي الله عنه : ما يسرُّني بذلِّ الكَرَم حُمْر النَّعَم . وقال : ما يسرني بذُلِّ الحِلْمِ عزّ النصر . وقال : لا يبلغ الرجل مبلغ الرَّأْي حتى يغلب حِلْمُه جهلَهُ ، وصبرُه شهوتَهُ .

وقال فيه عبد الله بن الزبير : « لله دَرُّ ابن هندٍ ، إن كُنّا لَنُفْرِقه وما اللَّيثُ على براثنه بأجرأ منه ، فيتفارق لنا ، وإن كُنَّا لَنخْدَعُه ، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدْهَى منه ، فيتخادع لنا ، والله لَوددتُ أنَّا مُتِّعنا به ما دام في هذا الجبل حَجَر »[(٣)] .

قال سعيد بن عبد العزيز : لَمَّا قُتل عثمان ، لم يكن للناس غازيةٌ تغزو ، حتى كان عام الجماعة فأغْزَى معاوية أرض الروم ست عشرة غزوة ، تذهب سريَّةٌ في الصيف ويُشَتُّوا بأرض الروم ، ثم تَقْفِل[(٤)] وتُعقبها أُخرى ، وكان في جملة مَن أغزى ابنُهُ يزيد ، ومعه خلْق من الصحابة ،

---

(١) العقد الفريد ١ / ٢٥ .
(٢) العقد الفريد ١ / ٣١ .
(٣) البداية والنهاية ٨ / ١٣٨ - ١٣٩ .
(٤) ترجع .

فجاز بهم الخليج ، وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها ، ثم قفل بهم راجعًا إلى الشام ، وكان آخر ما أوصى به معاوية أن قال : شدّ خِناق الروم .

قد كان عليٌّ أقْرَب إلى الحقِّ من معاوية .. قال أبو زرعة لرجلٍ قال له : إني أبغض معاوية لأنه قاتل عليًّا ، فقال له أبو زرعة : « ويحك ! إن ربَّ معاوية رحيم ، وخَصْم معاوية خصمٌ كريم ، فأيش دخولك بينهما ؟! رضي الله عنهما » . قال تعالى : ﴿ **تلك أُمَّةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عمَّا كانوا يعملون** ﴾ . [البقرة : ١٣٤] .

الوليد بن عبد الملك ، فُتِحت الفتوحاتُ العظيمة في عهده كأيَّام عمر بن الخطاب :

قال السيوطي : « أقام الجهادَ في أيامه ، وفُتحت في خلافته فتوحات عظيمة ، وكان مع ذلك يختن الأيتام ، ويُرتِّب لهم المؤدِّبين ، ويرتّب للزَّمْنَى مَنْ يخدمهم ، وللأضِرَّاء من يقودهم ، ورزق الفقهاء والضعفاء والفقراء ، وحرَّم عليهم سؤال الناس ، وفَرَضَ لهم ما يكفيهم ، وضبطَ الأُمورَ أتمَّ ضَبْطٍ .

قال ابن أبي عبلة : رحم الله الوليد ، وأين مثل الوليد ؟! افتتح الهند والأندلس ، وكان يُعطيني النفقة [قصاع الفضة] أُقسِّمها على قُرَّاء مسجد بيت المقدس » .

فُتحت في عهده سنة ٨٧هـ : بيكند ، وبُخارى ، وسردانية ، ومطمورة ، وقميقم ، وبحيرة الفرسان عنوة .

وفي سنة ٨٨هـ فُتحت جرثومة وطوانة . وفي ٨٩هـ فُتحت جزيرتا منورقة وميورقة . وفي ٩١هـ : نسف وكش وشومان ومدائن دهون من أذربيجان . وفي ٩٢هـ فتح إقليم الأندلس بأسره ، ومدينة أرماييل وقتربون .

وفي سنة ٩٣هـ فُتحت الديبل وغيرها ، ثم الكرخ وبرهم ، وباجة والبيضاء وخوارزم وسمرقند والصغد . وفي سنة ٩٤ : كابل وفرغانة والشاش . وفي سنة ٩٥ : الموقان ومدينة الباب . وفي سنة ٩٦ : طوس .

قال الذهبي : أقام الجهاد في أيامه ، وفُتحت الفتوحات العظيمة كأيام عمر بن الخطاب[1].

قال إبراهيم بن أبي عبلة : قال لي الوليد بن عبد الملك يومًا : في كم تختم القرآن ؟ قلت : في كذا وكذا . فقال : أمير المؤمنين على شُغله ، يختمه في كلِّ ثلاثٍ . قال : وكان يقرأ في شهر رمضان سبع عشرة ختمة .

قال رحمه الله : لولا أن الله ذَكَرَ قوم لوطٍ في القرآن ، ما ظننتُ أن ذَكَرًا يفعل هذا بذكرٍ .

قال ابن كثير : « كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم ، بنى المساجدَ بدمشق ، ووضع المنائر ، وأعطى الناس ، وأعطى المجذومين ، وقال لهم : لا تسألوا الناس . وأعطى كلَّ مقعدٍ خادمًا ، وكُلَّ ضريرٍ قائدًا ، وَفَتَحَ في ولايته فتوحاتٍ كثيرة عظامًا ، وكان يُرسل بنيه في كلِّ غزوةٍ إلى بلاد الروم ، ففتح الهند والسند والأندلس وأقاليم بلاد العجم حتى دخلت جيوشه إلى الصين ، وكان مع هذا يمرُّ بالبقال ، فيأخذ حزمة البقْل بيده ويقول : بكم تبيع هذه ؟ فيقول : بفلس . فيقول : زِدْ فيها فإنك تربح . وكان يبرُّ حَمَلَة القرآن ، ويكرمهم ، ويقضي عنهم ديونهم . قالوا : وكانت همَّة الوليد في البناء ، وكان الناس كذلك ، يلقى الرَّجُلُ الرجلَ فيقول : ماذا بنيتَ ؟ ماذا عمَّرتَ ؟ وكانت همَّة أخيه سليمان

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٢٣ - ٢٢٥ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة .

في النساء ، وكان الناس كذلك ، يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول : كم تزوَّجت ؟ ماذا عندك من السَّرارِي ؟ وكانت همَّة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن ، وفي الصلاة والعبادة ، وكان الناس كذلك ، يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول : كم وِرْدُك ؟ كم تقرأ كلَّ يومٍ ؟ ماذا صلَّيْت البارحَةَ ؟ والناس يقولون : الناس على دين مليكهم »[1].

أنا أحبّ أن أُجَنَّ في الله :

ومن محاسن الوليد بناؤه المسجد الأموي بدمشق ، ولم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه ولا أجمل .

واستعمل الوليد في بناء هذا المسجد خلْقًا كثيرًا من المهندسين والصُّنّاع والفَعَلَة ، وبعث الوليد إلى ملك الروم يطلب منه صُنّاعًا في الرخام وغير ذلك ؛ ليستعين بهم على عمارة هذا المسجد على ما يريد ، وأرسل يتوعَّده لئن لم يفعل ليَغْزُوَنَّ بلادَهُ بالجيوش ، وليخربنَّ كلَّ كنيسةٍ في بلاده ، وكان موضع المسجد مما فتحه المسلمون عنوةً ، وقد بُنِيت على جزءٍ منه كنيسةٌ ، والجزء الآخر كان مسجدًا ، وتأذَّى الوليد من وجود النواقيس بجوار الأذان ، فأرسل إليهم عِوَضًا عن الكنيسة الأموالَ ، فأبى النصارى ، ولمَّا مسحوا الأرض التي فُتحت عَنْوَةً ، وجدوا أن الكنيسة من هذه الأرض ، فلم يتركها لهم ، وأمر الوليد بإحضار آلات الهدْم ، وجاء إليه الأساقفة والقساوسة فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنا نجد في كُتُبنا : أنَّ مَنْ يهدم هذه الكنيسة يُجَنّ . فقال الوليد : أنا أحب أن أُجَنّ في الله ، ووالله لا يهدمُ فيها أحدٌ شيئًا قبلي . ثم صَعِدَ المنارة الشرقية ذات الأضالع المعروفة بالساعات ، وكانت صومعة هائلة فيها راهب عندهم ، فأمره الوليد بالنزول منها ، فأكْبَرَ الراهبُ ذلك ،

(١) البداية والنهاية ٩ / ١٧١ - ١٧٢ .

فأخذ الوليد بقفاه ، فلم يزل يدفعه حتى أنزله منها ، ثم صَعِدَ الوليد على أعلى مكان في الكنيسة ، فوق المذبح الأكبر منها ، الذي يسمُّونه الشاهد ، وهو تمثال في أعلى الكنيسة ، فقال له الرُّهبان : احذر الشاهد . فقال : أنا أوَّل ما أضع فأسي في رأس الشاهد . ثم كَبَّر وضَرَبَهُ فهدَمَهُ ، وتبادر الأمراء إلى الهدْم ، وكبَّر المسلمون ثلاث تكبيراتٍ ، وصرخت النصارى بالعويل . ثم شرع في بناء المسجد . وأرسل إليه ملكُ الروم مائتي صانع ، وكتبَ إليه : إن كان أبوك فهم هذا الذي تصنعُهُ وَتَرَكَهُ ، فإنه لَوصْمَةٌ عليك ، وإن لم يكن فَهِمَهُ وفهمتَ أنت ، لوصمةٌ عليه . فردَّ عليه الفرزدق :

فرَّقتَ بين النصارى في كنائسهم ... والعابدين مع الأسحار والعَتَمِ
وهم جميعًا إذا صلَّوْا وأوْجُهُهُم ... شَتَّى إذا سجدوا للهِ والصَّنَمِ
وكيف يجتمع الناقوس يضربُهُ ... أهلُ الصليبِ مع القُرّاء لم تَنَمِ
فهمتَ تحويلها عنهم كما فَهِمَا ... إذ يحكُمان[1] لهم في الحَرْثِ والغَنَمِ
فهَّمكَ اللهُ تحويلًا لِبِيْعَتِهِم ... عن مسجدٍ فيه يُتلى طيِّبُ الكَلِمِ

ولمَّا قال الناسُ : أنْفَقَ أميرُ المؤمنين بيوتَ الأموال في غير حقِّها . نودي في الناس : الصلاة جامعة . وقال : إنه بلغني عنكم أنكم قُلتم : أنفقَ الوليدُ بيوت الأموال في غير حقِّها . ثم قال : يا عمرو بن مهاجر ، قُمْ فأحضر أموال بيت المال . فَحُمِلَتْ على البغال إلى الجامع ، ثم بُسط لها الأنطاع تحت قبَّة النّسر ، ثم أُفرغ عليها المال ذهبًا صبيبًا ، وفضة خالصة حتى صارت كومًا ، حتى كان الرجل إذا قام من الجانب الواحد لا يرى الرجُلَ من الجانبِ الآخر ، وهذا شيءٌ كثير ، ثم جِيءَ بالقبَّانين ، فوُزِنَتِ الأموال ، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة - وفي رواية : ست

---

(١) أي داود وسليمان عليهما السلام .

عشرة سنة مستقبلة - لو لم يدخُل للناس شيءٌ بالكليَّة ، فقال لهم الوليد : والله ما أنفقتُ في عمارة هذا المسجد درهمًا من بيوت المال ، وإنما هذا كلُّه من مالي ، لم أرْزَأْكُم من أموالكم شيئًا(١) .

سليمان بن عبد الملك ، افتتح خلافته بإحياء الصلاة لمواقيتها ، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز :

قال عنه الذهبي في « السير » (٥ / ١١١ - ١١٢) : « كان ديِّنًا فصيحًا مفوَّهًا عادلًا محبًّا للغزو . وكان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز ، وَعَـزَلَ عُمَّال الحجّاج ، وكتب : إن الصلاة كانت قد أُميتت ، فأَحْيُوها بوقتها .

وعن ابن سيرين قال : يرحم الله سليمان ، افتتح خلافتَهُ بإحياء الصلاة ، واختتمها باستخلافه عمر .

وكان سليمان ينهى الناس عن الغناء » . رَحِمَ الله سليمانَ الخير .

وقال أيضًا في (٥ / ١٢٥) : « قد كان سليمان بن عبد الملك من أمْثَلِ الخلفاء ، نشرَ علم الجهاد ، وجهَّز مائة ألف برًّا وبحرًا ، فنازلوا القسطنطينية ، واشتدّ القتال والحصار عليها » .

وقال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » : « كان من خيار ملوك بني أُمية ، وكان مُؤْثِرًا للعدْل محبًّا للغزو » .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٩١/٩) : « كان فصيحًا بليغًا ، يُحسن العربية ، ويرجع إلى دينٍ وخير ومحبَّة للحقِّ وأهله ، واتِّباع القرآن والسُّنة ، وإظهار الشرائع الإسلامية ، رحمه الله . وقد كان آلى على

---

(١) البداية والنهاية ١٥٥/٩ - ١٥٦ .

نَفْسِهِ حين خرج من دمشق إلى مرج دابق ، لمَّا جهَّز الجيوش إلى مدينة الروم العُظمى المسمَّاة بالقسطنطينية ، أن لا يرجع إلى دمشق حتى يفتح أو يموت ، فمات هنالك فحصل له بهذه النِّيَّة أجْرُ الرّباط في سبيل الله ، فهو إن شاء الله ممَّن يُجرى له ثوابه إلى يوم القيامة ، رحمه الله »(١).

هارون الرشيد ، الخليفة المُفْتَرَى عليه : سَلُوا عنه « نقفور » كَلْبَ الروم :

هارون الرشيد أمير المؤمنين « كان من أنبل الخلفاء وأحْشَم الملوك ، ذا حجٍّ وجهاد وغزوٍ ، وشجاعةٍ وَرَأْيٍ »(٢).

« لما أفضتْ إليه الخلافة في سنة سبعين ، كان من أحسن الناس سيرةً ، وأكثرهم غزوًا وحجًّا ، ولهذا قال فيه أبو السعلي :

فمـن يطلُبْ لقـاءَك أو يُرِدْهُ ... فبالحَرَمَيْنِ أو أقصى الثُّغُـورِ
ففـي أرضِ العـدوّ على طِمِرٍّ ... وفي أرضِ التَّرَفُّهِ فوق كُورِ(٣)
وما حـازَ الثُّغُورَ سـواك خَلْقٌ ... مـن المتخلِّفـين عـلى الأُمـورِ

وكان يتصدَّق من صُلب ماله كلَّ يومٍ بألف درهم ، وإذا حجَّ أَحَجَّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يَحُجّ أَحَجَّ ثلاثمائة بالنفقة السَّابغة والكسوة التامَّة .

وكان يصلِّي في كلّ يومٍ مائة ركعة تطوُّعًا إلى أن فارق الدنيا ، إلا أن تعرض له علَّةٌ »(٤).

---

(١) سنختم هذا الفصل بمسك الختام ، بعلوّ همَّة عمر بن عبد العزيز .
(٢) سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٨٧ .
(٣) الطِّمِرّ : الفَرَس الجواد الشديد العَدْو . والكُور : الرَّحْل ، أو الرَّحْل بأداته .
(٤) البداية والنهاية ١٠ / ٢٢٢ - ٢٢٣ .

الرشيد يحب العلماء ويُعظِّم حرماتِ الدين ويبغض الجدال :

« كانت أيام الرشيد كلّها خيرًا ، كأنها من حُسْنِهَا أعراسٌ »[(١)].

كان رحمه الله يحبُّ العلماء ، ويعظِّم حرمات الدين ، ويبغض الجدال والكلام ، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه ، لا سيّما إذا وُعِظ .

بلغه عن بشر المريسي القوْل بخَلْق القرآن فقال : لَئِن ظفرتُ به ، لأضربنَّ عُنُقَهُ .

وَلَمَّا بَلَغَهُ موتُ ابن المبارك ، حزنَ عليه ، وجلس للعزاء ، فعزَّاه الأكابر .

قال أبو معاوية الضرير « محمد بن حازم » : ما ذكرتُ النبي ﷺ بين يَدَي الرشيد ، إلَّا قال : صلى الله على سيِّدي . ورويتُ له حديثه : « وددت أني أُقاتل في سبيل الله ، فأُقْتَل ، ثُمَّ أحيا ، ثم أُقْتَل »[(٢)] . فبكى حتى انتحب .

حدَّث أبو معاوية الرشيدَ بحديث : « احتجَّ آدمُ وموسى »[(٣)] وعنده رجل من وجوه قريش ، فقال القرشي : فأين لَقِيَهُ ؟ فغضب الرشيد وقال : النِّطْع والسيف ؛ زنديقٌ يطعن في الحديث . فما زال أبو معاوية يُسكِّنه ويقول : بادرةٌ منه يا أمير المؤمنين ؛ حتى سَكَنَ[(٤)].

وعند ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٠ / ٢٢٤) : « فقال عمُّ الرشيد : أين التقيا يا أبا معاوية ؟ فغضب الرشيد من ذلك غضبًا شديدًا وقال : أتعترض على الحديث ؟ عليَّ بالنِّطْع والسيف . فأُحضر ذلك ، فقام

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي صـ ٢٨٤ .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي من طريق أبي هريرة .

(٤) تاريخ بغداد ١٤ / ٧ - ٨ ، و« المعرفة والتاريخ » للفسوي ، والبداية والنهاية ، والسير ، وتاريخ الخلفاء .

الناس يشفعون فيه ، فقال الرشيد : هذه زندقةٌ . ثم أمر بسجنه ، وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرني مَنْ ألقى إليه هذا ، فأقْسَمَ عمُّه بالأيْمان المغلَّظة ؛ ما قال هذا له أحد ، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها . فأطْلَقَهُ » .

وقال بعضُهم : دخلتُ على الرشيد وبين يديه رجلٌ مضروب العنق ، والسَّيَّاف يمسح سيفَهُ في قفا الرجل المقتول ، فقال الرشيد : قتلْتُهُ ؛ لأنه قال : القرآن مخلوقٌ ، فقتلتُهُ على ذلك قُربةً إلى الله عز وجل .

وفي مرض موته ، حُمِل إليه الزنديق الثائر رافع بن الليث ، فقال الرشيد : « والله لو لم يَبْقَ من أجلي إلَّا أن أُحَرِّكَ شفتي بكلمةٍ ، لقلتُ : اقتلوه » . ثم دعا بقصَّاب ، فقال : « لا تَشْحَذ مُداك ، اتركها على حالها ، وفصِّل هذا الفاسق ابن الفاسق ، وعجِّل ، لا يحضُرنَّ أجلي وعضوان من أعضائه في جسمه » . ففصلت حتى جَعَلَهُ أشلاء ، فقال : « عُدَّ أعضاءه » . فعدُّوا له أعضاءَهُ ، فإذا هي أربعة عشر عضوًا ، فرفع يديه إلى السماء ، فقال : « اللهمَّ كما مكَّنتني من ثأرك وعدوِّك ، فبلغتُ فيه رضاك ، فمكِّنِّي من أخيه » . ثم أُغمي عليه وتفرَّق مَنْ حضره[1] .

وأخرج ابن عساكر قال : « أخذ هارونُ الرشيد زنديقًا ، فأمر بضرْب عنقه ، فقال له الزنديق : لم تضربُ عنقي ؟ قال له : أُريح العباد منك . قال : فأين أنت من ألِف حديثٍ وضعتُها على رسول الله ﷺ ، كلُّها ما فيها حرفٌ نَطَقَ به ؟ قال : فأين أنت يا عدوّ الله من أبي إسحاق الفزاري

---

(١) الرشيد القائد صـ ١٢٢ لبسام العسيلي - دار النفائس .

وعبد الله بن المبارك ، ينخُلانها فيُخرجانها حرفًا حرفًا »[١].

وعن أبي معاوية الضرير قال : صَبَّ على يديَّ بعد الأكْل شخصٌ لا أعرفه ، فقال الرشيد : تدري مَنْ يَصُبُّ عليك ؟ قلت : لا . قال : أنا ، إجلالًا للعِلْم .

وقد كان الفُضَيْل يعظ الرشيد ويُبَكّيه حتى يُغشى عليه ، وكان الرشيد يمشي إلى بيت الفُضيل ، وكان الفُضيل يُجِلّ الرشيد لشدَّته على أهل البِدَع والزندقة : « فعن عبد الرزاق قال : كنت مع الفضيل بمكة ، فمرَّ هارون ، فقال الفضيل : الناس يكرهون هذا ، وما في الأرض أعزّ عليَّ منه ، لو مات لرأيت أُمورًا عظامًا .

وقال عمار بن ليث الواسطي : سمعت الفضيل بن عياض يقول : ما من نفسٍ تموت ، أشدّ عليَّ موتًا من أمير المؤمنين هارون ، ولوددتُ أن الله زاد من عمري في عمره . قال : فكَبُرَ ذلك علينا ، فلمَّا مات هارون ، وظهرتِ الفِتَنُ ، وكان من المأمون ما حَمَلَ الناس على خلْق القرآن ، قُلنا : الشيخ كان أعْلَمَ بما تكلَّم »[٢].

هارون الرشيد البَكَّاء :

قال منصور بن عمَّار : ما رأيتُ أغْزَرَ دمعًا عند الذِّكْر من ثلاثة : الفُضَيْل بن عياض ، وهارون الرشيد ، وآخر[٣].

« دخل عليه مرَّةً ابنُ السَّمَّاك الواعظ ، فبالَغَ في إجلالِهِ فقال : تواضُعك

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي صـ ٢٨٥ .
(٢) تاريخ بغداد ١٤ / ٢٢ ، والسير ٩ / ٢٨٩ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي صـ ٢٨٥ .

في شَرَفِكَ ، أشرفُ من شرفِك . ثم وَعَظَهُ فأبكاه .

ووعظه الفُضَيْل مرَّةً حتى شهق في بكائه »[١].

قال أبو معاوية الضرير عن الرشيد : كان إذا سمع موعظةً ، بكى حتى يبلّ الثَّرى[٢].

وكم من مرَّاتٍ ومرَّاتٍ يعظه العمريُّ والبهلول المجنون حتى يُغشى عليه .

« وروى ابن عساكر قال : قال إبراهيم المهدي : كنت يومًا عند الرشيد ، فدعا طبَّاخَهُ فقال : أعندك في الطعام لحم جَزُورٍ ؟ قال : نعم ، ألوان منه . فقال : أحضِرْهُ مع الطعام . فلمَّا وُضِع بين يديه ، أخَذَ لقمةً منه فوضعها في فيه ، فضحك جعفرٌ البرمكيُّ ، فترك الرشيد مَضْغَ اللقمة ، وسأل البرمكيَّ عن سرِّ ضحكه فقال : يا أمير المؤمنين ، بكم تقول : إن هذا الطعام من لحم الجزُور يقوَّم عليك ؟ قال : بأربعة دراهم . قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، بل بأربعمائة ألف درهم . قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنك طلبت من طبّاخك لحم جَزُورٍ قبل هذا اليوم بمدَّةٍ طويلة ، فلم يُوجَد عنده ، فقلت : لا يخلُونَّ المطبخ من لحم جزُورٍ ، فنحن ننحر كلَّ يومٍ جزورًا لأجْلِ مطبخ أمير المؤمنين ؛ لأنّا لا نشتري من السوق لحم جزورٍ ، فصُرِفَ في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم ، ولم يطلُب أمير المؤمنين لحم جزورٍ إلَّا هذا اليوم . قال : فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك : هذه اللقمة ، فهي على أمير المؤمنين

(١) السِّير ٩ / ٢٨٧ .
(٢) البداية والنهاية ١٠ / ٢٢٣ .

بأربعمائة ألف . قال : فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا ، وأمر برفْع السِّماط من بين يديه ، وأقْبَلَ على نفسه يوبِّخها ويقول : هلكت والله يا هارون . ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذِّنون بصلاة الظهر ، فخرج فصلَّى بالناس ثم رجع يبكي ، حتى آذَنَهُ المؤذِّنون بصلاة العصر ، وقد أمَرَ بألفَيْ ألفٍ تُصرَف إلى فقراء الحرمين : في كلِّ حرمٍ ألف ألف صدقة ، وأمر بألفَيْ ألفٍ يُتصدَّق بها في جانبَيْ بغداد الغربي والشرقي ، وبألفَيْ ألفٍ يتصدَّق بها على فقراء الكوفة والبصرة . ثم خرج إلى صلاة العصر ، ثم رجع يبكي حتى صلَّى المغرب ، ثم رجع ، فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال : ما شأنك يا أمير المؤمنين باكيًا في هذا اليوم ؟ فذكر أمْرَهُ ، وما صَرَفَ من المال الجزيل لأجل شهوته ، وإنما ناله منها لقمة . فقال أبو يوسف لجعفر : هل كان ما تذبحونه من الجُزُر يفسد ، أو يأكله الناس ؟ قال : بل يأكله الناس . فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفتَهُ من المال الذي أكَلَه المسلمون في الأيام الماضية ، وبما يسَّره الله عليك من الصَّدَقة ، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم ، وقد قال تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربِّه جنتان** ﴾ . [الرحمٰن : ٤٦] . فأمر الرشيد له بأربعمائة ألف ، ثم استدعى بطعامٍ ، فكان غذاؤه في هذا اليوم عشاءً »[١] .

هـذا هو الخليفة المُفْـتَرَى عليه .. الخليفة البكَّاء الذي يدخل عليه أبو العتاهية فيقول له :

لا تأمَنِ الموتَ في طَرْفٍ ولا نَفَس ولوْ تمنَّعْتَ بالحُجَّاب والحَـرَسِ
ترجو النجاةَ و لم تسلُكْ مسالكَهَا إن السَّفينةَ لا تجري على اليَبَسِ

فخرَّ الرشيد مغشيًّا.........................

(١) البداية والنهاية ١٠ / ٢٢٤ - ٢٢٥ .

عليـه[1].

وقد حبس الرشيد مرَّةً أبا العتاهية ، وأرْصَدَ عليه مَنْ يأتيه بما يقول ، فكتب مرةً على جدار الحبس :

أَمَـا واللهِ إن الظُّـلْمَ شُـومُ ... وما زال المسـيءُ هـو الظَّلُـومُ
إلى ديَّـانِ يومِ الدِّينِ نمضـي ... وعنـد اللهِ تجتمعُ الخُصُـومُ

قال : فاستدعاه واستعجلَهُ في حلٍّ ، ووهبَهُ ألف دينارٍ وأطلقَهُ .

ودخل عليه سفيان بن عيينة ، فقال له الرشيد : ما خَبَرُكَ ؟ فقال :

بعـينِ اللهِ ما تُخفـي البيـوتُ ... فقـد طـال التَّحمُّـلُ والسُّكـوتُ

فقال : يا فلان ، مائة ألفٍ لابن عيينة تُغنيه وتُغني عَقِبَهُ ، ولا تضرُّ الرشيد شيئًا .

هذا هو الرشيد ... أعطى أبا بكر بن عيّاش ستة آلافِ درهمٍ .

هذا هو الرشيد : « بينا هو في طريق الحجِّ ، يمرُّ على وادٍ فإذا امرأةٌ بين يديها قصعةٌ ، وهي تسأل وتقول :

مَـنْ رَآني فقـد رآني وَرَحْـلي ... فارحمـوا غُـربتي وذُلَّ مقـامي

فأمر مسرورًا الخادم أن يملأ قصعتها ذهبًا »[2].

جوادٌ يسابق الريح في كرمه ، وشديد البأس ؛ إذا أعْطَى أغْنَى ، وإذا حاربَ أفْنَى .

* * *

(١) البداية والنهاية ١٠ / ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٢) البداية والنهاية ١٠ / ٢٢٧ .

الرشيد يقضي على البرامكة وأتباعهم الزنادقة :

لَمَّا وجد الزنادقةُ والملحدون في مظلَّةِ البرامكة حمايةً لهم ، كان هذا عاملًا أساسيا وحاسمًا في قتْل الرشيد للبرامكة ونَكْبَتهم ، وتتبُّع الزنادقة ومطاردتهم في خراسان وفي أقاليم المشرق .. إنه الغضب لله .. فللَّه دَرُّهُ .

كان أنس بن أبي شيخ أحد أصحاب البرامكة ، وكان الرشيد قد علم أنه على الزندقة ، فلمَّا كان صُبْح الليلة التي قُتل فيها جعفر بن يحيى ، أَحْضَرَهُ الرشيد ، فدار بينهما حديثٌ ، تأكَّد فيه الرشيد من زندقة أنس بن أبي شيخ ، فأخرج سيفًا من تحت فراشه ، وأمر أن تُضرب به عنقُه ، وتمثَّل الرشيد عندما أخرج السيف لقتْل أنسٍ :

تَلَمَّظَ السيفُ من شوقٍ إلى أنسٍ فالسيفُ يَلْحَظُ والأقدارُ تنتظرُ

فضَرَبَ عنقَهُ ، فسَبَقَ السيف الدَّم ، فقال الرشيد : « رحم الله عبدَ الله ابن مصعب » . وكان هو الذي أعْلَمَ الرشيدَ بزندقةِ أنسٍ ، وكان السيف الذي أخْرَجَهُ الرشيد هو سيف الزبير بن العوام[1] .

هارون يفتدي أسرى المسلمين ولا يُبقي منهم أسيرًا واحدًا :

نظَّم الرشيد أوَّل عملية فِداءٍ بين الروم والمسلمين سنة ١٨١هـ ، ففُودي بكلِّ أسيرٍ في بلاد الروم ، وكان عدَّة الأسرى ثلاثة آلاف وسبعمائة .

ثم أُعيدت عمليّة الفداء ثانيةً سنة ١٩٢هـ بين المسلمين والروم ، وكان عدَّةُ الأسرى من المسلمين ألفين وخمسمائة أسير : فكانت عملية الفداء الأُولى ثم الثانية هما أُولَى عمليّات الفداء أيام بني العبّاس ، وَنَجَمَ عن عمليّة الفداء أنه لم يَبْقَ مسلمٌ أسيرٌ في بلاد الروم .. فللَّه دَرُّ الرشيد .

---

(١) الرشيد القائد صـ ٩٩ - ١٠٠ ، تاريخ الطبري ٨ / ٢٩٦ - ٢٩٧ .

وفُكَّتْ بك الأسرى التي شُيِّدَتْ لها　　مجالسُ ما فيها حميمٌ يزورها
على حين أعْيَا المسلمين فِكاكُها　　وقالوا سجونُ المسلمين قبورُها(١)

فتح حصن الصَّفْصَاف عَنْوَةً سنة ١٨١هـ :

حاولَ ملكُ الروم قسطنطين بن ليون تحدِّي سلطان المسلمين ، فسار إليه الرشيدُ بنفسه ، وقاد جيشًا قويًّا انتصر به على الروم ، وافتتح (حِصْن الصَّفْصاف) عَنوةً ، ودمَّره مع حاميته .

ثم وجَّه الرشيدُ مجموعةً قتاليَّةً بقيادة عبد الملك بن صالح ، فأوْغَلَ في بلاد الروم حتى بلغَ أنقرة ، وافتتح مطمورة ، وعاد الرشيد ظافرًا .

إن أمــير المؤمنــين المصطفــى　　قد تَرَكَ الصَّفْصَافَ قاعًا صَفْصَفَا

هارون يقول لنقفور : « الجواب ما تراهُ دُونَ ما تسمعُ » ويفتح هرقلة :

لمَّا انتصر الرشيد على ملك الروم ، ثار الرومُ على ملكهم قسطنطين ، وسَمَلُوا عينيْه ، ونصبوا مكانه أُمَّه « ريني » – أو : « رينيه » – ومنحوها لقب « أوغسطه » ، غير أن هذه كانت أعْجَزَ من أن تتصدَّى للرشيد ، فقرَّرَتْ مصالحة الرشيد على جزيةٍ معلومة تُؤدِّيها له في كلِّ سنةٍ ، وغضب الرومُ ، واتَّهموا ملكتهم بالضَّعف ، وثاروا ضدَّها وعزلوها ، ونصبوا مكانها ملكًا اسمـه « نقفـور » ، فلمَّا مَلَك ، ودان له الروم بالطاعـة ، كتب إلى الرشيد : (من نقفور ملك الروم ، إلى هارون ملك العرب . أمَّا بعدُ ، فإن الملكة التي كانت قبلي ، أقامتْك مقام الرَّخِّ ، وأقامت نفسها مقام البَيْدَق ، فحملتْ إليك من أموالها ما كنتَ حقيقًا بحمْلِ أمثالها إليها ، ولكنَّ ذاك ضعفُ النساء وحُمْقُهنّ ، فإذا قرأتَ كتابي ، فارْدُدْ ما حَصَلَ قِبَلَكَ من أموالها ،

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥ / ١٢٢ ، والرشيد القائد صـ ٣٣ – ٣٤ .

وافْتَد نَفْسَكَ بما يقع به المصادرةُ لك ، وإلّا فالسيفُ بيننا وبينك) . ولمَّا قرأ الرشيدُ الكتابَ ، استفزَّه الغضب ، حتى لم يُمكِّن أحدًا أن ينظر إليه دون أن يخاطبه ، واستعجَمَ الرَّأْيُ على الوزير ، ودعا الرشيد بدواةٍ ، وكتب على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمٰن الرحيم . من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأتُ كتابَكَ يا ابنَ الكافرةِ ، والجوابُ ما تراه دُونَ أن تسمَعَهُ . والسلام »[1]. وَشَخَصَ الرشيدُ من يومه ، وسار حتى نزل باب هِرَقْلَةَ ، فَفَتَحَ وَغَنَمَ ، واصطفى وأفاد ، وخرب وحرق ، فطلب نقفور الموادعةَ على خراجٍ يُؤدِّيه في كلِّ سنةٍ ، فأجابَهُ إلى ذلك ، فلمَّا رجعَ من غزوته وصار بالرَّقَّة ، نَقَضَ نقفور العهدَ ، وحان الميثاق ، وكان البرد شديدًا ، فيَئِسَ نقفور من رجْعته إليه ، وجاء الخبر بارتداده عمَّا أُخذ عليه ، فلمَّا علم الرشيد بذلك كرَّ راجِعًا في أشدِّ محنةٍ وأعْظَمِ كُلْفَةٍ ، وبثَّ الجيوش والسرايا بأرض الروم ، وكان جيش الرشيد يضمُّ مائة ألفٍ وخمسةً وثلاثين ألف مُرْتَزِقٍ ، سوى الأتباع ، وسوى المطوّعة ، وسوى مَنْ لا ديوانَ له . وأنزل عبد الله بن مالك لحصار « ذي الكلاع » ، ووجّه قوةً من سبعين ألفًا بقيادة « داود بن عيسى » بمهمَّة اجتياح بلاد الروم ، وتدمير كلِّ ما تُصادفه ، وافتتَح شراحبيل بن معن بن زائدة حصنَ الصقالبة ودبسة ، وافتتح يزيد بن مخلد الصّفصافَ ومطقوبية ، وأقام الرشيد على هرقلة ثلاثين يومًا حتى أمكن له فَتْحُها ، فسَبَى أهلَها ، ودمَّر حصونها . وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه ووليِّ عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار ، منها عن رأسه أربعة دنانير ، وعن رأس ابنه (إستبراق) دينارين ، وعاد الرشيد بجيشه الظافر إلى بغداد .

---

(١) الكامل لابن الأثير : أحداث سنة ١٨٧هـ . وتاريخ الطبري : أحداث سنة ١٨٧ ، ١٩٠هـ .

وكان الرشيد قد اشترط على نقفور ألا يَعْمُرَ هرقلةَ ، وعلى أن يحمل نقفور ثلاثمائة ألف دينار .

ألا نادتْ هِـرَقْلَةُ بالخَـرَابِ — من المَلِكِ الموفَّقِ بالصَّـوابِ
غـدا هارونُ يَرْعَـدُ بالمنايا — ويَبْرُقُ بالمُذَكَّـرَة القَضَـابِ
وراياتٍ يحـلُّ النصـرُ فيها — تمـرُّ كأنَّهـا قِطَعُ السَّحـابِ

لله دَرُّكَ يا هارون .

كفاكَ كَفٌّ ما تليقُ دِرْهما — جُودًا وأُخرى تُعطي بالسيفِ الدَّمَا

لله دَرُّكَ يا هارون :

ملكٌ مجرَّدُ للجهادِ بِنَفْسِهِ — فَعَـدُوُّهُ أبدًا به مقهـورُ
نَقَضَ الذي أعطيتَهُ نقفُورُ — وعليـه دائرةُ البـوارِ تَدُورُ
أعطاك جِزْيَتَهُ وَطَأْطَأَ خَدَّهُ — حَذَرَ الصّوارِمِ والرَّدَى مَحْذُورُ

لله دَرُّكَ يا هارون ، وما أَعْظَمَ أَيَّامَك وفتوحاتِك .

في سنة ١٨٨هـ غزا إبراهيم بن إسرائيل الصائفة ، فدخَل بلاد الروم ، فخرج نقفور للقائه ، فجُرح النقفور ثلاث جراحٍ ، وانهزم ، وقُتل من أصحابه أكثر من أربعين ألفا ، وغنموا أكثر من أربعة آلاف دابَّة .

وفي سنة ١٩١هـ ألزمَ الرشيد أهلَ الذِّمَّة بتمييز لباسهم وهيئاتهم في بغداد وغيرها من البلاد .

وأرسل حميد بن معيوف إلى سواحل الشام ومصر ، فدخل جزيرة قبرص ، فَسَبَى أهلها ، وَحَمَلَهم حتى باعهم بالرافقة ، فبلغ ثمن الأسقف ألفي دينار ، باعهم أبو البختريّ القاضي . فللَّه دَرُّكَ يا هارون ، لقد كنتَ منارةً للهمَّة الرفيعة .

« قال القاضي الفاضل في بعض رسائله : ما أعلمُ أن لملكٍ رحلةً

قطُّ في طلب العلم إلَّا للرشيد ، فإنه رحل بولديْه : الأمين والمأمون لسماع الموطَّأ على مالكٍ رحمه الله . قال : وكان أصل الموطّأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين . قال : ثم رحل لسماعه السلطانُ صلاح الدين بن أيّوب إلى الإسكندرية ، فسمَّعه علي بن طاهر بن عوف ، ولا أعلم لهما ثالثًا »[1].

قال ابن حـزم : أُراه كان يشـرب النبيذ المختَلَف فيه ، لا الخمر المتَّفَق على حُرمتها[2].

ومن العجَائب أن هذا الملك الذي مَلَكَ الدنيا كان له ولدٌ يُسمَّى أحمد السّبتي ؛ أحمد بن هارون « كان زاهدًا عابدًا قد تنسَّك ، وكان لا يأكل إلَّا من عَمَل يده في الطين ، كان يعمل فاعلًا فيه ، وليس يملك إلَّا مروًا وزنبيلًا - أي مجرفة وقُفَّة - وكان يعمل في كلِّ جمعةٍ بدرهمٍ ودانقٍ ، يتقوَّتُ بهما من الجمعة إلى الجمعة ، وكان لا يعمل إلَّا في يوم السبت فقط ، ثم يُقبل على العبادة بقيَّة أيام الجمعة ، وكان من امرأةٍ كان الرشيد قد أحبَّها فتزوَّجها فحملتْ منه بهذا الغلام ، ثم إن الرشيد أرسلها إلى البصرة وأعطاها خاتمًا من ياقوتٍ أحمر ، وأشياء نفيسة ، وأمرها إذا أفضتْ إليه الخلافةُ ، أن تأتِيَهُ ، فلمَّا صارتِ الخلافة إليه ، لم تأْتِهِ ولا ولدُها ، بل اختفيا ، وبلغَهُ أنهما ماتا ، ولم يكُن الأمر كذلك ، وفحص عنهما فلم يطَّلِع لهما على خبرٍ ، فكان هذا الشاب يعمل بيده ويأْكُل من كدِّها ، ثم رجع إلى بغداد ، وكان يعمل في الطين ويأْكُل ، هذا وهو ابن أمير

(١) تاريخ الخلفاء صـ ٢٩٤ للسيوطي - تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة .

(٢) السير ٩ / ٢٩٠ .

المؤمنين ، ولا يذكر للناس مَنْ هو ، إلى أن اتَّفق مرضُهُ في دارِ مَنْ كان يستعمله في الطين ، فمرض عنده ، فلمَّا احْتُضِر ، أخرج الخاتمَ وقال لصاحب المنزل : اذهب بهذا إلى الرشيد ، وقُل له : صاحب هذا الخاتم يقول لك : إياك أن تموت في سكرتك هذه ، فتندم حيث لا ينفع نادمًا ندمُهُ ، واحذر انصرافك من بين يدي الله إلى الدارين ، وأن يكون آخر العهد بك ، فإن ما أنت فيه لو دامَ لغيرك لم يصل إليك ، وسيصير إلى غيرك ، وقد بَلَغَكَ أخبار مَنْ مضى »(١) .

ولما أخبر الرجلُ الرشيدَ بعد أن وصل إليه بكلام أحمد « قام فَضَرَبَ بِنَفْسِهِ الأرض ، وجعل يتمرَّغ ويتقلَّب ظهرًا لبطنٍ ويقول : والله لقد نصحتني يا بُنَيَّ » . ثم بكى ووقف على قبره ، فلم يزل يبكي حتى أصبح ، ثم أمر لذلك الرجل بعشرة آلاف درهم ، وكتب له ولعياله رزقًا .

ثم تملأُ مسامعَ الأرضِ شَدْوًا ... دولةُ العِزِّ والعُلا العامراتُ
مِنْبَرٌ في سماءِ بغدادَ يعلو ... بالأماجيدِ دُونَهُ مُرْهَفَاتُ
قِفْ بِبَغْدَادَ وَهْيَ فوقَ الرَّوابِي ... تَخْتَلِسُ فوقَ رَوْضِهَا الوطئاتُ
ذاك هارونُ قِفْ وَحَيِّ مَلِيًّا ... هو عِقْدٌ تَزْهُو به حلقاتُ
زَلْزَلَ الرُّومَ بالهزائِمِ حتى ... زهدُوا من جواريِهِ حيث باتوا
مُشْرَئِبًّا إلى انتصارٍ جديدٍ ... والعوالي في نَصْرِهِ مُعْلَناتُ
كُلَّما أَمَّ وِجهةً بِخَمِيسٍ ... رحَّبتْ كي يزورهُنَّ جِهاتُ
قد تحدَّى الغَمامَ في الجوِّ يسعى ... ظنَّ أن البعيرَ عنه فَواتُ
قالوا هوِّنْ فسوف تنزلُ فينا ... فلنا البحرُ والفَضَا والفَلَاةُ
دَوْحَةَ العزِّ قد سَقَتْكِ الغَوَادِي ... فوق أوراقِكِ الدُّمَى هامِعاتُ

---

(١) البداية والنهاية ١٠ / ١٩١ .

فَلَكَـمْ قـد جَنَـاكِ دينٌ ودنيا حيث طـابتْ أبناؤها والبنـاتُ
يا قصيدَ الإسلامِ ردِّدْ لُحُونًا تتغـنَّى بِلَحْنِهَـا الأبيـاتُ

الخليفة المعتصم : فاتح عمورية :

قال السيوطي : كان المعتصم ذا شجاعةٍ وقوَّةٍ وهمَّةٍ .

وقال الذهبي : كان المعتصم من أعظم الخلفاء وأهيبهم ، لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بِخَلْق القرآن .

أمَا سمعتَ بأرض الرُّومَ مسلمةً تشكو « لمعتصمٍ » ظُلْمَ المُغيرينَا
فتسبِقُ الخيلُ أصواتَ استغاثتها وتملأُ الكونَ صيحاتُ المُلَبِّينَا
وتصـرخُ اليـومَ آلافٌ مُؤَلَّفَـةٌ فهل سمعتَ سوى أحزانِ باكينَا
ونحن نسمعُ أصواتَ استغاثَتِهَا وليس نسمِعُهَـا إلَّا أغانينَـا
« خُضْرٌ مَرَابِعُنَا بِيضٌ صنائِعُنَا سُودٌ وقائِعُنَا حُمْرٌ مواضِينَا »
وَيَسْبَحُ الطُّهْرُ - طُهْرُ البِكْرِ - في دَمِهِ ونحنُ نسبحُ في أحلامِ ماضِينَا

في سنة ٢٢٣هـ أوقع ملكُ الروم توفيل بن مخائيل بأهـل ملطية من المسلمين وما والاها ملحمةً عظيمةً ، قتل فيها خَلْقًا كثيرًا من المسلمين ، وأسَرَ ما لا يحصون كثرةً ، ومثَّل بِمَنْ وَقَعَ في أسْرِهِ من المسلمين ، فقطع آذانهم وأُنوفهم وَسَمَلَ أعيُنَهم ، قبَّحه الله ، وكان جملة مَنْ أَسَرَ ألف امرأةٍ من المسلمات .

فلمَّا سمع بذلك المعتصمُ ، انزعج لذلك جدًّا ، وصرخ في قصره بالنَّفير ، ثم نهض من فوره ، وأمَرَ بتعبئة الجيوش ، واستدعى القاضيَ والشُّهود ، فأشهدهم أن ما يملكه من الضِّياع : ثُلُثُه صَدَقَةٌ ، وثلثه لِوَلَدِهِ ، وثلثه لمواليه . وقال للأمراء : أيّي بلادِ الرومِ أَمْنَعُ ؟ قالوا : عمورية ، لم يعرِض لها أحدٌ مذ كان الإسلام ، وهي أشرفُ عندهم من القسطنطينية . فاستدعى الجيوش

بين يديه ، وتجهَّز جهازًا لم يجهِّزه أحدٌ كان قبْلَهُ من الخلفاء ، وأَخَذَ معه من آلات الحرب والأحمال والجِمال والقِرَب والدَّوابِّ والنِّفْط والخيل والبغال ، شيئًا لم يُسمع بمثله ، وسار إلى عمورية في جحافل أمثال الجبال ، فأنكاهم نكايةً عظيمةً لم يُسمع بمثلها لخليفةٍ ، وقتل منهم ثلاثين ألفًا وسَبَى مِثْلَهم .

رُبَّ وامُعْتَصِمَـــاهُ انطلقـــتْ مِـلْءَ أفـواهِ الصَّبايـا اليُتَّـمِ
صادفـــتْ أسماعَهُـــمْ لكنَّهـــا لم تُصـادِفْ نخْـوةَ المُعْتَصِـمِ

عفا الله عن المعتصم .

عفا عنه ابنُ حنبلٍ يومَ فتْحه لعمورية .

قال السيوطي عن المعتصم : « لم يجتمع الملوك بباب أحدٍ قطُّ اجتماعَها بباب المعتصم ، ولا ظَفِرَ مَلِكٌ قطُّ كَظَفَرِهِ ؛ أَسَرَ مَلِكَ أذربيجان ، وملكَ طبرستان ، وملكَ استيسان وملكَ الشياصح ، وملكَ فرغانة ، وملك طخارستانَ ، وملك الصّفة ، وملكَ كابل » .

تحكـي أفاعيلَهُ في كـلِّ نائبـةٍ اللَّيْثُ والغَيْثُ والصَّمْصامَةُ الذَّكَرُ

المتوكِّل ونصْرُه للسُّنَّة :

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٠ / ٣٦٥ - ٣٦٦) : « كان المتوكّل مُحبَّبًا إلى رعيَّته ، قائمًا في نُصرة أهل السُّنَّة ، وقد شبَّهه بعضُهم بالصِّدِّيق في قتْله أهل الرِّدَّة ؛ لأنه نَصَرَ الحقَّ وردّه عليهم ، حتى رجعوا إلى الدين ، وبعمر بن عبد العزيز حين ردّ مظالم بني أُميَّة ، وقد أظهر السُّنَّةَ بعد البدعة ، وأخْمَدَ أهلَ البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتهارها ، فرحمه الله . وقد رآه بعضهم في المنام بعد موته وهو جالس في نورٍ ، قال : فقلت : المتوكِّل ؟ قال : المتوكِّل . قلتُ : فما فَعَلَ بِكَ رَبُّك ؟ قال : غَفَرَ

لي . قلت : بماذا ؟ قال : بقليلٍ من السُّنَّة أحييتُها » .

قال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » صـ ٣٤٦ : « أظْهَرَ الميلَ إلى السُّنَّة ، ونَصَرَ أهلها ، وَرَفَعَ المحنةَ ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، وذلك في سنة أربع وثلاثين ، واستقدم المحدِّثين إلى سامرّا ، وأجْزَلَ عطاياهم وأكرمهم ، وأمرهم أن يحدِّثوا بأحاديث الصِّفات والرُّؤْية ، وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في جامع الرّصافة ، فاجتمع إليه نحوٌ من ثلاثين ألف نفس ، وجلس أخوه عثمان في جامع المنصور ، فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألف نفس ، وتوفَّر دعاء الخلْق للمتوكِّل ، وبالغوا في الثناء عليه والتعظيم له ، حتى قال قائلُهم : الخلفاءُ ثلاثةٌ : أبو بكر - رضي الله عنه - في قَتْل أهـل الرِّدَّة ، وعمر بن عبد العزيز في ردِّ المظالم ، والمتوكِّل في إحياء السُّنَّة وإماتة التَّجهُّم » .

بعثَ رحمه الله إلى نائب مصر ، أن يحلق لحيةَ قاضي القضاة بمصر أبي بكر محمد بن أبي الليث ، وأن يضربه ، ويطوف به على حمارٍ ، ونِعْمَ ما فَعَلَ ؛ فإنه كان ظالمًا من رؤوس الجَهْمِيَّة .

قال أبو بكر بن الخبازة :

وبعدُ فإن السُّنَّةَ اليومَ أصبحتْ ... مُعَـزَّزَةً حـتى كأنْ لمْ تُـذَلَّلِ
تصُولُ وتسطُو إذْ أُقيمَ منارُها ... وحُطَّ منارُ الإفك والزُّورِ من عَلِ
وَوَلَّى أخو الإبداع في الدِّينِ هاربًا ... إلى النارِ يهوي مُدبرًا غَيْرَ مُقبلِ
شَفَى الله منهمْ بالخليفةِ جعفرٍ ... خليفتِـهِ ذي السُّـنَّةِ المتوكِّـلِ
وجامعِ شَمْلِ الدِّينِ بعدَ تشتُّتٍ ... وفاري رؤوس المارقين بِمُنْصُلِ
أطـالَ لنـا ربُّ العبـادِ بقـاءَهُ ... سليمًا من الأهوالِ غَيْرَ مبـدَّلِ
وبـوَّأهُ بالنصـرِ للدِّينِ جَنَّـةً ... يُجَاوِرُ في روضاتها خَيْرَ مُرْسَلِ[1]

---

(١) تاريخ الخلفاء صـ ٣٤٦ - ٣٤٧ .

قال الذهبي في « السير » (١٢ / ٣١ - ٣٤) : « قال خليفة بن خياط : استُخْلِفَ المتوكِّل ، فأظهر السُّنَّة ، وتكلَّم بها في مجلسه ، وكتب إلى الآفاق برفْع المحنة ، وبسْط السُّنَّة ونصْر أهلها » .

« وكان قاضي البصرة إبراهيم بن محمد التيمي يقول : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر يومَ الرِّدَّة ، وعمر بن عبد العزيز في ردِّ المظالم من بني أُميَّة ، والمتوكِّل في مَحْوِ البدع وإظهار السُّنَّة »[1].

وغضب المتوكِّلُ على أحمد بن أبي دُؤَاد ، وصادرَهُ ، وسجَنَ أصحابَهُ .

وقال يزيد بن محمد المهلبي : قال لي المتوكِّل : إن الخلفاء كانت تتصعَّب على الناس ليُطيعوهم ، وأنا ألين لهم ليُحبُّوني ويُطيعوني .

وفي سنة ٢٣٥هـ ألزم المتوكِّل النصارى بلُبْس العَسَليّ .

وفي الكامل لابن الأثير : « ألزَمَ النصارى بلُبْس الطَّيالسة العَسَليَّة ، وشدِّ الزَّنانير ، وركوب السُّروج بالرُّكُب الخَشَب ، وعَمَلِ كرتين في مؤخّر السُّروج »[2].

الخليفة المهتدي بأمر الله : من أحسن الخلفاء وَرَعًا وعبادة :

كان وَرِعًا صالحًا متعبِّدًا بطلًا شجاعًا ، قويًّا في أمر الله ، خليقًا للإمارة ، لكنَّه لم يَجِدْ مُعينًا ولا ناصرًا ، والوقتُ قابِلٌ للإدبار .

نَقَلَ الخطيبُ عن أبي موسى العباسي : أنه ما زالَ صائمًا منذ استُخْلِفَ إلى أن قُتل[3].

---

(١) فوات الوفيات ١ / ٢٩٠ ، والنجوم الزاهرة ٢ / ٣٧٥ .
(٢) الكامل ٧ / ٥٢ .
(٣) تاريخ بغداد ٣ / ٣٤٩ ، وتاريخ الخلفاء ٣٦١ .

وقال أبو العبّاس هاشمُ بن القاسم : كنتُ عند المهتدي عَشيَّةً في رمضان ، فقمتُ لأنصرف ، فقال : اجلسْ . فجلستُ ، فصلَّى بنا ، ودعا بالطعام ، فأحضر طَبَق خِلافٍ[١] عليه أرغفةٌ ، وآنيةً فيها ملحٌ وزيتٌ وَخَلٌّ ، فدعاني إلى الأكل ، فأكلتُ أكْلَ مَنْ ينتظر الطبيخَ . فقال : ألم تكُن صائمًا ؟ قلتُ : بلى . قال : فكُلْ واسْتَوْفِ ، فليس هنا غيرُ ما ترى ؟! فعجبتُ ، ثم قلتُ : ولِمَ يا أمير المؤمنين ، وقد أنعم اللهُ عليك ؟! قال : إني فَكَّرْتُ أنَّه كان في بني أُميَّة عُمر بن عبد العزيز ، فغِرْتُ على بني هاشمٍ ، وأخذتُ نفسي بما رأيتَ[٢] .

قال جعفر بن عبد الواحد : ذاكرتُ المهتديَ بشيءٍ ، فقلتُ له : كان أحمـدُ بن حنبل يقولُ به ، ولكنَّه كان يُخالفُ . كأنِّي أشرتُ إلى آبائه ، فقال : رَحِمَ الله أحمدَ بن حنبل ، لو جاز لي لَتَبَرَّأْتُ من أبي ، تَكَلَّمْ بالحقِّ وَقُلْ به ، فإنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالحقِّ ، فَيَنْبُلُ في عيني[٣] .

قال نِفطويه : أخْبَرَنا بعضُ الهاشميِّين أنه وُجِد للمهتدي صَفَطٌ فيه جُبَّةُ صوفٍ ، وكساء كان يلبسه في الليل ، ويُصَلِّي فيه ، وكان قد اطَّرح الملاهي ، وحرَّم الغناءَ ، وحَسَمَ أصحابَ السُّلطان عن الظُّلم ، وكان شديدَ الإشرافِ على أَمْرِ الدَّوَاوِين ، يجلسُ بِنَفْسِهِ ، ويُجْلِس بين يديْه الكُتَّابَ ، يعملون الحسـابَ ، وَيَلْزَمُ الجلوسَ يومي الخميس والاثنين ، وقد ضربَ جماعةً من الكِبارِ ، ونَفَى جعفرَ بن محمود إلى بغداد لِرَفْضٍ فيه .

ولمَّا دخل عليه موسى بن بغا وأصحابُه ليخلعوه ، خرج إليهم وهو

---

(١) صنف من الصَّفْصَاف ، ومن عيدانه تُصنع الأطباق .
(٢) تاريخ بغداد ٣ / ٣٥٠ ، وتاريخ الخلفاء ٣٦١ .
(٣) السير .

متقلِّدٌ سيفًا وقال لهم : قد بلغني ما تَمَالأْتُمْ عليه من أمري ، وإني والله ما خرجتُ إليكم إلَّا وأنا متحنِّطٌ ، وقد أوصيتُ أخي بولدي ، وهذا سيفي ، والله لأضربنَّ به ما استمسك قائمُهُ بيدي ، والله لَئِن سَقَطَ من شعري شعرةٌ ، ليهلكنَّ بَدَلها منكم ، أو ليذهبنَّ بها أكثَرُكُم ، أمَا دِينٌ ؟ أما حياءٌ ؟ أما تَسْتَحْيُون ؟ كم يكون هذا الإقدامُ على الخلفاء والجُرأة على الله عز وجل ، وأنتم لا تُبصرون ؟ سواءٌ عندكم مَنْ قَصَدَ الإبقاءَ عليكم والسِّيرةَ الصالحة فيكم ، ومن كان يدعو بأرطال الشراب المُسكِر ، فيشربُها بين أظهُركم وأنتم لا تُنكرون ذلك ، ثم يستأثر بالأموال عنكم وعن الضعفاء ، هذا منزلي فاذهبوا فانظروا فيه وفي منازل إخوتي ومَنْ يتَّصل بي ، هل تَرَوْنَ فيها من آلات الخلافة شيئًا ، أو من فرشها أوْ غير ذلك ؟ وإنّما في بيوتنا ما في بيوت آحادِ الناس .

قَتَلَ الأتراكُ المهتديَ .. أرادوا منه أن يخلع نفسه ، فأبى ، رحمة الله عليه .

« قال الخطيب : كان من أحسن الخلفاء مذهبًا ، وأجودهم طريقةً ، وأكثرهم وَرَعًا وعبادةً وزهادةً .

وَرَوى الخطيب أن رجلًا استعان المهتدي على خصمه ، فَحَكَمَ بينهما بالعدل ، فأنشأ الرجل يقول :

حكَّمْتُمُوهُ فقضى بينكمُ ... أبْلَجُ مِثْلَ القمـرِ الزَّاهِـرِ
لا يقبلُ الرِّشْوَةَ في حُكمِهِ ... ولا يُبالي غَـبْنَ الخَاسِـرِ

فقال له المهتـدي : أمَّا أنت أيها الرجل ، فأحْسَنَ الله مقالتك ، ولست أغترُّ بما قلتَ ، وأمَّا أنا ، فإني ما جلستُ مجلسـي هذا ، حتى قرأتُ : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفسٌ شيئًا وإن**

كان مثقال حبَّةٍ من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسِبين ﴾ [الأنبياء : ٤٧] . قال : فبكى الناس حوله ، فما رُئِيَ أكثر باكيًا من ذلك اليوم .

وقال بعضهم : سَرَدَ المهتدي الصومَ من حين تولَّى إلى حين قُتِل ، وكان يحبُّ الاقتداءَ بما سلكَهُ عمر بن عبد العزيز الأمويّ في خلافته ؛ من الوَرَع والتَّقشُّف وكثرة العبادة وشدَّة الاحتياط ، ولو عاش ووجد ناصرًا لسار سيرتَهُ ما أمكنه ، وكان من عزْمه أن يُبيد الأتراك الذين أهانوا الخلفاء وأذلُّوهم ، وانتهكوا منصبَ الخلافة »[1].

الخليفة المُعْتَضِد ، قَاتِلُ الأسد :

هو أحمد بن الأمير أبي أحمد الموفَّق الملقَّب بناصر دين الله .

قال عنه ابن كثير : « كان أمر الخلافة قد ضعُف في أيام عمِّه المعتمد ، فلمَّا وَلِيَ المعتضدُ أقام شعارَها ورفَعَ منارها ، وكان شجاعًا فاضلًا من رجالاتِ قريشٍ حَزْمًا وجُرأةً وإقدامًا وحزمة » .

وكان رحمه الله يقول : « إن الرَّعيَّة وديعة الله عند سلطانها ، وإنه سائلُهُ عنها » . ولهذه النِّيَّة لَمَّا وُلِّي الخلافة ، كان بيت المال صفرًا من المال ، وكانت الأحوال فاسدة ، والعرب تعيثُ في الأرضِ فسادًا في كُلِّ جهةٍ ، فلم يَزَلْ برأيِهِ وتسديده ، حتى كَثُرتِ الأموالُ وصلُحت الأحوال في سائر الأقاليم والآفاق .

قال جعيف السَّمرقنديُّ الحاجبُ : كنت مع مولاي المعتضد في بعض مُتَصَيّداته ، وقد انقطعَ عن العسكر ، وليس معه غيري ، إذ خرج علينا أسدٌ ، فقَصَدَ قصْدنا ، فقال لي المعتضدُ : يا جعيف ، أفيك خيرٌ اليوم ؟

(١) البداية والنهاية ١١ / ٢٦ .

قلت : لا والله . قال : ولا أن تُمسك فَرَسي وأنزل أنا ؟ فقلت : بلى . قال : فنزل عن فرسه وغرزَ أطراف ثيابه في مِنْطَقتِهِ ، واستلَّ سيفَهُ ورمى بقِرابِهِ إليَّ ، ثم تقدَّم إلى الأسد ، فوثَبَ الأسدُ عليه ، فضربَهُ بالسيف فأطارَ يَدَهُ ، فاشتغل الأسدُ بيده ، فضربَهُ ثانيةً على هامَتِهِ فَفَلَقَها ، فخرَّ الأسدُ صريعًا ، فدنا منه فمسح سيفه في صُوفِهِ ، ثم أقبل إليَّ فأغْمَدَ سيفَهُ في قِرابه ، ثم ركبَ فرسَهُ ، فذهبْنا إلى العسكر . قال : وصَحِبْتُهُ إلى أن مات ، فما سمعتُهُ ذَكَرَ ذلك لأحدٍ ، فما أدري من أي شيءٍ أعْجَبُ ؛ من شجاعتِهِ ، أم من عَدَمِ احتفاله بذلك ، حيث لم يَذْكُره لأحدٍ ، أم من عدم عَتْبِهِ عليَّ حيث ضننْتُ بنفسي عنه ؟! والله ما عاتبني في ذلك قطُّ .

أبْطَلَ رحمه الله الاحتفال بالنَّيْرُوز .

« أسقَطَ المعتضدُ المَكْس ، ونَشَرَ العدل ، وقلَّل من الظُّلم ، وكان يسمَّى السَّفّاح الثاني ، أحيا رميمَ الخلافة التي ضعفتْ من مقتل المتوكِّل . وكان ملكًا مهيبًا ، شجاعًا ، شديد الوطأةِ ، من رجال العالم ، يُقدم على الأسد وحده »(١) .

قالوا في رثائه :

أين الوثوبُ إلى الأعداءِ مُبتغيًا ... صلاحَ مُلْكِ بني العبَّاسِ إذ فسدَا ؟
ما زلتَ تَقْسِرُ منهم كُلَّ قَسْوَرَةٍ ... وَتَخْبِطُ العاليَ الجبَّار مُعتمِدا
أين الأعادي الأُلَى ذلَّلْتَ مُصْعَبَهُمْ ... أين اللُّيُوثُ التي صَيَّرْتَهَا بُعْدَا(٢)

* * *

(١) السير ١٣ / ٤٦٣ - ٤٦٩ .
(٢) في « البداية » : « صيَّرتها نقدًا » وفي « تاريخ الخلفاء » : « صيَّرتها بردًا » .

الخليفة المُتَّقِي لله ، كان كاسْمِهِ :

أبو إسحاق : إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد .

قال ابن كثير عنه : « كان كاسمه المتقي لله ، كثير الصيام والصلاة والتَّعبُّد ، وقال : لا أُريد جليسًا ولا مُسامِرًا ، حسبي المصحف نديمًا ، لا أُريد نديمًا غيره »(١).

القادر بالله ، المتهجِّد العالم :

الخليفة أبو العبّاس أحمد بن إسحاق بن المقتدر .

كان ديِّنًا عالمًا متعبِّدًا وقورًا ، من جِلَّة الخلفاء وأَمْثَلِهم ، عدَّهُ ابنُ الصَّلاح في الشافعيَّة .

« قال الخطيب : كان من الدِّين وإدامة التَّهجُّد ، وكثْرة الصَّدَقات ، على صفةٍ اشتُهرتْ عنه . وصنَّف كتابًا في الأُصول ، ذكر فيه فَضْلَ الصحابة وإكفار من قال بخلْق القرآن ، وكان ذلك الكتاب يُقرأ في كلِّ جمعةٍ في حلْقةِ أصحاب الحديث ، ويحضره الناس مدَّةَ خلافته ، وهي إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر »(٢).

وكان رحمه الله يلبس زيَّ العامَّة .

واستتاب القادرُ فقهاءَ المعتزلة ، فتبرَّءُوا من الاعتزال والرَّفْض ، وأُخذت خطوطُهم بذلك .

وامْتَثَلَ ابن سبكتكين أمْرَ القادر ، فبثَّ السُّنَّة بممالكه ، وتهدَّد بقتْل

---

(١) البداية والنهاية ١١ / ٢١١ .
(٢) تاريخ بغداد ٤ / ٣٧ - ٣٨ .

الرَّافِضة والإسماعيليّة والقرامطة ، والمشبِّهة والجهميَّة والمعتزلة ولُعنوا على المنابر(١) .

السلطان الملك الكبير يمين الدولة ، فاتح الهند :
أبو القاسم محمود بن سبكتكين ، صاحب خراسان والهند :

قال ابن كثيرٍ عنه : « يمين الدولة ، وأمينُ المِلَّة ، وصاحب بلاد غزنة وما والاها ، وجيشه يُقال لهم : السَّامانية . سار فيهم وفي سائر رعاياه سيرةً عادلةً ، وقام في نصْر الإسلام قيامًا تامًّا ، وفتح فتوحاتٍ كثيرةً في بلاد الهند وغيرها ، وعظُم شأنُه ، واتَّسعتْ مملكتُه ، وامتدَّتْ رعاياه ، وطالت أيامُه لعدله وجهاده ، وما أعطاه الله إياه ، وكان يخطب في سائر ممالكه للخليفة القادر بالله ، وكانت رُسُل الفاطميِّين من مصر تَفِدُ إليه بالكتب والهدايا لأجل أن يكون من جهتهم ، فيحرق بهم ، ويحرق كتبهم وهداياهم ، وفتَحَ في بلاد الكفار من الهند فتوحاتٍ هائلةً ، لم يتَّفِقْ لغيره من الملوك ، لا قَبْلَه ولا بَعْدَهُ ، وَغَنمَ مغانمَ منهم كثيرةً لا تنحصر ولا تنضبط ، من الذهب واللآلئ والسَّبْي ، وكَسَرَ من أصنامهم شيئًا كثيرًا ، وأخَذَ من حليتها . ومن جملة ما كَسَرَ من أصنامهم صنم يُقال له : « سومنات » ، بلغ ما تحصَّل من حليته من الذهب عشرين ألف ألف دينار ، وكَسَرَ ملكَ الهند الأكبر الذي يُقال له : « صينان » ، وقَهَرَ ملكَ التُّرك الأعظم الذي يُقال له : « إيلك خان » ، وأباد مُلك السامانية ، وقد ملكوا العالم في بلاد سمرقند وما حولها ثم هلكوا ، وبنى على جيحون جسرًا تعجز الملوك والخلفاء عنه ، غرم عليه ألفي ألف دينار ، وهذا شيءٌ لم يتَّفِق لغيره ، وكان في جيشه أربعمائة فيل تُقاتل ، وهذا شيءٌ عظيم هائل ، وكان مع هذا في غاية الدِّيانة والصِّيانة وكراهـة المعاصي وأهلها ، لا يحبُّ

---

(١) السير ١٥ / ١٢٧ – ١٣٥ .

منها شيئًا ، ولا يَأْلفه ، ولا أن يسمع به ، ولا يجسُر أحدٌ أن يُظهر معصيةً ولا خمرًا في مملكته ، ولا غير ذلك ، ولا يحبُّ الملاهي ولا أهلها ، وكان يحبُّ العلماء والمحدِّثين ، ويُكرمهم ويُجالسهم ، ويحبّ أهلَ الخير والدِّين والصَّلاح ، ويُحسن إليهم ، وكان حنفيًّا ، ثم صار شافعيًّا على يدي أبي بكر القفّال الصغير ، على ما ذَكَرَهُ إمامُ الحرمين وغيرُه . وكان على مذهب الكرَّاميَّة في الاعتقاد ، ونقم على ابن فورك كلامَهُ ، وأمَرَ بطرده وإخراجه ، لموافقته لِرَأْيِ الجهميَّة . وكان عادلًا جيِّدًا ، اشتكى إليه رجلٌ أن ابن أُخت الملك يهجم عليه في داره وعلى أهله ، في كلِّ وقت ، فيُخرجه من البيت ويختلي بامرأته ، وقد حارَ في أمره ، وكُلَّما اشتكاه لأحدٍ من أُولي الأمْرِ ، لا يجسُر أحدٌ عليه ، خوفًا وهيبةً للملك . فلمَّا سمع الملكُ ذلك ، غضب غضبًا شديدًا ، وقال للرجل : ويحك ، متى جاءك فَأْتِنِي فأعْلِمْني ، ولا تسمعنَّ من أحدٍ مَنَعَك من الوصول إليَّ ، ولو جاءك في الليل فأْتِنِي فأعلمني . ثم إن الملك تقدَّم إلى الحَجَبَة وقال لهم : إن هذا الرجل متى جاءني لا يمنعه أحدٌ من الوصول إلَيَّ من ليلٍ أو نهار . فذهب الرجل مسرورًا داعيًا ، فما كان إلَّا ليلة أو ليلتان حتى هَجَمَ عليه ذلك الشَّابُّ ، فأخرجه من البيت ، واختلى بأهله ، فذهب باكيًا إلى دار الملك ، فقيل له : إن الملك نائم . فقال : قد تقدَّم إليكم أن لا أُمنع منه ليلًا ولا نهارًا . فنبَّهُوا الملك ، فخرج معه بنفسه وليس معه أحد ، حتى جاء إلى منزل الرجل فنظر إلى الغلام وهو مع المرأة في فراشٍ واحدٍ ، وعندهما شمعةٌ تَقِدُ ، فتقدّم الملك فأطفأ الضوءَ ، ثم جاء فاحتزَّ رأس الغلام ، وقال للرجل : ويحك ، الحقني بشربة ماءٍ . فأتاه بها فشرب ، ثم انطلق الملك ليذهب ، فقال له الرجل : بالله ، لِمَ أطفأتَ الشمعة ؟ قال : ويحك ، إنه ابن أختي ، وإني كرهتُ أن أُشاهِدَهُ حالةَ الذَّبح .

فقال : وَلِمَ طلبتَ الماء سريعًا ؟ فقال الملك : إني آليتُ على نفسي منذ أخبرتَنِي ، أن لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أنصرك ، وأقوم بحقّك ، فكنتُ عطشان هذه الأيام كلّها ، حتى كان ما كان ممَّا رأيتَ . فدعا له الرجل ، وانصرف الملك راجعًا إلى منزله ، ولم يشعر بذلك أحد »[(١)،(٢)].

سنة ٤١٨هـ كَسْر « سومنات » صنم الهند الأكبر :

قال ابن كثير في أحداث سنة ثمان عشرة وأربعمائة : « وفيها ورد كتابٌ من محمود بن سبكتكين ، يذكُر أنه دخل بلاد الهند أيضًا ، وأنه كَسَرَ الصنم الأعظم الذي لهم ، المُسمَّى بسومنات ، وقد كانوا يفدون إليه من كلِّ فجٍّ عميقٍ ، كما يفد الناس إلى الكعبة البيت الحرام وأعظم ، ويُنفقون عنده النفقات والأموال الكثيرة التي لا تُوصَف ولا تُعَدّ ، وكان عليه من الأوقاف عشرة آلاف قرية ، ومدينة مشهورة ، وقد امتلأت خزائنه أموالًا ، وعنده ألف رجلٍ يخدمونه ، وثلاثمائة رجل يحلقون رؤوسَ حجيجه ، وثلاثمائة رجل يُغنُّون ويرقصون على بابه ، لما يضرب على بابه الطبول والبوقات ،

---

(١) البداية والنهاية ١٢ / ٣٢ - ٣٣ .

(٢) قال السبكي في طبقات الشافعية (٥ / ٣٢١) : « قلت : وفي هذه الواقعة من هذا السلطان ، ما يدلّ على حُسْن نِيَّته ، وتحَرِّيه العدل غير أنها ممزوجٌ عدْلُها بالجهل بالشريعة ، فلم يكن له لو ثَبَتَ عنده أنه زنى بعد الإحصان أن يتعدَّى الرَّجْم إلى حَز الرقبة ، ثم ليس في الحكاية ما يقتضي ثبوتَ الزِّنا عنده ، فإنه لم يُشاهده يزني ، ولو فُرِضت مشاهدتُه إياه زانيًا ، وأنه علم زناه وتحقّقه بالقرائن ، فهي مسألة القضاء في الحدود بالعلم .
ومِن هذا وأشباهه يُعْرَف سِرُّ الشريعة ، في اشتراط كون السلطان مجتهدًا ؛ لأن غيرَ العالم إذا تحرَّى العدل لا يتأتَّى له إلا بصعوبةٍ شديدةٍ ، بخلاف العالِم ، فإنه يعرف ما يأتي وما يَذَر » .

وكان عنده من المجاورين أُلوفٌ يأكلون من أوقافه ، وقد كان البعيد من الهنود يتمنّى لو بلغَ هذا الصنمَ ، وكان يعوقه طُولُ المفاوز وكثرةُ الموانع والآفات ، ثم استخار اللهَ السلطانُ محمود ، لَمَّا بَلَغَهُ خبرُ هذا الصنم وعُبّاده ، وكثرة الهنود في طريقه ، والمفاوز المُهلكة ، والأرض الخطرة ، في تجشُّم ذلك في جيشه ، وأن يقطع تلك الأهوال إليه ، فَنَدَبَ جيشَهُ لذلك ، فانْتَدَبَ معه ثلاثون ألفًا من المُقاتلة ، ممَّن اختارهم لذلك ، سوى المتطوِّعة ، فسلّمهم الله حتى انتهوا إلى بلد هذا الوثن ، ونزلوا بساحة عُبّادِهِ ، فإذا هو بمكانٍ بقدْر المدينة العظيمة . قال : فما كان بأسرع من أن مَلَكْناهُ ، وقتلْنا من أهله خمسين ألفًا ، وقلعْنا هذا الوثنَ ، وأوقدْنا تحته النار . وقد ذَكَرَ غيرُ واحدٍ أن الهنود بذلوا للسلطان محمود أموالًا جزيلة ؛ ليترك لهم هذا الصنم الأعظم ، فأشار مَنْ أشار من الأُمراء على السلطان محمود بأخْذ الأموال ، وإبقاء هذا الصنم لهم ، فقال : حتى أستخير الله عز وجلّ . فلمَّا أصبح قال : إني فكَّرتُ في الأمر الذي ذُكِر ، فرأيتُ أنه إذا نُودِيتُ يوم القيامة : أين محمود الذي كسر الصَّنَمَ ؟ أحبُّ إليَّ مِنْ أن يُقال : الذي تَرَكَ الصَّنم لأجْلِ ما يناله من الدنيا . ثم عَزَمَ فكَسَرَهُ ، رحمه الله ، فوجد عليه وفيه من الجواهر واللآلئ والذهب والجواهر النفيسة ما ينيف على ما بذلوه له بأضعافٍ مضاعفة ، ونرجو من الله له في الآخرة الثواب الجزيل ، الذي مثقالُ دانقٍ منه خيرٌ من الدنيا وما فيها ، مع ما حصَلَ له من الثناء الجميل الدنيوي ، فرحمه الله وأكْرَمَ مثواه »[1] .

يقول الدكتور عدنان علي رضا النحوي : « لَمَّا جاء السلطان محمود الغزنوي ، كان همُّه الأوَّل هو نشر الإسلام ، وإزاحة الشرك والوثنية ،

(١) البداية والنهاية ١٢ / ٢٤ - ٢٥ .

واستمرَّ جهادُه في الهند خمسًا وعشرين سنةً فَهَزَمَ الملكَ « جيبال » ، وفتح السلطانُ قلعة « كواكير » وحطَّم أصنامها التي بلغت ستمائة صنم ، وهزم الملك « أنندبال » في صحراء بيشاور ، وأبلتِ النساءُ المسلماتُ في الحرب بلاءً عظيمًا ، وفَتَحَ قلعةَ « نكركوت » وحطَّم صنمهم الأعظم هناك . وكذلك اتّجه إلى تهانسير ليحطِّم الصنم الذي كانوا يُعظِّمونه كثيرًا ، وحاول أحدُ ملوك الهندوس ثَنْيَهُ عن عَزْمِهِ هذا بإغرائه بالمال الوفير ، فأجابه السلطان محمود : « إنَّنا مسلمون ، نعمل لنشر الإسلام وهدْم الأصنام ومعابدها ، وبذلك نجد أضعافًا مضاعفةً من الأجْرِ والثواب عند الله ، ولا حاجةَ لنا بهذا المال » . وعندما توجَّه السلطان محمود إلى كشمير ، أسلم ملكُها على يديه . ثم توجَّه إلى كجرات ، وقصد معبد « سومنات » فيها ، حيث كان يوجد صنم من أعظم أصنام الهند ، وكان الوثنيون يحجُّون إليه كل ليلة خسوف ، وحاول الوثنيُّون إقناعَهُ بالعدول عن عزمه ذلك ، وعرضوا عليه الأموال الطائلة ، فأبى وقال : « ما خرجت إلَّا لتحطيم الأصنام وإعلاء كلمة الله » . وَفَتَحَ أماكن عدَّة في الهند ، وينتقل من نصرٍ يَمُنُّ الله عليه به إلى نصرٍ ، ويدعو إلى الإسلام ويحطِّم الوثنيَّة بكل صورها .

ولقد نشر السلطانُ محمود الغزنويُّ العلومَ في مملكته ، وقرَّب العلماءَ والتقاة الصالحين »[1].

قال الدكتور عدنان النحوي : « لقد قام السلطان محمود الغزنوي من غزنة عاصمة مُلكه في أفغانستان ، فتابَعَ حملاته إلى داخل الهند ، وقاد سبع عشرة حَمْلَةً على شبه القارة الهنديّة بين سنتي ٣٨٩هـ - ٤١٦هـ .

(١) ملحمة الإسلام في الهند ، للدكتور عدنان علي رضا النحوي صـ ١٣٥ - ١٣٦ - طبع دار النحوي .

وتوفي وترك دولةً مسلمةً واسعةً تَضُمُّ : زابلستان ، وخوارزم ، خراسان ، طبرستان ، أصفهان ، كرمان ، ومكران ، والسند ، والبنجاب »[1].

وطيوفُ « غَزْنَةَ » لم تَزَلْ في ساحها ... أصداءُ فرسانٍ وَخَفْقُ مُهَنَّدِ
أَبْلَى بها « محمودُ » حتى أسلمتْ ... للهِ أفئدةٌ وَلَهْفَةُ أكْبُدِ
طُوبى لسلطانٍ أبرَّ مجاهدٍ ... جَمَعَ الأئمةَ في وَغى أو مسجدِ
جَمَعَ الأئمةَ حولَهُ في موكبٍ ... ماضٍ لملحمةٍ وأكْرَمِ مَوْرِدِ[1]

الذهبيُّ يُثني على ابن سبكتكين :

قال الذهبي في « السير » عن ابن سبكتكين : « خافَتْهُ الملوكُ ، واستولى على إقليم خراسان ، ونَفَّذ القادرُ بالله خِلَعَ السَّلْطَنة ، ففرضَ على نفسِه كُلَّ سنةٍ غَزْوَ الهندِ ، فافتتح بلادًا شاسعةً ، وكسر الصَّنَم سُومنات ، الذي كانَ يعتقدُ كَفَرةُ الهند أنه يُحيي ويُميت ، ويَحُجُّونه ، ويُقَرِّبون له النفائسَ ، بحيثُ إنَّ الوقوفَ عليه بلغتْ عشرةَ آلاف قرية ، وامتلأتْ خزائنُه من صُنُوف الأموالِ ، وفي خدمته من البَراهمة ألفا نَفْسٍ ، ومائةُ جَوْقَة مغاني رجال ونساء ، فكان بين بلاد الإسلام وبينَ قلعة هذا الصَّنَم مفازةٌ نَحْوَ شهرٍ ، فسار السلطانُ في ثلاثين ألفًا ، فيسَّر اللهُ فتحَ القلعةِ في ثلاثة أيام ، واستولى محمود على أموالٍ لا تُحصى ، وقيل : كان حَجَرًا شديدَ الصَّلَابَةِ طولُه خمسةُ أَذْرُع ، مُنَزَّلٌ منه في الأساس نحو ذراعين ، فأحرقه السلطانُ ، وأخذ منه قطعةً بناها في عَتَبَة بابِ جامعِ غَزْنة ، ووجدوا في أُذُن الصنم نيِّفًا وثلاثين حَلْقَةً ؛ كُلُّ حلقةٍ يزعمون أنها عبادَتُه ألفَ سنة[2].

---

(١) ملحمة الإسلام في الهند صـ ٧٧ ، ١٦٥ .
(٢) الكامل ٩ / ١٣٠ - ١٣١ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٤٤ ، ٣٤٢ - ٣٤٦ . وطبقات السبكي ٥ / ٣١٧ ، ٣١٨ . ووفيات الأعيان ٥ / ١٧٦ - ١٧٩ .

وكان السلطانُ مائلًا إلى الأثر إلا أنّه من الكرَّامِيَّة .

قال أبو النَّضر الفاميُّ : لمَّا قَدم التَّاهَرْتيُّ الداعي من مصر على السُّلطان يدعُوه سِرًّا إلى مذهبِ الباطنيّة ، وكان التَّاهَرْتيُّ يركَبُ بَغْلًا يتلوَّنُ كُلَّ ساعةٍ من كلِّ لونٍ ، ففهم السلطانُ سِرَّ دعوتِهم ، فغضبَ ، وقَتَلَ التَّاهَرتيَّ الخبيثَ ، وأهدى بغلَهُ إلى القاضي أبي منصور محمدِ بن محمد الأَزْدي ؛ شيخ هَرَاة ، وقال : كان يَرْكَبُه رأسُ المُلْحِدين ، فليَركَبْه رأسُ المُوحِّدين[١] .

قال عبدُ الغافر الفارسيُّ في ترجمة محمود : كان صادقَ النِّيَّة في إعلاءِ الدِّين ، مُظَفَّرًا كثيرَ الغَزْوِ ، وكان ذكيًّا بعيدَ الغَور ، صائبَ الرَّأْي ، وكان مجلسُه مَوْرِدَ العُلماء .

قال أبو علي بنُ البنّاء : حكى عليُّ بنُ الحسين العُكْبَريُّ ، أنه سمع أبا مسعود أحمدَ بنَ محمد البَجَليَّ قال : دخلَ ابنُ فُورَك على السلطان محمود ، فقال : لا يجوزُ أن يُوصف اللهُ بالفوقيَّة ؛ لأنَّ لازمَ ذلك وَصْفُه بالتحتيَّة ، فمَن جازَ أن يكونَ له فوقٌ ، جاز أن يكونَ له تحتٌ . فقال السلطانُ : ما أنا وصفتُه حتى يلزمَني ، بل هو وصفَ نفسَه . فَبُهِتَ ابن فُورَك ، فلما خرج من عنده مات . فيقال : انشقَّتْ مرارَتُه .

قال عبدُ الغافر : قد صُنِّف في أيام محمود وأحوالِه لحظة لحظة ، وكان في الخيرِ ومصالحِ الرعيّة ، يُسِّرَ له الإسارُ[٢] والجنودُ والهيبةُ والحشمةُ ، مِمَّا لم يَرَهُ أحد .

---

(١) طبقات السبكي ٥ / ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢) القوة .

وقال أبو النضر محمدُ بنُ عبد الجبار العُتْبي في كتاب « اليميني »[(١)] في سيرة هذا الملك ، قيل فيه :

أَظَلَّتْ شَمْسُ محمودٍ ... على أنْجُمِ سَامَانِ
وأمسى آلُ بهْرامٍ ... عَبيدًا لابنِ خاقانِ
فمِنْ واسِطَةِ الهِنْدِ ... إلى سَاحَةِ جُرْجَانِ
وَمِنْ قاصِيَة السِّنْدِ ... إلى أَقْصَى خُراسانِ
فَيَوْمًا رُسُل الشَّاهِ ... وَيَوْمًا رُسُل الخانِ

كانت غَزَواتُ السلطان محمودٍ مشهورةً عديدةً ، وفتوحاتُه المبتكرة عظيمة .

قرأتُ بخَطِّ الوزير جمال الدين بن علي القِفْطي في سيرته : قال كاتبُه الوزيرُ ابنُ الميمندي : جاءنا رسولُ الملكِ « بَيدا » على سريرٍ كالنَّعش ؛ بأربعِ قوائم يحمِلُه أربعةٌ ، وكان السلطانُ يُعظِّم أَمرَ الرُّسُل لِما يفعلُه أصحابُهم برُسُله . قال : فَحُمِلَ على حالته حتى صار بين يديه ، فقال له الهنديُّ : أيُّ رجلٍ أنتَ ؟ قال : أدعُو إلى الله ، وأُجاهِدُ مَنْ يُخالف دينَ الإسلام . قال : فما تُريد منا ؟ قال : أن تتركُوا عبادةَ الأصنام ، وتلتَزِمُوا شُرُوط الدين ، وتأكُلوا لحم البَقَر . وتردَّد بينهما الكلامُ ، حتى خوَّفه محمودٌ وهدَّده ، وقال الحاجبُ للهنْدي : أتدري لِمَنْ تُخاطِبُ ؟ وبين يَدَيْ أيِّ سُلطانٍ أنتَ ؟ فقال الهنديُّ : إن كان يدعُو إلى اللهِ كما يزعمُ ، فليس هذا من شُرُوط ذلك ، وإن كان سُلطانًا قاهرًا لا يُنصفُ ، فهذا أمرٌ آخر . فقال الوزيرُ : دَعْوه . ثم ورد الخبرُ بتشويش خُراسان ، وضاقَ على صاحب الهندِ الأمرُ ، ورأى أنَّ بلادَه تَخْرَبُ ، فنفَّذَ رسولًا آخر ، وتلطَّف ، وقال :

(١) نسبة إلى يمين الدولة ، وهو لقب السلطان محمود .

إنَّ مُفارقة دينِنا لا سبيل إليه ، وليس هنا مال نُصالِحُكَ عليه ، ولكن نجعلُ بيننا هُدْنَةً ، ونكونُ تحت طاعَتِك . قال : أُريد ألفَ فيلٍ وألف مَنًا ذهبًا . قال : هذا لا قُدرة لنا عليه . ثم تقرَّر بينهما تسليمُ خمسمائة فيلٍ وثلاثةِ آلاف من فِضَّة ، واقترحَ محمودٌ على الملك بَيْدا أن يلبس خِلْعَتَه ، ويَشُدَّ السيفَ والمِنْطَقَة[1] ، ويضرب السِّكَّةَ باسمه . فأجابَ ، لكنّه استعفى من السِّكَّة ، فكانت الخِلْعَةُ قَباءً نُسِجَ بالذَّهَبِ ، وعمامةَ قَصَبٍ ، وسيفًا مُحَلَّى ، وفرسًا وخُفًّا ، وخاتَمًا عليه اسمُه ، وقال لرسوله : امضِ حتى يَلْبَس ذلك ، وينزِلَ إلى الأرضِ ، ويقطعَ خاتَمه وأُصْبُعَه ، ويُسَلِّمها إليكَ ، فذلك علامةُ التَّوْثِقَة . قال : وكان عند محمودٍ شيءٌ كثيرٌ من أصابع المُلُوك الذين هادَنَهم .

قال ابنُ الميمندي الوزيرُ : فذهبْتُ في عشرةِ مماليك أتراك ، وجئنا وصحنا : رسولٌ رسولٌ . فكفُّوا عن الرَّمْي ، فأُدخِلنا على المَلِكِ ، وهو شابٌ مليحُ الوجه على سرير فضة ، فخدمتُه بأن صفقْتُ بيدَيَّ ، وانحنيتُ عليهما ، وقلتُ : جُوْ . فكان جوابه : بَاهْ . وأجلسني ، وقرَّبَنِي ، وأخذ يشكو ما لَحِقَ البلادَ من الخَرَابِ ، ثم لبس الخِلْعَةَ بعد تَمنُّع ، وتعمّم له تركيًّ ، وطالبتُه بالحَلِف ، قال : نحلِفُ بالأصنام والنار ، وأنتم لا تَقنعون بذلك . قلتُ : لا بدَّ . وأحجمتُ عن ذكر الأُصْبُعُ ، فأخرج حديدةً قطع بها أصْبُعَه الصغرى ولم يكتَرِثْ ، وعمل على يده كافورًا ، وَدُفِعَتْ إليَّ ، وقال : قُل لصاحِبكَ : اكفُفْ عن أذى الرعيَّة . فرجع السُّلطانُ إلى خُراسان ، ونفَّذَ إليه ابنُ مروان صاحبُ ديار بكر هديَّةً ، فردَّها وقال : لم أردَّها استقلالًا ، ولكن علمتُ أنَّ قصدكَ المخالطةُ والمصادقةُ ، ويقبُحُ بي أن

---

(١) كلّ ما شدّ في الوسط .

أُصَادِق مَن لا أقدِرُ أن أنصُره ، وربما طرقَكَ عدوٌّ وأنا على ألف فرسخٍ منك ، فلا أتمكَّنُ من نُصرتك .

ثم بلغ السلطانَ أنَّ الهنودَ قالوا : أَخْرَبَ أكثرَ بلادِ الهند غضبُ الصنمِ الكبيرِ سُومَنات على سائر الأصنام ومَنْ حولها . فعَزَمَ على غَزْو هذا الوَثن ، وسار يَطوي القِفَار في جَيْشِه إليه ، وكانوا يقولون : إنه يَرزُق ويُحيي ويُميت ويسمع ويَعي . يَحُجُّون إليه ، ويُتحِفونه بالنفائس ، ويتغالَون فيه كثيرًا ، فتجمَّع عند هذا الصنم مالٌ يتجاوزُ الوصْفَ ، وكانوا يَغسِلُونه كُلَّ يوم بماءٍ وعَسلٍ ولبنٍ ، وينقُلُون إليه الماءَ من نهرِ « حيل » مسيرةَ شهر ، وثلاثمائة يَحلِقُون رؤُوس حُجّاجه ولِحَاهم ، وثلاثمائة يُغَنُّون . فسار الجيشُ من غَزْنة ، وقطعُوا مَفازةً صعبةً ، وكانوا ثلاثين ألف فارس وخلْقًا من الرَّجَّالة والمُطَّوِّعة ، وَقَوَّى المُطَّوِّعَةَ بخمسين ألف دينار ، وأنفقَ في الجيش فوقَ الكِفَاية ، وارتحل من « المُليا » ثاني يوم الفطر سنة ٤١٦ ، وقاسَوْا مَشَاقَّ ، وبقُوا لا يجدون الماءَ إلا بعد ثلاثٍ ، غطَّاهُم في يومٍ ضبابٌ عظيم ، فقالت الكَفَرةُ : هذا مِنْ فعل الإلـٰه سُومَنات . ثم نازل مدينةَ أَنْهَلْوارة ، وهرب منها مَلِكُها إلى جزيرة ، فأخرب المسلمون بلدَهُ ، ودكُّوها ، وبينها وبين الصنم مسيرةُ شهرٍ في مفاوز ، فساروا حتى نازَلُوا مدينة دَبُولوارة ؛ وهي قَبْل الصَّنَمِ بيومين ، فَأُخِذَتْ عَنْوَةً ، وكُسِرتْ أصنامُها ، وهي كثيرةُ الفواكِه ، ثم نازلوا سُومنات في رابع عشر ذي القعدة ، ولها قلعةٌ منيعةٌ على البحر ، فوقع الحصارُ ، فنُصِبت السَّلالمُ عليها ، فهرب المُقاتِلةُ إلى الصَّنَم ، وتضرَّعُوا له ، واشتدَّ الحالُ ، وهم يَظُنُّون أنَّ الصنم قد غضب عليهم ، وكان في بيتٍ عظيمٍ منيع ، على أبوابه السُّتُورُ الدِّيباجُ ، وعلى الصنم من الحُلِيِّ والجواهر ما لا يُوصَف ، والقناديل تُضِيءُ ليلًا ونهارًا ، على رأسِه تاجٌ لا يُقَوَّم ، يندهِشُ منه الناظرُ ، ويجتمعُ عنده في عيدهم

نحوُ مائة ألف كافر ، وهو على عرشٍ بديعِ الزَّخرفة ؛ علوّ خمسةِ أذرع ، وطولُ الصنم عشرةُ أَذْرُع ، وله بيتُ مالٍ فيه من النفائسِ والذهبِ ما لا يُحصى ، ففرَّق محمودٌ في الجند مُعْظَمَ ذلك ، وزعزعَ الصنمَ بالمعاوِل ، فخرَّ صريعًا . وكانت فرقةٌ تعتقِدُ أنه مَنَاةُ ، وأنه تحوَّلَ بنفسِه في أيام النُّبُوة من ساحل جُدَّة ، وحَصَلَ بهذا المكان ليُقْصَد ويُحَجَّ ، مُعَارَضَةً للكعبة ، فلمَّا رآه الكفارُ صريعًا مهينًا ، تحسَّروا ، وسُقِط في أيديهم ، ثم أُحرِقَ حتى صار كِلْسًا ، وأُلقيت النيرانُ في قصور القلعة ، وقُتل بها خمسون ألفًا ، ثم سار محمودٌ لأسْرِ المَلِك « بهيم » ، ودخلوا بالمراكب ، فَهَرَبَ ، وافتتح محمودٌ عدةَ حصون ومدائن ، وعاد إلى غَزْنة ، فدخلها في ثامن صفر سنة سبع عشرة ، ودانت له الملوكُ ، فكانت مدةُ الغَيبة مائةً وثلاثة وستين يومًا .

وفي سنة ثمان عشرة سار إلى بَلْخ ، وجهَّز جيشَه إلى ما وراء النهر في نُصرة الخانيَّة ، وكان عليُّ بنُ تكين قد أغار على بُخارى ، فضاق قدرخانُ به ذرعًا ، واستنجد محمودًا ، ففرَّ ابنُ تكين ، ودخل البَرِّيَّة . ثم حارب محمودٌ الغُزَّ ، وقبضَ على ابن سلجوق مُقَدَّمِهم ، فثارت الغُزُّ ، وأفسدوا ، وتفرَّغُوا للأذى ، وتعبتْ بهم الرَّعِيَّةُ ، واستحْكَمَ الشَّرُّ ، وأقام محمودٌ بنيسابور مدَّةً ، ثم في عشرين قصدَ الرَّيَّ ، وأَخَذَها ، وقبضَ على مَلِكِها مجدِ الدولة بنِ بُوَيْه ؛ وكان ضعيفَ التدبير ، فضُرِبَ حتى حَمَلَ ألفَ ألفِ دينار ، وصَلَبَ محمودٌ أُمراءَ من الدَّيْلَم ، وجرتْ قبائحُ وظُلم ، ثم جَهَّزَ محمودٌ ولدَه مسعودًا ، فاستولى على أَصْبَهان ، ثم رجع السلطانُ إلى غَزْنة عليلًا ، فمات في ربيع الأول سنة إحدى ، وأمسى وقد فارَقَتْهُ الجُنُود ، وتنكَّسَتْ لحُزنه البُنود ، وناح عليه الوالد والمولودُ ، وسَكَن ظُلمةَ اللُّحُود .

وقد خُطب له بالغُور وبخُراسان والسِّند والهِند ، وناحية خوارزم وبلخ ؛ وهي من خُراسان ، وبجُرْجان وطَبَرِستان والرَّيّ والجِبَالِ ، وَأَصْبَهَان وَأَذْرَبِيجان ، وهَمْدانِ وأرمِينية .

وكان مُكرِمًا لأمرائه وأصحابِه ، وإذا نَقَمَ عاجَلَ ، وكان لا يفتُر ولا يكاد يَقِرُّ . سار مرةً في خمسين ألف فارس ، وفي مائتَيْ فيل ، وأربعين ألف جَمَّازة[1] تحمِل ثِقْل العساكر ، وكان يعتقدُ في الخليفة ؛ ويخضَعُ لجَلَالِهِ ، ويحملُ إليه قناطيرَ من الذَّهب ، وكان إلْبًا على القَرامطة والإسماعيليَّة وعلى المتكلِّمين ، على بدعةٍ فيه فيما قيل ، ويغضَبُ للكرَّامِيَّة »[2].

وَرَدَ إليه الداعي من الحاكم (الخليفة الفاطمي) يدعوه إلى طاعته ، فَخَرَقَ كتابَهُ وبَصَقَ عليه[3].

قال عنه السبكي في طبقات الشافعية : « أحَد أئمة العدل ، ومَنْ دانت له البلاد والعباد وظهرتْ محاسنُ آثاره . كان إمامًا عادلًا شجاعًا ، مفرطًا ، فقيهًا فَهِمًا ، سمحًا جوادًا . وهو أحد أربعة لا خامسَ لهم في العدل بعد عمر بن عبد العزيز : نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين ونظام المُلك . وممَّا كتبه إلى أمير المؤمنين القادر بالله : لقد كان العبد يتمنَّى قلْع هذا الصنم ، ويتعرَّف الأحوال ، فتُوصَف له المفاوز إليه ، وقلَّة الماء ، وكثْرة الرمال ، فاستخار العبد الله في الانتداب لهذا الواجب طلبًا للأجْر ، ونَهَضَ في شعبان سنة ست عشرة في ثلاثين ألف فارس ، سوى

---

(١) الجَمَّازة : ناقة تعدو الجَمَزَى ، وهو ضَرْب من العَدْوِ دون الحُضْر الشديد ، وفوق العَنَق .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧ / ٤٨٤ - ٤٩٢ .

(٣) المنتظم ٧ / ٢٦٢ ، والسير ١٥ / ١٣٣ .

المُطَّوِّعة ، وفرَّق في المطّوّعة خمسين ألف دينارٍ معونةً ، وقضى الله بالوصول إلى بلد الصنم ، وأعان ، حتى مُلِكَ البلد وقُلِع الوثنُ ، وأُوقِدتْ عليه النار حتى تقطَّع ، وقُتِل خمسون ألفًا من البلد . وقد كان محمود افتتحَ قبل ذلك من الهند أماكنَ منيعةً ، وغَنم أموالًا كثيرة ، وكتبَ إلى أمير المؤمنين : إن كتاب العبد صدر في غَزْنة ، لنصف المحرَّم سنة عشر ، والدين مخصوصٌ بمَزيد الإظهار ، والشِّرك مقهورٌ بجميع الأقطار ، وانْتَدَبَ العبدُ لتنفيذ الأوامر ، وتابع الوقائع على كُفَّار السِّند والهند ، فرتَّب بنواحي غَزْنة العبدَ محمدًا ، مع خمسة عشر ألف فارس ، وعشرة آلاف راجِلٍ ، وشحن بَلْخ وَطَخَارِسْتان بأَرْسِلان الحاجب ، مع اثني عشر ألف فارس ، وعشرة آلاف راجِلٍ ، وانضمَّ إليه جماهير المُطَّوِّعة ، وخرج العبد من غَزْنة ، في جُمادَى الأولى ، سنة تسع ، بقلبٍ منشرحٍ ، لِطَلَب السعادة ، ونفسٍ مشتاقةٍ إلى دَرَك الشهادة ، ففتح قِلاعًا وحصونًا ، وأسلم زُهاءُ عشرين ألفًا ، من عُبّاد الوَثَن ، وسلَّموا قدر ألف ألفٍ من الوَرِق ، ووَقَعَ الاحتواء على ثلاثين فِيلًا ، وبلغَ عددُ الهالكين منهم خمسين ألفًا ، ووافى العبدُ مدينةً لهم ، عاينَ فيها زُهاءَ ألفِ قَصْرٍ مَشِيدٍ ، وألفَ بيتٍ للأصنام ، ومبلغُ ما في الصنم ثمانيةٌ وتسعون ألف مِثْقال ، وقُلع من الأصنام الفضّة زيادة على ألف صنمٍ ، ولهم صنمٌ معظَّم يؤرِّخون مُدَّته بجهالتهم العظيمة بثلاثمائة ألف عام ، وقد بَنَوْا حول تلك الأصنام المنصوبة زُهاء عشرة آلافِ بيتٍ ، فعُنِيَ العبد بتخريب تلك المدينة اعتناءً تامًّا ، وعَمَّها المجاهدون بالإحراق ، فلم يَبْقَ منها إلا الرُّسوم . وحين وجدَ الفراغ لاستيفاء الغنائم ، حصَّل منها عشرين ألف ألف دِرهم ، وأفردَ خُمْس الرَّقيق ، فبلغ ثلاثًا وخمسين ألفًا ، واستعرض ثلاثمائة وستة وخمسين فِيلًا » .

قال السبكي في « طبقات الشافعية » (٥ / ٣٢٢ - ٣٢٧) : « في

سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة غزا بلاد الهند ، وقصد ملكها « جيبال » ، في جيشٍ عظيم ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ، وفتح الله على يديه ، وَكَسَرَ الهنودَ وأسر مَلِكَهم ، وأخذَ مِن عنقه قِلادة ، قيمتها ثمانون ألف دينار ، وَغَنِم المسلمون منهم أموالًا عظيمةً ، وفتحوا بلادًا كثيرةً ، ثم أطلق محمودٌ مَلِكَ الهند ، احتقارًا له واستهانةً بأمره ، مع شدَّة بأسه وَعِظَم اسمه ، فوصل ذليلًا مكسورًا إلى بلاده ، وقيل : إنه لَمَّا وصل ألقى نَفْسَهُ في النار التي يعبدونها من دون الله ، فهلكَ . ثم غزا الهند أيضًا في سنة ستٍّ وتسعين وثلاثمائة ، فافتتح مدنًا كثيرةً كبارًا ، وغنم ما لا يُحْصَى من الأموال ، وأسَرَ بعضَ ملوكهم ، وهو ملك كراسي ، حين هرب منه لَمَّا افتتحها ، وكسرَ أصنامها ، فألْبسه مِنْطَقَة شَدَّها على وسطه ، بعد تَمنُّعٍ شديد ، وقطع خِنْصَره ، ثم أطلقه إهانةً له ، وإظهارًا لعظمة الإسلام وأهله . ثم غزا عَبَدَةَ الأصنام ثالثًا ، في سنة ثمان وتسعين ، وفتح حصونًا كثيرة ، وأخذ أموالًا جَمَّةً ، وجواهرَ نَفيسةً ، وكان في جملة ما وُجد بيتٌ طوله ثلاثون ذراعًا ، وعَرْضه خمسة عشر ذراعًا ، مملوءٌ فِضَّةً ، ولمَّا رجع إلى غَزْنة بَسَطَ الحَواصِل في صَحْن داره ، وأذِنَ لرسل الملوك ، فدخلوا عليه ، فرأوا ما هالهم . وفي سنة اثنتين وأربعمائة أو سنة إحدى ، غزا الكفّارَ أيضًا ، وقَطَعَ مَفازةً عظيمة ، أصابه فيها عطش مُفْرِط ، كاد يُهْلِك عسكره ، ثم مَنَّ الله بمطرٍ عظيمٍ رَوَاهم ، ووصلوا إلى الكفار ، وهم خلائقُ لا يُحْصَون ، ومعهم ستمائة فيل ، فنُصِر عليهم ، وغنم شيئًا عظيمًا ، وعاد . ثم غزا في سنة ست وأربعمائة ، فغَرَّه أدلَّتُه وأضلُّوه عن الطريق ، فحصل في مائية فاضت من البحر ، وغَرِق كثيرٌ ممَّن كان معه ، وخاض الماءَ بنفسه أيامًا ، ثم تخلَّص وعاد إلى خُراسان . ثم غزا في سنة ثمانٍ وأربعمائة ، وافتتح بلادًا كثيرة . ثم أعاد الغزو في سنة تسعٍ وأربعمائة ، وجال في بلاد الكفّار

مَسِيرةَ ثلاثةِ أشهر عن غَزْنة . وفي هذه السنة افتتحَ المدينتين العظيمتين : مَهَرَّة ، وقِنَّوْج ، وكان فتحًا عظيمًا عزيزًا .

قال أبو النصر الفامي : وقِنَّوْج هي التي أعيتْ الملوكَ غير كشتاسب على ما زعمتْه المجوس ، وهو ملك الملوك في زمانه ، فزحَفَ السلطان محمودٌ بعساكره ، وعبرَ مياه سَيْحون وتلك الأودية التي تجِلُّ أعماقها عن الوَصْفَ ، ولم يَطَأْ مملكةً من تلك الممالك ، إلا أتاه الرسول واضعًا خَدَّ الطاعة ، عَارِضًا في الخدمة كُنْه الاستطاعة ، إلى أن جاءه جِنْكِي بن سَمَّهِي ، صاحب درب قِشْمِير ، عالمًا بأنه بَعْثُ اللهِ الذي لا يُرضيه إلا الإسلام أو الحُسام ، فضمن إرشاد الطريق ، وسار أمامه هادِيًا ، فما زال يفتتح الصَّياصِي والقِلاع ، حتى مرّ بقلعة هَرْدَب ، فلما رأى مَلِكُها الأرضَ تموج بأنصار الله ، ومِن حولها الملائكة ، زُلْزِلَتْ قَدَمُه ، وأشفق أن يُراق دَمُه ، ونزل في عشرة آلاف ، مُنادِين بدعوة الإسلام . ثم سار بجنوده إلى قلعة كُلْجَنْد ، وهو من رؤوس الشياطين ، فكانت له معه مَلْحَمة عظيمة ، هلك فيها من الكفار خمسون ألفًا ، من بين قتيلٍ وغريقٍ ، فَعَمَدَ كُلْجَنْد إلى زوجته ، فَقَتَلَهَا ثم ألحقَ بها نَفْسَهُ ، وغَنِمَ السلطان مائة وخمسة وثلاثين فِيلًا . ثم عطفَ إلى البلد الذي يُسمَّى المُتَعَبَّد ، وهو مَهَرَّة الهند ، يُطالع أبنيَتها التي ذَكَرَ أهلها أنها من بِناء الجانّ ، فرأى ما يخالف العادات ، وهي مشتملة على بيوت أصنام ، بنقوش مبدعة ، وتزاويق تَخْطف البَصَر ، وكان فيما كتب به السلطان ، أنه لو أراد مريد أن يبني ما يُعادِل تلك الأبنية ، لَعَجَزَ عنها بإنفاقِ مائة ألف ألف درهم في مائتي سنة ، على أيدي عَمَلَةٍ كَمَلَة ، ومَهَرَةٍ سَحَرَة . وفي جملة الأصنام خمسةٌ من الذهب ، معمولةٌ طولَ خمسة أذرع ، عينا واحدٍ منها ياقوتتان ، قيمتهما أَزْيَدُ من خمسين ألف دينار ، وعلى آخر ياقوتةٌ زرقاء ، وزنها أربعمائة وخمسون مِثقالًا ، وكان جملة

الذَّهَبِيّات الموجودة على الأصنام ، ثمانيةً وسبعين ألف مثقالٍ . قال : ثم أمر السلطان بسائر الأصنام فضُرِبت بالنِّفْط ، وحاز من السَّبايا والنِّهاب ما يعجز عنه أنامِلُ الحُسَّاب . ثم سار إلى قِنَّوْج ، وخلَّف معظم العسكر ، فوصل إليه في شعبان سنة تسع ، وقد فارقها الملك راجيال منهزِمًا ، فتتبَّع السلطان قِلاعها ، وكانت على سيف البحر ، وفيها قَرِيبٌ من عشرة آلاف بيتٍ للأصنام ، يزعُم المشركون أنّها مُتَوارَثة منذ مائتي ألف سنة إلى ثلاثمائة ألف سنة ، كذِبًا وزُورًا ، فَفَتَحَهَا كلَّها في يومٍ واحد ، ثم أباحها لجيشه ، فانتهبوها ، ثم رَكَضَ منها إلى قلعة البَراهِمة ، فافتتحها ، وقتَل بها خَلْقًا كثيرًا . ثم افتتح قلعة جَنْدْرَاي ، وهي التي تُضْرَب الأمثال بحصانتها .

وهذا هو الفتح العزيز من فتوحاته ، ساقه صاحب « اليميني » بأفصح عبارةٍ وأحلاها ، فَلْيَنظُرْه فيه مَنْ أراده ، وهو الذي عاد منه في سنة عشرٍ ، وأرسَلَ كتابه إلى القادر أمير المؤمنين ، وقد ذكَرْنا بعضَهُ . ثم كان له في سنة أربع عشرة فَتْحٌ أعظمُ من هذا ، أوْغَلَ فيه في بلاد الهند ، حتى جاء إلى قلعة فيها ستمائة صنم ، وقال : أتيتُ قلعةً ليس لها في الدنيا نظير ، وما الظَّنُّ بقلعةٍ تَسَعُ خَمْسَمائة فيل وعشرين ألف دابَّة ، ومَنْ يقوم بعَلَف هؤلاء ، ومَنْ يحملونه ! وأعان الله ، حتى طلبوا الأمان ، فأمَّنْتُ مَلِكَهم ، وأقررتُ على ولايته ، بخَراجٍ ضُرِب عليه » .

ومن مناقبه رحمه الله : « أن العراقيين لم يخرج رَكْبُهم إلى الحج في سنة عشر وأربعمائة ، وسنة إحدى عشرة ، فلمَّا كانت سنة اثنتي عشرة ، قصد طائفةٌ يمينَ الدولة محمودًا ، وقالوا : أنت سلطان الإسلام ، وأعظم ملوك الأرض ، وفي كل سنة تفتح من بلاد الكفر ناحيةً ، والثواب في فتح طريق الحجِّ عظيم . فاهتمَّ بهذا الأمر ، وتقدَّم إلى قاضيهِ بالتَّأَهُّب للحَجِّ ، ونادى في أعمال خراسان بذلك ، وأطلق للعرب في البادية مِن خاصِّ ماله

ثلاثين ألف دينار » .

القائم بأمر الله يستغيث بالله ، فَيَرُدّ اللهُ عليه مُلْكَه :

أمير المؤمنين ، القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله .

كان ذا دينٍ وخيرٍ وبرٍّ وعلْمٍ وعدْلٍ ، عالمًا مهيبًا ، نُكب سنة خمسين في كائنة البساسيري ، ففرَّ إلى البَرِّيَّة ، ورفعَ قصتهُ إلى ربِّ العالمين ، مُستعديًا على من ظَلَمهُ ، ونفَّذ بها إلى البيت الحرام ، فنفعتْ ، وأخذَ اللهُ بيده ، وردَّهُ إلى مقرِّ عزِّه ، فكذلك ينبغي لكلِّ من قُهر وبُغي عليه أن يستغيث بالله .

وكان ذا حظٍّ من تعبّد وصيامٍ ، وتهجُّدٍ ، لَمَّا أن أُعيد إلى خلافته ، قيل : إنه لم يستردّ شيئًا مما نُهب من قصره ، ولا عاقَبَ مَنْ آذاه ، واحتسَبَ وصبرَ ، وكان تاركًا للملاهي ، رحمه الله .

المُقتدي بأمر الله يأمُر بِنفْي المُغنِّيات والخواطئ :

أبو القاسم ، عُبيد الله بن ذخيرة الدين محمد بن القائم بأمر الله .

تسلَّم الخلافة وهو ابن عشرين سنة .

« كان حَسَن السِّيرة ، وافر الحُرمة ، أمَرَ بِنَفْي الخواطئ والقَيْنات ، وأن لا يدخل أحدٌ الحمّام إلَّا بِمِئْزَرٍ ، وأخْرَبَ أبراجَ الحمام . وفيه ديانةٌ ونجابةٌ وقوَّةٌ وعلوّ همّةٍ . وكان « مَلكشاه » قد صمَّم على إخراجه من بغداد ، فَحَارَ ، والتجأ إلى الله ، فدفع عنه ، وهلك ملكشاه »[1].

قال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » صـ ٤٢٣ : « كانت قواعد الخلافة في أيامه باهرة ، وافرة الحُرمة ، نفى المغنيّات والخواطئ ببغداد ، وخرَّب

---

(١) السير ١٨ / ٣١٨ - ٣١٩ .

أبراج الحمام صِيانةً لحرم الناس ، وكان ديِّنًا خيِّرًا قويّ النَّفْس عالي الهمَّة من نُجَباء بني العباس » .

السلطان الكبير ألب أرسِلان ، قائد جيش الأكفان « يبيع إمبراطور الروم بكلب !! » :

هو السلطانُ الكبير ، الملكُ العادل ، عَضُدُ الدولة ، أبو شجاع ، أَلْب أَرْسِلان ، محمدُ بنُ السلطان جَغْرِيبَك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن تُقاق ابن سلجوق التركماني ، الغُزِّي . من عظماء ملوك الإسلام وأبطالهم .

وَعَظُمَ أمر السلطان ألب أرسلان ، وخطب له على منابر العراق والعَجَم وخراسان ، ودانتْ له الأمم ، وأحبَّتْهُ الرعايا ، ولا سيَّما لمَّا هزمَ العدوَّ ، فإن الطاغيةَ عظيمَ الروم أرمانوس حَشَدَ ، وأقْبَلَ في جمْعٍ ما سُمع بمِثْلِهِ ، في نحوٍ من مائتي ألف مقاتِلٍ من الرّوم والفِرنْج والكُرْج وغير ذلك وصل إلى مَنَازْكِرْد[1]، وكان السلطان بـ « خُوَيٍّ »[2] قد رجع من الشام في خمسة عشر ألف فارس ، وباقي جُيوشه في الأطراف ، فصمَّم على المصافّ ، وقال : أنا ألتقيهم ، وحسبي الله ، فإن سَلِمْتُ ، وإلا فابني « مَلِكْشاه » وَلِيُّ عهدي . وسار ، فالتقى يَزَكُه[3] وَيَزَكُ القوم ، فَكَسَرَهم يَزَكُه ، وأسروا مُقَدَّمهم ، فَقَطَعَ السلطانُ أنفَهُ ، ولمَّا التقى الجمعان ، وتراءى الكفرُ والإيمان ، واصطدم الجَبَلان ، طَلَبَ السلطانُ الهُدْنَةَ ، قال أرمانوس : لا هُدْنَةَ إلَّا ببذْل الرَّيِّ . فَحَمِيَ السلطانُ ، وشاط ، فقال إمامُه : إنك تُقاتِلُ عن دينٍ وَعَدَ اللهُ بنصره ،

---

(١) منازجرد ، أو : منازكرد : بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم ، يعدّ في أرمينية ، وأهله أرمن وروم .

(٢) خُوي : بلد بأذربيجان .

(٣) اليزك : كلمة فارسية معناها : مقدمة الجيش .

ولعلَّ هذا الفتح باسمِك ، فالْقَهُم وقتَ الزوال - وكان يومَ جمعةٍ - قال : فإنه يكـون الخطباءُ على المنابر ، وإنهم يَدْعُون للمجاهـدين . فَصلَّوْا ، وبكى السلطانُ ، ودعا وأَمَّنُوا ، وسجد ، وَعَفَّر وجهَه ، وقال : يا أُمراء ، من شاء فلينصرفْ ، فما هاهنا سلطان . وعقَد ذَنَبَ حِصانه بيده ، ولَبِس البياضَ وتَحنَّط ، وحَمَل بجيشه حملةً صادقةً ، فوقعُوا في وسط العـدو يقتلون كيف شاءوا ، وثبت العسكرُ ، ونزلَ النَّصْر ، وَوَلَّتِ الرومُ ، واستحرَّ بهم القَتْل ، وَأُسِرَ طَاغِيَتُهم أرمانوس ، أسره مملوكٌ لكوهرائين ، وهمَّ بقتله ، فقال إفْرنْجِي : لا ، لا ؛ فهذا المَلِك . وقرأتُ بخطِّ القِفطيِّ أنَّ ألب أرسلان بالَغَ في التَّضرُّع والتَّذلُّل ، وأخْلَصَ لله . وكيفيةُ أسْرِ الطاغية ، أنَّ مملوكًا وَجَد فرسًا بلجامٍ مجوهر وسرجٍ مذهَّب مع رجُلٍ ، بين يديه مِغْفرٌ من الذهب ، ودِرعٌ مُذهّب ، فَهَمَّ الغلام ، فأتى به إلى بين يدي السلطان ، فقنَّعه بالمِقرعة ، وقال : ويلك ، ألم أبعث أطلبُ منك الهُدْنة ؟ قال : دَعْنِي من التَّوبيخ . قال : ما كان عَزْمُكَ لو ظفرتَ بي ؟ قال : كلّ قبيح . قال : فما تُؤَمِّل وتظُنُّ بي ؟ قال : القتلُ أو تُشهِّرُني في بلادك ، والثالثة بعيدةٌ : العفوُ وقَبُولُ الفِداء . قال : ما عَزمتُ على غيرها . فاشترى نَفْسَه بألفِ ألفِ دينارٍ وخمسمائة ألفِ دينارٍ ، وإطلاقِ كلِّ أسيرٍ في بلاده . فخلَعَ عليه ، وبعثَ معه عدَّةً ، وأعطاه نفقة تُوصلُه . وأمَّا الروم فبادروا ، وملَّكُوا آخر ، فلمَّا قرب أرمانوس ، شعرَ بزوال مُلكه ، فَلَبِس الصُّوف ، وترهَّب ، ثم جمع ما وصلتْ يدُه إليه نحو ثلاثمائة ألف دينار ، وبعث بها ، واعتذر ، وقيل : إنه غلب على ثغور الأرمن . وكانت الملحمة في سنة ثلاث وستين[(١)] .

❊ ❊ ❊

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٤١٤ - ٤١٦ ، والمنتظم ٨ / ٢٦٠ - ٢٦٥ .

وَصْف ابن كثيرٍ لمعركة « ملاذ كرد » :

قال الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٢ / ١٠٧ - ١٠٨) في أحداث سنة ٤٦٣هـ : « وفيها أقْبَلَ ملكُ الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال من الرّوم والكرخ والفرنج ، وعددٍ عظيمٍ وعُدَد ، ومعه خمسة وثلاثون ألفًا من البطارقة ، مع كلِّ بطريق مائتا ألِف فارسٍ ، ومعه من الفِرنْج خمسة وثلاثون ألفًا ، ومن الغُزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفًا ، ومعه مائة ألف نقّابٍ وحفَّار ، وألف روزجاري ، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النِّعال والمسامير ، وألفا عجلةٍ تحمل السلاح والسّروج والعرادات والمجانيق ، منها منجنيق عدّة ألف ومائتا رَجُلٍ ، ومن عَزْمه - قبَّحه الله - أن يُبيد الإسلام وأهله ، وقد أقْطَعَ بطارقتَهُ البلاد حتى بغداد ، واستوصى نائبها بالخليفة خيرًا ، فقال له : ارفُق بذلك الشيخ ، فإنه صاحبنا ، ثم إذا استوثقتْ ممالك العراق وخراسان لهم ، مالوا على الشام وأهله ميلةً واحدةً ، فاستعادوه من أيدي المسلمين ، والقدر يقول : ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ [الحجر : ٧٢] . فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريبٌ من عشرين ألفًا ، بمكان يُقال له : الزهوة ، في يوم الأربعاء لخمسٍ بقينَ من ذي القعدة ، وخاف السلطان من كثرة جند ملك الروم ، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال ، حين يكون الخُطَبَاء يَدْعُون للمجاهدين ، فلمَّا كان ذلك الوقت ، وتواقف الفريقان وتواجه الفتيان ، نزل السلطان عن فرسِه وسجد لله عزّ وجلَّ ، ومرَّغ وجهَهُ في التراب ، ودعا الله واستنصره ، فأنزلَ نصرَهُ على المسلمين ، ومنحهم أكتافهم ، فقتلوا منهم خَلْقًا كثيرًا ، وأُسِرَ ملكُهم أرمانوس ، أسَرَهُ غلامٌ روميٌّ ، فلمَّا أُوقِف بين يدي الملك ألب أرسلان ، ضربَهُ بيده ثلاثة مقارع وقال : لو كنتُ أنا الأسيرَ بين يديك ، ما كنت تفعل ؟ قال : كلّ

قبيحٍ . قال : فما ظَنُّك بي ؟ قال : إمَّا أن تقتُل وتشهِّرني في بلادك ، وإمَّا أن تعفو وتأخُذ الفداء وتُعيدني . قال : ما عزمتُ على غير العفو والفداء . فافتدى نَفْسَه منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، فقام بين يدي الملك ، وسقاه شربةً من ماء ، وقبّل الأرض بين يديه ، وقبّل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالًا وإكرامًا ، وأطلق له الملك عشرة آلاف دينار ليتجهَّز بها ، وأطلق معه جماعةً من البطارقة وشيَّعه فرسخًا ، وأرسل معه جيشًا يحفظونه إلى بلاده ، ومعهم رايةٌ مكتوب عليها : لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ، فلمَّا انتهى إلى بلاده وجَدَ الروم قد ملَّكُوا عليهم غَيْرَهُ ، فأرسل إلى السلطان يعتذر إليه ، وبعثَ من الذهب والجواهر ما يقارب ثلاثمائة ألف دينار ، وتزهَّد ولبس الصُّوف ، ثم استغاث بملك الأرمن ، فأخذه وكَحَلَهُ[1] ، وأرسله إلى السلطان يتقرَّب إليه بذلك » .

قال ابن النَّحَّاس : « خرج ملكُ الروم من القسطنطينية في ستمائة ألف ، خارجًا عن المطَّوِّعة ، فكانوا لا يُدركهم الطَّرْف ولا يحصُرهم العَدَد ، بل كتائب مُتواصلة وعساكر مُتزاحمة ، وكراديس يتلو بعضُها بعضًا كالجبال الشوامخ ، وقد أعدُّوا من السلاح والكُراع والآلات لفتح الحصون ، ما يعجز الوَصْفُ عنها ، واقتسموا الدنيا ؛ فجعلوا لكلِّ مائة ألفٍ قطرًا ، العجم والعراق لملكٍ ، وديار مُضَر وديار ربيعة لملكٍ ، ومصر والمغرب لملكٍ ، والحجاز واليمن لملكٍ ، والهند والصين لملكٍ ، والروم لملكٍ ، فاضطربت ممالكُ الإسلام ، واشتدَّ وجلُهم وَكَثُرَ جزعهم وهرب بعضُهم من بين أيديهم ، وأخلَوْا لهم البلاد . وكان الملك ألب أرسلان التركي - سلطان العراق والعجم يومئذٍ - قد جَمَعَ وجوه مملكته وقال : قد علمتم

(١) كحلة : سمل عينيه .

ما نزل بالمسلمين ، فما رأْيُكم ؟ قالوا : رَأْيُنَا لرأْيك تَبَعٌ ، وهذه الجموع لا قِبَل لأحدٍ بها . قال : وأين المفرُّ ، لم يَبْقَ إلَّا الموت ، فموتوا كرامًا أحْسَن . قالوا : أمَّا إذا سمحْتَ بنَفْسك ، فنفوسنا لك الفداء . فعزمُوا على مُلاقاتهم ، وقال : نلقاهم في أول بلادي . فخرجَ في عشرين ألفًا من الأمجاد الشجعان المُنتخَبين ، فلمَّا سار مرحلةً ، عَرَضَ عسكرَهُ ، فوَجَدَهم خمسة عشر ألفًا ، ورجعتْ خمسةٌ ، فلمَّا سار مرحلةً ثانيةً ، عرض عسكره ، فإذا هم اثنا عشر ألفًا ، فلمَّا واجَهَهم عند الصباح ، رأى ما أذْهَلَ العقول وحيَّر الألباب ، وكان المسلمون كالشامة البيضاء في الثور الأسود ، فقال : إني هممتُ ألَّا أُقاتلهم إلَّا بعد الزَّوالِ . قالوا : ولم ؟ قال : لأن هذه الساعة ، لا يبقى على وجه الأرض منبر ، إلَّا دَعَوْا لنا بالنصر . وكان ذلك يوم الجمعة ، فقالوا : افْعَلْ . فلمَّا زالت الشمس صلَّى وقال : ليودِّع كلُّ واحدٍ صاحبَهُ ، وليُوصِ . ففعلوا ذلك ، فقال : إني عازم على أن أحمل فاحملوا معي ، وافعَلُوا كما أفْعَلُ . فاصطفَّ المشركون عشرين صفًّا ، كلّ صفٍّ لا يُرى طرفاه ، ثم قال : بسم الله وعلى بركة الله ، احملوا معي ، ولا يضرب أحدٌ منكم بسيفٍ ولا يرمي بسهمٍ ، إلى أن أفْعَل . وَحَمَلَ وحملوا معه حملةً واحدةً ، خرقوا صفوف المشركين صفًّا بعد صفٍّ ، لا يقف لهم شيء .. حتى انتهوا إلى سُرادِق المَلِك ، فوقف ، وأحاطوا به ، وهو لا يظنُّ أن أحدًا يصل إليه ، فما شعر حتى قبضوا عليه ، وقتلوا كلَّ من كان حوله ، وقطعوا رأسًا فرفعوها على رمحٍ ، وصاحوا : قُتِلَ الملك ، فولَّوْا منهزمين لا يَلْوُون على شيءٍ ، وحكَّمُوا السيوف فيهم أيامًا ، فلم يَنْجُ منهم إلَّا قتيلٌ أو أسيرٌ ، وجلس ألب أرسلان على كرسي الملك في مُضربة في سُرادِقه على فراشه ، وأكَلَ من طعامه ، ولبس من ثيابه ، وأحْضِرَ الملك بين يديه ، وفي عنقه حبل ، فقال : ما كنتَ صانعًا لو ظفرتَ بي ؟ قال : أوَ تشكُّ أنت في قتلك حينئذٍ ؟ قال ألب أرسلان :

وأنت أقلّ في عيني من أن أقتُلك . اذهبوا فبيعوه ، فطافوا به على جميع العسكر ، والحبل في عنقه ، يُنادى عليه بالدراهم والفلوس ، فما يشتريه أحد ، حتى انتهوا في آخر العسكر إلى رَجُلٍ فقال : إن بعتمونيه بهذا الكلب ، أشتريه . فأخذوه وأخذوا الكلب ، وأتوْا بهما إلى ألب أرسلان ، وأخبروه بما صنعوا به ، وبما دُفِعَ فيه ، فقال : الكلب خيرٌ منه ؛ لأنه ينفع وهذا لا ينفع ، خذوا الكلب وادفعوا له هذا الكلب - يعني الملك - . ثم إنه بعد ذلك أمَرَ بإطلاقه ، وأن يُجعل الكلبُ قرينَهُ مربوطًا في عنقه ، ووكَّل به من يُوصله إلى بلاده ، فلمَّا وَصَلَ عزلوه عن الملك وكحلوه »[(١)].

لله دَرُّكَ يا ألب أرسلان ، ودرُّ جيشك جيشِ الأكفان[(٢)].

والله إن العقل ليقف عاجزًا عن تصوُّر هيئة هذا الجيش ، الذي فاحت منه رائحة الحنوط استعدادًا للموت والشهادة .. وعلى مثل هؤلاء وقائدهم يتنزَّل النصر .

رحم الله من غزا بلاد الروم مرَّتين ، وافتتحَ القلاع ، وأرْعَبَ الملوك .

قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٢ / ١١٤) في ترجمة السلطان ألب أرسلان الملقَّب بـ« سلطان العالم » صاحب الممالك المتّسعة : « كان عادلًا يسير في الناس سيرةً حسنةٍ ، كريمًا رحيمًا ، شَفُوقًا على الرَّعيَّة ، رفيقًا على الفقراء ، بارًّا بأهله وأصحابه ومماليكه ، كثير الدُّعاء بدوام النّعم به عليه ، كثير الصَّدَقات ، يتفقّد الفقراء في كلِّ رمضان بخمسة عشر ألف

---

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العُشّاق لابن النحاس ١ / ٥٥١ - ٥٥٣ طبع دار البشائر .

(٢) مواقف بطولية من صنع الإسلام ، لزياد أبو غنيمة ، تحت عنوان « جيش يقابل العدو بالأكفان » صـ ١٦٨ - ١٧٣. دار التوزيع والنشر الإسلامية .

دينار ، ولا يُعرف في زمانه جناية ولا مُصادَرَة ، بل كان يَقْنَع من الرَّعيَّة بالخَراج في قسطين رفقًا بهم . كتب إليه بعضُ السُّعاة في « نِظام الملك » وزيرِهِ ، وَذَكَرَ ماله في ممالكه ، فاستدعاه فقال له : خُذْ ، إن كان هذا صحيحًا ، فهذِّبْ أخلاقكَ وأصلِحْ أحوالَك ، وإن كذبوا فاغفر له زلَّتَهُ . وكان شديد الحرص على حِفْظ مال الرَّعايا » .

قبل تملُّكه انتشرَ الفكر الشيعي ، والدَّاعين إليه من الغُلاة ، حتى إن أمير حلب محمود بن صالح بن مرداس عندما أراد تحويل الخطبة لبني العباس والسلاجقة ، ويترك العبيديين ، رفض العامَّةُ في حلب هذا التَّحوُّل ، وحملوا أثاث المسجد وقالوا : هذه حصر علي بن أبي طالب ، فليأتِ أبو بكر بحصرٍ يُصلّي عليها الناس[1] !!

فلمَّا جاء ألب أرسلان كان « من حسناته أنه عندما سار إلى حلب ، طَلَبَ حضور صاحبها محمود بن مرداس بين يديه ، فحاول محمود المراوغة ، وقال للسفير بينهما ، وهو الشريف طراد الزينبي : قل للسلطان : إن محمودًا لبس الخلعة العباسية وخطب لهم . فقال السلطان أرسلان : أي شيءٍ تُساوي خطبتُهم وهم يؤذِّنون بـ(حيّ على خير العمل) لا بد من حضوره »[2] .

وفي سنة ٤٦٢ وَرَدَ رسول صاحب مكَّة محمد بن أبي هاشم إلى السلطان ، يُخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان ، وإسقاط خطبة صاحب مصر « العبيدي » ، وتَرْك الأذان بـ(حي على خير العمل) ، فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار ، وقال له : إذا فعل أمير المدينة كذلك ،

(١) أيعيد التاريخ نفسه. لمحمد العبدة صـ ٤٦ .
(٢) الكامل لابن الأثير ١٠ / ٦١ .

أعطيناه عشرين ألف دينار .

فرحم الله ألب أرسلان .

ملوك السلاجقة يُجدِّدون هيْبة الخلافة ، ويُلاحِقون الباطِنيَّة في معاقلهم :

يقول العلَّامة أبو شامة عن آثار السلاجقة : « فلمَّا ملكَ السلجوقيةُ ، جدَّدُوا من هيبة الخلافة ما كان قد دَرَسَ ، لا سيَّما في وزارة نِظام الملك ، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها »[١].

ولقد كان للسلاجقة الدَّور العظيم في سحق الباطنية :

ففي سنة ٤٩٤هـ أمر السلطان السلجوقي (بركيارق) بقتْل الباطنية ، فقام أهل أصبهان بقتل مَنْ عندهم ، يقودهم في ذلك الفقيهُ الشافعيُّ مسعود ابن محمد الخجندي ، حيث جَمَعَ الجمَّ الغفير بالأسلحة ، وأمَرَ بحفْر أخاديد وأوقد فيها النيران ، وجعل العامَّة يأتون بالباطنيَّة أفواجًا ومنفردين ، فيُلْقَوْن في الأخاديد . وكان الباطنيُّون قد ملكوا كثيرًا من القلاع بإقليم خوزستان وفارس ، وعظُم شرُّهم ، وقطعوا الطريق ، فعزم أحدُ قواد السلاجقة (جاولي) على الفتْك بهم ، فأظهر أنه يُريد مُفارقَةَ بلده ، فخرجوا معه ليأخذوا ما معه من أموال وأسلحة ، وفي الطريق كان قد دبَّر لهم مكيدةً ، فَوَضَعَ السيفَ فيهم فلم يَنْجُ منهم أحدٌ[٢].

في سنة ٥٠٠هـ قَتَلَ السلطانُ محمد بن ملكشاه السلجوقي مقتلةً عظيمةً منهم ، وأجلاهم عن قلعة أصبهان بعد حصارها ، وبعد مُخَادَعَةٍ ومُخاتَلَةٍ منهم ، وقتل صاحبَها ابن غطاش[٣]. وكانت دعوة الباطنيَّة قد انتشرت في

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين صـ ٣١ .
(٢) الكامل ١٠ / ٣٢٠ .
(٣) الكامل ١٠ / ٤٣٠ .

الشام منذ بداية القرن الخامس ، بعد مجيء داعيتهم (بهرام) « فاستجاب له كثيرٌ من العوامِّ وسُفهاء الجُهَّال ، وسكت عنه العلماءُ وَحَمَلَةُ الشريعة ، خوفًا من بطش الإسماعيلية »[(١)]. ففي سنة ٥٢٣ حاول الإسماعيليَّة تسليم دمشق للصليبيين ، مُقابل أن يُسلِّمهم الصليبيون مدينة صور ، واكتشف هذه المؤامرةَ أميرُ دمشق (بوري بن طغتكين) فَقَتَلَ متولّي الإسماعيلية المزدقاني ، ونادى في البلد بقتْل الباطنية ، فَقُتِلَ منهم ستةُ آلاف ، وكان ذلك في شهر رمضان[(٢)].

وفي حوادث سنة ٥١١ قال ابن الأثير : « عَلِمَ السلطانُ محمد (السلجوقي) أن مصالح العباد والبلاد منوطةٌ بمحْو آثارهم وإخرابِ ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم ، وكان في أيامه المقدّم عليهم والقيِّم بأمرهم الحسن بن الصّباح الرازي ، صاحب قلعة (ألموت) ، وكانت أيامه قد طالتْ ، فقد ملك القلعة ما يُقارِب ستًّا وعشرين سنة ، وكان المجاورون له في أقبح صورةٍ ، مِنْ كثرة غزاته لهم وقتْله رجالهم ، فسيَّر السلطانُ له العساكر بقيادة أنوشتكين ، فملك عدَّةَ قِلاعٍ منهم ، ثم سار إلى (ألموت) وحاصرهم أشهرًا ، وهم يُراوِغون لأخْذ الأمان وترْك القلعة ، ولكن هذا القائد استمرَّ في حصارهم ، ثم جاء الخبر بوفاة السلطان محمد ، فتفرَّقتِ العساكر عنه ولم تُفتح القلعة»[(٣)]. وفي عهد السلطان سنجر (٥٢١) أوقع بالباطنية في (ألموت) وقتل منهم خلقًا كثيرًا . إن محو آثار هؤلاء المجرمين من بشائر العودة ، فقد استراح المسلمون من شرِّهم ، بل استراح العالم كلُّه ، وبقاؤهم يُعتبر شوكةً في حلوق المسلمين ، فهم أبدًا مع كلِّ عدوٍّ

(١) خطط الشام محمد كرد علي ٢ / ٣ .
(٢) الكامل ١٠ / ٦٥٦ .
(٣) الكامل ١٠ / ٦٥٧ .

خارجيّ ، وأمَّا في الداخل فهم يُزعزِعون الأمن والطُّمأنينة ، فيعيش الناس في خوفٍ ورعب ، فهم أشدُّ خطرًا من المنافقين على وحدة الصَّفّ الإسلامي ، وقد قام السلاجقة وأمراؤهم بخيرِ عملٍ عندما لاحقوهم في معاقلهم ، وقصدوا لهم كل مرصد ، فجزاهم الله خيرًا .

المُقتفي لأمر الله :

أمير المؤمنين أبو عبد الله ، محمد بن المستظهر بالله .

قال الذهبي في « السير » (٢٠ / ٤٠٠ - ٤٠١) : « كان المقتفي عاقلًا لبيبًا ، عاملًا مهيبًا ، صارمًا ، جوادًا ، محبًّا للحديث والعلْم ، مُكرِمًا لأهله ، وكان حميدَ السيرة ، يرجع إلى تديُّنٍ وحُسنِ سياسةٍ ، جدّد معالم الخلافة ، وباشر المهمّات بنفسه ، وغزا في جيوشه . قال أبو طالب بن عبد السميع : كانت أيامه نَضِرة بالعدل ، زَهِرَةً بالخير ، وكان على قدمٍ من العبادة قبل الخلافة ومعها ، ولم يُر مع لِينِهِ بعد المعتصم في شهامته مع الزُّهْد والوَرَعِ ، ولم تزل جيوشه منصورة » .

رأى المقتفي في منامه - قَبْلَ أن يستخلف بستة أيامٍ - رسول الله ﷺ يقول له : سيصل هذا الأمر إليك ، فاقْتَفِ بي . فلذا لُقِّبَ:المقتفي لأمر الله[1].

الملك عماد الدين الأتابك زنكي وَالِد « نور الدين محمود زنكي » :

ابن الحاجب قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب .

كان والده آق سنقر ، كما قال عنه ابن كثير : « من أحسن الملوك سيرة وأجودِهم ....

(١) السير ٢٠ / ٤٠١ .

سريرة »[١].

فوَّض السلطان محمود بن ملكشاه شحْنكيَّة[٢] بغداد إلى الأتابك سنة ٥٢١هـ .

استولى الأتابك على البلاد وعظُم أمره،« وافتتح الرُّها ، وتملَّك حلب والموصل وحماة وحمص وبعلبك وبانياس ، واستنقذ من الفرنج كفرطاب والمعرة ، ودوّخهم ، وشغلهم بأنفسهم ودانتْ له البلاد . وكان بطلًا شجاعًا مقدامًا كأبيه ، عظيم الهيبة ، وكان يُضرب بشجاعته المَثَل ، لا يقرّ ولا ينام ، فيه غَيْرة حتى على نساء جنده . عمَّر البلاد ، ودخل حلب ورتَّب أمورها ، وافتتح مدائن عدَّة ، ودوَّخ الفرنج ، وكان أعداؤه محيطين به من الجهات ، وهو ينتصف منهم ويستولي على بلادهم »[٣].

« في أول أمره استطاع زنكي - رحمه الله - بفترةٍ قصيرة توحيدَ أكثر أقاليم الجزيرة ، ولمَّا رأى الفرنجة والرومُ ما فَعَلَه عماد الدين ببلاد الشام ، قرَّروا حَصْرَ حلب ، ولم يَرَ زنكي مُنَازَلَتَهُم بكثرتهم ، بل نزل قريبًا منهم لمناوشتهم ، وأرسلَ القاضيَ كمال الدين الشهرزوري إلى السلطان مسعود في بغداد ، يُخبره بالواقع ويطلب النجدةَ ، فقال القاضي محذِّرًا : « إذا جاءت عساكر السلطان ، اتّخذُوا هذا حُجَّةً وملكوا البلاد » . فقال زنكي : « إن هذا العدوّ قد طمع فيَّ ، وإن أخَذَ حلب لم يَبْقَ بالشام إسلامٌ ، وعلى كل حالٍ فالمسلمون أَوْلَى بها من الكفار »[٤].

---

(١) البداية والنهاية ١٢ / ١٥٧ .
(٢) يُقصد بها رئاسة الشَّحْنَة ، والشحنة : هم من يسمَّوْن الآن الشرطة .
(٣) السير ٢٠ / ١٨٩ - ١٩١ .
(٤) الروضتين في أخبار الدولتين ١ / ٣٥ .

وصار الفرنجة بإزاء رَجُلٍ قويٍّ يستطيع حشد الجيوش والأموال ، وعندما استقرَّ له الحال ، ورأى أنه قد مَهَّد الأُمور ، عند ذلك قرَّر مُجَابَهَة الفرنجة ، وبدأ بحصن « الأثارب » الذي يقع بين حلب وأنطاكية ، وذلك لشدَّة ضرره على المسلمين ، وحاصر الحصنَ وخرج له الصليبيون بخيلهم ورجلهم ، وكان النصر للمسلمين ، وهي أول وقعةٍ معهم ، وخاف أهل قلعة حارم فصالحوه ، ومن هنا استدار الزمان ، وقوي المسلمون بتلك الأعمال ، وضعفت قُوَى الكافرين ، وعلموا أن البلاد جاءها ما لم يكن بالحسبان « وصار قُصاراهم حِفْظ ما في أيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في مُلْك الجميع » .

وفي سنة ٥٣٢ جاء الروم بجيش عظيم ومعهم الفرنجة ، واستولوا على البلاد المحيطة بحلب ، ثم حصروا مدينة شيزر ، وجاء زنكي ونزل على حماة ، وكان كلَّ يومٍ يُرسل السَّرايا يتخطَّف من الروم ، ثم يعود آخِر النهار ، وأرسل إلى العدو يقول لهم : « إنكم قد تحصَّنتم بهذه الجبال ، فاخرُجُوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي » . وهو يفعل ذلك ترهيبًا لهم ، فأُشير على الملك بلقائه ، فألقى الله تعالى في قلبه الرعب من ذلك ، وقال لهم: «أتظُنُّون أن معه من العساكر ما ترَوْن، وله البلاد الكثيرة ، وإنما هو يُريكم قِلَّةَ مَنْ معه لتطمعوا ، وتُصْحِرُوا له ، فحينئذٍ تَرَوْنَ من كثرةِ عسكره ما يُعجزكم » . ورحل ملك الروم مُؤْثِرًا السلامة ، وَتَرَكَ المجانيق وآلات الحصار بحالها ، فسار زنكي ، فظفر بطائفةٍ منهم في ساقة[1] العسكر ، فغنم منهم وقتل ، وأسرَ وأخَذَ جميع ما خلَّفوه . ونزل إلى حصن عرقة وهو من أعمال طرابلس ، فحصره ، وفَتَحَهُ عنْوَةً ، ونهبَ ما فيه ،

(١) ساقة العسكر : مؤخِّرة العسكر .

وأسَرَ مَنْ به من الفرنج وأخْرَبَهُ ، وعاد سالمًا غانمًا .

وفي سنة ٥٣٤ هـ سار زنكي إلى بلاد الفرنج وأغار عليها ، واجتمع ملوكُ الفرنج وساروا إليه فَلَقِيهم بالقُرب من « حصن بارين »[١] ، فصبر الفريقان صبرًا لم يُسمع بمثله إلّا ما يُحكى عن ليلة الهرير « القادسية » ، ونصر الله المسلمين ، وهرب ملوكُ الفرنج وفرسانُهم ، فدخلوا حصن بارين ، وفيهم ملك القدس ، وأسلموا عدَّتهم وعتادهم ، وكثُر فيهم الجراح . وسار زنكي إلى حصن بارين ، فَحَصَرَه حصارًا شديدًا ، وتسلَّم حصن بارين بالأمان ، واستراح المسلمون ما بين حلب وحماة من شرِّهم ، فقد كان حصن بارين من أضرِّ بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا أخربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها ، وانقطعت السبل ، فأزال الله تعالى بزنكي هذا الضرر العظيم . وكان في نية زنكي توحيد بلاد الجزيرة تحت قيادته حتى يتمكَّن من مجابهة الأعداء ، فسار إلى بلاد الهكارية ، وكانت بيد الأكراد فأخذها ، ثم بلاد « آق » ، وكلّ هذا كان تمهيدًا للقيام بأعظم أعماله وهو فتح « الرُّها » .

فَتْح « الرُّها » سنة ٥٣٩هـ :

قرَّر زنكي مُحاصَرَة هذه المدينة ، وكانت تحت حُكم الصليبيين ويتملكها « جوسلين » ، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بها شرٌّ عظيمٌ ، فحاصرها زنكي ثمانيةً وعشرين يومًا ، وألحَّ في حصارها ، حتى فَتَحَهَا عَنْوَةً في جمادى الآخِرة ، فاستباحها ، ونكَّس صُلبانها ، وأباد قُسُوسَها ورُهبانها ، وقتل شجعانَها وفرسانَها ، وملأ الناس أيديهم من النَّهْب والسَّلْب ، وعادتِ المدينةُ إلى حُكم الإسلام ، وهي من أشرف المدن عند النصارى ، واستولى

---

(١) غربي حماة .

زنكي على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا ، كـ« سروج » وغيرها ، وأخلى الديار الجزيريّة من مَضَرَّة الفرنج وشرِّهم ، وأصبح أهل تلك البلاد بعد الخوف آمنين ، وكان فتحًا عظيمًا ، طار في الآفاق ذِكْرُه ، وطاب بها نَشْرُه ، وشهده خَلْقٌ كثيرٌ من الصالحين والأولياء ، وقال بعضهم : رأيت زنكي في المنام ، بعد موته ، بأحسنِ حالٍ ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غَفَرَ لي . فقلتُ : بماذا ؟ فقال : بفتح الرُّها .

فرحم الله زنكي ، فقد كان كما وَصَفَهُ ابنُ كثير : « من خيار الملوك وأحْسَنِهم سيرةً ، كان شجاعًا مقدامًا حازمًا » . « وهو الذي بدأ بجهاد الصليبيين ، وعادتِ الثقةُ إلى نفوس المسلمين ، ولكن التجديد الجهاديّ كان على يد ابنه نور الدين محمود بن زنكي »[1].

لَيْثُ الإسلام ، صاحب الشام ، الملك العادل ، أبو القاسم نور الدين محمود بن زنكي :

قال الذهبي عنه في « السير » ٢٠ / ٥٣٢ - ٥٣٩ : وكان نورُ الدين حاملَ رايَتَي العدلِ والجهادِ ، قلَّ أن ترى العُيُونُ مثلَهُ ، حاصرَ دمشقَ ، ثم تملَّكها ، وبقي بها عشرين سنةً . افتتح أولًا حصونًا كثيرة ، وفامية ، والراوندان ، وقلعة إلبيرة ، وعزاز ، وتل باشر ، ومرعش ، وعين تاب ، وهزم البرنسَ صاحبَ أنطاكية ، وقَتَلَهُ في ثلاثة آلاف من الفِرنج ، وأظهر السُّنَّة بحلب ، وَقَمَعَ الرَّافضةَ . وبنى المدارسَ بحلَب وحمصَ ودمشقَ وَبَعْلَبَكَّ والجوامعَ والمساجدَ ، وسُلِّمت إليه دمشقُ للغَلاء والخوفِ ، فحصَّنها ، ووسَّع أسواقَها ، وأنشأ المَارستان ودارَ الحديثِ والمدارسَ ومساجدَ عدَّةً ، وأبطل المكُوسَ من دار بطيخ وسوقِ الغنم والكيالة وضمان النهر والخمر ، ثم أخذ

(١) أيُعيد التاريخ نفسه - لمحمد العبدة . صـ ٧٩ - ٨٠ .

من العدوِّ بانياس والمُنَيطِرة ، وكسر الفرنجَ مراتٍ ، ودوَّخهم ، وأذلَّهم . وكان بطلًا شُجاعًا ، وافرَ الهَيبة ، حسنَ الرمي ، مليحَ الشَّكلِ ، ذا تعبُّدٍ وخوفٍ وورعٍ ، وكان يتعرَّضُ للشهادةِ ، سمعه كاتبُه أبو اليُسر يسأَلُ اللهَ أن يحشُرَهُ مِن بطونِ السِّباعِ وحواصِلِ الطير . وبنى دارَ العدلِ ، وأنصفَ الرَّعِيَّة ، ووقفَ على الضُّعفاءِ والأيتامِ والمُجاورينَ ، وأمر بتكميلِ سُورِ المدينةِ النبويَّة ، واستخراجِ العينِ بأُحُد ، دَفَنَهَا السَّيْلُ ، وفتحَ دَرْبَ الحجاز ، وَعَمَّر الخوانِقَ والرُّبُط والجسورَ والخاناتِ بدمشق وغيرِها . وكذا فعلَ إذ ملكَ حَرَّانَ وَسِنْجَارَ والرُّها والرَّقَّة وَمَنْبِج وَشَيْزَر وحمص وحماة وَصَرْخد وبعلَبَكَّ وَتَدْمُرَ . ووقفَ كُتُبًا كثيرةً مثمّنةً ، وكسر الفِرَنج والأرمنَ على حارِم،وكانوا ثلاثين ألفًا ، فقلَّ مَنْ نجا ، وعلى بانياس .

وكانت الفرنجُ قد استضرَّتْ على دمشقَ ، وجَعلوا عليها قطيعةً ، وأتاهُ أميرُ الجيوش « شاور » مُستجيرًا به ، فأكرمهُ ، وبعثَ معه جيشًا لِيُردَّ إلى منصبِهِ ، فانتصر ، لكنَّه تخابثَ وتلاءمَ ، ثم استنجَد بالفِرنجِ ، ثم جهَّز نورُ الدين - رحمه اللهُ - جيشًا لَجِبًا مع نائبه أسدِ الدين شِيركُوه ، فافتتح مصرَ ، وَقَهَرَ دولَتها الرَّافِضِيَّةَ ، وهربت منه الفِرنجُ ، وَقُتِلَ شاور ، وَصَفَتِ الديارُ المصريةُ لِشيركُوه نائبِ نورِ الدين ، ثم لصلاحِ الدين ، فأباد العُبيديِّين ، واستأصلَهم ، وأقام الدعوةَ العبّاسية .

وكان نورُ الدين مليحَ الخطِّ ، كثيرَ المُطالعة ، يُصلِّي في جماعةٍ ، ويصومُ ، ويتلُو ويُسَبِّح ، ويتحرَّى في القُوت ، ويتجنَّبُ الكِبر ، ويتشبَّهُ بالعُلماءِ والأخيارِ . ذَكَرَ هذا وَنَحْوَهُ الحافظُ ابنُ عساكر ، ثم قال : روى الحديثَ ، وأسمعهُ بالإجازةِ ، وكان مَنْ رآهُ شاهَدَ من جَلالِ السَّلْطَنَةِ وَهَيبةِ المُلْكِ ما يَبْهَرُهُ ، فإذا فاوضَهُ ، رأى من لطافَتِهِ وتواضُعِه ما يُحيِّره . حكى من صَحِبَه حَضَرًا وَسَفَرًا ، أنه ما سمع منه كلمةَ فُحشٍ في رضاهُ ولا في

ضَجَره ، وكان يُواخي الصالحينَ ، وَيَزُورهم ، وإذا احتلَم مماليكُه أعْتَقَهُم ، وزوَّجهم بجواريه ، ومتى تشكَّوْا من وُلاته عزلَهُم ، وغالب ما تملَّكه من البُلدان تسلَّمه بالأمان ، وكان كلَّما أخذ مدينةً ، أسقطَ عن رعيَّتِهِ قِسطًا .

وقال أبو الفرج ابنُ الجوزي : جاهَدَ ، وانتزَع من الكُفَّار نَيِّفًا وخمسين مدينةً وَحِصْنًا ، وبنى بالموصلِ جامعًا غَرِمَ عليه سبعين ألف دينارٍ ، وَتَرَكَ المُكُوسَ قَبْلَ موتِهِ ، وبعث جُنودًا فتحوا مصرَ ، وكان يميلُ إلى التَّواضُع وحُبِّ العُلماء والصُّلَحاء ، وكاتبني مِرارًا ، وعزمَ على فتحِ بيت المَقْدِس ، فتُوفِّي في شوال سنةَ تسعٍ وستين وخمسمائة .

وقال المُوفَّق عبدُ اللطيف : كان نورُ الدين لم ينشَفْ له لِبْدٌ من الجهادِ ، وكان يأكُل من عَمَل يدِهِ ، يَنْسَخُ تارةً ، ويعمَلُ أغلافًا تارة ، وَيَلْبَسُ الصُّوفَ ، ويُلازِمُ السّجّادةَ والمُصحف ، وكان حنفيًّا يُراعي مذهبَ الشافعيّ ومالك ، وكان ابنُهُ الصالحُ إسماعيلُ أحْسَنَ أهلِ زمانِهِ .

وقال ابنُ خلِّكان[١] : ضُرِبَتِ السِّكَّةُ والخُطبةُ لنورِ الدين بمصر ، وكان زاهدًا عابِدًا ، مُتَمسِّكًا بالشَّرْعِ ، مُجاهدًا ، كثيرَ البِرِّ والأوقافِ ، له من المناقب ما يستغرِقُ الوصفَ ، تُوفي في حادي عشر شوال بقلعة دمشق بالخوانيق ، وأشاروا عليه بالفَصْدِ ، فامتنعَ ، وكان مَهِيبًا فما رُوجِعَ ، وكان أسمر طويلًا ، حَسَنَ الصُّورةِ ، ليس بوجهِهِ شَعرٌ سوى حَنَكِه ، وَعَهِد بالمُلك إلى ابنِهِ وهو ابنُ إحدى عشرة سنة .

وقال ابنُ الأثير[٢] : كان أسمرَ ، له لحيةٌ في حنكِه ، وكان واسعَ الجبهة ، حسنَ الصُّورة ، حُلْوَ العَينين ، طالعتُ السِّيَر ، فلم أرَ فيها بَعْدَ

---

(١) وفيات الأعيان ٥ / ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) الكامل ١١ / ٤٠٣ .

الخُلفاء الراشدين وعُمر بنِ عبد العزيز أحْسَنَ من سيرتِهِ ، ولا أكثر تحرِّيًا منه للعَدْلِ ، وكان لا يأكُلُ ولا يَلبَسُ ولا يتصرَّفُ إلا من مُلكٍ له قد اشتراهُ من سهمِهِ من الغَنيمة ؛ لقد طلبتْ زوجتهُ منهُ ، فأعطاها ثلاثةَ دكاكين ، فاستقلَّتْها ، فقال : ليسَ لي إلا هذا ، وجميعُ ما بيدي أنا فيه خازنٌ للمسلمين . وكان يتهجَّدُ كثيرًا ، وكان عارِفًا بمذهبِ أبي حنيفة ، لم يترك في بلادِهِ - على سَعَتِهَا - مَكْسًا ، وسمعت أنَّ حاصل أوقافِهِ في البِرِّ في كلِّ شهرٍ تسعةُ آلاف دينارٍ صورية .

قال له القطبُ النيسابوريُّ : باللهِ لا تُخاطِر بنفسِكَ ، فإن أُصبتَ في معركةٍ ، لا يبقى للمُسلمين أحدٌ إلا أخَذَهُ السيفُ . فقال : وَمَن محمودٌ حتى يُقالَ هذا ؟! حَفِظَ اللهُ البلادَ قَبلي ، لا إلٰه إلا هو .

قلت : كان دَيِّنًا تقيًّا ، لا يرى بذلَ الأموالِ إلا في نفعٍ ، وما للشُّعراءِ عنده نَفاقٌ . وفيه يقولُ أُسامةُ :

سُلطانُنا زاهدٌ والناسُ قد زَهِدُوا لَهُ فَكُلٌّ على الخَيراتِ مُنْكَمِشُ
أيامُه مِثْلُ شهرِ الصَّومِ طاهِرَةٌ من المعاصي وفيها الجوعُ والعَطَشُ

قال مجدُ الدين ابنُ الأثير في نَقْلِ سِبط الجَوْزِيِّ عنه : لَمْ يَلْبَس نورُ الدين حريرًا ولا ذهبًا ، وَمَنَعَ من بيعِ الخمرِ في بلاده - قلتُ : قد لبسَ خِلعةَ الخليفةِ والطَّوقَ الذَّهب - قال : وكان كثيرَ الصَّومِ ، وله أورادٌ في الليلِ والنهارِ ، وَيُكثِرُ اللَّعِبَ بالكُرة ، فأنكَر عليه فقيرٌ ، فكتبَ إليه : واللهِ ما أقصِدُ اللعبَ ، وإنما نحنُ في ثَغْرٍ ، فربما وقعَ الصوتُ ، فتكونُ الخيلُ قد أَدْمَنَتْ على الانعطافِ والكرِّ والفرِّ . وأُهديت له عِمامةٌ من مصرَ مُذهَّبةٌ ، فأعطاها لابنِ حَمُّويه شيخِ الصوفية ، فبيعتْ بألفِ دينار .

قال[١] : وجاءَهُ رجلٌ طَلَبَهُ إلى الشَّرْعِ ، فجاء معه إلى مجلسِ كمالِ الدينِ الشَّهرزوري ، وتقدَّمه الحاجبُ يقولُ للقاضي : قد قال لكَ : اسْلُكْ معه ما تَسْلُكُ مع آحادِ الناسِ . فلمَّا حضَر سوَّى بينَه وبين خَصْمِهِ ، وتحاكما ، فلم يثبُت للرجُلِ عليه حقٌّ ، وكان مِلْكًا ، ثم قال السلطانُ : فاشهدوا أني قد وهبتُه لَهُ .

وكان يَقْعُدُ في دار العدلِ في الجُمُعة أربعةَ أيام ، ويأمُرُ بإزالةِ الحاجبِ والبوّابين ، وإذا حضرتِ الحربُ ، شدَّ قوسيْنِ وتَرْكَاشَيْن[٢] ، وكان لا يَكِلُ الجُنـدَ إلى الأُمراء ، بل يُباشِرُ عَدَدهم وخُيولَهم ، وأَسَرَ إفرنجيًّا ، فافْتَكَّ نفسَهُ منه بثلاثمائة ألف دينار ، فعند وصولِه إلى مأْمنه ماتَ ، فبنى بالمالِ المارستانَ والمدرسةَ .

قال العمادُ في « البرقِ الشامي » : أكْثَرَ نورُ الدين عامَ موتِه من البِرِّ والأوقافِ وعِمارةِ المساجد ، وأسقطَ ما فيه حرام ، فما أبقى سوى الجِزيةِ والخَراجِ والعُشْرِ ، وكَتَب بذلكَ إلى جميعِ البلاد ، فكتبتُ له أكثرَ من ألفِ منشور .

قال : وكان له بِرَسْمِ نفقةٍ خاصَّة في الشهر من الجزية ، ما يبلُغُ ألفي قرطاسٍ ، يَصْرِفُها في كسوتِه ومأكولِه وأُجرة طبَّاخِه وخيَّاطِه ، كلّ ستين قرطاسًا بدينارٍ .

قال سبطُ الجوزي[٣] : كان له عجائزُ ، فكان يَخِيطُ الكوافي ، ويعملُ ....

---

(١) في « مرآة الزمان » ٨ / ١٩٣ و١٩٤ و١٩٥ .
(٢) التركاش : كلمة فارسية ، معناها : الجعبة . معجم الألفاظ الفارسية المعربة صـ ٣٦ .
(٣) في « مرآة الزمان » ٨ / ١٩٧ .

السكاكر[1]، فيبِعْنَها له سرًّا ، ويُفطرُ على ثمنها .

قال ابنُ واصل : كان من أقوى الناس قلبًا وبَدَنًا ، لم يُرَ على ظهر فرسٍ أحدٌ أشدَّ منه ، كأنما خُلق عليه لا يتحرَّكُ ، وكان من أحسن الناسِ لعبًا بالكُرة ، يجري الفرسُ ويخطِفُها من الهواء ، ويرميها بيده إلى آخرِ المَيْدان ، ويُمسِكِ الجُوكان[2] بكُمِّه ، تهاوُنًا بأمره ، وكان يقولُ : طالما تعرَّضْتُ للشَّهادة ، فلم أُدْرِكْها .

قلتُ : قد أدركَها على فراشِه ، وعلى ألسنةِ الناسِ : نورُ الدين الشهيدُ . والذي أسقطَ من المُكُوسِ في بلادِه ذكرتُه في « تاريخنا الكبير » مُفصَّلًا ، ومبلغه في العام خمسمائة ألف دينار ، وستة وثمانون ألف دينار ، وأربعة وسبعُون دينارًا من نَقْد الشام، منها على الرَّحبة ستة عشر ألف دينار، وعلى دمشق خمسون ألف وسبعمائة ونَيِّف ، وعلى المَوْصِلِ ثمانيةٌ وثلاثون ألف دينار وعلى جَعْبَر سبعةُ آلاف دينار ونيِّف ، وفي الكتاب : فأيقَنُوا أنَّ ذلك إنعامٌ مُستمرٌّ على الدُّهور ، باقٍ إلى يوم النُّشُور ، فـ ﴿ **كُلُوا من رِزْقِ ربّكم واشكُروا له بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ورَبٌّ غفُور** ﴾ [سبأ : ١٥] . ﴿ **فمَنْ بدَّلَهُ بعدَ ما سَمِعَهُ فإنَّما إثْمُهُ على الذين يُبَدِّلُونَهُ** ﴾ [البقرة : ١٨١] . وكتب في رجب سنة سبعٍ وستين وخمسمائة .

---

(١) في كتب اللغة : السُّكْر : ما يسدّ به النهر ونحوه والمُسَنَّاة ، وكل ما يُسَدّ من شقٍّ أو بثْق . والجمع : سُكُور . وقد يكون المراد المزلاج الذي يُوضع خلف الباب لإغلاقه ، ولا زال أهل الشام إلى يومنا هذا يستعملون كلمة السُّكر للمزلاج . وفي مرآة الزمان : ويعمل الكساكير للأبواب .

(٢) الجوكان : كلمة فارسية ، وهي عصا لعبة الكولف ، وكل عصا معكوفة ، وتعريبها : الصولج والصولجانة . انظر : معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص١٠٩ .

قال سبطُ الجوزي[1]: حكى لي نجمُ الدين بنُ سلام عن والدِه أنَّ الفِرنجَ لمَّا نَزَلَتْ على دِمياط ، ما زال نورُ الدين عشرين يومًا يصومُ ، ولا يُفطرُ إلا على الماءِ ، فضعُفَ وكاد يَتْلَفُ ، وكان مَهيبًا ، ما يجسرُ أحدٌ يخاطِبهُ في ذلك ، فقال إمامُه يحيى : إنه رأى النبيَّ ﷺ في النومِ يقولُ : يا يحيى ، بشِّر نورَ الدِّين برحيلِ الفِرَنجِ عن دمياط . فقلتُ : يا رسولَ الله ، ربما لا يُصَدِّقُني . فقال : قُل له : بعلامةِ يومِ حارِم . وانتبه يحيى ، فلمَّا صلَّى نورُ الدين الصُّبحَ ، وشرع يدعُو ، هابه يحيى ، فقال له : يا يحيى ، تُحدِّثُني أو أُحدِّثك ؟ فارتعدَ يحيى ، وخرس ، فقال : أنا أُحدِّثك ، رأيتَ النبيَّ ﷺ هذه الليلةَ ، وقال لك كذا وكذا . قال : نعم . فبالله يا مولانا ، ما معنى قوله : بعلامةِ يومِ حارِم ؟ فقال : لمّا التقينا العَدُوَّ ، خِفْتُ على الإسلام ، فانفردتُ ، ونزلتُ ، ومَرَّغتُ وجهي على التُّراب ، وقُلت : يا سيدي ، مَنْ محمودٌ في البين ، الدِّينُ دينُك ، والجُنْدُ جندُك ، وهذا اليوم افْعَلْ ما يَلِيق بكَرَمِك . قال : فنصرنا اللهُ عليهم .

نور الدين محمود زنكي هو وصلاح الدين يُمثِّلان التجديد الجهادي في عصرهما :

من أراد معرفة فضل السلطان نور الدين وأثره وجهاده ، وأنه يمثِّل هو وصلاح الدين التجديد الجهادي في عصرهما ، فليُطالع معنا ما قاله أبو شامة عن سبب اهتمامه بتاريخ هاتين الدولتين (النُّوريَّة والصَّلاحيَّة) ، يقول أبو شامة عن نور الدين : « أطربني ما رأيتُ من آثاره وسمعت من أخباره مع تأخُّر زمانه ، ثم وقفتُ بعد ذلك على سيرة سيِّد الملوك بَعْدَه الملك الناصر صلاح الدين ، فوجدتُهما في المتأخِّرين كالعُمَرَيْن رضي الله عنهما

(١) مرآة الزمان ١٩٩/٨ ، ٢٠٠ .

في المتقدِّمين ، فلله دَرُّهُما مِنْ مَلِكيْن تعاقبا على حُسن السِّيرة وجميل السَّريرة ، والفضل للمتقدِّم – نور الدين – فإنه أصْل ذلك الخير كلّه ، مهَّد الأمور بعدْله وجهاده وهيبته في جميع بلاده ، ولكن صلاح الدين أكْثَر جهادًا وأعَمّ بلادًا ، صَبَرَ وصابر ، وذَخر اللهُ له من الفتوح أنْفَسَهُ ، وهو الذي فتح الأرضَ المقدَّسة [1] .

لم يكن الجهاد عند نور الدين حلًّا مؤقَّتًا أو مصلحةً تقتضيها الظروف ، بل كان الأصل هو الاستعداد للجهاد وغزو الكفار ، فقد عاتب نورُ الدين السلطانَ قلج أرسلان السلجوقي الذي كان يحكم ملطية وسيواس وأقصرا من بلاد الأناضول المُجاوِرة للروم ؛ عاتبه لأنه يحاول التَّسلُّط على بلاد الإسلام ، ولا يُقاتل الروم ، وقال له : « أنت مجاورٌ للروم ، ولا تغزوهم ! وبلادُك قطعةٌ كبيرة من بلاد الإسلام ، ولا بُدَّ من الغَزَاةِ معي » [2] .

وفي إحدى عزماته لقتال الصليبيين ، أرسل إلى أخيه قطب الدين صاحب الموصل ، وإلى صاحب حصن « كيفا » وصاحب ماردين ، فاستجابوا له ، أمَّا صاحب حصن كيفا فقد قال له أصحابه : على أي شيء عزمتَ ؟ قال : على القعود ، فإن نور الدين يُلقي نفسه والناس في المهالك . فوافقوه على رأيه ، فلمَّا كان الغد أمر بالتَّجهُّز للغزاة ، فقال له أولئك : ما عدا ممَّا بدا ؟ فارقناك أمس على حالةٍ ، فنرى اليوم ضدَّها . قال : إن نور الدين قد سَلَكَ معي طريقًا ، إن لم أُنجده ، خرج أهلُ بلادي عن طاعتي ؛ فإنه قد كاتبَ زُهَّادها وعُبَّادها ، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج ، ويستمدُّ منهم الدعاء ، ويطلب إليهم أن يحثُّوا المسلمين على الغزاة ،

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ١/٤ .
(٢) الكامل ٣٩٢/١١ .

فقعد هؤلاء يبكون ويلعنونني ويدعون عليَّ ، فلا بُدّ من المسير إليه[١] .

وفي وقعة بانياس وفتْح قلعتها ، كان معه أخوه نصر الدين فأصابه سهمٌ ، أذهب إحدى عينيه ، فلمّا رآه نور الدين قال : لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعدَّ لك ، لتمنَّيتَ ذَهابَ الأُخرى . وكان معه في هذا الفتح وَلَدُ « معينِ الدين أنر » الذي سلَّم قلعة بانياس للفرنجة ، فقال له نور الدين : « للمسلمين فرحةٌ واحدة بهذا الفتح ، ولك فرحتان . فقال : كيف ذلك ؟ قال لأن اليوم برَّد اللهُ جِلْدَ والدِك من النار »[٢] .

كان رحمه الله مواظبًا على الصلوات في الجماعات ، عاكفًا على تلاوة القرآن ، عفيف البطن والفرج ، مقتصدًا في الإنفاق ، متحرِّيًا في المطاعم والملابس ، لم تُسمع منه كلمةُ فُحشٍ[٣] . قال عنه ابنُ الأثير : « طالعتُ تواريخَ الملوك المتقدِّمين ، قَبْلَ الإسلام وبَعْدَهُ إلى يومنا هذا ، فلم أَرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسنَ سيرةً منه »[٤] .

ومن زهده وتقواه ، أنه كان لا يأكل ولا يَلْبَس إلا من مُلْكٍ كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ، ومن الأموال المُرصَدة لمصالح المسلمين ، وقد شكتْ إليه زوجته الضائقة وزيادة النفقة ، فاحمرَّ وجهه وقال : من أين أعطيها ما يكفيها ؟! والله لا أخوض نار جهنم في هواها . ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين مِلكًا ، وقد وهبتُها إياها فلتأخُذْها[٥] .

---

(١) الكامل ٣٠٢/١١ .

(٢) الكامل ٣٠٤/١١ .

(٣) الروضتين في أخبار الدولتين .

(٤)، (٥) الكامل ٤٠٣/١١ .

روى أحد الملازمين له من أمرائه فقال : كنت معه يومًا في الميدان بالرُّها ، والشمس في ظهورنا ، فكلَّما سِرْنا تقدَّمنا الظِّلّ ، فلمَّا عُدنا صار ظلُّنا وراءَ ظهورنا ، فأجرى فرسَهُ وهو يلتفت وراءه ، وقال لي : أتدري لأي شيءٍ أُجري فرسي وألتفتُ ورائي ؟ قلت : لا . قال : قد شبَّهتُ ما نحن فيه بالدنيا ، تهرب ممَّن يطلبها ، وتطلب مَنْ يهرب منها . قال أبو شامة : رضي الله عن ملكٍ يفكّر في مثل هذا[1] .

وقال ابن الأثير : وكان يصلي كثيرًا من الليل ويدعو ويستغفر ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب .

جَمَعَ الشجاعةَ والخُشُوعَ لربِّه ما أحْسَنَ المحرابَ في المحرابِ[2]

وكان عارفًا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ، وليس عنده تعصُّب ، بل الإنصاف سجيته في كل شيءٍ ، وعلى الحقيقة فهو الذي جدَّد للملوك اتِّباع سُنَّة العدلِ والإنصاف ، وترْك المحرَّمات من المأكل والمشرب والملبس ، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همَّةُ أحدِهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا ، وأمّا عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرةً ، فلم يترُك في بلد من بلاده ضريبة ولا مَكْسًا ولا غشًّا ، بل أطلقها - رحمه الله - جميعَها في بلاد الشام والجزيرة ومصر[3] .

ومن عدله أنه بنى دارًا للعدل ، وكان سبب بنائها أن أُمراءه وقُوّاد جيوشه تعدَّوْا على من يجاورهم ، فكثُرت الشكاوي إلى القاضي كمال الدين فأنصف بعضهم ، ولم يتجرَّأ على القائد أسد الدين شيركوه ، فلمَّا سمع نورُ

---

(١) الروضتين ٦/١ .
(٢) الكامل ٤٠٣/١١ .
(٣) الروضتين ٦/١ .

الدين بذلك ، بنى هذه الدار ، وأحسَّ أسد الدين بهذا فقال لنُوَّابه : والله لئن أُحْضِرْتُ إلى دار العدل بسبب أحدكم ، لَأصْلُبَنَّه ، فامضوا إلى كلِّ مَنْ بينكم وبينه مُنازَعةٌ، فأَرْضُوه وافصِلوا الحَالَ معه(١). فقالوا: إذا فعلنا هذا فإن الناس يشتَطُّون في الطَّلَب . فقال : خروج أملاكي عن يدي ، أسهلُ عليَّ من أن يراني نور الدين بعين أبيٍّ ظالم . وكان نور الدين يجلس في هذه الدار يومين في الأسبوع ، فلمَّا علم ما حَصَل مع أسد الدين شيركوه ، سجد لله شكرًا(٢). وقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا يُنصِفُون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا .

فانظر إلى هذه المعدلة ما أحسنها ، وإلى هذه الهيبة ما أعظَمَها ! .

وأمَّا فِعْله في بلاد الإسلام من المصالح فكثير ، فقد بنى أسوار مدن الشام جميعها وأحكَمَ بناءها ، وبنى المدارس بحلب وحماة ودمشق ، وكان أهل الدين عنده في أعلى محلٍّ ، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، فقد ذَكَر أحدُ الأمراءِ الشيخَ قطبَ الدين النيسابوري أمام نورِ الدين ، فقال له السلطانُ : يا هذا ، الذي تتكلَّمُ عليه فله حسنةٌ تغفر كلَّ زلّةٍ ، وهي العِلْم والدِّين ، وأمّا أنت وأصحابُك ، ففيكم أضعافُ ما ذكرت ، وليستْ لكم حسنةٌ تغفرها ، وأنا أحملُ سيئاتكم مع عَدَم حسناتكم ، أفلا أحمل سيئةَ هذا - إن صحَّتْ - مع وجود حسنته ، على أنني والله لا أُصدِّقك فيما تقول . وإن عُدتَ وذكرتَهُ بسوءٍ لأُؤدِّبنَّك(٣) .

ومن عفَّته وتقواه ، أن ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك ، لا

---

(١) أي أنهوا المشكلة بأي طريقةٍ ، ولو أن ترهنوا له كل ما يطلب .

(٢) الروضتين ١/٨ .

(٣) الروضتين ١/٩ .

يتصرَّف في شيءٍ منه لا قليلٍ ولا كثيرٍ ، بل يُخرجه إلى مجلس القاضي ، ويحصِّل ثمنه ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة ، وأمر الخطباء بإسقاط ألقابه في الدعاءِ له على المنابر ، وكان كما وصفه العماد الأصفهاني : « هو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام ، وقد غَلَب الكفر ، وبلغَ الضُّرّ ، فاستفتح معاقلها واستخلص عقائلها ... »[(١)] . وعندما تملَّك الموصل أمَرَ قائد شرطتها أن لا يعمل شيئًا إلا بالشَّرْع الذي يأمر القاضي به ، وكانوا قبله يعملون بالسياسة[(٢)] . وطُلب منه أن يزيد في العقوبات فرفض وقال : هذا زيادةٌ في الشريعة .

فتوحات نور الدين :

من أوائل وقعاته مع الفرنجة ، أنه أثناء زيارة والي دمشقْ « معين الدين أنر » في بعلبك ، جاءهم كتابٌ من صاحب طرابلس الصليبي ، يحثُّهم فيها على أخْذ حصن العريمة ، فاستغلَّ نور الدين هذا الطلب ، وحاصر هو ومعين الدين الحصن وأخذاه . وفي سنة ٥٤٣ سار نور الدين إلى بُصْرَى الشام وقد اجتمع فيها الفرنجة عازمين على قصد الجزء الداخلي من بلاد الشام ، فالتقى بهم هناك واقتتلوا أشدَّ القتال ، ثم أنزل الله نصرَهُ على المسلمين وانهزم الفرنجة[(٣)] . وفي سنة ٥٤٤ هاجم حصن حارِم ، وخرَّب ما حوله ونهب ، ثم رحل عنه إلى حصن آنب ودارتْ معركةٌ مع الفرنجة ، انتصر فيها المسلمون وقُتل فيها أمير أنطاكية ، ثم سار نور الدين إلى حصن (فاميا) وحاصره وضيَّق عليه ، ثم تملَّكه صُلحًا[(٤)] . وفي سنة ٥٤٦ استطاع نور الدين بعد أسْرِ (جوسلين) أحد شياطين الفرنجة ، استطاع أخْذ قلاع تل باشر وعين تاب

---

(١) الروضتين ١/١١ .
(٢) الروضتين ١/١٣ .
(٣)، (٤) الروضتين ١/٥٥ ، ١/٥٨ .

وعزاز ومرعش وغيرها من أعمال حلب . وفي سنة ٥٤٩ دخلتْ دمشق ضمن دولته ، وكان نور الدين يخطِّط من زمنٍ لأخْذها ؛ لأنها في طريقه إلى الصليبيين ، وهي ضعيفة وحدها ، وإذا حاول أخذها بالقوة فإن ملكها يستجير بالصليبيين ، عدا عن كُره نور الدين لسفك الدماء ، ولذلك تحايلَ على مجير الدين حتى فاجأه بهجومٍ سريع ، بعد أن كاتب أهل دمشق ليسلِّموها له ، فدخلها دون قتالٍ يُذكر ، وأعطى مجيرَ الدين مدينة حمص .

شـدَّة بأسه وثَبَات جَأْشِه وإخلاصه في الدعاء :

في سنة ٥٥٣هـ ، يقول أبو شامة في « عيون الروضتين » : « وَرَدَ الخبرُ من العسكر ، بأن الفرنج تجمَّعُوا ، وزحفوا إلى المسلمين ، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر ، والتقى الجمعان ، واتَّفق أن عسكر الإسلام حصل فيه لبعض المقدّمين فاندفعوا ، وتفرّقوا بعد الاجتماع ، وبقي نور الدين رحمه الله ثابتًا في مكانه في عدَّةٍ يسيرةٍ من شجعان غلمانه وأبطال خواصّه ، في وجوه الفرنج ، وأطلقوا فيه السهام ، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير ، ثم إنهم ولّوْا منهزمين خوفًا من كمينٍ يظهر عليهم من عسكر الإسلام ، ونجّى اللهُ - وله الحمد - نور الدين منهم بشدّة بأسه وثبات جأشه ومشهور شجاعته ، وعاد إلى مخيَّمه سالمًا في جماعته .

وذَكر أبو الفتح بن أبي الحسن بن الأشتري هذه الواقعة فقال : بقي نور الدين مع شرذمةٍ قليلة وطائفةٍ يسيرة ، واقفًا على تلٍّ يُقال له : تلّ حبيش ، وقد قُرب عسكر الكفار ، بحيث اختلط رَجَّالةُ المسلمين مع رجّالة الكفار ، فوقف نور الدين بحذائهم مولّيًا وجهَهُ إلى قِبلة الدعاء ، حاضرًا بجميع قلبه مُناجيًا ربَّه بسِرّه ، ويقول : يا ربّ ، أنا العبدُ الضعيفُ ، قلَّدْتني هذه الولاية ، وأعطيتني هذه النيابة ، عمَّرتُ بلادَك ، ونصحتُ عبادَك ، وأمرتُهم بما أمرتني به ، ونهيتُهم عمَّا نهيتني عنه ، فرفعتُ المنكراتِ من بينهم ،

وأظهرتُ شعارَ دينك في بلادهم ، وقد انهزم المسلمون ، وأنا لا أقدرُ على دَفْع هؤلاء الكفار أعداءِ دينك ونبيِّك محمدٍ ﷺ ، ولا أملك إلَّا نفسي هذه ، قد سلَّمْتُها إليك ، ذابًّا عن دينك ، وناصرًا لنبيِّك . فاستجاب الله دُعاءَهُ ، وأوقع في قلوبهم الرعب ، وأرسل عليهم الخِذلان ، فوقفوا مَوَاضِعَهم ، وما جَسَرُوا على الإقدام عليه ، وظنُّوا أن نور الدين عَمِلَ عليهم الحيلة ، وأن عسكر المسلمين في الكمين . قال : وترجَّل كُلُّ من كان مع نور الدين ، وقبَّلُوا الأرض بين يديه ، وتشفَّعُوا إليه في أن يرجع ، وقالوا : أيّها الملك ، أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع ، وفي هذا الإقليم ، فإن جرى - والعياذ بالله - وهنٌ وضعفٌ من استيلاء الكفار على المسلمين ، مَنِ الذي يقدر على تدارُكه ؟ قال : وحلف من شاهَدَ ذلك ، أنهم أخذوا بعِنان فرسه كُرهًا ، ورحلوا من ذلك الموضع ، وما كان في عزْم نور الدين أن يرحل من ذلك الموضع ، فلمَّا عرف الكفار ذلك ، وأنه ما كان عليهم لا كمينٌ ولا حيلةٌ ، ندموا ندامةً عظيمةً ، خذلهم الله تعالى .

وفي سنة ٥٥٨هـ :

أَكْثَرَ الخَرْجَ نورُ الدين ، إلى أن قسَّم في يومٍ واحد مائتي ألف دينار ، سوى غيرها من الدوابّ والخيام والسلاح وغير ذلك ، وتقدّم إلى ديوانه أن يُحضروا الجند ، ويسألوا كلَّ واحدٍ منهم عن الذي أُخذ منه ، فكلّ مَنْ ذَكَر شيئًا ، أعطوْه عِوَضَه ، فذكر أن بعض الجند حضر ، وادّعى شيئًا كثيرًا ، علم بعضُ النُّواب كذبَهُ فيما ادَّعاه ، لمعرفتهم بحاله ، فأرسلوا إلى نور الدين يُنهون إليه القضيَّة ، ويستأذنونه في تحليفه على ما ادَّعاه ، فأعاد الجواب : لا تُكدِّرُوا عطاءنا ، فإني أرجو الثواب على قليله وكثيره . وقال له أصحابه : إنّ لك في بلادك إدارات كثيرة ، وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفيَّة والقُرّاء ، فلو استعنتَ بها لكان أَمْثَل . فغضب من هذا

وقال : والله إني لا أرجو النصر إلَّا بأولئك ، فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صِلات قوم يقاتلون عني - وأنا نائمٌ على فراشي - بسهامٍ لا تُخطئ ، وأصرفها إلى مَنْ لا يُقاتل عني إلّا إذا رآني بسهامٍ قد تُخطِئ وتُصيب ، ثم هؤلاء القوم لهم نصيبٌ في بيت المال أصرفه إليهم ، كيف أُعطيه غيرهم ؟! فسكتوا »[(١)] .

لله درُّك يا نور الدين .. ما أعظَمَك وأفْقَهَك وأكرمَك .

نَصْرُ « نور الدين » العظيمُ في وقعة حارِم سنة ٥٥٩هـ :

قال أبو شامة : « كَسَرَ نورُ الدين الفِرنج على « حارِم » ، وقُتل منهم في معركة واحدةٍ عشرون ألفًا ، وأُسِرَ مَنْ نجا ، وأُخذ القومص والبرنس والدوقس وجميع ملوكهم ، وكان منحًا عظيمًا وفتحًا مبينًا ، ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المُهادَنة فلم يُجبهم إليها ، فتركوا عند الحصن مَنْ يحميه ، وعادوا إلى بلادهم وتفرَّقوا » .

وكان فتْح « حارِم » من أعظم معارك نور الدين مع الصليبيين ، إذ جاء الفرنج بحدِّهم وحديدهم ، وملوكهم وفرسانهم ، وكان المقدّم عليهم البرنس « بيموند » صاحب أنطاكية ، و « قمص » صاحب طرابلس ، وابن جوسلين ، واستطاع نور الدين جرّهم إلى معركةٍ خارج حصن حارم ، وانتصر عليهم انتصارًا ساحقًا ، ووقع كلُّ الأمراء والملوك أسرى بين يديه .

قال العلّامة أبو شامة في « عيون الروضتين » (١/٢٦٨ - ٢٧٢) :

« قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر : كَسَر نور الدين الرومَ والفِرنج والأرمن على « حارم » وكان عدّتهم ثلاثين ألفًا ، ووقع « بيمند » في أسْرِه في نوبة حارم ، وباعه نَفْسَهُ بمالٍ عظيمٍ أنفقه في الجهاد .

---

(١) عيون الروضتين ١/٢٥٨ - ٢٥٩ .

وقال العماد الكاتب : اغتنم نور الدين خلوّ الشام من الفِرنج – يعني بسبب رحيلهم إلى مصر – وقَصَدَهم ، واجتمعوا على « حارم » فضَرَبَ معهم المصافّ ، فرَزَقَهُ الله الانتقامَ منهم ، وأسَرَهم وقَتَلَهم ، ووقع في الأُسارَى برنس أنطاكية ، وقومص طرابلس وابن الجوسلين ودوك الروم ، وذلك في رمضان . قال : وقُتل منهم في المعركة عشرون ألفًا .

قال ابن الأثير : أقبل نور الدين على الجدّ والاجتهاد ، والاستعداد للجهاد ، والأَخْذ بثأره ، وغزْو العدو في عقر داره ، ليَرْتُق ذلك الفَتْق ، ويمحو سمة الوَهْن ، ويعيد رَوْنَق المُلك ، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل ، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ، ونجم الدين ألبي بماردين ، وغيرهم من أصحاب الأطراف . فأمَّا قطب الدين ، فإنه جمع عساكره وسار مُجِدًّا ، وعلى مقدّمة عسكره زين الدين علي نائبه ، وأما فخر الدين قرا أرسلان ، فبلغني أن خواصّه قالوا له : على أي شيءٍ عزمتَ ؟قال: على القعود ، فإن نور الدين قد تحشّف[1] من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يُلقي نَفْسَه والناس معه في المهالك . وكلُّهم وافَقَهُ على ذلك ، فلمَّا كان الغد ، أمَرَ بالنداء في عسكره بالتجهيز للغزاة ، فقال له أولئك : ما هذا مما بدا ، فارقناك بالأمس على حالٍ ، ونرى الآن ضدَّها . فقال : إن نور الدين قد سلك معي طريقًا ؛ إن لم أُنجده ، خرج أهل بلادي عن طاعتي ، وأخرجوا البلاد عن يدي ، فإنه كاتب زُهَّادها وعُبّادها والمنقطعين عن الدنيا ، يذكُر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج ، وما نالهم من الأسْر والقتْل والنَّهْب ، ويستمدُّ منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثُّوا المسلمين على الغزاة ، وقد قعد كلُّ واحدٍ من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرءون كتب نور الدين ويبكون ، ويلعنونني ويدعون عليَّ ، فلا بدّ من إجابة دعوته .

---

(١) تحشّف : اكتسى الأطمار .

ثم تجهز أيضًا وسار إلى نور الدين بنفسه . وأمَّا نجم الدين ألبي فإنه سيَّر عسكرًا . فلمَّا اجتمعتِ العساكر ، سار نور الدين نحو « حارم » ، فنزل عليها وحصرها ، وبلغ الخبرُ إلى مَنْ بقي من الفرنج بالساحل لم يَسِرِ إلى مصر ، فحشدوا وجاءوا ومقدّم الفرنج « البرنس » صاحب أنطاكية ، والقمص صاحب أطرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها ، و « الدوك » وهو رئيس الروم ومقدّمها ، وجمعوا معهم من الرَّاجِل ما لا يقع عليه الإحصاء ، قد ملئوا الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء ، فحرَّض نور الدين أصحابه ، وفرَّق نفائس الأموال على شجعان الرجال ، فلمّا قاربَهُ الفرنج ، رحل عن « حارم » إلى « أرتاح » وهو إلى لقائهم مرتاح ، وإنما رَحَل طمعًا أن يتبعُوه ، ويتمكّن منهم إذا لَقُوه ، فساروا حتى نزل على عمّ[1]، وهو على الحقيقة تصحيفُ ما لقوه من الغَمّ ، ثم تيقَّنُوا أن لا طاقة لهم بقتاله ، ولا قُدرة لهم على نزاله ، فعادوا إلى حارم وقد حرمتْهم كلَّ خير ، وتَبعهم نور الدين ، فلمَّا تقاربوا واصطفُّوا للقتال ، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين ، وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فبدَّدُوا نظامهم ، وزلزلوا أقدامهم ، وولّوهم الأدبار ، وتَبِعَهُم الفرنج ، وكانت تلك الفَرَّة من الميمنة على اتّفاقٍ ورأي دبَّرُوه ، ومكر بالعدوِّ مَكَرُوه ، وهو أن يبعدوا عن راجلهم[2]، فيميل عليهم من بقي من المسلمين ، ويضعوا فيهم السيوف ، ويُرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، لم يلقوا راجِلًا يلجئون إليه ، ويعود المنهزمون

---

(١) قرية بين حلب وأنطاكية .

(٢) قُصد بها أن الفارس المدرّع الثقيل ، غير المدعم بقُوًى من المشاة ، وغير المحروس من قِبَلها ، يفقد فاعليَّته في المعركة ، وهذا يدلّ على حِنكة نور الدين العسكرية .

في آثارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم ، فكان الأمر على ما دبَّروا ، فإن الفرنج لمَّا تبعوا المنهزمين ، عَطَفَ زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم ، فأفناهم قتْلًا وأسْرًا ، وعادت خيَّالُهم ، ولم يُمْعنوا في الطَّلب خوفًا على راجِلِهم من العَطَب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد مُعفَّرين ، وبدمائهم مُضَرَّجين ، فسقط في أيديهم ، ورأوْا أنهم قد ضلُّوا ، وخضعتْ رقابُهم وذَلُّوا ، فلمَّا رجعوا ، عطف المنهزمون أعِنَّتهم وعادوا ، فبقي العدو في الوسط ، وقد أحدق بهم المسلمون من كلٍّ جانب ، فحينئذٍ حمي الوطيس ، وباشر الحربَ المرؤوسِ والرئيس ، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة ، وحاربوا حراب من أيس من الحياة ، وانقضَّتِ العساكر الإسلامية عليهم انقضاضَ الصُّقور على بُغات الطيور ، فخرقوهم بَدَدا ، وجعلوهم قِدَدا ، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الإسار ، وعجزوا عن الهزيمة والفرار ، وأكثر المسلمون فيهم القتْل ، وزادت عدَّة القتلى على عشرة آلاف[1]، وأما الأسرى فلم يُحصوْا كثرةً ، ويكفيك دليلًا على كثْرتهم ، أن ملوكهم قد أسروا ، وهم الذين قَبْلُ ذُكِروا .

قلت : وبلغني أن نور الدين - رحمه الله - لمَّا التقى الجمعان أو قُبيله ، انفرد تحت تلّ حارم ، وسجد لربِّه عز وجل ، ومرّغ وجهه وتضرّع وقال : يا ربّ ، هؤلاء عبيدُك ، وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك ، وهم أعداؤك ، فانصر أولياءك على أعدائك ، أيش فضول محمود في الوسط . يشير إلى أنك يا ربّ ، إنْ نصرتَ المسلمين فدينك نصرت ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود ، إن كان غير مستحقٍّ النصر .

وبلغني أنه قال : اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودًا ، من هو محمود الكلب حتى يُنصر ؟! وجرى بسبب ذلك منامٌ حسن .. سنذكره . وهذا

---

(١) في الروضتين ١/١٣٣ : عشرين ألفًا .

فتحٌ عظيم ، ونصرٌ عزيز ، أنعم الله به على نور الدين والمسلمين ، مع أن جيشه - عامئذٍ - كان منه طائفةٌ كثيرة بمصر مع أسد الدين شيركوه ، وهذا من عجيب ما وقع واتَّفق » .

وفي سنة ٥٦١هـ فتح حصن المنيطرة : سار إليه على غِرَّةٍ من الفرنج وحَصَرَهُ ، وجَدَّ في قتاله ، فأخذه عَنْوَةً وقَتَل من به ، وسَبَى وغنم غنيمةً كثيرةً .

ومن عَجَبٍ أن السُّيوفَ لديهمُ تحيضُ دماءً والسُّيُوفُ ذُكُورُ
وأعْجَبُ من ذا أنَّها في أكُفِّهمْ تأجَّجُ نارًا والأكُفُّ بحورُ

وفي سنة ٥٦٢هـ تملَّك نور الدين صافيتا والعريمة .

توحيد مصر والشام سنة ٥٦٤هـ :

لم يَغِب عن بال السلطان محمود ، أن توحيد بلاد الشام ومصر من أقوى الأسباب للوقوف في وجه الصليبيين . وجاءت الفرصة المناسبة عندما استجار به وزير العُبيديين في مصر شاور السعديُّ ، وذلك لمساعدته في إرجاع منصب الوزارة الذي فَقَدَه ، بادر نور الدين للإجابة ، وأرسلَ جيشًا بقيادة أسد الدين شيركوه ، على أن يكون لنور الدين ثلث دَخْل مصر . دَخَل جيشُ نور الدين القاهرة ، وأعاد شاورًا للوزارة ، ولكنْ شاور غدرَ ما عاهَدَ عليه ، وطلب من أسد الدين مغادرة مصر ، واستنجد بالصليبيين الذين وجدوها فرصة ، فاضطرّ أسد الدين للانسحاب دون خسائر ، وفي نِيَّته العودة لمصر لتأديب شاور ، وفي عام ٥٦٢ هـ كان أسد الدين قد أكْمَلَ الاستعدادات وجَدَّ في السيْر ، فوصل مصر وعسكَرَ غربي القاهرة ، فالتقى مع المصريين يُساعدهم الفرنجة ، وهزمهم شرَّ هزيمةٍ ، وليس معه إلا ألفان من الفرسان ، ثم إن المصريين بذلوا له الأموال للصُّلح ، فوافق ورجع للشام ،

وكان الفرنجة في هذه المرة قد تمكَّنُوا من شاور وحكومته ، وشرطوا شروطًا ، منها أن يكون لهم حامية في القاهرة ، فتحكَّمُوا في المسلمين ، واستدعَوْا الصليبيين من فلسطين لأخْذ مصر ، فاشتدَّ خوف نور الدين أن يأخذ الكفارُ مصر ، فتجهَّز أسد الدين للمرة الثالثة ، وأخذ معه ابنَ أخيه صلاح الدين وهو كارهٌ لذلك،﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم** ﴾ . وكان شاور قد أرضى الصليبيين بالمال ليعودوا عن مصر ، فاستجابوا له ، ولكن أسد الدين كان قد عزم هذه المرة أن يستقرَّ بمصر ، وبدأ شاور يُماطل ويعمل الحِيَل لإبعاد جيش نور الدين ، وقرَّر القبض على أسد الدين وأمرائه ، فأشار عليه ابنُه (الكامل) بألَّا يفعل . فقال له شاور : لئن لم أفعل لنُقتلنّ جميعًا . قال الابن : لأن نُقتل ونحن مسلمون ، والبلاد إسلاميةٌ ، خيرٌ من أن نُقتل وقد مَلَكَها الفرنج . ولكن شاور أصرَّ على غدْره ، وشعر به قُوَّاد أسد الدين ، فاتَّفقُوا على قتْله واستراحوا منه ، واستراحت مصر منه أيضًا . وأصبح أسد الدين وزيرًا للدولة المصرية العُبيدية ، وكان آخر ملوكها العاضد ليس له من الأمر شيء ، فكانت وزارة شيركوه أوّل خطوة على طريق إعادة مصر إلى السُّنَّة . بعد شهرين من وزارته توفِّي رحمه الله ، وتولَّى بعده ابنُ أخيه صلاح الدين ، وهو الذي أزال الدولة العُبيدية ، بعد إلحاحٍ من نور الدين بأن يقطع الخطبة للعاضد ويخطب للخليفة العباسي ، وصلاح الدين يعتذر خوفًا من أهل مصر ، ولكن عندما استجاب لم يُخالفه أحد ، ولم ينتطح فيها عنزان . وهكذا كان إرجاع مصر للسُّنّة وتوحيدها مع بلاد الشام ، من خطوات الجهاد المباركة التي بدأها نور الدين عليه رحمة الله ، وأكْمَلَ هذه الخطوات السلطانُ المجاهد صلاح الدين .

قال ابن عساكر يُهنِّئ نور الدين – رحمه الله – باستيلاء عسكره على

مصر ، وكان قد أعفى أهل دمشق من المطالبة والخشب :

لمَّا سمحتَ لأهل الشام بالخشبِ عُوِّضتَ مصرَ بما فيها من النَّشَبِ

ومنها :

فأحْزَمُ النّاسِ مَنْ قوَّى عزيمتَهُ حتى ينالَ بها العالي من الرُّتَبِ
فالجدُّ والجَدُّ مقرونانِ في قَرَنٍ والحزْمُ في العزْمِ والإدراكُ في الطَّلَبِ

صفحاتٌ من نور لنور الدين: «إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني مبتسمًا ، والمسلمون مُحاصَرُون بالفرنج » :

في سنة ٥٦٥هـ نزل الفرنج – خذلهم الله – على دمياط .

قال ابن الأثير : كان فرنج الساحل لمَّا ملك أسد الدين مصر ، قد خافوا ، فكاتبوا فرنج الأندلس وصقلية ، يستمدُّونهم ويُعرِّفونهم ما تجدَّد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعةً من القسوس والرهبان يحرِّضون الناس على الحركة ، فأمدُّوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتَّعدوا على النزول على دمياط، ظنًّا منهم أنهم يملكونها، ويتَّخذونها ظهرًا يملكون به ديار مصر ، فحَصَرُوا وضيَّقُوا ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل ، وتابَعَ رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلَّف عن دمياط مَلَكَها الفرنج ، وإن سار إليها ، خَلَفَهُ المصريون في مُخلَّفِيه ومخَلَّفي عسكره بالسُّوء ، وخرجوا عن طاعته ، وصاروا من خَلْفِه والفرنج من أمامه ، فجهَّز نور الدين إليه العساكر أرسالًا ، كلما تجهَّزتْ طائفةٌ أرْسَلَها ، فساروا إليه ، يتلو بعضُها بعضًا ، ثم سار نور الدين في مَن عنده من العساكر ، فدَخَلَ بلادَ الفرنج فنَهَبَها ، فلمَّا رأى الفرنج تتابُعَ العساكر إلى مصر بدخول نور الدين بلادهم ونهْبِها وإخرابها ، رجعوا خائبين، وكان مدَّةُ مقامهم على دمياط خمسين يومًا .

قال العماد : لمَّا وصل خبر نزول الفرنج على دمياط ، اهتمَّ واغتمَّ ، وأنْهَضَ عسكرًا ثقيلًا مقدّمه الأمير قطب الدين خُضرو الهذياني ، فوصل قبل رحيل الفرنج بأسبوع .

قال أبو شامة : « وبلغني من شدَّة اهتمام نور الدين - رحمه الله - بأمر المسلمين ، حين نزول الفرنج على دمياط ، أنه قُرِئ بين يديه جزء حديثٍ له ، كان له به رواية ، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديثٌ مسلسلٌ بالتَّبسُّم ، فطلب منه بعضُ طلبة الحديث أن يتبسم ليتمّ السلسلة ، على ما عُرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : إنّي لأستحيي من الله تعالى أن يراني مُبتسمًا ، والمسلمون مُحاصَرون بالفرنج .

وبلغني أيضًا أن إمامًا لنور الدين رأى - ليلةَ رحيلِ الفرنج عن دمياط - في منامه النبيَّ ﷺ ، فقال له : أعْلِم نورَ الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة . فقال : يا رسول الله ، رُبَّما لا يُصدِّقني ، فاذكُر لي علامة يعرفُها . فقال : قُل له : بعلامةِ ما سجدتَ على تلِّ « حارم » ، وقلتَ : يا ربّ ، انصُر دينك ولا تنصر محمودًا ، من هو محمود الكلب حتى يُنصر . قال : فانتبهت ، ونزلتُ إلى المسجد ، وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغَلَس ، ولا يزال يتركَّع فيه حتى يُصلِّي الصبح . قال : فتعرَّضتُ له ، فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام ، وذكرتُ له العلامة ، إلَّا أنني لم أذكُر لفظة (الكلب) . فقال نور الدين رحمه الله : اذكُر العلامة كلَّها . وألحَّ في ذلك ، فقلتُها ، فبكى رحمه الله ، وصدَّق الرُّؤْيا ، فأرَّختُ تلك الليلة ، فجاء الخبر برحيل الفرنج فيها »[1] .

---

(١) عيون الروضتين ١/٢٩٨ - ٢٩٩ .

صفحاتٌ من علوّ الهمَّة لابن زنكي ، أطْيَبُ من الورد ، وأحْلَى من الشّهْد :

منشوره لمَّا أبْطَلَ ضريبة الأتبان عن أهل دمشق سنة ٥٩٦ هـ :

يقول فيه بعد حمدِ الله :

(وبعدُ ، فإن مِن سُنَّتِنا العادلة ، وسِيَرَ أيامنا الزّاهرة : إشاعة المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وإنصاف المظلوم وإعفاء رسْم ما سنَّهُ الظالمون من الرُّسوم ، وما نزال نُجدِّد للرَّعيَّة رسْمًا من الإحسان ، يرتعون في رياضه ، ويرتوون من حِياضه ، ونَسْتَقْرِئ أعمال بلادنا المحروسة ، ونُصفِّيها من الشُّبَهِ والشَّوائب ، ونُلحِق ما نعثر عليه من بواقي رسومها الضّائرة ، بما أسقطناه من المُكُوس والضَّرائب ، تقرُّبًا إلى الله تعالى ، الكافِلِ لنا بسبُوغِ المواهب وبلوغِ المطالب ، وقد أطلقْنا جميع ما جرتِ العادةُ بأَخْذه من فريضة الأتبان المقسَّطة على أعمال دمشق المحروسة ، وضِياع الغوطة والمرج ، وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور ، والعقيبة[1] ومزارعها الجارية في الأملاك ، وجميع ما يقسَّط بعد المقاسمة من الأتبان على الضِّياع الخواص ، والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة ، ووَفرْناهُ على أربابه ، طلبًا لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه ، وهربًا من انتقامه وأليم عقابه . وسبيلُ الثواب إطلاقُ ذلك على الدوام ، وتَعْفِيَةُ آثاره ، والاستعفاء من أوزاره ، والاحترازُ من الدَّنَس بأوضاره ، وإبطالُ رسْمه من الدَّواوِين ، لاستقبال سنة تسعٍ وستين ، وما بعدها على تعاقُب الأيام والسنين) .

قال العماد : وكلَّف نور الدين – في هذه السنة – بإفادة الألطاف ، والزِّيادة في الأوقاف ، وتكثير الصدقات ، وتوفير النفقات ، وكسوة النسوة

---

(١) من أحياء دمشق .

الأيامَى في أيامها ، وإغناء فقراء الرَّعيَّة وإنجادها بعد إعدامها ، وصوْن الأيتامِ والأرامل ببذْله ، وعوْن الضعفاء وتَقْوِيَة المُقْوين بعدْله ، وعمارة المساجد المهجورة ، وتعفية آثار الآثام ، وإسقاط كلّ ما يدخل في شُبهة الحرام ، فما أبقى سوى الجِزْيَة والخَرَاج وما تحصَّل من قسْم الغلّات على قويم المنهاج . قال : وأمَرَ أن يُكتب مناشير لجميع أهل البلاد ، فكُتب أكثر من ألف منشور ، وحَسَبْنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر ، فزاد على ثلاثين ألف دينار . وكانت عادتُه في الصَّدَقة ، أنّه يُحضر جماعةً من أماثل البلد من كلّ محلَّةٍ ، ويسألهم عمَّن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ، ثم يصرف إليهم صدقاتِهم . وكان برسم نفقته الخاصّ في كلِّ شهرٍ من جزية أهل الذمّة ، مبلغُ ألفي قرطيس يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمَّة ، حتى أُجرة خيّاطه وجامكيّة طباخه ، ويتفضَّل منه ما كان يتصدَّق به في آخر الشهر . وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم ، فإنه كان لا يتصرَّف في شيءٍ منه ، لا قليلٍ ولا كثيرٍ ، بل إذا اجتمعَ يُخرجه إلى مجلس القاضي ويحصِّل ثمنه ، ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة ، وتقدَّم بإحصاء ما في محالّ دمشق من ذلك ، فأناف على مائة مسجد ، فأمر بعمارة ذلك كلِّه ، وعيَّن له وُقُوفًا .

قال : ولو اشتغلتُ بذكْر وقوفه وصدقاته في كل بلد ، لَطالَ الكتابُ ، ولم أبلغ إلى أمره . ومُشاهدةُ أَبْنيته الدَّالَّة على خُلوص نيَّته ، تُغني عن خبرها بالعيان ، ويكفي أسوار البُلْدان فضْلًا عن الربط والمدارس ، على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب ، وفي شرْح طُوله طول ، وعمله لله مبرورٌ مقبول . وواظبَ على عقْد مجالس الوُعَّاظ ، ونصْب الكراسيّ لهم في القلعة للإنذار والاتِّعاظ ، وأكبرهم الفقيهُ قطبُ الدين النيسابوريُّ ، وهو مشغوفٌ ببركة أنفاسه ، واغتنام كلامه واقتباسه . ووفدَ من بغداد ابنُ الشيخ أبي النجيب الأكبر ، وبُسط له في كلِّ أسبوعٍ المنبرُ ، وَشاقَهُ وَعْظُه ،

وراقَهُ معناهُ ولفْظُهُ . وكذلك وفد إليه من أصفهان شرفُ الدين عبد المؤمن ابن شَوْرَوَه . وما أَيْمَنَ تلك الأيام وأبرك تلك الشتوة . قال : ولمَّا أسْقَطَ نورُ الدين الجهاتِ المحظورة والشُّبَهَ المحذورة ، عزل الشِّحَن ، وعزل عن الرعية تصرفهم المحن ، وقال للقاضي كمال الدين الشهرزوري : انظر أنت في ذلك ، واحْمِلْ أمورَ الناس فيها على الشريعة . قال : ولم يكن لمال المواريث الحشريّة حاصل ، ولا لديوانه طائل ، فجعل نور الدين ثلث ما يحصُل منه لكمال الدين الحاكم ، فوفَّره نُوَّابُه وكثَّروه ، وما كان نور الدين يُحاسب القاضي على شيءٍ من الوقوف ، ويقول : أنا قد قلَّدْتُه على أن يتصرَّف بالمعروف ، وما فضل من مصارفها وشروط واقفها بأمره ، يصرفه في بناء الأسوار، وحفْظ الثغور، وكانت دولتُه نافِذةَ الأَمْر، منتظمة الأمور .

وقال في موضعٍ آخر : كان مَلِك الشام ومالكها ، والذي بيده ممالكها ، الملكُ العادل نور الدين ، أعَفّ الملوك وأتقاهم ، وأعْدَلهم وأعبَدهم ، وأزهدهم وأطهرهم . وهو الذي أعاد رَوْنَق الإسلام في بلاد الشام ، وقد غَلَب الكفر وبَلَغ الضُّرّ ، فاستفتحَ معاقِلَها واستخلَصَ عقائلها ، وأشاع بها شعارَ الشرع في جميع الحلّ والعقْد ، والإبرام والنَّقْض ، والبسط والقبض ، والوضع والرفع . وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الإسلام بالشام قطائع ، فقطعَها ، وأعفَى رسومها ومَنَعَها . ونصره الله عليهم مرارًا ، حتى أسَرَ ملوكهم وبدَّد سلوكهم . وصان الثُّغور منهم وحماها عنهم ، وأحيا معالم الدين الدَّوارِس ، وبنى للأئمة المدارس ، وأنشأ الخانقاهات للصُّوفية ، وكثَّرها في كلِّ بلد ، وكثَّر وقوفها ووفَّر معروفها ، وأدْنَى للوافِدِين من جَنان جِنانه قُطُوفَها ، وأجدَّ الأسوار والخنادق . وأنمى المرافق ، وحمى الحقائق ، وأمر في الطُّرقات ببناء الرُّبُط والخانات . وهو الذي فتح مصر وأعمالها ، وأنشأ دولتها ورجالها .

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في « تاريخه » ، في ترجمة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله : مولدُه - على ما ذَكَر لي كاتبُه أبو اليسر - وقتَ طلوع الشمس يوم الأحد ، سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولمَّا راهَقَ لزمَ خِدمَة والده ، إلى أن انتهت مدَّته سنة إحدى وأربعين على قلعة جعبر ، ثم قَصَد حلب ورتَّب فيها وفي القلعة النُّوّاب ، واستنقذَ الرُّها من الفرنج ، ولمَّا استتبَّ له الأمر ، ظهر منه بذْل الاجتهاد في القيام بأمر الجهاد ، والقمْع لأهل الكفر والعناد ، والقيام بمصالح العباد ، وخرج غازيًا في أعمال تلِّ باشر ، فافتتحَ حصونًا كثيرةً ، وافتتح قلعة أفامية ، وحصن الباره ، وقلعة الراوندان ، وقلعة تلّ خالد ، وحصن كفرلاثا ، وحصن بسرفوث بجبل بني عليم ، وقلعة عزاز ، وتلّ باشر ، ودلوك ، ومرعش ، وقلعة عين تاب ، ونهر الجوز ، وغير ذلك . وغزا حصن إنَّب ، فقصده الإبرنس متملِّك أنطاكية ، وكان من أبطال العدوّ وشياطينهم ، فرحل عنها ، ولَقِيَه دُونَها ، فكَسَرَه وقَتَلَه وثلاثةَ آلاف إفرنجيٍّ كانوا معه . وأظهر بحلب السُّنَّة حتى أقام شعار الدِّين ، وغيَّر البدعة التي كانت لهم في التَّأْذِين ، وقَمَعَ بها الرافضةَ والمبتدعةَ ، ونشر فيها مذاهب أهل السُّنَّة الأربعة ، وأسقط عنهم جميع المُؤَن ، ومنعهم من التَّوثُّب في الفتن ، وبنى بها المدارس ، ووَقَفَ الأوقاف ، وأظهر فيها العدلَ والإنصافَ ، وحاصر دمشق مرَّتيْن ، فلم يتيسَّر له فتحُها ، ثم قصدها الثالثةَ فتَمَّ له صُلحها وسلَّم أهلها إليه البلدَ لغلاء الأسعار ، والخوفِ من استعلاء كلمة الكفار ، فضبطَ أمورها ، وحصَّن سورها ، وبنى بها المدارس والمساجد ، وأفاض على أهلها الفوائد ، وأصلحَ طرقها ، ووسَّع أسواقها ، وأدرَّ الله على رعيَّته ببركته أرزاقها ، وأبطل منها الأنذال ، ورفع عن أهلها الأثقال ، ومنعَ من أخْذ ما كان يُؤخَذ منهم من المغارم بدار البِطِّيخ وسوق البقل

وضمان النهر والكيالة وسوق الغنم ، وغير ذلك من المظالم . وأمَرَ بتَرْك ما كان يُؤخذ على المَكْس ، ونهى عن شُرب الخمر ، وعاقب عليه بالحدِّ والحبس ، واستنقذَ من العدوّ - خذلهم الله - ثغر بانياس ، وغيره من المعاقل المنيعة كالمنيطرة وغيرها .

قال : وبلغني أنه في الحرب رابطُ الجأش ، ثابتُ القدم ، حَسَن الرَّمْي ، صليب الضَرْب ، يَقْدُمُ أصحابَهُ عند الكَرَّة ، ويحمي مُنهزمهم عند الفَرَّة ، ويتعرَّض بنفسه للشهادة ، لِمَا يرجو بها من كمال السعادة ، وسَمِعَهُ كاتبُه أبو اليسر ، يسأل الله أن يحشُره من بطون السباع ، وحواصِلِ الطير ، وأحْسَنَ إلى العلماء وأكرَمَهم ، وقرَّب المتديِّنين واحترمهم ، وتوخَّى العدل في الأحكام والقضايا ، وألانَ كَنَفَه . وأظهر رأفَتَهُ بالرَّعايا ، وبنى في أكثر مملكته آدر العدل ، وأحضرها القضاة والفقهاء ، وحضرها بنفسه في أكثر الأوقات ، واستمع من المتظلِّمين الدعاوى والبيِّنات ، وأدرَّ على الضعفاء والأيتام الصدقاتِ ، حتى وقفَ وُقوفًا على المرضى والمجانين ، وأقام لهم الأطبَّاء والمعالِجين ، وكذلك على جماعة العلماء ، ومعلِّمي الخطِّ والقرآن ، وعلى ساكني الحرمين ، ومجاوِرِي المسجدَيْن ، وجهَّز عسكرًا يحفظ المدينة ، وأقْطَعَ أمير مكة ، ورفع عن الحُجّاج ما كان يُؤخَذ منهم من المَكْس ، وأقطع أمراءَ العرب لئلَّا يتعرَّضوا للحُجّاج . وأمر بإكمال سور مدينة الرسول صلّى الله عليه وسلم ، واستخراج العين التي بأُحُد ، وكانت قد دفنتها كثرةُ السُّيول ، وعمَّر الرُّبُط والخانقاهات والبيمارستانات ، وبنى الجسور في الطرق والخانات ، ونصب جماعةً من المعلِّمين لتعليم يتامى المسلمين ، وأجرى الأرزاقَ على معلِّميهم وعليهم ، بقدر كفايتهم ، وكذلك صنعَ لمَّا مَلَكَ سنجار ، وحرّان ، والرها ، والرَّقّة ، ومنبج ، وشيزر ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، وصرخد ، وتدمر . فما من بلدٍ

منها إلَّا وله فيه حُسْن أثر . وحصَّل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طُلَّابها . وجدَّد كثيرًا من قني السبيل . وأجهدَ نفسَهُ في جهاد أعداء الله تعالى ، وبالغَ في حربهم . وتحصَّل في أسْرِه جماعةٌ من أمراء الفرنج - خذلهم الله - كجوسلين وابنه ، وابن الفنش ، وقومص طرابلس ، وجماعة من صنوفهم ، وكان متملِّك الروم قد خرج من قسطنطينية ، وتوجَّه إلى الشام طامعًا في تسلُّم أنطاكية ، فشغَلَهُ عن مَرَامه بالمراسلة ، إلى أن وصل أخوه قطب الدين في جنده من المواصلة ، وجمع له الجيوش والعساكر ، وأنفق فيهم الأموال والذخائر ، فأَيِسَ الروميُّ من بلوغ ما كان يرجو ، وتمنَّى منه المصالحة عساه ينجو ، فاستقرَّ رجوعُه إلى بلادِهِ ذاهبًا ، فرجعَ منْ حيثُ جاءَ خائبًا، وحَمَلَ إلى بيت المال ما حمل، و لم يبلغ ما أمَّله وضلَّ ما عمل .

ثم ذكَر تسييرَه الجيوش لفتْح مصر مرارًا إلى أن فُتحتْ ، وانفصلتِ القضيَّة ، قال : وظهرتْ كلمة أهل السّنّة بالديار المصرية ، وأراح اللّعن بها مِن الفتنة ، ورفَع عنهم المحنة ، والحمد لله على ما مَنح ، وله الشكر على ما فتَح .

ثم قال : ومع ما ذكرتُ من هذه المناقب كلّها ، وشرحتُ من دِقّها وجِلّها ؛ فهو حَسَن الخطِّ بالبنان ، مُتأتّ لمعرفة العلوم بالفهم والبنيان ، حريصٌ على تحصيل كتب الصحاح والسنن ، مُقْتنٍ لها بأوفر الأعواض والثمن ، كثيرُ المطالعة للعلوم الدينية ، مُتتبّعٌ للآثار النبويّة ، مواظبٌ على الصلوات في الجماعات ، مُراعٍ لآدابها في الأوقات ، مؤدٍّ فروضَها ومسنوناتِها ، مُعظِّم لقدْرها في جميع حالاتها ، عاكف على تلاوة القرآن على مرِّ الأيام ، حريصٌ على فِعْل الخير من الصَّدقة والصِّيام ، كثيرُ الدعاء والتسْبيح ، راغبٌ في صلاة التراويح ، عفيفُ البطن والفَرْج ، مُقْتصِد في الإنفاق والخرْج ، مُتحرٍّ في المطاعم والمشارب والملابس ، متبرِّئٌ من

التمادي والتباهي والتنافس ، عريٌّ عن التجبُّر والتكبُّر ، بريءٌ مِن التنجيم والتطيُّر ، مع ما جمَع الله له مِنَ العقل المتين ، والرأي الثاقب الرَّصين ، والاقتداء بسيرة السَّلف الماضين ، والتشبُّه بالعلماء والصّالحين ، والاقتفاء بسيرة مَن سَلَف منهم في حُسْن سَمْتهم ، والاتِّباع لهم في حِفْظ حالهم ووقْتهم ؛ حتى رَوَى حديثَ المصطفى ﷺ وأسمعه – وكان قد استُجيز له ممن سمِعَه وجمَعَه – حرصًا منه على الخير في نَشْر السُّنَّة بالأداء والتحدُّث ، ورجاء أنْ يكون ممن حَفِظ على الأمة أربعين حديثًا كما جاء في الحديث ، فمَن رآه شاهد مِن جلال السّلطنة وهيبة الملك ما يبْهرُه ، فإذا فاوضه رأى من ألطافه وتواضعه ما حيَّره . ولقد حكَى لي عنه مَنْ صَحِبَه في حضَره وسفَره : أنّه لم تُسمع منه كلمةُ فُحْشٍ في رضاه ولا ضَجَره ، وإنَّ أشْهى ما إليه: كلمةُ حقٍّ يسمعها أو إرشاد إلى سُنَّة يتبعها . يُحبّ الصالحين ويؤاخيهم ، ويزور مساكنهم لحُسْن ظنِّه فيهم . وإذا احتلم مماليكُه أعتقهم ، وزوَّج ذكْرانَهم بإناثهم ، ورزقهم . ومتى تكرَّرت الشّكاية إليه من أحدٍ من ولاته ، أمَره بالكفِّ عن أذى مَن تظلَّم بشكاته ، فمَنْ لم يرجع منهم إلى العدْل ، قابله بإسقاط المنزلة والعزْل . ولمَّا جمع الله له مِن شريف الخِصال ، تيسَّر لَهُ جميعُ ما يقصده من الأعمال ، وسهَّل على يده فَتْح الحصون والقلاع ، ومكَّن له في البلدان والبقاع ؛ وأكثر ما أخَذه مِن البلدان ، تسلَّمه من أهله بالأمان من غير سَفْك دم . وإذا استُشهد أحدٌ من أجناده حَفِظَه في أهله وأولاده ، وأجْرى عليهم الجرايات ، وولَّى مَن كان منهم أهلًا للولايات . وكلَّما فَتَح الله عليه فتْحًا أو زاده ولاية ، أسْقط عن رعيَّته قِسْطًا وزادهم رعاية ، حتى ارتفعتْ عنهم الظلامات والمكوس ، ودرّتْ عليهم الأرزاق . وحصل بينهم الاتفاق . ومناقبه خطيرة وممادحُه كثيرة ، وقد مدحه جماعة من الشعراء فأكْثروا ، ولم يبلغوا وصْف الآية بل قصَّروا ، وهو قليل الابتهاج بالشعر زيادة في تواضعه القدْر .

قال أبو الفتح بنجير بن أبي الحسن الأشتري - وهو فقيهٌ ، كان معيدًا بالمدرسة النِّظَّاميَّة وجمع لنور الدين رحمه الله سيرةً مختصرة - قال : كان نور الدين يقعُد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العدل للنظر في أمور الرعية وكَشْف الظُّلامة ، لا يطلب بذلك درهمًا ولا دينارًا ولا زيادةً ترجع إلى خزانته ، وإنَّما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، وطلبًا للثواب والزلفى في الآخرة ، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبوَّاب ؛ حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني ويكلِّمهم بأحْسَن الكلام ، ويستفهم منهم بأبْلغ النظام ، حتى لا يطمع الغني في دَفْع الفقير بالمال . ولا القوي في دفع الضعيف بالقال ، ويحضر في مجلسه المرأة العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه ، فيأمُر بمساواته لها ، فتغلب خصمها طمَعًا في عَدْله ، ويَعْجز الخصم عن دَفْعها خوفًا من عدله ، فيظهر الحقُّ عنده ، فيُجْري الله تعالى على لسانه ما هو موافق للشريعة ، ويسأل العلماء والفقهاء عمَّا يشكل عليه من الأمور الغامضة ، فلا يجري في مجلسه إلَّا محْضُ الشريعة .

قال : وأمَّا زمانُه فهو مصروف إلى مصالح الناس ، والنظر في أمور الرعيَّة والشفقة عليهم . وأمَّا فِكْره ففي إظهار شعار الإسلام ، وتأسيس قاعدة الدين ؛ من بناء المدارس والرُّبُط والمساجد وترتيب أمْرهم ، والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم . ولو لم يكن من هذه الخصال إلَّا ما عُلم منه وشاع ؛ أنَّه إذا وعد وفَّى وإذا أوْعد عفا ، وإذا تحدَّث بشيءٍ عليه لا يُخالف قولَه ، ولا يرجع عن لفْظِه ومنْطِقِهِ - لَكَفَى . ولا يجري في مجلسه الفسْق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم ، كما يجري في مجلس سائر الملوك ، ولا يطمع في أَخْذ أموال الناس ، ولا يرضى أن يأخُذ من أموال الرعيّة شيئًا بغير حق .

قال : وبَلَغَنا بأخبار التواتر ، عن جماعة ممن يُعتمد على قولهم : أنَّه أكثر الليالي يصلِّي ويناجي ربَّه مقبلًا بوجهه عليه ، ويؤدِّي الصلوات الخمس في أوقاتها ، بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها .

قال : وبَلَغنا عن جماعة من الصوفيَّة الذين يُعْتمد على أقوالهم ، ممّن دخلوا ديار القدس للزيارة ، حكاية عن الكفار ، أنّهم يقولون : ابنُ القسيم له مع الله تعالى سِرٌّ ؛ فإنّه ما يظْفر علينا بكثرة جُنده وعسكره ، وإنما يظْفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، فإنّه يصلِّي بالليل ، ويرفع يَده إلى الله ويدعو ، فالله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ، ويعطيه سؤله ، وما يَرُدّ يدَه خائبة ، فيظفر علينا . فهذا كلام الكفار في حقِّه .

قال : وحدَّثنا الشيخ داود المقدسي – خادم قبر شعيب عليه الصلاة والسلام – قال : حضَرتُ دار العدْل في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وخمسين ، فقام رجل وادَّعى على الملك العادل : أن أباه أَخَذَ مِن ماله شيئًا بغير حقٍّ قال : وأنا مطالِبٌ لك بذلك . فقال نور الدين : أنا ما أعلم ذلك ، فإن كانت لك بيِّنة تشهد بذلك فهاتها وأنا أُردّ ما يخصُّني ؛ فإنِّي ما ورثْتُ جميعَ ماله ، كان هناك وارث غيري . فمضى الرجل يُحْضِر البيِّنة ، فقلت في نفسي : هذا هو العدل .

قال : وادَّعى رجلٌ على أخي الشيخ أبي البيان ، وديعةً ، فأنكرها وحَلَف ، فجعل المُودِع يشنِّع عليه وشكاه إلى نور الدين ، والتمس الإنكار عليه ، فقال نور الدين : أليس الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ **وإذا خاطَبَهُم الجاهِلُون قالوا سَلامًا** ﴾ ؛ فإذا كان هو يجهل عليك ، ويقول في حقِّك بالجهل ما لا يجوز ، فيجب عليك أن لا تعمل معه مِثْل معاملته ، فتكون مثله ، فكأنَّك قابلتَ الإساءة بالإساءة ، ومِن حقِّك أن تُقابِل الإساءة بالإحسان . فقلت في نفسي : الحقُّ ما قال الملك العادل ؛ إمَّا قرأ هذا في

كُتُب التفاسير ، فثَبت في قلبه هذا التحقيق ، أو أجْراهُ الله على لسانه وأَنْطقه به .

قال : وحَضَر جماعة من التجّار ، وشكوا أنَّ القراطيس كان ستّون منها بدينار ، فصار سبعة وستّون بدينار ، وتنقُص وتزيد فيخسرون ، فسأل نور الدين عن كيفيَّة الحال ، فذكروا أنَّ عَقْد المعاملة على اسم الدينار ، ولا يُرىٰ الدينار بالوَسَط ، إنما يعدُّون القراطيس بالسّعْر تارة ستِّين بدينار وتارة سبعة وستِّين ، وأشارَ كلُّ واحد من الحاضرين على نور الدين أنْ يضرب الدينار باسمه ، وتكون المعاملة بالدنانير الملكية ، وتبطل القراطيس بالكليّة ، فسكت ساعة ، ثم قال : إذا ضَرَبْتُ الدينار ، وأبطلتُ المعاملة بالقراطيس ، فكأنِّي خرَّبتُ بيوت الرعية ؛ فإنَّ كلَّ واحد مِن السُّوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس،أيش يعمل به ؟ فتكون سببًا لخراب بيته . قال : فأيُّ شفقة أعظم وأكثر من هذا على الرعيّة ؟! .

قال : وحَضَر صَبِيٌّ ، وبكى عند نور الدين ، وذكَر أنَّ أباه محبوسٌ على أجْرةِ حُجْرةٍ من حُجَر الوَقْف - يعني : وقْف الجامع - فسأل عن حاله ، فقالوا : هذا الصَّبيُّ ابن الشيخ أبي سعد الصوفيّ ، وهو رجُلٌ زاهدٌ قاعدٌ في حُجْرةٍ للوقْف ، وليس له قُدرةٌ على الأُجْرة ، وقد حَبَسه وكيلُ الوقْف ؛ لأنّه اجتمع عليه أُجْرةُ سنة ، فسأل : كم أُجْرة السَّنة ؟ قالوا : مائة وخمسون قِرطاسًا . وذكروا سِيرتَه وطريقتَه وفقره ، فرقَّ له وأنْعَم عليه ، وقال : نحنُ نعطيه كلَّ سنةٍ هذا القَدْر ؛ ليصرفه إلى الأُجْرة ويقعد فيها ، وتقدَّم بذلك وبإخراجه مِن الحبْس ، فوصل إلى قلب كلِّ واحدٍ من الحاضرين الفَرَح ، حتى كأنَّ الإنعام كانَ في حقِّه .

وقال أبو الحسن ابن الأثير : قد طالعتُ تواريخَ الملوك المتقدِّمين

قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أرَ منها بعد الخلفاء الراشدين وعمر ابن عبد العزيز مَلِكًا أحسنَ سِيرةً من الملِك العادل نور الدين ، ولا أكثر تَحَرِّيًا للعْدل والإنصاف منه ، قد قَصَرَ ليلَه ونهارَه على عدْلٍ ينشرهُ ، وجهادٍ يتجهَّز له ، ومَظْلمةٍ يُزيلُها وعبادةٍ يقوم بها ، وإحسان يُوليِهِ ، وإنعامٍ يُسْدِيه . ونحن نذكُر ما يُعلم به محلّه في أَمْرِ دنياه وأُخراه ، فلو كان في أُمَّة لافتخرتْ به ، فكيف بيت واحد ؟! أمّا زهدُه وعبادته وعلمه ؛ فإنّه كان رحمه الله - مع سَعَةِ مُلكه وكثْرة ذخائر بلاده وأموالها - لا يأكُل ، ولا يلبس ، ولا يتصرَّف فيما يخصُّه إلَّا من مُلْكٍ كان له قد اشتراه من سَهْم ؛ من الغنيمة ومن الأموال المُرصَدة لمصالح المسلمين ، أحْضَرَ الفقهاء واستفتاهم في أَخْذِ ما يحلُّ له من ذلك ، فأخَذ ما أفتوه بحِلِّه ، ولم يتعدَّه إلى غيره ألبتَّة ، ولم يلبس قطُّ ما حرَّمه الشرعُ ؛ من حريرٍ أو ذهبٍ أو فضةٍ ، وَمنَع مِن شُرْب الخمر وبَيْعِها في جميع بلادِه ومن إدخالها إلى بلدٍ ما ، وكان يَحِدُّ شاربَها الحدَّ الشرعيَّ ، كلُّ الناس عنده فيه سواء .

حدثني صديق لنا بدمشق ، كان رضيعَ الخاتون ابنةِ معين الدين - زوجة نور الدين - ووزيرَها ، قال : كان نور الدين إذا جاء إليها ، يجلس في المكان المختصّ به وتقوم في خدمته ، لا تتقدَّم إليه إلَّا أن يأذن لها في أَخْذ ثيابه عنه ، ثم تَعْتزل عنه إلى المكان المختصِّ بها ، وينفرد هو ؛ تارةً يُطالع رِقَاع أصحاب الأشغال ، أو في مطالعةِ كتاب أتاه ، ويجيب عنها ، وكان يصلِّي فيُطيل الصلاة ، وله أوْرادٌ في النهار ، فإذا جاء الليل وصلَّى العشاء ونام ، يستيقظ نصْف الليل ، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بُكرة ، فيظهر للركوب ، ويشتغل بمهامِّ الدولة .

قال : وإنَّها قلَّت عليها النفقة ، فأرسلتْني إليه أطلب منه زيادةً في وظيفتها ، فلمَّا قلت له ذلك ، تنكَّر واحمرَّ وجهه ، ثم قال : مِن أين

أُعْطيها ؟ أما يكفيها مالُها ؟ والله لا أخوضُ نارَ جهنَّمَ في هواها ، إنْ كانت تظنُّ أنَّ الذي بيدي من الأموال هي لي ، فبئس الظّنُّ ، إنَّما هي أموال المسلمين مُرْصَدةٌ لمصالحهم ، ومُعدَّة لفَتْقٍ إن كان من عدوّ الإسلام ، وأنا خازِنُهم عليها ، فلا أخونهم فيها . ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكًا وقد وهبتُها إيَّاها ، فلتأخذها . قال : وكان يَحْصُل منها قَدْرٌ قليل .

قال ابن الأثير : وكان رحمه الله لا يفعلُ فِعْلًا إلّا بنيَّةٍ حسنة ، كان بالجزيرة رجُلٌ صالح ، كثيرُ العبادة والورع ، شديدُ الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبُه ويراسلُه ، ويرجع إلى قوله ، فبلغه أنَّ نور الدين يُدْمِنُ اللَّعب بالكرة ، فكتب إليه يقول له : ما كنتُ أظنُّك تلهو وتلعب وتُعذِّب الخيل لغير فائدةٍ دينيَّة . فكتب إليه نور الدين رحمه الله – بخطِّ يده – يقول له : والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللّهو والبَطَرُ ، إنَّما نحن في ثغْرٍ العدوُّ قريبٌ منَّا ، وبينما نحن جلوسٌ ، إذ يقع صوتٌ فنركب في الطَّلَب ، ولا يمكننا أيضًا ملازمة الجهاد ليلًا ونهارًا ، شتاء وصيفًا ، إذ لا بدَّ من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جَمامًا[1] لا قُدْرة لها على إدمان السَّيْر في الطلَب ، ولا معرفَة لها أيضًا بسرعة الانعطاف والكرِّ والفرِّ في المعركة ، فنحن نركبُها ونُروِّضُها بهذا اللعب ، فيذهبُ جَمَامُها ، وتتعوَّد سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة .

قال ابن الأثير : فانظر إلى هذا المِلك المعدوم النظير ، الذي يَقِلُّ في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مِثْله ، فإن مَن يجيء إلى اللعب يفعله بنيَّةٍ

---

(١) الجَمَام : الراحة ، وجمَّ الفرسُ : تُرِك ولم يُرْكَب .

صالحة ، حتى يصيرَ مِن أعظم العبادات وأكثرِ القُربات - يقلُّ في العالَم مِثْله ، وفيه دليلٌ على أنه كان لا يفعلُ شيئًا إلَّا بنيَّةٍ صالحة ، وهذه أفعالُ العلماء الصالحينَ العالمينَ .

قال : وحُكي لي عنه أنَّه حُمِلَ إليه من مصر عمامةٌ مِن القصَب الرفيع مُذهَّبة ، فلم يُحْضِرها عنده ، فوصِفَتْ له فلم يلتفتْ إليها ، وبينما هم في حديثها ، إذ جاءه رجُل صوفيٌّ ، فأَمَر بها له ، فقيل له : إنها لا تصلحُ لهذا الرجل ، ولو أُعطي غيرَها كان أنفع له . فقال : أعطوها له ، فإنّي أرجو أن أُعوَّضَ عنها في الآخرة . فسُلِّمَتْ إليه ، فسار بها إلى بغداد ، فباعها بستمائة دينارٍ أو سبعمائة . قلت : وقيل أنَّه باعها بهمذان بألف دينارٍ .

قال ابن الأثير : وكان - يعني نور الدين رحمه الله - عارفًا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة ، ليس عنده تعصُّب ، بل الإنصاف سَجيَّتُهُ في كلِّ شيءٍ ، وسمع الحديثَ وأسْمَعَه ؛ طَلَبًا للأجْر ، وعلى الحقيقة فهو الذي جدَّد للملوك اتِّباعَ سُنَّةِ العدْل والإنصاف ، وتَرْكَ المحرَّمات من المأْكَل والمشْرب والملْبس وغيرِ ذلك ، فإنَّهم كانوا قبله كالجاهليَّة ، هِمَّةُ أحدِهم بطْنه وفرْجه ، لا يعرف معروفًا ولا يُنكِر مُنكرًا ، حتى جاء الله بدولته ، فوَقَف مع أوامِر الشَّرع ونواهيه ، وألزم بذلك أتباعَه وذَوِيهِ ، فاقتدى به غيرُه منهم ، واستحيَوْا أنْ يظهرَ عنهم ما كانوا يفعلونه ، « ومَن سنَّ سُنَّة حسنةً ، فله أجْرُها ، وأجْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يوم القيامة » .

قال : وأمَّا عَدله ، فإنه كان أحْسَنَ الملوك سيرةً ، وأعْدَلَهم حُكْمًا ؛ فمن عدْلِه أنّه لم يتركْ في بلدٍ من بلاده ضريبةً ولا مَكْسًا ولا عُشرًا بل أطلقها جميعها ؛ في بلاد الشام والجزيرة جميعها ، والموصل وأعمالها ، وديار مصر وغيرها مما حكَم عليه .

وكان المَكْسُ في مصر يُؤخذُ من كلِّ مائة دينارٍ خمسةٌ وأربعون دينارًا ، وهذا لم تتَّسِع له نَفْسُ غيره ، وكان يتحرَّى العدْل ، ويُنْصِفُ المظلومَ من الظَّالم كائنًا مَن كان ، القويّ والضعيف عنده في الحقّ سواءٌ . وكان يَسْمعُ شكوى المظلوم ، ويتولَّى كَشْف حاله بنفسه ، ولا يَكِلُ ذلك إلى حاجبٍ ولا أميرٍ ، فلا جَرَمَ سار ذكْرُه في شرق الأرض وغربها .

قال : ومِن عدْلِه أنّه كان يعظِّم الشريعة المطهَّرة ، ويقفُ عند أحكامِها ، ويقول : نحن شِحَنٌ لها ، نُمضي أوامرها . فَمِنَ اتّباعِه أحكامَها ؛ أنه كان يلعبُ بدمشق بالكرة ، فرأى إنسانًا يُحدِّث آخر ويومئُ بيده إليه ، فأرسل إليه يسأل عن حاله ، فقال : لي مع الملك العادل حكومة ، وهذا غلام القاضي ليُحضره إلى مجلس الحُكْم ، يُحاكمُني على المُلْك الفلاني . فعاد إليه ، ولم يتجاسرْ يُعرِّفه ما قال ذلك الرجل ، وعاد يَكْتُمه ، فلم يقبل منه غير الحقّ ، فذكر له قولَه ، فألقى الجوكانَ مِن يده ، وخرج من الميدان ، وسار إلى القاضي ، وهو حينئذٍ كمال الدين الشَّهرزوري ، وأرسل إلى القاضي يقول له : إنني قد جئت مُحَاكمًا ، فاسلُك معي مثْلَ ما تسلُكه مع غيري . فلمَّا حضر ساوى خَصْمه وحاكَمَه ، فلم يَثْبُت عليه حق ، وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين - رضي الله عنه - حينئذٍ للقاضي ولمن حضَر : هل ثبتَ له عندي حقٌّ ؟ قالوا : لا . فقال : اشهدوا أنني قد وهبتُ له هذا المُلْك الذي حاكمني عليه ، وهو له دوني ، وقد كنتُ أعلمُ أنه لا حقَّ له عندي ، وإنَّما حضرتُ معه لئلا يَظُنَّ أنني ظلمتُه ، فحيث ظَهَر أن الحقَّ لي ، وهبتُه له .

قال ابن الأثير : وهذا غايةُ العدْل والإنصاف . بل غايةُ الإحسان ، وهي درجةٌ وراء العدل ، فرَحِم الله هذه النَّفس الزَّكيَّة الطاهرة ، المنقادةَ إلى الحق ، الواقفةَ معه .

قال : ومن عدْله ؛ أنّه لم يكنْ يُعاقِب العقوبة التي يُعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظنَّة والتُّهمَة ، بل يطلبُ الشهودَ على المُتَّهَم ، فإن قامت البيِّنة الشرعية ، عاقبه العقوبةَ الشرعيَّة من غير تعدٍّ ، فدَفَع الله بهذا الفعل عن الناس من الشَّر، ما يوجَد في غير ولايته مع شدَّة السِّياسة والمبالغة في العقوبة، وأمنت بلادُه مع سعتها، وقلَّ المفسدون ببركة العدْل واتّباع الشرع المطهر .

قال : وحكى لي من أثق به أنّه دخل يومًا إلى خزانة المال ، فرأى فيها مالًا أنكره فسأل عنه ، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرْسَله ، وهو من جِهَةِ كذا . فقال : إنَّ هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء . وأَمَر بردِّه وإعادَتِه إلى كمال الدين ليردَّه إلى صاحبه ، فأرسله متولِّي الخزانة إلى كمال الدين ، فردَّه إلى الخزانة ، وقال : إذا سألك الملك العادل عنه ، فقولوا له عني : إنّه له . فدخل نور الدين الخزانة مرّة أخرى ، فرآهُ فأنْكَر على النُّوَّاب قال : ألم أَقُلْ لكم : يُعادُ هذا المال على أصحابه ؟ فذكروا له قوْل كمال الدين ، فردَّه إليه ، وقال للرسول : قُلْ لكمال الدين : أنتَ تقدر على حَمْلِ هذا المال ، وأمَّا أنا فَرقَبَتِي دقيقة ، لا أُطيقُ حَمْلَهَ والمخاصمةَ عليه بين يدي الله تعالى ، يُعاد،قولًا واحدًا .

« **عَـدْلُه بعـد موتـه !!** » :

قال : ومِن عدْله أيضًا بعد موته ، وهو من أعْجب ما يُحْكى : أنّ إنسانًا كان بدمشق ، استوطنها وأقام بها ، لما رأى من عدْل نور الدين رحمه الله ، فلمَّا تُوفِّي تعدَّى بعضُ الأجْنادِ على هذا الرجل فشكاه ، فلم يُنْصَف ، فنزل من القلعة وهو يستغيثُ ويبكي وقد شُقَّ ثوبه وهو يقول : يا نور الدين ، لو رأيتنا وما نحن فيه من الظُّلم لرحِمْتَنا ، أينَ عدلك ؟ وقَصَد تربةَ نور الدين ومعه من الخلْق ما لا يُحْصى ، وكلُّهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين ، وقيل له : احفظ البلد والرعية ، وإلَّا خرج عن

يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل - وهو عند تُربة نور الدين يبكي والناس معه - فطيَّب قلبَه ووهبه شيئًا وأنصفه ، فبكى أشدَّ من الأول ، فقال له صلاح الدين : لِمَ تبكي ؟ قال : أبكي على سلطانٍ عَدَلَ فينا بعد موته . فقال صلاح الدين : هذا هو الحق . وكلُّ ما نحن فيه من عدْلٍ فمنه تعلَّمْناه .

وأمَّا شجاعَتُه وحُسْن رأيِه فقد كانت النهاية إليه فيهما ؛ فإنّه أصْبَرُ الناس في الحرب ، وأحْسَنُهم مكيدةً ورأيًا ، وأجودُهم معرفةً بأمورِ الأجنادِ وأحوالهم وبه كان يُضْرب المَثَلُ في ذلك ، سمعتُ جَمْعًا كثيرًا من الناس لا أُحْصيهم يقولون أنهم لم يروْا على ظَهْرِ الفَرَسِ أحسنَ منه ، كأنّما خُلِق عليه ، لا يتحرَّك ولا يتزلزل ، وكان من أحسنِ الناس لَعِبًا بالكرة وأقْدَرِهم عليها لم يُرَ جوكانُه يعلو على رأسِه ، وكان ربَّما ضَرَبَ الكرة ويُجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ، ويرميها إلى آخرِ الميدان ، وكانت يَدُه لا تُرى والجوكانُ فيها ، بل تكون في كُمِّ قبائه ، استهانةً باللعب .

قال : وكان - رحمه الله - يُكْثِر إعمال الحِيَل والمكْر والخداع مع الفرنج ، وأكثر ما مَلَكه من بلادهم به ؛ ومن جيِّد الرأي ما سلكه مع (مليح ابن ليون) مَلِك الأرمن صاحب الدروب ؛ فإنّه ما زال يخدعه ويَسْتَمِيلُه حتى جَعَله في خِدمته سَفَرًا وحَضَرًا ، فكان يُقاتل به الفرنج ، وكان يقول : إنما حَمَلني على استمالته أنَّ بلادَه حَصِينَةٌ وَعِرَةُ المسْلك ، وقلاعَهُ مَنيعةٌ ، وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد ، فينالُ مِن بلاد الإسلام ، فإذا طُلِبَ انْحَجَر فيها ، فلا يُقْدَر عليه ، فلمَّا رأيتُ الحال هكذا ، بذلتُ له شيئًا من الإقطاع على سبيل التّألُّف ، حتى أجاب إلى طاعتنا وخِدْمتنا ، وساعدَنا على الفرنج . قال : وحيث توفِّي نور الدين ، وسلكَ مَنْ بعده غير هذا الطريق ؛ مَلَكَ مُتولِّي الأرمن بعد (مليح) كثيرًا من بلاد الإسلام وحصونهم ، وصار منه ضررٌ عظيم وخَرْقٌ واسع لا يُمكِنُ رَقْعُه . قال : ومن أحْسَنِ الآراء ما كان يفعله مع أجْنادِه ، فإنّه كان إذا توفِّيَ أحدُهم وخلَّف ولدًا ، أقرَّ الإقطاعَ عليه ، فإن كان الولد كبيرًا ،

استبدَّ بنفسه ، وإن كان صغيرًا رتَّب معه رجلًا عاقلًا يثق إليه ، فيتولَّى أَمْرَه إلى أن يَكْبُر، فكان الأجْنادُ يقولون: هذه أمْلاكُنا يَرِثها الولدُ عن الوالدِ فنحن نُقاتل عليها . وكان ذلك سببًا عظيمًا من الأسباب الموجِبة للصبر في المشاهد والحروب ، وكان أيضًا يُثْبِتُ أسماءَ أجنادِ كلِّ أميرٍ في ديوانِه وسلاحهم ؛ خوفًا من حِرْصِ بعضِ الأمراءِ وشُحِّه ، أن يَحْمِلَه على أن يَقْبِضَ على بعضِ ما هو مقرَّر عليه مِنَ العدد . ويقول : كلّ وقْتٍ نحن في النَّفِير ، فإذا لم يَكُنْ أجْنادُ كافَّةِ الأُمراء كاملي العَدَدِ والعُدَدِ ، دخل الوَهْن على الإسلام . قال : وأمَّا ما فَعَلَهُ في بلاد الإسلام من المصالح ممَّا يعود إلى حِفْظها وحفْظ المسلمين فكثير عظيم ، من ذلك أنه بنى أسْوار مُدن الشام جميعها وقلاعَها ، فمنها : حلب ، وحماة ، وحمص ، وبارين ، وشيزر ، ومنبج ، وغيرها من القلاع والحصون ، وحصَّنها وأحْكَم بناءها ، وأخرج عليها من الأموال ما لا تَسْمح به النفوس ، وبنى أيضًا المدارس بحلب وحماة ودمشق وغيرها للشافعيَّة والحنفيَّة ، وبنى الجوامعَ في جميع البلاد ؛ فجامعُهُ في الموصل إليه النِّهاية في الحُسْن والإتقان ، ومن أحْسنِ ما عَمِل فيه ، أنّه فَوَّض أَمْر عمارته والخرْج عليه إلى الشيخ عمر الملّا رحمه الله[1] ، وهو رجل من الصالحين فقيل له : إنَّ هذا لا يصلُحُ لمثل هذا العمل . فقال : إذا ولَّيتُ العملَ بعضَ أصحابي من الأجْناد والكُتَّاب ، أعلَمُ أنّه يَظلمُ في بعض الأوقات ، ولا يفي الجامعُ بظُلْم رجُلٍ مسلم ، وإذا ولّيتُ هذا الشيخ ، غلب على ظنِّي أنّه لا يظلم ، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا عليَّ . قال :

---

(١) هو : الشيخ عمر بن محمد المشهور بالملاء ، سُمِّي الملاء ؛ لأنه كان يعمل بملء تنانير الآجُرّ ؛ لقاء أجْرٍ يتقوَّتُ به ، وكان لا يملك سوى ما يَرْتَدِيه من قميصٍ وعمامة ، وكان عالمًا بفنون العلوم ، ويزوره جميع الملوك والعلماء والأعيان ويتبرَّكون به . للاستزادة راجع : مرآة الزمان جـ١ / ٣١٠ - ٣١١ ، الروضتين ٢ / ٦٨ ، شذرات الذهب ٢٢٩/٤ ، الكواكب الدرّيّة ٣٦ والأصل ٩١/ و .

وهذا هو الفقه في الخلاص مِنَ الظُّلم . وبنى أيضًا بمدينة حماة جامعًا على نهر العاصي ، من أحْسنِ الجوامع وأنزهِها ، وجدَّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدَّم ؛ إمَّا بزلزلةٍ أو غيرها ، وبنى البيمارستانات في البلاد ، من أعظمِها البيمارستان الذي بناه بدمشق ، فإنّه عظيمٌ كثيرُ الخرْج جدًّا ، وبنى أيضًا الخانات في الطرق ، فأمِنَ الناسُ وحُفظت أموالُهم ، وباتوا في الشتاء في كِنٍّ من البَرْد والمطر ، وبنى أيضًا الأبراج على الطُّرق بين المسلمين والفرنج ، وجعل فيها مَن يَحفظُها ومعهم الطيور الهوادي ، فإذا رأوْا من العدوّ أحدًا أرْسلوا الطيورَ ، فأخذَ الناس حِذْرَهم واحتاطوا لأنفسِهم ، فلم يَبْلُغ العدوُّ منهم غَرَضًا ، وكان هذا من ألْطَفِ الفِكَرِ ، وأكثرها نفعًا .

قال: وبنى الرُّبُط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقَفَ عليها الوُقُوفَ الكثيرةَ ، وأدَرَّ عليهم الإدرارات الصالحة ، وكان يُحْضِرُ مشايخَهم عنده ، ويُقرِّبهم ويُدْنيهم ويَبْسُطُهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبلَ أحدهم إليه ، يقوم له مُذْ تَقَعُ عَيْنُه عليه ، ويعتنقُه ويُجْلِسُه معه على سجَّادته ، ويُقبِلُ عليه بحديثه . وكذلك أيضًا كان يفعل بالعلماء مِنَ التعظيمِ والتوقيرِ والاحترامِ ، ويجمعهم عند البَحْثِ والنَّظَر ، فيقصدونه من البلاد الشَّاسعة مِنْ خراسان وغيرها . وبالجملة كان أهلُ الدين عنده في أعْلى مَحلٍّ وأعظَمِه ، وكان أمراؤه يحسُدونهم على ذلك ، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم ، وإذا نقلوا عن إنسان عَيْبًا يقول : ومَنْ هو المعصوم ؟ وإنَّما الكامل من تُعدُّ ذنوبه . قال : وبَلَغَني أنَّ بعضَ أكابر الأمراء حَسَدَ قُطْبَ الدين النيسابوريّ الفقيه الشافعيّ ، وكان قد استقدمه من خراسان ، وبَالَغ في إكرامه والإحسان إليه ، فحَسَدَه ذلك الأمير ، فقال عنه يومًا عند نور الدين ، فقال له : يا هذا ، إنْ صَحَّ ما تقوله ، فَلَهُ حسنة تَغْفرُ كلَّ زَلَّةٍ تذكُرُها ، وهي العلم والدِّين ، وأمَّا أنتَ وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرتَ ، وليستْ لكم حسنةٌ تغفرها ، ولو عَقِلْتَ لشغلَك عيْبُكَ

عن غيرِكَ ، وأنا أحْتملُ سيِّئاتكم مع عَدَمِ حسناتِكم ، أفلا أحْتملُ سيّئة هذا - إنْ صحَّت - مع وجود حسنة ؟ على أنَّني والله لا أُصدِّقُك فيما تقول ، وإنْ عُدتَ ذكَرْتَه أو غيرَه بسوءٍ ، أدَّبْتُك . فكَفَّ عنه . قال ابن الأثير : هذا والله هو الإحسان ، والفِعْلُ الذي ينبغي أن يُكْتب على العيون بماء الذهب .

وبنى بدمشق أيضًا دارَ الحديث ، ووقَفَ عليها وعلى مَنْ بها - من المُشتَغِلينَ بعلم الحديث - وقوفًا كثيرة ، وهو أوَّل مَنْ بنى دارًا للحديث فيما علمناه ، وبنى أيضًا في كثيرٍ من بلاده مكاتبَ للأيتام ، وأجرى عليهم وعلى مُعلِّميهم الجرايات الوافرة ، وبنى أيضًا مساجدَ كثيرة ، ووقَفَ عليها وعلى مَنْ يُقرئُ بها القرآن . قال : وهذا فِعْلٌ لم يُسبق إليه . بلغني مِنْ عارفٍ بأعمال الشام أنَّ وُقُوفَ نور الدين في وقْتِنا هذا - وهو سنة ثمان وستمائة - كلَّ شهرٍ ، تسعةُ آلاف دينارٍ صُوريَّة ، ليس فيها مُلْكٌ غيرُ صحيحٍ شرعيٍّ ، ظاهرًا وباطنًا ؛ فإنّه وَقَفَ ما انتقل إليه ووزنَ ثمنَهُ ، وما غَلَبَ عليه من بلاد الفرِنج وصار سهمَهُ .

قال : وأمَّا وقارُه وهيبتُه فإليه النهاية فيهما ، ولقد كان - كما قيل - شديدًا من غير عُنف ، رقيقًا من غير ضَعْف ، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره ؛ فإنّه ضَبَطَ ناموسَ المُلْك مع أجناده وأصحابه إلى غايةٍ لا مزيدَ عليها ، وكان يُلزمُهم بوظائِف الخِدمة؛ الصغير منهم والكبير، وكان - مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم - إذا دخلَ عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير ، يقومُ له ويمشي بين يديه ، ويُجلسه إلى جانبه ، كأنّه أقرب الناس إليه ، وكان إذا أعطى أحَدهم شيئًا يقول : إنَّ هؤلاء لهم في بيت المالِ حق ، فإذا قَنِعوا منّا ببعضه فلهم المنَّةُ علينا . وكان مجلسُه - كما رُوِيَ في صفة مَجْلسِ رسول الله ﷺ - مجلسَ حِلْمٍ وحياء لا تُؤْبَنُ فيه الحُرمُ . وهكذا كان مجلسُه لا يُذكَرُ فيه إلَّا العلْمُ والدِّين ، وأحوالُ الصالحين ، والمشورةُ في الجهاد وقصْد بلاد العدوّ ، ولا يتعدَّى هذا .

قال ابن الأثير : فهكذا كانت أحواله جميعها - رحمه الله - مضبوطة محفوظة . وأمَّا حِفْظ أصول الديانات ، فإنّه كان مراعيًا لها لا يهملها ، ولا يُمكِّن أحدًا من الناس من إظهار ما يخالف الحق ، ومتى أقْدَم مُقْدِمٌ على ذلك أدَّبه بما يناسب بِدْعَته ، وكان يبالغ في ذلك ويقول : نحن نحفظُ الطُّرقَ من لصٍّ وقاطعِ طريقٍ ، والأذى الحاصلُ منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ، ونمنع عنه ما يُناقِضُه وهو الأصل ؟! .

قال : وحُكي أنَّ إنسانًا بدمشق يعرف بيوسف بن آدم - كان يُظهر الزهد والنُّسك ، وقد كثُر أتباعُه - أظهر شيئًا من التشيعيَّة ، فبلغ خبَرُه نور الدين ، فأحضره وأركبه حمارًا وأَمَر بصَفْعِه ، فطيف به في البلد جميعه ، ونوديَ عليه : هـذا جزاء مَن أظهر في الدين البدَع ، ثم نفاه من دمشق ، فقَصَد حرَّان ، وأقام بها إلى أن مات . قلت : وحدَّثني الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد ابن هبة الله قال : وقفتُ على رقْعَةٍ بخطِّ الوزير خالد بن محمد بن نصر ابن القيسراني ، كتبها إلى نور الدين ، وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور ، فنقلتُ جميع ما فيها من خطّيهما . قال : وكان - رحمه الله - كتب رقعة ، يطلب من ابن القيسراني : أن يَكْتب له ما يُدْعى له به على المنابر ، حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه ، ويصونه عن الكذب ، وعمَّا هو مخالفٌ لحاله . ونسخة الورقة بخطِّ خالدٍ المذكور : أعلى الله قَدْر المولى في الدارين ، وبلغه آماله في نفسه وذرّيته ، وخَتَم لهُ بالخير في العاجلة والآجلة بمنّه وجُوده وفضله وحمده . وقَف المملوك على الرقعة ، وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله بأنْ يرضى عنه وعن والديه ، وأن يسهِّلَ له السلوك إلى رضاه والقُرْب منه والفوز عنده ، قد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الأشرف زاده الله شرفًا . وهو أن يذكر الخطيب على المنبر ، إذا أراد الدعاء للمولى : اللّهمّ أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقُوَّتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سُنْقر ناصر أمير المؤمنين .

فإنّ جميعَه لا يدخله كَذِبٌ ولا تَزيُّد ، والرأي في ذلك أعْلى وأسْمى إن شاء الله تعالى . فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطِّه ، ما هذا صورته : مقصودي أن لا يكذب على المنبر ، أنا بخلاف كلّ ما يُقال لا أفرح بما لا أعْمل ، قلَّة عقل عظيم . الذي كتب جيد هو ، اكتب به نسخًا حتى نُسيِّره إلى جميع البلاد . وكتب في آخر الرقعة : ثم نبدأ بالدعاء : اللّهمّ أره الحقَّ أسعده ، اللّهمّ وفِّقه من هذا الجَنْش[١] .

وفي عصرنا يا نور الدين: الحاكم في كلِّ دولةٍ رُبّما خصَّصُوا وزارةً لنشر صُوَره في كلِّ أرجاء البلاد ، كما يقول الشاعر :

صورة الحاكم في كلِّ اتجاهْ
أينما سِرْنا نراهْ
في المقاهي
في الملاهي
في الوزارات
وفي الحارات
والبارات
والأسواق
والتِّلْفاز
والمسرح
والمبغى
وفي ظاهر جدران المصحّات
وفي داخل دورات المياهْ
أينما سرنا نراهْ

*** *** ***

(١) الجَنْش : الغلط ، وجَنَشتْ نفسي : ارتفعت من الخوف .

صورة الحاكم في كلِّ اتّجاه
باسمٌ
في بلدٍ يبكي من القهر بُكاهْ !
مشرقٌ
في بلدٍ تلهو الليالي في ضُحاه
ناعمٌ
في بلدٍ حتى بلاياهُ
بأنواع البلايا مُبْتَلاهْ
صارِخٌ
في بلدٍ مُعتقَلِ الصّوت
ومنزوعِ الشّفاهْ !
سالمٌ
في بلد يُعدم فيه الناس
بالآلاف ، يوميًّا
بدعوى الاشْتِباهْ

* * *

صورة الحاكم في كلّ اتّجاه
نعمة منه علينا
إذ نَرَى حين نَرَاهْ
أنه لَمَّا يزل حيًّا
وما زلنا على قيْد الحياهْ[1]

---

(١) قصيدة حبيب الشعب صـ٢٣ – ٢٥ ، من ديوان إني المشنوق أعلاه ، لأحمد مطر الطبعة الأولى بلندن .

قـال : وحدثني والدي قال : استدعانا نور الدين ، أنا وعمك أبـا غانم وشرف الدين بن أبي عصرون ، إلى الميدان الأخضر ، وأشهدنا عليه بوقْف حوانيت على سُور حمص ، فلمّا شهدنا عليه، التفتَ إلينا فقال: بالله انظروا أيَّ شَيْءٍ علمتموه من أبواب البرّ والخير دلّونا عليه ، وأشرِكونا في الثواب. فقال له شرف الدين ابن أبي عصرون : والله ما ترك المولى شيئًا من أبواب البرّ إلَّا وقد فعله ، ولـم يَتْرك لأحدٍ بعده فِعْل خير إلّا وقد سبقه إليه . قال : وقال لي والدي : وصل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر فمات بها ، وخلَّفَ ولدًا صغيرًا ومالًا كثيرًا ، فكتب بعضُ مَن بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات رجلٌ ها هنا - رجل تاجر موسر - وخلَّفَ عشرين ألف دينار وفوقها ، وله ولد عمره عشر سنين ، وحسَّنَ لـه أنْ يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يَكْبُر الصغير ، ويُـرضى منه بشيء ، ويُمسَك الباقي للخزانة . فكتب نور الدين - رحمة الله عليه - على رقعته : أمّا الميت فرحمه الله ، وأمّا الولد فأنشأه الله ، وأمّا المال فثمَّره الله ، وأما الساعي فلعنه الله . قال : وبلغني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضًا .

وحدثني الحاج عمر بن سُنقر عتيق شاذبخت النوري ، قال : سمعت الطواشي شاذبخت الخادم يحكي لنا قال : كنت يومًا أنا وسنقر واقفَيْن على رأس نور الدين وقد صلّى المغرب ، وجلس وهو مُفكّرٌ فكْرًا عظيمًا ، وجعل يَنكُتُ بأصبعه في الأرض ، فتعجَّبنا من فِكْره وقلنا : تُرى في أيّ شيءٍ يُفكِّر ؟ أفي عائلته أو في وفاء دَيْنه . فكأنّه فَطِن بنا ، فرفع رأسه وقال : ما تقولان ؟ فقلنا : ما قلنا شيئًا . فقال : بالله قولا لي . فقلنا : عجبنا من إفـراط مـولانا في الفِكْر ، وقلنا : يفكر في عائلته أو في نفسه . فقال : والله إنّي أُفكِّر في والٍ ولّيته أمْرًا من أمور المسلمين فلم يَعْدِل فيهم ، أو فيمن يظلم المسلمين مِن أصحابي وأعـواني ، وأخاف المطالبة بذلك ، فبالله عليكم - وإلّا فَخُبْزِي عليكم حرام - لا تريان قصَّةً تُرفع إلَّي ، أو تعلمان مظلمة ، إلّا وأعْلِماني بها وارفعاها إلَّي . وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع

ابن تميم قال : كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان ، يطلب مِن الشيخ عمر الملّاء شيئًا يفْطر عليه ، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرُّقاق وغير ذلك ، فكان نور الدين يفطر عليه ، وكان إذا قَدِم الموصل لا يأكل إلَّا من طعام الشيخ عمر الملَّاء .

قال : وكان نور الدين ، لمّا صارتْ له الموصل ، قد أَمَر كمشتكين شحنة الموصل ، أنْ لا يعمل شيئًا إلّا بالشرع إذا أمره القاضي به ، وأنْ لا يعمل القاضي والنُّوَّاب كلُّهم شيئًا إلَّا بأمْرِ الشيخ عمر الملَّاء .

« انظروا كتاب الزاهد إلى المَلِك ، وكتاب المَلِك إلى الزاهد !! » :

قال : فكان لا يُعْمل بالسياسة وبطُلت الشحنكيَّة ، فجاء أكابر الدولة وقالوا لكمشتكين : قد كَثُر الزُّعَّار وأربابُ الفساد ، ولا يجيءُ من هذا شيءٌ إلَّا بالقتْل والصلْب ، فلو كتبتَ إلى نور الدين وقلت له في ذلك . فقال لهم : أنا لا أكتب إليه في هذا المعنى ، ولا أجْسُر على ذلك ، فقولوا للشيخ عمر الملَّاء يكتب إليه . فحضروا عنده ، وذكروا له ذلك ، فكتبَ إلى نور الدين ، وقال له : إنَّ الزُّعَّار والمفسدين وقطَّاع الطريق قد كَثُروا ، ونحتاج إلى نَوْع سياسة ، فمِثْلُ هذا لا يجيءُ إلَّا بَقتْلٍ وصلْبٍ وضرْبٍ ، وإذا أُخِذ مالُ الإنسان بالبرّيَّة ، مَنْ يجيءُ يشهدُ له ؟! قال : فقلبَ نورُ الدين - رحمه الله - كتابه ، وكتبَ على ظهره : إنَّ الله تعالى خَلَق الخلْق وهو أعْلم بمصلحتهم ، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن المصلحة في زيادة الشريعة ، لَشَرَعَهُ ، فما حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله ؟! قال : فجمع الشيخ عمر المَلَّاء أهل الموصل ، وقال : انظروا كتاب الزاهد إلى الملكِ ، وكتاب المَلِك إلى الزاهد .

وسمعتُ صقر بن يحيى بن صقر المعدل يقول : سمعت مقلدًا.يعني : الدولعي . يقول : لما مات الحافظ المرادي ، وكنّا جماعة الفقهاء قسمين ؛ العرب والأكراد ،

فمنا مَنْ مال إلى المذهب ، وأردْنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وكان بالموصل ، ومنا مَنْ مال إلى عِلْم النظر والخلاف ، وأراد أنْ نستدعي القُطب النيسابوري ؛ وكان قد جاءَ وزَار البيت المقدَّس ، ثم عاد إلى بلاد العجم ، فوقع بيننا كلام بسبب ذلك ووقعتْ فتنة بين الفقهاء . فسمع نور الدين بذلك ، فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب ، وخرج إليهم مجد الدين – يعني : ابن الداية – عن لسانه وقال لهم : نحن ما أردنا ببناء المدارس إلَّا نَشْر العلم ودَحْض البِدَع من هذه البلدة وإظهار الدين ، وهذا الذي جرى بينكم ، لا يحسن ولا يليق ، وقد قال المولى نور الدين : نحن نُرضي الطائفتين ، ونستدعي شرف الدين بن أبي عصرون وقطب الدين النيسابوري. فاستدعاهما جميعًا، وولَّى مدرسةَ ابن عصرون لشرف الدين ومدرسةَ النفري لقطب الدين رحمهما الله تعالى .

أخبرنا مختار الدين عبد المطلب بن الفضْل الهاشمي ، قال : كان عند قاضي حلب تاج الدين الكردَري غلام قد جعله لمجلس الحُكْم ، يُدعى : سُويدًا ، يُحْضر الخصوم إلى مجلس الحكم ، فحضر بعض التجار وادَّعى أنّ له على نور الدين دعوى ، فقال الكردَري لسويد المذكور : امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحُكْم ، وعرِّفه أنَّه حَضَرَ شخص يطلبُ حضوره . وكان نور الدين في الميدان ، فجاء سويد إلى باب الميدان ، فخرج إسماعيل الخزندار فوجدَهُ ، فتقدَّم سويد إليه وقال : قد سيَّرني تاج الدين القاضي ، وقال لي كذا وكذا . فضحك إسماعيل الخزندار ، ودخل على نور الدين ضاحكًا ، وقال له مستهزئًا : يقوم المولى . فقال : إلى أينَ ؟ فقال : قد حَضَر سويد غلام تاج الدين القاضي ، وقال : إنّه أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم . فأنكَر نور الدين على إسماعيل استهزاءه ، وقال : تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم ؟! ثم قال نور الدين رحمه الله : يُحْضر فرس حتى نركب إليه ، السمع والطاعة ، قال الله تعالى : ﴿ **إنَّما كان قَوْلَ المؤمنينَ إذا دُعوا إلى الله ورسولهِ ليَحْكُمَ بينهم**

أنْ يقولوا سَمِعْنا وأطَعْنا ﴾ . ثم ركب حتى دخل باب المدينة ، فاستدعى سويدًا ، وقال : امض إلى القاضي وسلّم عليه ، وقُلْ له : إنِّي جئت إلى ها هنا ؛ امتثالًا لأمْر الشرع ، وأحتاجُ في الحضور إلى مجلسه ، إلى سلوك هذه الأزِقَّة وفيها الأطيان ، وهذا وكيلي يسمع الدعوى ، وإن توجَّهتْ عليَّ يمين أحْضُر إنْ شاء الله تعالى . قال : فحضر الوكيل وسمع الدعوى ، وتوجَّهتْ اليمينُ . فقال القاضي : قد توجَّهت اليمين فليحضُر . فلمَّا بلغ نور الدين ذلك ، وعَلِم أنَّه لا مندوحةَ عن حضور مجلسه لليمين ، استدعى ذلك التاجر وأصلح الأمر فيما بينه وبينه ، وأرضاه .

قال لي صقر بن يحيى : بلغني أنّ موفق الدين خالدًا رأى في المنام : كأنَّ نور الدين دَفَع إليه ثيابه ليغسلها ، فقصَّ منامه على نور الدين فتَمعَّر وجهُ نور الدين ، فخجل موفق الدين ، وبقي أيامًا على غايةٍ من الخجل ، فاستدعاه يومًا نورُ الدين ، وقال : تعال قد آن لك أن تغسل ثيابي ، اقْعُد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار ، واكتب للمسلمين أنِّي قد رفعتُ عنكم ما رفعه الله عنكم ، وأثْبَتُّ عليكم ما أثبته الله عليكم . قال : فكتب موفق الدين توقيعًا .

سمعتُ خليفة بن سليمان - خليفة البقيعة - يقول : سمعتُ أبي يقول : لما كُسِر نور الدين - يعني : كسرة البقيعة ٥٥٨ هـ - تكلَّم البرهان البلخي فقال : أتريدون أنْ تُنْصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور ، كلا . وكلامًا مع هذا ، فلمَّا سمع نور الدين ذلك ، قام ونزع عنه ثيابه تلك ، وعاهد الله تعالى على التوبة ، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكَسَر الفرنج .

سمعتُ صديقنا شمس الدين إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النوري - وكان أبوه أحد مماليك نور الدين وأعتقه - يقول : سمعت والدي يقول : كان نور الدين يلبس في الليل مسْحًا ، ويقوم يصلِّي فيه قطعة من الليل ، قال : وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرَّع ويقول : ارْحم العشَّار المكّاس .

قال قاضي القضاة بهاء الدين : سيَّر نور الدين إلى بغداد كتابًا يُعْلم الخليفة بما أطْلَق ، ويسأله أن يَتقدَّمَ إلى الوعَّاظ ، بأن يستعجلوا مِن التجار ومن جميع المسلمين له في حلّ ما كان قد وَصَل إليه - يعني من أموالهم - قال : فتقدَّم بذلك ، وجعل الوعَّاظ على المنابر ينادون بذلك .

حدثني رضيّ الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر : أن نور الدين حين خرج لأخْذ (شيزر) ، خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته ، فأَمَره نور الدين بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحرّان وسنجار والرحبة وعزاز وتل باشر وعداد العرب ، فكتَب عنه توقيعًا أوَّله : (هذا ما يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى) ، إلى أن قال : (علم أنّ الدنيا فانية ، فاستخدمها للآخرة الباقية ، فصفح لكافَّة المسلمين وجميع المسافرين بالضرائب والمكُوس ، وأسقطها من دواوينه وحرَّمها على كلِّ متطاول إليها ومتهافت عليها ؛ تجَنُّبًا لإثمها واكتسابًا لثوابها ، فكان مبلغُ ما سامح به وأطلقه ، وأنفذَ الأمْر فيه - اتِّباعًا لكتاب الله عز وجل وسنّة نبيّه محمد ﷺ - في كل سنة من العين مائةُ ألف وستَّةٌ وخمسون ألف دينار ، جهات ذلك ؛ حلب : خمسون ألف دينار ، عزاز : عشرة آلاف دينار ، تل باشر : واحد وعشرون ألف دينار ، المعرة : ثلاثة آلاف دينار ، دمشق : عشرون ألف دينار ، حمص : ستة وعشرون ألف دينار ، حران : خمسة آلاف دينار ، سنجار : ألف دينار ، الرحبة : عشرة آلاف دينار ، عداد العرب : عشرة آلاف دينار . وما وقَفه وتصدَّق به وأجْراه في سُبُل الخيرات ومن وجوه البرِّ والصَّدقات ، تقدير ثمنه مئتا ألف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة : ثلاثون ألف دينار ، من ذلك ما وقَفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرِّسيها وفقهائها ، وما وقفه على آدر الصوفيّة والرُّبُط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار ، وما

وقَفَه على السبيل في طريق الحجاز ، وما وقفه على فكاك الأسْرَى ، وتعليم الأيتام ومُقْرِ الغرباء وفقراء المسلمين ، وما وقفه على الأشراف العلويِّين والعباسيّين ، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين ، هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور -حرسها الله تعالى - من أملاكهم فإنّه يُضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه ، جعل ذلك ذريعة عند الله وتقرُّبًا إليه ، مضافًا إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد من خزانته وأمواله ، فالواجب على كل إمامٍ عَدْلٍ وسلطانٍ قادرٍ ، أن يمدَّه ويوده ويشدَّ عضُدَه ويقوِّي عزمه ، وينفِّذ حكمه ، وعلى كل مسلم أن يُوَاصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار .

وكتب خادمُ دولته وغَذِيُّ نعمته ، عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان ابن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي ، إلى كل من يَصل إليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين وأصحاب الزوايا المتعبِّدين ، وكافة التجار والمسافرين ، ليُشْعِروا بذلك مَن حَضَرهم من التجار والمتردِّدين إليهم من السُّفَّار ؛ ليعرفوا قَدْر ما أنعم الله به عليه وعليهم ، ولينذروا قومَهم إذا رجعوا إليهم ، ويمدُّوه بأدعيتهم ، ويُبَرِّئوا ذمَّته ممّا سبق من أخذ مؤنتهم ، فإنّه لم يصْرِف ذلك إلّا في وجه برٍّ وتجهيزِ جيشٍ ومعونةِ مجاهدٍ وردْع كافرٍ ومعاند ، فهم شركاؤه في الثواب) .

قال لي رضيّ الدين أبو سالم بن المنذر : فلما وقَف نور الدين - رحمه الله - على قوله : ويُبَرِّئوا ذمَّته ممّا سبق ، استحسن ذلك كثيرًا ووعده بإقطاعٍ حَسَنٍ ، واتَّفَق موته - يعني موت الطالب لذلك - بعد ذلك .

قال : وفي تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، أحْضر نور الدين أعيان دمشق ؛ من القضاة ومشايخ العلم والرؤساء ، وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ؛ ليفصلوها منها ، وقال لهم : ليس العمل إلّا على ما تتَّفقون عليه وتشهدون به ، وعلى هذا كان الصحابة

رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين ، وليس يجوز لأحدٍ منكم أن يعلم من ذلك شيئًا إلّا ويذكره ، ولا يُنْكِر شيئًا مما يقوله غيره إلّا وينكِره ، والساكت منكم مصدِّقٌ للناطق ومصوِّبٌ لقوله . فشكروه على ما قال ودعوا له . وفَصَلوا له المصالح من الوقْف ، فقال نور الدين : إنَّ أهم المصالح سدُّ ثغور المسلمين ، وبناءُ السُّور المحيط بدمشق والفضيل والخندق ؛ لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم . ثم سألهم عن فواضل الأوقاف ، هل يجوز صَرْفها في عمارة الأسوار وعَمَل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين ؟ فمنهم من أفتى بجواز ذلك عند الحاجة وفراغ بيت المال ، أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهمَّاتهم الدينية . وقال الأكثرون : ليس طريقه إلّا أن يقترضَه مَنْ إليه الأمْر في بيت مال المسلمين ، فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجبًا من بيت المال .

وعلى الجملة كان نور الدين - رحمه الله - فردًا في زمانه من بين سائر الملوك ، ومن أحسن ما بلغني عنه أنّه سمع في الحديث : أن النبي ﷺ خرج متقلِّدًا سيفًا[1] ، وكان هو وجُنْده عادتهم ربْطُ السيوف بأوساطهم ، فتعجب من ذلك ، فلمَّا كان من الغد ركب وقد تقلَّد سيفَهُ وجميع جنده كذلك .

وما أحْسَنَ ما قال فيه محمد بن نصر القيسراني من قصيدة :

ذو الجهادَيْنِ من عدوٍّ ونَفْسٍ ... فهْو طولَ الحياةِ في هَيْجَاءِ
أيُّها المالكُ الذي ألزم النّـ ... ـاسَ سُلُوكَ المحَجَّةِ البيضاءِ
قد فضحتَ الملوكَ بالعدْلِ لمَّا ... سرتَ في الناسِ سِيرةَ الخلفاءِ
قاسمًا ما ملكتَ في النّاسِ حتى ... لقسمتَ التُّقَى على الأتقياءِ
أنتَ حِينًا تُقاس بالأسَدِ الوَرْ ... دِ وحِينًا تُعَدُّ في الأولياءِ

وله فيه من أخرى :

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأحمد .

يا سائلي عـن نهـجِ سِيرتـهِ — هل غيْرُ مَفْرِقِ هامَـةِ الفَجْـرِ
عــدْلٌ حقيــقٌ مــن تأمَّلَــهُ — أن يُحيـيَ العُمَـرَيْنِ بالـذِّكْرِ
وشهـامـةٌ فــي اللهِ خالصــةٌ — عقدتْ عليـه تَمَائِـمَ الأجْـرِ
ونـدى يـدٍ ما ضرَّ واردَها — أنْ لا يبيـتَ مجـاورَ البحْـرِ
هــذا المخيَّــم في ذُرَا حلـبٍ — وثنـاؤه أبـدًا علـى ظهْــرِ

وله من أخرى :

كلَّفْتَ هِمَّتَك السُّمُـوَّ فحلَّقتْ — فكأنَّما هي دعـوةٌ فـي ظالـمِ

وله من أخرى :

أخـو غـزواتٍ كالعُقُـودِ تناسقـتْ — تحـلُّ بأجيـادِ الجِيــادِ وتقعُــدُ
لسـانٌ بـذكْـرِ اللهِ يكســو نهـارَهُ — بهاءً وجفنٌ في الدُّجَى ليس يرقُـدُ
وبــذْلٌ وعــدْلٌ أغرقـا وتـألَّقــا — فلا الوردُ مثمودٌ ولا الباب موصَدُ
مَــرامٌ سمـائـيٌّ وحـــزْمٌ مُسَــدَّدٌ — ورأْيٌ شهــابـيٌّ وعــزْمٌ مؤيَّــدُ

وله فيه من قصيدة أُخرى :

محمـودٌ المُـرْبـي على أسلافِهِ — أن زادَ في حَسَبِ الحَسِيبِ نِجارُ
ملـكٌ إذا تُـلِيتْ مـآثـرُ قـومِـهِ — كسـدَ اللّطيـمُ وهُجِّـنُ النُّـوّارُ
ملأَ الفِـرَنْجَ جَـورُ سَيْفِك فيهـمُ — فلَهـمْ على سيفِ المحيطِ جُوارُ
عفَّى جهادُك كلَّ رسْمِ مَخُوفَةٍ — وعَفَتْ بصفْوةِ عدْلِك الأكْدارُ
ومحا المظالمَ منك نظرةُ راحمٍ — للهِ فــي خطَـراتِــهِ أســـرارُ
غضبـانُ للإسـلامِ مـالَ عمودُهُ — فلنُـورِهِ ممَّــا عَـراهُ نَـــوارُ
لم يَبق ماكِسُ مسلـمٍ سَلْقًا ولا — ســاعٍ لمظلمــةٍ ولا عَشَّـــارُ
هَمَدُوا كما همدتْ ثمودُ وقادَهُمْ — لخَسَـارِهـم ممَّـا أتـوْهُ قـدارُ
العـارُ فـي الـدنيـا شَقُـوا بلباسِهِ — ولباسُهـمْ يـومَ الحسـابِ النَّـارُ
كـم سِيـرةٍ أحييتهــا عُمَـرِيَّــةٍ — رُفِعـتْ لهـا فـي الخـافقَيْنِ مَنَارُ

وَنَوافِـل صيَّـرْتَهُـنَّ لوازمًـا ... بـأقلِّهـا تُستعبَـدُ الأحـرارُ
أمَّا نهارُك فهو ليـلُ مجاهـدٍ ... واللَّيلُ من طُولِ القيامِ نهـارُ
فلذلـك النَّصْـرِ العـزيزِ أدلَّـةٌ ... كيف اتَّجهتَ وللفُتُوحِ أمَارُ

ولله درُّ العماد حين يقول في رثاء نور الدين :

الـدِّينُ في ظُلَمٍ لغيبـةِ نُـورِهِ ... والدَّهر في غُمَمٍ لفقْدِ أميـرِهِ
فَلْينـدُبِ الإسـلامُ حامـيَ أهْلِهِ ... والشـامُ حافـظَ مُلْكِـهِ وثُغُـورِهِ
ما أعظَـمَ المقـدارَ في أخطارِهِ ... إذ كان هذا الخَطْبُ في مَقْدُورِهِ
ما أكثَـرَ المُتـأسِّفينَ لفقْـدِ مَـن ... قرَّتْ نواظِـرُهـم بفقْـدِ نظيرِهِ
ما أغْوَصَ الإنسـانَ في نِسيانِـهِ ... أوَ مَا كفاه الموتُ في تذكيـرِهِ
مَنْ للمساجدِ والمـدارسِ بانيًا ... لله طوْعًا عن خُلُـوصِ ضميـرِهِ
مَنْ ينصرُ الإسـلامَ في غزَواتـِهِ ... فلقـد أُصيـب بـرُكْنِهِ وظهيـرِهِ
مَنْ للفِرَنْجِ ومَن لأَسْرِ ملوكِها ... مَن للهُدَى يبغي فكـاكَ أسيـرِهِ
مَن للخُطُوبِ مُذلِّلا لجِماحِها ... مِـن للزمـانِ مسهِّـلًا لوُعُـورِهِ
مَن كاشِـفٌ للمُعْضِلاتِ برأيِـهِ ... مَن مُشرِقٌ في الدَّاجياتِ بنُورِه
مَنْ للكريمِ ومَنْ لنَعْشِ عِثارِهِ ... مَن لليتيمِ ومَنْ لجبْـرِ كَسيـرِهِ
مَن للبلادِ ومَن لنصْرِ جيوشِها ... من للجهاد ومَن لحفظِ أمورِهِ
من للفتوحِ مُحـاولًا أبكـارها ... بـَرواحِـهِ فـي غـزْوِهِ وبُكُـورِهِ
مَن للعُلا وعهودِها مَـن للنَّـدَى ... ووُفُودِهِ مَن للحِجَا ووُفُورِهِ
ما كنتُ أحْسَبُ نُورَ دِينِ محمدٍ ... يخبو وليلُ الشـرك في دَيْجُـورِهِ
أعـزِزْ علـيَّ بـلَيْثِ غـابٍ للهُـدى ... يخلو الشَّرى مِن زَوْرِهِ وزئيـرِهِ
أعـزِزْ علـيَّ بـأن أراه مُغيَّبًـا ... عن مَحْفِلٍ متشـرِّفٍ بحُضُـورِهِ
لهفـي علـى تلـك الأنـامِلِ إنَّهـا ... مُذ غُيِّبَتْ غاضَ النَّـدَى ببحـورِهِ
ولقد أتى مَنْ كنت تُجري رسْمَهُ ... فضَعِ العلامةَ منك في منشورِهِ

ولقد أتى من كنتَ تكشفُ كَرْبَه فـارفعْ ظُلامَتَـهُ بنَصْـرِ عَشيـرِهِ
ولقد أتى مَن كنت تُؤْمِنُ سِرْبَهُ وقِّعْ لـه بـالأمْنِ مـن محـذورِهِ
ولقد أتى مَن كنتَ تُؤثِرُ قُـربَه فأدِمْ لـه التَّقـريبَ فـي تقـديـرِهِ
والجيشُ قد رَكِبَ الغداةَ لعرْضِهِ فـاركـبْ لتُبْصِـرَهُ أوانَ عُبُـورِهِ
أنتَ الذي أحييتَ شرعَ محمدٍ وقضيـتَ بعـد وفـاتِهِ بنُشُـورِهِ
كم قد أقمتَ من الشريعةِ مَعْلَمًا هو منذ غِبـتَ مُعَـرَّضٌ لدُثُورِهِ
كم قد أمرتَ بحفْرِ خندقِ مَعْقِلِ حتى سكنتَ اللَّحْدَ من محفورِهِ
كم قيصرٍ للرومِ رُمتَ بقَسْرِه إرواءَ بِيضِ الهندِ مـن تامـورِهِ
أُوتيتَ فتْحَ حصونِهِ وملكتَ عُقْـ ـرَ بلادِهِ وسبيْتَ أهلَ قصـورِهِ
أزهدتَ في دارِ الفناءِ وأهْلِهـا ورغبتَ في الخُلدِ المُقيمِ وحُورِهِ
أوَ مَا وعدتَ القُدسَ أنَّك مُنجِزٌ ميعـادَهُ فـي فتْحِـهِ وظهـورِهِ
فمتى تُجيرُ القدسَ من دَنَسِ العِدا وتقدِّسُ الرحمـنَ فـي تطهيـرِهِ
يـا حامِلِيـن سريـرَهُ مهْـلًا فمِـنْ عَجَبٍ نُهوضُكُمُ بحمْلِ ثَبيرِهِ(١)
يا عابرين بنَعْشِهِ أَنْشِقْتُـمُ من صالحِ الأعمالِ نَشْرَ عبيرِهِ
نـزلتْ مـلائكـةُ السماء لـدفْنِهِ مُستجمِعِين على شَفِيرِ حفيـرِهِ
ومِـن الجفـاءِ لـه مقامـي بَعْـدَهُ هلَّا وفيتُ وسرتُ عندَ مسيرِهِ
حيَّـاك معتـلُّ الصَّبـا بنسيمـهِ وسقـاكَ مُنْهَـلُّ الحَيَـا بِـدُرُورِهِ
ولَبستَ رضوانَ المهيمنِ ساحِبًا أذيـالَ سُنـدُسِ خَزِّه وحـريرِهِ
وسكنـتَ عِلِّيِّيـن فـي فِرْدَوسِهِ حلفَ المسرَّةِ ظافرًا بأُجورِهِ(٢)

وفي عصرنا يا نور الدين :

قطيعٌ نحنُ والجَزَّارُ راعينا
ومنفِيُّون نمشي في أراضينا

---

(١) ثبير: جبل بمكة. وهي أربعة أثبرة ثبير غيناء، وثبير الأعرج، وثبير الأحذب،و ثبير حراء.
(٢) عيون الروضتين في أخبار الدولتين .

ونحملُ نَعْشَنا قَسْرًا بأيدينا
ونُعرِبُ عن تعازينا لنا فينـا
فـوالِينـــا أدامَ اللهُ والِينـــا
رآنا أُمَّةً وَسْطًا فما أَبْقَى لنا دنيا
ولا أبقى لنا دينا
ولاةَ الأمْرِ ما خُنتم ولا هنتُمْ ولا أَبْدَيْتُم اللِّينَا
ففي تهديدكم حِينا وفي تنديدكم حينا
سحقْتُم أنف أمريكا ولو نُقلتْ سفارَتُها
معاذَ الله لو نُقلتْ لضيَّعْنا فلسطينا
ولاةَ الأمر هذا النَّصرُ يكفيكم ويكفينا
تهانينا

* * *

بالأمسِ كان لهم وطنْ
واليوم صار لهم كَفَنْ
مَنْ باع شِبرًا من بلادي بِعتُهُ وبلا ثَمَنْ
يا سقطةَ الأبطال إن شاخَ البَدَنْ
يا ضيعةَ الفرسانِ إن وَهنَ الرَّسَنْ
كلّ المخازي والجرائِمِ باسمهم باسمِ الوطنْ
كلُّ الذي حاكُوهُ خلفَ ظُهُورِنا
اليوم يخرُجُ للعَلَنْ
واللّدّ يا أهلي عيونُ الوطنْ
والمَجْدلُ المذبوحُ قربانُ وطنْ
لا أنت مِن صُلبي
ولا من رَحِم أُمِّكَ
مَنْ إذَنْ ؟!

هل أنت في صدري دَرَنْ
هل أنت في عيني قَذًى
مَنْ باعَ شِبرًا من بلادي بِعتُه وبلا ثمَنْ
ولدي هنا في قلْبِهِ القرآنُ تمنعُهُ المساجدْ
ولدي يثور على التَّراجُعِ والتَّردِّي والمفاسدْ
أحجاره تهوي على الأعداء ترْجُم كلَّ قاعدْ
لم يَجْرِ خلفَ سَرَابِ أمريكا
حدودُ بلادِهِ زرعتْ سَوَاعِدْ
ولدي يُنادي هذه بيسانُ خالدْ
ولدي ومسجدُهُ القيادةُ والقواعدْ
يا عابدَ الحرميْنِ والأقصى به مليونُ عابدْ
يا نازِلين إلى الحَضِيضِ وشعبُنا للنَّجْمِ صاعِدْ
كُفُّوا فما أنتم بنيَّ ولا أنا لكمُ بوالِدْ
والقدسُ تحميها النساءُ وعندكم خمسون قائدْ
والاحتفالاتُ هناك ودمْعتي للغدْرِ شاهِدْ
والأرضُ تنتظرُ البِذارَ فكنتمُ قَحْطَ الزَّمَنْ
بالأمسِ كان لهم وطنْ
واليوم صار لهم كَفَنْ
من باعَ شِبرًا من بلادي بِعتُه وبلا ثمنْ .

* * *

صلاح الدين الأيوبي سلطان يحمل جَبَلًا في فكره :

يا صلاحُ إذا العوالي تغنَّتْ — ثم جالتْ ليوثُهُ الرَّقِصاتُ
يا صلاحَ الإسلام حَييتَ ذُخرًا — قد حباكَ التَّاريخُ مِنْهُ هِباتُ
يومُ حطِّينَ سوفَ يَبقى مُهابًا — رُسمتْ في أديمِهِ البسَماتُ
أقبلوا والصَّليبُ يكْسو صدورًا — هِيَ أحقادُهم بها كائناتُ
فتحركَتْ بالبُنُودِ عزيزًا — ظن أنَّ الحصا أَتَتْهُمْ مشاةُ
والصليبُ الذي لهم حَمَلُوه — دِيسَ تحتَ الأقدامِ فَهْوَ رُفاتُ
وتولَّوْا الويلُ يُشعلُ فيهم — « والفرار الفرار فيه النجاةُ »

تكلمنا عن صلاح الدين وجهاده في «علو همَّة القادة»، وسنفرد له فصلًا كاملًا في كتابنا « عَبَقُ النِّسْرين في ذِكْر المجددين » ... ونورد هنا ورقات :

بعض أعمال صلاح الدين :

١ - إرجاع مصر إلى السُّنَّة :

عزَل صلاح الدين قضاة مصر ؛ لأنهم كانوا شيعة ، وولّى رئيسًا للقضاة : عبد الملك بن درباس الشافعي ، كما قطع الأذان بـ (حي على خير العمل) ، وأقام الخطبة للخليفة العباسي بعد أن انقطعت الخطبة للعباسيين بمصر (٢٠٨) سنة ، وقد بشَّر نور الدين محمود الخليفة العباسي بذلك ، وفرح الناس ، ونظم العماد الأصفهاني في هذه المناسبة :

توفِّي العاضدُ الدَّعيّ فما — يفتح ذو بدعةٍ بمصرَ فَمَا
وعصرُ فرعونها انقضَى وغدا — يُوسُفُها في الأمورِ مُحْتكِمَا
وصار شمْل الصّلاح ملتئمًا — بها وعِقْدُ السَّدادِ مُنتظمَا

٢ - توحيد بلاد الشام ومصر :

بعد وفاة نور الدين رحمه الله ، واضطراب بلاد الشام ، جاء صلاح الدين فاستلم دمشق ، ثم حمص وحماه ، وحاصر مدينة (حلب) ولكن المتنفذين فيها - الأوصياء على ابن نور الدين (إسماعيل) لصغر سنه - طلبوا المساعدة من الشعب ،

ويبدو أنَّ قسْمًا كبيرًا من هذا الشعب كان يَحنُّ إلى التشيُّع الذي أبطله نور الدين ، فاشترطوا للمساعدة العمل بأقوالهم وأفعالهم ، فاستجاب زعماء المدينة لهذا الشرط ، ولم يكتفوا بهذا فعندما رأوا قوة صلاح الدين واستمراره في الحصار طلبوا المساعدة من الحشاشين الإسماعيلية الذين اتخذوا من مدينة (بانياس) مقرًّا لهم . فحاول هؤلاء - على طريقتهم - اغتيال صلاح الدين ولكن الله نجَّاه منهم ، وترك حصار حلب فترة ثم رجع لها مرة أخرى ، وحاول الحشاشون اغتياله للمرة الثانية ففشلوا وقتل من جاء منهم لهذه العملية والذين يسمونهم (الفداوية) ولم يكتف أهل حلب بذلك بل استعانوا بصاحب طرابلس الصليبي ، فلم يهتم به صلاح الدين وأرسل كتيبة تناوشه عند حمص . ومع ذلك فقد تراجع صلاح الدين عن حلب مؤثرًا عدم الدخول في حرب طاحنة مع أهلها ، خاصة وأنهم طلبوا الصلح ، وشفعوا في ذلك بابنة نور الدين محمود ، ولكن نية السلطان لا تزال في توحيد بلاد الشام ومصر حتى تقوى على الوقوف في وجه العدو ، وأثناء هذا أراد قَطْعَ دابر الفساد وضَرْب (الحشاشين) فهاجمهم في عُقْر دارهم ، وقتل منهم وسبى،ولكن خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة شفع بهم فقبل السلطان شفاعته ، ولم يتمكن صلاح الدين من ضم حلب إلا بعد وفاة ابن نور الدين واختلاف أقاربه بعده فسلموها للسلطان ، وبذلك يكون قد اطمأن إلى القاعدة الأساسية الراسخة للصدام مع الصليبيين ، كما قال القاضي ابن شداد : « لما تحقّق صلاح الدين وفاة نور الدين وكوْن ولده طفلًا لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقلّ بدفْع عدو الله عن البلاد ، تجهَّز للخروج إلى الشام إذ هو أصْل بلاد الإسلام » . ومع ذلك فلم يترك صلاح الدين الجهاد في هذه الفترة ، بل اصطدم مع الصليبيين في عدة معارك ، مثل (مرج عيون) وغيرها ، ولكنه لم يكن مطمئنًّا إلى الصدام الكامل مع الفرنجة .

قال ابنُ شدَّاد : وكان - رحمة الله عليه - حَسَنَ العقيدة ، كثيرَ الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر

الفقهاء ، وتفهَّم من ذلك ما يحتاج إلى تفهُّمه ، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديْه يقول فيه قولًا حسنًا ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء ، فتحصَّل من ذلك سلامة عقيدته عن كَدَر التَّشبيه ، غير مارقٍ سَهْمُ النَّظَر فيها إلى التعطيل والتمويه ، جاريةٌ على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضيّة عند أكابر العلماء .

وكان – رحمه الله – قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابوري – رحمه الله – عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب ، وكان من شدّة حرْصه عليها يُعلِّمها الصغار من أولاده حتى ترسُخ في أذهانهم في الصِّغَر ، ورأيته وهو يأخذها عليهم ، وهم يقرءونها من حفْظهم بين يديه ، رحمه الله .

وأما الصلاة :

فإنه – رحمه الله تعالى – كان شديدَ المواظبة عليها بالجماعة ، حتى إنه ذَكَر يومًا أن له سنين ما صلَّى إلا جماعة ، وكان إنْ مرِض يستدعي الإمام وحدَه ويُكلِّف نفسه القيام ويُصلِّي جماعة ، وكان يواظب على السُّنن الرواتب .

وكان له ركعات يصلِّيها إن استيقظ بوقت في الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة ما دام عقله عليه، ولقد رأيتُه – قدَّس الله روحه – يصلّي في مرضه الذي مات فيه قائمًا ، وما تَرَك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيَّب فيها ذهنُه ، وكان إذا أدركتْه الصلاة وهو سائرٌ ، نزل وصلّى .

وأمَّا الزكاة :

فإنه مات – رحمه الله تعالى – ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة .

وأما صدقة النفْل فإنها استنفدت جميعَ ما ملكه من الأموال ، فإنه ملك ما ملك ومات ، ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعةً وأربعين درهمًا ناصرية ، وجرمًا واحدًا ذهبًا صوريا ، ولم يُخلف ملكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا ، ولا قريةً ، ولا مزرعةً ولا شيئًا من أنواع الأملاك ، رحمة الله عليه .

وكان - رحمه الله تعالى - يحبّ سماعَ القرآن العظيم ، حتى إنه كان يستَخْبِر إمامه ، ويشترط أن يكون عالمًا بعلوم القرآن العظيم ، متقنًا لحفظه .

وكان يستقرئ مَنْ يحضره في الليل - وهو في برجه - الجزأين والثلاثة والأربعة ، وهو يسمع .

وكان يستقرئ - في مجلسه العام - مَنْ جرتْ عادتُه بذلك : الآية والعشرين ، والزائد على ذلك .

ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءتَه ، فقرَّبه ، وجعل له حظًّا من خاصِّ طعامه ، ووقف عليه وعلى أبيه جزءًا من مزرعةٍ .

وكان - رحمه الله تعالى - رقيق القلب ، خاشع الدمعة ، إذا سمع القرآن يخشع قلبهُ وتدمع عينُه في معظم أوقاته .

وكان - رحمه الله - شديدَ الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي روايةٍ عاليةٍ وسماعٍ كثيرٍ ؛ فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالًا له ، وإن كان ذلك الشيخُ ممن لا يطرق أبوابَ السلاطين ، ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه ، وسمع عليه . تردَّد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية - حرسها الله تعالى - وروى عنه أحاديث كثيرة .

وكان - رحمه الله تعالى - يحبّ أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضِرُني في خَلْوته ، ويُحضر شيئًا من كتب الحديث ، ويقرؤها هو ، فإذا مرّ بحديث فيه عِبرةٌ رقَّ قلبُه ، ودمعتْ عينُه .

وكان - رحمة الله عليه - كثير التعظيم لشعائر الدين ، قائلًا ببعْث الأجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار ، مُصدِّقًا بجميع ما وردت به الشرائع ، منشرحًا بذلك صدرُه ، مبغضًا للفلاسفة والمعطِّلة والدهرية ومَن

يُعاند الشريعة ، ولقد أمر ولدَه صاحبَ حلب الملكَ الظاهر - أعزَّ اللهُ أنصاره - بقَتْل شابٍّ نشأ،يقال له : السُّهْرَوَرْدِي ؛ قيل عنه أنه كان معانِدًا للشرائع مبطلًا ، وكان قد قبض عليه ولدُه المذكور ؛ لِمَا بلغه من خبره ، وعرَّف السلطانَ به ، فأمره بقتله ، وصلبه أيامًا ، فقتله .

وكان - قَدَّس الله روحه - حَسَنَ الظن بالله ، كثيرَ الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه ، ولقد شاهدتُ من آثار ذلك ما أحكيه : وذلك أن الفرنج - خذلهم الله - كانوا نازلين ببيت (نوبة) ، وهو موضعٌ قريب من القدس الشريف - حرسها الله تعالى - بينهما بعض مرحلة ، وكان السلطان بالقدس ، وقد أقام يَزَكًا على العدو محيطًا به ، وقد سيَّر إليهم الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب القتال عليه واشتدَّ خوفُ المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء ، وعرَّفهم ما قد دَهَم المسلمين من الشدة ، وشاورهم في الإقامة بالقدس ، فأتوا بمُجاملةٍ باطنُها غيرُ ظاهرها ، وأصرَّ الجميع على أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه ، فإنها مُخاطَرَةٌ بالإسلام ، وذكروا أنهم يقيمون هم ، ويخرج هو - رحمه الله - بطائفةٍ من العسكر يكون حول العدوّ كما كان الحال بعَكَّا ، ويكون هو ومَن معه بصَدَد منْع مِيرتهم والتَّضييق عليهم ، ويكونون هم بصَدَد حفْظ البلد والدفْع عنه ، وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصرٌّ على أن يقيم هو بنفسه ، عِلْمًا منه أنه إن لم يُقِم ، ما يُقيم أحدٌ ، فلمَّا انصرف الأمراء إلى بيوتهم ، جاء مِنْ عندهم مَنْ أخبر أنهم لا يُقيمون إلا أن يُقيم أخوه الملك العادل أو أحدُ أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأتمرون بأمره ، فعلم أن هذه إشارةٌ منهم إلى عَدَم الإقامة ، وضاق صدرُه ، وتقسَّم فِكْرُه ، واشتدَّتْ فِكْرته . ولقد جلستُ في خِدمته في تلك الليلة - وكانت ليلة الجمعة - من أوّل الليل إلى أنْ قارَبَ الصُّبحَ ، وكان الزمانُ شتاءً ، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ، ونحن نقسِّم أقسامًا ، ونرتِّب على كل قسْم بمقتضاه ، حتى أخذني الإشفاقُ عليه والخوفُ على مزاجه ،

فإنه كان يَغلِب عليه اليُبْس ، فشفعتُ إليه حتى يأخذ مضجعه لعلّه ينام ساعةً ، فقال - رحمه الله -: لعلّك جاءك النوم . ثم نهض . فما وصلتُ إلى بيتي ، وأخذتُ لبعض شأني ، إلا وأذّن المؤذِّنُ ، وطلعَ الصُّبح ، وكنتُ أصلِّي معه الصُّبح في معظم الأوقات ، فدخلتُ عليه وهو يُمِرُّ الماء على أطرافه ، فقال : ما أخذني النوم أصلًا . فقلتُ : قد علمتُ . فقال : من أين ؟ فقلتُ : لأني ما نمتُ ، وما بقي وقْتٌ للنوم . ثم شُغلْنا بالصلاة ، وجلسْنا على ما كُنّا عليه ، فقلتُ له : قد وقع لي واقعٌ ، وأظنُّه مفيدًا إن شاء الله تعالى . فقال : وما هو ؟ فقلتُ له : الإخلاد إلى الله تعالى ، والإنابة إليه ، والاعتماد في كَشْف هذه الغمَّة عليه . فقال : وكيف نصنع ؟. فقلتُ : اليوم الجمعة ، يغتسل المولى عند الرواح ، ويصلّي على العادة بالأقصى ، موضع مَسْرى النبي ﷺ ، ويقدِّم المولى التَّصدُّق بشيءٍ خُفْية على يد مَنْ يثق به ، ويصلِّي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول في باطنك : « إلهي ، قد انقطعت أسبابي الأرضيَّة في نُصرة دينك ، ولم يبقَ إلَّا الإخلادُ إليك ، والاعتصامُ بحبِّك ، والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل » ، فإن الله تعالى أكرمُ من أن يخيِّب قصْدَك . ففعل ذلك كلَّه ، وصلَّيتُ إلى جانبه على العادة ، وصلّى الركعتين بين الأذان والإقامة ، ورأيتُه ساجدًا ، ودموعه تتقاطَرُ على شَيْبته ، ثم على سجَّادته ، ولا أسمع ما يقول ، فلم ينقضِ ذلك اليوم حتى وصلتْ رقعةٌ من عز الدين جُرْديك - وكان على اليَزَك - يُخبر فيها أن الفرنج مُخْتَبِطون ، وقد ركب اليومَ عسكرُهم بأسْرِه إلى الصحراء ، ووقفوا إلى قائم الظَّهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم . وفي بكرة السبت جاءت رقعةٌ ثانية ، تخبر عنهم بمثل ذلك . ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا ، فذهبتْ الفرنسيسية إلى أنَّه لا بد لهم من محاصرة القدس، وذهب «الانكتار» وأتباعُه إلى أنه لا يُخاطر بدين النصرانيَّة ويرميهم في هذا الجبل مع عَدَم المياه ؛ فإن السلطان كان قد أفسدَ جميعَ ما حول القدس من المياه ، وأنهم خرجوا

للمشورة ، ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل ، وأنهم قد نصُّوا على عشرة أنفُس منهم وحكَّموهم ، فأيّ شيءٍ أشاروا به لا يُخالفونهم .

ولمَّا كانت بُكرة الإثنين ، جاء المبشِّر يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرَّملة .

فهذا ما شاهدته من آثار اسْتِنابَتِهِ وإخلاده إلى الله تعالى .

ولقد كان - رحمه الله - عادلًا ، رؤوفًا رحيمًا ، ناصرًا للضعيف على القوي .

وكان يجلس للعدْل في كل يوم إثنين وخميس في مجلسٍ عامّ ، يحضره الفقهاء والقُضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصلَ كلُّ أحدٍ ؛ من كبير وصغير ، وعجوز هَرِمة ، وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سَفَرًا وحَضَرًا .

على أنه كان في جميع أزمانه قابلًا لجميع ما يُعرض عليه مِنَ القصص كاشفًا لما ينتهي إليه من المظالم ، وكان يجمع القصص في كلّ يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يردَّ قاصدًا للحوادث والحكومات ، وكان يجلس مع الكاتب ساعةً ، إمّا في الليل أو في النهار ، ويوقّع على كلّ قصَّة بما يُطلق الله على قلبه ، ولم يردَّ قاصدًا أبدًا ولا مُنتحِلًا ولا طالِبَ حاجةٍ ، وهو مع ذلك دائم الذكْر والمواظبة على التلاوة ، رحمة الله عليه .

ولقد كان رؤوفًا بالرَّعيَّة ، ناصرًا للدِّين ، مُواظِبًا على تلاوة القرآن العزيز ، عالمًا بما فيه ، عاملًا به ، لا يعدوه أبدًا ، رحمة الله عليه ، وما استغاث إليه أحدٌ إلا وقف وسمع قضيَّته ، وكشفَ ظُلامَتَه ، وأخذَ بقصَّته ؛ ولقد رأيتُه وقد استغاث إليه إنسانٌ من أهل دمشق يُقال له : ابنُ زهير ، على تقيّ الدين - ابن أخيه - فأنفذَ إليه ليُحضره إلى مجلس الحُكم ، فما خلَّصه إلا أن أشهدَ عليه شاهديْن معروفيْن مقبولي القول، أنه وكَّل القاضيَ أبا القاسم أمين الدِّين -

قاضي حماه - في المخاصمة والمنازعة ، فحضر الشاهدان ، وأقاما الشهادة عندي في مجلسه - رضي الله عنه - بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة ، وإنكار الخَصْم ، فلمَّا ثبتت الوكالةُ ، أمرتُ أبا القاسم بمساواة الخصم ، فساواه ؛ وكان من خواصِّ السلطان - رحمه الله - ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتَّجهت اليمينُ على تقيّ الدين ، وانقضى المجلس على ذلك ، وقَطَعَنا عن إحضاره دخولُ الليل ، وكان تقي الدين من أعزّ الناس عليه ، وأعظمهم عنده ، ولكنّه لم يُحابِه في الحق .

وأعظم مِن هذه الحكاية ، ممَّا يدلّ على عدْله - رحمه الله - قضيَّة جرتْ له مع إنسانٍ تاجر يُدعى : « عمر الخلاطي » ، وذلك أني كنتُ يومًا في مجلس الحُكم بالقدس الشريف ، إذْ دخل عليَّ شيخٌ حَسَنٌ تاجرٌ معروف ، يسمَّى : « عمر الخلاطي » ، معه كتابٌ حُكمي يسأل فَتْحه ، فسألْتُه : مَنْ خَصْمُك ؟. فقال : خصمي السلطان ، وهذا بساطُ الشَّرع ، وقد سمعنا أنك لا تُحابي . قلتُ : وفي أيّ قضيَّةٍ هو خَصمُك ؟ فقال : إن « سُنْقُر الخلاطي » كان مملوكي ، لم يزل على ملكي إلى أن مات ، وكان في يده أموالٌ عظيمةٌ كلُّها لي ، ومات عنها ، واستولى عليها السلطان ، وأنا مُطالبُه بها . فقلتُ له : يا شيخ ، وما أقعَدَك إلى هذه الغاية ؟ فقال : الحقوق لا تبطُل بالتأخُّر ، وهذا الكتاب الحُكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات . فأخذتُ الكتاب منه ، وتصفَّحتُ مضمونه ، فوجدتُه يتضمَّن حِلْيَةَ « سُنْقُر الخلاطي » ، وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش ، اليوم الفلاني ، من شهر كذا ، من سنة كذا ؛ وأنه لم يزل في ملْكه إلى أن شذَّ عن يده في سنة كذا ، وما عَرف شهودُ هذا الكتاب خروجَهُ عن ملكه بوجهٍ ما ، وتمَّ الشرطُ إلى آخره . فتعجَّبتُ مِن هذه القضيَّة ، وقلتُ للرجل : لا يَسَعني سماعُ الدعوى مع وجود الخَصْم ، وأنا أُعرِّفه وأُعرِّفُك ما عنده في ذلك . فرضي الرجلُ بذلك ، واندفَعَ ، فلمَّا اتَّفق المُثول بين يديه في بقيَّة ذلك اليوم عرَّفتُه القضيَّة ، فاستبعد ذلك استبعادًا عظيمًا ،

وقـال : كنتَ نظرتَ في الكتاب ؟ فقلتُ : نظرتُ فيه ، ورأيتُـه متَّصل الورود والقَبُول إلى دمشق، وقد كُتب عليه: كتاب حُكمي من دمشق، وشهدَ به على يد قاضي دمشق شهودٌ معروفون. فقال: مبارك، نُحضر الرجل ونحاكمه، ونعمل في القضيَّة ما يقتضيه الشَّرْع . ثم اتَّفق بعد ذلك جلوسه معي خَلْوةً ، فقلتُ له : هذا الخصم يتردَّد ، ولا بد أن نسمع دعواه . فقال : أقم عني وكيلًا يسمع الدعوى ، ثم يُقيم الشهودُ شهادتهم ، وأخِّر فتْح الكتاب إلى حينِ حضور الرجل ها هنا . ففعلتُ ذلـك ، ثم أُحضِر الرجل ، واستَدْناهُ حتى جلس بين يديه ، وكنتُ إلـى جانبه ، ثم نزل من طراحَتِه حتى ساواه ، وقال : إن كان لك دعوى فاذكُرها . فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أوّلًا ، فأجابه السلطان : إن « سُنْقُر » هذا كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي حتى أعتقتُه ، وتوفِّي وخلَّف ما خلَّف لورثته . فقال الرجل : لي بيِّنةٌ تشهد بما ادَّعيتُه . ثم سأل فتْح كتابه ، ففتحتُه ، فوجدته كما شرحه ، فلمّا سمع السلطان التاريخ ، قال : عندي من يشهـد أن « سُنْقُر » هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر ، وأني اشتريتُه مع ثمانية أنفُس في تاريخ متقدِّمٍ على هذا التاريخ بسنةٍ ، وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقتُه . ثم استحضر جماعةً من أعيان الأمراء والمجاهدين ، فشهدوا بذلك ، وذَكَر القصَّةَ كما ذكَرها ، والتاريخ كما ادَّعاه ، فأُبْلسَ الرجلُ ، فقلتُ له : يا مولاي ، هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلبًا لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدي المولى ، ولا يَحْسُن أن يَرجع خائبًا للقصد . فقال : هذا بابٌ آخر . وتقدَّم له بخلعة ونفقة بالغة ، قد شذ عني مقدارها .

فانظر إلى ما في طَيّ هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة ، والتواضُع ، والانقياد إلى الحقّ ، وإرغام النفس ، والكرم في موضع المؤاخذة ، مع القُدرة التّامَّة ، رحمه الله رحمة واسعة .

وكرمُه – قدَّس الله روحه – كان أظهر من أن يُسطَر ، وأشهر من أنْ يُذْكر ،

لكن نُنَبِّه عليه جملةً ، وذلك أنه ملكَ ما ملكَ ومات ، ولم يُوجَد في خزانته من الفضة إلَّا سبعة وأربعون درهَما ناصريَّة ، ومن الذهب إلا جرْمٌ واحدٌصوريّ ، ما علمتُ وزنه .

وكان - رحمه الله - يَهَب الأقاليم ؛ وفتح « آمد » ، وطلبها منه ابنُ قرَّة أرسلان ، فأعطاه إياه .

ورأيته قد اجتمع عنده جمعٌ من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التَّوجُّه إلى دمشق ، ولم يكن في الخزانة ما يُعطي الوفود ، فلم أزل أخاطبه في معفاهم حتى باع قريةً من بيت المال ، وفَضَضْنا ثمنها عليهم ، ولم يفضُل منه درهم واحد .

وكان - رحمه الله - يعطي في وقْت الضِّيق كما يعطي في حال السَّعة ، وكان نُوّاب خزائنه يُخفون عنه شيئًا من المال ؛ حذرًا أن يُفاجئهم مُهِمٌّ ، لعِلْمهم بأنه متى علمَ به أخرجَهُ .

وسمعتُه يقول في معرض حديثٍ جرى : يمكن أن يكون في الناس مَنْ ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب . فكأنه أراد بذلك نَفْسَه ، رحمه الله تعالى .

وكان يعطي فوق ما يؤمّل الطالبُ ، فما سمعتُه قطُّ يقول : أعطينا لفلان ، وكان يعطي الكثير ، ويبسُط وجهه للمعْطَى بسْطَه لمن لم يُعْطِه شيئًا .

وكان - رحمه الله - يعطي ، ويُكرم أكثر مما يعطي ، وكان قد عرفه الناس ، فكانوا يستزيدونه في كل وقت ، وما سمعتُه قط يقول : قد زدتُ مرارًا ، فكم أزيد ؟ .

وأكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني ويدي ، وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ، ولا أخجل منه من كثرة ما أطلبه لهم ، لعلمي بعَدَم مؤاخذته في ذلك ، وما خدمه قطُّ أحدٌ إلّا وأغناه عن سؤال غيره .

وأمّا تعداد عطاياه وتعداد صنوفها، فلا تطمع فيها حقيقة أصلًا ، وقد سمعتُ من صاحب ديوانه يقول لي : قد تجارينا عطاياه ، فحصرْنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكّا لا غير ، فكان عشرة آلاف فرس . ومن شاهد عطاياه يستقلُّ هذا القدْر .

اللهم إنك ألهمْته الكرم ، وأنت أكرم منه ، فتكرَّمْ عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين .

هذا صلاح .... وأمّا غير صلاح ؛ ففي عصر ملوك الطوائف وعلى مساحة ثلاثين فرسخًا ، يتنازع الملك أربعة كلٌّ منهم يسمِّي نفسه أمير المؤمنين . بل وربما تصل شهوة الحكم أن ينادي ملك : بايعوني على الملك . فيقول له الناس نخشى عليك القتل . فيقول : بايعوني اليوم ، واقتلوني غدًا .

بل وفي بداية عصر السلاجقة وفي الشام ، يحاول ملك إحدى المدن الشاميّة أنْ يُبطل بِدع الشيعة في الأذان بـ (حيّ على خير العمل) ... فيثور الغوغاء والدهماء حتى يشدُّوا الحُصْر من تحت أرْجُل المصلِّين ، ويقولون : هذه حُصْر علي بن أبي طالب ، فإذا أراد أبو بكر المسجد فليأتِ له بحُصْر .

وفي عصرنا ... أشباه الرجال ولا رجال .

المُعْلنون مِنَ القصور قصورَهمْ ... واللَّاقِطونَ لقيطةَ اللُّقَطاءِ
والتّاركونَ هزيمةً لم يعترف ... أحدٌ بها من كثرةِ الآباءِ

عبدُ الرحمَنٰ الدَّاخِل (صَقْر قريش) :

تمضي السنون ، آحادها وعشراتها ومئاتها ، وحتى أُلْفهُا ، ولا زال صقر قريش ملء سمْع الدنيا وبصرها ؛ فهو واحد من أعظم الرجال في السياسة والحرب ، وهو مؤسِّس الدولة الأموية في الأندلس ، التي بقيت زمنًا طويلًا رمزًا للحضارة العربية الإسلامية .

وقضية عبد الرحمن الداخل هي قضية العصر وكل عصر ، قضية الاعتماد على القدرة الذاتية التي وفّرها الإسلام للمسلمين ، ومن هنا فإن سيرة صقر قريش تكتسب أهميتها ، وتكتسب قيمتها .. لا في مجال الحرب فقط ، وإنما في مجال السياسة الاستراتيجية ، وفي مجال بناء الدولة .

فقد خرج يمضي والخوف يطارده من الرايات السوداء التي داهمت قريته ، وخطرُ القتل يلاحقه .. حتى يرمي بنفسه إلى الفرات سباحةً ، وهو يرى رأس أخيه ابن الثلاث عشرة سنة وقد قطعوها ، وبعد قطعه للفرات سباحةً . ومضىٰ وهو يحسب أنه طائر وهو ساعٍ على قدميْه ، فيلجأ إلى غيضة أشبة فتوارى فيها حتى انقطع الطلب ، ثم خرج يؤُمّ المغرب ، ولم يكدْ يتجاوز العشرين من عمره ، ليس لديه من المال إلا القليل ، وليس لديه من الأنصار إلا النذْر اليسير ، ولكن كانت له همّة عالية وتصميم كبير وإرادة صلْبة ، سهّلت له العسير وقرّبت إليه ما كان صعبَ المنال ، فبقي رجلَ الدنيا وواحدها في علم السياسة وفنِّ الحرب ، وأقام دولةً ستبقى حديثَ الزمان .

قال ابن حَيَّان : « كان الإمام عبد الرحمٰن الداخل كثيرَ الحزْم نافذَ العزْم ، لم ترفع له راية على عدوٍّ قطُّ إلا هزمه ، ولا بلدٍ إلا فتحه . شجاعًا مقدامًا ، شديدَ الحذَر ، قليل الطمأنينة ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دَعَة ، ولا يكلُ الأمر إلى غيره ، يعود المرضىٰ ويشهد الجنائز ، ويصلّي بالناس في الجُمعَ والأعياد ، ويخطب بنفسه . جنّد الأجناد ، وعقد الرايات ، وبلغت جنوده مائة ألف فارس » .

فجابَ قفْرًا وشقَّ بحرًا مساميًا لُجّةً ومحلّا
دبّر مُلْكًا وشاد عزًّا ومِنْبرًا للخطاب فصْلَا
وجنّد الجند حين أودى ومصّر المصر حينَ أجلىٰ

رحم الله صقر قريش ؛ فقد كان لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دَعَة ،

ولا يكِلُ الأمور إلى غيره ، شجاعًا مقدامًا ، بعيد الغوْر .

قال الداخل :

لا يلفَ ممتنٌّ علينا قائلٌ ... لولايَ ما ملَكَ الأنامَ الداخلُ
سعدي وحزمي والمهنّدُ والقَنَا ... ومقادرٌ بلغتْ وحالٌ حائلُ
إنَّ الملوكَ مع الزمانِ كواكبٌ ... نجمٌ يطالعنا ونجمٌ آفلُ
والحزمُ كلُّ الحزم أنْ لا يغفلُوا ... أيرومُ تدبيرَ البريةِ غافلُ
ويقول قومٌ سَعدُه لا عَقلُهُ ... خيرُ السعادةِ ما حماها العاقلُ

ألفى الداخلُ الأندلس ثغرًا قاصيًا، غفْلًا من حلية المُلْك، عاطلًا، فأرهف أهلَها بالطاعة السلطانية ، وحنّكهم بالسيرة الملوكية ، وأخذهم بالآداب ، فأكسبهم عمّا قليلٍ المروءةَ ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدوَّن الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأُعطية ، وعقد الألوية ، وجنّد الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عدّته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبه ، وتحامَوْا حوزته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقلّ له الأمر فيها .

لقد عانىٰ الداخل من ثورات كثيرة ، أخمدها ووطَّد الأمن والاستقرار في مملكته ؛ فلقد قضىٰ على ثورتي يوسف الفِهْري والصميل ، وقضى على ثورة العلاء بن المغيث اليحصبي ، وأرسل رؤوس قادة الثورة إلى القيروان ومكة المكرمة في موسم حجّ أبي جعفر المنصور ، وقضى على ثورة هشام ابن عروة في طُليطلة ، وقضى على ثورة سعيد اليحصبي ، وقضى على ثورة البربر في شنت برية ، وثورة سفين بن عبد الواحد البربري ، وثورة أشبيليَّة بقيادة عبد الغافر اليحصبي ، وثورة سرقسطة بقيادة الحسن بن يحيى الخزرجي ، وثورة الرمامس بجنوب الأندلس .

« قال أبو جعفر المنصور يومًا لأصحابه : مَن صقر قريش ؟ قالوا : أمير

المؤمنين الذي راضَ الملْك وسكّن الزلازل ، وحسم الأدواء . قال : ما صنعتم شيئًا . قالوا : فمعاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك من مروان . قال : لا . قالوا : فمَن يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن بن معاوية ، الذي تخلّص بكيْده عن سنن الأسنَّة وظباة السيوف ، يعبر القفر ، ويركب البحر ، حتى دخل بلدًا أعجميًّا ، فمصّر الأمصار وجند الأجناد ، وأقام ملكًا بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدَّة عزمه . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذلّلا له صعبَه ، وعبد الملك ببيعة تقدَّمت له ، وأمير المؤمنين بطلب عِترتِهِ واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفردًا بنفسه ، مؤيَّدًا برأيه مستصحبًا لعزمه »[1][2] .

أترىٰ الصقرَ للمعاليَ يسعىٰ ... أتُرى في تُرب لحْدِهِ غلّاتُ
دولة الداخل المبارك صقـرٌ ... أمويٌّ تخاف منـه العُتـاةُ
أسعفَ الغربَ بالحضارةِ حتى ... أصبحت منه عنـدهم مِنَّاتُ
أيُّها الغربُ فاذكروه وقولُوا ... يهبُ الطلعَ دوْحُه الطيبـاتُ
فأيادٍ خُضرٌ لكم منه تترىٰ ... فاذكروهـا فـإنهـا نفحـاتُ

هِشام بن عبد الرحمن الداخل شَبيهُ عمر بن عبد العزيز في سيرته :

حكم الأندلس بعد أبيه ثمانية أعوام ، وكان يذهب بسيرته مذهب عمر ابن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكُور « النواحي » ، فيسألون الناس عن سير عمَّاله، ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حيْفٌ من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ، ولم يستعمله بعد .

وفي أيامه فُتحت أربونة (ناربون) الشـهيرة ، واشترط على المعاهدين من أهل « جيليقية » ، من صِعاب شروطه : انتقال عدد من أعمال التراب من

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥ / ١٨٢ .
(٢) عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » . لبسام العسيلي - طبع: دار النفائس .

سور « أربونة » المفتتحة ، يحملونها إلى باب قصره بقرطبة ، وبنى منه المسجد الذي قُدّام باب الجنان .

وقصد - رحمه الله - إلى بلاد الشرْك غازيًا ؛ فغزا «ألبة» وظفر بعدوِّه ، وبعث العساكر إلى « جيليقية » فهزموا ملكها « برمند » وأثخنوا في الأعداء . وبعدها بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد لغزاة العدو، فأثخن في العدو في «ألبة» « وأربونة » و « جرَندة » ، ووطئ أرض « برطانية »، وتوغَّل في أرض الصليبيين حتى وصل إلى « أسترقة » .

عبدُ الرحمٰن بنُ الحكَم وحكْمُه للأندلس (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) :

كان من أكبر الوقعات المعروفة في عهده وقعةُ « البيضاء » سنة ٢٣٧ هـ ، وفيها قاد موسى بن موسى جيش الصائفة حتى وصل إلى بلدة « البيضاء » ، وهناك اصطدم بجيش كبير من « غاسكونيا » أو « الجاشغبين » ، كما يسمِّيهم الغرب ، ودارت معركة صعبة ، لقي المسلمون فيها عناءً كبيرًا ، وبذلوا جهدًا رائعًا ، حتى أمكن لهم الصمود ، وأُصيب موسى نفسُه بخمسة وثلاثين جرحًا ، وفي اليوم التالي ، وعلى الرغم مما نزل بجيش المسلمين وقائدهم ، أعاد تنظيم جيشه ، وتحامل على نفسه ، وانطلق بهجوم كاسح ، واستطاع به أن يُحرز النصر ، وهُزِم جيش الغاسكون هزيمة منكرة ، وتكبَّد فادحَ الخسائر حتى فُرشت الأرض بصرْعاهم .

ومن أعظم أعمال عبد الرحمن بن الحكم : قضاؤه على ثورة النصارى بـ« ماردة » وتدمير المدينة الثائرة التي ظلت ثورتها سبع سنوات كاملة ، من سنة ٢١٣ هـ حتى ٢٢٠ هـ ، بعد أن حرَّضهم على الثورة والتمرُّد « لويس الحليم » ملك فرنسا ، وقام أهل ماردة بذبح المسلمين ، فقاد عبد الرحمٰن جيشًا كبيرًا بنفسه ، وشدّد قبضته ، وأشفى أهلُ ماردة على العطْب ، ونظر الأمير عبد الرحمن إلى جنده وقد تعلّقوا بشرفات السور وَتغلَّبوا عليه ، وضعف أهلُ ماردة عن

مدافعتهم ، فسمع صراخ النساء وعويل الصبيان وعجيج البكاء ، فأمر بالإمساك عنهم ، وأوقف الجند عن الاستمرار في قتالهم ، ثم دعا وزراءه وقوّاده وقال لهم : « قد علمنا ما كان من تغلُّب رجالنا على هؤلاء الظَلَمَة أنفسهم ، ولم يكن رفعنا ما رفعْناه عنهم إلَّا قربىٰ لله عز وجل فيهم ، ورأفةً من قتل أولادهم وأطفالهم ومَنْ لا ذنب لهم ، ممّن استكره على نفسه منهم . ونحن نرى استجلاب النصر من حيث عوّدنا الله وعرَّفنا من الصفحِ والعفو ، وقد عزمتُ على الانتقال عنهم ، فإن أبصروا قدْر يدنا في الإبقاء عليهم ومراقبة اللهِ فيهم ، وإلا كان الله من ورائهم محيطًا ، وعلى الانتقام منهم قديرًا ، فهو الذي أيَّدنا وقهرهم ، ونَصَرَنا وكَبَتَهُم » . فلم ينتقل من موضعه حتى وافته رسلهم بطاعتهم ، والإلقاء إليه بأيديهم ، وإخراج أصحاب الفتنة من بينهم .

وأخمد أيضًا فتنةَ وثورة النصارى في قرطبة بعد إعدام القسيس « هارفكتس » الذي نال من قدْر رسول الله ﷺ .

محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام ، صاحب موقعة « سليط » :

قال الذهبي في السير (١٣/١٧١ - ١٧٢) : « من خيار ملوك المروانية ، كان ذا فضلٍ وديانة ، وعلْمٍ وفصاحةٍ ، وإقدام وشجاعة ، وعقل وسياسة .

بُويع بعد أبيه في سنة ثمان وثلاثين ومائتين على مدائن الأندلس ، وكان كثير الغزو والتوغُّل في بلاد الروم ، يبقىٰ في الغزوة السنة والسنتين ، قتْلًا وسبْيًا .

قال الحافظ بقي بن مخْلد : ما رأيتُ ولا علمتُ أحدًا من الملوك أبلغ لفظًا من الأمير محمد بن عبد الرحمن ، ولا أفصح ولا أعقل منه .

قال سبط الجوزي : هو صاحب موقعة سليط ، وهي ملحمة عُظمى . يقال : إنه قُتل فيها ثلاثمائة ألف كافر ، وهذا شيء ما سُمِع بمثله قطُّ » .

جاء في البيان المغرب (٢/١٦٨ - ١٦٩) ، حول وقعة وادي سليط :

« قال أبو عمر السالمي : كانت أولى غزواته إلى بلد العدو ، وحشد لها ، وجنّد ، وصوّب كيف شاء ، وقد ألفى العدوَّ وقد ضاق بخيله الفضاء الواسع ، والمكان الداني والشاسع ، وهو متأهِّب للقائه ، متوجّه إلى تلقائه ، فخامر الأمير محمد الجزَع ، وشابه الروع والفزع ، وظن أن لا مَنْجاة من الكفار ، وأن المسلمين هناك طعمُ الشفار ، فرأى من الحزم الأوكد ، والنظر الأحمد الأرشد ؛ الرجوعَ عن تلك الحركة ؛ لقوله تعالى : ﴿ **ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، فقام رجل ، فقال : أيُّها الأمير ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **الذينَ قالَ لهُمُ الناسُ إنّ الناسَ قدْ جمعُوا لكم** ... ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٣] فقال له الأمير محمد : والله ما حذَّرتُ نفسي ، إلا أنه لا رأي لمن لا يُطاع ، ولستُ أستطيع أن أجاهد وحدي . فقال له العتبي : والله ما أراه قذف بها على لسانه إلا ملَك ، فاستخرِ اللهَ في ليلك هذا وفي يومك ، فأراه الله في مقابلة العدو الرشاد ، والهمة والتوفيق والسداد ، فندب الناسَ إلى لقاء أعداء الله ونصْر دينه ، وأن يكون كلٌّ على أحسن ظنِّه من الظَّفر ويقينه . فلمّا انعقدت راياتُهم ، وتأكَّدت على المقارعة نيّاتُهم ، قدَّم عليهم الأمير محمد ابنَه المنذر ؛ إذْ كان مشهورًا بالبأس ، محبوبًا في الناس ، فسار المسلمون إلى أن التقىٰ الجمعانِ ، والتفَّ الفريقان ، فأعقب الله لأوليائه ظفرًا ونصْرًا ، وجعل بعد عسرٍ يُسرًا » .

محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ونصرُه على تحالف النصارى في وادي سُليط :

وفيها تحالف ملك جيليقية وملك قشتالة وملك البشكنس على المسلمين ، فلقيهم الأمير محمد علىٰ وادي سُليط ، وقد أكمن لهم فأوقع بهم ، وبلغت عدّة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفًا . وفي عهده عادت ماردة إلى التمرُّد ، فتمَّ تدميرها .

ويـلٌ لمـاردةَ التـي مـرَدَتْ   وتكبَّـرتْ عند عـدْوة النهـرِ

فالويلُ ثم الويحُ حين غزَا بجميعهم مِن صاحب الأمِر

ولمّـا عاد النصارى في قرطبة إلى التمرد ثمَّ قمـع ثورتهم ، ونفذ حكـم الإعدام في القِسِّ « إيلوج » ، وكذا صاحبته ومعاونته « ليوكريسيا » .

عزّ الإسلام بالأندلس :

لقد وضع عبد الرحمن الداخل أساسَ مُلْك بني أُمية بالأندلس ، وجاء ملوك بني أُمية تباعًا وهم يزيدون من رفعة البنيان سموًّا وشموخًّا :

عبد الرحمن الناصر :

بلغتِ الدولة الأموية في عصره غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادنته الروم ، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبقَ أمة سمعتْ به من ملوك الروم والإفـرنج والمجوس وسائر الأمم إلا وفدتْ إليه خـاضعةً راغبةً . ومن جملتهم « قسطنطين » صاحب القسطنطينية العظمى .

خمسـون عامًا قضاها الناصر في الحكم في جهاد دائـم ، لم يعرف خلالها مِن أيام الهناء إلّا قليلًا ، ولم يركن إلى الراحة أثناءها إلا نذْرًا يسيرًا ، اضطلع بأعباء المسئولية وهو شابٌّ قويّ المنكبين، لا يزيد في عمره على العشرين إلا قليلًا، وترك هموم الدنيا للدنيا وهو شيخ وهَن العظم منه واشتعل الرأسُ شيبًا . ولكن كم كان الفارق كبيرًا بين مـا كانت عليه أندلس المسلمين يوم تولّاها الناصر ، وبين ما أصبحت عليه يوم سلّم الأمانة لابنه الحكَم المستنصر ، حتى يتابع السير بأندلس المسلمين على النهج الذي سار . كانت الأنـدلس تضطرم نـارًا ، والفتن في كل مكان ، وأعـداء الخـارج يتـربّصون بأعـداء الداخل ، وهؤلاء يتربّصون بعضهم ببعض ، قد شغلتهم صغائر الأمور عن كبائرها ، وصرفتْهم الدَّعَة والسكـون عن التفكير بعظائمها ، فجاء الخليفـة الناصر لدين الله ، يحمل همَّ الشباب وحكمة الشيوخ .

ولئـن كان ذكر الأندلس يرتبط بأسماء القـادة من روّاد الفتح الأوائل ، أمثال

موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد الرحمن الغافقي والسمح بن مالك وعنبسة ابن سحيم ، ولئن كان تجديد الفتح يرتبط باسم صقر قريش ؛ فإن مجد الإسلام والمسلمين سيبقى أبدًا شديد الالتصاق بالخليفة الناصر ؛ فقد كان رجلًا في أُمة ، وأُمة في رجل .

الناصر يؤدِّب مَلِكَي « ليون » و « نافار » في غزوة « موبش » :

لمّا استوى ملك ليون « أردونيو الثاني » على مدينة « ماردة » وبعض القلاع الإسلامية ، أباد الحامية المدافعة عنها ، وسبى الأطفال والنساء ، وجعل القرى ركامًا من الدماء ، و لم يغادر إقليم « طلبيرة » إلا بعد أن ترك المدن وهي حرائق مشتعلة . وكذا فعَل « سانشو » ملك « نافار » لمّا استولى على مدينة «بلتيرة » ، وأحرق مساجدها ، وأذلَّ أهلها قتلًا وسبيًا . وبلغ من جرأة « أردونيو » توعُّده للناصر في رسائل بعثها إليه بإجلائه عن الأندلس بمواعيد وعدها من نفسه ، وتحالف الملكان على الناصر ، فتقدّم الخليفة الناصر بنفسه على رأس جيشه ، ودارت رحى معركة كبيرة انتهت بهزيمة ليون ونافار ، فهربوا لا يَلْوُون على مكانِ مُضْطَربِهِمْ ، ولا يهتدون لوجه منقلبهم ، والمسلمون على آثارهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام بينهم . ولمّا هرب إلى حصن « موبش » ما يزيد على ألف مقاتل ، دفع الناصر بالمجانيق إلى الحصن حتى فتحه ، وأخرج مقاتلي النصارى من صياصيهم ، وقدموا إلى الناصر حيث قُتلوا جميعًا ، وغَنم المسلمون ما في الحصن . ودمّر الناصر قلعة « بقيرة » وأحرق ما يحيط بها من معاقل المشركين ، حتى لقد اتصل الحريق في بلاد المشركين عشرة أميال في مثلها .

غزو « بنبلونة » عاصمة نافار :

تولّى الناصر قيادة جيشه لتأديب ملك نافار « شانجة » ، وقاد حملات وغزوات استمرت أربعة أشهر ، وجمع العِلْج شانجة كفرته ، واستمدَّ بنصرانيته من كلّ مكان طمع أنْ يُغاث منه . وفي تقدُّمهم في بلاد نافار سبى المسلمون

الذراري وغنموا الأمتعة ، وهدَموا الحصون ، حتى لم يبق منها صخرة قائمة ، واقتلع المسلمون أعداءهم من مواضعهم ، ووضعوا سيوفهم ورماحهم فيهم ، وبُسطت الأرض بأجساد المشركين ، واستمرت الخيل المغيرة في بسيطهم ، فأصابت الغنائم والسوائم وضروب النعم وواصل المسلمون تقدمهم وفي لحظة طرف في صخرة قيس اقتلع المسلمون جيش نافار ، وأخربت الكنيسة التي أنفق عليها ملك نافار الأموال الكثيرة ، وأحرق المسلمون قلاع الكفرة وحصونهم . ومرة ثانية يصل إلى عاصمة نافار- بعد موت ملكها، وأُصْبحت «طوطة» وصيّةً على العرش - ويدمِّر في طريقه إليها كلّ الحصون ، ويُبيد كل الحاميات المدافعة عنها ، واستسلمت طوطة للخليفة الناصر ، وتقدَّمت إليه بطلب الخضوع والطاعة ، فقبل الناصر طلبها .

لله درُّ الناصر مِن خليفةٍ أذلَّ ملوك النصارى في شمال الأندلس !! لقد احتمل الناصر المشاقَّ والصعوبات في سبيل الله من أجل رفع راية الإسلام ، وتعجز الكلمات عن وصف غزواته ، ويكفي أن نعرف أن فترة غزوة من غزواته كانت تتراوح مدّتها بين ثلاثة أشهر وأربعة أشهر .

استلم رحمه الله الحكم وخزانة بني أُمية تكاد تكون فارغة ، وترك الدنيا وخزانة المسلمين عامرة بمبلغ خمسة آلاف ألف ألف ألف - ثلاثَ مرات - من الدنانير(١) .

المستنصِرُ (الحكَم بن عبد الرحمٰن الناصر) على درْب أبيه :

وفي عهده زادت دولة بني أُمية عزًّا على عزتها ، وسَمَت رفعة على رفعتها ، وتعاظمت بقوتها حتى ازدهت على الدنيا ، وتابع الحكَم سيرة أبيه في بذل المستطاع وأكثر من المستطاع ، من أجل زيادة قوة الدولة ورفعتها . عظمت

---

(١) عبد الرحمن الناصر لبسَّامَ العسيلي - طبع دار النفائس .

الدولة بالأندلس ، فكبرت همم الرجال .

كانت للناصر في جهاد النصارى اليدُ البيضاء ؛ فقد غزا جيليقيّة وملكها أردون بن أذفونش ، فاستنجد بالبشكنس والفرنج فهزمهم الناصر ، ووطئ بلادهم ، ودوّخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرّب حصونهم .

وعندما توفي الناصر ، طمع الجلالقة في الثغور فغزا المستنصر بنفسه ، واقتحم بلد فردينـاند ، فنازل شنت أشتيبين وفتحها عَنوة ، واستباحها وقفـل ، فبادروا إلى عقد الصلح معه ، وعظمت فتوح الحكَم وقوّاد الثغور من كل ناحية ، وكان من أعظمها فتْح « قلهرة » من بلاد البشكنس ، ثم فتْح « قطريبة » .

لله درُّ المستنصر :

يأتي إليه أردون بن أذفونش ملك الجلالقة ، ومعه وجوه أهل الذمة بالأندلس وقاضي النصاري وليد بن خيزران ، وعبيد الله بن قاسم مُطران طليطلة وغيرهم ، لما عرف أن المستنصر سيغزوه من عامِه هذا ، « فلما قابل سرير الخليفة خرَّ ساجدًا سُويعة ، ثم استوى قائمًا ، ثم نهض خطوات وعاد إلى السجود ، ووالى ذلك مرارًا ، إلى أن قدم بين يدي الخليفة ، وأهوىٰ إلى يده ، فناوله إياها وكـرَّ راكعًا مقهقرًا على عقبه ، والبهر قد علَاه ، وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع ، وناولهم الخليفة يده ، فقبّلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم .

مرة أخرى يقبِّل الملك أردون البساط ، ويقول للخليفة : أنا عبد أمير المؤمنين مولاي ، المتورِّك على فضله ، القاصد إلى مجده، المحكَّم في نفسه ورجاله ، فحيث وضعني من فضله وعوضني من خدمته ، رجوتُ أن أتقدّم فيه بنيّة صادقة ونصيحة خالصة.فأجـابه الخليفة في عزّ المسلم : يترادف من إحساننا إليـك أضعاف ما كان من أبينا رضي الله عنه إلى نِدِّك . فكرّر أردون الخضوع ، وأسهب في الشكر ،

وقام للانصـراف مقهقرًا لا يُولّي الخليفة ظهره ؛ وقد علاه البهـر وأذهله ؛ من هوْل ما باشره وجلالة ما عاينه من بهاء عزّة الخليفة ، وتكنّفه الفتيان فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح ، فلما أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليًا منه ، انحط ساجدًا إعظامًا له ، ولما بصر بالحاجب جعفر قام إليـه وخنع له ، وأوْمأ إلى تقبيل يده ، فقبضها الحاجب عنـه ، ووعده مـن إنجاز عداتِ الخليفة له بما ضاعف سروره » .

واستشعر الناس من مسرّة هذا اليوم وعزّة الإسلام فيه ، ما أفاضوا في التبجُّح به والتحدُّث عنه أيامًا ، وقال عبد الملك بن سعيد المرادي :

مُلْـكُ الخليفـةِ آيـةُ الإقبـالِ وسعـودُه موصولـةٌ بتـوالـي
والمسلمـونَ بعـزَّةٍ وبـرِفْعـةٍ والمشركـون بذلّةٍ وسفالِ
ألقتْ بأيديها الأعاجمُ نحوَهُ متـوقّعين لصـوْلـةِ الـرئْبـالِ
هو حشر يوم الناسِ إلّا أنهم لم يُسألُوا فيه عن الأعمـالِ
أضحى الفضاءُ مُفعَّمًا بجيوشهِ والأفْـقُ أقتـمَ أغبـرِ السربالِ
لا يهتدي الساري لليلِ قتامهِ إلّا بضـوْءِ صـوارمٍ وعـوالـي
وكأنَّما العقبانُ عقبانُ الفلَا منقضَّــةٌ لِتَخَطُّـفِ الضُّـلالِ

الحاجِب المنصور ... يجمع غُبارَ معارِكه ليكونَ في حَنُوطه :

هو محمد بن أبي عامر المعافري الحاجب المنصور ، نسيجٌ فريد بين الرجال ، تولَّى الحكم في أصعـب الفترات في حياة الأندلس الإسلاميـة .. ومَمَالكُ النصـارى في الشمال قد أخذت في توجيه جهدها لحرب المسلمين ، مِن قبل أن تعلن الحـرب الصليبية بصـورة رسمية ... فتصدّى المنصور لرفع راية الجهاد فـي سبيل الله ، وقـاد الحـرب طَوالَ حياته ، فأحرز من الانتصارات ما لم يحصل عليه رجـل من قبـل ومن بعد ، فتركَ بذلك مجدًا خالدًا بقي متألِّقًا على مرِّ الأيام ومفخرة لجند الإسلام .

جاء في كتاب « تاريخ الحروب الصليبية » : « تُوفِّي الحكم الأموي سنة ٩٧٢ م، وسيطر على الموقف من بعده الوزير محمد بن أبي عامر المعروف بالمنصور، وهو الذي كان يميل إلى القتال والجهاد ، وكانت مملكة « ليون » أهمَّ مملكة مسيحية في أسبانيا ، وقد تعرضت لهجمات المنصور ؛ ففي سنة ٩٨١ م : استولى المنصور على « زامورا » بجنوب مملكة ليون ، وفي سنة ٩٩٦ م : نهب ليون ذاتها ، وفي السنة التالية أشعل الحرائق في « شنت يعقوب » في « كومبوستيللا » التي تُعتبر ثالثَ المواضع التي يقصدها الحجَّاج بعد بيت المقدس وروما ، وفي سنة ٩٨٦ م : استولى المنصور على برشلونه ، وتراءى له أنه لن يلبث أن يعبر جبال « ألبيرنيه » – البرانس – حين وافته منيَّته سنة ١٠٠٢ م ، وأخذت قوة المسلمين في التداعي بعد وفاة المنصور »[١] .

وفي « البيان المُغرب »: « انفرد المنصور بنفسه ، وصار ينادي صروفَ الدهر : هل من مبارز ؟ فلم يجده، واستقام أمرُه منفردًا بمملكةٍ لا سلَفَ له فيها ، ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكبْ قطُّ في حرب شهدها ، وما توجَّهت عليه هزيمة، وما انصرف عن موطن إلّا قاهرًا غالبًا، على كثرة ما زاول من الحروب، ومَارسَ من الأعداء، وواجه من الأمم ، وإنها لَخاصَّةٌ ما أحسب أحدًا من الملوك الإسلامية شاركه فيها . ومن أعظم ما أُعين به مع قوَّة سعده وتمكُّن جدّه : سَعَةُ جوده وكثرة بذْلِه ؛ فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان ، وأول من اتكأ على أرائك الملوك وارتفق ، وانتشر عليه لواءُ السعد وخفق »[٢] .

قال الحاجب المنصور :

رميتُ بنفسي هوْلَ كلِّ عظيمةٍ وخاطرتُ والحُرُّ الكريمُ يخاطرُ

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية – ستيفن / نسيمان ١/١٣٤ .

(٢) البيان المغرب ٢/٤٢٧ .

وما صاحبي إلا جنانٌ مُشَيَّعٌ وأسمرُ خَطيٌّ وأبيضُ باتـرُ
فسُدتُ بنفسي أهلَ كلِّ سيادةٍ وفاخرتُ حتى لمْ أجدْ مَن أفاخرُ
رفعنا المعالي بالعوالي حديثةً وأورثناها في القديم مَعَافِرُ

قالوا عن الحاجب المنصور : « ساسَ الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن في كلّ طريق ، واستشعر اليُمْنَ كلُّ فريق . ملَك الأندلس بضعًا وعشرين حجَّة ، لم تدحضْ لسعادتها حجَّة ، ولم تزخر لمكروهٍ بها لجَّة ، لبست فيه البهاء والإشراق ، وتنفَّست عن مثل أنفاسِ العِراق ، وكانت أيامُه أحمدَ أيام ، وسهامُ بأسه أشدَّ سِهام ، غزا الروم شاتيًا وصائفًا ، ومضى فيما يروم زاجرًا وعائفًا ، فما مرّ له غير سنيح ، ولا فاز إلا بالمعلَّى لا بالمنيح ، فأوغل في تلك الشعاب ، وتغلغل حتى راع ليثَ الغاب ، انتظمتْ له الأندلس بالعدوة ، واجتمعت في ملكه اجتماعَ قريش بدار الندوة » .

الجهادُ الرائع للحاجِبِ المنصور :

بلغ جيش المسلمين في أيام الحاجب المنصور مبلغًا عظيمًا ؛ « وقد جمع من أقطار البلاد ما ينهض به إلى قتال العدو وتدويخ بلاده ، فنيَّف الفرسان على مائتي ألف ، والرجَّالة على ستمائة ألف ، وبها من صناديد المسلمين وقوَّادهم مَن لا يفترُ عن محاربة ، ولا يملُّ عن مضاربة ، أسماؤهم بأقاصي بلاد النصارىٰ مشهورة ، وآثارهم فيها مأثورة ، وقلوبهم على البعد بخوفهم مأمورة »(١) .

« ومن مناقب المنصور التي لم تتفق لغيره من الملوك – في غالب الظنِّ – أن أكثر جنده من سبْيه ، على ما حقّقه بعض المؤرخين . ومن أخباره أيضًا أنه ما عاد قطُّ من غزوة إلا استعد لأخرى ، ولم تُهزم له قطُّ راية ، مع كثرة

---

(١) نفحْ الطيب للمقَّري ٢١٦/٣ .

غزواته شاتية وصائفة ! وكفاه ذلك فخرًا »[١] .

وقد بلغت غزواته خمسين غزوة .

وعمل المنصور على زيادة جامع قرطبة ، ومن أحسن ما عاينه الناس في بنيان هذه الزيادة العامرية ، استخدام أعلاج النصارى الذين أحضرهم مصفَّدين في الحديد من أرض قشتالة وغيرها ، وهم كانوا يتصرفون في البنيان عِوضًا من رجالة المسلمين ، إذلالًا للشرك وعزَّةً للإسلام[٢] .

وانظر إلى علو همته في نجدة أسيرتَيْن مسلمتين ؛ فقد قال صاحب « نفح الطيب » : « تمرَّس ابن أبي عامر ببلاد الشرك أعظم تمرُّس ، ومحا من طواغيتها كل تعجرُف وتغطرس ، وغادرهم صرعى البقاع ، وتركهم أذلَّ من وتدٍ بقاع ، ووالى على بلادهم الوقائع ، وسدَّد إلى أكبادهم سهام الفجائع ، وأغصَّ بالحِمَام أرواحهم ، ونغصَّ بتلك الآلام بكورهم ورواحهم .

ومن أوضح الأمور هنالك ، وأفصح الأخبار في ذلك ؛ أن أحد رسله كان كثير الانتياب لذلك الجناب ، فسار في بعض مسيراته إلى « غُرْسيه » صاحب البشكنس ، فوالى في إكرامه ، وتناهى في بِرِّه واحترامه ، فطالت مدته ، فلا متنزَّهَ إلا مرَّ عليه متفرِّجًا ، فحلَّ في ذلك أكثر الكنائس ، فبينا هو يجول في ساحتها ، ويُجيل العين في مساحتها ، إذْ عرضت له امرأة قديمة الأسر ، قويمة على طول الكسر ، فكلَّمته ، وعرَّفته بنفسها ، وأعلمته ، وقالت له : أيرضى المنصور أن ينسى بتنعُّمِهِ بؤسها، ويتمتع بلبوس العافية وقد نَضَّت لبوسَها ؟ وزعمتْ أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة ، وبكل ذلٍّ وصَغار ملبسة ، وناشدته الله في إنهاء قصتها ، وإبراء غُصَّتها ، واستحلفته بأغلظ الأيمان ، وأخذت عليه في

---

(١) نفح الطيب ٣/٥٩٦ .

(٢) نفح الطيب ٣/٥٤٦ .

ذلك أوْكد مواثيق الرحمٰن ، فلما وصل إلى المنصور عرَّفه بما يجب تعريفه به وإعلامُه ، وهو مُصغٍ إلى كلامه ، فلما فرغ قال له المنصور : هل وقفت على أمر أنكرتَه ، أم لم تقفْ على غير ما ذكرتَه ؟ فأعلمه بقصة المرأة ، فعتبه ولامه ، على أن لم يبدأ بها كلامه ، ثم أخذ للجهاد من فوره ... وأصبح غازيًا على سرْجه ، حتى وافى ابن شانجة في جَمْعه ، فأخذت مهابته ببصره وسمعه ، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما الجليَّة ، ويحلف له بأعظم أَلِيَّة ، أنه ما جنى ذنبًا ، ولا جفا عن مضجع الطاعة جنبًا، فعنَّف أرْسَاله وقال لهم: كان قد عاقدني أن لا يبقى ببلاده مأسورة ولا أسير ، ولو حملَتْه في حواصلها النسور ، وقد بلغني بعدُ بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة ، والله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها . فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها ، وأقسم أنه ما أبصرهن ولا سمع بهنَّ ، وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها ، قد بالغ في هدمها ، تحقيقًا لقوله ، وتضرَّع إليه في الأخذ فيه بطَوْله ، فاستحيا منه وصرف الجيش عنه ، وأوصل المرأة بنفسه، وأَلحَفَ توحُّشها بأُنْسِهِ، وغير من حالها، وعاد بسواكب نعماه على جدبها وإمحالها ، وحملها إلى قومها ، وكحَّلها بما كان شرد من نومها »[1] .

والحادثة الثانية وردت كالتالي :

« عاد المنصور من بعض غزواته ، فلقيته امرأة ، وقالت له : يا منصور ، استمع ندائي ؛ أنت في طيب عيشك وأنا في بكائي . فسألها عن مصيبتها التي عمّتها وغمتها ، فذكرت له أن لها ابنًا أسيرًا في بلاد سَمتها ، وأنها لا يهنأ عيشها لفقده ، ولا يخبو ضرامُ قلقها من وقده ، وأنشد لسان حالها ذلك المِلِكَ المعلّى : (أياويح الشجيّ من الخليّ) فرحَّب المنصور بها ، وأظهر الرقة بسببها ، وخرج من القابلة إلى تلك المدينة التي فيها ابنها ، وجاس أقطارها وتخلَّلها حتى دوَّخها ، إذْ أناخ عليها

---

(١) نفح الطيب ١/٤٠٤ .

بكلكلهِ وذلَّلها ، وأعراها من حماتها ، وببنود الإسلام المنصورة ظلَّلها ، وخلص جميع ما فيها من الأسرىٰ ، وجلبت عوامله إلى قلوب الكفرة كسْرا ، وانقلبت عيون الأعداء حسرىٰ »[1] .

« لا نكادُ نصل إلى بلادنا إلَّا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى ، فنقعد هاهنا إلى وقت الغَزَاة ، فإذا غزوْنا عُدنا » :

قال صاحب «نفح الطيب»: «مِن مفاخر المنصور في بعض غزواته أنه مرَّ بين جبلَيْن عظيمين في طريق عرض بريد بوسط بلاد الإفرنج ، فلما جاوز ذلك المحلّ وهو آخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يمينًا وشمالًا ، لم يجسر أحد من الإفرنج على لقائه حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ، ثم عاد فوجد الإفرنج قد استجاشوا من ورائهم ، وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذي بين جبلين ، وكان الوقت شتاءً ، فلما رأى ما فعلوه ، رجع واختار منزلًا من بلادهم أناخ به بمن معه من العساكر ، وتقدَّم ببناء الدور والمنازل وبجمْع آلات الحرث ونحوها ، وبثّ سراياه فسبَتْ وغنمت ، فاسترقَّ الصغار ، وضرب أعناق الكبار ، وألقى جثثهم حتى سدَّ بها المدخل الذي من جهته، وصارت سراياه تخرج فلا تجد إلا بلدًا خرابًا ، فلما طال البلاء على العدو أرسلوا إليه في طلب الصلح ، وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم ، فامتنع من ذلك ، فلم تزل رسلهم تتردَّد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسْرِه ، فأجابهم : إن أصحابي أبوا أن يخرجوا . وقالوا : إنا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى ، فنقعد هاهنا إلى وقت الغزاة ، فإذا غزونا عُدنا . فما زال الإفرنج يسألونه ، إلى أن قرَّر عليهم أن يحملوا على دوابِّهم ما معه من الغنائم والسبي ، وأن يُمدُّوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده ، وأن يُنحُّوا جِيَفَ القتلى عن طريقه بأنفسهم ، ففعلوا ذلك كلَّه ،

---

(١) نفح الطيب ١/٥٩٧ .

وانصرف، وكان ذلك عِزًّا ما وراءه مَطْمَح، ونصرًا لا يكاد الزمان يجود بمثله ويسمح ، خصوصًا إزالتهم جِيف قتلاهم من الطريق ، وغصصهم في شرب ذلك بالريق »[1] .

كان للمنصور في كل عام غزوتان أو أكثر ، ما بين صائفة وشاتية ، وكان من أكبر أعمال المنصور سنة ٣٧١ هـ الهجوم على «سمورة» - أو زمورة - حيث عملت قوات المسلمين على تدمير أقوى معاقل الشمال ، ولم تغادر « سمورة » إلّا بعد أن تركتها طعمة للنيران ، والدمار يخيم عليها ، انتقامًا لِمَا كانت تمارسه هذه المدينة ضدَّ ثغور المسلمين .

غزو مملكة « ليون » سنة ٣٧٣ هـ :

« انطلق الحاجب المنصور بجيشه إلى العاصمة « ليون » ، وعندما وصلَها ضرب حصارًا حولها ، وطلب ملك ليون الدعم من الدول المجاورة فأمدّه الإفرنج بجيوش كثيرةٍ ، ووقعت معارك ضارية اتصل فيها القتال ليلًا ونهارًا ، وأظهر الإفرنج قدْرًا كبيرًا من الصمود ، كما أظهر المسلمون تصميمًا أكبر على انتزاع النصر ، واستُشهد عدد كبير من المسلمين ، كما قُتل عدد كبير من قادة الإفرنج ، وأخذ الموقف في النهاية بالتحوُّل لمصلحة المسلمين الذين حملوا على النصارى ، فانهزموا إلى بلادهم وقُتل منهم ما لا يُحصىٰ ، وملكُ المدينة «ليون» ، وغنم ابن عامر غنيمة لم يُرَ مثلها ، واجتمع له من السبي ثلاثون ألفًا ، وأمر بالقتلى فنضد بعضها على بعض ، وأمر مؤذِّنًا فَأَذَّن للمغرب فوق القتلى ، وعاد جيش المنصور إلى قرطبة »[2] .

استعادة برشلونة إلى حكم المسلمين :

في سنة ٣٧٦ هـ استطاع المنصور اقتحام أسوار برشلونة بجيشه ، وفرض

---

(١) نفح الطيب ٥٩٥/١ - ٥٩٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١٢٠/٧ .

سيطرته عليها بعد أن طال انفصالها عن دولة الأندلس الإسلامية ، وخضوعها لملوك فرنسا الكارولنجيين بصورة اسمية .

غزوة البياض ، وأسْر ملك ليون :

في سنة ٣٧٩ هـ جابه الحاجب المنصور جيش البشكنس ، فمزقه وتابع تقدُّمه ، فاحتل حصن وخشمة - أوسمة - ونزل « غرسيه » ملكُ « ألبةَ » والقلاعِ على شروط المنصور .

والتقى جيش الثغور الذي كان يقوده الوزير «قند» بجيش «ليون»، وعلى رأسه الملك « غرسيه » ، وأمكن للمسلمين انتزاع النصر ، ووقع ملك ليون أسيرًا في أيدي المسلمين ، وأدت جراحه البالغة إلى وفاته ، وجزّ رأسه ووضعه في تابوت ، وأرسله إلى قرطبة ، واحتفظ الوزير « قند » بجسده .

وفي سنة ٣٨٥ هـ قاد المنصور بنفسه الحملة على مملكة ليون ، وحقَّق انتصارًا كبيرًا وأمكن له أسر أعداد كبيرة كان فيهم « غرسيه بن شانجة ابن غرسيه » ابن ملك ليون ، ودمّر الحاجب حصون مملكة ليون مثل : «سمورة» و « شنت أشتبيين » و « وشقة » و « خشمة » و حصن « الحامة » و « سلمنقة » .

غزو المنصور لـ « شنت ياقب » أعظم مدن النصارى سنة ٣٨٧ هـ :

لقد بقيت جيليقية باستمرار مركز مقاومة النصارى لوجود المسلمين في الأندلس ، ولقد كانت جيليقية منطقة جبلية وَعرة التضاريس ، وكانت أيضًا قاعدة روحية لها مكانتها المعنوية للتحريض على الثورة ، نظرًا لوجود « شنت ياقب » في هذا الإقليم - جيليقية - الذي يقع شمال غرب الأندلس . ومدينة شانت ياقب هي أعظم مشاهد النصارى ببلاد الأندلس ، وكنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا - وللكعبة المثل الأعلى - فإليها يحجُّون من أقصى بلاد روما وما وراءها ، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبرُ ياقب « يعقوب » الحواري ، أحد الاثني عشر وأخصُّهم

بعيسى ، ويسمُّونه أخاه ، للزومه إياه . ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصْدها ، ولا الوصول إليها ؛ لصعوبة مدخلها ، وخشونة مكانها ، وبُعد شُقَّتها . وهذه المدينة كان يقصدها الحجيج المسيحي من أوربا كلها ، وجعل لها المركز الثالث بعد القدس وروما ، وبعث ألفونسو الثاني ملك أراغون أسطورة القديس « يعقوب » ، وجعل منه حامي شبه الجزيرة « الأيْبيرية » وسيدها ، وكان لنصارى الأندلس طقوس خاصَّة وتراتيل حماسّية ، لتمجيد القديس يعقوب ودفع النصارى للجهاد ضد المسلمين الكفار ؛ وتوافر لهذه المدينة المقاتلون الأشداء الذين لم يُهزَمُوا .

ولقد خطَّط الحاجب المنصور لغزو « شانت ياقب » في إطار حملة بريَّة بحرية ، وضجّت القاعدة البحرية (قصر أبي دانس) بالاستعدادات للغزوة الكبرى ، وكان المنصور قد أنشأ في هذه القاعدة أسطوله البحري وجهَّزه برجاله البحريين ، وصنوف المترجّلين والأطعمة والعُدَد والأسلحة ؛ استظهارًا على نفوذ العزيمة . وكانت العاصمة قرطبة تشهد استعداداتٍ مماثلة في تجهيز قوات الفرسان وحَشْدها من كلِّ أقاليم الأندلس ، وأصدر الحاجب المنصور أوامره بالتحرُّك ، وفي مدينة « بورتو » التقتْ القوَّات البريَّة وقوات الإنزال البحري ، وقطع الحاجب المنصور أرضين متباعدة الأقطار ، وقطع بالعبور عدَّة أنهار كبار ، وخلجان يمدُّها المحيط الأطلسي ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد « فرطارش » ، ثم أفضى إلى جَبَل شامخ شديد الوعر لا مَسْلك فيه ولا طريق ، لم يهتد الأدِلَّاءُ إلى سواه ، فقدَّم المنصور مُهندسِيه ؛ لتوسعة شِعابه وتسهيل مسالكه ، فقطعه العسكر ، وعبروا بعده وادي مِنية أوْ (منهو) ، وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين أريضة ، وانتهت مغيرتُهم إلى دير قسطان وبسيط « بلنبو » على البحر الميحط ، وفتحوا حصن « شنت بلاية » وغنموه ، وعبروا سباحةً إلى جزيرة من البحر المحيط ؛ لجأ إليها خَلْقٌ عظيم من أهل تلك النواحي ، فسبَوْا مَن فيها ممَّن لجأ إليها ،

وانتهى العسكر إلى جبل « مراسية » ، فتخلَّلوا أقطاره ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجًا في معبرين ، ثم نهر أيْلة - أو « أوللا » - إلى أن أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة ، كثيرة الفائدة ؛ منها : بسيط أونبة ، وقرجيطة ، ودير شنت برية ، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد صاحب القبر تِلْوَ مشهد قبره عند النصارى في الفَضْل ، يقصده نُسَّاكهم من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما ، فغادره المسلمون قاعًا ، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب ، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان سنة ٣٨٧ هـ ، فحاز المسلمون غنائمها ، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ، ولم يجد المنصور بشانت ياقب - بعد أن هرب منها أهلها - إلّا شيخًا من الرهبان جالسًا على القبر ، فسأله عن مقامه ، فقال : « أونس يعقوب ».فأمر بالكفِّ عنه . وكانت مصانع شانت ياقب بديعة محكمة ؛ فغُودرت هشيمًا كأنْ تغنَ بالأمس . وانتسفتْ بعوثُه بعد ذلك سائر السهول ، وانتهت الجيوش إلى جزيرة « شنت مانكش » ، فقطع هذا الصَّقْع على المحيط ، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ، ولا وطئها لغير أهلها قدم . فلم يكن بعدها للخيل مجال ، ولا وراءها انتقال . وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب ، وقد بلغ غايةً لم يبلُغها مسلم قبله .

واستغرقت المسيرة الشاقَّة من قرطبة حتى أقاصي جيليقية « شنت ياقب » ، فترة أربعين يومًا تقريبًا ، وهذا رقم قياسي ، وقد كان من المُحال انجازُ هذا التحرُّكِ بِمثْل هذه السرعة لولا التحرك البحري . كما كان من المُحال الوصول إلى شنت ياقب ، لولا ما قام به المهندسون ؛ من إقامة الجسور ، وتمهيد الطرق ، وشقِّ الأنفاق ، فلله درُّ الحاجب المنصور .

لله درُّ الحاجب المنصور : « الملك لا ينامُ إذا نامت الرعيَّة » :

« كان من قوة رجاء المنصور ، أنه اعتنى بجمْع ما علِق بوجهه من الغبار

في غزواته ومواطن جهاده ؛ فكان الخدَم يأخذونه عنه بالمناديل في كلّ منزلٍ من منازله حتى اجتمع له منه صرَّةٌ ضخمةٌ عَهِد بتصييره في حنُوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه ؛ توقُّعًا لحلول منيَّته ، وقد كان اتَّخذ الأكفان من أطيب مَكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغَزْل بناته ، وكان يسأل الله تعالى أن يتوفَّاه في طريق الجهاد ، فكان كذلك »[1] .

آثاره تُنبيكَ عن أخبارِه حتى كأنَّك بالعَيانِ تراهُ
تاللهِ لا يأتي الزمانُ بمثْله أبدًا ولا يحمي الثغورَ سواهُ

هكذا كُتِب على قبره لما دُفن بمدينة سالم،مُنْصرفه من بعض غزواته .

« تحدَّث واحدٌ ممَّن كانوا يلازمون المنصور ، فقال : قلت للمنصور ليلةً طال سهرُه فيها : قد أفرط مولانا في السَّهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ، وهو يعلم بما يحرِّكه عدمُ النوم من علَّة العصب . فقال : يا هذا ، الملك لا ينام إذا نامت الرعيَّة ، ولو استوفيتُ نومي ، لما كان في دُور هذا البلد العظيم عينٌ نائمة »[2] .

« لو تنفَّس صاحبُ هذا القبر وأنت عليه ، ما سُمِع منك ما يُكره سماعُه ، ولا استقرَّ بك قرارٌ » :

وهذه خيرُ خاتمة بما يليق بعلوِّ همَّة بطلنا المنصور .

روى شجاع مولى المستعين بن هود القصَّة التالية ، عندما ذهب لمقابلة ألفونسو « الأذفونش » : « لما توجَّهت إلى « أذفونش » وجدتُه في مدينة سالم ، وقد نَصَب على قبر المنصور بن أبي عامر سريره ، وامرأته متَّكئة إلى جانبه ، فقال لي : يا شجاع ، أما تراني قد ملكتُ بلاد المسلمين وجلست على قبر

---

(١) البيان المغرب ٢/٤٣٠ .
(٢) نفح الطِّيب للمقَّري ١/٤١٦ .

مليكهم ؟ قال: فحمَلتْني الغيرة أن قلتُ له: لو تنفَّس صاحب هذا القبر وأنت عليه ما سُمِع منك ما يُكره سماعه ، ولا استقرَّ بك قرار . فهمَّ بي ، فحالتْ امرأته بيني وبينه ، وقالت له : صدقَك فيما قال ، أفيفجُر مثلك بهذا ؟ »[1] [2] .

أميرُ المرابطين يوسف بن تاشفين بطل موقعة الزَّلّاقة :

يوسف المغرب الذي لم يُوفَّ حقَّه .. الرجل الذي خُلق للزعامة والفتح .

استخلفه ابنُ عمِّه أبو بكر زكريا بن عمر على مراكش ، وأمره أن يتمَّ تخطيطها وبناءها سنة ٤٥٤ هـ ، وعندما عاد أبو بكر سنة ٤٦٥ هـ تلقَّاه يوسف بالهدايا الثمينة، فعرف أبو بكر أن الأمور استقرَّت ليوسف ، فتنازل ليوسف عن الملك ، وقال له : « أنت أخي وابن عمي ، و لم أرَ مَن يقوم بأمْر المغرب غيرك ، ولا أحقَّ بـه منك ، وأنا لا غناءَ لي عن الصحراء ، وما جئت إلّا لأسلم الأمـر إليك ، وأهدنك في بلادك ، وأعود إلى الصحراء مقرّ إخواننا ، ومحلّ سلطاننا »[3] .

وهذه الحادثة الرائعة قلما يُسجِّل لنا التاريخ مثلها، حين يتنازل فيها مِلك عن الحُكْم للأكفأ والأفضل والأصلح والأمهر .

وَطَّد يوسف سلطانه في المغرب الأقصى ، ووحَّد المغرب كلّه – تحت سلطة مركزية، وتجلَّت مواهبُه، وعزيمته القويَّة، وعلوّ همَّته، منذ استلامه زمام السلطة ؛ لقد كانت شهامته وشغفه بالفتح لنشر الإسلام ، حيث قاد الحروب بنفسه بفطنةٍ وحُسْن طالع يُسبغان عليه المثالية، وكان صوَّامًا قوّامًا زاهدًا مُتقشِّفًا لم يكن يأكل

---

(١) الحلة السيراء ٢٧٣/١ .

(٢) الحاجب المنصور لبسام العسيلي – دار النفائس .

(٣) النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ، للأستاذ إبراهيم حركات صـ٥٣ .

سوى خبز الشعير ، ولحم الإبل ، وشرابه لبن النوق .

كوَّن رحمه الله جيشًا ضمَّ زُهاء مائة ألف مجاهد من قبائل صنهاجة ، وزناتة ، ومصامدة . وبلغتْ دولته من حدود غانا عبورًا بموريتانيا حتى البحر المتوسط ، ومن الأطلسي غربا إلى ولاية قرطاجنَّة (تونس) شرقًا .

ولما توحَّدت كلمة ملوك النصارى على سَحْق دولة الإسلام بعد سقوط طُليطلة ، وتحالف ألفونسو السادس ملِك « قشتالة » - الذي كان يحكم جليقية ، وجزءًا من البرتغال ، و « أشتوريس » ، و « ليون » ، و « بسكونيه » أيضًا - وسانشو الأول ملك أراجون ونافارا ، والكونت برنجار ريموند حاكم برشلونة وأورجل ؛ لإخراج المسلمين من الأندلس ، وساروا بجيشٍ ضخم من جليقية وليون ، واحتلّوا مدينة « قوريتر » من بني الأفطس ، ووصلوا إلى ضواحي أشبيلية ، فأحرقوا قُراها وحقولها ، وحاصروا قلعة سرقسطة التي يضع سقوطها منطقة الأيبر « إبرة » في يد النصارى ، ويجعل الشواطئ الأسبانية مما يلي البحر المتوسط عُرضةً لغاراتهم ، وأثخن النصارى في ولاية سرقسطة كلّها بالنار والسيف ، وخشي المسلمون سقوط سرقسطة يومًا بعد يوم ، فأرسل أمراء الطوائف رسالةً إلى يوسف بن تاشفين مُوقَّعةً من ثلاثة عشر أميرًا مستقلًّا ، يناشدونه الإسراع إليهم قبل وقوع الطامّة الكبرى . وأرسل المعتمد بن عبَّاد إلى يوسف بن تاشفين : «إن كنت مُؤْثرًا للجهاد فهذا أوانه ، فقد خرج الأذفونش إلى البلاد ، فأسرع في العبور إليه »[(١)] .

وأمَّت مدينة مراكش وفودٌ كبيرة من الفقهاء ، ووفود شعبية تسأل يوسف إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أرض المسلمين بالأندلس .

وبينما كان ابن تاشفين يهيئ العبور إلى الأندلس ، دفع الأمراء المسلمون

---

(١) وفيات الأعيان ١١٦/٧ .

الجزية إلى ألفونسو وهادنوه ، وأرسلوا إلى ابن عبَّاد يهوديًّا خبيرًا بالنقد ؛ لاستلام الجزية ، ومعه قرمط البرهانس ، فلما حُمل إليهما المالُ أبى اليهودي أنْ يتقبَّله دون فَحْص ، واقترح البرهانس أن يقدِّم ابن عباد بدل المال المطلوب سفنًا حربية ، وازداد غضب ابن عباد وصاح : « لا أستطيعُ أنْ أتحمَّل بعد طغيان النصارى الأوغاد » . وقبلها قال المعتمد لابنه – عندما قرَّر تسليمَ حصن الجزيرة للمرابطين –: « أي بني ، والله لا يُسمع عني أبدًا أنني أعدتُ الأندلس دار كُفْر ، ولا تركتها للنصارى ؛ فتقوم عليَّ اللعنة في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري » . ولما خوفه بعض حاشيته من ابن تاشفين وقالوا : الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد . أجابهم : « تالله إنني لأوثر أنْ أرعى الجمال لسلطان مراكش ، على أنْ أغدو تابعًا لملك النصارى ، وأنْ أؤدي له الجزية ؛ إنَّ رعْي الجمال خير من رعْي الخنازير » . أو كما قال : « لَأنْ يرعى أولادُنا جِمال الملثَّمين ، أحبُّ إليهم من أنْ يرعَوْا خنازير الفرنج »[١] .

وكتب وزير ابن عباد – أبو بكر – كتابًا إلى ابن تاشفين : « لقد غصَّت المساجد المتروكة بالقساوسة من أعداء الدين ، ونُشِرت الصلبان فوق المنائر التي كان يُتلى فيها الأذان من قبل ، وأُخِذت النواقيس تُقرع من فوقها للقداس ، بعد أن كان يُدعى للصلاة » . وختم الوزير كتابه بقوله : « إن يوسف بن تاشفين قد غدا معْقد الآمال ، وإنه يُعتقد أنَّ الله قد اصطفاه لإنقاذ الإسلام » .

وعبر يوسف بجيشه من سبتة ، وصعِد ابن تاشفين إلى مقدِّمة سفينته ، ودعا : « اللهم إن كنت تعلم أنَّ في جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين ، فسهِّلْ عليَّ جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعِّبه حتى لا أجوزه » . فسهَّل الله المركب ، وقرَّب المطلب ، وسجد ابن تاشفين لله شكرًا لمَّا نزل بأرض الأندلس .

---

(١) وفيات الأعيان ٢/٤٨٣ .

ولبث أمير المرابطين بإشبيلية ثمانيةَ أيام فقط يُرتِّب أثناءها قوَّاته ، « وكان في هذه الأيام صائمًا بالنهار ، قائمًا بالليل في تهجُّدٍ وتلاوةٍ لآيات كتاب الله الكريم ، وأكثر من الصّدقات وأعمال البرِّ ؛ فتملَّك قلوب الناس أكثر ، وكسب قلوب جنده بالنصفة وإيثار الحق وإنشاء العدل »(١) .

تحالف عُبَّاد الصليب وملوكهم لحرب المسلمين ؛ ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وسانشو ملك أراجون ، والكونت برنجار ، وقوات عظيمة من جليقية وليون وبسكونية وأشتوريس وقشتالة ، وسربان من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية ، وعمِل الباباوات دورًا عظيمًا في الحثِّ على ذلك ، وكتب ألفونسو إلى ملوك النصرانية في أوربا بأنهم إن لم يتداركوه فسيعبر المسلمون جبال البرانس إلى أوربا ، فجاءته الإمدادات من كل صوْب . وبلغت عدَّة جيش ألفونسو مائة ألف من المشاة ، وثمانين ألفًا من الفرسان ، وكان عدد الجيش المسلم ثمانية وأربعين ألفًا ؛ نصفهم من المرابطين ، ونصفهم من الأندلسيين .

وأرسل ابن تاشفين إلى ألفونسو كتابًا يخيِّره بين ثلاث ؛ إمَّا أن يعتنق الإسلام ، أو يؤدِّي الجزية ، أو القتال . وكان مما قاله : « بلَغَنا يا أذفونش - ألفونسو - أنك دعوت للاجتماع بك ، وتمنَّيت أن يكون لك فُلْك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله في هذه العَرَصَة بيننا وبينك ، وسترى عاقبةَ دعائك ؛ ﴿ **وما دعاء الكافرين إلا في ضلال** ﴾ [غافر : ٥٠] » .

وكانت رسالة ابن تاشفين ردًّا على رسالةٍ من ألفونسو جاء فيها : « إن كنتَ لا تستطيع الجواز ، فابعث إليَّ عندك من المراكب أَجزْ إليك ، وأناظرك في أحبِّ البقاع عندك ، فإن غلبتني فتلك غنيمة جُلِبت إليك ، ونعمة مثُلت بين

(١) الزلّاقة لشوقي عماد خليل صـ٤٠ ، ٤١ - دار الفكر .

يديك ، وإن غلبتُك كانت لي اليد واستكملتُ الإمارة »[1] .

ولما فهم ألفونسو كتاب ابن تاشفين ، ألقاه أرضًا مغضبًا ، وقال للرسول : اذهب فقل لمولاك : إننا سنلتقي في ساحة الحرب . وردَّ بلهجة ملؤها الغضب والغيظ والوعيد ، فأمر ابن تاشفين كاتبه - ابن القصيرة - أن يجيبه ، فكتب وأجاد ، فلمّا قرأه على ابن تاشفين ، قال : هذا كتاب طويل ، أحضِر كتاب الأذفونش ، واكتُب في ظهره : « الذي سيكون ستراه » وأرسله إليه . فلمّا وقف عليه ألفونسو ، ارتاع له ، وعلم أنه بُلِيَ برجلٍ لا طاقة له به .

والتقى الجيشان في الزّلّاقة - أو « سكر إلياس » كما تسمِّيها النصارى - في يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ . وكانت الخطَّة تعتمد أن يحتفظ ابن تاشفين بقوّة احتياطيّة ، تحتوي على أشجع الجنود تنقضُّ في الوقت المناسب على الأعداء ، بعد أن يكون الإعياء قد بلغ من العدو مبلغه .

وثبت الجيش المرابطي بقيادة البطل داود ابن عائشة مع جيش الأندلس أمام قوّات النصارى ، وأرسل ابن تاشفين عدّة فرق ؛ لغوث المعتمد ، وبادر في الوقت نفسه بالزحف في حرسه الضخم من اللّمتونيين والمرابطين ، واستطاع بحركة بارعة أن يُباغِت جيش ألفونسو وأن يُحْدق به .

ووكَّل يوسف بعض قوّات جيشه بالنفوذ إلى خيام النصارى في الخلف وإحراقها ، فتَعالت النار في محلَّة القشتاليين ، وارتدَّ ألفونسو لينقذ محلته من الهلاك ، وليستردَّ معسكره الذي انتزعه يوسف ، وانقض يوسف بجموعه المظفَّرة على النصارى كالسيل ، وهو يهدر من فوق فرسه ويمرّ في ساحات المسلمين : يا معشر المسلمين ، اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ، ومن رُزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومَن سَلِم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة . وقاتل ابن تاشفين في مقدِّمة صفوفه قتالًا شديدًا ، وقد قُتلت تحته أفراس ثلاث .

---

(١) نفح الطِّيب ٢/٥٢٧ ، ووفيات الأعيان ٢/٤٨٣ .

وثبت المعتمد بن عباد ثباتًا رائعًا ، وأصبح ألفونسو وجيشه بين « مطرقة ابن عباد وسنداد بن تاشفين » وحقَّت عليهم الهزيمة .

وهرب ألفونسو عندما حلَّ الظلام ، بعد إصابته بطعنة نافذة ، ولم ينجُ من جيش القشتاليين مع ملكهم سوى أربعمائة أو خمسمائة فارس، معظمهم جرحى مات فيما بعد قسمٌ كبير منهم .

لله درُّك يا ابن تاشفين ، تقضي في هذه المعركة على ما يقرُب من ١٨٠ ألف صليبي بين قتيل وأسير !! وأمر ابن تاشفين برؤوس القتلى فصُفِّتْ في سهل الزّلاقة على شكل هرم ، ثم أمر فأُذِّن للصلاة من فوق أحدها ... وانجلت الزلاّقة عن يوم مشهود من أيام الإسلام ، وفخر لا يُقدَّر بثمن .

قال ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (١١٧/٧) عن غنائم هذه المعركة : « فلما حصلت عفّ عنها يوسف بن تاشفين ، وآثر بها ملوك الطوائف ، وعرَّفهم أن مقصوده إنما كان الغزو والجهاد ، لا الغنائم » . ثم عاد ابن تاشفين إلى المغرب .

وجاز ابن تاشفين إلى الأندلس مرة ثانية ؛ لصدِّ غارات النصارى على مرسية ، ثم عبر مرة ثالثة إلى الأندلس ، بعد أن حاول بعض أمراء الأندلس التحالف سرًّا مع ألفونسو السادس ؛ لطرد المرابطين ، فعاد ابن تاشفين إلى الأندلس بطلب من القضاة والفقهاء ، وبقي ابن تاشفين في الأندلس بعد الجواز الثالث ؛ بسبب فشل ملوك الطوائف الهزْل في حماية الأندلس من الأخطار الخارجية .

وضمَّ ابن تاشفين الأندلس إلى ملكه ، وأنقذها من انهيار محقَّق ، وضبطها بعزم وحزم بعد فوضى وضياع .

« إنما أسوارُنا سُيُوفُنا وعدلنا » :

ونختم بأروع ما قال ابن تاشفين ؛ لما فتح مدينة « فاس » خرَّب السور

الفاصل بين عُدوتها ، وقال : « إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا » .

رحم الله ابن تاشفين ، فقد كانت دولته دولة خير وجهاد وعافية ، وأكثَرَ الدول جرْيًا على السُّنَّة .

أبو الحسن علي بن يوسف ؛ ينتصر على القشتاليِّين ، ويسقط حصن أقليش في يده :

وصَّى ابن تاشفين بالملك من بعده لابنه علي ؛ لأنه أكثر ارتياحًا إلى المعالي واهتزازًا وأكْرَم سجيَّةً ، وأنْفَس اعتزازًا . وتولَّى علي الحُكْم بعد أبيه ، ولم يكن قد جاوز الثانية والعشرين من عمره ، فأبدى في حُكْمه كثيرًا من الحكمة والعدالة ، مما أكْسبه محبَّةَ شعبه وتقديره .

وعبر إلى أسبانيا عدَّة مرات ؛ منها عبور سنة ٥٠١ هـ ، وعهد بالقيادة العليا إلى أخيه الأكبر « تميم » الذي عُيِّن أيضًا واليًا لأشبيلية ، فسار بجيش ضخم إلى حدود النصارى ، وحاصر قلعة « أقليش » المنيعة ، فأرسل ألفونسو السادس ابنه الوحيد « سانشو » لفكِّ الحصار عنها . فلمَّا اقترب جيش القشتاليين ، هجم المرابطون المسلمون عليه ، فقتلوا من القشتاليين عشرين ألفًا ، وتسعةً من كونتات قشتالة ، وقائد الجيش سانشو بن ألفونسو السادس .

وقد كان سقوط حصن أقليش ذروة مَجْد المرابطين ، ويعتبر « الزّلّاقة الثانية »[1] .

عبد المؤمن بن علي : مؤسِّس دولة الموحِّدين ، وغلَّاب الدول :

قال عنه المهدي محمد بن تومرت : « صاحبكم هذا غلّاب الدول » . وقال عنه : « ما بقي عبد المؤمن ، فلن يهلك أحد » . وقال عنه : « بلوناه

---

(١) الزّلّاقة لشوقي أبي خليل صـ٧٧ – دار الفكر .

في جميع أحواله - من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه - فوجدناه ثبتًا في دينه » .

قال عنه الحافظ الذهبي في « السير » (٢٠/٣٧١) : « كان عبد المؤمن رزينًا وقورًا ، سريًّا عالي الهمَّة ، خليقًا للإمارة » .

في عهده غدت دولة الموحدين أعظم مدى مما كانت عليه دولة المرابطين ، لقد صارت حدودها الجنوبية بالصحراء الكبرى ، ومن الغرب المحيط الأطلسي ، ومن الشرق صحراء ليبية ؛ ثمَّ هذا كلُّه في عشرين سنة على يد عبد المؤمن .

واسترجع « المهدية » بعد أن سار من البر والبحر بأسطول ضخم لاستعادة الثغور الإسلامية في تونس من يد النصارى ، وحاول الإفرنج إغاثة إخوانهم ، فبعثوا الأساطيل إلى مياه تونس ، ووقعت بين الموحدين والنصارى معارك بحرية هائلة ، انتهت بفوْز المسلمين . وفتح عبد المؤمن المهديّة في يوم عاشوراء سنة ٥٥٥ هـ بعد أن بقيتْ اثني عشر عامًا بيد النصارى ، بعد أن أمِن النصارى الذين بها على أنفسهم ؛ على أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقليَّة . وافتتح عبد المؤمن « تَوْزر » وبلاد « الجريد » ، وطرد عنها الفرنج ، وطهَّر إفريقية من الكفر .

مِلك لم يدع مشركًا في بلاده ؛ لا يهوديًّا ولا نصرانيًّا :

قال الذهبي : « قال ابن الجوزي في « المرآة »[1] : استولى عبد المؤمن على مرّاكش؛ فقتل المقاتلة، وكفَّ عن الرعية، وأحضر اليهود والنصارى، وقال: إن المهدي أمرني أَنْ لا أُقِرّ الناس إلّا على ملَّة الإسلام، وأنا مخيِّركم بين ثلاث؛ إمّا أن تُسْلِموا ، وإمّا أن تلحقوا بدار الحرب ، وإمَّا القتل . فأسلم طائفة ، ولحقت

(١) حوادث سنة ٥٤٢ صـ١١٨ .

أخرى بدار الحرب . وخرَّب كنائسهم ، وعملها مساجد ، وألغى الجزية[(١)] ؛ فعَل ذلك في جميع مدائنه ، وأنفق بيوت الأموال ، وصلَّى فيها اقتداءً بعليّ ؛ ولِيُرِيَ الناسَ أنه لا يكنز المال ، وأقام كثيرًا من معالم الإسلام مع سياسة كاملة ، ونادى : مَن ترك الصلاة ثلاثًا فاقتلوه . وأزال المنكر ، وكان يؤمّ بالناس ، ويتلو في اليوم سبعًا ، ويلبس الصوف ، ويصوم الإثنين والخميس ، ويقسم الفيء بالشرع .فأحبُّوه .

قال عزيز في كتاب « الجمع » : كان عبد المؤمن يأخذ بالحق إذا وجب على ولده ، ولم يدع مشركًا في بلاده ؛ لا يهوديًّا ولا نصرانيًّا ، فجميع رعيته مسلمون »[(٢)] .

وقال عنه الحافظ الذهبي أيضًا : « كان مِلكًا عادلًا رحيمًا ، عظيم الهيبة ، عالي الهمَّة ، كثير المحاسن ، متين الديانة ، قليل المَثَل ، كان يقرأ كلَّ يوم سُبُعًا ، ويجتنب لبس الحرير ، ويصوم الإثنين والخميس ، ويهتمُّ بالجهاد والنظر في الأمور ؛ كأنما خُلِق للمُلك » .

علماء مجاهدون :

« بنى عبد المؤمن عددًا من المساجد والمدارس وقرنها بالخدمة العسكرية دومًا ، مع التمرين على فنون الحرب ؛ ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدي الانقطاع إلى العلم والدرس إلى إضْعاف الهمم ، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين . كما أنشأ مدرسةً لتخريج رجال السياسة ، وموظفي الحكومة ، وقادة الجيش، وكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره، ويمتحنهم فيما درسوا ، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه؛ تشجيعًا لهم على الاجتهاد ، ولكي يجعل منهم رجالًا

---

(١) إذ لم يبق في بلده يهود ولا نصارى .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/٣٧٠ - ٣٧١ .

أكفاء قادرين على نَفْع البلاد في السلْم والحرب . وفي أيام أخرى كان يمتحن تدريباتهم العسكرية ، فيختبرهم في الطعن بالحراب ، والرمي بالقوس والسهام ، والمبارزة وركوب الخيل ، وفي السباحة والمعارك البحرية في بحيرة أعدَّها ووضع فيها سُفنًا كبيرة وصغيرة ؛ ليتدرَّب الشباب على قتال البحر ، وقيادة السفن ، والوثوب على سفن العدوّ ، وكان يقدِّم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة »[1] .

« بمثل هذا تُمدح الخلفاء » :

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة (٥٤٨) لما اختلَّت أحوال الأندلس وطمع فيها الفرنجة ، جهَّز عبد المؤمن لدخول الأندلس ، فأخذ الجزيرة الخضراء ، ثم رندة ثم أشبيلية ، وقرطبة وغرناطة ، ثم سار عبد المؤمن بجيوشه ، ونزل جبل طارق وسمَّاه جبل الفتح ، فأقام شهرًا ، وبنى قصورًا ومدينة . ووفد إليه كبراء الأندلس ، وقام بعض الشعراء منشدًا :

ما للعِدَى جُنَّةٌ أوقى مِنَ الهَربِ أين المفرُّ وخيلُ اللهِ في الطَلَبِ
وأين يذهب مَن في رأس شاهقةٍ وقد رَمَتْهُ سهامُ اللهِ بالشُّهبِ
حَدِّثْ عن الروم في أقطار أندلس والبحرُ قد ملأ البَرَّين بالعَربِ[2]

فأُعجِب بها عبد المؤمن ، وقال : « بمثل هذا يُمْدح الخلفاء » . وقرّر عبد المؤمن بالأندلس جيشًا كثيفًا من المصامدة والعرب وقبائل بني هلال . وكان رحمه الله يشحذُ هِمَمَ جنوده ويُعليها بالدعوة إلى البذْل والعطاء للدين ، ويحثُّهم على الجهاد فيقول :

---

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ليوسف أشباخ ٢/٥٠ .
(٢) للشاعر الأصمّ المرواني ابن الطليق .

أقيموا إلى العلياءِ هُوجَ الرَّواحِل ... وقودوا إلى الهيجاء جُرْدَ الصَّواهِلِ
وقوموا لنصْر الدين قومةَ ثائرٍ ... وشُدُّوا على الأعداء شدَّة صائلِ
فما العز إلّا ظهْرُ أجْردَ سابحٍ ... يفوت الصَّبا في شدِّهِ المتواصلِ
وأبيضَ مأثورٍ كأنَّ فِرنْده ... على الماء منسوجٌ وليس بسائلِ
بني العَمِّ مِن عَليا هلالِ بن عامرٍ ... وما جَمَعتْ مِن باسلٍ وابن باسلِ
تعالَوْا فقد شُدَّتْ إلى الغَزْو نيَّةٌ ... عواقبها منصورةٌ بالأوائلِ
هي الغزوة الغرَّاء والموعدُ الذي ... تَنَجَّزَ مِن بَعْدِ المَدَى المُتطاوِلِ
بها نفتحُ الدنيا بها نبلغ المُنى ... بها نُنْصِفُ التحقيقَ من كلِّ باطِلِ
فلا تتوانوْا فالبدارُ غنيمةٌ ... وللمُدلجِ الساري صفاءُ المناهلِ

عُلوّ همَّة عبد المؤمن ، جعلته خليقًا بالمُلْك :

قال عبد الواحد المراكشي : لما نزل عبد المؤمن سلا ، وضُربت له خيمة ، وجعلت جيوشه تعبر قبيلةً قبيلةً ، فخرَّ ساجدًا ، ثم رفع وقد بلَّ الدمعُ لحيتَه ، فقال : أعرف ثلاثة وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلَّا رغيفٌ واحد ، فراموا عبور هذا النهر ، فبذلوا الرغيف لصاحب القارب على أن يُعَدّي بهم ، فقال : لا آخذه إلا عن اثنين . فقال أحدهم – وكان شابًّا –: تأخذ ثيابي وأنا أسبح . ففعل ، فكان الشاب كلما أعيا ، دنا من القارب ، ووضع يدَه عليه ليستريح ، فيضربه بالمجداف ، فما عدَّى إلا بعد جُهدٍ . فما شكَّ السامعون أنه هو السَّابح ، والآخران ابن تومرت وعبد الواحد الشرقي(١) .

عبد المؤمن يجهِّز لعبور الأندلس للجهاد ثانيةً ، فيموت :

جاءت الوفود الأندلسيّة تستنصر عبد المؤمن للجهاد ، فقرَّر العبور

(١) سير أعلام النبلاء ٣٧٢/٢٠ ، ٣٧٣ .

بنفسه عام ٥٥٦ هـ ، واجتمع له من الجند زُهاء ثلاثمائة ألف فارس ، ومائة ألف راجل ، وحَشَد أربعمائة سفينة كبيرة أُعِدَّت في ثغور المغرب ؛ لنقل الجيش . ولاح في الأفق عندئذٍ أن أسبانية النصرانيَّة قد قُدِّر لها الهلاك ، وفي الوقت ، الذي كانت السُّفن تنقُل الجند إلى الأندلس عام ٥٥٧ ، أصابه مرضٌ مفاجئ فمات رحمه الله . فأُنقذت أسبانية النصرانية للمرة الثانية ؛ الأولى : بانسحاب يوسف بن تاشفين بعد الزّلّاقة ، وعدم دخوله طليطلة ، والثانية : بموت عبد المؤمن .

رحم الله عبد المؤمن «فقد كان شجاعًا ذا عزيمة، وكان يسمو على جنوده في تحمُّل المشاقِّ والشدائد ، وكانت شعوب المغرب المتقشِّفة تعجب بتقشُّفه في مأكله وملبسه » .

ومن محاسنه أنه كتب إلى عماله في الأندلس بالعناية بالبلاد والإحسان إلى الرعيّة ، وأن يكون العدْل أساس أحكامهم ، وأن تُرفع إليه أحكام الإعدام ، مُدونًا فيها الشروح وشهادات الشهود مع حجج المظلومين . وكذلك في سائر المعاملات أوصى بتقوى الله في السر والعلن ، والجري على سنة رسول الله ﷺ .

لكل جَوادٍ كَبْوة :

عفا الله عن عبد المؤمن بطول جهاده ، وإن كان له كبوات في عقيدته ؛ مثل قوله بالعصمة ، واتِّخاذه المذهب الأشعري وتأويلاته منهجًا له في العقيدة ، مخالفًا بذلك أصحاب الحديث وسلف الأمة .

السلطان الكبير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ؛ يحفظ صحيح البخاري ، ويدوِّخ النصارى في معاركه :

قال عنه الحافظ الذهبي : « كان عارفًا باللغة والأخبار والفقه ، عالي

الهمَّة ، سخيًّا جوادًا ، مهيبًا ، شجاعًا ، خليقًا للملك » .

قال عبد الواحد بن علي التميمي : صحّ عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين ، أظنّه البخاري . قال : وكان سديدَ الملوكيَّة ، بعيد الهمّة ، جوادًا ، استغنى الناس في أيامه .

هادن صاحب صقلية على أن يحمل كلّ سنة ضريبة على الفرنج .

قال الحافظ أبو بكر بن الجد : كنا عنده ، فسألنا : كم بقي النبي ﷺ مسحورًا ؟ فشكّينا ، فقال : بقي شهرًا كاملًا ، صحّ ذلك[1] . وكان فقيهًا يتكلَّم في المذاهب ، ويقول : قول فلان صواب ، ودليله من الكتاب والسنة كذا وكذا[2] .

مِلك يُملي أحاديثَ الجهاد على جنده ويُخفي لَوْحه ، وجنده يكتبونها في ألواحهم :

وإن شئت أن تعجب لعلوّ همَّة أبي يعقوب يوسف ، فاعجب :

«قال عبد الواحد: لما تجهَّز لغزو الروم، أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تُملى على الجند ، وكان هو يُمْلي بنفسه ، وكبار الموحِّدين يكتبون في ألواحهم ، واتَّخذ ذلك سُنَّة إلى آخر أيام الموحدين .

كان كلّ واحد من الموحدين والسادة يجيءُ بلوحٍ ويكتب فيه الإملاء ، فجاء هلال بن محمد بن أحمد بن سعد يومًا - وهو من أمراء شرقي الأندلس - ولا لوح معه ، فأخرج القوم ألواحهم ، فقال له وزير أمير المؤمنين : أين لوحك يا أبا القمر ؟

---

(١) في المسند ٦٣/٦ من حديث عائشة : « لبث النبي ﷺ ستة أشهر ، يرى أنه يأتي ولا يأتي ..... » الحديث وإسناده صحيح على شرط الشيخين ، سوى إبراهيم بن خالد الصنعاني . وهو ثقة ، وثَّقه ابن معين وأحمد والدارقطني .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد بن علي التميمي المراكشي صـ٣٠٩ ، وسير أعلام النبلاء ٩٩/٢١ ، ١٠١ .

فخجل وافتتح يعتذر ، فأخرج له أمير المؤمنين من تحت بُرْنسه لوحًا وناوله إيّاه ، وقال : هذا لوحه . فلما كان من الغد جاء ومعه لوح غير الذي دفعه له أمير المؤمنين ، فلما نظر إليه قال : أين لوحك بالأمس يا أبا القمر ؟ فقال : خبَّأته وأوصيتُ إذا متُّ أن يُجعل بين جلدي وكفني . وأتبع ذلك بكاءً حتى أبكى بعض من كان في المجلس ، فقال أمير المؤمنين : هذا المحبُّ الصادق ، وأمر له بخيل وأموال وخِلَعٍ ، ولبنيه بمثل ذلك »[1] .

لقد كانت أيام يوسف بن عبد المؤمن كلُّها ، أيام جهادٍ وفروسية وشجاعة وجود ، ومثّلت دور العظمة في دولة الموحِّدين ... اثنتان وعشرون سنة .. مرت كطيف خيال ...

يقول عبد الواحد التميمي : ولم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعيادًا وأعراسًا ومواسم ؛ كثرة خصبٍ ، وانتشار أمنٍ ، ودرور أرزاقٍ ، واتّساع معايش ، لم ير أهل المغرب أيامًا قطّ مثلها .

تفرَّغ أبو يعقوب إلى حرب النصارى ، بعد أن اسْتَتَبَّ له الأمر في بلاد الأندلس ، ومكث في الأندلس أربعة أعوام ، نظم خلالها عدَّة غزوات ضدَّ النصارى ، حقَّق فيها نجاحاتٍ رائعة .

وسقط البطل مُضرَّجًا بدمائه أمام قلعة « شنيرين » بعد أن قاتل بسيفه ستة من الفرسان ، وأكمل جيشه بعده فتح القلعة ؛ فرحمه الله .

السلطان المنصور أبو يوسف : يعقوب بن يوسف :

قال عنه الذهبي : « كان فارسًا ، شجاعًا ، خبيرًا بالأمور ، خليقًا للإمارة ، ينطوي على دين وخيرٍ وتألُّه » .

---

(١) الأرك لشوقي أبي خليل صـ٤٤ .

قال عبد الواحد : أمر الحفَّاظ بجمع كتاب في الصلاة من « الكتب الخمسة » و « الموطأ » و « مسند ابن أبي شيبة » و « مسند البزّار » و « سنن الدارقطني » و « سنن البيهقي » ، ثم كان يُملي بنفسه على كبار دولته ، وحفظ لذلك خلق ، فكان لمن يحفظه عطاء وخِلعة .

قال لابن الجدّ - لما دخل عليه ، وبيَّن كتاب ابن يونس -: أنا أنظر في هذه الآراء التي أُحدثت في الدين ، أرأيت المسألة فيها أقوال ، ففي أيّها الحقّ ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلِّد ؟ فافتتح ابن الجد يُبيِّن له ، فقطع كلامه ، وقال : ليس إلا هذا (وأشار إلى المصحف) أو هذا (وأشار إلى سنن أبي داود) أو هذا (وأشار إلى السيف) .

قال يعقوب : يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ؛ فمن نابه أمر ، فَزِع إلى قبيلته ، وهؤلاء - يعني طلبة العلم - لا قبيل لهم إلّا أنا . فعُظِّموا عند الموحدين .

تصدَّق في غزوة « الأرك » بأربعين ألف دينار ، وكان يجمع الأيتام في العام ، فيأمر للصبي بدينار وثوب ورغيف ورُمانة . وبنى مارستان ما أظن مثله ؛ غرس فيه من جميع الأشجار ، وزخْرَفه وأجرى فيه المياه ، ورتَّب له كل يوم ثلاثين دينارًا للأدوية ، وكان يعود المرضى في الجمعة . وكان لا يقول بالعصمة في ابن تومرت .

وسأل الفقيه أبا بكر بن هاني الجيَّاني : ما قرأت ؟ قال : تواليف الإمام[1] . قال : فَزَوَرَني[2] ، وقال : ما كذا يقول الطالب ، حكمك أن تقول : قرأتُ كتاب الله ، وقرأت من السنَّة . ثم بعد ذا قل ما شئت .

---

(١) يعني ابن تُومرت .

(٢) أي فنظر إليَّ نظرة المغضِب .

قال تاج الدين ابن حمويه : كانت مجالس يعقوب مزيَّنةً بحضور العلماء والفضلاء ، تُفتتح بالتلاوة ، ثم بالحديث ، ثم يدعو هو . وكان يُجيد حفظ القرآن ، ويحفظ الحديث ، وكان يجمع الزكاة ويفرِّقها بنفسه ، وعمل مكتبًا للأيتام ؛ فيه نحو ألف صبي ، وعشرة معلِّمين . حَكَى لي بعض عمّاله أنه فرّق في عيد نيِّفًا وسبعين ألف شاة . وقيل : إن يعقوب أبطل الخمر في ممالكه ، وتوعَّد عليها فعُدمت ، ثم قال لأبي جعفر الطبيب : ركِّبْ لنا ترياقًا . فأعوزه خمر ، فأخبره بذلك ، فقال : تلطّف في تحصيله سرًّا ، فحرَص ، فعجز ، فقال الملك : ما كان لي بالتِّرياق حاجة ، ولكن أردتُ اختبار بلادي »[(١)] .

رحم الله المنصور يعقوب بن يوسف بما قدَّم ؛ فقد أسقط المكوس ، وزاد أجور الجند النظامي والفقهاء ، وأطلق المسجونين في كلِّ الولايات ، الذين اعْتُقلوا لذنوبٍ ثانوية بسيطة ، وسهَّل المواصلات ؛ فأنشأ في الطرق الرئيسية وطرق القوافل أبراجًا وأحواضًا لخزن الماء وآبارًا للاستسقاء، وفنادق لنزول المسافرين. وكان يؤثر الأطباء والمشرفين على المستشفيات التي آوت العَجَزة والعُمي .

كان يعقوب من أعظم ملوك الموحِّدين وأبرعهم وأرفعهم خلالًا ، وقد سما بدولة الموحِّدين إلى ذروتها . « وكان ملكًا جوادًا عادلًا متمسِّكًا بالشرع المطهر ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من غير محاباة ، ويصلِّي بالناس الصلوات الخمس ، ويلبس الصوف ، ويقف للمرأة وللضعيف ويأخذ لهم الحق ، وأوصى أن يُدفَن على قارعة الطريق ليترحَّم عليه مَن يمرُّ به »[(٢)]،وكان يشدِّد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، وقتل في بعض الأحيان على شرْب الخمر ، وعاقب العمّال الذين تشكو الرعايا منهم . وكان يُعاقب أيضًا على تَرْك الصلاة ، ويأمر

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/٣١١ - ٣١٨ ، والمعجب للمراكشي ٣٤٣ - ٣٨٣ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧/١٠ .

بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها ، فمَن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته ، عزَّره تعزيرًا بليغًا .

الأرك وقائدها يعقوب بن يوسف : « لم يُسمع في بلاد الأندلس بكسْرةٍ مثلها »[١] ... « تُضاهي الزلّاقة أو تزيد »[٢] :

سادت روحٌ صليبيةٌ بغيضةٌ للنصارى، بعد أن عيّن الملك ألفونسو الثامن – ملك قشتالة – المطران « مارتن دي بسيرجا » مطرانًا لطليطلة ، وأخذ هذا المطران يعدُّ لحملة صليبيةٍ كبيرة ضدّ المسلمين ، ودمَّر في حملته كلَّ شيءٍ ، وانتسف الغلَّات والكروم ، وقطع أشجار الزيتون ، وسبى المسلمين العُزَّل ، وقتل الكثير منهم .

وكتب ألفونسو الثامن إلى سلطان الموحدين خطابًا يدعوه للقتال .... وهذا نصُّ الخطاب كما ورد في « وفيات الأعيان » : « باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلَّى الله على السيِّد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح . أمّا بعد : فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب ، أنك أميرُ الملَّة الحنيفيَّة ، كما أني أمير الملَّة النصرانيّة ، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس ؛ من التخاذل ، والتواكل ، وإهمال الرعيَّة ، وإخلادهم إلى الراحة . وأنا أسومهم بحُكْم القهر ، وجلاء الديار ، وأسبي الذراري ، وأُمثِّل بالرجال . ولا عُذْر لك في التخلُّف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القُدْرة ، وأنتم تزعمون أن الله فَرَض عيكم قتال عشرةٍ منّا بواحدٍ منكم ، فالآن خفَّف الله عنكم وعلم أنَّ فيكم ضعفًا ، ونحن الآن نقاتل عشرةً منكم بواحدٍ منّا ، لا تستطيعون دفاعًا ولا تملكون امتناعًا . وقد حُكي لي عنك أنك أخذتَ في الاحتفال ، وأشرفت على

(١) وفيات الأعيان .
(٢) نفح الطِّيب .

ربوة القتال ، وتُماطل نفسك عامًا بعد عام ؛ تُقدِّم رجْلًا وتؤخِّر أخرى ، فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك ، أم التكذيب بما وعد ربُّك ؟ ثم قيل لي : أنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلًا . لعلّة لا يسوغ لك التقحُّم معها ، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك ، وأعتذر لك وعنك ، على أن تفيَ بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرِّهان ، وترسل إليَّ جملةً من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطَّحات ، وأجوز بجملتي إليك ، وأقاتلك في أعزِّ الأماكن لديك ؛ فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جُلبتْ إليك، وهديَّة عظيمة مَثُلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك ، واستحقيت إمارة الملَّتين والحُكم على البرَّين . والله تعالى يوفِّق للسعادة ، ويسهِّل الإرادة ، لا ربَّ غيره ولا خير إلّا خيره ، إن شاء الله تعالى »[1] .

فلمّا وصَل كتابه إلى أبي يوسف المنصور ، مزَّقه وكتب على ظهْر قطعة منه : ﴿ **ارجعْ إليهم فلنأتينَّهم بجنودٍ لا قِبَل لهم بها ولنخرجنَّهُم منها أذلَّةً وهم صاغرون** ﴾ [النمل : ٣٧] ، الجواب ما ترى لا ما تسمع .

ولا كُتْبَ إلَّا المشرفيَّةُ عندهُ ... ولا رُسْلَ إلَّا الخميسُ العرمرمُ[2]

واشتد حنقُ أبي يوسف على ألفونسو الثامن وغطرسته ، وأخذته غيرةُ الإسلام ، وأمر أن يُذاع الخطاب في جنود الموحدين ؛ ليُثير غيرتهم ، وضجّ الناس ، وصاحوا بطَلَب الانتقام ، وأجمعوا على المطالبة بالإسراع في إعلان الجهاد ، ودوَّت صيحةُ الجهاد في جميع أنحاء المغرب ؛ من مدينة « سلا » على المحيط الأطلسي ، حتى « برقة » شرقًا على حدود مصر . وسيَّر أبو يوسف جميع قوّاته إلى الأندلس ، وتجهز ألفونسو الثامن للقاء الجيش الإسلامي ، وأمدَّه مِلكا ليون ونبارة ، بل كانا على رأس الجيش الذي أرسلاه لنجدة ألفونسو ، وانضمَّ إليه فرسان قلعة

(١) وفيات الأعيان ٦/٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣١٨/٢١ .

« رباح » ، وفرسان الداوية ، واستطاع أن يحشد ما بين مائة ألف إلى ثلاثمائة ألف مقاتل .

وجاء في « بغية الملتمس » لابن عميرة (٤٥ - ٤٦) : « كان جيش ألفونسو الثامن ينوف على خمسة وعشرين ألف فارس ، ومائتي ألف راجل ، وكان معه تجّارٌ من اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم ، وأعدّوا أموالًا ، فهزمهم الله تعالى » .

ولما اجتمع أمير الموحِّدين بمستشاريه ، اقترح عليه أبو عبد الله بن صناديد خُطَّةً أُعجب بها المنصور ، وأمر بتنفيذها ؛ فأوْكَل إلى كبير وزرائه - أبي يحيى ابن أبي حفص - بقيادة الجيش كلِّه ، وأوكل قيادة الأندلسيين إلى البطل عبد الله بن صناديد . وأن يتولَّى الأندلسيون والموحِّدون أو الجند المغاربة النظاميون لقاءَ العدوّ ، ومواجهة هجومه الأوّل ، وأمّا بقيَّةُ الجيش ؛ المؤلَّفة من قبائل البربر - ومعظمهم من غير النظاميِّين - وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين ، فيجب أن تكون قوة احتياطيَّة للموحدين والأندلسيين ، تقوم بالعَوْن والإمداد . ويرابط المنصور بقوته وحرسه وراء التلال على مسافة قريبة ، ثم ينقَضّ بجنوده المتوثبين على الأعداء المتعبين ليرجّح كفَّة الموقعة كلِّها .

وفي ٩ شعبان ٥٩١ هـ كانت موقعة « الأرك » الفاصلة الحاسمة شمال قلعة « رباح » ، وفي صباح هذا اليوم ، أذاع أبو يوسف المنصور بين سائر الجند - لكي يذكِّي حماستهم للقتال - خبر رؤيا رآها في الليلة السابقة ، مفادها أنه رأى في نومه فارسًا بهيّ الطلعة ، على فرس أبيض يخرج من باب فُتح في السماء ، وبيده راية خضراء ، وقد انتشرت في الآفاق ، يقول له أنه من ملائكة السماء السابعة ، وأنه جاء ليبشِّره بالنصر بحول الله .

واحتلَّ الموحدون القلب ، واحتلَّ الجناح الأيسر الجند العرب ، ومعهم « زناتة » وبعض القبائل البربريّة الأخرى ، واحتلَّ الجناح الأيمن قُوى الأندلس

بقيادة عبد الله بن صناديد ، وتولّى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطيّة المكوَّنة من صفوة الجند والحَرس الملكي .

اغفروا لي فإن هذا موضع غفران :

وحين كمُل الحشْد ، قال قـائد الجيش أبـو يحيى بن أبي حفـص : « إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم : اغفروا له - فإن هذا موضع غفران - وتغافروا فيما بينكم ، وطيِّبوا نفوسكم وأخلصوا لله نيَّاتكم »[1] . فبكى الناس ، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم العادل المخلص .

وهبط النصارى من موقعهم المرتفع المشرف حين رأوا الجيش الإسـلامي هبطوا كالليل الدامس ، والبحر الزاخر ؛ أسرابًا تتلوها أسراب ، وأفواجًا تعقبُهَا أفواج ، ليس إلَّا الصهيل والضجيج ، والحديد على وقْع العجيج ، فدفعـوا حتى انتهوا إلى الأعلام ، فتوقَّفت كالجبال الراسيات . وقال المنصور لخاصّته : جدِّدوا نيَّاتكم ، وأحضروا قلوبكم . واشتدَّ وطيس المعركة ، واستُشهد البطل أبو يحيى القائد العـام وهو يقاتل بمنتهى البسالة ، واعتقـد النصارى أنَّ النصر قـد لاح ، بعد أن تضعضع قلب الجيش الإسلامي . وهجم ابن صناديد بقوّاته على قلب الجيش القشتالي ، ثم زحف بعد ذلك زعيم الموحدين ، ولم يغادر ألفونسو وفرسانه - العشرة آلاف - مكانهم في القلب ، بعد أن أقسموا جميعًا أن يموتوا ولا يتقهقروا . واستمرّت المعـركة على اضطرامها المروِّع ، وأرجاء المكان تُدوِّي بوقْع حـوافر الخيل ، وقرْع الطبول ، وأصوات الأبواق ، وصلصلة السلاح ، وصياح الجند ... وفرَّت فلول جيش ألفونسو ، وتساقط معظم فرسان النصارى حول مِلكهم مخلصين لعهدهم ، ولكن بقيَّة قليلة استطاعت أن تنجو ، وأن تقتاد الملك بعيدًا عن الميدان ، وأن تُنقذ بذلك حياته .

---

(١) البيان المُغرب صـ١٩٤ .

وكانت خسائر النصارى في هذه المعركة العظيمة : « مائة وستة وأربعين ألـف[1] قتيل ، أُسْر ٣٠ ألفًا ، وغنم من الخيام ١٥٠,٠٠٠ خيمة ، والخيل ٨٠,٠٠٠ ، والبغال ١٠٠,٠٠٠ ، والحمير ٤٠٠,٠٠٠ »[2] . وزاد ابن خلكان : « ٦٠,٠٠٠ درْع ، وأمّا الدواب على اختلاف أنواعها ، فلم يُحصر لها عدد » .

وأُذيع نبأ النصر من منابر المساجد في كلِّ مكان : « نجا الفنش - ألفونسو - ملك النصارى إلى طليطلة في أسوأ حال ؛ فحلق رأسه ولحيته ، ونكَّس صليبه ، وآلى أن لا ينام على فراش ، ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرسًا ولا دابَّةً ، حتى يأخُذ بالثأر ، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدّ ، ثم لقيه يعقوب وهزمه ، وساقه إلى طليطلة وحاصره ، ورمى عليها بالمجانيق ، وضيق عليها »[3] .

وجاء في « نفح الطيب » (٤١٩/١) : وجاءت المنصور رسُلُ ألفونسو - الفنش - سنة ٥٩٢ هـ . فصالحه ، وفيه يقول الشاعر :

أهلٌ بأنْ يُسعى إليه ويُرتجى ... ويُزار من أقصى البلاد على الرجا
مَنْ قد غدا بالمكرُمات مُقلدًا ... وموشَّحًا ومختَّمًا ومتوَّجًا
عمرت مقاماتُ الملوك بذكْره ... وتعطَّرتْ منه الرياحُ تأرُّجا

السلطان المظفَّر قطز ، بطل عين جالوت ، وصاحب الصيحة الشهيرة « وإسلاماه » :

السلطان الشهيد الملك المظفَّر : سيف الدين قطز بن عبد الله المُعِزِّي .

---

(١) ذكر ذلك ابن الأثير .
(٢) نفح الطيب ١٣٧/٢ .
(٣) نفح الطيب ١٣٧/٢ ، وتاريخ الأندلس لأشياخ ٨٦/٢ وما بعدها .

قال عنه الذهبي في « السير » (٢٣/٢٠٠ - ٢٠١) : « كان فارسًا شجاعًا ، سائسًا ، ديّنًا ، محببًا إلى الرعيّة ؛ هزم التتار ، وطهّر الشام منهم يوم « عين جالوت » ، وهو الذي كان قتل الفارس أقطاي . ويسلم له إن شاء الله جهاده ، ويُقال : إنه ابن أخت خوارزم شاه جلال الدين ، وإنه حُرٌّ واسمه محمود بن ممدود » .

وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» : «وله اليدُ البيضاء في جهاد التتار، فعوَّض الله شبابه بالجنَّة ورضي عنه » .

وقال ابن كثير : « كان شجاعًا بطلًا ، كثير الخير ، ناصحًا للإسلام وأهله ، وكان الناس يحبُّونه ويدعون له كثيرًا » .

لما بلغ المظفّر قطز ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة ، وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد مُلْكهم بالشام - بادرهم قبل أن يُبادروه ، وبرز إليهم وأقدم عليهم ؛ فخرج في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه ، وكان لقاؤه مع عسكر المغول وعليهم « كتبغا نوين » ، على « عين جالوت » يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، فاقتتلوا اقتتالًا عظيمًا ، فكانت النصرة - ولله الحمد - للإسلام وأهله ؛ فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة ، وقُتل أميرُ المغول « كتبغا نوين » وجماعة من بيته . وقد قاتل الملك المنصور - صاحب حماه - مع الملك المظفَّر قتالًا شديدًا . وقد أُسِر من جماعة كتبغا نوين ، الملك السعيد بن العزيز بن العادل ، فأمر المظفَّر بضرْب عنقه »[1] .

« يُذكر عن قطز أنه يوم عين جالوت ، لما أن رأى انكشافًا في المسلمين ، رمى عن رأسه الخوذة وحَمَل ، ونزل النصر »[2] .

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٣٤ .

(٢) السير ٢٣/٢٠١ .

وفي « البداية والنهاية » (٢٣٨/١٣) : « ذُكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت ، قُتل جوادُه ، ولم يجد أحدًا - في الساعة الراهنة - من الوشاقيّة الذين معهم الجنائب ، فترجَّل وبقي واقفًا على الأرض ثابتًا ، والقتال عمَّال في المعركة ، وهو في موضع السلطان من القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجّل عن فرسه ، وحلف على السلطان ليركبنَّها ، فامتنع ، وقال لذلك الأمير : ما كنت لأحرم المسلمين نفعك . ولم يزل كذلك ، حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب ، فلامه بعض الأمراء ، وقال : يا خوند ، لم لا ركبت فرس فلان ؟ فلو أنّ بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك . فقال : « أمَّا أنا فكنتُ أروح إلى الجنة ، وأما الإسلام فله ربٌّ لا يضيِّعه ، قد قُتل فلان وفلان وفلان - حتى عدَّ خلْقًا من الملوك - فأقام للإسلام مَن يحفظُه غيرهم ، ولم يضيِّع الإسلام » .

لله دَرُّه ، لما رأى عصائب التتار ، قال للأمراء والجيوش الذين معه : لا تقاتلوهم حتى تزولَ الشمس ، وتفيء الظِّلال ، وتهبَّ الرياح ، ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم . رحمه الله تعالى .

لله درُّك يا سيف الدين حين أرحتَ العالم من هذا الخبيث ، الذي فَتَح لأستاذه - هولاكو - من أقصى بلاد العجم إلى الشام ... لله درُّك حين ثأرتَ لدماء المسلمين وأعراضهم - بالشام وببغداد - من الملعون ، لعنه الله لعنةً تدخل معه قبره .

لما هزم المسلمون التتار بعين جالوت - تلك الهزيمة التي لا تُجبر أبدًا - وأُسِر ابن كتبغا فأُحضر بين يدي المظفر قطز ، فقال له : أهربَ أبوك ؟ قال : إنه لا يهرب . فطلبوه ، فوجدوه بين القتلى ، فلما رآه ابنه صرخ وبكى ، فلما تحقَّقه المظفر سجد لله تعالى ، ثم قال : أنام طيِّبًا ؛ كان هذا سعادة التتار وبقتله ذهب سعدُهم . وهكذا كان كما قال ، ولم يفلحوا بعده أبدا . وكان الذي قتله الأمير « آقوش الشمسي » رحمه الله .

ودقَّت البشائر من قلعة دمشق ، وفرح المؤمنون بنصر الله فرحًا شديدًا ، وأيَّد الله الإسلام وأهله تأييدًا ، وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين ، وظهر دين الله وهم كارهون . فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب ، فانتهبوا ما فيها ، وأحرقوها ، وألقوْا النار فيما حولها ؛ فاحترق دور كثيرة للنصارى ، ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا .

« وساق الملك المظفر قطز عساكر التتار وراءه ، ودخل بهم دمشق ، وفرح به الناس فرحًا شديدًا ، ودعوْا له دعاءً كثيرًا »[1] .

« كان جمال الدين التركماني يخدم قطز وهو صغير ، وكان يهينه ويذمه ، فقال له يومًا قطز : ويلك أيش تريد أن أُعطيك ، إذا ملكت الديار المصرية ؟ فقلت له : أنت مجنون ؟ فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ في المنام ، وقال لي : « أنت تملك الديار المصرية ، وتكسر التتار » . وقول رسول الله ﷺ حقّ لا شكّ فيه . فقلت له حينئذ : أريد منك إمرة خمسين فارسًا . فقال : نعم ، أبشر ... فلما كان بعد النصر ، أعطاه المظفر إمرة خمسين فارسًا ، ووفَّى له بالوعد » ...

هذا يوم من أيام الإسلام ، فأين نحن وواقعنا المرُّ منه ؟!

وعين جالوت هل أبصرتَ ساحتها ... وقُطْز يغرسها غارًا ونسرينا
لكننا في زمان القحْط نحصدُه ... لمَّا نسيناهُ أشواكًا وغِسْلينا

الملك الكامل .... يقول للتتار : « ما لكم عندي إلّا السيف » . ويبصُق في وجه هولاكو :

هو الملك الكامل الشهيد ، ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن السلطان الملِك العادل أبي بكر محمد بن أيوب .

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٣٥ .

تملّك، « ميّافارقين » وغيرها سنة خمس وأربعين ، وكان شابًّا عاقلًا شجاعًا مهيبًا ، محسنًا إلى رعيته ، مجاهدًا غازيًا ، ديِّنًا تقيًّا ، حميد الطريقة . حاصره عسكر هولاكو ، نحوًا من عشرين شهرًا ، حتى فَنِيَ الناس جوعًا ووباءً ، حتى لم يبق بالبلد سوى سبعين رجُلًا فيما قيل .

وكان الكامل يبرُز إلى التتار ويقاتلهم ويُنكي فيهم ؛ فهابوه ، ثم بَنَوا عليهم سورًا بإزاء البلد « بأبرجة » . ونفدت الأقوات، حتى كان الرجل يموت فيُؤكَل . وكان الكامل شديدَ البأس ، قَوِيَّ النفس ، لم ينقهر للتتار ؛ بحيث إنهم أخذوا أولاده من حصْنهم ، وأتوْهُ بهم إلى تحت سور « ميّافارقين » ، وكَلَّموه أن يسلِّم البلد بالأمان ، فقال : ما لكم عندي إلّا السيف . ودخل التتار البلدة ، ودخلوا دار الكامل ، وأتوا به « هولاكو » بالرُّها ، فإذا هو يشرب الخمر ، فناول الكامل كأسًا ، فأبى وقال : هذا حرام . فقال لامرأته : ناوليه أنتِ . فناولته ، فأبى ، وشتم ، وبصق في وجه هولاكو - فيما قيل - وكان الكامل ممَّن سار قبل ذلك ورأى « القان » الكبير ، وفي اصطلاحهم : مَن رأى وجه « القان » لا يُقتل ، فلمّا واجه هولاكو بهذا ، استشاط غضبًا وقتله .

قال الذهبي : « طِيف برأسه بدمشق بالطبول ، وعلِّق على باب الفراديس ، فلما انقلعوا وجاء المظفَّر ، دَفن الرأس »(١) .

الملك المُحسن ؛ محدِّث زاهدٌ :

هو المحدِّث الزاهد العالم : يمين الدين أبو العباس أحمد بن السلطان يوسف ابن أيوب ، حدَّث عن ابن صدقة الحرَّاني ، وهبة الله البوصيري ، وحنبل ، وخَلْق . ونَسخ وقرأ وحصَّل ، وكان صحيح النقل ، متواضعًا ، مفضّلًا على أهل الحديث وعلى

(١) السير ٢٣/٢٠١ - ٢٠٢ .

الرواة ؛ يتجمل به المحدِّثون . وقد ارتحل وسمع بمكة من ابن الحصري وابن البنّاء ، وببغداد من عبد السلام الداهري وطائفة .

قال الضياء : حصَّل المحسنُ الكثير ، وانتفع الخَلْق بإفادته ، وطلب الحديث على وجهه .

قال الذهبي : « حدَّث عنه القاضي شمس الدين ابن الشيرازي – أحد شيوخه – ومجد الدين ابن العديم ، وشيخُنا سُنْقر الزيني »[1] .

الظاهر بيبرس ؛ قاهرُ الصليبيين :

لمَّا جاء الظاهر بيبرس كان كالشمس الساطعة ، التي صهرت ثلوج الغرب الباردة ، وحوَّلتها إلى سراب ، قذفت به ريحُ الإسلام القويّة إلى حيث قدمت .

قال ابن كثير : « كان الملك الظاهر شهمًا شجاعًا ، عاليَ الهمَّة بعيدَ الغور ، مقدامًا جسورًا ، معتنيًا بأمر السلطنة ، يشفق على الإسلام ، متحليًا بالملك ، له قصْد صالح في نُصْرة الإسلام وأهله وإقامة شعار الملك . وفتح في أيامه فتوحات كثيرة ؛ قيساريَّة وأرسون ويافا ، والشقيف وأنطاكية وبعراض ، وطبرية والقصير وحصْن الأكراد ، وحصن عكا والغرين وصافتيا ، وغير ذلك من الحصون المنيعة التي كانت بأيدي الفرنج . ولم يدع مع الإسماعيلية شيئًا من الحصون . وناصف الفرنج على « المرقب » و « بانياس » وبلاد « أنطرسوس » ، وسائر ما بقيَ بأيديهم من البلاد والحصون . وفتح « قيساريّة » من بلاد الروم ، وأوقع بالروم والمغول على « البلستين » بأسًا لم يُسمع بمثله من دهورٍ متطاولة . واستعاد من صاحب « سيس » بلادًا كثيرة ، وجاس خلال ديارهم وحصونهم ، واستردَّ من أيدي المتغلِّبين من المسلمين بعلبك وبصرى وحمص وعجلون والصلت وتدمر والرحبة

(١) السير ٢٣/ ٢٠٣ - ٢٠٤ .

وتل باشر وغيرها ، والكرك والشوبك . وفتح بلاد النوبة بكمالها من بلاد السودان ، وانتزع بلادًا من التتار كثيرة ؛ منها شيرزور والبيرة . واتَّسعت مملكته من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة ، وعمَّر شيئًا كثيرًا من الحصون والمعاقل والجسور على الأنهار الكبار وحفر أنهارًا كثيرةً وخلجانات ببلاد مصر ؛ منها نهر « السرداس » ، وجدَّد بناء مسجد الرسول - ﷺ - حين احترق .

وله من الآثار الحسنة والأماكن ، ما لم يُبنَ في زمن الخلفاء وملوك بني أيوب ، مع اشتغاله في الجهاد في سبيل الله ، واستخدم من الجيوش شيئًا كثيرًا ، وكان مقتصدًا في ملبسه ومطعمه وكذلك جيشه ، وهو الذي أنشأ الدولة العباسية بعد دثورها ، وكان رحمه الله متيقِّظًا شهمًا شجاعًا لا يفتر عن الأعداء ليلًا ولا نهارًا ، بل هو مناجزٌ لأعداء الإسلام وأهله ، ولمّ شعثه واجتماع شمله . وبالجملة أقامه الله في هذا الوقت المتأخر ، عونًا ونصرًا للإسلام وأهله ، وشجًا في حُلوق المارقين من الفرنج والتتار والمشركين ، وأبطل الخمور ، ونفى الفُسَّاق من البلاد ، وكان لا يرى شيئًا من الفساد والمفاسد إلّا سعى في إزالته بجهده وطاقته ... وله أوقاف وصلات وصدقات . تقبَّل الله منه الحسنات ، وتجاوز له عن السيئات ، والله سبحانه أعلم »[1] .

سيذكر التاريخ لبيبرس قيادته في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ م ، حيث دوَّخ فرسان الفرنجة . وسيذكر التاريخ بكل فخر تولِّي بيبرس قيادة المقدِّمة في عين جالوت ، وتتبُّعه لفلول التتار بعد المعركة .

« المسيح أصبح - فيما يظهر - مسرورًا لما حلَّ بالمسيحيين من ذلَّةٍ وهوان » :

زحف بيبرس على قلعة «أرسوف»، وسقطت في ٢٦ أبريل سنة ١٢٦٥ م ، بعد أن دمَّرت أدوات الحصار أسوار القلعة ، « ولم تمض أكثر من ثلاثة أيام حتى

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٩١ - ٢٩٢ .

استسلم قائد القلعة الذي فقَد ثلث عدد فرسانه ، مقابل الحصول على وعْدٍ بالإبقاء على حياة الذين نَجوْا من القتل . وأثار سقوط هذا الحصْن الكبير مشاعر الفرنج ومخاوفهم ، وهذا ما أوحى إلى شاعر الدَّاوِيَة الغنائي « ريسو بونوميل» من التروبادور بأن ينظم قصيدة بالغة المرارة ، يشكو فيها من أن المسيح أصبح - فيما يظهر - مسرورًا لما حلَّ بالمسيحيين من مذلَّةٍ وهوان »[(١)] .

وحين استولى بيبرس على « صفد » هاجم « تبنين » فسقطت في قبضته ، ودمَّر قرية «قارة» المسيحية التي تقع بين دمشق وحمص ، وذلك بسبب اتصال أهلها بالفرنج الصليبيين ، فأمر بقتْل البالغين من سكّانها واسترقاق الأطفال .

ولمَّا أرسل المسيحيون وفدًا من عكا يطلب منه السماح لهم بمواراة جُثث القتلى ، أغلظ في رفْض طلبهم ، وقال لهم بأنهم إذا كانوا يلتمسون جُثث القتلى ، فسوف يجدونها في وطنهم . ولتنفيذ تهديده هبط إلى الساحل ، وقتل كلّ مَن وقع في يديه من المسيحيين .

بيبرس يُهاجم قليقية « أرمينية » ، ويقتُل ، ويأسر ابني ملكها :

كان على بيبرس أن يُنزل العقاب بالمسيحيين الذين تعاونوا مع المغول ، وعلى رأسهم « هيثوم » ملك أرمينية ، وحاول هيثوم كسْب ودّ بيبرس بعد موت « هولاكو » ، مستخدمًا أسلوب المساومة ؛ إذْ كانت البحرية المصرية في حاجة للأخشاب من أجل بناء سفنها ، وكانت هذه الأخشاب متوافرة في جنوب لبنان والأناضول ، وهما من الأماكن التي يسيطر عليها « هيثوم » وصهرُه « بوهمند » أمير أنطاكية . فلم يزد ذلك بيبرس إلّا إمعانًا في عزمه على القتال ، وسيَّر بيبرس أكفأ أُمرائه « قلاوون » و « المنصور » لأرمينية ، ودارت رحى

---

(١) الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة ، لبسام العسيلي صـ٢٨ - ٢٩ ، دار النفائس .

معركة حاسمة في ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦ م ، وتعرَّض الأرمن لهزيمة مدمِّرة ؛ فلقي « ثوروس » ابن ملك الأرمن مصرعه ، بينما وقع أخوه « ليو » في الأسر ، ودُمِّرت « سيس » عاصمة الأرمن ، وعاد الجيش المنتصر وفي حوزته أربعون ألف أسير ، ولم تنهض أرمينية مطلقًا من هذه الكارثة ، وحينما عاد الملك هيثوم من بلاط المغول الذين استنجد بهم وجد وليّ عهده أسيرًا ، وعاصمته خرابًا ، وبلاده بأكملها مستباحة .

وفي ٧ مارس سنة ١٢٦٨ ظهر بيبرس بجيشه أمام «يافا» فجأة، فاستسلمت له بعد معركةٍ قاسيةٍ، لم تستمر أكثر من اثنتي عشرة ساعة . وتمَّت إبادة المقاومة وتدمير القلعة ، وأرسل ما تحويه من خشبٍ ورخام إلى القاهرة لبناء مسجده الكبير .

وحرَّر بيبرس قلعة « الشقيف » التي فرض الدَّاوِية سيطرتهم عليها ، فاستسلمت الحامية في ١٥ أبريل بعد أن تعرَّضت القلعة للقصْف المتواصل بالمجانيق لمدَّة عشرة أيام ، ومنح بيبرس الحرية للنساء والأطفال ، أمّا الرجال فاحتفظ بهم أرقَّاء .

تدمير أنطاكية ، وما من جنديٍّ من المسلمين إلّا كان له أسيرٌ مملوكٌ من أهلها :

تولَّى قيادة جيش أنطاكية الكند سطبل « سيمون مانسل » ، وحمله الطَّيش على أن يخرج للمسلمين بجماعة من عساكره خارج أسواره ، فوقع في أسْر المسلمين ، ومع هذا صمَدت أنطاكية بأسوارها لهجوم جيش المسلمين .

وفي ١٨ مايو سنة ١٢٦٨ ، شنَّ المسلمون هجومًا عامًا على جميع القطاعات ، وأحدثوا ثغرةً تدفَّق منها المسلمون إلى داخل المدينة ، وتفجَّر الغضب دفعةً واحدةً ، ودارت رحى مذبحة رهيبة ؛ إذ أمر السلطان بيبرس بإغلاق أبواب المدينة ، حتى لا يهرب أحد من المقاتلين ، فتمَّت إبادة المقاومات بالشوارع ، وامتدَّت الإبادة

لأولئك الذين هربوا من القتال فالتجئوا إلى بيوتهم ، ووقع بقيَّة الرجال في قبضة الأَسْر .

وفي ١٩ مايو ، أمر بيبرس بجمْع الغنائم وتوزيعها ، وتوافر بها من النقود ما صار يُوزَّع بالطاسات أمّا عدد الأسرى ، فكان بالغ الضخامة ؛ فما من جنديٍّ من جنود المسلمين لم يَحُز مملوكًا ، وبلغ الفائض من الوفرة ما جعل ثمن الغلام ينخفض إلى اثني عشر درهمًا ، بينما لم يتجاوز ثمن الجارية خمسة دراهم .

كانت إمارة أنطاكية الصليبية ، أوّل إمارة أقامها الفرنج في بداية حروبهم الصليبية ، وعاشت تحت حُكْم الفرنج مائة وإحدى وسبعين سنة ، ولهذا فقد كان تحريرها ضربةً قويةً لهيبة الصليبيين ووجودهم ، ولنصارى الإمارة الذين تعاونوا مع الفرنج الصليبيين والمغول ، ولم تنهض أنطاكية بعد ذلك ، وتحوَّلت إلى مجرَّد قلعة على طرف حدود البلاد الإسلامية .

جيشك ليس في كثرة العدد يُضارع أسرى الإفرنج في القاهرة :

أمام هذه الانتصارات الهائلة ، وقع الرعب في قلب « هيو » الوصيّ على عكا، فأرسل يطلب هدنة، فأرسل إليه بيبرس السفير «محيي الدين». وحاول هيو أن يحصُل على بعض الامتيازات ، فاستعرض قوَّاته في تعبئة القتال أمام « محيي الدين » ، فاكتفى محيي الدين بإجابته الرائعة التي تنزل على قلوب المؤمنين بردًا وسلامًا .... قال له : « إن كلَّ هذا الجيش ليس في كثرة العدد ما يُضَارع الأسرى الفرنج في القاهرة » .

حصْن الأكْراد – قلعة الحصن – يُسقطها بيبرس بعد صمودها أمام صلاح الدين :

ولله درُّ بيبرس حين يُسقط حصن الأكراد الضخم – أو قلعة الحصن –

والتي كانت تحكمها طائفة الأسبتارية الصليبيين ، بعد أن صمد الحصن أمام صلاح الدين الأيوبي ، وبذا سيطر بيبرس على الطرق المؤدِّيَة إلى طرابلس .

واستولى بيبرس على حصن « مونتفورت » ، الذي كان تحت سيطرة الألمان ، بعد حصار أسبوع واحد .

بيبرس يغزو بلاد الأناضول ، ويسحق الحامية المغولية هناك :

وفي سنة ١٢٧٧ ، غزا بيبرس بلاد الأناضـول ، وانتصر على الحامية المغوليـة التي أرسلها الأيلخان « أباقا » إمبراطور المغول انتصارًا هائلًا في البستان .

فللَّه درُّ بيبرس ... يوم تولّى السلطنة كانت ممتلكات الفرنج ، تمتدُّ على الساحل من غـزة إلى قليقية ، مع ما يتبعها من الحصون الداخلية التي تحميهـا من الشرق .

وأمكن لبيبرس خلال فُترة حُكْمه - التي امتدّت سبع عشرة سنة - تحرير مناطق كثيرة ، بحيث لـم يبق في قبضة الفرنج الصليبيين ، أكثر من بضعة مـدن ساحلية ؛ هي عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس ، بالإضـافة إلى مدينة اللَّاذقيّة المعزولة وقلعتي عثليت والمرقب ، ولم يعش بيبرس ليشهدَ اختفاءها التام ، غير أنه جعل ذلك أمرًا لا مفرَّ منه .

فرحم الله ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري ، التركي ، كبير المماليك البحرية في عصره .

الملك المنصور ، سيف الدين قلاوون ؛ يهزم المغول ، ويهدم طرابلس :

الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي ، من المماليك البحرية .

قال عنه ابن كثير في « البداية والنهاية » (٣٦٦/١٣) : « كانت عليه أُبَّهة السلطنة ، ومهابة الملك ، عالي الهمة ، شجاعًا وقورًا ، سامحه الله » .

في يوم الخميس الرابع عشر من رجب سنة ٦٨٠ هـ أكتوبر سنة ١٢٨١ م، التقى جيش المغول في ظاهر حمص بجيش المسلمين . وكان على قلب جيش المغول « منجو » شقيق الأيلخان « أباقا » إمبراطور المغول ، وعلى الميسرة أمراء من المغول ، وعلى الميمنة « بليو الثالث » ملك أرمينيا ومعه الأسبتارية وعساكر الكرج ، وكان المنصور قلاوون على قلب الجيش الإسلامي ، والمنصور حاكم « حماة » على ميمنة الجيش ، وعلى الميسرة سُنْقر الأسقر وجنود الشام . وهزمهم المنصور قلاوون هزيمةً شنيعة وكبَّدهم خسائر فادحة .

قال ابن كثير عن وقعة حمص في « البداية والنهاية » (٣١٢/١٣) : « اقتتلوا قتالًا عظيمًا ، لم يُر مثله من أعصار متطاولة ، فاستظهر التتار أول النهار ، وكسروا الميسرة ، واضطربت الميمنة أيضًا ، وكُسر جناح القلب الأيسر ، وثبت السلطان ثباتًا عظيمًا جدًّا في جماعة قليلة ، وقد انهزم كثير من عسكر المسلمين ، وأشرف المسلمون على خطّة عظيمة من الهلاك . ثم إن أعيان الأمراء من الشجعان والفرسان ، لما رأوْا ثبات السلطان ردّوا إلى السلطان ، وحملوا حملات متعدِّدة صادقة ، وقتلوا من التتار مقتلةً عظيمةً جدًّا . ورجع التتار الذين اتَّبعوا المنهزمين من المسلمين ، فوجدوا أصحابهم قد كُسروا ، والعساكر في آثارهم يقتُلون ويأسرون ، والسلطان ثابت في مكانه تحت السناجق ، والكوسات تضرب خلفه ، وما معه إلّا ألف فارس ، فطمعوا فيه ، فقاتلوه ، فثبت لهم ثباتًا عظيمًا ، فانهزموا من بين يديه ، فلحقهم فقَتَل أكثرهم ، وجرح « منكوتمر » قائد جيش التتار ، وكان ذلك تمام النصر . ودخل السلطان إلى دمشق وبين يديه الأسارى بأيديهم الرماح عليها شقف رؤوس القتلى ، وكَثُرت للسلطان المحبَّة والأدعية . وأما التتر - الذين أتوْا في المعركة في مائة ألف مقاتل أو يزيدون - فإنهم انهزموا في أسوأ حال وأتعسه ؛ يُتخطَّفون من كلّ جانب ، ويُقْتلون من كلّ فجّ ، حتى وصلوا إلى الفرات فغرق أكثرهم ، ونزل إليهم أهل « البيرة » فقتلوا منهم خَلْقًا كثيرًا وأسروا آخرين ، والجيوش في آثارهم

يطردونهم عن البلاد ، حتى أراح الله منهم الناس » .

وفي سنة أربع وثمانين وستمائة ، توجَّه قلاوون حتى نازل حصن « المرقب » ثمانية وثلاثين يومًا ، وأخذه عَنوة من الفرنج ، وخرج فرسان الأسبتارية من حصنهم يعلوهم ذلُّهم . وأثار تحرير حصن المرقب شعور الذُّعر في وسط الفرنج الصليبيين الذين يحتلون عكا .

قلاوون يحرِّر اللّاذقيّة وطرابلس :

أرسل السلطان قلاوون مجموعة قتاليّة بقيادة الأمير حسام الدينَ طرنطاي ، فسقطت اللاذقية في قبضته سنة ٦٨٦ هـ . ثم سار السلطان قلاوون في سنة ثمان وثمانين لغزو الفرنج بطرابلس ، فنازلها أربعة وثلاثين يوما حتى فتحها عنوة في رابع ربيع الآخر ، وهدمها جميعها ، وأنشأ قريبًا منها مدينة طرابلس الموجودة الآن .

واستقبل الإفرنج والسكان في عكا أنباء تحرير طرابلس بالذهول ، فقد كانت الصدمة كبيرة .

ولما انتهك أهل عكا الهدنة مع المسلمين سار إليها السلطان قلاوون على رأس جيشه بعد أن أقسم في رسالةٍ بعث بها إلى النصارى ، ألّا يترك في المدينة مسيحيا على قيْد الحياة ... لكنه لم يكد يبدأ بالمسير ، حتى سقط مريضًا ، وبعد ستة أيام فقط قضى نَحْبه وهو في طريقه للجهاد ، فاستدعى ابنه الأشرف وهو على فراش الموت ، وحَمَله على أن يقطع وعْدًا بأن يواصل حملته ، ويحقِّق هدفه .

الملك الأشرف خليل ، يفتح عكا ، ثم يدمِّرها سنة ٦٩٠ هـ :

سار الملك الأشرف لفتح عكا بجيش يضمُّ ستين ألف فارس ، ومائة وستين ألفًا من المشاة ، ومعهم العرَّادات ، والمجانيق التي اشتُهرت باسم « الثيران السوداء » ..واحتشد النصارى – من الدَّاوِيَة والأسبتارية – وفئة من الإنكليز والألمان ومقاتلي قبرص ، وانضمَّ إليهم بعد مدّة ملك قبرص « هنري » ، وكانت

تحصينات المدينة قويّة ومتينة .

ونصب السلطان الأشرف على عكا اثنين وتسعين منجنيقًا ، وقاتل مَن بها من الفرنج أربعةً وأربعين يومًا حتى فتحها عَنوة ، في يوم الجمعة السابع عشر جمادى الأولى ، وهدمها كلَّها بما فيها وحرقها .

ولله درُّ الأشرف ، حين أرسل إليه الملك هنري - أثناء الحصار - فارسين من الدَّاوِيَة لمحاولة عقد هدنة ، فاستقبلهما الأشرف خارج خيمته ، وسألهما في إيجاز ما إذا كانا قد أحضرا معهما مفاتيح المدينة؛ فلما أنكرا، قال لهما: إن ذلك هو الموضع الذي يطلبه ، ولا يهمُّه مصير سكان المدينة ، غير أنه تقديرًا منه لشجاعة الملك ؛ بقدومه للقتال وهو لا زال حَدَثًا ، فضلًا عن مرضه - فإنه سوف يُبقي على حياتهم إذا ما استسلموا له . وفي أثناء حديثه لهما ، قذفت عرَّادة من الأسوار حجرًا سقط قُرْب الجماعة ، فاستشاط السلطان غضبًا ، وسلَّ سيفه وهمَّ بقتْل السفيرين ، ولكن الأمير « الشجاعي » تدخَّل فمنعه من ذلك ، وقال له بأنه لا يصحّ أن يدنِّس سيفه بدماء الخنازير . ثم سمح للفارسين بالعودة إلى ملكهما .

ولم تكد عكا تقع في قبضة الأشرف ، حتى شرع في تدميرها ، واستباحة دورها وأسواقها، ثم إشعال الحريق بها ، كما تمَّ تدمير الأبراج والقلاع المنيعة ؛ إذ عَزَم على ألّا تكون مرة أخرى رأس حربة لِمَا يقوم به الفرنجة الصليبيون من اعتداء على بلاد الشام .

تحريرُ بقيَّة بلاد الشام : ثمن الفتاة في سوق الرقيق درهم واحد :

وجَّه الأشرف جيشًا لتحرير مدينة صور ، وكانت من أمنع المدن على سواحل بلاد الشام ، وقاوم الداوية في صيدا ، واحتلَّ السلطان حيفا وجبل الكرمل وطرسوس وعثليت .

جابت جيوش الأشرف بلاد الشام من أقصاها إلى أقصاها لمدة شهور

كاملة ، مدمِّرةً كلَّ ما تعتبره ذا أهمية للفرنج الصليبيين ، إذا ما حاولوا مرةً أخرى النزول إلى البر . وتقرَّر اجتثاثُ الأشجار ، وتعطيل أدوات الري ، وتطبيق ما يُعرف حديثًا باستراتيجية الأرض المحروقة .

بلغ عدد الأسرى عددًا كبيرًا ، وهبط ثمن الفتاة في سوق الرقيق إلى درهم واحد فقط .

كانت هناك مقاومة ضارية من فرسان الداوية والأسبتاريّة ، وكذلك البنادقة والبيازنة ، ولكن ما تجدي هذه المقاومة أمام حماس المجاهدين في سبيل الله .

فَتْح قلعة الروم ، ١١ رجب سنة ٦٩١ هـ :

سار الملك الأشرف إلى قلعة الروم، فافتتحها بالسيف قهرًا في يوم السبت حادي عشر رجب ، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق ، وزُيِّنت البلد سبعة أيام ، وبارك الله لجيش المسلمين في سعيهم ، وكان يوم السبت إلبًا على أهل يوم الأحد ، وكان الفتح بعد حصار عظيم جدًّا مدة ثلاثين يومًا ، وكانت المنجنيقات تزيد على ثلاثين منجنيقًا ، وقد قُتل من أهل البلد خَلْقٌ كثير ، وغنم المسلمون منها شيئًا كثيرًا .

وعاد السلطان إلى دمشق ، فاحتفل الناس لدخوله ودعَوْا له وأحبُّوه .

وقد امتدح « الشهاب محمود » المِلكَ الأشرف خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة هائلة فاضلة أوّلها :

لك الرايةُ الصفراء يقدُمها النصرُ ... فمِنْ كيقباذان رآها وكيخسرُو
إذا خفقتْ في الأرض هدَّتْ بنورها ... هوى الشِّركُ واستعلى الهُدى وانجلى الثَّغْرُ
وفتْحٌ أتى في إثْرِ فتح كأنَّما ... سماءٌ بدتْ تَتْرَى كواكبُها الزهرُ

فكم فطمت طوعًا وكرهًا معاقلًا مضى الدَّهرُ عنها وهْي عانسةٌ بِكْرُ
بذلتَ لها عزمًا فلولا مهابةٌ كساها الحيا جاءتْك تسعى ولا مهْرُ
قصدتَ حمًى من قلعةِ الرومِ ولم يُتَحْ لغيرك إذْ غرَّتهم المَغْلُ[1] فاغترُّوا
والوْهم سرًّا ليُخفوا أذاهمُ وفي آخِر الأمر استوى السِّرُّ والجَهْرُ
صرفتَ إليها همَّةً لو صرفتَها إلى البحرِ لاستولى على مدِّه الجزرُ
وما قلعةُ الرومِ التي حُزْتَ فتْحَها وإن عظمتْ إلا إلى غيرها جسْرُ
طليعةُ ما يأتي من الفتح بعدها كما لاح قبل الشمس في الأفق الفجرُ
فصبحتها بالجيش كالروْض بهجةً صوارمُه أنهارُه والقَنا الزُّهْرُ
ليوثٌ مِن الأتراك آجامُها[2] القنا لها كلّ يومٍ في ذرا ظفرٍ ظفْرُ
عيونٌ إذا الحرب العَوانُ[3] تعرَّضتْ لخُطَّابها بالنفس لم يُغْلِها مَهْرُ
إذا صدَموا شُمَّ الجبال تزلزلتْ وأصبح سهلًا تحت خيلهمُ الوَعْرُ[4]
ولو وردتْ ماءَ الفرات خيولُهم لقِيل هنا قد كان فيما مضى نَهْرُ
كأنَّ المجانيقَ[5] التي قُمْنَ حولها رواعدُ سُخْطٍ وَبْلُها النارُ والصَّخْرُ
أقامت صلاة الحرب ليلًا صخورها فأكثرُها شفعٌ وأكبرُها وِتْرُ
وشبّتْ بها النيرانُ حتى تمزَّقتْ وباحتْ بما أخفتْهُ وانهتك السِّترُ
فلاذوا بذيل العفو منك فلم تُجبْ رجاءَهمُ لو لم يَشُبْ قصْدَهم مكرُ
وما كره المغْلُ اشتغالك عنهمُ بها عندما فرّوا ولكنَّهم سرّوا
فأحرزتها بالسيف قهرًا وهكذا فتوحك فيما قد مضى كلّه قَسْرُ

---

(١) المغل : المغول .

(٢) آجامُها : جمع الجمع من أجمة ، وهي الشجر الكثير الملْتَف ، ومأوى الأسد .

(٣) الحرب العوان : أشدُّ الحروب .

(٤) الوعرُ : الأرض الصعبة المسالك .

(٥) المجانيق : آلة لقذْف الحجارة والنار إلى مسافات بعيدة ، كالمدفعية .

فأضحتْ بحمد الله ثغرًا مُمنَّعًا ... تبيد الليالي والعدى وهو مفترُّ
فيا أشرفَ الأملاكِ فُزْتَ بغزوةٍ ... تحصَّل منها الفتح والذِّكْرُ والأجْرُ
لِيَهْنِيكَ عند المصطفى أنَّ دينَه ... توالى له في يُمْن دولتك النصرُ
وبُشْراكَ أرضيْتَ المسيحَ وأحمدَا ... وإن غضب اليعفورُ من ذاك والكفرُ
فسِرْ حيث ما تختار فالأرضُ كلُّها ... تطيعك والأمصار أجمعها مصرُ
ودُم وابق للدنيا ليحيا بك الهدى ... ويزهى على ماضي العصور بك العصرُ[1]

سيذكر التاريخ بكلِّ فخر للملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ، علوَّ همَّته على اقتلاع آخر مواقع الفرنج ، الذين بقوا - وعلى امتداد مائتي سنة - جسمًا غريبًا في كيان العالم الإسلامي ، مما أدّى في النهاية إلى لفْظِهم وطردهم ، وتحرير البلاد الإسلامية من وجودهم .

وانهار كلُّ ما أقامه الفرنج ، وما جهدوا لتصنيعه دفعةً واحدة ، وكأنه بناء فوق الرمال ، أو بناء من الثلْج لم تلبث أن صهرته حرارة الشمس .

قبرص .. قبرص .. قبرص :

وفي سنة ١٢٩٢ ، أرسل ملك قبرص « هنري » خمس عشرة سفينة ، تساندها عشر سفن من لدى البابا ، فأغارت على الإسكندرية ، وارتكبت مذابح رهيبة ، ولكن مقاومة المسلمين الضارية أرغمت الحملة على الانسحاب .

« وأدَّت هذه المحاولة الفاشلة، إلى زيادة تصميم السلطان الأشرف خليل على فتح الجزيرة، فأمر بعمارة مائة سفينة، وكان يتابع الاستعدادات وهو يهتُف: « قبرص ، قبرص ، قبرص » . كما كانت لديه مخطَّطات أكبر تزيد في أهميتها على ما كانت تحتلُّه قبرص من أهمية في تفكيره وعمله ؛ إذ كان لا بدّ له قبل كل شيء من سَحْق المغول ، وتحرير حاضرة الإسلام من طغيانهم .

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٣٤٧ - ٣٤٩ .

وفيما كان السلطان الأشرف يمضي قُدُمًا في استعداداته الطموحة، قُتِل غِيلةً، وجاء اغتيالُه ضربةً قاصمةً للمسلمين، كما جاء بمثابة مكافأة حقيرة لهذا الشابِّ قوي العَزِيمة، والذي أتمَّ رسالة صلاح الدين وقطز وبيبرس وقلاوون، فطرد آخر ما تبقَّى من الفرنج من بلاد الشام »[١].

الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ « له في موقعة شَقحب اليدُ البيضاء من الثبات »[٢]، وبها انتهى أمر التتار إلى الأبد:

الملك الناصر أبو الفتح محمد بن قلاوون، من كبار ملوك دولة المماليك. وفي عصره كانت معركة « شَقحب » أو معركة « مرج الصُفْر » في اليوم الثاني من رمضان سنة ٧٠٢ هـ، وكان عدد الجيش المغولي الذي اشترك في هذه الموقعة كبيرًا، يقدِّره بعضهم بخمسين ألف مقاتل، وهناك مَن يقول: إن عدده يصل إلى مائة ألف. وقد كان في عداد هذا الجيش فرقتان من نصارى الكرج والأرمن.

والسبب في سيْر هذه الحملة التتارية، هي رغبة «قازان» ملك التتار في تحطيم سلطان المسلمين في مصر، واسترداد الأرض المقدَّسة وتسليمها إلى النصارى، وأناب عنه في هذه الحملة «قطلوشاه» الذي تعاون مع النصارى تعاونًا كبيرًا.

وانزعج الناس لمسير التتار، واشتدَّ خوفهم جدًّا - كما يقول ابن كثير - وقام شيخ الإسلام ابن تيمية بمهمَّةٍ جسيمةٍ في إشراك الخليفة والسلطان في مواجهة هؤلاء الغزاة، بعد أن راح المثبطُون يُوهنون عزائم المقاتلين؛ بأن لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار.

وفي يوم المعركة نظَّم المسلمون جيشهم أحسن تنظيم، وكان السلطان الناصر في القلب، ومعه الخليفة « المستكفي بالله » والقضاة والأمراء.

---

(١) الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة صـ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) من كلام الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة عن الناصر.

وقبل بدء القتال ، مرَّ السلطان ومعه الخليفة والقرَّاء بين صفوف جيشه ، بقصْد تشجيعهم على القتال، وبثِّ روح الحماسة فيهم. وكانوا يقرءون آيات القرآن التي تحضُّ على الجهاد والاستشهاد ، وكان الخليفة يقول : دافعوا عن دينكم، وعن حريمكم. ووُضعت الأحمال وراء الصفوف، وأُمِرَ الغلمان بقتْل من يحاول الهرب من المعركة .

ولمَّا اصطفَّت العساكر والتحم القتال ، « ثبت السلطان ثباتًا عظيمًا ، وأمر بجواده فقُيِّد حتى لا يهرب ، وبايع الله تعالى في ذلك الموقف »(١) ، يريد إحدى الحسنيين ؛ إمّا النصر ، وإمّا الشهادة في سبيل الله . وصَدَقَ اللهَ فصدقه اللهُ .

واحتدمت المعركة ، وحمي الوطيس ، واستحرَّ القتْل ، واستطاع المغول في بادئ الأمر أن ينزلوا بالمسلمين خسارةً ضخمةً ، فقُتِل من قُتِل من الأمراء ، ولكنَّ الحال لم يلبث أن تحوّل بفضل الله عز وجل ، وثبت المسلمون أمام المغول ، وقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً ، « فلمّا جاء الليل ، لجأ التتار إلى اقتحام التلول والجبال والآكام ؛ فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب ، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقْت الفجر ، فقتلوا منهم ما لا يعلم عدده إلَّا الله عز وجل ، وجعلوا يجيئون بهم من الجبال فتُضرب أعناقُهم »(٢) ، ثم لحق المسلمون أثر المنهزمين إلى « القريتين » يقتُلون منهم ويأسرون .

ووصل التتار إلى الفرات وهو في قوة زيادته ، فلم يقدروا على العبور ، والذي عبر فيه هلك ، فساروا على جانبه إلى بغداد ، فانقطع أكثرهم على شاطئ الفرات ، وأخذ العرب منهم جماعة كثيرة .

---

(١) البداية والنهاية ٢٧/١٤ .

(٢) البداية والنهاية ٢٦/١٤ .

وكان فرح المسلمين والسلطان بهذه المعركة فرحًا كبيرًا . ودخل السلطان مصر دخول الظافر المنتصر ، يتقدَّم موكبه الأسرى المغول يحملون في أعناقهم رؤوس زملائهم القتلى ، واستُقبل استقبال الفاتحين .

إن البغـاةَ بني خاقـانَ أقـدمَهـم على هلاكهم الطغيـانُ والأشَـرُ
راموا - وقد حشدوا - غَلَبًا فما غَلَبوا وحاولوا النصرَ تضليلًا فما نُصِروا
يا وقعةَ المرجِ مَرْجِ الصُّفّر افتخرت بك الوقـائعُ في الآفـاق والعصُـرُ
رفعتِ بالنصر أعلام الهدى و لقد جرَّدتِ للشرك كسرًا ليس ينجبرُ

لقد كانت هذه الحملة التتارية ، هي آخر الحملات الكبرى التي قام بها هؤلاء المتوحِّشون .

دارتْ عليهم من الشجعانِ دائرةٌ فما نجا سالمٌ منها وقد زحفوا
ونكَّسوا منهم الأعلامَ فانهزموا ونكَّصوهم على الأعلام فانقصَفوا
فرّوا من السيف ملعونين حيث سَرَوْا وقُتِّلوا في البراري حيثما ثُقفوا[١] .

قال ابن حجر في « الدرر الكامنة » عن السلطان الناصر : « فُتحت في أيامه قلعة « جعبر » و « ملطية » و « دارندة » و « آياس » و « طرسوس » ، وسمع من ستِّ الوزراء وابن الشحنة ، وكان مطاعًا مَهيبًا عارفًا بالأمور ، يعظِّم أهل العلم والمناصب الشرعية ، لا يقرِّر فيها إلّا من يكون أهلًا لها ، ويتحرَّى لذلك ويبحث عنه ويبالغ ، وأسقط من مملكته مَكْس الأقوات »[٢] .

كانت للناصر سيرةٌ محمودة ، ولو لم يكن له إلّا قتْل « بيبرس الجاشنكير » الحلولي الاتحادي عدو ابن تيمية اللَّدود ؛ لكفاه . واعتنى بالعمران حتى أضحتْ القاهرة زينة الدنيا ، واقتدى الناس به فتباروا في العمران ، يقول المقريزي :

---

(١) معركة شَقحب أو معركة مرج الصفر لمحمد لطفي الصباغ - المكتب الإسلامي .
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ٤/٢٦٤ ، طبع أم القرى . ومَكْسُ الأقوات : هي الضريبة التي تُفرض على الأقوات .

« وكأنما نُودي في الناس : ألّا يبقى أحدٌ حتى يعمر ، وذلك أن الناس على دين ملوكهم » . وقال الزركلي : « وأحدث من العمران ، ما ملأ ذكْرُه صفحتين من كتاب المقريزي » .

وكان كريمًا غاية في الكرم ، وكان عفَّ اللسان ، لم يضبط عليه أحد أنه أطلق لسانه بكلام فاحش في شدَّة غضبه ولا انبساطه ، وكانت عنده غيرة على الدين ، ورعاية لأحكامه .

دولة المماليك :

لقد كانت دولة المماليك ، التي امتدَّت من سنة ٦٥٨ حتى ٩٢٣ هـ ، المدافع الأول عن الإسلام ، وقد استطاعت هذه الدولة أن تطهر بلاد المسلمين من بقايا الصليبيين ، وأن تُنهي أمر التتار إلى غير رجعة ، وأن تدافع عن مذهب أهل السنة والجماعة ، وكانت أيامها أيام نضْجٍ علمي ، عمَّت فيه المدارس والجامعات ربوعَ مصر والشام .

ملوك الإسلام في الهند .. أبطال الملاحم :

قال الشيخ أبو الحسن الندوي : « لم تزل ولا تزال خليّة الإسلام في الهند تَعْسل، والشجرة التي غرستها اليدُ الكريمة المخلصة، وسقاها الصالحون من عباد الله بدموعهم والمجاهدون في سبيل الله بدمائهم في كلِّ عصر ، تُثْمر وتؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربِّها »(١) .

وإليك طرفًا من عَسَل ملوكهم ، مذابًا في علو همَّتهم .

---

(١) المسلمون في الهند ، لأبي الحسن الندوي صـ٦١ . نشر المجمع الإسلامي العالمي بالهند .

شهاب الدين الغوري ؛ يُعلي الأذان في دلهي :

الغوريـون من منطقة « الغور » في أفغانستان ؛ فتحوا السِّنـد ، وقضَـوْا على القرامطة ، وحازوا جميع ممتلكات الغزنويين ، تحت زعامة « شهاب الـدين الغوري » ؛ وملك شمال الهند ، وبلغت جيوشه « دلهي » ، وأعْلى فيها منارةَ الإسلام ، ودوَّى فيها الأذان ، وقامت دولة الإسلام في الهند مركزها « دلهي » ، وكان مع السلطان شهاب الدين الغوري قائده « قطب الدين أيبك » يفتح المدن بسيفه ، والشيخ « معين الدين الجيشي » يفتح القلوب بدعوته .

وأتى شهاب الدين في هبواته ... سيفًا يَفلُّ وعزمةً لم تُجْهَدِ
ومضى على ساحاتها لا ينثني ... حتى يمدَّ لدينه صِدْق اليدِ
وضممتَ أقطارًا إليك فأصبحت ... عِقْدًا يموج بلؤلؤ وبعَسْجدِ
وازيَّنتْ دلهي وآية حسْنها ... إشراقة التوحيد طلعة مُهْتدِ
وجمعتَ أطرافَ الممالك أُمَّة ... بجهادِها المتواصلِ المتجدِّدِ

بهلول لودي :

حكم سبعًا وثلاثين سنة ؛ اتَّسع خلالها سلطان دلهي ، وضمّ جميع الإمارات التي كانت تابعةً له حين كان يحكم « لاهور » ، واتَّسع ملكه باتجاه الجنوب .

وكان ملكًا صالحًا ، عادلًا شجاعًا ، صادق القول ورِعًا ، يبذل الجهد باتباع السُّنة ، ويجالس العلماء ويكرمهم .

مظفَّر الحليم الكجراتي ؛ مَثَلٌ عظيم للملوك :

من أهمِّ ملوك الدولة الإسلامية في « الكجرات » (٨١٠ هـ – ٩٦٥ هـ) : « وكان مثلًا عظيمًا للملوك ، جمع من الفضْل الشيءَ الكثير ؛ كان من حُفَّاظ القرآن ، ومن المحدِّثين الفقهاء ، تقيًّا متسامحًا ، حتى سُمِّي بـ« الحليم »، وكان مُلِمًّا بعلوم زمانه، ماهرًا في الفنون الحربية، ماهرًا بالخطِّ وبجميع أنواعه، كتب

مصحفين بيده أهداهما للحرمين الشريفين .

ولقد أغار في زمانه أحد ملوك الهندوس على مملكة « مالوه » الإسلامية ، التي كان يحكمها « محمود شاه الخلجي الثاني » ، فاستنجد محمود الخلجي بمظفّر الحليم الكجراتي ، فأنجده وطرد الهندوس ، فعرض عليه محمود الخلجي أن يكون هو السلطان على « مالوه » ، فقال له مظفَّر : « إن أول خطواتي إلى بلادك ، كانت في سبيل الله تعالى لنصرتك ، والحمد لله قد تمَّ لنا النصر ، فبارك الله لك في ملكك » . ووعده بالمساعدة دائمًا ، وأبقى عنده بعض جيوشه .

أنشأ رحمه الله في مكة رباطًا ومدرسةً وسبيلًا للماء ، وجعل لها وقفًا ينفق على المدرسين ، والطلبة ، ومن يقيم بالرباط » .

قال الشيخ أبو الحسن الندوي عن السلطان مظفر حليم ، في كتابه « المسلمون في الهند » : « ومنهم السلطان الفاضل العادل ، المحدث الفقيه : مظفر حليم الكجراتي ، الذي روى عنه التاريخ من نوادر الإخلاص والإيمان ، والاحتساب والتقوى ، والعمل بالعزيمة ، والعدل والإيثار ، والحميَّة في الدين ، والتبحُّر في العلم، ما يندر وجوده في سير كبار الزهَّاد والربَّانيين وكبار المخلصين فضلًا عن الملوك والسلاطين » .

يقول مؤرِّخ « كجرات » : « لمَّا ساءت إدارة السلطان محمود الشاه الثاني – سلطان « مالوه » – عزله الوزير « مندل رائي » ، وعكف مندل على مَحْو الشعائر الإسلامية ، ونشْر الطقوس ؛ فثارت حفيظة وحميّة السلطان مظفر – وكان واليًا على كجرات – فزحف إلى « مالوه » بجيش عرمرم ، ووصل إلى باب « مالوه » بعد أن قطع مسافة طويلة ، وانتصر السلطان ، وفتح القلعة . ولما استعرض رُفْقتُه ما تركه ملوك « مالوه » من النعيم والخزائن والثروات الطائلة ، قالوا للسلطان : إن أكثر من ألفي فارس استُشهدوا في القتال ، فليس من المناسب أن نتخلَّى عن هذه البلاد بعد هذه الخسائر الجسيمة ، ونولِّي إمارتها للملك

الذي كان سببًا في إتلافها . فلمَّا سمع السلطان مظفر هذا الكلام توقَّف قليلًا ، ثم خرج من القلعة ، وأمر السلطان محمود بأن لا يسمع لأحدٍ من رفقته بالدخول في القلعة ، وقال : « إنه خشي من كلام الأمراء ، أن يدور بخلده طمع في القلعة ويُحبط عمله ، إنه لم يحسن إلى السلطان محمود ، بل إن محمودًا نفسه هو الذي أحسن إليه ، بأنه كان سببًا في نَيْل هذا الشرف العظيم »[(١)] .

قال السلطان حليم – في مرض وفاته ، تحديثًا بنعمة الله –: « ما من حديث رَويتُه عن أستاذي المسند العالي « مجد الدين » بروايته عن مشايخه ، إلّا وأحفظه ، وأُسنده ، وأعرف لراويه نِسْبَته ، وثقته ، وأوائل حاله إلى وفاته . وما من آيةٍ ، إلّا وقد منَّ الله عليَّ بحفظها ، وفَهْم تأويلها ، وأسباب نزولها ، وعِلْم قراءتها . وأمّا الفقه ، فإني أستحضر منه ما أرجو به مفهوم : « من يُرد الله به خيرًا ، يُفقِّهْهُ في الدين ». ولي مدَّة أشهر أصرف وقتي باستعمال ما عليه الصوفية ، وأشتغل بما سَنّه المشايخ لتزكية الأنفاس عملًا بما قيل: «مَن تشبَّه بقوم فهو منهم». وها أنا أطمع في شمول بركاتهم متعلِّلًا بعسى ولعل ، وكنتُ شرعت بقراءة معالم التنزيل، وقد قاربت إتمامه، إلّا أني أرجو أن أختمه في الجنة إن شاء الله تعالى».

وفاضت روحُه ، وهو يدعو بدعاء سيدنا يوسف – على نبينا وعليه الصلاة والسلام – : ﴿ **ربِّ قد آتيتني من المُلك وعلَّمتني من تأويلِ الأحاديث فاطِرَ السموات والأرضِ أنتَ وليي في الدنيا والآخرة توفَّني مُسْلمًا وألحقني بالصَّالحين** ﴾ [يوسف : ١٠١][(٢)] .

---

(١) القصة مبسوطة في تاريخ كجرات للآصفي المعروف بـ « ظفر الواله » ، وكذلك في نزهة الخواطر جـ٤ .

(٢) المسلمون في الهند لأبي الحسن الندوي صـ٥١ – ٥٣ .

دولةُ المغول المسلمة في الهند ٩٣٢ هـ - ١٢٧٤ هـ :

« العهد الذهبي للمسلمين في الهند » :

يمثِّل عهد المغول الفترة الذهبيّة لحُكْم المسلمين في الهند ، حيث امتدَّت العلوم والثقافة ، ومختلف مظاهر الحياة الإسلامية ، مع امتداد رقعة الدولة المسلمة ، واشتداد سلطانها وهيبتها ونفوذها .

بدأ حكم المغول في الهند حين زحف إليها .

ظهير الدين « محمد بابر »مؤسِّس الدولة المغولية المسلمة في الهند :

وهو الحفيد الرابع لتيمورلنك ؛ زحف من مدينة كابل في أفغانستان ، واحتلَّ دلهي التي كان يحكمها السلطان « إبراهيم اللودهي » ، وانتصر بجيش تعداده ١٢ ألف مقاتل من المغول ، على جيش إبراهيم اللودهي الذي كان تعداده مائة ألف ، ودخل دلهي فاتحًا ، في ١٥ رجب سنة ٩٣٢ هـ ، ونودي به مِلِكًا على الهند .

الملك العظيم الراشد : أورانك زيب عالمكير ؛ « لا نظيرَ له في علو الهمَّة وقوة الإرادة في ملوك العالم » :

حكم وهو في الأربعين من عمره ، ففتح البلاد ، ونشر الأمن والعدل . وامتدَّت دولة الإسلام من سفوح « همالايا » في الشمال ، حتى شواطئ البحر في أقصى الجنوب . ومع هذه الفتوحات العظيمة ، كان ينظرُ في كلّ شئون المُلك وقضايا الرعية بِمثْل عين العُقاب ، فأزال كلَّ آثار زندقة الملك « جلال الدين أكبر » ، وعدَّل الضرائب ، ومدَّ الطرق العظيمة ، وبنى المساجد في أنحاء الهند وجعل لها أئمـةً ومدرسين ، وأسَّس دورًا للعَجَزَة ، ومارستانات للمعتوهين ، ومستشفيات للمرضى ، ودوَّن الأحكام الشرعية والفتاوى في كتابٍ واحد يُسمَّى

اليوم : « الفتاوى العالمكيرية » واشتُهرت بـ « الفتاوى الهندية » ، وألغى امتيازات المُلْك ، وألّف كتابًا في الحديث فقد كان عالمًا ، وعكف على دراسة القرآن الكريم ، وكان يكتبه بخطِّه ويبيع المصاحف ليعيش بثمنها ، بعد أن زهدت نفسُه أموال المسلمين ، وكان يحافظ على صلاة الجماعة ولا يتركها ، والجمعة في المسجد الكبير ، وكان يصوم رمضان في كلِّ أحواله ويُقيم لياليه بالتراويح ، ويعتكف في العشر الأواخر ، ويداوم على الوضوء وعلى الأذكار ، ويمدُّ أهل الحرمين بالصلات ، وكان شديدًا في حَزْمه وعَزْمه ، بارعًا في فنون الحرب . وفي الإدارة والتنظيم .

حكم الهند خمسينَ سنة ، وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره . ومع أنَّ مفاتيح كنوز الهند كلَّها كانت بيده ، ولكنه عاش عيشة الزهد ؛ وكان يمرُّ عليه رمضان كلّه فلا يأكُل إلّا أرغفة من خُبْز الشعير ؛ من كَسْب يمينه ، لا من أموال الدولة .

فرحمةُ الله على الملك « أورانِك زيب عالمكير » ، تلميذ الشيخ أحمد السرهندي مجدِّد الألف الثاني بالهند ... رحمة الله على هذا الملك ، الذي توفّي سنة ١١١٨ هـ . تاركًا وراءه سيرة نهج فيها نَهْج الخلفاء الراشدين .

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه « المسلمون في الهند » (صـ ٥٠ - ٥١): « الذي يقرأ سيرة السلطان أورانك زيب عالمكير ، وما جمع من فضائل علمية وعملية ، ويقرأ تاريخه الحافل بجلائل الأعمال ، ويقرأ جهاده المتواصل الذي لم يُقطع ولم يتوقَّف يومًا واحدًا في خمسين سنة حَكَم فيها ، وفتوحاته العظيمة ، وإصلاحاته الكبيرة ، وتقشُّفه في الحياة ، وتحمُّله للشدائد ، واستقامته ، وصلابته ، ومغامراته في سنٍّ عالية ، تسعين سنة ، ولم يزل مرابطًا مناضلًا إلى آخر ساعاته ، ويقرأ نظام أوقاته ، ومحافظته على الفرائض والسُّنن ، مع إشرافه الدقيق على أوسع مملكة في عصره ، واشتغاله بالعبادات والعلم والمطالعة -

آمن بأنَّ هذا الرجل لا نظير له في علوِّ الهمّة وقوة الإرادة في ملوك العالم ، وأنه خُلِق من حديد ، وأنه من نوادر رجال العالم في جميع العصور ، وفي جميع الأجيال » .

لله درُّك يا « أُرَنْكْ زِيبُ » اهتدتْ — بك أُمَّةٌ فاخشـعْ لربِّك واسجدِ
كم شدتَ من دارٍ لعلمٍ نافعٍ — وأقمتَ من حصنٍ بها أو مسجدِ
وعلتْ مـآذنُهَا يشـقُّ نداؤهـا — « الله أكبـر » كـلَّ أُفْـق أرْبَـدِ
ورويتَ من عطشى فكم من تائهٍ — آويـتَ بـين ظـلالِها أو مُجْهَـدِ
ورفعـت بنيانـًا أعـزَّ وقلعـةً — للـدين تحرُسُهـا كبـودُ السُّهَّـدِ
خمسـون عامًا كـل عـام درَّةٌ — في المجد نادرةٌ وزهْوَةُ سؤددِ
يـا سـادسَ الخلفـاءِ رُشْـدُك آيـةٌ — للنـاس مُلْهِمَـةٌ ولهفـةُ مقتـدي

الحاكم العبقري : شيرشاه السوري ؛ فريد في العصور والأمصار :

قـال الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه « المسلمـون فـي الهنـد » صـ٥٠ : «الذي يقرأ سيرة الحاكم العبقري «شيرشاه السوري» (٩٥٢ هـ)، ويعرف مآثره في إدارة البلاد ورفاهيتها ، ومشاريعه العمرانيّة، الضخمة البديعة ، وقوانينه العادلة ، وتشريعاته الدقيقة وإنتاجه السريع الضخم ، ويعرف أنَّ كلّ ذلك قد تمَّ في خمس سنوات فقط – وهي المدّة التي حَكم فيها شيرشاه – وبعضه يعجزُ عنه الحكومات الكبيرة المنظمة ، في آجال طويلة . ولم يستطع كثير من الملوك والحكام الإنجليز – على كثرة الوسائل ، وتقدُّم المدنيَّة ، وحدوث الآلات – أن يأتوا ببعض ما أتى به هذا الملك العصامي في عصرٍ مختلفٍ في الصناعة والمدنيَّة – يُبْهر بعظمة هذا الرجل ، ويؤمن بعبقريَّته ، ويصدِّق أن هذا الرجل فريدٌ في العصور والأمصار ، ويستحقُّ أن يُوضع في صفِّ أعاظم الرجال في العالم » .

ويقول عنه في صـ٢٥ – ٢٦ : « أنشأ شيرشاه السوري الشارع الطويل

« سنار كاؤن » إلى ماء « نيلاب » ، مساحته اثنتان وثلاثون وثمانمائة وأربعة آلاف (٤٨٣٢ كم) ، وأسَّس في كلِّ ثلاثة كيلو مترات رباطًا ، ورتَّب هناك مائدتين ؛ مائدة للمسلمين ، ومائدة للهنادك . وأسَّس مسجدًا على كلّ ثلاثة كيلو مترات ، ووظَّف مؤذِّنًا ومقرئًا وإمامًا في كلِّ مسجد ، وعيَّن في كلّ رباطٍ فرسين للبريد ؛ فكان يُرفع إليه أخبار « نيلاب » إلى أقصى بلاد « بنغال » كلّ يوم ، وغرس الأشجار المثمرة بجانبي الشارع ؛ ليستظلَّ بها المسافر ويأكُل منها » .

السلطان فتح علي خان « سلطان تيبو » ؛ يسْتشهد في قتاله ضدَّ الإنجليز قائلًا : « يومٌ من حياة الأسد ، خيرٌ من مائة سنةٍ من حياة ابن آوَى » :

قبل أنْ يتغلغل الإنجليز في الهند ، كانت العزَّةُ كلُّ العزَّةِ للمسلمين في الهند ؛ حتى إنَّ مبعوث ملك إنجلترا « جيمس الأول » ظلَّ أكثر من سنتين في الهند يحاول مقابلة الإمبراطور « جهانكير » ، فلم يظفر بما أراد ، فالتمس أن يأخذَ رسالةً منه يحملها إلى ملك إنجلترا ، فردَّ عليه الوزير الأول في البلاط الملكي : « إن مما لا يُناسب مكانة ملِكٍ مغولي مسلم ، أن يكتبَ رسالة إلى سيِّد جزيرةٍ صغيرة يسكُنها صيَّادون مسلمون »[1] . هكذا يُردُّ على الصَّلف الإنجليزي ...

وبعد ذلك غفل المسلمون في الهند ، واحتلَّ الإنجليز الهند ، وانتبه المسلمون لهذا الخطر ، وكان أوَّل من تنبَّه له الملِك الهمام « فتح علي خان » المشهور بـ «سلطان تيبو»؛ فبدأ يحاربُ الإنجليز حربًا لا هوادة فيها سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٩م، فحارب الإنجليز بكلِّ ما يملك من رجال وعتاد وقوة ، وحرَّض أمراء مختلف مناطق الهند ، وحاول الاتصال بالسلطان سليم العثماني وملوك المسلمين ، وراسلهم .

---

(١) الدعوة الإسلامية وتطورها في الهند . للدكتور محيي الدين الألوائي صـ٣٦ .

وكاد ينهار كلُّ ما بناه الإنجليز في الهند ، لولا أنهم نجحوا بمكْرهم بضمِّ أمراءِ الهند - في جنوب البلاد - إليهم ، فتغيَّر ميزانُ المعركة ، وسقط الملك المسلم المجاهد البطل صريعًا في المعركة يوم ٤ مايو سنة ١٧٩٩ م وآثر الموت في ساحة القتال على الأسْر في يد الإنجليز ، وقال كلمته المشهورة : « يومٌ من حياة الأسد ، خيرٌ من مائة سنة من حياة ابن آوَىٰ » . ولما بلغ القائد البريطاني نبأ مصرع السلطان تيبو ، حضر ووقف على جثمانه ، وقال : اليوم الهند لنا . ولقد كتب غاندي مقالةً في صحيفة « الهند الفتاة » عن عظمة هذا السلطان وصدقه ، وقال في جملة ما قال : لا نعرف أعظم منه في شهداء الوطن والأمة .

« ولم تعرف الهند في تاريخها الطويل ، قائدًا أعلى همَّةً ، وأبعدَ نظرًا ، وأشدَّ عداءً للإنجليز من « تيبو سلطان » ، ولم يكن في الهند شخصية أبغض لقلوب الإنجليز منه . حتى إنهم كانوا يسمُّون كلابَهم باسمه شفاءً لحقدهم الأسود ، وإهانةً لرمزٍ من رموز الجهاد الإسلامي »[1] .

سلطان تيبو ما أجلَّ وفاءَه ... وأعزَّ وَثْبَتَهُ وأطهرَ مقصدِ
نهضت جموعُ المسلمين لجولةٍ ... لله تدفع كلَّ عَزْمٍ منجدِ
كلٌّ يقول لنفسه إن راعها ... خطرٌ سبيلُ اللهِ أبلجُ فاشْهدي
وأبى الإسارَ وشدَّ في حَمَلَاتِه ... تيبو وقال لنفسه هيَّا رِدِي
يومٌ مِنَ الأسدِ الهزبرِ أعزُّ مِنْ ... عُمرِ الثعالبِ أو حياةِ الأسْوَدِ[2]
لله درُّك إذ حملتَ مع الرَّدى ... نفسًا تعزُّ وهمَّةً لم تَقْعُدِ[3]

(١) المسلمون في الهند لأبي الحسن الندوي صـ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) الأسْوَد : الحيَّة العظيمة .
(٣) ملحمة الإسلام في الهند صـ١١٧ .

جهاد السلطان « سراج الدين بهادرشاه » للإنجليز ، ونفيه إلى رانجون :

لما قاوم الشعب الهندي المسلم الإنجليز؛ كان الملك المغولي «سراج الدين بهادر شاه» قائد الجهاد ورمزه، وأدار الإنجليز مذابح فاقت مذابح جنكيز خان وهولاكو ، وقتلوا أبناء الملك بهادر ، وشنقوا ثلاثة وعشرين من أبناء الأسرة المالكة ، ونَفَوا الملك بهادر مع مَن بقي من أهله وحاشيته إلى رانجون ... وأداروا المجازر ؛ منها مجزرةٌ استمرت سبعة أيام ، شُنِق خلالها سبعة وعشرون ألف مسلم ...

رانجون أصبحتِ العرين فأبشري ... أسَدٌ على ميدانه لم يُصْفَدِ
حملوا إليكِ الليثَ من غاباتِه ... وأتوكِ بالبطل الأعزِّ الأمجدِ
يا عزَّ مأسورٍ وذلَّةَ آسرٍ ... شتانَ بين مجاهدٍ أو معتدِ
أبهادرٌ أنَّى حللتَ فعزَّةٌ ... حلَّت هناك وطلعةٌ من فرقدِ
منفى الأبيِّ عُلًا ومَغْنًى زَاهِرٌ ... وذُرا الجبانِ وِهادُ سِجْنٍ موصَدِ

صدِّيق حسن خان : العالم الأثري ملك « بهوبال » :

تزوَّج الشيخ صدِّيق حسن خان بالملكة « شاهجهان بيجم » ملكة « بهوبال » ، وأصبح ملكًا لبهوبال ، ولم يشغلْه المُلْكُ عن تحصيل العلم ونشره ؛ فلقد ألَّف ولدُه محمد علي حسن كتابًا عن حياة أبيه باللغة الأردية سماه « مآثر صدِّيقي » في ستة أجزاء ، ذكر فيها عن مصنفاته التي بلغ عددها مائتي كتاب وأربعة ، تشكِّل الكُتب العربية منها ٥٤ ، والفارسية ٤٢ ، والأردية ١٠٧ . ومِن ضِمْنها كتاب : « رحلة الصديق إلى البيت العتيق » يذكُر فيه الشيخ رحلته بالسفينة الشراعية من « بومباي » إلى « جدَّة » للحجّ ، استغرق سفره ثمانية أشهر ، من يوم أن غادر بلده إلى أن عاد إليها .

وقد لقي في هذه الرحلة من المشاقِّ الكثير بما يصفه بقوله : ضاقت علينا

الأرض بما رحُبت من طول الركوب ، ومخالفة الهواء ، وقلة المطعوم والمشروب ، حتى قنعت في اليوم والليلة بجرعة من الماء ، ولقيمات من الأرز الذي لم يخالطه شيء من السمن والإدام . وبلغت الأنفس التراقي في تلك الأيام ، وكانت الأيدي إلى السماء مرفوعة ، والأعين والآذان .

ويحكي في رحلته ما يُبين علوَّ همَّته ، فيقول : كتبتُ بيدي في المركب كتاب « الصارم المُنكي على نحْر ابن السُّبكي » للحافظ ابن قدامة المقدسي ، في مجلَّد وسط ، ولم أُضيِّع زمن ركوبي البحر عبثًا .

ويقول عن نزوله « الحديدة » باليمن - أثناء الرحلة -: وأقمتُ هنا اثني عشر يومًا ، أُراجع كتب الحديث ، وأكتُبُها بيدي ما أستطيع ، ولم أذهب إلى المساجد إلّا للصَّلوات الخمس لكثرة اشتغالي بطلب العِلْم . وفي أيام الإقامة بهذه البلدة أهديتُ نُسَخًا من كتابي «الحطة في ذِكْر الصحاح السِّتّة» لعلمائها وأهل العلم المقيمين بـ « المرادعة » و « بيت الفقيه » وغيرهما ، وكلُّهم استحسنوها ، ودعوا لمؤلفها. وقال لي الشيخ علي بن عبد الله- شارح البخاري- حين لاقاني : وجود مثلكم في هذا الزمان : من نِعم الله تعالى ، لو كانوا يعقلون . واستعرتُ رسائل السيد محمد الأمير - حين الرحيل من حديدة - لأجْل النظر والنقل ؛ فمنها ما نظرتُ فيها واستفدت ، ومنها ما نقلتُ واستنسختُ .

وقال أيضًا عن رحلته : ولم نترك الاشتغال بالعلم في هذه الفرصة القليلة - أعني أواخر ذي القعدة - بل حصَّلنا فيها بعض الكتب والفوائد . ويقول أيضًا : « ومن غاية الشغف بعلوم السُّنَّة ، لم أترك كتابة العلم بعرفة ومنى في أيام إقامتها ، لكن في غير أوقات المناسك .... وقد شاهدتُ في سفري هذا عجائب ، ورأيت فيه عدَّة مصائب ، واخترت الناس ، وميَّزتُ السفهاء من الأكياس ، ووقفتُ على رسوم القوم وبِدَعِهم ومحدثاتهم ، وانهماكهم في تحسين

الملابس والمطاعم والمناكح والمساكن ، وقصْر هممهم على ذلك ، وعدم رفْع رؤوسهم إلى السُّنن وما مات منها ، وضعف الإسلام ؛ وهذا شَينٌ لأهل الدين ، لا سيَّما لأهل مكة والمدينة ، الذين هم في خير بقاع الأرض ، وهم قدوة المسلمين ، خصوصًا الأئمة منهم ؛ وقد رأيتُ منهم الإسراف المنهيَّ عنه ؛ في طول الذيول والثياب وغيرها ، حتى رأيتُ العمائم كالأبراج ، والكمائم كالأخراج ، وبِدَعًا لا تُحصى ، ومحدثات لا تُستقصى . فرحم الله امرأ اجتنب عن ذلك ، وصان نفسه عما هنالك ، ونهى القوم عنِ هذه المناهي والمنكرات ، وجمعهم على التمسُّك بالسنة والكتاب ، وذكر مقامه ومقامهم بين يدي ربِّ الأرباب ، وخاف الله في كل ما يأتي به ويذر ؛ في الحضَر والسفر ، والحياة والممات ، وكل الأحوال »[١] .

لله درُّه من ملِك ..وما أطيب مؤلفاته؛ « فتْح البيان » و « الدين الخالص » و « العبرة بما جاء في الغزو والشهادة والهجرة » ، و « الجنة في الأسوة الحسنة بالسُّنَّة » ، و « يقظة أولي الاعتبار بما ورد في ذكْر أصحاب النار » ، و « الإذاعةُ لِمَا كان وما يكون بين يدي الساعة » ، و « الروضة النديّة شرح الدُّرر البهيّة للشوكاني » و « فتْح العَلّام شرح بلوغ المرام لابن حجر » ، و «حصول المأمول من عِلْم الأصول » ، و « الغنة ببشارة أهل الجنة » ، و « قطْف الثَّمر في بيان عقيدة أهل الأثر » ، و « تخريج الوصايا من خبايا الزوايا » ، و « قصْدُ السبيل إلى ذمِّ الكلام والتأويل »[٢] ، وغيرها وغيرها ....

---

(١) انتهى ملخصًا من كتاب « رحلة الصديق إلى البيت العتيق » لصدِّيق حسن خان من صـ١٦٦ - ١٧٦، طبع دار ابن القيم .

(٢) مقدمة « تخريج الوصايا من خبايا الزوايا » لصديق حسن خان ، تحقيق عبد الله الليثي صـ١٢ - ١٥ ، طبع مؤسسة الكتب الثقافية .

يا هندُ يا سِحْرَ الجمالِ تحدَّثي فالكونُ بين مُرجِّعٍ ومردِّدِ
نُثرت عليك من الجواهر أُمَّة أفلاذُ أكبادٍ وصفوةُ مَحْتدِ
ولديك أغلى الدُّرِّ عندك جوهر التَّـوْحيد شوق المؤمنِ المتعبِّدِ
من عطَّر الساحات فيك ومن روى تلك المرابع بالدمِ المتجدِّدِ
أسمعتَ وشوشةَ الزهورِ وهمسَها ورفيفَ أطيارٍ وطلعةَ فرْقدِ
كُلٌّ يقولُ أجلُّ ما حملتْ لنا الـدُّنيا رِسالةَ مؤْمنٍ مُتهجِّدِ
المؤمنون على الزمانِ تواصلوا مدَدًا وجاءوا بالهوى المتفرِّدِ
نَسَبٌ أبرّ على الزمان ولُحمةٌ موصولةٌ وعزيمةٌ لم تقْعُدِ
غرسوا بها أحلى الورودِ وفوّحت منها الدنا وزهت بحُسْنٍ مُخْلَدِ

ومِن تركيا خلفاء وملوك ، غيَّروا وجه التاريخ :

بأحرفٍ من نور .. وبعلوِّ همّةٍ لا تُبارى ، سجَّل الخلفاء والملوك العثمانيون مآثرهم ... وقد مرَّ بنا علوُّ همَّة السلطان محمد الفاتح ... الذي لو لم يكن له إلّا فَتْح القسطنطينية ؛ لكفاه علو همّة له وللعثمانيين .

وهذه صفحة مختصرة أخرى لسلطانيْن عظيمين :

السلطان المجاهد مراد بن أورخان ؛ يعدم ابنه «ساوجي» لما تحالف مع الكافرين :

لله درّه ، حين تسقط في عهده مدينة « صوفيا » عاصمة بلغاريا ، ويُروِّع بطلُنا البيزنطيين الأرثوذكس وحلفاءهم الأوربيين الكاثوليك ، وعلى رأسهم بابا روما . وحينما انتهز الأمير « إيمانوئيل » – ابن الإمبراطور البيزنطي « يوانيس الخامس » – فرصة ابتعاد الجيش الإسلامي عن مدينة « سيروز » فهاجمها واستولى عليها ، فسيَّر السلطان « مراد » جيشًا بقيادة « خير الدين باشا » ، تمكَّن من استعادة المدينة ، وفرَّ إيمانوئيل والتجأ إلى أبيه الإمبراطور ، الذي بلغ من شدَّة خوفه من غضب

السلطان أن طرد ابنه ، ورفض استقباله ، فلم يجد إيمانوئيل حلًّا أفضل من تسليم نفسه للسلطان مراد .

وحينما تآمر الأمير « ساوجي » – الابن الأصغر للسلطان مراد – واشترك مع الأمير « أندرونيقوس » – الابن الثاني للإمبراطور يوانيس الخامس – في قتال المسلمين ؛ سار السلطان مراد على رأس جيشه لملاقاتهم قريبًا من القسطنطينية ، وفرَّ الجيش المتآمر ، واستسلم ساوجي في مدينة « ديموقة » ، وحاكمه العلماء والقضاة ، فحكموا عليه بالموت جزاءَ خروجه على طاعة وليّ الأمر ، وموالاته للكافرين ، ومشاركته الفعلية لهم في حرب المسلمين . ونفَّذ السلطان مراد حكم الإسلام في ولده ، برغم محاولات بعض قادته أن يعفو عنه ويكتفي بنفيه .

هزيمة الصليبيين في « مارتيزا » ودفْعهم جزية سنوية :

ذهب إمبراطور القسطنطينية إلى البابا يستنجد به ، وركع أمامه ، وقبَّل يديه ورجليه ، ورجاه الدَّعْم ، رغم الخلاف المذهبي بينهما ، ولبى البابا النداء ، وكتب إلى ملوك أوربا عامة ؛ لخوض حرب صليبية حفاظًا على النصرانية . وتجمَّع ملك الصرب « أوروك الخامس » وجيشه وجيوش أمراء البوسنة والأفلاق « جنوبي رومانيا » وأعداد من فرسان المجر المرتزقة ، وسار الجميع نحو « أدرنة » حاضرة العثمانيين ، واصطدم الجيش العثماني بهم على نهر « مارتيزا » ، فهزمهم هزيمةً منكرة ، وولوا الأدبار ، واضطرت إمارة « راجوزة » إلى دفْع جزية سنوية : ٥٠٠ دوكًا ذهبًا ، واضطرَّ ملك الصرب الجديد « لازار » ، وأمير البلغار « سيسمان » لدفْع جزية سنوية للسلطان .

في ٧٩١ هـ – ١٣٨٩ م ؛ يفتح الله على السلطان مراد جميع الأراضي البلغارية :

في عام ٧٩١ هـ واجه السلطان مراد خطرًا داهمًا ، حين نقَض ملك الصرب

لازار وملك البلغار شيمان ، المعاهدة التي كانا قد عقداها مع السلطان مراد ، لكن السلطان سارع بمباغتة الملك شيمان في عقر داره ، ففتح الله عليه جميع الأراضي البلغارية ، ووقع الملك شيمان أسيرًا .

ويؤدِّب لازار ملك الصرب وأمراءَ البوسنة والهرسك ، في معركة « قوصوة » :

حين علم ملك الصرب لازار بما وقع لحليفه ، سارع إلى الاستنجاد بجيرانه أمراءِ البوسنة والهرسك ، وأولاح ، وبعض أمراء الأرناؤوط ، فتجمَّعت لديه قوات كبيرة ، سار بها لملاقاة المسلمين في « قوصوة » .

وجمع السلطان المجاهد مراد قادة جيشه ؛ لدراسة الموقف ، وأشار ابنه الأمير « بايزيد » - ومعه جماعة - بضرورة الانسحاب ، وتجنّب الدخول مع لازار وحلفائه في معركة ، ولكن السلطان مراد أصرَّ على ملاقاة لازار ، وطَفِقَ يتلو بعض آيات القرآن الكريم ، التي تحضُّ على قتال الكفار ، وتبشِّر المؤمنين بنصر الله ؛ فاطمأنتْ قلوبُ المتردِّدين .

وكانت الليلة التي سبقت وقوع معركة « قوصوة » الحاسمة ، ليلة بلغت فيها القلوب الحناجر ، وأقبل السلطان مراد نحو ربِّه عز وجل يُلحُّ عليه في الدعاء ، ويستنزله النصر للإسلام والمسلمين ، وأن يرزقه الشهادة في سبيله .

يا دعاة القومية العربية المُهلهلة ، هؤلاء هم العثمانيون :

ينقُل المؤرِّخ التركي « عبد القادر داده أوغلو » في كتابه « التاريخ العثماني المُصوَّر » ، نصَّ دعاء السلطان مراد ، في تلك الليلة على النحو التالي : « إلهي ومولاي ، تقبَّل دعائي وتضرُّعي ، وأنزل علينا برحمتك غيثًا يُطفئ من حولنا غبارَ العواصف ، واغمرنا بضياءٍ يبدِّد من حولنا ظلمات الليل البهيم ، حتى نتمكَّن من إبصار مواقع عدوِّنا ، فنقاتله في الغد في سبيل دينك العزيز .

إلهي ومولاي ، إن المُلْك والقوَّة لك ، تمنحُهما لمن تشاء من عبادك ، وأنا عبدُك العاجز الفقير إلى رحمتك ، تعلم سرِّي وجهري ، وأُقسمُ بعزَّتك وجلالك أنني لا أبتغي من جهادي حُطام الدنيا الفانية ، ولكنني أبتغي رضاك ، ولا شيء غير رضاك .

يا رب اجعلني فداءً للمسلمين جميعًا ، ولا تجعلني سببًا في هلاك أحدٍ من المسلمين في سبيل غير سبيلك القويم ، ونجِّهم يا رب من الوقوع في أسْر الكافرين ، وانصرهم على عدوِّهم .

إلهي ومولاي ، إنْ كان في استشهادي نجاة لجند المسلمين ، فلا تحرمني الشهادة في سبيلك لأنعم بجوارك ، ونعم الجوارُ جوارُك .

إلهي ومولاي ، لقد شرّفتني بأن هديتني إلى طريق الجهاد في سبيلك ، فزدني تشريفًا بالموت في سبيلك » .

ويروي المؤرخ التركي « خوجا سعد الدين » في كتابه « تاريخ التواريخ » ، أن السلطان المؤمن ، أمضى الليل كلَّه وهو يدعو بمثل هذا الدعاء ، حتى إذا بزغ الفجر ، وأذَّن المؤذِّن لصلاة الفجر ، هرع جند الإسلام يؤدُّونها ، ويردِّدون وراء قائدهم الدعاء في هديرٍ شقَّ سكون الليل ، ووصلت أصداؤه إلى جموع الكافرين ، تُزلزل أقدامهم ، وتُوقِعُ الخوف في أفئدتهم .

وصدق السلطان المؤمن ربَّه ، فصدقه ربُّه وعده ؛ فنصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده - وقُتِل لازار - واختاره الله شهيدًا في سبيله عز وجل ، بضربة خنجرٍ من جنديٍّ صربيٍّ ، أصابت من السلطان مقتلًا وهو يتفقَّد جرحى المسلمين بعد المعركة .

بوركتِ يا روح مراد بن أورخان في رحاب الله ورضوانه، مع النبيين والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقا[١] .

---

(١) مواقف بطولية من صنع الإسلام ، لزياد أبو غنيمة صـ٨٤ - ٩٠ .

بايزيد الصاعقة « يلدرم » :

لن ينسى التاريخ « بايزيد » الأول ، الذي كان دائم الجهاد ، ينتقل من أوربا إلى الأناضـول ، ثم يعود مسرعًا إلى أوربا يحقق فيها نصـرًا جـديدًا ، أو تنظيمًا حديثًا ، حتى لُقِّب باسم « يلدرم » أي : الصاعقة . نظرًا لتلك الحركة السريعة ، والانقضاض المفاجئ .

يدفع له « اصطفان بن لازار » ملك الصرب جزية سنوية ، ويفتح مدينة « الأشهر » آخر مدينة للروم في غرب الأناضول ، ويضم إمارة « آيدين » بدون قتال إلى العثمـانيين ، ويُضيِّق الحصار والخناق على القسطنطينية ، ويُجـبر حـاكم « الأفلاق » على توقيع معاهدة يعترف فيها بسيادة العثمانيين على بلاده ، ويدفع جزية سنويًا . ويسير السلطان بايزيد إلى بلاد البلغار ، ويجعلها ولاية عثمانية .

ويلتقي بالجيوش الصليبية التي دعاها البابا لحرب صليبية ؛ جيش « دوق » بورغونيا وأمراء النمسا ، و « بافاريا » جنوبي ألمانيا ، وفرسان القديس يوحنا . وينتصر العثمانيون في ٢٣ ذي القعدة سنة ٧٩٨ ، وأُسِر دوق بورغونيا وعدد من الأمراء ، وفدى الدوق نفسه بمبلغ ضخمٍ من المال .

وبعد هذا الانتصار ، عقَد السلطان بايزيد صلحًا مع الإمبراطور البيزنطي ؛ فكَّ بموجبه الحصار على القسطنطينية ، مقابل دفْع ما يُعادل عشرة آلاف دينار ذهبي ، والسماح للمسلمين ببناء مسجد في القسطنطينية(١) .

السلطان مـراد الثاني – والد السلطان محمد الفاتح – يحكـم وعمره ثماني عشرة سنة :

ولد رحمه الله عام ٨٠٦ ، وتولَّى أمر السلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤ هـ ، وكان عمـره لا يزيد عن ثماني عشرة سنة، وكان همُّه قبل كلّ شيءٍ مصروفًا

---

(١) التاريخ الإسلامي ٧١/٨ – ٧٣ .

إلى إعادة الإمارات في الأناضول إلى حظيرة الدولة العثمانية بعد أن شتَّتها تيمورلنك ؛ فأعاد إمارات آيدين ، ومنشا ، وصاروخان ، والكرميان .

ثم تفرَّغ بعد ذلك لملوك أوربا ، فبدأ بقتال ملك المجر ، وعقد معه معاهدةً تنازل فيها للسلطان عن أملاكه ، التي تقع على الضفَّة اليمنى لنهر الدانوب ، وعقد أمير الصرب « جورج برنكوفتش » معاهدة مع السلطان ، تقضي بدفع جزية سنوية قدرها خمسون ألف دوك ذهبي . واستعاد مدينة « سلانيك » عام ٨٣٣ من البندقية بعد حصار خمسة عشر يومًا ، واعترف أمير الأفلاق بسيادة العثمانيين على بلاده عام ٨٣٦ ، وخضعت له « ألباد » بعد حروب بسيطة .

وتنادى ملوك النصارى لشنِّ حملة صليبية جديدة ، فجمعوا جموعهم من مجريين وبولنديين وفرنسيين وألمان وبنادقة وجنْويِّين ، وهاجموا بلاد البلغار . فقاد السلطان جيشه ، واتَّجه إلى أوربا ، وسار نحو الأعداء ، فوجدهم يحاصرون مدينة « فارنا » البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود ، فنازلهم ، وقُتِل ملك المجر في ساحة المعركة فاختلَّ ترابط الجند ، وهاجم السلطان معسكر الأعداء واحتلَّه ، وقتل الكاردينال « سيزاريني » مندوب البابا ، وتمَّ النصر للمسلمين في ٢٨ رجب عام ٨٤٨ هـ .

وأراد جيش المجَر مرة ثانية أن يثأر لهزيمته في معركة فارنا ، فالتقى مع السلطان وجيشه في وادي ، « كوسوفو » ، وانتصر السلطان على جيش المجر نصرًا مؤزَّرًا عام ٨٥٢[1] هـ . فللَّه درُّه من ولد ، ولله درُّ ولده محمد الفاتح فاتح القسطنطينية .

وهل ينبتُ الخطيَّ إلَّا وشيجُه ويُزرعُ إلَّا في منابِتِه النخلُ

(١) التاريخ الإسلامي ٨/٨٠ - ٨٦ .

السلطان الغازي سليمان القانوني ؛ فاتح بلغراد ورودس وفاتح بلاد المجرد :

لله درُّه وهو يكتب لفرنسيس « فرانسوا الأول » ملك فرنسا ، لمَّا استنجد به لمحاربة « شارلكان » ملك أسبانيا ، قال له : « إن آبائي الكرام وأجدادي العظام ، نوَّر الله مراقدهم ، لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد ، وردِّ العدو . ونحن أيضًا سالكون على طريقهم ، وفي كلِّ وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة ، وخيولنا ليلًا ونهارًا مسروجة ، وسيوفنا مسلولة »(١) .

فتْح بلغراد في ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧ هـ - ٢٩ أغسطس سنة ١٥٢١م :

أرسل السلطان « سليمان » سفيرًا إلى ملك المجر « لويز الثاني » ، يطلب منه دفْع الجزية أو الحرب ، فما كان من ملك المجر إلَّا أن أمر بإعدام السفير ، فأمر السلطان سليمان بتجهيز الجيوش ، وجمع كل ما تتطلبه من الذخائر والمؤن ، وسار هو بنفسه في مقدِّمة الجيش، وحاصر بلغراد، وضيَّق عليها الخناق، ودافع المجريون عن مدينتهم دفاعًا مجيدًا ، غير أن جند المسلمين تمكَّنوا من اقتحامها يوم ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧ هـ ، وأخلى الجند المجريون قلعتها ، ودخلها السلطان ، وصلَّى الجمعة في إحدى كنائسها التي حُوِّلت فورًا إلى مسجد ، وصارت هذه المدينة أكبر مساعد للجيش العثماني على فتح ما وراء الدانوب من الأقاليم والبلدان .

وفي ٢٥ ذي القعدة سنة ٩٣٢ هـ ،وفي وادي « موهاج »أو « موهاكس » ، التقى السلطان سليمان وجيشه البالغ مائة ألف جندي وثلثمائة مدفع وثمانمائة سفينة ، بجيش المجر وملكه « لويس » وانطلقت المدافع العثمانية تصبُّ نيرانها ، وتُوقِع الرعب في قلوب جند المجر ، وأباد الفرسان العثمانيون معظم القوات المجرية ،

---

(١) القانوني القائد لبسام العسيلي صـ١٨٨ - طبع دار النفائس .

وقُتِل ملكهم لويس ، وأرسل أهالي عاصمة المجر « بودا »[١] مفاتيح المدينة إلى السلطان، فاستلمها، ودخلها يوم ٣ ذي الحجة وحوَّل كنيسة «ماتياس»[٢] إلى مسجد .

ويضرب حصارًا بربع مليون جندي حول فيينَّا عاصمة النمسا، ودفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون :

وصل السلطان سليمان بجيشه إلى أبواب «فيينا» عاصمة النمسا ؛ لتأديب أهلها وملكهم « فرديناند » ، وضربوا حصارًا حولها ، وسلَّطوا عليها مدافعهم في ١٧ صفر سنة ٩٣٧ هـ ، حتى ثلموا أسوارها ، وهدموا أجزاءً منها . وعاد إليها مرة ثانية سنة ٩٣٩ هـ ، وأرسلوا يطلبون الصلح ، ورفض السلطان سليمان الصلح ، غير أنه وافق على هدنة مؤقَّتة حتى تُسلَّم إليه مفاتيح مدينة « كران» ، ووافق ملك النمسا ، ووافق أيضًا ملك النمسا على التسليم بما فتحه العثمانيون من بلاد المجر ، وكذلك على عدم شرعيّة ما تتَّفق عليه النمسا مع « زابولي » ملك المجر – الذي عيَّنه السلطان سليمان – إلا بعد تصديق جلالة السلطان العثماني عليه والحصول على موافقته . وكانت هذه المعاهدة في ٢٨ ذي القعدة سنة ٩٣٩ هـ . وفي الأول من جمادى الأولى سنة ٩٥٤ هـ ، ١٩ يونيو سنة ١٥٤٧ م وقَّع فرديناند ملك النمسا هدنة مدتها خمس سنوات مع السلطان سليمان ، وذلك بشرط أن يدفع فرديناند للدولة العثمانية جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دوكٍ – استمرت النمسا تدفع هذه الجزية إلى الدولة العلية إلى سنة ١٦٩٩ م – وأن تبقى بلاد المجر تحت رعاية الدولة العلية .

---

(١) تقع بودا على الشاطئ الأيمن من نهر الدانوب ، وعلى الشاطئ الأيسر مدينة بست ، وانضمَّت المدينتان سنة ١٨٧٣ م ، فأصبحتا مدينةً واحدة ، هي عاصمة المجر اليوم « بودابست » .

(٢) تُسمَّى كنيسة التتويج ؛ لأن الملوك كان يُتوَّجون فيها .

فتْح جزيرة رودس ، وطَرْد فرسان « الأسبتارية » منها ، في صفر سنة ٩٢٩ هـ :

كان يسكنها فرسان الأسبتارية ، إحدى التنظيمات الصليبية الثلاث ؛ فرسان التبوتون « ألمان » ، وفرسان الداوية ، وفرسان الأسبتارية . وهذه الأخيرة كانت قد انتقلت إلى قبرص بعد الخروج من عكا سنة ١٢٩١ ، ثم انتقلت إلى رودس سنة ١٣٠٨ ، واعتبارًا من هذا التاريخ ، قاموا بالتحريض على الاستمرار في الحروب الصليبية ، واشتركوا في كل عمل مضادٍ للمسلمين . وعندما ظهرت الدولة العثمانية ، أخذ هؤلاء الفرسان على عاتقهم توجيه الحرب ضد المسلمين في البر والبحر ، وقد حاول الخلفاء العثمانيون – ومنهم السلطان محمد الفاتح – الاستيلاء عليها وفتحها ، إلّا أنهم فشلوا في ذلك .

وأصدر السلطان أمره إلى أسطوله بالتوجّه إلى رودس ، وسافر هو عن طريق البر إلى خليج « مارماريس » المقابل للجزيرة من جهة آسيا ، وبمجرّد وصول السلطان إليها ، ابتدأ الحصار بغاية الشدَّة ، ودافعت الحامية عن الجزيرة ، خصوصًا الرهبان الفرسان ، وقيل : إن النساء كانت تُساعد الرجال في الدفاع ؛ بإلقاء الحجارة على المُحاصِرين ، وصبِّ الزيوت الحارة على رؤوسهم . غير أن ذلك كلَّه لم يُجْدِ نفعًا أمام المدافع العثمانية، ودخلت القوَّات العثمانية إلى جزيرة رودس، بعد انتقال الصليبيين عنها إلى مالطة ، وتسليم الجزيرة من مقدِّم طائفة الفرسان الرهبان « فيليه دوليسل آدم » إلى العثمانين .

تطوُّر القُـدْرة البحريّة في عهده ، على يد أمير البحر خير الـدين بربـروس ، واتخاذه من « نيس » بفرنسا قاعدةً له :

وفي عهد سليمان القانوني حقَّقت البحرية انتصاراتها ، وتعاظمت على حساب الصليبيين من بنادقة وجنويين وأسبان وبرتغاليين ، واستمرّ « خير الدين » وقوته في أسْر مراكب النصارى التجارية ، وأخْذ كافة ما بها من السِّلع النفيسة والبضائع الثمينة ، وبيْع ركّابها وبحّارتها رقيقًا وعبيدًا ، وذلك انتقامًا مما كان يفعله هؤلاء

بالمسلمين إن هم تمكّنوا منهم .

واستمر خير الدين في غزو مراكب الإفرنج ، والنزول على بعض شواطئ إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ، وأَخْذ كل ما تصل إليه يدُه من أموال وأهالي .

وحاصر خير الدين « كورفو » بكلّ قطع الأسطول العثماني الذي ضمَّ ألف سفينة، وفَتَح أغلب جزائر الروم ، وغزا جزيرة « كريت » اليونانية ، وغزا سواحل جزيرة « صقلية » واشتركت معه البحرية الفرنسية تحت قيادته ؛ للعمل المشترك ضدَّ ملك أسبانيا شارلكان ، وتمكَّنت السُّفن العثمانية والفرنسية تحت قيادة « بربروس » من محاصرة « نيس » وفتحها عَنوة في ٢١ جمادى الأول سنة ٩٥٠ هـ ، وأُذن لخير الدين وأسطوله بقضاء فصل الشتاء في مدينة « طولون » بفرنسا ، وأُعطي له ثمانمائة ألف ريال فرنسي للصرف على جنوده . وجعل خير الدين من طولون قاعدةً للجيش الإسلامي والأسطول الإسلامي ، بعد أن غادرها سكّانها بأمر ملك فرنسا حتى سنة ١٥٤٤ م ، ٩٥١ هـ .

وفي عهد سليمان القانوني ، اضطرّت « البندقية » إلى طلب الصلح معه ، بعد أن حوَّل جهده لمحاربتها ، وتنازلت البندقية للدولة العثمانية عن « ملفوازي » و « نابلولي دي رومانيا » من بلاد المورة سنة ١٥٣٨ م .

وفي عهده هزم الجيش العثماني جيشًا ألمانيًّا ، كان شارلكان قد أرسله بقيادة أشهر قادته في ٢ ديسمبر سنة ١٥٣٧ .

وفي سنة ١٥٤١ م دخل السلطان بلاد المجر ، وجعل بلاد المجر ولاية عثمانية .

وأرسل السلطان سليمان أوامره لسليمان باشا والي مصر ، بتوجيه أسطول بحري من ثغر السويس ؛ لمحاربة البرتغاليين ، وإخراجهم من « بحيث » وعدن وبلاد اليمن ، وتحصين هذه المناطق حتى لا تستولي عليها البرتغال أو أيّة دولة

أوربية ، وأسرع سليمان باشا فنظَّم أُسطولًا ضخمًا من سبعين سفينة ، وسلَّحه بالمدافع الضخمة ، وسار به في يونيو سنة ١٥٣٨ م ، ومعه عشرين ألف جندي ، وفتح مدائن عدن ، ومسقط ، وحاصر جزيرة « هرمز » عند مدخل الخليج العربى ، ثم قصد سواحل « الجوازرات » بالهند ، وفتح أغلب الحصون التي أقامها البرتغاليون هناك ، وحاصر ثغر « ديو - بكجرات » شمال بومبي ، وقفل راجعًا بالغنائم ، وفتح في أيامه باقي أقاليم اليمن، وجعل منها ولاية عثمانية.

لقد أطلق المؤرِّخون الغربيون على السلطان سليمان لقب « العظيم » ، تشريفًا له وتعظيمًا ، في حين شرَّفه العثمانيون بلقب « القانوني » أي المُشرِّع ، وكانت تنظيماته وقوانينه التي منحته صفة القانوني ، هي تنظيمات عسكرية في أساسها ؛ لتنظيم علاقات المجتمع في حالات السِّلْم والحرب على السواء ، وكان تطبيق الشريعة الإسلامية هو الناظم لهذه العلاقات .

لقد فاق سليمان جميع أسلافه في تعاظُم القوة الخارجية ، تعاظمًا تجلَّى في انتصاراته على كافَّة الجبهات في الغرب كما في الشرق ، وبلغت الدولة في عهده أوج عظمتها وذروة اتّساعها .

لقد أعطى القانوني للجهاد في سبيل الله قوة دفْع ، حتى بلغ المدُّ أقصى أبعاده باجتياح المجر ، وتحرير المغرب العربي الإسلامي ، علاوةً على ما تمَّ افتتاحه من أوربا ، وجزر البحر الأبيض المتوسط ، وبرزت سيرته نموذجًا أعلى للحاكم المجاهد في سبيل الله ، فكان الرجل في أُمَّة ، وحياة الأمّة في رجل[1] .

وأما ما صدر عنه من أعمال قد لا تَتَّفق وشرع الله ؛ مثل إقدامه على

(١) القانوني القائد لبسام العسيلي .

قتْل أولاده ، فلا نُقرُّه عليها أبدًا وأمره فيها إلى الله ، ولكلِّ جوادٍ كَبْوةٌ .

ومن الفلبِّين :

السلطان « لابـو لابـو » : حاكم جزيرة « ماكتان » بالفلبِّين ؛ يقتل « ماجلان » بيده جزاءَ غطرسته :

في عام ٩٢٧ هـ ، وصل الصليبي « ماجلان » ، قادمًا من جهات أمريكا إلى جزر الفلبين ، واتَّفق مع حاكم جزيرة سيبو «هومابون»، على أن يدخل حاكم الجزيرة في الديانة النصرانية على المذهب الكاثوليكي، مقابل أن يكون مِلكًا على الجزر كلِّها تحت التاج الأسباني ، ومن جزيرة سيبو انتقل ماجلان ومن معه من الأسبان إلى جزيرة « ماكتان » ؛ للتمكين للنصراني الجديد هومابون ، وكان على جزيرة ماكتان حاكم مسلم يُدعى « لابو لابو »،ولمّا علم الأسبان بهذه الحقيقة ، ثار في نفوسهم الحقد الصليبي الذي حملوه معهم من أسبانيا ؛ بل من أوربا كلها ؛ فبدأوا بارتكاب الأعمال الوحشية ؛ إذ طاردوا النساء ، وسطَوْا على طعام السكان ، فقاومهم الأهالي ، فأضرموا النار في أكواخ السكّان الآمنين ، وفرُّوا هاربين .

رفض لابو لابو الخضوع لماجلان ، وحقده وتعاليه وغطرسته الصليبية ، وحرَّض لابو لابو السكّان المسلمين في الجزر الأخرى على ماجلان ، فاستُنفرت النفوس ، واستعلى الإيمان . إلَّا أنَّ ماجلان قد غرَّته قوته وأسلحته الحديثة ، وأراد أن يضرب خَصمَه ضربةً قوية ، يُرهب بها بقيّة الأمراء والسلاطين ، فذهب مع فرقة من جنده مزوَّدة بالأسلحة الحديثة ، لقتال لابو لابو ، وتأديبه - على حدِّ زعمه - ولما التقى به طلب منه التسليم قائلًا : « إنني باسم المسيح أطلُبُ منكم التسليم ، ونحن العِرْق الأبيض أصحاب الحضارة ، أولى منكم بحُكْم هذه البلاد » . فأجابه لابو لابو : « إن الدين لله ، وإن الإله الذي أعبدُه هو إله البشر جميعًا على اختلاف ألوانهم » . ثم هجم على ماجلان وقتله بيده ، وشتَّت شمل فرقته ، ورفض تسليم جُثَّته لأتباعه ، الذين غادروا البلاد عائدين إلى ديارهم عن طريق جنوب آسيا ،

فوصلوا إلى أسبانيا في شوال ٩٢٨ .

وبعثت أسبانيا أربع حملات متتابعة ، نزلت على سواحل جزيرة « ميندنا » و « الجزيرة الكبرى » في الجنوب وحيث يكثر المسلمون ، فقُتِل أفرادُ هذه الحمـلات كلّهم ، وأُطلق على هذه الجزر اسم الفلبِّين عام ٩٤٩ بـاسم أمير النمسا فيليب ، الذي أصبح فيما بعد مِلِكًا على أسبانيا[١] .

فهذه قصة السلطان العظيم عالي الهمَّة مع الرحَّالة المُتغطرس ماجلان ، الذي علتْ همَّتُه - ولكن في الكفر - فيخوضُ البحار والمحيطات ، ويرحل حول أفريقيا من أسبانيا حتى يأتي إلى الفلبين دعوةً إلى النصرانية ، فهلَّا أفقنا .

ملك المغرب « مولاي عبد الملك » ؛ يقود جيشه وهو محمولٌ على محفةٍ في معركة « وادي المخازن » سنة ٩٨٦ هـ :

لمّا استتب الأمر لملك المغرب « مـولاي عبـد الملـك » المعتصـم في فاس سنة ٩٨٢ هـ ، التجأ عمُّه الخائن عبد الله المتوكِّل - الملك المعزول - إلى ملـك البرتغال « دون سبستيان »[٢] ؛ لإعادته إلى السلطة، وبدأت الجيوش النصرانية تفِـدُ لدعم هذا الـلاجئ ظاهرا ، ولتحقـيق نواياها في المغرب وبلاد الإسـلام . وفي سنة ١٥٧٨ م ، طلب ملك البرتغال من خاله « فيليب الثاني » ملك أسبانيا مساعدته ، فـأمدَّه بسبعة آلاف جندي من الأسبان والإيطاليين ومن الفاتيكان والألمان ، وجاءت جيوش من أسبانيا وفرنسا وألمانيا ، وجاءت فرسان البابا ، وقادها ملك البرتغال ومعه الملك الخائن المخلوع محمد المتوكل ، وبلغ عدد ذلك الجيش مائة وخمسة وعشرين ألف جندي . وبالمقابل أمدَّت الدولة العثمانية المغرب بقوةٍ تضمُّ ستة آلاف من الرماة ، وثمانمائة فارس ، ومعهم اثنا عشر مدفعًا ،

---

(١) التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ٨/٤٥٩ - ٤٦٠ . المكتب الإسلامي .

(٢) قبل المعركة بأربع سنوات - في سنة ١٥٧٤ م - زار الملك البرتغالي سبتة ؛ لأنه كان يريد متابعة الحرب ضد المسلمين ، بهدف توجيه ضربة جديدة إلى الإسلام .

إضافة إلى ألـف من المشاة . والتقى الجيشان ؛ المغـربي بقيادة مولاي عبد الملك المريض ، المحمول على محفّةٍ وسط الجيش ، وإلى جانبه أخوه المنصور . والبرتغالي بقيادة دون سبستيان في « وادي المخازن » سنة ٩٨٦ هـ (١٥٧٨ م) . وانتصرت القلّة المؤمنة ، وهُزم الصليبيون ، وقُتِل ملك البرتغال ، والملك الخائن المتوكِّل ، واستُشهد السلطان مولاي عبد الملك ، وسميت هذه المعركة بمعركة « الملـوك الثلاثة » . وكان من نتيجة هذه المعركة انقراض الأسـرة الحاكمة البرتغالية ؛ الأمر الذي أدَّى إلى ضمِّ العرش البرتغالي إلى التاج الأسباني في عهد الملك فيليب الثاني سنة ١٥٨٠ م[١] .

ومِسْكُ الخِتام : عمر بن عبد العزيز ، الإمام الحافظ ، العلّامة المجتهد ، الزاهد العابد ، السيد أمير المؤمنين حقًّا .. الخليفة الراشد أَشَجُّ بني أُمية .. الأُنموذج المثالي في علو همَّة الخلفاء في العدل ورَدِّ الناس إلى السُّنة والأمر الأول :

قال ابن عمر رضي الله عنه : يا ليت شِعْري من هذا الذي مِن ولد عمر !! يملؤها عدلًا كما مُلِئَتْ ظلمًا وجورًا .

فرضـي الله عن أبـي حفـص القرشي الأُمـوي المدني ثم المصـري ، عمر ابن عبد العزيز .

قبـل الخـلافة كان أكثرَ الناس تنعُّمًا ، وكانت له مشـية تُسمَّى : المشـية العمرية ... وربما منعه ترجيل شعره وهو شابٌّ عن إدراك الجماعة ، ثم أراد الله به الخير برحلته إلى المدينة ، وبعد الخلافة كان له شأنٌ أيّ شأن !!.

عن الضحَّاك بن عثمان ، قال : لما انصرف عمر بن العزيز عن قبر سليمان ابن عبد الملك ، صُفَّتْ له مراكب سليمان ، فقال :

---

(١) التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ٥٣٥/٨ ، مجلة الأمة العدد ٥٥ صـ٣٩ .

وَلولا التُّقى ثم النهى خشيةَ الردىٰ لَعاصيتُ في حبِّ الصِّبا كلَّ زاجرِ
قضى ما قضى فيما مضى ثَم لا ترى له صبوة أخرى الليالي الغوابرِ

ثم قال : إن شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، قدِّموا إلَيَّ بغلتي .

وعن سفيان بن عيينة ، قال : كان أول ما رؤي منه - يعني عمر ابن عبد العزيز- قُدِّم إليه بِرْذَوْنُ سليمان فأبى، فركب بغلته ورجع.يعني حين فرغ من دفن سليمان ، فقال : ليس أحد من أُمَّة محمد ﷺ ، إلّا له عندي شرقها وغربها .

قال سفيان بن عيينة : لمَّا رجع عمر بن العزيز من دفْن سليمان ، كان أوَّلَ شيء راعهم منه حين قدموا إليه : مركبه ، فقال : أخِّروه . فقرَّبوا إليه بغلته، فركبها. فلمّا أنْ رجع إلى منزله دخل، فقال له مولاه: يا أمير المؤمنين، كأنك مهتمٌّ ؟ فقال : لمثل الأمر الذي نزل بي اهتممتُ ؛ إنه ليس من أمة محمد ، في مشرق ولا مغرب أحد إلَّا له قِبلي حقٌّ يحقُّ عليَّ أداؤه إليه ، غيرَ كاتبٍ إلَيَّ فيه ، ولا طالبَه مني .

وقال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : لمَّا دفن عمرُ بن عبد العزيز سليمانَ بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سمع للأرض هدَّةً أو رجَّةً ، فقال : ما هذه ؟ فقيل : هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين ، قُرِّبت إليك لتركبها . فقال : ما لي ولها ؟ نحُّوها عني ، قرِّبوا إلَيَّ بغلتي . فقُرِّبت إليه بغلته ، فركبها . فجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديْه بالحربة ، فقال : تنحَّ عنِّي ، ما لي ولك ، إنما أنا رجل من المسلمين . فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد ، فصعِد المنبر واجتمع إليه الناس ، فقال : أيُّها الناس ، إني قد ابتُليتُ بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طِلْبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم . فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك . قل : أمْرنا باليُمن

والبركة . فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضي به الناس جميعًا ، حمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ ، وقال : أوصيكم بتقوى الله ؛ فإن تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف . واعملوا لآخرتكم ؛ فإنه مَن عمِل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه . وأصلحوا سرائركم يُصلح الله الكريم علانيتكم. وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم ؛ فإنه هادم اللذات . وإن مَن لا يذكر من آبائه - فيما بينه وبين آدم عليه السلام - أبًا حيًّا ، لمَعرَّق له في الموت . وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ، ولا في نبيها ﷺ ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحدًا باطلًا ، ولا أمنع أحدًا حقًّا . ثم رفع صوته حتى أسمع الناس ، فقال : يا أيُّها الناس ، مَن أطاع الله وجبتْ طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعتُ الله ، فإذا عصيتُ الله ، فلا طاعة لي عليكم .

بأبي وأُمي الخليفة الزاهد العادل ، الذي لمّا بلغتِ الخوارج سيرتُه وما ردّ من المظالم ، اجتمعوا وقالوا : ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل .

قال محمد بن سعد : قال عمر بن عبد العزيز : لو كان كل بدعة يُميتها الله على يدي ، وكل سُنَّةٍ يُنعشها الله على يدي ببُضْعة من لحمي ، حتى يأتي آخر ذلك على نفسي ، كان في الله يسيرًا .

قال مالك : إن عمر بن عبد العزيز قام في الناس - وهو خليفة - على المنبر يوم الجمعة ، فقال : أيها الناس ، إني أنساكم ها هنا ، وأذكُركم في بلادكم ، فمن أصابته مظلمة من عامله فلا إذْنَ له عليَّ ، ومن لا ، فَلَا أَرَينَّه . وإني والله إن منعتُ نفسي وأهلَ بيتي هذا المال وضَننتُ به عنكم ، إني إذن لَضنين ، ولولا أنْ أُنعشَ سُنَّةً ، أو أعمل بحقٍّ ، ما أحببتُ أن أعيش فَوَاقًا .

وعن عامر بن عبيدة قال : أول ما أنكر من عمر أنه خرج في جنازة ،

فأُتي ببُردٍ كـان يُلقى للخلفاء ، يقعدون عليه إذا خـرجوا إلى جنازة ، فأُلقي له فضـربه برجله ، ثم قعد على الأرض ، فقالوا : ما هذا ؟ فجاء رجل فقام بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اشتَّدت بي الحاجة ، وانتهت بي الفاقة ، والله يسألك عن مقامي هذا بين يديك. وفي يده قضيب قد اتكأ عليه. فقال: أعِدْ ما قلتَ . فأعاد عليه فقـال : يا أمير المؤمنين ، اشتدتْ بـي الحاجة ، وانتهت بي الفاقة ، والله سائلك عن مقامي هذا بين يديك . فبكى حتى جرتْ دموعه على القضيب ، ثم قال له : ما عيالك ؟ قال : خمسة ؛ أنا وامرأتي وثلاثة أولاد . قال فإنَّا نفرض لك ولعيالك عشرة دنانير ، ونأمر لك بخمسمائة : مائتين من مالي وثلاثمائة من مال الله ، تبلَّغْ بها حتى يخرج عطاؤك .

زُهْدُ عمر في التمتع :

قال سهل بن صدقة مولى عمر بن عبد العزيز : « حدّثني بعض خاصَّة عمر بن عبد العـزيز أنه حين أفضَتْ إليه الخلافة ، سمعوا في منزله بكاءً عاليًا فسُئل عن البكاء ، فقيل : إن عمر بن عبد العزيز قد خيَّر جواريه ، فقال : إنه قد نـزل بي أمر قد شغلني عنكنَّ ، فمن أحبَّ أن أُعتقه أعتقتُه ، ومن أراد أن أمسكه أمسكتُه ، ولم يكن مني إليها شيء . فبكين يأسًا منه ، رحمه الله .

قـال : حدَّثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى ، قـال : حدثني أبي ، عن جدّي قال : كنتُ أنا وابن أبي زكريا بباب عمر ، فسمعنا بكاءً في داره ، فسألنا عنه فقالوا خيَّر أمـير المؤمنين امرأته بين أن تقيـم في منزلها - وأَعلَمها أنه قد شُغل عن النساء بما في عنقه - وبين أن تلحق بمنزل أبيها ، فبكت ، فبكى جواريها لبكائها » .

وعن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع القرشي ، أنه دخل على فاطمة بنت عبد الملك ، فقـال لها : ألا تخبريني عن عـمر ؟ فقالتْ : ما أعلم أنه اغتـسل من جنابة ولا من احتلام ، منذ استخلفه الله إلى أن قبضه .

لله درُّ عمر !! يقول واصفُه حين وَلي الخلافة : رأيتُ عمر بن عبد العزيز حين وَلي ، فإذا به من حسن اللون ، وجودة الثياب ، والبزَّة ، ثم دخلتُ عليه بَعْدُ ، وقد ولي ، فإذا قد احترق واسودَّ ولصق جلده بعظمه ، حتى ليس بين الجلد وبين العظم لحم ، وإذا عليه قلنسوة بيضاء قد اجتمع قطنها ، يُعلم أنها قد غسلت ، وعليه سحق أنبجانية قد خرج سداها ، وهو على شاذكونة قد لصقتْ بالأرض ، وتحت الشاذكونة عباءة قطوانية من مُشَاقَةِ الصوف .

قال وهب بن منبه : إن كان في هذه الأمة مهديٌّ ، فهو عمر بن عبد العزيز .

وقال الحسن : إن كان مهديٌّ ، فعمر بن عبد العزيز ، وإلّا فلا مهديَّ إلا عيسى بن مريم عليه السلام .

وقال سفيان الثوري : أئمة العدل خمسة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز .

وقال : لا أوافق رأيَ أحد أحبَّ إليَّ من عمر بن عبد العزيز ؛ لأنه كان إمام هدًى .

وقال أحمد بن حنبل : « يروى في الحديث : أن الله يبعث على رأس كل مائة عام مَن يصحِّح لهذه الأمة دينها ، فنظرنا في المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز ، ونظرنا في المائة الثانية فنراه الشافعي » .

قال أحمد بن حنبل : « إن الله تعالى يقيِّض للناس في كل رأس مائة سنة ، مَن يعلّمهم السنن ، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب ، فنظرنا ، فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز ، وفي رأس المائتين الشافعي » .

بِشارةُ أحمد بن حنبل لمن ينشرُ محاسن عمر :

وقال أحمد بن حنبل : « إذا رأيتَ الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ، ويذكر محاسنه وينشرها ، فاعلمْ أن من وراء ذلك خيرًا ، إن شاء الله » .

وقال ميمون بن مهران : إن الله عز وجل تعاهَد الناس بعمر بن عبد العزيز .

وعن عمرو بن قيس المُلائي قال : سُئل محمد بن علي بن الحسين عن عمر بن عبد العزيز ، فقال : أمَا علمتَ أنَّ لكل قوم نجيبًا ، وأن نجيب بني أُمية عمر بن عبد العزيز ، وأنه يُبعث يوم القيامة أُمَّة وحده ؟!.

وعن ابن عون ، قال : كان ابن سيرين إذا سُئل عن الطلا(1) ، قال : نهى عنه إمامُ هدًى . يعني : عمر بن عبد العزيز .

وقال عبَّاد بن كثير : دخلتُ على أبي جعفر ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، أمَا تستحيون أن تجيء بنو أُمية بعمر بن عبد العزيز ، ولا تجيئون بمثله ؟!.

تخيُّره لجُلَسَائه :

عن الأوزاعي ، قال : قال عمر لجلسائه : من صحبني منكم فلْيصحبني بخمس خصال : يدلُّني من العدل إلى ما لا أهتدي له ، ويكون لي على الخير عونًا ، ويُبلغني حاجةَ مَن لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندي أحدًا ، ويؤدِّي الأمانة التي حمَلها مني ومن الناس ، فإذا كان كذلك فحيَّهَلا به، وإلَّا فهو خرجٌ من صحبتي والدخول عليَّ .

واجتمع بنو مروان لاستعطاف عمر ، فتكلَّم رجل منهم فمزح ، فنظر إليه عمر ، قال : فوصل له رجل كلامَه بالمزاح ، فقال عمر : لهذا اجتمعتم ؟! لِأَخَسِّ الحديث ، ولِمَا يُورث الضغائن ؟! إذا اجتمعتم فأفيضوا في كتاب الله ، فإن تعدَّيتم ، فعليكم بمعالي الحديث .

سَابِقٌ البربريُّ يُنشد عمرَ الشعرَ ، فيبكي حتى يُغشى عليه :

قال ميمون بن مهران : دخلتُ على عمر بن عبد العزيز ، وعنده سابق البربري وهو يُنشده شعرًا ، فانتهى في شِعْره إلى هذه الأبيات :

---

(1) الطلا : الخمر ، وكل ما طُبخ من عصير العنب .

فكمْ من صحيحٍ بات للموتِ آمنًا ... أتتْهُ المنايا بغتةً بعدما هجَعْ
فلم يستطعْ إذْ جاءَهُ الموتُ آمنًا ... فرارًا ولا منهُ بقوَّتِهِ امتنعْ
فأصبحَ تبكيهِ النساءُ مقنَّعًا ... ولا يسمعُ الداعي وإنْ صوتَه رفعْ
فقرِّب مِن لحدٍ فصار مَقيلَهُ ... وفارق ما قد كان في أمسِهِ جَمَعْ
فلا يترك الموتُ الغنيَّ لمالِهِ ... ولا معدِمًا في المال ذا حاجة يَدَعْ

فلم يزل عمر يبكي ويضطرب حتى غُشي عليه ، فقمنا فانصرفنا عنه .

وعن عثمان بن عبد الحميد ، قال : دخل سابق البربريُّ على عمر ابن عبد العزيز ، فقال له عمر : عِظني يا سابق ، وأوجِزْ . قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وأُبلغ إن شاء الله . قال : هاتِ . فأنشده هذه الأبيات :

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ مِنَ التُّقى ... ووافيتَ بعد الموتِ مَن قدْ تزوَّدا
ندِمتَ على أن لا تكون شريكَهُ ... وأرصدتَ قبلَ الموتِ ما كان أرصدا

فبكى عمر حتى سقط مَغشيًّا عليه .

قال عمر بن عبد العزيز :

أَيقظانُ أنتَ اليوم أم أنتَ نائمُ ... وكيف يطيقُ النومَ حيرانُ هائمُ
فلو كنتَ يقْظانَ الغداةِ لحَرَّقتْ ... مَحاجِرَ عينيْك الدموعُ السواجمُ
بل اصبحتَ في النومِ الطويلِ وقد دنتْ ... إليكَ أمورٌ مُفظِعاتٌ عظائمُ
نهارُكَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... وليلُكَ نومٌ والردى لكَ لازمُ
يغرُّكَ ما يَفنى وتُشغَلُ بالمُنى ... كما غُرَّ باللذاتِ في النومِ حالمُ
وتُشغلُ فيما سوف تكرهُ غِبَّهُ ... كذلكَ في الدنيا تعيشُ البهائمُ

نفسُ عمرَ توَّاقة إلى العُلا :

عن سفيان قال : قال لي عمر بن عبد العزيز : كانت لي نفس توَّاقة ، فكنتُ لا أنال شيئًا إلَّا تاقت إلى ما هو أعظم منه ، فلما بلغتْ نفسي الغاية ، تاقت إلى الآخرة .

قال مُزاحم : قلتُ لعمر بن عبد العزيز : إني رأيتُ في أهلك خَلَلًا . فقال : يا مزاحم ، أما يكفيهم ؟! أعطيهم ما يصيبون من المقاسم مع المسلمين من فيْئهم ، مع مال عمر . فقلتُ له : وأين يقع ذلك منهم ، مع ما يموِّنون ، ومع ضيافتهم وكسوتهم نساءهم ؟ وأين يقع ذلك ؟ قد - والله - خشيتُ أن تصيبهم مخمصة . فقال لي عمر : إن لي نفسًا توَّاقة ؛ لقد رأيتُني وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان ، ثم تاقت نفسي إلى العلم - إلى العربية والشعر - فأصبتُ منه حاجتي وما كنتُ أريد . ثم تاقتْ نفسي إلى السلطان ، فاستُعْملتُ على المدينة ، ثم تاقت نفسي وأنا في السلطان ، إلى اللبس والعيش والطيب ، فما علمت أن أحدًا من أهل بيتي ولا غيرهم ، كان في مثل ما كنتُ فيه ، ثم تاقت نفسي إلى الآخرة والعمل بالعدل، فأنا أرجو ما تاقت نفسي إليه من أمر آخرتي ، فلستُ بالذي أُهلِك آخرتي بدنياهم .

علوُّ هِمَّته في العدْل :

عن مالك بن دينار قال : لما وَلي عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، قالت رعاة الشاء في ذروة الجبال : مَن هذا الخليفة الصالح الذي قد قام على الناس ؟ فقيل لهم : وما عِلْمكم بذلك ؟ قالوا : إنَّا إذا قام على الناس خليفة صالح ، كفَّتِ الذئاب والأُسْد عن شأننا .

وعن ميمون بن مهران : أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال : يا أبتِ ، ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فوالله ، ما كنتَ أبًا لي ، لو غلَتْ بي وبك القُدُور في ذلك . قال : يا بُنَيَّ ، إنما أروِّض الناس رياضة الصعب ، إني لَأريد أن أُحيِيَ الأمور من العدل ، فأؤخِّر ذلك حتى أُخرج معه طمعًا من طمع الدنيا ، فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه .

قال ميمون بن مهران : ما زلتُ أنا وعمر بن عبد العزيز ننظر في أمور

الناس ، حتى قلتُ : يا أمير المؤمنين ، ما بال هذه الطوامير[1] التي تكتب فيها بالقلم الجليل ، وتمدُّ فيها وهي من بيت مالِ المسلمين ؟ فكتب إلى العمال أن لا يُكتبن في طومار ولا يُمدَّ فيه . قال : فكانت كتُبه شبرًا ، أو نحو ذلك .

كتابه إلى أهلِ الموْسِم :

عن جعونة ، قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الموسم : « أما بعد ؛ فإني أُشهد الله ، وأبرأ إليه في الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، ويوم الحج الأكبر ، أني بريء منْ ظلمِ مَنْ ظلمكم ، وعدوانِ مَنِ اعتدى عليكم ، أن أكون أمرتُ بذلك ، أو رضيتُ ، أو تعمَّدتُه ، إلَّا أن يكون وهْمًا مني ، وأمرًا خفي عليَّ لم أتعمَّدْه ، وأرجو أن يكون ذلك موضوعًا عني ، مغفورًا لي ، إذا علم مني الحرص والاجتهاد . ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني ، وأنا مُعوَّل كلِّ مظلوم . ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ، ولم يعمل بالكتاب والسنة ، فلا طاعة له عليكم ، وقد صيرتُ أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم . ألَا وإنه لا دُولة ببُرِّ أغنيائكم ، ولا أَثَرة على فقرائكم في شيء من فيئكم . ألا وأيما وارد ورد في أمر يصلح الله به - خاصَّة أو عامَّة - فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار على قدْر ما نوى من الحسبة ، وتجشَّم من المشقَّة ، فرحم الله امرءًا لم يتعاظمه سفر يُحيي الله به حقًّا لمن وراءه ، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم ، لَرسمتُ لكم أمورًا من الحق أحياها الله لكم ، وأمورًا من الباطل أماتها الله عنكم ، فلا تحمدوا غيره ، ولو وكَلني إلى نفسي كنتُ كغيري ، والسلام عليكم » .

قال الحكم بن عمر الرعيني : شهدتُ مَسْلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة ، فقال عمر لمسلمة : لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يديَّ ، ولكن وكِّلْ بخصومتك مَن شئتَ ، وإلَّا فجاثِ القوم بين يديَّ . فوكّل مولًى له بخصومته ، فقضى عليه بالناعورة .

---

(١) الطوامير : جمع طومار ، وهو الصحيفة .

وعن عبيدة بن حسان السنجاري : أن رجلًا من أهل أذربيجان أتى عمر ابن عبد العزيز ، فقام بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اذكُر بمقامي هذا مقامًا لا يشغل اللهَ عنك فيه كثرةُ مَن يخاصم من الخلائق ، يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ، ولا براءة من الذنب . قال : فبكى بكاءً شديدًا ، ثم قال : ويحك ؛ اردُدْ عليَّ كلامك هذا . فجعل يردِّده عليه وعمر يبكي وينتحب . ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : إن عامل أذربيجان عدا عليَّ فأخذ مني اثني عشر ألف درهم ، فجعلها في بيت مال المسلمين . فقال عمر : اكتبوا له الساعة ، إلى عاملها حتى يردَّه إليه - أو عليه - .

وقال رياح بن حبان ، وكان على المدينة ، قال : ما قدم علينا بَريدٌ لعمر ابن عبد العزيز بالشام إلّا بإحياء سُنَّة ، أو قسْم مال ، أو أمْر فيه خير .

واجتمع الأُمويُّون على بابه - رحمه الله - ينتظرون الدخول عليه ، ومعهم أيضًا الشعراء ، ثم جاء ابن عباس فأذِن له قبلهم ، فقال هشام : أما رضي ابن عبد العزيز أن يصنع ما يصنع حتى أذِن لابن عباس أن يتخطَّى رقابنا ؟! فقال الفرزدق في هذا :

يا أيها القارئ المقْضِيُّ حاجتُهُ ... هذا زمانُك إني قد خلا زمني

إرساله المرشدين ليفقهوا الناس في البادية :

بعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري ، يفقِّهان الناس في البدو ، وأجرى عليهما رزقًا ؛ فأما يزيد فقبل ، وأما الحارث فأبى أن يقبل ، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز بذلك ، فكتب عمر : إنّا لا نعلم بما صنع يزيد بأسًا ، وأكثَرَ الله فينا مثلَ الحارث بن يمجد .

وكان رحمه الله يقول وهو على المنبر : لولا سُنَّة أُحييها ، أو بدعة أميتها ، لَمَا باليْتُ أن لا أعيش فَوَاقًا .

الأكبادُ الجائعة أوْلى بالصدَقاتِ من البيت الحرام :

وعن ميسر بن أبي الفرات ، قال : كتبتِ الحجَبَةُ إلى عمر بن عبد العزيز يأمر للبيت بكسوة ، كما كان يفعل مَن كان قبله ، فكتب إليهم : إني رأيتُ أن أجعل ذلك في أكباد جائعة ؛ فإنه أولى بذلك من البيت .

وعن عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، قال : إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفًا (ثلاثين شهرًا) ، لا والله ، مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حيث ترْون في الفقراء . فما يبرح حتى يرجع بماله . قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس .

رفْقُ عمرَ بالحيوان :

عن أبي عثمان الثقفي ، قال : كان لعمر بن عبد العزيز غلام على بغل له ، يأتيه بدرهم كل يوم . فجاءه يومًا بدرهم ونصف ، فقال : ما بدا لك ؟ قال : نفَقَتِ السوق . قال : لا ، ولكنك أتعبتَ البغل ، أجِمَّهُ ثلاثةَ أيام .

وعن ورَعه : قال عمرو بن مهاجر : إن عمر بن عبد العزيز كانت له الشمعة ما كان في حوائج المسلمين ، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها ، ثم أسرج عليه سِراجه .

عُلوُّ هِمَّتِه في ملاحظته لعُمَّاله ، ومكاتبته إيَّاهم في القيامِ بالعدل :

رضي الله عن نجيب بني أُمية ؛ ما طلع كتابه من الثنية إلّا بإحدى ثلاث : إحياء سنة ، وإماتة بدعة ، وقسْم يقسمه بين المسلمين .

كتب إليه عمرو بن حزم في شمع كانوا يستضيئون به ، حين يخرجون إلى صلاة العشاء وصلاة الفجر ، فكتب إليه عمر : « أما بعد ؛ فقد قرأتُ كتابك ، الذي كتبتَ به إلى سليمان بن عبد الملك ، وكنتُ المبتلَى بالنظر فيه دونه ،

كتبتَ تسأله أن يُقطِع لك من الشمع مثلَ الذي كان يُقطع لمن قَبلك ، وتذكُر أن الشمع الذي قِبَلك قد نفد ، ولعمري قد طالما رأيتُك تخرج من منزلك إلى مسجد رسول الله ﷺ في الليلة المظلمة الوحلة بغير ضياء ، ولَعمري لأنت يومئذ خير منك اليوم . والسلام عليك . وكتبتَ تسأله أن يقطع لك شيئًا من القراطيس ، مثل الذي كان يُقطِع قبلك ، فأَدِقَّ قلمَكَ ، وقارِبْ بين سطورك ، واجمع حوائجك ؛ فإني أكره أن أُخرِج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به . والسلام » .

وعن إبراهيم بن جعفر ، عن أبيه قال : رأيتُ أبا بكر عمرو بن حزم يعمل بالليل كعمله بالنهار ، لاستحثاث عمر إيَّاه .

وكتب إليه عدي بن أرطاة : « مِن عَدِيِّ بن أرطاة . أما بعد ؛ أصلح الله أمير المؤمنين ؛ فإن قِبَلي أناسًا من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالًا عظيمًا ، لستُ أرجو استخراجه من أيديهم ، إلَّا أن أمسَّهم بشيء من العذاب ، فإن رأى أمير المؤمنين - أصلحه الله - أن يأذن لي في ذلك ، أفعل » .

فأجابه : « أما بعد ؛ فالعجَب كلّ العجب مِن استئذانك إيَّاي في عذاب بشر، كأني لك جُنَّة من عذاب الله، وكأَنَّ رضائي عنك يُنجيك من سخط الله عز وجل، فانظر مَن قامت عليه بيِّنةُ عُدولٍ ، فخذْه بما قامت عليه به البينة، ومن أقَرَّ لك بشيء فخذه بما أقَرَّ به ، ومن أنكر فاستحلِفْه بالله العظيم ، وخلِّ سبيله . وأيمُ اللهِ ، لَأَنْ يَلْقَوُا الله عز وجل بخياناتهم ، أحبُّ إليَّ من أن ألقى اللهَ بدمائهم . والسلام » .

وعن عنبسة بن غُصن ، قال : كان وهْب بن منبّه على بيت مال اليمن . قال : فكتب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : « إني فقدتُ من بيت مال المسلمين دينارًا » . قال : فكتب إليه : « إني لا أتهم دينَك ولا أمانتَك ، ولكن أتهم تضييعك وتفريطك ، وأنا حجيج المسلمين في أموالهم ، ولِأَخسِّهم :

عليك أن تحلفَ . والسلام » .

وكان الجراح بن عبد الله عاملَ عمر بن عبد العزيز على خراسان كلِّها ، فكتب إليه عمر : « بلغني أنَّك استعملتَ عمارة ، ولا حاجةَ لي بعمارة ، ولا بضرب عمارة ، ولا برجُل قد صبغ يده في دماء المسلمين ، فاعزلْه » .

ونهى عمر بن عبد العزيز عُمَّاله عن صنائع الحجَّاج وسُنَّتِه ، وقال : «لو أن الأمم تخابثتْ يوم القيامة، فأخرجتْ كلُّ أمة خبيثها ثم أخرجنا الحجَّاج ، لَغلبناهم » .

واستعمل عمر رضي الله عنه عاملًا ، فبلغه أنه عمل للحجَّاج ، فعزله ، فأتاه يعتذر إليه ، فقال : لم أعمل له إلا قليلًا . قال : « حسبك من صحبة شرٍّ يومٌ أو بعضُ يوم » .

وبعث عمر بآل أبي عقيل - أهل بيت الحجاج - إلى صاحب اليمن ، وكتب إليه : « أما بعد ؛ فإني قد بعثتُ إليكم بآل أبي عقيل ، وهم شرُّ بيت في العرب ، ففرِّقْهم في عملك على قدْر هوانهم على الله . وعلينا وعليك السلام » . وإنما نفاهم .

وبعث إلى عدي بن أرطاة : « أما بعد ؛ فإني كتبتُ إليك بكتب كثيرة ، أرجو بذلك الخير من الله تعالى ، والثواب عليه ، وأنهاك فيها عن أمور الحجاج ابن يوسف وأرغب عنها وعن اقتدائك بها؛ فإن الحجاج كان بلاءً وافَق خطيئةَ قوم بأعمالهم ، فبلغ الله عز وجل في مدته ما أحبَّ من ذلك ، ثم انقطع ذلك وأقبلتْ عافية الله عز وجل ، فلو لم يكن ذلك إلا يومًا واحدًا أو جمعة واحدة ، كان ذلك عطاء من الله عز وجل ، ونهيتُك عن فعله في الصلاة ؛ فإنه كان يؤخِّرها تأخيرًا لا يحلُّ له ، ونهيتُك عن فعله في الزكاة؛ فإنه كان يأخذها في غير حقِّها ثم يسيء مواقعها . فاجتنب ذلك منه ، واحذر العمل به ؛ فإن الله عز وجل قد أراح منه ، وطهّر العباد والبلاد من شرِّه . والسلام » .

وكتب بعض عمَّال عمر بن عبد العزيز إليه : « أما بعد ؛ فإن مدينتنا

قد خربتْ ؛ فإن ير أمير المؤمنين أن يُقطِع لنا مالًا نرمّها به، فعَل ».

فكتب إليه عمر : « أما بعد ؛ فقد فهمتُ كتابك ، وما ذكرتَ أن مدينتكم قد خربت . فإذا قرأتَ كتابي هذا فحصِّنها بالعدل ، ونقِّ طرُقَها من الظلم ؛ فإنه مَرمّتُها . والسلام » .

وقدِم على عمر بلال بن أبي بردة ، فهمَّ بتوليته العراق لمّا رآه ملازمًا للمسجد يصلي ، ويقرأ ليلَه ونهارَه، وقال: هذا رجل له فضل . فدسَّ إليه ثقةً له ، فقال له : إن عملتُ لك في ولاية العراق ، ما تعطيني ؟ فضمن له مالًا جليلًا ، فأخبر بذلك عمر ، فنفاه وأخرجه ، وقال : يا أهل العراق ، إن صاحبكم أعطى مقولًا ولم يعطِ معقولًا ، وزادت بلاغتُه ونقصتْ زهادته .

وكتب عمر إلى عامله : « أما بعد ؛ فالزمِ الحق ، يُنزلْك الحق منازل أهل الحق ، يومَ لا يُقضى بين الناس إلا بالحق ، وهم لا يظلمون » .

وقال يحيى بن يمان: وكتب عمر إلى عامل له : « أما بعد ؛ فلتجفَّ يداك من دماء المسلمين ، وبطنُك من أموالهم ، ولسانك من أعراضهم . فإذا فعلتَ ذلك فليس عليك سبيل : ﴿ **إنّما السّبيلُ على الّذينَ يَظْلمونَ النّاسَ ..** ﴾ [الشورى : ٤٢] » .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن : « سلام عليك . فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشِدَّة ، وجوْر في أحكامهم ، وسنن خبيثة سنَّها عليهم عُمَّال السوء ، وإن أقوم الدين العدل والإحسان ، فلا يكوننَّ شيء أهمَّ إليك من نفسك ؛ أن توطِّنها لطاعة الله ، فإنه لا قليل من الإثم » .

وعن ابن يحيى الغسَّاني ، قال : حدثني أبي ، عن جدي قال : لما ولّاني عمر بن عبد العزيز المْوصل قدِمتها ، فوجدتُها من أكثر البلاد سرقًا ونقْبًا ، فكتبتُ إلى عمر أُعلِمه حالَ البلد ، وأسأله : آخذ الناس بالظِّنَّة ، وأضربهم على التهمة ، أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه السُّنَّة ؟ فكتب إليَّ أن : خُذ الناس بالبينة وما

جرت عليه السُّنَّة ، فإن لم يصلحهم الحق ، فلا أصلحهم الله . فقال يحيى : ففعلتُ ذلك ، فما خرجتُ من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد ، وأقلِّها سرقًا ونقبًا .

وكتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز : « أما بعد ؛ فإن الناس قد كثروا في الإسلام . وخفتُ أن يقلَّ الخراج » .

فكتب إليه عمر : « فهمتُ كتابك ، والله لَوددتُ أن الناس كلهم أسلموا ، حتى نكون أنا وأنت حرَّاثين نأكل من كسْب أيدينا » .

وكتب عمر إلى عُمَّاله : إياكم أن تستعملوا على شيء من أعمالنا إلّا أَهل القرآن . فكتبوا إليه : يا أمير المؤمنين ، إنا استعملنا أهل القرآن فوجدناهم خوَنة . فكتب لهم : إياكم أن يبلغني عنكم أنكم استعملتم على شيء من أعمالنا إلَّا أهلَ القرآن ؛ فإنه إن لم يكن عند أهل القرآن خير ، فغيرهم أحرى بأن لا يكون عندهم خير .

وكتب إلى أهل الأمصار : « لا يركب نصراني سَرْجًا ، ولا يلبس قباء ولا طيلسانًا ، ولا سراويل ذات خدمة ، ولا يمشينَّ بغير زنار من جلد ، ولا يمشِ إلَّا مفروقَ الناصية ، ولا يوجد في بيت نصراني سلاح إلَّا أُخذ » .

وكتب رحمه الله إلى عماله أن : فادوا بأُساري المسلمين ، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد عماله : « يا أخي ؛ أُذكِّرك طولَ سهَر أهل النار في النار مع خلود الأبد . وإياك أن ينصرف بك من عند الله ، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء » .

فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدِم على عمر . فقال له : ما أقدمك؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك . لا أعود إلى ولاية أبدًا حتى ألقى الله تعالى .

وكتب إلى عمَّاله : « ادرءوا الحدود ما استطعتم في كلِّ شبهة ؛ فإن

الوالي إذا أخطأ في العفو خير من أن يتعدَّى في العقوبة » .

وكتب إلى عامله عدي بن أرطاة : « أما بعد ؛ فإني أذكرك ليلة تمخّضُ بالساعة ، فصباحها القيامة ، يا لها من ليلة !! ويا له من صباح كان على الكافرين عسيرًا !! » .

ردُّه لمظالم بني أُمية :

قال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك : يا عبد الملك ، ما ترى في هذه الأموال التي أُخذت من الناس ظلمًا ، قد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها ؟ قال : أرى أن تردَّها ، فإن لم تفعل كنتَ شريكًا لمن أخذها .

ولما ذهب عمر يتبوَّأ مقيلًا ، قال له ابنه عبد الملك : تَقَيَّلُ ولا تردُّ المظالم ؟ قال : أي بُنَيَّ ، قد سهرتُ البارحة في أمر عمِّك سليمان ، فإذا صلَّيتُ الظهر رددتُ المظالم . قال: من لك أن تعيش إلى الظّهر ؟ فخرج و لم يَقِلْ، فأَمَرَ مُناديَهُ أن ينادي : أَلَا مَنْ كانت له مظلمة فليرفعها . فقام إليه رجل ذِمِّي من أهل حمص ، أبيضَ الرأس واللحية ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتاب الله . قال : وما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي . والعباس جالس . فقال له : يا عباس ، ما تقول ؟ قال : أقطعَنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وكتب لي بها سِجلًّا . فقال : ما تقول يا ذمي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتابَ الله عز وجل . فقال عمر : كتاب الله أحق أن يُتَّبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، ارددْ عليه يا عباس ضيْعته . فردَّ عليه . فجعل لا يدع شيئًا مما كان في يده ، وفي يد أهل بيته ، من المظالم إلَّا ردَّها ؛ مظلمة مظلمة .

قال الفرات بن السائب : إن عمر بن عبد العزيز قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك – وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها ، لم يُرَ مثله –: اختاري ، إما أن تردِّي حُلِيَّك إلى بيت المال ، وإما أن تأذني لي في فراقك ؟ فإني أكره أن أكون أنا وأنت في بيت واحد . قالت : لا بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه ، وعلى

أضعافه لو كان لي . فأمر به ، فحُمِل حتى وضع في بيت مال المسلمين ، فلما هلك عمر واستخلف يزيد ، قال لفاطمة : إن شئتِ رددتُه عليك ؟ قالت : فإني لا أشاؤه ، طبتُ عنه نفسًا في حياة عمر ، وأرجع فيه بعد موته ؟! لا والله أبدًا . فلما رأى ذلك قسَّمه بين أهله وولده .

يا حُكَّامَ عصْرنا ، هكذا ربَّى عمرُ ولدَه :

عن إسماعيل بن أبي حكيم قال : كنا عند عمر بن عبد العزيز حتى تفرَّق الناس ، ودخل إلى أهله للقائلة ، فإذا منادٍ يُنادي : الصلاةُ جامعة . قال : ففزعْنا فزعًا شديدًا ، مخافة أن يكون قد جاء فتق من وجه من الوجوه أو حدَث حدثٌ . قال جويرية : وإنما كان أنه دعا مزاحمًا فقال : يا مزاحم ، إن هؤلاء القوم قد أعطونا عطايا ، والله ، ما كان لهم أن يعطوناها ، وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار إليَّ ، ليس عليَّ فيه دون الله محاسب . فقال له مزاحم : يا أمير المؤمنين ، هل تدري كم ولدك ؟ هم كذا وكذا . قال : فذرفتْ عيناه ، فجعل يستدمع ويقول : أَكِلُهم إلى الله . قال : ثم انطلق مزاحم من وجهه ذلك ، حتى استأذن على عبد الملك ، فأذن له - وقد اضطجع للقائلة - فقال له عبد الملك : ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة ؛ هل حدث حدث ؟ قال : نعم ، أشدّ الحدَث عليك وعلى بني أبيك . قال : وما ذاك ؟ قال : دعاني أمير المؤمنين ... فذكر له ما قال عمر ، فقال عبد الملك : فما قلتَ له ؟ قال : قلتُ له : يا أمير المؤمنين ، أتدري كم ولدك ؟ هم كذا وكذا . قال : فما قال لك ؟ قال : جعل يستدمع ، ويقول : أَكِلهم إلى الله تعالى . قال عبد الملك : بئس وزير الدين أنتَ يا مزاحم !! ثم وثب فانطلق إلى باب أبيه عمر ، فاستأذن عليه ، فقال له الآذِنُ : إنَّ أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقائلة . قال : استأذِنْ لي . فقال له الآذِن : أما ترحمونه ؟! ليس له من الليل والنهار إلَّا هذه الوقعة . قال عبد الملك : استأذِنْ لي لا أمَّ لك !! فسمع عمر الكلام ، فقال : من هذا ؟ قال : هذا عبد الملك . قال : ائذن له .

فدخل عليه وقد اضطجع عمر للقائلة ، فقال : ما حاجتك يا بنيَّ هذه الساعة ؟ قال : حديثٌ حدَّثنيه مزاحم . قال : فأين وقع رأيك من ذلك ؟ قال : وقع رأيي على إنفاذه . قال : فرفع عمر يديه . ثم قال : الحمد لله الذي جعل لي من ذرِّيتي من يُعينني على أمر ديني . نعم يا بُنيَّ ، أصلي الظهر ، ثم أصعد المنبر . فأردُّها علانية على رؤوس الناس . فقال عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، ومَن لك بالظُّهر يا أمير المؤمنين ؟! ومن لك إن بقيتَ إلى الظهر أن تسلم لك نيَّتُك إلى الظهر ؟ قال : فقال عمر : قد تفرَّق الناس ورجعوا للقائلة . فقال عبد الملك : تأمر مناديَك ينادي : الصلاة جامعة . فيجتمع الناس . قال إسماعيل : فنادى المنادي : الصلاة جامعة . قال : فخرجتُ فأتيتُ المسجد ، فجاء عمر فصعِد المنبر . فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : «أما بعد؛ فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها ، وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار إليَّ ، ليس عليَّ فيه دون الله محاسب . ألَا وإنِّي قد رددتُها ، وبدأت بنفسي وأهل بيتي ، اقرأ يا مزاحم » .

قال : وقد جيء بسفَطٍ قبل ذلك - أو قال:جُونة - فيها تلك الكتب . قال : فقرأ مزاحم كتابًا منها ، فلما فرغ من قراءته ، ناوَله عمر وهو قاعد على المنبر وفي يده جَلَم ، قال : فجعل يقصّه بالجلَم . واستأنف مزاحم كتابًا آخر ، فجعل يقرؤه ، فلما فرغ منه دفعه إلى عمر فقصَّه . ثم استأنف كتابًا آخر ، فما زال حتى نُودي بصلاة الظهر .

وفي رواية أخرى : وكأن مزاحمًا - مع فضله - لم يقنع بقوله ، فخرج مزاحم ، فدخل على عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، فقال : إن أمير المؤمنين قد همَّ بأمرٍ ، لَهو أضرُّ عليك وعلى ولد أبيك من كذا وكذا ؛ إنه قد همَّ بردِّ السهلة . قال عبد الله : وهي باليمامة ، وهي أمر عظيم . قال : وكان عيش ولده

منها . قال عبد الملك : فماذا قلتَ له ؟ قال : كذا وكذا . قال : بئس - لَعمْر الله - وزير الخليفة أنت !! قال : ثم قام ليدخل على عمر بن عبد العزيز وقد تبوَّأ مقيله ، قال : فاستأذن ، فقال له البواب : إنَّه قد تبوَّأ مقيله . قال : ما منه بدٌّ . قال : سبحان الله !! ألا ترحمونه ؟! إنما هي ساعته . قال : فسمع عمر صوته فقال : عبد الملك ؟ قال : نعم . قال : ادخل . فدخل . قال : ما جاء بك ؟ قال : إنَّ مزاحمًا أخبرني بكذا وكذا . قال : فما رأيك ؟ فإني أريد أن أقوم بالعشيَّة . قال : أرى أن تعجِّله ؛ فما تأمن أن يُحدِث الله بك حدَثًا . قال : فرفع يديه وقال : الحمد لله الذي جعل من ذرِّيتي مَن يُعينني على ديني . قال : ثم قام من ساعته ، فجمع الناس وأمر بردِّها .

نظر عمر رحمه الله في مزارعه ، فخرق سجلّات بها غيرَ مزرعتين : (خيبر) و (السويداء) ، فسأل عن خيبر : من أين كانت لأبيه ؟ قيل : كانت فيْئًا على عهد رسول الله ﷺ ، فتركها رسول الله ﷺ فيئًا على المسلمين ، حتى كان عثمان بن عفان فأعطاها مروان بن الحكم ، وأعطاها مروانُ عبدَ العزيز أبا عمر ، وأعطاها عبدُ العزيز عمرَ ، فخرق سجلّها وقال : إنما أتركها كما تركها رسول الله ﷺ . وبلغني أنها كانت (فدَك) .

أما خبر فدَك : فإن معاوية بن أبي سفيان كان قد وهبها لمروان بن الحكم ، فأعطى عبدَ الملك نصفها وعبدَ العزيز نصفها ، فوهب عبدُ العزيز حقَّه لعمر ولده ، فلما تُوفي عبد الملك طلب عمر إلى الوليد حقَّه فوهبه له ، وطلب إلى سليمان حقَّه فوهبه له ، ثم مَن بقي مِن أعيان عبد الملك ، حتى خلصت له ، فلقد وَلي عمر الخلافة وما يقوم به وبعياله إلا وهي تُغِلُّ كلَّ سنة عشرة آلاف أو أقل أو أكثر ، فسأل عنها فَحصَّ ، فأخبر بما كان أمرُها في عهد رسول الله ﷺ ، وأبي بكر وعمر وعثمان ، فكتب إلى أبي بكر بن حزم كتابًا ، يقول فيه : إني نظرتُ في أمر فدَك ، فإذا هو لا يصلح ، فرأيتُ أن أردَّها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ ، وأبي بكر وعمر وعثمان ، فاقبضها وولِّها

رجلًا ، يقوم فيها بالحقِّ ، وسلام عليك .

رحم الله عمر بن عبد العزيز ، لمَّا تولَّى الخلافة خرج مما كان في يده من القطائع ، وكان في يده (المكيدس) و (جبل الورس) باليمن ، و (فدَك) وقطائع باليمامة ، فخرج من ذلك كلِّه وردَّه إلى المسلمين ، إلَّا أنه ترك عينًا بالسويداء ، وكان استنبطها بعطائه ، فكانت تأتيه غلَّتها كلَّ سنة مائة وخمسون دينارًا أو أقلَّ أو أكثر ، فذكر له مزاحم يومًا أن نفقة أهله قد فنيتْ ، فقال : حتى تأتينا غلَّتنا . قال : فلم يَنشبْ أن قدَّم قيمةً بغلَّتِه وبجراب تمر صيحاني ، وبجراب تمر عجوة ، فنثره بين يديه ، وسمع أهلُه بذلك ، فأرسلوا ابنًا له صغيرًا ، فحفن له من التمر فانصرف، فلم يَنشب أن سمعنا بكاءه ، قد ضرب ، ثم أقبل بأمِّ الدنانير ، فقال : أمسكوا يديه . ثم رجَع يديْه ، فقال : اللهم بغِّضْها إليه كما حبَّبتها إلى موسى بن نصير . ثم قال : خلُّوه . فكأنما رأى به عقارب ، ثم قال : انظروا الشيخ الجزري المكفوف الذي كان يغدو بالأسحار ، فخذوا له ثمن قائد ؛ لا كبير فيقهَرَه ، ولا صغير يضعُف عنه . ففعلوا . ثم قال لمزاحم : شأنك ما بقي ، فأنفقْه على أهلك .

يرحم الله عمر ، لمّا ردَّ المظالم قال : إنه لَينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي . فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع ، فخرج منه ، حتى نظر إلى فصِّ خاتم ، فقال : هذا مما كان الوليد أعطانيه مما جاء من أرض المغرب . فخرج منه .

وعن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، قال : لمّا ولي عمر بن عبد العزيز ، جعل لا يدع شيئًا مما كان في يده ويد أهل بيته من المظالم إلَّا ردَّها ، مظلمة مظلمة . فبلغ ذلك عمر بن الوليد بن عبد الملك ، فكتب إليه : « إنك أزريتَ على من كان قبْلَك من الخلفاء ، وعبتَ عليهم ، وسرتَ بغير سيرتهم ، بُغضًا لهم ، وشنآنًا لمن بعدهم من أولادهم . قطعتَ ما أمر الله به أن يُوصَل ؛ إذ عمدتَ

إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلْتها بيت المال جورًا وعدوانًا . يا ابن عبد العزيز ، اتقِ الله وراقبْه إن شططتَ ، لم تطمئنَّ على منبرك حتى خصصتَ أول قرابتك بالظلم والجور . فوالذي خصَّ محمدًا ﷺ بما خصَّه به ، لقد ازددتَ عن الله بُعدًا في ولايتك هذه ، إذ زعمتَ أنها عليك بلاء ، فاقصرْ بعض ميلك . واعلم بأنك بعين جبار وفي قبضته ، ولن تُترَك على هذا » .

فلما قرأ عمر بن عبد العزيز كتابه ، كتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ؛ من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، إلى عمر بن الوليد : السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . أما بعد :

فإنه بلغني كتابك وسأجيبك بنحو منه ؛ أما أول شأنك يا ابن الوليد كما زُعم : فأُمُّك بنَّانة أمة السكون ، كانت تطوف في سوق حمص ، وتدخل في حوانيتها ، ثم الله أعلم بها ، اشتراها ذبيان بن ذبيان من فيء المسلمين ، فأهداها لأبيك ، فحملتْ بك ، فبئس المحمول وبئس المولود . ثم نشأتَ فكنتَ جبّارًا عنيدًا ، تزعم أني من الظالمين لما حرمتُك وأهل بيتك فيء الله عز وجل ، الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل ، وإنَّ أظلَمَ مني وأترَكَ لعهد الله ، مَنِ استعملك صبيًّا سفيهًا على جند المسلمين ، تحكم بينهم برأيك ، ولم تكن له في ذلك نية إلَّا حبُّ الوالد لولده ، فويل لك وويل لأبيك ، ما أكثر خُصماءكما يوم القيامة ! وكيف ينجو أبوك مِن خصمائه ؟ وإنَّ أظلَمَ مني وأترك لعهد الله ، مَنِ استعمل الحجَّاج بن يوسف على خُمس العرب يسفك الدم الحرام ، ويأخذ المال الحرام . وإن أظلَمَ مني وأترك لعهد الله ، مَنِ استعمل قرَّة بن شريك أعرابيًّا جافيًا على مصر ، أذِن له في المعازف واللهو والشرب . وإنَّ أظلَمَ مني وأترك لعهد الله ، من جعل لعالية البربرية سهمًا في خمس العرب . فرويدًا يا ابن بنانة ، فلو الْتقتْ حلْقتا البِطانِ ، ورُدَّ الفيء إلى أهله ، لتفرغتُ لك ولأهل بيتك ، فوضعتهم على المحجَّة البيضاء ، فطالما تركتم الحق وأخذتم في بُنيَّات الطريق ، وما وراء هذا من الفضل - ما أرجو أن أكون رأيتُه - بيْعُ رقبتك

وقسّم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل ، فإن لكلٍّ فيك حقًّا . والسلام علينا ، ولا يَنال سلامُ الله الظالمين » .

وعن ابن شوْذب ، قال : كتب عمر بن الوليد بن عبد الملك إلى عمر ابن عبد العزيز كتابًا يغلظ له ، فكتب عمر : « إنّ أظلم مني وأجور ، مَن ولّى عبدَ ثقيفٍ العراقَ ، فحكم في دمائهم وأموالهم . وإنَّ أظلم مني وأجور ، وأترك لعهد الله ، من وَلَّى قرَّة مصر ، جِلْفًا جافيًا . وإنَّ أظلم منِّي وأجور ، وأترك لعهْد الله مَنْ وَلَّى عثمان بن حيان الحجاز ، فأنشد الأشعار على منبر رسول الله ﷺ ، وإنما أمُّك كانت تختلف إلى حوانيت حمص ، فاشتراها ذبيان بن ذبيان ، فبعث بها إلى أبيك فحملتْ ، فبئس الجنين وبئس المولود !! ثم وضعتْكَ جبّارًا شقيًّا . لقد هممتُ أن أبعث إليك من يحلق جمَّتك فبئس الجمَّة !! » .

وعن إسماعيل بن أبي حكيم ، قال : أتى عمرَ بن عبد العزيز كتابٌ من بعض بني مروان ، فأغضبه ، فاستشاط ثم قال : إن لله مِن بني مروان يومًا - وقال نعيم : ذبحًا - وأيمُ الله ، لئن كان ذلك الذبح : على يديَّ .

فلما بلغهم ذلك ، كفُّوا وكانوا يعلمون صرامته ، وأنه إذا وقع في أمر مضى فيه .

وكان مما قاله عمر فيما كَتب لعمر بن الوليد : « ... وقسَم أبوك لك الخُمس كلَّه ، وإنما سهم أبيك كسهم رجل من المسلمين ، وفيه حقُّ الله ، وحق الرسول ، وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فما أكثر خصماء أبيك يوم القيامة ! فكيف ينجو مَن كثُر خصماؤه ؟! وإظهارك المعازف والمزامير بدعة في الإسلام . لقد هممتُ أن أبعث إليك من يَجزُّ جمَّتك ، جمَّة السوء ... » .

وقال رحمه الله مرة لآذِنه : لا يدخل عليَّ اليوم إلَّا مروانيّ . فلما

اجتمعوا عنده ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا بَني مروان ، إنكم قد أُعطيتُم حظًّا وشرفًا وأموالًا . إني لَأَحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها في أيديكم . فسكتوا ، فقال عمر : ألا تجيبوني ؟ فقال رجل من القوم : والله ، لا يكون ذلك حتى يُحال بين رؤوسنا وأجسادنا . والله لا نكفِّر آباءنا ، ولا نفقِّر أبناءنا . فقال عمر : والله ، لولا أن تستعينوا عليَّ بمن أطلب هذا الحق له ، لَأضرعتُ خدودكم . قوموا عني .

ولما قال هشام له : إنا والله لا نعيب آباءنا ، ولا نضع شرفنا في قومنا . فقال عمر : وأيُّ عيب أعيَبُ ممن عابه القرآن .

لأَسْكرَنَّ تلكَ السواقي حتى أُجريَه مجراهُ الأول :

عن نوفل بن أبي الفرات ، قال : كانت بنو أُمية يُنزلون فلانة بنت مروان على أبواب القصور ، فلما ولي عمر قال : لا يلي إنزالَها أحدٌ غيري . فأدخلوها على دابَّتها إلى باب قبَّته ، فأنزلها ثم طبق لها وسادتين ؛ إحداهما على الأخرى ، ثم أنشأ يمازحها ، ولم يكن من شأنها المزاح ، فقال : أما رأيتِ الحرس الذي على الباب ؟ قالت : بلى ، فربما رأيتُهم عند مَن هو خير منك . فلما رأى الغضب لا يتحلَّل عنها ، أخذ في الجدّ وترك المزاح ، فقال : يا عمة ، إن رسول الله ﷺ قُبِض ، فترك الناس على نهر مورود ، فولي ذلك النهر رجل فلم يستنقص منه شيئًا ، ثم ولي ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجلٌ آخر ، فلم يستنقص منه شيئًا ، ثم ولي بعد ذلك رجل آخر فكَرَى منه ساقية ، ثم لم يزل الناس يكرون منه السواقي حتى تركوه يابسًا ليس فيه قطرة . وأيم الله ، لئن أبقاني الله لأسكرَنَّ السواقي حتى أُعيده إلى مجراه الأول . قالت : فلا يُسبُّوا عندك إذن ؟ قال : مَن يسبُّهم ؟! إنما يرفع لَي الرجل مظلمته ، فأردّها عليه .

ودخلت عليه مرَّةً عمتُه أمُّ عمر ، فقالت : إنَّ قرابتك يشكونك ، ويزعمون أنك أخذتَ منهم خير غيرك . قال : ما منعتُهم حقًّا أو شيئًا كان لهم .

فقالت : إني رأيتُهـم يتكلّمون ، وإنّي أخاف أن يُهيّجوا عليـك يومًا عصيبًا . فقال : كلّ يـوم أخافـه دون يـوم القيامة ، فـلا وقاني الله شرَّه . قال : ودعـا بدينار وجنبٍ ومجمرة ، فألقى ذلك الدينار في النار ، وجعل ينفخ على الدينار ، حتى إذا احمر تناولَه بشيء ، فألقاه على الجنب ، فنش وقتر ، فقال : أي عمة ، أما تأوين لابن أخيك من مثل هذا ؟ فقامت فخرجت على قرابته ، فقالت : تزوِّجون آل عمر ، فإذا نزعوا إلى الشبه جزعتم ، اصبروا له .

وفي رواية : « لا تلوموا إلا أنفسكم ، عمدتم إلى صاحبكم فزوَّجتموه بنت ابن عمر ، فجاءتكم بعمر » .

ولمّا قال له عنبسة بن سعيد بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن مَنْ كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطونا عطايا منعتناها ، ولي عيال وضيْعة ، أفتأذن لي أن أخرج إلى ضيعتي وما يُصلح عيالي ؟ فقال عمر : أحبكم إلينا من كفانا مئونته . فخرج من عنده، فلمّا صار إلى الباب، قال عمر : أبا خالد ، أبا خالد . فرجع ، فقال : أكثر ذكْر الموت ، فإن كنتَ في ضيق من العيش وسّعه عليك ، وإن كنت في سعة من العيش ضيّقه عليك .

قال مزاحم : أتى ابنُ سليمان بن عبد الملك ، فقال : إن لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر . قال : فاستأذنتُ له فقال : أَدخله . فأدخلتُه على عمر . فقال ابن سليمان : يا أمير المؤمنين ، علَامَ تردُّ عليَّ قطيعتي ؟ قال : معاذَ الله أن أردَّ قطيعة رسخت في الإسلام ! قال : فهذا كتابي . فأخرج كتابًا من كُمِّه ، فقرأه عمـر ، فقال : لمن كانت هذه الأرض ؟ قال : للفاسق ابن الحجاج . قال عمر : فهو أولى بماله . قال : يا أمير المؤمنين ، فإنها من بيت مال المسلمين ! قال : فالمسلمون أولى بها . قال : يا أمير المؤمنين ، رُدَّ عليَّ كتابي . قال : لو لم تأتني به لم أسألكه ، فأما إذْ جئتَني به ، فلا ندعك تطالب بباطل . قال : فبكى ابن سليمان . قال مزاحم : فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، ابن سليمان تصنعُ به هذا ؟ قال : ويحك يا مزاحم ! إنها نفسي أحاول عنها ، وإني لأجد له من اللَّوْطِ ما أجد لولدي .

وعن بعض آل عمر : أن هشام بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، إنِّي رسول قومك إليك ، وإنّ في أنفسهم ما أكلِّمك به ؛ إنَّهم يقولون : استأنِفِ العمل برأيك فيما تحت يدك ، وخلِّ بين مَن سبقك وبين ما وُلُّوا ، بما عليهم ولهم . فقال له عمر : أرأيتَ إن أُتيتُ بسجلّين : أحدهما من معاوية ، والآخر من عبد الملك بأمر واحد ، فبأيِّ السجلَّين آخذ ؟ قال : بالأقدم . فقال عمر : فإني وجدتُ كتاب الله الأقدمَ ، فأنا حاملٌ عليه مَن أتاني ممن تحت يدي ، وفيما سبقني . فقال له سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان : يا أمير المؤمنين ، امضِ لرأيك فيما وُلِّيت بالحق والعدل ، وخلِّ عمَّن سبقك وعمّا وُلّي ؛ خيره وشرِّه ، فإنك مكتفٍ بذلك . فقال له عمر : أنشدك الله الذي إليه نعود ، أرأيتَ لو أن رجلًا هلك ، وترك بنين صغارًا وكبارًا ، فعزَّ الأكابرُ الأصاغرَ بقوَّتهم ؛ فأكلوا أموالهم، فأدركك الأصاغر فجاءوك بهم وبما صنعوا في أموالهم ، ما كنتَ صانعًا؟ قال : كنتُ أردُّ عليهم حقوقهم حتى يستوفوها . قال فإني وجدتُ كثيرًا ممن قبلي من الولاة ، عَزُّوا الناسَ بقوتهم وسلطانهم ، وعَزَّهم بها أتباعُهم ، فلما وُلِّيتُ أتوني بذلك ، فلم يسعني إلّا الرد على الضعيف من القوي، وعلى المستضعَف من الشريف. فقال: وفَّقك الله يا أمير المؤمنين .

عن إسماعيل بن أبي حكيم قال : كان عند عمر بن عبد العزيز ناس من بني مروان ، فحبسهم وقال لخبَّازه : إذا دعوت بالطعام فلا تعجلْ به . فحبسهم حتى تعالى النهار ، قال : وهم قوم لم يعتادوا ذلك . فمرَّ به الخباز فقال : ويحك ! ائتنا بطعامك . قال : نعم يا أمير المؤمنين الآن . قال : فلما أبطأ ، قال لهم : فهل لكم في سويق وتمر ؟ قال:فجيء بسويق وتمر فأكلوا ، فلما فرغوا جاء الخباز بالطعام فأمسكوا ، فقال : ألا تأكلون ؟ قالوا : والله ، يا أمير المؤمنين ، ما نقدر عليه . فقال لهم ذلك غير مرة ، فأبوا أن يأكلوا ، فقال : ويحكم يا بني مروان ففيم التقحُّم في النار ؟ فبكى والله وأبكى .

قال أبو بكر المروزي: سمعتُ أحمد بن حنبل- وذكر عمر بن عبد العزيز- قال : ما كان أشدَّه على بني أمية .

لباسُ عمرَ بن عبد العزيز :

قال رجاء بن حيوة : لما استُخلف عمر بن عبد العزيز قوَّموا ثيابه اثني عشر درهمًا : كمته وعمامته وقميصه ، وقباءه وقرطقه وخُفَّيه ورداءه .

قال نعيم : قلتُ لعمر بن عبد العزيز : ما يُقعدك ها هنا ؟ قال : أنتظر ثيابي تُغسل لأصعد بها المنبر .

عن يعقوب ، عن أبيه ، قال : كان عمر بن عبد العزيز يُذيل ثيابه ، ويُسرف في عِطْره ؛ فلقد كان يُدخل في طيبه حمل القرنفل ، ولقد رأيتُ العنبر على لحيته كالملح ، فلما أفضتْ إليه الخلافة ، ترَك ذلك وتبذَّل . قال : فأخبرني رياح بن عبيدة ، وكان تاجرًا من أهل البصرة يعامل عمر بن عبد العزيز ، يأمره وهو بالمدينة أن يشتري له جُبَّةَ خزٍّ ، قال : فاشتريتُها بعشرة دنانير ، ثم أتيتُه بها فمسَّها ، وقال : إني لَأستخشنُها . فلما ولي الخلافة أمرني فاشتريتُ له جُبَّة صوف بدينار ، فأتيتُه بها فجعل يُدخل يده فيها ويقول : ما ألينها . فقلتُ : عجبًا ! تستخشن الخزَّ أمس ، وتستلين الصوف اليوم ؟! قال : تلك حال ، وهذه حال .

عن يعقوب قال : أخبرني رجاء بن حيوة قال : كان عمر بن عبد العزيز من أعطر الناس ، وألبس الناس ، وأخيلهم في مِشيته . فلما استُخلف قوَّموا ثيابه اثني عشر درهمًا : كمته وعمامته وقميصه ، وقباءه وقرطقه وخُفَّيْه ورداءه .

عن عيسى بن سنان، قال : كان عمر بن عبد العزيز لا يبني بناء ، ويقول : سنة رسول الله ﷺ ، خرج من الدنيا و لم يضع لَبِنة على لَبِنة ، ولا قَصَبة على قصبة .

طعامُه :

عن نعيم بن سلامة ، قال : دخلتُ على عمر بن عبد العزيز وهو يأكل ثومًا بدقّة وزيت .

وقال : دخلتُ على عمر بن عبد العزيز فوجدتُه يأكل ثومًا مسلوقًا بزيت وملح.

وعن ابن شوذب ، قال : دخلتِ امرأة من المهالبة على فاطمة (امرأة عمر بن عبد العزيز) ، فلما رأتْها ورأتْ حالها ، قالت لها : هل تهيأ المرأة لزوجها إلّا بما يحبُّ ؟ قالت : لا . قالت : فإنه يحبُّ هدا مني .

قال عمر رحمه الله : ما تركتُ من الدنيا شيئًا إلّا عقبني في قلبي ما هو أفضل منه - يعني من الزهد - وما أنعم الله عليَّ في ديني أفضل .

قال أبو أمية - غلام عمر -: دخلتُ يومًا على مولاتي فغدَّتْني عدَسًا ، فقلت : كلّ يوم عدس ؟ قالت : يا بُني ، هذا طعام مولاك أمير المؤمنين .

وقال يونس بن أبي شبيب : شهدتُ عمر وهو يطوف بالبيت ، وإن حُجْزة إزاره لغائبة في عَكَنه ، ثم رأيتُه بعدما استُخلف ، ولو شئتُ أن أعدَّ أضلاعه من غير أن ألمسها لَفعلتُ .

عن أزهر ، قال : رأيتُ عمر بن عبد العزيز بـ « خناصرة » يخطب الناس عليه قميص مرقوع .

وأخبر ربيعة بن عطاء ، عن عمر بن عبد العزيز أنه أخَّر الجمعة يومًا عن وقته الذي كان يُصلّي فيه ، فقلتُ له : أخَّرتَ الجمعة عن وقتك ؟ فقال : إن الغلام ذهب بالثياب يغسلها ، فحبس بها . فعرفنا أن ليس له غيرها ، ثم قال : أما إني قد رأيتني وأنا بالمدينة ، وإني لأخاف أن يعجز ما رزقني الله عن كسوتي فقط . ثم تمثّل بهذا البيت :

قضى ما قضىٰ فيما مضىٰ ثم لم تكنْ ... له عودةٌ أخرى الليالي الغوابر

وعن عوْن بن المعتمر، قال: دخل عمر على امرأته فقال: يا فاطمة، عندك درهم أشتري به عنبًا ؟ قالت : لا . ثم أقبلتْ عليه فقالت: أنت أمير المؤمنين ، لا تقدر على درهم ولا ثمنه تشتري به عنبًا ؟! فقال : هذا أهون علينا من معالجة الأغلال في جهنم .

قال مالك بن دينار : الناس يقولون : مالك بن دينار زاهد ، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها .

قال أحمد بن أبي الحواري سمعتُ أبا سليمان الداراني ، وأبا صفوان يتناظران في عمر بن عبد العزيز وأويس القرني ؛ قال أبو سليمان لأبي صفوان : كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس . قال له : ولِمَ ؟ قال : لأن عمر ملك الدنيا فزهِد فيها . فقال له أبو صفوان : وأويس ، لو ملكها لزهد فيها مثل ما فعل عمر . فقال أبو سليمان : لا تجعلْ مَن جرَّب كمَن لم يجرِّب ، إن مَن جرت الدنيا على يديه ليس لها في قلبه موقع ، أفضل ممن لم تجرِ على يديه ، وإن لم يكن لها في قلبه موقع .

قال الزبير بن بكَّار : أتى عمر بن عبد العزيز منزله ، فقال : هل عندكم من طعام ؟ فأصاب تمرًا وشرِب ماءً ، وقال : من أدخله بطنه النار فأبعده الله .

وعن حفص بن عمر قال : احتبس عمر بن عبد العزيز غُلامًا له ، يحتطب عليه ويلقط له البعر ، فقال له الغلام : الناس كلهم بخيرٍ غيري وغيرك . قال : فاذهب فأنت حرٌّ .

كرَمُه ووَرَعُه :

قال عمر رحمه الله : ما أعطيتُ أحدًا مالًا إلَّا وأنا أستقلُّه ، وإنِّي لأستحي من الله عز وجل أن أسأل الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بالدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قِيل لي : لو كانت الجنة بيدك ، كنتَ بها أبخل .

قال أبو شيبان : بعث معي عمارة بن نسي إلى عمر بسلَّتيْن من رطب ،

أول ما جاء الرطب ، فأتيتُه بهما فقال : علامَ جئتَ بهما ؟ قلتُ : على دوابِّ البريد . قال : فاذهب فبعهما . فذهبتُ فبعتُهما بثمانية عشر درهمًا ، فاشتراهما مني رجل من بني مروان ، فأهداهما إلى عمر ، فلما أُتي بهما قال : يا أبا شيبان ، كأنهما السلّتان اللتان أُتينا بهما . قال : قلتُ : نعم . فوضع إحداهما بين أيدينا فأكلنا منها ، وبعث الأخرى إلى امرأته ، وألقى ثمنهما في بيت المال .

قال عمر بن عبد العزيز : وددتُ أن عندي عسَلًا من عسل (سنِّير) أو (لبنان) . فسمعتْ فاطمة بنت عبد الملك ، فحمَّلتْ بعض غلمانها ، أو بعض مواليها ، إلى ابن معدي كَرِب ، وهو عامل ذلك المكان : إن أمير المؤمنين قد تشهَّى من عسل سنير أو لبنان . فأرسل إليه بعسل كثير ، فلما انتهى بالعسل إليها ، أرسلت به إلى عمر ، فقالت : هذا الذي تشهَّيتَ . فقال : كأني بك يا فاطمة قد بعثتِ بعضِ مواليك إلى ابن معدي كرب . فأمر بذلك العسل ، فأُخرج إلى السوق ، فبيع وأُدخل ثمنه بيت مال المسلمين ، ثم كتب إلى ابن معدي كرب : إن فاطمة بعثتْ إليك تُخبرك أني تشهَّيتُ عسلًا من عسل سنير أو لبنان ، فبعثتَ إليها ، وأيمُ الله ، لئنْ عدتَ إلى مثلها لا تعمل لي عملًا أبدًا ، ولا أنظر إلى وجهك .

وانظر إلى ورَعه رحمه الله ؛ فإنه كان لا يحمل على البريد إلا في حاجة المسلمين .

قال رياح بن عبيدة : كان عمر بن عبد العزيز يُعجبه أن يأْتَدِم بالعسل ، فطلب من أهله يومًا عسلًا فلم يكن عنده ، فأتوه بعد ذلك بعسل ، فأكل منه فأعجبه ، فقال لأهله : من أين لكم هذا ؟ قالت امرأته : بعثتُ مولاي بدينارَيْن على بغل البريد فاشتراه لي . فقال : أقسمتُ عليك لما أتيتِني به . فأتتْه بعكة فيها عسل ، فباعها بثمن يزيد ، وردَّ عليها رأس المال ، وألقى بقيَّته في بيت مال المسلمين ، وقال : نصبتِ دوابَّ المسلمين في شهوة عمر ؟!.

عن فاطمة بنت عبد الملك قالت : اشتهى عمر بن عبد العزيز يومًا عسلًا ،

فلم يكن عندنا ، فوجَّهْنا رجلًا على دابَّة من البريد إلى « بعلبك » ، فأتى بعسل ، فقلنا يومًا : إنك ذكرتَ عسلًا ، وعندنا عسل ، فهل لك فيه ؟ قال : نعم . فأتينا به ، فقرب ثم قال : من أين لكم هذا العسل ؟ قالت : وجَّهنا رجلًا ، على دابة من دوابِّ البريد بدينارين إلى بعلبك ، فاشترى بها لنا عسلًا فأرسل إلى الرجل فجاءه ، فقال : انطلقْ بهذا العسل إلى السوق فبعْه ، فارددْ إلينا رأس مالنا ، وانظر إلى الفضل ، واجعله في بيت مال المسلمين علفَ دوابِّ البريد ، ولو ينفع المسلمين قيْئي لَتقيّأْتُ .

وعن فرات بن مسلم قال : اشتهى عمر بن عبد العزيز تُفَّاحًا ، فطُلب له فلم يُوجد ، فركب وركبنا معه ، فتلقَّاه غلمان من الديارنة بأطباق فيها تفاح . فوقف على طبق منها ، فتناول منه تفاحة فشمَّها ثم أعادها في الطبق ، ثم قال : ادخلوا ديركم ، لا أعلم أنكم بعثتم إلى أحد من أصحابي بشيء . قال : فحركتُ بغلتي فلحقتُه ، فقلت: يا أمير المؤمنين، اشتهيتَ التفاح وطُلب لك فلم يوجد ، ثم أُهدي إليك فرددتَه ، ألم يكن رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، يقبلون الهدية ؟ قال : إنها كانت لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، هدية ، وللعمَّال بعدهم رشوة .

وعن الفهري ، عن أبيه : كان عمر بن عبد العزيز يقسِّم تفاح الفيء ، فتناول ابن له صغير تفاحة ، فانتزعها مِن فِيهِ فأوجعه ، فسعى إلى أُمه مستعبِرًا ، فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحًا ، فلما رجع عمر وجد ريح التفاح ، فقال : يا فاطمة ، هل أُتيتِ شيئًا من هذا الفيء ؟ قالت : لا . وقصَّت عليه القصة ، فقال : والله لقد انتزعتُها من ابني ، لكأنما انتزعتُها من قلبي ، لكن كرهتُ أن أضيع نفسي من الله عز وجل ، بتفاحة مِن فيء المسلمين .

وقال ابن السماك : كان عمر بن عبد العزيز يقسِّم تفاحًا بين المسلمين ، فجاء ابنٌ له فأخذ تفاحة من ذلك التفاح ، فوثب إليه ففكَّ يده ، فأخذ تلك التفاحة، وطرحها في التفاح، فذهب إلى أمه مستعبِرًا، فقالت له: ما لكَ أي بُني ؟

فأخبرها ، فأرسلت بدرهميْن ، فاشترتْ له تفاحًا وأطعمته ، ورفعت لعمر . فلما فرغ مما بين يديه ، دخل إليها ، فأخرجت له طبقًا من تفاح ، فقال : من أين هذا ؟ فأخبرته ، فقال : رحمك الله ، والله إن كنتُ لَأشتهيه .

وعن خالد بن أبي الصلت قال : أُتي عمر بن عبد العزيز بماءٍ قد سُخِّن في فحم الإمارة ، فكرهه ولم يتوضَّأ منه .

وعن يعقوب ، عن أبيه ، قال : قال عمر بن عبد العزيز : أسخنوا لي ماء أغتسل به للجمعة ، قال : قيل له : يا أمير المؤمنين ، لا والله ما عندنا عُود حطب نوقده به . قال : فذهبوا بالقُمْقُم إلى المطبخ (مطبخ المسلمين) . قال : ثم جاءوا بالقمقم ، فقالوا : هذا القمقم يا أمير المؤمنين ، وهو يفور . فقال : ألم تخبروني أنه ليس عندكم حطب ؟ لعلَّكم ذهبتم به إلى مطبخ المسلمين ؟ قالوا : نعم . قال : ادعوا لي صاحب المطبخ . فلما جاءه ، قال له : قيل لك : هذا قمقم أمير المؤمنين فأوْقدتَ تحتَه ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما أوقدتُ تحته عُودًا واحدًا ، وإن هو إلَّا جمْر لو تركتُه لخمد حتى يصير رَمَادًا . قال : بكمْ أخذتَ الحطب ؟ قال : بكذا قال : أَدُّوا إليه ثمنه .

أخذ عمر بيده اليمنى على ذراعه اليسرى، فقال: إن هذا اللحم والعظم إنما نبت من مال الله ، فإني – والله – إن استطعتُ لا أعيد فيه منه شيئًا أبدًا .

وعن محمد بن قيس – قاصِّ عمر بن عبد العزيز – قال : خرج علينا يومًا مزاحم فقال : لقد احتاج أهل أمير المؤمنين إلى نفقة ، ولا أدري من أين آخذها ، ولا أدري ممن أستلفها . قال : قلتُ : لولا قلَّة ما عندي لعرضتُه عليك . قال : وكم عندك ؟ قلت : خمسة دنانير . قال : والله ، إن في خمسة دنانير لبلاغًا ، فأعطِنيها . فدفعتُها إليه . ثم أتاه مال من أرض عمر باليمن ،

قال: فمر عليَّ مزاحم مسرورًا، وقال: قد جاءنا مال من أرض لنا ، نقضيك الآن تلك الخمسة الدنانير . قال : فدخل ثم خرج وإحدى يديه على رأسه ، وهو يقـول : أعظم الله أجرَ أمير المؤمنين ، أعظم الله أجر أمـير المؤمنين . قـال : قلنا : أجل ، أعظم الله أجر أمير المؤمنين ، وما ذاك ؟ قال : أمر بهذا المـال الذي جاء من أرضه أن يدخل بيت مال المسلمين . فـلا أدري كيـف تحيَّل لي في الخمسة حتى قضاني .

ودخل جرير على عمر بن عبد العزيز ، فقال له :

إنَّـا لَنـرجـو إذا مـا الغيـثُ أخلَفَنـا — مِن الخليفةِ مـا نـرجو مِنَ المطـرِ
أأذكـر الضـرَّ والبـلوى التي نزلتْ — أم أكتفي بالذي أُنبئت منْ خبري
مـا زلـتُ بعـدَك في دارٍ تقحِّمني — وضاق بالحي إصعادي ومُنحدري
لا ينفعُ الحاضرُ المهجودُ بادينـا — ولا يعـودُ لنـا بـادٍ على حضـري
كم بالمواسمِ مـنْ شعثـاءَ أرملـةٍ — ومن يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والنظرِ
أذهبـتَ خلّتـهُ حتـى دعـا ودعـتْ — يا ربِّ بارِكْ لِطرِّ الناسِ في عُمرِ
ممَّـن نعـدُّك تكفـي فقْـدَ والـدِهِ — كالفرْخِ في الوكْرِ لم ينهضْ ولم يطِرِ
هذي الأراملُ قدْ قضيَّتَ حاجتَها — فمَن لحـاجة هذا الأرْمـلِ الـذكرِ

فترقرقتْ عينا عمر ، وقال : إنَّك لَتصف جهدك . فقال : ما غاب عني وعنك أشـدُّ . قال : فجهَّز إلى الحجاز عِيرًا يحمل الطعام والكسـي والعطـاء يُبَثُّ في فقرائهم . ثم قال : أخبرني : أمِنَ المهاجرين أنت يا جرير ؟ قال : لا . قال : فبينك وبين الأنصار رَحِم أو قرابة أو صهر ؟ قال : لا . قال : فممَّن يقاتل على الفيء أنت ؟ ويُجلِب على عدو المسلمين ؟ قال : لا . قال : فلا أرى لك في شيء من هذا الفيء حقًّا . قال : بلى والله ، لقد فرض الله لي فيه حقًّا ، إنْ لم تدفعني عنه . قال : ويحك ! وما حقُّك ؟ قال : ابن السبيل أتاك مـن شُقَّة بعيدة ، فهو منقطع به على بابـك . فقـال : إذنْ أُعطيـك . فـدعـا

بعشرين دينارًا فضَلَتْ من عطائه ، فقال : هذه فضلت من عطائي ، وإنما يعطى ابن السبيل من مال الرجل ، ولو فضل أكثر من هذا أعطيتك ، فخذها ، فإن شئتَ فاحمدْ ، وإن شئتَ فذِمَّ . قال : بل أحمدُ يا أمير المؤمنين . فخرج ، فجهشتْ إليه الشعراء وقالوا: ما وراءك يا أبا حرزة ؟ قال: ليلحق الرجل منكم بمطيَّته، فإني خرجتُ من عند رجل يعطي الفقراء ولا يعطي الشعراء ، وإني عنه لراضٍ . قال :

وجدتُ رُقَى الشيطانِ لا تستفزُّهُ ... وقد كان شيطاني مِن الجنِّ راقيا

حِلْمُه وصفْحُه :

كان لعمر بن عبد العزيز ابن من فاطمة ، فخرج يلعب مع الغلمان، فشجَّه غلام ، فاحتملوا ابن عمر والذي شجَّه ، فأدخلوهما على فاطمة ، فسمع عمر الجَلَبة وهو في بيت آخر فخرج ، وجاءت مُريئة فقالت : هو ابني ، وهو يتيم . فقال : له عطاء ؟ قالت : لا . قال : اكتبوه في الذُّرِّيَّة . قالت فاطمة : فعَل الله به وفعل ، إن لم يشجَّه مرة أخرى . قال : إنكم أفزعتموه .

وعن عبد الملك ، قال : قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته ، وعرض له رجل بيده طومار ، فظنَّ القوم أنه يريد أمير المؤمنين ، فخاف أن يُحبَس دونه ، فرماه بالطومار ، والتفت أمير المؤمنين ، فأصابه في وجهه فشجَّه ، فنظرتُ إلى الدماء تسيل على وجهه وهو في الشمس، فقرأ الكتاب، وأمر له بحاجته وخلَّى سبيله .

وخرج ليلة ومعه حرس ، فدخل المسجد فمر في الظُّلْمة برجل نائم ، فعثر به ، فرفع رأسه ، فقال : أمجنون أنت ؟ قال : لا . فهمّ به الحرس ، فقال له عمر : مَهْ ! إنما سألني : أمجنون أنت ؟ فقلت : لا .

وأسمعَ رجلٌ عمرَ كلامًا ، فقال له عمر : أردتَ أن يستفزَّني الشيطان بعزِّ السلطان ، فأنال منك اليوم ما تنال مني غدًا ؟! ثم عفا عنه .

تعبُّدهُ واجتهادُه :

قال سعيد بن عبد الملك : بتُّ عند أختي فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز ، فلمَّا أمسينا دخل البيت ، وفي البيت تابوت ، قال : ففتحه فأخرج ثوبَي شعر ، ووضع ثيابه ، ثم لبسها ، ثم قام يصلي .

وكان لعمر سفَط فيه دراعة من شعر وغُلٍّ، وكان له بيت في جوْف بيت يصلِّي فيه، لا يدخل فيه أحد، فإذا كان في آخر الليل، فتح ذلك السفَط، ولبس تلك الدراعة ، ووضع الغُلَّ في عنقه ، فلا يزال يناجي ربَّه ويبكي حتى يطلع الفجر ، ثم يعيده في السفط .

ولما مات عمر كان استودع مولًى له سفطًا يكون عنده ، فجاءوه فقالوا : السفط الذي كان استودعك عمر . فقال : ما لكم فيه خير . فأَبَوا ، حتى رفعوا ذلك إلى يزيد بن عبد الملك ، فدعا بالسفط ، ودعا بني أُمية وقال : خَبْركم هذا قد وجدنا له سفَطًا وديعةً قد استودعها . فدعا به ، فجاءوا به ففتحوه ، فإذا فيه مقطَّعات من مسحٍ كان يلبسها بالليل .

قال إبراهيم بن عبيد بن رفاعة : شهدتُ عمر بن عبد العزيز ، ومحمد بن قيس يحدِّثه ، فرأيتُ عمر يبكي حتى اختلفتْ أضلاعُه .

وقال عبد السلام مولى مسلمة بن عبد الملك : بكى عمر ، فبكت فاطمة ، فبكى أهل الدار ، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء ! فلمَّا تجلَّى عنهم العسر ، قالت له فاطمة : بأبي أنت يا أمير المؤمنين ، ممَّ بكيتَ ؟ قال : ذكرتُ يا فاطمة منصرفَ القوم من بين يدي الله ؛ فريق في الجنة وفريق في السعير . قال : ثم صرخ وغُشي عليه .

وقال النضري بن عدي : دخلتُ على عمر فرأيتُه هكذا : قد نصب ركبتيه ووضع يديه عليها ، وذقنُه على ركبتيه ، وكأنَّ عليه بَثّ هذه الأمة .

وكان عمر رحمه الله إذا ذُكر الموت ، انتفض انتفاض الطيْر وبكى ، حتى

تجري دموعه على لحيته .

قال عطاء : كان عمر بن عبد العزيز يجمع كُلَّ ليلة الفقهاءَ ، يتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون ، حتى كأنَّ بين أيديهم جنازة .

وعن الحسن بن عميرة قال : اشترى عمر بن عبد العزيز جارية أعجمية ، فقالت : أرى الناس فرِحين ، ولا أرى هذا يفرح . فقال : ما تقول لُكَع ؟ فقيل له : إنها تقول كذا وكذا . فقال : ويحها ! حدِّثوها أن الفرح أمامها .

وعن ميمون بن مهران قال : حدَّثت عمر بن عبد العزيز بحديث فيه شدَّة ، فلم يزل يبكي حتى بكى الدمَ .

وعن مولًى لعمر ، قال : استيقظ ذات ليلة باكيًا ، فلم يزل يبكي حتى استيقظت . قال : وكنتُ أبيتُ معه ، وربما منعني النومَ كثرةُ بكائه . قال : فأكثر ليلتئذٍ البكاء جدًّا ، فلما أصبح دعاني ، فقال : أي بُنَّي ، ليس الخير أن يُسمَع لك ويُطاع ، إنما الخير أن تكون قد عقلتَ عن ربك ثم أطعتَه . يا بنَّي ، لا تأذنِ اليوم لأحد عليَّ حتى أُصبحَ ويرتفع النهار ، فإني أخاف أن لا أعقل عن الناس ولا يفهمون عني . قلتُ : بأبي أنتَ يا أمير المؤمنين ؛ رأيتُك الليلة بكيتَ بكاءً ما رأيتُك بكيتَ مثله ؟ قال : فبكى ثم بكى ، ثم قال : يا بُنَّي ، إني والله ذكرتُ الوقوفَ بين يدي الله . قال : ثم أُغمي عليه ، فلم يفقْ حتى علا النهار . قال : فما رأيتُه بعد ذلك مبتسمًا حتى مات .

وقال محمد بن قيس قاصُّ عمر بن عبد العزيز : ما رأيتُ أحدًا من خلْق الله أكثر بكاءً منه .

رحم الله عمر ... صعِد مرة المنبر فخطب ، فقرأ : ﴿ **إذا الشمس كُوِّرت وإذا النجومُ انكدرتْ** ﴾ حتى انتهى إلى قوله : ﴿ **وإذا الجحيمُ سُعِّرتْ وإذا الجنةُ أُزلفتْ** ﴾ [التكوير : ١ - ١٣] ، فبكى ، وأبكى أهل المسجد حتى ارتجَّ المسجد بالبكاء ، حتى كأنَّ حِيطان المسجد تبكي معه .

قال الوليد : سمعتُ رجلًا يحدِّث الأوزاعي ، عن جسر ، عن عمر بن عبد العزيز ،

قال : ذكرنا شيئًا مما كان فيه ، فبكى حتى رأينا خلَل الدمِ في الدمع . فقال الأوزاعي : قد بلغنا البكاء عن البكّائين ؛ عن داود عليه السلام فَمَنْ دونه ، ما بلغنا أن أحدًا صار إلى هذا غير عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله .

وعن ميمون بن مهران ، قال : قال عمر بن عبد العزيز : حَدِّثْني يا ميمون ، قال : فحدَّثتُه حديثًا بكى منه بكاءً شديدًا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو علمتُ أنك تبكي هذا البكاء ، لَحدَّثتُك بحديثٍ ألْيَن من هذا . فقال : يا ميمون ، إنَّا نأكل هذه الشجرة (العدس) ، وهي -- ما عَلمْتَ - مُرِقَّة للقلب ، مُغزرة للدمعة ، مُذِلَّة للجسد .

عن أبي سريع الشامي ، قال عمر بن عبد العزيز لرجل من جلسائه : أبا فلان ، لقد أرقتُ الليلة مفكِّرًا . قال : فيمَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : في القبر وساكنه ، إنك لو رأيتَ الميت بعد ثلاثة - أو قال : ثالثة - في قبره ، لَاستوحشتَ من قُرْبه بعدَ طُول الأنْس منك بناحيته ، ولَرأيت بيتًا يجول فيه الهوامُّ ، ويجري فيه الصديد ، وتخترقه الديدان ، مع تغيُر الريح ، وبِلَى الأكفان بعد حسن الهيئة ، وطيب الريح ، ونقاء الثوب . قال : ثم شهِق شهقة خرَّ مغشيًّا عليه ، فقالت فاطمة : ويحك يا مزاحم ! أخرج هذا الرجل عنا ، فلقد نغَّص علينا أمير المؤمنين الحياة منذ ولي ، فليته لم يلِ قال : فخرج الرجل ، وجاءت فاطمة ، فجعلت تصبُّ على وجهه الماء وتبكي ، حتى أفاق من غشيته ، فرآها تبكي ، فقال : يا فاطمة ، ما يُبكيكِ ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، رأيتُ مصرَعك بين أيدينا ، فذكرتُ مصرعك بين يدي الله للموت ، وتخلِّيك من الدنيا وفراقك لها ، فذاك الذي أبكاني . قال : حسبك يا فاطمة ! فلقد أبلغتِ . ثم مال ليسقط ، فضمَّته إلى صدرها - أو قال : إلى نفسها - فقالت : بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين ، ما نستطيع أن نكلِّمك بكلِّ ما نجد لك في قلوبنا . فلم يزل على حاله تلك حتى حضرت الصلاة ، فصبَّتْ على وجهه ماء ثم نادته : الصلاة يا أمير المؤمنين . فأفاق فزِعًا .

قال المغيرة بن حكيم : قالت لي فاطمة بنت عبد الملك ، امرأة عمر ابن عبد العزيز : يا مغيرة ، إنَّه قد يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر ، وما رأيتُ أحدًا قطُّ ، كان أشدَّ فَرَقًا من ربه من عمر ، كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده ، ثم رفع يديه ، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عيناه ، ثم ينتبه ، فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه .

وعن عطاء ، قال : دخلتُ على فاطمة بنت عبد الملك ، بعد وفاة عمر ابن عبد العزيز ، فقلت لها : يا بنتَ عبد الملك ، أخبريني عن أمير المؤمنين . قالت : أفعل ، ولو كان حيًّا ما فعلت ؛ إنَّ عمر رحمه الله ، كان قد فرَّغ نفسه وبدنه للناس ، كان يقعد لهم يومَه ، فإن أمسى عليه بقيَّة من حوائج الناس يومه ، وصله بليلته ، إلى أن أمسى مساء ، وقد فرغ من حوائج يومه ، فدعا بسراجه الذي كان يسرج له من ماله ، ثم قام فصلَّى ركعتين ، ثم أَقْعَى[1] واضعًا رأسه على يده، تسايل دموعُه على خدِّه ، يَشْهَقُ الشَّهْقَة، وأقول : قد خرجتْ نفسه ، أو انصدعتْ كَبِده . فلم يزل ليلَته حتى برق له الصبح ، ثم أصبح صائمًا . قالت : فدنوتُ منه فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، لسيء ما كان فيك الليلة ، ما كان منك ؟ قال : أجل ، فدعيني وشأني ، وعليك بشأنِك ، قالت : قلتُ له : لأني لأرجو أن أتعظ . قال : إذن أخبرك ، إني نظرتُ إليَّ ، فوجدتُني قد وليتُ أمر هذه الأمة : صغيرها وكبيرها ، وأسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الغريب الضائع ، والفقير المحتاج ، والأسير المفقود ، وأشباههم ، في أقاصي البلاد ، وأطراف الأرض ، فعلمتُ أنَّ الله سائلي عنهم ، وأن محمدًا ﷺ حجيجي فيهم ، فخفتُ أن لا يثبت لي عند الله عذر ، ولا يقوم لي مع رسول الله ﷺ حُجَّة ، فخفتُ على نفسي خوفًا دمَعتْ له عيني ، ووجل له قلبي ، وأنا كلما ازددتُ لها ذكرًا ، ازددتُ منه وجَلًا ، وقد أخبرتُك ، فاتعظي الآن أو دعي .

---

(١) استند إلى ما وراءه .

وبكتْ فاطمة بنت عبد الملك حتى عشي بصرُها ، فدخل عليها أخواها : مسلمة وهشام ابنا عبد الملك ، فقالا : ما هذا الأمر الذي قدمتِ عليه ؟ أجزعُكِ على بعْلك ؟ فأَحقُّ من جزع على مثِله ، أم على شيء فاتَكِ من الدنيا ؟ فها نحن بين يديك ، وأموالنا ، وأهلونا . فقالت : ما من كلٍّ جزعتُ ، ولا على واحدة منها أسفتُ ، ولكني - والله - رأيتُ منه ليلةً منظرًا ، فعلمتُ أن الذي أخرجه إلى ذلك الذي رأيت منه، هولٌ عظيم قد أسكنَ قلبَه معرفتَه. قالا : وما رأيتِ منه ؟ قالت : رأيتُه ذات ليلة قائمًا يصلّي ، فأتى على هذه الآية : ﴿ **يَوْمَ يكونُ الناسُ كالْفَراش المبْثُوثِ وتكُونُ الجبَالُ كالْعِهْنِ المنْفوش** ﴾[القارعة : ٤ - ٥] ، فصاح : واسَوْءَ صباحاه !! ثم وثب فسقط، فجعل يخور حتى ظننتُ أن نفْسَه ستخرج، ثم إنه هدأ، فظننتُ أنه قد قضى. ثم أفاق إفاقة، فنادى: يا سوء صباحاه !! ثم وثب ، فجعل يجول في الدار ، ويقول : ويلي من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعِهن المنفوش . قالت : فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر ، ثم سقط كأنه ميِّت ، حتى أتاه الأذان للصلاة ، فوالله ما ذكرتُ ليلته تلك ، إلَّا غلبتني عيناي ، فلم أملك ردَّ عَبْرتي .

قال يزيد بن حوْشب : ما رأيتُ أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز ، كأن النار لم تُخلَق إلّا لهما .

قال عمر بن عبد العزيز : بؤْسًا لمن كان بطنه أكبرَ همِّه .

وقال رحمه الله : الفِعَال أولى بالمرء مِنَ القول .

وعن مسعود بن بشر : أن رجلًا قال لعمر بن عبد العزيز - لما وَلي الخلافة -: تفرَّغْ لنا . فقال :

قـد جـاءَ شغـلٌ شـاغِـلٌ وعدلتُ عن طُرُق السلامهْ
ذهـبَ الفـراغُ فـلا فَـرَا غَ لنـا إلـى يـوم القيامـهْ

وكان عمر رضي الله عنه يتمثَّل بهذه الأبيات :

يُرى مستكينًا وهْو للَّهْو ماقِتٌ ... بِهِ عنْ حديثِ القومِ ما هو شاغِله
وأزعَجَهُ عِلمٌ عن الجهل[١] كلِّهِ ... وما عالمٌ شيئًا كمنْ هو جاهِلُهْ
عبوسٌ عن الجُهَّالِ حينَ يراهُمُ ... فليسَ لهُ منهمْ خدِينٌ[٢] يهازِلُهْ
تذكَّرَ ما يبقى منَ العيشِ آجلًا ... فأشغلَهُ عن عاجل العيشِ آجلُهْ

رحمك الله يا سليمان بن عبد الملك ، حين هتفتَ بعبارتك المأثورة الباهرة : « واللهِ لأَعقدنَّ لهم عقدًا ، لا يكون للشيطان فيه نصيب » !! وعهدتَ بالأمر من بعدك إلى القدِّيس ... المعجزة عمر بن عبد العزيز .

إن الكتابة عن عمر بن عبد العزيز هي حقٌّ للإسلام الذي كان ابن عبد العزيز ابنَه البارَّ ومِلْكيته الثمينة ، وثمرته ومعجزته .

أَلَا إن نبأ عمرَ لَعجيب !! وإن تصوُّره - مجرَّد تصوّره - لَأَمرٌ مُمعِن في الصعوبة يا رجال .

وإنَّ أوْثق الروايات نقلتْ إلينا عنه آيات نيِّرات في صدق تاريخيّ عظيم ، جاءتنا أنباء هذا الإنسان الباهر ، والحاكم القِدِّيس ...!! هذا الحشد الهائل من الحقائق التي تحكي لنا جلال قداسته .. وروعة بساطته .. وسموَّ عدله ونُبْل رُوحه .. وإعجاز مسلكه ...!!

وإذا كانت الحكمة العربية تقول : مَن أخصب تخيَّر .. فإني أجدها الآن : من أخصب تحيَّر[٣] .

في الذُّرا الشاهقة كان مكان عمر بن عبد العزيز بين الملوك والخلفاء ...

---

(١) في رواية أخرى : وأزعجه خوف عن اللهو كلِّه .
(٢) صاحب .
(٣) خلفاء الرسول لخالد محمد خالد صـ٤٦٥ - ٤٦٦ .

وهو وإن لم يَنتمِ لعصر الوحي - « خلافة النبوة ثلاثون عامًا » - إذْ تفصِله عنه عشرات الأعوام ؛ فإنه بقداسة روحه وجلال نُسُكه ، ينتمي إليه أروع وأجمع وأوثق ما يكون الانتماء ...

كلِمَاتٌ للحياة :

يقول الأستاذ خالد محمد خالد في كتابه عن عمر بن عبد العزيز .. « معجزة الإسلام » : إنه لا ينتمي لعصر الوحي فحسب .. بل إنه الرجل الذي حاول نقل عصر الوحي بمُثُله وفضائله إلى دنيا مائجة هائجة ، ثم نجح في محاولته نجاحًا يبهر الألباب ... !!

فهل نَدهش ونَذهل ؛ لأنه بمفرده حاول تحقيق هذا المستحيل ؟! أم ندهش ونذهل ؛ لأنه بمفرده قد حقَّق المستحيل فعلًا .. وجعل من المُلك العَضوض الذي شاده الأُمويُّون عبْرَ ستين عامًا ، خلافة أوَّابة عادلة بارَّة ، تمثِّل كل فضائل وشمائل عصر النبوة والوحي ؟!

ومتى ..؟! ليس في عشرين عامًا .. ولا في عشرة أعوام .. بل في عامين ، وخمسة أشهر ، وبضعة أيام ..!!

على أنه ليس في هذا التوفيق العظيم والقدرة الخارقة ، ما يجذب - وحده - انبهارنا .. فهناك تلك الميزة الفريدة التي جعلت من « ابن عبد العزيز » ومن سيرته ، أكثر الحقائق الإنسانية إثارة للعجَب والبهْر والإجلال ، والتي جعلت منه أسطورة أصدق من الحقيقة ...وحقيقة أعجب من الأساطير ..!!

فهو لم يشغل الناس والتاريخ بكثرة عبادته ، ووفرة عدله ورحمته ، وسموِّ حُكْمه وخلافته ، فحسب ، بل إنه - قبل ذلك كلِّه - شغل الناس والتاريخ ، وبهَرهما بذلك الانقلاب الروحي المذهل ، وبالظروف التي أحدثتْه وواكبته . فقد يكشف منصب الحكم والخلافة في شاغله عن عبقرية في التنظيم ، والإدارة ،

والسياسة . أما أن يكون هذا المنصب بكل إغرائه وفتونه وزهوه وسلطانه ، سببًا مباشرًا لتفجير عبقرية الروح والقداسة، فذلك ما يصعُب تصوُّره، فضلًا عن تفسيره !! وهـذا هـو الذي حدث بالنسبة لـ « عمر بن عبد العزيز » ؛ فعلى الرغم من أنه كان قبل استخـلافه ، وطَوالَ سِني عمره طاهرًا صالحًا فاضلًا ، فـإن ذلك كله لا يبدو شيئًا مذكورًا أمام حياته ومسلكه ، ... بعد القفزة المجيدة والمباغتة ، التي حدث خلالها أعظم وأندر انقلاب روحي شهدناه في كلّ بني الإنسان !!

ويزيد الأمـرَ عجبًا ، أنَّ هذا الانقلاب الباهر ، تـمَّ بتكـامُله المطلق في بضع دقائقَ من الزمان .. وأن هذا الانقلاب الروحي المعجز ، لم يجئ ثمرةَ طارئ يُغري بالزهد ، ويدفع للعزلة والإخبات .. بل هو على النقيض من ذلك ، ثمرة مفاجأة تُفجِّر في النفس - مهما يكن ورَعها وتُقاها - كلَّ رغبات الحياة المتأنِّقة ، ومباهجها المتألِّقة !!

أجَلْ .. ففي الدقائق - وإن شئتم ففي اللحظات - التي هُتف فيها باسمه خليفـة وحاكمًا لأعظم إمبراطوريات عصره وعالَمه ، تمَّ هذا الانقـلاب الذي يتحدَّى كلَّ وصف وكلَّ تصوير !! والرجل الذي كان قبل دقائق استخلافه يُضمِّخ ثيابه بأغلى العطور ، ويسكن أعلى القصور ، ويلبس أبهى الحُلَل ، ويأكل أطيب الطعام ، ويركب الصافناتِ الجِيَاد ، ويبلغ دخلُه السنوي أربعين ألف دينار ، هذا الرجل ذاتُه ، يصير بعد دقائق - لا أيام ولا ساعات - إنسانًا آخر ، عِطرُه عَرَقُه .. وجياده قدماه .. وملبسه من أخشن الثياب .. ومطعمه من أجشب الطعام .. ودخلُه لا شيء ؛ فقد حمل كلَّ ثروته إلى بيت المال .. وقصوره الفارهة لا قصور .. فقـد تحوَّل عنها إلى دار متواضعة من الطين .. وعرشـه - يالَجلالِ عرشه - حصير قديم يجلس عليه فوق التراب !!

ويزيد الأمر تعقيدًا ، كما يزيده روعةً وجلالًا ، أنَّ بطل هذا الانقلاب

الروحيّ المثير ، لم يكن من أوساط الناس ، بل هو ربيب المُلْك والقصور ، والأمجاد ، والنعيم .. كذلك لم يكن ساعة هذه الوثبة الروحية الهائلة شيخًا هرِمًا ، في سنِّ الستين أو السبعين . بل كان في رائعة شبابه ورجولته ، في سنِّ الخامسة والثلاثين !!

تحت أيِّ تأثير ، لا يُقاوَم سحره ولا يُردُّ قدْره ، وقع هذا الانقلاب داخل هذه الظروف ؟؟ لا شيء أمامنا سوى « مسئولية الحكم » ، نقلته في لحظات إلى قدّيس لا نظير له بين جميع القدِّيسين ؛ ذلك أنه لم يَصِر « قديسَ صومعةٍ » ، بل قديسَ صوْلجان وسلطان .. ودولة من أعظم دول الأرض والزمان . وذلك — لَعمر الحقِّ — ما يكاد يذهب بالألباب !!

لقد صار منذ استُخلِف يَتَلوَّى تحت وقْع مسئولياته ، ويصرخ من أعماقه : « من ينقذني يوم القيامة من حقِّ الفقير الجائع .. والمريض الضائع .. والمظلوم المقهور .. واليتيم .. والأرملة .. والأسير .. » ؟!

إيهِ يا بن عبد العزيز !! تقدَّم ، ولا تخفْ ..

تقـدَّمْ .. لترى الدنيا كيف أنجبَ الإسلامُ .. وكيـف ربَّى « محمـد » وعَلَّم !!

تقدَّمْ يا حفيدَ الخلافة والملك ، ورضيع المباهج والنعيم !!

تقدَّمْ « يا أمير المؤمنين » ، وأرِنا اليوم مُرقَّعاتِك وأسمالَك !!

أَرِنا القميص الذي كنتَ تغسله ، ثم تنتظره في ركن دارك حتى يجفَّ ، لأنك لا تملك سواه !!

أَرِنـا وجهَك الشاحب ، وجسدك الناحل من فرط ما تبذُل من جهد ، ومن أثَرِ الخبز المتبَّل بالملح ، والمبلَّل بالزيت !!

أرنا « الحصير » الذي اتخذتَ منه عرشًا يا خليفة المسلمين ، ويا أمير المؤمنين !!

أرِنا دارك التي شَدَّتْ إليها الرحالَ من بلاد بعيدة ، سيدةٌ جاءت تطلب المزيد من عطائها فلم تلبث حين رأتْها أنْ قالت في مرارة : أتُراني جئتُ أعمر بيتي من هذا البيت الخَرِب ؟! ألا حيَّا الله « فاطمة » زوجتَك ؛ فكم كانت صادقة حين أجابتها : « إنما خرَّب هذا البيت ، عمارةُ بيوتِ أمثالِكِ » !!

تقـدَّمْ .. يا أمير المؤمنين !! فما نعرف يقينًا أشبـه بالأُسـطورة .. ولا أسطورة .. أصدقَ من اليقين منك أنت ، ومن نبئِكَ العظيم !! »[1] .

قبل مجيء هذا القدِّيس العظيم .. كان هناك تزييف للقيم والحقائق ، وسعار دموي ، وكما يقول الحجَّاج : « لآخذنَّ الوليَّ بذنب مولاه ، والمقيم بذنب الظاعِن ، والمطيعَ بـذنب العاصي ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول له : انـجُ سعـدُ ، فقد هلك سعيد » .

ويكفي لتصوير الفساد الذي سبق مجيءَ عمر ، أنَّ جريرًا يجرِّع الناس قوله في مدح الحَجَّاج ، فيقول :

إنَّ ابنَ يوسف فاعلموا وتيقَّنُوا ... ماضي البصيرة واضحُ المِنهاجِ

ويقول الفرزدق :

ولـمْ أَرَ كالحجَّاجِ عوْنًا على التُّقى ... ولا طالبًـا يـومًـا طـريـدةَ نابـلِ
بسيفٍ بهِ للهِ يضربُ مَن عصى ... على قِصَرِ الأعناقِ فوقَ الكواهلِ

وبينا قُوَّاد الوليد يملئون الأرض دمًا ، كانت تردِّد في المحافل :

إنَّ الـوليدَ أميرُ المـؤمنينَ لـهُ ... مُلْـكٌ عليـهِ أعـان اللهُ فـارتفعَا

وماذا يربط الناس بالقيم ، حين يرون خليفتهم عبد الملك بن مروان يصطفي لنفسه الأخطلَ ، وهو يذكر هجاءه المقذع السافل ، للأنصار الذين بوَّأهم القرآن

---

(١) خلفاء الرسول لخالد محمد خالد صـ٤٦٦ - ٤٦٩ .

مكانًا عليًّا ؟!

لقد راح الغرباء يتطلَّعون إلى السماء في انتظار النجم الذي يجدِّد الله به دينه ، والذي يردُّ للخلافة كرامتها وقدْرها ، ويضع عن الناس إصْرَهم .

كانت التركة قاتلة ، والميراث رهيبًا .. لقد ظنَّ الناس أن الطهارة والنقاء وُئِدَ إلى الأبد .. وكان الأمر يحتاج إلى معجزة ، ويمينُ الله ملْأَى بالمعجزات ... ومنها عمر بن عبد العزيز .

ولله درُّه حين يفتتح عهده بعزْل أسامة التنوخي ، وكان على خَراج مصر ، « وكان غاشمًا ظلومًا ، مسرفًا في العقوبات بغير ما أنزل الله ؛ يقطع الأيدي ، ويملأ أجواف الدوابِّ بأشلاء ضحاياه ، ثم يطرحها للتماسيح » ، كما قال ابن عبد الحكم .

ولله درُّه حين يعزل يزيد بن أبي مسلم عن أفريقيا لتجبره وظلمه !!

إن الصِّدِّيقيَّة هي الحاصل النهائي لفضائل الروح ، مجتمعة ومتألِّقة في ذِروة تجلِّيها وظهورها ، هكذا تكون الصدِّيقية .. وهكذا يكون صدِّيق بني أُمية !!

لقد أفاءت المسئوليةُ على عمرَ التوفيقَ الذي سما بفضائل روحه - من ورَع وزهد ، وطهر ونُسُك - إلى أعلى مستوياتها ، ومِن ثَمَّ فقد كانت المسئولية سببًا مباشرًا لظفَره بالصديقية والقداسة ، وهذا جوهر إعجازه الفريد ؛ فإن المُلْك الذي يُغري بكلِّ شيءٍ ، إلَّا بالقداسة والصدِّيقية ، هو الذي كان - وكانت مسئولياتُهُ الجسام - مرقاة رُوحه الطاهرة العظيمة ، توقَّلَتْه في لمح البصر إلى فردوس القداسة ومكانة القِدِّيس الصدّيق !!

« وهناك عبارة يكتبها مؤرخو سيرته تستوقفنا طويلًا ، وتبهرنا كثيرًا .. أما هذه العبارة فها هي ذي : « .. ثم بُويع عمر بن عبد العزيز ، فقعد للناس على الأرض » . إن طهر عمر وصدِّيقيَّته وضعت الوسيلة في مستوى الغاية ،

فلا يَعْنيها بلوغ الغاية إلّا بالقدر الذي يَعْنيها طُهْر الوسيلة ..

وجوهر الحكم : الخضوع المطلَق لحقوق الناس ، ومكان الحاكم بين أيدي الناس ، وليسوا هم الذين بين يديْه ... والشكل الذي رآه عمر مُلائِمًا للتعبير عن هذه الحقيقة ، هو جلوسه للناس على الأرض .

وكان الجلوس على الأرض من ناحية الشكل ، أقصى مظاهر الخضوع ، ومضمونه أقصى مظاهر الالتزام .. ومن أجل هذا قعد الخليفة على الأرض ، لا يفصله عن ترابها سوى حصيرٍ متواضع .. قعد على الأرض ، ليهدمَ كلَّ ما للسلطة من بذَخٍ واستعلاء ، وليُنزلها عن عرشها الصَّلِف وكبريائها الزائفة ، إلى أرض البساطة والتواضع والمرحمة !!

هذا صِدْق رجلٍ أراه الله مناسكَه ، فهو يرى بنورٍ من ربه .

وهل يُتصوَّر مِن طهر خاشعٍ ناسكٍ أن يقول : « إني أرى أن أجعل هذا المال في أكباد جائعة ؛ فإنها أولى به من الكعبة » ... إنه صِدْق يُحدّق في الجوهر ، ويضع على همِّه سمْعَه ، ويتتبَّع مواقع الحقِّ ، كما يتتبع الطيرُ مواقعَ النَّدى .

صِدْق أُتيح له أن يُحدِثَ تغييرًا من أعدل وأنبل ما شهدت دنيا الناس من تغيير !!

وطهر أتى الحياة ومعه الزهد والورع ، والتُّقى والعدل والرحمة ، بعد ما حسب الناس أن الدنيا فرغت منه إلى الأبد .

وقداسة لم تكدْ تجلس للناس على الأرض حتى أنبتتِ الأرضُ عدلًا ورحمةً ، وأمطرت السماء عدلًا ورحمةً .. ورعى الذئبُ مع الشاة ، في تآخٍ وسلام !!

لقد أنجز الصدِّيق عمر كلَّ هذا التغيير بمنهج بالِغِ الإعجاز : العدل والحق .. والشورى .. وخدمة الحاكم ليلًا ونهارًا لرعيته ، وحفظه لأموال المسلمين..

عاد يومًا إلى داره ليلًا فلمح بناته الصغار ، فسلَّم عليهن كعادته ، وبدلًا

من أن يسارعْنَ نحوه بالتحية .. رحن يغطِّين أفواههنَّ بأكُفِّهنَّ ويتبادرنَ الباب، فسأل : ما شأنهن ؟ فأُجيب بأنه لم يكن لديهنَّ ما يتعشَّين به سوى عَدَس وبَصَل ، فكرهنَ أن يشمَّ من أفواههنَّ ريحَ البصل، فتحاشينه لهذا، فبكى رحمه الله، وقال يخاطبهنَّ : « يا بناتي ، **ما يَنفعُكنَّ أن تعشَّينَ** الألوان والأطايب ، ثم يُذهَب بأبيكُنَّ إلى النار » ؟

عن قوباء بن دبيق ، قال : مرَّتِ ابنة لعمر بن عبد العزيز ، يُقال لها : أمينة ، فدعاها عمر : ياأمين يا أمين . فلم تجبْه ، فأمر إنسانًا فجاء بها ، فقال : **ما منعك أنْ تجيبيني ؟** قالت : إني عارية . فقال : يا مزاحم ، انظرْ إلى تلك الفِراش التي فتقناها ، فاقطعْ لها منها قميصًا . فذهب إنسان إلى أمِّ البنين (عمتها) ، فقال : ابنة أخيك عارية ، وأنت عندك ما عندك . فأرسلت إليها بتخْتٍ من ثياب ، وقالت : لا تطلبي من عمر شيئًا .

وعن سليمان بن حبّان ، أن عمر بن عبد العزيز قال لبنيه : أتحبُّون أنْ أُولّي كلَّ رجل منكم جندًا ، فينطلق تصلصل به جلاجل البريد ؟ فقال ابنه (ابن الحارثية) : لِمَ تعرِض علينا شيئًا لستَ صانعَه بنا ؟ فقال عمر : إني لأعلم أن بساطي هذا يصير إلى بِلًى ، وإني لأكره أنْ تدنِّسوه بخِفَافِكم،فكيف أُقلّدكم ديني تدنِّسوه في كلّ جندٍ ؟!

مسئولية القدوة لا تنحصر فيه وهو الخليفة والحاكم ، بل تنال أهله جميعًا حتى بُنَيَّاتِه الصغار ...

خليفة ... حتى ولي الخلافة كانت غلّته أربعين ألف دينار ، فحين مات كانت غلّته مائتي دينار ، ولو بقي ، ردَّها !! .

خليفة.. ما ترك بني مروان وبني أُمية يتبذَّخون باسمه، ويتخذون من قرابته ملجأ ومَغْنمًا وأحكم وضع الشكائم على غرورهم وأهوائهم ، ثم دفع بهم جميعًا على طريق العدل والحق ، مصفِّيًا ترفهم المنهوم .

خليفة ... كان وُلاته - أمثال أبي بكر بن حزم ، وعبد الرحمن القشيري ، وعدي بن أرطاة - يسهرون على مسئولياتهم في ولاء صادق ، تقودهم على طريق سيرة خليفتهم التي كان أريجُها ينتشر انتشار الضياء ، وعبيرُها يفوح ويهبُّ هبوبَ الرياح والبُشْرَيات !!

لقد راحوا وهم من أهل القرآن يخجلون من أنفسهم، حين يتذكَّرون خليفتهم في حياته الشظفة ورقاعِه البالية ... يكتب إليهم فيقول : « كونوا في العدل والإصلاح والإحسان، بقدر ما كانوا من قبلكم في الظلم والفجور والعدوان » .

ويُرسل إلى أحد وُلاته : « قد كثر شاكُوك ، وقلَّ شاكروك .. فإمَّا اعتدلتَ ، وإما اعتزلتَ » .

قد كان هذا الخليفة الناسك الإمام ، يضع ذاته كلها فوق الميزان ... فكل حركاته وكلماته وقراراته ومشاعره لتتحرك بقَدَر معلوم .

يكتب إلى أحد عمَّاله وولاته : « أمَّا بعد ؛ فإنَّ من ابتلي من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتُلي ببليَّة عظيمة !! فنسأل الله عافيته وعونه . وإني أدعوك أن تقف نفسَك في سرِّك وعلانيتك، عند الذي ترجو به النجاة من ربك .. تذكَّرْ ما سلف منك من خطأ فأصلحه ، قبل أن يتولَّى صلاحَه غيرُك ، ولا يمنعكَ من ذلك قولُ الناس ، وكُن لمن ولَّاك الله أمرهم ناصحًا في دينهم وأعراضهم .. واسترْ كلَّ عوراتِهم ، واملِكْ زمامَ نفسك تجاههم ، إذا هويتَ وإذا غضبتَ » !!

لله درُّه !! لقد راحت أضواءُ صدِّيقيَّته وقَداسته وقدْوته وعلو همَّته ، تتعالى وتتعاظم ، حتى كانت مناراتٍ هادية وسَّعتِ الدولة كلَّها والأمة جميعها ، بأنوارها الغامرة وهُداها الوثيق .

وانظر إلى العجَبِ العُجاب ، وصبغة الله ومعجزة الإسلام .. انظر إلى العظمة

وإلى الهمَّة في ذُراها السامقة ، حين يحثُّ الناس على الأمر بالمعروف ونقْد الولاة ... واستمطِرِ الدمع من عينيك في إجلال ، حين تنظر إلى منشوره الذي يُقرأ على الناس في المواسم والمحافل والمجامع :

«أما بعد؛ فأيّما رجل قدِم علينا في مظلمةٍ نردُّها ، أو أمر يُحيي الله به حقًّا أو يُميت باطلًا ، أو يجيء بخير ، فله منَّا ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار .. بقدر ما يتكاءده في ذلك ، من طول السفر وبُعد الشُّقَّة » .

وانظرْ إلى العجَبِ العُجَاب :

بلغ به التعب يومًا أَشُدَّه ، فسأله بعض خاصَّته أنْ يُريح نفسه ، فقال : ومَن يُجزى عني عمل اليوم ؟ فيقولون له : تنجزه في الغد . فيجيب : لقد فدحني عمل يوم واحد حتى سألتموني أن أُريح نفسي ، فكيف إذا اجتمع عليَّ عمل يومين ؟! **إن لكل يوم مزدحمَه وأحماله.. حسبي عمل يوم في يومه، فكيف بعمل يومين في** يوم ؟! قالوا له : كان سليمان بن عبد الملك يركب ويتروّح ، وهو في ذلك مُجزى . فقال عمر : ولا يوم واحد من الدنيا يُجزيه .

هو بالنسبة للملايين التي تنتظمها دولته الواسعة ، نداءُ النجدة .. لا تهتف به حاجة فردٍ ولا مظلمة مظلوم في أدنى الأرض وأقصاها ، إلا أَلِفْتَهُ وكأنه في انتظارها وحدها !!

ويتسع قلبه الكبير وعَزْمه القدير لكل شيء ، وصغار الأمور عنده مثل كبارها ، فانظر :

كتبتْ إليه سوداء مسكينة تُسمَّى : « فرتونة السوداء » من الجيزة بمصر ، أن لها حائطًا متهدِّمًا لدارها ، يتسوَّره اللصوص ويسرقون دجاجها ، وليس معها مالٌ تُنفقه في هذا السبيل . فيكتب عمر إلى واليه على مصر « أيوب بن شرحبيل» : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى أيُّوب بن شرحبيل ؛ سلام الله عليكم . أما بعد ؛ فإن فرتونة السوداء كتبت إلّي تشكو إلّي قِصَر حائطها ، وأنَّ دجاجها

يُسـرَق منها ، وتسأل تحصينه لها ، فـإذا جاءك كتابي هذا ، فاركـبْ بنفسك وحصّنه لها » .

وكتب إلى فرتونة :

«من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء: سلام الله عليكِ ؛ أما بعد ؛ فقد بلغني كتابُكِ ، وما ذكرتِ فيه من قصر حائطك ، حيث يُقتحـم عليك ويسرَق دجاجك .. وقد كتبتُ إلى أيوب بن شرحبيل ، آمـره أن يبني لك الحائط حتى يحصِّنه مما تخافين ، إن شاء الله » .

يقول ابن عبد الحكم راوي هذه القصة الباهرة : « فلما جاء الكتاب إلى أيوب ابن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة ، وظلّ يسأل عن فرتونة حتى وجدها ، فإذا هي سوداء مسكينة ، فأعلى لها حائطها » .

رحمةٌ وإحسان وعدل وأُبُوَّة ، لا يفلت منها شاردة ولا واردة !!

ويكتب عمر لواليه على مصر أيضًا : « أما بعد ؛ فقد بلغني أن الحَمّالين في مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ما تُطيق .. فإذا جاءك كتابي هذا ، فامنع أن يُحمَل على البعير أكثر من ستمائة رطل » .

وفي الشورى .. كان نسيجَ وَحْدِه :

وفي عصره كانت الشورى خالصة صادقة، والرأي العام ناصحًا وصادقًا وشجاعًا .. ويتبين هذا ويُسفرُ كالشمس في أسلوبه في الحُكم ، واختيـار وُلاته وبطانته ، واستعداده لقبول النقد وسماع كلمة الحق ، ونظرته إلى الأمة التي يحكمها ، ومدى ولائه لحقوقها وحريَّتها .. بهذا المعيار والمِسْبار يقف عمر بن عبد العزيز كأنه نسيجُ وحدِه !!

لقد أحاط نفسَه بالأبرار الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، والذين لا يُزيِّفون اقتناعهم ، ولا يَلبسون الحقَّ بالباطل وإنْ قُطعتْ منهم الرقاب .

فأيُّ علوٍّ فوق هذا النهج الراشد السديد ، الذي مكن للشورى تمكينًا تكاد تتقطَّع دون بلوغه أنفاس كلِّ الحكَّام .

« وموقفُهُ مِنْ مالِ الأُمَّةِ عجيبٌ ثمَّ عجيبٌ !! » :

وقد مرَّ بنا كيف أَنَّ مال الأمة له في فؤاده الذكي التقي حُرْمةٌ ، أيّ حُرْمة !! وإجلال أيّ إجلال !! فرضي الله عن ذلك الخليفة المُقْسِط العظيم .

كتب إلى واليه على اليمن « عروة بن محمد » : « أما بعد : فقد كتبتَ إليَّ تذكُر أنك قدِمتَ اليمن ، فوجدتَ على أهلها ضريبة من الخَراج ، ثابتة في أعناقها كالجزية ، يُؤدُّونها على كلِّ حال ؛ إن أخصبوا أو أجدبوا .. إن حَيُوا أو ماتوا .

فسبحان الله ربِّ العالمين !! ثم سبحان الله ربِّ العالمين !!

إذا أتاك كتابي هذا ، فدعْ ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحقِّ .. واعلمْ أنك إن لم ترفع إليَّ من جميع اليمن إلّا حفنة من كَتَم[1]، فقد علم الله أني سأكون بها مسرورًا ، ما دام في ذلك بقاء على الحق والعدل ».

وهكذا أُتيح لعمر أن يحوِّل شهقات البائسين إلى بسَمَات متهللة ، وفرحٍ غامر .

وراح يكتب إلى وُلاته : « لا بدَّ لكلِّ **مسلم مِن مسكنٍ** يأوي إليه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوَّه ، وأثاث في بيته ، فوفِّروا ذلك كلَّه .. ومن كان غارمًا فاقضوا عنه دَيْنه » .

وراح المبارك الميمون يُنشئ في طول البلاد وعرضها دُور الضيافة ، يأوي إليها المسافرون وأبناء السبيل .

---

(١) الكتم : نبات يخضب به الشَّعْر ، ويُصنع منه مداد للكتابة .

يأمر لكل مريض بخادم على حساب الدولة .. يفتدي أسرىٰ المسلمين جميعًا .

لقد أُخبر أنَّ مقاتِلًا شديدَ البأس ، قد وقع أسيرًا في أرض الروم ، فحُمِلَ إلى إمبراطور الروم ، فحاول إكراهه على الخروج من الإسلام ، ورفَض الأسير ، فأمر الإمبراطور أن تُسمَل عيناه ... فيكتب عمر رضي الله عنه إلى ملك الروم : «أما بعد؛ فقد بلغني ما صنعتَ بأسيرك فلان.. وإني أُقسِم بالله، لئن لم ترسِله إلَّي من فورك ، لأبعثنَّ إليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندي » !!

ويعود الأسير إلى وطنه وأهله !!

يكفل اليتامى الذين لا عائِل لهم ، ويفرِض لكلِّ مولود .

يا ابنَ عبد العزيز يا عمرَ الخيْرِ رتبتكَ الخلائقُ الصالحاتُ
أنتَ مَن ألبسَ الخلافة يومًا ودعتْ في بقائك المُرمِلاتُ
قد أتتْكَ الخلافةُ البكرُ تسعىٰ وكرامٌ جاءتْ إليكَ حُفاةُ
ثم فارقْتها وربُّك راضٍ عنك واسترحمتْ لكَ السكراتُ
رَفْرَفَتْ رايةُ العدالةِ سعْدًا واستُلهِمَتْ من كفِّك الصدَقاتُ
عفو عُلياكَ أنْ تُسجِّمَ دمعي فأنا راثيا وغيري بُكاةُ
أنتَ ابنُ الفاروق جدَّدتَ عهدًا أخفتتْ نسْجَ ثوْبِهِ السنواتُ[1]

وعندَ الموتِ مَوْقفٌ لهُ جَلالٌ :

لما كانت الصرعة التي هلك فيها عمر ، دخل عليه مَسْلمة بن عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك أقفرتَ أفواهَ ولدك من هذا المال ، فتركتهم عيلةً لا شيء لهم ، فلو أوصيْتَ بهم إلَّي وإلى نُظَرائي من أهل بيتك . وفي رواية

(١) « سيرة الأبطال » شعر لعائض القرني صـ٢٢ - ٢٣ - دار جرش للنشر والتوزيع .

أُخرى : يا أمير المؤمنين ، ألا توصي ؟ قال : وهل من مال فأوصِي فيه ؟ فقال مسلمة : مائة ألف أبعث بها إليك ، فهي لك ، فأَوْصِ فيها . قال : فهلَّا غيْر ذلك يا مسلمة ؟ قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : تردُّها من حيث أخذتَها . قال: فبكى مَسْلمة وقال : رحمك الله ؛ لقد ليَّنتَ منا قلوبًا قاسية ، وزرعتَ في قلوب الناس لنا مودة ، وأبقيتَ لنا في الصالحين ذكرًا . قال عمر : أسندوني . ثم قال : أمَّا قولك أني أقفرتُ أفواه ولدي من هذا المال ، فوالله إني ما منعتُهم حقًّا هو لهم ، ولم أُعطهم ما ليس لهم . وأما قولك : لو أوصيتَ بهم إليَّ وإلى نظرائي من أهل بيتك . فإنَّ وصيِّي ، ووليِّي فيهم: الله الذي نزّل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين .. بَنيَّ أحدُ رجلَيْن : إما رجل يتقي الله ، فسيجعل الله له مخرجًا ، وإما رجل مُكِبٌّ على المعاصي ، فإني لم أكن أُقوِّيه على معصية الله . ثم بعثَ إليهم ، وهم بضعة عشر ذكرًا . قال : فنظر إليهم فذرفتْ عيناه فبكى ، ثم قال : بنفسي الفتْيَة التي تركتُهم عيلةً لا شيء لهم ؛ فإني – بحمد الله – قد تركتُهم بخير . أي بَنيَّ ، إنكم لن تلقوا أحدًا من العرب ولا من المعاهدين ، إلّا أن لكم عليهم حقًّا . أي بَنِيّ ، إن أباكم ميَّل بين أمرين : بيْن أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار ، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة ، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحبَّ إليه من أن تستغنوا ويدخل النار . قوموا عصمَكم الله .

عن عبيدة بن حسان، قال: لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال: اخرجوا عني، فلا يبقى عندي أحد. قال: وكان عنده مسلمة بن عبد الملك. قال : فخرجوا ، فقعد على الباب هو وفاطمة . قال : فسمعوه يقول : مرحبًا بهذه الوجوه ، ليست بوجوه إنس ولا جانٍّ . ثم قال : ﴿ **تلكَ الدارُ الآخرةُ نجعلها للذين لا يُريدون عُلوًّا في الأرض ولا فسادًا والعاقبةُ للمتقين** ﴾ [القصص : ٨٣]. قال : ثم هدأ الصوت ، فقال مسلمة لفاطمة : قد قُبض صاحبُك . فدخلوا فوجدوه قد قُبض وغمض وسوى .

مات الخليفة الذي قال : إن لله شـرائع وسننًا ، إن أعِش أعلِّمكموها وأحملكم عليها .. وإن أمت ، فما أنا على صحبتكم بحريص .

وبكاه الجِياعُ الذين شبعوا، والعُراة الذين اكتسوْا، والخائفون الذين أمِنُوا، والمستضعفون الذِين سادوا ... واليتامى الذين وجدوا فيه أباهم ... والأَيَامَى اللائي وجدْنَ فيه عائلَهنَّ .. والضائعون الذين وجدوا فيه ملاذهم .. والتائهون الذين وجدوا فيه دليلَهم .

والعجَبُ كلّ العجَب أن يَبْكِيَهُ أعداؤُه :

وقبل موْته يُرسِل إمبراطورُ الروم كبيرَ أساقفته - وكان بالطبِّ خبيرًا - ليطبِّب الخليفة العادل ، والصدّيق الجليل ..

وحين مات عمر بكاه « ليو الثالث » بكاءً مُرًّا ، أذهل الحاشية والأساقفة ، وسألوه فأجابهم بكلمات هي أصدق وأجمع ما قيل في رثاء أمير المؤمنين : « مات والله ملك عادل ، ليس لعدلِه مثيل !! مات الرجل الصالح ... لَأَحسبُ أنه لو كان أحد يُحيي الموتى بعد عيسى بن مريم ، لَأحياهم عمر بن عبد العزيز . ثم قال : إني لستُ أعجب من الراهب أن أَغلَق بابَه ورفضَ الدنيا ، وترهَّب وتعبَّد ، ولكن أعجب ممَّن كانت الدنيا تحت قدميْه ، فرفضها وترهَّب » .

وعن الأوزاعي قال : شهدتُ جنازة عمر بن عبد العزيز ، ثم خرجتُ أريد مدينة قنسرين ، فمررتُ على راهب فقال : يا هذا أحسبُك شهدتَ وفاة هذا الرجل . قال : فقلتُ له : نعم . فأرخى عينيْه فبكى سجامًا ، فقلتُ له : ما يُبكيك ولستَ من أهل دينه ؟ فقال : إني لستُ أبكي عليه ، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطُفِئ .

لقد عايش الخليفة الراشد والمجدِّد الجليل فترة خلافته ، تسعة وعشرين شهرًا ، وكأنها تسعة وعشرون قرنًا !!

في كلِّ دقيقة ، كانت عافيته تُعطي جهدَ عام ...

إن التغيير الهائل الذي أراده للدولة والأمة ، كان يتطلب - لو سارت ريحُه رُخاءً - جيلًا أو جيلين ، فأبى إلَّا إتمامَه في الأيام الباقية له على الأرض ، وبين الناس ..

وأيُّ تغيير كان ؟ إنه تغيير لا يتطلب خليفة واحدًا ، بل عشرات من الخلفاء ..

إنه يريد أن ينقل إلى دنيا الترف والفساد ، عصر الوحي والنبوة .. ثم هو لا يريد أن ينقله إلى نظام الدولة والمجتمع فحسب ... بل إلى أفئدة الناس وضمائرهم وسلوكهم .

كم من شريعةِ حقٍّ قدْ نعشتَ لهمْ ... كانت أُميتَتْ وأخرى منكَ تُنتظَرُ
يا لهفَ نفسي ولهفَ الواجدين معي ... على العُدولِ التي تغتالُها الحُفَرُ
لو أعظمَ الموتُ خلْقًا أنْ يُواقِعَهُ ... لِعَدْلِهِ لمْ يُصِبْكَ الموْتُ يا عمرُ

ويرحم الله ابن عائشة ، حين قال في عمر :

أقول لمَّا نعى الناعُون لي عُمَرًا ... لا يبعدنَّ قوامُ الحقِّ والدينِ
لمْ تُلهِهِ عُمرَهُ عينٌ يُفجِّرها ... ولا النخيلُ ولا ركْضُ البَراذينِ
قدْ غادرَ القومَ في القبرِ الذي لحدوا ... بديرِ سمعانَ قسطاسُ الموازينِ[1]

* * *

(١) الترجمة كاملة من كتاب « عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي ، وكتاب « خلفاء الرسول » لخالد محمد خالد .

الفصل الثالث
علـوُّ همَّـة الـوزراء

« إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه »

□ علوّ همَّة الوزراء □

اعلم يا أخي أنه لا ينفع المِلك إلّا بوزرائه وأعوانه، ولا ينفع الوزراء والأعوان إلّا بالمودَّة والنصيحة ، ولا تنفع المودة والنصيحة إلَّا مع الرأي والعفاف .

قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بالأمير خيرًا ، جعل له وزير صدق ؛ إن نسيَ ذكَّره ، وإن ذكر أعانه . وإذا أراد الله به غير ذلك ، جعل له وزير سوء ؛ إن نسي لم يذكِّرْه ، وإن ذكر لم يُعنه »[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « من ولي منكم عملًا ، فإذا أراد الله به خيرًا ، جعل له وزيرًا صالحًا ؛ إن نسي ذكَّره ، وإن ذكر أعانه »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى لم يبعث نبيًّا ولا خليفة ، إلّا وله بطانتان ؛ بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه خبالا ، ومَنْ يُوق بطانة السوء ، فقد وُقِي »[٣] .

وقال الأحنف بن قيس : من فسدت بطانته ، كان كمن غُصَّ بالماء . ومَنْ غُصّ بالماء ، فلا مَساغ له . ومَنْ خانه ثِقاته ، فقد أُتَي من مأمنه .

مَنْ غُصّ داوى بشرب الماء غُصَّته ... فكيف يفعلُ من قد غُصَّ بالماءِ

وقال عمرو بن العاص : لا سلطان إلا بالرجال .

وقالوا : إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه .

وقالوا : ليس شيءٌ أضرّ على السلطان ، من صاحب يُحسن القول ولا

(١) صحيح : رواه أبو داود، والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٩٩) .

(٢) صحيح: رواه النسائي عن عائشة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٤٧٢).

(٣) صحيح: رواه البخاري في التاريخ، والترمذي عن أبي هريرة، ورواه أحمد، والبخاري تعليقًا، والطحاوي، والحاكم والبيهقي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٠١).

يُحسن الفعل ، ولا خير في القول إلّا مع الفعل .

وقالوا : إن السلطان إذا كان صالحًا ووزراؤه وزراء سَوْء ، امتنع خيره من الناس ، ولم يُنتفع منه بمنفعة . وشبَّهوا ذلك بالماء الصافي يكون فيه التمساح ، فلا يستطيع أحدٌ أن يدخله وإن كان محتاجًا إليه .

وإليك أمثلة من الوزراء عُلاة الهمم :

نبيُّ الله هارون عليه السلام :

قصَّ الله علينا من أمر موسى عليه السلام ودعائه مولاه : ﴿ **واجعل لي وزيرًا من أهلي هارون أخي اشْدُدْ به أزري وأشْرِكْه في أمري كي نسبِّحكَ كثيرًا ونذكُرك كثيرًا إنَّك كُنْتَ بنا بصيرًا** ﴾ [طه : ٢٩ - ٣٥] . وقال تعالى : ﴿ **قال رب إني قتلت منهم نفسًا فأخافُ أنْ يقتلون وأخي هارونُ هو أفصح مني لسانًا فأرسله معي ردءًا يصدِّقُني إني أخافُ أنْ يكذِّبون قال سنشدُّ عَضُدَك بأخيك ونجعل لكما سلطانًا فلا يصِلون إليكما بآياتِنا أنتما ومَن اتَّبعكما الغالبون** ﴾ [القصص : ٣٣ - ٣٥] .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١/ ٢٣٣) : « أي اجعله معي معينًا ورِدْءًا ووزيرًا ، يساعدني ويُعينني على أداء رسالتك إليهم ، فإنه أفصح مني لسانًا وأبلغ بيانًا » .

ولقد كان هارون عليه السلام يُعلم عنه فصاحة اللسان ، وثبات الجنان ، وهدوء الأعصاب ، فطلب موسى عليه السلام إلى ربّه أن يُعِينه بأخيه ؛ يشدُّ أزره ، ويقوِّيه ، ويتروَّى معه في الأمر الجليل الذي هو مُقْدِمٌ عليه .

ولمّا ذهب موسى لمناجاة ربّه ، وخلَّف أخاه في قومه ، ورآهم هارون وقد مالوا إلى عبادة العجل ، نهاهم هارون عليه السلام عن هذا الصنيع الفظيع أشدّ النهي ، وزجرهم عنه أتمَّ الزجر ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فُتنتُم به وإن ربَّكم الرحمنُ فاتَّبعوني وأطيعوا أمري قالوا**

لن نبرحَ عليه عاكفين حتى يرجعَ إلينا موسى ﴾ [طه : ٩٠ - ٩١] .

وموقف آخر لهارون النبي الوزير عليه السلام: قال تعالى: **﴿قال يا هارونُ ما منعك إذْ رأيتَهم ضلُّوا ألَّا تتَّبعنِ أفعصيتَ أمري قال يا بنؤم لا تأخُذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيتُ أن تقولَ فرَّقتَ بين بني إسرائيل ولم ترقُب قولي ﴾** [طه : ٩٢ - ٩٤] .

وقد قال موسى لهارون- عليهما السلام-: ﴿ اخلُفني في قومي وأصلحْ ولا تتَّبع سبيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : ١٤٢] .

قال ابن عباس عن توقير هارون لموسى – عليهما السلام –: كان هائبًا له ، مطيعًا . وفي السياق : حاول هارون عليه السلام أن يُهدِّىء من غضب أخيه ، باستجاشة عاطفة الرَّحم في نفسه ، وكان هارون عليه السلام أهدأ أعصابًا في هذا **وأملك لانفعاله من نبي الله موسى عليهما السلام ، وعرض له وِجْهَة نظره** في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ، واعتذر له عن سبب تأخُّره عنه ، حيث **لم يلْحقْه فيخبره بما كان من هذا الخطْب الجسيم ، وعلَّله بأنه خشي إن تبعه** فأخبره بهذا ، أن يقول له : لم تركتَهم وحدهم ، وفرَّقتَ بينهم ، وما راعيتَ ما أمرتُك به حيث استخلفتُك **فيهم** . أو إنه خشي إن هو عالج الأمر بالعنف ، أن يتفرَّق بنو إسرائيل شيعًا ؛ بعضهم مع العجل ، وبعضهم مع نصيحة هارون ، وقد أمره أن يُحافظ على بني إسرائيل ولا يُحْدِث فيهم أمرًا . فهي كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى .

أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ وزيرا رسول الله ﷺ :

كانا نِعْمَ الوزيرَيْن ، وكانا من الدين سمعه وبصره .

عن سويد بن غفلة أنه قال : مررتُ بقوم ينتقصون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأخبرت عليًّا كرّم الله وجهه ، وقلتُ : لولا أنهم يرون أنك تُضْمِر ما أعلنوا ، ما اجترءوا على ذلك ، منهم عبد الله بن سبأ . فقال علي رضي الله عنه :

نعوذ بالله ، رحمنا الله . ثم نهض ، وأخذ بيدي ، وأدخلني المسجد ، فصعد المنبر ، ثم قبض على لحيته - وهي بيضاء - فجعلت دموعه تتحادر عليها ، وجعل ينظر للقاع حتى اجتمع الناس ، ثم خطب فقال : « ما بال أقوام يذكرون أخوي رسول الله ووزيريه ، وصاحبيه وسيِّدي قريش ، وأبويْ المسلمين ، وأنا بريءٌ مما يذكرون ، وعليه معاقِب ؛ صحبا رسول الله ﷺ بالحبّ والوفاء ، والجدّ في أمر الله ، يأمران وينهيان ، ويغضبان ويُعاقبان ، ولا يرى رسول الله كرأيهما رأيا ، ولا يحبُّ كحبِّهما أحدًا ، لِمَا يرى من عزمهما في أمر الله ، فقُبض وهو عنهما راضٍ ، والمسلمون راضون ، فما تجاوزا في أمرهما وسيرتهما رأيه ﷺ وأمره في حياته وبعد موته ، فقُبضا على ذلك ، رحمهما الله . فوالذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة ، لا يحبُّهما إلّا مؤمنٌ فاضل ، ولا يبغضهما إلّا شقيٌّ مارق ؛ وحبّهما قُرْبة ، وبغضهما مروق » . وفي رواية : « لعن الله من أضمر لهما إلّا الحسَن الجميل »[1] .

ولله درُّ عمر وعلوّ همَّته في النُّصْح لنبيّه ﷺ ، فكان نعم الوزير والبطانة لنبيِّ الله ؛ فينزل القرآن موافقًا لقول عمر .

روى البخاري عن عمر قال : « وافقتُ ربي في ثلاث ؛ فقلت : يا رسول الله ، لو اتَّخذنا من مقام إبراهيم مصلًّى . فنزلت : ﴿ **واتَّخِذُوا من مقام إبراهيم مصلًّى** ﴾ . وآية الحجاب ؛ قلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءَك أن يحتجبن ، فإنه يكلِّمهُن البَرُّ والفاجر . فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه ، فقلت لهن : عسى ربُّه إن طلَّقكُن أن يُبدله أزواجًا خيرًا منكن . فنزلت هذه الآية »[2] .

---

(١) طَوْق الحمامة في مباحث الإمامة ليحيى بن حمزة الزيدي ، نقلًا عن مختصر التحفة للشيخ محمود الألوسي صـ١٦ .

(٢) أخرجه البخاري والترمذي مختصرًا ، وابن ماجة مختصرًا ، وأخرجه أحمد في المسند وفي فضائل الصحابة ، وابن أبي عاصم في السنة ، وعزاه المزي للنسائي .

وروى مسلم عن عمر قال : « وافقتُ ربي في ثلاث ؛ في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أُسارى بدر » .

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٥٠٥/١): «وليس في تخصيصه العدد بالثلاث، ما ينفي الزيادة عليها؛ لأنه حصلت له الموافقة في أشياء غير هذه ؛ من مشهورها قصَّة أسارى بدر ، وقصة الصلاة على المنافقين ، وهما في الصحيح . وصحَّح الترمذي من حديث ابن عمر أنه قال : ما نزل بالناس أمرٌ قطّ فقالوا فيه ، وقال فيه عمر ؛ إلّا نزل القرآن فيه على نحو ما قال عمر . وهذا دالٌّ على كثرة موافقته » .

عمر بن عبد العزيز ؛ وزير صدق لسليمان بن عبد الملك :

كان سليمان بن عبد الملك لا يصبر على فراق وزيره عمر بن عبد العزيز له ، ويقول : ما هو إلّا أن يغيب عني هذا الرجل ، فما أجدُ أحدًا يفقه عني .

ولله درُّ عمر ، ما كان أعلى همَّته في النُّصْح لسليمان .

عن طلحة بن عبد الملك الأيلي ، قال : دخل عمر بن عبد العزيز على سليمان ابن عبد الملك وعنده أيوب ابنه ، وهو يومئذٍ ولي عهده ، وقد عقد له من بعده ، فجاء إنسان يطلُب ميراثًا من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن في العقار شيئًا . فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله ، وأين كتاب الله . فقال : يا غلام ، اذهب فأتني بسِجِل عبد الملك بن مروان الذي كتب في ذلك – وكان كتب أنه ليس للبنات شيء– فقال له عمر: لكأنَّك أرسلتَ إلى المصحف ؟! وفي رواية : إلى المصحف أرسلته ؟! قال أيوب : والله ليوشكن الرجل يتكلَّم بمثل هذا عند أمير المؤمنين، ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسُه. فقال له عمر: إذا أفضى الأمر إليك وإلى مثلك ، فما يدخل على أولئك أشدُّ ممّا خشيتُ أن يُصيبَهم من هذا . فقال سليمان لأيوب : مه . وسبَّه ، وقال : لأبي حفص تقول هذا ؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا أمير المؤمنين ، ما حلمنا عنه .

ومرةً ثانية يردُّ الوزيرُ عمرُ بن عبد العزيز ، سليمانَ الخليفةَ إلى الشرع :

فعن خالد بن عبد الرحمن ، قال : كنا في عسكر سليمان بن عبد الملك ، فسمع غناء في الليل ، فأرسل إليهم بُكرة ، فجيءَ بهم ، فقال : إنَّ الفرس لَيصهل فتستودِق له البغلة ، وإن الفحل ليخطر فتضبع له الناقة ، وإن التيس لَينب فتستجْوِم له العنزة ، وإن الرجل لَيُغنِّي فتشتاقُ إليه المرأة . ثم قال : اخصوهم . قال عمر بن عبد العزيز : هذا مُثْلَةٌ ، ولا تحلُّ . فخلَّى سبيلهم .

ومرّة أخرى يُنَبِّهه : لمَّا أشرف سليمان ومعه عمر على عقبة عسفان ، نظر سليمان إلى عسكره ، فأعجبه ما رأى ، فقال : كيف ترى ما ها هنا يا عمر ؟ قال : أرى دنيا يأكُل بعضُها بعضًا ، أنت المسئول عنها ، والمأخوذ بما فيها . فطار غرابٌ من حُجرة سليمان ينعب ، في منقاره كسرة ، فقال سليمان : ما ترى هذا الغراب يقول ؟ قال : أظنّه يقول : من أين دخلت هذه الكسرة ؟ وكيف خرجت ؟ قال : إنك لتجيء بالعجب يا عمر .

وعن عبد العزيز بن أبي رواد : خرج سليمان بن عبد الملك يومًا إلى بعض الوادي ، فأصابهم رعْدٌ وبرْقٌ وصواعق ، ففزع سليمان ، ونادى : يا عمر ، يا عمر ، وكانوا – يعني بني أمية – إذا أصابتهم شدَّة ، فزعوا إلى عمر بن عبد العزيز ، فإذا عمر ينادي: ها أنا ذا. قال: ألا ترى ؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنَّما هذا صوتُ نعمة ، فكيف لو سمعتَ صوت عذاب ؟ فقال : خذ هذه المائة ألف درهم ، وتصدَّق بها . فقال عمر : أَوَخيرٌ من ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : وما هو ؟ قال: قوم صحبوك في مظالم لهم ، لم يصلوا إليك . قال : فجلس سليمان ، فردَّ المظالم .

رجاء بن حَيْوة ، الإمام القُدوة ، والوزير العادل ؛ له في عُنُق المسلمين مِنَّةٌ وفضْلٌ بسبب مشورته في تولية عمر بن عبد العزيز :

« كان عبد الله بن عون إذا ذَكَر مَن يُعجبه ؛ ذَكَر رجاءَ بن حيوة .

وقال ابن عون : ثلاث لم أر مثلهم ، كأنهم التقوا فتواصوا ؛ ابن سيرين بالعراق ، وقاسم بن محمد بالحجاز ، ورجاء بن حيوة بالشام .

وقال أبو السائب : ما رأيتُ أحدًا أحسنَ اعتدالًا في صلاةٍ من رجاء ابن حيوة .

وقال ابن عون : ما أدركتُ من الناس أحدًا أعظم رجاء لأهل الإسلام ؛ من القاسم بن محمد ، ومحمد بن سيرين ، ورجاء بن حيوة .

وقال سعيد بن عبد العزيز : إنَّ إنسانًا رأى في منامه أن إنسانًا من الأبدال مات ، فكُتب رجاء بن حيوة مكانه .

فللَّه درُّ أبي المقدام رجاء من وزير صِدْقٍ .

قال رحمه الله لعدي بن عدي ومعن بن المنذر يومًا ، وهو يعِظهما : انظرا إلى الأمر الذي تُحبَّان أن تلقيا الله عليه؛ فخذا فيه الساعة ،وانظرا إلى الأمر الذي تكرهان أن تلقيا الله عليه ؛ فدعاه الساعة .

انظر رحمك الله إلى نظره لصالح العامة :

عن العلاء بن روبة قال : كانت لي حاجة إلى رجاء بن حيوة ، فسألتُ عنه ، فقالوا : هو عند سليمان بن عبد الملك . قال : فلقيته ، فقال : ولَّى أميرُ المؤمنين اليومَ ابن موهب القضاء ، ولو خُيِّرتُ بين أن أَلِيَ ، وبين أن أُحمَل إلى حفرتي ، لاخترتُ أن أُحمل إلى حفرتي . قلتُ : إن الناس يقولون : إنك أنت الذي أشرت به ؟ قال : صدقوا إني نظرتُ للعامة ، ولم أنظر له »[(١)] .

هذا الوزير الجليل أبو المقدام رجاء بن حيوة ، له في قلوب الصادقين الربَّانيِّين كلّ الحبّ والودّ ؛ فلقد اختارته المقادير ليكون السبب الأول والأوثق في إفضاء الخلافة لابن عبد العزيز ، وزفَّ بهذا أعظَم البُشريات لدين الله ولدنيا الناس ،

---

(١) حلية الأولياء ٥/١٧٠ - ١٧٢ .

وأسدى لعيون المسلمين: فَرْحةَ عُمْرٍ، وبهجة حياةٍ تبرق بها، بقدوم معجزة الحاكم الورع العادل الطهور !! فسلامُ اللهِ عليك يا رجاء .

لقد كانت كلمتا : « العدل ، والرحمة » ، تسبيحة عذبة على لسانه ، يلهج بها دومًا ، ويصبُّها في أسماع الخليفة سليمان صبًّا .

أثر رجاء في استخلاف عمر ، ونصحه لدينه وللمسلمين في ذلك :

عن رجاء بن حيوة أنه قال : لما ثقل سليمان ، رآني عمر في الدار أخرج وأدخل ، فقال : يا رجاء ، أذكِّرُك الله والإسلام أن تذكرني لأمير المؤمنين ، أو تشير بي عليه إن استشارك ، فوالله ما أقوى على هذا الأمر . فانتهرتُه ، وقلتُ : إنك لحريصٌ على الخلافة ، أتطمعُ أن أُشير عليه بك ؟ فاستحيا ، ودخلتُ فقال سليمان : مَن ترى لهذا الأمر ؟ فقلت : اتق الله ، فإنك قادم عليه ، وسائلُك عن هذا الأمر ، وما صنعتَ فيه ؟ قال : فمنْ ترى ؟ قلت : عمر بن عبد العزيز(١) .

لله درُّك من إمام قدوة داهية ، ولكن في الخير ...

قال محمد بن علي بن شافع : « إني لأرجو أن يُدخل الله سليمان بن عبد الملك الجنة ، باستعماله عمر بن عبد العزيز » . فكيف بمَن أشار عليه بذلك ؟!

عن رجاء بن حيوة قال : لمّا كان يوم الجمعة ، لبس سليمان بن عبد الملك ثيابًا خضرًا من خَزٍّ ،ونظر في المرآة فقال : أنا والله الملك الشابّ . فخرج إلى الصلاة يصلِّي بالناس الجمعة ، فلم يرجع حتى وعك ، فلمّا ثَقُل ، كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب ، وهو غلام لم يبلُغ ، فقلت : ما تصنع يا أمير المؤمنين ؟ إنه مما يُحفظ به الخليفة في قبره ، أن يستخلِف الرجل الصالح . فقال : كتاب

---

(١) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي صـ٦٣ .

أستخير الله فيه ، وأنظر ، ولم أعزم عليه . فمكث يومًا أو يومين ، ثم خرقه ، ثم دعاني فقال : ما ترى في داود بن سليمان ؟ فقلت : هو غائب بقسطنطينية ، وأنت لا تدري أحيٌّ هو أم ميِّت . قال : يا رجاء فمن ترى ؟ فقلت : رأيك يا أمير المؤمنين ، وأنا أريد أن أنظر من تذكر . فقال : كيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟ فقلت : أعلمه ، والله ، فاضلًا خيارًا مسلمًا . قال : هو والله على ذلك ، ولئن ولَّيته ولم أُوَلِّ أحدًا من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ، ولا يتركونه أبدًا يلي عليهم إلّا أن أجعل أحدهم بعده – ويزيد بن عبد الملك يومئذٍ غائب على الموسم – قال : فاجعل يزيد بن عبد الملك بعده ، فإن كان مما يسكنهم ويرضون به . قلتُ : رأيك . فكتب بيده : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إني ولَّيتُه الخلافة بعدي ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ، ولا تختلفوا فيُطمع فيكم » . وختم الكتاب ، وأرسل إلى كعب بن جابر صاحب شرطته : أن مُر أهل بيتي أن يجتمعوا بجمعهم . ثم قال سليمان لرجاء – بعد اجتماعهم –: اذهب بكتابي هذا إليهم ، فأخبرهم أنه كتابي ، ومُرهم فليبايعوا من ولَّيتُ . ففعل رجاء ، فقالوا : سمعنا وأطعنا لمن فيه . وقالوا : ندخل ونسلِّم على أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . فدخلوا ، فقال لهم سليمان : هذا الكتاب – وهو يشير لهم ، وهم ينظرون إليه في يد رجاء – هذا عهدي ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وبايعوا لمن سمَّيتُ في هذا الكتاب . قال : فبايعوه رجلًا رجلًا ، ثم خرج بالكتاب مختومًا في يد رجاء .

قال رجاء : فلما تفرَّقوا ، جاءني عمر بن عبد العزيز ، فقال : يا أبا المقدام ، إنّ سليمان كانت له بي حُرْمة ومودّة ، وكان بي برًّا وملطفًا ، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إليّ من هذا الأمر شيئًا ، فأنشدك الله ، وحرمتي إلّا أعلمتني إن كان ذلك، حتى أستعفيه الآن، قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ذلك. فقال

رجاء : لا والله ، ما أنا مخبرك حرفًا واحدًا . فذهب غضبان ، قال رجاء : ولقيني هشام بن عبد الملك ، فقال : يا رجاء ، إنّ لي حرمة ومودَّة قديمة ، وعندي شكر ، فأعلمني أهذا الأمر إليّ ؛ فإن كان إليّ علمتُ ، وإن كان إلى غيري تكلَّمتُ ، فليس مثلي قصَّر به ، ولا نحّى عنه هذا الأمر ، فلك الله أن لا أذكر اسمك أبدًا، فأعْلمْني.فأبيْتُ، وقلت: والله لا أخبرك حرفًا واحدًا. فانصرف هشام وهو مؤيس ، وهو يضرب بإحدى يديه على الأخرى ، ويقول : فإلى مَن إذا نُحِّيت عني ؟ أتخرج من بني عبد الملك ؟

قال رجاء : ودخلت على سليمان وهو يموت ، فجعلتُ إذا أخذته سكرة من سكرات الموت حرَّفته إلى القبلة ، فجعل يقول - وهو يُفارق -: لم يأن لذلك بعد يا رجاء . حتى فعلتُ ذلك مرتين ، فلما كانت الثالثة قال : من الآن يا رجاء ، إن كنت تريد شيئًا ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . فحرَّفته ، ومات ، فلمَّا غمّضته ، سجَّيته بقطيفة خضراء ، وأغلقتُ الباب ، وأرسلتْ إليَّ زوجته : كيف أصبح ؟ فقلت : نام ، وقد تغطَّى . فنظر الرسول إليه مغطى ، فرجع فأخبرها ، فقبلت .

قال رجاء : وأجلست على الباب من أثق به ، وأوصيته أن لا يريم حتى آتيه ، ولا يُدخل على الخليفة أحدًا . فخرجتُ فأرسلت إلى كعب بن جابر ، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين ، فاجتمعوا في مسجد دابق ، فقلت : بايعوا . قالوا : قد بايعنا مرة ، ونبايع مرة أخرى ؟ قلت : هذا أمير المؤمنين ، بايعوا على ما أمر به ، ومن سمَّى في هذا الكتاب المختوم . فبايعوا رجلًا رجلًا ، فرأيت أني قد أحكمتُ الأمر ، فقلت : قوموا إلى صاحبكم قد مات . وقرأت عليهم الكتاب ، فلما انتهيتُ إلى ذكْر عمر بن عبد العزيز ، نادى هشام : لا نبايعه أبدا . قال : قلت : والله أضرب عنقك ، قم فبايع . فقام يجرُّ رجليه ، وأخذتُ بضبعي عمر فأجلسته على المنبر ، وهو يسترجع لما وقع فيه ، وهشام يسترجع لما أخطأه ، فلما انتهى هشام إلى عمر ، قال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، حين صار

هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك . قال عمر : نعم ، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون حين صار إليّ لكراهتي له .

لله درُّ هذا الوزير الربَّاني الذي يقول فيه مسلمة بن عبد الملك أمير السرايا : « برجاء بن حيوة وبأمثاله نُنصَر »[١] .

وانظر إلى علوّ همَّته في الاتِّباع ، ونهيه عن الابتداع :

عن الوليد بن أبي السائب : أن رجاء بن حيوة كتب إلى هشام بن عبد الملك : بلغني يا أمير المؤمنين أنه دخلك شيءٌ من قَتْل غيلان وصالح ، وأقسم لك بالله يا أمير المؤمنين إن قتلهما أفضل من قتل ألفين من الروم أو الترك !![٢] . وفي آخر أمره تَرَك رجاء الوزارة .

فعن رجاء بن أبي سلمة قال : قدم يزيد بن عبد الملك بيت المقدس ، فسأل رجاء أن يصحبه ، فأبى واستعفاه ، فقال له عقبة بن وساج : إن الله ينفع بمكانك . فقال : إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا . فقال له عقبة : إن هؤلاء القوم قلَّما باعدهم رجلٌ بعد مقاربة إلا ركبوه . قال : إني أرجو أن يكفيهم الذي أدعوهم له .

ذو الوزارتين صاعد بن مخلد :

الوزير الكبير أبو العلاء الكاتب ، له صدقات وبِرٌّ وقيام ليل ، وزر للمعتمد سنة ست وستين .

كان يتردّد إليه أبو العيناء ، فيقولون : هو الساعة يصلِّي . فقال : كل جديدٍ له لذَّة[٣] .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١١٧/٦ ب .
(٢) حلية الأولياء ١٧١/٥ - ١٧٢ .
(٣) السير ٣٢٦/١٣ - ٣٢٧ .

الوزير العادل، الإمام المُحدِّث الصّادق، مجاب الدعوة أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجرّاح البغدادي :

وزر غير مرّة للمقتدر وللقاهر ، وكان عديم النظير في فنِّه .

حدَّث عنه ولده عيسى ، وأبو القاسم الطبراني ، وأبو الطاهر الذهلي ، وغيرهم .

قال الذهبي في السير (١٥/٢٩٩ - ٣٠٠) : كان على الحقيقةِ غنيًّا شَاكرًا ، ينطوي على دينٍ متين وعِلْم وَفَضْل وكان صَبُورًا على المِحَنِ . ولله به عناية ، وهو القائل - يُعزِّي وَلَدَي القاضي عمرَ بنِ أبي عمر القاضي في أبيهما -: مُصيبةٌ قد وَجَبَ أجْرُها خَيْرٌ مِنْ نِعْمَةٍ لا يُؤدَّى شُكْرُها .

وكان رحمه الله كثير الصَّدَقَاتِ والصَّلَوَاتِ ، مَجْلِسهُ موفورٌ بالعلماءِ . صَنّفَ كِتَابًا في الدُّعاءِ ، وكتابَ « مَعاني القرآن » أعانه عليه ابنُ مجاهد المقرئ ، وآخر ، وله ديوانُ رسائِله .

وكان من بُلَغَاءِ زَمانِهِ. وزر في سنةِ إحدى وثلاثمائة أربعةَ أعوام، وعُزل ، ثُمَّ وزر سنةَ خمس عشرة .

قال الصُّولي : لا أَعْلَمُ أنه وَزَرَ لبني العَبَّاس مثلُه في عِفَّته وَزُهْدِه ، وحِفْظِه للقرآنِ ، وَعِلْمِهِ بمعانيه ، وكان يصومُ نهارَه ، ويقومُ ليلَه ، وما رأيتُ أعرَفَ بالشِّعْر منه، وكان يجلِس للمظالِم، ويُنصِفُ النَّاس،لم يَرَوا أعفَّ بطنًا ولِسانًا وفَرْجًا منه. ولمَّا عُزل ثانيًا ، لَم يَقنع ابنُ الفُرَات حتَّى أخرَجَه عن بغدادَ ، فجاوَرَ بمكَّةَ .

وله في نَكْبَتِهِ :

ومَنْ يكُ عني سائلًا لشماتةٍ ... لِمَا نابني أو شامتًا غير سائلِ
فقد أبرزت مني الخطوبُ ابنَ حُرَّةٍ ... صبورًا على أهوالِ تلك الزلازل

إذا سُرَّ لم يبطر وليس لنكبةٍ   إذا نزلتْ بالخاشعِ المتضائلِ

وقد أشار على المقتدر فأفلح ، فوقف ما مُغَلُّه في العام تسعون ألف دينار على الحرمين والثغور ، وأفرد لهذه الوقوف ديوانًا سمَّاه : ديوان البر .

قال المُحدِّث أبو سهل القطان : كنت معه لما نُفِي بمكة ، فدخلنا في حرٍّ شديد وقد كدنا نتلف ، فطاف يومًا ، وجاء فرمى بنفسه ، وقال : أشتهي على الله شربة ماء مثلوج . قال : فنشأت بعد ساعة سحابة ورعدت ، وجاء بَرَد كثير ، جمع منه الغلمان جرارًا ، وكان الوزير صائمًا ، فلمَّا كان الإفطار ، جئته بأقداح من أصناف الأسوقة ، فأقبل يسقي المجاورين ، ثم شرب وحمد الله ، وقال : ليتني تمنَّيتُ المغفرة .

وكان الوزير متواضعًا ، قال : ما لبستُ ثوبًا بأزْيَد من سبعة دنانير .

قال رحمه الله : كسبت سبعمائة ألف دينار ، أخرجت منها في وجوه البرِّ ستمائة ألف وثمانين ألفا .

الوزير الإمام الحافظ ابن حِنْزَابة :

أبو الفضل جعفر ابن الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى البغدادي ، وزر أبو الفضل بمصر لكافور .

قال السِّلَفي : كان ابن حِنْزابة من الحفّاظ الثِّقات المتبجِّحين بصُحبة أصحاب الحديث ، مع جلالة ورياسة ، يروي ويُملي بمصر في حال وزارته ، ولا يختار على العلم وصحبةِ أهلِهِ شيئًا ، وعندي من أماليه ، ومن كلامه على الحديث ، وتصرّفه الدال على حدَّة فهْمه ووُفور عِلْمه .

وقد روى عنه حمزةُ بن محمد الكناني الحافظ مع تقدُّمه .

حدّث عنه الدارقطني ، والحافظ أبو محمد عبد الغني المصري ، وطائفة .

قال الخطيب : وكان يذكر أنه سمع مجلسًا من أبي القاسم البغوي ، ويقول :

مَن جاءني بـه أغنيتُه . وكان يُملي الحديث بمصر ، وبسببه خـرج الدّارقطنيُّ إليها ؛ فإن ابنَ حِنزابة كان يُريد أن يصنّف مُسندًا ، فخرج الدارقطنيُّ إلى مصر ، وأقام عنده مدَّة ، وحصل له منه مال كثير[1] .

قيل : كان ابنُ حِنزابة متعبِّدًا ، ثم يفطر ، ثم ينام ، ثم ينهض في الليل ، ويدخل بيت مُصلَّاه فيصفُّ قدميه إلى الفجر .

قال المُسبِّحي : لما غُسِّل ابنُ حِنزابة ، جُعل فيه ثلاثُ شعراتٍ من شَعر النَّبي ﷺ ، كان أخذها بمالٍ عظيم .

وحِنْزَابة : جـارية ، هي والدةُ الفضل الوزير ، وفـي اللغة : الحِنْزَابة : هي القَصِيرة السَّمِينة .

قال ابنُ طاهر : رأيتُ عند الحبَّال كثيرًا من الأجزاء التي خرِّجت لابن حِنْزَابة ، وفي بعضها الجزء الموفي ألفًا من مسند كذا ، والجزء الموفي خمسمائة من مسند كذا ، وكذا سائر المسندات . ولم يزل يُنفق في البرِّ والمعروف الأموال ، وأنفقَ كثيرًا على أهل الحَرَميْن إلى أن اشترى دارًا أقرب شيء إلى الحجرة النبويَّة ، وأوصى أن يُدفن فيها ، وأرضى الأشراف بالذَّهب . فلما حُمِلَ تابوتُهُ من مصر ، تلقَّوه ودُفن في تلك الدار .

قال الحسنُ بن أحمد السبيعي : قدم علينا الوزيرُ جعفرُ بنُ الفضل إلى حلب ، فتلقَّاه النـاسُ ، فكنتُ فيهم ، فعُرِّف أني مُحدِّث ، فقـال لي : تعرفُ إسنادًا فيه أربعةٌ من الصحابة ؟ قلت : نعـم ، حديثُ السائب بن يزيد ، عن حُويطب ، عن عبد الله بن السَّعـدي ، عن عُمر رضي الله عنهم في ......

(١) تاريخ بغداد ١١/٢٣٤ .

العُمالة[1] . فعَرف لي ذلك ، وصار لي عنده منزلة .

عميد الجيوش أبو علي الحسين بن أبي جعفر ؛ يُقيم السُّنن :

الأمير الوزير ، وزر لبهاء الدولة ، واستنابه بهاء الدولة على العراق ، فقدمها في سنة ٣٩٦ والفتن ثائرة بها ، فضبط العراق بأتمِّ سياسة ، وأباد الحراميّة ، وقتل عدَّة ، وأبطل مآتم عاشوراء ، وأمر مملوكًا له بالمسير في محالِّ بغداد ، وعلى يديه صينية مملوءة دنانير ، ففعل ، فما تعرَّض له أحد لا في الليل ولا في النهار .

وكان مع فرط هيبته ، ذا عدلٍ وإنصاف . وَلِيَ العراق تسع سنين سوى أشهر .

مات في عهده نصراني تاجر من مصر ، وخلَّف أموالًا ، فأمر بحفظها حتى جاء الورثة من مصر وتسلَّموها .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٣/١٣٣ في الأحكام : باب رزق الحاكم والعاملين عليها . عن الزهري ، أخبرني السائب بن يزيد - ابن أخت نمر - أن حويطب بن عبد العزى أخبره ، أن عبد الله السعدي ، أخبره أنه قدم على عمر في خلافته . فقال له عمر : ألم أُحدّث أنك تلي من أعمال الناس أعمالًا ، فإذا أُعطيتَ العُمالة كرهتها ؟ فقلت : بلى . فقال عمر : ما تريد إلى ذلك ؟ فقلت : إن لي أفراسًا وأعبدًا ، وأنا بخير ، وأريد أن تكون عُمالتي صدقة على المسلمين . قال عمر : لا تفعل ، فإني كنت أردتُ الذي أردتَ ، وكان رسول الله ﷺ يُعطيني العطاء ، فأقول : أعطه أفقر إليه مني . حتى أعطاني مرّةً مالًا ، فقلت : أعطه أفقر إليه مني . فقال النبي ﷺ : « خذه فتموَّله ، وتصدَّقْ به ، فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل ، فخذ ، وإلّا فلا تتبعه نفسك » .

أمير الجيوش الوزير السُّنّي وسط العُبيديِّين :

الملك الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن الملك أمير الجيوش بدر الجمالي ، عظُم شأنه ، وأهلك « نزارًا » - ولد المستنصر ، صاحب دعوة الباطنية - وأتابكَه « أفتكين » متولِّي الثغر ، وكان بطلًا شجاعًا وافر الهيبة ، عظيم الرتبة .

وكانت الأمراء تكرهه لكونه سُنِّيًّا ، فكان يؤذيهم ، وكان فيه عدْلٌ ، فظهر بعده الظلم والبدعة .

قال أبو علي بن القلانسي : كان الأفضل حسنَ الاعتقاد ، سُنِّيًّا حميد السيرة ، كريم الأخلاق ، لم يأت الزمان بمثله[١] .

وفخر الملك ، الوزير أبو غالب محمد بن علي الصيرفي ؛ من محاسن الدهر في الإحسان على العلماء :

قال عنه الذهبي في « السير » (٢٨٣/١٧) : « وزر وناب للسلطان بهاء الدولة بفارس ، وافتتح قلاعًا ، ثم ولي العراق بعد عميد الجيوش .

وكان شهمًا كافيًا ، طلق المحيّا ، وفيه عدل في الجملة ، عمرت العراق في أيامه ، وكان من محاسن الدهر . أنشأ بيمارستانًا عظيمًا ببغداد ، وكانت جوائزه متواترة على العلماء والصلحاء » .

رُفعت إليه سعايةٌ برجل ، فوقّع فيها : « السعاية قبيحة ، ولو كانت صحيحة ، ومعاذ الله أن نقبل من مهتوك في مستور ، ولولا أنك في خفارة شيْبك ، لعاملناك بما يشبه مقالك ، ويردع أمثالك ، فاكتم هذا العيب ، واتّق من يعلم الغيب »[٢] . فأخذها فقهاء المكاتب ، وعلّموها الصغار .

وكان يُضرب به المثل بكثرة جوائزه وعطاياه .

---

(١) السير ٥٠٧/١٩ - ٥١٠ .

(٢) وفيات الأعيان ١٢٦/٥ .

الوزير العادل ، ظهير الدين أبو شجاع محمد بن الحسين الروذراوي ؛ يكنس المسجد النبوي ، ويفرش الحصر ، ويُشعل المصابيح :

قال عنه الذهبي : « كتب المقتدي إلى نظام الملك بخطِّه ، يُعرِّفه منزلة أبي شجاع لديه ، ويصف دينه وفضله ، واستوزر المقتدي أبا شجاع في سنة ست وسبعين وأربعمائة (٤٧٦ هـ) ، وأقبلت سعادته ، وتمكَّن من المقتدي تمكُّنًا عجيبًا ، وعزَّت الخلافة ، وأمِن الناس ، وعُمرت العراق ، وكثرت المكاسب »[١] .

وقال السبكي في « طبقات الشافعية » (٤/١٣٧ - ١٣٨) : « كان لا يخرج من بيته حتى يقرأ شيئًا من القرآن ويصلِّي ، وكان يصلِّي الظهر ، ويجلس للمظالم إلى وقت العصر ، وحجّابه تنادي : أين أصحاب الحوائج . فينصف المظلوم ، ويؤدّي عن المحبوس ؛ فلم يطمع في أيامه طامع ، ولم يُحدِّث نفسه بالظلم ظالم » :

وله في عدله حكايات في إنصاف الضعيف من الأمير :

قال العماد في « الخريدة » : « وكان عصره أحسنَ العصور ، وزمانه أنضر الأزمان ، ولم يكن في الوزراء مَن يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله ، صعبًا شديدًا في أمور الشرع ، سهلًا في أمور الدنيا ، لا تأخذه في الله لومة لائم » .

« وكان من سعادته أن قاضي القضاة الشامي ، ذاك الرجل العالم الصالح ، هو القاضي في أيامه ، فانتظم أمر بغداد كما ينبغي .

واستدعى يومًا بعض كبار الأمراء بالنواحي ، فجاءه في خمسمائة فارس من الأمراء والسّلّارية ، فلما مَثُل بين يديه ، قال له : إن بعض أعوانك أخذ عمامة رجل . فقال : يا مولانا ، إنك تتعمَّد الغضّ مني ، والنقص من محلِّي ، وهذا مما يُسأل عنه من استنبته في الشرطة من أصحابي ، والمستخدَمون على أبوابي .

---

(١) السير ١٩/٢٨ .

فقال له الوزير : وإذا سألك الله تعالى في الموقف الذي يسألك فيه عن اللفظة واللحظة ومثقال الذَّرة، يكون هذا جوابك ؟!! فخرج ذلك الملك، واستبحث عن العمامة حتى عادت .

وأخباره في ذلك ، ونظائره مشهورة كثيرة .

ثم لاح له توفيق إلهي ، فحاسب نفسه على زكاة ماله ، وعلم أنه أخلَّ بأدائها فيما تقدَّم ، واحتاط بأن أخرجها عن والده سنين كثيرة .

وأمَّا ما كان يفعله من صنائع البر ، والتنوع في صِلة المعروف فعجيب كثير :

استدعى بعض أخِصَّائه في يوم بارد ، وعرض عليه رُقعة من بعض الصالحين ، يذكر فيها أن في الدار الفلانية امرأةً معها أربعة أطفال أيتام ، وهم عراة ، جياع . فقال له : امض الآن وابتع لهم جميع ما يصلح لهم . ثم خلع أثوابه ، وقال : والله لا لبستُها ، ولا أكلتُ حتى تعود وتخبرني أنك كسوتهم وأشبعتهم . وبقي يُرعد بالبرد إلى حيث قضى الأمر ، وعاد إليه ، وأخبره »[1] .

أمر رحمه الله ليلة بعمل قطائف ، فلمّا أُحضرت ، تذكّر نفوس مساكين تشتهيها ، فأمر بحمْلها إلى فقراء وأضِرَّاء .

وقال بعض من كان يتولَّى صدقاته : إنه حسب ما انصرف على يده من صِلاته ، فاشتمل على مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار . قال : وكنت واحدًا من عشرة يتولَّون صدقاته .

وخلعت عليه بنت السلطان « ملكشاه » حين تزوَّجت بالمقتدي ، فاستعفى من لبس الحرير ، فنفَّذت له عمامة ودبيقية بمائتين وسبعين دينارًا ، فلبسها .

(١) طبقات الشافعية ٤/١٣٩ .

قال الذهبي في « السير » (١٩/ ٢٩ - ٣٠) : « وكان كاملًا في فنون ، وله يد بيضاء في البلاغة والبيان ، وكتابته طبقة عالية على طريقة ابن مُقلة .

وزر سبع سنين وسبعة أشهر ، ثم عُزِل بأمر السلطان ملكشاه للخليفة لموجدة ، فأنشد أبو شجاع :

تـولَّاهـا وليـس لـه عـدوٌّ   وفارقها وليس له صـديقُ

ثم خرج إلى الجمعة ، فضجَّت العامة يدعون له ، ويُصافحونه ، فأُلزم لذلك بأن لا يخرج من داره ، فاتّخذ في دهليزه مسجدًا ، ثم حجّ لعامه ورجع ، فمُنع من دخول بغداد ، وبُعث إلى « رُوذْراور » ، فبقي بها سنتين ، ثم حجّ بعد موت النظام والسلطان والخليفة ، ونزل المدينة وتزهَّد ، فمات خادم من خُدَّام روضة المصطفى ﷺ ، فأعطى الخدام ذهبًا حتى جُعِل موضع الخـادم ، **فكان يكنس ويفرش الحصر ويُوقد المصابيح**[1] ، ولبس الخام، **وحفظ القرآن هناك**».

وكتـب إلى ولـده أبي منصور ، بأن يقف عنه مـدرسة علـى أصحـاب الشافعي . فرحمة الله على الوزير الخادم لروضة المصطفى ﷺ .

الوزير الكبير نظام المُلْك العالم العادل :

أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ، « عاقل ، سائس ، خبير ، سعيد ، متديِّن ، محتشم ، عامر المجلس بالقراء والفقهاء .

وزر للسلطان « ألب أرسلان » ، ثم لابنه ملكشاه ، فدبَّر ممالكه على أتمِّ ما ينبغي ، وخفَّف المظالم ، ورفق بالرعايا ، وبنى الوقوف ، وهاجرت الكبار إلى جنابه »[2] .

---

(١) طبقات الشافعية ٤/ ٣٩ ، والمنتظم ٩/ ٩٣ .

(٢) السير ١٩/ ٩٤ - ٩٥ .

قال السبكي : « وزيرٌ عالَى الملوكَ في سُمعتِها ، وغالَبَ الضَّراغمَ ، وكانت له النُّصرة مع شِدَّة مَنَعَتِها ، و ضاهَى الخلفاءَ في عطائها ، وباهَى الفَراقِد ، فكان فوق سمائها .

ملَكَ طائفةَ الفقهاء بإحسانه ، وسلَك في سبيل البرِّ معهم سبيلًا لم يُعهد قبل زمانِه ، هو أشهر من بَنَى لهم المدارسَ ، وشيَّد أركانَهم ، ولولاه خِيفَ أن يكون كالطلال الدَّارِس .

كان جوادًا يخجلُ لديه كلُّ ذي جَبِينٍ وضَّاح ، ويتنافس على أريج ثنائِه مِسْكُ الليل وكافورُ الصباح ، طمَسَ ذِكْرَ مَن كنَّا نسمعُ في المكارم من الملوك خبرَه ، وغرَس في القلوب شجراتِ إحسانه المُثْمِرَة .

دولتُه كلها فضْلٌ ، وأيامه جميعها عدْل ، ووقته وابلٌ بالسَّماح مُغدِق ، ومجلسه بجماعة العلماء صباحٌ مُشْرِق . كل يومٍ من أيامِه مقدارُه ألف سنة ، وكل مَعْدَلة من أحكامِه أنامَت الأنامَ ؛ فأمِن كل واستطابَ وسَنَه .

لو هُدِّد الدهرُ بعدْلِه لما تعدَّى بصروفه ، ولو عُرِض نَداء في كلِّ نادٍ من الخلفاء لَعُرِف مِن بينهم بمعروفه . إن جلس بين العلماء جلس وعليه سِيما الوَقار ، وله من التأدُّب معهم ما شهِدتْ به في التَّواريخ الأخْبار . يتضاءلُ بيْن العلماء ، ويتنازلُ ، وإن كان مَنْزِلُهُ أعلا من نجْم السَّماء . خُلُقٌ أرقُّ من النسيم ، ومُحيًّا تعْرف فيه نَضْرَة النَّعيم .

تُنْبي طَلاقةُ بِشْرِهِ عن جُودِهِ   فيكادُ يُلْقَى النُّجْحُ قبلَ لِقَائِهِ
وضياءُ وجْهٍ لو تأمَّله امرُؤ   صَادِي الجَوانح لارتوَى مِن مائِهِ

وإنْ قَعَدَ للمَظالم ، أقام بالكتاب والسُّنَّة ، وأخاف في الله ببَطْشِه كلَّ ذي يدٍ عاديةٍ، تغدُو بعدها النفوسُ مُطمَئِنَّة، حتى أقرَّت له بالعدْلِ عُظماءُ السَّلاطين، واستقرَّت في أيامِه بالأمن الناس ، لا يخْشَوْن نازلةَ المُتَعالِين .

وإن أفاض جـودَه أخجلَ الغَمام ، وأجْزَل كلَّ عطاءٍ جزْلٍ لم تَرَهُ النفسُ إلا في آمالِ اليقَظةِ ، أو أحْلام الْمَنام .

ليس التَّعجُّبُ مِن مواهبِ مالِهِ　　　بَلْ مِن سلامَتِها إلى أوقـاتِهـا

وإن ركب الهيجاءَ لم يكن له حاجب إلا مواضي الصِّفاح ، ولا طليعة إلَّا شُهُبُ الأسِنَّة على رؤوس الرِّماح .

ولا كُتْبَ إلا المشْرَفِيَّةُ عنـدَهُ　　　ولا رُسْلَ إلا الْخَمِيسُ العَرمَرَمُ
ولم يخْلُ مِن نَصْرٍ له مَن له يَدٌ　　　ولم يخْلُ مِن شُكْرٍ له مَن له فَمُ
و لم يَخْلُ مِن أسمائه عُودُ مِنْبرٍ　　　و لم يَخْلُ دِينارٌ و لم يَخْلُ دِرْهمُ

يرفع لواءَ الإسلام، ويسمعُ نَوْحَ الحَمام على أُمَمٍ أُنْزل بهم الحِمامَ ، ويَقُومُ فَيُقْعِد كلَّ كَمِيٍّ ، ويُرْعِفُ أنفَ كلِّ مَشْرَفِي وسَمْهَرِي .

على عاتِقِ المَلْكِ الأعَزِّ نِجادُهُ　　　وفي يدِ جَبَّارِ السَّمواتِ قائِمُه

يُقاتِل لتكون كلمةُ اللهِ هي العُلْيَا ، ويناضِل ، فلا يدَعُ في حيِّ الأعداءِ حَيًّا، ويبارز حيثُ تتأخَّر الجِياد السَّنابِك، ويجاوِز ، فلا تسمعُ إلا مَن يقـول : وما النَّاسُ إلا هالِكٌ وابنُ هالك .

في جَحْفَلٍ ستَر العيونَ غُبارُهُ　　　فكـأنَّمـا يُبْصِرْنَ بـالآذانِ
قد سودَت رُوسَ الجبالِ شعورُهمْ　　　فكـأنَّ فيـه مُسِفَّـةَ الغِربْـانِ
إن السُّيوفَ مع الذين قلوبُهـم　　　كقلـوبِهِنّ إذا الْتَقـى الجَمْعَـانِ
يُلْقَى الحُسَامُ على جَراءةِ حدِّهِ　　　مثلَ الجبَانِ بِكَـفِّ كـل جبَـانِ

أسِنَّةٌ مسنُونة وسُنَّةٌ مسْنونة ، وأيام بعدْله مأمونة ، وزمنٌ بالنَّعماء مشحُون وفوق الزَّمن السَّالف إذا اعتُبرت السِّنون، وأجل وكيف وفي ذلك فرد أمين ومأمون، وكل أحدٍ في زمن هذا أمينٌ ومأمون :

فـلا عَقْـرَبٌ إلا بِخَـدٍّ مَليحـةٍ　　　ولا جَـوْرَ إلا فـي وِلَايـة سـاقِ

ومُلْكٌ هـو نِظامُه ، وسِلْكٌ هو واسِطتُه ؛ إذا عُدَّت أيـامُه ، وإفْكٌ هو مَاحيه ؛ إذا دَجَى ظلامُه .

بطـلٌ شُجاع ، ورجلٌ يخافُه على صَافِناتِها الأبطـالُ ، وفوقَ سريـرها المـلوكُ ، وفي أجَمـاتِها السِّبـاع . مُقدَّم العساكر ومِقْدامُـها ، وأسدُ الممالِك وضِرْغَامُها ، وأسـدُّ الأبطالِ رأيًا وهُمامُها . لا تضَعُ الحـربُ عندَه أوْزارَهـا ، حتى يضَعَ العُصاة أوْزارَها ، وتَرجع إلى الله تعالى رَجْعَةَ نُفوسٍ لا تُبالي ؛ ولَّى عنها شيطانُها أوزارَها .

ولم يزل السَّعْـدُ يخدمه ، والأمور تجْرِي على وَفْـق مُرادِه ، واتَّفق في أيامه مِن محاسن الأفعال ، ونشْر العدل ، وضَبْط الأحوال ، ما سارت به الرُّكبان ، وتناقلَتْه الألسنة ، وصار بابُه محطَّ الرِّحال ، ومُنْتَهَى الآمال .

وأخذ في بناء المساجد ، والمدارس ، والرِّباطات ، وفِعْل أصنافِ المعروف بتنوُّع أقسامِه ، واختلاف أنواعِه ، واشتدت مع ذلك وطْأتُه ، وعظُمَت مكانتُه ، وتزايدت هيْبتُه . إلى أن انْقَضَتْ دولةُ ألب أرسلان ، فملك بعده السُّلطان الكبير ، مَلِكْشَاه ، بتدبير نِظام المُلْك ، وكِفايَتِه ، فازْدادتْ حرمتُه ، وتصاعدت مَرتبتُهُ .

وقدِم بغداد مِرارًا مع السلطان ، وقُوبِل من الخليفة بِنهَاية الإجلال والتّعْظيم ، وبنى ببغداد مدرسةً ورِباطًا .

وتوجَّه مع السلطان مَلِكْشَاه إلى الغَزاة ، ببلاد الرُّوم ، وفتح عِدَّة بلاد من ديار بَكْر وربيعة ، والجزيرة ، وحَلَب ، ومَنْبِج ، ثم عاد إلى خُراسان ، وما وراء النَّهر .

وجرَت أموره على السداد ، نافذَة أموره في أقطار الأرض ، إليه يرجعُ الناسُ بأمورِهم ، وهو الحاكم لا كلمةَ لغيره ، ومجالسُه معمورةٌ بالعلماء ، مأهولةٌ بالأئمَّة والزُّهَّاد ، لم يتَّفِق لغيره ما اتَّفق له من ازْدِحام العلماء عليه ، وتَرْدادِهم إلى بابه ، وثنائِهم على عَدْلِه ، وتصْنِيفهم الكُتُبَ باسْمِه ، يحضر سِماطَه

مثلُ أبي القاسم القُشَيْرِيّ ، وأبي إسحاق الشيرازِيّ ، وإمام الحرمَيْن ، وغيرهم .

وذكر النَّقَلة أنه لم يكن في زمانه أكفأُ منه في صناعةِ الحساب ، وصناعة الإنشاء ، ووَصفُوه بسَداد الألفاظ فيهما ، عربيَّةٍ وفارسيَّةٍ .

وكان مِن أخلاقه أنه ما جلس قطُّ إلا على وضُوء ؛ ولا توضَّأ إلَّا وتنفَّل ، ويقرأ القرآن ، ولا يتلوه مُستنِدًا إعظامًا له ، ويستصْحِب المصحفَ معه أينما توجَّه ، وإذا أذَّن المُؤَذّن أمسك عن كلِّ شُغْلٍ هو فيه ، وأجابه ، ويصوم يومَ الإِثْنين والخميس .

ولا يمنع أحدًا مِن الدخول عليه - لا وقتَ الطَّعام ، ولا غيره - إذا جلس .

وهجَمت امرأةٌ عليه مرَّة وقتَ الطَّعام ، ومعها قضِيَّة ، فزَبَرها بعضُ الحُجَّاب ، فحانَت منه الْتِفاتةٌ إليه ، فلقيه بالكلام الصَّعْبِ ، وقال : إنما أُريدُك وأمثالَك لإيصال مثلِ هذه ، وأما المُحتشِمون فهم يُوصِلون نفوسَهم .

وبنى مدرسةً ببغداد ، ومدرسة ببَلْخ ، ومدرسة بنَيْسابور ، ومدرسة بهَراة ، ومدرسة بأَصْبَهان ، ومدرسة بالبصرة ، ومدرسة بمرو ، ومدرسة بآمُل طَبَرِسْتَان ، ومدرسة بالمَوْصل .

ويُقال : إن له في كل مدينة بالعراق ، وخراسان مدرسة له ، وله بيمارستان بنيسابور ورباط ببغداد » .

قال الذهبي : « أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد ، وأخرى بنيسابور ، وأخرى بطوس ، ورغَّب في العلم ، وأدرَّ على الطلبة الصلات ، وأملى الحديث » .

وقال السبكي : « غلب على ظني أن نظام الملك أوّل من قدَّر المعاليم للطلبة .

ونقلتُ من خطّ إمام الحرمَيْن ، في خطبة « العُباب » ما قاله يصِف نِظامَ الملك : سيِّدُ الورَى ، ومُؤيِّد الدِّين والدنيا ، مَلاذ الأمَم ، مُستخدِمٌ للسَّيف والقلم ، ومَن ظَلَّ ظِلُّ المُلْك بيُمْن مَساعِيه ممدودًا ، ولواءُ النَّصر معقودًا ، فكم باشَر أوْزارَ الحرب ، وأدار رَحَى الطَّعْن والضَّرْب ؛ فلا يدُه ارتدَّتْ ، ولا طلعتُه البهيَّة ارْبَدَّتْ ، ولا عَزْمُه انْثَنى ، ولا حَدُّه فَنَى . قد سَدَّتْ مسالكَ المهالِك صوارِمُه ، وحصَّنَت الممالكَ صرائمه ، وحَلَّتْ شكائمَ العِدَى عزائمه ، وتحصَّنَت المملكةُ بنَصْلِه ، وتحسَّنَت الدنيا بأفْضالِه وفضْلِه ، وعَمَّ بِبِرِّه آفاقَ البلاد ، ونفَى الْغَيَّ عنها بالرَّشاد ، وجَلَّى ظلامَ الظُّلم عدلُه ، وكسر فِقَار الفقْر بَذْلُه ، وكانت خُطَّةُ الإسلام شاغِرة ، وأفْواهُ الخُطوب إليه فاغِرة . فجمع اللهُ برأْيِه الثَّاقبِ شَملها ، ووَصَل بيُمْنِ هيْبَتِهِ حَبْلَها ، وأصبحت الرَّعايا في رِعايته وَادِعة ، وأعيُنُ الحوادِث عنها هاجِعَة . والدِّين يُزْهَى بتهلُّلِ أساريرِه ، وإشْراق جبينه . والسَّيْفُ يفخُر في يمينه ، يرجُوه الآيِسُ البائِس في أدْراج أنِينه ، ويركع له تاجُ كلِّ شامخ بِعِرنِينِه ، ويهابُه الليثُ المُرْتَجِن في عرينه . انتهى .

وهذا من هذا الإمام الجليل - وإن لَم يخْلُ عن بعض المبالغة - شاهدُ عَدْلٍ ، لعُلُوِّ مِقدار نظامِ المُلْك عند هذا الحَبْر ، الذي يحتجُّ بكلماتِه المتقدِّمون ، والمتأخِّرُون ، وعنه انتشرتْ شريعةُ الله ؛ أصولًا وفروعا .

وحكى الأمير أبو نصر بن مَاكُولا ، قال : حضرتُ مجلس نِظام المُلك وقد رَمَى بعضُ أرباب الحوائج رُقعةً إليه ، فوقعَتْ على دواته ، وكان مِدادُها كثيرًا ، فنال المدادُ عمامَتَه ، وثيابه ، فاسودّت ، فلم يُقطِّب ، ولم يتغير ، ومدَّ يدَه إلى الرُّقعة فأخذها ، ووقَّع عليها ، فتعجَّبتُ مِن حِلمه ، فحكيْتُ لأستاذ دارِه ، فقال : الذي جَرَى في بارحَتِنا أعجبُ ، كان في نَوْبتِنا أربعون فَرَّاشًا ، فهبَّت ريحٌ شديدةٌ ، ألقَت التُّرابَ على بِساطِه الخاصّ ، فالتمستُ أحدَهم ليَكنِسه ، فلم أجدْه ، فاسودَّت الدنيا في عيني وقلتُ : أقلُّ ما يجْرِي صرْفي

وعقوبتُهم . فأظهرتُ الغضبَ ، فقال نِظام المُلك : لعل أسبابًا لهم اتَّفقتْ منعَتْهُم من الوقوف بين أيدينا ، وما يخلو الإنسان مِن عُذْر مانعٍ ، وشُغلٍ قاطعٍ يصدُّه عن تَأْدِية الفرض ، وما هم إلا بَشَر مثلُنا ، يأْلَمون كما نَأْلَم ، ويحتاجون إلى ما نحتاج إليه ، وقد فضَّلَنا اللهُ عليهم ، فلا نجعل شُكرَ نِعْمتِه مُؤَاخَذَتَهم على ذنبٍ يسيرٍ . قال : فعجِبْتُ من حِلمه .

وحكى أخوه القاسم عبد الله بن علي بن إسحاق : أنه كان بمكة ، وأراد الخروج إلى عَرَفات ، فأخبره رجل أن إنْسانًا من الخُرَاسَانية مات ببعض الزَّوايا ، وأنه انتفَخ ، وفسَد ، ولَزِم القيامُ بحقِّه . قال : فمكثْتُ لذلك ، فرآني بعضُ مَن كان يأْتَمِنُهُ نِظامُ المُلْك على أمور الحاجِّ ، فقال لي : ما وُقوفُك هاهنا ، والقوم ، قد رَحلوا ؟ فحكَيْتُ له القِصَّة ، فقال : اذْهب ، ولا تَهْتَمَّ لأمْرِ هذا الميِّت ، فإن عندي خمسين ألف ذِراع من الكِرْباس ، لتَكْفين المَوْتى ، من جهة الصَّاحب نِظام المُلْك .

قال : وكان أخي نِظام المُلك يُمْلِي الحديثَ بالرَّيِّ ، فلمّا فَرغ ، قال : إنِّي لستُ أهلًا لما أَتَوَلَّاه مِن الإملاء ، لكنِّي أُرِيد أن أرْبِط نفسي على قِطارِ نَقَلَةِ حديث رسولِ الله ﷺ » .

قال عنه الذهبي : « كان فيه خيرٌ وتقوى ، ومَيْلٌ إلى الصالحين ، وخضوع لموعظتهم ، يُعجبه مَن يُبَيِّن له عيوبَ نفسه ، فينكسر ويبكي » .

قال ابن خلكان : « قد دخل نظام الملك على المقتدي بالله فأجلسه ، وقال له : يا حسن ، رضي الله عنك كرضا أمير المؤمنين عنك . وكان نظام الملك يستبشر بهذا ، ويفرح ، ويقول : أرجو أن الله تعالى يستجيب دعاءه » .

قال الذهبي : « كان حليمًا رزينًا ، جوادًا ، صاحب فتُوَّةٍ واحتمال ، ومعروف كثير إلى الغاية ، ويُبالغ في الخضوع للصالحين » .

قال السبكي : « وحكى عبد الله السَّاوَجِي : أن نِظام المُلْك استأذَن السُّلطان مَلِكْشَاه في الحجِّ ، فأذِن له ، وهو إذ ذاك ببغداد ، فعبَرَ دِجْلَة وعبَروا بالآلات ، والأقمشة ، وضُرِبَتِ الخِيامُ على شَطِّ دِجْلة . قال : فأَردتُ يومًا أن أدخلَ عليه ، فرأيتُ بباب الخيمةِ فقيرًا ، يلُوح عليه سِيمَا القوم ، فقال لي : يا شيخ ، أمانةٌ تُوصِّلها إلى الصَّاحب . قلتُ : نعم . فأعطاني رُقعةً مَطويَّة ، فدخلتُ بها ، ولم أنظُر فيها حِفظًا للأمانة ، ووضعتُها بين يدي الوزير ، فنظر فيها ، وبكى بكاءً شديدًا ، حتى نَدِمتُ ، وقلتُ في نفسِي : ليْتَني نظرتُ فيها ؛ فإن كان ما فيها يسوؤُه ، لم أدفعْها إليه . ثم قال لي : يا شيخ ، أدخِل عليَّ صاحبَ هذه الرُّقعة . فخرجتُ فلم أجدْه ، وطلبتُه فلم أظفَر به ، فأخبرتُ الوزيرَ بذلك ، فدفع إليَّ الرُّقعةَ ، فإذا فيها : رأيتُ النبي ﷺ ، وقال لي : « اذْهَبْ إلى الحَسَن ، وقُل لَهُ : أَيْنَ تَذْهَبُ إلى مكَّةَ ؟! حَجّك هاهُنا ، أَمَا قُلْتُ لكَ : أَقِم بَيْن يدَيْ هذَا التُّركِي ، وأَعِنْ أصحابَ الحوائجِ مِن أُمَّتي ؟ » فرجع نِظامُ المُلْك . وكان يقول : لو رأيتُ ذلك الفقيرَ ، حتى أتبرَّك به . قال : فرأيتُه على شَطِّ دِجلة ، وهو يغسِل خُرَيْقات له ، فقلتُ له : إن الصَّاحِبَ يطلُبك . فقال : ما لي ولِلصَّاحب ، إنما كانتْ عندي أمانةٌ فأدَّيْتُها .

قال ابن الصلاح : السَّاوَجِيّ هذا ، كان خيِّرًا ، كثيرَ المعروف ، يُعْرَف بشيخ الشُّيوخ .

وحكى الفقيه أبو القاسم - أخو نِظام المُلْك - أنه كان عنده ليلةً ، على أحد جانِبَيه ، والعمِيدُ خليفة على الجانب الآخر ، وبجنبه فقيرٌ مقطوع اليُمْنى . قال : فشرَّفني الصاحبُ بالمُوَاكَلَة ، وجعل يلحَظُ العميدَ خليفةَ ، كيف يُلاحِظ الفقير . قال : فتنَزَّه خَليفة مِن مُواكَلَة الفقير ؛ لمَّا رآه يأكل بيَساره . فقال لخليفة : تحوَّل إلى هذا الجانب . وقال للفقير : إن خليفة رجل كبير في نفسه ، مستنكِف من مواكلتك ، فتقدَّمْ إليّ . وأخذ يُواكِله » .

علوّ همَّته في حفظ الدولة :

انظر إلى علوّ همّة الوزير الكبير الذي لم تكن وزارته وزارة ، بل فوق السلطنة ؛ فإن جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان اتَّسعتْ ممالِكُه ؛ فكان تَحْتَ مُلْكِه بلادُ ما وراء النهر ، وبلاد الهَيَاطِلة ، وباب الأبواب ، وخُراسان ، والعراق ، والشَّام ، والرُّوم ، والجزيرة ؛ فمملكتُه من كاشْغَر ، وهي أقصى مدائن التُّرك ، إلى بيت المقدِس طُولًا ، ومن قُرْب قُسطَنْطِينيَّة ، إلى بحر الهند عَرْضًا . ولم يكن مع ذلك لِمَلِكْشاه مع نِظام المُلْك غيرُ الاسم ، والأُبَّهة ، والتَّنوُّع في اللذَّات ، وكان مشغولًا بالصَّيْد ، واللذَّة ، ونِظام المُلْك هو الآمِر المُتصرِّف ، لا يجري جليلٌ ولا حَقِيرٌ إلا بأمْرِه .

وحُكِي عنه ، أنه كان بهَمَذان ، وقدِم عليه ابنُه مُؤيِّد المُلك ، مِن بَلْخٍ ، فإنه كان اسْتَقْدَمه ليُنْفِذه إلى بغداد حين زوَّجه ، فدخل عليه ووقف بين يديه ساعةً ، وقضى للنَّاس حوائجَهم ، فلمّا أذَّن الْمؤَذِّن لصلاة الظُّهر ، وتفرَّق النَّاسُ نظر إلى ابنِه ، واستدْنَاه فجعل يُقبِّل الأرضَ ويدنُو ، فضمَّه إليه ، وقبَّل بين عَيْنَيْه ، وقال له : يا بُنَيّ ، توجَّه إلى بيتِك إلى بغداد ، في ساعتك هذه . فودَّعه ، وقبَّل يدَه وسار من ساعتِه . والتفت نظام المُلك إلى مَن عنده ، وقد تغرْغَرتْ عينُه بالدُّموع ، وقال : إن عيشَ أحدِ البقَّالين أصلحُ من عيْشي ؛ يخْرُج إلى دُكَّانِه غُدْوةً ويرُوح عَشِيَّةً ، ومعه ما قُسِم له من الرِّزق ، فيجتمعُ هو وأولادُه على طعامِه ، ويُسَرّ بقُرْبهم منه ، وحضورِهم معه ، وهذا وَلدِي ، ما رأيتُه مُنْذُ وُلِد ، غيرَ أوقاتٍ يسيرة ، وقد نشأ هذا المَنْشأ ، وما يظهر على ما عندي من الحُنُوّ والشَّفقة ؛ فنَهاري بين أخْطار ، وتكلُّف ، ومشَاق ، وليْلي بين سَهرٍ وفِكْر ، تارةً لتدْبِير الممالك والبُلدان ، ومَن أرَتِّب في كل صُقْعٍ ومكان ، وما يخرج لكلِّ واحدٍ من العَطاء ، والإحسان ، وكيف أُرْضِي هذا السُّلطان ، حتى يميل إليَّ ، ولا يتغيَّر عليَّ ، وبأيِّ أمرٍ أدفعُ شرَّ مَن يَقصِدُني ؛ فمتى يكون لي زمانٌ

أَلْتَذُّ فيه بنعمتِي ، وأستدرِك أفعالي بما ينفعني عند لقاء ربِّي . وبكى بكاءً شديدًا .

قال أبو الحسن محمد بن عبد الملك الهمذاني : قدم نِظامُ الملك إلى بغداد مرّتين ، وكان يُباكر دار السلطان ، ويعود من الديوان إذا أضحى النهار ، فيخلو بنفسه إلى وقت الظُّهر ، ويُصلِّي ، فيجلس ، ويحضر الناس ، ويُقْرَأ بين يدَيْه جُزءٌ من الحديثِ ، على شيخٍ كبيرٍ عالي السَّنَد ، ويُكرِمه ، ويُجلِسه إلى جانبه ، ويتكلَّم الفقهاءُ في المسائل ، ويقعُد نِظام المُلْك مُطَأْطِىءَ الرَّأس ، وهو يسمع جميعَ ما يجْرِي في المجلس ، ويُسأل الحوائجَ في أثناء ذلك الوقت ، ويُجيب عنها ، ويُنعم بالأموال الطَّائلة والهِبات الجزيلة ؛ كان يتصدَّق في بُكرة كلِّ يوم بمائة دينار .

دخل عليه أبو علي القومساني في مرضةٍ مرضها يعوده ، فأنشأ يقول :

إذا مرضنا نوينا كلَّ صالحةٍ ... فإن شُفينا فمنا الزيغُ والزَّلَلُ
نرجو الإله إذا خِفنا ونسخطُه ... إذا أمنّا فما يزكو لنا عملُ

فبكي نظام الملك ، وقال : هو كما يقول .

كانت سوق العلْم في أيام النِظام قائمة :

قال الذهبي : « قال ابن عقيل : بهر العقول سيرةُ النظام جودًا وكرمًا وعدْلًا ، وإحياءً لمعالم الدين ، كانت أيامه دولة أهل العلم ، ثم خُتم له بالقتل ، وهو مارّ إلى الحجّ في رمضان ، فمات ملكًا في الدنيا ، ملكًا في الآخرة ، رحمه الله » .

وفي « المنتظم » (٦٧/٩) ، نصُّ كلام ابن عقيل ، وقد نقله ابن الجوزي من خطِّه : « وأما النظام ، فإن سيرتَه بهرت العقول جودًا وكرمًا وحشمةً ، وإحياءً لمعالم الدين ؛ فبنى المدارس ووقف عليها الوقوف ، ونعش العلم وأهله ، وعمَّر الحرمين ، وعمَّر دُور الكتب ، وابتاع الكتب ، فكانت سوق العلم في أيامه قائمة ، والعلماء مستطيلين على الصدور من أبناء الدنيا . وما ظنُّك برجل

كان الدهر في خفارته ؛ لأنه كان قد أفاض من الإنعام ما أرضى الناس ، وإنما كانوا يذمُّون الدهر ؛ لضيق أرزاقٍ واختلال أحوالٍ ، فلمّا عمَّهم إحسانه ، أمسكوا عن ذمِّ زمانهم » .

رحم الله النِظام ، ولكلِّ جواد كبوة ، فقد كان أشعريّ العقيدة .

قال أبو الوفاء بن عَقِيل في « الفنون » : أيامُه التي شاهدناها تُرْبي على كلِّ أيام سمعنا بها ، وصدَّقْنا بما رأيناه ما سمعناه ، وإن كنَّا قبل ذلك مُستَبعِدين له ، ناسبين ما ذُكِر في التَّواريخ إلى نوعٍ تحسين من الكذب ، فأبهرَت العقولَ سِيرتُه جودًا وكرمًا وعدلًا ، وإحْيَاءً لمعالم الدِّين ؛ بَنَى المدارس ، ووَقَف الوقُوف ، ونَعش من العلم وأهلِه ، ما كان خاملًا مُهمَلًا في أيَّام مَن قَبْله ، وفتح طريقَ الحجِّ وعمَّره ، وعمَّر الحرميْن ، واستقام الحَجِيجُ ، وابتاعَ الكُتُب بأوْفر الأثمان ، وأدرَّ الجِرايات للخُزّان .

وكانت سوقُ العلم في أيَّامه قائمة ، والنِّعم على أهلِه دارَّة ، وكانوا مُستطيلين على صُدُور أرباب الدَّولة ، أرفَعَ الناسِ في مجلسِه ؛ لا يُحجَبون عن بابه ، يَتوسَّل بهم النَّاسُ في حوائِجهم .

وفي طريق النظام إلى الحجّ ، في يوم الخميس عاشر شهر رمضان صلَّى نِظامُ المُلْك المغربَ في هذه الليلة ، وجلس على السِّماط ، وعنده خَلْقٌ كثير من الفقهاء ، والقُرَّاء ، والصُّوفيَّة ، وأصحاب الحوائج ، فجعل يذكرُ شَرف المكان الذي نزَلُوه من أرض نَهاوَنْد ، وأخبار الوَقْعة التي كانت به بين الفُرْس والمسلمين ، في زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، ومَن استُشْهِد هناك من الأعيان ، ويقول : طُوبَى لِمَن لَحِق بهم . فلمَّا فرَغ من إفْطاره ، خرَج مِن مكانِه قاصدًا مضرِب حَرَمِه ، فبدَر إليه حدَثٌ دَيْلَمِيّ ، كأنه مُستمِيح أو مُستغِيث ، فعلق به ، وضربه ، وحُمِل إلى مَضْرِب الحَرَم . فيُقال : إنه أول مقتولٍ قتلَتْه الإسمَاعِيليَّة ، المُسَمَّوْن عندنا بالفِدَاويَّة . فانْبثَّ الخبرُ في الجيش ، وصاحت الأصواتُ ، وجاء السُّلطان مَلِكْشاه - حين بلغه الخبر - مُظهِرًا الحزن والنَّحيب والبُكاء ، وجلس عند نِظام المُلْك ساعةً ،

وهو يجُود بنَفْسه حتى مات ؛فعاش سعيدًا ، ومات شهيدًا فقِيدًا حميدًا .

وكان قاتلُه قد تعثّر بأطْناب الخَيْمة ، فلحقه مماليكُ نِظام المُلْك وقتلوه .

وقال بعضُ خُدَّامه : كان آخرُ كلام نِظام المُلْك أن قال : لا تقتُلوا قاتِلي ، فإني قد عفَوْتُ عنه . وتشهَّد ، ومات .

كان الوزير نظام الدين لؤلؤةً ... يتيمةً صاغها الرحمنُ من شرفِ
عزّتْ فلم تعرف الأيامُ قيمتَها ... فردَّها غِيْرةً منه إلى الصَّدَفِ

ترجمة تُكْتَب بماء الذهب :

الوزير الكامل ، الإمام الأثري ، العالم العادل : عون أبو المظفَّر ، ابن هبيرة الحنبلي يحيى بن محمد ؛ مَن رأى ربَّه منامًا :

وزر للمقتفي لأمر الله في سنة ٥٤٤ ، واستمرَّ ، ووزر من بعده لابنه المستنجد .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في ترجمته في كتابه « الذيل على طبقات الحنابلة » (١/٢٥١ - ٢٨٧) : قرأ القرآن بالروايات على جماعة ، وسمع الحديث الكثير من جماعة ، منهم : القاضي أبو الحسين بن الفراء ، وأبو الحسين بن الزاغوني ، وعبد الوهاب الأنماطي ، وأبو غالب بن البنا ، وأبو عثمان بن ملة ، وابن الحصين ، وغيرهم .

وقرأ الفقه على أبي بكر الدينوري ، فيما ذكره ابن القطيعي . وقيل : إنه قرأ على أبي الحسين بن الفراء ، وقرأ الأدب على أبي منصور بن الجواليقي ، وصحب أبا عبد الله محمد بن يحيى الزبيدي الواعظ الزاهد من حداثته ، وكمل عليه فنونًا من العلوم الأدبية وغيرها ، وأخذ عنه التأله والعبادة ، وانتفع بصحبته ، حتى إن الزبيدي كان يركب جملًا ويعتم بفوطة ، ويلويها تحت حنكه ، وعليه جُبَّة

صوف ، وهو مخضوب بالحنّاء ، فيطوف بأسواق بغداد ويعظ الناس ، وزمام جمله بيد أبي المظفر ابن هبيرة ، وهو أيضًا معتم بفوطة من قطن ، قد لواها تحت حنكه ، وعليه قميص قطن خام ، قصير الكم والذيل ، وكلّما وصل الزبيدي موضعًا أشار أبو المظفر بمسبحته ، ونادى برفيع صوته : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو حيٌّ لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير .

ذكر ذلك أبو بكر التيمي بن المرستانية ، في الكتاب الذي جمعه في مناقب الوزير وفضائله .

وقال ابن الجوزي : كانت له معرفة حسنة بالنحو ، واللغة ، والعروض ، وصنَّف في تلك العلوم ، وكان متشدِّدًا في اتباع السنة ، وسِيَر السلف .

قلت : صنَّف الوزير أبو المظفر كتاب « الإفصاح عن معاني الصحاح » في عدَّة مجلَّدات ، وهو شرح صحيحي البخاري ومسلم ، ولما بلغ فيه إلى حديث : « من يرد الله به خيرًا يُفقِّهه في الدين » . شرح الحديث ، وتكلَّم على معنى الفقه ، وآل به الكلام إلى أن ذكَر مسائل الفقه المُتَّفق عليها ، والمُختلف فيها بين الأئمة الأربعة المشهورين . وقد أفرده الناس من الكتاب ، وجعلوه مجلَّدةً مفردة ، وسمّوه بكتاب « الإفصاح » وهو قطعة منه ، وهذا الكتاب صنَّفه في ولايته الوزارة ، واعتنى به وجمع عليه أئمة المذاهب ، وأوفدهم من البلدان إليه لأجله ، بحيث إنه أنفق على ذلك مائة ألف دينار ، وثلاثة عشر ألف دينار ، وحدَّث به ، واجتمع الخلْقُ العظيم لسماعه عليه ، وكتب به نسخة لخزانة المستنجد ، وبعث ملوك الأطراف ووزراؤها وعلماؤها ، واستنسخوا لهم به نسخًا ، ونقلوها إليهم ، حتى السلطان نور الدين الشهيد ، واشتغل به الفقهاء في ذلك الزمان على اختلاف مذاهبهم ؛ يدرِّسون منه في المدارس والمساجد ، ويعيده المعيدون ، ويحفظ منه الفقهاء .

وصنَّف في النحو كتابًا سمَّاه : « المقتصد » ، وعرضه على أئمة الأدب في عصره ، وأشار إلى ابن الخشاب بالكلام عليه ، فشرحه في أربع مجلّدات ، وبالغ في الثناء عليه .

واختصر كتاب « إصلاح المنطق » لابن السكيت ، وكان ابن الخشاب يستحسنه ويعظِّمه .

وصنَّف كتاب « العبادات الخمس » على مذهب الإمام أحمد ، وحدّث به بحضرة العلماء من أئمة المذاهب .

وله أرجوزة في المقصور والممدود وأرجوزة في علْم الخطِّ .

وقد صنّف ابن الجوزي كتاب « المقتبس من الفوائد العونية » وذكر فيه الفوائد التي سمعها من الوزير عون الدين ، وأشار فيه إلى مقاماته في العلوم . وانتقى من زبد كلامه في الإفصاح على الحديث كتابا سماه : « محْض المحض » .

وكان ابن هبيرة رحمه الله في أَول أمره فقيرًا ، فاحتاج إلى أن دخل في الخدم السلطانية ، فولي أعمالا ، ثم جعله المقتفي لأمر الله مشرفًا في المخزن ، ثم نُقل إلى كتابة ديوان الزمام ، ثم ظهر للمقتفي كفاءته وشهامته ، وأمانته ونصحه ، وقيامه في مهامّ الملك ؛ فاستدعاه المقتفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة إلى داره ، وقلَّده الوزارة ، وخلع عليه ، وخرج في أُبَّهة عظيمة ، ومشى أرباب الدولة وأصحاب المناصب كلُّهم بين يديه ، وهو راكب إلى الإيوان في الديوان ، وحضر القُرّاء والشعراء ، وكان يومًا مشهودًا . وقرئ عهده ، وكان تقليدًا عظيمًا ، بولغ فيه بمدحه والثناء عليه إلى الغاية ، وخوطب فيه بالوزير العالم العادل ، وعون الدين ، جلال الإسلام ، صفي الإمام ، شرف الأنام ، معزُّ الدولة ، مجير الملَّة ، عماد الأمّة ، مصطفى الخلافة ، تاج الملوك والسلاطين ، صدْر الشرق والغرب ، سيد الوزراء ، ظهير أمير المؤمنين .

وكان الوزير قبل وزارته يُلقَّب جلال الدين ، وقال يومًا : لا تقولوا في ألقابي سيد الوزراء ؛ فإن الله تعالى سمَّى هارون وزيرًا ، وجاء عن النبي ﷺ أن وزيريه من أهل السماء : جبريل وميكائيل ، ومن أهل الأرض : أبو بكر وعمر ، وجاء عنه أنه قال : « إن الله اختارني ، واختار لي أصحابا ، فجعلهم وزراءً وأنصارًا » . ولا يصلح أن يقال عني : أني سيِّد هؤلاء السادة .

قال صاحب سيرته : ركب الوزير إلى داره مجاورة الديوان ، وبين يديه جميع مَن حضر مِن أرباب الدولة ، وأصحاب المناصب والأمراء والحُجَّاب ، والصدور والأعيان ، وقد أخذ قوس الخلافة باريها ، واستقرَّت الوزارة في كُفئها وكافيها . فقام فيها قيام من عدَّله الزمان بثقافه ، وزيَّنه الكمال بأوصافه ، ودبَّرها بجوده ونُهاه ، وأورد الأمل فيها مناه ، ومدَّ الدين رواقه ، وأمَّن بدره به محاقه . فأقام سوق الخلافة على ساقها ، وابتدع في انتظام ممالكها واتِّساقها ، وأوضح رسمها ، وأثبت في حين أوانه وسْمها ، وتتبَّع ما أفسدته العين منها بالإصلاح ، واستدرك لها ما أخرجته لها يد الاجتياح ، وداوى كل حال بدوائه ، وردَّ غائر الماء إلى لجائه ، وأقام الصلاة جماعة ، وافترض العدل سمعًا لله وطاعة ، ورعى لأهل الفضْل والمعارف ، وأواهم من برِّه إلى ظلٍّ وارف ، حتى صارت دولته مشرعًا للكرم ، ومستراحًا لآمال الأمم ، يرتضع فيه للمكارم أخلاف ، وتداريها الأماني سلاف ، ونفقت فيها أقدار الأعلام ، وتدفَّقت فيها نذر الكلام ، ولاحت بها من العلماء شموس ، وارتاحت فيها للطلبة بالعلوم نفوس ، ولم تخل أيامه ومجالسه من مناظرة ، ولا عمرت إلَّا بمذاكرة ومحاضرة ، إلَّا أوقات عطَّلها من ذلك النظام ، وأوقعها إمَّا على صلاة وصيام ، أو على تصنيفٍ وجمْعٍ وتأليف ؛ بحيث صنَّف عدَّة كتب ، منها : كتاب « الإفصاح عن شرح معاني الصحاح » وهذا الكتاب بمفرده يشتمل على تسعة عشر كتابًا .

ولمّا ولِي الوزير أبو المظفر رحمه الله الوزارة بالغ في تقريب خيار الناس

من الفقهاء والمحدِّثين والصالحين ، واجتهد في إكرامهم وإيصال النفْع إليهم ، وارتفع أهل السنة به غاية الارتفاع . ولقد قال مرَّة في وزارته : والله لقد كنت أسأل الله تعالى الدنيا ، لأخدُم بما يرزقنيه منها العلم وأهلَه . وكان سبب هذا : أنه ذكر مرة في مجلسه مفردة للإمام أحمد تفرَّد بها عن الثلاثة ، فادَّعى أبو محمد الأشتري المالكي : أنها رواية عن مالك ، ولم يوافقه على ذلك أحد ، وأحضر الوزير كتب مفردات أحمد ، وهي منها ، والمالكي مقيم على دعواه ، فقال له الوزير : بهيمة أنت ؟ أما تسمع هؤلاء الأئمة يشهدون بانفراد أحمد بها ، والكتب المصنَّفة ، وأنت تنازع وتفرِّق المجلس ؟ فلما كان المجلس الثاني ، واجتمع الخلق للسماع أخذ ابن شافع في القراءة ، فمنعه وقال : قد كان الفقيه أبو محمد جريئًا في مسألة أمس على ما لا يليق به عن العدول عن الأدب والانحراف عن نَهْج النظر ، حتى قلت تلك الكلمة ، وها أنا فليقل لي كما قلتُ له فلستُ بخير منكم ، ولا أنا إلَّا كأحدكم . فضجَّ المجلس بالبكاء ، وارتفعت الأصوات بالدعاء والثناء ، وأخذ الأشتري يعتذر ، ويقول : أنا المذنب ، والأولى بالاعتذار من مولانا الوزير ويقول : القصاص ، القصاص . فقال يوسف الدمشقيّ مدرِّس النظامية : يا مولانا ، إذا أبى القصاص ، فالفداء . فقال الوزير : له حُكْمه . فقال الأشتري: نعمك عليَّ كثيرة ، فأيُّ حُكْم بقي لي ؟ فقال : قد جعل الله لك الحكم علينا بما ألجأتنا به إلى الافتيات عليك . فقال : عليَّ بقيّة دَيْنٍ منذ كنت بالشام . فقال الوزير : يُعطى مائة دينار لإبراء ذمَّته وذمَّتي . فأحضر له مائة ، فقال له الوزير : عفا الله عنك وعني ، وغفر لك ولي .

وذكر ابن الجوزي أنه قال : يُعطى له مائة دينار لإبراء ذمّته ، ومائة دينار لإبراء ذمّتي . وكان هذا الأشتري من علماء المالكية ، طلبه الوزير من نور الدين محمود بن زنكي ، فأرسل به إليه ، فأكرمه غاية الإكرام .

وكان بعض الفقراء يقرأ القرآن في داره كثيرًا ، فأعجبه ، فقال لزوجته :

أريد أن أزوِّجه ابنتي . فغضبت الأم من ذلك ، وكان يُقرأ عنده الحديث كلَّ يومٍ بعد العصر .

ما وجبت عليه زكاة قطّ :

وكان يكثر مجالسة العلماء والفقراء ، وكانت أمواله مبذولة لهم ، ولتدبير الدولة ؛ فكانت السنة تدور عليه وعليه ديون ، وقال : ما وجبتْ عليَّ زكاة قط .

قلت : وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

يقولون يحيى لا زكاة لماله وكيف يزكِّي المال مَن هو باذلُه
إذا دار حوْلٌ لا يُرى في بيوته من المال إلا ذكْرُه وفضائلُه

وقال ابن الجوزي : وكان يتحدَّث بنعم الله تعالى عليه ، ويذكر في منصبه شدَّة فقره القديم ، فيقول : نزلتُ يومًا إلى دجلة ، وليس معي رغيف أعبر به الحمام .

حِلْمُه وصَفْحُه :

قال ابن الجوزي : لمَّا جلس في الديوان أوّلَ وزارته ، أحضر رجلًا من غلمان الديوان ، فقال : دخلت يومًا إلى هذا الديوان ، فقعدتُ في مكان ، فجاء هذا ، فقال : قم فليس هذا موضعك . فأقامني ؛ فأكرمه وأعطاه .

ودخل عليه يوما تركي ، فقال لحاجبه : أما قلتُ لك : أعط هذا عشرين دينارًا ، وكذا من الطعام ، وقل له : لايحضر هاهنا ؟ فقال:قد أعطيناه . قال : عد وأعطه ، وقل له : لا يحضر . ثم التفت إلى الجماعة ، وقال : لا شكَّ أنكم ترتابون بسبب هذا ؟ فقالوا : نعم . فقال : هذا كان شحنة في القرى ، فقُتِلَ قتيلٌ قريبًا من قريتنا ، فأخذ مشايخ القرى وأخذني مع الجماعة ، وأمشاني مع الفرس ، وبالغ في أذاي وأوثقني ، ثم أخذ من كل واحد شيئًا وأطلقه ، ثم قال لي : أي شيء معك ؟ قلت : ما معي شيْءٌ . فانتهرني ، وقال : اذهب . فأنا لا أريدُ اليوم أذاه ، وأبغض رؤيته .

وقد ساق مصنِّف سيرة الوزير هذه الحكاية بأتمّ من هذا السياق ، وذكر أن الوزير قال : ما نقمتُ عليه إلا أني سألته في الطريق أن يمهلني حسبما أصلِّي الفرض فما أجابني ، وضربني على رأسي وهو مكشوف عدة مقارع ، فكنتُ أنقم عليه حين رأيته لأجل الصلاة ، لا لكونه قبض عليَّ فإنه كان مأمورًا .
وذكر : أنه استخدمه في أصلح معايش الأمراء ، واستحلَّه من صياحه عليه ، وقوله : اخرجوه عني .

قال ابن الجوزي : وكان بعض الأعاجم قد شاركه في زراعة ، فآل الأمر إلى أن ضرب الأعجميُّ الوزير وبالغ ، فلمَّا ولي الوزارة أتي به فأكرمه ووهب له وولَّاه .

قال ابن الجوزي : كنا نجلس إلى الوزير ابن هبيرة ، فيملي علينا كتابه « الإفصاح » فبينا نحن كذلك ، إذ قدِم رجلٌ ومعه رجل ادَّعى عليه أنه قتل أخاه ، فقال له عون الدين : أَقتلته ؟ قال : نعم ، جَرَى بيني وبينه كلام فقتلتُه . فقال الخصم : سلِّمه إلينا حتى نقتله ، فقد أَقرَّ بالقتل . فقال عون الدين : أَطلقوه ، ولا تقتلوه . قالوا : كيف ذلك ، وقد قتل أخانا ؟ قال : فتبيعونيه ؟ فاشتراه منهم بستمائة دينار ، وسلَّم الذهب إليهم وذهبوا ، قال للقاتل : اقعد عندنا لا تبرح . قال : فجلس عندهم ، وأعطاه الوزير خمسين دينارًا . قال : فقلنا للوزير : لقد أحسنتَ إلى هذا وعملتَ معه أمرًا عظيمًا ، وبالغت في الإحسان إليه . فقال الوزير : منكم أَحد يعلم أَن عيني اليمنى لا أبصر بها شيئًا ؟ فقلنا : معاذ الله . فقال : بلى والله ، أتدرون ما سبب ذلك ؟ قلنا : لا . قال : هذا الذي خلَّصته من القتل جاء إليَّ ، وأنا في الدور ومعي كتاب من الفقه أقرأ فيه ، ومعه سلَّة فاكهة ، فقال : احمل هذه السلَّة . قلت له : ما هذا شغلي فاطلب غيري . فشاكلني ، ولكمني فقلع عيني ، ومضى ولم أَره بعد ذلك إلى يومي هذا ، فذكرتُ ما صنع بي ، فأردتُ أن أُقابل إساءتَه إليّ بالإحسان مع القدرة .

قال ابن الجوزي : كان الوزير يجتهد في اتّباع الحقّ ، ويحذِّر من الظلم ، ولا يلبس الحرير ، وكان مبالغًا في تحصيل التعظيم للدولة العباسية ، قامعًا للمخالفين بأنواع الحِيَل ، حسم أمور السلاطين السلجوقية .

وذكر صاحب سيرته أنه سمعه يذكر : أنه لمّا استطال السلطان مسعود وأصحابه وأفسدوا ، عزم هو والخليفة على قتاله . قال : ثم إني فكَّرتُ في ذلك ، ورأيتُ أنه ليس بصواب مجاهرته ؛ لقوة شوكته ، فدخلتُ على المقتفي ، فقلت : إني رأيتُ أن لا وجه في هذا الأمر إلا الالتجاء إلى الله تعالى ، وصدْق الاعتماد عليه . فبادر إلى تصديقي في ذلك ، وقال : ليس إلا هذا . ثم كتبت إليه : إن رسول الله ﷺ قد دعا على رعل وذكوان شهرًا ، وينبغي أن ندعو نحن شهرًا . فأجابني بالأمر بذلك . قال الوزير : ثم لازمتُ الدعاء في كل ليلة وقت السَّحَر ؛ أجلس فأدعو الله سبحانه ، فمات مسعود لتمام الشهر ، لم يزد يومًا ولم ينقص يومًا ، وأجاب الله الدعاء وأزال يد مسعود وأتباعه عن العراق ، وأورثنا أرضَهم وديارهم . وهذه القصة تُذكر في كرامات الخليفة والوزير ، رحمهما الله تعالى .

ابن هبيرة يستحِثُّ نور الدين محمود زنكي على انتزاع مصر من الفاطميين :

وكاتب الوزيرُ ابنُ هبيرة السلطانَ نور الدين محمود بن زنكي ، يستحثه على انتزاع مصر من يد العبيديين ، فسيَّر إليها أسد الدين شيركوه مرَّتين ، وفي الثالثة خُطِب بها للمستنجد ، وجاء الخبر بذلك إلى بغداد سنة تسع وخمسين ، وعمل أبو الفضائل بن تركان حاجب الوزير ابن هبيرة قصيدة يُهنئ بها الوزير بفتْح مصر ، ويذكر أن ذلك كان بسبب سعيه وبركة رأيه ، وتكامل انتزاع مصر من بني عبيد ، وإقامة الخطبة لبني العباس بها بعد سبع سنين في خلافة المستضيء ، فعظُمت حُرْمة الدولة العباسية في وقته ، وانتشرت إقامة الدعوة لها في البلاد .

قال ابن الجوزي : وكان المقتفي معجبًا به ، يقول : ما وزر لبني العباس مثله .

قال ابن الجوزي : حدَّثني الوزير قال : لما رجعتُ من الحلّة - وكان قد خرج لدفع بعض البغاة - دخلت على المقتفي ، فقال لي : ادخل هذا البيت فغيِّر ثيابك . فدخلت فإذا خادمٌ وفرَّاش ومعهم خلعة حرير ، فقلت : أنا والله ما ألبس هذه . فخرج الخادم فأخبر المقتفي ، فسمعت صوت المقتفي وهو يقول : قد والله قلت : إنه ما يلبس .

وذكر صاحب سيرته هذه الحكاية مبسوطة ، قال : فعاد الخادم وعلى يده دست من ثياب الخليفة فأفاضه عليَّ ، وقال : قد أخبرت أمير المؤمنين بامتناعك ، فقال : والله لقد حسبت هذا ، وأنه لا يفعل . قال : فقلت حينئذٍ لنفسي : يا يحيى ، كيف رأيتَ طاعة الله تعالى ؟ لو كنتَ قد لبستها كيف كنت تكون في نفس أمير المؤمنين ؟ وكيف كانت تكون منزلتك عنده ؟

قال صاحب سيرته : وكان لا يلبس ثوبًا يزيد فيه الإبريسم على القطن ، فإن شكَّ في ذلك سلَّ من طاقاته ونظر : هل القطن أكثر أم الإبريسم ؟ فإن استويا لم يلبسه .

قال : ولقد ذكر يومًا في بعض مجالسه ، فقال له بعض الفقهاء الحنابلة : يا مولانا ، إذا استويا جاز لبسه في أحد الوجهين عن أصحابنا . فقال : إني لا آخذ إلا بالأحوط .

قال : وذُكر يومًا بين يديه : أنه كان للصاحب ابن عباد دست من ديباج . فقال الوزير : قَبُح والله بالصاحب أن يكون له دست من ديباج ؛ فإنه وإن كان زينة ، فهو معصية وهجنة .

قال ابن الجوزي ، ونقله عنه ابن القطيعي : سمعتُ ابن هبيرة الوزير يقول : جاءني مكتوبٌ مختوم من المستنجد في حياة أبيه المقتفي ، فقلت

للرسول : ارجع إليه وقل له : إن كان فيه ما تكره أن يعلم به أمير المؤمنين ، فلا حاجة لك في فتْحِه ؛ فإني أعرِّفه ما فيه ، وإن لم تكن تكره اطِّلاعه عليه فافتحه ، ثم أعطه الرسول . فمضى ولم يعد ، وحصل في نفسه من ذلك شيءٌ . فلما توفي المقتفي وولي المستنجد ، أمر بحضوره للمبايعة .

قال ابن الجوزي : فقال لي الوزير حين جاءه الرسول : إن وصلتُ إلى أمير المؤمنين نلتُ ما أريد ، وإن قُتلت قبل وصولي إليه فما لي حيلة . فما كان إلا ساعة دخوله عليه حتى عاد فرحًا ، فقلت له : ما الخبر ؟ قال : وصلت إليه وبايعته ، ثم قلت : يكفي العبد في صدقه ونصحه أنه حابى مولانا في أبيه نصحًا لأمير المؤمنين ، وأشرتُ إلى ردِّ مكتوبه . فقال : صدقت ، أنت الوزير . فقلت : إلى متى ؟ فقال : إلى الموت . فقلت : أحتاج والله إلى اليد الشريفة . فأحلفْتُه على ما ضمن لي .

قال صاحب سيرته : وأخبرني الخادم مرجان بن عبد الله – أحد خواصّ خدم الخليفة – قال : سمعتُ الإمام المستنجد بالله أمير المؤمنين ينشد وزيره عون الدين أبا المظفر بن هبيرة ، وقد مثل الوزير بين يدي سدته في أثناء مفاوضةٍ جرت بينهما في كلام يرجع إلى تقرير قواعد الدين ، والنظر في مصالح الإسلام والمسلمين ، فأُعجب الخليفة به ، فأنشده الخليفة – يمدحه – أربعة أبيات ؛ الأخيرين منهما لنفسه ، والأولين لابن حيوس ، وهي :

صَفَتْ نعمتان خصَّتاك وعمَّتا ... فذكْرُهما حتى القيامة يُذْكَرُ
وُجُودُك والدنيا إليك فقيرةٌ ... وَجودُك والمعروف في الناس يُنكرُ
فلو رام يا يحيى مكانَك جعفرٌ ... ويحيى لكفى عنه يحيى وجعفرُ
ولم أر مَن ينوي لك السوء يا أبا الـ ... مظفَّر إلّا كنت أنت المظفرُ

وقال الذهبي في « تاريخه » : كان عالمًا فاضلًا ، عابدًا عاملًا ذا رأي صائب وسريرة صالحة ، وظهرت منه كفاية تامّة ، وقيام بأعباء الملك ، حتى شكره

الخاصّ والعام . وكان مكرِمًا لأهل العلم ، ويقرأ عنده الحديث عليه ، وعلى الشيوخ بحضوره ، ويجري من البحث والفوائد ما يكثر ذكْره . وكان مقرّبًا لأهل العلم والدين ، كريما طيِّب الخُلُق .

قال ابن القطيعي : كان ابن هبيرة عفيفًا في ولايته ، محمودًا في وزارته ، كثير البرِّ والمعروف ، وقراءة القرآن ، والصلاة والصيام ، يُحبُّ أهل العلم ، ويُكثر مجالستهم ومذاكرتهم ، جميل المذهب ، شديد التظاهر بالسُّنَّة .

قال : ومن كثرة ميله إلى العمل بالسنة ، اجتاز في سوق بغداد – وهو الوزير – فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شيءٍ قدير .

ورعه :

قال صاحب سيرته : ولقد بلغ به من شدَّة الورع ، بحيث أحضر له كتاب من وقف المدرسة النظاميّة ؛ ليُقرأ عنده . فقال : قد بلغني أن الواقف شرط في كتاب الوقف : أن لا يخرج شيءٌ من كتب الوقْف عن المدرسة ، وأمر بردِّه . فقيل له : إن هذا شيء ما تحقَّقناه . فقال : أليس قد قيل ؟ ولم يمكِّنهم من قراءته ، وحثَّهم على إعادته .

قال : وحدَّثني الفقيه أبو حامد أحمد بن محمد بن عيسى الحنبلي ، قال : حدَّثني الوزير عون الدين قال : كان بيني وبين بعض مشايخ القرى معاملة ، مضيتُ من أجْلها من الدور إلى قريته ، فلم أجده ، فقعدتُ لانتظارهم حتى هجم الليل ، فصعِدتُ إلى سطحه للنوم ، فسمعتُ قومًا يسفِّهون بالهجر من الكلام ، فسألت عنهم ، فأُخبرتُ أنهم يعصرون بالنهار الخمر ، ويسفهون في الليل . فقلت : والله لا بِتُّ بها . فقيل : ولم ؟ فقلت : أخاف أن ينزل بهم عذاب وسخط فأكون معهم ، فإن لم يكن خَسْفًا حقيقيًا كان خسفًا معنويًا ، مما يدخل على

القلب من القساوة والفتور عن ذكر الله تعالى بسماع هذا الكلام ، ومضيتُ ذلك الوقت إلى الدور . قال الوزير : فلمّا عدتُ أنا والمقتفي لأمر الله من حصار قلعة تكريت ، مررنا بتلك القرية ، فسألني المقتفي عنها ؟ فقلت : هذه الناحية للوكلاء أجلَّهم الله تعالى . فقال : لَأَنْ تكون لك ، إذ هي في جوارك أصلح من أن تكون لنا ، فتقدَّم إلى عمالك بالتصرف فيها . فذكرت له حينئذٍ حالتي بها ، وقلت له : فمن بركة ذلك الفعل ، رُزقت القرب منك يا أمير المؤمنين ، وتملُّك الناحية من غير طلبٍ مني لها . فاستظرف ذلك مني ، وكَثُر تعجُّبه منه .

تواضعه :

قال : وكان الوزير شديدَ التواضع ، رافضًا للكِبْر ، شديدَ الإيثار لمجالسة أرباب الدين والفقراء ، بحيث سمعته في بعض الأيام يقول لبعض الفقراء وهو يخاطبه : أنت أخي ، والمسلمون كلُّهم إخوة .

قال : ولقد كنا يومًا بالمجلس على العادة لسماع الحديث ، إذ دخل حاجبه أبو الفضائل بن تركان ، فسار الوزير بشيء لم يسمعه أحد ، فقال له الوزير : أدخِل الرجل . فأبطأ عليه ، فقال الوزير : أين الرجل ؟ فأبطأ . فقال : أين الرجل ؟ فقال الحاجب : إن معه شملة صوف مكوَّرة ، وقد قلت له : اتركها مع أحد الغلمان خارجا عن الستر وادخل . قال : لا أدخل إلا وهي معي . فقال له الوزير : دعه يدخل وهي معه . فخرج وعاد ، وإذا معه شيخ طوال من أهل السواد ، وعليه فوطة قطن ، وثوب خام ، وفي رِجْلَيه جمجان ، فسلَّم ، وقال للوزير : يا سيدي ، إن أمَّ فلان – يعني : أمّ ولده – لما علمتْ أني متوجِّه إليك ، قالت لي : بالله سلِّم على الشيخ يحيى عني ، وادفع إليه هذه الشَّملة ؛ فقد خبزتها على اسمه . فتبسَّم الوزير إليه وأقبل عليه ، وقال : الهدية لمن حضر ، وأمر بحلِّها ، فحُلت الشَّملةُ بين يديه ، وإذا فيها خبزُ شعيرٍ مشطور بكامخ اكشوت ، فأخذ الوزير منه رغيفين ، وقال : هذا نصيبي ، وفرَّق الباقي على مَن حضر مِن

صدور الدولة ، والسادة الأجِلَّة . وسأله عن حوائجه جميعها ، وتقدَّم بقضائها على المكان . ثم التفت إلى الجماعة وقال : هذا شيخ قد تقدَّمت صحبتي له قديمًا ، واختبرته في زرْعٍ بيننا فوجدته أمينًا . ولم يظهر منه تأفُّفٌ بمقال الشيخ ، ولا تكبّرٌ عليه ، ولا أعرَض عنه ، بل أحسن لقاءه ، وقضى حوائجه ، وأجزل عطاءه . ثم حكى أنه كان بينه وبين هذا الشيخ زرْع ، وأنهم خشوا عليه من جيشٍ عظيم نزل عندهم ، فقرءوا على جوانبه القرآن، فسلم ولم يرع منه سنبلة واحدة .

قال : ودخل عليه يومًا نقيبُ نقباء الطالبيِّين: الطاهر بن أحمد بن علي الحسيني ، فسلَّم عليه وخَدَمه ، وسأله رفْع رقعة له إلى الخليفة المستنجد ، وأن يتكلّم له عند عرضها ولا يُهملها . فتبسَّم وقال : والله ما أهملت لأحد رقعةً قطّ ، ولا حاجة حضرني ذكرها . وذكر حكايةً عن الوزير ابن العميد : أنه وعد رجلًا النظر في ظُلامته، ومَطَلَه وسوَّفه وقال: سننظر فيها. فقال له بعض أصحابه : هذا كلام مَن لا يعرف دبيبَ الساعات في انخرام السدول . فانتبه لها ابن العميد ، والآن يتولّى رفْع ظلامات المتظلِّمين .

قال : ودخل عليه يومًا أبو الفرج عبد الخالق بن يوسف المحدِّث ، وقال في كلامه : المملوك شيخ من حَمَلة القرآن وأهل العلم ورواة الحديث ، وله وعليه حقوق في المال ، فانظر له وعليه ، مقاطعة شيء من الجانب الغربي ، فليس بيده شيء . فتقدَّم له الوزير بخمسين دينارًا قبضها في مجلسه ، ثم قال له : هذا بعض ما لك على بيت المال ، فأدِّ بعض ما عليك لبيت المال .

علوّ همَّته في الصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال : وكنا يومًا عنده والمجلس غاصّ بولاة الدين والدنيا ، والأعيان الأماثل ، وابن شافع يقرأ عليه الحديث ، إذ فجأنا من باب الستر وراء ظهر الوزير صراخٌ بَشِع وصياح يرتفع ، فاضطرب له المجلس ، وارتاع الحاضرون ، والوزير ساكن

ساكت ، حتى أنهى ابن شافع قراءة الإسناد ومتنه . ثم أشار الوزير إلى الجماعة على رسلكم ، ثم قام ودخل إلى الستر ولم يلبث أن خرج ، فجلس وتقدَّم بالقراءة ، فدعا له ابن شافع والحاضرون ، وقالوا : قد أزعجنا ذلك الصياح ، فإن رأى مولانا أن يُعَرِّفنا سببه . فقال الوزير : حتى ينتهي المجلس . وعاد ابن شافع إلى القراءة حتى غابت الشمس وقلوب الجماعة متعلِّقة بمعرفة الحال ، فعاودوه ، فقال : كان لي ابن صغير مات حين سمعتم الصياح ، ولولا تعين الأمر علي بالأمر بالمعروف في الإنكار عليهم ذلك الصياح ، لما قمت عن مجلس رسول الله ﷺ . فعجب الحاضرون من صبره .

قال : وحضر يومًا في دار الخلافة بالمرخم من التاج ، فجلس به ، وحضر أرباب الدولة بأسرهم للصلاة على جنازة الأمير إسماعيل بن المستظهر ، فسقط من السقف أفعى عظيمة المقدار على كتف الوزير ، فما بقي أحد من أرباب الدولة وحواشي الخدمة إلّا خرج أو قام عن موضعه ، إلّا الوزير فإنه التفت إلى الأفعى وهي تسرح على كمه حتى وقعت على الأرض ، وبادرها المماليك فقتلوها ، ولم يتحرَّك الوزير عن بقعته ، ولا تغيَّر في هيئته ولا عبارته .

وللوزير رحمه الله تعالى من الكلام الحسن ، والفوائد المستحسنة ، والاستنباطات الدقيقة من كلام الله ورسوله ما هو كثير جدًّا .

وله من الحِكَم والمواعظ والكلام في أصول السنة وذمِّ من خالفها شيء كثير أيضًا ، ونذكر هنا بعض ذلك إن شاء الله تعالى .

قبس من علوّ همَّته في الفهم والعلم للكتاب والسنة :

قال ابن الجوزي في المقتبس : سمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **قل لن يُصيبَنا إلّا ما كتبَ اللهُ لنا** ﴾ قال : إنما لم يقل : ما كتب علينا ؛ لأنه أمرٌ يتعلَّق بالمؤمن ، ولا يُصيب المؤمن شيءٌ إلّا وهو له ، إن كان خيرًا فهو له في العاجل ، وإن كان شرًّا فهو ثواب له في الآجل .

وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ .... **حجابًا مستورًا** ﴾ [الإسراء : ٤٥] قال أهل التفسير : يقولون : ساترًا . والصواب : حمله على ظاهره ، وأن يكون الحجاب مستورًا عن العيون فلا يُرى ، وذلك أبلغ .

وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله** ﴾ [الكهف : ٣٩] قال : ما قال : ما شاء الله كان ولا يكون . بل أطلق اللفظ ؛ ليعُمَّ الماضي والمستقبل والراهن .

قال : وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا** ﴾ [الكهف: ٩٧]. **قال: التاء من حروف الشِّدَّة، تقول في الشيء** القريب الأمر : ما اسطعته . وفي الشديد : ما استطعته . فالمعنى : ما أطاقوا ظهوره لضعفهم ، وما قدروا على نَقْبِه لقوَّته وشدَّته .

قال : وقرأتُ عليه ما جمعه من خواطره ، قال : قرأ عندي قارئٌ : ﴿ **قال هم أُولاءِ على أثري** ﴾ [طه : ٨٤] . فأفكرتُ في معنى اشتقاقها ، فنظرت فإذا وضعها للتنبيه ، والله لا يجوز أن يُخاطب بهذا ، ولم أر أحدًا خاطب الله عز وجل بحرف التنبيه إلّا الكفار ، كما قال الله عز وجل : ﴿ **قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كُنَّا ندعوا من دونِك** ﴾ [النحل : ٨٦] ، ﴿ **ربنا هؤلاء أضلُّونا** ﴾ [الأعراف : ٣٨] . وما رأيت أحدًا من الأنبياء خاطب ربه بحرف التنبيه ، والله أعلم .

فأما قوله : ﴿ **وقيله يا رب إن هؤلاءِ قومٌ لا يؤمنون** ﴾ [الزخرف : ٨٨] . فإنه قد تقدَّم الخطاب بقوله : يا رب ، فبقيت « ها » للتمكين ، ولما خاطب الله عز وجل المنافقين ، قال : ﴿ **ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا** ﴾ [النساء : ١٠٩] . وكرَّم المؤمنين بإسقاط « ها » ، فقال : ﴿ **ها أنتم أولاءِ تحبُّونهم** ﴾ [آل عمران : ١١٩] . وكان التنبيه للمؤمنين أخفّ .

وقال في قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلّا إنهم ليأكُلون الطعام ويمشون في الأسواق** ﴾ [الفرقان : ٢٠] . قال : فهو يدلّ على فضْل هداية

الخلق بالعلم ، ويبين شرف العالم على الزاهد المنقطع ؛ فإن النبيّ - ﷺ - كالطبيب ، والطبيب يكون عند المرضى ، فلو انقطع عنهم هلكوا .

وسمعته يقـول في قوله تعالى : ﴿ **ربِّ أوزعْنـي أن أشكُر نعمتَك التـي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ** ﴾ [النمل : ١٩] . قال : هذا من تمام برّ الوالـدين ؛ كأن هذا الولد خاف أن يكون والداه قصَّرا في شُكْر الربِّ عز وجل ، فسأل الله أن يُلهمه الشكر على ما أنعم به عليه وعليهما ؛ ليقوم بما وجب عليهما من الشكر إن كانا قصَّرا .

وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن** ﴾ [القصص : ٨٠] قال : إيثار ثواب الآجل على العاجل حالة العلماء ، فمن كان هكذا فهو عالم ، ومن آثر العاجل على الآجل فليس بعالم .

وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالقٍ غير الله** ﴾ [فاطر : ٣] . قال : فطلبت الفكر في المناسبة بين ذكْر النعمة وبين قوله تعالى : ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾ فرأيت أن كلَّ نعمةٍ ينالها العبد فالله خالقها ، فقد أنعم بخلقه لتلك النعمة ، وبسوقها إلى المنعَم عليه .

وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **وجاء من أَقصى المدينةِ رجلٌ يسعى** ﴾ [يسٓ : ٢٠] . وفي الآية الأخرى : ﴿ **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى** ﴾ [القصص : ٢٠] . فرأيت الفائدة في تقديم ذكر الرجل وتأخيره : أن ذكْرَ الأوصاف قبل ذكْرِ الموصوف أبلغُ في المدح من تقديم ذكره على وصفه ؛ فإن الناس يقولون : الرئيس الأجلُّ فلان . فنظرت فإذا الذي زيد في مدحه - وهو صاحب يسٓ - أمر بالمعروف ، وأعان الرسل ، وصبر على القتل ، والآخر إنما حذر موسى من القتل ، فسلم موسى بقبوله مشورته ؛ فالأول هو الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، والثاني هو ناصح الآمر بالمعروف ؛ فاستحقَّ الأول الزيادة . ثم تأملتُ ذِكْر أقصى المدينة ، فإذا الرجلان جاءا من بُعد في الأمر بالمعروف ، ولم يتقاعدا لبعد الطريق .

وسمعته يقول في قوله تعالى : ﴿ **يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي** ﴾ [يسٓ : ٢٦ - ٢٧] . قال : المعنى : يا ليتهم يعلمون بأي شيءٍ وقع غفرانه . والمعني : أنه غفر لي بشيءٍ يسير فعلته ، لا بأمرٍ عظيم .

قال : وسمعته يقول في قوله ﷺ : « إذا دخل رمضان سُلسِلت الشياطين » . قال : إن الشياطين للعاصي في غير رمضان كالعكَّاز يقول : سوَّل لي ، وغرَّني . فإذا سُلسِل الشيطان قلَّ عُذْر العاصي .

وسمعته يقول في قوله ﷺ : « أعوذ بك من شر ما لم أعمل » . قال : له معنيان :

أحدهما : أن الإنسان يبلغه أن الرجل قد عمل الشر فيرضى به ، أو يتمنَّى أن يعمل مثله ، فهذا شر ما لم يعمل .

والثاني : أن الرجل قد لا يشرب الخمر ، فيعجب بنفسه كيف لا يشرب ، فيكون العجب بترك الذنب شر ما لم يعمل .

قال : وسمعت الوزير يقول ، وقد قرئ عنده : أن رجلا قال عند رسول الله ﷺ : الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه . فقال رسول الله ﷺ : « أيُّكم قال ذلك ؟ » . فقال الرجل : أنا يا رسول الله ، ولم أرد بذلك إلّا الخير . فقال ﷺ : « رأيت بضعًا وثلاثين ملكا يبتدرونها » . فطفقتُ - والجماعة عندي - أفكِّر في معنى تخصيص هذا العدد من الملائكة ، فنظرتُ فإذا حروف هذه الكلمات بضع وثلاثون حرفًا إذا فُكِّك المشدَّد ، ورأيت أنه من عظم ما قد ازدحمت الملائكة عليها ، بلغوا إلى فكِّ المشدَّد ، فلم يحصل لكل ملك سوى حرف واحد ، فصعِد به يتقرَّب بحمله .

وسمعته يقول في قوله ﷺ : « وجدت على باب الجنة مكتوبًا : الصدقة بعشرة ، والقرض بثمانية عشر » . فتدبَّرتُ هذا الحصر ، فإذا الفائدة أن الحسنة بعشر أمثالها ، فدرهم الصدقة لا يعود فيكتب به عشر مع ذهابه ، فيكون

الحاصل به على الحقيقة تسعة ، والقرض يُضاعف على الصدقة ، فيصير ثمانية عشر ؛ لأن تسعة وتسعة ثمانية عشر . والسبب في مضاعفته : أن الصدقة قد تقع في يد غير محتاج ، والقرض لا يقع إلا في يد محتاج .

وسمعته يقول في قوله ﷺ : « أول زمرة تدخل الجنة من أمتي وجوههم كالقمر ليلة البدر » قال : إنما لم يقل كالشمس ؛ لأن نور الشمس يؤثِّر في عيون الناظرين إليها ، فلا يتمكَّنون من النظر ، والجنة دار لذَّةٍ وطِيْب عيشٍ ، فلو أشبهت وجوههم نور الشمس لم يتمكَّن أحد منهم أن ينظر الآخر .

قال مصنِّف سيرته : كثيرًا ما سمعته يقول : ليس مذهب أحمد إلا الاتباع فقط ؛ فما قاله السلف قاله ، وما سكتوا عنه سكت عنه ؛ فإنه كان يكثر أن يقال : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ؛ لأنه لم يُقل . وكان يقول في آيات الصفات : تمرّ كما جاءت .

قال : وسمعته يقول : والله ما نترك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مع الرافضة ؛ نحن أحقُّ به منهم ؛ لأنه منا ونحن منه ، ولا نترك الشافعي مع الأشعرية ؛ فإنا أحقُّ به منهم .

قال : وسمعته يقول لبعض الناس : لا يحلّ والله أن تُحسن الظنّ بمن يرفض ، ولا بمن يخالف الشرع في حال .

قال : وسمعته يقول لبعض من يأمر بالمعروف : اجتهد أن تستر العصاة ؛ فإن ظهورَ معاصيهم عيْبٌ في أهل الإسلام ، وأولى الأمور ستْر العيوب .

وسمعته يقول : الأيام قد ذهبت ، والأعمار قد نُهبت ، والنفوس باتباع الهوى قد التهبت ، وما يُطلب منها شيءٌ من الخير إلا أبت ، وبيوت التقوى من القلوب قد خربت .

وسمعته يقـول : نَظَرُ العامل إلى عمله بعين الثقة به في باب النجـاة ، أضرُّ على العصاة من تفريطهم . وقال : لولا الظلم الجائر ما حصلت الشهادة للشهيد ، ولولا أهل المعاصي ؛ ما بانت بلوى الصابر في الأمر بالمعروف ، ولو كان المجرمون ضعفاء لقهروا ، فلم يحصل ذلك المعنى .

وسمعته يقول : احذروا مصارع العقول عند التهاب الشهوات .

وكتاب « الإفصاح عن معاني الصحاح » شرح فيه صحيحي البخاري ومسلم في عشر مجلدات فيه فوائد جليلة وغريبة .

وزير عادل ؛ الحبس عنده غير مشروع إلَّا في مواضع :

قال : الحبس غير مشروع إلَّا في مواضع :

أحدها : إذا سرق فقُطِعت يمينه ، ثم سرق فقطعت رجله ، ثم سرق : حبس ولم يُقطع ، في إحدى الروايتين .

الثاني : أمسك رجلٌ رجلًا لآخر فقتله : حُبِس الممسِك حتى يموت ، في إحدى الروايتين أيضًا .

الثالـث : ما يراه الإمام كفًّا لفساد مفسد ؛ لقـوله تعـالى : ﴿ **وآخـرين مقرنين في الأصفاد** ﴾ [ص : ٣٨] . وما يراه أبو حنيفة في قُطَّاع الطريق ، فإنه يحبسهم حتى يتوبوا .

فـأما الحبس على الدَّيْن فمن الأمور المحدثة ، وأول مـن حبس فيه شريـح القاضي ، وقضت السنة في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان : أنه لا يحبس على الدَّيْن ، ولكن يتلازم الخصمان .

فأما الحبس الذي هو الآن فإني لا أعرف أنه يجوز عند أحد من المسلمين ؛ وذلك أنه يُجمع الجمع الكثير في موضع يضيق عنهم ، غير متمكِّنين من الوضوء والصلاة ، ويتأذَّون بذلك بحرِّه وبرده ؛ فهذا كلُّه محدث . ولقد حرَصتُ مرارًا

على فكّه ، فحال دونه ما قد اعتاده الناس منه ، وأنا في إزالته حريص ، والله الموفق .

قال ابن هبيرة رحمه الله :

إلى الله أشكو همّةً دنيويّةً ... ترى النصَّ إلّا أنها تتأوَّلُ
يُنَهْنِهُها موتُ النبيهِ فترعوي ... ويخدعُها روحُ الحياةِ فتغفلُ
وفي كلِّ جزء ينقضي من زمانِها ... من الجسم جزءٌ مثلُه يتحلَّلُ
فنفس الفتى في سهوِها وهْي تنقضي ... وجسم الفتى في شغله وهْو يعملُ

قال : وأنشدنا لنفسه :

والوقتُ أنفسُ ما عَنِيتَ بحفظه ... وأراه أسهلَ ما عليك يضيعُ

قال : وأنشدنا لنفسه :

الحمد لله هذا العين لا الأثرُ ... فما الذي باتباع الحقِّ يُنْتَظرُ
وقتٌ يفوتُ وأشغال معوِّقة ... وضعفُ عزمٍ ودارٌ شأنُها الغِيَرُ
والناس رَكْضًا إلى مهوى مصارِعهم ... وليس عندهمُ من رَكْضهم خبرُ
تسعى بهم خادعاتٌ من سلامتهم ... فيبلغون إلى المهوى وما شعُروا

❋ ❋ ❋

يلذُّ بذي الدنيا الغنيّ ويطربُ ... ويزهد فيها الألمعي المُجرِّبُ
وما عرفَ الأيامَ والناسَ عاقلٌ ... ووفِّق إلا كان في اليوم يرغبُ
إلى الله أشكو همَّةً لعبتْ بها ... أباطيلُ آمالٍ تَغُرُّ وتخلبُ
فواعجبًا من عاقلٍ يعرف الدنا ... فيصبح فيها بعد ذلك يرغبُ

ذكر ياقوت الحموي في « معجم الأدباء » : أن الوزير عُرضت عليه جارية فائقة الحسن ، وظهر له في المجلس من أدبها وحسن كتابتها وذكائها وظَرفها ما أعجبه ، فأمر فاشتُريت له بمائة وخمسين دينارًا ، وأمر أن يهيأ لها منزل وجارية ، وأن يحمل لها من الفرش والآنية والثياب وجميع ما تحتاج

إليه ، ثم بعد ثلاثة أيام جاءه الذي باعها ، وشكى إليه ألم فراقها ، فضحك ، وقال له : لعلَّك تريد ارتجاع الجارية ؟ قال : إي والله يا مولانا ، وهذا الثمن بحاله ، لم أتصرَّف فيه . وأبرزه ، فقال له الوزير : ولا نحن تصرَّفنا في المثمن ، ثم قال لخادمه : ادفع إليه الجارية وما عليها ، وجميع ما في حجرتها . ودفع إليه الخرقة التي فيها الثمن، وقال: استعينا به على شأنكما. فأكثرا من الدّعاء له ، وأخذها وخرج .

وحُكي عن الوزير : أنه كان إذا مدَّ السماط فأكثر ما يحضره الفقراء والعميان ، فلما كان ذات يوم وأكل الناس وخرجوا ، بقي رجل ضرير يبكي ، ويقول : سرقوا مداسي ، وما لي غيره ، والله ما أقدر على ثمن مداس ، وما بي إلا أن أمشي حافيًا وأصلِّي . فقام الوزير من مجلسه ، ولبس مداسه وجاء إلى الضرير ، فوقف عنده وخلع مداسه والضرير لا يعرفه ، وقال له : البس هذا وأبصره على قدْر رجلك . فلبسه ، وقال : نعم ، لا إله إلا الله كأنه مداسي . ومضى الضرير ، ورجع الوزير إلى مجلسه ، وهو يقول : سلمت منه أن يقول : أنت سرقته .

قال مصنِّف سيرة الوزير : سمعته يقول : قفلتُ في صحبة أمير المؤمنين المقتفي من الكوفة بعد وداع الحاج ، فشاهدنا في الطريق بَرَدًا كبارًا قد وقع أمامنا – وكان الجماعة يأكلون منه – فلم أستطبه على الريق ، فلما نزلنا الخيام وأمسينا وحضر العشاء وأكلنا الطعام ، ذكرت ذلك البَرَد وودت أن لو كان الآن منه شيءٌ وأظن أني دعوت الله عز وجل أن يأتينا منه شيء ، فما كان إلا لحظة والسحاب همَلى ، وإذا البرد فيه كثير ، وشرع الغلمان وجمعوا منه شيئًا كثيرًا ، وجاءوا به ، فأكلتُ منه حتى تركته ، وحمدتُ الله عز وجل على إجابة الدعاء ، وإعطائه لما خطر في النفس .

باتباعه الشديد للسنة ؛ يرى ربَّه منامًا :

قال ابن الجوزي : وسمعته يقول : اتباع السنة سبب لكل خير ، فإني صليتُ

الفريضة يومًا في مسجدنا ، ثم قلت : يُستحبُّ أن تُصلَّى السنة في غير موضع الفرض . ومضيتُ إلى البيت فصليتها ، ثم اشتاق قلبي إلى رؤية الله عز وجل ، فقلتُ : اللهم أرني نفسك . فنمتُ تلك الليلة ، فرأيته عز وجل . وأنشد هذه الأبيات ، وقال : كان ابن سمعون كثيرًا ما ينشدها :

ركبتُ بحارَ الحبِّ جهلًا بقدْرها ... وتلك بحارٌ لا يفيقُ غريقُها
وسِرنا على ريحٍ تدلُّ عليكُم ... فبانت قليلًا ثم غاب طريقُها
إليكم بكم أرجو النجاةَ وما أرى ... لنفسيَ منها سائقًا فيسوقُها

قال الذهبي في « السير » (٢٠/٤٢٩) : وما أحلى شعر « الحَيْص بيص » فيه حيث يقول :

يهزُّ حديثُ الجود ساكنَ عِطْفِه ... كما هزَّ شَرْبَ الحيّ صهباءُ قَرْقَفُ
إذا قيل عون الدين يحيى تألَّق ... غمامٌ ومَاسَ السَّمهرِيُ المُثَقَّفُ

ومن قول الحيص بيص في مدحه رحمه الله تعالى :

يفلُّ عزب الرزايا وَهْي باسلة ... ويوسع الجار نصرًا وَهْوَ مخذولُ
ويشهدُ الهولَ بسَّامًا وقد دمعتْ ... شُوسُ العيونِ فذمَّ القومَ إحفيلُ
ويتقي مثل ما تُرجى فواضِلُه ... وجوده فهْو مرهوبٌ ومأمولُ
عارٍ من العار كاسٍ من مناقبه ... كأنه مرهفُ الخديْن مسلولُ
سهلُ المكارمِ صعبٌ في حفيظته ... فبأسُه والندى مُرٌّ ومعسولُ
قالي الدنايا وصبوان العلى كَلِفٌ ... فالعارُ والمجدُ مقطوعٌ وموصولُ
المُلْكُ يحيى لذي قولٍ ومعتركٍ ... إذا تشابه مقطوعٌ ومفلولُ
يُمضي الأسِنَّةَ والأقوال ماضية ... فالحبرُ والقرنُ مطرودٌ ومفصولُ
جوادُ مجدٍ له في فخره شبه ... وفيه من واضحِ العلياءِ تحجيلُ
يصيد وحش المعالي وهْي نافرةٌ ... كأن مسعاه للعلياء أُحبولُ

ومما أنشده أبو الفتح بن الأديب في أول يوم جلس فيه الوزير وقرئ عهده :

إذا قلتَ ليثٌ فهْو أمضى عزيمةً ... وإن قلتَ غيثٌ فهو أندى وأجودُ
من القوم ما أبقوا سوى حُسْنَ ذكْرهم ... وما عَمَرُوه بالجميل وشيَّدوا
وصيَّةُ موروثٍ إلى خيرِ وارثٍ ... إذا سيِّدٌ منهم خلا قام سيِّدُ
سيحييهمُ يحيى وما غاب غائبٌ ... إليه أحاديثُ المكارمِ تُسندُ
مناقبُ تُحصى دونها عددُ الحصى ... بها يُغبط الحرُّ الكريمُ ويُحسدُ
لِيَهْنِ أميرَ المؤمنين اعتضاده ... برأيك والآراء تهدي وترشُدُ
هو المقتفي أمرَ الإلهِ وإنّه ... لِيَصْدر عن أمر الإله ويُوردُ
تمنَّى وزيرًا صالحًا يكتفي به ... وأفكارُه في مثله تتردَّدُ
دعا زكرياءُ النبيُّ كما دعا ... إمامُ الهدى والأمرُ بالأمرِ يُعضدُ
فخُصَّ بيحيى بعدما خصَّ بعده ... بيحيى أمير المؤمنين محمدُ

وقال أبو علي بن الفلَّاس في ابن هبيرة :

وعدلتَ حتى لم تدع من ظالمٍ ... يده على المسْتَضْعَفِينَ تجورُ
فالأرضُ مشرقةٌ بعدلك والندى ... وصباحُ عدْلِك ما له ديجورُ

قال في « المنتظم » (١١/٢١٦) : « كان الوزير يتأسَّف على ما مضى ، ويندم على ما دخل فيه ، ولقد قال لي : كان عندنا بالقرية مسجد فيه نخلة تحمل ألف رطل ، فحدثتُ نفسي أن أقيم في ذلك المسجد ، وقلت لأخي مجد الدين : أقعد أنا وأنت ، وحاصلُها يكفينا ، ثم انظر إلى ما صِرتُ . ثم صار يسأل الله الشهادة ويتعرَّض لأسبابها » .

استيقظ رحمه الله وقت السَّحَر ، فقاءَ ، فحضر طبيبُه ابن رشادة ، فسقاه شيئًا ، فيقال:إنه سمَّه ، فمات ، وسُقي الطبيب بعده بنصف سنة سُمًّا فكان يقول : سَقَيْتُ فسُقيتُ ؛ فمات .

استدعى ابن هبيرة بماء ، فتوضأ للصلاة وصلَّى قاعدًا ، فسجد فأبطأ عن القعود من السجود فحرَّكوه فإذا هو ميت،رحمه الله .

قال ابن الجوزي : وغُلِّقت يومئذٍ أسواق بغداد ، وخرج جمعٌ لم نره لمخلوقٍ قطّ في الأسواق ، وعلى السطوح ، وشاطئ البحر ، وكثر البكاء عليه ؛ لِمَا كان يفعله من البرِّ ويُظهره من العدل .

وأنشد بعض الشعراء يوم موته :

مات يحيى ولم نجد بعد يحيى ملكًا ماجدًا به يُستعانُ
وإذا مات من زمانٍ كريمٌ مثلُ يحيى به يموتُ الزمانُ

قال مصنِّف سيرته : حدثني أبو حامد أحمد بن عيسى الفقيه الحنبلي ابن الشيخ الصالح أبو عبد الله بن زفر ، قال : رأيت في المنام - وأنا بأرض جزيرة ابن عمر - كأن جماعة من الملائكة يقولون لي : قد مات في هذه الليلة ببغداد وليٌّ من أولياء الله تعالى.فاستيقظتُ منزعجًا ، فحدَّثت بالمنام الجماعة الذين كانوا معي ، وأرَّخْنا تلك الليلة، فلما قدمت بغداد سألت: من مات في تلك الليلة ؟ فقيل لي : مات بها الوزير عون الدين بن هبيرة .

قال : وحدثني الشيخ الصالح محمود بن النعالي المقرئ الزاهد ، قال : كنت دائمًا إذا ذكرتُ الوزير عون الدين بن هبيرة أقول : اللهم هبه ، واستوهب له . قال : ومضى على ذلك زمان ، فرأيت في النوم كأنني قد دخلتُ إلى مدرسته لزيارة قبره ، وإذا هو نائم على القبر ، فقال : يا محمود ، إن الله وهَبَني واستوهب لي .

وحدَّثني الوزير أبو شجاع محمد بن الوزير أبي منصور محمد بن الوزير أبي شجاع محمد ، قال : كنتُ كثير الوقوع في الوزير ابن هبيرة ، فرأيتُه في المنام في بستانٍ لم أر له في الدنيا شبيهًا، ومعه ملك يجني له من ثماره ، ويترك في فمه ، فهممتُ بدخول البستان ، فصاح الملك عليَّ ، وقال : هذا البستان قد وهبه الله تعالى لهذا بعد أن غفر له ، فلا سبيل لأحد أن يدخله إلَّا بإذنه . فاستيقظتُ مرعوبًا ، وتبت إلى الله عز وجل من ذكره إلَّا بالرحمة عليه ،

والاستغفار له .

قال : وحدَّثني عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الواحد المقرئ قال : رأيت الوزير ابن هبيرة في النوم ، فسألته عن حاله ؟ فأجابني بهذين البيتين :

قد سُئِلْنا عن حالنا فأجبنا　　　بعد ما حال حالُنا وحُجبنا

فوجدنا مضاعفًا ما كسبنا　　　ووجدنا مُمحَّصًا ما اكتسبنا

وزير العراق عَضُد الدين :

أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله البغدادي .

وزر للمستضيء ، وكان جوادًا ، سريًّا ، مهيبًا ، كبيرَ القَدْر .

قال الموفق : كان إذا وزن الذهب ، يرمي تحت الحصر قراضةً كثيرة ليأخذَها الفرَّاشون ولا يرى منَّا صبيًّا إلّا وضع في يده دينارًا .

وكان الوزير له انصبابٌ إلى أهل العلم والزهد ، يُسبغ عليهم النِّعَم ، ويشتغل هو وأولاده بالحديث والفقه والأدب ، وكان الناس معهم في بُلَهْنِيَة[1] .

ورأى الوزير في النوم أنه معانقٌ لعثمان رضي الله عنه ، فاغتسل قبل خروجه - وهو في طريقه للحج- وقال: **هذا غسل الإسلام، فإنني مقتول بلا شكٍّ. فقتله** باطنيٌّ ، وبقي الوزير قبل الموت يقول : الله ، الله . كثيرًا[2] فرحمة الله عليه .

وزير الموصل جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي الأصفهاني ؛ الجواد الممدح ، وحكايته العجيبة :

وَلِيَ نصيبين للشهيد أتابك ، ثم ولَّى الوزارة لولديه سيف الدين غازي ،

---

(١) أي : سعة ورفاهية .

(٢) السير ٢١/ ٧٥ - ٧٧ .

ثم قطب الدين ممدود .

« قال العماد : فعاش بِنَدَاهُ الجود ، وعشا[١] إلى ناديه الوفود ، وعادت به الموصل قِبْلة الإقبال وكعبة الآمال ، فأنارت مطالعُ سعوده ، وسارت في الآفاق صنائعُ جوده ، وعمَّر الحرمين الشريفين ، وشمل بالبِرِّ أهلهما ، وجمع بالأمن شملهما ، وأجرى بحر السماح ، ونادى حي على الفلاح ، وصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح ، وأتوا إليه من كلِّ فجٍّ عميق ، وقُصِد من كل بلدٍ سحيق ، وقصده العظماء » .

قال ابن الأثير : كانت الموصل في أيامه ملجأً لكلّ ملهوف ومأمنًا لكل خائف ، ثم سعى به الحُسَّاد إلى قطب الدين ، وقيل له : إنه يأخذ أموالك ، فيتصدَّق بها . فقبض عليه ، وحبسه بقلعة الموصل ، فبقي فيه نحوًا من سنة ، ثم مرض ومضى لسبيله عظيم القدر والخطر ، كبير المروءة ، كامل الفُتُوَّةِ . ولم يُروَ في كتب القدماء أن أحدًا اتسعت نفسه ومروءته ، كما اتسعت له نفس جمال الدين هذا .

قال : وحكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصوفي – وكان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه – قال : لم يزل الجمالُ مشغولًا بأمر آخرته مدة حبسه ، وكان يقول : كنت أخشى أن أُنقل من الدست[٢] إلى القبر . فلمّا مرض ، قال لي : يا أبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعَرِّفني . فقلت في نفسي : قد اختلط الرجل . فلمّا كان الغد ، أكثر السؤال عن ذلك الطائر (الأبيض) ، وإذا بطائرٍ أبيض لم أر مثله قد سقط فقلت له : قد جاء الطائر الأبيض . فاستبشر ، ثم قال : جاء الحق . وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى وتوفِّي . فلما توفِّي طار ذلك الطائر، قال: فعلمت أنه رأى شيئًا في معناه. ودُفنَ بالموصل نحو سنة .

---

(١) عشا ، يعشو : إذا أتى نارًا للضيافة .

(٢) الوزارة .

وكان بينه وبين أسد الدين عهد أنّ مَنْ مات منهما قبل صاحبه ، حمله إلى مدينة النبي ﷺ ، فحمله أسد الدين بمال صالح ، وأمر أن يحجَّ معه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول ، وعند الرحيل وقدوم مدينة تكون في الطريق ، وينادون في البلد الصلاة على فلان ، فلمّا كان في الحلّة : اجتمع الناس للصلاة عليه ، فإذا شاب قد ارتفع على موضعٍ عال ، وأنشد بأعلى صوته :

سرى نَعْشُه فوقَ الرِّقابِ وطالما ... سرى برُّه فوقَ الركابِ ونائلُهْ
يمرُّ على الوادي فتُثني رمالُه ... عليه وفي النادي فتبكي أراملُهْ

فلم يُر باكيًا أكثر من ذلك اليوم ، ولمّا أنشد ذاك الشاب هذين البيتين ، ارتجل الحيص بيص الشاعر المشهور هذين البيتين :

سرى نعشُه فوقَ الرقابِ وإنّه ... لأجدَرُ مَن يسري عليها ومَن يرقى
فما عنقٌ إلَّا لـه منه مِنَّةٌ ... تلازمُه كالطوقِ في عنق الورقا

ثم وصلوا به إلى مكة ، فطافوا به حول الكعبة ، وصلَّوْا عليه بالحرم ، وحملوه إلى المدينة فصلَّوْا عليه أيضًا ، ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها . وكان قد بنى سورًا على مدينة الرسول ﷺ ، وعمّر أيضًا المسجد الذي على جبل عرفات ، وعمل الدرج الذي يُصعد إليه فيها . وكان الناس يلقون شدَّة في صعودهم ، وعمل بعرفات أيضًا مصانع للماء ، وجدَّد بناء مسجد الخيف ، وكان يحمل كل سنة من المال والغلَّة والكسوة الشيء الكثير إلى أهل الحرمين ، فلمّا حملوا نعشه إليهما ، خرج أهل كل منهما عند وصوله إليه يتلقونه بالبكاء والترحُّم عليه وكثرة الأسف بحيث يكون ذلك يومًا مشهودًا ، وكان له في كل يوم مائة دينار أميرية ، يتصدَّق بها على باب داره . ومآثره كثيرة جدا ، وهو مدفون في الرباط الذي أنشأه بالمدينة النبوية . وبينه وبين الحائط الشرقي من مسجد النبي ﷺ عرض الطريق ، وهو الرباط المدفون فيه بعد ذلك أسد الدين شيركوه

وأخوه نجم الدين أيوب ، رحم الله الجميع .

القاضي الفاضل ؛ محيي الدين أبو علي عبد الرحيم بن علي اللخمي البيساني ، وزير صلاح الدين :

انتهتْ إلى القاضي الفاضِل براعةُ الترسُّلِ وبلاغةُ الإنشاءِ ، وله في ذلك الفنِّ اليدُ البيضاءُ ، والمعاني المبتكرةُ ، والباعُ الأطولُ ، لا يُدْرَكُ شأْوُهُ ، ولا يُشَقُّ غُبَارُهُ ، مع الكثرةِ .

قالَ ابنُ خَلِّكان : يقال:إنَّ مُسَوَّدَاتِ رسائِلِهِ ما يُقصرِّ عن مائة مجلَّدٍ .

قال العماد : « قضى سعيدًا ، ومضى شهيدًا حميدًا ، فوفّاه الله تعالى الوصيّة ، فكانت له بسيّد المرسلين عليه الصلاة والسلام أُسوة ، وإن تردّى عن رداء العمر ، فله من حُلَل البقاء في عليّين كسوة ؛ لأنّه لم يُبق في مدة حياته عملًا إلّا وقدَّمه ، ولا عهدًا في الجنّة إلّا أحكمه ، ولا عقدًا في البرِّ إلَّا أبرمه ؛ فإنّ صنائعه في الرقاب ، وأوقافه على سُبُل الخيرات متجاوزة عن الحسنات ، لا سيّما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم الحساب ، وأعان طلبةَ العلم الشافعية والمالكيّة عند داره بالمدرسة ، والأيتامَ بالكتاب والخيرات الدارَّة على الأيام ، فكانت حياةً له ثابتة إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام . وكان رحمه الله للحقوق قاضيًا ، وفي الحقائق ماضيًا ، سلطانه مُطاع ، والسلطان له مُطيع ، وفضلهُ جامع ، وشمل الفضل به جميع . وهو واحد الزمان ، قد خصّه الله بالمكانة والإمكان ، والسلطان رحمه الله من مفتتحاته فتوحه ، ومختتماتها ، ومبادئ أمور دولته وغاياتها ، ما افتتح الأقاليم إلَّا بأقاليد آرابه وآرائه ، ومقاليد غِناه وعنائه . وكنتُ من حسناته محسوبًا ، وإلى مناسب آلائه منسوبًا ، أعرف صناعته ، ويَعرفُ صناعتي ، وأعارض بضاعته الثمينة بمزجاة بضاعتي ، ولم يزل يجذب بضبعي ويجلب نفعي ، وما أوسعَ ذرعه للخطاب في شغلي ، إذا ضاق بالخطبِ الشاغل ذرعي . وكانت كتابته كتائب النصر ، ويراعته رائعة الدّهر ، وبراعته بارئة البر ، وعبارتُه نافِثَة للسحر ، وبلاغتُه للدولة مجُمِّلَة ، وللمملكة

مُكمِّلَة ، وللعصر الصَّلاحي على سائر الأعصار مُفَضلَّة . ومُفتتحاته في الفتوحات البديعة: بديعة، ومخترعاته في الصنائع المخترعة: صنيعة. وإنّما نسجتُ على منواله، ومزجتُ من جرياله[1] ، ورويتُ بِزُلاله . وهو الذي نسخَ أساليب القدماء بما أقدمَهُ من الأساليب ، وأغربَهُ من الإبداع ، وأبدعه من الغريب ، وما ألفيتُه كرَّر دعاءً ذكره في مُكاتبة ، ولا ردَّد لفظًا في مخاطبةٍ ، بل تأتي فصولُه مُبتكرة مُبتدعة ، لا مفتكرة، بالعُرفِ والعرفان معرفة لا نكرة ، وكانت الدولة بإدالته تُدال ، والزلَّة بإزالته تُزال ، والكِرَام في ظلِّه يقيلون ، ومن عثرات النوائب بفضله يستقيلون ، وبعزِّ حمى حمايته يعزّون ، وبهزّ عطف عطفه يهتزون، فإلى مَن الوفادة من بعده ؟ وممّن الإفادة ؟ وفيمن السيادة ؟ ولمن السعادة ؟ والحمد لله الذي له الغيب والشهادة ، ﴿ **إنّا لله وإنّا إليه راجعون** ﴾ ، ولأمره مُنقادون » .

وذكره العماد أيضًا في كتابه « الخريدة » ، في القسم الرابع منه في ذكْر محاسن مصر وأعمالها ، فقال : وقبل شروعي في ذكر أعيان مصر وأحاسنها ومزايا فضلائها ومزاينها ، أقدِّم ذِكْرَ مَن جميع أفاضل الدهر وأماثل العصر، كالقطرة في تيار بحره، بل كالدُّرَّة في أنوار فجره ، وهو المولى القاضي الأجلُّ الفاضل أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن البيساني ؛ واحد الزمان ، العديم الأقران ، ربّ القلم والبيان ، واللّسن واللّسان ، والقريحة الوقَّادة ، والبصيرة النَّقادة ، والبديهة المعْجِزة ، والبديعة المطرَّزة ، والفضل الذي ما سُمع في الأوائل ممن لو عاش إلى زمانه ، لتعلّق بغباره ، أو جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمَّدية التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع ، يَخترِعُ الأفكار ، ويفترِع الأبكار ، ويُطلع الأنوار ، ويُبدع الأزهار ، وهو ضابط المُلك بآرائه ، ورابط السلك بآلائه ، إن شاء إنشاء في يوم واحد بل في ساعة ما لو دُوِّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة ، أين قُسٌّ عند فصاحته ؟!

---

(١) صبغ أحمر .

وأين قَيس في مقام حصافته ؟! ومَنْ حاتم وعمرو في سماحتِهِ وحماسته ؟! فضْلُه بالأفضـال حال ، ونجمُ قبوله في أُفق الإقبال عالٍ ، لا مـنٌّ في فعله ، ولا مَيْنٌ في قوله، ولا خُلف في وعده، ولا بطء في وفده، الصادق الشيم، السابق بالكـــرم ، ذو الوفاء والمروءة ، والصفاء والفُتُوَّة ، والتُّقى والصلاح ، والندى والسماح ، مُنْشر رُفات العلم وناشر راياته ، وجالي غيابات الفضل وتالي آياته ، وهو من أولياء الله الّذين خُصُّوا بكرامته ، وأَخلصوا لولايته ، قد وفَّقهُ الله للخير كلّه، وفُضِّل هـذا العصر على الأعصار السالفة بفضله ونبله، فهو مع ما يتولّاه من أشغال المملكة الشاغلة ، ومهمَّاته المستغرقة في العاجلة ؛ لا يغفل عن الآجلة ، ولا يفْتُر عن المواظبة على نوافل صَلواته ونوافلِ صِلاته ، وحفظ أوراده ووظائفه ، وبثِّ أصفاده وعوارفه ، ويختم كلَّ يوم من القرآن المجيد ، ويضيف إليه ما شاء الله من المزيد . ثمّ ذكر كلامًا كثيرًا من هذا النمط .

وذكر قاضي القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري أنّ القاضي الفاضل لمّا سمع أن العادل أخذ الديار المصرية ، دعا على نفسه بالموت خشيةَ أن يستدعيه وزيره صفي الدين بن شكر الله ، أو يجري منه في حقّه إهانة ، فقد كان بينهما ما يقتضي ذلك ، فأصبح ميِّتًا ، رحمه الله . وكانت له معاملة مع الله تعالى حسنة ، وتهجُّدٌ بالليل ، إلى غير ذلك من أعمال البرِّ المتنوِّعة .

وذكَرَ جماعة من أهل الديار المصريّة : أنّه خلَّف من الكتب مقدار مائة ألف مجلَّد ، وكان يجمعها من سائر البلاد ، رحمة الله عليه .

وقال ابنُ خَلِّكان : وَزَرَ للسلطانِ صلاحِ الدِّين بنِ أيُّوبَ ، فقالَ هبةُ اللهِ ابن سناء الملك قصيدةً،منها :

قالَ الزَّمَانُ لِغَيْرِهِ لَوْ رَامَها ... تَرِبَتْ يَمِينُكَ لَسْتَ مِنْ أربابها
اذهَبْ طريقكَ لستَ مِنْ أربابها ... وارجِعْ وراءَكَ لَسْتَ مِنْ أترابِها

وبِعزِّ سَيِّدِنا وسيِّدِ غيرنا ذَلَّتْ مِنَ الأيَّامِ شَمْسُ صِعَابِها
وأَتَتْ سَعَادَتُهُ إلى أَبْوابِهِ لا كالذي يَسْعَى إلى أَبْوَابِها
فلْتَفْخرِ الدُّنْيا بسَائِسِ مُلْكِها مِنْهُ ودارِسِ علمِها وكِتَابِها
صَوَّامِها قَوَّامِها عَلَّامِها عَمَّالِها بَذَّالِها وَهَّابِها

قال الحافظُ المُنذري : ركنَ إليه السلطانُ ركونًا تامًّا ، وتقدَّم عنده كثيرًا ، وكان كثيرَ البرِّ ، وله آثارٌ جميلةٌ .

قال الموفّق عبد اللطيف : القاضي الفاضلُ كان ذا غرامٍ بالكتابةِ وبالكتبِ أيضًا ، له الدينُ ، والعفافُ ، والتُّقَى ، مواظبٌ على أورادِ الليل والصيامِ والتلاوةِ . لما تملَّكَ أسدُ الدِّين ، أحضره ، فأُعْجِبَ به ، ثم استخلصه صلاحُ الدِّين لنفسِهِ ، وكانَ قليلَ اللَّذَّاتِ ، كثيرَ الحسناتِ ، دائمَ التهجُّدِ ، يشتغلُ بالتفسير والأدبِ ، وكان قليلَ النحو ، لكنه له دُرْبَة قويَّةٌ . كتب من الإنشاء ما لم يكتبْهُ أحدٌ ، أعرفُ عند ابن سناءِ الملكِ من إنشائِهِ اثنين وعشرينَ مجلَّدًا ، وعند ابن القطّانِ عشرين مجلَّدًا ، وكان مُتقلِّلًا في مَطْعَمِهِ وَمَنْكِحِهِ وملبسِهِ ، لباسُهُ البياضُ ، ويركبُ معه غلامٌ وركابيٌّ ؛ ولا يُمَكِّنُ أحدًا أنْ يصحَبَهُ ، وَيُكْثِرُ تشييعَ الجنائزِ ، وعيادةَ المرضَى ، وله مَعْروفٌ مَعْرُوفٌ في السرِّ والعلانية ، ضعيفُ البنيةِ ، رقيقُ الصورةِ ، له حَدْبَةٌ يُغَطِّيها الطيلسانُ ، وكان فيه سوءُ خلقٍ يُكْمِد به نفسَهُ ، ولا يضرُّ أحدًا به ، ولأصحاب العلمِ عنده نَفاقٌ ، يُحسِنُ إليهم ، ولم يكنْ له انتقامٌ من أعدائِهِ إلَّا بالإحسانِ أو الإعراضِ عنهم ، وكان دخلُهُ ومعلومُه في العامِ نحوًا من خمسين ألفَ دينارٍ سوى متاجرِ الهندِ والمغربِ . توفِّي مسكوتًا ، أحوجَ ما كانَ إلى الموتِ عند تولِّي الإقبال وإقبالِ الإدبارِ ، وهذا يدلُّ على أنَّ للهِ به عنايةً .

لمَّا مرض صلاح الدين الأيوبي ، أشار عليه القاضي الفاضل أن ينذر لئن

شفاه الله ليصرفنَّ كلَّ همِّه لقتال الفرنجة ، وفتْح بيت المقدس ، وليقتلنَّ صاحب الكرك الصليبي بيده . فلمَّا شفي صلاح الدين ؛ وفَّي بنذره . ولو لم يكن للقاضي الفاضل إلّا هذا لكفاه .

ونختم بهذه السيرة العطرة ، وهذا الفعل الجميل للقاضي الفاضل علوَّ همَّة الوزراء .



الفصل الرابع

عُلُوُّ هِمَّة القضاةِ

حكم القاضي « جُميع بن حاضر الباجي » بإخراج المسلمين من « سمرقند » وهذا حكْم أشبه في مثاليَّته بالخيال .

□ عُلُوُّ هِمَّةِ القضاةِ □

« إذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحلِّ الذي لا يُنكر فضلُه ، ولا يُجهل قدْرُه ، وهو من أعلى المراتب السنيَّات ؛ فكيف بمنصب التوقيع عن ربِّ الأرض والسموات ؟!! فحقيق بمن أُقيم في هذا المنصب أن يُعِدَّ له عُدَّته، وأن يتأهَّبَ له أُهبته ، وأن يعلم قدْرَ المقام الذي أُقيم فيه ، ولا يكون في صدره حرجٌ من قول الحقِّ والصدع به ، فإن الله ناصرُه وهاديه ، وكيف وهو المنصب الذي تولَّاه بنفسه ربُّ الأرباب ، فقال تعالى : ﴿ **ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن** ... ﴾ [النساء : ١٢٧] ، وكفى بما تولَّاه الله بنفسه شرفًا وجلالةً ؛ إذ يقول في كتابه : ﴿ **يستفتونك قل الله يُفتيكم في الكلالة** ﴾ [النساء : ١٧٦][(١)] ، وقوله تعالى : ﴿ **ذلك أمرُ الله أنزله إليكم** ﴾ [الطلاق : ٥] ، وقوله : ﴿ **واللهُ يقضي بالحق** ﴾ [غافر : ٢٠] . وليعلم القاضي عمن ينوب في حكمه وفتواه ، وليوقن أنه مسئول غدًا وموقوف بين يدي الله .

لله ما أشرفَه من مقام ، مقام القاضي العادل ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « سبعةٌ يُظلُّهم الله في ظلِّه ... » ، وذكر منهم « الإمام العادل » . رواه البخاري ومسلم ، والنسائي وأحمد .

قال ابن فرحون عن منصب القاضي : « الواجب تعظيم هذا المنصب الشريف ومعرفة مكانته من الدين ؛ فبه بُعثت الرسل ، وبالقيام به قامت السموات والأرض . وجعله النبي ﷺ من النعم التي يباح الحسد عليها؛ فقد جاء من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « لا حَسَدَ إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالًا فسلَّطه على هلكته بالحقِّ ، ورجل آتاه الله الحكمة فعلَّمها للناس وقضى

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ٨/١ طبعة دار الحديث .

بها بين الناس »[١] . قال الله تعالى : ﴿ **وإنْ حكمتَ فاحكمْ بينهم بالقسط إن الله يُحبُّ المقسطين** ﴾ [المائدة : ٤٢] فأيُّ شرفٍ أشرف من محبة الله »[٢] .

وأيُّ شرفٍ أشرف من مقام تولَّاه الأنبياء ووزراؤهم !

قال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ لتحكم بين الناس بما أراك اللهُ** ﴾ [النساء : ١٠٥] ، وقال تعالى : ﴿ **وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ [المائدة : ٤٩] .وقال تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناسِ بالحقِّ ولا تتَّبِع الهوى فيُضلَّك عن سبيل الله** ﴾ [ص : ٢٦] . وقال تعالى : ﴿ **وداود وسُليمان إذ يحكمان في الحرث** ﴾ [الأنبياء : ٧٨] .

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر »[٣] .

قال الغزالي : « إنه أفضل من الجهاد ، وذلك للإجماع مع الاضطرار إليه ؛ لأن طباع البشر مجبولةٌ على التظالم ، وقلَّ مَنْ يُنصف من نفسه ، والإمام مشغول بما هو أهمُّ منه ؛ فوجب مَنْ يقوم به ، فإن امتنع الصالحون له منه أثموا ، وأجبر الأمام أحدهم » .

وقد قال ﷺ : « يومٌ من إمام عادل أفضل من عبادة ستِّين سنةً ، وحدٌّ يُقام في الأرض أزكى فيها من مطر أربعين يومًا »[٤] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) تبصرة الحكام لابن فرحون ١ / ١٣ .

(٣) رواه مسلم والبخاري وأبو داود .

(٤) رواه سمويه في الفوائد ، والطبراني في الأوسط ، وضعَّفه الألباني في الضعيفة رقم (٩٨٩) ، وحسَّنه المنذري في « الترغيب » (٣/٣٥) ، والعراقي في تخريج « الإحياء » ١/٥٥ ، والشطر الثاني من الحديث حسَّنه الألباني .

لله دَرُّه من مقام تولّاه النبي وكبار الصحابة ! ولقد كان رسول الله ﷺ أوَّلَ قاضٍ في الإسلام . ولله ما أعلى هِمَّته وهو يقول : « وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمدٌ يدها » !!

وقد ولَّى النبي ﷺ رجالًا من الصحابة على القضاء في حياته ؛ كعمر ابن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وعتَّاب بن أُسيد .

لله ما أشرفَه وأجلَّه من مقام تهيَّبه الصالحون والعلماء !

« قال مكحول : لو خُيِّرتُ بين ضرْب عُنُقي وبين القضاء لاخترتُ ضرْب عنقي .

وقد ادعى بعض الأئمَّة الجنون حتى لا يتولَّوْه ، واجتنبه أبو حنيفة رضي الله عنه ، وصبر على الضرب والسجن حتى مات في السجن ، وقال : البحر عميق ، فكيف أعبره بالسباحة ؟ فقال أبو يوسف : البحر عميق ، والسفينة وثيق والملَّاح عالم ، فقال أبو حنيفة : فكأني بك قاضيًا »(١) .

وقد قُيِّدَ محمد بن الحسن الشيباني نيِّفًا وثلاثين يومًا ، أونيِّفًا وأربعين يومًا حتى تقلَّده .

وعلى قدْر تهيُّب الأئمة منه يكون عِظَمُ جزاءِ القاضي .

قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يَمينٌ؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا »(٢) .

لقد جاءت دوحة الإسلام برجال وقُضاةٍ أفذاذ ؛ قوَّالين بالحقِّ ، أمَّارين

(١) فتح القدير لابن الهمام ٥/٤٦٠ .
(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن ابن عمرو .

بالمعروف ، لا يعصون الخالق في طاعة المخلوق ، وهؤلاء هم الذين تحتاج الأُمَّةُ الإسلامية إلى أمثالهم ؛ إذِ الأُمَّة لا تحتاج إلى شيء من الأخلاق احتياجَها إلى الجرأة في الحقِّ ، والشِّدَّة في العدل ، والمساواة ، وعدم التفرقة بين الكبير والصغير ، وعدم الإغضاء على تعدِّي حدود الله رهبةً من السلطان .. هؤلاء الذين تحيا بهم الأمم ، وتُشرق بهم الأيام وتعلو بهم قداسة الحقِّ ، فتطيب بهم الأيام .

قال ﷺ : « إن الله تعالى لا يُقدِّسُ أُمَّةً لا يُعطون الضعيف منه حقَّه »(١) .

ولله دَرُّ القاضي ، إن كان عادلًا فهو في معيَّة الله .

وقال ﷺ : « إن الله لا يُقدّسُ أُمَّة لا يأخذ الضعيف حقَّه من القويِّ وهو غير مُتعتع »(٢) .

ويرحم الله ابن تيمية حيث يقول : إن الله لَيُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرةً ، ويذهب بالدولة الجائرة وإن كانت مسلمة

قال ﷺ : « إن الله تعالى مع القاضي ما لم يجُرْ ، فإذا جار تبرَّأ منه وألْزَمَهُ الشيطان »(٣) .

وقال ﷺ : « إن الله مع القاضي ما لم يجُرْ عَمْدًا ، فإذا جار وَكَلَه

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٥٤) .

(٢) صحيح : رواه البيهقي في سننهِ عن أبي سفيان بن الحارث ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٥٣) .

(٣) حسن : رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن عن ابن أبي أوفى ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٢٣) .

إلى نفسه »[١] .

وقال ﷺ : إن الله تعالى مع القاضي ما لم يَحِفْ عمْدًا »[٢] .

وهذه صفحاتٌ مع قضاة الأُمَّة الرَّبَّانِيِّين كتبناها على عجالةٍ ، فيها من عبقهم وطِيبهم ما يُطيَّب به الطِّيب ، وما هذه الوريقات إلَّا قطرة من نَدَاهم ، ونسمة من شذاهم ، وإلَّا فالحديث عنهم وتتبُّع أخبارهم لا تفي به المجلدات بلا مبالغة ، وإذا جاء العلم فليصمت الجهل .. فأصمتُ بجهلي ، وأدَعُ القارئ مع علمهم وعدلهم .



(١) حسن : رواه ابن ماجه ، وابن حبان عن ابن أبي أوفى ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٤٢) .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وأحمد عن معقل بن يسار، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٢٤) .

□ عليٌّ بن أبي طالب أقْضَى هذه الأُمَّة □

قال عمر بن الخطاب : أقضانا عليٌّ بن أبي طالب .

وعن ابن مسعود قال : كنَّا نتحدَّث أن أقْضَى أهل المدينة علي بن أبي طالب .

عن عليٍّ : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا ، فقلتُ : يا رسول الله ، تُرسلني وأنا حديثُ السِّنِّ ، ولا عِلْمَ لي بالقضاء ؟ فقال : « إن الله سيهدي قلبك ، ويُثبِّت لسانك ، فإذا جلس بين يديْك الخَصمان ، فلا تقضينَّ حتى تسمع من الآخر كما سمعتَ من الأول ، فإنه أحْرَى أن يتبيّن لك القضاءُ » . قال : فما زلتُ قاضيًا ، أو ما شككتُ في قضاءٍ بَعْدُ[1] .

عن أبي سعيد الخُدْري ، سَمِع عمر يقول لعليٍّ - وقد سأله عن شيءٍ فأجابه -: أعوذ بالله أن أعيش في قومٍ لستَ فيهم يا أبا حسنٍ[2] .

وأخرج أحمد في المناقب ، عن عليٍّ رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فوجد أربعةً وقعوا في حفرة حُفرت ليُصطاد فيها الأسد ، سقط أولًا رجل فتعلَّق بآخر ، وتعلَّق الآخر بآخر حتى تساقط الأربعة ، فجرَحهم الأسد ، وماتوا من جراحته فتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون ، فقال عليٌّ : أنا أقضي بينكم ، فإن رضيتم فهو القضاء ، وإلَّا حجزتُ بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله ﷺ ليقضي بينكم . اجمعوا من القبائل الذين حفروا البئر رُبع الدِّية وثلثها ونصفها ودِيَةً كاملة ، فللأول ربعُ الدِّية ؛ لأنه أهلَكَ مَنْ فوقه ، وللذي يليه ثلثُها ؛ لأنه أهلكَ مَنْ فوقه ، وللثالث النصف ؛ لأنه أهلكَ من فوقه ،

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود وأحمد وإسحاق ، وأبو داود الطيالسي في مسنده ، والحاكم في المستدرك وقال : صحيح الإسناد . وحسَّنه الشيخ وصيُّ الله بن محمد عباس في تحقيقه لفضائل الصحابة لأحمد ٢/٦٩٩ .

(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة ٣/١٦٦ للمحب الطبري، دار الكتب العلمية .

وللرابع الدِّيةُ كاملةً . فأَبَوْا أن يرضوا ، فأتَوْا رسول الله ﷺ فلقوه عند مقام إبراهيم ، فقصُّوا عليه القصَّة فقال : « أنا أقضي بينكم » واحتبى ببردةٍ ، فقال رجل من القوم : إن عليًّا قضى بيننا . فلمَّا قصُّوا عليه القصة ، أجازه(١) .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

« روى ابن عبد البر ، أن عروة ومجاهدًا رويا أن رجلًا من بني مخزوم استعدى عمر بن الخطاب على أبي سفيان بن حرب ، أنه ظلمه حدًّا في موضعِ كذا وكذا ، وقال عمر : إني لَأَعْلَمُ الناس بذلك ، وربَّما لعبتُ أنا وأنت فيه ونحن غلمان ، فأْتِني بأبي سفيان . فأتاه به ، فقال له عمر : يا أبا سفيان ، انهض بنا إلى موضع كذا وكذا . فنهضوا ونظر عمر فقال : يا أبا سفيان ، انهض بنا إلى موضع كذا وكذا . فنهضوا ونظر عمر فقال : يا أبا سفيان ، خُذ هذا الحجر من ها هنا ، فضَعْهُ ها هنا ، فقال : والله لا أفعلُ . فقال : والله لَتَفْعلنَّ . فقال : والله لا أفعل . فَعَلاهُ بالدِّرَّة وقال : خُذه لا أُمَّ لك فضَعْهُ ها هنا ، فإنك ما علمتُ قديمُ الظُّلْم . فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال عمر ، ثم إن عمر استقبل القبلة فقال : اللَّهمَّ لك الحمد ، لم تُمتني حتى غلبتُ أبا سفيان على رأْيه ، وأذللتَهُ لي بالإسلام . قال : فاستقبل القبلة أبو سفيان وقال : اللهم لك الحمدُ إذْ لم تُمتني حتى جعلتَ في قلبي من الإسلام ما أذِلَّ به لعمر »(٢) .

شُرَيْح القاضي : يحكم على أمير المؤمنين فيُسلم اليهوديُّ :

أَقْضَى الناسِ ، كما قال عليٌّ بن أبي طالب .

---

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة صـ١٦٩ ، أخرجه أحمد في المناقب .
(٢) المغني على مختصر الخرقي ١٠ / ٤٩ .

مرَّ علـيٌّ بن أبي طالب بسوق الكوفه يومًا ، فإذا به يمرُّ أمـام يهـوديٍّ يعرض درعًا للبيع ، فلمَّا رآها أمير المؤمنين عرف أنها درعه التي فَقَدَها منذ سنين طويلة ، وعلامتها المميّزة عليها ، فقال لليهودي : إن هذه الدرع درعي . فقال اليهودي : بل هي درعي ، وأمامَك القضاء . ووقف أمير المؤمنين بجانب اليهودي أمام القاضي شُريح ، فقال شريح : البيِّنة على من ادَّعى . فقال عليٌّ : إن الدرع درعي وعلامتها كيت وكيت ، وهذا هو الحسن بن علي شاهدي على ذلـك . فقال شريح : يا أمير المؤمنين ، إني أعلم أنك صـادق ، ولكـن ليس عندك بيِّنة ، وشهادة الحسن لا تنفعك ؛ لأنه ابنك ، وقد حكمْنا بالدرع لليهودي .

فهزَّ هذا الموقف اليهودي فقال : والله إن هذا الدين الذي تحتكمون إليه لهو الناموس الذي أُنزل على موسى ، وإنه لدين حقّ ، ألا إن الدرعَ درعُ أمير المؤمنين ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله[١] .

الإمام مسروق بن عبد الرحمن :

« عن محمد بن المنتشر ، أن مسروقًا كان لا يأخذ على القضاء أجرًا ، ويتأوَّل هذه الآيـة : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهـم وأمـوالهم** ... ﴾ الآية ، [التوبة : ١١١] .

وعن الشعبي أن مسروقًا قال : لأن أقضي بقضية وَفْقَ الحقِّ أحبُّ إليَّ من رِباطِ سنةٍ في سبيل الله . أو قال : مِن غزوِ سنةٍ »[٢] .

---

(١) كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء ، لمحمد فهمي عبد الوهاب صـ٧٦ - ٧٧ ، دار الاعتصام .

(٢) السير ٤/٦٨ ، ٦٩ .

شَرِيك بن عبد الله قاضي الكوفة :

لقـد كان القاضي شريك من الرَّبَّانيِّين الذين هم صور الحق فـي مناصب القضـاء ، لا يطمـع في جـورهم سلطان ، ولا ييأس من عدلهم إنسـان .. أيّ إنسان .

« روى عمر بن هياج بن سعيد قال : أتت امرأةٌ يومًا شريك بن عبد الله قاضـي الكوفة وهو في مجلس الحُكم ، فقالت : أنا بالله ثـم بالقاضي . قـال : مَنْ ظَلَمَكِ ؟ قـالت : الأمير موسى بن عيسى ابنُ عمِّ أمـير المـؤمنين ؛ كان لي بستان على شاطئ الفـرات فيه نخل ، ورثتُهُ عـن أبي ، وقاسمتُ إخوتي ، وبنيـتُ بيني وبينهم حائطًا ، وجعلتُ فيه رجُلًا فارسيًّا يحفظ النخلَ ويقوم به ، فاشترى الأميرُ موسى بنِ عيسى من جميع إخوتي وساوَمَنِي ، ورغَّبني فلم أبِعْهُ ، فلمَّا كانت هـذه الليلةُ ، بعث خمسمائة غلام وفاعل ، فاقتلعوا الحـائط ، وأصبحـت لا أعرف من نخلي شيئًا ، واختلطَ بنخل إخوتي . فقال شريك لحاجبه : يا غلام ، أحضِرْ ورقة . ثم خَتمهَا بخاتمه وقال لها : امْضي إلى بابه بالختم حتى يحضُر معك . فجاءت المرأة بالورقة المختومة ، فطرقتْ باب الأمير فأخذها الحاجبُ منها ، ودخل بها على موسى وقال له : قد أعْدَى القاضي عليك ، وهذا ختْمُه . فقال موسى : ادْعُ لي صاحبَ الشرطة . فدعا به فقال له : امضِ إلى شريكٍ وقُل : يا سبحان الله ! ما رأيتُ أعْجَبَ من أمـرك ؛ امرأةٌ ادَّعت دعوى لم تَصِـحّ ، أعْدَيتَها عليَّ ؟! فقـال صاحب الشرطة : إنْ رَأَى الأميرُ أن يُعْفِيَني من ذلك ؟ فقال الأمـير : امْـضِ ، وَيْلَك !! فخـرجَ صاحبُ الشرطة وقال لغلمانه : اذهبوا وأدْخِلُوا إلـى حَبْس القاضي بساطًا وفراشًا وما تدعو الحاجةُ إليه في السجن !! ثم مضى إلى شريك ، فلمَّا وقفَ بين يديه أدَّى الرسالة ، فقال القاضي لغلام الحَبْس : خُذ بيده فضَعْهُ في الحبس . فقال صاحب الشرطة : والله قد علمتُ أنك تحبسُني ، فقـدَّمتُ ما أحـتاج إليه إلى السـجن . وبلغ موسى بن عيسى الخبرُ ، فوجَّـه

الحاجبَ إلى شريك ، وقال له : رسولٌ أدّى رسالةً ، أيّ شيءٍ عليه ؟! فقال شريك : اذهبوا به إلى رفيقه ، إلى الحبس . فحُبِس ، فلمَّا صلَّى الأميرُ موسى العصر ، بعثَ إلى إسحاق بن الصباح الأشعثي ، وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي شريك ، وقال لهم : امضوا إلى القاضي ، وأبْلِغُوهُ السلام ، وأعْلِمُوهُ أنه استخفَّ بي وأنّي لستُ كالعامَّة . فمضَوْا إليه وهو جالسٌ في مسجده بعد صلاة العصر ، فأبلغوه الرسالة ، فلمَّا انقضى كلامُهم قال لهم : ما لي أراكم جئتموني في غَثَرَةٍ[1] من الناس فكلَّمتموني . ثم التفت حوله ونادَى : مَنْ ها هنا من فتيان الحيّ ؟ فأجابه جماعة من الفتيان ، فقال لهم : ليأخُذْ كلُّ واحدٍ منكم بيد رجُلٍ من هؤلاء ، فيذهب به إلى الحبس . ثم وجَّه الكلام إلى وجوه الكوفة وهم يُسحبون فقال : ما أنتم إلَّا فتنة ، وجزاؤكم الحبس . فقالوا له : أجادٌّ أنت ؟! قال : حقًّا ، حتى لا تعودوا برسالة ظالم . فحَبَسَهم جميعًا وعلم موسى بن عيسى ، فركب في الليل إلى باب السجن ، وفَتَح الباب وأخرجهم كُلَّهم ، فلمَّا كان الغد ، وجلسَ شريك للقضاء ، جاءه السَّجَّان فأخبره ، فدعا شريك بالقِمَطْرِ فختَمَهُ ، ووجَّه به إلى منزله ، وقال لغلامه : الْحَقْ بثقلي إلى بغداد ، والله ما طلبْنا هذا الأمر منهم ، ولكنْ أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلَّدْناه لهم. ومضى نحو قنطرة الكوفة في الطريق إلى بغداد. وبلغ الخبر موسى بن عيسى، فركب في موكبه ولحقَهُ، وجعل يُناشده الله ويقول : يا أبا عبدالله ، تثبَّتْ ، انظُر ؛ إخوانك تحبسهم !! دَعْ أعواني . قال شريك : نعم ؛ لأنهم مَشَوْا لك في أمرٍ لم يَجُزْ لهم المشيُ فيه ، ولست ببارحٍ ، أو يُرَدُّوا جميعًا إلى الحبس ، وإلَّا مضيتُ إلى أمير المؤمنين المهدي فأستعفيه ممَّا قلدني . فأمر موسى بردِّهم جميعًا إلى الحبس ، فقال شريك لأعوانه : خُذُوا بلجام دابَّة الأمير بين يديَّ إلى مجلس الحكم . فمرُّوا بين يديه حتى أُدخل المسجد وجلسَ في مجلس

---

(١) في ظلمة وغشمة .

القضاء . وجاءت المرأةُ المُتظلِّمةُ فقال لها : هذا خَصمُكِ قد حضر فقال موسى وهو إلى جانب المتظلِّمة بين يديه : قبل كلِّ أمرٍ ، أنا قد حضرتُ ، أولئك يُخرجون من الحبس . فقال شريك : أمَّا الآن فنعم ، أخرِجوهم من الحبس . وقال شريك للأمير : ما تقول فيما تدَّعِيه هذه المرأة ؟ وأجاب موسى : صدقتْ . قال : تردُّ ما أخذتَ منها ، وتبني حائطًا سريعًا كما كان . وقال موسى : أفْعَلُ ذلك كلَّه . واتَّجه شريك نحو المرأة وقال : أبَقِي لكِ عليه دعوى ؟ قالت: بيت الفارسيِّ ومتاعُه . قال موسى : ويُرَدُّ ذلك كلُّه . وقال شريكٌ : أبَقِيَ لكِ عليه دعوى ؟ قالت : لا ، وباركَ الله عليك وجزاك خيرًا . وأمر شريك المرأة بالانصراف ، فانصرفتْ ، فلمَّا فرغ قام ، وأخذ بيد موسى ابن عيسى ، وأجلسه في مجلسه . وقال : السلام عليك أيُّها الأمير ، أتأمرني بشيءٍ ؟ قال الأمير: أيُّ شيءٍ آخر ؟! وضحك. فقال له شريك: أيُّها الأمير ، ذلك الفِعْلُ حقُّ الشرع ، وهذا القول – الآن – حقُّ الأدب . فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول : مَنْ عظَّم أمر الله ، أذلَّ الله له عظماء خلْقه »[1] .

كم اعتزَّ الحقُّ بأهله واعتزُّوا به ، وانتصرَ بهم وانتصروا به ، وباءَ أعداؤه بِذِلَّةِ العبيد وهم يَضَعُون على رؤوسهم تيجان الملوك .

الواقِديّ مات وليس له كفن :

تولَّى الواقديُّ محمدُ بن عمر القضاءَ للرشيد وللمأمون ، ولم يزل قاضيًا حتى مات .

قال الواقدي رحمه الله : صار إليَّ من السلطان ستمائة ألف درهم – يعني

---

(١) كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء ، لمحمد فهمي عبد الوهاب صـ ٨٢ – ٨٦ ، دار الاعتصام .

من عطاءات متكرِّرة - ما وجبَتْ عليَّ فيها الزكاة . قال عباس الدّوري : مات الواقديُّ وهو على القضاء ، وليس له كفنٌ ، فبعث المأمون بأكفانه ، رحمة الله عليه .

أحاديثُ لو صِيغَتْ لَألْهَتْ بحُسْنِهَا عن الوَشْيِ أوْ شُمَّتْ لَأَغْنَتْ عن المِسْكِ

القاضي الأَبيوَرْدِيُّ :

أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن البغدادي الشافعي .

« سكن بغداد ، وولي بها القضاء على الجانب الشرقي بأسره ومدينة المنصور . كان يصوم الدهر ، وكان غالب إفطاره على الخبز والملح . وكان فقيرًا يُظهر المروءة ، ومكث شتوةً كاملة لا يملك جبَّةً يَلْبَسها ! وكان يقول لأصحابه : بي عِلَّةٌ تمنعني عن لُبْس المحشو ! فكانوا يظُنُّونه يعني المرض ، وإنما كان يعني بذلك الفقر ، ولا يُظهره تَصَوُّنًا ومروءة »[1] .

مفخرة القضاة : سُلَيْم بن عِتْر ، ما خَتَمَ أحدٌ القرآنَ في ليلةٍ أكْثَرَ ممَّا خَتَمَ :

قاضي مصر وواعظها وقاصُّها وعابدها : سُليم بن عِتْر التّجيبي . كان يقرأ القرآن كلَّ ليلةٍ ثلاث مراتٍ .

وهو أوُل من قصَّ بمصر ، وهو أول قاضٍ بمصر نَظَرَ في الجراح ، وأوُل القضاة بمصر سجَّل سجلًا بقضائه[2] .

قاضي المدينة الإمام سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف :

« سردَ الصوم قبل أن يموت بأربعين سنة .

---

(١) تاريخ بغداد ٥/٥١ .

(٢) كتاب « تاريخ ولاة مصر وتسمية قُضاتها » لمحمد بن يوسف الكِنْدِي ، صـ٢٢٩ - ٢٣٣، مؤسسة الكتب الثقافية .

وكان شعبة إذا ذكَر سعد بن إبراهيم يقول : حدَّثني حبيبي سعد بن إبراهيم ، يصوم الدهر ، ويختم القرآن في كلِّ يومٍ وليلة .

وعن ابن أبي ذئب : قضى سعد بن إبراهيم على رجُلٍ برأيِ ربيعة ، فأخبرتُهُ عن رسول الله ﷺ بخلاف ما قضى به ، فقال سعدٌ لربيعة : هذا ابنُ أبي ذئب ، وهو عندي ثقةٌ ، يُحدِّث عن النبي ﷺ بخلاف ما قضيتُ به . فقال له ربيعة : قد اجتهدتَ ، ومضى حُكمُك . فقال سعد: واعجبًا !! أُنفذ قضاء سعد بن أم سعد ، وأردُّ قضاءً قضى رسولُ الله ﷺ ؟! بل أردُّ قضاء سعد ، وأُنفذ قضاء رسول الله ﷺ . ودعا بكتابِ القضيَّة ، فشقَّه وقضى للمقضي عليه .

واختصم عند ابن هشام المخزومي أمير المدينة - وسَعدٌ عنده يومًا - ولدٌ لمحمد بن مسلمة وآخَرُ من بني حارثة ، فقال ابنُ محمد : أنا ابنُ قاتِل كعب بن الأشرف. فقال الحارثيُّ : أما والله ، ما قُتِل إلَّا غدْرًا . فانتظر سعدٌ أن يُغيِّرها الأمير ، فلم يفعل حتى قاما . فلمَّا استقضى سعد قال لخادمه : أُعطي الله عهدًا لَئِن أُفلِت الحارثيُّ منك ؛ لأُوجِعنَّك . قال شعبة : فصلَّيتُ معه الصُّبح ثم جئتُ به سعدًا ، فلمَّا نظر إليه سعد ، شقَّ القميص ثم قال : أنت القائل : إنما قُتل ابن الأشرف غدرًا . ثم ضَرَبَهُ خمسين ومائة سوط ، وحَلَق رأسه ولحيته وقال : والله لأُقَوِّمَنَّك بالضرْب ما كان لي عليك سلطان .

وفي مرض الموت دخلَ عليه ابن هرمز وجماعةٌ يعودونه ، فاغرورقتْ عينا ابن هرمز ، فقال له سعد : ما يُبكيك ؟ فقال : والله لكأني بقائلةٍ غدا تقول : واسعداه للحقِّ ولا سعد . قال : والله لئن قلتَ ذلك ، ما أخذني في الله لومةُ لائمٍ منذ أربعين سنة . ثم قال : أليس تعلم أنَّك أحبُّ شيءٍ إليَّ . يعني القرآن .

قال ابن سعد بن إبراهيم : كان أبي يحتبي ، فما يحلُّ حبوتَهُ حتى

يقرأ القرآن »[١] .

قاضي المدينة حَرَم رسول الله ﷺ ومُفْتِيها في عصره ، يحيى بن سعيد بن قيس النجاري :

تلميذ الفقهاء السبعة . كان هشام بن عروة يقول فيه : حدَّثني العدْلُ الرَّضِيُّ الأمين ، عدْلُ نفسي عندي ، يحيى بنُ سعيد .

« كان رحمه الله خفيف الحال ، فاستقضاه المنصور ، فلم يتغيَّر حالُه ، فقيل له في ذلك ، فقال : مَنْ كانت نفْسُه واحدةً ، لم يُغيِّره المال »[٢] .

قاضي القضاة بمصر بكَّار بن قُتَيْبَة :

قال أحمدُ بن سهل الهرويُّ : كنت ساكنًا في جوارِ بكّارِ بن قتيبة ، فانصرفتُ بعد العشاء ، فإذا هو يقرأ : ﴿ **يا داودُ إنا جعلْناك خليفةً في الأرض فاحكُم بين الناس بالحقِّ ولا تَتَّبِع الهوى فيُضِلَّك عن سبيل الله** ﴾ ، قال : ثم نزلتُ في السَّحَر ، فإذا هو يقرؤها ويبكي ، فعلمتُ أنه كان يتلوها من أول الليل . قال الذهبي : كان عظيم الحُرمة ، وافر الجلالة ، من العلماء العاملين .

جمع أحمدُ بن طولون العلماء والأعيان ، وقال : قد نكثَ الموفّق أبو أحمد – ولّي العهد – بأمير المؤمنين ، فاخلعوه من العهد . فخلعوه ، إلَّا بكار بن قتيبة . وقال : أنت أوردت عليَّ كتاب المعتمد بتوليته العهد ، فهات كتابًا آخر منه بخلْعه. قال: إنه محجورٌ عليه ومقهور. قال: لا أدري. فقال له: غرَّك الناس بقولهم: ما في الدنيا مِثْل بكَّار ، أنت قد خَرِفتَ . وقيَّده وحَبَسَه وأخذَ منه جميع عطائه من سنين ، فكان عشرة آلاف دينار ، فقيل : إنَّها وُجدتْ بختومها وحالها . وبلغَ ذلك الموفَّق ، فأمر بلعْن ابن طولون على المنابر .

---

(١) السير ٥/٤١٨ – ٤٢١ .

(٢) السير ٥/٤٧٤ – ٤٧٥ .

ونقَل القاضي ابن خلِّكان ، أن ابن طولون كان يُنفذ إلى بكّار في العام ألف دينار ، سوى المقرَّر له ، فيتركها بختْمها ، فلمَّا دعاه إلى خلْع الموفَّق ، طالَبَهُ بجملة المال ، فحَمَلَهُ إليه بختومه ثمانية عشر كيسًا ، فاستحيا ابنُ طولون عند ذلك . وكان بكَّار يُحدِّث من طاقة السجن ؛ لأن أصحاب الحديث طلبوا ذلك من أحمد ، فأذِنَ لهم على هذه الصورة .

وكان بكَّار تاليًا للقرآن ، بكَّاءً صالحًا دَيِّنًا .

قال الطحاويُّ : كان بكار على نهاية من الحمد في ولايته .

وكان بكَّار وهو في حبسه يَلْبَس ثيابه وقت صلاة الجمعة ، ويمشي إلى الباب ، فيقول له الموكّلُون به : ارجع . فيقول : اللهم اشْهَدْ .

ولمَّا اعتلَّ أحمد بن طولون راسل بكَّارًا ، وقال : إنَّا رادُّوك إلى منزلك ، فأجبني . فقال : قل له : شيخٌ فانٍ ، وعليلٌ مُدْنَف ، والمُلتَقى قريبٌ ، والقاضي اللهُ عز وجل . فأبلغها الرسولُ أحمدَ ، فأطرق ، ثم أقبل يُكرِّر ذلك على نفسه ، ثم أمر بنقْله من السجن إلى دارٍ اكتُرِيَتْ له ، وفيها كان يُحدِّث ، فلمَّا مات الملك قيل لأبي بكرة بكّار : انصرِفْ إلى منزلك . فقال : هذه الدار بأُجرةٍ وقد صلحت لي . فأقام بها .

ولما مات غُسِّل ليلًا ، وكثُر الناس ، وشيَّعه خلْقٌ عظيم أكْثَر ممَّن يشهد صلاة العيد ، فلم يُدفَن إلى العصر(١) .

القاضي الإمام أبو بكر ابن الباقِلّاني :

قبَّله الدارقطنيُّ يومًا وقال : هذا يردُّ على أهل الأهواء باطلَهم . ودعا له .

صنَّف في الردِّ على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهميَّة والكرَّاميَّة .

---

(١) السير ١٢/٥٩٩ - ٦٠٤ ، وولاة مصر وقضاتها صـ٣٦١ - ٣٦٢ .

« أرسله الملكُ عضُد الدولة في رسالةٍ إلى ملك الروم ، فلمَّا ورد مدينته عُرِّف الملك خبَره ، وبيّن له محلّه من العلم وموضعه ، فأفْكَرَ الملك في أمره ، وعلمَ أنه لا يُكَفِّرُ له إذا دخلَ عليه ، كما جرى رسمُ الرعية أن تُقبِّل الأرض بين يدي الملوك ، ثم نتجتْ له الفكرة أن يَضَعَ سريرَهُ الذي يجلس عليه ، وراء باب لطيف ، لا يُمكِّن أحدًا أن يدخُل منه إلَّا راكعًا ؛ ليدخل القاضي منه على نلك الحال ، فيكون عِوَضًا عن تكفيره بين يديه ، فلمَّا وُضع سريره في ذلك الموضع ، أمر بإدخال القاضي من الباب ، فسار حتى وصل إلى المكان ، فلمَّا رآه تفكَّر فيه ثم فَطِنَ بالقصَّة فأدار ظهره ، وحنا رأسَهُ راكعًا ، ودخل من الباب وهو يمشي إلى خلفه ، قد استقبل الملك بدبره حتى صار بين يديه ، ثم رفع رأسه ونَصَبَ ظهره ، وأدار وجهَهُ حينئذٍ إلى الملك ، فعَجِبَ من فطْنته ، ووقعتْ له الهيبةُ في نفْسه »(١) .

« قال أبو بكر الباقلّاني لراهبهم : كيف الأهل والأولاد ؟ فقال الملك : مَهْ ! أَمَا علمتَ أن الراهب يتنزَّهُ عن هذا ؟ فقال : تُنزِّهونه عن هذا ، ولا تُنَزِّهون ربَّ العالمين عن الصاحبة والولد »(٢) .

قال ابن كثير عن مُقابلة ابن الباقلاني لملك الروم : « يُقال : إن الملك أحضر بين يديه آلة الطَّرَب المُسمَّاة بالأُرْغُل ، ليستفزَّ عقلَهُ بها ، فلمَّا سمعها الباقلَّانيُّ خاف على نفسه أن يظهر منه حركة ناقصة بحضرة الملك ، فجعل لا يألو جهدًا أن جَرَح رِجلَهُ حتى خرج منها الدمُ الكثير ، فاشتغل بالألم عن الطرب ، ولم يظهر عليه شيءٌ من النقص والخِفَّة ، فعَجِبَ الملكُ من ذلك ، ثم إن الملك استكشفَ الأمر فإذا هو قد جرحَ نَفْسَه بما أشغله عن الطرب ،

---

(١) تاريخ بغداد ٣٧٩/٥ - ٣٨٠ .

(٢) تبيين كذب المفتري ، لابن عساكر صـ ٢١٨ ، ٢١٩ ، وسير أعلام النبلاء ١٩١/١٧ - ١٩٢ .

فتحقَّق الملكُ وُفُورَ همَّته وعلوّ عزيمته ، فإن هذه الآلـة لا يسمعها أحدٌ إلَّا طَرِبَ ، شاءَ أم أبى .

وقد سأله بعضُ الأساقفة بحضرةِ ملكهم فقال : ما فعلتْ زوجةُ نبيِّكم ؟ وما كان من أمرها بما رُمِيَتْ به من الإفك ؟ فقال الباقلاني مُجيبًا له على البديهة : هما امرأتان ذُكِرَتا بسوءٍ : مريم وعائشة ، فبرَّأهما الله عزَّ وجلَّ ، وكان عائشة ذات زوجٍ ولم تأتِ بولدٍ ، وأتتْ مريم بولدٍ ولم يكن لها زوج - يعني أن عائشة أَوْلَى بالبراء من مريم - وكلاهما بريئةٌ مما قيل فيها ، فإن تطرّق في الذِّهن الفاسد احتمال ريبةٍ إلى هذه ، فهو إلى تلك أسْرَعُ ، وهما بحمد الله منزَّهتان مبرَّأتان من السماء بوحي الله عزَّ وجلَّ ، عليهما السلام »[1] .

قال الذهبي في السير (١٩٣/١٧) : « كان سيفًا على المعتزلة والرافضة المشبِّهة ، وغالب قواعده على السُّنَّة ، وقد أمر شيخ الحنابلة أبو الفضل التميمي مُناديًا يقول بين يدي جنازته : هذا ناصر السُّنَّة والدِّين ، والذَّابُّ عن الشريعة ، هذا الذي صنَّفَ سبعين ألف ورقة . ثم كان يزور قبره كلَّ جمعة » .

قال فيه السّكريُّ :

قاضي إذا التبس القضاءُ على الحِجَى ... كَشَفَتْ له الآراءُ كُلَّ مُغَيَّبِ
لا يستريحُ إذا الشكوكُ تَخَالَجَتْ ... إلَّا إلى لُبٍّ كريم المنصبِ
وَصَلَتْهُ هِمَّتُهُ بأبْعَدِ غايةٍ ... أعْيَا المُرِيدَ لها سبيلُ المطلبِ
أهْدَى له ثَمَرَ القلوبِ مُحِبُّهُ ... وحَباهُ حُسْنُ الذِّكْرِ مَنْ لم يُحْببِ
ما زال يَنصُرُ دِينَ أحمد صادِعًا ... بالحقِّ يهدي للطريقِ الأصْوَبِ
اعْذُرْ حَسُودَكَ في الذي أوْلَيْتَهُ ... إذ فاز منه بجِدٍّ قِدْحٍ أخْيَبِ
فلقد حَلَلْتَ مِنَ العَلاءِ بِذِرْوَةٍ ... صمَّاءَ تُسفِرُ عن حمى المُسْتَصْعَبِ

---

(١) البداية والنهاية ٣٧٣/١٣ - ٣٧٤ .

أنْصَبْتَ نَفْسَك للثناءِ فَحُزْتَهُ إن الثناءَ عَدُوٌّ مَنْ لم يَنْصَبِ[(١)]

ورثاه أحدهم فقال :

انظُرْ إلى جبلٍ تمشي الرِّجالُ به وانظرْ إلى القبرِ ما يحوي من الصَّلَفِ
انظُرْ إلى صارمِ الإسلام مُنْغَمِدًا وانظر إلى دُرَّةِ الإسلام في الصَّدَفِ[(٢)]

القاضي الأمير الإمام القائد أسد بن الفرات : فاتح جزيرتي قُوصرة وصقلية ، ومصنِّف كتاب « الأسدية » :

كان رحمه الله يقول : « أنا أسد ؛ والأسد خير الوحوش، وأبي فرات ؛ والفرات خير الماء ، وجدِّي سنان ؛ والسنان خير السلاح » .

المجاهد الصابر ، التقي النقي ، قاضي القضاة ، وشيخ الإفتاء ، قائد القضاة ، وقاضي القادة ، القائد الفاتح ، البطل الشهيد .

ولَّاه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب قضاءَ «إفريقية» سنة ثلاث ومائتين هجرية ، فأقام في القيروان يقضي بين أهلها بالكتاب والسنة حتى خرج لغزو صقلية وطرد الروم منها .

ولما أمر زيادة الله بالاستعداد لغزو صقلية ، سارع أسد إلى الخروج ، فكان زيادة الله يتغافل عن ذلك ، فقال أسد : « وجدوني رخيصًا فلم يقبلوني ، وقد أصابوا من يُجري لهم مراكبهم من النواتية[(٣)] ، فما أحوجهم إلى مَن يُجريها لهم بالكتاب والسنة » .

وحين رأى زيادة الله إصرارَ أسد على الخروج مجاهدًا في سبيل الله ، أمَّره على تلك الغزوة ، وعزم عليه في ذلك ، فقال أسد : « أصلح الله الأمير .. من

---

(١) ، (٢) تاريخ بغداد ٣٨٣/٥، ٣٨٤ .
(٣) النواتي : جمع نوتي ، وهو الملّاح في البحر .

بعد القضاء والنظر في حلال الله تعالى وحرامه ، تعزلني وتولِّيني الإمارة ؟! » .
فقال زيادة الله : « إني لم أعزلك عن القضاء ، بل ولَّيتُك الإمارة ، وهي أشرف من القضاء، وأبقيتُ لك اسم القضاء؛ فأنت قاض أمير». فخرج أسد على ذلك، ولم تجتمع إمارة الحرب والقضاء ببلدٍ في إفريقية إلا لأسد وحده .

وخرج أسد على رأس جيشه في عشرة آلاف رجل ، منهم ألف فارس حملتهم مائة سفينة ، وخرج لتوديع أسد وجوه أهل العلم وجماعة الناس ، وقد أمر زيادة الله ألَّا يبقى أحد من رجاله إلا شيَّعه ، وقد صهلتِ الخيل ، وضربت الطبول ، وخفقت البنود ، فقال أسد : « يا معشر الناس ، ما بلغتُ ما ترون إلا بالأقلام ، فأجهدوا أنفسكم فيها ، وثابروا على تدوين العلم ، تنالوا به الدنيا والآخرة » .

وفي طريقه لفتح صقلية فتح أسد جزيرة « قوصرة » بعد حصارها .

وفي صقلية نفذ أسد على رأس جنده لمقاتلة الروم الذين اجتمعوا حول صاحب صقلية « بلاته » ، ودار القتال في ميدان بين « بلرم » و « مازر » سمِّي باسم بلاطة فيما بعد ، وكان الصقلِّيون يفوقون المسلمين عَددًا وعُددًا ؛ فقد كانوا مائة ألف وخمسين ألفا .

وكان أسد في هذه المعركة يحمل اللواء بيد ، والسيف بيده الأخرى ، وهو يدعو الله ، فحمل على الروم ، وحمل الناس معه ، وهُزِم « بلاته » وجرح في هذه المعركة ، واستولى المسلمون على عِدَّة حصون من الجزيرة ، وانتصر المسلمون على جيش الروم المحلِّي في صقلية .

وحاصر أسد « سرقوسة » ، ومات وهو محاصرٌ لها ، وأكمل الفتح تلميذه محمد بن أبي الحواري .

يرحم الله الأسد القاضي الشهيد ؛ لمَّا أصابت المسلمين مجاعة في صقلية ، عرض أحد زعمائهم على أسد أن يرجع بالمسلمين إلى « إفريقية » ، فقال أسد :

« ما كنتُ لأكسر غزوة على المسلمين ، وفي المسلمين خيرٌ كثير »[1] .

القاضي نصر بن ظريف اليحصبي :

« حكى أبو عمر بن عبد البر : أن حبيبًا القرشي دخل على الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، فشكا إليه القاضي نصر بن ظريف اليحصبي ، وذكر أنه يريد أن يُسجِّل عليه في ضيعة يقيم فيها ، وادَّعى عليه الاغتصاب لها ، ولاذ بالأمير من إسراع القاضي إلى الحكم عليه من غير تثبُّت . فأرسل الأمير إليه وكلَّمه في حبيب ، ونهاه عن العجلة عليه ، فخرج ابن ظريف من يومه ، وعمل بغير ما أراد الأمير ، وأنفذ الحكم ، وبلغ الخبر حبيبًا ؛ فدخل إلى الأمير متَّغرًا غيظًا ، فذكر له ما عمله القاضي ، ووصفه بالاستخفاف بأمره والنقض له ، وأغراه ؛ فغضب الأمير على القاضي واستحضره ، فقال له : من أمرك أن تنفذ حكمًا ، وقد أمرتُك بتأخيره والأناة به ؟ فقال له : قدَّمني عليه رسول الله ﷺ ؛ فإنما بعثه الله بالحق؛ ليقضي به على القريب والبعيد والشريف والدنيء . وأنت أيها الأمير ، ما الذي حملك على أن تتحامل لبعض رعيَّتك على بعض ، وأنت تجد مندوحة بأن ترضي مِن مالك مَن تُعنى به ، وتمدَّ الحق لأجله ؟ فقال له : جزاك الله يا ابن ظريف خيرًا . وخرج القاضي ، فدعا بالقوم الذين صارت الضيعة إليهم بالاستحقاق ، وكلَّمهم فوجدهم راضين ببيعها إن أجزل لهم الثمن ، فعقد فيها البيع معهم ، وصارت إلى حبيب ، فكان بعد ذلك يقول : جزى الله ابن ظريف عنا خيرًا ، كانت بيدي ضيعة حرام ، فجعلها حلالًا .

وكان هذا القاضي من زهده وورعه إذا شُغِل عن القضاء يومًا واحدًا ،

---

(١) بين العقيدة والقيادة . للواء محمود شيت خطاب . ٢٥٣ - ٢٧٧ ، طبع دار الفكر .

لم يأخذ لذلك اليوم أجرًا »[١] .

قاضي قرطبة المصعب بن عمران ، ورَدّه الضَّيْعَةَ على الأيتام :

عُرف هذا القاضي رحمه الله بصلابته في القضاء ، وبتنفيذه الأحكام يؤيِّده الأمير حكم بن هشام وأبوه ، ولا يسمح فيه بمقال ، ويجيز أفعاله ، وينفذ أحكامه ، وإن وقعت بغير المحبوب منه .

« وفي كتاب الحسن بن محمد : إن العباس بن عبد الملك المرواني اغتصب رجلًا من أهل جيَّان ضيعته ، فبينما هو يُنازعه فيها ، هلك الرجل وترك أيتامًا صغارًا ، فلمَّا ترعرعوا وسمعوا بعدل القاضي مصعب وقضائه ، قدموا قرطبة ، وأنهوا إليه مظلمتهم بالعباس ، وأثبتوا ما وجب إثباته ، فبعث القاضي إلى العباس ، وأعلمه بما دفعه إليه الأيتام ، وعرَّفه بالشهود عليه ، وأعذر إليه فيهم ، وأباح له المدافع ، وضرب له الآجال . فلمَّا انصرمت ، ولم يأت بشيء أعلمه أنه ينفذ الحكم عليه ، ففزع العباس إلى الأمير الحكم ، وسأله أن يوصي إلى القاضي بالتخلي عن النظر في قضيته ؛ ليكون هو الناظر فيها . فأوصل إليه الأمير ذلك مع خليفة له من أكابر فتيانه ، فلمَّا أدَّى الوصية إليه ، اشتدَّت عليه ، وقال : « إن القوم قد أثبتوا حقَّهم ، ولزمهم في ذلك عناءٌ طويل ، ونَصَبٌ شديد ؛ لِبُعْدِ مكانهم ، وضعْف حالتهم . وفي هذا على الأمير - أعزَّه الله - ما فيه ، فلستُ أتخلَّى عن النظر وإنفاذ الحكم لوجهه ، فليفعل الأمير بعده ما يراه صوابًا من رأيه » . فرجع الرسول إلى الأمير بجوابه ، فوجم منه ، وجعل العباس يغريه بمصعب ، ويقول : قد أعلمتُ الأمير بشدَّة استخفافه وغلطه في نفسه ، وتقديره له أن الحكم له ولا حكم للأمير عليه . وكرَّر الأمير الطلب إليه أن يكفَّ عن إصدار الحكم في القضية ، فأمر القاضي الرسول بالقعود ،

---

(١) تاريخ قضاة الأندلس صـ٤٤ - المكتب التجاري للطباعة والنشر . لبنان .

وحكم للقوم بالضيعة ، ثم أنفذ الحكم وأشهد عليه ، وقال : قد حكمتُ بالعدل ، فلينقضه الأمير إن قدر . فاستشاط غيظًا ، وأطرق مليًّا .. وأقرَّ حُكْم القاضي »[١] .

القاضي غوث بن سليمان :

« قال غوث بن سليمان : بعث إليَّ أمير المؤمنين أبو جعفر ، فحُملتُ إليه ، فقال لي : يا غوث ، إن صاحبتكم الحميرية خاصمتني إليك في شروطها . قلتُ : أيرضى أمير المؤمنين أن يحكِّمني عليه ؟ قال : نعم . فقلت : إن الأحكام لها شروط أفيحتملها أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . قال : يأمرها أمير المؤمنين أن تُوكِّل وكيلًا ، وتُشْهِد على وكالته خادمَيْن حُرَّيْن ، يُعدِّلهما أمير المؤمنين على نفسه . فجاء الوكيل ، فقلت : إن أمير المؤمنين يساوي الخصم في مجلسه . قال : فانحطَّ عن فراشه وجلس مع الخصم ، ودفع إليّ الوكيل بكتاب الصداق فقرأته عليه ، فقلتُ : يقرُّ أمير المؤمنين بما فيه ؟ قال : نعم . قلت : أرى في الكتاب شروطًا مؤكَّدة بها تمَّ النكاح بينكما ، أرأيت يا أمير المؤمنين لو خطبت إليهم و لم تشترط لهم هذا الشرط ، أكانوا يُزَوِّجونك ؟! قال : لا . قلت : فبهذا الشرط تمَّ النكاح ، وأنت أحقُّ مَن وفَّى لها بشرطها . قال : علمتُ إذ أجلستني هذا المجلس أنك ستحكُم عليَّ »[٢] .

القاضي أبو عُبيد بن حربويه :

«قاضي مصر المشهور بالعدل والهيبة، كان أمير مصر يركب إلى داره و لم يكن هو يركبُ إلى دار الأمير، و لم يكن يُؤمِّرُ أحدًا، بل إذا ذكر (تكين) أمير مصر قال أبو منصور : تكين . و لم يقل : الأمير . ومن شدَّته في إنفاذ الشريعة أن مؤنسًا الخادم – وكان أكبر أمراء الخليفة المقتدر وكان يُخطب له على المنابر مع الخليفة – ورد

(١) تاريخ قضاة الأندلس صـ٤٦ – ٤٧ .

(٢) كتاب ولاة مصر وقضاتها ٣٧٥ – ٣٧٦ . للكندي .

إلى مصر في عسكر كثير ، فعرض له ضعْف ، فأرسل إلى القاضي يطلب منه شهودًا يُشهدهم عليه أنه أوصى بوقْف قرى كثيرة على سبيل البر ، وبِعتْق ستمائة مملوك ، وبأنواع من الخير . فقال القاضي : حتى يثبت عندي أن مؤنسًا حُرٌّ . وقال : إنه إن لم يرد عليّ كتاب من الخليفة بأنه أعتقه ، فلا أفعل . وكتب المقتدر إليه كتابًا ، فوصل الكتاب إلى مؤنس ، فاستدعى بعض الأمراء ليوصله إلى القاضي ، فامتنع هذا ؛ هيبةً منه ، فدعا تكين أمير مصر ، وحمله على أن يذهب إلى القاضي ويوصل إليه الكتاب ، فأتى تكينُ إلى القاضي ومعه الكتاب وناوله إياه ، فقال القاضي : ما هذا ؟ فقال : كتاب أمير المؤمنين . فقال : أمِنْ يدك ؟ فقال : بل من أيدي شاهدين عدلين يشهدان أنه كتاب أمير المؤمنين »[1] .

قاضي المرية بالأندلس : أبو عبد الله محمد بن يحيى بن البراء :

« كتب إليه سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين - فيمن كتب إليهم - بفرض معونة على الأهالي لأجل الجهاد ، فامتنع القاضي عن فرضها ، وكتب إلى أمير المسلمين بأنه لا يجوز له ذلك . فأجابه أمير المسلمين قائلًا له : إن القضاة عندي والفقهاء أباحوا فرضها ، وإن عمر بن الخطاب فرضها في زمانه . فراجعه القاضي بكتاب يقول له فيه : الحمد لله الذي إليه مآبنا وعليه حسابنا ، وبعد : فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخُّري عن ذلك ، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوه بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها ؛ فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية . فإن كان عمر اقتضاها ؛ فقد كان صاحب رسول الله ﷺ ، ووزيره ، وضجيعه في قبره ،

---

(١) مقدمة « محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي » للأمير شكيب أرسلان صـ٢٩-٣٠ ، دار مكتبة الحياة . بيروت .

ولا يُشكُّ في عدله ، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ﷺ ، ولا بوزيره ، ولا بضجيعه في قبره ، ولا ممَّن لا يُشكُّ في عدله . فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته في العدل ، فالله تعالى سائلهم وحسيبهم عن تقلُّدهم فيك . وما اقتضاها عمر رضي الله عنه حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ ، وحضر من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم ، وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم ؛ وحينئذ تجب معونته ... إلخ . فلمَّا بلغه هذا الكتاب وعظه الله بقوله ولم يُعِد عليه في ذلك قولًا »[(١)] .

الإمام الشهيد قاضي برقة : محمد بن الحُبُلي :

« أتاه أمير برقة - وكان من الفاطميين العبيديين - فقال : غدًا العيد . قال : حتى نرى الهلال ، ولا أُفطِّر الناس وأتقلَّد إثمهم . فقال : بهذا جاء كتاب المنصور . وكان هذا من رأي العُبيدية يفطرون بالحساب ، ولا يعتبرون رؤية ، فلم يُر هلال ، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبَة العيد . فقال القاضي : لا أخرج ولا أُصلِّي . فأمر الأمير رجلًا خطب ، وكتب بما جرى إلى المنصور ، فطلب القاضي إليه ، فأُحضر ، فقال له : تنصَّلْ ، وأعفو عنك . فامتنع ، فأمر ، فعُلِّق في الشمس إلى أن مات ، وكان يستغيث من العطش ، فلم يُسقَ ، ثم صلبوه على خشبةٍ . فلعنة الله على الظالمين »[(٢)] .

قاضي الجماعة بمراكش : أبو عبد الله بن علي بن مروان ، وحكايته مع أبي يوسف المنصور ملك الموحِّدين :

روى ابن خلكان عنه هذه الحكاية الرائعة وهي : « أن الأمير الشيخ أبا محمد

---

(١) مقدمة « محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي » لشكيب أرسلان صـ٣٠ - ٣١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٧٤/١٥ .

عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب إفريقية ، كان قد تزوَّج أخت الأمير أبي يوسف المنصور ، وأقامت عنده ، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها ، فسيَّر الأمير عبد الواحد لطلبها فامتنعت عليه ، وشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش أبي عبد الله بن علي بن مروان ، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له : إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله . فسكت الأمير أبو يوسف المنصور ، ومضى على ذلك أيام ، ثم إن الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضي في قصر الأمير بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاءوني . فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له : يا أمير المؤمنين ، الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله وهذه الثانية . فسكت الأمير يعقوب ، ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبدُ الواحد القاضيَ بالقصر المذكور ، وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور ، فقال له : يا قاضي المسلمين ، قد قلتُ لك مرتين وهذه الثالثة ، وأنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم . فاجتمع القاضي بالأمير وقال له : يا مولانا ، إن الشيخ عبد الواحد قد تكرَّر طلبه لأهله ، فإمَّا أن تسيِّر إليه أهله ، وإلا فاعزلني عن القضاء . فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، ما هذا إلا جدّ كبير . ثم استدعى خادمًا وقال له في السِّرِّ : تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه . فحُمِلت إليه في ذلك النهار »[1] .

فللَّه درُّه من قاض يبالغ في إقامة منار العدل .

القاضي المنذر بن سعيد البلوطي ، لله درُّه :

« وَلِيَ قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن الناصر ، وناهيك من عدْلٍ أُظهر ، ومن فضْلٍ أُشهر ، ومن جَوْرٍ قُبض ، ومن حَقٍّ رُفع ، ومن باطلٍ خُفض .

---

(١) وفياتُ الأعيان ٧/ ١٠- ١١ .

كان مهيبًا صليبًا ، غير جبان ولا عاجز ، ولا مراقب لأحدٍ من خَلْق الله في استخراج حقٍّ ورفْع ظلم ، استعفى مرارًا من القضاء فما أُعفي »(1) .

« كان المنذر قاضي قرطبة وخطيب مسجدها الكبير ، وعندما أخذ الخليفة الناصر في بناء الزهراء ، انهمك في الإشراف عليها ، حتى تأَخَّر عن حضور صلاة الجماعة - في يوم الجمعة - ثلاث جمع متواليات ، فأراد القاضي منذر أن يغضَّ منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة ، والتذكُّر بالإنابة والرجوع ، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى : ﴿ **أتبنون بكلِّ رِيعٍ آيةً تعْبَثُون وتتَّخِذُون مصانعَ لعَلَّكُم تَخْلُدُون وإذا بطشتُم بطشتم جبَّارين فاتَّقوا اللهَ وأطيعون واتَّقوا الذي أمدَّكُم بما تعلمون أمدَّكُم بأنعامٍ وبنين وجناتٍ وعيون إني أخافُ عليكم عذابَ يوم عظيم قالوا سواءٌ علينا أوعظتَ أم لم تكن من الواعظين** ﴾ [الشعراء : ١٢٨ - ١٣٦] ، ثم وصله بقوله : فمتاع الدنيا قليل ، والآخرة خيرٌ لمن اتقى ، وهي دار القرار ، ثم مضى في ذمِّ تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته إلى أن وصل إلى قوله تعالى : ﴿ **أفمن أسَّس بنيانه على تقوى من اللهِ ورضوانٍ خيرٌ أم من أسَّس بنيانه على شفا جُرُف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القومَ الظالمين** ﴾ [التوبة : ١٠٩] ، ثم خوَّف بالموت ، ودعا إلى الزهد حتى خشع الناس ورقُّوا وبكَوْا ، وضجُّوا ودعَوْا وأعلنوا التضرُّع إلى الله في التوبة والابتهال في المغفرة ، وأخذ خليفتُهم من ذلك بأوفر حظٍّ ، وقد علم أنه المقصود به ، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه ، واستعاذ بالله من سخطه ، إلا أنه وَجَد - غضب - على منذر لغلظ ما قرَّعه به ، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر ، وقال : والله لقد تعمَّدني منذر بخطبته ، وما عَنَى بها غيري ، فأسرف عليَّ وأفرطَ في تقريعي ، و لم يُحسن السياسة في وعْظي، فزعْزَع قلبي ، وكاد بعصاه يقرعُني . واستشاط غيظًا عليه ، فأقسم أن لا يصلِّي خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة،

(١) نفح الطِّيب ١/٣٧٥ .

ويُجانب الصلاة بالزهراء . وقال الحكم : فما الذي يمنعك من عَزْل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذا كرهته ؟! فزجره وانتهره ، وقال له : أَمِثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه - لا أُمَّ لك - يُعزَل لإرضاءِ نفسٍ ناكبةٍ عن الرُّشد ، سالكة غير القصد ؟! هذا ما لا يكون ، وإني لأستحيي من الله أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه ، ولكنه أحرجني فأقسمتُ ، ولوددت أني أجد سبيلًا إلى كفارة يميني بملكي ، بل يُصلِّي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى ، فما أظنُّنا نعتاضُ منه أبدًا »[١] .

« وطلب الخليفة الناصر مرة إلى المنذر « الاستسقاء » واشتدَّ عزمه عليه ، فتسابق الناس للمصلَّى ، فقال للرسول - وكان من خواصِّ الناس -: ليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا ؟ فقال له : ما رأينا قط أخشع منه في يومنا هذا ، إنه منتبذ حائر منفرد بنفسه ، لابس أخشن الثياب ، مفترش التراب ، وقد رقد به على رأسه وعلى لحيته ، وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول : هذه ناصيتي بيدك ، أُتراك تعذب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين ، لن يفوتَك شيءٌ مني ؟ فتهلَّل وجه المنذر عندما سمع ذلك وقال : يا غلام احمل الممطرة[٢] معك ، فقد أذن الله بالسقيا ؛ إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبَّار السماء . وكان كما قال ، فلم ينصرف الناس إلا عن السقيا »[٣] .

قال ابن عفيف : من أخباره المحفوظة : أن أمير المؤمنين - الناصر - عمل في بعض سطوح الزهراء قبَّة بالذهب والفضة ، وجلس فيها ، ودخل الأعيان ، فجاء منذر بن سعيد ، فقال له الخليفة كما قال لمن قبله : هل رأيتَ أو سمعتَ أن

---

(١) عبد الرحمن الناصر ، لبسام العسيلي صـ١٠٦ - ١٠٨ .

(٢) الممطرة أو المِمطَر : ثوْب من صوف يُلبس في المطر ، يُتوقَّى به من المطر .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٧٦/١٦ - ١٧٧ ، وعبد الرحمن الناصر للعسيلي صـ١٠٩ - ١١٠ .

أحدًا من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا ؟ فأقبلت دموع القاضي تتحدَّر ، ثم قال : والله ما ظننتُ يا أمير المؤمنين أن الشيطان – لعنه الله – يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكِّنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته وفضَّلك به على العالمين ، حتى يُنزلك منازل الكافرين . فانفعل عبد الرحمن لقوله : وقال : انظر ما تقول ، وكيف أنزلني منزلتهم ؟ قال : نعم ، أليس الله تعالى يقول : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أُمَّة واحدة لجعلنا لمن يكفُرُ بالرحمن لبُيُوتهم سُقُفًا مِن فضةٍ ومعارجَ عليها يظهرون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **والآخرة عند ربِّك للمتقين** ﴾ [الزخرف : ٣٣ – ٣٥] . فنكَّس الناصر رأسه طويلًا ودموعه تتساقط ، ثم قال : جزاك الله عنا خيرًا وعن المسلمين ، والذي قلتَ هو الحق . وأمر بنقض سقْف القُبَّة .

ووقف مرة إلى جانب الخليفة الناصر ، واستمع إلى ما قيل في مدح الزهراء ، فاهتزَّ الناصرُ وابتهج ، أما القاضي منذر فأطرق ، ثم قال منشدًا :

يا باني الزهراء مستغرقًا أوقاتَه فيها أما تمهلْ
لله ما أحسنها رونقًا لو لم تكن زهرتُها تذبُلْ

فقال الناصر : إذا هبَّ عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتْها مدامع الخشوع ، لا تذبُل إن شاء الله تعالى . فقال منذر : اللهمَّ اشهد أني قد بثثتُ ما عندي ولم آل نُصْحًا[1] .

القاضي الحافظ ابن أبي عاصم :

قال ابن أبي عاصم رحمه الله : وصل إليّ منذ دخلتُ إلى أصبهان من دراهم القضاء زيادة على أربع مائة ألف درهم ، لا يحاسبني الله يوم القيامة أني شربتُ منها شربة ماء ، أو أكلتُ منها ، أو لبست .

(١) السير ١٦/١٧٧ ، وعبد الرحمن الناصر للعسيلي صـ ١١٠ – ١١١ .

رحمك الله من قاضٍ ورع ، مجاب الدعوة ، إمام في الورع .

قال الكسائي : كنت عنده - يعني ابن أبي عاصم - فقال واحد : أيُّها القاضي ، بَلَغَنا أن ثلاثةَ نَفَر كانوا بالبادية ، وهم يقلبون الرَّمل ، فقالَ واحدٌ منهم : اللَّهم إنَّك قادرٌ على أن تطعمنا خبيصًا(١) على لون هذا الرَّمل . فإذا هم بأعرابي بيده طَبَقٌ ، فوَضَعَه بينهم ، خبيصٌ حارٌّ . فقال ابن أبي عاصم : قد كان ذاك .

كان الثَّلاثة : عُثمان بن صَخْر الزَّاهد ، وأبو تراب ، وابن أبي عاصِم ، وكان هو الذي دعا .

قال ابن أبي عاصم : صحبتُ أبا تراب ، فقطعوا البادية ، فلم يكن زاد إلا هذين البيتين :

رويدك جانبْ ركوبَ الهوى فبئسَ المطيَّة للراكبِ
وحسبُك بالله من مؤنسٍ وحسبُك بالله من صاحبِ

قال ابن أبي عاصم : ذهبت كتبي ، فلم يبق منها شيء ، فأعدتُ عن ظهر قلبي خمسين ألف حديث ، كنتُ أمُرُّ إلى دُكَّان البقال ، فكنتُ أكتب بضوء سراجه ، ثم إني تفكَّرتُ أني لم أستأذن صاحب السراج ، فذهبت إلى البحر فغسلتُه ، ثم أعدتُه ثانيًا(٢) .

كان رحمه الله قاضيًا ثلاث عشرة سنة ، وكثُرت الشهود في أيامه .

القاضي الخيَّاط : أبو عبد الله محمد بن علي المروزي :

أحد السادات الأولياء، عُرف بـ«الخيَّاط»؛لأنه كان يخيط على الأيتام والمساكين حسبة .

---

(١) الخبيص : الحلواء المخبوصة من التمر والسمن .

(٢) السير ١٣/ ٤٣٣ .

ولي قضاء القضاة بنيسابور في سنة ثمان وثلاثمائة ، إلى أن استُعفي سنة إحدى عشرة ، فما شرب لأحدٍ ماءً ، ولا ظُفِر له بزلَّة ، وكان لا يدعُ سماع الحديث أيام قضائه ، ويحضر مجلس أبي العباس السرَّاج .

قال محمد بن عبدان خادم الجامع : كان محمد بن علي الحاكم يجيء في كلِّ أسبوع ليلة إلى الجامع ، فيتعبَّد إلى الصباح من حيث لا يعرف غيري ، فصادفتُه ليلةً يتلو : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل اللهُ فأولئك هُمُ الكافرون** ﴾ [المائدة : ٤٤] وكلما تلا آيةً منها ، ضرب بيده على صدره ضربةً أسمعُ صوتَها من شدَّته. رحمه الله تعالى .

قال الحاكم : سمعتُ أبي يقول : كان القاضي محمد بن علي المروزي طول أيامه يسكنُ دار ابن حمدون بحذاء دارنا ، وكنتُ أعرفه يخيط بالليل وإذا تفرَّغ بالنهار للأيتام والضعفاء ، ويعدُّها صدقة[١] .

القاضي أحمد بن بقيّ بن مخلد :

أبو عمر القرطبي ، كبير علماء الأندلس وقاضي قرطبة .

قال ابن عبد البر: كان وقورًا حليمًا، كثير التلاوة ليلًا ونهارًا، قوي المعرفة باختلاف العلماء، ولي القضاء عشرة أعوام ما ضرب فيها- فيما قيل- سوى واحد مُجْمَعٌ على فسقه ، وكان يتوقَّف ويتثبت ، ويقول : التأني أخلص ؛ إن النبي ﷺ لمَّا أشكل عليه أمر حديث حُوَيِّصة ومُحيِّصة وَدَىٰ القتيل من عنده[٢] .

قاضي القيروان محمد بن أبي المنظور الأنصاري :

كان رحمه الله من كبار أصحاب الحديث ، قد لقي إسماعيل القاضي والحارث

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٥٦٤ - ٥٦٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد ، وفي الأدب ، وفي الديات باب القَسَامة ، وفي الأحكام . وأخرجه مسلم . انظر السير ١٥/٨٣-٨٤ .

ابن أبي أسامة. ولّاه المنصور الفاطمي قضاء القيروان، فقال: بشرط أن لا آخُذ رزقًا ، ولا أركب دابَّةً . فولّاه ليتألّف الرعية ، فأُحضر إليه يهودي قد سبَّ النبي ﷺ ، فبطحه ، وضربه إلى أن مات تحت الضرب .

وأتى يوما فوجد سلاف داية السلطان تشفع في امرأةٍ نائحة فاسقة ؛ لِيُطْلِقها من حبسه فقال : ما لك ؟ قالت : قضيب[1] محبوبة المنصور تطلب منك أن تُطْلِقَها . فقال : يا مُنْتِنَة ، لولا شيء لضربتُك ، لعنك الله ولعن مَن أرسلك . فوَلْوَلتْ ، وشقَّتْ ثيابها ، ثم ذكرت أمرها للمنصور ، فقال : ما أصنع به؟ ما أخذ منَّا صِلَةً، ولا نقدر على عزله؛ نحن نُحِبُّ إصلاح البلد[2] .

قاضي القضاة شيخ الشافعية : الحموي :

أبو بكر محمد بن المظفر الشامي الحموي الزاهد .

قال السمعاني : هو أحد المتقنين للمذهب ، وله اطلاع على أسرار الفقه ، وكان وَرِعًا زاهدًا مُتَّقيًا شديد الأحكام .

قال أبو علي الصَّدفي : هو وَرِعٌ زاهد . وأما الفقه ، فكان يُقال : لو رُفع مذهب الشافعي لأمكنه أن يمليه من صدره .

قال السبكي في طبقات الشافعية (٢٠٣/٤ - ٢٠٥) : « كان من قضاة العدل ، واتَّفقت منه محاسن أيام قضائه . امتنع الشامي من قبول القضاء فما زالوا به حتى تقلَّده ، وشرط أن لا يأخذ رزقًا ، ولا يقبل شفاعةً ، ولا يُغيِّر ملبوسه ؛ فأُجيب إلى ذلك .

قال عبد الوهاب الأنماطي : لم يكن الشامي يبتسم في مجلسه قط وكان له كراء بيت في الشهر بدينار ونصف ، وكان منه قوته ، فلمَّا ولي القضاء جاء إنسان ،

(١) اسم جارية أخرى للمنصور ليس عنده أعزُّ منها .

(٢) السير ١٥٧/١٥ - ١٥٨ .

فدفع فيه أربعة دنانير ، فأبى وقال : لا أُغيِّر ساكني ، وقد ارتبت بك ، لِمَ لا كانت هذه الزيادة قبل القضاء ؟!

وكان يشدُّ في وسطه مئزرًا ، ويخلع في بيته ثيابه ثم يجلس .

قال ابن النجار : ما استناب أحدًا في القضاء ، وكان يُسوِّي بين الوضيع والشريف في الحكم ، ويقيم جاه الشرع ، فكان هذا سبب انقلاب الأكابر عنه ، فألصقوا به ما كان منه بريئًا .

قال ابن الآبنوسي : كان له كيسان ؛ أحدهما يحمل فيه عمامته وقميصه - والعمامة كتان ، والقميص قطن خشن - فإذا خرج لبسهما ، والكيس الآخر فيه فتيت ، فإذا أراد الأكل جعل منه في قصعة ، وقليل من الماء ، وأكل منه .

وكان يقول : ما دخلتُ القضاء حتى وجب عليَّ ، ويقول : أعصي إن لم أَلِ القضاء .

وقعت حادثة للسلطان ملكشاه ، فحُمِل قاضي القضاة الشامي إلى دار السلطان ليقضي في تلك الحادثة ، فجاء المشطَّب بن محمد بن أسامة الفرغاني أحد فحول المناظرين من الحنفية - وكان ذا جاهٍ عريض ، وملازمة للسلطان - فشهد بين يديه ، فقال الشامي على رؤوس الخلائق : لا أقبل شهادته.فقالوا : لِمَ ؟ قال : لأنه فاسق . وكان على المشطَّب ثوب حرير ، فخجل المشطب من ذلك .

وجاء أمير من الأتراك وادَّعى على واحدٍ شيئًا ، فقال الشامي للأمير : ألك بيِّنَة ؟ قال : بلى . قال : من هما ؟ قال : فلان والمشطّب . فقال الشامي : لا أقبل شهادة المشطب ؛ لأنه يلبس الحرير . فقال المشطَّب : تردّني ، والسلطان ووزيره نظام الملك يلبسانه ؟! فقال الشامي : لو شهدا عندي ما قبلتُ شهادتَهما .

وفي المنتظم (٩/ ٩٦) ، وابن الأثير (١٠/ ٢٥٣) : لو شهدا عندي في باقة بقْل ، ما قبلتُ شهادتهما » .

القاضي الحافظ أبو أحمد العسَّال :

أحد الأئمة في علم الحديث ، « وكان يحفظ في القرآن سبعين ألف حديث ، وما كان يجلس لإملاء الحديث ولا يمس جزءًا إلا على طهارة . وإنه كان مرة مع صهره ، فدخل مسجدًا ، وشرع في الصلاة ، وختم القرآن في ركعة.

كان رحمه الله لا يُغلق بابه عن أحد ، ولي القضاء بأصبهان وكان إذا توجَّه على الخصم يمين لا يُحَلِّفه ما أمكنه ، بل يُغرم عنه ما لم يبلغ مائة دينار ، فإذا بلغ المائة أو جاوزها ، كان يتثبَّتِ ويُدافع ويُمهل إلى المجلس الثاني ، ويُحذِّر المدَّعى عليه وَبَالَ اليمين ، ويُخوِّفه يوم الدين ، ويذكِّره الوقوف بين يدي ربِّ العالمين ، ثم يُحلِّفه على كُرْه »[١] .

الإمام القاضي أبو سعيد السِّيرافي :

الحسن بن عبد الله النحوي البغدادي .

كان من أعلم الناس بنحو البصريين ، وألَّف كتاب « شرح كتاب سيبويه » ، ولم يشرح أحد كتاب سيبويه أحسن منه ، ولو لم يكن له غيره فضلًا لكفاه .

كان زاهدًا لا يأكُل إلا من كَسْب يده ، ولا يخرُج من بيته إلى مجلس الحُكم ولا إلى مجلس التدريس كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات ، يأخذ أجرها عشرة دراهم ، تكون قَدْر مئونته ، ثم يخرج إلى مجلسه[٢] .

العز بن عبد السلام : بائع الملوك والأمراء :

ولا يزال يسمع الأيام ما فعل سلطان العلماء وبائع الملوك والأمراء ،

---

(١) السير ٩/١٦ - ١٠ .

(٢) صفحات من صبر العلماء لأبي غدة صـ٢٠٢ - ٢٠٣ .

القاضي العز بن عبد السلام مع أُمراء مصر وبَيْعهم ، وقد مرَّت من قبل هذه الحادثة الفريدة في تاريخ القضاء .

وكم من قضاةٍ زيَّنوا وجه التاريخ ، لا يسع المقال هنا لذكرهم، فهو يحتاج إلى مجلدات : ابن جماعة ، والماوردي ، وابن دقيق العيد، وغيرهم وغيرهم .

القاضي جُميع بن حاضر الباجي ؛ يحكم بطرد المسلمين من سمرقند؛ واقعة صحيحة أشبه بالأساطير وأطيب من الشهد :

« قال أبو عبيدة وغيره : لما استُخلِف عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - وفد عليه قوم من أهل سمرقند ، فعرَّفوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدْرٍ ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيًا ، ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أُخرجوا ، فنصب لهم جُميع بن حاضر الباجي ، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء ، فكَرِه أهل مدينة سمرقند الحرب ، وأقرُّوا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم »[1] .

* * *

(١) كتاب فتوح البلدان للبلاذري صـ٤١١ .

الفصل الخامس

عُلُوُّ هِمَّة المُجَدِّدِين

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنة مَن يُجدِّد لها دينها »

[حديث صحيح]

□ عُلُوُّ هِمَّة المُجدِّدين □

« الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم ؛ يدعـون من ضلَّ إلى الهدى ، ويصبرون منهـم على الأذى ، يُحيُون بكتـاب الله عزَّ وجل الموتى ، ويُبصِّرون بنور الله أهل العمى . فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضالٍّ تائه قد هدَوْه .

فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحالَ المُبطلين ، وتأويلَ الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عنـان الفتنة ، فهم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، مُجْمعـون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله وفـي الله وفي كتاب الله بغير علم ، يتكلَّمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جُهَّال الناس بما يشبهون عليهم ، فنعوذ بالله مـن فتن المضلِّين »[١] .

« ولولا ضمان الله بحفظ دينه ، وتكفُّله بأن يُقيم له مَن يجدِّد أعلامه ، ويحيي منه ما أماته المُبطلون ، ويُنعش ما أخمله الجاهلون ؛ لهُدِّمَتْ أركانه وتداعى بنيانه ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »[٢] .

« ومن المعلوم أنه كلمَّا تأخَّر الزمان ، وبَعُد الناس عن آثار الرسالة ؛ حدثت البدع والخرافات ، وفشا الجهل ، واشتدَّت غربةُ الدين ، وظنَّ الناس أن ما وجدوا عليه آباءهـم هو الديـن وإن كان بعيدًا عنه . ولكن الله سبحانه لا يُخلي الأرض من قائمٍ لله بحُجَّة ، وقد أخبر الرسول ﷺ بأن طائفة من المسلمين لا تزال على الحق لا يضرُّهُم مَن خذلهم ولا مَن خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى ، كما

---

(١) كتاب الرد على الجهمية – خطبة الإمام أحمد في هذا الكتاب .

(٢) مدارج السالكين ٧٩/٢ .

أخبر ﷺ حيث قال: « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنة مَن يجدِّد لها دينها »(١) .

قال المناوي في « فيض القدير » (٢/٢٨١ - ٢٨٢) : « أي يُقيِّض لها على رأس كلِّ مائة سنة من الهجرة أو غيرها ، والمراد الرأس تقريبًا، رجلًا أو أكثر يُبيِّن السنة من البدعة ، ويكثر العلم وينصر أهله ، ويكسر أهل البدعة ويذلّهم . قالوا : ولا يكون إلا عالمًا بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة . قال ابن كثير : قد ادَّعى كل قوم في إمامهم أنه المراد بهذا الحديث ، والظاهر أنه يعمُّ جماعةً من العلماء من كل طائفة وكل صنف ؛ مفسِّر ومحدِّث وفقيه ونحوي ولغوي وغيرهم » . انتهى .

وقد وقع مصداق ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الحديث ، فلا يزال - والحمد لله - فضل الله على هذه الأمة يتوالى بظهور المجدِّدين عند اشتداد الحاجة إليهم »(٢) .



(١) صحيح : رواه أبو داود ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة وصحَّحه الحاكم ، والألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٧٠) ، والصحيحة رقم (٦٠١) .

(٢) من أعلام المجددين . للشيخ صالح بن فوزان آل فوزان صـ٣ - ٤ ، دار السبيعي .

☐ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ☐

ومن هؤلاء المجدِّدين علاة الهمم : شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، مجدِّد القرن الثاني عشر .

وقد ذكر المؤرِّخون كابن غنام وابن بشر وغيرهما حالةَ نجد خصوصًا - والعالم الإسلامي عمومًا - عند ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وما كانت عليه من ظهور البدع والخرافات والشركيات والجهل بحقيقة الدين الصحيح .

يقول الشوكاني : « وكم قد سرى عند تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام؛ منها: اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام ، وعَظُم ذلك فظنُّوا أنها قادرة على جلْب النفع ودفْع الضرر ؛ فجعلوها مقصدًا لطلب قضاء الحوائج ، وملجأً لنجاح المطالب ، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم ، وشدُّوا إليها الرحال ، وتمسَّحوا بها واستغاثوا . وبالجملة إنهم لم يَدَعُوا شيئًا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا وفعلوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ويغار حميَّةً للدين الحنيف لا عالمًا ولا متعلِّما ، ولا أميرًا ولا وزيرًا ولا ملكا . فيا علماء الدين ، ويا ملوك المسلمين ، أيُّ رُزْءٍ للإسلام أشدُّ من الكفر ، وأيُّ بلاءٍ لهذا الدين أضرُّ عليه من عبادة غير الله ، وأيُّ مصيبةٍ يُصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة ، وأيُّ منكرٍ يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البيِّن واجبًا ؟!

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيًّا ... ولكن لا حياةَ لمن تُنادي
ولو نارًا نفختَ بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رمادِ[1] »

وهنا ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب...

---

(١) نيل الأوطار . للشوكاني ٤/ ٩٠ .

يقول الصنعاني ، وكان معاصرًا للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، يصف ما يُفعل ويُمَارس حول القبور من الشرك الأكبر ، ويثني على دعوة الشيخ :

وقد جاءت الأخبارُ عنه بأنَّه يُعيد لنا الشرعَ الشريفَ بما يُبْدي
وينشرُ جهرًا ما طوى كلُّ جاهلٍ ومبتدع منه فوافق ما عندي
ويعمر أركان الشريعة هادمًا مشاهدَ ضلَّ الناس فيها عن الرُّشدِ
أعادوا بها معنى سُواعَ ومثله يغوث وَوُدّ بئس ذلك من وُدِّ
وقد هتفوا عند الشدائِد باسمها كما يهتف المضطرُّ بالصمد الفردِ
وكم عقروا في سوحها من عقيرة أُهِلَّت لغير الله جهرًا على عَمْدِ
وكم طائفٍ حول القبور مقبِّلٍ ومستلمِ الأركان منهن باليدِ

بلغ الانحطاط الفكري مبلغه في الأمة ... شرك ، واختلاط السنن ، بل ضياعها وظهور البدع ، وأُشبعت النفوس بحبِّ التقليد وتحكم فيها الجمود ، وغابت السلطة الشرعية .

وهنا ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ...

محمد بن عبد الوهاب : عنوان الأسماء العالية في التاريخ العربي الإسلامي الحديث ، كالشمس يُذكر غير ملقَّب ؛ لأنه يسمو على التلقيب بالألقاب ، والتحلية بالنعوت ؛ إنه لا يُعرف بها ، ولكن هي تُعرف به ، وإنَّ حِلية مثله لفي عَطَلِه ، والجواهر تُذكر أسماءً مجرَّدةً ، ولا تُوصف لأن معانيها هي أوصافها .

ويقال : « الشمس » و « القمر » ولا يُحلَّيان ؛ لأن حليتهما في كمالهما وتمامهما .

ما كلام الأنام في الشمس إلا أنَّها الشمس ليس فيها كلامُ

وهل يخفى القمر ؟!

وإنّ من الأسماء نكرات ، مغرقة في التنكير ، حُلِّيت بالألقاب ، ورُصَّت

لها ألفاظ التفخيم والتعظيم رصًّا ، سطورًا بعد سطور ؛ لتُعَرَّفَ فتُعرَف ، فما زادتها إلا تنكيرًا وضمورًا وخفاءً ، ومات أصحابها وما ذُكروا .

وقد يموتُ أُناسٌ لا تحسُّهمُ كأنهم من هوانِ الخطْب ما وُجِدُوا

وفي سمات أيام العِزَّة جمالٌ وجلالٌ فطريَّان ، عليهما من الصدق والصفاء رونق ورُواء ، وبالمعاني تُشاد المعالي ويرفع البنيان .

محمد بن عبد الوهاب : معنى كريم استقرَّ في الضمائر، وليس جسدًا تطوفُ حوله الأجسادُ . في حروف اسمه القلائل الصغار ، خصالٌ عبقرية كبار .. ائتلفت فأنشأت مزاجًا فردًا ، عجيبًا في أخْذه وعطائه .

طرازٌ خارقٌ للمألوف ، وقوة نفسية وُثقى ، متوثّبة ومتحدِّية .. تفرض الهزيمة على القوى المضادَّة فرضًا ، وتثبُت ثبات طمَّاح الذوائب الأشمّ يوجِّه الأعاصير ، تتناوحُ من عن يمينه وشماله ، ومن أمامه ومن خلفه ؛ تريد زحزحته فترتدُّ عنه وتبيد ، وهو « هو » غير مضارٍّ .

وقيم خلقية صافية صفاء ألَق الضياء في يوم الصحو البهيج ، ليس دونه حجاب .. ترفَّعت على شهوات النفس ، وتحلَّت بالإيثار ، يصرِّفُها عقلٌ درَّاك وقلبٌ يَقِظ ، وترفُدها الركانة والزكانة ، والتصوُّر الشمولي الذي يخرج من دائرة الفكر المحدود ليبسط أبعاده على الآفاق .

ولقد جمع الله في « محمد بن عبد الوهاب » هذه الخصال جمعاء ، متمازجةً متحابَّةً ومترافدة ؛ ليجيء منه الإنسان العظيم ، الذي يصنع الصُّنع العظيم . فما الصنع العظيم الذي صنعه ؟

والجواب يصوغه واقع التاريخ وحقائقه ، ولست أنا من يصوغه، واقع التاريخ يقرِّر في صراحة ووضوح بيان أنه الرجل الذي أيقظ العملاق العربي المسلم من سُباتٍ في جزيرة العرب دام دهرًا داهرًا ، وأشعره وجودَه الحيَّ الفاعل ، وأعاد إليه دينه الصحيح ، ودولته العزيزة المؤمنة ، ودفعه إلى الحياة الفاعلة ؛

لِيُعيد سيرة الصدر الأول عزائم وعظائم وفتوحًا ..

ويقرر- غير منازَع - أنه رجل التوحيد والوحدة الذي رَفض التفرُّق في الدين رفضًا حاسمًا ، فلم يكن من جنس من يأتون بالدعوات ليضيفوا إلى أرقام المذاهب والطرائق المِذَق رقمًا جديدًا . ودعا لتحقيق « الرقم الفرد » الذي لا يقبل التجزئة وهو الإسلام ، الذي استقام به أمر المسلمين ، وكوَّن الوحدة الكبرى والدولة العظمى ، وقد انضوى تحت لوائها الخفَّاق أهلُ الأض من كلِّ جنس ما بين مشرق ومغرب .

فلمَّا أُفسد التوحيد ، وزالت الوحدة ؛ ذهب التفرُّق في العقيدة بهذا المجد العظيم ، فجاء « محمد بن عبد الوهاب » داعيًا للعودة إلى الأصل الذي قام عليه ذلك المجد وعلا سمكه وعزَّ وطال ، وقد حقَّق ما أراده في جزيرة العرب ، وأشاع اليقظة في العالم الإسلامي ، وكان لفكره في كل صَقع أثرٌ مشهود . فهذا هو الصُّنع العظيم الذي صنعه الرجل العظيم .

كان إشراق النور الجديد من قلب هذا الظلام ، من الأرض القفرة ؛ عجبًا من العجب ، ومَثار دهشةِ الغرب خاصة ، فطفقت دوَله تُحاول إبطاله ، وهو كالأتيِّ يتحدَّر دفَّاقًا من مخارم الجبال إلى أطراف الجزيرة والبلاد الإسلامية ؛ فتحًا وإنشاءً وإعمارًا لا أجلَّ منه ولا أروع، فأوحت إلى وسائل إعلامها أن تلقي الشُّبهات عليه ، وتشوِّه صورته ، فرمته ورمت الناهضَ به بالعضائه ، وقلَّصت الشأن كلَّه ، حين وضعت هذا الأمر العظيم في بؤرة الطائفية ، فنبزته بالوهابية ، وأذاعت هذا النَّبْزَ الأنباءُ الجوائب ، فتلقَّفته الأسماع وردَّدته الألسنة ، ودوَّنته الصُّحُف ودوائر المعارف الكبرى بكل لسان .

وراق الدولة العثمانية هذا النَّبْز ، فأجرته على ألسنة الدراويش ومُرْتَزِقة طعام التكايا والزوايا من تنابلة السلطان ، وأفرطت في إلقاء الشبهات عليه وتشويهه

ولاسيما بعد استفحال شأنه ، وقيام الدولة العربية الإسلامية في جزيرة العرب على أساسه وقواعده ، فلم يكن نبزٌ أشنع من نبز الوهَّابية في طول ممالكها وعرضها ، ودام ذلك أمَدًا .

وكذلك وقف رؤساء العصبيات ، وهي مختلفة الألوان والمشارب ؛ تنكَّروا له أشدَّ التنكُّر ، وأذاعوا هم وأتباعُهم قول السوء عنه ، فقالوا فيه ما لم يقله « مالك » في الخمر .

شِنْشِنَةٌ معهودة في كلِّ زمان ومكان ، وعند كل جيل وقبيل ، ولن تجد لسنة الله في خلقه تبديلًا .

لقد استصفى ذهن الشيخ الناقد الممحِّص المحضَ واللباب ، وطرح الزؤان والزيف،وشخَّص الداءَ ، وعيَّن الدواء ، وعنده عزيمته الحاضرة تتوثَّب به ، وتحدُوه على المضي بدارًا إلى غايته ؛ وقد فعل ، ورسم الخطوط العريضة للإصلاح والتجديد ومساراته على بيِّنة من العلم ونهجه القويم . وقد وقر في قرارة نفسه أن يحقِّق في جزيرة العرب أمريْن عظيمَيْن متلازميْن لا ينفصمُ أحدهما من الآخر ، ولا يقوم أحدهما بدون الآخر :

إنشاء مجتمع إسلامي موحِّد وموحَّد ، رفيع الفكر ، صالح العمل ، حي قوي دفَّاق،متحرِّك ومتوثِّب في سبيل الخير الإنساني العام .

وتكوين دولةٍ مؤمنة قويَّة الشكيمة ، تنتظم جزيرة العرب تحت راية القرآن .

كان يؤمن ويوقن أنه لا مَعْدًى عن العودة إلى الأصل القويم : القرآن والسنة .. إلى منبعه الصافي ومشربه العذب ؛ تتشرَّبه العقول ، وتتضلَّع بريِّه النفوس ؛ لتحيا كما شاء لها الله أن تحيا كريمة عزيزة . ذلك في فكر « محمد ابن عبد الوهاب » وخامر فؤاده ..

وإنه لمطلب في مناط الثريا ، ولن يناله إنسان قاعدٌ غير قائم ولا عامل

ناصب ، فلابد لمن أراد مثله من العمل وطول الجهاد والمثابرة والصبر .

ووجد « محمد بن عبد الوهاب » القدوة الحسنة في سيرة رسول الله ﷺ وعمله وجهاده وصبره ، فالتزمها بكل شراشره تطبيقًا جادًّا ، مثابرًا ستين عامًا إلى أن لقي وجه ربِّه ، وقد أطبق جفنيْه وراية القرآن تُرفرف على جزيرة العرب ، ودولة التوحيد قائمة تنتظم البلاد .

ذلك مطلب كان في الثريا ، فأنزله بين يديه ، ورفع به أمر الحياة ، أنزله لا بعلمه وحده ، بل أنزله ومعه العلم والعمل الدائب الذي لا يفتر لحظة من اللحظات ، والعلم الكلّي بالسياسة الشرعية .

وبلغ وعيه القمة حين لاحظ أن تمام الدين بالدولة .

وبدأ المرحلة التطبيقية بعد عودته من المدينة المنورة إلى «العيينة»، وهو في التاسعة والعشرين من عمره ، ولكأني به حين أطلَّ على جزيرة العرب فردًا لا وَزَرَ له من أحد، ناجى ربَّه عز وجل أن لا يذره فردًا ، وأن يبلِّغه ما يؤمِّله، لا لدنيا يُصيبُها لنفسه ، ولكن لهداية قوم ضلُّوا عن سواء السبيل ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم ، فأراد لهم الهداية والعزة .

مضى في الدعوة في فُتُوَّته هذه ، بقلبٍ يملؤه الإيمان واليقظة والشجاعة ، وعقلٍ تعْمُرُه الحصافة والعلم والتجارب ، وصدرٍ تتوثب فيه العزيمة الصُّلْبة والإرادة الجارفة ، وبصيرةٍ تتألّق بالنور الذي يضيء له الدرب في ليل الناس البهيم .

استلهم روح القرآن ، ووصل أُفقه بأُفُقِه غير حائد عنه ، وتأسَّى بسلوك الرسول عليه الصلاة والسلام في جميع مراحل الدعوة سَمْتًا بعد سَمْت ، فبلَّغ كما بلَّغ ، وبشَّر ، وأنذر ... بلّغ الأفراد والجماعات ، وبلّغ الأغنياء والفقراء والرؤساء والمرؤوسين ، وسيَّر الرسل والدعاة إلى من دنا ومن بَعُدَ عن جزيرة العرب من أصحاب السلطان ، وسمع الناس منه ومن دعاته كلامًا جديدًا ، مقروءًا

ومسموعًا ، لانت له عقول قوم فدانوا وآمنوا واتبعوا ، واستغلقت عقول قوم فرفضوه ، بل نصبوا له الحرب ، ووقفوا دونه يصدُّون عنه الناس ، ويسفِّهون الداعي وما يدعو إليه من الحق ، وتألَّبوا على الرجل ، وحاولوا غِيلَتَهُ ليذهبوا بريحه ، وذهب إلى أصحاب السلطان يقنعهم بما هو عليه من الحقّ ، ليدخلوا في دعوته ، ويمنّيهم بالفوز بخيري الدنيا والآخرة إذا هم آزروه وناصروه . وقد ائتسى في هذا الشأن أيضًا بالرسول العظيم ، عليه أفضل الصلوات والتسليم ؛ فوفِّق .

وأخذ البيعة من بعضهم ؛ ليضمن قيام « الولاية » كما كان يقول أو الدولة كما يقولون اليوم ؛ ليحفظ بذلك مكاسب النصر الروحي الذي استطاع أن يحقّقه في كثير من أرض الجزيرة، ولكِنَّ من بايعه على ذلك نقض البيعة ، لأن سلطانًا أقوى منه فرض عليه أن يتخلَّى عمّا التزمه من هذه البيعة ومن نصْر الداعي .. وهنا كان الاختيار الصعب ، وكان الموقف الحاسم الذي يقرِّر مصير الدعوة ، وكان ذلك كلُّه يتوقَّف على القوة النفسية التي حَدَتْ بهذا الداعي الكبير على أن ينهض بهذا الأمر الكبير ، وإذا هي عنده أثبت ثباتًا من الجبال ، وعند الشدائد تظهر عزمات الرجال ، فما وهن عزمه ولكنه ازداد قوة ، ولا ضعف إيمانه ولكنه ازداد يقينًا بنصر الله له ، وانتقل إلى حيث يأمل أن يدخل في دعوته من الأمراء مَن ينصره ويقيم « الولاية » .

وكأن الله ادَّخر الخير كلَّه لمن هو أهله من أمراء الجزيرة الكبار أصحاب الشوْكة والصَّوْلَة ، لأمرٍ أراد سبحانه كَوْنَه ودوامه ، فساقه التوفيق إلى « الدرعية » ، وكم لله من إرادات يكتب بها لأناسيّ، ويحرمها أُناسِيّ آخرين ! وكان أمير الدرعية « محمّد بن سعود » نائمًا ، فاحتضنته السعادة بقدوم هذا الرجل الكبير عليه ، وكان ذلك قدرًا من الله مقدورًا ، ولله عاقبة الأمور .

قذف الله في قلب هذا الأمير الموفَّق حبَّه وتصديقه واستجابته لما دعاه إليه من دعوته ، فبايعه على أن ينصره نصرًا مؤزَّرًا ، ويُعِزَّ الإسلام ويحميه ، ويعيدَ إليه رونقه وجلاله وقوَّته الفاعلة في جزيرة العرب تحت « راية القرآن » .

وأنشأ الله على يده قيام الدولة العربية الإسلامية التوحيدية في جزيرة العرب ، بعد غياب عنها دام أكثر من ألف عام ؛ وذلك لتعود جزيرة العرب كما بدأت مركز إشعاع على العالم ، وليبقى المُلْك في عَقِب هذا القائد المؤمن الصادق إمامًا بعد إمام ؛ ما لزموا نَهْج الإسلام الصحيح ، وأَعدُّوا ما استطاعوا من قوة، وبرُّوا واتّقوا، وصَلَحُوا وأصلحوا وصاروا وصار العرب والمسلمون معهم يدًا واحدة .

وفي هذا بلاغ ، والله يفعل ما يشاء :

لقد كان التقاء « محمد بن عبد الوهاب » بـ « محمد بن سعود » توفيق قَدَرٍ لقَدَرٍ ، ولأمرٍ أراد الله إنفاذه على يديهما معًا . ولست أدري أكان يتمّ لـ « محمّد بن عبد الوهاب » أمره لو لم ينهض «محمد بن سعود » لبيعته ونصره ؟ وكذلك ما كان يكون من رفعة الشأن لمحمد بن سعود وعَقِبِه لو رفض دعوة « محمد بن عبد الوهاب » ، ولبث حيث هو أميرًا على قرية ؟ بل ما كان يكون عليه جزيرة العرب وأقدار العرب، لو بقيت على عزلتها وغطيطها في نومها الطويل قبل صرخة محمد بن عبد الوهاب ؟.

عقلان كبيران التقيا ، وقلبان صافيان اتّحدا ، وروحان قويّان تحابّا وامتزجا ؛ فأتيا بالعجب العجاب !!

إن كلَّ دعوةٍ من الدعوات ، وكلَّ عملٍ من الأعمال إنما تعرف قيمته من ثمراته المترتبة عليه ، ومن أثره الذي يتركه . وإن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لما كانت دعوة خالصةً لله ، مترسِّمةً منهج رسول الله ﷺ معتمدةً عليه ، ومستمدَّةً من الكتاب والسنة ؛ صار لها أطيب الأثر ، واستمرَّ نَفْعُها وبقي أثرها ، وأنتجت

للأمة خيرات كثيرة؛منها :

● قيام دولة إسلامية تحكم بشريعة الله ، وتشدُّ أَزْرَ المسلمين في كل مكان ، وتنشر دعوة الإسلام .

● تصحيح العقيدة الإسلامية مما عَلِق بها من الشركيَّات والبدع والخرافات، وإرجاعها إلى منبعها الصافي من كتاب الله وسنة رسوله . وقد طهَّر الله كل الجزيرة من جميع مظاهر الشرك والبدع والخرافات .

● امتداد أثر هذه الدعوة المباركة خارج بلادها ، حتى انتفع بها مَن هَدَفُه الحق في مختلف بلدان العالم الإسلامي ؛ في الشام ومصر والمغرب العربي، وإفريقيا والسودان واليمن والعراق، والهند والباكستان وأندونيسيا وغيرها.

● وجود حركة علمية واعية متحرِّرة من التقليد الأعمى ؛ فانتشر التعليم في المساجد في مختلف مناطق الجزيرة ، حتى تخرَّج منها علماء أفذاذ في حياة الشيخ وبعدها .

ولنترك أحداث التاريخ لكُتب التاريخ ، ولننظر إليها بعين الخيال يطوف على مسارح الجزيرة ؛ لِتُشاهد مواكب التوحيد موكبًا إثرَ موكب ، ترفرف عليها راية القرآن ، وتحدوها أهازيج النصر بكلمة الله العليا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والله أكبر » فيتلفَّت الدهرُ ، ويهتزُّ الثرى ، وتردِّد الصَّدَى السماءُ ، ولله العزّةُ ولرسوله وللمؤمنين ، فقد صدق الله وعده ، وأيَّد جنده ، ونصر حزبه ، وحزبُ الله هم المنصورون .

وتطبق الأجفان على هذه المواكب ؛ لتحفظ صورها الروائع في سواد العين ، وهي مواكب خوالد ، لا تبرح ذاكرة التاريخ ، نظمها جهادُ هذين العربيين المسلمين العظيمين ملاحم كالشعر ، ترينا أكبر نقلة في هذا العصر الحديث من الخرافة إلى الحقيقة ، ومن التّفرُّق إلى التوحُّد ، ومن الجمود إلى الحركة ، ومن الانطواء إلى الانتشار ، ومن الانغلاق إلى الانفتاح .

وليكن هذا شأن العرب والمسلمين إلى الأبد ، إذا شاءوا أن يحيوْا سادةً في أوطانهم ، وأحرارًا أعزة .

لقد ظلت هذه الملاحم الخوالد إلى هذه الساعة دون أن تنال حظًّا من التصوير البارع ، فهي تستشرف القلمَ الصَّنَّاع يرسم واقعها الخياليّ وخيالَها الواقعي ، ويجسِّدُ مواكبها ومعانيها في ألواحٍ من النثر الفني البياني الرفيع ، والشعر « الشاعر » العبقري الأصيل ؛ تُحْدِث البهجة في النفوس ، وتهيج العزائم للاقتداء .

فهل من فتى نابغ من أبناء هذه الجزيرة المتميزة ، أمّ البطولات والعطاء ومصدر الفصاحة والبيان ، يُعِدّ مواهبه لهذا الخير ، ويصوِّر جلال هذه العبقريات التي أطلت بها على الدنيا في هذا العصر الحديث ؟ إني لأطمع ولا أقطع الرجاء .

إنّ « محمد بن عبد الوهّاب » لم يُعرف على حقيقته بفكره الكوني وآفاقه ومعناه .. إنه من معنى الإسلام كبيرٌ وكريم ، والمعنى الكبير إنّما يحمله إلى العقول البيانُ الرفيع ، فهل حمل روحَ الإسلام وجماله وجلاله إلى أُمم الأرض من كل جنس ولون ، غيرُ الإعجاز البياني في كتاب الله والسّنة الصحيحة المطهَّرة ؟!

نضَّر الله وجه « محمّد بن عبد الوهاب » .. ما أبهاه بين وجوه المصلحين المجدِّدين الأفذاذ ! وما أجلَّ جهاده في الله ، وأكرم دعوته إلى الله .. إلى الصراط المستقيم ! ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأنعام : ١٥٣][1] .

---

(١) نقلًا بتصرف عن محمد بن عبد الوهاب داعية التوحيد والتجديد في العصر الحديث . للشيخ محمد بهجة الأثري – وكتاب من أعلام المجدِّدين . للشيخ صالح بن فوزان .

الشيخ حسن البنا رحمه الله مثالٌ جميلٌ لعُلُوِّ الهمَّة

كانت له رحمه الله همَّة عالية وعزيمة نادرة ، كيف لا وهو القائل : « أحلام الأمس حقائق اليوم ، وأحلام اليوم حقائق الغد » ، و « دقائق الليل غالية فلا تُرخصوها بالغفلة » .

كانت حياته لا تعرف إيثار العافية والراحة ، خذ مثلًا لذلك : رحلة من رحلاته بدأت في الربيع الثاني ، وانتهت في ٩ جمادى الأول عام ١٣٥٢ ، زار خلالها « أبو صير » شرقية ، الإسماعيلية ، السويس ، بورسعيد ، الدقهلية بفروعها ، طنطا ، شبراخيت ، المحمودية « بحيرة » دمنهور « بحيرة » ، شلنجة « قليوبية »[1] .

يقول أحد مرافقيه : « كان يقطع الوجه القبلي كلَّه بلدًا بلدًا ، وقرية قرية ، في عشرين بلدًا ، في بعض الأحيان يصبح في « بني سويف » ، ويتغدَّى في « ببا » ، ويمسي في « الواسطى » ، ويبيتُ في « الفيوم » .. وهكذا كان ينام ساعة أو بعض ساعة ، وفي الوقت الذي يضع فيه رأسه على الوسادة ينام ونحن نتحدَّث من حوله » .

أليس في حياة هذا الطوْد درس للكسالَى الذين يقتلُهم الفراغ ، ومع ذلك يتحدَّثون عن ضيق الوقت ؟!

أوليس في حياة هذا الداعية المجدِّد عبرة للذين يتباكون على واقع المسلمين اليوم ، ولا يقدِّمون للعمل الإسلامي إلَّا فضلات أوقاتهم ، فالوظائف تستهلك معظم أوقاتهم ، والزوجة تستهلك بقية الوقت وهي لا تفتأ تردِّد : « خيرُكم خيرُكم لأهله » . والمسكين يخلط بين فهم خاطئ للحديث ، وبين طاعة امرأة

(١) مذكرات الدعوة والداعية ص١٥٤ .

لا يُرضيها - في كثير من الحالات - إلا أن تستحوذ عليه ، وتحول بينه وبين الناس ، وبينه وبين الدعوة والجهاد في سبيل الله .

ولله درُّه حين اشتكت زوجه مرض ابنها الخطير ، فقال : إن جدَّه يعرف طريق المقابر .

وحينما أسَّس جماعة الإخوان[1] في عام ١٩٢٨ ، حدَّد فقرات منهاجه :

١ - نريد أولًا الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته ، وفي خُلُقِه وفي عاطفته ، وفي عمله ، وفي تصرُّفه ، فهذا هو تكويننا الفردي .

٢ - ونريد البيت المسلم .. ونحن لهذا نُعْنى بالمرأة، ونُعْنَى بالطفولة.

٣ - ونريد بعد ذلك الشعب المسلم في ذلك كله .

٤ - ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة التي تقود هذا الشعب إلى المسجد ... ونحن لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ، ولا يستمدُّ منه ، ولا نعترف بهذه للأحزاب السياسية ، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكلِّ مظاهره ، وتكوين الحكومة الإسلامية على هذا الأساس .

٥ - ونريد بعد ذلك أن نضمّ إلينا كلَّ جزء من وطننا الإسلامي .

٦ - ونريد بعد ذلك أن تعود راية الله خفَّاقة عالية على تلك البقاع التي

---

(١) كل إنسان يُؤخذ من قوله ويترك ، وكذا الجماعات ، فولاؤنا لله ورسوله مطلقًا ، ونقول لكلِّ من يتعَصَّب لجماعته واتجاهه: دعوها فإنها مُنْتِنَة ، ولا عودة للإسلام إلا بالكتاب والسنة ، بفهم سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، ومع هذا « فالبصير الصادق يضرب مع كلِّ قوم بسهم ، ويعاشر الناس على أحسن ما عندهم » ، كما قال ابن القيم .

سعدت بالإسلام حينًا من الدهر .

٧ - ونريد بعد ذلك ومعه أن نُعلِن دعوتنا على العالم ، وأن نعمِّم بها آفاق الأرض ، وأن نُخْضِع لها كلَّ جبَّار .

إن أُناسًا سيقولون : هذا خيال وأوهام . وذلك هو الوَهَنُ الذي قُذف في قلوب هذه الأمة فمكَّن لأعدائها فيها ... وإنما نُعْلن في صراحة ووضوح أن كل مسلم لا يؤمن بهذا المنهاج ولا يعمل لتحقيقه ؛ لا حظَّ له في الإسلام ، فليبحث له عن فكرة يدين بها ويعمل لها . ولم يكن الشيخ يريد بذلك تكفير أحد من الناس .

وحينما قطع البنا مراحل مهمة في بناء جماعته ، وعندما توسَّعت هذه الجماعة وعَظُم شأنُها في مصر وكثرُ أتباعها ؛ كان لا بدَّ أن يضع لها منهجًا علميًا تتربَّى عليه ؛ ولهذا فقد طلب من الشيخ سيد سابق - وكان من كبار العاملين في هذه الجماعة - أن يقوم بتأليف كتاب في الفقه ، واتفق معه على سمات هذا الكتاب ، فألَّف الشيخ سيد سابق كتاب « فقه السُّنَّة » ، وكتب الشيخ البنا تَقْدِمَتَه ، وأصبح مقرَّرًا في منهج الجماعة ، في وقتٍ كانت تهيمن الصوفية والمذهبية على أجواء العلماء والمعاهد في مصر .

وكان محدِّث ديار الشام الشيخ الألباني مُنْصِفًا - كما عَوَّدنا - عندما عدَّ تأليف وتدريس هذا الكتاب مكرمة من مكارم البنا رحمه الله .

وأراد - رحمه الله - تربية أتباعه على التمسُّك بالكتاب والسنة ، وحذَّرهم من البدع والجمود والخرافات ، ومن تقديس أقوال الرجال وتقديمها على الكتاب والسنة .

ويا ليت أن الأتباع والجماعة وعَوا الدرس جيدًا ؛ إذن لتقدَّمت الحركة الإسلامية بخطًى واسعة ، ولضُيِّق حجم الخلاف بينها .

قال البنا - رحمه الله - في « رسالة التعاليم » : « وكُلُّ أحدٍ يُؤخذ من كلامه

ويُترك إلا المعصوم ﷺ ، وكلُّ ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقًا للكتاب والسنة قبِلناه ، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع » .

وأقولها خالصة لوجه الله : لو أن جماعة الإخوان المسلمين جرَّدت ولاءها للكتاب والسنة ، وللكتاب والسنة فقط ، ولم تقدِّس أقوال الرجال؛ لأتى منها خيرٌ كثيرٌ لا يستطيع الإنسان تصوُّره .

لقد قابل الشيخ البنا صعوبات كثيرة ؛ حاربه المستعمرون الإنجليز ، وفاروق وزبانيتُه وهم الذين دبَّروا محاولةَ اغتياله ، وحاربه حزب الوفد ووسائل الإعلام ، والأحزاب العلمانية ، وحاربه ضعاف النفوس من رفاق دربه الذين انضمُّوا إلى حزب الوفد ، واشترى الإنكليز وفاروق والأحزاب ذِمَمَ بعض كبار الأدباء والمفكِّرين ، حتى كتب أحدهم ذات مرة بأن حسن البنا من أصول يهودية ﴿ **كَبُرت كلمةً تخرُج من أفواههم إن يقولون إلَّا كذبًا** ﴾ .

وكان رحمه الله على جانبٍ عظيم من حُسْن الخُلُق ؛ يقول الأديب الكبير أحمد حسن الزيات : « وجدتُ فيه ما لم أجد في قبيله ، أو أهل جيله ؛ من إيمان بالله راسخ رسوخ الحق ، لا يزعزعه غرور العلم ، ولا شرود الفكر . وفقهٍ في الدين صاف صفاء المُزْن ، لا يكدِّره ضلال العقل ، ولا فساد النقل . وقوةٍ في البيان مشرقة إشراق الوحي ، لا تحبسها عقدة اللسان ، ولا ظلمة الحس ، إلى حديث يتصل بالقلوب ، ومحاضرةٍ تمتزج بالأرواح . وجاذبيةٍ تدعوك إلى أن تُحبَّه ، وشخصيةٍ تحملك على أن تُذْعِن !! » .

ثم قال الزيات : « والفطرة التي فُطر عليها حسن البنا ، والحقبة التي ظهر فيها حسن البنا تشهدان بأنه المصلح الذي اصطنعه الله لهذا الفساد الذي صنعه الناس »[(١)] .

---

(١) حسن البنا ، الداعية الإمام والمجدِّد الشهيد لأنور الجندي صـ ٢٦٨ .

لقد كانت أخلاقه قمة في المثالية مع مخالفيه ، وما أشد حاجة الدعاة إلى أخلاق كخُلُق البنا رحمه الله .

ولقد نجح الشيخ البنا في تحويل الأفكار إلى واقعٍ ملموس ، وصار لجماعته جانب ملحوظ وملموس في جوانب البر والخدمات الاجتماعية ، وأسَّس رحمه الله الشركات الاقتصادية ، وكان من أشهرها ؛ شركة المعاملات الإسلامية ، والشركة العربية للمناجم والمحاجر ، وشركة المطبعة الإسلامية ، والجريدة اليومية ، وشركة التجارة والأشغال الهندسية بالإسكندرية ، وشركة الإعلانات العربية ، فضلًا عن تأسيس المستشفيات المجانية . وأرهبت هذه الشركات فاروق والأحزاب والإنكليز .

ولقد كان الرجل جادًّا عندما نادى بتحرير مصر وبلدان العالم الإسلامي ، والمجدِّد لا يعرف الهزل في قضايا دينه وأُمَّته ؛ لقد أخذ رحمه الله يخطِّط لطرد الإنجليز من مصر وطرد اليهود من فلسطين ، وشكَّل تنظيمًا عسكريًا قويًّا اشترك به في حرب فلسطين . قال رحمه الله : « وفي الوقت الذي يكون فيه منكم – معشر الإخوان المسلمين – ثلاثمائة كتيبة قد جهَّزت كل منها نفسها ؛ روحيًّا بالإيمان والعقيدة ، وفكريًّا بالعلم والثقافة ، وجسميًّا بالتدريب والرياضة ، في هذا الوقت طالبوني أن أخوض بكم لُجَجَ البحار ، وأقتحم بكم عنان السماء ، وأغزو بكم كلَّ عنيدٍ جبار ؛ فإني فاعل إن شاء الله ... » . وأمر البنا إخوانه في مصر وسورية والأردن دخول حرب فلسطين ، وأبلت هذه القوات بلاءً حسنًا ، وكان اليهود يهابون المعارك التي تواجههم فيها كتائب الإخوان ، كما شهد رئيس أركان الجيش المصري في المحكمة وهو ليس منهم ، وليس من مؤيِّديهم .

ولا ينسى التاريخ جند عز الدين القسَّام ، والحاج أمين ، وعبد القادر الحسيني ، وكتائب يوسف طلعت عمر بن عبد العزيز ، وغيرها الذين استماتوا

في الدفاع عن فلسطين .

ولن ينسى الإنجليز معارك القناة ، ولشدَّما أرعبتهم عمامة الشيخ محمد الفرغلي إذا لاحت عمامته لهم .

هذا جانب تجديدي من تجديد حسن البنا ، وهذه صفحات مشرقة من تاريخ هذا الرجل في الجهاد[(١)] .

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله : « القادة الذين مدُّوا رواق الإسلام في هذا العصر ، وربّوا جيلا يتعشَّقه ويفنى فيه ؛ كانوا طرازًا خاصًّا من أصحاب القلوب الكبيرة والمشاعر المشبوبة ، ما إن تتصل بهم حتى تُحِسَّ إيحاءً دافقًا يتغلغل فيك ويخلعك من حاضرك وماضيك ، ويُسيِّرك مع القافلة الهاتفة لله ، العاملة لله .

ولست أنسى طريقة حسن البنا في صَقْل الأرواح ، ووصْلها بينابيع الحياة ، والحركة من كتاب الله وسنة رسوله .. والتربية الروحية فن دقيق .

والفتيان الأخيار الذين شرَّفوا الإسلام في هذا العصر ، هم ثمارٌ ناضجة لهذه التربية الروحية الموفَّقة ، فروسيَّتهم بالنهار وليدةُ رهبانيَّتهم بالليل ، ونجاح خطاهم في الحياة أثر صلتهم الموثَّقة بالله .

قد كان حسن البنا من أولئك الرجال الذين يظهرون في التاريخ على نُدرة ، ويُحْدِثون بمسلكهم الفذ موجات جارفة من الحركة والتجديد والمغامرة ، فيضيق به مَن يضيق ويَهَشُّ له من يهش ، ثم يميز الله الخبيث من الطَّيِّب ؛ فيعرف البشر جهد الجاهدين لهم ، والعاملين لخيرهم ، وتلهج ألسنتهم ثناءً وتنويهًا بأمرهم .

عن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل يحمده الناس عليه ،

---

(١) مجدِّدون معاصرون . العدد السادس عشر والعدد السابع عشر من مجلة « البيان ».

ويثنون عليه به ؟ فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن »(١) .

ولسنا عُبَّاد أشخاص ، وإنما نكرم المبادئ فحسب في الرجال الذين يحيون لها ، ويتجردون إلّا منها .

كان هذا العملاق رجلًا واسعًا ، في نفسه مجالات شتى للأمزجة المتباينة والبطولات المنوعة ، وذاك سِرُّ نجاحه في التجمع الغريب الذي قام به .

لقد التفَّ حوله ألوف وألوف ، فأحسن توجيههم ، وأمكنهم من العمل للإسلام ، فأفادوا واستفادوا .

وإذا كان القائد الذي يُحسن الانتفاع مما معه عظيمًا ، فأعظم منه - ولا شك - هذا الذي يوجد في بيئة لا تعطيه شيئًا ألبتة ، ثم هو مع ذلك الفراغ يخلُق خلقًا الوسائل التي يُدرك بها غايته ، ويحقِّق رسالته .

وعليه - في سبيل ذلك - أن يُوجد الجندَ ، وأن يُمهِّد الميدان ، وأن يبتدع الأساليب ، وأن يُكافح الزمن ، وأن تكون نفسه الكبيرة ينبوعًا دافقًا بالحياة والنشاط ؛ ليمدَّ هذه النواحي جميعًا ، بما يصل بها إلى نهايتها المنشودة .

وهذا الطراز من القادة يظهر في الحياة على نُدرة كما قلنا ، ومنهم الشهيد(٢) حسن البنا .

كان حسن البنا - حيث حلَّ - يترك وراءه أثرًا صالحًا .

وما لقيه امرؤ في نفسه استعداد لقبول الخير ، إلَّا وأفاد منه ما يزيده صِلةً بربِّه ، وفقهًا في دينه ، وشعورًا بتبعته نحو الإسلام والمسلمين .

---

(١) رواه مسلم وأحمد .

(٢) لا نجزم بالشهادة إلا بما جزم له رسول الله ﷺ ، نحسبه صالحًا ولا نُزكِّي على الله أحدًا ، ونسأل الله أن يتقبَّله في عداد الشهداء ؛ جزاء ما قدَّم لأُمّته .

والرجل الذي يشتغل بتعليم الناس ، لا يستطيع في أحيانه كلِّها أن يرسل النفع فيضًا عذقًا ، فله ساعات يخمد فيها ، وساعات يتألَّق ويُنير ؛ إن الإشعاع الدائم طبيعة الكواكب وحدها .

وقد كان حسن البنا ، في أُفقه الداني البعيد ، من هذا الطراز الهادي بطبيعته ؛ لأن جوهر نفسه لا يتوقَّف عن الإشعاع .

سل الألوف المؤلَّفة التي التقت به ، أو التي أشرق عليها الرجل في مداره العتيد ؛ ما من أحد منهم إلا وفي حياته ومشاعره وأفكاره أثرٌ من توجيهات حسن البنا ؛ أثر يعتزُّ به ، ويغالي بقيمته ، ويعتبره أثمن ما أحرز في دنياه .

كانت لدى حسن البنا ثروة طائلة من علم النفس ، وفن التربية ، وقواعد الاجتماع . وكان له بصرٌ نافذ بطبائع الجماهير ، وقيم الأفراد ، وميزان المواهب ...

لقد كان موفَّقًا في اصطياد الرجال وكانت كلماته البارعة تأخذ طريقها المستقيم إلى عقولهم فتأسرها ، وشغاف قلب السامع ، يمكن أن يقال فيه : ﴿ **وما رميْتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى** ... ﴾ الآية [الأنفال : ١٧] .

إن السماء وحدها التي تصنع للإنسان القبول في الأرض ؛ وقد كان حسن البنا ملاحَظًا بعناية الله من هذه الناحية الهامة ، فالتوفيق الذي صَاحَب دعوة حسن البنا ، والنجاح الباهر الذي صادفه ؛ لم يلقه غيره مع تشابه الأداة .

وقد بدأ حسن البنا يربِّي الجيل الجديد للإسلام ، على الأساس الذي وضعه للنهوض به ، إنه يريد تكوين دولة إسلامية ، وإقامة حكم شرعي رشيد ، فسلك إلى الغاية الطريق الوحيد الذي ينتهي بها ، وإن طال المدى ، وتراخت الأيام وكثُرت التكاليف ؛ طريق التربية الإسلامية .

عرف حسن البنا أن المسلمين هُزموا في مواقع شتَّى ، وعرف الرجل أسباب الهزيمة معرفة دقيقة ؛ إن النفوس قد تحلَّلت بالمعاصي ، والجماعة قد انحلَّت بالإسراف ،

والدولة قد تهدَّمت بحبِّ الدنيا وكراهية الموت ؛ ومن ثَمَّ انتصر الكافرون . فيجب أن تُقَوَّم النفوس بالطاعة ، وأن يُحارب السَّرَف والتَّرَف بالاقتصاد والاجتهاد ، وأن تُعلَّم الأمة الإقبال على المخاطر لتسلم لها الحياة ، وأن يتمَّ ذلك كلُّه على دعامةٍ موطَّدةٍ من قُوَّة الصِّلة بالله ، تشقُّ الحناجر بهذا الدعاء : ﴿ **ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبِّت أقدامنا وانصُرنا على القوم الكافرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٧] .. ومن ثمّ ينتصر المؤمنون .

على هذه الصخرة من علاقة الفرد بربِّه ؛ علاقة إنتاج وإقبال واستغفار ، لا علاقة كسل وإدبار – كان حسن البنا يجمع اللبنات الجديدة ؛ لإعادة ما انهدم من أركان الحكم الإسلامي النظيف . وما صدَّق الناس سلامة هذا الاتجاه في التربية ، حتى شهدت بادية الشام وشطآن القناة أحفاد خالد وأبي عبيدة وابن العوام؛ وابن الصامت ، صورًا متشابهة تتكرَّر بها معجزة رسول الله في الآخرين ، كما بدأت في الأولين .

لقد كان حسن البنا واحدًا من علماء كثيرين ظهروا في العصر الأخير ، لهم فقه جيد في الإسلام ودروس رائعة ، بيد أن حسن البنا يمتاز عن أولئك بخاصَّة أُتيحت له وحده ، ولم يُرزق غيره منها إلا القليل ، خاصَّة تأليف الرجال ، والاستيلاء على أفئدتهم ، وغرْس علمه في شغاف قلوبهم ، وأخذهم بآداب الإسلام ، في تلطُّف وإحسان ساحرَيْن .

الحب لا الحقد ، والشوق لا الوحشة ، والعفو لا العقوبة : هي العناصر التي توجد مبعثرة لكثرتها في حياة كلِّ رجل عظيم ، وقد كان حسن البنا مثلًا كريمًا لهذه العناصر الكريمة .

لقد جاب الآفاق وهو يُذكِّر بالله ويُعَرِّف بدينه ، وأحسبُه قضى تسعة أعشار عمره مسافرًا يضرب في مناكب الأرض لا يقصد من حِلِّه وترحاله إلَّا بعْث أمة وإحياء تاريخ ، وأحسبُه أولى الناس بقول الشاعر :

يقولون لـي ما أنـت فـي كـلِّ بلـدة وما تبتغي ؟ ما أبتغي جلَّ أنْ يُسمَى

قـال المهلهل في رثاء كليب ، وقد رأى الدنيا تغيرت بعده ، وتصدَّر للناس مـن ليس للسيادة أهلًا ، وأكثر اللغط من كان يحبس لسـانه في فَمـه وجلًا ، وابتذلت القضايا الكبرى فخاض فيها السُّوقة ومَن إليهم ، ممن يحلُّون مشكلاتهم بالسباب والوقاحة ؛ ينظر مهلهل إلى هذه الحال بعد فقْد أخيه ، ثم يقول :

نُبئت أن النار بعدك أُوقِـدَتْ واستبَّ بعدك يا كليبُ المجلسُ

وتحدَّثوا في أمر كلِّ عظيمـةٍ لو كنت حاضرهم بها لم يَنْبِسوا

ولا أدري ما الذي جعلني أُردِّد هذين البيتين بعد بضع سنين من اغتيـال حسـن البنا ؟ لقد بكيت مصرعه يوم قُتل ... وكنتُ بعد وفاته ألصـق به منـي في أثناء حياته .

لا أدري ما الذي استوقفني في هذين البيتين ؟

لا ، بل إننـي أدري !!! وإن بَعُد المدى بين رجل من صميـم الجاهلـية ورجل من ألـوية الإسلام ؛ لكأنَّ موت حسن البنا كان إيذانًا للصوص بأن الحارس اليقظ قد قضى ، فلا عليهم أن يختلسوا وأن يغتصبوا في طمأنينة من أيَّة مؤاخذة ... لكأنَّ الـرجل كان سدًّا تحتبس وراء أسواره العالية أمواج الفوضى والعصيـان والفسوق، بل تنحسر وتتقهقـر ، فلمَّا ولَّى تحرَّك الطوفـان الأعمـى ليدمِّر الفضيلة والإيمان ، وليجتاح سَيْلُه المجنون كلَّ ما شاد الخيرُ والبرُّ من شعائر ومآثر !!

كـان المستشرقون والأدباء الكبار وأساطين التبشير في الشـرق يبذلـون جهود الجبابرة ليبذروا بذور الإلحاد في الأوساط الجامعية ، وكانت السياسات الاستعمارية من ورائهم ، والأموال الغزيرة في أيديهم ، والحكومات الضعيفة فـي ركابهم . ومع حِدَّة هذا الهجوم وسطوة أصحابه ؛ فقد استطـاع حسـن البنا أن يكسر شوكته ، وأن ينكِّس رايته ، وأن يجعل طبول الإيمان تدقّ بقوة ،

والشباب الجديد يعرف ربَّه ، ويتعصَّب لدينه ؛ فإذا أمل الاستعمار يخبو ، وجيشه الزاحف يكبو .

ولِّي حسن البنا ، فإذا الإسلام لا يُهاجم من كبار الأدباء فحسب ، بل من كلِّ صُعْلوكٍ حمل القلم ومُكِّن من أن يضع الحبر على الورق !!!

إني لألتفتُ يَمنةً ويَسرةً وقد أخذتني الدهشة لكثرة الكلاب التي تنبح الإسلام ، وتتحرَّش برجاله وتكشِّر عن أنيابها ، وكأنها تريدُ قضْم أبدانهم ، أو على الأقل تمزيق ثيابهم ، وخمْش وجوههم ، وردّهم عن طريقهم ، ما هذا كله ؟!!

ما معنى أن ترى إنسانًا لا يُحسن قراءة بيتٍ من الشعر ، ولا سطرٍ من النثر قراءة صحيحة ، يحاول أن يكون مفسِّرًا للقرآن ، ومجتهدًا في تقرير أحكامه ؟!

ما معنى أن يستميت أديبٌ مشهور في تغيير الهجاء العربي ؛ تمهيدًا لقبر الحروف العربية ، وإماتة لفظ لغة القرآن ؟!

ما معنى الجراءة المستغربة في الدعوة إلى إباحة الزنا وتيسير الدعارة في الصحيفة نفسها التي تدعو إلى تحريم الطلاق ، وتقييد تعدُّد الزوجات ؟!

ما معنى الإلحاح على الشباب أن ينسى الألوهية ، وأن يفكَّ من سلوكه قيود الإيمان ؟!

ما هذا الإلحاح على الأُمَّة كي تتبرأ من تاريخها ، وتتسوَّل أسباب نجاحها من تحت أقدام الغزاة ؟!

ما سِرُّ هذه البغضاء الحالكة على الإسلام وأهله ؟!

أَكُلُّ امرئ نبت في بيت لا يعرف له أبًا ، أو يعرف أباه خادمًا للاستعمار ؛ يريد أن يطفح بسوئه على هذه الأمة لترضى الرذائلَ شريعةً ، واتباع الأجانب دينًا ؟!

إذا كنا نأسى على قتْل حسن البنا ؛ فلأن هذا الداعية الكبير قلَّم أظافر هؤلاء جميعًا ، فجعلهم يحسبون ألف مرة قبل أن يفكِّروا في لمْز الإسلام ، أو استهجان شيء منه !! »[1] .

وقفة أخيرة مع الشيخ حسن البنا :

لا يُنكِر أحدٌ عظم البنا كداعية دعا إلى شمولية الإسلام ، إلا مَن ينكِر الشمس في رابعة النهار .. ولو لم يكن له من فضْل إلا هذا لكفاه ... وكلُّ إنسان يُؤخذ من قوله ويُردُّ ، ولكل جوادٍ كبوة . وأمام التحقيق العلمي له آراء جانَبه فيها الصواب ، و « كفى المرء نُبْلًا أنْ تُعَدَّ معايبه » ، « وإن الماء إذا بلغ القلَّتين لا يحمل الخَبَث » ، فما ظنُّك إذا كان الماء نهرًا دافقًا . ولكن لا يُؤخذ بقوله في مسألة التوسُّل ، ولا في مسائل الأسماء والصفات وتفويض المعنى فيها ، فقد كبا جواده في هذا ، ولا في بعض مسائل الولاء والبراء . أما الذين يتحدَّثون عن صوفية البنا في صغره وبدء حياته ، فعليهم أن يشهدوا برجوع الرجل عما كان عليه ، كما جاء في المذكرات صـ١٣٢ حيث قال عن الصوفية : « حضر إلى الإسماعيلية ... من القصاصين وهو يدعو إلى الطريقة ، وله أفكار خاصَّة تنافي آمالي الإسلامية ... لقد آن الأوان الذي أعتزل به عن كلِّ هذه الدعاوى المشتبهة ، وأكشف فيه عن الغاية للإصلاح الإسلامي ، الذي يتلخَّص في الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وتطهير العقول من هذه الخرافات والأوهام ، وإرجاع الناس إلى هدي الإسلام الحنيف » .

* * *

---

(١) مقتطفات من كتاب « في موكب الدعوة » . للشيخ محمد الغزالي .

شيخ المحدِّثين ، مجدِّد العصر ، محدِّث ديار الشام : فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

إن لله رجالًا مؤمنين يحفظ الله بهم الأرض ، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى ، وسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى ، وهممهم عند الثريا بل أعلى ، تحبُّهم بقاعُ الأرض ، وتفرح بهم أملاكُ السماء .

قال الشيخ ابن باز يومًا في الشيخ : « ما رأيت تحت أديم السماء عالمًا بالحديث في العصر الحديث مثل العلامة محمد ناصر الدين الألباني »(١) .

وبعث إليه الشيخ محمد الغزالي في رسالة : « بسم الله الرحمن الرحيم ... الأخ الكريم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، نذكركم على البعد ؛ فنذكُر الرقابة الدقيقة على السُّنَّة المطهَّرة ، والغيرة المحمودة على معالم الإسلام الحنيف ، والجهاد العلمي الموصول في ميدان قلَّ فيه الرجال ، واحتاج إلى أُولي النجدة والنضال . فجزاكم الله عن دينه خير الجزاء ، وآنسكم في هجراتكم المتتابعة من قطر إلى قطر ، وأنت خبير بأن أنصار الله في هذا العصر لا يستقرُّون على حال ، وأنهم عُرضة للمتاعب الثِّقال ... » .

وقال الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق شيخ علماء الكويت : « كان ناصر الدين - وما زال - كالمطر لا يُبالي على أي أرض سقط ... عالم من علماء المسلمين ، وعَلَمٌ من أعلام الدعوة إلى الله ، وشيخ المحدِّثين وإمامهم في العصر الراهن .. أَلا وهو أُستاذي محمد ناصر الدين الألباني ، حفظه الله وبارك في عمره .

ناصر الدين الذي لا يكاد يجهله مسلم يهتم بأمر الدعوة إلى الله في العصر الحاضر ، ولا يستطيع أن يستغني عن مؤلَّفاته وتحقيقاته طالب علْم معاصر ؛ فمعظم الكتب العلمية التي يتداولها الناس الآن مصدَّرة بتحقيقاته وتخريجه لأحاديثها ، وطُلاب العلم الذين نقلوا علمه، وتتلمذوا على يديه ، وتربّوْا في حلقاته وصُحْبته ،

---

(١) الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه . لمحمد بن إبراهيم الشيباني صـ٦٥ - ٦٦ ، الدار السلفية بالكويت .

لا يُحصَوْن كثرة، وهم منتشرون في العالم الإسلامي أجمع على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم .

وقد قام ناصر الدين بنشر العلم الشرعي بكل طاقته في كل اتجاه .

ويرى الشيخ ناصر الدين أن المنهج السلفي لفهم الدين ، هو المنهج الكفيل بعودة المسلمين إلى الدين الحق ؛ عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقا . وناصر الدين لا يهمّه أن يحمل هذا المنهج السلفي أي أناس تسمَّوا بأي اسم ، كلُّ هَمِّه أن يُفهم هذا الدين فهمًا صحيحًا ، وأن يُطبّق تطبيقًا سليمًا ، وأن يكون سَيْر الناس مبنيًّا على الكتاب والسنة الصحيحة . والشيخ ينهى عن التَّحَزُّب والعصبية بأي لوْنٍ وأي شكْلٍ ويرى أن نهضة المسلمين منوطة بتعاونهم جميعًا ، وتضافُر جهودهم ، وتوجُّهها في كل اتجاه نحو بناء العقيدة أو تصحيح العمل أو مقارعة الباطل .

وأخذ ناصر الدين نفسه بقول كلمة الحق حيثما قدر على ذلك ، وقام بنقد الآراء الإسلامية التي يراها مُجانبة للصواب والحق وتصحيحها .. لا يُجامل في ذلك أحدًا حتى نفسه ، ولا أخلص محبِّيه وأصدقائه وإخوانه ، ولا أقرانه في العلم من العلماء السلفيِّين ؛ فلا يسمع حديثًا يرى أنه ضعيف إلا بيَّن ضعفه عنده ، ولا يسمع رأيًا مخالفًا للحق إلا كتب عنه ، ونبَّه عليه ؛ نُصْحًا للعامَّة ، وتنبيهًا للخاصَّة .

وقد أنشأ بذلك حركة عظيمة للوعي الديني وتحرِّي الحق فيما يُكتب ويُقال ، لا عند طائفة خاصّة فقط ، بل عند عامة العلماء الذين يُؤخذ عنهم أو يتتلمذ الناس على أيديهم ؛ ولهذا قدَّمت طائفة كبيرة منهم كتبهم له لنقدها وتصحيح أحاديثها ، وبذلك استفاد من هذا المنهج عموم المسلمين ، فقلَّ استخدام الحديث الضعيف ، وعظُم تحري الناس للحق ، وابتدأ الناس فَهْم الدين بطريقة علميّة مبنيّة على الدليل والبرهان ، بعد أن كان أخْذ الدين وتلقّيه

سائرًا بطريق التقليد والعشوائية ، وضمِّ الصحيح إلى الضعيف ، والشرك إلى التوحيد ، وجمْع الهدى مع الضلالة والبدعة مع السنة .

ولكن هذا المنهج النقدي العلمي الذي أخذ الشيخ نفسه به، أوجد لناصر الدين مجموعات كبيرة من الحاسدين ، فمُجرَّد أن يرى أحدُ المتعالين أنه نُقِد في رأيٍ له ، أو استدلالٍ خاطئ ؛ إذا به يتقلب على الشيخ تجريحًا . وهكذا وُجِد الذين يقدِّمون آراءهم على قول الله وقول رسوله .

ولا شك أن هذه هي سنة الله فيمن يصدع بالحق ، والعجب أن ناصر الدين لا يأبه لذلك ، فقد لازمتُه ثلاث سنوات ؛ فوجدتُ أن مدْح الناس له ومذمَّتهم عنده سواء !! إنه فقط يرى أنه حامل دعوة ، وصاحب حق يريد إبلاغه.. ولا نُزَكِّيه على الله ونحسبُه في ذلك كلِّه مخلصًا دينه لله، والله أعلم بالسرائر».

ولله در شيخ حلب : الشيخ محمد نسيب الرفاعي – رحمه الله – حين يقول عن دُرَّة السنة وتاج الأثر – الألباني –: « الشيخ ناصر:أنفاسه أنفاس رسول الله ﷺ ، وهو صاحب فضل عليَّ » . وإذا قال له معترض أو متلجلج : إن الشيخ ناصر يُحَسِّن – أو يصحِّح – اليوم ما يكون ضعَّفه بالأمس ، والعكس بالعكس . فيُجيب رحمه الله – مُخْرِسًا له –: « هذا من مناقب الشيخ ناصر وحسناته » . رحمك الله يا شيخ نسيب ، لقد كنتَ – والذي أماتك وأحياك – وقَّافًا عند أدب النبوة ، « ويعرف لعالِمنَا حقَّه »[1] .

ثناء الشيخ محمد إبراهيم شقرة على شيخه الألباني :

قال : لو أن شهادات أهل العصر في شيوخ السنة وأعلام الحديث والأثر

(١) الشيخ محمد نسيب الرفاعي صفحة دعوية طُويت . لمحمد إبراهيم شقرة – مقال في مجلة الأصالة العدد الثالث صـ٢٨،والمذكور قطعة من حديث حسن . رواه الحاكم وأحمد عن عبادة .

اجتمعت، ثم وضِعت على منضدة تاريخ العلماء؛ فإني أحسب أن تكون شهادة صادقة في عَلَم الحديث الأوحد ، أستاذ العلماء ، وشيخ الفقهاء ، ورأس المجتهدين في هذا الزمان : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، أكرمه الله في الدارين .

كانت ساحةُ علم الحديث والسنة النبوية قد أجدبت ، وصوَّح نَبْتُها ، وجفَّت أغصانها واسَّاقطت أوراقها ، وانقطع ثمرها ، والناس من فوقها ينظرون يَمنةً ويَسرةً ، علَّهم يرون فيها رجلًا يخلُف الأولين الغابرين ، ممن أعلى الله بهم منارة السنة النبوية ، فتعود أبصارهم إليهم كليلةً حاسرةً ، ليجدوا أمامهم ما خلَّف أولئك من كتبٍ مسطورةٍ لمن وراءهم ، أوْ لمن جاء من بعده ، بذلوا فيها جهدًا ضخمًا في جمْع الآثار والسنن والأحاديث ، وترتيبها ترتيبًا حسنًا يُسهِّل على القارئ - العالم وطالب العلم - النظر إليها ، والرجوع إليها عند الحاجة ، على ما في بعض هذه الكتب من صعوبة في استخراج الآثار والأحاديث منها ، وهذا أمرٌ لا يجهله طالب العلم ، فضلًا عن العالم الباحث ، والناظر المدقِّق .

وكُتُب السُّنَّة ، من صحاحٍ ، وسُنَن ، ومسانيد ، وجوامع ، ومصنَّفات ، وأجزاء ، على كثرتها وغزارة الجهد الذي بُذِل في تأليفها وتصنيفها وجمعها وتحقيقها ، والاستدراك عليها ، والزيادة على أصولها على مَرِّ العصور والأجيال - فقد ظلَّت بحاجة إلى تحقيقٍ دقيق ، وإحاطةٍ أشمل وأوسع بأسانيد الآثار والسنن والأحاديث التي حُشِدت فيها ؛ كي تصيرَ إلى حالٍ من الصحة ، ويطمئن إليها الباحثُ وطالب العلم والعالِم أكثر وأكثر .

ولا ريب أن مثل هذا العمل ينوء بالعصبة أولي القوة والجلادة من أهل العلم ، فأَنْ يقيِّض الله له رجلًا واحدًا ، يجمع الله به كل شاذَّةٍ وفاذَّة من فنون علم السنة؛ لَنعمةٌ جليلة، ليس على الشيخ ناصر وحده، بل على الأمة كلها، فهنيئًا لأمَّةٍ أنبت الله فيها هذا الشيخ الذي ألانَ الله له الحديث كما ألان لداود

الحديد ، ومُهِّدت له أكناف السنة من جديد .

ولعلَّ بعض من ابتُلي بشيءٍ من شهادات العصر من الجامعات والمعاهد ، يردِّد مع القائلين قولهم : ما ترك السابقون للَّاحقين شيئًا ، أوْ : ما ترك الأوَّلون للآخرين شيئًا .

قولوا ما شئتم ، ولكن ماذا كان يُراد بهذا العلم العظيم - علم السنة - لو أنه ظل أمانة عند هؤلاء - وما أضيعها إذًا من أمانة - ولم يجد في عقل الشيخ ناصر وقلبه وقوة نفسه وثبات صبره واحتمال مثابرته ما وجد ؟!

وكثيرٌ هم أولئك الذين يجعلون من الشيخ - أعزَّه الله - غرضًا لسهام حسدهم وحقدهم ، وتراهم يحومون حول مائدته حَوْم المريب المفزع الذي يخشى أن يُبصر به مَن هو على شاكلته ، يصنعون صنيع النفر من قريش ، حين اتفقوا على أن يتفرَّقوا عن النبي ﷺ ، وأن لا يُصغوا لقراءاته من الليل ، فلمَّا جنَّ الليل خرج كل منهم متسلِّلًا ، لائذًا بلباس الظلام، وهو يظن أن الآخرين لا يعرفونه .

وحسْبُ طالب العلم أن يُلِمَّ بأي كتاب من كتب الشيخ؛ ليرى رسوخ قدمه، وطول باعه، وسعة اطلاعه وكثرة استدراكه ، ودِقَّة استقصائه ، وحُسْن ترتيبه ونظمه ، وتلاحُق حججه ، وعُلو برهانه ، وحضور ذهنه ، وقوة عارضته ، ونفاذ بصره ، ووضوح بصيرته ، وشدَّة تمكُّنه . ولكن كما يُقال : المعاصرة حرمان . غير أنها كلمة إن صَدقت في غير الشيخ ، فهي قد نَبَتْ عنه ونأتْ ، فأي حرمانٍ هذا الذي أراده إليه الشانئون الجاهلون ، ومدرستُه قد امتدَّت أرْوِقتُها حتى شملت آفاق الأرض ، وصارت كتُبه في صَمْتٍ مهيبٍ تحرِّرُ العقول من الخرافة والأساطير ، والقلوب من الوهم والرِّيْب ، والنفوس من الغلِّ والكبرياء والحسد؛ في حكمةٍ بالغة، وبرهانٍ منير ، وموعظةٍ تبلُغ من النفوس مبلغًا يرفع عنها غشاوات الجهالة ، ويردُّها إلى القرون الثلاثة المفضَّلة ، ويشدُّها إلى وثاق

الهدي النبوي الأمين .

ومَن نظر في حياة الشيخ ، وعرفه عن قُرْب ؛ عَرف أنه من أولئك الأفذاذ الذين قلما يجودُ الزمان بمثله[١] .

كلمة للشيخ مقبل بن هادي الوادعي :

قال الشيخ مقبل عن الشيخ ناصر : « إن الشيخ محمد ناصر الدين الألباني – حفظه الله تعالى – لا يُوجَد له نظير في علم الحديث، وقد نفع الله بعلمه وكتبه أضعاف أضعاف ما يقوم به أُولئك المتحمِّسُون للإسلام على جَهْلٍ ... أصحاب الثورات والانقلابات .

والذي أعتقده وأدين الله به ، أن الشيخ محمد ناصر الدين الألباني – حفظه الله – من المجدِّدين ، الذين يصدُق عليهم قول الرسول ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها أمر دينها » . رواه أبو داود ، وصحَّحه العراقي وغيره .

ولا يستغني طالب علم في هذا الزمن عن الاستفادة من كتب الشيخ الألباني حفظه الله، وإني أنصح كلَّ طالب علم باقتنائها والاستفادة منها ، فقد جمع الشيخ – حفظه الله – فيها ما لا يُستطاع الوقوف على كلِّه ، وتيسَّر له الاطلاع على كتب لم يطَّلع عليها كثير من طلبة العلم »[٢] .

إلى شانئي الشيخ غير المنصفين :

ألم يُعِد الشيخ ناصر إلى الأذهان حُجِّيَّة السُّنَّة وفقهها ، ووجوب الرجوع إليها ، بعد أن نُبذت دهورًا ؟!

---

(١) الألباني حياته وآثاره ٢/٥٤٩ – ٥٥٢ .

(٢) الألباني حياته وآثاره ٢/٥٥٥ – ٥٥٦ .

ألم يخدم السنة خدمة تفوق خدمة مجامع البحوث العلمية مجتمعة وجمهرة من العلماء لو اشتغلوا ؟!

ألم يحقِّق عددًا من المخطوطات النافعة ، التي تلزم الأمة في نهضتها ، بل تلزمها أولًا في عقيدتها ودينها ؟!

ألم يوفِّق جميع المسلمين لمعرفة أحاديث الأحكام خاصَّةً ، ودرجة الوثوق بكلِّ حديث ، وكيف يمكن الاحتجاج به ؛ وطريقة الاحتجاج ؟!

ألم يذبَّ عن السنة بجمع الأحاديث الموضوعة والضعيفة في ثلاثة عشر مجلَّدًا ؛ كي يتجنَّبها العلماء الذين لم يعترفوا به ، وجُلُّهم ممن لا يُميِّز بين غثٍّ وسمين ؟!!

ثم أليس للشيخ ناصر أنصاره وأتباعه في كل العالم الإسلامي ؟ وهل يدَّعي طالب علم أنه يستغني عن كتبه إلا إن كان أحمق أو مغرورًا ؟!

أليس الرجل يدعو إلى عقيدة السلف ، ويشرح ويُفصِّل ما أجمله البنا - رحمه الله - من أنَّ دعوته سلفية .

ثم إن الرجل يقول : إن الجهاد فرض عين ، وإن المسلمين كلّهم آثمون . على خلاف ما يُشاع من أنه يحارب الفكر الجهادي .

سنن أحياها الألباني :

١ - صلاة العيد في المصلَّى خارج البلد ، هي السنة .

٢ - خطبة الحاجة ، التي كان رسول الله ﷺ يعلِّمها أصحابه .

٣ - آداب الزفاف في السنة المطهرة .

٤ - أحكام الجنائز وبدعها .

٥ - صحيح الكَلِم الطَّيب ، والتعبُّد بالأدعية والأذكار الصحيحة فقط .

٦ - وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة والردّ على شُبَه المخالفين .

٧ - كيفية أداء الصلاة كما أدّاها رسول الله ﷺ .

٨ - سنة « السلام على النبي في التشهُّد » ، وصيغ التشهد .

الألباني ودعوته :

تُوضع دائمًا في كتب الشيخ ورسائله القواعد الخمس لدعوته :

١ - الرجوع إلى الكتاب الكريم والسنة الصحيحة ، وفهمها على النهج الذي كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم .

٢ - تعريف المسلمين بدينهم الحق ، ودعوتهم إلى العمل بتعاليمه وأحكامه ، والتَّحلِّي بفضائله وآدابه التي تكفُل لهم رضوان الله ، وتحقِّق لهم السعادة والمجد .

٣ - تحذير المسلمين من الشرك على اختلاف مظاهره ، ومن البدع والأفكار الدخيلة ، أو الأحاديث المنكرة والموضوعة ؛ التي شوهت جمال الإسلام وحالت دون تقدُّم المسلمين .

٤ - إحياء التفكير الإسلامي الحر في حدود القواعد الإسلامية ، وإزالة الجمود الفكري الذي ران على عقول كثير من المسلمين ، وأبعدهم عن منهل الإسلام الصافي .

٥ - السعي نحو استئناف حياة إسلامية ، وإنشاء مجتمع إسلامي ، وتطبيق حكم الله في الأرض .

الشيخ الألباني رائد التصفية والتربية؛ الطريق الرشيد لبناء الكيان الإسلامي :

يقول الشيخ الألباني : « أقول وأخصُّ به المسلمين الثقات ، المتمثِّلين في الشباب الواعي ، الذي عرف أولا مأساة المسلمين ، واهتمَّ ثانيًا بالبحث الصادق عن الخلاص وبكل ما أُوتيه من قوة ... بينما الملايين من المسلمين مسلمون

بحكم الواقع الجغرافي أو في تذكرة النفوس(١) ... فهؤلاء لا أعنيهم بالحديث ، أعود فأقول : إن الخلاص على أيدي هؤلاء الشباب يتمثَّل في أمرين لا ثالث لهما ؛ التصفية والتربية .

التصفية: وأعني بالتصفية: تقديم الإسلام إلى الشباب المسلم مصفًّى من كل ما دخل فيه على مرِّ هذه القرون والسنين الطوال ؛ من العقائد ومن الخرافات ومن البدع والضلالات ، ومن ذلك ما دخل فيه من أحاديث غير صحيحة قد تكون موضوعة،فلابد من تحقيق هذه التصفية ؛ لأنه بغيرها لا مجال أبدًا لتحقيق أمنية هؤلاء المسلمين ، الذين نعتبرهم من المصطفين المختارين في العالم الإسلامي الواسع .

فالتصفية هذه إنما يُراد بها تقديم العلاج الذي هو الإسلام ، الذي عالج ما يشبه هذه المشكلة ، حينما كان العرب أذلَّاء وكانوا يُستعبدون من فارس والروم والحبشة من جهة،وكانوا يعبدون غير الله تبارك وتعالى من جهة أخرى .

نحن نخالف كل الجماعات الإسلامية في هذه النقطة ، ونرى أنه لا بد من البدء بالتصفية والتربية معًا ، أما أن نبدأ بالأمور السياسية ، والذين يشتغلون بالسياسة قد تكون عقائدهم خرابًا يبابًا ، وقد يكون سلوكهم من الناحية الإسلامية بعيدًا عن الشريعة ، والذين يشتغلون بتكتيل الناس وتجميعهم على كلمة « إسلام » عامة ، ليس لهم مفاهيم واضحة في أذهان هؤلاء المتكتِّلين حول أولئك الدعاة ، ومن ثَمَّ ليس لهذا الإسلام أي أثر في منطلقهم في حياتهم ، ولهذا تجد كثيرًا من هؤلاء وهؤلاء لا يحقِّقون الإسلام في ذوات أنفسهم، فيما يمكنُهم أن يطبِّقوه بكل سهولة . وفي الوقت نفسه يرفع هؤلاء أصواتهم بأنه لا حكم إلا لله ، ولا بد أن يكون الحكم بما أنزل الله ؛ وهذه كلمة حقٍّ ، ولكن فاقد الشيء لا يعطيه .

---

(١) الجنسية أو البطاقة أو شهادة الميلاد .

العلة الأولى الكبرى : بُعْدهم عن فهْم الإسلام فهمًا صحيحًا ، كيف لا وفي الدعاة اليوم من يعتبر السلفيين بأنهم يضيِّعون عمرهم في التوحيد ، ويا سبحان الله ، ما أشد إغراق من يقول مثل هذا الكلام في الجهل ؛ لأنه يتغافل - إن لم يكن غافلًا حقًّا - عن أن دعوة الأنبياء والرسل الكرام كانت ﴿ **أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ . بل إن نوحًا عليه الصلاة والسلام أقام ألف سنة إلا خمسين عامًا ، لا يصلح ولا يشرع ، ولا يقيم سياسة ، بل : يا قوم اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت .

هل كان هناك إصلاح ؟ هل هناك تشريع ؟! هل هناك سياسة ؟ لا شيء ، تعالوا يا قوم اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فهذا أول رسول - بنص الحديث الصحيح- أُرسل إلى الأرض، استمرَّ في الدعوة ألف سنة إلا خمسين عامًا لا يدعو إلا إلى التوحيد ، وهو شغْل السلفيين الشاغل ، فكيف يُسفُّ كثير من الدعاة الإسلاميين وينحطُّوا إلى درجة أن ينكروا ذلك على السلفيين .

التربية : والشطر الثاني من هذه الكلمة يعني أنه لا بد من تربية المسلمين اليوم ، تربية على أساس ألا يُفتنوا كما فُتِن الذين من قبلهم بالدنيا . ويقول الرسول ﷺ : « ما الفقرَ أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تُفتح عليكم زهرة الحياة الدنيا ، فتهلككم كما أهلكت الذين من قبلكم » . ولهذا نرى أنه قلَّ مَنْ ينتبه لهذا المرض فيربي الشباب ، لاسيما الشباب الذين فتح الله عليهم كنوز الأرض ، وأغرقهم في خيراته - تبارك وتعالى - وفي بركات الأرض، قلَّما يُنبَّه إلى هذا . مرض يجب على المسلمين أن يتحصَّنوا منه، وأن لا يصل إلى قلوبهم « حب الدنيا وكراهة الموت » ، إذًا فهذا مرض لا بد من معالجته ، وتربية الناس على أن يتَخلصوا منه .

الحل وارد في ختام حديث الرسول ﷺ: «حتى ترجعوا إلى دينكم». الحل يتمثَّل في العودة الصحيحة إلى الإسلام ، الإسلام بالمفهوم الصحيح الذي كان عليه

رسول الله ﷺ وصحابته .

قال تعالى : ﴿ **إن تنصروا الله ينصُرْكم** ﴾ [محمد : ٧] وهي التي أجمع المفسرون على أنَّ معنى نصر الله: إنما هو بالعمل بأحكامه، فإذا كان نصر الله لا يتحقق إلا بإقامة أحكامه ، فكيف يمكننا أن ندخل في الجهاد عمليًّا ونحن لم ننصر الله ؛ عقيدتنا خراب يباب ، وأخلاقنا تتماشى مع الفساد ، لا بد إذًا قبل الشروع بالجهاد من تصحيح العقيدة وتربية النفس ، وعلى محاربة كل غفلةٍ أو تغافُل، وكلِّ خلافٍ أو تنازع؛ ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم**﴾ [الأنفال:٤٦] وحين نقضي على هذا التنازع وعلى هذه الغفلة، ونُحِلُّ محلهما الصحوة والائتلاف والاتفاق ؛ نتجه إلى تحقيق القوة المادية ﴿ **وأعدُّوا لهم ما استطعْتُم من قوة ومن رباط الخيل** ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

أخلاق المسلمين في التربية خراب يباب . أخطاء قاتلة، ولا بد من التصفية والتربية والعودة الصحيحة إلى الإسلام ، وكم يعجبني في هذا المقام قول أحد الدعاة الإسلاميين – من غير السّلفيين ، ولكن أصحابه لا يعملون بهذا القول –: « أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم دولته في أرضكم » .. إن أكثر الدعاة المسلمين يخطئون حين يغفلون مبدأنا هذا ، وحين يقولون : إن الوقت ليس وقت التصفية والتربية ، وإنما هو وقت التكتُّل والتجمُّع .. إذ كيف يتحقَّق التكتُّل والخلاف قائم في الأصول والفروع .. إنه الضعف والتخلُّف الذي استشرى في المسلمين .. ودواؤه الوحيد يتلخَّص فيما أسلفتُ في العودة السليمة إلى الإسلام الصحيح ، أو في تطبيق منهجنا في التصفية والتربية ، ولعلَّ في هذا القدر كفاية . والحمد لله رب العالمين »[1] .

(١) الألباني حياته وآثاره ١/٣٧٧ – ٣٩١ .

« إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة »[(١)] :

هذا الحديث تصوير صحيح لواقعنا المر .. الذي نهدت فيه رغائب الأُمة في شعاب التفرُّق والأهواء ، واستطالت فيه آراء العقول من غير هدًى ولا كتاب منير ، واعتسفت فيه مائدات السوء بالناس إلى سرابٍ بِقِيعَةٍ ، فصاروا إلى ضياعٍ في الحق ، وإقلالٍ في الورع ، وتكاثرٍ من الباطل ، فأضحوا كما قال عليه الصلاة والسلام : « كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة » .

والشيخ الألباني حفظه الله – في زماننا هذا – راحلة علم عالية السَّنام ، تامّة الخلق ، متماسكة البناء ، تغدو إليها رواحل العلم خِفافًا خماصًا ، وتروح عنها ثقالًا بطانًا ؛ فقد أنعم الله عليه بعلم أوثَقه إلى القرون الأولى ، وأقامه على جادتها ، وأراه فيها من آيات العلم الكبرى ، وما نيل من الشيخ إلا بسبب الحسد .

لم يرَ أشياخ العصر فسطاط علم الشيخ يمتدُّ ويمتدُّ كلَّ يوم ، ويأوي إليه الألوف من المسلمين ، الذين استنارت بصائرهم بنور الحق وهُدوا إلى سواء القصد ، حين أُلهموا أن ينهلوا من علم الشيخ في كتبه ورسائله وتسجيلاته من بعيد ومن قريب . في حين أن « المشايخ » و« الأشياخ » و« الشيخة » و« المشيوخاء » يُصرُّون على عداوته ، والطعن عليه ، وتجريحه ، والقول فيه ما لم يقله أهل الجاهلية الأولى ! وإنها – والله – الفتنة ؛ فتنة النفس الأمّارة ، القرَّارة ، الجرَّارة ، البوّارة ، الموَّارة !!

إنها أمشاج العلم تتهارش في رَدَخَة خلائف التعصُّب من بعد المنارات التي علت في سماء القرون وضوَّأت آفاق الحياة ، وأقبلت إليها ركائب طُلّاب المعرفة من كل الأقطار ، تنهل من معينها الثَّرّ الصافي .

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر .

نسأل المشيوخاء والدكاتير : هل أحسنوا صُنعًا في أنفسهم حين هاجت هائجتهم ، وخرخرت أصواتهم ، وتسعَّرت لَهَواتُهم ، ورقصت قلوبهم ، وكتبوا في الصحف التي لا تزيد أعلاها أن تكون أقل من « خضراء الدِّمَن » تحمل لواء الولاء لكل صاحب بلاء كحاطب الليلة الظلماء .

نسأل كل من تدثَّر بخيالات الأطفال السُّذَّج ، بسوء أدب ، وكُزوزة وجه ، وبلادة حس ، وقماءة رجولة ، وركاكة دين ، وفهاهة لسان ، وخيلاء مجانين ، وكبرياء صاغرين ، وحقارة حاسدين : ما تنقمون على من يضع على منكبيه رداء علوم السُّنَّة ، فيكون الإمام المقدَّم في عصر أجدبت فيه الأرض من مثله وأبت - حتى على نفسها بإذن ربها - أن يكون له نِدٌّ إلا نفسه ؟! فما رأت عيون المنصفين في عصره مثله ، وإن كره الشانئون ، وخارت أصواتهم ، وبرمت بهم نفوسهم ، من غلٍّ أثقلها ومن حسدٍ أقعدها ، ومن روغانٍ عن الحق أبعدها .

لقد أعاد حفظه الله عَيْبَة العلم ملأى بصدق رغبته ، وجلادة نفسه ، وثقوب بصره ، وطول معاناته ، وعزمه أن تعود سنة الرسول ﷺ إلى الظهور من جديد في الأمة ؛ لتكون موئل العلماء وطلاب العلم ، ومربد العقول ، ومزدحم العزائم ، ودارة الحق والهدى .

لقد - والله - أذكر علم الشيخ بعلم السابقين ، ولو كان في زمانهم لعرفوا له قدره .

ويكفي الشيخ نُصْرةً من ربه ، أنْ نَصَبَهُ لنشْر راية سنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وكسْر شوكة البدعة ، والكشف عن زيوف دهاقنة العجم ، وفضْح خروج المعتزلة ، والإبانة عن عورات أنصار العقائد الفاسدة ، وجهالات سِمَانِ الإفك والضلالة .

ويكفي الشيخ نُصْرةً من ربِّه ، أنه إذا ذُكِر ذُكر الكتاب والسنة ؛ فقد

أعلى الله في الأرض ذكره ، وصَيَّره أمينًا حافظًا لأسانيد الأخبار ومتون السنن ، ومكَّنَهُ من فقهها ما لم يُمكّن لأحدٍ في عصره ، وآتاه من علومها ما لم يؤتِ أحدًا .

فإلى كلِّ صاحبِ همَّةٍ علمية قعساء ، إلى كلِّ أفَّاكٍ هائجٍ ، وكلِّ متعالم مختلط ، وكلِّ مُغْرِضٍ باهت .

يـا نـاطـحَ الجبـل العـالـي لتَكْلِمَـهُ أشْفِقْ على الرأسِ لا تُشْفِقْ على الجبلِ

وختامًا : اعلم « أن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله في هَتْك أستار مُنْتقِصيهم معلومة »[(١)(٢)] .

وختامًا : فهذه نقطة في بحر همة الشيخ ومجدِّد العصر في طلب العلم والحرص عليه .. كيف ضاعت منه ورقة واحدة فقط من مخطوطة فمن أجلها قرأ مَجلَّدات المكتبة الظاهرية من المخطوطات ، ولنسمع إلى الشيخ الشيباني وهو يتحدَّث عن فهرسة الشيخ الألباني لمخطوطات المكتبة الظاهرية : ترجع قصة عمل هذا الفهرس إلى أن المجمع العلمي العربي السوري قد طلب من الشيخ - بحكم معرفته بدار الكتب الظاهرية « قسم الحديث ومخطوطاته » ، والخبير به - أن يُعِدَّ فهرسًا في المخطوطات الحديثية المحفوظة بالدار ، وكان الشيخ قد وضع منذ عشرات السنين فهرسًا خاصًّا به ، ثم طلبت منه إدارة المكتبة الظاهرية إعداد فهرس لمخطوطات الحديث ، وقد شرح لنا الشيخ ذلك في قصة طريفة تتجلَّى فيها ثمرة الدَّأب ، والصبر على تقصِّي مسائل العلم عند الشيخ . وقد كشف في هذا الفهرس عن كثير من المخطوطات القيِّمة ، التي لا يعرف أسماء بعضها أو الكثير منها - فضلًا عن أعيانها - أحدٌ،فاقتضاه الإعداد المذكور الرجوع مجددًا إلى مئات المجلَّدات من المخطوطات المشار إليها ؛ لأجل التثبُّت والتحقُّق من صحَّة الأرقام والأوصاف المذكورة في الفهرس . واستدرك ما يمكن

---

(١) تبيين كذب المفتري ، لابن عساكر صـ٢٩ - ٣٠ .

(٢) ماذا ينقمون من الشيخ ؟ للشيخ محمد إبراهيم شقرة .

استدراكه من الكتب التي فاته سابقًا تسجيلها وإحصاؤها ، فأضحى هذا الفهرست الفريد من نوعه في عالم الفهارس لعالم ليس هذا تخصُّصه ، وأخيرًا فلنستمع أيُّها القارئ إلى الشيخ يحكي قصة وضْع هذا الفهرس .

سبب تأليف الفهرس : الورقة الضائعة :

لم يكن ليخطر في بالي وضْع مثل هذا الفهرس ؛ لأنه ليس من اختصاصي ، وليس عندي متَّسع من الوقت ليساعدني عليه ، ولكن الله تبارك وتعالى إذا أراد شيئًا هيَّأ أسبابه ؛ فقد ابتُليتُ بمرض خفيف أصاب بصري ، منذ أكثر من اثني عشر عامًا ، فنصحني الطبيب المختص بالراحة ، وتَرْك القراءة والكتابة والعمل في المهنة – تصليح الساعات – مقدار ستة أشهر ؛ فعملتُ بنصيحته أول الأمر ، فتركتُ ذلك كله نحو أسبوعين ، ثم أخذتْ نفسي تُراودني وتزيِّن لي أن أعمل شيئًا في هذه العطلة المُمِلَّة ، عملًا لا يُنافي بزعمي نصيحته ، فتذكَّرت رسالة مخطوطة في المكتبة ، اسمها « ذم الملاهي » للحافظ ابن أبي الدنيا ، لم تُطبع فيما أعلم يومئذ ، فقلت : ما المانع من أن أُكلِّف من ينسخها لي ؟ وحتى يتمَّ نسخها ، ويأتي وقت مقابلتها بالأصل ، يكون قد مضى زمن لا بأس به من الراحة ، فبإمكاني يومئذ مقابلتها ، وهي لا تستدعي جهدًا ينافي الوضع الصحي الذي أنا فيه ، ثم أُحقِّقها بعد ذلك على مهل ، وأخرِّج أحاديثها ، ثم نطبعها ، وكل ذلك على فترات لكي لا أشق على نفسي . فلما وصل الناسخ إلى منتصف الرسالة ، أبلغني أن فيها نقصًا ، فأمرته بأن يُتابع نسْخها حتى ينتهي منها ، ثم قابلتُها معه على الأصل ، فتأكَّدت من النقص الذي أشار إليه ، وأُقدِّره بأربع صفحات في ورقةٍ واحدة في منتصف الكراس ، فأخذتُ أفكِّر فيها ، وكيف يمكنني العثور عليها ؟ والرسالة محفوظة في مجلد من المجلدات الموضوعة في المكتبة تحت عنوان « مجاميع » ، وفي كل مجلد منها على الغالب عدد كبير من الرسائل والكتب ، مختلفة الخطوط والمواضيع والورق، لونًا وقياسًا . فقلت في نفسي : لعلَّ الورقة

الضائعة قد خلطها المجلِّد سهوًا في مجلّدٍ آخر من هذه المجلدات . فرأيتني مندفعًا بكل رغبة ونشاط باحثًا عنها فيها على التسلسل ، ونسيت أو تناسيت نفسي ، والوضع الصحي الذي أنا فيه ، فإذا ما تذكرته ، لم أعدم ما أتعلَّل به ، من مثل القول بأن هذا البحث لا يُنافيه ؛ لأنه لا يصحبه كتابة ولا قراءة مضنية . وما كدتُ أتجاوز بعض المجلدات ، حتى أخذ يسترعي انتباهي عناوين بعض الرسائل والمؤلفات لمحدِّثين مشهورين ، وحُفَّاظ معروفين ، فأقف عندها ، باحثًا لها ، دارسًا إياها ، فأتمنى لو أنها تُنْسخ وتُحقَّق ثم تُطبع ، ولكني كنتُ أجدها في غالب الأحيان ناقصة الأطراف والأجزاء فأجد الثاني دون الأول مثلًا ، بحثًا عن الورقة الضائعة ، ولكن عبثًا حتى انتهت مجلدات « المجاميع » البالغ عددها (١٥٢) مجلدًا . بيد أني وجدتني في أثناء المتابعة أخذت أُسجِّل في مسوّدتي عناوين بعض الكتب التي راقتني ، وشجعني على ذلك أنني عثرت في أثناء البحث فيها على بعض النواقص ، التي كانت قبل من الصوارف عن التسجيل .

ولما لم أعثر على الورقة في المجلدات المذكورة، قلت في نفسي: لعلها خِيطت خطأ في مجلَّد من مجلَّدات كتب الحديث ، والمسجلة في المكتبة تحت عنوان « حديث » . فأخذتُ أقلّبُها مجلدًا مجلدًا ، حتى انتهيتُ منها دون أن أقف عليها ، ولكني سجَّلت أيضًا عندي ما شاء الله تعالى من المؤلّفات والرسائل ، وهكذا لم أزل أُعلِّل النفس وأُمنِّيها بالحصول على الورقة ، فأنتقل في البحث عنها بين مجلدات المكتبة ورسائلها من علم إلى آخر ، حتى أتيت على جميع المخطوطات المحفوظة في المكتبة ، والبالغ عددها نحو عشرة آلاف مخطوط ، دون أن أحظى بها .

ولكني لم أيأس بعد ، فهناك ما يعرف بـ « الدست » ، وهو عبارة عن مكدّسات من الأوراق والكراريس المتنوعة التي لا يُعرف أصلها ، فأخذت في البحث فيها بدقَّة وعناية ، ولكن دون جدوى . وحينئذٍ يئست من الورقة ،

ولكني نظرتُ فوجدتُ أن الله تبارك وتعالى قد فتح لي - من ورائها - بابًا عظيمًا من العلم ، طالما كنتُ غافلًا عنه كغيري ؛ وهو أن في المكتبة الظاهرية كنوزًا من الكتب والرسائل في مختلف العلوم النافعة التي خلَّفها لنا أجدادنا رحمهم الله تعالى ، وفيها من نوادر المخطوطات التي قد لا تُوجد في غيرها من المكتبات العالمية ، مما لم يطبع بعد .

فلما تبيَّن لي ذلك ، واستحكم في قلبي ؛ استأنفتُ دراسة مخطوطات المكتبة كلها من أولها إلى آخرها للمرة الثانية ، على ضوء تجربتي السابقة التي سجَّلت فيها ما انتقيت فقط من الكتب ، فأخذتُ أسجِّل الآن كل ما يتعلَّق بعلم الحديث منها ما يفيدني في تخصُّصي ، لا أترك شاردةً ولا واردةً إلَّا سجَّلتها ، حتى لو كانت ورقة واحدة من كتاب أو جزء مجهول الهوية . وكأنَّ الله تبارك وتعالى كان يُعِدُّني بذلك كلّه للمرحلة الثالثة والأخيرة ؛ وهي دراسة هذه الكتب دراسةً دقيقةً ، واستخراج ما فيها من الحديث النبوي مع أسانيده وطرقه ، وغير ذلك من الفوائد ؛ فإني كنت في أثناء المرحلة الثانية ، ألتقط نُتَفًا من هذه الفوائد التي أعثر عليها عفوًا ، فما كدت أنتهي منها حتى تشبَّعت بضرورة دراستها كتابًا كتابًا ، وجزءًا جزءًا ؛ ولذلك فقد شمَّرت عن ساعد الجد ، واستأنفت الدراسة للمرة الثالثة ، لا أدع صحيفة إلا تصفَّحتُها ، ولا ورقة شاردة إلا قرأتُها ، واستخرجتُ منها ما أعثُر عليه من فائدة علمية ، وحديث نبوي شريف ، فتجمَّع عندي بها نحو أربعين مجلَّدًا ، في كل مجلد نحو أربعمائة ورقة ، في كل ورقة حديث واحد ، معزّو إلى جميع المصادر التي وجدتُه فيها ، مع أسانيده وطرقه ، ورتَّبتُ الأحاديث فيها على حروف المعجم ، ومن هذه المجلَّدات أُغذّي كلَّ مؤلَّفاتي ومشاريعي العلمية ، الأمر الذي يساعدني على التحقيق العلمي ، الذي لا يتيسَّر لأكثر أهل العلم لا سيما

في هذا الزمان الذي قنعوا فيه بالرجوع إلى بعض المختصرات في علم الحديث وغيره من المطبوعات !! فهذه الثروة الحديثية الضخمة التي توفَّرت عندي ، ما كنتُ لأحصُل عليها ، لو لم يُيسِّر الله لي هذه الدراسة بحثًا عن الورقة الضائعة !! فالحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات .

* * *

الفصل السادس

عُلُوّ هِمَّة الأُدَباء والشُّعَراء

ينتابُنا جبريـلُ في أبياتنـا بفرائض الإسلامِ والأحكامِ
فنكونُ أوَّلَ مُسْتَحِلّ حلالِهِ ومحرِّمٍ لله كـلَّ حـرامِ
نحن الخيارُ من البريَّةِ كلِّها ونظامُها وزِمَامُ كل زمامِ
والمُبرِمون قُوَى الأمورِ بعزمهم والنـاقضون مرائِـرَ الأقـوامِ

[حسَّان بن ثابت]

« والله ما أخذتُ البلاد بالعساكر ، بل برسائل القاضي الفاضل »

[صلاح الدين الأيوبي]

□ عُلُوّ هِمَّة الأُدَباء والشُّعَراء □

سبحان من رَفَع شأن البيان والكتابة ، فقال تعالى : ﴿ **ن والقلم وما يسطرون** ﴾ [القلم : ١] ، والقسم بها ، تعظيمٌ لقيمتها ، وتوجيهٌ إليها ، لتقوم بنقْل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض ، ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادةً رشيدةً ، وكان هذا حلقة من المنهج الإلهي لتربية هذه الأُمَّة ، وإعدادها للقيام الكوني الضخم الذي قدَّره لها في عِلْمه المكنون .

مجَّد الله قيمة القلم ، فأشار إليه هذه الإشارة في أوَّلِ لحظةٍ من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية؛ في أوَّل سورةٍ من سور القرآن الكريم: ﴿**اقرأ باسم ربِّك الذي خلق** .. ﴾ وقال تعالى : ﴿ **اقرأ وربُّك الأكرم الذي علَّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ [العلق : ١ – ٥] ، وامتنَّ الله على الإنسان فقال تعالى : ﴿ **علَّمه البيان** ﴾ [الرحمن : ٤] ، فكيف إذا كان هذا البيان أرقى البيان معنًى ولفظًا . وقد قال رسول الله ﷺ : « إنَّ من الشِّعْرِ حكمةً »(١) .

يقول الرافعي عن البيان : « أيّ بيانٍ في خُضرة الربيع عند الحيوان من آكِل العُشْب ، إلَّا بيان الصورة الواحدة في معدته ؟ غير أن صُوَر الربيع في البيان الإنساني على اختلاف الأرض والأمم ، تكاد تكون بعدد أزاهره ، ويكاد النَّدى يُنَضِّرها حُسْنًا كما يُنضِّره . ولهذا ستبقَى كلُّ حقيقةٍ من الحقائق الكبرى ؛ كالإيمان والجمال والحُبِّ والخير والحق، ستبقى محتاجةً في كلِّ عصر إلى كتابةٍ جديدة من أذهانٍ جديدة .

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن أُبَيٍّ ، والترمذي عن ابن مسعود ، والطبراني في الكبير عن عمرو بن عوف وعن أبي بكرة ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، والخطيب في تاريخه عن عائشة وحسّان بن ثابت ، وابن عساكر عن عمر .

ونَقْل حقائق الدنيا نَقْلًا صحيحًا إلى الكتابة أو الشعر ، هو انتزاعها من الحياة في أسلوبٍ ، وإظهارُها للحياة في أسلوبٍ آخر يكون أوْفى وأدَقَّ وأجملَ ؛ لِوَضْعِهِ كل شيءٍ في خاصٍّ معناه ، وكشْفه حقائق الدنيا تحت ظاهرها المُلْتَبِس ، وتلك هي الصناعة الفنيَّة الكاملة ، تستدرك النقْص فتُتِمُّه ، وتتناول السِّرَّ فتُعْلِنه ، وتَلْمَس المقيَّد فتُطلقه ، وتأخُذ المُطلق فتحِدُّه ، وتكشف الجمال فتُظهره ، وترفع الحياة درجةً في المعنى ، وتجعل الكلام كأنَّه وَجَد لنفسه عقلًا يعيش به .

فالكاتِبُ الحقُّ لا يكتُب لِيكتُب ، ولكنَّه أداة في يد القوة المُصوِّرة لهذا الوجود ، تُصوِّر به شيئًا من أعمالها فنًّا من التصوير .

لا يُخلَق الأديبُ أبدًا إلَّا وفيه أعصابُهُ الكهربائيَّة ، وله في قلبه الرقيق مواضع مُهيَّأة للاحتراق ، تَنفُذ إليها الأشعةُ الروحانيَّة وتتساقط منها بالمعاني .. ويُلقى فيها مِثْل السِّرِّ الذي يُلقى في الشجرة لإخراج ثمرها .

ربَّما عابوا السُّمُوَّ الأدبيَّ بأنه قليل ، ولكنّ الخير كذلك ، وبأنه مخالف، ولكن الحقَّ كذلك، وبأنه محيّر ، ولكنّ الحُسن كذلك ، وبأنه كثير التكاليف ، ولكنَّ الحريَّة كذلك .

إن لم يكن البحرُ ، فلا تنتظر اللؤلؤَ ، وإن لم يكن النجمُ ، فلا تنتظر الشعاعَ ، وإن لم تكن شجرةُ الورد ، فلا تنتظر الورد ، وإن لم يكن الأديبُ أو الشاعرُ الإسلامي ، فلا تنتظر الأدب »[1] .

لله ما أحلاه من أدب « حين تستقرُّ الرُّوح على منهج الإسلام ، وتنضح بتأثُّراتها الإسلاميَّة شِعرًا وفنًّا ، وتعمل في الوقت ذاته على تحقيق هذه المشاعر النبيلة في دنيا الواقع ؛ ولا تكتفي بخلق عوالمَ وهميَّة تعيش فيها وتَدَع واقع الحياة كما هو مشوَّهًا قبيحًا . حين يكون للروح منهج ثابت يَهْدِف إلى غايةٍ إسلامية ، وحين تنظر إلى الدنيا فتراها من زاوية الإسلام ، في ضوء الإسلام ، ثم تُعبِّر

---

(١) بتصرف من « وحي القلم » ١/١٥-١٧ .

عن هذا كلِّه شعرًا وفنًّا .

لقد وجَّه القرآن القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون ، وإلى خفايا النَّفْس البشرية ، وهذه وتلك هي مادَّة الشعر والفنّ ، وفي القرآن وقفاتٌ أمام بدائع الخلْق والنفْس ، لم يَبلُغ إليها شعرٌ قطُّ في الشفافية والنَّفَاذ والاحتفال بتلك البدائع وذلك الجمال . ومن ثَمَّ يستثني القرآن الكريم من ذلك الوصف العامّ للشعراء : ﴿ **إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذَكَرُوا الله كثيرًا وانتصروا من بعد ما ظُلموا** ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] فهؤلاء ليسوا داخلين في ذلك الوصف العامّ ، هؤلاء آمنوا فامتلأتْ قلوبُهم بعقيدةٍ ، واستقامت حياتهم على منهجٍ ، وعملوا الصالحات فاتَّجهتْ طاقاتُهم إلى العمل الخَيِّر الجميل ، ولم يكتفُوا بالتصوُّرات والأحلام ، وانتصروا من بعد ما ظُلموا ، فكان لهم كفاح يَنْفُثون فيه طاقتهم ليصلوا إلى نُصْرة الحقّ الذي اعتنقوه .

ومن هؤلاء الشعراء الذين نافحوا عن العقيدة وصاحبها ، في إبَّان المعركة مع الشرك والمشركين على عهد رسول الله ﷺ : حسَّان بن ثابت ، وكعب ابن مالك،وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم ، من شعراء الأنصار ، ومنهم : عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .

والصُّوَر التي يتحقَّق بها الشِّعر الإسلامي والفنّ الإسلامي ، كثيرةٌ غير هذه الصورة التي وُجِدتْ وفْق مقتضياتها . وحَسْبُ الشعر أو الفنِّ أن يَنبُع من تصوُّر إسلامي للحياة ، في أيّ جانبٍ من جوانبها ، ليكون شعرًا أو فنًّا يرضاه الإسلام ، وليس من الضروري أن يكون دفاعًا ولا دفعًا ، ولا أن يكون دعوةً مباشرةً للإسلام ، ولا تمجيدًا له أو لأيام الإسلام ورجاله .

وإن نظرةً إلى سَرَيان الليل وتنفُّس الصُّبح ممزوجةً بشعور المسلم الذي يربط هذه المشاهد بالله في حِسِّه ، لَهِي الشعر الإسلامي في صميمه ، وإن لحظةَ إشراقٍ واتِّصالٍ بالله ، أو بهذا الوجود الذي أبدعَهُ اللهُ ، لَكفيلةٌ أن تُنشئَ شعرًا

يرضاه الإسلام .

ومَفْرِق الطريق ، أن للإسلام تصوُّرًا خاصًّا للحياة كلِّها ، وللعلاقات والروابط فيها ، فأيّما شعر نشأ من هذا التصوُّر ، فهو الشعر الذي يرضاه الإسلام »[1] .

* * *

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٦٢٢ .

□ أشْعَرُ وأصدقُ بيتٍ ، بيتُ لَبِيدٍ □

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أشعرُ كلمةٍ تكلَّمتْ بها العربُ ، كلمة لَبِيدٍ : ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ »(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعرُ ، كلمةُ لبيدٍ : ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ »(٢) .

أَلَا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا مَحَالَةَ زائِـلُ

فَوَجِّهَ الهِمّةَ صَوْبَ الحقِّ ... لله درُّ لبيدِ بن ربيعة رضي الله عنه .

شاعر رسولِ الله ﷺ ، المُؤيَّد برُوحِ القدس ، حسَّان بن ثابت رضي الله عنه :

قال البراءُ رضي الله عنه : قال النبي ﷺ لحسان : « اهْجُهُمْ - أو هاجِهم - وجبريلُ معك »(٣) .

وعن سعيد بن المسيّب قال : مرَّ عمر في المسجد وحسَّان يُنْشِد(٤) ، فقال : كنتُ أُنشِد فيه وفيه مَنْ هو خيرٌ منك . ثم التفتَ إلى أبي هريرة فقال : أَنْشُدُك باللهِ ، أسَمِعتَ رسولَ الله ﷺ يقول : « أجِبْ عنِّي ، اللَّهُمَّ أيِّدْه برُوحِ القُدُسِ » ؟ قال : نعم(٥) .

---

(١) رواه مسلم والترمذي .
(٢) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه .
(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، والنسائي في الفضائل ، وأحمد ، والطيالسي .
(٤) وعند مسلم : فلحظ إليه .
(٥) رواه البخاري ومسلم وأحمد ، وأبو يعلى .

عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « اهجُوا قريشًا ، فإنه أشدُّ عليها من رَشْقٍ بالنَّبْلِ » . فأرسلَ إلى ابن رواحة فقال : « اهْجُهم » فهجاهم فلم يُرْضِ ، فأرسل إلى كعب بن مالك ، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت ، فلمَّا دخلَ عليه قال حسَّان : قد آنَ لكم أن تُرسِلوا إلى هذا الأسد الضَّارِب بذَنبِه ، ثم أدْلَعَ لسانَهُ فجَعَلَ يُحرِّكهُ ، فقال : والذي بعثك بالحقِّ لأَفْرِيَنَّهُم بلساني فَرْيَ الأديم ، فقال رسولُ الله ﷺ : « لا تَعْجَلْ ، فإن أبا بكرٍ أعْلَمُ قريشٍ بأنسابها ، وإنَّ لي فيهم نَسَبًا ، حتى يُلَخِّصَ لك نَسَبِي » . فأتاه حسان ثم رجع فقال : يا رسول الله ، قد لَخَّصَ لي نَسَبَك ، والذي بَعَثَك بالحقِّ ، لأَسُلَنَّك منهم كما تُسَلُّ الشَّعْرَةُ من العجين . قالت عائشةُ : فسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لحسان : « إنَّ رُوحَ القُدُسِ لا يزال يُؤيِّدك ، ما نافَحْتَ عن الله ورسوله » . وقالت عائشةُ : فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « هجاهم حسَّانُ فشَفَى واشْتَفَى » . قال حسَّانُ :

هَجَوْتَ محمَّدًا فأجبتُ عنه ... وعندَ اللهِ في ذاكَ الجزاءُ

هجوتَ محمَّدًا بَرًّا تقيًّا ... رسولَ اللهِ شِيمَتُهُ الوفاءُ

فإنَّ أبي ووالِدَهُ وعِرْضي ... لِعِرْضِ محمدٍ منكم وِقاءُ

ثَكِلْتُ بُنَيَّتي إن لم تَرَوْها ... تُثِيرُ النَّقْعَ مِن كَنَفَيْ كَدَاء

يُبارِينَ الأعِنَّة مُصعِدات ... على أكتافها الأَسَلُ الظِّماءُ

تَظَلُّ جيادُنا مُتَمَطِّراتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّساءُ

فإن أعْرَضْتُمو عنَّا اعْتَمَرْنا ... وكان الفتحُ وانكشفَ الغِطاءُ

وإلَّا فاصْبِرُوا لِضِرابِ يومٍ ... يُعِزُّ اللهُ فيه مَنْ يَشاءُ

وقال اللهُ قد أرسلتُ عبدًا ... يقولُ الحقَّ ليس به خَفاءُ

وقال اللهُ قد يَسَّرْتُ جُندًا ... همُ الأنصارُ عُرْضَتُها اللِّقاءُ

لنا في كلِّ يومٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ

فَمَنْ يهْجُو رسولَ اللهِ منكم ... ويَمْدَحُه ويَنصُرُه سَواءُ

وجبريلٌ رسولُ الله فينا ... ورُوحُ القُدْسِ ليس له كِفاءُ[١]

ولله دَرُّهُ وهو يتكلَّم عن بدر فيقول :

سِرْنا وساروا إلى بدرٍ لحَيْنِهمُ ... لو يعلمون يقينَ العلمِ ما ساروا
دلَّاهمُ بغرورٍ ثم أسْلَمَهُمْ ... إنَّ الخبيثَ لِمَنْ والاه غرَّارُ
وقال إني لكم جارٌ فأوردَهُمْ ... شرَّ الموارِدِ فيه الخِزْيُ والعارُ
ثم التقينا فولَّوْا عن سَرَاتِهم ... من مُنجِدِينَ ومنهم فرقةٌ غاروا[٢]

ولله درُّه حين يقول :

لقد علمتْ قريشٌ يومَ بدرٍ ... غداةَ الأسْرِ والقتْلِ الشديدِ
بأنَّا حين تَشْتَجِرُ العَوالي ... حُماةُ الحربِ يومَ أبي الوليدِ
قتلْنا ابْنَيْ ربيعةَ يومَ سارا ... إلينا في مُضاعَفَةِ الحديدِ
وفرَّ بها حكيمٌ يومَ جالتْ ... بنو النَّجَّارِ تَخْطِرُ كالأُسودِ
ووَلتْ عند ذاك جموعُ فِهْرٍ ... وأسْلَمَها الحُوَيْرِث من بعيدِ
لقد لاقيتمُ ذُلًّا وقتْلًا ... جهيزًا نافِذًا تحت الوريدِ
وكلُّ القومِ قد ولَّوْا جميعًا ... ولم يَلْوُوا على الحَسَبِ التَّلِيدِ[٣]

ولله درُّه حين يقول :

سَمَوْنا يومَ بدرٍ بالعوالي ... سراعًا ما تُضَعْضِعُنا الحُتُوفُ
فلم تُرَ عُصْبَةٌ في الناسِ أنْكَى ... لِمَنْ عادَوْا إذا لَقِحَتْ كَشُوفُ
ولَكِنَّا توكَّلْنا وقُلنا ... مآثِرُنا ومعقِلُنا السيوفُ
لَقِيناهُمْ بها لَمَّا سمَوْنا ... ونحن عصابةٌ وهُمُ أُلُوفُ

---

(١) رواه مسلم .

(٢) شاعر الإسلام حسان بن ثابت ، لوليد الأعظمي صـ٧٠ – مكتبة المنار .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٣٩١ .

ولله درُّه وهو يهجو أبا جهلٍ فيقول :

سمَّاه مَعْشَرُهُ أبا حَكَمٍ ... واللهُ سمَّاهُ أبا جهلِ
فما يجيءُ الدَّهْرَ مُعتمرًا ... إلَّا ومِرْجلُ جَهْلِهِ يغلي
وكأنَّه ممَّا يجيشُ به ... مُبدي الفجورَ وسَوْرَةَ الجهلِ
أبقتْ رئاستُهُ لمعشرِهِ ... غضبَ الإلهِ وذِلَّةَ الأصْلِ
إنْ يَنتصِرْ يَدْمَى الجبينُ وإنْ ... يَلْبَثْ قليلًا يُودَ بالرِّجْلِ
قد رامَني الشعراءُ فانقلبوا ... منّي بأفْوَقَ ساقطِ النَّصْلِ
ويصُدُّ عنّي المُفحِمون كما ... صَدَّ البكارة عن حرى الفَحْلِ
يَخْشَوْنَ من حسَّانَ ذا بَرَدٍ ... هَزْمَ العَشيَّةِ صادِقَ الوَبْلِ

ولله درُّه وهو يقول :

إن الذَّوائِبَ من فِهْرٍ وإخوتَهم ... قد بَيَّنُوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ
يَرضى بها كلُّ مَنْ كانتْ سَرِيرَتُهُ ... تَقْوَى الإلهِ وكلّ الخيرِ يصْطَنعُ
قومٌ إذا حاربوا ضَرُّوا عدُوَّهُمُ ... أو حاولوا النَّفْعَ في أشياعهم نفعوا
سَجِيَّةٌ تلك منهم غيرُ مُحْدَثَةٍ ... إن الخلائقَ فاعْلَمْ شرُّها البِدَعُ
إنْ كان في الناس سبَّاقُونَ بَعْدَهمُ ... فكُلُّ سَبْقٍ لأدنى سَبْقِهِمْ تَبَعُ
لا يَرْقَعُ الناسُ ما أوهَتْ أكُفُّهُمُ ... عندَ الدِّفاعِ ولا يُوهُون ما رَقَعُوا
إنْ سابقوا الناسَ يومًا فاز سَبْقُهُمُ ... أو وازَنُوا أهلَ مجدٍ بالنَّدَى مَتَعُوا
أعِفَّةٌ ذُكرتْ في الوحي عفَّتُهُمْ ... لا يَطْبَعُون ولا يُرْدِيهُمُ طمعُ
لا يَبْخَلُون على جارٍ بفَضْلِهِمُ ... ولا يَمَسُّهُمُ من مَطْمعٍ طَبَعُ
نَسْمُو إلى الحربِ نالتْنا مخالبُها ... إذا الزَّعانِفُ من أظفارها خشعوا
كأنَّهم في الوغَى والموتُ مُكتنِفٌ ... أُسْدٌ بِحَلْبَةَ في أرْساغِها فَدَعُ
خُذْ منهمُ ما أتى عَفْوًا إذا غَضِبُوا ... ولا يكُن هَمُّكَ الأمْرَ الذي مَنَعُوا

فإنَّ في حرْبهمْ فاتْرُكْ عداوَتَهمْ ... شرًّا يُخاضُ عليه السُّمُّ والسَّلَعُ
أكْرِمْ بقومٍ رسولُ الله شيعَتُهم ... إذا تفرَّقتِ الأهواءُ والشِّيَعُ
أهْدَى لهم مِدَحي قلبٌ يُؤَازِرُهُ ... فيما أراد لسانٌ ماهرٌ صَنَعُ
فإنهم أفضلُ الأحياءِ كلِّهمُ ... إن جدَّ بالناسِ جِدُّ القولِ أو شَمَعُوا

فلمَّا فرغَ حسان من إنشاده بين يدي رسول الله ﷺ ، قام الأقرعُ ابن حابس من وفد بني تميم وقال عن رسول الله ﷺ : وأبي إن هذا الرجلَ لُمؤتَّى له ؛ لَخَطِيبهُ أخطبُ من خطيبنا ، ولَشاعِرُهُ أشعرُ من شاعرنا ، ولأصواتُهم أعلى من أصواتنا . وأسلم بنو تميم . فللَّه درُّ حسان رضي الله عنه .

ويهجو حسان رؤوس الكفر ؛ يهجو أُبيَّ بن خَلَف :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عنِّي أُبيًّا ... فقد أُلْقِيتَ في سُحُقِ السَّعِيرِ
تَمَنَّى بالضلالةِ مِن بعيدٍ ... وتُقْسِمُ إن قدرتَ على النُّذُورِ
تمَنِّيكَ الأماني من بعيدٍ ... وقولُ الكفرِ يَرجِعُ في غرورِ
فقد لاقتْك طعنةُ ذي حِفاظٍ ... كريمِ البيتِ ليس بذي فجورِ
له فضلٌ على الأحياءِ طُرًّا ... إذا نابَتْ مُلِمَّاتُ الأُمُورِ

ويقول لأُميَّة بن خلف :

أتاني من أُمَيَّةَ ذَرْوُ قولٍ ... وهُو بالمَغيبِ بذي حِفاظِ
سأنْشُرُ إنْ بَقِيتُ لكم كلامًا ... يُنَشَّرُ في المجامعِ من عُكاظِ
قوافي كالسلامِ إذا استمرَّتْ ... من الصُّمِّ المُعَجْرَفَةِ الغِلاظِ
تزورُكَ إن شَتَوْتَ بكلِّ أرضٍ ... وتَرْضَخُ في مَحَلِّكَ بالمقاظِ
بَنَيْتُ عليك أبياتًا صِلابًا ... كأمْرِ الرَّسْقِ قُفِّصَ بالشِّظاظِ
مُجَلَّلَةً تُعَمِّمُهُ شَنَارًا ... مُضَرَّجَةً تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ
كَهَمْزَةِ ضَيْغَمٍ يحمي عَرِينًا ... شديدِ مغارِزِ الأضلاعِ خاظي

تَغُضُّ الطَّرْفَ أن ألقاك دوني ... وتَـرْمِـي حين أُدْبِرُ باللِّحاظِ[(١)]

لله درُّ حسَّان ، لقد كان شِعْرُه أشدَّ على قريش من نَضْحِ النَّبْل ، هجاء يصكُّ المسامع كأنه الجلاميد .. لسانه لو وُضِع على حَجَرٍ لَفَلَقَهُ ، أو على شَعْرٍ لَحَلَقَهُ .. وولاؤه كلُّه لله ولرسوله ﷺ ، يقول :

لساني صارِمٌ لا عَيْبَ فيه ... وبَحْرِي لا تُكَدِّرُهُ الدِّلَاءُ

ولله درُّه حين يقول للرسول ﷺ :

وأحْسَنُ منك لم تَرَ قَطُّ عَيْنِي ... وأجْمَلُ منك لم تَلِدِ النِّساءُ
خُلقتَ مُبرَّأً من كلِّ عيبٍ ... كأنَّك قد خُلقتَ كما تشاءُ

سُئلتْ أُمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها : كيف كان رسول الله ﷺ ؟ فقالت : كان والله كما قال فيه حسّان :

متى يَبْدُ في الدَّاجي البَهِيمِ جَبِينُهُ ... يَلُحْ مِثْلَ مصباحِ الدُّجَى المُتَوَقِّدِ
فَمَنْ كان أو مَنْ ذا يكونُ كأحمدٍ ... نِظامٌ لِحَقٍّ أو نَكَالٌ لِمُلْحِدِ

ولله دَرُّه حين يقول :

ذاكُمُ أحمدُ الذي لا سواهُ ... ذاك حُزْني له معًا وسُرُوري

ويقول أيضًا :

أقولُ ولا يُلْفَى لقوليَ عائبٌ ... من الناسِ إلَّا عازِبُ العقل مُبْعَدُ
وليس هوائي نازعًا عن ثنائه ... لَعَلِّي به في جنَّةِ الخُلْدِ أخلُدُ
مع المصطفى أرجو بذاك جِوارَهُ ... وفي نَيْلِ ذاك اليومِ أسعى وأجْهَدُ

وقوله عن رسول الله ﷺ :

نُحارِبُ مَنْ عادَى من الناسِ كلِّهمْ ... جميعًا وإنْ كان الحبيب المُصافِيَا

---

(١) ديوان حسان صـ٢٣١ .

ولله درُّه حين يقول :

اللهُ أكرمَنَا بنصْرِ نبيِّهِ ... دينًا أقام دعائِمَ الإسلامِ
وبنا أعزَّ كتابَهُ ونبيَّهُ ... وأعزَّنا بالضَّرْبِ والإقدامِ
في كلِّ مُعْتَرَكٍ تُطِيرُ سيوفُنا ... فيه الجماجمَ عن فِراخِ الهامِ
ينتابُنا جبريلُ في أبياتِنا ... بفرائضِ الإسلامِ والأحكامِ
يتلو عليه النورَ فيه مُحْكمًا ... قَسَمًا لعَمْرُكَ ليس كالأقسامِ
فنكون أوَّل مُسْتَحِلِّ حلالِهِ ... ومُحَرِّمٍ للهِ كلَّ حرامِ
نحن الخيارُ من البريَّةِ كلِّها ... ونظامُها وزِمامُ كلِّ زمامِ
الخائضو غمراتِ كلِّ مَنِيَّةٍ ... والضَّامِنُون حوادِثَ الأيَّامِ
والمُبْرِمُون قُوى الأمور بعزْمِهم ... والناقِضون مَرَائِرَ الأقوامِ

ولله درُّ حسان - أو كعب بن مالك - حين يقول له رسول الله ﷺ : « لقد شكرَ اللهُ لك بيتًا قلتَهُ :

زعمتْ سَخِينَةُ أنْ سَتَغْلِبُ ربَّها ... وَلَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغُلاب »[1]

وفي الحديث عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال لكعب بن مالك : «ما نَسِيَ ربُّك لك - وما كان ربُّك نسيًّا - بيتًا قلْتَهُ» . قال : ما هو ؟ قال : « أنْشِدْهُ يا أبا بكر » . فقال :

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أن سَتَغْلِبُ ربَّها ... وَلَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغلَّابِ

كعب بن مالك يُهدِّد دَوْسًا ببيت شعرٍ فتُسلِم :

لله درُّ كعب حين تُسلِم قبيلة دوس بأسرها خوفًا من بيتِ شعرٍ قاله ، وهو :

(١) العقد الفريد ٢٩٥/٥ ، وسيرة ابن هشام ٢٠٩/٣ .

قَضَيْنا من تِهَامَةَ كلَّ رَيْبٍ ... وخيبرَ ثمَّ أجْمَمْنا السُّيوفَا
نُخَيِّرُها ولو نطقتْ لَقَالتْ ... قَواطِعُهنَّ دَوْسًا أو ثَقِيفَا

عبد الله بن رَوَاحَة :

كان شعراء الرسول ﷺ ثلاثة من الأنصار : حسَّان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكانوا يَهْجُون المشركين .

قال محمد بن سيرين: فكان حسان وكعب يُعارِضانِهم بمثْل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويُعيِّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رَوَاحَة يُعيِّرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشدُّ القول عليهم قولَ حسان وكعب، وأهْوَن القول عليهم قول عبد الله بن رواحة، فلمَّا أسلموا وفقهوا الإسلام، كان أشدُّ القول عليهم قولَ ابن رواحة.

قال عبد الله بن رواحة : مررتُ في مسجد الرسول ورسول الله ﷺ جالسٌ وعنده أُناس من الصحابة في ناحيةٍ منه ، فلمَّا رأوني قالوا : يا عبد الله ابن رواحة ؛ فجئتُ فقال : « اجلسْ ها هنا » . فجلستُ بين يديه ، فقال : « كيف تقول الشعر ؟ » . قلتُ : أَنْظُرُ في ذلك ، ثم أقول . قال : « فعليك بالمشركين » . ولم أكُن هيَّأتُ شيئًا ، فنظرتُ ثم أنشدتُهُ . فذَكَر الأبياتَ فيها :

إني تفرَّستُ فيك الخيرَ أعْرِفُهُ ... فِراسَةً خالَفَتْهُمْ في الذي نظروا
ولو سألتَ إن استنصرتَ بعضَهُمُ ... في حِلِّ أمرِكَ ما آوَوْا ولا نصروا
فثبَّتَ الله ما آتاكَ مِن حَسَنٍ ... تثبيتَ موسى ونصرًا كالذي نُصِروا

قال : فأقبل بوجهه مبتسمًا وقال : « وإيَّاك فثبَّتك الله » .

ومن أحسن ما مدحَ به النبي ﷺ وآله وسلم ، قوله :

لو لم تكُنْ فيه آياتٌ مُبيِّنَةٌ ... كانتْ بَدِيهَتُهُ تُنبيكَ بالخَبَرِ

وعن أبي هريرة - وهو يَقْصُصُ في قَصَصِهِ[1] - وهو يذكُر رسول الله ﷺ:

---

(١) القصص في اصطلاح صدر الإسلام : الوعظ . وكانوا يُكثرون فيه من الاستشهاد بسِيَر الكَمَلَة الذين في سيرتهم قدوة وأُسوة للاستقامة على طريق الحق والخير ، ويُسمُّون الواعظَ : القاصّ .

إنَّ أخًا لكم لا يقول الرَّفث ؛ يعني بذلك عبد الله بن رواحة :

وفينا رسولُ الله يَتلُو كتابَهُ إذا انْشقَّ معروفٌ من الفَجْرِ ساطِعُ
أرانا الهُدى بعدَ العَمَى فقلوبُنا به مُوقناتٌ أنَّ ما قال واقِعُ
يَبيتُ يُجافي جَنْبَهُ عن فِراشِهِ إذا استثقلتْ بالمشركين المضاجِعُ(١)

وعن أنسٍ قال : دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة في عُمْرَة القضاء ، وابنُ رواحة بين يديه وهو يقول :

خَلُّوا بني الكُفَّار عن سَبيلِهِ اليومَ نَضْرِبُكم على تأويلِهِ
ضَرْبًا يُزيلُ الهمامَ عن مَقِيلِهِ ويُذهِلُ الخليل عن خَليلهِ

فقال عمر: يا ابن رواحة ، أفي حَرَم الله، وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تقول هذا الشعر ؟! فقال : « خلِّ عنه يا عمر ، فوالذي نفسي بيده لَكلامُهُ أشدُّ عليهم من وَقْعِ النَّبْلِ »(٢) .

الصَّرْصَرِيّ مادِح الرسول ﷺ : يُشبَّه في عصره بحسَّان بن ثابت :

قال عنه ابن كثير في « البداية والنهاية » (٦ / ٣٠٣ - ٣٠٤) : « قال الشيخ جمال الدين أبو زكريا ، يحيى بن يوسف بن منصور الصَّرْصَرِيّ الماهر الحافظ للأحاديث واللغة ، ذو المحبَّة الصادقة لرسول الله ﷺ ؛ فلذلك يُشبَّه في عصره بحسان بن ثابت رضي الله عنه :

محمدٌ المبعوثُ للناسِ رحمةً يُشيِّدُ ما أوْهَى الضلالُ ويُصلِحُ
لئن سبَّحَتْ صُمُّ الجبالِ مُجيبةً لداودَ أوْ لانَ الحديدُ المُصفَّحُ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التهجُّد ، باب فضل من تَعَارَّ من الليل .

(٢) إسناده حسن : رواه الترمذي في الأدب ، وقال : حديث حسن صحيح غريب . والنسائي وصححه ابن حبان ، وقال الحافظ في « الإصابة » (٢ / ٢٢٩) : وأخرجه أبو يعلى بسند حسن .

فإنَّ الصخورَ الصُّمَّ لانتْ بكفِّـهِ ... وإن الحَصَـا في كَفِّـهِ لَيُسَبِّـحُ
وإن كان موسى أنْبَعَ الماءَ بالعصا ... فَمِنْ كَفِّهِ قد أصفحَ الماء يَطْفَحُ
وإن كانت الرِّيحُ الرُّخاءُ مُطيعة ... سليمان لا تَأْلُو تَرُوحُ وتَسْـرَحُ
فإنَّ الصَّبا كانتْ لنَصْـرِ نبيِّنـا ... برعْبٍ على شَهْرٍ به الخَصْمُ يُكْلَحُ[1]
وإن أوتيَ المُلْكَ العظيمَ وسُخِّرَتْ ... له الجِنُّ تشفي مارضيه وتَلْدَحُ[2]
فإنَّ مفاتيح الكنوزِ بأَسْرِها ... أتتْـهُ فـردَّ الزاهـدُ المترجِّـحُ
وإن كان إبراهيـم أُعـطيَ خِلَّـةً ... وموسى بتكليمٍ على الطُّورِ يُمْنَحُ
فهـذا حبيبٌ بل خليـلٌ مُكَلَّـمٌ ... وخُصِّصَ بالرُّؤيا وبالحقِّ أشْـرَحُ
وخُصِّص بالحوض العظيمِ وباللِّوا ... ويَشفعُ للعاصين والنارُ تَلْفَـحُ
وبالمقعدِ الأعلى المُقرَّب عـنده ... عطـاءٌ ببُشْـراهُ أَقَـرُّ وأفْـرَحُ
وبالرُّتبةِ العُليا الأسِيلَةِ[3] دونها ... مراتبُ أربابِ المواهبِ تُلْمَحُ
وفي جنَّة الفردوس أوَّلُ داخـل ... له سائرُ الأبواب بالخارِ[4] تُفتحُ»

«مدائحه في رسول الله ﷺ يُقال: إنها تبلغ عشرين مجلدًا ، وما اشتُهر عنه أنه مدح أحدًا من المخلوقين من بني آدم إلا الأنبياء ، ولمَّا دخل عليه التتار داره ، وكان قد أعدَّ حجارة ؛ لأنه كان ضريرًا ، فحين دخلوا عليه رماهم بتلك الأحجار ، فهشم منهم جماعةً ، فلمَّا خَلَصُوا إليه قَتَل بعُكَّازه أحدهم ، ثم قتلوه شهيدًا ، رحمه الله »[5] .

يُوسف بن فضْلِ الله السكاكيني الحرَّانيّ ، الواعظ الزاهد :

قال رحمه الله من قصيدة طويلة له :

(١) كلح الوجه : ازداد عبوسًا .
(٢) اللَّدح : الضرب باليد .
(٣) الأسيلة : الناعمة الرقيقة .
(٤) الخار : الغلبة الخيِّرة .
(٥) البداية والنهاية ٢٢٤/١٣ .

ارفق يا ذا النُّهَىٰ وابغِ الوفاقا فقدْ واللهِ أفلح مَن أَفاقا
فمَن رامَ الخلودَ بدارِ عدْنٍ يُشمِّرُ في تَطَلّبِ ذاكَ سَاقا
ويُلزم نفْسَه سَهَرَ الليالي ويكلفُ في العبادةِ ما أطاقا
فلا واللهِ ما نالَ المعالي أخو دَعَةٍ يَمُدُّ لهُ رواقا
ويُنشدُ مستظلًّا في فِناهُ أيدري الربْعُ أيّ دَمٍ أراقا
بلىٰ واللهِ مَن جَدَّ اجتهادًا وسابَقَ في رِضا المولىٰ سِبَاقا
وحجَّ البيتَ عامًا بعدَ عامٍ وأعملَ نحْوهُ عِيسًا دقاقا
ولم يركنْ إلى الدنيا غُرورًا وقطَّعَ مِنْ علائقها الرِّباقا
ولا يلْوي على أهْلٍ ومالٍ وحَنَّ إلى فِراقِهما وتاقا
فطوْرًا يقطعُ البيداءَ شامًا وطوْرًا سالِكًا فيها عِرَاقا
وفارَق زهْرةَ الدنيا مطيعًا وأقبلَ نحوَ أُخراهُ اشتياقا
وعانىٰ مِن أليمِ الشَوْقِ وجْدًا وكابَدَ مِن تلهُّبهِ احتراقا
ورافَقَ مَن يرافقُه برِفْقٍ ولا يشكو إلى أحدٍ رِفاقا
جديرًا أنْ يصيرَ إلى سرورٍ يَلذُّ به ويرتفقُ ارتفاقا
فيا طُوبىٰ لمن أصغىٰ لوعْظي وزايَلَ غيَّهُ ثمَّ استفاقا(١)

ابنُ قيِّم الجوزية : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، شاعِر أهل السُّنَّة وطبيبُ القلوب :

والله إن ذكْرَ شعْره لَيحتاج إلى مجلَّدات ، ولو لم يكن له إلّا « نونيته » لَكفاهُ ، وهي – والله – لها من مسمَّاها أوْفى نصيب : « النونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية » ؛ أَفْحَمَ فيها الجهمية ، وأبان عقيدة أهل السُّنَّة ، وفيها من الثناء على الله بأسمائه وصفاته ما يحيِّر الألباب ، ثم ختمها بالدندنة حوْل الجنة والشوق إليها . فلله درُّه !!

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٢/١٧٩- ١٨١ .

وله أيضًا « الميميَّة » ، ولله ما أحلاها وأغلاها :

وحَيِّ على جنَّاتِ عدْنٍ فإنَّها ... منازِلُكَ الأُولى وفيها المُخَيَّمُ
ولٰكنَّنا سَبْيُ العدوِّ فهلْ ترىٰ ... نعودُ إلى أوطانِنا ونسلِّمُ
وحَيَّ علىٰ رَوْضاتِها وخيامِها ... وحَيِّ على عيْشٍ بها لا يُسْأَمُ
وحَيَّ على يومِ المزيدِ الذي بِهِ ... زيارة ربِّ العرشِ فاليومَ موسمُ
فيا بائعًا هذا ببخْسٍ معَجَّلٍ ... كأنك لا تدري بلىٰ سوْفَ تعلمُ
فقدِّمْ فدتْك النفسُ نفسَكَ إنَّها ... هي الثمنُ المبذول حين تُسَلَّمُ
وخُضْ غَمَراتِ الموتِ وارْقَ معارجَ الـ ... ـمحبَّة في مرضاتِهمْ تتسنَّمُ
وسلِّمْ لهمْ ما عاقدوك عليه إنْ ... تُرِدْ منهمُو أنْ يبذلوا ويُسَلِّموا
فما ظفِرتْ بالوصْلِ نفسٌ مَهينةٌ ... ولا فَاز عبدٌ بالبطالة يَنْعَمُ

وقال رحمه الله في « النونية » :

نقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شئت مِن الهوىٰ ... واخترْ لنفسِكَ أحسَنَ الإنسانِ
فالقلبُ مضطرٌّ إلى محبوبِهِ الْـ ... أعلىٰ فلا يغنيهِ حُبٌّ ثانِ
وصلاحُهُ وفلاحُهُ ونعيمُهُ ... تجريدُ هذا الحبِّ للرَّحمٰنِ
فإذا تخلَّىٰ منه أصبحَ حائرًا ... ويعودُ في ذا الكونِ ذا هَيمانِ
هلْ فيكَ معتبِرٌ فيَسْلوَ عاشِقٌ ... بمصارِعِ العُشَّاقِ كلَّ زمانِ
لكنْ علىٰ تلكَ القلوبِ غشاوةٌ ... وعلىٰ القلوبِ أكِنَّةُ النِّسيانِ
وأخو البصائرِ حاضرٌ متيقِّظٌ ... متفرِّدٌ عن زُمرةِ العُميانِ
يسمو إلى ذاكَ الرفيقِ الأرفَعِ الْـ ... أعلىٰ وخَلَّىٰ اللَّعْبَ للصِّبيانِ
وإذا رأىٰ ما يشتهيهِ قال مَوْ ... عِدُكَ الجِنَانُ وجدَّ في الأَثمانِ
تسعىٰ بهم أعمالُهُمْ سَوقًا إلى الـ ... ـدَّارَيْنِ سوْق الخيْل بالرُّكبانِ
صبروا قليلًا فاستراحوا دائمًا ... يا عِزَّة التوفيقِ للإنسانِ
حمدوا التُّقىٰ عندَ المماتِ كذا السُّرىٰ ... عندَ الصَّباحِ فحبَّذا الحَمْدانِ
وحَدَتْ بهمْ عَزماتُهم نحوَ العلا ... وسَروْا فما نزلوا إلى نعمانِ
باعوا الذي يفنىٰ من الخَزَفِ الخسيـ ... ـسِ بدائمٍ من خالِصِ العقْيانِ

رُفِعتْ لهمْ في السَّيْرِ أعلامُ السَّعا دةِ والهــدىٰ يا ذلـةَ الحــيْرانِ
فتســابَقَ الأقوامُ وابتدروا لهــا كتسابُقِ الفرســانِ يــومَ رِهـــانِ
وأخو الهُوَيْنَى في الديارِ مُخَلَّــفٌ مــع شكْلِهِ يا خيْبَةَ الكسْلانِ[1]

الأديب الكبير والوزير الصالح : القاضي الفاضل :

عبد الرحيم البيساني وزير صلاح الدين وكاتبه وقاضيه .. ومَن جعله الله سببًا في أن يصرف صلاح الدين همَّه كلَّه لفتح بيت المقدس وقتال الفرنجة .

قال عنه صلاح الدين الأيوبي : « واللهِ ما أخذتُ البلادَ بالعساكر ، بل برسائل القاضي الفاضل » . ذلك هو وسام صلاح الدين يكرِّم به كاتبه ، بل يكرِّم به الأدب والأدباء ، ويُظهِر أثر الكلمة الطيِّبة الهادفة في إصلاح شئون الأمَّة ونفي الخبَث عنها، وتوحيد صفوفها، ورفْعها إلى مستوى معركة المصير ، التي أحسن صلاح الدين الإعداد لها حتى استردَّ بيْتَ المقدس[2] .

قال عنه ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٣ / ٢٧ - ٢٨) : « اشتغل بكتابة الإنشاء على « أبي الفتح قادوس » وغيره ، فسادَ أهل البلاد حتى بغداد ، ولم يكن له في زمانه نظير ، ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مثيل ، ولمَّا استقرَّ الملِك صلاح الدين بمصر جعله كاتبه وصاحبَه ووزيره وجليسه وأنيسه ، وكان أعزَّ عليه من أهله وأولاده ، وتساعدا حتى فتح الأقاليم والبلاد، هذا بحُسَامه وسِنانه ، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه .

كان يواظب كلَّ يوم وليلة على ختمةٍ كاملة ، مع ما يزيد عليها من نافلة ، طاهِرَ القلب ، وله أوقاف على تخليص الأُسارىٰ من يدي النصارىٰ ، وقد اقتنىٰ من الكتب نحوًا من مائة ألف كتاب ، وهذا شيء لم يفرح به أحدٌ من الوزراء ولا العلماء ولا الملوك » .

---

(١) متن القصيدتين النونيَّة والميميَّة ، لابن القيم - مكتبة : ابن تيمية .
(٢) مجلة الأدب الإسلامي - العدد الثامن صـ ١ .

وقال العماد الكاتب عن وفاة القاضي الفاضل : « تمَّت الرزيَّة الكبرىٰ ، والبليَّة العظمىٰ وفجيعة أهل الدين في الدنيا ، بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء . قضىٰ سعيدًا ، ومضىٰ شهيدًا حميدًا . وإنْ تردَّىٰ عن رداءِ العمر ، فله من حُلَل البقاء في عِلِّيِّين كُسْوة ؛ لأنه لم يُبقِ في مدَّة حياته عملًا صالحًا إلَّا وقدَّمه ، ولا عهدًا في الجنة إلَّا أحكمه ، ولا عَقْدًا في البرِّ إلَّا أبرمه ؛ فإنَّ صنائعه في الرِّقاب وأوقافه على سُبل الخيرات : متجاوزة عن الحسَناتِ ، لا سيَّما أوقافه لفِكَاك أسرىٰ المسلمين ، إلى يوم الحساب .

كان رحمه الله للحقوق قاضيًا ، وفي الحقائق ماضيًا . سلطانُه مُطَاع ، والسلطان له مطيع ، وفضله جامع ، وشمل الفضل به جميع . وهو واحد الزمان ، قد خصَّه الله بالمكانة والإمكان . والسلطان رحمه الله من مفتتحاته فتوحه ، ومختتماتُها ومبادئُ أمور دولته وغاياتها . ما افتتح الأقاليم إلَّا بأقاليد آرابه وآرائه ، ومقاليد غِناهُ وعنائه ... وكانت كتابته كتائب النصر ، ويراعته رائعة الدهر ، وبراعته بارئة البرِّ ، وعبارته نافثةً للسِّحْر ، وبلاغته للدولة مُجمِّلة ، وللمملكة مكمِّلة ، وللعصر الصلاحي على سائر الأعصار مُفضِّلة ، ومفتتحاته في الفتوحات بديعة ، ومخترعاته في الصنائع المخترعة صنيعة . وهو الذي نسَخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب ، وأغربه من الإبداع ، وأبدعه من الغريب ، وما ألفيته كرَّر دعاءً ذكَره في مُكاتبة ، ولا ردَّد لفظًا في مخاطبة ، بل تأتي فصولُه مبتَكَرَة ، مبتدَعَة لا مُفتكَرة ، بالعُرْف والعرفان مَعْرفةً لا نَكِرة . وكانت الدولة بإدالته تُدال ، والزّلّة بإزالته تُزال ، والكرام في ظلِّه يقيلون ، ومن عَثرات النوائب بفضْله يَستقيلون ، وبعزّ حمىٰ حمايته يعزّون ، وبهزِّ عطْف عطفه يهتزُّون ، فإلى مَنِ الوفادةُ مِن بعده ؟! وممَّنِ الإفادة؟! وفيمن السيادة؟! ولمَنِ السعادة ؟! والحمد لله الذي له الغيْب والشهادة، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولأمْره مُنْقادون »[1] .

---

(١) عيون الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة، ٢/٢٢٨ - ٢٣٠ .

وقال عنه : « أُقدِّم ذكْرَ مَن جميعُ أفاضل الدهر وأمَاثل العصرِ كالقطرة في تيَّار بحْرِه ، بل كالدُّرة في أنوار فجره ، واحد الزمان ، العديم الأقران ، ربُّ القلم والبيان ، واللَّسْنِ واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرّزة ، والفضل الذي ما سُمع في الأوائل ممَّن لو عاش إلى زمانه لتعلَّق بغباره ، أو جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ورسَختْ بها الصنائع. يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، ويُطلع الأنوار ، ويُبدِع الأزهار ، وهو ضابط الملكِ بآرائه ، ورابط السلك بآلائه ، إن شاء إنشاء في يوم واحد بل ساعة ما لوْ دُوِّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة . أين قُسّ عند فصاحته ؟! وأين قيْس في مقام حصافته ؟!

وهو من أولياء الله الذين خُصُّوا بكرامته وأخلصوا لولايته ، لا يفتر عن المواظبة على نوافل صلواته ونوافل صِلاته ، وحفْظ أوراده ووظائفه ، وبَثِّ أصفاده وعوارفه . يختم كلَّ يوم من القرآن المجيد ، ويُضيف إليه ما شاء الله من المزيد »[1] .

كتب رحمه الله إلى السلطان صلاح الدين يهنِّئه بالنصْر في حطِّين : « لِيَهْنِ المولىٰ أنَّ الله أقام به الدين القيِّم ، وأنه كما قيل : أصبحت مولاي ومولىٰ كلِّ مسلم . وأنه قد أسبغ عليه النعمتيْن الباطنة والظاهرة ، وأورثه المُلْكيْن : ملك الدنيا وملك الآخرة . كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم تُرفعْ من سُجودها ، والدموع لم تُمسح من خدُودها ، وكلَّما فكَّر الخادم في أن البِيَع تعود وهي مساجد ، والمكان الذي كان يُقال فيه : إن الله ثالث ثلاثة ؛ يقال فيه أنه هو الواحد . جدّد لله شكرًا ، تارة يفيض من لسانه ، وتارة يفيض من جَفْنه ، وجزىٰ يوسف خيرًا على إخراجه الحقَّ مِن سجْنِهِ .

(١) عيون الروضتين ٢ / ٣٣٠ - ٣٣١ .

تلكَ المكارمُ لا قِعبانَ مِن لبَنٍ ... وذلكَ الفتْحُ لا سيف بنِ ذي يَزنِ»[(١)]

ونختم بما قاله القاضي هبة الله ابن سناء المُلْك في القاضي الفاضل :

تعنو الملوكُ لوجههِ بوُجوهِها ... لا بلْ تُساقُ لِبابِهِ برقـابهـا
شَغل الملوكَ بما يزولُ ونفسُهُ ... مشغولةٌ بالذكْر في محرابها
في الصوم والصلوات أتعَب نفْسَهُ ... وضمانُ راحتِهِ على إتعابهـا
وتعجَّـل الإقلاعَ عنْ لذَّاتِـهِ ... ثقةً بحُسْـن مآلهـا ومآبهـا
فلْتفخر الدنيـا بسائسِ ملكها ... منــه ودارِسِ علمها وكتابها
صوّامُـهَا قـوّامُهـا علّامهـا ... عمَّـالها بذّالهـا وهّـابها[(٢)]

محمد إقْبال : الشاعِرُ الذي أقام دَوْلة الباكستان بشِعْرِهِ قبل أنْ تقومَ حقيقةً واقعةً :

«إقبالٌ» التالي لكتابِ الله بعد تهجُّده .. المدمن لهذه التلاوة المبلَّلة بالدموع والتي تبلِّل مصحفه !! « حتى إن خادمه الوفيَّ «علي نجش» كان يضع المصحف في الشمس لتجفَّ أوراقه »[(٣)] .

هذا الذي دعا المسلمين في شِعْرِهِ إلى إثبات ذاتهم . وفي كلامه تكمُن الحياة والطاقة والاستغناء والأمل ، وأهمُّ من هذا كلِّه في كلامه : الإسلام ومحْضُ التوحيد، فلا يعجبه أن تدخل الأُمَّة الإسلامية في دهاليز الفناء ووحدة الوجود.. ولقد تصدى لوحدة الوجود وابنِ عربي ومَن يبثُّون هذه الكفريَّات ، وقال عن شيخهم حافظ شيرازي: «ذلك الفقيه، فقيه أُمَّة الأذلَّاء، ذلك الإمام إمام أمة المساكين، امضِ من مجلس حافظ دونما عوز أو حاجة ، واحذرْ من النِّعاج .. احذرها » .

---

(١) عيون الروضتين ٢/١٤٥ ، وفي الروضتين جـ ٢ ورد البيت :
وذلك الفتحُ لا عمان واليمن ... وذلك السيفُ لا سيف ابن ذي يزن
(٢) البداية والنهاية ١٣ / ٢٨ .
(٣) مقدمة ديوان إقبال « الأسرار والرموز » لعبد الوهاب عزام صـ ٧ دار الأنصار .

ويدعو المسلمين إلى القوة والأخذ بأسبابها فيقول في قوله المترجَم : « إذا وُجِد الكليمُ موسىٰ بلا عصىً ، فلا أساس لعَمَلِهِ » .

ويرى إقبال أنه لا بدَّ من تربية الذات على الطاعة وضبْط النفْس ؛ أما الطاعة فهي الطاعة المطلقة لله وللرسول لا تململ فيها ، وضبط النفس بتزكيتها وكفِّها عن نزواتها... ويدعو إلى التوحيد والذكْر والتجرُّد من الدنيا، فيقول: « التوحيد هو رأس مال أسرارنا ، وكل ما يتعلق بالتوحيد هو بؤرة أفكارنا » . ويقول : « الفقر هو المعجزات ، هو التاج وهو العرش وهو الجُنْد ، الفقر هو أمير الأمراء ، وملِك الملوك » . ويقول : « تمسَّكْ بفقرِ خيْبَرَ مع خبْز الشعير ؛ ففي جراب هذا الفقر ستجد السلطان والغِنىٰ » . يقول رحمه الله في ديوانه « ضرب الكليم » :

إنما الكافـرُ حَيْـرا ... نُ لهُ الآفـاقُ تِيـهْ
وأرى المؤمنَ كونًا ... تاهتِ الآفاقُ فيـهْ

ويقول رحمه الله في ديوان «الأسرار والرموز» (صـ ١٠٨ – ١٠٩):

كَمَمَـاتِ الفردِ تفنىٰ الأمـمُ ... ولهـا يومًـا قضـاءٌ يُحْتَـمُ
أُمَّـةُ الإِسـلام تـأبى أجَـلَا ... أصلها الميثاق في «قالوا بلىٰ»
لا تخافُ الموتَ هذي الأُمَّهْ ... « نحن نزّلنا » لديها حُـجَّـهْ
دام ذكْـرٌ ما أقـام الذاكـرُ ... بـدوام الـذكْـرِ دامَ الذاكـرُ
ذلك المصبـاحُ أنَّىٰ يُطْفَـأُ ... قال رَبي عالمًا « أنْ يُطفئوا »
فلإبراهيـمَ فينـا فِطْـرةُ ... وإلى المـولىٰ لدينـا نسْبةُ
من لهيبٍ قد جنيْنا زهَـرَا ... نـار نمـرود ردَدْنا كـوْثرا
كلُّ نارٍ يوقِـد الدهـرُ لنـا ... زَهراتٍ حين تأتي روْضَنـا
وأذانُ الحـقِّ فينـا خلُـدا ... أمـةُ الإِسـلامِ تبقـى أبـدَا
ذلكَ الينبـوعُ مـن آمالِنـا ... قد حواهُ الصدرُ من أطفالنـا
قد سما المسلمُ أعلى مَنْ سَـما ... ليسَ يرضى بِمُسامٍ في السَّمَا

وِرْدُه «لا تحزنوا» في المأزِقِ　　«أنتمُ الأعلوْنَ» تاجُ المَفْـرِقِ
حـمـل الكـونيْنِ طـرًّا ظهْـرُهُ　　وحوىٰ برًّا وبحـرًا صـدرُهُ
أُذْنُهُ للرعـدِ إمَّـا جلجَــلا　　صــدْرُه للبرقِ إمَّــا نــزلا
جَمْرهُ كلّ لهيبٍ في حَشاهْ　　جـوْهـرٌ فيه كمالٌ للحيــاه
ليسَ في ضوضاءِ هٰذي الأمـمِ　　نـغـمــةٌ إلَّا أذانُ المسلـمِ
لطْفُه في الحفل حيَّر المُنكسِرْ　　قهْرُه في الحرب صَهْرٌ للحَجَرْ
قلبْـه تحت سـمـاءٍ لا يقـرّ　　هو فوق الزُّهر ما إنْ يستقرّ
طـائـر ينقـرُ نجـم الحُبُـكِ　　طـائـرًا فيمــا وراءَ الفلـكِ
أنتَ يا مَن لم يطرْ منك جَناحْ　　دودةٌ في ظلمــةِ التُّربِ تُـرَاحْ
مستكينٌ تشتكي جَوْرَ الزمانْ　　قد أُصبتَ الذلَّ من هَجْر القُرانْ
قد هبطت الأرض طُهرًا كالندىٰ　　بالكتاب الحيِّ أمسكت يدا
فإلامَ العيشُ في التُّربِ ارْحلا　　اصعدَنْ فوق السماوات العُلَى

ويقول رحمه الله :

ســرُّ هـذا الأمـر يا ذا البَصَــرِ　　« الحــياةُ العيش بين الخطـرِ »
ليسَ كُفْءَ اللَّيْثِ في صولتـهِ　　حَمَــلٌ يرجُـفُ في ذِلَّتِــهِ
إنْ حكىٰ الصَّعْوةَ صقْرٌ كاسرُ　　فهــو كالـصعْـوة واهٍ خــائرُ
كتب الشارِعُ ربُّ الحكمـةِ　　لك هــذا اللوح لـوح القــدرةِ
يَشْحَـذُ العــزَم بنـارِ العمـلِ　　ويُـرقِّيكَ لأعلــى مـنــزِلِ
إنَّ دينَ المصطفى دينُ الحــياهْ　　شَرعُه للناسِ قانــونُ الحــياهْ
إنْ تكنْ أرضًا يُصيِّرك السماءْ　　ويُربِّيكَ كـمــا الحـقُّ يشــاءْ

ويقول في دُناءِ الهمَم مِن خَلَف هذه الأمة،وكان سَلفُهم رجالًا :

كانت الأُسْـدُ جهــادًا مَلَّتِ　　نازعاتٍ نحــوَ عيْشِ الدَّعـةِ
عن هوًى أصغتْ إلى النُّصْح المُنيمْ　　فَدَهاها الكبشُ بالسِّحْر العظيمْ
كان فَرسُ الضَّأنِ مِن سنَّتهــا　　فاقتدتْ بالضَّأْنِ في شِرْعتهــا

جوْهرُ الآساد أضحى خَزَفَا   حينَ صار القوتُ هذا العَلَفا
فذوىٰ في القلب شوْقُ العملْ   وهُيام السعي خلْف الأَملْ
ذهب الإقدامُ والعزمُ الأليلْ   والسَّنا والعز والمجدُ الأثيلْ
بُرثُن الفولاذ فيها قد وَهنْ   واستكانَ القلبُ في قبر البَدَنْ
ونما الخوفُ بنقْصِ المنَّةِ   قطَّع الخوفُ جذورَ الهمَّةِ
كل داءٍ في سقوطِ الهِمَمِ   يجعلُ الأحياءَ مِثْلَ الرِّمَمِ
نامتِ الأُسْدُ بسِحْر الغَنَمِ   سَمَّتِ العجزَ ارتقاءَ الأُممِ

ويقول رحمه الله :

مِنْ هشيمٍ فيكَ أَذْكِ اللَّهبا   مِن ترابٍ فيك أطْلِعْ شُهُبا
من لهيبِ القلب علْمُ الكاملِ   مقصدُ الإسلام ترْك الآفلِ
صدَّ إبراهيمُ عمَّا يأْفُلُ   فحَوَتْهُ كالجنانِ الشُّعَلُ
أيُّها الساعي لكحْلِ المُقلْ   غافلًا عمَّا به مِن كَحَلْ
من فمِ التِّنين فابْغِ الكوثرا   واسألنْ ماءَ الحياةِ الخنجرا[(١)]
لا تزال الشمس تُبدي نورَنا   غَيْمُنا فيه بُروقٌ وَسَنا

ويقول أيضًا :

حُرِم الخوفُ طَموحَ الهمَّةِ   فهو خِدْنٌ لحليفِ الذِّلَّةِ

ويقول :

قلْبُنا الخفَّاقُ يأبىٰ موطِنا   رِيحُه العاصفُ تأبىٰ مسكنَا

ويرى إقبال أن أفلاطون الذي أثَّرت آراؤه في تصوُّف المسلمين ؛ كان على الطريقة الغَنمِيَّة، وأن الاحترازَ من فكره واجب :

راهبُ الماضينَ أفلاطُ الحكيمْ   مِن فريقِ الضَّأنِ في الدهرِ القديمْ

---

(١) يعني : اركب الأهوال وراء ما تبتغي ، واطلبِ المنفعة عن كل ضارٍّ ، واجعل ماء الخنجر – أي بريقه – ماء الحياة .

قال في الموتِ بدا سِرُّ الحياةْ في خمودِ الشَّمع يزدادُ سَناهْ
هو شـاةٌ في لباسِ الآدمـيِّ وهو في الصُّوفي ذو بأسٍ قويّ
عالَمُ الأشياء سـمَّاهُ الهُـراءْ وعلَتْ أفكارُه فوق السـماءْ
لم يُلألئ عـندهُ قطْرُ النَّـدىٰ طيرُهُ ما فيه صوتٌ قد شدا
ظَبيهُ مِـنْ خِـفَّـةٍ لا يجْـفَـلُ غير خطـارٍ لـديْهِ الحجَلُ(١)
قلبُه يعـشو لنـارٍ خامِـدَهْ صَوَّرتْ عيْناهُ دنيـاها جِـدهْ
هُلك أقـوامٌ بهـذا التَّمَـلْ حُرِموا بالنوم ذَوْقَ العمـلْ

لله درُّك يا إقبال :

رأيتُ الشيخ بالمصباح يسعىٰ لـهُ في كـلِّ ناحـيةٍ مجـالُ
يقول مللتُ أنعامـًا وبهْمـًا ووثَّابًا أريـدُ فهـل يُنـالُ
فقلنـا ذا مُحـالٌ قـد بحثْنـا فقـال ومُنْيتي هـذا المحـالُ

رحمك الله يا إقبال ؛ بما قدَّمت لأُمَّتك النُّصْح جاهدًا .. وبعثت الهمم ، ولكن هل استجابتْ ؟!

غزلتُ لهمْ غزلًا دقيقًا فلم أجدْ لغزلِيَ نسَّاجًا فكسَّرتُ مغْزَلي

لله درُّ إقبال وهو يقول :

توحـيدُ الله لنا نـورٌ أَعْـدَدْنا الـرُّوحَ له سَـكَنا
الكـونُ يـزولُ ولا تُمحـىٰ في الدهر صَحائفُ سُؤْدُدِنا
بُنيتْ في الأرض معـابدُنا والبـيتُ الأوَّلُ كَعْبتُنـا
هـو أوَّلُ بيتٍ نحفظُـه بحـياةِ الـروح ويحفظُنـا
وأذانُ المسـلم كانَ لـهُ في الغرْب صدى مِنْ همَّتِنَـا
قُـولـوا لسماءِ الكـونِ لقدْ طـاوَلْنـا النجـمَ بِرفعتنـا

---

(١) خُلق أفلاطون عالمًا لا يثبُ ظبيه ولا يتبختر حجله ، والحجَل طيْر جميلة في مَشْيها تَبَختُر .

يا دهــرُ أمَـا جــرَّبتَ على ... نـيرانِ الشِّـدةِ عـزْمتنـا
طُـوفـانُ البـاطـلِ لم يُغْــرِقْ ... في الخــوف سـفينة قوَّتنـا

عُمَر بهاء الدين الأميريُّ .. لله درُّه :

قال رحمه الله في قصيدة « ذرى » :

يُلـمُّ بِكَ الضّـنى أو لا يُلِـمُّ ... مُكابدةُ الجهــادِ عليكَ حَتْـمُ
إذا لم يصـنع الحــرُّ المعــالي ... فـإنَّ حياتـه زيْـفٌ ووهْــمُ
فيمِّمْ شَطْرَ نورِ النورِ واصْعَدْ ... فأوَّلُ دَرْبكَ المنشــودِ نَجْـمُ
ومَرْمــاهُ معــارِجُ في ذُرَاهــا ... وَمِيضُ سَنا السَّنَا يَدْنو ويَسْمـو
تعرّضْ منهُ للنفحــاتِ وادْأبْ ... بعزْمِ الروح إنْ أعياك جسمُ(١)

ويقول رحمه الله :

وحِيدٌ يلـوبُ على صِنْـوِهِ ... أبيٌّ شـجيٌّ كـبيرُ المُـنى
غريبٌ مدىٰ عمري مُصعِـدٌ ... تَوزَّعني الهــمُّ بين الدُّنـا
ففي المشـرقيْنِ وفـي المغـربين ... غريبٌ هناك غــريبٌ هــنا
وأخفقُ حتَّى كـأنَّ خــلايا ... كياني قلوبٌ كخَفْقِ السَّـنَا
ولو كنتُ أسكنُ كانت نجومُ الســــماواتِ لا الأرض لي مسكنا
ولكنْ أبىٰ الحــرُّ إلا مُضيـًا ... يجاهــدُ في الله حتى الفنـا
وإنْ يشْكُ كانت شكاةَ الطُّموحِ ... إذا عَــزَّ مطلبُـهُ أمْعَـنا
ومَنْ يَفْنَ في الله عاش الخلودَ ... وجلَّ المــرادُ وطـاب الجـنىٰ

ويقول رحمه الله :

هواي هوًى في العقل يرنو إلى العُلا ... بعيدًا بوجْدٍ في العُلا متأصِّلِ
وآخر في قلبي يؤجِّجه الصَّدىٰ ... وبُعدُ المدىٰ في لهفةِ المتعجِّـلِ
وملءُ كياني ثورةٌ عُمـرَيَّـةٌ ... وقد قصَّرتْ عمَّا أريدُ وسائلي

---

(١) ديوان إشراق لعمر بهاء الدين الأميري صـ ١٦٨ - ١٦٩ .

وفي عنقي مذْ كنتُ لله بيْعَةٌ أجاهدُ هلْ وحدي أجاهد هيْتَ لي
فلستُ أبالي حين ألقاك ثابتًا على عهدِكَ القدسيّ ما قال عُذَّلي[1]

* * *

ويقول رحمه الله :

حُرٌّ ومأرب نفسٍ للسّماك سما فآتِ يا ربِّ نفسَ الحرِّ مأربها

ويقول :

وهِمَّـــةٍ وصلْتُ آمالـهَــا بالله شـــدَّ الله لـي أزْري
أجـــدُّ إنْ نلتُ وإن لــم أَنَـلْ مهما انقضىٰ عُمري وما عمري؟
لله مِـن نفـسي نذْرٌ مضـــىٰ حسـبي إذا وَفَيْتُـه نـذْري

ويقول :

وطموحي إلى الذرا مشـــرِقات بالسَّنا والمنىٰ كبيرٌ كـبيـرُ

ويقول في قصيدة « إلهي » :

إلهَي وامـلأْ حياتي جـــدًا فقدْ ضِقتُ بالأَنْهرِ الخـاويهْ
وضعْ عَزْمَةً منك في كاهـلي لأمضيَ في حمْـــلِ أعبائيَــهْ
فأشـــرِقْ عليّ علىٰ ســرِّ نفسي لأســمو بروحي على جِسْـمِيَهْ
وأنفـض عـنّي رَيْنَ الثـرَىٰ فيذكـــو وينشــطُ إيمانِيَــهْ
وجَـــنِّدْ كـياني وقـــد صُغتَـهُ فأحكمتَ للدعوةِ البانِيَــهْ
وأرقىٰ عقابَ العُلا مُصْعِـــدًا وأُملي بحكمِكَ أحكامِـيَــهْ
أصُـــون الأمـــانـة حمَّلتَنيهـا وعزمُك ينفُثُ في عزْمِيَــهْ
أقيـمُ صروحَك رغْـــمَ الـرّدىٰ عَصيًّا على المْوجة العاتيــهْ
لقـدْ نامَ قـومُ الرسـالةِ عنهـا ونـال العِـدَا نـومــةً قاضيــهْ
إلٰــهي فكُنْ لي أكنْ صيْحةَ الـــنـــشـــور لأَبعَثهـمْ ثانيــهْ
وأحـشُـــدُ للحـقّ أجـــنادهُ وأجمـــع أشتاتَهُ النائيـــــهْ

---

(١) من قصيدة « إلى أين » من ديوان إشراق صـ ٥٨ - ٦١ .

وأنشـــر رايـــة تمجـــيدِهِ على الأرض دانيـــةً قاصِيـهْ

ويقول في قصيدة « صفاء الجَوَىٰ العلوي » :

همَّتــــي غرثىٰ إلى المجْـــ ـــدِ ومِن مجـــــدي إبائـــي
ونقــيُّ الــروح ما بيْـــ ـــنَ دعـــاءٍ وبكـــاءِ
يَكْـرَعُ الصـبر ويرقــىٰ في ســماواتِ وضــاءِ
وجْــده يســمو بــه في لا نهـــاياتِ انتشـــاءِ
فالسَّنــا والطهــرُ جنَّــا تُ المنـــى للســـعداء

ويقول :

وأُحيي نهارًا في مساورةِ العُلا وأرقى بإقدامي إلى القمَمِ الشُّمِّ

ويقول :

هــذه أمتي .. وهــذا بلائي يا إلهي إليك تُزجَىٰ الأمــورُ
فاصطنِعْني وانفخْ بعزمِيَ صُورًا قبلَ أن يُعجل القيامة صُــورُ
فالنشورُ المنشودُ في هذه الدنـــــــيا جهادٌ به يكون النشورُ

ويقول في قصيدته « ملء اليقين » :

عبدتُ وملءُ يقين اليقيـنْ وأخلصــتُ أخلصــتُ لله دينْ
عقيدةُ لبٍّ وإيمــانُ قلــبٍ وصحَّـــةُ دَرْبٍ وعــزمٌ متينْ
وتصميمُ حــرٍّ وهــديٌ ورأيٌ ووعيٌ وســعيٌ قَمِينٌ قمِـينْ

ويقول :

والقـــلبُ بيتُ الــربِّ صا غَ من السَّنا والعشْقِ خَفقَـهْ
فسمـــوتُ عنْ أُفــقِ الثرىٰ وعـــدوْتُ معــراجي وأُفقَهْ
يا عـــبدَ خلّاق العَـــوَا لمِ أنتَ أنت الحـــرُّ فافْقَهْ
فاعـــرِفْ حـدودَك وهْي مِعْـ ـــراجٌ فسيحُ البوْنِ وارْقَـــهْ
والقـلبُ عافيـــةُ الكـيا نِ وليس يُرضي العقلَ حنْقَهْ
أطلِقْهُ يُطلِـقْ عن خُطــا ك قيودَهـــا فتُفِذُّ طلقَــهْ

دقَّــاته ذكْــرٌ صَمُــو تٌ ناطِـقٌ في كـلِّ دَقَّـهْ
بالــحْمــدِ بالتقــديس للَّــــه الـذي قـد حـفّ خلْقَـهْ
وجُعِـلتَ يا إنســانُ أكــ ـرمَ خلقه لا فـوْقَ فوْقَــهْ
فأنبْ لـربِّـك والْــتزمْ حُـــرًّا بــهِ ما عِـشتَ رقَّـهْ

ولله درُّه وهو يقول في مطوَّلته « مع الله » - وما أجملَها وأرقَّها وأنداها -:

مَعَ الله في سُبُحاتِ الفَكَــرْ مَعَ الله في لمحاتِ البَصَــرْ
مَعَ الله في زَفَراتِ الحشـا مَعَ الله في نبضَاتِ البَهَــرْ
مَعَ الله في مطمئنِّ الكَــرىٰ مَعَ الله عند امتدادِ السَّهَــرْ
مَعَ الله في أمْسِيَ المنقضـي مَعَ الله في غَديَ المُنْتَظَـرْ
مَعَ الله في عُنفوانِ الصِّبَــا مَعَ الله في الضعْفِ عندَ الكِبَرْ
مَعَ الله في الجسْمِ والرُّوح والـــشعور وخفْق الرُّؤىٰ والفِكَرْ
مَعَ الله قبلَ حـياتي وفيهـا وما بعدها عندَ سكنى الحُفَرْ
مَعَ الله في حبِّ أهل التُّقـىٰ مَعَ الله في كُرْهِ مَن قدْ فجَـرْ
مَعَ الله طَوْعًا مَعَ الله سـوْقًا فما مِن مَلاذٍ وما مــن وَزَرْ
مَعَ الله والفيْضُ مِن قُدْسِـهِ يُنيرُ بصـيرتنا والبَصَــرْ
ويدفعُ أعمــاقَ إيمانِنــا فِـرارًا إليهِ ونعْمَ المَفَـرّْ
فنُبْصِرُهُ جلَّ مِن خالــقٍ بآلائِهِ البارِعاتِ الغُــرَرْ
ونحــيا بِهِ ثمَّ نفنـىٰ بِــهِ ونحيا ونحيا ونحيا الدَّهَرْ(١)

* * *

(١) من ديوان « مع الله » ، للأميري .

سيِّد قطبُ أديب الإسلام ، وكتابُه « الظلال » فتحٌ من فُتوح الإسلام ، كما قال النَّدَويُّ :

الأديب الفذّ العِمْلاق الأستاذ الكبير سيد قطب ؛ لله درُّه ... صاحب الظلال وما أدراك ما الظلال ؟! ببلاغته الآسِرَة الرقيقة الشفيفة .. نعم ، لِكلِّ جَوَادٍ كَبْوة[1] ولكن أشهَدُ بالله ؛ ما يُنكر تأثيرَه الجميلَ في نفوس سامعيه وعواطفهم ؛ إلا مُكابِرٌ مُعانِدٌ .

وكتابه القيم «معالم في الطريق» وكتابه « خصائص التصوُّر الإسلامي » وقصائده ..

وقصيدته الرائعة « أخي » ؛ ومنها :

أخي أنتَ حرٌّ وراءَ السُّدودْ — أخي أنتَ حرٌّ بتلك القيودْ
إذا كنتَ بالله مستعْصِمًا — فماذا يَضيرُكَ كيْدُ العبيدْ
أخي هلْ تراك سَئِمتَ الكفاحْ — وألقيتَ عنْ كاهِلَيْكَ السِّلاحْ
فمَنَ للضحايا يُواسي الجِراحْ — ويرفعُ راياتِها من جديدْ
أخي إنني اليومَ صَلْبُ المِراسْ — أدُكُّ شموخَ الجبالِ الرَّوَاسْ
غدًا سأُشيح بفأس الخلاص — رؤوس الأفاعي إلى أن تبيدْ
أخي إنْ ذرَفتَ عليّ الدموعْ — وبللتَ قبري بها في خُشوع
فأوقِدْ لهمْ مِن رُفاتي الشموعْ — وسيروا بها نحو مجْدٍ تليدْ

---

(١) الشيخ سيد قطب علَمٌ مِن أعلام الدعوة ؛ كتب كتاب « في ظلال القرآن » بلسان الأديب ، فوقع في أخطاء هامَّة في العقيدة والحديث والتفسير . ومن النُّصْح للشيخ سيد قطب أن يعرفها الناس . وكل إنسان يُؤْخذ من كلامه ويُرَدُّ إلَّا المعصوم ﷺ . ولمعرفة هذه الأخطاء يُراجَع كتاب « المَوْرد العذْب الزُّلال في أخطاء الظلال » للشيخ الدويش .

أخي إنْ نمُتْ نلْقَ أحبابَنـا   فرَوْضاتُ ربِّي أُعَدَّتْ لنـا
وأطيارُها رفْرفَتْ حوْلَنَـا   فطوبى لنا في ديارِ الخلـودْ
أخي إنني ما سئمتُ الكفـاحْ   ولا أنا ألقيتُ عني السـلاحْ
فإن أنـا متُّ فإني شـهيدْ   وأنتَ ستمضي بنصرٍ مجـيدْ
سـأثـأر لكـنْ لـربٍّ ودينْ   وأمضي على سُنّتي في يقـينْ
فإمَّا إلى النصرِ فوْقَ الأنـامْ   وإمَّا إلى الله في الخالِـدينْ
أخي فامضِ لا تلتفت للـوراءْ   طريقُكَ قد خضَّبته الدِّماءْ
ولا تلتفتْ ها هنا أو هنـاكْ   ولا تتطلعْ لغير السـماءْ

هاشم الرفاعي .. لله درُّه :

يقول رحمه الله :

أنا مسلمٌ أنا مسلـمُ   هذا نشيدي المُلهَـمُ
من أعمق الأعماقِ أبْـ   ـعثُ لحنَهُ يترنَّـمُ
رُوحي تُردِّدُه وقلْـ   ـبي والجوارحُ والدَّمُ
شوقًا وتَحنانًا لأمْـ   ـجادٍ لنا تتكلَّـمُ
أنا مسلمٌ أنا مسلـمٌ   بالرغمِ ممن يحقـدونْ
أنا ها هنا بشريعـتي   في موكبِ الحقِّ المبينْ
أنا لستُ رجعيًّا ولـ   ـكنْ قائدُ المتقدِّمينْ
وزعيمُ كلِّ حضارةٍ   جاءتْ على مَرِّ السنينْ
شيَّدتُ للمدنيَّةِ الْـ   ـعُظمى قلاعًا وحُصونْ
أيامَ كانَ الغربُ يخْـ   ـبطُ في دياجيرِ القرونْ
حرَّرتُهُ بالفتح مـنْ   أيدي الطُّغاةِ الظالمينْ
ورعيتهُ بالعلـم حـتـى   فاقَ كُلَّ العالميـنْ
لكنَّهُ لم يرعَ حـ   ـق أُبُوَّتي شأنَ الخؤونْ
ولعلَّ في الحمـراء والْـ   ـقُدسِ دليلَ المسلمينْ

أنا مسلمٌ أنا مسلمٌ   في شدَّتي قبلَ الرخاءْ
بعقيدتي الغرَّاءِ أسـ   ـمو سامقًا نحوَ السماءْ
دُنياي رُوحي كلُّ شيْـ   ـءٍ في الحياة لها فداءْ
إنْ قالَ حيَّ على الجها   دِ تُجِبْهُ صيحاتُ الدِّماءْ
لو كنتُ أشلاءً مُمـ   ـزَّقةً بأنحاءِ الفضاءْ
لمْ آلُ جُهدًا في كفا   حِ مُناصبِ الدِّينِ العداءْ
سنشنُّها حربًا ضرو   سًا في ثباتٍ وإباء
لِتهبَّ في الدنيا العريـ   ـضةِ ريحُ شِرْعتِنا رُخاءْ
فالموتُ أحلى من حيا   ةٍ كحياةِ الجُبناءْ
الله أكبرُ ما ألـ   ـذَّ الموتَ في ظلِّ اللواءْ
أنا عالميٌّ ليس لي   أرضٌ أسمِّيها بلادي
وطني هنا أو قلْ هنا   لكَ حيثُ يبعثُها المنادي
الله أكبر من سما   واتِ المآذنِ والنوادي
هذي بلادي ولْتكنْ   بين الرياض أو البوادي
فالقفرُ أفضلُ من رِيَا   ضٍ في رُباها القلبُ صادي

ولله درُّهُ وهو يقول في قصيدته « أرملة شهيد تُهدهد طفلها » عن دناءة الهمم وإذلالها للظالمين :

هذا الذي قالوه عنه غدًا يُردَّدُ عن سواهْ
مادُمتُ أبحثُ عن أبيٍّ في البلاد ولا أراهْ

* * *

حتى صدى الهمساتِ غشَّاه الوهنْ
لا تنطقوا إنَّ الجدارَ له أُذُنْ
وتخاذلُوا والظالمون نعالُهم فوق الجباهْ

كشياه جزَّارٍ .. وهل تستنكرُ الذبحَ الشِّياهْ ؟

شاعرٌ آخرُ وهذه قصيدته :

○ لمعين النور ○

لمعين النور .. للإيمان .. للحقِّ دُعينا
شرْعُنا سَمْحٌ وبالمعروفِ نمضِي آمرينا
قدْ مشيْنا في رياضِ المجدِ دهرًا شامخينا
ورفعْنا الجبهةَ الشمَّاءَ عزًّا والجبينَا
أبدًا لا نرتضي ذُلا وهُونًا أوْ ولينا
أبدًا .. سودُ الليالي .. لنْ ترانا واهنينا
كيف يرضي بأسُنا الجبَّارُ منَّا أن نلينا
وبفضلِ الله والإسلام كُنَّا الأوّلينا
إننا نحتملُ القرآنَ والخُلُقَ المُبينا
قدْ نذرْنا دَمَنا الزاكي وما أغلاهُ فينا
قدْ نذرْناه لِنُعلِيَ شأنَنَا دُنيا ودينا
فإذا نادى الجهادُ المُرُّ كُنَّا الأوّلينا
كلُّنا السَّبَّاقُ أن يلقى بأرضِ الخلْدِ عِينا
نحنُ نهوى في سبيلِ الله أن نلقى المنونا

وآخر :

○ قـمْ يا أخي ○

قمْ يا أخي لسنا نخوضُ الحربَ بالخُطَبِ الفِصاحْ
هذا سلاحٌ باردٌ لا ترتوي منه البطاحْ
قمْ يا أخي في الله .. قمْ وحِّدْ صفوفَكَ للكفاحْ
قمْ يا أخي لا تخشَ إلا الله لا تخش النُّباحْ

قمْ يا أخي .. قمْ وامضِ فالله الموفِّقُ للفلاحْ
قمْ يا أخي في الله نهدمُ في مسيرتِنا السدودْ
قم يا أخي وحِّدْ صفوفَك ثمَّ سِرْ نحوَ الخلودْ
قمْ يا أخي مُتوثِّبًا أثبتْ وجودَكَ في الوجودْ
قمْ يا أخي قدْ آنَ أن تنفكَّ من أسرِ القيودْ
قمْ يا أخي يكفي وعودًا لن نفيدَ من الوعودْ
قمْ لا تنمْ أينَ البطولةُ يا أخي أين الشبابْ ؟!
أين الكرامةُ يا أخي أينَ الطُّموحُ إلى السحابْ ؟
أتخافُ أنْ تلقى الحِمامَ أأنت ترهبُ أو تهابْ ؟
لا لا محالٌ أنْ نموتَ أذِلَّةً نخشى الكلابْ
فانهضْ وهيًّا يا أخي نمحو الهوانَ عن الهضابْ

محمد منلّا غزيِّل وشظايا الإيمان :

بعقيدتي بالحقِّ بالإيمان يسري في دمي
بالرُّوحِ تزخرُ بالهدى بهدى النبيِّ الأعظمِ
سيزولُ ليلُ الظالمين ... وليلُ بغي المجرمِ
سيزولُ بالنورِ الظلامُ ... ظلامُ عهدٍ مُعتِمِ
وسيشرقُ الفجرُ المُبينُ ... ويرتوي القلبُ الظمي
بشريعة الله العظيمِ .. وبالنظامِ المُحكمِ
بشريعةِ القرآن .. دستورِ الحياةِ الأكرمِ
سيزولُ بالنورِ الظلامُ .. ظلامُ عهْدٍ مُعتمِ
أنا مؤمنٌ بالحقِّ .. بالنصر المبينِ لدعوتي
وبحُبِّ أفئدةٍ وعتْ معنى الفدا والعزَّةِ
وبحُبِّ أفئدةٍ رأتْ في السجن أصدقَ خَلْوةِ
سيزولُ بالنورِ الظلامُ .. ظلامُ عهدٍ مُعتمِ

سنُعيدُها غرَّاءَ إسلاميَّةً يا إخوتي

أنا مؤمنٌ يا إخوةَ الإسلام تملأ مهجتي

نبضاتُ أمجادٍ تُوجِّهُ خافقي للكعبةِ

سيزولُ بالنورِ الظلامُ .. ظلامُ عهدٍ معتمِ

عبد الحكيم عابدين و « نشيد الكتائب » :

هو الحقُّ يحشدُ أجنادَهُ ... ويعتدُّ للموقفِ الفاصلِ

فصُفُّوا الجحافلَ آسادَهُ ... ودكُّوا بهِ دولةَ الباطلِ

نبيَّ الهدى قد جفوْنا الكرى ... وعِفْنا الشهيَّ من المطعمِ

نهضنا إلى الله نجلو السُّرى ... بَروعةِ قرآنِهِ المحكمِ

ونُشهِدُ مَنْ دبَّ فوقَ الثَّرى ... وتحتَ السما عزَّةَ المسلم

دعاةً إلى الحق لسنا نرى ... له فديةً دونَ بذلِ الدمِ

تآختْ على الله أرواحُنا ... إخاءً يروعُ بناءَ الزمنْ

وباتتْ فِدى الحقِّ آجالُنا ... بتوجيهِ قرآننا المؤتمَنْ

رقاقٌ إذا ما الدُّجى زارنا ... غمرْنا محاريبنا بالحزَنْ

وجُنْدٌ شِدادٌ إذا رامنا ... لبأس رأى أسْدَنا لا تَهِنْ

أخا الكفر إمَّا تَبِعتَ الهدى ... فأصبحتَ فينا الأخَ المُفتدَى

وإمَّا جهلتَ فنحنُ الكماةُ ... نُقاضي إلى الرَّوْعِ مَنْ هدَّدا

إذًا لأذقناكَ ضِعْفَ الحياةِ ... وضِعْفَ المماتِ ولن تُنجدا

فإنَّا نصولُ بِرُوحِ الإلهِ ... ونقفو ركابَ نبيِّ الهدى

إلى النصر في الموقف الفاصلِ ... إلى النصرِ في الموقف الفاصلِ

وجمال فوزي « حسَّان الدعوة » :

لله درُّهُ ! ما أعلى هِمَّته وصموده ، وقد أتلف له الظالمون بتعذيبهم إياه نصف جسده ؛ إحدى عينيه وعموده الفقري وذراعه ورِجْله ، وهو الرقيق

النفس ، الرهيف المشاعر .. أطلق عليه إخوانه لقب « حسَّان الدعوة » ؛ لأنه أدقُّ مَنْ وصف الدعوة في مراحلها المختلفة شِعرًا ؛ خاصَّةً وصْفه مرحلة السجن والتعذيب .. استمع إليه في قصيدته « إلهي قد غدوتُ هنا سجينًا » من ديوان الصبر والثبات :

إلهي قد غدوتُ هنا سجينا ... لأني أنشدُ الإسلام دينا
وحولي إخوةٌ بالحقِّ نادوا ... أراهم بالقيودِ مُكبَّلينا
طُغاةُ الحكمِ بالتعذيبِ قاموا ... على رهْطٍ من الأبرار فينا
فطَوْرًا مزَّقوا الأجسامَ منَّا ... وطَوْرًا بالسياطِ مُعذِّبينا
وطَوْرًا يقتلون الحُرَّ جهْرًا ... لِينطق ما يروقُ الظالمينا
وقدْ لاقى الشهادةَ يا رفاقي ... رجالٌ لا يهابون المنونا
فمهْلًا يا طُغاةَ الحكمِ مهْلًا ... فطعْمُ السَّوطِ أحلى ما لقينا
سُمَيَّةُ لا تُبالي حين تلقى ... عذابَ النُّكْرِ يومًا أو تلينا
وتأبى أنْ تردِّدَ ما أرادوا ... فكانت في عداد الصالحينا
سنبذلُ رُوحَنا في كلِّ وقْتٍ ... لِرفعِ الحقِّ خفَّاقًا مُبينا
فإنْ عشْنا فقدْ عشْنا لحقٍّ ... ندُكُّ به عروشَ المجرمينا
وإنْ متْنا ففي جنَّاتِ عدنٍ ... لِنلقى إخوةً في السابقينا

وانظر إلى قصيدته للشهيد « عرفتُك حُرًّا طوال السنين » :

هنالك في السموات العلى . تلألاتِ النجوم فَرِحةً مُستبشرةً .. هنالك في الأعالي زغردتِ النجومُ بضياء مُتألِّقٍ ونادتْ : هلُمِّي إلينا أيتها الروح نورًا خالدًا .. يُمزِّق الظلامَ ويلوح في الكون إيمانًا بالله .. وإعلاءً لكلمته .. هلمَّ إلينا أيها الشهيد وانظر .. وانظر إلى الحضيض ممزوجًا بحطامِ الطاغوت .. هلمَّ أيها الشهيد إلى وعْد الله الكريم .

عرفتُك حُرًّا طوالَ السنينْ ... تبيعُ الحياةَ لِربٍّ ودينْ
فإنْ كنت فارقتَ دارَ اختبارٍ ... فأنت شهيدٌ مع الخالدينْ

فلا أنت ممَّن طواهُ الزمـــنْ ولا أنت ممَّن يخافُ المحـــنْ
فقدْ مزَّقتك سياطُ الطُّغـاةِ فما نال منك عذابُ البـدنْ
مع السابقين اتَّخذتَ المكانْ وللَّاحقين رسمتَ البيـــانْ
فمَنْ سار وَفْق كتابِ الإلـهِ سيلحقُ حتمًا بأسمى مكـانْ
يقينًا صدقتَ فنِلتَ الجـزاء بجنَّاتِ عدنٍ ثمارَ الوفـاءْ
هناك خلودٌ مع الخالـدينْ مع السابقينَ مع الأتقـــياءْ

ولله درُّه وهو يقول في «**قصة شهيد**» :

كم ســاوموه لكي يحيــ ــدَ عن العهودِ بأسرها
ولكي يخــون كتائبًـــا باعوا النفوسَ لرِّبهـــا
ولكي يُشوِّهَ ما أضـــا ءَ الكونَ من صفحاتِها
وأبى الكريمُ مباهِجَ الـــــدُّنيا وطلَّق أمْرَهـــا
ورأى السجونَ معاقلَ الْـ أحرارِ رغمَ قيودِهــــا
وأصرَّ أنْ يُعلي نـــدا ءَ الحقِّ في جنباتهـــا
أنا لن ألينَ ولن أخـــو نَ ولن أُغادِرَ ركْبهَـــا
أنا لن أهادنَ مَنْ بغَـــوا يومًا على أبرارِهـــا
سأظلُّ نارًا يحرقُ الْـ أشرارَ حَـرُّ لهيبهـــا
سأظلُّ حربًا تسحقُ الْـ ـفُجَّارَ في أرجائهـــا
قالتْ رعاكَ الله يـــا ولدي الحبيب فكنْ لها
رفعَ المجاهـدُ رأسَهُ في عِزَّةٍ أكْرِمْ بهـــا
ويقولُ في عزم الرجـا لِ تشجَّعي فأنا لهـــا

قصيدةُ « الفتح المبين » لشاعرٍ آخر :

« السجون والعذابات والآلام وحبال المشانق .. كلُّ أولئك بعضُ رصيدنا في الطريق إلى الله .. وها هو ذا الرصيد يحدو بنا إلى الفتح المبين ..

فإنه يُهلِّل فاسمعوه .. » .

نحن للحقِّ وللإيمان جُنْدٌ مسلمونْ
نحن لا نخشى أذى الظلم ولا ريْبَ المنونْ
عِزَّةُ الإسلام في الأنفُسِ تأبى أن تهونْ
وترى أنَّ المعالي للميامينِ تكونْ
فابتسم يا موتُ للأبطال وابكي يا سجونْ
هلَّل الفتحُ المبينُ يا جنودَ المسلمينْ
رغمَ أنفِ الكافرين ردِّدوا الله أكبرْ
نحنُ إنْ نُسجَنْ وإنْ نُعدَمْ فجنَّاتُ النعيمْ
هي مأوانا وأهلُ البغي في نارِ السَّمُومْ
فاملئوا الأرضَ لهيبًا يا طواغيتَ الجحيمْ
واستعينوا بالمنايا .. مرتعُ الظُّلمِ وخيمْ
حسبُنا أنَّا على شرعِ النبيِّ المستقيمْ
هلَّل الفتحُ المبينُ يا جنودَ المسلمينْ
رغمَ أنفِ الكافرين ردِّدوا الله أكبرْ

وقصيدة « أشعلتُهَا مِن دَمِي » :

هذا اللهيب المؤجَّج في معاقل الضلال نارًا تحرق .. هذا النور المنبعث من حنايا الكون المؤمن هدًى وخيرًا .. هذا ركْبُ المجاهد المنحدر من الأعالي يقرأ كتابه .

أشعلتُها من دمي جمرًا وبركانا ... أجَّجتُها من شرارِ القلبِ نيرانا
صخَّابةً يُفعمُ الإشراقُ صرختَها ... يلوحُ في قلبِها البسَّامِ فتَّانا
فلا لشرقٍ ولا غربٍ نُطأطئُها ... بلْ ترفضُ الجبهةُ الشمَّاءُ إذعانا
إنَّ البطولةَ صاغتْها عزائمُنا ... فجرًا مُنيرًا تحريرًا وإيمانًا

يؤجِّجُ النارَ في أعماقِ إخوتنا ... ويُزهِقُ الباطل المدحورَ مُذ كانا
لا أمسُ يعرفُنا الروَّادُ مُذ سطعتْ ... أشعَّةُ الوحي في آفاقِ دنيانا
هديُ الرسولِ رسولِ الله لقَّننا ... أن الهزيمةَ ليستْ من سجايانا
فبُورِكَ الدمُ روَّى قُرْبَ مُعترَكٍ ... أرواحَنا في لظاهُ من عطايانا
جُنْدُ العقيدةِ يمضي ركْبُنا قُدُمًا ... فلا يُخلِّفُ طاغوتًا وأوثانا
نُحرِّرُ الأرض من أغلالِ تجزئةٍ ... تُمزِّقُ الدارَ أقطارًا وأوطانا
نُحرِّرُ الفكرَ من أغلالِ مهزلةٍ ... وردَّةٍ ما لها إلا سرايانا
نُحكِّمُ الشرعَ منهاجًا لأُمَّتنا ... ونحملُ المِشعلَ الوقَّادَ فُرقانا
منهاجُنا قلعةٌ بالقلبِ نحرسُها ... وبالدماءِ لها أغلى ضحايانا
تأبى عقيدتُنا .. تأبى شريعتُنا ... أنْ يُصبحَ الناسُ أذيالًا وقُطعانا

وقصيدة « لنْ أَستَكِين » :

حينما يبسم وجْهُ المؤمن هازئًا بكلِّ طواغيت الأرض فلماذا يستكين ؟! حينما يعمُرُ الإيمانُ قلب المؤمن فلماذا يستكين ؟! ولمن يستكين ؟! لا .. لن أستكين .

أمَلٌ يُداعبُ خاطري وله أدينْ
الكونُ ردَّد صرختي عبْرَ السنينْ
والدهرُ يشهدُ أنني لن أستكينْ

شعْبٌ أبيٌّ خالـدُ ... مجـدٌ سنـيٌّ تالـدُ
كمْ سلَّ سيْفَ الحق منـــــنَّا نحنُ مـنا قائدُ
منَّا الرشيدُ وطارقٌ ... والغافقـيُّ وخالـدُ
يا ليت شِعْري كيف أر ... ضى الذُّلَّ والضيْمَ المشينْ
لا لا وربِّي .. إنني لن أستكينْ
لن أستكينَ وفي الكنا ... نةِ أنفُسٌ تهوى الرَّدى

أبدًا تثورُ على المظـا   لم كاللظى لن تُخمَدا
كانتْ وما زالتْ ببذْ   لِ الرُّوح رمزًا للفدا
لن يستكينَ المؤمنو   ن فلا ولن.. لن أستكينْ
لن أستكينَ لغير ربِّ العالمينْ
لنْ أستكينَ وقلبي الْـ   خفَّاقُ ظامٍ للمنونْ
لا الخطْبُ يُجزِعُه كـــ   ـــلَّا ولا محنُ السنينْ
أنا أعشقُ الهيجاءَ أهْـ   ـوى الثائرينَ المؤمنينْ
غارٌ يُكلِّلُ جبهتـي   أختالُ مرفوعَ الجبينْ
لن أستكينَ لغير ربِّ العالمينْ
سأسيرُ للحربِ العوا   نِ لساحةِ الشرفِ المصونْ
سأثورُ أسخرُ من حمـا   مٍ أو لظى جُرحٍ ثخينْ
لِأعودَ من ساحِ الوغى   يحدونَي النصرُ المبينْ
إذ ذاك أصرخُ من صميـ   ـمي واثقًا كُلِّي يقينْ
لنْ أستكينَ لغير ربِّ العالمينْ

وقصيدة « عقيدة المؤمن » :

قد فاح أريجُها عِطرًا شـذيًّا .. وأضاء نورُها طريقَ البشرية بعد ظلامٍ حالك .. إنَّها عقيدتي .. هُويَّتي .. وعنوان وجودي .

أنا مسلمٌ وعقيدتي تتضوَّعُ   بشذى الصلاح وخافقي يتمتَّعُ
أنا مسلمٌ وعقيدتي فيها السَّنا   وضَّاءُ من نورِ الإلهِ يُشعشِعُ
أنا مسلمٌ وعقيدتي مهْدُ العُلا   أبدًا فؤادي الحُرُّ فيه تهجعُ
أنا مسلمٌ وعقيدتي درْبُ الهُدى   تحبو عليه الناسُ ثَمَّ وتهطعُ
أنا مسلمٌ نورُ العقيدة مُلهمي   وهُدائي في دربي ونهجي المُمرَعُ
الله أكبرُ في المآذنِ دائمًـا   هي للفلاح منارُ حقٍّ يَسطعُ
الله أكبرُ ما أُحيْلى رجْعَها   يجتاحُ قلبي فالجوانحُ تخشعُ
تُصغي إليه جوارحي في ذِلَّةٍ   فكأنَّ أُذنًا للجوارحِ تسمعُ

يا دعوةَ الإصلاحِ ذكْرُكِ خالدٌ ... سُقْيًا لشعبٍ في ربوعِكِ يرتعُ
أنقذتِنا من جاهليةِ أُمَّـةٍ ... خرقاءَ تسجدُ للجمادِ وتركعُ
والآنَ واأسفًا على الإسلام كَمْ ... فاضتْ بأعيُنِهِ الكئيبةِ أدمُعُ

وقصيدة « انشرْ ضياءَك » :

انشرْ ضياءَكَ مُشرقًا مُتألِّقًا ... مُتلألئَ القَسمات حلْوَ المبسمِ
وابعثْ نداءَكَ عاليًا واقرعْ بهِ ... سمْعَ العُفاةِ الغافلين النُّوَّمِ
فنداؤك العلويُّ يخلُقُ هزَّةً ... بمسامعِ الصَّخرِ الأصمِّ الأبكمِ
لا تجعل الذكرى نشيدًا مُطربًا ... بمنظَّمٍ يُتلى وغيرِ مُنظَّمِ
ذكرى إمامِ الرُّسْلِ أحمدَ ثورةٌ ... للحقِّ تجري في الحياةِ مع الدَّمِ
صوتٌ من البطحاءِ عُلْويُّ الصَّدى ... هزَّ الوجودَ فيا عروشُ تحطمي
وتطلَّعي يا أرضُ للنُّورِ الذي ... دحَرَ الظَّلامَ وللضِّياء تبسَّمي
هو دعوةُ التوحيدِ رنَّ أذانُها ... يدعو البريَّةَ باسمِ ربٍّ أكرمِ
يا مَنْ حملتَ النورَ تفتحُ أعيُنًا ... عُميًا وتهدي للصِّراطِ الأقومِ
أتهونُ أُمَّتُك التي أولـيْتَها ... نِعَمَ الهدايةِ من كريمٍ مُنعِمِ
أتضِلُّ والقرآنُ مِشْعلُ دربِها ... يهدي خُطاها في الكفاحِ المظلِمِ
لا لن تَذلَّ فهذهِ راياتُها ... رُغْمَ العواصفِ والدُّجى لم تُحجِمِ
ظمأى يُحرِّكُها نداؤك كلَّما ... عصفَ الطُّغاةُ بركْبِها المتقدِّمِ
أنا مؤمنٌ حطَّمتُ آلهةَ الهوى ... وبنائيَ الجبَّارُ لم يتحطَّمِ
سأظلُّ في دَرْبِ العُلا مُستمسِكًا ... بالعروةِ الوثقى التي لم تُفصمِ
يا أُمَّةً هبطَ الزَّمانُ بمجدِها ... ذُلًّا وكانت في المقامِ الأعظمِ
لا عزَّ إلا بالكتابِ يقودُنا ... أكرِمْ بأحسنِ قائدٍ ومُعلِّمِ

وقصيدة « الله أكبر » :

الله أكبر صيحةُ إنقاذٍ للساجدين .. الله أكبر صيحةُ إنذارٍ للظالمين ..

الله أكبر صيحةٌ دكَّتْ عروش كسرى ومُلْك قيصر .. الله أكبر حُداءُ المسلمِ الخالد .. الله أكبر قولوها بلا وَجَلٍ .. وزيِّنوا القلبَ من مغزى معانيها .

الله أكبرُ بسمِ الله مجراها ... الله أكبرُ بالتقوى سنُرسيها
الله أكبرُ قولوها بلا وَجَلٍ ... وزيِّنوا القلبَ من مغزى معانيها
بها ستعلو على أُفقِ الزمانِ لنا ... راياتُ عزٍّ نسينا كيف نفديها
بها ستُبعث أمجادٌ مُبعثَرةٌ ... في التيهِ حتى يُردَّ الركْبَ حاديها
الله أكبرُ ما أحلى النداءَ بها ... كأنّه الرِّيُّ في الأرواحِ يُحييها
ماذا نقولُ لربِّي حين يسألُنا ... عن الشريعة لم نحمي معاليَها
ومَنْ يُجيبُ إذا قال الحبيبُ لنا ... أذهبتُم سُنَّتي والله مُحييها
إن لم نُرِدْها لدينِ الله عاصفةً ... سيذهبُ العِرضُ بعد الأرض نُعطيها
هذي جراحٌ تبدَّت لا دواءَ لها ... إلا عزائمُ كالأقدارِ تبريها
والخطْبُ أكبرُ من لهوٍ نُقارِفُهُ ... والأمرُ أكبرُ من دعوى نُناديها
جدُّوا لأقدارِها فالهزلُ مقبرةٌ ... بها سنُدْفَنُ أحياءً ونبكيها
سيذهبُ الدينُ والدُّنيا بلا ثمنٍ ... إن لم نُقدِّمْ دمانا كي نُزكِّيَها
إنَّا على عهدِنا لله نحفظُه ... حتى نُقدِّمَ أرواحًا ونشريها
لقد أتى أمْرُ ربِّي لا مردَّ لهُ ... إنِّي سأقهرُ أعدائي وأحميها

القَرَضاوي ونونيّته : ما أُحَيْلاها وأحلاها :

يقول الشيخ يوسف القرضاوي في « نونيته » للطغاة :

أظننتَ دعوتنا تموت بضربةٍ ؟ ... خابتْ ظنُونُكَ فهي شرُّ ظنونِ
بليتْ سِياطُكَ والعزائمُ لمْ تزلْ ... منَّا كحدِّ الصارِمِ المسنونِ
إنَّا لعَمْرِيَ إنْ صمتْنا بُرْهَةً ... فالنارُ في البركانِ ذاتُ كُمونِ
تالله ما الطغيانُ يهزِمُ دعوةً ... يومًا وفي التاريخ برُّ يميني
ضعْ في يديَّ القيْدَ ألْهِبْ أضْلُعي ... بالسَّوْطِ ضَعْ عنقي على السكينِ
لنْ تستطيعَ حصارَ فكريَ ساعةً ... أو نزْعَ إيماني ونُورَ يقيني

فالنورُ في قلبي وقلبي في يدي ... ربي .. وربي ناصِري ومُعيني
سأعيشُ معتصِمًا بحبْلِ عقيدتي ... وأموت مبتسمًا ليحيا ديني
سنعود للدنيا نُطبُّ جراحَهَا ... سنعـودُ للتكْبيـر والتأْذيــنِ
ستسير فُلْك الحقِّ تحملُ جنْدَهُ ... وستنتهي للشاطئ المأمونِ
بالله مَجراها ومُرساها فهلْ ... تخشىٰ الرَّدَى والله خيْرُ ضمِينِ ؟

وفي قصيدة « السعادة » يقول :

قلْ للذي يبغي السَّعا ... دةَ هلْ علِمتَ مَن السعيدْ؟
إنَّ السعادةَ أنْ تعيـ ... ـشَ لفكْرَةِ الحقِّ التليدْ
لعقيدةٍ كُبْرىٰ تحـ ... ـلُّ قضيَّةَ الكوْنِ العتيدْ
وتجُيبُ عمَّا يسأل الْـ ... ـحيْرانُ في وعْيٍ رشيدْ
مِن أينَ جئْتُ وأين أذْ ... هبُ لِمْ خُلِقْتُ وهلْ أعودْ؟
فتُشيعُ في النفْسِ اليقيـ ... ـنَ وتطردُ الشَّكَ العنيدْ
وتُعلِّـم الفكْـرَ الـ ... ـسويَّ وتصنعُ الخلُقَ الحميدْ
وتردُّ للنهج المُسـ ... ـدَّد كلَّ ذي عقلٍ شرودْ
تُعطي حياتَك قيمـةً ... ربُّ الحياةِ بها يُشـيدْ
ليظلَّ طرْفُكَ رانيًـا ... في الأُفْق للهدف البعيدْ
فتعيش في الدنيا لأُخـ ... ـرىٰ لا تزولُ ولا تبيدْ
وتمدّ أرضَك بالسَّمَا ... ءِ وبالملائكةِ الشهودْ
وتُريكَ وجْهَ الله في ... مرآة نفسكَ والوجودْ
هذي العقيدةُ للسَّعيـ ... ـدِ هَي الأساس هيَ العمودْ
مَن عاشَ يحملُها ويَهْـ ... ـتِفُ باسْمِها فهوَ السعيدْ
وهو العزيزُ وإنْ يكنْ ... بينَ السلاسِلِ والقيودْ
أفيشتكي عُقْمَ الزَّمَـا ... نِ وقلبُهُ خصْبٌ وَلُودْ
آمالُه تنمو علىٰ الْـ ... أحداثِ كالرَّوضِ المجودْ

ويمدُّها إيمانُهُ الـدَّفاقُ كالدَّم في الوريدْ
تجلو لهُ الغَدَ كالعَرُو سِ بدَتْ تَهادىٰ بين غِيدْ
وتُسيغ في فمِهِ الجها دِ كمَنْهَلٍ عذْبِ الوُرودْ
فيقومُ من ساحِ اللِّقا ءِ إلى لقاءٍ مِنْ جديدْ
ويذوق في كأسِ العذا بِ عذوبةَ الصبرِ الحميدْ
ويُشيمُ في وجْهِ البَلا ءِ مخايلَ النصرِ الأكيدْ
والنصرُ مثْلُ الغيْثِ يُعْـ ـرَفُ بالصَّواعِق والرُّعودْ
قلْ للذي نشَدَ السَّعا دَةَ دُونَك النبعَ الفريدْ
إنَّ السَّعادَة منْكَ لا تأتيكَ مِنْ خلْف الحُدودْ
هي بنتُ قلبكَ بنتُ عقْـ ـلِكَ ليْس تشرَىٰ بالنقودْ
فاسعَدْ بذاتِكَ أوْ فَدَعْ أمْرَ السَّعَادةِ للسَّعيدْ[1]

ويقول في قصيدته « يا أُمتي وجَب الكفاح » :

يا أُمتي وجَبَ الكفاحْ فدَعي التَشدُّقَ والصِّياحْ
لغةُ الكلام تعطلتْ إلَّا التكلُّمَ بالرِّماحْ
إنَّا نتوقُ لألسُنٍ بُكْمٍ على أيدٍ فِصَاحْ
لا بدَّ مِن صُنْع الرِّجا لِ ومثلُهُ صنْعُ السلاحْ
وصناعةُ الأبطالِ عِلْـ ـمٌ في التراثِ لهُ اتِّضَاحْ
مَن لمْ يُلَقَّنْ أصْلَهُ مِن أهلِهِ فقَدَ النَّجَاحْ
لا يُصنَعُ الأبطالُ إلا في مساجِدِنا الفسَاحْ
في رَوْضةِ القرآنِ في ظلِّ الأحاديثِ الصِّحاحْ
في صُحْبةِ الأبرارِ مِمَّـ ـنْ في رحاب الله ساحْ
مَن يُرشدونَ بِحَالهِمْ قبلَ الأقاويل الفِصاحْ

---

(١) نفحات ولفحات للقرضاوي صـ ٧٥ - ٧٩ ، دار الوفاء للطباعة والنشر .

مَنْ صمْتُهُمْ فكرٌ وذكر نطقهم ... وفعالهم شكر ومجلسهم رباحْ
وغِراســهُمْ بالحقِّ مَــوْ ... صولٌ فلا يَمحُوهُ ماحْ
مَنْ لمْ يَعشْ للهِ عَا ... شَ وقلبُهُ ظمآنُ ضاحْ
يحيا سجينَ الطِّينِ لمْ ... يُطْلَقْ لهُ يوْمًا سَراحْ
ويدورُ حوْلَ هواهُ يلْـ ... ـهَثُ ما استراحَ ولا أراحْ
لا يستوي في منطِق الْـ ... إيمانِ سَكْرانٌ وصاحْ
مَن همُّهُ التقوىٰ وآ ... خرُ همُّهُ كأسٌ وراحْ
شَعْبٌ بغيْرِ عقيــدةٍ ... وَرَقٌ تذَرِّيهِ الرِّيــاحْ
مَنْ خانَ «حيَّ علىٰ الصَّلا ... ةِ» يخونُ «حيَّ على الكفاحْ»(١)

* * *

مصطفى صادق الرَّافعي عِملاقٌ تحت رايةِ القرآن :

قال له الشيخ محمد عبده : « لله ما أثمَرَ أدبَك !! أسأل الله أن يجعل للحقِّ من لسانِكَ سيْفًا يمحقُ الباطل، وأن يقيمَكَ في الأواخر مقام حَسَّان في الأوائل »(٢) .

في عصر الرافعي «نبتتْ في مصر نابتة من الزنادقة المُلحدين في آيات الله، الصادِّين عن دين الله ، قد سلكوا في الدعوة إلى الكفر والإلحاد شِعَابًا جُددًا ، وللتشكيك في الدين طرائق قِدَدًا ؛ يزعمون للعلم معنى ، إنْ يكنْ بعضُه في العلم فأكثره في الجهْل » .

قال مصطفى صادق الرافعي : « جاءونا في أسماء العلماء ولكنْ بأفعال أهل الجهل ، وكانوا في العلم كالنبات الذي خبث وإنَّك لنْ تجد سيماهم إلَّا في أخلاقهم، فتعرَّفْهُمْ بهذه الأخلاق، فستنكرهم جميعًا، ولتعلَمَنَّ عليهم كلَّ سُوءٍ، ولترينَّهم حشو أجسامِهم طينًا وحمأة ، في زعمٍ كَذِبٍ يُسمّي لك الطينَ طِيبًا ،

(١) نفحات ولفحات صـ ٩٤ - ٩٨ .
(٢) مقدمة « وحي القلم » ١ / ٩ .

والحَمأة مِسْكًا ، ولتجدَنَّ أحدهم وما في السَّفَلَةِ أسفل منه شهواتٍ ونزعات ، وإنه مع ذلك لَيزوِّر لكَ ويلبِّس عليك ، فما فيه من لون عندك يَعيبُه إلَّا هو عنده تحت لونٍ يَزينه ، ولا رزيلةٍ تقبِّحه إلا هي في معنىٰ فضيلة تجمِّله ، فخذْ منه الكِذبَ في فلسفة المنفَعة ، والتسفُّل في شعاعةِ الغريزة ، والوقاحة في زعْم الحرية ، والخطأ في عِلَّة الرأي ، والإلحاد في حجَّة العلْم ، وفسادَ الطبيعة في دعوىٰ الرجوع إلى الطبيعة .. وبالجملة : خذْ أفعالهم فسَمِّها غير أسمائها ، وانحِلْها غيرَ صفاتها، واكذبْ بالألفاظ على المعاني وقلْ: علماء ومصلحون، وأنت تعني: ما شئتُ إلَّا حقيقةَ العلْم والإصلاح .

أيتها الحصاة ، ما يسخر منك الساخر بأكثر من أن يجلوكِ على الناسِ في علبة جوهرة .

يذهب أين ذهب وشُعْلة الجحيم العلميَّة تدور في رأسه تهفو من هنا وهناك لا يصلح إلَّا على إفساد الحياة ، ولا يقوى إلَّا على إضْعَاف القوي ، ولا يعيش إلا على غذاءٍ من الموت ، كأنه كان من قبلُ دودة في قبر ، ثم نفَخَهُ الله إنسانًا ، يجعله فيما يبلو به من الخلْق ، ويضْرب الحياة به ضرْبَ انحلالٍ وبِلًى وتعفُّن .

ومَن تراهُ قد سخر به القدر أشدّ سخرية قط ، فضغَطَه في قالَبٍ من قوالب الحياة المصنوعة ، فإذا هو في تصاريف الدنيا كاتب مرشد متنصِّح ، يَنْفُث دُخان قلبه الأسود، ويعمل كما تعمل الأعاصير على إهداء الوجوه والأعيُن والأنفاس صحفًا مُنشرة من غُبار الأرض ؛ إن لم تكن مرضًا فأذًى ، وإنْ لم تكنْ أذًى فضِيق ، وإن لم تكنْ ضيقًا فلن تكـونَ شيئًا ممَّا يُساغ أو يُقبَل أو يُحَبُّ . على أنك ترىٰ أصحابنا لا يتحاملون على شيءٍ ما يتحاملون على القرآن الكريم، فهم يخصُّونه بمكاره العلم كلها، ويجفون عنه أشد جفاء»[1] .

(١) إعجاز القرآن ، للرافعي صـ ٩ - ١٢ . دار الكتاب العربي .

طعنوا في القرآن وفي العربية الفصحىٰ ، وأرادوا استبدالها بالعامِّية المصرية بدلًا من لغة القرآن المُضَرية ، فتصدَّى لهم مَنِ امتزج القرآنُ بدمه ولحْمه، «وانتدب له الأديب الأروع، والشاعر الناثر المبدع، صاحب الذوْق الرقيق والفهْم الدقيق ، الغوّاص على جواهر المعاني ، الضارب على أوتار مثالثها والمثاني ، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي . فصنَّف في إعجاز القرآن سِفْرًا لا كالأسفار ، أتى فيه - وهو الأخيرُ زمانِهِ - بما لم تأتِ به الأوائل ، فكان مصداقًا للمثلِ السائر . « كم ترَك الأول للآخر ؟ ناهِيك بمنثور لآلئه في نظْم القرآن العجيب » . وتجلَّت بالرافعي مباينُ الإعجاز ومواضحه ، وأضاءت لوائح الحقِّ فيه وملامحه »[1] .

لله درُّ الرافعيِّ وهمِّه ، وهو يناضل عن القرآن والعربية في كتابه « تحت راية القرآن » ، و « إعجاز القرآن » ويقول عن القرآن ومَن يهاجمونه : « يجري في الخواطر كما تصعد في الشجَر قطراتُ الماء ، ويتصل بالروح ، فإنما يمدُّ لها بسببٍ إلى السماء ، وإنه لسِحرٌ ؛ إذْ هو ألحاظ لم تعهدْ كلْمَ أحداقها ، وثمراتٌ لم تنبتْ في قلم أوراقها ، ونورٌ عليه رَوْنق الماء ، فكأنما اشتعلتْ به الغيوم ، وماء يتلألأ كالنور ، فكأنما عُصِر مِن النُّجوم .

هل رأوا إلَّا كلامًا تضيء ألفاظه كالمصابيح ، فعصفوا عليه بأفواههم كما تعصف الريح ، يريدون أن يُطفئوا نورَ الله ، وأين سراجُ النَّجم من نفْخةٍ ترتفع إليه ؛ كأنما تذهب تُطفيه ، ونور القمر من كفٍّ يحسب صاحبُها أنها في حجْمِه ، فيرفعها كأنما يخفيه ، وهيهات هيهات ؛ دون ذلك درْجُ الشمسِ - وهي أمُّ الحياة - في كفَن ، وإنزالها بالأيدي - وهي روح النار - في قبر من كهوف الزمن . لا جرم أن القرآن سرُّ السماء ؛ فهو نور الله في أُفق الدنيا حتى تزول ، ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول ، وكذلك تمادىٰ العرب

(١) من كلام الشيخ محمد رشيد رضا في التقدمة لكتاب «إعجاز القرآن»، صـ٢٠، ٢١.

في طغيانهم يعمهون ، وظلَّت آياته تَلْقَفُ ما يأفكون ، فوقع الحقُّ وبطل ما كانوا يعملون »(١) .

فلله درُّ الرافعي وكلامه .. لكأنَّ كلامَه هذا- كما قال سعد زغلول-: « كأنَّه تنزيلٌ من التنزيل ، أو قبَسٌ مِن نور الذكْر الحكيم » .

وللرافعي أيضًا قصيدة « ربَّنا إيَّاك ندعو » :

رَبَّنا إيَّاك ندعو رَبَّنا ... آتِنا النصرَ الذي وعدتَنا
إننا نبغي رضاك إنَّنا ... ما ارتضيْنا غيرَ ما ترضى لنا
أنفُسًا طاهرةً طُهْرَ الحرمْ ... تملأُ التاريخَ مجدًا وكَرَمْ
وافياتٍ بالعهود والذِّمـمْ ... راقياتٍ للمعالي والهِمَـمْ
العُـــلا إنَّ العُـــــلا ... واجبـــاتُ المســـلـــمِ
خَيْـرُ عالـمٍ خَـــلا ... كان فينـــا ينتمــــــي
لِلعُـــــلا فإنَّنـــــا ... أُمَّـــةُ التقـــــــدُّم
لِلعُـــلا وهـــا أنـــــا ... بحيـــاتي ودمـــــــي
يا شبابَ العالَمِ المحمديّ ... يَنقُص الكونَ شبابٌ مُهتدي
فـأرُوهُ دينَكُـم ليقتـدي ... دِينَ عقْلٍ وضميرٍ ويـدِ
يا شبابَ العزَماتِ المُبرَمهْ ... عرِّفوا الكونَ العُلا والمكْرُمهْ
عرِّفوا الكونَ الهدى والمرحمهْ ... عرِّفوا الكونَ النفوس المسلمهْ
إننا الطُّهْرُ الأماجيدُ الأُلى ... نزَّلتْ فينا السما مذْ أنزلا
ذلكَ القرآنُ أخلاقًا على ... كوكبِ الأرضِ مُحمَّدِ العُلا
ليسَ كالمسلمِ في الخُلْقِ أحَدْ ... ليسَ خُلْقُ اليوم بلْ خُلْقُ الأبدْ
إنما الإسلامُ في الصحرا امتهدْ ... **ليجيء كلُّ مسلمٍ أسَدْ**
في ضميري دائمًا صوتُ النبي ... آمرًا: جاهدْ وكابِدْ واتعبِ

(١) إعجاز القرآن صـ ٣١ .

صائحًا: غالِبْ وطالِبْ وادأبِ صارخًا: كُنْ أبدًا حُرًّا أبي
كُنْ سواءً ما اختفى وما عَلَنْ كُنْ قويًّا بالضمير والبدنْ
كنْ عزيزًا بالعشير والوطنْ كُنْ عظيمًا في الشعوب والزمنْ
ربِّ بالإسلام قدْ هديتني ربِّ من نوركَ قدْ آتيتني
فعلِّي العهدُ ما أحييْتني أحرُسُ الكنزَ الذي وهبتني
أو أموتَ دونَهُ موْتَ البطلْ ثابتًا أحيا بقلبٍ من جَبَلْ
نيِّرًا أحيا برُوحٍ من شُغلْ جاهدًا أحيا بجسمٍ من عَمَلْ

يوسُفُ العَظْمُ : شاعِر القدْس :

لله درُّه وهو يقول :

ورايةُ الشِّعْر للإسلام أرفعُها كالشمسِ يُشرِقُ مجلوًّا بأوزانِ
يعيشُ حسَّانُ في قلبي وفي قلمي فهلْ بلغتُ بشعري رُوح حسَّانِ[(١)]

هذا الشاعر الذي قصَرَ شعره على القدْس ، فيقول :

أنا للقدس خافِقي ووريدي وحياتي ومهجتي ووجودي
وعلى القدْسِ قَدْ قصرْتُ حديثي وقوافي شعري وبيتَ قصيدي

لله درُّك :

يا شاعرَ القدسِ يا مَنْ صُغتَ من شغفٍ عباءَةَ القَدْس تغريدًا وألحانَا
ديوانك الدُّرَرُ المنثورةُ انفجرتْ بالثارِ تَصرخُ: يا إسلامُ.. أقصانا
يمناك بالأدب المِعطاءِ قد حملتْ عصا الكليم على المغرور ثُعبانا

ولله درُّه وهو يقول :

اكتبْ حياتَكَ بالدم واصمتْ ولا تتكلَّمِ
فالصمتُ أبلغُ في جرا حِ الحادثاتِ مِنَ الفَمِ

* * *

(١) في رحاب الأقصى ، ليوسف العظم صـ ٣ ، المكتب الإسلامي .

ويقول :

اكتب حياتك باليقينْ   واسلُك دُروبَ الصالحينْ
فالصمتُ مِنْ حُرٍّ يفو   قُ زئيرَ آسادِ العرينْ

ويقول :

سائلوا الأنجُمَــا   كيفَ ضاعَ الحمــى
واشربوا العلْقمـا   أو نرى المسْلمـا
فوقَ هامِ الوجـودْ

ولله درُّه وهو يقول :

فلسطيني فلسطيني   فلسطيني فلسطيني
ولكنْ في طريقِ اللـــــه والإِيمـانِ والدينِ
أهيمُ برايةِ اليرمـو   كِ أهوىٰ أختَ حِطّينِ
تفجّر طاقتي لهبًا   غضوبًا من براكيني
لأنزِعَ حقِّي المغصو   بَ من أشداق تنِّينِ
وأرفعَ رايةَ الأقصىٰ   وربُّ البيْتِ يحميني(١)

عبد الرحمن العشْماوي : شُمُوخٌ في زمنِ الانكسار :

لله درُّه وهو يَهدِرُ في رُبوع الجزيرةِ ودواوينه التي قصرها على الدعوة والإِسلام !!

يقول :

تموتُ المبادئُ في مهدها   ويبقىٰ لنا المبدأُ الخالـدُ
مراكبُ أهلِ الهوىٰ أُتخِمتْ   نزولًا ومركبُنا صاعدُ
سِوانا يَلوذُ بعرَّافـةٍ   وأسطورةٍ أصلها فاسدُ
يحدِّثنا الليلُ عنْ نفسِـهِ   وفيهمْ على نفسِهِ شاهـدُ
إذا عدَّد الناسُ أربابهـمْ   فنحنُ لنا ربُّنا الواحدُ(٢)

---

(١) يوسف العظم شاعر القدس، للدكتور زكي الشيخ حسين، صـ١٣٩- دار البشير.
(٢) شموخ في زمن الانكسار، للعشماوي، صـ ٥ - مكتبة الأديب .

ويقول في « جولة مع جواد الشعر » :

جَوادُ شِعْرِكَ في المَيْدانِ منطَلِقُ ... وبينَ عيْنيْهِ مِنْ إصرارِهِ أَلَقُ
صهيلُهُ نَغَمٌ يُصغي الزمانُ لَهُ ... ونقْعهُ لحجابِ الشمْس يخْترِقُ
وسَرْجُهُ كلماتٌ لا يخالِطُها ... زيْفٌ ولا يَرتمي في حضنها نَزَقُ
تشدو حوافِرُهُ لحنًا يَهشُّ لهُ ... قلبُ الترابِ وتسترخي لهُ الطرُقُ
يُسابقُ الريحَ في درْبِ الإباءِ وكَمْ ... خيْلٌ سِواهُ إلى الأهواءِ تستبقُ
جَوادُ شِعْرِكَ يجري النُّورُ في دمِهِ ... وتشرئبُّ إلى غاراتِهِ العُنُقُ
تكفُّ عنْ وجهِهِ الصحراءُ ما حملتْ ... مِن سَفْيِها ويناغي ركْبَهُ الشَّفَقُ
يَقُضُّ مضْجَعَ كلِّ الصَّافِنَات إذا ... ثارَ الغبارُ وطارتْ نحوَهُ الحَدقُ
مسافِرٌ والأماني البِيضُ لاهِثَةٌ ... وراءَه وبحارُ الشَّوْقِ تصطفِقُ
إذا تَلَفَّتَ غَنَّى فجْرُ غُرَّتِهِ ... لَحْنَ الضياءِ وأرخى طَرْفَهُ الغَسَقُ
وسافَر الليلُ مبهورًا وأعقبَهُ ... فجرٌ تحفَّزَ لاستقبالِهِ الأُفقُ
يا عازِفَ الحرْفِ آمالي بكَ انبثقتْ ... مِن ظلمةِ اليأسِ والآمالُ تنبثِقُ
جَوادُ شعْرِكَ ما زالتْ حَوافِرُهُ ... تشدو وما زال في المَيْدانِ ينطلقُ
آمنتُ أنَّ كتاب الله يُنقذِنا ... مِنَ الضيَاعِ إذا تاهتْ بنا الطرقُ

وانظرْ إليه كيف يستمطر الدَّمع في قصيدته « سراييفو تقول لكم » :

نناديكمْ وقدْ كثُرَ النحيبُ ... نناديكم ولكنْ مَن يجيبُ
نناديكمْ وآهاتُ الثَّكالى ... تحدِّثكمْ بما اقترف الصليبُ
سراييفو تقول لكمْ ثيابي ... ممزَّقة وجدراني ثُقوبُ
محاريبي تَئنُّ وقدْ تهاوَى ... على أركانِها القصفُ الرهيبُ
وأوْردتي تُقطَّعُ لا لأنِّي ... جَنيْتُ ولا لأني لا أتوبُ
ولكنِّي رفعْتُ شعارَ دين ... يضيقُ بصدْقِ مبدئهِ الكذوبُ
بناتُ المسلمين هنا سَبايا ... وشمسُ المكْرُمات هنا تغيبُ
تبيتُ كريمةً ليلى وتصحو ... وقدْ ألغى كرامتها الغريبُ

تُخبِّئُ وجهَهَا يا ليتَ شِعْري ... بماذا ينطقُ الوجْهُ الكئيبُ
يموتُ الطفْلُ في أحضانِ أُمٍّ ... تُهَدْهِدُهُ وقدْ جفَّ الحليبُ
بكتْ حُزْنًا عليهِ بغيْرِ دَمْعٍ ... وأينَ الدمعُ والظمأُ النصيبُ
وكمْ يرعَى خلايا الجسْمِ داءٌ ... فيُهلكُه وقدْ عَزَّ الطبيبُ
سَلِ الفجرَ الذي لَمْ يَبدُ فينا ... لماذا لا يغنِّي العنْدليبُ
بني الإسلام هذي حرْبُ كُفرٍ ... لها في كلِّ ناحيةٍ لهيبُ
يحرِّكُها اليهودُ معَ النَّصارى ... فقولوا لي متى يصحو اللَّبيبُ

حَسَنُ الأمراني : صاحبُ المشْكاة :

صوتُ الصّدقِ الذي يأتي من المغرب .. يقول مبيِّنًا هِمَمَ الشعراء الإسلاميين في قصيدته « موكب الإيمان » :

لك في الفؤاد منَ الودادْ ... ما ليْسَ يكتُمهُ الفؤادْ
وإذا سألت عنِ المـرا ... دِ فأنتَ ما عشتُ: المرادْ
يـا نجمـةً خضراءَ في ... ليلِ التوجُّسِ والسُّهـادْ
كم تُهْتُ بيْنَ أزقَّةِ الْـ ... حرْفِ المشاكِسِ دونَ زادْ
حتَّى اهتديتُ إليك واتـــــضحَ الضَّلالُ مِنَ الرَّشادْ
وغدوتُ مضطرِمَ الشغا ... فِ وصار مِنْ دمي المدادْ

* * *

وعرفتُ كيفَ الحرْفُ يغدو خنجرًا في كفِّ موتورٍ
ويغدو وردةً زهراء في حجر العرائسْ
لك أنتَ ما تهبُ المروجُ منَ النفائسْ
يا جنَّةً يمشي على نَفَحَاتها « حسَّان » منتشيًا
ونائي العاشِقِ « الروميّ » من شوقٍ يئنّْ
ويجتلي أنوارَ نعمتها وينهلُ من كؤوسِ جلالِها « إقبالْ »
فترفُ من طَربِ عصافيرُ الصباحِ ويُنشدُ الأطفالْ

« الهند لنا والصــين لنا والعُرْب لنا والكلُّ لنا
أضحىٰ الإسلام لنا دينًا وجميعُ الأرض لنا وطنا »
قالوا لنا: أو هذه هِمَمٌ أمْ هذه رِمَمُ ؟
أخنىٰ على أنفاسِها القِدمُ ؟
فاصدعْ إذنْ
يا طائرَ الحرمين حلِّقْ « إنَّ وعْدَ الله حقّْ »
والزمانُ قدِ استدارْ
جَناحكَ ابسطْ عاليًا .. طَلَعَ النهارْ
خلِّ السفوحَ فحظُّكَ القممُ
والفاتحان : السيف والقلمُ
إنَّ الزمانَ قدِ استدارْ
فتجلَّ باسْمِ الله وانهضْ أيُّها النَّقْعُ المُثارْ
يا فارسَ الحرْفِ المُجلّل بالهدىٰ النبويِّ فالكون انتظارْ
هذا زمانُك فاستقِمْ يا حظَّنا الورديّ
يا بشرىٰ تصافِح كل نادْ
ها موكبُ الإيمان عادْ
مِن أولِ الجَمَراتِ في « مرّاكش » الحمراءْ
حتى أوسع الخطواتِ في « دكا »
نحِّلْ وبثَّ من دار الخلافة صوتك الميمونْ
بالحقِّ المُبين على يديْك نمَتْ رياحينُ الجهادْ(١)

ويقول في قصيدة « نشيد أطفال سراييفو » :
نحنُ أطفالُ سراييفو الشهيدهْ

(١) مجلة الأدب الإسلامي ، العدد الأول ، المجلد الأول صـ ٤٤ .

سنصلّي ونصلّي
ونُعيد الضوءَ باسمِ الله للشمس الطريدهْ
مِنْ بعيدٍ منْ بعيدْ
نحنُ عدْنا من بعيدْ
مِن ضفافِ الموتِ عُدْنا
نَلعقُ الجرْحَ العتيدْ
نحملُ الفجر الوليدْ
يَغمِرُ الناسَ كلَّ الناسِ بالعدْل الرشيدْ
فليَمُتْ مَن مات منَّا
وليُهاجِرْ مَن يهاجرْ
سوفَ تخضَرُّ المنابرْ
مِن جديد من جديد
والمحاريبُ ترىٰ الذكْرَ نَديّا
من جديد من جديد
وستزهو الأرضُ مِن دفْءِ الأذانْ
ويعمُّ النور يا أحبابنا كلَّ مكانْ
سوف نعلي راية الإسلام في الأرض وإنْ طالَ الحصارْ
وسنبني للحضارهْ
ها هنا ألفَ منارة ومنارهْ
يا سراييفو المجيدهْ
يا سراييفو الشهيدهْ
أَذِنَ الله بأَنْ تُرفعَ رايات الجهادْ
نحنُ أطفالك حراس العقيدهْ
لن يطول الانتظارُ .. لن يطولَ الانتظارْ[1]

(١) ديوان: البوسنة والهرسك ، مختارات من شعر الرابطة صـ ٨٠ - ٨١ .

وفي قصيدته « الرسالة الأزلية » يقول :

هذا قيامًا ما خفرتَ ذمامًا ... مذْ أسلمتْكَ المكرُمَاتُ ذمامًا
ومُذ اعتليتَ ذُرًا ببيْعتكَ التي ... عانقتَ فِيها المجدَ والإسلامَا
الشمسُ تاجُكَ والنجومُ قلائدٌ ... لوْ كنتَ ترجو بالجهاد وِسامَا
لكنْ بدتْ لك في الجِنَانِ محِلَّةٌ ... يغدو إليها السابقونَ كِرامَا
تبكي دمًا شوْقًا إليها كلَّما ... تالٍ تلا «الأعراف» و «الأنعاما»
فزهِدْتَ فيما دُونها مِنْ غايةٍ ... ورأيتَ مُلْكَ العالَمين حُطاما
طرَقَتْكَ آمالٌ فمَنْ لكَ بالتي ... تَضحَىٰ بها المستأمَنَ القوَّاما
حَتَّامَ يجعلُكَ التواني مُلْجَمًا ... والمجْدُ يدعو والعُلا حَتَّاما
وإلامَ أنتَ تعفّ عن حوْض الرَّدىٰ ... والمُتْرَفون استحقبوا الآثاما
ما كان قلبُك في جناحيْ طائرٍ ... وارْبأْ بنفسِك أن تكون نعاما
ارْبَأْ بنفسِكَ أن تنوءَ بذلَّةٍ ... يا مَن غدا للمتقينَ إمامـا
مَن يُعْطِ في الدِّينِ الدَّنيَّةَ هَالِكٌ ... وَلَوَ انَّهُ صلَّى وصامَ وقامَا
حُمِّلتَ مألكَةً إليكَ رَمَتْ بها ... كفُّ القضاءِ فأحْسِنِ الإحكاما
تجلو بها صدأ القلوبِ وتنجليْ ... أنوارُهـا فتُبـدِّدُ الأوْهامـا
هي في الوجودِ رسالةٌ أزليَّةٌ ... لا تعرف الإخلافَ والإحجاما
السيفُ والحرْفُ المُبارَكُ عندها ... إلفانِ ما ذاقا نوًى وخصاما
فاشحذْ بهمَّتِكَ الزمانَ وقلْ لهُ ... أنا ما أزال السيدَ المِقداما
ما سطوةُ الأيامِ ما طعَنَاتها ... إني علَوتُ بهمَّتي الأيَّاما
نارُ القرىٰ أنا للأُلىٰ قد أدْلجُوا ... يسترفدون محبَّـةً وسلامَـا
أنا واحةُ المُستَضعَفين وأمْنُهمْ ... أنا ناشر النورِ الهدىٰ أعلاما
وإذا ظُلمتُ فإنَّ ظلمَي باسِلٌ ... حتى أقوِّمَ مَنْ يُصعِّر هاما
يا جذْوة الإيمان تسري في دمي ... فتحيلني بيَدِ الزمانِ حُساما

ويقول في قصيدته « قلوب على بركان » :

ولو انما أبغي حُطامًا نلتُهُ ... ولو ابتغيتُ بهارِجَ السلطانِ

لكنّني أسعىٰ لأمرٍ دُونَـهُ طعْنُ السّنانِ وشعْلةُ المرّانِ
وأنا بحمْدِ الله فرْدٌ صارمٌ ذَكَرٌ وإن ظَنُّوهُ غيرَ يمانِ
فعلامَ يبشمُ ثعلبٌ مما يشا ونَحلُّ نحنُ منازلَ الأقنَانِ
أطفالُنا خدَمٌ وتلكَ نساؤنا دونَ المقامعِ ما لهُنَّ عوانِ
قيلَ اتَّئدْ قلتُ اتأدتُ فلمْ أجدْ غير القلوب الغُلْفِ والآذانِ
حتى غدا حُلمي استكانة راهبٍ يمشي بثوبِ الصَّمْتِ والإذعانِ
وإذا انتفضتُ ورحتُ أُعلنُ قوْمتي من بعد موتي قال كلُّ لسانِ
أتطـرُّفٌ إنَّ الحـياةَ تطـرُّفٌ ما دمتُ من جوْر البُغاةِ أُعاني
ويُقالُ عُصفورٌ نقُصُّ جَناحَهُ هَيْهاتَ أنْ يقوىٰ على الطَيرانِ
لا تعجبوا أني انتفضتُ كماردٍ من بعد ما رقَّشْتمُ أكفاني
هي شعْلةُ الإيمانِ تسْطَع في دمي أبدًا وتسري في نسيجِ كياني
أنا في مدار الشمسِ رغمَ سياطِكمُ رغمَ الحديدِ المرِّ والقضبانِ
إني أنا الفردُّ الحسامُ إذا بدا جيْشُ الظلام مُدَجَّج الأركانِ
ومِنَ السيوفِ حدائدٌ مغلولةٌ ومِنْ السيوفِ مهنَّدٌ ويماني
وتَرٌ أنا تُحيي النفوس لحُونُـه ومِنَ الجراحِ تفجَّرت ألحاني
إني أنا السِّفْرُ الذي كَلِمَاتُهُ هَدْيٌ ومِنْ كَلِمِ السماءِ بياني
وأنا أنا البحرُ الخِضَمُّ أنا الذي جاشتْ غوارِبُهُ بكلِّ مكانِ
يُزجي إلى المستضعَفِين سحائبًا ولقد يهدُّ قواعدَ الطغيانِ
يا معشرَ المستضعَفِينَ تحصَّنوا بـ«الفتح» و «الأنفال» و «الرحمٰنِ»
هذا دمي متوهِّجًا يا أمتي فتزيَّني بَدمِ الشهيدِ تحاني
شيئًا منَ الغضب المُقدَّسِ إنهُ سيهدُّ صرْحَ السّجنِ والسَّجّانِ(١)

لله درُّك :

---

(١) من الشعر الإسلامي الحديث صـ ٣٦٨ - ٣٧٠ ، دار البشير .

ما الذي عندهُ تُدارُ المنايا　　　كالذي عندهُ تُدارُ الشَّمولُ

لله درُّك يا أمراني وأنت تهدرُ لعُلاة الهمم :

فكنْ فرَسًا جَمُوحًا ثُمَّتَ اجعلْ　　　جميلَ الصبْرِ في الهيْجا وشاحَكْ

كنِ السَّيْفَ انتضي وجَناحَ نَسْرٍ　　　إذا نزلتْ بُغاثُ الطيْر ساحَكْ

عَدْنانُ النحويُّ صاحِبُ الملاحِمِ .. لله دَرُّه :

لله درُّه !! صاحب ملحمة الغرباء ، وملحمة القسطنطينية ، وملحمة الجهاد الأفغاني ، وملحمة فلسطين ، وملحمة الأقصى ، وملحمة الإسلام في الهند، وملحمة البوسنة والهرسك، وصاحب ديوان جراح على الدرب، وديوان مهرجان القصيد ، وديوان موكب النور ، وديوان الأرض المباركة .

بطولة طفلٍ تُحييها البطولاتُ ويَصُوغُها النحويُّ شِعْرًا :

« نشرت الصحفُ أنَّ اليهودَ قتلوا الطفل تامر جلال الدسوقي ، وهو يرشق العدوَّ بالحجارة في بُرْقة ـ قضاء نابلس ـ وعمرُه لا يزيد عن تسع سنوات ، فكان أصغر مجاهد »،فصاغها النحويُّ شِعْرًا في قصيدة « مَن فجَّر الصمت العميق » قال فيها :

أرأيتَ أروعَ مِن صبيٍّ لم يزلْ　　　عَبَقُ الطفولةِ من خُطاهُ وُرودا

ما جاز تسعًا من نضارَةِ عمْرِهِ　　　حتَّى تواثب للرَّدىٰ صِنديدا

حمَلَ الحجارة لا يكاد يُطيقُها　　　حَمْلًا ولكنْ ما أطاق قُعودا

فإذا الجهادُ يهزُّه ويُعيدُهُ　　　رجلًا أبرَّ علىٰ الجلادِ شديدا

وَثبَتْ عزائمُهُ فألقتْ دونهُ　　　صخْرًا تدافَعَ في الزمانِ رُعُودا

وإذا العدوُّ رُؤى تطايَر دونَهُ　　　فزعًا وأشباحٌ جرَيْنَ شُرودا

وَهْجُ اليقين علىٰ جَبينِكَ هالَةٌ　　　والعَزْمُ يكشفُ دونَك الرّعديدا

فرمىٰ عليكَ رصاصةً فهوىٰ بهِ　　　وعلوْتَ تنفحُ للحياةِ خُلودا

وتَدفّق المِسْكُ الزَّكيُّ وإنَّهُ　　　دَفْقٌ يفتِّحُ للعلاءِ نُجودا

وعلى مُحيَّاهُ نداوةُ بسْمَةٍ　　　ودَمٌ يَزينُ جبينَهُ والجيدا

فلْتسمعِ الدنيا دَوِيَّ جَهادِنَا ... شِيْبًا نخوضُ حِمَامَهُ ووليدا
ورجالُنا ونساؤنا وطفولـةٌ ... وثبت لتزأر في البطاحِ أسودا
عهدًا معَ الرَّحمٰنِ نُوفي حقَّهُ ... ليظلَّ يخفقُ في الزمانِ جديدا
يا «تامرَ» المَيْدانِ كلُّ بطولةٍ ... وقفتْ تحيِّي يومَك المحمودا

ويقول في « ملحمة الغرباء » :

سيُؤنِّسُ الدربَ ذكرُ الله يدفعني ... إذا أشاحَ بنو عمي بوجْهِهِم
يُبَلِّلُ الجوْفَ إنْ شدَّ الهجِيرُ بنا ... ويملأُ النفسَ منْ أَمْنٍ ومن عِصَمِ
طوبىٰ لكلِّ غريب صابرٍ شرفًا ... مُستمسِك بالهدىٰ بالله معتصِمِ
أنا الغريبُ إذا فارقتُ حانية ... من الكتاب وآيات مِنَ الحِكَمِ
وسنَّةً مِن رسول الله مُشرقَةً ... وصُحْبةً من صَفيِّ العهْدِ والذِّمَمِ
أنا الغريبُ إذا جاوزتُ معْتَقَدي ... ورُحتُ أضربُ في وَهْمٍ وفي رُجُمِ
أنا الغريبُ إذا استَسلمْتُ عبدَ هوًى ... وعَرْبَدَتْ شهواتُ العمرِ مِلْءَ دَمِي
وغربةُ النفسِ تُشقِي كلَّما نَزَعَتْ ... نفسٌ إلى صنم يهوي إلى صنَمِ
وقسوةُ الذلِّ أنْ يرقى الشّعارُ علىٰ ... زخارفٍ كذبتْ في السَّاحِ والأكَمِ

ويقول فيها أيضًا عن « غربة الإيمان » والغرباء :

سيجمعُ الغرباءَ السَّاحُ في لَهَبٍ ... وتهتدي فطْنةُ الألباب بالحِكَمِ
وعِزَّةُ النهْجِ في أفْياءِ موْهبةٍ ... مِن التُّقىٰ وجلالِ الموْكِبِ العَمَمِ [1]
سندفعُ الخطْوَ فوْقَ الدْربِ وَقْدَ لظىً ... ولفحةَ الشوق إعصارَ الفتى القرمِ
علىٰ محاجِرِنا أطيافُ ملحمـةٍ ... وبيْنَ أكبادِنا أشواقُ كلِّ كَمِي
ومِن سواعِدنا هدَّارةٌ عصفَتْ ... هُوجُ الأعاصير جازتْ ظلمةَ التُّخُمِ
وفي مباسِمنا إشراقةٌ طَلَعَتْ ... تُعيدُ من عبقريِّ اللَّحْنِ والنَّغَمِ

---

(١) العَمَم : الاجتماع والكثرة ، التامّ من كل شيء ، ومن الرجال : الذي يعمُّ خيرُه .

اللهُ أكبر .. دارُ الخلْدِ فامْضِ لها مَعَ الميامين من غُرٍّ ومِنْ بُهَمِ [(١)]

هِمَّةُ المسلم النَّسْرِ لسليم أحمد زنجير السُّوري :

يقول الشاعر في قصيدته « النَّسْر » :

وَكْري على قممِ الشوامِخِ عالي والموتُ أطيبُ لي مِنَ الأغلالِ
حُرٌّ نسيجُ مشاعري مِن عزةٍ قَعْساءَ والطهْرُ المقدَّسُ حالي
الكونُ مُنْذَهِلٌ بنُبْلِ مطامِحي والدهرُ مُنْذَهِلٌ بحسْنِ فِعَالي
فالله ربِّي قد أضاءَ بنورهِ عُمْري وأَوْقَدَ بالسُّموِّ خيالي
فمزجتُ أنفاسي بعطرِ كتابِهِ وروَيْتُ من آياتِهِ أوصالي
ووهبتُهُ روحي ولستُ بنادمٍ وجعلتُ في مرضاتِهِ أعمالي
فجنيْتُ أسرارَ الحياةِ نديَّةً وطفِقتُ أنثرُها على الأجيال
دربي لهيبُ معامعٍ مسعورةٍ مشبوبةِ الآلامِ والآمـالِ
درْبٌ يمرُّ اللَّيْثُ مذعورًا بِهِ وتفِرُّ منه جوارحُ الأدغالِ
إني لَأعرفُ أين أمضي والمدى داجٍ ومكرُ العالمين حيالي
وزوابعُ الإرهابِ تَصْفَعُ جبهتي ونزيفُ أحلامي يبُلُّ رِحَالي
لكنَّ إيماني أجلُّ بخالقـي ولذا أغذُّ السير غير مبالِ
فإذا هَوَيْتُ هويْتُ دون إرادةٍ منِّي هُويَّ النسرِ في الأجبالِ
وإذا بدَوْتُ مشوَّهًا متحطِّمًا والفكر لا فكري ولا أقوالي
فالعذرُ في قسْرِ اللئام وغدْرِهِم في القهر عبرَ زنازنِ الأنذالِ

عائض القرني : أطيَبُ الطيب وشذا الورود في جزيرة العرب :

لله درُّه ! فيه طهْرُ الندى .. وأرِيجُ الزهور .. وفي كلماته نسائمُ

---

(١) البُهَم : جَمع بُهمة ؛ يُقال : فلان بهمة من البُهَم ؛ أي الشجاعُ الذي لا يُهتدى من أين يُؤتَى .

الأسحار وابتسامة الفجر الوليد .. أحببناه في الله كلَّ الحبِّ .. فقد هدى الله بوعظه الطَّيِّب - الذي لا يُجارى - الآلافَ .

ومن عَجَبٍ أني أحنُّ إليهمُ   وأسألُ شوقًا عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهم في سوادِها   ويشكو النوى قلبي وهم بيْن أضلُعي

يقول القرني في ملحمته « سيرة الأبطال » :

إيهِ يا مؤمن إلى الله تصبو   فيك عزمٌ وفي يديك ثباتُ
لك اسمٌ على الجبين سجودٌ   هو اسمٌ مُبجَّلٌ وسماتُ
أنت في راحتيك آمالُ سعدٍ   لك في الحشرِ عصمةٌ ونجاةُ

ثم يقول :

أنا من أُمَّةٍ إذا الدهرُ أقعى   أُطلقت من زنادها هِمَّاتُ
أُمَّة السيفِ واليراعِ اشرَئبي   أُمَمُ الأرضِ كلُّها شاهداتُ
كُلَّما لاح في ذُرا الغربِ نجمٌ   حجبتْهُ شموسُنا الطالعاتُ
وإذا قال إن عندي كريمًا   قلتُ عندي من الكرام مئاتُ
نحنُ لا نقبلُ الأذاةَ إباءً   للمُعادي سمومُنا الناقعاتُ
وإذا أَمَّ جيشُنا جيشَ خصمٍ   شبعتْ في لقائِهِ الحائماتُ
كلُّ ضيفٍ أتى لنيْلِ قِرانَا   دَلَفتْ في نزولِهِ المكرُماتُ
كلُّ أمجادِ أُمَّةٍ ذكروها   فهي من رُوحِ مجدِنا ورقاتُ
تَعبَ الشعرُ في دروب المعالي   كم تغنَّتَ بمجدِنا حقباتُ
يا حديثَ الكرامِ أطربتَ قلبي   أنت بيتُ القصيد أين الشُّداةُ
يا قصيدَ الإسلام ردِّدْ لحُونًا   تتغنَّى بلحنها الأبياتُ
أُمَّةَ المسلمين أين تسيرين   وفي الخُطى ترتمي عثراتُ
أَنَسيتِ ما قد مضى من بنين   أنت أُمٌّ لهم ونِعم الأُباةُ
فأعيدي للناسِ مجدًا تليدًا   فعيونٌ كثيرةٌ رانياتُ
وأميطي اللِّثامَ يا أُمَّ الضا   دِ واحكي فآذانٌ لصوتِهِ مُنصتاتُ

وللشيشان نشيدُ الأسود :

يقول أهل الشيشان أسود عالمنا في نشيدهم الرائع المُترجَم :

« في ليلةِ مولِدِ الذئبِ خرجْنا إلى الدنيا
وعندَ زئير الأسدِ في الصباحِ سَمّونا بأسمائنا
وفي أعشاش النسور أرضعتْنا أُمّهاتُنا
ومنذُ طفولتِنَا علَّمنا آباؤنا فنون الفروسيهْ
والتنقُّل بخفَّةِ الطير في جبال بلادِنا الوعرهْ
لا إله إلا الله
لهذه الأُمَّةِ الإسلامية ولهذا الوطنْ
ولدتنا أُمّهاتُنا
ووقفنا دائمًا شُجعانًا نُلبِّي نداءَ الأُمَّةِ والوطنْ
لا إله إلا الله
جبالُنا المكسوّة بحجرِ الصوَّانْ
عندما يُدوِّي في أرجائها رصاصُ الحربْ
نقفُ بكرامةٍ وشرفٍ على مرِّ السنينْ
نتحدَّى الأعداءَ مهما كانت الصِّعابْ
وبلادُنا عندما تتفجَّرُ بالبارودْ
من المُحال أن نُدفَن فيها إلا بشرفٍ وكرامهْ
لا إله إلا الله
لم نستكِنْ أو نخضع لأحدٍ إلا الله
فإنها إحدى الحسُنيَيْن نفوزُ بها
الشهادةُ أو النصرْ
لا إله إلا الله
جراحُنا تُضمِّدُها أُمّهاتُنا وأخواتُنا بذكْرِ الله

ونظراتُ الفخر في عيونِهنَّ تُثيرُ فينا
مشاعرَ القوَّةِ والتحدِّي
لا إله إلَّا الله
إذا حاولوا تجويعَنا سنأكُلُ جذورَ الأشجارْ
وإذا مُنع عنا الماءُ سنشربُ ندى النباتْ
فنحنُ في ليلةِ مولدِ الذئب خرجْنا للدُّنيا
ونحن دائمًا سنبقى مُطيعينْ
لله وللوطنِ وهذه الأمَّهْ
لا إله إلا الله »

محمود مُفلح يُنادي : « إنها الصحوةُ .. إنها الصحوةُ » :

لله درُّه ما أعلى هِمَّتهُ في شعره « شموخًا أيتها المآذن » ، « الراية »،« إنها الصحوة .. إنها الصحوة » ، « مذكِّرات شهيد فلسطيني » ، و « حكاية الشال الفلسطيني » . هذه أسماء دواوينه ، وفيها العجب العُجاب .. لله درُّه حين يقول في قصيدته « جيل الصحوة » :

وأقولُ للجيل الجديد ..
أقولُ للجيلِ المُحصَّنِ بالعقيدة والمُتوَّجِ بالصباحْ
وأقولُ يا جيلَ الكفاحْ
إنَّا بلونا الليلَ والأشباهَ والموتَ المؤجَّلَ والجِراحْ
وأقولَ يا جيلَ المصاحفِ
يا خميرَ الأرض .. يا طلْقَ الولادهْ
ها أنت كالينبوع تدفقُ في صحارينا
وتمنحُنا الوثيقة والشهادهْ
أنت الذي سيُبدِّلُ الأوزانَ والأحزانْ
يزرعُ في العيونِ نخيلها

فَلَكَمْ تباطأ في الرحيل عن القرى عامُ الرمادهْ
وأقولُ حيَّ على الفلاحْ
أقولُ حَيَّ على السِّلاحْ
فإنَّ فيكَ النبض يُورق بين ترتيل الظهيرةِ والمساءْ
وأقولُ يا جيلَ الفداءْ
أكلت مواسمَنا الجنادبُ
واستبدّ بنا الحواهْ
وغادرتْنا آخرُ السُّحبِ الحميمةِ في السماءْ
أنت الذي يقتاتُ جمْرَ المرحلهْ
ها إن أحبارَ اليهود تجمَّعوا .. ها إنهم حشدوا لنا
فاقرأْ على تلكَ الرؤوسِ « الزلزلهْ »
اقرأْ علينا باسم رِبِّك ما تيسر يا بلالْ
الشمسُ في كبدِ السماءْ
ونحن في وقْدِ الظهيرةِ
كم نتوق إلى الظلالْ
اقرأْ علينا « المؤمنون » وشدَّ قوسَكَ
إن قوسَكَ لا تطيشُ بها النبالْ
كم ذا سألت فلم يُجيبوا
أنت وحدَكَ مَنْ يُجيبُ عن السؤالْ
يا أيُّها الجيلُ الجديدُ .. ويا سليلَ الطُّهْرِ .. يا بردَ اليقينْ
كـن باسم ربِّك قلعةً للخائفين .. ومنهلا للظامئينْ
وكنْ رصاصًا .. كن قصاصًا
كنْ جذورًا .. كنْ طيورًا
كنْ كما شاءت لك « الأعرافُ » في الزمنِ العجينْ[1] .

---

(١) العجين : المُسنّ .

يا أيُّها الجيلُ الجديدْ
وقفتُ مُندهِشًا على عتباتِ خُطوتكِ الجديدهْ
وقرأتُ نبضَكَ فانطلقتُ بلا عنانْ
من سورة « الإسراء » جئتَ
ومن نقاءِ الفجر
والسبعِ المثاني
ورأيتَ من خلفِ الدخانِ وجوهَهُم
وبلوتَ عربدة الدخانْ
وحملتَ جُرْحكَ والهجيرْ
حملتَ جُرْحَك والعبيرْ
فما الذي حملتْه أغربةُ الزمانْ[1]

ويقول في قصيدته « هل يستوي الشِّعران » مُبيِّنًا عُلُوَّ هِمَّةِ الشعراء الإسلاميين :

شِعْرٌ يموتُ وآخرٌ يتسكَّعُ ... وإلى الفُتاتِ على الموائد يُسرِعُ
هذا يمُدُّ على السحابِ جناحَهُ ... وسواهُ في حمأ الرذيلةِ يرتعُ
هل يستوي الشّعرانِ شِعْرٌ مؤمنٌ ... ومُدجَّجٌ بالكفرِ لا يتورَّعُ
هل يستوي السيفُ الذي هتكَ الدُّجَى ... والآخرُ المُتزلِّفُ المتصنِّعُ
هل يستوي البحرانِ هذا ماؤه ... عذْبٌ وذاك الآسِنُ المستنقعُ
ومن الغرابةِ أنَّ هذا رائجٌ ... تغدو بهِ صُحُفُ الزمانِ وترجعُ
ولَهُ من العُشَّاقِ ألفُ قبيلةٍ ... ولَهُ من الأبواقِ جيشٌ مُفزعُ
يجثو بأحضان الكبارِ مؤدِّبًا ... وإذا مشَوْا أوقتْ إليه الأصبعُ
إنْ شرَّقوا فالشرقُ أقدسُ قبلةٍ ... أو غرَّبوا فالغربُ نِعمَ الموضعُ

(١) ديوان « إنها الصحوة » لمحمود مفلح صـ ٣٧ - ٣٩ ، دار الوفاء .

والشِّعرُ مرآةُ الشعوبِ فإنْ سَمَتْ فالشِّعرُ أسمى ما يُقالُ ويُبْدَعُ
وإذا أضاعت في الوحولِ جبينها فالشعرُ منها عند ذلك أضْيَعُ
والشِّعرُ صوتُ الحقِّ في آفاقِنا لو كان من ثدي الحقيقة يرضعُ
والشِّعرُ قنديلُ الهدايةِ تارةً والشِّعرُ إعصارٌ يَهُزُّ ويَصرعُ
لكنَّنا نأبى القصيدة حرَّةً ونودُّها حمَلًا يُطيعُ ويسمعُ
ونودُّها في القصرِ جاريةً إذا دُعيتْ فلا تأبى ولا تتمنعُ
إنَّ القصائدَ كالرجال فبعضُهمْ شُمُّ الأنوفِ وبعضُهم مُتميِّعُ
ولقد تموتُ إذا تموت شهيدةً ويزورُها المطرُ الحنونُ فتمرعُ[1]
وقصائدٌ مثلُ العرائس مهْرُهَا غالٍ وأخرى ليس فيها مطمَعُ
فوقَ النُّجوم تعيشُ بعضُ قصائدٍ والبعضُ في عَفَنِ القمامةِ يقبعُ
وأجلُّهُنَّ قصيدةٌ عربيةٌ فيها من الإسلام شمسٌ تسطعُ
تأبى على أهلِ الغرور غرورَهم وتشدُّ من أزْرِ الضَّعيفِ وتمنعُ
وتثورُ في وجهِ الطغاةِ وتنبري للظالمين تؤزُّهُم وتُزعزعُ
وإذا أصاب المسلمين مُصيبةٌ فهي التي من أجلِهم تتوجَّعُ
وهي التي تأسو الجراح بليلهمْ والفجرُ من جُرح القصيدةِ يطلُعُ
وهي التي تنهلُّ في صحرائِهم مطرًا وتحفِرُ في الصخورِ وتزرعُ
حَسْبُ القصائد أنها لا تنحني إلّا لجبارِ السماء وتركعُ[2]

وقصيدة أشدُّ وقْعًا مِنَ اللَّهب :

وهذه قصيدةٌ تقُضُّ مضاجع الظالمين .. لا تروق لمجوسِ هذه الأُمَّة من النقاد الذين يسيرون في موكب السلاطين مُبررين مُصفِّقين .

هذه قصيدة من ديوان « العشاء الأخير لإبليس الأول » :

(١) مرع المكان : أخصب من كثرة الكلأ .
(٢) إنها الصحوة صـ ٩ - ١١ .

أنا ضِدُّ أمريكا إلى أن تنقضي ... هذي الحياةُ ويُوضَعُ الميزانُ
هي جذرُ دَوْحِ الموبقاتِ وكلُّ ما ... في الأرض من شرٍّ هو الأغصانُ
مَنْ غيرُها زرعَ الطُّغاة بأرضنا ... وبمن سِواها أثمرَ الطُّغيانُ
حبكتْ فصولَ المسرحية حبكةً ... يعيا بها المتمرِّسُ الفنانُ
هذا يكرُّ وذا يفِرُّ وذا بهـ ... ـذا يستجيرُ ويبدأ الغليانُ
حتى إذا انقشعَ الدخانُ مضى لنا ... جُرْحٌ وحلَّ محلَّه سرطانُ
وإذا ذئابُ الغرب راعيةٌ لنا ... وإذا جميعُ رُعاتِنا خرفانُ
هي فتنةٌ عصفتْ بكيدِكَ كلِّهِ ... فانفُذْ بجلْدِك أيُّها الشيطانُ
ماذا لديْكَ غوايةٌ صنْتَها فقد ... أغوى الغوايةَ نفسَها السلطانُ
قرنانِ ويلكَ عندنا عشرون شيْـ ... ـطانًا وفوقَ قرونِهمْ تيجانُ
يا أيُّها الشيطانُ إنك لمْ تزلْ ... غِرًّا وليس لمثلِكَ الميْدانُ
أُنبيكَ أنَّا أُمَّةٌ أَمَـةٌ تُبـا ... عُ وتُشتَرى ونصيبُها الحرمانُ
أُنبيـك أنَّـا أُمَّـةٌ أسـيادُهـا ... خَدَمٌ وخيْرٌ فحولِهم خِصيانُ
أُسْدٌ ولكنْ يُحدِثونَ بثوبِهم ... لو حرَّكتْ أذنابَها الفئرانُ
مُتعفِّفونَ وصبْحُهُمْ سطوٌ على ... قُوتِ العبادِ وليلُهم غِلمانُ
مُتديِّنون ودينُهـم بدنانِهـمْ ... ومُسهَّدونَ وسكْرهم سكرانُ
عرَبٌ ولكنْ لو نزعْتَ قشورَهُم ... لوجدتَ أن اللُّبَّ أمريكانُ
تُخصى لنا الأسماعُ منذُ مجيئنا ... شرعًا ويُعمَلُ للشِّفاهِ خِتانُ
ونصيرُ مقلوبينَ حتى لا تُرى ... مقلوبـةً بعيونِنـا البلـدانُ
والدَّرْبُ مُتضِحٌ لنا فوراءَنا ... مُتعقِّبٌ وأمامنـا سَجَّـانُ
لو قيل للحيوان كُنْ بشرًا هنا ... لَبكى وأعْلنَ رفْضَهُ الحيوانُ
كمْ باسمِنا نشِبَ النزاعُ ولم يكنْ ... رأيٌ لنـا بنُشُـوبِهِ أوْ شـانُ
صِحْنا فلم يُشفقْ علينا عقربٌ ... نُحْنا ولم يرفِقْ بنا ثُعبانُ
ومَنِ المجيرُ وقدْ جَرتْ أقدارُنا ... في أن يَجورَ الأهلُ والجيرانُ

قلْنا ومطرقةُ العذابِ تدُقُّنا ... سيجيءُ دوْرُكَ أيُّها السَّنْدَانُ
حتى إذا ما سكْرةٌ راحتْ وجا ... ءَتْ فكرةٌ وتثاءَبَ النَّعْسَانُ
لكنَّنا في الحالتيْن سَفينـةٌ ... غرقتْ فقامَ يلومُها الربّانُ
أَمِن العدالةِ أنْ نشكَّ ونشتكي ... أوْ أنْ نُبَاعَ وجلدُنا الأثمانُ
في لحظةٍ لعنت مصانعَها الدُّمى ... وتبرَّأتْ من نفسِها الأدْرانُ
وانسابَ سِيرْكُ المعجزاتِ فها هنا ... قَدَمٌ فمٌ وفصاحةٌ هَذَيَانُ
يُلقِي بها الإعلامُ فوقَ رؤوسِنا ... صُحُفًا يقيءُ لعُهْرِها الغثيانُ
فزُبالةٌ واستبدِلتْ بزُبالـةٍ ... أخرى ولمْ تُستبدَلِ الجُرذانُ
وهنا مليكٌ مُغْرَمٌ بتراثـه ... يحثو الخمورَ وكأسُه فنجانُ
وهناكَ ثوْريٌّ يؤسسُ دولةً ... في كرْشِهِ فتصفِّقُ الثيرانُ
وهنا مليكٌ ليسَ يملكُ نفسَه ... فمُهُ صدًى وضميرُه دكَّانُ
ومفكِّرٌ متخصِّصٌ بعلوم فَرْ ... كِ الخصيتيْن ففكرُه سَيَلانُ
وشواعرٌ كيْلا أُسمِّيَ واحدًا ... يتستَّرون وسِترهم عُرْيـانُ
يَزِنُونَ بالقبَّانِ أبياتًا لهـمْ ... فيميلُ مِنْ أوزارِه القبَّـانُ
في كِفّةٍ تسبيلةٌ ودراهِـمٌ ... وبكفَّـةٍ تفعيلـةٌ وبَيَـانُ
متفاعِلـنْ متفاعِلـنْ عِلَّانـةٌ ... متفاعِلـنْ متفاعِلـنْ عِلّانُ
وتُقَرْقِعُ الأَوزانُ دونَ مبادئ ... لمبادئ لـيستْ لها أوزانُ
فالحاكمُ المُغتالُ طفْلٌ وادِعٌ ... والمُودَعُونَ بسجْنِهِ غِيلانُ
وابنُ الشوارعِ فارسٌ في ساعةٍ ... وبساعةٍ هوَ غادِرٌ وجبانُ
هلْ ينثني الجزَّارُ عنْ جرْمٍ وهلْ ... ترتدُّ عنْ أخلاقِها الفرسانُ
كلّا ولكنَّ «الأنا» ورَمٌ وإنْ ... زادتْ فكلُّ زيادةٍ نقصانُ
يبدو التناقُضُ عندَها مُتناسِقًا ... واللَّوْنُ في صفحاتِها ألوانُ
هو فارِسٌ ما دامَ يفترسُ الورى ... فإذا قرصْتَ فإنها قُرصانُ
يا آيَةَ اللهِ الجديدَ ومِنْ لقًى ... آياتِهِ الحشراتُ والدِّيدانُ

آمنتُ أنَّك آيةٌ فبحدِّكَ اتَّـــــحدَ الهوىٰ وتفرّقَ الفُرقانُ
وكأن خارطةَ الجهادِ أعدّها «ميخا» وأكّدَ رسْمَها «المعْدانُ»
لا بلْ قضىٰ شرْعُ الأهلَّةِ أنْ تخو ضَ جهادَها وسُيوفها الصُّلبانُ
كَرَمُ الضيافةِ دائمًا يقضي بأنْ تُطوىٰ الجُفونُ وتُفتَحُ السِّيقانُ
معنىٰ الجهادِ بعصرنا إجهادُنا أو عصرُنا وثوابُنا خُسْرانُ
عُثمانُ يُقتَلُ كلَّ يومٍ باسْمِنا وتُخاطُ مِن أطمارِنَا القُمصَانُ
ماذا علىٰ شجر إذا طرَدَ الخريـ ـفُ هزارَها لِتُغرِّدَ الغِرْبانُ
في الكحْلِ لا تجدُ الأذىٰ إلَّا إذا عمِلتْ على تكْحِيلِكَ العمـيانُ
أعلِمْتَ أنَّ الدارِعِينَ تدرَّعوا بطنينهمْ وسلاحُهمْ أطنـانُ
وبدَوْا فهُودًا عِند منسَكبِ النَّدىٰ وإذا بهمْ عند الرَّدىٰ حِمْلانُ
صمَتُوا لديْك لتلفِظِي النفَس الأخيـ ـرَ وبعدَها عزَفَتْ لكِ الألحانُ
ولَطَالما وعدوا بنصْرِك في الوغىٰ وعدوا وأبلغ نصرِهم خُذْلانُ
لم يُمتشَق سيْفٌ ولمْ تُسرَجْ لهمْ خيْلٌ ولم تُقْطَعْ لهمْ أرْسانُ
فجميعُهُمْ قدْ كذّبوا وجميعُهمْ قد مثّلوا وجميعُهُمْ قدْ خانوا
قالتْ لَي المأْسَاةُ أنَّ وليَّها ظلْمُ الولاةِ وأُمَّها الإِذعانُ
قالتْ ويحملُ جُثّتي الطاوي ويهـ ـربُ من حفيفِ ثيابيَ الشبْعانُ
قالتْ ويقدَحُ ناريَ الجبناءُ لـٰـ ـكن يكتوي بحريقي الشُّجْعَانُ
وأقولُ كلُّ بلادِنا مُحْتلـةٌ لا فَرْق إنْ رحَلَ العِدَا أو رانوا
ماذا نفيدُ إنِ استقلَّتْ أرضُنـا واحتُلَّتِ الأرواحُ والأبدانُ
ستعودُ أوطاني إلىٰ أوطانها إنْ عادَ إنسانًا بها الإنسانُ

نعم .. لله درُّكم معشرَ الشعراء الذين أوقفوا قوافيهم على الإِسلام .. فأعليتم الهِمَمَ !!

فالشاعرُ إذْ يصدقُ تقتلهُ كلماتُ السُّفهاءْ !!!
والشاعرُ إذْ يُشرقُ تخنقهُ ظلماتُ الجهلاءْ !!

والشاعرُ إذْ يَسْبَحُ تبلَعُهُ حِيتانُ البلهاءْ !!!
والشاعرُ إذْ يتمرّد يُسْجَنُ في قافيةِ الجبناءْ !!
والشاعرُ عندَك يا من جئتَ بمِلَّتكَ السمحاءْ !!
حطَّابٌ يحمل فأسًا في الصحراءْ
يُجْري فيها الأنهارَ .. وينسُجُ للعُرْيانِ كِسَاءْ
والشاعر سلطانٌ يحمل فوقَ الظَّهْرِ إلى الأطفال غذاءْ
سيفٌ مسْلولٌ في وجْه الأقذاءْ
قلبٌ بأذانِ الحقِّ خفُوقٌ يُورِقُ بالأمل الوضَّاءْ
لا يُحرقُهُ الجمْر الملقَىٰ فوق الأنْدَاءْ
والشاعرُ صَدِّيقٌ .. ينزع سيفَ الرِّدةِ مِن ظلِّ الأعداءْ
يجعل مُلْكَ المتنبِّي في طوفانِ الريحِ هَبَاءْ
ويُطارِدْ جيشَ مُسْيلمةَ الكذابِ بكلِّ الأجْواءْ
مِنْ فوّهة الموتِ يجيء .. يُشيِّدُ ملحمة الشهداءْ
ويُقيمُ مِنَ الجثَثِ العابرةِ زمانَ الوهْمِ جسورَ بقاءْ
يَصْرَعُ جيلَ الباطل يجعَلُهُ سفْحًا من أشلاءْ
يَمْسخُ شيطانَ النقمةِ .. يَجعلُهُ بعضَ دماءْ
والشاعرُ كوْنٌ مفتوحٌ .. ينبُتُ في خضرتِهِ البُسَطَاءْ
الشاعرُ كَنزُ نُبوءاتٍ لا يدركها إلا من يقتحم الأرجاءْ
هل يَفهمُ هذا الشعراءْ ؟!
هل يَفهمُ هذا الشعراءْ ؟!(١)

هذا هو شاعر الإسلام بهمَّتِهِ العالية الغالية !!

« أنا شاعرُ الإسلامِ واكَبْتُ الدهورَ ندًى ورِفْدَا

---

(١) قافلة الغرباء ، للدكتور صابر عبد الدايم .

أنا شاعرُ الإسلامِ ناصرتُ الرسولَ وبي يُفدَّىٰ
حسَّان كنتُ وكعبَهُ وابنَ الرَّواحةِ إذْ تصدَّىٰ
وعلىٰ مدى الأيام كنتُ لدينهِ سيفًا مُعَدًّا
أنا شاعرُ الإسلام كمْ خُضتُ الوغىٰ رمحا وحَدّا
حتى غدَتْ كَبدي تُمزَّقُ بالنِّصالِ تنزُّ حِقْدا
أنا شاعرُ الإسلام .. أستهدي كتابَ الله رُشْدَا
أتفيَّأُ الذكْرَ الحكيمَ وآيهِ .. للحقِّ أُهْدىٰ
علمْنني أن أستقيمَ علىٰ الصِّراطِ فلنْ أندَّا
علمنني ألَّا أُسيغَ العيْش إذلالًا وقيْدا
أمضي معَ الشهداء أدعو الله طابَ الموْتُ شهْدا
ذادوا العدوَّ عن العرينِ .. كأنَّما هيّجْتَ أُسْدَا
خانتْ أكفَّهُمُ السيوفُ فقتِّلوا مَمْسىً ومَغْدَىٰ
« ذهبَ الذين أُحِبُّهمْ وبقيتُ مثْلَ السيفِ فرْدا »
هتفتْ بَي الأكوان أقْدِمْ إنْ أردتَ اليومَ خُلْدا
أشرِعْ سنانك أو يراعَك في الورىٰ برْقًا ورعْدَا
رُدَّ الزُّحوف عنِ التُّخُومِ فلا نرىٰ فيهنَّ وَغْدَا
ونُعيدُها رغْمَ الجِرَاحِ نُعيدُها بدْرًا وأُحْدَا
الحرْفُ أكرَمُ ما يُصاغُ ويتنىٰ حِصْنًا وسَدَّا
بالحرْفِ يَنْجاب الفسادُ ويُطردُ الشيطانُ طرْدَا
بالحرف يهْتَزُّ الطغاةُ ويُخضَدُ الطغيانُ خضْدَا
بالحرفِ تُكتَسَبُ الشعوبُ .. تفِيُّ للإسلام حَشْدا
صُوغوا على اسم الله من أجيالنا للحقِّ جُنْدا
وعلىٰ خطا « إقبال » ردّوا فتنة التغريب عَمْدَا
وعلى خطا « قطب » أعدُّوا الفنَّ منهاجًا ونقْدَا

وعلى مصابيح النبوّة يمِّمُوا الهدفَ الأسَدَّا »[١]

ونختمُ بالقاضي .. وما أدراكَ ما القاضي ؟!

ولله درُّ أيامٍ سَعِدْنا فيها بصحبته .. ورأيناهُ أطيبَ من الفجر وأعطر مِنَ الزهرْ !!

لله درُّ الشيخ الحبيب الشاعِر محمد عبد الحكيم القاضي ، وهو يصحِّح القصد على نهْج السَّلف .. ويدعو إلى التربية على السلفية ، علمًا ومنهجًا وعلوَّ همَّة ، ويَصيح في الطغاة بقول مَن سبَقَهُ :

لا تُهيِّئْ كفني يا عاذلي ... فأنا لي مع الفجر مواثيق وعهدُ

يقول حفظه الله[٢] :

رعَىٰ الله قومًا في العَواونةِ التقَوْا ... على نفحاتِ الشوْقِ والشوقُ غالبُ
على القسَمَاتِ النورُ كالفجر لائحٌ ... وفي العَزَمات القولُ ماضٍ وصائبُ
رجالٌ كما الإسناد لا قطْع فيهمُ ... ولا شذَّ منهمْ عن ذُرا الحقِّ رَاكبُ
وقد صحَّ قصدٌ منهمُ مِثْل قولِهمْ ... إذا اعتلَّ منهمْ راغبٌ قامَ راغبُ
فقُلْ للذي يُومِي بطَرْفٍ مُمرضٍ ... سَقَتْكَ عيونُ الشانئينَ الكواذِبُ
يقولون لا تقوىٰ لدينيَ شوكةٌ ... وقدْ خضعتْ للظالمينَ الرغائبُ
أمَا نظروا والظلمُ غشٌّ لأهله ... إلى القومِ إذْ تشتدُّ تلكَ النوائبُ
هُمُ القومُ في الجُلَّى غِضابٌ على الحِمىٰ ... خِفافٌ إذا ولّى من الناسِ هاربُ
أللموتِ غيرُ القومِ إن مادتِ الوغىٰ ... وفارتْ كما التَّنُّورُ يا قومُ طالبُ ؟
ولكنهمْ ذكَّوا على العلْم نارَهمْ ... فضاءتْ بأنفاسِ العلومِ الترائبُ
وتاقتْ إلى نفس ابنِ سيرينَ نَفْسُهُمْ ... فضَجَّتْ إلى أهلِ الحديث الرغائبُ

---

(١) قصيدة : شاعر الإسلام ، للدكتور عبد القدوس أبو صالح السوري .

(٢) في قصيدته المهداة إلى « سلفية بني سويف » ، والتي كتبها في قرية «العواونة» بمركز أهناسيا ، محافظة بني سويف ٢٠ / ١١ / ١٩٩٠ م .

أَحَيَّيتَ بعدَ «ابن المبارَك» مسلمًا ... هو الصبحَ صوّالٌ وبالليل راهبُ ؟!
وراقَتْكَ من هذي الوجوهِ أئمة ... ستكشفُ عنهم يا (سُمَيُّ) الغياهِبُ
سيُكشفُ عنهمْ والليوثُ كواشِرٌ ... إذا اشتعلتْ بالمِلتين الكتـائبُ
سترْوِينَ عن سلفيَّةِ العصْرِ مثلَمَا ... توالَتْ عن القعقاعِ هذي الغرائبُ
هُمُ الغيبُ لكن في الضحى يُحْمَدُ السُّرٰى ... وحينَ تضيءُ الشمسُ تخبو الكواكبُ



الفصل السابع

عُلُوُّ هِمَّـة الشُّيُوخ

ما شابَ عَزْمي ولا حَزْمي ولا خُلُقي ولا ولائي ولا دِيني ولا كَرَمي
وإنَّما طالَ رَأْسِي غَيْرُ صِبْغَتِهِ والشَّيْبُ في الرأسِ غير الشيب في الهِمَمِ

□ عُلُوُّ هِمَّة الشُّيُوخ □

اعلم يا أخي أن الشَّيْب جلَّةٌ ووَقَار ، ونورٌ للعبد ومَنَار ، فبياضُ الصُّبح في السَّدَف :

تَفَاريقُ شَيْبٍ في السَّوادِ لَوَامِعُ ... وما خيرُ ليلٍ ليس فيه نجومُ

عن كعب بن مرَّة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ شابَ شَيْبَةً في الإسلام ، كانت له نورًا يوم القيامة »[١] .

وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن شابَ شيبةً في سبيلِ الله ، كانت له نورًا يوم القيامة »[٢] .

وقال ﷺ : « إنَّ مِنْ إجلالِ الله : إكرامَ ذي الشَّيْبَةِ المُسْلِم ، وحامل القرآن ، غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكرام ذي السُّلْطان المُقْسِط »[٣] .

أهلًا وسهلًا بالمَشيبِ فإنَّه ... سِمَةُ العفيفِ وحِلْيَةُ المُتحرجِ
وكأنَّ شَيْبي نَظْمُ دُرٍّ زاهرٍ ... في تاجِ ذي ملكٍ أغرَّ مُتَوَّجِ

ولله درُّ القائل :

إنَّما تَحسُن الرِّياضُ إذا ما ... ضحكتْ في خلالها الأنوارُ

والقائل :

---

(١) صحيح : رواه الترمذي والنسائي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦١٨٣) .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن حبان ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦١٨٤) .

(٣) حسن : رواه أبو داود عن أبي موسى الأشعري ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢١٩٥) .

وعائبٍ عَابَني بشَيْبـي لم يَعْدُ لَمَّا أَلَمَّ وقْتَهْ
فقلتُ إذْ عابني بشيبي يا عائِبَ الشَّيْبِ لا بَلَغْتَهْ

وقال ﷺ : « خيرُ الناس مَنْ طالَ عُمُرُهُ وحَسُنَ عَمَلُه »[١] .

وقال ﷺ : « خيرُ الناسِ مَنْ طال عمرُه وحسُنَ عملُه ، وشرُّ الناس مَن طال عمرُه وساء عملُه »[٢] .

فلله درُّ أُناسٍ طال عمرهم وعَلَتْ هِمَمُهم وحسُن عملُهم .

قال البخاريُّ في كتاب العلم: «وقد تعلَّم أصحابُ النبي ﷺ في الكِبَر».

وهناك أمثلة عَطِرة على مَنْ عَلَتْ هممُهم ، فكانوا أُسُودًا في هممهم ، تفخر بهم الدنيا وتطيب .

أبو أيوب الأنصاري يُقاتل لفتح القسطنطينيَّة وهو شيخ :

عن أبي ظبيان قال : أغْزَى أبو أيوب ، فمرضَ ، فقال : إذا متُّ فاحملوني ، فإذا صافَفْتُم العدوّ ، فارموني تحت أقدامكم ، أما إني سأُحدِّثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعتُه يقول : « مَنْ مات لا يُشرِك بالله شيئًا ، دخل الجنة »[٣] .

هذه حاجة أبي أيوب وهو يجود بروحه ، تُعجِز وتُعْيي كلَّ تصور وكلَّ تخيل لبني الإنسان !! أتحسبون هذا شعرًا ؟! لا .. ولا هو خيال .. بل واقعٌ .. وحقٌّ شَهِدَتْه الدنيا ذات يومٍ ، ووقفتْ تُحدِّق بعينيها وبأُذُنيْها ، لا تكاد تصدِّق ما تسمع وما ترى . ولقد أنجز يزيد وصيَّة أبي أيوب ، وفي قلب القسطنطينية -

---

(١) صحيح : رواه أحمد والترمذي عن عبد الله بن بسر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٩١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد والترمذي والحاكم عن أبي بكرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٩٢) .

(٣) إسناده قوي : رواه أحمد والطبراني ، ومتن الحديث روي عن غير أبي أيوب ؛ فقد أخرجه البخاري ومسلمٌ من حديث ابن مسعود ، ومسلمٌ من حديث جابر ، والبخاري ومسلم من حديث أبي ذرٍّ .

وهي اليوم إستانبول - ثوَى جثمانُ رجُلٍ عظيم ، جدّ عظيم !!

أراد أن يكون مثواه الأخير حيث يزحف جيش الإسلام، وتَخْفُق الأعلام، وتَصْهَل الخيول ، هناك حيث صلصلة السيوف .

ألم يكن شعاره في ليله ونهاره ، في جهره وإسراره: «قال الله: ﴿**انْفِرُوا خفافًا وثقالًا**﴾ [التوبة : ٤١] . لا أجدني إلّا خفيفًا أو ثقيلًا » .

رضي الله عمن قضى حياته في أشواق عابدٍ .. يُؤمن بالنصر ، ويرى بنور بصيرته بقاع القسطنطينية ، وقد أخذتْ مكانها بين واحات الإسلام ؛ ودخلتْ مجال نوره وضيائه .

عبد الله بن حرام : من كلّمه الله كفاحًا :

وفي قصّة استشهاد عبد الله بن حرام جَلالٌ تنحني له الحياة ، إعزازًا للأُبُوّة الرقيقة التي جادتْ بنفسها واستودعتِ الله أُسرةً من غلامٍ واحدٍ وستّ بناتٍ !

روى أبو داود والنسائي، عن جابر بن عبد الله قال: «خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى المشركين يُقاتلهمْ ، وقال لي أبي : يا جابر ، عليك أن تكون في نظاري أهل المدينة حتى تعلم إلام يصير أمرُنا ، فإني والله لولا أني أترك بناتٍ لي بعدي ، لَأحببتُ أن تُقتَل بين يديَّ قال : فبَيْنَا أنا في الناظِرين ، جاءت عمَّتي بأبي وخالي ، عادَلَتْهما على ناضح ! فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا ؛ إذ لحقَ رجلٌ ينادي : ألا إن النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوهم في مصارعهم . فرجعنا بهم فدفناهما حيث قُتلا .. » .

وروى البخاري عن جابر أيضًا: «لَمَّا حضرَ أُحد- يعني القتال عند الجبل وفوقه - دعاني أبي من الليل فقال لي : ما أراني إلّا مقتولًا في أوَّل مَنْ يُقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أتركُ بعدي أعزَّ عليَّ منك غير نفْس رسول الله ﷺ ! وإنَّ عليّ دَيْنًا ، فاقْضِهِ واستَوص بأخواتك خيرًا . فأصبحنا .... وكان أوَّل قتيلٍ » .

خرج الصَّحَابِيُّ الجليل مع رسول الله ﷺ تاركًا وراءه هذه الأُسرة الكبيرة ، وقوامها ستُّ بناتٍ يَحْتَجْنَ إلى الكافِل الحاني .

إن صاحب المبادئ سُرَاعٌ إلى تلبية مبادئه عندما يقرع باب الكريم وهو يقول :

فقمتُ ولم أجثمْ مكاني ولم تقُمْ   مع النَّفس علّاتُ البخيلِ الفواضِحُ

وروى الترمذي عن جابر قال : لقيني رسول الله ﷺ مرة وأنا مُهتمٌّ ، فقال : « ما لي أراك مُنْكَسرًا ؟ » فقلتُ : اسْتُشهِدَ أبي يوم أُحُدٍ ، وترك عيالًا ودَيْنًا . فقال : « ألا أُبَشِّرُك بما لقي الله به أباك » ؟ قلت : بلى! قال: « ما كلَّم الله أحدًا قطُّ إلَّا مِنْ وراءِ حجابٍ ، وإنَّه أحيا أباك فكلَّمه كفاحًا[1] ، فقال : يا عبدي ، تمنَّ عليَّ أُعْطِكَ . قال : يا ربّ ، تُحييني فأُقْتَل ثانيةً . فقال سبحانه وتعالى : إنه قد سَبَقَ مني أنهم لا يرجعون » . فنزلتْ : ﴿ **ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

والمرء يَحَارُ من كرامة الشهيد على الله .

إن أبا جابر لم يستشعر وحشةً لفراق أولاده ، ولم تَسْتشرِف نَفْسُه للاطمئنان على فلذات كبده ، بل تطلَّع للعودة إلى الدنيا كيما يذهل مرةً أُخرى عن أحبِّ شيءٍ فيها ، ويتمشَّى بخُطًى ثابتةٍ إلى ساحة القتال[2] .

موسى بن نُصَيْر : فاتحُ الأندلس وهو شيخ :

يذكر التاريخ لموسى وهو شيخ ، أنه فتَحَ المغرب الأقصى واستعاد فتح المغرب الأوسط، ويذكر التاريخ له أنه وهو شيخ، رَصَنَ الفتح الإسلامي في المغرب العربي، فأصبح شمال أفريقية عربيًّا إسلاميًّا إلى الأبد ، ويذكر التاريخ لهذا التابعي الجليل ، أنه وهو شيخ فتَحَ هو ومولاه طارقٌ الأندلس وقسمًا من جنوب فرنسا .

---

(١) أي مُواجَهَةً .

(٢) في موكب الدعوة ، للشيخ محمد الغزالي صـ ٥١ - ٥٣ .

ويذكر التاريخ له قولتَهُ وهو شيخ : « ما هُزِمتْ لي رايةٌ قطُّ ، ولا فُضَّ لي جَمْعٌ ، ولا نُكِب المسلمون معي نكبةً منذ اقتحمتُ الأربعين إلى أن شارفتُ الثمانين .

يذكر التاريخ له وهو شيخ ، أنه قال وهو أمام حصنٍ من حصون الأندلس حاصَرَهُ بضعًا وعشرين ليلة : « أيها الناس ، إني متقدِّمٌ أمام الصفوف فإذا رأيتموني قد كبَّرتُ وحملتُ فكبِّروا واحمِلُوا » . فقال الناس : سبحان الله ! أترى فَقَدَ عقلَهُ أم عَزُب عنه رأيُه ؟ يأمرنا نَحمِل على الحجارة وما لا سبيل إليه ! فتقـدَّم بين الصفوف بحيث يراه الناس ، ثم رفع يديه بالدعاء والرغبة فأطال ، ثم كبَّر وكبَّر الناس ، وحَمَلَ وحملَ الناسُ .

لله درُّك من شيخٍ لا يعرف للمستحيل معنًى .

يذكر التاريخ له وهو شيخ ، أنه قال ببلاد الأندلس ، بعد أن أوْغَلَ في الفتح حتى جاوز «سرقسطة»: أما والله لو انقادوا إلي لقُدْتُهم إلى رومية، ثم يفتحها الله على يديَّ إن شاء الله .

ما شاب عَزْمي ولا حَزْمي ولا خُلُقي ... ولا ولائي ولا ديني ولا كرمي
وإنما طالَ رأسي غيْرُ صِبْغتِـهِ ... والشَّيْبُ في الرأس غيرُ الشَّيْبِ في الهِمَمِ

أبو عثمان النَّهْدي : الإمام الحُجَّة ، شيخُ الوقت :

قال رحمه الله : أتت عليّ ثلاثون ومائة سنة ، وما شيء إلَّا وقد أنكرتُهُ خلا أمَلِي فإنه كما هو .

أدرك – رحمه الله – الجاهلية والإسلام ، وغزا في خلافة عمر وبعدها .

وقال : غزوت على عهد عمر ، وشهدتُ اليرموك والقادسية وجلولاء وتُستر ونهاوند وأذربيجان ومهران ورستم .

وحجَّ ستين مرَّةً ما بين حجَّة وعُمرة .

قال معتمر عن أبيه : كان أبو عثمان النهدي يُصلّي حتى يُغشى عليه .

وقال معاذ بن معاذ : كانوا يَرَوْن أن عبادة سليمان التَّيْمِي من أبي عثمان

النهدي أَخَذَها .

وعن المعتمر عن أبيه قال : إني لأَحْسَب أن أبا عثمان كان لا يُصيب دنيا ، كان ليله قائمًا ونهاره صائمًا ، وإنْ كان ليُصلِّي حتى يُغشى عليه .

وقال عاصم الأحول : بلغني أن أبا عثمان النهدي كان يُصلي ما بين المغرب والعشاء مائة ركعة[1] .

شيخ الإسلام أبو رجاء العُطَارِدِي :

الإمام الكبير ، من كبار المُخَضْرَمِين ، أدرك الجاهلية وأسلم بعد فتح مكة ، عُمِّر عمرًا طويلًا أزيد من مائةٍ وعشرين سنة .

قال ابن الأعرابي : كان أبو رجاء عابدًا ، كثير الصلاة وتلاوة القرآن .

وكان يقول : ما آسى على شيءٍ من الدنيا إلَّا أن أُعَفِّر في التراب وجهي كلَّ يومٍ خمس مرَّات .

قال أبو الأشهب : كان أبو رجاء العُطارِدِي يختم بنا في قيامٍ لكلِّ عشرةِ أيامٍ[2] .

ثابت البُناني : العابد الرَّبَّاني :

مات - رحمه الله - سنة سبعٍ وعشرين ومائة وهو ابن ستٍّ وثمانين سنة .

قال أنس بن مالك : إن للخير مفاتيح ، وإن ثابتًا من مفاتيح الخير .

وقال بكر المُزَنِّي : من أراد أن ينظر إلى أعْبَد أهل زمانه ، فلينظر إلى ثابتٍ البُناني ، فما أدركنا الذي هو أعبدُ منه .

قال ثابت البناني : كابدتُ الصلاة عشرين سنة ، وتنعَّمتُ بها عشرين سنة .

---

(١) السير ٤ / ١٧٧ .

(٢) السير ٤ / ٢٥٣ - ٢٥٧ .

قال شُعْبَةُ: كان ثابت البناني يقرأ القرآن في كلِّ يومٍ وليلة، ويصوم الدَّهْر.

وقال حمَّاد بن زيد : رأيتُ ثابتًا يبكي حتى تختلف أضلاعُه .

وقال حمّاد بن سَلَمة : قرأ ثابت : ﴿ **أكفرتَ بالذي خلَقَك من ترابٍ ثم من نُطْفَة ثمّ سوَّاك رَجُلًا** ﴾ [الكهف: ٣٧]. وهو يُصلي صلاة الليل ينتحب ويُردِّدها.

وقال مبارك بن فضالة : دخلتُ على ثابتٍ فقال : يا إخوتاه،لم أقْدر أن أُصلِّيَ البارحة كما كنتُ أُصلي ، و لم أقدر أن أصوم ، ولا أنزل إلى أصحابي فأذْكُر معهم ، اللَّهمَّ إذ حَبَسْتَني عن ذلك فلا تَدَعْنِي في الدنيا ساعةً[١] .

أبو إسحاق السَّبِيعي : الحافظ شيخ الكوفة :

عاش ثلاثًا وتسعين سنة .

قال أبو إسحاق : ما أَقَلَّتْ عيني غُمْضًا منذ أربعين سنة .

قال فضيل : كان أبو إسحاق يقرأ القرآن في كلِّ ثلاثٍ .

قال أبو الأحوص: قال لنا أبو إسحاق : يا معشر الشباب ، اغْتَنِمُوا- يعني قُوَّتكم وشبابَكم - قلَّما مرّتْ بي ليلة إلَّا وأنا أقرأ فيها ألف آية ، وإنِّي لأقرأ البقرة في ركْعَةٍ، وإنِّي لأصوم الأشْهُرَ الحُرُم وثلاثة أيام من كلِّ شهرٍ ، والإثنين والخميس .

وقال أبو إسحاق أيضًا : ذهبت الصلاةُ منِّي وضَعُفْتُ ، وإني لَأُصلِّي فما أقرأ وأنا قائم إلَّا بالبقرة وآل عمران .

قال العلاء بن سالم العبيدي : ضعُف أبو إسحاق قبل موته بسنتين ؛ فما كان يقدر أن يقوم حتى يُقام ، فإذا استَتَمَّ قائمًا ، قرأ وهو قائم ألف آية .

قال عون بن عبد الله لأبي إسحاق : ما بقي منك ؟ قال : أقرأ البقرة في ركعة . قال : بقي خيرُك وذهب شرُّك[٢] .

---

(١) السير ٥ / ٢٢٣ - ٢٢٥ .

(٢) السير ٥ / ٣٩٢ - ٤٠٠ .

عطاء بن أبي رَبَاح : مُفتي الحَرَم :

عاش تسعين سنة .

كان - رحمه الله - بعد ما كَبِر وضعُف يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من البقرة وهو قائم ، لا يزول منه شيءٌ ولا يتحرك[1] .

سحنون : سيد أهل المغرب :

راهب هذه الأُمَّة . مات وله ثمانون سنة .

كان الذين يحضرون مجلس سحنون من العُبَّاد أكْثَر من الطَّلَبَة ، كانوا يأتون إليه من أقطار الأرض .. ولمَّا وُلِّي سحنون القضاء بأَخَرَةٍ عُوتِب فقال : ما زلتُ في القضاء منذ أربعين سنة ، هل الفتيا إلَّا القضاء ؟!

همّ - رحمه الله - بتهذيب المُدوَّنة فأدركته المَنِيَّة .

ابن أبي حاتم الرَّازي : الإمام الحافظ شيخ الإسلام :

ولد سنة ٢٤٠ هـ ، ومات سنة ٣٢٧ هـ .

كان أبوه يقول : ومن يَقْوَى على عبادة عبد الرحمن ، لا أعرف لعبد الرحمن ذنبًا .

وقال أبو عبد الله القزويني الواعظ : إذا صلَّيتَ مع عبد الرحمن ، فسَلِّم نَفْسَك إليه يعمل بها ما يشاء .

وقال علي بن الحسن البصري ، وهو في جنازة ابن أبي حاتم : قَلَنْسُوَة عبد الرحمن من السماء ، وما هو بعجب ، رجلٌ ثمانين سنة على وتيرةٍ واحدة ، لم ينحرف عن الطريق .

الحُسين بن الفَضْل :

العلَّامة المُفسِّر الإمام اللُّغوي المُحدِّث، مات وهو ابن مائة وأربع سنين.

(١) السير ٥ / ٨٧ .

قال الحاكم : وكان يركع في اليوم والليلة ستمائة ركعة ، ويقول : لولا الضعْف والسِّنّ لم أطْعَم بالنهار .

قال الحاكم : كان إمام عصره في معاني القرآن ، أقْدَمَهُ ابنُ طاهر معه نيسابور ، وابتاع له دارًا فسَكَنَها ، فبقي يُعلِّم الناس ويُفتي في تلك الدار إلى أن توفِّي .

قال أبو القاسم المذكر : لو كان الحسين بن الفضل في بني إسرائيل ؛ لَكان ممَّن يُذكَر في عجائبهم .

الحَسَن بن سفيان : الإمام الحافظ ، يحفظ الأسانيد وهو ابن تسعين سنة :

قال الحاكم : سمعتُ محمد بن داود بن سليمان يقول : كُنَّا عند الحسن ابن سفيان فدَخَلَ ابنُ خُزَيْمَة وأبو عمرو الحِيريُّ وأحمد بن عليٍّ الرّازي ، وهم مُتوجِّهون إلى فراوة ، فقال الرازي : كتبتُ هذا الطبق من حديثك . قال هات . فقرأ عليه ، ثم أدخلَ إسنادًا في إسناد ، فردَّه الحسن ، ثم بعد قليل فعَلَ ذلك ، فلمَّا كان في الثالثة قال له الحسن : ما هذا ؟ قد احتملتُك مرَّتيْن وأنا ابنُ تسعين سنة، فاتَّقِ الله في المشايخ فربَّما استُجِيبتْ فيك دعوة. فقال له ابن خزيمة : مَهْ ، لا تُؤْذِ الشيخ . قال : إنما أردت أن تعلم أن أبا العباس يَعرف حديثه[(١)] .

الإمام الحافظ شيخ خراسان : أبو الحسين محمد بن محمد الحجَّاجي :

مات سنة ثمانٍ وستين وثلاثمائة ، وهو ابن ثلاث وثمانين سنة .

قال الحاكم : كان أبو الحسين من الصالحين المجتهدين بالعبادة ، قرأ القرآن على أبي بكر بن مجاهد ، صنَّف العلَل والشيوخ والأبواب ، وكان يمتنع وهو كهل عن الرِّواية ، فلمَّا بلغَ الثمانين لازَمَهُ أصحابُنا الليلَ والنهارَ حتى سمعوا كتاب العلل وهو نيِّفٌ وثمانون جُزءًا ، و « الشيوخ » وسائر المصنَّفات . صَحِبْتُهُ نَيِّفًا

(١) السير ١٤ / ١٥٨ - ١٥٩ .

وعشرين سنة بالليل والنهار ، فما أعلمُ أن الملك كتب عليه خطيئة(١) .

شيخُ الحنابلة ابنُ عقيل :

قال ابن عقيل : عصمني الله في شبابي بأنواعٍ من العصمة وقصَرَ محبتي على العلم ، وما خالطتُ لعَّابًا قطُّ ، ولا عاشرتُ إلَّا أمـثالي من طلبة العلم ، وأنا في عُشر الثمانين : أجد من الحرص على العلم أشدَّ ممَّا كنتُ أجدُه وأنا ابن عشرين ، وأنا اليوم لا أرى نقصًا في الخاطر والفكْر والحفظ وحِدَّة النظر بالعين لرؤية الأهِلَّة الخفيَّة ، إلَّا أن القُوَّة ضعيفة(٢) .

ابنُ الجَوْزِيّ يقرأ العشر وهو ابن ثمانين سنة :

نالتْه محنةٌ في أواخر عمره ، وأُوذي كثيرًا ، حتى شفعت أُمُّ الخليفة وأطلقتِ الشيخ ، وأتى إليه ابنُهُ يوسف ، وما رُدَّ من « واسط » حتى قرأ هو وابنُهُ بتلقينه بالعشر على ابن الباقلاني وسِنُّ الشيخ نحو الثمانين .

قال الذهبيُّ : فانظر إلى هذه الهمَّة العالية(٣) .

الحافظ السِّلَفِيّ :

قال رحمه الله :

أنا مِنْ أهْلِ الحَدِيـــ ـثِ وهم خيرُ فِئَـهْ
جُـــزتُ تسعين وأر جُو أنْ أَجُوزَنَّ المِئَهْ

وقد حقَّق الله رجاءه ، فقد جاوز المائة .

قال رحمه الله : لي ستون سنة بالإسكندرية ما رأيتُ منارتها إلا من هذه الطاقة . وأشار إلى غُرفةٍ يجلس فيها .

قال عبد القادر الحافظ : كان أبو طاهر لا تبدو منه جَفْوةٌ لأحد ، ويجلس

---

(١) السير ١٦ / ٢٤٠ - ٢٤١ .
(٢) االسير ١٩ / ٤٤٦ .
(٣) السير ٢١ / ٣٧٦ - ٣٧٧ .

للحديث ؛ فلا يشرب ماءً ولا يَبْزُق ولا يتورَّك ولا تبدو له قَدَمٌ وقد جاوز المائة .

وكان رحمه الله كأنه شعلةُ نارٍ في تحصيل الحديث وتدريسه .

قال المحدِّثُ وجيه الدين عبد العزيز بن عيسى اللَّخْمِيّ قارئُ الحافظ السِّلَفِي : لم يزل يُقرأ عليه الحديث يوم الخميس إلى أن غربت الشمس من ليلة وفاته ، وهو يَرُدُّ على القارئ اللَّحْن الخَفيّ(١) .

الإمام القُدْوة سُوَيْد بن غَفَلَة :

مات - رحمه الله - وهو ابن عشرين ومائة سنة .

عن الوليد بن علي ، عن أبيه قال : كان سويد بن غفلة يَؤُمُّنا في شهر رمضان في القيام ، وقد أتى عليه عشرون ومائة سنة .

وكان سُويد - رحمه الله - إذا قيل له : أُعطي فلان ووُلِّي فلانٌ ؛ قال : حَسْبِي كِسْرَتي ومِلْحي .

قال عليُّ بن المديني : دخلتُ منزل أحمد بن حنبل ، فما شَبَّهْتُهُ إلَّا بما وُصِف من بيت سُوَيْد بن غفلة ، من زهده وتواضعه ، رحمه الله(٢) .

الحسَن بن عَرَفَة ، أبو عليّ العَبْدِيّ :

قال رحمه الله : كَتَبَ عنّي خمسةُ قرونٍ .

قال الذهبيُّ : يعني : خمس طبقات ؛ فالطبقة الأولى : ابن أبي حاتم ، والثانية : ابن أبي الدنيا ، والثالثة : طبقة ابن خُزَيْمة ، والرابعة : طبقة المحاملي ، والخامسة : الصفار .

عاش - رحمه الله - مائة وعشر سنين(٣) .

---

(١) السير ٢١ / ٥ - ٣٩ .
(٢) السير ٤ / ٧٢ .
(٣) السير ١١ / ٥٤٩ .

علّي بن خَشْرَم : الحافظ الصَّدُوق :

وُلد سنة ستين ومائة ، ومات سنة سبع وخمسين ومائتين .

قال أبو رجاء : سمعتُه يقول : صُمْتُ ثمانيةً وثمانين رمضانًا[(١)] .

أبو القاسم البَغويّ :

قال الدارقطني : ثقةٌ جَبَل ، إمام من الأئمة ثَبت .

كَتَب الحديث بخَطِّه وكان سِنه يومئذٍ عشر سنين ونِصْفًا ، ولا يُعلم أحد طَلَبَ الحديث وكَتَبه أصْغَر منه .

ومات - رحمه الله - وقد استكملَ مائة وثلاث سِنين وشهرًا واحدًا .

قال الذهبيُّ : قد سمعوا عليه يوم وفاته ، فذَكَرَ محمد بن شريح - في غالبِ ظنِّي - قال : كُنَّا نسمعُ على البغويِّ ورأسُه بين ركبتيه ، فرفَعَ رأسَهُ وقال: كأنِّي بهم يقولون: مات أبو القاسم البغوي، ولا يقولون: مات مُسْنِد الدُّنيا . ثم مات عَقِيبَ ذلك أو يومئذٍ ، رحمه الله[(٢)] .

حكيم بن حزام : هِمَّةٌ سَبَّاقَةٌ في الإسلام :

عاش مائة وعشرين سنة . وكان فقيه النفْس كبير الشأن .

قال البخاري في تاريخه: عاش ستين سنة في الجاهلية، وستين في الإسلام.

قال الذهبيُّ : لم يَعشْ في الإسلام إلَّا بضْعًا وأربعين سنة .

« قال حكيم بن حزام : سألتُ رسول الله ﷺ فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال لي : « يا حكيم بن حزام ، إن هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوَة ، فمَنْ أخَذَهُ بسخاوةِ نَفْسٍ ، بُورِك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفسٍ ، لم يُبارَك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى » . فقال حكيم : فقلت : يا رسول الله ، والذي بَعثك بالحق ،

---

(١) السير ١١ / ٥٥٣ .

(٢) السير ١٤ / ٤٤٠ - ٤٥٦ .

لا أرْزَأُ أحدًا بعدك شيئًا حتى أُفارق الدنيا .

فكان أبو بكر يدعو حكيمًا إلى العطاء ، فيأبى أن يقبله منه ، ثم إنَّ عمر دعاه ليعْطِيَه، فأَبَى أنْ يقْبَلَ منه، فقال : إني أُشهِدُكم معشر المسلمين على حكيم، أني أعرض عليه حَقَّه من هذا الفَيْء فيأبى أن يأخُذه. فلم يَرْزَأْ حكيمٌ أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى تُوفِّي »[(١)] .

أَعْتَقَ في الإسلام مائة رقبة .

قال مصعب بن ثابت : بلغني والله أن حكيم بن حزام حَضَرَ يوم عرفة ، ومعه مائة رقبة ، ومائة بَدَنَة ، ومائة بقرة ، ومائة شاة ، فقال : الكلُّ لله .

وقال أبو حازم : ما بَلَغَنا أنه كان بالمدينة أكْثَر حَمْلًا في سبيل الله من حكيم .

وقيل : إن حكيمًا باع دار الندوة من معاوية بمائة ألف ، فقال له ابن الزبير : بعتَ مَكْرُمَة قريش ؟ فقال : ذهبتِ المكارمُ يا ابن أخي إلَّا التقوى ، إني اشتريت بها دارًا في الجنة ، أُشهدُكم أني قد جعلتُها لله .

ولمَّا توفي الزبير لقي حكيمٌ عبدَ الله بن الزبير ، فقال : كم ترك أخي من الدَّيْن ؟ قال : ألف ألف . قال : عليَّ خمسمائة ألف . وعند موت حكيم قال : لا إله إلا الله ، قد كنت أخشاك ، وأنا اليوم أرجوك[(٢)] .

الحافظ الطَّبَراني :

عَلَمُ المُعَمّرِين أبو القاسم ، مُحَدِّث الإسلام . عاش - رحمه الله - مائة عام وعشرة أشهر ، في آخِر عمره استقرَّ واستوطَنَ أصبهان ، وأقام بها نحوًا من ستين سنة ينشر العلم ويُؤلِّفه ..

قال أبو بكر بن أبي عليّ: سأل أبي أبا القاسم الطبراني عن كثرة حديثه ،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائيّ . وقوله : لا أرزأ : أي : لا أنقص مالَهُ بالطَّلَبِ منه .

(٢) السير ٣ / ٤٤ - ٥٠ .

فقال : كنت أنام على البواري ثلاثين سنة .

شيخ الإسلام القاضي أبو الطَّيِّب الطَّبَرِيّ :

عُمِّر أكثر من مائة سنة .

« قال أبو إسحاق الشيرازي في (الطبقات) : شيخُنا وأستاذُنا القاضي أبو الطَّيِّب،تُوُفِّي عن مائة وسنتين ، لم يَخْتَلَّ عقلُه ، ولا تغيَّر فَهْمُه ، يُفتي مع الفقهاء ، ويَسْتَدْرِك عليهم الخطأ ، ويقضي ، ويشهد ، ويحضر المواكب إلى أن مات . و لم أرَ في مَنْ رأيت أكْمل اجتهادًا ، وأشدَّ تحقيقًا ، وأجْوَد نظرًا منه ؛ شَرَح مختصر المُزَني ، وصنَّف في الخلاف والمذاهب والأصول والجدل كتبًا كثيرة ليس لأحد مثْلها »[1] .

« قال القاضي ابن بكران الشامي : **قلتُ للقاضي أبي الطَّيِّب** شيخنا وقد عُمِّر : لقد مُتِّعتَ بجوارحكَ أيُّها الشيخ . قال : ولِمَ ؟ وما عصيتُ الله بواحدةٍ منها قطُّ . أو كما قال »[2] .

قال الخطيب : مات صحيحَ العقل ، ثابت الفَهْم[3] .

الشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ الألباني :

والشيخ ابن باز والشيخ الألباني آيتان من آيات الله في عصرنا ، في علو هِمَّة الشيوخ في حِفْظ الوقت والعُكُوف على العلم ، وإجابة السائلين ، والذَّبّ عن عقيدة السلف .. ولك أن تُقارن نفسك في هِمَّتك بهمَّة ابن باز حين يصحو .. متى ينام ومتى يصحو ، وخُذ أروع الأمثلة بصلاته للفجر ، ثم عكوفه على تدريس الكتب بعد صلاة الصبح يوميًّا ، ثم ذهابه إلى إدارة البحوث وتَلَقِّي مئات المكالمات والرَّدّ على الفتاوى ، ومائدته التي يجلس إليها طلبةُ العلم منذ

---

(١) السير ١٦ / ١١٩ - ١٢٨ .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٢ / ٢٤٧ .

(٣) السير ١٧ / ٦٧٠ - ٦٧١ ، وتاريخ بغداد ٩ / ٣٦٠ .

ثلاثين سنة .. وأمَّا لَيْلُه وقيامه وتهجُّده ، فيُخبرك وجهُه ونور القيام الذي يلوح عليه ، وانتفاخ قدميه ، لله درُّه وبارك الله في عمره .

« إنَّ منطق اليقين لا يَكترث بفوارق السِّنّ ؛ فإن العقيدة المتفجِّرة في القلوب الكبيرة تَرُدُّ الكُهُولَ الوَانِينَ ، فِتيانًا نَشِطِينَ .

هناك رجال تُطِلُّ وَقْدَةُ الشباب حارَّةً في دمهم وإن أنافوا على التسعين ، لا تنطفئ لهم بشاشة ، ولا يكبو لهم أمل ، ولا تَفْتُرُ لهم هِمَّة .

وحين نتكلَّم عن الأشياخ المجاهدين في عصرنا هذا ؛ فإنَّنا واجِدُون رجالًا من طرازٍ رائع ، صَنَعَهم الإسلامُ القويُّ فأَحْكَمَ صناعَتهم ، وقذَفَ بهم على جند الباطل ، فجدَّدُوا سِيَر السابقين من المهاجرين والأنصار ، من أولئك النَّفَر الغُرِّ : عمر المختار ؛ البطل الذي بلغ التسعين من عمره وهو يجوب الصحراء ، مُطاردًا الطليان الذين أغاروا على طرابلس وعملوا على تنصيرها بالحديد والنار »[1] .

عمر المختار : شهيد الإسلام وأسد الصَّحراء :

حين يتغنَّى الجنود الإيطاليون بأنشودتهم : « أنا ذاهبٌ إلى ليبيا فَرِحًا مسرورًا .. لأبذل دمي في سبيل سحق الأُمَّة الملعونة ومحو القرآن ! وإذا متُّ يا أُمَّاه فلا تبكيني ! وإذا سألك أحدٌ عن عدم حدادك فقولي : لقد مات وهو يُحارب الإسلام ! »[2] ، يخرج إليهم أسد الصحراء بفدائية الإيمان بالله تعالى ، في أبهج وأسمى معانيها ، يُهاجمهم في « بنغازي » و « القصور » و « تكنس » و « دفنا » واختاره السيد إدريس السنوسي قائدًا أعلى للمجاهدين ، وهو فوق الستين ، وجَعَل من الجبل الأخضر مقرًّا له ، ولمَّا حاول مشايخُ قبيلته مَنْعَهُ من العودة إلى « برقة » مجاهدًا ، قال : « إن ما أسير فيه هو طريق الخير ، ومَنْ

---

(١) في موكب الدعوة ، للشيخ الغزالي صـ ٥٣ - ٥٤ ، دار الكتب الحديثة .
(٢) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - للدكتور أحمد شلبي جـ ٤ .

يُعدني عنها فهو عدوٌّ لي ، ولا ينبغي لأحدٍ أن ينهاني عنها » .

وقبل ذلك كبَّد هو ورفاقُهُ الفرنسيين في «التبستي» خسائر فادحة قبل وصول إيطاليا إلى ليبيا مستعمرة لها .

ولمَّا تولَّى عمر المختار قيادة المجاهدين، اشتدَّ أُوَار القتال بين المجاهدين والإيطاليين، وكانت معركة «الرحيبة» ومعركة عقدة المطمورة من أعظمها، وانتهت كلها بارتداد الإيطاليين ، واشتدَّ الجهاد في عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥ ، بوقوع معارك عِدَّة ولمع اسم عمر المختار كقائدٍ بارعٍ يُتقن أساليب الكرّ والفرّ .

ولمَّا أراد الطليان الاستيلاء على «الفزان» واحتلال عاصمتها سنة ١٩٢٨ ، التحم المجاهدون مع الجيش الإيطالي بقيادة « جرازياني » في معركة دامية ، استمرتْ خمسة أيام بتمامها ، وقد انهزم الإيطاليون شرَّ هزيمة ، ومرَّة أخرى حاولوا الكرَّة ، وأباد المجاهدون أكثر الجيش الإيطالي .

ومرة أخرى في « درنة » في ٢٢ أبريل سنة ١٩٢٨ يشتبك معهم في معركة عنيفة دامت يومين، وكان النصر فيها حليفه. وفي السلوم، والحجزة، ومرسى بريقة ، وجالو ، وأوجلة ، وأنزلوا بالطليان خسائر فادحة .

لله درُّك يا عمر.. تُبدِّد بحفنةٍ من الرِّجال جيوش الإمبراطورية الإيطالية، وتجعلها تفرُّ هاربةً تاركة عتادَها ومُؤَنَها . لو لم تكُن من مَعدِنٍ نفيسٍ لَمَا كنت بهذه القُوَّة المُدمِّرة .. حتى يضطر موسوليني سنة ١٩٢٩ أن يُعيِّن « بادوليو » حاكمًا على ليبيا ، ويعهد إليه بالقضاء على المقاومة .

وحينما أرسلتْ إليه إيطاليا بشروطها المُزرِية ، قال : « إني لا أرضى بهذه الشروط ، وأُفضِّل الموت جوعًا وعطشًا ، ولا أُلقي بنفسي وإخواني بين أيدي الإيطاليين يتصرَّفون فينا كيف شاءوا » . وأراد الطليان أن يستميلوا عمر المختار بالمال ، فأرسلوا إليه مع « بلعون مدير الحاسة » يعرضون عليه مليون فرنك هديَّة فرَفَضَها .

وحاصر الطليان عمر المختار ، وأقاموا الأسلاك الشائكة على طولِ مسافةٍ لا تقلُّ عن ثلثمائة كيلو متر على طول الحدود الشرقية مع مصر ، فلم يضعُف بعد أن أصبح هو ورجاله منقطعين عن جميع البشر من جميع الجهات .

وفي أكتوبر سنة ١٩٣٠ تمكَّن الطليان من الاشتباك مع المجاهدين في معركة كبيرة ، وقد عثر الطليان عَقِب انتهائها على نظَّارات عمر المختار ، كما عثروا على جواده مقتولًا ، فأصدروا منشورًا حاولوا فيه أن يقضوا على أسطورة عمر المختار الذي لا يُقهر أبدًا ، وقال جرازياني مُتوعِّدًا : « لقد أخذْنا اليوم نظّارات عمر المختار ، وغدًا نأتي برأسه » .

وفي ١١ من سبتمبر سنة ١٩٣١ وصل إلى الحكومة برقية ، تُفيد أن مُصادمات وقعت بين المجاهدين وبين قوة من خيَّالة الحكومة بالقرب من « سلنطة » ، وأنَّ رجُلًا من الأهْلِين وقع في أسْرِهم ، وقد عرفه الجند وقالوا : « إنه عمر المختار نَفْسه » . قُتِل جميعُ من معه ، وقُتل حصانُه ، وظلَّ يُقاتل القوة الإيطالية إلى أن جُرح في يده ، ثم تكاثروا عليه وأخذوه أسيرًا .

وقال عمر الكلمات الغاليات الخالدات ؛ أن القَبْض عليه ، ووقوعه في قَبْضَة الطليان ، إنَّما حدث تنفيذًا لإرادة المولى عزَّ وجل ، وأنَّه وقد أصبح أسيرًا بأيدي الحكومة الإيطالية ، فالله سبحانه وتعالى وحده يتولَّى أمره ، وأمَّا أنتم فلكم الآن وقد أخذتموني ، أن تفعلوا بي ما تشاءون ، وليكُن معلومًا أني ما كنتُ في يوم من الأيام لأُسَلِّم لكم طَوْعًا[1] .

وشاءتِ الأقدار أن يقف البطل الذي حيَّر إيطاليا ، وأشاع الرُّعْب في قلوب جيشها ، أمام جرازياني الذي قطعَ رحلته إلى باريس ليَسْتدعِي البطل في صبيحة اليوم الذي عُقدت فيه المحكمة الطائرة له .

---

(١) عمر المختار شهيد الإسلام وأسد الصحراء ، لمحمد محمود إسماعيل صـ ٤٧ مكتبة القرآن .

وقبل المُحاكمة بقليل جاءوا بالأسد عمر المختار مُقيَّد اليدين بالسلاسل والقيود ، وكان يسير بصعوبةٍ ، وقد غطَّى وَجْهَه بجِرامِهِ ، وظهرَ عمر المختار حينئذٍ وليًّا من أولياء الله ، لم يَنَل الأسْر والسجن شيئًا من وقاره وجلال هيبته.

ودار حوارٌ بين الأسد المُسلْسَل ، وبين الجبان جرازياني :

جرازياني (مخاطبًا عمر المختار) : لماذا حاربت الحكومة الإيطالية هذه الحرب الشديدة ؟ عمر : لأن ديني يأمُرني بذلك . جرازياني : هل كان لديك أيّ أمل في أنك سوف تستطيع إخراجنا من « برقة » ، ومعك هذا العدد القليل من الرجال الذين ينخرطون معك ، وتلك المعدَّات القليلة التي تملكها ؟ . عمر : كلَّا ، فإن هذا على ما يبدو كان أمرًا مستحيلًا . جرازياني : ماذا كان غَرَضُك إذن ؟ وماذا كنت تبغي ؟ . عمر : كنتُ مجاهدًا وكفى ، أمَّا ما يَنجمُ من هذا الجهاد ؛ فالأمر فيه موكولٌ لله وحده . جرازياني : هل أمرتَ فِعْلًا بقتْل الطَّيَّارَيْن « أوبر » و « بياتي » ؟ عمر : نعم ، فإن الرئيس وحده هو الذي يتحمَّل جميع المسئوليَّات ، والحرب هي الحرب . جرازياني : كم من الوقت يُمكنك بما لك من نفوذٍ وصَوْلَةٍ أن تُخضع الثُّوَّار في الجبل ؟ عمر : أبدًا أبدًا ، قد أقسمْنا جميعًا أن نموت واحدًا بعد واحدٍ ، ولا نُسلِّم أنْفُسنا بتاتًا ، ومن المعروف تمامًا أنِّي لم أُسلِّم نفسي إليكم . جرازياني : لا شكَّ أنك كنت طوال حياتك رجلًا شجاعًا ، وإني لأرجو أن تكون شجاعًا مهما حدثَ لك أو نزل بك . عمر : إن شاء الله .

وعَرَض جرازياني على عمر المختار عفوًا شاملًا، نظير أن يكتُب بتوقيعه نداءً للمجاهدين ، يدعوهم ويطلب إليهم أن يكُفُّوا عن القتال ، ويُسلِّموا أنفسهم وأسلحتهم للحكومة ، ورفض عمر لأسبابٍ وضَّحها جرازياني ، وهي أن هذا العمل لا يرضي ضميره ودينه ، وفضلًا عن ذلك ، فإن أحدًا لن يُصدِّق صدور هذا النداء من عمر المختار .

لقد كان عمر المختار هو عمر المختار إلى النهاية ! لقد كتب جرازياني

في مُؤلَّفه عن « برقة » أنه لا يزال يشعر بالأثر الذي أحدثْه في نَفْسه رؤية عمر المختار ، وكيف أنه أدركَ لماذا كان المختارُ صاحبَ الكلمة المسموعة والرأي الأعلى بين المجاهدين .

وعُقدت لعمر المختار محاكمةٌ صُورِيَّة في الساعة الخامسة مساء يوم ١٥ سبتمبر عام ١٩٣١ في «برقة»، وتلا رئيسُ المحكمة في الساعة السادسة والربع مساء الحُكْم بإعدام عمر المختار شنقًا، فقابَلَ عمر المختار ذلك بقوله: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون » . وفي التاسعة من صباح اليوم التالي ، وهو يوم الأربعاء الموافق ١٦ من سبتمبر عام١٩٣١ م ، نفَّذ الطليان في « سلوق » حُكم الإعدام شنقًا في السَّيِّد عمر المختار ، الذي كان في السبعين من عمره .

«ودفعت الخِسَّة بالإيطاليين إلى أن يفعلوا شيئًا عجيبًا في تاريخ الشعوب، إذ إنهم أرغموا أعيان البَرْقاوِيِّينَ الذين اعتقلوهم في «بنينة » ، كما أرغموا أعيان « بنغازي » ، وعددًا كبيرًا من الأهالي من مختلف الجهات – على حضور عمليَّة التنفيذ ، فحَضَرَ ما لا يقلُّ عن عشرين ألف نَسَمَة على قول جرازياني . ويا لها من ساعةٍ رهيبة تلك التي سار فيها عمر المختار بقَدَمٍ ثابتةٍ ، وشجاعة نادرة ، وهو ينطق بالشهادتين إلى حبل المشنقة ، وقد ظلَّ عمر المختار يُـرَدِّدُ الشهادتين حتى نفذ فيه الجلَّادون حكم الإعدام ، وعندما وجد هؤلاء أن عمر المختار لم يَمُتْ ، أعادوا عمليَّة الشنق مرَّةً ثانية »[(١)] .

عظمة في الحياة، وعظمة في الممات، عشتَ قاتلًا لأعداء الله ومت مقتولًا بيد أعداء الله . لله درُّك يا عمر « حتى الموت .. يموت الناس مرَّة ، وأنت تموت مرَّتيْن! لماذا؟ أَلِأَنَّ الله يريد أن يرفعك بذلك مرَّتين، ويُعطيك على ذلك أجريْن: أجر الشهيد الذي عايَنَ الموت وذَاقَهُ، ثم أجر الشهيد– مرة ثانية– الذي أراد أعداؤه أن يقتلوه مرَّة ثانية.. وتلك علامات القَبُول.. وذلك أول تاجٍ من تيجان الآخرة»[(٢)] .

(١،٢) عمر المختار شهيد الإسلام وأسد الصحراء صـ ٥٦ ، ٥٧ .

ولله درُّ شاعر الشباب التونسي وهو يقول في رثائه :

مَضَى عمرُ المختارُ لله رافِلًا ... بثوْبٍ نقيٍّ حِيكَ من خالِصِ الطُّهْرِ
مضى عمرُ المختارُ لله بعد ما ... قضَى الواجبَ الأسْمَى بأعلى ذُرَى الفَخْرِ
مضى عمرُ المختارُ لله هانئًا ... سعيدًا شهيدًا وانطوتْ صفحةُ العُمْر
مُخلِّفَةً للعالمين مآثِرًا ... هي الغُرَرُ البيضاءُ في جبهةِ الدَّهْرِ
ومن دمِهِ المسفوكِ سَطَّرَ آيةً ... سيحفَظُهَا التاريخُ بالحَمْدِ والشّكْرِ

وما أجمل قول شوقي في رثائه :

رَكَزُوا رُفاتَك في الرِّمالِ لِواءَا ... يَسْتَنْهِضُ الوادي صباحَ مَساءَا
يا وَيْحهُم نَصَبُوا منارًا مِنْ دمٍ ... يُوحِي إلى جيل الغد البَغْضَاءَا
جُرحٌ يَصيح على المَدَى وضحيَّةٌ ... تَتَلَمَّسُ الحُرِّيَّةَ الحَمْراءَا
يا أيُّها السَّيْفُ المُجَرَّدُ بالفَلَا ... يَكْسُو السُّيُوفَ على الزَّمان مَضَاءا
تلكَ الصَّحاري غِمْدُ كُلِّ مُهَنَّدٍ ... أبْلَى فأحْسَنَ في العَدُوِّ بَلاءَا
لو لاذَ بالجوْزاءِ منهم مَعْقِلٌ ... دخلوا على أبراجها الجوزاءَا
خُيِّرتَ فاخترتَ المبيتَ على الطَّوَى ... لم تَبْن جاهًا أو تَلُمَّ ثَراءَا
إن البطولةَ أن تموتَ مِنَ الظَّمَا ... ليس البطولة أن تَعُبَّ الماءَا
أفريقيا مَهْد للأُسُودِ ولَحْدُها ... ضجَّتْ عليك أراجِلًا ونِساءَا
والمسلمون على اختلافِ ديارهم ... لا يَملكُون مع المُصاب عَزاءَا
والجاهِلِيَّةُ من وراءِ قبورهم ... يَبكُونَ زَيْدَ الخيلِ والفلْحَاءَا[1]
في ذِمَّةِ الله الكريمِ وحِفْظِهِ ... جَسَدٌ ببُرْقَةَ وُسِّدَ الصَّحْراءَا
لَم تُبْق منه رَحَى الوَقائِعِ أعْظُمًا ... تَبْلَى ولم تُبْقِ الرِّماحُ دِماءَا
كُرُفاتِ نسْرٍ أو بقيَّةِ ضَيْغَمٍ ... بَاتَا وراءَ السَّافِياتِ[2] هَباءَا

---

(١) لَقَب لعنترة بن شدَّاد .

(٢) جمع « سافِيَة » ، وهي الريح التي تَذُرُّ التراب ؛ أي تنثُره وتُفرِّقه .

بطلُ البَدَاوَةِ لم يكن يَغْزو على ... تَنْكٍ ولم يَكُ يَرْكَبُ الأَجْواءَا
لكنْ أخو خيلٍ على صَهَواتِها ... وأدارَ مِنْ أعْرافِها الهَيْجاءَا
لَبَّى قضاءَ الأرض أمْسِ بمُهْجَةٍ ... لم تخش إلَّا للسماءِ قضاءَا
وافاه مرفوعَ الجَبِينِ كأنَّهُ ... سُقْراطُ جرَّ إلى القُضاةِ رِداءَا
شيخٌ تَمَالَك سِنّهُ لم يَنفجِرْ ... كالطفل مِنْ خوفِ العِقابِ بُكاءَا
وأخو أمورٍ عاش في سَرَّاتِها ... فتغيَّرتْ فتوقَّعَ الضَّرَّاءَا
الأُسْدُ تَزأرُ في الحديد ولن ترى ... في السِّجنِ ضِرْغامًا بَكى اسْتِخْذَاءَا
وأتى الأسيرُ يجُرُّ ثِقْلَ حديدِهِ ... أسدٌ يُجَرْجِرُ حَيَّةً رَقْطاءَا
عضَّتْ بساقَيْهِ القيودُ فلم يَنُؤْ ... ومَشَتْ بهيكلِهِ السُّنون فَناءَا
تسعون لو ركبتْ مناكِبَ شاهِقٍ ... لترجَّلَتْ هَضَباتُهُ إعياءَا
خَفِيتْ عن القاضي وفاتَ نصيبُها ... مِن رِفْقِ جُنْدٍ قادةٍ نُبلاءَا
والسِّنُّ تَعْطِفُ كلَّ قلبِ مُهَذبٍ ... عرفَ الجُدُودَ وأدركَ الآباءَا
دَفعُوا إلى الجلَّاد أغْلَبَ ماجِدًا ... يأسُو الجراحَ ويُطلِقُ الأُسَرَاءَا
ويُشاطِرُ الأقرانَ ذُخْرَ سلاحِهِ ... ويَصُفُّ حولَ خِوانِهِ الأعداءا
وتخيَّرُوا الحبل المَهِينَ مَنِيَّةً ... لِلَّيْثِ يَلْفِظُ حولَهُ الحَوْباءَا(١)
حَرَمُوا المماتَ على الصَّوارِمِ والقَنَا ... مَنْ كان يُعطي الطعنةَ النَّجلاءَا
يا أيُّها الشعبُ القريبُ أسَامِعٌ ... فأصُوغ في عُمْر الشهيدِ رِثاءَا
أم ألجمَتْ فاك الخطوبُ وحرَّمتْ ... أُذنَيْك حين تُخاطبُ الإصغاءَا
ذهبَ الزعيمُ وأنت باقٍ خالدٌ ... فانْقُدْ رجالَكَ واخْترِ الزُّعَمَاءَا
وأرِحْ شيُوخَك مِنْ تكاليفِ الوَغَى ... واحْمِلْ على فِتْيانِك الأعباءَا(٢)

---

(١) النفس .
(٢) الشوقيات - ديوان شوقي ٢ / ٣٤٤ ، ٣٤٧ - دار نهضة مصر .

الشيخ أحمد ياسين ، شيخ المقاومة في فلسطين :

« تحية إكبار إلى المجاهد الذي سَمَتْ به نفخةُ الرُّوح عن قَبْضَة الطِّين : إلى المجاهد الفلسطيني أحمد ياسين » :

إيهِ يا عسقلان لان الحَدِيدُ ... وأخو الحقِّ ثابتٌ لا يَحِيدُ
إيهِ يا عسقلانُ أحمد قلبٌ ... صابرٌ صامِدٌ ورَأْيٌ سَدِيدُ
سَمِعَتْ صوتَهُ القيودُ يُناجي ... ربَّهُ فانْثَنَتْ إليهِ القيودُ
وبكَى السجنُ حين أصغَى إليه ... وهْو يتلو والواهِمون رُقودُ
أيُّها الشيخ ما لِعينِكَ تَهْمِي ... ولماذا يَطُول منك الشُّرودُ
جالسٌ أنت والطُّغاةُ وُقوفٌ ... وحَوالَيْكَ قد أُقِيمَ الجنودُ
أنا يا شيخ ما رأيتُكَ إلَّا ... في صلاةٍ يَطُولُ فيها السجودُ
أنا يا شيخُ ما رأيتُك إلّا ... داعِيًا مِنْ دعائِهِ يَستزِيدُ
كلُّهم خائفون منك لماذا ... أيَخافُ القعيدَ جيشٌ عَتِيدُ
قال لي الشيخ وهْو يُرسِلُ نحوي ... نظرةً وَقْعُها عليَّ شديدُ
أيُّها السَّائِلُ المُلِحُّ لأني ... لائذٌ بالذي إليه نَعُودُ
خافني المعتدي وإلَّا فإني ... أيُّها السَّائلُ المُلِحُّ قَعِيدُ
يا ابن ياسينَ أين رِجْلاكَ مهلًا ... فَثَبَاتي على الجهادِ أكِيدُ
في دمي فَوْرةُ الغَيُورِ وقلبي ... مُشرِقٌ بالهُدَى وعزْمي جديدُ
ثَقُلتْ هِمَّتي على الجسم حتى ... آدَهُ حَمْلُها فلم يَقْوَ عُودُ
شُلَّ جسمي وإنَّما الجسم طينٌ ... سوف يَسْطُو عليه في القبرِ دودُ
أيُّ نفعٍ للجسمِ والقلبُ خاوٍ ... أيّ نفعٍ للجسمِ وَهْوَ بَلِيدُ
كم نَرَى بينَنا جُسُومًا عِظامًا ... نفَّذَتْ ما يُرادُ لا ما تُرِيدُ
شَلَلي لم يُصب مِنَ الرُّوحِ شيئًا ... وبرُوحي أطيرُ حيث أُرِيدُ
أنا يا سائلي تجاوزتُ نَفْسي ... وتجاوزتُ ما تَحُدُّ الحدودُ
يَخْرُجُ الحَزْمُ من عَباءَةِ صَمْتي ... وإليها إذا أردتُ يعودُ

قلتُ للجسمِ حين أُقْعِدَ مهلًا فأنا لن ينالَ عزْمي القعودُ
أنا قلبي مُعَلَّقٌ بإلهي فمدى ما يُريدُ قلبي بعيدُ
قَبْضَةُ الطينِ لن تُكبِّلَ رُوحي فالفضاءاتُ مسرحي والوجودُ
حين أتلو القرآنَ يخصبُ قلبي ويَطِيبُ التسبيحُ والتحميدُ
مِنْ عُبُودِيَّتِي لِرَبِّي انطلاقي أنا حُرٌّ بها فأين العبيدُ
لستُ عبدًا يا سائلي لِفُلانٍ وفلانٍ مِمَّن سَجَاياهُ سُودُ
أرْفَعُ الكفَّ للسماءِ وحَسْبِي أنَّ كَفِّي بخَيْبَةٍ لا تعودُ
خالِقُ الكونِ مالكُ المُلْكِ عَوْني فَلْيَنَلْني بكيْدِه مَنْ يَكِيدُ
مُقْعَدٌ أيُّها الصِّديقُ ولكنْ مِنْ قُعُودي هذا يخافُ اليهودُ
أوعَدُوني ولستُ أخشى وعيدًا بَشَرِيًّا فعِنْدَ ربِّي الوعيدُ
سجنوني مُؤَبدًا وهو وهمٌ إنَّما في القيامةِ التَّأْبيدُ
يا شَيْخَنا تُضامُ وتُؤْذَى وعلى ما جرَى تُقامُ الشُّهودُ
ثُمَّ تُنْسَى ويُحْتفَى بسلامٍ ساقَنا نحوَهُ العدوُّ اللَّدُودُ
يا ابن ياسينَ كم يُمَزِّقُ قلبي ذُلُّ قومي ولَهْوُهم والصُّدُودُ
لو شكا كلبُ سائحٍ أجنبيٍّ لَرَأْينا ما يصنعُ التهديدُ
واليتامى من أُمَّتي والصَّبايا حظُّهنَّ الإرهابُ والتشريدُ
أين مِنْ أُمَّتي عُمَيْرٌ وسعدٌ والمُثَنَّى وخالدٌ وسعيدُ
أين مِنْ قادةِ الجيوشِ صلاحٌ أين مِنْ ساسةِ البلادِ الرَّشِيدُ
أين قُطزٌ لَمَّا تَهاوَى تَتارٌ عند أقدامِهِ فعَزَّتْ بنودُ
يا ابنَ ياسينَ ما يزالُ بقلبي لهبٌ من جراحِهِ ووقُودُ
لم أزَلْ أذكُرُ الظلامَ وَئِيدًا آهِ مِمَّا جَنَى الظلامُ الوئيدُ
ليلةٌ أظلمتْ وغامتْ فَسَلْنِي كيف كانت بُرُوقُها والرُّعُودُ
كيف سالتْ مَدامِعُ المجد فيها وشكا فَوْرَةَ الدماء الوَريدُ
كُنتَ في السجنِ تَشربُ الليلَ سُهْدًا وعلى الذُّلِّ تنطوي «مدريدُ»

كنتَ في سجدةِ التهجُّدِ تدعو وصلاةُ المُفاوِضِينَ الكُنُودُ
أين «رِبْعِيُّنا» المُفاوِضُ عَنَّا أين منَّا «المُغيرةُ» الصِّنْدِيدُ
أَنْذَرَا «رُستُمًا» فلا البحرُ بحرٌ عندما أَنْذَرَا ولا البيدُ بيدُ
أين منَّا يا شيخُ دُهْمُ المطايا ساقَها العَزْمُ والإباءُ يَقُودُ
قال لي الشيخُ لا تَخَفْ فلَدَيْنا أَمَلٌ في إلَهِنا معقُودُ
لا تَخَفْ يا بُنَيَّ كَمْ مِنْ قلوبٍ مُظلماتٍ صفاؤها مفقُودُ
كلُّ مَنْ فاوَضَ العَدُوَّ سيبكي حالَهُ حين يَضحكُ التَّهوِيدُ
فَاوَضَ المعتدي ضحاياه مِنَّا وعلى ما جرى رقيبٌ عَتِيدُ
لَيْلُهم راكِدٌ وهم فيه عُمْيٌ ولنا فَجْرُنا المُشِعُّ الجديدُ
مَجْدُهم صورةٌ لِوَهمٍ كبيرٍ ولنا مجدُنا العظيمُ التَّلِيدُ
يا ابن ياسينَ لا عَدِمناك شَهْمًا عن حِمَى قُدْسنا الشريفِ تَذُودُ
عِشْ كريمًا فإن تَمُتْ فرجائي أن تقول الأمجادُ هذا الشَّهِيدُ
قد يُسامُ التَّقِيُّ في الأرض خَسْفًا وعلى الله نَصْرُهُ الموعودُ(١)

عجوز بني إسرائيل تشترط على نبيّ الله موسى ﷺ أن تكون معه في الجنة :

عن أبي موسى الأشعري قال : أتى النبيُّ ﷺ أعرابيًّا ، فأكرمه فقال له : « ائتنا » . فأتاه ، فقال رسول الله ﷺ : « سلْ حاجَتَك » . فقال : ناقة نركبُها ، وأعْنُزًا يحلبُها أهلي ، فقال رسول الله ﷺ : « عَجَزْتُم أن تكونوا مِثْل عجوز بني إسرائيل » ؟ قالوا : يا رسول الله ، وما عجوز بني إسرائيل ؟ قال : « إن موسى لَمَّا سار ببني إسرائيل من مصر ، ضلُّوا الطريق ، فقال : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : إن يوسف لَمَّا حَضَرَه الموتُ ، أخذَ علينا مَوْثِقًا من الله أن

(١) قصيدة « أحمد ياسين » من ديوان « من القدس إلى سراييفو » ، لعبد الرحمن صالح العشماوي ، صـ ٤٣ - طبع : دار الصحوة .

لا نخرج من مصر حتى نَنْقُلَ عظامه[١] معنا . قال : فمن يعلم موضع قبره ؟ قال: عجوز من بني إسرائيل. فبعث إليها فأتَتْه، فقال : دُلِّيني على قبر يوسف . قالت : حتى تُعطيني حكمي . قال : ما حكمك ؟ قالت : أكونُ معك في الجنَّة . فكَرِهَ أن يُعطيَها ذلك ، فأوحى الله إليه أن أعْطِها حُكمها . فانطلقتْ بهم إلى بحيرة موضعِ مستنقع ماءٍ ، فقالت : أنضِبُوا هذا الماءَ .فأنضبُوا. قالت : احْتفِرُوا واستخرِجُوا عظام يوسف ، فلمَّا أقَلُّوها إلى الأرض ، إذا الطريقُ مِثْل ضَوْءِ النهار »[٢] .



انتهى المجلد السادس ويليه المجلد السابع إن شاء الله تعالى

---

(١) هذا لا يُناقض حديث رسول الله ﷺ الذي فيه : « إن الله حَرَّم على الأرض أن تأكُل أجساد الأنبياء » . وذلك لأن العظام قد تُطلق على الجسم كله ، ففي بعض الأحاديث : أن رسول الله ﷺ قال لامرأةٍ : « مُرِي غُلامَكَ النجَّار يعمل لي أعوادًا - منبرًا - تحمل عظامي » . وهذه فائدة من كتب شيخنا الألباني ، انظر : « من فقه الدعاء » لمصطفى العدوي - دار السنة صـ ٣٩ .

(٢) حسن : رواه أبو يعلى في مسنده (٧٢٥٤) ، وابن حبان في صحيحه (٢٤٣٥) ، وصحَّحه الحاكم ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني ، وأبو يعلى ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح .

صلاح الأمة
في
علو الهمة

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم — الشيخ عائض القرني

الشيخ محمد عبد المقصود — الشيخ أبو إسحاق الحويني

المجلد السابع

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

عُلُوُّ هِمَّةِ

الشَّبابِ

شبابٌ ذَلَّلُوا سُبُلَ المعالي وما عرفوا سوى الإسلام دِينا
إذا شهدُوا الوَغَىٰ كانوا كُمَاةً يَدُكُّونَ المعاقِل والحُصُونـا
وإن جنَّ المساءُ فلا تراهمْ مِنَ الإشفاقِ إلا ساجِدينا

[هاشم الرِّفاعي]

□ عُلُوُّ هِمَّة الشَّباب □

قال رسول الله ﷺ : «لا تزول قَدَما ابن آدم يومَ القيامة من عند ربِّه ، حتى يُسأل عن خمسٍ : عن عُمرِه فِيمَ أفناه ، وعن شبابه فيمَ أبلاه ، وعن مالِهِ من أين اكْتَسَبَهُ وفيم أنْفَقَه ، وماذا عملَ فيما علمَ »(١) .

ولله درُّ حفصة بنت سيرين حين قالت : يا معشر الشباب، اعملوا فإني رأيتُ العمل في الشباب .

والحقُّ أنّ أمجادَ المتفوقين، وأشواط الصاعدين، إنما تَسْتَمِدُّ حركتها وبركتها من جهودهم أيام الشباب، واستغلالهم عُرَامَهُ وإقدامَهُ في السَّبْق والانطلاق. والشباب أخْصَبُ مراحل العمر ، وأجْدَرُها بحُسْن الإفادة وعِظَم الإجادة ، ومِنْ ثَمَّ كان على المرء أن يُقدِّم حسابًا عن حياته كلها ، وحسابًا خاصًّا عن طور الشباب وحده على أن الشباب وإن اكْتَنَفَتْه من طرفَيْه المُتباعدَيْن : الطفولةُ والشيخوخة ، إلَّا أنه يصعُب وضْع حدود زمنيَّة لعهده السعيد !! فهناك رجالٌ تظلُّ وَقْدَةُ الشباب حارَّة في دمهم وإن أنافوا على الستين لا تنطفيء لهم بشاشة، ولا يكبو لهم أمل، ولا تفتُر لهم هِمَّة ، وهناك شباب يحبُون حَبْوًا على أوائل الطريق ؛ لا ترى في عيونهم بريقًا ، ولا في خطْوهم عزمًا ، شاختْ أفئدتُهم في مقتبل العمر ، وعاشوا في ربيع الحياة ، لا زَهْر ولا ثَمَر !!

ومن الأخطاء تصوُّر الشباب قُدرة جسد وفناء غريزة ، إن الشباب تَوَثُّبُ رُوحٍ واستنارةُ فِكرٍ ، وطَفْرَةُ أملٍ وصلابةُ عزيمةٍ . فترة الشباب في حياة الإنسان هي أحْفَلُ أطوار العمر بالمشاعر الحارَّة والعواطف الفائرة ، لكنَّها ليست عهد

---

(١) حسن : رواه الترمذي عن ابن مسعود ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٢٩٩) .

العافية المكتملة في البدن الناضج فقط ، بل إنها كذلك عَهْد النّزعَات النفسيَّة الجيَّاشة ، يمدُّها الخيال الخصْب والرجاءُ البعيد . والأُمَم تستغلُّ في شُبَّانها هذه القوى المذخورة ، وتُجنِّدها في ميادين الحرب والسلم ، لتُذَلِّل بها الصعب وتُقرِّب البعيد .

ونجاح الأمم يرجع إلى مقدار عُلُوّ هِمَم شبابها ، وإلى مقدار آمالهم وأعمالهم . ولله درُّ فتيةٍ من شباب الإسلام في ميادين البطولة صَلَوْا حَرَّها ، وحملوا عبئها ، واندفعوا بحماستهم الملتهبة وإقدامهم الرائع ، يخطُّون مصارع الأعداء ، ويرسمون لأُمَّتهم صُوَر التضحية والفداء .

ولله درُّ هاشم الرفاعي حين يقول :

مَلَكْنا هذه الدنيا القُرُونا ... وأخضَعَها جُدُودٌ خالدونا
وسَطَّرْنا صحائف مِن ضياءٍ ... فما نَسِيَ الزمانُ ولا نَسِينَا
بَنَيْنا حِقبَةً في الأرضِ مُلْكًا ... يُدَعِّمُهُ شبابٌ طامحونا
شبابٌ ذَلَّلُوا سُبُل المعالي ... وما عرفوا سوى الإسلام دينَا
تَعَهَّدَهُمْ فأنْبَتَهُم نباتًا ... كريمًا طابَ في الدنيا غُصُونا
إذا شَهِدوا الوَغَى كانوا كُماةً ... يَدُكُّون المعاقلَ والحُصُونا
شبابٌ لم تُحطِّمْهُ اللَّيالي ... ولم يُسْلِمْ إلى الخَصْمِ العَرِينا
وإن جَنَّ المساءُ فلا تراهم ... من الإشفاقِ إلَّا ساجدينا
كذلك أخْرَجَ الإسْلامُ قومي ... شبابًا مُخلِصًا حُرًّا أمينا
وعلَّمه الكرامة كيف تُبْنَى ... فيأبى أن يُقَيَّدَ أو يهونا
وما فَتِئ الزمانُ يدورُ حتى ... مضَى بالمجدِ قومٌ آخرونا
وأصبح لا يُرى في الرَّكْب قومي ... وقد عاشوا أئمَّتَهُ سِنِينا
وآلمني وآلم كُلَّ حُرٍّ ... سؤال الدهر أين المسلمونا
تُرى هل يَرجعُ الماضي فإني ... أذوبُ لذلك الماضي حنينا
دَعُوني من أمانٍ كاذباتٍ ... فلم أجدِ المُنَى إلَّا ظُنُونا

وهاتوا لي من الإيمان نورًا وقَوُّوا بين جَنْبَيَّ اليقينا
أمُدُّ يَدِي فأنتزعُ الرَّواسي وأبني المجدَ مُؤْتَلِفًا مَكِينَا

قال الشيخ مصطفى صادق الرافعي في « وحي القلم » (٢/٢٣٠ - ٢٣٩) : « يا شباب العرب ، يقولون : إن في شباب العرب شيخوخةَ الهِمَم والعزائم ، فالشُّبّان يمتدُّون في حياة الأمم وهم ينكمشون . وإن اللهو قد خفَّ بهم حتى ثقُلتْ عليهم حياة الجدِّ ، فأهملوا المُمكِنات فرجعت لهم كالمستحيلات . وإن الهَزْل قد هوَّن عليهم كل صَعْبةٍ فاختصروها ، فإذا هزءُوا بالعدوِّ في كلمةٍ فكأنما هزموه في معركة . وإن الشاب منهم يكون رجُلًا تامًّا ، ورجولةُ جسمه تحتجُّ على طُفولةِ أعماله .

ويقولون : إن الأمر العظيم عند شباب العرب : ألَّا يحملوا أبدًا تَبِعَةَ أمرٍ عظيم . ويَزْعُمُون أنه أبْرَع مُقلِّد للغَرْب فِي الرذائل خاصَّة، وبهذا جَعَلَه الغرب كالحيوان محصورًا في طعامه وشرابه ولذَّاته .

يا شبابَ العرب : مَنْ غَيْرُكم يجعل النفوس قوانين صارمةً ، تكون المادَّة الأُولى فيها : قَدَرْنا لأنَّنا أرَدْنا .

الشباب هو القُوَّة ، فالشمس لا تملأ النهار في آخِرِه كما تملؤه في أوَّله . وفي الشباب نوعٌ من الحياة تظهر كلمة الموت عنده كأنها أُخت كلمة النوم . وللشباب طبيعةٌ أوَّلُ إدْراكِها الثقةُ بالبقاء، فأوَّل صفاتها الإصرارُ على العزم . وفي الشباب تصنع كلُّ شجرةٍ من أشجار الحياة أثمارها ؛ وبعد ذلك لا تصنع الأشجار كلُّها إلَّا خشبًا .

يا شباب العرب ، اجْعَلُوا رسالتَكُم : إمَّا أن يَحْيَا الشرق عزيزًا ، وإمَّا أن تموتوا . يا شباب العرب ، لم يكن العسير يَعْسُر على أسلافكم الأوَّلِين ، كأنَّ في يدهم مفاتيح من العناصر يفتحون بها . أتُريدون معرفة السِّرِّ ؟ السرُّ أنهم ارتفعوا فوق ضعف المخلوق ، فصاروا عملًا من أعمال الخالق . غلبُوا على الدنيا لَمَّا غلبوا في أنفسهم معنى الفقر ومعنى الخوف والمعنى الأرضي ،

وعلَّمهم الدِّين كيف يعيشون باللذَّات السَّماويَّة ، التي وضعتْ في كلِّ قلبٍ عظمته وكبرياءه . واخترعهم الإيمان اختراعًا نفسيًّا ، عَلَامتُهُ المُسَجَّلَة على كلٍّ منهم هذه الكلمة : (لا يَذِلّ) .

حين يكون الفقرُ قلَّة المال ، يَفتقِر أكثر الناس ، وتَنْخذِل القوة الإنسانية وتهلك المواهب . ولكن حين يكون فقرَ العملِ الطَّيِّب ، يستطيع كلُّ إنسانٍ أن يَغْتَنِيَ ، وتنبعث القوة ، وتعمل كلُّ موهبةٍ . وحين يكون الخوف من نقص الحياة وآلامها ، تُفسِّر كلمةُ الخوف مائة رذيلةٍ غير الخوف . ولكن حين يكونُ من نقص الحياة الآخرة وعذابها ، تصبح الكلمةُ قانون الفضائل أجْمَع . هكذا اخترع الدِّين إنسانَهُ الكبير النَّفْس ، الذي لا يُقال فيه : انهزمت نَفْسُهُ .

يا شباب العرب، كانت حكمة العرب التي يعملون عليها: اطلب الموتَ تُوهب لك الحياةُ . والنفس إذا لم تخشَ الموت ، كانت غريزةُ الكفاح - أوَّل غرائزها - تعمل.وللكفاح غريزة تجعل الحياة كلَّها نصرًا ، إذْ لا تكون الفكرة معها إلَّا فكرة مُقاتِلة . غريزة الكفاح يا شباب ، هي التي جعلتِ الأسد لا يُسَمَّن كما تُسمَّن الشاةُ للذَّبْح . وإذا انكسرت يومًا فالحَجَر الصَّلْد إذا تَرَضْرَضَتْ منه قطعةٌ، كانت دليلًا يكشف للعين أن جميعَهُ حجرٌ صلْد .

فالقوَّة القوةَ يا شباب، القوة التي تقتُل أوَّل ما تقتُل فكرة الترف والتَّخنُّث، القوة الفاضلة المُتسامِية التي تصنع للأنصار في كلمة « نعم » معنى نعم ، القوة الصارمة النفَّاذة التي تصنع للأعداء في كلمة « لا » معنى لا .

يا شباب العرب ، اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرق عزيزًا ، وإمَّا أن تموتوا ، إمَّا أن يحيا الإسلام عزيزًا ، وإما أن تموتوا .

آهِ لو عَلِم الشباب أن رُوح هذا الدين ليستْ: اعْتَقِدْ ولا تَعْتَقِد، ولكن افْعَلْ ولا تَفْعَل . لو أيقنَ الشبابُ أن فرائضَ هذا الدين ، ليست إلَّا وسائل عملية لامتلاء النَّفْس بمعاني التقديس ، لو فَهِم الشبابُ أنْ ليس في الكون إلَّا هذه

المعاني ، تجعل النَّفْس فوق المادَّة ، وفوق الخوف ، وفوق الذُّلّ ، وفوق الموت نفسه » .

فلا وألف لا للشباب الذي يجعلُ الشبابَ موقفَ بلادةٍ ، فلا يخطو إلى الرجولة ، فيبقى خوّارًا لا يستطيع أن يحمل أثقالًا مع أثقاله ، ويَسْتَوْطِئ العَجْز والخُمُول ، فلا يكون إلَّا قاعِدَ الهِمَّة ، رخْو العزيمة ، ضُجَعَةً لا يَمْشي ، نُوَمَةً لا يَنْتَهِض ، مستريحًا لا يعمل . وما ذهابُ الحارسِ عن مكانٍ إلَّا دعوة للصوص إليه .

من فُسُولَةِ طبْع هذا الشباب ولؤمه ودناءته ، أن يهرب من ميدانه . ومن سُقُوط نَفْسه ، أن يرضى ذُلَّ دينه ووطنه .

إن الجمل إذا اسْتَنْوقَ تخنَّث ولان وخضع ، ولكنَّه يَحْمِل . وهؤلاء إذا استنوقوا تخنَّثوا ولانوا وخضعوا ، وأَبَوْا أن يَحْملوا .

هذا الجمل الذي اسْتَنوَق : هذا الشباب المُخنَّث هو شباب كرة القدم :

أمضي الجسور إلى العُلا ... بزماننا كـرة القــدمْ
تحتـلُّ صَدْرَ حياتنـا ... وحديثُها في كلِّ فَمْ
وهي الطريقُ لمَنْ يريـ ... ـد خميلةً فوقَ القِمَمْ
أرأيتَ أشهـرَ عنْدَنـا ... من لَاعِبِي كرةِ القدمْ ؟
أهُـمُ أشدُّ توهُّجًـا ... أم نارُ بَرْقٍ في عَلَمْ ؟
لهمُ الجبايـةُ والعطـا ... ءُ بلا حدودٍ والكـرمْ
لهـمُ المزايا والهبـا ... تُ وما تجودُ به الهِمَمْ

كـرة القـدم

النَّاسُ تسهرُ عندهـا ... مبهورةً حتى الصباحْ
وإذا دعا داعي الجِها ... دِ وقال حَيَّ على الفلاحْ
غطَّ الجميعُ بنومهـم ... فوزُ الفريقِ هو الفلاحْ

فوزُ الفريق هو السّبيـ ـلُ إلى الحضارةِ والصَّلاحْ

كـرة القـدم

صارتْ أجلَّ أُمورِنـا وحَياتِنا هـذا الزَّمَـنْ
ما عاد يَشْغلُنا سوا ها في الخَفاءِ وفي العَلَنْ
أكلتْ عقولَ شبابنـا ويهودُ تجتاحُ المُدُنْ
واللَّاعِبُ المِقْدامُ تَصْـ ـنَعُ رِجْلُهُ مجدَ الوطنْ
عَجبًا لآلافِ الشبـا ب وإنَّهم أهْلُ الشَّمَمْ
صُرِفوا إلى الكرة الحَقيـ ـرةِ فاسْتُبِيح لهم غَنَمْ
دَخَلَ العدوُّ بلادَهـم وضجيجُها زَرَعَ الصَّمَمْ
أَيُسَجِّـل التـاريخُ أنَّـ ـــا أُمَّــةٌ مُسْتَهْتِـرَهْ
شَهِدَتْ سُقوطَ بلادِها وعيونُها فوقَ الكُرَهْ[1]

وسيَذْكُر التاريخ بأحرفٍ من نور عُلاة الهِمَم من الشباب الذين غيروا مجرى التاريخ .

أسامة بن زَيْد : الحِبُّ بن الحِبّ رضي الله عنهما :

إذا القومُ قالوا مَنْ فتًى خِلْتُ أنَّني عُنِيتُ فلم أكْسَلْ و لم أتَبَلَّدِ

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أمَّر رسول الله ﷺ أسامة على قوم ، فطعنوا في إمارته ، فقال : « إن تَطْعَنُوا في إمارتِهِ فقد طَعَنْتم في إمارةِ أبيهِ مِن قَبْلِهِ ، وأيْمُ الله لقد كان خليقًا للإمارة ، وإن كان مِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ ، وإن هذا لَمِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ بَعْدَهُ »[2] .

---

(١) قصيدة « كرة القدم » ، من ديوان « صور من بلادي » ، للدكتور وليد قصاب صـ ١٠١ - ١٠٤ . مؤسسة الرسالة .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي ، وأحمد في فضائل الصحابة ، وابن سعد في الطبقات .

وعن أسامة بن زيد ، حدَّث عن النبي ﷺ أنَّه كان يأخُذه والحَسَنَ فيقول : « اللَّهُمَّ أحِبَّهُما فإني أُحِبُّهما »[١] .

وعن عائشة قالت : عَثَرَ أسامةُ بعَتَبَةِ الباب ، فشُجَّ في وجهه ، فقال لي رسول الله ﷺ « أميطِي عنه الأذى » ، فقَذِرْتُهُ ، فجَعَلَ يَمُصُّ الدمَ ويَمُجُّه عن وجهه، ويقول: «لو كان أسامةُ جاريةً؛ لَكَسَوْتُهُ وحَلَّيْتُهُ حتى أُنَفِّقَهُ»[٢] .

وعن عائشة أُمِّ المؤمنين قالت : أراد النبي ﷺ أن يُنَحِّيَ مخاطَ أسامة . قالت عائشةُ: دعني حتى أكون أنا الذي أفْعَلُ. قال: «يا عائشة، أحِبِّيهِ فإني أُحِبُّهُ »[٣] .

وعن أسامة بن زيد قال : لَمَّا ثَقُلَ رسولُ الله ﷺ ، هبطتُ وهبطَ الناسُ معي إلى المدينة ، فدخلتُ على رسول الله ﷺ قَدْ أصْمَتَ فلا يَتكلَّم ، فجعل يَرفعُ يَدَيْهِ إلى السماء ثم يَصُبُّها عليَّ ، أعْرِفُ أنَّه يدعو لي[٤] .

وفي حديث المخزوميَّة التي سرقتْ : أنَّ قريشًا أهمَّتْهم المرأة المخزومية فقالوا : مَنْ يُكلِّم فيها رسول الله ﷺ ، ومَنْ يَجترِئ عليه إلَّا أسامة حِبّ رسول الله ﷺ . فقد كانوا يُسمُّون أسامة (الحِبّ ابن الحِبّ) . ودخلَ رسولُ الله ﷺ مكة يوم الفتح وقد أرْدَفَ أسامة خلفه . وكان عمر رضي الله عنه يُفضِّله في العطاء على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وكان رضـي الله عنه على حـداثة سِنِّه، مؤمنًا صُلبًا، ومُسلمـًا قـويًّا ، يحمل كلَّ تَبعاتِ إيمانه ودينه ، في ولاءٍ مكينٍ ، وعزيمةٍ قاهرةٍ جعلتْه قريبًا من

---

(١) رواه البخاري ، والنسائي في الفضائل ، وابن سعد في الطبقات .
(٢) صحيح لغيره : رواه ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن ماجه ، وأحمد ، وأبو يعلى ، وابن سعد في الطبقات .
(٣) حسن : رواه الترمذي .
(٤) حسن : رواه أحمد في المسند وفي فضائل الصحابة ، والترمذي ، والطبراني في الكبير .

قلب رسول الله ﷺ ، وكبيرًا في عَيْنَيْهِ .

وفي سِنٍّ مبكرةٍ ، لم تُجاوِز العشرين ، أمَّر الرسول ﷺ أسامةَ بن زيد على جيشٍ ، بين أفراده وجنوده أبو بكر وعمر !! وسَرَتْ همهمةٌ بين نفر من المسلمين تَعَاظَمَهُم الأمر ، واستكثروا على الفتى الشاب إمارةَ جيشٍ فيه شيوخُ الأنصارِ وكبارُ المُهاجرين، فقال رسول الله ﷺ بالحديث الذي ذكَرْناه في أول الترجمة: « إن تطعنوا في إمارته ... » .

« بعثَ رسولُ الله ﷺ أسامة على جيش المسلمين إلى حيث قُتل أبوه وأصحابُه ، وأمَرَهُ أن يُغير على « أُبْنَى » بالسّراة ناحية البلقاء ، وقيل : إلى آبل الزيت بنفس الجهة ، وعَقَدَ له لواء في آخِر يوم من صفر سنة ١١ هـ ، ولكنْ مَرِض الرسول ﷺ مَرَضَهُ الذي قَبَضَهُ الله إليه فيه ، فتأخّر خروجُ الجيش حتى هلال ربيع الآخِر سنة ١١ هـ . وسار أسامةُ بجيشه ثلاثة آلاف يُسرع السيْر على طريق ذي المروة ووادي القرى، في اتجاه «أُبْنى» و «آبل الزيت» من نواحي مُؤْتَة ، حتى إذا توسَّط مواطن قُضاعة توقَّف يسيرًا، وبعث فرسانَهُ لينهضوا الثابِتين منهم على إسلامهم، ويُعينوهم على مَنِ ارتدَّ، وهربَ المُرتدُّون إلى مكانٍ بعيد .. إلى « دومة الجندل » ، فاجتمعوا بها حول وديعة الكلبي ، لم تكن دومة الجندل من أهداف جيش أسامة ، ولا على طريقه ، فما إنْ عادت إليه خيولُهُ ، حتى مضى بجيشه إلى « الحمقتين » فأغار عليها ، وكان بها بنو الضُّبَيْب من جذام ، وبنو خيليل [أو : حيليل ، أو حليل] من لخم ، فهَزَمَ مَنْ هناك حتى « آبل » في إغارةٍ شديدةٍ سريعةٍ ، وسَبَى وحرقَ بالنار منازلهم وحَرْثَهم ونَخْلهم ، حتى صارتْ أعاصير من الدُّخان ، وأجَالَ الخيل في نواحيهم ، وقضى يومَهُ في تعبئة ما أصابوا من غنائم ، ثم لم يقُم وإنما كرَّ راجعًا من مساء يومه ، حتى قَدِمَ وادي القرى في تسع ليالٍ ، ثم قدم المدينة سالمًا غانمًا وقد غاب عنها خمسة وثلاثين يومًا ، وقيل : غاب شهرين وأيامًا ، وعاد الجيش بلا ضحايا .. وقال عنه المسلمون يومئذٍ : « ما رأَيْنا جيشًا أسْلَمَ

من جيش أسامة »[١] . وكان هرقل بحمص حين بَلَغَهُ ما صنعَ أسامة بعملائه من العرب النازلين بأطراف إمبراطوريته ، فدعا بطارقتَهُ وقال لهم : « هذا الذي حذَّرْتُكم فأبَيْتم أن تقبلوه منِّي ، قد صارت العرب تأتي من مسيرةِ شهرٍ فتُغِير عليكم ، ثم تخرج من ساعتها ولم تُكْلَم »[٢] . أي تُجرح .

وأيقنَ هرقل أن المسلمين لن يكفُّوا حتى ينتزعوا الشام من يده.لقد حقق جيش أسامة هدفًا جليلَ الأثر ، وضرورة حربيةً كان يلزم المسلمين القيام بها وهو إجلاء مُرْتَدّي قُضاعة عن طريق الشام ، فلو أنهم بَقُوا في مواطنهم لَازْدادَ الخطر على المدينة بصورةٍ مخيفة ، فلو تحالفوا مع مرتدّي عبس وذبيان لَسَاءَ مركز المدينة أيّما سوء ، فكان مُضيّ أسامة نحو « البلقاء » من حدود الشام ، له أكبرُ الأثر في تخويف بطون قضاعة المرتدَّة ، ومَنعها من أن تُفكِّر في الزحْف جنوبًا ، فإنهم لو فعلوا لكان جيش أسامة خطرًا داهمًا خلف ظهورهم، يعود إليهم في أي وقت ، ولذلك كان ردُّ فِعْلِهم أنهم اختاروا الفرار إلى بعيد .. إلى دومة الجندل . لقد كان بَعْث أسامة حَلْقة تربط بين العمليات الحربية في عصر النبوة ، وبين عمليات القضاء على الرِّدَّة في عهد أبي بكر ، بل وأبْعَد من ذلك كان حلْقةً تربط هذا وذاك بما تلا من عمليّاتٍ استهدفتْ فتح الشام .

عليّ بن أبي طالب : مثالٌ لعلوّ الهمَّة ، وقتْله لصناديد قريش وهو شابٌّ :

فقد قَتَل حيدرةُ الأبطال أميرُ المؤمنين عليٌّ - وهو شابٌّ في يوم بدر - شيبة بن ربيعة ، واشترك في قتْل الوليد بن عُتْبة ، وقتل بعدهما في بدر : العاص ابن سعيد، وعامرَ بن عبد الله ، وطعيمة بن عديّ ، وزمعة بن الأسود ، ونوفلَ ابن خويلد ، وعقيل بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، وعمير بن عثمان ، ومسعود بن أُميّة ، وأبا قيس بن الفاكهة ، وحاجب بن السائب ، وعبد الله

(١) رجال حول الرسول صـ ٤٤٩ .

(٢) الطريق إلى دمشق ، لأحمد عادل كمال صـ ١٥٥ . دار النفائس .

ابن المنذر ، والعاص بن منبَّه ، وأوس بن معير ، خمسة عشر رجلًا قتلهم حيدرة في يوم بدر .

وفي أُحُدٍ يقتل عليٌّ : أبا أُمَيَّةَ بن أبي حُذيفة ، وعبد الله بن حميد بن زهير . وفي يوم الأحزاب يقتل عليٌّ : عمرَو بن عبد ودّ ؛ فارس قريش في يوم الأحزاب « كبْش الكتيبة » ، وكبَّر المسلمون لقتل كبش الكتيبة .. فللَّه درُّ عليٍّ سيِّد شباب المسلمين يومئذٍ .

الحَسَن والحُسَيْن سيِّدا شبابِ أهل الجنَّة :

عن أبي سعيد الخُدْري قال : قال رسول الله ﷺ : « الحَسَنُ والحُسَيْنُ سيِّدا شبابِ أهْل الجنَّة »[١] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعتُ النبي ﷺ يقول : « هما ريحانتايَ مِنَ الدُّنيا »[٢] .

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : سمعتُ النبي ﷺ على المنبر ، والحَسَنُ إلى جنبه ، ينظر إلى الناس مرَّةً وإليه مرّةً ويقول : « ابني هذا سيِّدٌ ، ولعلَّ الله أن يُصلِح به بين فئتيْن من المسلمين »[٣] .

فرضي الله عن الحسن بن عليٍّ ، أشْبَه الناس بالنبي ﷺ ، الذي حقَنَ الله على يديه دماء المسلمين ، وإن جماجم أهل العراق تسير بين يديْه . ورضي الله عن الحسين بن عليٍّ ؛ الآمِر بالمعروف الناهي عن المنكر ، حتى القتل ، نبراسًا لأهل الحقّ ، الثَّابتين على مبادئهم . ما تزيَّنت الأرضُ إلَّا بِمِثْلهما من عُلاة الهِمَم.

---

(١) حسن : أخرجه أحمد ، والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح . والحاكم ، وأبو يعلى ، والنسائي في فضائل الصحابة ، وابن أبي شيبة في المصنف .

(٢) رواه البخاري والترمذي وأحمد ، والنسائي في الخصائص ، والطيالسي وابن أبي شيبة .

(٣) رواه البخاري وأبو داود والترمذي والطيالسي ، والنسائي في الفضائل ، وأحمد في فضائل الصحابة .

مُعاذ بن جَبَل مقدام العلماء :

عن محمد بن كعب القُرَظي قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ معاذ ابن جبل أمام العلماء رَتْوَة »(١) .

عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : إن مُعاذًا كان أُمَّةً قانتًا لله . قال : فقال رجلٌ من أشجع ، يُقال له فروة بن نوفل : نَسِيَ ، إنما ذاك إبراهيم . قال : فقال عبدُ الله : مَنْ نَسِيَ ؟! إنَّما كُنَّا نُشَبِّهُهُ بإبراهيم . قال : وسُئل عبد الله عن الأُمَّة، فقال: مُعَلِّم الخير، والقانت: المُطيع لله ورسوله(٢) .

وعن مسروق قال : ذُكِر عبد الله بن مسعود عند عبد الله بن عمرو فقال : ذاك رجلٌ لا أزال أُحِبُّه بعد ما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « استَقْرِئُوا القرآن من أربعةٍ : من عبد الله بن مسعود – فبَدَأَ به – وسالم مولى أبي حُذيفة ، وأُبَيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل »(٣). قال : لا أدري بَدَأَ بأُبَيٍّ أو بمعاذٍ .

وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ أخَذَ بيد معاذ وقال : « يا معاذ ، والله إنِّي لَأُحِبُّك ، والله إني لَأُحِبُّك ... » .

لله دَرُّه من سيِّد من سادات شباب الصحابة، له أسبقيَّتُهُ، وإيمانُه ويقينُه، على أن آلَقَ مزاياه وأعظمَ خصائصه ، كان فِقْهه ، وهو أَعْلَمُ الأُمَّة بالحلال والحرام كما شَهِدَ له الرسول ﷺ ، ويقول عمر : « لولا معاذ بن جبل لَهَلكَ عمر » . وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تحدَّثوا وفيهم معاذ بن جبل ، نظروا إليه هيبةً له ، لله درُّه .... كأنَّما كان يخرج من فمه نورٌ ولؤلؤ . بلغ منزلةً

(١) صحيح بمجموع طرقه : أخرجه ابن سعد في الطبقات ، وله شاهد عند ابن أبي شيبة وأبي نعيم والحاكم .

(٢) موقوف صحيح : أخرجه ابن جرير في التفسير ، وابن سعد في الطبقات ، والحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والطيالسي ، والنسائي في الفضائل .

عظيمة في العلم ، وفي إجلال المسلمين له ، أيام الرسول ﷺ وبعد مماته وهو شابٌّ ، فلقد مات معاذ في خلافة عمر ، ولم يُجاوز من العمر ثلاثًا وثلاثين سنةً أو ثمانية وعشرين سنة ، فأيّ علوّ هِمَّةٍ كان عند مقدام العلماء حتى يُحصِّل ما حصَّله في تسع سنوات .

ولله درُّ هذا الرَّبَّانيّ المشتاق إلى ربِّه وهو يُردِّد في السكرات : « اخْنُقْ خَنْقَك ، فوعِزَّتك إنِّي أُحِبُّك ، مرحبًا بالموتِ حبيبٍ جاء على فاقةٍ » .

مُصْعَب بن عُمَيْر الفاتح الأوَّل للمدينة ، والدَّاعية الشهيد :

نبراس الدُّعاة وإمام الفاتحين .. الفتى المُنعَّم الذي صاغَهُ الإسلام على يديه ، تقدَّم حين نادتِ المغارم ، وذهب إلى لقاء ربِّه قبل مجيء الغنائم ، اختاره الله شهيدًا بين يديْ رسول الله ﷺ بعد أن أسلم على يديه: أسيد بن حضيرالذي تنزَّلتِ الملائكةُ لتلاوتِهِ القرآن، وسعد بن معاذ الذي اهتزَّ لموتِهِ عرشُ الرحمن.. إنه مصعب غُرَّة فتيان قريش وأوفاهم بهاءً وجمالًا وشبابًا .. « أعْطَرُ أهْلِ مكَّةَ » حديثُ حِسانِ مكة ولؤلؤةُ نَدَواتِها ومجالِسِها ، وبَعْدَ الإسلام صار أُسطورةً من أساطير الإيمان والفداء ، قصة حياته شرفٌ لبني الإنسان جميعًا .

لاقَى ما لاقى مِن أُمِّه وقد كان فتاها المُدلَّل، هاجر إلى الحبشة. مصعب الذي كانت ثيابه كزهور الحديقة؛ نَضْرَةً وألَقًا وعِطرًا ، يرتدي بعد ذلك المُرقَّع البالي ، خرج من النّعمة الوارِفَة إلى شظف العيش والفاقة ، وأصبح الفتى المُتأنِّق المُعطر لا يُرى إلَّا مُرتديًا أخْشَنَ الثيابِ ، يأكُل يومًا ويجوع أيامًا ، ولكنَّ رُوحَهُ المُتأنِّقة بسموٍّ العقيدة، والمُتألِّقة بنور الله، جعلتْ منه إنسانًا يملأ العين إجلالًا، والأنفسَ رَوْعَةً .

اختاره رسول الله ﷺ لأعظم مهمَّةٍ في حينها ؛ أن يكون سفيره إلى المدينة ، يُفَقِّه الأنصار الذين آمنوا وبايعوا الرسول ﷺ عند العقبة ، ويفتح المدينة بالقرآن ، ويُعِدُّها ليوم الهجرة العظيم ، وقد كانت هذه السِّفارة أخطر قضايا الساعة ، وأُلقي ين يَدي مصعب بمصير الإسلام في المدينة التي ستكون

دار الهجرة، وحمل مصعبٌ الشابُّ- مصعبُ الخير- الأمانة، ونجح نجاحًا منقطع النظير ، نجاحًا هو له أهْلٌ ، وبه جديرٌ .

قال البراء : أوَّل مَنْ قَدِم علينا ، مصعبُ بن عمير وابنُ أُمِّ مكتوم ، ثم قَدِم علينا عمَّارُ بن ياسر وبلالٌ ، رضي الله عنهم . رواه البخاري .

في مِثْل هدوء البحر وقوّته ، وتهلُّل ضوء الفجر ووَدَاعَتِه ، انساب نورُ الإيمان على يد مصعبٍ إلى سادات الأنصار : أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة .. لله درُّه من شابٍّ يقود ويُسَيِّر جبال الإيمان ، ويكون في ميزان حسناته الأنصارُ من الأوس والخزرج .

ويشهد مصعب غزوة بدر لينال شرف البدريَّة .. وفي يوم أُحُدٍ كان حامل اللواء ، قال ابن سعد : « حَمَل مصعب بن عمير اللّواء يوم أُحد ، فلمَّا جال المسلمون ثبتَ به مصعب ، فأقبل ابنُ قمئة وهو فارس ، فضربَهُ على يده اليُمنى فقَطَعَها ، ومصعب يقول : ﴿ **وما محمدٌ إلَّا رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ وأخَذَ اللِّواءَ بيده اليسرى وحَنَا عليه، فضرب يده اليسرى فقَطَعَها، فحنا على اللواء وضمَّه بعَضُدَيْهِ إلى صدره وهو يقول : ﴿ **وما محمدٌ إلَّا رسولٌ قد خلتْ من قبله الرسل** ﴾ ثم حَمَل عليه الثالثة بالرُّمح فأنْفَذَهُ واندقَّ الرمحُ ، ووقع مصعبٌ ، وسقط اللواء .. ووقعَ مصعبٌ .. كوكبُ الشهداء ، ومن كان ذِكْرُه عِطرًا للحياة .

قال أبو وائل : عُدْنا خَبَّابًا فقال : هاجرْنا مع النبي ﷺ نُريد وجه الله ، فوقَع أجرُنا على الله ، فمنَّا مَنْ مضى لم يأْخُذ من أجره شيئًا ؛ منهم مصعب ابن عمير ، قُتل يوم أحد وتَرَك نَمِرةً ، فكُنَّا إذا غَطَّيْنا بها رأسَهُ بَدَتْ رِجْلاه ، وإذا غطيْنا رِجْلَيْه بَدَا رأسُه ، فأمَرَنَا رسول الله ﷺ أن نُغطِّي رأسَه ونَجْعل على رِجْليه شيئًا من إذْخِر، ومنَّا من أيْنَعَتْ له ثَمرتُهُ فهو يَهْدِبُها »[١][٢] .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ، والترمذي ، وأحمد ، وأبو داود ، وابن سعد في الطبقات .

(٢) يهدبها : يجتنيها .

وعن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه إبراهيم ، أن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - أُتِيَ بطعام - وكان صائمًا - فقال : قُتِل مصعب بن عمير ، وهو خيرٌ منِّي ، كُفِّن في بُرْدَة ؛ إن غُطِّي رأسُه بَدَتْ رجْلاه ، وإن غُطِّي رجلاه بَدَا رأسُه . وأراه قال : وقُتِل حمزة ، وهو خيرٌ مني .. ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسِط - أو قال : أُعْطِينا من الدُّنيا ما أُعطِينا - وقد خَشِينا أن تكون حسناتُنا عُجِّلَت لنا.ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام[1] .

يامصعبُ يا بنَ عُمَيْرْ
لا أعرِفُ مِن أيِّ الطرقاتِ أسِيرُ إليكْ
وأنت الفاتِحُ للطُّرقاتِ
لا أعرفُ مِن أيِّ الأنوارِ أُطِلُّ عليك
وأنت المُشرِقُ بالهالاتِ
لا أعرفُ من أيِّ الآياتِ أمد عليك
وأنت الفائِزُ بالآيات
يا جبلَ الرحمةِ والبَرَكاتْ
يا مصعبُ .. يا نَفْحَةَ هذا الدِّينْ
ومعراج الطُّهرِ إذا خالَطَ طُهْر القلبِ ووافاهُ الله
يا ظِلًّا مَدَّ مَداه
مُذْ آمَنَ أن الموتَ حَيَاهْ
لَيَّنتَ صخورَ الأرض .. ولَيَّنتَ صناديدَ الكُفْرِ
وأخْلَيْتَ الخيطَ الأبيض
من بينِ الخيط الأسودِ وأبَنْتَ هُداه
مِفتاحُ الحكمةِ عندك أسْبَقُ مِن مفتاح الجاه

---

(١) رواه البخاري .

وأحَبَّك مَنْ سَمِعَ بوجهِك
وأحبَّك مَن شاهَدَ وَجْهَك .. وتعلَّقَ في رؤياه
الأرضُ أحَبَّتْ خطْوَك فيها
فأحَبَّك بَدْر
وأحبَّك أُحُد
وأحَبَّتْ نَعْلَك كلُّ حَصَاةْ
فالوجهُ الفاتِحُ للإيمان دِيارَ الكُفرْ
الماهِدُ أرضَ رسول الله
قد رَضِيَ الله عليه
وأشرقَ ملءَ الكَوْنِ تُقاه
وإذا ما سَجَدَ القلبُ أطلَّ على الجنَّاتِ هُداه
يا مصعبُ يا بن عُمَيْرْ
كم ضاعتْ منك دُرُوبُ اللَّيْلِ
وضاعتْ منك ظُهورُ الخيل
وأُشْرِبتَ البهجةَ والرَّيْحانْ
مَنْ كان يظُنُّ القادِمَ مِنْ تاريخِ العِطْر
يُغَيِّر وجهَ الأرض
ويَغْسِلُ يَثْرِبَ بالقُرآنْ
أبقاكَ الله عزيزَ الجانب
رَيَّانَ الرَّأْي
مُضِيءَ الحُجَّةِ والبُرهانْ
ورسولُ الله الفوَّاح بحُبِّ الخيرْ
قد ألقَى بين يديكَ مصيرَ الأُمَّة
في زمن يَبتلِعُ الناسَ بنَهْمٍ كالطُّوفانِ

والدعوةُ بين يديْكَ تردُّ الرُّوحَ إلى الإنسان
الله عليك
وقد مَدَّ الخطو إليك « أُسيْد »
فعرضتَ النُّورَ عليه
« إنْ راقَكَ ما ندعوك إليه قَبِلْتَ »
وإنْ لم يُعجبكَ كَفَفْنا عنك
وفارَقْناك
وعرضتَ الرُّوحَ .. ورُوح القُدس
يَهزُّ القلبَ العاقرَ
ويبُثُّ الأَمَلَ الشاكِرَ
وارتجَّتْ أرضُ مدينتِكَ البِكْر بإسلامِ « أُسيْد »
في يَثْرِبَ كان الناسْ
أقْرَبَ للكفرِ من الإيمانِ
ويهودٌ كانت تمتلكُ السُّوقْ
والعربُ تُراهِنُ عمَّا ببطونِ النُّوقْ
وقَدِمتَ إليها تنفخُ فيها
فإذا بالطُّهْرِ الأوَّلِ يَنْبُتُ بنواحيها
وإذا بك تمتلكُ الصَّفْوَة
وتُغَلِّقُ سُبُلَ الشيطانِ
فغدا « ابن زُرارَةَ » من جُندِك .. وتلاه « أُسيد »
واكتملتْ كوكبةُ النورِ فآمن « سعدُ بنُ مُعاذ »
فغدا للحَقِّ فؤادٌ
وغدا للحقِّ يَدَان
وانحازَ الأوسُ إليك وعبد الأشْهَل

وانحازتْ دُورُ مدينتِكَ إليك
وصرتَ كبيرًا
ودخلتَ على القومِ دُخُولَ الصُّبحِ
يُميطُ الظُّلمةَ والبُهْتانْ
وكبارُ القوم تَدَاعوْا
قد دخلوا بالكفرِ عليك .. وهم قد خَرَجُوا بالإيمانْ
يا مصعب يا بن عُمَيْرْ
يا مَن غَيَّرتَ موازينَ المجدِ وكنتَ الحاملَ للميزانْ
يا واصل أرضِ الإنسان بنورِ الحقِّ المنَّانْ
فكنستَ الأرضَ مِن الرِّجسِ الكالِح فيها
وحملتَ من الحكمة ما لا يَقدِرُ بشرٌ أن يَحمِلَ مِثْلَه
وحملتَ لواءَ النُّورِ ببَدْرٍ
وقطعتَ شرايينَ أُخوَّتِكَ الأُولى
وشددتَ إسارَ أخيك
وكانت عُروتُك الوثقى
بالله أشدَّ وأبقَى
وأَجَلْتَ النورَ بيثربَ ووَصلْتَ الأنفُسَ والأرحامْ
وكُنتَ الضوءَ القادِمَ .. بعد سنينِ الإظلامْ
يا مصعبُ يا بن عُمَيْر
يا قَدَمَ الخير
يا فاتِحَ أرضِ الله بسِرِّ التوحيدِ الناصِع
قد كانت يثربُ ظُلُماتٍ في بحرٍ لُجِّيٍّ .. يَغشاهُ الموج
ومِنْ فوقِ الموجِ سحابٌ
فَنَثَرْتَ على الناسِ الآيَ

وأحييتَ صروحَ الأركانْ
يا مصعبُ يا بن عُمَيْر
أخجَلَني فيك الحرفُ .. تقاصَرَ دونك
لا تَسَعُكَ هذي الأوزانْ
أسترِقُ السَّمْعَ .. أُناشِدُك عبيرَ الرِّضوانْ
قد صاحتْ في أُحُدٍ « حَمْنَةُ »[1] واستلَّتْ فيك الأحزان
وتخضَّل حُزنُ أميرتِك
فواساها المختارُ بفَيْضٍ من طلِّ كرامتِهِ الدَّافِقْ
يا نِعمَ الزَّوج
و « إنَّ الزَّوْجَ لَبِمَكَانْ »
يا مصعبُ يا بن عُمَيْر
شدُّوك بثوبِكَ في أُحُدٍ
فتقاصَرَ عنكَ .. وتَقْصُرُ عنك ثيابُ الأرضِ
فأنت الناسِجُ للإنسان ثيابَ الحكمةِ يا لُقْمانْ
يا صفوةَ خيرِ الخَلْقِ
مِن بين يديْهِ خرجتَ صباحًا
ونزلتَ على الأرضِ صلاةً
وملأتَ الأرضَ فَلاحًا
ورسولُ الله أحَبَّك حُبًّا ما كان لغيرك
فاختارك بين يديْهِ شهيدًا

---

(١) « حمنة بنت جحش » زوجُ مصعب ، حين حملوا إليها نبأ استشهاد خالها حمزة وأخيها عبد الله بن جحش ، حمدتْ واسترجعتْ ، وحين حمل إليها استشهاد زوجها مصعب ، بكت وصاحت ، فقال رسول الله ﷺ : « دَعُوها ؛ فإنَّ الزَّوْجَ من زوْجِهِ لَبِمَكَانٍ » .

يا قمرًا في عينيْهِ تألق في عِلِّيين
تعلَّق في صدرِ المختارِ وِشاحا
يا مصعب يا بن عُمير
يا قَدَمَ الخير
هل تَقبلُ أن أخدمَ – في الله – جوادَكْ
هل تقبلُ أن ألمسَ سيفَكَ كي أذكْرَ في الله جهادَكْ
هل تقبلُ أن أُصبِحَ يومًا
في موكبِ مَنْ بايَعَك .. وجاهَدَ بين يديْكْ
هل تقبلُ أن أمسحَ وجهي بغُبارٍ في قدميْكْ
هل تقبلْ
فاقبَلْنِي
يا مَن أحببتُك
وتقبَّل منك الله(١)

زيد بن ثابت : جامِع القرآن ، رضي الله عنه :

عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : جمعَ القرآن على عهد النبي ﷺ أربعةٌ كلُّهم من الأنصار : أُبيٌّ،ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد ، وزيد بن ثابت . قلت لأنسٍ : مَنْ أبو زيد ؟ قال : أحَدُ عُمُومتي(٢) .

«حين تُنثر زهور التكريم على ذكرى المبارَكين ، الذين يرجع إليهم فَضْلُ جمْع القرآن وترتيبِهِ وحفظِهِ ، فإن حظَّ زيد بن ثابت من تلك الزهور لَحَظٌّ عظيمٌ ؛

(١) قصيدة « مصعب بن عمير » ، من ديوان « رسالة إلى سيف الله المسلول » ، لمحمود خليل ، من صـ ٥٣ – ٥٩ ، دار الصحوة .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وأبو يعلى والطيالسي ، والنسائي في الفضائل .

فلقد ادَّخرتْ له المقاديرُ شرفَ مهمَّةٍ من أنبل المهامِّ في تاريخ الإسلام كلِّه ، مهمَّة جَمْع القرآن الكريم وهو شابٌّ .

عن زيد بن ثابت قال : أرْسَلَ إليَّ أبو بكرٍ الصدِّيقُ مَقْتَلَ أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكرٍ رضي الله عنه : إن عمر أتاني فقال : إن القتْل قد استحرَّ يوم اليمامة بقُراء القرآن ، وإني أخشى إن استحرَّ القتلُ بالقُرَّاء بالمَوَاطِن فيذهب كثيرٌ من القرآن ، وإني أرى أن تأمُر بجمْع القرآن . قلتُ لعمر : كيف نفعلُ شيئًا لم يَفعلْه رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا والله خيرٌ . فلم يَزَل عمر يُراجعني ، حتى شرحَ الله صدري لذلك ، ورأيتُ في ذلك ، الذي رأى عمرُ . قال زيد : قال أبو بكر : إنَّك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نَتهِمُك، وقد كنتَ تكتُبُ الوحيَ لرسول الله ﷺ، فتَتَبَّعِ القرآنَ فاجْمَعْهُ. فوالله لو كلَّفوني نَقْلَ جبلٍ من الجبال ، ما كان أثْقَلَ عليَّ ممَّا أمَرَني به من جمع القرآن . قلتُ : كيف تفعلون شيئًا لم يَفعلْه رسولُ الله ﷺ ؟ قال : هُو والله خيرٌ . فلم يَزَل أبو بكر يُراجعني ، حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدرَ أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما ، فتَتَبَّعْتُ القرآن أجْمَعُهُ من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال ، حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي خُزيْمة الأنصاري ، لم أجِدْها مع أحدٍ غيره : ﴿ **لقد جاءكم رسولٌ من أنْفُسِكُمْ عزيزٌ عليه ما عَنتُّم** ﴾ حتى خاتمة براءة ، فكانت الصُّحُف عند أبي بكرٍ حتى توفَّاه الله ، ثم عند عمر حياتَهُ ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه[1] .

ومثْل ما حَدَث مع أبي بكرٍ ، حدَثَ مع عثمان : عن ابن شهاب ، أن أنس بن مالك حدَّثه ، أن حذيفة بن اليمان قَدِم على عثمان وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفْزَعَ حُذيفةَ اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفةُ لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأُمَّة قبل أن يختلفوا

(١) رواه البخاري والترمذي وأحمد وأبو يعلى والطيالسي .

في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمانُ إلى حفصة ، أن أرْسِلِي إلينا بالصُّحُف نَنْسَخُها في المصاحف ثم نردُّها إليك . فأرسلتْ بها حفصة إلى عثمان ، فأمَرَ زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام ؛ فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرَّهْط القُرشِيِّين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بن ثابت في شيءٍ من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنَّما نزلَ بلسانهم . ففَعَلُوا ، حتى إذا نَسَخُوا الصُّحُف في المصاحف، ردَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصة، فأرسَلَ إلى كلِّ أُفُقٍ بمصْحَفٍ ممَّا نسخُوا ، وأمَرَ بما سواه من القرآن في كلّ صحيفةٍ أو مصحفٍ ؛ أن يُحْرَق[1] .

لله دَرُّك من إمامٍ .. قال ابن عباس : لقد عَلِمَ المحفوظون من أصحاب محمدٍ ﷺ ، أن زيد بن ثابت من الراسخين في العِلْم .

وانظر إلى علوّ همَّته : عن زيد بن ثابت قال : أمرني رسولُ الله ﷺ أن أتعلَّم له كتاب يهود ، فقال : « إني والله ما آمَنُ يهودَ على كتاب » قال : فما مرَّ بي نصف شهر حتى تعلَّمْتُهُ له . قال : فلمَّا تعلَّمْتُهُ كان إذا كتبَ إلى يهود ؛ كتبتُ إليهم ، وإذا كتبوا إليه ، قرأتُ له كتابهم »[2] .

عن عمَّار بن أبي عمّار قال : لمَّا مات زيد بن ثابت ، قَعَدْنا إلى ابن عباس في ظلِّ القصر فقال : هكذا ذَهابُ العلم ، لقد دُفِن اليومَ عِلْمٌ كثيرٌ .

زُهْرَةُ بنُ الحَويَّة التميمي ، فاتِحُ ما بين القادسيَّة والمدائن رضي الله عنه :

الصحابي الجليل الذي تولَّى قيادة الجيوش في عهد عمر ، وبذلَ جهده

---

(١) رواه البخاري .

(٢) حسن لغيره : رواه الترمذي ، وأبو داود ، وابن سعد في الطبقات ، ورواه البخاري معلَّقًا ، وله شاهد عند ابن سعد والحاكم فيه : « هل تستطيع أن تَعَلَّم كتاب العبرانية أو السريانية فقلت : نعم . قال : فتعلَّمتُها في سبع عشرة ليلة » .

في مُحاربة المرتدِّين من أهل البحرين حتى عادوا إلى الإسلام .

ويذكُر التاريخ لزُهرةَ نجاحَهُ في حماية قوات المسلمين ، عند حركتها من منطقةِ حَشْدِها في « شراف » حتى وصولها للقادسية . وعسكرتْ قواتُه حتى وصلتْ قوات سعد رضي الله عنه ، فتقدَّم زهرةُ على رأس المقدِّمة حتى نزل القادسية .

وكان في «العُذَيْب» جنديٌّ فارسيٌّ يستطلع حركات أرْتَال المسلمين، فخرجَ راكِضًا نحو القادسية ليُخبِر الفُرس عن قوة المسلمين ، فلمَّا عَلِمَ زُهرةُ بأمره ، اتَّبَعَهُ وقَتَلَه ، بعد أن عجزَ أصحابُ زهرة عن إلقاء القبض عليه[1] .

ووجدَ زهرةُ في « العُذَيْب » رماحًا ونُشَّابًا وأسْقاطًا من جلودٍ وغيرها ، فانتفَعَ بها المسلمون ، كما انتفعوا بالأموال الكثيرة التي حصلتْ عليها سريَّةٌ بعثها زُهرةُ للغارة على الحِيرة ، وبذلك انتعش المسلمون بهذه الغنائم .

زُهرةُ قائد الميسرة في القادسية :

لما نشبَ القتال بين الفرس والمسلمين ، اندمجت قوات المقدمة التي كان يقودها زُهرة بالقطاعات المقاتلة الأخرى، لذلك سلَّم سعد قيادة الميسرة لزُهرة، فكان زهرة قائدًا للميسرة في معركة القادسية الحاسمة[2] ، وكان لبلاء زهرة وثَبَاتِهِ أثر كبير في انتصار المسلمين على الفرس في تلك المعركة ، لذلك كان من بين خمسة وعشرين بطلًا فضَّلهم سعد في العطاء ؛ لبلائهم في القادسية بلاءً مشرِّفًا .

زهرة قاتِل الجالينوس أحد ملوك الفرس :

ولمَّا انكشف أهل فارس ، أمر سعدٌ زهرة بمطاردتهم ، فخرج على رأس المقدمة في آثارهم، فأدرك الجالينوس يحمي انسحاب قوات فارس عند«الخرَّارة»

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ١٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٤٣ .

فدَهَمَه زهرةُ ومن معه ، فحملَ على جالينوس وهو لا يعرفه، فطَاعَنَهُ ، فاختلفا ضربتيْن ثم قَتَله زهرةُ ، وانهزم عن جالينوس أصحابُه ، وأخذ زهرةُ سَلَبَهُ ، وكان عليه يَارَاقانِ - أساوِر تُلبس في العَضُد - وقُلْبان قُرْطان ، وإن حصان زهرة يومئذٍ ما عِنانه إلَّا حبل مضفور ، وما حزامه إلَّا شعر منسوج . وقتل زهرة في هذه المطاردة مَنْ وَجَد من الفُلُول بين الخَّرارة إلى السيلحين ، ثم أمْعَنَ حتى بلغ « النجف » ، بينما كان الهرمزان يجدُّ في فراره . « وحين عاد زهرة من المطاردة التي خرج فيها ، كان قد تدرَّع بما كان على جالينوس ، فعرفه الأسرى الذين كانوا عند سعد وقالوا : هذا سَلَبُ جالينوس . فقال له سعد ، هل أعانك عليه أحد ؟ قال : نعم . قال : مَنْ ؟ قال : الله . وكان زهرة يومئذٍ شابًّا له ذُؤَابَةٌ ، وقد سُوِّد في الجاهلية وحَسُن بلاؤه في الإسلام ، وغضبَ سعدٌ أن تسرَّع زهرة فلبس ما كان على جالينوس ، واستكثره عليه ، فنَزَعَهُ عنه ، وقال : ألا انتظرت إذني ؟ »[1] . وكتب سعد إلى عمر بما كان من شأن زهرة ، وكتب زهرة في هذا الشأن إلى عمر ، فكتب عمر بن الخطاب إلى سعد في شأن زهرة : « أنا أعلمُ بزُهرةَ منك ، وإن زهرة لم يكن ليُغَيِّب من سَلَبٍ سَلَبَهُ شيئًا ، فإن كان الذي سعى به إليك كاذبًا ، فلقاه الله مثل زهرة في عَضُدَيْهِ يَارَاقانِ ، تَعْمِدُ إلى مِثْل زهرة وقد صَلِي بمثْل ما صلَي به ، وقد بقي عليك من حَرْبِك ما بقَي ، تكسرُ قرنَهُ وتُفسد قلبه ؟! أمْضِ له سَلَبَهُ وفَضِّلْه على أصحابه عند العطاء بخمسمائة، وإني قد نَفَلْتُ كلَّ مَنْ قَتَل رجلًا، سَلَبَهُ»[2] . وردَّ سعد إلى زهرة ما كان نَزَعَهُ منه ، فباعه بسبعين ألف درهم .

الفاتح :

ولمَّا فرغَ سعد من أمر القادسية ، أقام بها بعد الفتح شهرين ، وكاتب

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٦٧ ، ٣ / ٥٦٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥٨٤ .

عمر فيما يفعل ، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن ، فجعل سعد على المقدِّمة زُهرة ، وأمره بالتقدُّم ، فسار زهرةُ حتى نزل الكوفة ، وانتظر هناك حتى نزل عليه عبدُ الله بن المُعتَم وشُرحبيل بن السِّمْط ، فارتحل زهرةُ حين نزلا عليه نحو المدائن ، فلمَّا انتهى إلى « بُرْس » لَقِيَه جمع من الفرس ، فهزمهم وقتل هو قائدَهم « بصبهري » بطعنة من رمحه[١] .

ومكث زهرةُ ريثما عَقَدَ له « بسطام » - دِهْقَان « بُرْس » - الجُسُورَ ، وأتاه بأخبار الفرس الذين حشدوا قواتهم في «بابل» ، فكتب زهرة إلى سعد بالخبر ، فارتحلَ سعد بالناس إلى « برس » ،ثم قدم زهرة إلى بابل، وتقدَّم جيش المسلمين من ورائه ، ولمَّا أنجزَ المسلمون حشْد قواتهم ببابل ، قاتلوا القوات الفارسيَّة هناك ، فلم يتمكَّن المدافعون عن بابل من حمايتها أمام العاصفة المُدمِّرة من زهرة وقواته ، ونزلوا على « الفيرزان » وقواته ببابل «فهزموهم في أسرع من لَفْت الرداء»[٢]، وقدَّم سعد زُهرةَ إلى «بَهرْسير»، فتلقاه دهقان «ساباط»، وصالحَهُ على الجزية . وفي طريقه إلى المدائن ، قضى زهرةُ على كتيبةٍ للفرس ، ثم انتظر تجمُّع قوات المسلمين حول « بهرسير » ؛ الواقعة على ضفَّة دجلة اليمنى ، مقابل « المدائن » التي تقع على ضفَّة النهر اليسرى ، فحاصَرَها سعدٌ وضَرَبها بالمنجنيقات ، ودبَّ إليها جنوده بالدَّبَّابات ، وكان على زهرة دِرْعٌ مفصومة ، فقيل له : « لو أمرتَ بهذا الفصم فيُسْرد ؟ فقال : ولم ؟ فقالوا : نخاف عليك منه. فقال: إني لكريمٌ على الله إن تَرَك سهمُ فارس الجند كلَّه، ثم أتاني من هذا الفصم حتى يثبت فيَّ. فكان أوَّل رجل من المسلمين أُصيب يومئذٍ بنُشَّابَةٍ، فثبتتْ فيه من ذلك الفصم، فقال بعضهم: انزعوها عنه. فقال: دعوني، فإن نفسي معي ما دامت فيَّ، لعلِّي أن أُصيب منهم بطعنة أو ضربة. فمضى إلى العدو[٣]».

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١١٣ - ١١٤ ، والكامل لابن الأثير ٢ / ١٩٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٢ / ١١٤ ، وابن الأثير ١٩٦/٢ .

(٣) تاريخ الطبري ١١٧/٣- ١١٨، وابن الأثير ٢ / ١٩٥ .

وخرج قائد الجيش الفارسي شهريار وفي يده رُمْحُه مُعتَقِلًا سيفه ، فقال وملؤه الكِبْر : « ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إليَّ حتى أُنكِّل به ؟ » . فناداه زهرة:« لقد أردت أن أُبارزك ، فأمَّا إذ سمعتُ قولك ، فإني لا أُخرج إليك إلَّا عبدًا ، فإن أقمتَ له قَتَلَك إن شاء الله ببَغْيك ، وإن فررتَ منه فإنما فررت من عبد » . فخرج أبو نبتة بن جعشم الأعرجيُّ إليه فقتله .

لله درُّ زهرة من بطلٍ، مضى نحو المجوس في معركة بهرسير– المدينة الدنيا وأُولى المدائن السبع التي تتكون منها المدائن – والنُّشَّاب في جسمه ، فضرب بسيفه سيِّدًا من أكبر ساداتهم من أهل « إصطخر » فقتله وانكشف أصحابُه، وسقطت بهرسير بعد طول حصارٍ، ودخل المسلمون فاتحين وشهد زهرةُ فتح المدائن ، وكان على رأس قوةٍ لمُطاردة الفرس بعد فتح المدائن ، فأدرك جماعةً من الفرس على جسر « النهروان » ، فازدحموا عليه ، فوقع منهم بغلٌ في الماء ، فعجلوا وكبُّوا عليه ، فقال بعض المسلمين : « إن لهذا البغل لَشأنًا » . فجالَدَهم المسلمون عليه حتى أخذوه ، وفيه حِلْية كسرى وثيابه وخرزاته ووشاحُه ودِرْعه التي فيها الجوهر(١) .

رضي الله عن زهرة «فقد كان من ألمع قادة الفتح الإسلامي عندما يتولَّى قيادة المقدِّمات وقوات المطاردة ، فقد نجح في قيادته هذين الواجبيْن نجاحًا باهرًا يدعو إلى الإعجاب الشديد . إن هذين الواجبين يحتاجان إلى قائدٍ شجاع ، وكان زهرة يتحلَّى بشجاعة بطوليَّةٍ نادرةٍ ، تجعله في مَصَافِّ أبطال الحروب في التاريخ .

كان مندفعًا يتحمَّل المشاقَّ ولا يكلّ من التعب ، وأعانه على ذلك شبابُهُ وحيويَّته وصبرُهُ ، إن زهرة قائد عبقريٌّ بحقٍّ ، أثبت جدارةً فائقة في قيادة الرجال خلال فترةٍ قصيرة من أعماله العسكرية ، ولست أشكُّ في أن هذه الفترة

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٩٩ ، وتاريخ الطبري ١٢٦/٣ .

لو طالتْ ، لَنَافسَ زهرةُ في شهرته المثنَّى بن حارثة الشيباني وخالد بن الوليد المخزوميَّ »[(١)] .

ولمَّا عاث شبيبٌ الخارجيُّ في الأرض فسادًا ، أشار زهرةُ على الحجَّاج فقال له : « إنك إنما تبعثُ إليهم الناس منقطعين ، فاسْتَنْفِرِ الناس إليهم كافَّة ، فَلْيَنْفِر إليهم الناسُ كافَّةً ، وابعثْ عليهم شجاعًا مُجرِّبًا للحرب ، ممَّن يرى الفرار هضمًا وعارًا ، والصبر مجدًا وكرمًا » . فقال الحجاج : « جزاك الله عن الإسلام وأهله في أوَّل الإسلام خيرًا ، وجزاك الله عن الإسلام في آخر الإسلام خيرًا » .

وقال زهرة لعتاب بن ورقاء قائد أهل الكوفة : « إني أرجو أن يكون الله قد أهدى إلينا الشهادة عند فناء أعمارنا » . وكان له ما أراد ، ووقف قائدُ الخوارج شبيبٌ على جثمانه وقال له : « لَرُبَّ يوم من أيامِ المسلمين ، قد حَسُن فيه بلاؤك وعظُم فيه غَناؤك ، ولَرُبَّ خيل للمشركين قد هزمْتَها ، وسريَّةٍ لهم قد أغرتَها ، وقريةٍ من قُراهم قد افتتحْتَها »[(٢)] . والفضل ما شهدتْ به الأعداءُ .

محمد بن القاسم الثقفي : فاتح السِّنْد والهند وعمره سبعة عشر عامًا :

أهدى ملكُ جزيرة الياقوت - سيلان - إلى الحجاج نسوةً مسلمات وُلِدْنَ في بلاده ومات آباؤهن وكانوا تجارًا ، فعَرَض للسفينة التي كُنَّ فيها قومٌ من قراصنة « الديْبُل » ، وأخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأةٌ منهنَّ - وكانت من بني يربوع -: « يا حجاج ».وبَلَغَ الحجاج ذلك ، فقال : « يا لبَّيْكِ » . فأرسل إلى « داهر » ملك السند يسأله تخلية النسوة ؛ فقال : « إنما أخذَهُنَّ لصوصٌ لا أقدر عليهم » . فأغزى الحجاجُ محمدَ بن القاسم الثقفي ثغر السند ، فتجهز محمد بكلِّ ما احتاج إليه ، ثم سار من « مكران » ووِجْهَتُهم « الديبل »

(١) قادة فتح العراق والجزيرة صـ ٣١٦ - ٣١٨ للواء الركن محمود شيت خطَّاب .

(٢) تاريخ الطبري ٥/٨٤- ٩١، والكامل لابن الأثير ٤/١٦٢- ١٦٤، والإصابة ١/٥٣٤ .

في اثني عشر ألفًا من جند الشام والعراق وثلاثة آلاف بعيرٍ تحمل متاعهم . أتى محمد «فنزبور» ففتحها ، ثم أتى «أرمائيل » ففتحها ، وقدِم «الديبل» في يوم جمعةٍ، فوافتْه سفنُه هناك، فخَنْدَقَ حين نزل «الديبل» وأنْزَلَ الناس منازلهم ونَصَبَ منجنيقًا يقال له : العروس ، الذي كان يعمل لتشغيله خمسمائة من الرجال ذوي الكفاءة ، فدك بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر «البد» ، وحاصر محمد «الديبل» وقاتل حُماتها بشدَّة ، فخرجوا إليه ، ولكنَّه هزمهم حتى ردَّهم إلى البلد ، ثم أمر بالسلالم فنُصبتْ وصَعِد عليها الرجال ، وكان أوَّلهم صعودًا رجل من بني مراد من الكوفة، وفُتحتِ المدينة عَنْوَةً، وهربَ ملكُها «داهر» وأنزل فيها محمدٌ أربعة آلاف من المسلمين وبنى عليها جامعها ، فكان أول جامع في هذه المنطقة ، وسار محمد إلى « النيرون » فصالحَهُ أهلُها وبعثوا إليه بالميرة ، وسار محمد وجَعَل لا يمرُّ بمدينةٍ إلَّا فَتَحَها ، وصالحه أهل « سربيدس » فَفَرضَ عليهم الخراج ، وسار عنهم إلى «سهبان» ففتحها ، وصالحه أهل «سدوستان» وفَرَض عليها الخراج . وعَبَر محمدٌ نهر «مهران» ممَّا يلي بلاد المَلِك «راسل» - ملك «قصة» من الهند - على جسْر عَقَدَهُ ، و «داهر» مُستخِفٌ به لاهٍ عنه ، ولقِيَهُ محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفِيَلَة ، فاشتدَّ القتَال بشكلٍ لم يُسمع بمثْله ، وترجَّل داهر وقاتَلَ حتى قُتل عند المساء ، فانهزم أصحابُهُ ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ، وكان قاتل داهر - هو القاسم بن ثعلبة بن عبد الله الطائي - يترنَّم ويقول :

الخيْلُ تشهدُ يومَ داهر والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمدِ
أنِّي فرجتُ الجَمْعَ غَيْر مُعَرِّدٍ[1] ... حتى علوتُ عظيمَهم بِمُهَنَّدِ
فتركتُهُ تحت العجَاجِ مُجنْدَلًا ... مُتعفِّرَ الخدَّيْنِ غَيْرَ مُوَسَّدِ

فلما قُتل داهر ، غلب محمدٌ على بلاد السند ، ففتح «رأور» عَنْوةً ، وكان

---

(١) معرد : عرَّد الرجلُ عن الطريق ، إذا انحرفَ عنه .

بها امرأة داهر «راني باي» فحرقتْ نفسها وجواريها وجميع ما لها ، وتقدَّم المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرقين حتى بلغوا «برهمنآباد» وكان بها المنهزمون من أصحاب داهر ، ففتَحها محمد وقتل بها بشرًا كثيرًا وخرَّبها .

وسار محمد إلى « ساوندري » فصالَحَهُ أهلُها وأسلموا بعد ذلك ، ثم صالَحَ أهل « بسمد » ، وسار عنها إلى « الرور » - وهي من مدائن السند تقع على جبل - فحاصرها شهورًا ، ثم فتحها صُلحًا ووضع عليهم الخراج وبنى بها مسجدًا ، ثم سار إلى «السّكّة» ففتحها ، ثم عبر نهر «بياس» - رافد نهر السند - إلى مدينة «المُلتان» أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه ، بها صنم يُعظِّمه الهنود ، وتحجُّ إليه من أقصى بُلْدانها ، ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده فامتنعت عليه شهورًا ، وقاتله أهلُها فانهزموا ، فحَصَرهم ، فأتاه رجل مستأمنٌ دلَّه على مدخل الماء الذي يشرب منه السكان ، فقَطَعَه عليهم ، فنزلوا على حُكمه ، فقتل محمد المقاتلة وسبى الذُّرِّيَّة ، وسبى سَدَنَة «البد» وهم ستة آلاف ، وأصاب مالًا كثيرًا جمعه في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع ، فسُمِّيتِ الملتان «فرْج[1] بيت الذهب» وعظُمتْ فتوح محمد، وكثرتْ غنائمُهُ من الأموال ، حتى قال الحجاج : « شفيْنا غيظنا ، وأدركْنا ثأرَنا ، وازددْنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر »[2] .

لقد أنْجَزَ محمدٌ هذا الفتح كلَّه في الفترة ما بين تسع وثمانين الهجرية ، وأربع وتسعين الهجرية .

وفتح محمدٌ «الرور» و «النعرور» ووجَّه جيشًا إلى «البيلمان» ففتحوها صُلحًا ، وصالحه أهل «سرشت» ، ثم أتى محمد «الكيرج» ، فخرج إليه «دوهر»

---

(١) الفرج : الثغر .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري صـ ٤٢٧ ، والكامل لابن الأثير ٢٠٦/٤ ، ومقدمة ابن خلدون ٦٠/٣-٦١ .

مَلِكُ تلك المنطقة ، فقاتله محمدٌ ، وانهزم دوهر وهرب . وقيل : بل قُتل فنزل أهل المدينة على حُكم محمد ، فقتَل وسَبَى .

وبينما كان محمد ينتقل من نصر إلى نصر ، ويستَعدُّ لفتح مملكة «قنوح» أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتدُّ من السند إلى البنغال ، وجهَّز جيشًا عدَّته عشرة آلاف فارس ؛ لضمِّ مملكة الهند الشمالية وعاصمتها «قنوح» ، عُزل محمد بن القاسم وحُمِل مقيَّدًا إلى العراق ، فقال محمد متمثِّلًا :

أضاعوني وأيّ فتًى أضاعوا ليومِ كَرِيهةٍ وسَدادِ ثَغْرِ

فبكى أهل السند والهند - الذين دخلوا في الإسلام - محمدًا ، فلمَّا وَصَل إلى العراق حَبَسَه صالحُ بن عبد الرحمن ، بواسط ، فقال محمد :

فلَئِنْ ثَوَيْتُ بِوَاسِطٍ وبأَرضِها رَهْن الحديدِ مُكَبَّلًا مَغْلُولَا
فَلَرُبّ فِتْيَة فارس قد رُعْتُها ولَرُبّ قرنٍ قد تركتُ قَتِيلَا

وكان محمد يهتف في أعماق سجنه :

أَتَنْسى بنو مروان سمْعي وطاعتي وإنِّي على ما فاتني لَصَبُورُ
فتحتُ لهم ما بين «سابور» بالقَنا إلى الهند منهم زاحِفٌ ومُغِيرُ
فتحتُ لهم ما بين «جُرجان» بالقنا إلى الصين ألقى مرَّةً وأُغِيرُ

وعُذِّب محمد ومات من العذاب في سجنه .

رَحَل الضخم الفَذُّ ، القائد الذي سارت بذكْره الرُّكبان ولم يكن له نظير في عصره .. الشاب الذي فتح السند والهند وعمره سبع عشرة سنة .

قال يزيد بن الأعجم :

ساسَ الجيوشَ لسبع عشرة حِجَّةً ولِدَاتُهُ عن ذاك في أشْغالِ
فغدتْ بِهِمْ أهواؤهم وسَمَتْ به هِمَمُ الملوك وسَوْرَةُ الأبطالِ[1]

---

(١) انظر محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند ، للواء الركن محمود شيت خطاب - دار قتيبة .

وقال حمزة الحنفي :

إن المروءة والسَّماحةَ والنَّدَى   لمحمدِ بن القاسم بنِ محمدِ
ساسَ الجيوشَ لسبع عشْرَةَ حِجَّةً   يا قُربَ ذلك سُؤْدُدًا من مولدِ

رحم الله محمدًا على بلائه الرائع في فتح السند والهند ، فآثاره لن تموت أبدًا ، وأعماله المجيدة باقية أبد الدهر ، وسيبقى اسمه رمزًا للجهاد الصادق والتضحية الفذة والصبر الجميل وعلو همة الشباب .

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، ذو التسعة عشر عامًا ، العابد الربَّاني :

ولد سنة ٨٢ هـ ، ومات سنة ١٠١ هـ ، وهو في التاسعة عشرة من عمره ؛ مات شابًّا في زهرة شبابه ، زهرة نَضرة لم تعرف آثام الحياة ، ماءً صافيًا يتدفَّق حكمةً وزُهْدًا .

وينشأُ ناشئ الفتيانِ منَّا   على ما كان عوَّده أبوه

نِعْمَ الفتى المكتهل، الذي كان قائدًا مع أبيه لأُمَّةٍ انحرفت عن السبيل ، كان عونًا لأبيه ولما يتجاوز السادسة عشرة . كان رحمه الله ابن أُمِّ ولد ، وقد أُعْجب به والده أيَّما إعجاب .

قال ابن رجب الحنبلي : « لقد كان رحمه الله مع حَدَاثةِ سِنِّه ؛ مجتهدًا في العبادة ، ومع قُدْرته على الدنيا وتمكُّنه منها ؛ راغبًا مُؤْثرًا للزهادة . فعسى الله أن يجعل في سماع أخباره لأحد من أبناء جنْسِهِ أُسْوة ؛ لعلّ أحدًا كريمًا من أبناء الدنيا تأخذه بذلك حميَّة على نفسه ونخوة . وأيضًا ففي ذكْر مثل أخبار هذا السيد الجليل مع سِنِّه ؛ توبيخ لمن جاوز سنّه وهو بطال ، ولمن كان بعيدًا عن أسباب الدنيا وهو إليها ميَّال »[1] .

روى الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء عن بعض مشيخة أهل الشام قال :

---

(١) سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لابن رجب الحنبلي صـ ٢٨ ، ٢٩ - دار ابن حزم .

كنا نرى أن عمر بن عبد العزيز إنما أدخله في العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك .

وروى الإمام أبو عُبيد القاسم بن سلام بسنده في كتاب «فضائل القرآن»، عن عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان - وهو ابن أخي عمر بن عبد العزيز - قال : وفَدْت إلى سليمان بن عبد الملك ، ومعنا عمر بن عبد العزيز ، فنزلتُ على ابنه عبد الملك ، وهو عَزَبٌ ، فكنتُ معه في بيت ، فصلَّينا العشاء ، وأوىٰ كلُّ رجل منا إلى فراشه ، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه ، ثم قام يصلِّي ، حتى ذهب بي النوم ، فاستيقظت فإذا هو في هذه الآية : ﴿ **أفرأيت إنْ متَّعْناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يُوعَدون ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتَّعُون** ﴾[الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٦]. فيبكي ، ثم يرجع إليها ، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك ، حتى قلتُ : سيقتله البكاء. فلما رأيتُ ذلك قلت: لا إله إلا الله والحمد لله، كالمستيقظ من النوم، لأقطع ذلك عليه، فلمّا سمعني سكت فلم أسمع له حسًّا ، رحمه الله .

وفي كتاب الدورقي « مناقب عمر بن عبد العزيز » : أن عمر بن عبد العزيز جمع الناس واستشارهم في ردِّ مظالم الحجاج ، فكان كلَّما استشار رجلًا قال له : يا أمير المؤمنين ، ذاك أمر كان في غير سلطانك ولا ولايتك . فكان كلَّما قال له رجل ذلك أقامه ، حتى خلص بابنه عبد الملك ، فقال له ابنه عبد الملك : يا أبهْ ما من رجل استطاع أن يردَّ مظالم الحجاج إن لم يردّها أن يُشركه فيها . فقال عمر : لولا أنك ابني لقلْتُ : إنك أَفْقَهُ الناس .

وفي رواية : قال عبد الملك : أرى أن تردَّها ، فإن لم تفعل كنتَ شريكًا لمن أخذها .

وعن ميمون بن مهران قال : دخلتُ على عبد الملك ، فحضر طعامه فأُتي بقَلْيَة مدنية وهي عظام اللحم ، ثم أُتي بثريدةٍ قد مُلئت خبزًا وشحمًا ، ثم أُتي بزبدٍ وتمرٍ . فقلتُ : لو كلَّمت أمير المؤمنين يخصُّك منه بخاصَّةٍ.فقال :

إني لأرجو أن يكون أوفى حظًّا عند الله من ذلك . فقلت في نفسي : أنت لأبيك .

ودخل عليه مرة أخرى ، فإذا بين يديه مائدة عليها ثلاثة أرغفة وقصعة فيها خل وزيت .

حِلْمُه وكَظْمه للغيظ :

عن إسماعيل بن أبي الحكم قال : غضب عمر بن عبد العزيز يومًا فاشتدَّ غضبُه – وكان فيه حِدَّة – وعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز حاضر ، فلمَّا سكن غضبه ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنت في قدر نعمة الله عليك فهو موضعك الذي وضعك الله به ، وما ولَّاك من أمر عباده ، يبلغُ بك الغضب ما أرى ؟! قال : كيف قلت : فأعاد عليه كلامه ؛ فقال له عمر : أما تغضب يا عبد الملك ؟ قال : ما تُغني سِعَة جوفي إن لم أردَّ فيه الغضب ، حتى لا يظهر منه شيءٌ أكرهه . قال : وكان له بُطين[1] رحمه الله تعالى .

وعند الدورقي أنه قال لأبيه : لا والذي أكرمك بما أكرمك به ، إن مَلأني غضبٌ قط . والمعنى : ما ملأني الغضب قطّ .

وعند ابن أبي الدنيا : أن عمر بن عبد العزيز أمر غلامه بأمرٍ ، فغضب عمر، فقال له عبد الملك: يا أبتاه، وما هذا الغضب والاختلاط ؟! فقال عمر: إنك لتتحلَّم يا عبد الملك ؟ فقال له عبد الملك : لا والله ما هو التحلُّم ولكنه الحلم .

قال ابن رجب : ومراد عبد الملك رحمه الله : أنَّ الحِلْم عنده صفة لازمة له ، وهو مجبول عليها ، ولا يحتاج أن يتعاطاه ويتكلَّفه تكلُّفًا من غير أن يكون عنده حقيقةً .

قال عمر بن عبد العزيز : لولا أن أكون زُين لي من أمر عبد الملك ما

---

(١) بطن صغير .

يُزَيِّن في عين الوالد من ولده ؛ لرأيتُ أنه أهلٌ للخلافة .

وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال : جلس عمر بن عبد العزيز يومًا للناس ، فلمَّا انتصف النهار ضَجِرَ وعلَّ ومَلَّ فقال للناس: شأنكم، حتى أنصرف إليكم. فدخل يستريح ساعةً، فجاء ابنه عبد الملك فسأل عنه، قالوا: دخل. فاستأذن عليه ، فأذِن له ، فلمَّا دخل ، قال : يا أمير المؤمنين ، ما أدخلك ؟ قال : أردتُ أن أستريحَ ساعة. قال: أوَ أَمِنْتَ الموت أن يأتيَك، ورعيتك ينتظرونك وأنت مُحْتجِبٌ عنهم ؟ فقام عمر من ساعته وخرج إلى الناس .

وروى أبو بكر الآجري : أنه لما دُفن سليمان بن عبد الملك ، خطب الناس ونزل ، ثم ذهب يتبوأُ مقيلًا ، فأتاه ابنه عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ لك أن تعيش إلى الظهر ؟! قال : اُدْن مني أي بني . فدنا منه والتزمه وقبَّل بين عينيه ، وقال : الحمد لله الذي أخرج من صُلْبي مَنْ يُعينُني على ديني . فخرج فلم يُقِلْ ، وأمر مناديه أن ينادي : أَلَا مَن كان له مظلمة فليرفعْها .

وعن يحيى بن إسماعيل قال : مات ابن لعمر بن عبد العزيز ، فجاء عمر فقعد عند رأسه ، وكشف الثوب عن وجهه ، فجعل ينظر إليه ويستدمع ، فجاء عبد الملك ابنه فقال : أشَغَلَكَ يا أمير المؤمنين ، ما أقبل من الموت إليك ؟! بل هو في شغل عما حلَّ لديك ، فكان قد لحقت به وساويتَهُ تحت التراب بوجهك . فبكى عمر ثم قال : رحمك الله يا بني ، فوالله إنك لعظيم البركة - ما علمتُك - على أبيك ، نافع الموعظةِ لمن وعظت . وأيم الله ، إن كان الذي رأيتَ من جزعي على أخيك ، ولكن لما علمت أن ملك الموت دخل داري فراعني دخوله ، فكان الذي رأيت . ثم أمر بجهازه .

وجمع عمر بن عبد العزيز قرَّاء الشام وفيهم ابن أبي زكريا الخزاعي ، فقال : إني قد جمعتُكم لأمرٍ : قد أهمتني هذه المظالم التي في أيدي أهل بيتي ، ما ترون فيها ؟ قالوا : ما نرى وِزْرها إلا على من غصبها . قال : فقال

عبد الملك : ما أرى مَن قَدِر على أن يردَّها فلم يردَّها والذي اغتصبها ؛ إلّا سواء . فقال : صدقت يا بُني . ثم قال : الحمد لله الذي جعل لي وزيرًا من أهلي عبد الملك ابني .

وقال عمر بن عبد العزيز يومًا لمولاه مزاحم : إن هؤلاء القوم - يعني بني عمه من الخلفاء الذين كانوا قبله - قد أعطونا عطايا وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار إليَّ وليس عليَّ فيما دون الله محاسب . فقال له مزاحم : يا أمير المؤمنين ، هل تدري كم عيالك ؛ هم كذا وكذا ؟! فذرفت عيناه ، فجعل يستدمع ويقول : أَكِلُهُم إلى الله عز وجل . ثم انطلق مزاحم من ساعته ، في وجهه ذلك ، حتى استأذن على عبد الملك بن عمر ، فأذن له ، وقد اضطجع للقايلة ، فقال له عبد الملك : ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة ؟ هل حَدَثَ مِنْ حَدَثٍ ؟ قال : أشد الحدث عليك وعلى بني أبيك . قال : وما ذاك ؟ قال : دعاني أمير المؤمنين ؛ فذكر له ما قال عمر ، فقال عبد الملك: فما قُلتَ له؟ فقال: قلتُ: يا أمير المؤمنين، هل تدري كم عيالك، هم كذا وكذا ؟! قال : فما قال لك ؟ قال : جعل يستدمع ويقول : أَكِلُهُم لله عز وجل . فقال عبد الملك : بئس وزير الدين أنت يا مزاحم . ثم وثب وانطلق عبد الملك إلى باب عمر ، فاستأذن عليه ، فقال الآذن : إن أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقايلة . فقال : استأذن لي لا أُمَّ لك . قال : فسمع عمر الكلام ، فقال : مَنْ هذا ؟ قال : عبد الملك . قال : ائذن له . فدخل عليه وقد اضطجع للقايلة ، فقال : ما حاجتك يا بني هذه الساعة ؟ قال : حديث حدّثنيه مزاحم . قال : فأين وقع رأيك من ذلك ؟ قال : وقع رأيي على إنفاذه . قال : فرفع عمر يديه وقال : الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني . نعم يا بني أُصلِّي الظهر ، ثم أصعد المنبر فأردها علانية على رؤوس الناس . فقال عبد الملك : ومن لك بالظهر يا أمير المؤمنين ، ومن لك إنْ بقيتَ إلى الظهر أن تسلم لك نيَّتُك إلى الظهر ؟ فقال عمر : قد

تفرَّق الناس ورجعوا للقائلة . فقال عبد الملك : تأمر مناديك ينادي : الصلاة جامعة ، فيجتمع الناس . قال : فنادى المنادي : الصلاة جامعة ، فخرجتُ فأتيتُ للمسجد وجاء عمر وصعِد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإن هؤلاء القوم قد أعطونا عطايا ، والله ما كان لهم أن يُعطوناها ، وما كان لنا أن نقبلها منهم ، وإن ذلك قد صار إلَيّ ، ليس عليَّ فيه دون الله تعالى محاسب، ألا وإنِّي قد رددْتُها، وبدأتُ بنفسي وأهل بيتي، اقرأ يا مزاحم.

قال : وجيء بسَفَط . أو قال : جيء بكتب الإقطاعات ، فقرأ مزاحم كتابًا منها ، فلمَّا فرغ من قراءتها ، ناوله عمر وهو قاعد على المنبر ، فقصَّه بالجلم[1] . فاستأنف مزاحم كتابًا آخر فجعل يقرأ، فلمّا فرغ منه رفعه إلى عمر فقصَّه، ثم استأنف كتابًا آخر، فما زال كذلك حتى نودي لصلاة الظهر.

والمراد من هذه الحكاية : أنَّ عبد الملك حثَّه على فِعْل ذلك وعلى المبادرة إليه ، حين عزم عليه؛خشية أن تنفسخَ عزيمته عن ذلك إن أخَّره إلى صلاة الظهر أو يموت قبل فِعْله .

وروى أبو نعيم بإسناده أن عبد الملك دخل على أبيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تقول لربك إذا أتيتَه وقد تركتَ حقًّا لم تُحْيِهِ وباطلًا لم تُمِتْه ؟!

وفي رواية : ماذا أنت قائل لربك غدًا إذا سألك فقال : رأيت بدعةً فلم تُمتها وسنَّة فلم تُحْيها ؟

وروى عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب «الزهد» عن أبي شوذب قال : جاءت امرأة عبد الملك بن عمر إليه وقد ترجَّلت[2] ، ولبست إزارًا ورداءً ونعليْن ، فلما رآها قال : اعتدِّي ، اعتدِّي .

قال ابن رجب : وقوله : اعتدِّي . كناية عن الطلاق ؛ وإنما طلقها لما رآها قد تشبَّهت بالرجال في اللباس .

---

(١) الجلم : المقراض ، الذي يُجزُّ به الشعر والصوف .

(٢) أي لبست لبس الرجال .

أما هوان نفسه عليه في ذات الله ورضاه بما يناله من الأذى في الله عز وجل :

فقد قال ميمون بن مهران : قال عبد الملك بن عمر لأبيه يومًا : يا أَبَهْ ، ما منعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فوالله ما كنتُ أُبالي لو غَلَتْ بي وبك القدور في ذلك .

وقال الربيع بن سبرة : قال عمر بن عبد العزيز يومًا : والله لَوَدِدْتُ لو عدلت يومًا واحدًا ، وأنَّ الله توفَّى نفسي . فقال ابنه عبد الملك : وأنا والله لَوَدِدْتُ لو عدلتُ فُواقَ ناقةٍ ، وأن الله توفَّى نفسي . فقال عمر : الله الذي لا إله إلا هو ؟ فقال عبد الملك : الله الذي لا إله إلا هو ، ولو جاشت بي وبك القدور.فقال عمر : جزاك الله خيرًا .

وقال سليمان بن حبيب المحاربي – قاضي الخلفاء –: قال عبد الملك بن عمر : والله ما من أحدٍ أعزُّ عليَّ من عمر ، ولئن سمعتُ بموته ، أَحَبُّ إليَّ من أن أكون كما رأيته .

قال ابن رجب: «العارفون بالله المحبُّون لله، يرضون بما تقتضيه مقاديره، وإن كانت شاقَّة على النفوس مؤلمة لها ، ويتلذَّذون بذلك ، ولا سيما إن كان أذاهم في تنفيذ أوامر الله والدعاء إلى طاعة الله ؛ وكان هذا مقام عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك رضي الله عنه »[(١)] .

وقال عمر بن عبد العزيز لعبد الملك : ما كنتُ أحبّ أن أراه فيك إلا قد رأيته ، إلا شيئًا واحدًا . قال : ما هو ؟ قال : موتك . قال : أراكه الله . فأصابه الطاعون في خلافة أبيه ، فمات قبل أبيه ، ووقف عمر على قبره وقال : رحمك الله يا بني، فلقد كنتَ برًّا بأبيك، وما زلت منذ وهبك الله لي مسرورًا، ولا والله ما كنت أشد سرورًا ولا أرجى لحظِّي من الله فيك ، منذ وضعتُك في الموضع الذي صيَّرك الله إليه ، فرحمك الله وغفر ذنبك ، وجزاك بأحسن

---

(١) سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز صـ ٦٤ .

عملك وتجاوز عن سيئه ، ورحم كلَّ شافعٍ يشفع لك من شاهد وغائب . رضينا بقضاء الله، وسلَّمنا لأَمْره، والحمد لله رب العالمين. رحمك الله يا عمر.

روى الإمام أحمد بإسنادٍ له : أن عمر بن عبد العزيز تتابعت عليه مصائب ؛ مات أخ له[1] ، ثم مات مزاحم مولاه ، ثم مات عبد الملك ابنه ، فلمَّا مات عبد الملك - رحمه الله - حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : لقد دفعتْه النساء في الخِرَق ، فما زلتُ أرى فيه السرور وقرَّة العين إلى يومي هذا ، فما رأيتُ فيه أمرًا قط أقرَّ لعيني من أمر رأيته فيه اليوم .

قال الربيع بن سبرة لعمر : أعظم الله جزاءك يا أمير المؤمنين ، فما رأيتُ أحدًا أُصيب بأعظم من مصيبتك في أيام متتابعة ؛ والله ما رأيتُ مثل ابنك ابنًا ، ولا مثل أخيك أخًا ، ولا مثل مولاك مولًى قط .

وقال سيار بن الحكم خادم عمر: قال ابن لعمر بن عبد العزيز يُقال له : عبد الملك - وكان يفضل على ابيه عمر -: يا أبَهْ ، أقم الحقَّ ولو ساعة من نهار .

« وروى الدورقي بإسناد له : أن عمر قال لابنه عبد الملك يومًا : يا عبد الملك ، إني أخبرك خبرًا : لا والله إن رأيت فتًى ماشيًا قط أنْسَك منك نسكًا ولا أفقه فقهًا ولا أقرأ منك ، ولا أبعد من صبوةٍ في صغير ولا كبير »[2] .

السيد الربَّاني : علي بن الفضيل بن عياض :

« قال الخطيب : كان من الورع بمحل عظيم ، ومات قبل أبيه بمدة .

قال فضيل: قال لي عبد الله بن المبارك: يا أبا علي، ما أحسن حال من انقطع إلى ربِّه. قال: فسمع ذلك ابنه عليّ؛ فسقط مغشيًّا عليه. وقال ابن المبارك: خير الناس- يعني في ذلك الوقت- فضيل بن عياض، وابنه عليّ خيرٌ منه.

---

(١) هو سهل بن عبد العزيز بن مروان .

(٢) سيرة عبد الملك بن عمر صـ ٧٦ . والصبوة : جهلة الفتوة واللهو من الغزل ومنه التصابي .

وقال ابن عيينة : ما رأيتُ أخوف من الفضيل وابنه »[١] .

لله درُّ عليٍّ من خائفٍ وَجِلٍ ، وشاب ذائبٍ نَحِلٍ .

قال شهاب بن عباد : كانوا يعودون عليّ بن الفضيل وهو بمنى فقال : لو ظننتُ أن أبقى إلى الظهر لشقَّ عليَّ .

وعن محمد بن الحسين قال : كان عليُّ بن الفضيل يصلِّي حتى يزحف إلى فراشه ، ثم يلتفت إلى أبيه فيقول : يا أبتِ سبقني المتعبدون .

وقال أبو سليمان : كان عليّ بن فضيل لا يستطيع أن يقرأ القارعة ولا تقرأ عليه .

وكان رحمه الله يقول : ويحي من يوم أشد الأيام ، ولكَمْ من قبيحةٍ تكشفها القيامة غدًا !!

وعن فضيل : أنهم اشتروا شعيرًا بدينار - وكان ذلك في غلاء من الشعير - فقالت أم علي للفضيل: قوِّرته لكل إنسان قرصين . فكان عليّ يأخذ واحدًا ويتصدَّق بالآخر حتى كاد أن يُصيبَه الخواء ، أو أصابه بعض ذلك .

ومات رحمه الله من جرَّاء آيةٍ ظل يردِّدُها وهو يصلِّي ، وهي قوله تعالى : **﴿ ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَد ولا نكذِّب بآيات ربِّنا ونكونَ مِنَ المؤمنين ﴾** [الأنعام : ٢٧] .

وكان الفضيل يبكيه ويقول: واقتيلَ جهناه، واقتيلَ القرآن، حبيبي من كان يساعدني على الحزن والبكاء. يا ثمرة قلبي، شكرَ الله لك ما قد علمه فيك.

فتى الفتيان ، سيِّد العُبَّاد والرهْبَان ، السختياني أيوب بن كيسان :

قال عنه الحسن : أيوب سيد شباب أهل البصرة .

وقال عنه الحسن أيضًا : سيد الفتيان .

وهذا سفيان بن عيينة ؛ لقي ستة وثمانين من التابعين ، وكان يقول :

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ٧ / ٣٧٣ - دار صادر .

ما رأيتُ مثل أيوب ..

وكان آية في شبابه ، وامتدَّ به العمر حتى حجَّ أربعين حجَّة ، وكلُّ أفعاله عجب .

الشافعي ناصر السنة وهو شاب :

قال الشيخ أحمد شاكر في مقدمته لكتاب « الرسالة » للشافعي : « نبغ الشافعي في الحجاز ، وكان إلى علمائه مرجع الرواية والسنة ، وكانوا أساطين العلم في فقه القرآن، ولم يكن الكثير منهم أهل لسن وجَدَل ، وكادوا يعجزون عن مناظرة أهل الرأي ؛ فجاء هذا الشاب يناظر وينافح ، ويعرف كيف يقوم بحُجَّته ، وكيف يُلزم أهل الرأي وجوب اتباع السنة ، وكيف يفصِّل للناس طرق فهْم الكتاب ، وكيف يدلّهم على الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، وعلى الجمع بين ما ظاهره التعارض .. حتى سماه أهل مكة : « ناصر الحديث » وتواترت أخباره إلى علماء الإسلام في عصره ، فكانوا يفدون إلى مكة للحج يناظرونه ، ويأخذون عنه في حياة شيوخه ، حتى إن أحمد بن حنبل جلس معه مرة ، فجاء أحد إخوانه يعتب عليه أن ترك مجلس ابن عيينة - شيخ الشافعي - ويجلس إلى هذا الفتى !! فقال له أحمد : اسكت ، إنك إن فاتك حديث بعُلُوّ وجدتَه بنزول ، وإن فاتك عقل هذا أخاف أن لا تجده ؛ ما رأيتُ أحدًا أفْقَه في كتاب الله من هذا الفتى » .

ولقد جلس للإفتاء وهو لا يتجاوز العشرين من عمره ، وملأ طباق الأرض علْمًا .. لله درُّه .

البخاري يكتب « التاريخ الكبير » وهو ابن ثماني عشرة سنة : المثال العالي الغالي لعلوِّ هِمَّةِ الشباب :

الكبش النطَّاح كما سمَّاه يحيى بن محمد ، أو البازل أي الكامل كما سمَّاه أبو بكر بن أبي شيبة؛ كان وهو شاب فضْلُه على العلماء كفضل الرجال على النساء.

قال حاشد : كنا يومًا عند إسحاق بن راهويه وعمرو بن زرارة وهو يستملي على أبي عبد الله البخاري ، وأصحاب الحديث يكتبون عنه وإسحاق يقول : هو أبصر مني . وكان أبو عبد الله إذ ذاك شابًّا .

قال البخاري رحمه الله : « لما طعنتُ في ست عشرة سنة حفظتُ كتب ابن المبارك ووكيع ، وعرفت كلام هؤلاء يعني : أصحاب الرأي .. فلما طعنتُ في ثماني عشرة صنَّفت كتاب «قضايا الصحابة والتابعين»، ثم صنَّفت « التاريخ » في المدينة عند قبر النبي ﷺ ، وكنتُ أكتبه في الليالي المقمرة ، وقلَّ اسم في «التاريخ» إلا وله عندي قصة، إلَّا أني كرهت أن يطول الكتاب». هذا الكتاب الذي دخل به إسحاق بن راهويه على عبد الله بن طاهر وقال : أيها الأمير، ألا أُريك سحرًا ؟! سبحان الله !! والكتاب يقع في ثلاثة عشر مجلدًا .

قال الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن عقدة : لو أن رجلًا كتب ثلاثين ألف حديث ؛ لما استغنى عن تاريخ محمد بن إسماعيل .

قال البخاري : « دخلتُ على الحميدي وأنا ابن ثمان عشرة سنة ، فإذا بينه وبين آخر اختلاف في حديث ، فلمَّا بصُر بي قال : جاء من يفصل بيننا . فعرضا عليَّ الخصومة ، فقضيتُ للحميدي وكان الحق معه » . لله درُّه من فتىً يُناطح الكباش .

ولمَّا قدم البصرة وهو شابٌ في جامع البصرة؛ نودي يا أهل العلم، لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري. فاجتمع إليه من الغد المحدِّثون والحفَّاظ والفقهاء والنظَّارة ، حتى اجتمع قريب من كذا كذا ألف نفس ، فجلس أبو عبد الله للإملاء فقال قبل أن يأخذ في الإملاء : يا أهل البصرة ، أنا شاب وقد سألتموني أن أُحدِّثكم ، وسأحدِّثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها . يعني : ليست عندكم .. يقول في كل حديث : هذا الحديث عندكم كذا فأما مِن رواية فلان - يعني التي يسوقها - فليست عندكم . فتعجَّب الناس . لله درُّه

من خَبْرٍ عجيبٍ يأتي بالأعاجيب .

ابن تيمية يُسْلم على يديه يهودي وهو صبي ، فكيف كان في شبابه ؟! :

قال الشيخ الحافظ عمر البزار : « كان الشيخ رضي الله عنه في حال صغره إذا أراد المضي إلى المكتب ، يعترضه يهودي – كان منزله بطريقه – بمسائل يسأله عنها .. وكان يجيبُه عنها سريعًا حتى تَعجَّب منه ، ثم إنه صار كلَّما اجتاز به يُخبره بأشياء مما يدلّ على بطلان ما هو عليه ؛ فلم يلبث أن أسلم وحَسُن إسلامه ، وكان ذلك ببركة الشيخ على صغر سنه »(١) .

فكيف كان شبابه إنْ كان هذا صغره ؟!!

والتاريخ مليءٌ بمَن أفنوا شبابهم في طاعة الله :

وعلى رأسهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل وهو شاب ، والدارقطني ، والإمام النووي . ولك أن تراجع عُلُوَّ همَّة الصبيان ، ثم تتبع هؤلاء في شبابهم .

محمد الفاتح يفتح القسطنطينية وهو في سنِّ الثالثة والعشرين :

وهذا السلطان محمد الفاتح يفتح القسطنطينية و لم يكمل الثالثة والعشرين من عمره كما مرّ بنا .

مصطفى كامل الزعيم المصري ، يتحدَّى الاحتلال الإنجليزي :

هذا الجبل المصري الذي ولد وكأنَّه جبل ؛ فالرجل ابن الطفل ، وأكثر ما يحقِّقه الرجال والشيوخ أحلام تساورهم وهم أطفال ؛ فأحلام الطفولة هي حقائق الرجولة ، وإذا أردت أن تعرف الرجل فابحث عن أسرار عظمته في طفولته .

وقد كانت حياة هذا الزعيم الفذِّ آيةً ؛ بدأت في الرابع عشر من أغسطس سنة ١٨٧٤ ، وانتهت في العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ . حياة عظيمة وقصيرة

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية لعمر بن علي البزار صـ ١٧ – المكتب الإسلامي .

دامت أربعًا وثلاثين سنة .. وهذا الزعيم كان متميزًا في خطِّه الإسلامي وانتمائه واعتزازه بدولة الخلافة ، وهو بهذا ينفرد عن غيره .. كان يصاحب أباه في طفولته في صلاة الفجر ، واستطاع أن يحفظ وِرْدَ السَّحَر .

كانت رسالة مصطفى كامل ذات ثلاث غايات يجمعها جميعًا هدف واحد :

الأولى : كره الاحتلال البريطاني ورفْض احتماله أو السكوت عليه ، واعتباره بلاءً وكارثةً وعارًا .

الثانية : إقناع المصريين بأن إجلاء الاحتلال البريطاني عن مصر ممكن ، وأنه من غير المستحيلات .

الثالثة: أن مصر عظيمة وجليلة ورائعة وجديرة بكلِّ حبٍّ وولاء وفداء.

يكتب مصطفى كامل : « إني أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة ، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحميَّة والإخلاص اللذين أشعر بهما في سبيل رفْعَة الوطن » .

يقول رحمه الله في رسالته إلى أخيه : « اعذرني أيها العزيز فإني أُتْعب نفسي ليلًا ونهارًا ، وإنْ كان هذا التعبُ لا يُذكر في جانب ما علينا لوطننا المقدَّس من الواجبات ، فلو رأيتني الآن لرأيت مصريًّا يحترق قلبُه لرؤية أمتِه سعيدة ، مالكةً زمام أمرها ، ووطنه مستقلًا رفيع المنزلة . تراني حركةً مستمرة ؛ تارةً أُحادث ، وتارةً أُكاتب ، ومرة أزور ، وحينًا أُهاجم وحينا أدافع . أما صحتي فلم يطرأ عليها تغيير ، وهب أنه طرأ عليها شيء ؛ فإن من يبذل الروح وهي الجوهر ، لا يبالي بالجسم وهو العَرَض » .

يقول رحمه الله : « إنِّي لا أنال صغيرًا ولكنّ لي أطماعًا جمامًا ، فإني أُريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة » .

وقال : « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » .

وقال : « إنَّ من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة ؛ يبقى أبدَ

الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان » .

وقال : « لو انتقل فؤادي من الشمال إلى اليمين ، أو تحوَّلت الأهرام عن مكانها ؛ لما تغيَّر لي مبدأ ولا تحوَّل لي اعتقاد » .

وقال : « مهما تعدَّدت الليالي ، وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب ؛ فإننا لا نملُّ ، ولا نقف ، ولا نقول أبدًا : طال الانتظار . لو تخطَّفنا الموت من هذه الدار واحدًا بعد واحد ، لَكانت كلمتُنا لمن بعدنا : كونوا أسعدَ حظًّا منا ، ليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم »[1] .

رحمك الله ؛ فَلَكَمْ زَلْزَلْتَ أركان الإمبراطورية البريطانية الصليبية بخُطَبك وصوتك !!

ولله درُّ حافظ إبراهيم حين يقول في رثاء مصطفى كامل :

أَيا قــبرُ هذا الضيفُ آمالُ أُمَّــةٍ ... فكبِّرْ وهَلِّلْ والْقَ ضيفَكَ جاثيا
عزيزٌ علينا أنْ نرى فيك «مصطفى» ... شهيدَ العُلا في زهرةِ العُمْرِ زاويا
أيا قبرُ لوْ أنّا فقدناه وَحْدهُ ... لكانَ التأسِّي من جَوَىٰ الحزْنِ شافيا
ولَكنْ فقدنا كلَّ شيءٍ بفقْدِهِ ... وهيهاتَ أنْ يأتي بِهِ الدهرُ ثانيا
فيا سائلي أين المروءة والوفا ... وأينَ الحِجا والرأْيُ ويْحَكَ ها هيا
هنيئًا لهُ فلْيأمنوا كل صائحٍ ... فقدْ أُسكِتَ الصوتُ الذي كان عاليا
ومات الذي أحيا الشُّعور وساقَهُ ... إلى المجْدِ فاستحيا النفوسَ البواليا
مدَحْتُك لمَّا كنتَ حَيًّا فلم أُجِدْ ... وإني أُجيدُ اليومَ فيكَ المَرَاثِيا
عليك وإلّا ما لذا الحزنِ شاملًا ... وفيكَ وإلَّا ما لذا الشعبِ باكيا
يموتُ المداوي للنفوس ولا يرىٰ ... لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنَّا نيامًا حينما كنتَ ساهِدًا ... فأسهدْتَنا حزْنًا وأمسيتَ غافيا

---

(١) مصطفى كامل لفتحي رضوان ، سلسلة « اقرأ » .

شهيدَ العُلا لا زال صوتُك بيننا ... يَرِنُّ كما قد كانَ بالأمس داويا
يهيبُ بنا: هذا بناءٌ أقمتُــهُ ... فلا تهدموا باللهِ ما كنتُ بانِيا
يصيحُ بنا: لا تُشعِروا الناسَ أنني ... قضَيْتُ وأنَّ الحيَّ قد باتَ خاليا
يناشدنــا بـــالله ألَّا تَفَرَّقـــوا ... وكونوا رجالًا لا تسرُّوا الأعاديا
فيا نيلُ إنْ لم تجر بعدَ وفاتِهِ ... دمًا أحمرًا لا كنتَ يا نيلُ جاريا
ويا مصرُ إنْ لمْ تحفظي ذكْرَ عهدِهِ ... إلى الحشْرِ لا زالَ انحلالُكَ باقيا
ويا أهلَ مصرٍ إنْ جهلتم مُصَابَكمْ ... ثِقُوا أنَّ نجمَ السَّعْدِ قد غار هاويا
ثلاثونَ عامًا بلْ ثلاثونَ درَّةً ... يُجيد الليالَي ساطعاتٍ زواهيا
ستشهدُ في التاريخ أنَّكَ لم تكنْ ... فتًى مفرَدًا بلْ كنتَ جيْشًا مُغازيا[(١)]

هؤلاء فتية الإسلام :

وقفوا على هامِ الزمانِ رجالًا ... يتوثَّبــون تطلُّعـــا ونِضالا
وحْيُ السماءِ يجيشُ في أعماقِهمْ ... ونداؤُهُ منْ فوقِـهِ يتعالــى
باعوا النفوسَ لربِّهمْ واستمسكوا ... بكتابهِ .. واستقبلوا الأهوالا
في وَقْدةِ الصحراءِ في فَلَواتِها ... حملوا تكاليفَ الجهادِ ثِقالا
تُشوىٰ على رَمْضائها أجسامُهُمْ ... لكنَّهم لا يعرفونَ مُحَالا
فامتدَّ في شرقِ البلادِ وغربِها ... نورٌ تتيهُ بهِ الحياةُ جمالا
فتشبَّهوا إنْ لم تكونوا مِثْلَهُم ... أُسْدًا تُخَلِّفُ بعدها أشبالا



(١) ديوان حافظ إبراهيم .

الفصل الثاني

عُلُوُّ هِمَّةِ الصِّبيانِ

كأنَّهم وُلِدُوا مِنْ قبل أنْ وُلِدوا   أَوْ كَانَ فَهْمُهُمُ أيَّامَ لَمْ يَكُنِ

« المتنبي »

□ عُلُوُّ هِمَّةِ الصبيانِ □

من قسمة الله التي أمضاها ، واستأثر بسرِّ مقتضاها ؛ أن جعل من بعض الصبيان من عَلَتْ هِمَّتُه ، فكان قُرَّةَ عينٍ ، ودُرَّة زيْنٍ .

«فكم من ولد شُدَّ به أزْر سلفِهِ ، وشِيد به ذكْر خلَفِهِ ؛ فكان بدرًا في بروج المحاشد[١] ، وقُطبًا لفلك المحامد »[٢] .

كأنهم وُلدوا من قبلِ أن وُلدوا ... أو كان فهْمُهُمُ أيامَ لم يكُنِ[٣]

وهذا فصْل جمعنا فيه من دُرَرِ أنباء نُجباء الأبناء ، ما هو كشررةٍ من ضرام ، بل كقطرةٍ من رِهام[٤] ؛ قصدتُ به تلقيح هِمَّة غلام ، وتنقيح فِطنة كَهَام[٥] .

١ - يحيى بن زكريا عليهما السلام :

قد كانت لزكريا عليه السلام إلى ملك الملوك حاجةٌ ، ولازم سُدَّة مولاه إلى أن أتته الإجابة .

قال تعالى : ﴿ **يا زكريا إنا نُبشِّرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبلُ سميًّا** ﴾ [مريم : ٧] . « إن الله هو الذي سمَّاه ، ولم يكِلْ تسميته لأبيه ، وفي هذا منقبة عظيمة ليحيى »[٦] ما أظنُّ أن أحدًا من البشر حازها

---

(١) المجامع .
(٢) أنباء نُجَباء الأبناء، لمحمد بن مُظفر، تحقيق: إبراهيم يونس، طبع دار الصحوة ص١٩.
(٣) ديوان المتنبي ص١٨٢ .
(٤) رهام : جمع رِهمة بكسر الراء ، وهي المطر الضعيف القطر .
(٥) كَهَام : يُقال : فرس كَهَام ؛ أي بطيء عن الغاية . والمراد : غلام مُقصِّرٌ لا يُحاول الوصول إلى غايته .
(٦) أضواء البيان ٤/٢١٤ .

سواه . قال ابن عباس : لم يُسمَّ يحيى قبله غيره ، وقال أيضًا : هل تعلم له مثلًا أو شبهًا . ومَنْ تولّى الله تسميته ... صنعه على عينه .

قال تعالى : ﴿ **وآتيناه الحكم صبيًّا** ﴾ [مريم : ١٢] ؛ فهمًا وعلمًا وجدًّا وعزمًا، وإقبالًا على الخير، وانكبابًا عليه، واجتهادًا فيه، وهو حَدَثٌ صغير.

قال أبو حيان : الحكْم : النبوة .

آتاه الله الحكم صبيًّا ، فكان فذًّا في زاده كما كان فذًّا في اسمه وميلاده ، فالحكمة تأتي مُتأخِّرة ، ولكن يحيى قد زُوِّد بها صبيًّا .

قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهبْ بنا نلعب . قال : ما للَّعب خُلقنا .

فسلام الله على مَنْ سلَّم الله عليه في مواطن الوحشة وأمَّنه ، وسلام الله على مَنْ وصفه الله بالسيادة ، فكان سيِّدًا في العلم والعبادة .

٢ - غــلام الراهــب :

عن صُهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرتُ ، فابعثْ إليَّ غلامًا أُعلِّمه السِّحْرَ . فبعث إليه غلامًا يُعلِّمه ، وكان في طريقه إذا سلك راهبٌ ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، وكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيتَ الساحر فقلْ : حبسني أهلي ، وإذا خشيتَ أهلك فقلْ : حبسني الساحر. فبينما هو على ذلك إذْ أتى على دابَّة عظيمة قد حبستِ الناسَ. فقال : اليوم أعلم ؛ الساحرُ أفضلُ أم الراهبُ أفضلُ ؟ فأخذ حجرًا ، فقال : اللهمَّ إنْ كان أمْر الراهب أحبَّ إليك من أمْر الساحر فاقتلْ هذه الدابة حتى يمضي الناس . فرماها فقتلها ومضى الناس ، فأتى الراهبَ فأخبره . فقال له الراهب : أي بُني ، أنت اليوم أفضلُ مني ، قد بلغ من أمْرك ما

أرى ، وإنك ستُبتلى ، فإنِ ابتُليتَ فلا تدلَّ عليَّ . وكان الغلام يُبرىء الأكمه[١] والأبرص ، ويُداوي الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما هاهنا أجمع لك إنْ أنت شفيتني . قال : إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله عزَّ وجلَّ ، فإنْ آمنتَ بالله دعوتُ الله فشفاك . فآمن بالله ، فشفاه الله ، فأتى الملك ، فجلس إليه كما كان يجلس . فقال له الملك : مَنْ ردَّ عليك بصرك ؟ قال : ربي . قال : ولك ربٌّ غيري ؟ قال : ربِّي وربُّك الله . فأخذه ، فلم يزل يُعذِّبه حتى دلَّ على الغلام . فجيء بالغلام ، فقال له الملك : أي بنَّي ، قد بلغ من سحرك ما يبرىء الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل ! فقال : إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله عز وجل . فأخذه ، فلم يزل يُعذِّبه حتى دلَّ على الراهب . فجيء بالراهب ، فقيل له : ارجعْ عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمئشار[٢]، فوضع المئشار على مفرق رأسه ، فشقَّه به حتى وقع شِقَّاهُ . ثم جيء بجليس الملك ، فقيل له : ارجعْ عن دينك ، فأبى ، فوضع المئشار في مفرق رأسه ، فشقَّه حتى وقع شِقَّاه . ثم جيء بالغلام ، فقيل له : ارجعْ عن دينك ، فأبى ، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا ، فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته ، فإنْ رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه . فذهبوا به ، فصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئتَ . فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به ، فاحملوه في قُرقُور[٣]، فتوسَّطُوا به البحر ، فإنْ رجع عن دينه ،

---

(١) الأكمه : الذي خُلق أعمى .

(٢) قال النووي: «المئشار»مهموز في رواية الأكثرين، ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياءً ، ورُوي المنشار بالنون ، وهما لغتان صحيحتان .

(٣) القُرقُور: قال النووي: بضم القافين، السفينة الصغيرة. وقيل: الكبيرة، واختار =

وإلا فاقذفوه . فذهبوا به ، فقال : اللهمَّ اكفنيهم بما شئتَ . فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . فقال للملك : إنك لستَ بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ! قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جِذع ، ثم خذْ سهمًا من كنانتي ، ثم ضعِ السهم في كبد القوس ، ثم قل : بسم الله رب الغلام ، ثم ارم ، فإنك إذا فعلتَ ذلك قتلتني . فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جِذع ، ثم أخذ سهمًا من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : بسم الله ربِّ الغلام ، ثم رماه ، فوقع السهم في صُدْغه ، فوضع يده في صُدْغه موضع السهم فمات . فقال الناس : آمنَّا بربِّ الغلام ، آمنَّا بربِّ الغلام . فأُتي الملك ، فقيل له : أرأيتَ ما كنتَ تحذر ؟ قد - والله - نزل بك حذرُك ، قد آمن الناس! فأمر بالأخدود[1] بأفواه السِّكَك فخُدَّتْ، وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأحمُوه[2] فيها. ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ لها، فتقاعستْ أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أُمَّهْ ، اصبري فإنك على الحقِّ »[3].

٣ - علي بن أبي طالب :

« صُبْحٌ لا يُحجبُ فَلَقُه[4]، وسابح لا يُستوعب ....

= القاضي الصغيرة .

(١) الأخدود : الشَّقُّ العظيم في الأرض .

(٢) فأحموه : أي ارموه فيها ؛ من قولهم : حميت الحديدة وغيرها ،إذا أدخلتها النار لتُحمى . قال النووي : ووقع في نُسَخ بلادنا (فأقحموه) بالقاف ، ومعناه : اطرحوه فيها كرهًا .

(٣) رواه مسلم وأحمد والترمذي، وعزاه المزيُّ للنسائي، وأخرجه الطبري في التفسير.

(٤) نوره .

طَلَقُه »[١] .

« عن زيد بن أرقم قال : أول من أسلم مع رسول الله ﷺ : عليٌّ ابن أبي طالب »[٢].

قال محمد بن المنكدر وربيعة بن أبي عبد الرحمن وأبو حازم والكلبي : عليٌّ أول مَنْ أسلم .

قال الكلبي : أسلم وهو ابن تسع سنين .

وعن ابن إسحاق قال : أوَّلُ ذَكَرٍ آمن برسول الله ﷺ وصلَّى معه وصدَّقه : عليُّ بن أبي طالب ، وهو ابن عشر سنين ، وكان في حِجْر رسول الله ﷺ قبل الإسلام .

« وقال محمد بن كعب : أول مَنْ أسلم من هذه الأُمَّة : خديجة ، وأول رجُلين أسلما : أبو بكر وعلي . وأسلم عليٌّ قبل أبي بكر ، وكان علي يكتم إيمانه ؛ خوفًا من أبيه ، حتى لقيه أبوه ، قال : أسلمتَ ؟ قال : نعم . قال : وازرِ ابن عمِّك وانصرْه .

وعن ابن عباس : أول مَنْ صلَّى : عليٌّ .

وعن جابر : بعث النبي ﷺ يوم الإثنين، وصلَّى عليٌّ يوم الثلاثاء »[٣].

وجمعًا بين الأقوال كلها : « أول مَنْ أسلم من النساء خديجة -

---

(١) جري الفرس .

(٢) حسن رواه أحمد ، وأخرجه النسائيُ في « الخصائص » مُختصرًا ، والحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد . ووافقه الذهبي ، والنسائيُ في الفضائل ، وأحمد في «فضائل الصحابة»، وابن سعد في «الطبقات»، وابن أبي شيبة . وفي بعض طرق الحديث « أول من صلَّى » .

(٣) البداية والنهاية ٢٥/٣ .

وقيل : الرجال أيضًا - وأول مَنْ أسلم من الموالي زيد بن حارثة ، وأول مَنْ أسلم من الغلمان عليٌّ بن أبي طالب ، فإنه كان صغيرًا دون البلوغ على المشهور ؛ كانوا إذ ذاك أهل البيت ، وأول مَنْ أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصدِّيق »(١).

« رضي الله عن الغلام المبارك الذي وُلد في الإيمان والعبادة والهدى ، وكان سابق المسلمين. بُوركت هذه الحياة !! حياة لم تكن لها قطُّ: صبوةٌ، ولا شهوة ، ولا هفوة !! حياة وُلد صاحبها ، وتَبِعاتُ الرجال فوق كاهله !! حتى لهْو الأطفال ، لم يكن لحياة ابن أبي طالب فيه حظٌّ ولا نصيبٌ !! لكأنَّ المقادير كانت تدَّخر سمْعه ووجدانه لكلمات أخرى ستُغيِّر وجه الأرض ووجه الحياة !

وفي نور الآيات المُنزَّلة قضى عليٌّ بواكير حياته النضرة ؛ يبَهره نورُها ، ويهزُّه هديرُها . وكان ربيب الوحي ، والتلميذَ الأول للقرآن .. وكان له فضْل السبق والصدْق »(٢).

وَوُرِّث فرعَ المجدِ من آلِ هاشمٍ وجاء كريمًا من كرامٍ أماثلِ

٤ - تُرجمان القرآن وحَبْرُ الأُمَّة عبد الله بن عباس :

ما كان يشغل بال ابن عباس وهو صبيّ - ابن عشر سنين - إلا معرفة كيفية قيام النبي ﷺ .

وأعدَّ وضوء النبي ﷺ لصلاة الليل ، فدعا له « اللهمَّ فقِّهْهُ في الدين » ، وصار بهذا الدعاء - الذي ناله وهو صبي - حَبْر الأمة وترجمان القرآن .

(١) البداية والنهاية ٢٦/٣ . وهو قول أبي حنيفة أيضًا .

(٢) في رحاب علي لخالد محمد خالد ، خلفاء الرسول لخالد محمد خالد ص٣٥٩- ٣٦١.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « صلَّيتُ مع النبي ﷺ ، فقمتُ إلى جنبه عن يساره ، فأخذني فأقامني عن يمينه . قال : وقال ابن عباس : وأنا يومئذٍ ابن عشر سنين »[1] .

وفي لفظ لمسلم : « فجعلتُ إذا أغفيتُ ، يأخذ بشحمة أُذُني اليمنى يفتلُها » .

قال النووي : « إنما فتلها ؛ تنبيهًا له من النُّعاس »[2] .

وَلَكَمْ يخشع القلم أمام حَبْر الأمة وهو يقوم الليل وهو غلام ، ويجعل هَمَّه حين يبيت عند خالته ميمونة أن لا ينام حتى ينظر ما يصنع في صلاة الليل ، كما ورد في الحديث . عزم في نفسه على السهر ؛ ليطَّلع على قيام النبي ﷺ للَّيل ، ثم خشي أن يغلبه النوم ، فيُوصي خالته كما يُحدِّثنا : « فقلتُ لميمونة : إذا قام رسول الله ﷺ فأيقظيني » . ثم انظر إلى أدبه يقول : « فقمتُ فتمطَّيْتُ ؛ كراهة أن يرى أني كنتُ أرقبه » . وكأنه خشي أن يترك رسول الله ﷺ بعض عمله ؛ لِمَا جرى من عادته ﷺ أنه كان يترك بعض العمل ؛ خشية أن يُفرض على أُمَّته . ويكابد ابن عباس السهر وطوله مع رسول الله ﷺ وهو يُحيي معظم الليل ..

انظرْ إلى جبهة الغلام الطَّيِّب المبارك ، وهي تسجد لربِّها قدْر قراءة خمسين آية في ظلام الليل ، ويعطف رسول الله ﷺ ويُشفق على ابن عمِّه الصغير . فيقول ابن عباس عن رسول الله ﷺ : « وضع يده اليمنى على رأسي ، وأخذ بأُذُني اليمنى يفتلها ، فجعل يمسح بها أُذُني ، فعرفتُ أنه إنما صنع ذلك ليؤنسني بيده في ظُلمة البيت » .

---

(١) إسناده صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر رقم (٣٤٣٧) .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٤١١ .

انظروا معاشر المؤمنين ، وقولوا للعالم أجمع : تعالوا ، فهذه هِمَمُ صِبية بيت النبوَّة ، وهذا أدبُهم لله دَرُّهم من « طين عُجن بماء الوحي ، وغُرِس بماء الرسالة فهل يفوح منها إلا مسْك الهدى وعنبر التُّقى »[١]!!

٥ - الزبير بن العوَّام :

حواريُّ رسول الله ﷺ . أسلم وهو حَدَثٌ ، له ستُّ عشرة سنة . وهو أول مَنْ سلَّ سيفه في سبيل الله .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء : « عن عروة قال : أسلم الزبير ، ابن ثمان سنين ، ونُفخت نفخةٌ من الشيطان أن رسول الله ﷺ أُخِذَ بأعلى مكة . فخرج الزبير وهو غُلام ، ابن اثنتي عشرة سنة ، بيده السيف ، فمن رآه عجِب ، وقال : الغلام معه السيف ! حتى أتى النبي ﷺ ، فقال : ما لك يا زبير ؟ فأخبره وقال : أتيتُ أضرب بسيفي مَنْ أخذك . فدعا له ولسيفه »[٢] .

قال يتيم عروة محمد بن عبد الرحمن النوفلي المدني : « هاجر الزبير وهو ابن ثمان عشرة سنة ، وكان عمُّه يعلِّقه ويُدَخِّنُ عليه ، وهو يقول : لا أرجع إلى الكفر أبدًا »[٣] .

هذه طفولة الحواريِّ ، فكيف شبابه وكهولته !! .

---

(١) قول يحيى بن معاذ في تاريخ بغداد ٢١١/١٤ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ، وأبو نعيم في الحلية ورجاله ثقات .
انظر الإصابة ٨/٤ ، سير أعلام النبلاء ٤١/١ - ٤٢ ، الاستيعاب ٣١١/٣ ، أُسْد الغابة ٢٥٠/٢ .

(٣) حلية الأولياء ٨٩/١ ، والطبراني في الكبير (٢٣٩) ، وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٥١/٩ وقال : رجاله ثقات إلا أنه مرسل ، وأخرجه الحاكم ٣/ ٣٦٠ ، والذهبي في السير ٤٤/١ .

كانت أُمُّه صفية تضربه ضربًا شديدًا وهو يتيم ، فقيل لها : قتلته ، أهلكته ، قالت :

إنما أضْرِبُه لكي يَـدِبّ ويهزمَ الجيشَ ويأتي بالسَّلَبْ(١)

قال عروة بن الزبير : كسر الزبير ذات يوم يدَ غلامٍ ، فجيء بالغلام إلى صفية ، فقيل لها في ذلك ، فقالت :

كيف وجدتَ زَبْرا أأَقِطًا أمْ تَمْـــرا
أم مُشْمَعِلًّا صَقْرا(٢)

٦ - سعد بن أبي وقَّاص خالُ رسول الله ﷺ :

قال موسى بن طلحة: «كان عليٌّ، والزبير، وطلحة، وسعد، عِذار عام واحد ؛ يعني وُلدوا في سنة»(٣) .

ويقول سعد : « لقد شهدتُ بدرًا ، وما في وجهي شعرة واحدة أمسحها بيدي »(٤).

وقد كان سعد من السابقين إلى الإسلام .

قال سعيد بن المسيب : سمعتُ سعد بن أبي وقاص يقول : « ما أسلم

---

(١) الإصابة ٤/٧ - ٨ . وعند ابن سعد في الطبقات والذهبي في السير ١/٤٥ « ويجرّ الجيش ذا اللَّجبْ » .

(٢) في السير ١/٤٥ « كيف وجدتَ وبْرا » .
والأقِط : بفتح الهمزة وكسْر القاف ، وقد تُسكن . قال الأزهري : ما يُتَّخذ من اللبن المخيض ، يُطبخ ثم يُترك حتى يمصل . والمُشْمَعِلّ : السريع ، يكون في الناس والإبل .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/٤٤ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١/٩٧ .

أحدٌ إلا في اليوم الذي أسلمتُ فيه ، ولقد مكثتُ سبعة أيام وإني لَثُلُثُ الإسلام »[١] .

وروى الإمام مسلم عن سعد بن أبي وقاص « أنه نزلت فيه آيات من القرآن . قال : حلفتْ أمُّ سعد ألا تُكلِّمه أبدًا حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب . قالت : زعمتَ أنَّ الله وصَّاك بوالديك ، وأنا أُمُّك ، وأنا آمرك بهذا . قال : مكثتْ ثلاثًا حتى غُشي عليها من الجهد . فقام ابنٌ لها يُقال له : عُمارة ، فسقاها ، فجعلتْ تدعو على سعد . فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : ﴿ **ووصَّينا الإنسان بوالديه حُسْنًا** ﴾ ، ﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بي** ﴾ [لقمان : ١٥] وفيها : ﴿ **وصاحبْهما في الدنيا معروفا** ﴾.

وعن سعد قال : نزلتْ هذه الآية فيَّ : ﴿ **وإنْ جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطعهما** ﴾ [العنكبوت : ٨] . قال : كنتُ بَرًّا بأمِّي ، فلما أسلمتُ ، قالت : يا سعد ، ما هذا الدين الذي قد أحدثتَ ؟ لَتَدعنَّ دينك هذا ، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فتُعيَّر بي ، فيُقال : يا قاتل أُمِّه . قلتُ : لا تفعلي يا أُمَّهْ ، إني لا أدع ديني هذا لشيء . فمكثتْ يومًا لا تأكل ولا تشرب ، وليلة ، وأصبحتْ وقد جُهدتْ . فلما رأيتُ ذلك ، قلتُ : يا أُمَّهْ ، تعلمين والله لو كان لك مائة نفس ، فخرجتْ نفْسًا نفْسًا ، ما تركتُ ديني ، فإنْ شئتِ فكُلي أو لا تأكُلي . فلما رأتْ ذلك أكلتْ »[٢].

---

(١) رواه البخاري ، وابن ماجة ، وأحمد في فضائل الصحابة ، وأبو نعيم في الحلية . قال الحافظ في الفتح (٨٤/٧) : « قال ذلك بحسب اطلاعه . والسبب فيه أنَّ مَنْ كان أسلم في ابتداء الأمر كان يُخفي إسلامه » .

(٢) أخرجه أحمد، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، والسيوطي في « الدُّرِّ المنثور » ، وابن المنذر .

٧ - عُمير بن أبي وقَّاص رضي الله عنه : (عمير بن مالك الزهري) :

« عن سعد بن أبي وقاص قال : ردَّ رسول الله ﷺ عُمير بن أبي وقاص عن بدر ؛ استصغَره ؛ فبكى عُمير ، فأجازه ، فعُقدت عليه حمالة سيفه . ولقد شهدتُ بدرًا ، وما في وجهي شعرة واحدة أمسحها بيدي »(١) .

وقُتل رحمه الله شهيدًا .

رضي اللهُ عن ابنَيْ أبي وقاص .. فهذا الشبل شقيق الأسد !

٨ ، ٩ ، ١٠-معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن الحارث « معاذ ابن عفراء » ، ومعوذ بن الحارث « قَتَلةُ فرعون هذه الأمة أبي جهل » :

عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : « إني لَواقفٌ يوم بدر في الصف ، فنظرتُ عن يميني وشمالي ، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار ؛ حديثة أسنانهما ، فتمنَّيْتُ أن أكون بين أظلع منهما ، فغمزني أحدهما ، فقال : يا عمّ ، أتعرف أبا جهل ؟ فقلتُ : نعم ، وما حاجتك إليه ؟ قال : أُخبرتُ أنه يسُبُّ رسول الله ﷺ ، والذي نفسي بيده لئن رأيتُه لا يُفارق سوادي سوادَه حتى يموت الأعجل منا . فتعجَّبتُ لذلك ، فغمزني الآخر ، فقال لي أيضًا مثلها ، فلم أنشب أن نظرتُ إلى أبي جهل وهو يجول في الناس ، فقلتُ : ألا تريان ؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه . فابتدراه بسيفيهما . فقال : « كلاهما قتله » ، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والآخر معاذ بن عفراء »(٢) .

وعند البخاري : عن عبد الرحمن بن عوف : « إني لفي الصفِّ يوم بدر إذ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السنِّ ، فكأني لم آمن

(١) سير أعلام النبلاء ٩٧/١ ، وإسناده مُحتمل للتحسين .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سرًّا من صاحبه : يا عمّ ، أرني أبا جهل ، فقلتُ : يا ابن أخي ، ما تصنع به ؟ قال : عاهدتُ الله إنْ رأيتُه أنْ أقتلَه أو أموتَ دونه ، وقال لي الآخر سرًّا من صاحبه مثله . قال : فما سرَّني أنني بين رجُلين مكانهما ، فأشرتُ لهما إليه ، فشدَّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه ، وهما ابنا عفراء »[١]. أي معاذ ومعوذ .

« وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم بدر : « مَنْ ينظر ما صنع أبو جهل ؟ ». فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد . فقال : آنت أبا جهل ؟ قال ابن علية : قال سليمان : هكذا قالها أنس . قال : آنت أبا جهل ؟ قال : وهل فوق رجل قتلتموه ، أو قال : قتله قومه . قال : وقال أبو مجلز[٢]: قال أبو جهل : فلو غير أكَّار[٣] قتلني »[٤].

أكَّار ، ولكنهما صقران يا رأس أئمة الكفر وفرعون هذه الأمة !

لقد سُرَّ رسول الله ﷺ بما صنع الصقران وخرَّ ساجدًا،كما جاء عند البيهقي .

« عن معاذ بن عمرو قال : جعلتُ أبا جهل يوم بدر من شأني . فلما أمكنني ، حملتُ عليه ، فضربتُه ، فقطعتُ قدمه بنصف ساقه . وضربني ابنه عكرمة بن أبي جهل على عاتقي ، فطرح يدي وبقيتْ مُعلَّقة بجلدة بجنبي ، وأجهضني عنها القتال ، فقاتلتُ عامَّة يومي وإني لأسحبها خلفي ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو يعلى .

(٢) هذا القدر مُرسَل ؛ لأن أبا مجلز تابعيٌّ .

(٣) قال الحافظ في الفتح (٧/٢٩٥) : الأكَّار ؛ بتشديد الكاف : الزرَّاع ، وعنى بذلك أن الأنصار أصحاب زرع ، فأشار إلى تنقيص مَنْ قتله منهم بذلك .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو يعلى .

فلما آذتني ، وضعتُ قدمي عليها ، ثم تمطَّأتُ عليها حتى طرحتُها » .

قال الذهبي مُعلِّقًا : « هذه والله الشجاعة ، لا كآخر ؛ مِنْ خَدْشٍ بسهم ينقطع قلبُه ، وتخور قواه »(١) .

١١ - عبد الله بن الزبير « عائذ بيت الله وفارس الخلفاء » :

كان أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، وكبَّر المسلمون تكبيرة واحدة حتى ارتجَّت المدينة ، وحنَّكه رسول الله ﷺ .

وعند مسلم : « خرجتْ أسماء بنت أبي بكر ، حين هاجرتْ ، وهي حُبلى بعبد الله بن الزبير ، فقدمتْ قباءً ، فنُفست بعبد الله بقباء ، ثم خرجت حين نُفست إلى رسول الله ﷺ ليُحنِّكه ، فأخذه رسول الله ﷺ منها ، فوضعه في حِجْره ، ثم دعا بتمرة . قال : قالت عائشة : فمكثنا ساعة نلتمسها قبل أن نجدها . فمضغها ، ثم بصقها في فيه . فإن أول شْيءٍ دخل بطنه لريقُ رسول الله ﷺ . ثم قالت أسماء : ثم مسحه وصلَّى عليه ، وسمَّاه عبد الله . ثم جاء وهو ابن سبع سنين أو ثمان ، ليُبايع رسول الله ﷺ ، وأمره بذلك الزبير . فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآه مُقبلًا إليه ثم بايعَهُ » . نعم ، إنه ابن أبيه !!

تبيَّن فيه ميسم العزِّ والعُلا وليدًا يفَدَّى بين أيدي القوابلِ
فلما تَرَدَّى بالحمائلِ وانتحى يصولُ بأطرافِ الرماحِ الذوابلِ(٢)
تَيَقَّنتِ الأعداءُ أنَّ زمانَهُ مُطيلٌ حنينَ الأُمَّهاتِ الثواكلِ

أدرك ابن الزبير من حياة النبي ﷺ ثمانية أعوام وأربعة أشهر !

---

(١) أخرجه ابن هشام ١/٦٣٤ - ٦٣٥ ، ورجاله ثقات ، ورواه الذهبي في سير أعلام النبلاء ١/٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) تردَّى بالحمائل : لبس حمائل السيف . الذوابل : المُتعطِّشة للدماء .

وقد رُوي من غير وجه أن عبد الله بن الزبير شرب من دم النبي ﷺ .

حدَّث عامر بن عبد الله بن الزبير أن أباه حدَّثه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وآله وهو يحتجم ، فلما فرغ قال : « يا عبد الله ، اذهبْ بهذا الدم فاهرقْه حيث لا يراك أحد » ، فلما برزتُ عن رسول الله ﷺ عمدتُ إلى الدم فحسوتُه ، فلما رجعتُ إلى النبي ﷺ قال : « ما صنعتَ يا عبد الله ؟ » قال : جعلتُه في مكانٍ ظننتُ أنه خافٍ على الناس . قال : « فلعلك شربته ؟ » قلتُ : نعم . قال : « ومَنْ أمرك أن تشرب الدم ؟ ويلٌ لك من الناس وويل للناس منك »[1].

قال أبو عاصم : كانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم !

نفسٌ تُصغِّرُ نَفسَ الدهرِ من كِبَرٍ ... لها نُهى كهْله في سنِّ أمْردِهِ

« روى الزبير بن بكّار عن هشام بن عروة قال : إنَّ أول ما فصح به عبد الله بن الزبير وهو صغير : السيف السيف . فكان لا يضعه من فيه ، وكان الزبير إذا سمع ذلك منه يقول له : أما والله ليكوننَّ لك منه يوم ويوم وأيام »[2].

في البخاري عن عروة : « أن الزبير أركب ولده عبد الله يوم اليرموك فرسًا وهو ابن عشر سنين ، ووكل به رجُلًا »[3]

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده والحاكم في المستدرك وصحَّحه ، وأورده الهيثمي في المجمع ٨/٧٢ ، وقال : رواه الطبراني والبزار باختصار ، ورجال البزار رجال الصحيح ، غير هُنيد بن القاسم وهو ثقة ، كذا قال . وذكر ابن أبي حاتم هنيد ، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا . وقال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » ٣/٣٦٦ : « ما علمتُ في هُنيد جَرْحة » .

(٢) البداية والنهاية ٨/٣٤٥ .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي : باب قتل أبي جهل . قال الذهبي في السير =

فقلتُ وقد فَرَسَ الناطقين كذا يفعلُ الأسدُ ابنُ الأَسَدْ[١]

وكأنه أولى الناس بقول الشاعر حمزة بن أبيض :

بلغتَ لعشرٍ مضتْ مِن سنـيِّـك ما يبلغُ السيِّدُ الأشيبُ
فهمَّكَ فيها جسامُ الأمورِ وهـمٌّ لِدَاتِك أن يلعبوا

« مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعبد الله بن الزبير وهو يلعب مع الصبيان ، ففرُّوا حين رأوا عمر رضي الله عنه وثبت عبد الله . فقال عمر : مالك لا تفرّ مع أصحابك ؟ فقال : لم أُجرم فأخافك ، ولم يكن في الطريق ضيقّ فأوسِّع لك »[٢] .

قال محمد بن مظفر في كتابه « أنباء نجباء الأبناء » : « بلغني أن الشفاء بنت هاشم[٣]- وهي امرأة من المهاجرات - دخلت على أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق ، فقالت لها : ماذا لقيتُ من عبد الله !! لقيتُه اليومَ ، فقلتُ : أحقًّا بايعك رسول الله ﷺ ؟! فقال : نعم . فقلتُ : بالله لقد آثرك الله على صِغَر سِنِّك . فقال : يا خالة ، إن صغيرنا إلى كبَرٍ وإن كُبراكُنَّ إلى صِغَرٍ ، وبعدُ ، فرسول الله أبصر » .

وبعدُ ، فلا تعليق .. فالموقف تعجز عن تصويره الكلمات !!

١٢ - الحُسين بن علي ، سبط رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا رضي الله عنه :

عن الحسين رضي الله عنه قال : « صعدتُ المنبر إلى عمر ، فقلتُ :

= ٦٣/١ : « هذه الوقعة هي يوم اليمامة إن شاء الله ، فإن عبد الله كان إذ ذاك ابن عشر سنين » .

(١) ديوان المتنبي ٥٣١ .

(٢) أنباء نجباء الأبناء ص١٠٩ .

(٣) الأصحُّ أنها الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس .

انزلْ عن منبر أبي[١]، واذهبْ إلى منبر أبيك . فقال : إن أبي لم يكن له منبر ! فأقعدني معه ، فلما نزل ، قال : أي بُنَيّ ، مَنْ عَلَّمك هذا ؟ قلتُ : ما علَّمنيه أحدٌ . قال : أيْ بُنَيَّ ، وهل أنبت على رؤوسنا الشَّعر إلا الله ثم أنتم ! ووضع يده على رأسه ، وقال : أيْ بُنَيّ ، لو جعلتَ تأتينا وتغشانا »[٢].

١٣ - زيْن العابدين علي بن الحسين رحمه الله :

ومَنْ كزين العابدين في صبره ! وهو صبي يُشاهد قتْل أبيه الحسين ومعه سبعة عشرة رجلًا ؛ كلهم من أولاد فاطمة ، ما على وجه الأرض يومئذ لهم شَبَهٌ ... يُشاهد هذا الصبيُّ الطَّيِّبُ اثنين وسبعين نفسًا من أصحاب أبيه وأهل بيته قتلى ... يُشاهد جثمان أبيه يُداس بحوافر الخيل .

ولما يدخل وهو غلام على ابن زياد ، فقال له : ما اسمُك ؟ قال : أنا عليُّ بن الحسين . قال : أو لم يقتل الله عليَّ بن الحسين ؟ فسكتْ . فقال له ابن زياد : ما لك لا تتكلَّم ؟ قال : كان لي أخٌ يُقال له : عليٌّ أيضًا ، قتله الناس . قال : إن الله قتله . فسكتْ . فقال : ما لك لا تتكلَّم ؟ فقال : ﴿ **اللهُ يتوفَّى الأنفُسَ حين موتها** ﴾ [الزمر: ٤٢] ، ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله** ﴾ [آل عمران : ١٤٥]. وقال : أنت والله منهم.

ولما دخل على يزيد بن معاوية قال له : يا عليّ ، أبوك قطع رحمي ، وجهل حقِّي ، ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما قد رأيتَ . فقال علي : ﴿ **ما أصاب من مُصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب** ﴾ [الحديد : ٢٢].

---

(١) يُريد منبر رسول الله ﷺ بعد وفاته ، وكان الحسين صبيًّا .

(٢) أخرجه الخطيب في « تاريخه » ١/١٤١ ، والحافظ في « الإصابة » ١/٣٣٣ وصحَّح إسناده . وقال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » ٣/٢٨٥ : « إسناده صحيح » .

وهل يُنبت الخطِّيّ إلا وشيجُهُ ... ويُزرعُ إلا في منابته النخلُ

هذا والله قدْر صبيان بيت النبوَّة عند الصبر على أعزِّ مُصاب وهو الحسين رضي الله عنه !!

١٤ - عبد الله بن جعفر الطيَّار رضي الله عنه :

« دخل أبو سفيان بن حرب على ابنته أُمِّ حبيبة زوج النبي ﷺ ، فرأى عندها عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما وهو صبي . فقال لها : أيْ بُنيَّة ، مَنْ هذا الغلام الذي يتضوَّع كرمًا ، ويتألَّق شرفًا ، ويتميَّع حياءً ؟ فقالت : مَنْ تظنُّه يا أبتِ ؟ فقال : أما الشمائل فهاشمية . فقالت : نعم ، هو هاشمي ، فمن تظنُّه من بني هاشم ؟ فتأمَّله ، ثم قال : إن لم يلدْه جعفر فلستُ بسدَّاد البطحاء[1] . فقال أبو سفيان : أما إنه لم يمُتْ منْ خلَّف مثل هذا .

روى صاحب كتاب « أنباء نجباء الأبناء » « أن عمر بن الخطاب قسَّم مالًا في أبناء المهاجرين ، فبدأ بأهل البيت ، وأراد أعرابي أن يدخل معهم ، فمنع ، وجاء عبد الله بن جعفر ، وهو صبيٌّ ، فلما رآه الفاروق قال : مرحبًا بابن الطيَّار ، ادخل . فسمعها الأعرابي ، فقبض على يد عبد الله وهو لا يعرفه ، لكنه سمع كلمة الفاروق ، وعلم أنه مكينٌ عنده ، فأنشأ يقول :

ألا هلْ أتى الطيّار أني مُحلَّأٌ ... عن الوردِ والفاروقُ يرأى ويسمعْ
وما ضرَّ إنْ لم ياته ذاك فابنه ... نَهُوضٌ بعبءِ الجارِ ندْب سَمَيدعْ[2]

فقال عبد الله : كنْ بمكانك يا أخا العرب . ودخل ، فأعطاه الصدِّيق

---

(١) لم يكن أبو سفيان يعرف عبد الله بن جعفر ؛ إذ كان مولودًا بالحبشة ، وقدم مع أبيه المدينة .

(٢) مُحلّأ عن الورد : أي مطرود ممنوع . الندْب : هو الذي يُنتدب في الأمور مُسارعًا إلى العون عليها . السَّمَيدع : الشريف السيِّد .

ألف درهم ، فخرج بها ، فأعطاها الأعرابي »[(١)].

١٥ - عمر بن عبد العزيز أشجُّ بني أميَّة ونجيبُها رحمه الله :

« عن أبي قبيل : أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير ، فأرسلت إليه أمُّه ، وقالت : ما يُبكيك ؟ قال : ذكرتُ الموت . قال : وكان يومئذٍ قد جمع القرآن . فبكت أمُّه حين بلغها ذلك .

وعن العتبي : أنَّ أول ما استُبين من عمر بن عبد العزيز ، أنَّ أباه ولي مصر ، وهو حديثُ السنِّ ، يُشَكُّ في بلوغه ، فأراد إخراجه ، فقال : يا أبتِ ، أوَ غيْر ذلك ؟ لعله أن يكون أنفع لي ولك : تُرَحِّلُني إلى المدينة ، فأقعد إلى فقهاء أهلها ، وأتأدَّب بآدابهم . فوجَّهه إلى المدينة ، فاشتهر بها بالعلم والعقل مع حداثة سِنِّه »[(٢)].

١٦ - الأشدق بن سعيد بن العاص :

« قال معاوية بن أبي سفيان لعمرو الأشدق بن سعيد بن العاص حين مات أبوه سعيد : يا غلام ، إلى مَنْ أوصى بك أبوك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ أبي أوْصىٰ إلي ، ولم يوصِ بي »[(٣)] .

١٧ - محمد بن المنكدر رحمه الله :

قال سفيان : تعبَّد ابن المنكدر وهو غلام ، وكانوا أهل بيت عبادة .

قال يحيى بن بكير : محمد وأبو بكر وعمر [أولاد ابن المنكدر] لا يُدرى أيهم أفضل !!

---

(١) أنباء نجباء الأبناء ص١٠٣ - ١٠٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١٦/٥ - ١١٧ .

(٣) أنباء نجباء الأبناء ص١٣٤ .

١٨ - سفيان الثوري :

« قال يحيى بن أيوب العابد : حدَّثنا أبو المثنى قال : سمعتُهم بمرو يقولون : قد جاء الثوري ، قد جاء الثوري . فخرجتُ أنظر إليه ، فإذا هو غلام قد بقل وجهه(١) .

قال الذهبي : قلتُ : كان يُنَوِّه بذكْره في صِغَره ؛ من أجل فرط ذكائه وحفظه ، وحدَّث وهو شابٌّ »(٢) .

وقال ابن مهدي : رأى أبو إسحاق السبيعي سفيان الثوري مُقبلًا ، فقال : ﴿ **وآتيناه الحكم صبيًّا** ﴾ [مريم : ١٢](٣) .

١٩ - سفيان بن عُيينة :

قال شعبة بن الحجَّاج : رأيتُ ابن عيينة غلامًا معه ألواح طويلة عند عمرو بن دينار ، وفي أُذُنه قُرط ، أو قال : شَنْف(٤) .

قال ابن عيينة : أولُ مَنْ جالستُ : عبدُ الكريم أبو أمية ، وأنا ابن خمس عشرة سنة . قال : وقرأتُ القرآن وأنا ابن أربع عشرة سنة .

وقال : كان أبي صَيْرفيًّا بالكوفه ، فركبه دَيْنٌ ، فحملنا إلى مكة ، فصرتُ إلى المسجد ، فإذا عمرو بن دينار ، فحدَّثني بثمانية أحاديث ، فأمسكتُ له حماره حتى صلَّى ، وخرج فعرضتُ الأحاديث عليه . فقال : بارك الله فيك .

---

(١) بقل وجهه ، وأبقل : خرج شَعْره .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/٢٣٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٧/٢٣٦ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٢ . الشَّنْف : ما يُعلَّق من الحُلي في أعلى الأُذُن ، والقرط ما يُعلَّق في أسفلها .

وقال : أولُ مَنْ أسندني إلى الأسطوانة مسعر بن كدام ، فقلتُ له : إني حَدَثٌ . قال : إن عندك الزهري وعمرو بن دينار .

٢٠ – الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة :

قال الذهبي : « طلب العلم وهو حَدَثٌ ، وتأهَّل للفُتيا ، وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة ، وحدَّث عنه جماعة وهو حيٌّ شابٌّ طريٌّ »(١) .

قال مالك : « قلتُ لأُمِّي : أذهبُ فأكتب العلم ؟ فقالت : تعالَ فالبسْ ثياب العلم . فألبستني ثيابًا مُشمَّرة ، ووضعت الطويلة على رأسي ، وعمَّمتني فوقها ، ثم قالت : اذهبْ فاكتب الآن . وكانت تقول : اذهبْ إلى ربيعة فتعلَّمْ من أدبه قبل علمه »(٢) .

« ويظهر أنه لهذا التحريض من أُمِّه جلس إلى ربيعة الرأي أول مرة ، فأخذ عنه فقه الرأي وهو حَدَثٌ صغير على قدْر طاقته ، حتى لقد قال بعض معاصريه(٣): رأيتُ مالكًا في حلقة ربيعة وفي أُذُنه شَنْفٌ . وهذا يدل على مُلازمته الطلب منذ صِغَره ، وكان حريصًا منذ صباه على استحفاظ ما يكتب ، حتى إنه بعد سماع الدرس وكتابته يتبع ظلال الأشجار ؛ يستعيد ما تلقَّى ، ولقد رأته أخته كذلك ، فذكرتْه لأبيها . فقال لها : يا بُنيَّة ، إنه يحفظ أحاديث رسول الله ﷺ .

وجاء في المدارك : كان لي أخٌ في سنِّ ابن شهاب ، فألقى أبي علينا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٩ ، ٥٥ .

(٢) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكي . تحقيق : د . الأحمدي أبو النور ١/١١٠ مكتبة دار التراث .

(٣) الزبيري كما جاء في الديباج المذهب ١/٩٩ .

مسألة ، فأصاب أخي ، وأخطأتُ . فقال لي أبي : ألهتك الحمام عن طلب العلم . فغضبتُ ، وانقطعتُ إلى ابن هرمز سبع سنين (وفي رواية : ثماني سنين) لم أخلطه بغيره ، وكنتُ أجعل في كُمِّي تمرًا ، وأُناوله صبيانه ، وأقول لهم : إنْ سألكم أحد عن الشيخ ، فقولوا : مشغول . وقال ابن هرمز يومًا لجاريته : مَنْ بالباب ؟ فلم تر إلا مالكًا ، فرجعتْ ، فقالت : ما ثَمَّ إلا ذاك الأشقر . فقال : فذاك عالم الناس .

وكان مالك قد اتخذ تُبَّانًا(١) محشوًّا للجلوس على باب ابن هرمز ، يتَّقي به برد حجرٍ هناك . وقيل : بل من برد صخر المسجد ، وفيه كان مجلس ابن هرمز »(٢) .

وقال مالك : « كنتُ آتي نافعًا نصف النهار ، وما تُظلُّني الشجرة من الشمس ، أتحيَّن خروجه ، فإذا خرج أَدَعُه ساعة كأني لم أُرِدْه ، ثم أتعرَّض له فأُسلِّم عليه وأدَعُه ، حتى إذا دخل البلاط أقول له : كيف قال ابن عمر في كذا وكذا ؟! فيُجيبني ، ثم أُحبس عنه ، وكان فيه حِدَّةٌ ، وكنتُ آتي ابن هرمز بُكرةً ، فما أخرج من بيته حتى الليل »(٣) .

٢١ - ناصر السنة الإمام الشافعي :

قال الشافعي رحمه الله : « كنتُ يتيمًا في حِجْر أُمِّي ، فدفعتني إلى الكُتَّاب ، ولم يكن عندها ما تُعطي المُعلِّم ، وكان المُعلِّم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام . فلما جمعتُ القرآن دخلتُ المسجد ، فكنتُ أُجالس العلماء ،

---

(١) في القاموس : التُّبَّان : السروال الصغير ، ولعل المراد أنه كان يحشو بعض الثياب بقطن ويجلس عليه يتَّقي به بْرد الحجر .

(٢) « مالك » لمحمد أبي زهرة ص٢٤ ، ٢٥ طبع دار الفكر العربي ، والمدارك جـ١١٦/١ .

(٣) الديباج المذهب ٩٩/١ .

وكنتُ أسمع الحديث والمسألة فأحفظها ، فلم يكن عند أُمِّي ما تُعطيني أشتري به القراطيس ، فكنتُ أنظر إلى العَظْم فآخذه فأكتب فيه ، فإذا امتلأ طرحتُه في جُرّة ، فاجتمع عندي حُبَّان »[١] .

وقال الشافعي : « لم يكن لي مال ، فكنتُ أطلب الحديث في الحداثة ، فكنتُ أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور فأكتب فيها » .

وقال : كان حظارنا[٢] يُسمَّى كرانيف النخل ؛ يعني أنَّا كنا نُعطي مُعلِّمنا كرانيف النخل .

وقال رحمه الله : كنتُ وأنا في الكُتَّاب أسمع المُعلِّم يُلقِّن الصبيَّ الآية فأحفظها أنا . ولقد كان الصبيان يكتبون إملاءهم ، فإلى أن يفرغ المعلِّم من الإملاء عليهم كنتُ قد حفظتُ جميع ما أملى . فقال لي ذات يوم : ما يحلُّ لي أن آخذ منك شيئًا . قال : ثم لمّا أنْ خرجتُ من الكُتَّاب كنتُ ألتقط الخزف والرُّقوق[٣] وكَرَبَ[٤] النخل وأكتاف الجمال ؛ أكتب فيها الحديث ، وأجيء إلى الدواوين ، وأستوهب منها الظهور ، فأكتب فيها ، حتى كان لأُمِّي حُبَّان ، فملأتُهما أكتافًا وخزفًا وكَرَبًا مملوءةً حديثًا .

وقال الشافعي : « رأيتُ النبي ﷺ قبل حُلُمي ، فقال لي : يا غلام ، قلتُ : لبَّيْك يا رسول الله . قال : ممن أنت ؟ قلتُ : من رهطك يا رسول الله . قال : ادنُ مني . فدنوتُ منه ، فأخذ من ريقه ، ففتحتُ فمي ، فأَمَرَّ من ريقه على لساني وفمي وشفتَيَّ ، وقال : امضِ بارك الله فيك . فما أذكر

---

(١) حلية الأولياء ٧٣/٩، مناقب الشافعي للبيهقي. تحقيق: السيد أحمد صقر ص٩٢.
والحُبُّ : هو الجُرَّة العظيمة ، والجمع : أحباب ، وحِبَبَة ، وحِباب .
(٢) الحظار : حائط النخل .
(٣) جمع رَقّ ، وهو جلد رقيق يُكتب فيه .
(٤) الكرانيف .

أني لحنتُ في حديث بعد ذلك ولا شِعْر »[1].

وقال الشافعي رحمه الله ، يذكر رحلته وهو صغير في طلب العلم : « خرجتُ من مكة فلزمتُ هُذيلًا في البادية أتعلَّم كلامها وآخذ بلغتها ، وكانت أفصحَ العرب ، فأقمتُ معهم مُدَّة ؛ أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم ، فلما أنْ رجعتُ إلى مكة جعلتُ أنشد الأشعار وأذكر أيام الناس ، فمرَّ بي رجُلٌ من الزهريين ، فقال لي : يا أبا عبد الله ، عزَّ عليَّ أن لا تكونَ في العلم والفقه ، هذه الفصاحة والبلاغة . قلتُ : مَنْ بقي ممَّنْ يقصد ؟ فقال : مالك بن أنس سيِّد المسلمين . قال : فوقع ذلك في قلبي ، وعمدتُ إلى الموطَّأ فاستعرتُه من رجل بمكة وحفظتُه، ثم دخلتُ على والي مكة ، فأخذتُ كتابه إلى والي المدينة ، وإلى مالك بن أنس ، فقدمتُ المدينة ، فبلَّغتُ الكتاب ، فلما قرأ والي المدينة الكتاب ، قال : يا بُنَيَّ ، إنَّ مشْيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيًا راجلًا أهونُ عليَّ من المشي إلى باب مالك ، فإني لستُ أرى الذُّلَّ حتى أقف على بابه . فقلتُ : إنْ رأى الأمير أن يوجِّه إليه ليحضر ، فقال : هيهات ! ليت أني إنْ ركبتُ أنا ومن معي وأصابنا ترابُ العقيق ، يقضي حاجتنا . فواعدتُه العصر ، وقصدنا ، فتقدَّم رجل وقرع الباب ، فخرجتْ إلينا جارية سوداء ، فقال لها الأمير : قولي لمولاك : إنني بالباب . فدخلتْ فأبطأتْ ، ثم خرجتْ ، فقالت : إن مولاي يقول : إن كانت مسألة فارفعها إليَّ في رقعة حتى يخرج إليك الجواب ، وإن كان للحديث فقد عرفتَ يوم المجلس فانصرفْ . فقال لها : قولي له : إنّ معي كتاب والي مكة في مُهمٍّ . فدخلتْ ، ثم خرجتْ وفي يدها كُرسيٌّ ، فوضعتْه ، فإذا بمالك رجل شيخ طوال ، قد خرج وعليه المهابة ، وهو مُتطيلسٌ . فدفع إليه الوالي الكتاب ، فبلغ إلى قوله : إن هذا رجل شريف ،

---

(١) توالي التأسيس ص٥٢ .

من أمره وحاله ، فتُحدِّثه وتفعل وتصنع ، فرمى بالكتاب من يده ، وقال : يا سبحان الله ! قد صار علم رسول الله ﷺ يؤخذ بالوسائل ! قال : فرأيتُ الوالي وهو يهابه أن يُكلِّمه ، فتقدَّمتُ إليه ، فقلتُ : أصلحك الله ، إني رجل مُطَّلبيٌّ ، من حالي وقصَّتي . فلما أن سمع كلامي نظر إليَّ ساعة ، وكانت لمالك فراسة ، فقال لي : ما اسمك ؟ فقلتُ : محمد . قال : يا محمد ، اتِّقِ الله ، واجتنبِ المعاصي ؛ فإنه سيكون لك شأن من الشأن . فقلتُ : نعم وكرامة . فقال : إذا كان غدًا تجيء ، ويجيء مَنْ يقرأ لك الموطَّأ . فقلتُ : إني أقرأ ظاهرًا . قال : فغدوتُ إليه وابتدأتُ ، فكلما تهيَّبتُ مالكًا وأردتُ أن أقطع ؛ أعجبه حُسْنُ قراءتي وإعرابي ، يقول : يا فتى ، زدْ ، حتى قرأتُه عليه في أيام يسيرة ، ثم أقمتُ بالمدينة إلى أن تُوفِّي مالك بن أنس رضي الله عنه »[(١)] .

« وقال الشافعي رحمه الله : أتيتُ مالك بن أنس وأنا ابن ثلاث عشرة سنة ، وكان ابنُ عمٍّ لي والي المدينة ، فكلَّم لي مالكًا ، فأتيتُ لأقرأ عليه ، فقال : اطلبْ مَنْ يقرأ لك . فقلتُ:أنا أقرأ . قال : فقرأتُ عليه ، وكان ربما قال لي لشيء قد مرَّ : أعدْ حديث كذا ، فأُعيده حفظًا ، فكأنه أعجبه ، ثم سألتُه عن مسألة فأجابني ، ثم أخرى ، ثم أخرى ، فقال : أنت يجب أن تكون قاضيًا » .

قال مالك بن أنس للشافعي : « إن الله عزَّ وجلَّ قد ألقى على قلبك نورًا فلا تُطفئه بالمعصية »[(٢)].

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ص١٠٢ - ١٠٣ ، الحلية ٦٩/٩ ، وتوالي التأسيس ص٥١ .

(٢) مناقب الشافعي ص١٠١ ، ١٠٤ .

٢٢ - إمام أهل السنة أحمد بن حنبل :

« عن إبراهيم بن شماس ، قال : كنتُ أعرف أحمد بن حنبل وهو غلام ، وهو يُحيي الليل »[(١)] .

قال أبو بكر المروزي : قال لي أبو عفيف ، وذكر أبا عبد الله أحمد ابن حنبل ، فقال : كان في الكُتَّاب معنا وهو غُليم نعرف فضْله ، وكان الخليفة بالرقَّة ، فيكتب الناس إلى منازلهم الكتب ، فيبعث نساؤهم إلى المُعلِّم : ابعثْ إلينا بأحمد بن حنبل ؛ ليكتب لهم جواب كُتُبهم ، فيبعثه ، فكان يجيء إليهن مُطأطِىء الرأس ، فيكتب جواب كُتُبِهن ، فربما أملين عليه الشيء من المنكر ، فلا يكتبه لهنَّ .

قال المروزي : قال لي أبو سراج بن خزيمة : كنا مع أبي عبد الله في الكتاب ، فكان النساء يبعثن إلى المُعلِّم : ابعثْ إلينا بابن حنبل ؛ ليكتب جواب كتبهم ، فكان إذا دخل إليهن لا يرفع رأسه ينظر إليهن . قال أبو سراج : فقال أبي وذكره ، فجعل يعجب من أدبه وحُسْن طريقته ، فقال لنا ذات يوم : أنا أُنفق على ولدي وأجيئهم بالمؤدِّبين على أن يتأدَّبوا فما أراهم يُفلحون ، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم ، انظر كيف يخرج ؟! وجعل يعجب .

وقال داود بن بسطام : أبطأَتْ عليَّ أخبارُ بغداد ، فوجَّهتُ إلى عمِّ أبي عبد الله بن حنبل : لم تصل إلينا الأخبار اليوم ! وكنتُ أُريد أن أُحرِّرها وأُوصلها إلى الخليفة . فقال لي : قد بعثتُ بها مع أحمد ابن أخي . قال : فبعث عمَّه ، فأحضر أبا عبد الله وهو غلام . فقال : أليس قد بعثتُ معك الأخبار ؟ قال : نعم ! قال : فلأي شيء لم توصلْها ؟ قال : أنا كنتُ أرفع

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/٢٢٨ .

تلك الأخبار !! رميتُ بها في الماء . قال : فجعل ابن بسطام يسترجع ويقول : هذا غلام يتورَّع ، فكيف نحن !! .

قال الخـلَّال : حدَّثنا محمد بن علي ، قال : حدَّثني أبو المنبه جارنا ، قال : أول شيء عُرف من أحمد بن حنبل ، أن عمَّه كتب في جواب كتاب بعث به السلطان ، فدفعه إلى أحمد بن حنبل يدفعه إلى الرسول ، فلم يدفعه أحمد إليه ، ووضعه في طاقٍ في منزلهم ، وطلب الرسول الجواب ، فقال عمُّه : قد وجَّهتُ به إليك . ثم قال لأحمد : أين الكتاب الذي أمرتُك أن تدفعه إلى الرسول على الباب ؟ فقال له : كان عليه قباء[1]، وهو ذا الكتاب في الطاق[2] .

قال الإمام أحمد حاكيًا طلبَه للحديث في صِغَره : « كنتُ ربما أردتُ البكور في الحديث ، فتأخذ أُمِّي بثيابي ، وتقول : حتى يؤذِّن الناس ، أو حتى يُصبحوا ، وكنتُ ربما بكَّرتُ إلى مجلس أبي بكر بن عيَّاش وغيره »[3] .

هذه والله الرجولة في الصِّبا !!

٢٣ - أدبُ الصبيَة من أبناء الخلفاء :

« قال معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد ، وله من العمر سبع سنين : في أية سورة أنت ؟ قال : في السورة التي تلي ﴿ **إنا فتحنا لك فتحًا مُبينًا ليغفر لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ويُتمَّ نعمته عليك ويهديَك**

(١) لعل ابن حنبل أدرك من لبس الرسول القباء أنه رسول الخليفة ، وهو يكره التعامل مع الخلفاء ؛ لشدَّة تورُّعه .
(٢) مناقب أحمد بن حنبل ص٤٣ - ٤٥ لابن الجوزي . تحقيق : د . عبد الله بن عبد المحسن التركي مكتبة الخانجي بمصر .
(٣) مناقب أحمد بن حنبل ص٥٠ .

صـراطًا مُستقيمًا وينصرَك الله نصـرًا عزيزًا ﴾ [الفتح: ١- ٣]. فقال معاوية : يا بُنيَّ ، إن هذه السورة بين سورتين ، فأيهما عنيْتَ ؟ قال : السورة التي أولها:﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على محمد وهو الحقُّ من ربهم كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ [محمد: ٢] . فتمثَّل معاوية بقول حذافة بن غانم العدوي ، حيث يقول :

ملـوكٌ وأبنـاءُ الملـوكِ وسـادةٌ تَفَلَّق عنهم بيضةُ الطائرِ الصقرِ[1]
متى تَلْقَ منهم ناشئًا في شَـبَابِهِ تجِدْه على أعـراقِ والـدِه يجـري

وقال له يومًا : لو قال لك قائل : مَنْ قومك ، ماذا تقول له ؟ قال : أقول له : سلامًا . قال : أحسنتَ . وإنما أراد يزيد قول الله سبحانه : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] »[2].

٢٤ - المأمـون بن الرشـيد :

« قال الكسائي : بكَّرتُ يومًا إلى المكتب من دار الرشيد ، وأرسلتُ إلى عبد الله المأمون أشعرُه بحضوري ، فتشاغل باللعب وأبطأ ، فلما جاء ضربتُه ، وبينا هو يبكي ؛ استأذن عليه جعفر بن يحيى ، فاستوى على مضربته ، وجمع عليه ثيابه ، ومسح عينيه ، ثم قال للحاجب : يُؤذن له ، فلما دخل خشيتُ أن يشكوني إلى جعفر فيُسيء إليَّ ، فلما دخل رحب به ، وقرَّبه ، وتبسَّم إليه ، وحادثه ، ثم نهض جعفر ، فأمر بدابَّته فقُدِّمت إليه ، فأمر المأمون غلمانه بالسعي بين يديه . قال الكسائي : فلما خرج قلتُ للمأمون : لقد كنتُ مُشفقًا أيها الأمير أن تشكوني إلى جعفر !! فقال : أين يذهبُ بك عافاك الله ، أنا أُري جعفرًا أني أُحوجُ نفسي إلى الأدب ، والله

---

(١) تَفَلَّق تتفلّق ، وفراخ الصقر قليلة ولكنها عزيزة .
(٢) أنباء نجباء الأبناء ص١٣٠ - ١٣١ .

ما يطمع الرشيد مني في هذا ، خذْ في أمرك عافاك الله »[١].

وانظر إلى دقَّة ملاحظته وعُلُوِّ همَّته :

« قيل : إنَّ الكسائيَّ كان لا يفتح على ولد الرشيد إذا غلطوا في العرض عليه ، وإنما كان ينكس طرفه ، فإذا غلط أحدهم نظر إليه ، وربما يضرب الأرض بخيزرانة في يده ، فإن سدّد القارئ للصواب مضى ، وإلا نظر في المصحف . فافتتح المأمون يومًا سورة الصفِّ ، فلما قرأ ﴿ **يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون** ﴾ نظر إليه الكسائي ، وتأمَّل المأمون في المصحف ، فإذا هو مُصيب ، فمضى في قراءته . ولما انقلب إلى الرشيد قال له : إن كان أمير المؤمنين وعد الكسائيَّ وعدًا فإنه يستنجزه . قال : إني وعدتُه أن آمر لبعض القُرَّاء بصلة . أفهذا الذي قال لك ؟ قال المأمون : لم يقل لي شيئًا . وأخبره بالأمر ، فتمثَّل الرشيد بقول الشاعر في ثابت بن عبد الله بن الزبير :

ورثتَ أبا بكر أباك بَيَانَه وسيرتُه في ثابتٍ وشمائلُهْ
وأنت امرؤ تُرجى لخيرٍ وإنما لكلِّ امرىءٍ ما ورَّثته أوائلُهْ[٢]

٢٥ - الراضي محمد بن جعفر :

« حكى الحسن العَروضيّ مؤدّب الراضي محمد بن جعفر المقتدر بالله ، أن الراضي كتب إلى أبيه المقتدر رقعة ، فقرمط[٣] فيها خطَّه ، وكان إذا مشق[٤] في خطِّه ومطَّط حروفه أجاد ، فقلتُ له : كأنك قصدتَ ما أرى ؟ قال : نعم . فقلتُ : ولِمَ ؟ قال : إنَّ مطَّ الحروف نوع من الجراءة ،

---

(١) أنباء نجباء الأبناء ص١٤٤ .

(٢) أنباء نجباء الأبناء ص١٤٧ .

(٣) قصَّر حروف خطِّه .

(٤) مشق في خطِّه : أسرع .

والقلم نائب اللسان ، فهل يصلح أنْ أمطَّ لساني في خطاب والدي . قال العروضي : فجعلتُ أنظر إليه نظر مُتعجِّبٍ . فقال : ما لك يا أستاذ ؟ قلتُ : أنَّى لك هذا ؟! قال : يا أستاذ ، إن آدابنا مولودة معنا . قلتُ : أشهد أنك صادق »[١].

٢٦ - مخلد بن يزيد بن المهلب :

« سوَّدته الأزد وله اثنتا عشرة سنة ، فقال حمزة بن أبيض يُخاطبه بذلك :

بلغتَ لعشرٍ مضتْ مِن سنـيِّـك ما يبلغُ السيِّدُ الأشيبُ
فهمَّك فيها جسامُ الأمورِ وهمُّ لدَاتِك أن يلعبوا »[٢]

٢٧ - الحسن وسليمان ولدا وهب بن سعيد :

« أوصى وهب بن سعيد إلى رجل من أهل واسطٍ ، كان ثقة مأمونًا مُوسِرًا ، يتحرَّف بصناعة الخرز ويتَّجر في الجلود ، فأعطاه مالًا عظيمًا ، وأسلم إليه ولَدَيْه : الحسن وسليمان ، وهما صغيران ، ثم توجَّه إلى بغداد فهلك في طريقه غَرَقًا . وبلغ ذلك الوصيَّ ، فأخبر به الصبيَّيْن ، وقال لهما : اختارا حرفتين تتحرَّفان إليهما ، وإن أحببتما الخرازة وبيْع الجلود بصَّرتُكما ، ولكما عندي مال سأشتري لكما به ضياعًا تستظهران بها على أحداث الزمان . فقالا : ما لنا ولحِرِفِ العوامِّ وصناعتهم !! وإنما حرفةُ أمثالنا خرزُ أعناق الرجال في القراطيس[٣]، فتهيَّبهما الوصيُّ ، ورأى بزًّا[٤] ليس من سوقه ،

---

(١) أنباء نجباء الأبناء ص١٦١ ، ١٦٢ .
(٢) أنباء نجباء الأبناء ص١٦٥ .
(٣) المقصود : السيطرة على أعناق الرجال والحكم عليها بما نشاء .
(٤) البزُّ : الثوب ، يقصد نوعًا جديدًا من الصبيان غير مَنْ يعرفهم .

وضمَّ إليهما مَنْ يُؤدِّبهما ، ويُصلح من شأنهما ، فلما اشتدا قالا لوصيِّهما : إن واسط لا تفي بما نرومه من العلم ونُؤمِّله من الرياسة . فقال لهما : ما مثلكما يُوَلَّى عليه ، فأْمُراني بأمركما أُطعْه . فقالا : جهِّزْنا إلى مُعترض العلماء ، ومُستقرِّ الخلفاء . فجهَّزهما إلى بغداد ، ودفع إليهما من المال ما أراداه . ولما صارا إلى بغداد نالا ما أمَّلاه من العلم والرياسة ، وكتبا معًا في دار المأمون وهما غلامان »[1] .

قالت أُمُّ جعفر بن يحيى : لقد كنا ننهى الصبيَّ إذا بلغ العشر أن يتبسم بحضرة مَنْ يستحي منه .

٢٨ - صبيٌّ بين يدي المأمون :

« قال الحافظ إبراهيم بن سعيد الجوهري : رأيتُ صبيًّا ابن أربع سنين قد حُمل إلى المأمون ، قد قرأ القرآن ، ونظر في الرأي ، غير أنه إذا جاع ؛ بكى »[2].

٢٩ - أبو محمد بن اللبَّان :

« قال أبو محمد بن اللبَّان : حفظتُ القرآن وَلِيَ خمسُ سنين »[3].

٣٠ - الزعفراني شيخ الفقهاء والمحدِّثين :

« قال الزعفراني : قدم علينا الشافعي واجتمعنا إليه . فقال : التمسوا مَنْ يقرأ لكم . فلم يجترئ أحد أن يقرأ عليه غيري ، وكنتُ أحدَثَ القوم سنًّا ، ما كان بعدُ في وجهي شعرة ، وإني لأتعجَّبُ اليوم من انطلاق لساني ، بين يدي الشافعي رحمه الله ، وأعجب من جسارتي يومئذٍ ، فقرأتُ عليه

---

(١) أنباء نجباء الأبناء ص١٧٨ ، ١٧٩ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/١٥٠ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/١٥٠ .

الكتب كلها إلا كتابين : « كتاب المناسك » و « كتاب الصلاة » .

وقال رحمه الله : لما قرأتُ « الرسالة » على الشافعي ؛ قال لي : من أي العرب أنت ؟ قلتُ : لستُ بعربيٍّ ، وما أنا إلا من قرية يُقال لها : الزعفرانية . قال : فأنت سيِّدُ هذه القرية »(١).

٣١ - الحافظ عبد الرحمن بن بشر النيسابوري :

قال ابن بشر : أقامني يحيى القطّان في مجلسه ، فقال : ما حدَّثكم عني هذا الصبيُّ فصدِّقوه ، فإنه كيِّسٌ .

قال الذهبي : « كان ارتحال أبيه به في سنة ستٍّ وتسعين ، وهو نحو المحتلم . قال عبد الرحمن بن بشر : حملني أبي على عاتقه في مجلس سفيان ابن عُيينة ، وقال : يا معشر أصحاب الحديث ، أنا بشر بن الحكم ، سمع أبي من سفيان بن عيينة ، وسمعتُ أنا منه وحدَّثتُ عنه بخراسان ، وهذا ابني قد سمع منه .

قال عبد الرحمن : احتلمتُ باليمن مع أبي .

وقال : احتلمتُ ، فدعا أبي عبدَ الرزاق وأصحاب الحديث الغرباء ، فلما فرغوا من الطعام ؛ قال : اشهدوا أن ابني قد احتلم ، وهو ذا يسمع من عبد الرزَّاق ، وقد سمع من سفيان بن عيينة »(٢).

٣٢ - بندار محمد بن بشَّار :

كان بندارَ الحديث في عصره ببلده . والبندار : الحافظ .

« قال بندار : كتب عني خمسة قرون ، وحَدَّثتُ وأنا ابن ثماني عشرة سنة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٢٦٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/٣٤١ - ٣٤٢ .

وقال رحمه الله : سألوني الحديث وأنا ابن ثماني عشرة سنة ، فاستحييتُ أن أُحدِّثهم في المدينة ، فأخرجتُهم إلى البستان ، وأطعمتُهم الرُّطَبَ وحدَّثتُهم »[١].

٣٣ – البخاري إمام الدنيا وأستاذ الأستاذين :

ذهبت عيناه في صِغَره ، فرأتْ والدته في المنام إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقال لها : يا هذه ، قد ردَّ الله على ابنك بصره ؛ لكثرة بكائك ، أو كثرة دعائك . فأصبحنا وقد ردَّ الله عليه بصره .

قال البخاري رحمه الله : « أُلهمتُ حفْظ الحديث وأنا في الكُتَّاب . فقلتُ : كم كان سِنُّك ؟ فقال : عشر سنين ، أو أقلّ . ثم خرجتُ من الكُتَّاب بعد العشر ، فجعلتُ أختلف إلى الداخليِّ وغيره . فقال يومًا فيما كان يقرأ للناس : سفيان ، عن أبي الزبير ، عن إبراهيم ، فقلتُ له : إنّ أبا الزبير لم يروِ عن إبراهيم . فانتهرني ، فقلتُ له : ارجع إلى الأصل . فدخل فنظر فيه ، ثم خرج ، فقال لي : كيف هو يا غلام ؟ قلتُ : هو الزبير بن عدي عن إبراهيم ، فأخذ القلم مني ، وأحكم كتابه ، وقال : صدقتَ . فقيل للبخاري : ابن كم كنتَ حين رددتَ عليه ؟ قال : ابن إحدى عشرة سنة . فلما طعنتُ في ست عشرة سنة ؛ كنتُ قد حفظتُ كُتُب ابن المبارك ووكيع ، وعرفتُ كلام هؤلاء[٢]، ثم خرجتُ مع أُمِّي وأخي أحمد إلى مكة ، فلما حججتُ رجع أخي بها ، وتخلَّفتُ في طلب الحديث »[٣].

---

(١) تاريخ بغداد ١٠٢/٢ ، سير أعلام النبلاء ١٤٥/١٢ ، ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) قال ابن حجر في مقدمة الفتح (٤٧٩) : يعني أصحاب الرأي .

(٣) تاريخ بغداد ٧/٢ و «تهذيب الكمال» (١١٦٩) ، و «طبقات الشافعية» ٢١٦/٢ و « سير أعلام النبلاء » ٣٩٣/١٢ .

وقال : « لما طعنتُ في ثماني عشرة ، جعلتُ أُصنِّف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم »[١] .

وكان شيخه السُّرماري يُجلسه وهو صغير على حِجْره ويقول : مَنْ أراد أن ينظر إلى فقيه بحقِّه وصدْقه فلينظر إلى محمد بن إسماعيل .

« قال أبو جعفر محمد بن أبي حاتم : سمعتُ بعض أصحابي يقول : كنتُ عند محمد بن سلام ، فدخل عليه محمد بن إسماعيل ، فلما خرج قال محمد بن سلام : كلما دخل عليَّ هذا الصبيُّ تحيَّرتُ ، وألبس عليَّ أمْر الحديث وغيره ، ولا أزال خائفًا ما لم يخرج »[٢] .

هذي طفولة طبيب الحديث في عِلَله ... مثالٌ يُحتذى ، ومنارةٌ للربانيِّين أهل الآخرة !!

٣٤ - الحافظ أحمد بن الفرات الرازي :

قال عنه الذهبي في « السير » ٤٨١/١٢ : « طلب العلم في الصِّغَر ، وعُدَّ من الحفَّاظ وهو شابٌّ أمرد » .

قال أبو مسعود أحمد بن الفرات الرازي : كتبتُ الحديث وأنا ابن اثنتي عشرة سنة .

قال الذهبي : « قلتُ : بكَّر بطلب العلم ، لأنَّ أباه من أهل الحديث أيضًا .

وعن أبي مسعود قال : ذُكِرْتُ بالحفظ ، ولَي ثماني عشرة سنة ، وسُمِّيتُ : الرُّويْزي[٣] الحافظ »[٤] .

---

(١) تاريخ بغداد ٧/٢ .
(٢) طبقات السبكي ٢٢٢/٢ ، وسير أعلام النبلاء ٤١٦/١٢ - ٤١٧ .
(٣) تصغير الرازي .
(٤) سير أعلام النبلاء ٤٨٥/١٢ ، « الوافي بالوفيات » ٢٩٤/٤ .

سبحان الله ! يُطلق عليه الحافظ وهو ابن ثماني عشرة سنة ، وغيره تطول به السنون ولا يعي في العلم قيد أُنمُلة !!

٣٥ - أبو الفوارس السندي :

« قال ابن نظيف : قال لنا أبو الفوارس السندي : وُلدتُ في المُحرّم سنة خمس وأربعين ومائتين ، وأول ما سمعتُ الحديث ولَي عشر سنين »[١].

٣٦ - الحافظ محمد بن عوف الحمصي :

« قال عنه أحمد بن حنبل : ما كان بالشام منذ أربعين سنة مثل محمد ابن عوف .

قال محمد بن عوف : كنتُ ألعب في الكنيسة بالكرة وأنا حَدَثٌ ، فدخلتِ الكرةُ ، فوقعتْ قُرْبَ المعافى بن عمران الحمصي ، فدخلتُ لآخذها ، فقال : ابنُ مَنْ أنت ؟ قلتُ : ابن عوف بن سفيان . قال : أما إن أباك كان من إخواننا ، فكان ممَّن يكتب معنا الحديث والعلم ، والذي كان يُشبهك أن تتبع ما كان عليه والدك . فصرتُ إلى أُمِّي ، فأخبرتُها ، فقالت : صدقَ ، هو صديقٌ لأبيك . فألبستْني ثوبًا وإزارًا ، ثم جئتُ إلى المُعافى ، ومعي محبرة وورق . فقال لي : اكتبْ : حدَّثنا إسماعيل بن عيَّاش ، عن عبد ربه بن سليمان ، قال:كتبتْ لي أُمُّ الدرداء في لوحي : اطلبوا العلم صِغارًا ؛ تعملوا به كبارًا ، فإن لكل حاصد ما زرع »[٢].

٣٧ - الحافظ أبو بكر الأثرم تلميذ الإمام أحمد :

« قال أبو بكر الخلَّال : كان الأثرمُ جليلَ القدر ، حافظًا ، وكان عاصم بن علي لما قدم بغداد ، طلب رجلًا يُخرِّج له فوائد يُمليها ، فلم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤٩٦/١٢ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٦١٥/١٢ .

يجد في ذلك الوقت غير أبي بكر الأثرم ، فكأنه لما رآه لم يقع منه موقعًا ؛ لحداثة سِنِّه . فقال له أبو بكر أخرجْ كُتُبَك ، فجعل يقول له : هذا الحديث خطأ ، وهذا غلط ، وهذا كذا . قال : فَسُرَّ عاصم بن علي به ، وأملى قريبًا من خمسين مجلسًا ، فعرضتُ على أحمد بن حنبل . فقال : هذه أحاديث صحيح »(١) .

قال الذهبي : « كان معه تيقُّظٌ عجيبٌ ، حتى نسبه يحيى بن معين ، ويحيى بن أيوب المقابري ، فقال : كان أحدُ أبوي الأثرم جنِّيًّا »(٢).

٣٨ - الإمام أبو زرعة الرازي سيِّدُ الحفَّاظ :

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » ٦٦/١٣ : « طلب هذا الشأن وهو حَدَثٌ .

وقال أحمد بن محمد بن سليمان الرازي الحافظ عن طلب أبي زرعة للحديث : وُلد أبو زرعة سنة أربع وتسعين ومائة ، وارتحل من الرّيّ ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وأقام بالكوفة عشرة أشهر ، ثم رجع إلى الرّيّ ، ثم خرج في رحلته الثانية ، وغاب عن وطنه أربع عشرة سنة ، وجلس للتحديث وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة »(٣) .

قال يونس بن عبد الأعلى : أبو زرعة أشهر في الدنيا من الدنيا .

٣٩ - الإمام الحافظ ابن أبي حاتم الرازي :

قال عنه الذهبي : « كان بحرًا لا تُكدِّرُه الدِّلاء .

وُلد سنة أربعين ومائتين ، أو إحدى وأربعين .

---

(١) طبقات الحنابلة ٧٢/١، وتذكرة الحفاظ ٥٧١/٢، سير أعلام النبلاء ٦٢٥/١٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٦٢٥/١٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٦٦/١٣ ، ٧٨ .

قال ابن أبي حاتم رحمه الله : رحل بي أبي سنة خمس وخمسين ومائتين وما احتلمتُ بعدُ ، فلما بلغنا ذا الحُليفة ، احتلمتُ ، فسُرَّ أبي ، حيث أدركتُ حَجَّة الإسلام ، فسمعتُ في هذه السنة من محمد بن أبي عبد الرحمن المقرئ »[1] .

فكيف بصحبته لأبيه قبل ذلك !!

٤٠ - أبو زرعة الدمشقي مُحدِّث الشام :

« قال عنه ريحانة الشام أحمد بن أبي الحواري : هو شيخ الشباب .

قال أبو زرعة : أُعجب أبو مسهر بمجالستي إيَّاه صغيرًا »[2].

٤١ - الدَّبري ، راوية عبد الرزاق :

« الشيخ العالم المُسنِد أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الدَّبري راوية عبد الرزاق . سمع تصانيفه منه في سنة عشر ومائتين باعتناء أبيه به ، وكان حَدَثًا ، فإن مولده على ما ذكره الخليلي في سنة خمس وتسعين ومائة وسماعه صحيح »[3] .

وحدَّد الذَّهبي سِنَّه في الميزان ١/١٨١ عند سماعه من عبد الرزاق بأنه سبع سنين أو نحوها .

٤٢ - الإمام محمد بن جرير الطبري :

« قال تلميذه أبو بكر بن كامل الشجري القاضي : قال لي أبو جعفر : حفظتُ القرآن ولَي سبع سنين ، وصلّيتُ بالناس وأنا ابن ثماني سنين ، وكتبتُ الحديث وأنا ابن تسع سنين ، ورأى لي أبي في النوم أنني بين يدي

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٦٣/١٣ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٦٢٤/٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤١٦/١٣ - ٤١٧ .

رسول الله ﷺ وكان معي مِخْلاة مملوءة حجارةً ، وأنا أرمي بين يديه . فقال المُعبِّر : إنه إن كَبِرَ نصح في دينه ، وذبَّ عن شريعته . فحرص أبي على معونتي على طلب العلم وأنا حينئذٍ صغير »(١).

٤٣ - الخليفة العباسي أبو العباس المعتضد بالله :

« روى التنوخي عن أبيه قال : رأيتُ المعتضد وكان صبيًّا ، عليه قباء أصفر ، وقد خرج إلى قتال وصيف بطرسوس »(٢).

٤٤ - ابن الرَّوَّاس مُسنِد دمشق :

« سمع أبا مسهر الغساني .

قال ابن الرواس : سمعتُ من أبي مسهر وأنا ابن إحدى عشرة سنة »(٣).

٤٥ - سيِّد الطائفة الجُنيد رحمه الله :

قال الذهبي : « قيل لي : إنه قال مرة : كنتُ أُفتي في حلقة أبي ثور الكلبي ولِيَ عشرون سنة .

قال الجُنيد : كنتُ بين يدي السَّرِّيّ ألعب وأنا ابن سبع سنين ، فتكلَّموا في الشكر . فقال : يا غلام ، ما الشكر ؟ قلتُ : أن لا يُعصى الله بنعمه . فقال : أخشى أن يكون حظُّك من الله لسانك . قال الجنيد : فلا أزال أبكي على قوله »(٤).

يرحم الله الجُنيد ! وهل يُحدُّ الشكر بأكثر من هذا .. إن كان هذا كلامه وهو صبيٌّ في لعبه ، فكيف بكلامه بعد نضوجه !! كيف بإشاراته !! كيف بعباراته !!

---

(١) تاريخ بغداد .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٤٦٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/٥٠٥ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٤/٦٨ ، حلية الأولياء .

٤٦ - معروف الكرخي :

قال الإمام أحمد بن حنبل : وهل يُراد من العلم إلّا ما وصل إليه معروف .. كان معه رأس الأمر ؛ خشية الله تعالى .

قال محمد بن المظفر: « روي لنا أن أبا محفوظ معروف بن فيروز الكرخي كان أبواه فارسيَّيْن نصرانيَّيْن ، فأسلماه وهو صغير إلى من يُعلِّمه كتابهم ، فكان يقول له : قُلْ : أب وابن وزوجة . فيقول معروف : إله واحد ، فيضربه المُعلِّم ، ثم يعود لتعليمه ، فيأبى إلّا أن يقول : إله واحد . وضربه المُعلِّم يومًا من الأيام ضربًا مُبرحًا ، فهرب معروف ، فلم يُطق أبواه صبرًا ، وكادا يهلكان جزعًا عليه . وكانا يقولان : ليتنا لو وجدناه على أي دين كان عليه فندين بدينه . ولم يزل معروف يسير في الأرض حتى لقي عليَّ بن موسى الرضا- وهو غلام- فأسلم على يديه، وتولَّاه وخدمه مُدَّةً طويلة، ثم عاد إلى أهله بعد ذلك، فقرع الباب على أبويه ليلًا، فقالا: مَنْ؟ قال: معروف. قالا قبل أن يفتحا له الباب: على أي دين أنت؟ قال: على دين الإسلام. قالا: ادخل، فنحن على دينك. وأسلما، وجمع الله شملهم على الهدى.

وبلغني أن معروفًا كلَّم أبويه في أمْر دينهما بكلام كرهاه ، فقالتْ أُمُّه لأبيه : إن ابنك طفلٌ لا يُحسن هذا الكلام ، وإنما أفسده عليك بعض المسلمين ، فاحبسْه في بيتك ، فإن ذلك أنفع له . فحبسه في خزانة بيته أيَّامًا ، ثم رقَّ عليه فأخرجه ، فعاد إلى الخزانة ، وكان بعد ذلك لا يخرج منها إلا أن يُخرجوه كرْهًا . فقال له أبوه : إلى كم لا تبرح في هذه الخزانة ؟ فقال : إني وجدتُ فيها الذي زعمتما أنه أفسدني عليكما . قال أبوه : مَنْ هذا ؟ فصمت عنه . قال أبوه لأُمِّه : هذا عملُكِ !! لقد خُلط ولدي في عقله !! وانطلق به إلى راهب ، فقصَّ عليه خبره ، وسأله أن يرقيه ويُعوِّذه . فقال له الراهب : مَنِ الذي أفسدك على أبويك ؟ قال : قلبي ، ما زال يُفكِّر

في الذي فطر الأرض والسماء ، ويُفكِّر في حالهما ومآلهما . قال الراهب : وما الذي تراه يا معروف ؟ قال : أرى أنَّ واحدًا عمل الأشياء كلها ، ولا يصحُّ أن يُشبهه شيء منها ؛ لأنه لو أشبه شيئًا منها لكان معمولًا مثلها . فقال الراهب : مكانك حتى أخرج إليك . ودخل صومعته ، فأخرج دواةً ورقًّا ، ثم أعاد المسألة على معروف ، وكتب جوابه ، وقال لفيروز : يا فيروز ، لولا أنك قلت لي : إنه ابني ؛ لقلتُ : إنه من تلاميذ الملائكة . فانصرف فيروز بابنه مسرورًا . قال معروف : فحدَّثتُ بذلك مولاي علي ابن موسى الرضا ، فقال : إنك من تلاميذ الملائكة »[١].

٤٧ - شيخ الشام أبو عبد الله ابن الجلَّاء :

قال ابن الجلَّاء : ما جلا أبي شيئًا قطُّ ، ولكنه كان يعظ ، فيقع كلامه في القلوب ؛ فسُمِّي جلّاء القلوب .

« قال ابن الجلّاء : قلتُ لأبي وأُمِّي : أُحِبُّ أن تهباني لله . قالا : قد وهبناك لله . فغبتُ عنهما مُدَّةً ، فرجعتُ من غيبتي - وكانت ليلة مطيرة - فدققتُ عليهما . فقالا : مَنْ ؟ قلتُ : ولدُكما . قالا : كان لنا ولدٌ فوهبناه لله ، ونحن من العرب لا نرجع فيما وهبنا . وما فتحا لي الباب »[٢].

وفي رواية : أن أُمَّه قالت له لما قال : أُحِبُّ أن تهباني لله . فقالت : لا تصلح للمُلك ، فعليك بالعبادة . فأخذ يجدُّ فيها وهو صغير ، وبعد فترة قالت له : الآن تصلح أن نهبك لله ...

والله إن موقف ابن الجلَّاء ووالديه يعجز عنهما اللسان !! .

٤٨ - سهل بن عبد الله التستري شيخ عصره :

قال محمد بن مظفر : « إن سهل بن عبد الله التستري لما بلغ من

(١) أنباء نجباء الأبناء ص١٨٥ - ١٨٧ .
(٢) حلية الأولياء ١٠/٣١٥ .

عمره ثلاث سنين ؛ كان يسهر الليل ينظر إلى صلاة خاله محمد بن سوار ، وربما قال له خاله : قُمْ يا بُنيَّ ، فقد شغلتَ قلبي . ولمّا رأى خاله ذلك قال له : ألا تذكر الله الذي خلقك ؟ قال : كيف أذكره ؟ قال : قل : الله معي ، الله شاهدي ، الله ناظرٌ إليَّ ؛ كل ليلة ثلاث مرات . ففعل ذلك ليالي . ثم قال له خاله : قُلْه سبع مرات في كل ليلة . فلبث على ذلك مدة ، ثم قال له خاله : قلْهُ إحدى عشرة مرة في كل ليلة . ففعل ذلك زمانًا .

قال سهل : فوجدتُ في نفسي وقلبي حلاوة لذلك ، فأخبرتُ خالي ، فقال : يا سهل ، مَنْ كان الله معه ، وشاهدًا عليه ، وناظرًا إليه ، كيف يعصيه ؟!! إيَّاك أن تعصي الله .

وبلغني أن أبا محمد سهلًا حفظ القرآن وهو ابن ستِّ سنين ، وكان يُفتي في مسائل الزهد والورع ومقامات الإرادة وفقه العبادة وهو ابن اثنتي عشرة سنة .

ولما بلغ ثلاث عشرة سنة عرضت له مسألة فلم يجد بتستر مَنْ يُجيبه عنها ، فقال لأهله : جَهِّزوني إلى البصرة . فلم يجد بالبصرة مَنْ يستفتيه ، فذُكر له حمزة بن عبد الله بعبدان . فقصدها ، ولقي حمزة ، فوجد عنده ما يُريد ، وصَحِبَه .

قال محمد بن مظفر : ومن عجيب أجوبته ؛ ما بلغني أن رجلًا من ذوي اليسار كان جارًا لخاله ، فحجَّ الرجل ثم قفل إلى أهله ، فذهب خاله ليُهنِّئه ، وتبعه سهل ، فلما جلسا أقبل الرجل يُحدِّث خال سهل عمَّن لقي من الفضلاء بمكة ، وعن حجَّته ، إلى أن قال : وشُغلتُ عن طواف الوداع بكذا وكذا ، ثم التفت إلى سهل كالمُمازح له ، وهو إذْ ذاك لم يبلغ اثنتي عشرة سنة ، إلا أنه كان مقصودًا بالمسائل ، معروفًا بالإجادة في جواب

ما يُسأل عنه : ما تقول أنت يا أستاذ في مَنْ ترك طواف الوداع ؟ فأنشده سهل رضي الله عنه :

ولما تذكَّرتُ المنازل والحمى ... ولم يُقضَ لي تسليمة المُتزوِّدِ
زفرتُ إليها زفرةً لو حشوتُها ... سرابيلَ أدراع الحديدِ المسرَّدِ
لذابتْ حواشيها وظلَّت لحرِّها ... تلينُ كما لانَت لداود في اليدِ

فوثب الرجل وثبة ملسوعٍ ، ونزع ثيابه ، ولبس ثوبَيْ إحرامه ، وصاح : لبَّيك اللهمَّ لبَّيْك بحجة . وتجهَّز عائدًا إلى مكة .

وروى عبد الرحمن بن محمد صاحب كتاب « صفة الأولياء ، ومراتب الأصفياء » بإسناده ، قال : ذكر سهل الله ، وهو ابن ثلاث سنين ، وصام وهو ابن خمس سنين حتى مات ... وساح في طلب العلم وهو ابن تسع سنين ، وكانت تُلقى مشكلات المسائل على العلماء ، ثم لا يُوجد جوابها إلا عنده ، وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وحينئذٍ ظهرت عليه الكرامات ، والله أعلم »[(١)].

٤٩ - الرامَهُرْمُزي صاحب كتاب « المُحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي »:

قال عنه الذهبي : وما أحسنه من كتاب !

قال الذهبي في السير ٧٣/١٦ : « وأول طلبه لهذا الشأن في سنة تسعين ومائتين ، وهو حَدَثٌ ، فكتب وجمع وصنَّف ، وساد أصحابَ الحديث ، وكتابه المذكور يُنبيء بإمامته » .

٥٠ - الذُّهْلي ، أبو الطاهر محمد بن أحمد ، قاضي الديار المصرية :

قال الذهبي : سمع وهو ابن تسع سنين[(٢)].

---

(١) أنباء نُجباء الأبناء ص١٨٨ - ١٩١ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠٥/١٦ ، ٢٠٦ .

قال الحافظ عبد الغني : قد قرأ القرآن وهو ابن ثمان سنين[١] .

٥١ - الحسن بن رشيق ، أبو محمد العسكري المصري :

« الإمام المُحدِّث الصادق . سمع وهو مُراهق »[٢] .

٥٢ - شيخ الإسلام الحافظ الإسماعيلي :

مولده في سنة (٢٧٧هـ) .

قال الذهبي : « كتب الحديث بخطه وهو صبيٌّ مميِّز ، وطلب في سنة ٢٨٩هـ وبعدها » .

قال الإسماعيلي في « معجمه » : « كتبتُ في صغري الإملاء بخطّي في سنة ٢٨٣ ، ولي يومئذٍ ستٌّ سنين » فهذا يدلُّك على أن أبا بكرٍ حرص عليه أهله في الصغر .

وقال : كتبت بخطّي عن أحمد بن خالد الدامغاني إملاءً في سنة ثلاث وثمانين ، ولا أذكر صورته .

وقال : لما ورد نعي محمد بن أيوب الرازي ، بكيتُ وصرخت ، ومزَّقت القميص ، ووضعت التراب على رأسي ، فاجتمع عليّ أهلي ، وقالوا : ما أصابك ؟ قلت : نُعِيَ إليَّ محمد بن أيوب ، منعتموني الارتحال إليه.فَسَلَّوْني وأذنوا لي في الخروج إلى « نَسَا » إلى الحسن بن سفيان ، ولم يكن ها هنا شعرة . وأشار إلى وجهه[٣] .

٥٣ - مُسْنِد خراسان أبو عمرو بن حمدان :

ارتحل به والده الحافظ أبو جعفر إلى العجم والعراق والجزيرة والنواحي ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠٥/١٦ ، ٢٠٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٨٠/١٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٩٢/١٦ - ٢٩٦ .

وسمَّعه الكثير ، وطلب هو بنفسه .

ارتحل إلى الحسن بن سفيان النَّسوي وهو ابن ست عشرة سنة[(١)] .

٥٤ - ابن شاذان البزَّار الشيخ الإمام :

روى عنه رفيقُه أبو الحسن الدارقطني .

قال الخطيب : كان ثقةً ثبتًا كثير الحديث . ولد في ربيع الأول سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين (٢٩٨هـ) . وسمع وهو ابن خمس سنين[(٢)] .

قال ابن شاذان : جاءوني بجزء فيه سماعي من محمد بن محمد الباغندي سنة تسع وثلثمائة (٣٠٩ هـ) ولم يكن لي به نسخة فلم أُحدِّث به[(٣)] .

٥٥ - عَلَم الجهابذة أبو الحسن الدارقطني :

فريدُ عصرِه وقريعُ دهرِه، ونسيجُ وَحْدِه، وإمامُ وقته، كما قال الخطيب .

سمع وهو صبيٌّ من أبي القاسم البغوي وكثيرين .

قال أبو الفتح بن أبي الفوارس : كنّا نمرُّ إلى البغوي ، والدارقطني صبيٌّ يمشي خلفنا ، بيده رغيفٌ عليه كامَخ[(٤)] .

قال الأزهري : بلغني أن الدارقطني حضر في حداثته مجلس إسماعيل الصَّفّار ، فجعل ينسخ جزءًا كان معه ، وإسماعيل يُملي ، فقال رجل : لا يصحُّ سماعك وأنت تنسخ . فقال الدارقطني : فهمي للإملاء خلاف فهمك ، كم تحفظُ أمْلى الشيخ ؟ فقال : لا أحفظ . فقال الدارقطني : أمْلى ثمانية عشر

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٣٥٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/٤٢٩ ، تاريخ بغداد ٤/١٨ - ٢٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٦/٤٢٩ .

(٤) ما يؤتدم به ، أو المخلَّلات المشهية ، وهو لفظ معرَّب .

حديثًا ، الأول عن فلان عن فلان ، ومتنه كذا ، والحديث الثاني عن فلان عن فلان ، ومتنه كذا وكذا. ومرّ في ذلك حتى أتى على الأحاديث ، فتعجَّب الناس منه ، أو كما قال[١].

٥٦ - أبو بكر محمد بن إبراهيم الكسائي الشيخ النحوي البارع :

روى صحيح مسلم .

قال الحاكم : حدَّث بـ « الصحيح » من كتاب جديدٍ بخطِّه ، فأنكرتُ فعاتبني ، فقلت : لو أخرجتَ أصلك وأخبرتني بالحديث على وجهه . فقال : أحضرني أبي مجلسَ ابن سفيان الفقيه لسماع هذا الكتاب ، ولم أجد سماعي ، فقال لي أبو أحمد الجُلُودي : قد كنت أرى أباك يُقيمك في المجلس تسمع ، وأنت تنام لصغرك ، فاكتب الصحيح من كتابي ، تنتفع به[٢].

٥٧ - القدوة الرَّبّاني أبو الفتح يوسف بن عمر القوّاس :

ولد سنة ٣٠٠هـ .

قال الخطيب : كان ثقةً زاهدًا صادقًا ، أول سماعه في سنة ٣١٦[٣].

وقال الدارقطني : كُنّا نتبرَّك بأبي الفتح القوّاس وهو صبيٌّ .

يالله !! وهل بعد كلام الدارقطني كلام ... يتبرّكون بصبيٍّ !! فكيف حالهم معه وهو شيخ ؟!!

٥٨ - إسماعيل الحاجبي :

سمع وهو صغير يُحمل على العاتق ولا يقدر على المشي[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤٤٩/١٦، ٤٥٢، ٤٥٣. وتاريخ بغداد ٣٦/١٢ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٤٦٥/١٦ .
(٣) تاريخ بغداد ٣٢٥/١٤ - ٣٢٦ .
(٤) سير أعلام النبلاء ٥٢١/١٦ .

٥٩ - ابن بطة الإمام القدوة صاحب « الإبانة الكبرى » :

قال ابن بطة : « وُلِدت سنة أربع وثلاثمائة (٣٠٤هـ) وكان لأبي ببغداد شركاء ، فقال له أحدهم : ابعث بابنك إلى بغداد ليسمع الحديث . قال : هو صغير . قال : أنا أحمله معي . فحملني معه ، فجئتُ فإذا ابن منيع يُقرأ عليه الحديث ، فقال لي بعضهم : سلِ الشيخ أن يُخرج إليك معجمه . فسألت ابنه ، فقال : نريد دراهم كثيرة . فقلت : لأُمّي طاق ملحم آخذه منها وأبيعه . قال : ثم قرأنا عليه « المعجم » في نفرٍ خاصّ في نحو عشرة أيام، وذلك في آخِر سنة خمس عشرة وأول سنة ست عشرة، فأذكره قال : حدَّثنا إسحاق الطالقاني سنة أربع وعشرين ومائتين ، فقال المُستملي : خذوا هذا قبل أن يُولد كلّ محدِّث على وجه الأرض اليوم »[١].

٦٠ - العَبْقسيّ ، مُسْنِد الحجاز :

سمع في صباه وهو ابن عشر سنين من أبي جعفر محمد بن إبراهيم الدَّيْبُلي ، وأبي التُّريك محمد بن الحسين بن موسى السعدي الحمصي ، ومحمد ابن الربيع بن سليمان ، وأبي سعيد ابن الأعرابي ، وعبد الرحمن بن عبد الله ابن المقرئ ، وبكير بن محمد الحدّاد وأبي اليسع المصِّيصيّ ، وأبي عليّ الفقيه كِمَام ، والعباس بن محمد بن الحسن بن قتيبة ، وغيرهم[٢].

هؤلاء شيوخه وهو ابن عشر سنين .

٦١ - أبو عمر الهاشـمي :

الإمام الفقيه مُسنِد العراق ، القاضي أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي العباسي المصري .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٥٣٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧/١٨١ .

قال في سماعه لسنن أبي داود : « أحضرني أبي سماعَ هذا الكتاب وأنا ابن ثمان سنين ، فأثبتَ حضوري ولم يُثبته سماعًا ، ثم سمعته وأنا ابن عشر سنين »[(١)].

٦٢ - السُّتيتي :

الدمشقي ابن الطَّحَّان .

سمع وهو صغير:الحديث ، يقول : « كنت أنام في مجلس خيثمة بن سليمان ، فينبِّهني أبي فأنظر إلى خيثمة عظيم الهامة ، كبير الأُذنين والأنف »[(٢)].

٦٣ - ابن شاذان :

أبو عليّ ، الحسن بن أبي بكر بن شاذان البغدادي البزّاز الأصولي .

« بكّر به والده إلى الغاية ، فأسمعه وله خمس سنين أو نحوها من أبي عمرو ابن السَّمّاك ، وأبي بكر العبّاداني ، وميمون بن إسحاق ، وأبي سهل بن زياد، وحمزة الدّهقان، وجعفر الخلدي، والنجاد، وعبد الله بن درستويه النحوي، وأبي عمر الزاهد ، وابن ماتي والأدمي ، والطّستي ... وعدّة »[(٣)] .

والله لا يجد الإنسان تعليقًا على هؤلاء الصفوة ، الذين حفظوا من صغرهم لنُصرة هذا الدين !

قال محمد بن يحيى الكرماني : « كنت يومًا بحضرة أبي علي بن شاذان، فدخل شابٌّ فسلّم، ثم قال: أيّكم أبو علي بن شاذان ؟ فأشرنا إليه ، فقال له : أيّها الشيخ ، رأيت رسول الله ﷺ في المنام ، فقال لي : سل

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢٦/١٧ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٣٥٩/١٧ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٤١٦/١٧ - ٤١٧ .

عن أبي علي بن شاذان ، فإذا لقيتَهُ فأقرئه مني السلام . وانصرف الشاب ، فبكى الشيخ ، وقال : ما أعرف لي عملًا أستحقُّ به هذا ، إلّا أن يكون صبري على قراءة الحديث وتكرير الصلاة على النبي ﷺ كلَّما ذُكر . ثم قال الكرماني : ولم يلبث أبو علي بعد ذلك إلَّا شهرين أو ثلاثة حتى مات »(١).

٦٤ - السَّرِيّ السَّقَطِيّ ، خال الجُنيد وأستاذه :

قال محمد بن مظفر : « قرأ السري بن المغلّس على مؤدِّبه : ﴿ **ونسوق المجرمين إلى جهنم وِردًا** ﴾. [مريم : ٨٦]، فقال : يا أستاذ ، ما الورد ؟ فقال المؤدّب : لا أدري . وقرأ : ﴿ **لا يملكون الشفاعة إلّا من اتَّخذ عند الرحمن عهدًا** ﴾ [مريم: ٨٧]. فقال : يا أستاذ ، ما العهد ؟ فقال المؤدِّب : لا أدري . فقطع السريُّ القراءة ، وقال : إذا كنت لا تدري فَلِمَ غررتَ الناس ؟! فضربَهُ المؤدِّب ، فقال السريُّ : يا أستاذ ، ألم يكفِك الجهلُ والغرورُ ، حتى أضَفْتَ إليهما الظُّلم والأذى ؟! فاتَّعظ المؤدّب ، وتاب إلى الله من التأديب ، وأقبل على طلب العلم ، وكان يقول : إنّما أعتقني من رِقِّ الجهل السّرِيُّ .

ولمَّا بلغ في الحفظ وهو صبيٌّ إلى قوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ [السجدة : ١٦] ، امتنع أن يضع جنبه على الأرض لنومٍ ، فكانت أُمُّه تنصب الوسائد عن يمينه وشماله ومن وراء ظهره ، فإذا غلبه النوم أمسكتْهُ »(٢).

٦٥ - الحارث المحاسبي :

قال محمد بن مظفر : « إن الحارث بن أسد المحاسبي مرّ وهو صبيٌّ بصبيانٍ يلعبون على باب رجلٍ تمَّارٍ مُوسِر ، فوقف الحارث ينظر إلى لعبهم ،

(١) تاريخ بغداد ٢٧٩/٧ ، ٢٨٠ .
(٢) أنباء نجباء الأبناء ص١٩٢ ، ١٩٣ .

وخرج صاحب الدار وبيده تمراتٌ ، فقال للحارث : كُلْ هذه التمرات يا صبي . فقال الحارث : ما خبرك فيهنّ ؟! قال : إني بعتُ الساعة تمرًا من رجلٍ فسَقَطْنَ من تمرِهِ . فقال الحارث : أتعرفه ؟ قال : نعم . فالتفت الحارثُ إلى الصبيان الذين يلعبون على باب الدار ، فقال لهم : أهذا الشيخ مسلم ؟ قالوا : نعم ، نعم . فمرّ الحارث وتركه ، فاتَّبعه التمار حتى قبض عليه ، وقال : والله ما تنفلتُ من يدي حتى تقول لي ما في نَفْسِك مني . فقال الحارث : يا شيخ ، إن كنت مسلمًا فاطلب صاحب التمرات ، كما تطلب الماء إذا عطشتَ ، حتى تبرأ من التِّباعة !! أنت مسلم ، وتُطعم أولاد المسلمين الحرام !! فقال الشيخ : والله لا تَجِرتُ للدنيا أبدًا .

وبلغني أن امرأةً أتَتِ الحارث وهو صبيٌّ يتعلّم في المكتب ، فسألته أن يكتب لها كتابًا ، وأعطتْه درهمًا ، فكتب لها الكتاب ، وردَّ عليها الدرهم فأخذتْه ومضت ، فقال له المؤدِّب : لم رددتَ عليها الدرهم وقد استأجرتْك به ؟ قال : لقول الله تعالى : ﴿ **ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتُب كما علَّمه الله فليكتُبْ** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، فكتبتُ لها طاعةً لأمر الله ، وما كنتُ لآخُذ على طاعة الله أجرًا . قال المؤدِّب : فما مَنَعَك من أن تُعطينيه حين لم تُرِدْ أخْذه ؟ قال الحارث : منعني من ذلك قول الله تعالى : ﴿ **وليحملُنَّ أثقالهم وأثقالًا مع أثقالهم وليُسألُنَّ يوم القيامة عمّا كانوا يفترون** ﴾ [العنكبوت : ١٣][(١)] .

لكأنَّما حفظه الله من صغره للورع الذي اشتهر به في كبره . ولقد أخذ بالحَوْطَة لدينه في هذه المسألة ؛ فقد قال مالك بكراهية أخْذ الأجر على الكتابة .

---

(١) أنباء نجباء الأبناء ١٩٥ - ١٩٧ .

٦٦ - الخطيب البغدادي :

الإمام الحافظ الناقد صاحب تاريخ بغداد .

كان أبوه أبو الحسن خطيبًا بقرية درزيجان ، وممَّن تلا القرآن على أبي حفص الكتّاني ، فحضَّ ولده أحمد على السّماع والفقه ، فسمع وهو ابن إحدى عشرة سنة[١].

٦٧ - أبو الوقت عبد الأول الهروي الإمام الزاهد :

قال عنه يوسف بن أحمد الشيرازي في « أربعين البلدان » له : « لمَّا رحلتُ إلى شيخنا رُحْلَةِ الدنيا ومُسْنِدِ العصر أبي الوقت ، قدّر الله لي الوصول إليه في آخر بلاد كرمان ، فسلّمت عليه ، وقبَّلْته ، وجلست بين يديه ، فقال لي : ما أقدمَكَ هذه البلاد ؟ قلت : كان قصدي إليك ، ومُعوَّلي بعد الله عليك ، وقد كتبت ما وقع إليّ من حديثك بقلمي ، وسعيت إليك بقدمي ، لأُدرك بركة أنفاسك ، وأحظى بعلوّ إسنادك . فقال : وفَّقك الله وإيانا لمرضاته ، وجعل سعينا له ، وقصْدنا إليه ، لو كنت عرفتني حقَّ معرفتي ، لَمَا سلّمتَ عليّ ، ولا جلستَ بين يديَّ . ثم بكى بكاءً طويلًا ، وأبكى مَن حَضَرَه ، ثم قال : اللهم استُرنا بسترك الجميل ، واجعل تحت السِتْر ما ترضى به عنّا ، يا ولدي ، تعلمُ أني رحلت أيضًا لسماع « الصحيح » ماشيًا مع والدي من هَرَاة إلى الداووديّ بِبُوشنج ولي دون عشر سنين ، فكان والدي يضع على يدي حجرَيْن ، ويقول : احملهما . فكنت من خوفه أحفظهما بيدي ، وأمشي وهو يتأمَّلني ، فإذا رآني قد عييتُ ، أمرني أن ألقي حجرًا واحدًا ، فأُلقي ، ويخفّ عني ، فأمشي إلى أن يتبيّن له تعبي ، فيقول لي : هل عييتَ ؟ فأخافه ، وأقول : لا . فيقول : لِمَ تُقصِّر في

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/٢٧٠ - ٢٧١ .

المشي ؟ فأُسرع بين يديه ساعةً ، ثم أعجز ، فيأخذ الآخر ، فيُلقيه ، فأمشي حتى أعطب ، فحينئذٍ كان يأخذني ويحملني ، وكُنّا نلتقي جماعة الفلاحين وغيرهم ، فيقولون : يا شيخ عيسى ، ادفع إلينا هذا الصَّبّي نُركبه وإيّاك إلى بوشنج . فيقول : معاذ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله ﷺ ، بل نمشي ، وإذا عجز أركبتُه على رأسي إجلالًا لحديث رسول الله ﷺ ورجاء ثوابه . فكان ثمرة ذلك من حُسن نيته ، أني انتفعت بسماع هذا الكتاب وغيره ، ولم يبقَ من أقراني أحدٌ سواي ، حتى صارت الوفود ترحل إليَّ من الأمصار »[1].

٦٨ - الكِنْدِي :

شيخ الحنفية ، وشيخ العربية ، وشيخ القراءات ، تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن .

قال عنه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٣٤/٢٢) : « حفظ القرآن وهو صغير مميِّز ، وقرأه بالروايات العشر ، وله عشرة أعوام ، وهذا شيء ما تهيَّأ لأحدٍ قبله » .

والله إن هذا العجب العجاب !

وانتهتْ إليه الرياسةُ في النحو .

ومن شعر السخاوي فيه :

لم يكُنْ في عصرِ عمرٍو[2] مِثْلُهُ وكذا الكِنْدِيُّ في آخرِ عَصْرِ
فهُما زيدٌ وعمرٌو إنَّما بُنِيَ النَّحْوُ على زيدٍ وعمرِو

ولأبي شجاع ابن الدَّهّان فيه :

يا زيدُ زادك ربي من مواهِبِهِ نُعْمى يُقصِّرُ عن إدراكها الأملُ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٠٧/٢٠ - ٣٠٨ .
(٢) يعني سيبَوَيْه .

لا بدَّلَ اللهُ حالًا قد حَبَاكَ بها ... ما دار بينَ النُّحاةِ الحالُ والبَدَلُ
النحوُ أنت أحقُّ العالمينَ به ... أليس باسمك فيه يُضرَب المثلُ

٦٩ - أبو يزيد البسطامي :

« لما تعلّم أبو يزيد البسطامي وهو صغير ﴿ **يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلًا** ﴾ [المزمل : ١ - ٢] ، قال لأبيه : يا أبتِ ، من الذي يقول الله تعالى له هذا ؟ قال : يا بُنيَّ ، ذلك النبي محمد ﷺ . قال : يا أبتِ ، ما لك لا تصنع أنت كما صنع النبي ﷺ . قال : يا بنيّ ، إن الله تعالى خصّ نبيه ﷺ بافتراض قيام الليل دون أُمَّته . فسكت عنه . فلمّا حفظ قول الله تعالى : ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك** ﴾ [المزمل : ٢٠] ؛ قال : يا أبتِ ، إني أسمع أن طائفةً كانوا يقومون من الليل ، فَمَنْ هذه الطائفة ؟ قال له أبوه : أولئك هم الصحابة رضي الله عنهم . قال : فلِمَ تتركُ ما فعله الصحابةُ ؟ قال : صدقتَ يا بُنيَّ ، لا أتركُ إن شاء الله تعالى . فكان يقوم من الليل ويصلي .

واستيقظ أبو يزيد ليلةً ، فإذا أبوه يُصلي ، فقال : علِّمني كيف أتطهَّر وأفعل مثل فِعْلك ، وأُصلي معك . فقال له أبوه : يا بُنيَّ ، ارقُد فإنك صغيرٌ بعدُ . قال يا أبتِ : إذا كان يوم يصدرُ الناس أشتاتًا ليُروا أعمالهم أقولُ لربي : إني قلتُ لأبي : كيف أتطهَّر لأُصلّي معك ، فأبى وقال لي : ارقُد فإنك صغيرٌ بعد ؟ قال أبوه : لا والله يا بُنيَّ . وعلّمه ، فكان يُصلِّي معه »(١) .

٧٠ - داود بن نصير الطائي :

واسمع العجب العجاب من قصة داود الطائي وهو صبي صغير :
« لما بلغ من العمر خمس سنين ، أسلمه أبوه إلى المؤدِّب ، فابتدأه

(١) أنباء نجباء الأبناء صـ ١٩٩ - ٢٠٠ .

بتلقين القرآن ، وكان لَقِنًا[١]، فلمّا تعلَّم سورة ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا** ﴾ [الإنسان : ١] وحفظها ، رأتْه أُمُّه يوم جمعةٍ مُقبلًا على حائطٍ ، وهو يفكِّر ويُشير بيده ، فخافت عليه ، وقالت له : قُم يا داود ، فاخرج والعب مع الصِّبيان ، فلم يُجبها ، فضمَّتْه إلى صدرها ، ودَعَتْ بالوَيْل ، فقال : ما لكِ يا أُمَّاه ؟ فقالت : أَبكَ بأسٌ ؟ قال : لا . قالت : أين ذِهْنُك ؟ كلَّمْتُك فلم تسمعْ . قال : مع عباد الله . قالت : فأين هم ؟ قال : في الجنة . قالت : ما يصنعون ؟ قال : ﴿ **متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا ودانيةً عليهم ظلالها وذُلِّلتْ قطوفها تذليلًا** ﴾ [الإنسان : ١٣ - ١٤]. ومرّ في السورة ، وهو شاخِصٌ ببصره كأنه ينظر إليهم ، حتى بلغ قوله تعالى : ﴿ **وكان سعيهم مشكورًا** ﴾ [الإنسان : ٢٢] ، ثم قال : يا أُمَّاه ، ما كان سعيُهم ؟ فلم تدرِ ما تُجيبه به . فقال : قُومي عني حتى أتنزَّه عندهم ساعة . فقامت وأرسلت إلى والده ، فجاء فأخبرتْه خبره ، فقال له : يا داود ، كان سعيهم مشكورًا أنهم قالوا : لا إله إلا الله ، محمدٌ رسول الله . فكان هِجِّيرَى[٢] داود بعد ذلك : لا إله إلا الله محمد رسول الله »[٣].

٧١ - أبو السَّرِيّ منصور بن عمَّار :

وهذا منصور بن عمّار شيخ الوعّاظ : « أصاب أُمَّه وجعُ الولادة وهو صبيٌّ بين يديها ، فقالت له : يا منصور ، بادرْ إلى أبيك ، فقل له : إن أُمّي تدعوك . فقال : أتستعينين في حال الشِّدَّة بمخلوقٍ لا يضرُّ ولا ينفع ، وأكون أنا رسولك في ذلك ؟! قالت : الساعة أموت !! قال لها : قولي :

---

(١) يحفظ ما يسمعه سريعًا .

(٢) الهِجِّيرَى : الدَّأب والعادة .

(٣) أنباء نجباء الأبناء ص٢١٢ - ٢١٣ .

أغثني يا الله . قالتْ : فانزلق جنينُها من ساعته . ورُوي أنّها قالت له وهي تَوْحَمُ[1]: يا منصور ، إني أجد ريح سمكٍ يُقلى ، فانطلق إلى أبيك ، فقل له : يأتينا الساعة بسمكٍ مقليٍّ . فقال : يبعُد هذا عليك يا أُمَّاه . فقالت له : اذهب إلى جارتنا فُلانة ، فإني أجد الرائحة من قِبَل دارها ، فقُل لها قد وجدتْ أُمّي رائحة السمك ، فأطْعِمِيها منه . قال : لا ينطق بهذا لساني ، ولكن أسألُ الله . فأخذتْ بأُذُنه فعَرَكَتْها ، وقالت : والله ، إن لم تأتني بشهوتي لأُخبرنَّ أباك . فقال : يا الله ... شهوة أُمّي . فإذا بالباب يُقرع ، وقائلٌ يقول : يا منصور . فخرج منصور ، فإذا بالباب سمكٌ بين رقاقتيْن ، ولم يَرَ عند ذلك أحدًا من الناس ، فأخذه ودخل بها إلى أُمّه فطعِمَتْ »[2].

٧٢ - أبو الحسين النُّوري :

قال الشيخ حُجَّة الدين محمد بن مظفر في كتابه « أنباء نجباء الأبناء » : « بلغني أن أبا الحسين النوري لمَّا قرأ القرآن الكريم ، ألزمه أبوه أن يكون معه في حانوته . فكان إذا أصبح أخذ روزمانجاً ودواةً ، وذهب يسأل عمّا جهل من كتاب الله تعالى ، ويكتب ما يُقال له ، ثم يأتي أباه . وإذا بعثه من الحانوت في حاجةٍ ، أخذ ألواحَهُ ودواةً معه ، فيسأل من مرَّ به من أهل العلم ، فإذا غاب يزجُره أبوه لغيبته ويتهدَّده ، وربّما ضربَهُ على ذلك أحيانًا . وتكرَّر ذلك ، فقال له أبوه : ليت شعري يا بُنَّي ، ما تريد بعلمك هذا ؟ قال : أريد أن أعرف الله تعالى ، وأتعرَّف عليه . فقال : كيف تعرفه ؟ قال : أعرفه بتفهُّم أمره ونَهْيِه . قال : وكيف تتعرَّف إليه ؟ قال : أتعرَّف إليه بالعمل بما علَّمني . قال أبوه : يا بُنَّي ، لا أعْرِضُ لك في أمرك هذا ما

(١) الوحم : رغبة تعتري المرأة الحامل في تناوُلِ نوع ما من الطعام .
(٢) أنباء نجباء الأبناء ص٢١٦ - ٢١٧ .

بقيتُ . ورآه - وهو صبيٌّ - شرطيٌّ من جيرانه يمشي في خرابةٍ ويبكي ، فظنَّهُ الشرطيُّ ضائعًا ، فقال له : إلى أين يا أحمد ؟ قال : والله لا أدري إلى أين . قال الشرطي : ما أبكاك ؟ قال : أبكاني أنّي لا أدري إلى أين . قال الشرطي : فاتّبِعني أهْدِك . قال أحمد : بل أنت اتّبعني أهْدِك صراطًا سويًّا . ففطن الشرطي لما أراد ، وقال له : يا أحمد ، كيف تهديني صراطًا سويًّا ، وأنت لا تدري إلى أين ؟ فقال أحمد : إني الآن على صراطٍ مستقيم ، ولكن لا أدري ما يكون غدًا . فاتّعظ الشرطيُّ بكلامه وتاب »[(١)].

٧٣ - مجد الدين ابن تيمية ، جَدّ شيخ الإسلام ابن تيمية :

قال عنه الذهبي : « حدَّثني الإمام عبد الله بن تيمية أن جده رُبِّي يتيمًا ، ثم سافر مع ابن عمه إلى العراق ليخدمه ويتفقّه ، وله ثلاث عشرة سنة ، فكان يبيت عنده ويسمعه يكرِّر على مسائل الخلاف ، فيحفظ المسألة ، فقال الفخر إسماعيل يومًا : أيش حفظ التُّنَيْن[(٢)]؟ فبدر المجدُ وقال : حفظتُ يا سيِّدي الدرسَ . وسَرَدَهُ ، فبُهِت الفخرُ ، وقال : هذا يجيء منه شيءٌ . ثم عرض على الفخر مصنَّفه « جُنّة الناظر » وكتب له عليه في سنة ست وستمائة[(٣)] وعظَّمه »[(٤)] .

٧٤ - أحمد بن الفرات :

الحافظ أبو مسعود الرازي ، محدِّث أصبهان .

قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : ما تحت أديم السماء أحفظُ لأخبار

---

(١) ٢٠٦ - ٢٠٨ .

(٢) الصبي الصغير .

(٣) أي وسنّه ست عشرة سنة .

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٩٢/٢٣ - ٢٩٣ .

رسول الله ﷺ من أبي مسعودٍ الرازي .

« قال أبو مسعود : كتبتُ الحديث وأنا ابن اثنتي عشرة سنة ، وذُكرت بالحفظ ولي ثمان عشرة سنة »(١).

٧٥ - الإمام النووي :

قال عنه تلميذه علاء الدين علي بن إبراهيم ابن العطَّار : « ذكر لي الشيخُ ياسين بن يوسف المراكشي وليُّ الله - رحمه الله - قال : رأيت الشيخ محيي الدين - وهو ابن عشر سنين - بِنَوَى ، والصِّبيان يُكرهونه على اللَّعِب معهم ، وهو يهرب منهم، ويبكي لإكراههم ، ويقرأ القرآن في تلك الحال ، فوقع في قلبي محبتُه .

وجعله أبوه في دكّانٍ ، فجعل لا يشتغل بالبيع والشراء عن القرآن .

قال : فأتيتُ الذي يُقرئه القرآن ، فوصَّيتُه به ، وقلت له : هذا الصبيُّ يُرجى أن يكون أعْلَم أهل زمانه ، وأزهدهم ، وينتفع الناس به . فقال لي : أمُنجِّمٌ أنت ؟ فقلت : لا ، وإنما أنطقني الله بذلك . فذكر ذلك لوالده ، فحرص عليه ، إلى أن ختم القرآن وقد ناهزَ الاحتلام »(٢) .

قال الشيخ عبد الغني الدقر في كتابه « الإمام النووي » ص٢٢ : « وهكذا كانت فراسة هذا الشيخ المراكشي ، أنْفَع للمسلمين قاطبةً من كل عملٍ صالحٍ له ، إذ كان بسببه وسعيه ظهور عالم زاهد تقيّ قلَّ أن يسمح الزمان بمثله ؛ إلَّا في قرونٍ متطاولة ، وما نظنٌّ أنه جاء من بعدِه مِثله ، بارك الله له في عمره القصير ، وصنع منه في عصره وما بعده أعْلَم الناس وأزْهَدهم » .

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢/٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٢) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين . تصنيف علاء الدين ابن العطار . حقَّقه مشهور حسن سليمان ص٤٣ - ٤٤، نشر دار الصميعي .

قال تلميذه ابن العطّار : « ذكر لي والده ، أن الشيخ كان نائمًا إلى جنبه ، وقد بلغ من العمر سبع سنين ليلة السابع والعشرين من رمضان ؛ قال : فانتبه نحو نصف الليل ، وأيقظني ، وقال : يا أبتِ ، ما هذا الضوء الذي قد ملأ الدار ؟ واستيقظ أهلُه جميعًا ، فلم نَرَ كلُّنا شيئًا . قال والده : فعرفت أنها ليلة القدر »[1].

٧٦ - شيخ الإسلام ابن تيمية :

« نشأ من حين نشأ في حجور العلماء »[2] .

قال عنه الحافظ عمر بن علي البزار : « أنبته الله أحسن النبات وأوفاه . وكانت مخايل النَّجابة عليه في صِغَره لائحة ، ودلائل العناية فيه واضحة ، أخبرني من أثق به ، عمّن حدَّثه أن الشيخ - رضي الله عنه - في حال صغره كان إذا أراد المُضِيّ إلى المكتب ، يعترضه يهوديٌّ كان منزله بطريقه ، بمسائل يسأله عنها ، لِمَا كان يلوح عليه من الذكاء والفِطْنة ، وكان يُجيبه عنها سريعًا ، حتى تعجَّب منه . ثم إنه صار كلَّما اجتاز به يُخبره بأشياء مما يدلُّ على بُطلان ما هو عليه ، فلم يلبثْ أن أسلم وحسُن إسلامه . وكان ذلك ببركة الشيخ على صِغَر سنّه »[3].

سبحان الله !! هذا حال مَنِ اختارهم الله لتجديد دين نبيِّه ﷺ .

ابن تيمية يُسلم على يديه يهوديٌّ وهو ما بعد ، صبيٌّ يذهب إلى الكُتَّاب . ولقد تكرَّر إسلام بعضِ اليهود على يد ابن تيمية : « فقد أسلم

---

(١) تحفة الطالبين ص٤١ .

(٢) العقود الدُّرِّيَّة من مناقب شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية للحافظ ابن عبد الهادي ص٥ . دار الكتب العلمية .

(٣) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية - للحافظ عمر بن علي البزار . تحقيق زهير الشاويش صـ ١٦ - ١٧ . طبع المكتب الإسلامي .

على يديه ديّان اليهود بدمشق بهاءُ الدين عبد السيِّد ابن المهذّب الطبيب الكحّال ، ومعه أولاده وأهل بيته وجماعة كبيرة من اليهود ، يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة سنة إحدى وسبعمائة »[١].

يقول الحافظ البزار : « ولم يزل منذ إبّان صغره مستغرق الأوقات في الجدّ والاجتهاد ، وختم القرآن صغيرًا ، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية ، حتى برع في ذلك » .

يقول تلميذه الحافظ ابن عبد الهادي : « سمع مسند أحمد مراتٍ ، وسمع الكتب الستة والأجزاء ومعجم الطبراني الكبير ، وعُني بالحديث ، وقرأ ونسخ ، وتعلّم الخطّ والحساب في المكتب ، وحفظ القرآن وأقبل على الفقه ، وقرأ العربية على ابن عبد القوي ، ثم فهمها وأخذ يتأمّل كتاب سيبويه حتى فهم النحو ، وأقبل على التفسير إقبالًا كليًّا حتى حاز فيه قَصَب السَّبْق ، وأحكم أصول الفقه وغير ذلك . هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة ، فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه ، وقوة حافظته ، وسرعة إدراكه .

واتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب ، قدم إلى دمشق وقال : سمعت في البلاد بصبيٍّ يُقال له : أحمد بن تيمية ، وأنه سريع الحفظ ، وقد جئت قاصدًا لعلّي أراه . فقال له خيّاط : هذه طريق كُتّابه ، وهو إلى الآن ما جاء ، فاقعد عندنا ، الساعة يجيء يعبر علينا ذاهبًا إلى الكُتّاب . فجلس الشيخ الحلبي قليلًا ، فمرَّ صبيان ، فقال الخيّاط للحلبي : هذاك الصبي الذي معه اللّوح الكبير ، هو أحمد بن تيمية . فناداه الشيخ ، فجاء إليه ، فتناول الشيخ اللوح فنظر فيه ، ثم قال : يا ولدي ، امسح هذا حتى أُملي عليك شيئًا

(١) البداية والنهاية بتصرف ٢٠/١٤ - ٢١ .

تكتُبه . ففعلَ ، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر ، أو ثلاثة عشر حديثًا ، وقال له : اقرأ هذا . فلم يزد على أن تأمّله مرَّةً بعد كتابته إياه ، ثم دفعه إليه وقال : اسمعه عليَّ . فقرأه عليه عرضًا كأحسن ما أنت سامع . فقال له : يا ولدي،امسح هذا . ففعلَ ، فأملى عليه عدَّة أسانيد انتخبها ، ثم قال : اقرأ هذا . فنظر فيه ، كما فعل أول مرة ، فقام الشيخ وهو يقول : إن عاش هذا الصبيُّ ، ليكوننَّ له شأن عظيم ؛ فإنّ هذا لم يُر مثله . أو كما قال »[1].

٧٧ - السلطان محمد بن مراد الفاتح :

ولد في ليلة السابع والعشرين من رجب سنة ٨٣٥هـ .

وكان والداه « يحوطانه بالرعاية والحب ، وفي رعاية خيرة علماء زمانه ، وعلى رأسهم الشيخ آق شمس الدين ، يصقلون مواهبه ، ويشرفون على تربيته وتأديبه ويُزوِّدونه بالعلم والمعرفة ، حتى بزَّ أقرانه في سائر العلوم ، وأصبح مُلِمًّا بالعديد من اللغات ، وانصرف عدد من خيرة فرسان أبيه يُدرِّبونه على الفروسية ، ويُؤجِّجون في صدره رُوح الجندية . ولم يكد الفتى الصغير يتخطَّى العاشرة من عمره ، حتى قرر والده أن يقذف به في غمار الحياة العمليَّة ، فعيَّنه واليًا على مقاطعة أماسيا ، ثم قائدًا عامًّا لمنطقة مانيسيا ، وأحاطه بنخبةٍ من العلماء والقادة ، يُعينونه في تحمُّل هذه المسئولية التي تنوء بها كواهل الرجال . وما مضت بضعة شهور ، حتى بدأ الناس يتهامسون بأن هذا الشِّبل من ذاك الأسد ، فقد أظهر محمد الفاتح من الكفاءة العسكرية والإدارية ، ما أعطى الدليل على أن رجاء الوالد السلطان لم يخِب في ابنه الأمير .

وفي سنة ٨٤٨هـ استدعى السلطان مراد ابنه الأمير محمدًا من مانيسيا ،

---

(١) العقود الدرية ص٣ - ٤ .

لتسليمه مقاليد السلطنة في « أدرنة » عاصمة الدولة العثمانية آنذاك ، ولم يكن الأمير محمد في ذلك الوقت قد أكمل الرابعة عشرة من عمره . واستمر الأمير محمد في إدارة شئون السلطنة عامًا كاملًا . وبعدها قرَّر استدعاء والده السلطان مراد ؛ ليتولّى من جديد مقاليد السلطنة ، ولكنّ السلطان مرادًا اعتذر بحاجته الماسَّة إلى الراحة ، فما كان من الأمير إلا أن أرسل رسالة إلى والده السلطان ، يقول فيها : « إن كنت تصرّ على أن أبقى على رأس الدولة ، فإني أذكِّرك يا والدي بما أوجبه الله على المسلمين من حق الطاعة لوليّ أمرهم ، ولهذا فإني آمرك أن تُسرع بالقدوم إلى أدرنة ؛ لقيادة جيوش المسلمين » . وحين وصلت رسالة الأمير إلى السلطان مراد ، ذرفت عيناه دموع الفرح ، فقد أدرك أن ولده الفتي يتصرَّف بحزم الرجال وعزيمتهم ، وتنحَّى له الأمير محمد عن مقاليد السلطنة، واستمرَّ السلطان مراد في تحمُّل مسئولية السلطنة حتى وفاته سنة ٨٥٥»[(١)] .

هذه طفولة وصبًا محمد الفاتح ... يتولَّى القيادة وهو ابن عشر سنوات ، فيه يصدق قول الشريف الرّضيّ :

لله جِيِّدُ ما تَمَهَّد غيرُ أحشاءِ المكارمْ
فتطوَّقَ العلياءَ وَهـو قريبُ عهدٍ بالتَّمائِمِ
نِيطتْ[(٢)] بعِطْفَيْهِ حَمَالاتُ[(٣)] المغانِمِ والمغارمِ[(٤)]

٧٨ - صبيٌّ عابد :

قال حجة الدين محمد بن مظفر: « بلغني أن عبد الله بن أحمد الجُلّا

---

(١) السلطان المجاهد محمد الفاتح ، فاتح القسطنطينية . لزياد أبو غنيمة ص١٣ - ١٨ - طبع دار الفرقان .
(٢) نِيطت : علِّقتْ .
(٣) حمالات : تحمُّل . أي أنه صار المسئول عن المغانم والمكارم .
(٤) أنباء نجباء الأبناء ص١٦٥ .

قال : اشتهتْ أُمِّي على أبي سمكًا ، فمضى إلى السوق وأنا معه فاشتراه ، ووقف ينتظر من يحمله ، فإذا صبيٌّ قد أتاه ، وقال : يا عمّ ، أتُريد أن أحمله لك ؟ قال : نعم . فحمله ، ومشى معنا فسمعْنا الأذان ، فقال الصبيُّ لأبي : قد أذّن المؤذن ، وأحتاج إلى أن أتوضَّأ وأُصلي ، فاحفظْ سمكَك إن أحببتَ ، حتى أعود فأحمله إن شاء الله . ووضع السمك ومرَّ ، فقال أبي : نحن أوْلى بذلك منه ، فلنتوكَّل على الله في السمك . فتركناه ودخلْنا المسجد ، فصلَّيْنا وخرجنا والصبيُّ معنا، فأتينا السمك فإذا هو موضوعٌ مكانه ، فحمله الصبيُّ إلى دارنا . وحدّث أبي أُمّي بحديث الصبيّ ، فقالت: قُل له : يُقم عندنا ليأكُل من هذا السمك . فقُلنا له في ذلك ، فقال : إني صائم . فقلنا له : تنصرف إلى شغلك ، ثم تعود عند الإفطار . فقال : إني إذا حملتُ مرَّةً في اليوم ، لم أعُدْ لحمْلِ شيءٍ في ذلك اليوم ، ولكنّي أدخل هذا المسجد حتى أُمسي . قال عبد الله بن أحمد الجُلّا : فدخله ، ودعوناه عند الإفطار فأكل ، وقُلنا له : تبيتُ عندنا ؟ قال : نعم . فدللْناه على المِرحاضِ ، وفهمْنا منه أنه يُؤثر الخلْوةَ ، فأدخلناه بيتًا خاليًا . قال : وكان لغريبٍ لنا بنتٌ زَمِنَةٌ[1]، فلمَّا كان بعض الليل جاءتْنا تمشي ، فقلنا لها : ما أمرُكِ ؟ فقالت : إني سألتُ الله تعالى بحُرْمة ضيفكم أنْ يُعافيني ، فَفَعَلَ . قال : فأتينا البيتَ الذي كان فيه ، فوجدناه خاليًا ، ولم نجد الصبي . قال : فكان أبي يقول بعد ذلك : فمنهم كبيرٌ ، ومنهم صغير . وبعضهم يقول : إن عبد الله بن أحمد الجُلّا سمعَ هذا الحديث في مجلسِ معروفِ الكرخيّ ، وإن الصَّبِيَّة كانت بنت صاحب البيت »[2].

---

(١) زمنة : مريضة .

(٢) أنباء نجباء الأبناء ص٢٠٣ - ٢٠٤ .

« ذكْر المُصطفيات من بُنيَّاتٍ صغارٍ ، تكلَّمن بكلام العابِدات الكبار :

٧٩ - بُنَيَّةُ بائعة اللَّبَن :

عن أسلم قال : بَيْنَا أنا مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو يَعُسُّ المدينة إذ عَيِي[(١)] فاتَّكأَ إلى جانب جدارٍ في جوف الليل ، فإذا امرأةٌ تقول لابنتها : يا ابنتاه ، قومي إلى ذلك اللبن ، فامذقيه[(٢)] بالماء . فقالت لها : يا أُمّاه ، أو ما علمتِ ما كان من عَزْمة أمير المؤمنين اليوم ؟ قالت : وما كان من عَزمتِهِ يا بُنية ؟ قالت : إنه أمَرَ مناديَهُ فنادى أن لا يُشاب[(٣)] اللبنُ بالماء . فقالت لها : يا بُنية ، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فإنك بموضعٍ لا يراك عمر ولا مُنادي عمر . فقالت الصبية لأُمِّها : يا أُمَّتاه ، والله ما كنتُ لأُطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء .

٨٠ - صبيَّة وحمَّاد بن سلمة :

قال حماد بن سلمة : ألحَّ علينا المَطَرُ سنة من السنين ، وفي جواري امرأةٌ من المتعبِّدات لها بناتٌ أيتام ، فوكَفَ السَّقفُ عليهم ، فسمعتُها تقول : يا رفيق ، ارفُقْ بي . فسكن المطرُ ، فأخذتُ صرَّةً فيها دنانيرُ وقرعتُ بابها ، فقالت : اللهمَّ اجْعَلْهُ حمّاد بن سلمة . قلتُ : أنا حماد بن سلمة . وأخرجتُ الدنانير ، وقلت لها : انتفعي بهذه . فإذا صبيَّةٌ عليها مدْرَعَةٌ من صوفٍ تستبينُ خُرُوقُها ، قد خرجتْ عليَّ وقالت : ألا تسكتْ يا حماد ؟ تعترض بيننا وبين ربِّنا ؟ ثم قالت : يا أُمّاه ، قد علمْنا أنا لمَّا شكونا مولانا ، أنه سيبعث إلينا بالدنيا ليطردنا عن بابه . ثم ألصقتْ خدَّها على التراب وقالت :

---

(١) تعب .

(٢) اخلطيه وامزجيه .

(٣) لا يخلط .

أمَّا أنا وعزَّتك لا زايلتُ بابك وإن طردتني . ثم قالت : يا حمّاد ، رُدَّ دنانيرك - عافاك الله - إلى الموضع الذي أخرجْتَها منه ، فإنّا رفعْنا حوائجنا إلى مَنْ يقبل الودائع ولا يبخسُ العاملين [(١)].

٨١ - بنت المعافى بن عمران تُعطي بشر بن الحارث درسًا في الإخلاص :

« قال بشر بن الحارث : أتيت باب المعافى بن عمران ، فدققْتُ الباب فقيل : من ذا ؟ فقلت : بشر الحافي . فقالت لي بُنيّة له من داخل : لو اشتريتَ نعلًا بدانقيْن ، ذهبَ عنك هذا الاسم »[(٢)].

٨٢ - بنت يحيى بن معاذ :

« عن عبد الله بن محمد بن وهب قال : كان ليحيى بن معاذ ابنة صغيرة السنّ جدًّا ، فطلبت من أبيها شيئًا ، فقال لها : يا بُنيّتي ، اطلبي ذاك مِن الله . فقالت : يا أَبَهْ ، أَوَ ما أستحيي من الله أن أتقدَّم إليه في شيءٍ يُؤْكَل ؟! »[(٣)].

٨٣ - بنت حاتم الأصمّ :

قال ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٤٤٣/٤) : بلغنا أن أمير بلدة حاتم الأصمّ ، اجتاز على باب حاتمٍ فاستسقى ماء ، فلمّا شرب رمى إليهم شيئًا من المال ، فوافقه أصحابه ، ففرح أهلُ الدار ، سوى بُنيّة صغيرة فإنّها بكتْ ، فقيل لها : ما يُبكيك ؟ فقالت : مخلوقٌ نَظَرَ إلينا فاستغنيْنا ، فكيف لو نظر إلينا الخالق سبحانه وتعالى .

---

(١) صفة الصفوة (٤٤١/٤ - ٤٤٢) .

(٢) صفة الصفوة ٤٤٢/٤ .

(٣) صفة الصفوة ٤٤٢/٤ .

٨٤ - بُنيَّات جماعة :

قال ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٤/٤٤٣) : « عن خزيمة أبو محمد قال : قال بنات رجلٍ لأبيهنّ : يا أبه ، لا تُطعمنا إلا الحلال ؛ فإن الصبر على الجوع ، أيسر من الصبر على النار . فبلغ ذلك سفيان الثوريّ فقال : ما لهنّ رحمهنّ الله » .

٨٥ - الصِّبْية الأبابيل أطفال الحجارة ، أطفال فلسطين :

حجارةُ القُدسِ نيرانٌ وسجِّيلُ   وفِتيةُ القدسِ أطيارٌ أبابيلُ
وساحةُ المسجد الأقصى تموجُ بهم   ومنطقُ القدس آياتٌ وتنزيلُ[1]

يقول الشاعر عن أطفال الحجارة :

ما عاد فينا الطِّفلُ يعبثُ لاهيًا   فالطِّفلُ فينا ماردٌ جبَّارُ
وصِغارنا حملوا الحجارةَ وازْدَهَوْا   ما عاد في ساحِ الجهادِ صغارُ
بعزيمةِ الجبّارِ نضربُ خَصْمَنا   فيذلُّ من عَزَماتنا الفُجّارُ
والفِتيةُ الصِّيد الأُباةُ وحولهم   بحرُ المنيَّةِ موجُهُ هدَّارُ
قد أطربَ الأسماعَ وقْعُ هتافهم   وزها بهم يومَ الوَغى عَمّارُ
والقدسُ زُفّتْ للشهيد وحولها   بيضُ الوجوهِ كأنّهم أقمارُ
هاتي لنا الأكفانَ كي نَلْقَى الرّدَى   وُنزَفّ فالحُوُر الحِسانُ تَغَارُ[2]

ونختم هذا الفصل بما أهداه عبد الرحمن العشماوي - حفظه الله - إلى الأطفال الفلسطينيين ، الذين يعزفون بالحجارة أوتار العِزَّة أمام صلف

---

(١) ديوان « الفتية الأبابيل » ليوسف العظم ص١٣ - دار الفرقان بعمان .

(٢) قصيدة « فالطفل فينا ماردٌ جبّار » من « ديوان الفتية الأبابيل » ص٧٥ - ٨١ ليوسف العظم .

اليهود ؛ قصيدة « شموخ في زمن الانكسار » للأطفال الذين قالوا لرجالات العرب :

كان الصباحُ قصيدةً عربيَّةً ... والشمسُ تُنْشِدُها فلا تَتَلَعْثَمُ
كانت ربوعُ القدسِ أرضًا حُرَّةً ... تُرعى كرامتُنا بها وتُعظَّمُ
يأتي إليها الفَجْرُ طفلًا أشقرًا ... ولسانُه بالذِّكرياتِ يُتَمْتِمُ
كُنَّا بها الأحبابَ يجمعُ بيننا ... دينٌ يلمُّ شتاتَنا ويُنظِّمُ
ومَضَتْ بنا الأيامُ ليلٌ حالكٌ ... يسطو وفجرٌ ضاحِكٌ يَتَجَهَّمُ
ومضتْ بنا الأيام بيتُ رذيلةٍ ... يُبْنَى وبيتُ فضيلةٍ يَتَهَدَّمُ
ومضت بنا الأيام مركب حسرةٍ ... ينجو وزورق فرحةٍ يتحطَّمُ
ومضتْ بنا الأيَّامُ موكب عَزْمِنا ... متوقِّفُ وعدوُّنا يتقدَّمُ
وسمعتُ صوتًا في مغارةِ خوفِنا ... يُوحي صداهُ بظالمٍ لا يرحمُ
مِنْ أين هذا الصوتُ كلُّ إجابةٍ ... تاهتْ ووضعُ بلادنا يتأزَّمُ
ومضتْ بنا الأيام حتى أسفرتْ ... عن وجهها الأحداثُ واختلَطَ الدَّمُ
وتجدَّدَ الصوتُ الغريبُ نداؤه ... شُؤْمٌ وأصواتُ المدافعِ أشْأَمُ
وتجدَّدَتْ مأساتُنا وتمزَّقتْ ... أوصالُ أُمّتنا ونام الضَّيْغمُ
مَنْ صاحب الصوتِ الغريبِ وما الذي ... أغراهُ بي حتى أتى يتهجَّمُ
هو صوتُ شُذَّاذِ اليهودِ وراءَهُ ... قُوَّاتُ أمريكا تُغِير وتهجِمُ
ماذا يقولُ الصوتُ نصفُ حديثِهِ ... دعوَى ونصفُ حديثِهِ لا يُفْهَمُ
ما زال ينطقُ والرسائلُ لم تَزَلْ ... تروي لنا أقوالَهُ وتُقدِّمُ
صوتٌ ينادي أُمّتي ورجالها ... جهرًا ونيرانُ الضَّغينة تُضْرَمُ
لا ترفعوا رأسًا فإنَّ حُسامَنا ... بإزالة الرأسِ العزيزةِ مُغْرَمُ
لا ترفعوا كفًّا فإنَّ عيوننا ... مبثوثةٌ والقَيْدُ قيدٌ أدْهَمُ
لا تنطقوا حرفًا ففي قانوننا ... أنَّ الثُّغورَ الناطقاتِ تُكَمَّمُ
وإذا ضربْناكم فلا تتحرَّكوا ... وإذا سحقْناكم فلا تتألَّموا

وإذا أجَعْناكم فلا تتذمَّرُوا وإذا ظلمناكم فلا تَتَظلموا
نُلقي الطعامَ لكم فإن قُلنا كُلُوا فكُلُوا وإلا بالصِّيامِ اسْتَعْصِمُوا
عَرَبٌ وأجملُ ما لديكم أنَّكم سلَّمتمونا أمْرَكم وغفلتموا
ماذا دَهاكُم تطلبونَ حقوقَكُم طَلَبُ الحقوقِ مِن الضعيفِ مُحَرَّمُ
نحنُ الذين نقولُ أما أنتمو فالغافِلونَ الصّامتونَ النُّوَّمُ
الأرضُ كلُّ الأرض مَسْرَحُنا الذي تجري الفصولُ عليه وَهْوَ مُنَظَّمُ
نُجري الشُّخُوصَ كما نشاءُ ونشتهي الدَّوْرُ يُمْلَى والمَشَاهِدُ تُرْسَمُ
لن تستريحَ قلوبُنا إلا إذا لم يَبْقَ في الأرض الفسيحة مُسْلِمُ
وسكتُّ أبحثُ عن جوابٍ مُفحِمٍ وأصُفُّ أرتالَ الحروف وأنْظِمُ
ما كنتُ أعرف ما الجوابُ وربَّما وقفَ الحكيمُ كأنَّه لا يعلمُ
وهَمَمْتُ أنْ ألوِي العِنانَ وقد بدا أنِّي احْتبسْتُ وأنني لا أفْهَمُ
وإذا بجَبْهَةِ فارسٍ مُتوثِّبٍ يدنو ويرفعُ رأسَهُ ويُسَلِّمُ
من أنت وانْبَهرتْ حروفِي والْتَوى وجهُ السؤالِ وأثْبَتَتني الأسْهُمُ
مَنْ أنت وامتدَّتْ إليه مشاعري جسرًا وقلبي بالسعادةِ مُفْعَمُ
من أنتَ أوزانُ القصيدةِ لم تَزَلْ عَطْشَى وأُفْقُ الشّاعِرِيَّةِ مُعْتِمُ
مَنْ أنتَ أشعُرُ أنَّ بِئْرَ مخاوفي مِن بعدِ ما شاهدتُ وجهَك تُرْدَمُ
من أنتَ لا كفٌّ تُمَدُّ إلى العِدا مسلوبةَ المعنى ولم ينطِقْ فَمُ
ووقفتُ حين رأيتُ طفلًا شامخًا قاماتُنا مِن حَوْلِه تَتَقَزَّمُ
طفلٌ صغيرٌ غيرَ أنَّ شُمُوخَهُ أوحى إليَّ بأنَّه لا يَهْرَمُ
طفلٌ صغيرٌ والمدافعُ حولَهُ مبهورةٌ والغاصبونَ تبرَّمُوا
في كفِّه حَجَرٌ وتحتَ حذائِهِ حجرٌ ووجهُ عَدُوِّه متورِّمُ
مَنْ أنتَ يا هذا أعَدْتُ تساؤلي والطِّفلُ يرمُقُني ولا يتكلَّمُ
مَنْ أنتَ يا هذا ودَحْرَجَ نظرةً نحوي لها معنًى وراحَ يُتَمْتِمُ

أنا من رُبوعِ القُدسِ طفلٌ فارسٌ أنا مؤمنٌ بمبادئي أنا مُسْلِمُ
لُغةُ البطولةِ مِنْ خصائصِ أُمَّتي عنَّا رواها الآخَرُونَ وترجمُوا
مِن ذلك الوقتِ الذي انتفضتْ به بطحاءُ مكَّةَ والحَطِيمُ وَزمْزَمُ
منذ التقى جبريلُ فوق ربوعِها بُمحَمَّدٍ يَتْلُو له ويُعَلِّمُ
منذ استدارَ الدهر دورتَهُ التي عزَّ التَّقِيُّ بها وذلَّ المُجرِمُ

❊ ❊ ❊

أنا من ربوع القدسِ تحت عمامتي عقلٌ يفكِّر في الأمور ويَحْسِمُ
ناديتُ قومي والرِّياحُ عنيفةٌ والصمتُ كهفٌ والظلامُ مخيمُ
ناديتُ لكنَّ الذي ناديتُهُ أعْمى أصمُّ عن الحقيقةِ أبْكَمُ
ناديتُ لكنَّ الذي ناديتُه أمسى على ماءِ التَّخاذُلِ يَرْقُمُ
ناديتُ لكنَّ الذي ناديتُهُ بالنَّومِ في الفُرُشِ الوثيرةِ مُغْرَمُ
ويَئِسْتُ ثم تركتُ قومي بعضُهم يُبدِي تآمُرَهُ وبعضٌ يَكْتُمُ
ومضيتُ وحدي في دروبِ عزيمتي إنّ المجاهدَ حين يصدُقُ يَعْزِمُ
ورأيتُ أعدائي صغارًا كلَّما واجهتُهم بيقينِ قلبَي أحْجَمُوا
وغدوتُ أدعو مِنْ رجالِ عشيرتي مَنْ سافروا خَلْفَ السَّرابِ ودَمْدَمُوا
يا مَنْ رَحَلْتُم في دروبٍ شوكُها صعبُ المِراسِ ورملُها مُتكوِّمُ
هَذي منابِرُكم تُزلزِلُ نفسَها سأمًا وقد كفرتْ بما قرَّرتمو
طِيرُوا بأجنحةِ السياسةِ حيثما شئتم وقولوا ما أردتُمْ وارْسمُوا
وقِفُوا أمام وسائل الإعلام في سَمْتٍ لتُؤْخَذَ صورةٌ وتبسَّموا
واستَمْطروا من هيئةِ الأُمم التي هرمتْ بقايا عطفِها كي تغنموا
وترقَّبُوا تأشيرة لدخولكم فلربَّما جادوا بها وتكرَّمُوا
وابنُوا لكم في كلِّ أرضٍ دولةً الشعبُ والحُكَّامُ فيها أنتمو
ودَعُوا لنا دربَ الجهادِ فإنّه دربُ الخلاصِ لنا وإنْ كابرتمو

درِبٌ مضى فيه الرسولُ وصَحْبُهُ نشروا به الحَقَّ المُبِينَ وعلَّموا
ماذا أصاب القومَ ما أهدافُهُم ما بالُهم قد أبْهَمُوا وتكتَّمُوا
قالوا انتفاضتُنا صنيعتُهُمْ ولو صدقوا لقالوا إنهم لم يعلموا
نحن انتفضْنا غيرةً وتذمُّرًا ممَّا جناهُ الغاصبونَ وأجرموا
يا أُمّة الإسلامِ نحنُ حقيقةٌ في أرضنا فتدَبرُوا وتفهَّمُوا
ها نحن في درب الجهادِ وفوقنا مطرُ الرّصاصِ وللحجارةِ موسمُ
مِنْ داخلِ الوطن السليبِ جهادُنا لسنا وراءَ حدودِهِ نتكلَّمُ
وإذَا سألتم عن حقيقةِ حالنا فلدى حجارتنا جوابٌ مُفحمُ
نرمي بها الباغي وفي إسلامنا أن الشياطين اللعينةَ تُرجمُ
أنا مِنْ ربوعِ القُدسِ طفلٌ شامخٌ أحمي فُؤادي باليقين وأعْصِمُ
ما زلتُ أرْقَى في مدارجِ عِزَّتي قلبي دليلي والعزيمةُ سُلَّمُ
وأرى بعينِ بصيرتي ما لا يَرَى غيري وأعرفُ ما يُحاكُ ويُبْرَمُ
وإذا سألْتُمْ عن بَنِي قومي ففي كُتْبِ الحقيقةِ ما يُمِضُّ ويُؤلِمُ
لا تسألوا عن حالهم فهناك مَنْ يمحو مآثِرَ شَعْبِهِ ويُهَدِّمُ
وهناك مَنْ يبني سعادتَهُ على كَتِفِ الضعيفِ ويستبدُّ ويظلِمُ
وهناك مَنْ يسخو على شهواتِهِ ويُمِضُّه في المكرماتِ الدِّرهمُ
وهناكَ مَنْ ينسى بأنَّ رِحالَهُ تمضي وأنْ الموتَ أمرٌ مُبْرَمُ
إني أقول وللدَّفاترِ ضجَّةٌ حَوْلِي تَهيبَ مِنْ صداها المرسَمُ
لو كان أمرُ الناسِ في أيديهمو ما ماتَ فرعونُ وقام المأْتَمُ
لو كان أمر الناس في أيديهمو ما ظَلَّ مكتوفَ اليدينِ الأشْرَمُ
لو كان أمر الناس في أيديهمو ما سفَّ مِنْ تُرْبِ الهزيمة رُسْتُمُ
سكت الرّصاصُ فيا حجارةُ حدِّثي أنّ العقيدةَ قوّةٌ لا تُهْزَمُ

* * *

الفصل الثالث

عُلُوُّ هِمَّـــةِ

الموالي

قال رسول الله ﷺ لسالم مولى أبي حذيفة : « الحمد لله الذي جعل في أُمتي مثلك » . [حديث صحيح]

□ عُلُوُّ هِمَّة الموالي □

كم هو عظيم .. إسلامنا الشاهق الذي أظهر طاقات الأفذاذ ، وسوَّى بين الناس ، فقال تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .. بل ويجعل من الموالي الربَّانيِّين سادةً ؛ شِسعُ نعالهم تفوق الهامَ والجبين من ملوك العرب والفرس والروم .. تشرُفُ الدنيا بعُلُوِّ هِمَمِهم وسبْقِهم ، وسُمُوِّ عزْمهم؛منهم :

بلال بن رباح مُؤذِّن رسول الله ﷺ :

بلال رسول الله خيرُ بلال ، كما قال ابن عمر .

السَّيِّد المُتعبِّد المُتجرِّد عتيق الصِّدِّيق ، عَلَمُ المُمتحَنين في الدين والمعذَّبين ، خازن الرسول الأمين ، السابق الوامق ، والمتوكِّل الواثق ، قاطع العلائق ، والآخذ بالوثائق .

قال القاسم بن عبد الرحمن : أوَّلُ مَنْ أذَّن بلالٌ .

عن عبد الله قال : «أول مَنْ أظهر إسلامه سبعةٌ: رسول الله ﷺ ، وأبو بكر،وعمَّار ، وأُمُّه سُمَيَّة ، وبلال ، وصُهيب ، والمقداد . فأمَّا النبي ﷺ وأبو بكر فمنعهما الله بقومهما ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد ، وصهروهم في الشمس ، فما منهم أحد إلا وأتاهم على ما أرادوا إلا بلال ، فإنه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه ، فأعطوْه الولدان ، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة ، وهو يقول : أحدٌ أحدٌ »[1].

وانظر إلى عُلُوِّ هِمَّة مَنْ قال فيه عمر: «أبو بكر سيِّدُنا، أعتق بلالًا سيِّدَنا».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لبلال عند صلاة

---

(١) إسناده حسن : أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/١٤٩، وابن سعد ، والذهبي في السير ١/٣٤٧،٣٤٨ .

الصبح : « حدِّثْني بأرجى عمل عملتَهُ في الإسلام ، فإني قد سمعتُ الليلة خشفةَ نعليك بين يديَّ في الجنة » . قال : ما عملتُ عملًا أرجى من أنّي لم أتطَهَّرْ طهورًا تامًّا في ساعةٍ من ليل ولا نهار إلا صلَّيتُ لربِّي ما كُتبَ لي أن أُصلِّي[١] .

وعن بُريدة قال: أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالًا، فقال: «بم سَبقتني إلى الجنة؟ ما دخلتُ الجنة قطُّ إلا سمعتُ خَشْخشتك أمامي، إنِّي دخلتُ الجنة البارحة فسمعتُ خَشْخشتَك أمامي، وأتيتُ على قصر من ذهب، فقلتُ: لمن هذا ؟ قالوا لعمر » . فقال بلال : ما أذَّنتُ قط إلا صلَّيتُ ركعتين ، وما أصابني حَدَثٌ إلا توضَّأتُ ، ورأيتُ أنَّ لله علي ركعتين أركعهُما ، فقال : « بها »[٢] .

وفي حديث عمرو بن عبسة عند مسلم : فقلتُ : من اتَّبعك ؟ فقال رسول الله ﷺ:« حُرٌّ وعبدٌ » . فإذا معه أبو بكر وبلال .

عن قيس قال : اشترى أبو بكر بلالًا – وهو مدفون في الحجارة – بخمسة أواق ذهبًا ، فقالوا : لو أبيتَ إلا أوقية لبعناكه ، قال : لو أبيْتم إلا مائة أوقية لأخذتُه[٣] .

وبلال رضي الله عنه ممَّن يدعون ربَّهم بالغداة والعشيِّ يُريدون وجهه :

عن سعد قال : « كنا مع رسول الله ﷺ ستَّة نفر ، فقال المشركون : اطرد هؤلاء عنك فلا يجترئون علينا ، وكنتُ أنا وابن مسعود وبلال ورجل من هُذَيْل

(١) أخرجه البخاري ومسلم . والخشفة : الحركة ، والصوت ليس بالشديد .
(٢) صحيح : أخرجه أحمد ، والترمذي ، والطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية ، وصحَّحه الحاكم ، ووافقه الذهبي .
(٣) إسناده قوي : أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ١٥٠، والذهبي في السير ١/ ٣٥٣، وقوَّى إسناده الذهبي .

وآخران، فأنزل الله: **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشيِّ يُريدون وجهه﴾** [الأنعام : ٥٢-٥٣] »[١] .

قال سعيد بن عبد العزيز : لَمَّا احتُضر بلال قال : غدًا نلقى الأحبَّة مُحمدًا وحزْبه ، قال : تقول امرأته : واويلاه ! فقال : وافرحاه[٢] .

أبو اليقظان عمَّار بن ياسر ، الطيِّب المطيَّب ، مولى بني مخزوم :

كان رضي الله عنه يُعذَّب حتى لا يدري ما يقول . فلله دَرُّه كم ثبت على دينه !!

عن أبي الزبير أن النبي ﷺ مرَّ بآل عمَّار وهم يُعذَّبون ، فقال لهم : «أبشِرُوا آل عمَّار ، فإن موعدكم الجنة »[٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « مُلِئ عمَّارٌ إيمانًا إلى مُشاشه »[٤] .

وقال أبو الدرداء لعلقمة : « ممَّن أنت ؟ قال : قلتُ : من أهل الكوفة . قال : أو ليس عندكم صاحب النَّعْليْن والوساد والمِطهرة ؟ أفيكم الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيِّه ﷺ ... »[٥] . والمراد به عمَّار ، فقد قال رسول الله ﷺ : « ويح عمَّار ! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما خُيِّر عمَّارٌ بين أمريْن إلا اختار أرشدَهما »[٦] .

---

(١) أخرجه مسلم،والطبري في التفسير،وابن ماجه .

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٥٩ .

(٣) صحيح بشواهده: أخرجه ابن سعد في الطبقات، والحاكم، وعنه البيهقي في الدلائل، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وللحديث شواهد يرتقي بها للصحة.

(٤) صحيح : أخرجه النسائي والحاكم ، وأحمد في فضائل الصحابة ، وابن أبي شيبة في المصنَّف .

(٥) جزء من حديث رواه البخاري والنسائي في فضائل الصحابة .

(٦) صحيح : أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد،والنسائي في فضائل الصحابة .

وأيُّ هِمَّة أعلى من هِمَّة من تشتاق إليه الجنة !!

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الجنة لتشتاقُ إلى ثلاثة : عليٍّ وعمَّار وسلمان »[١] .

وعن علي رضي الله عنه قال : استأذن عمَّار على النبي ﷺ ، فقال : « مَنْ هذا ؟ » قال : عمَّار . قال : « مرحبًا بالطَّيِّب المُطيَّب »[٢] .

فرضي الله عمَّن قال فيه النبي ﷺ : « عمَّار ما عُرض عليه أمران إلَّا اختار الأرشد منهما »[٣] .

المقداد بن الأسود البطل،فارس بدر،وصاحب رسول الله ﷺ :

المقداد بن عمرو الكندي ، مولى الأسود بن عبد يغوث الزهريّ .

قال عبد الله بن مسعود : « لقد شهدتُ من المقداد مشهدًا ، لَأنْ أكون أنا صاحبه أحبُّ إليَّ مما على الأرض من شيء. قال: أتى النبيَّ ﷺ وكان رجلًا فارسًا، فقال : أبشرْ يا نبيَّ الله ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﷺ : اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتِلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن – والذي بعثك بالحقِّ – لنكوننَّ بين يديك وعن يمينك وعن شمالك ومن خلفك ، حتى يفتح الله عليك »[٤] .

---

(١) حسن : رواه الترمذي والحاكم ، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي ، وحسَّنه الترمذي، والألباني في صحيح الجامع رقم (١٥٩٤)، وتخريج المشكاة (٦٢٣٤).

(٢) إسناده قوي : أخرجه الترمذي ، وابن ماجه في المقدمة ، والحاكم في المستدرك وصحَّحه ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية، وقوَّى إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريج السير ١/٤١٣ .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد والترمذي ، وابن ماجه في المقدِّمة ، وصحَّحه الحاكم ، ووافقه الذهبي ٣ / ٣٨٨ .

(٤) صحيح : رواه أحمد ، والبخاري مختصرًا ، وعزاه المزيُّ للنسائيِّ ، وابن سعد ، وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال : صحيح الإسناد . ووافقه الذهبي .

وعند أحمد: «فرأيتُ وجه رسول الله ﷺ يُشرق لذلك، وسرَّه ذلك». وذلك يوم بدر .

وعن أبي راشد الحُبراني قال : وافيتُ المقدادَ فارسَ رسول الله ﷺ بحمصَ على تابوت من توابيت الصيارفة ، قد أفضل عليها من عِظَمه ، يُريد الغزو ، فقلتُ له : قد أعذر الله إليك ، فقال : أبتْ علينا سورة البَحوث : ﴿ **انفروا خفافًا وثقالًا** ﴾ [التوبة : ٤١][1] .

صهيب الرومي، مولى عبد الله بن جدعان، الرابح في بيْعه، رضي الله عنه :

عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر ، فقالوا : والله ما أخذتْ سيوفُ الله من عدوِّ الله مأخذها . قال : فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيِّدهمْ ؟ فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره ، فقال : « يا أبا بكر ، أغضبتَهم ! لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ ربَّك » . فأتاهم أبو بكر ، فقال : يا إخوتاه ، أغضبتُكم ؟ قالوا : لا . يغفر الله لك يا أُخَيَّ[2] .

عن عكرمة قال : لَمَّا خرج صُهيب مُهاجرًا تبعه أهل مكة ، فنثل كنانته فأخرج منها أربعين سهمًا ، فقال : لا تصلون إلَيَّ حتى أضع في كلِّ رجُل منكم سهمًا ، ثم أصير بعدُ إلى السيف فتعلمون أني رجُل ، وقد خلفتُ بمكة قينتيْن ، فهُما لكم .

وعن أنس : « ونزلتْ على النبي ﷺ : ﴿ **ومن الناس مَنْ يشري نفسه ابتغاءَ مرضات الله** .. ﴾ الآية ، فلما رآه النبي ﷺ قال : « أبا يحيى ، ربح البيع » . قال : وتلا عليه الآية »[3] .

---

(١) صحيح : أخرجه الحاكم ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن سعد ، والذهبي في السير ١/٣٨٨.وسورة البَحوث : هي التوبة ، سُمِّيت بذلك ؛ لما فيها من البحث عن المنافقين .

(٢) رواه مسلم وأحمد ، والنسائي في فضائل الصحابة .

(٣) صحيح : رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

قال صهيب رضي الله عنه : « لم يشهد رسول الله ﷺ مشهدًا قطُّ إلا كنتُ حاضرَه ، ولم يُبايع بيعةً قطُّ إلا كنتُ حاضرها ، ولم يسرْ سريَّةً قطُّ إلا كنتُ حاضرها ، ولا غزا غزاةً قطُّ إلا كنتُ فيها عن يمينه أو شماله ، وما خافوا أمامهم قطُّ إلا كنتُ أمامهم ، ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم ، وما جعلتُ رسول الله ﷺ بيني وبين العدوِّ قطُّ حتى تُوفِّي »(١) .

فرضي الله عن صُهيب الذي « لما مات عمر أوصى أن يُصلِّي عليه ، وأن يُصلِّي بالناس إلى أن يجتمع المسلمون على إمام »(٢) .

سالم مولى أبي حذيفة ، الذي حمد رسولُ الله ﷺ ربَّهُ أنْ جعَلَ في أُمَّته مِثْلَهُ :

كان رضي الله عنه من السابقين الأوَّلين البدريِّين المُقرَّبين العالِمين .

عن ابن عمر قال : « لمَّا قدم المهاجرون الأوَّلون العُصبة – موضعٌ بقباء– قبل مقدم رسول الله ﷺ كان يؤمُّهم سالمٌ مولى أبي حذيفة وكان أكثَرَهم قرآنا »(٣) . وفي رواية أخرى للبخاري:« فأمَّهم سالمٌ مولًى لأبي حذيفة ؛ لأنه كان أكثرهم قرآنا ، فيهم عمر ، وأبو سلمة بن عبد الأسد » .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : سمعتُ النبي ﷺ يقول : « استقرئوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأبيٍّ ، ومعاذ بن جبل »(٤) .

وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : أبطأتُ على عهد رسول الله ﷺ ليلةً بعد العشاء ، ثم جئت ، فقال : « أين كنتِ ؟ » قلتُ : كنت أستمعُ قراءةَ رجُل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد ، قالت : فقام وقمتُ

(١،٢) الإصابة لابن حجر ٢ / ١٨٩ .

(٣) أخرجه البخاري وأبو داود ، وابن سعد في الطبقات ، وأبو نعيم في الحلية .

(٤) أخرجه البخاري،ومسلم،والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح . وأحمد ، والنسائي في الفضائل .

معه حتى استمع له ، ثم التفت إليَّ ، فقال : « هذا سالمٌ مولى أبي حذيفة ، الحمد لله الذي جعل في أُمَّتي مثل هذا »[١] .

وفي « سير أعلام النبلاء » : عن عائشة قالت : استبطأني رسولُ الله ذات ليلةٍ، فقال: «ما حبسكِ ؟» قلتُ: إنَّ في المسجد لأحسنَ مَنْ سمعتُ صوتًا بالقرآن . فأخذ رداءه ، وخرج يسمعه ، فإذا هو سالمٌ مولى أبي حذيفة ، فقال : « الحمد لله الذي جعل في أُمتي مثلك »[٢] .

أيُّ تاجٍ وأيُّ فخارٍ يضعه رسول الله ﷺ على هام ذلكم الصحابي القانت ، ثم انظر إلى تمنِّي عمر رجالًا مثل سالم !!

عن عمر رضي الله عنه أنه قال لأصحابه : تمنُّوا . فقال بعضهم : أتمنَّى لو أن هذه الدار مملوءةٌ ذهبًا أنفقه في سبيل الله وأتصدَّقُ . وقال رجل : أتمنَّى لو أنها مملوءةٌ زبرجدًا وجوهرًا أُنفقه في سبيل الله وأتصدَّق . ثم قال عمر : تمنُّوا فقالوا : ما ندري يا أمير المؤمنين . فقال عمر : أتمنَّى لو أنها مملوءة رجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وحذيفة بن اليمان[٣] .

قال الحافظ ابن حجر في « الإصابة » (٢/٧) : « روى ابن المبارك فيه أيضًا أن لواء المهاجرين كان مع سالم – أي في اليمامة – فقيل له في ذلك ، فقال : بئس حامل القرآن أنا – يعني إنْ فررتُ – فقُطعت يمينُه ، فأخذه بيساره

---

(١) رجاله ثقات : أخرجه ابن ماجه، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) قال الذهبي في السير (١/١٦٨) : إسنادٌ جيِّد . وقال الشيخ شُعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح . وأخرجه أحمد ، وأبو نعيم ، والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي ، ورواه ابن الأثير في « أُسْد الغابة » ، والحافظ في « الإصابة » .

(٣) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ٣/٢٢٦، وقال الذهبي : على شرط البخاري ومسلم .

فقُطعتْ ، فاعتنقه إلى أن صُرِع ، فقال لأصحابه : ما فعل أبو حذيفة ؟ يعني مولاه . قيل : قتل . قال : فأضجِعوني بجنبه .

رضي الله عن سالم القانت البطل .. في معركة اليمامة لما انكشف المسلمون ، قال : ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله ﷺ .. وتكفَّن بكفنه وتحنَّط بحنوطه ، وحفر لنفسه حفرةً ، فقام فيها ، وقُتل وهو يتلو قول الله عز وجل : ﴿ **وكأيِّن من نبيٍّ قاتل معه ربِّيُّون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعُفوا وما استكانوا والله يُحبُّ الصابرين**﴾ [آل عمران: ١٤٦].

عامر بن فهيرة رضي الله عنه ؛ المرفوع جسدُه ، المشروع رشده ، المنزوع حسده ، مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

سبق إلى الدعوة ، وخدم الرسول ﷺ وصحبه في الهجرة .

استطاب الهُلك فيما يخطب من المُلك :

« عن عائشة رضي الله عنها قالت : لم يكن مع رسول الله ﷺ حين هاجر من مكة إلى المدينة إلا أبو بكر وعامر بن فهيرة ، ورجل من بني الديل دليلهم .

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، فمكثا في الغار ثلاث ليال ، وكان يروح عليهما عامر ابن فهيرة مولى أبي بكر يرعى غنمًا لأبي بكر ويُدلج من عندهما فيصبح من الرعاة في مراعيها ، ويروح معهم ويتباطأ في المشي ، حتى إذا أظلم انصرف بغنمه إليهما ، فيظنُّ الرعاة أنه معهم .

قُتل يوم بئر معونة ، وفيه قال عامر بن الطفيل : لقد رأيتُه بعد ما قُتِل رُفع إلى السماء ، حتى إني لَأنظرُ إلى السماء بينه وبين الأرض .

وقال الزهري : بلغني أنهم التمسوا جسد عامر بن فهيرة فلم يقدروا

عليه »[١] .

خبَّاب بن الأرتّ رضي الله عنه :

مولى أمّ أنمار الخزاعية، كان من السابقين الأوَّلين البدريين ومن المستضعفين. أسلم سادس ستة ، وهو أوَّل مَنْ أظهر إسلامه ، وعُذِّب عذابًا شديدًا لأجل ذلك .

لمَّا رجع عليّ من صفّين مرَّ بقبر خبَّاب فقال : رحم الله خبَّابًا ! أسلم راغبًا ، وهاجر طائعًا ، وعاش مجاهدًا ، وابتُلي في جسمه أحوالًا ، ولن يُضيع الله أجْره[٢] .

لمَّا سُئل خبَّابٌ عمَّا لقي من المشركين ، فقال : يا أمير المؤمنين ، انظر إلى ظهري . فنظر ، فقال : ما رأيتُ كاليوم . قال خبَّاب : لقد أُوقِدت لي نارٌ وسُحبتُ عليها فما أطفأها إلا ودك ظهري[٣] .

سفينة مولى رسول الله ﷺ :

واسمه مهران ، رضي الله عنه .

عن سعيد بن جمهان ، قال : « سألتُ سفينة عن اسمه ، فقال : سمَّاني رسول الله ﷺ سفينة ، قلتُ : لِمَ سمَّاك سفينة ؟ قال : خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه ، فثقل عليهم متاعهم ، فقال لي : « ابسط كساءك » . فبسطتُه فجعلوا فيه متاعهم ، ثم حمَّلوه عليَّ ، فقال رسول الله ﷺ : « احملْ فإنما أنت سفينة » . فلو حملتُ يومئذٍ وِقر بعير أو بعيرين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة ؛ ما ثقُل عليَّ »[٤] .

---

(١) الحلية ١/١٠٩ - ١١٠ .

(٢) الإصابة ١ / ٤١٦ .

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ١/٤٢٤ .

(٤) إسناده حسن : رواه أحمد وأبو نعيم والطبراني ، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي .

عن ابن المنكدر ، أن سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم أو أُسِر ، فانطلق هاربًا يلتمس الجيش ، فإذا هو بالأسد ، فقال : يا أبا الحارث ، أنا مولى رسول الله ﷺ ، كان من أمري كَيْت وكَيْت . فأقبل الأسد ، له بصبصةٌ ، حتى قام إلى جنبه ، كلما سمع صوتًا أهوى إليه ، ثم أقبل يمشي إلى جنبه حتى بلغ الجيش ، ثم رجع الأسد[1] .

زَيْدُ بن أسلمَ العدوي ؛ المولى العمري العدوي :

الإمام الحُجَّة القدوة أبو عبد الله وأبو أسامة العمري العدوي .

كان له حلقة للعلم في مسجد رسول الله ﷺ ؛ قال أبو حازم الأعرج : لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيهًا ، أدنى خصلة فينا : التواسي بما في أيدينا ، وما رأيتُ في مجلسه متماريَيْن ولا متنازعَيْن في حديث لا ينفعنا . وكان أبو حازم يقول : لا أراني الله يومَ زيد بن أسْلَمَ ؛ إنه لم يبقَ أحدٌ أرضى لديني ونفْسي منه[2] .

« وروى البخاري في « تاريخه » : أن علي بن الحسين كان يجلس إلى زيد بن أسلم ويتخطَّى مجلس قومه ، فقال له نافع بن جُبير بن مُطعم : تتخطَّى مجالس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب ؟ فقال عليٌّ : إنما يجلس الرجل إلى مَن ينفعه في دينه » .

« وأشهر من أخذ التفسير عن زيد بن أسلم من علماء المدينة : ابنُه عبد الرحمن بن زيد ، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة »[3] .

---

(١) صحيح : رواه البغوي في شرح السنة ، ورواه الحاكم بنحوه وقال : صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبي ، وصحَّحه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح ٣/ ١٦٧٦، رقم ٥٩٤٩ .

(٢) السير ٣١٦/٥ .

(٣) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ١١٨/١-١١٩ ، مكتبة وهبة .

نافع مولى ابن عمر :

الإمام ، المفتي ، الثَّبْت ، عالِم المدينة ؛ مولى ابن عمر وراويتُه .

قال عُبيد الله بن عمر : بعَثَ عمرُ بن عبد العزيز نافعًا مولى ابن عمر إلى أهل مصر يعلِّمهم السُّنَن .

قال نافع : دخلتُ مع مولاي على عبد الله بن جعفر ، فأعطاه فيَّ اثني عشر ألفًا فأبى وأعتقني ، أعتقه الله .

سافر نافع مع ابن عمر بضعًا وثلاثين حَجَّة وعُمرة .

قال مالك بن أنس : كنتُ آتي نافعًا وأنا حدث السن ، ومعي غلامٌ لي ، فيقعد ويحدِّثني ، وكان صغير النفْس ، وكان في حياة سالم لا يُفتي شيئًا . ولمَّا احتضر بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ذكرتُ سعدًا وضغْطة القبر[١] .

الإمام مجاهد بن جبْر شيخ القرَّاء والمفسِّرين :

مولى السائب بن أبي السائب المخزومي .

روى عن ابن عباس فأكثر وأطاب ، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه .

قال الفضل بن ميمون : سمعتُ مجاهدًا يقول : عرضتُ القرآنَ على ابن عباس ثلاثين عرْضَةً .

وقال مجاهد : عرضتُ القرآن ثلاث عرضاتٍ على ابن عباس ؛ أَقِفُه عند كلِّ آية ، أسألُه : فيمَ نزلتْ ؟ وكيف كانت ؟

وقال سفيان الثوري : خذوا التفسير من أربعة : مجاهد ، وسعيد بن جُبير ، وعكرمة ، والضحَّاك .

وقال سلَمة بن كُهيل : ما رأيتُ أحدًا يريد بهذا العلم وجْهَ الله ، إلا هؤلاء الثلاثة : عطاء ، ومجاهد ، وطاووس .

---

(١) السير ٥/٩٥ - ١٠١ .

وقال الأعمش: كان مجاهد كأنه حمَّال؛ فإذا نطق خرج من فِيهِ اللُّؤلؤ، وكان ابن عمر ربما أخذَ له بالرِّكاب. ومات رحمه الله وهو ساجد(١).

سليمان بن يَسَار : عالم المدينة ومفْتيها وأحَدُ فقهائها السَّبْعة :

مولى أمِّ المؤمنين ميمونة الهلاليَّة .

قال الذهبي : « كان من أوعية العلم بحيث إن بعضهم قد فضله على سعيد بن المسيِّب .

عن قتادة قال : قدمتُ المدينة فسألتُ عن أعْلم أهلها بالطلاق ، فقيل : سليمان بن يسار .

وعن أبي الزِّناد قال : كان سليمان بن يسار يصوم الدهر ، وكان أخوه عطاء يصوم يومًا ويُفطر يومًا .

وقال أبو الزناد : كان ممَّن أدركت من فقهاء المدينة وعلمائها ، ممن يُرضىٰ ويُنتهى إلى قولهم : سعيد بن المسيب ، وعروة ، والقاسم ، وأبو بكر ابن عبد الرحمن ، وخارجة بن زيد ، وعبيد الله بن عبد الله بن عُتبة ، وسليمان ابن يسار ، في مشيخةٍ أجلَّةٍ سواهم من نظرائهم ؛ أهل فقه وصلاح وفضْل .

وعن عبد الله بن يزيد الهذلي قال : سمعتُ السائل يأتي سعيد بن المسيب ، فيقول : اذهبْ إلى سليمان بن يسار ، فإنه أعلمُ مَن بقي اليوم »(٢) .

الإمام سعيد بن جُبير : قتله الحجَّاجُ وما في الأرض رجل إلّا وهو محتاج إلى علمه :

الإمام الحافظ المقرئ ، المفسِّر الشهيد أبو محمد الأسدي الوالبي ، مولاهم الكوفي.قال خصيف : « كان من أعلم التابعين بالطلاق : سعيد بن المسيب، وبالحجِّ: عطاء، وبالحلال والحرام: طاووس، وبالتفسير: أبو الحجاج

---

(١) السير ٤/٤٤٩ - ٤٥٥ .

(٢) السير ٤/٤٤٤ - ٤٤٨ .

مجاهد بن جبر ، وأجمعهم لذلك كلِّه : سعيد بن جبير »[١] .

وعن جعفر بن أبي المغيرة : كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه ، يقول : أليس فيكم ابن أم الدَّهْماء ؟! يعني سعيد بن جبير[٢] .

وعن عمرو بن ميمون ، عن أبيه قال : لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحدٌ إلا وهو محتاج إلى علمه .

وعن أشعث بن إسحاق قال: كان يُقال: سعيد بن جُبير جِهبذُ العلماء.

وقال القاسم الأعرج : كان سعيد بن جبير يبكي بالليل حتى عَمِش .

قال سعيد : لدغتْني عقرب فأقسمتْ عليَّ أمي أن أسْتَرِقي ، فأعطيتُ الراقي يدي التي لم تُلدَغ ، وكرهتُ أن أُحَنِّثها .

قال سعيد : ربما أتيتُ ابنَ عباس ، فكتبتُ في صحيفتي حتى أملأَها ، وكتبتُ في نعلي حتى أملأها ، وكتبتُ في كفِّي .

وقال سعيد بن جبير : لو فارق ذكْرُ الموت قلبي ، لَخشيتُ أنْ يفسَد عليَّ قلبي .

وقال رحمه الله : ما مضت عليَّ ليلتان منذ قُتِل الحسين إلا أقرأ فيهما القرآن ، إلا مريضًا أو مسافرًا .

وعن هلال بن يساف قال : دخل سعيد بن جبير الكعبة فقرأ القرآن في ركعة .

وعن عبد الملك بن أبي سليمان ، عن سعيد بن جبير : أنه كان يختم القرآن في كلِّ ليلتيْن .

وكان رحمه الله لا يدع أحدًا يغتاب عنده .

ولمَّا أخذ الحجَّاج سعيد بن جبير قال: ما أراني إلّا مقتولًا، وسأخبركم:

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ١ / ٣٦٥ .

(٢) الحلية ٤ / ٢٧٣ ، وابن سعد ٦/٢٥٧ .

إني كنتُ أنا وصاحبان لي دَعَوْنا حين وجدنا حلاوة الدعاء، ثم سألنا الله الشهادة، فكِلا صاحبيَّ رُزِقَها، وأنا أنتظرها. قال: فكأنَّه رأىٰ أنَّ الإجابة عند حلاوة الدعاء.

قال الذهبي: ولمَّا علم من فضل الشهادة؛ ثبت للقتل ولم يَكترث، ولا عامَل عدوَّه بالتقِيَّة المباحة له. رحمه الله تعالى.

قال علي بن المديني: ليس في أصحاب ابن عباس مِثلُ سعيد بن جبير. قيل: ولا طاووس؟ قال: ولا طاووس ولا أحد[1].

عِكْرِمة موْلىٰ ابن عبَّاسٍ؛ الحافِظ المفسِّر:

البربري الأصل.

قال رحمه الله: طلبتُ العلم أربعين سنة، وكنتُ أُفتي بالباب وابنُ عباس في الدار.

قال عبد الصمد بن معقل: لمَّا قدِم عكرمة الجند؛ أهدىٰ له طاووس نجبًا بستين دينارًا، فقيل لطاووس: ما يصنع هذا العبد بنجبٍ بستين دينارًا؟ قال: أتروني لا أشتري عِلْم ابن عباس بستين دينارًا لعبد الله بن طاووس؟!.

وقال يحيى بن معين: مات ابن عباس، وعكرمة عبدٌ لم يُعتَق، فباعه علي بن عبد الله، فقيل له: تبيع عِلْمَ أبيك؟! فاستردَّه.

عن عمرو بن دينار قال: دفع إليَّ جابرُ بن زيد مسائل، أسأل عكرمة، وجعل يقول: هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا البحرُ فسَلُوه.

وقيل لسعيد بن جبير: تعلمُ أحدًا أعلمَ منك؟ قال: نعم؛ عكرمة.

« قال المروزي: لقد سألتُ إسحاق بن راهويه عن الاحتجاج بحديث عكرمة، فقال: « عكرمة عندنا إمام الدنيا » ... تعجَّب من سؤالي إياه.

وقال يحيى بن أيوب المصري: سألني ابن جريج: هل كتبتمْ عن عكرمة؟

---

(١) السير ٤/٣٢١ - ٣٤١.

فقلتُ : لا . قال : فاتَكُمْ ثُلُثا العلم »[١] .

وقال الشعبي : ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة .

قال عكرمة : قرأ ابن عباس هذه الآية : ﴿ **لِمَ تعظون قومًا الله مُهلِكُهُمْ أو معذِّبهم عذابًا شديدًا** ﴾ [الأعراف : ١٦٤] . قال ابن عباس : لم أدْرِ : أنجا القومُ أمْ هلكوا ؟ قال : فما زلتُ أُبيِّن له أبصِّره ، حتى عرف أنهم قد نجَوْا . قال:فكساني حُلَّة .

وقال حبيب بن أبي ثابت : اجتمع عندي خمسة لا يجتمع مثلُهم أبدًا : عطاء ، وطاووس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، فأقبل مجاهد وسعيد يُلقيان على عكرمة التفسير ، فلم يسألاه عن آية إلَّا فسَّرها لهما ، فلما نفد ما عندهما ، جعل يقول : أُنزلت آية كذا في كذا ، وآية كذا في كذا .

وقال عكرمة - رحمه الله -: إني لأخرج إلى السوق ، فأسمع الرجل يتكلَّم بالكلمة ، فينفتح لي خمسون بابًا من العلم .

فرحم الله عكرمة .. لقد غرسَ ابن عباس فيه ما غرس ، فأينع ثمره !!

قال عكرمة: كان ابن عباس يضع في رجلي الكَبْل[٢] على تعليم القرآن والسنن.

وسُئل أبو حاتم عن عكرمة وسعيد بن جبير : أيهما أعلم بالتفسير ؟ فقال : أصحابُ ابن عباس عيالٌ على عكرمة[٣] .

عالِمُ اليمن وسيِّدها ، الفقيهُ القدوة : طاووس بن كيسان :

مولى بَحِير بن رَيْسان الحِمْيَري .

قال فيه ابن عباس : إني لَأظنُّ طاووسًا من أهل الجنة .

وقال مجاهد لطاووس : رأيتُك يا أبا عبد الرحمن تُصلي في الكعبة ، والنبي

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ١/١١٢، ١١٣ .

(٢) الكبل : القيْد .

(٣) انظر ترجمته في السير ٥/١٢- ٣٦ .

ﷺ على بابها يقول لك : اكشفْ قِناعك ، وبيِّنْ قراءتك . قال طاووس : اسكتْ ؛ لا يسمع هذا منك أحدٌ . قال : ثم خُيِّل إليَّ أنه انبسط في الكلام ؛ يعني فرحًا بالمنام .

قال ابن حبان : كان من عُبَّاد اليمن ، ومن سادات التابعين ، مستجابَ الدعوة ، حجَّ أربعين حجَّة .

وعن ابن أبي روّاد قال : رأيتُ طاووسًا وأصحابه إذا صلّوا العصر ، استقبلوا القِبْلة ولم يكلِّموا أحدًا ، وابتهلوا بالدعاء .

وعن داود بن إبراهيم أن الأسدَ حبَس ليلة الناس في طريق الحجِّ ، فدقَّ الناس بعضهم بعضًا ، فلمَّا كان السَّحَر ذهب عنهم ، فنزلوا وناموا ، وقام طاووس يصلي ، فقال له رجل : ألا تنام ؟ فقال: وهل ينام أحدٌ السَّحَرَ ؟!

وقال أبو عاصم النبيل : زعم لي سفيان قال : جاء ابنٌ لسليمان بن عبد الملك ، فجلس إلى جنْب طاووس ، فلم يلتفت إليه ، فقيل له : جلس إليك ابن أمير المؤمنين . فلمْ تلتفت إليه !! قال : أردتُ أنْ يعلمَ أنَّ لله عبادًا يزهدون فيما في يديْه .

قال ابن عيينة : حلَف لنا إبراهيم بن ميسرة وهو مستقبل الكعبة : وربِّ هذه البنْيَة : ما رأيتُ أحدًا الشريفُ والوضيعُ عنده بمنزلةٍ إلّا طاووسًا .

وعن ابن شوذب قال: شهدتُ جنازة طاووس بمكة سنة خمس ومائة، فجعلوا يقولون : رحم الله أبا عبد الرحمٰن ؛ حجَّ أربعين حجَّة[1] .

شيخ الإسلام عطاء بن أبي رباح ، مولاهم القرشي ، مفتي الحرم :

قال ابن عباس لأهل مكة : يا أهل مكة ، تجتمعون عليَّ وعندكم عطاء !!

وقال أبو جعفر الباقر : ما بقي على ظهر الأرض أحدٌ أعلمَ بمناسك الحجِّ مِن عطاء .

---

(١) انظر ترجمته في السير ٥/٣٨-٤٩ .

وقال عنه : خذوا من عطاء ما استطعتم .

وقد حجَّ عطاء زيادة على سبعين حَجَّة .

وعن إسماعيل بن أمية قال : كان عطاء يُطيل الصمت ، فإذا تكلَّم يُخيَّل إلَيَّ أنه يُؤَيَّد .

وقال الأوزاعي : مات عطاء بن أبي رباح - يوم مات - وهو أرضىٰ أهل الأرض عند الناس .

قال ابن جريج : كان المسجدُ فراشَ عطاء عشرين سنة ، وكان من أحسن الناس صلاة .

يدخل على عبد الملك بن مروان ، فيعظه ويأمره وينهاه ، فلمَّا نهض وقام ، قبض عليه عبد الملك وقال : يا أبا محمد ، إنما سألتَنا حوائج غيرك وقد قضيناها ، فما حاجتُك ؟ قال : ما لي إلى مخلوق حاجة . ثم خرج ، فقال عبد الملك : هٰذا - وأبيك - الشرف ، هذا - وأبيك - السُّؤْدد !!

نِعم والله، السؤدد والشرف ؛ مع أنَّ عطاء كان أسودَ ، أعورَ ، أفطسَ ، أشلَّ ، أعرَجَ ، ثم عَمِي !!

وعن ابن جريج قال : لزمت عطاء ثماني عشرة سنة ، وكان بعدما كبر وضعُف يقوم إلى الصلاة ، فيقرأ مائتي آية من البقرة وهو قائم ، لا يزول منه شيء ولا يتحرَّك .

قال عمر بن ذرٍّ : ما رأيتُ مثل عطاء بن أبي رباح ، وما رأيتُ عليه قميصًا قطُّ ، ولا رأيتُ عليه ثوبًا يساوي خمسة دراهم[1] .

الضحَّاك بن مزاحم الهلالي :

كان من أوعية العلم .

قال الثوري : كان الضحَّاك يعلِّم ولا يأخذ أجْرًا .

---

(١) السير ٥ / ٧٨ - ٨٧ .

وكان الضَّحَّاك رحمه الله يقول : حقٌّ على كلِّ من تعلَّم القرآن أن يكون فقيهًا . وتلا قول الله : ﴿ **كُونوا ربَّانيِّين بما كنتم تعلِّمون الكتاب** ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

وقال رحمه الله : كنت ابن ثمانين سنة جَلْدًا غزّاءً .

وقال رحمه الله : أدركتُهم وما يتعلمون إلّا الوَرَع . وكان إذا أمسىٰ بكى وقال : لا أدري ما صعد اليوم من عملي .

مكحول سيِّد أهل الشام وإمامُهم :

مولىٰ امرأة هذليَّة ، وكان نوبيًّا .

قال مكحول : طفتُ الأرض كلها في طلَب العلم .

وقال الزهري:العلماء أربعة: سعيد بن المسيِّب بالمدينة، والشعبيُّ بالكوفة، والحسن بالبصرة ، ومكحول بالشام .

وقال سعيد بن عبد العزيز : مكحول أفقه أهل الشام ، لم يكن في زمنِ مكحول أبصر بالفُتيا منه .

ميمون بن مهران ؛ عالِمُ الجزيرة ومفتيها ، الإمام الحجَّة :

أبو أيوب الجزري الرَّقي.. أعتقتْه امرأة من بني نصر بن معاوية بالكوفة.

قال ميمون بن مهران : كنت عند عمر بن عبد العزيز ، فلما قمتُ قال : إذا ذهب هذا وضُرَبَاؤه ، صار الناس بعدَه رَجَاجٌ[(١)] .

قال ميمون : ودِدتُ أنَّ أصبعي قُطِعتْ من هاهنا ، وأني لم أَلِ لعمر ابن عبد العزيز ولا لغيره .

وقال أيضًا : ودِدتُ أن إحدى عينيَّ ذهبت ، وأنِّي لم أَلِ عملًا قطُّ لا خير في العمل لعمر بن عبد العزيز ولا لغيره . قال الذهبي : كان وَلي خَراجَ الجزيرة وقضاءها ، وكان من العابدين .

---

(١) الناس رَجَاج بعد هذا الشيخ : أي هم رَعاع الناس وجُهَّالهم .

وعن الحسن بن حبيب قال: رأيتُ على ميمون جُبَّة صوفٍ تحت ثيابه، فقلتُ له : ما هذا ؟ قال : نعم ، فلا تُخبرْ به أحدًا .

وهكذا تكون الهمة في إخفاء الزهد !!

قال الإمام أبو الحسن الميموني : قال لي أحمد بن حنبل : إني لأُشبِّه ورَع جَدّك بورَع ابن سيرين .

قال أبو المليح : جاءَ رجل إلى ميمون بن مهران يخطب ابنته ، فقال : لا أرضاها لك . قال : ولِمَ ؟ قال : لأنها تحبُّ الحُلِيَّ والحُلَلَ . قال : فعندي من هذا ما تريد . قال : الآن لا أرضاك لها .

وقال رحمه الله : إذا أتى رجل بابَ سلطانٍ ، فاحتجِبْ عنه ، فلْيأْتِ بُيوت الرحمٰن ؛ فإنها مُفتَّحة ، فلْيصلِّ ركعتيْن ، ولْيسأْلْ حاجته .

وقال رحمه الله : ما نال رجل مِن جسيم الخير - نبي ولا غيره - إلَّا بالصَّبْر .

الإمام الحُجَّة مفتي الديار المصرية يزيد بن أبي حبيب :

مولاهم المصري .. أبو رجاء الأزدي .. مولًى لبني عامر بني لؤي .

« قيل : كان أبوه سُويد مولى امرأةٍ مولاةٍ لبني حسل ، وأُمُّه مولاة لتُجيب و كان من جِلَّة العلماء العاملين ، ارتفع بالتقوى ، مع كونه مولًى أسود .

كان أول مَن أظهر العلم بمصر ، والكلام في الحلال والحرام ومسائل .

قال الليث بن سعد : يزيد بن أبي حبيب سيِّدنا وعالمنا .

عن إبراهيم بن عبد الله الكناني : اجتمع ناس فيهم يزيد بن أبي حبيب وهم يريدون أن يعودوا مريضًا، فتدافعوا الاستئذان على المريض، فقال يزيد: قد علمتَ أنَّ الضأْنَ والمِعزىٰ إذا اجتمعت، تقدَّمت المعزى، فتقدَّمْ فاستأْذِنْ»[1] .

الإمام المقرئ المفسِّر أبو العالية الرياحي :

كان مولًى لامرأةٍ من بني رياح بن يربوع .

---

(١) السير ٦ / ٣١ - ٣٢ .

قال أبو العالية : قرأتُ القرآنَ على عمر ثلاث مرار .

قال أبو بكر بن أبي داود : ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية .

قال أبو العالية : كنّا عبيدًا مملوكين ؛ منا مَن يؤدي الضرائب ، ومنا من يخدم أهله ، فكنا نختم كلَّ ليلة ، فشقَّ علينا حتى شكا بعضُنا إلى بعضٍ ، فلقينا أصحاب رسول الله ﷺ فعلَّمونا أن نختم كلَّ جمعة ، فصلَّينا ونمنا ولم يشقَّ علينا .

وقال رحمه الله : كنتُ أرحلُ إلى الرجل مسيرة أيام لِأسمع منه ، فأتفقد صلاته ، فإن وجدتُه يُحسِنُها أقمتُ عليه ، وإن أجده يضيِّعها رحلتُ ولم أسمع منه ، وقلتُ : هو لِمَا سواها أضيع .

وكان رحمه الله إذا جلس إليه أكثر من أربعة ، قام فتركهم .

وقال رحمه الله : تعلَّمت الكتابة والقرآن فما شعر بي أهلي ، ولا رُئي في ثوبي مداد قطُّ .

وكان رحمه الله أول مَنْ أَذَّن بـ « ما وراء النهر » .

وقال رحمه الله: ما تركتُ من مال فثُلثه في سبيل الله، وثُلثه في أهـل بيت النبي ﷺ ، وثلثُه في الفقراء[(١)] .

الحسَن البصري شيْخُ أهل البَصْرة وسيِّدُهم :

مولى زيد بن ثابت الأنصاري ، وأمه مولاةٌ لأمِّ سَلَمةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها .

قال الحسن : « كان أبي وأمي لرجل من بني النجَّار ، فتزوَّج امرأةً من بني سَلَمة ، فساق أبي وأمي في مهرها فأعتقتنا السَّلَمِيَّة »[(٢)] .

---

(١) السير ٤/٢٠٧- ٢١٢ .

(٢) طبقات ابن سعد ٧ / ١٥٦ .

كان رحمه الله سيِّدَ أهل زمانه عِلْمًا وعمَلًا . وكان كثير الجهاد ، من الشجعان الموصوفين .

قال محمد بن سعد : كان الحسن رحمه الله جامعًا ، عالمًا ، رفيعًا ، فقيهًا ، ثقة ، مأمونًا ، عابدًا ، ناسكًا ، كثير العلم ، فصيحًا ، جميلًا .

وعن أبي بُردة قال: ما رأيتُ أحدًا أشبَهَ بأصحاب محمد ﷺ منه[(١)].

وقال أبو قتادة : الزموا هذا الشيخ ، فما رأيتُ أحدًا أشبه رأيًا بعمر منه - يعني الحسن -.

وقال أنس بن مالك : سَلُوا الحسَن ، فإنه حَفِظ ونسِينا .

وقال مطر الوراق : لمَّا ظهر الحسن جاء كأنما كان في الآخرة ، فهو يُخبِر عمَّا عايَن[(٢)] .

قال أيوب السختياني : كان الرجل يجلس إلى الحسَن البصري ثلاثَ حِجَجٍ ، ما يسأله عن المسألة هيْبةً له .

قال الأشعث : ما لقيتُ أحدًا بعد الحسن إلَّا صغُر في عيني .

وقال قتادة : ما جمعتُ عِلمَ الحسن إلى أحدٍ من العلماء ، إلَّا وجدتُ له فضلًا عليه .

وقال : ما خلَتِ الأرض قطُّ من سبعة رهْطٍ ، بهم يُسقون ، وبهم يُدفع عنهم ، وإني لَأرجو أن يكون الحسَن أحدَ السبعة .

وقال حُميد ويونس : ما رأينا أحدًا أكمل مروءة من الحسن .

وقال عنه عطاء : ذاك إمامٌ ضخمٌ يُقتدىٰ به .

وقال يونس بن عُبيد: أمَّا أنا، فإني لم أرَ أحدًا أقرب قولًا من فعْلٍ؛من الحسن.

وقال الربيع بن أنس : اختلفتُ إلى الحسن عشر سنين ، أو ما شاء الله ،

---

(١) أخبار القضاة لوكيع ٢ / ٧ .

(٢) المعرفة والتاريخ للفسوي ٢ / ٤٨ .

فليسَ من يوم إلَّا أسمع منه ما لم أسمع قبل ذلك .

وقال يونس عن الحسن ، أنه كان من رؤوس العلماء في الفتن والدماء والفروج .

وقال عوف : ما رأيتُ رجلًا أعلمَ بطريقِ الجنة من الحسن .

وقال إبراهيم بن عيسى اليشكُري : ما رأيت أحدًا أطول حزنًا من الحسن ، ما رأيته إلَّا حسبتُه حديثَ عهدٍ بمصيبةٍ[1] .

رحم الله الحسن البصري سيد البكَّائين الذي ذهب بالحزن .. كان إذا قدم فكأنَّما قدِم من دفْنِ حميمٍ له ، وإذا جلس فكأنَّما هو أسيرٌ يستعدُّ لضرْب عنقه ، وإذا بكى فكأنَّ النار لم تُخلق إلّا له .

قال حجَّاج الأسود : تمنَّى رجلٌ فقال : ليتني بزهْدِ الحسَن ، وورَع ابن سيرين ، وعبادة عامر بن عبد قيس ، وفقه سعيد بن المسيِّب . وذكَر مطرّف ابن الشِّخِّير بشيءٍ، قال : فنظروا في ذلك ، فوجدوه كلَّه كاملًا في الحسن .

وقال علي بن زيد : رأيتُ سعيد بن المسيب وعروة والقاسم في آخرِين ؛ ما رأيتُ مثلَ الحسَن .

وقال أيوب السختياني : كان الحسَن يتكلَّم بكلام كأنَّه الدُّر ، فتكلَّم قوم من بعده بكلام يخرج من أفواههم كأنه القَيْءُ .

وقال بكر بن عبد الله المزني : مَن سرَّه أن ينظر إلى أفْقَهِ مَن رأينا فلْينظرْ إلى الحسن .

وقال هشام بن حسَّان : كان الحسن أشجعَ أهل زمانه .

وقال جعفر بن سليمان : كان الحسن من أشدِّ الناس ، وكان المهلّبُ إذا قاتَل المشركين يُقَدِّمُه .

وقال مطر : دخلنا على الحسَن نعوده ، فما كان في البيت شيءٌ؛ لا فِراش،

---

(١) الزهد لأحمد صـ ٢٥٩ .

ولا بساط ولا وسادة ولا حصير ، إلَّا سرير مرمول[١] ، هو عليه .

قال الحسن : كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يُرىٰ ذلك في تخشُّعه وزهْده ولسانه وبصره .

وقال أيوب السختياني : لو رأيت الحسَن لَقلْتَ أنك لم تجالسْ فقيهًا قطُّ .

وكان إذا ذُكر الحسَن عند أبي جعفر الباقر ، قال : ذاك الذي يُشبه كلامُه كلامَ الأنبياء .

قال الحسن : المؤمن أحسن الناس عملًا ، وأشد الناس وَجَلًا ، فلو أنفق جبَلًا من مالٍ ما أمِنَ دُونَ أن يُعاين ، لا يزداد صلاحًا وبرًّا إلّا ازداد فَرَقًا .

وقال رحمه الله : ضَحِك المؤمن غفلةٌ من قلبه .

رحم الله الحسن وأجزل مثوبته .

يُروىٰ عنه أنه أُغمي عليه ، ثم أفاق إفاقة فقال : لقد نبَّهتموني من جنَّاتٍ وعُيونٍ ومقامٍ كريم[٢] .

حبيب بن أبي ثابت ؛ فقيه الكوفة ، الإمام الحافظ :

القرشي ، الأَسْدي ، مولاهم .

قال أبو بكر بن عيَّاش : كان بالكوفة ثلاثة ليس لهم رابع : حبيب بن أبي ثابت ، والحَكم ، وحمَّاد . كانوا من أصحاب الفتيا ، ولم يكن أحدٌ بالكوفة إلا يذلُّ لحبيب .

قال سفيان : حَدَّثنا حبيب بن أبي ثابت ، وكان دِعامة .

وقال أبو يحيىٰ القتات : قدمتُ الطائف مع حبيب بن أبي ثابت ، فكأنما قدِم عليهم نبيٌّ .

وقال أبو بكر بن عيَّاش : رأيتُ حبيب بن أبي ثابت ساجدًا فلو رأيته

---

(١) السرير المرمول : الذي نُسِج وجهُه بالسَّعف .

(٢) انظر ترجمة الحسن في السير ٤/٥٦٣ - ٥٨٧ .

قلتَ : ميِّت - يعني من طول السجود[١] -.

الإمام القدوة الحُجَّة يُونس بن عُبيد :

مولاهم البصري .

قال سلام بن أبي مطيع : ما كان يونس بأكثرهم صلاةً ولا صومًا ، ولكن لا والله ؛ ما حضرَ حقٌّ لله إلّا وهو متهيئٌ له .

وعن جارٍ ليُونس قال : ما رأيتُ أكثر استغفارًا من يونس ؛ كان يرفع طرْفه إلى السماء ويستغفر .

قال يونس رحمه الله : ليس شيء أعزّ من شيْئيْن : درهم طيِّب ، ورجل يعمل على سُنَّة .

جاءت امرأةٌ يونسَ بن عبيد بجبَّة خَزٍّ ، فقالت له : اشترِها . قال : بكم ؟ قالت : بخمسمائة . قال : هي خير من ذلك . قالت : بستمائة ، قال : هي خير من ذلك . فلم يزلْ حتى بلغتْ ألفًا .

وعن أبي عبد الرحمن المقرئ قال : نَشَر يونسُ بن عُبيد ثوبًا على رجل ، فسبّح رجُلٌ من جلسائه ، فقال : ارفعْ . أحسبه قال : ما وجدت موضع التسبيح إلّا هاهنا .

وكان رحمه الله يشتري الإبريْسم من البصرة فيبعث به إلى وكيله بالسُّوس ، وكان وكيلُه يبعثُ إليه بالخزِّ ؛ فإنْ كتب وكيلُه إليه أنَّ المتاع عندهم زائد ؛ لم يشتر منهم أبدًا حتى يخبرهم أنَّ وكيله كتب إليه أنَّ المتاع عندهم زائد .

قال يونس رحمه الله: إني لَأعدُّ مائة خصلةٍ من خصال البر ، ما فيَّ منها خصلة واحدة .

وقال : لا تجد من البرِّ شيئًا واحدًا يتْبَعُه البر كلُّه غير اللِّسان .

وقيل: التقى يونس وأيوب، فلمَّا تفرَّقا قال أيوب: قبّح الله العيش بعدك[٢].

---

(١) السير ٥/٢٨٨- ٢٩١ .

(٢) السير ٦/٢٨٨- ٢٩٤ .

زاذان :

مولاهم الكوفي ، أحدُ العلماء الكبار ، شهد خطبة عمر بـ « الجابية » .

قال زبيد : رأيتُ زاذان يصلّي كأنَّه جِذْعٌ[(١)] .

طارقُ بن زِياد فاتِحُ الأندلس :

مَوْلى موسى بن نُصير ، وقد مرَّ ذكْره الطِّيبُ في « عُلوّ همَّة القادة » ، وسيبقى اسم طارق يعطرُ التاريخ ، ويَشحذُ الهِمَمَ ، ويَصيح : نحن الموالي في عصر الرجال ، فكيف بساداتنا ؟! .

أنت تدري أيُّها الحيرانُ عنَّا كيف فوْق الشمسِ أزمانًا حَلَلْنا

زياد مولَى ابنِ عيَّاش ووعظُهُ لعمر بن عبد العزيز :

عن جُويرية بن أسماء قال : قدم زياد العبدي على عمر، فقال له عمر: يا زياد ، ألا ترى ما ابتُليتُ به من أمْرِ أمة محمد ﷺ ؟! قال : يا أمير المؤمنين ، لا تُعمِل نفْسَك في الوصف ، وأعمِلْ نفْسك في المخرج ممَّا وقعتَ فيه ، فلو أنَّ كلَّ شعْرةٍ منك نطقتْ ؛ ما بلغتْ كُنْه ما أنت فيه . ثم قال زياد : يا أمير المؤمنين ، أخبرْني عن رجل له خصْمٌ أَلَدُّ ما حاله ؟ قال: سيِّءُ الحال . قال : فإن كان خصميْن ألدَّيْن ؟ قال : ذلك أسوأ لحاله . قال : فإن كانوا ثلاثة ؟ قال: ذلك حين لا يهنؤه عيشٌ. قال: فوالله يا أمير المؤمنين ، ما أحدٌ من أمَّة محمدٍ ﷺ إلَّا وهو خَصْم لك . قال : فبكى عمر حتى تمنَّيتُ أن لا أكون قلتُ له .

ودخل عليه مرّة في ليلةٍ شاتية وبين يديه كانون ، فقال له : والله ما ينفعك مَن دخل الجنة إذا دخلتَ النار ، ولا يضرّك من دخل النارَ إذا دخلتَ الجنة . قال : فلقد رأيتُه يبكي ، حتى أطفأ ذلك الجمرَ الذي على الكانون[(٢)] .

---

(١) السير ٤/٢٨٠- ٢٨١ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي صـ ١٦٤ .

سالم مولى محمد بن كعْب القُرظيّ ووعظُهُ لعُمر :

قال يحيى الغسَّاني : كتب عمر بن عبد العزيز إلى محمد بن كعب ، يسأله أن يبيعَه غلامه سالما - وكان عابدًا خيِّرًا - فقال : إنِّي قد دبّرتُه . قال : فأزرنيه . قال : فأتاه سالم ، فقال عمر : إني قد ابتُليتُ بما ترىٰ ، وأنا والله أتخوَّف أن لا أنجو . فقال له سالم : إنْ كنتَ كما تقول فهذا نجاتكَ ، وإلَّا فهو الأمر الذي تخاف . فقال : يا سالم ، عِظْنا . قال : آدم ﷺ على خطيئةٍ واحدة أُخرِجَ من الجنة، وأنتم تعملون الخطايا ترجون تدخلون بها الجنة !! ثم سكت.

ولمَّا استُخلِف عمر ، دعا سالمًا ذات يوم فأتاه ، فقال له : يا سالم ، إني أخاف أن لا أنجو . قال : إنْ كنت تخاف فنِعِمَّا ، لكنني أخاف عليك أن لا تخاف . قال سالم : إن الله أسكن عبدًا دارًا ، فأذنب فيها ذنبًا واحدًا فأخرجه من تلك الدار ، فنحن أصحاب ذنوبٍ كثيرة نريد أن نسكن تلك الدار!![1] .

مُزاحِمٌ مولى عمر بن عبد العزيز، هو الذي دفعه إلى الزهد في الدنيا :

لمزاحم مولى عمر بن عبد العزيز جميلٌ وصنيعٌ ، يطوِّقُ به أعناقَ المسلمين ويُصبح به سيدهم ؛ إذ هو الذي أتى بعمر بن عبد العزيز إلى الزهد والتقشُّف ، فصنع منه المجدِّد لهذا الدين على رأس المائة الأولى .

« قال نوفل بن عمارة : قال عمر بن عبد العزيز : إنَّ أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم ؛ حبستُ رجلًا ، فجاوزتُ في حبْسه القَدْرَ الذي يجب عليه ، فكلمني في إطلاقه، فقلتُ: ما أنا بمُخرِجهِ حتى أَبْلُغَ في الحيْطة عليه بما هو أكثر ممَّا مرَّ عليه . فقال مزاحم : يا عمر بن عبد العزيز ، إني أحذِّرك ليلة تمخَّضُ بالقيامة ، في صبيحتها تقوم الساعة . يا عمر .. ولقد كدتُ أنسى اسمَكَ ؛ ممَّا أسمعُ: (قال الأمير. قال الأمير). فوالله- يُقسم عمر- ما هو إلا أن قال ذلك، فكأنما كُشف عن وجهي غطاءٌ ؛ فذكِّروا أنفسكُمْ رحمكم الله ؛ فإنَّ الذكرىٰ تنفع

(١) المصدر السابق صـ ١٦٥ .

المؤمنين »[١] .

عن ميمون بن مهران قال : « ما رأيتُ ثلاثة في بيتٍ خيرًا من عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك ومولاه مُزاحم »[٢] .

« بدعةُ » المُحِبَّة وتوبةُ مولاها علىٰ يدها :

قال العلَّامة ابن قدامة في « كتاب التوابين » :

« وجدتُ في كتابٍ عن سريّ السقطي أنه قال : ضاقت عليَّ نفسي يومًا ، فقلتُ في نفسي : أَخرجُ إلى المارستان[٣] وأَنظر إلى المجانين فيه ، وأعتبر بأحوالهم . فخرجت إلى بعض المارستانات ، وإذا بامرأة مغلولةٍ يدُها إلى عنقها وعليها ثيابٌ حِسان وروائح عَطِرة ، وهي تُنشد :

أُعيذُكَ أنْ تغُلَّ يدي بغيرِ جريمةٍ سَبَقتْ
تَغُلُّ يدي إلى عُنقي وما خانتْ ولا سرقتْ
وبَينَ جَوانحي كبِدٌ أُحسُّ بها قدِ احترقتْ
وحقِّكَ يا مدىٰ أملي يمينًا بـرَّةً[٤] صدَقَتْ
فلو قطَّعتَها قِطَعًـا وحقِّك عنكَ لا نطقتْ

فقلتُ لصاحب المارستان : ما هذه ؟ فقال : مملوكة خُبِل عقلها فحُبستْ لتصلُح . فلمَّا سمِعتْ كلامه أنشدتْ :

معشرَ الناسِ ما جُننْتُ ولكنْ أنا سكرانةٌ وقلبي صاحـي
لِمْ غَللْتُم يدي ولم آت ذَنبًا غيرَ هتْكِي في حبِّه وافتضَاحي
أنـا مفتونـةٌ بحبِّ حبـيبٍ لستُ أبغي عن بابهِ مِن براحِ

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي صـ ١٦٦ .
(٢) المصدر السابق صـ ٣٠١ .
(٣) المارستان : دار المرضىٰ .
(٤) أي : ماضية على الصدق .

فصلاحي الذي زعمتمْ فسادِي وفسادي الذي زعمتم صلاحِي
ما علىٰ مَن أَحبَّ مولى الموالي وارتضاه لنفسهِ من جُناحِ

قال سريّ: فسمعتُ كلامًا أبكاني، فلما رأتْ دموعي قالت: يا سريّ ، هذه دموعك على الصّفة، فكيف لو عرفتَه حقَّ المعرفة؟ فقلتُ: هذا أعجب ! من أين عرَفتني ؟ قالت : ما جهلتُ منذ عرفتُ أن أهل الدرجات يعرف بعضُهم بعضًا . فقلتُ : يا جارية ، أراكِ تذكرين المحبَّة ، فلمن تُحبِّين ؟ قالت : لمن تعرَّف إلينا بآلائه ، وتحبَّب إلينا بنَعْمائه ، وجاد علينا بجزيل عطائه ؛ فهو قريب إلى القلوب مجيب ؛ تَسمَّى بأسمائه الحسنى ، وأمرنا أن ندعوه بها ؛ فهو حكيم كريم ، قريب مجيب . قال : فقلتُ لها : فِيمَ حبُستِ ؟ فقالت : قومي عابوا علي ما سمعتَ منهم . فقلتُ لصاحب المارستان : أطلقها . ففعل ؛ فقلتُ: اذهبي حيث شِئْتِ. فقالت: إنَّ حبيب قلبي قد ملَّكني لبعض مماليكه، فإن رضي مالكي وإلَّا صبرتُ واحتسبتُ . فقلتُ : هذه والله أعقل مني ! فجاء مالكها ومعه ناس كثير ، فقال لصاحب المارستان : وأين بدعة ؟ [1] فقال : دخل عليها سريّ فأطلقها. فلما رآني عظَّمني ؛ فقلتُ: هي والله أولىٰ بالتعظيم مني ، فما الذي تُنكر منها ؟ فقال : كثرةُ فكرتها ، وسرعة عبرتها وزفرتها[2] وحنينها؛ فهي باكية راغبة، لا تأكل مع مَن يأكل، ولا تشرب مع مَن يشرب؛ وهي بضاعتي اشتريتُها بكل مالي - بعشرين ألف درهم - وأمَّلت أن أربح فيها مثل ثمنها . فقلتُ : وما كانت صَنعتُها ؟ قال : مطرِبة . قلتُ : ومنذ كم كان بها هذا الداء ؟ فقال : منذ سنة . قلتُ : ما كان بدؤه ؟ قال : كان العُود في حِجْرها وهي تغني وتقول :

---

(١) اسم المرأة المحبوسة .

(٢) العبرة : الدمعة قبل أن تفيض ، والزّفرة : التنفس .

وَحقِّكَ لا نقَضْتُ الدهرَ عهدَا   ولَا كدَّرْتُ بعدَ الصفوِ وُدًّا
ملأتَ جوانِحِي والقلبَ وَجْدَا   فكيف أَقَرُّ أو أُسلو وأهدَا
فيَا مَنْ ليسَ لي مولًى سِوَاهُ   تراكَ تركتَني في النَّاسِ عبْدَا

قال: فكسرتِ العُود وقامتْ وبكتْ. فاتهمتُها بمحبَّة إنسان. فكشفتُ عن ذلك فلم أجد له أثرًا . قال : فقلتُ لها : هكذا كان ؟ فقالت :

خاطبني الوعظُ من جَناني[1]   وكان وعظي على لساني
قرَّبني منهُ بعدَ بُعْدٍ   وخصَّني الله واصطفاني
أجبتُ لمَّا دُعِيتُ طوعًا   ملبِّيًا للذي دَعاني
وخِفْتُ مما جَنَيتُ قِدْمًا   فوقعَ الحُبُّ بالأمانِ

قال: فقلتُ له: عليَّ الثمن وأزيدك. قال: فصاح: وافقراه !! من أين لك ثمن هذه؟ فقلتُ: لا تعجلْ عليّ، تكون في المارستان حتى آتي بثمنها. ثم مضيتُ وعيني تدمع وقلبي يخشع ؛ وبتُّ و لم أطعم غمضًا ، ووالله ما عندي درهم من ثمنها ، وبقيتُ طول ليلتي أتضرَّع إلى الله تعالى وأقول : يا رب ، إنك تعلم سري وجهري ، وقد اتكلتُ على فضلك وعوّلت عليك فلا تفضحني . فبينما أنا عند السَّحَر، إذا بقارعٍ يقرَع الباب، فقلتُ: من بالباب؟ فقال: حبيب من الأحباب، أتى في سببٍ من الأسباب ، من الملك الوهاب . ففتحتُ الباب ، فإذا برجل معه خادم وشمْعة. فقال: يا أستاذ، أتأذن لي بالدخول ؟ فقلتُ : ادخلْ ، من أنت ؟ قال : أنا أحمد بن المثنَّى ، قد أعطاني مالكُ الدار فأكثَرَ ؛ كنتُ الليلة نائمًا فهتف بي هاتف في المنام : احمل خمس بدرات[2] إلى سريّ يعطيها لمولى «بدعة» يفكُّها

---

(١) من قلبي .
(٢) بدرات : جمع بدرة ، والبدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم ، أو سبعة آلاف دينار .

من الأسر ومن رِقِّ العبودية الساعةَ ؛ فلنا بها عناية . فجئتُ مبادرًا بهذا المال، فاصنعْ به ما شئتَ . قال : فخررتُ لله ساجدًا وارتقبتُ الصبح . فلمَّا تعالىٰ ضوءُ النهار أخذتُ بيد أحمد[1] ومضيتُ به إلى المارستان ، فإذا الموكَّل به يلتفتُ يمينًا وشمالًا ، فلما رآني قال : مرحبًا ، ادخل ؛ فإن لها عند الله عناية ، هتف بي البارحة هاتف وهو يقول :

إنها مِنَّا ببـــالِ ليسَ تخلو مِنْ نَوَالِ
قُربت ثم تسمَّتْ وعَلَتْ في كل حالِ

فحفظتُ هذا القول وكرَّرتُه إلى أن أتيتم . فدخلتُ عليها وهي تقول :

قدْ تصبَّرْتُ إلى أنْ عِيلَ في حبِّكَ صبري
ضاقَ من غُلِّي وقيدي وامتهاني فيكَ صدْري
ليسَ يخفىٰ عنك أمري يا مُنى قلبي وذُخري
أنتَ لي تعتقُ رِقِّي وتـفكُّ اليــومَ أَسري

قال: وأقبل مولاها يبكي ويخشع، فقلتُ له: قد جئناك بما وَرِثت وربْحِ خمسة آلاف . فقال : لا والله ! فقلتُ : بربْح عشرة آلاف.فقال : لا . فقلتُ : بربح المِثْل . فقال : لو أعطيتني الدنيا ما قبلتُ ، وهي حُرّة لوجه الله تعالى . فقلتُ له : ما القصة ؟ فقال : يا أستاذ ، وُبِّختُ البارحةَ ، أُشهدك أني خارج من جميع مالي وهارِب إلى الله تعالى ؛ اللهمَّ كُنْ لي بالسَّعة كفيلًا وبالرزْق جميلًا . فالتفتُّ إلى ابن المثنَّى فرأيتُه يبكي ، فقلتُ له : ما بكاؤك ؟ فقال : ما رضي بي المولى لما ندبني إليه ؛ أشهدك أني قد تصدَّقت بجميع مالي لوجه الله تعالى . فقلتُ : ما أعظم بركة « بدعة » على الجميع !! فقامت بدعة ، فنزعتْ ما كان عليها ، ولبست مدرعة من الشَّعر ، وخرجتْ وهي تقول :

---

(١) أي : أحمد بن المثنَّى .

هربتُ منهُ إليـهِ   بكَيتُ منهُ عليهِ
وحقِّه فهْوَ مولًى   لا زلتُ بين يديهِ
حتى أنالَ وأحظَى   بما رجوتُ لديهِ

قال سريّ : فأقمتُ بعد ذلك مدَّة حتى مات مولاها ، فبينا أنا أطوف بالكعبة ، وإذا أنا بصوتٍ محزونٍ من كَبِد مقروحةٍ ، وهو يقول :

قد تشَهَّرتُ بحبِّكْ   كيفَ لي منك بقُرْبكْ
كيفَ بي يا نفسُ إن وا   خـذكِ الله بذنْـبِكْ
لم يقاسي أحدٌ يا   نفسُ كرْبًا مثلَ كَرْبكْ
فسلـي ربَّكِ يأتيـ   ـكِ الرضا من عندِ ربِّكْ

قال : فتَبعتُ الصوت فإذا امرأة كالخيال ، فلما رأتْني قالت : السلام عليك يا سريّ . فقلتُ : وعليك السلام ، من أنتِ ؟ فقالتْ : لا إله إلا الله !! وقع التناكُر بعد المعرفة !! أنا « بدعة » . فقلتُ : ما الذي أفادك الحقُّ بعد انفرادِك عن الخلْق ؟ فقالت : أفادني كلَّ المنَى . وأنشدتْ :

يا مَن رأى وحشتي فآنسني   بالقرْبِ مِنْ قُرْبه فأنعشني
هربتُ من مسكني إلى سكني   نَعَمْ ومِن مَوْطني إلى وطني
يا سكني لا خلوْتُ من سكني   دهري ويا عدَّتي على الزَّمن
أوحشني ما فقدتُ منهُ فقد   عـادَ بإحسانـهِ فآنسنـي
وعدتُ أيضًا وعادَ منعطِفًا   كذلك مذْ كان منهُ عوَّدَني

ثم قالت : لا حاجة لي بالبقاء ، فخذني إليك ! قال : فحرَّكتها فإذا هي ميِّتة . رحمة الله عليها »[١] .



(١) كتاب التوابين لابن قدامة المقدسي صـ ٢٩٠ - ٢٩٦ .

الفصل الرابع

عُلُوُّ هِمَّةِ

النِّسَــاء

« أنتِ نصفُ الأمَّة ، ثم إنكِ تلِدِينَ لنا النصفَ الآخرَ ، فأنتِ أُمَّة بأَسرها » .

[الشيخ محمد إسماعيل المقدّم]

صنعْتُنَّ ما يُعْيي الرجالَ صنيعُهُ　　فزدْتُنَّ في الخيرات والبركاتِ

[حافظ إبراهيم]

□ عُلُوُّ هِمَّة النِّسَاءِ □

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا كلُّها متاعٌ ، وخير متاع الدنيا : المرأة الصالحة » . رواه أحمد ومسلم والنسائي .

أيُّ تكريم للمرأة أرفع من تكريم الإسلام !! حين يصوِّر بيتها تصويرا رفّافًا شفيفًا ؛ يشعُّ منه التعاطف ، وترفُّ فيه الظلال ، ويشيع فيه الندى ، ويفوح منه العبير !! أيُّ تكريم للمرأة فوق أن يسمِّيَ الله سورة من كلامه – القرآن – باسم « النساء » ، وسورة أخرى باسم امرأةٍ !! أيُّ تكريم أجلُّ من أنَّ القرآن كان ينزل في مخدع عائشة !! أيُّ تكريمٍ أعلى من أنَّ الله يُنزل قرآنًا في براءة امرأة !! وأيُّ تكريم أجلُّ من أن يتولَّى الله تزويج امرأة بنفسه !!.

فلا التأنيث لاسمِ الشمس عيبٌ ... ولا التذكير فخْرٌ للرجالِ

« وأكمل النساء تلك التي تنظر إلى الدنيا بعيْنٍ متلألئة بنور الإيمان ، تقرُّ في كل شيء معناه السماوي . معنى هذه المرأة:المعبد القدسي ، معناها : القوة المُسْعِدة .

المرأة حقُّ المرأة هي تلك التي خُلِقت لتكون للرجل مادَّة الفضيلة والصبر والإيمان ، فتكون له وحيًا وإلهامًا وعزاءً وقوَّة ، أي : زيادة في سروره ونقصًا من آلامه .

ولن تكون المرأة في الحياة أعظم من الرجل إلا بشيء واحد هي صفاتها، التي تجعل رجلها أعظم منها » . انتهى كلام الرافعي .

آسية زوج فرعون مَثَل عالٍ للاستعلاءِ على عَرَض الدنيا :

قال تعالى : ﴿ **وضربَ الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون إذْ قالت ربِّ ابْنِ لي عندك بيتًا في الجنة ونجِّني من فرعونَ وعملِهِ ونجِّني من القوم الظالمين** ﴾ [التحريم : ١١] .

قال الشيخ سيد قطب : « ها هي ذي امرأة فرعون ، لم يصدَّها طوفان الكفر الذي تعيش فيه .. في قصر فرعون .. عن طلب النجاة وحدَها .. وقد تبرَّأتْ من قصر فرعون طالبة إلى ربِّها بيتًا في الجنة .. وتبرأتْ من صلتها بفرعون ، وتبرأتْ من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به ، وتبرّأتْ من قوم فرعون ، وهي تعيش بينهم .

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مَثَلٌ للاستعلاء على عَرَض الحياة الدنيا في أزهى صوره ، فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذٍ ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأةٌ ما تشتهي .. ولكنها استعلت على هذا بالإيمان ، و لم تُعرض عن هذا العَرَض فحسْب ، بل اعتبرتْه شرًّا ودَنَسًا وبلاءً تستعيذ بالله منه ، وتتفلَّت من عَقابيله ، وتطلب النجاة منه .

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية ، وهذا فضل آخر عظيم ؛ فالمرأة أشدُّ شعورًا بوطأة المجتمع وتصوُّراته، ولكنَّ هذه المرأة... وحدها.. في وسط ضغْط المجتمع ، وضغْط القصر ، وضغْط الملْك ، وضغط الحاشية ، والمقام الملوكي ؛ في وسط هذا كله رفعت رأسَها إلى السماء .. وحدها .. في خِضَمِّ هذا الكفر الطاغي !! وهي نموذج عال في التجرُّد لله من كل هذه المؤثرات ، وكل هذه الأواصر ، وكل هذه المعوِّقات ، وكل هذه الهواتف ، ومِنْ ثَمَّ استحقّت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد ، الذي تتردَّد كلماته في جَنَبَات الكون وهي تتنزَّل من الملأ الأعلى »[١] .

عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « كَمُل من الرجال كثير ، و لم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران ، وإنَّ فضْل عائشة على النساء كفضْل الثريد على سائر الطعام »[٢] .

---

(١) الظلال ٦ / ٣٦٢٢ .

(٢) رواه البخاري .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «حسبُك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خُويْلد، وفاطمة بنت محمد »[(١)] .

مريمُ البَتول رضي الله عنها رمزٌ للتجرُّد لله تعالى :

كمُلتْ فلم يكن للشيطان فيها نصيب منذ حمْل أمِّها بها ، وهي كذلك مَثَل للتجرُّد لله والإيمان الكامل والطاعة المطلقة ؛ قال تعالى : ﴿ **ومريمَ ابنة عمرانَ التي أحصنتْ فرْجها فنفخنا فيه من رُوحنا وصدَّقت بكلمات ربِّها وكتبه وكانت من القانتين** ﴾ [التحريم : ١٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يُولد إلّا نَخَسَه الشيطان ، فيستهلُّ صارخًا من نَخْسَة الشيطان ، إلّا ابن مريم وأمَّه »[(٢)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل بني آدَم يمسُّه الشيطان يوم ولدته أُمُّه ، إلا مريم وابنها »[(٣)] .

رضي الله عنها ؛ فتقبَّلها بقبولٍ حسَنٍ وأنبتها نباتًا حسَنًا !.

ولله درُّها حين يقول ربُّها عنها: ﴿ **كلَّما دخل عليها زكريا المحْرابَ وَجَد عندها رزقًا قال يا مريم أنّي لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاءُ بغير حساب** .. ﴾ [آل عمران : ٣٧] !!. وفي تعيين محلّها بالمحراب ما يشير إلى معنى رجوليتها باطنًا وكمال عبادتها .

سيِّدةُ نساء العالمين وأوَّل مَن أسلم : خديجة بنت خوَيْلد رضي الله عنها :

قال ابن الأثير : خديجة أول خلق الله أسلم،بإجماع المسلمين .

---

(١) رواه الترمذي وصحَّحه ، وابن مردويه وابن عساكر .

(٢) رواه مسلم وأحمد .

(٣) رواه مسلم .

قال علي بن أبي طالب : سمعتُ رسول ﷺ يقول : « خير نسائها خديجة بنت خويلد ، وخير نسائها مريم بنت عمران »(١) .

قال ابن إسحاق : كانت خديجة وزيرة صِدْق .

وعن عبد الله بن جعفر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمِرتُ أن أبشِّر خديجة ببيتٍ في الجنة من قصَب ، لا صخَب فيه ولا نصب »(٢) .

والمراد : قصَب اللؤلؤ .

لمَّا دعا رسولُ الله ﷺ إلى الإسلام ؛ أجابتْه خديجة طوعًا ، فلم تُحوِجْه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك ، بل أزالت عنه كلَّ نصَب ، وآنستْه من كلِّ وحشة ، وهوّنتْ عليه كل عسير ، وقال فيها رسول الله ﷺ : « آمنتْ بي إذْ كذَّبني الناس ، وآوتني إذْ رفضني الناس »(٣) .. وهي التي واسَتْ رسول الله ﷺ وآزرته ، وقالت له : « كلَّا ، أبشر ، فوالله لا يُخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرَّحِم ، وتصدُق الحديث ، وتحمل الكَلَّ ، وتُعين على نوائب الحقِّ » . فرضي الله عنها .

لئنْ كانَ النساءُ كما ذكَرْنا لَفُضِّلتِ النساءُ على الرجالِ

فاطمة أمُّ أبيها عليها السلام : البَضعة النبويَّة والجهة المصطفويَّة :

من حديث ابن عباس مرفوعًا: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة وفاطمة ومريم وآسية » .

قمّتْ رضي الله عنها البيتَ حتى اغبرَّتْ ، وطحنتْ حتى مجلت يداها ،

(١) رواه البخاري .
(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وابن حبَّان ، والحاكم في المستدرك وصحَّحه ، وأقرَّه الذهبي ، وصححه الألباني .
(٣) صحيح : رواه أحمد والنسائي بإسناد صحيح ، قاله الحافظ في الفتح ١٠١/٧، وصحَّحه الحاكم في المستدرك ١٨٥/٣ .

وأثَّرتِ الرَّحى في صدرها ، واستعانت على خدمة البيت بالتسبيح !!.

قال الحافظ الذهبي : « روى إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي ، قال : لمَّا مرضتْ فاطمة ؛ أتى أبو بكر فاستأذن ، فقال عليّ : يا فاطمة ، هذا أبو بكر يستأذن عليك فقالت : أتحبُّ أن آذن له ؟ قال : نعم .

قلتُ : عملتِ السنة رضي الله عنها ؛ فلم تأذن في بيت زوجها إلا بأمره .

قال : فأذنتْ له ، فدخل عيها يترضَّاها حتى رضيتْ »[١] .

كان مهرُها دِرْعُ عليٍّ الحُطمِيّة ، وأُهْدِيتْ إليه ومعها خميلة ومرفقة من أدم حشوُها ليف ، وقربة ومُنخل وقدح ورَحى وجرابان . ودخلت عليه وما لها فراش غير جلد كبش ينامان عليه بالليل ، وتعلِفُ عليه الناضح بالنهار ، وكانت هي خادمة نفسها .

قال ابن الجوزي : تالله ما ضرّها ذلك[٢] .

أذهب الله عنها وعن بيتها الرجْسَ وطهَّرها تطهيرًا ، « وقد كان النبي ﷺ يحبُّها ويكرمها ويُسِرُّ إليها .. ومناقبها غزيرة ، وكانت صابرة دَيِّنة خيِّرة صيِّنة قانعة شاكرة لله »[٣] .

عن أبي البخْتري ، قال : قال علي لأمّه : اكفي فاطمة الخدمةَ خارجًا ، وتكفيك هي العمل في البيت ، والعَجْن ، والخَبْز ، والطَّحْن[٤] .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نزل مَلَك من السماء ، فاستأذن الله أن يُسلِّم عليّ ، لم ينزل قبلها فبشَّرني أنَّ فاطمة سيِّدة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/١٢١ . قال الحافظ في الفتح (٦/١٣٩١) : إسناده إلى الشعبي صحيح .

(٢) التبصرة ١ / ٤٥١ - ٤٥٢ .

(٣) السير ٢ / ١١٩ .

(٤) رجاله ثقات .

نساء أهل الجنة »[١] .

وعن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « ما رأيت أحدًا كان أشبهَ سَمْتًا وهَدْيًا ودَلًّا برسول الله ﷺ، من فاطمة كرَّم الله وجهها...»[٢] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت أحدًا كان أصدقَ لهجةً من فاطمة . إلا أن يكون الذي وَلَدَها[٣] .

وعن عمرو بن دينار: قالت عائشة: ما رأيتُ قطُّ أحدًا أفضلَ من فاطمة، غير أبيها[٤] .

وكان الإمام أحمد إذا سُئل عن عليٍّ وأهل بيته ، قال : أهل بيتٍ لا يُقاس بهم أحد .

أمّ عيسىٰ نسبةٌ واحدهْ ... بثلاثٍ تزدهي فاطمهْ
قرَّةُ العيْن لخيرِ الأوَّليـنْ ... خاتم الرُّسْلِ وخيْر الآخِرينْ
وهي زوْجُ المرتضىٰ ذا البَطلْ ... أسدِ الله الحكيمِ الفيصلْ
وهي أُمُّ السَّيِّدَيْنِ الأكرَمَيْنْ ... حسَنٍ خيرِ حليمٍ وحُسيْن
مسيرة الأولادِ صنْعُ الأمّهاتْ ... وخِلالُ الخيرِ طبْعُ الأُمَّهاتْ
زهرةٌ في روضةِ الصدقِ البتول ... أسوةُ النسوةِ في الحقِّ البتولْ
فاقةُ السائل أذرتْ دمْعَهَا ... ليهوديٍّ أباعتْ دِرْعَهَا

---

(١) صحيح لغيره : أخرجه الحاكم وصحَّحه، ووافقه الذهبي ، وأخرجه أحمد وابن أبي شيبة في المصنف .

(٢) صحيح : رواه أبو داود والترمذي والحاكم وابن حبان ، والنسائي في فضائل الصحابة .. وفي رواية الحسن بن علي : عن عائشة : ما رأيتُ أحدًا كان أشبه حديثًا وكلامًا برسول الله ﷺ ؛ من فاطمة .

(٣) أخرجه الحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٤) سنده صحيح على شرط الشيخين إلى عمرو . قاله ابن حجر في الإصابة (٤/٣٦٦)، وأخرجه الطبراني في الأوسط .

كلُّ مَنْ في الأرض قد طاع لَهَا　　ورضاها حين تُرضي بعْلَهَا
نُشِّئَتْ ما بين صبْرٍ ورضَا　　في الفَمِ القرآنُ والكفِّ الرّحَىٰ
دمْعُها مِنْ خشيةِ الله جرىٰ　　في مصلَّاها يفوقُ الجوْهَرَا

أختاه ، هذه أسوتك وقدوتك :

وأين مَن كانت الزهراءُ أُسوتَها　　ممَّن تقفَّتْ خُطى حمَّالةِ الحطبِ

أختاه ،

فيك تسمو للمعالي فطرةُ　　فاتبعي الزهراءَ نِعْمَ الأسَوةُ
علَّ غصْنًا منكِ يأتي بحُسَيْن　　فترىٰ النضرةُ روضاتٍ ذَوِيْنْ[(١)]

الصِّدِّيقة بنتُ الصِّدِّيق حبيبة رسول الله ﷺ :

زوجة نبيِّنا ﷺ في الدنيا والآخرة ، الفقيهة الربَّانيَّة ، المبرَّأة من فوق سبْع سماوات . مات عنها رسول الله ﷺ بعد أن أقام معها تسع سنوات ، وحين مات ﷺ ما كانت تَخْطُو بعدُ إلى التاسعة عشرة ، على أنها ملأت أرجاء الأرض عِلمًا ؛ فهي في رواية الحديث نسيجُ وحدِها ، وَعَتْ من أحاديث رسول الله ﷺ ما لم تَعِهِ امرأةٌ من نسائه ، وروتْ عنه ما لم يرو مثلَه أحَدٌ من الصحابة ، إلَّا أبو هريرة وعبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما .

قال الذهبي في « السير » (٢/١٤٠) : « لا أعلم في أُمَّة محمد ﷺ - بل ولا في النساء مطلقًا - امرأةً أعلم منها . ونشهد أنها زوجة نبيِّنا ﷺ في الدنيا والآخرة ، فهل فوق ذلك مفخرٌ ؟! » .

وحبُّه ﷺ لعائشة كان مستفيضًا بين نسائه ، وقد قال ﷺ : « يا أمَّ سلمة ، لا تُؤْذيني في عائشة ؛ فإنه - والله - ما نزل عليَّ الوَحْيُ وأنا في لحافِ امرأةٍ منكنَّ غيرها »[(٢)] .

---

(١) ديوان: «الأسرار والرموز» ، لمحمد إقبال صـ١٣٨، ١٤٠. دار الأنصار، بالقاهرة.
(٢) متفق على صحَّته .

لقد كانت رضي الله عنها إحدىٰ المجتهدات ، من أنفذ الناس رأيًا في أصول الدين ودقائق الكتاب المبين، وكمْ كان لها رضي الله عنها من استدراكاتٍ على الصحابة وملاحظاتٍ ، فإذا علموا بذلك منها ، رجعوا إلى قولها[١] .

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : «ما أشكل علينا- أصحاب رسول الله ﷺ - حديث قطُّ فسألنا عائشة، إلا وجدنا عندها منه علمًا »[٢] .

وقال مسروق: «رأيتُ مشيخة أصحاب محمد ﷺ يسألونها عن الفرائض».

وقال عطاء بن أبي رباح : « كانت عائشة أفقه الناس » .

وقال الزهري : « لو جُمع علْمُ الناس كلِّهم وأمَّهات المؤمنين ؛ لَكانتْ عائشة أوسَعَهُم علْمًا »[٣] .

قال الذهبي : « مُسند عائشة يبلغ ألفيْن ومائتين وعشرة أحاديث » .

ولمَّا ذكر ابن حزم أسماءَ الصحابة الذين رُويت عنهم الفتاوى في الأحكام على مزيَّةِ كثرةِ ما نُقِل عنهم ؛ قدَّم عائشةَ على سائر الصحابة .

وقال الحافظ أبو حفص عمر بن عبد المجيد القرشي في كتاب « إيضاح ما لا يسع المحدِّث جهلُه » : « اشتمل كتاب البخاري ومسلم على ألف حديث ومائتي حديث من الأحكام ؛ فروَتْ عائشة من جملة الكتابيْن مائتين ونيِّفًا وتسعين حديثًا ، لم يخرج عن الأحكام منها إلا يسير » . قال الحاكم أبو عبد الله : « فحُمل عنها ربعُ الشريعة » .

وعن عروة بن الزبير : « ما رأيتُ أحدًا أعلم بفقه ولا بطبٍّ ولا بِشعْر ، من عائشة » . وعنه : « لقد صحبتُ عائشة ، فما رأيتُ أحدًا قط كان أعلمَ بآيةٍ نَزَلت ، ولا بفريضة ، ولا بسُنَّة ، ولا بِشعْرٍ ، ولا أروىٰ له ، ولا بيومٍ

(١) انظر : « الإجابة لإيراد ما استدركتْه عائشة على الصحابة » للزركشي .
(٢) إسناده حسن : رواه الترمذي .
(٣) المستدرك ٤ / ١١ .

من أيام العرَب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا طبّ- منها».

وعن الشعبي : أن عائشة قالت : « رَوَيْت للبيد نحْوًا من ألف بيْت » . وكان الشعبي يذكرها ، فيتعجَّب من فقهها وعلمها ، ثم يقول : ما ظنُّكم بأدبِ النبوَّة ؟!(١) .

أما عن عبادتها : فقد قال القاسم : « كانت عائشة تصوم الدهر » .

وعن عروة : أن عائشة كانت تسرِد الصوم . وعن القاسم : أنها « كانت تصوم الدهر ، لا تُفطر إلَّا يومَ أضحى أو يوم فطر » .

وعن القاسم قال : « كنتُ إذا غدوْتُ ، أبدأ ببيت عائشة رضي الله عنها فأسلِّم عليها ، فغدوْت يومًا ، فإذا هي قائمة تسبِّح ، وتقرأ : ﴿ **فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السَّمُوم** ﴾ [الطور : ٢٧] . وتدعو وتبكي ، وتردِّدها ، فقمتُ حتى مللتُ القيامَ ، فذهبتُ إلى السوق لحاجتي ، ثم رجعتُ فإذا هي قائمة كما هي تصلِّي وتبكي »(٢) .

وعن عروة قال : « كانت عائشة رضي الله عنها لا تُمسك شيئًا ممَّا جاءها مِن رزْق الله إلَّا تصدّقت به » .

وقال عروة : « بعث معاوية مرَّة إلى عائشة بمائة ألف درهم فقسمَتْها ، فلم تتركْ منها شيئًا ، فقالت بريرة : أنتِ صائمة ؛ فهلَّا ابتعتِ لنا منها بدرهمٍ لحمًا ؟ قالت : « لو ذكَّرتيني لَفعلتُ » .

وعنه أيضًا قال : « وإن عائشة تصدَّقت بسبعين ألف درهم، وإنها لترقِّع جانبَ دِرْعِها »(٣) .

وعن محمد بن المنكدر ، عن أمِّ ذرّة - وكانت تغشى عائشة رضي الله

---

(١) عودة الحجاب ٢/٥٧٤- ٥٧٥ .

(٢) السمْط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين صـ ٩٠ .

(٣) طبقات ابن سعد ٨/٤٥ .

عنها – قالت : بعث إليها ابن الزبير بمالٍ في غرارتيْن . قالت : أراه ثمانين ومائة ألف ، فدعتْ بطبقٍ ، وهي صائمة يومئذٍ ، فجلستْ تقسمه بين الناس ، فأمستْ وما عندها من ذلك درهمٌ ، فلمَّا أمستْ قالت : « يا جارية ، هَلُمِّي فطوري » . فجاءتْها بخبز وزيْت ، فقالت لها أُمُّ ذرّة : « أمَا استطعتِ ممَّا قسَمتِ اليومَ أن تشتري لنا بدرهمٍ لحمًا نُفطر عليه؟». فقالت:« لا تعنِّفيني ، لو كنتِ أذكرتيني لَفعلتُ »[1] .

وفي مرض موْتها دخل عليها ابن عباس رضي الله عنها فقال : « أبشري !! فما بينك وبين أن تلقي محمدًا ﷺ والأحبَّة إلا أن تخرج الرُّوحُ من الجسد، كنتِ أحبَّ نساء رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحبُّ إلَّا طيِّبًا ، وسقطتْ قِلادتك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله ﷺ حتى تصبَّح في المنزل ، فأصبح الناس ليس معهم ماء ، فأنزل الله عزَّ وجل : ﴿ فتيمَّموا صعيدًا طيِّبًا ﴾ [المائدة : ٦] . وكان ذلك في سببكِ ، وما أنزل الله لهذه الأُمَّة من الرُّخصة ، وأنزل براءتك من فوق سبع سماوات ، جاء بها الروح الأمين ، فأصبح ليس مسجدٌ من مساجد الله يُذكر الله فيه إلّا تُتْلَى فيه آناءَ الليل وآناء النهار » . فقالت : « يا ابن عباس ، دعني منك ، ومن تزكيَتك ، فوالله لَوددتُ أني كنتُ نَسْيًا مَنْسيًّا !! » .

أُمُّ المؤمنين زيْنبُ بنت جَحْش وعلوُّ همَّتها في الصَّدَقَة :

كانت رضي الله عنها امرأة صَنَاعًا ، وكانت تعمل بيدها وتتصدَّق به في سبيل الله .

قالت عائشة رضي الله عنها : « كانت زينب بنت جحش تُساميني في المنزلة عند رسول الله ﷺ ، ولم أرَ امرأةً قطُّ خيرًا في الدين من زينب ، وأتقى لله ، وأصدق حديثًا ، وأوصلَ للرَّحِم ، وأعظم صدقة ، وأشدَّ ابتذالًا لنفسها

---

(١) طبقات ابن سعد ٤٦/٨ ، والحلية لأبي نعيم ٤٧/٢ .

في العمل الذي تصدَّق به ، و تقرَّبُ به إلى الله تعالى » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : « دخل رسول الله ﷺ المسجد ، فإذا حبلٌ ممدود بين السارِيتيْن ، فقال : « ما هذا الحبل ؟ » . قالوا : حبلٌ لزينب ، فإذا فتَرَتْ تعلقتْ به. فقال النبي ﷺ: «لا، حُلُّوه، لِيُصلِّ أحدُكم نشاطَهُ، فإذا فتَرَ فلْيقعدْ »[1] .

وعن بررة بنت رافع قالت : « لمَّا جاء العطاء ؛ بعث عمر إلى زينب رضي الله عنها بالذي لها ، فلمَّا دخل عليها ، قالت : « غفرَ الله لعمر ، لَغيري من أخواتي كان أقوى على قسْم هذا مني » . قالوا : هذا كلُّه لك . فقالت : « سبحان الله !! » . واستترتْ دُونه بثوب ، وقالت : « صُبُّوه ، واطرحوا عليه ثوبًا». فصبُّوه، وطرحوا عليه، وقالت لي: « أدخلي يدَك فاقبضي منه قبْضة ، فاذهبي إلى آل فلان ، وآل فلان » . من أيتامها وذوي رَحِمِها ؛ فقسمتهُ حتى بقيتْ منه بقيَّة ؛ فقالت لها بررة : غفر الله لك !! والله لقد كان لنا من هذا حظٌّ . قالت : « فلكُمْ ما تحت الثوب » . فرفعنا الثوب ، فوجدنا خمسة وثمانين درهمًا، ثم رفعت يدها وقالت: «اللهم لا يدركني عطاءُ عمر بعد عامي هذا ». قالت : فماتت رضي الله عنها »[2] .

وقال محمد بن كعب : كان عطاءُ زينبَ اثني عشر ألف درهم ، حُمِل إليها فقسمتْه في أهل رَحِمِها وفي أهل الحاجة ، حتى أتت عليه ، فبلغ عمر فقال : « هذه امرأة يُراد بها خير » . فوقف على بابها ، وأرسل بالسَّلام وقال : « قد بلغني ما فرَّقتِ » فأرسل إليها بألف درهم لتُنفقها ، فسلكت بها طريق ذلك المال .

وقالت عنها عائشة رضي الله عنها بعد موتها: «لقد ذهبتْ حميدةً متعبِّدةً،

(١) رواه البخاري ، والنسائي ، وأبو داود .
(٢) السير ٢/٢١٢- ٢١٥ .

مَفْزَع اليتامى والأرامل »[١] .

أمُّ المؤمنين حفصةُ بنت عمر رضي الله عنها :

صحَّ أن النبي ﷺ طلَّقها ، ثم راجَعها بأمْر جبريل - عليه السلام - له بذلك ، وقال : « إنها صوَّامة قوَّامة ، وهي زوجتك في الجنة »[٢] .

فأيُّ شرفٍ فوقَ هذا الشرف ؟! نعم ، إنها بنت أبيها رضي الله عنهما !!

وهل يُنبتُ الخطِّيَّ إلَّا وشيجُهُ ويُزرَعُ إلَّا في منابتِهِ النخلُ

أسماءُ بنت الصِّدِّيق ذات النطاقين رضي الله عنها :

قالت أسماء رضي الله عنها : « لمَّا توجَّه النبي ﷺ من مكة ، حمل أبو بكر معه جميعَ ماله - خمسة آلاف ، أو ستة آلاف - فأتاني جدِّي أبو قحافة - وقد عمي - فقال: إن هذا قد فجعكم بماله ونفسه. فقلتُ: كلَّا، قد ترك لنا خيرًا كثيرًا . فعَمَدتُ إلى أحجار ، فجعلتُهنَّ في كُوَّة البيت ، وغطَّيْتُ عليها بثوبٍ، ثم أخذتُ بيده ووضعتُها على الثوب ، فقلت : هذا ترَكَهُ لنا . فقال : أمَا إذْ ترك لكم هذا ، فنعم » .

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : « ما رأيتُ امرأتين قطُّ أجودَ من عائشة وأسماء ، وجُودهما مختلف ؛ أمَّا عائشة : فكانت تجمع الشيءَ حتى إذا اجتمع عندها ، قسمَتْ ، وأما أسماء : فكانت لا تُمسك شيئًا لغدٍ »[٣] .

قالت فاطمة بنت المنذر: كانت أسماء تَمرَض المَرضَة، فتُعتِق كلَّ مملوك لها.

وعن ابن أبي مُلَيْكَة : « كانت أسماء تصدعُ ، فتضع يدَها على رأسها وتقول : بذنبي ، وما يغفر الله أكثرُ » .

---

(١) الإصابة ٧/٦٧٠ .

(٢) صحيح : صحَّحه ابن حجر في الإصابة ٤/٢٧٣، والألباني ، وقد سبق ذكْره .

(٣) أحكام النساء لابن الجوزي صـ ١٢٥ .

جهادُ القانتاتِ الصابرات :

قال الشيخ محمد إسماعيل : « لقد تأثَّرت خديجة بنت خُويْلد رضي الله عنها بهذا الدين تأثُّرًا نفَذَ إلى قلبه ﷺ ، فكان مبْعَثَ الغِبْطَة والسكينة عند تدافُع النُّوب ، واشتداد الخطوب ، ثم أعقبها جمهور النساء ، فتأثَّرن بهذا الدين تأثُّرًا ، فبان وراءه كلُّ شيء . وأول مَن سبق إليه فريقُ الضِّعاف اللَّواتي استهنَّ بما أصابهنَّ في سبيل الله ، من ظلم وذلٍّ وآلام » .

سُمَيَّة بنتُ خُبَّاطَ أولُ شهيدةٍ في الإسلام :

أمُّ عمَّار بن ياسر ،كانت سابعة سبعةٍ في الإسلام ، وكان بنو مخزوم إذا اشتدَّتِ الظهيرة، والْتهبتِ الرمضاء؛ خرجوا بها هي وابنها وزوجها إلى الصحراء، وألبَسُوهم دروع الحديد ، وأهالوا عليهم الرمال المتقِدة، وأخذوا يرضحونهم بالحجارة . واعتصمتْ بالصبر وقرَّتْ على العذاب ، وأبتْ سُمَيَّة أن تُعطيَ القومَ ما سألوا من الكفر بعد الإيمان ، فذهبوا بروحها وأفظعوا قِتلتَها ، فقد أنفذ النذْل أبو جهل بن هشام حرْبَتَه فيها ، فماتت رضي الله عنها ، وكانت أول شهيدة في الإسلام [1] .

سميةُ لا تبالي حينَ تلقَى عذابَ النكْر يَوْمًا أو تلينا
وتأبى أن تردِّد ما أرادوا فكانتْ في عِداد الصابرينا

أمُّ شريك غُزَيَّة بنت جابر بن حكيم : بصبْرها أسلم مَن عذَّبوها :

قال ابن عباس : « وقع في قلب أمِّ شريك الإسلامُ وهي بمكة ، فأسلمتْ ثم جعلتْ تدخل على نساء قريش سرًّا ، فتدعوهنَّ وتُرغِّبهنَّ في الإسلام ، حتى ظهر أمْرُها لأهل مكة ، فأخذوها وقالوا لها : لولا قومك ، لَفعلنا بك وفعلْنا ، ولكنَّا سنردُّك إليهم . قالت : فحملوني على بعير ليس تحتي شيء مُوطأ ولا غيره ،

---

(١) عودة الحجاب ٢ / ٥٤١ .
قال ابن حجر : « أخرج ابن سعد بسند صحيح ؛ عن مجاهد قال : أول شهيد في الإسلام سميَّة والدة عمَّار بن ياسر ، وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة » .

ثم تركوني ثلاثًا لا يُطعموني ولا يسقوني ، فنزلوا منزلًا ، وكانوا إذا نزلوا وقفوني في الشمس واستظلُّوا ، وحبسوا عني الطعام والشراب حتى يرتحلوا ، فبينما أنا كذلك إذا بأثر شيء بارد وقع عليَّ منه ، ثم عاد فتناولتُه ، فإذا هو دَلْو ماءٍ ، فشربتُ منه قليلًا ، ثم نُزع مني ، ثم عاد فتناولتُه ، فشربتُ منه قليلًا ، ثم رُفع ، ثم عاد أيضًا ، فصنعَ ذلك مرارًا حتى رويتُ ، ثم أفضْتُ سائره على جسدي وثيابي ، فلمَّا استيقظوا إذا هم بأثر الماء ، ورأَوْني حسَنة الهيئة ، فقالوا لي : انحللتِ فأخذتِ سِقاءَنا فشربتِ منه ؟ فقلتُ : « لا والله ما فعلتُ ذلك ، كان من الأمر كذا وكذا » . فقالوا : لئنْ كنتِ صادقة ؛ فدينُك خيرٌ من ديننا . فنظروا إلى الأسقية فوجدوها كما تركوها ، فأسلموا لساعتهم »[(١)] .

أمُّ كُلثوم بنتُ عقبة بن أبي مُعَيْط : مَثَلٌ سامِق لعلوِّ الهِمَّة في طلب الحقِّ :

آمنتْ أم كلثوم بنت عقبة وأبوها شيطان قريش ، وفارقتْ خِدْرها ، ومُستقرَّ مأمنها ودَعتها ، تحت جُنْح الليل ، فريدةً شريدة ، تطوي بها قدماها ثنايا الجبال ، وأغوار التَّهائم بين مكة والمدينة إلى مفزع دينها ودار هجرتها ؛ إلى رسول الله ﷺ ، ثم أعقبتها بعد ذلك أُمّها ، فاتخذتْ سُنتها ، وهاجرتْ هجرتها ، وتركتْ شباب أهل بيتها وكهولتَهم وهم في ضلالهم يعمهون[(٢)] .

أُمُّ حواريِّ الرسول ﷺ وعمتُه: صفيَّة؛ أولُ امرأة قتلت رجلًا من المشركين:

لمَّا خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ؛ جعل نساءَه في أُطُمٍ[(٣)] يُقال له : فارع . قال عروة : « كان النبي ﷺ إذا خرج لقتال عدوِّه رفع نساءه في أُطُمِ حسَّان رضي الله عنه ؛ لأنه كان من أحصن الآطام ... فجاء يهوديّ

---

(١) الإصابة ٨/٢٤٨ .
(٢) عودة الحجاب ٢ / ٥٤٤ .
(٣) كلُّ حصن مبني من الحجارة .

فلصِقَ بالأطم ليسمع . قالت صفية : فأخذتُ عمودًا فنزلت إليه ، حتى فتحتُ الباب قليلًا قليلًا ، فحملتُ عليه فضربتُه بالعمود فقتلتُه »(١) .

وعند ابن إسحاق : وهي أول امرأة قتلتْ رجلًا من المشركين .

وفي رواية: «فجاء إنسان من اليهود فرقي في الحصن، حتى أطلَّ عليهنَّ. قالت صفية بنت عبد المطلب : فقمتُ إليه ، فضربتُه حتى قطعت رأسه ، فأخذتُ رأسه فرميتُ به عليهم »(٢) .

أمُّ عمارة نسيبة بنت كعب : مقامُها في أُحُدٍ خيرٌ من الرجال :

الفاضلة المجاهدة الأنصارية الخزرجيَّة .

«شهدتْ أمُّ عمارةَ ليلة العقبة، وشهدت أُحدًا والحديبية، ويوم حُنيْن، ويوم اليمامة ، وجاهدتْ ، وفعلتِ الأفاعيل ، وقُطعتْ يدها في الجهاد »(٣) .

وكان ضمرة بن سعيد المازني يُحدث عن جدته - وكانت قد شهدت أحدا - قالت : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «لَمقامُ نسيبة بنتِ كعب اليوم : خيرٌ من مقام فلان وفلان » . وكانت تراها يومئذٍ تقاتل أشدَّ القتال ، وإنها لحاجزةٌ ثوْبها على وسطِها ، حتى جُرحتْ ثلاثة عشر جرحًا ، وكانت تقول : إني لَأنظر إلى ابن قمئة وهو يضربها على عاتقها ، وكان أعظمَ جراحِها ، فداوَتْه سنة ، ثم نادى منادي رسول الله ﷺ : إلى حمراء الأسد . فشدَّتْ عليها ثيابها ، فما استطاعت ، من نزْف الدم ، رضي الله عنها ورحمها .

قالت أمُّ عمارة : « رأيتني ، وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ ، فما بقي إلَّا في نفَير ما يُتمُّون عشرة ، وأنا وابناي وزوجي بين يديْه نذُبُّ عنه ، والناس يمرُّون به منهزمين ، ورآني ولا ترْسَ معي ، فرأى رجلًا مُوليًا ومعه

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢٧/٨، والمستدرك ٥١/٤ .
(٢) الإصابة ٧/ ٧٤٤ .
(٣) السير ٢ / ٢٧٨ .

تِرْسٌ ، فقال : « أَلْقِ تُرسك إلى مَن يُقاتِل » . فألقاه ، فأخذتُه ، فجعلتُ أترِّس به عن رسول الله ﷺ ، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحابُ الخيْل ، لو كانوا رجَّالة مثلنا؛ أصبناهم إن شاء الله، فيُقبِل رجلٌ على فرس، فيضربني، وترَّستُ له ، فلم يصنع شيئًا وولَّى ، فأضرب عرقوب فرسه ، فوقع على ظهره ، فجعل النبي يصيح: « يا ابن أمِّ عمارة، أمَّك. أمَّك ! » قالت : فعاونني عليه حتى أوردتُه شَعوب »[١] .

وكانت لا ترى الخطر يدنو من رسول الله ﷺ حتى تكون سدادَهُ ومِلءَ لهوته، حتى قال ﷺ: «ما التفتُ يمينًا ولا شمالًا إلَّا وأنا أراها تقاتل دوني»[٢].

قال ابنها عمارة : جُرحتُ يومئذٍ جُرْحًا في عَضُدي اليسرىٰ ، ضربني رجل كأنَّه الرَّقْلُ[٣] ، ومضى عني ، ولم يُعرِّجْ عليَّ ، وجعل الدم لا يرقأ ، فقال رسول الله ﷺ: «اعصبْ جرْحك». فأقبلتْ أمِّي إليَّ، ومعها عصائب في حَقْوَيْها ، قد أعدَّتها للجراح ، فَربطتْ جُرْحي ، والنبيُّ واقف ينظر إليَّ ، قالت : انهضْ يا بُنَيَّ ضارِبِ القوم . فجعل النبي ﷺ يقول : « مَن يُطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟!» . قالت : وأقبل الرجل الذي ضرب ابني ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا ضاربُ ابنك ». قالت : فاعترضتُ له فضربتُ ساقه ، فبركَ . قالت : فرأيتُ رسول الله ﷺ يتبسَّم حتى رأيتُ نواجذه ، وقال : «استقدْتِ يا أمَّ عمارة ؟!». ثم أقبلنا نَعُلُّه[٤] بالسلاح حتى أتينا على نفسه ، فقال النبي ﷺ : « الحمد لله الذي ظفَّركِ ، وأقر عينك من عدوِّك ،وأراك ثأْرَك بعيْنِكِ » .

قال عبد الله بن زيد: «نظر رسول الله ﷺ إلى جرح أمِّي على عاتقها ،

---

(١) شعوب : من أسماء المنيَّة ، والخبر في الطبقات ٨/٤١٣، ٤١٤ .
(٢) الطبقات ٨/٣٠٣ .
(٣) الرَّقْل : جمع رقلة ؛ وهي النخلة العالية .
(٤) أي : نتابع عليه الضرب .

فقال: «أُمَّك أُمّك،اعصبْ جرْحَها! اللهمَّ اجعلْهم رفقائي في الجنة». فقالت: ما أبالي ما أصابني من الدنيا »[١] .

قال محمد بن يحيى بن حبان : « جُرِحت أُمُّ عمارة بأُحدٍ اثني عشر جرحًا ، وقُطِعتْ يدها يوم اليمامة ، وجُرحت يومَ اليمامة سوى يدها أحدَ عشر جرْحًا ، فقدمت المدينة وبها الجراحة ؛ فلقد رُئِيَ أبو بكر رضي الله عنه وهو خليفة يأتيها يسأل عنها »[٢] .

حاولتْ قتْلَ مسيْلمة وهي عجوز مُسِنَّة وقُطعتْ يدُها .. فلله درُّها ورضي الله عنها .

أسماءُ بنتُ يزيد بن السَّكنِ تقتل تسعة من الرُّوم يومَ اليرموك :

أمُّ عامر وأمُّ سلَمة، الأنصارية، بنت عمَّة معاذ بن جبل رضي الله عنهما.

« مِن المُبايِعات المجاهدات .. روَتْ عن النبي جمْلةَ أحاديث ، وقتلت بعمودِ خِبَائِها يومَ اليرموك تسعة من الروم !! »[٣] .

الرُّمَيْصَاءُ بنتُ ملْحَانَ أمُّ سُلَيم ؛ امرأةٌ مِن أهل الجَنَّة ، مَثَلٌ كريمٌ في الصبْر والدَّعْوة :

لله درُّها أمُّ أنس بن مالك !!

عن جابر بن عبد الله ، أنَّ رسول الله ﷺ قال : « رأيتُني دخلتُ الجنة فإذا أنا بالرُّميصاء امرأة أبي طلحة ، وسمعتُ خشْفَةً ، فقلتُ : من هذا ؟ فقال : هذا بلال »[٤] .

---

(١) الطبقات لابن سعد ٤١٤/٨ - ٤١٥ ، ٣٠٢/٨- ٣٠٣ .
(٢) طبقات ابن سعد ٤١٦/٨ .
(٣) السير ٢٩٦/٢- ٢٩٧ .
(٤) رواه البخاري ومسلم .

وعن أنس قال : قال النبي ﷺ : « دخلتُ الجنة ، فسمعتُ خَشْفَةً بين يديَّ ، فإذا أنا بالغُمَيْصَاء بنت ملحان »[١] .

كانت حياتها ملأى بالأعاجيب النيِّرة المشرقة.. تُوحي بسُموِّها وعُلوِّها!!

قالت أُمُّ سُلَيم : آمنتُ برسول الله ﷺ ، فجاء أبو أنس ، وكان غائبًا ، فقال : أَصَبَوْتِ ؟ فقالت : ما صبوتُ ، ولكنِّي آمنت !! وجعَلَتْ تُلقِّن أنسًا : قُلْ : لا إله إلا الله . قل : أشهد أنَّ محمدًا رسول الله .. ففعل ، فيقول لها أبوه : لا تُفسدي عليَّ ابني . فتقول : إني لا أُفسده . فخرج مالكٌ فلقيَه عدوٌّ له فقتله . فقالت : لا جَرَمَ ، لا أُفْطِمُ أنسًا حتى يدعَ الثدي ، ولا أتزوَّجُ حتى يأمرني أنس[٢] .

لله درُّها !! تُلقِّن ابنها دينَه وهو رضيع .. فأين هي ممَّن يُسَكِّتْنَ أولادهن بذكْر الطعام الآنَ ؟! تريد أنْ تعلِّمه وتعوِّده على التُّخْمَة مِثْلَ أبيه !!

وخطبَها أبو طلحة وهو مشركٌ فأبَتْ ، وقالت له يومًا فيما تقول : أرأيتَ حَجَرًا تَعبُده لا يضرُّك ولا ينفعك ، أو خَشَبَةً تأتي بها النجَّار فينجرها لك ؛ هل يضرُّك ؟ هل ينفعك ؟ فوقع في قلبه الذي قالت : فأتاها ، فقال : لقد وقع في قلبي الذي قلت : .. وآمن . قالت : فإني أتزوَّجك ولا آخُذ منك صَداقًا غيره .

وعند النسائي : « عن أنس قال : تزوَّج أبو طلحة أمَّ سُليم ، فكان صداقُ ما بينهما الإسلام »[٣] .

« وعن أنسٍ قال : خطب أبو طلحة أمَّ سُلَيم ، فقالت : إنه لا ينبغي أن أتزَوَّجَ مشركًا . أمَا تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم يَنحِتُها عبدُ آلِ فلان ، وأنكم

---

(١) رواه مسلم ، وابن سعد في الطبقات . والخَشْفة : هي الحسُّ والحركة .

(٢) الطبقات لابن سعد ٨ / ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٣) سنده صحيح .

لو أشعلتم فيها نارًا ؛ لَاحترقتْ ؟! قال : فانصرف وفي قلبه ذلك ، ثم أتاها وقال: الذي عرضتِ عليَّ قد قبلتُ. قال: فما كان لها مَهْرٌ إلّا الإسلام»(١).

وعند النسائي : عن ثابت ، عن أنسٍ قال : خطب أبو طلحة أمَّ سُلَيم ، فقالت : والله ما مثلُك يا أبا طلحة يُرَدُّ ، ولكنَّك رجلٌ كافر وأنا امرأة مسلمة ، ولا يحلُّ لي أنْ أتزوَّجك ، فإنْ تُسلم ؛ فذاك مَهْري ، وما أسألك غيرَه . فأسلم ، فكان ذلك مَهرَها . قال ثابت : فما سمعْتُ بامرأة قطُّ كانت أكرمَ مهرًا من أمِّ سُليم : الإسلام ؛ فدخل بها فولدتْ له .

أمَّا صبرُها الجليل وإيمانُها الشامِخ : فيبدو في هذه الحادثة :

قال أنسُ بن مالك رضي الله عنه : « مرض أخٌ لي من أبي طلحة يُدعى : أبا عُمير ، فبيْنا أبو طلحة في المسجد ؛ مات الصبيُّ ، فهيّأتْ أمُّ سُليم أمْرَه، وقالت: لا تُخبروا أبا طلحة بموْت ابنه. فرجع من المسجد، وقد تطيَّبتْ له وتصنَّعتْ ، فقال : ما فعل ابني ؟ قالت : هو أسكن مما كان ، وقدَّمت له عشاءَه ، فتعشَّى هو وأصحابه الذين قدِمُوا معه ، ثم قامت إلى ما تقوم له المرأة ، فأصاب من أهله ، فلمَّا كان آخر الليل قالت : يا أبا طلحة ، ألم ترَ إلى آلِ فلان ؛ استعاروا عارية فتمتّعوا بها ، فلمَّا طُلِبتْ إليهم شقَّ عليهم ؟ قال : ما أنصفوا. قالت: فإنَّ ابنك فلانًا كان عاريةً من الله فقبَضه إليه. فاسترجع وحمد الله(٢)! وقال: والله لا أدعك تغلبينني على الصبر. حتى إذا أصبح غدا على رسول الله ﷺ ، فلما رآه قال : « بارَكَ الله لكما في ليلتِكُما » . فاشتملت منذ تلك الليلة على عبد الله بن أبي طلحة ، ولم يكنْ في الأنصار شابٌّ أفضل منه ، وخرج منه رجُلٌ كثير ، ولم يمُتْ عبد الله حتى رُزِق عشرَ بنين ، كلّهم حفِظ القرآن

(١) إسنادها صحيح : رواه ابن سعد في الطبقات٨/٤٢٦- ٤٢٧، والذهبي في السير ٢/٣٠٥- ٣٠٦ .

(٢) وفي الصحيح: «انتظرْتِ حتى تلطَّخْت بكِ؟! ثم ذهب يشكوها إلى رسول الله ﷺ».

وأبلى في سبيل الله »[(١)] .

الخَنْسَاءُ التي صَاغَها الإسلام :

«في الجاهلية : ملأتِ البواديَ نِياحًا على شقيقها صخْر .. وفي الإسلام : قدَّمتْ أشطارَ كَبِدِها ونياط قلبها ؛ أربعة من الأسود خرجوا إلى القادسيَّة ، فكان ممَّا أوصتْهم به قولها: يا بنيَّ، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين. والله الذي لا إله إلَّا هو ؛ إنكم لَبَنُو رجل واحد كما أنَّكم بنو امرأةٍ واحدة ، ما هجَّنتُ حَسَبَكم ، وما غيَّرتُ نسَبَكم . واعلموا أنَّ الدار الآخرة خيرٌ من الدار الفانية . اصبروا وصابِروا ورابِطوا واتقوا الله لعلَّكم تُفلحون ، فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرتْ عن ساقها ، وجلَّلتم نارًا على أرواقها ؛ فيمِّموا وطيسَها ، وجالِدوا رسيسَها ، تظفروا بالغُنْم والكرامة في دار الخُلْد والمقامة .. فلمَّا كشَّرتِ الحرب عن نابها ؛ تدافعوا إليها ، وتواقعوا عليها ، وكانوا عند ظنِّ أُمِّهم بهم حتى قُتلوا واحدًا في إثْر واحد ، ولمَّا وافتْها النُّعاةُ بخبرهم ، لم تزِدْ على أنْ قالت : الحمد لله الذي شرَّفني بقتْلهم ، وأرجو من الله أن يجمعني بهم في مُسْتَقرِّ الرحمة »[(٢)] .

خولةُ بنْتُ الأزْوَر : مِن ذَوَاتِ الخُدورِ لكنْ ليس كَمِثْلِها النُّسور :

يُروىٰ أنه لمَّا أُسِرَ ضرارُ بن الأَزْور في وقعة أجْنادين ؛ سار خالد بن الوليد في طليعة مِن جُنْده لاستنقاذه ، فبيْنا هو في الطريق ، مرَّ به فارس معتقِل رُمْحَه لا يبين منه إلا الحدق ، وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوي على ما وراءه ، فلمَّا نظر خالدٌ قال : ليتَ شِعْري !! من هذا الفارس ؟! وأيْمُ الله،إنه لفارس . ثم اتَّبعه خالدٌ والناسُ من ورائه حتى أدرك جندَ الروم ، فحمل عليهم ، وأمعن بين صفوفهم ، وصاح بين جوانبهم ، حتى زعزع كتائبهم ، وحطَّم مواكبهم ،

---

(١) الإصابة ٢٢٩/٨ ، وأصل القصة في الصحيحين .

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ٢٩٧/٤ ، والإصابة ٦١٥/٧-٦١٦ .

فلم تكن غيْر جوْلة جائلٍ حتى خرج وسنانه ملطَّخٌ بالدِّماء ، وقد قتَل رجالًا ، وجندل أبطالًا ، ثم عرَّض نفسه للموت ثانية ، فاخترق صفوف القوم غيرَ مكترث ، وخامَر المسلمين من القلق والإشفاق عليه شيءٌ كثيرٌ ، وظنَّه أُناس خالدًا ، حتى إذا قدِم خالد ، قال له رافع بن عميرة : من الفارس الذي تقدَّم أمامك ؛ فلقد بذَل نفسه ومهجته ؟ فقال خالد : والله لَأنا أشدُّ إنكارًا وإعجابًا لما ظهر من خلاله وشمائله . وبيْنا القوم في حديثهم ، خرج الفارس كأنَّه الشهاب الثاقب ، والخيل تعدو في أثَره ، وكلَّما اقترب أحدٌ منه ألوىٰ عليه ، فأنهل رُمحه من صدره ، حتى قدم على المسلمين ، فأحاطوا به وناشدوه كشْف اسمه ورَفْع لِثامه ، وناشده ذلك خالدٌ وهو أمير القوم وقائدهم ، فلم يُحرْ جوابًا ، فلمَّا أكثر خالد أجابه وهو مُلثَّم ، فقال : أيها الأمير ، إني لم أُعرِض عنك إلّا حَياءً منك ، لأنك أميرٌ جليل ، وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور، وإنما حملني على ذلك أني محرقة الكبد، زائدة الكمَد. فقال خالد: مَن أنتِ ؟ قالت : أنا خوْلة بنت الأزور ، كنتُ مع نساء قومي ، فأتاني آتٍ بأنَّ أخي أسير ، فركبتُ وفعلتُ ما رأيتَ ، هنالك صاح خالدٌ في جنده ، فحملوا وحُملتْ معهم خولة وعظم على الروم ما نزل بهم منها ، فانقلبوا على أعقابهم . وكانت تجول في كلِّ مكان علَّها تعرف أين ذهب القوم بأخيها ، فلم ترَ له أثرًا ، ولا وقفتْ له على خبر ، على أنها لم تزل على جهادها ، حتى استُنقِذ لها أخوها(١) .

ومن مواقفها الرائعة : موقفها يومَ أُسِرَ النساء في موقعة « صحورا » ؛ فقد وقفتْ في النساء ، وكانت قد أُسرتْ معهنَّ ، فأخذت تُثير نخوتَهنَّ ، وتُضْرِمُ نار الحميَّة في قلوبهنَّ ، ولم يكن من السلاح شيءٌ معهن ، فقالت : خُذْن أعمدةَ الخيام وأوتاد الأطناب ، ونحمل على هؤلاء اللِّئام ، فلعلَّ الله ينصرنا

(١) فتوح الشام ١/١٢٧ - ١٢٨ .

عليهم . فقالت عَفْراءُ بنت عَفَار : والله ما دعوت إلى ما هو إلينا مما ذكرتِ . ثم تناولتْ كلُّ واحدةٍ عمودًا من عُمد الخيام ، وصِحْن صيحةً واحدة ، وألقتْ خوْلة على عاتقها عمودها ، وتتابع النساء وراءها ، فقالت لهنَّ خولة : لا ينفكُّ بعَضُكنَّ عن بعض ، وكُنَّ كالحلقة الدائرة ، ولا تتفرقْنَ فتُمْلَكْنَ ، فيقع بكنَّ التشتيتُ ، واحطمنَ رِماح القوم ، ، واكسرْنَ سيوفهم .. وهجمت خوْلة ، وهجم النساء وراءها، وقاتلت بهنَّ قتال المستيئس المستميت؛ حتى استنقذتْهنَّ من أيدي الروم ، وخرجتْ وهي تقول :

نحنُ بناتُ تُبَّعٍ وحِمْيَـرْ وضَربُنا في القوم ليس يُنكَرْ
لأنَّنا في الحرب نار تسْعَرْ اليومَ تسْقَوْن العذاب الأكبَرْ[1]

وما أعلىٰ همَّة الصالحات في طلَبِ العلْم والعَمل به : حفصَةُ بنت سيرين : تمكث ثلاثين سنةً لا تخرج من مصلَّاها إلَّا لقضاء حاجَة :

« أمُّ الهُذيْل الفقيهة الأنصارية .

قال مهدي بن ميمون : مكثتْ حفصةُ بنت سيرين ثلاثين سنة لا تخرج من مصلَّاها إلا لقائلة أو قضاء حاجة !!.

وقال إياس بن معاوية : قرأتِ القرآن وهي بنت ثنتي عشرة سنة . فذكروا له الحسن وابن سيرين ، فقال : أمَّا أنا : فما أُفضِّل عليها أحدًا »[2] .

وعن هشام بن حسَّان قال : كان إذا أشكل عليه شيءٌ من القرآن ، قال : اذهبوا فسلوا حفصة كيف تقرأ .

وعنه قال : اشترتْ حفصة جارية - أظنُّها سِنْدية - فقيل لها : كيف رأيتِ مولاتَك ؟ فذكرتْ كلامًا بالفارسية ، تفسيره : إنها امرأة صالحة ، إلَّا أنها أذنبتْ ذنبًا عظيمًا ؛ فهي الليل كلَّه تبكي وتصلِّي .

---

(١) فتوح الشام ١/١٢٨ - ١٢٩ .
(٢) السير ٤/٥٠٧ .

وعن عبد الكريم بن معاوية قال : ذُكِر لي عن حفصة أنها كانت تقرأ نصف القرآن في كلِّ ليلة، وكانت تصوم الدهر، وتُفطر العيدين وأيامَ التشريق.

عَمْرَةُ بنتُ عبد الرحمن بن سعد بن زرارة : بحرٌ لا ينزف :

تربية[1] عائشة ، كانت عالمة فقيهة ، حُجَّةً كثيرة العلم ، وحديثها كثير في دواوين الإسلام .

عن ابن شهاب : عن القاسم بن محمد أنه قال لي : « يا غلام ، أراك تحرص على طلب العلم ، أفلا أدلُّك على وعائه ؟ » . قلتُ : بلى . قال : عليك بِعَمْرة ، فإنها كانت في حِجْر عائشة رضي الله عنها . قال : فأتيتُها ، فوجدتها بحرًا لا يُنزَف .

وابنة سعيد بن المسَيِّب تعلِّم زوْجَها علْم سعيد بن المسيِّب :

وهذه ابنة سعيد بن المسَيِّب لمَّا أنْ دخَل بها زوجُها أبو وداعة ، وكان من أحد طلبة والدها ، فلما أن أصبح أخذ رداءه يريد أن يخرج فقالت له زوجته : إلى أين تريد ؟ فقال : إلى مجلس سعيد أتعلَّم العلم . فقالت له : اجلس أعلمك عِلْمَ سعيد[2] .

أمُّ سفيان الثوري تعوله بمغزلها :

قال وكيع: قالت أمُّ سفيان لسفيان: اذهبْ، فاطلبِ العلمَ حتى أعولك بمِغْزَلي ، فإذا كتبت عدَّة عشرة أحاديث ، فانظر هل تجد في نفسك زيادة ، فاتَّبعه ، وإلَّا فلا تتعَنَّ . (السير ٧ / ٢٦٩) .

وأُمُّ الدَّرْداء الصغرى مثلٌ عظيمٌ للفقيهةِ العابِدة :

روتْ علْمًا جمًّا عن زوجها أبي الدرداء ، وعن سلمان ، وكعب بن

(١) التِّرب : اللِّدَة ، والسِّنّ ، ومَنْ وُلِد معك .
(٢) المدخل لابن الحاج ٢١٥/١ ، وعودة الحجاب ٥٨١/٢ - ٥٨٣ .

عاصم ، وعائشة وأبي هريرة،واشتُهرت بالعلم والعمل والزهد .

قال مكحول : كانت أمُّ الدرداء فقيهة . وقال عون بن عبد الله : كنَّا نأتي أمَّ الدرداء ، فنذكر الله عندها . وقال يونس بن ميسرة : كان النساء يتعبَّدن مع أمِّ الدرداء رضي الله عنها ، فإذا ضعفْنَ عنِ القيام تعلقنَ بالحبال !!

وبنت الإمام مالك تحفظ « الموطَّأ » :

وكان الإمام مالك يُقرأ عليه « الموطأ » ، فإذا لحن القارئ في حرف ، أو زاد ، أو نقص ؛ تدقُّ ابنتُه الباب ، فيقول أبوها للقارئ : ارجِعْ ، فالغلط معك . فيرجع القارئ ، فيجد الغلط(١) .

وجارية الإمام مالك :

وحُكي عن أشهب أنه كان في المدينة ، وأنه اشترى خضرة من جارية ، وكانوا لا يبيعون الخضرة إلَّا بالخبز ، فقال لها : إذا كان عشيةً حين يأتينا الخبز فأتِنا نُعطِك الثمن . فقالت : ذلك لا يجوز . فقال لها : ولِمَ ؟ فقالت : لأنه بيْع طعام بطعام ، غير يدٍ بيدٍ . فسأل عن الجارية، فقيل له : إنها جارية مالك ابن أنس رحمه الله(٢) .

والدة الفقيه الواعظ المفسِّر زين الدين علي بن إبراهيم :

المعروف بـ « ابن نجيَّة » سبْط الشيخ أبي الفرج الشيرازي الحنبلي .

قال ناصح الدين بن الحنبلي : قال لي والدي : زيْن الدين سَعِد بدعاءِ والدته ؛ كانت صالحة حافظة تعرِف التفسير .

قال زين الدين : كنا نسمع من خالي التفسير ، ثم أجيء إليها فتقول : أيش فسَّر أخي اليوم ؟ فأقول : سورة كذا وكذا . فتقول : ذكَرَ قولَ فلان ؟

---

(١) المدخل : ٢١٥/١ .

(٢) المدخل .

وذكَر الشيخ الفلاني؟ فأقول: لا. فتقول: ترك هذا. وسمعتُ والدي يقول: كانت تحفظ كتاب « الجواهر » ، وهو ثلاثون مجلدة ، تأليف والدها الشيخ أبي الفرج ، وأقعدتْ أربعين سنة في محرابها[١] .

أمُّ عليٍّ بن المديني .. لله درُّها :

قال علي بن المديني : « غبتُ عن البصرة في مخرجي إلى اليمن – ثلاث سنين – وأمي حَيَّة ، فلمَّا قدمتُ ، قالت : يا بنيَّ : فلانٌ لك صديق ، وفلان لك عدوٌّ . قلتُ : من أين علمت يا أُمَّهْ ؟ قالت : كان فلان وفلان – فذكرتْ منهم يحيى بن سعيد – يجيئون مُسَلِّمين ، فيعزُّوني ، ويقولون : اصبري ، فلو قدم عليك ، سرَّك بما تريْن . فعلمتُ أن هؤلاء أصدقاء . وفلان وفلان إذا جاءوا ، يقولون لي : اكتبي إليه ، وضيِّقي عليه ليقدم »[٢] .

فاطمة بنتُ عبَّاس بن أبي الفتح : تستحْضِر أكثر « المُغْني » :

قال عنها ابن رجب : « أُمُّ زينب الواعظة ، الزاهدة العابدة ، الشيْخة الفقيهة ، العالمة المسنِدة المفتية ، الخائفة الخاشعة ، السيدة القانتة ، المرابطة المتواضعة ، الدَّيِّنة العفيفة ، الخيِّرة الصالحة ، المتقنة المحقِّقة ، الكاملة الفاضلة ، المتفنِّنة البغدادية ، الواحدة في عصرها ، والفريدة في دهْرها ، المقصودة في كلِّ ناحية .

كانت جليلة القدْر ، وافرة العلم ، تسأل عن دقائق المسائل ، وتتقن الفقه إتقانًا بالغًا، أخذت عن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر ، حتى برعت . كانت إذا أشكل عليها أمرٌ سألت ابن تيمية عنه فيُفتيها ، ويتعجّب منها ومن فهمها ، ويبالغ في الثناء عليها .

وكانت مجتهدة ، صوَّامة قوَّامة ، قوّالة بالحقِّ ، خشنة العيْش ، قانعة

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٤٤٠ .
(٢) السير ١١/٤٩ .

باليسير ، آمِرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر ، انتفع بها خلق كثير ، وعلا صِيتُها ، وارتفع محلُّها . تُوفيت ليلة عَرَفة . رحمها الله »[١] .

قال عنها ابن كثير: «كانت من العالمات الفاضِلات تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتقوم على الأحمدية في مؤاخاتهم النساء والمردان ، وتُنكر أحوالهم وأصول أهل البدع وغيرهم ، وتفعل من ذلك ما لا يقدر عليه الرجال . وقد كانت تحضر مجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، فاستفادت منه ذلك وغيره ، وقد سمعتُ الشيخ تقي الدين يُثني عليها ويصفها بالفضيلة والعلم ، ويذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيرًا من « المُغني » أو أكثره ، وأنه كان يستعدُّ لها ؛ من كثرة مسائلها وحُسْن سؤالاتها وسرعة فهمها ، وهي التي ختَّمت نساءً كثيرًا القرآن ؛ منهنَّ أمُّ زوجتي عائشة بنت صدِّيق ، زوجة الشيخ جمال الدين المزِّي ، وهي التي أقرأتِ ابنتها زوجتي أمَةَ الرحيم زينب ، رحمهنَّ الله وأكرمهنَّ برحمته وجنَّته . آمين »[٢] .

« وكانت تصعد المنبر وتعِظُ النساء » .

خلع عليها أهل دهْرها ألقابًا عديدة ، وكلها صفات وصلت بها منتهى حدودها[٣] .

أُعجوبةُ النِّساء ، الأميرة المفسِّرة للقرآن ، زيب النساء ، بنت الملِك أورنك زيب عالمكير :

هي زيب النساء الهندية « بيكم »[٤] ابنة الشاه محيي الدين أورنك زيب عالمكير، سلطان الهند قاتِل الأسود وخير ملوك الأرض. وُلدتْ سنة ١٠٤٨ هـ ،

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٦٧- ٤٦٨) .
(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٧٢ .
(٣) عودة الحجاب ٢ / ٥٩٠ .
(٤) يعني : خاتون : وزيب كلمة فارسية معناها « زينة » ، ومعنى تفسيرها : زين التفاسير .

وتوفيت سنة ١١١٣ هـ . كانت حافظة لكتاب الله مفسِّرة له ، وهي المرأة التي تفخر بها النساء ؛ إذ هي المرأة الوحيدة التي لها تفسير للقرآن ، ويُسمَّى هذا التفسير « زيب التفاسير » . فلله درُّها أميرة ومفسِّرة !!

قال الأستاذ محمد خير يوسف : « في « معجم المفسِّرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر » ، لعادل نويهض ، الذي ضُمَّتْ محتوياته في مجلَّديْن ضخميْن .. لم أرَ فيه سوى ذِكْر امرأة واحدة لها تفسير ، وهي : زيب النساء بنت الشاه محيي الدين أورنك زيب عالمكير »(١) .

وكان للأميرة ديوان من الشعر .

العابدات :

وكم من نساءٍ عابداتٍ قانتات صائمات متهجِّداتٍ، تَعطَّرَ التاريخُ بذِكْرِهنَّ، وخيرهنَّ أمهات المؤمنين ثم نساء الصحابة.. ولا تكفي هذه الوُرَيْقات لذكْرهنَّ(٢) . وقد كنت تعرَّضت لهنَّ في « رهبان الليل » ، وأفردتُ لهنَّ فصلًا خاصًّا بعُنوان : « قيام الراكعات الساجدات » ؛ ذكرتُ منهنَّ : معاذة العدويَّة ، وابنة أمِّ حسان الأسْدية ، ورابعة العدوية ، ورابعة الشامية زوجة أحمد بن أبي الحواري ، وعجردة العمية، وحبيبة العدوية، وعفيرة العابدة، وعمرة امرأة حبيب العجمي، وجارية خالد الوراق ، وشعوانة ، وريحانة ، ومنيفة بنت أبي طارق ، وبردة الصريميَّة ، وأمّ طَلْق ، وأم حيّان ، وحسنة العابدة ، وزجلة العابدة ، وغصنة ، وعالية ، وغنضكة ، وامرأة أبي عمران الجوني ، وجارية عبيد الله بن الحسن العنبري ، والماوردية ، وماجدة القرشية ، ولبابة العابدة ، وفاطمة بنت عبد الرحمن الحرَّاني ، وهنيدة ، والبيضاء بنت المفضَّل ، وامرأة الهيْثم بن جماز ،

---

(١) قارئات حافظات لمحمد خير يوسف صـ ١٩/٤٧- ٤٨ ، دار ابن خزيمة .
(٢) بعوْن الله وتوفيقه أفردت لهنَّ مجلَّدًا بعنوان : « ثمار الباسقات من حديث الصالحات » .

وجوهرة البراثية ، وفاطمة بنت بزيع ، وعبدة البصرية ، وجارية الحسن بن صالح ، وذؤابة زوجة رياح القيسي .

وهذه عاتكة المخزومية : لمَّا عُوتبتْ في كثرة بكائها ؛ قالت : « ما ينبغي للمخوَّف بالنار أنْ تجفَّ له دَمْعة ، حتى يعرف موقع الأمان من ذلك » .

لئنْ كان النساءُ كما ذكرْنا لفضِّلتِ النساءُ على الرجالِ

وعفيرة العابدة : تُعاتَبُ في قلَّة نومها وكثرة قيامها ، فتقول : « ربَّما اشتهيتُ أن أنام فلا أقدر عليه . وكيف ينام من لا ينام عنه حافظاه ليلًا ولا نهارًا ؟! » .

وفاطمة النيسابورية: تقول: «الصادق المقرّب يدعو ربَّه دعاء الغريق، يسأل ربَّه الخلاص والنجاة » .

وعائشة بنت سعيد الحِيري ، عابدة نيسابور ومجابة الدعوة : سمعتْ ابنتَها تتكلَّم وهي فَرِحة ببعض ما لديها ، فقالت لها : « لا تفرحي بفانٍ ، ولا تجزعي من ذاهب ، وافرحي بالله عز وجل ، واجزعي من سقوطك من عيْن الله عز وجل». وقالت لابنتها: «الْزمي الأدب ظاهرًا وباطنًا، فما أساء أحدٌ باطنًا إلا عُوقِب باطنًا » .

ومُلَيْكة بنت المنكدر : تقول : « دعوني أبادر طيَّ صحيفتي » .

ولبابة العابدة : تقول عن لذَّة عبادتها في محرابها : « ما زلتُ مجتهدة في العبادة حتى صرتُ أستروح بها ، وإذا تعبتُ من لقاء الخلق آنسني بذكْره ، وإذا أعياني الخلْق روّحني للتفرُّغ لعبادة الله عز وجل والقيام إلى خدمته » .

ومخة أخت بشْر بن الحارث الحافي : تسأل الإمام أحمد وتدقِّق في مسائل الورع ، حتى قال لها : « من بيْتكم خرَج الورَعُ » .. كيف لا وهي تسأله : « أنينُ المرض شكوىٰ ؟ » ، فقال لها الإمام أحمد : « ما سُئلتُ عن مِثْل هذا السؤال من قبل قطُّ ، نرجو ألا يكون كذلك . فلمَّا كان في مرض موته قالوا له : إنَّ طاووس يقول : إنَّ أنين المرض شكوىٰ . فما أنَّ ابنُ حنبل حتى مات».

وماجدة القرشيَّة رحمها الله : قالت : « كفى المؤمنين والمؤمنات طول اهتمامهم بالمعادِ شغُلًا » .

والسيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد : تقول عنها زينب بنت يحيى المتوَّج : خدمتُ عمتي فما رأيتُها نامتْ بالليل ، ولا أفطرت بنهار ، فقلت لها : أمَا ترفقين بنفسك ؟ فقالت : « كيف أرفق بنفسي وقُدَّامي عقباتٌ لا يقطعها إلا أهل الفوز »[1] .

وعصمت الدين خاتون : زوجة الملك الصالح نور الدين محمود بن زنكي ، ومِن بعده تزوَّجها صلاح الدين الأيُّوبي .. قامت ذات مرة غَضْبَى من نومها ، فسألها نور الدين عن سرِّ غضبها ، فقالت : فاتني ورْدي البارحة ، فلم أصلِّ من الليل شيئًا !!

لله درُّها.. مثْلُ هذه لا تكون إلا تحت نور الدين ومن بعده صلاح الدين.

« فهؤلاء هنَّ أمهاتنا الأُوليات ، كواكب السَّحَر في سماء العظائم ، وأروع الغرر في جَبين العزائم ، وذلك شيءٌ من حديثهنَّ ، لا يدع لقائلٍ قيلًا ولا لمفتخِر سبيلًا »[2] .

وهذه أخت رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري : تقول عنها أختها رابعة : دخلتُ على أختٍ لي عاتِق تقرأ في المصحف ، فقالت لي : يا أختي ، بلغني أن زوْجَك قد تزوَّج عليك ؟ قلتُ : قد كان ذلك . قالت : والله لقد بلغني عنه عقل ، فكيف رضي مع عقله بِشُغل قلبهِ عن الله بامرأتيْن[3] ؟! أمَا بلغكِ تفسير هذه الآية : ﴿ **إلا من أتى الله بقلبٍ سليم** ﴾ [الشعراء : ٨٩] . قلتُ : لا. قالت: بلى ، القلب السليم الذي يلقى الله وليس فيه غيره . قال أحمد بن

---

(١) نساء في المحراب، مجدي فتحي السيد صـ ٦٥ ، دار الصحابة . بطنطا .
(٢) عودة الحجاب ٢ / ٥٦١ .
(٣) أفضل الهدي هدي محمد ﷺ .

أبي الحواري : فحدّثتُ به أبا سليمان ، فقال لي : يا أحمد ، لي ثلاثون سنة مذْ قدِمتُ الشام ، ما سمعتُ بحديثٍ أرفع من هذا[1] .

حتى الجواري ... أين رجال زماننا منهم ؟!

قال خالد الورَّاق : كانت لي جارية شديدة الاجتهاد ، فدخلتُ عليها يومًا ، فأخبرتها برفْق الله وقبوله يسيرَ العمل ، فبكتْ ، ثم قالت : يا خالد ، إني لأؤمِّل من الله تعالى آمالًا لو حملتْها الجبال لأشفقت من حمْلها ، كما ضعُفتْ عن حمل الأمانة ، وإني لأعلم أن في كرم الله مستغاثًا لكلِّ مذنب ، ولكنْ كيف لي بحسرة السباق ؟ قال : قلتُ : وما حسرة السباق ؟ قالت : غداة الحشر إذا بُعْثِر ما في القبور ، ورَكِبَ الأبرارُ نجائبَ الأعمال ، فاستبقوا إلى الصراط ؛ وعزَّةِ سيِّدي،لا يسبق مقصِّرٌ مجتهدًا أبدًا ، ولو حَبَا المجِدُّ حَبْوًا . أم كيف لي بموت الحزن والكَمَد إذا رأيتُ القوم يتراكضون وقد رُفعتْ أعلام المحسنين ، وجاز الصراطَ المشتاقون ، ووصل إلى الله المحبُّون ، وخُلِّفتُ مع المسيئين المذنبين .. ثم بكت .

كذاك الفخْرُ يا همَمَ الرجالِ   تعالَيْ فانظري كيفَ التَّعالي

أخي : ليس بين الدارين دارٌ يدرك فيها الخُدَّام ما فاتهم من الخدمة مع مولاهم ، فويلٌ لمن قصَّر عن خدمة سيِّده ومعه الآمال ، فهلا كانت الآمال توقظه إذا نام البطّالون ؟! .

أتسبقك وأنت رجلٌ نسوةٌ .. ؟!

أما لك بالرجالِ أسوة .. ؟!



(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ، المخطوطة ١٩/٦٢٤ - دار البشير .

الفصل الخامس

مَعْشَرَ الأيْقاظ النِّيَام

هذه هِمَّة الكَافرين

□ مَعْشَرَ الأَيْقاظِ النِّيامِ ، هذِه هِمَّةُ الكَافرينَ □

قد صوَّر الله وأجلى دِيْدنَ الكافرين ؛ إذْ قالوا : ﴿ **أَنِ امشُوا واصبروا على آلهتكم** ﴾ [ص : ٦] . فماذا قال من سفلتْ همَّتُهم ، من رعاع العوامِّ الذين لا همَّ لهم إلَّا بطونهم وفروجهم ؟.

أصبح دين أحدهم لعقةً على لسانه، يقول: أومن بيوم القيامة.. وكذَب.. ومالكِ يوم الدين ..

ماذا يقول أحدهم.. ممَّن سفلت همَّته حين يسمع عن همَّة الصليبيين واليهود وعُبَّاد الأوثان من اليونان ، في نصرة دينهم وأوطانهم ؟

« إزابيل » صاحبة القميص العتيق :

إنها «إزابيل» بنت «خوان الثاني»، ملكة قشتالة وأسبانيا، تلك الملكة التي كرَّستْ أكثر من ثلاثين سنة من عمرها في سبيل النصرانية الكاثوليكية ، والتي قدَّمت الخدمات والتضحيات في سبيل أسبانيا ودينها .. ونسيت أنها امرأة ، وأقسمت وقطعت عهدًا على نفسها بعدم استبدال قميصها – ثوبها الداخلي – حتى تسقط غرناطة في يدها ، وذلك قبل سنوات عديدة من حدوث التسليم فعلًا ..

إنها إيزابيل التي اعتنت الكنيسة ببناء شخصيتها، ورعتها وحمتها وأوصلتها إلى الحكم ، وأمدَّتها بالمال والرجال .

إنها إيزابيل التي كتب عنها وعن سيرتها «فيرناندو فيثكايينو كاساس»– أشهر القصَّاصين الأسبان – ترجمته الشهيرة : « إيزابيل ... القميص العتيق » ، في نوفمبر سنة ١٩٨٧ ، وصدرت الطبعة الرابعة منه في ديسمبر من العام نفسه ، وطالب الكاتب فيه برفع إيزابيل إلى درجة قدِّيسة .

إنها إيزابيل التي أسقطت ملْك المسلمين لغرناطة والأندلس نهائيًا .

إنها إيزابيل التي وحدت جهود ملوك النصارى ضدَّ المسلمين .

إنها إيزابيل التي رهنتْ مجوهراتِها لدفْعِ مرتبات الجنود ، وكانت تُشرف على المعارك ضدَّ المسلمين بنفسها .

إنها إيزابيل التي أرغمتْ أبا عبد الله الصغير - آخر مَلِك بغرناطة - أن يدفع جزية سنوية قدرها اثنتا عشرة ألف قطعة ذهبية ، وأن يكون تابعًا وفيًّا للملوك الكاثوليك ، يَمثُل أمام البلاط في قشتالة متى استدعى ذلك ، وأن يسلِّم ابنه الصغير رهينة حتى يسلِّم لهم غرناطة ، وأن يقوم بتسليم أربعمائة أسير حالًا ، ومن بعدها ستين أسيرًا سنويًا ، ووُقّعت معاهدة التسليم في ٢٥ نوفمبر ١٤٩١م، ودخلت إيزابيل ومعها القوات النصرانية إلى غرناطة في ٢ يناير ١٤٩٢م.

إنها إيزابيل صاحبة محاكم التفتيش في أسبانيا، حرَّقتِ المسلمين وهم أحياء.. بل وحرَّقتِ الموتى بعد إخراجهم من قبورهم ، وردَّتهم عن الإسلام ، وصادرت جميع ممتلكاتهم ، حتى لم يبق في الأندلس مئذنة ولا أذان ولا مسلم .

إنها إيزابيل التي موَّلت الرحلة الجنونية لكولومبس لاكتشاف القارة الأمريكية وتنصير العالم الجديد «أمريكا»، وضمِّ ثروات القارة الجديدة للخزينة الأسبانية، وإرسالها للمبشِّرين إلى العالم الجديد لإخضاع وتنصير شعوب أمريكا.

إنها إيزابيل ذات الأهمية العظمى في تاريخ أوربا وأمريكا من خلال المنظور الكاثوليكي[1] .

فهذه امرأة طردت المسلمين من الأندلس... ولو لم يكن لها إلَّا هذا لكفاها.

« جولدا مائير » الرجلُ الوحيد في دولة إسرائيل :

مرّ بنا قول بن غوريون عنها - لمّا عادت محمَّلة بخمسين مليون دولار ، بعد حملة تبرُّعاتٍ واسعة في أمريكا في بَدْءِ قيام دولة إسرائيل -: « سيُقال عند كتابة التاريخ:إن امرأة يهودية أحضرتِ المال ، وهي التي صنعت الدولة » .

---

(١) انظر « إيزابيل القميص العتيق » تأليف فيرناندو فيثكايينو كاساس - دار النفائس .

بل قال عنها ثانية : « إنها الرجل الوحيد في الدولة » .

قالت هذه اليهودية: «لقد كانت مسألة العمل في حركة العمل الصهيوني، تُجبرني على الإخلاص لها ، ونسيان همومي كلها، وأعتقد أن هذا الوضع لم يتغيَّر طِيلة مجرى حياتي في الستة عقود التالية » .

وتقول : لم يُقدَّم لنا الاستقلال على طبق من فضة ، بل حصلنا عليه بعد سنين من النزاع والمعارك ، ويجب أن ندرك بأنفسنا ومِن أخطائنا ، الثمن الغالي للتصميم والعزيمة .

وتقول : « لقد كان علينا الاعتماد على أنفسنا ، ومجابهة أيِّ طارئ بروح بطولية مسئولة » . ولا تعليق .

و « أوساهير » الياباني .. أُنموذج لعلوِّ هِمَّة الكافرين في الدنيا؛نقل قوة أوربا إلى اليابان ، ونقل اليابان إلى الغرب :

وهذه قصته التي حكاها الدكتور توفيق الراعي في مجلة « المجتمع » الكويتية . العدد ٩٩٨ ، قال حفظه الله : « أرسلتِ الدولة اليابانية في بدْءِ حضارتها بُعوثًا دراسية إلى ألمانيا ، كما بعثتِ الأمة العربية بعوثًا ، ورجعت بعوث اليابان لتحضُّر أمتها ، ورجعت بعوثنا خاوية الوفاض !! فما هو السِّرُّ ؟ لنقرأ هذه القصة حتى نتعرف على الإجابة :

يقول الطالب الياباني «أوساهير» الذي بعثْه حكومته للدراسة في ألمانيا: لوَ أنني اتبعتُ نصائح أستاذي الألماني الذي ذهبتُ لأدرس عليه في جامعة هامبورج ، لَمَا وصلتُ إلى شيء ؛ كانت حكومتي قد أرسلتني لأدرس أصول الميكانيكا العلمية ، كنتُ أحلم بأن أتعلَّم ، كيف أصنع محرِّكًا صغيرًا ؛ كنت أعرف أنَّ لكل صناعة وحدةً أساسية ، أو ما يُسمَّى : « موديل » ، هو أساس الصناعة كلها ، فإذا عرفتَ كيف تصنع وضعت يدك على سرِّ هذه الصناعة كلها ، وبدلًا من أن يأخذني الأساتذة إلى معملٍ ، أو مركز تدريب عمليّ ، أخذوا يعطونني كتبًا لأقرأها ، وقرأتُ حتى عرفتُ نظريات الميكانيكا كلها ،

ولكنني ظللتُ أمام المحرِّك- أيًّا كانت قوته- وكأنني أقف أمام لغز لا يُحلُّ، وفي ذات يوم ، قرأت عن معرض محرِّكات إيطاليةِ الصُّنع ، كان ذلك أول الشهر ، وكان معي راتبي ، وجدتُ في المعرض محرِّكًا قوةَ حصانين ، ثمنُه يعادل مرتبي كلَّه ، فأخرجت الراتب ودفعتُه، وحملتُ المحرِّك ، وكان ثقيلًا جدًّا ، وذهبتُ إلى حجرتي ، ووضعتُه على المنضدة وجعلت أنظر إليه ، كأنني أنظر إلى تاجٍ من الجوهر ، وقلتُ لنفسي : هذا هو سرُّ قوة أوربا ، لو استطعت أن أصنع محرِّكًا كهذا لَغيَّرت تاريخ اليابان ، وطاف بذهني خاطر يقول : إن هذا المحرِّك يتألف من قِطَعٍ ذات أشكال وطبائعَ شتَّى ؛ مغناطيس كحدوة الحصان ، وأسلاك ، وأذرُع دافعة ، وعَجَلات ، وتروس ، وما إلى ذلك ، لو أنني استطعتُ أن أُفكِّكَ قطع هذا المحرِّك وأُعيد تركيبها بالطريقة نفسها التي ركَّبوها بها ، ثم شغَّلتُه فاشتغل ، أكون قد خطوتُ خطوة نحو سرِّ « موديل » الصناعة الأوربية ، وبحثتُ في رفوف الكتب التي عندي ، حتى عثرتُ على الرسوم الخاصة بالمحركات وأخذت ورقًا كثيرًا ، وأتيت بصندوق أدوات العمل ، ومضيتُ أعمل ؛ رسمتُ المحرك ، بعد أن رفعت الغطاء الذي يحمل أجزاءه ، ثم جعلتُ أفكِّكُه قطعةً قطعةً ، وكلما فككتُ قطعة ، رسمتُها على الورقة بغاية الدِّقَّة وأعطيتها رقمًا ، وشيئًا فشيئًا فككْتُه كله ، ثم أعدتُ تركيبه، وشغَّلْتُه فاشتغل ، كاد قلبي يقف من الفرح ، استغرقتِ العملية ثلاثة أيام ، كنتُ آكل في اليوم وجبة واحدة ، ولا أُصيب من النوم إلا ما يمكِّنني من مواصلة العمل .

وحملْتُ النبأ إلى رئيس بعثتنا ، فقال : حسنًا ما فعلتَ ، الآن لا بدَّ أن أختبرك ، سآتيك بمحرِّك متعطِّل ، وعليك أن تفكِّكه ، وتكشف موضع الخطأ وتصحِّحه ، وتجعل هذا المحرِّك العاطل يعمل . وكلفتْني هذه العملية عشرة أيام ، عرفتُ أثناءها مواضع الخلل ، فقد كانت ثلاثٌ من قِطَع المحرِّك بالية متآكلة ، صنعتُ غيرها بيدي ، صنعتها بالمِطْرقة والمبرد .

بعد ذلك قال رئيس البعثة ، وكان بمثابة الكاهن يتولى قيادتي روحيًا ، قال : عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك ، ثم تركّبها محرّكًا . ولكي أستطيع أن أفعل ذلك التحقتُ بمصانع صهْر الحديد ، وصهْر النحاس والألومنيوم ، بدلًا من أن أعدَّ رسالة الدكتوراه كما أراد مني أساتذتي الألمان ، تحولتُ إلى عامل ألبس بذْلةً زرقاء وأقف صاغِرًا إلى جانب عامِل صهْر المعادن ، كنتُ أُطيع أوامره كأنه سيد عظيم ، حتى كنتُ أخدمه وقتَ الأكل، مع أنني من أسرة ساموراي ، ولكنني كنتُ أخدم اليابان ، وفي سبيل اليابان يهون كلُّ شيء . قضيتُ في هذه الدراسات والتدريبات ثماني سنوات ، كنتُ أعمل خلالها ما بين عشر وخمس عشرة ساعة في اليوم ، وبعد انتهاء يوم العمل كنتُ آخذ نوْبة حراسة ، وخلال الليل كنتُ أُراجع قواعد كلِّ صناعة على الطبيعة .

وعَلِم « الميكادو » - الحاكم الياباني - بأمري ، فأرسل لي من ماله الخاصّ، خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهب،اشتريتُ بها أدواتِ مصنع محرِّكات كاملة ، وأدوات وآلات ، وعندما أردتُ شحنها إلى اليابان كانت النقود قد فرغت ، فوضعتُ راتبي وكلَّ ما ادخرتُه ، وعندما وصلتُ إلى « نجازاكي » ، قيل لي أن « الميكادو » يريد أن يراني ، قلتُ : لن أستحقَّ مقابلته إلا بعد أن أُنشئ مصنع محرِّكات كاملًا ، استغرق ذلك تسع سنوات ، وفي يوم من الأيام حملتُ مع مساعدي عشرة محرِّكات ، (صنع في اليابان) قطعة قطعة ، حملناها إلى القصر ، ودخل « الميكادو » وانحنينَا نُحيِّيه ، وابتسم وقال : هذه أعذب موسيقى سمعتُها في حياتي ، صوتُ محرِّكات يابانية خالصة . هكذا ملكنا « الموديل » وهو سرُّ قوة الغرب ، نقلناه إلى اليابان ، نقلنا قوة أوربا إلى اليابان ، ونقلنا اليابان إلى الغرب »[1] .

---

(١) مجلة « المجتمع » الكويتية . العدد ٩٩٨ .

الفصل السادس

عُلُوُّ هِمَّـةِ الحيـوانـاتِ

« الأُسْدُ لا تقعُ على الجِيَفِ ولا تأكُلُ البايتَ »

□ عُلُوُّ هِمَّةِ الحيوانات □

«قال تعالى: ﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يَطيرُ بجناحيه إلا أُممٌ أمثالكم ما فرَّطنا في الكتاب من شيءٍ ثم إلى ربهم يُحشرون** ﴾ [الأنعام: ٣٨].

قال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدميٌّ إلا وفيه شَبَهٌ من البهائم؛ فمنهم مَنْ يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم مَنْ يعْدُو عَدْو الذئب، ومنهم مَنْ ينبح نُباح الكلب، ومنهم مَنْ يتطوَّس كفعل الطاووس، ومنهم مَنْ يُشبه الخنازير التي لو أُلقي إليها الطعام الطَّيِّب عافته، فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه، فلذلك تجد من الآدميين مَنْ لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل تروَّاه وحفظه.

قال الخطابي: ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة! وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمُه مُطاوعًا لظاهره وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله عن وجود المُماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك مُمتنِعٌ من جهة الخلقة والصورة، وعَدَمٌ من جهة النطق والمعرفة؛ فوجب أن يكون مُنصرفًا إلى المُماثلة في الطباع والأخلاق. وإذا كان الأمر كذلك فاعلمْ أنك إنما تُعاشر البهائم والسِّباع، فليكنْ حذرُك منهم وتباعُدُك إياهم على حسب ذلك. انتهى كلامه.

«والله سبحانه قد جعل بعض الدوابِّ كسوبًا مُحتالًا، وبعضها متوكِّلًا غير مُحتال، وبعض الحشرات يدَّخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتَّكل على الثقة بأن له في كل يوم قَدْر كفايته رزقًا مضمونًا وأمرًا مقطوعًا، وبعضها يدَّخر، وبعضها لا تكسُّبَ له، وبعضها يؤثر على نفسه، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمَّة من جنسه لم يدعْ أحدًا يدنو منه.

وهذا كله من أدلِّ الدلائل على الخالق لها سبحانه وعلى إتقان صُنْعه ، وعجيب تدبيره ولطيف حكمته ، فإنَّ فيما أودعها من غرائب المعارف وغوامض الحِيَل وحسْن التدبير والتأنِّي لما تريده ، ما يستنطق الأفواه بالتسبيح ، ويملأ القلوب من معرفته »[1] .

يا هذا ، إنَّ « النحل إذا رأتْ بينها نحلة مهينة بطَّالة قطَّعها وقتلها حتى لا تُفسد عليهنَّ بقية العمال وتُعديهن ببطالتها ومهانتها »[2] .

يقول ابن القيم : « في النحل كرامٌ عمال ، لها سعيٌ وهِمَّة واجتهاد ، وفيها لئامٌ كسالى ، قليلةُ النفع ، مُؤثِرةٌ للبطالة ، فالكرام دائمًا تطردها ، وتنفيها عن الخليَّة ، ولا تُساكنها ؛ خشية أن تُعدي كرامها وتُفسدها » .

« وكلّ نحلة تُريد دخول الخليَّة بعد عودتها يشمُّها البوَّاب ويتفقَّدها ، فإنْ وجد منها رائحة مُنكَرة ، أو رأى بها لطخة من قذرٍ ، منعها من الدخول ، وعزلها ناحية إلى أن يدخل الجميع ، فيرجع إلى المعزولات الممنوعات من الدخول ، فيتفقدّهن ويكشف أحوالهن مرَّةً ثانية ، فمَنْ وجده قد وقع على شيءٍ مُنتن أو نجس قدَّهُ نصفين ، ومَنْ كانت جنايته خفيفةً تركه خارج الخليَّة . هذا دأبُ البوَّاب كلَّ عشيَّة » .

وقوم لوط كانوا أحقرَ هِمَّةً من هذه الحشرة . قال تعالى : ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهَّرون** ﴾ [النمل : ٥٦] .

ومن عجيب أمْر النحل أنها تقتل الملوك الظَّلَمةَ المُفسدة ولا تدين لطاعتها ، وتكره النتن والروائح الخبيثة ... ومن بني آدم مَنْ لو كانت

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص٧٧ - ٧٨ دار المعرفة .

(٢) شفاء العليل ص٦٦ .

للذنوبِ رائحة ما استطاع أحدٌ أن يُجالسه ؛ من نتن رائحته التي لو فاحتْ لضجَّتْ منها المشام ، ومع هذا لا يُقلع عن الغيِّ والآثام .

النملُ وبعدُ هِمَّتِهِ :

« والنملة تخرج من بيتها تطلب قوتها وإنْ بعُدتْ عليها الطريق ، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طُرُقٍ مُعوجَّة بعيدة ، ذات صعود وهبوط ، في غاية من التوعُّر ، حتى تصل إلى بيوتها ، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان ، ولا تتغذَّى منها نملة مما جمعه غيرها .

والنمل فطرها الله سبحانه على قُبْح الكذب وعقوبة الكذَّاب ، والنمل من أحرص الحيوان ، ويُضرب بحرصه المثل .

وهي على ضعْفها شديدة القوى ، فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجرُّه إلى بيتها . ولها صِدْقُ الشمِّ ، وبُعْدُ الهِمَّةِ ، وشِدَّةُ الحرصِ . وكلُّ نملة تجتهد في صلاح العامَّة منها غير مُخْتلِسة من الحَبِّ شيئًا لنفسها دون صواحباتها .

ومن عجيب أمْرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه ، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماءً ، أو يتخذ إناءً كبيرًا ويملؤُهُ ماءً ثم يضع فيه ذلك الشيء ، فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه ، فيتسلَّق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يُحاذي ذلك الشيء ، فتُلقي نفسها عليه ، وجرَّبنا نحن ذلك »[1].

المُبدِّلون وتابعوهم أخسُّ هِمَّةً من القرود :

« ومن عجيب أمْر القرد ، ما ذكره البخاري في صحيحه عن عمرو

---

(١) شفاء العليل ص٦٨ - ٧٠ .

ابن ميمون الأودي قال : « رأيتُ في الجاهلية قِرْدًا وقردةً زنيا ، فاجتمع عليهما القرود ، فرجموهما حتى ماتا » . فهؤلاء القرود أقاموا حدَّ الله حين عطَّله بنو آدم »[١].

من لم يعرفْ لِمَ خُلق أشدُّ بلادةً من البقر :

وهذه البقرة يُضرب ببلادتها المثل . وقد أخبر النبي ﷺ : « بينما رجل يسوق بقرةً إذ ركبها فضربها ، فقالت : إنا لم نُخلقْ لهذا ، إنما خُلقنا للحرْث » . فقال الناس : سبحان الله ! بقرة تتكلَّم !! فقال عليه الصلاة والسلام : « فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر »[٢] .

ومَنْ لم يعرفُ الطريقَ إلى منزله أبلدُ من حمار :

قال ابن القيم : « ومن هداية الحمار – الذي هو من أبلد الحيوان – أن الرجل يسير به ويأتي به إلى منزله من البُعد في ليلة مُظلمة ، فيعرف المنزل ، فإذا خُلِّي جاء إليه ، ويُفرِّق بين الصوت الذي يُستوقف به والصوت الذي يُحَثُّ به على السير »[٣] .

فمن لم يعرف الطريق إلى منزله – وهو الجنة – فهو أبلدُ من حمار !!

ومَنْ لم يُوقِّر العلماءَ فالحيتان أشرفُ منه :

قال ﷺ : « إنه لَيستغفر للعالِم مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض ، حتى الحيتان في البحر »[٤].

وقال ﷺ : « إنَّ الله وملائكته وأهل السموات والأرض ، حتى النملة

---

(١) شفاء العليل ص٨٤ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه – كتاب الأنبياء .

(٣) شفاء العليل ص٧٤ .

(٤) صحيح : أخرجه ابن ماجه .

في جُحْرها وحتى الحوت ، لَيُصلُّون على مُعلِّم الناسِ الخيرَ »[١] .

فكيف بمن صيَّر العالم النحرير زنديقًا ؟!!

ومَنْ لم يعلمْ كلامَ الأنبياءِ وصدْقَهم فهو أخسُّ من الذئاب :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : عدا الذئب على شاة فأخذها . فطلبها الراعي فانتزعها منه . فأقعى الذئب على ذَنَبِه . قال : ألا تتَّقي الله ! تنزع مني رزقًا ساقه الله إليَّ . فقال : يا عجبي ، ذئبٌ مُقعٍ على ذَنَبِه يُكلِّمني كلام الإنس ! فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟! محمد ﷺ بيثرب يُخبر الناس بأنباء ما قد سبق . قال : فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة ، فزواها إلى زاوية من زواياها ، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فأمر رسول الله ﷺ فنودي : الصلاة جامعة ، ثم خرج ، فقال للراعي : « أخبرْهم » . فأخبرهم ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق والذي نفسي بيده »[٢] .

ففي هذا الحديث ما يُفيد بأن هذا الذئب كان بالمدينة ، وعلم بما يقوله عليه الصلاة والسلام ، وأدرك مما يقوله عليه الصلاة والسلام ، وحدّده بأنه كلام عن الأُمم السابقة . فكيف بمن يعلمون كلَّ شيء عن تاريخ المشركين والفراعنة ، ولا يعلمون زِنةَ خردل ومثقال ذرَّة عن حياة أئمة الموحِّدين من أنبياء الله !! بل - والله - ويقولون في جريدتهم الأهرام : أول مَنْ دعا إلى التوحيد إخناتون ، وهو الذي كان يعبد الشمس ، وأنَّ مزامير داود مُقتبسةٌ من نشيد الرعاة لإخناتون ... كبرتْ كلمةً تخرج من أفواههم إنْ يقولون إلا كذبًا .

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٢) .

مَنْ لم يُوحِّدْ ربَّه ويُبصر نورَ الوحي ، فالهُدهُدُ أرفعُ مكانةً منه :

فقد أنكر الهُدهد على قوم سبأ عبادتهم للشمس من دون الله . فقال تعالى : ﴿ **وجدتُها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يُخرج الخبءَ في السمٰوات والأرض ويعلم ما تُخفون وما تُعلنون** ﴾ [النمل : ٢٤ - ٢٥].

فكيف لو رأى الهُدهُدُ غاندي وقومَهُ وعَبَدَةَ الفئران ؟!

إن الهُدهُد أنكر على قوم بلقيس عبادتهم للشمس ، فكيف لو رأى غاندي زعيم الهند وقومَه الذين يعبدون البقر أشدَّ الحيوانات بلادةً ؟!

قال غاندي : « عندما أرى البقرة لا أجدني أرى حيوانًا ؛ لأني أعبد البقرة ، وسأُدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع » . وقال : « وأُمِّي البقرة تفضُلُ أمِّي الحقيقية من عدَّة وجوه: فالأم الحقيقية تُرضعُنا مُدَّة عام أو عامين وتتطلَّب منا خدمات طول العمر نظير هذا ، ولكن أُمّنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا ، ولا تطلب منّا شيئًا مُقابل ذلك سوى الطعام العادي » . وقال : « إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال ، وأنا أعدُّ نفسي واحدًا من هؤلاء الملايين »[(١)] .

قال الشيخ الدكتور عمر سليمان الأشقر : « قد قرأتُ في مجلة العربي التي تصدُرُ في الكويت عن معبد فخم مكْسُوٍّ بالرخام الأبيض تُرسَل إليه الهدايا والألطاف من شتى أنحاء الهند،بقي أن تعلم أنَّ الآلهة التي تُقدَّمُ لها القرابين وتُرسَل لها النذور في ذلك المعبد الفخم إنما هي الفئران »[(٢)].

---

(١) مقارنة الأديان ٤/٣٢ .

(٢) الرسل والرسالات للدكتور عمر سليمان الأشقر ص٣٧ - ٣٨ ، مكتبة الفلاح ، ودار النفائس .

وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس . قال تعالى : ﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلًا** ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

قال أبو جعفر الباقر : والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضلّ سبيلًا .

الحيوان أعلى هِمَّةً وأعظمُ قدرًا من أغبياء بني آدم :

وذلك ؛ لأنه يُسبِّح مولاه ويُشفق منه .

عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما تستقلُّ الشمس فيبقى شيء من خلق الله إلا سبَّح الله بحمده ، إلا ما كان من الشياطين ، وأغبياء بني آدم »[١] .

وقال ﷺ : « ما من دابة إلا وهي مُصيخة[٢] يوم الجمعة ؛ خشية أن تقوم الساعة »[٣] .

وقال ﷺ : « لا تطلعُ الشمس ولا تغربُ على أفضل من يوم الجمعة ، وما من دابة إلا وهي تفزع ليوم الجمعة ، إلا هذين الثقلين : الجن والإنس »[٤] .

---

(١) حسن : أخرجه ابن السُّنِّي ، وأبو نعيم في الحلية ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم (٢٢٢٤) ، وصحيح الجامع رقم (٥٥٩٩) .

(٢) منصتة ومُستمعة ومُصغية ، تتوقع قيام الساعة .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد في مسنده ، والمنذري في الترغيب والترهيب ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب (٤٥٧) .

(٤) صحيح : أخرجه أحمد في مسنده ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب رقم (٤٨٦) .

الخُنْفُساءُ وعُلُوُّ الهِمَّةِ في الصبر :

قيل لرجل : مَنْ علَّمك اللِّجاجَ في الحاجة والصبر عليها وإن استعصتْ ؟ قال : مَنْ علَّم الخنفساء إذا صعدت في الحائط ؛ تسقط ثم تصعد ثم تسقط ، مرارًا عديدة ، حتى تستمرَّ صاعدة !!

الغراب والبكور :

والغراب يُضرب به المثل في البكور . فيُقال : بكور كبكور الغراب.

وقيل لرجل:مَنْ علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخلُّ به ؟ قال: مَنْ علَّم الطَّيْر تغدو خماصًا كلَّ بُكرة في طلب أقواتها، على قُرْبها وبُعْدها ، لا تسأم ذلك ، ولا تخاف ما يعرض لها في الجوِّ والأرض !!

أبو أيوب (الجمل) وصبْرُه :

وقيل لآخر : مَنْ علَّمك الصبر والجلَد والاحتمال ؟ قال : مَنْ علَّم أبا أيوب صبْره على الأثقال والأحمال الثقيلة والمشي والتعب وغلظة الجمّال وضربه ، فالثِّقَلُ والكَلُّ على ظهره ، ومرارة الجوع والعطش في كبده ، وجهْد التعب والمشقَّة ملأ جوارحه ، ولا يعدل به ذلك عن الصبر !!

الدِّيك وحُسْنُ إيثاره :

وهذا الديك ، يُصادف الحبَّة في الأرض وهو يحتاج إليها فلا يأكلها ، بل يستدعي الدجاج ويطلبهن طلبًا حثيثًا ، حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها وهو مسرور بذلك طيِّب النفس به ، وإذا وُضع له الحَبُّ الكثير فرَّقه هاهنا وهاهنا وإن لم يكن هناك دجاج ؛ لأن طبعه قد أَلِفَ البذل والجود ، فهو يرى من اللُّؤم أن يستبدَّ وحده بالطعام .

بل واللهِ يسهر ليوقظ غيره !!

فعن زيد بن خالد رضي الله عنه أنه قال : قال عليه الصلاة والسلام :

« لا تسبُّوا الدِّيك ؛ فإنه يدعو إلى الصلاة » . وفي رواية أبي داود : « فإنه يوقظ للصلاة »(١).

مَنْ لا يدعو عند الفَجْر ، فالخيلُ أكرمُ منه :

وإنْ تعجبْ لِهمَّة الخيل فاعجبْ :

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليس من فرس عربي إلا يُؤذن له مع كل فجر ، يدعو بدعوة ، يقول : اللهم إنك خوَّلتني مَنْ خوَّلتني من بني آدم ، فاجعلني من أحبِّ أهله وماله إليه »(٢) .

بل ويخبرنا ﷺ بإكرام الله له ، فيقول : « إنَّ هذا الفرس قد استُجيب له دعوته »(٣).

الأُسْدُ لا تقع على الجِيَفِ ولا تأكل البايت :

الأُسْدُ لا تأكل إلا من فريستها ، وإذا مرَّ الأسد بفريسة غيره لم يدنُ منها ولو جهده الجوع !

والذئبُ أعلى هِمَّةً من الجيفة بالليل ، النؤوم :

الرجل الذي يأكل كثيرًا وينام كثيرًا ويُميته ويُفقره نومُه ؛ الذئب أعلى هِمَّةً منه ، فالذئب إذا نام « جعل النوم نُوَبًا بين عينيه ، فينام بإحداهما ، حتى إذا نعست الأخرى نام بها وفتح النائمة ، حتى قال بعض العرب :

ينامُ بإحدى مُقلتيه ويتَّقي   بأخرى المنايا فهو يقظانُ نائمُ »(٤)

---

(١) صحيح : رواه أحمد وأبو داود ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧١٩١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٤١٠) .

(٣) صحيح : رواه أبو داود ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٢٣) .

(٤) شفاء العليل ص٧٦ .

ومَن لا يُغيثُ الملهوفَ ، فالعصفورُ أشرفُ منه :

« فالعصفورة إذا سقط فرخُها تستغيث ، فلا يبقى عصفور بجوارها إلا جاء ، فيطيرون حول الفرخ ، ويُحرِّكونه بأفعالهم ، ويُحدِثون له قوةً وهِمَّةً حتى يطير معهم »(١).

من لم يكن عصاميًّا فليستح من الحَمَام :

فالحمام يزقُّ الحَبَّ لفرخه ، « فإذا أطاق اللقْط منعه أبواه الزقَّ على التدريج ، فإذا تكاملت قوَّتُه وسألهما الكفالة ضرباه »(٢).

في الحيوانات أخيارٌ وأشرارٌ ، فالتقطْ خيرَ الخِلال ، وخلِّ خسيسها :

« إذا لم تنفع أخاك فلا تؤذِه ، وإن لم تُعطِه فلا تأخذْ منه ، لا تُشابهنَّ الحيَّة ، فإنها تأتي إلى الموضع الذي قد حفره غيرها فتسكنه .

ولا تتمثّلنَّ بالعُقاب ، فإنه يتكاسل عن طلب الرزق ، ويصعد على مرقب عالٍ ، فأي طائر صاد صيدًا اتبعه ، فلا تكون له هِمَّة إلا إلقاء صيده والنجاة بنفسه .

في الحيوانات ، أخيار وأشرار كبني آدم ، فالتقطْ خيرَ الخِلال ، وخلِّ خسيسها :

لا تكنِ العصافير أحسنَ منك مروءةً ، إذا أُوذي أحدها صاح ، فاجتمعن لنُصرته ، وإذا وقع فرْخُها ، طِرن حوله يُعلِّمنه الطيران .

يا هذا ، تخلَّقْ في إعانة الإخوان بخُلُق النملة ، فإنها قد تجد جرادةً لا تُطيقُ حمْلَها ، فتعود مُستغيثة بأخواتها ، فترى خلفها كالخيط الأسود قد جئن لإعانتها ، فإذا وصلن بالمحمول إلى بيتها رفَّهنه عليها .

هيهات ، إن الطبع الردي لا يليق به الخير :

---

(١)،(٢) شفاء العليل ص٧٦ .

هذه الخُنْفُساء إذا دُفنت في الورد لم تتحرَّكْ ، فإذا أُعيدتْ إلى الرَّوث رتعتْ .

وما يكفي الحيَّة أن تشرب اللبن ، حتى تمجَّ سُمَّها فيه ، « وكُلٌّ إلى طبعه عائد » إلَّا أن الرياضة قد تُزيل الشرَّ جملةً ، وقد تُخفِّف .

إنْ دُمتَ على سلوك الجادة ؛ رجوْنا لك الوصول وإن طال السُّرى .

يا هذا ، الفيل والجَمَل يسبحان ، ولكنّ الفيل مليح السباحة ، والجمل يسبح على جنب ، فيفتضح عند سباحة الفيل ، ثم كلاهما يعبر »[1] .

هـو الكونُ حيٌّ يُحبُّ الحيـاةَ ... ويحتقـرُ الميْـتَ مهما كبُـرْ
فلأ الأُفْقُ يحضنُ ميْتَ الطيورِ ... ولا النحلُ يلثمُ ميْتَ الزَّهَـرْ

أخي :

كُنْ كالنسـورِ على الـذُّرا ... تُصغي لوشـوشـةِ القمـرْ
إيـاك أن تكـنِ الغـرا ... بَ يُرمِّمُ الجِيفَ الحقيرةَ في الحُفَرْ

لله دَرُّك كالنسر نُريدك تصيح :

إنَّ المعاولَ لا تهدُّ مناكبي ... والنارُ لا تأتي على أعضائِي
فارموا إلى النارِ الحشائشَ والعبوا ... يا معشرَ الأطفالِ تحت سمائِي
وإذا تمرَّدت العواصفُ وانتشى ... بالهولِ قلبُ القُبَّةِ الزرقـاءِ
ورأيتمـوني طائـرًا مُترنِّمًـا ... فوق الزوابع في الفضاءِ النائِي
فارموا على ظلِّي الحجارةَ واختفوا ... خوفَ الرِّياحِ الهُوجِ والأنواءِ
وهناك في أمنِ البيوتِ تطارحوا ... غثَّ الحديثِ وميِّتَ الآراءِ
وترنَّموا ما شئتمُ بشتائمي ... وتجاهروا ما شئتمُ بعـدائِي
أما أنا فأُجيبُكم من فوقِكم ... والشمسُ والشفقُ الجميلُ إزائِي

---

(١) المدهش لابن الجوزي ص٥٥٠ - ٥٥١ .

مَنْ جاشَ بالوحي المُقدَّسِ قلبُهُ   لم يحتفلْ بحجارةِ الفلتاءِ[1]



(١) « نشيد الجبار » لأبي القاسم الشابي ص١٨٠ - ١٨١ من ديوان « أغاني الحياة » .

الفصل السابع

دَنَاءَةُ الهِمَّـةِ

أتاني منكِ سبُّكِ لي فسُبِّي   أليسَ جرىٰ بِفِيكِ اسْمي فَحَسْبِي

« مَنْ كانَ همُّهُ ما يأكُلُه ؛ فقِيمتهُ ما يُخْرِجُه »

□ دَنَاءَةُ الهِمَّـةِ □

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها ستأتي على الناس سُنونٌ خدَّاعة، يُصَدَّق فيها الكاذب، ويُكذَّب فيها الصادق، ويُؤتَمنُ فيها الخائن، ويُخوَّن فيها الأمين، وينطِق فيها الرُّوَيْبِضَةُ». قيل: وما الرُّوَيْبِضة؟ قال : « السفيه يتكلَّم في أمْر العامَّة »[1] .

نعم .. يعلو التحوتُ الوعولَ .. كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : « فُسول الرجال وأهل البيوت الغامضة يُرْفَعون فوق صالحيهم . والوعول أهل البيوت الصالحة »[2] .

ومع دناءة الهِمَّة وخساستها ، لا تجد إلَّا قحطًا في الرجال بل في زماننا هذا يحيض الرجال .

دهرُنا هذا قد غربلَ أَهْلِيهِ أشدَّ غربلةٍ ، فسفسف أخلاقهم ، وسفّه أحلامهم ، وخبَّث ضمائرهم .

تمامًا مثل ما قال ابن حزم في ملوك الأندلس وحرصهم على عروشهم : « والله لو علموا أن في عبادة الصُّلبان تمشية أمورهم بادروا إليهم ، فنحن نراهم يستمدُّون النصارى ، فيُمكِّنوهم من حُرم المسلمين وأبنائهم ، وربَّما أعطوهم المدن والقلاع طَوْعًا ، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس »[3] .

هانت عليهم المنابر والمحاريب والجوامع ، فما لبثوا أن أُقيم بها الصلبان

---

(١) إسناده جيد : رواه أحمد ، وقال ابن كثير في « النهاية في الفتن والملاحم » (١٨١/١) : هذا إسناد جيد و لم يخرِّجوه من هذا الوجه . وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده حسن ، ومتنه صحيح .

(٢) أشراط الساعة ، للشيخ يوسف الزامل صـ ١٨٠ - دار ابن الجوزي .

(٣) رسائل ابن حزم ٣ / ١٧٦ .

وثبتت بها القساوسة والرُّهبان ، كلُّهم يقول : رَعْيُ الخنازير أَوْلَى من رعي الجِمال .

كلُّهم صار أحطَّ من أبي عبد الله الصغير ، الذي ضاعت على يديه الأندلس، وقالت له أُمُّه: ابكِ بكاء النساء مُلكًا، لم تُحافظ عليه مثل الرجال.

يقول أحد ملوك العرب المعاصرين : « أنا لا أسعى لعقد صُلحٍ مع إسرائيل ، بل أُهروِل هرولةً » . نعم فهو من صانعي السلام في مدريد .

لم يَسْتَقِلُّوا الصّافِناتِ وإنَّما ركِبُوا بغالًا سَعْيُهُنَّ ثقيلُ
جاءوا يَسُوقهمُ الأَعادي عَنْوةً فهمُ لهم بين الأنامِ ذُيُولُ
جاءوا ويا بئس المجيء كأنهم حُمُرٌ تُساقُ إلى الرَّدَى وعُجُولُ

ليست خيولهم بالعاديات ضبحًا ، ولا هي بالموريات قدحًا ، وما هي بالمغيرات صبحًا .

لهم شموخُ المُثَنَّى ظاهِرًا ولهم هَوى إلى بابك الخَرْمِيِّ يَنْتَسِبُ
الحاكمون وواشنطن حكومتُهم واللَّامِعُون وما شعّوا وما غربُوا
وما تزال بقلبي ألف مبكيةٍ من رهْبةِ البَوْحِ تستحيي وتضطرِبُ
يَكفيك أن عِدانا أهدروا دمنا ونحن من دَمِنا نحْسُو ونَحْتَلِبُ

في الماضـي كان الجـندي التتري يأمـر المسـلم دنيء الهمَّـة « بالقعـود مكانه ، ريثما يذهب فيُحضر حجرًا فيقتله به ، فيستسلم لذاك »[(١)] .

«وفي عصرنا هذا شاهدتُ - كما شاهد غيري في كلِّ مكان - الجندي العراقي المسلم الأسير في حرب الخليج ، وهو يُقبّل يد وقدم الجندي الأمريكي ، ويتذلَّل أمامه ويسأله العفو والمغفرة ، ويردّ العِلْج الصليبي على الجندي العراقي برطانةٍ صليبيَّةٍ وقحة : لا بأس عليك ، أو لا تخف »[(٢)] .

(١) علو الهمة ، لمحمد أحمد إسماعيل صـ ٣٢٥ .
(٢) الجزاء من جنس العمل ١ / ٥٦٧ الطبعة الأولى .

في هذا العصر الذي قال فيه قائل العرب : « إني أعرف مكانة أُمِّ كلثوم عند العرب.. وأعرف كذلك أن حبّ الكثيرين لها يُوازي حبَّهم لفلسطين»[(١)].

وحتى يقول صالح جودت شاعرهم ، في قصيدة عنوانها : « دور الشعر والفنِّ في تعزيز أخلاق الأُمّة أو انحلالها » ، في الملتقى الفكري الإسلامي التاسع بمدينة تلمسان بالجزائر ، أول شهر رجب سنة ١٣٩٥ هـ .

وبئس ليل ما به آهةٌ   من أُمِّ كلثوم ومن أسمهان[(٢)]

إي والله هكذا !!

« ودولة عربية تمنح غانية مِزْواجةً وماجنةً لعوبًا ، لقب « فارس » ... وقلَّدتْها في حفل رسميٍّ ضمَّ القادة والسادة .. أرفع وسام ! » .

أعجيبٌ أن تستبدَّ لَعُوبٌ   قد علا كعبُها على كلِّ هامِ
تُصدر الأمر للزعيم فَيَهْوِي   صاغرًا عند ساقِط الأقدام
يا بلادًا عزَّ الفوارسُ فيها   وخلا ساحُها من الضِّرغام
واستبدَّ البُغَاثُ في ذروةِ النَّسرِ   وقاد الأُسودَ سربُ النّعامِ[(٣)]

« في زمنٍ أصبحت راقصة فيه هي الرمز والقدوة والمثل .. تستطيع أن تُشعل حربًا أو تمنعها .. في وقتٍ يفشل الساسة .. أصبحت رمزًا لكلِّ شيءٍ ؛ السياسة ، والفكر،الأدب ، الكتابة .. حتى الاقتصاد »[(٤)] .

« في عصرنا هذا ، رأيتُ في الجرائد - كما رأى غيري - صورة وزير يهوديٍّ في الحكومة الإسرائيلية ، يدخل إلى الجامع الأزهر كسائح ، ويبلغ به الصلف والكِبْر أن لا ينحني ليفكّ رباط حذائه ، ويركع تحت قدميه شيخٌ معمَّم

(١) في رحاب الأقصى ، ليوسف العظم صـ ٢١٢ .
(٢) المصدر السابق صـ ٢٧٢ .
(٣) المصدر السابق صـ ١٩٤ .
(٤) زمن فيفي عبده ، لعماد ناصف صـ ١١ - المركز العربي للصحافة والنشر .

ممن يعملون بالمسجد ؛ ليفكّ له الرباط »[١] .

بل والله تدخل اليهوديات شبه عرايا إلى ساحة المساجد .

بنتُ صهيونٍ في المساجد تلهو قد تعرَّتْ أفخاذُها والنّهودُ
بنتُ صهيونٍ في المدائن تجري «ويهوذا» على القِبابِ يُشيدُ
وعلى «القدس» مِسْحَةٌ من ضياعٍ وبكى يومَها الترابُ الشهيدُ
ارقُصِي بنتَ صهيونٍ وتيهي فوقَ أشلائنا فنحن عبيدُ
مَلَكَ الخوفُ فِكْرَنا واسْتَبَاهُ واستبدَّ الخَنَا بنا والجحودُ
كيف تغشَى الوَغَى نفوسُ عبيدٍ أثقلتْها مظالمٌ وقيودُ
وتُطيلُ السجودَ في كلِّ حِينٍ ولغير الإلهِ ذاكَ السجودُ[٢]

ولا تعجب ؛ فنحن في عصر التطبيع بـ « المايوه » الإسرائيلي .. فها هو « مؤتمر يُعقد في القاهرة تحت رعاية المفوّضية الأوربية والغرفة التجارية الألمانية ، وشارك فيه (١٥٠٠) من رجال الأعمال وأصحاب الشركات الخاصة من مصر وإسرائيل والأردن وفلسطين ودول أوربية أخرى ، وشارك في المؤتمر عدد من المسئولين المصريين إلى جانب رجال الأعمال ، ومن الجانب الإسرائيلي شارك ميخا هاريش وزير الصناعة الإسرائيلي .. وقام الوفد الإسرائيلي بتوزيع «مايوهات» مثيرة فاضحة، مع كتالوج فاخر بالألوان لعددٍ من الفتيات الإسرائيليات يرتدين المايوهات ، ووزَّعت إحدى الشركات بيانًا أكَّدت فيه أنها ترغب في أن ترى على فتيات مصر المايوه الإسرائيلي.. ولم يستطعْ أحد أن يُجيب.. لماذا المايوهات في مؤتمر سياسي اقتصادي؟!! ولماذا توزيع صُوَر الداعرات الإسرائيليات على الوفود العربية في المؤتمر؟! وغار الوفد المصري !!! فدعا رجالُ الأعمال

(١) الجزاء من جنس العمل ١ / ٥١٧ .
(٢) قصيدة « بنت صهيون » من ديوان عصر الشهداء ، لنجيب الكيلاني صـ ٩٨ - ٩٩ ، مؤسسة الرسالة .

المصريون نظراءهم الإسرائيليين تحت سفح الهرم ، حيث أُقيم عشاء راقص في خيمة كبيرة أُقيمت على مساحةِ فدّان تحت سفح الهرم ، واصطفّت الموائد العامرة بكل ما لذَّ وطاب من الأطعمة والشراب والخمور .. فقد تمَّ ذبْحُ وطهْي عشرات الأطنان من الخِراف المشويَّة والدُّيوك الرُّوميَّة ، إلى جانب الموز والتفاح الإسرائيلي- تكامُلٌ حتى في الأكل!!- ودارت الكئوس، وبعدها دارت الرؤوس، ورقصت الراقصة الشهيرة للإسرائيليين قبل المصريين وسط سكارى التطبيع، ورقص الإسرائيليون ومعهم الفلسطينيون.. بل إن بعض الفلسطينيين كانوا يُغنُّون: وستبقى الراية منتصبة و.. فوجئ الجميع بالراقصة المشهورة تأخذها نوبة حماس ، وتختم الرقص في هذا الجوِّ الأزرق بأغنية: يا أحلى اسم في الوجود يا مصر!!»[1] .

وشواطئ العراة الخاصّة بالسياح من اليهود، والتي لا يدخلها المصريون ، وما يتمّ فيها من فُحشٍ وزنا وشذوذ ، لا عهد لقوم لوط به[2]، يَصْدُقُ فيهم قول القائل :

وكنتُ امرأً من جُندِ إبليس فارتقى ... بيَ الدَّهْرُ حتى صار إبليسُ من جُنْدي

فلوْ مات قبلي كنتُ أُحسِنُ بَعْدَهُ ... طرائقَ فِسْقٍ ليس يُحسِنُها بعدي

انتصارات السَّاسة :

هذا عصرنا .. فلا تعجب حين يُسأل زعيمٌ سياسيٌّ قديم ، وقد رُئِي يومًا ضاحك الأسارير بادي السرور ، فلمَّا سُئل عن ذلك قال : « وما لي لا أكون كذلك ، وقد أحرزتُ في هذا اليوم ثلاثة انتصارات ؟! فقال له محدِّثُهُ : لك الحق إذن في تهلُّلِك وفرحك ، فنحن في زمنٍ لا نكاد نظفر فيه بانتصارٍ واحدٍ بين مئات الهزائم

---

(١) زمن فيفي عبده صـ ٧٧ - ٧٩ .

(٢) ومن شاء أن يُطالع ، فليطالع كتاب « عرايا إسرائيل فوق أرصفة العرب » لعصام كامل - الطبعة الثانية - مصرية للنشر والإعلام صـ ١٠٣ ، وكلامه عن استعراض الإستربتيز في بعض الحفلات الخاصة جدًّا صـ ٥٦ .

ولكن قُل لي : ما هي هذه الانتصارات ، إن لم تكُن سرًّا من الأسرار ؟ قال : أمَّا الانتصار الأول ، فقد دخلتْ غرفة نومي من ثلاثة أيام ، ذبابةٌ أزعجت نهاري وأرَّقتْ ليلي ، وقد حاولتُ جهدي طرْدها أو قتْلها ، فلم أُفلح ، إلى أن ظفرتُ بها هذا اليوم فقتلتُها شرَّ قتْلةٍ ، وألقيتُها حيث لا يمكن أن تعود ، حتى لو عادت إليها الحياة . قلتُ : والانتصار الثاني ؟ قال : الانتصار الثاني شعرت به وأنا أزِنُ نفسي في الحمَّام ، إذ هبطَ وزني من تسعة وتسعين كيلو ، إلى ثمانية وتسعين ، وسبعمائة وخمسين جرامًا . قلت : والانتصار الثالث ؟ قال : لعبتُ اليوم بالنَّرد مع صديقنا فلان ، فغلبته مرتين متواليتيْن ، وهو الذي كان يغلبني باستمرار .. أفتراني بعد ذلك كلّه حقيقًا بما أنا عليه من السعادة والطلاقة والمرح ؟ قلت : بلى ، بلى »[1] .

بل وهناك انتصار آخر ، يحكيه الدكتور عبد الله عزام في كتابٍ له ، عمَّا حدث في الليلة السابقة لمعركة ٥ يونيو ، حيث جُمع كبار الطَّيَّارين ليلًا مع الداعرات والعاهرات طول الليل ، وكما قالوا : « انتصر الميج المصري على الميراج الإسرائيلي » . والميراج هنا هنَّ الداعرات البغايا :

أترعَ الماجنُ كأسًا من دِمانَا ... وسقاها لبغيٍّ أُرجُوانا
ليلةٌ حمراءُ ما أتْعسَهَا ... مُلئت ذُلًّا رهيبًا وهوانا
وإذا الدارُ بَنُوها فَرَّطُوا ... لا تلوموا الذئبَ أن يَرعى حِمانا

وأدنى الناس همَّةً علماء السوء .. علماء الضِّرار .. هذه العمائم الرمم لا القمم ؛ قال ﷺ : « أكثر منافقي أُمتي قُرَّاؤها». وقال ﷺ: «غير الدَّجَّال أخْوَف على أُمَّتي : الأئمة المُضِلُّون » .

كل حُسْنٍ شاهَ في مِرْآتِهِ ... في الجُسُومِ السُّمُّ من جُرعاتِهِ

(١) علو الهمة ، للشيخ محمد إسماعيل صـ ٣٢٦، ٣٢٧- نقلًا عن مجلة «الرائد» العدد ١٥٧ صـ ٣٣-٣٤ . كتبه ع . حسان .

تِهنُ الأعصابُ من أفيونِهِ ... ويموت الحيُّ من تلحينِهِ
يَسلُبُ السَّروَ[1] جميلَ المَيَلْ ... ويَرُدُّ الصقرَ مِثْلَ الحَجَلْ
يُسْحَرُ الرُّبَّانُ منها باللُّحُونْ ... ولِقاعِ البحرِ تهوي بالسَّفِينْ
يُلْبِس النَّفْعَ لِباسَ الضَّرَرِ ... ويُري الحُسنَ قبيحَ الصُّوَرِ
في بحارِ الفِكرِ يُلقيك فَلا ... تشتهيه أو تُطيقُ العَمَلَا
نـوَّمتْ ألحانُـهُ يقظتَنـا ... أطفأتْ أنفاسُهُ شُعلتَنا
أنت للذُّلِّ أرَحْتَ البَدَنا ... أنت للإسلام عارٌ في الدُّنا
عاجزُ الهِمَّة مِنْ ذِلَّتِكا ... وعليلُ الروح مِنْ عِلَّتِكا[2]

وقال رحمه الله :

شيخُنا باعَ الدُّمَى مِلَّتَهُ ... جاعلًا زُنَّارَهُ سُبْحَتَهُ
شَيَّخ الشيخَ بياضُ الشَّعَرِ ... وهو للأطفالِ مِثْلُ السُّخَرِ
أعينٌ عُمْيٌ حكاها النَّرجسُ ... وصدور من قلوبٍ تفلسُ
عبَّد الأشياخَ فينا المنصبُ ... حُرمةُ الأُمَّة منهم تذهبُ
واعظٌ عيناهُ شَطْرَ الوَثَنِ ... وفتاوى تُشتَرَى بالثمنِ
وَجههُ للحانِ ولَّى شيخُنا ... يا رفاقي بعدُ ما تَدْبيرنا

ولدناءة الهمَّة أسبابٌ، منها: الأوَّل: الوَهَن «حُبُّ الدُّنيا وكَرَاهِيَةُ الموت»:

قال الله تعالى : ﴿ **يأيُّها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفرُوا في سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض أرَضِيتُم بالحياة الدُّنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلَّا قليل**﴾ [التوبة: ٣٨]. فثقْلة الأرض ومطامع الأرض وتصوُّرات الأرض .. ثقلة الخوف على الحياة والخوف على المال والخوف على اللذائذ والمصالح

(١) السرو : نبات طويل يصفه الشعراء بالرشاقة والتمايل .
(٢) ديوان الأسرار والرموز لمحمد إقبال ، صـ ٣٣- ٣٤، ٦٢- ٦٣ .

والمتاع .. ثقْلة الدَّعَة والراحة والاستقرار .. ثقلة اللذَّات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب .. ثقْلة اللحم والدم والتراب ، تشدُّ إلى أسفل ، وجاذبية الأرض تُقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ **إنَّ هؤلاء يُحبُّون العاجلة ويذرون وراءهم يومًا ثقيلًا** ﴾ [الإنسان: ٢٧]. «إن هؤلاء ، القريبي المطامح والاهتمامات ، الصغار المطالب والتصوُّرات .. هؤلاء الصغار الزهيدين الذين يستغرقون في العاجلة ... إن هؤلاء لا يُطاعون في شيء ، ولا يُتبعون في طريق ، ولايلتقون مع المؤمنين في هدفٍ ولا غاية، ولا يُؤبه لما هم فيه من هذه العاجلة؛ من ثراء وسلطان ومتاع، فإنما هي العاجلة، وإنما هو المتاع القليل، وإنما هم الصغار الزهيدون»(١) .

وعن ابن مسعود مرفوعًا: «سيكون في آخر الزمان قومٌ يجلسون في المساجد حِلَقًا حِلَقًا، إمامُهم الدنيا؛ فلا تجالسوهم، فإنه ليس لله فيهم حاجة»(٢) .

يا زَمِنَ الهِمَّة ، يا مُقْعَدَ الهزيمة ، يا عليل الفهم ، يا بعيد الذهن ، لو كنتَ من رياش الدنيا أكْسى من الكعبة ؛ لم تخرُج منها إلَّا أعْرَى من الحَجَر الأسود !!

قيل لرجلٍ : ما الذي حبَّب إليك الخلْوة ، وطَرَدَ عنك الفتْرة ؟ قال : وثْبةُ الأكياس من فخِّ الدنيا . وقيل لآخر : لِمَ تخلَّيتَ عن الدنيا ؟ فقال : خوفًا والله من الآخرة أن تتخلَّى منِّي .

مَنْ غرسَ في نفسه شرف الهمَّة فنَبَت ، نَبَتْ عن الأقذار ، ومَن استقرَّ رُكن عزيمته وثبتَ ، وَثَبَتْ نَفْسُهُ عن الأكدارِ .

---

(١) الظلال ٦/٣٧٨٦ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني ، وأبو إسحاق الزكي في « الفوائد المنتخبة » ، وابن حبان ، ورواه الحاكم في المستدرك عن أنس ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١١٦٣) .

يا هذا ، خَسَّتْ هِمَّةُ فرعون ، فاستعظم الحقير : ﴿ **أليس لي مُلْكُ مصرَ** ﴾ . يا دني النفس ، حمارُك ينهق من كفِّ شعيرٍ يراه . الدنيا كلُّها بعوضةٌ ، فما نسبةُ مصر إليها .

يا هذا ، إنما خُلقت الدنيا لتجوزها لا لتحوزها ، ولتعبرها لا لتعمرها ، فاقتل هواك المايل إليها ، واقبل نُصحي لا تُعوِّلْ عليها .

يا هذا ، سبعة يُظلّهم الله في ظلِّه ؛ منهم رجل دعتْه امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ فقال : إني أخشى الله . اسمع يا مَنْ أجاب عجوزًا على مزبلة ! ويحك ، إنها سوداء ،ولكن قد غلبتْ عليك . من لا هِمَّة له سوى جمع الحطام معدودٌ في الحشرات .

واعجبًا لنفاسة نفْسٍ رُفعتْ بسجود الملك ، كيف نزلت بالخساسة حتى زاحمتْ كلابَ الشَّرَهِ على مزابل الذُّلِّ! هيهات لن تُفلح الأُسدُ إذا أُنفقت عليها الميتاتُ الفسدُ .

يا ذا اللُّبِّ، حدِّثني عنك، أتنفقُ العمرَ الشريفَ في طلب الفاني الرذيل؟! إنّ الهوى مِرْعادٌ مِبْراق ، بلا مطر . الدنيا لا تُساوي نقْل أقدامِك في طلَبها . أرأيتَ غزالًا يغدو خَلْف كلب ؟! الدنيا مَجَاز ، والأُخرى وطن ، والأوطار في الأوطان أطوار . إيثار ما يفنَى على ما يبقَى ، بِرْسام[1] حادّ . يا أبناء الدنيا ، إنها مذمومة في كلِّ شريعة ، والولد عند الفقهاء يتبعُ الأُمَّ . يا مَنْ هو في حديثها أنطَقُ من سَحبان[2]، وفي انتقاد الدنانير أنسبُ من دغفل[3]. فإذا ذُكرتِ الآخرة فأبلهُ من باقِل[4]. حيلتُك في تحصيلها أدقُّ من الشّعر ، وأنت في تدبيرها أصنعُ

---

(١) بِرْسام : ذات الجنب ، وهو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة .
(٢) سَحْبان : بليغ يُضرب به المثل .
(٣) دغفل : اسم رجل ، وهو دغفل بن حنظلة النسَّابة ، من بني شيبان .
(٤) باقل : اسم رجل يُضرب به المثل في العيِّ والعجز عن الكلام .

من النحل ، ، وعينُ حرْصِك عليها أبصرُ من العُقاب[١]، وبطنُ أملِك أعطشُ من الرمل ، وفمُ شرهِك أشربُ من الهِيم[٢]. تجمع فيها الدُّرَّ جمْع الذَّرّ. يا رفيقًا في البَلَهِ لِدُودِ القَزِّ ! واعجبًا ، ما انتفعتَ بموهبة العقل !!

كدودٌ كدودِ القَزِّ ينسجُ دائمًا ويهلكُ غمًّا وسطَ ما هو ناسجُهْ

ويْحكَ، إنّ سرورَها أقتلُ من السُّمِّ ، وإنّ شرورَها أكثرُ من النمل . إنها في قلبك أعزُّ من النفس ، وستصير عند الموت أهونَ من الأرض . حِرْصُك بعد الشيب أحرُّ من الجمر ، أبقي عُمْر ؟! يا أبردَ من الثلج ، يا مَنْ هو عن نجاته أنومُ من فهد . ضيَّعتَ عُمرًا أنفسَ من الدُّرِّ . أنت في الشرِّ أجرى من جواد ، وفي الخير أبطأُ من أعرج . تسعى إلى العاجل سعْيَ رخٍّ[٣]، وتمشي في الآجل مشْي فرزان[٤]. الزكاةُ عليك أثقلُ من أُحُد ، والصلاة عندك كنقل صخر على ظهر ، وطريق المسجد في حُسبان كَسَلِكَ كفرْسَخي دبر كعب . صدرُك عن حديث الدنيا أوسع من البحر ، ووقت العبادة أضيق من تسعين . معاصيك أشهر من الشمس، وتوبتُك أخفى من السُّهى[٥]. إنْ عرضتْ خطيئة وثبتَ وثوب النمر ، فإذا لاحت طاعةٌ رُغتَ رَوَغان الثعلب . تُقدِمُ على الظُّلم إقدام السَّبُع ، وتخطف الأمانةَ اختطاف الحدأة . يا أظلم من الجلَنْدى[٦]، ما تأمنك غزلان الحرم ، يا كنعان الأمل ، يا نمروذ الحيل ، يا نعمان الزلل ، أنت في حُبِّ المال شبه الحباحب ، وفي تبذير العمر رفيق حاتم . تمشي في الأمل على طريق أشعب ، وستندم ندامة الكسلى . يا عذريَّ الهوى في حُبِّ الدنيا ،

---

(١) العُقاب : طائرٌ حادُّ البصر .

(٢) الهِيم : الإبل العِطاش .

(٣) سعْي رخٍّ : أي سعيًا حثيثًا سهلًا .

(٤) مشْي فِرْزان : أي مشيًا بطيئًا .

(٥) السُّهى : كوكب خفيٌّ .

(٦) الجلَنْدى : الفاجر والعاجز .

يا كوفيَّ الفقه في تحصيلها ، يا بصريَّ الزهد في طلب الآخرة ؛ إنما يُتعبُ في تعليم البازي ليصيد ما له قدْر ، ولمَّا تعلَّم بازي فكْرك ؛ أرسلتَه على الجِيَف .

إخواني ، احذروا الدنيا ؛ فإنها أسْحَر من هاروت وماروت ، ذانك يُفرِّقان بين المرء وزوجه ، وهذه تُفرِّق بين العبد وربِّه ! وكيف لا ، وهي التي سحرتْ سحرةَ بابل . إنْ أقبلتْ شغلتْ ، وإن أدبرتْ قتلتْ .

نظرتْ فأقصدتِ الفؤادَ بسهمِها ... ثم انثنتْ عنه فكاد يهيمُ
ويلاه إنْ عَرَضَتْ وإن هي أعرضتْ ... وقْعُ السِّهامِ ونزْعُهُنَّ أليمُ

كم في جَرْعِ لذَّاتِها مِن غصص ، طالبُها معها في نَغَص .

بكى عليها حتى إذا حَصَلَتْ بكى ... عليها خوفًا مِن الغيَر

إنها إذا صَفَتْ حَلالًا ؛ كدَّرتِ الدِّين ، فكيف إذا أُخِذتْ من حرام ؟! إن لحم الذبيحة ثقيل على المعاء ، فكيف إذا كان مَيْتة ؟! الظَّلَمة في الظُّلْمة يمشون في جمْع الحُطام ، يُصبحون ويُمسون على فراش الآثام ﴿ **فما ربحت تجارتهم** ﴾ . من نبت جسمُه على الحرام ، فمكاسبُهُ كِبريت به يُوقَد . الحجَرُ المغصوب في البناء ، أساسُ الخراب . أتراهم نَسُوا طيَّ الليالي سالفَ الجبَّارين ﴿**وما بلغوا مِعشارَ ما آتيناهم** ﴾ ؟! فما هذا الاغترار ﴿ **وقد خلت مِن قَبْلِهم المَثُلات** ﴾ فهل ينتظرون ؟! مَنْ لهم إذا طلبوا العَوْد ﴿ **فحِيلَ بينهم وبين ما يَشْتَهُون** ﴾ ؟! كم بَكَتْ في تنعُّمِ الظالم عينُ أرْمَلَة ، وأُحرقتْ كبدُ يتيم ﴿ **ولَتعلمُنَّ نبأهُ بعدَ حِين** ﴾ .

ويحك ؛ إنَّما تكون الحرب بين الأمثال ، ولذلك مُنع قتل النساء والصِّبيان ، فأيّ قَدْر للدنيا حتى يحتاج قلبُك إلى مُحاربةٍ لها ؟ أما علمتَ أنَّ شهواتها جيَفٌ مُلقاةٌ ، أفيَحسنُ بباشِقِ المَلِك أن يطير عن كَفِّه إلى مَيْتةٍ ؟ مهْلًا ﴿ **لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ** ﴾ .

أتشتري أخسَّ الخسائس يا أنْفَسَ النفائس ؟! أتُؤْثِر لحظةَ لذَّةٍ تجني حرب البسوس وداحس ؟! .

يا مُقَتِّرِين من حُبِّ الآخرة ، بل يا مفـالس !! اشتَرُوا نفوسكم من الدنيا ؛ تشتروا لها السنادِس .

قَدِمَ ابنُ عمٍّ لمحمد بن واسع عليه فقال له : من أين أقبلتَ ؟ قال : مِنْ طَلَب الدنيا. فقال له: هل أدركتَها؟ فقال له: لا. فقال محمد: يا سبحان الله! أنت تطلبُ شيئًا ولم تُدركه ، فكيف تدرك شيئًا لم تطلبه ؟! .

وأمَّا كَراهية الموت ، فقد قال الطغرائي مُبيِّنًا أثر حُبِّ السـلامة في الانحطاط بالهمَّة :

حبّ السلامة يُثني عَزْم صاحِبِهِ عن المعالي ويُغري المرءَ بالكسل

« إن حبّ الدنيا ، وكراهية الموت صِنوانِ لا يفترقان ، وإن الهمَّة العالية لا تسكن القلب الجبان ، وتأمَّلْ حالَ خسيس الهمَّة ، الذي أورثتْهُ التربيةُ الفاسدةُ حِرصًا على حياةٍ ؛ أيّ حياةٍ ولو ذليلة ، وغرستْ فيه حُبَّ السلامة في موطن الجرأة والإقدام والمخاطرة .

أضحتْ تُشجّعُني هندٌ فقلتُ لها إن الشجاعةَ مقرونٌ بها العَطَبُ
لا والذي حجَّتِ الأنصارُ كعبَتَهُ ما يشتهي الموت عندي مَنْ له أَرَبُ
للحربِ قومٌ أضلَّ الله سَعْيَهمُ إذا دَعَتهمْ إلى حَوْماتِها وَثَبُوا
ولستُ منهمْ ولا أهْوَى فِعالَهمُ لا القتْلُ يُعجبني منهم ولا السَّلَبُ[١]

وقال آخر :

يقول لَي الأميرُ بغيرِ جُرْمٍ تقدَّمْ حِينَ حلَّ بنا المِراسُ
فما لَي إنْ أطَعْتُك في حياةٍ ولا لي غيرُ هذا الراسِ راسُ[٢]

فأين هذا من ذلك العبد الصالح ، الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « طُوبى لعبدٍ آخِذٍ بعنانِ فَرَسِهِ في سبيل الله ، أشْعَث رأسُهُ ، مُغْبَرَّةٍ قدماهُ ،

(١،٢) المحاسن والأضداد ، للجاحظ صـ ٥٩ .
والمراس هنا : التضارب في الحرب ، والجَلَد والقوة في ممارسة القتال .

إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في السَّاقَةِ كان في الساقةِ ، إن استأذَنَ لم يُؤْذَنْ لَهُ، وإن شَفَعَ لم يُشَفَّعْ»[١] . والذي قال ﷺ في وَصْفِه : « رجلٌ آخذٌ بِعنَانِ فَرَسِهِ في سبيل الله ، كلَّما سمعَ بهَيْعةٍ[٢] استوى على مَتْنِهِ ، ثم طلب الموت مظَانَّهُ .. » الحديث »[٣][٤] .

ثانيًا : التَّمنِّي :

قال الشاعر :

واتْرُكْ مُنى النَّفْس لا تحسَبْهُ يُشبِعُها ... إن المنى رأسُ أموالِ المفاليس

وقال آخر :

إذا تمنَّيْتُ بتُّ الليلَ مُغْتَبِطًا ... إن المنى رأسُ أموالِ المفاليس

وبحر التمنِّي « بحر لا ساحل له ، وهو البحر الذي يركبه مفاليسُ العالم ، كما قيل : إن المُنى رأس أموال المفاليس . وبضاعةُ رُكَّابه مواعيد الشيطان وخيالات المُحال والبُهتان ، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة والخيالات الباطلة ، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة ، وهي بضاعة كلِّ نَفْسٍ مَهِينة خسيسةٍ سُفْلِيَّة ، ليست لها همَّة تنال بها الحقائق الخارجيَّة ، بل اعتاضتْ عنها بالأماني الذِّهْنِيَّة ، وكلٌّ بحَسَب حاله ؛من مُتَمَنٍّ للقدرة والسلطان وللضرب في الأرض والتِّطواف في البُلدان ، أو للأموال والأثمان ، أو للنسوان والمردان . فيمثِّل المتمنِّي صورة مطلوبِهِ في نَفْسهِ وقد فاز بوصولها ، والتَذَّ بالظفر بها ، فبَيْنَا هو على هذه الحال ، إذ استيقظ ، فإذا يده والحصير .

وصاحب الهمَّة العَلِيَّة ، أمانِيّه حائمةٌ حول العلم والإيمان ، والعمل الذي

---

(١) رواه البخاري .
(٢) الهَيْعَة : الصَّوْت تَفْزَع منه وتخافه من عدوٍّ .
(٣) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه .
(٤) علو الهمَّة ، لمحمد أحمد إسماعيل صـ ٣٣٣ - ٣٣٤ .

يُقربه إلى الله ويُدنيه من جواره . فأمانيُّ هذا إيمانٌ ونورٌ وحكمة ، وأماني أولئك خِدَعٌ وغرور »[١] .

« وما أحسنَ ما قال أبو تمام :

مَنْ كان مَرْعَى عزْمِهِ وهُمومِهِ رَوْضَ الأماني لَمْ يَزَل مَهْزُولا

وعن الحسن قال : المؤمن مَنْ يعلم أن ما قال الله عزَّ وجلَّ كما قال ، والمؤمن أحسنُ الناس عملًا ، وأشدُّ الناس خوفًا ؛ لو أنفقَ جبلًا من مالٍ ، ما أمِنَ دون أن يُعاينَ ، لا يزدادُ صلاحًا وبرًّا وعبادةً ، إلَّا ازداد فَرَقًا ، يقول : لا أَنجو ، لا أنجو . والمنافق يقول: سَوادُ الناس كثيرٌ ، وسيُغفر لي ، ولا بأس عليَّ . يُسيءُ العمل ، ويتمنَّى على الله تعالى »[٢] .

«ويقول المتنبي – مُنَزِّهًا نَفْسَه عن الاستغراق في أحلام اليقظة ، ومبيِّنًا كيف أَلِفَ الحقائق ، واعتاد ركوب المخاطر –:

وما كنتُ ممَّن أدركَ المُلكَ بالمُنى ولكنْ بأيَّامٍ أشَبْنَ النَّواصِيَا
لَبِسْت لها كُدْرَ العَجاجِ[٣] كأنَّما تَرَى غَيْرَ صافٍ أن تَرَى الجوَّ صافِيَا[٤]»

ويرحم الله من قال :

وما نيْلُ المطالبِ بالتَّمنِّي ولكنْ تُؤخَذ الدُّنيا غِلابَا

قال يحيى بن معاذ : « لا يزال العبد مقرونًا بالتَّواني ، ما دام مُقيمًا على وعد الأماني . وما اختار أحدٌ الأماني تقوده ، إلَّا كان أثقلَ ما يكون خَطْوًا، وَوَجَدَ ثَمَّ السراب الخادِع وعَدِم الماء وقت العطش ، وأمَّا المضيءُ النَّفْس، ومَنْ لا أُمنيةَ له من الدعاة ؛ فإنك تجدُهُ سبَّاقًا إلى الخير ، إلى كلِّ خير أبدًا ، وتجده على ريٍّ دومًا ، فإنه إن كان ذا قوةٍ ؛ استقىٰ لنفسه أو استسقىٰ ، فيُجيبه الله بهَطْلٍ من السماء ،

---

(١) مدارج السالكين ١/٤٥٦– ٤٥٧ .
(٢) الزهد ، لابن المبارك صـ ١٨٨ .
(٣) كُدْر العجاج : غبار الحرب .
(٤) علو الهمَّة ، لمحمد إسماعيل صـ ٣٣٩– ٣٤٠ .

وإن كان مُستضْعَفًا ، وجدَ وريثًا لموسى عليه السلام ، يَسقي له ويُزاحم الرِّعاع »[١] .

ثالثًا : التسويف :

أنذرتكم « سوف » ؛ فإنها جُندٌ من جنود إبليس .

فواأسفًا لمُنْقَطعٍ دون الرَّكْب ، متأخِّر عن لحاق الصحب ، يعدُّ الساعات في «متى» و «لعل»، ويخلو بفكْرِ «عسى» و «هل» . فاحذَر التسويف يا أخي .

ولا تُرْجِ فِعْلَ الخيرِ يومًا إلى غَدٍ　　لعلَّ غدًا يأتي وأنت فقيدُ

إن النَّفَس قد يخرج ولا يعود ، وإن العين قد تطرف ولا تَطْرِف الأخرى إلَّا بين يدي الله عز وجل .

قال الشاعر :

ولا أدَّخِر شُغْلَ اليوم عن كَسَلٍ　　إلى غدٍ إنَّ يومَ العاجزينَ غدُ

رابعًا : إهدار الوقت في كثْرة الزِّيارة للأقارب والأصحاب ، بدون هدفٍ شرعيٍّ صحيح وفائدة معتبرة :

وذلك بدعوى الأُخُوَّة والتناصُح ، فيكثُرُ في المجلس اللَّغْو والمزاح ، وتقلُّ الفائـدة . قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى : « أعوذ بالله من صُحبة البطَّالين ؛ لقد رأيتُ خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ويسمُّون ذلك التَّردُّد : خدمة ، ويُطيلون الجلوس ، ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني ، ويتخلَّلُهُ غِيبة . وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس ، ورُبَّما طَلَبَه المَـزُور وتشوَّق إليه واستوحش الوحدة ، وخصوصًا في أيام التـهـاني والأعياد ، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض ، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان . فلمَّا رأيت أن الزمان أشرف شيء والواجب انتهابه بفعْل الخير ، كرهتُ ذلك ، وبقيتُ معهم بين أمرين :

---

(١) الرقائق ، لمحمد أحمد الراشد صـ ٤٥- ٤٦ .

إن أنكرتُ عليهم ، وقعتْ وحشة لموضع قطْع المألوف ، وإن تقبَّلْتُهُ منهم ، ضاع الزمان ، فصرتُ أُدافِع اللقاء جهدي ، فإذا غُلبتُ قصَّرتُ في الكلام لأتعجَّل الفراق »[1] .

قال ﷺ: «نعمتان مغْبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس : الصحة والفراغ » . متفق عليه .

والوقتُ أنْفَسُ ما عُنِيتَ بحِفْظِهِ وأراه أسْهَل ما عليك يَضيعُ

يا هذا، العمر عمرٌ قليل، وقد مضى أكثره بالتعليل ، وأنت تُعرِّض البقية للتأويل ، وقد آن الآن أن يرحل النزيل .

ما أرْخص ما يُباع عمرُك ، وما أغْفَلَك عن الشِّرا ، والله ما بَيْعُ إخوةِ يوسف « يوسف » بثمنٍ بخْسٍ ، بأعْجَبَ من بَيْعِك نَفْسَك بمعصيةِ ساعةٍ وتضييع ساعةٍ، فمتى يرعوي الفؤاد، يا مسافرًا بلا زاد، ولا راحلة ولا جواد ، يا زارِعًا قد آن الحصاد ، يا طائرًا بالموت يُصاد ، احذر الفَوْت ؛ ضياع الوقت ، فالفوت أشدُّ من الموت ، فالموت يقطعك عن الدنيا وأهلها ، والفوت يقطعك عن الله والدار الآخرة . جسمُك في واد ، وأنت في واد ، نُثر الدُّرُّ لديك ، وما تنتقي، وقُرِّبت المراقي إليك وما ترتقي.. يا واقفًا في الماء الغَمْر وما يُنقي ، لقد ضيَّعتَ ما مضى ، وشرعت في ما بقي .

إن قلتُ قُمْ قال رِجْلي ما تطاوعني أو قلتُ خذ قال كَفِّي ما تُواتيني

خامسًا : كَثْرَة التمتُّع بالمباح ، والتَّرف الزائد ، والترفُّل في النعيم :

وكلُّ هذه الأمور من العوامل الفَتَّاكة ، القاضية على الهمَّة .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «قال لي يومًا شيخ الإسلام- قدَّس الله روحه- في شيءٍ من المباح: هذا يُنافي المراتب العالية ، وإن لم يكُن ترْكه شرطًا في النجاة، فالعارف يترك كثيرًا من المباح بَرْزَخًا بين الحلال والحرام »[2] .

---

(١) قيمة الزمن عند العلماء صـ ٢٨ .

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٢٦ .

هذا ، والذي لام عليه الإمامُ ابن تيمية تلميذهُ « شيء من المباح » ! فما بالكم بما نراه اليوم من تمتُّع الدُّعاة بمباحاتٍ ونعيمٍ لا يعرفه الملوك السابقون[١] .

ذكر ابن حجر العسقلاني، أن تاج الدين المراكشي– أحد فقهاء الشافعية– كان قد « انقطع بالمدرسة الأشرفية مُلازمًا للقراءة والاشتغال ، صبورًا على ذلك جدًّا ، بحيث يمتنع عن الأَكْل والشرْب والملاذّ بسبب ذلك »[٢] .

وهذه الأمور من المباحات قطعًا ، ولكن ذلك الفقيه عَلِم أنَّ الإكثار منها والوَلَع فيها ، سببٌ لسقوط الهمَّة وضعْف العمل .

وذكَـر السبكيُّ في « الطبقات » ، أن أباه الإمام تقيّ الدين كـان من الاشتغال على جانبٍ عظيمٍ ، بحيث يستغرق غالبَ لَيْلِهِ وجميعَ نهاره .. كان يخرج من البيت صلاة الصبح ، فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قُرَيْب الظهر ، فيجد أهل البيت قد عملوا له فَرُّوجًا فيأكله ، ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب ، فيأكل شيئًا حُلوًا لطيفًا ، ثم يشتغل بالليل، وهكذا لا يعرف غير ذلك ، حتى ذكَر لي أن والده قال لأُمِّه : هذا الشاب ما يطلُب قطُّ درهمًا ولا شيئًا ، فلعلَّه يرى شيئًا يريد أن يأكله ، فضعي في منديله درهمًا أو درهمْين . فوضعت نصف درهم . قالت الجدة : فاستمرَّ نحو جمعتين وهو يعود والمنديل معه والنصف فيه ، إلى أن رمَى به إليَّ وقال : أيش أعملُ بهذا ؟! خُذُوه عني[٣] .

سادسًا : كثْرة الخلْطة وصُحْبة البَطَّالين الذين سَفُلتْ همَّتُهم :

وكثْرة الخُلْطة وصُحبة البطَّالين تُطفىء نور القلب ، وتعوِّر عين بصيرته ، وتُثقل سمْعه ، إن لم تُصِمَّه وتُبْكِمه وتُضعف قُواه كلها ، وتوهن صحته وتُفتِّر

---

(١) الهمَّة طريق إلى القمة ، لمحمد بن حسن بن عقيل ، صـ ٦٣ دار الأندلس جدة .
(٢) الدُّرر الكامنة لابن حجر ٣/٣٨٧ .
(٣) طبقات الشافعية للسبكي ١٠/١٤٤، و « الهمة طريق إلى القمة » صـ ٦١– ٦٢ .

عزيمته ، وتُوقف همَّته ، وتُنكسه إلى ورائه ، ومَنْ لا شعور له بهذا فميِّتُ القلب ، وما لجُرحٍ بميِّتٍ إيلام ، فهي عائِقةٌ له عن نَيلِ كماله ، قاطعةٌ له عن الوصول إلى ما خلق الله ، وجَعَل نعيمَهُ وسعادتَهُ وابتهاجَه ولذَّتَه في الوصول إليه .

فأمَّا ما تؤثِّره كثرة الخُلْطة : فامتلاء القلب من دُخان أنفاس بني آدم حتى يسودَّ ويُوجب له تشتُّتًا وتفرُّقًا ، وهمًّا وغمًّا ، وضعْفًا ، وحَمْلًا لما يعجز عن حمْله من مؤنة قُرَناء السوء ، وإضاعة مصالحه ، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم ، وتَقَسُّم فكْره في أودية مطالبهم وإرادتهم ، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة ؟ هذا ، وكم جلبتْ خُلطة الناس من نقمةٍ ، ودفعت من نعمةٍ ، وأنزلت من محنة ، وعطَّلتْ من منحة ، وأحلَّتْ من رَزِيَّة ، وأوقعتْ في بَلِيَّة ، وهل آفة الناس إلا الناس ، وهل كان عَلَى أبي طالب - عند الوفاة - أضرٌّ من قُرناء السُّوءِ؛ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمةٍ واحدةٍ تُوجِب له سعادة الأبد.

عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّما مَثَل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المِسْك ونافخ الكِير[1]؛ فحامِل المسك : إمَّا أن يُحْذِيَك[2]، وإمَّا أن تبتاع منه ، وإمَّا أن تجد منه رِيحًا طيِّبة . ونافخ الكير :إمَّا أن يحرق ثيابَك ، وإمَّا أن تجد منه ريحًا خبيثة »[3] .

فحذار من مُجالسة المُثبِّطين من أهل التبطُّل والتعطُّل واللهو والعَبَث ؛ فإن « طَبْعك يسرق منهم وأنت لا تدري ، وليس إعداءُ الجليس جليسَهُ بمقاله وفعاله فقط ، بل بالنَّظَر إليه ! والنظر في الصُّوَر يُورث في النفوس أخلاقًا مناسبة لخُلُق المنظور إليه! ومن المُشاهد أن الماء والهواء يَفْسُدان بمجاورة الجيفة، فما

(١) الكير : جلد غليظ يُنفخ فيه النار .

(٢) يُحذيك : يعطيك .

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم .

الظَّنُّ بالنفوس البشرية ؟! »[١] .

ولا تجلسْ إلى أهل الدَّنايا   فإن خلائقَ السُّفَهاءِ تُعْدِي[٢]

فالبطالون قُطَّاع الطريق إلى الله عز وجل والدار الآخرة ، ومعاشرتهم سُمٌّ ، والقُرب منهم هلاك .. كلٌّ منهم زَمِنٌ مريضٌ يسعى إلى زمْنَى مثله ، قبر يسعى إلى قبور مثله .

« وإن دعت الحاجة إلى خُلْطتهم ، فالحذر أن يوافقهم عالي الهمَّة ، وَلْيصبر على أذاهم ، والصبر على أذاهم خيرٌ وأحسن عاقبةً ، وأحمدُ مآلا ، وإن دعت الحاجة إلى خُلطتهم في فُضُول المُباحات ، فليَجْتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعةً لله إن أمكنه ، ويُشجِّع نفسه ويُقوِّي قلبه ، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك ، بأن هذا رياءٌ ومحبةٌ لإظهار عِلمك وحالك ، ونحو ذلك فَلْيُحارِبه ، وَلْيَسْتَعِنْ بالله ، ويُؤثِّر فيهم من الخير ما أمكنه . فإن أعجزته المقادير عن ذلك ، فَلْيَسُلَّ قلبَهُ من بينهم كَسَلِّ الشعرة من العجين ، ولْيَكُن فيهم حاضرًا غائبًا ، قريبًا بعيدًا ، نائمًا يقظانًا ، ينظر إليهم ولا يبصرهم ، ويسمع كلامهم ولا يَعِيهِ ، لأنه قد أُخِذ قلبه من بينهم ورُقِيَ به إلى الملأ الأعلى ، يَسْبَحُ حول العرش مع الأرواح العلوية الزَّكِيَّة وما أصعب هذا وأشقَّهُ على النفوس »[٣] .

وشُغِلتُ عن فَهْمِ الحديث سوى   ما كان عنك فإنه شُغلي
وأُديمُ نحو مُحَدِّثي وجهي ليَرَى   أنْ قد عَقِلْتُ وعندكم عقلي

سابعًا : العجز والكسل :

فيكون صاحبه من أصحاب الأماني المتأوهين: «يكون عالمًا بها ، ولا تنهض همَّتُهُ إليها ، فلا يزال في حضيضِ طبعه محبوسًا ، وقلبُه عن كماله الذي خُلق

---

(١) فيض القدير ٥/ ٥٠٧ .
(٢) علو الهمة ، لمحمد إسماعيل صـ ٣٤٠ .
(٣) مدارج السالكين ١/٤٥٥- ٤٥٦ .

له مصدودًا منكوسًا ، قد أسامَ نَفْسَهُ مع الأنعام ، راعيًا مع الهَمَل ، واستطاب لُقيمات الراحة والبطالة ، واستلانَ فراشَ العجز والكسل ، لا كمَنْ رُفع لهِ عَلَمٌ فشمَّر إليه ، وبُورِك له في تفرُّده في طلبِه فَلَزِمَهُ واستقام عليه ، قد أبَتْ غلباتُ شوقه إلَّا الهجرة إلى الله ورسوله ، ومَقَتَتْ نَفْسُه الرُّفقاء إلَّا ابن سبيل يُرافقه في سَيْره »[1] .

والعجز والكسل هما العائقان اللذان أكْثَرَ رسولُ الله ﷺ من التعوُّذ بالله سبحانه منهما ، وقد يعجز العاجز لعدم قدرته ، بخلاف الكسول الذي يتثاقل ويتراخى ممَّا ينبغي مع القدرة ، قال تعالى : ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عُدَّةً ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم فثبَّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ [التوبة : ٤٦] .

قد ترى الرجل موهوبًا ونابغةً ، فيأتي الكسل فيُخذِّل هِمَّته ، ويمحق موهبتهُ ، ويطفي نور بصيرته ، ويشلّ طاقته ، قال الفرَّاء رحمه الله : « لا أرحم أحدًا كرحمتي لرجلَيْن : رجل يطلب العلم ولا فهْم له ، ورجل يفهم ولا يطلبه ، وإني لَأعجب ممَّن في وسعه أن يطلب العلم ولا يتعلَّم » . قال المتنبي :

وَلَمْ أَرَ في عُيوبِ النَّاس عيبًا كنقْصِ القادرينَ على التَّمامِ[2]

ثامنًا : الغفلة :

آهٍ لنفسٍ رَفَلَتْ من الغفلة في أثوابها ، فَثَوَى بها الأمرُ إلى عَدَم ثوابها ، آهٍ لعيونٍ أعشاها الأمل فسَرَى بها إلى سرابها ، آهٍ لقلوب قلَّبها الهوى عن القرآن إلى ربابها فرَبَا بها ، آهٍ لَمرْضَى عَلِمَ الطبيبُ قدْر ما بها ، وقد رمى بها .

يا غاديًا في غفلة ورائحَا إلى متى تستحسِنُ القبائحا

يا قلبًا مُشتَّتًا قلَّ نظيرُه ، كم هذا الهوى ؟ ولكَمْ هَوَى أسيرُه . أيُّها القاعد

(١) مفتاح دار السعادة ، لابن القيم ٤٦/١ .
(٢) علو الهمَّة ، لمحمد أحمد إسماعيل ٣٣٦ .

عن أعلى المعالي ، سبقَ الأبطالُ ، والبطّال ما يبالي .

إذا أقفرَ قلبُك من ساكِن: «ويَسَعُني»؛ فتحتِ النفْسُ بابًا لعناكب الغفلة ، فنسجتْ في زواياه من لُعابِ الأمل ، طاقاتِ المُنى . اللهم أجِرِ القلوبَ من جوْرِ النفوس . يا سلطان القلبِ ، نشكو إليك النُّزالَة .

يا غافلاً عن مصيره ، يا واقفًا في تقصيره ، سَبَقَك أهلُ العزائم ، وأنت في اليقظة نائم .

سجيَّتُك تُعلِّمني ؛ فاسمع أُحدِّثك ، فالطبيب لا يكذب : استكثرتَ من بُرُودات الغفلة ، فقعد نشاط العزم . أما تعلم أن مطاعم المطامع ، تولِّد سددًا في كَبِدِ الجدِّ .

فيا أسيرًا في قبضة الغفلة ، يا صريعًا في سكرة المُهْلة ، ويحك قد وهَن العظمُ وما شابتْ همَّة الأمل، أَخْلَقَ بردُ الحياة وما انكفَّتْ كفُّ البطالة ، قدمتْ معابرُ العبور وأنت تلهو على الساحل .

العمر أنفاسٌ تسيرُ بل تطير ، والأمل منامٌ لا ترى فيه إلَّا الأحلام فانتبه من رُقاد الغفلة ، وتَيقَّظْ من نوم العُطلة ، وعرِّج عن طريق البطالة ، وابعد عن ديار الوحشة . الفَتْرة حَيْض الطِّباع ، ووقوع العزيمة رؤية النّقا .

قال عمر رضي الله عنه : الراحة للرجال غفْلةٌ .

وسأل سائلٌ ابن الجوزي : أيجوز أن أُفسح لنفْسي في مباح الملاهي ؟ فقال له : عند نفْسك من الغفلة ما يكفيها .

وقال الشيخ حسن البنا ، رحمه الله : دقائق الليل غالية ، فلا تُرخصوها بالغفلة .

وانتبهْ من رقدةِ الغفْـــ ـــلةِ فالعمْـرُ قليـلْ
واطَّرحْ سوف وحتى فهمـا داءٌ دخيـلْ

يقول ابن القيم : « لا بُدَّ من سِنَةِ الغفلة ، ورُقاد الغفلة ، ولكن كُنْ خفيفَ النوم » .

يقول الأستاذ محمد أحمد الراشد : « والمراد تقليل الراحة إلى أدنى ما يكفي الجسم ، كلٌّ حَسَب صحته وظروفه ، خاصَّة وأن المؤمن في هذا الزمان أشدُّ حاجةً للانتباه ومعالجة قلبه وتفتيشه ، ممَّا كان عليه المسلمون في العصور الماضية ، ذلك أنهم كانوا يعيشون في محيط إسلامي تسوده الفضائل، ويسوده التواصي بالحق، والرذائل تُجهد نفسها في التستُّر والتَّواري عن أعيُن العلماء وسيوف الأمراء ، أمَّا الآن ؛ فإن المدنية الحديثة جعلتْ كفر جميع مذاهب الكفار، مسموعًا مُبصرًا بواسطة الإذاعات والتلفزة والصحف، وجعلتْ إلقاءات جميع أجناس الشياطين قريبة من القلوب ، وبذلك زاد احتمال تأثُّر المؤمن من حيث لا يريد ولا يشعر بهذا المسموع والمنظور ، فضلًا عن ارتفاع حُكم الإسلام عن الأرض الإسلامية التي يعيش فيها ، فوجب عليه شيءٌ من المجاهدة والمراقبة لوقته ، أكثر مما يجب على السلف . وما أصدق تصوير إمام تركيا « بديع الزمان النورسي » – رحمه الله – لهذه الحقيقة حين يقول : إن هذه المدنية السفيهة ، المصيِّرة للأرض كبلدةٍ واحدة، يتعارف أهلها، ويتناجون بالإثم وما لا يعني بالجرائد صباحًا ومساءً، غَلُظَ بسببها وتكاثَفَ بملاهيها حجابُ الغفلة ، بحيث لا يُخرق إلَّا بصرْف همَّةٍ عظيمة »[1] .

إلى كم أقولُ ولا أفعلُ وكم ذا أحومُ ولا أنزل
وأزْجُرُ عيني فلا ترعوي وأنصحُ نفسي فلا تقبلُ
وكم ذا تُعلِّل لي وَيْحَها بـ«علَّ» و «سوف» وكم تمطُلُ
وكم ذا أُؤمِّل طولَ البقا وأغفلُ والموتُ لا يَغْفُلُ

تاسعًا : الفُتُور :

ما أشدَّه من داء تعوَّذ منه رسولنا ﷺ صباحًا ومساءً .

---

(١) الرقائق صـ ٥٧– ٥٩ .

عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ كان يتعوَّذ ويقول : « اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من الكسل والهَرَم والمأثم والمغرم »[١] .

وقد ذكر أنسٌ رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ كثيرًا يقول : « اللهمَّ إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن ، والعجز والكسل ، والبُخل والجُبن ، وغَلبَة الدَّيْن وقهر الرجال »[٢] .

وقد استعاذ عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – من الخور الذي ينتاب المسلمين ، في دعائه المشهور : « اللهمَّ إني أعوذ بك من جَلَد الفاسق وعجْز الثقة »[٣] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « إن لكلِّ عملٍ شِرَّةً، ولكلِّ شِرَّةٍ فَتْرة[٤]، فمن كانت فترتُه إلى سُنَّتي فقد اهتدى ، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك »[٥] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ لكلِّ شيءٍ شِرَّةً ، ولكلِّ شِرَّة فتْرة ، فإنْ صاحبها سدَّد وقارَب ، فارجوه ، وإن أُشير إليه بالأصابع ، فلا تَعُدُّوهُ »[٦] .

وعن عبد الله بن عمرو قال: ذُكر عند النبي ﷺ قوم يجتهدون في العبادة اجتهادًا شديدًا ، فقال : « تلك ضرورة الإسلام وشِرَّتُهُ ، ولكلِّ عملٍ شرَّةٌ ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري .

(٣) الفتور ، لجاسم مهلهل صـ ١١ – دار الدعوة – الكويت .

(٤) شِرَّة : نشاط وقوة . فتْرة : ضعف وفُتُور .

(٥) صحيح : رواه أحمد وابن أبي عاصم في السُّنَّة ، وابن حبان ، والبيهقي في الشعب ، وصححه الألباني .

(٦) صحيح : أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح غريب من هذا الوجه . وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢١٥١) .

فمن كانت فتْرته إلى اقتصادٍ ، فنِعْمَ ما هو ، ومن كانت فتْرته إلى المعاصي ، فأولئك هم الهالكون »[(١)] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « يا عبد الله ، لا تكُن مِثْل فلان ، كان يقوم الليل فَتَرَكَهُ »[(٢)] .

وعن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت لعبد الله بن قيس : « لا تَدَع قيام الليل ؛ فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه ، وكان إذا مَرِض أو كَسِل ، صلَّى قاعدًا »[(٣)] .

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيُّها الناس ، خذوا من الأعمال ما تُطيقون ، فإن الله لا يملُّ حتى تَملُّوا ، وإن أحبَّ الأعمال إلى الله ما دام وإن قلَّ »[(٤)] .

لكلٍّ إلى شأوِ العُلا حَرَكَاتُ ولكنْ عزيزٌ في الرِّجالِ ثباتُ

قال ابن القيم رحمه الله : « فتخلُّل الفَتَرات للسالكين أمرٌ لازمٌ لا بُدَّ منه ، فمن كانت فتْرتُه إلى مُقارَبةٍ وتسديدٍ ، ولم تُخرجه من فرضٍ ، ولم تُدخله في محرَّمٍ ، رُجيَ له أن يعود خيرًا مما كان ، مع أن العبادة المحبَّبة إلى الله سبحانه هي ما داوم العبد عليها »[(٥)] .

عن حنظلة الأسيدي - وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ - قال : لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قال : قلت : نافَقَ حنظلةُ . قال :

---

(١) رواه الطبراني في الكبير ، وأحمد بنحوه ، ولفظه : « تلك ضراوة الإسلام وشدَّته » . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٢٦٢) : ورجال أحمد ثقات .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) صحيح : رواه أحمد وأبو داود ، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود رقم (١١٨٠).

(٤) متفق عليه .

(٥) مدارج السالكين ٣/١٢٦ .

سبحان الله ! ما تقول ؟ قال : قلت : نكون عند رسول الله ﷺ يُذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنا رَأْي عين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ ، عافَسْنا الأزواج والأولاد والضيعات ؛ فَنَسينا كثيرًا . قال أبو بكر : فوالله إنَّا لَنلقى مثل هذا . فانطلقتُ أنا وأبو بكر حتى دخلْنا على رسول الله ﷺ ، ثم قال له مثلما قال لأبي بكر،فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذِّكْر ، لَصَافَحَتْكم الملائكة على فُرُشكم، وفي طُرُقكم، ولكن يا حنظلة: ساعة وساعة- ثلاث مرات-»[1].

فلا تجعلها يا أخي - أنت - ساعة وشهورًا ، بل ساعة وأعوامًا .

وفي الفتور حرمان الخير ، وتشبُّهٌ بالمنافقين ، فهم أشدُّ الناس كسلًا وفُتُورًا ونُفورًا ، قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين يُخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى يُراءون الناس ولا يَذْكُرون الله إلَّا قليلًا** ﴾ [النساء : ١٤٢] . وقد أثنى الله على الملائكة فقال : ﴿ **يُسبِّحون الليل والنهار لا يَفْتُرُون** ﴾ [الأنبياء : ٢٠] ، فاختر لنفسك وتقرَّب إلى أيِّ الفريقين :

أنت القتيلُ بكلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ ... فاخْتَرْ لنَفْسكَ في الهوى مَنْ تصطفي

وانظر إلى السادة ؛ فهذا ابن مسعود رضي الله عنه ، قال لمَّا بكى في مرض موته : إنما أبكي لأنه أصابني في حال فتْرةٍ ولم يُصبني في حالِ اجتهادٍ . وعنه رضي الله عنه قال : لا تُغالبوا هذا الليل فإنكم لن تُطيقوه ، فإذا نعسَ أحدُكم فَلْيَنْصرف إلى فراشه فإنه أسْلَمُ له[2] .

« ومن أبرز مظاهر الفتور ، عدمُ استشعار المسئولية المُلقاة على عاتقه ، والتساهُل والتهاون بالأمانة التي حمَّله الله إيَّاها ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **إنَّا عرضْنَا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقنَ**

---

(١) رواه مسلم .

(٢) مجمع الزوائد ٢/ ٢٦٠ .

منها وحملها الإنسان إنه كان ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . وقد تُحدِّثه ساعة، فلا تجد أن همَّ الدعوة يجري في عروقه أو يُؤَرِّق جفونه ويقضُّ مضجعه،.. تجد هذا الفاتِر أصبح يعيش بلا هدفٍ أو غاية سامية ، فهبطتِ اهتماماتُهُ وسفُلتْ غاياتُهُ ، وذلَّتْ مطامحُهُ ومآربُهُ ، فلا قضايا المسلمين تشغله ، ولا مصائبهم تُحزنه ، ولا شئونهم تعنيه ، وإن حدث شيءٌ من ذلك ؛ فعاطفة سرعان ما تَبْرُد وتَخْمَد ثم تزول »[١] .

فالعاقل إن كانت له فتْرة ، فلتكُن استراحة مقاتلٍ يعود بعدها إلى العطاء والجهاد ، فوقوفه في الظاهر ، وعدم استكمال نموه، هو في حقيقته انهيار ونزول إلى الأسفل ؛ قال الأستاذ الرافعي : « كل يوم لا أزداد فيه أنا زائد على هذا اليوم » . ومن صَحَّتْ بدايتُهُ صحت نهايتُهُ ، ومن يُقصرّ في البدايات يَذْهَل عن الغايات ، وفي تذكُّر أوقات البداية شحْذٌ للهمم وعونٌ على المُواصلة « قال الجُنيد : واشوقاه إلى أوقات البداية . يعني لذَّة أوقات البداية ، وجمع الهمَّة على الطلب والسير إلى الله ، فإنه كان مجموعَ الهمة على السَّير والطلب .

ومرَّ أبو بكر الصدِّيق – رضي الله عنه وأرضاه – على رجل وهو يبكي من خشية الله ، فقال : هكذا كنَّا حتى قستْ قلوبُنا »[٢] .

« قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه وأرضاه – إن لهذه القلوب إقبالًا وإدبارًا ؛ فإذا أقبلتْ فخُذوها بالنوافلِ ، وإن أدبرتْ فألزمُوها الفرائض .

وفي هذه الفترات والغيوم والحُجُب – التي تعرض للسالكين – مِن الحِكَم ما لا يعلم تفصيلهُ إلَّا الله ، وبها يتبيَّن الصادق من الكاذب ؛ فالكاذب : ينقلب على عَقِبَيْهِ ، ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه . والصادق : ينتظر الفرج ولا ييأس من روح الله ويُلقي نَفْسَهُ بالباب طريحًا ذليلًا مسكينًا مستكينًا ،

(١) الفتور ، للدكتور ناصر سليمان العمر صـ ٣٧ – دار الوطن .
(٢) مدارج السالكين بتصرف ١٢٥/٣ .

كالإناء الفارغ الذي لا شيءَ فيه ألبتة ، ينتظر أن يَضَع فيه مالكُ الإناء وصانِعُه ما يصلح له ، لا بسببٍ من العبد ، وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب ، لكن ليس هو منك ، بل هو الذي مَنّ عليك به ، وجرَّدك منك ، وأخلاك عنك ، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه . فإذا رأيته قد أقامك في هذا المقام ، فاعلم أنه يريد أن يرحمك ، ويملأ إناءك ، فإن وضعتَ القلب في غير هذا الموضع ، فاعلم أنه قلبٌ مُضيَّع ، فسَلْ ربَّه ومنْ هو بين أصابعه ، أن يَرُدَّه عليك ويجمع شملك به ، ولقد أحسن القائل :

إذا ما وضعتَ القلبَ في غير مَوْضعٍ ... بغير إناءٍ فهو قلبٌ مُضَيَّعُ»[1]

فالجدّ الجدّ ، فما تحتمل الطريق الفتور .

لا تمضوا في طريق اليأس ، ففي الكون آمال .. لا تتَّجِهُوا نحو الظلمات ؛ ففي الكون شموس .

بَقيت مَدَى الدَّهْرِ وعِلْمُك راسخٌ ... وخيرُكَ ممدودٌ وليلُك عامرُ
يَوَدُّ سناك البدرُ والبدر زاهر ... ويَقْفُو نداك البحرُ والبحرُ عامرُ
وهُنِّئت أيَّامًا توالى نشاطها ... كما تتوالى في العقودِ الجواهرُ

العاشر : الفناء في مُلاحظة حقوق الأهل والأولاد ، واستغراق الجهد في التوسُّع في تحقيق مطالبهم :

وذلك «نظرًا إلى قوله ﷺ : « وإن لأهلك عليك حقًّا » ، مع الغفلة عن قوله ﷺ : « وإن لربِّك عليك حقًّا » ، وقوله : « فأَعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ »[2] .

وقد عدّ القرآن الكريمُ الأهلَ والأولادَ أعداء للمؤمن إذا حالوا بينه وبين طاعة الله عز وجلّ، روى ابن جرير ، عن عطاء بن يسار ، في قوله تعالى :

(١) مدارج السالكين ١٢٦/٣ .
(٢) أصل الحديث رواه البخاري والترمذي والبيهقي .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحْذَرُوهـم ﴾ [التغابن : ١٤] . قال : نزلتْ في عوف بن مالك الأشجعي ، كان ذا أهل وولد ، وكان إذا أراد الغزو بَكَوْا إليه ورقّقوه، فقالوا: إلى مَنْ تَدَعُنَا؟ فيَرِقّ ويقيم، فنزلت: ﴿يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم﴾»[1] .

وقد ورد عن ابن عباس ، وقد سأله عنها رجل ، فقال : هؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا إلى رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعُوهم ، فلمَّا أتوْا رسول الله ﷺ رأَوُا الناس قد فقهوا في الدين ، فهَمُّوا أن يُعاقبوهم ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾. وهكذا رواه الترمذي بإسنادٍ آخر، وقال: حسن صحيح. وهكذا قال عكرمة مولى ابن عباس .

فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معًا : ﴿ إنّما أموالكم وأولادُكم فتنة ﴾ .. وهذه حقيقة عميقة في الحياة البشرية ... فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله كما أنهم قد يكونون دافعًا للتقصير في تبعات الإيمان ، اتِّقاءً للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله .. وقد يحتمل العَنَت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده، فيبخل ويجبُن ليوفِّر لهم الأمن والقرار أو المتاع أو المال ، فيكونون عدوًّا له ، لأنهم صدُّوه عن الخير وعوَّقُوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العُليا ، كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه ، ويعجز هو عن المُفاصَلَة بينه وبينهم والتجرُّد لله ، وهي كذلك صوَرٌ من العداوة متفاوتة الدرجات .

فَلْيَحْذَر الإنسان ، فإن هذه الوشائج الحبيبة قد تفعل ما يفعل العدوُّ المُكايد ... فإيَّاك والعداوة المسْتَسِرَّة في بعض الأبناء والأزواج ، وقد قال

---

(١) علو الهمة ، للشيخ محمد إسماعيل صـ ٣٤١ .

ﷺ: «الولد مَحْزَنَةٌ مَجْبَنَةٌ مجهَلَةٌ مَبْخَلَةٌ»(١). فأخبثُ الأمراض أخفاها، وشرُّ الأعداء أحلاها ... تحرص على تأمين مستقبل الأولاد ، وتخاف عليهم بعد وفاتك ، ولا تخاف على نفسك وهي الأحقُّ بذلك ؟! فيضيع عمركَ بين زوجةٍ وولدٍ ، بل لا تخاف على دينك .

نُرقِّعُ دُنيانا بتمزيقِ ديننا   فلا دينُنا يبقى ولا ما نُرقِّعُ

وصدق الرسول ﷺ حين قال لأبي الدرداء : « قد صدق سلمان ؛ إن لربِّك عليك حقًّا ، وإن لنَفْسك عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقًّا ، فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ »(٢) . وابدَأ بما بَدَأ به رسولُ الله ﷺ .

الحادي عشر : اتِّباع الهوى :

قال تعالى : ﴿ **أفرأيت من اتَّخذ إلهه هواه** ﴾ [الجاثية : ٢٣] . وقال تعالى : ﴿ **فاعلم أنَّما يتَّبعون أهواءهم ومن أضلُّ ممَّن اتَّبع هواهُ بغير هُدًى من الله** ﴾ [القصص : ٥٠] . وقال تعالى : ﴿ **ولا تتَّبع الهوى فيُضلَّك عن سبيل الله** ﴾ [ص : ٢٦] .

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ أفرأيتَهُ ؟! إنَّه كائنٌ عجيب يستحقُّ الفرجة والتعجيب ،وهو يَستحقُّ من الله أن يُضِلَّه ، فلا يتداركه برحمة الهُدى ، فما أبقى في قلبه مكانًا للهُدى وهو يتعبَّد هواه المريض .

قال قتادة : إذا هوى شيئًا ركبه . وقال الحسن : المنافقُ يعبد هواه ؛ لا يَهْوَى شيئًا إلَّا رَكِبَهُ .

ومن تذكَّر وصحا وتنبَّه ، وتخلَّص من ربقة الهوى ، فلن يضلَّ ؛ قال رسول الله ﷺ : « ثلاث مُنجيات : خشية الله في السرِّ والعلانية ، والعدل

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن الأسود بن خلف ، والطبراني في الكبير عن خولة بنت حكيم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٨٦) .

(٢) رواه البخاري .

في الرِّضا والغضب ، والقصْد في الفقر والغنى.وثلاث مُهلكات : هوًى مُتَّبع ، وشُحٌّ مُطاع ، وإعجابُ المرء بنفسه »[(١)] .

قال سليمان بن داود عليه السلام : الغالب لهواه أشدُّ من الذي يفتح المدينة وحده .

وقال مالك بن دينار من غلبَ شهوات الدنيا ، فذلك الذي يَفْرَقُ الشيطانُ من ظِلِّه . وقال : بئس العبدُ عبدٌ همّهُ هواهُ وبطنُهُ .

وقال صفوان بن سليم : ليأتينَّ على الناس زمان تكون همَّةُ أحدِهم فيه بطنه ، ودينُهُ هواهُ .

وقال بشر: اعلم أن البلاء كلَّه في هواك، والشفاء كلَّه في مخالفتك هواك.

وقال الفُضيل: من استحوذتْ عليه الشهواتُ انقطعتْ عنه موادُّ التوفيق.

وقال يحيى بن معاذ : أصحُّ الناس عزمًا الغالبُ لهواه . وقال: من أرضى الجوارح في اللَّذَّات ، فقد غرس لنفسه شجر الندامات .

وقال الحسن بن علي المطوّعي : صنمُ كلِّ إنسانٍ هواه ، فإذا كَسَره بالمخالفة استحقَّ اسم الهوى .

وقال أبو سليمان الداراني : أفضل الأعمال خلافُ هوى النَّفْس .

وقال السَّرِيُّ : لن يكمُل رجل حتى يُؤثر دينه على شهوته ، ولن يهلك حتى يُؤثر شهوته على دينه .

وقال آخر : الهوى مَلِك عَسُوف ، وسلطان ظالم ، دانت له القلوب ، وانقادت له النفوس .

وقال آخر : إن لكلِّ شيءٍ أباجاد ، وإن أباجاد الحكمة طرْد الهوى ووزْن الأعمال . وعن عيسى بن مريم – عليه السلام – لمَّا سُئل : كيف ندرك جماع

---

(١) حسن : رواه أبو الشيخ في « التوبيخ »، والطبراني في الأوسط عن أنس ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٨٠٢)، وصحيح الجامع رقم (٣٠٣٥) .

الصبر ؟ قال : اجعلوا عزمكم في الأمور كلِّها بين يدي هواكم ، ثم اتخذوا كتاب الله عز وجل إمامًا لكم في دينكم .

وقال الشاعر :

نونُ الهواية من الهوى مسروقةٌ ... فإذا هويتَ فقد لَقيتَ هَوَانَا

وقال آخر :

وكلُّ امرئ يدري مواقع رُشده ... ولكنَّه أعمى أسيرُ هَـوَاهُ
يُشير عليه الناصحون بجُهدهم ... فيأبى قبول النُّصْح وهو يراهُ
هوى نَفْسِهِ يُعميه عن قصْد رشده ... ويُبصر عن فَهْم عيوب سواهُ[1]

تالله إن جوهر معناك يتظلَّم من سوء فعْلك ؛ لأنك قد ألقيتَهُ في مـزابل الذُّلّ ، ماء حياتك في ساقية عمرك قد اغدودك ، فهو يسيل ضائعًا إلى مهاوي الهـوى ، وينسرب في أسراب البطالة ، فقد امتلأتْ به خَرِباتُ الجهل ومزابل التفريط ، وشربتْه أدغالُ الغفلات ، ويحك اردُدْهُ إلى مزارع التقوى ، لعلَّـه يُحدق نور حديقة ، إلى متى يمتدُّ ليلُ الغفلة ؟ متى تأتي تباشير الصباح ؟!

زمانٌ تقضَّى وعيشٌ مضىٰ ... بنَفْسيَ والله تلكَ العُهُـودُ
ألَا قُلْ لسُكَّانِ وادي الحَبيبِ ... هنيئًا لكمْ في الجِنَان الخلودُ
أفيضوا علينا من الماء فَيْضًا ... فنحن عَطاشى وأنتمْ ورودُ

حفلات الشكولاتة :

انظر إلى ما صنع الهوى بأهله في زمن يَحيض فيه الرجال :

يقول عماد ناصف في كتابه : « دعاني أحد الأصدقاء وهو نجْل مليونير معروف ولكنه مليونير صغير ، دعاني إلى حفلة أقامها أحد أصدقاء والده بمناسبة نجاح إحدى صفقاته التجارية ، وقال لي ونحن في الطريق : سترى مشهدًا ما

---

(١) ذم الهوى ، لابن الجوزي صـ ١٦ – ٣٥، تحقيق: مصطفى عبد الواحد– دار الكتب الإسلامية .

رأيتَه في عمرك ولا تتخيَّل أن تراه .. ووصلنا إلى الفيللا الهادئة .. دَخلتُ الفيللا وهي أنيقة غارقة في الفخامة ؛ التُّحف النادرة تتكاثر في كل مكان ، يكفي ثمن قطعة واحدة منها لشراء شقة كاملة ؛ حمام سباحة أنيق يتوسَّط الفيللا، موسيقى هادئة وأضواء حالمة وعطور باريسية نسائية مثيرة تعبق المكان ، رجال يرتدون ملابس أنيقة ونساء يرتدين ملابس تُظهر أكثر ممَّا تُخفي .. تناولتُ العشاء الفاخر في البوفيه المفتوح ، ولكنَّ صورة طفلة من البوسنة تبكي كنت قد طالعتُها في جريدة الصباح قفزتْ إلى ذاكرتي وأنا أشاهد هذه الأطعمة والفواكه والحلوى التي يكفي ثمنها لتسليح جيش البوسنة !!! صورة هذه الطفلة جعلتني أكف عن الأكل .. وأهمس في أذن صديقي : أين هذا المشهد ؟ فقال لي مداعبًا : اصبرْ .. وبعد أن تناول المدعوون الطعام ، بدءوا يشربون أنواعًا شهيرة من الخمور الفرنسية المعتَّقة ذات الماركات الشهيرة .. ثم خفِضتِ الأضواء ومعها الموسيقى .. وجاء صوت امرأة ناعم وهو يقول : والآن جاءت اللحظة المرتَقبة .. لحظة سعداء الحظ . وفجأة وجدتُ فتياتٍ ونساءً شبه عاريات فقط يرتدين ملابِسَهُنَّ الداخلية .. وعلى أجسادهنَّ سائل لَزِجٌ عرفتُ أنه شيكولاتة .. ثم توسَّطتْ كلُّ فتاة مجموعة من الرجال ، ثم بدأ رجال كل مجموعة يلحسون هذه الشيكولاتة من فوق أجساد الفتيات .. وأخذني صديقي من دهشتي القاتلة وقال لي : هذه هي المفاجأة التي يطالعها الكبار كلَّ يوم .. والرجل الذي يلتهم الشيكولاتة أولًا من فوق جسد الفتاة أو السيدة ينالها هذه الليلة ، فهو سعيد الحظِّ من بين مجموعته !!! لم أصدق نفسي وأنا أرى هذه المشاهد التي ألجمتني صدمة رؤيتها .. قلتُ : إنه شذوذ.قلت : إنها حالة عارضة أو عابرة .. ولكنِ اكتشفت أنها حفلات شهيرة يعرفها أصحاب المليارات والأثرياء الكبار تعرَف باسم حفلات الشيكولاته .. وهي متفشِّية بين هذه الأوساط ؛ في المقطَّم والمهندسين وكنج مريوط بالإسكندرية ومعظم القُرى

السياحية ، وبعض الأماكن التي لا يرتادها إلا الكبار .. »[(١)] .

وما تزالُ بقلبي ألفُ مُبكيةٍ   من رهْبةِ البوح تستحيي وتضطربُ

وتسوق إلينا جريدة « المساء » في ١٩٩٦/٨/٢٥ إعلانًا كبيرًا عن كتاب يُسمَّى « نساء العرب » وخلال هذا الإعلان تقرأ : « ٢٠٠ ألف امرأة عربية بملابس خليعة يجتمعن من مختلف الأقطار العربية في حديقة «هايد بارك» البريطانية؛ ليرويَ الرجالُ ظمأهنَّ وشَبَقَهُنَّ » .

وما تزالُ بقلبي ألفُ مبكيَةٍ   من رهْبةِ البوحِ تستحيي وتضطربُ

الثاني عشر : العِشْق :

«العِشْق من أغراض البطَّالين ، وأمراض الفارغين ، يَنْحَل الأشباح النحول ، فيُنْحِل الأرواح بالذُّبُول، فالدَّمْع هاطِل، والرأي عاطل، والحسَرَاتُ تتتابع، والزفرات تتتابع ، والأنفاس لا تمتدُّ ، والوسواس يشتدُّ ، والعيون طول الليل ساهرة ، والقلوب قد نسيت الآخرة .

وصاحبه يحصرُ هِمَّته في حصول معشوقه ، فَيُلهيه عن حُبِّ الله ورسوله ﴿ **بئس للظالمين بدلًا** ﴾ . إن عالي الهمَّة لا يستأسر للعشق الذي « يمنع القرار ، ويسلب المنام ، ويولِّه العقل ، ويُحدث الجنون ، وكم من عاشق أتلف في معشوقه ماله وعِرْضه ونَفْسَهُ ، وأتلف دينه ودنياه . والعشق يترك المِلكَ مملوكًا ، والسلطان عبدًا ، ترى الداخل فيه يتمنَّى منه الخلاص ، ولات حين مناص ، وكم أكبَّت فتنة العشق رؤوسًا على مناخرها في الجحيم ، وأسلمتْهم إلى مقاساة العذاب الأليم ، وجرَّعتهم بين أطباق النار ، كؤوس الحميم »[(٢)] .

ولو فكَّر الإنسان في عيوب المحبوب ، وأنه أنذل من أن تُبذل في مثله

---

(١) زمن فيفي عبده ، لعماد ناصف صـ ٢٩- ٣٢، المركز العربي للصحافة والنشر والإعلام .

(٢) علو الهِمَّة صـ ٣٤٠- ٣٤١ ، روضة المُحبين لابن القيم صـ ١٨٢ - ١٩٠ .

القلوب ، ما هو إلا جسد مبنيٌّ من صلصال ، إن قلت له : صل ؛ صال .

قال المتنبي :

لو فكَّرَ العاشق في منتهى حُسْنِ الذي يُسْبِيهِ لم يسبهِ

وأنجع من هذا : زجْرُ الهِمَّة الأبيَّة عن المقامات الدنيَّة ، مع تفويتها المراتب العليَّة ، وما أحسن قول أبي فراس ، وقد أحسن فراس :

لقد ضلَّ مَنْ تحوي هواه خريدةٌ وقد ذلَّ مَنْ تقضي عليه كعابُ

ثم أين الأَنَفَة من الذلِّ ، والحبّ على الحقيقة كالغُلِّ .

قال أعرابي : ما أشدَّ تحويل الرأي عند الهوى ، هو الهوان وإنما غُلط باسمه فاشتقَّ له من جنسه ، وإنما يعرف ما أقول مَنْ أبكَتْه المنازل والطُّلول .

يا هذا ، قسْ لقمة آدم وعفاف يوسف على أمرك .

وأيُّ ذُلٍّ ورقٍّ أنكى من ذُلِّ رجل يقول لمعشوقته :

أتاني منك سبُّك لي فسبِّي أليس جرى بفيك اسمى فحسبي

هل هذا يُعدُّ من الرجال .. لا والله .. أو قول الآخر :

لو كان لي قلبان عشتُ بواحدٍ وتركتُ قلبًا في هواكِ يُعذَّبُ

وقول الآخر :

ألستَ وعدتني يا قلبُ أني إذا ما بنتُ عن ليلى تتوبُ

فها أنا تائبٌ عن حُبِّ ليلى فما لك كلما ذُكرتْ تذوبُ

وانظر إلى العشق كيف يجعل من رجل أشقى الآخرين :

فعن عبيد الله أنَّ النبي ﷺ قال لعليٍّ : « يا علي ، مَنْ أشقى الأوَّلين والآخرين ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أشقى الأوَّلين عاقرُ الناقة ، وأشقى الآخرين الذي يطعنك يا علي . وأشار إلى حيث يطعن »[1] .

---

(١) صحيح : أخرجه ابن سعد في الطبقات ، وله شاهد عند الطبراني في المعجم الكبير والحاكم ، وأحمد والبزار ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٠٨٨) .

فما قتل عبد الرحمن بن ملجم علي بن أبي طالب إلا بسبب عشقه لقطام ، وهي امرأة من تيم الرباب ، كانت ترى رأي الخوارج ، فلما أبصر بها عبد الرحمن عشقها فخطبها ، فقالت : لا أتزوَّجُك إلا على ثلاثة آلاف ، وقتْل علي بن أبي طالب . فتزوَّجها على ذلك ، وقتل عليًّا رضي الله عنه .

ولقد جرت على العشاق محنٌ لا تُطاق ؛ كان مجنون ليلى لا يعرف نهارًا ولا ليلًا ، غلب على قلبه الوسواس ، فهرب إلى الوحش من الناس ، فهو القائل :

إني لَأجلسُ في النادي أُحدِّثُهم ... فأستفيقُ وقد غالتني الغولُ
يهوى بقلبي حديث النفس نحوكُمُ ... حتى يقول جليسي أنت مخبولُ

ومرَّ المجنون على زوجها وهو يصطلي بجمر ، فقال له : يا عمرو .

بربِّك هل ضممت إليك ليلى ... قُبيل الصُّبحِ أو قبَّلتَ فاها
وهل رفَّتْ عليك قرونُ ليلى ... رفيفَ الأقحوانة في نداها

فقال له : نعم . فقبض من الجمر الذي لديه بيديه ، فما رماه حتى سقط لحمُ كفَّيْه ، وخرَّ مغشيًّا عليه . وكان إذا رأى الجبل قال : ليلى ، وإذا رأى البحر قال : ليلى.ولقد قدَّم ذات يوم طعامًا لذئب ، ولما عوتب : لِمَ منحتَ الذئب نيلا ؟ فقال : سامحوني ، فإنَّ عيني رأتْه مرَّةً في حيٍّ ليلى . وهو الذي تقع ظبية في الأسر ، فينظر إلى الظبية طويلًا ، ويُطلق سراحها ، ويقول :

أيا شِبْه ليلى لن تُراعي فإنني ... لكِ اليومَ من بين الوحوش صديقُ
فما أنا إذ أشبهتها ثم لم تؤُبْ ... سليمًا عليها في الحياة شفيقُ
ففِرَّ فقد أطلقتُ عنك لحُبِّها ... فأنت لليلى ما حييتُ طليقُ

ويبكي . ولمَّا يُعاتَب يقول :

أتلحى مُحبًّا هائم القلبِ أن رأى ... شبيهًا لمن يهواه في الحبل موثقَا
فلمَّا دنا منه تذكَّر شجْوَهُ ... وذكَّره مَن قد نأى فتشوَّقا

وهو القائل :

تعلَّقَ رُوحي رُوحَها قبل خلقها ... ومن بعد ما كنا نطافى وفي المهدِ
وإني لمُشتاقٌ إلى ريح جيبها ... كما اشتاق إدريس إلى جنة الخلد

وهو القائل :

ولا سُمِّيتْ عندي لها من سَمية ... من الناس إلَّا بلَّ دمعي ردائيا
وددتُ على طيبِ الحياةِ لو انه ... يُزاد لليلى عمرها من حياتيا
على مثل ليلى يقتلُ المرءُ نَفْسَهُ ... وإن كنتُ من ليلى على اليأس طاويا

وهو القائل :

عجبتُ لعروة العُذري أمسى ... أحاديثًا لقومٍ بعدَ قومِ
وعروةُ مات يومًا مستريحًا ... وهأنذا أموتُ بكلِّ يومِ

ويقول :

إذا صليْتُ يَمَّمْتُ نحوها ... بوجهي وإن كان المُصَلَّى ورائيا

وهو القائل :

وإني لأستغشي وما بي نعسةٌ ... لعلَّ خيالًا منك يلقى خياليا
إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا ... كفى لمطايانا بذكراك هاديا

ويقول :

وإني لمجنونٌ بليلى موكَّلٌ ... ولستُ عزُوفًا عن هواها ولا جَلدا
إذا ذُكِرتْ ليلى بكيتُ صبابةً ... لِتذْكارها حتى يَبُلَّ البكا الخدَّا

أمَّا جميل بُثينة ، فيقول :

يقولون جاهدْ يا جميلُ بغزوةٍ ... وأيُّ جهادٍ غيرهنَّ أريدُ

وهو القائل :

أُصلي فأبكي في الصلاة لِذِكْرِها ... لي الويلُ ممَّا يكتبُ الملكانِ

وأمَّا العباس بن الأحنف فهو القائل :

وضعتُ خدِّي لأدنى مَنْ يُطيف بكم ... حتى احتُقِرتُ وما مثْلي بمُحتَقر

وهو القائل :

« سَيِّدتي سَيِّدتي إنــه ليس لما بالعاشقين اكتتامْ
سيّدتــي سيّدتــي إننــي أعجزُ عن حَمْل البلايا العظامْ
سيّدتــي سيّدتــي فاسمعــي دعوة ميتٍ عاشقٍ مُسْتَهَـامْ

ومرّ في أبيات كثيرة ؛ أوّلُ كلِّ بيتٍ : سيّدتي سيّدتي ، فقال له أبو نواس : لقد خضعت لهذه المرأة خضوعًا ظننتُ معه أنك تموت قبل تمام هذه القصيدة[1].

وعروة بن حزام وهو القائل :

بنا من جوى الأحزان في الصدر لَوْعةٌ تكادُ لها نَفْسُ الشَّفِيق تذوبُ
وإني لتَعْروني لذِكْراكِ هِـزَّةٌ لها بين جِلْدي والعظامِ دبيب

هـذا الذي قتله حبُّ ابنة عمته عفراء، فما زال يَنْحَل ويذوب حتى مات ... ومات وهو يُردِّد الشعر فيها :

جعلتُ لعرَّافِ اليمامةِ حُكْمَهُ وعرَّافِ نجد إن هُما شَفَيَاني
فما تركا من رُقْيَةٍ يَعْلَمانِها ولا سَلْـوةٍ إلَّا بها سَقَيَـاني
فقالا: شفاك الله والله ما لنا بما حملتْ منك الضلوعُ يَدَانِ

فكيف بِدَنِّي همّةٍ يُحبُّ القَيْنات والمُمثِّلات والراقصات ، وكم أسَرْنَ من عِلْية القوم :

ألا يا عاشقَ القَيْناتِ جَهْلا أردتَ بأن تكون أبا البُغُولِ

والساقطات هؤلاء يصدُق فيهنَّ قول القائل :

فيا مَنْ ليس يُقْنِعُها مُحِبٌّ ولا أَلْفَا مُحِبٍّ كلَّ عـامِ
أظنُّكِ من بقيَّةِ قومِ موسى فهم لا يصبرون على طعامِ
أتيتُ فؤادهـا أشكـو إليـه فلم أخْلُصْ إليه من الزِّحامِ

---

(١) ذم الهوى صـ ٤٢٠ .

وقول القائل :

الخانُ يعجزُ عن قومٍ إذا كثُروا لكنَّ قلْبك مثْل الخانِ أضعافُ
في كلِّ يومٍ له خمسون يعشقهم في كلِّ شهرٍ له ألفٌ وآلافُ(١)

فإن كان هذا حال رؤوس القوم مع القيان والساقطات ، ممَّا يزكُم سيرتُه الأنوف .. فهل تقوم لهذه الأُمَّة قائمة وكبارُها يُقبِّلن أقدام الساقطات ؟! .

ممّا أضرَّ بأهلِ العِشْقِ أنَّهمُ هَووا وما عرفوا الدنيا ولا فَطَنُوا
تَفْنَى عيونهم دَمْعًا وأنفُسُهمْ في إثْر كلِّ قبيحٍ وجهُهُ حَسَنُ
تَحَمَّلُوا حَمَلَتْكم كُلُّ ناجِيَةٍ فكلُّ بَيْنٍ عليَّ اليومَ مُؤْتَمَنُ
ما في هَوَادِجِكم من مُهْجتي عِوَضٌ إنْ متُّ شوقًا ولا فيها لها ثمنُ
سَهِرتُ بعد رحيلي وَحْشَةً لكُمُ ثم استمرَّ مَريري وارْعَوَى الوَسَنُ

يا هذا أتبيت من العَزْم في شعار أُوَيْس ، فإذا أصبحت أخذتَ طريق قيس ؟! تنقُض عُرَى العزايم عُرْوَةً عروة ، وكلّ صريعٍ في الهوى رفيقُ عروة ، كم تدفن كثيرًا من الأعزَّة ، وما يرجع كثيرٌ عن حُبِّ عَزَّة .

جنونك مجنونٌ ولستَ بواجِدٍ طبيبًا يُداوي مِن جنونِ جنونِ

«والعشق الشَّهويُّ عبوديةٌ على عبوديةٍ، وذلَّة على ذلَّةٍ ، والبهيمة أحسنُ حالًا ممَّن ابتُلي به؛ لأنها إذا أسقطتِ الأذى عن نفسها بالسِّفادِ، سكنتْ فصارتْ إلى الراحة، وهو لم يرض بذلك حتى استعان بالعقل في خدمة الشهوة واستجلابها، ومن أثارَ شهوتَهُ فهو كمن يُثير بهائم عادية وسباعًا ضارية .

قيل لبعض الحكماء : ما العشق ؟ قال : جنونٌ لا يُؤْجَر صاحبُهُ عليه . وسُئل آخر عنه فقال : نَفْسٌ فارغة لا هِمَّة لها . وقال غيره : هو سوءُ اختيار صادَفَ نَفْسًا فارغةً »(٢) .

---

(١) الموشى للوشاء صـ ١٧٠ دار صادر .

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني صـ ٣١٦- ٣١٧ طبع دار الوفاء .

الثالث عشر : التعلق بغير الله :

ليس أضرّ على العبد من ذلك ، ولا أقْطع له عن مصالحه وسعادته منه ؛ فإنه إذا تعلَّق بغير الله ، وَكَلَهُ الله إلى ما تعلَّق به ، وخَذَلَه من جهة ما تعلَّق به ، وفاتهُ تحصيلُ مقصودهِ من الله عز وجل ، بتعلُّقه بغيره ، والتفاتِهِ إلى سواه ، فلا على نصيبه من الله حَصَل ، ولا إلى ما أمَّله ممن تعلَّق به وَصَل .

فأعظم الناس خذْلانًا من تعلَّق بغير الله ؛ فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظمُ ممَّا حصل له ممَّن تعلَّق به ، وهو معرَّض للزوال والفوات . ومثل المتعلّق بغير الله كمثل المستظِلّ من الحرِّ والبرد ببيت العنكبوت ، أوْهَن البيوت[1] .

الرابع عشر : تعلق الهمة بالأكل :

لمَّا قال الحطيئةُ للزِّبرقان بن بدر حين ذَمَّه :

دَعِ المكارمَ لا ترْحلْ لبُغْيتها ... واقْعدْ فإنَّك أنْتَ الطَّاعمُ الكاسِي

ولمَّا سأل عمر بن الخطاب حسان بن ثابت : أهجاه ؟ قال : لا أقول هجاه بل سَلحَ عليه . أي بال عليه .

وعالي الهمَّة رجل عظَّمه صِغَرُ الدنيا في عينيْهِ ، فيكون خارجًا من سلطان بطنِهِ فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يُكثِر إذا وجَد ، وكبير الهمَّة لا يرضَى بالهمم الحيوانيَّة ، فلا يصير عَبْدَ عاريةِ بطنِهِ وفرجِهِ .

وعالي الهمَّة يتناول الأكل تناوُلَ مضطرٍّ عالمٍ بقذارة مآله ، ويتحقَّق أن نسبة الإنسان إلى الثمار والفواكه ، نِسْبة الجُعْل إلى الرَّوْث ، فلو نطقَ الشجرُ لَقال لك : أنت تأكُلُ فُضالَتي كما يأكل الجعلُ فُضالتك ، والخنزير إذا استطاب لُفاظة الإنسان فما هو إلا كاسْتِطابَتنا لُفاظة الشجر . فألق يا إنسان عن مَناكبك الدِّثار ، وجَلِّ البصيرةَ واستعمل الاعتبار ، تجدْ صدْق ما قُلتُ .

---

(١) مدارج السالكين ١/٤٥٧- ٤٥٨ .

وامتلاء البطن مُقوٍّ للشهوة ، وقوَّة الشهوة داعية للهوى ، والهوى أعظم جند الشيطان ، ومن آثر هواه وانتشر في بدنه ؛ حلَّ في كلِّ عضو منه جزء بقدر وسعه له ، فكثُرَ جنود الشيطان ، والشيطان إذا تسلَّط على الإنسان ، سباه من ربِّه وصرفه عن بابه .

عن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلاتٍ يُقمن صُلْبه ، فإن كان لا محالةَ ؛ فثُلثٌ لطعامه ، وثُلثٌ لشرابه ، وثُلثٌ لنَفَسه »(١) .

ودنيء الهِمَّة وسافلها الأكول ، ذمَّه ربُّه ؛ فقال تعالى : ﴿ **ذرْهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلههمُ الأملُ فسوف يعلمون** ﴾ [الحجر: ٣]. وقال تعالى: ﴿**والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم**﴾ [محمد: ١٢].

نصيب سافل الهمَّة متاعٌ وأكْلٍ كما تأكل الأنعام.. أكْلٌ حيوانيٌّ شَرِهٌ ، ومتاعٌ حيوانيٌّ غليظ .. حيوانية تتحقَّق في المتاع والأكل ، تحسب الحياة كلَّها مائدة طعام ، وفرصة متاع .

ومن الدلالة على خِسَّة كثرة الأكل ؛ ادِّعاء العامَّة الاستغناء بالقليل ، وقلَّة وجود المفتخر بكثرة الأكل ، وقد قيل : مَنْ كانت هِمَّتُه ما يدخل بطنَه ويأكله ، فقيمته ما يُخرجه .

فإنك مهما تُعطِ بطنَك سُؤْلَهُ وفرجَك نالا منتهى الذمِّ أجمعا(٢)

« حَسْبُ ابنِ آدم لُقيْماتٍ يُقمنَ صُلْبَهُ .. »، وقد قال ﷺ : « المؤمن

---

(١) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وابن المبارك وابن سعد وابن عساكر ، وصححه الألباني في الإرواء رقم (٢٠٤٣)، والسلسلة الصحيحة (٢٢٦٥)، وصحيح الجامع (٥٥٥٠) .

(٢) ديوان حاتم الطائي - دار صادر - بيروت صـ ٦٨ .

يأكل في مِعًى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء »[١] .

فنبَّه في الخبرين أنه لا يُستحبُّ للإنسان إلا الأكل في سُبع بطنه ، وهو ما ذكره من اللُّقيْمات، وذلك دون عشر لُقيمات؛ لأن جمع القِلَّة بالألف والتاء لِمَا دون العشرة ، ثم رخَّص لمن غلب عليه النَّهَمُ أن يبلغ إلى ثُلُث بطنه ، وإن جاز له أن يشبع أحيانًا .

يا هذا ، كيف تُطيق السهر مع الشبع ؟ كيف تُزاحم أهل العزائم بمناكب الكسل !

إنَّ للحربِ رجالًا خُلقوا ورجالًا لقصعةٍ وثريدِ

يا غافل القلب ، ما هذا الكلام لك ؟ ليس على الخراب خراج ، لا يعرف البَرَّ إلا سائح ، ولا البحر إلا سابح ، ولا الزِّناد إلا قادح .

لمَّا عشقت اللبلابة الشجر تقلقلت طلبًا لاعتناق الرُّوس ، فقيل لها : مع الكثافة لا يُمكن ؛ فرضيتْ بالنحُول .

«سُئل سهلٌ التستري: الرجل يأكل في اليوم أكلةً؟ قال: أكْلُ الصِّدِّيقين. قال له : فأكلتيْن ؟ قال : أكل المؤمنين . قيل له : فثلاث أكلات ؟ فقال : قل لأهله يبنوا له معْلفًا »[٢] .

ولله درُّ القائل :

إذا المرء لم يتركْ طعامًا يحبُّهُ ولم يَنْهَ قلبًا غاويًا حيثُ يمَّما
قضىٰ وَطَرًا منهُ وغادَر سُبَّةً إذا ذُكرتْ أمثالها تملأ الفما[٣]

الخامس عشر : همَّة لا تتعدَّى اللِّباسَ والمظهر :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تعِسَ عبدُ

---

(١) رواه البخاري وأحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر، وأحمد ومسلم عن جابر، وأحمد ومسلم والبخاري عن أبي هريرة ، ومسلم وابن ماجه عن أبي موسى .

(٢) الفوائد لابن القيم صـ ٢٣٦ .

(٣) ذمّ الهوى صـ ٣٣٠ .

الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ؛ إن أعطي رضيَ ، وإنْ لم يُعطَ سخِط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش . طوبى لعبدٍ آخِذ بعنان فرَسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرَّة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في السَّاقَة كان في الساقة ، إن استأذن لم يُؤْذَن له ، وإن شفع لم يُشفع »[١] .

فانظر كيف جعله رسول الله ﷺ عبدًا للخميصة ؟! هل بعد هذا دناءة في همته ؟!

يا لاحِقًا بآبائه وأُمَّهاته، لا بدَّ أن يصير الطَّلا إلى مَهَاتِه، يا من جلَّ هِمَّته شغل خياطِه وطُهَاتِه ، يغلبه الهوى وهو غالب دُهَاتِه ، إن كان لك عذر في تفريطك فهاتِه.

يا هذا ، أفضل الملبوس : الحرير ، وهو صُنْع دودةٍ ، فبِمَ تفتخر ؟!

قال طاوس لعمر بن عبد العزيز : ما هذه مشية مَن في بطنه خراء !! إذْ رآه يتبختر ، وكان ذلك قبل خلافته .

هل نسي الذي ما تتجاوز همته ثيابه والمظهر ، هل نسي الرجيعَ في أمعائه ، والبول في مثانته ، والمخاط في أنفه ، والبزاقَ في فيه ، والوسخ في أذنيه ، والدم في عروقه ،والصديد تحت بشرته ، والصنان تحت إبطه؟! ولينظرِ الإنسان إلى أصله حتى يَفيق مِن سَكْرته .

السادس عشر : تعلُّقُ الهمَّة بالمَال والجاه :

الهمة السافلة إذا تعلَّقت بتمكين السلطان وولايته ، فهي مبنيَّة على أمر أشدّ غلَيانًا من القِدْر في تقلُّبه ، فإن تغيَّر كان أذلّ الخلْق . وهذه الهمة المتعلِّقة بالمال والجاه ، لو رأى صاحبها أن في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمُّل؛ لَأَفاق من سكرته. فأفٍّ لشَرفٍ يسبقك به اليهودي!! وأفٍّ لشرفٍ

---

(١) رواه البخاري وابن ماجه .

يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلًا مفلِسًا !!

أما ترى إلى فرعون وقوله : ﴿ **أليس لي ملْك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي....**﴾ [الزخرف : ٥١] ؟! ولسان الحقيقة يقول : يا هذا ، حمارك ينهق من كفٍّ شَعير، ما تساوي مصرُ مِن جَناح البعوضة،ورسول الله ﷺ يقول: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرًا منها شربة ماء»؟![1] .

والمال أخسُّ القُنْيات ، والمال خادم لغيره من القُنْيات ، وإن كان كثير من الناس لجهلهم يجعلون جاهَهم وأبدانهم ونفوسهم خدَمًا للمال وعبيدًا له ، وهم الذين ذمَّهم النبي ﷺ في قوله: «تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم». وقال تعالى : ﴿ **أيحسبون أنما نُمدُّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون** ﴾ [المؤمنون : ٥٥-٥٦] .

صاحب الهمة الدنية التي لا تتجاوز همته المال ؛ لئيم صغير النفس ، يُؤْتَى المالَ فتسيطر نفسه به ، حتى ما يُطيق نفسه !! يروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة، القيمة التي تهون أمامها جميعُ القيم وجميع الأقدار ؛ أقدار الناس ، وأقدار المعاني ، وأقدار الحقائق !! وأنه وقد ملك المال فقد ملك كراماتِ الناس وأقدارهم بلا حساب !! كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كلِّ شيء ، لا يعجز عن فعْل شيء ، ومن ثَمَّ ينطلق في هَوَس بهذا المال يَعدُّه ويَستلذّ تَعداده ، وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم ، فما أهبطه وألأَمَه حين يخلو من المروءة ويتعرَّى من الإيمان ؟!

وقبيح بالحُرِّ المترشِّح لنيْل الفضائل - وهو يأمل الوصول إلى الغنىٰ الأكبر - أن يتهافت على المال ويتناول أكثر ممَّا يحتاج إليه ، ويجعل نفسه أقلَّ رقيق له وأخسَّه،فرِقُّ ذوي الأطماع رقٌّ مُخلَّدٌ ، يكون معتكِفًا فيه على حجَر يعبده ، كما قال تعالى : ﴿ **يعكفون على أصنامٍ لهم** ﴾ [الأعراف : ١٣٨] .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي والضياء عن سهل بن سعد .

قال رسول الله ﷺ : « يقول ابن آدم : مالي ، مالي . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيت، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدَّقتَ فأمضيت؟»[١] .

وقال ﷺ : « يقول العبد : مالي ، مالي . وإن له من ماله ثلاثًا : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأقنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس »[٢] .

يا عُبيْدَ فِلْسِه يا عدوَّ نفسِه ، تُعانِقُ الدنيا بيد الحِرص عِناقَ اللام للألف ، وتُنزِل الدرهمَ من القلب ، منزلةَ البرْءِ من الدَّنِف ؟!

يا جامِعًا مانِعًا والدهرُ يرْمُقُهُ ... مقدِّرًا أيّ بابٍ عنهُ يُغلقُهُ
جمعتَ مالًا فُقلْ لي : هل جمعتَ لَهُ ... يا غافلَ اللُّبِّ أيَّامًا تُفرِّقُهُ ؟
المالُ عندك مخزونٌ لوارثِهِ ... ما المالُ مالُك إلا يومَ تُنفِقُهُ

في كل زمان ومكان تستهوي زينة المال والجاه بعض القلوب ، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ، ولا يتطلَّعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها ، فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته ؟ ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرَض الحياة ؟ من مال أو منصب أو جاه . ومن ثَمَّ تتهافت نفوسهم وتتهاوى كما يتهافت الذباب على الحَلوىٰ ويتهاوى ، ويَسيل لُعابُهم طَمَعًا فيما في أيدي المحظوظين من متاع ، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدّوه ، ولا إلى الطريق الدَّنِس الذي خاضوه ، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها !!.

فأما عُلاةُ الهمَّة المتصلون بالله ؛ فلهم ميزانٌ آخر يقيّم الحياة ، وفي نفوسهم قِيَمٌ أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع ، وهم أعلى نفسًا ، وأكبر قلبًا من أن يتهاوَوْا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعًا ، ولهم من استعلائهم بالله عاصِمٌ من التخاذُل أمام جاه العباد .

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي عن عبد الله بن الشخير .
(٢) رواه أحمد ، ومسلم عن أبي هريرة .

ولله درُّ شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال للسلطان : مُلْكُك ومُلك مَلِك المغلّ ، لا يساوي عندي فِلسًا .

يا دنيء الهمة، أين قارون؟ أما هلكتْ في الزمان جديسُه وطَسْمُه؟![1]. ولقد ذهب مَن كان وكان اسمُه ، فلا عينه تُرىٰ ولا رسمُه ، ولا جوهره يُحسُّ ولا جسمُه ، تبدَّد .. والله .. بالممات نظمُه ، ولحِق بالرفات عظمُه !!

السابع عشر : حبُّ الرَّاحة وكثْرة النَّوْم :

وكثرة النوم تميت القلب ، وتثقل البدن وتضيع الوقت ، وتورث كثرة الغفلة والكسل .

يا مشغولًا باللـذَّات الفانيات ، متى تستعدُّ لمُلِمَّاتِ الممـات ؟! متى تستدرك هفوات الفوات ؟! أتطمع مع حبِّ الوسادات في لِحاق السادات ؟! وأنىٰ تجعلك مثلهم ؟ أنَّى وهيهات ؟!

لا يطمعَنَّ البطَّال في منازل الأبطال . إن لذَّة الراحة لا تُتَناول بالراحة . من زرع حصَد ، ومَن جَدَّ وجَد .

وكيف يُنالُ المجدُ والجسمُ وادِعٌ وكيف يُحازُ الحمدُ والحمد وافِرُ

رحلتْ رُفْقَةُ ﴿ **تتجافى** ﴾، ومطرودُ النوم في حَبْس الرقاد ، فما فكَّ عنه السجَّان قَيْدَ الكَرَىٰ حتى استقرَّ بالقوم المنزِل ، فقام يتلمَّح الآثار بباب الكوفة ، والأحباب قد وصلوا إلى الكعبة .

أفٍّ لك ، أما تأنف من بوْل الشيطان في أُذنيْك ؟! كيف ترضىٰ بأن يكون الشيطان حاديك: « عليك ليلٌ طويل فارقدْ». «ذاك رجلٌ بالَ الشيطان في أذنيْه » . إنه – والله – بوْل ثقيل !!

يا دنيء الهمة ، رياح الأسحار لا يشمُّها مزكومٌ غفلةً ، ولو شممت نسيم الأسحار لاستفاق منك قلبك المخمور .

---

(١) جديس وطَسْم : اسما قبيلتين انقرضوا قديمًا .

يا ثقيل النوم، يا بطيء اليقظة، أما يُنبِّهك الأذان؟! أمَا تُزعجك الحُداة؟! أترى نخاطب عَجمًا ، أو نكلم صُمًّا ؟! لا تكنْ دني الهمَّة كرجل :

عكفتْ عليهِ المُخزياتُ فما لهُ   متأخَّرٌ عنها ولا مُتزحْـزَحُ
وإذا رأى الشيطانُ غرَّة وجهِهِ   حيًّا وقال: فديتُ مَن لا يفلحُ

خلَتْ والله الديار وباد القوم ، وارتحل أرباب السهر وبقي أهل النوم، واستبدل الزمان آكِلي الشهواتِ بأهل الصوْم !!

يا هذا ، لستَ والله منهم .. سل الليلَ عنِ الأحباب ؛ فعنده الخبر .

أتـرى حبَّكـمْ لمَّـا سرَى   أخَذَ النومَ وأعطى السهَـرَا
حبَّـذا فيكَ حـديثٌ باطِـنٌ   فطِـنَ الدمـعُ بـهِ فانتشـرا

قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالدُّلْجة؛ فإن الأرض تُطوى بالليل»[1].

وقال رسول الله ﷺ : « مَن خَاف أدْلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سِلْعَةَ الله غالية ، ألا إنَّ سلعة الله الجنة »[2] .

يا كثيرَ النوم .. يا بعيدًا عن القوم .. تنبَّه ، أما تسمع الحادي ينادي في الدياجي : « عند الصباح يحمَدُ القومُ السُّرى » .

الثامن عشر : الانحراف عن عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة :

عدَّها من الأسباب شيخنا الذي أخرجنا بفضل الله ورحمته وربَّانا على الطاعة ، وأدخلنا في عداد الجماعة – الشيخ محمد إسماعيل – فيقول : « لا سيما مسألة القضاء والقدر ، وعدم تحقيق التوكُّل على الله سبحانه وتعالى ، وبدعة

(١) صحيح : رواه أبو داود ، والحاكم ، والبيهقي عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٩٤٣)، والصحيحة رقم (٦٨١) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي ، والحاكم عن أبي هريرة ، وعبد بن حميد ، والعقيلي في الضعفاء ، وأبو نعيم والقضاعي ، وأخرجه الحاكم عن أُبيّ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٠٩٨) .

الإرجاء » .

«وفي باب التوكل يكثر اشتباه الدعاوى فيه بالحقائق، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة » .

يقول ابن القيم : « وكثيرًا ما يشتبه في هذا الباب ، المحمود الكامل بالمذموم الناقص ؛ فيشتبه التفويض بالإضاعة ، فيضيِّع العبد حظه ؛ ظنًّا منه أن ذلك تفويض وتوكُّل، وإنما هو تضييعٌ لا تفويض . فالتضييع في حق الله ، والتفويض في حقك .

ومنه : اشتباه التوكل بالراحة ، وإلقاء حمْل الكَلِّ ، فيظن صاحبه أنه متوكل ، وإنما هو عامل على عدم الراحة .

وعلامة ذلك أن المتوكِّل مجتهدٌ في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد، مستريحٌ من غيرها لتعبه بها . والعامل على الراحة آخذٌ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة وتسقط به مطالبة الشرع ؛ فهذا لون ، وهذا لون .

ومنه : اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها ؛ فخلعها توحيد ، وتعطيلها إلحاد وزندقة . فخلْعُها : عدم اعتماد القلب عليها ، ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها . وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح .

ومنه : اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز . والفرق بينهما : أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به ، ووثق بالله في طلوع ثمرته ، وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة وباذر الأرض ، والمغتر العاجز قد فرَّط فيما أُمِر به ، وزعم أنه واثق بالله ، والثقة إنما تصح بعد بذْل المجهود .

ومنه : اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه بالطمأنينة إلى المعلوم وسكون القلب إليه ، ولا يميِّز بينهما إلا صاحب البصيرة ؛ كما يُذكر عن أبي سليمان الداراني : أنه رأى رجلا بمكة لا يتناول شيئًا إلا شربة من ماء زمزم ، فمضى عليه أيام . فقال له أبو سليمان يومًا : أرأيت لو غارت زمزم ، أي شيء كنت تشرب ؟ فقام وقبَّل رأسه ، وقال : جزاك الله خيرًا ، حيث

أرشدتني ، فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام ثم تركه ومضى »[١] .

«أما الفهم للتوكُّل وترك الأسباب جملة والتواكل ، فهذا أبعد شيءٍ عن حال أولي التوكل حقًّا من الصحابة وسلف الأمة ، وأكمل المتوكِّلين بعدهم هو من اشتمَّ رائحةَ توكُّلهم من مسيرة بعيدة ، أو لِحقَ أثرًا من غبارهم ؛ فحالُ النبي ﷺ وحالُ أصحابه مَحَكُّ الأحوال وميزانها ، بها يُعْلم صحيحها من سقيمها . فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم ؛ فإن توكُّلَهم كان في فتْح بصائر القلوب ، وأن يُعبد الله في جميع البلاد ، وإن يُوحِّده جميعُ العباد ، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد، فملئوا بذلك التوكُّل القلوب هدى وإيمانًا ، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان، وهبَّت رياحُ روح نسمات التوكُّل على قلوب أتباعهم فملأتها يقينًا وإيمانًا . فكانت هِمم الصحابة رضي الله عنهم أعلى وأجل من أن يصرف أحدُهم قوة توكُّله واعتماده على الله في شيءٍ ممَّا يحصُل بأدنى حيلة وسعي ، فيجعله نِصب عينيه ، ويحمل عليه قوى توكُّله »[٢] .

« ولما انتشرت فكرة الجبر بين المسلمين في العصور المتأخرة ، عن طريق الطرق الزائغة والمتصوفة ؛ أضرَّت إضرارًا عظيمًا سيما مع ترْك الأسباب ، قال بعضهم :

جرى قلمُ القضاءِ بما يكونُ فسيّان التحرُّكُ والسكـونُ
جنونٌ منك أنْ تسْعى لرزقٍ ويُرزقُ في غيابتـه الجنين[٣]

ومن آثارها أن أصحابها تركوا الأعمال الصالحة الخيرة التي توصلهم إلى الجنة وتنجِّيهم من النار وارتكبوا كثيرًا من الموبقات بدعوى أن القدر آتٍ ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٢٣- ١٢٤ .
(٢) مدارج السالكين ١٣٥/٢ .
(٣) شفاء العليل لابن القيم صـ ٥ .

وكلُّ ما قُدِّر للعبد سيصيبُه ؛ فلماذا العمل والتعب والنصب ؟!!

لقد ترك هؤلاء الأخذ بالأسباب ؛ فتركوا الصلاة والصيام ، كما تركوا الدعاء والاستعانة بالله والتوكُّل عليه ؛ لأنه لا فائدة منها ، فالذي يريده الله ماض قادم لا ينفع معه دعاء ولا عمل !! ورضي كثير من هؤلاء بظلم الظالمين وإفساد المفسدين ؛ لأن ما يفعلونه قدرُ الله وإرادته .

وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولم يهتموا بإقامة الحدود والقصاص ؛ لأن ما وقع من المفاسد والجرائم مقدرٌ لا مفرَّ منه »[١] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: « فمن أثبت القدر واحتجَّ به على إبطال الأمر والنهي، فهو شرٌّ ممَّن أثبت الأمر والنهي ولم يثبت القدر »[٢] .

يقول ابن القيم في وصْف هذا المبتدع دني الهمة : « لو علم هذا الجاهل أنه هو القاعد على طريق مصالحه ، يقطعها عن الوصول إليه ، فهو الحجر في طريق الماء الذي به حياته ، وهو السَّكْر الذي قد سدَّ مجرىٰ الماء إلى بستان قلبه ، ويستغيث مع ذلك: العطش، العطش؛ وقد وقف في طريق الماء، ومنع وصوله إليه ، فهو حجاب قلبه عن سرِّ غيبه ، وهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب ، فما عليه أضرّ منه ، ولا له أعداء أبلغ في نكايته وعداوته منه .

ما تبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغُ الجاهلُ من نفسهِ

فتبًّا له ظالمًا في صورة مظلوم، وشاكيا والجناية منه، قد جدَّ في الإعراض وهو ينادي : طردوني ، وأبعدوني . ولّى ظهره الباب ، بل أغلقه على نفسه وأضاع مفاتيحه وكسرها ، ويقول :

دعاني وسدَّ الباب دوني فهل إلى دخولي سبيلٌ بيِّنوا لي قصَّتي

فيا ويله ظهيرًا للشيطان على ربِّه، خصمًا لله مع نفسه، جَبْري المعاصي،

---

(١) القضاء والقدر للشيخ عمر سليمان الأشقر صـ ٧٣ - دار النفائس بالكويت .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/١٠٠ .

قَدَرِيّ الطاعات ، عاجز الرأي ، مضياع لفرصته ، قاعد عن مصالحه ، معاتب لأقدار ربِّه ، يحتجُّ على ربِّه بما لا يقبله من عبده وامرأته وأَمَته إذا احتجُّوا به عليه في التهاون في بعض أمره ؛ فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله ؟! »[1] .

وللسحر مملكة ونفوذ :

وانظر إلى دناءة الهمة .. والشرك الذي يقع فيه مَنْ يُديرون دفَّة الأمور في بلاد العرب، وكيف تسيطر «الساحرة العالمية»- «كريستين داجواي»- نائبة رئيس الاتحاد العالمي للروحانيين والفلكيين بباريس ، على مجاري الأمور ...... هذه الساحرة التي كان لها أكبر تأثير على الرئيس الفرنسي ميتران ، والأمريكي بوش، ورئيس وزراء بريطانيا جون ميجور، وكارلوس منعم، بل والملك حسين ، وأمير المؤمنين الملك الحسن ملك المغرب !! تقول هذه الساحرة الكافرة ، عن انتشار السحر بالمغرب ونفوذه الكامل على ملكه : « من أعجب أسرار مملكة السحر التي يديرها أحدُ الزعماء .. هي مملكة كاملة تحت الأرض عبارة عن مدينة كاملة.. في بلد عربي كبير.. يعيش فيها آلاف من السَّحرة العُتاة الأشداء، تقريبًا من يدخل هذه المملكة لا يخرج منها مرة أخرى إلى الحياة فوق سطح الأرض ، ويستمر يعمل بها حتى الموت .. هذه المملكة هي أقوى مملكة للسَّحرة موجودة في الكرة الأرضية، وتم تأسيسها منذ أكثر من ٥٠ عامًا، وهي تستخدم لتسيير دفَّة أمور الحُكْم والحياة اليومية في هذه الدولة . وأهم عمل يشغل السَّحرة في هذه المملكة الغامضة ؛ هو تأمين حياة زعيم هذه الدولة ، وانقاذه من تعرُّضه لأي خطر . وقد تمكن هؤلاء السحرة ذات يوم منذ حوالي ١٨ عامًا، من إنقاذ هذا الزعيم عندما قام وزير داخليته – في ذلك الوقت – بمؤامرة للقضاء على حياته بنسْف طائرته في الجو ، وتمَّ الاستعانة « بمملكة » السحر

---

(١) مدارج السالكين ١/١٩٢ .

لإزالة هذا الخطر بسرعة فائقة أدهشت العالمَ كلَّه في ذلك الوقت »[١] .

ثم بعد ذلك يريدون نصرًا على إسرائيل !!!

التاسع عشر : التأثُّر بالصوفية :

قال الشيخ محمد بن إسماعيل : « ومنها المناهج التربوية والتعليمية الهدَّامة التي تثبِّط الهمم، وتخنق المواهب، وتكبت الطاقات، وتخرب العقول، وتنشئُ الخنوع، وتزرع في الأجيال ازدراء النفس، وتعمِّق فيها احتقار الذات، والشعور بالدونية ؛ كقول بعض الصوفية : « الفقير : هو الذي يأكله القمل ، ولا يكون له ظفر يَحُكُّ به نفسه » . وقولِ ثانٍ : « الصوفي من يرى دمه هدرًا ، وملكه مباحًا». وقولِ ثالث: «إنه ما سُرَّ في إسلامه إلا ثلاث مرات: كنتُ في سفينة، فلم أجد أحقر مني فيها، وكنت مريضًا في المسجد، فجرَّني المؤذِّن إلى خارجه، وكان عليَّ فرو فنظرت فيه، فلم أميِّز بين شعره وبين القمل من كثرته».

ومن ذلك : منهج بعض الصوفية في الإعراض عن علوم القرآن والسنة ، وترهيب مريديهم من طلب العلم الشرعي ؛ حتى سقط من كُمِّ أحدهم يومًا قلم كان يخفيه ؛ خشيةَ أن يُفتضح بينهم بطلب العلم ، فقال له شيخه : « استُرْ عورتك ». يمنعون من سماع الحديث ، وهذا ينبئ عن باطنٍ خبيث. العلوم الشرعية عندهم حجاب ، والهذيان في علم الصوفية لباب »[٢][٣] .

العشرون : اضطهادُ العاملين للإسلام ، والشعور بالإحباط في النفوس التي لا تفقه حقيقة البلاء :

إن لله سننًا في خلقه وفي الدعوة ، ولا يُمَكَّن الرجل حتى يُبتلىٰ ، وقد يستطيل قوم الطريق ، فيضعف السير إلى الله عز وجل ، وهم يرون الشَّر نافشًا

(١) أسرار أهل السياسة والفن مع السحر والجن ، لصابر شوكت صـ ١١٢ – الناشر مدبولي الصغير .

(٢) علو الهمة ٣٤١- ٣٤٢ .

(٣) مقامات ابن الجوزي صـ ٣٢١ – ٣٢٢ .

والخير ضاويًا ، ولا شعاعَ في الأفق ، ولا معلم في الطريق .. فأين وعد الله عز وجل : ﴿ **ولقد سبقتْ كَلِمَتُنا لعبادنا المرسلين إنَّهم لهُمُ المنصورون وإنَّ جندنا لهُمُ الغالبون** ﴾ [الصافات : ١٧١- ١٧٣] ، وقول الله عز وجل : ﴿ **وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكنن لهم دينهمُ الذي ارتضىٰ لهم وليُبدِّلَنَّهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾ [النور : ٥٥] .

وإني على ثقةٍ من طريقي ... إلى الله ربِّ السَّنا والشروقِ
فإن عاقني السير أو عقَّني ... فإني أمينٌ لعهدي الوثيـقِ
أخي ستبيد جيوش الظلام ... ويشرق في الكون فجرٌ جديدْ
فأطْلِـقْ لـروْحِك إشراقَهـا ... تَرَ الفجر يرمقُنا من بعيدْ

يقول محمد عواد رحمه الله ، وتقبَّله الله في عداد الشهداء :

لماذا رهبتَ نزال الرجـال ... وأنتَ المحَنَّكُ والحاذقُ
لـماذا ذرفتَ دمـوع الخنـوعِ ... وأنت المبـرَّزُ والسابـــقُ
لماذا سلكتَ دروب الظلامِ ... ودَرْبُك في نوره يفـرقُ
لماذا ركنتَ لدنيا الزوالِ ... تُرقِّـعُ فيمـا غـدًا يُخْـرَقُ
فكُنْ يا أخي زفرةً تَحْرِقُ ... وكن يا أخي لفحةً تصْعَقُ
فكُنْ فيهمُ مثلَ ليثٍ هصور ... يغيـرُ ويمرقُ لا يفــرق
أتخشىٰ الرجالَ وفقْرَ العيالِ ... فربُّ العيالِ هـو الـرازقُ
وعُمْرك رهنٌ لموتٍ قريبٍ ... فإن جاء في حينهِ تَزْهَقُ
يساقُ الجبانُ لـذلِّ الهوانِ ... وسَيْفُ الصغارِ لَهُ سائقُ
ومَن يمنعِ النَّفسَ جُبْنًا وخَوفًا ... يُمتْـه المنـون ولا يُشْفِـقُ
فلوْ صدقوا الله أو صدَّقوا ... بقــرآن ربِّك أو طبَّقــوا
لنالوا الثريَّـا وقـدرًا عليًّـا ... وخيرًا سخيًّا بهمْ يُغـدَق

ولو رجعوا اليومَ ثم استنابوا لبرُّوا الجميع وما أخفقُوا(١)
إن لله سُنَّةً سوف تمضي فاملئوا الأرض ضَجَّةً واحتجاجًا
أَوْقِفُوا الفجرَ إنْ قدرتم وصدُّوا الشـ ـمس أن ترسل السَّنا الوهَّاجا
وامنعوا الزهرَ أن يفوحَ شذاه وامنعوا البحرَ يقذفُ الأمواجا

المسلمون قادمون :

لَنْ تُطفئوا شمسَ الضّحىٰ .. بنفخةٍ .. يا جاهلون
لن تَهْزموا جنودَ ربِّي .. إن جندَ الله دَوْمًا غالبون
فالفجرُ لاحْ
والديكُ صاحْ
والعطرُ - عطرُ الحقِّ - فاح
والنهارُ قادم .. والمسلمون قادمونْ
فقل لأنصارِ الظلام : ما لكم لا تعقلون
مَنْ ذا يُؤخِّر النهارَ ؟
مَنْ يُصارع الأَقْدارَ
مَنْ يُعاندُ القَهَّارَ ؟
مَنْ يُناطحُ المريخ ؟
من يوقِّفُ التاريخ ؟
ليعلموا عِلْمَ اليقين .. إننا لقادمون
أَجَلْ أَجَلْ المسلمون قادمون
نَعَمْ نَعَمْ

(١) محمد عواد الشاعر الشهيد لجابر رزق صـ ٥٢- ٥٤ من قصيدة مصارحة - الوفاء للطباعة والنشر .

أنا شمسٌ ليس تُطْفا بهبـوبِ العاصفـاتِ
ذاك سِرِّي يا زماني فليمُتْ غيظًا عـداتي(١)

الحادي والعشرون: التقليد الأعمى، والتبعيَّة المطلقة للغرب والتمسُّح بأعتابه :

لله درُّ القرضاوي وهو يقول :

من كان للغرب عبدَ الفكرِ خاضعَهُ فليسَ منَّا ولسـنا منه في نسـبِ

ولله درُّه وهو يقول عن الغرب :

كيف نرجو من السجين معينا وهو في القيد ينشُدُ الإفراجا
سُبُل الغربِ كلُّها جُحْرُ ضبٍّ وسبيلُ الإسلام كانت فجاجا

ألف مُبْكيةٍ ومُبْكية :

أميرُ دولةٍ عربية يدفع ٤ مليون دولار لحديقة حيوان بريطانيا ؛ شفقةً منه على حيوانات حديقة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس .. فهلَّا أنزلوا أطفال البوسنة منزلة حيوانات بريطانيا ؟!!

وانظر إلى مطربة الجنس الأولى في إسرائيل ، والرمز والمثل الأعلى للشواذ في إسرائيل ، وما يقوله محمد الغيطي في كتابه : « إن صديقًا لي من إحدى الدول الخليجية أول شيء سألني عنه وأنا أستقبله في المطار : هل وصل عندكم شريط دانا ؟! وكنتُ لم أعرف اسمها المزدوج ، فقلت له : من هي دانا ؟ فقال لي : أنتم متأخرون جدًّا، إنها المطربة الأُولى المفضَّلة لدى الشباب الآن !!.. وهي بلا شك تحظى على تقدير واحترام زعماء وقادة إسرائيل ؛ لأنها استطاعت في مدة قصيرة جدًّا – لا تتجاوز العام – السيطرة على آذان ما لا يقل عن عشرين مليونًا من الشباب العربي يحفظون أغانيها في المنطقة العربية كلها »(٢) .

---

(١) من ديوان المسلمون قادمون للقرضاوي، بتصرف – دار الوفاء .

(٢) فضيحة اسمها سعيدة سلطان لمحمد الغيطي، صـ١٢، ١٣، ١٥– الناشر عماد ناصف .

ويقول عن أشرطة أغانيها: «إن النسخة الواحدة وصل سعرها لخمسين جنيهًا ، وحسب منفذ توزيع سِرِّي لهذه الأغاني في العتبة ، يقول : إنَّ الشركة التي أعطته « أول طرحة » من الشريط الأول – حسب قوله – طبعت منه في مرة واحدة خمسة مليون نسخة .. أيَّة دائرة جهنمية ، يحرِّك خيوطها أبناء إبليس ؟! »[1] .

« في مصر رسميًّا أكثر من ٢٥٠ ألف راقصة ، والاشتراك السنوي لبعض النوادي الرياضية بلغ ٢٥ ألف جنيه، وإحدى شركات السيراميك طرحت مؤخرًا بانيو للحمام ثمنه ١١٥ ألف جنيه ، وهناك مئات اشتروا هذا البانيو !!

ولمبة جاز على الطراز القديم مصنوعة من بنورة أوبالين ثمنها ٢٣ ألف جنيه ، اللمبة تُستخدم كديكور فقط ، وثمن وجبة عشاء بعض فنادق الخمس نجوم وصل ١٥٠٠ جنيه فقط !!

وفي سويسرا أُعلِن عن أسماء مائة أغنى رجل في العالم منهم ثلاثة من مصر.

وفي مصر ٥٠ فردًا تبلغ ثروة كل واحد منهم ما بين مائة مليون دولار إلى ٢٠٠ مليون دولار أي حوالي ٧٠٠ مليون جنيه ، ومائة فرد تتراوح ثروة كل منهم ما بين ٨٠ ومائة مليون دولار ، و ١٥٠ فرد تتراوح ثروة كل منهم ما بين ٥٠ : ٨٠ مليون دولار ، و ٢٢٠ فرد ثروة كل منهم ما بين ٣٠ : ١٥ مليون دولار و ٣٥٠ فرد تتراوح ثروة كل منهم ما بين ١٥ : ٣٠ مليون دولار ، و ٢٨٠٠ فرد ثروة كل منهم ما بين ١٠ : ١٥ مليون دولار ، وفي مصر أيضًا ٧٠ ألف فرد تتراوح ثروة كل منهم ما بين ٥ : ١٠ مليون دولار ، على مسئولية الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل بالإشارة إلى تقرير أعدَّه خبراء من عدد من الدول .

---

(١) فضيحة اسمها سعيدة سلطان لمحمد الغيطي، صـ ١٢، ١٣، ١٥ – الناشر عماد ناصف .

وفي مصر ٤٠٠٠ مطعم للأثرياء فقط، وأحد بيوت التجميل المعروفة، والذي تمتلكه سيدة ، يحصل على عشرة آلاف جنيه في الشهر من مئات السيدات ؛ معظم السيدات راقصات أو فنانات أو زوجات مليونيرات »[١] .

« وشارع الهرم هذا الشارع الذي وصفه مسئول عربي كبير يومًا – بشكل عَفْوي– وهو يلقي خطبة قائلًا: «إن شارع الهرم هو وطننا الثاني»[٢].

وهنا في مصر أكثر من ٥٠ شقة باعها الملياردير المصري المعروف صاحب الشركات الضخمة (أ . ك) ، قيمة الشقة ١٥ مليون دولار ، أي ما يعادل ٥٠ مليون جنيه مصري ؛ الشقة مساحتها أكثر من ألف متر ، مجهزة بحمام سباحة وبار ، أكثر من عشر غرف نوم وثلاث حمامات .. حمام خاص بالسَّوْنا ، مكان خاص بالسيارة داخل الشقة !!

١٥ مليون دولار ثمن الشقة التي أسموها سوبر كلاس لماذا ؟! قالوا : لأن البرج الموجود به أسانسير خاصٌّ بالسيارة ، تستطيع أن تدخل بالسيارة حتى داخل شقتك !! وأيضًا هناك مهبط للطائرات أعلى البرج ، وحمَّامات سباحة أعلى وأسفل البرج ، ودوائر تلفزيونية مُجهَّزة بكاميرات دقيقة ووسائل تأمين وأقمار صناعية وجهاز كمبيوتر يتحكَّم في كل شيء بالشقة بدايةً من فتحها وحتى سيفون الحمام »[٣] .

« واحتلت مصر في هذا الزمن المرتبة الأولى في العالم استيرادًا للسيارة المرسيدس رسميًّا عام ١٩٩٤ ، في حين أنها كانت الدولة رقم ١٧ في استيراد هذه السيارة عام ١٩٨٣ ، ثم جاءت السيارة الشَّبح لسرعتها الفائقة ، ثم البودرة وثمنها مليون و ٤٠٠ ألف جنيه وأول مُلَّاكها الراقصة الشهيرة .

---

(١) زمن فيفي عبده صـ ١٩– ٢٠ .
(٢) المصدر السابق صـ ٢٣ .
(٣) المصدر السابق ٦٥ – ٦٨ .

وفي مصر ٥٠٠ سيارة شبح ، ثمن السيارة الواحدة ٨٠٠ ألف جنيه .
وفي مصر ١٥ سيارة «مرسيدس ٦٠٠» والتي يُطلق عليها : البودرة .
وهناك ٥١٥ فردًا اشتروا ٥١٥ سيارة قيمتها ٤٢٢ مليون جنيه »(١) .

قال رسول الله ﷺ : « تكون إبل للشياطين ، وبيوت للشياطين ؛ فأما إبل الشياطين فقد رأيتها : يخرج أحدكم بجنيبات معه قد أسمنها فلا يعلو بعيرًا منها، ويمر بأخيه قد انقطع به فلا يحمله. وأما بيوت الشياطين فلم أرها»(٢).

قال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٨/١) : « والظاهر أنه ﷺ عنى بـ « بيوت الشياطين » : هذه السيارات الفخمة ، التي يركبها بعض الناس مفاخرةً ومباهاة ، وإذا مَرُّوا ببعض المحتاجين إلى الركوب لم يُرْكِبوهم ، ويرون أن إركابهم يتنافى مع كبريائهم وغطرستهم » .

زفاف أسطوري لقطَّة يتكلَّف ١٢٠ ألف دولار !! :

وصلت «بلوى» العروس الجميلة لحفل زفافها أمس بطائرة هليكوبتر بينما وصل « فيت » عريسها سعيد الحظ بسيارة رولزرويس ، وسط دقّ الطبول وقرْع الأجراس. ولم تكن العروس سوى القطة المدلَّلة لـ «فيتشاران تشاراشارتشا» صاحب شركة ميراكل انترناشيونال لاستيراد مستحضرات التجميل الأوروبية .

ومن أجل عيون «بلوى» التي كانت فألًا حسنًا على أعماله؛ أخذ «فيتشاران» يبحث عن العريس المناسب ، حتى عثر على « فيت » وأقام لهما حفل زفاف يحلم به كثيرٌ من أبناء البشر ، تكلَّف ١٢٠ ألف دولار !!(٣) .

الكلاب أغلى وأرفع من الإنسان :

« وفي مصر عيادات بيطرية خاصة لعلاج الكلاب ، معظمها في المناطق

(١) زمن فيفي عبده ٥٧- ٦٠ .
(٢) حسن : رواه أبو داود ، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٩٣ .
(٣) من جريدة أخبار اليوم ٦/١٠/١٩٩٦ ، الصفحة الثانية .

الراقية وأهمها المهندسين والزمالك ومصر الجديدة ، ولكن الأكثر غرابة أن تقام إحدى هذه المستشفيات وتحمل اسم « مستشفى الشعب » إمعانًا في السخرية من شعبنا الطَّيِّب المطحون .

أمَّا هذا المستشفى فهو مستشفى راقٍ ، توجد به غرفة عمليات مجهَّزة تمامًا ومكيَّفة ، واستقبال وغرفة كشْف وأطباء وممرضات .. وعادة ما يمكث الكلب المريض - شفاه الله ، وشفى أصحابه - في المستشفى عدَّة أيام لا سيما بعد العمليات الجراحية للراحة ، ولذلك تمَّ إقامة فندق متكامل للكلاب معظمهم من المرضى الذين يقضون فترة نقاهة .. هذا الفندق تمَّ بناؤه على أحدث طراز ليُناسب أولاد الكلاب !! وهو مكيَّف بالكامل !! وتوجد به أَسِرَّة صُنعت خصِّيصًا لراحة الكلاب ، وأجهزة تسلية ، وجهاز تلفيزيون في كل غرفة !! الشيء الوحيد الذي تخلو منه الغُرف هو التليفون الذي لا يُناسب الهوهوة !!!

وإمعانًا في الراحة تمَّ إنشاء كوافير للكلاب مُلْحَق بالفندق .. وفيه أشهر الكوافيرات ، لديهم ابتكارات يومية في أحدث القصَّات سواء بالنسبة للكلب الذكر أو بالنسبة للكلبة الأنثى ، كما يوجد بداخل هذه الكوافيرات حمام زيت واستشوار ومقاعد مجهزة على مقاس الإخوة الكلاب !! وطبعًا كل هذه الأمور تُضاف على فاتورة الحساب ، الذي يكفي ثمنها لعلاج ألف مريض من أولاد الغلابة !!

أما فُسَح الكلاب فهي لا تختلف كثيرًا عن فُسَح أصحابهم ، فهم يصطحبون كلابهم معهم في كل مكان ، في النوادي ، في الفنادق الخمس نجوم ، في دور السينما ، في المصايف »[1] .

(١) زمن فيفي عبده صـ ٤٨ - ٥٠ .

مماتُ الكلاب أيضًا فايف ستارز Fivestars :

« وإذا كانت حياة الكلاب في مصر بهذه الصورة ، والتي تؤكِّد الإحصائيات غير الرسمية أن عددهم وصل أكثر من مليون كلب .. فكان لابد من أن يكون مماتهم أيضًا فايف ستارز ، أي خمس نجوم . ولذلك فقد تم إنشاء مقبرة مُكيَّفة لأولاد الكلاب داخل نادي الجزيرة .. وتستطيع أن تشاهد هذه المقبرة وهي غارقة وسط الزهور الجميلة والورود المتناثرة في كل مكان ، وتستطيع أن تذهب إلى هذه المقابر في أحد يومي الجمعة أو الأحد ، لتشاهد سوزي ولولو وميمي وجي جي ، وهم يبكون بحرقة ولوعة وأسى ومرارة على حياة الكلب سولي أو الكلبة لولي ، وهم ينثرون الورود على قبورهم الطيبة!!

أما عن جنازة الكلب فهي جنازة مهيبة ؛ حيث تقف السيارة الفارهة وعادة ما تكون مرسيدس سوداء .. لماذا ؟ لا أدري !! وينزل جثمان الكلب الفقيد ملفوفًا في حرير عادة يكون أخضر أو أحمر قرمزي .. ووسط جنازة مهيبة .. ودموع وبكاء .. يا حبيبي يا لولو .. ياماي لاف ... « إمبو سيبل لولي إذ دايت .. أو مامي ..بوجي مات !! » .

ولا تتعجب إن وجدت فتاة تُهدِّد بالانتحار بعد وفاة كلبها الصغير!ثم يتم دفن الكلب في مقبرة أنيقة ثم توضع الورود والرياحين فوق قبره ، وتعزف الموسيقى الهادئة وليست الجنائزية .. ثم ينصرف المُعَزُّون في ركْبٍ حزين . وعلى فكرة كل هذه الأحداث الحزينة والذكريات المؤلمة يتم تصويرها بالفيديو »[١] .

ولا تزال بقلبي ألف مبكية :

يقول عماد ناصف في كتابه « زمن فيفي عبده » : « في جولة مع كلاب

---

(١) المصدر السابق صـ ٤٩ - ٥٢ .

الأثرياء ، ستتمنى أنا وأنت أن نصبح مثل الكلب سوسو أو الكلبة لولو !! عياذًا بالله .

ونبدأ من أسعار الكلاب ، حيث يبدأ سعر أقل كلب - ذو السلالة غير المكتملة أو المعروفة - من ٢٠٠ جنيه للكلب ويصل في الأنواع الأخرى إلى خمسة آلاف جنيه . أما عن أَكْل الكلاب ؛ فهو يبدأ من عظام الضَّأن ، والتي تتراوح الثلاث وجبات اليومية له بين سبعة جنيهات إلى عشرين جنيهًا ، إلى الكباب والذي يصل ثمن الوجبات الثلاثة في اليوم للكلب الواحد إلى ٢٠٠ جنيه .

أمَّا ملابس الكلاب فتنتشر محلَّاتُها الشهيرة في منطقتي مصر الجديدة والمهندسين ، وهي عادة تكون بربتوز أو فستان أو برنيطة أو فيونكه أو شريط حلية ، ويتراوح ثمن كسوة الكلب الذكر من ٧٥ جنيهًا إلى ١٥٠ جنيهًا ، أما الكلبة يرتفع الحد الأقصى إلى ٢٠٠ جنيه ، بخلاف الإكسسوارات الجلد والخَرَز التي تُستخدم كحلية . وفي بعض الأحيان تصل برنيطة الكلاب إلى ١٢٠ جنيه وفستان الكلبة إلى ١٥٠ جنيه ، وتستطيع أن تشاهد أمام أحد هذه المحلات الشهيرة بملابس الكلاب ، عشراتٍ من هذه النوعية من الكلاب وأبنائهن »[(١)] .

زواج كلاب الأثرياء دنيئي الهمم :

« أما الزواج فهي أهم مرحلة بالنسبة للكلبة والكلب ولأصحابهم أيضًا فلا بد أن يتم التوصل إلى سلالة الكلب وهل تناسب عائلة الكلبة أم لا .. ويتم عمل فرح أسطوري يُدعىٰ فيه كل أصدقاء الكلب والكلبة وطبعًا أصدقاء أصحابهم .. ويتم عمل فرح كامل ، وفستان زفاف مقاس الآنسة الكلبة ، وبدلة شيك مقاس الكلب باشا ، وكذلك الأمر في أعياد الميلاد والسبوع !!

(١) المصدر السابق صـ ٤٧ .

ملحوظة : كل حرف كُتب في السطور الماضية يحدث يوميًّا في الواقع، وقد كتبته بلا أدنى مبالغة »(١) .

وإن تعجب فلا تعجب ، فنحن في زمن فيفي عبده !! أقسم بالله لو أن قوم لوط خرجوا إلى دار الدنيا ما زاد صنيعهم فوق هذا ، إن لم يكن دونه بمراحل !!

« مَثَل هؤلاء النسوة الأعلى « مادونا » الشاذة في أبشع صور الشذوذ عند المرأة .. مادونا التي يعشقها الآلاف المؤلفة من نساء العرب ، والتي تقول : « إن سعادتي الوحيدة وأنا مع كلبي ، « بابيتو » أو « سكر » ، فهو الذي يعوِّضني عن كل رجال العالم ، ونجح فيما لم ينجح فيه أي رجل ؛ لأنني أمارس حياتي ورغباتي ، حتى الجنسية منها ، بحرية تامَّة » . أرأيتم يا معشر الرجال المهووسين بمفجِّرة ثورة الجنس في العالم .. إن كلبها أفضل منكم جميعًا »(٢) .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « من اقتنىٰ كلبًا ، إلا كلب ماشية أو ضاريا ؛ نقص من عمله كلَّ يوم قيراطان »(٣) .

وقال ﷺ : « من اقتنىٰ كلبًا ، ليس بكلب صيد ولا ماشية ولا أرض ؛ فإنه ينقص من أجره قيراطان كل يوم »(٤) .

وقال ﷺ : « من اقتنىٰ كلبًا ، لا يغني عنه زرعًا ولا ضرعًا ؛ نقص من عمله كلَّ يوم قيراط »(٥) .

يا ابنة الإسلام ، احْذريهم :

هذه نقطة من بحرٍ يطفح بفجورهم وفجورهن، فاحْذريهم يا ابنة الإسلام.

---

(١) المصدر السابق صـ ٥٢ .

(٢) الإيدز والفنانات لمحمد الغيطي صـ ١٠٥ – الناشر ثري إم للصحافة والنشر .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عمر .

(٤) رواه مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .

(٥) رواه أحمد والبخاري ومسلم ، والنسائي وابن ماجه عن سفيان بن أبي زهير .

يا دُرَّة حُفِظَتْ بالأمس غاليةً ... واليوم يبغونها للَّهو واللعبِ
يا دُرَّةً قد أرادوا جَعْلها أَمَةً ... غربيَّة العقل لكن اسمها عربي
هل يستوي مَنْ رسولُ الله قائده ... دَوْمًا وآخرُ هاديه أبو لهبِ
وأين مَنْ كانت الزهراءُ أُسوتَها ... ممَّن تقفَّتْ خطى حمَّالةَ الحطبِ
فلتحْذَري مِن دُعاةٍ لا ضميرَ لهم ... مِن كلِّ مُسْتغرِبٍ في فِكْرِهِ خَرِبِ
أسْمَوْا دعارَتهم حُريَّةً كَذِبًا ... باعوا الخلاعة باسم الفنِّ والطَّرَبِ
هُمُ الذِّئابُ وأنتِ الشاة فاحتَرسي ... من كل مفترسٍ للْعِرْض مُستَلِبِ
أختاهُ لَسْتِ بنَبْتٍ لا جُذُورَ لهُ ... ولَسْتِ مَقْطوعةً مجهولةَ النَّسَبِ
أنت ابنة العُرب والإسلام عشتِ به ... في حضْنِ أطهر أمٍّ من أعزِّ أب
فلا تُبالي بما يُلقونَ مِنْ شُبَهٍ ... وعندكِ العقلُ إن تدعيه يسْتَجبِ
سليه مَنْ أنا ما أهلي لمنْ نَسبي ... للغربِ أم أنا للإسلام والعربِ
لمن ولائي لمن حُبِّي لمِنْ عملي ... لله أم لدعاة الإثم والكذبِ
وما مكاني في دنيا تموجُ بنا ... في موضع الرأس أم في موضع الذَّنَبِ
هما سبيلانِ يا أختاهُ ما لهما ... من ثالثٍ فاكسبي خيرًا أو اكتسبي
سبيلُ ربِّك والقرآنُ منهجه ... نورٌ من الله لم يُحْجب ولم يغبِ
في رَكْبِه شَرَفُ الدنيا وعزَّتُها ... ويوم نُبعثُ فيه خيرُ مُنْقلبِ
فإنْ أَبيْتِ سبيلَ الله فاتَّخذي ... سبيل إبليس رأس الشَّر والحَرَبِ[1]

الثاني والعشرون : الرِّيَاءُ وعدم تجرُّد النيَّة :

قال العلامة ابن قيم الجوزية : « لِقاح الهمة العالية : النية الصالحة ، فإذا اجتمعا، بلغ العبد غاية المراد »[2] .

---

(١) «إليك يا ابنة الإسلام» للقرضاوي صـ٣٩- ٤٣ من ديوان «المسلمون قادمون » - الوفاء للطباعة والنشر .

(٢) الفوائد صـ ٢٦١ .

اعلم – رحمك الله – أن العزْم مجرَّدُ فضل الله وإيثاره وتوفيقه . « وإن العزائم لم تُورِث أربابها ميراثًا أكرم مِن وقوفهم على عِلَل العزائم ، ومدار علل العزائم على ثلاثة أشياء :

أحدها : فُتورها وضعْفها .

الثاني : عدمُ تجرُّدها من الأغراض وشوائب الحظوظ .

والثالث : رؤية العزائم وشهودها ، ونسبتها إلى أنفسهم .

فإذا عرف هذه الثلاثة عرف علل العزائم »[1] .

والرياء يُغلُّ القلب ويُضعف سيْره إلى الله عز وجل ، فما ظنُّك بالهمة بعد ذلك ؟!

الثالث والعشرون : كَذِب العزيمة وتردُّدها :

عزيمة الصدق تمنع العبد من ضعف الإرادة والهمَّة؛ والصدق في العزيمة: جمْعها وجزْمها وعدم التردُّد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردُّد ولا تلوُّمٌ .

الرابع والعشرون : ضعْف العقل :

قال ابن الجوزي: « العقل غريزة ، كأنها نور يُقذَف في القلب فيستعدُّ لإدراك الأشياء ، فيعلم جواز الجائزات ، واستحالة المستحيلات ، ويتلمّح عواقب الأمور . وذلك النور يقلُّ ويكثر ، وإذا قوي ذلك النور قمع – بملاحظة العواقب –عاجل الهوى .

قال وهب بن منبّه : ولَإزالةُ الجبل صخرةً صخرةً وحجَرًا حجَرًا ؛ أخفُّ على الشيطان من مكابدة المؤْمن العاقل ، فإذا لم يقدر عليه تحوَّل إلى الجاهل فيستأسره ويستمكن من قياده ، حتى يُسلمه إلى الفضائح التي يتعجَّل بها في الدنيا؛الجلْد والحلْق وتسخيم الوجْه ، والقطع والرجْم والصَّلْب ، وإنَّ الرجلَيْن

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٦٣- ٣٦٤ .

يستويان في أعمال البرِّ ، ويكون بينهما كما بين المشرق والمغرب أو أبعد ، إذا كان أحدهما أعقل من الآخر ، وما عُبِد الله بشيء أفضل من العقل .

وقال الحسن : ما يتمُّ دين الرجل حتى يتمَّ عقله ، وما أودع الله امرأً عقلًا إلا استنقذه به يومًا .

وقيل لعطاء بن أبي رباح : ما أفضل ما أُعطي الإنسان ؟ قال : العقلُ عنِ الله تعالى .

وقال معاوية بن قرَّة : إن القوم لَيحجُّون ويعتمرون ويجاهدون ويُصلُّون ويصومون ، وما يُعطوْن يوم القيامة إلا على قدر عقولهم .

وقال يوسف بن أسباط: العقل سراجُ ما بطَنَ، وملاكُ ما علَن، وسائسُ الجسد ، وزينة كلِّ أحد ، ولا تصلح الحياة إلا به ، ولا تدور الأمور إلا عليه .

وسُئل ابن المبارك : ما خير ما أعطي الرجل ؟ قال : غريزة عقل .

قال ابن الجوزي : إنما تتبيَّن فضيلةُ الشيء بثمرته وفائدته ، وقد عُرفتْ ثمرةُ العقل وفائدته ؛ حثَّ على الفضائل ونهى عن الرذائل ، وشدَّ أسْرَ الحزْم وقوَّىٰ أزْر العزْم ، واستجلب ما يزين ونفىٰ ما يَشين ، فإذا ترك وسلطانه أسر فضول الهوى ، فحصرها في حبس المنْع . وكفى بهذه الأوصاف فضيلةً .

ولا ينبغي أن يُدال الهوى عليه؛ فإنه عدوُّه، فيحطُّه عن رتبته، ويستنزله عن درجته ، ولا يجوز أن يُجعل - وهو الحاكم عليه - محكومًا ، ولا أن يصير - وهو الزمام - مزمومًا ، ولا أن يعود - وهو المتبوع - تابعًا . فمَن صبر على مضيض مشاورته ؛ اجتنى حلاوة المنى في عواقبه »[١] .

الخامس والعشرون : ضعْفُ البصيرة :

والبصيرة نور في القلب ، يُبصر به الوعدَ والوعيدَ ، والجنة والنار . وضعيف البصيرة مَن لا يستكمل درجاتها ، ويكون عنده :

---

(١) ذمّ الهوى لابن الجوزي . بتصرف صـ ٨ - ١١ .

١ - ضعف بصيرة في الأسماء والصفات : فيتأثّر إيمانه بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ، ولا يعلم فساد الشبَه المخالفة لحقيقة النصوص القرآنية والنبوية ، بل وتتمكّن الشبه الباطلة من قلوبهم .

٢- وضعْف بصيرة في الأمر والنهي: فيعارضه بتأويل وتقليد وهوى، ويقوم بقلبه تعارض العلم بأمر الله ونهيه، وشهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله والأخذ به.

٣ - وضعف بصيرة في الوعد والوعيد .

السادس والعشرون : طُولُ الأَمَلِ :

قال الله تعالى: ﴿**ذَرْهُمْ يأكُلوا ويَتمتَّعُوا ويُلْهِهِمُ الأَمَلُ فسوفَ يَعْلَمونَ**﴾ [الحجر : ٣] .

وقال علي رضي الله عنه: «إن أخوف ما أخاف عليكم: اتِّباع الهوى وطول الأمل؛ فأما اتباع الهوى: فيصدُّ عن الحق، وأما طول الأمل: فيُنسي الآخرة»[(١)] .

وجاء في الأثر : « أربعة من الشقاء : جُمود العيْن ، وقسوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا » .

«ويتولّد من طُول الأمل : الكسل عن الطاعة ، والتسويف بالتوبة ، والرغبة في الدنيا ، والنسيان للآخرة ، والقسوة في القلب ؛ لأن رقته وصفاءه إنما يقع بتذكير الموت والقبر والثواب والعقاب وأهوال القيامة ، كما قال تعالى : ﴿**فطال عليهم الأمَدُ فقستْ قلوبهم**﴾ [الحديد: ١٦]. وقيل : من قصر أمله قلَّ همُّه وتنوَّر قلبُه ؛ لأنه إذا استحضر الموت اجتهد في الطاعة »[(٢)] .

السابع والعشرون : الابتعاد عن الأجواء الإيمانية فترة طويلة :

وفي قول الله تعالى : ﴿ **فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم**

---

(١) فتح الباري ٢٣٦/١١ .

(٢) فتح الباري ٢٣٧/١١. انظر كتاب: ظاهرة ضعف الإيمان ، للشيخ محمد صالح المنجد صـ ٣٠- ٣١، مكتبة العلم .

فاسقون ﴾ما يدلُّ على أن طول الوقت في البعد عن الأجواء الإيمانية مدعاة لضعف الإيمان وضعف الهمَّة ؛ ذلك لأنه يفتقد الجوّ الإيماني الذي كان يتنعَّم في ظلاله ، ويستمدُّ منه قوة قلبه ، والمؤمن قليل بنفسه كثير بإخوانه ؛ يقول الحسن البصري - رحمه الله -: « إخواننا أغلى عندنا من أهلينا ؛ فأهلونا يذكِّروننا الدنيا ، وإخواننا يذكروننا بالآخرة » .

وهذا الابتعاد إذا استمر يُخلِّف وحْشة ، تنقلب بعد حين إلى نُفْرة من تلك الأجواء الإيمانية، يقسو على أثرها القلب ويُظلم ويخبو فيه نور الإيمان.

الثامن والعشرون : الابتعاد عن القدوة الصالحة :

فالشخص الذي يتعلَّم على يديْ رجل صالح يجمع بين العلم النافع والعمل الصالح وقوة الإيمان ، يتعاهده ويحذيه مما عنده من العلم والأخلاق والفضائل ، لو ابتعد عنه فترة من الزمن فإن المتعلم يُحسُّ بقسوة في قلبه ؛ ولذلك لمّا تُوفي رسول الله ﷺ ووُري التراب ، قال الصحابة : « فأنكرْنَا قلوبَنا » . وأصابتهم وحشة ؛ كما جاء وصْفهم أيضًا : « كالغنم في الليلة الشاتية المطيرة ». ولكنه ﷺ ترك فيمن ترك وراءَه جبالًا ، كلٌّ منهم يسيِّر دنيا بأكملها ، فما ظنُّك بأيَّامنا هذه وحالتنا هذه ؟! والقدوة يحملك حمْلًا إلى الدار الآخرة ، لا غيره الذي يقول فيه الشاعر :

ولا تتخذْ في السيرِ رفقةَ قاعدٍ ودعْهُ فإنَّ الشوْقَ يكفيك حاملًا

التاسع والعشرون : هجْرُ القرآن وترْكُ تدبُّره :

قال ابن القيم رحمه الله : « حقيقٌ بالإنسان أن ينفق ساعاتِ عمره - بل أنفاسه - فيما ينال به المطالب العالية ، ويخلص به من الخسران المبين ، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن ، وبفهمه وتدبُّره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه ، وصرْف العناية إليه ، والعكوف بالهمة عليه ؛ فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد ، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة ، والأذواق

والمواجيد الصحيحة ، كلها لا تُقتبس إلا من مشكاته ولا تستثمر إلا من شجراته .. »[١] .

وهجْرُ القرآن يعمي الإنسان عن حقيقة وجوده ، ويُسفل همَّته ، ويُنسيه نفسه .

الثلاثون : ضَعْف الإيمان وأُلْفَة المعاصي :

قال رسول الله ﷺ : « إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب ، فاسألوا الله أن يجدِّد الإيمان في قلوبكم »[٢] . يعني بذلك أن الإيمان يبلى في القلب كما يبلى الثوب إذا اهترأ وأصبح قديمًا .

وتعتري قلب المؤمن في بعض الأحيان سحابة من سُحب المعصية فيظلم ؛ كما قال ﷺ : « ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر ، بينا القمر مضَى إذ علتْه سحابة فأظلم ، إذ تجلَّتْ عنه فأضاء »[٣] .

ومن فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما ينقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد إيمانه أو ينقص ؟ وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنَّى تأتيه ؟ .

والرجل إذا ضعف إيمانه تكاسل عن الطاعات وأضاعها ؛ كما قال الله تعالى في صفة المنافقين: ﴿**وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى**﴾ [النساء: ١٤٢].

السبب الأخير : ضعفُ الغيْرة ، وضعْفُ تعظيم الحرمات :

إذا انطفأ لهب الغيرة في القلب وتعطَّلت الجوارح عن الإنكار ، و لم يتمعَّر

---

(١) مدارج السالكين ١/٦- ٧ .

(٢) إسناده حسن : رواه الحاكم في المستدرك ، والطبراني في معجمه الكبير ، وحسَّن إسناده الهيثمي ، والألباني في السلسلة الصحيحة ، رقم ١٥٨٥ .

(٣) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية ، وصحَّح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٢٦٨ .

الوجه قطٌّ في الله عز وجل والرسول ﷺ ، فلْينتظر العبد من دناءة الهمة وسفولها ما لا يتخيَّله العقل؛ قال ﷺ: «تُعرَضُ الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا ، فأيُّ قلب أُشرِبَها نُكِتَ فيه نكتة سوداء ، وأيُّ قلبٍ أنكرها نُكتَت فيه نكتة بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبيْن : قلب أسود مُرْبادًّا كالكوز مُجَخِّيًا ، لا يعرف معروفًا ولا يُنكر مُنكرًا إلا ما أُشرِبَ من هـواه . وقلب أبيض ، فلا تضرُّه فتنة ما دامت السماوات والأرض »[1] .

أي مسلم يرىٰ الواقع المُرَّ والخزيَ المرّ للمسلمين ولا يتحرَّكُ قلبه ، هل يبقى فيه من الخير شيء ؟! هل تكون له إلا أحقر الهمم ؟!

نامت ليالي الغافلينَ ولَيْلُنا أرَقٌ يُذيبُ قلوبَنا وسهادُ
سُلَّتْ سُيوفُ المعتدينَ وعربَدَتْ وسُيوفُنا ضاقتْ بها الأغمادُ

وقال الشاعر :

قالوا سهِرْتَ وفي فؤادكَ حرْقةٌ تُدمي وألفُ تساؤل يتردَّدُ
وعلى جبينِكَ قصَّةٌ مكلومةٌ تروي المآسيَ للجميع وتسردُ
ودموعُك الملأىٰ بألفِ حكايةٍ رَسَمَتْ على خدَّيْكَ نارًا تُوقدُ
أنا يا صِحابُ قضيَّةٌ مسلوبةٌ لَعِبَ الدَّعِيُّ بها وغابَ السيدُ
أنا يا صِحابُ مشاعِرٌ موتورةٌ للثأر تسعىٰ والمسالِكُ تُوصَدُ
أنا يا صحابُ مدامعٌ محمومةٌ تَهْمي من الألمِ المميتِ فتبردُ
أنا يا صحابُ منَ الجراح معذَّبٌ في كلِّ أرض جُرْحُنا يتمددُ
في كلِّ أرضٍ تُستَبَاحُ دماؤنا في كلِّ أرضٍ يُستباحُ المسْجدُ

هذه الجراح ألا تحرّك ساكنًا وتعلي هِمَّة ؟! هذا امرؤ القيس ، وكان ليلَه ونهارَه مع الخمر ، فلما قُتل والده ؛ قال:اليوم خمر .. وغدًا أمر ! أفما نُفيق ؟!

قال ﷺ : «إذا عُمِلَتِ الخطيئة في الأرض، كان مَن شهدها فكرِهها

---

(١) رواه مسلم عن حذيفة ، والمُرْبادُّ: هو المسودُّ ، ومجخِّيا : أي منكوسًا مائلًا .

- وقال مرة : أنكرها - كمن غاب عنها ، ومنْ غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها »[١] .

دنيءُ الهمَّة :

« عَقْله مسبِيٌّ في بلاد الشهوات ، وأمَلُه موقوفٌ على اجتناء اللذَّات ، وسيرتُه جاريةٌ على أسوأ العادات ، ودينُه مُسْتَهْلَكٌ بالمعاصي والمخالفات ، وهِمَّته واقفةٌ مع السُّفْليَّات، وعقيدته غيرُ مُتلقَّاة من مشكاة النبوات ؛ فهو في الشهوات منغمس، وفي الشُّبهات منتكس، وعن الناصح مُعْرِض، وعلى المرشد مُعْتَرِض، وعن السَّرَّاء نائم ، وقلبُه في كلِّ واد هائم »[٢] .

رغب في مشاركة أبناء جنسه ، وخرج من فضاء العلم إلى ضيق الجهل ، وقبع في سجن الهوى و لم يخرج إلى ساحة الهدى ، لم يخرج من نجاسة النفس إلى طهارة القدس .

دنيء الهمَّة ، حُجُبُه كثيفة :

ودنيء الهِمَّة مَحجوبٌ وحُجُبُه كثيفة ، إن انفلت من حجاب منها لا يفلت من الآخر ، وهي عشرة :

«الأول: حجاب التعطيل ونفي حقائق الأسماء والصفات، وهو أغلظها؛ فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله ، ولا يصل إليه ألبتة ، إلا كما يتهيأ للحَجَر أن يصعد إلى فوق .

الثاني : حجاب الشرك ، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله .

الثالث: حجاب البدعة القولية، كحجاب أهل الأهواء والمقالات الفاسدة على اختلافها .

الرابع : حجاب البدعة العملية ، كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم

(١) صحيح : رواه أبو داود ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٨٩ .
(٢) مدارج السالكين ٣/ ٢٦٦ .

وسلوكهم .

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكِبْر والعجب، والرياء والحسد ، والفخر والخيلاء ، ونحوها .

السادس : حجاب أهل الكبائر الظاهرة ، وحجابهم أَرَقُّ من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم، وزهاداتهم واجتهاداتهم؛ فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك؛ فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشَوْن من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة . فأهل الكبائر الظاهرة أدنى إلى السلامة منهم ، وقلوبهم خير من قلوبهم .

السابع : حجاب أهل الصغائر .

الثامن : حجاب أهل الفضلات .

التاسع : حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خُلقوا له وأُريدَ منهم ، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته .

العاشر : حجاب المجتهدين السالكين المشمِّرين في السّير عن المقصود .

وهي تنشأ من عنصر النفس وعنصر الشيطان ، وعنصر الدنيا وعنصر الهوى . وهذه العناصر تُفْسد القول والعمل والقصد والطريق ؛ بحسب غلبتها وقِلَّتها ، فتقطع طريق القول والعمل أن يصل إلى القلب ، وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق أن يصل إلى الرب . فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك . وفي هذه المسافة قطّاع الطريق المذكورون »[1] .

يقول الإمام ابن القيم في « مدارج السالكين» (١/ ٤٠٠- ٤٠٣)، مصوِّرًا حال أهل المعاصي - سافلي الهمم -: « الجهال الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان، إلا في اعتدال القامة ونُطْق اللسان، ليس همُّهم إلا مجرَّد نَيْل الشهوة

---

(١) مدارج السالكين ٣/٢٢٣- ٢٢٤ بتصرُّف يسير .

بأي طريق أفضت إليها. فهؤلاء نفوسُهم نفوسٌ حيوانية، لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية ، فضلًا عن درجة الملائكة . فهؤلاء حالهم أخسّ من أن تذكر ، وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات ، التي هم على أخلاقها وطباعها .

فمنهم : مَنْ نَفْسُه كلبية ؛ لو صادف جيفة تُشْبع ألف كلب لوقع عليها ، وحماها من سائر الكلاب ، ونَبَح كل كلب يدنو منها ، فلا تقربها الكلاب إلا على كُرْهٍ منه وغلبة ، ولا يسمحُ لكلبٍ بشيءٍ منها . وهَمُّه شبع بطنه من أي طعام اتفق ؛ ميتة أو مُذكّى ، خبيث أو طيِّب ، ولا يستحي من قبيح ؛ إنْ تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، إن أطعمته بَصْبَصَ بِذَنَبِهِ ودار حولك ، وإن منعتَه هَرَّك ونَبَحكَ .

ومنهم : مَن نَفْسُه حمارية ؛ لم تُخلق إلا للكدِّ والعَلَف ؛ كلَّما زيد في عَلفه زيد في كَدِّه ، أبكمُ الحيوان وأقلُّه بصيرة .

ولهذا مَثَّل الله سبحانه وتعالى به مَن حَمَّله كتابه ؛ فلم يحمله معرفةً ولا فقهًا ولا عملًا . ومَثَّل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وأخلد إلى الأرض واتَّبع هواه .

ومنهم : مَنْ نفْسُه سبعيَّة غضبيَّة ؛ هِمَّتُه العدوان على الناس ، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته .

ومنهم : مَنْ نَفْسُه فأْرِيَّة ، فاسق بطبعه ، مفسد لما جاوره ، تسبيحه بلسان الحال : سبحان من خلقه للفساد .

ومَن نَفْسُه على نفوس ذوات السموم والحُمات ؛ كالحيَّة والعقرب ، وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه ؛ فيُدخل الرَّجل القبرَ ، والجَملَ القِدْرَ .

ومن الناس مَن طبعه طبع خنزير ؛ يمُرُّ بالطِّيِّبات فلا يلوي عليها ، فإذا قام الإنسان عن رجيعه قمَّه . وهكذا كثير من الناس يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ ، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه .

فإذا رأى سَقْطةً أو كلمة عوراء وجد بُغْيته وما يناسبها ، فجعلها فاكهته ونُقْله .

ومنهم : مَنْ هو على طبيعة الطاووس ؛ ليس له إلا التَّطوُّس والتزيُّن بالريش وليس وراء ذلك شيء .

ومنهم : مَن هو على طبيعة الجمل ؛ أحقد الحيوان وأغلظه كبدًا .

ومنهم: مَنْ هو على طبيعة الدُّب؛ أبكم خبيث، وعلى طبيعة القرد».

حياةُ مَنْ سفلت هممهم وتدنَّت :

« صحبوا الدنيا صُحْبة الأنعام السائمة ؛ لا ينظرون في معرفة مُوجدهم وحقِّه عليهم ، ولا في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار التي هي طريق ومعبر إلى دار القرار ، ولا يتفكَّرون في قلَّة مقامهم في الدنيا الفانية ، وسرعة رحيلهم إلى الآخرة الباقية. قد ملكهم باعث الحِسِّ، وغاب عنهم داعي العقل، وشملتهم الغفلة، وغرَّتهم الأماني الباطلة والخدع الكاذبة؛ فخدعهم طولُ الأمل، وران على قلوبهم سوءُ العمل ، فهم في لذَّات الدنيا وشهوات النفوس كيف حصلت حصَّلُوها ، ومن أي وجه لاحت أخذوها ، إذا بدا لهم حظ من الدنيا بآخرتهم طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا ، وإذا عرض لهم عاجل من الدنيا لم يؤثروا عليه ثوابًا من الله ولا رضوانًا : ﴿ **يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ [الروم : ٧] . ﴿ **نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ »[١] .

فإذا نزل بهم الموت اشتدَّ قلقُهُم لخراب ذاتهم وذهاب لذَّاتهم ، لا لما سبق من جناياتهم وسَلَف من تفريطهم ، حيث لم يقدِّموا لحياتهم .

أخي : إنما يُقطع السفر ويَصِلُ المسافرُ بلزوم الجادَّة وسَيْر الليل ، فإذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله ؛ فمتى يصل إلى مقصده ؟

قال رسول الله ﷺ : « لا يزال قوم يتأخَّرون حتى يؤخِّرهم الله »[٢].

---

(١) حادي الأرواح صـ ٥ .

(٢) أخرجه مسلم وابن خزيمة في صحيحه .

أخي :

« إذا رأيتَ النفوس المبطلة الفارغة من الإرادة والطلب لهذا الشأن قد تشبَّث بها هذا العالمُ السفليُّ ، وقد تشبثت به ؛ فَكِلْهَا إليه ؛ فإنه اللائق بها لفساد تركيبها، ولا تنفس عليها ذلك، فإنه سريع الانحلال عنها، ويبقى تشبُّثها به مع انقطاعه عنها عذابًا عليها بحسب ذلك التعلُّق ، فتبقى شهوتها وإرادتها فيها وقد حيل بينها وبين ما تشتهي ، على وجهٍ يئست معه من حصول شهوتها ولذَّتها . فلو تصوَّر العاقل ما في ذلك من الألم والحسرة ؛ لبادَر إلى قَطْع هذا التعلق، كما يبادر إلى حَسْم مواد الفساد . ومع هذا فإنه ينال نصيبه من ذلك ، وقلبه وهمُّه متعلِّق بالمطلب الأعلى والله المستعان »[1] .

أخي :

إن الطبع الردي لا يليق به الخير.. هذه الخنفساء إذا دُفنت في الورد لم تتحرَّك، فإذا أُعيدَت إلى الرَّوث رتعت، وما يكفي الحية أنْ تشرب اللبن حتى تمجَّ سمَّها فيه؛ وكلٌّ إلى طبعه عائد .

يا أطفال الهوى ، أين أنتم والرجال ؟!

لمن أُصَفِّي وأَصِف ؟ أفي عزمك اتباعي فأقف ؟ الليل يضجُّ من طول نَوْمك،والنهار يستغيث من قبيح فِعْلِك .

قد قيَّد الطَّرْد قدميْك، وغلَّ الإبعاد يديْك، أفما لك عين تبكي عليْك؟!

وفي نظر الصادي إلى الماء حسرة إذا كان ممنوعًا سبيل المواردِ

❋ ❋ ❋

(١) الفوائد صـ ١٧٩ لابن القيم .

الفصل الثامن

كَيْفَ تَعْلُو الهِمَمُ ؟؟

ولا تتخذْ بالسَّير رُفقةَ قاعدٍ ودعْهُ فإنَّ الشَّوْقَ يكفيكَ حامِلَا

□ كيفَ تعلُو الهِمَمُ ؟؟ □

ولعُلوِّ الهمَّة ورُقيِّها أسبابٌ .. نذكر منها :

الأول : الإخلاص :

قال ابن القيم في «الفوائد» (صـ ٢٦١) : لِقاحُ الهِمَّة العالية: النيَّةُ الصحيحة ، فإذا اجتمعا بلغ العبدُ غاية المراد .

ونسيان رؤية المخلوقين بدوام النظر إلى الخالق يَحُثُّ على الأخذ بمعالي الأمور ، لأن الناقد بصيرٌ . والفقه كلُّ الفقه هو الفقه في مذاهب الإخلاص وتصفية العمل من شوائبه .

الثاني : الصدق :

قال ابن القيم في «الفوائد» (صـ ٢٤٤-٢٤٥) : « ليس للعبد شيء أنفع من صِدْقِهِ ربَّه في جميع أموره مع صدق العزيمة ، فيصدق في عزمه وفي فعله ؛ قال تعالى : ﴿ **فإذا عزَمَ الأمرُ فلو صدقوا الله لَكَانَ خيرًا لهم** ﴾[محمد : ٢٢] ، فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعْل ؛ فصدقُ العزيمة : جمعُها وجزْمُها وعدم التردُّدِ فيها بل تكون عزيمة لا يَشوبها تردُّد ولا تلوُّم، فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعْل ؛ وهو استفراغ الوُسْع وبذْلُ الجهد فيه ، وألا يتخلَّف عنه بشيء من ظاهره وباطنه ، فعزيمة الصدق تمنعه من ضعْف الإرادة والهمة ، وصِدْق الفعْل يمنعه من الكسَل والفتور . ومَن صدَق الله في جميع أموره ، صنَع الله له فوق ما يصنع لغيره ، وهذا الصدق معنى يلتئم من صحَّة الإخلاص وصدْق التوكُّل ، فأصدق الناس مَن صحَّ إخلاصُه وتوكُّله » .

الثالث : البصيرة :

قال ابن القيم في «الفوائد» (٢٦٠-٢٦١): « العزيمة لِقاح البصيرة ، فإذا

اجتمعا نال صاحبهما خير الدنيا والآخرة ، وبلغت به همَّته من العلياء كل مكان . فتخلُّف الكمالات ؛ إما من عدم البصيرة ، وإما من عدم العزيمة .

والصبر لِقاح البصيرة، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما. قال الحسن: «إذا شئت أن ترى بصيرًا لا صبر له رأيته، وإذا شئت أن ترى صابرًا لا بصيرة له رأيته ، فإذا رأيت صابرًا بصيرًا فذاك » .

والبصيرة نور في القلب يُبصر به الوعْد والوعيد والجنة والنار ، وما أعدَّ الله في هذه لأوليائه ، وفي هذه لأعدائه ، فينفتح في قلبه عينٌ يرى بها ذلك ، ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها والدنيا وسرعة انقضائها .

فالبصيرة نور يقذفه الله في القلب ، يرى به حقيقة ما أخبرتْ به الرسل ، كأنه يشاهده رأْي عينٍ ، فيتحقَّق مع ذلك انتفاعُه بما دعت إليه الرسل ، وتضرُّره بمخالفتهم .

والبصيرة على ثلاث درجات ، من استكملها فقد استكمل البصيرة ؛ بصيرة في الأسماء ، وبصيرة في الأمر والنهي ، وبصيرة في الوعد والوعيد :

فالبصيرة في الأسماء والصفات : أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ، ووصَفه به رسوله ، بل تكون الشُّبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشُّبه والشكوك في وجود الله ، فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر . وتفاوت الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهْمها، والعلم بفساد الشُّبه المخالفة لحقائقها .

والمرتبة الثانية : **البصيرة في الأمر والنهي** : وهي تجريده عن المعارضة بتأويل أو تقليد أو هوى ؛ فلا يقوم بقلبه شبهة تعارِض العلم بأمر الله ونهيه ، ولا شهوة تمنع تنفيذه وامتثاله والأخذ به ، ولا تقليد يُريحه عن بذْل الجهد في تلقِّي الأحكام من مشكاة النصوص .

والمرتبة الثالثة : **البصيرة في الوعْد والوعيد** : ومن البصيرة أنك تستدلُّ

بتوفيقه لك ، وجَذْبك نفسَك ، وجَعْلِك متمسِّكًا بحبله - على تقريبه لك ، تشاهد ذلك ليكون أقوى في المحبة والشكر ، وبذْل النصيحة في العبوديَّة . وهذا كله من تمام البصيرة . فمن لا بصيرة له فهو بمعْزِلٍ عن هذا .

والبصيرة تفجِّر ينابيع المعارف من القلب . وبالبصيرة يُميِّز العبد بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب . وفراسة الصادقين العارفين بالله وأمره وبصيرتهم متصلة بالله ، متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان ، تميّز بين ما يحبه الله وما يُبغضه من الأعيان والأقوال والأعمال ، وتميّز بين الخبيث والطيِّب ، والمحِقِّ والمُبْطل ، والصادق والكاذب ، ويعرف بها مقادير استعداد السالكين إلى الله ، فحملت كل إنسان على قدر استعداده ، علمًا وإرادة وعملًا .

ففراسة الصادقين وبصيرتهم دائمًا حائمة حول كشْف طريق الرسول وتعرُّفها وتخليصها من بين سائر الطرق ، وبين كشف عيوب النفس ، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين. فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة، وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده »[1] .

الرابع : العلم :

فمَن استوى عنده العلم والجهل ، أو كان قانعًا بحاله وما هو عليه ؛ فكيف تكون له همَّة أصلًا فالعلم يرتقي بالهمَّة ، ويرفع طالبه عن حضيض التقليد ، ويُصفِّي النية .

قال ابن حجر رحمه الله يصف حال الإمام جلال الدين البلقيني : «ما رأيت أحدًا ممَّن لقيته أحرصَ على تحصيل الفائدة منه ، بحيث إنه إذا طَرَق سمْعَه شيء لم يكن يعرفه؛ لا يَقرُّ ولا يهدأ ولا ينام حتى يقف عليه ويحفظه، وهو على هذا مكِبٌّ على الاشتغال ، محبٌّ في العلم حقَّ المحبة »[2] .

---

(١) مدارج السالكين ١/١٢٣- ١٣١ .
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٤/١٠٩، للحافظ السخاوي .

« والعلم يُورث صاحبه الفقه بمراتب الأعمال ، فيتقي فضول المباحات التي تشغله عن التعبُّد ، كفضول الأكل والنوم والكلام ، ويراعي التوازن والوسطية بين الحقوق والواجبات ؛ امتثالًا لقوله ﷺ : « أعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه » ، ويبصِّره بحيل إبليس وتلبيسه عليه ، كي يحول بينه وبين ما هو أعظم ثوابًا . قال أبو سليمان : يجيئك - أي إبليس - وأنت في شيء من الخير ، فيشير لك إلى شيء من الخير دونه ليربح عليك شعيرة »(١) .

قال ابن القيم : « إن السالِك على حسب علْمِه بمراتب الأعمال ونفائس الكَسْب ؛ تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه » .

الخامس : اليقظة :

قال ابن القيم رحمه الله : هي انزعاج القلب لروْعة الانتباه من رقْدة الغافلين . ولله ما أنفع هذه الرَّوْعة !! وما أعظم قدرها وخطرها !! وما أشدَّ إعانتها على السلوك !! فمن أحسَّ بها فقد أحسَّ - والله - بالفلاح ، وإلا فهو في سكراتِ الغفْلة ، فإذا تنبَّه شمَّر لله بهمَّته إلى السفر إلى منازله الأولى ، وأوطانه التي سُبي منها :

فحيَّ على جناتِ عدنٍ فإنها　　منازلُكَ الأولى وفيها المخيَّمُ
ولكنَّنا سَبْيُ العدوِّ فهل ترى　　نعود إلى أوطاننا ونُسَلِّمُ ؟(٢)

قال شيخ الإسلام الهروي : « هي القومة لله المذكورة في قوله : ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى** ﴾ » . وقال : « القومة لله هي اليقظة من سِنَة الغفلة والنهوض من ورطة الفترة ، وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه . وهي على ثلاثة أشياء :

لحظ القلب إلى النعمة : على اليأس من عدِّها ، والوقوف على

---

(١) علوُّ الهمة ، للشيخ محمد إسماعيل صـ ٣٤٤ .
(٢) مدارج السالكين ١/١٢٣ .

حدِّها ، والتفرُّغ إلى معرفة المنَّة بها ، والعلم بالتقصير في حقِّها » .

« والثاني : مطالعة الجناية ، والوقوف على الخطر فيها ، والتشمير لتداركها ، والتخلُّص من رِقِّها ، وطلب النجاة بتمحيصها .

والثالث[١]: الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام ، والتنصُّل من تضييعها والنظر إلى الظنِّ بها لتدارك فائتها ، وتعمير باقيها » .

أخي :

لا يكون المؤمن العامر القلب إلَّا متحرِّكًا مُحرِّكًا ، أمَّا المتباطئ الذي يَعدُ بالالتحاق بعدما تظهرُ بوادر النجاح ، فإنما يعدُ وعْد الضِّعاف .

صاحِ ما الحرُّ من يثورُ على الظلْـ ـمِ وقدْ ثارتْ لحقِّها الأقوامُ
إنما الحرُّ من يسيرُ إلى الظلْـ ـمِ فيصميهِ والأنام نِيامُ

فلا تؤجل الانضواءَ تحت لواءِ الحقِّ ، وإلَّا عضضتَ أسِنَّة الندم .

دعا رسول الله ﷺ « ذا الجوشن الضبابي » بعد « بدر » ، فقال له : « هل لك إلى أن تكون من أوائل هذا الأمر ؟ » قال : لا . قال : « فما يمنعُك منه ؟» قال: رأيتُ قومك كذَّبوك وأخرجوك وقاتلوك، فأنظر : فإن ظهرت عليهم آمنت بكَ واتَّبعْتُك ، وإن ظهروا عليك لم أتبعك .. فكان ذو الجوشن يتوجَّع على ترْكه الإسلام حين دعاه إليه رسول الله ﷺ[٢] .

إذا ما علا المرءُ رام العلا ويقنع بالدُّونِ مَن كان دونا

السادس : خروجه عن المألوفات والعادات :

وتوطين النفْس على مفارقتها ، والغربة بين أهل الغفلة والإعراض ، وما على العبد أضرُّ من ملْك العادات له . وما عارض الكفَّار الرسل إلا بالعادات المستقرّة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين ، فمن لم يوطِّن نفسه على مفارقتها

---

(١) يعني من مراتب اليقظة .
(٢) المنطلق صـ ١٩١ .

والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه ، فهو مقطوع ، وعن فلاحه وفوزه ممنوع : ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عدَّةً ولكن كره الله انبعاثهم فثبَّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾[1] .

السابع : التفكُّر :

قال ابن القيم : « إذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة ، وهو تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماسًا له » .

قال الهروي : « وهي ثلاثة أنواع : فكرة في عين التوحيد ، وفكرة في لطائف الصنعة ، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال » .

قال ابن القيم : « الفكرة فكرتان : فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة ، وفكرة تتعلَّق بالطلب والإرادة . فالتي تتعلَّق بالعلم والمعرفة : فكرة التمييز بين الحقِّ والباطل ، والثابت والمنفي . والتي تتعلق بالطلب والإرادة : هي الفكرة التي تميِّز بين النافع والضار . ثم يترتب عليها فكرة أخرى في الطريق إلى حصول ما ينفع فيسلكها ، والطريق إلى ما يضرّ فيتركها .

فهـذه ستة أقسام لا سابع لها ، هي مجال أفكار العقلاء »[2] .

« عن سالم بن أبي الجعْد قال : سألت أمَّ الدرداء رضي الله عنهما : ما كان أفضل عمَل أبي الدرداء ؟ فقالت : التفكُّر .

قال الحسن : التفكُّر مرآةٌ تُريك حسناتك وسيئاتك .

وقال أبو جعفر الأدمي: كان يُقال : الهمُّ بالعمل يُورث الفكرة ، والفكرةُ تُورث العِبْرة ، والعِبرة تورث الحزْم ، والحزم يُورث العزْم ، والعـزم يُـورث اليقين ، واليقين يُورث الغِنى، والغنى يُورث الشكر ، والشكر يُورث المزيد ،

---

(١) مدارج السالكين ١ / ١٤٥ - ١٤٦ .
(٢) مدارج السالكين ١ / ١٤٦ .

والمزيد يورث الجنة .

وقال عبد الرحمن بن زيد : ما رأس هذا الدين وصلاحه إلا التفكُّر ؛ تتفكر فتنظر أنه أخذ منك قليلًا من العمل ، ورضي به لنفسه ، وهو الربُّ تبارك وتعالى !! فأنت العبد .. ما كلَّفك من ثنتيْن ، ما كلّفك قدر حقِّه فلا تطيقُه ، وما كلّفك ما لا تستطيع فقال : اعملْ على قدْر حقِّي .. فأعطاك الثواب على قدْر كرمه وتوسُّعه ، وقَبِلَ منك العمل على ضعْف ابن آدم !!

وقال أحمد بن أبي الحواري:سمعتُ أبا سليمان يقول: إنما يُعاينون[1]إذا تفكَّروا .

قال أحمد بن أبي الحواري : قلتُ لأبي صفوان – عبد الله بن سعيد بن عبد الملك بن مروان –: أيما أحبُّ إليك : يجوع الرجل فيجلس يتفكر ، أو يأكل فيقوم فيصلِّي ؟ قال : يأكل ويقوم ويتفكَّر في صلاته أحبُّ إليَّ ، فحدّثتُ به أبا سليمان فقال : صدق ؛ الفكرة في الصلاة أفضل من الفكرة في غير صلاة ؛ لأن الفكرة في الصلاة عملان ، وعملان أفضل من عمل .

قال وهب بن منبه : المؤمن مفكِّر مُذَّكر مُزدَجِر، تفكَّر فَعَلَتْه السكينة، فسَكن فتواضع ؛ قنع فلم يهتمَّ، رفض الشهوات فصار حرًّا ، ألقى الحسدَ فصارت له المحبَّة ، زهِد في كل فانٍ فاستكمل العقل ، فقلبه متعلّق بهمِّه ، وهمُّه موكَّل بمعاده ، لا يفرح إذا فرح أهل الدنيا ، بل حزنه سَرْمد ، فهو دهرَه محزون ، وفرحُه إذا نامتِ العيون ، يتلو كتاب الله تعالى يردِّده على قلبه ، فمرةً يَفزع قلبُه ، ومرَّة تهمل عيناه ، يقطع عنه الليل بالتلاوة ، ويقطع عنه النهار بالخلوة مفكِّرًا في ذنوبه ، مستصغرًا لأعماله . قال وهب : هذا يُنادىٰ يومَ القيامة في ذلك الجمْع العظيم على رؤوس الخلائق : قمْ أيُّها الكريم ، فادخلِ الجنَّة .

---

(١) أي يَصلون إلى مرتبة الإحسان ، كأنهم يؤمنون بعد مشاهدتهم الله ومعاينته .

وقال الحسن : أوصيكم بتقوى الله وإدمان الفِكْر ، فإن الفكر أبو كُلِّ برٍّ وأمُّه ، مَفتح خِلالِ الخير كلّه ، وبه يَحضر تسديدُ الله عز وجل كلَّ موفَّق .

وقال لسفيان بن عيينة : التفكُّر مفتاح الرحمة ، ألا ترى أنه يتفكَّر فيتوب ؟!

قال الفُضيْل : كلام المؤمن حِكَم ، وصَمْته تفكُّر ، ونَظره عِبرة . إذا كنتَ كذلك لم تزل في العبادة .. ثم قرأ:﴿ **وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وقال خليفة العبدي - وكان متعبِّدًا -: لو أن الله تبارك وتعالى لم يُعبد إلَّا عن رؤيةٍ ؛ ما عبده أحد ، ولكن المؤمنون تفكَّروا في مجيء هذا الليل إذا جاء ، فملأ كلَّ شيء وغطَّى كل شيء ، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء ، فمحا سلطان الليل ، وفي السحاب المسخَّر بين السماء والأرض ، وفي النجوم ، وفي الشتاء والصيف ؛ فوالله ما زال المؤمنون يتفكَّرون فيما خَلَق ربُّهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربِّهم عز وجل ، وحتى كأنما عبدوا الله تبارك وتعالى عن رؤية .

وقال كعبُ الأحبار : من أراد أن يبلغ شرف الآخرة فلْيُكْثِرِ التفكُّرَ ، يكنْ عالمًا .

وقال وهب بن منبّه : ما طالت فكرةُ امرئ قطُّ إلّا فهِم ، وما فهم امرؤٌ قطُّ إلا عَلِم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل »[1] .

الثامن : الاجتهاد في حَصْر الذهْن ، وتركيز الفِكر في مَعالي الأمور :

قال الحسن البصري : « نفسك إن لم تشغلها بالحقِّ شغلتْك بالباطل » .

«قال « وليم مولتون مارستن » المتخصص في علم النفس : « والعقل

---

(١) انظر كتاب : العظمة ، لأبي الشيخ الأصبهاني . تحقيق : رضا الله بن محمد المباركفوري صـ ٢٢١ - ٣١٢ ، دار العاصمة . الرياض .

الإنساني يصبح أداة مُدهِشة الكفاءة إذا رُكِّز تركيزًا قويًّا حادًّا » .

ونُقل عن « وليم جيمس » - وهو أبو علم النفْس الحديث - أنه قال : « إن الفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس العاديِّين ليس مرجعه إلى صفة أو موهبة فطرية للعقل، بل إلى الموضوعات والغايات التي يوجِّهون إليها هممهم، وإلى درجة التركيز التي يسعُهم أن يبلغوها » .

ثم يقول « وليم مولتون » : وهذه القدرة تُكتسب بالمرانة ، والمرانة تتطلب الصبر ؛ فإن الانتقال من الشرود إلى حصْر الذهن حصْرًا بيِّنًا محكَمًا - هو ثمرة الجهد المُلِحّ ، فإنِ استطعتَ أن تُردَّ عقلك مرَّة بعد أخرى وخمسين مرة ومائة مرة إلى الموضوع الذي اعتزمت معالجته؛ فإنَّ الخواطر التي تتنازعك لا تلبث أن تخلِّي مكانها للموضوع الذي آثرته بالاختيار ، ثم تلقى نفسك آخر الأمر قادرًا على حصْر ذهْنك بإرادتك فيما تختار »[1] .

ويحفل التاريخ الإسلامي بأمثلة عَطِرة :

فالتابعي الجليل قتادة بن دعامة أفناه شغلُه بالعلْمِ عن نفسه ؛ فقد قال مرَّة لغلامه : يا غلام : ناولني نعلي . قال : نعلُك في رجلك .

والإمام مسلم : كان سبب موته حصْر فكْره في حديث ؛ قال الحافظ أبو عمرو بن الصلاح عن الإمام مسلم : « وكان لموته سبب غريب ، نشأ من غمرة فكرية علميَّة ، فقرأتُ بنيسابور - حرسها الله ، وسائر ديار الإسلام وأهله - فيما انتخبته من « تاريخها » للحاكم النيسابوري على الشيخ الزكي أبي الفتح منصور بن عبد المنعم .

قال أحمد بن سلمة - رفيق مسلم في الرحلة -: عُقِد لأبي الحسين مسلم بن الحجَّاج مجلس للمذاكرة ، فذُكر له حديث لم يعرفه ، فانصرف إلى

---

(١) علو الهمة ، للشيخ محمد إسماعيل صـ ٣٤٧، ٣٤٨ نقلًا عن « رُوح الصلاة في الإسلام » للشيخ عفيف طبارة صـ ٣٢ .

منزله ، وأوقد السراج ، وقال لمن في الدار : لا يدخلنَّ أحد منكم هذا البيت . فقيل له : أُهديتْ لنا سَلة فيها تمر . فقال : قدِّموها إليَّ ، فقدَّموها إليه ، فكان يطلب الحديث ويأخذ تمرة تمرة يمضغها ، فأصبح وقد فنِيَ التمر ، ووجد الحديث . قال الحاكم : زادني الثقة مِن أصحابنا أنه منها مرِض ومات »[1] .

ومن قبله شيخه البخاري :

يقظاتُه ومنامُه شَرَعٌ[2] كلٌّ بكُلٍّ فهوَ مشتبهُ

يتذكر الحديث في منامه ، فهل سمعتَ بشغَف للعلم مثل هذا ؟!

قال محمد بن يوسف البخاري : كنت مع محمد بن إسماعيل البخاري بمنزله ذات ليلة ، فأحصيتُ عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يُعلِّقها في ليلة ثمان عشرة مرة[3] .

وقال محمد بن أبي حاتم الورَّاق : كان أبو عبد الله إذا كنتُ معه في سفر ، يجمعنا بيت واحد ، إلَّا في القيْظ أحيانًا ، فكنتُ أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة ، في كل ذلك يأخذ القدّاحة فيوري نارًا ويُسرج ، ثم يُخرج أحاديث فيُعلِّم عليها[4] .

وما قصَّه الإمام ابن سحنون مع سُرِّيته أمِّ مدام - التي ذكرناها في علو همته في طلب العلم - منا ببعيد ، فارجع إليها ففيها العجب العُجاب !!

والإمام أبو بكر الباغندي من شغله بالحديث وحصر فكره فيه ؛ قال عنه عمر بن شاهين : « قام أبو بكر الباغندي ليصلّي ، فكبَّر ، ثم قال : أخبرنا محمد بن سليمان لُوَيْن ، فسبَّحنا به ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥٦٤/١٢، و « صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمايته من الإسقاط والسقط » صـ ٦٤ .
(٢) الشرع : جمع الشّرع ، وهو المِثْل والشبيه .
(٣) تاريخ بغداد ٧/٢، والسير ٤٠٣/١٢ .
(٤) طبقات السُّبكي ٢٢٠/٢، وتهذيب الكمال ١١٧٠ .

لله رب العالمين »[١] .

والإمام المحدِّث أبو العباس الأصمّ ؛ قال عنه الحاكم : « حضرتُ أبا العباس يومًا في مسجده فخرج ليؤذِّن لصلاة العصر ، فوقف موضع المئذنة ، ثم قال بصوت عالٍ: أخبرنا الربيع بن سليمان، أخبرنا الشافعي.. ثم أذّن»[٢].

ومن قبلهم شيخ بيت النبوة زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما : قال أبو نوح الأنصاري : « وقع حريق في بيت فيه علي بن الحسين وهو ساجد ، فجعلوا يقولون : يا ابن رسول الله ، النار . فما رفع رأسه حتى طُفئت ، فقيل له في ذلك ، فقال : ألهتني عنها النار الأخرى »[٣] .

التاسع : القصْدُ وصدْق الإرادة :

قال ابن القيم : « إذا انتبه العبد وأبصر ، أخذ في « القصد » وصدق الإرادة ، وأجمع القصد والنية على سفَر الهجرة إلى الله ، وعلِمَ وتيقَّن أنه لا بدّ له منه ، فأخذ في أُهْبَة السفر ، وتعبِئة الزاد ليوم المعاد ، والتجرُّد عن عوائق السفر ، وقطْع العلائق التي تمنعه من الخروج » .

قال الهروي : « الدرجة الأولى : قصد يبعث على الارتياض ، ويخلِّص من التردُّد ، ويدعو إلى مجانبة الأغراض » .

قال ابن القيم : « فذكر له ثلاث فوائد : أنه يبعث على السلوك بلا توقُّف ولا تردُّد ، ولا غير العبودية ، من رياء أو سمعة ، أو طلب محمدة ، أو جاهٍ ومنزلة عند الخلق » .

قال الهروي : « الدرجة الثانية : قصد لا يلقى سببًا إلا قطعه ، ولا حائلًا إلا منعه،ولا تحامُلًا إلا سهَّله » .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٩٣ .
(٢) المصدر السابق ١٥ / ٤٥٨ .
(٣) السير ٤ / ٣٩١ - ٣٩٢ .

قال ابن القيم : « يعني أنه لا يلقى سببًا يُعَوِّق عن المقصود إلا قطعه ، ولا حائلًا دونه إلا منعه ، ولا تحاملًا إلا سهَّله » .

قال الهروي : « الدرجة الثالثة : قصد الاستسلام لتهذيب العلم ، وقصد إجابة داعي الحكْم » .

قال ابن القيم : « يريد أنه ينقاد إلى العلم ليتهذّب به ويصلُح ، ويقصد إجابة داعي الحكْم الديني الأمري كلَّما دعاه ؛ فإن للحكم في كلِّ مسألة من مسائل العلم مناديًا ينادي للإيمان بها عِلمًا وعملًا ، فيقصد إجابة داعيها . ولكن مراده بداعي الحكم : الأسرار والحِكَم الداعية إلى شرع الحكم . فإجابتها قدْر زائد على مجرَّد الامتثال ؛ فإنها تدعو إلى المحبَّة والإجلال والمعرفة والحمد ، فالأمر يدعو إلى الامتثال ، وما تضمَّنه من الحِكم والغايات تدعو إلى المعرفة والمحبَّة » .

العاشر : العزْم على الكمالات :

قال ابن القيم في « الفوائد » (صـ ٢٦٠) : « العزْم لِقاح البصيرة ، فإذا اجتمعا نال صاحبهما خير الدنيا والآخرة ، وبلغت به همته من العلياء كلَّ مكان. فتخلُّف الكمالات إمَّا من عدم البصيرة ، وإمَّا من عدم العزيمة » .

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » (١/١٢٣) : « العزم : هو العقْد الجازم على المسير ومفارقة كلِّ قاطِع ومُعوِّق ، ومرافقة كلِّ معين وموصل . وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه، وبحسب قوة عزمه يكون استعداده».

والعزم نوعان : أحدهما: عزم على الدخول في الطريق ، والثاني : عزم في حال السير معه . وهو أخصُّ من هذا .

فلا تتوقفْ متردِّدًا أو قلقا ، ولا تضيِّع نفسك بالشكوك التي لا تلد إلا الشكوك .

ومشتَّت العزَماتِ يُنفق عمرَهُ   حيرانَ لا ظفرٌ ولا إخفاقُ

وقال آخر :

إذا كنت ذا رأيٍ فكُن ذا عزيمةٍ فإنَّ فساد الرأي أن تتردَّدا

وصدق الله العظيم إذ يقول:﴿ **فإذا عزمَ الأمْر فلو صدقوا الله لكان خيرًا لهم** ﴾ .

أخي : ألفْتَ عجْزَ العادة ، فلوْ عَلَتْ بك همَّتك ربٰى المعالي ؛ لاحتْ لك أنوار العزائم .

إذا طلع نجمُ الهمَّة في ظلام ليل البطالة ، وردفَهُ قمرُ العزيمة أشرقت الأرض بنور ربها .

« رأى بعض الحكماء بِرْذَونًا[1] يُسقٰى عليه ، فقال : لو هَمْلَج هذا لَرُكِب.إقدام العزم بالسلوك اندفع من بين أيديها.سدُّ القواطع محَنٌ يتبيّن بها الصادقُ من الكاذب ، فإذا خُضتَها انقلبتْ أعوانا تُوصلك إلى المقصود »[2] .

قال ابن القيم : « إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته ؛ عرضت له الخوادع والقواطع ، فينخدع أولًا بالشهوات والرياسات ، والملاذِّ والمناكح والملابس ، فإن وقف معها انقطع ، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه ، ابتُلَي بوطء عَقِبه وتقبيل يده ، والتوسعة له في المجلس ، والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بَركته ... ونحو ذلك ، فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظّه منه ، وإن قطعه ولم يقف معه ؛ ابتُلي بالكرامات والكشوفات ، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظَّهُ، وإن لم يقف معها ابتُلي بالتجريد والتخلِّي ، ولذة الجمعية ، وعزة الوحدة ، والفراغ من الدنيا ، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود . وإن لم يقف معه وسار ناظرًا إلى مراد الله منه وما يحبه منه ؛ بحيث يكون عبدَه الموقوف على محابِّه ومراضيه أين كانت وكيف كانت ، تعبَ

(١) ضرْب من الدوابِّ دون الخيل وأقدر من الحُمُر .
(٢) الفوائد صـ ٦٠ .

بها أو استراح ، تنعَّم بها أو تألَّم ، أخرجتْه إلى الناس أو عزلته عنهم ، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليُّه وسيِّده ، واقف مع مراده ينفذه بحسب الإمكان ، ونفْسُه عنده أهون عليه أن يقدِّم راحتها ولذَّتها على مرضاة سيده وأمْره - فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ، ولم يقطعه عن سيِّده شيء ألبتة . وبالله التوفيق »[١] .

الحادي عشر : الغيْرة :

والغيرة من تمام البصيرة ؛ « لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقِّه ومحبته وإجلاله تكون الغيرة عليه أن يُضيَّع ، والغضب على من أضاعه ؛ فإن ذلك دليل على محبَّة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه ، وذلك عين البصيرة ؛ فكما أن الشك القادح في كمال الامتثال مُعْمٍ لعين البصيرة ، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله إذا ضُيِّعتْ ومحارمه إذا انتُهكت؛ مُعْمٍ لعين البصيرة»[٢] .

والغضب لمحارم الله إذا استُحلَّت - كما يغضب النَّمِر إذا حَرِب -[٣] من صفات عُلاة الهمم .

« وغيرة العبد من نفسه على نفسه ، كغيرته من نفسه على قلبه ، ومن تفرقته على جمعيَّته ، ومن إعراضه على إقباله ، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة . وهذه الغيرة خاصيَّة النفس الشريفة الزكيَّة العلوية ، وما للنفس الدنيَّة المهينة فيها نصيب»[٤] .

وعلى قدر هذه الغيرة يكون شرف النفْس وعلو همتها .

ولم أرَ في عُيوب الناسِ عيبًا كنقْصِ القادرين على التمامِ

(١) الفوائد صـ ٢٢٧ .
(٢) مدارج السالكين ١ / ١٢٧ .
(٣) حَرِب النمِرُ وغيرُه : إذا اشتدَّ غضبه .
(٤) مدارج السالكين ٣ / ٤٣ - ٤٤ .

وحين ينتكس الإنسان يهوي إلى الدرْك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قطٌّ ، حين تصبح البهائم أرفع منه وأقوم ، حين يرتكس مع هواه إلى درْك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه ، يرتكس في المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين ، ويتمخض للسُّفول ، وإذا ماتت فيه الغيْرة على نفسه وعلى المحارم ؛ يصبح أسفل من البهائم .

ولا يقيم على ضيْمٍ يُرادُ بِهِ   إلّا الأذلّان عِيرُ الحيّ والوتدُ
هذا على الحبْل مربوطٌ برمّتِهِ   وذا يُشجُّ فما يدري بِهِ أحدُ

الثاني عشر : الدعاء :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أبخل الناس مَن بخل بالسلام ، وأعجز الناس من عجز عن الدعاء »[(١)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء »[(٢)] .

فإذا أردتَ بابًا أقرب إلى مولاك وأوسع ولا مزاحِمَ فيه ؛ فادخلْ من باب الذلِّ والافتقار ؛ فإن لانكسار القلب تأثيرًا عجيبًا في المحبة وعلوِّ الهمة لا يُعبَّر عنه ، هذه الذلة والكسْرة الخاصَّة تدخلك على الله ، وترميك على طريق المحبَّة ، فيُفتح لك منها باب لا يُفتح لك من غير هذا الطريق ، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة . لكن الذي يُفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار ، وازدراء النفس ، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم ، بحيث تشاهدها ضيعة وعجزًا وتفريطًا وذنبًا

---

(١) صحيح : رواه أبو يعلى في مسنده ، ورواه ابن حبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥١٩ .

(٢) حسن : رواه أحمد ، والبخاري في الأدب ، والترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٣٩٢ .

وخطيئة – نوع آخر وفتح آخر ، وطريق إلى علو الهمة عجيب . ومَنْ ذاق عرف .

والسالك بهذه الطريق غريب في الناس ، وهم في وادٍ وهو في وادٍ ، وهي تسمَّى طريق الطيْر ، يسبقُ النائم فيها على فراشه السُّعاةَ ، فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركْب .

من لي بمِثْل سيْرك المُدَلَّلِ تمشي رُوَيْدًا وتجي في الأوَّلِ

والدعاء والذل والانكسار ، والخضوع والافتقار للربِّ جلّ جلاله ؛ غايةٌ شمّر إليها السالكون ، وأمَّها القاصدون ، ولحظ إليها العاملون ، كيفَ لا والعبد يشهد في كل ذرَّة من ذرَّاته الباطنة والظاهرة ، ضرورة تامَّة ، وافتقارًا تامًّا إلى ربِّه ووليِّه ، ومن بيده صلاحه وفلاحه ، وهداه وسعادته ، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وإنما تُدرَك بالحصول .

فيحصل لقلبه كسْرة خاصَّة لا يشبهها شيءٌ ، بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل ، الذي لا شيء فيه ولا به ، ولا منه ولا فيه منفعة ، ولا يُرغب في مثله ، وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبْرٍ جديد من صانعه وقيِّمه . فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما مَنَّ ربه إليه من الخير ، ويرى أنه لا يستحقُّ قليلًا منه ولا كثيرًا ، فأيُّ خير ناله من الله استكثره على نفسه ، وعلمَ أن قَدْره دونه ، وعلم أن رحمة ربِّه هي التي اقتضت ذكْرَه به وسياقته إليه ، واستقلَّ ما مِن نفسه من الطاعات لربِّه ، ورآها – ولوْ ساوَتْ طاعات الثقَلَيْن – من أقلِّ ما ينبغي لربِّه عليه ، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه .

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور ، وما أدنىٰ النصر والرحمة والرزق وعلو الهمة منه !! وما أنفع هذا الذلّ له وأجراه عليه !! وذرَّة من هذا ونَفَس منه أحبُّ إلى الله من طاعاتٍ أمثالِ الجبال ، من المدلِّين المعجَبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم .

وأحب القلوب إلى الله سبحانه : قلب قد تمكّنت منه هذه الكسْرة ،

وملكتْه هذه الذلَّة؛ فهو ناكسُ الرأس بين يدي ربِّه، لا يرفع رأسه حياءً من الله.

قيل لبعض العارفين : أيسجُدُ القلب ؟ قال : نعم ، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء .

فهذا سجود القلب .. فقلب لا تباشره هذه الكسْرة فهو غير ساجد السجود المراد منه . وإذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى ؛ سجدت معه جميعُ الجوارح ، وعَنَا الوجهُ حينئذ للحيِّ القيوم ، وخشعتِ الجوارح والأصوات كلها ، وذلَّ العبد واستكان ، ووضع خدَّه على عتَبة العبودية ؛ ناظرًا بقلبه إلى ربِّه ووليِّه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم ، فلا يُرىٰ إلَّا متملِّقًا لربِّه خاضعًا له ، ذليلًا مستعطفًا له ، يقول : كيف أُغضِبُ مَنْ حياتي في رضاه ؟! وكيف أعدل عمَّن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه ؟!

وما الظنُّ بمَنْ هو أرحمُ بعبده من الوالد بولده ومن الوالدة بولدها ، إذا فرَّ عبدُه إليه ، وهرب من عدوِّه إليه ، وألقى بنفسه طريحًا ببابه ، يمرِّغ خدَّه في ثَرَىٰ أعتابه باكيًا بين يديه يقول : يا ربِّ ، يا ربِّ ، ارحمْ مَن لا راحِم له سواك ، ولا ناصِر له سواك ، ولا مأوى له سواك ولا مُغيثَ له سواك ، مسكينك وفقيرك ، وسائلك ومؤمِّلك ومُرجيك ، لا ملجأ له ولا منجا له منك إلَّا إليك ، أنت مَعاذُه ومَلاذه !!

يا مَن ألوذ به فيما أؤمِّلهُ ... ومَن أعوذ به ممّا أحاذرُهُ
لا يَجبرُ الناسُ عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنتَ جابِرُهُ

مولاي وسيدي وربي وإلهي ، أنت أصلحتَ الصالحين وأعليْت من هممهم ، فاجعلنا من الصالحين .. اجعلْنا لك كما تريد لا كما نريد ، سَخِّ أنفسنا عن الدنيا وهمِّها ، واجعلْ أنفاسَنا وحركاتِنا وسَكَناتنا وَقْفًا عليك أنت وحدك .

يا عيْنُ سُحِّي أبدَا ... يا نفْسُ موتي كَمَدَا
وَلا تحبِّي أحـدَا ... إلَّا الجليلَ الصَّمَدَا

الثالث عشر : التنافُس والتنازُع بين الشخص وهمَّتِه :

فعلى « مريد تطوير همَّته أن يُضيف أعباءً وأعمالًا يوميَّة لنفسه ، لم تكن موجودة في برنامج حياته السابق ؛ بحيث يحدث نوع من التحدِّي داخل الإنسان لإنجاز ما تحمَّله من أعباء جديدة ، ويجب أن تكون هذه الإضافة مدروسة بعناية وإحكام ، حتى لا يُصاب الشخص بالإحباط واليأس .

ويجب عليه كذلك أنْ يحسن اختيار هذه الأعمال والأعباء الجديدة ، بحيث تكون مُبلِغة له إلى الكمال ؛ « فمن كانت همته حفظَ جميعَ ما كتب محمد ابن الحسن – الشيباني – فالظاهر أنه يحفظ أكثرها أو نصفها »[1] . فالتحدي الذي نشأ في نفسه بسبب، رغبته في حفظ كُتب معيَّنة ؛ سيُوصله إلى حفظ أكثرها . والله أعلم »[2] .

الرابع عشر : الحرص على الوقت :

حياتك أنفاسٌ تُعدُّ فكلَّما مضى نفسٌ منها انتقصت به جزءَا
فتصبحُ في نقْصٍ وتُمسي بمثلِهِ أما لك معقول تُحِسُّ به رُزءَا
يميتُك ما يحييكَ في كلِّ ساعةٍ ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهُزْءَا

عُلاة الهمم يحرصون على « الثانية » من أوقاتهم حرْص الجَمُوع المنوع .. وحتى المصائب لا تلهيهم عن استغلال وقتهم والحرص عليه .

« واليُتْمُ والعمىٰ ، والغربة والفقر ؛ قد تكون أسبابًا للنبوغ والإنجاز والتقدُّم والعطاء .

قد يُنعمُ الله بالبلوىٰ وإنْ عظُمتْ ويَبتلي الله بعضَ القوم بالنِّعم

ألف ابن الأثير كتبَه الرائعة ، كـ « جامع الأصول» و «النهاية في غريب

(١) تعليم المتعلم في طريق التعلم ، للإمام برهان الدين الزرنوجي . تحقيق صلاح الخيمي ونذير حمدان – نشر : دار ابن كثير .
(٢) الهمة طريق إلى القمة صـ ٥٦ .

الحديث » ؛ بسبب أنه مُقعَد .

وألَّف السرخسيُّ كتابه الشهير « المبسوط » خمسة عشر مجلدًا ؛ لأنه محبوس في الجُبِّ !!

وكتب ابن القيم « زاد المعاد » وهو مسافر !!

وشرح القرطبي « صحيح مسلم » وهو على ظهر سفينة ، وجُلُّ فتاوىٰ ابن تيمية كتبها وهو محبوس .... وأخبرني أحد الصالحين أنه سُجن فحفظ في سجنه القرآن كله وقرأ أربعين مجلدًا »[١] .

لله درهم من أئمة !!

شمس الأئمة السرخسي في الجُبِّ :

« لقد أملىٰ شمس الأئمة كتابه « المبسوط » - نحو خمسة عشر مجلدًا - وهو في السجن بـ « أوزجند » ، وكان محبوسًا في الجبِّ بسبب كلمة نصَحَ بها الخاقان، وكان يملي من خاطره من غير مطالعة كتاب وهو في الجبِّ، وأصحابه من أعلىٰ الجبِّ، وقال عند فراغه من شرح العبادات: هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات ، أملاه المحبوس عن الجُمَع والجماعات .. !!

وقال في آخر شرح « الإقرار » : انتهى شرح « الإقرار » ، المشتمِل من المعاني على ما هو من الأسرار ؛ أملاه المحبوس في محبس الأشرار .

وللسرخسي كذلك كتاب في أصول الفقه ، وشرح « السير الكبير » أملاه وهو في الجب !! »[٢] .

الخامس عشر : اعتراف المرء بقصُور همَّته :

«اعتراف الشخص بقصور همته وأنه لا بد له أن يطوِّرها ويعلو بها، أمْرٌ

(١) « لا تحزن » لعائض القرني صـ ١٠٠ ، توزيع مكتبة ابن تيمية .

(٢) كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء ، لمحمد فهمي عبد اللطيف صـ ٣٠ - دار الاعتصام .

أَوَّلِيٌّ نفسيٌّ لا مناص منه في هذا الباب ، ومِنْ ثَمَّ لا بد أن يعتقد أنه قادر على أن يكون من أهل الهمّة العالية ، فهذان الأمران - الاعتراف بقصور الهمَّة ، واعتقاد إمكانية تطويرها - عاملان مهمَّان لا بدَّ منهما في محاولة تطوير الهمّة ، وبدونهما لا يكون الشخص قد خطا خطوات صحيحة »[١] .

السادس عشر : مجاهدة النفس :

من لم يباشر حَرَّ الهجير في طلب المجد لم يَقِلْ في ظلِّ الشرَف .. خُلِق الإنسان في كَبَد ونصَب .. وهناك مَن يكدح في سبيل نزوة وشهوة ، والعظيم يكدح في سبيل عقيدة ودعوة ، وليس للعابد مستراح إلا تحت شجرة «طوبى»، ولا للمحبِّ قرار إلا يوم المزيد ، فاشتغلْ به في الحياة يَكفِك ما بعد الموت .

هان عليهم طول الطريق لعلمهم أين المقصد ، وحَلَتْ لهم مراراتُ البِلىٰ حُبًّا لعواقب السلامة ، فيا بشراهم يومَ ﴿ **هذا يومكم** ﴾ .

قفْ بالديار فهذه آثارُهمْ ... تبكي الأحبَّة حسْرةً وتشوُّقا
كمْ قد وقفتُ بها أسائلُ مخبرًا ... عن أهلها أو صادِقًا أو مشفقا
فأجابني داعي الهوىٰ في رسْمِها ... فارقتَ مَن تهوى فعزَّ الملْتقىٰ

أخي ، أول الطريق بذل الروح ، هذه الجادَّة فأين السالك ؟

بِدَمِ المُحبِّ يُباعُ وَصْلهمُ ... فمنِ الذي يَبتاع بالثَّمن

يا طفلًا في حِجْر العادة، محصورًا بقماط الهوى، ما لك ومزاحمة الرجال؟! تمسَّكتَ بالدنيا تمسُّك المرضع بالظئر ، والقومُ ما أعاروها الطرْف !! ما لك والمحبَّة ، وأنت أسيرُ حَبَّة ؟! كم بينك وبينهم !! وهل تدري أين هم ؟!

يا هذا ، مَن جاهد نفسه وَجَدَّ وَجَدَ، وليس مَن سَهِر كمَن رقد ، والفضائل تحتاج إلى وثْبة أسد .

---

(١) الهمة طريق إلى القمة صـ ٥١ - ٥٢ .

ونحنُ أناسٌ لا توسُّطَ عندنا لنا الصدرُ دونَ العالمين أو القبرُ

أخي ، لو قدْ طلعت شمس العزيمة في نهار اليقظة ، لأُنبتَ عالم النشاط في صحراء المجاهدة .

إلّا تمُتْ تحتَ السيوفِ مُكرَّمًا تمُتْ وتُقاسِ الذُّلَّ غيْرَ مُكرَّم

فثِبْ واثقًا باللهِ وثْبة ماجدٍ يرىٰ الموتَ في الهيجا جَنى النحل في الفمِ

قال ابن القيم رحمه الله : « أَعْرِف مَن أصابه مرضٌ من صداع وحمًّى ، وكان الكتاب عند رأسه ، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه ، فإذا غُلب وضَعَه ، فدخل عليه الطبيبُ يومًا وهو كذلك ، فقال : إنَّ هذا لا يحلُّ لك ؛ فإنك تُعين على نفسك وتكون سببًا لفوات مطلوبك »(١) .

وقال الإمام عيسى بن موسى : « مكثتُ ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك العامَّة في أكْل هريسة السوق ، فلا أقدر على ذلك ، لأجل البكور إلى سماع الحديث »(٢) .

جاهدْ بقلبك قبْل جوارحك؛ فالاعتبار عندنا بالأعمال القلبية.. غلبت حراراتُ الخوف قلب داود فصار كفُّهُ كِيرًا ، ﴿ **وألنَّا له الحديد** ﴾ ، وقويت رُوحانية محمد ﷺ فنبع الماء من بين أصابعه !!

لولا مدامعُ ساداتٍ ولوْعَتُهمْ لَبَان في الناس عِزُّ الماء والنارِ

فكلُّ نار فمنْ أنفاسهم قُدِحَتْ وكلُّ ماء فمِن طرْفٍ لهمْ جاري

جاهد يا أخي.. لتكنْ عبدَ الله وحدَه، فحقيقة الحرية في كمال العبودية..

أتمنى على الزمانِ مُحَالًا أنْ ترىٰ عيناي طلعة حُرِّ

قل لقيود الأرض وزُخرفها : لا ، لا يا قيود الملك ؛ فالمِلك يدعوني إلى جواره في فِرْدوسه .. فجاهِدْ نفسك يا أخي تصل إلى الشرف كل الشرف ، كما قال يحيى بن معاذ : أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد ، وأبناء الآخرة تخدمهم

---

(١) روضة المحبِّين لابن القيم صـ ٧٠ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١/٢٩٨ .

الأحرار والأبرار .

قال ابن أدهم : إن الحرَّ الكريم يخرج من الدنيا قبل أن يُخرج منها .

وسُئل الجنيد عمَّن لم يبقَ عليه من الدنيا إلا مقدار مَصّ نواة ؟ فقال : المكاتِبُ عبدٌ ما بقي عليه درهم .

قال بشر بن الحارث : « لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد » .

وقال أبو سليمان الداراني : أفضل الأعمال : خلافُ هوىٰ النفْس .

وقال السري السقطي : لن يكمل رجلٌ حتى يُؤْثِر دينه على شهوته ، ولن يهلك حتى يُؤْثر شهوته على دينه .

قيل للمرتعش : إن فلانًا يمشي على الماء ! فقال : إنّ مَن مكَّنه الله من مخالفة هواه ، لهو أعظم من المشي على الماء .

وقال حاتم الأصمُّ : الموتُ الأحمر : مخالفة النفْس .

وقال السري : أقوىٰ الفتوة : غَلَبَتُك نفْسك .

وقال أحمد بن خضرويه : أَمِتْ نفسَك تُحْيِها .

وقال محمد بن أحمد بن سالم البصري : مَن صبر على مخالفة نفسه أوصله الله إلى مقام أُنْسِه .

وقال أبو بكر بن الضرير المقَّري : دافعتُ الشهوات حتى صارت شهوتي المدافعة .

وقد كان أهل الحزْم يعوّدون أنفسهم مخالفة هواها وإن كان مباحًا ، ليقع التمرين للنَّفْس على ترك الهوى مطلقًا ؛ وليطلب الأرباح في المعاملة بترْك المباح .

السابع عشر : قِصَر الأمل ، وكثرة ذكْر الموت :

وقصر الأمل يدفع إلى علوِّ الهمة وحُسْن العمل :

فهذه أمُّ الصَّهْباء معاذة العدويَّة زوجة صِلة بن أشيم ؛ « كانت إذا جاء

النهار قالت : هذا يومي الذي أموت فيه .. فما تنام حتى تُمسي ، وإذا جاء الليل قالت : هذه ليلتي التي أموت فيها .. فلا تنام حتى تصبح »[(١)] .

وكانت حفصة بنت سيرين إذا قامت إلى مصلَّاها من الليل لبستْ كفَنَها.

وقال الربيع بن خُثيم : لو غفل قلبي عن ذكر الموت ساعةً واحدة ؛ لفسد قلبي .

وكانت ماجدة القرشية تقول : طوىٰ أملي طلوعُ الشمس وغروبُها ، فما مِن حركة تُسمع ولا مِن قدم تُوضع ؛ إلا ظننتُ أنَّ الموت في أثرها .

وتقول : بسطوا آمالهم فأضاعوا أعمالهم ، ولو نصبوا الآجال وطَوَوا الآمال ؛ خفّتْ عليهم الأعمال[(٢)] .

عن ابن عمر قال : أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسَدي فقال : « كنْ في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل ، وعُدَّ نفسك في أهل القبور »[(٣)] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : مرَّ بنا رسول الله ﷺ وأنا وأمي نُطيِّنُ شيئًا ، فقال : ما هذا يا عبد الله ؟ قلتُ : شيء نصلحه . قالَ : « الأمر أسرع من ذلك »[(٤)] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذْ بصُر بجماعة فقال : « عَلامَ اجتمع عليه هؤلاء ؟» . قيل : على قبر يحفرونه . قال : ففزع رسول الله ﷺ ، فبَدَر من بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر ، فجثا عليه . قال : فاستقبلتُه من بين يديه لأنظر ما يصنع ، فبكى

---

(١) صفة الصفوة ٤ / ٢٢ .
(٢) صفة الصفوة ٤/٧٤ .
(٣) رواه البخاري .
(٤) صحيح : رواه أحمد والترمذي وأبو داود ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧٨٦ .

حتى بلّ الثّرىٰ من دموعه ، ثم أقبل علينا ، قال : « أيْ إخواني ، لِمثْل هذا اليوم فأعدُّوا »(١) .

إن كنت تفهمُ ما أقولُ وتعقِلُ   فارحلْ بنفسِك قبلَ أن بكَ يُرحَلُ
وذَر التشاغُل بالذنوب وخلِّها   حتى متى وإلى متى تتعلَّلُ(٢)

قال أبو العباس الدوري : أنشدنا يحيى بن معين هذا البيت :

نؤمِّل أنْ نبقى طويلًا وإنما   نعدُّ من الأيام طرفًا وأنفاسا

وقال ذو النون المصري: توسَّدوا الموتَ إذا نمتم، واجعلوه نصْبَ أعينكم إذا قمتم ، كونوا كأنكم لا حاجة لكم إلى الدنيا ولا بد لكم من الآخرة .

وعن أُبيّ بن كعب قال : كان النبي ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل ، قام فقال : « يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه »(٣) .

قال اللبيدي: وجدتُ بعد موت أبي إسحاق الجبنياني رحمه الله رقعةً تحت حصيرة مكتوبة بخطه : « رجل وقف له هاتِف ، فقال له : أحسنْ ، أحسنْ عملك ، فقد دنا أجلُك ».فقال لي ولده عبد الرحمن : « إنه كان إذا قصَّر في العمل ، أخرج الرقعة ، فنظر فيها ورجع إلى جِدِّه »(٤) .

ما زال يلهجُ بالرحيل وذِكْرِهِ   حتَّى أناخَ ببابهِ الجَمَّالُ
فأصابهُ مستيقظًا متشمِّرًا   ذا أهْبَةٍ لم تُلهِه الآمالُ

وكان عمر بن عبد العزيز كثيرًا ما يتمثّل :

---

(١) حسن : رواه البخاري في التاريخ ، وابن ماجه وأحمد، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٥١ .
(٢) الزهد الكبير للبيهقي صـ ٢٨٠ ، دار القلم .
(٣) حسن : رواه أحمد والترمذي ، والحاكم ، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم ٩٥٢، وصحيح الجامع رقم ٧٨٦٣ .
(٤) ترتيب المدارك ٢/٥١٦ .

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... وليلُك نومٌ والردى لكَ لازِمُ
وتعمل فيما سوف تكرَهُ غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ

وقال عبد الرحمن بن عمرو : أدركت امرأة لا أقدِّم عليها رجلًا ولا امرأة ممن أدركت؛ كانت إذا أصبحت قالت: يا نفس، هذا اليوم ، ساعِدِيني يومي هذا ؛ فلعلَّك لا ترَيْن بياض يومٍ أبدًا . وإذا أمست قالت : يا نفسُ ، هذه الليلة ، ساعِدِيني ليلتي هذه ؛ فلعلك لا ترين سواد ليلةٍ أبدًا . فما زالت تخدع وتدفع يومها بليلها وليلها بنهارها ، حتى ماتت على ذلك[1] .

كم من مستقبل يومًا ليس بمستكمِله ، ومنتظِر غدًا وليس بمستدركه !!

وقال إبراهيم بن أدهم : إخواني،عليكم بالمبادرة والجدِّ والاجتهاد ، وسارعوا وسابقوا ؛ فإنَّ نعْلًا فُقِدتْ ، أختُها سريعة اللِّحاق بها .

وقيل للربيع بن خثيم : كيف أصبحت يا أبا يزيد ؟ قال : أصبحنا ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا .

وقال قُبيصة بن عتبة : ما جلستُ مع سفيان الثوري مجلسًا إلا ذكَر فيه الموت ، وما رأيت أحدًا كان أكثر ذكْرًا للموت منه .

وقال مطرِّف: أفسد الموت على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : « أمَّا بعد ، فمَنْ كان آخر علَّته الموت؛ قد مات » . فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : « أما بعد ؛ فكأنك بالدنيا لم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تنل . والسلام عليك » .

وقال الفضيل : كفى بالله مُحبًّا ، وبالقرآن مُؤنسًا ، وبالموت واعظًا ، وكفى بخشية الله علمًا والاغترار بالله جهلًا .

فحقيق على من كان الموت موعده والقبر مورده والحساب مشهده ؛ أن يَقصُر أملُه ، وتعلو همَّته ويَحسُن عمله ؛ فهيِّىء جهازك ، وقدِّم زادك ،

---

(١) الزهد الكبير صـ ٢٥٤ .

وكن وصيَّ نفسِك .

وكان إبراهيم بن أدهم يقولُ كثيرًا : دارنا أمامنا ، وحياتنا بعد موتنا إمَّا إلى الجنة وإمَّا إلى النار .

وكان إبراهيم يقول : مثِّل لبَصر قلبك حضور ملَكِ الموتِ وأعوانه لقبْض روحك ، فانظرْ كيف تكون ، ومثْل له القيامة وأهوالها وأفزاعها ، والعَرْض والحساب والوقوف ، فانظرْ كيف تكون .

وكان رحمه الله يقول : « إن للموت كأسًا لا يقوىٰ على تجرُّعها إلا خائف وَجِل طائع كان يتوقَّعُها » .

وكان الربيع بن أبي راشد يقول : لو فارق ذكْر الموت قلبي لَخشيتُ أن يفسد ، ولولا أن أخالف من كان قبلي لَسكنتُ الجبَّانة حتى أموت .

وقال شقيق البلخي : استعِدَّ إذا جاءك الموت أن لا تسأل الرجْعة .

وقال حاتم الأصمُّ : ما من صباح إلا والشيطان يقول لي : ما تأكل ؟ وما تلبس ؟ وأين تسكن ؟ فأقول : آكل الموت ، وألبَسُ الكفن ، وأسكن القبر .

وقال الفضيل بن عياض : قال ابن المبارك : استعد للموت ولما بعد الموت .. فشهق علي بن الفضيل شهقة فلم يزل مغشيًّا عليه عامَّة الليل .

وقال أحمد بن أبي الحواري عن زوجته رابعة وأحوالها : سمعتُ رابعة تقول : ما رأيتُ ثلجًا قطُّ إلا ذكرتُ تطايُرَ الصحف ، وما رأيتُ جرادًا قطُّ إلا ذكرتُ الحشر ، ولا سمعتُ أذانًا قط إلا ذكرتُ منادي القيامة . قالت : وقلتُ لنفسي : كوني في الدنيا بمنزلة الطير الواقع حتى يأتيك قضاؤه .

رحمها الله،هذا قِصَر أملها!! لقد كان الموت منها على بالٍ؛ فاجتهدت في العبادة ، حتى قال عنها زوجها : ربما نظرتُ إلى وجهها ورقبتها فيتحرَّك قلبي على رؤيتها ، ما لا يتحرَّك مع مذاكرتي أصحابنا ؛ لما أرى عليها من أثر العبادة .

وعن محمد بن أبي توبة : أقام معروف الكرخي الصلاة ثم قال لي : تقدَّم . فقلتُ : إنْ صليتُ بكم هذه الصلاة ، لم أُصل بكم غيرها . فقال معروف : وأنت تحدِّث نفسك أن تصلِّي صلاة أخرى ؟! نعوذ بالله من طول الأمل ؛ فإنه يمنع خير العمل له[١] .

نعم يا أستاذنا .. نعم يا أبا فيروز .. نعم يا ريحانة بغداد .. صلّ صلاة مودِّع !!

قال داود الطائي : يا داود ، من خاف الوعيد قصُرَ عليه البعيد ،ومن طال أمله قصر عمله ، وكلُّ ما هو آتٍ قريب .

وقال محمد السمين : كونوا من الله على حذَر ، ومن دنياكم على خطَر ، ومن الموت على وجَل ، ولقدوم الآخرة على عجَل .

وكتب الأوزاعي إلى أخٍ له : أما بعد ؛ فإنه قد أُحيط بك من كل جانب ، واعلمْ أنه ليُسارُ بك في كل يوم وليلة ، فاحذر الله والمقام بين يديه ، وأنْ يكون آخر عهدك به . والسلام .

وقال أبو يوسف الغسولي : اعلمْ يا أخي أن اختلاف الليل والنهار وممرّهما يُسرعان في هدْم بدنك وفناء عمرك وانقضاء أجلك ، فينبغي لك يا أخي أن لا تطمئنَّ ولا تأمن حتى تعلم أين مستقرُّك ومصيرك ، وساخطٌ عليك ربُّك بمعصيتك وغفلتك أو راضٍ عنك بفضله ورحمته .

وقال السري : اجعلْ قبرك خزانتك ، احشُها من كل عمل يمكنك ، فإذا وردتَ على قبرك سرَّك ما ترى فيها .

ولمَّا عُوتب عطاء السليمي في الرفق بنفسه قال: أتامرونني بالتقصير،والموت في عنقي، والقبر بيتي، وجهنم أمامي، ولا أدري ما يصنع بي ربي عز وجل؟![٢] .

---

(١) الزهد الكبير صـ ٢٣٧ .

(٢) صفة الصفوة ٣ / ٢٤٥ .

فقلْ مع كلِّ نفَسٍ : الآن تُطوىٰ صحيفتي .. وقلْ مقالة يحيى بن معاذ الرازي مع كل نفس :أدمْ جهازك ، وهيِّئْ زادك ، وتهيَّأ للعَرْض على ربك جلَّت عظمتُه .

وقال الفضيل : إنما أمسِ مَثَل، واليوم عمل ، وغدًا أمل .

وقال : ما أطال رجل الأمل إلَّا أساء العمل .

وقال ابن عمر لمجاهد: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذْ من صحتك لمرضك ، وخذْ من حياتك لموتك » .

فأكيسُ الناس : أكثرهم للموت ذكرًا ، وأحسنهم له استعدادًا .

الثامن عشر : الزُّهْد في الدنيا :

قال ذو النون المصري : لو وصلوا إلى الله ما رجعوا ، فازهدْ يا أخي ترىٰ العجب !!

وقال الحسن : رحم الله عبدًا جعل العيْش عيشًا واحدًا ، فأكل كِسْرةً ، ولبس خَلقًا ، ولزق بالأرض ، واجتهد في العبادة ، وبكى على الخطيئة، وهرب من العقوبة ابتغاء الرحمة ، حتى يأتيه أجله وهو على ذلك .

قال الجنيد : الزهد : استصغار الدنيا ، ومحو آثارها من القلب .

وقال الحسن : الزهْد راحة للقلب والبدن .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : عظني وأوجِزْ . فكتب إليه : إن رأس ما هو مصلحك ومُصلح به على يديك : الزهد في الدنيا ، وإنما الزهد باليقين ، واليقين بالتفكُّر ، والتفكُّر بالاعتبار ، فإذا أنت فكَّرت في الدنيا لم تجدْها أهلًا أن تبيع بها نفسك ، ووجدت نفسك أهلًا أن تُكرمها بهوان الدنيا ، فإن الدنيا دار بلاء ومنزل قُلْعَة[(١)] .

قال بشر بن الحارث: مساكينُ أهل الدنيا هم – والله – موضع رحمة .

---

(١) منزل قلعة : المراد أن الدنيا دار رحيل وانقلاع .

عن سعد بن أبي وقَّاص قال : أتى النبيَّ ﷺ رجل ، فقال : يا رسول الله ، أوصني وأوجزْ . فقال النبي ﷺ : « عليك بالإياس ممَّا في أيدي الناس ، وإياك والطمعَ ؛ فإنه فقر حاضر ، وإذا صليتَ فصلِّ صلاة مودِّعٍ ، وإياك مما يُعتذر منه »[1] .

والهمَّة الأبيَّة العلية تأنف أن تتعلَّق بخرابات البِلَى وأعطانٍ ضيِّقة آخرها الخراب والبوار .. كيف لا يأنف الإنسان من دنيا أعلى شيء فيها : صنْع دودة ، وبزْقة ذبابة ، ومُبال في مبال ، ما الدنيا إلَّا مأكول أو ملبوس أو مشموم أو مركوب ؛ أما المأكول فأفضله العسَل وهو بزْقة ذبابة ، وأما المشموم فأفضله المسْك وهو دَمُ فأْرةٍ ، وأما الملبوس فأفضله الحرير وهو صُنْع دودة ، وأما المركوب فالخيل وعليها يُقتل الرجال ، والنساء مُبال في مبال تتزين بأجملها يُراد به أقبحها ، فمن زهِد في هذا ؛ رنا بطرْفه وقلبه إلى نعيم الجنات وجوار الكبير المتعال .

التاسع عشر : معرفة قيمة النفْس :

أخي ، أنت في الخليقة شيء آخر لا يُشبهك أحد ، فاقرأ نفسك واعرف ماذا تقدم .

فليحرصْ العبدُ على أن يرفع قيمته ، ويُغلي ثمنه بعمله الصالح ، وبعلمه ونبوغه ، واطلاعه ومثابرته وبحثه ، وتثقيف عقله وصقْل ذهنه ، وإشعال الطموح في رُوحه ، والنبل في نفسه ؛ لتكون قيمته غالية عالية .

يا هذا،عندك بضائع نفيسة؛ دموع ودماء، أنفاس وحركات، وكلمات ونظرات؛ فلا تبذلْها فيما لا قدر له . أيصلح أن تبكي لفقْد ما لا يبقى ؟ أو تتنفس أسفًا على ما يفنى ؟ أو تبذل مهجة لصورة عن قليل تمحى ؟ ويحك !!

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك . وقال : صحيح الإسناد . وأقرّه الذهبي ، ووافقه العراقي .

دمعة منك تُطفئ غَضَبَ ربِّك ، وقطرة من دمٍ في الشهادة تمحو زللك ، ونفَسُ أسَفٍ يَنسِفُ ما سلف ، وخطوات في مرضاتهم تغسل الخطيئات ، وتسبيحة تغرس لك أشجار الخُلْد في الجنات ، ونظرةٌ بعِبْرةٍ تُثمرُ الزهْدَ في الفاني .

يا من هو من أرباب الخبرة ، هل عرفتَ قيمة نفْسك ، إنما خُلقت الأكوانُ كلُّها لك ، يا من غُذي بلبان البرِّ وقُلِّب بأيدي الألطاف ، يا زرْعًا تهمي عليه سحائب الإنعام ؛ كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة ، وصورة وأنت المعنى ،وصَدَفٌ وأنت الدُّرُّ ، ومخيضٌ وأنت الزُّبْد . منشور اختيارنا لك واضِحُ الخط ، ولكنَّ استخراجك ضعيف ، لو عرفت قدْر نَفسك عند مولاك ؛ ما أهنتها ، إنما أُبعِد إبليس إذ لم يسجد لأبيك وأنت في صُلبه .

يا مختار الكون ، وما يعرف قدْرَ نفسه ؛ أما أسجد الملائكة بالأمس لك ، وجعلهم اليوم في خدمتك ؟!

كم من ملَك في السماوات ما ذاقوا غمضًا؛ ليست لهم مرتبةُ ﴿**تتجافى جُنُوبهم عن المضاجع**﴾ !!

كم من ملَك في السماوات ما ذاقوا طعامًا ولا شربوا شرابًا؛ ليس لهم مدْحةُ « ولَخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسْك » . الملائكة تصلّي عليك ما استقمت ، وحملة العرش يستغفرون لك ، وسبَق دعاءُ النبيِّين لك وأنت في بطْن أُمِّك ، هذا قدْرك فأقبِلْ ترَ العَجب !!

يا هذا،كنتَ تدّعي حُبَّهم ، وتُؤْثر القرْب منهم ، فما هذا الصبر الذي قد عَنَّ عنهم ؟! كنت تستطيبُ ريحَ الأسحار وما تُغيِّر المُحَبَّ ؟! كنتَ في الرعيل الأول ، فما الذي ردَّك إلى السَّاقة ؟! قف الآن على جادَّة التأسُّف ، والزم البكاء على التخلُّف، فأحقُّ الناس بالأسى من خُصَّ بالتعويق دون الرُّفَقَاء.

فتِّش عن نفسك ، واعرفْ قدْرك ، تَسْمُ بهمَّتك إلى العظيم .

أُسائلكمْ عنها فهلْ مِن مُخبِّر   فما لي بدَعْدٍ مَن نأت دارُهم عِلْمُ

ولو كنتُ أعلمُ أين خَيَّمَ أَهلُها وأيَّ بلادِ الله مذ ظعنوا أمُّوا
إذن لسلكنا مَسْلكَ الريح خلفَهَا ولو أصبحتْ دَعْدٌ ومن دُونها النَّجمُ

العشرون : الابتعاد عن كلِّ ما شأنُه الهُبوط بالهمَّة :

من أسباب دناءة الهمة التي ذكرناها في الفصل السابق .

الحادي والعشرون: مراجعة جَدْول الأعمال اليوميّ، والعزلة قليلًا، ومراعاة الأولويَّات الأهمُّ فالمهم :

وهذا أمر مفيد في باب تطوير الهمة ، إذ كلَّما كان ذلك الجدول بعيدًا عن الرتابة والمَلَلِ ؛ كان أجدىٰ في معالجة الهمَّة .

ومثال ذلك : شخص اعتاد أن يزور أقاربه أو صحبه كلَّ يومٍ ، ويقضي الساعات الطِّوال معهم بغير فائدةٍ تُذْكَر ؛ فمراجعة مثل هذا الشخص لجدول عمله تفيده أيَّما فائدة ؛ بحيث يقلِّل من تلك الزيارات لصالح أعمال أخرى تعود على همته بالفائدة .

والعزلة قليلًا تجمعُ على الإنسان أمْره وهمَّته :

قال عمر بن الخطاب : « خُذوا بحظِّكم من العزلة » .

وقال الجنيد : « مكابدة العزْلة أيسر من الخلطة » .

وكان ابن المبارك يُكثر الجلوس في بيته ، فقيل له : ألا تستوحش ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه ؟!

الثاني والعشرون : كمال العقل :

« قال الحسن : ما يتمُّ دين الرجل حتى يتمّ عقله .

وقال وهب : إن الرجلين يستويان في أعمال البر ، ويكون بينهما كما بين المشرق والمغرب أو أبعد ؛ إذا كان أحدهما أعقل من الآخر ، وما عُبِد الله بشيء أفضل من العقل .

وقال يوسف بن أسباط : العقل سراج ما بَطَن وملاك ما علن ، وسائس

الجسد وزينة كل أحد ، ولا تصلح الحياة إلّا به ولا تدور إلا عليه .

وسُئل ابن المبارك : ما خير ما أُعطي الرجل ؟ قال : غريزة عقل . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أدب حسَن . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أخٌ صالح يستشيره . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : صمت طويل . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل »[١] .

قال ابن الجوزي عن العقل : « قاوَم الهوىٰ فردّ غَرْبَه ، وشدَّ أسْر الحزْم ، وقوَّى أزْر العزْم،واستجلبَ ما يَزين ، ونفىٰ ما يَشين ، فإذا تُرك وسلطانه ، أسَر فضول الهوىٰ فحصَرها في حبْس المنْع ، وكفى بهذه الأوصاف فضيلة .

ولا ينبغي أن يُدال الهوىٰ عليه؛ فإنه عدوُّه؛ فيَحطُّه عن رُتْبته ويستنزله عن درجته ، ولا يجوز أن يُجعل – وهو الحاكم عليه– محكومًا ، ولا أن يصير – وهو الزِّمام – مزمومًا ، ولا أن يعود – وهو المتبوع – تابعًا . فمَن صبر على مضيض مشاورته ؛ اجتنى حلاوة المنى في عواقبه »[٢] .

« قال أبو جعفر القرشي :

نسبُ ابنِ آدم فعلُهُ فانظر لنفسكَ في النَّسَبْ
زَيْنُ ابنِ آدم عقلُهُ والعقلُ زينتهُ الأدبْ

وقال الله تعالى : ﴿ **أولي الأيدي والأبصار** ﴾ قال مجاهد : الأبصار : العقل .

وقال عروة بن الزبير : أفضل ما أُعطي العباد في الدنيا : العقل ، وأفضل ما أُعطوا في الآخرة : رضوان الله عز وجل »[٣] .

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي ، بتصرف صـ ٩ – ١٠ .

(٢) ذم الهوى صـ ١٠ – ١١ .

(٣) كتاب العقل وفضله ، لابن أبي الدنيا ، تحقيق : لطفي الصغير ، صـ ٤٢ – دار الراية .

وعن وهْب بن منبّه قال : مكتوب في حكمة آلِ داود ﷺ : حقٌّ على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يُناجي فيها ربَّه ، وساعة يُحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يُخبرونه بعيوبه ويصدق عن نفسه ، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذَّتها فيما يحلُّ ويجمل ، فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات وإجمامًا للقلوب » .

وقال وهب بن منبه رحمه الله : كما تتفاضل الشجر بالأثمار ، كذلك تتفاضل الناس بالعقل .

نعم يا ابن منبه رحمك الله ؛ فلكل شيء غاية وحدٌّ ، والعقل لا غاية له ولا حدّ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار في الرائحة الطيبة .

وقال عامر بن عبد قيس : إذا عقلك عقلُك عمَّا لا ينبغي فأنت عاقل .

وقال وكيع بن الجرّاح: العاقل مَن عقل عن الله- عز وجل- أمْره، وليس مَن عقل تدبير دنياه .

وقال سفيان بن عيينة: لا تنظروا إلى عقل الرجل في كلامه، ولكن انظروا إلى عقله في مخارج أموره .

وقال رحمه الله : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، ولكن العاقل الذي يعرف الخير فيتَّبعه ، ويعرف الشرَّ فيجتنبه .

والقلوب أوعية ، والعقول معادن ، فما في الوعاء ينفد إذا لم يمدَّه المعادن .

وقال ابن جريج : قوام الرجل عقله ، ولا دين لمن لا عقل له .

وقال بشر بن الحارث : النظر إلى الأحمق سُخْنة[1] عيْن .

رحمك الله يا بشر،إذن فالنظر إلى العاقل قرَّة عين !!

أما حديث العاقل والحديث عنه :

---

(١) سُخنة العين : نقيض قرَّتها .

فقد قال المغيرة بن شعبة : الحديث عن عاقل أحبُّ إليّ من الشهد بما رضفه بمخض الأرفى[1]. فقال زياد: كذلك فلَهُو أعجبُ إلى العاقل من رثية فنين بسلالِهِ ثغبٌ ، في يوم شديد الوديقة ، ترقص فيه الآجال .

قال الشعبي : « إنما كان يطلب هذا العلم مَنِ اجتمعتْ فيه خصلتان : العقل والنسُك . فإن كان ناسكًا و لم يكن عاقلًا ، قال : هذا أمْر لا يناله إلا العقلاء...فلم يطلبه ، وإن كان عاقلًا و لم يكن ناسكًا ، قال : هذا أمر لا يناله إلا النُّسَّاك . فلم يطلبه ، فقال الشعبي : ولقد رَهبتُ أن يكون يطلبه اليوم من ليست فيه واحدة منهما ، لا عقل ولا نسك » .

وكمال العقل: حُسن المعرفة بالله، وحُسن الطاعة، وحُسن الصبر على أمره.

وعقلك يا أخي لا يتسع لكل شيء، ففرِّغْه لأول المهم من أمرك ، وليس من العقل أن تذَرَمن الخير ما لا بدّ منه .. فاللهم ارزقنا عقلًا تنفعنا به ، واجعلنا نعقل عنك .

الثالث والعشرون : التحوُّل عن البيئة المثبِّطة :

قال شيخي المكرّم – ومن هو أحبُّ إليَّ من سواد عيني – محمد بن أحمد بن إسماعيل : « إن للبيئة المحيطة بالإنسان أثرًا جسيمًا لا يخفى ، فإذا كانت بيئة مثبِّطة داعية إلى الكسَل والخمول وإيثار الدُّون ؛ فإن على المرء أن يهجرها إلى حيث تعلو همته ، كي يتحرَّر من سلطان تأثيرها ، وينعم بفرصة الترقِّي إلى المطالب العالية .

تقول ابنةُ السعْدي وهْي تلومني   أمَا لكَ عنْ دارِ الهوانِ رحيلُ
فإنَّ عناء المستنيم إلى الأذىٰ   بحيث يَذلُّ الأكرمون طويلُ

(١) قال ابن أبي الدنيا : الرضفة : الصخرة ، المخض : اللبن ، الأرفى : الظِّباء ، الرافية : اللبن الذي لم يخرج زبدُه .

وعندك محبوكُ السَّراةِ مطهّمٌ وفي الكف مطرورُ الشباةِ صقيلُ(١)

وأشدُّ الناس حاجةً إلى تجديد البيئة المحيطة وتنشيط الهمة : الحديثُ العهْدِ بالتوبة ؛ فإن من شأن التحوُّل من بيئة المعصية إلى بيئة الطاعة : أن ينسيه ما يجذبه إلى صُحبة السوء وأماكن السوء ، فيجتمع قلبه ، ويلتئم شمله ، وتتوحَّد همته ، وتتوجَّه بصدقٍ وعزم إلى أسلوب من الحياة جديد ، وهذا عين ما أشار به « العالم » الواعي علىٰ قاتِل المائة حين شفَّع قوله : « نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة » ؛ بقوله : « انطلق إلى أرض كذا وكذا ؛ فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ؛ فإنها أرض سوء » . ولما جاءه الموت ، واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، كان قربه إلى القرية الصالحة بالنسبة إلى بلد السُّوء سببًا في قبض ملائكة الرحمة إياه ، ففي بعض الروايات : « فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبرٍ ، فجُعل من أهلها » .

وفي رواية : « فأوحىٰ الله تعالى إلى هذه أن تباعدي ، وإلى هذه أن تقرَّبي ، وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر ، فغفر له » .

وفي رواية : « فنأى بصدره نحوها » .

ولعلَّ هذا المعنى كامن أيضًا في تشريع نَفْي الزاني غير المُحصن وتغريبه سنة بعيدًا عن وطنه ، كي تجتمع عليه عقوبة بدنية بالجَلْد ، وعقوبة قلبية بالنفي ، وفي الوقت نفسه يُبْعَد عن مسرح الجريمة كي ينسىٰ ذكراها ، ولا يبقى حيثُ يُعامَلُ باحتقار وإهانة ، ويتعرَّض للمضايقات ، ويُعْطىٰ فرصة كافية لاستئناف التوبة الصادقة والحياة الكريمة »(٢) .

---

(١) فرس محبوك : قوي شديد ، سراة الفرس : أعلى متنه ، والمطهَّم : التامّ المتناهي في الحسن ، والمطرور : ذو المنظر والرواء والهيئة الحسَنة ، والشِّباة : حَدُّ طَرَف السيف ، والصقيل : المجلوّ .

(٢) علو الهمة ، للشيخ محمد إسماعيل صـ ٣٥٠ - ٣٥١ .

أخي ، إن الماء يَفسد بقربه من الجِيَف وكذا الهواء ، وإذا بعدت قليلًا عن مكان الجِيف ، يزول ما كنتَ تجده ، فكيف بأنفاس العُصَاة .. ألا تنظر إلى فعْل المعصية بآبار ثمود بعد آلاف السنين ؟! لمّا مرّ عليها الصحابة وأرادوا أن يستقوا منها فمنعهم رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يلقوا بعجينهم إلى النواضح.

فالفرارَ الفرارَ من بيئة الكسَل والركود ودناءة الهمم.

ولا تتخذْ بالسَّير رُفقةَ قاعدٍ ودعْهُ فإنَّ الشوْق يَكفيكَ حاملَا

«فنَزْع المدعو من بيئته وغَمْسه - لفترة كافية - في بيئة أخرى ؛ يسهِّل تطبيع هذا التائب بغَرْسِ قِيم ومفاهيم جديدة ، مع تطهيره من القيم المراد نزْعها من قلبه ، وبصورة سَلِسَة وتلقائية وفعّالة ، فالجوهرة إذا سقطت في مكان نَجِس فيحتاج ذلك إلى كثير من الماء حتى تُنَظَّف ، إذا صببناه عليها وهي في مكانها ، ولكن إذا أخرجناها من مكانها سهل تنظيفها بالقليل من الماء »[1] .

الرابع والعشرون : مصاحبة صاحب الهمة العالية :

أخي : اعلم أن الرجل بلا خَدِين ، كذي الشمال بلا يمين ، فاتخذْ ذوي الهمم العالية أعوانًا ، واخلط نفسك مع الأبرار ، وطهِّرها من الفجَّار واجتنب الصغار الأخطار ، اللئام الأقذار ؛ فالمرء يُعرف بقرينه . فاصحب من يحملك في سيرك إلى الله عز وجل لا مَن تحمله

ولا تتخذ بالسَّير رُفقة قاعد وَدعْه فإنَّ الشَّوْقَ يكفيك حاملا

أخي : قد سمعتَ أخبار المتقين فسِرْ في سرْبهم ، وقد عرفت جـدّهم فتناول من شربهم ، ثم سل من أعانهم يُعنك .

لا يُؤيِّسنَّك من مجْدٍ تباعُدُه فإنَّ للمجدِ تدريجًا وترتيبا

إنَّ القناةَ التي شاهدتَ رِفْعَتَها تنمى وتنْبُتُ أنبوبًا فأنبوبا

فاسلك طريقهم تكن رفيقهم، وانزل بواديهم يصوِّت بك صوت حاديهم،

---

(١) المصدر السابق صـ ٣٥٢ .

إن كنت في جوارهم حملوك إلى ديارهم ..

أخي : اصحبْ مَن يعظك بلحظه قبل وعظه بلفظه ، ومن كان بعالي الخير موصوفًا لا وصَّافا ، فإن الواو والراء والدال لا تشمُّ منها رائحة الورد ، فاصحب أهل المعاني ودع أرباب الدعاوي .

هاتيك ربوعهم وفيها كانوا   بانوا عنها فليتهم ما بانوا
ناديتُ وفي حشاشتي نيرانُ   يا دارُ متى تحوَّل السُّكانُ

رؤية وجوه الصالحين تشحذ الهمم فكيف بكلامهم ونُصْحهم .

كان الناس إذا رأوا وجه وكيع بن الجراح قالوا : هذا مَلك . وإذا رأوا وجه محمد بن سيرين سبحوا الله ؛ لمخايل النور التي على وجهه .

قال رسول الله ﷺ: «أولياء الله تعالى الذين إذا رُؤا ذكر الله تعالى»[(١)].

إن لم تكن مع القوم في السَّحَر ، تلمَّحْ آثار الحبيب عليهم وقت الضحى ، ترى في صحائف الوجوه سطور القبول بمداد الأنوار « وجوه زهاها الحسن أن تتبرقعا » . .

قال جعفر بن سليمان : « كنتُ إذا وجدت من قلبي قسوة ، غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع ، كان كأنَّه ثكلى »[(٢)] .

وقال الفضيل بن عياض : نظر المؤمن إلى المؤمن يجلو القلب ، ونظر الرجل إلى صاحب بدعة يُورث العمى ، من جلس مع صاحب بدعة ، لم يُعط الحكمة . وقال عبد الله بن المبارك : « إذا نظرتُ إلى الفضيل جدَّد لي الحزن ، ومَقَتُّ نفسي . ثم بكى »[(٣)] .

---

(١) حسن : رواه الحكيم عن ابن عباس والطبراني في الكبير ، والمروزي ، وأبو نعيم ، والضياء وابن المبارك عن سعيد بن جبير مرسلا ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم ١٧٣٢ ، والسلسلة رقم (٢٥٥٤) .

(٢) السير ٦ / ١٢٠ .

(٣) السير ٨ / ٤٣٨ .

إن كان هذا نظر الأكابر من شيوخ الإسلام إلى العُبَّاد.. وكيف يؤثِّر في علوِّ همَّتهم ويشحذها ، فما فعله في غيرهم ؟!!

هذا قول ابن المبارك في الفضيل بن عياض ، فما يقول الفضيل بن عياض عن أبي إسحاق الفزاري ؛ قال الفضيل بن عياض : « ربما اشتقتُ إلى المِصِّيصَة ، ما بي فضل الرِّباط إلا أن أرى أبا إسحاق رحمه الله »(١) .

وإن كان الأكابر من العُبَّاد والعلماء يحتاجون إلى من يفتِّش ويُخرج لهم الخبايا من الدقائق التي قد تذهب بنور العمل فما الظن بغيرهم ؟!!

« قال ابن شوذب : قسَّم أميرُ البصرة على قُرَّائها ، فبعث إلى مالك بن دينار فأخذ ، فقال له ابن واسع : قبلتَ جوائزهم ؟! قال : سلْ جلسائي . قالوا : يا أبا بكر ، اشترى بهم رقيقًا فأعتقهم . قال : أنشدك الله ، أقلبُك الساعة على ما كان عليه ؟ قال : اللهم لا ، إنما مالك حمار ، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع »(٢) .

«قال أبو عبد الله الأنطاكي : اجتمع الفضيل والثوري فتذاكرا ، فرقَّ سفيان وبكى ، ثم قال : أرجو أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة . فقال له الفضيلُ : لكني يا أبا عبد الله أخاف أن لا يكون أضرَّ علينا منه ؛ ألستَ تخلَّصتَ إلى أحسن حديثك ، وتخلصتُ أنا إلى أحسن حديثي ، فتزيَّنتَ لي وتزيَّنتُ لك؟ فبكى سفيان وقال: أحييتني أحياك الله»(٣).. فإن كان سفيان وهو من هو يحتاج إلى توجيه الفضيل ، فكيف بمن لا يساوي غبار نعْل الثوري ؟!!

« فيا أطروش الهوى ، صاحب مَنْ يسمع .. يا أعمى البصيرة ، امش

(١) السير ٨ / ٥٤١ .
(٢) السير ٦ / ١٢٠ .
(٣) السير ٨ / ٤٣٩ .

مع من يبصر.. تشبّه بالصالحين تُعدّ في الجملة؛ هذا الطاووس يحبُّ البساتين فهو يوافق الأشجار ، إذا ألقت ورقها ألقى ريشه ، فإذا اكتست اكتسى .

لو سِرْتَ في حزب المتقين لعرفوا لك حقَّ الصُّحبة .

يا من كان لهم رفيقًا ، فأصبح لا يعرف لهم طريقا . اطلب اليوم أخبارهم واتبع في السلوك آثارهم. فإن وقعت ببعضهم حملك إلى أرضهم»[1] .

محتْ بعدكم تلك العيونَ دموعُها فهل مِن عيونٍ بعدها نستعيرُها
رحلنا وفي سِرِّ الفؤاد ضمائرٌ إذا هبَّ نجديّ الصّبا يستثيرُها
ترفَّقْ رفيقي هل بدت نار أرضهم أم الوجد يذكي نارَه ويثيرُها
سقى الله أيامًا مضت ولياليا تضوَّع ريَّاها وفاح عبيرُها

يا من كثر تردُّده إلى المجلس ولم يزل بعيدًا عن همم القوم ، لا تضجر فللدوام أثر ، جَالِس البكّائين يتعدَّ إليك حزنهم ؛ فتأثير الصحبة لا يخفى ، أما ترى دودَ البقول أخضر ؟!

يا من يشاهد ما يجري على الخائفين ولا ينزعج ، أقلُّ الأقسام أن يبكي رحمة لهم .

ولمَّا وقفنا في الديار تشابهتْ جسومٌ براهُنَّ البلٰى وطلولُ
فباكٍ بداءٍ بين جنبيه عارف وباكٍ بما جَرَّ الفراق جهولُ

« صاحبْ علاة الهمم وصافهم ، واستفدْ من أخلاقهم وأوصافهم . إن لم يكن لك مكنة البذر ، ولم تطق مراعاة الزرع ، فقف في رفقة ﴿ **وإذا حضر القسمة أولو القربى** ﴾ .

إن صدقت في طلابهم فانهض وبادرْ ، ولا تستصعبْ طريقهم فالمعين قادر ، تعرّضْ لمن أعطاهم ، وسلْ فمولاك مولاهم ، رُبَّ كنز وقع به فقير ،

(١) المدهش لابن الجوزي ٤٥١ .

ورُبَّ فضل فاز به صغير.. علمَ الخضر ما خفي على موسى، وكُشف لسليمان ما غُطِّي عن داود .

لا تلتفت إلَّا إلى من دلّك على الله وعلى الطريق الموصِّلة إليه.اسلكوا جادَّة القوم لعلَّ مشاعلهم تلوحُ لكم ؛ تعلَّقوا بغبارهم لعلَّ الحادي يُنَوِّه بكم ، صَوِّتوا بالقوم عسى يقف بعض الساقة لكم ، ابكوا على تأخُّركم لعلَّ عطف الرحمة تنعطف نحوكم .

ويا حُداة الظَّعن قد أسلمني إلى الضَّنا فراقكم لي فقفوا
لعلني أن أشتفـي بنظــرة يبلُّ منها المستهامُ المُدنَفُ
ففي الضُّلوع جمرةٌ ما تنطفي وفي الشئون عبرة ما تُنزفُ

أخي: زاحمِ التائبين، وادخل في حزب البكَّائين، وكل غريب للغريب نسيب.

قال محمد بن يوسف: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقسمون ميراثك، وهو قد تفرَّد بجَدَثك يدعو لك وأنت بين أطباق الثرى »[١] .

وقال الحسن البصري : « إخواننا أحبُّ إلينا من أهلنا وأولادنا ؛ لأن أهلنا يذكِّروننا بالدنيا ، وإخواننا يذكِّروننا بالآخرة » .

قال إبراهيم النخعي : « جالسوا التوابين ؛ فإنهم أرقُّ الناس قلوبًا،ورحمة الله إليهم أقرب »[٢] .

كان الإمام أحمد إذا بلغه عن شخص صلاحٌ أو زهدٌ أو قيامٌ بحقٍّ أو اتباعٌ للأمر، سأل عنه، وأحبَّ أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله.

«قال رحمه الله : لقد رأيت أقوامًا صالحين ؛ رأيتُ عبدَ الله بن إدريس وعليه جبَّة من لبود قد أتت عليها سنون ، ورأيتُ أبا داود الحفري وعليه جبَّة مُخرَّقةٌ، قد خرج منها القطن، وهو يُصلِّي فيترجَّح من الجوع، ورأيتُ أيوب

---

(١) روضة الزاهدين لعبد الملك الكليب صـ ٩١ .

(٢) والموعد الله ، لخالد محمد خالد صـ ٣١ .

النجار وقد خرج من كل ما يملكه ، وكان في المسجد شابٌّ مصفر يقال له : العوفي ؛ يقوم من أول الليل إلى الصباح يبكي »[١] .

قال إسماعيل الديلمي : كنتُ في البيت عند أحمد بن حنبل ، قال : فدخلت إليه فقلت : يا أبا عبد الله ، بالباب شابٌّ عليه أطمارُ شعر يطلبك . قال : فخرج إليه فسلَّم عليه ، فقال له الفتى : يا أبا عبد الله ، ما الزهد في الدنيا ؟ فقال له أحمد : ثنا سفيان عن الزهري : أن الزهد في الدنيا قصر الأمل . فقال له : يا أبا عبد الله ، صِفْه لي . قال : وكان الفتى قائمًا في الشمس والفيءُ بين يديه، فقال : هو أن لا تبلغ من الشمس إلى الفيءِ. قال: ثم ذهب ليولِّي، فقال له أحمد : قِفْ . قال : فدخل ، فأخرج له صُرَّة فدفعها إليه ، فقال : يا أبا عبد الله ، من لا يبلغ من الشمس إلى الفيء أيّ شيء يعمل بهذه ؟! ثم تركه وولَّى[٢] .

لله درُّك يا أحمد .. إن كان هذا حال مَنْ يسأله ، فكيف حال من دنا منه وخالطه ؟!

وإخوانه الأدْنَونَ كلُّ موفَّقٍ   بصيرٍ بأمْر الله يسمو إلى العُلا

انظر إلى علو همة من يجالس الأكابر كإمام أهل السنة أحمد بن حنبل :

فهذا أبو بكر المروذي تلميذ أحمد بن حنبل ، وكان خصيصًا بخدمة أحمد ، كان يبعثه في حوائجه ويقول : كل ما قلت فهو على لساني وأنا قلته . وكان أحمد يقدمه ويأكل من تحت يده ، ولما قدم أحمد من العسكر كان يقول : جزى الله أبا بكر المروذي خيرًا . وهو الذي تولَّى إغماض أحمد لمَّا مات وغسَّله .

قال أبو بكر الخلال : خرج أبو بكر المروذي إلى الغزو فشيَّعه الناس إلى سامرَّا ، فجعل يردُّهم فلا يرجعون ، قال : فحرزوا فإذا هم بسامرَّا- سوى

(١) المدهش صـ ٣١٢ .
(٢) مناقب الإمام أحمد صـ ١٩٤ .

من رجع - نحو من خمسين ألف إنسان . فقيل : يا أبا بكر ، احمد الله فهذا علم قد نُشِر لك . فبكى ثم قال : ليس هذا العلم لي ، وإنما هذا علم أحمد ابن حنبل(١) .

وبدر بن أبي بدر - أبو بكر المغازلي - كان الإمام أحمد يقدمه ويكرمه ويقول : من مثل بدر قد ملك لسانه ، وكان صبورًا على الفقر والزهد .

وزكريا بن يحيى الناقد : كان عابدًا ، وكان أحمد يقول عنه : هذا رجل صالح وكان يقول : اشتريتُ من الله تعالى حوراء بأربعة آلاف ختمة ، فلمَّا كان آخر ختمة سمعت الخِطَاب من الحوراء وهي تقول : وفيّتَ بعهدك ، أنا التي اشتريتني . فيُقال : إنه مات عن قريب(٢) .

« وعبد الوهاب الورَّاق جمع بين العلم والتُّقى ، وقيل لأحمد : مَن نسأل بعدك ؟ فقال : سلوا عبد الوهاب ؛ فإنه رجل صالح،مثله يوفَّق لإصابة الحق »(٣) .

وإسحاق بن منصور الكوْسج تلميذ أحمد بن حنبل ، وهو الذي دوَّن عن الإمام أحمد المسائل في الفقه ، فبلغه أنَّ الإمام رجع عن تلك المسائل التي علَّقها عنه ، فجمع رحمه الله تلك المسائل في جراب وحملها على ظهره وخرج ماشيًا من نيسابور إلى بغداد ، وعرض خطوط أحمد عليه في كلِّ مسألةٍ استفتاه بها ، فأقرَّ له بها ثانيًا ، وأُعجب أحمد بذلك من شأنه(٤) .

من أراد أن ينظر إلى علو الهمَّة ، وكيف تُكتسب بمرافقة الأئمة علاة الهمة ، فلينظر إلى الأئمة وتلاميذهم وإخوانهم الذين رافقوهم .

فابن عباس يضع الكبل في رِجْل عكرمة ليتعلم القرآن والسُّنن ، ومغيرة

---

(١) المصدر السابق صـ ٦١١ .

(٢،٣) المصدر السابق صـ ٦١٦ .

(٤) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ١ / ١١٤ .

الضبي يذاكر إخوانه الفقه إلى الفجر ، وكذا القاضي التابعي ابن شبرمة يذاكر إخوانه إلى الفجر ، والزهري يلازم ابن المسيب ثماني سنين فتعلو همَّته بصحبته ، يقول عنه ابن أخيه : « جمع عمِّي القرآن في ثمانين ليلة » .

وابن القاسم تلميذ مالك بن أنس ، يأتي مالكًا سَحَرًا ، فيسأله عن المسألة والمسألتين والثلاثة ، وكان يتوسَّد عتبتَهُ، وأناخ بباب مالك سبع عشرة سنة .

وأبو يوسف يموت ابنه فيترك جهازه ودفنه لأهله ويحضر درس أبي حنيفة .

ومحمد بن الحسن الشيباني تعلو همته بصحبته لأبي حنيفة ، فلا ينام إلا القليل ، ويقول : نامت عيونُ المسلمين تعويلًا علينا ، فإذا نمنا ففيه تضْييعُ الدين .

وقد مرت بك قصة أسد بن الفرات مع أستاذه محمد بن الحسن الشيباني.

والمزني تلميذ الشافعي .. من قال فيه الشافعي : « المزني ناصر مذهبي .. » يؤلّف مختصره في عشرين سنة ، يجمع ما تفرَّق من كلام الشافعي ، وإذا فرغ من تبييض مسألة أودعها مختصره صلَّى ركعتين !!.

من أراد أن ينظر كيف تُشحذ الهمم بمرافقة الصالحين وخدمتهم ، فلينظر في العراقي وتلميذيْه الهيثمي وابن حجر ، وفي النووي وتلميذه وخادمه علاء الدين علي بن العطار :

كان ابن العطار لشدة ملازمته – للنووي – وتحققه به ، يقال له : « مختصر النووي » ولشدة إعجاب ابن العطار بشيخه النووي – ويحق له ذلك – انقطع للتلمذة عليه ست سنوات ، فيقول رحمه الله : وكانت مدة صحبتي له مقتصرًا عليه دون غيره ، من أول سنة سبعين وستمائة وقبلها بيسير إلى حين وفاته .

يقول ابن العطار عن شيخه النووي : « وكان رحمه الله تعالى رفيقًا

بي ، شفيقًا علي ، لا يُمكِّن أحدًا من خدمته غيري ، على جهْد مني في طلب ذلك منه ، مع مراقبته لي - رضي الله عنه - في حركاتي وسكناتي ، ولطفه بي في جميع ذلك ، وتواضعه معي في جميع الحالات ، وتأديبه لي في كلِّ شيءٍ حتى الخطرات ، وأعجز عن حصر ذلك » .

قال النووي عن تلميذه وخادمه ابن العطار : « قد أخبرني من أثق بخبره وصلاحه وكراماته وفلاحه» ... فللخادم والتلميذ كرامات .. فما أحلاها من علامات لعلوِّ الهمَّة !!

قال ابن العطار : « وأذن لي - رضي الله عنه - في إصلاح ما يقع لي في تصانيفه ، فأصلحتُ بحضرته أشياء ، فكتبه بخطه ، وأقرَّني عليه ، ودفع إلَيَّ ورقةً بعدَّة الكتب التي كان يكتب منها ويصنِّف بخطه ، وقال لي : إذا انتقلت إلى الله تعالى ، فأتممْ « شرح المهذَّب » من هذه الكتب . فلم يقدَّر ذلك لي »[(١)] .

وكان ابن العطار يأخذ على شيخه في الدرس ، فقيل له في ذلك ، فقال : « لا تسقط الثمرة من الشجرة إلا بهزِّ الأفنان ، أو التقطُّف بالبنان »[(٢)] .

وأيضًا سيرة ابن تيمية مع تلاميذه : الذهبي وابن كثير وابن القيم خاصة :

يقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية : « كان أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا ، وأقواهم قلبًا ، وأسرَّهم نفسًا ، تلوحُ نضرة النعيم على وجهه ، وكنا إذا اشتدَّ بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض أتيناه ، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كلّه ، وينقلبُ انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينة »[(٣)] .

---

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين لابن العطار صـ ٥٥ .
(٢) طبقات الشافعية لابن هداية الله صـ ٢٢٨ .
(٣) الوابل الصيب صـ ٧٦ .

ولله درُّ يحيى بن معاذ إذ يقول : « وليُّ الله ريحان في الأرض ، فإذا شمّه المريدون ووصلت رائحته إلى قلوبهم اشتاقوا إلى ربهم »(١) .

وكان أحمد بن حرب يقول : « ليس شيءٌ أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين والنظر إلى أفعالهم ، وليس شيء أضرَّ على القلب من مخالطة الفاسقين والنظر إلى أفعالهم » . قال ابن عباس : النظر إلى وجه الرجل يدعو إلى السُّنّة عبادة .

وانظر إلى صُحبة الأخيار من طلَّاب العلم كيف تُعلي الهمم :

قال الحافظ جعفر بن درستويه : « كنا نأخذ المجلس في مجلس علي بن المديني وقت العصر اليوم لمجلس غدٍ ، فنقعد طوال الليل ؛ مخافة ألا نلحق من الغد موضعًا نسمع فيه ، فرأيتُ شيخًا في المجلس يبول في طيلسان ، ويُدرج الطيلسان ؛ مخافة أن يُؤخذ مكانه إن قام للبول »(٢) .

قال ابن عقيل الحنبلي : « عصمني الله من عنفوان الشبيبة بأنواع من العصمة ، وقصر محبتي على العلم وأهله ، فما خالطتُ لعَّابًا قطُّ » .

وعلى المرء أن «يحترز عن مجالسة صاحب السوء ؛ ليقصي ولاية شياطين الجن والإنس من صحْن قلبه ، فيصفَّى عن لوثة شيطانية »(٣)، كما قال الغزالي فنعوذ بالله من صحبة البطَّالين .

أنت في الناس تقاسُ   بالذي اخترتَ خليلا
فاصْحَبِ الأخيارَ تعلو   وتنلْ ذكْرًا جميلا

فصاحبْ يا أخي أهل المعاني المتيقِّظين للدقائق والثواني ؛ فإن صحبة هؤلاء تعلِّمُ منافسة الزمان .. ولله درُّ إقبال إذ يقول :

---

(١) تنبيه المغترين للشعراني صـ ١٧ .
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ٢ / ١٣٨ .
(٣) أيها الولد المحب ، للغزالي صـ ١٣٠ .

هبْ نجيًّا يا ولي النعمةِ   محرمًا يدرك ما في فطرتي
هبْ نجيًّا لَقِنًا ذا جِنَهْ   ليس بالدنيا له مِن صِلَهْ

«قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا رزقكم الله - عز وجل - مودَّة امرئ مسلم فتشبّثوا بها .

وقال رضي الله عنه : لقد أحببت في الله - عز وجل - ألف أخ ، كلهم أعرف اسمه واسم أبيه واسم قبيلته ، وأعرف مكان دارهم »[1] . أي أنه كان يزورهم ويأتيهم لقوله : « أعرف مكان دارهم » .. رضي الله عن الفاروق فلا حياة لمن لا إخوان له .

وكان الثوري يتمثَّل :

ابْلُ الرجَال إذا أردتَ إخاءَهم   وتوسَّمَنَّ أمورَهم وتفقَّد
فإذا وجدتَ أخَ الأمانةِ والتُّقى   فبه اليدَيْن قريرَ عيْن فاشْددِ

وكتب الأحنف بن قيس إلى صديق له : « أما بعد : فإذا قدم عليك أخ لك موافق ، فليكنْ منك مكان سمعك وبصرك ... فانظر إلى هذا وأشباهه فاجعلهم كنوزك وذخائرك ، وأصحابك في سفرك وحضرك ؛ فإنك إن تقرّبهم تقرَّبوا منك ، وإن تباعدهم يستغنوا بالله - عز وجل - والسلام » .

ولله درُّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذ يقول: «عليك بإخوان الصدق، فعشْ في أكنافهم ؛ فإنهم زيْن في الرخاء وعدَّة في البلاء » . ولا تكن أخي مناخَ البطَّالين .

الخامس والعشرون : قراءة تراجم وسِيَر سَلَف الأمة :

لله درُّهم من سادة علماء السلف وعُبَّاده .

ومن عجب أني أحِنُّ إليهمُ   وأسأل شوقًا عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهمْ في سوادها   ويشكو النوى قلبي وهمْ بين أضلُعي

---

(١) كتاب الإخوان لابن أبي الدنيا صـ ١١٢ طبع دار الاعتصام .

ولله درُّ القائل :

إذا حضر الشتاءُ فأنتَ شمْس | وإن حَلَّ المصيفُ فأنتَ ظِلُّ
جُزيت عن البريَّة كلَّ خير | فأنت الماجدُ البطلُ الأجَلُّ
بوجهك نستضيءُ إذا سَرَيْنا | جبينٌ في الليالي مُشْمعِلُّ
وذِكركُ في المسامع خيرُ هادٍ | يُكرَّرُ في الجموع فلا يُمَلُّ
فدتْك نفوسُنا عن كل هولٍ | ويفديك الحجيجُ إذا أهلُّوا

ولله درُّ القائل :

حالت لفقدكمُ أيَّامُنا فغدت | سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا
ليُسق عهدكمُ عهد السرور فما | كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

وقول القائل :

تضيقُ بنا الدنيا إذا غبتمُ عنا | وتزهق بالأشواقِ أرواحُنا منَّا
بعادكمُ موتٌ وقربكمُ حيا | ولو غبتمُ عنَّا ولو نفَسًا مُتْنا
نعيش بذكراكم ونحيا بقربكم | ألا إن تذكار الأحبةِ يُنعِشُنا

ماذا يفعل الرجل منا وقد تبدل الزمانُ وأهله .. إن البعد – ولو قليلًا – عن الطيبين وذكرهم؛موتٌ لا يكاد يطيقه عاقل .

فهذا الصحابي عثمان بن أبي العاص يقول عنه الحسن : « تزوَّج عثمان ابن أبي العاص امرأةً من نساء عمر بن الخطاب فقال : والله ما نكحتُها رغبة في مال ولا ولد ، ولكني أحببتُ أن تخبرني عن ليل عمر »[١] .

وعن ابن أبي ليلى : تزوَّج رجل امرأة ابن رواحة ، فقال لها : تدرين لم تزوجتك ؟ لتخبريني عن صنيع عبد الله في بيته[٢] .

---

(١) الزهد لابن حنبل صـ ١١٨ ، ١١٩ ، ورجاله ثقات .
(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة ٦ / ١٧٨ – ١٧٩ ، وصحَّح سنده ، ورواه الذهبي في السير ١/٣٣ .

وقال أحمد بن سلمة النيسابوري : « تزوَّج إسحاق بن راهويه بامرأة رجل كان عنده كتُب الشافعي ، مات ، لم يتزوَّج بها إلا للكتب[1] ، فلما قرأ كتبه قال : ما كنت أعلم أنَّ الشافعي في المحل ، ولو علمت لم أفارقه » .

ولله درّ من قال :

تعلّلا أن حُرمنا طيبَ رؤيتِهِ　　　مَن فاته العينُ هدَّ الشوق بالأثرِ

« فإن أخبار العلماء العاملين والنبهاء الصالحين من خير الوسائل التي تغرس الفضائل في النفوس ، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وتبعثُها إلى التأسِّي بذوي التضحيات والعزمات؛ لتسمو إلى أعلى الدرجات وأشرف المقامات .

و « الحكايات جندٌ من جنود الله تعالى يثبِّت الله بها قلوبَ أوليائه » .

قال أبو حنيفة رحمه الله:« الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إليَّ من كثير من الفقه ؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم » .

وقال مالك بن دينار : الحكايات تحفُّ الجنة .

وقال الجنيد : الحكايات جند من جنود الله عز وجل ، يُقوِّي بها إيمان المريدين . فقيل له : هل لهذا من شاهد ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **وكلّا نقُصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبتُ به فؤادك** ﴾ .

وقال آخر : استكثروا من الحكايات فإنها دُرَرٌ ، وربما كانت فيها الدرَّة اليتيمة .

وسماع أخبار الصالحين لذَّة ما تفوقها لذة ، وخيرُ وسيلة لإشعال العزائم ، وإثارة الروح الوثَّابة ، وقدْح المواهب ، وإذْكاء الهمم ، وتقويم الأخلاق ، والتسامي إلى معالي الأمور ، والترفُّع عن سفسافها ، والائتساء بالأسلاف الأجلاء – هو قراءة سِير نبغاء العلماء الصلحاء ، والوقوف على أخبار الرجال

---

(١) السير ١٠/ ٧٠، وتاريخ ابن عساكر ٢/٤/١٥ ، والحلية ٩ / ١٠٢ .

العظماء، والتملّي من اجتلاء مناقب الصالحين الربَّانيين، والاقتراب من العلماء النبهاء العاملين المجدين ؛ فذلك خير مهماز لرفْع الهمم ، وشدٍّ العزائم ، وسمو المقاصد، وإنارة القلوب، وإخلاص النيَّات، وتفجير النبوغ والطاقات المدفونة ، والصبر على اجتياز العقبات الصعاب ، واحتلال ذرا المجد الرفيع ، وكسْب الذكر الحسن ، واغتنام الباقيات الصالحات »(١) .

ولسنا نريد بذكر التراجم قصصًا وحكاياتٍ ، دون فقه وعلم نافع يُعرف الناس بدينهم فيحملهم على العمل ، كبني إسرائيل قال عنهم ﷺ : « إن بني إسرائيل لمَّا هلكوا قصُّوا »(٢) . أي لما هلكوا بترك العمل أخلدوا إلى القصص وعوَّلوا عليها . قاله المناوي .

لا نريد هنا .. لا نريد أن نتبع سَنن من كان قبلنا ... إنما نريد تطبيق الأئمة العاملين وفهمهم للكتاب والسنة .. أناس سِيط الحقُّ بدمائهم ، وامتزج حبُّ القرآن والسنة بلحومهم ودمائهم ، وكان الاتباع أحبَّ إليهم من سواد أعينهم .. فكانوا قدوة في العلم والعمل .

ومطالعة التراجم ، وسَبْر مواطن العظة في حياة العظماء ؛ وسيلة هامة من وسائل التربية،فإن الحيّ لا تُؤمن عليه الفتنة .

ما في الخيام أخو وجد يريحك إنْ بَثثتَه بعض شأن الحبِّ فاغْتربِ

« قال نُعيم بن حماد : كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته ، فقيل له : ألا تستوحش ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه »(٣) .

قال ابن الجوزي : سبيلُ طالب الكمال في طلب العلم ، الاطلاعُ على الكتب التي قد تخلَّفت من المصنفات ،فليكثر من المطالعة ؛ فإنه يرى من علوم

---

(١) صفحات من صبر العلماء صـ ١٧ - ١٨ .
(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والضياء ، وأبو نعيم في الحلية ، والأشبيلي في الأحكام عن خباب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٤١) .
(٣) سير أعلام النبلاء ٨ / ٣٨٢ .

القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره ، ويحرِّك عزيمته للجد ، وما يخلو كتاب من فائدة .

وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم ، لا نرى فيهم ذا همَّة عالية فيقتدي بها المبتدي، ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد، فالله الله، وعليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفهم، وأخبارهم؛ فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم ، كما قال :

فاتني أنْ أرى الديار بطرفي　　فلعلِّي أرى الديارَ بسمعي

قال ابن الجوزي : « لو قلتُ : إني قد طالعت عشرين ألف مجلد ، كان أكثر ، وأنا بعدُ في الطلب ؛ فاستفدتُ بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم ، وقدر هممهم ، وحفظهم ، وعباداتهم ، وغرائب علومهم ؛ ما لا يعرفه من لم يُطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب.ولله الحمد»[(١)] .

السادس والعشرون : الصبر والمثابرة :

فإنما تُنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

« وطالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبْس قلبه في طلبه ومطلوبه ، وحبْسه عن الالتفات إلى غيره ، وحبس لسانه عمَّا لا يفيد ، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته ، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات ، وحبسها على الواجبات والمندوبات ، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربَّه فيخلِّصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه . ومتى لم يصبر على هذين الحبسيْن وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات ، أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند الخروج من الدنيا ؛ فكل خارج من الدنيا إما متخلِّص من الحبس وإما ذاهب إلى الحبس »[(٢)] .

---

(١) صيد الخاطر ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) الفوائد صـ ٧٢ .

وقل ساعدي يا نفسُ بالصبر ساعةً فعند اللقا ذا الكدّ يصبحُ زائلا
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويصبحُ ذا الأحزانِ فرحانَ جاذلا

ومن تلمَّح حلاوة العافية هان عليه مرارة الصبر .

أخي : هان سهر الخدَّام لما علموا أن أصواتهم بسمع الملك ، أما نحن فألفنا عجز العادة ، فلو علتْ بنا هممنا رُبى المعالي؛ للاحتْ لنا أنوارُ العزائم ..

أخي : نزول همَّة الكساح دلَّاه في جُبِّ العذرة ، وصبْرُ أهل اليقين جعلهم أئمة الدين . من استطال الطريق ضعف مشيه .

وما أنت بالمشتاق إن قلت بيننا طوال الليالي أو بعيد المفاوز

قد علمتَ أين المنزل فاحدُ لها تَسِرْ ، وأعلى الهمم همَّة مَنِ استعد للقاء الحبيب وصبر ، وقدَّم التقادم بين يدي الملتقى .

لا بدَّ من مرابطة على الحقِّ الذي عرفت جماله ، والإيمان الذي ذقت حلاوته ، فحذار من التلوُّن .

كل يـوم تتلــوَّنْ غير هذا بك أجملْ

جمع فيك عقل المَلَك وشهوة البهيمة وهوى الشيطان ، وأنت للغـالب عليك من الثلاثة؛ إنْ غلبتَ شهوتك وهواك زدت على مرتبة ملَك ، وإن غلبك هواك وشهوتك نقصت عن مرتبة كلب .

علَّمت كلبَك فهو يترك شهوته في تناول ما صاده احترامًا لنعمتك ، وخوفًا من سطوتك ، وكم علَّمك معلِّمُ الشرع وأنت لا تقبَل !!

أتى الكلبُ إلى الأسد فقال له : : يا ملك الغابة غيِّر لي اسمي ؛ فإن كلب اسم قبيح . فأعطاه قطعة من اللحم وقال : احتفظ بها إلى الليل ؛ فإن احتفظت بها غيَّرنا لك اسمك . فلما كانت الظهيرة واشتدَّ به الجوع ورأى اللحم لم يصبر ولم يجاهد نفسه ، وجعل ينظر إلى اللحم ويقول : وما كلب .. إن « كلب » اسم جميل .. كلب كلب.ثم أتى إلى السبع ليلا فقال : غيِّر لي اسمي . فقال له السبع : ائتمناك على قطعة من اللحم إلى الليل فلم تصبر ؛ فكيف نأتمنك

على الاسم الجميل ؟!!

ياسائرين إليه الدَّرْب لا تقفوا   طابَ الوصولُ لمحرومٍ تمنّاهُ

قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلنا وإن الله لَمَعَ المحسنين﴾ [العنكبوت : ٦٩] . فعلّق سبحانه الهداية بالجهاد ؛ فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا ، وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا ، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سُبُل رضاه .

ولا يتمكّن من جهاد عدوِّه في الظاهر إلّا من جاهد هذه الأعداء باطنًا ، فمن نُصر عليها نُصِر على عدوه .

وفاز بالوصل مَنْ قد جدَّ وانقشعتْ   عن أفقه ظلمات الليل والسُّحبِ
فعادِ كلَّ أخي جبنٍ ومَعجَزةٍ   وحاربِ النفس لا تلقيك في الحَرَبِ
واسْرِ في غمرات الليل مهتديًا   بنفحةِ الطِّيب لا بالعود والحَطَبِ
وخذْ لنفسك نورًا تستضيءُ به   يومَ اقتسام الورى الأنوارَ بالرُّتَبِ

قال رسول الله ﷺ : « أحب الأسماء إلى الله:عبد الله وعبد الرحمن والحارث »[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدق الأسماء همَّام وحارث ، وشرُّ الأسماء حرب ومُرَّة »[٢] .

قال المناوي: «أصدق الأسماء همام وحارث، وذلك لمطابقة الاسم لمعناه؛ إذْ كلُّ عبدٍ متحرك بالإرادة ، والهم مبدأ الإرادة ، ويترتب على إرادته حرْثُه وكسْبه ، فإذًا لا ينفكُّ مسماهما عن حقيقةِ معناهما »[٣] .

---

(١) صحيح : رواه ابن عدي عن أنس ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٩٠٤) .

(٢) صحيح : رواه ابن وهب في الجامع عن عبد الوهاب بن بُخْت ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم (١٠٤٠) .

(٣) فيض القدير للمناوي ١ / ١٦٩ .

السابع والعشرون : الخلوة :

« الخلوة مَهْرُ بِكْرِ الفِكْر ، وسُلَّمُ معراج الهمة ، حريمُ العزلة مَصون من عيْبِ غيْثِ عَبَثٍ ، إذا خلت دار الخلوة عن الصور ؛ تفرَّغ القلبُ لملاحظة المعاني .

أوْحَشتْني خَلَـواتي بكَ مِن كلِّ أنيسِ
وتفـرّدتُ فعاينْــ ـتُكَ بالغيب جليسي
ودعاني الوجـدُ والحُـ ـبُّ إلى المعنى النفيسِ
فبدا لي أن مهْرَ الْـ ـحب أنفاسُ النفوسِ
فكتبتُ العهدَ للحـ ـبِّ على طِرْسِ الرَّسيسِ

يا هذا ، إذا رُزقت يقظة ، فصنها في بيت عزلة ، فإن أيدي المعاشرة نهَّابة . احذر معاشرة الجُهَّال فإن الطبع لص ، لا تصادقنَّ فاسقًا فإن من خان أوّل منعم عليه لا يفي لك .

الأنس بالأنس ريق، المخالطةُ تُوجب التخليط، وأيسرُ تأثيرها تشتيتُ الهمِّ.

أقل ما في سقوطِ الذئب في غنم إن لم يُصبْ بعضَها أن ينفر الغنم

قطْع العلائق أصل الأصول ، تأمَّلوا إلى الفرس إذا قدم إلى الماء الصافي كيف يضرب بيديه فيه حتى يتكدّر ، أتدرون لم ؟ لأنه يرى صورة نفسه في الماء الصافي وصورة غيره ، فيكدّره حتى لا تتبين في الصور فيتهنّى بالشرب . لا يظهر في خلوة المتيقظ إلا الحق ؛ كان أويس يهرب من الناس فيقولون : مجنون »[1] ، وهو كما قال رسول الله ﷺ : « سيد التابعين » .

الثامن والعشرون : واقع المسلمين المُرُّ والمؤلم يصنعُ الرجال ويُعلي الهمم :

وآه من ذلَّة تُرادُ للجباه ..

أين يا قلبُ أسكبُ الدمع أنَّى طُفتُ ألقى مذلَّة وخُنوعا

---

(١) المدهش ٤٤٢ - ٤٤٣ .

آهٍ وألف آه من قوافل الضياع المشرَّدة .

قوافلُ تمضي بين أفواجِ رُضَّعٍ وأحزانِ ثكلى أو تباريح أيِّمِ
وبين صبايا يا لَذلٍّ دموعِها وأفواجِ أطفال وأمواجِ يُتَّمِ
قوافلُ تمضي وهْي تسحبُ خَطْوها ذليلًا على شَوْكٍ مُدَمٍّ وَمُوضِمِ[1]
تكادُ عيونُ الطفل تسأل مَن أنا إلى أين أمضي يا فيافي تكلّمي
أتحملني دورُ النصارى وبيعةٌ وساحاتُ شِرْكٍ أو منازلُ سُوَّمِ
لتُنْزع مني فطرةٌ وطهارةٌ ويُغرَسَ بي شرك وفتنةُ مأثمِ

آهٍ وألفُ آهٍ من واقعنا المرّ !!

اسألوا الأرض عن رُفات الضحايا واسألوا الليل عن ظلام السجونِ
إنما رُزء أمتي في رجالٍ همُّهم في فروجهم والبطونِ
يتعالون فوقنا ونراهم سُجَّدًا عند أرجل التنِّينِ
وبَلَوْنا شئونهم فرأيْنا أنهم أتخموا إلى الغرب مَيْلا
كشياهِ الجزّارِ تسعى إليه أو كمن يُنكحُ الثريَّا سُهَيْلا
وقبيحٌ من الفتى أن يكونَ الـرَّأسَ في قومه فيصبحُ ذيْلا
أُمّتي يا أعزَّ شيءٍ بقلبي رحل العمرُ والجناحُ مهيضُ
رحل العمرُ والمآسي خِضَمٌّ جازه غيرُنا ونحن نخوضُ
رحل العمرُ والليالي اكتئابٌ معتم لم يُشرْ إليه وميضُ
أُمَّتي هذه المصائب زنْدٌ يُشعلُ العزمَ حين يغفو النهوضُ[2]

من آلامنا تبزغ آمالنا .. والرجال تصنعهم المِحَن .. وابتسامة الفجر الوليد تبزغ من أشد ظلمة في الدياجي ..

---

(١) مُوضِم : مؤلم .
(٢) نقوش على واجهة القرن الخامس عشر ، لعبد الرحمن العشماوي صـ ٨١ - مكتبة العبيكان .

متى يفيق النائمون ؟!

هل بقي شيءٌ من الذّل لم نتجرعه على أيدي إخوان القردة والصليبيين..

القدس ويا لذل القدس .. البوسنة ويا لذل البوسنة ..

أضِيعُوها كما كنتم أضعتم قبلها القُدسا
وسيروا في جنازتِها فقد أتقنتمُ الدَّرْسا
وأصبحتم لقاتِلِهـا جنودًا تحفرُ الرِّمْسا
وأصبحتم لقاتِلِهـا نعالًا تتْقِن الدَّوْسا
وصِرْتم يا لجَهْلكُمُ عبيدًا بُلَّهًا خُرْسا
أنسلمُهـا لقـوَّادٍ يُقوِّمُ حسنها شوْسا
لقد دُفِنَتْ شهامتُكم وقيل لأمِّكم تَعْسا

متى يفيق النائمون ؟! :

شهداؤنا بين المقابر يهْمسونْ
والله إنَّا قادمونْ
في الأرض ترتفع الأياديْ
تنبتُ الأصوات في صمْتِ السُّكونْ
والله إنَّا راجعونْ
تتساقط الأحجارُ يرتفع الغبارْ
تضيءُ كالشمس العيونْ
والله إنَّا عائدونْ
شهداؤنا خرجوا من الأكفانْ
وانتفضوا صفوفا ثم راحوا يصْرخونْ
عارٌ عليكم أيها المستسلمونْ
وطنٌ يُباعُ وأمة تنساق قطعانًا

وأنتم نائمونْ
شهداؤنا فوق المنابر يخطبونْ
قاموا إلى لبنان صلوا في مساجدِها
وزاروا المسجد الأقصى
وطافوا في رحاب القدس واقتحموا السُّجونْ
في كلِّ شبرٍ من ثرىٰ الوطن المكبَّل ينبتونْ
من كل ركن في رُبوع الأمة الثكْلىٰ
أراهم يخرجونْ
شهداؤنا وسط المجازر يصرخونْ
الله أكبرُ منك يا زمن الجنونْ
الله أكبرُ منك يا زمن الجنونْ
الله أكبرُ منك يا زمن الجنونْ
شهداؤنا يتقدمون
أصواتهم تعلو على أسوار بيروت الحزينة
في الشوارع في المفارق يهدرونْ
إني أراهم في الظلام يُحاربونْ
رغم انكسار الضوء في الوطن المكبَّل بالمهانة والدمامة والمجون
والله إنَّا عائدونْ
أكفاننا ستضيء يومًا في رحاب القدس
سوف تعود تقتحم المعاقل والحصونْ
شهداؤنا في كلِّ شبْر يصْرخونْ
يا أيُّها المتنطِّعونْ
كيف ارتضيتم أن ينامَ الذئبُ في وسط القطيع وتأمنونْ
وَطَنٌ بعَرْضِ الكونِ يُعرَض في المزادْ

وطغمة الجرذان في الوطنِ الجريح يُتاجرونْ
أحياؤنا الموتى على الشاشات
في صَخَبِ النهاية يَسْكرونْ
مَن أجهض الوطن العَريقَ
وكبَّل الأحلام في كلِّ العيونْ
يا أيها المتشرذمونْ
سنخلص الموتى من الأحياء
من سَفَهِ العميلِ العابث المجنونْ
والله إنَّا قادمون
﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون ﴾
شهداؤنا في كل شبرٍ في البلاد يُزمْجرونْ
جاءوا صفوفًا يسألون
يا أيُّها الأحياءُ ماذا تفعلونْ ؟
في كلِّ يوم كالقطيع على المذابح تُصْلبونْ
تتسرَّبون على جناح الليل
كالفئران سرًّا للذئاب تهَرْولونْ
وأمام أمريكا تُقامُ صلاتُكم فتسبِّحون
وتطوفُ أعينُكم على الدولار
فوق ربوعه الخضراء يبكي الساجدونْ
صورٌ على الشاشات
جرذان تصافح بعضها
والناسُ من ألم الفجيعة يضحكونْ
في صورتيْن تُباع أوطان وتسقط أُمَّة
ورؤسكم تحت النعالِ وتركعون

في صورتين تُسلِّمُ القدس العريقة للذئاب
ويسكرُ المتآمرونْ
شهداؤنا في كلِّ شبرٍ يَصْرخونْ
بيروت تسْبحُ في الدماء وفوقها الطاغوت يهدرُ في جنونْ
بيروتُ تسألكم أليس لعِرْضِها حقٌّ عليكم
أين فَرَّ الرافضونْ
وأين غاب البائعونْ
وأين راح الهاربونْ
الصامتون .. الغافلون ..
الكاذبون ؟
صمتوا جميعًا
والرصاصُ الآن يخترقُ العيونْ
وإذا سألتَ سمعتَهم يتصايحونْ
هذا الزمانُ زمانهم
في كلِّ شيءٍ في الورى يتحكمونْ
لا تسرعوا في موكب البيع الرخيص فإنكم
في كل شيء خاسرونْ
لن يترك الطوفانُ شيئًا كلكم في اليمِّ يومًا غارقونْ
تجْرون خلف الموت
والنخَّاس يجري خلفكم
وغدًا بأسواق النخاسة تُعْرَضونْ
لن يرحم التاريخ يومًا من يفرِّط أو يخونْ
كهَّانُنا يترنَّحونْ
فوق الكراسي هائمون ـ

في نشوةِ السُّلطان والطغيان راحوا يسكرونْ
وشعوبنا ارْتاحتْ ونامتْ
في غياباتِ السجونْ
نام الجميع وكلّهم يتثاءبونْ
فمتى يُفيق النائمون ..
متى يفيق النائمونْ ؟!(١)

ولله درُّ من قال :

أرى البلايا تُحيطُ المرءَ تحصنُه ... حتى لَئنْ صحَّ ذوبُ الصَّخرِ لم يذُبِ
أوْ صحّ أن قناة الصلْب قد وَهنت ... فلا يلين إذا ما صُبّ في اللّهبِ
ما حصحصَ الحقُّ إلا بعد ما انسلخت ... مِن عمر يوسف أعوامٌ من النَّصَبِ

يقول الدكتور « صالح آدم بيلو » في قصيدته « عرفتُ الطريق » :

كلما ازدادت عليَّ المِحَنُ
وتوالتْ إحنٌ لا تَهِنُ
وكُروبٌ يصطفيها الزمنُ
وظلامٌ كافرٌ أو فِتَنُ
فلتطهير وتدريب عميق
واختبار الذهب الصِّرْف الحقيقي
وإذا عاندت يومًا يا « رفيقي »
فلأني قد تبيَّنت طريقي
إنْ ذَوَتْ في الغُصْنِ بعضُ الوَرَقاتِ
وتهاوتْ للثرى مستبقاتِ
ورمتْها الريحُ في وادي الشَّتاتِ

(١) « متى يفيق النائمون » قصيدة لفاروق جويدة .

فعلى الأغصان زاهي الزهراتِ
وهنا طلع رضيٌّ النفحاتِ
فتعلَّمْ .. ذاك عنوانُ الحياةِ
خَسِئَ السَّاقطُ مِن ماضٍ وآتِ
إنْ مضى فَلْيمض ملعونَ المماتِ
وإذا ما حِرْتَ يومًا يا صديقي
لنمائي ولإيماني الوثيقِ
فاعتبرْ .. إني تبيَّنت طريقي

التاسع والعشرون : سِبْرُ فقه الابتلاء والدعوة :

لله سنن ماضية في الدعوات وفي الابتلاء ، ومن سُنة الله في الابتلاء امتحان المؤمنين بالشدائد قال تعالى : ﴿ **أَمْ حسبتم أن تدخلوا الجنَّة ولمَّا يأتكم مثلُ الذين خلَوْا من قبلكم مسَّتْهم البأساءُ والضرَّاءُ وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين ءامنوا معه متى نصر الله ألَا إنَّ نصرَ الله قريب**﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وقال تعالى : ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ في أموالِكم وأنفسكم ولتسْمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب مِن قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا وإن تصبروا وتتقوا فإنَّ ذلك مِن عزْم الأمور** ﴾ [آل عمران : ١٨٦] . فمن عزائم الأمور الصبر على الأذى والالتزام بالتقوى ، « فهذا مما يجب أن يعزمَ عليه المؤمنون ، من الأمور التي تُزْهِقُ الباطل وتنصرُ الحقَّ وأهله »[1] .

وأشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، ومع هذا يحذرُ الإنسان من جلْب المِحَن أو الحرص عليها . واستعجال المحن ناشئٌ من جهْل الجماعة المسلمة ؛ قال رسول الله ﷺ : « لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ وسَلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا »[2] .

(١) السنن الإلهية لعبد الكريم زيدان صـ ٨٨ ، مؤسسة الرسالة .

(٢) رواه البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى .

ومن فقه البلاء أن المرء لا ينبغي له أن يذلَّ نفسه ؛ لقول رسول الله ﷺ : « لا ينبغي للمؤمن أن يذلَّ نفسه » . قالوا : كيف يذلُّ نفسه ؟ قال : « يتعرَّض من البلاء لما لا يطيق »[١] .

والاستعجال جرَّ كثيرًا من المستعجلين إلى مصارعهم، مما أدَّى إلى تراجُع الدعوة في كثير من الأقطار سنين عددا .

وهذا خباب بن الأرت يلاقي ما يلاقي من الأعداء ، وقد كان يُوضع على الحديد المحمي ، فما ينطفئُ لهبُه إلا بما يسيلُ من وَدَك ظهره ، فيأتي إلى رسول الله ﷺ يسأله : ألا تستنصر لنا ؟ فعدَّ رسول الله ذلك استعجالًا ؛ لأنه مأمور بعدم الاستعجال : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرُّسل ولا تستعجل لهم** ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

إن طريق الدعوة شاقٌّ طويل.. وطريق مرير، حتى لتحتاج نفسٌ كنفس رسول الله ﷺ في تجرُّدها وانقطاعها للدعوة ، وفي ثباتها وفي صلابتها وفي صفائها ؛ تحتاج إلى هذا التوجيه الربَّاني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنِّتين .

ومن سنن الله نصر أوليائه: ﴿**إنا لننصرُ رُسُلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقوم الأشهاد**﴾ [غافر: ٥١]. وقال تعالى: ﴿**ولقد سبقتْ كلمتُنا لعبادنا المرسلين إنهم لهُمُ المنصورون وإنَّ جندَنا لهُمُ الغالبون**﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

ولا بد من فهْمٍ لمظاهر الانتصار حتى تُشحذ الهمم ؛ فقد يكون النصر بالغلبة المباشرة والقهر للأعداء ، وقد يكون النصر بإهلاك المكذِّبين .

وقد يكون النصر بما يتصوّره الناس هزيمة؛ من قتْل وسجْن وطرْدٍ وأذى.

وقد يكون النصر بانتصار المنهج وظهوره ، كما قال سيد قطب رحمه

---

(١) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن حذيفة ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم (٦١٥) .

الله : « إن كلماتنا وأقوالنا تظلُّ جثثًا هامدة حتى إذا متنا في سبيلها وغذَّيناها بالدماء عاشتْ وانتفضتْ بين الأحياء »(١) .

وقد يكون الانتصار بانتصار الداعية على نفسه ، بأن يعرف أن رهبة السجن أكبر من حقيقته ، وينكشف له الباطل وزيفه .

ولله درُّ ابن تيمية حين يُسْجن فيقول : « ما يصنع أعدائي بي ، أنا جنتي وبستاني في صدري أينما رُحت فهي معي ، إن معي كتاب الله وسنة نبيه ؛ إن قتلوني فقتلي شهادة ، وإن نفوني عن بلدي فنفيي سياحة ، وإن سجنوني فأنا في خلوة مع ربي . إن المحبوس مَن حُبس عن ربِّه ، وإن الأسير من أسره هواه » . ولما أغلقوا عليه باب القلعة بدمشق قال : ﴿ **فضرب بينهم بسور له باب باطنُه فيه الرحمة وظاهرُه مِن قِبَله العذاب** ﴾ ، لو يعلمون ما أسْدوا إليَّ من الجميل بسجنهم إيَّاي في القلعة ما كافأتهم عليها بملء القلعة ذهبًا . وتفرَّغ شيخ الإسلام للتفسير وقال : « لو استقبلتُ من عمري ما استدبرتُ لجعلت حياتي وقفًا عليه » . وأخذوا أقلامه ، فكان يكتُب بالفحم على جُدران السجن ، ولما أخذوا منه كل شيء تفرَّغ لتلاوة القرآن ، ومات وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿ **إن المتقين في جناتٍ ونهر في مقعدِ صِدْق عند مليك مقتدر** ﴾ [القمر : ٥٤- ٥٥] . ويومَ موته سجن شيخُ الإسلام ابنُ تيمية مَن سجنوه .. إي والله .. من مات سجينًا في سجنهم يسجنُ ظالميه يوم موته !! فلم يستطيعوا أن يخرجوا يوم موته من بيوتهم ؛ خوفًا من بطْش العامة بهم .

ويعلمُ الداعي أن ثباته على مبدئه انتصار باهر ، وأن النصر قد يكون بقوَّة الحُجَّة وصِحَّة البرهان ، وأن الانتصار غير محصور في زمان أو مكان ، فزمانه الحياة الدنيا ثم الآخرة ؛ مات ابن تيمية في سِجْنه ، وانتصرت دعوته أعظم الانتصار بعد عدَّة قرون من وفاته .

(١) حقيقة الانتصار للدكتور ناصر سليمان العمر صـ ٢١ ، طبع دار الصفوة .

ويعلمُ الداعية أن النصرَ قد يكون بالمنع ، أي منع أعدائه من الوصول إليه .

إذا فقه الداعي حقيقة الانتصار ؛ جدَّ وسعى في هداية الناس للإيمان ، وعلتْ به همَّتُه ، وأيقن أن الكاذب لا بد أن يُفتضح ، ومتى علم الداعي قول الله:﴿ **إنَّ الله لا يُصلحُ عملَ المفسدين** ﴾ ، و ﴿ **وأن الله لا يهدي كيدَ الخائنين** ﴾ .

مَن فقه وعلم الثوابت والسنن في الدعوة ، علمَ أن المستقبل لهذا الدين ، وأن أهل الباطل مهما انتفخوا فهم هباء ..

الداعية بفقهه هذا تعلو همَّته ويكون من صُنَّاع الحياة بشموخه وضربه المثل العالي ، « كذاك الذي انقطع به حبل المشنقة لحظة إعدامه بالباطل فقال : كلُّ جاهليتكم رديئة .. حتى حبالكم رديئة !! »[1] .

وليس وراء صنعة الشموخ حبةُ خردلٍ من معنى دعوة .

عائدٌ أنا من حيث أتيت
عائدٌ أنا لمسجدي
عائدٌ إلى الصلاة والركوع والسجودْ
عائدٌ إلى الطريق خلف أحمدَ الرسول
أُطلق الخطى حزينة في إثره
عرفتُ قصَّة الطريقِ كلّها
محافل تضمُّ ألف سوط
والموتُ قادم .. يدوس فوق موت
عرفتُ قصَّة الطريق كلّها
وعائدٌ أنا برغْمها

---

(١) صناعة الحياة لمحمد أحمد الراشد صـ ٦٠ ، دار المنطلق بدبي .

كالفجر .. كالصباح .. مغدقٌ وباسمُ
والخطو كالرياح .. عاصفٌ وعارم
لا بديلَ للخلود
لا بديل للجنان
لا بديل
لا بديلَ غير ذلَّة الرُّغامْ
لا بديل غير خدعةِ السرابْ
لا بديل غير وهْدةِ الظلامْ
لا بديل للإقدام .. غير سحقة الأقدامْ
عرفت قصَّة الطريق كلّها
الموتُ أول المطاف
لكنَّ خضرة الطريق لا يصيبها الجفاف
قادمٌ .. وقادمٌ .. وقادمُ
إشراقة مضيئة تجيء في الختام
تقدَّموا .. تقدَّموا .. تقدَّموا
فبعد لحظةٍ من المسير
ينتهي الزحامْ
ينتهي الزحامْ

الثلاثون: كَـوْنُ الداعية على عقيدة أهل السنة والجماعة، وفهمه لمعنى التوكُّل:

متى صحَّ اعتقاد الرجل وسار على درْب أهل السنة والجماعة ، علتْ همته وسمت أن يكون مُرجئًا أو صوفيًّا يُنكر الأسباب ويتواكل، وما يجر ذلك من عظائم .

والرجل من أهل السنة يعلم حقيقة التوكل وربْط الأسباب بالمسببات ، ويعلم أنه إذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب ، وأن مَن أنكر الأسباب لم يستقم

منه التوكل ، وهذا سلوك البطالين .

ويعلم الداعية أنَّ من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب ، وقطْع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه بها ؛ فالأسباب محلُّ حكمة الله وأمره ودينه ، والتوكُّل متعلِّق بربوبيته وقضائه وقدره ، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ، ولا يستوي ساق التوكل إلا على قدم العبودية . وينبغي للعبد أن لا يُبقي في قلبه اضطرابًا من تشويش الأسباب ولا سكونًا إليها ، بل يخلع السكون إليها من قلبه ، ويُلبسه السكون إلى مسبب الأسباب .

وعالي الهمَّة يعلمُ أن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، لقول رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وعرشه على الماء »[(١)] . ويعلم أن مشيئة الله شاملة وقدرته نافذة ؛ ﴿ **إنَّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كُن فيكون** ﴾ [يس : ٨٢] . فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ فلا حركة ولا سكون في السموات ولا في الأرض إلا بمشيئته ، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد ، له الأمر وله الحكم في الدنيا والآخرة ؛ فيفرِّغ العبدُ قلبَه لربِّه ويعلم أن البشر لا يملكون نفعه ولا ضرَّه ، فتعلو همَّتُه لطلب مَن بيده النفع والضر ، يرجو رحمته ويخاف عذابه .

فتعرَّفْ يا ابن أمي في العقيده
يا أخا الإسلام في الأرضِ المديدهْ
وتجرَّدْ لانطلاقاتٍ بعيده
وتوقَّعْها جراحاتٍ جديده
فهْي طوبى واختبارات مجيدهْ

---

(١) رواه مسلم .

وتساءلْ .. غَنِّها اليوم قصيدهْ :
ما حياةُ المرءِ من غير عقيدهْ ؟!
ما حياة دون أهدافٍ بعيده ؟!
ما حياة دون أرواحٍ شهيده ؟!
وكفاح وصراعاتٍ عنيدهْ ؟![١]

الحادي والثلاثون : وصايا الربَّانيِّين ونصائحهم :

«إن التواصي بالحق والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة: ميثاق إسلامي، أخذه الله ورسوله على الجيل القدوة الأول ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ؛ قال عزَّ ثناؤه : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصبر** ﴾[العصر : ١ - ٣] . وقال تعالى : ﴿ **ثم كان مِنَ الذين آمنوا وتواصَوْا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة** ﴾[البلد : ١٧ - ١٨] .

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : « بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاءِ الزَّكاة والنُّصح لكل مسلم »[٢] .

والنصيحة كلمةٌ جامعة ، وليس في الكلام كلمة مفردة تُستوفَى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة ؛ ولذلك جعلها رسول الله ﷺ الدِّينَ كلَّه ، فعن تميم الداري أن النبيَّ ﷺ قال : « الدينُ النصيحة » . قلنا : لمن ؟ قال : « لله ، ولكتابه ، ورسوله ، ولأئمة المسلمين وعامَّتهم »[٣] .

---

(١) من قصيدة « عرفت الطريق » للدكتور صالح آدم بيلو من كتاب « من الشعر الإسلامي الحديث » صـ ٩٤ .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) أخرجه البخاري تعليقًا ، ومسلم . وروى الشطر الأول منه البخاري في التاريخ عن ثوبان، والبزار عن ابن عمر، والدارمي وابن نصر عن ابن عمر، وأحمد ومسلم وأبو عوانة، وأبو داود، والنسائي، وابن نصر عن تميم ، وأحمد ، والنسائي ، =

فمن خلال لفظ النصيحة المتضمِّن كلمة التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته؛ تبرُز صورة الأمة المتضامنة المتضامّة ، الخيِّرة الواعية ، القيِّمة في الأرض على الحقِّ والعدل والخير .

وهي أنصع وأرفع صورة للأمة المختارة ، التي أرادها الله أن تكون قائمة على حراسة الحقِّ والخير ، متواصية بالخير والصبر في مودَّةٍ وتعاونٍ وتآخٍ ، تتَّضحُ بها كلمة التواصي .

إنَّ التواصي بالحقِّ ضرورة للنهوض بالحق ؛ لأن المعوقات كثيرة ؛ هوى النفس ، ومنطق المصلحة ، وتصوُّرات البيئة .

والتواصي تذكيرٌ وتشجيعٌ وإصلاحٌ، وإشعارٌ بالقربى في الهدف والغاية، والأخوَّة في العبء والأمانة ؛ فهو حصيلة الاتجاهات الفرديَّة كلِّها ، حيث تتفاعل معًا فتتضاعف أضعافًا كثيرة ، ويقوى أمرُها ، وتستغلظ فتستوي على سوقها ؛لتؤتي أُكلها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها .

والتواصي بالصبر ضرورة ؛ لتتضاعف المقدرة على الثبات على الحق ، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف ووحدة المسار وتعاضُد الجميع، وتزوّدهم بالحبِّ والعزم والإصرار . فهو معيارُ تماسك الأمة المسلمة ، فهي أعضاء متجاوبة الحسِّ، تشعرُ شعورًا واحدًا، فيوصي بعضُها بعضًا بالصبر على العبءِ المشترك ، ويثبِّتُ بعضُها بعضًا فلا تتخاذل ، ويقوِّي بعضُها بعضًا فلا تولِّي يومَ الزحف .

وهذا غير الصبر الفردي وإن كان قائمًا عليه، فهو إيحاءٌ جَلِيٌّ بواجب المؤمن في الأمةِ المسلمة ، بألَّا يكون عنصر تخذيل وتثبيط بل عنصر تثبيت ، ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ، ولا يكون مثارَ جزع بل مهبط سكينة وطمأنينة .

= والترمذي ، وابن نصْر ، وأبو نعيم عن أبي هريرة ، وأحمد ، والضياء ، والبخاري في التاريخ عن ابن عباس .

وكذلك التواصي بالمرحمة أمر فوق المرحمة ، لأنه إشاعة الشعور بواجب التراحُم والتعاطُف والتوادِّ في الصفوف المؤمنة؛ ليزداد البنيانُ تماسكًا؛ حيث يكون التحاضُّ على المرحمة واجبًا فرديًّا جماعيًّا في الوقت نفسه ، يتعارف عليه الجميع ، ويتعاون عليه الجميع[١] .

لقد مارس الجيلُ القدوة الأول النُّصحَ على أعلى المستويات وأدناها ، لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وطبَّق التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، والتواصي بالمرحمة .

وأصدق الوصايا وأنفعُها ما ورد في الكتاب العزيز من أوامر الحق ونواهيه، المنزَّل من حكيم حميد نزل به الروح الأمين على قلب نبينا: **﴿فاستبقوا الخيرات﴾**، **﴿فاذكروني أذكركم﴾**، **﴿وأحسنوا﴾**، **﴿وأنفقوا في سبيل الله﴾**، **﴿وتزودوا فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى﴾**، **﴿وقاتِلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين لله﴾**، **﴿واتقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله﴾**، **﴿فلا تخشوهم واخشوني﴾**، **﴿وبعهد الله أوفوا﴾**. ثم وصايا الحبيب ﷺ : « كُن في الدنيا كأنَّك غريبٌ أو عابر سبيل»، «كن ورعًا تكن أعبد الناس » .

ووصايا العلماء الربانيين تفعل في القلوب الأعاجيب ، وتشحذُ الهممَ :

«قال رجل لمحمد بن واسع: أوصني. قال : أوصيك أن تكون ملكًا في الدنيا والآخرة . قال : كيف ؟ قال : ازهد في الدنيا »[٢] .

وقول عثمان رضي الله عنه : «أنتم إلى إمامٍ فعَّالٍ أحوجُ منكم إلى إمامٍ قوَّال » .

وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الناس من خوف الذل في الذل».

---

(١) نقلًا عن الظلال ، الجزء السادس بتصرُّف ، وكتاب « من وصايا السلف » للشيخ سليم الهلالي .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦ / ١٢٠ .

وقول عمرو بن العاص رضي الله عنه :

إذا المرء لم يترك طعامًا يحبُّه ولم ينهَ قلبًا غاويًا حيثُ يمَّما
قضى وطرًا منه وغادر سُبَّةً إذا ذكرتْ أمثالُها تملأُ الفما

وقول القائل :

وأنتَ إذا أعطيتَ بطنَك سُؤْلَهُ وفرجَك نالا مُنتهى الذمِّ أجمعا

وقول القائل ناصحا : « أنفعُ اليقين : ما عظَّم الحقّ في عينك ، وصغَّر ما دونه عندك ، وأثبتَ الرجاءَ والخوفَ في قلبك » .

وقول بندار بن الحسين الشيرازي موصيًا وناصحًا : « مَن مشىٰ في الظلمة إلى ذي النعم أجلسه على بساطِ الكرم، ومَن قطع لسانه بشفرة السكوت بُنِيَ له بيتٌ في الملكوت ، ومَن واصل أهل الجهالة أُلبِس ثوبَ البطالة ، ومن هربَ من الذنوب هُرِبَ به من النار ، ومَن رجا شيئًا طلبه » .

وقال رجل لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : أوصني يرحمك الله . فقال : « اعلم أنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنتَ إلى نصيبك من الآخرة أفقر ؛ فابدأ بنصيبك من الآخرة ، فإنه سيمرُّ بك على نصيبك من الدنيا فينتظمه ، ثم يزول معك أينما زلت » .

وقال أبو الدرداء : « اعبد الله كأنك تراه ، وعُدَّ نفسَك في الموتى » .

وقال : « اذكر الله في السَّراء يذكرك في الضرَّاء ، وإذا ذكرت الموتى فاجعل نفسك كأحدهم » .

وقال هرم بن حيان : « أوصيكم بخواتيم سورة النحل » . وقال : « أوصيكم بخواتيم سورة البقرة » .

وقال الشيخ الموفَّق ابن اللَّباد : ينبغي أن تكون سيرتُك سيرةَ الصدر الأول ، ومَن لم يكدح لم يفلح ، وإذا حدث لك فرح بالدنيا فاذكر الموت وسرعة الزوال ، واعلم أن للدين عبقةً وعرقًا ينادي على صاحبه ، ونورًا وضيئًا يُشرقُ عليه ويدلُّ عليه .

وقال عبد الله بن إدريس لداود الطائي: أوصني. فقال له: ارْضَ باليسير من الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بالدنيا مع فساد الدين . قلت : زدني. قال: اجعل الدنيا كيوم صمته ثم أفطر على الموت. وقال: ليكن كاتباك محدثيك .

وقال : كفى باليقين زهدًا، وكفى بالعلم عبادة، وكفى بالعبادة شغلًا.

وقال أيضًا رحمه الله - لرجل قال له : أوصني -: « يا أخي ، إنما الليل والنهار مراحل تنزل بالناس مرحلة مرحلة ، حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تُقدِّم في كلِّ يوم مرحلةٍ زادًا لما بين يديك فافعل ؛ فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزوَّد لسفرك ، واقض ما أنت قاضٍ من أمرك ، فكأنك بالأمر قد بَغَتك !! إني لأقول هذا وما أعلم أحدًا أشدَّ تضييعًا مني لذلك . ثم قام » .

وقال لرجل آخر : عسكر الموتى ينتظرونك .

وقال الجنيد يوصي إخوانه : عليكم بحفظ الهمة ؛ فإن حفظ الهمَّة مقدمة الأشياء .

وسأل رجلٌ الجُنيد: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ فقال: توبة تحُلُّ الإصرارَ، وخوفٌ يزيل الغرَّة ، ورجاءٌ مزعجٌ إلى طريق الخيرات ، ومراقبة الله في خواطر القلوب .

وقال لرجل : لا تكن عبدَ الله حقًّا وأنت لشيءٍ سواه مُسترَقًّا .

وقال أبو عبد الله السجزي لأخ له : كمال الفتوة أن لا يشغلك الخلقُ عن الله .

ولله درُّ القائل :

لا تبغينَّ جاهًا وجاهُك ساقط عند الإله وكُنْ للموتِ حَذّارا

وقال ممشاد الدينوري موصيًا : الهمَّة مقدمة الأشياء ؛ فمن صلحت له همتُه وصدق فيها ، صلح له ما وراءها من الأعمال والأحوال .

وقال آخر موصيًا إخوانه : قيمةُ كلِّ إنسان بقدر همته ؛ فإن كانت همته الدنيا فلا قيمة له ، وإن كانت همتُه رضاء الله فلا يمكن استدراك غاية قيمته ولا الوقوف عليها .

وقال ابن الكاتب موصيًا : « الهمَّة مقدّمةٌ في الأشياء ، فمن صحح همته بالصدق أتت توابعها على الصحة والصّدق ؛ فإن الفروع تتبع الأصول ، ومَن أهمل همته أتت عليه توابعها مهملة ، والمهمل من الأفعال والأحوال لا يصلح لبساط الحق » .

وانظر إلى نصح سفيان الثوري الذي قال فيه حفص بن غياث : كنا نتعزَّىٰ عن الدنيا بمجلس سفيان .

« قال سفيان رحمه الله : لو أن اليقين ثبت في القلب ؛ لطار فرحًا ، أو حزنًا ، أو شوقًا إلى الجنة ، أو خوفًا من النار .

وقال ابن المبارك : قال لي سفيان : إياك والشهرة ؛ فما أتيتُ أحدًا إلَّا وقد نهى عن الشهرة »[1] .

وقال بشر بن الحارث : اكتمْ حسناتِك كما تكتم سيِّئاتك .

وقال : من أراد أن يلقَّن الحكمة ؛ فلا يعصِ الله .

وقال : لا تعملْ لتُذكَرَ ، وَرِدْ لله ما يريد .

وقال: إذا أعجبك الكلام فاصمُت، وإذا أعجبك الصمْت فتكلَّمْ ..

وقال : قلْ لمن طلب الدنيا : تهيَّأْ للذلِّ .

وسُئل ابن المبارك : مَنِ الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فمَنِ الملوك ؟ قال : الزهَّاد . قيل : فمن الغوغاء ؟ قال : خزيمة وأصحابه . يعني مِن أمراء الظلمة . قيل : فمن السَّفِلة ؟ قال : الذين يعيشون بدينهم .

وقال ابن المبارك رحمه الله : لو اتقى الرجل مائة شيء و لم يتق شيئًا

(١) السير ٧ / ٢٦٠ .

واحدًا ؛ لم يكُ من المتقين ، ولو تورَّع عن مائة شيء سوىٰ شيء واحد ؛ لم يكن وَرِعًا ، ومَن كانت فيه خُلَّة من الجهل كان من الجاهلين ، أمَّا سمعتَ الله يقول لنوح عليه السلام من أجل ابنه: ﴿**إني أعظُك أن تكون من الجاهلين**﴾ [هود : ٤٦] ؟!

وكتب سفيان الثوري إلى عبَّاد بن عبَّاد الخوَّاص : « عليك بالأمر الأول والتمسُّك به، وعليك بالخمول ؛ فإن هذا زمن الخمول . وإياك وحبّ الرئاسة ؛ فإن الرجل تكون الرئاسة أحبَّ إليه من الذهب والفضة . وهو باب غامض ، لا يبصره إلا العلماء السماسرة ، فتفقَّدْ نفسَك ، واعملْ بنيَّة ، واعلمْ أنه قد دنا من الناس أمْر يشتهي الرجل أن يموت.والسلام »[1] .

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز : « إن الذي بقي من العمر لا ثمن له ولا عِدْل ، فلو جمعتَ الدنيا كلها ما عدلت يومًا بقي من عمر صاحبه ، فلا تبعِ اليوم وتعدله من الدنيا بغير ثمنه ، ولا يكونَنَّ المقبور أعظمَ تعظيمًا لما في يديك منك وهو لك،فلعمري لو أن مدفونًا في قبره قيل له : هذه الدنيا - أولها إلى آخرها - تجعلها لولدك من بعدك يتنعَّمون فيها من ورائك ؛ فقد كنتَ وليس لك همٌّ غيرهم - أحبّ إليك ، أمْ يومٌ تُترك فيه تعمل لنفسك ؟ لاختار ذلك ، وما كان ليجمع مع اليوم شيئًا إلا اختار « اليوم » عليه ؛ رغبة فيه وتعظيمًا له ، بل لو اقتصر على ساعة خُيِّرها وما بين أضعاف ما وصفتُ لك وأضعافه يكون لسواه ؛ إلَّا اختار الساعة لنفسه على أضعاف ذلك يكون لغيره. بل لو اقتصر على كلمة يقولها تُكتب له وبين ما وصفتُ لك وأضعافه ؛ لَاختار الكلمة الواحدة عليه .

فانتقِد اليوم لنفْسِك ، وأبصر الساعة ، وأعظم الكلمة ، واحذر الحسرة عند نزول السَّكرة ، ولا تأمن أن تكون لهذا الكلام حُجَّة ، نفعنا الله وإياك

---

(١) من وصايا السلف ، لسليم الهلالي صـ ٢٠ - ٢٥ ، دار ابن الجوزي .

بالموعظة، ورزقنا وإياك خير العواقب. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وقال الفضيل بن عياض : لا تجعل الرجال أوصياءك ، كيف تلومهم أن يضيِّعوا وصيتك ، وأنت قد ضيَّعتها في حياتك ؟

وقال الفضيل : إنما أمس مثَل ، واليوم عمَل ، وغدًا أمَل .

وقال رحمه الله : رهبةُ العبد من الله على قدْر علمه بالله ، وزهادته في الدنيا على قدْر رغبته في الآخرة .

«وقال علي بن المديني : ودَّعتُ أحمد بن حنبل فقلت له : توصيني بشيء ؟ قال : نعم ؛ اجعلِ التقوى زادك ، وانصبِ الآخرة أمامك .

وقال رحمه الله : كلُّ شيء من الخير تهتمُّ به ، فبادِرْ به قبل أن يُحال بينك وبينه .

وقال عبد الله بن أحمد : قلتُ لأبي يومًا : أوصني يا أبَهْ . فقال : يا بنيَّ ، انوِ الخير ، فإنك لا تزال بخير ما نويتَ الخير .

وكتب الإمام أحمد إلى سعيد بن يعقوب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أحمد بن محمد إلى سعيد بن يعقوب ، أما بعد : فإن الدنيا داء ، والسلطان داء ، والعالم طبيب ، فإذا رأيت الطبيب يجرّ الداء إلى نفسه ، فاحذرْه ، والسلام عليك »[1] .

كلمات التثبيت وشحْذ الهمم ، قالها الربَّانيُّون لأحمد بن حنبل في المحنة :

إن كان الإمام أحمد قوَّىٰ الله عزمه بنصيحة الصادقين في محنته فما بال غيره؟!

عن أبي جعفر الأنباري قال: « لمَّا حُمِل أحمد إلى المأمون أُخبرتُ ، فعبرتُ الفرات ، فإذا هو جالس في الخان فسلَّمتُ عليه ، فقال : يا أبا جعفر ، تعنَّيتَ.فقلت : يا هذا ، أنت اليوم رأس ، والنَّاس يقتدون بك ، فوالله لئن أجبتَ إلى خلْق القرآن ليجيبنَّ خلْقٌ ، وإن لم تُجبْ ليمتنعَنَّ خلْق من الناس كثير،

---

(١) مناقب الإمام أحمد صـ ٢٥٨ - ٢٦٧ .

ومع هذا فإن الرجل إنْ لم يقتلك ؛ فإنك تموت ، لا بد من الموت ، فاتق الله ولا تُجبْ . فجعل أحمد يبكي ويقول : ما شاء الله . ثم قال : يا أبا جعفر ، أعِدْ . فأعدت عليه وهو يقول : ما شاء الله » اهـ[١] .

قال الإمام أحمد في سياق رحلته إلى المأمون: «صرنا إلى « الرَّحْبة » ، ورحلنا منها في جوف الليل ، فعرض لنا رجل فقال : أيُّكم أحمد بن حنبل ؟ فقيل له : هذا . فقال للجمَّال : على رسْلك .. ثم قال : « يا هذا ، ما عليك أن تُقتَل هاهنا ، وتدخل الجنة ؟ » . ثم قال : أستودعك الله . ومضى . فسألت عنه ، فقيل لي : هذا رجل من العرب من ربيعة ، يعمل الصوف في البادية ، يُقال له : جابر بن عامر ، يُذكر بخير »[٢] .

وفي « البداية والنهاية » : « أن الأعرابي قال للإمام أحمد : يا هذا ، إنك وافد الناس فلا تكن شؤمًا عليهم ، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه ، فيجيبوا فتحمل أوزارهم إلى يوم القيامة ، وإن كنتَ تحبُّ الله ، فاصبر على ما أنت فيه ؛ فإنه ما بينك وبين الجنة إلّا أن تُقتل . قال الإمام أحمد : وكان كلامه ممَّا قوّى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع عن ذلك الذي يدعونني إليه »[٣] .

وفي رواية أن الإمام أحمد قال : « ما سمعتُ كلمة منذ وقعتُ في هذا الأمر أقوىٰ من كلمة أعرابيٍّ كلَّمني بها في «رحبة طوق»[٤]؛ قال: يا أحمد، إنْ يقتلك الحق متَّ شهيدًا ، وإن عشتَ عشتَ حميدًا .. فقوَّىٰ قلبي »[٥] .

---

(١) السير ١١ / ٢٣٨ .
(٢) السير ١١ / ٢٤١ .
(٣) البداية والنهاية (٣٣٢/١)، ووسائل الثبات على دين الله لمحمد صالح المنجد صـ ٣٢-٣٣ ، دار الوطن .
(٤) اسم بلدة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات .
(٥) السير ١١ / ٢٤١ .

وقال الإمام أحمد عن مرافقة الشابِّ محمد بن نُوح الذي صمد معه في الفتنة: ما رأيت أحدًا - على حَدَاثة سنِّه، وقدْر علمه- أقومَ بأمْر الله من محمد بن نوح ؛ إني لأرجو أن يكون قد خُتِم له بخير ؛ قال لي ذات يوم : « يا أبا عبد الله ، الله ، الله . إنك لستَ مثلي ؛ أنت رجل يُقتدىٰ بك ، قد مدَّ الخلْقُ أعناقَهم إليك ؛ لِمَا يكون منك . فاتق الله ، واثبتْ لأمْر الله.فمات وصلَّيت عليه ودفنته »[١] .

وحتى أهل السجن الذين كان يُصلِّي بهم الإمام أحمد وهو مقيَّد ؛ قد ساهموا في تثبيته . فقد قال الإمام أحمد مرَّة في الحبْس : « لستُ أبالي بالحبْس - ما هو ومنزلي إلا واحد - ولا قتْلًا بالسيف ، وإنما أخاف فتنة السَّوْط . فسمعه بعض أهل الحبس فقال : لا عليك يا أبا عبد الله ، فما هو إلا سوطان ، ثم لا تدري أين يقع الباقي .. فكأنه سُرِّي عنه »[٢] .

وهذا ذو النون المصري يقول: لا يتفكَّر القلب لغير الله إلا إذا كان عليه عقوبة .

«وقال يوسف بن الحسين:قُلتُ لذي النون -لمَّا أردتُ توديعه-:أوصني رضي الله عنك ، بوصية أحفظها عنك . فقال : لا تكنْ خصْمًا لنفْسك على ربك،مستزيده في رزقك وجاهك ، ولكن خصمًا لربك على نفسك »[٣] .

وكانت أمُّ سفيان الثوري تقول: «يا بُنَيَّ لا تتعلَّم العلم إلا إنْ نويتَ العملَ به ، وإلَّا فهو وَبَالٌ عليك يوم القيامة » .

ولله درُّ ذات النطاقين وهي توصي ابنها عبد الله بن الزبير ، فتقول له : «الله الله يا بُني، إن كنتَ تعلم أنك على حقٍّ تدعو إليه فامض عليه، ولا تُمكِّنْ

---

(١) السير ١١ / ٢٤٢ .
(٢) السير ١١ / ٢٤٠ .
(٣) الحلية ٩ / ٣٨٢ .

من رقبتك غلمانَ بني أُمَيَّة فيلعبوا بك ، وإن كنتَ أردت الدنيا فبئس العبدُ أنت ، أهلكت نَفْسك ومَن معك ، وإن قلتَ : « إني كنتُ على حقّ ، فلمَّا وهَن أصحابي ضعفتْ نيَّتي » ؛ فليس هذا فعْل الأحرار ولا من فيه خير ، كم خلودُك في الدنيا ؟! القتل أحسَنُ ما يقع بك يا ابن الزبير ، والله لَضَرْبةٌ بالسيف في عِزٍّ أحبُّ إليَّ من ضرْبٍ بالسَّوْط في ذلٍّ » . فقال : يا أُمَّاه ، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثِّلوا بي ويصلبوني . قالت : « يا بُنيَّ، إنَّ الشَّاةَ لا يضرُّها السلخُ بعد الذَّبْح ، فامض على بصيرتك ، واستعن بالله » .

وهذه رابعة بنت إسماعيل الشامية زوجة أحمد بن أبي الحواري ؛ تقول له : لستُ أنا وأنت ممَّن ينغَّص عليه العيْش بذكْر الآخرة .

وعَمْرة زوجة أبي محمد حبيب العجمي تحثُّه على القيام ، فتقول له : قمْ يا سيدي ؛ فهذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، وبين يدينا طريق طويل وزاد قليل ، وهذه قوافل الصالحين قد سارت قُدَّامنا ونحن قد بقينا .

وهذه الزوجة الصالحة « مَوْضي بنت أبي وهطان » زوجة الأمير محمد ابن سعود رحمه الله، والتي كان لنصيحتها أكبر الأثر في نصرة أعظم حركة تجديدية شهدتها الأمة ، منذ أوائل القرن الثاني عشر الهجري حتى يومنا هذا ، فإنها هي التي حثَّت زوجها على مناصرة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله، وشدِّ أزره، وإشهار سيفه من غِمْده؛ نصرةً لدعوة التوحيد [(١)].

ومن وصايا الجُنيد رحمه الله : « متى أردت أن تشرُف بالعلم وتُنسب إليه وتكون من أهله قبل أن تُعطي العلمَ ما له عليك ؛ احتجَب عنك نورُه ، وبقي عليه وسْمه وظهوره ، ذلك العلم عليك لا لك »[(٢)] .

ومن وصايا السَّري رحمه الله : « خمس مَنْ كُنَّ فيه فهو شجاع بطل :

---

(١) علو الهمة صـ ٣٥٨ .
(٢) الحلية ١٠ / ٢٦٩ .

استقامة على أمْر الله ليس فيها رَوَغان، واجتهاد ليس معه سهْو، وتيقُّظ ليس معه غفلة، ومراقبة الله في السرِّ والجهْر ليس معه رياء، ومراقبة الموت بالتأهُّب»[١].

وكتب الأوزاعي إلى أخ له : « أما بعد ؛ فإنه قد أُحيط بك من كل جانب ، واعلمْ أنه يُسارُ بك في كل يوم وليلة ، فاحذرِ الله والمقامَ بين يديه ، وأن يكون آخر عهدك به . والسلام » .

ودخل سابق البربريّ على عمر بن عبد العزيز فقال له : عِظْني يا سابق وأوجزْ . قال : نعم يا أمير المؤمنين وأبلُغُ إن شاء الله . قال عمر : هات . فأنشده سابق :

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ من التُّقى ... ووافيتَ بعدَ الموتِ من قدْ تزوَّدا
ندِمتَ على أن لا تكونَ شركْتَهُ ... وأرصدت قبل الموتِ ما كان أرصدا

فبكى عمر حتى سقط مغشيًّا عليه [٢] .

وأوصى أبو سليمان الداراني ابن أبي الحواري فقال : « خالفْ نفسَك في كل مراداتها فإنها الأمّارة بالسُّوء ، وإياك أن تحقر إخوانك المسلمين ، واجعل طاعة الله دثارًا ، والخوفَ منه شعارًا ، والإخلاص له زادًا ، والصدق حسنة ، واقبل مني هذه الكلمة الواحدة ، ولا تفارقْها ، ولا تغفل عنها : مَن استحيا مِن الله في كلِّ أوقاته وأحواله وأفعاله، بلَّغه الله إلى مقام الأولياء من عباده»[٣].

ونختم بقول القائل ونصْحه الذي يُعلي الهِمَمَ : « لا تقنع بالشَّرف التالد ؛ فذاك الشرف للوالد ، واضممْ إلى التالد طريفًا ، حتى تكون بهما شريفًا ، ولا تُدلِ لشرف أبيك ، ما لم تدُلَّ عليه بشرفٍ فيك » .

---

(١) الحلية ١٠ / ١١٧ .
(٢) الحلية ٥ / ٣١٨ .
(٣) البداية والنهاية ، نقلًا عن أقوال مأثورة وكلمات جميلةٍ ، للدكتور محمد لطفي الصبَّاغ ، صـ ٨٢ - المكتب الإسلامي .

الثاني والثلاثون : ذكْرُ الجنَّة والنار دَوَامًا وجعْلُهما نصْب العيْن :

وهذا السبب من أهم الأسباب لعلوِّ الهمة .. فالحياة الباقية هي الحيوان ، وهي الربْح والخُسْر .. هناك حيث يبلغ الإنسان أقصىٰ الكمال المقدَّر له ، أو يرتكس فتُهدَر آدميَّته ، وينتهي إلى أن يكون حَجَرًا في القيمة ، ودون الحجر في الراحة ، ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدَّمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنتُ ترابًا** ﴾ [النبأ : ٤٠] .

والجنة بلاد الأفراح ، وسلوة الأحزان ، ومحطُّ رحال المؤمنين ، والنفْس مفطورة على عدم التضحية والعمل والثبات إلا بمقابل يهوِّن عليها الصِّعاب ويذلِّل لها ما في الطريق من عقبات ومشاق .

فالذي يعلم الأجر تهون عليه مشقَّة العمل ، وهو يسير ويعلم بأنه إذا لم يثبت فستفوته جنَّة عرضها السماوات والأرض ، ثم إن النفْس تحتاج إلى ما يرفعها من الطين الأرضي ويجذبها إلى العالم العلوي .

وكان النبي ﷺ يستخدم ذكْر الجنة في تثبيت أصحابه ، ففي الحديث الحسن الصحيح: مرَّ رسول الله ﷺ بياسر وعمَّار وأمّ عمّار وهم يُؤذَوْن في الله تعالى ، فقال لهم : « صبرًا آل ياسر ؛ فإن موعدكم الجنة »[١][٢] .

وذكْرُ الجنة والنار وجعْلُهما نُصْب العين يدفع إلى علوِّ الهمم :

أما تنظر قول رسول الله ﷺ : « ما رأيتُ مثل النار نام هارِبُها ، ولا مِثْلَ الجنة نام طالبها !! »[٣] .

---

(١) وسائل الثبات على دين الله ، للمنجد صـ ٣٥ - ٣٦ .

(٢) حسن صحيح : رواه الحاكم ٣ / ٣٨٣ ، وهو حديث حسن صحيح ، انظر تخريجه في فقه السيرة ، تحقيق : المحدِّث الألباني صـ ١٠٣ .

(٣) حسن : أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ، والطبراني في الأوسط عن أنس ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم ٩٥٣ .

وقد مرّ بك علوّ الهمة في الشوق إلى الجنة ، وكيف أن ذكْر الجنة جعَل الرجال يأتون بالأعاجيب : أنس بن النضر ، وجعفر الطيَّار ، وحرام بن ملحان ، وعُمير بن الحمام ، وعبد الله بن رواحة .. وإذا تذكَّر الإنسان تفاوُت الدرجات في الجنَّة وعِظَمه وأيقن بهذا؛ تعلو همته لنيْل أعلى الدرجات والقرب من رسول الله ﷺ .

قال ﷺ : « إنَّ أهل الجنة لَيَتراءون أهلَ الغرف في الجنة كما تراءون الكواكب في السماء »[(١)] .

وقال ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدُّرِّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ؛ لتفاضُل ما بينهم »[(٢)] .

وقال ﷺ : « إن أهل الدرجات العُلى يراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الطالع في أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما »[(٣)] ، فحوْل الجنَّة يدندن مَنْ سمتْ به همَّته .

وذكر النار والخوف منها شحَذ الهمم ونَصَب الأبدان وأذبل الأرواح ؛ خوفًا منها :

ومرّ بنا خوْف الربيع بن خثيم ، وطاووس ، وقبلهما شداد بن أوس ، وبعدهما محمد بن المنكدر ، وعلي بن الفضيل وسفيان وعبد الله بن المبارك ، والفضيل،ومنصور بن المعتمر، وكيف أن خوْف النار حال بينهم وبين الراحة، فسهروا الدياجي وتهجَّدوا لله في ظلماتها خوفًا من نارها .

---

(١) رواه أحمد والشيخان عن سهل بن سعد .

(٢) رواه أحمد والشيخان عن أبي سعيد ، والترمذي عن أبي هريرة .

(٣) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة ، وابن عساكر عن ابن عمرو وعن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٠٣٠ .

فرحم الله أقوامًا صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقة بالملأ الأعلى ، إذا مروا بآية فيها ذكْر الجنة فكأنهم فيها منعَّمين ، وإذا مرُّوا بآية فيها ذكر النار فكأنَّ زفير النار وشهيقها في آصال آذانهم .

الثالث والثلاثون وهو الأخير والأجَلُّ والأعظمُ والخطير الذي ليس له نظير : جعْلُ الهمِّ همًّا واحدًا وجعْله في الله تعالى :

مَن جعَل الهمَّ همًّا واحدًا وجعله في الله، «لا يزال الله يرقِّيه طبقًا بعد طبق ومنزلًا بعد منزل ، إلى أن يوصله إليه ، ويُمكِّن له بين يديه .. والسعيد كل السعيد ، والموفَّق كلّ الموفَّق : مَن لم يلتفت عن ربّه تبارك وتعالى يمينًا ولا شمالًا ، ولا اتَّخذ سواه ربًّا ولا وكيلًا ، ولا حبيبًا ولا مدبرًا ، ولا حكمًا ولا ناصرًا ولا رازقًا .

فإن استمرَّ على حاله واقفًا بباب مولاه لا يلتفت عنه يمينًا ولا شمالًا ، ولا يجيب غير مَن يدعوه إليه - رُجيَ له أن يستغرق قلبه في أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحقِّ ، فيبقى قلبه سابحًا في بحْرٍ من أنوار آثار الجلال ، فتنبع الأنوار من باطنه ، حتى يجد الملكوت الأعلى كأنَّه في باطنه وقلبه ، ويجد قلبه عاليًا على ذلك كله ، صاعدًا إلى مَن ليس فوقه شيء ، ثم يرقيه الله سبحانه ، فيُشْهِدُه أنوار الإكرام بعدما شهد أنوار الجلال ، فيستغرق في نور من أنوار أشعَّة الجمال، وفي هذا المشهد يذوق المحبَّة الخاصَّة المُلهبة للأرواح والقلوب ، فيبقَى القلب مأسورًا في يد حبيبه ووليِّه ، ممتَحنًا بحبِّه .

فيا له من قلب ممتحن مغمور ، مستغرق بما ظهر له من أشعة أنوار الجمال الأحَدي ، والناس مفتونون ممتحنون ، بما يفنَى من المال والصُّور والرياسة ، معذَّبون بذلك قبل حصوله ، وحال حصوله ، وبعد حصوله ، وأعلاهم مرتبة مَن يكون مفتونًا بالحُور العين ، أو عاملًا على تمتُّعه في الجنة بالأكل والشرب واللباس والنكاح ، وهذا المحبُّ قد ترقَّى في درجات المحبَّة على أهل المقامات ، ينظرون إليه في الجنَّة كما ينظرون إلى الكوكب الدُّري الغابر في الأفق ؛ لعلوِّ

درجته وقرب منزلته من حبيبه ومعيَّته معه ، فإن المرء مع من أحبَّ ، ولكلِّ عمل جزاء، وجزاء المحبَّة: المحبَّةُ والوصول والاصطناع والقرب، فهذا هو الذي يصلح ، وكفى بذلك شرفًا وفخرًا في عاجل الدنيا ، فما ظنُّك بمقاماتهم العالية عند مليكٍ مقتدر »[١] .

ولله درُّ ابن القيم حيث يقول : « إن الله سبحانه أبىٰ أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه ، وهمَّته متعلّقة بغيره ، وإنما يُودع ذخائره في قلب يرىٰ الفقر غنًى مع الله ، والغنى فقرًا دون الله، والعزَّ ذلًّا دونه، والذّل عزًّا معه، والنعيم عذابًا دونه ، والعذاب نعيمًا معه ، فلا يرىٰ الحياة إلا به ومعه ، والموت والألم ، والهمَّ والغم والحزن ، إذا لم يكن معه ؛ فهذا له جنتان : جنة في الدنيا معجَّلة ، وجنة يوم القيامة .

ولله ما أحلاه ! عكوف القلب على الله عز وجل وحده كعكوف البدن في المسجد لا يفارقه !! وإن كانت الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة ، فكيف تدخل محبة الله عز وجل قلبًا مُلِئ بالصُّور والأغيار ؟!

أردناكم صِرْفًا فلمَّا مُزِجتمُ ... بعُدْتمْ بمقدارِ التفاتكُمُ عنَّا
وقلنا لكم: لا تُسكِنوا القلبَ غيرَنا ... فأسكنتُمُ الأغيارَ ما أنتمُ منَّا

ومَن لم يعكُف قلبُه على الله وحده ؛ عكف على التماثيل المتنوِّعة ، كما قال إمامُ الحنفاء لقومه : ﴿ **ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون** ﴾[الأنبياء : ٥٢] ؛ فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف ، فكان حظُّ قومه العكوف على التماثيل ، وكان حظّه العكوف على الربِّ الجليل »[٢] .

« فيا حسرةَ المحِبِّ الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بَخسٍ ، وشهوة عاجلة، ذهبت لذَّتها، وبقيت تَبِعتها، وانقضت منفعتها، وبقيت مضرَّتها،

---

(١) مدارج السالكين ٣ / ٣٨١ ، ٣٨٢ بتصرُّف .
(٢) الفوائد صـ ٢٥٥ - ٢٥٦ بتصرف .

فذهبت الشهوة ، وبقيت الشقوة ، وزالت النشوة ، وبقيت الحسْرة !!

فواحسرتاه لصبٍّ جُمع له بين الحسرتين: حسرة فوت المحبوب الأعلى والنعيم المقيم ، وحسرة ما يقاسيه من النصَب في العذاب الأليم !! فهناك يعلم المخدوع أيّ بضاعةٍ أضاع ، وأن من كان مالِك رِقّه وقلبه لم يكن يصلح أن يكون له من جملة الخدم والأتباع .

فأيُّ مصيبة أعظم من مصيبة مَلِكٍ أُنزل عن سرير ملْكه، وجعِلَ لِمَن لا يصلح أن يكون مملوكَه أسيرًا ، وجُعِلَ تحت أوامره ونواهيه مقهورًا ؟! فلو رأيتَ قلبه وهو في يد محبوبه ، لرأيته :

كعصفورةٍ في كفِّ طفل يسومها حياضَ الرَّدىٰ والطفلُ يلهُو ويلعبُ

ولو شاهدتَ حالَهُ وعيْشَهُ ؛ لقلتَ :

وما في الأرض أشقى من مُحِبٍّ وإنْ وجد الهوى حُلوَ المذاقِ
تراهُ باكيًا في كلِّ حينٍ مخافة فرْقةٍ أو لاشتياقِ
فيبكي إن نأوْا شوقًا إليهمْ ويبكي إن دَنَوْا حذَرَ الفِراقِ

فهل يليق بالعاقل أن يبيع هذا المَلِك المطاعَ لمن يسومه سوء العذاب، ويُوقع بينه وبين وليِّه ومولاه الحقِّ الذي لا غناء له عنه ولا بد له منه- أعظمَ الحجاب؟! فالمحبُّ بمَن أحبَّه قتيل، وهو له عبد خاضع ذليل؛ إنْ دعاه لبَّاه، وإنْ قيل له: ما تتمنَّى؟ فهو غاية ما يتمنَّاه، لا يأنس ولا يسكن إلى سواه، فحقيقٌ به أن لا يُملِّك رِقّه إلَّا لأجَلِّ حبيب،وأن لا يبيع نصيبه منه بأخسِّ نصيب». اهـ[1].

فواحسرتاه على بصيرة شاهدت هاتيْن الحياتيْن على ما هما عليه ، وعلى همَّة تُؤْثِر الأدنى على الأعلى ، وما ذاك إلا بتوفيق مَن أزِمَّة الأمور بيديه ، ومنه ابتداء كلِّ شيء وانتهاؤه إليه ؛ أقْعَدَ نفوسَ مَن غلبتْ عليهم الشقاوة عن السفر إلى ربهم وهذه الدار وأطيب الجوار ، وجَذَب قلوب من سَبَقتْ لهم منه الحُسنىٰ ، فأقامهم في الطريق ، وجعَل همَّهم واحدًا وجعَله فيه ، وسهَّل عليهم

(١) من إغاثة اللهفان .

ركوب الأخطار. فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلِّفين، وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين ، وعُقدت الغَبَرة وثار العَجَاج ، فتوارى عنه السائرون والمتخلفون، وسينجلي عن قريب، فيفوز العاملون ويخسر المبطلون.

أخي ، الهمَّة العَليَّة لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء :

١ - تعرُّفٌ لصفةٍ من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبَّة وإرادة .

٢ - وملاحظة لمنَّة تزداد بملاحظتها شكرًا وطاعة .

٣ - وتذكُّرٌ لذنبٍ تزداد بتذكُّره توبة وخشية .

فإذا تعلَّقت الهمَّة بسوىٰ هذه الثلاثة؛ جالت في أودية الوساوس والخطرات ، فاجعلِ القلب منك جَوَّالًا وسابحًا في بُحور الأسماء والصفات .

فيا صاحبي قِفْ بي مع الحقِّ وقفةً   أموتُ بها وجْدًا وأحيا بها وجْدا
وقلْ لملوك الأرض تجهدُ جهْدَها   فذا الملْكُ مُلْكٌ لا يُباع ولا يُهْدىٰ

يا هذا ، عندك بضائع نفيسة .. دموع ودماء ، أنفاس وحركات ، وكلمات ونظرات ، فلا تبذلها فيما لا قدْر له .

أيصلح أن تبكي لفقْد ما لا يبقى ؟ أو تتنفس أسَفًا علىٰ ما يفنى ؟ أو تبذل مهْجةً لصورةٍ عمَّا قليل تمحىٰ ؟

لا وألف لا ... بل وجِيبُ القلب وخفَقانه لمن له نُعوت الجمال والجلال والكمال .

قومٌ تخلَّلهُـمْ زهْـوٌ بسيِّدهــمْ   والعبدُ يزهو على مقدار مولاهُ
تاهُـوا بـهِ عمَّـنْ سواهُ لــهُ   يا حسْنَ رؤيتهم في حُسْن ما تاهوا



* الخاتِمَـــــــة *

« بعتُكُمْ أغلىٰ الملْكِ ، فلا تنسوْني غدًا لكرامةِ الدلّال »

□ الخاتمــة □

أخي ، لتكنْ لك همَّة تنطح الثريَّا .

« إذا أُعطي العبد همّة كبرىٰ ؛ ارتحلت به في دروب الفضائل، وصعِدتْ به في درجات المعالي .

ومن سجايا الإسلام التحلِّي بِكبَر الهمَّة وجلالةِ المقصود ، وسموٌّ الهدف وعظمة الغاية.فالهمَّة هي مركز السالب والموجب في شخصك ، الرقيب على جوارحك ، وهي الوقود الحِسّي والطاقة الملتهبة ، التي تمدُّ صاحبَها بالوُثوب إلى المعالي ، والمسابقة إلى المحامد . وكِبَرُ الهمَّة يجلب لك - بإذن الله - خيرًا غيرَ مجذوذٍ ؛ لترقى إلى درجات الكمال ، فيُجري في عروقك دمَ الشهامة ، والركْض في ميدان العلم والعمل، فلا يراك الناس واقفًا إلا على أبواب الفضائل، ولا باسطًا يديك إلا لمهمَّات الأمور ، تُنافس الروَّاد في الفضائل ، وتزاحم السَّادة في المزايا ، لا ترضىٰ بالدُّون ، ولا تقف في الأخير ، ولا تقبل بالأقل .

والتحلي بالهمة؛بها يُسلَب منك سفاسف الآمال والأعمال ، ويُجتثُّ منك شجرةُ الذلِّ والهوان ، والتملُّق والمداهنة .

فكبير الهمَّة ثابت الجأش لا ترهبه المواقف ، وفاقدها جبان رِعْديد ، تُغلِقُ فمَه الفهاهةُ .

ولا تغلطْ فتخلط بين كِبَر الهمة والكِبْر ؛ فإن بينهما من الفرق كما بين السماء ذات الرَّجْع والأرض ذات الصَّدع ، فكِبَر الهمة تاجٌ على مَفْرِق القلب الحرِّ المثالي ، يسعىٰ به دائمًا وأبدًا إلى الطهر والقداسة والزيادة والفضل ، فكبير الهمة يتلمَّظ على ما فاته من محاسن ، ويتحسَّر على ما فقده من مآثر ، فهو في حنين مستمر ، ونَهَمٍ دؤوب ، للوصول إلى الغاية والنهاية .

كِبَرُ الهمَّة حِلْيةُ ورثةِ الأنبياء ، والكِبْر داءُ المرضىٰ بعلَّة الجبابرة البؤساء .

فكِبَر الهمَّة تصعد بصاحبها أبدًا إلى الرُّقيّ ، والكِبْرُ يهبط به دائمًا إلى الحضيض .

فيا طالب العلم ، ارسمْ لنفسك كِبَر الهمة، ولا تنفلت منها، وقد أومأ الشرع إليها في فقهيَّاتٍ تلابِس حياتك ؛ لتكون دائمًا على يقظة من اغتنامها ، ومنها : إباحة التيمُّم للمكلَّف عند فقْد الماء، وعدم إلزامه بقبول هِبَة ثمن الماء للوضوء؛ لما في ذلك من المِنَّة التي تَنال من الهمة منالًا .. وعلى هذا فقسْ .

همَمٌ كأنَّ الشمسَ تخطبُ وُدَّها والبدرَ يرسم في سَناها أحرُفَا

فالله الله في الاهتمام بالهمة ، وسَلِّ سيْفها في غمرات الحياة .

هوَ الجدُّ حتَّى تفضُلَ العيْنُ أُختَها وحتَّى يكونَ اليوم لليوم سيِّدا »[1]

يا ابن الإسلام .. ويا عالي الهمة :

فأَطلِقْ لــرُوحكَ إشراقَهـــا ترى الفجر يرمقنا من بعيد

وقلْ لكلِّ حاقدٍ- صليبيٍّ أو يهوديٍّ أو علماني-: اخسأ؛ فلن تعدوَ قدْرَك.

لا تهيِّئْ كفني يا عاذلي فأنا لي مع الفجر مواثيقُ وعهْدُ

واهدِرْ بصوتك مجلجِلًا يُصِمُّ آذانهم :

أناضِلُ عن دينٍ عظيمٍ وهبتُهُ عطاءَ مُقِلٍّ مهجتي وحياتيا
ومُمتثِلٍ لله أسْلَمَ وجهَــهُ يقولُ أنا وحدي سأحمي دينيا
بظهري ببطني بالذِّراع بمقلتي بجنبي بعظْم الصَّدْر حتى التَّراقيا
تأخَّرْتُ دهرًا باللَّذائذ والمُنى ومِن حذَر الدنيا وخوْف العواديا
فلمْ أرَ يومًا كالتقدُّم لذَّةً ولم أرَ عيْشا كالتقدُّم هانيا
على ذروةِ التوحيدِ تخفقُ رايتي وتحتَ روابيها تصبُّ دمائيا

وعلى الذرا .. ومنارات الدنيا؛ردِّدْ للكون نداءك : « ليبلغنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار » .

---

(١) لا تحزن ، لعائض القرني صـ ٢٨٦ - ٢٨٧ .

لإسلامي ولو حتَّى إلى الجدران شدُّوني
لإسلامي ولو حتَّى إلى النيران زفُّوني
لإسلامي لإسلامي ولو في السُّوقِ باعوني
وإسلامي له نبضي له عِرقي وتكويني
وثارات لإسلامي تُعايشني تغذِّيني
تبثُّ النور في رُوحي وتنبِض في شراييني

أخي :

قد أطلْتُ عليك .. وأسهبتُ في بعض المواطن واستطردتُ ، ولعلَّ لي عذري .. وتركتُ فصولًا أخرى لطبعات تالية ..

أخي القارئ :

هذا جمعي ، لك غُنْمُه وعليَّ غُرْمُه ، لك ثمرتُه وعليّ تبعتُه ؛ فما وجدت فيه من صوابٍ وحقٍّ فاقبله ولا تلتفتْ إلى قائله،وما وجدت فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهدَ الإصابة ، ويعلم الله أنه أخذ من لحمي ودمي ، ويأبى الله إلا أن يتفرَّد بالكمال ، كما قيل :

والنقصُ في أصل الطبيعةِ كامنٌ فبنو الطبيعة نقصُهم لا يُجحَدُ
وكيف يُعصَم من الخطأ من خُلِق ظلومًا جهولًا ؟!!

ومن الفأل الحسَن لهذا الكتاب – وأسأل الله بكرمه أن يضع له القبول في الأرض – أن أكتبَ مقدِّمته في الروضة النبويَّة بالمسجد النبوي ، وأن أختمه ولله الحمد وأضع القلم فراغًا منه لأذهب لأفضل الصلوات ؛ قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصلوات عند الله صلاة الصبح يوم الجمعة في جماعة »[(١)] .

(١) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٥٦٦ .

وأختم كتابي بهذا الدعاء علَّه يناسِب « علو الهمة » .

* **اللَّهُمَّ** يا وارِثَ الأرضِ ومَنْ عليها ، ويا باعِثَ جميعِ مَن فيها ، ورِّثْ أمَلي فيكَ مُنىٰ أمَلِي ، وبلِّغْ همِّي فيك مُنْتهىٰ وسائلي .

* **اللَّهُمَّ** متِّعْ أبصارنا بالجَوَلانِ في جَلالِكَ ، وسهِّرْنا عمَّا نامتْ عنهُ عُيون الغافلين .

* **اللَّهُمَّ** اجعلْنا من الذين لخدمتكَ في أقطار الأرض لهمْ طُلَّابًا، ولخصائص أصفيائك أصحابًا ، وللمعتكفين ببابك أحبابًا .

* **اللَّهُمَّ** اجعلْنا ممَّن بذلوا المجهود في طلب مرضاتكَ ، وانصرفتْ عن خلْقك إليك همومُهمْ ، وأنِسَتْ وطابتْ بالخلوَة فيك نفوسُهم ، ولا يسعَوْن في طاعتك إلَّا ركْضًا .

* **اللَّهُمَّ** سُقْنا إلى أقصىٰ مرادِكَ درجةً درجةً، واسلُكْ بنا منازِلَ أصفيائك منزلةً منزلةً ، واكشفْ لنا عنْ مكنون علْمك حجابًا حجابًا حتى نتنزَّه في بساتينِ نشْر آلائِكَ ، ونرتوي من غدْران ذكْر نَعْمائِك .. ارددْ أبصارَنا وبصائرنا بطُرَفِ الفوائد ، وامددْها بتُحَف الزوائد ، واجعلِ العيونَ منا فوَّارة بالعَبَرات ، والصدورَ منَّا محشوَّة بالحرقات .

* **اللَّهُمَّ** إني أسأَلُك منك ما هو لكَ ، وأستعيذك مِن كلِّ أمْرٍ يُسخِطكَ .

* **اللَّهُمَّ** إني أسألك من صفاء الصفاءِ صفاء أنال به منك شرَفَ العطاء .

* **اللَّهُمَّ** ولا تشغلْني شغْلَ مَن شغَلَهُ عنك ما أراد منك، إلا أن يكون لكَ.

* **اللَّهُمَّ** اجعلْني ممَّن يذكرك ذكْر مَن لا يريد بذكْره منك إلا ما هو لك.

* **اللَّهُمَّ** اجعلْ غاية قصدي إليك ما أطلُبُه منك .

* **اللَّهُمَّ** املأ قلبي بك فرحًا،ولساني لك ذكْرًا، وجوارحي فيما يُرضيك شغلًا .

* **اللَّهُمَّ** امحُ عن قلبي كلَّ ذكْر إلا ذكْرَكَ ، وكلَّ حُبٍّ إلَّا حُبَّك، وكلَّ وُدٍّ إلَّا وُدَّك ، وكلَّ إجلالٍ إلَّا إجلالَكَ،وكلَّ تعظيمٍ إلا تعظيمك .
* **اللَّهُمَّ** اجعلْ سؤالي لك سؤال محابِّك ، ولا تجعلني ممَّن يتعمَّد بسؤاله مواضِع الحظوظ ، بل يسألُ القيامَ بواجب حقِّك .
* **اللَّهُمَّ** اعصمْنا فيما بقي من الأعمار إلى منتهى الآجال ، عصْمةً دائمة كاملة تامَّة ، وكرِّهْ إلينا كلَّ الذي تكْرَه ، وحبِّبْ إلينا كلَّ الذي ترضاه وتحبُّه ،واستعمِلْنا به على النحو الذي تحبُّ ، وأدِمْ ذلك لنا إلى أن تتوفَّانا عليه ،أكِّدْ على ذلك عزائمنا ، واشددْ على ذلك نيَّاتِنا ، وأصلح لها سرائرنا ، وابعثْ لها جوارِحَنا ، وكنْ وليَّ توفيقِنا وزيادتنا وكفايتنا .
* **اللَّهُمَّ** هبْ لنا ما وهبتَ لصفوتكَ وأوليائك وأهل طاعتك من دائم الذكْر لك ، وخالص العمَل لوجْهِك ، على أكمله وأدْوَمه ، وأصفاهُ وأحبِّه إليك ، وأعِنَّا على الفعْل بذلك إلى منتهى الآجال .
* « **اللَّهُمَّ** اجعلْ في قلبي نورًا ، وفي لساني نورًا ، وفي بصري نورًا ، وفي سمعي نورًا ، وعن يميني نورًا ، وعن يساري نورًا ، ومن فوقي نورًا ، ومن تحتي نورًا ، ومن أمامي نورًا ، ومن خلفي نورًا ، واجعل لي في نفسي نورًا ، وأعْظِمْ لي نورًا »[1] .

وأخيرًا وليس آخرًا إلى إخواني القرَّاء :

أناشدُ الله مَن قرأ هذا الكتاب وانتفعَ به ، أن يسأل الله سبحانه أن يجعلني من العلماء الربانيِّين، وأن يرزقني شهادة في سبيله، وموتًا في بلد رسوله ﷺ.

كما أُناشدكم الله أن تدعوا لابنتَيَّ [سمية وفاطمة] بالصلاح والفلاح

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس .

والطهر والعفاف، وأن يجعلهما الله من القانتات التائبات العابدات، الحافظات للغيب بما حفِظ الله .

* * *

وكتبـــه حامدًا ومصلّيًا

الفقير إلى رحمة ربه

السيد بن حسين العفَّاني(١)

جمهورية مصر العربية - محافظة بني سويف - مركز بني سويف ، قرية بني عفَّان

صندوق بريد رقم [١٢٣]

الدكتور : السيد بن حسين بن عبد الله

ت : ٤٩٢٥٢٢ / ٠٨٢

٤٩٢٥١٢ / ٠٨٢

(١) لمن أراد أن يراسلني لمعرفة رأيه في الكتاب ؛فرحم الله امرأً أهدى إلي عُيوبي .

الفهـــــارس

أولًا : فهرس الأحاديث .

ثانيًا : فهرس المصادر والمراجع .

ثالثًا : فهرس الموضوعات .

□ أولًا : فهــرس الأحاديث □

[حرف الألف]

الحديث	الراوي	الرقـم
آخر ما أدرك الناسُ من كلام النبـوة الأولى: إذا لم تسْتحِ فاصنعْ ما شئت .	أبو مسعود البدري	٥٣٠/٥
آكل كما يأكُل العبد وأجلس كما يجلس العبد	عائشة	٤٢٧/٥
آية بيني وبينك يوم القيامة إن أقل الناس المنحصرون يومئذٍ	عبد الله بن أُنَيْس	٣٧٨/٣
أبا يحيى ربح البيع	أنس	١٢٥/٧
ابتاع طلحةُ بئرًا في ناحية الجبل ونحر جزورًا	سلمة بن الأكوع	٥٣٠/٢
ابسطْ كساءك	سفينة	١٢٩/٧
أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤْتهما نبيٌّ قبلك		٣٤٨/٢
أبشر فوالذي نفس محمدٍ بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة		٢٧٢/٥
أبشروا آل عمار	أبو الزبير	١٢٣/٧
أبعدها فقد أبطلت دمها	عبد الله بن معقل	١٠٤/٣
أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم	عائشة	٢٩٣/٢
أبغض الناس إلى الله ثلاثة	ابن عباس	٢٨٩/٢
ابنا العاص مؤْمنان	أبو هريرة	٦٤٥/٣
ابني هذا سيِّدٌ ولعل الله أن يصلح به بين فئتَيْن	أبو بكرة	١٤/٧
أتاني جبريل فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميِّتٌ	سهل بن سعد علي ، جابر	٤٣٢/٢
أتاني ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة	معاذ	٧٠٢/٥
أتعجبون من غيْرة سعد ! لأنا أغير منه والله أغير منِّي	سعد بن عبادة	١٨٥/٥
اتق الله حيثما كنتَ وأتبع السيئة الحسنة تَمحُها	أبو ذر، معاذ، أنس	٢٢٨/٥

اتقوا الله في الصلاة وما ملكتْ أيمانكم	أم سلمة	٣٢٨/٢
أتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك	المغيرة بن شعبة	٣٥٤/٢
أتى النبي ﷺ أعرابيًا فأكرمه، فقال له: ائتنا	أبو موسى الأشعري	٥٨٤/٦
أُتي النبي ﷺ برجلٍ قد شرب، قال : اضربوه	أبو هريرة	٣٩٠/٥
أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يصلي وفي صدره أزيزٌ	عبد الله بن الشخير	٣٥٤/٢
أثقل شيْءٍ في ميزان المؤمن: خلُقٌ حسن	أبو الدرداء	٢٢٩/٥
أجبْ عنّي؛اللهمَّ أيِّده بروح القدس	عمر	٤٩١/٦
أَحَبُّ الأسْماء إلى الله : عبد الله	أنس	٣٣٦/٧
أحب الأعمال إلى الله: إيمانٌ بالله، ثم صِلةُ الرَّحم ، ثم		٩٩/٣
أحب الأعمال إلى الله: الصَّلاة لوقتها ، ثم برُّ الوالدين	ابن مسعود	٩٦/١
أحب الجهاد إلى الله: كلمة حقّ تقال لإمام جائرٍ	أبو أمامة	١١٣/٣
أحب الصلاة إلى الله: صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله	ابن عمرو	٤٣٢/٢
أحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا		٥٣/١
أحب عباد الله إلى الله: أحسنهم خلقًا	أسامة بن شريك	٢٢٩/٥
أحب الكلام إلى الله: أن يقول العبد: سبحان الله وبحمده		٧٥/٣
أحب الكلام إلى الله تعالى : أربع		٧٥/٣
أحب الكلام إلى الله تعالى: ما اصطفاه الله لملائكته؛ سبحان ربي		٧٥/٣
أحب الناس إلى الله: أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل	ابن عمر	٥١١/٢
أحسن الناس قراءة: الذي إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله		٢٧/٣
احضروا الجمعة وادنوا من الإمام، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتى		٣٣٩/٢
احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك	ابن عباس	٢٩/٢
احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك	معاوية بن حيدة	٥٤٦/٥
احملْ، فإنما أنت سَفينة	سفينة	١٢٩/٧
أخبروه أن الله يُحبُّه	عائشة	٧٠٥/٥
أخذ الحسن رضي الله عنه تمرةً من الصدقة- وكان صغيرًا- فقال النبي ﷺ		٣٣٢/٤
أخذ رسولُ الله ﷺ بيد مجذومٍ فأدْخلها معه	جابر	٤٤٨/٥

إخلاص العمل لله والمناصحة لأئمة المسلمين	أبو سعيد	١٠٧/١
ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة	أبو هريرة	٦٠٢/٥
إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم	البراء	١٦٢/٢
إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق		٣٤٣/٦
إذا أصبح ابنُ آدم فإن الأعضاء كلَّها تكفّر اللسان فتقول	أبو سعيد	٣٧١/٥
إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم		٧٧٥/٥
إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عور	ابن عباس	٢٠٧/١
إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عور	الحسن بن علي	٢٠٧/١
إذا تمنّى أحدكم فليكثر، فإنما يسأل ربه	عائشة	١١٠/٥
إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران	عمرو بن العاص	٤٠٨/٦
إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقل		١٠٩/٥
إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهمّ اغفر لي إن شئت	أبو هريرة، أبو سعيد	١٠٩/٥
إذا سأل أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه	عائشة	١١٠/٥
إذا سمعت النّداء فأجب داعي الله		٣٢٩/٢
إذا ضَنَّ الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة	ابن عمر	٦٥٠/٢
إذا عاد الرَّجلُ أخاه المسلم مشى في خرافة الجنة	علي	٩٩/١
إذا عُمِلَت الخطيئة في الأرض كان مَنْ شهدها فكرهها كمن غاب عنها		٩٩/٣
إذا قام الرجل يتوضأ ليلًا أو نهارًا فأحسن الوضوء واستن		٣٢٨/٢
إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره		٣٦/٣
إذا قلت للناس:أنصتوا وهم يتكلمون فقد ألغيت على نفسك	أبو هريرة	٤٠٠/٥
إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودعٍ ولا تتكلم بكلام	أبو أيوب	٥٩٩/٥
إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة	أبو هريرة	١٥/٢
إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا	أنس	٧٠/٣
إذا مشتْ أمتي المطيطاء وخدمها أبناء الملوك؛ أبناء فارس والروم		٦٤/٦
اذكر الموت في صلاتك فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته	أنس	٥٩٨/٥
اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة	أنس	٦٤٢/٥
اذهب يا سلمان ففقر لها فإذا فرغت فأتني أكون أنا	سلمان	٦٢٣/٤

أراد النبي ﷺ أن يُنحِّي مخاط أسامة.. حتى أكون أنا الذي أفعل عائشة ١١/٧
أرأيت إن منع الله الثمرة بم يأخذ أحدُكم مالَ أخيه بغير حق ٦٣٠/٢
أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم ٢٨/٢
أربعة تجري عليهم أجورهم بعد الموت أبو أمامة ٩٣/١
أربى الرِّبا شتْم الأعراض سعيد بن زيد ٣٩٠/٥
أرحم أمتي أبو بكر .. وأقرؤهم أُبي ٣٩/٣
أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في أمْرِ الله عمر أنس ١٦٤/١
ارم فداك أبي وأمي سعد بن أبي وقاص ٥٢٧/٣
ارم فداك أبي وأمي الزبير ٣١٩/٣
أُريتُ في المنام أني أنزع بدلوٍ بكرة على قليب ٤٣/٦
ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس ٢٤٩/٤
أسألك أن تعلمني مما علمك الله أبو هريرة ١٦٩/١
أسألك مرافقتك في الجنة ربيعة الأسلمي ١٩/١
أسألك من اليقين ما تهوّن علي به مصائب الدّنيا ابن عمر ٣٨٧/٤
إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد أبو هريرة ٣٢٧/٢
استحيوا من الله حقّ الحياء ابن مسعود ٥٤٥/٥
استقرئوا القرآن من أربعة ابن عمرو ٣٩/٣
استقم وليحسن خلقك للناس ابن عمرو ٢٢٩/٥
استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ثوبان، ابن عمر، سلمة ٣٢٧/٢
أسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال أبو هريرة ٢٢٨/٤
أسرق الناس الذي يسرق صلاته لا يتم ركوعها ٣٢٧/٢
أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص ٦٤٥/٣
اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور من القرآن أبو أمامة ١٥/٣
أشد أمتي حُبًّا قومٌ يكونون بعدي يودُّ أحدهم أنه فقد أهله أبو ذر ١٥٧/٢
أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون أبو سعيد ٣٨٨/٤
أشعر كلمة تكلَّمت بها العرب كلمة لبيد أبو هريرة ٤٩١/٦
أصدَق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد أبو هريرة ٨٠/٢

أطب الكلام وأفش السلام وصل الأرحام	أبو هريرة	٣٦٩/٥
اعبد الله كأنك تراه ، واعدد نفسك في الموتى	معاذ	٣٧١/٥
اعبدوا الرحمن وأطعموا الطعام وأفشوا السلام	ابن عمرو	٥١٤/٢
أعتق النّسمة وفك الرقبة، فإن لم تطق ذلك	البراء بن عازب	٣٧٠/٥
اعتمر رسول الله ﷺ فحلق رأسه، فابتدر الناس شعره	خالد	٥٩٨/٣
أعطاك الله ذلك أجمع، أنطاك الله ما احتسبت أجمع	أُبيّ	٣٦٠/٢
أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنزٍ	حذيفة، أبو ذر	١٦/٣
أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم إليها ممشى		٣٣٠/٢
أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل	ابن مسعود	٣٨٤/٥
اعلموا أن الأرض لله ولرسوله وإني أريد أن أجليكم	أبو هريرة	٣٦/٢
أعينوا أخاكم	سلمان	٦٢٣/٤
اغدوا وروحوا واذكروا فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله	جابر	٧٠/٣
افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة	عوف بن مالك	٢٩٢/٢
أفضل الأعمال: أن تُدخل على أخيك المؤمن سرورًا أو تقضي عنه	أبو هريرة، ابن عمر	٩٦/١
أفضل الأعمال : الصلاة في أوَّل وقتها		٣٢٩/٢
أفضل الجهاد: أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله عز وجل	أبو ذر	٣٧٨/٥
أفضل الجهاد: كلمة حق عند سلطان جائر	أبو سعيد، أبو أمامة جابر، طارق، عمير	١١٣/٣
أفضل الذّكْر : لا إله إلا الله،وأفضل الدعاء : الحمد لله		٧٥/٣
أفضل الشهداء: الذين يقاتلون في الصف الأول فلا يلفتون وجوههم	نُعَيم	٣٠٦/٣
أفضل الشهداء: من سُفِكَ دمه وعُقِر جواده	أبو أمامة، ابن حبيش	٣٠٦/٣
أفضل الصدقة: الصدقة على ذي الرحم الكاشح	أبو أيوب، حكيم بن حزام	٥١٥/٢
أفضل الصلاة: طول القنوت		٣٤١/٢
أفضل الصلوات عند الله صلاة الصبح يوم الجمعة في جماعة		٣٣٣/٢
أفضل العبادة : الدعاء		١٠٦/٥
أفضل العمل: الصلاة لوقتها والجهاد في سبيل الله	ابن مسعود	٢٩٧/٣
أفضل القرآن: ﴿الحمدُ لله ربِّ العالمين﴾		٣٤٨/٢

أفضل المؤمنين: أحسنهم خلقًا	ابن عمر	٢٢٩/٥
أفضل المؤمنين إسلامًا: من سلم المسلمون من لسانه ويده	ابن عمرو	٩٦/١
أفضل الناس: مؤمنٌ يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله ثم مؤمن	أبو هريرة	٢٩٦/٣
أفضل نساء أهل الجنة	ابن عباس	١٥٨/٧
أفلح إن صدق		٢٩/٥
أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا	عائشة	٤٧٩/٥
أفلا أكون عبدا شكورًا	المغيرة بن شعبة	٣٥٤/٢
أقبل ثابت بن الدحداحة رضي الله عنه يوم أحد والمسلمون أوزاغ	عبد الله بن عمار	٩٠/٥
اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدْي عمار	حذيفة	٣٥٣/٣
اقرأ عليَّ فإنِّي أحب أن أستمعه من غيري	ابن مسعود	٣٨/٣
أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم خلقًا	علي	٢٢٩/٥
اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما تأتيان	أبو أمامة	١٧/٣
اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة	أبو أمامة	١٧/٣
اقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه، أما إني لا أقول	ابن مسعود	١٢/٣
اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه	أبو أمامة	١٧/٣
اقرءوا هاتين الآيتين اللتين في آخر سورة البقرة	عقبة بن عامر	١٦/٣
أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود	عائشة	٥١١/٢
اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله	ابن عباس	١٠٥/٣
أكثر خطايا ابن آدم في لسانه	أبو فاطمة	٣٢٨/٢
أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنها من كنز الجنة	أبو أيوب	١١/٣
أكثر منافقي أمتي قرّاؤها	ابن عمر، عقبة بن عامر عصمة بن مالك	٩٦/٣
أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون	أبو سعيد	٨٤/٣
أكثروا من غرس الجنة فإنه عذبٌ ماؤها طيبٌ تُرابها	ابن عمر	١٢/٣
أكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها من كنوز الجنة	أبو هريرة	١٢/٣
أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم	أبو هريرة، ابن مسعود	٥١٨/٢
اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا		٣٢٢/٢

أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا الموطئون أكنافًا	أبو سعيد	٢٣٠/٥
أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخياركم خياركم لنسائهم	أبو هريرة	٢٣٠/٥
ألا أخبرك أن الله كلم أباك كفاحًا، فقال: يا عبدي سلني أعطك	جابر	٣٤٧/٣
ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه	معاذ	٣٦٨/٥
ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غدًا ؟ على كل هيِّن ليِّن قريب	جابر، ابن مسعود	٤٣٩/٥
ألا أخبركم عن النفر الثلاثة: أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه	أبو واقد	٥٥٦/٥
ألا أدلك على باب من أبواب الجنة ؛ لا حول ولا قوة إلا بالله	قيس بن سعد	١١/٣
ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة		١٢/٣
ألا أدلك على ما هو أكثر من ذكرك الله الليل مع النهار	أبو أمامة	٧٣/٣
ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات	أبو هريرة	٣٢٧/٢
ألا أستحي من رجلٍ تستحي منه الملائكة	عائشة	٥٤٧/٥
ألا اشهدوا أن دمها هدر	ابن عباس	١٠٤/٣
ألا إن سلعة الله غالية	أبو هريرة، أبي	٢٥٤/٧
ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين مِلَّة	معاوية	٢٩٢/٢
ألا إن النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوهم	جابر	٥٦٣/٦
ألا أنبئكم بأكبر الكبائر	أبو بكرة	٧٦٦/٥
ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم	أبو الدرداء	٨/٣
ألا إني أُوتيت القرآن ومثله معه	المقدام بن معدي كرب	١٦١/٢
ألا أوريك امرأة من أهل الجنة: هذه المرأة السوداء	ابن عباس	٣٨٨/٤
ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؛ اغزوا في سبيل الله	أبو هريرة	٣٠١/٣
ألا تسألنى من هذه الغنائم التي يسألني أصحابك	أبو هريرة	١٦٩/١
ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور	أبو بكرة	٧٦٦/٥
أَلِظُّوا بـ : ياذا الجلال والإكرام	ربيعة	١١٤/٥
ألقت إليكم مكة أفلاذ كبدها		٦٤٦/٣
الله أحقُّ أنْ يُسْتحيا منه من الناس	معاوية بن حيدة	٥٤٦/٥
اللهم آت نفسي تقواها وزكِّها أنت خير من زكَّاها	زيد بن أرقم	١١٧/٥
اللهم اجعل أوسع رزقك عليَّ عند كبر سنِّي وانقطاع أمري	عائشة	١١٤/٥

اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا	أبو هريرة	٢٥٦/٤
اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي لساني نورًا، وفي بصري نورًا	ابن عباس	١١٥/٥
اللهم اجعلني لك شاكرًا، لك ذاكرًا، لك راهبًا	ابن عباس	٤٧٩/٥
اللهم أحِبَّهما فإني أحبُّهما	أسامة بن زيد	١١/٧
اللهم احفظ أبا قتادة كما حفظني منذ الليلة	أبو قتادة	٣٦٧/٣
اللهم احفظني بالإسلام قائمًا واحفظني بالإسلام قاعدًا	ابن مسعود	١١٥/٥
اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا	أنس ، أبو سعيد ، عبادة، ابن عباس	٤١٦/٥
اللهم ارزقني مالًا وفِعالًا؛ فإنه لا تصلح الفعال إلا بالمال	قيس بن سعد	٥٣٨/٢
اللهم استجب له إذا دعاك	سعد بن أبي وقاص	٥٢٨/٣
اللهم أسلمتُ وجهي إليك، وفوَّضتُ أمري إليك	البراء	١٦٢/٢
اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي	أبو هريرة	١١٥/٥
اللهم أعز الإسلام بأحبِّ هذين الرجلين إليك	ابن عمر	٣١٣/٣
اللهم أعنِّي على ذكْرك وشكرك وحسْن عبادتك	معاذ	٤٨٠/٥
اللهم اغفر ذنوبي وخطاياي كلَّها	أبو أيوب	١١٥/٥
اللهم اغفر لعثمان ما أقبلَ وما أدبر وما أخفى	ابن مسعود	٥٢٧/٢
اللهم اغفر لي خطئي وعَمْدي، وهزلي وجدي، وكلُّ ذلك عندي	أبو موسى	١١٥/٥
اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري	أبو موسى	١١٥/٥
اللهم اغفر لي كلَّ عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إليّ		٧٥/٢
اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك	ابن عمر	٦٦/٥
اللهم العن لحيان ورعلًا	أبو هريرة	٣٩٦/٥
اللهم إنه ليس عندي ما أتصدَّق به، اللهم إني أتصدَّق بعرضي	علبة	٦٣١/٢
اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد	ابن مسعود	١٢٢/٥
اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان	أنس	١٢/٥
اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله	بُريدة	١١١/٥
اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله	عائشة	١١٦/٥
اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك، فإنه لا يملكها	ابن مسعود	١١٦/٥

اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحوُّل عافيتك	ابن عمر	٤٠٦/١
اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وفُجاءة نقمتك	ابن عباس	٤٨٠/٥
اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل	أنس	١١٦/٥
اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وعمل لا يُرفع، ودعاء لا يُسمع	أنس	١١٧/٥
اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع	زيد بن أرقم	٥٨١/٥
اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يُسْمع	ابن عمر، أبو هريرة أنس	١١٧/٥
اللهم إني أعوذ بك من الكسل	أنس	٢٣١/٧
اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء	عمر زياد	١١٧/٥
اللهم إني أعوذ بك من يوم السوء، ومن ليلة السوء، ومن ساعة السوء	عقبة بن عامر	١١٧/٥
اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت	أبو بكر	١١٤/٥
اللهم اهد أُمَّ أبي هريرة	أبو هريرة	٦٤٦/٥
اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق؛ أحْيني إذا كانت الحياة	عمار	٥١٣/٤
اللهم حبِّبْ إلينا لقاءك، وسهِّل علينا قضاءك		١١٨/٥
اللهم حبِّبْ عُبيدك هذا وأُمَّه إلى عبادك المؤمنين	أبو هريرة	٦٤٦/٥
اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ومحمدﷺ	والد أبي المليح	١١٧/٥
اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وربَّ إسرافيل؛ أعوذ بك من حرِّ النار	عائشة	١١٧/٥
اللهم سلِّمْهم وغنِّمْهم	أبو أُمامة	٤٥٩/٢
اللهم علِّمْه التأويل وفقِّهه في الدين	ابن عباس	١٧٠/١
اللهم علِّمه الحكمة		١٧٠/١
اللهم علِّمه القرآن		٨٩/٢
اللهم علِّمه الكتاب		١٧٠/١
اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة	ابن مسعود	٣٩/٥
اللهم لك أسلمتُ وبك آمنتُ وعليك توكَّلت	ابن عباس	٤٢٩/٤
اللهم من ولي من أمر المسلمين شيئًا فرفق بهم		٢٣٠/٣
اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت	المغيرة بن شعبة	٢١٣/١
اللهم يا وليَّ الإسلام وأهله، مَسِّكْني بالإسلام حتى ألقاك		١١٨/٥

أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم		٣٤٨/٢
أمَا إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون	أبو عامر الألهاني	٥٦٧/٥
أمَا إني لم أستحلفكم تُهْمةً لكم ، ولكن أتاني جبريل فأخبرني	معاوية	٧١/٣
أمَّا أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة، وأمَّا أهل الشقاوة	علي	٣٩/٢
أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد	جابر	١٦٢/٢
أما والله لأستغفرنَّ لَك ما لم أُنْه عنك	المسيب	٣٧/٢
أما والله يا رسول الله، لا أَدَعُ نفقةً كنتُ أُنفقها في صَدٍّ عن سبيل الله	عكرمة	٧٥/٢
إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل	أبو هريرة، أبو سعيد	٩٧/١
أمتهوّكون أنتم كما تهوّكت اليهود والنَّصارى، لقد جئتكم بها بيضاء	جابر	١٦٢/٢
أمَّر رسول الله ﷺ أسامة على قوم فطعنوا في إمارته فقال	ابن عمر	١٠/٧
أمر رسول الله ﷺ بالصدقة فقيل منع ابن جميل وخالد بن الوليد	أبو هريرة	٥٩٨/٣
أمرتُ أن أبشِّر خديجة ببيتٍ في الجنة من قصبٍ	عبد الله بن جعفر	١٥٨/٧
أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ووافق ذلك منِّي مالًا	عمر	٢٥/١
أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلّم له كتاب يهود فقال	زيد بن ثابت	٢٥/٧
أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك	عقبة بن عامر	٣٧٠/٥
أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي رسول الله ﷺ يوم أحد	أنس	٣٥٠/٣
إن أبخل الناس من بخل بالسلام	أبو هريرة	٢٩٩/٧
إن أبخل الناس من بخل بالسلام، وأعجز الناس من عجز عن الدّعاء		١٠٦/٥
إن ابني هذا سيدٌ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين	أبو بكر	٧١/٦
إنَّ أبْواب الجنَّة تحت ظِلال السيوف	أبو موسى	٢٩٧/٣
إن أحبكم إليَّ وأقربكم منِّي في الآخرة مجالس: أحاسنكم أخلاقًا	أبو ثعلبة	٢٣٠/٥
إن أحدكم إذا قام يصلّي إنما يناجي ربه، فلينظر		٣٤١/٢
إن أرواح الشهداء في جوف طير خضْر لها قناديل معلَّقة	ابن مسعود	٣٠٢/٣
إن استلام الركنين يحط الخطايا كما يتحات ورق الشجر	ابن عمر	١٨٠/١
إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ	أبو هريرة، ابن مسعود أنس، سلمان، سهل	١٥٩/٢
إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاء يسأله عمن قضى نحبه	طلحة	٣١٦/٣
إن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد	جابر	٢٦٩/٣

أن الأعراب عَلِقوا بالنبي ﷺ مرجعه من حنين يسألونه	جبير بن مطعم	٥٢٢/٢
أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه	ابن عباس	١٠٤/٣
إن أفضل عباد الله يوم القيامة: الحمَّادون		٧٥/٣
إن أقربكم منِّي منزلًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا في الدنيا	أبو هريرة	٢٣٠/٥
إن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا	أنس	٢٣٠/٥
إن الله اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلا	سمرة بن جندب	٧١٤/٥
إن الله أمرني أن أقرأ عليك	أُبي	٣٨/٣
إن الله تعالى أوحى إليه: أن يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلًا فقل		٢٥٨/٤
إن الله أوحي إلي: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد	عياض بن حمار	٤١٨/٥
إن الله تعالى أوحى إليَّ: أن تواضعوا ولا يبغي بعضكم على بعض	أنس	٤١٩/٥
إن الله بعثني للناس كافة فأدّوا عنِّي ولا تختلفوا علي	المسور بن مخرمة	٣٨/٢
إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في اليقين	ابن مسعود	٤٧٧/٤
إن الله تعالى جواد يحب الجود ويحب معالي الأخلاق		٥٠٣/٢
إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته	ابن عباس	٢٩٤/٢
إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء		٥٨٥/٦
إن الله تعالى حيٌّ ستِّير يحب الحياء والستر فإذا اغتسل أحدٌ	يعلى بن أمية	٥٣٢/٥
إن الله حيي كريم يستحي أن يرفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا	سلمان	٥٣٢/٥
إن الله خلق الناس في ظلمة فأخذ نورًا من نوره فألقى عليهم	ابن عمرو	١٧٨/١
إن الله عز وجل خلق مائة رحمة منها رحمة يتراحم بها الخلق	سلمان	٢٣٥/٤
إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها	ثوبان	٤٢/١
إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك فإذا جلس بين يديك الخصمان	علي	٤١٢/٦
إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين	أبو هريرة	٣٧٥/٤
إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة		٢٩/٦
إن الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأخلاق		٥٠٣/٢
إن الله كريم يحب الكرماء جواد يحب الجودة		٥٠٣/٢
إن الله تعالى لم يبعث نبيًّا ولا خليفة إلا وله بطانتان		٣٤٣/٦
إن الله لم يكن ليجمع أمة محمد على ضلالة	أنس، ابن عمر، أبو ذر أبو مالك الأشعري	٢١٢/٢

إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يُحبُّه، كما تحمون مريضكم من	محمود بن لبيد	١٨٠/٥
إن الله ليعجب من الصلاة في الجميع	ابن عمر	٣٣١/٢
إن الله ليعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة	أبو هريرة	١٧٦/١
إن الله تعالى مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار تبرأ منه	ابن أبي أوفى	٤١٠/٦
إن الله تعالى مع القاضي ما لم يَحِفْ عمدًا	ابن مسعود، معقل ابن يسار	٤١١/٦
إن الله وملائكته، حتى النملة في جُحْرها، وحتى الحوت	أبو أُمامة	١٤٧/١
إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة	أبو أُمامة	١٥/٢
إن الله وملائكته يصلُّون على الصف الأول		٣٣٦/٢
إن الله وملائكته يصلُّون على الصفوف المقدمة		٣٣٧/٢
إن الله وملائكته يصلُّون على الذين يَصِلُون الصفوف، ومَن سدَّ فُرْجةً		٣٣٨/٢
إن الله وملائكته يصلّون على المُتسحِّرين	ابن عمر	٩٢/١
إن الله وملائكته يصلّون على ميامن الصفوف	عائشة	٣٣٨/٢
إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعًا	ابن عمرو	٣١١/٢
إن الله لا يُقدِّس أُمَّةً لا يأخذ الضعيف حقَّه من القوي	أبو سفيان بن الحارث	٤١٠/٦
إن الله لا يقدِّس أُمَّةً لا يُعطون الضعيف منه حقه	ابن مسعود	٤١٠/٦
إن الله لا ينزع العلم منكم بعد ما أعطاكموه انتزاعًا	أبو هريرة	٣١١/٢
إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَن		٤٧٢/٦
إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلّل بلسانه		٣٨٧/٥
إن الله يبغض الفاحش المتفحش البذي	أبو الدرداء	٢٢٩/٥
إن الله تعالى يحبُّ أن تُؤتى رخصه كما يحبُّ أن تُؤتى عزائمه	ابن عباس، ابن عمر ابن مسعود	٢٠٢/٥
إن الله يحبُّ العبدَ التقيَّ الغني الخفي	سعد بن أبي وقاص	٩١/١
إن الله تعالى يحب الرفق في الأمر كله	عائشة	٩١/١
إن الله تعالى يحبُّ معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها	الحسين بن علي	٨٦/١
إن الله تعالى يحبُّ من العامل إذا عمل أن يُحْسن	كليب	٨٦/١

إن الله تعالى يرفع بهذا الكلام أقوامًا ويضع به آخرين	عمر	١٣/٣
إن الله عز وجل يقول لآدم عليه السلام: يا آدم اذهب فأخرج بعث		٦٨٦/٥
إن أمامكم عقبة كئودًا لا يجوزها المثقلون		٢٥٢/٤
أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له: إن لي إليك حاجة	أنس	٤٢٨/٥
إن أمي كانت مشركة وكنت أدعوها إلى الإسلام	أبو هريرة	٦٤٦/٥
إن أناسًا من أمتي يأتون بعدي يود أحدهم لو اشترى رؤيتي	أبو هريرة	١٥٧/٢
إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا	أبو الدرداء	١٤٨/١
إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف في الجنة كما تراءون	سهل بن سعد	٩٠/١
إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم	أبو سعيد	٢٩/٥
إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم	أبو هريرة	٩٠/١
إن أهل الدرجات العُلى يراهم من هو أسفل منهم	أبو سعيد، ابن عمرو أبو هريرة، جابر بن سمرة	٩٠/١
إن أهل الدرجات العُلى ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الدري	أبو سعيد، جابر بن سمرة	٣٢/٦
إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة		٩٩/٣
إن أول ما يرفع من الناس الخشوع	شداد بن أوس	٥٧٩/٥
إن أول الناس يستظل في ظل الله يوم القيامة لرجل أنظر معسرًا		٩٨/١
إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام	أبو أمامة	١٠٠/١
إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم		٢٧٥/٧
إن بعت من أخيك ثمرة فأصابتها جائحة فلا يحل لك		٦٣٠/٢
إن بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وأمتي تفترق	ابن عمر	٢١٥/٢
إن بني إسرائيل لما هلكوا قصُّوا	خبّاب	٢٩٠/٢
أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك	ابن مسعود	٧٦٧/٥
إن تصدُق الله يصدقك		٢٩/٥
إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله	ابن عمر	١٠/٧
أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا والصلوات الخمس	عوف بن مالك	٤٤٠/٤
أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك	ابن مسعود	٧٦٧/٥
أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل	معاذ	١١/٣

أن جارية من الأنصار تزوجت وأنها مرضت فتمعَّط شعرها	عائشة	٥/٧٧٨
أن جبريل عليه السلام امتنع من دخول بيت النبي ﷺ استحياء منها	عائشة	٥/٥٤٧
إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان	أنس	٤/٦١٩
إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت	جابر	٢/٥٣٧
إن الحياء والإيمان قرنا جميعًا فإذا رفع أحدهما رفع الآخر	ابن عمر	٥/٥٣١
إن خيار عباد الله الموفون المطيبون	عائشة، أبو حميد الساعدي	١/٩٥
إن خياطًا بالمدينة دعا النبي ﷺ لطعامه	أنس	٥/٤٣١
إن خير التابعين رجل يقال له: أويس، وله والدة هو بها برٌّ	عمر	٥/٦٤٨
إن الدالّ على الخير كفاعله		٣/٩٩
إن رجالًا يأتونكم يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا	أبو سعيد	٣/٢٣٤
إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة مِنْ رضوان الله تعالى ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغتْ		٥/٣٦٩
إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا	أبو هريرة	٥/٣٨٣
إن الرجل ليتكلم بالكلمة يُضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريّا	أبو هريرة	٥/٣٨٣
إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار	عائشة	٥/٢٣٠
إن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقًا، ويتحرى الصدق	ابن مسعود	٥/٣٠
أن رجلًا أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء	أبو هريرة	٢/٦٤٢
أن رجلًا تجشأ عند النبي ﷺ فقال		٥/٣٣٥
أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ قال: أي الإسلام خير	ابن عمرو	٢/٥١٤
أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ أي المسلمين خير ؟ قال	ابن عمرو	٥/٧٦٥
أن رجلًا سأل النبي ﷺ قال: متى الساعة يا رسول الله؟ قال	أنس	٥/٧٠٣
أن رجلًا على عهد رسول الله ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارًا	عمر	٥/٣٩٦
أن رجلًا قال عند رسول الله ﷺ: الحمد لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه		٦/٣٨٨
أن رجلًا قال: أيا رسول الله، إن لفلان نخلة، وأنا أُقيم حائطي بها	أنس	٢/٦٠٨
أن رجلًا قال: يا محمد، أيا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا	أنس	٥/٤٣٠
أن رجلًا كان يُدعى: حمارًا وكان يشرب الخمر، وكان يُضحك النبي ﷺ	عمر	٣/٢٧٠

إن رجلًا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه		٥/٥٨
أن رجلًا من المهاجرين مرَّ على رجلٍ من الأنصار وهو يتشحَّط في دمه	أبو نجيح	٥/٩١
أن رسول الله ﷺ آخى بين سلمان وأبي الدرداء	أبو جحيفة	٢/٤٥٥
أن رسول الله ﷺ أتى على رجل وهو يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة	معاذ	٥/٤٩٤
أن رسول الله ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها	أنس	٥/٥٦٠
أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أحد فقال	أنس	٣/٣٤٢
أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى أهل اليمن	البراء	٢/٤٥
أن رسول الله ﷺ بعث رجلًا على سرية فكان يقرأ لأصحابه	عائشة	٥/٧٠٥
أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فوجد أربعة وقعوا في حفرة	علي	٦/٤١٢
أن رسول الله ﷺ بعثهم في بعْث عليهم قيس بن سعد	جابر	٢/٥٣٧
أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه	أبو واقد	٥/٥٥٦
أن رسول الله ﷺ جاءها وعليًّا وقد أخذا مضاجعهما		٥/٥٦٠
أن رسول الله ﷺ حدَّث أن رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان	جندب	٤/٢٣٧
أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب فقال	جابر	٥/٣٩٣
أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك	بريدة	٥/١١١
أن رسول الله ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال	أبو هريرة	٥/٢٣٢
أن رسول الله ﷺ قال في خطبة الكسوف		٥/١٨٠
أن رسول الله ﷺ قال لعليٍّ رضي الله عنه لما أعطاه الراية يوم خيبر	سهل بن سعد	٢/١٦
أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر، وذكر الصدقة والتعفُّف	ابن عمر	٤/٤٤٠
أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد : أوجب طلحة		٣/٣١٤
أن رسول الله ﷺ قبَّل عثمان بن مظعون وهو ميت	عائشة	٤/٢٦١
أن رسول الله ﷺ كان إذا أكل طعامًا لعق أصابعه الثلاث	أنس	٥/٤٣٢
أن رسول الله ﷺ كان إذا صلَّى بالناس يخرُّ رجال من قامتهم	فضالة بن عبيد	٤/٢٦٥
أن رسول الله ﷺ كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه	أنس	٥/٤٢٩
أن رسول الله ﷺ كان يتعوَّذ ويقول	عائشة	٧/٢٣١
أن رسول الله ﷺ كان يزور الأنصار ويسلّم على صبيانهم	أنس	٥/٤٢٩

أن رسول الله ﷺ كان يستغفر للصفِّ المقدم، ثلاثًا		٣٣٧/٢
أن رسول الله ﷺ كان يقول: اللهم لك أسلمت وبك آمنت	ابن عباس	٤٢٩/٤
أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته	جابر	٢٦٩/٣
أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه	أم سلمة	٤٠/٢
أن رسول الله ﷺ كان يمرُّ بنساء فيسلِّم عليهن	جرير	٤٢٧/٥
أن رسول الله ﷺ كان يمرُّ على الصبيان فيسلِّم عليهم	أنس	٤٢٧/٥
أن رسول الله ﷺ ما زال يهتف بربِّه مادًّا يديه مستقبل القبلة	عمر	١٠٩/٥
أن رسول الله ﷺ مرَّ بين أبي بكر وعمر، وعبد الله قائم يصلِّي فافتتح سورة النساء	ابن مسعود	٤٢/٣
أن رسول الله ﷺ نازله إلى ثلاث ليال، ونهاه أن يقرأ في أقل من ثلاث	ابن عمرو	٤٥٧/٢
أن رسول الله ﷺ نهى عن الحذف	عبد الله بن مغفل	١٧٣/٢
إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلِّي بالناس	عائشة	٣٥٧/٢
إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحتَ عن الله ورسوله	عائشة	٤٩٢/٢
إن سليمان بن داود سأل الله ثلاثًا، سأله مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعده	ابن عمرو	١٧٨/١
إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي	أبو هريرة	١٦/٣
إن سياحة أمتي: الجهاد في سبيل الله	أبو أمامة، سعد بن مسعود الكندي	٢٩٨/٣
إن السيف لا يمحو النفاق		٣٠٥/٣
إن شئتِ صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ الله أن يعافيك	ابن عباس	٣٨٨/٤
إن صاحبكم تغسِّله الملائكة فسلوا صاحبته عنه		٣٦٩/٣
إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة	ابن مسعود	٣٠/٥
إن من ضئضئ هذا قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم		٢٩٧/٢
إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء	أبو الدرداء	٣٩٤/٥
إن عبد الله رجل صالح، لو كان يكثر الصلاة من الليل	حفصة	٤٣١/٢
إن العبد إذا قام يصلِّي، أتي بذنوبه كلها فوضعت على رأسه		٣٢٩/٢
إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال	عائشة	٥٥٥/٥
إن العلماء إذا حضروا ربهم عز وجل، كان معاذ بين أيديهم رتوة بحجر	عمر	١٦٢/١

إن العلماء ورثة الأنبياء	أبو الدرداء	١٤٨/١
أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة، فقال	جابر	١٦٢/٢
إن في الجنة غرفًا، يُرى ظاهرها من باطنها	أبو مالك الأشعري	٥١٤/٢
إن في الجنة مائة درجة، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله	أبو هريرة	١١١/٥
إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة	ابن عمر	٣٣٩/٣
إن القرآن أنزل على سبعة أحرف	عمر	١٦٤/٢
إن كان النبي ﷺ ليخالطنا، حتى يقول لأخٍ لي صغير	أنس	٤٢٩/٥
إن كان النبي ﷺ ليقوم، أو ليصلِّي حتى ترم قدماه		٣٥٥/٢
إن كنا لنكون مع رسول الله ﷺ في السفر في اليوم الحار	أبو الدرداء	٤٦١/٢
إن كنت أقصرت الخطبة، لقد أعرضت المسألة؛ أعتق النسمة	البراء	٣٧٠/٥
إن لأهلك عليك حقًّا، وإن لعبدك عليك حقًّا	ابن عمرو	٤٥٨/٢
إن لجسدك عليك حقًّا، ولربك عليك حقًّا	سلمان	٤٥٥/٢
إن لك ما احتسبت	أُبي	٣٦١/٢
إن لكل أُمَّة أمينًا، وإن أميننا– أيتها الأمة– أبو عبيدة بن الجراح	أنس	٥٠٩/٣
إن لكل أمّة مجوسًا، وإن مجوس هذه الأمة: القدرية	أبو هريرة	٢٩٧/٢
إن لكل دين خُلقًا، وإن خلق الإسلام الحياء	أنس، ابن عباس	٥٣٠/٥
إن لكل شيءٍ شرَّة	أبو هريرة	٢٣١/٧
إن لكل عمل شرَّة	ابن عمر	٢٣١/٧
إن لكل نبي حواريًّا، وإن حواريي الزبير	جابر، علي	٣١٧/٣
إن لله تعالى أنية من أهل الأرض، وأنية ربكم قلوب عباده	أبو عنبسة	٢٣٢/٥
إن لله تعالى أقوامًا يختصّهم بالنعم لمنافع العباد، ويقرُّها فيهم	ابن عمر	٦٥١/٢
إن لله تعالى أهلين من الناس	أنس	١٣/٣
إن لله عتقاء من النار في كل يوم وليلة	أبو هريرة	٢٤٢/٤
إن لله في أيام الدهر نفحات، فتعرَّضوا لها	محمد بن مسلمة	١٥٩/٤
إن المساجد بيوت المتقين، فمن كانت المساجد بيوته	أبو الدرداء	٣٦٤/٢

إن المسألة كدّ يكد بها الرجل وجهه، إلا أن يسأل الرجل	سمرة بن جندب	٤٤١/٤
إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة	قبيصة	٤٤١/٤
إن المقسطين على منابر من نور على يمين الرحمن		٢٣٠/٣
إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور	ابن عمرو	٢٣/٦
إن الملك يغدو برايته مع أول مَن يغدو إلى المسجد	خيثم	٣٣٤/٢
إن ملَكًا بباب من أبواب الجنة يقول: مَن يقرض اليوم	أبو هريرة	٥١٣/٢
إن ممَّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى	ابن مسعود، حذيفة	٥٣٠/٥
إن من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن	أبو موسى	٥٦١/٦
إن من أحبّكم إليَّ أحسنكم أخلاقًا	ابن عمرو	٢٣٢/٥
إن من أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة	جابر	٢٣٢/٥
إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ		٢٧/٣
إن من أعظم الجهاد: كلمة عدل عند سلطان جائر	أبو سعيد	١١٤/٣
إن من أمتي قومًا يُعْطَون مثل أجور أولهم؛ ينكرون المنكر		٩٩/٣
إن من تمام النعمة: فوزًا من النار، ودخولًا إلى الجنة	معاذ	٤٩٤/٥
إن من حسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام	ابن عمرو	٤٥٨/٢
إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المسلم	ابن عمر	٥٣٧/٥
إن من شرار أمتي: الذين غُذوا بالنعيم الذين يطلبون ألوان الطعام	فاطمة	٧٨٧/٥
إن من الشعر حكمة		٤٨٧/٦
إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر	أنس	٢٩٥/٢
إن من ورائكم زمان صبر، للمتمسك فيه أجر خمسين شهيدًا	ابن مسعود	٤٠٨/٤
إن منكم من يُقاتل على تأويل هذا القرآن، كما قاتلت على تنزيله	أبو سعيد	٧٠/٦
إن موسى كان رجلًا حييًّا سِتِّيرًا لا يُرى من جلده شيء	أبو هريرة	٥٥٣/٥
إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلّوا الطريق، فقال	أبو موسى	٥٨٤/٦
إن الناس إذا رأوْا الظالم فلم يأخذوا على يديه		١٠٠/٣
إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيِّرونه؛ أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب		١٠٠/٣
أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل	أنس	٦٤٢/٥
أن النبي ﷺ التفت إلى أحد فقال	أبو ذر	٥٢٣/٢

أن النبي ﷺ خرج متقلدًا سيفًا، وكان هو وجنده عادتهم		١٨٣/٦
أن النبي ﷺ صلى حتى انتفختْ قدماه	المغيرة	٣٥٤/٢
أن النبي ﷺ طلَّق حفصة بنت عمر، فدخل عليها خالاها	قيس بن زيد	٤٥٤/٢
أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر	أبو هريرة	٣٦٧/٢
أن النبي ﷺ كان يقسم، فجاءه رجل ناتِئ الجبين كثُّ اللحية	أبو سعيد	٢٧١/٣
أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه		٤٧٩/٥
أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر	أنس	٣٨/٢
أن النبي ﷺ لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم	جابر	٣٠/٢
أن النبي ﷺ لم يجتمع عنده غداء ولا عشاء من خبز ولا لحم إلا على	أنس	٥٢١/٢
أن النبي ﷺ لما أشكل عليه أمر حديث حويصة ومحيصة		٤٣٦/٦
أن النبي ﷺ مَرَّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين	أسامة بن زيد	٣٥/٢
أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس	أنس	٥٤٠/٣
إن نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا بنيه فقال	ابن عمرو	١٩/٢
إن هذا الدين متين، فأوْغل فيه برفق		١٦٤/٥
إن هذا الدين يُسر، ولن يُشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه		١٦٤/٥
إن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسَّكوا به	أبو شريح الخزاعي	١٦٠/٢
إن هذه الصلاة - يعني العصر - عُرضت على من كان قبلكم فضيَّعُوها		٣٣٣/٢
إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسْها	ابن عمرو	٧٧٨/٥
إن الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة، فسلوا الله	أبو سعيد	١٠١/١
أن يسلم المسلمون من لسانك	ابن مسعود	٣٧٠/٥
إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة	ابن عباس	٥١/٢
أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وأن يحبَّ المرء	أنس	٧٠٢/٥
أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله؛ حبط عملي	ثابت بن قيس	٦٤٢/٥
أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان مُحِقًّا	ابن عمر	٢٢٨/٥
أنا زعيم ببيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء وإن كان مُحقًا	أبو أمامة	٣٨٤/٥
أنا زعيمٌ لمن آمن بي وأسلم وهاجر، ببيت في ربض الجنة		٣٠٦/٣
أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب	البراء	٣١٠/٣

أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا	سهل بن سعد	٩٦/٢
أنا وكافل اليتيم– له أو لغيره– في الجنة، والساعي على الأرملة	عائشة	٩٦/٢
أنتَ مع مَن أحببت	أنس	٧٠٣/٥
أنت يا طلحة الفياض	سلمة بن الأكوع	٥٣٠/٢
انتدب الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا إيمان بي	أبو هريرة	٢٩٧/٣
انتسب رجلان على عهد موسى، فقال أحدهما	أُبي	٤٥٣/٥
انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقلت	تميم بن أسيد	٤٣٠/٥
أنزل الله في الذين قتلوا ببئر معونة قرآنًا قرأناه حتى نُسخ	أنس	٣٠٦/٣
أُنزلت عليَّ سورة، وأردتُ أن أُقرئكها	أُبي	٣٨/٣
انظروا إلى عبدي، رجع رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي	ابن مسعود	٣٠٤/٣
انظروا إلى عبدي هذا يؤذِّن ويقيم الصلاة؛ يخاف مني	عقبة بن عامر	٩٢/١
انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام	سهل بن سعد	١٦/٢
أنفق يا بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالا	بلال، أبو هريرة ابن مسعود	٥٠٨/٢
إنك لن تزال سالمًا ما سَكتَّ فإذا تكلَّمت كُتِب لك أو عليك	معاذ	٣٧٠/٥
أنكحني أبي امرأة ذات حسب فكان يتعاهد كَنَّته فيسألها	ابن عمرو	٤٥٦/٢
إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم	أبو برزة	٢٩٣/٢
إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق	أبو هريرة	٢٧٥/٥
إنما تُنصرون وتُرْزقون بضعفائكم	سعد بن أبي وقاص	٢٢٩/٣
إنما العلم بالتعلُّم، وإنما الحلم بالتحلُّم	أبو هريرة،أبو الدرداء	٢٤٥/٥
إنما كان فراش رسول الله ﷺ، الذي ينام عليه أدمًا حَشْوه لِيف	عائشة	٤٣١/٥
إنما الناسُ كإبل مائة، لا تكاد تجد فيها راحلة		٤٧٨/٦
إنما هلك مَن كان قبلكم باختلافهم في الكتاب	ابن عمرو	٢٩٠/٢
إنما يكفي أحدكم، ما كان في الدنيا مثل زاد الراكب		٢٥٢/٤
إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم		١٠٧/١
أنه أتاه مال من حضرموت سبعمائة ألف	طلحة	٥٣٠/٢

أنه تمارىٰ– أي اختلف– هو والحرُّ بن قيس الفزاري في صاحب موسى عليه السلام	ابن عباس	١٦٠/١
أنه رأى النبي ﷺ مستلقيًا في المسجد، واضعًا إحدى رِجْليْه	عن عباد	٤٣٢/٥
أنه سئل أن يكحل المسجد، فقال	سالم بن عطية	٣٣٣/٤
أنه سأل رسول الله ﷺ عن البر والإثم؛ فقال	النواس بن سمعان	٥٤٩/٥
أنه قال في فضل الوضوء وثوابه، ثم قال: فإن هو قام وصلَّى	عمرو بن عبسة	٥٩٣/٥
أنه قال لرسول الله ﷺ: علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي	أبو بكر	١١٤/٥
أنه كان رقيق الساقين، فجعلت الريح تلقيه، فضحك القوم منه	ابن مسعود	٣٢/١
أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلِّي، ثم دعا	أنس	١١٢/٥
أنه كان يأخذه والحسن فيقول: اللهم أحبَّهما فإني أحبُّهما	أسامة بن زيد	١١/٧
أنه كان يصلِّي على الصف الأول ثلاثًا، وعلى الثاني واحدةً	العرباض	٣٣٧/٢
أنه كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك	ابن عباس	٤٨٠/٥
إنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي جميع مقالتي، ثم	أبو هريرة	١٧٠/١
إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك	أنس	٥٦٠/٥
إنه ليس في الناس أحد أَمَنَّ عليَّ في نفسه وماله من أبي بكر	ابن عباس	٢٨/٦
إنه ليستغفرُ للعالم		١٩٨/٧
إنه لا يردُّ الصيد، ولا ينكأ العدو، ولكنه يكسر السِّن	عبد الله بن مغفل	١٧٣/٢
إنها ستأتي على الناس سنون خداعة، يُصدَّق فيها الكاذب	أبو هريرة	٩٢/٣
إنها صوَّامة قوامة وهي زوجتك في الجنة		١٦٦/٧
أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد	عائشة	٣١/٢
إني رأيتُ رسول الله ﷺ يصلِّي الصلوات؛ فإن وافقته وافقناك	أبو أيوب	١٠٢/٣
إني على ما ترون بحمد الله، قد قرأت السَّبع الطوال	أنس	٣٥٣/٢
إني أَلِجُ هذه الغرفة ما ألجها إلا خشية أن يكون فيها مال	سمرة بن جندب	٥٢٣/٢
إني لأنظرُ إلى شياطين الجن والإنس قد فرُّوا من عمر	عائشة	٨٨/١
إني لم أُبعث لعَّانًا وإنما بُعثت رحمة		٣٩٣/٥
إني والله ما آمن يهود على كتاب	زيد بن ثابت	٢٥/٧
اهْجهم – أو هاجهم – وجبريل معك	البراء	٤٩١/٦

اهج قريشًا، فإنه أشد عليها من رشْقٍ بالنبل	عائشة	٤٩٢/٦
أهل القرآن هم أهل الله وخاصَّته	أنس	١٣/٣
أَوْجب طلحة		٣١٤/٣
أُوصيك أن تستحي من الله، كما تستحي من الرجل الصالح من قومك	سعيد بن الأزور	٣٤٦/٢
أُوصيك أن لا تكون لعَّانًا		٣٩٤/٥
أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه	أبو سعيد	٢٩٨/٣
أُوصيكم بالسمع والطاعة؛ فإن مَن يعش منكم بعدي فسيرى	العرباض	٢٦٩/٣
أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإنْ تأمَّر عليكم	العرباض	١٥٩/٢
أول زمرة تدخل الجنة من أُمَّتي؛ وجوههم كالقمر ليلة البدر		٣٨٩/٦
أول شيء يُرفع من هذه الأمة الخشوع، حتى لا ترى فيها خاشعًا	أبو الدرداء	٥٨٢/٥
أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون	حذيفة	٥٨٢/٥
أول من أسلم مع رسول الله: علي بن أبي طالب	زيد بن أرقم	٥٥/٧
أول من أظهر إسلامه سبعة	ابن مسعود	٤٠٦/٤
أولياء الله تعالى: الذين إذا رُؤا ذُكر الله	ابن عباس	٣٢١/٧
أو ليس عندكم صاحب النعلين والوساد والمطهرة	أبو الدرداء	١٢٣/٧
أي إخواني لمثل هذا اليوم فأعدّوا	البراء	٣٠٨/٧
إياكم والبدع	العرباض	٢٩٥/٢
إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح	ابن عمرو	٦٥٠/٢
إياكم والمحدثات؛ فإن كل محدثة ضلالة	العرباض	٢٩٥/٢
أيعجزُ أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة		٧٤/٣
أيُّكم مال وارثه أحبُّ إليه من ماله	ابن مسعود	٥١٣/٢
أيما مسلم رمى بسهم في سبيل الله، فبلغ مخطئًا أو مصيبًا؛ فله	عمرو بن عبسة	٢٩٨/٣
أيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على عري؛ كساه الله تعالى	أبو سعيد	٥٠٩/٢
أين السائل عمن قضى نحبه	طلحة	٣١٦/٣
إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط	سعد بن أبي وقاص	٨٩/١
أيها الناس ، ألا كان فزعكم إلى الله وإلى رسوله	عمرو بن العاص	٦٤٥/٣

[المعرَّف بالألف واللّام]

الإشراك بالله وعقوق الوالدين	أبو بكرة	٧٦٦/٥
الإمام العادل وشاب نشأ في عبادة ربه	أبو هريرة	٣٣٢/٢
الأمر أسرع من ذلك	ابن عمرو	٢٧٣/٤
الأمير زيد فإن أصبت فجعفر فإن أصيب فابن رواحة		٣٣٩/٣
الإيمان بضعٌ وسبعون أو بضع وستون شعبة	أبو هريرة	٧٦٥/٥
الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله		٧٧٤/٥
الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان	أبو هريرة	٥٣١/٥

[حرف البـاء]

بادِروا بالأعمال الصالحة فستكون فِتنٌ كقطع الليل المظلم	أبو هريرة	٨٦/١
بارَك الله لكما في ليلتكما	أنس	١٧٣/٧
بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة	جرير بن عبد الله	٣٥٠/٧
بايعتُ رسول الله ﷺ على الموت وغزوتُ معه سبع غزوات	سلمة بن الأكوع	٣٥٩/٣
بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره	عُبادة	١٠٢/٣
بتُّ في بيت خالتي ميمونة فوضعتُ للنبي ﷺ غسْلًا، فقال	ابن عباس	١٧٠/١
بخٍ ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح	أنس	٦٠٥/٢
بشِّرِ المشّائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التامِّ يوم القيامة		٣٣١/٢
بشِّر هذه الأمة بالتيسير والسناء والرفعة بالدين والتمكين	أُبيّ	١٠٨/١
بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالًا	البراء بن عازب	٤٠٤/٣
بُعثتُ لأُتَمِّم صالح الأخلاق	أبو هريرة	٢٣٢/٥
بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا، فقلتُ	علي	٤١٢/٦
بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا	عائشة	٣١/٢
بل ائتمروا بالمعروف وتناهَوْا عن المنكر حتى إذا رأيتَ شُحًّا مُطاعًا	أبو ثعلبة	١٤٩/٢
بمَ سبقتني إلى الجنة ؟	بُريدة	١٢٢/٧

بئس مولى العشيرة عائشة ٢١/٥
بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا عليَّ وعليهم قُمصٌ فمنها ما يبلغ الثدي ٤٤/٦
بينا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتًا في سحابة يقول: اسق حديقة أبو هريرة ٥١٠/٢
بينا النبي ﷺ يُصلّي في حِجْر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعيط عمرو بن العاص ٣١١/٣
بينا النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي، فقال أبو سعيد الخدري ٩١/٥
بينما أنا أسير في الجنة فإذا أنا بقصرٍ، فقلتُ: لمن هذا يا جبريل أنس ١٨٦/٥
بينما ثلاثة نفرٍ يتماشَوْن أخذهم المطر فمالوا إلى غارٍ في الجبل ابن عمر ٦٥٠/٥
بينما جارية على ناقة عليها بعض متاع القوم إذ بصُرت بالنبي ﷺ أبو برزة ٣٩٢/٥
بينما جبريل عليه السلام جالس عند النبي ﷺ إذ سمع نقيضًا من فوقه ابن عباس ١٦/٣
بينما رجل يسوق بقرة ١٩٨/٧
بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة عمران بن الحصين ٣٩٢/٥
١٩٨/٧
بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل، فقال: هل تعلم أحدًا أعلم منك ابن عباس ١٦٠/١
بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سُئل عمرو بن العاص ٤٢/١
بينما نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: انطلقوا إلى يهود أبو هريرة ٣٦/٢
بينما نحن مع رسول الله ﷺ البراء ٣٠٧/٧

[المعرَّف بالألف واللام]

البذاذة من الإيمان ٢٤٩/٤
البرُّ حُسْنُ الخُلُق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس النواس بن سمعان ٥٤٩/٥

[حرف التاء]

تُبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العُسر واليُسر ٨٧/٥

تبكيه أو لا تبكيه، ما زالتِ الملائكة تُظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه جابر ٣٤٧/٣
تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء أبو هريرة ٣٢٧/٢
تجاوز عن ذنب السخيِّ، فإن الله آخذٌ بيده كلما عثر ابن مسعود ٥١١/٢
تركتُ فيكم شيئين لن تضلُّوا بعدهما: كتاب الله وسنتي أبو هريرة ١٦٠/٢
تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ابن عمر ٣٤/٢
تُطعم الطعام وتقرأ السلام على مَن عرفتَ ومنْ لم تعرف عبد الله بن عمرو ٥١٤/٢
تطهَّري بها، سبحان الله عائشة ٥٥٤/٥
تُعرض الفتن على القلوب حذيفة ٢٧٦/٧
تِعسَ عبد الدرهم، تعس عبد الدينار أبو هريرة ٤٤/٥
تقعُدُ الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة فيكتبون الأول ٣٣٩/٢
تقول: الحمد لله عدد ما خلق، الحمد لله ملء ما خلق، أبو أمامة ٧٣/٣
الحمد لله عدد ما في السموات
تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقول الله: أسلم عبدي
واستسلم ١٢/٣
تقوى الله وحُسن الخُلُق أبو هريرة ٢٣٢/٥
تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله، لا يُخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله أبو هريرة ٢٩٨/٣
تكون إبل للشياطين ٢٦٥/٧
تكون النبوَّة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء ٤٣/١
تلا رسول الله ﷺ ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه عائشة ٢٨٩/٢
آيات مُحْكمات﴾
تلك ضرورة الإسلام ابن عمر ٢٣١/٧
توضَّأ واغسلْ ذَكَرَك علي ٥٣٨/٥

[المعرَّف بالألف واللام]

التاجر الحلَّاف، والفقير المختال، والبخيل المنَّان أبو ذرّ ٩١/١
التحدُّث بنعمة الله شكْر، وترْكها كُفْر، ومَنْ لا يشكر النعمان بن بشير ٤٦٥/٥
القليلَ، لا يشكر الكثير

[حرف الثاء]

ثقُل النبي ﷺ، فقال: أصلَّى الناس	عائشة	٣٥٧/٢
ثكلتك أُمُّك يا معاذ، وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلا	معاذ	٣٦٨/٥
ثلاثٌ مَن فعلهنَّ فقد ذاق طعْم الإيمان		٢٢٠/٥
ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان	أنس	٧٠٢/٥
ثلاث منجيات: خشية الله في السرِّ والعلانية	أنس	٢٣٧/٧
ثلاث لا يُغلُّ عليهن قلب امرئ مؤمن	أبو سعيد الخدري	١٠٧/١
ثلاثة على كُثبان المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة	عبد الله بن عمرو	٩٩/١
ثلاثة في ضمان الله عزَّ وجل	أبو هريرة	١٠٠/١
ثلاثة كلُّهم ضامن على الله: رجل خرج غازيًا في سبيل الله فهو ضامن على الله	أبو أمامة	٢٩٨/٣
ثلاثة يُحبُّهمُ الله وثلاثة يشنؤهم الله	أبو ذرّ	٩١/١
ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم: الذي إذا انكشف فئة	أبو الدرداء	٤٣٣/٢
ثلاثة يُؤْتَون أجرهم مرَّتين	أبو موسى	٩١/١

[حرف الجيم]

جاء إبراهيم بأُمِّ إسماعيل وبابنها إسماعيل حتى وضعها عند البيت	ابن عباس	٤٥٤/٤
جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله علِّمْني عملًا يدخلني الجنة	البراء بن عازب	٣٧٠/٥
جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث لنا رجلًا أمينًا. فقال	حذيفة	٥٠٩/٣
جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، طهِّرْني	بُريدة	٥٠/٥
جاءت امرأةٌ إلى النبي ﷺ ببردة، فقالت: يا رسول الله، أكسوك هذه	سهل بن سعد	٥٢١/٢
جعل الله عليكم صلاة قوم أبرار يقومون الليل ويصومون النهار	أنس	٤٤٩/٢
جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء فإذا ملَك ينزل	أبو هريرة	٤٢٦/٥
جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعةٌ؛ كلُّهم من الأنصار: أُبي بن كعب	أنس	١٦٣/١
جمع لي رسول الله ﷺ أبويْه مرتين في أُحُد وفي قريظة	الزبير	٣٢١/٣

[المعرَّف بالألف واللام]

الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله	أبو سعيد	٣٠١/٣

[حرف الحاء]

حُبِّب إليَّ الطِّيب والنساء، وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة	أنس	٥٨٩/٥
حُبِّب إليَّ من دنياكم النساء والطِّيب، وجُعلت قُرَّة عيني في الصلاة		٣٢٩/٢
حدِّثني بأرجى عمل عملته في الإسلام	أبو هريرة	١٢٢/٧
حسبُك من نساء العالمين بأربع	أنس	١٥٧/٧
حسبُنا الله ونعم الوكيل؛ قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار	ابن عباس	٤٤٦/٤
حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء		٥١٠/٤
حِلَقُ الذكْر	أنس	٧٠/٣
حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان رجلًا موسرًا	ابن مسعود	٥١٠/٢

[المعرَّف بالألف واللام]

الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة	أبو سعيد	١٤/٧
﴿الحمد لله ربِّ العالمين﴾ أُمُّ القرآن وأُمّ الكتاب والسبع المثاني		٣٤٨/٢
الحمد لله غير مودّع ربي ولا مُكافَأً ولا مكفور ولا مُستغنًى عنه	أبو هريرة	٤٨٠/٥
الحمد لله الذي أطعم الطعام، وسقى من الشراب، وكسا من الْعُري، وهدى من	أبو هريرة	٤٨٠/٥
الحمد لله الذي أنقذه من النار	أنس	٣٦/٢
الحمد لله الذي جعل في أُمَّتي مثلك	عائشة	١٢٧/٧
الحمد لله الذي يُطعِم ولا يُطْعَم؛ منَّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا	أبو هريرة	٤٨٠/٥

[المعرَّف بالألف واللام]

الحياء خير كلُّه	عمران بن حُصين	١٧٣/٢
الحياء من الإيمان	ابن عمر	٥٣١/٥
الحياء من الإيمان وأحيى أُمَّتي عثمان	أبو هريرة	٥٥٥/٥

الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبَذاء من الجفاء، والجفاء في النار	عمران بن حُصين أبو هريرة، أبو بكرة	٥٣١/٥
الحياء والعيُّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق	أبو أمامة	٥٣٢/٥
الحياء لا يأتي إلا بخير	عمران بن حُصين	٥٣١/٥

[حرف الخاء]

خالد سيفٌ من سيوف الله، سلَّه الله على المشركين	عمر	٦٠٠/٣
خذهُ فتموَّلْه وتصدَّقْ به، فما جاءك من هذا المال وأنت غير مُشرِفٍ	عمر	٣٥٧/٦
خذوا القرآن من أربعة ؛ من ابن مسعود، وأبي، ومعاذ بن جبل	عبد الله بن عمرو	١٦٣/١
خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة	عمران بن حصين	٣٩٢/٥
خرج رسول الله ﷺ ليقضي حاجته، فلما رجع تلقَّيْتُه بالإداوة	المغيرة بن شعبة	٣٣٠/٥
خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى المشركين يُقاتلهم	جابر	٥٦٣/٦
خرج رسول الله ﷺ ولم يشبع من خبز الشعير	أنس	٢٥٦/٤
خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله	أبو شريح	١٦٠/٢
خرجتُ لأُخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرُفعت	عُبادة	٣٨٥/٥
خرجنا مع رسول الله ﷺ فأصاب رجلٌ امرأةَ رجل من المشركين، فحلف	جابر	٤٣٧/٢
خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره في يوم حارٍّ حتى يضع الرجل يده على رأسه	أبو الدرداء	٤٦١/٢
خشع سمعي وبصري ومُخِّي وعظمي وعصبي وما استقلَّتْ به قدمي لله رب العالمين		٥٧٩/٥
خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، فقال: هذا سبيل الله، ثم خطَّ خطوطًا	ابن مسعود	٢١٥/٢
خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب	العرباض	٢٦٩/٣
خلِّ عنه يا عمر، فوالذي نفسي بيده، لَكلامُهُ أشدُّ عليهم من وقْع النبل	أنس	٤٩٩/٦
خمسُ صلوات افترضهنَّ الله عز وجل؛ مَنْ أحسن وضوءهنَّ وصلاتهن	عُبادة	٣٢٨/٢

خمسٌ مَنْ فعل واحدة منهن؛ كان ضامنًا على الله	معاذ	١/١٠٠
خيارُ أئمتكم الذين تُحبُّونهم ويُحبُّونكم وتُصلُّون عليهم ويُصلُّون عليكم		٦/٢٣
خيارُكم أحاسنكم أخلاقًا الموطَّئون أكنافًا، وشراركم الثَّرثارون	ابن عباس	٥/٢٣٣
خياركم أحاسنكم أخلاقًا الموطَّئون أكنافًا، وشراركم الثرثارون	ابن عمر	١/٩٣
خياركم ألينُكم مناكبَ في الصلاة		٢/٣٣٨
خياركم خياركم لنسائهم	ابن عمرو، أبو هريرة	١/٩٤
خياركم خيركم لأهله	أبو كبشة الأنماري	١/٩٤
خياركم مَنْ أطعم الطعام	صُهيب	٢/٥١٤
خياركم مَنْ تعلَّم القرآن وعلمه	سعد بن أبي وقاص علي ، عثمان	١/٩٤
خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا	أبو هريرة	٥/٣٠٦
خير الأسماء عبد الله	عبد الوهاب بن بخت	٧/٣٣٦
خير دينكم الورَعُ	سعد، حذيفة	١/٩٥
خير العمل أن تُفارق الدنيا ولسانك رطبٌ من ذكر الله	عبد الله بن بسر	١/٩٤
خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجَّالتنا سلمة بن الأكوع	سلمة بن الأكوع	٣/٣٦٦
خير ما أُعطي الناس خُلُقٌ حسنٌ	أُسامة بن شريك	٥/٢٣٣
خير المسلمين مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده	ابن عمر	١/٩٤
خير الناس أحسنُهم خُلُقًا	ابن عمر	٥/٢٣٣
خير الناس أنفعُهم	جابر	١/٩٤
خير الناس ذو القلب المحموم واللسان الصادق	ابن عمرو	١/٩٤
خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم		١/٦٦
خير الناس مَنْ طال عمره وحسُن عمله	عبد الله بن بُسر	٦/٥٦٢
خير الناس مَنْ طال عمره وحسُن عملُه، وشرُّ الناس مَنْ طال عمره وساء عمله	أبو بكرة	٦/٥٦٢
خير نسائها خديجة	علي	٧/١٥٨
خيركم إسلامًا أحاسنكم أخلاقًا إذا فقهوا	أبو هريرة	١/٩٥

خيركم خيركم لأهلي من بعدي | أبو هريرة | ٥٢٩/٢
خيركم مَنْ أطعم الطعام وردَّ السلام | صُهيب | ٩٥/١
خيركم من تعلم القرآن وعلمه | عثمان، علي | ٩٥/١
خيركم مَنْ يُرجى خيره ويُؤمن شرُّه، وشرُّكم مَنْ لا يُرجى خيرُه | أنس، أبو هريرة | ٩٥/١

[المعرَّف بالألف واللام]

الخوارج كلاب النار | ٢٩٧/٢

[حرف الدال]

دخل رسول الله ﷺ المسجد | أنس | ١٦٥/٧
دخل رسول الله ﷺ المسجد وفيه ناس يُصلُّون رافعي أبصارهم إلى السماء | جابر بن سمرة | ٥٩٢/٥
دخل النبي ﷺ مكة في عمرة القضاء وابن رواحة بين يديه وهو يقول | أنس | ٤٩٩/٦
دخلتُ الجنة فرأيتُ لزيد بن عمرو بن نُفيل دوحتين | عائشة | ٦١٦/٤
دخلتُ الجنة فسمعتُ خشفةً بين يديَّ، فقلتُ: ما هذه الخشفة | أنس | ٧٣/٢
دخلتُ الجنة فسمعتُ قراءةً، فقلتُ مَنْ هذا؟ فقيل: حارثة ابن النعمان | عائشة | ٦٤٥/٥
دخلت عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فرأتْ فراشَ رسول الله ﷺ عباءةً مثنية | عائشة | ٢٥٥/٤
دخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمل حصير، فرأيتُ أثره في | عمر | ٢٥٨/٤
دعا رجل من الأنصار- من أهل قباء- النبي ﷺ، فانطلقنا معه فلمَّا طعم وغسل يده | أبو هريرة | ٤٨٠/٥
دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحًا | أنس | ٣٩٦/٥
دعا النبيُّ ﷺ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فقال | ابن عمر | ٤٦/٢
دعاني أبي من الليل، فقال لي: ما أراني إلا مقتولًا في أول مَنْ يُقتل من أصحاب النبي ﷺ | جابر | ٥٦٣/٦

دعْهُ فإنَّ له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه	أبو سعيد الخدري	٩١/٥
دعوها فإن الزوج من زوجه لَبمكان		٢٢/٧
دليل الخير كفاعله		٩٩/٣

[المعرَّف بالألف واللام]

الدعاء هو العبادة		١٠٦/٥
الدين النصيحة.. لله ولكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامَّتهم	ثوبان، تميم الداري، أبو هريرة	٢٢٨/٣

[حرف الذال]

ذاق طعمَ الإيمان مَنْ رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا	العباس	١٥٠/٢
ذهب المفطرون اليوم بالأجر	أنس	٧٦٩/٥
ذهبت و لم تلبَّسْ منها بشيء	عائشة	٢٦١/٤

[المعرَّف بالألف واللام]

الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات	أبو هريرة	٧٢/٣

[حرف الراء]

راجعْ حفصة، فإنها صوَّامة قوَّامة وإنها زوجتك في الجنة	قيس بن زيد	٤٥٤/٢
رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد	معاذ	٣٦٨/٥
رأى رسول الله ﷺ عثمان بن عفان يوم جيش العُسْرة جاثيًا	ابن مسعود	٥٢٧/٢
رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين فقال	عبد الله بن عمرو	٧٧٨/٥
رأى النبي ﷺ رجلًا يتْبع حَمَامًا فقال		٣٥٠/٥
رأيتُ بضعًا وثلاثين ملَكًا يبتدرونها		٣٨٨/٦
رأيتُ جعفر بن أبي طالب مَلَكًا في الجنة مضرَّجة قوادمُه بالدماء يطير في الجنة		٣٣٩/٣
رأيتُ رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتخلَّلها؛ يقول	رجل	٣٠/٢

رأيتُ رسول الله ﷺ بمِنَى في منازلهم قبل أن يُهاجر إلى المدينة يقول	ربيعة بن عبَّاد	٣٠/٢
رأيتُ رسول الله ﷺ يصلِّي في نعليْن مخصوفتين	عمرو بن حُريث	٤٣١/٥
رأيتُ رسول الله ﷺ يصلي وفي صدْره أزيز كأزيز الرَّحى من البكاء	عبد الله بن الشخِّير	١٩٢/٤
رأيتُ النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جلدة بطنه	البراء بن عازب	٦٠٥/٥
رأيتني دخلتُ الجنة فإذا أنا بالرُّميصاء	جابر	١٧١/٧
رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لَأَبَرَّه	أبو هريرة	١٢٣/١
رَبِّ أعِنِّي ولا تُعِنْ عليَّ وانصرني ولا تنصرْ عليَّ وامكرْ لي ولا تمكرْ علي	ابن عباس	٤٧٩/٥
رَبِّ تقبَّل توبتي واغسلْ حوْبتي وأجِبْ دعوتي وثبِّتْ حجَّتي	ابن عباس	٤٧٩/٥
رُبَّ ذي طمريْن لا يُؤْبَه له، لو أقسم على الله لَأَبَرَّه	ابن مسعود	١٢٣/١
رُبَّ عذقٍ مذلَّل لابن الدحْداحة في الجنة	ابن مسعود	٦٠٨/٢
ربَّ متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه، له النار غدًا	ابن مسعود	١٢٩/٣
رِباطُ شهْرٍ خير من صيام دهر، ومَن مات مرابطًا في سبيل الله	أبو الدرداء	٣٠٤/٣
رباط يومٍ في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها	سهل بن سعد	٩٨/٢
رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدِكم من الجنة	سلمان	٣٠٥/٣
رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار	ابن مسعود	٥١٣/٢
رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالًا	ابن عمر	١٥/٣
رجل إذا ذكر الله خاليًا فاضت عيناه، ورجل أفنى شبابه	سلمان	٢٣/٦
رجل أَمَّ قومًا وهم له راضون، ورجل كان يُؤذن في كلِّ يوم وليلة	ابن عمر	٩٩/١
رجل تحمل حمالة فحلَّت له المسألة حتى يصيبها ثم يُمسك، ورجل	قُبيصة	٤٤١/٤
رجل خرج إلى مسجد من مساجد الله عز وجل، ورجل خرج غازيًا في سبيل الله	أبو هريرة	١٠٠/١

رجل ذكر الله ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلَّق بالمساجد	أبو هريرة	٩٨/١
رجل علَّمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار	أبو هريرة	١٥/٣
رجل مِن أهل الكتاب آمن بنبيِّه وأدرك النبي ﷺ فآمن به	أبو موسى	٩١/١
رجل مؤمن جاهَد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدوّ		٣٠٥/٣
رجوت بَركَتها حين لبِسَها النبي ﷺ لَعَلِّي أكفَّن فيها	سهْل بن سعد	٥٢١/٢
ردَّ رسول الله ﷺ عُمير بن أبي وقاص عن بدرٍ	سعد بن أبي وقاص	٦١/٧
رسول الله ﷺ لَمْ يفرَّ	البراء	٣١٠/٣
ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها		٣٣٤/٢

[المعرَّف بالألف واللام]

الرِّبا اثنان وسبعون بابًا، أدناها مثل إتيان الرجل أُمَّه	البراء	٣٩١/٥
الرجل من أهل الكتاب كان مؤمنًا قبل أن يُبعث النبي ﷺ فله أجران	أبو موسى	١٨٠/١
الرجل يَلقى العدوَّ في فئة فينصبَ لهم نحْره حتى يُقتل أو يُفتح لأصحابه	أبو ذر	٩١/١
الروْحة والغدوة في سبيل الله أفضل من الدنيا وما فيها	أبو سعيد	٢٩٩/٣
الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها	أبو هريرة	٣٩٢/٥

[حرف الزاي]

زوَّجني أبي امرأة من قريش، فلمَّا دخلتْ عليَّ جعلتُ	ابن عمرو	٤٥٧/٢

[المعرَّف بالألف واللام]

الزبير ابن عمَّتي وحواريي من أمَّتي	جابر	٣١٧/٣

[حرف السين]

سألتِ امرأة النبيَّ ﷺ: كيف تغتسل من حيضتها	عائشة	٥٥٤/٥
سألتُ ربي حتى استحييتُ ولكن أرضى وأُسلم	مالك بن صعصعة	٥٥٤/٥
سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال	ابن مسعود	١٥٢/٤
سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله عز وجل؟ قال	معاذ	١١/٣

سألتُ رسول الله ﷺ عن البرِّ والأثم، فقال	النواس بن سمعان	٢٢٨/٥
سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ...﴾	أبو ثعلبة الخشني	١٤٩/٢
سألتُ رسول الله ﷺ فأعطاني ثم سألتُه فأعطاني ثم قال	حكيم بن حزام	٥٠٧/٤
سألتُ رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله أيُّ الأعمال أفضل	ابن مسعود	٣٧٠/٥
سألتُ النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة، فقال	عائشة	٥٩٤/٥
سِباب المسلم فسوق وقِتاله كفر	ابن مسعود	٣٩٠/٥
سِباب المسلم كالمُشرِف على الهَلَكَة		٣٩١/٥
سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ولا يضرك بأيّهنَّ بدأت		٧٥/٣
سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم		٧٥/٣
سبحان الله وبحمده عدَدَ خلقه ورضا نفسه وزِنَة عَرشه		٧٥/٣
سبعٌ يجري للعبد أجرهنَّ وهو في قبره بعد موته	أنس	٩٣/١
سبعة في ظلِّ العرش يوم لا ظل إلا ظلُّه	أبو هريرة	٩٨/١
سبعة يظلُّهم الله في ظلِّ عرشه يوم القيامة	سلمان	٢٣/٦
سبعة يُظلهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه	أبو هريرة، أبو سعيد	٩٧/١
سَبَقَك بها عُكَّاشة	ابن عبَّاس	٤٥٦/٤
سمع رسول الله ﷺ نساء الأنصار يبكين على هلكاهُنَّ فقال	ابن عمر	٣٢٨/٣
سمع سامع بحمد الله ونعمته وحسن بلائه علينا ربنا صاحبنا فأفضلْ علينا	أبو هريرة	٤٩٥/٥
سمعتُ رسول الله ﷺ يقول إذا قضى الصلاة	المغيرة بن شعبة	٢١٣/١
سمعتُ كعب بن مالك يُحدِّث حديثه حين تخلَّف عن رسول الله ﷺ	عبد الرحمن	٥١/٥
سمعتُ النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرَّة	أبو بَكرة	٧١/٦
سمعتُ هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان فقرأ فيها حروفًا لم يكن	عمر	١٦٤/٢
سُئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نُفيل أنه	جابر	٦١٦/٤

سُئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال		٣٤٥/٢
سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام	علي	٢٩٧/٢
سيِّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام	عليّ، جابر	٣٢٤/٣
سيروا، هذا جمدان، سبق المفرِّدون	أبو هريرة	٧٢/٣
سيكون بعدي من أمتي قوم يقرءون القرآن لا يُجاوز حلاقيمهم	أبو ذر، رافع بن عمرو	٢٩٧/٢
سيكون في آخر الزمان	أنس	٢١٦/٧
سيكون قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقرة من الأرض		٣٨٧/٥

[المعرَّف بالألف واللام]

الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله	أبو هريرة	٥١٢/٢
السبْع المثاني فاتحة الكتاب		٣٤٨/٢
السفيه يتكلَّم في أمر العامَّة	أبو هريرة	٩٢/٣
السلام على همَدان ، السلام على همَدان	البراء	٤٥/٢

[حرف الشين]

شرُّ الرِّعاء الحُطَمَة	عائذ بن عمرو	٧٨٠/٥
شرُّ ما في رجل : شح هالِع وجُبْن خالِع	أبو هريرة	٦٥٠/٢
شكوْنا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا حجرًا حجرًا	أبو طلحة	٢٥٧/٤
شهدتُ النبي ﷺ نفل الرُّبعَ في البدْأة والثلُث في الرجْعة	حبيب الفهري	١٨٣/١
شيَّبتْني هود وأخواتها	أبو جُحيفة	١٩٢/٤
شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعمَّ يتسأَلون	ابن عباس	١٩٢/٤
شيطان يَتْبع شيطانة		٣٥٠/٥

[المعرَّف بالألف واللام]

الشهداء الذين يقاتلون في سبيل الله في الصف الأول	نعيم بن هبار	٤٧/٥

[حرف الصاد]

صبرًا آل ياسر		٣٦٢/٧
صلِّ صلاة مودِّع كأنك تراه		٣٤١/٢

صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ويهلك آخرها	ابن عمرو	٦٦/٥
صلاة الأوَّابين حين ترمض الفِصال		٣٤٠/٢
صلاة الضحى صلاة الأوَّابين		٣٤٠/٢
صلاة في إثْر صلاة لا لغوَ بينهما؛ كتابٌ في عِلِّيِّين		٣٢٩/٢
صلُّوا كما رأيتموني أصلِّي		٣٤٣/٢
صلَّيتُ مع رسول الله ﷺ فأطال حتى هممتُ بأمْر سوءٍ	ابن مسعود	٣٥٣/٢
صلَّيتُ مع النبي ﷺ فقمتُ إلى جنبه عن يساره	ابن عباس	٥٧/٧
صُمْ أفضل الصوم؛ صَوْمَ داود	ابن عمرو	٤٥٦/٢
صمْ إنْ شئتَ وأفطرْ إن شئت	عائشة	٤٦٢/٢
صمْ في كلّ شهر ثلاثة واقرأ القرآن في كلِّ شهر	ابن عمرو	٤٥٦/٢
صنائع المعروف تقي مصارع السُّوء والآفات والهلكات	أنس	٥٠٩/٢

[المعرَّف بالألف واللام]

الصلاةُ خير موضوع، فمَن استطاع أن يستكثر فليستكثر	أبو ذر	٣٢٥/٢
الصلاة على وقتها	ابن مسعود	١٥٢/٤
الصلاة وما ملكت أيمانكم	أنس	٤٠/٢
الصلاة وما ملكتْ أيمانكم	أم سلمة	٤٠/٢
الصوم جُنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يُطفئ الماء النار	معاذ	٣٦٨/٥

[حرف الضاد]

ضحِك الله الليلة من فعالكما	أبو هريرة	٦٤٢/٢

[حرف الطاء]

طلحةُ ممَّن قضىٰ نحْبه	معاوية، عائشة، طلحة	٣١٧/٣
طُوبىٰ لعبدٍ آخذ بعنان فرسه في سبيل الله	أبو هريرة	٢٥٠/٧
طُوبى للغرباء؛ أناس صالحون في أناسِ سوءٍ كثير	ابن عمر	١٥٩/٢
طوبى لمن أمسَك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله	ركب المصري	٣٨١/٥
طوبى لمن هُدي للإسلام وكان عيشُه كَفَافًا وقنع به		٢٤٩/٤

[المعرَّف بالألف واللام]

الطِّيرة شرك وما منا إلَّا، ولكن الله يذهبه بالتوكل	ابن مسعود	٤٧٢/٤

[حرف العين]

عثر أسامة بعتبة الباب فشجَّ في وجهه، فقال لي رسول الله ﷺ	عائشة	١١/٧
عجب ربنا من رجل غزا في سبيل الله فانهزم أصحابه	ابن مسعود	٣٠٤/٣
عجب ربنا من رجلين:رجل ثار عن وطائه ولحافه	ابن مسعود	٤٣٢/٢
عجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل	أبو موسى	٥٨٤/٦
عدا الذئب على شاةٍ	أبو سعيد	١٩٩/٧
عرش كعرش موسى	سالم بن عطية	٣٣٣/٤
عُرِضَتْ عليَّ الأمم فرأيت النبيَّ يمر ومعه الرَّهط	ابن عباس	٤٥٦/٤
عريشًا كعريش موسى ثمام وخشيبات والأمر أعجل من ذلك	أبو الدرداء	٣٣٣/٤
عصبة من أمتي يفتحون البيت الأبيض بيت كسرى	جابر بن سمرة	٥٣٤/٣
علامَ اجتمع عليه هؤلاء	البراء	٣٠٧/٧
على الأسودين التمر والماء	عائشة	٢٥٧/٤
عليك بالإياس مما في أيدي الناس	سعد بن أبي وقاص	٣٠٣/٧
عليك بالصوم فإنه لا عدل له		٤٤٧/٢
عليك بالصوم فإنه لا مثل له		٤٤٧/٢
عليك بالصوم فإنه لا مثل له	أبو أمامة	٤٥٩/٢
عليك بحسن الخلق وطول الصمت فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلائق	أنس، أبو ذر، أبو الدرداء	٣٦٩/٥
عليكم بالجهاد في سبيل الله فإنه باب من أبواب الجنة	أبو أمامة، عبادة	٢٩٩/٣
عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل	أنس	٢٥٤/٧
عليكم ما تطيقون من الأعمال فإن الله لا يمل حتى تملوا	عائشة	٣٢٣/٢
عليكم من الأعمال ما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا		١٦٤/٥
عمار ما عُرض عليه أمران إلا اختار الأرشد منهما		١٢٤/٧
عند الله خزائن الخير والشر مفاتيحها الرجال فطوبى لمن جعله الله	سهل بن سعد	٨٧/١
عينان لا تريان النار: عين بكتْ وجلًا من خشية الله	أنس	٣٠٤/٣

[حرف الغين]

غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبتُ عن	أنس	٣٧٠/٣
غدوة في سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس وغربت	أبو أيوب	٢٩٩/٣
غزونا مع رسول الله ﷺ قومًا من جهينة فقاتلونا قتالًا شديدًا	جابر	٣٥٦/٢
غطوا رأسه واجعلوا على رجليه من الإذخر	خباب	٢٦٣/٤
غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت		٦٠/٦
غير الدّجّال أخوف على أمتي من الدجال؛الأئمة المضلون	أبو ذرٍّ	٩٦/٣

[حرف الفاء]

فإذا رأيت الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم	عائشة	٢٨٩/٢
فأعنّي على نفسك بكثرة السجود	ربيعة الأسلمي	١٩/١
فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا	معاذ	٢٩/٢
فإن ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أُخر	ابن مسعود	٥١٣/٢
فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر		١٩٨/٧
فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها		٤٤٨/٢
فرق ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَّحَر	عمرو بن العاص	٢١١/١
فسُول الرجال وأهل البيوت الغامضة يُرفعون فوق صالحيهم	أبو هريرة	٩٣/٣
فضل صلاة الرجل في بيته على صلاته حيث يراه الناس		٣٣٩/٢
فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب	معاذ	١٤٨/١
فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم	أبو أمامة	١٤٨/١
فضل العلم أحبّ إليّ من فضل العبادة وخير دينكم الورع	حذيفة، سعد بن أبي وقاص	٣٢٤/٤
فقد رسول الله ﷺ يوم أحد حمزة حين فاء الناس من القتال	جابر	٣٢٦/٣
فقّهوا أخاكم في دينه وعلّموه القرآن وأطلقوا أسيره		٥٤/٢
فلرسول الله ﷺ أجْود بالخير من الريح المرسلة	ابن عباس	٥٢٠/٢

فلما التقى المسلمون والكفار وفى المسلمين مدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته العباس ٣١٠/٣
فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك سعد بن معاذ ٣٧١/٣
فوالذي بعثك بالحق لو سرْت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك المقداد ٣٤٨/٣
فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم سهل بن سعد ١٦/٢
في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ابن عمرو ٤٣٢/٢

[المعرف بالألف واللام]

الفم والفَرْج أبو هريرة ٢٣٢/٥

[حرف القاف]

قاتل الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد عائشة ٤٠/٢
قال الله تعالى: لا يذكرني عبدٌ في نفسه إلا ذكرته في ٧٤/٣
قال الله تعالى: يا عبدي أَنفق أنفق عليك أبو هريرة ٥١٣/٢
قال جبريل: راجع حفصة فإنها صوَّامة قوَّامة أنس ٤٤٢/٢
قال ربُّكم تبارك وتعالى: كل العمل كفارة إلا الصوم ٤٤٨/٢
قال رجل: يا رسول الله إن فلانة يُذكر من كثرة صلاتها وصيامها غير أنها أبو هريرة ٧٧٠/٥
قال رسول الله ﷺ للرجل الذي استوصاه ٣٤٦/٢
قال رسول الله ﷺ يوم بدر أنس ٦٢/٧
قال رسول الله ﷺ يوم الخندق جابر ٣١٨/٣
قال سليمان بن داود: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة أبو هريرة ٢٩٧/٣
قال عمر لصهيب: فيك سرف في الطعام، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ صهيب ٥١٤/٢
قال لي رسول الله ﷺ: ما أعددت للجهاد؟ قلت: طاعة الله ورسوله القعقاع ٦٣٥/٣
قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا.قال أبو هريرة ٣٩٧/٥
قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يرددها ٣٥٤/٢
قتل سبعةً ثم قتلوه؛ هذا منِّي وأنا منه ٣٨٧/٣

قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه ٢٤٩/٤
قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة ٥٣/٢
قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي العرباض ١٦١/٢
قد جمع الله لك ذلك كله أُبي ٣٦٠/٢
قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون ؟ جابر ٣٨٧/٥
قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ: محمد رسول الله سميته المتوكل ابن عمر ٤٧٥/٤
قل: آمنت بالله ثم استقم سفيان بن عبد الله ٥/٥
قل: اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت أبو بكر ١١٤/٥
قل: ربي الله ثم استقم سفيان بن عبد الله ٣٦٩/٥
﴿قل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن و ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ابن عمر ١٧/٣
قلب شاكر ولسان ذاكر وزوجة صالحة تعينك على أمر دنياك أبو أمامة، ثوبان ٤٦٤/٥
قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية زوج النبي ﷺ كذا وكذا عائشة ٣٩٩/٥
قلت: يا رسول الله أي الذنوب أعظم؟ ابن مسعود ٧٦٦/٥
قلت: يا رسول الله أي المسلمين أفضل؟ أبو موسى ٣٧٠/٥
قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به سفيان بن عبد الله ٣٦٩/٥
قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ قال سفيان بن عبد الله ٣٦٩/٥
قلت: يا رسول الله ما النجاة ؟ عقبة بن عامر ٣٧٠/٥
قلت: يا رسول الله الوضوء من جرٍّ جديد مُخمَّر أحب إليك أم المطاهر؟ ابن عمر ٤٣٢/٥
قلّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات ابن عمر ٦٦/٥
قم يا حمزة قم يا علي قم يا عبيدة بن الحارث علي ٣٩٢/٣
قنت شهرًا يدعو على رعْل وذكوان أنس ٣٩٦/٥
قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين عمرو بن الجموح ٦٨١/٥
قوائم منبري رواتب في الجنة ٦/١
قيام ساعة في الصف للقتال في سبيل الله خير من قيام ستين سنة أبو هريرة ٢٩٩/٣
قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أُبي فانطلق إليه النبي ﷺ أنس ٣٥/٢

[المعرف بالألف واللام]

القاعد على الصلاة كالقانت ويُكتب من المصلين من حين خرج ٢/٣٣٦ ٢/٣٣٦
القتلى ثلاثة ٣/٣٠٥

[حرف الكاف]

كاد الخيّران أن يهلكا: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما؛ رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ ابن أبي مليكة ٥/٦٤٣
كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة أبو هريرة ١/٩٦
كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخلٍ أنس ٢/٦٠٥
كان إذا حزبه أمر صلى ٢/٣٥٣
كان إذا صلى الغداة جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس ٢/٣٣٦
كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية أبو هريرة ٢/٢٩٠
كان أول من أضاف الضيف إبراهيم أبو هريرة ٢/٥١٧
كان خلقه القرآن عائشة ٥/٢١٧
كان داود أعبد البشر أبو الدرداء ١/٥٣
كان رجل من الأنصار بيته أقصى بيت في المدينة فكان لا تخطئه الصلاة أُبي ٢/٣٦٠
كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبرّ من كان في هذه الأمة بأمهما عائشة ٥/٦٤٦
كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس أنس ٣/٣٠٩
كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه عائشة ٥/٤٧٩
كان رسول الله ﷺ إذا كان في السفر فبدا له الفجر قال أبو هريرة ٥/٤٩٥
كان رسول الله ﷺ إذا مشى كأنما يهوي في صببٍ علي ٥/٣٤٤
كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها أبو سعيد ٥/٥٥٣
كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي كاشفًا عن فخذيه أو عائشة ٥/٥٥٥
كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم سهل بن حنيف ٥/٤٢٨
كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعات طاويًا وأهله لا يجدون ابن عباس ٤/٢٥٦
كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم جابر ٥/٤٣٠

كان رسول الله ﷺ يذكر الله تعالى على كل أحيانه	عائشة	٣٧/٣
كان ﷺ يردف خلفه ويضع طعامه على الأرض ويجيب دعوة المملوك	أنس	٤٢٨/٥
كان ﷺ يركب الحمار ويخصف النَّعل ويرقع القميص	أبو أيوب	٤٢٨/٥
كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف ويعتقل الشاء	أبو موسى	٤٣١/٥
كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمرّ على جبل يقال له: جمدان	أبو هريرة	٧٢/٣
كان ﷺ يؤتى بالتمر فيه دود فيفتشه ويخرج السوس منه	أنس	٤٣١/٥
كان طويل الصمت قليل الضحك	جابر	٣٩٧/٥
كان على رسول الله ﷺ خميصة سوداء حين اشتد به وجعه	عائشة	٤٠/٢
كان ﷺ إذا دعا دعا ثلاثًا وإذا سأل سأل ثلاثًا	ابن مسعود	١٠٩/٥
كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده	أنس	٣٦/٢
كان في بني إسرائيل رجل قَتل تسعة وتسعين إنسانًا ثم	أبو سعيد	٤٩/٥
كان للنبي ﷺ قصعة يقال لها: الغراء، يحملها أربعة رجال	عبد الله بن بسر	٥٢٠/٢
كان ملك فيمن كان قبلكم	صهيب	٥٢/٧
كان من دعاء رسول الله ﷺ	ابن عمر	٤٠٦/١
كان النبي ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان	ابن عباس	٥٢٠/٣
كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس	أنس	٥٢٠/٢
كان النبي ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل	أُبي	٣٠٨/٧
كان النبي ﷺ لا يدَّخر شيئًا لغد	أنس	٥٢٠/٢
كان يستغفر للصف المقدم ثلاثًا وللثاني مرَّةً		٣٣٧/٢
كان يصيبنا ذلك مع رسول الله ﷺ، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر	عائشة	١٧٣/٢
كان يُكثِر الذكر، ويقل اللغو، ويُطيل الصلاة، ويقصر الخطبة	ابن أبي أوفى	٤٢٩/٥
كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة	عائشة	٤٣١/٥
كان يمرُّ هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوت رسول الله ﷺ نار	عائشة	٢٥٧/٤
كان يمرُّ بنساء فيسلِّم عليهن	جرير	٤٢٧/٥

كان يمرُّ على الصبيان فيسلِّم عليهم أنس ٤٢٧/٥
كانت الأمة تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت أنس ٤٢٧/٥
كانت عامة وصية رسول الله ﷺ، حين حضرته الوفاة وهو يغرغر أنس ٤٠/٢
كانت عند رسول الله ﷺ سبعة دنانير وضعها عند عائشة سهل بن سعد ٥٢٣/٢
كخ كخ ، ألقها ٣٣٢/٤
كُفَّ عنا جشاءك، فإن أكثرهم شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة ٣٣٥/٥
كفى ببارقةِ السيوف على رأسه فتنة رجل ٣٠٤/٣
كل أُمَّتي يدخلون الجنة إلَّا مَن أبى أبو هريرة ٢٨٩/٢
كل بسم الله ثقةً بالله، وتوكُّلًا على الله جابر ٤٤٨/٥
كل دعاء محجوب، حتى يصلَّى على النبي ﷺ علي، معاذ ١٠٨/٥
كلّ كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمْر بمعروف أو نهي عن منكر أم حبيبة ٣٧٣/٥
كلّكم راع وكلكم مسئول عن رعيَّته ٢٣٠/٣
كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان ٧٥/٣
كلوا هاتين التمرتين واشربوا عليهما من الماء، فإنهما أبو هريرة ٦٤٧/٥
كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤْبه له؛ لو أقسم على الله لَأبرَّه أنس ١٢٣/١
كم من ضعيف متضعّف ذي طمرين؛ لو أقسم على الله لأبرَّه أنس ٣٣٧/٣
كم من عذق ردّاح لأبي الدحداح في الجنة أنس ٦٠٨/٢
كم من معلق لأبي الدحداح في الجنة جابر بن سمرة ٦٠٨/٢
كما لا يُجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينزل الفجّار منازل الأبرار أبو ذر ٨٨/١
كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أبو موسى ١٥٦/٧
كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ٢٥٢/٤
كن وَرِعًا تكن أعبدَ الناس أبو هريرة ٣٢٣/٤
كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله علي ٣٩/٢
كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال عوف بن مالك ٤٤٠/٤

كنا في عهد رسول الله ﷺ نتناوب رعاية الإبل، فرحتُ ذات يوم عقبة بن عامر ١٨٩/١
كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر سعد ١٢٢/٧
كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأقبل أعرابي، فلما دنا منه قال له ابن عمر ٣٤/٢
كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة جابر ٣٨/٢
كنا مع النبي ﷺ فمنا الصائم، ومنا المفطر أنس ٧٦٩/٥
كنا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به وإن الشجاع منا الذي يحاذي به البراء ٣١٠/٣
كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته ربيعة الأسلمي ١٩/١
كنت أرعى غنمًا لعقبة بن أبي معيط فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر ابن مسعود ١٦٥/١
كنت أصلِّي بسورة وهي الكهف، فلم أحبّ أن أقطعها جابر ٤٣٧/٢
كنت رجلًا مذَّاءً فأمرت المقداد أن يسأل النبي ﷺ فسأله علي ٥٣٨/٥
كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير معاذ ٢٩/٢
كنت غلامًا في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصّحْفَة عمرو بن أبي سلمة ٣٣٤/٥
كنت مع النبي ﷺ في سفرٍ فأصبحت يومًا قريبًا منه معاذ ٣٦٨/٥

[المعرف بالألف واللام]

الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن عمر، أبو هريرة ٥١٩/٢

[حرف اللام]

لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال أبو عامر الألهاني ٥٦٧/٥
لَأَنْ أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما أبو هريرة ٧٣/٣
لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم علي، معاذ ٦/٢
لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حق أمين حذيفة ٥٠٩/٣
لبث النبي ﷺ ستة أشهر يرى أنه يأتي ولا يأتي عائشة ٢٣٣/٦
لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ٢٨٠/٣
لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرًا بشبر أبو سعيد، أبو هريرة ٢٩١/٢

لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع	ابن عباس	٢٩١/٢
لتفتحن عصابة من أمتي كنز آل كسرى الذي في الأبيض	جابر بن سمرة	٥٣٤/٣
لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة	أبو أمامة	٧٧٥/٥
الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله		٣٣٣/٢
الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة	ابن عمرو	٩٤/١
لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل	جابر	١٢٣/١
لصوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة	أنس	٣٤٩/٣
لعن الله الواشمات والمسْتوشمات والنامصات	ابن مسعود	٧٧٨/٥
لعن الله الواصلة والمستوصلة	عائشة	٧٧٨/٥
لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء	ابن عباس	٧٧٨/٥
لعْنُ المؤْمن كقتله	ثابت بن الضحاك	٣٩٤/٥
لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لمن أبغض الناس إليَّ	صفوان بن أمية	٥٢٢/٢
لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس	عمر	١٧/٣
لقد أُوذيتُ في الله وما يُؤْذى أحد وأخفتُ في الله وما يخاف أحد	أنس	٣٧٩/٤
لقد تاب توْبةً لو قسمت بين أمةٍ لوسعتهم	بريدة	٥٠/٥
لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها	العرباض	٢٩٤/٢
لقد دعا الله تعالى باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب	أنس	١١٢/٥
لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم ما يجد دقلًا يملأ بطنه	عمر	٢٥٦/٤
لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ	علي	٣١٠/٣
لقد رهن رسول الله ﷺ درْعه بشعير ولقد سمعته يقول	أنس	٢٥٦/٤
لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب	بريدة	١١١/٥
لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به	معاذ	٣٦٨/٥
لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشي عليه فقام أبو بكر	أنس	٤٢/٢
لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت		٧٥/٣
لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته	عائشة	٣٩٩/٥
لقد كان أحدهم يبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة	أبو سعيد	٣٨٨/٤

لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم	عائشة	٣١/٢
لقد نزلت علي الليلة آيات ويلٌ لمن قرأها و لم يتفكر فيها	عائشة	٣٥٤/٢
لقنوا موتاكم لا إله إلا الله	أبو سعيد	٢٨١/١
لقيت ليلة أسري بي إبراهيم الخليل عليه السلام فقال	ابن مسعود	٧٠/٣
لقيني رسول الله ﷺ مرة وأنا مهتم فقال: ما لي أراك منكسرًا	جابر	٥٦٤/٦
لكلّ أمة أمين وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة	عمر	٦٠٠/٣
لكل عمل شرّة ولكل شرّة فترة فإن كان صاحبها سدد أو قارب	أبو هريرة	٢٩٤/٢
لكل عمل شرة ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنتي	ابن عمرو	٢٩٤/٢
لكل عمل كفارة والصوم لي وأنا أجزي به		٤٤٨/٢
لكل قرن سابق	أنس	٨٧/١
لكل قرن من أمتي سابقون	ابن عمر	٨٨/١
لكل نبي حواري وحواريي الزبير	جابر	٣١٨/٣
لكني أصوم وأفطر وأصلي وأنام وأمس النساء	ابن عمرو	٤٥٧/٢
للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك	ابن مسعود	٨٣/١
للشهيد عند الله سبع خصال	المقدام بن معدي كرب	٣٠٢/٣
للصائم فرحتان: فرحة حين يفطر، وفرحة حين يلقى ربَّه		٤٤٩/٢
لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك	كعب بن مالك	٥١/٥
لمْ أر عبقريًّا يفري فريه		٤٥١/٢
لِمَ تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر	عائشة	٤٧٩/٥
لم تكنْ معنا إذْ بايعنا على السمع والطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	عبادة	١٠٢/٣
لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث	ابن عمرو	٢٢/٣
لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا	أنس	٤٢٩/٥
لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن ابن عوف أن رسول الله ﷺ	عائشة	١٦٦/٢

لمَّا اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلًا	عائشة	٤١/٢
لما أصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر	ابن عباس	٣٠٤/٣
لما أُلقي إبراهيم ﷺ في النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل	ابن عباس	٤٧٣/٤
لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ بمكة قال لأخيه أُنيس	ابن عباس	١٦٧/١
لما ثَقل رسول الله ﷺ هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة	أسامة بن زيد	١١/٧
لما حضر أحد دعاني من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولًا في	جابر	٣٤٦/٣
لما حفر رسول الله ﷺ الخندق أصابهم جهد شديد حتى	جابر	٢٥٧/٤
لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ	المسيّب	٣٧/٢
لما قتل أبي يوم أحد جعلت أكشف عن وجهه وأبكي	جابر	٣٤٧/٣
لما قدم المهاجرون الأولون العقبة	ابن عمر	١٢٦/٧
لما قرأتها- يعني سورة الجن- على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن	أنس	٤٩٥/٥
لما كان يوم أحد انهزم الناس عن رسول الله ﷺ وأبو طلحة بين يديه	أنس	٣٥٠/٣
لما كان يوم أحد قال رسول الله ﷺ	عمرو بن الجموح	٦٨١/٥
لما كان يوم أحد وولّى الناس كان رسول الله ﷺ في ناحية	جابر	٣١٥/٣
لما مرّ بجنازة عثمان بن مظعون قال رسول الله ﷺ	أبو النضر	٢٦١/٤
لما نزلت هذه الآية ﴿ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم﴾	أنس	٦٤٢/٥
لما هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة فانتهى إلى الغميم	عاصم الأسلمي	٣٤/٢
لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وبات قائمًا والناس نيام	ابن عمرو	٤٣٢/٢
لن يلج الدرجات العلى من تكهّن أو استقْسم أو رجع من سفرٍ	أبو الدرداء	٤٧٣/٤
لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت لأدركه رزقه	جابر	٤٧٦/٤
لو أن رجلًا يُجرّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرمًا في مرضاة الله	عتبة	٨٨/١
لو أنكم توكلتم على الله عز وجل حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير	عمر	٤٢٨/٤
لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلًا	أنس، عائشة	٣٩٨/٥
لو تعلمون ما في الصفّ الأول لكانت قرعة		٣٣٨/٢
لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة	فضالة	٢٦٥/٤

لو جاءنا مالُ البحرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا	جابر	٥٢٢/٢
لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبتُ ولو أهدي إليَّ ذراع	أبو هريرة	٤٤٩/٥
لو قلت باسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون	جابر	٣١٥/٣
لو كان أسامة جارية لكسوته	عائشة	١١/٧
لو كان الإيمان عند الثريَّا لتناوله رجالٌ من فارس	أبو هريرة	٨٧/١
لو كان لي عدد هذه العضاة نعْما لقسمته بينكم ثم	جبير بن مطعم	٥٢٢/٢
لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة	سهل بن سعد	٢٥١/٧
لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا دون ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا	ابن مسعود، ابن الزبير ابن عباس	٧١٤/٥
لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت ابن أبي قحافة خليلًا	ابن مسعود	٧١٤/٥
لو يعلم المؤمن بما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد	أبو هريرة	٢٣٣/٤
لو يعلم الناس ما في صلاة العشاء وصلاة الفجر لأتوهما ولو حبوًا		٣٣٤/٢
لو يعلم الناس ما في النّداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن		٣٣٨/٢
لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا	أبو هريرة	٣٠١/٣
لولا جزع النساء لتركته حتى يحشر من حواصل الطير وبطون السباع		٣٢٧/٣
ليأتين على أمّتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل	ابن عمرو	٢٩١/٢
ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدرٍ ولا وبرٍ		٤٢/١
ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام لتكبيره وتحميده		٧٤/٣
ليس تحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرّت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها	معاذ	١١/٣
ليس ذاكم ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى	ابن مسعود	٥٤٥/٥
ليس الشديد بالصُّرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب		٢٥٣/٥
ليس شيءٌ أثقل في الميزان من الخلق الحسن	أبو الدرداء	٢٣٣/٥
ليس شيء أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن	ابن مسعود	١٨٠/٥

ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء	أبو هريرة	٢٩٩/٧
ليس شيء خيرًا من ألف مثله إلا الإنسان	سلمان	٨٧/١
ليس شيء من الجسد إلا يشكو ذرب اللسان على حدته	أبو بكر	٣٧١/٥
ليس منّا من عمل بسنة غيرنا	ابن عباس	٢٩١/٢
ليس منّا من لم يتغن بالقرآن		٢٧/٣
ليس المؤمن بالطعّان ولا باللعّان ولا بالفاحش	ابن مسعود	٣٨٧/٥
ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد		١٦٤/٥
ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب	سلمان	٢٦٥/٤
ليلني منكم ذوو الأحلام والنهى	ابن مسعود	٢٥٥/٥
لينتهين رجال يشخصون أبصارهم إلى السماء أو لا ترجع إليهم	جابر بن سمرة	٥٩١/٥
لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم	أنس	٥٩١/٥
لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر	أُبي	٣٩/٣
ليودن أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم قرضت	جابر، ابن عباس	٣٨٨/٤

[حرف الميم]

ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة	أبو هريرة	٣١/٦
ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا	عائشة	٤٠٠/٥
ما احتذى النعال ولا ركب المطايا بعد رسول الله ﷺ أفضل من	أبو هريرة	٥٣١/٢
ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنّى بالقرآن	أبو هريرة	٢٧/٣
ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك	ابن عمر	٢٧٣/٤
ما استكبر من أكل معه خادمه وركب الحمار بالأسواق	أبو هريرة	٤١٩/٥
ما أشبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى	عائشة	٢٥٧/٤
ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى وإنهم لتسعة أبيات	أنس	٢٥٦/٤
ما أعددت لها من كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكني	أنس	٧٠٣/٥
ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفًا مرقعًا ولا شاة سميطًا قط	أنس	٢٥٦/٤
ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله إلا حرم الله عليه النار	عثمان، جابر، مالك بن عبد الله، عبد الرحمن بن جبير	٣٠٠/٣

ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني	أُبي	١٧/٣
ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطى	أنس	٤٩٦/٥
ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم	أنس	٥٩١/٥
ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة		٥/١
ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب	أبو هريرة	٥٠٩/٢
ما خالط قلب امرئ مسلم وهجٌ في سبيل الله إلا حرم الله عليه النار	عائشة	٣٠٠/٣
ما رأيت مثل النار نام هاربها	أنس	٣٦٢/٧
ما رُئي رسول الله ﷺ يأكل متكئًا ولا يطأ عقبه رجلان	ابن عمرو	٤٤٥/٥
ما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله	أبو هريرة	٤١٩/٥
ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه	أنس	٥٢٢/٢
ما سئل النبي ﷺ عن شيءٍ قط فقال:لا	جابر	٥٢٠/٢
ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البرِّ ثلاث ليال تباعًا	عائشة	٢٥٦/٤
ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثًا أتباعًا من خبز البرّ حتى	أبو هريرة	٢٥٧/٤
ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن	أبو الدرداء	٢٣٣/٥
ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل	أبو أمامة	٢٩٣/٢
ما عال ابنتين أو ثلاثًا حتى يمتن أو يموت عنهن	أنس	٢٠٨/١
ما علمت النبي ﷺ أكل على سكرجة قط ولا خبز له مرقّق	أنس	٤٣٢/٥
ما عمل ابن آدم عملًا أنجى له من عذاب الله، من ذكر الله	معاذ	٤٤/٣
ما عملت عملًا أرجى عندي؛ أني لم أتطهر طهورًا في ساعة ليل أو نهار	بلال	٣٦٨/٢
ما قاتل رسول الله ﷺ قومًا حتى يدعوهم	ابن عباس	٣٧/٢
ما كان الله ليدخل شيئًا من حمزة النار	ابن مسعود	٣٢٧/٣
ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيءٍ إلا زانه	أنس	٣٨٧/٥
ما كرهت أن يراه الناس، فلا تفعلن إذا خلوت		٥٤٩/٥
ما كلَّم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وإنه أحيا أباك	جابر	٥٦٤/٦

ما مسستُ ديباجًا ولا حريرًا ألين من كف رسول الله ﷺ	أنس	٢٢٧/٥
ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطنه	المقدام بن معد يكرب	٢٤٨/٧
ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمَة بيد ملك، فإذا تواضع	ابن عباس، أبو هريرة	٤١٩/٥
ما من دابة إلا وهي مُصيخة يوم الجمعة		٢٠١/٧
ما من ساعة تمرُّ بابن آدم لا يذكر الله تعالى فيها، إلا تحسَّر عليها	عائشة	١١/٣
ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق	أبو الدرداء	٢٣٤/٥
ما من القلوب قلب		٢٧٥/٧
ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله ثم لم يغيروه إلا		١٠٠/٣
ما من مسلم يتوضأ فيُحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين يقبل عليهما	عقبة بن عامر	٣٢٧/٢
ما من مكلوم يُكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة وكَلْمه يدمى	أبو هريرة	٣٠٣/٣
ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان	أبو هريرة	١٥٧/٧
ما من الناس من نفس مسلمة يقبضها ربها تحب أن ترجع إليكم		٣٠٩/٣
ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون	ابن مسعود	١٥٧/٢
ما من يوم طلعت شمسه، إلا وكان بجنبتيها ملكان يناديان	أبو الدرداء	٥١٥/٢
ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما	أبو هريرة، أبو الدرداء	٥٠٨/٢
ما منكم من أحدٍ، ما من نفس منفوسة، إلا كتب مكانها من الجنة والنار	علي	٣٩/٢
ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر	أبو هريرة	٥٢٤/٢
ما هذا الحبل ؟	أنس	١٦٥/٧
ما يسرُّني أن منزلي إلى جنب المسجد؛ إني أريد أن يُكتب لي ممشاي	أُبي	٣٦٠/٢
ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله ورسوله	أبو هريرة	٥٩٨/٣
ما لك يا زبير	عروة	٥٨/٧
مَثل أمتي مثل المطر؛ لا يُدرى أوله خير أم آخره	عمار	٦٦/١
مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد	أبو هريرة	٥١٦/٢
مثل عروة مثل صاحب ياسين؛ دعا قومه إلى الله تعالى فقتلوه	عروة	٥٠/٢

مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة		٣/١٠١
مثل الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه ، مثل الحي والميت	أبو موسى	٤/١٦٠
مثل الذي يعلِّم الناس الخير وينسى نفسه، كمثل السراج		٢/١٠٣
مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير	أبو موسى	٢/١٦٠
مثل المجاهد في سبيل الله- والله أعلم بمن يجاهد في سبيله- كمثل الصائم	أبو هريرة	٣/٣٠٠
مثلي في النبِّيين، كمثل رجل بنى دارًا فأحسنها وأكملها		٦/٩
مثلي ومثلكم، كمثل رجل أوقد نارًا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها	جابر	٢/٢٨
مجالس الذكر	جابر	٣/٧٠
مدينة هرقل تفتح أولًا	عمرو بن العاص	١/٤٣
مرَّ بي رسول الله ﷺ وأنا أطيِّنُ حائطًا لي	ابن عمرو	٤/٢٧٣
مرَّ علي رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصًّا لنا	ابن عمرو	٤/٢٧٣
مرحبًا بالطَّيِّب المُطيَّب	علي	٣/٣٥٣
مررت ليلة أسْري بي بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس البالي		٤/١٩٤
مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتم شحًّا مطاعًا		٢/١٤٩
مروهن لا يبكين على هالك بعد اليوم	ابن عمر	٣/٣٢٨
معاذ بن جبل أعلم الناس بحلال الله وحرامه	أبو سعيد	١/١٦٣
معاذ بن جبل أمام العلماء يوم القيامة برتْوة	محمد بن كعب	١/١٦٢
ملحد في الحرم ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية	ابن عباس	٢/٢٨٩
مُلِئ إيمانًا إلى مُشاشه	عائشة	١/٦٨
مُلِئ عمار إيمانا إلى مُشاشه		٧/١٢٣
مَن أحبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل، فليقرأ على قراءة ابن أم عبد	أبو بكر، عمر	٣/٤١
مَن أحبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل، فليقرأ قراءة ابن أم عبد	ابن مسعود	٥/١٢٢
من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان		٣/٢٤٠
من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد	عائشة	٢/٢٨٩
من أراد أن يعلم ما له عند الله، فلينظر ما لله عنده	أبو هريرة	١/٩٠

من استرق واكتوى، فقد برئ من التوكل	المغيرة بن شعبة	٤٧٢/٤
من استطاع منكم ألا يجعل في بطنه إلا طيبًا، فليفعل	جندب	٣٧٥/٤
مَن استن خيرًا فاستن به، كان له أجره كاملًا		٩٩/٣
من أشراط الساعة أن يعلوَ التحوتُ الوعولَ	أبو هريرة	٩٣/٣
من أصابته فاقة فأنزلها بالناس؛ لم تسدّ فاقته	ابن مسعود	٤٤١/٤
من أصبح منكم آمنًا في سِرْبه، معافى في جسده، عنده قوت يومه	عبد الله بن محصن	٤٩٦/٥
من أصبح منكم اليوم صائمًا	أبو هريرة	٣١/٦
من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى	أبو هريرة	٢٨٩/٢
من أظل رأسَ غازٍ، أظلَّه الله يوم القيامة	عمر	٩٨/١
من أعان مجاهدًا في سبيل الله، أو غارمًا في عُسْرته، أو مكاتبا	سهل بن حنيف	٩٨/١
من أعتق رقبة مسلمة؛ أعتق الله له بكلِّ عضو منها عضوًا من النار	أبو هريرة	٥١٠/٢
من اقتنى كلبًا إلا كلب ماشية	ابن عمر	٢٦٩/٧
من اقتنى كلبًا ليس بكلب صيد	أبو هريرة	٢٦٩/٧
من اقتنى كلبًا لا يغني عنه	سفيان بن أبي زهير	٢٦٩/٧
من أنظر مُعسرًا، أو وضع عنه، أظلَّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه	أبو اليسر	٩٧/١
من أنظر معسرًا؛ فله بكلِّ يوم مثله صدقة قبل أن يحلَّ الدين	بريدة	٥١٠/٢
من أنفق زوجًا من ماله في سبيل الله دعته خَزَنَةُ الجنة	أبو هريرة	٥٢٥/٢
من بنى لله مسجدًا؛ بنى الله له بيتًا في الجنة	علي	١٠٠/١
من ترك اللباس تواضعًا لله، وهو يقدر عليه	معاذ بن أنس	٤٣٦/٥
من تصدق بعدل تمرة من كَسْبٍ طيِّب- ولا يقبل الله إلا الطَّيِّب	أبو هريرة	٥٠٩/٢
من تكفَّل لي أن لا يسأل الناس شيئًا؛ أتكفَّل له بالجنة	ثوبان	٤٤١/٤
من توضأ، ثم أتى المسجد فصلَّى ركعتين قبل الفجر، ثم جلس حتى	أبو أمامة	٣٣٥/٢
من توضأ فأحسن الوضوء، ثم دخل المسجد فصلَّى ركعتين	عقبة بن عامر	١٨٩/١
من توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلَّى ركعتين لا يسهو فيهما؛ غفر الله له	زيد بن خالد	٣٢٨/٢
من توضأ مثل وضوئي هذا، ثم قام فصلَّى ركعتين لا يحدِّث فيهما نفسه	عثمان	٣٢٨/٢

من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه	أبو هريرة	١٤٧/١
من جعل الهمَّ همًّا واحدًا، كفاه الله سائر همومه		٨٩/١
من جعل الهموم همًّا واحدًا: هم المعاد، كفاه الله سائر همومه	ابن مسعود	٨٩/١
من جهَّز جيش العسرة؛ فله الجنة	عثمان	٥٢٧/٢
مِن حُسْن إسلام المرء: تَرْكُه ما لا يعنيه	أبو هريرة	٣٧٩/٥
من حفر رومة؛ فله الجنة	عثمان	٥٢٧/٢
من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية	أُبي، أبو هريرة	٩٠/١
من ختم له بصيام يوم؛ دخل الجنة	حذيفة	٤٤٩/٢
من خرج من بيته متطهِّرًا إلى صلاةٍ مكتوبة؛ فأجره كأجر الحاج المحرم	أبو أمامة	٣٢٩/٢
من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له	ابن عمر	٩٩/١
من دعا إلى هدى فاتبع عليه، كان له مثل أجر من اتبعه إلى عمله		٦/٣
من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك	أبو هريرة	١٦/٢
من دلَّ على خير، فله مثل أجر فاعله	ابن مسعود	١٦/٢
من راح روحة في سبيل الله؛ كان له بمثل ما أصابه من الغبار مِسْكًا يوم القيامة	أنس	٣٠١/٣
من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه		١٠٠/٣
من رجلٌ ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع		٣٤٧/٣
من رغب عن سنتي، فليس مني	أبو أيوب	٤٢٨/٥
من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهادة، وإن مات	سهل بن حنيف	٣٠٣/٣
من سأل الناس تكثرًا، فإنما يسأل جمرًا	أبو هريرة	٤٤١/٤
من سبَّ أصحابي، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين		٣٩٠/٥
من ستر مؤمنًا في الدنيا على خربة، ستره الله يوم القيامة	عقبة بن عامر	١٧٣/١
من سرَّه أن يتزوَّجَ امرأة من أهل الجنة، فليتزوج أم أيمن		١٢/٦
من سرَّه أن يحبَّ الله ورسوله، فليقرأ في المصحف	ابن مسعود	١٤/٣
من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء		١٠٦/٥

من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا؛ سلك الله به طريقًا إلى الجنة	أبو الدرداء	١٤٨/١
من سلم المسلمون من لسانه ويده	ابن عمرو	٧٦٥/٥
من سلم المسلمون من لسانه ويده	أبو موسى	٣٧٠/٥
من سنَّ سُنَّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة		٢٣٢/٣
من شاب شيبةً في الإسلام، كانت له نورًا يوم القيامة	كعب بن مرّة	٥٦١/٦
من شاب شيبة في سبيل الله، كانت له نورًا يوم القيامة	عمرو بن عبسة	٥٦١/٦
من شرب الخمر؛ لم تُقبل له صلاة أربعين صباحًا	ابن عمرو	١٧٨/١
من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فتحت له ثمانية أبواب من الجنة	عمر، عقبة بن عامر	١٨٩/١
من صام يومًا في سبيل الله باعد الله منه جهنم مسيرة مائة عام	عقبة بن عامر	٤٤٨/٢
من صام يومًا في سبيل الله؛ جعل الله بينه وبين النار خندقًا كما بين	أبو أمامة	٤٤٨/٢
من صلَّى البردين؛ دخل الجنة		٣٣٥/٢
من صلَّى الصبح فهو في ذمَّة الله فلا يتبعنَّكم الله بشيء من ذمَّته		٣٣٥/٢
من صلَّى الصبح في جماعة؛ فهو في ذمة الله، فمن أخفر ذمة الله	أبو بكرة	٣٣٥/٢
من صلَّى صلاة الغداة في جماعة، ثم جلس يذكر الله حتى تطلع الشمس	أبو أمامة	٣٣٥/٢
من صلَّى العشاء في جماعة؛ كان كقيام نصف ليلة. ومن صلَّى العشاء	عثمان	٣٣٣/٢
من صلَّى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس		٣٣٦/٢
من صلَّى في اليوم والليلة اثنتي عشرة ركعة تطوعا بنى الله له بيتًا في الجنة		٣٣٩/٢
من صلي قبل الظهر أربعًا وبعدها أربعًا؛ حرَّمه الله على النار		٣٣٩/٢
من صلَّى لله أربعين يومًا في جماعة، يدرك التكبيرة الأولى؛ كُتب له براءتان	أنس	٣٣١/٢
من صمت نجا	ابن عمرو	٣٧١/٥
من صنع أمرًا على غير أمرنا، فهو رَدٌّ	عائشة	٢٩١/٢
من عاد مريضًا، أو خرج غازيًا، أو دخل على إمامه يُريد تعزيره	معاذ	١٠٠/١

من عال جاريتين حتى يُدركا؛ دخلتُ أنا وهو الجنة كهاتين	أنس	٩٦/١
من عبدَ الله وحده وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه		٥٢٩/٥
من علَّم آية من كتاب الله؛ فله ثوابها ما تُليت		١٤/٣
من علَّم علمًا، أو أجرى نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلًا	أنس	٩٣/١
منْ عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ	عائشة	٢٨٩/٢
من غسّل يوم الجمعة واغتسل ثم بكّر وابتكر		٣٣٨/٢
من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبتْ له الجنة	أبو هريرة	٣٠١/٣
من قال: بسم الله، توكلتُ على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله	أنس	٤٧٣/٤
من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله	سعد بن أبي وقاص	٣٩٠/٤
من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمةٍ أو بأحدٍ من خلقك	عبد الله بن غنام	٤٩٥/٥
من قال: سبحان الله العظيم وبحمده؛ غرستْ له نخلة في الجنة		١٦٢/٤
من قال كل يوم: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا		٥٠٣/٤
من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد	أبو هريرة	٧٣/٣
من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية	ابن عمرو	٤٣٣/٢
من قتل قتيلًا فله سلبه		٣٥٠/٣
من قتل قتيلًا له بيِّنة فله سلبه	أبو قتادة	٣٦٧/٣
من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة		٣٦/٣
من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها	ابن مسعود	١٤/٣
من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين	أبو سعيد	١٨/٣
من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له النور ما بينه وبين البيت العتيق	أبو سعيد	١٨/٣
من قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ عشر مرات بنى الله له بيتًا في الجنة	معاذ بن أنس	١٨/٣
من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة	معاذ	٢٨١/١
من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله		٥٠٢/٤
من كان سهلًا هيِّنًا لينًا حرّمه الله على النار	أبو هريرة	٩٧/١

من كان لقيس عليه دَيْن فهو في حلّ منه	قيس بن سعد	٢/٥٣٩
من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله	أنس	١/٨٩
من كشف عن مسلمٍ كُرْبةً من كرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة	أبو هريرة	٣/٢٢٩
من كظم غيظًا وهو قادرٌ على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق	معاذ بن أنس	٥/٢٥٣
من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله	جابر	٣/٤٠١
من مات مرابطًا في سبيل الله، ومن علم علمًا أجرى له عمله ما عمل به	أبو أمامة	١/٩٣
من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة	أبو أيوب	٣/٣٥٩
من مشى إلى صلاة مكتوبة في الجماعة فهي كحجَّة		٢/٣٢٩
من ولي منكم عملًا فإذا أراد الله به خيرًا جعل له وزيرًا صالحًا		٦/٣٤٣
من يأتينا خبر بني قريظة	جابر	٣/٣١٨
من يبسط ثوبه حتى أقضي مقالتي ثم قبضه إليه لم ينسَ شيئًا	أبو هريرة	١/١٧٠
من يتقبل لي بواحدةٍ وأتقبل له بالجنة	ثوبان	٤/٥٠٨
من يضمن لي ما بين لحْييْه وما بين رجليه أضمن له الجنة	سهل بن سعد	٥/٣٧١
من ينتدب لهؤلاء في آثارهم حتى يعلموا أن بنا قوة		٣/٣١٨
من ينظر ما صنع أبو جهل	أنس	٧/٦٢
من يُؤويني ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة	جابر	٢/٣٠
مهلًا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب		٥/٥١
موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود	أبو هريرة	٣/٢٩٩
مؤمن في خلق حسن	ابن عمر	١/٩٤

[المعرف بالألف واللام]

الماهر بالقرآن مع السَّفرة الكرام البررة	عائشة	٣/١٤
المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور	أسماء	٥/٤٠١
المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله	فضالة بن عبيد	٥/٣٧٨
المدينة حرام ما بين عِير إلى ثور فمن أحدث فيها حدثًا	أبو هريرة	٢/٢٩٣

المراء في القرآن كفرٌ	أبو هريرة	٢٩٣/٢
المرض كفَّارة	ابن مسعود	٢٦/١
المرء في صلاة ما انتظرها		٣٣٦/٢
المستبَّان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان		٣٩١/٥
المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر	ابن عمرو	٥٦٤/٤
المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده	جابر	٧٦٦/٥
الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلَّى فيه ما لم يُحدث		٣٣٦/٢
المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف	أبو هريرة	٨٦/١
المؤمن يأكل في معًى واحد	ابن عمر، جابر	٢٤٨/٧
المؤمن يغار والله أشد غيرًا	أبو هريرة	١٨٠/٥
المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف إنْ قيد انقاد	مكحول، ابن عمر	٢٣٤/٥

[حرف النون]

نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل	ابن عمرو	٦٦/٥
نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة	أبو بكر	٣٧/٦
نزل ملكٌ من السماء	حذيفة	١٥٩/٧
نضر الله امرأً سمع مقالتي فبلغها، فربّ حامل فقهٍ غير فقيه	جبير بن مطعم	١٦/٢
نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فرب حامل فقه ليس بفقيه	أبو سعيد	١٠٧/١
نعم إذا كثر الخبث		٩٢/٣
نعْم الرجل أبو عبيدة بن الجرّاح	أبو هريرة	٥٠٩/٣
نعْم الرجل ثابت بن قيس بن شماس	أبو هريرة	٣٤٤/٣
نعْم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل		٤٣١/٢
نعَم، غير أني لا أقول إلا حقًا	أبو هريرة	٣٩٧/٥
نعْمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ	ابن عباس	٨٦/١
نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاء وأمرنا أن نحتفي أحيانًا	فضالة بن عبيد	٢٧٤/٤
نهى رسول الله ﷺ عن الخلوة بالأجنبية		٣٧٠/٤

[المعرف بالألف واللام]

النِّساء شقائق الرجال		٧١/٢

[حرف الهاء]

هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نبتغي وجه الله فوقع أجرنا على الله	خباب	٢٦٣/٤
هجرت إلى رسول الله ﷺ يومًا فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية	ابن عمرو	٢٩٠/٢
هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا	عائشة	١٢٧/٧
هذان السمع والبصر		٤٣/٦
هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين		٤٣/٦
هذه سُبُلٌ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه	ابن مسعود	٢١٥/٢
هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع	ابن عمر	٣٧٣/٤
هل رجل يكلأ ؟	جابر	٤٣٧/٢
هلك المتنطعون وهم المتعمقون المتشددون		١٦٤/٥
هم الذين لا يَسْتَرْقون ولا يتطيَّرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون	ابن عباس، أبو هريرة عمران بن الحصين	١٠٠/١
هما ريحانتاي من الدنيا	ابن عمر	١٤/٧
هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد	عائشة	٥٩٤/٥
هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد	ابن عمرو	٩٤/١
هو الطهور ماؤه الحل ميتته		٦٣٠/٢
هي النخلة	ابن عمر	٥٣٧/٥

[حرف الواو]

وآمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله		٥٩٤/٥
وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى	عمر	٣٤٦/٦
والله إني لأحب قربك وأحب ما يسرك	عائشة	٣٥٤/٢
والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه		٢٤٤/٣
والله لأن يهدي بهداك واحدًا خير لك من حمر النعم		١٠١/٣

والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك	أنس	٣٥/٢
والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة	ابن مسعود	١٦٥/١
والله ما أشبع في يوم مرتين من خُبز البرّ حتى قبض	عائشة	٢٥٧/٤
والله يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يزني عبدُه أو تزني أمتُه		١٨٠/٥
وأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه	أنس	٢٩٤/٢
وإن امرؤ سبَّك بما يعلم فيك فلا تسبَّه بما تعلم فيه		٣٩٠/٥
وإن الصف الأول على مثل صف الملائكة ولو علمتم ما فضيلته لابتدرتموه		٣٣٧/٢
وأي داء أدوى من البخل		٥٠٧/٢
وأيم الله لأتركنكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها سواء	أبو الدرداء	٢٩٥/٢
وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطع محمدٌ يدها		٤٠٩/٦
وجد رسول الله ﷺ ذات ليلة شيئًا فلما أصبح قيل	أنس	٣٥٣/٢
وجدتُ في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه	الزبير	٣٤٢/٣
وددت أنّي أقاتل في سبيل الله، فأقتل ثم أحيا ثم أقتل		٨٢/٦
وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجلتْ منها القلوب	العرباض	١٥٩/٢
والذي بعث محمدًا بالحق ما رأى منخلًا ولا أكل خبزًا منخولًا منذ	عائشة	٢٥٦/٤
والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله والله ثلاثة أيام تباعًا	أبو هريرة	٢٥٦/٤
والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة	عوف بن مالك	٢٩٢/٢
والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم	جابر	١٦٢/٢
والذي نفسي بيده، أن لو تدومون على ما تكونون	حنظلة الأسيدي	٢٣٣/٧
والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين		٢٩/٥
والذي نفسي بيده، لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر، أو		١٠٠/٣
والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد	ابن مسعود	٣٢/١
والذي نفسي بيده، لو أنَّ رجالًا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم	أبو هريرة	٣٠١/٣

والذي نفسي بيده، ما أنزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في ٣٤٨/٢
والذي نفسي بيده، ما يسرني أن أُحدًا تحوَّل لآل محمد ذهبًا أنفقه أبو ذر ٥٢٣/٢
والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده أنس ٧٠١/٥
والذي ينتظر الصلاة حتى يصلِّيها مع الإمام، أعظم أجرًا من الذي يصليها ثم ينام ٣٣٠/٢
وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر ٣٨٢/٤
ومن كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة ابن عمر ٦٣٢/٢

[المعرف بالألف واللام]

الولد محزنةٌ مجبنة مبخلةٌ الأسود بن خلف ٢٣٧/٧
خولة بنت حكيم

[حرف اللام ألف]

لا أزال أحبه، بعد إذ سمعت رسول الله ﷺ يقول: استقرئوا القرآن من ابن عمرو ٤٢/٣
لا أُسابقك إلى شيء أبدًا عمر ٥٢٥/٢
لا ألفيَنَّ أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري أبو رافع ١٦١/٢
لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء المغيرة بن شعبة ٢١٣/١
لا بل من المطاهر؛ إن دين الله يسر، الحنيفية السمحة ابن عمر ٤٣٢/٥
لا تُبشِّرهم فيتَّكلوا معاذ ٢٩/٢
لا تتعلموا رطانة الأعاجم عمر ٣٤٢/٥
لا تتمنَّوا لقاءَ العدو عبد الله بن أبي أوفى ٣٤٤/٧
لا تدع الجمعة ولا الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ عمر ٣٦٦/٢
لا تدعنَّ في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك معاذ ٤٨٠/٥
لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله المغيرة بن شعبة ١٥٢/٢
لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة عمر ١٥١/٢

لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق، لا يضرُّهم خذلان مَن خذلهم	المغيرة بن شعبة	٢٤٤/٣
لا تزال طائفة من أُمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم	معاوية	١٥٢/٢
لا تزال طائفة من أُمتي قوَّامة على أمر الله، لا يضرها من خالفها	أبو هريرة	١٥٢/٢
لا تزال المسألة بأحدهم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم	ابن عمر	٤٤٠/٤
لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة من عند ربِّه، حتى يُسأل عن خمس	ابن مسعود	٥/٧
لا تسأل الناس شيئًا	ثوبان	٥٠٨/٤
لا تسبُّوا الأموات؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا		٣٩١/٥
لا تسبُّوا الدهر، فإن الله هو الدهر	أبو هريرة	٣٩٢/٥
لا تسبُّوا الديك، فإنه يُوقظ للصلاة	زيد بن خالد	٣٩٢/٥
لا تسبُّوا الشيطان، وتعوَّذوا بالله من شرِّه		٣٩٣/٥
لا تَسبِّي الحمَّى، فإنها تُذهب خطايا بني آدم	جابر	٣٩٣/٥
لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة	أبو برزة	٣٩٢/٥
لا تصدِّقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا .. ﴾	أبو هريرة	٢٩٠/٢
لا تُطروني كما أطرتِ النصارى عيسى بن مريم	عمر	٤٣٠/٥
لا تطلع الشمس ولا تغرب، على أفضل من يوم الجمعة		٢٠١/٧
لا تعجل؛ فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسبًا	عائشة	٤٩٢/٦
لا تفعل؛ فإن مقام أحدكم في سبيل الله، أفضل من صلاته في بيته	أبو هريرة	٣٠١/٣
لا تقولوا هذا، لا تعينوا الشيطان عليه	أبو هريرة	٣٩٠/٥
لا تقوم الساعة حتى تأخذ أُمتي أخْذ القرون قبلها شبرًا بشبر	أبو هريرة	٢٩١/٢
لا تقوم الساعة، حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض فيبقى فيها	ابن عمر	٩٢/٣
لا تكثرِ الضَّحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب	أبو هريرة	٣٩٧/٥
لا تكن عونًا للشيطان على أخيك	عمر	٣٩٦/٥
لا تلعنه فإنه يحبُّ الله ورسوله	عمر	٢٧٠/٣
لا تلعنوه؛ فوالله ما علمت إلا أنه يحبُّ الله ورسوله	عمر	٣٩٦/٥
لا تمنعوا إماءَ الله مساجد الله		١٨٦/٥

لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنَّكم	ابن عمر	١٧٥/٢
لا تؤذوا مسلمًا بشَتْم كافر		٣٩١/٥
لا حسدَ إلا في اثنتين	ابن مسعود	٥١٣/٢
لا حسد إلا في اثنتين	ابن عمر، أبو هريرة	١٥/٣
لا خير في من لا يضيف	عقبة بن عامر	٥١٣/٢
لا رقية إلا من عينٍ أو حمَّة	بريدة بن الحصيب عمران بن الحصين	٤٥٦/٤
لا، فحلُّوه	أنس	١٦٥/٧
لا نقول كما قال قوم موسى لموسى ﴿اذهب أنت وربُّك فقاتلا﴾	المقداد بن الأسود	٣٤٨/٣
لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلِّي ويصوم ويتصدَّق وهو يخاف الله عز وجل	عائشة	٨٣/١
لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك		٧٠٢/٥
لا يتمنَّينَّ أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به	أنس	٧٣٦/٥
لا يتوضأ أحدكم فيحسن وضوءه ويسبغه، ثم يأتي المسجد	أبو هريرة	٣٣٢/٢
لا يجلس قوم مجلسًا لا يصلُّون فيه على رسول الله ﷺ، إلا كان عليهم حسرة		٧٤/٣
لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أوَّاب، وهي صلاة الأوَّابين		٣٤٠/٢
لا يحدِّثن أحدُكم بتلعُّب الشيطان في منامه		٤٠٢/٥
لا يحنو عليكن بعدي إلا الصابرون، سقى الله بن عوف من سلسبيل الجنة	عائشة	٥٢٨/٢
لا يدخل الجنة من في قلبه خردلة من كِبْر	عبد الله بن سلام	٤٣٨/٥
لا يزال أحدكم في صلاةٍ ما دام في مُصلَّاة ينتظر الصلاة		٣٦٤/٢
لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة	أبو عنبسة الخولاني	٢٧٥/٣
لا يزال الدِّين ظاهرًا ما عجَّل الناس الفطر؛ لأن اليهود والنصارى يؤخِّرون	أبو هريرة	٧٧٩/٥
لا يزال قوم يتأخرون عن الصف الأول، حتى يؤخرهم الله في النار		٣٣٨/٢

لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه؛ ولا يستقيم قلبه حتى	أنس	٣٧٠/٥
لا يقل أحدكم إذا دعا: اللهم اغفر لي إن شئت	أبو هريرة	١٠٩/٥
لا يكون المؤمن لعَّانًا		٣٩٤/٥
لا يمنعنَّ رجلًا هيبة الناس أن يقول بحقٍّ إذا علمه أو شهده	أبو سعيد الخدري	٥٥٢/٥
لا ينبغي لصديق أن يكون لعَّانًا	أبو هريرة	٣٩٤/٥
لا ينبغي للمؤمن أن يذلَّ نفسه	حذيفة	٣٤٥/٧

[حرف الياء]

يا أبا بكر، أغضبتهم	عائذ بن عمرو	١٢٥/٧
يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك	عمر	٢٥/١
يا أبا الدرداء، إن لجسدك عليك حقًّا، مثل ما قال لك سلمان	أبو جحيفة	٤٥٥/٢
يا أبا سعيد، من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيًّا؛ وجبت له الجنة	أبو سعيد	٣٠١/٣
يا أبا عمير، ما فعل النّغير	أنس	٤٢٩/٥
يا أبا يحيى، ربح البيع		٣٧٦/٣
يا ابن آدم، إنَّك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شرٌّ لك	أبو أمامة	٥١٥/٢
يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان لك		٢٢٨/٤
يا أم الدحداح، اخرجي من الحائط؛ فإني بعته بنخلةٍ في الجنة	أنس	٦٠٨/٢
يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة	أم سلمة	١٦١/٧
يا أم فلان، اجلسي في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك	أنس	٤٢٨/٥
يا أيها الناس، اذكروا الله	أُبي	٣٠٨/٧
يا أيها الناس، ارتعوا في رياض الجنة	جابر	٧٠/٣
يا أيها الناس، إن الله أمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا	ربيعة بن عبَّاد	٣٠/٢
يا أيها الناس، خذوا من الأعمال ما تطيقون	عائشة	٢٣٢/٧
يا أيها الناس، عليكم بتقواكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد ابن عبد الله	أنس	٤٣٠/٥
يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا	رجل	٣٠/٢

يا بلال، أقم الصلاة؛ أرحنا بها		٣٢٩/٢
يا بلال، حدِّثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعتُ دفَّ نعليك	أبو هريرة	٣٦٧/٢
يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم		٣٣٠/٢
يا ثابت، أما ترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة		٣٤٤/٣
يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس	حكيم بن حزام	٥٠٧/٤
يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر	عائشة	٤٧٩/٥
يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار	معاذ	٣٦٨/٥
يا رسول الله ﷺ، ادع الله لي بالشهادة	أبو أمامة	٤٥٩/٢
يا رسول الله، أرأيت إن وجدت رجلًا مع امرأتي أمهله حتى آتي	سعد بن عبادة	١٨٥/٥
يا رسول الله، أفلا أبشِّر به الناس	معاذ	٢٩/٢
يا رسول الله، أفلا نتَّكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان من أهل السعادة	علي	٣٩/٢
يا رسول الله، امض بما أراك الله فنحن معك، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل	المقداد	٣٤٨/٣
يا رسول الله، إنَّ أثر الوجع عليك لبيِّن	أنس	٣٥٣/٢
يا رسول الله، إنَّ الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدِّث إلا صدقًا	كعب بن مالك	٥٥/٥
يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لن تنالوا البِّر حتى تُنفقوا ممَّا تحبون﴾	أنس	٦٠٥/٢
يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله ﷺ	كعب بن مالك	٥٥/٥
يا رسول الله، إني أتكشَّف، فادْعُ الله لي أن لا أتكشَّف	ابن عباس	٣٨٨/٤
يا رسول الله، إني أتيتك تترىٰ ثلاث مرات أسألك أن تدعو لي بالشهادة	أبو أمامة	٤٥٩/٢
يا رسول الله، إني أجد قوة، وإني أحب أن تزيدني	ابن عمرو	٤٥٨/٢
يا رسول الله، إني رجل أسرد الصوم فأصوم في السفر	عائشة	٤٦٢/٢

يا رسول الله، إني قد زنيتُ فطهِّرني	الغامدية	٥٠/٥
يا رسول الله، إني كنتُ جاهدًا على إطفاء نور الله شديد الأذى	عمير بن وهب	٥٤/٢
يا رسول الله أوصني	معاذ	٣٧١/٥
يا رسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر	عائشة	٣٥٤/٢
يا رسول الله ترسلني وأنا حديث السنِّ ولا علم لي بالقضاء	علي	٤١٢/٦
يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم	أبو سعيد الخدري	٢٩/٥
يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر	معاوية بن حيدة	٥٤٦/٥
يا رسول الله قد شبتَ	أبو بكر	١٩٢/٤
يا رسول الله قد شبتَ	أبو جحيفة	١٩٢/٤
يا رسول الله قلْ لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك	سفيان بن عبد الله	٥/٥
يا رسول الله كأن هذه موعظة مودِّع	العرباض	٢٦٩/٣
يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة	عائشة	٨٣/١
يا رسول الله لم تردني لعلَّك أن تردني كما رددت ماعزًا فوالله إني لحُبْلَى	الغامدية	٥٠/٥
يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى	عمر	٣٤٦/٦
يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يَحْتجبن فإنه يكلِّمهنّ البرُّ والفاجر	عمر	٣٤٦/٦
يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها	سهل بن سعد	٥٢١/٢
يا رسول الله ما تقول في دين النصارى	سلمان	٦٢٩/٤
يا رسول الله ما منا أحد إلا مالُه أحب إليه من مال وارثه	ابن مسعود	٥١٣/٢
يا رسول الله والله لا أكلمك إلا كأخي السرار	أبو بكر	٦٤٣/٥
يا رسول الله والله لأنت أحب إليّ من كلِّ شيءٍ إلا من نفسي		٧٠١/٥
يا رسول الله والذي بعثك بالحقّ لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا	حكيم بن حزام	٥٠٧/٤
يا رسول الله وما رياض الجنة؟	جابر	٧٠/٣
يا رسول الله وما عجوز بني إسرائيل		٥٨٤/٦
يا سعد إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات		٣٤٧/٣

يا سلمان إنَّ الذين كنت معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى	سلمان	٦٢٩/٤
يا عائشة أحبيه فإني أحبه	عائشة	١١/٧
يا عائشة أفلا أكون عبدًا شكورًا	عائشة	٤٧٩/٥
يا عائشة إن شرار الناس الذين يُكْرمون اتقاء شرّهم	عائشة	٢٣٤/٥
يا عائشة ذريني أتعبد لربي	عائشة	٣٥٤/٢
يا عائشة رديه، والله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة	عائشة	٢٥٥/٤
يا عائشة، لو شئت لسارت معي جبال الذهب	عائشة	٤٢٧/٥
يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها		٨٧/١
يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم		٥٠٨/٢
يا عباس يا عماه، ألا أعطيك ألا أمنحك ألا أحبوك		٣٤٠/٢
يا عبد الله، اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد	ابن الزبير	٦٤/٧
يا عبد الله ألم أخبر أنك تكلفت قيام الليل وصيام النهار	ابن عمرو	٤٥٨/٢
يا عبد الله بن عمرو إن لكلِّ عامل شرّه ولكل شرّة فترة	ابن عمرو	٩/٥
يا عبد الله لا تكن مثل فلان	ابن عمرو	٢٣٢/٧
يا عثمان إن الله مقمّصك قميصًا فإن أرادك المنافقون على خلعه	عائشة	٦٤/٦
يا علي من أشقى الأولين والآخرين	عبيد الله	٢٤٢/٧
يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك عند الله	المسيِّب	٣٧/٢
يا غلام إني معلمك كلمات	ابن عباس	٢٩/٢
يا غلام سمِّ الله وكلْ بيمينك وكل مما يليك	عمرو بن أبي سلمة	٣٣٤/٥
يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة	أنس	٥٢٢/٢
يا محمد أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهن نبي قبلك	ابن عباس	١٦/٣
يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات		١١٣/٥
يا محمد إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة	ابن عباس	٥١/٢
يا معاذ إني والله لأحبك، أوصيك يا معاذ	معاذ	٤٨٠/٥
يا معاذ هل تدري ما حقّ الله على عباده	معاذ	٢٩/٢
يا معشر يهود، أسلموا تسلموا	أبو هريرة	٣٦/٢
يا نبي الله، بأبي أنت لا تشرف؛ لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك	أنس	٣٥٠/٣

يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربَّك، فإنه سينجز لك ما وعدك	عمر	٥/١٠٩
يا نبي الله، وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به	معاذ	٥/٣٦٨
يا نبي الله، لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لأدخلنَّها	نعيم بن مالك	٣/٣٤٦
يأتي على الناس زمان، الصابر فيهم على دينه، كالقابض على الجمر	أنس	٤/٤٠٨
يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن	عمر	٤/٢٧٥
يجمع الله الناس يوم القيامة، فيهتمون لذلك فيقولون	أنس	٥/٥٣٤
يجيءُ القرآن يوم القيامة، فيقول: يارب	أبو هريرة	٣/١٥
يحشر الله الناس يوم القيامة عراة غرلا بهمًا	عبد الله بن أنيس	١/١٧٣
يُحشر ذاك وحده، بيني وبين عيسى بن مريم	جابر	٤/٦١٦
يخرج من ضِئضِئِ هذا قوم يحقر أحدُكم صلاته مع صلاتهم	أبو سعيد	٣/٢٧١
يخرج من النار أربعة، فيعرضون على ربهم فيأمر بهم إلى النار	أنس	٤/٢٣٨
يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب	ابن عباس، أبو هريرة عمران بن الحصين	١/١٠٠
يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم		٤/٢٥٠
يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار	أبو هريرة	٢/٥٣
يرحمك الله، إنك غُلَيِّمٌ معلَّم	ابن مسعود	١/١٦٥
يسبح الله مائة تسبيحة، فيكتب الله له بها ألف حسنة		٣/٧٤
يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس		٢/٦٣١
يضحك الله إلى رجلين، يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة	أبو هريرة	١/٩٢
يعجب ربُّك من راعي غنم في رأس شظية بجبل، يؤذن للصلاة	عقبة بن عامر	١/٩٢
يُغفرُ للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن	ابن عمرو	٣/٣٠٣
يُغفر له في أول دفعةٍ من دمه ويرى مقعده من الجنة	المقدام	٣/٣٠٢
يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد	ابن عمرو	٣/١٣
يقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارقَ، ورتِّل كما كنت تُرتِّل في دار الدنيا	ابن عمرو	٣/١٤
يقول ابن آدم:مالي مالي	عبد الله بن الشخِّير	٧/٢٥٢
يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظنَّ بي ما شاء	واثلة بن الأسقع	٤/٢٣٣
يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني	أبو هريرة	٤/٢٢٨

يقول الله عز وجل: سبقت رحمتي غضبي	أبو هريرة	٤/٢٣٥
يقول الله عز وجل: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب	أبو هريرة	٥/٧١٦
يقول العبد: مالي مالي	أبو هريرة	٧/٢٥٢
يكون في آخر الزمان دجَّالون كذَّابون، يأتونكم من الأحاديث	أبو هريرة	٢/٢٩٠
يكون قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام؛ لا يريحون رائحة الجنة	ابن عباس	٥/٣٤١
يؤتى بالرجل يوم القيامة من أهل الجنة، فيقول له: يا ابن آدم	أنس	٣/٣٠٣
يوم من إمام عادل، أفضل من عبادة ستين سنة، وحدٌّ يقام		٦/٤٠٨

[المعرف بالألف واللام]

اليدُ العليا خير من اليد السُّفلى		٢/١٣٣



تمَّ بحمد الله تعالى فهرس الأحاديث

□ ثانيًا : فهرس المراجع □

[أ - التفسير]

١ - **تفسير الطبري.** لابن جرير الطبري- مطبعة: مصطفى البابي الحلبي.
٢ - **تفسير الطبري** . لابن جرير - طبع دار المعارف - تحقيق : محمود شاكر وأحمد شاكر .
٣ - **تفسير القرطبي** . للإمام القرطبي - كتاب الشعب .
٤ - **تفسير ابن كثير** . للحافظ ابن كثير - كتاب الشعب .
٥ - **زاد المسير** . ابن الجوزي - المكتب الإسلامي .
٦ - **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم** . للعلَّامة الألوسي - دار الفكر .
٧ - **أضواء البيان** . للشّنقيطي - مكتبة ابن تيمية .
٨ - **لطائف الإشارات.** لعبد الكريم القُشيْري- طبع: دار الكاتب العربي.
٩ - **بصائر ذوي التمييز بلطائف الكتاب العزيز** . للفيروزآبادي - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
١٠ - **نظم الدرر** . للبقاعي - دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة .
١١ - **في ظلال القرآن** . سيد قطب - دار الشروق .
١٢ - **التسْهيل لعلوم التنزيل** . لأبي القاسم الغرْناطي .
١٣ - **الكشَّاف** . للزمخشري .
١٤ - **محاسن التأويل** . للقاسمي .
١٥ - **مفاتيح الغيب** . للفخر الرازي .
١٦ - **مختصر تفسير ابن كثير** : لمحمد نسيب الرفاعي - المكتب الإسلامي .
١٧ - **أحكام القرآن** . لابن العربي .

١٨ - **بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم** . جمْع: يسري السيد محمد - دار ابن الجوزي .
١٩ - **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** . لمحمد فؤاد عبد الباقي - دار الحديث .
٢٠ - **تفسير البحر المحيط** . لأبي حيَّان التوحيدي .
٢١ - **تفسير ابن أبي حاتم** . ابن أبي حاتم .
٢٢ - **تيسير الكريم المنان** . لعبد الرحمن بن ناصر السعدي .
٢٣ - **التفسير والمفسرون** . للدكتور محمد حسين الذهبي - مكتبة وهبة .

[ب - السنة]

٢٤ - **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**. للحافظ ابن حجر العسْقلاني- طبعة السلفية .
٢٥ - **شرح مسلم للنووي** . للإمام محيي الدين النووي - دار الشعب .
٢٦ - **تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي**. طبعة المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
٢٧ - **صحيح سنن الترمذي**. للألباني- مكتب التربية العربي لدول الخليج.
٢٨ - **صحيح سنن أبي داود**. للألباني- مكتب التربية العربي لدول الخليج.
٢٩ - **صحيح سنن النسائي** . للألباني - مكتب التربية العربي لدول الخليج .
٣٠ - **صحيح سنن ابن ماجه**. للألباني- مكتب التربية العربي لدول الخليج.
٣١ - **مسند أحمد بن حنبل**. تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر- طبع دار المعارف.
٣٢ - **الفتح الرباني بترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني على أبواب البخاري**. للشيخ الساعاتي - دار إحياء التراث العربي .
٣٣ - **أطراف مسند الإمام أحمد بن حنبل**. للإمام ابن حجر العسقلاني- تحقيق : د / زهير الناصر - دار ابن كثير .
٣٤ - **المنهج الأسعد في ترتيب أحاديث مسند الإمام أحمد**. عبد الله ناصر عبد الرشيد - دار طيبة .

٣٥ - **صحيح ابن خزيمة** . تحقيق د / مصطفى الأعظمي والألباني - المكتب الإسلامي .
٣٦ - **مجمع الزوائد** . للهيثمي - مكتبة القدسي .
٣٧ - **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**. لابن حجر العسقلاني- المكتب الإسلامي.
٣٨ - **صحيح الترغيب والترهيب** . للشيخ الألباني - المكتب الإسلامي .
٣٩ - **صحيح الجامع الصغير** . للشيخ الألباني - المكتب الإسلامي .
٤٠ - **فيض القدير** . للمناوي .
٤١ - **مشكاة المصابيح**. للتبريزي- تحقيق: الشيخ الألباني- المكتب الإسلامي.
٤٢ - **السلسلة الصحيحة** . للشيخ الألباني - المكتب الإسلامي .
٤٣ - **إرواء الغليل** . للشيخ الألباني -المكتب الإسلامي .
٤٤ - **تمام المنة في تخريج أحاديث فقه السنة** . للألباني - المكتب الإسلامي .
٤٥ - « **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام** » . للألباني - المكتب الإسلامي.
٤٦ - **آداب الزفاف في السنة المطهرة**. للألباني- المكتبة الإسلامية- عمان.
٤٧ - **شرح السنة**. للإمام البغوي- تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش- المكتب الإسلامي .
٤٨ - **المستدرك** . للحاكم .
٤٩ - **المُصنَّف** . لعبد الرزَّاق الصَّنعاني .
٥٠ - **المُصنَّف** . لابن أبي شيبة - طبع الهند .
٥١ - **السنن الكبرى** . للبيهقي .
٥٢ - **المعْجم الكبير**. للطبراني- تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي - وزارة الأوقاف العراقية .
٥٣ - **المعْجم الأوسط** . للطبراني - طبع دار الحرمين .
٥٤ - **مختصر الشمائل المحمدية** . للألباني .

٥٥ - **صحيح الأدب المفرد** . للألباني .
٥٦ - **معرفة السنن والآثار** . للبيهقي .
٥٧ - **مشكل الآثار** . للطحاوي .
٥٨ - **الجامع لشعب الإيمان** . للبيهقي - الطبعة الهندية .
٥٩ - **جامع الأصول** . لابن الأثير - دار الفكر .
٦٠ - **المختارة** . للضياء المقدسي .
٦١ - **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان** . علاء الدين بن بلبان - تحقيق : شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة .
٦٢ - **مسند أبي يعلى الموصلي** . أبو يعلى الموصلي - تحقيق : حسين سليم أسد - دار المأمون .
٦٣ - **مسند الشاميين** . للطبراني - تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي .
٦٤ - **الجرح والتعديل** . لابن أبي حاتم الرازي - طبع الهند .
٦٥ - **الرحلة في طلب الحديث** . للخطيب البغدادي - تحقيق : نور الدين عتر - دار الكتب العلمية .
٦٦ - **تذكرة الحفاظ** . للذهبي .
٦٧ - **المعرفة والتاريخ** . للفسوي .
٦٨ - **النهاية في غريب الحديث والأثر** . ابن الأثير .
٦٩ - **شرح الألفية** . للعراقي .
٧٠ - **فتح المغيث شرح ألفية الحديث** .للسخاوي .
٧١ - **الكفاية في علم الرواية** .للخطيب البغدادي .
٧٢ - **شرف أصحاب الحديث** . للخطيب البغدادي .
٧٣ - **قواعد التحديث** . للقاسمي - تحقيق : محمد بهجة البيطار - طبع عيسى الحلبي .
٧٤ - **العلل ومعرفة الرجال** . للإمام أحمد بن حنبل .

٧٥ - **المحدِّث الفاصل** . للرامهرمزي .
٧٦ - **تهذيب الكمال** . للمزِّي .
٧٧ - **وفيات الأعيان** . لابن خلكان .
٧٨ - **فوات الوفيات** . لابن شاكر الكتْبي .
٧٩ - **تهذيب التهذيب** . لابن حجر العسقلاني .
٨٠ - **لسان الميزان** . لابن حجر العسْقلاني .
٨١ - **أخبار أصبهان** . لأبي نعيم الأصبهاني .
٨٢ - **الأنساب** . للسمعاني .
٨٣ - **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع** . للخطيب البغدادي .
٨٤ - **معرفة علوم الحديث** . للحاكم .
٨٥ - **ميزان الاعتدال** . للذهبي .
٨٦ - **المعجم المفهرس لأطراف الأحاديث التي خرجها الألباني** . سليم الهلالي - دار ابن الجوزي .
٨٧ - **السُّنن** . لسعيد بن منصور .
٨٨ - **فضائل الصحابة** . لأحمد بن حنبل .
٨٩ - **تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف**. للحافظ المزِّي- المكتب الإسلامي.
٩٠ - **السُّنة**. لابن أبي عاصم - تحقيق: الألباني - المكتب الإسلامي .
٩١ - **كنز العمال** .
٩٢ - **تدريب الراوي** . للسيوطي .
٩٣ - **اختصار علوم الحديث** . لابن كثير .
٩٤ - **نُزْهة النظر شرح نخبة الفكر** . ابن حجر العسْقلاني .
٩٥ - **المسْتجاد من فعلات الأجواد** . الدارقطني - تحقيق: محمود حدَّاد .
٩٦ - **الموطَّأ** . لمالك بن أنس - تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
٩٧ - **ضعيف الجامع الصغير** . للألباني- المكتب الإسلامي.

٩٨ - **الثقات** . لابن حبَّان .
٩٩ - **الكَلِمُ الطيب** . لابن تيمية - تحقيق : الألباني.
١٠٠- **التعليقة الأمينة في طرق حديث : « اللهم أحيني مسكينًا »** . لعلي حسن عبد الحميد - مكتبة ابن القيم بالمدينة المنورة .
١٠١- **الفتوحات الرَّبانية على الأذكار النووية** . لابن علان .
١٠٢- **مختصر العلو** . الذهبي - الألباني - المكتب الإسلامي .
١٠٣- **الإلماع** . للقاضي عياض .
١٠٤- **صحيح كتاب الأذكار وضعيفه** . سليم الهلالي .
١٠٥- **فقه السيرة** . للبوطي- تخريج الألباني .

[ج - الفقه وأصوله]

١٠٦ -**المجموع (شافعي)** . للنووي - طبعة المطيعي .
١٠٧- روضة **الطالبين (شافعي)** . للنووي - المكتب الإسلامي .
١٠٨- **فقه السنة (مقارن)** . سيد سابق - طبع الفتح للإعلام العربي - الطبعة العاشرة .
١٠٩- **مجموع فتاوى ابن تيمية** - مكتبة ابن تيمية .
١١٠- **الأم** . للشافعي .
١١١- **المغني** . لابن قدامة (حنبلي) .
١١٢- **نيل الأوطار** . للشوكاني - دار الحديث .
١١٣- **فتح القدير** . لابن الهمام . (حنفي) .
١١٤- **إعلام الموقعين** - ابن القيم - طبعة دار الحديث .
١١٥- **الفقيه والمتفقه** . للخطيب البغدادي .
١١٦- **فتاوى سلطان العلماء** . تحقيق : مصطفى عاشور - مكتبة القرآن .
١١٧- **التمهيد** . لابن عبد البر . (مالكي) .

١١٨- **الاستذكار** . ابن عبد البر . (مالكي) .
١١٩- **معالم القربة** . لابن الإخوة .
١٢٠- **الروض الباسم** . لابن الوزير - طبع دار الإفتاء .
١٢١- **الإيضاح والتبيين** . حمود التويجري .
١٢٢- **حاشية الدسوقي على الشرح الكبير** . للدردير . (مالكي) .
١٢٣- **العدة شرح العمدة** . لبهاء الدين المقدسي . (حنبلي) .
١٢٤- **منار السبيل** . لابن ضويان . (حنبلي) .
١٢٥- **منتهى الإرادات** . لابن النجار . (حنبلي) .
١٢٦- **طرح التثريب في شرح التقريب** . لابن العراقي . (شافعي) .
١٢٧- **الموافقات** . للشاطبي .
١٢٨- **الحسبة** . لابن تيمية .
١٢٩- **المدخل** . لابن الحاج .
١٣٠- **كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء** . لابن القيم .

[د - عقيدة]

١٣١- **الإيمان** . لابن تيمية - تحقيق:الألباني - المكتب الإسلامي .
١٣٢- **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم** . ابن تيمية .
١٣٣- **تبصير أولي الألباب ببدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب** . محمد أحمد إسماعيل - دار طيبة بمكة .
١٣٤- **قطر الولي على حديث الولي** : للشوكاني - طبع دار الكتب الحديثة .
١٣٥- **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** . لابن قيم الجوزية - تحقيق : د / علي الدخيل الله - دار العاصمة .
١٣٦- **شرح الطحاوية** . لابن أبي العز الحنفي - تحقيق : الألباني - المكتب الإسلامي .

١٣٧- **التحف في مذاهب السلف** . للشوكاني .
١٣٨- **الاعتصام** . للشاطبي - تحقيق : سليم الهلالي - طبع دار ابن عفان .
١٣٩- **كتاب الرد على الجهمية** . للإمام أحمد .
١٤٠- **إظهار الحق** . للشيخ رحمت الله الهندي - طبع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء .
١٤١- **مناظرة بين الإسلام والنصرانية** - طبع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء .
١٤٢- **أفراخ المعتزلة العصريون** . علي حسن عبد الحميد - طبع مكتبة الغرباء .
١٤٣- **شرح أصول اعتقاد أهل السنة** . للالكائي .
١٤٤- **القضاء والقدر** . للدكتور عمر سليمان الأشقر - طبع دار النفائس .
١٤٥- **الشريعة** . للآجري .
١٤٦- **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية** . لابن بطة .
١٤٧- **الحُجَّة في بيان المَحَجَّة** . لقوّام السنة إسماعيل الأصبهاني - تحقيق : محمد بن ربيع - دار الراية .
١٤٨- **منهج الأشاعرة في العقيدة** . لسفر الحوالي .
١٤٩- **شرح السنة** . للبربهاري - تحقيق : خالد بن قاسم الرداري - مكتبة الغرباء .
١٥٠- **خلق أفعال العباد** . للبخاري .
١٥١- **فضائح الباطنية** . للغزالي .
١٥٢- **مختصر التحفة الاثنى عشرية**. لمحمود شكري الألوسي- المكتبة السلفية.

[هـ - تاريخ وسير وتراجم]

١٥٣- **تاريخ بغداد** . الخطيب البغدادي .

١٥٤- **تاريخ دمشق** . ابن عساكر .
١٥٥- **البداية والنهاية** . ابن كثير - دار الريان للتراث .
١٥٦- **سير أعلام النبلاء** . الذهبي - مؤسسة الرسالة .
١٥٧- **حلية الأولياء** . أبو نعيم الأصبهاني .
١٥٨- **صفة الصفوة** . ابن الجوزي .
١٥٩- **طبقات الشافعية الكبرى**. ابن السبكي- تحقيق: د/عبد الفتاح الحلو.
١٦٠- **تاريخ الإسلام** . للذهبي .
١٦١- **الطبقات الكبرى** . لابن سعد .
١٦٢- **ترتيب المدارك** . للقاضي عياض .
١٦٣- **معرفة القرّاء الكبار**. الذهبي- تحقيق: شعيب الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة .
١٦٤- **أخبار القضاة** . لوكيع .
١٦٥- **مناقب الإمام أحمد** . لابن الجوزي .
١٦٦- **مناقب الإمام أبي حنيفة**. للإمام الموفق المكي .
١٦٧- **مناقب الإمام أبي حنيفة** . للذهبي .
١٦٨- **ترجمة الإمام محمد بن الحسن الشيباني** . للذهبي .
١٦٩- **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** . لمحمد مخلوف المالكي .
١٧٠- **توالي التأسيس في مناقب ابن إدريس** . ابن حجر العسقلاني .
١٧١- **مناقب الشافعي**. للبيهقي- تحقيق: السيد أحمد صقر- دار التراث.
١٧٢- **ترجمة الإمام أحمد** . من تاريخ الإسلام - لأحمد محمد شاكر .
١٧٣- **المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد**. لأبي اليمن العُليمي الحنبلي.
١٧٤- **طبقات الحنابلة** . لأبي يعلى الحنبلي .
١٧٥- **ذيل طبقات الحنابلة** . ابن رجب الحنبلي .
١٧٦- **إنباه الرواة على أنباه النحاة** . للقفطي .

١٧٧- **بقي بن مخلد ومقدمة مسنده** . للدكتور أكرم ضياء العمري .
١٧٨- **تاريخ التراث العربي** . لفؤاد سزكين .
١٧٩- **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان** . لأبي زيد الدباغ .
١٨٠- **المنتظم** . لابن الجوزي .
١٨١- **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري** . ابن عساكر .
١٨٢- **الذخيرة** . لابن بسَّام .
١٨٣- **غاية النهاية في طبقات القرّاء** . لابن الجزري .
١٨٤- **ذيل تاريخ بغداد** . لابن النجار .
١٨٥- **بغية الوعاة** . للسيوطي .
١٨٦- **العبر** . للذهبي .
١٨٧- **ترجمة الإمام النووي** . للسخاوي - طبع جمعية النشر والتأليف .
١٨٨- **تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين** . لابن العطار - تحقيق : مشهور حسن سلمان .
١٨٩- **العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية** . للحافظ ابن عبد الهادي - طبع دار الكتب العلمية .
١٩٠- **الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية** . للبزار .
١٩١- **الألباني ، آثاره وثناء العلماء عليه** . لمحمد بن إبراهيم الشيباني - الدار السلفية بالكويت .
١٩٢- **ماذا ينقمون من الشيخ** . لمحمد إبراهيم شقرة .
١٩٣- **الممتاز في مناقب ابن باز** . لعائض القرني - دار الصميعي للنشر .
١٩٤- **ابن باز الداعية الإنسان** . طبع مؤسسة عكاظ .
١٩٥- **ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان** . للشيخ السديس - طبع دار الهجرة .

١٩٦- **الفوائد البهية** . للكنوي .
١٩٧- **الضوء اللامع** . للسخاوي .
١٩٨- **إنباء الغمر** . لابن حجر .
١٩٩- **ابن قيم الجوزية ، حياته وآثاره** . لبكر عبد الله أبو زيد .
٢٠٠- **الذهبي ومنهجه في كتابه «تاريخ الإسلام»** . لبشار عوّاد معروف .
٢٠١- **الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.** لابن حجر .
٢٠٢- **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة** . لابن تغربردي .
٢٠٣- **عبقرية محمد** . لعباس العقاد - دار الكتب الحديثة .
٢٠٤- **خلفاء الرسول** . لخالد محمد خالد - دار الجيل .
٢٠٥- **رجال حول الرسول** . خالد محمد خالد - دار الريان للتراث .
٢٠٦- **الرسول القائد** . محمود شيت خطاب .
٢٠٧- **تاريخ واسط** . لبحشل .
٢٠٨- **أبو حنيفة النعمان.** لوهبي غاوجي . الألباني .
٢٠٩- **مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب** . لابن الجوزي - تحقيق : د / زينب القاروط - دار الكتب العلمية .
٢١٠- **تاريخ الخلفاء** . للسيوطي - تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة .
٢١١- **الرشيد القائد** . لبسام العسيلي - دار النفائس .
٢١٢- **تاريخ الطبري** . ابن جرير الطبري .
٢١٣- **الكامل** . لابن الأثير .
٢١٤- **ملحمة الإسلام في الهند.** للدكتور عدنان النحوي- طبع دار النحوي.
٢١٥- **الرَّوضَتين في أخبار الدولتين** . لشهاب الدين المقدسي - طبع إحياء التراث العربي .
٢١٦- **عيون الروضتين في أخبار الدولتين.** لأبي شامة- طبع وزارة الثقافة السورية.

٢١٧- **خطط الشام** . لمحمد كرد علي .
٢١٨- **مرآة الزمان** . لسبط ابن الجوزي .
٢١٩- **عبد الرحمن الداخل «صقر قريش»** . لبسَّام العسيلي - دار النفائس .
٢٢٠- **عبد الرحمن الناصر** . لبسام العسيلي- دار النفائس .
٢٢١- **تاريخ الحروب الصليبية** . ستيفن نسيمان .
٢٢٢- **البيان المغرب** .
٢٢٣- **نفح الطيب** . للمقَّري .
٢٢٤- **الحاجب المنصور** . لبسام العسيلي - طبع دار النفائس .
٢٢٥- **النظام السياسي والحربي في عصر المرابطين.** للأستاذ إبراهيم حركات.
٢٢٦- **الزلَّاقة** . لشوقي عماد خليل - دار الفكر .
٢٢٧- **المعجب في تلخيص أخبار المغرب.** لعبد الواحد المراكشي .
٢٢٨- **الأرْك** . لشوقي عماد خليل - دار الفكر .
٢٢٩- **الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية.** لبسام العسيلي- دار النفائس.
٢٣٠- **معركة شقحب أو معركة مرج الصفر** . د / محمد لطفي الصباغ - المكتب الإسلامي .
٢٣١- **المسلمون في الهند.** لأبي الحسن الندوي- طبع المجمع الإسلامي العالمي بالهند .
٢٣٢- **الدعوة الإسلامية وتطورها في الهند** . للدكتور محيي الدين الألوائي .
٢٣٣- **رحلة الصديق إلى البيت العتيق.** لصديق حسن خان- طبع دار ابن القيم.
٢٣٤- **التاريخ الإسلامي** . لمحمود شاكر - المكتب الإسلامي .
٢٣٥- **القانوني القائد** . لبسام العسيلي - دار النفائس .
٢٣٦- **مناقب عمر بن عبد العزيز** . لابن الجوزي . تحقيق : نعيم زرزور - دار الكتب العلمية .
٢٣٧- **تبصرة الحكام** . لابن فرحون .

٢٣٨-**الرِّياض النضرة في مناقب العشرة**. للمحب الطبري- دار الكتب العلمية.
٢٣٩-كتاب « **تاريخ ولاة مصر وتسمية قضاتها** » . للكندي - مؤسسة الكتب الثقافية .
٢٤٠-**تاريخ قضاة الأندلس** . المكتب التجاري للطباعة والنشر بلبنان .
٢٤١-**محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي**. تقديم: شكيب أرسلان- مكتبة الحياة .
٢٤٢-**فتوح البلدان** . للبلاذري .
٢٤٣-**من أعلام المجددين**: للشيخ صالح بن فوزان آل فوزان- دار الصميعي.
٢٤٤-**محمد بن عبد الوهاب داعية التوحيد والتجديد في العصر الحديث** . لمحمد بهجة الأثري .
٢٤٥-**حسن البنا الداعية الإمام المجدد الشهيد** . أنور الجندي .
٢٤٦-**شاعر الإسلام حسان بن ثابت** . لوليد الأعظمي - مكتبة المنار .
٢٤٧-**سيرة ابن هشام** .
٢٤٨-**الإصابة في تراجم الصحابة** . لابن حجر - دار الكتاب العربي .
٢٤٩-**يوسف العظم شاعر القدس**. للدكتور زكي الشيخ حسين- دار البشير.
٢٥٠-**حياة الصحابة** . للكاندهلوي .
٢٥١-**التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية** . د / أحمد شلبي .
٢٥٢-**عمر المختار شهيد الإسلام وأسد الصحراء** . لمحمد محمود إسماعيل - مكتبة القرآن .
٢٥٣-**علماء ومفكرون عرفتهم** . لمحمد المجذوب - دار الاعتصام .
٢٥٤-**فتوح الشام** . للأزدي .
٢٥٥-**الخطط** . للمقريزي .
٢٥٦-**فتوح مصر** . لابن عبد الحكم .
٢٥٧-**تاريخ المسلمين وآثارهم في الهند** . للدكتور السيد عبد العزيز سالم .

٢٥٨- **فتح مكة** . لمحمد أحمد بشاميل .
٢٥٩- **مغازي الواقدي** .
٢٦٠- **مذكرات جولدا مائير** .
٢٦١- **رجل من أمة التوحيد أسلم على يده (٤٠٠٠) من الأجانب** - عبد اللطيف الجوهري - دار الصحوة للنشر .
٢٦٢- **أحمد ديدات بين الإنجيل والقرآن** - كتاب المختار الإسلامي .
٢٦٣- **الحسن البصري** . لابن الجوزي- هدية مجلة الأزهر عدد المحرم سنة ١٤٠٨ هـ .
٢٦٤- **الرّدّ الوافر** . لابن ناصر الدين الدمشقي - المكتب الإسلامي .
٢٦٥- **تاريخ ابن الوردي** .
٢٦٦- **مرآة الجنان** . لليافعي .
٢٦٧- **السمط الثمين** .
٢٦٨- **أعلام النساء** . لعمر رضا كحالة .
٢٦٩- **مناقب الشافعي** . للرازي .
٢٧٠- **رفْع الإصْر عن قضاة مصر** .لابن حجر .
٢٧١- **صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء**. لسليم الهلالي- طبع دار ابن الجوزي .
٢٧٢- **حسن المحاضرة** . للسيوطي .
٢٧٣- **طبقات المفسرين** . للداودي .
٢٧٤ -**قادة فتح الشام ومصر** .للواء الركن محمود شيت خطاب - طبع دار الفكر .
٢٧٥- **الاستيعاب** .لابن عبد البر .
٢٧٦- **أسد الغابة** .
٢٧٧- **تاريخ خليفة بن خيَّاط** .

٢٧٨- **صور من حياة الصحابة** . للدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا . مؤسسة الرسالة .
٢٧٩- **سلسلة معارك الإسلام الفاصلة** . لمحمد أحمد بشاميل .
٢٨٠- **قادة فتح المغرب العربي** . محمود شيت خطاب - دار الفكر .
٢٨١- **قادة فتح الجزيرة والعراق** . لمحمود شيت خطّاب - دار الفكر .
٢٨٢- **قادة فتح بلاد فارس** .لمحمود شيت خطاب - دار الفكر .
٢٨٣- **الطريق إلى دمشق** . لأحمد عادل كمال - دار النفائس .
٢٨٤- **القادسية** . لأحمد عادل كمال - دار النفائس .
٢٨٥- **القادسية ومعارك العراق** . لمحمد أحمد بشاميل .
٢٨٦- **سقوط المدائن** . أحمد عادل كمال - دار النفائس .
٢٨٧- **فتوح الشام** . للواقدي .
٢٨٨- **الروض الأنف** . للسُّهَيْلي .
٢٨٩- **المغرب في حُلى المغرب** .
٢٩٠- **قتيبة بن مسلم الباهلي** . بسَّام العسيلي - دار النفائس .
٢٩١- **نزهة الفضلاء في تهذيب سير أعلام النبلاء** . لمحمد حسن عقيل - دار الأندلس جدة .
٢٩٢- **زهد الثمانية من التابعين** . لعلقمة بن مرثد - رواية ابن أبي حاتم - تحقيق : الفريوائي - مكتبة الدار .
٢٩٣- **البدر الطالع** . للشوكاني .
٢٩٤- **السلطان المجاهد محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية**. زياد أبو غنيمة- دار الفرقان .
٢٩٥- **النّوادر السُّلطانية والمحاسن اليوسفية** .للقاضي بهاء الدِّين بن شداد .
٢٩٦- **مقدمة ابن خلدون** .
٢٩٧- **سيرة عبد الملك بن عبد العزيز**. لابن رجب الحنبلي- دار ابن حزم.

٢٩٨- **محمد القاسم الثقفي فاتح السند**. للواء الركن محمود شيت خطاب- دار قتيبة .
٢٩٩- **مصطفى كامل** . لفتحي رضوان - سلسلة « اقرأ » .
٣٠٠- «**مالك** » . لمحمد أبي زهرة - طبع دار الفكر العربي .
٣٠١- **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب** . لابن فرحون المالكي - دار التراث .
٣٠٢- **طبقات الشافعيَّة** . لابن هداية الله .

[و - الرَّقائـق]

٣٠٣- **الفوائد لابن القيم** . مكتبة الجامعة .
٣٠٤- **مفتاح دار السعادة** . ابن القيم - دار الكتب العلمية .
٣٠٥- **مدارج السالكين** . ابن القيم - تحقيق: محمد حامد الفقي - طبعة أنصار السنة .
٣٠٦- **إغاثة اللهفان** . لابن القيم - تحقيق : محمد حامد الفقي - دار العدل بالإسكندرية .
٣٠٧- **الوابل الصَّيِّب** . لابن قيم الجوزية - طبع السلفية .
٣٠٨- **طريق الهجرتين** . ابن القيم - طبع السلفية .
٣٠٩- **زاد المعاد** . لابن القيم .
٣١٠- **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح** . ابن القيم - مطبعة المدني .
٣١١- **اللطف في الوعظ . لابن الجوزي** .
٣١٢- **مقامات ابن الجوزي** .
٣١٣- **المدهش** . لابن الجوزي .
٣١٤- **لطائف المعارف** . ابن رجب الحنبلي - طبع مؤسسة الريان ، ودار ابن حزم ، ودار الفتح .

٣١٥- **الرقائق** . لمحمد أحمد الرَّاشد - مؤسسة الرسالة .
٣١٦- **إلى أي شيءٍ ندعو الناس** .حسن البنا .
٣١٧- **الزهد والرقائق** . ابن المبارك .
٣١٨- **الزهد الكبير** . للبيهقي .
٣١٩- **صفحات من صَبْر العلماء على شدائد العلم والتحصيل** . لأبي غدة - نشر مكتب المطبوعات الإسلامية . بحلب .
٣٢٠- **المنطلق** . لمحمد أحمد الراشد - مؤسسة الرسالة .
٣٢١- **العوائق** . لمحمد أحمد الراشد - مؤسسة الرسالة .
٣٢٢- **الوقت عَمَار أو دَمَار**. جاسم محمد بدر المطوع- دار الدعوة بالكويت، دار الوفاء .
٣٢٣- **الزّهْد** . لابن حنبل .
٣٢٤- **الزّهْد** . لهنَّاد بن السَّري - تحقيق : عبد الرحمن الفريوائي - دار الخلفاء للكتاب الإسلامي .
٣٢٥- **جامع بيان العلم وفضله** . لابن عبد البر - تحقيق : الشيخ حسن أبي الأشْبال - دار ابن الجوزي .
٣٢٦- **فضل العلم** . للشيخ محمد سعيد رسلان .
٣٢٧- **صَيْد الخاطر** . ابن الجوزي .
٣٢٨- **الآداب الشرعية** . لابن مفلح .
٣٢٩- **بستان العارفين** . للنووي - الطبعة الثالثة بدمشق .
٣٣٠- **الإفادة من مفتاح دار السعادة**. لسليم الهلالي- طبع مكتبة الصحابة بجدة.
٣٣١- **التعالم** . لبكر بن عبد الله أبو زيد - مكتبة التربية الإسلامية .
٣٣٢- **زجر السفهاء عن تتبُّع رُخص الفقهاء** . لجاسم الدوسري .
٣٣٣- **التبصرة** . لابن الجوزي .
٣٣٤- **مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق**. ابن النحاس- طبع: دار البشائر.

٣٣٥- **مواقف بطولية من صُنع الإسلام** . لزياد أبو غنيمة - دار التوزيع والنشر الإسلامية .
٣٣٦- **تخريج الوصايا من خبايا الزوايا**. صدِّيق حسن خان. تحقيق: عبد الله الليثي - مؤسسة الكتب الثقافية .
٣٣٧- **المروءة وخوارمها** . مشهور حسن سلمان - دار ابن عفان .
٣٣٨- **تنوير الأفهام لبعض مفاهيم الإسلام** . محمد إبراهيم شقرة .
٣٣٩- **أيعيد التاريخ نفسه** . لمحمد العبدة .
٣٤٠- **كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء** . لمحمد فهمي عبد اللطيف - دار الاعتصام .
٣٤١- **بين العقيدة والقيادة** . للواء محمود شيت خطَّاب - طبع دار الفكر .
٣٤٢- **مذكرات الدعوة والداعية** . للشيخ حسن البنا .
٣٤٣- **في موكب الدَّعوة** . للشيخ محمد الغزالي - دار الكتب الحديثة .
٣٤٤- **من فقْه الدعاء** . مصطفى العدوي - دار السُّنة .
٣٤٥- **البدَع والنهي عنها**. لابن وضَّاح- طبع دار الصفا، وطبع ابن تيمية، تحقيق : عمرو عبد المنعم .
٣٤٦- **جلاء الأفهام** . لابن القيم .
٣٤٧- **أصول الدعوة** . لعبد الكريم زيدان .
٣٤٨- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي** . لابن القيم - المدني .
٣٤٩- **الحرص على هداية الناس** . للدكتور فضل إلهي - نشر : إدارة ترجمان الإسلام ، بباكستان .
٣٥٠- **دلائل النبوة** . لأبي نعيم الأصبهاني .
٣٥١- **الدعوة إلى الإسلام** . لتوماس أرنولد .
٣٥٢- **حضارة الغرب** . لغوستاف لوبون .
٣٥٣- **ربَّانية لا رهبانية** . لأبي الحسن الندوي .

٣٥٤- **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعيَّة** . ابن تيمية .

٣٥٥- **الفتح الرباني** . للجيلاني .

٣٥٦- **إحياء علوم الدين** . لأبي حامد الغزالي .

٣٥٧- **عُدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين** . ابن قيم الجوزية .

٣٥٨- **هذا الدين** .سيد قطب - دار الشروق .

٣٥٩- **تلبيس إبليس** . لابن الجوزي .

٣٦٠- **معالم في الطريق** . لسيد قطب - دار الشروق .

٣٦١- **لماذا أعدموني** . سيد قطب .

٣٦٢- **الدعوة إلى الله بين التجمُّع الحزبي والتعاوُن الشرعي**. علي حسن عبد الحميد - دار الصحابة .

٣٦٣- **العبودية** . لابن تيمية - المكتبة السلفية .

٣٦٤- **إيقاظ هِمَم أولي الأبصار للاقتداء بسيِّد المهاجرين والأنصار**. للفلّاني -مكتبة ابن تيمية .

٣٦٥- **القُصّاص** . لابن الجوزي - تحقيق : محمد لطفي الصبّاغ - المكتب الإسلامي .

٣٦٦- **إقامة الحجة على أن الإكثار من التعبد ليس ببدعة** . للكنوي - تحقيق أبي غدة - نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب .

٣٦٧- **أهمية صلاة الجماعة في ضوء النصوص وسير الصالحين**. فضل إلهي- إدارة ترجمان الإسلام بباكستان .

٣٦٨- **مكارم الأخلاق** . للخرائطي .

٣٦٩- **الزهاد الأوائل** . لمصطفى حلمي - دار الدعوة .

٣٧٠- **تنبيه المغْتَرِّين** . للشعراني .

٣٧١- **مختصر قيام الليل** . للمقريزي - باكستان .

٣٧٢- **التخويف من النار** . ابن رجب الحنبلي - مكتبة الإيمان .

٣٧٣- **الثبات عند الممات** . لابن الجوزي - دار الأندلس . بجدة .
٣٧٤- **عودة الحجاب** . محمد أحمد إسماعيل - دار الصفوة .
٣٧٥- **قضاء الحوائج** . لابن أبي الدنيا .
٣٧٦- **الدّرّ المنضود في ذم البخل ومدح الجود** . لعبد الرؤوف المناوي - دار الصحابة بطنطا .
٣٧٧- **لباب الآداب** . الأمير أسامة بن منقذ - مكتبة السنة .
٣٧٨- **مكارم الأخلاق** . لابن أبي الدنيا - مكتبة ابن تيمية .
٣٧٩- **الإخوان** . لابن أبي الدنيا - تحقيق : د / نجم عبد الرحمن خلف - دار الاعتصام .
٣٨٠- **ذم الغيبة والنميمة**. لابن أبي الدنيا- تحقيق: د/نجم عبد الرحمن خلف- دار الاعتصام .
٣٨١- **مجموعة الأخلاق والحكم** . لابن أبي الدنيا .
٣٨٢- **الورع** . لابن أبي الدنيا - تحقيق : محمد بن حمد الحمود - الدار السلفية بالكويت .
٣٨٣- **التوكل على الله عز وجل** . لابن أبي الدنيا - تحقيق : الدوسري - الكويت .
٣٨٤- **الرضا عن الله** . ابن أبي الدنيا - تحقيق : مجدي السيد إبراهيم - مكتبة القرآن .
٣٨٥- **محاسبة النفس**. لابن أبي الدنيا- تحقيق: مجدي السيد إبراهيم- مكتبة القرآن .
٣٨٦- **مروج الذهب** . للمسعودي .
٣٨٧- **التبيان في آداب حملة القرآن** . للنووي .
٣٨٨- **الأذكار للنووي** . تحقيق : شعيب الأرناؤوط .
٣٨٩- **شرح الشاطبية** . لابن الجزري .

٣٩٠- **التعرف لمذهب أهل التصوف** . للكلاباذي - مطبعة السعادة .
٣٩١- **النهاية في الفتن والملاحم** . ابن كثير .
٣٩٢- **مواعظ ومواقف للعلماء الصالحين أمام الحكام والسلاطين**. أحمد رضوان أبو الخير .
٣٩٣- **سراج الملوك** . للطرطوشي .
٣٩٤- **مختصر منهاج القاصدين** .
٣٩٥- **جولة في رياض العلماء** . الشيخ عمر سليمان الأشقر - دار النفائس .
٣٩٦- **المسْتطرف من كل فنٍّ مستظرف** .
٣٩٧- **أقباس روحانية** . لشيت خطاب .
٣٩٨- **تربية الأولاد في الإسلام** . لعبد الله ناصح علوان .
٣٩٩- **من أخلاق العلماء** . للشيخ محمد سليمان .
٤٠٠- **قيمة الزمن عند العلماء** . لعبد الفتاح أبي غدة .
٤٠١- **الحث على طلب العلم** . لأبي الهلال العسكري .
٤٠٢- **ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان**. تحقيق: د/عبد الإله الأحمدي- دار طيبة .
٤٠٣- **روضة الزاهدين** . لعبد الملك الكليب - مكتبة ابن تيمية .
٤٠٤- **لا تحزن** . عائض القرني - مكتبة ابن تيمية .
٤٠٥- **من أخلاق السلف** . دار طيبة .
٤٠٦- **الهم والحزن** . لابن أبي الدنيا .
٤٠٧- **حسن الظن بالله** . لابن أبي الدنيا .
٤٠٨- **الورع** . لأحمد بن حنبل .
٤٠٩- **تهذيب مدارج السالكين** . لعبد المنعم صالح العلي - مكتبة لينة .
٤١٠- **إيثار الحق على الخلق**. للسيد مرتضى اليماني- مطبعة الآداب والمؤيد.
٤١١- **وسائل الثبات على دين الله** . المنجد - دار الوطن .

٤١٢- **علو الهمة** . للشيخ محمد أحمد إسماعيل .
٤١٣- **رهبان الليل** . د / سيد حسين العفاني - مكتبة العلم بجدة ، مكتبة ابن تيمية .
٤١٤- **موارد الظمآن في محبة الرحمن** . د / سيد حسين العفاني - مكتبة الصحابة بجدة .
٤١٥- **الجزاء من جنس العمل**. د/سيد حسين العفاني- مكتبة ابن تيمية.
٤١٦- **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**. ابن قيم الجوزية- دار الكتاب العربي.
٤١٧- **ذم الهوى**. ابن الجوزي- تحقيق: مصطفى عبد الواحد- دار الكتب الإسلامية .
٤١٨- **بهجة المجالس وأنس المجالس** . ابن عبد البر - مكتبة ابن تيمية .
٤١٩- **حصائد الألسن** . حسين العوايشة - دار ابن عفان .
٤٢٠- **وقفات مع الأبرار** . د / محمد لطفي الصباغ - المكتب الإسلامي .
٤٢١- **أقوال مأثورة وكلمات جميلة** . د / محمد لطفي الصباغ - المكتب الإسلامي .
٤٢٢- **الخشوع في الصلاة** . ابن رجب - تحقيق : علي حسن عبد الحميد - دار عمار .
٤٢٣- **التواضع والخمول** . ابن أبي الدنيا - طبع دار الاعتصام .
٤٢٤- **التواضع وأثره في حياة الأمة** . سيف النصر علي عيسى - مكتبة الحرمين .
٤٢٥- **من أخلاق الداعية** . سلمان بن فهد العودة .
٤٢٦- **الشكر**. لابن أبي الدنيا- تخريج عبد القادر الأرناؤوط- دار ابن كثير.
٤٢٧- **التحبير في التذكير** . القشيري - دار الكاتب العربي .
٤٢٨- **الرِّسالة القشيرية** . القشيري .
٤٢٩- **اللمع** . للطوسي - دار الكتب الحديثة .

٤٣٠- **له الأسماء الحسنى** . للدكتور أحمد الشرباصي - طبع دار الجيل .
٤٣١- **نَشْأة التصوف الإسلامي**. للدكتور إبراهيم بسيوني- طبع دار المعارف.
٤٣٢- **الحياء خلق الإسلام** . الشيخ محمد أحمد إسماعيل .
٤٣٣- **الخشوع وأثره في بناء الأمة** . سليم الهلالي - دار ابن الجوزي .
٤٣٤- **اقتضاء العلم العمل**. للخطيب البغدادي - تخريج الألباني - المكتب الإسلامي .
٤٣٥- **عوارف المعارف** . للسهروردي .
٤٣٦- **بر الوالدين** . للطرطوشي .
٤٣٧- **المرأة وحقوقها في الإسلام** . للشيخ مبشر الطرازي .
٤٣٨- **تذكرة السامع والمتكلم** . لابن جماعة الكناني .
٤٣٩- **والموعد الله** . خالد محمد خالد - مكتبة الزهراء .
٤٤٠- **صفحات مشرقة من حياة السابقين** . نذير محمد مكتبي .
٤٤١- **استنشاق نسيم الأنس** . ابن رجب الحنبلي - المكتب الإسلامي .
٤٤٢- **عقلاء المجانين** . للحسن بن حبيب النيسابوري - دار البصائر .
٤٤٣- **الطريق إلى الله أو كتاب الصدق** . لأبي سعيد الخرَّاز - تحقيق : د / عبد الحليم محمود - دار الإنسان .
٤٤٤- **أدب الدنيا والدين** . الماوردي .
٤٤٥- **روضة العقلاء** . لابن حبان - مكتبة أنصار السنة .
٤٤٦- **آداب الصحبة** . لأبي عبد الرحمن السلمي .
٤٤٧- **عين الأدب والسياسة** . لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل .
٤٤٨- **بغية المسترشدين** . للمحاسبي .
٤٤٩- **الظرف والظرفاء** . للوشاء .
٤٥٠- **الأمر بالاتباع** . للسيوطي - مشهور حسن سلمان .
٤٥١- **الصَّمْت وحفظ اللسان** . ابن أبي الدنيا - تحقيق : محمد أحمد عاشور - دار الاعتصام .

٤٥٢- **الاستقامة** . ابن تيمية - تحقيق : محمد رشاد سالم - مؤسسة قرطبة .
٤٥٣- **أشراط الساعة** . دكتور يوسف الوابل .
٤٥٤- **كتاب التوابين** . لابن قدامة .
٤٥٥- **طريق الدعوة في ظلال القرآن** . أحمد فايز .
٤٥٦- **أزمة روحية** . لعصام العطار .
٤٥٧- **شأن الدعاء** . للخطابي - تحقيق : أحمد يوسف الدقاق - دار المأمون للتراث .
٤٥٨- **مجابو الدعوة** . لابن أبي الدنيا- تحقيق: مجدي السيد- مكتبة القرآن.
٤٥٩- **إحياء فقه الدعوة** . محمد أحمد الراشد .
٤٦٠- **صناعة الحياة** . محمد أحمد الراشد - دار المنطلق بدبي .
٤٦١- **معالم في السلوك وتزكية النفوس**. عبد العزيز عبد اللطيف- دار الوطن.
٤٦٢- **تعليم المتعلم في طريق التعلُّم** . للإمام برهان الدين الزرنوجي . تحقيق : صلاح الخيمي - دار ابن كثير .
٤٦٣- **كتاب «العظمة»**. لأبي الشيخ الأصبهاني - تحقيق: رضا الله بن محمد المباركفوري - دار العاصمة .
٤٦٤- **الهمة طريق إلى القمة** . لمحمد حسن عقيل - دار الأندلس . جدة .
٤٦٥- **كتاب العقل وفضله**. لابن أبي الدنيا- تحقيق: لطفي الصغير- دار الراية.
٤٦٦- **أنباء نجباء الأبناء**. محمد بن مظفر- تحقيق: إبراهيم يونس- دار الصحوة.
٤٦٧- **أيها الولد المحب** . للغزالي .
٤٦٨- **السنن الإلهية** . لعبد الكريم زيدان - مؤسسة الرسالة .
٤٦٩- **حقيقة الانتصار** .للدكتور ناصر سليمان العمر - دار الصفوة .
٤٧٠- **فضيحة اسمها سعيدة سلطان** . محمد الغيطي .
٤٧١- **زمن فيفي عبده** . عماد ناصف .
٤٧٢- **الإيدز والفنانات** . لمحمد الغيطي . ثري إم ، للصحافة والنشر .

٤٧٣- **من وصايا السلف** . لسليم الهلالي - دار ابن الجوزي .
٤٧٤- **الذريعة إلى مكارم الشريعة** . للراغب الأصفهاني - طبع دار الوفاء .
٤٧٥- **الفتور** . لجاسم بن مهلهل - دار الدعوة . الكويت .
٤٧٦- **الفتور** . للدكتور ناصر سليمان العمر - دار الوطن .
٤٧٧- **عرايا إسرائيل فوق أرصفة العرب** . لعصام كامل - مصرية للنشر والإعلان .

[ز - اللغة والشعر]

٤٧٨- **لسان العرب** . لابن منظور .
٤٧٩- **الأسرار والرموز (ديوان شعر)**.محمد إقبال- تقديم: عبد الوهاب عزام- دار الأنصار .
٤٨٠- **المحاسن والأضداد** . للجاحظ .
٤٨١- **البيان والتبيين** . للجاحظ .
٤٨٢- **مختار الصحاح** . للجوهري .
٤٨٣- **مجمع الأمثال** . للميداني .
٤٨٤- **تهذيب الأسماء واللغات** .للنووي .
٤٨٥- **معجم الأدباء** . ياقوت الحموي .
٤٨٦- **تاج العروس** . للمرتضى الزبيدي .
٤٨٧- **العقد الفريد** . لابن عبد ربه - لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٤٨٨- **(ديوان) «إني المشنوق أعلاه»**. أحمد مطر- الطبعة الأولى بلندن.
٤٨٩- **سيرة الأبطال (شعر)**. عائض القرني- دار جرش للنشر والتوزيع.
٤٩٠- **وَحْيُ القلم** . مصطفى صادق الرافعي - دار الكتاب العربي .
٤٩١- **إعجاز القرآن** . للرافعي - دار الكتاب العربي .
٤٩٢- **ديوان حسان بن ثابت** . (شعر) . طبعة دار صادر .

٤٩٣- **متن النونية والميمية** . (شعر) - ابن القيم - مكتبة ابن تيمية .
٤٩٤- **مع الله** . (ديوان شعر) - عمر بهاء الدين الأميري .
٤٩٥- **إشراق** . (ديوان شعر) - عمر بهاء الدين الأميري .
٤٩٦- **نفحات ولفحات** . (ديوان شعر) - للقرضاوي - دار الوفاء .
٤٩٧- **في رحاب الأقصى**. (ديوان شعر)- يوسف العظم- المكتب الإسلامي.
٤٩٨- **ديوان البوسنة والهرسك**. (شعر) مختارات من شعر الرابطة .
٤٩٩- **من الشعر الإسلامي الحديث** . (شعر) - دار البشير .
٥٠٠- «**إنها الصَّحْوة .. إنها الصَّحْوة**». (ديوان شعر) - محمود مفلح - دار الوفاء .
٥٠١- **الشوقيات** . «ديوان شوقي» - دار نهضة مصر .
٥٠٢- «**من القدس إلى سراييفو**». (ديوان شعر)- عبد الرحمن العشماوي- دار الصحوة .
٥٠٣- **ديوان المثاني** . لعبد الرحمن عزام (شعر) .
٥٠٤- «**رسالة المشرق**» . لإقبال - تقديم عبد الرحمن عزام .
٥٠٥- **ديوان الشافعي** . (شعر) - تحقيق : د / محمد عبد المنعم خفاجة - نشر مكتبة الكليات الأزهرية .
٥٠٦- **الأمالي والنَّوادر** . لأبي عليّ القالي .
٥٠٧- « **عصر الشهداء** » . (ديوان شعر) - نجيب الكيلاني - مؤسسة الرسالة .
٥٠٨- «**لحْن الخلود**» . (ديوان شعر) - عائض القرني - طبع هجر .
٥٠٩- « **رسالة إلى سيف الله المسلول** » . (ديوان شعر) - محمود خليل - دار الصحوة .
٥١٠- **ديوان المتنبي** . (شعر) - دار صادر .
٥١١- «**يا أمة الإسلام**». (ديوان شعر)- عبد الرحمن العشماوي- مكتبة العبيكان.

٥١٢- «**ملحمة القسطنطينية**» . (ديوان شعر)- د/عدنان النحوي- دار النحوي.

٥١٣- «**ديوان الحماسة**» . لأبي تمام - طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة .

٥١٤- «**شموخ في زمن الانكسار**». (ديوان شعر)- عبد الرحمن العشماوي. مكتبة الأديب .

٥١٥- **لباب الآداب** . الأمير أسامة بن منقذ - مكتبة السنة .

٥١٦- «**أغاني الحياة**» . (ديوان شعر) أبو القاسم الشابي .

٥١٧- «**نداء الحق**». (ديوان شعر)- أحمد محمد الصديق- دار الضياء بالأردن.

٥١٨- «**صفحات ونفحات**» . (ديوان شعر) - عمر بهاء الدين الأميري .

٥١٩- **عيون الأخبار** . لابن قتيبة الدينوري .

٥٢٠- **رسائل الجاحظ** .

٥٢١- «**صور من بلادي**». (ديوان شعر)- للدكتور وليد قصاب- مؤسسة الرسالة .

٥٢٢- **ديوان حافظ إبراهيم** .

٥٢٣- «**الفتية الأبابيل**». (ديوان شعر)- ليوسف العظم- دار الفرقان بعمان.

٥٢٤- «**نقوش على واجهة القرن الخامس عشر**». (ديوان شعر) - لعبد الرحمن العشماوي .

٥٢٥- **محمد عواد الشاعر الشهيد**. لجابر رزق- دار الوفاء- مكتبة العبيكان.

٥٢٦- «**المسلمون قادمون**» . (ديوان شعر) للقرضاوي - دار الوفاء .

٥٢٧- **ديوان حاتم الطائي - دار صادر بيروت .**

[ح - مجلات وجرائد]

٥٢٨- **جريدة الشعب** .

٥٢٩- **مجلة الأسرة** العدد (٢٣) .

٥٣٠- **مجلة الأمة** العدد (٥٥) .

٥٣١- **مجلة البيان** العدد (١٦، ١٧، ٨٦، ٨٨، ٩٤، ٩٧) .
٥٣٢- **مجلة الأصالة** العدد (الثالث) .
٥٣٣- **مجلة الأدب الإسلامي** العدد (الثامن) .
٥٣٤- **مجلة الأدب الإسلامي** العدد (الأول) .
٥٣٥- **مجلة التربية الإسلامية** (السنة السادسة) .
٥٣٦- **مجلة المسلمون** - لندن . عدد رجب ١٤٠٢ هـ .
٥٣٧- **مجلة الهدي الخليجية** عدد ذي الحجة ١٤٠٥ هـ .
٥٣٨- **مجلة الإصلاح الخليجية** .
٥٣٩- **مجلة البحوث الإسلامية** .
٥٤٠- **مجلة الوعي الإسلامي** ، عدد (٣٥٨)
٥٤١- **المجلة العربية** ، عدد (٢٢١) .
٥٤٢- **مجلة المجتمع** .

تم بحمد الله فهرس المصادر والمراجع والدوريات

* * *